الحاوي في التفسير

الشيخ

عبدالرحمن بن محمد القماش

المجلد التاسع والعشرون

الاجزاء من ٥٤٩ الى ٥٦٩

ٱلْحَاوِي فِي ٱلتَّقْسِيمِ

الشيخ عبدالرحمن بن محمد القماش

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۞ اللَّهُ

الصَّمَدُ ۞ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۞

وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۞

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الكتاب

كتاب الحاوي في التفسير أكبر موسوعة في تفسير القرءان

الكريم حيث تحتوي على ٨٤٠ جزءا" موزعة على ٤١ مجلدا"

بذل فيه الشيخ الجليل " عبدالرحمن بن محمد القماش" جهدا"

كبيرا" و أسطوريا" في سبيل تأليف هذه الموسوعة العملاقة

وتم إكمال الموسوعة من قبل المكتبة الشاملة

في ١٤ حزيران ٢٠٠٩ وتم إكمال ملفات PDF

في آذار- نيسان ٢٠١٢ *

محتويات الكتاب

الجزء	الموضوع	الموضوع الفرعي	الصفحة
549	سورة النور	الآية 35	2
550	=	الآية 36 الى الآية 40	320
551	=	الآية 41 الى الآية 50	653
552	=	الآية 51 الى الآية 54	955
553	=	الآية 55 الى الآية 58	1194
554	=	الآية 59 الى الآية 61	1453
555	=	الآية 62 الى الآية 64	1742
556	سورة الفرقان	فصول مهمة	2376
557	=	الآية 1 الى الآية 9	2760
558	=	الآية 10 الى الآية 20	3007
559	=	الآية 21 الى الآية 31	3339
560	=	الآية 32 الى الآية 46	3783
561	=	الآية 47 الى الآية 52	4200
562	=	الآية 53 الى الآية 60	4631
563	=	الآية 61 الى الآية 67	4977
564	=	الآية 68 الى الآية 77	5221
565	سورة الشعراء	فصول مهمة	5931
566	=	الآية 1 الى الآية 22	6323
567	=	الآية 23 الى الآية 51	6627
568	=	الآية 52 الى الآية 68	6945
569	=	الآية 69 الى الآية 89	7170

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء التاسع والأربعون بعد الخمسمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء التاسع والأربعون بعد الخمسمائة

من الآية ﴿ 35 ﴾ من سورة النور

وحتى الآية ﴿ 35 ﴾ نفس الآية

(4/549)

قوله تعالى ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (35) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ثم علل إنزاله لذلك على هذا السنن الأقوم ، والنظم المحكم ، بقوله : ﴿ الله ﴾ أي الذي أحاطت قدرته وعلمه ﴿ نور ﴾ أي ذو نور ﴿ السماوات والأرض ﴾ لأنه مظهرهما بإيجادهما وإيجاد أهلهما وهاديهم بالتنوير بالعلم الجاعل صاحبه بهدايته إلى الصراط المستقيم كالماشي في نور الشمس ، لا يضع شيئاً في غير موضعه كما أن الماشي في النور لا

يضع رجلاً في غير موضعها اللائق بها ، ولا شك أن النور هو ما به تظهر به الأشياء وتنكشف ، فهو سبحانه مظهرهما ، وهما وما فيهما دال على ظهوره ، وأنه تام القدرة شامل العلم حاوٍ لصفات الكمال ، منزه عن شوائب النقص ، وفي آخر الشورى ما ينفع جداً هنا .

ولما كان من المحال أن يضل عن نور هو ملء الخافقين أحد من سكانهما ، بين وجه خفائه مع ظهور ضيائه واتساعه وقوة شعاعه ، حتى ضل عنه أكثر الناس ، فقال مبيناً بإضافة النور إلى ضميره أن الإخبار عنه بالنور مجاز لا حقيقة ، منبهاً على أن آياته الهادية تلوح خلال الشبهات الناشئة عن الأوهام الغالبة على الخلق التي هي كالظلمات ﴿ مثل نوره ﴾ أي الذي هدى به إلى سبيل الرشاد في خفائه عن بعض الناس مع شدة ظهوره ، وهو آياته الدالة عليه من أقواله وأفعاله ﴿ كمشكاة ﴾ أي مثل كة أي خرق لكن غير نافذ في جدار ؛ قال البغوي : فإن كان لها منفذ فهي كوة .

ولما دخل المشكاة في هذا المثل خفياً فقدمها تشويقاً إلى شرحه ، أتبعه قوله شارحاً له : ﴿ فيها مصباح ﴾ أي سراج ضخم ثاقب .

وهو الذبالة – أي الفتيلة – الضخمة المتقدة ، من الصباح الذي هو نور الفجر ، والمصباح الذي هو الكوكب الكبير ؛ قال البغوي : وأصله الضوء – انتهى .

فإذا كان في المشكاة اجتمعت أشعته فكان أشد إنارة ، ولو كان في فضاء لافترقت أشعته

؛ وأتى ببقية الكلام استئنافاً على تقدير سؤال تعظيماً له فقال : ﴿ المصباح في زجاجة ﴾ أي قنديل .

(5/549)

ولما كان من الزجاج ما هو في غاية الصفاء ، بين أن هذه منه فقال : ﴿ الزجاجة كأنها ﴾ أي في شدة الصفاء ﴿ كوكب ﴾ شبهه بها دون الشمس والقمر لأنهما يعتريهما الخسوف ﴿ دريّ ﴾ أي متلألىء بالأنوار فإنه إذا كان في زجاجة صافية انعكست الأشعة المنفصلة عنه من بعض جوانب الزجاجة إلى بعض لما فيها من الصفاء والشفيف فيزداد النور ويبلغ النهاية كما أن شعاع الشمس إذا وقع على ماء أو زجاجة صافية تضاعف النور حتى أنه يظهر فيما يقابله مثل ذلك النور ؛ والدريّ – قال الزجاج : مأخوذ من درأ إذا اندفع منقضاً فتضاعف نوره .

ولما كان من المصابيح أيضاً ما يكون نوره ضعيفاً بين أن هذا ليس كذلك فقال : ﴿ يوقد ﴾ أي المصباح ، بأن اشتد وقده .

ولما كان هذا الضوء يختلف باختلاف ما يتقد فيه ، فإذا كان دهناً صافياً خالصاً كان شديد ، وكانت الأدهان التي توقد ليس فيها ما يظهر فيه الصفاء كالزيت لأنه ربما بلغ في

الصفاء والرقة مبلغ الماء مع زيادة بياض وشعاع يتردد في أجزائه ، قال : ﴿ من شجرة ﴾ أي زيتها ﴿ مباركة ﴾ أي عظيمة الثبات والخيرات يطيب منبتها ﴿ زيتونة ﴾ .

ولما كان الزيت يختلف باختلاف شجرته في احتجابها عن الشمس وبروزها لها ، لأن الشجر ربما ضعف وخبث ثمره بحائل بينه وبين الشمس ، بين أن هذه الشجرة ليست كذلك فقال : ﴿ لا شرقية ﴾ أي ليست منسوبة إلى الشرق وحده ، لكونها بحيث لا يتمكن منها الشمس إلا عند الشروق لكنها في لحف جبل يظلها إذا تضيفت الشمس للغروب ﴿ ولا غربية ﴾ لأنها في سفح جبل يسترها من الشمس عند الشروق ، بل هي بارزة للشمس من حين الشروق إلى وقت الغروب ، ليكون ثمرها أنضج فيكون زيته أصفى ، قال البغوي : هذا قول ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ في رواية عكرمة والكلبي والأكثرين . فهي لزكاء عنصرها ، وطهارة منبتها ، وبروزها للشمس والرياح ، بحيث ﴿ يكاد زيتها ﴾ لشدة صفائه ﴿ يضيء ولو لم تمسسه نار ﴾ .

(6/549)

ولما علم من هذا أن لهذا الممثل به أنواراً متظاهرة بمعاونة المشكاة والزجاجة والمصباح والزيت ، فلم يبق مما يقوي نوره ويزيده إشارقاً ، ويمده بإضاءة نقية ، قال في الممثل له :

﴿ نور على نور ﴾ أي أن العلم الرباني عظيم الاتساع كلما سرحت فيه النظر ، وأطلقت عنان الفكر ، أتى بالغرائب ولا يمكن أن يوقف له على حد .

ولما كان الإخبار عن مضاعفة هذا النور موجباً لاعتقاد أنه لا يخفى عن أحد ، أشار إلى أنه – بشمول علمه وتمام قدرته – يعمى عنه من يريد مع شدة ضيائه ، وعظيم لألائه ، فقال : ﴿ يهدي الله ﴾ أي بعظمته المحيطة بكل شيء ﴿ لنوره من يشاء ﴾ كما هدى الله من هدى من المؤمنين لتبرئة عائشة ـ رضى الله عنه ـ ا قبل إنزال براءتها .

بكون الله اختارها لنبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، ولا يختار له إلا طيباً طاهراً وما شاكل ذلك ، وعلم أن قسيم ذلك " ويضل الله عن نوره من يشاء " وعلم أن وجه كونه ضل عنه أكثر الناس إنما هو ستر القادر له بنقص في حس من يريد سبحانه إضلاله ، لا لنقص في النور كما قال الشاعر :

والنجم تستصغر الأبصار صورته . . .

فالذنب للطرف لا للنجم في الصغر

كما سيأتي إيضاح ذلك عند قوله تعالى ﴿ ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ﴾ [الفرقان : 25] ، ومر آنفاً في حديث علي ـ رضى الله عنه ـ في الأرواح ما ينفع ههنا .

ولما كان كأنه قيل : ضرب الله هذا المثل لكم لتدبروه فتنفعوا به ، عطف عليه قوله : ﴿ ويضرب الله ﴾ أي بما له من الإحاطة بكمال القدرة وشمول العلم ﴿ الأمثال للناس ﴾

لعلمه بها ، تقريباً للأفهام ، لعلهم يهتدون ﴿ والله ﴾ أي الذي له جميع صفات الكمال ﴿ بكل شيء ﴾ أي منها ومن غيرها ﴿ عليم ﴾ يبين كل شيء بما يسهل سبيله فثقوا بما يقول ، وإن لم تفهموه أنفسكم وأمعنوا النظر فيه يفتح لكم سبحانه ما انغلق منه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 263 . 265 ﴾

(7/549)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ نور السموات ﴾ على الفعل : يزيد من طريق ابن أبي عبلة وابن مشيا ﴿ كمشكاة ﴾ ممالة : أبو عمرو عن الكسائي ﴿ دريء ﴾ بكسرتين وبالهمز : أبو عمرو وعلي والمفضل مثله بضم الدال : حمزة وأبو بكر وحماد والخزاز . الباقون بضم الدال وتشديد الياء ﴿ توقد ﴾ بضم التاء وفتح القاف : حمزة وعلي وخلف وابو بكر وحماد مثله ولكن بياء الغيبة على أن الضمير للمصباح : ابن عامر ونافع وحفص وابو زيد عن المفضل . الباقون وجبلة ﴿ توقد ﴾ بالفتحات وتشديد القاف ﴿ يسبح ﴾ بفتح الباء : ابن عامر وأبو بكر وحماد : ﴿ سحاب ﴾ ﴿ ظلمات ﴾ على الإضافة : البزي ﴿

سحاب ﴾ بالتنوين ﴿ ظلمات ﴾ بالكسر على أنه نصب على الحال : القواس وابن فليح . الباقون بالرفع والتنوين فيهما . ﴿ ينزل ﴾ من الإنزال : ابن كثير وابو عمرو وسهل ويعقوب ﴿ يذهب ﴾ من الإذهاب يزيد على أن الباء زائدة ﴿ خالق كل شيء ﴾ على الإضافة : حمزة وعلي وخلف . الآخرون ﴿ خلق ﴾ على لفظ الماضي ﴿ كل ﴾ منصوباً .

(8/549)

الوقوف : ﴿ والأرض ﴾ ط ﴿ مصباح ﴾ ط ﴿ زجاجة ﴾ ط ﴿ غربية ﴾ ط لأن ما بعدها صفة شجرة ﴿ نار ﴾ ط ﴿ نور ﴾ ط ﴿ يشاء ﴾ ط ﴿ للناس ﴾ ط ﴿ عليم ﴾ 5 لا بناء على أن الظرف يتعلق بما قبله وهو ﴿ كمكشاة ﴾ أي مثل مشكاة في بعض بيوت الله عز وجل والأولى تعلقه ب ﴿ يسبح ﴾ وفيها تكرار كقولك زيد في الدار جالس فيها أو بمحذوف وهو سبحوا اسمه لا لأن ما بعده صفة بيوت أو لأن الظرف يتعلق ب ﴿ يسبح ﴾ ﴿ والآصال ﴾ ط لمن قرأ ﴿ يسبح ﴾ بفتح الباء كأنه قيل : من يسبح ؟ فقيل : ﴿ رجال ﴾ أي يسبحه رجال . ومن قرأ بالكسر لم يقف لأنه فاعل الفعل الظاهر ﴿ رجال ﴾ لا لأن ما بعده صفة ﴿ الزكاة ﴾ لا لأن ما بعده أيضاً صفة ﴿

والأبصار ﴾ 5 لا لتعلق اللام . أو حاتم يقف ويجعل اللام لام القسم على تقدير ليجزين قال : فلما سقطت النون انكسرت اللام . ﴿ من فضله ﴾ ط ﴿ حساب ﴾ 5 ﴿ ماء ﴾ ط ﴿ حسابه ﴾ ط ﴿ الحساب ﴾ 5 لا للعطف ﴿ سحاب ﴾ ط لمن قرأ ﴿ ظلمات ﴾ بالرفع ولم يجعلها بدلاً ﴿ فوق بعض ﴾ ط ﴿ يراها ﴾ ط ﴿ من نور ﴾ 5 ﴿ صافات ﴾ ط ﴿ وتسبيحه ﴾ ط ﴿ يفعلون ﴾ 5 ﴿ والأرض ﴾ ج فصلاً بين الأمرين المعظمين مع اتفاق الجملتين ﴿ المصير ﴾ 5 ﴿ من خلاله ﴾ ج لما قلنا ﴿ عمن يشاء ﴾ ط ﴿ بالأبصار ﴾ 5 ط ﴿ والأنهار ﴾ ط ﴿ الأبصار ﴾ ج ﴿ من ماء ﴾ ج للفاء مع التفصيل ﴿ بطنه ﴾ ج ﴿ رجلين ﴾ ج لمثل ما قلنا ﴿ اربع ﴾ ط ﴿ ما يشاء ﴾ ط ﴿ قدير ﴾ 5 ﴿ مبينات ﴾ ط ﴿ مستقيم ﴾ 5 ﴿ ذلك ﴾ ط ﴿ بالمؤمنين ﴾ 5 ﴿ معرضون ﴾ 5 ﴿ مذعنين ﴾ 5 ط ﴿ ورسوله ﴾ ط ﴿ الظالمون ﴾ 5 . انتهى انتهى . اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 5 صـ 192 . 193 ﴾

(9/549)

فصل

قال الفخر :

﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

اعلم أن الكلام في هذه الآية مرتب على فصول :

الفصل الأول في إطلاق اسم النور على الله تعالى

اعلم أن لفظ النور موضوع في اللغة لهذه الكيفية الفائضة من الشمس والقمر والنار على الأرض والجدران وغيرهما ، وهذه الكيفية يستحيل أن تكون إلهاً لوجوه : أحدها : أن هذه الكيفية إن كانت عبارة عن الجسم كان الدليل الدال على حدوث الجسم دالاً على حدوثها ، وإن كانت عرضاً فمتى ثبت حدوث جميع الأعراض القائمة به ولكن هذه المقدمة إنما تثبت بعد إقامة الدلالة على أن الحلول على الله تعالى محال وثانيها : أنا سواء قلنا النور جسم أو أمر حال في الجسم فهو منقسم ، لأنه إن كان جسماً فلا شك في أنه منقسم ، وإن كان حالاً فيه ، فالحال في المنقسم منقسم ، وعلى التقديرين فالنور منقسم وكل منقسم فإنه يفتقر في تحققه إلى تحقق أجزائه وكل واحد من أجزائه غيره ، وكل مفتقر فهو في تحققه مفتقر إلى غيره ، والمفتقر إلى الغير ممكن لذاته محدث بغيره ، فالنور محدث فلا يكون إلهاً وثالثها : أن هذا النور المحسوس لو كان هو الله لوجب أن لا يزول هذا النور لامتناع الزوال على الله تعالى ورابعها : أن هذا النور المحسوس يقع بطلوع الشمس والكواكب .

وذلك على الله محال وخامسها : أن هذه الأنوار لو كانت أزلية لكانت إما أن تكون متحركة

أو ساكنة ، لا جائز أن تكون متحركة لأن الحركة معناها الانتقال من مكان إلى مكان فالحركة مسبوقة بالحصول في المكان الأول .

والأزلي يمتنع أن يكون مسبوقاً بالغير فالحركة الأزلية محال .

(10/549)

ولا جائز أن تكون ساكنة لأن السكون لو كان أزلياً لكان ممتنع الزوال لكن السكون جائز الزوال ، لأنا نرى الأنوار تنتقل من مكان إلى مكان فدل ذلك على حدوث الأنوار وسادسها : أن النور إما أن يكون جسماً أو كيفية قائمة بالجسم ، والأول محال لأنا قد نعقل الجسم جسماً مع الذهول عن كونه نيراً ولأن الجسم قد يستنير بعد أن كان مظلماً فثبت الثاني لكن الكيفية القائمة بالجسم محتاجة إلى الجسم ، والمحتاج إلى الغير لا يكون إلهاً ، وبمجموع هذه الدلائل يبطل قول المانوية الذين يعتقدون أن الإله سبحانه هو النور الأعظم .

وأما المجسمة المعترفون بصحة القرآن فيحتج على فساد قولهم بوجهين : الأول : قوله : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [الشورى : 11] ولو كان نوراً لبطل ذلك لأن الأنوار كلها متماثلة الثاني : أن قوله تعالى : ﴿ مَثَلُ نُورِهِ ﴾ صريح في أنه ليس ذاته نفس النور بل النور مضاف إليه .

وكذا قوله : ﴿ يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ ﴾ فإن قيل قوله : ﴿ اللهُ نُورُ السموات ﴾ يقتضي ظاهره أنه في ذاته نور .

وقوله : ﴿ مَثَلُ نُورِهِ ﴾ يقتضي أن لا يكون هو في ذاته نوراً وبينهما تناقض ، قلنا نظير هذه الآية قولك زيد كرم وجود ، ثم تقول ينعش الناس بكرمه وجوده ، وعلى هذا الطريق لا تناقض الثالث : قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَجَعَلَ الظلمات والنور ﴾ [الأنعام : 1] وذلك صريح في أن ماهية النور مجعولة لله تعالى فيستحيل أن يكون الإله نوراً ، فثبت أنه لا بد من التأويل ، والعلماء ذكروا فيه وجوهاً : أحدها : أن النور سبب للظهور والهداية لما شاركت النور في هذا النور في هذا المعنى صح إطلاق اسم النور على الهداية وهو كقوله تعالى : ﴿ اللهُ وَلِيُّ الذين ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظلمات إِلَى النور ﴾ [البقرة : 257] .

(11/549)

وقوله : ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فأحييناه وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا ﴾ [الأنعام : 122] وقال : ﴿ ولكن جعلناه نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا ﴾ [الشورى : 52] فقوله : ﴿ اللهُ نُورُ السموات والأرض ﴾ أي ذو نور السموات والأرض والنور هو الهداية ولا تحصل إلا لأهل السموات ، والحاصل أن المراد الله هادي أهل السموات والأرض وهو قول ابن عباس

والأكثرين رضي الله عنهم وثانيها : المراد أنه مدبر السموات والأرض بحكمة بالغة وحجة نيرة فوصف نفسه بذلك كما يوصف الرئيس العالم بأنه نور البلد ، فإنه إذا كان مدبرهم تدبيراً حسناً فهو لهم كالنور الذي يهتدى به إلى مسالك الطرق ، قال جرير :

وأنت لنا نور وغيث وعصمة . . وهذا اختيار الأصم والزجاج وثالثها : المراد ناظم السموات والأرض على الترتيب الأحسن فإنه قد يعبر بالنور على النظام ، يقال ما أرى لهذا الأمر نوراً ورابعها : معناه منور السموات والأرض ثم ذكروا في هذا القول ثلاثة أوجه : أحدها : أنه منور السماء بالملائكة والأرض بالأنبياء والثاني : منورها بالشمس والقمر والكواكب والثالث : أنه زين السماء بالشمس والقمر والكواكب وزين الأرض بالأنبياء والعلماء ، وهو مروي عن أبي بن كعب والحسن وأبي العالية والأقرب هو القول الأول لأن قوله في آخر الآية : ﴿ يَهْدِي اللهِ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ ﴾ يدل على أن المراد بالنور الهداية إلى العلم والعمل .

(12/549)

واعلم أن الشيخ الغزالي رحمه الله صنف في تفسير هذه الآية الكتاب المسمى بمشكاة الأنوار ، وزعم أن الله نور في الحقيقة بل ليس النور إلا هو ، وأنا أنقل محصل ما ذكره مع زوائد

كثيرة تقوي كلامه ثم ننظر في صحته وفساده على سبيل الإنصاف فقال : اسم النور إنما وضع للكيفية الفائضة من الشمس والقمر والنار على ظواهر هذه الأجسام الكثيفة ، فيقال استنارت الأرض ووقع نور الشمس على الثوب ونور السراج على الحائط ، ومعلوم أن هذه الكيفية إنما اختصت بالفضيلة والشرف لأن المرئيات تصير بسببها ظاهرة منجلية ، ثم من المعلوم أنه كما يتوقف إدراك هذه المرئيات على كونها مستنيرة فكذا يتوقف على وجود العين الباصرة إذ المرئيات بعد استنارتها لا تكون ظاهرة في حق العميان فقد ساوى الروح الباصرة النور الظاهرة في كونه ركناً لا بد منه للظهور ، ثم يرجح عليه في أن الروح الباصرة هي المدركة وبها الإدراك ، وأما النور الخارج فليس بمدرك ولا به الإدراك بل عنده الإدراك ، فكان وصف الإظهار بالنور الباصر أحق منه بالنور المبصر فلا جرم أطلقوا اسم النور على نور العين المبصرة فقالوا في الخفاش إن نور عينه ضعيف ، وفي الأعمش إنه ضعف نور بصره .

وفي الأعمى إنه فقد نور البصر .

(13/549)

إذا ثبت هذا فنقول إن للإنسان بصراً وبصيرة فالبصر هو العين الظاهرة المدركة للأضواء والألوان ، والبصيرة هي القوة العاقلة وكل واحد من الإدراكين يقتضي ظهور المدرك ، فكل واحد من الإدراكين نور إلا أنهم عددوا لنور العين عيوباً لم يحصل شيء منها في نور العقلي ، والغزالي رحمه الله ذكر منها سبعة ، ونحن جعلناها عشرين الأول : أن القوة الباصرة لا تدرك نفسها ولا تدرك إدراكها ولا تدرك آلتها ، أما أنها لا تدرك نفسها ولا تدرك إدراكها فلأن القوة الباصرة وإدراك القوة الباصرة ليسا من الأمور المبصرة بالعين الباصرة ، وأما آلتها فهي العين ، والقوة الباصرة بالعين لا تدرك العين ، وأما القوة العاقلة فإنها تدرك نفسها وتدرك إدراكها وتدرك آلتها في الإدراك وهي القلب والدماغ ، فثبت أن نور العقل أكمل من نور البصر الثاني : أن القوة الباصرة لا تدرك الكليات والقوة العاقلة تدركها ، ومدرك الكليات وهو القلب أشرف من مدرك الجزئيات ، أما أن القوة الباصرة لا تدرك الكليات فلأن القوة الباصرة لو أدركت كل ما في الوجود فهي ما أدركت الكل لأن الكل عبارة عن كل ما يمكن دخوله في الوجود في الماضي والحاضر والمستقبل ، وأما أن القوة العاقلة تدرك الكليات فلأنا نعرف أن الأشخاص الإنسانية مشتركة في الإنسانية ومتمايزة بخصوصياتها ، وما به المشاركة غير ما به المايزة ، فالإنسانية من حيث هي إنسانية أمر مغاير لهذه المشخصات فقد عقلنا الماهية الكلية ، وأما أن إدراك الكليات أشرف فلأن إدراك الكليات ممتنع التغير ، وإدراك الجزئيات واجب التغير ، ولأن إدراك الكلي يتضمن إدراك

الجزئيات الواقعة تحته ، لأن ما ثبت للماهية ثبت لجميع أفرادها ولا ينعكس ، فثبت أن الإدراك العقلي أشرف الثالث : الإدراك الحسي غير منتج والإدراك العقلي منتج فوجب أن يكون العقل أشرف ، أما كون الإدراك الحسي غير منتج فلأن من أحس بشيء لا يكون ذلك الإحساس سبباً لحصول إحساس آخر له ،

(14/549)

بل لو استعمل له الحس مرة أخرى لأحس به مرة أخرى ولكن ذلك لا يكون إنتاج الإحساس لإحساس آخر ، وأما أن الإدراك العقلي منتج فلأنا إذا عقلنا أموراً ثم ركبناها في عقولنا توسلنا بتركيبها إلى اكتساب علوم أخرى ، وهكذا كل تعقل حاصل فإنه يمكن التوسل به إلى تحصيل تعقل آخر إلى ما لا نهاية له ، فثبت أن الإدراك العقلي أشرف الرابع : الإدراك الحسي لا يتسع للأمور الكثيرة والإدراك العقلي ، يتسع لها فوجب أن يكون الإدراك العقلي أشرف .

(15/549)

أما أن الإدراك الحسي لا يتسع لها فلأن البصر إذا توالى عليه ألوان كثيرة عجز عن تمييزها ، فأدرك لوناً كأنه حاصل من اختلاط تلك الألوان (و) السمع إذا توالت عليه كلمات كثيرة التبست عليه تلك الكلمات ولم يحصل التمييز ، وأما أن الإدراك العقلي متسع لها فلأن كل من كان تحصيله للعلوم أكثر كانت قدرته على كسب الجديد أسهل ، وبالعكس وذلك يوجب الحكم بأن الإدراك العقلي أشرف الخامس : القوة الحسية إذا أدركت المحسوسات القوية ففي ذلك الوقت تعجز عن إدراك الضعيفة ، فإن من سمع الصوت الشديد ففي تلك الحالة لا يمكنه أن يسمع الصوت الضعيف والقوة العقلية لا يشغلها معقول عن معقول السادس : القوى الحسية تضعف بعد الأربعين ، وتضعف عند كثرة الأفكار التي هي موجباً لاستيلاء النفس على البدن الذي هو موجب لخراب البدن ، والقوى العقلية تقوى بعد الأربعين وتقوى عند كثرة الأفكار الموجبة لخراب البدن ، فدل ذلك على استغناء القوة العقلية عن هذه الآلات واحتياج القوى الحسية إليها السابع : القوة الباصرة لا تدرك المرئي مع القرب القريب ولا مع البعد البعيد ، والقوة العقلية لا يختلف حالها بحسب القرب والبعد ، فإنها تترقى إلى ما فوق العرش وتنزل إلى ما تحت الثرى في أقل من لحظة واحدة ، بل تدرك ذات الله وصفاته مع كونه منزهاً عن القرب والبعد والجهة فكانت القوة العقلية أشرف الثامن : القوة الحسية لا تدرك من الأشياء إلا ظواهرها فإذا أدركت الإنسان فهي في الحقيقة ما أدركت الإنسان لأنها ما أدركت إلا السطح الظاهر من جسمه ، وإلا اللون

القائم بذلك السطح ، وبالاتفاق فليس الإنسان عبارة عن مجرد السطح واللون فالقوة الباصرة عاجزة عن النفوذ في الباطن ، أما القوة العاقلة فإن باطن الأشياء وظاهرها بالنسبة إليها على السواء فإنها تدرك البواطن والظواهر وتغوص فيها وفي أجزائها ، فكانت القوة العاقلة نوراً بالنسبة إلى الباطن والظاهر ، أما القوة الباصرة فهي

(16/549)

بالنسبة إلى الظاهر نور وبالنسبة إلى الباطن ظلمة ، فكانت القوة العاقلة أشرف من القوة الباصرة التاسع : أن مدرك القوة العاقلة هو الله تعالى وجميع أفعاله ، ومدرك القوة الباصرة هو الألوان والأشكال ، فوجب أن تكون نسبة شرف القوة العاقلة إلى شرف القوة الباصرة كنسبة شرف ذات الله تعالى إلى شرف الألوان والأشكال العاشر : القوة العاقلة تدرك جميع الموجودات والمعدومات والماهيات التي هي معروضات الموجودات والمعدومات ، ولذلك فإن أول حكمه أن الوجود والعدم لا يجتمعان ولا يرتفعان ، وذلك مسبوق لا محالة بتصور مسمى الوجود ومسمى العدم فكأنه بهذين التصورين قد أحاط بجميع الأمور من بعض الوجوه .

وأما القوة الباصرة فإنها لا تدرك إلا الأضواء والألوان وهما من أخس عوارض الأجسام

والأجسام أخس من الجواهر الروحانية ، فكان متعلق القوة الباصرة أخس الموجودات .

وأما متعلق القوة العاقلة فهو جميع الموجودات والمعدومات فكانت القوة العاقلة أشرف .

الحادي عشر : القوة العاقلة تقوى على توحيد الكثير وتكثير الواحد ، والقوة الباصرة لا تقوى على ذلك .

(17/549)

أما أن القوة العاقلة تقوى على توحيد الكثير ، فذاك لأنها تضم الجنس إلى الفصل فيحدث منهما طبيعة نوعية واحدة ، وأما أنها تقوى على تكثير الواحد فلأنها تأخذ الإنسان وهي ماهية واحدة فتقسمها إلى مفهوماتها وإلى عوارضها اللازمة وعوارضها المفارقة ، ثم تقسم مقوماته إلى الجنس وجنس الجنس ، والفصل وفصل الفصل ، وجنس الفصل وفصل الجنس ، إلى سائر الأجزاء المقومة التي لا تعد من الأجناس ولا من الفصول ، ثم لا تزال تأتي بهذا لتقسيم في كل واحد من هذه الأقسام حتى تنتهي من تلك المركبات إلى البسائط الحقيقية ، ثم تعتبر في العوارض اللازمة أن تلك العوارض مفردة أو مركبة ولازمة بوسائط أو بوسط ، أو بغير وسط ، فالقوة العاقلة كأنها نفذت في أعماق الماهيات وتغلغلت فيها وميزت كل واحد من أجزائها عن صاحبه ، وأنزلت كل واحد منها في المكان اللائق به .

فأما القوة الباصرة فلا تطلع على أحوال الماهيات ، بل لا ترى إلا أمراً واحداً ولا تدري ما هو وكيف هو ، فظهر أن القوة العاقلة أشرف الثاني عشر : القوة العاقلة تقوى على إدراكات غير متناهية ، والقوة الحاسة لا تقوى على ذلك : بيان الأول من وجوه : الأول : القوة العاقلة يمكنها أن تتوصل بالمعارف الحاضرة إلى استنتاج المجهولات ، ثم إنها تجعل تلك النتائج مقدمات في نتائج أخرى لا إلى نهاية ، وقد عرفت أن القوة الحاسة لا تقوى على الاستنتاج أصلاً الثاني : أن القوة العاقلة تقوى على تعقل مراتب الأعداد ولا نهاية لها الثالث : أن القوة العاقلة يمكنها أن تعقل نفسها ، وأن تعقل أنها عقلت وكذا إلى غير النهاية الرابع : النسب والإضافات غير متناهية وهي معقولة لا محسوسة فظهر أن القوة العاقلة أشرف الثالث عشر : الإنسان بقوته العاقلة يشارك الله تعالى في إدراك الحقائق وبقوته الحاسة يشارك البهائم ، والنسبة معتبرة فكانت القوة العاقلة أشرف الرابع عشر : القوة العاقلة غنية في إدراكها العقلي عن وجود المعقول في الخارج ، والقوة الحاسة محتاجة في إدراكها الحسي إلى وجود المحسوس في الخارج ، والغني أشرف من المحتاج .

الخامس عشر : هذه الموجودات الخارجية ممكنة لذواتها وأنها محتاجة إلى الفاعل ،

والفاعل لا يمكنه الإيجاد على سبيل الاتقان إلا بعد تقدم العلم ، فإذن وجود هذه الأشياء في الخارج تابع للإدراك العقلي ، وأما الإحساس بها فلا شك أنه تابع لوجودها في الخارج ، فإذن القوة الحساسة تبع لتبع القوة العاقلة السادس عشر : القوة العاقلة غير محتاجة في العقل إلى الآلات بدليل أن الإنسان لو اختلت حواسه الخمس ، فإنه يعقل أن الواحد نصف الاثنين ، وأن الأشياء المساوية لشيء واحد متساوية .

(19/549)

وأما القوة الحساسة فإنها محتاجة إلى آلات كثيرة ، والغني أفضل من المحتاج ، السابع عشر : الإدراك البصري لا يحصل إلا للشيء الذي في الجهات ، ثم إنه غير متصرف في كل الجهات بل لا يتناول إلا المقابل أو ما هو في حكم المقابل ، واحترزنا بقولنا في حكم المقابل عن أمور أربعة : الأول : العرض فإنه ليس بمقابل لأنه ليس في المكان ، ولكنه في حكم المقابل لأجل كونه قائماً بالجسم الذي هو مقابل الثاني : رؤية الوجه في المرآة ، فإن الشعاع يخرج من العين إلى المرآة ، ثم يرتد منها إلى الوجه فيصير الوجه مرئياً ، وهو من هذا الاعتبار كالمقابل لنفسه .

الثالث : رؤية الإنسان قفاه إذا جعل إحدى المرآتين محاذية لوجهه والأخرى لقفاه .

والرابع : رؤية ما لا يقابل بسبب انعطاف الشعاع في الرطوبات ما هو مشروح في كتاب المناظر (1)

وأما القوة العاقلة فإنها مبرأة عن الجهات ، فإنها تعقل الجهة والجهة ليست في الجهة ، ولذلك تعقل أن الشيء إما أن يكون في الجهة ، وإما أن لا يكون في الجهة ، وهذا الترديد لا يصح إلا بعد تعقل معنى قولنا ليس في الجهة .

الثامن عشر : القوة الباصرة تعجز عند الحجاب ، وأما القوة العاقلة فإنها لا يحجبها شيء أصلاً فكانت أشرف .

التاسع عشر : القوة العاملة كالأمير ، والحاسة كالخادم والأمير أشرف من الخادم ، وتقرير (الفرق بين) الإمارة والخدمة مشهور .

---

(1) يريد بالمناظر المرايا . وهو من مباحث العلوم الطبيعية في الضوء والانعكاس الضوئي .

(20/549)

العشرون : القوة الباصرة قد تغلط كثيراً فإنها قد تدرك المتحرك ساكناً وبالعكس ، كالجالس في السفينة ، فإنه قد يدرك السفينة المتحركة ساكنة والشط الساكن متحركاً ، ولولا العقل لما تميز خطأ البصر عن صوابه ، والعقل حاكم والحس محكوم ، فثبت بما ذكرنا

أن الإدراك العقل أشرف من الإدراك البصري ، وكل واحد من الإدراكين يقتضي الظهور الذي هو أشرف خواص النور ، فكان الإدراك العقلي أولى بكونه نوراً من الإدراك البصري ، وإذا ثبت هذا فنقول هذه الأنوار العقلية قسمان : أحدهما : واجب الحصول عند سلامة الأحوال وهي التعقلات الفطرية والثاني : ما يكون مكتسباً وهي التعقلات النظرية أما الفطرية فليست هي من لوازم جوهر الإنسان لأنه حال الطفولية لم يكن عالماً ألبتة فهذه الأنوار الفطرية إنما حصلت بعد أن لم تكن فلا بد لها من سبب وأما النظريات فمعلوم أن الفطرة الإنسانية قد يعتريها الزيغ في الأكثر وإذا كان كذلك فلا بد من هاد مرشد ولا مرشد فوق كلام الله تعالى وفوق إرشاد الأنبياء ، فتكون منزلة آيات القرآن عند عين العقل بمنزلة نور الشمس عند العين الباصرة إذ به يتم الإبصار ، فبالحري أن يسمى القرآن نوراً كما يسمى نور الشمس نوراً ، فنور القرآن يشبه نور الشمس ونور العقل يشبه نور العين وبهذا يظهر معنى قوله :

(21/549)

﴿ فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ والنور الذي أَنزَلْنَا ﴾ [التغابن : 8] وقوله : ﴿ قَدْ جَاءكُمْ بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [النساء : 174] ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُّبِيناً ﴾ [النساء : 174] وإذا

ثبت أن بيان الرسول أقوى من نور الشمس وجب أن تكون نفسه القدسية أعظم في النورانية من الشمس ، وكما أن الشمس في عالم الأجسام تفيد النور لغيره ولا تستفيده من غيره فكذا نفس النبي صلى الله عليه وسلم تفيد الأنوار العقلية لسائر الأنفس البشرية ، ولا تستفيد الأنوار العقلية من شيء من الأنفس البشرية ، فلذلك وصف الله تعالى الشمس بأنها سراج حيث قال : ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجاً وَقَمَراً مُّنِيراً ﴾ [الفرقان : 61] ووصف محمداً صلى الله عليه وسلم بأنه سراج منير ، إذا عرفت هذا فنقول ثبت بالشواهد العقلية والنقلية أن الأنوار الحاصلة في أرواح الأنبياء مقتبسة من الأنوار الحاصلة في أرواح الملائكة قال تعالى : ﴿ يُنَزِّلُ الملائكة بالروح مِنْ أَمْرِهِ على مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ [النحل : 2] وقال : ﴿ نَزَلَ بِهِ الروح الأمين * على قَلْبِكَ ﴾ [الشعراء : 193 ، 194] وقال : ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ القدس مِن رَّبِّكَ بالحق ﴾ [النحل : 102] وقال تعالى : ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يوحى * عَلَّمَهُ شَدِيدُ القوى ﴾ [النجم : 4 ، 5] والوحي لا يكون إلا بواسطة الملائكة فإذا جعلنا أرواح الأنبياء أعظم استنارة من الشمس فأرواح الملائكة التي هي كالمعادن لأنوار عقول الأنبياء لا بد وأن تكون أعظم من أنوار أرواح الأنبياء ، لأن السبب لا بد وأن يكون أقوى من المسبب .

(22/549)

ثم نقول ثبت أيضاً بالشواهد العقلية والنقلية أن الأرواح السماوية مختلفة فبعضها مستفيدة وبعضها مفيدة ، قال تعالى في وصف جبريل عليه السلام : ﴿ مطاع ثَمَّ أَمِينٍ ﴾ [التكوير : 21] وإذا كان هو مطاع الملائكة فالمطيعون لا بد وأن يكونوا تحت أمره وقال : ﴿ وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴾ [الصافات : 164] وإذا ثبت هذا فالمفيد أولى بأن يكون نوراً من المستفيد للعلة المذكورة ولمراتب الأنوار في عالم الأرواح مثال وهو أن ضوء الشمس إذا وصل إلى القمر ثم دخل في كوة بيت ووقع على مرآة منصوبة على حائط ثم انعكس منها إلى حائط آخر نصب عليه مرآة أخرى ثم انعكس منها إلى طست مملوء من الماء موضوع على الأرض انعكس منه إلى سقف البيت فالنور الأعظم في الشمس التي هي المعدن ، وثانياً في القمر ، وثالثاً ما وصل إلى المرآة الأولى ، ورابعاً ما وصل إلى المرآة الثانية ، وخامساً ما وصل إلى الماء ، وسادساً ما وصل إلى السقف ، وكل ما كان أقرب إلى المنبع الأول فإنه أقوى مما هو أبعد منه فكذا الأنوار السماوية لما كانت مرتبة لا جرم كان نور المفيد أشد إشراقاً من نور المستفيد ، ثم تلك الأنوار لا تزال تكون مترقية حتى تنتهي إلى النور الأعظم والروح الذي هو أعظم الأرواح منزلة عند الله الذي هو المراد من قوله سبحانه :

﴿ يَوْمَ يَقُومُ الروح والملائكة صَفّاً ﴾ [النبأ : 38] ثم نقول لا شك أن هذه الأنوار الحسية إن كانت سفلية كانت كأنوار النيران أو علوية كانت كأنوار الشمس والقمر والكواكب ، وكذا الأنوار العقلية سفلية كانت كالأرواح السفلية التي للأنبياء والأولياء أو علوية كالأرواح العلوية التي هي الملائكة ، فإنها بأسرها ممكنة لذواتها والممكن لذاته يستحق العدم من ذاته والوجود من غيره ، والعدم هو الظلمة الحاصلة والوجود هو النور ، فكل ما سوى الله مظلم لذاته مستنير بإنارة الله تعالى وكذا جميع معارفها بعد وجودها حاصل من وجود الله تعالى ، فالحق سبحانه هو الذي أظهرها بالوجود بعد أن كانت في ظلمات العدم وأفاض عليها أنوار المعارف بعد أن كانت في ظلمات الجهالة ، فلا ظهور لشيء من الأشياء إلا بإظهاره ، وخاصة النور إعطاء الإظهار والتجلي والانكشاف ، وعند هذا يظهر أن النور المطلق هو الله سبحانه وأن إطلاق النور على غيره مجاز إذ كل ما سوى الله ، فإنه من حيث هو هو ظلمة محضة لأنه من حيث إنه هو عدم محض ، بل الأنوار إذا نظرنا إليها من حيث هي هي فهي ظلمات ، لأنها من حيث هي هي ممكنات ، والممكن من حيث هو هو معدوم ، والمعدوم مظلم .

فالنور إذا نظر إليه من حيث هو هو ظلمة ، فأما إذا التفت إليها من حيث أن الحق سبحانه أفاض عليها نور الوجود فبهذا الاعتبار صارت أنواراً .

فثبت أنه سبحانه هو النور .

وأن كل ما سواه فليس بنور إلا على سبيل المجاز .

(24/549)

ثم إنه رحمه الله تكلم بعد هذا في أمرين : الأول : أنه سبحانه لم أضاف النور إلى السموات والأرض ؟ وأجاب فقال قد عرفت أن السموات والأرض مشحونة بالأنوار العقلية والأنوار الحسية ، أما الحسية فما يشاهد في السموات من الكواكب والشمس والقمر وما يشاهد في الأرض من الأشعة المنبسطة على سطوح الأجسام حتى ظهرت به الألوان المختلفة ، ولولاها لم يكن للألوان ظهور بل وجود ، وأما الأنوار العقلية فالعالم الأعلى مشحون بها وهي جواهر الملائكة والعالم الأسفل مشحون بها وهي القوى النباتية والحيوانية والإنسانية وبالنور الإنساني السفلي ظهر نظام عالم السفل كما بالنور الملكي ظهور نظام عالم العلو ، وهو المعنى بقوله تعالى : ﴿ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ ﴾ [النور : 55] وقال : ﴿ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاء الأَرْضِ ﴾ [النمل : 62] فإذا عرفت هذا عرفت أن العالم بأسره مشحون بالأنوار الظاهرة البصرية والباطنية العقلية ، ثم عرفت أن السفلية فائضة بعضها من بعض فيضان النور من السراج فإن السراج هو الروح النبوي ، ثم إن الأنوار

النبوية القدسية مقتبسة من الأرواح العلوية اقتباس السراج من النور ، وأن العلويات مقتبسة بعضها من بعض وأن بينها ترتيباً في المقامات ، ثم ترتقي جملتها إلى نور الأنوار ومعدنها ومنبعها الأول ، وأن ذلك هو الله وحده لا شريك له ، فإذن الكل نوره فلهذا قال : ﴿ الله نُورُ السموات والأرض ﴾ .

(25/549)

السؤال الثاني : فإذا كان الله النور فلم احتيج في إثباته إلى البرهان ؟ أجاب فقال إن معنى كونه نور السموات والأرض معروف بالنسبة إلى النور الظاهر البصري ، فإذا رأيت خضرة الربيع في ضياء النهار فلست تشك في أنك ترى الألوان فربما ظننت أنك لا ترى مع الألوان غيرها ، فإنك تقول لست أرى مع الخضرة غير الخضرة إلا أنك عند غروب الشمس تدرك تفرقة ضرورية بين اللون حال وقوع الضوء عليه وعدم وقوعه عليه ، فلا جرم تعرف أن النور معنى غير اللون يدرك مع الألوان إلا أنه كان لشدة اتحاده به لا يدرك ولشدة ظهوره يختفي وقد يكون الظهور سبب الخفاء ، إذا عرفت هذا فاعلم أنه كما ظهر كل شيء للبصر بالنور الظاهر فقد ظهر كل شيء للبصيرة الباطنة بالله ونوره حاصل مع كل شيء لا يفارقه ، ولكن بقي ههنا تفاوت وهو أن النور الظاهر يتصور أن يغيب بغروب الشمس ،

ويحجب فحينئذ يظهر أنه غير اللون ، وأما النور الإلهي الذي به يظهر كل شيء لا يتصور غيبته بل يستحيل تغيره فيبقى مع الأشياء دائماً ، فانقطع طريق الاستدلال بالتفرقة ، ولو تصورت غيبته لانهدمت السموات والأرض ولأدرك عنده من التفرقة ما يحصل العلم الضروري به ، ولكن لما تساوت الأشياء كلها على نمط واحد في الشهادة على وجود خالقها ، وأن كل شيء يسبح بحمده لا بعض الأشياء ، وفي جميع الأوقات لا في بعض الأوقات ارتفعت التفرقة وخفي الطريق ، إذ الطريق الظاهر معرفة الأشياء بالأضداد فما لا ضد له ولا تغير له بتشابه أحواله ، فلا يبعد أن يخفى ويكون خفاؤه لشدة ظهوره وجلائه ، فسبحان من اختفى عن الخلق لشدة ظهوره واحتجب عنهم بإشراق نوره ، واعلم أن هذا الكلام الذي رويناه عن الشيخ الغزالي رحمه الله كلام مستطاب ولكن يرجع حاصله بعد التحقيق إلى أن معنى كونه سبحانه نوراً أنه خالق للعالم وأنه خالق للقوى الدراكة ، وهو المعنى من قولنا معنى كونه نور السموات والأرض أنه هادي أهل السموات والأرض ، فلا تفاوت بين ما

(26/549)

قاله وبين الذي نقلناه عن المفسرين في المعنى ، والله أعلم .

الفصل الثاني : في تفسير قوله عليه الصلاة والسلام : "إن لله سبعين حجاباً من نور وظلمة لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه كل ما أدرك بصره" وفي بعض الروايات سبعمائة وفي بعضها سبعون ألفاً ، فأقول : لما ثبت أن الله سبحانه وتعالى متجل في ذاته لذاته كان الحجاب بالإضافة إلى المحجوب لا محالة والمحجوب لا بد وأن يكون محجوباً ، إما بحجاب مركب من نور وظلمة ، وإما بحجاب مركب من نور فقط ، أو بحجاب مركب من ظلمة فقط ، أما المحجوبون بالظلمة المحضة فهم الذين بلغوا في الاشتغال بالعلائق البدنية إلى حيث لم يلتفت خاطرهم إلى أنه هل يمكن الاستدلال بوجود هذه المحسوسات على وجود واجب الوجود أم لا ؟ وذلك لأنك قد عرفت أن ما سوى الله تعالى من حيث هو هو مظلم ، وإنما كان مستنيراً من حيث استفاد النور من حضرة الله تعالى ، فمن اشتغل بالجسمانيات من حيث هي هي وصار ذلك الاشتغال حائلاً له عن الالتفات إلى جانب النور كان حجابه محض الظلمة ، ولما كانت أنواع الاشتغال بالعلائق البدنية خارجة عن الحد والحصر فكذا أنواع الحجب الظلمانية خارجة عن الحد والحصر .

القسم الثاني : المحجوبون بالحجب الممزوجة من النور والظلمة

اعلم أن من نظر إلى هذه المحسوسات فإما أن يعتقد فيها أنها غنية عن المؤثر ، أو يعتقد فيها أنها محتاجة ، فإن اعتقد أنها غنية فهذا حجاب ممزوج من نور وظلمة أما النور : فلأنه تصور ماهية الاستغناء عن الغير ، وذلك من صفات جلال الله تعالى وهو من صفات النور وأما الظلمة : فلأنه اعتقد حصول ذلك الوصف في هذه الأجسام مع أن ذلك الوصف لا يليق بهذا الوصف وهذا ظلمة ، فثبت أن هذا حجاب ممزوج من نور وظلمة ، ثم أصناف هذا القسم كثيرة ، فإن من الناس من يعتقد أن الممكن غني عن المؤثر ، ومنهم من يسلم ذلك لكنه يقول المؤثر فيها طبائعها أو حركاتها أو اجتماعها وافتراقها أو نسبتها إلى حركات الأفلاك أو إلى محركاتها وكل هؤلاء من هذا القسم .

القسم الثالث : الحجب النورانية المحضة

واعلم أنه لا سبيل إلى معرفة الحق سبحانه إلا بواسطة تلك الصفات السلبية والإضافية ولا نهاية لهذه الصفات ولمراتبها ، فالعبد لا يزال يكون مترقياً فيها فإن وصل إلى درجة وبقي فيها كان استغراقه في مشاهدة تلك الدرجة حجاباً له عن الترقي إلى ما فوقها ، ولما كان لا نهاية لهذه الدرجات كان العبد أبداً في السير والانتقال ، وأما حقيقته المخصوصة فهي محتجبة عن الكل فقد أشرنا إلى كيفية مراتب الحجب ، وأنت تعرف أنه عليه الصلاة والسلام إنما حصرها في سبعين ألفا تقريباً لا تحديداً فإنها لا نهاية لها في الحقيقة .

الفصل الثالث في شرح كيفية التمثيل

اعلم أنه لا بد في التشبيه من أمرين : المشبه والمشبه به ، واختلف الناس ههنا في أن المشبه أي شي هو ؟ وذكروا وجوهاً : أحدها : وهو قول جمهور المتكلمين ونصره القاضي أن المراد من الهدى التي هي الآيات البينات ، والمعنى أن هداية الله تعالى قد بلغت في الظهور والجلاء إلى أقصى الغايات وصارت في ذلك بمنزلة المشكاة التي تكون فيها زجاجة صافية .

(28/549)

وفي الزجاجة مصباح يتقد بزيت بلغ النهاية في الصفاء ، فإن قيل لم شبهه بذلك وقد علمنا أن ضوء الشمس أبلغ من ذلك بكثير ، قلنا إنه سبحانه أراد أن يصف الضوء الكامل الذي يلوح وسط الظلمة لأن الغالب على أوهام الخلق وخيالاتهم إنما هو الشبهات التي هي كالظلمات وهداية الله تعالى فيما بينها كالضوء الكامل الذي يظهر فيما بين الظلمات ، وهذا المقصود لا يحصل من ضوء الشمس لأن ضوءها إذا ظهر امتلأ العالم من النور الخالص ، وإذا غاب امتلأ العالم من الظلمة الخالصة فلا جرم كان ذلك المثل ههنا أليق وأوفق ، واعلم أن الأمور التي اعتبرها الله تعالى في هذا المثال مما توجب كمال الضوء فأولها :

المصباح لأن المصباح إذا لم يكن في المشكاة تفرقت أشعته ، أما إذا وضع في المشكاة اجتمعت أشعته فكانت أكثر إنارة ، والذي يحقق ذلك أن المصباح إذا كان في بيت صغير فإنه يظهر من ضوئه أكثر مما يظهر في البيت الكبير وثانيها : أن المصباح إذا كان في زجاجة صافية فإن الأشعة المنفصلة عن المصباح تنعكس من بعض جوانب الزجاجة إلى البعض لما في الزجاجة من الصفاء والشفافية وبسبب ذلك يزداد الضوء والنور ، والذي يحقق ذلك أن شعاع الشمس إذا وقع على الزجاجة الصافية تضاعف الضوء الظاهر حتى أنه يظهر فيما يقابله مثل ذلك الضوء ، فإن انعكست تلك الأشعة من كل واحد من جوانب الزجاجة إلى الجانب الآخر كثرت الأنوار والأضواء وبلغت النهاية الممكنة وثالثها : أن ضوء المصباح يختلف بحسب اختلاف ما يتقد به ، فإذا كان ذلك الدهن صافياً خالصاً كانت حالته بخلاف حالته إذا كان كدراً وليس في الأدهان التي توقد ما يظهر فيه من الصفاء مثل الذي يظهر في الزيت فربما يبلغ في الصفاء والرقة مبلغ الماء مع زيادة بياض فيه وشعاع يتردد في أجزائه ورابعها : أن هذا الزيت يختلف بحسب اختلاف شجرته ، فإذا كانت لا شرقية ولا غربية بمعنى أنها كانت بارزة للشمس في كل حالاتها يكون زيتونها أشد نضجاً ،

فكان زيته أكثر صفاء وأقرب إلى أن يتميز صفوه من كدره لأن زيادة الشمس تؤثر في ذلك ، فإذا اجتمعت هذه الأمور الأربعة وتعاونت صار ذلك الضوء خالصاً كاملاً فيصلح أن يجعل مثلاً لهداية الله تعالى وثانيها : أن المراد من النور في قوله : ﴿ والأرض مَثَلُ نُورِهِ ﴾ القرآن ويدل عليه قوله تعالى :

﴿ قَدْ جَاءكُمْ مِّنَ اللهِ نُورٌ ﴾ [المائدة : 15] وهو قول الحسن وسفيان بن عيينة وزيد بن أسلم وثالثها : أن المراد هو الرسول لأنه المرشد ، ولأنه تعالى قال في وصفه : ﴿ وَسِرَاجاً مُّنِيراً ﴾ [الأحزاب : 46] وهو قول عطاء ، وهذان القولان داخلان في القول الأول ، لأن من جملة أنواع الهداية إنزال الكتب وبعثة الرسل .

قال تعالى في صفة الكتب : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الكتاب وَلاَ الإيمان ﴾

(30/549)

[الشورى : 52] وقال في صفة الرسل : ﴿ رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرسل ﴾ [النساء : 165] ورابعها : أن المراد منه ما في قلب

المؤمنين من معرفة الله تعالى ومعرفة الشرائع ، ويدل عليه أن الله تعالى وصف الإيمان بأنه نور والكفر بأنه ظلمة ، فقال : ﴿ أَفَمَن شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ للإسلام فَهُوَ على نُورٍ مّن رَّبِّهِ ﴾ [الزمر : 22] وقال تعالى : ﴿ لِّيُخْرِجَ الناس مِنَ الظلمات إِلَى النور ﴾ وحاصله أنه حمل الهدى على الاهتداء ، والمقصود من التمثيل أن إيمان المؤمن قد بلغ في الصفاء عن الشبهات ، والامتياز عن ظلمات الضلالات مبلغ السراج المذكور ، وهو قول أبي ابن كعب وابن عباس ، قال أبي : مثل نور المؤمن ، وهكذا كان يقرأ ، وقيل إنه كان يقرأ : مثل نور من آمن به ، وقال ابن عباس : مثل نوره في قلب المؤمن وخامسها : ما ذكره الشيخ الغزالي رحمه الله وهو : أنا بينا أن القوى المدركة أنوار ، ومراتب القوى المدركة الإنسانية خمسة أحدها : القوة الحساسة ، وهي التي تتلقى ما تورده الحواس الخمس وكأنها أصل الروح الحيواني ، وأوله إذ به يصير الحيوان حيواناً وهو موجود للصبي الرضيع وثانيها : القوة الخيالية وهي التي تستثبت ما أورده الحواس وتحفظه مخزوناً عندها لتعرضه على القوة العقلية التي فوقها عند الحاجة إليه .

(31/549)

وثالثها : القوة العقلية المدركة للحقائق الكلية ورابعها : القوة الفكرية وهي التي تأخذ المعارف العقلية فتؤلفها تأليفاً فتستنتج من تأليفها علماً بمجهول وخامسها : القوة القدسية التي تختص بها الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وبعض الأولياء ، وتتجلى فيها لوائح الغيب وأسرار الملكوت وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الكتاب وَلاَ الإيمان ولكن جعلناه نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَن نَشَاء مِنْ عِبَادِنَا ﴾ [والشورى : 52] وإذا عرفت هذه القوى فهي بجملتها أنوار ، إذ بها تظهر أصناف الموجودات ، وأن هذه المراتب الخمسة يمكن تشبيهها بالأمور الحسنة التي ذكرها الله تعالى وهي : المشكاة والزجاجة والمصباح والشجرة والزيت .

(32/549)

أما الروح الحساس فإذا نظرت إلى خاصيته وجدت أنواره خارجة من عدة أثقب كالعينين والأذنين والمنخرين وأوفق مثال له من عالم الأجسام المشكاة وأما الثاني : وهو الروح الخيالي فنجد له خواص ثلاثة : الأولى : أنه من طينة العالم السفلي الكثيف لأن الشيء المتخيل ذو قدر وشكل وحيز ، ومن شأن العلائق الجسمانية أن تحجب عن الأنوار العقلية المحضة التي هي التعقلات الكلية المجردة والثانية : أن هذا الخيال الكثيف إذا صفا ورق

وهذب صار موازناً للمعاني العقلية ومؤدياً لأنوارها وغير حائل عن إشراق نورها ، ولذلك فإن المعبر يستدل بالصور الخيالية على المعاني العقلية ، كما يستدل بالشمس على الملك ، وبالقمر على الوزير ، وبمن يختم فروج الناس وأفواههم على أنه مؤذن يؤذن قبل الصبح والثالثة : أن الخيال في بداية الأمر محتاج إليه جداً ليضبط بها المعارف العقلية ولا تضطرب ، فنعم المثالات الخيالية الجالبة للمعارف العقلية ، وأنت لا تجد شيئاً في الأجسام يشبه الخيال في هذه الصفات الثلاثة إلا الزجاجة ، فإنها في الأصل من جوهر كثيف ولكن صفا ورق حتى صار لا يحجب نور المصباح بل يؤديه على وجهه ، ثم يحفظه على الانطفاء بالرياح العاصفة وأما الثالث : وهو القوة العقلية فهي القوية على إدراك الماهيات الكلية والمعارف الإلهية ، فلا يخفى عليك وجه تمثيله بالمصباح ، وقد عرفت هذا حيث بينا كون الأنبياء سرجاً منيرة وأما الرابع : وهو القوة الفكرية فمن خواصها أنها تأخذ ماهية واحدة ، ثم تقسمها إلى قسمين كقولنا الموجود إما واجب وإما ممكن ، ثم تجعل كل قسم مرة أخرى قسمين وهكذا إلى أن تكثر الشعب بالتقسيمات العقلية ، ثم تقضي بالآخرة إلى نتائج وهي ثمراتها ، ثم تعود فتجعل تلك الثمرات بذوراً لأمثالها حتى تتأدى إلى ثمرات لا نهاية لها ، فبالحري أن يكون مثاله من هذا العالم الشجرة ، وإذا كانت ثمارها مادة لتزايد أنوار المعارف ونباتها ، فبالحري أن لا يمثل بشجرة

السفرجل والتفاح ، بل بشجرة الزيتون خاصة ، لأن لب ثمرتها هو الزيت الذي هو مادة المصابيح ، وله من بين سائر الأدهان خاصية زيادة الإشراق وقلة الدخان ، وإذا كانت الماشية التي يكثر درها ونسلها والشجرة التي تكثر ثمرتها تسمى مباركة فالذي لا يتناهى إلى حد محدود أولى أن يسمى شجرة مباركة ، وإذا كانت شعب الأفكار العقلية المحضة مجردة عن لواحق الأجسام ، فبالحري أن تكون لا شرقية ولا غربية وأما الخامس : وهو القوة القدسية النبوية فهي في نهاية الشرف والصفاء ، فإن القوة الفكرية تنقسم إلى ما يحتاج إلى تعليم وتنبيه وإلى ما لا يحتاج إليه ، ولا بد من وجود هذا القسم قطعاً للتسلسل ، فبالحري أن يعبر عن هذا القسم بكماله وصفائه وشدة استعداده بأنه يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار ، فهذا المثال موافق لهذا القسم ، ولما كانت هذه الأنوار مرتبة بعضها على بعض فالحس هو الأول وهو كالمقدمة للخيال والخيال كالمقدمة للعقل ، فبالحري أن تكون المشكاة كالظرف للزجاجة التي هي كالظرف للمصباح وسادسها : ما ذكره أبو علي بن سينا فإنه نزل هذه الأمثلة الخمسة على مراتب إدراكات النفس الإنسانية ، فقال لا شك أن النفس الإنسانية قابلة للمعارف الكلية والإدراكات المجردة ، ثم إنها في أول الأمر تكون خالية عن جميع هذه المعارف فهناك تسمى عقلاً هيولياً وهي المشكاة وفي المرتبة الثانية : يحصل فيها العلوم البديهية التي يمكن التوصل بتركيباتها إلى اكتساب العلوم النظرية ، ثم إن

أمكنة الانتقال إن كانت ضعيفة فهي الشجرة ، وإن كانت أقوى من ذلك فهي الزيت ، وإن كانت شديدة القوة جداً فهي الزجاجة التي تكون كأنها الكوكب الدري ، وإن كانت في النهاية القصوى وهي النفس القدسية التي للأنبياء فهي التي يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار وفي المرتبة الثالثة : يكتسب من العلوم الفطرية الضرورية العلوم النظرية إلا أنها لا تكون حاضرة بالفعل ولكنها تكون بحيث متى شاء

(34/549)

صاحبها استحضارها قدر عليه وهذا يسمى عقلاً بالفعل وهذا المصباح وفي المرتبة الرابعة : أن تكون تلك المعارف الضرورية والنظرية حاصلة بالفعل ويكون صاحبها كأنه ينظر إليها وهذا يسمى عقلاً مستفاداً وهو نور على نور لأن الملكة نور وحصول ما عليه الملكة نور آخر ، ثم زعم أن هذه العلوم التي تحصل في الأرواح البشرية ، إنما تحصل من جوهر روحاني يسمى بالعقل الفعال وهو مدبر ما تحت كرة القمر وهو النار وسابعها : قول بعض الصوفية هو أنه سبحانه شبه الصدر بالمشكاة والقلب بالزجاجة والمعرفة بالمصباح ، وهذا المصباح إنما توقد من شجرة مباركة وهي إلهامات الملائكة لقوله تعالى :

(35/549)

﴿ يُنَزِّلُ الملائكة بالروح مِنْ أَمْرِهِ ﴾ [النحل : 2] وقوله : ﴿ نَزَلَ بِهِ الروح الأمين * على قَلْبِكَ ﴾ [الشعراء : 193 ، 194] وإنما شبه الملائكة بالشجرة المباركة لكثرة منافعهم ، وإنما وصفها بأنها لا شرقية ولا غربية لأنها روحانية وإنما وصفهم بقوله : ﴿ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ﴾ لكثرة علومها وشدة إطلاعها على أسرار ملكوت الله تعالى والظاهر ههنا أن المشبه غير المشبه به وثامنها : قال مقاتل مثل نوره أي مثل نور الإيمان في قلب محمد صلى الله عليه وسلم كمشكاة فيها مصباح ، فالمشكاة نظير صلب عبد الله والزجاجة نظير جسد محمد صلى الله عليه وسلم والمصباح نظير الإيمان في قلب محمد أو نظير النبوة في قلبه وتاسعها : قال قوم المشكاة نظير إبراهيم عليه السلام والزجاجة نظير إسماعيل عليه السلام والمصباح نظير جسد محمد صلى الله عليه وسلم والشجرة النبوة والرسالة وعاشرها : أن قوله مثل نوره يرجع إلى المؤمن وهو قول أبي بن كعب وكان يقرأها مثل نور المؤمن ، وهو قول سعيد بن جبير والضحاك ، واعلم أن القول الأول هو المختار لأنه تعالى ذكر قبل هذه الآية : ﴿ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ ءايات مبينات ﴾ فإذا كان المراد بقوله : ﴿ مَثَلُ نُورِهِ ﴾ أي مثل هداه وبيانه كان ذلك مطابقاً لما قبله ، ولأن لما فسرنا قوله : ﴿ اللهُ نُورُ السموات والأرض ﴾ بأنه هادي أهل السموات والأرض فإذا فسرنا قوله : ﴿ مَثَلُ نُورِهِ ﴾ بأن المراد مثل هداه كان ذلك مطابقاً لما قبله .

الفصل الرابع في بقية المباحث المتعلقة بهذه الآية

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

(36/549)

المشكاة الكوة في الجدار غير النافذة ، هذا هو القول المشهور ، وذكروا فيه وجوهاً أخر : أحدها : قال ابن عباس وأبو موسى الأشعري المشكاة القائم الذي في وسط القنديل الذي يدخل فيه الفتيلة ، وهو قول مجاهد والقرظي والثاني : قال الزجاج هي ههنا قصبة القنديل من الزجاجة التي توضع فيها الفتيلة الثالث : قال الضحاك إنها الحلقة التي يعلق بها القنديل والأول هو الأصح .

المسألة الثانية :

زعموا أن المشكاة هي الكوة بلغة الحبشة ، قال الزجاج المشكاة من كلام العرب ومثلها المشكاة وهي الدقيق الصغير .

المسألة الثالثة :

قال بعضهم هذه الآية من المقلوب ، والتقدير مثل نوره كمصباح في مشكاة لأن المشبه به هو

الذي يكون معدناً للنور ومنبعاً له وذلك هو المصباح لا المشكاة .

المسألة الرابعة :

المصباح السراج وأصله من الضوء ومنه الصبح .

المسألة الخامسة :

(37/549)

قرىء ﴿ زُجَاجَةٍ ﴾ الزجاجة بالضم والفتح والكسر ، أما ﴿ دُرِّيٌّ ﴾ فقرىء بضم الدال وكسرها وفتحها ، أما الضم ففيه ثلاثة أوجه : الأول : ضم الدال وتشديد الراء والياء من غير همز وهو القراءة المعروفة ، ومعناه أنه يشبه الدر لصفائه ولمعانه ، وقال عليه الصلاة والسلام : " إنكم لترون أهل الدرجات العلى كما ترون الكوكب الدري في أفق السماء " الثاني : أنه كذلك إلا أنه بالمد والهمزة وهو قراءة حمزة وعاصم في رواية أبي بكر وصار بعض أهل العربية إلى أنه لحن قال سيبويه وهذا أضعف اللغات وهو مأخوذ من الضوء والتلألؤ وليس بمنسوب إلى الدر ، قال أبو علي وجه هذه القراءة أنه فعيل من الدرء بمعنى الدفع وأنه صفة وأنه في الصفة مثل المرىء في الاسم والثالث : ضم الدال وتخفيف الراء والياء من غير مد ولا همز ، أما الكسر ففيه وجهان : الأول : درىء بكسر الدال وتشديد

الراء والمد والهمز ، وهي قراءة أبي عمرو والكسائي قال الفراء هو فعيل من الدرء وهو الدفع كالسكير والفسيق فكان ضوأه يدفع بعضه بعضاً من لمعانه الثاني : بكسر الدال وتشديد الراء من غير همز ولا مد وهي قراءة ابن خليد وعتبة بن حماد عن نافع ، أما الفتح ففيه وجوه أربعة : الأول : بفتح الدال وتشديد الراء والمد والهمز عن الأعمش الثاني : بفتح الدال وتشديد الراء من غير مد ولا همز عن الحسن ومجاهد وقتادة الثالث : بفتح الدال وتخفيف الراء مهموزاً من غير مد ولا ياء عن عاصم الرابع : كذلك إلا أنه غير مهموز وبياء خفيفة بدل الهمزة ، أما قوله : ﴿ توقد ﴾ القراءة المعروفة توقد بالفتحات الأربعة مع تشديد القاف بوزن تفعل وعن الحسن ومجاهد وقتادة كذلك إلا أنه يضم الدال ، وذكر صاحب "الكشاف" يوقد بفتح الياء المنقوطة من تحت بنقطتين والواو والقاف وتشديدها ورفع الدال قال وحذف التاء لاجتماع حرفين زائدين وهو غريب ، وعن سعيد بن جبير بياء مضمومة وإسكان الواو وفتح القاف مخففة ورفع الدال وعن نافع وحفص

(38/549)

كذلك إلا أنه بالتاء ، وعن عاصم بياء مضمومة وفتح الواو وتشديد القاف وفتحها ، وعن أبي عمرو كذلك إلا أنه بالتاء ، وعن طلحة توقد بتاء مضمومة وواو ساكن وكسر القاف

وتخفيفها .

المسألة السادسة :

قوله : ﴿ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ ﴾ أي ضخم مضيء ودراري النجوم عظامها ، واتفقوا على أن المراد به كوكب من الكواكب المضيئة كالزهرة والمشتري والثوابت التي في العظم الأول .

المسألة السابعة :

قوله : ﴿ مِن شَجَرَةٍ مباركة ﴾ أي من زيت شجرة مباركة أي كثيرة البركة والنفع ، وقيل هي أول شجرة نبتت بعد الطوفان وقد بارك فيها سبعون نبياً ، منهم الخليل ، وقيل المراد زيتون الشام ، لأنها هي الأرض المباركة فلهذا جعل الله هذه شجرة مباركة .

المسألة الثامنة :

اختلفوا في معنى وصف الشجرة بأنها لا شرقية ولا غربية على وجوه : أحدها : قال الحسن إنها شجرة الزيت من الجنة إذ لو كانت من شجر الدنيا لكانت إما شرقية أو غربية وهذا ضعيف لأنه تعالى إنما ضرب المثل بما شاهدوه وهم ما شاهدوا شجرة الجنة وثانيها : أن المراد شجرة الزيتون في الشام لأن الشام وسط الدنيا فلا يوصف شجرها بأنها شرقية

أو غربية وهذا أيضاً ضعيف لأن من قال الأرض كرة لم يثبت المشرق والمغرب موضعين معينين بل لكل بلد مشرق ومغرب على حدة ، ولأن المثل مضروب لكل من يعرف الزيت ، وقد يوجد في غير الشام كوجوده فيها وثالثها : أنها شجرة تلتف بها الأشجار فلا تصيبها الشمس في شرق ولا غرب ، ومنهم من قال هي شجرة يلتف بها ورقها التفافاً شديداً فلا تصل الشمس إليها سواء كانت الشمس شرقية أو غربية ، وليس في الشجر ما يورق غصنه من أوله إلى آخره مثل الزيتون والرمان ، وهذا أيضاً ضعيف لأن الغرض صفاء الزيت وذلك لا يحصل إلا بكمال نضج الزيتون وذلك إنما يحصل في العادة بوصول أثر الشمس إليه لا بعدم وصوله ورابعها : قال ابن عباس المراد الشجرة التي تبرز على جبل عال أو صحراء واسعة فتطلع الشمس عليها حالتي الطلوع والغروب ، وهذا قول ابن عباس وسعيد بن جبير وقتادة واختيار الفراء والزجاج ، قالا ومعناه لا شرقية وحدها ولا غربية وحدها ولكنها شرقية وغربية وهو كما يقال فلان لا مسافر ولا مقيم إذا كان يسافر ويقيم ، وهذا القول هو المختار لأن الشجرة متى كانت كذلك كان زيتها في نهاية الصفاء وحينئذ يكون مقصود التمثيل أكمل وأتم وخامسها : المشكاة صدر محمد صلى الله عليه وسلم والزجاجة قلبه والمصباح ما في قلبه صلى الله عليه وسلم من الدين ، توقد من شجرة مباركة ، يعني واتبعوا ملة أبيكم إبراهيم صلوات الله عليه فالشجرة هي إبراهيم

عليه السلام ، ثم وصف إبراهيم فقال لا شرقية ولا غربية أي لم يكن يصلي قبل المشرق ولا قبل المغرب كاليهود والنصارى بل

(40/549)

كان عليه الصلاة والسلام يصلي إلى الكعبة .

المسألة التاسعة :

وصف الله تعالى زيتها بأنه يكاد يضيء ولو لم تمسسه نار لأن الزيت إذا كان خالصاً صافياً ثم رؤي من بعيد يرى كأن له شعاعاً ، فإذا مسه النار ازداد ضوءً على ضوء ، كذلك يكاد قلب المؤمن يعمل بالهدى قبل أن يأتيه العلم ، فإذا جاءه العلم ازداد نوراً على نور وهدى على هدى ، قال يحيى بن سلام قلب المؤمن يعرف الحق قبل أن يبين له لموافقته له ، وهو المراد من قوله عليه الصلاة والسلام :

" اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله " وقال كعب الأحبار المراد من الزيت نور محمد صلى الله عليه وسلم أي يكاد نوره يبين للناس قبل أن يتكلم ، وقال الضحاك يكاد محمد صلى الله عليه وسلم يتكلم بالحكمة قبل الوحي ، وقال عبد الله بن رواحة :

لو لم تكن فيه آيات مبينة . . كانت بديهته تنبيك بالخبر

المسألة العاشرة :

قوله تعالى : ﴿ نُورٌ على نُورٍ ﴾ المراد ترادف هذه الأنوار واجتماعها ، قال أبي بن كعب : المؤمن بين أربع خلال إن أعطي شكر وإن ابتلي صبر وإن قال صدق وإن حكم عدل ، فهو في سائر الناس كالرجل الحي الذي يمشي بين الأموات يتقلب في خمس من النور ، كلامه نور وعمله نور ومدخله نور ومخرجه نور ومصيره إلى النور يوم القيامة ، قال الربيع سألت أبا العالية عن مدخله ومخرجه فقال سره وعلانيته .

المسألة الحادية عشرة :

(41/549)

قال الجبائي دلت الآية على أن كل من جهل فمن قبله أتى وإلا فالأدلة واضحة ولو نظروا فيها لعرفوا ، قال أصحابنا هذه الآية صريح مذهبنا فإنه سبحانه بعد أن بين أن هذه الدلائل بلغت في الظهور والوضوح إلى هذا الحد الذي لا يمكن الزيادة عليه ، قال : ﴿ يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ ﴾ يعني وضوح هذه الدلائل لا يكفي ولا ينفع ما لم يخلق الله الإيمان ولا يمكن أن يكون المراد من قوله : ﴿ يَهْدِي الله ﴾ إيضاح الأدلة والبيانات لأنا لو حملنا النور على إيضاح الأدلة لم يجز حمل الهدى عليه أيضاً ، وإلا لخرج الكلام عن الفائدة ، فلم يبق إلا

حمل الهدى ههنا على خلق العلم أجاب أبو مسلم بن بحر عنه من وجهين : الأول : أن قوله : ﴿ يَهْدِي اللهِ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ ﴾ محمول على زيادات الهدى الذي هو كالضد للخذلان الحاصل للضال الثاني : أنه سبحانه يهدي لنوره الذي هو طريق الجنة من يشاء وشبهه بقوله : ﴿ يسعى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وبأيمانهم بُشْرَاكُمُ اليوم جنات ﴾ [الحديد : 12] وزيف القاضي عبد الجبار هذين الجوابين أما الأول : فلأن الكلام المتقدم هو في ذكر الآيات المنزلة فإذا حلمناه على الهدى دخل الكل فيه وإذا حملناه على الزيادة لم يدخل فيه إلا البعض ، وإذا حمل على طريق الجنة لا يكون داخلاً فيه أصلاً إلا من حيث المعنى لا من حيث اللفظ ولما زيف هذين الجوابين ، قال الأولى أن يقال إنه تعالى هدى بذلك البعض دون البعض وهم الذين بلغهم حد التكليف .

واعلم أن هذا الجواب أضعف من الجوابين الأولين ، لأن قوله : ﴿ يَهْدِي اللهِ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ ﴾ يفهم منه أن هذه الآيات مع وضوحها لا تكفي ، وهذا لا يتناول الصبي والمجنون فسقط ما قالوه .

المسألة الثانية عشرة :

قوله تعالى : ﴿ وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ ﴾ والمراد للمكلفين من الناس وهو النبي ومن بعث إليه ، فإنه سبحانه ذكر ذلك في معرض النعمة العظيمة ، واستدلت المعتزلة به فقالوا إنما يكون ذلك نعمة عظيمة لو أمكنهم الانتفاع به ، ولو كان الكل بخلق الله تعالى لما تمكنوا من الانتفاع به ، وجوابه ما تقدم ، ثم بين أنه سبحانه ﴿ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ وذلك كالوعيد لمن لا يعتبر ولا يتفكر في أمثاله ولا ينظر في أدلته فيعرف وضوحها وبعدها عن الشبهات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 23 صـ 194 . 208 ﴾

(43/549)

وقال الجصاص :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ .

رُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي إحْدَى الرِّوَايَتَيْنِ وَعَنْ أَنَسٍ : (هَادِي أَهْلِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) ، وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَيْضًا وَأَبِي الْعَالِيَةِ وَالْحَسَنِ : (مُنَوِّرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِنُجُومِهَا وَشَمْسِهَا وَقَمَرِهَا) .

وقَوْله تَعَالَى : ﴿ مَثَلُ نُورِهِ ﴾ قَالَ أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ وَالضَّحَّاكُ : (الضَّمِيرُ عَائِدٌ عَلَى الْمُؤْمِنِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ نُورِهِ ﴾ بِمَعْنَى : مَثَلُ النُّورِ الَّذِي فِي قَلْبِهِ بِهِدَايَةِ اللَّهِ تَعَالَى) .

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : (عَائِدٌ عَلَى اسْمِ اللَّهِ ، بِمَعْنَى : مَثَلُ نُورِ اللَّهِ الَّذِي هَدَى بِهِ الْمُؤْمِنَ) ؛

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَيْضًا : (مَثَلُ نُورِهِ وَهُوَ طَاعَتُهُ) .

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَابْنُ جُرَيْجٍ : (الْمِشْكَاةُ الْكُوَّةُ الَّتِي لَا مَنْفَذَ لَهَا) ، وَقِيلَ : إنَّ الْمِشْكَاةَ عَمُودُ الْقِنْدِيلِ الَّذِي فِيهِ الْفَتِيلَةُ وَهُوَ مِثْلُ الْكُوَّةِ .

وَعَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ قَالَ : (هُوَ مَثَلٌ ضَرَبَهُ اللَّهُ تَعَالَى لِقَلْبِ الْمُؤْمِنِ ، فَالْمِشْكَاةُ صَدْرُهُ وَالْمِصْبَاحُ الْقُرْآنُ وَالزُّجَاجَةُ قَلْبُهُ) قَالَ : (فَهُوَ بَيْنَ أَرْبَعِ خِلَالٍ إنْ أُعْطِيَ شَكَرَ وَإِنْ ابْتُلِيَ صَبَرَ وَإِنْ حَكَمَ عَدَلَ وَإِنْ قَالَ صَدَقَ) .

وَقَالَ : ﴿ نُورٌ عَلَى نُورٍ ﴾ (فَهُوَ يَنْقَلِبُ عَلَى خَمْسَةِ أَنْوَارٍ : فَكَلَامُهُ نُورٌ وَعَمَلُهُ نُورٌ وَمَدْخَلُهُ نُورٌ وَمَخْرَجُهُ نُورٌ وَمَصِيرُهُ إلَى النُّورِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إلَى الْجَنَّةِ) .

(44/549)

وَقِيلَ : ﴿ نُورٌ عَلَى نُورٍ ﴾ أَيْ نُورُ الْهُدَى إلَى تَوْحِيدِهِ عَلَى نُورِ الْهُدَى بِالْقُرْآنِ الَّذِي أَتَى بِهِ مِنْ عِنْدِهِ .

وَقَالَ زَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ ﴿ نُورٌ عَلَى نُورٍ ﴾ (يُضِيءُ بَعْضُهُ بَعْضًا) . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ .

هَذِهِ آيَةٌ عَظِيمَةٌ قَدْ بَيَّنَّاهَا فِي كِتَابِ الْمُشْكِلَيْنِ ، وَفِي قَانُونِ التَّأْوِيلِ ، وَأَوْضَحْنَا الْمُرَادَ مِنْهَا عَلَى أَقْوَالِ الْعُلَمَاءِ ؛ وَهَذَا الْحَرْفُ مِنْهَا ذَكَرَهُ بَعْضُ الْأَحْكَامِيِّينَ ، فَرَأَيْنَا أَلَّا نُخْلِيَ هَذَا الْمُخْتَصَرَ مِنْهُ .

وَاخْتُلِفَ فِي هَذِهِ الشَّجَرَةِ عَلَى سِتَّةِ أَقْوَالٍ : الْأَوَّلُ : أَنَّهَا لَيْسَتْ مِنْ شَجَرِ الشَّرْقِ دُونَ الْغَرْبِ ، وَلَا مِنْ شَجَرِ الْغَرْبِ دُونَ الشَّرْقِ ؛ لِأَنَّ الَّذِي يَخْتَصُّ بِإِحْدَى الْجِهَتَيْنِ كَانَ أَدْنَى زَيْتًا ، وَأَضْعَفَ ضَوْءًا .

وَلَكِنَّهَا مَا بَيْنَ الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ ، كَالشَّامِ ؛ لِاجْتِمَاعِ الْأَمْرَيْنِ فِيهِ ؛ وَهُوَ قَوْلُ مَالِكٍ .

وَفِي رِوَايَةِ ابْنِ وَهْبٍ عَنْهُ قَالَ : هُوَ الشَّامُ ، الشَّرْقُ مِنْ هَاهُنَا وَالْغَرْبُ مِنْ هَاهُنَا ، وَرَأَيْتُهُ لِابْنِ شَجَرَةَ أَحَدِ حُذَّاقِ الْمُفَسِّرِينَ .

الثَّانِي : أَنَّهَا لَيْسَتْ بِشَرْقِيَّةٍ تُسْتَرُ عَنْ الشَّمْسِ عِنْدَ الْغُرُوبِ ، وَلَا بِغَرْبِيَّةٍ تُسْتَرُ عَنْ الشَّمْسِ وَقْتَ الطُّلُوعِ ؛ بَلْ هِيَ بَارِزَةٌ ؛ وَذَلِكَ أَحْسَنُ لِزَيْتِهَا أَيْضًا ؛ قَالَهُ قَتَادَةُ .

الثَّالِثُ : أَنَّهَا وَسَطُ الشَّجَرِ ، لَا تَنَالُهَا الشَّمْسُ إِذَا طَلَعَتْ وَلَا إِذَا غَرَبَتْ ، وَذَلِكَ أَجْوَدُ لِزَيْتِهَا : قَالَهُ عَطِيَّةُ .

الرَّابِعُ : أَنَّهَا لَيْسَ فِي شَجَرِ الشَّرْقِ وَلَا فِي شَجَرِ الْغَرْبِ مِثْلُهَا قَالَهُ يَحْيَى بْنُ سَلَّامٍ .

الْخَامِسُ : أَنَّهَا مِنْ شَجَرِ الْجَنَّةِ لَا مِنْ الدُّنْيَا قَالَهُ الْحَسَنُ .

السَّادِسُ : أَنَّهَا مُؤْمِنَةٌ ، لَيْسَتْ بِنَصْرَانِيَّةٍ تُصَلِّي إِلَى

(46/549)

الشَّرْقِ ، وَلَا يَهُودِيَّةٍ تُصَلِّي إِلَى الْغَرْبِ ، وَهُوَ قَوْلُ ابْنِ عُمَرَ .

(47/549)

قَالَ الْفَقِيهُ الْقَاضِي أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : لَا خِلَافَ بَيْنَ الْمُحَقِّقِينَ الَّذِينَ يُنْزِلُونَ التَّفْسِيرَ مَنَازِلَهُ ، وَيَضَعُونَ التَّأْوِيلَ مَوَاضِعَهُ مِنْ غَيْرِ إفْرَاطٍ وَلَا تَفْرِيطٍ ، أَنَّ هَذَا مَثَلٌ ضَرَبَهُ اللَّهُ لِنُورِهِ ، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَضْرِبَ لِنُورِهِ الْمُعَظَّمَ مَثَلًا تَنْبِيهًا لِخَلْقِهِ إلَّا بِبَعْضِ خَلْقِهِ ؛ لِأَنَّ الْخَلْقَ بِقُصُورِهِمْ لَا يَفْهَمُونَ إلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ ، وَلَوْلَا ذَلِكَ مَا عَرَفَ اللَّهَ إلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ ، وَأَنْوَرُ الْمَصَابِيحِ

فِي الدُّنْيَا مِصْبَاحٌ يُوقَدُ مِنْ دُهْنِ الزَّيْتُونِ ، وَلَا سِيَّمَا إذَا كَانَتْ مُفْرَدَةً قَدْ تَبَاعَدَ عَنْهَا الشَّجَرُ فَخَلَصَتْ مِنْ الْكُلِّ ، وَأَخَذَتْهَا الشَّمْسُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ، فَذَلِكَ أَصْفَى لِنُورِهَا ، وَأَطْيَبُ لِزَيْتِهَا ، وَأَنْضَرُ لِأَغْصَانِهَا ، وَذَلِكَ مَعْنَى بَرَكَةِ هَذِهِ الشَّجَرَةِ الَّتِي فَهِمَهَا النَّاسُ حَتَّى اسْتَعْمَلُوهَا فِي أَشْعَارِهِمْ ، فَقَالُوا : بُورِكَ الْمَيْتُ الْغَرِيبُ كَمَا بُورِكَ نَضْرُ الرُّمَّانِ وَالزَّيْتُونِ وَقَدْ رَأَيْت فِي الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى زَيْتُونَةً كَانَتْ بَيْنَ مِحْرَابِ زَكَرِيَّا وَبَيْنَ بَابِ التَّوْبَةِ وَالرَّحْمَةِ الَّذِي يَقُولُونَ : إنَّهُ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ : بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ يَعْنِي الْمَسْجِدَ الْأَقْصَى ، وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ بِشَرْقِيِّهِ دُونَ السُّورِ ، وَادِي جَهَنَّمَ ، وَفَوْقَهُ أَرْضُ الْمَحْشَرِ الَّتِي تُسَمَّى بِالسَّاهِرَةِ ، فَكَانُوا يَقُولُونَ : إنَّهَا الشَّجَرَةُ الْمَذْكُورَةُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ .

وَرَبُّك أَعْلَمُ .

(48/549)

وَمِنْ غَرِيبِ الْأَثَرِ أَنَّ بَعْضَ عُلَمَائِنَا الْفُقَهَاءِ قَالَ : إنَّ هَذَا مَثَلٌ ضَرَبَهُ اللَّهُ لِإِبْرَاهِيمَ ، وَمُحَمَّدٍ ، وَلِعَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، وَابْنِهِ عَبْدُ اللَّهِ ، فَالْمِشْكَاةُ هِيَ الْكُوَّةُ بِلُغَةِ الْحَبَشَةِ ، فَشَبَّهَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ بِالْكُوَّةِ فِيهَا الْقِنْدِيلُ ، وَهُوَ الزُّجَاجَةُ ، وَشَبَّهَ عَبْدُ اللَّهِ بِالْقِنْدِيلِ وَهُوَ الزُّجَاجَةُ ، وَمُحَمَّدٌ كَالْمِصْبَاحِ يَعْنِي مِنْ أَصْلَابِهِمَا ، وَكَأَنَّهُ كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ وَهُوَ

الْمُشْتَرَى ، يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ يَعْنِي إرْثَ النُّبُوَّةِ ، مِنْ إبْرَاهِيمَ ، وَهُوَ الشَّجَرُ الْمُبَارَكَةُ ، يَعْنِي حَنِيفَةً لَا شَرْقِيَّةً وَلَا غَرْبِيَّةً ، لَا يَهُودِيَّةً وَلَا نَصْرَانِيَّةً ، يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ ، وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ .

يَقُولُ : يَكَادُ إبْرَاهِيمُ يَتَكَلَّمُ بِالْوَحْيِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُوحَى إلَيْهِ ، نُورٌ عَلَى نُورٍ إبْرَاهِيمُ ثُمَّ مُحَمَّدٌ .

قَالَ الْفَقِيهُ الْقَاضِي أَبُو بَكْرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ : وَهَذَا كُلُّهُ عُدُولٌ عَنْ الظَّاهِرِ ، وَلَيْسَ يَمْتَنِعُ فِي التَّمْثِيلِ أَنْ يَتَوَسَّعَ الْمَرْءُ فِيهِ ، وَلَكِنْ عَلَى الطَّرِيقَةِ الَّتِي شَرَّعْنَاهَا فِي قَانُونِ التَّأْوِيلِ لَا عَلَى الِاسْتِرْسَالِ الْمُطْلَقِ الَّذِي يُخْرِجُ الْأَمْرَ عَنْ بَابِهِ ، وَيَحْمِلُ عَلَى اللَّفْظِ مَا لَا يُطِيقُهُ ، فَمَنْ أَرَادَ الْخِبْرَةَ بِهِ وَالشِّفَاءَ مِنْ دَائِهِ فَلْيَنْظُرْ هُنَالِكَ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 3 صـ ﴾

(49/549)

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

فيه أربعة أقاويل

: أحدها : معناه الله هادي السموات والأرض ، قاله ابن عباس ، وأنس .

الثاني : الله مدبر السموات والأرض ، قاله مجاهد .

الثالث : الله ضياء السموات والأرض ، قاله أُبي .

الرابع : منور السموات والأرض .

فعلى هذا فبما نورهما به ثلاثة أقاويل :

أحدها : الله نور السموات بالملائكة ونور الأرض بالأنبياء .

الثاني : أنه نور السموات بالهيبة ونور الأرض بالقدرة .

الثالث : نورهما بشمسها وقمرها ونجومها ، قاله الحسن ، وأبو العالية .

﴿ مَثَلُ نُورِهِ ﴾ فيه أربعة أقاويل

: أحدها : مثل نور الله ، قاله ابن عباس .

الثاني : مثل نور محمد صلى الله عليه وسلم ، قاله ابن شجرة .

الثالث : مثل نور المؤمن ، قاله أُبي .

الرابع : مثل نور القرآن ، قاله سفيان .

فمن قال : مثل نور المؤمن ، يعني في قلب نفسه ، ومن قال : مثل نور محمد ، يعني في قلب المؤمن ، ومن قال : نور القرآن ، يعني في قلب محمد .

ومن قال : نور الله ، فيه قولان :

أحدهما : في قلب محمد .

الثاني : في قلب المؤمن .

﴿ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾ فيه خمسة أقاويل

: أحدها : أن المشكاة كوة لا منفذ لها والمصباح السراج ، قاله كعب الأحبار .

الثاني : المشكاة القنديل والمصباح الفتيلة ، قاله مجاهد .

الثالث : المشكاة موضع الفتيلة من القنديل الذي هو كالأُنبوب ، والمصباح الضوء قاله ابن عباس .

الرابع : المشكاة الحديد الذي به القنديل وهي التي تسمى السلسلة والمصباح هو القنديل ، وهذا مروي عن مجاهد أيضاً .

الخامس : أن المشكاة صدر المؤمن والمصباح القرآن الذي فيه والزجاجة قلبه ، قاله أُبَي ، قال الكلبي : والمشكاة لفظ حبشي معرب .

﴿ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ﴾ فيه قولان

: أحدهما : يعني أن نار المصباح في زجاجة القنديل لأنه فيها أضوأ ، وهو قول الأكثرين .

(50/549)

الثاني : أن المصباح القرآن والإِيمان ، والزجاجة قلب المؤمن ، قاله أُبَي .

﴿ كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ ﴾ أما الكوكب ففيه قولان

: أحدهما : أنه الزهرة خاصة ، قاله الضحاك .

الثاني : أنه أحد الكواكب المضيئة من غير تعيين ، وهو قول الأكثرين .

وأما درّي ففيه أربع قراءات .

إحداها : دُرِيّ بضم الدال وترك الهمز وهي قراءة نافع وتأويلها أنه مضيء يشبه الدر لضيائه ونقائه .

الثانية : بالضم والهمز وهي قراءة عاصم في رواية أبي بكر وتأويلها أنه مضيء .

الثالثة : بكسر الدال وبالهمز وهي قراءة أبي عمرو والكسائي وتأويلها أنه متدافع لأنه بالتدافع يصير منقضاً فيكون أقوى لضوئه مأخوذ من درأ أي دفع يدفع .

الرابعة : بالكسر وترك الهمز وهي قراءة المفضل بن عاصم ، وتأويلها أنه جار كالنجوم الدراري الجارية من درّ الوادي إذا جرى .

﴿ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ ﴾ فيه قولان

: أحدهما : يعني بالشجرة المباركة إبراهيم والزجاجة التي كأنها كوكب دري محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو مروي عن ابن عمر .

الثاني : أنه صفة لضياء المصباح الذي ضربه الله مثلاً يعني أن المصباح يشعل من دهن

شجرة زيتونة .

﴿ مُّبَارَكَةٍ ﴾ في جعلها مباركة وجهان

: أحدهما : لأن الله بارك في زيتون الشام فهو أبرك من غيره .

الثاني : لأن الزيتون يورق غصنه من أوله إلى آخره وليس له في الشجر مثيل إلا الرمان .

قال الشاعر :

بُورِكَ الْمَيْتُ الغَرِيبُ كَمَا بُو . . . رِكَ نَضْرُ الرُّمَّانِ والزَّيْتُونِ

﴿ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ ﴾ فيه سبعة أقاويل

: أحدها : أنها ليست من شجرة الشرق دون الغرب ولا من شجرة الغرب دون الشرق لأن ما اختص بأحد الجهتين أقل زيتاً وأضعف ، ولكنها شجر ما بين الشرق والغرب كالشام لاجتماع القوتين فيه ، وهو قول ابن شجرة وحكي عن عكرمة .

(51/549)

ومنه قولهم : لا خير في المتقاة والمضحاة ، فالمتقاة أسفل الوادي الذي لا تصيبه الشمس ، والمضحاة رأس الجبل الذي لا تزول عنه الشمس .

الثاني : أنها ليست بشرقية تستر عن الشمس في وقت الغروب ولا بغربية تستر عن

الشمس وقت الطلوع بل هي بارزة للشمس من وقت الطلوع إلى وقت الغروب فيكون زيتها أقوى وأضوأ ، قاله قتادة .

الثالث : أنها وسط الشجرة لا تنالها الشمس إذا طلعت ولا إذا غربت وذلك أضوأ لزيتها ، قاله عطية .

الرابع : أنها ليس في شجر الشرق ولا في شجر الغرب مثلها ، حكاه يحيى ابن سلام .

الخامس : أنها ليست من شجر الدنيا التي تكون شرقية أو غربية ، وإنما هي من شجر الجنة ، قاله الحسن .

السادس : أنها مؤمنة لا شرقية ولا غربية ، أي ليست بنصرانية تصلي إلى الشرق ، ولا غربية أي ليست بيهودية تصلي إلى الغرب ، قاله ابن عمر .

السابع : أن الإيمان ليس بشديد ولا لين لأن في أهل الشرق شدة ، وفي أهل الغرب لينٌ .

﴿ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ﴾ فيه أربعة أقاويل

: أحدها : أن صفاء زيتها كضوء النار وإن لم تمسسه نار ، ذكره ابن عيسى .

الثاني : أن قلب المؤمن يكاد أن يعرف قبل أن يتبين له لموافقته له ، قاله يحيى بن سلام .

الثالث : يكاد العلم يفيض من فم العالم المؤمن من قبل أن يتكلم به .

الرابع : تكاد أعلام النبوة تشهد لرسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يدعو إليها .

﴿ نُورٌ عَلَى نُورٍ ﴾ فيه ستة أقاويل

: أحدها : يعني ضوء النار على ضوء الزيت على ضوء الزجاجة ، قاله مجاهد .

الثاني : نور النبوة على نور الحكمة ، قاله الضحاك .

الثالث : نور الزجاجة على نور الخوف .

الرابع : نور الإِيمان على نور العمل .

الخامس : نور المؤمن فهو حجة الله ، يتلوه مؤمن فهو حجة الله حتى لا تخلو الأرض منهم .

السادس : نور نبي من نسل نبي ، قاله السدي .

﴿ يَهْدِي لِنُورِهِ مَن يَشَآءُ ﴾ فيه ثلاثة أقاويل

(52/549)

: أحدها : يهدي الله لدينه من يشاء من أوليائه ، قاله السدي .

الثاني : يهدي الله لدلائل هدايته من يشاء من أهل طاعته .

الثالث : يهدي الله لنبوته من يشاء من عباده .

﴿ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ ﴾ الآية . وفيما ضربت هذه الآية مثلاً فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنها مثل ضربه الله للمؤمن في وضوح الحق له .

الثاني : أنها مثل ضربه الله لطاعته فسمى الطاعة نوراً لتجاوزها عن محلها .

الثالث : ما حكاه ابن عباس أن اليهود قالوا : يا محمد كيف يخلص نور الله من دون السماء فضرب الله ذلك مثلاً لنوره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

(53/549)

وقال ابن عطية :

﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

" النور " في كلام العرب الأضواء المدركة بالبصر ويستعمل فيما صح من المعاني ولاح فيقال منه كلام له نور ومنه الكتاب المنير ومنه قول الشاعر : [الكامل]

نسب كأن عليه من شمس الضحى . . . نوراً ومن فلق الصباح عمودا

(54/549)

والله تعالى ليس كمثله شيء فبين أنه ليس كالأضواء المدركة ولم يبق للآية معنى إلا أنه أراد ﴿ الله ﴾ ذو ﴿ نور السماوات والأرض ﴾ أي بقدرته أنارت أضواؤها واستقامت أمورها وقامت مصنوعاتها ، فالكلام على التقريب للذهن ، كما تقول الملك نور الأمة أي به

قوام أمورها وصلاح جملتها ، والأمر في الملك مجاز وهو في صفة الله تعالى حقيقة محضة ، إذ هو الذي أبدع الموجودات وخلق العقل نوراً هادياً لأن ظهور الوجود به حصل كما حصل بالضوء ظهور المبصرات تبارك الله لا رب سواه ، وقالت فرقة التقدير دين الله ﴿ نور السماوات والأرض ﴾ ، قال ابن عباس هادي أهل السماوات والأرض والأول أعم للمعاني وأوضح مع التأمل ، وقرأ عبد الله بن عياش بن أبي ربيعة وأبو عبد الرحمن السلمي الله " نَوّرَ " بفتح النون والواو المشددة وفتح الراء على أنه فعل ، وروي أن اليهود لما نزلت هذه الآية جسموا في تأويلها واعترضوا محمداً عليه السلام بأن قالوا كيف هو نور الأرض والسماء بيننا وبينه ، فنزلت حينئذ ﴿ مثل نوره كمشكاة ﴾ الآية أي ليس الأمر كما ظننتم وإنما هو نور بأنه قوام كل شيء وخالقه وموجده ﴿ مثل نوره ﴾ كذا وكذا ، واختلف المتأولون في الضمير في ﴿ نوره ﴾ على من يعود ، فقال كعب الأحبار وابن جبير هو عائد على محمد عليه السلام أي مثل نور محمد ، وقال أبي بن كعب وابن جبير والضحاك هو عائد على المؤمنين ، وفي قراءة أبي بن كعب " مثل نور المؤمنين " ، وروي أن في قراءته " نور المؤمن " ، وروي أن فيها " مثل نور من آمن به " ، وقال الحسن هو عائد على القرآن والإيمان ، قال مكي بن أبي طالب وعلى هذه الأقوال يوقف على قوله ﴿ والأرض ﴾ .

قال القاضي أبو محمد : وهذه أقوال فيها عود الضمير على من لم يجر له ذكر ، وفيها تقطع المعنى المراد بالآية ، وقالت فرقة الضمير في ﴿ نوره ﴾ عائد على ﴿ الله ﴾ ، ثم اختلفت هذه الفرقة في المراد ب " النور " الذي أضيف إلى الله تعالى إضافة خلق إلى خالق كما تقول سماء الله وناقة الله ، فقال بعضها هو محمد ، وقال بعضها هو المؤمن ، وقال بعضها هو الإيمان والقرآن ، وهذه الأقوال متجهة مطرد معها المعنى فكأن اليهود لما تأولوا ﴿ الله نور السماوات والأرض ﴾ بمعنى الضوء ، قيل لهم ليس كذلك وإنما هو نور فإنه قوام كل شيء وهاديه مثل نوره في محمد أو في القرآن ، والإيمان ﴿ كمشكاة ﴾ وهي الكوة غير النافذة فيها القنديل ونحوه .

(56/549)

وهذه الأقوال الثلاثة تطرد فيها مقابلة جزء من المثال لجزء من الممثل ، فعلى قول من قال الممثل به محمد عليه السلام ، وهو قول كعب الحبر ، فرسول الله صلى الله عليه وسلم ، هو " المشكاة " أو صدره ، و ﴿ المصباح ﴾ هو النبوءة وما يتصل بها من عمله وهداه ، و ﴿ الزجاجة ﴾ قلبه و " الشجرة المباركة " هي الوحي والملائكة رسل إليه وسببه المتصل به ،

والزيت هو الحجج والبراهين ، والآيات التي تضمنها الوحي ، وعلى قول من قال الممثل به المؤمن وهذا قول أبي بن كعب ، ف " المشكاة " صدره ، و ﴿ المصباح ﴾ الإيمان والعلم ، و ﴿ الزجاجة ﴾ قلبه و" الشجرة " القرآن ، وزيتها هو الحجج والحكمة التي تضمنها ، قال أبي فهو على أحسن الحال يمشي في الناس كالرجل الحي يمشي في قبور الأموات ، ومن قال إن الممثل به القرآن والإيمان فتقدير الكلام ﴿ مثل نوره ﴾ الذي هو الإيمان في صدر المؤمن في قلبه ﴿ كمشكاة ﴾ ، أي كهذه الجملة وهذا القول ليس في مقابلة التشبيه كالأولين ، لأن المشكاة ليست تقابل الإيمان ، وتحتمل الآية معنى آخر ليس فيه مقابلة جزء من المثال لجزء من الممثل بل وقع التشبيه فيه جملة بجملة كهذه الجملة من النور الذي تتخذونه أنتم على هذه الصفة التي هي أبلغ صفات النور الذي بين أيدي الناس ، أي فمثل نور الله في الوضوح كهذا الذي هو منتهاكم أية البشر ، و" المشكاة " الكوة في الحائط غير النافذة ، قاله ابن جبير وسعيد بن عياض وجمهور المفسرين ، وهي أجمع للضوء ، و ﴿ المصباح ﴾ فيها أكثر إنارة من غيرها ، وقال مجاهد " المشكاة " العمود الذي يكون ﴿ المصباح ﴾ على رأسه ، وقال أبو موسى " المشكاة " الحديدة أو الرصاصة التي يكون فيها الفتيل في جوف الزجاجة ، وقال مجاهد ايضاً " المشكاة " الحدائد التي يعلق بها القنديل ، والأول أصح هذه الأقوال ، وقوله ﴿ في زجاجة ﴾ لأنه جسم شفاف ﴿ المصباح ﴾ فيه أنور منه في غير الزجاج ، و ﴿ المصباح ﴾ الفتيل بناره وأمال الكسائي

(57/549)

فيما روى عنه أبو عمرو الداني الألف من " مشكاة " فكسر الكاف التي قبلها ، وقرأ نصر بن عاصم " في زَجاجة " بفتح الزاي ، و" الزجاجة " كذلك وهي لغة ، وقوله : ﴿ كأنها كوكب دري ﴾ أي في الإنارة والضوء وذلك يحتمل معنين : إما أن يريد انها بالمصباح كذلك ، وإما أن يريد أنها في نفسها لصفائها وجودة جوهرها كذلك .

قال الفقيه الإمام القاضي : وهذا التأويل أبلغ في التعاون على النور ، قال الضحاك " الكوكب الدري " الزهرة ، وقرأ نافع وابن عامر وحفص عن عاصم " دُرِيّ " بضم الدال وشد الياء .

(58/549)

ولهذه القراءة وجهان : إما أن ينسب الكوكب إلى الدر لبياضه وصفائه ، وإما أن يكون أصله دريء مهموز من الدرء وهو الدفع وخففت الهمزة ، وقرأ حمزة وأبو بكر عن عاصم " دريء " بالهمزة وهو فعيل من الدرء بمعنى أنها تدفع بعضها بعضاً أو بمعنى أن بهاءها

يدفع خفاءها ، وفعيل بناء لا يوجد في الأسماء إلا في قولهم مريق للعصفور وفي السرية إذا اشتقت من السرو ، ووجه هذه القراءة أبو علي ، وضعفها غيره ، وقرأ أبو عمرو والكسائي " دريء " على وزن فعيل بكسر الفاء من الدرء وهذه متوجهة ، وقرأ قتادة " دَريء " بفتح الدال والهمز قال أبو الفتح وهذا عزيز وإنما عزيز وإنما حفظ منه السكّينة بشد الكاف ، وقرأ سعيد بن المسيب وأبو رجاء ونصر بن عاصم " دري " بفتح الدال دون همزة ، وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم وطلحة والأعمش والحسن وقتادة وابن وثاب وعيسى " توقد " بضم التاء أي الزجاجة ، وقرأ أبو عمرو وأهل الكوفة والحسن وابن محيصن " تَوَقّدُ " بفتح التاء والواو وشد القاف وضم الدال أي الزجاجة ، وقرأ أبو عمرو أيضاً وابن كثير " تَوقَد " بفتح التاء والدال أي المصباح ، وقرأ عاصم فيما روى عنه إسماعيل " يوقد " بالياء المرفوعة على معنى يوقد المصباح ، قال أبو الفتح وقرأ السلمي والحسن وابن محيصن وسلام وقتادة "يَوَقَّدُ " بفتح الياء والواو والقاف والمشددة ورفع الدال أصله يتوقد ، وقوله ﴿ من شجرة ﴾ أي من زيت شجرة ، و" المباركة " المنمأة ، و" الزيتون " من أعظم الثمار نماء واطراد أفنان وغضارة ولا سيما بالشام والرمان كذلك والعيان يقضي بذلك ، وقول أبي طالب يرثي مسافر بن أبي عمرو بن امية " ابن شمس " : [الخفيف]

ليت شعري مسافر بن أبي عمرو . . . " وليتٌ " يقولها المحزون

بورك الميّت الغريب كما بو . . . رك الرمّانُ والزيتون

(59/549)

وقوله تعالى : ﴿ لا شرقية ولا غربية ﴾ قرأ الجمهور فيهما بالخفض عطفاً على ﴿ زيتونة ﴾ ، وقرأ الضحاك " لا شرقيةٌ ولا غربيةٌ " بالرفع ، واختلف المتأولون في معناه ، فقال ابن عباس فيما حكى عنه الطبري معناه أنها شجرة في دوحة قد أحاطت بها فهي غير منكشفة من جهة الشرق ولا من جهة الغرب .

قال الفقيه الإمام القاضي : وهذا قول لا يصح عندي عن ابن عباس لأن الوجود يقتضي أَن الشجرة التي تكون بهذه الصفة ينفسد جناها ، وقال الحسن ليست هذه الشجرة من شجر الدنيا وإنما هو مثل ضربه الله لنوره ولو كانت في الدنيا لكانت إما شرقية وإما غربية ، وقال ابن زيد أراد أَنها من شجر الشام لأن شجر الشام هي أفضل الشجر وهي " الأرض المباركة " ، وقال ابن عباس وعكرمة وقتادة وغيرهم المعنى في قوله : ﴿ لا شرقية ولا غربية ﴾ أنها في منكشف من الأرض تصيبها الشمس طول النهار تستدير عليها أي فليست خالصة للشرق فتسمى شرقية ولا للغرب فتسمى غربية ، وقوله : ﴿ يكاد زيتها

يضيء ولو لم تمسسه نار ﴾ مبالغة في صفة صفائه وحسنه وجودته ، وقرأ الجمهور " تمسسه " بالتاء من فوق ، وقرأ ابن عباس والحسن بالياء من تحت ، وقوله : ﴿ نور على نور ﴾ أي هذه كلها معاون تكامل بها هذا النور الممثل به وفي هذا الموضع تم المثال ، ثم ذكر تعالى هداه لنوره من شاء وأسعد من عباده وذكر تفضله في ضرب الأمثال للعباد ليقع لهم العبرة والنظر المؤدي إلى الإيمان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(60/549)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ اللّهُ نُور السموات والأرض ﴾

فيه قولان .

أحدهما : هادي أهل السموات والأرض ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس ، وبه قال أنس بن مالك ، وبيان هذا أن النُّور في اللغة : الضياء ، وهو الذي تصل به الأبصار إلى مُبْصَراتها ، فورد النُّور مضافاً إلى الله تعالى ، لأنه هو الذي يَهْدي المؤمنين ويبيِّن لهم ما يهتدون به ، والخلائق بنوره يهتدون .

والثاني : مدبِّر السموات والأرض ، قاله مجاهد ، والزجاج .

وقرأ أُبيّ ابن كعب ، وأبو المتوكل ، وابن السميفع : ﴿ اللّهُ نَوَّرَ ﴾ بفتح النون والواو وتشديدها ونصب الراء ﴿ السمواتِ ﴾ بالخفض ﴿ والأرضَ ﴾ بالنصب .

قوله تعالى : ﴿ مَثَل نُوره ﴾ في هاء الكناية أربعة أقوال .

أحدها : أنها ترجع إلى الله عز وجل ، قال ابن عباس : مَثَل هُدَاه في قلب المؤمن .

والثاني : أنها ترجع إلى المؤمن ، فتقديره : مَثَل نُور المؤمن ، قاله أُبيّ ابن كعب .

وكان أُبيّ وابن مسعود يقرآن : ﴿ مثل نُور مَنْ آمن به ﴾ .

والثالث : أنها ترجع إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، قاله كعب .

والرابع : أنها ترجع إلى القرآن ، قاله سفيان .

فأما المشكاة ، ففيها ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها في موضع الفتيلة من القنديل الذي هو كالأنبوب ، والمصباح : الضوء ، قاله ابن عباس .

والثاني : أنها القنديل ، والمصباح : الفتيلة ، قاله مجاهد .

والثالث : أنها الكوّة التي لا منفذ لها ، والمصباح : السراج ، قاله كعب ، وكذلك قال الفراء : المشكاة : الكوّة التي ليست بنافذة .

وقال ابن قتيبة : المشكاة : الكوّة بلسان الحبشة .

وقال الزجاج : هي من كلام العرب ، والمصباح : السراج وإنما ذكر الزُّجاجة ، لأن النُّور في

الزُّجاج أشد ضوءاً منه في غيره .

وقرأ أبو رجاء العطاردي ، وابن أبي عبلة : ﴿ في زَجاجة الزَّجاجة ﴾ بفتح الزاي فيهما .

(61/549)

وقرأ معاذ القارىء ، وعاصم الجحدري ، وابن يعمر : بكسر الزاي فيهما ، قال بعض أهل المعاني : معنى الآية : كمَثَل مصباح في مشكاة ، فهو من المقلوب .

فأما الدُّرِّيّ ، فقرأ أبو عمرو ، والكسائي ، وأبان عن عاصم ﴿ دِرِّيءٌ ﴾ بكسر الدال وتخفيف الياء ممدوداً مهموزاً .

قال ابن قتيبة : المعنى على هذا : إنه من الكواكب الدَّراريء ، وهي اللاتي يَدْرأنْ عليك ، أي : يطلُعن .

وقال الزجاج : هو مأخوذ من درأ يدرأ : إذا اندفع منقضّاً ، فتضاعف نوره ، يقال : تدارأ الرجلان : إذا تدافعا .

وروى المفضَّل عن عاصم كسر الدال وتشديد الياء من غير همز ولا مدٍّ ، وهي قراءة عبد الله بن عمر ، والزهري .

وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وابن عامر ، وحفص عن عاصم : ﴿ دُرِّيٌّ ﴾ بضم الدال وكسر الراء وتشديد الياء من غير مدٍّ ولا همز ، وقرأ عثمان بن عفان ، وابن عباس ، وعاصم ، الجحدري : ﴿ دَرِيءُ ﴾ بفتح الدال وكسر الراء ممدوداً مهموزاً ، وقرأ أُبيّ ابن كعب ، وسعيد بن المسيب ، وقتادة : بفتح الدال وتشديد الراء والياء من غير مدٍّ ولا همز .

وقرأ ابن مسعود ، وسعيد بن جبير ، وعكرمة ، وقتادة ، وابن يعمر : بفتح الدال وكسر الراء مهموزاً مقصوراً .

قال الزجاج : الدُّرِّيّ : منسوب إلى أنه كالدُّرّ في صفائه وحسنه .

وقال الكسائي : الدُّرِّيءُ : الذي يشبه الدُّرّ ، والدِّرِّيءُ : جارٍ ، والدَّرِّيءُ : يلتمع ، وقرأ حمزة ، وأبو بكر عن عاصم ، والوليد بن عتبة عن ابن عامر : بضم الدال وتخفيف الياء مع إثبات الهمزة والمدِّ .

قال الزجاج : فالنحويون أجمعون لا يعرفون الوجه في هذا ؛ وقال الفراء : ليس هذا بجائز في العربية ، لأنه ليس في الكلام " فُعِّيل " إلا أعجمي ، مثل مُرِّيق ، وما أشبهه .

وقرأت على شيخنا أبي منصور اللغوي : المُرِّيق : العُصْفُر ، أعجمي معرَّب ، وليس في كلامهم اسم على زِنة فُعِّيْل .

قال أبو علي : وقد حكى سيبويه عن أبي الخطّاب : كوكب دُرِّيء : من الصفات ، ومن الأسماء : المُرِّيق : العُصْفر .

قوله تعالى : ﴿ تَوَقَّدَ ﴾ قرأ ابن كثير .

وأبو عمرو : بالتاء المفتوحة وتشديد القاف ونصب الدّال ، يريدان المصباح ، لأنه هو الذي يوقد .

وقرأ نافع ، وابن عامر ، وحفص عن عاصم : ﴿ يُوقَدُ ﴾ بالياء مضمومة مع ضم الدال ، يريدون المصباح أيضاً .

وقرأ حمزة والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم : ﴿ تُوقَد ﴾ بضم التاء والدال ، يريدون الزجاجة ، قال الزجاج : والمقصود : مصباح الزجاجة ، فحذف المضاف .

قوله تعالى : ﴿ من شجرة ﴾ أي : من زيت شجرة ، فحذف المضاف ، يدلُّك على ذلك قوله : ﴿ يكاد زيتها يضيء ﴾ ؛ والمراد بالشجرة ها هنا : شجرة الزيتون ، وبَرَكَتُها من وجوه ، فانها تجمع الأُدْم والدُهن والوقود ، فيوقد بحطب الزيتون ، ويُغسَل برمادة الإِبريسم ، ويُستخرج دُهنه أسهل استخراج ، ويورِق غصنه من أوله إلى آخره .

وإنما خُصَّت بالذِّكْر ها هنا دون غيرها ، لأن دُهنها أصفى وأضوأ .

قوله تعالى : ﴿ لا شرقيةٍ ولا غربيةٍ ﴾ فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها بين الشجر ، فهي خضراء ناعمة لا تصيبها الشمس ، قاله أُبيّ ابن كعب ، ورواه سعيد بن جبير عن ابن عباس .

والثاني : أنها في الصحراء لا يُظِلُّها جبل ولا كهف ، ولا يواريها شيء ، فهو أجود لزيتها ، رواه عكرمة عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد ، والزجاج .

والثالث : أنها من شجر الجنة ، لا من شجرة الدُّنيا ، قاله الحسن .

قوله تعالى : ﴿ يكاد زيتها يُضيء ﴾ أي : يكاد من صفائه يُضيء قبل أن تصيبه النار بأن يوقد به .

﴿ نُور على نُور ﴾ قال مجاهد : النار على الزيت .

وقال ابن السائب : المصباح نور ، والزجاجة نور .

وقال أبو سليمان الدمشقي : نور النار ، ونور الزيت ، ونور الزجاجة ، ﴿ يهدي الله لنوره ﴾ فيه أربعة أقوال .

أحدها : لنور القرآن .

والثاني : لنور الإِيمان .

والثالث : لنور محمد صلى الله عليه وسلم .

والرابع : لدينه الإِسلام .

فصل

فأما وجه هذا المَثَل ، ففيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه شبَّه نور محمد صلى الله عليه وسلم بالمصباح النيِّر ؛ فالمشكاة جوف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والمصباح النور الذي في قلبه ، والزجاجة قلبه ، فهو من شجرة مباركة ، وهو إِبراهيم عليه السلام ، سماه شجرة مباركة ، لأن أكثر الأنبياء من صُلْبه .

﴿ لا شرقية ولا غربية ﴾ لا يهودي ولا نصراني ، يكاد محمد صلى الله عليه وسلم يتبيَّن للناس أنه نبيٌّ ولو لم يتكلَّم .

وقال القرظي : المشكاة : إِبراهيم ، والزجاجة : إِسماعيل ، والمصباح : محمد ، صلى الله عليه وعليهم وسلَّم .

وقال الضحاك : شبّه عبد المطلب بالمشكاة ، وعبد الله بالزجاجة ، ومحمداً صلى الله عليه وسلم بالمصباح .

والثاني : أنه شبّه نور الإِيمان في قلب المؤمن بالمصباح ، فالمشكاة : قلبه ، والمصباح : نور الإِيمان فيه .

وقيل : المشكاة : صدره ، والمصباح : القرآن والإِيمان اللَّذان في صدره ، والزجاجة : قلبه

، فكأنه مما فيه من القرآن والإِيمان كوكب مضيء تَوَقَّد من شجرة ، وهي الإِخلاص ، فمثل الإِخلاص عنده كشجرة لا تصيبها الشمس ، فكذلك هذا المؤمن قد احترس من أن تصيبه الفتن ، فإن أُعطي شكر ، وإِن ابتُلي صبر ، وإِن قال صدق ، وإِن حكم عدل ، فقلب المؤمن يعمل بالهدى قبل أن يأتيَه العلم ، فإذا جاءه العلم ازداد هدىً على هدىً كما يكاد هذا الزيت يضيء قبل أن تمسَّه النار ، فإذا مسَّته اشتد نُوره ، فالمؤمن كلامه نُور ، وعمله نُور ، ومدخله نور ، ومخرجه نور ، ومصيره إِلى نور يوم القيامة .

والثالث : أنه شبّه القرآن بالمصباح يُستضَاء به ولا ينقص ، والزجاجة : قلب المؤمن ، والمشكاة : لسانه وفمه ، والشجرة المباركة : شجرة الوحي ، تكاد حُجج القرآن تتضح وإِن لم تُقرأ .

(64/549)

وقيل : تكادُ حجج الله تضيء لمن فكَّر فيها وتدبَّرها ولو لم ينزل القرآن ، ﴿ نُور على نُور ﴾ أي : القرآن نُور من الله لخلقه مع ما قد قام لهم من الدلائل والأعلام قبل نزول القرآن .

قوله تعالى : ﴿ ويَضْرِبُ اللّهُ الأمثال ﴾ أي : ويبيّن الله الأشباه للناس تقريباً إِلى الأفهام وتسهيلاً لسبل الإِدراك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 6 صـ ﴾

وقال القرطبى :

﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

النور في كلام العرب : الأضواء المدركة بالبصر .

واستعمل مجازاً فيما صح من المعاني ولاح ؛ فيقال منه : كلام له نور .

ومنه الكتاب المنير ، ومنه قول الشاعر :

نسب كأن عليه من شمس الضحا . . .

نوراً ومن فلق الصباح عمودا

والناس يقولون : فلان نور البلد ، وشمس العصر وقمره .

قال :

فإنك شمس والملوك كواكبٌ . . .

وقال آخر :

هلا خصصت من البلاد بمقصد . . .

قمرَ القبائل خالدَ بن يزيد

وقال آخر :

إذا سار عبد الله من مَرْوَ ليلةً . . .

فقد سار منها نورها وجمالها

فيجوز أن يقال : لله تعالى نور ، من جهة المدح لأنه أوجد الأشياء ، ونورُ جميع الأشياء منه ابتداؤها وعنه صدورها ، وهو سبحانه ليس من الأضواء المدركة جلّ وتعالى عما يقول الظالمون عُلوًّا كبيراً .

وقد قال هشام الجوالقي وطائفة من الْمُجَسِّمة : هو نور لا كالأنوار ، وجسم لا كالأجسام .

وهذا كله محال على الله تعالى عقلاً ونقلاً على ما يعرف في موضعه من علم الكلام .

ثم إن قولهم متناقض ؛ فإن قولهم جسم أو نور حكمٌ عليه بحقيقة ذلك ، وقولهم لا كالأنوار ولا كالأجسام نفيٌ لما أثبتوه من الجسمِيّة والنور ؛ وذلك متناقض ، وتحقيقه في علم الكلام .

والذي أوقعهم في ذلك ظواهر اتبعوها منها هذه الآية ، " وقوله عليه السلام إذا قام من الليل يتهجّد : "اللَّهُمَّ لك الحمد أنت نور السموات والأرض" " .

" وقال عليه السلام وقد سئل : هل رأيت ربّك ؟ فقال : "رأيت نوراً" " إلى غير ذلك من الأحاديث .

واختلف العلماء في تأويل هذه الآية ؛ فقيل : المعنى أي به وبقدرته أنارت أضواؤها ، واستقامت أمورها ، وقامت مصنوعاتها .

فالكلام على التقريب للذهن ؛ كما يقال : المِلك نور أهل البلد ؛ أي به قِوام أمرها وصلاحُ جملتها ؛ لجَرَيان أموره على سنن السّداد .

(66/549)

فهو في المِلك مجاز ، وهو في صفة الله حقيقة محضة ؛ إذ هو الذي أبدع الموجودات وخلق العقل نوراً هادياً ؛ لأن ظهور الموجود به حصل كما حصل بالضّوْء ظهور المبصَرات ، تبارك الله تعالى لا ربّ غيره .

قال معناه مجاهد والزهري وغيرهما .

قال ابن عرفة : أي منوّر السموات والأرض .

وكذا قال الضحاك والقُرَظي .

كما يقولون : فلان غياثنا ؛ أي مغيثنا .

وفلان زادي ، أي مزوّدي .

قال جرير :

وأنت لنا نور وغَيْث وعِصْمة . . .

ونبْتٌ لمن يرجو نَداك وريقُ

أي ذو وَرَق .

وقال مجاهد : مدبّر الأمور في السموات والأرض .

أُبَيّ بن كعب والحسن وأبو العاليَة : مزيّن السموات بالشمس والقمر والنجوم ، ومزيّنُ الأرض بالأنبياء والعلماء والمؤمنين .

وقال ابن عباس وأنس : المعنى الله هادي أهل السموات والأرض .

والأول أعمّ للمعاني وأصح مع التأويل .

قوله تعالى : ﴿ مَثَلُ نُورِهِ ﴾ أي صفة دلائله التي يقذفها في قلب المؤمن ؛ والدلائل تسمى نوراً .

وقد سمّى الله تعالى كتابه نُوراً فقال :

﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُّبِيناً ﴾ [النساء : 174] وسمى نبيّه نوراً فقال : ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مِّنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴾ [المائدة : 15] .

وهذا لأن الكتاب يهدي ويبيّن ، وكذلك الرسول .

ووجه الإضافة إلى الله تعالى أنه مثبت الدلالة ومبيّنها وواضعها .

وتحتمل الآية معنى آخر ليس فيه مقابلة جزء من المثال بجزء من الممثّل به ، بل وقع التشبيه فيه جملة بجملة ، وذلك أن يريد مَثَل نور الله الذي هو هداه وإتقانه صنعة كل مخلوق وبراهينه الساطعة على الجملة ، كهذه الجملة من النور الذي تتخذونه أنتم على هذه

الصفة ، التي هي أبلغ صفات النور الذي بين أيدي الناس ؛ فمثل نور الله في الوضوح كهذا الذي هو منتهاكم أيها البشر .

(67/549)

والمِشْكاة : الكَوّة في الحائط غير النافذة ؛ قاله ابن جبير وجمهور المفسرين ، وهي أجمع للضوء ، والمصباحُ فيها أكثر إنارة منه في غيرها ، وأصلها الوعاء يجعل فيه الشيء .

والمشكاة وعاء من أَدَم كالدَّلْو يبرّد فيها الماء ؛ وهو على وزن مِفعلة كالمِقراة والمِصْفاة .

قال الشاعر :

كأن عَيْنيه مِشكاتان في حجر . . .

قِيضا اقتياضا بأطراف المناقير

وقيل : المِشْكاة عمود القِنديل الذي فيه الفِتيلة .

وقال مجاهد : هي القنديل .

وقال "في زجاجة" لأنه جسم شفاف ، والمصباح فيه أنور منه في غير الزجاج .

والمصباح : الفتيل بناره .

﴿ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ ﴾ أي في الإنارة والضوء .

وذلك يحتمل معنيين : إما أن يريد أنها بالمصباح كذلك ، وإما أن يريد أنها في نفسها لصفائها وجودة جوهرها كذلك .

وهذا التأويل أبلغ في التعاون على النور .

قال الضحاك : الكوكب الدُّرِّي هو الزُّهرة .

قوله تعالى : ﴿ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ ﴾ أي من زيت شجرة ، فحذف المضاف .

والمباركة المُنَمّاة ؛ والزيتون من أعظم الثمار نَماء ، والرمان كذلك .

والعيان يقتضي ذلك .

وقول أبي طالب يرثي مسافر بن أبي عمرو بن أميّة بن عبد شمس :

ليتَ شِعْرِي مسافِرَ بن أبي عم . . .

رو وليتٌ يقولها المحزونُ

بورك الميْت الغريب كما بُو . . .

رِك نبعُ الرمان والزيتونُ

وقيل : من بركتهما أن أغصانهما تُورق من أسفلها إلى أعلاها .

وقال ابن عباس : في الزيتون منافع ، يُسرج بالزيت ، وهو إدام ودِهان ودِباغ ، ووَقود يوقد بحطبه وثُفْله ، وليس فيه شيء إلا وفيه منفعة ، حتى الرَّماد يغسل به الإِبرِيسِم .

وهي أول شجرة نبتت في الدنيا ، وأوّل شجرة نبتت بعد الطوفان ، وتنبت في منازل

الأنبياء والأرض المقدسة ، ودعا لها سبعون نبيًّا بالبركة ؛ منهم إبراهيم ، ومنهم محمد صلى الله عليه وسلم فإنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال : " اللَّهُمَّ بارك في الزيت والزيتون " قاله مرتين .

(68/549)

قوله تعالى : ﴿ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ ﴾ اختلف العلماء في قوله تعالى : ﴿ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ ﴾ فقال ابن عباس وعكرمة وقتادة وغيرهم : الشرقية التي تصيبها الشمس إذا شَرَقت ولا تصيبها إذا غَرَبت ؛ لأن لها ستراً .

والغربِيّة عكسها ؛ أي أنها شجرة في صحراء ومنكشف من الأرض لا يواريها عن الشمس شيء وهو أجود لزَيْتِها ، فليست خالصة للشرق فتسمَّى شرقية ولا للغرب فتسمَّى غربِيّة ، بل هي شرقية غربية .

وقال الطبري عن ابن عباس : إنها شجرة في دَوْحة قد أحاطت بها ؛ فهي غير منكشفة من جهة الشرق ولا من جهة الغرب .

قال ابن عطية : وهذا قول لا يصح عن ابن عباس ؛ لأن الثمرة التي بهذه الصفة يفسد جناها ، وذلك مشاهد في الوجود .

وقال الحسن : ليست هذه الشجرة من شجر الدنيا ، وإنما هو مَثَل ضربه الله تعالى لنوره ، ولو كانت في الدنيا لكانت إمّا شرقية وإمّا غربية .

الثعلبيّ : وقد أفصح القرآن بأنها من شجر الدنيا ؛ لأنها بدل من الشجرة ، فقال : "زيتونة" .

وقال ابن زيد : إنها من شجر الشأم ؛ فإن شجر الشأم لا شرقيّ ولا غربيّ ، وشجر الشأم هو أفضل الشجر ، وهي الأرض المباركة .

و"شرقيةٍ" نعت ل"زيتونَةٍ" و"لا" ليست تحول بين النعت والمنعوت ، "ولا غربية" عطف عليه .

قوله تعالى : ﴿ يَكَادُ زَيْتُهَا يضيء وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ﴾ مبالغة في حسنه وصفائه وجودته .

﴿ نُّورٌ على نُورٍ ﴾ أي اجتمع في المِشكاة ضوء المصباح إلى ضوء الزجاجة وإلى ضوء الزيت فصار لذلك نور على نور .

واعتقلت هذه الأنوار في المشكاة فصارت كأنور ما يكون ؛ فكذلك براهين الله تعالى واضحة ، وهي برهان بعد برهان ، وتنبيه بعد تنبيه ؛ كإرساله الرسل وإنزاله الكتب ، ومواعظ تتكرر فيها لمن له عقل معتبر .

ثم ذكر تعالى هداه لنوره من شاء وأسعد من عباده ، وذكر تفضله للعباد في ضرب الأمثال لتقع لهم العبرة والنظر المؤدي إلى الإيمان .

(69/549)

وقرأ عبد الله بن عَيّاش بن أبي ربيعة وأبو عبد الرحمن السُّلَمِيّ "اللَّهُ نَوّر" بفتح النون والواو المشدّدة .

واختلف المتأوّلون في عود الضمير في "نوره" على من يعود ؛ فقال كعب الأحبار وابن جُبير : هو عائد على محمد صلى الله عليه وسلم ؛ أي مَثَل نور محمد صلى الله عليه وسلم .

قال ابن الأنباريّ : "الله نور السموات والأرض" وقف حسن ، ثم تبتدىء "مَثَلُ نورِه كمشكاة فيها مِصبَاحٌ" على معنى نور محمد صلى الله عليه وسلم .

وقال أُبَيّ بن كعب وابن جبير أيضاً والضحاك : هو عائد على المؤمنين .

وفي قراءة أُبَيّ "مثل نور المؤمنين" .

وروي أن في قراءته "مثل نور المؤمن" .

وروي أن فيها "مثل نور من آمن به" .

وقال الحسن : هو عائد على القرآن والإيمان .

قال مكِّيّ : وعلى هذه الأقوال يوقف على قوله : "والأرض" .

قال ابن عطية : وهذه الأقوال فيها عود الضمير على من لم يجر له ذكر ، وفيها مقابلة جزء من المثال بجزء من الممثَّل ؛ فعلى من قال : الممثّل به محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو قول كَعْب الحبر فرسول الله صلى الله عليه وسلم هو المشكاة أو صدره ، والمصباح هو النبوّة وما يتصل بها من عمله وهداه ، والزجاجة قلبه ، والشجرة المباركة هي الوحي ، والملائكة رسل الله إليه وسببه المتصل به ، والزيت هو الحجج والبراهين والآيات التي تضمّنها الوَحْي .

ومن قال : الممثّل به المؤمن ، وهو قول أُبَيّ ؛ فالمشكاة صدره ، والمصباح الإيمان والعلم ، والزجاجة قلبه ، وزيتها هو الحجج والحكمة التي تضمّنها .

قال أُبَيّ : فهو على أحسن الحال يمشي في الناس كالرجل الحيّ يمشي في قبور الأموات .

ومن قال : إن الممثّل به هو القرآن والإيمان ؛ فتقدير الكلام : مثل نوره الذي هو الإيمان في صدر المؤمن في قلبه كمشكاة ؛ أي كهذه الجملة .

وهذا القول ليس في مقابلة التشبيه كالأولين ؛ لأن المشكاة ليست تقابل الإيمان .

وقالت طائفة : الضمير في "نوره" عائد على الله تعالى .

وهذا قول ابن عباس فيما ذكر الثعلبيّ والماوَرْدِيّ والمهدوِيّ ، وقد تقدّم معناه .

ولا يوقف على هذا القول على "الأرض" .

قال المهدوِيّ : الهاء لله عز وجل ؛ والتقدير : الله هادي أهل السموات والأرض ، مَثَل هداه في قلوب المؤمنين كمِشْكاة ؛ وروي ذلك عن ابن عباس .

وكذلك قال زيد بن أسلم ، والحسن : إن الهاء لله عز وجل .

وكان أُبَيّ وابن مسعود يقرأانها "مثل نُوره في قلب المؤمن كمشكاة" .

قال محمد بن علي الترمذي : فأما غيرهما فلم يقرأها في التنزيل هكذا ، وقد وافقهما في التأويل أن ذلك نوره في قلب المؤمن ، وتصديقه في آية أخرى يقول : ﴿ أَفَمَن شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ فَهُوَ على نُورٍ مِّن رَّبِّهِ ﴾ [الزمر : 22] .

واعتلّ الأوّلون بأن قالوا : لا يجوز أن يكون الهاء لله عز وجل ؛ لأن الله عز وجل لا حدّ لنوره .

وأمال الكسائيّ فيما روى عنه أبو عمر الدُّورِيّ الألف من "مشكاة" وكَسر الكاف التي قبلها .

وقرأ نصر بن عاصم "زَجاجة" بفتح الزاي و"الزَّجاجة" كذلك ، وهي لغة .

وقرأ ابن عامر وحفص عن عاصم "دُرّي" بضم الدال وشد الياء ، ولهذه القراءة وجهان :

إمّا أن ينسب الكوكب إلى الدُّرّ لبياضه وصفائه ، وإمّا أن يكون أصله دُرِّيء مهموز ، فعُّيل من الدَّرء وهو الدفع ، وخُفّفت الهمزة .

ويقال للنجوم العظام التي لا تعرف أسماؤها : الدَّراري ، بغير همز ؛ فلعلّهم خفّفوا الهمزة ، والأصل من الدَّرء الذي هو الدفع .

وقرأ حمزة وأبو بكر عن عاصم "دُرّيء" بالهمز والمد ، وهو فُعّيل من الدَّرء ؛ بمعنى أنها يدفع بعضُها بعضاً .

وقرأ الكسائي وأبو عمرو "دِرّيء" بكسر الدال والهمز من الدرء والدفع ؛ مثل السِّكّير والفِسِّيق .

قال سيبويه : أي يدفع بعض ضوئه بعضاً من لمعانه .

قال النحاس : وضعّف أبو عبيد قراءة أبي عمرو والكسائي تضعيفاً شديداً ، لأنه تأوّلها من درأت أي دفعت ؛ أي كوكب يجري من الأفق إلى الأفق .

(71/549)

وإذا كان التأويل على ما تأوله لم يكن في الكلام فائدة ، ولا كان لهذا الكوكب مزية على أكثر الكواكب ؛ ألا ترى أنه لا يقال جاءني إنسان من بني آدم .

ولا ينبغي أن يتأول لمثل أبي عمرو والكسائي مع علمهما وجلالتهما هذا التأويل البعيد ، ولكن التأويل لهما على ما روي عن محمد بن يزيد أن معناهما في ذلك : كوكب مندفع بالنور ؛ كما يقال : اندرأ الحريق أي اندفع .

وهذا تأويل صحيح لهذه القراءة .

وحكى سعيد بن مَسْعدة أنه يقال : درأ الكوكب بضوئه إذا امتد ضوءه وعلا .

وقال الجوهري في الصّحاح : ودرأ علينا فلان يدرأ دروءاً أي طلع مفاجأة .

ومنه كوكب دِرّيء ، على فِعّيل ؛ مثل سِكير وخِمير ؛ لشدّة توقده وتلألئه .

وقد درأ الكوكب دروءاً .

وقال أبو عمرو بن العلاء : سألت رجلاً من سعد بن بكر من أهل ذات عِرْق فقلت : هذا الكوكب الضخم ما تُسمُّونه ؟ قال : الدِّرّيء ، وكان من أفصح الناس .

قال النحاس : فأما قراءة حمزة فأهل اللغة جميعاً قالوا : هي لحن لا تجوز ، لأنه ليس في كلام العرب اسم على فُعِّيل .

وقد اعترض أبو عبيد في هذا فاحتج لحمزة فقال : ليس هو فُعِّيل وإنما هو فُعُّول ، مثل سُبُّوح ، أبدل من الواو ياء ؛ كما قالوا : عُتِيٌّ .

قال أبو جعفر النحاس : وهذا الاعتراض والاحتجاج من أعظم الغلط وأشدّه ؛ لأن هذا لا يجوز أَلْبَتَّة ، ولو جاز ما قال لقيل في سُبّوح سُبّيح .

وهذا لا يقوله أحد ، وليس عُتيّ من هذا ، والفرق بينهما واضح بَيّن ؛ لأنه ليس يخلو عُتِي من إحدى جهتين : إما أن يكون جمع عاتٍ فيكون البدل فيه لازماً ، لأن الجمع باب تغيير ، والواو لا تكون طرفاً في الأسماء وقبلها ضمة ، فلما كان قبل هذه ساكن وقبل الساكن ضمة والساكن ليس بحاجز حصِين أبدل من الضمة كسرة فقلبت الواو ياء .

وإن كان عُتِيّ واحداً كان بالواو أوْلى ، وجاز قلبها لأنها طرف ، والواو في فُعول ليست طرفاً فلا يجوز قلبها .

(72/549)

قال الجوهري : قال أبو عبيد إن ضممت الدال قلت دُرِّيّ ، يكون منسوباً إلى الدر ، على فُعْلِيّ ولم تهمزه لأنه ليس في كلام العرب فُعّيل .

ومن همزه من القراء فإنما أراد فُعُّولاً مثل سُبّوح فاستثقل لكثرة الضمّات فردّ بعضه إلى الكسر .

وحكى الأخفش عن بعضهم "دَرِّيء" من درأتُه ، وهمزها وجعلها على فَعِّيل مفتوحة الأوّل .

قال : وذلك من تلألئه .

قال الثعلبيّ : وقرأ سعيد بن المسيب وأبو رَجاء "دَرّيء" بفتح الدال مهموزاً .

قال أبو حاتم : هذا خطأ لأنه ليس في الكلام فَعّيل ؛ فإن صح عنهما فهما حجة .

﴿ يُوقَدُ ﴾ قرأ شيبة ونافع وأيوب وسلام وابن عامر وأهل الشام وحفص "يُوقد" بياء مضمومة وتخفيف القاف وضم الدال .

وقرأ الحسن والسُّلَمِيّ وأبو جعفر وأبو عمرو بن العلاء البصري "تَوَقَّد" مفتوحة الحروف كلها مشدّدة القاف ، واختارها أبو حاتم وأبو عبيد .

قال النحاس : وهاتان القراءتان متقاربتان ؛ لأنهما جميعاً للمصباح ، وهو أشبه بهذا الوصف ؛ لأنه الذي ينير ويضيء ، وإنما الزجاجة وعاء له .

و "تَوَقَّدَ" فعل ماض من تَوَقّد يتوقّد ، ويُوقَد فعل مستقبل من أوقِد يُوقَد .

وقرأ نصر بن عاصم "تَوَقَّدَ" والأصل على قراءته تتوقد حذف إحدى التاءين لأن الأخرى تدل عليها .

وقرأ الكوفيون "تُوقَد" بالتاء يعنون الزجاجة .

فهاتان القراءتان على تأنيث الزجاجة .

﴿ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ ﴾ تقدم القول فيه .

﴿ يَكَادُ زَيْتُهَا يضيء وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ على نُورٍ ﴾ على تأنيث النار .

وزعم أبو عبيد أنه لا يعرف إلا هذه القراءة .

وحكى أبو حاتم أن السُّدِّي روى عن أبي مالك عن ابن عباس أنه قرأ "ولَوْ لم يمسسه نار" بالياء .

قال محمد بن يزيد : التذكير على أنه تأنيث غير حقيقي ، وكذا سبيل المؤنث عنده .

(73/549)

وقال ابن عمر : المشكاة جَوْف محمد صلى الله عليه وسلم ، والزجاجة قلبه ، والمصباح النور الذي جعله الله تعالى في قلبه يوقد من شجرة مباركة ؛ أي أن أصله من إبراهيم وهو شجرته ؛ فأوقد الله تعالى في قلب محمد صلى الله عليه وسلم النور كما جعله في قلب إبراهيم عليه السلام .

قال محمد بن كعب : المشكاة إبراهيم ، والزجاجة إسماعيل ، والمصباح محمد صلوات الله عليهم أجمعين ؛ سمّاه الله تعالى مصباحاً كما سماه سراجاً فقال : ﴿ وَدَاعِياً إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُّنِيراً ﴾ [الأحزاب : 46] يوقد من شجرة مباركة وهي آدم عليه السلام ، بُورك في نسله وكَثُر منه الأنبياء والأولياء .

وقيل : هي إبراهيم عليه السلام ، سمّاه الله تعالى مباركاً لأن أكثر الأنبياء كانوا من صُلْبه .

﴿ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ ﴾ أي لم يكن يهودِيًّا ولا نصرانياً وإنما كان حَنِيفاً مسلماً .

وإنما قال ذلك لأن اليهود تصلّي قِبَل المغرب والنصارى تصلّي قبل المشرق .

﴿ يَكَادُ زَيْتُهَا يضيء ﴾ أي يكاد محاسن محمد صلى الله عليه وسلم تظهر للناس قبل أن أوحى الله تعالى إليه .

﴿ نُورٌ على نُورٍ ﴾ نَبِيٌّ من نَسْل نبيّ .

وقال الضحاك : شبه عبد المطلب بالمِشكاة وعبد الله بالزجاجة والنبيّ صلى الله عليه وسلم بالمصباح كان في قلبهما ، فورث النبوّة من إبراهيم .

﴿ مِن شَجَرَةٍ ﴾ أي شجرة التُّقَى والرضوان وعشيرة الهدى والإيمان ، شجرة أصلها نبوّة ، وفرعها مروءة ، وأغصانها تنزيل ، وورقها تأويل ، وخدمها جبريل وميكائيل .

(74/549)

قال القاضي أبو بكر ابن العربي : ومن غريب الأمر أن بعض الفقهاء قال إن هذا مَثَل ضربه الله تعالى لإبراهيم ومحمد ولعبد المطلب وابنه عبد الله ؛ فالمشكاة هي الكوّة بلغة الحبشة ، فشبّه عبد المطلب بالمشكاة فيها القِنديل وهو الزجاجة ، وشبّه عبد الله بالقِنديل وهو الزجاجة ؛ ومحمد كالمصباح يعني من أصلابهما ، وكأنه كوكب دُرِّيٌّ وهو المشتَرِي "يوقد من شجرة مباركة" يعني إرْث النبوّة من إبراهيم عليه السلام هو الشجرة المباركة ، يعني

حنِيفِيّة لا شرقيّة ولا غربية ، لا يهودية ولا نصرانية .

"يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار" يقول : يكاد إبراهيم يتكلم بالوحي من قبل أن يوحَى إليه .

"نُورٌ على نور" إبراهيم ثم محمد صلى الله عليه وسلم .

قال القاضي : وهذا كله عدول عن الظاهر ، وليس يمتنع في التمثيل أن يتوسع المرء فيه .

قلت : وكذلك في جميع الأقوال لعدم ارتباطه بالآية ما عدا القول الأوّل ، وأن هذا مَثَل ضربه الله تعالى لنوره ، ولا يمكن أن يضرب لنوره المعظم مثلاً تنبيهاً لخلقه إلا ببعض خلقه ، لأن الخلق لقصورهم لا يفهمون إلا بأنفسهم ومن أنفسهم ، ولولا ذلك ما عَرف الله إلاّ الله وحده ، قاله ابن العربي .

قال ابن عباس : هذا مَثَل نور الله وهُداه في قلب المؤمن كما يكاد الزيت الصافي يضيء قبل أن تمسه النار ، فإن مسّته النار زاد ضوؤه ، كذلك قلب المؤمن يكاد يعمل بالهدى قبل أن يأتيه العلم ، فإذا جاءه العلم زاده هُدًى على هدًى ونوراً عل نور ؛ كقول إبراهيم من قبل أن تجيئه المعرفة : "هذا رَبِّي" ، من قبل أن يخبره أحد أن له ربًّا ؛ فلما أخبره الله أنه ربُّه زاد هُدًى ، فقال له ربُّه : ﴿ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ العالمين ﴾ [البقرة : 131] .

ومن قال إن هذا مَثَل للقرآن في قلب المؤمن قال : كما أن هذا المصباح يستضاء به ولا ينقص فكذلك القرآن يُهتدَى به ولا ينقص ؛ فالمصباح القرآن ، والزجاجة قلب المؤمن ، والمِشْكاة لسانه وفهمه ، والشجرة المباركة شجرة الوحي .

﴿ يَكَادُ زَيْتُهَا يضياء وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ﴾ تكاد حجج القرآن تتّضِح ولو لم يقرأ .

﴿ نُّورٌ على نُورٍ ﴾ يعني أن القرآن نور من الله تعالى لخلقه ، مع ما أقام لهم من الدلائل والإعلام قبل نزول القرآن ، فازدادوا بذلك نوراً على نور .

ثم أخبر أن هذا النور المذكور عزيز ، وأنه لا يناله إلا من أراد الله هداه فقال : ﴿ يَهْدِي الله لِنُورِهِ مَن يَشَآءُ وَيَضْرِبُ الله الأمثالَ لِلنَّاسِ ﴾ أي يبيّن الأشباه تقريباً إلى الأفهام .

﴿ والله بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ أي بالمهدِيّ والضّال .

وروي عن ابن عباس أن اليهود قالوا : يا محمد ، كيف يَخْلُص نور الله تعالى من دون السماء ؛ فضرب الله تعالى ذلك مثلا لنوره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 13 صـ ﴾

(76/549)

وقال أبو حيان :

﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

النور في كلام العرب الضوء المدرك بالبصر ، فإسناده إلى الله تعالى مجاز كما تقول زيد كرم وجود وإسناده على اعتبارين ، إما على أنه بمعنى اسم الفاعل أي منوّر السموات والأرض ، ويؤيد هذا التأويل قراءة عليّ بن أبي طالب وأبي جعفر وعبد العزيز المكي وزيد بن عليّ وثابت بن أبي حفصة والقورصي ومسلمة بن عبد الملك وأبي عبد الرحمن السلمي وعبد الله بن عياش بن أبي ربيعة ﴿ نور ﴾ فعلاً ماضياً و ﴿ الأرض ﴾ بالنصب .

وإما على حذف أي ذو نور ، ويؤيده قوله ﴿ مثل نوره ﴾ ويحتمل أن يجعل نوراً على سبيل المدح ، كما قالوا فلان شمس البلاد ونور القبائل وقمرها ، وهذا مستفيض في كلام العرب وأشعارها .

قال الشاعر :

كأنك شمس والملوك كواكب . . .

وقال :

قمر القبائل خالد بن زيد . . .

وقال :

إذا سار عبد الله من مرو ليلة . . .

فقد سار منها بدرها وجمالها

ويروى نورها ، وأضاف النور إلى ﴿ السموات والأرض ﴾ لدلالة على سعة إشراقه وفشو إضاءته حتى يضيء له السموات والأرض ، أو يراد أهل السموات والأرض وأنهم يستضيئون به .

وقال ابن عباس : ﴿ نور السموات ﴾ أي هادي أهل السموات .

وقال مجاهد : مدبر أمور السموات .

وقال الحسن : منور السموات .

وقال أبي : الله به نور السموات أو منه نور السموات أي ضياؤها .

وقال أبو العالية : مزين السموات بالشمس والقمر والنجوم ، ومزين الأرض بالأنبياء والعلماء .

وقيل : المنزه من كل عيب امرأة نوار بريئة من الريبة والفحشاء .

وقال الكرماني : هو الذي يرى ويرى به مجاز وصف الله به لأنه يرى ويرى بسببه مخلوقاته لأنه خلقها وأوجدها .

والظاهر أن الضمير في ﴿ مثل نوره ﴾ عائد على الله تعالى .

واختلفوا في هذا القول ما المراد بالنور المضاف إليه تعالى .

فقيل : الآيات البينات في قوله ﴿ ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات ﴾ وقيل : الإيمان المقذوف في قلوب المؤمنين .

(77/549)

وقيل : النور هنا هو رسول الله (صلى الله عليه وسلم) .

وقيل : النور هنا المؤمن .

وقال كعب وابن جبير : الضمير في ﴿ نوره ﴾ عائد على محمد (صلى الله عليه وسلم) ، أي مثل نور محمد .

وقال أبيّ : هو عائد على المؤمنين وفي قراءته مثل نور المؤمن .

وروي أيضاً فيها مثل نور من آمن به .

وقال الحسن : يعود على القرآن والإيمان وهذه الأقوال الثلاثة عاد فيها الضمير على غير مذكور ، ونقلت المعنى المقصود بالآية بخلاف عوده على الله تعالى ، ولذلك قال مكي يوقف على ﴿ الأرض ﴾ في تلك الأقوال الثلاثة .

واختلفوا في هذا التشبيه أهو تشبيه جملة بجملة لا يقصد فيها إلى تشبيه جزء بجزء ومقابلة شيء بشيء ، أو مما قصد به ذلك أي مثل نور الله الذي هو هداه واتقانه صنعة كل مخلوق

وبراهينه الساطعة على الجملة كهذه الجملة من النور الذي تتخذونه أنتم على هذه الصفة التي هي أبلغ صفات النور الذي بين أيدي الناس ، أي مثل نور الله في الوضوح كهذا الذي هو منتهاكم أيها البشر .

وقيل : هو من التشبيه المفصل المقابل جزءاً بجزء ، وقرروه على تلك الأقوال الثلاثة أي ﴿ مثل نوره ﴾ في محمد أو في المؤمن أو في القرآن والإيمان ﴿ كمشكاة ﴾ فالمشكاة هو الرسول أو صدره ﴿ والمصباح ﴾ هو النبوة وما يتصل بها من علمه وهداه و ﴿ الزجاجة ﴾ قلبه .

والشجرة المباركة الوحي والملائكة رسل الله إليه ، وشبه الفصل به بالزيت وهو الحجج والبراهين والآيات التي تضمنها الوحي وعلى قول المؤمن فالمشكاة صدره و ﴿ المصباح ﴾ الأيمان والعلم .

و ﴿ الزجاجة ﴾ قلبه والشجرة القرآن وزيتها هو الحجج والحكمة التي تضمنها .

قال أبيّ : فهو على أحسن الحال يمشي في الناس كالرجل الحي يمشي في قبور الأموات ، وعلى قول الإيمان والقرآن أي مثل الإيمان والقرآن في صدر المؤمن في قلبه ﴿ كمشكاة ﴾ وهذا القول ليس في مقابلة التشبيه كالأولين ، لأن المشكاة ليست تقابل الإيمان .

وقال الزمخشري : أي صفة ﴿ نوره ﴾ لعجيبة الشأن في الإضاءة ﴿ كمشكاة ﴾ أي كصفة مشكاة انتهى .

ويظهر لي أن قوله ﴿ كمشكاة ﴾ هو على حذف مضاف أي ﴿ مثل نوره ﴾ مثل نور مشكاة وتقدّم في المفردات أن المشكاة هي الكوة غير النافذة ، وهو قول ابن جبير وسعيد بن عياض والجمهور .

وقال أبو موسى : المشكاة الحديدة والرصاصة التي تكون فيها الفتيل في جوف الزجاجة .

وقال مجاهد : المشكاة العمود الذي يكون المصباح على رأسه ، وقال أيضاً الحدائد التي تعلق فيها القناديل .

﴿ فيها مصباح ﴾ أي سراج ضخم ، والظاهر أن ﴿ الزجاجة ﴾ ظرف للمصباح لقوله ﴿ المصباح في زجاجة ﴾ وقدره الزمخشري في زجاج شامي ، وكان عنده أصفى الزجاج هو الشامي ولم يقيد في الآية .

وقرأ أبو رجاء ونصر بن عاصم ﴿ في زجاجة الزجاجة ﴾ بكسر الزاي فيهما ، وابن أبي عبلة ونصر بن عاصم في رواية ابن مجاهد بفتحها .

﴿ كأنها ﴾ أي كأن الزجاجة لصفاء جوهرها وذاتها وهو أبلغ في الإنارة ، ولما احتوت عليه من نور المصباح .

﴿ كوكب دري ﴾ قال الضحاك : هو الزهرة شبه الزجاجة في زهرتها بأحد الدراري من الكواكب المشاهير ، وهي المشتري ، والزهرة ، والمريخ ، وسهيل ونحو ذلك .

وقرأ الجمهور من السبعة نافع وابن عامر وحفص وابن كثير ﴿ دُرّي ﴾ بضم الدال وتشديد الراء والياء ، والظاهر نسبة الكوكب إلى الدر لبياضه وصفائه ، ويحتمل أن يكون أصله الهمز فأبدل وأدغم .

وقرأ قتادة وزيد بن عليّ والضحاك كذلك إلاّ أنهما فتحا الدال .

وروى ذلك عن نصر بن عاصم وأبي رجاء وابن المسيب .

وقرأ الزهري كذلك إلاّ أنه كسر الدال .

وقرأ حمزة كذلك إلاّ أنه همز من الدرء بمعنى الدفع ، أي يدفع بعضها بعضاً ، أو يدفع ضوؤها خفاءها ووزنها فعيل .

قيل : ولا يوجد فعيل إلاّ قولهم مريق للعصفر ودريء في هذه القراءة .

(79/549)

قيل : وسرية إذا قيل إنها مشتقة من السرور ، وأبدل من أحد المضعفات الياء فأدغمت فيها ياء فعيل ، وسمع أيضاً مريخ للذي في داخل القرن اليابس بضم الميم وكسرها .

وقيل : منه عليه .

وقيل : ﴿ دري ﴾ ووزنه في الأصل فعول كسبوح فاستثقل الضم فرد إلى الكسر ، وكذا قيل في سرته ودرته .

وقرأ أبو عمرو والكسائي كذلك إلاّ أنه كسر الدال وهو بناء كثير في الأسماء نحو سكين وفي الأوصاف سكير .

وقرأ قتادة أيضاً وأبان بن عثمان وابن المسيب وأبو رجاء وعمرو بن فائد والأعمش ونصر بن عاصم كذلك إلاّ أنه بفتح الدال .

قال ابن جني : وهذا عزيز لم يحفظ منه إلاّ السكينة بفتح السين وشدّ الكاف انتهى .

وفي الأبنية حكى الأخفش كوكب دريء من درأته ودرية وعليك بالسكينة والوقار عن أبي زيد .

وحكى الفراء بكسر السين .

وقرأ الأخوان وأبو بكر والحسن وزيد بن عليّ وقتادة وابن وثاب وطلحة وعيسى والأعمش ﴿ تُوقد ﴾ بضم التاء أي ﴿ الزجاجة ﴾ مضارع أوقدت مبيناً للمفعول ، ونافع وابن عامر وحفص كذلك إلاّ أنه بالياء أي ﴿ المصباح ﴾ وابن كثير وأبو عمرو ﴿ توقد ﴾ بفتح الأربعة فعلاً ماضياً أي ﴿ المصباح ﴾ .

والحسن والسلمي وقتادة وابن محيصن وسلام ومجاهد وابن أبي إسحاق والمفضل عن

عاصم كذلك إلاّ أنه بضم الدال مضارع ﴿ توقد ﴾ وأصله تتوقد أي ﴿ الزجاجة ﴾ .

وقرأ عبد الله وقد بغير تاء وشدد القاف جعله فعلاً ماضياً أي وقد المصباح .

وقرأ السلمي وقتادة وسلام أيضاً كذلك إلاّ أنه بالياء من تحت .

وجاء كذلك عن الحسن وابن محيصن ، وأصله يتوقد أي ﴿ المصباح ﴾ إلاّ أن حذف الياء في يتوقد مقيس لدلالة ما أبقى على ما حذف .

وفي ﴿ يوقد ﴾ شاذ جدّاً لأن الياء الباقية لا تدل على التاء المحذوفة ، وله وجه من القياس وهو حمله على يعد إذ حمل يعد وتعد وأعد في حذف الواو كذلك هذ لما حذفوا من تتوقد بالتاءين حذفوا التاء مع الياء وإن لم يكن اجتماع التاء والياء مستثقلاً .

(80/549)

﴿ من شجرة ﴾ أي من زيت شجرة ، وهي شجرة الزيتون .

﴿ مباركة ﴾ كثيرة المنافع أو لأنها تنبت في الأرض التي بارك فيها للعالمين .

وقيل : بارك فيها للعالمين .

وقيل : بارك فيها سبعون نبياً منهم إبراهيم عليه السلام ، والزيتون من أعظم الشجر ثمراً ونماء واطراد أفنان ونضارة أفنان .

وقال أبو طالب :

بورك الميت الغريب كما . . .

بورك نضر الرمان والزيتون

﴿ لا شرقية ولا غربية ﴾ .

قال ابن زيد : هي من شجر الشام فهي ليست من شرق الأرض ولا من غربها ، لأن شجر الشام أفضل الشجر .

وقال ابن عباس وعكرمة وقتادة وغيرهم : هي في منكشف من الأرض تصيبها الشمس طول النهار تستدير عليها ، فليست خالصة للشرق فتسمى ﴿ شرقية ﴾ ، ولا للغرب فتسمى ﴿ غربية ﴾ وقال الحسن : هذا مثل وليست من شجر الدنيا إذ لو كانت في الدنيا لكانت شرقية أو غربية .

وعن ابن عباس : أنها في درجة أحاطت بها فليست منكشفة لا من جهة الشرق ولا من جهة الغرب ، وهذا لا يصح عن ابن عباس لأنها إذا كانت بهذه الصفة فسد جناها .

وقال ابن عطية : إنها في وسط الشجر لا تصيبها الشمس طالعة ولا غاربة ، بل تصيبها بالغداة والعشي .

وقال عكرمة : هي من شجر الجنة .

وقال ابن عمر : الشجرة مثل أي إنها ملة إبراهيم ليست بيهودية ولا نصرانية .

وقيل : ملة الإسلام ليست بشديدة ولا لينة .

وقيل : لا مضحى ولا مفيأة ، ولكن الشمس والظل يتعاقبان عليها ، وذلك أجود لحملها وأصفى لدهنها .

و﴿ زيتونة ﴾ بدل من ﴿ شجرة ﴾ وجوز بعضهم فيه أن يكون عطف بيان ، ولا يجوز على مذهب البصريين لأن عطف البيان عندهم لا يكون إلاّ في المعارف ، وأجاز الكوفيون وتبعهم الفارسي أنه يكون في النكرات .

و﴿ لا شرقية ﴾ ﴿ ولا ﴾ على ﴿ غربية ﴾ على قراءة الجمهور بالخفض صفة لزيتونة .

وقرأ الضحاك بالرفع أي لا هي شرقية ولا غربية ، والجملة في موضع الصفة .

(81/549)

﴿ يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار ﴾ مبالغة في صفاء الزيت وأنه لإشراقه وجودته يكاد يضيء من غير نار .

والجملة من قوله ﴿ ولو لم تمسسه نار ﴾ حالية معطوفة على حال محذوفة أي ﴿ يكاد زيتها يضيء ﴾ في كل حال ولو في هذه الحال التي تقتضي أنه لا يضيء لانتفاء مس النار له ،

وتقدم لنا أن هذا العطف إنما يأتي مرتباً لما كان لا ينبغي أن يقع لامتناع الترتيب في العادة وللاستقصاء حتى يدخل ما لا يقدر دخوله فيما قبله نحو : "أعطوا السائل ولو جاء على فرس ، ردوا السائل ولو بظلف محرق" .

وقرأ الجمهور : ﴿ تمسسه ﴾ بالتاء وابن عباس والحسن بالياء من تحت ، وحسنه الفصل وأن تأنيث النار مجازي وهو مؤنث بغير علامة .

﴿ نور على نور ﴾ أي متضاعف تعاون عليه المشكاة والزجاجة والمصباح والزيت ، فلم يبق مما يقوى النور ويزيده إشراقاً شيء لأن المصباح إذا كان في مكان ضيق كان أجمع لنوره بخلاف المكان المتسع ، فإنه ينشر النور ، والقنديل أعون شيء على زيادة النور وكذلك الزيت وصفاؤه ، وهنا تم المثال .

ثم قال ﴿ يهدي الله لنوره من يشاء ﴾ أي لهداه والإيمان من يشاء هدايته ويصطفيه لها .

ومن فسر ﴿ النور ﴾ في ﴿ مثل نوره ﴾ بالنبوة قدر يهدي الله إلى نبوته .

وقيل : إلى الاستدلال بالآيات ، ثم ذكر تعالى أنه يضرب الأمثال للناس ليقع لهم العبرة والنظر المؤدّي إلى الإيمان ، ثم ذكر إحاطة علمه بالأشياء فهو يضع هداه عند من يشاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

فقولُه تعالى : ﴿ اللهُ نُورُ السموات والأرض ﴾ الخ

حينئذٍ استئنافٌ مَسوقٌ لتقريرِ ما فيها من البيانِ مع الإشعارِ بكونه في غاية الكمالِ على الوجه الذي ستعرفُه ، وأمَّا على الأوَّلِ فلتحقيقِ أنَّ بيانه تعالى ليس مقصُوراً على ما وردَ في السُّورة الكريمة بل هو شاملٌ لكلِّ ما يحقُّ بيانُه من الأحكام والشَّرائعِ ومباديها وغاياتها المترتِّبة عليها في الدُّنيا والآخرة وغير ذلك ممَّا له مدخلٌ في البيان وأنَّه واقعٌ منه تعالى على أتمِّ الوجوهِ وأكملِها حيث عبَّر عنه بالتَّنوير الذي هو أقوى مراتب البيانِ وأجلاها وعبَّر عن المنوِّر بنفس النُّور تنبيهاً على قوَّةِ التَّنوير وشدَّةِ التَّأثيرِ وإيذاناً بأنه تعالى ظاهرٌ بذاته ، وكلُّ ما سواه ظاهرٌ بإظهاره ، كما أنَّ النُّور نيِّرٌ بذاته وما عداه مستنير به وأضيف النُّور إلى السَّمواتِ والأرضِ للدِّلالةِ على كمال شيوع البيان المُستعار له وغاية شمولِه لكلِّ ما يليق به من الأمور التي لها مدخل في إرشاد النَّاس بوساطة بيان شمول المُستعار منه لجميع ما يقبله ويستحقُّه من الأجرام العُلويَّةِ والسُّفليَّةِ فإنَّهما قُطرانِ للعالم الجسمانيِّ الذي لا مظهر للنُّور الحسيِّ سواه أو على شمول البيان لأحوالهما وأحوال ما فيهما من الموجُودات ، إذ ما من موجودٍ إلا وقد بُيِّن من أحواله ما يستحقُّ البيانَ إمَّا تفصيلاً أو إجمالاً ، كيف لا ولا ريبَ في بيان كونِه دليلاً على وجود الصَّانعِ وصفاته وشاهداً بصحَّة البعثِ أو على تعلُّق البيان

بأهلهما كما قال ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما : هادي أهلِ السَّموات والأرضِ فهم بنوره يهتدون وبهداه من حَيرة الضَّلالةِ ينجُون ، هذا وأما حملُ التَّنوير على إخراجهِ تعالى للماهيَّاتِ من العدمِ إلى الوجود إذ هو الأصلُ في الإظهار كما أنَّ الإعدامَ هو الأصلُ في الإخفاء أو على تزيينِ السموات بالنيِّرينِ وسائر الكواكب وما يفيضُ عنها من الأنوار أو بالملائكة عليهم السَّلامُ وتزيين الأرض

(83/549)

بالأنبياءِ عليهم السَّلامُ والعلماء والمؤمنين أو بالنبات والأشجارِ أو على تدبيره تعالى لأمورهما وأمور ما فيهما فمما لا يلائمُ المقامَ ولا يساعدهُ حسنُ النِّظامِ .

﴿ مَثَلُ نُورِهِ ﴾ أي نورهِ الفائض منه تعالى على الأشياء المُستنيرة به وهو القرآنُ المبينُ كما يعرب عنه ما قبله من وصف آياته بالإنزال والتَّبيينِ وقد صرّح بكونهِ نوراً أيضاً في قوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُّبِيناً ﴾ وبه قال ابنُ عبَّاس رضي الله عنهُما والحسنُ وزيدُ بنُ أسلم رحمهم الله تعالى ، وجعلُه عبارةً عن الحقِّ وإن شاع استعارتُه كاستعارة الظُّلمة للباطل يأباه مقامُ بيان شأن الآياتِ ووصفِها بما ذُكر من التَّبيين مع عدم سبق ذكر الحقِّ ولأنَّ المعتبرَ في مفهوم النُّور هو الظُّهورُ والإظهار كما هو شأنُ القرآن الكريم .

وأما الحقُّ فالمعتبر في مفهومِه من حيثُ هو حقٌّ هو الظُّهورُ لا الإظهارُ ، والمراد بالمثل الصِّفةُ العجيبةُ أي صفة نوره العجيبة ﴿ كَمِشْكَاةٍ ﴾ أي صفة كُوَّة غير نافذةٍ في الجدار في الإنارة والتَّنويرِ ﴿ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾ سراجٌ ضخمٌ ثاقبٌ ، وقيل المشكاةُ الأُنبوبةُ في وسطِ القنديلِ والمصباحُ الفتيلةُ المشتعلةُ ﴿ المصباحُ فِى زُجَاجَةٍ ﴾ أي قنديلٍ من الزُّجاجِ الصَّافي الأزهرِ . وقُرِىء بفتح الزَّاي وكسرِها في الموضعينِ ﴿ الزجاجة كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ ﴾ متلألىءٌ وقَّادٌ شبيه بالدُّرِّ في صفائه وزُهرته . ودراري الكواكب عظامُها المشهورةُ . وقُرِىء دِرِّىء بدالٍ مكسورةٍ وراءٍ مشدَّدةٍ وياءٍ ممدودةٍ بعدها همزةٌ ، على أنَّه فِعيلٌ من الدَّرءِ وهو الدَّفعُ أي مبالغٌ في دفعِ الظَّلامِ بضوئِه أو في دفعِ بعضِ أجزاءِ ضيائِه لبعضٍ عندَ البريقِ واللَّمعانِ . وقُرِىء بضمِّ الدَّال ، والباقي على حالِه ، وفي إعادةِ المصباحِ والزُّجاجةِ معروفينِ إثرَ سبقهما مُنكرين والإخبار عنهما بما بعدهما مع انتظامِ الكلامِ بأنْ يقال كمشكاةٍ فيها مصباحٌ في زجاجةٍ كأنَّها كوكبٌ دُرِّيٌّ من تفخيمِ شأنهما ورفعِ مكانهما بالتَّفسيرِ إثرَ الإبهامِ والتَّفصيلِ بعدَ الإجمالِ وإثباتِ ما بعدهما لهما بطريقِ الإخبارِ المنبىءِ عن القصدِ الأصليِّ دونَ الوصفِ المبنيِّ على الإشارةِ إلى الثُّبوتِ في الجملةِ ما لا يخفى . ومحلُّ الجملةِ

الأُولى الرَّفعُ على أنَّها صفةٌ لمصباحٌ ، ومحلُّ الثَّانيةِ الجرُّ على أنَّها صفةٌ لزجاجةٍ واللاَّمُ مغنيةٌ عن الرَّابط كأنَّه قيل فيها مصباحٌ هو في زُجاجةٍ هي كأنَّها كوكبٌ دُرِّيٌّ .

(85/549)

﴿ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ ﴾ أي يبتدأُ إيقادُ المصباحِ من شجرةٍ ﴿ مباركة ﴾ أي كثيرةِ المنافعِ بأنْ رُويت ذبالتُه بزيتها ، وقيلَ إنَّما وُصفتْ بالبركةِ لأنَّها تنبتُ في الأرضِ التي باركَ اللَّهُ تعالى فيها للعالمينَ ﴿ زَيْتُونَةٍ ﴾ بدلٌ من شجرةٍ وفي إبهامِها ووصفِها بالبركةِ ثم الإبدالِ منها تفخيمٌ لشأنِها . وقُرِىء تُوقد بالتَّاء على أنَّ الضَّميرَ القائمَ مقامَ الفاعل للزُّجاجة دون المصباحِ . وقُرِىء توقَّدَ على صيغة الماضي من التَّفعُّلِ أي ابتداءُ ثقوب المصباح منها . وقُرِىء تَوَقَّدُ بحذف إحدى التَّاءين من تتوقدُ على إسناده إلى الزُّجاجةِ ﴿ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ ﴾ تقعُ الشَّمسُ عليها حيناً دُونَ حينٍ بل بحيثُ تقعُ عليها طولَ النَّهار كالتي على قُلَّة أو صحراء واسعةٍ فتقع الشَّمسُ عليها حالتَيْ الطُّلوع والغروب وهذا قولُ ابن عباسٍ رضي الله عنهما ، وسعيد بن جُبير ، وقتادة . وقال الفرَّاءُ والزَّجاجُ : لا شرقيَّة وحدها ولا غربيَّة وحدها لكنَّها شرقيَّةٌ وغربيَّةٌ أي تصيبها الشَّمسُ عند طلوعِها وعند غروبِها فتكون شرقيَّةً وغربيَّةً تأخذ حظَّها من الأمرينِ فيكون زيتُها أضوأ . وقيل لا نابتة في شرقِ

المعمُورة ولا في غربِها بل في وسطِها وهو الشَّامُ فإن زيوتَها أجودُ ما يكون وقيل لا في مَضحى تشرقُ الشَّمسُ عليها دائماً فتحرِقُها ولا في مَقْناةٍ تغيب عنها دائماً فتتركها نيّئةً . وفي الحديث : " لا خيرَ في شجرةٍ ولا في نباتٍ في مَقْناةٍ ولا خير فيهما في مَضْحى " .

(86/549)

﴿ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ﴾ أي هو في الصَّفاءِ والإنارةِ بحيثُ يكادُ يُضيءُ بنفسِه من غير مساسِ نارٍ أصلاً . وكلمة لو في أمثالِ هذه المواقع ليستْ لبيان انتفاء شيءٍ في الزَّمان الماضي لانتفاء غيره فيه فلا يُلاحظ لها جوابٌ قد حُذف ثقةً بدلالة ما قبلها عليه ملاحظةً قصديةً إلا عند القصدِ إلى بيان الإعرابِ على القواعد الصناعيةِ بل هي لبيان تحقُّقِ ما يفيده الكلامُ السَّابقُ من الحكم الموجبِ أو المنفيِّ على كل حالٍ مفروض من الأحوال المُقارنة له إجمالاً بإدخالِها على أبعدها منه إما لوجودِ المانع كما في قولِه تعالى : ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الموت وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾ وإما لعدم الشَّرط كما في هذه الآية الكريمة ليظهر بثبوتِه أو انتفائِه معه ثبوتُه أو انتفاؤُه مع ما عداه من الأحوالِ بطريق الأولويَّةِ لما أنَّ الشيءَ متى تحقَّقَ مع ما ينافيه من وجود المانعِ أو عدم الشَّرطِ فلأنْ يتحققَ بدون ذلك أولى ولذلك لا يُذكر معه شيءٌ آخرُ من سائر الأحوالِ ويكتفى عنه بذكر الواوِ

العاطفةِ للجُملة على نظيرتها المقابلةِ لها المتناولة لجميع الأحوالِ المغايرةِ لها عند تعدُّدِها وهذا معنى قولِهم أنها لاستقصاء الأحوالِ على سبيلِ الإجمال وهذا أمر مطَّرد في الخبر الموجب والمنفيّ فإنَّك إذا قلتَ : فلانٌ جوادٌ يُعطي ولو كان فقيراً أو بخيلٌ لا يُعطي ولو كان غنيًّا تريد بيان تحقُّقِ الإعطاء في الأوَّلِ وعدم تحقُّقِه في الثَّاني في جميع الأحوال المفروضة والتَّقديرُ يُعطي لو لم يكن فقيراً ، ولا يُعطي لو لم يكن غنيًّا فالجملة مع ما عُطفت هي عليه في حيّزِ النَّصبِ على الحاليَّةِ من المستكّنِ في الفعل الموجب أو المنفيّ أي يُعطي أو لا يُعطي كائناً على جميعِ الأحوال . وتقديرُ الآية الكريمة يكادُ زيتُها يضيءُ لو مسَّته نارٌ ولو لم تمسسه نارٌ أي يضيءُ

(87/549)

كائناً على كلِّ حال من وجود الشَّرطِ وعدمه وقد حُذفت الجملةُ الأولى حسبما هو المطَّردُ في الباب لدلالة الثَّانيةِ عليها دلالةً واضحةً ﴿ نُورٍ ﴾ خبرُ مبتدأ محذوفٍ . وقولُه تعالى : ﴿ على نُورٍ ﴾ متعلّق بمحذوفٍ هو صفة له مؤكّدةٌ لما أفاده التَّنكيرُ من الفخامة . والجملة فَذْلكةٌ للتَّمثيل وتصريحٌ بما حصلَ منه وتمهيدٌ لما يعقبه أي ذلك النُّور الذي عُبِّر به من القرآن ومُثِّلتْ صفتُه العجيبةُ الشَّأنِ بما فُصِّل من صفة المشكاة نورٌ عظيمٌ كائن على نور

كذلك لا على أنَّه عبارة عن نورٍ واحدٍ معيَّن ، أو غير معيَّنٍ فوق نور آخرَ مثله ولا عن مجموع نورينِ اثنينِ فقط بل عن نورٍ مُتضاعفٍ من غير تحديد لتضاعفه بحدَ مُعيَّنٍ ، وتحديدُ مراتبِ تضاعُف ما مُثِّل به من نورِ المشكاةِ بما ذُكر لكونِه أقصى مراتب تضاعفِه عادةً فإنَّ المصباحَ إذا كان في مكانٍ متضايق كالمشكاةِ كان أضواَ له وأجمعَ لنوره بسبب انضمامِ الشُّعاعِ المنعكس منه إلى أصلِ الشُّعاعِ بخلاف المكان المتَّسعِ فإنَّ الضَّوءَ ينبثُّ فيه وينتشرُ والقنديل أعونُ شيءٍ على زيادة الإنارةِ وكذلك الزَّيت وصفاؤه ، وليس وراء هذه المراتبِ ممَّا يزيد نورَها إشراقاً ويمدُّه بإضاءةٍ مرتبةٌ أُخرى عادةً هذا وجعل النُّورِ عبارةً عن النُّورِ المشبه به مما لا يليق بشأن التَّنزيلِ الجليل ﴿ يَهْدِى اللهُ لِنُورِهِ ﴾ أي يهدي هدايةً خاصَّةً موصِلةً إلى المطلوب حتماً لذلك النُّور المتضاعف العظيمِ الشَّأنِ .

(88/549)

وإظهارُه في مقام الإضمارِ لزيادة تقريرِه وتأكيدِ فخامتِه الذَّاتيَّةِ بفخامتِه الإضافيةِ النَّاشئةِ من إضافتِه إلى ضميره عزَّ وجلَّ ﴿ مَن يَشَآءُ ﴾ هدايتَه من عباده بأنْ يوفِّقَهم لفهم ما فيه من دلائلِ حقيقتِه وكونه من عند الله تعالى من الإعجاز والإخبارِ عن الغيبِ وغير ذلك من مُوجباتِ الإيمانِ به وفيه إيذانٌ بأنَّ مناطَ هذه الهدايةِ ومِلاكَها ليس إلا مشيئتَه تعالى وأنَّ

تظاهرَ الأسباب بدونها بمعزلٍ من الإفضاء إلى المطالب .

﴿ وَيَضْرِبُ اللهُ الأمثالَ لِلنَّاسِ ﴾ في تضاعيف الهداية حسبَما يقتضِي حالُهم فإنَّ له دخلاً عظيماً في باب الإرشاد لأنَّه إبرازٌ للمعقول في هيئة المحسوس وتصويرٌ لأوابدِ المعاني بصورة المأنُوسِ ولذلك مُثّل نورُه المعبَّر به عن القُرآن المُبين بنور المشكاة . وإظهارُ الاسمِ الجليلِ في مقام الإضمار للإيذانِ باختلاف حال ما أُسند إليه تعالى من الهدايةَ الخاصَّةَ وضربِ الأمثالِ الذي هو من قبيلِ الهداية العامَّةِ كما يُفصح عنه تعليقُ الأُولى بمن يشاءُ والثَّانيةِ بالنَّاس كافَّة ﴿ واللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ معقولاً كان أو محسوساً ظاهراً كان أو باطناً ، ومن قضيَّته أنْ تتعلقَ مشيئتُه بهداية مَن يليق بها ويستحقُّها مِن النَّاسِ دُونَ مَن عداهم لمخالفتِه الحكمةَ التي عليها مبْنى التَّكوينِ والتَّشريعِ وأنْ تكونَ هدايتُه العامَّة على فنونٍ مختلفةٍ وطرائقَ شتَّى حسبما تقتضيهِ أحوالُهم . والجملةُ اعتراضٌ تذييليٌّ مقررٌ لما قبله ، وإظهارُ الاسمِ الجليل لتأكيد استقلالِ الجملة والإشعارِ بعلَّةِ الحكم وبما ذُكر من اختلافِ حال المحكومِ به ذاتاً وتعلُّقاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 6 صـ ﴾

(89/549)

وقال الآلوسى :

﴿ اللهُ نُورُ السموات والأرض ﴾

النور في اللغة على ما قال ابن السكيت الضياء وهذا ظاهر في عدم الفرق بين النور والضياء ، وفرق بينهما جمع وإن كان إطلاق أحدهما على الآخر شائعاً فقال الإمام السهيلي في الروض في قول ورقة

: ويظهر في البلاد ضياء نور . . .

يقيم به البرية أن يموجا

إنه يوضح معنى النور والضياء وإن الضياء هو المنتشر عن النور والنور هو الأصل ، وفي التنزيل ﴿ فَلَمَّا أَضَاءتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ ﴾ [البقرة : 17] ﴿ وَهُوَ الذى جَعَلَ الشمس ضِيَاء والقمر نُوراً ﴾ [يونس : 5] لأن نور القمر لا ينتشر عنه ما ينتشر عن الشمس لا سيما في طرفي الشهر ، وقال الفلاسفة : الضياء ما يكون للشيء من ذاته والنور ما يفيض عليه من مقابلة المضىء وعلى هذا جاء فيما زعم إسلاميوهم قوله تعالى : ﴿ هُوَ الذى جَعَلَ الشمس ضِيَاء والقمر نُوراً ﴾ [يونس : 5] فإن اختلاف تشكلات القمر بالقرب والبعد من الشمس مع خسوفه وقت حيلولة الأرض بينه وبينها دليل على أن نوره فائض عليه من مقابلتها ، وأنت تعلم أن في هذا مقالاً لعلماء الإسلام وقد قدمنا ما فيه في غير هذا المقام ، ولعل الأولى في وجه الفرق ما تقدم آنفاً في كلام السهيلي .

وذكر بعض المحققين أنه يعلم من كلامهم أن لكل من النور والضياء جهة أبلغية فجهة أبلغية النور كونه أصلاً ومبدأ للضياء وجهة أبلغية الضياء أن الإبصار بالفعل بمدخليته .

(90/549)

وادعى بعضهم أن النور على الإطلاق أبلغ من الضياء للآية التي نحن فيها ، وفيه بحث يعلم إن شاء الله تعالى أثناء تفسيرها ، واعلم أن الفلاسفة اختلفوا في حقيقة النور فمنهم من زعم أنه أجسام صغار تنفصل عن المضيء وتتصل بالمستضيء وأبطل بعدة أوجه ، الأول : أنه لو كان جسماً متحركاً لكانت حركته طبيعية والحركة الطبيعية إلى جهة واحدة دون سائر الجهات لكن النور يقع على الجسم في كل جهة كانت له ، والثاني : أنه إذا دخل من كوة ثم سددناها دفعة فتلك الأجزاء النورانية إما أن تكون باقية في البيت فيلزم أن يكون البيت مستنيراً كما كان قبل السد وليس كذلك وإما أن تكون خارجة من الكوة قبل انسدادها وهو محال لأن السد كان سبب انقطاعها فلا بد أن يكون سابقاً عليه بالذات أو بالزمان وإما أن تكون غير باقية أصلاً فيلزم أن يكون تخلخل جسم بين جسمين موجباً انعدام أحدهما وهو معلوم الفساد ، والثالث : أن كون تلك الأجسام الصغار أنواراً إما أن يكون هو عين كونها أجساماً وهو باطل لأن المفهوم من النورية مغاير للمفهوم من الجسمية وإما أن

يكون مغايراً لها بأن تكون تلك الأجسام حاملة لتلك الكيفية منفصلة من المضيء متصلة بالمستضيء فإن لم تكن تلك الأجسام محسوسة فهو ظاهر البطلان لأنها حينئذ كيف تكون واسطة لإحساس غيرها وإن كانت محسوسة كانت ساترة لما وراءها ويجب أنها كلما ازدادت اجتماعاً ازدادت ستراً لكن الأمر بالعكس فإن النور كلما ازداد قوة ازداد إظهاراً ، والرابع : أن الشمس إذا طلعت من الأفق يستنير وجه الأرض كله دفعه ومن البعيد أن تنتقل تلك الأجزاء من الفلك الرابع إلى وجه الأرض في تلك اللحفظة اللطيفة ، ولا يخفى حاله على القول باستحالة الخرق على الأفلاك ، والخامس : أن انفصال الأجزاء من الأجرام الكوكبية يستلزم الذبول والانتقاص وخلو مواضعها عن تمام مقدارها أو مقدار أجزائها أو كونها دائمة التحليل مع إيراد البدل عما يتحلل عن جرمها فتكون

(91/549)

أجسامها أجساماً مستحيلة غذائية فاسدة وذلك محال في الفلكيات .

وتعقبها بعض متأخريهم بأنها في غاية الضعف أما الأول : فلأن كون النور جسماً لا يستلزم كونه متحركاً ولا كون حدوثه بالحركة بل هو مما يوجد دفعة بلا حركة ، وأما الثاني : فلقائل أن يقول : إن قيام المجعول بلا مادة إنما يكون بالفاعل الجاهل إياه مع اشتراط عدم الحجاب

المانع عن الإفاضة فإذا طرأ المانع لم تقع الإفاضة فينعدم المفاض بلا مادة باقية عنه لأن وجوده لم يكن بشركة المادة فكذا عدمه فعند انسداد الباب المانع عن الإفاضة ينعدم الشعاع عن البيت دفعة ، ولا فرق في ذلك بين كونه عرضاً أو جوهراً والسر فيهما جميعاً أن النور مطلقاً ليس حصوله من جهة انفعال المادة وشركة الهيولي كسائر الجواهر والاعراض الانفعاليات ولذلك لا ينعدم شيء منها دفعة لو فرض حجاب بنيها وبين المبدأ الفاعلي إلا بعد زمان واستحالة .

وأما الذي ذكر ثالثاً فجوابه أن المغايرة في المفهوم لا تنافي الاتحاد والعينية في الوجود فما ذكر مغالطة من باب الاشتباه بين مفهوم الشيء وحقيقته ، وأما المذكور رابعاً وخامساً فلأن مبناه على الانفصال والقطع للمسافة لا على مجرد الجوهرية والجسمية .

هذا وذهب بعضهم إلى أنه عرض من الكيفيات المحسوسة وقالوا : وغني عن التعريف كسائر المحسوسات ، وتعريفه بأنه كمال أول للشفاف من حيث أنه شفاف أو بأنه كيفية لا يتوقف الإبصار بها على الأبصار بشيء آخر تعريف بما هو أخفى وكأن المراد به التنبيه على بعض خواصه .

(92/549)

ومن هئلاء من قال : إنه نفس ظهور اللون ، ومنهم من قال بمغايرتهما واستدلوا بأوجه ، الأول : أن ظهور اللون إشارة إلى تجدد أمر فهو إما اللون أو صفة نسبية أو غير نسبية والأول باطل لأن النور إما أن يجعل عبارة عن تجدد اللون أو اللون المتجدد ، والأول : يقتضي أن لا يكون مستنيراً إلا في آن تجدده ، والثاني : يوجب كون الضوء نفس اللون فلا يبقى لقولهم : الضور هو ظهور اللون معنى ، وإن جعلوا الضوء كيفية ثبوتية زائدة على ذات اللون وسموه بالظهور فذلك نزاع لفظي ، وإن زعموا أن ذلك الظهور تجدد حالة نسبية فهو باطل لأن الضوء أمر غير نسبي وإلا لكان أمراً عقلياً واقعاً تحت مقولة المضاف فلم يكن محسوساً أصلاً لكن الحس البصري مما ينفعل عنه ويتضرر بالشديد منه حتى يبطل .

والأمور الذهنية لا تأثر مثل هذا التأثير فإذا لم يكن أمراً نسبياً لم يمكن تفسيره بالحالة النسبية ، الثاني : أن البياض قد يكون مضيئاً مشرقاً وكذا السواد فلو كان ضوء كل منهما عين ذاته لزم أن يكون بعض الضوء ضد بعضه وهو محال لأن ضد الضوء الظلمة ، والثالث : أن اللون يوجد بدون الضوء كما في الجسم الملون في الظلمة وكذا الضوء يوجد بدن اللون كما في البلور إذا وقع عليه الضوء فهما متغايران لوجود كل منهما بدون الآخر ، والرابع : أن الجسم الأحمر مثلاً لمضيء إذا انعكس عنه إلى مقابله فتارة ينعكس الضوء عنه إلى جسم آخر وتارة ينعكس منه اللون والضوء معاً إذا قوياً حتى يحمر المنعكس إليه فلو كان مجرد ظهور اللون لاستحال أن يفيد غيره لمعاناً ساذجاً ، وليس لقائل أن يقول : هذا البريق عبارة عن

إظهار اللون في ذلك القابل لأنه يقال : فلماذا إذا اشتد لون الجسم المنعكس منه ضوؤه أخفى ضوء المنعكس إليه وأبطله وأعطاه لون نفسه .

(93/549)

وقال بعض المتأخرين : استقر الرأي على أن النور المحسوس بما هو محسوس عبارة عن نحو وجود الجوهر المبصر الحاضر عند النفس في غير هذا العالم وأما الذي في الخارج بإزائه فلا يزيد وجوده على وجود اللون والأوجه التي ذكرت لمغايرتهما مقدوحة ، أما الوجه الأول : فهو مقدوح بأن ظهور اللون عبارة عن وجوده وهو صفة حقيقية من شأنها أن ينسب ويضاف إلى القوة المدركة وبهذا الاعتبار يقع له التجدد قولهم : يوجب أن يكون الضوء نفس اللون قلنا : نعم ولكنهما متغايران بالاعتبار كما أن الماهية والوجود في كل شيء متحدان بالذات متغايران بالاعتبار فإن النور والضوء يرجع معناه إلى وجود خاص عارض لبعض الأجسام والظلمة عبارة عن عدم ذلك الوجود الخاص بالكلية والظل عبارة عن عدمه في الجملة واللون عبارة عن امتزاج يقع بين حامل هذا الوجود النوري وحامل عدمه على أنحاء مختلفة فليست الألوان إلا مراتب تراكيب الأنوار والأدلة الموردة على أبطال ذلك ضعيفة فعلى هذا صح قولهم : النور هو ظهور اللون وصح أيضاً قول من يقول إنه غير الولن

لأن النور بما هو نور لا يختلف إذ لا يعتبر فيه امتزاج ولا شوب مع عدم أو ظلمة والألوان مختلفة ، وأما الوجه الثاني : فهو أيضاً مندفع بما مهد وبأن اللون وإن لم يكن غير النور إلا أن مراتب الأنوار مختلفة شدة وضعفاً ، ومع هذا الاختلاف قد تختلف بوجوه أخر بحسب تركيبات وامتزاجات كثيرة تقع بين أعداد من النور وإمكانها وفعليتها وأصلها وفرعها واعداد من الظلمة أعني عدم ذلك النور وإملكها وفعليتها وأصلها وفرعها فإن هذه الألوان أمور رمادية في الأكثر أو متعلقة بها والمادة منبع الانقسام والتركيب بين الوجودات والإعدام والإمكانات فليس بعجب أن يحصل من ضروب تركيبات النور بالظلمة هذه الألوان التي نراها فتقع تلك الأقسام في محالها على الوجه المذكور ثم يقع عليها نور آخر بمقابلة المنير .

(94/549)

ومن قال بأن النور عين اللون لم يقل بأن كل نور عين كل لون كما أن من قال بأن الوجود عين الماهية لم يقل بأن كل وجود عين كل ماحية ليلزمه أن لا يطرد وجود على وجود ولا تضاد وجود لوجود فالألوان متخالفة الأحكام وبعضها أمور متضادة لكن بما هي ألوان لا بما هي أنوار كما أن الموجودات متخالفة الأحكام وبعضها أشياء متضادة لكن بما هي ماهيات لا بما هي موجودات مع أن الوجود والماهية واحد ، وأما الوجه الثالث : فسبيل دفعه سهل

بما بين وكذا الوجه الرابع بأدنى أعمال روية فإن عدم ظهور اللون قد يكون لضعف اللمعان الواقع على شيء وقد يكون لشدة اللمعان فالواقع على المقابل من عكس المضيء الملون قد يكون ضوءه فقط وذلك عن قصور الضوء واللون أو قصور استعداد القابل المقابل وقد يكون كلاهما لقوتهما وقوة استعداد المنعكس إليه ، على أن الكلام في مباحث العكوس طويل ، وكون المنعكس من الجسم المضيء إلى جسم آخر ضوءه دون لونه ربما كان لأجل صقالته فإن الصقيل قد يكون ذا لون وضوء لكن المنعكس منه إلى مقابله ليس إلا ما حصل من نير آخر بتوسطه على نسبة وضعية مخصوصة بنيهما له إليهما لا اللون والضوء اللذان يستقران فيه فالمنعكس في ذلك المقابل ليس إلا الضوء فقط من ذلك النير لا من المنعكس منه إلا أن يكون المنعكس إليه أيضاً جسماً صقيلاً فيقع فيه حكاية منهما أي الضوء واللّون أو من أحدهما أيضاً .

هذا غاية ما قالوه في النور المحسوس الذي يظهر به الأجسام على الأبصار ؛ ولهم في النور إطلاق آخر وهو الظاهر بذاته والمظهر لغيره وقالوا : هو بهذا المعنى مساو للوجود بل نفسه فيكون حقيقة بسيطة كالوجود منقسماً كانقسامه ، فمنه نور واجب لذاته قاهر على ما سواه ، ومنه أنوار عقلية .

ونفسية .

وجسمية ، والواجب تعالى نور الأنوار غير متناهى الشدة وما سواه سبحانه أنوار متناهية الشدة بمعنى أن فوقها ما هو أشد منها وإن كان بعضها كالأنوار العقلية لا تقف آثارها عند حد ، والكل من لمعات نوره عز وجل حتى الأجسام الكثيفة فإنها أيضاً من حيث الوجود لا تخلو عن نور لكنه مشوب بظلمات الاعدام والامكانات ، إذا علمت هذا فاعلم أن إطلاق النور على الله سبحانه وتعالى بالمعنى اللغوي والحكمي السابق غير صحيح لكمال تنزهه جل وعلا عن الجسمية والكيفية ولوازمهما ، وإطلاقه عليه سبحانه بالمعنى المذكور وهو الظاهر بذاته والمظهر لغيره قد جوزه جماعة منهم حجة الإسلام الغزالي فإنه قدس سره بعد أن ذكر في رسالته مشكاة الأنوار معنى النور ومراتبه قال : إذا عرفت أن النور يرجع إلى الظهور والإظهار فاعلم أن لا ظلمة أشد من كتم العدم لأن المظلم سمي مظلماً لأنه ليس بظاهر للأبصار مع أنه موجود في نفسه فما ليس موجوداً أصلاً كيف لا يستحق أن يكون هو الغاية في الظلمة .

(96/549)

وفي مقابلته الوجود وهو النور فإن الشيء ما لم يظهر في ذاته لا يظهر لغيره ، والوجود ينقسم إلى ما للشيء من ذاته وإلى ماله من غيره ، فماله الوجود من غيره فوجوده مستعار لا قوام له بنفسه بل إذا اعتبر ذاته من حيث ذاته فهو عدم محض وإنما هو وجود من حيث نسبته إلى غيره وذلك ليس بوجود حقيقي ، فالوجود الحق هو الله تعالى كما أن النور الحق هو الله عز وجل ، وقد قال قبل هذا : أقول ولا أبالي إن إطلاق اسم النور على غير النور الأول مجاز محض إذ كل ما سواه سبحانه إذا اعتبر ذاته فهو في ذاته من حيث ذاته لا نور له بل نورانيته مستعارة من غيره ولا قوام لنورانيته المستعارة بنفسها بل بغيرها ونسبة المستعار إلى المستعير مجاز محض ، وفسر النور في هذه الآية أعني قوله تعالى : ﴿ اللهُ نُورُ السموات والأرض ﴾ بذلك ، ثم أشار إلى وجه الإضافة إلى ﴿ السموات والأرض ﴾ بقوله : لا ينبغي أن يخفى عليك ذلك بعد أن عرفت أنه تعالى هو النور ولا نور سواه وإيه كل الأنوار والنور الكلي لأن النور عبارة عما تنكشف به الأشياء وأعلى منه ما تنكشف به وله ومنه وليس فوقه نور منه اقتباسه واستمداده بل ذلك له في ذاته لذاته لا من غيره ، ثم عرفت أن هذا لا يتصف به إلا النور الأول ، ثم عرفت أن السموات والأرض مشحونة نوراً من طبقتي النور أعني المنسوب إلى البصر والمنسوب إلى البصيرة أي إلى الحسن والعقل كنور الكواكب وجواهر الملائكة وكالأنوار المشاهدة المنبسطة على كل ما على الأرض وكأنوار النبوة والقرآن إلى غير ذلك .

وهذا منزع صوفي والصوفية لا يتحاشون من القول بأنه سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً هو الكل بل هو هو لا هوية لغيره إلا بالمجاز ويقولون : لا إله إلا الله توحيد العوام ولا إله إلا هو توحيد الخواص لأنه أتم وأخص وأشمل وأحق وأدق وأدخل لصاحبه في الفردانية المحضة والوحدانية الصرفة ، وقد قال بذلك الغزالي في رسالته المذكورة أيضاً ، وأنت تعلم أنه مما لا يهتدي إليه بنور الاستدلال بل هو طور وراء طور العقل لا يهتدي إليه بنور الله عز وجل .

وجوز بعض المحققين كون المراد من النور في الآية الموجود كأنه قيل : الله موجد السموات والأرض ، ووجه ذلك بأنه مجاز مرسل باعتبار لازم معنى النور وهو الظهور في نفسه وإظهاره لغيره وقيل : هو استعارة والمستعار منه النور بمعنى الظاهر بنفسه المظهر لما سواه والمستعار له الواجب الوجود الموجد لما عداه ، وكون المراد به مفيض الإدراك ومعطيه مجازاً مرسلاً أو استعارة والكلام على حذف مضاف أي نور أهل والسموات والأرض ، وهذا قريب مما أخرجه ابن جرير .

وابن المنذر .

وابن أبي حاتم .

والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال : الله نور السموات والأرض هادي أهل السموات والأرض وهو وجه حسن ، وجاء في رواية أخرى أخرجها ابن جرير عنه رضي الله تعالى عنه فسر النور بالمدبر فقال : الله نور السموات والأرض يدبر الأمر فيهما ، وروى ذلك عن مجاهد أيضاً ، وجعل ذلك بعضهم من التشبيه البليغ .

ووجه الشبه كون كل من التدبير والنور سبب الاهتداء إلى المصالح .

وجوز أن يكون هناك استعارة تصريحية .

(98/549)

وتعقب بأن ذكر طرفي التشبيه وهو الله تعالى والنور ينافي ذلك وأجيب بأن ذكرهما إنما ينافيه إذا كان على وجه ينبىء عن التشبيه وكان كل من المشبه والمشبه به مذكوراً بعينه وهنا لم يشبه الله سبحانه بالنور بل شبه المدبر به وذكر جزئي يصدق عليه المشبه أو كلي يشمله لا ينافي ذلك كما أشار إليه "صاحب الكشاف" في مواضع منه وصرح به أهل المعاني ، وقيل : المراد به المنزه من كل عيب ، ومن ذلك قولهم : امرأة نوار أي بريئة من الريبة

بالفحشاء وهو من باب المجاز أيضاً ، وقيل : الكلام على حذف مضاف كما في زيد كرم أي ذو نور ، ويؤيده كما قيل قوله تعالى بعد ﴿ مَثَلُ نُورِهِ ﴾ ﴿ وَيَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ ﴾ .

وقيل : نور بمعنى منور وروى ذلك عن الحسن .

وأبي العالية .

والضحاك وعليه جماعة من المفسرين ، ويؤيده قراءة بعضهم ﴿ منور ﴾ وكذا قراءة علي كرم الله تعالى وجهه .

وأبي جعفر .

وعبد العزيز المكي .

وزيد بن علي .

وثابت بن أبي حفصة .

والقورصي .

ومسلمة بن عبد الملك .

وأبي عبد الرحمن السلمي .

وعبد الله بن عباس بن أبي ربيعة ﴿ مِن نُورٍ ﴾ فعلاً ماضياً ﴿ والأرض ﴾ بالنصب ، وتنويره سبحانه السموات والأرض قيل بالشمس والقمر وسائر الكواكب ونسب إلى الحسن ومن معه ، وقيل : تنوير السموات بالملائكة عليهم السلام وتنوير الأرض بالأنبياء

عليهم السلام والعلماء ونسب إلى أبي بن كعب ، والتنوير على الأول حسي وعلى الثاني عقلي .

وقيل وهو الذي اختاره : تنويره سبحانه إياهما بما فيهما من الآيات التكوينية والتنزيلية الدالة على وجوده ووحدانيته وسائر صفاته عز وجل والهادية إلى صلاح المعاش والمعاد ، والجملة استئناف مسوق إما لتحقيق أن بيانه تعالى المأذن به قوله سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ ءايات مبينات ﴾ [النور : 34] الآية ليس مقصوراً على ما ورد في هذه السورة الكريمة .

(99/549)

وإما لتقرير ما في القرآن الجليل من البيان ، ويتأتى نحو هذا على بعض الأقوال السابقة في بيان المراد بالنور وهو وجه قوي في مناسبة الآية لما قبلها ولا يكاد يظهر مثله على بعض آخر منها .

وذكر العلامة الطيبي في بيان المناسبة كلاماً فيه الغث والسمين إن أردته فارجع إليه .

وتخصيص السموات والأرض بالذكر لأنهما المقر المعروف للمكلفين المحتاجين لما يدلهما ويهديهما لما سبق .

وقال العلامة البيضاوي بعد ذكر عدة احتمالات في المراد بالنور : إن إضافته إليهما للدلالة على سعة إشراقه أو لاشتمالهما على الأنوار الحسية والعقلية وقصور الإدراكات البشرية عليهما وعلى المتعلق بهما والمدلول لهما ، وقيل المراد بهما العالم كله كإطلاق المهاجرين والأنصار على جميع الصحابة رضي الله تعالى عنهم .

وتعقب بأن هذا من إطلاق اسم البعض على الكل مجازاً وقد اشترط في التلويح أن يكون الكل مركباً تركيباً حقيقياً ولم يثبت في اللغة إطلاق الأرض على مجموع الأرض والسماء والإنسان على الآدمي والسبع .

وأجيب بأنه لا يتعين كونه مجازاً لجواز كونه كناية ولو سلم فيما في التلويح غير مسلم أو هو أغلبي ، فقد ذكر الزمخشري في قوله تعالى : ﴿ لاَ يخفى عَلَيْهِ شَىْءٌ فِي الأرض وَلاَ فِى السماء ﴾ [آل عمران : 5] أنه عبر عن جميع العالم بالسماء والأرض ، وقال العلامة في شرحه : إنه من إطلاق الجزء على الكل فالمعنى حينئذ الله نور العالم كله ﴿ مَثَلُ نُورِهِ ﴾ أي أدلته سبحانه العقلية والسمعية في السموات والأرض التي هدى بها من شاء إلى ما فيه صلاحه وحكى هذا عن أبي مسلم وينتظم ذلك القرآن انتظاماً أولياً ، وعن ابن عباس . والحسن .

وزيد بن أسلم أن المراد بالنور هنا القرآن كما يعرب عنه ما قبل من وصف آياته بالأنزال والتبيين ، وقد صرح بكونه نوراً أيضاً في قوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُّبِيناً ﴾ [النساء : 174] وقيل المراد به الحق فقد جاء استعارة النور له كاستعارة الظلمة للباطل في قوله سبحانه : ﴿ اللهُ وَلِيُّ الذين ءامَنُواْ يُخْرِجُهُم مّنَ الظلمات إِلَى النور ﴾ [البقرة : 257] أي من أنواع الباطل إلى الحق ووجه الشبه الظهور ، ومن أمثالهم الحق أبلج ، ويكفى ذلك في جواز الاستعارة ولا تتوقف على تحقق ما في النور من معنى الإظهار في الحق ، نعم إذا تحقق ذلك أيضاً فهو نور على نور لكن رجح ضعف تفسيره بما ذكر دون القرآن بأنه يأباه مقام بيان شأن الآيات ووصفها بما ذكر من التبيين مع عدم سبق ذكر الحق .

وفي "الكشف" المراد بالحق الذي فسر النور به ما يقابل الباطل وهو يتناول التوحيد والشرائع وما دل عليه بدليل السمع والعقل ، وليس المراد به كون السموات والأرض دليلين على وجود فاطرهما بل ذلك أيضاً داخل في عموم اللفظ انتهى ، ويضعف عليه أمر هذا التضعيف ، وقيل المراد به الهدى الذي دل عليه الآيات المبينات ، وقيل : الهدى مطلقاً ، فقد أخرج ابن جرير .

وابن المنذر .

وابن أبي حاتم .

والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس أنه قال : مثل نوره مثل هذاه في قلب المؤمن ، وأخرج ابن جرير عن أنس قال : إن إلهي يقول نوري هداي ؛ وذكر بعضهم أن تفسيره بالهدي مختار الأكثرين وأن تفسيره بالحق بالمعنى العام يوافقه ، وقيل : المراد به المعارف والعلوم التي أفاضها عز وجل على قلب المؤمن وإضافة ذلك إليه سبحانه لأنه مفاضه تعالى ، وعن أبي بن كعب .

والضحاك تفسيره بالايمان الذي أعطاه سبحانه المؤمن ووفقه إليه .

(101/549)

وجاء في بعض الروايات عن ابن عباس تفسيره بالطاعات التي حلى بها جل شأنه قلب المؤمن فيشمل الايمان وسائر الأعمال القلبية الحميدة ، وقيل المراد بنوره رسوله محمد صلى الله عليه وسلم وقد جاء إطلاق النور عليه عليه الصلاة والسلام في قوله تعالى : ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴾ [المائدة : 15] على قول ، وقيل : غير ذلك مما ستعلمه إن شاء الله تعالى ، والضمير على جميع هذه الأقوال راجع إليه تعالى كما هو الظاهر .

وجوز رجوع الضمير إلى المؤمن وروى ذلك عن عكرمة وهو إحدى الروايات وصححها

الحاكم عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما وروى أيضاً عن أبي بن كعب بل أخرج عبد بن حميد .

وابن الانباري في المصاحف عن الشعبي أنه قال قرأ أبي بن كعب ﴿ مَثَلُ نُورِهِ المؤمن ﴾ وأخرج أبو عبيد .

وابن المنذر عن أبي العالية أن أبياً قرأ ﴿ مَثَلُ نُورِهِ مَنْ ءامَنَ بِهِ ﴾ أو قال : ﴿ مَثَلُ مَنْ ءامَنَ بِهِ ﴾ .

وفي "البحر" روى عن أبي أنه قرأ ﴿ مَثَلُ نُورِهِ المؤمنين ﴾ وقيل : الضمير راجع إلى محمد صلى الله عليه وسلم وروى ذلك جماعة عن ابن عباس عن كعب الاحبار ، وحكاه أبو حيان عن ابن جبير أيضاً ، وقيل : هو راجع إلى القرآن ، وقيل : إلى الايمان ، ولا يخفى أن رجوع الضمير إلى غير مذكور في الكلام إذا لم يكن في الكلام ما يدل عليه أو كان لكن كانت دلالته عليه خفية خلاف الظاهر جداً لا سيما إذا فات المقصود من الكلام على ذلك ، والمراد بالمثل الصفة العجيبة أي صفة نوره سبحانه العجيبة الشأن ﴿ كَمِشْكَاةٍ ﴾ أي كصفتها في الإنارة والتنوير ، وقال أبو حيان : أي كنور مشكاة وهي الكوة غير النافذة كما قال ابن عباس .

وأبو مالك .

وابن جبير .

وسعيد بن عياض والجمهور ، وقال أبو موسى : هي الحديدة أو الرصاصة التي تكون فيها الفتيلة في جوف الزجاجة وعن مجاهد أنها الحديدة التي يعلق بها القنديل وهو كما ترى ، والمعول عليه قول الجمهور ، وعن ابن عطية أنه أصح الأقوال وعلى جميعها هو لفظ حبشي معرب كما قال ابن قتيبة .

والكلبي .

وغيرهما ، وقيل : رومي معرب ، وقال الزجاج كما في "مجمع البيان" : يجوز أن يكون عربياً فيكون مفعلة والأصل مشكوة فقلبت الواو ألفاً لتحركها وانفتاح ما قبلها وإلى أن أصل ألفها الواو ذهب ابن جني ، واستدل عليه بأن العرب قد نحوا بها منحاة الواو كما فعلوا بالصلاة .

وقرأ الكسائي برواية الدوري بالإمالة ﴿ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾ سراج ضخم ثاقب ، وقيل الفتيلة المشتعلة ﴿ المصباح فِى زُجَاجَةٍ ﴾ في قنديل من الزجاج الصافي الأزهر وضم الزاي لغة الحجاز وكسرها وفتحها لغة قيس ، وبالفتح قرأ أبو رجاء ونصر بن عاصم في رواية ابن مجاهد .

وقرأ بعضهم بالكسر أيضاً وكذا قرىء بهما في قوله تعالى : ﴿ الزجاجة كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ

﴿ مضيء متلألىء كالزهرة في صفائه وزهرته منسوب إلى الدر فوزنه فعلي ، وجوز أن يكون أصله درىء بهمزة آخره كما قرأ به حمزة وأبو بكر فقبلت ياء وأدغمت في الياء فوزنه فعيل وهو من الدرء بمعنى الدفع فإنه يدفع الظلام بضوئه أو يدفعه بعض ضوئه بعضاً من لمعانه ، وجوز أن يكون من الدرء بمعنى الجري وليس بذاك ومثله ما قيل إنه من درأ إذا طلع بغتة وفاجأ ولا يخفى على المتتبع أن فعيلاً قليل في كلامهم ففي اللباب فعيل غريب لا نظير له إلا مريق لحب العصفر أو ما سمن من الخيل وعلية وسرية وذرية قاله أبو علي ، وفي "البحر" سمع أيضاً مريخ للذي في داخل القرن اليابس وفيه لغتان ضم الميم وكسرها .

وقال الفراء : لم يسمع إلا مريق وهو أعجمي وسيبويه عد ذلك من أبنية العرب ولم يثبت بعضهم هذا الوزن أصلاً .

(103/549)

وقال أبو عبيد : أصل ﴿ درىء ﴾ دروء كسبوح فجعلت الضمة كسرة للاستثقال والواو ياء لانكسار ما قبلها كما قالوا في عتوعتي فوزنه فعول وكذا قيل في سرية وذرية ، وجعل بعضهم سرية من السر وهو النكاح أو الإخفاء والضم من تغييرات النسب فوزنه فعلية كما في "الصحاح" ، والأخفش يرى أنه من السرور وقد أبدلت الراء الأخيرة ياء وهو معهود في

الفعل فقد قالوا : تسررت جارية وتسريت كما قالوا : تظننت وتظنيت فوزنه على هذا كما قال الخفاجي فعليلة ، وجعل بعضهم ذرية نسبة إلى الذر على غير القياس لإخراجهم كالذر من ظهر آدم عليه السلام .

وقرأ قتادة .

وزيد بن علي .

والضحاك ﴿ كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ ﴾ بفتح الدال وروى ذلك عن نصر بن عاصم .

وأبي رجاء وابن المسيب .

وقرأ الزهري ﴿ دُرِّيٌّ ﴾ بكسر الراء وقرأ أبو عمرو والكسائي بالكسرة والهمزة آخره ، وهو بناء كثير في الأسماء نحو سكين وفي الأوصاف نحو سكير .

وقرأ قتادة أيضاً .

وأبان بن عثمان وابن المسيب .

وأبو رجاء .

وعمرو بن قائد .

والأعمش .

ونصر بن عاصم ﴿ دريء ﴾ بالهمز وفتح الدار ، قال ابن جني : وهذا عزيز لم يحفظه منه إلا السكينة بفتح السين وشد الكاف في لغة حكاها أبو زيد .

وقرء ﴿ دءرى ﴾ بتقديم الهمزة ساكنة على الراء وهي من نادر الشواذ وفي إعادة ﴿ المصباح ﴾ معرفين أثر سبقهما منكرين والاخبار عنهما بما بعدهما مع انتظام الكلام بأن يقال : كمشكاة فيه مصباح في زجاجة كأنها كوكب درى من تفخيم شأنهما ورفع مكانتهما بالتفسير إثر الإبهام والتفصيل بعد الإجمال وباثبات ما بعدهما لهما بطريق الاخبار المنبىء عن القصد الأصلي دون الوصف المنبي عن الإشارة إلى الثبوت في الجملة ما لا يخفى ، والجملة الأولى في محل الرفع على أنها صفة لمصباح والجملة الثانية في محل الجر على أنها صفة لزجاجة واللام مغنية كما في "مجمع البيان" وإرشاد العقل السليم عن الرابط كأنه قيل : فيها مصباح هو في زجاجة هي كأنها كوكب دري ﴿ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ ﴾ أي يبتدأ إيقاد المصباح من شجرة ﴿ مباركة ﴾ أي كثيرة المنافع بأن رويت ذبالته بزيتها ، وقيل إنما وصفت بالبركة لأنها تنبت في الأرض التي بارك الله تعالى فيها للعالمين ، وقيل بارك فيها سبعون نبياً منهم إبراهيم عليه السلام ﴿ زَيْتُونَةٍ ﴾ بدل من ﴿ شَجَرَةٍ ﴾ وقال أبو علي : عطف بيان عليها وهو مبني على مذهب الكوفيين من تجويزهم عطف البيان في النكرات ، وأما البصريون فلا يجوزونه إلا في المعارف .

وفي إبهام الشجرة ووصفها بالبركة ثم الإبدال عنها أو بيانها تفخيم لشأنها ، وقد جاء في الحديث مدح الزيت لأنه منها ، أخرج عبد بن حميد في مسنده .

والترمذي وابن ماجه عن عمر رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ائتدموا بالزيت وادهنوا به فإنه من شجرة مباركة " .

(105/549)

وأخرج البيهقي عن عائشة رضي الله تعالى عنها أنها ذكر عندها الزيت فقالت : "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمر أن يؤكل ويدهن ويسعط به ويقول أنه من شجرة مباركة " وهو في حد ذاته ممدوح ، ففي الحديث أنه مصحة من الباسور وذكر له الأطباء منافع كثيرة ، وكان صلى الله عليه وسلم يأكل الخبز وأكل عليه الصلاة والسلام اللسان مطبوخاً بالشعير وفيه الزيت والتوابل فليحفظ .

وقرى الأخوان .

وأبو بكر والحسن .

وزيد بن علي .

وقتادة .

وابن وثاب .

وطلحة وعيسى .

والأعمش ﴿ توقد ﴾ بالتاء المثناة من فوق مضارع أوقدت مبنياً للمفعول على أن الضمير القائم مقام الفاعل للزجاجة وإسناد الفعل إليها قيل على سبيل المبالغة ، وقيل هو بتقدير مضاف أي مصباحها .

وقرأ الحسن .

والسلمي .

وقتادة أيضاً .

وابن محيصن .

وسلام ومجاهد .

وابن أبي إسحاق .

والمفضل عن عاصم ﴿ توقد ﴾ بالتاء الفوقية أيضاً مضارع توقد وأصله تتوقد بتاءين فخفف بحذف أحدهما .

وذكر الخفاجي أنها قارئ أبي عمرو .

وابن كثير والإسناد فيها للزجاجة على ما مر .

وقرأ السلمي .

وقتادة .

وسلام أيضاً ﴿ دُرِّيٌّ يُوقَدُ ﴾ بالياء التحتية على أنه مضارع توقد أيضاً ، وجاء كذلك عن الحسن .

وابن محيصن ، وأصله يتوقد أي المصباح فحذفت التاء وهو غير معروف مع الياء وإنما المعروف هو الحذف عند اجتماع التاءين المتماثلين .

ووجه ذلك على ما قال ابن جني أنه شبه فيه حرف مضارعة بحرف مضارعة يعني الياء بالتاء فعومل معاملته كما شبهت التاء والنون في تعد ونعد بياء يعد فحذف الواو معهما كما حذفت فيه لوقوعها بين ياء وكسرة .

وقرىء ﴿ توقد ﴾ بالتاء من فوق على صيغة الماضي من التفعل والضمير للمصباح أي ابتداء توقد المصباح من شجرة .

﴿ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ ﴾ أي ضاحية للشمس لا يظلها جبل ولا شجر ولا يحجبها عنها شيء من حين تطلع إلى أن تغرب وذلك أحسن لزيتها ، وروى عن ابن عباس .

ومجاهد .

وعكرمة .

وقتادة والكلبي وهو تفسير بلازم المعنى أعني به كونها بين الشرق والغرب .

وعن ابن زيد أي ليست من شجر الشرق ولا من شجر الغرب لأن ما اختص بإحدى الجهتين كان أقل زيناً وأضعف ضوأ لكنها من شجر الشام وهي ما بين المشرق والمغرب وزيتونها أجود ما يكون ، وقال أبو حيان في تذكرته : المعنى ليست في مشرقة أبداً أي في موضع لا يصيبه ظل وليست في مقناة أبداً أي في موضع لا تصيبه الشمس ، وحاصله ليست الزيتونة تصيبها الشمس خاصة ولا الظل خاصة ولكن يصيبها هذا في وقت وهذا في وقت ، وقال الفراء والزجاج : المعنى لا شرقية فقط ولا غربية فقط لكنها شرقية غربية أي تصيبها الشمس عند طلوعها وغروبها ، وأنت تعلم أنه لا بد من تقدير قيد فقط بعد كل من ﴿ شَرْقِيَّةٍ ﴾ كما سمعت ليتوجه النفي إليه فيفيد التركيب اجتماع الأمرين وإلا فظاهره نفيهما ، وعن المطلع أن هذا كقول الفرزدق

: بأيدي رجال لم يشيموا سيوفهم . . .

ولم تكثر القتلى بها حين سلت

إذ معناه شاموا سيوفهم وأكثروا بها القتلى ، وتعقبه في "الكشف" بأنه لا استدلال بالبيت على ذلك لجواز أن يريد لم يشيموا غير مكثري القتلى على الحال وإفادته المعنى المذكور واضحة حينئذ ، وعن ابن عباس أنها في دوحة أحاطت بها فليست منكشفة لا من جهة

الشرق ولا من جهة الغرب ، وتعقب بأن هذا لا يصح عن ابن عباس لأنها إذا كانت بهذه الصفة فسد جناها ، وعن الحسن أن هذا مثل وليست من شجر الدنيا إذ لو كانت في الدنيا لكانت شرقية أو غربية ، وعن عكرمة أنها من شجرة الجنة ولعله إنما جزم بذلك لما ذكر الحسن ولا يخفى ما فيه ، وقرأ الضحاك ﴿ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ ﴾ بالرفع أي هي لا شرقية ولا غربية .

وقال أبو حيان : أي لا هي شرقية ولا غربية ، ولعل ما ذكرنا أولى ، والجملة في موضع الصفة لزيتونة .

(107/549)

﴿ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ﴾ أي هو في الصفاء والإنارة بحيث يكاد يضي بنفسه من غير مساس نار أصلاً ، وكلمة ﴿ لَوْ ﴾ في أمثال هذه المواقع ليست لبيان انتفاء الشيء لانتفاء غيره في الزمان الماضي فلا يلاحظ لها جواب قد حذف ثقة بدلالة ما قبلها عليه ملاحظة قصدية إلا عند القصد إلى بيان الإعراب على القواعد الصناعية بل هي لبيان تحقق ما يفيده الكلام السابق من الحكم الموجب أو المنفي على كل حال مفروض من الأحوال المقارنة له إجمالاً بإدخالها على أبعدها منه ، والواو الداخلة عليها لعطف الجملة

المذكورة على جملة محذوفة مقابلة لها عند الجزولي ومن وافقه ، ومجموع الجملتين في حيز النصب على الحالية من المستكن في الفعل الموجب أو المنفي ، وتقدير الآية الكريمة ﴿ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ لَوْ مَسَّتْهُ نَارٌ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ﴾ أي يضيء كائناً على كل حال من وجود شرط الإضاءة وعدمه ، وحذفت الجملة الأولى حسبما هو المطرد في الباب ثقة بدلالة الثانية عليها دلالة واضحة .

وقال الزمخشري : الواو للحال ومقتضاه أن ﴿ لَوْ ﴾ مع ما بعدها حال فالتقدير والحال لو كان أو لو لم يكن كذا أي مفروضاً ثبوته أو انتفاؤه ، لكن الزمخشري ومثله المرزوقي يقدر ولو كان الحال كذا .

وتعقب ذلك بأن أدوات الشرط لا تصلح للحالية لأنها تقتضي عدم التحقق والحال يقتضي خلافه ، والتزم لذلك أنه انسلخ عنها الشرطية وأنها مؤولة بالحال كما أن الحال تكون في معنى الشرط نحو لأفعلنه كائناً ما كان أي إن كان هذا أو غيره ولذا لا تحتاج إلى الجزاء أصلاف ، وإنما قدر الحال بعد لو على ما قيل : إشارة إلى أنه قصد إلى جعل الجملة حالاً قبل دخول الشرط المنافي له ثم دخلت ﴿ لَوْ ﴾ تنبيهاً على أنها حال غير محققة ؛ واعترض الرضي القول بأنها عاطفة بأنه لو كان كذلك لوقع التصريح بالمعطوف عليه في الاستعمال وليس كذلك وذهب إلى أنها اعتراضية .

ويجوز الاعتراض في آخر الكلام والمقصود منه التأكي .

وأجيب عن اعتراضه بأن ظهور ترتب الجزاء على المعطوف عليه أغنى عن ذكره حتى كان ذكره تكراراً ، وبالجملة الذي عطف عليه الأكثرون وارتضوه كونها عاطفة ، وبجعل مجموع الجملتين في موضع الحال على ما سمعت يندفع ما يتوهم من أن كاد تنافي اعتبار العطف هنا فتأمل ، وقرأ ابن عباس .

والحسن ﴿ يمسسه ﴾ بالياء التحتية وحسنه الفصل وكون الفاعل غير حقيقي التأنيث ﴿ نَارٌ نُّورٌ على نُورٍ ﴾ أي هو نور عظيم كائن على نور على أن يكون ﴿ نُورٍ ﴾ خبر مبتدأ محذوف والجار والمجرور متعلق بمحذوف وقع صفة له مؤكدة لما أفاده التنكير من الفخامة ، والجملة فذلكة للتمثيل وتصريح بما حصل منه وتمهيد لما يعقبه فالمراد من الضمير النور الذي مثلت صفته العظيمة الشأن بما سمعت لا النور المشبه به وحمله عليه لا يليق كما قيل بشأن التنزيل الجليل ، وليس معنى كونه نوراً فوق نور أنه نور واحد معين أو غير معين فوق نور آخر مثله ولا أنه مجموع نورين اثنين فقط بل إنه نور متضاعف من غير تحديد لتضاعفه بحد معين وتحديد مراتب تضاعف ما مثل به من نور المشكاة بما ذكر لكونه أقصى مراتب تضاعفه عادة فإن المصباح إذا كان في مكان متضايق كالمشكاة كان أضوأ له وأجمع لنوره بسبب انضمام الشعاع المنعكس منه إلى أصل الشعاع بخلاف المكان المتسع

فإن الضوء ينبث فيه وينتشر والقنديل أعون شيء على زيادة الإنارة وكذلك الزيت وصفاؤه وليس وراء هذه المراتب مما يزيد نورها إشراقاً ويمده بإضاءة مرتبة أخرى عادة .

(109/549)

والظاهر عندي أن التشبيه الذي تضمنته الآية الكريمة من تشبيه المعقول وهو نوره تعالى بمعنى أدلته سبحانه لكن من حيث أنها أدلة أو القرآن أو التوحيد والشرائع وما دل عليه بدليل السمع والعقل أو الهدى أو نحو ذلك بالمحسوس وهو نور المشكاة المبالغ في نفعته وأنه ليس في المشبه به أجزاء ينتزع منها الشبه ليبنى عليه أنه مركب أو مفرق ، وذكر أنه إذا كان المراد تشبيه النور بمعنى الهدى الذي دلت عليه الآيات المبينات فهو من التشبيه المركب العقلي وقد شبه فيه الهيئة المنتزعة بأخرى فإن النور وإن كان لفظه مفرداً دال على متعدد وكذا إذا كان المراد تشبيه ما نور الله تعالى به قلب المؤمن من المعارف والعلوم بنور المشكاة المنبث فيها من مصباحها ، وفي "الحواشي الطيبة" الطيبية بعد اختيار أن المراد بالنور الهداية بوحي ينزله ورسوله يبعثه ما هو ظاهر في أن التشبيه من التشبيه المفرق بل صرح بذلك أخيراً ، واستدل عليه بأن التكرير في الآية يستدعي ذلك وقد أطال الكلام في هذا المقام ، ومنه أن المشبهات المناسبة على هذا المعنى صدر الرسول صلى الله عليه وسلم

وقلبه الشريف واللطيفة الربانية فيه والقرآن وما يتأثر منه القلب عند استمداده .

والتفصيل أنه شبه صدره عليه الصلاة والسلام بالمشكاة لأنه كالكوة ذو وجهين فمن وجد يقتبس النور من القلب المستنير ومن آخر يفيض ذلك النور المقتبس على الخلق وذلك لاستعداده بانشراحه مرتين مرة في صباه وأخرى عند أسرائه قال الله تعالى :

(110/549)

﴿ أَفَمَن شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ للإسلام فَهُوَ على نُورٍ مّن رَّبِّهِ ﴾ [الزمر : 22] وهذا تشبيه صحيح قد اشتهر عن جماعة من المفسرين ، روى محيي السنة عن كعب هذا مثل ضربه الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم المشكاة صدره والزجاجة قلبه والمصباح فيه النبوة والشجرة المباركة شجرة النبوة ، وروى الإمام عن بعضهم أن المشكاة صدر محمد عليه الصلاة والسلام والزجاجة قلبه والمصباح ما في قلبه من الدين ، وفي حقائق السلمي عن أبي سعيد الخراز المشكاة جوف محمد صلى الله عليه وسلم والزجاجة قلبه الشريف والمصباح النور الذي فيه ، وشبه قلبه صلوات الله تعالى وسلامه عليه بالزجاجة المنعوتة بالكوكب الدري لصفائه وإشراقه وخلوصه عن كدورة الهوى ولوث النفس الأمّارة وانعكاس نور اللطيفة إليه .

وشبهت اللطيفة القدسية المزهرة في القلب بالمصباح الثاقب .

أخرج الإمام أحمد في مسنده عن أبي سعيد الخدري قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : القلوب أربعة قلب أجود فيه مثل السراج يزهر وفيه أما القلب الأجود فقلب المؤمن سراجه فيه نوره " الحديث ، وشبه نفس القرآن بالشجرة المباركة لثبات أصلها وتشعب فروعها وتأديها إلى ثمرات لا نهاية لها قال الله تعالى : ﴿ كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السماء تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾ [إبراهيم : 24 ، 25] الآية .

وروى محيي السنة عن الحسن .

وابن زيد الشجرة المباركة شجرة الوحي يكاد زيتها يضيء تكاد حجة القرآن تتضح وإن لم تقرأ .

(111/549)

وشبه ما يستمده نور قلبه الشريف صلوات الله تعالى وسلامه عليه من القرآن وابتداء تفويته منه بالزيت الصافي قال الله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الكتاب وَلاَ الإيمان ولكن جعلناه نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَن ﴾ [الشورى : 25] فكما جعل سبحانه القرآن سبب توقده منه في قوله تعالى : ﴿ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مباركة ﴾ جعل

ضوءه مستفاداً من انعكاس نور اللطيفة إليه في قوله عز وجل : ﴿ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ﴾ .

والمعنى على ما ذكر في إنسان العين يكاد سر القرآن يظهر للخلق قبل دعوة النبي صلى الله عليه وسلم وفيه مسحة من معنى قوله

: رق الزجاج ورقت الخمر . . .

فتشابها وتشاكل الأمر فكأنما خمر ولا قدح

وكأنما قدح ولا خمر . . .

ومنه وصفت الشجرة بكونها لا شرقية ولا غربية وعن ابن عباس تشبيه فؤاده صلى الله عليه وسلم بالكوكب الدري وأن الشجرة المباركة إبراهيم عليه السلام .

ومعنى لا شرقية ولا غربية أنه ليس بنصراني فيصلي نحو المشرق ولا يهودي فيصلي نحو المغرب .

والزيت الصافي دين إبراهيم عليه السلام ، وقد يقال على تفريق التشبيه لكن على مشرع آخر شبه القرآن بالمصباح على ما سبق ونفسه صلى الله عليه وسلم الزكية الطاهرة بالشجرة لكونها نابتة من أرض الدين متشعبة فروعها إلى سماء الإيمان متدلية أثمارها إلى فضاء الإخلاص والإحسان وذلك لاستقامتها بمقتضى قوله تعالى :

﴿ فاستقم كَمَا أُمِرْتَ ﴾ [هود : 112] غير مائلة إلى طرفي الإفراط والتفريط وذلك معنى قوله تعالى : ﴿ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلاَّ غَرْبِيَّةٍ ﴾ ويشبه ما محض من تلك الثمرات بعد التصفية التامة للتهيئة وقبول الآثار بالزيت الصافي لوفور قوة استعدادها للاستضاءة للدهنية القابلة للاشتعال ، ومن ثم خصت شجرة الزيتون لأن لب ثمرتها الزيت الذي تشتعل به المصابيح ، وخص هذا الدهن لمزيد إشراقه مع قلة الدخان يكاد زيت استعداده صلوات الله تعالى وسلامه عليه لصفائه وزكائه يضيء ولو لم يمسسه نور القرآن ، روى البغوي عن محمد بن كعب القرظي تكاد محاسن محمد صلى الله عليه وسلم تظهر للناس قبل أن يوحى إليه ، قال ابن رواحة

: لو لم يكن فيه آيات مبينة . . .

كانت بداهته تنبيك عن خبره

وفي حقائق السلمي ثمل نوره في عبده المخلص والمشكاة القلب والمصباح النور الذي قذف فيه والمعرفة تضيء في قلب العارف بنور التوفيق يوقد من شجرة مباركة يضيء على شخص مبارك تتبين أنوار باطنه على آداب ظاهره وحسن معاملته زيتونه لا شرقية ولا غربية جوهرة صافية لا لها حظ في الدنيا ولا في الآخرة لاختصاصها بموالاة العزيز الغفار وتفردها بالفرد الجبار إلى غير ذلك ، وجعل بعضهم التشبيه من المركب الوهمي بناءً على

أن المراد من النور المشبه الهدى من حيث أنه محفوف بظلمات أوهام الناس وخيالاتهم .

وكان الظاهر على هذا دخول الكاف على المصباح دون المشكاة المشتملة عليه ، ومن هنا قيل إن في الآية قلباً ، ووجه بعضهم دخولها على المشكاة بأن المشتمل مقدم على المشتمل عليه في رأي العين فقدم لفظاً ودخل الكاف عليه رعاية لذلك ، وقيل إنه على هذا أيضاً تشبيه مفرق لأنه شبه الهدى بالمصباح والجهالات بظلم استلزمتها وهو كما ترى .

(113/549)

ومن الناس من جعل التشبيه مفرقاً لكن بنى كلامه على ما أسسه الفلاسفة فجعل النور المشبه ما منح الله تعالى به عباده من القوى الخمس الدراكة المترتبة التي نيط بها المعاش وهي القوة الحساسة أعني الحس المشترك الذي يدرك المحسوسات بحواسيس الحواس الخمس الظاهرة والقوة الخيالية التي تحفظ صور تلك المحسوسات لتعرضها على القوة العقلية متى شاء والقوة العقلية المدركة للحقائق الكلية والقوة الفكرية التي تأخذ المعارف العقلية فتؤلفها على وجه يحصل به العلم بالمجهولات والقوة القدسية التي يختص بها الأنبياء والأولياء وتنجلي فيها لوائح الغيب وأسرار الملكوت ، وجعل ما في حيز الكاف عبارة عن أمور شبه بكل منها واحد من هذه الخمس فقال : شبهت القوة الحساسة بالمشكاة من

حيث أن محلها تجويف في مقدم الدماغ كالكوة تضع فيه الحواس الظاهرة ما تحس به وبذلك يضيء ، وشبهت القوة الخيالية بالزجاجة من حيث أنها تقبل الصور المدركة من الجوانب كما تقبل الزجاجة الأنوار الحسية من الجوانب ومن حيث أنها تضبط الأنوار العقلية وتحفظها كما تحفظ الزجاجة الأنوار الحسية ، ومن حيث أنها تستنير بما يشتمل عليها من المعقولات ، وشبهت القوة العقلية بالمصباح لإضاءتها بالإدراكات والمعارف وشبهت القوة الفكرية بالشجرة المباركة من حيث أنها تؤدي إلى نتائج كثيرة هي بمنزلة ثمرات الشجرة ، واعتبرت زيتونة لأن لها فضيلة على سائر الأشجار من حيث أن لب ثمرتها هو الزيت الذي له منافع جمة ، منها أنه مادة المصابيح والأنوار الحسية وله من بين سائر الأدهان خاصية زيادة الإشراق وقلة الدخان ، واعتبار وصف ﴿ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ ﴾ في جانب المشبه من حيث أن القوة الفكرية مجردة عن اللواحق الجسمية أو من حيث أن انتفاعها ليس مختصاً بجانب الصور ولا بجانب المعاني ، وشبهت القوة القدسية بالزيت الذي يكاد يضيء من غير أن تمسسه نار من حيث أنها لكمال صفائها وشدة استعدادها لا

تحتاج إلى تعليم أو تفكر .

واعترض بأن حق النظم الكريم على هذا أن يقال : مثل نوره كمشكاة وزجاجة ومصباح وشجرة مباركة زيتونة وزيت يكاد يضيء ولو لم تمسسه نار حتى يفيد تشبيه كل واحد بكل واحد .

وأجيب بأنه لما كان كل من هذه الحواس يأخذ ما يدركه مما قبله كما يأخذ المظروف من ظرفه أشار سبحانه إلى ذلك بأداة الظرفية دلالة على بديع صنعه سبحانه وحكمته جل شأنه .

(115/549)

وجوز أن يراد تشبيه النور المراد به القوة العقلية للنفس بمراتبها بذلك ومراتبها أربع ، الأولى : أن تكون النفس خالية عن جميع العلوم الضرورية والنظرية مستعدة لها كما في مبدأ الطفولية وتسمى القوة العقلية في هذه المرتبة بالعقل الهيولاني لأنها كالهيولى في أنها في ذاتها خالية عن جميع الصور قابلة لها ، وثانيتها : أن تستعمل آلاتها أي الحواس مطلقاً فيحصل لها علوم أولية ، وتستعد لاكتساب علوم نظرية وتسمى القوة المذكورة في هذه المرتبة عقلاً بالملكة لحصول ملكة الانتقال إلى النظريات لها بسبب تلك الأوليات ، وثالثتها : أن تصير

النظريات مخزونة عندها وتحصل لها ملكة استحضارها متى شاءت من غير تجشم كسب جديد وتسمى تلك القوة في هذه المرتبة عقلاً بالفعل لحصول تلك العلوم لها بالقوة القريبة من الفعل ، ورابعتها : أن ترتب العلوم الأولية وتدرك العلوم النظرية مشاهدة إياها بالفعل وتسمى تلك القوة في هذه المرتبة عقلاً مستفاداً لاستفادتها من العقل الفعال فشبهت القوة بالمرتبة الأولى بالمشكاة الخالية في بدء الأمر عن الأنوار الحسية المستعدة للاستنارة بها وبالمرتبة الثانية بالزجاجة المتلألئة في نفسها القابلة للأنوار الفائضة عليها من النير الخارجي وبالمرتبة الثالثة بالمصباح الذي اشتعلت فتيلته المشبعة من الزيت وبالمرتبة الرابعة بالنور المتضاعف المشار إليه بقوله تعالى : ﴿ نُورٌ على نُورٍ ﴾ والشيخ ابن سينا بعد أن بين المراتب حمل مفردات التنزيل عليها ، وحقق في المحاكمات وجه الترتيب فيها حيث جعل الزجاجة في المشكاة والمصباح في الزجاجة بأن هناك استعداداً محضاً كما في المرتبة الأولى واستعداد اكتساب كما في المرتبة الثانية واستعداد استحضار كما في المرتبة الثالثة ولا شك أن استعداد الاكتساب بحسب الاستعداد المحض واستعداد الاستحضار بحسب استعداد الاكتساب فتكون الزجاجة التي هي عبارة عن العقل بالملكة كأنما هي في المشكاة التي هي

عبارة عن العقل الهيولاني والمصباح وهو العقل بالفعل في الزجاجة التي هي العقل بالملكة لأنه إنما يحصل باعتبار حصول العقل أولاً وحيث أن العقل بالملكة إنما يخرج من القوة إلى الفعل بالفكر أو بالحدس أو بالقوة القدسية أشير إلى الفكر بالشجرة الزيتونة وإلى الحدس بالزيت وإلى القوة القدسية بيكاد زيتها يضيء ؛ ودفع ما يظهر من عدم انطباق ما ذكر على النظم الجليل لأنه وصف فيه الشجرة بما سمعت من الصفات ، وهذه أمور متباينة لا يجوز وصف أحدها بالآخر بأن الشجرة الزيتونة شيء واحد فإذا ترقت في أطوارها حصل لها زيت إذا ترقى وصفاً كاد يضيء ؛ وكذلك الاكتساب قوة نفسية هي فكرة فإذا ترقت كانت حدساً ، ثم قوة قدسية فهي وإن كانت متباينة ترجع إلى شيء واحد كالشجرة وذكر أن قوله تعالى : ﴿ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ ﴾ إشارة إلى أنها ليست من عالم الحس الذي لا يخلو عن أحد الأمرين ، ولا يخفى عليك أن هذا مع تكلفه وابتنائه على ما أسسه الفلاسفة الذين هم في عمى عن نور الشريعة ولله تعالى در من قال فيهم

: قطعت الأخوة عن معشر . . .

بهم مرض من كتاب الشفا فماتوا على دين رسطالس

وعشنا على سنة المصطفى . . .

لا يناسب المقام ولا ينتظم معه أطراف الكلام ، وفيه ما يقتضي أن قوله تعالى : ﴿ نُّورٌ على نُورٍ ﴾ داخل في التمثيل وفيه خلاف ، ثم أعلم أنه يعلم بمعونة ما ذكرنا حال التشبيه على سائر الأقوال في المراد بالنور ، ولعل ما ذكرناه فيه أتم نوراً وأشد ظهوراً والله تعالى أعلم بحقائق الأمور ، ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُورٍ ﴾ [النور : 40] ﴿ يَهْدِى اللهُ لِنُورِهِ ﴾ أي يهدي سبحانه هداية خاصة موصلة إلى المطلوب حتماً لذلك النور المتضاعف العظيم الشأن ، وإظهاره في مقام الإضمار لزيادة تقريره وتأكيد فخامته الذاتية بفخامته الإضافية الناشئة من إضافته إلى ضمير عز وجل ﴿ مَن يَشَآءُ ﴾ هدايته من عباده بأن يوفقهم سبحانه لفهم وجوه دلالة الأدلة العقلية والسمعية التي نور بها السموات والأرض على وجه ينتفعون به أو بأن يوفقهم لفهم ما في القرآن من دلائل حقيته وكونه من عنده عز وجل من الإعجاز والإخبار عن الغيب وغير ذلك من موجبات الإيمان وفيه احتمالات أخر بحسب ما في النور من الأقوال ، وأياً ما كان ففيه إيذان بأن مناط هذه الهداية وملاكها ليس إلا مشيئته تعالى وأن إظهار الأسباب بدونها بمعزل عن الإفضاء إلى المطالب

: إذا لم يكن التوفيق عوناً لطالب . . .

طريق الهدى أعيت عليه مطالبه

﴿ وَيَضْرِبُ اللهُ الامثالِ لِلنَّاسِ ﴾ في تضاعيف الهداية حسبما يقتضيه حالهم فإن لضرب المثل دخلاً عظيماً في باب الإرشاد لأنه إبراز للمعقول في هيئة المحسوس وتصوير لأوابد المعاني بصورة المأنوس ولذلك مثل جل وعلا نوره المراد به ما يشمل القرآن أو القرآن المبين فقط بنور المشكاة ، وإظهار الاسم الجليل في مقام الإضمار على ما في إرشاد العقل السليم للإيذان باختلاف ما أسند إليه تعالى من الهداية الخاصة وضرب الأمثال الذي هو من قبيل الهداية العامة كما يفصح عنه تعليق الأولى بمن شاء والثانية بالناس كافة .

(118/549)

﴿ واللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾

معقولاً كان أو محسوساً ظاهراً كان أو باطناً ومن قضيته أن تتعلق مشيئته تعالى بهداية من يليق بها ويستحقها من الناس دون من عداهم لمخالفته الحكمة التي هي مبني التكوين والتشريع وأن تكون هدايته سبحانه العامة على فنون مختلفة وطرائق شتى حسبما تقتضيه أحوالهم وتقوم به الحجة له تعالى عليهم ، والجملة اعتراض تذييلي مقرر لما قبله ،

وقيل جيء بها لوعد من تدبر الأمثال ووعيد من لم يكترث بها ، وقيل لبيان أن فائدة ضرب الأمثال التي هي التوضيح إنما هي للناس وليس بذاك ، وإظهار الاسم الجليل لتأكيد استقلال الجملة والإشعار بعلة الحكم ، وبما ذكر آنفاً من اختلاف حال المحكوم به ذاتاً وتعلقاً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 18 صـ ﴾

(119/549)

وقال صاحب روح البيان :

﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ .

قال الإمام الغزالي قدس سره في شرح الاسم : النور هو الظاهر الذي به كل ظهور فإن الظاهر في نفسه المظهر لغيره يسمى نوراً ومهما قوبل الوجود بالعدم كان الظهور لا محالة للوجود ولا ظلام أظلم من العدم فالبريء من ظلمة العدم إلى ظهور الوجود جدير بأن يسمى نوراً والوجود نور فائض على الأشياء كلها من نور ذاته فهو نور السموات والأرض فكما أنه لا ذرة من نور الشمس إلا وهي دالة على وجود الشمس النيرة فلا ذرة من وجود السموات والأرض وما بينهما إلا وهي بجواز وجودها دالة على وجوب وجود موجدها انتهى ويوافقه النجم في "التأويلات" حيث قال : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالارْضِ ﴾ أي :

مظهرهما من العدم إلى الوجود فإن معنى النور في اللغة الضياء وهو الذي يبين الأشياء ويظهرها للأبصار انتهى ، فقوله تعالى : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ من باب التشبيه البليغ أي كالنور بالنسبة إليهما من حيث كونه مظهراً لهما أي موجداً فإن أصل الظهور هي الظهور من العدم إلى الوجود فإن الأعيان الثابتة في علم الله تعالى خفية في ظلم العدم وإنما تظهر بتأثير قدرة الله تعالى كما في "حواشي ابن الشيخ" .

يقول الفقير : لا حاجة إلى اعتبار التشبيه البليغ فإن النور من الأسماء الحسنى وإطلاقه على الله حقيقي لا مجازي فهو بمعنى المنور ههنا فإنه تعالى نور الماهيات المعدومة بأنوار الوجود وأظهرها من كتم العدم بفيض الجود كما قال عليه السلام : "إن الله خلق الخلق في ظلمة ثم رش عليهم من نوره" فخلق ههنا بمعنى التقدير فإن التقدير سابق على الإيجاد ورش النور كناية عن إفاضة الوجود على الممكنات والممكن يوصف بالظلمة فإنه يتنور بالوجود فتنويره إظهاره .

واعلم أن النور على أربعة أوجه : أولها : نور يظهر الأشياء للأبصار وهو لا يراها كنور الشمس وأمثالها فهو يظهر الأشياء المخفية في الظلمة ولا يراها .

(120/549)

وثانيها : نور البصر وهو يظهر الأشياء للأبصار ولكنه يراها وهذا النور أشرف من الأول .

وثالثها : نور العقل وهو يظهر الأشياء المعقولة المخفية في ظلمة الجهر للبصائر وهو يدركها ويراها .

ورابعها : نور الحق تعالى وهو يظهر الأشياء المعدومة المخفية في العدم للأبصار والبصائر من الملك والملكوت وهو يراها في الوجود كما كان يراها في العدم لأنها كانت موجودة في علم الله وإن كانت معدومة في ذواتها فما تغير علم الله ورؤيته بإظهارها في الوجود بل كان التغير راجعاً إلى ذوات الأشياء وصفاتها عند الإيجاد والتكوين فتحقيق قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالارْضِ ﴾ مظهرهما ومبديهما وموجدهما من العدم بكمال القدرة الأزلية .

ففي كل شيء له آية

تدل على أنه واحد

وقال سلطان المفسرين ابن عباس رضي الله عنهما : أي هادي أهل السموات والأرض فهم بنوره تعالى يهتدون وبهداه من حيرة الضلالة ينجون .

(121/549)

ولما وصلوا إلى نور الهداية بتوفيقه تعالى سمى نفسه باسم النور جرياً على مذهب العرب فإن العرب قد تسمي الشيء الذي من الشيء باسمه كما يسمى المطر سحاباً لأنه يخرج منه ويحصل به فلما حصل نور الإيمان والهداية بتوفيقه سماه بذلك الاسم ويجوز أن يعبر عن النور بالهداية وعن الهداية بالنور لما يحصل أحدهما من الآخر قال الله تعالى : ﴿ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ (النحل : 16) لما اهتدوا بنور النجم جعل النجم كالهادي لهم وجعلهم من المهتدين بنوره وعلى هذا سمي القرآن نوراً والتوراة نوراً بمعنى الاهتداء بهما كما في "الأسئلة المقحمة" فعلى هذا شبهت الهداية بالنور في كونها سبباً للوصول إلى المطلوب فأطلق اسم النور عليها على سبيل الاستعارة ثم أطلق النور بمعنى الهداية عليه تعالى على طريق رجل عدل .

وقال حضرة الشيخ الشهير بأفتاده قدس سره : خطر ببالي على وجه الكشف أن النور في قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ بمعنى العلم وهو بمعنى العالم من باب رجل عدل ووجه المناسبة بينهما أنه تنكشف بالنور المحسوسات وبالعلم تنكشف المعقولات بل جميع الأمور كذا في "الواقعات المحمودية" ويقال : إنه منور السموات بالشمس والقمر والكواكب والأرض بالأنبياء والعلماء والعباد .

(122/549)

وقال في "عرائس البيان" : أراد بالسموات والأرض صورة المؤمن رأسه السموات وبدنه الأرض وهو تعالى بجلالة قدره نور هذه السموات والأرض إذ زين الرأس بنور السمع والبصر والشم والذوق والبيان في اللسان فنور العين كنور الشمس والقمر ، ونور الأذن كنور الزهرة والمشتري ، ونور الأنف كنور المريخ وزحل ونور اللسان كنور عطارد وهذه السيارات النيرات تسرى في بروج الرأس ، ونور أرض البدن الجوارح والأعضاء والعضلات واللحم والدم والشعرات وعظامها الجبال .

فالنور الذي بمقابلة الظلمة حادث لأن ما كان بمقابلة الحادث حادث فمعنى كونه تعالى نوراً هو أنه مبدأ هذا النور المقابل بالظلمة ثم إن إضافة النور إلى السموات والأرض مع أن كونه تعالى نوراً ليس بالإضافة إليها فقط للدلالة على سعة إشراقه فإنهما مثلان في السعة قال تعالى : ﴿ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ ﴾ (آل عمران : 133) ويجوز أن يقال : قد يراد بالسموات والأرض العالم بأسره كما يراد بالمهاجرين والأنصار جميع الصحابة كما في "حواشي سعدي" المفتي ونظيره قوله تعالى في الحديث القدسي خطابا للنبي عليه السلام : "لولاك لما خلقت الأفلاك" أي : العوالم بأسرها لكنه خصص الأفلاك بالذكر لعظمها وكونها بحيث يراها كل من هو من أهل النظر وهو اللائح بالبال والله الهادي إلى حقيقة الحال .

﴿ مَثَلُ نُورِهِ ﴾ أي : نوره الفائض منه تعالى على الأشياء المستنيرة وهو القرآن المبين كما في

"الإرشاد" فهو تمثيل له في جلاء مدلوله وظهور ما تضمنه من الهدى بالمشكاة المنعوتة والمراد بالمثل الصفة العجيبة أي صفة نوره العجيب وإضافته إلى ضميره تعالى دليل على أن إطلاقه عليه لم يكن على ظاهره كما في "أنوار التنزيل" ﴿كَمِشْكَاةٍ﴾

(123/549)

أي صفة كوة غير نافذة في الجدار في الانارة وهي بلغة الحبشة .

﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ سراج ضخم ثابت .

﴿الْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ﴾ أي : قنديل من الزجاج الصافي الأزهر وفائدة جعل المصباح في زجاجة والزجاجة في كوة غير نافذة شدة الإضاءة لأن المكان كلما تضائق كان أجمع للضوء بخلاف الواسع فالضوء ينتشر فيه وخص الزجاج لأنه أحكى الجواهر لما فيه .

﴿الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ﴾ متلألىء وقاد شبيه بالدر في صفائه وزهرته كالمشتري والزهرة والمريخ ودراري الكواكب عظامها المشهورة ومحل الجملة الأولى الرفع على أنها صفة لزجاجة أو للام مغنية عن الرابض كأنه قيل : فيها مصباح هو في زجاجة هي كأنها كوكب دريّ وفي إعادة المصباح والزجاجة معرفين أثر سبقهما منكرين والإخبار عنهما بما بعدهما مع انتظام الكلام بأن يقال كمشكاة فيها مصباح في زجاجة كأنها كوكب دريّ من

تفخيم شأنها بالتفسير بعد الإبهام ما لا يخفى .

﴿ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ ﴾ أي يبتدأ إيقاد المصباح من زيت شجرة .

﴿ مُّبَارَكَةٍ ﴾ أي كثيرة المنافع لأن الزيت يسرج به وهو إدام ودهان ودباغ ويوقد بحطب الزيتون وبثقله ورماده يغسل به الإبريسم ولا يحتاج في استخراج دهنه إلى عصار وفيه زيادة الإشراق وقلة الدخان وهو مصحة من الباسور .

﴿ زَيْتُونَةٍ ﴾ بدل من شجرة : وخصها من بين سائر الأشجار لأن دهنها أضوء وأصفى .

(124/549)

قال في "إنسان العيون" : شجرة الزيتون تعمر ثلاثة آلاف سنة .

﴿ لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ ﴾ أي : لا شرقية تطلع عليها الشمس في وقت شروقها فقط ولا غربية تقع عليها حين غروبها فقط بل بحيث تقع عليها طول النهار فلا يسترها عن الشمس في وقت من النهار شيء كالتي على قلة أو صحراء فتكون ثمرتها أنضج وزيتها أصفى أو لا في مضحى تشرق الشمس عليها دائماً فتحرقها ولا في مفيأة تغيب عنها دائماً فتتركها نيئاً أو لا نابتة في شرق المعمورة نحو كنكدز وديار الصين وخطا ولا في غربها نحو طنجة وطرابلس وديار قيروان بل في وسطها وهو الشام فإن زيتونه أجود الزيتون أو في خط

الاستواء بين المشرق والمغرب وهي قبة الأرض فلا توصف بأحد منهما فلا يصل إليها حر وبرد مضرين وقبة الأرض وسط الأرض عامرها وخرابها وهو مكان تعتدل فيه الأزمان في الحر والبرد ويستوي الليل والنهار فيه أبداً لا يزيد أحدهما على الآخر أي يكون كل منهما اثنتي عشرة ساعة ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ﴾ ﴿وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ أي هو في الصفاء والإنارة بحيث يكاد يضيىء المكان بنفسه من غير مساس نار أصلاً وتقدير الآية يكاد زيتها يضيىء لو مسته نار ولو لم تمسسه نار أي يضيىء كائناً على كل حال من وجود الشرط وعدمه فالجملة حالية جيء بها لاستقصاء الأحوال حتى في هذه الحال .

﴿نُورٍ﴾ خبر مبتدأ محذوف ، أي ذلك النور الذي عبر به عن القرآن ومثلت صفته العجيبة الشأن بما فصل من صفة المشكاة نور كائن .

﴿عَلَى نُورٍ﴾ كذلك ، أي : نور متضاعف فإن نور المصباح زاد في إنارته صفاء الزيت وزهرة القنديل وضبط المشكاة لاشعته فليس عبارة عن مجموع نورين اثنين فقط بل المراد به التكثير كما يقال : فلان يضع درهماً على درهم لا يراد به درهمان .

(125/549)

﴿ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ ﴾ أي : يهدي هداية خاصة موصلة إلى المطلوب حتماً لذلك النور المتضاعف العظيم الشأن .

﴿ مَن يَشَآءُ ﴾ هدايته من عباده بأن يوفقهم لفهم ما فيه من دلائل حقيته وكونه من عند الله من الإعجاز والإخبار عن الغيب وغير ذلك من موجبات الإيمان وهذا من قبيل الهداية الخاصة ولذا قال : من يشاء ففيه إيذان بأن مناط هذه الهداية وملاكها ليس إلا مشيئته وأن تظاهر الأسباب بدونها بمعزل من الإفضاء إلى المطالب .

﴿ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ ﴾ أي : يبينها تقريباً إلى الإفهام وتسهيلاً لسبل الإدراك . وهذا من قبيل الهداية العامة ولذا قال للناس : ﴿ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ من ضرب الأمثال وغيره من دقائق المعقولات والمحسوسات وحقائق الجليات والخفيات .

قالوا : إذا كان مثلاً للقرآن فالمصباح القرآن والزجاجة قلب المؤمن والمشكاة فمه ولسانه والشجرة المباركة شجرة الوحي وهي لا مخلوقة ولا مختلقة

فإن قيل لم شبهه بذلك وقد علمنا أن ضوء الشمس أبلغ من ذلك بكثير ؟ .

أجيب بأنه سبحانه أراد أن يصف الضوء الكامل الذي يلوح في وسط الظلمة لأن الغالب على أوهام الخلق وخيالاتهم إنما هي الشبهات التي هي كالظلمات وهداية الله تعالى فيما بينهما كالضوء الكامل الذي يظهر فيما بين الظلمات وهذا المقصود لا يحصل من تشبيهه

بضوء الشمس لأن ضوءها إذا ظهر امتلأ العالم من النور الخالص وإذا غاب امتلأ العالم من الظلمة الخالصة فلا جرم كان ذلك المثل ههنا أليق .

(126/549)

وقال بعضهم : وشبه بالزجاج دون سائر الجواهر لاختصاص الزجاج بالصفاء يتعدى النور من ظاهره إلى باطنه وبالعكس وكذلك نور الإيمان يتعدى من قلب المؤمن إلى سائر الجوارح والأعضاء وأيضاً إن الزجاج سريع الانكسار بأدنى آفة تصيبه فكذا القلب سريع الفساد بأدنى آفة تدخل فيه

وإنما شبه المعرفة بالمصباح وهو سريع الانطفاء وقلب المؤمن بالزجاج وهو سريع الانكسار ولم يشبهها بالشمس التي لا تطفأ ولا قلب المؤمن بالأشياء الصلبة التي لا تنكسر تنبيهاً على أنه على خطر وجدير بحذر كما في "التيسير"

قال القشيري : ﴿ نُورٌ عَلَى نُورٍ ﴾ نور اكتسبوه بجهدهم ونظرهم واستدلالهم ونور وجدوه بفضل الله بأفعالهم وأقوالهم قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ (العكبوت : 69) .

وفي "التأويلات النجمية" : هذا مثل ضربه الله تعالى للخلق تعريفاً لذاته وصفاته فلكل

طائفة من عوام الخلق وخواصهم اختصاص بالمعرفة من فهم الخطاب على حسب مقاماتهم وحسن استعدادهم فأما العوام فاختصاصهم بالمعرفة في رؤية شواهد الحق وآياته بإراءته إياهم في الآفاق وأما الخواص فاختصاصهم بالمعرفة في مشاهدة أنوار صفات الله تعالى وذاته تبارك وتعالى باراءته في أنفسهم عند التجلي لهم بذاته وصفاته كما قال تعالى في الطائفتين ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِى الأَفَاقِ ﴾ (فصلت : 53) أي لعوامهم ﴿ وَفِى أَنفُسِهِمْ ﴾ أي لخواصهم ﴿ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ (فصلت : 53) فكل طائفة بحسب مقامهم تحظى من المعرفة فأما حظ العوام من رؤية شواهد الحق وآياته في الآفاق بإراءة الحق فبأن يرزقهم فهماً ونظراً في معنى الخطاب ليتفكروا في خلق السموات والأرض أن صورتها وهي عالم الأجسام هي المشكاة والزجاجة فيها هي العرش والمصباح الذي هو عمود القنديل الذي يجعل فيه الفتيلة فهي بمثابة الكرسي من العرش وزجاجة العرش .

(127/549)

﴿ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ ﴾ وهي شجرة الملكوت وهو باطن السموات والأرض ومعناهما .

﴿ لا شَرْقِيَّةٍ ﴾ أي ليست من شرق الأزل والقدم كذات الله وصفاته .

﴿ وَلَا غَرْبِيَّةٍ ﴾ أي : ليست من غرب الفناء والعدم كعالم الأجسام وصورة العالم بل هي مخلوقة أبدية لا يعتريها الفناء .

﴿ يَكَادُ زَيْتُهَا ﴾ وهو عالم الأرواح أي يظهر من العدم في عالم الصور المتولدات بازدواج الغيب والشهادة طبعاً وخاصية كما توهمه الدهرية والطبائعية عليهم لعنات الله تترى .

﴿ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ﴾ نار القدرة الإلهية ﴿ نُورٌ عَلَى نُورٍ ﴾ أي نور الصفة الرحمانية على نور أي باستوائه على نور العرش فينقسم نور الصفة الرحمانية من العرش إلى السموات والأرض فيتولد منه متولدات ما في السموات والأرض بالقدرة الإلهية على وفق الحكمة والإرادة القديمة فلهذا قال تعالى : ﴿ إِن كُلُّ مَن فِى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلا ءَاتِى الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴾ (مريم : 93) فافهم جداً .

(128/549)

وأما حظ الخواص في مشاهدة أنوار صفات الله تعالى وذاته بإراءة الحق في أنفسهم فإنما يتعلق بالسير فيها لأن الله تعالى خلق نفس الإنسان مرآة قابلة لشهود ذاته وجميع صفاته إذا كانت صافية عن صدأ الصفات الذميمة والأخلاق الرديئة مصقولة بمصقلة كلمة لا إله إلا الله لينتفي بنفي لا إله تعلقها عما سوى الله ويثبت بإثبات إلا الله فيها نور جمال الله وجلاله

فيرى بنور الله الجسد كالمشكاة والقلب كالزجاجة والسر كالمصباح.

﴿ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ ﴾ وهي شجرة الروحانية.

﴿ لا شَرْقِيَّةٍ ﴾ أي: لا قديمة أزلية ﴿ وَلا غَرْبِيَّةٍ ﴾ أي: لا فانية

تغرب في سماء الوجود في عين العدم ﴿ يَكَادُ زَيْتُهَا ﴾ وهو الروح الإنسانية بنور العقل الذي هو ضوء الروح وصفاؤه أي يكاد زيت الروح أن يعرف الله تعالى بنور العقل ﴿ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ﴾ أي: نار نور الإلهية فأبت عظمة جلال الله وعزة كبريائه أن تدرك بالعقول الموسومة بوصمة الحدوث إلا أن يتجلى نور القدم لنور العقل الخارج من العدم كما قال تعالى: ﴿ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ ﴾ أي: ينور مصباح سر من يشاء بنور القدم فتتنور زجاجة القلب ومشكاة الجسد ويخرج أشعتها من روزنة الحواس فاستضاءت أرض البشرية ﴿ وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ﴾ (الزمر: 69) وتحقق حينئذ مقام "كنت له سمعاً وبصراً" الحديث.

وفيه إشارة أن إلى نور العقل مخصوص بالإنسان مطلقاً ولا سبيل له بالوصول إلى نور الله فهو مخصوص بهداية الله إليه فضلاً وكرماً لا يتطرق إليه كسب العباد وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

﴿ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ ﴾ أي: للناسين عهود أيام الوصال بلاهم في أزل الآزال.

﴿ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ في حالات وجود الأشياء وعدمها بغير التغير في ذاته وصفاته انتهى كلام "التأويلات" .

(129/549)

قال حضرة الشيخ صدر الدين القنوي قدس سره :

اعلم أن النور الحقيقي يدرك به وهو لا يدرك لأنه عين ذات الحق من حيث تجردها عن النسب والإضافات ولهذا سئل النبي عليه السلام هل رأيت ربك قال : "نور أنى أراه" أي النور المجرد لا يمكن رؤيته وكذا أشار الحق في كتابه لما ذكر ظهور نوره في مراتب المظاهر قال : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ فلما فرغ من ذكر مراتب التمثيل قال : ﴿ نُورٌ عَلَى نُورٍ ﴾ فأحد النورين هو الضياء والآخر هو النور المطلق الأصلي ولهذا تمم فقال : ﴿ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ ﴾ أي : يهدي الله بنوره المتعين في المظاهر والساري فيها إلى نوره المطلق الأحدي انتهى كلامه في "الفكوك" .

قال في "تفسير الفاتحة" : فالعالم بمجموع صوره المحسوسة وحقائقه الغيبية المعقولة أشعة نور الحق وقد أخبر الحق أنه نور السموات والأرض ثم ذكر الأمثلة والتفاصيل المتعينة بالمظاهر على نحو ما تقتضيه مرآتها ثم قال في آخر الآية : ﴿ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ

مَن يَشَآءُ ﴾ فأضاف النور إلى نفسه مع أنه عين النور وجعل نوره المضاف إلى العالم الأعلى والأسفل هادياً إلى معرفة نوره المطلق ودالاً عليه كما جعل المصباح والمشكاة والشجرة وغيرها من الأمثال هادياً إلى نوره المقيد وتجلياته المتعينة في مراتب مظاهره وعرّف أيضاً على لسان نبيه عليه السلام أنه النور وأن حجابه النور انتهى بإجمال .

قال حضرة شيخي وسندي روح الله روحه قوله : ﴿ نُورٌ عَلَى نُورٍ ﴾ النور الأول هو النور الإضافي المنبسط على سموات الأسماء وأرض الأشياء والنور الثاني هو النور الحقيقي المستغني عن سموات الأسماء وأرض الأشياء والنور الإضافي دليل دال على النور الحقيقي والدليل ظاهر .

النور المطلق والمدلول باطنه وفي التحقيق الأتم هو دليل على نفسه لا يعرف الله إلا الله سبحانه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح البيان حـ 6 صـ 199 . 207 ﴾

(130/549)

وقال ابن عجيبة :

يقول الحق جل جلاله : ﴿ اللهُ نورُ السموات والأرض ﴾

أي : منور أهلهما [بنور الإسلام والإيمان ؛ لأهل الإيمان] ، وبنور الإحسان ؛ لأهل

الإحسان ، فحقيقة النور : هو الذي تنكشف به الأشياء على ما هي عليه ، حسية أو معنوية ، والمراد هنا : المعنوية ؛ بدليل قوله ﴿ يهدي الله لنُوره من يشاء ﴾ ، فإن انكشف به أحكام العبودية ، باعتبار المعاملة الظاهرة ، يُسمّى : نُورُ الإسلام ، وإن انكشف به أوصاف الذات العلية وكمالاتها ، من طريق البرهان ، يُسمى : نُور الإيمان ، وإن انكشف به حقيقة الذات وأسرارها ، من طريق العيان ، يُسمى : نور الإحسان . فالأول : يشبه نور النجوم ، والثاني : نور القمر ، والثالث نور الشمس ، ولذلك تقول الصوفية : نجوم الإسلام ، وقمر الإيمان ، وشمس العرفان .

(131/549)

ثم ضرب المثل لذلك النور ، حين يقذفه في قلب المؤمن ، فقال ﴿ مَثَلُ نُورِهِ ﴾ أي : صفة نوره العجيبة في قلب المؤمن – كما هي قراءة ابن مسعود – ﴿ كمشكاةٍ ﴾ أي : كَصِفَةِ مِشْكَاةٍ ، وهي الكُوَّةُ في الجدار غير النافذة ؛ لأن المصباح فيها يكون نوره مجموعاً ، فيكون أزهر وأنور ، ﴿ فيها مصباح ﴾ أي : سراج ضخم ثاقب ، ﴿ المصباحُ في زجاجة ﴾ أي : في قنديل من زجاج صافٍ أزهر ، ﴿ الزجاجةُ ﴾ من شدة صفائها ﴿ كأنها كوكب دُرِّيّ ﴾ ؛ بضم الدال وتشديد الراء ، منسوب إلى الدر ؛ لفرط ضيائه وصفائه ،

وبالكسر والهمز : «أبو عمرو» ؛ على أنه يدْرأ الظلام بضوئه . وبالضم والهمز : أبو بكر وحمزة ، شبهه بأحد الكواكب الدراري ، كالمشتري والزهرة ونحوهما . ﴿ تَوَقَدُ ﴾ بالتخفيف والتأنيث ، أي : الزجاجة ، أو ﴿ يُوقَدُ ﴾ بالتخفيف والغيب ، أو : ﴿ تَوَقَّدَ ﴾ بالتشديد ، أي : المصباح ﴿ من شجرةٍ ﴾ أي من زيت شجرة الزيتون ، أي : رويت فتيلته من زيت ﴿ شجرةٍ مباركةٍ ﴾ ؛ كثيرة المنافع ، أو : لأنها تنبت في الأرض التي بارك فيها للعالمين ، وهي الشام ، وقيل : بارك فيها سبعون نبياً ، منهم إبراهيم عليه السلام .

﴿ زيتونةٍ ﴾ : بدلٌ من ﴿ شجرة ﴾ ، من نعتها ﴿ لا شرقيةٍ ولا غربيةٍ ﴾ أي : ليست شرقية فقط ، لا تُصيبها الشمس إلا في حالة الشروق ، ولا غربية ، لا تصيبها إلا في حال الغروب ، بل هي شرقية غربية ، تصيبها الشمس بالغداة والعشي ، فهو أَنْضَرُ لها ، وأوجود لزيتونها . وقيل : ليست من المشرق ولا من المغرب ، بل في الوسط منه ، وهو الشام ، وأجودُ الزيتونِ زيتون الشام .

(132/549)

﴿ يكادُ زيتُها يُضيءُ ولو لم تمسسه نارٌ ﴾ ؛ هو في الصفاء والإنارة بحيث يكاد يضيء بنفسه من غير مسَاسِ نَارٍ أصلاً . ﴿ نورٌ على نورٍ ﴾ أي : نور المصباح متضاعف على

نور الزيت الصافي ، فهذا مثال النور الذي يقذفه الله في قلب المؤمن ؛ فالمشكاة هو الصدر ، والمصباح نور الإيمان أو الإسلام أو الإحسان ، على ما تقدم ، والزجاجة هو القلب الصافي ، ولذلك شبهه بالكوكب الدُرّيّ ، والزيت هو العِلْمُ النافع الذي يقوي اليقين . ولذلك وصفه بالصفاء والإنارة .

(133/549)

يكاد صاحبه تشرق عليه أنوار الحقائق ، ولو لم يمسسه علمها . ﴿ نورٌ على نورٍ ﴾ أي نور الإيمان مُضَافٌ إلى نور الإسلام ، أو نور الإحسان مضاف إلى نور الإيمان والإسلام .

﴿ يهدي الله لنوره ﴾ أي : لهذا لنور الباهر ﴿ من يشاء ﴾ من عباده ؛ إما بإلهام أو بواسطة تعليم . وفيه إيذان بأن مناط هذه الهداية إنما هي بمشيئته تعالى ، وأن الأسباب لا تأثير لها . ﴿ ويضرب الله الأمثالَ للناس ﴾ ؛ تقريباً للفهم ، لأنه إبراز للمعقول في هيئة المحسوس ﴿ والله بكل شيءٍ عليمٌ ﴾ ، معقولاً كان أو محسوساً ، فيبين الأشياء بما يمكن أن تُعْلَم به . والله تعالى أعلم .

الإشارة : اعلم أن الكون كله من عرشه إلى فرشه قطْعةٌ من نور الحق ، وسر من أسرار ذاته ، مُلْكٌ ، وباطنه ملكوت فائض من بحر الجبروت ، فالكائنات كلها : الله نُورُها وسرُّها ،

وهو القائم بها . ولا يفهم هذا إلا أهل الفناء من العارفين بالله ، وحسبُ من لم يبلغ مقامهم التسليم لما رمزوا إليه ، وتحققوه ذوقاً وكشفاً .

ثم ضرب الحقُّ تعالى مثلاً لنوره الفائض من بحر جبروته ، فقال : ﴿ مثل نوره ﴾ الظاهر ، الذي تجلى به في عالم الشهادة ، ﴿ كمشكاة فيها مصباح ﴾ أي : كطاقة انفتحت من بحر اللّطَافَةِ الكَنْزِيَّةِ ، خرج منها نور كثيف كالمصباح ، فالكون كله مِصْبَاحُ نورٍ ، انفجر من نور النور ، ومن ذلك المصباح تفرعت الكائنات ، فهي كلها نور فائض من بحر نوره اللطيف ، ثم جعل الحق تعالى يصف ذلك المصباح في توقده وتوهجه بقوله : ﴿ المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دُري . . . ﴾ إلخ . فالآية كلها من تتمه التمثيل .

(134/549)

وقوله تعالى : ﴿ ولو لم تمسسه نار ﴾ قيل : الإشارة فيه إلى استغناء العبد في تلك الحالة عن الاستمداد إلا من رب العزة ، فيستغني عن الوسائط . وقوله تعالى : ﴿ نورٌ على نور ﴾ أي : نور ملكوته على نور جبروته ، ﴿ يهدي الله لنوره ﴾ أي : لشهود نوره ، أو لمعرفة نوره ، ﴿ من يشاء ﴾ من خواص أحبابه ، كأنبيائه وأوليائه ، فمن لم يشهد هذا النور ، ولم يعرفه ، لا خصوصية له ؛ يتميز بها عن العوام ، فهو من عامة أهل اليمين ، ولو كثر علمه

وعمله ؛ إذ لا عبرة بالعلم والعمل مع الحِجَاب . وفي الحكَم : « الكائن في الكون ، ولم تفتح له ميادين الغيوب ، مسجون بمحيطاته ، محصور في هيكل ذاته » ، والمحجوب برؤية الأكوان من جملة العوام عند أهل العيان ، ينسحب عليه معنى المثال الآتي في ضد هذا بقوله : (أو كظلمات . . .) إلخ .

وفي الحِكَم : « الكون كله ظلمة ، وإنما أناره ظهورُ الحَقِّ فيه ، فمن رأى الكون ولم يشهده فيه ، أو عنده ، أو قبله أو بعده ، فقد أعوزه وجود الأنوار ، وحجبت عنه شموس المعارف بسُحب الآثار » . فالكون عند أهل العيان كله نور ، وعند أهل الحجاب كله ظلمة ، وهو محيط بهم ، فالظلمة محيطة بهم ، وقد ألف الغزالي في هذه الآية كتابه : (مشكاة الأنوار) ، وكلامه فيه يدور على أن معنى اسمه تعالى « النور » : يرجع إلى ما ثبتت به الأشياء وظهرت من العدم ، ولذلك قال قائلهم :

فَالنُّورُ يُظْهِرُ مَا تَرَى مِنْ صُورَةٍ . . . وبه ظهور الكَائِنَاتِ بِلاَ امْتِرَاءِ

وفي لطائف المنن : الله نور السموات والأرض ؛ نور سموات الأرواح بمشاهدته ، ونور أرض النفوس بمطالعته وخدمته ، وجعل قلوب أوليائه مَجْلاَةً لذاته ولظهور صفاته ، أظهرهم ليظهر فيهم خصوصاً ، وهو الظاهر في كل شيء عموماً ، ظهر فيهم بأنواره وأسراره ، كما ظهر فيهم ، وفيما عداهم بقدرته واقتداره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المديد حـ 4 صـ 44.41 ﴾

(135/549)

وقال القاسمي :

﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

أي : منوّرهما بالكواكب وما يفيض عنها من الأنوار . فهو مجاز من إطلاق الأثر على مؤثره . كما يطلق السبب على مسببه . أو مدبرهما ، من قولهم للرئيس الفائق في التدبير : نور القوم لأنهم يهتدون به في الأمور فيكون مجازاً . أو استعارة استعير النور بمعنى : المنور ، للمدبر ، لعلاقة المشابهة في حصول الاهتداء . أو موجدهما فإن النور ظاهر بذاته مظهر لغيره – كما قاله الغزالي – فيكون أطلق عليه تعالى مجازاً مرسلاً باعتبار لازم معناه .

(136/549)

قال أبو السعود : وعبر عن المنوّر بالنور ، تنبيهاً على قوة التنوير وشدة التأثير . وإيذاناً بأنه تعالى ظاهر بذاته ، وكل ما سواه ظاهر بإظهاره . كما أن النور نيّر بذاته وما عداه مستنير به . وأضيف النور إلى : ﴿ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ للدلالة على سعة إشراقه . أو المراد

بهما العالم كله : ﴿ مَثَلُ نُورِهِ ﴾ أي : صفة نوره العجيبة الشأن . قال أبو السعود : أي : نوره الفائض منه تعالى على الأشياء المستنيرة به وهو القرآن المبين . كما يعرب عنه ما قبله من وصف آياته بالإنزال والتبيين . وقد صرح بكونه نوراً أيضاً في قوله تعالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً ﴾ [النساء : 174] ، وبه قال ابن عباس رضي الله عنهما ، والحسن ، وزيد بن أسلم رحمهم الله تعالى : ﴿ كَمِشْكَاةٍ ﴾ أي : كصفة كوّة – طاقة – غير نافذة في الجدار ، في الإنارة والتنوير : ﴿ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾ أي : سراج ضخم ثاقب – شديد الإضاءة – وقيل : المشكاة الأنبوبة في وسط القنديل ، والمصباح الفتيلة المشتعلة : ﴿ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ﴾ أي : قنديل من الزجاج الصافي الأزهر : ﴿ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ ﴾ أي : متلألئ وقّاد شبيه بالدر في صفائه وزهرته : ﴿ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ ﴾ أي : كثيرة المنافع ، بأن رويت فتيلته بزيتها : ﴿ زَيْتُونَةٍ لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ ﴾ . أي لا شرقية تقع عليها الشمس وقت الشروق فقط ، ولا غربية تقع عليها عند الغروب . ولا تصيبها في الغداة بل في مكان عليها الشمس مشرقة من أول طلوعها إلى آخر غروبها . كصحراء أو رأس جبل . فزيتها أضوأ : ﴿ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ﴾ أي : يكاد يضيء بنفسه من غير نار لصفائه ولمعانه : ﴿ نُورٌ عَلَى نُورٍ ﴾ أي : ذلك النور الذي عبر به عن القرآن ، ومثلت صفته العجيبة بما فضل عن صفة المشكاة . نور عظيم كائن على نور كذلك

. فنور خبر مبتدأ محذوف ، والجار متعلق بمحذوف صفة له مؤكدة لما أفاده التنكير من الفخامة ، والجملة فذلكة للتمثيل ، وتصريح لما حصل منه ، وتمهيد لما يعقبه . وليس معنى : ﴿ نُورٌ عَلَى نُورٍ ﴾ نور واحد فوق آخر مثله ، ولا مجموع نورين اثنين فقط ، بل هو عبارة عن نور متضاعف كتضاعف ما مثل به من نور المشكاة بما ذكر . فإن المصباح إذا كان في مكان متضايق كالمشكاة ، كان أضوأ له وأجمع لنوره . بخلاف المكان الواسع ، فإن الضوء ينبث فيه وينتشر . والقنديل أعون شيء على زيادة الإنارة . وكذلك الزيت وصفاؤه . وليس وراء هذه المراتب مما يزيد نورها إشراقاً ، مرتبة أخرى عادة ﴿ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ أي : لهذا النور الثاقب العظيم الشأن ، بأن يوفقهم للإيمان به وفهم دلائل حقيّته . قال أبو السعود : وإظهاره في مقام الإضمار . لزيادة تقريره ، وتأكيد فخامته الذاتية بفخامته الإضافية الناشئة من إضافته إلى ضميره عزَّ وجلَّ : ﴿ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ ﴾ أي : ليدنو لهم المعقول من المحسوس ، توضيحاً وبياناً . ولذلك مثل نوره المعبر عنه بالقرآن ، بنور المشكاة : ﴿ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ أي : فلا يخفى عليه شيء وفيه وعد ووعيد . لأن علمه تعالى ، عبارة عن مجازاته في أمثال هذه الآي .

تنبيه :

هذه الآية الكريمة – آية النور – من الآيات التي صنفت فيها مصنفات خاصة . منها " مشكاة الأنوار " للإمام الغزالي ، وقد نقل عنه الرازيّ في " تفسيره " هنا جملة سابغة الذيل . ورأيت للإمام ابن القيم في كتابه " الجيوش الإسلامية " ما يجمل إيراده ، تعزيزاً للمقام واستظهاراً بزيادة العلم .

(138/549)

قال رحمه الله : سمى الله سبحانه و تعالى نفسه نوراً وجعل كتابه نوراً ورسوله صلى الله عليه وسلم نوراً ودينه نوراً . واحتجب عن خلقه بالنور وجعل دار أوليائه نوراً يتلألأ ، قال الله تعالى : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ وقد فسر بكونه منوّر السموات والأرض ، وهادي أهل السموات والأرض . فبنوره اهتدى أهل السموات والأرض . وهذا إنما هو فعله . وإلا فالنور الذي هو من أوصافه قائم به . ومنه اشتق له اسم النور الذي هو أحد الأسماء الحسنى . والنور يضاف إليه سبحانه على أحد وجهين . إضافة صفة إلى موصوفها , وإضافة مفعول إلى فاعله . فالأول كقوله عزَّ وجلَّ : ﴿ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ﴾ [الزمر : 69] ، فهذا إشراقها يوم القيامة بنوره تعالى ، إذا جاء لفصل القضاء .

ومنه قول النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم في الدعاء المشهور : < أعوذ بنور وجهك الكريم أن تضلني لا إله إلا أنت > . وفي الأثر الآخر : < أعوذ بوجهك – أو بنور وجهك – الذي أشرقت له الظلمات > . فأخبر النبيّ صلى الله عليه وسلم . أن الظلمات أشرقت لنور وجه الله . كما أخبر تعالى أن الأرض تشرق يوم القيامة بنوره .

(139/549)

وفي " معجم الطبرانيّ " و " السنة " له و " كتاب عثمان الدارمي " وغيرها ، عن ابن مسعود رضي الله عنه . قال : ليس عند ربكم ليل ولا نهار ، نور السموات والأرض من نور وجهه . وهذا الذي قاله ابن مسعود رضي الله عنه أقرب إلى تفسير الآية ، من قول من فسرها بأنه هادي أهل السموات والأرض . وأما من فسرها بأنه منوّر السموات والأرض ، فلا تنافي بينه وبين قول ابن مسعود . والحق أنه نور السموات والأرض بهذه الاعتبارات كلها . وفي صحيح مسلم وغيره من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بخمس كلمات فقال : < إن الله لا ينام ، ولا ينبغي له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، ويرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار ، وعمل النهار قبل عمل الليل . حجابه النور . لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من

خلقه > . وفي صحيح مسلم عن أبي ذر رضي الله عنه قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل رأيت ربك ؟ قال : < نور ، أَنَّى أراه > فسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى يقول : معناه كان ثمة نور ، وحال دون رؤيته نور ، فأنى أراه ؟ قال : ويدل عليه أن في بعض الألفاظ الصحيحة : هل رأيت ربك ؟ فقال : رأيت نوراً . وقد أعضل أمر هذا الحديث على كثير من الناس حتى صحفه بعضهم فقال : نورانيٌّ أراه . على أنها ياء النسب ، والكلمة كلمة واحدة . وهذا خطأ لفظاً ومعنى . وإنما أوجب لهم هذا الإشكال والخطأ أنهم لما اعتقدوا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى ربه وكان قوله : < أَنَّى أراه > كالإنكار للرؤية ، حاروا في الحديث ، ورده بعضهم باضطراب لفظه ، وكل هذا عدول عن موجب الدليل . وقد حكى عثمان بن سعيد الدارمي في كتاب " الرؤية " له إجماع الصحابة على أنه لم يرَ ربّه ليلة المعراج . وبعضهم استثنى ابن عباس فيمن قال ذلك . وشيخنا يقول : ليس ذلك بخلاف في الحقيقة . فإن ابن عباس لم يقل رآه بعيني رأسه ،

(140/549)

وعليه اعتمد أحمد في إحدى الروايتين حيث قال : إنه صلى الله عليه وسلم رآه عزَّ وجلَّ . ولم يقل بعيني رأسه . ولفظ أحمد لفظ ابن عباس رضي الله عنهما . ويدل على صحته ما قال شيخنا في معنى حديث أبي ذر رضي الله عنه : قوله صلى الله عليه وسلم في الحديث الآخر : < حجابه النور > فهذا النور ، والله أعلم . النور المذكور في حديث أبي ذرّ رضي الله عنه < رأيت نوراً > .

ثم قال ابن القيم : وقوله تعالى : ﴿ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾ هذا مثل لنوره في قلب عبده المؤمن . كما قال أبيّ بن كعب وغيره : وقد اختلف في الضمير في نوره فقيل : هو النبيّ صلى الله عليه وسلم . أي : مثل نور محمد صلى الله عليه وسلم . وقيل : مفسره المؤمن . أي : مثل نور المؤمن .

(141/549)

والصحيح أن يعود على الله تعالى . والمعنى : مثل نور الله سبحانه في قلب عبده . وأعظم عباده نصيباً من هذا النور رسول الله صلى الله عليه وسلم . فهذا ، مع ما تضمنه عود الضمير المذكور – وهو وجه الكلام – يتضمن التقادير الثلاثة ، وهو أتم لفظاً ومعنى .

وهذا النور يضاف إلى الله تعالى . إذ هو معطيه لعبده وواهبه إياه . ويضاف إلى العبد .

إذ هو محله وقابله . فيضاف إلى الفاعل والقابل . ولهذا النور فاعل وقابل ، ومحل وحامل ، ومادة . وقد تضمنت الآية ذكر هذه الأمور كلها على وجه التفصيل . فالفاعل وهو الله تعالى مفيض الأنوار . الهادي لنوره من يشاء . والقابل : العبد المؤمن . والمحل : قلبه . والحامل : همته وعزيمته وإرادته . والمادة : قوله وعمله . وهذا التشبيه العجيب الذي تضمنته الآية ، فيه من الأسرار والمعاني وإظهار تمام نعمته على عبده المؤمن ، بما أناله من نوره ، ما تقر به عيون أهله وتبتهج به قلوبهم . وفي هذا التشبيه لأهل المعاني طريقتان : إحداهما : طريقة التشبيه المركب وهي أقرب مأخذاً وأسلم من التكلف . وهي أن تشبه الجملة برمتها بنور المؤمن ، من غير تعرض لتفصيل كل جزء من أجزاء المشبه ، ومقابلته بجزء من المشبه به . وعلى هذا عامة أمثال القرآن . فتأمل صفة المشكاة ، وهي كوة تنفذ لتكون أجمع للضوء ، وقد وضع فيها مصباح ، ذلك المصباح داخل زجاجة تشبه الكوكب الدريّ في صفائها وحسنها . ومادته من أصفى الأدهان وأتمها وقوداً ، من زيت شجرة في وسط القراح ، لا شرقية ولا غربية ، بحيث تصيبها الشمس في إحدى طرفي النهار ، بل هي في وسط القراح ، محميّة بأطرافه تصيبها الشمس أعدل إصابة ، والآفات إلى الأطراف دونها . فمن شدة إضاءة زيتها وصفائها وحسنها ، يكاد يضيء من غير أن تمسه نار . فهذا المجموع المركب هو مثل نور الله تعالى الذي وضعه في قلب عبده المؤمن وخصه به . والطريقة الثانية ، طريقة التشبيه المفصل . فقيل : المشكاة صدر

المؤمن ، والزجاجة قلبه . شبه قلبه بالزجاجة لرقتها وصفائها وصلابتها . وكذلك قلب المؤمن . فإنه قد جمع الأوصاف الثلاثة . فهو يرحم ويحسن ويتحنن ويشفق على الخلق برقته وبصفائه . تتجلى فيه صور الحقائق والعلوم على ما هي عليه . ويتباعد الكدر والدرن والوسخ بحسب ما فيه من الصفاء . وبصلابته يشتد في أمر الله تعالى ، ويتصلب في ذات الله تعالى ، ويغلظ على أعداء الله تعالى . ويقوم بالحق لله تعالى . وقد جعل الله تعالى القلوب كالآنية ، كما قال بعض السلف : القلوب آنية الله في أرضه فأحبها إليه أرقها وأصلبها وأصفاها . والمصباح هو نور الإيمان في قلبه . والشجرة المباركة هي شجرة الوحي المتضمنة للهدى ودين الحق . وهي مادة المصباح التي يتّقد منها . والنور على النور ، نور الفطرة الصحيحة ، والإدراك الصحيح ، ونور الوحي والكتاب . فينضاف أحد النورين إلى الآخر ، فيزداد العبد نوراً على نور . ولهذا يكاد ينطق بالحق والحكمة ، قبل أن يسمع ما فيه بالأثر . ثم يبلغه الأثر بمثل ما وقع في قلبه ونطق به . فيتفق عنده شاهد العقل والشرع والفطرة والوحي . فيريه عقله وفطرته وذوقه الذي جاء به الرسول صلى الله عليه

وسلم هو الحق لا يتعارض عنده العقل والنقل البتة . بل يتصادقان ويتوافقان . فهذا علامة النور على النور . انتهى . اهـ ﴿ محاسن التأويل حـ 12 صـ 401.406 ﴾

(143/549)

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب :

قوله تعالى : « اللَّهُ نُورُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ » .

هذه الآية تحدث عن سلطان اللّه ، وامتلاكه لناصية كل موجود فى هذا الوجود ، من الذّرّة فما دونها ، إلى النجم فما فوقه . .

وقد وصف اللّه سبحانه وتعالى ذاته بأنه نور السّموات والأرض . . أي أنه الكاشف لكل موجود طريقه فى هذا الوجود ، والهادي الموجّه له إلى الطريق الذي يأخذه ، كما يقول سبحانه : « الَّذِي أَعْطى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ، ثُمَّ هَدى » (50 : طه) .

فهذا النور الذي يضىء الوجود كله ، ويقيم لكل موجود فيه ، بصيرة ، أو بصرا . هذا النور هو مظهر من مظاهر جلال اللّه ، وعظمته ، وقدرته . .

فكما أن اللّه سبحانه وتعالى هو ربّ العالمين ، فكذلك هو . سبحانه . نور العالمين . .

وقد ضرب اللّه سبحانه وتعالى لنوره العظيم ، مثلا يقربه إلى العقول ، ويدنيه من المدارك

والتصورات ، ويخرجه من عالم ماوراء الحس إلى عالم الحسّ . .

وإلا فإن هذا النور فى ذاته لا يمكن تصوره ، حقيقة أو خيالا ، لأنه من صفات اللّه ، وكما لا تدرك ذات اللّه ، فكذلك لا تدرك صفاته . .

والمثل المضروب لنور اللّه هو « المشكاة » وهى الكوة أي « الطاق » المفتوحة فى الحائط ، والمغلقة من أحد وجهيها . . ويمكن أن تكوّن « المشكاة » هى هذا القنديل من البلّور ، الذي يحمل المصباح.

وهذه المشكاة ، أو القنديل ، يتلألأ نورا مشعّا ، يكاد يخطف الأبصار . .

(144/549)

وهذا النور ، ينبعث من « مصباح » وهو الشعلة المتقدة المضيئة ، من فتيل أو نحوه ، داخل المشكاة . .

وهذا المصباح داخل زجاجة . .

وهذه الزجاجة . . شفافة صافية . . كأنها كوكب درّىّ . .

ثم إن وقود هذا المصباح هو ، من زيت مبارك ، مستصفى من شجرة مباركة زيتونة ، « لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ » أي مغروسة فى أنسب مكان لها ، وأعدله . . فهى وإن كانت من

نبات المناطق المعتدلة ، لا الحارة ، ولا الباردة ، إلا أنها تأخذ أعدل مكان فى هذه المناطق ، فهى لا إلى الشرق ، ولا إلى الغرب . .

وقد يحسب بعض الناس أن التأثيرات الطبيعية فى حياة الناس ، والحيوان والنبات ، تخضع لقرب المكان أو بعده من خط الاستواء . . وهذا ، وإن كان صحيحا ، إلا أنه ليس على إطلاقه ، فإن قرب المكان أو بعده ، من نصف الكرة الأرضية ، شرقا ، أو غربا ، له تأثيره القوىّ فى الكائنات الحية ، من إنسان ، وحيوان ، ونبات ، ولهذا اختلف الشرق والغرب ، ولهذا قيل :

الشرق شرق والغرب غرب ، بمعنى أن لكل منهما بيئة خاصة ، يتأثر بها الأحياء التي تعيش فيها . . وإنه لشتان بين اليابانى فى أقصى الشرق ، وبين الأمريكى فى أقصى الغرب ، وإن كانا على خط عرض واحد . .

والمشرق ، أو النصف الشرقي من الكرة الأرضية ، تختلف طبائع الناس فيه ، بين من كان منهم فى أقصى الشرق ، ومن كان فى أقصى الغرب من هذا الشرق ، وذلك لامتداد المسافة وطولها بين شرق الشرق وغربه ، وكذلك الشأن فى الغرب ، ولهذا جاء قوله تعالى : « رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ » (17 : الرحمن) وجاء فى آية أخرى : « فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشارِقِ وَالْمَغارِبِ » (40 : المعارج) . . فالمشرق مشرقان ، والمغرب مغربان . . والمشرق مشارق ، والمغرب مغارب ، وذلك حسب اتساع النظرة التي ينظر بها إليهما .

ولا شك أن وصف الشجرة الزيتونة بأنها لا شرقية ولا غربية ، يدلّ على أنها أكرم شجرة زيتون ، وأحسنها ، وأتمها ، إذ كانت تنبت فى أعدل مكان من الأماكن التي تنبت فيها .

ونعود إلى هذا التشبيه الذي شبه به نور اللّه . .

وقد أكثر المفسرون القول فى العائد عليه الضمير فى قوله تعالى : « مَثَلُ نُورِهِ » أهو اللّه ؟ أم المؤمن ؟ أم قلب المؤمن ؟ أم القرآن ؟ أم النبي صلى اللّه عليه وسلم ؟ .

والذي تدل عليه الآية صراحة ، هو أن هذا الضمير يعود إلى اللّه سبحانه وتعالى ، وأن هذا التشبيه هو تشبيه لنور اللّه ، وإنه لا حرج من أن يشبه نور اللّه بما يقع لحواسنا من نور ، وللّه - مع هذا - المثل الأعلى ، « لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ » وقد وصف سبحانه ذاته ، بأنه يرى ، ويسمع ، ويطوى السموات بيمينه ، ويصنع من يصطفى من عباده على عينه . . إلى غير ذلك مما هو من صفات الإنسان ، وأعماله . . وما ذلك إلا لنعطيه سبحانه ، نحن البشر - الوصف الكامل ، الذي ننتزعه من عالم الحس الذي نعيش فيه . .

وقد تحرّج كثير من المفسرين أن يقبلوا هذا المثل لنور اللّه ، ولهذا كان منهم تلك التأويلات التي تجعل النور لقلب المؤمن ، أو للقرآن ، أو للرسول الكريم . .

وهذا مثل ، وليس تماثلا من كل وجه بين نور اللّه ، وبين هذا النور الممثل به نور الحق جل وعلا . .

وفى الحديث : « إن اللّه سبحانه وتعالى خلق آدم على صورته » . .

وتقول التوراة ! « خلق اللّه الإنسان على صورته . . على صورته خلقه » .

وأين الإنسان من عظمة اللّه ، وجلال اللّه ؟ إنه هباءة تسبح فى الهواء ! قيل إن أبا تمام الشاعر ، دخل على ممدوحه فى مصر ، فمدحه بقصيدة جاء فيها قوله :

(146/549)

إقدام عمرو « 1 » فى سماحة حاتم فى حلم أحنف فى ذكاء إياس

فقال بعض حاشية الأمير : ما هكذا يمدح الأمير . . ما زدت أن شبهته ببعض صعاليك الأعراب ! فسكت أبو تمام قليلا . . ثم قال ، دافعا هذا الاعتراض ، ومفحما هذا المعترض :

لا تنكروا ضربى له من دونه مثلا شرودا فى الندى والباس

فاللّه قد ضرب الأقلّ لنوره مثلا من المشكاة والنبراس

فهكذا يجب أن تفهم الأمثال ، وأنها ليست تماثلا بين مضرب المثل والمضروب له .

(1) هو عمرو بن ودّ العامري . من فرسان العرب المعدودين .

وقد عرضنا لهذه القضية فى كتابنا قضية الألوهية « بين الفلسفة والدين » فى الجزء الأول منه .

والصورة التي يصورها التشبيه هى :

كوة أو مشكاة « بلورية » . . فيها مصباح متقد ، وهذا المصباح مظروف فى زجاجة صافية أتم ما يكون عليه الصفاء ، حتى لكأنها كوكب درى . .

ثم إن شعلة هذا المصباح تشتعل من زيت مستخلص من أكرم شجرة عرفت من شجر الزيتون . .

فهذا النور ، ليس مجرد نور ، وإنما هو كما وصفه اللّه سبحانه : « نُورٌ عَلَى نُورٍ » . . نور المشكاة البلورية . ثم نور الزجاجة الصافية صفاء الكوكب الدري ، ثم نور الزيت الذي يكاد يضىء ولو لم تمسسه نار . . ثم ضوء فتيل المصباح بعد أن يشتعل . . فكلّ منها نور يجتمع إلى نور . .

وهذا النور هو أقصى ما كان يمكن أن تحصل عليه الإنسانية ، أو تتشهّى الحصول عليه عند

نزول القرآن . .

أما ما جدّ بعد ذلك من نور الكهرباء ـ فإنه لا ينقض هذا النور ، ولا ينقص من جلاله وروعته . . لأنه نور وديع ، هادىء ، لطيف ، على حين أن نور الكهرباء زاعق ، صارخ . . وهذا هو السّر أو بعض السرّ فى ضرب المثل بهذا النور ، دون ضوء الشمس ، وهو أبهى بهاء وأقوى قوة من كل نور تعرفه الإنسانية .

(148/549)

وقد قلنا إن المراد بنور اللّه هنا ، هو هداية اللّه سبحانه وتعالى لكل ذرّة فى هذا الوجود ، وإقامتها فى مكانها الصحيح ، وتوجيهها الوجهة التي تأتلف فيها مع الوجود ، وتتناغم مع الموجودات . . فكأنّ كل ذرة من ذرات الوجود تعمل فى نور ، فلا تضلّ طريقها أبدا . . ثم إذا نظرنا بعين العلم اليوم ، رأينا الوجود كله نورا . . فالأجسام جميعها مكونة من ذرات ، والذّرات ـ كما عرف العلم ـ نور من نور . . فكل ذرة مجموعة من الشموس ، تدور فى فلك النواة التي للذرة . . فهذه الأجسام المعتمة وغير المعتمة ، من جبال ، ورمال ، وتراب ، وأناسىّ ، ودوابّ ، وعربات ، وسيارات ، ودور ، وقصور ، وشموس وأقمار ـ هى نور مجسد ، متكاثف . إذا انحلّ إلى ذرات كان كتلا من النور الوهاج . .

فالعالم المادىّ - كما يبدو اليوم فى مرآة العلم الحديث - هو شموس من نور ، وأن نوره سبحانه ، يتخلل هذا النور ، الذي هو بالإضافة إلى نور اللّه ظلام ، لا تتجلى حقيقته إلا على ضوء نور اللّه ، كما تتجلى حقائق الأشياء التي تقع فى محيط المشكاة ، وما يشعّ المصباح الذي فيها من أضواء .

فنور اللّه سبحانه وتعالى ، هو الذي يمسك هذا الوجود على نظامه الذي أقامه اللّه عليه ، إذ على هذا النور يدور كل موجود فى فلكه ، متناغما متجاوبا مع دورة الموجودات كلها فى فلك الوجود . . وهذا ما يشير إلى قوله تعالى :

« وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَما لَهُ مِنْ نُورٍ » . . (40 : النور) وقوله سبحانه :

« قَدْ جاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتابٌ مُبِينٌ » (15 : المائدة) وعلى هذا يكون المراد بنور اللّه ، هو ما أودع فى الموجودات من سنن ، وما ركّب فى المخلوقات من قوى ، وما بعث فى الناس من رسل ، وما أنزل من كتب ، ومن دلائل . . ففى كل هذا نور من نور اللّه ، « يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوانَهُ سُبُلَ السَّلامِ » (16 : المائدة) ولهذا جاءت هذه الآية :

« اللَّهُ نُورُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ » تالية قوله تعالى : « وَلَقَدْ أَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ آياتٍ مُبَيِّناتٍ وَمَثَلًا مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ » وذلك بعد أن كشفت آيات اللّه بأنوارها هذه الغاشية التي غشيت المسلمين من حديث الإفك ، حتى لقد انقشع ظلامها ، وانجلى ليلها عن صبح مشرق مبين . .

ولا بد من الإشارة إلى أن التعبير عن قيومية اللّه سبحانه وتعالى ، وسلطانه القائم فى الوجود - بالنور . . إنما هو لما فى النور من لطف ، بحيث لا يتجسد أبدا ، بل أنه فى هذا على عكس الأشياء كلها ، فالأشياء اللطيفة كالزجاج الرقيق مثلا ، كلما علت طبقة منه طبقة أخرى زادت كثافته ، ثم لا تزال شفافيته تقل كلما تكاثرت طبقاته حتى يصبح جسما معتما . . أما النور ، فإنه كلما تضاعفت أشعته ، ازداد شفافية وقدرة على كشف المرئيات التي يقع عليها . . فنور شمعة فى حجرة ، ونور آلاف منها فى نفس الحجرة ، هو هو من حيث أنه لا يشغل حيّزا فيها ، ولا يحدث خلخلة فى الهواء الموجود بها ، وإن كان يزيد الموجودات وضوحا وانكشافا .

ومن جهة أخرى ، فإن النور - مع شفافيته ، ومع زيادة هذه الشفافية كلما قوى وكثر - هو أكثر ظواهر الطبيعة سرعة ، بحيث لا يكاد يقيد بقيد الزمن . . فالشعاعة من الضوء تنتقل من طرف الأرض إلى طرفها الآخر فى لمحة بصر ، لا تتجاوز جزءا من الثانية . . .

فالنور ـ كما ترى ـ لا يتحيز فى مكان ، ولا يكاد يتقيّد بزمان .

واللّه سبحانه وتعالى لا يحويه مكان ، ولا يحدّه زمان . .

(150/549)

فإذا كان اللّه نور السموات والأرض ، كان معنى هذا أنه ـ سبحانه ـ وهو القيوم على الوجود ـ ليس حالّا فى الموجودات ، ولا متحيزا فيها ، ولا محجوزا فى مكان منها دون مكان . .

وأقرب مثل لهذا فى تصورنا ، هو النور المنبعث من مصباح فى زجاجة درية ، داخل مشكاة ، هى أشبه بالوجود الذي يستضىء بنور اللّه . . فهذه المشكاة ، يكشف النور وجودها ، دون أن يشغل حيزا فيها ، ودون أن تحيزه هى داخلها ، لأنها شفافة لا تحجب النور الذي يشع فيها ، ودون أن يكون هناك زمان ينتقل فيه النور من مكان إلى مكان فيها . .

وإذا علمنا أن الوجود ـ كما أثبت العلم ـ مصور على هيئة كروية ، كان لنا أن نرى هذا الوجود ممثلا فى تلك المشكاة البلورية ، المعلقة فى الفضاء يضيئها مصباح فى زجاجة كأنها كوكب درىّ ، يوقد من زيت شجرة زيتونة مباركة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار ! . . وأقرب صورة للوجود ، والنور المنبعث فى كيانه ، هو

القنديل المعلق فى بيت من بيوت اللّه ، ينبعث منه النور فى ظلمات ليل بهيم .

ومن بعد هذا كله ، أو قبل هذا كله ، ينبغى أن نفرق بين نور ونور . .

نور اللّه ، وهذا النور الذي نصطنعه . . فهذا النور الذي نحصل عليه من الطبيعة ، هو ظلام بالإضافة إلى النور الإلهى . . الذي لا يعرف كنهه ، ولا يدرك سره ، وإن استضاءت به البصائر واستنارت به القلوب . . فهذا مثل ، لا يقوم منه تماثل بينه وبين الحقيقة المشار إليه بها . . « وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلى فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » . .

وفى قوله تعالى : « يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشاءُ » . إشارة إلى أن نور اللّه الذي يملأ الوجود ، هو نفحة من النور العلوي ، وأن هذه النفحة ، موجودة فى كل موجود . . ومع هذا فإن اللّه سبحانه وتعالى ألطافا بعباده ، فيصل نورهم بنوره ، ويفتح لهم بهذا النور طريقا إلى عالم الحق ، والخير :

(151/549)

« يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشاءُ » .

فالوجود كله ، وإن كان نورا من نور اللّه ، بالإفاضة والخلق ، فإن هناك نور الهداية ، الذي يضىء البصائر ، ويشرح الصدور ، وهذا النور يدعو اللّه إليه من شاء من خلقه ، ليكونوا

فى ضيافة هذا النور القدسي ؟ وليكونوا

ربانيين ، بما فيهم من النور الرباني ، الذي أمدهم الله به : « وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ » (40 : النور) .

قوله تعالى : « وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثالَ لِلنَّاسِ » . أي هذا النور ، الذي صوّرته المشكاة ، والمصباح ، هو مثل ، وليس حقيقة ، لأن نور اللّه سبحانه وتعالى لا يمكن وصفه ، وإن أمكن الإشارة إليه بصورة تمثله ، ولا تماثله . .

وقوله تعالى : « وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ » إشارة إلى أن نور اللّه ، هو من علم اللّه الكاشف لكلّ شيء . . فهو نور علم وهداية ، يصدر عن عالم ، حكيم ، مدبر ، فيفيض على الوجود هدى ورحمة ، ويسكب على الموجودات سكينة وسلاما وأمنا . . انتهى انتهى .

ا هـ ﴿ التفسير القرآنى للقرآن حـ 9 صـ 1281 . 1289 ﴾

(152/549)

وقال ابن عاشور :

﴿ اللهُ نُورُ السماوات والأرض ﴾ .

أُتْبع منةَ الهداية الخاصة في أحكام خاصة المفادة من قوله تعالى : ﴿ ولقد أنزلنا إليكم آيات

مبينات ﴾ [النور : 34] الآية بالامتنان بأن الله هو مكون أصول الهداية العامة والمعارف الحقِّ للناس كلهم بإرسال رسوله بالهدى ودين الحق ، مع ما في هذا الامتنان من الإعلام بعظمة الله تعالى ومجده وعموم علمه وقدرته .

والذي يظهر لي أن جملة : ﴿ الله نور السموات والأرض ﴾ معترضة بين الجملة التي قبلها وبين جملة : ﴿ مثل نوره كمشكاة ﴾ وأن جملة : ﴿ مثل نوره كمشكاة ﴾ بيان لجملة : ﴿ ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات ﴾ [النور : 34] كما سيأتي في تفسيرها فتكون جملة : ﴿ الله نور السماوات والأرض ﴾ تمهيداً لجملة : ﴿ مثَل نوره كمشكاة ﴾ .

ومناسبة موقع جملة : ﴿ مثل نوره كمشكاة ﴾ بعد جملة : ﴿ ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات ﴾ أن آيات القرآن نور قال تعالى : ﴿ وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً ﴾ في سورة النساء (174) ، وقال : ﴿ قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ﴾ في سورة العقود (15) ، فكان قوله : ﴿ الله نور السماوات والأرض ﴾ كلمة جامعة لمعان جمّة تتبع معاني النور في إطلاقه في الكلام .

وموقع الجملة عجيب من عدة جهات ، وانتقال من بيان الأحكام إلى غرض آخر من أغراض الإرشاد وأفانين من الموعظة والبرهان .

والنور : حقيقته الإشراق والضياء .

وهو اسم جامد لمعنى ، فهو كالمصدر لأنا وجدناه أصلاً لاشتقاق أفعال الإنارة فشابهت

الأفعال المشتقة من الأسماء الجامدة نحو : استنوق الجمل ، فإن فعل أنار مثل فعل أفلس ، وفعل استنار مثل فعل استحجر الطين .

وبذلك كان الإخبار به بمنزلة الإخبار بالمصدر أو باسم الجنس في إفادة المبالغة لأنه اسم ماهية من المواهي فهو والمصدر سواء في الاتصاف .

فمعنى : ﴿ الله نور السماوات والأرض ﴾ أن منه ظهورهما .

والنور هنا صالح لعدة معان تشبّه بالنور .

(153/549)

وإطلاق اسم النور عليها مستعمل في اللغة .

فالإخبار عن الله تعالى بأنه نور إخبار بمعنى مجازي للنور لا محالة بقرينة أصل عقيدة الإسلام أن الله تعالى ليس بجسم ولا جوهر ولا عرض لا يتردد في ذلك أحد من أصحاب اللسان العربي ولا تخلو حقيقة معنى النور عن كونه جوهراً أو عرضاً .

وأسعد إطلاقات النور في اللغة بهذا المقام أن يراد به جلاء الأمور التي شأنها أن تخفى عن مدارك الناس وتلتبس فيقل الاهتداء إليها ، فإطلاقه على ذلك مجاز بعلامة التسبب في الحس والعقل وقال الغزالي في رسالته المعروفة "بمشكاة الأنوار" : النور هو الظاهر الذي به

كل ظهور ، أي الذي تنكشف به الأشياء وتنكشف له وتنكشف منه وهو النور الحقيقي وليس فوقه نور .

وجعل اسمه تعالى النور دالاً على التنزه عن العدم وعلى إخراج الأشياء كلها عن ظلمة العدم إلى ظهور الوجود فآل إلى ما يستلزمه اسم النور من معنى الإظهار والتبيين في الخلق والإرشاد والتشريع وتبعه ابن برَّجان الإشبيلي في "شرح الأسماء الحسنى" فقال : إن اسمه النور آل إلى صفات الأفعال أ هـ .

أما وصف النور هنا فيتعين أن يكون ملائماً لما قبل الآية من قوله : ﴿ لقد أنزلنا إليكم آيات مبينات ﴾ [النور : 34] وما بعدها من قوله : ﴿ مثل نوره كمشكاة ﴾ إلى قوله : ﴿ يهدي الله لنوره من يشاء ﴾ وقوله عقب ذلك : ﴿ ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور ﴾ [النور : 40] .

وقد أشرنا آنفاً إلى أن للنور إطلاقات كثيرة وإضافات أخرى صالحة لأن تكون مراداً من وصفه تعالى بالنور .

(154/549)

وقد ورد في مواضع من القرآن والحديث فيحمل الاطلاق في كل مقام على ما يليق بسياق الكلام ولا يطرد ذلك على منوال واحد حيثما وقع ، كما في قول النبي صلى الله عليه وسلم " ولك الحمد أنت نور السماوات والأرض ومن فيهن " فإن عطف "من فيهن" يؤذن بأن المراد ب"السماوات والأرض" ذاتهما لا الموجودات التي فيهما فيتعين أن يراد بالنور هنالك إفاضة الوجود المعبر عنه بالفتق في قوله تعالى : ﴿ كانتا رتقاً ففتقناهما ﴾ [الأنبياء : 30] .

والمعنى : أنه بقدرته تعالى استقامت أمورهما .

والتزم حكماء الإشراق من المسلمين وصوفية الحكماء معاني من إطلاقات النور .

وأشهرها ثلاثة : البرهان العلمي ، والكمال النفساني ، وما به مشاهدة النورانيات من العوالم .

وإلى ثلاثتها أشار شهاب الدين يحيى السهروردي في أول كتابه "هياكل النور" بقوله : "يا قيوم أيِّدنا بالنور وثبتنا على النور واحشرنا إلى النور" كما بينه جلال الدين الدواني في "شرحه" .

ونلحق بهذه المعاني اطلاق النور على الإرشاد إلى الأعمال الصالحة وهو الهدي .

وقد ورد في آيات من القرآن إطلاق النور على ما هو أعم من الهدي كما في قوله تعالى : ﴿ إنا أنزلنا التوراة فيها هُدًى ونور ﴾ [المائدة : 44] وقوله : ﴿ قل من أنزل الكتاب الذي

جاء به موسى نوراً وهدى للناس ﴾ [الأنعام : 91] فعطف أحد اللفظين على الآخر مشعر بالمغايرة بينهما .

وليس شيء من معاني لفظ النور الوارد في هذه الآيات بصالح لأن يكون هو الذي جعل وصفاً لله تعالى لا حقيقة ولا مجازاً فتعين أن لفظ (نور) في قوله : ﴿ مثل نوره كمشكاة ﴾ غير المراد بلفظ نور في قوله : ﴿ الله نور السماوات والأرض ﴾ فالنور لفظ مشترك استعمل في معنى وتارة أخرى في معنى آخر .

(155/549)

فأحسن ما يفسر به قوله تعالى : ﴿ الله نور السماوات والأرض ﴾ أن الله موجد كل ما يعبر عنه بالنور وخاصة أسباب المعرفة الحق والحجة القائمة والمرشد إلى الأعمال الصالحة التي بها حسن العاقبة في العالَمَيْن العلوي والسفلي ، وهو من استعمال المشترك في معانيه .

ويجوز أن يراد بالسماوات والأرض من فيهما من باب : ﴿ واسأل القرية ﴾ [يوسف : 82] وهو أبلغ من ذكر المضاف المحذوف لأن في هذا الحذف إيهام أن السماوات والأرض قابلة لهذا النور كما أن القرية نفسها تشهد بما يسأل منها ، وذلك أبلغ في الدلالة على الإحاطة بالمقصود وألطف دلالة .

فيشمل تلقين العقيدة الحق والهداية إلى الصلاح؛ فأما هداية البشر إلى الخير والصلاح فظاهرة، وأما هداية الملائكة إلى ذلك فبأن خلقهم الله على فطرة الصلاح والخير.

وبأن أمرهم بتسخير القوى للخير، وبأن أمر بعضهم بإبلاغ الهدى بتبليغ الشرائع وإلهام القلوب الصالحة إلى الصلاح وكانت تلك مظاهر هدى لهم وبهم.

﴿ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ المصباح فِي زُجَاجَةٍ الزجاجة كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مباركة زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يضيء وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ على نُورٍ ﴾.

يظهر أن هذه الجملة بيان لجملة: ﴿ ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات ﴾ [النور: 34] إذ كان ينطوي في معنى ﴿ آيات ﴾ ووصفها بـ ﴿ مبينات ﴾ ما يستشرف إليه السامع من بيان لما هي الآيات وما هو تبيينها، فالجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً.

ووقعت جملة: ﴿ الله نور السماوات والأرض ﴾ معترضة بين هذه الجملة والتي قبلها تمهيداً لعظمة هذا النور الممثل بالمشكاة.

وجرى كلام كثير من المفسرين على ما يقتضي أنها بيان لجملة: ﴿ الله نور السماوات والأرض ﴾ فيكون موقعها موقع عطف البيان فلذلك فُصلت فلم تعطف.

والضمير في قوله : ﴿ نوره ﴾ عائد إلى اسم الجلالة ، أي مثل نور الله .

والمراد بـ ﴿ نوره ﴾ كتابه أو الدين الذي اختاره ، أي مثله في إنارة عقول المهتدين .

فالكلام تمثيل لهيئة إرشاد الله المؤمنين بهيئة المصباح الذي حفّت به وسائل قوة الإشراق فهو نور الله لا محالة .

وإنما أوثر تشبيهه بالمصباح الموصوف بما معه من الصفات دون أن يشبه نوره بطلوع الشمس بعد ظلمة الليل لقصد إكمال مشابهة الهيئة المشبه بها بأنها حالة ظهور نور يبدو في خلال ظلمة فتنقشع به تلك الظلمة في مساحة يراد تنويرها .

ودون أن يشبه بهيئة بزوغ القمر في خلال ظلمة الأفق لقصد إكمال المشابهة لأن القمر يبدو ويغيب في بعض الليلة بخلاف المصباح الموصوف .

وبعد هذا فلأن المقصود ذكر ما حف بالمصباح من الأدوات ليتسنى كمال التمثيل بقبوله تفريق التشبيهات كما سيأتي وذلك لا يتأتى في القمر .

والمَثَل : تشبيه حال بحال ، وقد تقدم في أوائل سورة البقرة .

فمعنى ﴿ مثل نوره ﴾ : شَبيهُ هدِيه حالُ مشكاة .

.

إلى آخره ، فلا حاجة إلى تقدير : كنور مشكاة ، لأن المشبه به هو المشكاة وما يتبعها .

وقوله : ﴿ كمشكاة فيها مصباح ﴾ المقصود كمصباح في مشكاة .

وإنما قُدم ﴿ المشكاة ﴾ في الذكر لأن المشبه به هو مجموع الهيئة ، فاللفظ الدال على المشبه به هو مجموع المركب المبتدىء بقوله : ﴿ كمشكاة ﴾ والمنتهي بقوله : ﴿ ولو لم تمسسه نار ﴾ فلذلك كان دخول كاف الشبه على كلمة ﴿ مشكاة ﴾ دون لفظ ﴿ مصباح ﴾ لا يقتضي أصالة لفظ مشكاة في الهيئة المشبه بها دون لفظ ﴿ مصباح ﴾ بل موجب هذا الترتيب مراعاة الترتيب الذهني في تصور هذه الهيئة المتخيلة حين يلمح الناظر إلى انبثاق النور ثم ينظر إلى مصدره فيرى مشكاةً ثم يبدو له مصباح في زجاجة .

والمشكاة المعروف من كلام أهل اللغة أنها فرجة في الجدار مثل الكوة لكنها غير نافذة فإن كانت نافذة فهي الكوة .

(157/549)

ولا يوجد في كلام الموثوق عنهم من أهل العربية غير هذا المعنى ، واقتصر عليه الراغب وصاحب "القاموس" و"الكشاف" واتفقوا على أنها كلمة حبشية أدخلها العرب في كلامهم فعدت في الألفاظ الواقعة في القرآن بغير لغة العرب .

ووقع ذلك في "صحيح البخاري" فيما فسره من مفردات سورة النور .

ووقع في "تفسير الطبري" وابن عطية عن مجاهد : أن المشكاة العمود الذي فيه القنديل يكون على رأسه ، وفي "الطبري" عن مجاهد أيضاً : المشكاة الصُفر (أي النحاس أي قطعة منه شبيه القصيبة) الذي في جوف القنديل .

وفي معناه ما رواه هو عن ابن عباس : المشكاة موقع الفتيلة ، وفي معناه أيضاً ما قاله ابن عطية عن أبي موسى الأشعري : المشكاة الحديدة والرصاصة التي يكون فيها الفتيل في جوف الزجاجة .

وقول الأزهري : أراد قصبة الزجاجة التي يستصبح فيها وهي موضع الفتيلة .

وقد تأوله الأزهري بأن قصبة الزجاجة شبهت بالمشكاة وهي الكوة فأطلق عليها مشكاة .

والمصباح : اسم للإناء الذي يوقد فيه بالزيت للإنارة ، وهو من صيغ أسماء الآلات مثل المفتاح ، وهو مشتق من اسم الصبح ، أي ابتداء ضوء النهار ، فالمصباح آلة الإصباح أي الإضاءة .

وإذا كان المشكاة اسماً للقصيبة التي توضع في جوف القنديل كان المصباح مراداً به الفتيلة التي توضع في تلك القُصيبة .

وإعادة لفظ ﴿ المصباح ﴾ دون أن يقال : فيها مصباح في زجاجة ، كما قال : ﴿ كمشكاة فيها مصباح ﴾ إظهار في مقام الإضمار للتنويه بذكر المصباح لأنه أعظم أركان

هذا التمثيل ، وكذلك إعادة لفظ ﴿ الزجاجة ﴾ في قوله : ﴿ الزجاجة كأنها كوكب دري ﴾ لأنه من أعظم أركان التمثيل .

ويسمى مثل هذه الإعادة تشابه الأطراف في فن البديع ، وأنشدوا فيه قول ليلى الأخيلية في مدح الحجاج بن يوسف:

إذا أُنزل الحجاج أرضاً مريضةً . . .

تتبع أقصى دائها فشفاها

شفاها من الداء العضال الذي بها . . .

غلام إذا هز القناة سقاها

سقاها فروّاها بشرب سجاله . . .

(158/549)

دماءَ رجال يحلبون صراها

ومما فاقت به الآية عدم تكرار ذلك أكثر من مرتين .

والزجاجة : اسم إناء يصنع من الزجاج ، سميت زجاجة لأنها قطعة مصنوعة من الزجاج بضم الزاي وتخفيف الجيمين ملحقة بآخر الكلمة هاء هي علامة الواحد من اسم الجمع

كأنهم عاملوا الزجاج معاملة أسماء الجموع مثل تَمر ، ونَمل ، ونَخْل ، كانوا يتخذون من الزجاج آنية للخمر وقناديل للإسراج بمصابيح الزيت لأن الزجاج شفاف لا يحجب نور السراج ولا يحجب لون الخمر وصفاءها ليعلمه الشارب .

والزجاج : صنف من الطين المطيّن من عجين رملٍ مخصوص يوجد في طبقة الأرض وليس هو رمل الشطوط .

وهذا العجين اسمه في اصطلاح الكيمياء (سليكَا) يخلط بأجزاء من رماد نبت يسمى في الكيمياء (صُودا) ويسمى عند العرب الغاسول وهو الذي يتخذون منه الصابون .

ويضاف إليهما جزء من الكلس (الجير) ومن (البوتاس) أو من (أُكسيد الرصاص) فيصير ذلك الطين رقيقاً ويدخل للنار فيصهر في أتون خاص به شديد الحرارة حتى يتميّع وتختلط أجزاؤه ثم يخرج من الأتون قطعاً بقدر ما يريد الصانع أن يصنع منه ، وهو حينئذٍ رخو يشبه الحلواء فيكون حينئذٍ قابلاً للامتداد وللانتفاخ إذا نُفخ فيه بقصبة من حديد يضعها الصانع في فمه وهي متصلة بقطعة الطين المصهورة فينفخ فيها فإذا داخلها هواء النفَس تمددت وتشكلت بشكل كما يتفق فيتصرف فيه الصانع بتشكيله بالشكل الذي يبتغيه فيجعل منه أواني مختلفة الأشكال من كؤوس وباطيات وقِنّينات كبيرة وصغيرة وقوارير للخمر وآنية لزيت المصابيح تفضل ما عداها بأنها لا تحجب ضوء السراج وتزيده إشعاعاً .

وقد كان الزجاج معروفاً عند القدماء من الفنيقيين وعند القبط من نحو القرن الثلاثين قبل المسيح ثم عرفه العرب وهم يسمونه الزجاج والقوارير .

قال بشار :

ارفق بعمرو إذا حركت نسبته . . .

فإنه عربي من قوارير

(159/549)

وقد عرفه العبرانيون في عهد سليمان واتخذ منه سليمان بلاطاً في ساحة صرحه كما ورد في قوله تعالى : ﴿ قال إنه صرح ممرد من قوارير ﴾ [النمل : 44] .

وقد عرفه اليونان قديماً ومن أقوال الحكيم (ديوجينوس اليوناني) : "تيجان الملوك كالزجاج يسرع إليها العطب" .

وسمى العرب الزجاج بلَّوراً بوزن سنّوْر وبوزن تنُّور .

واشتهر بصناعته أهل الشام .

قال الزمخشري في "الكشاف" : ﴿ في زجاجة ﴾ أراد قنديلاً من زجاج شامي أزهر أ هـ .

واشتهر بدقة صنعه في القرن الثالث المسيحي أهل البندقية ولونوه وزينوه بالذهب وما زالت البندقية إلى الآن مصدر دقائق صنع الزجاج على اختلاف أشكاله وألوانه يتنافس فيه أهل الأذواق .

وكذلك بلاد (بوهيميا) من أرض (المجر) لجودة التراب الذي يصنع منه في بلادهم .

ومن أصلح ما انتفع فيه الزجاج اتخاذ أطباق منه توضع على الكوى النافذة والشبابيك لتمنع الرياح وبرد الشتاء والمطر عن سكان البيوت ولا يحجب عن سكانها الضوء .

وكان ابتكار استعمال هذه الأطباق في القرن الثالث من التاريخ المسيحي ولكن تأخر الانتفاع به في ذلك مع الاضطرار إليه لعسر استعماله وسرعة تصدعه في النقل ووفرة ثمنه ، ولذلك اتخذ في النوافذ أول الأمر في البلاد التي يصنع فيها فبقي زماناً طويلاً خاصاً بمنازل الملوك والأثرياء .

والكوكب : النجم ، والدرِّيّ بضم الدال وتشديد التحتية في قراءة الجمهور واحد الدراري وهي الكواكب الساطعة النور مثل الزُّهرة والمشتري منسوبة إلى الدُّر في صفاء اللون وبياضه ، والياء فيه ياء النسبة وهي نسبة المشابهة كما في قول طرفة يصف راحلته:

جماليّة وجناء . . .

البيت . . .

أي كالجمل في عظم الجثة وفي القوة .

وقولهم في المثل "بات بليلة نابغية" أي كليلة النابغة في قوله:

فبت كأني ساورتني ضئيلة . . .

الأبيات . . .

قال الحريري : "فبت بليلة نابغية .

وأحزان يعقوبية" المقامة السابعة والعشرون .

ومنه قولهم : وردي اللون ، أي كلون الورد .

(160/549)

والدر يضرب مثلاً للإشراق والصفاء .

قال لبيد :

وتضيء في وجه الظلام منيرة . . .

كجمانة البحري سُلّ نظامها

وقيل : الكوكب الدري علم بالغلبة على كوكب الزهرة .

وقرأ أبو عمرو والكسائي ﴿ دِرّيء ﴾ بكسر الدال ومد الراء على وزن شريب من الدرء وهو الدفع ، لأنه يدفع الظلام بضوئه أو لأن بعض شعاعه يدفع بعضاً فيما يخاله

الرائي .

وقرأ حمزة وأبو بكر عن عاصم بضم الدال ومد الراء من الدرء أيضاً على أن وزنه فُعّيل وهو وزن نادر في كلام العرب لكنه من أبنية كلامهم عند سيبويه ومنه عُلِّية وسُرِّية وذُرِّية بضم الأول في ثلاثتها .

وإنما سُلك طريق التشبيه في التعبير عن شدة صفاء الزجاجة لأنه أوجز لفظاً وأبين وصفاً .

وهذا تشبيه مفرد في أثناء التمثيل ولا حظ له في التمثيل .

وجملة : ﴿ يوقد من شجرة ﴾ الخ في موضع الصفة ل ﴿ مصباح ﴾ .

وقرأ نافع وابن عامر وحفص عن عاصم ﴿ يوقد ﴾ بتحتية في أوله مضمومة بعدها واو ساكنة وبفتح القاف مبنياً للنائب ، أي يوقده الموقد .

فالجملة حال من ﴿ مصباح ﴾ .

وقرأه حمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم وخلف ﴿ تَوَقَّد ﴾ بفوقية مفتوحة في أوله وبفتح الواو وتشديد القاف مفتوحة ورفع الدال على أنه مضارع توقّد حذفت منه إحدى التاءين وأصله تتوقد على أنه صفة أو حال من ﴿ مشكاة ﴾ أو من ﴿ زجاجة ﴾ أو من المذكورات وهي مشكاة ومصباح وزجاجة ، أي تنير .

وإسناد التوقد إليها مجاز عقلي .

وقرأه ابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر مثل قراءة حمزة ومن معه لكن بفتح الدال على أنه فعل مضي حال أو صفة لمصباح.

والإيقاد : وضع الوقود وهو ما يزاد في النار المشتعلة ليقوى لهبها ، وأريد به هنا ما يُمَد به المصباح من الزيت .

وفي صيغة المضارع على قراءة الأكثرين إفادة تجدد إيقاده ، أي لا يذوى ولا يطفأ .

وعلى قراءة ابن كثير ومن معه بصيغة المضي إفادة أن وقوده ثبت وتحقق .

(161/549)

وذكرت الشجرة باسم جنسها ثم أبدل منه ﴿ زيتونة ﴾ وهو اسم نوعها للإبهام الذي يعقبه التفصيل اهتماماً بتقرر ذلك في الذهن .

ووصف الزيتونة بالمباركة لما فيها من كثرة النفع فإنها ينتفع بحبها أكلاً وبزيتها كذلك ويستنار بزيتها ويدخل في أدوية وإصلاح أمور كثيرة .

وينتفع بحطبها وهو أحسن حطب لأن فيه المادة الدهنية قال تعالى : ﴿ تنبت بالدهن ﴾ [المؤمنون : 20] ، وينتفع بجودة هواء غاباتها .

وقد قيل إن بركتها لأنها من شجر بلاد الشام والشام بلد مبارك من عهد إبراهيم عليه

السلام قال تعالى : ﴿ ونجيناه ولوطاً إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين ﴾ [الأنبياء : 71] يريد أرض الشام .

ووصف الزيتونة بـ ﴿ مباركة ﴾ على هذا وصف كاشف ، ويجوز أن يكون وصفاً مخصصاً ل ﴿ زيتونة ﴾ أي شجرة ذات بركة ، أي نماء ووفرة ثمر من بين شجر الزيتون فيكون ذكر هذا الوصف لتحسين المشبه به لينجر منه تحسين للمشبه كما في قول كعب بن زهير:

شجت بذي شبم من ماء مَحْنية . . .

صافقٍ بأبطح أصْحى وهو مَشْمول

تنفي الرياح القذى عنه وأفرطه . . .

من صوب سارية بيضٌ يعاليل

فإن قوله ، وأفرطه الخ لا يزيد الماء صفاءً ولكنه حالة تحسنه عند السامع .

وقوله : ﴿ لا شرقية ولا غربية ﴾ وصف ل ﴿ زيتونة ﴾ .

دخل حرف (لا) النافية في كلا الوصفين فصار بمنزلة حرف هجاء من الكلمة بعده ولذلك لم يكن في موضع إعراب نظير (ال) المعرفة التي ألغز فيها الدماميني بقوله:

حاجيتكم لتخبروا ما اسمان . . .

وأول إعرابه في الثاني

وهو مبني بكل حال . . .

ها هو للناظر كالعيان

لإفادة الاتصاف بنفي كل وصف وعطف على كل وصف ضده لإرادة الاتصاف بوصف وسط بين الوصفين المنفيين لأن الوصفين ضدان على طريقة قولهم : "الرمان حلو حامض" .

(162/549)

والعطف هنا من عطف الصفات كقوله تعالى : ﴿ لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ﴾ [النساء : 143] وقول المرأة الرابعة من حديث أم زرع : "زوجي كليل تهامة لا حَرٌّ ولا قُرٌّ" أي وسطاً بين الحر والقُر وقول العجاج يصف حمار وحشٍ:

حشرج في الجَوف قليلاً وشهق . . .

حتى يقال ناهقٌ وما نهَق

والمعنى : أنها زيتونة جهتها بين جهة الشرق وجهة الغرب ، فنُفِيَ عنها أن تكون شرقية وأن تكون غربية ، وهذا الاستعمال من قبيل الكناية لأن المقصود لازم المعنى لا صريحه .

وأما إذا لم يكن الأمران المنفيان متضادين فإن نفيهما لا يقتضي أكثر من نفي وقوعهما كقوله

تعالى : ﴿ وظل من يحموم لا بارد ولا كريم ﴾ [الواقعة : 43 ، 44] وقول المرأة الأولى من نساء حديث أم زرع : "زوجي لحم جَمَل على رأس جبَل ، لا سَهْلٌ فيرتقى ولا سمين فينتقل" .

واعلم أن هذا الاستعمال إنما يكون في عطف نفي الأسماء وأما عطف الأفعال المنفية فهو من عطف الجمل نحو : ﴿ فلا صدَّق ولا صلىَّ ﴾ [القيامة : 31] وقوله صلى الله عليه وسلم "لا هي أطعمتها ولا تركتها تأكل من خشاش الأرض" .

واعلم أيضاً أن هذا لم يرد إلا في النفي بلا النافية ولذلك استقام للحريري أن يلقب شجرة الزيتون بلقب "لا و لا" بقوله في المقامة السادسة والأربعين "بورك فيك من طلا .

كما بورك في لا و لا" أي في الشجرة التي قال الله في شأنها : ﴿ لا شرقية ولا غربية ﴾ .

ثم يحتمل أن يكون معنى : ﴿ لا شرقية ولا غربية ﴾ أنها نابتة في موضع بين شرق بلاد العرب وغربها وذلك هو البلاد الشامية .

وقد قيل إن أصل منبت شجرة الزيتون بلاد الشام .

(163/549)

ويحتمل أن يكون المعنى أن جهة تلك الشجرة من بين ما يحف بها من شجر الزيتون موقع غير شرق الشمس وغربها وهو أن تكون متجهة إلى الجنوب ، أي لا يحجبها عن جهة الجنوب حاجب وذلك أنفع لحياة الشجرة وطيب ثمرتها ، فبذلك يكون زيتها أجود زيت وإذا كان أجود كان أشد وقوداً ولذلك أتبع بجملة : ﴿ يكاد زيتها يضيء ﴾ وهي في موضع الحال .

وجملة : ﴿ ولو لم تمسسه نار ﴾ في موضع الحال من ﴿ زيتها ﴾ .

والزيت : عصارة حب الزيتون وما يشبهه من كل عصارة دهنية ، مثل زيت السمسم والجلجلان .

وهو غذاء .

ولذلك تجب الزكاة في زيت الزيتون إذا كان حبه نصاباً خمسة أوسق وكذلك زكاة زيت الجلجلان والسمسم .

و ﴿ لو ﴾ وصلية .

والتقدير : يكاد يضيء في كل حال حتى في حالة لم تمسسه فيها نار .

وهذا تشبيه بالغ كمال الإفصاح بحيث هو مع أنه تشبيه هيئة بهيئة هو أيضاً مفرّق التشبيهات لأجزاء المركب المشبه مع أجزاء المركب المشبه به وذلك أقصى كمال التشبيه التمثيلي في صناعة البلاغة .

ولما كان المقصود تشبيه الهيئة بالهيئة والمركب بالمركب حسن دخول حرف التشبيه على بعض ما يدل على بعض المركب ليكون قرينة على أن المراد التشبيه المركب ولو كان المراد تشبيه الهدى فقط لقال : نوره كمصباح في مشكاة .

.

إلى آخره .

فالنور هو معرفة الحق على ما هو عليه المكتسبة من وحي الله وهو القرآن .

شبه بالمصباح المحفوف بكل ما يزيد نوره انتشاراً وإشراقاً .

(164/549)

وجملة : ﴿ نور على نور ﴾ مستأنفة إشارة إلى أن المقصود من مجموع أجزاء المركب التمثيلي هنا هو البلوغ إلى إيضاح أن الهيئة المشبه بها قد بلغت حد المضاعفة لوسائل الإنارة إذ تظاهرت فيها المشكاة والمصباح والزجاج الخالص والزيت الصافي ، فالمصباح إذا كان في مشكاة كان شعاعه منحصراً فيها غير منتشر فكان أشد إضاءة لها مما لو كان في بيت ، وإذا كان موضوعاً في زجاجة صافية تضاعف نوره ، وإذا كان زيته نقياً صافياً كان أشد إسراجاً ، فحصل تمثيل حال الدين أو الكتاب المنزل من الله في بيانه وسرعة فشوه في

الناس بحال انبثاق نور المصباح وانتشاره فيما حف به من أسباب قوة شعاعه وانتشاره في الجهة المضاءة به .

فقوله : ﴿ نور ﴾ خبر مبتدأ محذوف دل عليه قوله : ﴿ مثل نوره كمشكاة ﴾ إلى آخره ، أي هذا المذكور الذي مثل به الحق هو نور على نور .

و﴿ على ﴾ للاستعلاء المجازي وهو التظاهر والتعاون .

والمعنى : أنه نور مكرر مضاعف .

وقد أشرت آنفاً إلى أن هذا التمثيل قابل لتفريق التشبيه في جميع أجزاء ركني التمثيل بأن يكون كل جزء من أجزاء الهيئة المشبهة مشابهاً لجزء من الهيئة المشبه بها وذلك أعلى التمثيل .

فالمشكاة يشبهها ما في الإرشاد الإلهي من انضباط اليقين وإحاطة الدلالة بالمدلولات دون تردد ولا انثلام .

وحفظ المصباح من الانطفاء مع ما يحيط بالقرآن من حفظه من الله بقوله : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ [الحجر : 9] .

ومعاني هداية إرشاد الإسلام تشبه المصباح في التبصير والإيضاح ، وتبيينُ الحقائق من ذلك الإرشاد .

وسلامته من أن يطرقه الشك واللبس يشبه الزجاجة في تجلية حال ما تحتوي عليه كما قال

: ﴿ ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات ﴾ [النور : 34] .

والوحي الذي أبلغ الله به حقائق الديانة من القرآن والسنة يشبه الشجرة المباركة التي تعطي ثمرة يستخرج منها دلائل الإرشاد .

(165/549)

وسماحة الإسلام وانتفاء الحرج عنه يشبه توسط الشجرة بين طرفي الأفق فهو وسط بين الشدة المحرجة وبين اللين المفرِّط .

ودوام ذلك الإرشاد وتجدده يشبه الإيقاد .

وتعليم النبي صلى الله عليه وسلم أمته ببيان القرآن وتشريع الأحكام يشبه الزيت الصافي الذي حصلت به البصيرة وهو مع ذلك بيّن قريب التناول يكاد لا يحتاج إلى إلحاح المعلم .

وانتصاب النبي عليه الصلاة والسلام للتعليم يشبه مس النار للسراج وهذا يومىء إلى استمرار هذا الإرشاد .

كما أن قوله : ﴿ من شجرة ﴾ يوميء إلى الحاجة إلى اجتهاد علماء الدين في استخراج إرشاده على مرور الأزمنة لأن استخراج الزيت من ثمر الشجرة يتوقف على اعتصار الثمرة وهو الاستنباط .

﴿ يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَن يَشَآءُ وَيَضْرِبُ اللهُ الامثالَ لِلنَّاسِ واللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ .

هذه الجمل الثلاث معترضة أو تذييل للتمثيل .

والمعنى : دفع التعجب من عدم اهتداء كثير من الناس بالنور الذي أنزله الله وهو القرآن والإسلام فإن الله إذا لم يشأ هَدْيَ أحد خلقه وجبله على العناد والكفر .

وأن الله يضرب الأمثال للناس مرجوّا منهم التذكرُ بها : فمنهم من يعتبر بها فيهتدي ، ومنهم من يعرض فيستمر على ضلاله ولكن شأن تلك الأمثال أن يهتدي بها غير من طُبع على قلبه .

وجملة : ﴿ والله بكل شيء عليم ﴾ تذييل لمضمون الجملتين قبلها ، أي لا يعزب عن علمه شيء .

ومن ذلك علم من هو قابل للهدى ومن هو مصرّ على غيّه .

وهذا تعريض بالوعد للأولين والوعيد للآخرين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 18 صـ ﴾

(166/549)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

قلنا : فإن الله تعالى أعطانا النور الحسيّ الذي نرى به مرائي الأشياء ، وجعله وسيلة للنور المعنوي ، وقلنا إن الدنيا حينما تظلم ينير كل مِنّا لنفسه على حسب قدراته وإمكاناته في الإضاءة ، فإذا ما طلعتْ الشمس وأنار الله الكون أطفأ كل مِنَّا نوره ؛ لأن نور الله كافٍ ، فكما أن نور الله كافٍ في الحسيات فنوره أيضاً كافٍ في المعنويات .

فإذا شرع الله حكماً معنوياً يُنظِّم حركة الحياة ، فإياكم أن تعارضوه بشيء من عندكم ، فكما أطفأتم المصابيح الحسية أمام مصباحه فأطفئوا مصابيحكم المعنوية كذلك أمام أحكامه تعالى وأوامره ، والأمر واضح في الآيات الكونية .

﴿ الله نُورُ السماوات والأرض . . ﴾ [النور : 35] كما نقول ولله المثل الأعلى : فلان نوّر البيت ، فالآية لا تُعرِّف الله لنا ، إنما تُعرِّفنا أثره تعالى فينا ، فهو سبحانه مُنوِّر السموات والأرض ، وهما أوسع شيء نتصوره ، بحيث يكون كل شيء فيهما واضحاً غيرَ خفيّ .

ثم يضرب لنا ربنا – عز وجل – مثلاً توضيحياً لنوره ، فيقول : ﴿ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ . . ﴾ [النور : 35] أي : مثَلُ تنويره للسموات وللأرض ﴿ كَمِشْكَاةٍ . . ﴾ [النور : 35] وهي الطاقة التي كانوا يجعلونها قديماً في الجدار ، وهي فجوة غير نافذة يضعون فيها المصباح أو المِسْرجة ، فتحجز هذه الفجوة الضوء وتجمعه في ناحية فيصير

قوياً ، ولا يصنع ظِلاًأمام مسار الضوء .

والمصباح : إناء صغير يُوضع فيه زيت أو جاز فيما بعد ، وفي وسطه فتيل يمتصّ من الزيت فيظل مشتعلاً ، فإنْ ظلَّ الفتيل في الهواء تلاعبَ به وبدَّد ضوءه وسبَّب دخاناً ؛ لأنه يأخذ من الهواء أكثر من حاجة الاحتراق ؛ لذلك جعلوا على الفتيل حاجزاً من الزجاج ليمنع عنه الهواء ، فيأتي الضوء منه صافياً لا دخانَ فيه ، وكانوا يسمونه (الهباب) .

(167/549)

وهكذا تطور المصباح إلى لمبة وصعد نوره وزادت كفاءته ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ المصباحِ فِي زُجَاجَةٍ . . ﴾ [النور : 35] لكنها ليست زجاجة عادية ، إنما زجاجة ﴿ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ . . ﴾ [النور : 35] يعني : كوكب من الدُّرِّ ، والدُّر ينير بنفسه . كذلك زَيْتها ليس زيتاً عادياً ، إنما زيت زيتونة مباركة .

يقول الحق سبحانه : ﴿ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ ﴾ [النور : 35] .

يعني : شجرة زيتون لا شرقية ولا غربية ، يعني : لا شرقية لأنها غربية ، ولا غربية لأنها شرقية ، فهي إذن شرقية غربية على حَدٍّ سواء ، لكن كيف ذلك ؟

قالوا : لأن الشجرة الزيتونة حينما تكون في الشرق يكون الغرب مظلماً ، وحينما تكون في الغرب يكون الشرق مظلماً ، إذن : يطرأ عليها نور وظلمة ، إنما هذه لا هي شرقية ولا هي غربية ، إنما شرقية غربية لا يحجز شيء عنها الضوء .

وهذا يؤثر في زيتها ، فتراه من صفائه ولمعانه ﴿ يضيء وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ﴾ [النور : 35] ، وتعطي الشجرة الضوء القوي الذي يناسب بنوتها للشمس ، فإن كانت الشمس هي التي تنير الدنيا ، فالشجرة الزيتونة هي ابنتها ، ومنها تستمد نورها ، بحيث لا يغيب عنها ضوء الشمس .

إذن : مَثَلُ تنوير الله للسموات وللأرض مثل هذه الصورة مكتملة كما وصفنا ، وانظر إلى مشكاة فيها مصباح بهذه المواصفات ، أيكون بها موضع مظلم ؟ فالسموات والأرض على سعتهما كمثل هذه المشكاة ، والمثل هنا ليس لنور الله ، إنما لتنويره للسموات وللأرض ، أما نوره تعالى فشيء آخر فوق أنْ يُوصَف . وما المثَل هنا إلا لتقريب المسألة إلى الأذهان .

وسبق أنْ ذكرنا قصة أبي تمام حين وصف الخليفة ومدحه بأبرز الصفات عند العرب ، فقال :

إقْدَامُ عَمْرٍ فِي سَمَاحَةِ حَاتِمٍ . . . فِي حِلْمِ أحنفَ فِي ذَكَاءِ أيَاسِ

فجمع للخليفة كل هذه الصفات ومدحه بأشهر الخصال عند العرب ؛ لذلك قام إليه أحد الحاقدين وقال معترضاً عليه : كيف تشبه الخليفة بصعاليك العرب ؟ فالأمير فوق مَنْ وصفتَ .

فأكمل أبو تمام على البديهة وبنفس الوزن والقافية :

لاَ تُنكروا ضَرْبي لَهُ مَنْ دُونَهُ مثَلاً . . . شَرُوداً في النَّدَى والبَاسِ

فَاللهُ قَدْ ضربَ الأقلَّ لنُورِهِ . . . مَثَلاً من المشْكَاةِ والنّبراسِ

فالله تبارك وتعالى هو نور السموات والأرض أي : مُنوِّرهما ، وهذا أمر واضح جداً حينما تنظر إلى نور الشمس ساعة يظهر يجلو الكون ، بحيث لا يظهر معه نور آخر ، وتتلاشى أنوار الكواكب الأخرى والنجوم رغم وجودها مع الشمس في وقت واحد ، لكن يغلب على نورها نور الشمس ، على حَدٍّ كقول الشاعر في المدح :

كأنكَ شَمْسٌ والمُلوكُ كَواكبٌ . . . إذَا ظَهَرتْ لَمْ يَبْدُ منهُنّ كوكَبُ

ثم يقول سبحانه : ﴿ نُورٌ على نُورٍ ﴾ [النور : 35] فلم يتركنا الحق سبحانه وتعالى في النور الحسيِّ فقط ، إنما أرسل إلينا نوراً آخر على يد الرسل هو نور المنهج الذي ينظم لنا حركة الحياة ، كأنه تعالى يقول لنا : بعثت إليكم نوراً على نور ، نور حِسيٍّ ، ونور قيمي معنوي ، وإذا شهدتم أنتم بأن نوري الحسيّ ينير لكم السموات والأرض ، وإذا ظهر تلاشت

أمامه كل أنواركم ، فاعلموا أن نور منهجي كذلك يطغَى على كل مناهجكم ، وليس لكم أن تأخذوا بمناهج البشر في وجود منهج الله .

وقوله تعالى : ﴿ يَهْدِي اللهِ لِنُورِهِ مَن يَشَآءُ ﴾ [النور : 35] أي : لنوره المعنوي نور المنهج ونور التكاليف ، والكفار لم يهتدوا إلى هذا النور ، وإن اهتدوا إلى النور الحسيِّ في الشمس والقمر وانتفعوا به ، وأطفأوا له مصابيحهم ، لكن لم يكُنْ لهم حظ في النور المعنوي ، حيث أغلقوا دونه عيونهم وقلوبهم وأسماعهم فلم ينتفعوا به .

(169/549)

وكان عليهم أن يفهموا أن نور الله المعنوي مِثْلُ نوره الحسي لا يمكن الاستغناء عنه ، لذلك جاء في أثر علي بن أَبي طالب : " من تركه من جبَّار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدي في غيره أضله الله " .

والعجيب أن العبد كلما توغل في الهداية ازداد نوراً على نور ، كما قال سبحانه : ﴿ يا أَيُّهَا الذين آمنوا إِن تَتَّقُواْ اللهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً ﴾ [الأنفال : 29] .

وقال تعالى : ﴿ والذين اهتدوا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ [محمد : 17] .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمثالِ لِلنَّاسِ ﴾ [النور : 35] .

يعني للعبرة والعِظة مثل المثل السابق لنوره تعالى ﴿ واللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [نور : 35] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(170/549)

فائدة

قال التسترى :

قوله تعالى : ﴿ اللهُ نُورُ السماوات والأرض ﴾ [35]

يعني مزين السماوات والأرض بالأنوار ، ﴿ مَثَلُ نُورِهِ ﴾ [35] يعني مثل نور محمد صلى الله عليه وسلم .

قال الحسن البصري : عنى بذلك قلب المؤمن وضياء التوحيد ، لأن قلوب الأنبياء صلوات الله عليهم أنور من أن توصف بمثل هذه الأنوار ، وقال : النور مثل نور القرآن مصباح ، المصباح سراجه المعرفة وفتيلته الفرائض ودهنه الإخلاص ونوره نور الاتصال .

فكلما ازداد الإخلاص صفاء ، ازداد المصباح ضياء ، وكلما ازداد الفرائض حقيقة ازداد المصباح نوراً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير التسترى صـ 111.112 ﴾

(171/549)

فائدة

قال ابن القيم :

قوله تعالى : ﴿ الله نور السماوات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ﴾

قال أبي بن كعب : مثل نوره في قلب المسلم

وهذا هو النور الذي أودعه في قلبه من معرفته ومحبته والايمان به وذكره وهو نوره الذي أنزله إليهم فأحياهم به وجعلهم يمشون به بين الناس وأصله في قلوبهم ثم تقوى مادته فتتزايد حتى يظهر على وجوههم وجوارحهم وأبدانهم بل ثيابهم ودورهم يبصره من هو من جنسهم وسائر الخلق له منكر فإذا كان يوم القيامة برز ذلك النور وصار بإيمانهم يسعى بين أيديهم في ظلمة الجسر حتى يقطعوه وهم فيه على حسب قوته وضعفه في قلوبهم في الدنيا فمنهم من نوره كالشمس وآخر كالقمر وآخر كالنجوم وآخر كالسراج وآخر يعطي نورا على إبهام قدمه يضيء مرة ويطفأ أخرى إذا كانت هذه حال نوره في الدنيا فأعطى على الجسر بمقدار ذلك بل هو نفس نوره ظهر له عيانا ولما لم يكن للمنافق نور ثابت في الدنيا بل كان نوره ظاهرا لا باطنا أعطى نورا ظاهرا مآله إلى الظلمة والذهاب

وضرب الله عز وجل لهذا النور ومحله وحامله ومادته مثلا بالمشكاة وهي الكوة في الحائط فهي مثل الصدر وفي تلك المشكاة زجاجة من أصفى الزجاج وحتى شبهت بالكوكب

الدري في بياضه وصفائه وهي مثل القلب وشبه بالزجاجة لأنها جمعت أوصافا هي في قلب المؤمن وهي الصفاء والرقة فيرى الحق والهدى بصفائه وتحصل منه الرأفة والرحمة والشفقة برقته ويجاهد أعداء الله تعالى ويغلظ عليهم ويشتد في الحق ويصلب فيه بصلابته ولا تبطل صفة منه صفة أخرى ولا تعارضها بل تساعدها وتعاضدها ﴿ أشداء على الكفار رحماء بينهم ﴾ وقال تعالى : ﴿ فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ﴾ وقال تعالى : ﴿ يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ﴾ وفي اثر القلوب آنية الله تعالى في أرضه فأحبها إليه وأرقها وأصلبها وأصفاها وبازاء هذا القلب قلبان مذمومان في طرفي نقيض :

(172/549)

أحدهما : قلب حجري قاس لا رحمة فيه ولا إحسان ولا بر ولا له صفاء يرى به الحق بل هو جبار جاهل : لا علم له بالحق ولا رحمة للخلق

وبإزائه قلب ضعيف مائي لا قوة فيه ولا استمساك بل يقبل كل صورة وليس له قوة حفظ تلك الصور ولا قوة التأثير في غيره وكل ما خالطه أثر فيه من قوي وضعيف وطيب خبيث وفي الزجاجة مصباح وهو النور الذي في الفتيلة وهي حاملته ولذلك النور مادة وهو زيت

قد عصر من زيتونة في أعدل الأماكن تصيبها الشمس أول النهار وآخره فزيتها من أصفى الزيت وأبعده من الكدر حتى إنه ليكاد من صفائه يضيء بلا نار فهذه مادة نور المصباح وكذلك مادة نور المصباح الذي في قلب المؤمن هو من شجرة الوحي التي هي أعظم الأشياء بركة وأبعدها من الانحراف بل هي أوسط الأمور وأعدلها وأفضلها لم تنحرف انحراف النصرانية ولا انحراف اليهودية بل هي وسط بين الطرفين المذمومين في كل شيء فهذه مادة مصباح الإيمان في قلب المؤمن

ولما كان ذلك الزيت قد اشتد صفاؤه حتى كاد أن يضيء بنفسه ثم خالط النار فاشتدت بها اضاءته وقويت مادة ضوء النار به كان ذلك نورا على نور وهكذا المؤمن قلبه مضيئ يكاد يعرف الحق بفطرته وعقله ولكن لا مادة له من نفسه فجاءت مادة الوحي فباشرت قلبه وخالطت بشاشته فازداد نورا بالوحي على نوره الذي فطره الله تعالى عليه فاجتمع له نور الوحي إلى نور الفطرة نور على نور فيكاد ينطق بالحق وإن لم يسمع فيه أثر ثم يسمع الأثر مطابقا لما شهدت به فطرته فيكون نورا على نور فهذا شأن المؤمن يدرك الحق بفطرته مجملا ثم يسمع الأثر جاء به مفصلا فينشأ إيمانه عن شهادة الوحي والفطرة

(173/549)

فليتأمل اللبيب هذه الآية العظيمة ومطابقتها لهذه المعاني الشريفة فذكر سبحانه وتعالى نوره في السموات والأرض ونوره في قلوب عباده المؤمنين النور المعقول المشهود بالبصائر والقلوب والنور المحسوس المشهود بالأبصار الذي استنارت به أقطار العالم العلوي والسفلي فهما نوران عظيمان أحدهما أعظم من الآخر وكما أنه إذا فقد أحدهما من مكان أو موضع لم يعش فيه آدمي ولا غيره لأن الحيوان إنما يتكون حيث النور ومواضع الظلمة التي لا يشرق عليها نور لا يعيش فيها حيوان ولا يتكون البته فكذلك أمة فقد فيها نور الوحي والإيمان ميتة وقلب فقد منه هذا النور ميت ولا بد لا حياة له ألبتة كما لا حياة للحيوان في مكان لا نور فيه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الوابل الصيب صـ 72 . 90 ﴾

(174/549)

وقال أيضا رحمه الله ما نصه :

الله سبحانه وتعالى سمى نفسه نورا وجعل كتابه نورا ورسوله نورا ودينه نورا واحتجب عن خلقه بالنور وجعل دار أوليائه نورا يتلألأ قال الله تعالى الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم يمسسه نار نور على نور يهدي الله

لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم

وقد فسر قوله تعالى الله نور السموات والأرض بكونه منور السموات والأرض وهادي أهل السموات والأرض فنوره اهتدى أهل السموات والأرض وهذا إنما هو فعله وإلا فالنور الذي هو من أوصافه قائم به ومنه اشتق له اسم النور الذي هو أحد الأسماء الحسنى والنور يضاف إليه سبحانه على أحد وجهين أضافة صفة إلى موصوفها وإضافة مفعول إلى فاعله فالأول كقوله عز وجل وأشرقت الأرض بنور ربها فهذا إشراقها يوم القيامة بنوره تعالى إذا جاء لفصل القضاء ومنه قول النبي في الدعاء المشهور أعوذ بنور وجهك الكريم أن تضلني لا إله إلا أنت

وفي الأثر الآخر أعوذ بوجهك أو بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات فأخبر أن الظلمات أشرقت لنور وجه الله كما أخبر تعالى أن الأرض تشرق يوم القيامة بنوره

وفي معجم الطبراني والسنة له وكتاب عثمان الدارمي وغيرها عن ابن مسعود رضي الله عنه قال ليس عند ربكم ليل ولا نهار نور السموات والأرض من نور وجهه

وهذا الذي قاله ابن مسعود رضي الله عنه أقرب إلى تفسير الآية من قول من فسرها بأنه هادي أهل السموات والأرض وأما من فسرها بأنه منور السموات والأرض فلا تنافي بينه وبين قول ابن مسعود والحق أنه نور السموات والأرض بهذه الاعتبارات كلها

وفي صحيح مسلم وغيره من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال قام فينا رسول الله بخمس كلمات فقال إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام يخفض القسط ويرفع اليه عمل الليل قبل عمل النهار وعمل النهار قبل عمل الليل حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلفه

وفي صحيح مسلم عن أبي ذر رضي الله عنه قال سألت رسول الله هل رأيت ربك قال نور أنني أراه فسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى يقول معناه كان ثم نور وحال دون رؤيته نور فأنى أراه

قال ويدل عليه أن في بعض الألفاظ الصحيحة هل رأيت ربك فقال رأيت نورا وقد اعضل أمر هذا الحديث على كثير من الناس حتى صحفه بعضهم فقال نور أنى أراه على أنها ياء النسب والكلمة كلمة واحدة وهذا خطأ لفظا ومعنى وإنما أوجب لهم هذا الاشكال والخطأ أنهم لما اعتقدوا أن رسول الله رأى ربه وكان قوله أني أراه كالانكار للرؤية حاروا في الحديث ورده بعضهم باضطراب لفظه وكل هذا عدول عن موجب الدليل

وقد حكى عثمان بن سعيد الدارمي في كتاب الرؤية له اجماع الصحابة على أنه لم ير ربه ليلة المعراج وبعضهم استثنى ابن عباس فيمن قال ذلك

وشيخنا يقول ليس ذلك بخلاف في الحقيقة فإن ابن عباس لم يقل رآه بعيني رأسه وعليه

اعتمد أحمد في إحدى الروايتين حيث قال إنه رآه عز وجل ولم يقل بعيني رأسه

ولفظ أحمد لفظ ابن عباس رضي الله عنهما ويدل على صحة ما قال شيخنا في معنى حديث أبي ذر رضي الله عنه قوله في الحديث الآخر حجابه النور فهذا النور هو والله أعلم النور المذكور في حديث أبي ذر رضي الله عنه رأيت نورا

فصل في تفسير قوله تعالى مثل نوره

(176/549)

وقوله تعالى مثل نوره كمشكاة فيها مصباح هذا مثل لنوره في قلب عبده المؤمن كما قال أبي بن كعب وغيره وقد اختلف في مفسر الضمير في نوره فقيل هو النبي أي مثل نور محمد وقيل مفسره المؤمن أي مثل نور المؤمن والصحيح أنه يعود على الله سبحانه وتعالى والمعنى مثل نور الله سبحانه وتعالى في قلب عبده وأعظم عباده نصيبا من هذا النور رسوله فهذا مع ما تضمنه عود الضمير المذكور وهو وجه الكلام يتضمن التقادير الثلاثة وهو أتم لفظا ومعنى وهذا النور يضاف إلى الله تعالى إذ هو معطيه لعبده وواهبه إياه ويضاف إلى العبد إذ هو محله وقابله فيضاف إلى الفاعل والقابل ولهذا النور فاعل وقابل ومحل وحال ومادة وقد تضمنت الآية ذكر هذه الأمور

كلها على وجه التفصيل فالفاعل هو الله تعالى مفيض الأنوار الهادي لنوره من يشاء والقابل العبد المؤمن والمحل قلبه والحال همته وعزيمته وارادته والمادة قوله وعمله وهذا التشبيه العجيب الذي تضمنته الآية فيه من الأسرار والمعاني وإظهار تمام نعمته على عبده المؤمن بما أناله من نوره ما تقر به عيون أهله وتبتهج به قلوبهم

وفي هذا التشبيه لأهل المعاني طريقتان

(177/549)

أحدهما طريقة التشبيه المركب وهي أقرب مأخذا وأسلم من التكلف وهي أن تشبه الجملة برمتها بنور المؤمن من غير تعرض لتفصيل كل جزء من أجزاء المشبه ومقابلته بجزء من المشبه به وعلى هذا عامة أمثال القرآن فتأمل صفة المشكاة وهي كوة تنفذ لتكون أجمع للضوء قد وضع فيها المصباح وذلك المصباح داخل زجاجة تشبه الكوكب الدري في صفائها وحسنها ومادتة من أصفى الأدهان وأتمها وقودا من زيت شجرة في وسط القراح لا شرقية ولا غربية بحيث تصيبها الشمس في أحدى طرفي النهار بل هي في وسط القراح محمية بأطرافه تصيبها الشمس أعدل إصابة والآفات إلى الأطراف دونها فمن شدة إضاءة زيتها وصفائها وحسنها يكاد يضيء من غير أن تمسه نار فهذا المجموع المركب هو

مثل نور الله تعالى الذي وضعه في قلب عبده المؤمن وخصه به

والطريقة الثانية طريقة التشبيه المفصل فقيل المشكاة صدر المؤمن والزجاجة قلبه شبه قلبه بالزجاجة لرقتها وصفائها وصلابتها وكذلك قلب المؤمن فإنه قد جمع الأوصاف الثلاثة فهو يرحم ويحسن ويتحنن ويشفق على الخلق برقته وبصفائه تتجلى فيه صور الحقائق والعلوم على ما هي عليه ويباعد الكدر والدرن والوسخ بحسب ما فيه من الصفاء وبصلابته يشتد في أمر الله تعالى ويتصلب في ذات الله تعالى ويغلظ على أعداء الله تعالى ويقوم بالحق لله تعالى

وقد جعل الله تعالى القلوب كالآنية كما قال بعض السلف القلوب آنية الله في أرضه فأحبها اليه أرقها وأصلبها وأصفاها والمصباح

(178/549)

هو نور الإيمان في قلبه والشجرة المباركة هي شجرة الوحي المتضمنة للهدى ودين الحق وهي مادة المصباح التي يتقد منها والنور على النور نور الفطرة الصحيحة والادراك الصحيح ونور الوحي والكتاب فينضاف أحد النورين إلى الآخر فيزداد العبد نورا على نور ولهذا يكاد ينطق بالحق والحكمة قبل أن يسمع ما فيه بالأثر ثم يبلغه الأثر بمثل ما وقع في قلبه

ونطق به فيتفق عنده شاهد العقل والشرع والفطرة والوحي فيريه عقله وفطرته وذوقه الذي جاء به الرسول هو الحق لا يتعارض عنده العقل والنقل البتة بل يتصادقان ويتوافقان فهذا علامة النور على النور عكس من تلاطمت في قلبه أمواج الشبه الباطلة والخيالات الفاسدة من الظنون الجهليات التي يسميها أهلها القواطع العقليات

فهي في صدره كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور فانظر كيف تضمنت هذه الآيات طرائق بني آدم أتم انتظام واشتملت عليه أكمل اشتمال فإن الناس قسمان أهل الهدى والبصائر الذين عرفوا أن الحق فيما جاء به الرسول عن الله سبحانه وتعالى وأن كل ما عارضه فشبهات يشتبه على من قل نصيبه من العقل والسمع أمرها فيظنها شيئا له حاصل ينتفع به

وهي كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور

وهؤلاء هم أهل الهدى ودين الحق أصحاب العلم النافع والعمل الصالح الذين صدقوا الرسول في أخباره ولم يعارضوها بالشبهات وأطاعوه في أوامره ولم يضيعوها بالشهوات فلا هم في علمهم من أهل الخوض الخراصين الذين هم في غمرة ساهون ولا هم في عملهم من المستمتعين بخلاقهم الذين حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك هم الخاسرون أضاء لهم نور الوحي المبين فرأوا في نوره أهل الظلمات في ظلمات آرائهم يعمهون وفي ضلالتهم يتهوكون وفي ريبهم يترددون مغترين بظاهر السراب ممحلين مجدبين مما بعث الله تعالى به رسوله من الحكمة وفصل الخطاب إن عندهم إلا نخالة الأفكار وزبالة الأذهان التي قد رضوا بها واطمأنوا اليها وقدموها على السنة والقرآن إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه أوجبه لهم اتباع الهوى ونخوة الشيطان وهم لأجله يجادلون في آيات الله بغير سلطان . انتهى انتهى . اهـ ﴿ اجتماع الجيوش الإسلامية صـ 18.10 ﴾

(180/549)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

أخرج البخاري ومسلم والنسائي وابن ماجة والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا تهجد في الليل يدعو " اللهم لك الحمد أنت رب السموات والأرض ومن فيهن ولك الحمد ، أنت نور السموات والأرض ومن فيهن ولك الحمد ، أنت قيام السموات والأرض ومن فيهن أنت الحق ، وقولك حق ، ووعدك حق ، ولقاؤك حق ، والجنة حق ، والنار حق ، والساعة حق ، اللهم لك أسلمت ، وبك آمنت ، وعليك توكلت ، وإليك أنبت ، وبك خاصمت ، وإليك حاكمت فاغفر لي ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، أنت إلهي لا إله إلا أنت " .

وأخرج أبو داود والنسائي والبيهقي عن زيد بن أرقم قال سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول في دبر صلاة الغداة وفي دبر الصلاة " اللهم ربنا ورب كل شيء أنا شهيد بأنك أنت الرب وحدك لا شريك لك ، اللهم ربنا ورب كل شيء أنا شهيد أن محمداً عبدك ورسولك ، اللهم ربنا ورب كل شيء أنا شهيد أن العباد كلهم إخوة ، اللهم ربنا ورب كل شيء إجعلني مخلصاً لك وأهلي في كل ساعة في الدنيا والآخرة ، ذا الجلال والإِكرام اسمع واستجب ، الله أكبر الله أكبر نور السموات والأرض ، الله أكبر الله أكبر حسبي الله ونعم الوكيل ، الله أكبر الله أكبر " .

وأخرج الطبراني عن سعيد بن جبير قال : كان ابن عباس يقول : اللهم إني أسألك بنور

وجهك الذي أشرقت له السموات والأرض أن تجعلني في حرزك وحفظك وجوارك وتحت كنفك .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله ﴿ الله نور السماوات والأرض ﴾ يدبر الأمر فيهما . نجومهما ، وشمسهما ، وقمرهما .

(181/549)

وأخرج الفريابي عن ابن عباس في قوله ﴿ الله نور السماوات والأرض مثل نوره ﴾ الذي أعطاه المؤمن ﴿ كمشكاة ﴾ مثل الكوّة ﴿ فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية ﴾ في سفح جبل لا تصيبها الشمس إذا طلعت ولا إذا غربت ﴿ يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور ﴾ فذلك مثل قلب المؤمن نور على نور ﴿ والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة ﴾ قال : أعمال الكفار إذا جاؤوا رأوها مثل السراب إذا أتاه الرجل قد احتاج إلى الماء فأتاه فلم يجد شيئاً . فذلك مثل عمل الكافر يرى أن له ثواباً وليس له ثواب ﴿ أو كظلمات في بحر لجي ﴾ إلى قوله ﴿ لم يكد يراها ﴾ فذلك مثل قلب الكافر ظلمة فوق ظلمة .

وأخرج عبد بن حميد وابن الأنباري في المصاحف عن الشعبي قال : في قراءة أبي بن كعب

﴿ مثل نور المؤمن كمشكاة ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم والحاكم وصححه عن ابن عباس في قوله ﴿ الله نور السماوات والأرض ﴾ يقول : مثل نور من آمن بالله كمشكاة قال : وهي النقرة يعني الكوّة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿ مثل نوره ﴾ قال : هي خطأ من الكاتب . هو أعظم من أن يكون نوره مثل نور المشكاة قال : مثل نور المؤمن كمشكاة .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الأسماء والصفات من طريق علي عن ابن عباس ﴿ الله نور السماوات والأرض ﴾ قال : (هادي أهل السموات وأهل الأرض) ﴿ مثل نوره ﴾ مثل هداه في قلب المؤمن ﴿ كمشكاة ﴾ يقول : موضع الفتيلة يقول : كما يكاد الزيت الصافي يضيء قبل أن تمسه النار إذا مسته النار ازداد ضوأً على ضوئه ، كذلك يكون قلب المؤمن يعمل بالهدى قبل أن يأتيه العلم ، فإذا أتاه العلم ازداد على هدى ونوراً على نور .

وأخرج أبو عبيد وابن المنذر عن أبي العالية قال : هي في قراءة أبي بن كعب مثل نور من آمن به . أو قال مثل من آمن به .

(182/549)

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والحاكم وصححه عن أُبي بن كعب ﴿ الله نور السماوات والأرض مثل نوره ﴾ قال : هو المؤمن الذي جعل الإِيمان والقرآن في صدره ، فضرب الله مثله فقال ﴿ الله نور السماوات والأرض ﴾ فبدأ بنور نفسه ثم ذكر نور المؤمن فقال : مثل نور من آمن به فكان أُبي بن كعب يقرؤها : مثل نور من آمن به فهو المؤمن جعل الإِيمان والقرآن في صدره ﴿ كمشكاة ﴾ قال : فصدر المؤمن المشكاة ﴿ فيها مصباح ﴾ والمصباح : النور ، وهو القرآن ، والإِيمان الذي جعل في صدره ﴿ في زجاجة ﴾ والزجاجة : قلبه . ﴿ كأنها كوكب دري ﴾ فقلبه مما استنار فيه القرآن والإِيمان كأنه كوكب دري يقول : كوكب مضيء . ﴿ توقد من شجرة مباركة ﴾ والشجرة المباركة : أصل المبارك الإِخلاص لله وحده . وعبادته لا شريك له . ﴿ زيتونة لا شرقية ولا غربية ﴾ قال : فمثله كمثل شجرة التف بها الشجر ، فهي خضراء ناعمة لا تصيبها الشمس على أي حالة كانت ، لا إذا طلعت ، ولا إذا غربت ، فكذلك هذا المؤمن قد أجير من أن يصله شيء من الفتن ، وقد ابتلي بها فثبته الله فيها ، فهو بين اربع خلال . إن قال صدق ، وإن حكم عدل ، وأن أعطى شكر ، وإن ابتلى صبر . فهو في سائر الناس كالرجل الحي ، يمشي بين قبور الأموات ﴿ نور على نور ﴾ فهو يتقلب في خمسة من النور . فكلامه نور ، وعمله نور ، ومدخله نور ، ومخرجه نور ، ومصيره إلى نور يوم القيامة إلى الجنة . ثم ضرب مثل الكافر فقال ﴿ والذين كفروا أعمالهم كسراب . . .

﴿ قال : وكذلك الكافر يجيء يوم القيامة وهو يحسب أن له عند الله خيراً فلا يجده ، ويدخله الله النار قال : وضرب مثلاً آخر للكافر فقال ﴿ أو كظلمات في بحر لجي ﴾ فهو يتقلب في خمس من الظلم : فكلامه ظلمة ، وعمله ظلمة ، ومخرجه ظلمة ، ومدخله ظلمة ، ومصيره يوم القيامة إلى الظلمات إلى النار .

فكذلك ميت الأحياء يمشي في الناس لا يدري ماذا له وماذا عليه .

(183/549)

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : إن اليهود قالوا لمحمد : كيف يخلص نور الله من دون السماء ؟ فضرب الله مثل ذلك لنوره فقال ﴿ الله نور السماوات والأرض مثل نوره كمشكاة ﴾ والمشكاة : كوة البيت . ﴿ فيها مصباح ﴾ وهو السراج يكون في الزجاجة . وهو مثل ضربه الله لطاعته ، فسمى طاعته نوراً ، ثم سماها أنواعاً شتى ﴿ لا شرقية ولا غربية ﴾ قال : هي وسط الشجرة لا تنالها الشمس إذا طلعت ولا إذا غربت وذلك لوجود الزيت ﴿ يكاد زيتها يضيء ﴾ يقول : بغير نار ﴿ نور على نور ﴾ يعني بذلك إيمان العبد وعمله ﴿ يهدي الله لنوره من يشاء ﴾ هو مثل المؤمن .

وأخرج الطبراني وابن عدي وابن مردويه وابن عساكر عن ابن عمر رضي الله عنه في قوله ﴿ كمشكاة فيها مصباح ﴾ قال : المشكاة : جوف محمد صلى الله عليه وسلم . والزجاجة : قلبه . والمصباح : النور الذي في قلبه . ﴿ توقد من شجرة مباركة ﴾ الشجرة : إبراهيم . ﴿ زيتونة لا شرقية ولا غربية ﴾ لا يهودية ولا نصرانية ثم قرأ ﴿ ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين ﴾ [آل عمران : 67] .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن شمر بن عطية قال : جاء ابن عباس رضي الله عنهما إلى كعب الأحبار فقال : حدثني عن قول الله ﴿ الله نور السماوات والأرض مثل نوره ﴾ قال : مثل نور محمد صلى الله عليه وسلم كمشكاة قال : المشكاة الكوة : ضربها مثلاً لفمه ﴿ فيها مصباح ﴾ والمصباح : قلبه . ﴿ في زجاجة ﴾ والزجاجة : صدره . ﴿ كأنها كوكب دري ﴾ شبه صدر محمد صلى الله عليه وسلم بالكوكب الدري ، ثم رجع إلى المصباح . إلى قلبه فقال : توقد من شجرة مباركة زيتونة يكاد زيتها يضيء قال : يكاد محمد صلى الله عليه وسلم يبين للناس ولو لم يتكلم أنه نبي ، كما يكاد ذلك الزيت أنه يضيء ولو لم تمسسه نار .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ الله نور السماوات والأرض ﴾ قال : الله هادي أهل السموات والأرض ﴿ مثل نوره ﴾ يا محمد في قلبك كمثل هذا المصباح في هذه المشكاة ، فكما هذا المصباح في هذه المشكاة كذلك فؤادك في قلبك . وشبه قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم بالكوكب الدري الذي لا يخبو ﴿ توقد من شجرة مباركة زيتونة ﴾ تأخذ دينك عن إبراهيم عليه السلام . وهي الزيتونة ﴿ لا شرقية ولا غربية ﴾ ليس بنصراني فيصلي نحو المشرق ، ولا يهودي فيصلي نحو المغرب ﴿ يكاد زيتها يضيء ﴾ فيقول : يكاد محمد ينطق بالحكمة قبل أن يوحى إليه بالنور الذي جعل الله في قلبه .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير ﴿ مثل نوره ﴾ قال : محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ يكاد زيتها يضيء ﴾ قال : يكاد من رأى محمداً صلى الله عليه وسلم يعلم أنه رسول الله وإن لم يتكلم .

وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة رضي الله عنه ﴿ الله نور السماوات والأرض مثل نوره ﴾ قال : مثل نور المؤمن .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن الحسن رضي الله عنه ﴿ مثل نوره ﴾ قال : مثل هذا القرآن في القلب ﴿ كمشكاة ﴾ قال : ككوة .

وأخرج ابن جرير عن أنس رضي الله عنه قال : إن إلهي يقول " إن نوري هداي " .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن محمد بن كعب في قوله ﴿ كمشكاة ﴾ قال : هي موضع الفتيلة من القنديل .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ كمشكاة ﴾ قال : ككوة .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن ابن عمر رضي الله عنه قال ﴿ كمشكاة ﴾ الكوة .

وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : ﴿ المشكاة ﴾ بلسان الحبشة . الكوة .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد رضي الله عنه قال : ﴿ المشكاة ﴾ الكوة بلغة الحبشة .

وأخرج ابن أبي شيبة عن سعيد بن عياض ﴿ كمشكاة ﴾ قال : ككوة بلسان الحبشة .

(185/549)

وأخرج عبد بن حميد عن سعيد بن جبير ﴿ كمشكاة ﴾ قال : الكوة التي ليست بنافذة .

وأخرج عبد بن حميد عن الضحاك . مثله .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي مالك قال ﴿ المشكاة ﴾ الكوة التي ليس لها منفذ ﴿ والمصباح ﴾ السراج.

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير عن قتادة رضي الله عنه ﴿ مثل نوره ﴾ قال: مثل نور الله في قلب المؤمن ﴿ كمشكاة ﴾ قال: الكوة ﴿ كأنها كوكب دري ﴾ قال: منير يضيء ﴿ زيتونة لا شرقية ولا غربية ﴾ قال: لا يفي عليها ظل شرقي ولا غربي كنا نتحدث انها صاحبة الشمس. وهو أصفى الزيت، وأطيبه، وأعذبه، هذا مثل ضربه الله للقرآن أي قد جاءكم من الله نور وهدى متظاهر أن المؤمن يسمع كتاب الله. فوعاه، وحفظه، وانتفع بما فيه، وعمل به، فهذا مثل المؤمن.

وأخرج عبد بن الحميد وابن جرير عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ كمشكاة ﴾ قال: الصفر الذي في جوف القنديل ﴿ فيها مصباح ﴾ قال: السراج ﴿ في زجاجة ﴾ قال: القنديل ﴿ لا شرقية ولا غربية ﴾ قال: هي الشمس من حين تطلع إلى أن تغرب ليس لها ظل، وذلك أضوأ لزيتها، وأحسن له، وأنور له ﴿ نور على نور ﴾ قال: النار على الزيت جاورته.

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن الضحاك ﴿ كأنها كوكب دري ﴾ قال: يعني الزهرة.

ضرب الله مثل المؤمن مثل ذلك النور يقول: قلبه نور، وجوفه نور، ويمشي في نور.

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه ﴿ كوكب دري ﴾ قال : ضخم .

وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله ﴿ زيتونة لا شرقية ولا غربية ﴾ قال : قلب إبراهيم لا يهودي ولا نصراني .

وأخرج الفريابي وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ لا شرقية ولا غربية ﴾ قال : شجرة لا يظلها كهف ولا جبل ، ولا يواريها شيء ، وهو ، أجود لزيتها .

وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة والضحاك رضي الله عنه ومحمد بن سيرين . مثله .

(186/549)

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ لا شرقية ولا غربية ﴾ قال : ليست شرقية ليس فيها غرب ، ولا غربية ليس فيها شرق ، ولكنها شرقية غربية .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير رضي الله عنه في قوله ﴿ لا شرقية ولا غربية ﴾ قال : هي في وسط الشجر لا تصيبها الشمس في شرق ولا غرب ، وهي من وجوه الشجر .

وأخرج عبد بن حميد عن أبي مالك ومحمد بن كعب . مثله .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن الحسن

رضي الله عنه قال : لو كانت هذه الشجرة في الأرض لكانت شرقية أو غربية . ولكنه مثل ضربه الله لنوره .

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ توقد من شجرة مباركة ﴾ قال : رجل صالح ﴿ لا شرقية ولا غربية ﴾ قال : لا يهودي ولا نصراني .

وأخرج عبد بن حميد في مسنده والترمذي وابن ماجة عن عمر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ائتدموا بالزيت وادهنوا به فإنه يخرج من شجرة مباركة " .

وأخرج الحاكم وصححه والبيهقي في الشعب عن أبي أسيد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "كلوا الزيت وادهنوا به فإنه من شجرة مباركة " .

وأخرج البيهقي في الشعب عن عائشة رضي الله عنها " أنها ذكر عندها الزيت فقالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمر أن يؤكل ، ويدهن ، ويستعط به ، ويقول " إنه من شجرة مباركة " " .

وأخرج الطبراني عن شريك بن سلمة قال : ضفت عمر بن الخطاب رضي الله عنه ليلة ، فأطعمني كسوراً من رأس بعير بارد ، وأطعمنا زيتاً . وقال : هذا الزيت المبارك الذي قال الله لنبيه .

وأخرج عبد بن الحميد عن عكرمة ﴿ يكاد زيتها يضيء ﴾ يقول : من شدة النور .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد قال الضوء إشراق الزيت .

(187/549)

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي رضي الله عنه ﴿ نور على نور ﴾ قال : نور النار ونور الزيت حين اجتمعا أضاءا . وكذلك نور القرآن ونور الإيمان .

وأخرج ابن مردويه عن أبي العالية ﴿ نور على نور ﴾ قال : أتى نور الله تعالى على نور محمد . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 6 صـ ﴾

(188/549)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله : ﴿ اللهُ نُورُ السماوات ﴾ :

مبتدأٌ وخبرٌ : إمَّا على حَذْفِ مضافٍ أي : ذو نورِ السماوات . والمرادُ بالنور عَدْلُه .

ويؤيِّد هذا قولُه ﴿ مَثَلُ نُورِهِ ﴾ . وأضاف النورَ لهذين الظرفين : إمَّا دَلالةً على سَعَةِ إشراقِه وفُشُوِّ إضاءته ، حتى تضيءَ له السماواتُ والأرضُ ، وإمَّا لإرادةِ أهلِ السماوات والأرضِ ، وأنَّهم يَسْتضيئون به . ويجوز أَنْ يبالَغَ في العبارةِ على سبيلِ المَدْحِ كقولهم : فلانٌ شمسُ البلاد وقمرُها ، قال النابغة :

3446 فإنَّك شمسٌ والملوكُ كواكبٌ . . . إذا ظهرَتْ لم يَبْدُ منهنّ كوكبُ

وقال :

3447 قَمَر القبائلِ خالدُ بن يزيد . . . . . .

. . . . . .

ويجوز أَنْ يكونَ المصدرُ واقِعاً موقعَ اسمِ الفاعلِ أي : مُنَوِّرُ السماواتِ . ويؤيِّد هذا الوجهَ قراءةُ أميرِ المؤمنين وزيدِ بن علي وأبي جعفر وعبد العزيز المكي " نَوَّرَ " فعلاً ماضياً . وفاعلُه ضميرُ الباري تعالى ، و " السماواتِ " مفعولُه فكَسْرُه نصبٌ . و " الأرضَ " بالنصبِ نَسَقٌ عليه . وفَسَّره الحسنُ فقال : اللهُ مُنَوِّرُ السماوات .

قوله : ﴿ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ ﴾ مبتدأٌ وخبرٌ أيضاً . وهذه الجملةُ إيضاحٌ لما قبلَها وتفسيرٌ فلا محلَّ لها . وثَمَّ مضافٌ محذوفٌ أي : كَمَثَلِ نورِ مشْكاة . قال الزمخشري : " أي : صفةُ نورِه العجيبِ الشأنِ في الإضاءةِ كَمِشْكاةٍ أي : كصفةِ مِشْكاة " .

واختلفوا في الضمير في "نُوره" فقيل: هو للهِ تعالى، وهو الأولى، والمرادُ بالنورِ على هذا: الآياتُ المبيناتُ المتقدمةُ، أو الإيمان، وقيل: إنه عائدٌ على المؤمنين أو المُؤْمنِ أو مَنْ آمن به. وقد قرأ أُبَيّ بهذه الألفاظِ كلّها. وأعاد الضميرَ على ما قرأ به. وقيل: يعودُ على محمدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم ولم يتقدَّمْ لهذه الأشياءِ ذِكْرٌ. وأمَّا عَوْدُه على المؤمنين في قراءةِ أُبَيّ، ففيه إشكالٌ من حيث الإفراد. / قال مكي: "يُوْقَفَ على "الأرض" في هذه الأقوالِ الثلاثةِ".

واختلفوا أيضاً في هذا التشبيهِ: أهو تشبيهٌ مركَّبٌ أي: قُصِدَ فيه تشبيهُ جملةٍ بجملةٍ، من غير نَظَرٍ إلى مقابلة جزءٍ بجزءٍ، بل قَصَدَ تشبيهَ هُداه وإتقانَ صنعتِه في كلِّ مخلوقٍ على الجُملة بهذه الجملةِ من النور الذي يَتَّخذونه. وهو أبلغُ صفاتِ النورِ عندكم؟ أو تشبيهٌ غيرُ مركبٍ أي: قُصِدَ مقابلةُ جزءٍ بجزءٍ؟ ويترتَّبُ الكلامُ فيه بحسَبِ الأقوال في الضمير في "نوره".

والمِشْكاةُ: الكُوَّةُ غيرُ النافِذَةِ. وهل هي عربية أم حبشية مُعَرَّبَة؟ خلافٌ. وقيل: هي الحديدةُ أو الرَّصاصة التي يوضع فيه الذُّبال وهو الفتيل، وتكون في جَوْفُ الزجاجة، وقيل: هي العمودُ الذي يوْضَعُ على رأسِه المصباحُ، وقيل: ما يُعَلَّقُ فيه القنديلُ من الحديدِ، وأمال "المِشْكاة" الدُّوري عن الكسائي لتقدُّمِ الكسرِ، وإنْ وُجِدَ فاصلٌ. ورُسِمَتْ

بالواو كالزكاة والصلاة .

والمِصْباح : السِّراجُ الضخمُ . والزجاجةُ : واحدةُ الزجاج ، وهو جوهرٌ معروفٌ . وفيه ثلاثُ لغاتٍ : فالضم لغةُ الحجاز ، وهو قراءةُ العامَّة ، والكسرُ والفتحُ لغةُ قيس .

وبالفتح قرأ ابن أبي عبلة ونصر بن عاصم في رواية ابنِ مجاهد . وبالكسر قرأ نصر بن عاصم في روايةٍ عنه ، وأبو رجاء . وكذلك الخلافُ في قوله " الزجاجةُ " .

(190/549)

والجملةُ مِنْ قوله : ﴿ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾ صفةُ لـ " مِشْكاة " . ويجوزُ أن يكونَ الجارُّ وحدَه هو الوصفَ ، و " مصباحٌ " مرتفعٌ به فاعلاً .

قوله : ﴿ دُرِّيٌّ ﴾ ، قرأ أبو عمرو والكسائي بكسر الدال وياءٍ بعدها همزةٌ . وقرأ حمزة وأبو بكر عن عاصم بضم الدال وياءٍ بعدها همزةٌ . والباقون بضمِّ الدال وتشديد الياءِ من غيرِ همزةٍ ، وهذه الثلاثةُ في السبع ، وقرأ زيد بن علي والضحاكُ وقتادةُ بفتح الدال وتشديد الياء . وقرأ الزهريُّ بكسرِها وتشديد الياء . وقرأ أبان بن عثمان وابن المسيَّب وأبو رجاء وقتادة أيضاً " دَرِّيْء " بفتح الدال وتشديدِ الراء وياءٍ بعدها همزةٌ .

فأما الأولى فقراءةٌ واضحةٌ لأنه بناءٌ كثيرٌ يوجد في الأسماء نحو " سِكِّين " وفي الصفاتِ نحوِ

"سِكِّير" .

وأمَّا القراءةُ الثانية فهي مِنْ الدِّرْءِ بمعنى الدَّفْع أي : يدفع بعضُها بعضاً أو يَدْفعُ ضوءُها خَفاءَها ، قيل : ولم يوجد شيءٌ وزنُه فُعِّيل إلاَّ مُرِّيقاً للعُصْفُر وسُرِّيَّة على قولنا : إنها من السرور ، وإنه أُبْدل مِن إحدى المضعَّفاتِ ياءٌ ، وأُدْغِمَتْ فيها ياءُ فُعِّيل ، ومُرِّيخاً للذي في داخلِ القَرْنِ اليابس ، ويقال بكسرِ الميمِ أيضاً ، وعُلِّيَّة ودُرِّيْء في هذه القراءة ، وذُرِّيَّة أيضاً في قولٍ . وقال بعضهم : " وزن دُرِّيْء في هذه القراءةِ فُعُّول كسُبُّوح قُدُّوْس ، فاستُثْقِل توالي الضمِّ فنُقِل إلى الكسرِ ، وهذا منقولٌ أيضاً في سُرِّية وذُرِّيَّة .

وأمَّا القراءة الثالثة فتحتمل وجهين ، أحدُهما : أَنْ يكونَ أصلُها الهمزَ كقراءةِ حمزةَ ، إلاَّ أنه أَبْدَلَ مِنَ الهمزةِ ياءً ، وأَدْغم ، فَيَتَّحدُ معنى القراءتين ، ويُحتمل أَنْ يكونَ نسبةً إلى الدُّر لصفائها وظهورِ إشراقِها .

(191/549)

وأمَّا قراءةُ تشديدِ الياءِ مع فتحِ الدالِ وكسرِها ، فالذي يظهرُ أنه منسوبٌ إلى الدُّر . والفتحُ والكسرُ في الدالِ من بابِ تغييراتِ النَّسَب .

وأمَّا فتحُ الدالِ مع المدِّ والهمز ففيها إشكالٌ . قال أبو الفتح : " وهو بناءٌ عزيزٌ لم يُحْفَظْ منه

إلاَّ السَّكِّينة بفتح الفاء وتشديد العين " . قلت : وقد حكى الأخفشُ : " فَعَلَيْه السَّكِّينة والوَقار " و "كوكَبٌ دَرِّيْءٌ " مِنْ " دَرَأْتُه " .

قولِه : ﴿ يُوقَدُ ﴾ قرأ ابنُ كثير وأبو عمرٍو " تَوَقَّدَ " بزنة تَفَعَّلَ فعلاً ماضياً فيه ضميرُ فاعِله يعودُ على المصباح ، ولا يعودُ على "كوكب " لفسادِ المعنى . والأخوان وأبو بكر " تُوْقَدُ " بضم التاءِ مِنْ فوقُ وفتح القافِ ، مضارعَ أَوْقَدَ . وهو مبنيٌّ للمفعولِ . والقائمُ مَقامَ الفاعلِ ضميرٌ يعودُ على " زجاجة " فاسْتَتَرَ في الفعل . وباقي السبعةِ كذلك إلاَّ أَنَّه بالياءِ من تحتُ

.

والضميرُ المستترُ يعودُ على المصباح .

وقرأ الحسن والسلمي وابن محيصن ، ورُوِيَتْ عن عاصم من طريقِ المفضّلِ كذلك ، إلاَّ أَنَّه ضَمَّ الدال ، جعله مضارع " تَوَقَّدَ " ، والأصلُ : تَتَوَقَّد بتاءَيْن ، فحُذِفَ إحداهما ك " تَذَكَّرُ " . والضميرُ أيضاً للزُّجاجة .

(192/549)

وقرأ عبد الله " وَقَّدَ " فعلاً ماضياً بزنةِ قَتَّلَ مشدداً ، أي : المصباح . وقرأ الحسنُ وسَلاَّم أيضاً "يَوَقَّدُ " بالياء مِنْ تحتُ ، وضَمِّ الدال ، مضارعَ تَوَقَّدَ . والأصل يُتَوَقَّدُ بياءٍ من تحتُ

، وتاءٍ مِنْ فوقُ ، فَحُذِفَتْ التاءُ مِنْ فوقُ . هذا شاذٌ إذ لم يتوالَ مِثْلان ، ولم يَبْقَ في اللفظِ ما يَدُلُّ على المحذوف ، بخلافِ " تَنَزَّلُ " و " تَذَكَّرُ " وبابه ؛ فإنَّ فيه تاءَيْن ، والباقي يَدُلُّ على ما فُقِد . / وقد يُتَمَحَّلُ لصحتِه وجهٌ من القياس وهو : أنهم قد حَمَلوا أَعِدُ وتَعِدُ ونَعِدُ على يَعِدُ في حَذْفِ الواوِ لوقوعِها بين ياءٍ وكسرةٍ فكذلك حَمَلوا يَتَوَقَّد بالياء والتاء على تَتَوَقَّد بتاءين ، وإنْ لم يكنْ الاستثقالُ موجوداً في الياء والتاء .

قوله : ﴿ مِن شَجَرَةٍ ﴾ "مِنْ" لابتداءِ الغايةِ ، وثَمَّ مضافٌ محذوفٌ أي : مِنْ زيتِ شجرةٍ . وزَيْتونة فيها قولان أشهرُهما : أنَّها بدلٌ مِنْ "شجرةٍ" . الثاني : أنها عطفُ بيان ، وهذا مذهبُ الكوفيين وتَبِعهم أبو عليّ . وقد تقدَّم هذا في قوله ﴿ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴾ [إبراهيم : 16] .

قوله : ﴿ لاَّ شَرْقِيَّةٍ ﴾ صفةٌ ل "شَجَرة" ودَخَلَتْ لتفيدَ النفيَ . وقرأ الضحَّاك بالرفعِ على إضمارِ مبتدأ أي : لا هي شرقيةٌ . والجملةُ أيضاً في محل جرٍّ نعتاً ل "شَجَرة" .

قوله : ﴿ يَكَادُ ﴾ هذه الجملةُ أيضاً نعتٌ ل "شجرةٍ" .

قوله : ﴿ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ﴾ جوابُها محذوفٌ أي : لأضاءَتْ لدلالةِ ما تقدَّمَ عليه ، والجملةُ حاليةٌ . وقد تقدَّم تحريرُ هذا في قولِه " رُدُّوا السَّائلَ ولو جاءَ على فَرَس " وأنها لاستقصاءِ الأحوالِ : حتى في هذه الحال . وقرأ ابن عباس والحسن "يَمْسَسْه" بالياءِ لأنَّ المؤنَّثَ مجازيٌّ ، ولأنه قد فُصِلَ بالمفعولِ أيضاً .

(193/549)

قوله : ﴿ نُورٌ على نُورٍ ﴾ خبرُ مبتدأ مضمرٍ أي : ذلك نورٌ . و " على نورٍ " صفةٌ لـ " نور " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 402. 409 ﴾

(194/549)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله جلّ ذكره : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ .

أي هادي أهل السموات والأرض ومنه نورهما والذي منه الشيء يسمى باسمه الشيء .

ومنه نور السموات والأرض خَلْقاً ؛ فنظام السموات والأرض وإحكامها وترتيبها بوصف إتقانها حاصلٌ بالله تعالى .

ويقال نور السموات والأرض أي منورِّها وخلقُ ما فيها من الضياء والزينة ، موجِدُ ما أودعها من الأدلة اللائحة .

ويقال نوَّر اللَّهُ السماءَ بنجومها فقال : ﴿ وَزَيَّنَّا السَّمَآءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ ﴾ [فصلت : 12] فكذلك زينَ القلوب بأنوارٍ هي نورُ العقل ونورُ الفهم ونورُ العْلم ونورُ اليقين ونورُ المعرفة ونورُ التوحيد ، فلكلِّ شيءٍ من هذه الأنوار مطرحُ شعاعٍ بقدره في الزيادة والنقصان .

قوله جلّ ذكره : ﴿ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَآءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾

قوله : ﴿ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ . . . ﴾ أراد بهذا قلب المؤمن وهو معرفته ، فشبَّهَ صدرَه بالمشكاة ، وشبَّه قلبه في صدره بالقنديل في المشكاة ، وشبَّه القنديل – الذي هو قلبه – بالكوكب الدريّ ، وشبه إمداده بالمعرفة بالزيت الصافي الذي يمدُّ السراج في الاشتعال . ثم وصفَ الزيتَ بأنَّه على كمال إدراك زيتونه من غير نقصان أصابه ، أو خللٍ مسَّه ، ثم وصف ذلك الزيت – في صفوته – بأنه بحيث يكاد يضيء من غير أن تمسَّه نار .

(195/549)

ويقال إن ضَرْبَ المثل لمعرفة المؤمن بالزيت أراد به شريعة المصطفى – صلى الله عليه وسلم – ودينه الحنيفي ، فما كان يهودياً – وهم الذين قبلتُهم إلى جانب المغرب ، ولا نصرانياً – وهم الذين قبلتهم في ناحية المشرق .

وقوله : ﴿ نُّورٌ عَلَى نُورٍ ﴾ : نور اكتسبوه بجهدهم بنظرهم واستدلالهم ، ونور وجدوه بفضل الله فهو بيان أضافه إلى برهانهم ، أو عيان أضافه إلى بيانهم ، فهو نور على نور .

ويقال أراد به قلب محمد – صلى الله عليه وسلم – ونورُ معرفته موقدٌ من شجرةٍ هي إبراهيم عليه السلام ، فهو صلى الله عليه وسلم على دين إبراهيم .

قوله : ﴿ لاَّ شَرْقِيَّةٍ ﴾ بحيث تصيبه الشمس بالعشي دون الغداة ، ولا غربية بحيث تصيبه الشمس بالغداة دون العشي ، بل تصيبه الشمسُ طولَ النهارِ ليتمَّ نضج زيتونه ، ويكمل صفاءُ زيته . والإشارة فيه أنه لا ينفرد خوف قلوبهم عن الرجاء فيقرب من اليأس ، ولا ينفرد رجاؤهم عن الخوف فيقرب من الأمن ، بل هما يتعديلان ؛ فلا يغلب أحدهما الآخر ؛ تقابل هيبتهم أُنسهم ، وقبضُهم بسطَهم ، وصحوهُم محوَهم ، وبقاؤهم فناءهم ، وقيامُهم بآداب الشريعة تحقُّقَهم بجوامع الحقيقة .

ويقال ﴿ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ ﴾ : أي أن هِمَمَهم لا تسكن شرقياً ولا عربياً ، ولا علوياً ولا سفلياً ، ولا جنياً ولا إنسياً ، ولا عَرْشاً ولا كرسياً ، سطعت عن الأكوان ، ولم تجد سبيلاً

إلى الحقيقة ، لأن الحقَّ مُنَزَّهٌ عن اللحوق والدرك ، فبقيت عن الحق منفصلة ، وبالحق غير متصلة ؛ وهذه صفة الغرباء . . . " وإن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً كما بدأ " .

(196/549)

ويقال نور القلب : ثم موجبه هو دوام الانزعاج فلا يذره يعرِّج في أقطار الكسل ، فيصل سَيْرَه بسُراه في استعمالِ فكرِه ، والحقُّ يمده : بنور التوفيق حتى لا يصده عن عوارضِ الاجتهادِ شيءٌ من حُبِّ رياسةٍ ، أو ميلٍ لسوءٍ ، أو هوادة . فإذا أسفر صُبْحُ غفلته ، واستمكن النظر من موضعه حصل العلمُ لا محالة . ثم لا يزال يزداد يقيناً على يقين مما يراه في معاملته من القبض والبسط ، والمكافأة والمجازاة في زيادة الكشف عند زيادة الجُهْد ، وحصول الوَجْدِ عند أَداء الوِرْد .

ثم بعده نور المعاملة ، ثم نور المنازلة ، ثم متوع نهار المواصلة . وشموس التوحيد مشرقة ، وليس في سماء أسرارِهم سحابٌ ولا في هوائِها ضبابٌ ، قال تعالى : ﴿ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِى اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَآءُ ﴾ .

(197/549)

ويقال نور المطالبة يحصل في القلب فيحمل صاحبه على المحاسبة ، فإذا نَظَرَ في ديوانه ، وما أسلفه من عصيانه يحصل له نور المعاينة ، فيعود على نفسه باللائمة ، ويتجرَّعُ كاساتِ نَدَمِهِ فيرتقي عن هذا باستدامة قَصْدِه ، والتَّنَقِّي عما كان عليه في أوقات فترته . فإذا استقام في ذلك كوشِفَ بنور المراقبة ؛ فيعلم أنَّه – سبحانه – مُطَّلِعٌ عليه . وبعد هذا نور المحاضرة وهي لوائحُ تبدوا في السرائر . ثم بعد ذلك نور المكاشفة وذلك بتجلِّي الصفات . ثم بعده نور المشاهدة فيصير ليلُه نهاراً ، ونجومُه أقماراً ، وأقمارُه بدوراً ، وبدورُه شموساً . . ثم بعد هذا أنوار التوحيد ، وعند ذلك يتحقق التجريد بخصائص التفريد ، ثم ما لا تتناوله عبارةٌ ولا تدركه إشارةٌ ، فالعبارات – عند ذلك – خُرْسٌ ، والشواهد طُمْسٌ وشهود الغير عند ذلك محال . عند ذلك : ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ وَإِذَا الجِبَالُ سُيِّرَتْ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴾ [التكوير : 1 – 4] و ﴿ وإذَا السَّمَآءُ انشَقَّتْ ﴾ [الانشقاق : 1] وانفطرت . . . فهذه كلها أقسام الكون . وما من العَدَمِ لهم صار إلى العدم . القائمُ عنهم غيرُهم ، والكائن عنهم سواهم . وجلَّتْ الأحديةُ وَعَزَّتْ الصمدية ، وتَقَدَّسَتْ الديمومية ، وتنزهت الإلهية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 614.611 ﴾

كلام نفيس لحجة الإسلام الغزالى فى الآية الكريمة

قال عليه الرحمة :

بسم اللَّهِ الرحمن الرحيم

رب أنعمت فزد بفضلك

الحمد لله فائض الأنوار وفاتح الأبصار . وكاشف الأسرار ورافع الأستار . والصلاة على محمد نور الأنوار وسيد الأبرار وحبيب الجبار وبشير الغفار ونذير القهار ، وقامع الكفار وفاضح الفجار ؛ وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين الأخيار .

أما بعد فقد سألتني أيها الأخ الكريم قيضك الله لطلب السعادة الكبرى ، ورشحك للعروج إلى الذروة العليا ، وكحل بنور الحقيقة بصيرتك ، ونقى عما سوى الحق سريرتك ، أن أبث إليك أسرار الأنوار الإلهية مقرونة بتأويل ما يشير إليه ظاهر الآيات المتلوة والأخبار المروية مثل قوله تعالى (اللَّهُ نورُ السَمَواتِ وَالأَرضِ) ومعنى تمثيله ذلك بالمشكاة والزجاجة والمصباح والزيت والشجرة ، مع قوله عليه السلام)إن لله سبعين حجابا من نور وظلمة وإنه لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه كل من أدركه بصره(.

ولقد ارتقيت بسؤالك مرتقىً صعباً تنخفض دون أعاليه أعين الناظرين ؛ وقرعت باباً مغلقا لا يفتح إلا للعلماء الراخسين . ثم ليس كل سر يكشف ويفشى ، ولا كل حقيقة تعرض وتجلى ، بل صدور الأحرار قبور الأسرار .

ولقد قال بعض العارفين)إفشاء سر الربوبية كفر(بل قال سيد الأولين والآخرين صلى الله عليه وسلم)إن من العلم كهيئة المكنون لا يعلمه الا العلماء بالله(. فإذا نطقوا به لم ينكره إلا أهل الغرة بالله ، ومهما كثر أهل الاغترار وجب حفظ الأسرار على وجه الإسرار . لكني أراك مشروح الصدر بالله بالنور ، منزه السر عن ظلمات الغرور فلا أشح عليك في هذا الفن بالإشارة إلى لوامع ولوائح والرمز إلى حقائق ودقائق .

فليس الخوف في كف العلم عن أهله بأقل منه في بثه إلى غير أهله .

فَمَن مَنَحَ الجُّهالَ عِلماً أَضاعَهُ . . . وَمَن مَنَعَ المَستوجِبينَ فَقَد ظَلَمَ

(199/549)

فاقنع بإشارات مختصرة وتلويحات موجزة ؛ فإن تحقيق القول فيه يستدعي تمهيد أصول وشرح فصول ليس يتسع الآن لها وقتي ، وليس ينصرف إليه همي وفكرتي . ومفاتيح القلوب بيد الله يفتحها إذا شاء كما شاء بما يشاء . وإنما الذي ينفتح في الوقت فصول

ثلاثة .

الفصل الأول

في بيان أن النور الحق هو الله تعالى

وأن اسم النور لغيره مجاز محض لا حقيقة له

وبيانه بأن يعرف معنى النور بالوضع الأول عند العوام ، ثم بالوضع الثاني عند الخواص ، ثم بالوضع الثالث عند خواص الخواص . ثم تعرف درجات الأنوار المذكورة المنسوبة إلى خواص الخواص وحقائقها لينكشف لك عند ظهور درجاتها أن الله تعالى هو النور الأعلى الأقصى ، وعند انكشاف حقائقها أنه النور الحق الحقيقي وحده لا شريك له فيه .

أما الوضع الأول عند العامي فالنور يشير إلى ظهوره ، والظهور أمر إضافي: إذ يظهر الشيء لا محالة الإنسان ويبطن عن غيره: فيكون ظاهرا بالإضافة وباطنا بالإضافة . وإضافة ظهوره إلى الإدراكات لا محالة . وأقوى الإدراكات وأجلاها عند العوام الحواس ، ومنها حاسة البصر .

والأشياء بالإضافة إلى الحس البصري ثلاثة أقسام: منها ما لا يبصر بنفسه كالأجسام المظلمة .

ومنها ما يبصر بنفسه ولا يبصر به غيره كالأجسام المضيئة كالكواكب وجمرة النار إذا لم تكن مشتعلة .

ومنها ما يبصر بنفسه ويبصر به أيضا غيره كالشمس والقمر والسراج والنيران المشتعلة .

والنور اسم لهذا القسم الثالث . ثم تارة يطلق على ما يفيض من الأجسام على ظاهر الأجسام الكثيفة ، فيقال استنارت الأرض ووقع نور الشمس على الأرض ونور السراج على الحائط والثوب . وتارة يطلق على نفس هذه الأجسام المشرقة لأنها أيضا في نفسها مستنيرة .

وعلى الجملة فالنور عبارة عما يبصر بنفسه ويبصر به غيره كالشمس . هذا حده وحقيقته بالوضع الأول .

دقيقة

(200/549)

لما كان سر النور وروحه هو الظهور للإدراك ، وكان الإدراك موقوفا على وجود النور وعلى وجود العين الباصرة أيضا : إذ النور هو الظاهر المظهر ؛ وليس شيء من الأنوار ظاهراً في حق العميان ولا مظهرا . فقد تساوى الروح الباصرة والنور الظاهر في كونه ركنا لا بد منه للإدراك ثم ترجح عليه في أن الروح الباصرة هي المدركة وبها الإدراك . وأما النور فليس بمدرك ولا به الإدراك ، بل عنده الإدراك . فكان اسم النور بالنور الباصر أحق منه بالنور

المبصر .

وأطلقوا إسم النور على نور العين المبصرة فقالوا في الخفاش إن نور عينه ضعيف ، وفي الأعمش إنه ضعيف نور بصره ، وفي الأعمى إنه فقد نور البصر ، وفي السواد إنه يجمع نور البصر ويقويه ، وإن الأجفان إنما خصتها الحكمة بلون السواد وجعل العين محفوفة بها لتجمع ضوء العين . وأما البياض فيفرق ضوء العين ويضعف نوره ، حتى إن إدامة النظر إلى البياض المشرق ، بل إلى نور الشمس يبهر نور العين ويمحقه كما ينمحق الضعيف في جنب القوى .

فقد عرفت بهذا أن الروح الباصر سمى نورا ، وأنه لم سمّى نورا ، وأنه لم كان بهذا الإسم أولى . وهذا هو الوضع الثاني وهو وضع الخواص .

دقيقة

إعلم أن نور بصر العين موسوم بأنواع النقصان : فإنه يبصر غيره ولا يبصر نفسه ، ولا يبصر ما بعد منه ، ولا يبصر ما هو وراء حجاب .

ويبصر من الأشياء ظاهرها دون باطنها ؛ ويبصر من الموجودات بعضها دون كلها .

ويبصر أشياء متناهية ولا يبصر ما لا نهاية له . ويغلط كثيرا في إبصاره : فيرى الكبير صغيرا والبعيد قريبا والساكن متحركا والمتحرك ساكنا .

فهذه سبع نقائص لا تفارق العين الظاهرة . فإن كان في الأعين عين منزهة عن هذه النقائص كلها فليت شعري هل هو أولى باسم النور أم لا .

(201/549)

واعلم أن في قلب الإنسان عينا هذه صفة كمالها وهي التي يعبر عنها تارة بالعقل وتارة بالروح وتارة بالنفس الإنساني . ودع عنك العبارات فإنها إذا كثرت أوهمت عند ضعيف البصيرة كثرة المعاني . فنعني به المعنى الذي يتميز به العاقل عن الطفل الرضيع وعن البهيمة وعن المجنون . ولنسمه)عقلا(متابعة للجمهور في الاصطلاح فنقول: العقل أولى بأن يسمى نورا من العين الظاهرة لرفعة قدره عن النقائص السبع وهو أن العين لا تبصر نفسها ، والعقل يدرك غيره ويدرك صفات نفسه: إذ يدرك نفسه عالما وقادرا : ويدرك علم نفسه ويدرك علمه بعلم نفسه وعلمه بعلمه بعلم نفسه إلى غير نهاية . وهذه خاصية لا تتصور لما يدرك بآلة الأجسام . ووراء سر يطول شرحه .

والثاني أن العين لا تبصر ما بعد منها ولا ما قرب منها قربا مفرطا : والعقل يستوي عنده القريب والبعيد : يعرج في تطريفه إلى أعلى السموات رقيا ، وينزل في لحظة إلى تخوم الأرضين هربا . بل إذا حققت الحقائق يكشف أنه منزه عن أن تحوم بجنبات قدسه معاني القرب

والبعد الذي يفرض بين الأجسام ، فإنه أنموذج من نور الله تعالى ، ولا يخلو الأنموذج عن محاكاة ، وإن كان لا يرقي إلى ذروة المساواة . وهذا ربما هزك للتفطن لسر قوله عليه السلام)إن الله خلق آدم على صورته(فلست أرى الخوض فيه الآن .

الثالث أن العين لا تدرك ما وراء الحجب ، والعقل يتصرف في العرش والكرسي وما وراء حجب السموات ، وفي الملأ الأعلى والملكوت الأسمى كتصرفه في عالمه الخاص ومملكته القريبة أعني بدنه الخاص . بل الحقائق كلها لا تحتجب عن العقل . وأما حجاب العقل حيث يحجب فمن نفسه لنفسه بسبب صفات هي مقارنة له تضاهي حجاب العين من نفسه عند تغميض الأجفان . وستعرف هذا في الفصل الثالث من الكتاب .

(202/549)

الرابع أن العين تدرك من الأشياء ظاهرها وسطحها الأعلى دون باطنها ؛ بل قوالبها وصورها دون حقائقها . والعقل يتغلغل إلى بواطن الأشياء وأسرارها ويدرك حقائقها وأرواحها ، ويستنبط سببها وعلتها وغايتها وحكمتها ، وأنها من خلق ، وكيف خلق ، ولم خلق ، ومن كم معنى جمع وركب ، وعلى أي مرتبة في الوجود نزل ، وما نسبته إلى خالقها وما نسبتها إلى سائر مخلوقاته ، إلى مباحث أُخر يطول شرحها نرى الإيجاز فيها

أولى .

الخامس أن العين تبصر بعض الموجودات إذ تقصر عن جميع المعقولات وعن كثير من المحسوسات: إذ لا تدرك الأصوات والروائح والطعوم والحرارة والبرودة والقوى المدركة: أعني قوة السمع والبصر والشم والذوق ، بل الصفات الباطنة النفسانية كالفرح والسرور والغم والحزن والألم واللذة والعشق والشهوة والقدرة والإرادة والعلم إلى غير ذلك من موجودات لا تحصى ولا تعد ؛ فهو ضيق المجال مختصر المجرى لا تسعة مجاوزة الألوان والأشكال وهما أخس الموجودات: فإن الأجسام في أصلها أخس أقسام الموجودات ، والألوان والأشكال من أخس أعراضها .

فالموجودات كلها مجال العقل ؛ إذ يدرك هذه الموجودات التي عددناها وما لم نعدها ، وهو الأكثر: فيتصرف في جميعها ويحكم عليها حكما يقينا صادقا . فالأسرار الباطنة عنده ظاهرة ، والمعاني الخفية عنده جلية . فمن أين للعين الظاهرة مساماته ومجاراته في استحقاق اسم النور كلا إنها نور بالإضافة إلى غيرها لكنها ظلمة بالإضافة إليه . بل هي جاسوس من جواسيسه وكله بأخس خزائنه وهي خزانة الألوان والأشكال لترفع إلى حضرته أخبارها فيقضي فيها بما يقتضيه رأيه الثاقب وحكمه النافذ .

والحواس الخمس جواسيسه . وله في الباطن جواسيس سواها من خيال ووهم وفكر وذكر وحفظ ؛ ووراءهم خدم وجنود مسخرة له في عالمه الخاص يستسخرهم ويتصرف

فيهم استسخار الملك عبيده بل أشد . وشرح ذلك يطول . وقد ذكرناه في كتاب)عجاب القلب(من كتاب الإحياء .

(203/549)

السادس ان العين لاتبصر ما لانهاية له ، فاإنها تبصر صفات الأجسام والأجسام لاتتصور إلامتناهية . والعقل يدرك المعلومات ، والمعلومات لايتصور ان تكون متناهيه .

نعم إذا لاحظ العلوم المفصله فلا يكون الحاظر الحاصل عنده إلا متناهيا . لكن في قوته إدراك ما لانهاية له . وشرح ذلك يطول .

فإن أردت له مثالا فخذه من الجليات ، فإنه يدرك الأعداد ولا نهاية لها ؛ بل يدرك تضعيفات الإثنين والثلاثة وسائر الأعداد ولا يتصور لها نهاية . ويدرك أنواعا من النسب بين الأعداد لا يتصور التناهي عليها : بل يدرك علمه بالشىء وعلمه بعلمه بالشيء ، وعلمه بعلمه بعلمه . فقوته في هذا الواحد لا تقف عند نهاية .

السابع أن العين تبصر الكبير صغيرا ، فترى الشمس في مقدار مجن والكواكب في صور دنانير منثورة على بساط أزرق . والعقل يدرك أن الكواكب والشمس أكبر من الأرض أضعافا مضاعفة ؛ والعين ترى الكواكب ساكنة ، بل ترى الظل بين يديه ساكنا ، وترى

الصبي ساكنا في مقداره ، والعقل يدرك أن الصبي متحرك في النشوء والتزايد على الدوام ، والظل متحرك دائما ، والكواكب تتحرك في كل لحظ أميالا كثيرة كما قال صلى الله عليه وسلم لجبريل عليه السلام:)أزالت الشمس(فقال لا: نعم قال كيف قال)منذ قلت لا إلى أن قلت نعم ، : قد تحرك مسيرة خمسمائة سنة(.

وأنواع غلط البصر كثيرة ، والعقل منزه عنها . فإن قلت: نرى العقلاء يغلطون في نظرهم فاعلم أن فيهم خيالات وأوهاما واعتقادات يظنون أحكامها أحكام العقل ؛ فالغلط منسوب إليها . وقد شرحنا مجامعها في كتاب)معيار العلم(وكتاب)محك النظر(.

(204/549)

فأما العقل إذا تجرد عن غشاوة الوهم والخيال لم يتصور أن يغلط ؛ بل رأى الأشياء على ما هي عليه ، وفي تجريده عسر عظيم . وإنما يكمل تجرده عن هذه النوازع بعد الموت ، وعند ذلك ينكشف الغطاء وتنجلي الأسرار ويصادف كل أحد ما قدم من خير أو شر محضرا ؛ ويشاهد كتابا لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، وعنده يقال ، فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد . وإنما الغطاء غطاء الخيال والوهم وغيرهما ؛ وعنده يقول المغرور بأوهامه واعتقاداته الفاسدة وخيالاته الباطلة (رَبَّنا أَبصَرنا وَسَمِعنا فَارجِعنا

نَعمَل صالِحاً) الآية .

فقد عرفت بهذا أن العين أولى باسم النور من النور المعروف ، ثم عرفت أن العقل أولى باسم النور من العين . بل بينهما من التفاوت ما يصح معه أن يقال إنه أولى بل الحق أنه المستحق للاسم دونه .

دقيقة

(205/549)

اعلم أن العقول وإن كانت مبصرة ، فليست المبصرات كلها عندها على وتيرة واحدة ، بل بعضها يكون عندها كأنه حاضر كالعلوم الضرورية مثل علمه بأن الشيء الواحد لا يكون قديما حادثا ولا يكون موجودا معدوما ، والقول الواحد لا يكون صدقا وكذبا ، وأن الحكم إذا ثبت للشيء جوازه ثبت لمثله ، وأن الأخص إذا كان موجودا كان الأعم واجب الوجود : فإذا وجد السواد فقد وجد اللون ، وإذا وجد الإنسان فقد وجد الحيوان . وأما عكسه فلا يلزم في العقل ، إذ لا يلزم من وجود اللون وجود السواد ولا من وجود الحيوان وجود لإنسان إلى غير ذلك من القضايا الضرورية في الواجبات والجائزات والمستحيلات . ومنها ما لا يقارن العقل في كل حال إذا عرض عليه بل يحتاج إلى أن يهز أعطافه ويستوري

زناده وينبه عليه بالتنبيه كالنظريات . وإنما ينبهه كلام الحكمة ، فعند إشراق نور الحكمة يصير العقل مبصرا بالفعل بعد أن كان مبصرا بالقوة . وأعظم الحكمة كلام الله تعالى . ومن جملة كلامه القرآن خاصة ، فتكون منزلة آيات القرآن عند عين العقل منزلة نور الشمس عند العين الظاهرة إذ به يتم الإبصار . فبالحرىّ أن يسمى القرآن نورا كما يسمى نور الشمس نورا فمثال القرآن نور الشمس ومثال العقل نور العين . وبهذا نفهم معنى قوله: (فَآمِنوا بِاللَهِ وَرَسولِهِ وَالنورِ الَّذي أَنزَلنا) ، وقوله:)قَد جاءَكُم بُرهانٌ مِن رَبِكُم وَأَنزَلنا إِليكُم نوراً مُّبيناً) .

تكملة هذه الدقيقة

فقد فهمت من هذا أن العين عينان: ظاهرة وباطنة: فالظاهرة من عالم الحس والشهادة ، والباطنة من عالم آخر وهو عالم الملكوت . ولكل عين من العينين شمس ونور عنده تصير كاملة الإبصار إحداهما ظاهرة والأخرى باطنة ؛ والظاهرة من عالم الشهادة وهي الشمس المحسوسة . والباطنة من عالم الملكوت وهو القرآن وكتب الله تعالى المنزلة .

(206/549)

ومهما انكشف لك هذا انكشافا تاما فقد انفتح لك أول باب من أبواب الملكوت . وفي هذا العالم عجائب يستحقر بالإضافة إليها عالم الشهادة . وإن لم يسافر إلى هذا العالم ، وقعد به القصور في حضيض عالم الشهادة فهو بهيمة بعد ، محروم عن خاصية الإنسانية ؛ بل أضل من البهيمة إذ لم تسعد البهيمة بأجنحة الطيران إلى هذا العالم . ولذلك قال الله تعالى:)أُولَئِكَ كالأَنعامِ بَل هُم أَضَلُّ(.

وأعلم أن الشهادة بالإضافة إلى عالم الملكوت كالقشر بالإضافة إلى اللب ، وكالصورة والقالب بالإضافة إلى الروح ، وكالظلمة بالإضافة إلى النور ، كالسفل بالإضافة إلى العلو . ولذلك يسمى عالم الملكوت العالم العلوي والعالم الروحاني والعالم النوراني . وفي مقابلته السفلي والجسماني والظلماني .

(207/549)

ولا تظن أنّا نعني بالعالم العلوي السموات فإنها علو وفوق في حق عالم الشهادة والحس ، ويشارك في إدراكه البهائم . وأما العبد فلا يفتح له باب الملكوت ولا يصير ملكوتيا إلا ويبدل في حقه الأرض غير الأرض والسموات فيصير كل داخل تحت الحس والخيال أرضه ومن جملة السموات ، وكل ما ارتفع عن الحس فسماؤه وهذا هو المعراج الأول لكل سالك ابتدأ

سفره إلى قرب الحضرة الربوبية . فالإنسان مردود إلى أسفل السافلين ، ومنه يترقى إلى العالم الأعلى . وأما الملائكة فإنهم جملة عالم الملكوت عاكفون في حضرة القدوس ، ومنها يشرفون إلى العالم الأسفل . ولذلك قال عليه السلام)إن الله خلق الخلق في ظلمة ثم أفاض عليهم من نوره(وقال:)إن لله ملائكة هو أعلم بأعمال الناس منهم(والأنبياء إذا بلغ معراجهم المبلغ الأقصى وأشرقوا منه إلى السفل ونظروا من فوق إلى تحت اطلعوا أيضا على قلوب العباد وأشرفوا على جملة من علوم الغيب: إذ من كان في عالم الملكوت كان عند الله تعالى – (وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الغَيبِ) أي من عنده تنزل أسباب الموجودات في عالم الشهادة ؛ وعالم الشهادة أثر من آثار ذلك العالم ، يجري منه مجرى الظل بالإضافة إلى السبب .

ومفاتيح معرفة المسببات لا توجد إلا من الأسباب ، ولذلك كان عالم الشهادة مثالا لعالم الملكوت كما سيأتي في بيان المشكاة والمصباح والشجرة: لأن المسبب لا يخلو عن موازاة السبب ومحاكاته نوعا من المحاكاة على قرب أو على بعد .

وهذا لأن له غورا عميقا ومن اطلع على كنه حقيقته انكشف له حقائق أمثلة القرآن على يسر .

دقيقة ترجع إلى حقيقة النور

فنقول إن كان ما يبصر نفسه وغيره أولى باسم النور ، فإن كان من جملة ما يبصر به غيره أيضا مع أنه يبصر نفسه وغيره ، فهو أولى ، باسم النور من الذي لا يؤثر في غيره أصلا ، بل بالحري أن يسمى سراجا منيرا لفيضان أنواره على غيره . وهذه الخاصية توجد للروح القدسي النبوي إذ تفيض بواسطته أنواع المعارف على الخلائق . وبهذا نفهم معنى تسمية الله محمدا عليه السلام سراجا منيرا . والأنبياء كلهم سرج ، وكذلك العلماء . ولكن التفاوت بينهم لا يحصى .

دقيقة

إذا كان اللائق بالذي يستفاد منه نور الإبصار أن يسمى سراجا منيرا فالذي يقتبس منه السراج في نفسه جدير بأن يكنى عنه بالنار . وهذه السرج الأرضية إنما تقتبس في أصلها من أنوار علوية . فالروح القدسي النبوي يكاد زيته يضيء ولو لم تمسسه نار . ولكن إنما يصير نورا على نور إذا مسته النار .

وبالحرىّ أن يكون مقتبس الأرواح الأرضية هي الروح الإلهية العلوية التي وصفها علي وابن عباس رضي الله عنهما فقالا :)إن لله ملكا (له سبعون ألف وجه في كل وجه سبعون ألف لسان يسبح الله بجميعها (وهو الذي قوبل بالملائكة كلهم فقيل يوم القيامة (يَومَ يَقومُ الرّوحُ والمَلائِكةُ صَفّاً) فهي إذا اعتبرت من حيث يقتبس منها السّرج الأرضية لم يكن لها مثال إلا

النار ، وذلك لا يؤانس إلا من جانب الطور .

دقيقة

(209/549)

الأنوار السماوية التي تقتبس منها الأنوار الأرضية إن كان لها ترتيب بحيث يقتبس بعضها من بعض ، فالأقرب من المنبع الأول أولى باسم النور لأنه أعلى رتبة . ومثال ترتيبه في عالم الشهادة لا تدركه إلا بأن يفرض ضوء القمر داخلا في كوة بيت واقعا على مرآة منصوبة على حائط ، ومنعكسا منها إلى حائط آخر في مقابلتها ثم منعطفا منه إلى الأرض بحيث تستنير الأرض . فأنت تعلم أن ما على الأرض من النور تابع لما على الحائط وما على الحائط تابع لما على المرآة ، وما على المرآة تابع لما في القمر ، وما في القمر تابع لما في الشمس : إذ منها يشرق النور على القمر . وهذه الأنوار الأربعة مرتبة بعضها أعلى وأكمل من بعض ، ولكل واحد مقام معلوم ودرجة خاصة لا يتعداها .

فاعلم أنه قد انكشف لأرباب البصائر أن الأنوار الملكوتية إنما وجدت على ترتيب كذلك ، وأن المقرب هو الأقرب إلى النور الأقصى . فلا يبعد أن تكون رتبة إسرافيل فوق رتبة جبريل ، وأن فيهم الأقرب لقرب درجته من حضرة الربوبية التي هي منبع الأنوار كلها ، وأن فيهم

الأدنى ، وبينهما درجات تستعصي على الإحصاء . وإنما المعلوم كثرتهم وترتيبهم في مقاماتهم وصفوفهم ، وأنهم كما وصفوا به أنفسهم إذ قالوا : (وَإِنّا لَنَحنُ الصافّون . وَإِنّا لَنَحنُ المُسَبِحونَ) .

دقيقة

إذا عرفت أن الأنوار لها ترتيب فاعلم أنه لا يتسلسل إلى غير نهاية ، بل يرتقي إلى منبع أول هو النور لذاته وبذاته ، ليس يأتيه نور من غيره ، ومنه تشرق الأنوار كلها على ترتيبها . فانظر الآن اسم النور أحق وأولى بالمستنير المستعير نوره من غيره ، أو بالنير في ذاته المنير لكل ما سواه فما عندي أنه يخفى عليك الحق فيه . وبه يتحقق أن اسم النور أحق بالنور الأقصى الأعلى الذي لا نور فوقه ، ومنه ينزل النور إلى غيره .

حقيقة

(210/549)

بل أقول ولا أبالي إن اسم النور على غير النور الأول مجاز محض : إذ كل ما سواه إذا اعتبر ذاته فهو في ذاته من حيث ذاته لا نور له : بل نورانيته مستعارة من غيره ولا قوام لنورانيته المستعارى بنفسها ، بل بغيرها . ونسبة المستعار إلى المستعير مجاز محض . أفترى أن من

استعار ثيابا وفرسا ومركبا وسرجا ، وركبه في الوقت الذي أركبه المعير ، وعلى الحد الذي رسمه ، غنى بالحقيقة أو بالمجاز ؟ وأن المعير هو الغنى أو المستعير ؟ كلا ، بل المستعير فقير في نفسه كما كان . وإنما الغنى هو المعير الذي منه الإعارة والإعطاء ، وإليه الاسترداد والانتزاع . فإذن النور الحق هو الذي بيده الخلق والأمر ، ومنه الإنارة أولا والإدامة ثانيا . فلا شركة لأحد معه في حقيقة هذا الاسم ولا في استحقاقه إلا من حيث يسميه به ويتفضل عليه بتسميته تفضل المالك على عبده إذا أعطاه مالا ثم سماه مالكا . وإذا انكشف للعبد الحقيقة علم أنه وماله لمالكه على التفرد لا شريك له فيه أصلا وألبتة . مهما عرفت أن النور يرجع إلى الظهور والإظهار ومراتبه ، فاعلم أنه لا ظلمة أشد من كتم العدم: لأن المظلم سمى مظلما لأنه ليس للإبصار إليه وصول ، إذ ليس يصير موجودا للبصير مع أنه موجود في نفسه .

فالذي ليس موجودا لا لغيره ولا لنفسه كيف لا يستحق أن يكون هو الغاية في الظلمة وفي مقابلته الوجود فهو النور: فإن الشيء ما لم يظهر في ذاته لا يظهر لغيره .

والوجود ينقسم إلى ما للشيء من ذاته وإلى ماله من غيره . وما له الوجود من غيره فوجوده مستعار لا قوام له بنفسه . بل إذا اعتبر ذاته من حيث ذاته فهو عدم محض . وإنما هو موجود من حيث نسبته إلى غيره ، وذلك ليس بوجود حقيقي كما عرفت في مثال استعارة

الثوب والغنى . فالموجود الحق هو الله تعالى ، كما أن النور الحق هو الله تعالى .

حقيقة الحقائق

(211/549)

من هنا ترقى العارفون من حضيض المجاز إلى يفاع الحقيقة ، واستكملوا معراجهم فرأوا بالمشاهدة العيانية أن ليس في الوجود إلا الله تعالى ، وأن (كُلُّ شَيءٍ هالِكٌ إلّا وَجهَهُ) لا أنه يصير هالكا في وقت من الأوقات ، بل هو هالك أزلا وأبدا لا يتصور إلا كذلك ، فإن كل شيء سواه إذا اعتبر ذاته من حيث ذاته فهو عدم محض ؛ وإذا اعتبر من الوجه الذي يسري إليه الوجود من الأول الحق رؤى موجودا لا في ذاته لكن من الوجه الذي يلي موجده فيكون الموجود وجه الله تعالى فقط . فلكل شيء وجهان: وجه إلى نفسه ووجه إلى ربه ؛ فإذن لا موجود إلا الله تعالى ووجهه . فإذن كل شيء هالك إلا وجهه أزلا وأبدا . ولم يفتقر هؤلاء إلى يوم القيامة ليسمعوا نداء الباري تعالى (لِمَنِ المُلكُ اليَومَ للهِ الواحِدِ القَهّارِ) بل هذا النداء لا يفارق سمعهم أدبا . ولم يفهموا من معنى قوله)الله أكبر(أنه أكبر من غيره ، حاش لله ، إذ ليس في الوجود معه غيره حتى يكون أكبر منه ؛ بل بيس لغيره رتبة المعية ، بل رتبة التبعية . بل ليس لغيره وجود إلا من الوجه الذي يليه . فالموجود وجهه فقط . ومحال أن

يقال إنه أكبر من وجهه . بل معناها أنه أكبر من أن يقال له أكبر بمعنى الإضافة والمقايسة ، وأكبر من أن يدرك غيره كنه كبريائه ، نبيا كان أو ملكا . بل لا يعرف الله كنه معرفته إلا الله . بل كل معروف داخل في سلطة العارف واستيلائه دخولا ما ، وذلك ينافي الجلال والكبرياء . وهذا له تحقيق ذكرناه في كتاب)المقصد الأسنى(في معاني أسماء الله الحسنى(.

إشارة

(212/549)

العارفون – بعد العروج إلى سماء الحقيقة – اتفقوا على أنهم لم يروا في الوجود إلا الواحد الحق . لكن منهم من كان له هذه الحال عرفانا علميا ، ومنهم من صار له ذلك حالا ذوقيا . وانتفت عنهم الكثرة بالكلية واستغرقوا بالفردانية المحضة واستوفيت فيها عقولهم فصاروا كالمبهوتين فيه ولم يبق فيهم متسع لا لذكر غير الله ولا لذكر أنفسهم أيضا . فلم يكن عندهم إلا الله ، فسكروا سكرا دفع دونه سلطان عقولهم ، فقال أحدهم)أنا الحق(وقال الآخر)سبحاني ما أعظم شأني(وقال آخر)ما في الجبة إلا الله(وكلام العشاق في حال السكر يطوى ولا يحكى . فلما خف عنهم سكرهم وردوا إلى سلطان العقل الذي هو ميزان الله في

أرضه ، عرفوا أن ذلك لم يكن حقيقة الاتحاد بل شبه الاتحاد مثل قول العاشق في حال فرط عشقه)أنا من أهوى ومن أهوى أنا (ولا يبعد أن يفاجىء الإنسان مرآة فينظر فيها ولم ير المرآة قط ، فيظن أن الصورة التي رآها هي صورة المرآة متحدة بها ، ويرى الخمر في الزجاج فيظن أن الخمر لون الزجاج . وإذا صار ذلك عنده مألوفا ورسخ فيه قدمه استغفر وقال:

رَقَ الزُجاجُ وَراقَتِ الخَمرُ . . . فَتَشابَها فَتَشاكَلَ الأَمَرُ

فَكَأَنَّما خَمرٌ وَلا قَدحٌ . . . وَكَأَنَّما قَدحٌ وَلا خَمرُ

وفرق بين أن يقول: الخمر قدح ، وبين أن يقول: كأنه قدح . وهذه الحالة إذا غلبت سميت بالإضافة إلى صاحب الحالة)فناء (بل)فناء الفناء (: لأنه فنى عن نفسه وفنى عن فنائه ، فإنه ليس يشعر بنفسه في تلك الحال ولا يعدم شعوره بنفسه . ولو شعر بعدم شعوره بنفسه لكان قد شعر بنفسه . وتسمى هذه الحالة بالإضافة إلى المستغرق به بلسان المجاز اتحادا أو بلسان الحقيقة توحيدا . ووراء هذه الحقائق أيضا أسرار يطول الخوض فيها .

خاتمة

لعلك تشتهي أن تعرف وجه إضافة نوره إلى السموات والأرض ، بل وجه كونه في ذاته نور السموات والأرض ، فلا ينبغي أن يخفى ذلك عليك بعد أن عرفت أنه النور ولا نور سواه وأنه كل الأنوار ، وأنه النور الكلي ، لأن النور عبارة عما ينكشف به الأشياء ، وأعلى منه ما ينكشف به وله ، وأعلى منه ما ينكشف به وله ومنه ، وأن الحقيقي منه ما ينكشف به وله ، وأعلى منه ما ينكشف به وله ومنه ، وأن الحقيقي منه ما ينكشف به وله ومنه وليس فوقه نور منه اقتباسه واستمداده: بل ذلك له في ذاته من ذاته لذاته لا من غيره . ثم عرفت أن هذا لن يتصف به إلا النور الأول .

ثم عرفت أن السموات والأرض مشحونة نورا من طبقتي النور: اعني المنسوب إلى البصر والبصيرة: أي إلى الحس والعقل . أما البصرى فما نشاهده في السموات من الكواكب والشمس والقمر ، وما نشاهده في الأرض من الأشعة المنبسطة على كل ما على الأرض حتى ظهرت به الألوان المختلفة خصوصا في الربيع ، وعلى كل حال في الحيوانات والمعادن وأصناف الموجودات . ولولاها لم يكن للألوان ظهور ، بل وجود . ثم سائر ما يظهر للحس من الأشكال والمقادير يدرك تبعا للألوان ولا يتصور إدراكها إلا بواسطتها .

وأما الأنوار العقلية المعنوية فالعالم الأعلى مشحون بها ، وهي جواهر الملائكة ، والعالم الأسفل مشحون بها وهي الحياة الحيوانية ثم الإنسانية .

وبالنور الإنساني السفلي ظهر نظام عالم السفل كما بالنور الملكي ظهر نظام عالم العلو . وهو

المعنى بقوله (أَنشَأَكُم مِنَ الأَرضِ وَاستَعمَرَكُم فيها) وقال تعالى: (لَيَستَخلِفَنَّهُم في الأَرض) وقال: (وَيَجعَلَكُم خُلَفاءَ الأَرضِ) ، وقال: (إِنّي جاعِلٌ في الأَرضِ خَليفَة) .

(214/549)

فإذا)عرفت هذا عرفت أن العالم بأسره مشحون بالأنوار الظاهرة البصرية والباطنة العقلية ، ثم عرفت أن السفلية فائضة بعضها من بعض فيضان النور من السراج وأن السراج هو الروح النبوي القدسي ، وأن الأرواح النبوية القدسية مقتبسة من الأرواح العلوية اقتباس السراج من النور ؛ وأن العلويات بعضها مقتبسة من البعض ، وأن ترتيبها ترتيب مقامات . ثم ترقى جملتها إلى نور الأنوار ومعدنها ومنبعها الأول ؛ وأن ذلك هو الله تعالى وحده لا شريك له ، وأن سائر الأنوار مستعارة ، وإنما الحقيقي نوره فقط ؛ وأن الكل نوره ، بل هو الكل ، بل لا هوية لغيره إلا بالمجاز . فإذن لا نور إلا نوره ، وسائر الأنوار أنوار من الذي يليه لا من ذاته . فوجه كل ذي وجه إليه ومولّ شطره: (فَأَينَما تُوَلّوا فَثَمَّ وَجهُ اللهِ) فإذن لا إله الا هو: فإن الإله عبارة عما الوجه موليه نحوه بالعبادة والتأله: أعني وجوه القلوب فإنها الأنوار . بل كما لا إله إلا هو ، فلا هو إلا هو: لأن)هو(عبارة عما إليه إشارة كيفما كان ، ولا إشارة إلا إليه . بل كل ما أشرت إليه فهو بالحقيقة إشارة عليه وإن كنت لا تعرفه أنت لغفلتك عن

حقيقة الحقائق التي ذكرناها . ولا إشارى إلى نور الشمس بل إلى الشمس . فكل ما في الوجود فنسبته إليه في ظاهر المثال كنسبة النور إلى الشمس . فإذن)لا إله إلا الله(توحيد العوام ، و)لا إله إلا هو(توحيد الخواص ، لأن هذا أتم وأخص وأشمل وأحق وأدق وأدخل بصاحبه في الفردانية المحضة والوحدانية الصرفة . ومنتهى معراج الخلائق مملكة الفردانية . وليس وراء ذلك مرقي : إذ الترقي لا يتصور إلا بكثرة: فإنه نوع إضافة يستدعى ما منه الارتقاء وما إليه الارتقاء . وإذا ارتفعت الكثرة حقت الوحدة وبطلت الإضافات وطاحت الإشارات ولم يبق علو وسفل ونازل ومرتفع: واستحال الترقي فاستحال العروج. فليس وراء الأعلى علو ، ولا مع الوحدة كثرة ، ولا مع انتفاء الكثرة عروج ، فإن كان من تغير حال . فالنزول إلى

(215/549)

سماء الدنيا : أعني بالإشراف من علو إلى سفل لأن الأعلى له أسفل وليس له أعلى . فهذه هي غاية الغايات ومنتهى الطلبات: يعلمه من يعلمه وينكره من يجهله . وهو من العلم الذي هو كهيئة المكنون الذي لا يعلمه إلا العلماء بالله . فإذا نطقوا به لم ينكره إلا أهل الغرة بالله . ولا يبعد أن قال العلماء إن النزول إلى السماء الدنيا هو نزول ملك: فقد توهم العلماء ما هو

أبعد منه ؛ إذ قال هذا المستغرق بالفردانية أيضا له نزول إلى السماء الدنيا : فإن 1 ذلك هو نزوله إلى استعمال الحواس أو تحريك الأعضاء . وإليه الإشارة بقوله)صرت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ولسانه الذي ينطق به(فإذا كان هو سمعه وبصره ولسانه ، فهو السامع والباصر والناطق إذن لا غيره ؛ وإليه الإشارة بقوله:)مرضت فلم تعدني(الحديث .

فحركات هذا الموحد من السماء الدنيا وإحساساته كالسمع والبصر من سماء فوقه ، وعقله فوق ذلك . وهو يترقي من سماء العقل إلى منتهى معراج الخلائق . ومملكة الفردانية تمام سبع طبقات ثم بعده يستوي على عرش الوحدانية ، ومنه يدبر الأمر لطبقات سمواته . فربما نظر الناظر إليه فأطلق القول بأن الله خلق آدم على صورة الرحمن ، إلى أن يمعن النظر فيعلم أن ذلك تأويل كقول القائل)أنا الحق(و)سبحاني(بل كقوله لموسى عليه السلام:)مرضت فلم تعدني(و)كنت سمعه وبصره ولسانه(وأرى الآن قبض البيان فما أراك تطيق من هذا القدر أكثر من هذا القدر .)مساعدة(لعلك لا تسمو إلى هذا الكلام بهمتك ، بل تقصر دون ذروته همتك ، فخذ إليك كلاما أقرب إلى فهمك وأوفق لضعفك .

(216/549)

واعلم أن معنى كونه نور السموات والأرض تعرفه بالنسبة إلى النور الظاهر البصري . فإذا رأيت أنوار الربيع وخضرته مثلا في ضياء النهار فلست تشك في أنك ترى الألوان . وربما ظننت أنك لست ترى مع الألوان غيرها ، فإنك تقول لست أرى مع الخضرة غير الخضرة . ولقد أصر على هذا قوم فزعموا أن النور لا معنى له ، وأنه ليس مع الألوان غير الألوان ، فأنكروا وجود النور مع أنه أظهر الأشياء ، وكيف لا وبه تظهر الأشياء ، وهو الذي يبصر في نفسه ويبصر به غيره كما سبق . لكن عند غروب الشمس وغيبة السراج ووقوع الظل أدركوا تفرقة ضرورية بين محل الظل وبين موقع الضياء فاعترفوا بأن النور معنى وراء الألوان يدرك مع الألوان حتى كأنه لشدة انجلائه لا يدرك ، ولشدة ظهوره يخفى . وقد يكون الظهور سبب الخفاء . والشيء إذا جاوز حده انعكس علي ضده .

فإذا عرفت هذا فاعلم أن أرباب البصائر ما رأوا شيئا إلا رأوا الله معه . وربما زاد على هذا بعضهم فقال)ما رأيت شيئا إلا رأيت الله قبله(لأن منهم من يرى الأشياء به ومنهم من يرى الأشياء فيراه بالأشياء . وإلى الأول الإشارة بقوله تعالى: (أَوَلَم يَكفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلى كُلِّ شَيءٍ شَهيدٌ) ؛ وعلى الثاني الإشارة بقوله تعالى: (سَنُريهِم آيَاتِنا في الآفَاقِ) فالأول صاحب مشاهدة ، والثاني صاحب الاستدلال عليه ، والأول درجة الصديقين ، والثاني درجة العلماء الراسخين ، وليس بعدهما إلا درجة الغافلين المحجوبين .

وإذ قد عرفت هذا فاعلم أنه كما ظهر كل شيء للبصر بالنور الظاهر ، فقد ظهر كل شيء للبصيرة الباطنة بالله . فهو مع كل شيء لا يفارقه ثم يظهر كل شيء ، كما أن النور مع كل شيء وبه يظهر . ولكن بقى ها هنا تفاوت: وهو أن النور الظاهر يتصور أن يغيب بغروب الشمس ويحجب حتى يظهر الظل ، وأما النور الإلهي الذي به يظهر كل شيء ، لا يتصور غيبته بل يستحيل تغيره . فيبقى مع الأشياء دائما ، فانقطع طريق الاستدلال بالتفرقة . ولو تصور غيبته لانهدت السموات والأرض ، ولأدرك به من التفرقة ما يضطر معه إلى المعرفة بما به ظهرت الأشياء . ولكن لما تساوت الأشياء كلها على نمط واحد في الشهادة على وحدانية خالقها ارتفع التفريق وخفي الطريق: إذ الطريق الظاهر معرفة الأشياء بالأضداد فما لا ضد له ولا تغير له تتشابه الأحوال في الشهادة له . فلا يبعد أن يخفى ويكون خفاؤه لشدة جلائه والغفلة عنه لإشراق ضيائه . فسبحان من اختفى عن الخلق لشدة ظهوره ، واحتجب عنهم لإشراق نوره . وربما لم يفهم أيضا كنه هذا الكلام بعض القاصرين ، فيفهم من قولنا)إن الله مع كل شيء كالنور مع الأشياء)أنه في كل مكان ؛ تعالى وتقدس عن النسبة إلى المكان . بل لعل الأبعد عن إثارة هذا الخيال أن نقول إنه قبل كل شيء ؛ وإنه فوق كل شيء ؛ وإنه مظهر كل شيء . والمظهر لا يفارق المظهر في معرفة صاحب البصيرة فهو الذي نعني بقولنا عنه مع كل شيء . ثم لا يخفى عليك أيضا أن المظهر وفوقه مع أنه معه

بوجه: لكنه معه بوجه وقبله بوجه . فلا تظنن أنه متناقض ، واعتبر بالمحسوسات التي هي درجتك في العرفان ؛ وانظر كيف تكون حركة اليد مع حركة ظل اليد وقبلها أيضا .

ومن لم يتسع صدره لمعرفة هذا فليهجر هذا النمط من العلم ، فلكل علم رجال ؛ وكل ميسر لما خلق له .

الفصل الثاني

في بيان مثال المشكاة والمصباح

والزجاجة والشجرة والزيت والنار

(218/549)

ومعرفة هذا يستعدي تقديم قطبين يتسع المجال فيهما إلى غير حد محدود . لكني أشير إليهما بالرمز والاختصار: أحدهما في بيان سر التمثيل ومنهاجه ووجه ضبط أرواح المعاني بقوالب الأمثلة ، ووجه كيفية المناسبة بينها ، وكيفية الموازنة بين عالم الشهادة التي منها تتخذ طينة الأمثال ، وعالم الملكوت الذي منه تستنزل أرواح المعاني .

والثاني في طبقات أرواح الطينة البشرية ومراتب أنوارها ؛ فإن هذا المثال مسوق لبيان ذلك ؛ إذ قرأ ابن مسعود)مثل نوره في قلب المؤمن كمشكاة(وقرأ أبي بن كعب:)مثل نور

قلب من آمن(.

الأول في سر التمثيل ومنهاجه

اعلم أن العالم عالمان: روحاني وجسماني: وإن شئت قلت: حسي وعقلي ؛ وإن شئت علوي وسفلي . والكل متقارب ، وإنما تختلف باختلاف الاعتبارات: فإذا اعتبرتهما في أنفسهما قلت جسماني وروحاني ، وإن اعتبرتهما بالإضافة إلى العين المدركة لهما قلت حسي وعقلي . وإن اعتبرتهما بإضافة أحدهما إلى الآخر قلت علوي وسفلى . وربما سميت أحدهما عالم الملك والشهادة والآخر عالم الغيب والملكوت . ومن نظر إلى الحقائق من الألفاظ ربما تحير عند كثرة الألفاظ وتخيل كثرة المعاني . والذي تنكشف له الحقائق يجعل المعاني أصلا والألفاظ تابعا . وأمر الضعيف بالعكس ؛ إذ يطلب الحقائق من الألفاظ . وإلى الفريقين الإشارة بقوله تعالى: (أَفَمَن يَمشي مُكِبّاً عَلى وَجهِهِ أَهدى أَم مَن يَمشي سَوياً عَلى صِراطٍ مُّستَقيم(.

وإذ قد عرفت معنى العالمين فاعلم أن العالم الملكوتي عالم غيب ؛ إذ هو غائب عن الأكثرين . والعالم الحسي عالم شهادة إذ يشهده الكافة . والعالم الحسي مرقاة إلى العقل . فلو لم يكن بينهما اتصال ومناسبة لانسد طريق الترقي إليه . ولو تعذر ذلك لتعذر السفر إلى حضرة الربوبية والقرب من الله تعالى . فلم يقرب من الله تعالى أحد ما لم يطأ بجبوحة حظيرة القدس .

والعالم المرتفع عن إدراك الحس والخيال هو الذي نعنيه بعالم القدس . فإذا اعتبرنا جملته بحيث لا يخرج منه شيء ولا يدخل فيه ما هو غريب منه سميناه حظيرة القدس . وربما سمينا الروح البشري الذي هو مجرى لوائح القدس)الوادي المقدس(. ثم هذه الحظيرة فيها حظائر بعضها أشد إمعانا في معاني القدس . ولكن لفظ الحظيرة يحيط بجميع طبقاتها . فلا تظنن أن هذه الألفاظ طامات غير معقولة عند أرباب البصائر . واشتغالي الآن بشرح كل لفظ مع ذكره يصدني عن المقصد . فعليك التشمير لفهم هذه الألفاظ فأرجع إلى الغرض وأقول: لما كان عالم الشهادة مرقاة إلى عالم الملكوت ، وكان سلوك الصراط المستقيم عبارة عن هذا الترقي ؛ وقد يعبر عنه بالدين وبمنازل الهدى – فلو لم يكن بينهما مناسبة واتصال لما تصور الترقي من أحدهما إلى الآخر – جعلت الرحمة الإلهية عالم الشهادة على موازنة عالم الملكوت: فما من شيء من هذا العالم إلا وهو مثال لشيء من ذلك العالم . وربما كان الشيء الواحد مثالا لأشياء من عالم الملكوت . وربما كان للشيء الواحد من الملكوت أمثلة كثيرة من عالم الشهادة . وإنما يكون مثالا إذا ماثله نوعا من المماثلة ، وطابقه نوعا من المطابقة . وإحصاء تلك الأمثلة يستدعي استقصاء جميع موجودات العالمين بأسرها ،

ولن تفي به القوة البشرية وما اتسع لفهمه القوة البشرية . فلا تفي بشرحه الأعمار القصيرة . فغايتي أن أعرفك منها أنموذجا لتستدل باليسير منها على الكثير ، وينفتح لك باب الاستعبار بهذا النمط من الأسرار فأقول: إن كان في عالم الملكوت جواهر نورانية شريفة عالية يعبر عنها بالملائكة ، منها تفيض الأنوار على الأرواح البشرية ، ولأجلها قد تسمى أربابا ، ويكون الله تعالى رب الأرباب لذلك ، ويكون لها مراتب في نورانيتها متفاوتة ، فبالحريّ أن يكون مثالها من عالم الشهادة الشمس والقمر والكواكب .

(220/549)

والسالك للطريق أولا ينتهي إلى ما درجته درجة الكواكب فيتضح له إشراق نوره وينكشف له أن العالم الأسفل بأسره تحت سلطانه وتحت إشراق نوره ؛ ويتضح له من جماله وعلو درجته ما يبادر فيقول:)هذا ربي(ثم إذا اتضح له ما فوقه مما رتبته رتبة القمر ، رأى دخول الأول في مغرب الهوى بالإضافة إلى ما فوقه فقال:)لا أحب الآفلين(وكذلك يترقى حتى ينتهي إلى ما مثاله الشمس فيراه أكبر وأعلى ، فيراه قابلا للمثال بنوع مناسبة له معه . والمناسبة مع ذي النقص نقص وأفول أيضا . فمنه يقول: (وَجَهتُ وَجهِيَ لِلَّذي فَطَرَ السَمَواتِ وَالأَرضَ حَنيفاً) ومعنى)الذي(إشارة مبهمة لا مناسبة لها : إذ لو قال قائل ما

مثال مفهوم)الذي(لم يتصور أن يجاب عنه . فالمتنزه عن كل مناسبة هو الأول الحق .

ولذلك لما قال بعض الأعراب لرسول الله صلى الله عليه وسلم:)ما نسب الإله ؟(نزل في جوابه (قُل هُوَ اللَهُ أَحَدٌ . اللَهُ الصَمَدُ . لَم يَلِد وَلَم يولَد (إلى آخرها ، معناه أن التقدس والتنزه عن النسبة نسبته . ولذلك لما قال فرعون لموسى: (وَما رَبُّ العالَمينَ) كالطالب لماهيته لم يجب إلا بتعريفه بأفعاله ، إذ كانت الأفعال أظهر عند السائل فقال: (رَّبِّ السَمَواتِ وَالأَرضِ) ، فقال فرعون لمن حوله (أَلا تَسمَعونَ) كالمنكر عليه في عدوله في جوابه عن طلب الماهية ، فقال موسى: (رَبُّكُم وَرَبُّ آبائِكُمُ الأَولينَ) فنسبه فرعون إلى الجنون إذ كان مطلبه المثال والماهية ؛ وهو يجيب عن الأفعال ، فقال: (إِنَّ رَسولَكُمُ الَّذي أُرسِلَ إِلَيكُم لَمَجنونٌ) .

(221/549)

ولنرجع إلى الأنموذج فنقول علم)التعبير(يعرفك منهاج ضرب المثال ؛ لأن الرؤيا جزء من النبوة . أما ترى أن الشمس في الرؤيا تعبيرها السلطان ، لما بينهما من المشاركة والمماثلة في معنى روحاني – وهو الإستعلاء على الكافة مع فيضان الآثار على الجميع . والقمر تعبيره الوزير لإفاضة الشمس نورها بواسطة القمر على العالم عند غيبتها كما يفيض السلطان

أنواره بواسطة الوزير على من يغيب عن حضرة السلطان . وأن من يرى أنه في يده خاتم يختم به أفواه الرجال وفروج النساء فتعبيره أنه مؤذن يؤذن قبل الصبح في رمضان . وأن من يرى أنه يصب الزيت في الزيتون فتعبيره أن تحته جارية هي أمه وهو لا يعرف . واستقصاء أبواب التعبير يزيك أنسا بهذا الجنس ، فلا يمكنني الاشتغال بعدها : بل أقول: كما أن في الموجودات العالية الروحانية ما مثاله الشمس والقمر والكواكب ، فكذلك فيها ما له أمثلة أخرى إذا اعتبرت منه أوصاف أُخر سوى النورانية .

(222/549)

فإن كان في تلك الموجودات ما هو ثابت لا يتغير وعظيم لا يستصغر ، ومنه ينفجر إلى أودية القلوب البشرية مياه المعارف ونفائس المكاشفات فمثاله)الطور(؛ وإن كان ثم موجودات تتلقى تلك النفائس بعضهم أولى من بعض فمثالها الوادي . وإن كانت تلك النفائس بعد اتصالها بالقلوب البشرية تجري من قلب إلى قلب ، فهذه القلوب أيضا أودية . ومفتتح الوادي قلوب الأنبياء ثم العلماء ثم من بعدهم . فإن كانت هذه الأودية دون الأول وعنها تغترف ، فبالحريّ أن يكون الأول هو الوادي الأيمن لكثرة يمنه وعلو درجته . وإن كان الوادي الأدون يتلقى من آخر درجات الوادي الأيمن فمغترفه شاطىء الوادي الأيمن دون لجته

ومبدئه . وإن كان روح النبي سراجا منيرا ، وكان ذلك الروح مقتبسا بواسطة وحي كما قال: (أَوحينا إِليكَ روحاً مِن أَمرِنا) فما منه الإقتباس مثاله النار ، وإن كان المتلقنون من الأنبياء بعضهم على محض التقليد لما سمعه ، وبعضهم على حظ من البصيرة ، فمثال حظ المقلد الخبر ، ومثال حظ المستبصر الجذوة والقبس والشهاب . فإن صاحب الذوق مشارك للنبي في بعض الأحوال . ومثال تلك المشاركة الإصطلاء . وإنما يصطلي بالنار من معه النار ، لا من يسمع خبرها . وإن كان أول منزل الأنبياء الترقي إلى العالم المقدس عن كدورة الحس والخيال ، فمثال ذلك المنزل الوادي المقدس .

وإن كان لا يمكن وطء ذلك الوادي المقدس إلا باطراح الكونين – أعني الدنيا والآخرة – والتوجه إلى الواحد الحق ، ولأن الدنيا والآخرة متقابلتان متحاذيتان وهما عارضان للجوهر النوراني البشري يمكن اطراحهما مرة والتلبس بهما أخرى ، فمثال اطراحهما عند الإحرام للتوجه إلى كعبة القدس خلع النعلين . بل نترقي إلى حضرة الربوبية مرة أخرى ونقول:

(223/549)

إن كان في تلك الحضرة شيء بواسطته تنتقش العلوم المفصلة في الجواهر القابلة لها فمثاله)القلم(. وإن كان في تلك الجواهر القابلة ما بعضها سابق إلى التلقي ، ومنها تنتقل إلى غيرها ، فمثالها)اللوح المحفوظ(و)الرق المنشور(. وإن كان فوق الناقش للعلوم شيء هو مسخر فمثاله)اليد(وإن كان لهذه الحضرة المشتملة على اليد واللوح والقلم والكتاب ترتيب منظوم فمثاله)الصورة(وإن كان يوجد للصورة الإنسية نوع ترتيب على هذه الشاكلة ، فهي على صورة الرحمن . وفرق بين أن يقال)على صورة الرحمن(وبين أن يقال)على صورة الله(لأن الرحمة الإلهية هي التي صورت الحضرة الإلهية بهذه الصورة .

ثم أنعم على آدم فأعطاه صورة مختصرة جامعة لجميع أصناف ما في العالم حتى كأنه كل ما في العالم أو هو نسخة من العالم مختصرة . وصورة آدم – أعني هذه الصورة – مكتوبة بخط الله . فهو الخط الإلهي الذي ليس برقم حروف ، إذ تنزه خطه عن أن يكون رقما وحروفا كما تنزه كلامه عن أن يكون صوتا وحرفا ، وقلمه عن أن يكون خشبا وقصبا ، ويده عن أن تكون لحما وعظما . ولولا هذه الرحمة لعجز الآدمي عن معرفة ربه: إذ لا يعرف ربه إلا من عرف نفسه . فلما كان هذا من آثار الرحمة صار على صورة الرحمن لا على صورة الله: فإن حضرة الإلهية غير حضرة الرحمة وغير حضرة الملك وغير حضرة الربوبية .

ولذلك أمر بالعياذ بجميع هذه الحضرات فقال: (قُل أَعوذُ بِرَبِّ الناسِ ، مَلِكِ الناسِ ، إِلَهِ

الناسِ) ولولا هذا المعنى لكان ينبغي أن يقول على صورته واللفظ الوارد في الحديث الصحيح على صورة الرحمن .

(224/549)

ولأن تمييز حضرة الملك عن الإلهية والربوبية يستدعي شرحا طويلا فلنتجاوزه ، ويكفيك من الأنموذج هذا القدر ، فإن هذا بحر لا ساحل له . فإن وجدت في نفسك نفورا عن هذه الأمثال فآن قلبك بقوله تعالى: (أَنزَلَ مِنَ السَمَاءِ ماءً فَسالَت أَودِيَةٌ بِقَدَرِها) الآية ، وأنه كيف ورد في التفسير أن الماء هو المعرفة والقرآن والأودية القلوب .

خاتمة واعتذار

لا تظنن من هذا الأنموذج وطريق ضرب المثال رخصة مني في رفع الظاهر واعتقادا في إبطالها حتى أقول مثلا لم يكن مع موسى نعلان ، ولم يسمع الخطاب بقوله:)اخلع نعليك(حاش لله فإن إبطال الظواهر رأى الباطنية الذين نظروا بالعين العوراء إلى أحد العالمين ولم يعرفوا الموازنة بين العالمين ، ولم يفهموا وجهه . كما أن إبطال الأسرار مذهب الحشوية .

(225/549)

فالذي يجرد الظاهر حشوى ، والذي يجرد الباطن باطني . والذي يجمع بينهما كامل .

ولذلك قال عليه السلام:)للقرآن ظاهر وباطن وحدٌ ومطلع(وربما نقل هذا عن عليّ موقوفا عليه . بل أقول فهم موسى من الأمر بخلع النعلين اطراح الكونين فامتثل الأمر ظاهرا بخلع نعليه ، وباطنا باطراح العالمين . وهذا هو)الاعتبار(أي العبور من الشيء إلى غيره ، ومن الظاهر إلى السر . وفرق بين من يسمع قول رسول الله صلى الله عليه وسلم:)لا يدخل الملائكة بيتا فيه كلب(فيقتنى الكلب في البيت ويقول ليس الظاهر مرادا ، بل المراد تخلية بيت القلب عن كلب الغضب لأنه يمنع المعرفة التي هي من أنوار الملائكة: إذا الغضب غول العقل ، وبين من يمتثل الأمر في الظاهر ثم يقول: الكلب ليس كلبا لصورته بل لمعناه – وهو السبعية والضراوة – وإذا كان حفظ البيت الذي هو مقر الشخص والبدن واجبا عن صورة الكلب ، فبأن يجب حفظ بيت القلب – وهو مقر الجوهر الحقيقي الخاص – عن شر الكلبية أولى . فأنا أجمع بين الظاهر والسر جميعا ، فهذا هو الكامل: وهو المعنى بقولهم)الكامل من لا يطفىء نور معرفته نور ورعه(ولذلك ترى الكامل لا تسمح نفسه بترك حد من حدود الشرع مع كمال البصيرة . وهذه مغلطة منها وقع بعض السالكين إلى الإباحة وطى بساط الأحكام ظاهرا ، حتى أنه ربما ترك أحدهم الصلاة وزعم أنه دائما في الصلاة بسره . وهذا سوى مغلطة الحمقى من الإباحية الذين مأخذهم ترهات كقول بعضهم)إن

الله غني عن عملنا (وقول بعضهم إن الباطن مشحون بالخبائث ليس يمكن تزكيته ولا يطمع في استئصال الغضب والشهوة لظنه أنه مأمور باستئصالها : وهذه حماقات .

(226/549)

فأما ما ذكرناه فهو كبوة جواد وهفوة سالك حسده الشيطان فدلاّه بحبل الغرور . وأرجع إلى حديث النعلين فأقول: ظاهر خلع النعلين منبه على ترك الكونين . فالمثال في الظاهر حق وأداؤه إلى السر الباطن حقيقة . وأهل هذا التنبيه هم الذين بلغوا درجة الزجاجة كما سيأتي معنى الزجاجة ؛ لأن الخيال الذي من طينته يتخذ المثال صلب كثيف يحجب الأسرار ويحول بينك وبين الأنوار ؛ ولكن إذا صفا حتى صار كالزجاج الصافي غير حائل عن الأنوار ، بل صار مع ذلك مؤديا للأنوار ، بل صار مع ذلك حافظا للأنوار عن الانطفاء بعواصف الرياح . وستأتيك قصة الزجاجة .

فاعلم أن العالم الكثيف الخيالي السفلي صار في حق الأنبياء زجاجة ومشكاة للأنوار ومصفاة للأسرار ، ومرقاة إلى العالم الأعلى . وبهذا يعرف أن المثال الظاهر حق ووراءه سر . وقس على هذا)الطور(و)النار(وغيرهما .

دقيقة

إذا قال الرسول عليه السلام:)رأيت عبد الرحمن بن عوف يدخل الجنة حبوا(فلا تظنن أنه لم يشاهده بالبصر كذلك ، بل رآه في يقظته كما يراه النائم في نومه ؛ وإن كان عبد الرحمن مثلا نائما في بيته بشخصه ، فإن النوم إنما أثر في أمثال هذه المشاهدات لقهره سلطان الحواس عن النور الباطن الإلهي ، فإن الحواس شاغلة له وجاذبة إياه إلى عالم الحس ، وصارفة وجهه عن عالم الغيب والملكوت . وبعض الأنوار النبوية قد يستعلي ويستولي بحيث لا تستجره الحواس إلى عالمها ولا تشغله ، فيشاهد في اليقظة ما يشاهد غيره في المنام .

ولكنه إذا كان في غاية الكمال لم يقتصر إدراكه على محض الصورة المبصرة ، بل عبر منها إلى السر فانكشف له أن الإيمان جاذب إلى العالم الذي يعبر عنه بالجنة ؛ والغنى والثروة جاذب إلى الحياة الحاضرة وهي العالم الأسفل . فإن كان الجاذب إلى أشغال الدنيا أقوى أو مقاوما للجاذب الآخر صد عن المسير إلى الجنة . وإن كان جاذب الإيمان أقوى أورث عسرا وبطئا في سيره ؛ فيكون مثاله من عالم الشهادة)الحبو(فكذلك تتجلى له أنوار الأسرار من وراء زجاجات الخيال . ولذلك لا يقتصر في حكمه على عبد الرحمن وإن كان إبصاره

مقصورا عليه ، بل يحكم به على كل من قويت بصيرته واستحكم إيمانه ، وكثرت ثروته كثرة تزاحم الإيمان لكن لا تقاومه لرجحان قوة الإيمان .

(228/549)

فهذا يعرفك كيفية إبصار الأنبياء الصورة وكيفية مشاهدتهم المعاني من وراء الصور . والأغلب أن يكون المعنى سابقا إلى المشاهدة الباطنة ثم يشرق منها على الروح الخيالي فينطبع الخيال بصورة موازنة للمعنى محاكية له . وهذا النمط من الوحي في اليقظة يفتقر إلى التأويل ، كما أنه في النوم يفتقر إلى التعبير . والواقع منه في النوم نسبته إلى الخواص النبوية نسبة الواحد إلى ستة وأربعين . والواقع في اليقظة نسبته أعظم من ذلك . وأظن أن نسبته إليه نسبة الواحد إلى الثلاثة . فإن الذي انكشف لنا من الخواص النبوية ينحصر شعبها في ثلاثة أجناس ، وهذا واحد من تلك الأجناس الثلاثة .

القطب الثاني

في بيان مراتب الأرواح

البشرية النورانية إذ بمعرفتها تعرف أمثلة القرآن

فالأول منها الروح الحساس وهو الذي يتلقى ما تورده الحواس الخمس ، وكأنه أصل الروح

الحيواني وأوله ، إذ به يصير الحيوان حيوانا . وهو موجود للصبي الرضيع .

الثاني الروح الخيالي ، وهو الذي يستثبت ما أورده الحواس ويحفظه مخزونا عنده ليعرضه على الروح العقلي الذي فوقه عند الحاجة إليه . وهذا لا يوجد للصبي الرضيع في بداية نشوئه: ولذلك يولع بالشيء ليأخذه ، فإذا غاب عنه ينساه ولا تنازعه نفسه إليه إلى أن يكبر قليلا فيصير بحيث إذا غُيب عنه بكى وطلب ذلك لبقاء صورته محفوظة في خياله . وهذا قد يوجد لبعض الحيوانات دون بعض ، ولا يوجد للفراش المتهافت على النار لأنه يقصد النار لشغفه بضياء النهار: فيظن أن السراج كوة مفتوحة إلى موضع الضياء فيلقي نفسه عليه فيتأذى به . لكنه إذا جاوزه وحصل في الظلمة عاوده مرة بعد مرة . ولو كان له الروح الحافظ المستثبت لما أداه الحس إليه من الألم لما عاوده بعد أن تضرر مرة به فالكلب إذا ضرب مرة بخشبة ، فإذا رأى الخشبة بعد ذلك من بعد هرب .

(229/549)

الثالث الروح العقلي الذي به تدرك المعاني الخارجة عن الحس والخيال ، وهو الجوهر الإنسي الخاص ، ولا يوجد لا للبهائم ولا للصبيان . ومدركاته المعارف الضرورية الكلية كما ذكرناه عند ترجيح نور العقل على نور العين .

الرابع الروح الفكري ، وهو الذي يأخذ العلوم العقلية المحضة فيوقع بينها تأليفات وازدواجات ويستنتج منها معارف شريفة . ثم إذا استفاد نتيجتين مثلا ، ألف بينهما مرة أخرة واستفاد نتيجة أخرى . ولا يزال يتزايد كذلك إلى غير نهاية .

الخامس الروح القدسي النبوي الذي يختص به الأنبياء وبعض الأولياء ، وفيه تتجلى لوائح الغيب وأحكام الآخرة وجملة من معارف ملكوت السموات والأرض ، بل من المعارف الربانية التي يقصر دونها الروح العقلي والفكري . وإليه الإشارة بقوله تعالى: (وَكَذَلِكَ أَوحَينا إِلَيكَ روحاً مِّن أَمرِنا ما كُنتَ تَدري ما الكِتابُ ولا الإيمانُ ، وَلَكِن جَعَلناهُ نوراً نَّهدي بِهِ(الآية . فلا يبعد أيها العاكف في عالم العقل أن يكون وراء العقل طور آخر يظهر فيه ما لا يظهر في العقل ، كما لا يبعد كون العقل طورا وراء التمييز والإحساس تنكشف فيه غرائب وعجائب يقصر عنها الإحساس والتمييز .

(230/549)

ولا تجعل أقصى الكمال وقفا على نفسك . وإن أردت مثالا مما نشاهده من جملة خواص بعض البشر فانظر إلى ذوق الشعر كيف يختص به قوم من الناس وهو نوع إحساس وإدراك ، ويحرم عنه بعضهم حتى لا تتميز عندهم الألحان الموزونة من المنزحفة . وانظر كيف

عظمت قوة الذوق في طائفة حتى استخرجوا بها الموسيقى والأغاني والأوتار وصنوف الدستانات التي منها المحزن ومنها المطرب ومنها المنوم ومنها المضحك ومنها المجنن ومنها القاتل ، ومنها الموجب للغشى . وإنما تقوى هذه الآثار فيمن له أصل الذوق . وأما العاطل عن خاصية الذوق فيشارك في سماع الصوت وتضعف فيه هذه الآثار ، وهو يتعجب من صاحب الوجد والشغى . ولو اجتمع العقلاء كلهم من أرباب الذوق على تفهيمه معنى الذوق لم يقدروا عليه .

فهذا مثال في أمر خسيس لكنه قريب إلى فهمك . فقس به الذوق الخاص النبوي واجتهد أن تصير من أهل الذوق بشيء من ذلك الروح: فإن للأولياء منه حظا وافرا . فإن لم تقدر فاجتهد أن تصير بالأقيسة التي ذكرناها والتنبيهات التي رمزنا إليها من أهل العلم بها . فإن لم تقدر فلا أقل من أن تكون من أهل الإيمان بها : و (يَرفَعُ اللَّهُ الَّذينَ آمَنوا مِنكُم وَالَّذينَ أُوتوا العِلمَ دَرَجاتٍ) . والعلم فوق الإيمان ، والذوق فوق العلم . فالذوق وجدان والعلم قياس والإيمان قبول مجرد بالتقليد . وحسن الظن بأهل الوجدان أو بأهل العرفان .

(231/549)

فإذا عرفت هذه الأرواح الخمسة فاعلم أنها بجملتها أنوار لأنها تظهر أصناف الموجودات ، والحسى والخيالي منها ، وإن كان يشارك البهائم في جنسها ، لكن الذي للإنسان منه نمط آخر أشرف وأعلى ؛ وخلق الإنسان لأجل غرض أجل وأسمى . أما الحيوانات فلم يخلق ذلك لها إلا ليكون آلتها في طلب غذائها في تسخيرها للآدمي . وإنما خلق للأدمي ليكون شبكة له يقتنص بها من العالم الأسفل مبادىء المعارف الدينية الشريفة . إذ الإنسان إذا أدرك بالحس شخصا معينا اقتبس عقله منه معنى عاما مطلقا كما ذكرنا في مثال حبو عبد الرحمن بن عوف . وإذا عرفت هذه الأرواح الخمسة فلنرجع إلى عرض الأمثلة .

بيان أمثلة هذه الآية

اعلم أن القول في موازنة هذه الأرواح الخمسة للمشكاة والزجاجة والمصباح والشجرة والزيت يمكن تطويله ، لكني أوجزه وأقتصر على التنبيه على طريقه فأقول: أما الروح الحساس فإذا نظرت إلى خاصيته وجدت أنواره خارجة من ثقب عدة كالعينين والأذنين والمنخرين وغيرها . وأوفق مثال له من عالم الشهادة المشكاة . وأما الروح الخيالي فنجد له خواص ثلاثا : إحداهما : أنه من طينة العالم السفلي الكثيف: لأن الشيء المتخيل ذو مقدار وشكل وجهات محصورة مخصوصة . وهو على نسبة من المتخيل من قرب أو بعد . ومن شأن الكثيف الموصوف بأوصاف الأجسام أن يحجب عن الأنوار العقلية المحضة التي تتنزه عن الوصف بالجهات والمقادير والقرب والبعد .

الثانية: أن هذا الخيال الكثيف إذا صفّى ودقق وهذّب وضبط صار موازيا للمعاني العقلية ومؤديا لأنوارها ، غير حائل عن إشراق نورها منها .

(232/549)

الثالثة: أن الخيال في بداية الأمر محتاج إليه جدا ليضبط به المعارف العقلية فلا تضطرب ولا تتزلزل ولا تنتشر انتشارا يخرج عن الضبط . فنعم المعين المثالات الخيالية للمعارف العقلية . وهذه الخواص الثلاث لا نجدها في عالم الشهادة بالإضافة إلى الأنوار المبصرة الا للزجاجة: فإنها في الأصل من جوهر كثيف لكن صفى ورقق حتى لا يحجب نور المصباح بل يؤديه على وجهه ، ثم يحفظه عن الانطفاء بالرياح العاصفة والحركات العنيفة . فهي أول مثال له .

وأما الثالث وهو الروح العقلي الذي به إدراك المعارف الشريفة الإلهية فلا يخفى عليك وجه تمثيله بالمصباح . وقد عرفت هذا فيما سبق من بيان كون الأنبياء سرجا منيرة .

وأما الرابع وهو الروح الفكري فمن خاصيته أنه يبتدىء من أصل واحد ثم تتشعب منه شعبتان ، ثم من كل شعبة شعبتان وهكذا إلى أن تكثر الشعب بالتقسيمات العقلية ، ثم يفضي بالآخرة إلى نتائج هي ثمراتها . ثم تلك الثمرات تعود فتصير بذورا لأمثالها : إذ يمكن

أيضا تلقيح بعضها بالبعض حتى يتمادى إلى ثمرات وراءها كما ذكرناه في كتاب القسطاس المستقيم. فبالحرىّ أن يكون مثاله من هذا العالم الشجرة. وإذ كانت ثمراته مادة لتضاعف أنوار المعارف وثباتها وبقائها فبالحرىّ ألا تمثل بشجرة السفرجل والتفاح والرمان وغيرها، بل من جملة سائر الأشجار بالزيتونة خاصة: لأن لب ثمرها هو الزيت الذي هو مادة المصابيح، ويختص من سائر الأدهان بخاصية زيادة الإشراق مع قلة الدخان. وإذا كانت الماشية التي يكثر نسلها والشجرة التي تكثر ثمرتها تسمى مباركة، فالتي لا يتناهى ثمرتها إلى حد محدود أولى أن تسمى شجرة مباركة. وإذا كانت شعب الأفكار العقلية المحضة خارجة عن قبول الإضافة إلى الجهات والقرب والبعد، فالبالحرىّ أن تكون لا شرقية ولا غربية.

(233/549)

وأما الخامس: وهو الروح القدسي النبوي المنسوب إلى الأولياء إذا كان في غاية الصفاء والشرف وكانت الروح المفكرة منقسمة إلى ما يحتاج إلى تعليم وتنبيه ومدد من خارج حتى يستمر في أنواع المعارف، وبعضها يكون في شدة الصفاء كأنه يتنبه بنفسه من غير مدد من خارج، فبالحرىّ أن يعبر عن الصافي البالغ الاستعداد بأنه يكاد زيته يضيء، ولو لم تمسسه

نار: إذ من الأولياء من يكاد يشرق نوره حتى يكاد يستغني عن مدد الأنبياء ؛ وفي الأنبياء من يكاد يستغني عن مدد الملائكة. فهذا المثال موافق لهذا القسم.

وإذا كانت هذه الأنوار مترتبة بعضها على بعض: فالحسى هو الأول، وهو كالتوطئة والتمهيد للخيالي، إذ لا يتصور الخيالي إلا موضوعا بعده؛ والفكري والعقلي يكونان بعدهما ؛ فبالحرى أن تكون الزجاجة كالمحل للمصباح والمشكاة كالمحل للزجاجة: فيكون المصباح في زجاجة، والزجاجة في مشكاة.

وإذ كانت هذه كلها أنواراً بعضها فوق بعض فبالحرىّ أن تكون نورا هذا المثال إنما يتضح لقلوب المؤمنين أو لقلوب الأنبياء والأولياء لا لقلوب الكفار: فإن النور يراد للهداية.

فالمصروف عن طريق الهدى باطل وظلمة، بل أشد من الظلمة: لأن الظلمة لا تهدي إلى الباطل كما لا تهدي إلى الحق. وعقول الكفار انتكست، وكذلك سائر إدراكاتهم وتعاونت على الإضلال في حقهم. فمثالهم كرجل في)بَحرٍ لُّجِّيٍّ يَغشاهُ مَوجٌ مِّن فَوقِهِ مَوجٌ مِّن فَوقِهِ سَحابٌ ظُلُماتٌ بَعضَها فَوقَ بَعضٍ(والبحر واللّجيّ هو الدنيا بما فيها من الأخطار المهلكة والأشغال المردية والكدورات المعمية.

(234/549)

والموج الأول موج الشهوات الداعية إلى الصفات البهيمية والإشتغال باللذات الحسية وقضاء الأوطار الدنيوية حتى إنهم يأكلون ويتمتعون كما تأكل الأنعام . وبالحرىّ أن يكون هذا الموج مظلما لأن حب الشيء يعمى ويصم . والموج الثاني موج الصفات السبعية الباعثة على الغضب والعداوة والبغضاء والحقد والحسد والمباهاة والتفاخر والتكاثر . وبالحري أن يكون مظلما لأن الغضب غول العقل . وبالحري أن يكون هو الموج الأعلى : لأن الغضب في الأكثر مستول على الشهوات حتى إذا هاج أذهل عن الشهوات وأغفل عن اللذات المشتهاة . وأما الشهوة فلا تقاوم الغضب الهائج أصلا .

وأما السحاب فهو الاعتقادات الخبيثة ، والظنون الكاذبة ، والخيالات الفاسدة التي صارت حجبا بين الكافرين وبين الإيمان ومعرفة الحق والاستضاءة بنور شمس القرآن والعقل : فإن خاصية السحاب أن يحجب إشراق نور الشمس .

وإذا كانت هذه كلها مظلمة فبالحري أن تكون ظلمات بعضها فوق بعض . وإذا كانت هذه الظلمات تحجب عن معرفة الأشياء القريبة فضلا عن البعيدة ، ولذلك حجب الكفار عن معرفة عجائب أحوال النبي عليه السلام مع قرب متناوله وظهوره بأدنى تأمل ، فبالحرى أن يعبر عنه بأنه لو أخرج يده لم يكد يراها . وإذا كان منبع الأنوار كلها من النور الأول الحق كما سبق بيانه فبالحرى أن يعتقد كل موحد أن)وَمَن لَّم يَجعَلِ اللهُ لَهُ نوراً فَما لَهُ مِن نّورٍ(فيكفيك هذا القدر من أسرار هذه الآية فاقنع به .

الفصل الثالث

في معنى قوله عليه السلام

إن لله سبعين حجابا من نور وظلمة

لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه كل من أدركه بصره

وفي بعض الروايات سبعمائة ، وفي بعضها سبعين ألفا : فأقول: إن الله تعالى متجل في ذاته لذاته ، ويكون الحجاب بالإضافة إلى محجوب لا محالة ؛ وإن المحجوبين من الخلق ثلاثة أقسام: منهم من حجب بمجرد الظلمة ؛ ومنهم من حجب بالنور المحض ؛ ومنهم من حجب بنور مقرون بظلمة .

(235/549)

وأصناف هذه الأقسام كثيرة أتحقق كثرتها ، ويمكنني أن أتكلف حصرها في سبعين ، لكن لا أثق بما يلوح لي من تحديد وحصر ، إذ لا أدري أنه المراد بالحديث أم لا . أما الحصر إلى سبعمائة وسبعين ألفا فذلك لا يستقل به إلا القوة النبوية ، مع أن ظاهر ظني أن هذه الأعداد مذكورة للتكثير لا للتحديد ؛ وقد تجري العادة بذكر عدد ولا يراد به الحصر بل التكثير . والله أعلم بتحقيق ذلك ، فذلك خارج عن الوسع . وإنما الذي يمكنني الآن أن أعرفك هذه

الأقسام وبعض أصناف كل قسم فأقول:

القسم الأول

وهم المحجوبون بمحض الظلمة ، وهم الملحدة الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر . وهم الذين استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة لأنهم لا يؤمنون بالآخرة أصلا وهؤلاء صنفان: صنف تشوف إلى طلب سبب لهذا العالم فأحاله إلى الطبع: والطبع عبارة عن صفة مركوزة في الأجسام حالة فيها ؛ وهي مظلمة إذ ليس لها معرفة وإدراك ولا خبر لها من نفسها ولا مما يصدر منها ؛ وليس لها نور يدرك بالبصر الظاهر أيضا .

والصنف الثاني: هم الذين شغلوا بأنفسهم ولم يفرغوا لطلب السبب أيضا ، بل عاشوا عيش البهائم ، فكان حجبهم نفوسهم الكدرة ، وشهواتهم المظلمة ، ولا ظلمة أشد من الهوى والنفس: ولذلك قال الله تعالى: (أَفَرَأَيتَ مَنِ اتَخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :)الهوى أبغض إله عبد في الأرض(وهؤلاء انقسموا فرقا : فرقة زعمت أن غاية الطلب في الدنيا هي قضاء الأوطار ونيل الشهوات وإدراك اللذات البهيمية من منكح ومطعم وملبس . فهؤلاء عبيد اللذة ، يعبدونها ويطلبونها ويعتقدون أن نيلها غاية السعادات: رضوا لأنفسهم أن يكونوا بمنزلة البهائم بل أخس منها . وأي ظلمة أشد من ذلك فقد حجب هؤلاء بمحض الظلمة .

وفرقة رأت أن غاية السعادات هي الغلبة والاستيلاء والقتل والسبى والأسر ، وهذا مذهب الأعراب والأكراد وكثير من الحمقى ، وهم محجوبون بظلمة الصفات السبعية لغلبتها عليهم وكون إدراكها مقصود أعظم اللذات . وهؤلاء قنعوا بأن يكونوا بمنزلة السباع بل أخس .

وفرقة ثالثة رأت أن غاية السعادات كثرة المال واتساع اليسار لأن المال هو آلة قضاء الشهوات كلها ، وبه يحصل للإنسان الاقتدار على قضاء الأوطار . فهؤلاء همتهم جمع المال واستكثار الضياع والعقار والخيل المسومة والأنعام والحرث وكنز الدنانير تحت الأرض . فترى الواحد يجتهد طول عمره يركب الأخطار في البوادي والأسفار والبحار ويجمع الأموال ويشح بها على نفسه فضلا عن غيره: وهم المرادون بقوله عليه السلام:)تعس عبد الدراهم ، تعس عبد الدنانير(. واي ظلمة أعظم مما يلبس على الإنسان ؟ إن الذهب والفضة حجران لا يرادان لأعيانهما . وهي إذا لم يقض بها الأوطار ولم تنفق فهي والحصباء بمثابة ، والحصباء بمثابتها .

وفرقة رابعة ترقت عن جهالة هؤلاء وتعاقلت ، وزعمت أن أعظم السعادات في اتساع الجاه والصيت وانتشار الذكر وكثرة الأتباع ونفوذ الأمر المطاع . فتراها لا همّ لها إلا المراءاة وعمارة مطارح أبصار الناظرين حتى إن الواحد قد يجوع في بيته ويحتمل الضر ويصرف

ماله إلى ثياب يتجمل بها عند خروجه كي لا ينظر إليه بعين الحقارة . وأصناف هؤلاء لا يحصون ، وكلهم محجوبون عن الله تعالى بمحض الظلمة ، وهي نفوسهم المظلمة .

(237/549)

ولا معنى لذكر آحاد الفرق بعد وقوع التنبيه على الأجناس . ويدخل في جملة هؤلاء جماعة يقولون بلسانهم)لا إله إلا الله(، لكن ربما حملهم على ذلك خوف أو استظهار بالمسلمين وتجمل بهم أو استمداد من مالهم ؛ أو لأجل التعصب لنصرة مذهب الآباء . فهؤلاء إذا لم تحملهم هذه الكلمة على العمل الصالح فلا تخرجهم الكلمة من الظلمات إلى النور ، بل (أَولِياؤُهُمُ الطاغوتُ يُخرِجُونَهُم مِّنَ النورِ إِلى الظُّلُماتِ) . أما من أثرت فيه الكلمة بحيث ساءته سيئته وسرته حسنته فهو خارج عن محض الظلمة وإن كان كثيرا المعصية .

القسم الثاني

طائفة حجبوا بنور مقرون بظلمة وهم ثلاثة أصناف: صنف منشأ ظلمتهم من الحس ، وصنف منشأ ظلمتهم من الخيال ، وصنف منشأ ظلمتهم من مقايسات عقلية فاسدة .

الصنف الأول المحجوبون بالظلمة الحسية وهم طوائف لا يخلو واحد منهم عن مجاوزة الالتفات إلى نفسه وعن التأله والتشوف إلى معرفة ربه . وأول درجاتهم عبدة الأوثان

وآخرهم الثنوية ، وبينهما درجات . فالطائفة الأولى عبدة الأوثان: علموا على الجملة أن لهم ربا يلزمهم إيثاره على نفوسهم المظلمة ، واعتقدوا أن ربهم أعز من كل شيء ولكن حجبتهم ظلمة الحس عن أن يجاوزوا العالم المحسوس فاتخذوا من أنفس الجواهر كالذهب والفضة والياقوت أشخاصا مصورة بأحسن الصور واتخذوها آلهة . فهؤلاء محجوبون بنور العزة والجمال ، والعزة والجمال من صفات الله وأنواره ، ولكنهم ألصقوها بالأجسام المحسوسة وصدهم عن ذلك ظلمة الحس ، فإن الحس ظلمة بالإضافة إلى العالم الروحاني العقلي كما سبق .

(238/549)

الطائفة الثانية جماعة من أقاصي الترك ليس لهم ملة ولا شريعة يعتقدون أن لهم ربا وأنه أجمل الأشياء ، فإذا رأوا إنسانا في غاية الجمال أو شجرا أو فرسا أو غير ذلك سجدوا له وقالوا إنه ربنا . فهؤلاء محجوبون بنور الجمال مع ظلمة الحس ، وهم أدخل في ملاحظة النور من عبدة الأوثان لأنهم يعبدون الجمال المطلق دون الشخص الخاص فلا يخصصونه بشيء ؛ ثم يعبدون الجمال المطبوع لا المصنوع من جهتهم وبأيديهم .

وطائفة ثالثة قالوا ينبغي أن يكون ربنا نورانيا في ذاته بهيا في صورته ، ذا سلطان في نفسه ،

مهيبا في حضرته ، لا يطاق القرب منه ، ولكن ينبغي أن يكون محسوسا ؛ إذ لا معنى لغير المحسوس عندهم . ثم وجدوا النار بهذه الصفة فعبدوها واتخذوها ربا . فهؤلاء محجوبون بنور السلطنة والبهاء : وكل ذلك من أنوار الله تعالى .

وطائفة رابعة زعموا أن النار نستولى عليها نحن بالإشعال والإطفاء ، فهي تحت تصرفنا فلا تصلح للإلهية ، بل ما يكون بهذه الصفات ولم يكن تحت تصرفنا ثم نكون نحن تحت تصرفه ويكون مع ذلك موصوفا بالعلو والارتفاع . ثم كان المشهور فيما بينهم علم النجوم وإضافة التأثيرات إليها . فمنهم من عبد الشّعرى ، ومنهم من عبد المشتري إلى غير ذلك من الكواكب بحسب ما اعتقدوه في النجوم من كثرة التأثيرات . فهؤلاء محجوبون بنور العلو والإشراف والإستيلاء ، وهي من أنوار الله تعالى . وطائفة خامسة ساعدت هؤلاء في المأخذ ولكن قالت لا ينبغي أن يكون ربنا موسوما بالصغر والكبر بالإضافة إلى الجواهر النورانية ، بل ينبغي أن يكون أكبرها ، فعبدوا الشمس وقالوا هي أكبر . فهؤلاء محجوبون بنور الكبرياء مع بقية الأنوار مقرونا بظلمة الحس .

(239/549)

وطائفة سادسة ترقوا عن هؤلاء فقالوا: النور كله لا ينفرد به الشمس بل لغيرها أنوار، ولا ينبغي للرب شريك في نورانيته فعبدوا النور المطلق الجامع لجميع أنوار العالم وزعموا أنه رب العالم والخيرات كلها منسوبة إليه. ثم رأوا في العالم شرورا فلم يستحسنوا إضافتها إلى ربهم تنزيها له عن الشر، فجعلوا بينه وبين الظلمة منازعة، وأحالوا العالم إلى النور والظلمة، وربما سموهما)يزدان(و)أهرمن(، وهم الثنوية. فيكفيك هذا القدر تنبيها على هذا الصنف، فهم أكثر من ذلك.

الصنف الثاني المحجوبون ببعض الأنوار مقرونا بظلمة الخيال، وهم الذين جاوزوا الحس، وأثبتوا وراء المحسوسات أمرا، لكن لم يمكنهم مجاوزة الخيال، فعبدوا موجودا قاعدا على العرش. وأخسهم رتبة المجسمة ثم أصناف الكرامية بأجمعهم. ولا يمكنني شرح مقالاتهم ومذاهبهم فلا فائدة في التكثير. لكن أرفعهم درجة من نفى الجسمية وجميع عوارضها الا الجهة المخصوصة بجهة فوق: لأن الذي لا ينسب إلى الجهات ولا يوصف بأنه خارج العالم ولا داخله لم يكن عندهم موجودا إذ لم يكن متخيلا. ولم يدركوا أن أول درجات المعقولات تجاوز النسبة إلى الجهات.

الصنف الثالث المحجوبون بالأنوار الإلهية مقرونة بمقايسات عقلية فاسدة مظلمة فعبدوا إلها سميعا بصيرا متكلما عالما قادرا مريدا حيا، منزها عن الجهات، لكن فهموا هذه الصفات على حسب مناسبة صفاتهم.

وربما صرّح بعضهم فقال:)كلامه صوت وحرف ككلامنا(وربما ترقي بعضهم فقال:)لا بل هو كحديث نفسنا ولا هو صوت ولا حرف(وكذلك إذا طولبوا بحقيقة السمع والبصر والحياة رجعوا إلى التشبيه من حيث المعنى وإن أنكروها باللفظ إذ لم يدركوا أصلا معاني هذه الإطلاقات في حق الله تعالى . ولذلك قالوا في إرادته إنها حادثة مثل إرادتنا . وإنها طلب وقصد مثل قصدنا . وهذه مذاهب مشهورة فلا حاجة إلى تفصيلها . فهؤلاء محجوبون بجملة من الأنوار مع ظلمة المقايسات العقلية . فهؤلاء أصناف القسم الثاني الذين حجبوا بنور مقرون بظلمة . وبالله التوفيق .

القسم الثالث

ثم المحجوبون بمحض الأنوار وهم أصناف ولا يمكن إحصاؤهم: فأشير إلى ثلاثة أصناف منهم .

الأول – طائفة عرفوا معاني الصفات تحقيقا وأدركوا أن إطلاق اسم الكلام والإرادة والقدرة والعلم وغيرها على صفاته ليس مثل إطلاقه على البشر ؛ فتحاشوا عن تعريفه بهذه الصفات وعرفوه بالإضافة إلى المخلوقات كما عرّف موسى عليه السلام في جواب

قول فرعون:)وَما رَبُّ العالَمينَ(فقالوا إن الرب المقدس المنزه عن معاني هذه الصفات هو محرك السموات ومدبرها (.

والصنف الثاني ترقوا عن هؤلاء من حيث ظهر لهم أن في السموات كثرة ، وأن محرك كل سماء خاصة موجود آخر يسمى ملكا ، وفيهم كثرة ، وإنما نسبتهم إلى الأنوار الإلهية نسبة الكواكب . ثم لاح لهم أن هذه السموات في ضمن فلك آخر يتحرك الجميع بحركته في اليوم والليلة مرة فالرب هو المحرك للجرم الأقصى المنطوي على الأفلاك كلها إذ الكثرة منفية عنه .

(241/549)

والصنف الثالث ترقوا عن هؤلاء وقالوا : إن تحريك الأجسام بطريق المباشرة ينبغي أن يكون خدمة لرب العالمين وعبادة له وطاعة من عبد من عباده يسمى ملكا : نسبته إلى الأنوار الإلهية المحضة نسبة القمر في الأنوار المحسوسة . فزعموا أن الرب هو المطاع من جهة هذا المحرك ؛ ويكون الرب تعالى محركا للكل بطريق الأمر لا بطريق المباشرة . ثم في تقسيم ذلك الأمر وماهيته غموض يقصر عنه أكثر الأفهام ولا يحتمله هذا الكتاب .

فهؤلاء الأصناف كلهم محجوبون بالأنوار المحضة . وإنما الواصلون صنف رابع تجلى لهم

أيضا أن هذا)المطاع(موصوف بصفة تنافي الوحدانية المحضة والكمال البالغ لسر لا يحتمل هذا الكتاب كشفه: وأن نسبة هذا)المطاع(نسبة الشمس في الأنوار . فتوجهوا من الذي يحرك السموات ومن الذي يحرك الجرم الأقصى ، ومن الذي أمر بتحريكها إلى الذي فطر السموات وفطر الجرم الأقصى وفطر الآمر بتحريكها ، فوصلوا إلى موجود منزه عن كل ما أدركه بصر من قبلهم فأحرقت سبحات وجهه الأول الأعلى جميع ما أدركه بصر الناظرين وبصيرتهم فإذا وجدوه مقدسا منزها عن جميع ما وصفناه من قبل .

ثم هؤلاء انقسموا : فمنهم من احترق منه جميع ما أدركه بصره وانمحق وتلاشى ، لكن بقي هو ملاحظا للجمال والقدس وملاحظا ذاته في جماله الذي ناله بالوصول إلى الحضرة الإلهية . فانمحقت فيه المبصرات دون المبصر . وجاوز هؤلاء طائفة هم خواص الخواص فأحرقتهم سبحات وجهه وغشيهم سلطان الجلال فانمحقوا وتلاشوا في ذاتهم ولم يبق لهم لحظ إلى أنفسهم لفنائهم عن أنفسهم . ولم يبق إلا الواحد الحق . وصار معنى قوله: (كل شيء هالك الا وجهه(لهم ذوقا وحالا .

وقد أشرنا إلى ذلك في الفصل الأول ، وذكرنا أنهم كيف أطلقوا الاتحاد وكيف ظنوه . فهذه نهاية الواصلين .

ومنهم من لم يتدرج في الترقي والعروج على التفصيل الذي ذكرناه ولم يطل عليهم الطريق فسبقوا في أول وهلة إلى معرفة القدس وتنزيه الربوبية عن كل ما يجب تنزيهه عنه ، فغلب عليهم أولا ما غلب على الآخرين آخراً ، وهجم عليهم التجلي دفعة فأحرقت سبحات وجهه جميع ما يمكن أن يدركه بصر حسي وبصيرة عقلية . ويشبه أن يكون الأول طريق)الخليل(والثاني طريق الحبيب صلى الله عليه وسلم ، والله أعلم بأسرار أقدامهما وأنوار مقامهما .

فهذه إشارة إلى أصناف المحجوبين ، ولا يبعد أن يبلغ عدهم إذا فصلت المقالات وتتبع حجب السالكين سبعين ألفا . ولكن إذا فتشت لا تجد واحدا منها خارجا عن الأقسام التي حصرناها : فإنهم إنما يحجبون بصفاتهم البشرية ، أو بالحس أو بالخيال أو بمقايسة العقل ، أو بالنور المحض كما سبق .

" خاتمة "

فهذا ما حضرني في جواب هذه الأسئلة ، مع أن السؤال صادفني والفكر متقسم ، والخاطر متشعب ، والهم إلى غيرها هذا الفن منصرف ، ومقترحي عليه أن يسأل الله تعالى العفو عما طغى به القلم ، أو زلّت به القدم ؛ فإن خوض غمرة الأسرار الإلهية خطير ،

واستشفاف الأنوار الإلهية من وراء الحجب البشرية عسير غير يسير . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مشكاة الأنوار صـ 186.115 ﴾

(243/549)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الخمسون بعد الخمسمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/550)

الجزء الخمسون بعد الخمسمائة

من الآية ﴿ 36 ﴾ من سورة النور

وحتى الآية ﴿ 40 ﴾ من نفس السورة

(4/550)

قوله تعالى ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (36) رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ (37) لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (38) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان كأنه قيل : فأي شيء يكون هذه المشكاة ؟ قال شافياً على هذا السؤال : ﴿ في

بيوت ﴾ أي في جدران بيوت ، فجمع دلالة على أن المراد بالمشكاة الجنس لا الواحد ، وفي وحدتها ووحدة آلات النور إشارة إلى عزته جداً ﴿ أذن الله ﴾ أي مكن بجلاله فأباح وندب وأوجب ﴿ أن ترفع ﴾ حساً في البناء ، ومعنى بإخلاصها للعمل الصالح ، من كل رافع أذن له سبحانه في ذلك ، فعلى المرء إذا دخلها أن يتحصن من العدو بما رواه أبو دواد عن عبد الله بن عمرو ـ رضى الله عنهما ـ عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه كان إذا دخل المسجد قال : " أعوذ بالله العظيم ، وبوجهه الكريم ، وسلطانه القديم ، من الشيطان الرجيم " قال عقبة بن مسلم : فإذا قال ذلك قال الشيطان : حفظ مني سائر يوم .

﴿ ويذكر ﴾ من كل ذاكر أذن له سبحانه ﴿ فيها اسمه ﴾ أي ذكراً صافياً عن شوب ، وخالصاً عن غش ﴿ يسبح ﴾ أي يصلي وينزه ﴿ له ﴾ أي خاصة ﴿ فيها بالغدو ﴾ أي الإبكار ، بصلاة الصبح ﴿ والآصال ﴾ أي العشيات ، ببقية الصلوات ، فيفتحون أعمالهم ويختمونها بذكره ليحفظوا فيما بين ذلك ويبارك لهم فيما يتقلبون فيه ، وجمع الأصيل لتحقق أن المراد الظهر والعصر والمغرب والعشاء ؛ قال البغوي : لأن اسم الأصيل يجمعها .

﴿ رجال ﴾ أيّ رجال ﴿ لا تلهيهم تجارة ﴾ أي ببيع أو شرى أو غيرهما ، يظهر لهم فيها ربح .

ولما كان الإنسان قد يضطر إلى الخروج بالبيع عن بعض ما يملك للاقتيات بثمنه أو التبلغ به إلى بعض المهمات التي لا وصول له إليها إلا به ، أو بتحصيل ما لا يملك كذلك مع أن البيع في التجارة أيضاً هو الطلبة الكلية لأنه موضع تحقق الربح الذي لا صبر عنه ، قال : ﴿ ولا بيع ﴾ أي وإن لم يكن على وجه التجارة ، والبيع يطلق بالاشتراك على التحصيل الذي هو الشرى وعلى الإزالة ﴿ عن ذكر الله ﴾ أي الذي له الجلال والإكرام مطلقاً بصلاة وغيرها ، فهم كل وقت في شهود ومراقبة لمن تعرف إليهم بصفات الكمال ﴿ و ﴾ لا يلهيهم ذلك عن ﴿ إقام الصلاة ﴾ التي هي طهرة الأرواح ، أعادها بعد ذكرها بالتسبيح تصريحاً بها تأكيداً لها وحثاً على حفظ وقتها لأنه من جملة مقوماتها وكذا جميع حدودها ولو بأوجز ما يكون من أدنى الكمال – بما أشار إليه حرف التاء إشعاراً بأن هذا المدح لا يتوقف على أنهى الكمال ﴿ و ﴾ لا عن ﴿ إيتاء الزكاة ﴾ التي هي زكاء الأشباح ونماؤها ، وخص الرجال مع أن حضور النساء المساجد سنة شهيرة ، إشارة إلى أن صلاتهن في بيوتهن أفضل لما روى أبو داود في سننه وابن خزيمة في صحيحه عن عبد الله بن مسعود ـ رضى الله عنه ـ عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال :

" صلاة المرأة في بيتها أفضل من صلاتها في حجرتها ، وصلاتها في مخدعها أفضل من صلاتها في بيتها " والمخدع : الخزانة .

وللإمام أحمد والطبراني وابن خزيمة والحاكم عن أم سلمة ـ رضى الله عنه ـ ا أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : " خير مساجد النساء قعر بيوتهن " ولأحمد وابن خزيمة وابن حبان في صحيحيهما عن أم حميدة امرأة أبي حميد الساعدي ـ رضى الله عنهما ـ أنها قالت : يا رسول الله ! إني أحب الصلاة معك ، قال : " قد علمت أنك تحبين الصلاة معي ، وصلاتك في بيتك خير من صلاتك في حجرتك ، وصلاتك في حجرتك خير من صلاتك في دارك ، وصلاتك في دارك خير من صلاتك في مسجد قومك ، وصلاتك في مسجد قومك خير من صلاتك في مسجدي " ، قال : فأمرت فبني لها مسجد في أقصى بيت من بيتها وأظلمه ، فكانت تصلي فيه حتى لقيت الله عز وجل .

ولما وصف الرجال المذكورين ما وصفهم به ، ذكر علة فعلهم لذلك زيادة في مدحهم فقال : ﴿ يخافون يوماً ﴾ وهو يوم القيامة ، هو بحيث ﴿ تتقلب فيه ﴾ أي لشدة هوله ، تقلباً ظاهراً – بما اشار إليه إثبات التاءين ﴿ القلوب والأبصار ﴾ أي بين طمع في النجاة ، وحذر من الهلاك ، ويمكن أن يقال : المشاكي – والله أعلم – هي المساجد ، والزجاج هي الرجال ، والمصابيح هي القلوب ، وتلألؤها ما تشتمل عليه من المعاني الحاملة على الذكر ،

والشجرة الموصوفة هي مثال الأبدان ، التي صفاها الله من الأدران ، وطبعها على الاستقامة ، والزيت مثال لما وضع سبحانه فيها من جميل الأسرار ، وقد ورد في بعض الأخبار أن المساجد لأهل السماوات كالنجوم لأهل الأرض ، وفي معجم الطبراني في الأوسط عن ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ : "كمشكاة" قال : جوف محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، والزجاجة قلبه ، والمصباح النور الذي في قلبه ، والشجرة إبراهيم عليه السلام ، ﴿ لا شرقية ولا غربية ﴾ : لا يهودي ولا نصراني .

(7/550)

ولما بين تعالى أفعال هؤلاء الرجال التي أقبلوا بها عليه ، وأعرضوا عما عداه ، بين غايتهم فيها فقال : ﴿ ليجزيهم ﴾ أي يفعلون ذلك ليجزيهم ﴿ الله ﴾ أي في دار كرامته بعد البعث بعظمته وجلاله ، وكرمه .

وجماله ﴿ أحسن ما عملوا ﴾ أي جزاءه .

ويغفر لهم سيئه ﴿ ويزيدهم من فضله ﴾ على العدل من الجزاء ما لم يستحقوه – كما هي عادة أهل الكرم .

ولما كان التقدير : فإن الله لجلاله ، وعظمته وكماله ، لا يرضى أن يقتصر في جزاء المحسن

على ما يستحقه فقط ، عطف عليه بياناً لأن قدرته وعظمته لا حد لها قولَه : ﴿ والله ﴾ أي الذي لا كفوء له فلا اعتراض عليه ﴿ يرزق من يشاء ﴾ .

ولما كان المعنى : رزقاً يفوق الحد ، ويفوت العد ، عبر عنه بقوله : ﴿ بغير حساب ﴾ فهو كناية عن السعة ، ويجوز أن يكون مع السعة التوفيق ، فيكون بشارة بنفي الحساب في الآخرة أيضاً أصلاً ورأساً ، لأن ذلك المرزوق لم يعمل ما فيه درك عليه فلا يحاسب ، أو يحاسب ولا يعاقب ؛ فيكون المراد بنفي الحساب نفي عسره وعقابه ، ويجوز أن يزاد الرزق كفافاً ، وقد ورد أنه لا حساب فيه ؛ روى ابن كثير من عند ابن أبي حاتم بسنده عن أسماء بنت يزيد ـ رضى الله عنها ـ قالت : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ :

" إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة جاء منادٍ فنادى بصوت يسمع الخلائق : سيعلم أهل الجمع من أولى بالكرم ، ليقم الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ، فيقومون وهم قليل ، ثم يحاسب سائر الخلائق " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 266 ـ 268 ﴾

(8/550)

فصل

قال الفخر :

﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ ﴾

اعلم أن في الآية مسائل :

المسألة الأولى :

(9/550)

قوله تعالى : ﴿ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ الله ﴾ يقتضي محذوفاً يكون فيها وذكروا فيه وجوه : أحدها : أن التقدير كمشكاة فيها مصباح في بيوت أذن الله وهو اختيار كثير من المحققين ، اعترض أبو مسلم بن بحر الأصفهاني عليه من وجهين : الأول : أن المقصود من ذكر المصباح المثل وكون المصباح في بيوت أذن الله لا يزيد في هذا المقصود لأن ذلك لا يزيد المصباح إنارة وإضاءة الثاني : أن ما تقدم ذكره فيه وجوه تقتضي كونه واحداً كقوله : ﴿ كَمِشْكَاةٍ ﴾ وقوله : ﴿ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾ وقوله : ﴿ فِي زُجَاجَةٍ ﴾ وقوله : ﴿ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ ﴾ [النور : 35] ولفظ البيوت جمع ولا يصح كون هذا الواحد في كل البيوت والجواب عن الأول أن المصباح الموضوع في الزجاجة الصافية إذا كان في المساجد كان أعظم وأضخم فكان

أضوأ ، فكان التمثيل به أتم وأكمل وعن الثاني : أنه لما كان القصد بالمثل هو الذي له هذا الوصف فيدخل تحته كل كمشكاة فيها مصباح في زجاجة تتوقد من الزيت ، وتكون الفائدة في ذلك أن ضوأها يظهر في هذه البيوت بالليالي عند الحاجة إلى عبادة الله تعالى ، ولو أن رجلاً قال الذي يصلح لخدمتي رجل يرجع إلى علم وكفاية وقناعة يلتزم بيته لكان وإن ذكره بلفظ الواحد فالمراد النوع فكذا ما ذكره الله سبحانه في هذه الآية وثانيها : التقدير توقد من شجرة مباركة في بيوت أذن الله أن ترفع وثالثها : وهو قول أبي مسلم أنه راجع إلى قوله : ﴿ وَمَثَلاً مِّنَ الذين خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ [النور : 34] أي ومثلاً من الذين خلوا من قبلكم في بيوت أذن الله أن ترفع ، ويكون المراد بالذين خلوا الأنبياء والمؤمنين والبيوت المساجد ، وقد اقتص الله أخبار الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وذكر أماكنهم فسماها محاريب (1) بقوله : ﴿ إِذْ تَسَوَّرُواْ المحراب ﴾ [ص : 21] و ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا المحراب ﴾ [آل عمران : 37] فيقول : ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات ، وأنزلنا

---

(1) ومن تسمية الله تعالى للمساجد محاريب قوله تعالى في سورة سبأ [13] يَعْمَلُونَ لَهُ ما يَشاءُ مِنْ مَحارِيبَ وَتَماثِيلَ الآية .

أقاصيص من بعث قبلكم من الأنبياء والمؤمنين في بيوت أذن الله أن ترفع ورابعها : قول الجبائي إنه كلام مستأنف لا تعلق له بما تقدم والتقدير صلوا في بيوت أذن الله أن ترفع وخامسها : وهو قول الفراء والزجاج إنه لا حذف في الآية بل فيه تقديم وتأخير كأنه قال يسبح في بيوت أذن الله أن ترفع رجال صفتهم كيت وكيت ، وأما قول أبي مسلم فقد اعترض عليه القاضي من وجهين : الأول : أن قوله : ﴿ وَمَثَلاً مِّنَ الذين خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ [النور : 34] المراد منه خلا من المكذبين للرسل لتعلقه بما تقدم من الإكراه على الزنا ابتغاء للدنيا فلا يليق ذلك بوصف هذه البيوت لأنها بيوت أذن أن يذكر فيها اسمه الثاني : أن هذه الآية صارت منقطعة عن تلك الآية بما تخلل بينهما من قوله تعالى :

﴿ الله نُورُ السموات والأرض ﴾ [النور : 35] وأما قول الجبائي فقيل الإضمار لا يجوز المصير إليه إلا عند الضرورة وعلى التأويل الذي ذكره الفراء والزجاج لا حاجة إليه فلا يجوز المصير إليه فإن قيل على قول الزجاج يتوجه عليه إشكال أيضاً لأن على قوله يصير المعنى في بيوت أذن الله يسبح له فيها فيكون قوله فيها تكراراً من غير فائدة ، فلم قلتم إن تحمل هذه الزيادة أولى من تحمل مثل ذلك النقصان ؟ قلنا الزيادة لأجل التأكيد كثيرة فكان المصير إليها أولى .

المسألة الثانية :

أكثر المفسرين قالوا المراد من قوله : ﴿ فِى بُيُوتٍ ﴾ المساجد وعن عكرمة ﴿ فِى بُيُوتٍ ﴾ قال هي البيوت كلها والأول أولى لوجهين : الأول : أن في البيوت ما لا يمكن أن يوصف بأن الله تعالى أذن أن ترفع الثاني : أنه تعالى وصفها بالذكر والتسبيح والصلاة وذلك لا يليق إلا بالمساجد ثم للقائلين بأن المراد هو المساجد قولان : أحدهما : أن المراد أربع مساجد الكعبة بناها إبراهيم وإسمعيل عليهما الصلاة والسلام ، وبيت المقدس بناه داود وسليمان عليهما الصلاة والسلام ، ومسجد المدينة بناه النبي صلى الله عليه وسلم ومسجد قباء الذي أسس على التقوى بناه النبي صلى الله عليه وسلم وعن الحسن هو بيت المقدس يسرج فيه عشرة آلاف قنديل والثاني : أن المراد هو جميع المساجد والأول ضعيف لأنه تخصيص بلا دليل فالأول حمل اللفظ على جميع المساجد ، قال ابن عباس رضي الله عنهما المساجد بيوت الله في الأرض وهي تضيء لأهل السماء كما تضيء النجوم لأهل الأرض .

المسألة الثالثة :

اختلفوا في المراد من قوله : ﴿ أَن تُرْفَعَ ﴾ على أقوال أحدها : المراد من رفعها بناؤها لقوله : ﴿ بناها * رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ﴾ [النازعات : 27 ، 28] وقوله : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إبراهيم القواعد مِنَ البيت ﴾ [البقرة : 127] وعن ابن عباس رضي الله عنهما هي

المساجد أمر الله أن تبنى وثانيها : ترفع أي تعظم وتطهر عن الأنجاس وعن اللغو من الأقوال عن الزجاج وثالثها : المراد مجموع الأمرين .

والقول الثاني أولى لأن قوله : ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَن تُرْفَعَ ﴾ ظاهره أنها كانت بيوتاً قبل الرفع فأذن الله أن ترفع .

المسألة الرابعة :

اختلفوا في المراد من قوله : ﴿ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسمه ﴾ فالقول الأول : أنه عام في كل ذكر والثاني : أن يتلى فيها كتابه عن ابن عباس والثالث : لا يتكلم فيها بما لا ينبغي والأول أولى لعموم اللفظ .

المسألة الخامسة :

(12/550)

قرأ ابن عامر وأبو بكر عن عاصم ﴿ يُسَبِّحُ ﴾ بفتح الباء والباقون بكسرها فعلى القراءة الأولى يكون القول ممتداً إلى آخر الظروف الثلاثة أعني له فيها بالغدو والآصال ، ثم قال الزجاج ﴿ رِجَالٌ ﴾ مرفوع لأنه لما قال ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا ﴾ فكأنه قيل من يسبح ؟ فقيل يسبح رجال .

المسألة السادسة :

اختلفوا في هذا التسبيح فالأكثرون حملوه على نفس الصلاة ، ثم اختلفوا فمنهم من حمله على كل الصلوات الخمس ومنهم من حمله على صلاتي الصبح والعصر فقال كانتا واجبتين في ابتداء الحال ثم زيد فيهما ، ومنهم من حمله على التسبيح الذي هو تنزيه الله تعالى عما لا يليق به في ذاته وفعله ، واحتج عليه بأن الصلاة والزكاة قد عطفهما على ذلك من حيث قال عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وهذا الوجه أظهر .

المسألة السابعة :

الآصال جمل أُصُل والأصُل جميع أصيل وهو العشي وإنما وجد الغدو لأنه في الأصل مصدر لا يجمع والأصيل اسم جمع ، قال صاحب "الكشاف" بالغدو أي بأوقات الغدو أي بالغدوات وقرىء ﴿ والإيصال ﴾ وهو الدخول في الأصيل يقال آصل كأعتم وأظهر ، قال ابن عباس رحمهما الله إن صلاة الضحى لفي كتاب الله تعالى مذكورة وتلا هذه الآية وروى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " ما من أحد يغدو ويروح إلى المسجد يؤثره على ما سواه إلا وله عند الله نزل يعد له في الجنة " وفي رواية سهل بن سعد مرفوعاً " من غدا إلى المسجد وراح ليعلم خيراً أو ليتعلمه كما كمثل المجاهد في سبيل الله يرجع غانماً "

المسألة الثامنة :

اختلفوا في قوله تعالى : ﴿ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ ﴾ فقال بعضهم نفى كونهم تجاراً وباعة أصلاً ، وقال بعضهم بل أثبتهم تجاراً وباعة وبين أنهم مع ذلك لا يشغلهم عنها شاغل من ضروب منافع التجارات ، وهذا قول الأكثرين ، قال الحسن أما والله إن كانوا ليتجرون ، ولكن إذا جاءت فرائض الله لم يلههم عنها شيء فقاموا بالصلاة والزكاة ، وعن سالم نظر إلى قوم من أهل السوق تركوا بياعاتهم وذهبوا إلى الصلاة فقال هم الذين قال تعالى فيهم : ﴿ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ ﴾ ، وعن ابن مسعود مثله ، واعلم أن هذا القول أولى من الأول ، لأنه لا يقال إن فلاناً لا تلهيه التجارة عن كيت وكيت إلا وهو تاجر ، وإن احتمل الوجه الأول وههنا سؤالات :

السؤال الأول : لما قال : ﴿ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ ﴾ دخل فيه البيع فلم أعاد ذكر البيع ؟ قلنا الجواب عنه من وجوه : الأول : أن التجارة جنس يدخل تحت أنواع الشراء والبيع إلا أنه سبحانه خص البيع بالذكر لأنه في الإلهاء أدخل ، لأن الربح الحاصل في البيع يقين ناجز ، والربح الحاصل في الشراء شك مستقبل الثاني : أن البيع يقتضي تبديل العرض بالنقد ، والشراء بالعكس والرغبة في تحصيل النقد أكثر من العكس الثالث : قال الفراء : التجارة لأهل الجلب ، يقال : اتجر فلان في كذا إذا جلبه من غير بلده ، والبيع ما باعه على يديه .

السؤال الثاني : لم خص الرجال بالذكر ؟ والجواب : لأن النساء لسن من أهل التجارات أو الجماعات .

المسألة التاسعة :

اختلفوا في المراد بذكر الله تعالى ، فقال قوم : المراد الثناء على الله تعالى والدعوات ، وقال آخرون : المراد الصلوات ، فإن قيل فما معنى قوله : ﴿ وإقام الصلاة ﴾ ؟ قلنا عنه جوابان : أحدهما : قال ابن عباس رضي الله عنهما المراد بإقام الصلاة إقامتها لمواقيتها والثاني : يجوز أن يكون قوله : ﴿ وإقام الصلاة ﴾ تفسيراً لذكر الله فهم يذكرون الله قبل الصلاة وفي الصلاة .

المسألة العاشرة :

(14/550)

قد ذكرنا في أول تفسير سورة البقرة (3) في قوله : ﴿ وَيُقِيمُونَ الصلاة ﴾ أن إقام الصلاة هو القيام بحقها على شروطها ، والوجه في حذف الهاء ما قاله الزجاج ، يقال أقمت الصلاة إقامة وكان الأصل إقواماً ، ولكن قلبت الواو ألفاً فاجتمع ألفان فحذفت إحداهما لالتقاء الساكنين فبقي أقمت الصلاة إقاماً ، فأدخلت الهاء عوضاً من المحذوف وقامت الإضافة

ههنا في التعويض مقام الهاء المحذوفة ، قال وهذا إجماع من النحويين .

المسألة الحادية عشرة :

اختلفوا في الصلاة فمنهم من قال هي الفرائض ، ومنهم من أدخل فيه النفل على ما حكيناه في صلاة الضحى عن ابن عباس ، والأول أقرب لأنه إلى التعريف أقرب وكذلك القول في الزكاة أن المراد المفروض لأنه المعروف في الشرع المسمى بذلك ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما المراد من الزكاة طاعة الله تعالى والإخلاص ، وكذا في قوله : ﴿ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بالصلاة والزكواة ﴾ [مريم : 55] وقوله : ﴿ مَا زكى مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ ﴾ [النور : 21] وقوله : ﴿ تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ﴾ [التوبة : 103] وهذا ضعيف لما تقدم ولأنه تعالى علق الزكاة بالإيتاء ، وهذا لا يحمل إلا على ما يعطى من حقوق المال .

المسألة الثانية عشرة :

أنه سبحانه بين أن هؤلاء الرجال وإن تعبدوا بذكر الله والطاعات فإنهم مع ذلك موصوفون بالوجل والخوف فقال : ﴿ يخافون يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ القلوب والأبصار ﴾ وذلك الخوف إنما كان لعلمهم بأنهم ما عبدوا الله حق عبادته .

(15/550)

واختلفوا في المراد بتقلب القلوب والأبصار على أقوال : فالقول الأول أن القلوب تضطرب من الهول والفزع وتشخص الأبصار لقوله : ﴿ وَإِذْ زَاغَتِ الأبصار وَبَلَغَتِ القلوب الحناجر ﴾ [الأحزاب : 10] الثاني : أنها تتغير أحوالها فتفقه القلوب بعد أن كانت مطبوعاً عليها لا تفقه وتبصر الأبصار بعد أن كانت لا تبصر ، فكأنهم انقلبوا من الشك إلى الظن ، ومن الظن إلى اليقين ، ومن اليقين إلى المعاينة ، لقوله : ﴿ وَبَدَا لَهُمْ مِّنَ الله مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ ﴾ [الزمر : 47] وقوله : ﴿ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هذا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءكَ ﴾ [ق : 22] ، الثالث : أن القلوب تتقلب في ذلك اليوم طمعاً في النجابة وحذراً من الهلاك والأبصار تنقلب من أي ناحية يؤمر بهم ، أمن ناحية اليمين أم من ناحية الشمال ؟ ومن أي ناحية يعطون كتابهم أمن قبل الإيمان أم من قبل الشمائل ؟ والمعتزلة لا يرضون بهذا التأويل ، فإنهم قالوا إن أهل الثواب لا خوف عليهم ألبتة في ذلك اليوم ، وأهل العقاب لا يرجون العفو ، لكنا بينا فساد هذا المذهب غير مرة الرابع : أن القلوب تزول عن أماكنها فتبلغ الحناجر ، والأبصار تصير زرقاً ، قال الضحاك : يحشر الكافر وبصره حديد وتزرق عيناه ثم يعمى ، ويتقلب القلب من الخوف حيث لا يجد مخلصاً حتى يقع في الحنجرة فهو قوله :

﴿ إِذِ القلوب لَدَى الحناجر كاظمين ﴾ [غافر : 18] ، الخامس : قال الجبائي المراد بتقلب القلوب والأبصار تغير هيئاتهما بسبب ما ينالها من العذاب ، فتكون مرة بهيئة ما

أنضج بالنار ومرة بهيئة ما احترق ، قال ويجوز أن يريد به تقلبها على جمر جهنم وهو معنى قوله تعالى : ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وأبصارهم كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [الأنعام : 110] .

المسألة الثالثة عشرة :

(16/550)

قوله : ﴿ لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ ﴾ أي يفعلون هذه القربات ليجزيهم الله ويثيبهم على أحسن ما عملوا ، وفيه وجوه : الأول : المراد بالأحسن الحسنات أجمع ، وهي الطاعات فرضها ونفلها ، قال مقاتل : إنما ذكر الأحسن تنبيهاً على أنه لا يجازيهم على مساوىء أعمالهم بل يغفرها لهم .

الثاني : أنه سبحانه يجزيهم جزاء أحسن ما عملوا على الواحد عشراً إلى سبعمائة الثالث : قال القاضي : المراد بذلك أن تكون الطاعات منهم مكفرة لمعاصيهم وإنما يجزيهم الله تعالى بأحسن الأعمال ، وهذا مستقيم على مذهبه في الإحباط والموازنة .

أما قوله تعالى : ﴿ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ﴾ فالمعنى أنه تعالى يجزيهم بأحسن الأعمال ولا يقتصر على قدر استحقاقهم بل يزيدهم من فضله على ما ذكره تعالى في سائر الآيات من التضعيف ، فإن قيل فهذا يدل على أن لفعل الطاعة أثراً في استحقاق الثواب ، لأنه تعالى

ميز الجزاء عن الفضل وأنتم لا تقولون بذلك ، فإن عندكم العبد لا يستحق على ربه شيئاً ، قلنا نحن نثبت الاستحقاق لكن بالوعد فذاك القدر هو المستحق والزائد عليه هو الفضل ثم قال : ﴿ واللهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ نبه به على كمال قدرته وكمال جوده ونفاذ مشيئته وسعة إحسانه ، فكان سبحانه لما وصفهم بالجد والاجتهاد في الطاعة ، ومع ذلك يكونون في نهاية الخوف ، فالحق سبحانه يعطيهم الثواب العظيم على طاعاتهم ، ويزيدهم الفضل الذي لا حد له في مقابلة خوفهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 24 صـ 7.3 ﴾

(17/550)

وقال الجصاص :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا ﴾ الْآيَةَ .

قِيلَ إنَّ مَعْنَاهُ أَنَّ الْمَصَابِيحَ الْمُقَدَّمَ ذِكْرُهَا فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ .

وَقِيلَ : (تُوقَدُ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ) .

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : (هَذِهِ الْبُيُوتُ هِيَ الْمَسَاجِدُ) ، وَكَذَلِكَ قَالَ الْحَسَنُ وَمُجَاهِدٌ .

وَقَالَ مُجَاهِدٌ : " أَنْ تُرْفَعَ مَعْنَاهُ تُرْفَعُ بِالْبِنَاءِ ، كَمَا قَالَ : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنْ الْبَيْتِ ﴾ " وَقَالَ : (أَنْ تُرْفَعَ أَنْ تَعْظُمَ بِذِكْرِهِ ؛ لِأَنَّهَا مَوَاضِعُ الصَّلَوَاتِ وَالذِّكْرِ) .

وَرَوَى ابْنُ أَبِي مُلَيْكَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ صَلَاةِ الضُّحَى فَقَالَ : (إنَّهَا لَفِي كِتَابِ اللَّهِ وَمَا يَغُوصُ عَلَيْهَا إلَّا غَوَّاصٌ) ثُمَّ قَرَأَ : ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ ﴾ .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ الْأَمْرَيْنِ جَمِيعًا مِنْ رَفْعِهَا بِالْبِنَاءِ وَمِنْ تَعْظِيمِهَا جَمِيعًا ؛ لِأَنَّهَا مَبْنِيَّةٌ لِذِكْرِ اللَّهِ وَالصَّلَاةِ ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ يَجِبُ تَنْزِيهُهَا مِنْ الْقُعُودِ فِيهَا لِأُمُورِ الدُّنْيَا مِثْلُ الْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ وَعَمَلِ الصِّنَاعَاتِ وَلَغْوِ الْحَدِيثِ الَّذِي لَا فَائِدَةَ فِيهِ وَالسَّفَهِ وَمَا جَرَى مَجْرَى ذَلِكَ .

(18/550)

وَقَدْ وَرَدَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ جَنِّبُوا مَسَاجِدَكُمْ صِبْيَانَكُمْ وَمَجَانِينَكُمْ وَرَفْعَ أَصْوَاتِكُمْ وَبَيْعَكُمْ وَشِرَاكُمْ وَإِقَامَةَ حُدُودِكُمْ وَجَمِّرُوهَا فِي جُمَعِكُمْ وَضَعُوا عَلَى أَبْوَابِهَا الْمَطَاهِرَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَالضَّحَّاكُ : (يُصَلَّى لَهُ فِيهَا بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ) .

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : (كُلُّ تَسْبِيحٍ فِي الْقُرْآنِ صَلَاةٌ) .

وقَوْله تَعَالَى : ﴿ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ .

رُوِيَ عَنْ الْحَسَنِ

فِي هَذِهِ الْآيَةِ : (وَاَللَّهِ كَانُوا يَتَبَايَعُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ، فَإِذَا حَضَرَ حَقٌّ مِنْ حُقُوقِ اللَّهِ بَدَءُوا بِحَقِّ اللَّهِ حَتَّى يَقْضُوهُ ثُمَّ عَادُوا إلَى تِجَارَتِهِمْ) .

وَعَنْ عَطَاءٍ قَالَ : (شُهُودُ الصَّلَاةِ الْمَكْتُوبَةِ) .

وَقَالَ مُجَاهِدٌ : ﴿ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ قَالَ : (عَنْ مَوَاقِيتِ الصَّلَاةِ) .

وَرَأَى ابْنُ مَسْعُودٍ أَقْوَامًا يَتَّجِرُونَ ، فَلَمَّا حَضَرَتْ الصَّلَاةُ قَامُوا إلَيْهَا ، قَالَ : " هَذَا مِنْ الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِمْ : ﴿ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(19/550)

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴾ .

فِيهَا ثَلَاثُ مَسَائِلَ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : اخْتُلِفَ فِي الْبُيُوتِ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْوَالٍ : الْأَوَّلُ : أَنَّهَا الْمَسَاجِدُ ؛ وَهُوَ قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ ، وَجَمَاعَةٍ .

الثَّانِي : أَنَّهَا بَيْتُ الْمَقْدِسِ ؛ قَالَهُ الْحَسَنُ .

الثَّالِثُ : أَنَّهَا سَائِرُ الْبُيُوتِ ؛ قَالَهُ عِكْرِمَةُ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : قَوْلُهُ : (تَرْفَعُ) : فِيهَا ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ : الْأَوَّلُ : تُبْنَى ، كَمَا قَالَ : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنْ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ ﴾ .

قَالَهُ مُجَاهِدٌ .

الثَّانِي : تُطَهَّرُ مِنْ الْأَنْجَاسِ وَالْأَقْذَارِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَطَهِّرْ بَيْتِي ﴾ .

الثَّالِثُ : أَنْ تُعَظَّمَ ؛ قَالَهُ الْحَسَنُ .

فَأَمَّا مَنْ قَالَ : إنَّ مَعْنَاهَا تُبْنَى فَهُوَ مُتَمَعِّنٌ ، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ مَنْ بَنَى لِلَّهِ مَسْجِدًا وَلَوْ مِثْلَ مَفْحَصِ قَطَاةٍ بَنَى اللَّهُ لَهُ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ ﴾ .

وَمَنْ قَالَ : إنَّهَا تُطَهَّرُ مِنْ الْأَقْذَارِ وَالْأَنْجَاسِ فَذَلِكَ كَقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ إنَّ الْمَسْجِدَ لَيَنْزَوِي مِنْ النَّجَاسَةِ كَمَا تَنْزَوِي الْجِلْدَةُ مِنْ النَّارِ ﴾ .

(20/550)

وَهَذَا فِي النَّجَاسَةِ الظَّاهِرَةِ ، فَمَا ظَنُّك بِغَيْرِهَا ؟ وَأَمَّا مَنْ قَالَ : إنَّهَا تُرْفَعُ فَالرَّفْعُ حِسًّا كَالْبِنَاءِ ، وَحُكْمًا كَالتَّطْهِيرِ وَالتَّنْظِيفِ ، وَكَمَا تَطْهُرُ عَنْ ذَلِكَ فَإِنَّهَا مُطَهَّرَةٌ عَنْ اللَّغْوِ وَالرَّفَثِ ، لِقَوْلِهِ ، وَهِيَ : الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : ﴿ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ ﴾ وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهَا الْمَسَاجِدُ كُلُّهَا ، ضَرَبَ اللَّهُ الْمَثَلَ لِنُورِهِ بِالزَّيْتِ الَّذِي يَتَوَقَّدُ مِنْهُ الْمِصْبَاحُ فِي الْبُقْعَةِ الْمُكَرَّمَةِ ، وَهِيَ الْمَسَاجِدُ ، تَتْمِيمًا لِتَشْرِيفِ الْمَثَلِ بِالْمَثَلِ وَجَلَالِهِ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ .

وَقَدْ بَيَّنَّا فِي شَرْحِ الْحَدِيثِ مِنْ ذِكْرِ الْمَسَاجِدِ جُمَلًا

عَظِيمَةً تَرْبُو عَلَى الْمَأْمُولِ فِيهِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 3 صـ ﴾

(21/550)

وقال الماوردى :

قوله : ﴿ فِي بُيُوتٍ ﴾

في هذه البيوت قولان

: أحدهما : أنها المساجد ، قاله ابن عباس ، والحسن ، ومجاهد .

الثاني : أنها سائر البيوت ، قاله عكرمة .

﴿ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ ﴾ أربعة أوجه

: أحدها : أن تُبْنَى ، قاله مجاهد كقوله : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ ﴾ أي يبني .

الثاني : أنها تطهر من الأنجاس والمعاصي ، حكاه ابن عيسى .

الثالث : أن تعظم ، قاله الحسن .

الرابع : أن ترفع فيها الحوائج إلى الله .

﴿ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ ﴾ فيها ثلاثة أقاويل

: أحدها : يتلى فيها كتابه ، قاله ابن عباس .

الثاني : تذكر فيها أسماؤه الحسنى ، قاله ابن جرير .

الثالث : توحيده بأن لا إله غيره ، قاله الكلبي .

وفيما يعود إليه ذكر البيوت التي أذن الله أن ترفع قولان :

أحدهما : إلى ما تقدم من قوله : كمشكاة فيها مصباح في بيوت أذن الله .

الثاني : إلى ما بعده من قوله : ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا ﴾ وفي هذا التسبيح قولان :

أحدهما : أنه تنزيه الله .

الثاني : أنه الصلاة ، قاله ابن عباس والضحاك .

﴿ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ ﴾ الغدو جمع غَدوة والآصال جمع أصيل وهي العشاء

. ﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ قال الكلبي : التجار هم الجلاب المسافرون ، والباعة هم المقيمون .

﴿ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ فيه وجهان

: أحدهما : عن ذكره بأسمائه الحسنى .

الثاني : عن الأذان ، قاله يحيى بن سلام . ﴿ تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ ﴾ فيه خمسة أوجه

: أحدها : يعني تقلبها على حجر جهنم .

الثاني : تقلب أحوالها بأن تلفحها النار ثم تنضجها وتحرقها .

الثالث : أن تقلب القلوب وجيبها ، وتقلب الأبصار النظر بها إلى نواحي الأهوال .

الرابع : أن تقلب القلوب بلوغها الحناجر ، وتقلب الأبصار الزّرَق بعد الكحل ، والعمى بعد البصر .

(22/550)

الخامس : أن الكافر بعد البعث ينقلب قلبه على الكفر إلى الإيمان وينقلب بصره عما كان يراه غياً فيراه رشداً .

﴿ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ ﴾ فذكر الجزاء على الحسنات ولم يذكر الجزاء على السيئات وإن كان يجازى عليها لأمرين :

أحدهما : أنه ترغيب فاقتصر على ذكر الرغبة .

الثاني : أنه يكون في صفة قوم لا تكون منهم الكبائر فكانت صغائرهم مغفورة .

﴿ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ﴾ يحتمل وجهين

: أحدهما : ما يضاعفه من الحسنة بعشر أمثالها .

الثاني : ما يتفضل به من غير جزاء .

﴿ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ فيه أربعة أوجه

: أحدها : بغير جزاء بل يسديه تفضلاً .

الثاني : غير مقدر بالكفاية حتى يزيد عليها .

الثالث : غير قليل ولا مضيق .

الرابع : غير ممنون به .

وقيل لما نزلت هذه الآية أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ببناء مسجد قباء فحضر عبد الله بن رواحة فقال : يا رسول الله قد أفلح من بنى المساجدا ؟ قال : " نَعَمْ يَا ابْنَ

رَوَاحَةَ " قال ، وصلى فيها قائماً وقاعداً قال : " نَعَمْ يَا ابْنَ رَوَاحَةِ " قال : ولم يبت لله إلا ساجداً ؟ قال : " نَعَمْ يَا ابْنَ رَوَاحَةَ . كُفَّ عَنِ السَّجْعِ فَمَا أُعْطِيَ عَبْدٌ شَيئاً شَرّاً مِن طَلاَقَةِ لِسَانِهِ " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

(23/550)

وقال ابن عطية :

﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ ﴾

الباء في ﴿ بيوت ﴾ : تضم وتكسر ، واختلف في الفاء من قوله ﴿ في ﴾ فقيل هي متعلقة ب ﴿ مصباح ﴾ [النور : 35] قال أبو حاتم وقيل متعلقة ب ﴿ يسبح ﴾ المتأخر ، فعلى هذا التأويل يوقف على ﴿ عليم ﴾ [النور : 38] قال الرماني هي متعلقة ب ﴿ يوقد ﴾ [النور : 35] واختلف الناس في البيوت التي أَرادها بقوله تعالى : ﴿ في بيوت أذن الله أن ترفع ﴾ فقال ابن عباس والحسن ومجاهد هي المساجد المخصوصة لله تعالى التي من عادتها أن تنور بذلك النوع من المصابيح ، وقال الحسن بن أَبي الحسن أراد بيت المقدس وسماه بيوتاً من حيث فيه مواضيع يتحيز بعضها عن بعض .

قال الفقيه الإمام القاضي : ويؤثر ، أن عادة بني إسرائيل في وقيد بيت المقدس كانت غاية في

التهمم به ، وكان الزيت منتخباً مختوماً على ظروفه قد صنع صنعة وقدس حتى لا يجزى الوقيد بغيره ، فكان لهذا ونحوه أضوأ بيوت الأرض ، وقال عكرمة أراد بيوت الإيمان على الإطلاق مساجد ومساكن فهي التي يستصبح فيها بالليل للصلاة وقراءة العلم ، وقال مجاهد أراد بيوت النبي صلى الله عليه وسلم .

(24/550)

قال القاضي أبو محمد : وقوله تعالى : ﴿ يسبح له فيها بالغدو والآصل رجال ﴾ يقوي أنها المساجد وقوله : ﴿ أذن ﴾ بمعنى أمر وقضى ، وحقيقة الإذن العلم والتمكين دون حظر فإن اقتران بذلك أمر وإنفاذ كان أقوى ، و ﴿ ترفع ﴾ ، قيل معناه تبنى وتعالى ، قاله مجاهد وغيره فذلك كنحو قوله تعالى : ﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد ﴾ [البقرة : 127] وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " من بنى مسجداً من ماله بنى الله له بيتاً في الجنة " ، وفي هذا المعنى أحاديث ، وقال الحسن بن أبي الحسن وغيره معناه تعظم ويرفع شأنها ، وذكر ﴿ اسمه ﴾ تعالى ، هو بالصلاة والعبادة قولاً وفعلاً ، وقرأ ابن كثير وعاصم " يسبَّح " بفتح الباء المشددة ، وقرأ الباقون وحفص عن عاصم " يسبِّح " بكسر الباء ، ف ﴿ رجال ﴾ على القراءة الأولى مرتفع بفعل مضمر يدل عليه ﴿ يسبح ﴾ تقديره يسبحه

رجال ، فهذا عند سيبويه نظير قول الشاعر : " ليبك يزيد ضارع لخصومة " أي يبكيه ضارع ، و﴿ رجال ﴾ على القراءة الثانية مرتفع ب ﴿ يسبح ﴾ الظاهر ، وروي عن يحيى بن وثاب أنه قرأ " تسبح " بالتاء من فوق ، و﴿ الغدو والآصال ﴾ قال الضحاك أراد الصبح والظهر ، وقال ابن عباس أراد ركعتي الضحى والعصر وإن ركعتي الضحى لفي كتاب الله وما يغوص عليها إلا غواص ، وقرأ أبو مجلز " والإيصال " ثم وصف تعالى المسبحين بأنهم لمراقبتهم أمر الله تعالى وطلبهم لرضاه لا يشغلهم عن الصلاة وذكر الله شيء من أمور الدنيا ، وقال كثير من الصحابة نزلت هذه الآية في أَهل الأَسواق الذين إذا سمعوا النداء بالصلاة تركوا كل شغل وبادروا إليها ، فرأى سالم بن عبد الله بن عمر أهل الأسواق وهم مقبلون إلى الصلاة فقال هؤلاء الذين أراد الله تعالى بقوله : ﴿ لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ﴾ ، وروي ذلك عن ابن مسعود ، ﴿ وإقام ﴾ ، مصدر من أقام يقيم أصله أقوام نقلت حركة الواو إلى القاف فبقيت ساكنة والألف ساكنة فحذفت للالتقاء ،

(25/550)

فجاء ﴿ إقام ﴾ ، بعض النحويين هو مصدر بنفسه قد لا يضاف وقيل لا يجوز أقمته إقاماً ، وإنما يستعمل مضافاً ، ذكره الرماني وقال بعضهم من حيث رأوه لا يستعمل إلا مضافاً

ألحقت به هاء عوضاً من المحذوف فجاء إقامة ، فهم إذا أضافوه حذفوا العوض لاستغنائهم عنه بأَن المضاف والمضاف إليه كاسم واحد ، و﴿ الزكاة ﴾ هنا عند ابن عباس الطاعة لله ، وقال الحسن هي الزكاة المفروضة في المال ، و" اليوم المخوف " الذي ذكره تعالى ، هو يوم القيامة ، واختلف الناس في تقلب ﴿ القلوب والأبصار ﴾ كيف هو ، فقالت فرقة يرى الناس الحقائق عياناً فتتقلب قلوب الشاكين ومعتقدي الضلال عن معتقداتها إلى اعتقاد الحق على وجهه وكذلك الأبصار وقالت فرقة هو تقلبها على جمر جهنم .

قال الفقيه الإمام القاضي : ومقصد الآية إنما هو وصف هول يوم القيامة ، فأما القول الأول فليس يقتضي هولاً وأما الثاني فليس التقلب في جمر جهنم يوم القيامة وإنما هو بعده .

وإنما معنى الآية عندي أن ذلك اليوم لشدة هولة ومطلعه ، القلوب والأبصار فيه مضطربة قلقة متقلبة من طمع في النجاة إلى طمع ومن حذر هلاك إلى حذر ، ومن نظر في هول إلى النظر في الآخر ، والعرب تستعمل هذا المعنى في الحروب ونحوها ومنه قول الشاعر : " بل كان قلبك في جناحي طائر " ومنه قول بشار كان فؤاده كرة تنزى ، ومنه قول الآخر : " إذا حلق النجيد وصلصل الحديد " وهذا كثير .

﴿ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ﴾

اللام في قوله ﴿ ليجزيهم ﴾ متعلقة بفعل مضمر تقديره فعلوا ذلك ويسروا لذلك ونحو هذا ، ويحتمل أن تكون متعلقة ب ﴿ يسبح ﴾ [النور : 36] وقوله ﴿ أحسن ما عملوا ﴾ فيه حذف مضاف تقديره ثواب أحسن ثم وعدهم عز وجل بالزيادة من فضله على ما تقتضيه أعمالهم ، فأهل الجنة أبداً في مزيد ، ثم ذكر أنه ﴿ يرزق من يشاء ﴾ ويخصه بما يشاء من رحمته دون حساب ولا تعديد ، وكل تفضل لله فهو ﴿ بغير حساب ﴾ ، وكل جزاء على عمل فهو بحساب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(27/550)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ فِي بُيُوتٍ ﴾

قال الزجاج : "في" مِن صلةِ قوله : ﴿ كمشكاة ﴾ ، فالمعنى : كمشكاة في بيوت ؛ ويجوز أن تكون متصلة بقوله : ﴿ يسبِّح له فيها ﴾ فتكون فيها تكريراً على التوكيد ؛ والمعنى : يسبِّح لله رجال في بيوت .

فإن قيل : المشكاة إنما تكون في بيت واحد ، فكيف قال : ﴿ في بيوت ﴾ ؟ فعنه

جوابان .

أحدهما : أنه من الخطاب المتلوّنِ الذي يُفتح بالتوحيد ويُختم بالجمع ، كقوله تعالى : ﴿ يا أيها النبيُّ إذا طلَّقتم النساء ﴾ [الطلاق : 1] .

والثاني : أنه راجع إلى كل واحد من البيوت ، فالمعنى : في كل بيت مشكاة .

وللمفسرين في المراد بالبيوت هاهنا ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها المساجد ، قاله ابن عباس ، والجمهور .

والثاني : بيوت أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قاله مجاهد .

والثالث : بيت المقدس ، قاله الحسن .

فأما ﴿ أَذِنَ ﴾ فمعناه : أَمَر .

وفي معنى ﴿ أن تُرْفَع ﴾ قولان .

أحدهما : أن تعظَّم ، قاله الحسن ، والضحاك .

والثاني : أن تُبْنَى ، قاله مجاهد ، وقتادة .

وفي قوله : ﴿ ويُذْكَرَ فيها اسمُه ﴾ قولان .

أحدهما : توحيده ، رواه أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : يُتلى فيها كتابُه ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس .

قوله تعالى : ﴿ يُسَبّح ﴾ قرأ ابن كثير ، وحفص عن عاصم ، ونافع ، وأبو عمرو ، وحمزة ،

والكسائي : ﴿ يُسَبِّح ﴾ بكسر الباء ؛ وقرأ ابن عامر ، وأبو بكر عن عاصم : بفتحها .

وقرأ معاذ القارىء ، وأبو حيوة : ﴿ تُسَبِّحُ ﴾ بتاء مرفوعة وكسر الباء ورفع الحاء .

وفي قوله : ﴿ يُسَبِّح له فيها ﴾ قولان .

أحدهما : أنه الصلاة .

ثم في صلاة الغُدُوِّ قولان .

احدهما : أنها صلاة الفجر ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس .

والثاني : صلاة الضحى ، روى ابن أبي مُلَيكة عن ابن عباس قال : إن صلاة الضحى لفي كتاب الله ، وما يغوص عليها إلا غوّاص ، ثم قرأ : ﴿ يُسَبِّح له فيها بالغدوّ والآصال ﴾ .

وفي صلاة الآصال قولان .

(28/550)

أحدهما : أنها صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء ، قاله ابن السائب .

والثاني : صلاة العصر ، قاله أبو سليمان الدمشقي .

والقول الثاني : أنه التسبيح المعروف ، ذكره بعض المفسرين .

قوله تعالى : ﴿ رجال لا تُلْهِيهم ﴾ أي : لا تَشْغَلُهم ﴿ تجارة ولا بيع ﴾ قال ابن السائب :

التُّجَّار : الجلاّبون ، والباعة : المقيمون .

وقال الواقدي : التجارة هاهنا بمعنى الشراء .

وفي المراد بذِكْر الله ثلاثة أقوال .

أحدها : الصلاة المكتوبة ، قاله ابن عباس ، وعطاء .

وروى سالم عن ابن عمر أنه كان في السوق فأقيمت الصلاة ، فأغلقوا حوانيتهم ودخلوا المسجد ، فقال ابن عمر : فيهم نزلت ﴿ رجال لا تُلهيهم تجارة ولا بيع عن ذِكْر الله ﴾ .

والثاني : عن القيام بحق الله ، قاله قتادة .

والثالث : عن ذِكْر الله باللسان ، ذكره أبو سليمان الدمشقي .

قوله تعالى : ﴿ وإقامِ الصلاة ﴾ أي : أداؤها لوقتها وإتمامها .

فإن قيل : إذا كان المراد بذِكْر الله الصلاة ، فما معنى إعادتها ؟

فالجواب : أنه بيَّن أنهم يقيمونها بأدائها في وقتها .

قوله تعالى : ﴿ تَتَقَلَّبُ فيه القلوب والأبصار ﴾ في معناه ثلاثة أقوال .

أحدها : أن من كان قلبه مؤمنا بالبعث والنشور ، ازداد بصيرة برؤية ما وُعِد به ؛ ومن كان قلبه على غير ذلك ، رأى ما يوقِن معه بأمر القيامة ، قاله الزجاج .

والثاني : أن القلوب تتقلَّب بين الطمع في النجاة والخوف من الهلاك ، والأبصار تتقلَّب ، تنظر من أين يؤتَون كتبهم ، أَمِنْ قِبَل اليمين ، أم مِنْ قِبَل الشمال ؟ وأي ناحية يؤخذ بهم ،

أذات اليمين ، أم ذات الشمال ؟ قاله ابن جرير .

والثالث : تتقلَّب القلوب فتبلغ إلى الحناجر ، وتتقلَّب الأبصار إلى الزَّرَق بعد الكَحَل والعمى بَعْدَ النَّظر .

(29/550)

قوله تعالى : ﴿ لِيَجْزِيَهُم ﴾ المعنى : يسبِّحون الله ليَجزيَهم ﴿ أَحْسَنَ ما عملوا ﴾ أي : ليجزيهم بحسناتهم ، فأما مساوئهم فلا يَجزيهم بها ﴿ ويَزِيدَهم من فضله ﴾ ما لم يستحقُّوه بأعمالهم ﴿ والله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾ قد شرحناه في [آل عمران : 27] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 6 صـ ﴾

(30/550)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ الله أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسمه يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بالغدو والآصال رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَن ذِكْرِ الله وَإِقَامِ الصلاة وَإِيتَآءِ الزكاة ﴾

فيه تسع عشرة مسألة :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَن تُرْفَعَ ﴾ الباء في "بيوت" تضم وتكسر ؛ وقد تقدّم .

واختلف في الفاء من قوله "في" فقيل : هي متعلقة ب"مصباح" .

وقيل : ب"يسبح له" ؛ فعلى هذا التأويل يوقف على "عليم" .

قال ابن الأنباري : سمعت أبا العباس يقول هو حال للمصباح والزجاجة والكوكب ؛ كأنه قال وهي في بيوت .

وقال الترمذي الحكيم محمد بن علي : "في بيوت" منفصل ، كأنه يقول : الله في بيوت أذن الله أن تُرفع ؛ وبذلك جاءت الأخبار أنه "من جلس في المسجد فإنه يجالس ربّه" .

وكذا ما جاء في الخبر فيما يحكى عن التوراة "أن المؤمن إذا مشى إلى المسجد قال الله تبارك اسمه عبدي زارني وعليّ قِراه ولن أرضى له قِرًى دون الجنة" .

قال ابن الأنباري : إن جعلت "في" متعلقة ب"يسبّح" أو رافعة للرجال حَسُن الوقف على قوله "والله بكل شيء عليم" .

وقال الرُّمَّانِي : هي متعلقة ب"يوقد" وعليه فلا يوقف على "عليم" .

فإن قيل : فما الوجه إذا كانت البيوت متعلقة ب"يوقد" في توحيد المصباح والمشكاة وجمع البيوت ، ولا يكون مشكاة واحدة إلا في بيت واحد .

قيل : هذا من الخطاب المتلوّن الذي يفتح بالتوحيد ويختم بالجمع ؛ كقوله تعالى : ﴿ يا أيها النبي إِذَا طَلَّقْتُمُ النسآء ﴾ [الطلاق : 1] ونحوه .

وقيل : رجع إلى كل واحد من البيوت .

وقيل : هو كقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَ القمر فِيهِنَّ نُوراً ﴾ [نوح : 16] وإنما هو في واحدة منها .

(31/550)

واختلف الناس في البيوت هنا على خمسة أقوال : الأَوَّل : أنها المساجد المخصوصة لله تعالى بالعبادة ، وأنها تضيء لأهل السماء كما تضيء النجوم لأهل الأرض ؛ قاله ابن عباس ومجاهد والحسن .

الثاني : هي بيوت بيت المقدس ؛ عن الحسن أيضاً .

الثالث : بيوت النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ عن مجاهد أيضاً .

الرابع : هي البيوت كلّها ؛ قاله عكرمة .

وقوله : ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بالغدو والآصال ﴾ يقوّي أنها المساجد .

وقول خامس : أنها المساجد الأربعة التي لم يبنها إلا نبيّ : الكعبة وبيت أرِيحَا ومسجد

المدينة ومسجد قُبَاء ؛ قاله ابن بُريدة .

وقد تقدّم ذلك في "براءة" .

قلت : الأظهر القول الأوّل ؛ لما رواه أنس بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من أحبَّ الله عز وجل فليحبّني ومن أحبّني فلْيحِبّ أصحابي ومن أحب أصحابي فليُحِبّ القرآن ومن أحبّ القرآن فلْيُحِبّ المساجد فإنها أفنية الله أبنيته أذن الله في رفعها وبارك فيها ميمونةٌ ميمون أهلها محفوظةٌ محفوظ أهلها هم في صلاتهم والله عز وجل في حوائجهم هم في مساجدهم والله من ورائهم " .

الثانية : قوله تعالى : ﴿ أَذِنَ اللهُ أَن تُرْفَعَ ﴾ "أذِن" معناه أمر وقضى .

وحقيقة الإذن العلم والتمكين دون حظر ؛ فإن اقترن بذلك أمر وإنفاذ كان أقوى .

و"ترفع" قيل : معناه تُبْنَى وتُعْلى ؛ قاله مجاهد وعكرمة .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ القواعد مِنَ البيت ﴾ [البقرة : 127] .

وقال صلى الله عليه وسلم : " من بنى مسجداً من ماله بنى الله له بيتاً في الجنة " وفي هذا المعنى أحاديث كثيرة تحض على بنيان المساجد .

(32/550)

وقال الحسن البصري وغيره : معنى "ترفع" تعظّم ، ويرفع شأنها ، وتطهر من الأنجاس والأقذار ؛ ففي الحديث : " أنّ المسجد لَيَنْزَوِي من النجاسة كما ينزوي الجلد من النار "

وروى ابن ماجه في سننه عن أبي سعيد الخُدْرِيّ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من أخرج أذًى من المسجد بنى الله له بيتاً في الجنة " وروي عن عائشة قالت : أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نتخذ المساجد في الدور وأن تطهر وتطيَّب .

الثالثة : إذا قلنا : إن المراد بنيانها فهل تزيّن وتنقش ؟ اختلف في ذلك ؛ فكرهه قوم وأباحه آخرون .

فروى حماد بن سلمة عن أيوب عن أبي قِلاَبة عن أنس وقتادة عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لا تقوم الساعة حتى يتباهى الناس في المساجد " أخرجه أبو داود .

وفي البخاري وقال أنس : " يتباهَوْن بها ثم لا يَعْمُرونها إلا قليلاً " وقال ابن عباس : لَتُزَخْرِفُنّها كما زَخْرفتِ اليهود والنصارى .

وروى الترمذِيّ الحكيم أبو عبد الله في نوادر الأصول من حديث أبي الدرداء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا زخرفتم مساجدكم وحلّيتم مصاحفكم فالدَّبار عليكم " احتجّ من أباح ذلك بأن فيه تعظيم المساجد والله تعالى أمر بتعظيمها في قوله : ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَن تُرْفَعَ ﴾ يعني تعظم .

وروي عن عثمان أنه بنى مسجد النبيّ صلى الله عليه وسلم بالسَّاج وحسّنه .

قال أبو حنيفة : لا بأس بنقش المساجد بماء الذهب .

وروي عن عمر بن عبد العزيز أنه نقش مسجد النبيّ صلى الله عليه وسلم وبالغ في عمارته وتزيينه ، وذلك في زمن ولايته قبل خلافته ، ولم ينكر عليه أحد ذلك .

وذكر أن الوليد بن عبد الملك أنفق في عمارة مسجد دمشق وفي تزيينه مثل خراج الشأم ثلاث مرات .

وروي أن سليمان بن داود عليهما السلام بنى مسجد بيت المقدس وبالغ في تزيينه .

(33/550)

الرابعة : ومما تصان عنه المساجد وتنزه عنه الروائح الكريهة والأقوال السيئة وغير ذلك على ما نبيّنه ؛ وذلك من تعظيمها .

وقد صح من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في غَزْوة تَبُوك :

" من أكل من هذه الشجرة يعني الثُّوم فلا يأتِيَنّ المساجد " وفي حديث جابر بن عبد الله عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " من أكل من هذه البقلة الثُّوم " وقال مرة : " من أكل البصل

والثوم والكُرَاث فلا يقربَنّ مسجدنا فإن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم " وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه في خطبته : ثم إنكم أيها الناس تأكلون شجرتين ولا أراهما إلا خبيثتين ، هذا البصلَ والثُّوم ، لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا وجد ريحهما من رجل في المسجد أمَر به فأخرِج إلى البقيع ، فمن أكلهما فَلْيُمِتْهُما طبخاً .

خرّجه مسلم في صحيحه .

قال العلماء : وإذا كانت العلة في إخراجه من المسجد أنه يُتأذَّى به ففي القياس أن كل من تأذى به جيرانه في المسجد بأن يكون ذَرِب اللسان سفِيهاً عليهم ، أو كان ذا رائحة قبيحة لا تَرِيه لسوء صناعته ، أو عاهة مؤذية كالجذام وشبهه .

وكل ما يتأذى به الناس كان لهم إخراجه ما كانت العلة موجودة فيه حتى تزول .

وكذلك يجتنب مجتمع الناس حيث كان لصلاة أو غيرها كمجالس العلم والولائم وما أشبهها ، مَن أكل الثُّوم وما في معناه ، مما له رائحة كريهة تؤذي الناس .

ولذلك جمع بين البصل والثوم والكراث ، وأخبر أن ذلك مما يتأذى به .

(34/550)

قال أبو عمر بن عبد البر : وقد شاهدت شيخنا أبا عمر أحمد بن عبد الملك بن هشام رحمه الله أفتى في رجل شكاه جيرانه واتفقوا عليه أنه يؤذيهم في المسجد بلسانه ويده فشُوورِ فيه ؛ فأفتى بإخراجه من المسجد وإبعاده عنه ، وألا يشاهد معهم الصلاة ؛ إذ لا سبيل مع جنونه واستطالته إلى السلامة منه ، فذاكرته يوماً أمره وطالبته بالدليل فيما أفتى به من ذلك وراجعته فيه القول ؛ فاستدل بحديث الثُّوم ، وقال : هو عندي أكثر أذًى من أكل الثوم ، وصاحبه يُمنع من شهود الجماعة في المسجد .

قلت : وفي الآثار المرسلة "أن الرجل ليكذب الكِذْبَة فيتباعد عنه المَلَك من نتن ريحه" .

فعلى هذا يُخرج من عُرف منه الكذب والتقوّل بالباطل فإن ذلك يؤذي .

الخامسة : أكثر العلماء على أن المساجد كلها سواء ؛ لحديث ابن عمر .

وقال بعضهم : إنما خرج النهي على مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم من أجل جبريل عليه السلام ونزوله فيه ؛ ولقوله في حديث جابر : "فلا يقربَنّ مسجدنا" .

والأوّل أصح ، لأنه ذكر الصفة في الحكم وهي المسجدية ، وذكرُ الصفة في الحكم تعليل .

وقد روى الثعلبي بإسناده عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يأتي الله يوم القيامة بمساجد الدنيا كأنها نجائب بيض قوائمها من العنبر وأعناقها من الزعفران ورؤوسها من المسك وأزمّتها من الزبرجد الأخضر وقُوّامها المؤذنون فيها يقودونها وأئمتها يسوقونها وعمارها متعلقون بها فتجوز عرصات القيامة كالبرق الخاطف

فيقول أهل الموقف هؤلاء ملائكة مقرّبون وأنبياء مرسلون فينادي ما هؤلاء بملائكة ولا أنبياء ولكنهم أهل المساجد والمحافظون على الصلوات من أمة محمد صلى الله عليه وسلم "

وفي التنزيل ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ ﴾ [التوبة : 18] .

وهذا عام في كل مسجد .

وقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد فاشهدوا له بالإيمان إن الله تعالى يقول :

(35/550)

﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ واليوم الآخر ﴾ " وقد تقدم .

السادسة : وتصان المساجد أيضاً عن البيع والشراء وجميع الاشتغال ؛ " لقوله صلى الله عليه وسلم للرجل الذي دعا إلى الجمل الأحمر : "لا وَجَدْتَ إنما بُنيت المساجد لمَا بُنيت له" " أخرجه مسلم من حديث سليمان بن بريدة عن أبيه " أن النبيّ صلى الله عليه وسلم لما صلى قام رجل فقال : من دعا إلى الجمل الأحمر ؟ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "لا وَجدتَ إنما بُنيت المساجد لمَا بُنيت له" " وهذا يدل على أن الأصل ألا يعمل في المسجد

غير الصلوات والأذكار وقراءة القرآن .

وكذا جاء مفسراً من حديث أنس قال : " بينما نحن في المسجد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ جاء أعرابي فقام يبول في المسجد ، فقال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : مَهٍ مَهْ ؛ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "لا تُزْرِمُوه دَعُوه" .

فتركوه حتى بال ، ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعاه فقال له : "إن هذه المساجد لا تصلح لشيء من هذا البول ولا القذر إنما هي لذكر الله والصلاة وقراءة القرآن" .

أو كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال : فأمر رجلاً من القوم فجاء بدَلْو من ماء فشنّه عليه " خرّجه مسلم .

ومما يدل على هذا من الكتاب قوله الحق : ﴿ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسمه ﴾ .

وقوله صلى الله عليه وسلم لمعاوية بن الحكم السّلَمِيّ : " إن هذه المساجد لا يصلح فيها شيء من كلام الناس إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن " أو كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم .

الحديث بطوله خرجه مسلم في صحيحه ، وحسبك ! وسمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه صوت رجل في المسجد فقال : ما هذا الصوت ! أتدري أين أنت ! وكان خَلَف بن أيوب جالساً في مسجده فأتاه غلامه يسأله عن شيء فقام وخرج من المسجد وأجابه ؛

فقيل له في ذلك فقال : ما تكلمت في المسجد بكلام الدنيا منذ كذا وكذا ، فكرهت أن أتكلم اليوم .

(36/550)

السابعة : روى الترمذِيّ من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنه نهى عن تناشد الأشعار في المسجد ، وعن البيع والشراء فيه ، وأن يتحلّق الناس يوم الجمعة قبل الصلاة .

قال : وفي الباب عن بُريدة وجابر وأنس حديث عبد الله بن عمرو حديث حسن .

قال محمد بن إسماعيل : رأيت محمّداً وإسحاق وذكر غيرهما يحتجّون بحديث عمرو بن شعيب .

وقد كره قوم من أهل العلم البيع والشراء في المسجد ؛ وبه يقول أحمد وإسحاق .

وروي أن عيسى ابن مريم عليهما السلام أتى على قوم يتبايعون في المسجد فجعل رداءه مخراقاً ، ثم جعل يسعى عليهم ضرباً ويقول : يا أبناء الأفاعي ، اتخذتم مساجد الله أسواقا هذا سوق الآخرة .

قلت : وقد كره بعض أصحابنا تعليم الصبيان في المساجد ، ورأى أنه من باب البيع .

وهذا إذا كان بأجرة ، فلو كان بغير أجرة لمنع أيضاً من وجه آخر ، وهو أن الصبيان لا يتحرّزون عن الأقذار والوسخ ؛ فيؤدّي ذلك إلى عدم تنظيف المساجد ، وقد أمر صلى الله عليه وسلم بتنظيفها وتطييبها فقال : " جَنِّبُوا مساجدكم صبيانكم ومجانينكم وسلّ سيوفِكم وإقامةَ حدودِكم ورفع أصواتكم وخصوماتكم وأجمروها في الجُمَع واجعلوا على أبوابها المطاهر " في إسناده العلاء بن كثير الدمشقي مولى بني أمية ، وهو ضعيف عندهم ؛ ذكره أبو أحمد بن عدِيّ الجرجاني الحافظ .

وذكر أبو أحمد أيضاً من حديث عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال : صلّيت العصر مع عثمان أمير المؤمنين فرأى خياطاً في ناحية المسجد فأمر بإخراجه ؛ فقيل له : يا أمير المؤمنين ، إنه يكنِس المسجد ويغلِق الأبواب ويرشّ أحياناً .

فقال عثمان : إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " جنّبوا صنّاعكم من مساجدكم " هذا حديث غير محفوظ ، في إسناده محمد بن مجيب الثقفي ، وهو ذاهب الحديث .

قلت : ما ورد في هذا المعنى وإن كان طريقه لَيِّناً فهو صحيح معنًى ؛ يدل على صحته ما ذكرناه قبل .

(37/550)

قال الترمذِيّ : وقد رُوي عن بعض أهل العلم من التابعين رُخْصةٌ في البيع والشراء في المسجد .

وقد رُوي عن النبيّ صلى الله عليه وسلم في غير حديث رخصةٌ في إنشاد الشعر في المسجد .

قلت : أما تناشد الأشعار فاختلف في ذلك ، فمن مانع مطلقا ، ومن مجيز مطلقاً .

والأوْلى التفصيل ، وهو أن يُنظر إلى الشعر فإن كان مما يقتضي الثناء على الله عز وجل أو على رسوله صلى الله عليه وسلم أو الذبّ عنهما كما كان شعر حسان ، أو يتضمن الحض على الخير والوعظ والزهد في الدنيا والتقلّل منها ، فهو حسن في المساجد وغيرها ؛ كقول القائل :

طَوّفي يا نفس كي أقصد فرداً صمداً . . .

وذريني لست أبغي غير ربي أحدا

فهو أنسي وجليسي ودعي الناس . . .

فما إن تجدي من دونه ملتحدا

وما لم يكن كذلك لم يجز ؛ لأن الشعر في الغالب لا يخلو عن الفواحش والكذب والتزين بالباطل ، ولو سلم من ذلك فأقل ما فيه اللّغْوُ والهَذَر ، والمساجد منزهة عن ذلك ؛ لقوله

تعالى : ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَن تُرْفَعَ ﴾ .

وقد يجوز إنشاده في المسجد ؛ كقول القائل :

كَفَحْل العَدَاب الفَرْدِ يضربه النَّدَى . . .

تَعَلَّى النّدَى في متنه وتَحدّرا

وقول الآخر :

إذا سقط السماء بأرض قوم . . .

رَعَيناه وإن كانوا غِضابَا

فهذا النوع وإن لم يكن فيه حَمْد ولا ثناء يجوز ؛ لأنه خالٍ عن الفواحش والكذب .

وسيأتي ذكر الأشعار الجائزة وغيرها بما فيه كفاية في "الشعراء" إن شاء الله تعالى ، وقد روى الدارقطنِيّ من حديث هشام بن عُرْوة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها قالت : " ذُكر الشعر عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : "هو كلام حَسَنه حَسَن وقبيحه قبيح" " وفي الباب عن عبد الله بن عمرو بن العاص وأبي هريرة وابن عباس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم .

ذكره في السنن .

قلت : وأصحاب الشافعيّ يأثرون هذا الكلام عن الشافعيّ وأنه لم يتكلم به غيره ؛ وكأنهم

لم يقفوا على الأحاديث في ذلك .

والله أعلم .

(38/550)

الثامنة : وأما رفع الصوت فإن كان مما يقتضي مصلحة للرافع صوتَه دُعي عليه بنقيض قصده ؛ لحديث بَريرة المتقدّم ، وحديث أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من سمع رجلاً يَنْشُد ضالّة في المسجد فليقل لا ردّها الله عليك فإن المساجد لم تُبْن لهذا " وإلى هذا ذهب مالك وجماعة ، حتى كرهوا رفع الصوت في المسجد في العلم وغيره .

وأجاز أبو حنيفة وأصحابه ومحمد بن مسلمة من أصحابنا رفعَ الصوت في الخصومة والعلم ؛ قالوا : لأنهم لا بدّ لهم من ذلك .

وهذا مخالف لظاهر الحديث ، وقولهم : لا بدّ لهم من ذلك ، ممنوع ، بل لهم بُدّ من ذلك لوجهين : أحدهما بملازمة الوَقَار والحرمة ، وبإحضار ذلك بالبال والتحرّز من نقيضه .

والثاني أنه إذا لم يتمكن من ذلك فليتّخذ لذلك موضعاً يخصّه ، كما فعل عمر حيث بَنَى رحبة تُسمَّى البطيحاء ، وقال : من أراد أن يَلْغَط أو يُنْشِد شعراً يعني في مسجد رسول

الله صلى الله عليه وسلم فليخرج إلى هذه الرحبة .

وهذا يدل على أن عمر كان يكره إنشاد الشعر في المسجد ، ولذلك بنى البطيحاء خارجه .

التاسعة : وأما النوم في المسجد لمن احتاج إلى ذلك من رجل أو امرأة من الغرباء ومن لا بيت له فجائز ؛ لأن في البخاري وقال أبو قِلابة عن أنس : قَدِم رهط من عُكْل على النبيّ صلى الله عليه وسلم فكانوا في الصُّفة ، وقال عبد الرحمن بن أبي بكر : كان أصحاب الصفة فقراء .

وفي الصحيحين عن ابن عمر : أنه كان ينام وهو شاب أعزب لا أهل له في مسجد النبيّ صلى الله عليه وسلم .

لفظ البخاري .

وترجم (باب نوم المرأة في المسجد) وأدخل حديث عائشة في قصة السوداء التي اتهمها أهلها بالوِشاح ، قالت عائشة : وكان لها خِبَاء في المسجد أو حِفْش . . .

الحديث .

ويقال : كان مبيت عطاء بن أبي رَبَاح في المسجد أربعين سنة .

(39/550)

العاشرة : روى مسلم عن أبي حميد أو عن أبي أسَيْد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا دخل أحدكم المسجد فلْيَقُل اللَّهُمَّ افتح لي أبواب رحمتك وإذا خرج فليقل اللَّهُمَّ إني أسألك من فضلك " خرجه أبو داود كذلك ؛ إلا أنه زاد بعد قوله : " إذا دخل أحدكم المسجد : فليسلِّم وليصلِّ على النبيّ صلى الله عليه وسلم ثم ليقل اللهم افتح لي .

. .

" الحديث .

وروى ابن ماجه عن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت : "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دخل المسجد قال : "باسم الله والسلام على رسول الله اللَّهُمَّ اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب رحمتك وإذا خرج قال باسم الله والصلاة على رسول الله اللَّهُمَّ اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب رحمتك وفضلك" " وروي عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إذا دخل أحدكم المسجد فليصلّ على النبيّ صلى الله عليه وسلم وليقل اللَّهُمَّ افتح لي أبواب رحمتك وإذا خرج فلْيُسَلِّم على النبيّ صلى الله عليه وسلم وليقل : اللَّهُمَّ اعْصِمْنِي من الشيطان الرجيم " وخرج أبو داود عن حَيْوة بن شُرَيح قال : لَقِيت عقبة بن مسلم فقلت له بلغني أنك حدّثت عن عبد الله بن عمرو بن العاصي " عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا دخل المسجد قال : "أعوذ بالله العظيم وبوجهه

الكريم وسلطانه القديم من الشيطان الرجيم" " قال : نعم .

قال : فإذا قال ذلك قال الشيطان : حُفِظ مني سائرَ اليوم .

الحادية عشرة : روى مسلم عن أبي قتادة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إذا دخل أحدكم المسجد فليركع ركعتين قبل أن يجلس " وعنه قال : " دخلت المسجد ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس بين ظَهْرَانِي الناس ، قال فجلست فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ما منعك أن تركع ركعتين قبل أن تجلس ؟" فقلت : يا رسول الله ، رأيتك جالساً والناس جلوس .

(40/550)

قال : "فإذا دخل أحدكم المسجد فلا يجلس حتى يركع ركعتين" " قال العلماء : فجعل صلى الله عليه وسلم للمسجد مزيّة يتميّز بها عن سائر البيوت ، وهو ألا يجلس حتى يركع .

وعامّةُ العلماء على أن الأمر بالركوع على الندب والترغيب .

وقد ذهب داود وأصحابه إلى أن ذلك على الوجوب ؛ وهذا باطل ، ولو كان الأمر على ما قالوه لحرُم دخول المسجد على المحدث الحدث الأصغر حتى يتوضأ ، ولا قائل به فيما أعلم

، والله أعلم .

فإن قيل : فقد روى إبراهيم بن يزيد عن الأوزاعيّ عن يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا دخل أحدكم المسجد فلا يجلس حتى يركع ركعتين وإذا دخل أحدكم بيته فلا يجلس حتى يركع ركعتين فإن الله جاعل من ركعتيه في بيته خيراً " ، وهذا يقتضي التسوِيَة بين المسجد والبيت .

قيل له : هذه الزيادة في الركوع عند دخول البيت لا أصل لها ؛ قال ذلك البخاري .

وإنما يصح في هذا حديث أبي قتادة الذي تقدم لمسلم ، وإبراهيم هذا لا أعلم روى عنه إلا سعد بن عبد الحميد ، ولا أعلم له إلا هذا الحديث الواحد ؛ قاله أبو محمد عبد الحق .

(41/550)

الثانية عشرة : روى سعيد بن زَبّان حدثني أبي عن أبيه عن جده عن أبي هند رضي الله عنه قال : " حَمَل تميمٌ يعني الدّارِي من الشأم إلى المدينة قنادِيل وزَيْتاً ومُقُطاً ، فلما انتهى إلى المدينة وافق ذلك ليلة الجمعة فأمر غلاماً يقال له أبو البزاد فقام فنَشَط المُقُطَ وعلق القناديل وصبّ فيها الماء والزيت وجعل فيها الفتيل ؛ فلما غَرَبت الشمس أمر أبا البزاد فأسرجها ، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المسجد فإذا هو بها تزهر ؛ فقال : "من فعل

هذا ؟" قالوا : تميم الدّارِي يا رسول الله ؛ فقال : "نوّرت الإسلام نوّر الله عليك في الدنيا والآخرة أمَا إنه لو كانت لي ابنة لزوّجْتُكَها" " قال نَوْفل بن الحارث : لي ابنة يا رسول الله تسمى المغيرة بنت نَوْفل فافعل بها ما أردت ؛ فأنكحه إيّاها .

زَبّان (بفتح الزاي والباء وتشديدها بنقطة واحدة من تحتها) ينفرد بالتّسمِّي به سعيد وحده ، فهو أبو عثمان سعيد بن زَبّان بن قائد بن زبان بن أبي هند ، وأبو هند هذا مولى بني بياضة حجّام النبيّ صلى الله عليه وسلم .

والمُقُط : جمع المِقاط ، وهو الحبل ، فكأنه مقلوب القِماط .

والله أعلم .

وروى ابن ماجه عن أبي سعيد الخُدْرِيّ قال : أوّل من أسرج في المساجد تَميمٌ الدّارِيّ .

وروي عن أنس أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " من أسرج في مسجد سراجاً لم تزل الملائكة وحَمَلة العرش يُصلّون عليه ويستغفرون له ما دام ذلك الضوء فيه وإن كنس غبار المسجد نقد الحُور العين " قال العلماء : ويستحب أن ينوّر البيت الذي يقرأ فيه القرآن بتعليق القناديل ونصب الشموع فيه ، ويزاد في شهر رمضان في أنوار المساجد .

الثالثة عشرة : قوله تعالى : ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بالغدو والآصال رِجَالٌ ﴾ اختلف العلماء في وصف الله تعالى المسبِّحين ؛ فقيل : هم المراقبون أمر الله ، الطالبون رضاءه ، الذين لا يشغلهم عن الصلاة وذكر الله شيء من أمور الدنيا .

وقال كثير من الصحابة : نزلت هذه الآية في أهل الأسواق الذين إذا سمعوا النداء بالصلاة تركوا كلّ شغل وبادروا .

ورأى سالم بن عبد الله أهل الأسواق وهم مقبلون إلى الصلاة فقال : هؤلاء الذين أراد الله بقوله : ﴿ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللهِ ﴾ .

وروي ذلك عن ابن مسعود .

وقرأ عبد الله بن عامر وعاصم في رواية أبي بكر عنه والحسن "يسبَّح له فيها" بفتح الباء على ما لم يسمّ فاعله .

وكان نافع وابن عمر وأبو عمرو وحمزة يقرؤون "يُسَبِّح" بكسر الباء ؛ وكذلك روى أبو عمرو عن عاصم .

فمن قرأ "يسبَّح" بفتح الباء كان على معنيين : أحدهما أن يرتفع "رجال" بفعل مضمر دلّ عليه الظاهر ؛ بمعنى يسبّحه رجال ؛ فيوقف على هذا على "الآصال" وقد ذكر سيبويه مثل هذا .

وأنشد :

لِيُبْكَ يَزِيدُ ضارعٌ لخصومة . . .

ومُخْتَبِطٌ مما تُطيح الطّوائحُ

المعنى : يبكيه ضارع.

وعلى هذا تقول : ضُرب زيد عمرو ؛ على معنى ضربه عمرو .

والوجه الآخر : أن يرتفع "رجال" بالابتداء ، والخبر "في بيوت" ؛ أي في بيوت أذن الله أن ترفع رجال .

و"يسبح له فيها" حال من الضمير في "ترفع" ؛ كأنه قال : أن ترفع ؛ مسبّحاً له فيها ، ولا يوقف على "الآصال" على هذا التقدير .

ومن قرأ "يسبح" بكسر الباء لم يقف على "الآصال" ؛ لأن "يسبح" فعل للرجال ، والفعل مضطر إلى فاعله ولا إضمار فيه .

وقد تقدم القول في "الغدوّ والآصال" في آخر "الأعراف" والحمد لله وحده .

الرابعة عشرة : قوله تعالى : ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا ﴾ قيل : معناه يصلي .

وقال ابن عباس : كل تسبيح في القرآن صلاة ؛ ويدل عليه قوله : "بِالغدوّ والآصالِ" ، أي بالغداة والعَشِيّ .

وقال أكثر المفسرين : أراد الصلاة المفروضة ؛ فالغدوّ صلاة الصبح ، والآصال صلاة الظهر والعصر والعشاءين ؛ لأن اسم الآصال يجمعها .

الخامسة عشرة : روى أبو داود عن أبي أمامة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من خرج من بيته متطهّراً إلى صلاة مكتوبة فأجره كأجر الحاج المُحْرِم ومن خرج إلى تسبيح الضحى لا ينصبه إلا إياه فأجره كأجر المُعْتَمِر وصلاةٌ على إثر صلاة لا لَغْوَ بينهما كتاب في عِلّيِّين " وخرّج عن بُريدة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " بشّر المشّائين في الظُلَم إلى المساجد بالنور التامّ يوم القيامة " وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " من غدا إلى المسجد أو راح أعدّ الله له نُزُلاً في الجنة كلما غَدَا أو راح " في غير الصحيح من الزيادة "كما أن أحدكم لو زار من يحب زيارته لاجتهد في كرامته" ؛ ذكره الثعلبي .

وخرّج مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من تطهر في بيته ثم مشى إلى بيت من بيوت الله ليقضي فريضة من فرائض الله كانت خَطْوتاه إحداهما تحط خطيئة والأخرى ترفع درجة " وعنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " صلاة الرجل في جماعة تزيد على صلاته في بيته وصلاته في سوقه بضعا وعشرين درجة وذلك أن أحدهم إذا توضّأ فأحسن الوضوء ثم أتى المسجد لا يَنْهَزُه إلا

الصلاةُ لا يريد إلا الصلاة فلم يَخْطُ خُطوةً إلا رُفع له بها درجةٌ وحُطّ عنه بها خطيئة حتى يدخل المسجد فإذا دخل المسجد كان في الصلاة ما كانت الصلاة هي تحبسه والملائكة يصلّون على أحدكم ما دام في مجلسه الذي صلّى فيه يقولون اللَّهُمَّ ارحمه اللَّهُم اغفر له اللَّهُمَّ تُب عليه ما لم يُؤْذِ فيه ما لم يُحْدِث فيه " في رواية : ما يُحدث ؟ قال : "يَفْسُو أو يَضْرِط" .

(44/550)

وقال حكيم بن زريق : قيل لسعيد بن المسيب أحضور الجنازة أحبّ إليك أم الجلوس في المسجد ؟ فقال : من صلّى على جنازة فله قيراط ، ومن شهد دفنها فله قيراطان ؛ والجلوس في المسجد أحبّ إلي ؛ لأن الملائكة تقول : اللَّهُمَّ اغفر له اللَّهُمَّ ارحمه اللَّهُمَّ تُبْ عليه .

وروي عن الحكم بن عمير صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "كونوا في الدنيا أضيافاً واتخذوا المساجد بيوتاً وعوّدوا قلوبكم الرقة وأكثروا التفكر والبكاء ولا تختلف بكم الأهواء .

تبنون ما لا تسكنون وتجمعون ما لا تأكلون وتؤمّلون ما لا تدركون " وقال أبو الدَّرْداء لابنه : ليكن المسجد بيتَك فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن المساجد

بيوت المتقين .

ومن كانت المساجد بيته ضمن الله تعالى له الرَّوح والراحة والجواز على الصراط " وكتب أبو صادق الأزدي إلى شعيب بن الحَبْحاب : أنْ عليك بالمساجد فالزمها ؛ فإنه بلغني أنها كانت مجالس الأنبياء .

وقال أبو إدريس الخَوْلانِيّ : المساجد مجالس الكرام من الناس .

وقال مالك بن دينار : بلغني أن الله تبارك وتعالى يقول "إني أَهُمّ بعذاب عبادي فأنظر إلى عُمّار المساجد وجلساء القرآن ووُلْدان الإسلام فيسكن غضبي " .

وروي عنه عليه السلام أنه قال : " سيكون في آخر الزمان رجال يأتون المساجد فيقعدون فيها حِلَقاً حِلَقا ذِكْرُهم الدنيا وحبَّها فلا تجالسوهم فليس لله بهم حاجة " وقال ابن المسيِّب : من جلس في مسجد فإنما يجالس ربّه ، فما حقّه أن يقول إلا خيراً .

وقد مضى من تعظيم المساجد وحرمتها ما فيه كفاية .

(45/550)

وقد جمع بعض العلماء في ذلك خمس عشرة خصلة ، فقال : من حرمة المسجد أن يسلّم وقت الدخول إن كان القوم جلوساً ، وإن لم يكن في المسجد أحد قال : السلام علينا وعلى

عباد الله الصالحين ، وأن يركع ركعتين قبل أن يجلس ، وألا يشتري فيه ولا يبيع ، ولا يَسُلّ فيه سهماً ولا سيفاً ، ولا يطلب فيه ضالة ، ولا يرفع فيه صوتاً بغير ذكر الله تعالى ، ولا يتكلّم فيه بأحاديث الدنيا ، ولا يتخطّى رقاب الناس ، ولا ينازع في المكان ، ولا يضيّق على أحد في الصف ، ولا يمرّ بين يدي مصلٍّ ، ولا يبصق ، ولا يتنخّم ولا يتمخّط فيه ، ولا يفرقع أصابعه ، ولا يعبث بشيء من جسده ، وأن يُنَزِّه عن النجاسات والصبيان والمجانين ، وإقامة الحدود ، وأن يكثر ذكر الله تعالى ولا يغفل عنه .

فإذا فعل هذه الخصال فقد أدّى حق المسجد ، وكان المسجد حرزاً له وحِصْناً من الشيطان الرجيم .

وفي الخبر : "أن مسجداً ارتفع بأهله إلى السماء يشكوهم إلى الله لما يتحدّثون فيه من أحاديث الدنيا" .

وروى الدّارَقُطْنِيّ عن عامر الشّعْبِيّ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من اقتراب الساعة أن يُرَى الهلال قَبَلاً فيقال لليلتين وأن تتّخذ المساجد طُرُقاً وأن يظهر موت الفجأة " وهذا يرويه عبد الكبير بن المعافى عن شريك عن العباس بن ذَرِيح عن الشعبي عن أنس .

وغيره يرويه عن الشعبي مرسلاً ، والله أعلم .

وقال أبو حاتم : عبد الكبير بن معافى ثقة كان يُعَدّ من الأبدال .

وفي البخاري عن أبي موسى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " من مَرّ في شيء من مساجدنا أو أسواقنا بنَبْل فليأخذ على نِصالها لا يَعْقِر بكفّه مسلماً " وخرّج مسلم عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " البُزاق في المسجد خطيئة وكفّارتها دفنها " وعن أبي ذرٍّ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " عُرِضت عليّ أعمال أمّتِي حَسَنُها وسيئها فوجدتُ في محاسن أعمالها الأذى يُماط عن الطريق ووجدت في مساوىء أعمالها النُّخاعة تكون في المسجد لا تُدفن " وخرّج أبو داود عن الفرج بن فضالة عن أبي سعد الحميري قال : رأيت واثلة بن الأَسْقع في مسجد دمشق بَصَق على الحصير ثم مسحه برجله ؛ فقيل له : لم فعلت هذا ؟ قال : لأني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعله .

فرج بن فضالة ضعيف ، وأيضاً فلم يكن في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم حُصُر .

والصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما بصق على الأرض ودلكه بنعله اليسرى ، ولعلّ واثلة إنما أراد هذا فحمل الحصير عليه .

السادسة عشرة : لما قال تعالى : "رجالٌ" وخصّهم بالذكر دلّ على أن النساء لا حظّ لهنّ في المساجد ؛ إذ لا جمعة عليهنّ ولا جماعة ، وأن صلاتهن في بيوتهن أفضل .

روى أبو داود عن عبد الله رضي الله عنه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " صلاة المرأة في بيتها أفضل من صلاتها في حجرتها وصلاتُها في مخدعها أفضل من صلاتها في بيتها " .

السابعة عشرة : قوله تعالى : ﴿ لاَّ تُلْهِيهِمْ ﴾ أي لا تشغلهم .

﴿ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَن ذِكْرِ الله ﴾ خصّ التجارة بالذكر لأنها أعظم ما يشتغل بها الإنسان عن الصلاة .

فإن قيل : فلمَ كرّر ذكر البيع والتجارةُ تشمله .

قيل له : أراد بالتجارة الشراء لقوله : "ولا بيع" .

نظيره قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انفضوا إِلَيْهَا ﴾ [الجمعة : 11] قاله الواقدي .

(47/550)

وقال الكلبي : التجار هم الجُلاّب المسافرون ، والباعة هم المقيمون .

﴿ عَن ذِكْرِ الله ﴾ اختلف في تأويله ؛ فقال عطاء : يعني حضور الصلاة ؛ وقاله ابن عباس ، وقال : المكتوبة .

وقيل عن الأذان ؛ ذكره يحيى بن سلام .

وقيل : عن ذكره بأسمائه الحسنى ؛ أي يوحدونه ويمجّدونه .

والآية نزلت في أهل الأسواق ؛ قاله ابن عمر .

قال سالم : جاز عبد الله بن عمر بالسّوق وقد أغلقوا حوانيتهم وقاموا ليصلّوا في جماعة فقال : فيهم نزلت ﴿ رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ ﴾ الآية .

وقال أبو هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : هم الذين يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله .

وقيل : إن رجلين كانا في عهد النبيّ صلى الله عليه وسلم ، أحدهما بياعاً فإذا سمع النداء بالصلاة فإن كان الميزان بيده طرحه ولا يضعه وَضعاً ، وإن كان بالأرض لم يرفعه .

وكان الآخر قَيْناً يعمل السيوف للتجارة ، فكان إذا كانت مِطْرقته على السَنْدان أبقاها موضوعة ، وإن كان قد رفعها ألقاها من وراء ظهره إذا سمع الأذان ؛ فأنزل الله تعالى هذا ثناء عليهما وعلى كل من اقتدى بهما .

الثامنة عشرة : قوله تعالى : ﴿ وَإِقَامِ الصلاة ﴾ هذا يدلّ على أن المراد بقوله : "عن ذكر

الله" غير الصلاة ؛ لأنه يكون تكراراً .

يقال : أقام الصلاة إقامةً ، والأصل إقواماً فقلبت حركةُ الواو على القاف فانقلبت الواو ألفاً وبعدها ألف ساكنة فحذفت إحداهما ، وأثبتت الهاء لئلا تحذفها فتُجْحف ، فلما أضيفت قام المضاف مقام الهاء فجاز حذفها ، وإن لم تضف لم يجز حذفها ؛ ألا ترى أنك تقول : وَعَد عِدَة ، ووَزَن زِنَة ، فلا يجوز حذف الهاء لأنك قد حذفت واواً ؛ لأن الأصل وَعَد وِعْدَةً ، ووَزَن وِزْنَة ، فإن أضفت حذفت الهاء ، وأنشد الفراء :

إنّ الخَلِيط أجَدُّوا البَيْنَ فانْجَرَدُوا . . .

وأخلفوك عِدَ الأمرِ الذي وَعَدُوا

يريد عِدَة ، فحذف الهاء لما أضاف .

(48/550)

وروي من حديث أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يأتي الله يوم القيامة بمساجد الدنيا كأنها نُجُب بيض قوائمها من العنبر وأعناقها من الزعفران ورؤوسها من المسك وأذِمّتها من الزبرجد الأخضر وقُوّامها والمؤذنون فيها يقودونها وأئمتها يسوقونها وعُمّارها متعلقون بها فتجوز عَرَصات القيامة كالبرق الخاطف فيقول أهل الموقف هؤلاء

ملائكة مقرَّبون أو أنبياء مرسلون فينادَى ما هؤلاء بملائكة ولا أنبياء ولكنهم أهل المساجد والمحافظون على الصلوات من أمة محمد صلى الله عليه وسلم "

وعن عليّ رضي الله عنه أنه قال : يأتي على الناس زمان لا يبقى من الإسلام إلا اسمه ، ولا من القرآن إلا رسمه ، يعمرون مساجدهم وهي من ذكر الله خراب ، شرُّ أهلِ ذلك الزمن علماؤهم ، منهم تخرج الفتنة وإليهم تعود ؛ يعني أنهم يعلمون ولا يعملون بواجبات ما علموا .

التاسعة عشرة : قوله تعالى : ﴿ وَإِيتَآءِ الزكاة ﴾ قيل : الزكاة المفروضة ؛ قاله الحسن .

وقال ابن عباس : الزكاة هنا طاعة الله تعالى والإخلاص ؛ إذ ليس لكل مؤمن مال .

﴿ يَخَافُونَ يَوْماً ﴾ يعني يوم القيامة .

﴿ تَتَقَلَّبُ فِيهِ القلوب والأبصار ﴾ يعني من هوله وحذر الهلاك .

والتقلّب التحوّل ، والمراد قلوب الكفار وأبصارهم .

فتقلب القلوب انتزاعها من أماكنها إلى الحناجر ، فلا هي ترجع إلى أماكنها ولا هي تخرج .

وأما تقلب الأبصار فالزَّرَق بعد الكَحَل والعَمَى بعد البصر .

وقيل : تتقلّب القلوب بين الطمع في النجاة والخوف من الهلاك ، والأبصار تنظر من أيّ ناحية يعطَوْن كتبهم ، وإلى أي ناحية يؤخذ بهم .

وقيل : إن قلوب الشاكين تتحول عما كانت عليه من الشك ، وكذلك أبصارهم لرؤيتهم

اليقين ؛ وذلك مثل قوله تعالى : ﴿ فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ اليوم حَدِيدٌ ﴾ [ق : 22] ؛ فما كان يراه في الدنيا غيًّا يراه رُشْداً ؛ إلا أن ذلك لا ينفعهم في الآخرة .

(49/550)

وقيل : تقلّب على جمر جهنم ؛ كقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النار ﴾ [الأحزاب : 66] ، ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ ﴾ [الأنعام : 110] .

في قول من جعل المعنى تقلّبها على لهب النار .

وقيل : تقلب بأن تلفحها النار مرة وتُنْضِجها مرة .

وقيل إن تقلب القلوب وَجِيبها ، وتقلّب الأبصار النظر بها إلى نواحي الأهوال .

﴿ لِيَجْزِيَهُمُ الله أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ ﴾ فذكر الجزاء على الحسنات ، ولم يذكر الجزاء على السيئات وإن كان يجازي عليها لأمرين : أحدهما : أنه ترغيب ، فاقتصر على ذكر الرغبة .

الثاني : أنه في صفة قوم لا تكون منهم الكبائر ؛ فكانت صغائرهم مغفورة .

﴿ وَيَزِيدَهُمْ مِّن فَضْلِهِ ﴾ يحتمل وجهين : أحدهما : ما يضاعفه من الحسنة بعشر أمثالها .

الثاني : ما يتفضل به من غير جزاء .

﴿ واللهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ أي من غير أن يحاسبه على ما أعطاه ؛ إذ لا نهاية لعطائه .

وروي أنه لما نزلت هذه الآية " أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ببناء مسجد قُبَاء ، فحضر عبد الله بن رَوَاحة فقال : يا رسول الله ، قد أفلح من بنى المساجد ؟ قال : "نعم يا ابن رواحة" قال : وصلّى فيها قائماً وقاعداً ؟ قال : "نعم يا ابن رواحة" قال : ولمَ يَبِت لله إلا ساجداً ؟ قال : "نعم يا ابن رواحة .

كفَّ عن السّجْع فما أعطى عبد شيئاً شراً من طلاقة في لسانه" " ؛ ذكره الماوَرْدي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 13 صـ ﴾

(50/550)

وقال أبو حيان :

﴿ في بيوت ﴾ متعلق بيوقد قاله الرماني ، أو في موضع الصفة لقوله ﴿ كمشكاة ﴾ أي كمشكاة في بيوت قاله الحوفي ، وتبعه الزمخشري قال ﴿ كمشكاة ﴾ في بعض بيوت الله وهي المساجد .

وقال ﴿ مثل نوره ﴾ كما ترى في المسجد نور المشكاة التي من صفتها كيت وكيت انتهى .

وقوله كأنه إلى آخره تفسير معنى لا تفسير إعراب أو في موضع الصفة لمصباح أي مصباح ﴿ في بيوت ﴾ قاله بعضهم أو في موضع الصفة لزجاجة قاله بعضهم ، وعلى هذه الأقوال الأربعة لا يوقف على قوله ﴿ عليم ﴾ .

وقيل : ﴿ في بيوت ﴾ مستأنف والعامل فيه ﴿ يسبح ﴾ حكاه أبو حاتم وجوزه الزمخشري .

فقال : وقد ذكر تعلقه بكمشكاة قال : أو بما بعده وهو ﴿ يسبح ﴾ أي ﴿ يسبح له ﴾ رجال في بيوت وفيها تكرير كقولك زيد في الدار جالس فيها أو بمحذوف كقوله ﴿ في تسع آيات ﴾ أي سبحوا في بيوت انتهى .

وعلى هذه الأقوال الثلاثة يوقف على قوله ﴿ عليم ﴾ والذي اختاره أن يتعلق ﴿ في بيوت ﴾ بقوله ﴿ يسبح ﴾ وإن ارتباط هذه بما قبلها هو أنه تعالى لما ذكر أنه يهدي لنوره من يشاء ذكر حال من حصلت له الهداية لذلك النور وهم المؤمنون ، ثم ذكر أشرف عبادتهم القلبية وهو تنزيههم الله عن النقائص وإظهار ذلك بالتلفظ به في مساجد الجماعات ، ثم ذكر سائر أوصافهم من التزام ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وخوفهم ما يكون في البعث .

ولذلك جاء مقابل المؤمنين وهم الكفار في قوله ﴿ والذين كفروا ﴾ وكأنه لما ذكرت

الهداية للنور جاء في التقسيم لقابل الهداية وعدم قابلها ، فبدىء بالمؤمن وما تأثر به من أنواع الهدى ثم ذكر الكافر .

والظاهر أن قوله ﴿ في بيوت ﴾ أريد به مدلوله من الجمعية .

وقال الحسن : أريد به بيت المقدس ، وسمى بيوتاً من حيث فيه يتحيز بعضها عن بعض ، ويؤثر أن عادة بني إسرائيل في وقيده في غاية التهمم والزيت مختوم على ظروفه وقد صنع صنعة وقدس حتى لا يجري الوقيد بغيره ، فكان أضوأ بيوت الأرض .

(51/550)

والظاهر أن ﴿ في بيوت ﴾ مطلق فيصدق على المساجد والبيوت التي تقع فيها الصلاة والعلم .

وقال مجاهد : بيوت الرسول (صلى الله عليه وسلم) .

وقال ابن عباس والحسن أيضاً ومجاهد : هي المساجد التي من عادتها أن تنور بذلك النوع من المصابيح .

وقيل : الكعبة وبيت المقدس ومسجد الرسول عليه الصلاة والسلام ومسجد قباء .

وقيل : بيوت الأنبياء .

ويقوي أنها المساجد قوله ﴿ يسبح له فيها بالغدو والآصال ﴾ وإذنه تعالى وأمره بأن ﴿ ترفع ﴾ أي يعظم قدرها قاله الحسن والضحاك .

وقال ابن عباس ومجاهد : تبنى وتعلى من قوله ﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ﴾ وقيل : ﴿ ترفع ﴾ تطهر من الأنجاس والمعاصي .

وقيل : ﴿ ترفع ﴾ أي ترفع فيها الحوائج إلى الله .

وقيل : ﴿ ترفع ﴾ الأصوات بذكر الله وتلاوة القرآن .

﴿ ويذكر فيها اسمه ﴾ ظاهره مطلق الذكر فيعم كل ذكر عموم البدل .

وعن ابن عباس : توحيده وهو لا إله إلاّ الله .

وعنه : يتلى فيها كتابه .

وقيل : أسماؤه الحسنى .

وقيل : يصلى فيها .

وقرأ الجمهور ﴿ يُسبح ﴾ بكسر الباء وبالياء من تحت ، وابن وثاب وأبو حيوة كذلك إلاّ أنه بالتاء من فوق ، وابن عامر وأبو بكر والبحتري عن حفص ومحبوب عن أبي عمرو والمهال عن يعقوب والمفضل وأبان بفتحها وبالياء من تحت واحد المجرورات في موضع المفعول الذي لم يسم فاعله ، والأولى الذي يلي الفعل لأن طلب الفعل للمرفوع أقوى من طلبه للمنصوب الفضلة .

وقرأ أبو جعفر : تسبح بالتاء من فوق وفتح الباء .

وقال الزمخشري : ووجهها أن تسند إلى أوقات الغدو والآصال على زيادة الباء ، وتجعل الأوقات مسبحة .

والمراد بها كصيد عليه يومان والمراد وحشهما انتهى .

ويجوز أن يكون المفعول الذي لم يسم فاعله ضمير التسبيحة الدال عليه ﴿ تسبح ﴾ أي تسبح له هي أي التسبيحة كما قالوا ﴿ ليجزي قوماً ﴾ في قراءة من بناه للمفعول أي ليجزي هو أي الجزاء .

(52/550)

وقرأ أبو مجلز : والإيصال وتقدم نظيره وارتفع ﴿ رجال ﴾ على هاتين القراءتين على الفاعلية بإضمار فعل أي ﴿ يسبح ﴾ أو يسبح له رجال .

واختلف في اقتياس هذا ، فعلى اقتياسه نحو ضربت هند زيد أي ضربها زيد ، ويجوز أن يكون خبر مبتدأ محذوف أي المسبح رجال .

وتقدم الكلام في تفسير الغدو والآصال والمراد بهما .

ثم ذكر تعالى وصف المسبحين بأنهم لمراقبتهم أمر الله وطلبهم رضاه لا يشتغلون عن ذكر

الله واحتمل قوله ﴿ لا تلهيهم تجارة ولا بيع ﴾ وجهين : أحدهما : أنهم لا تجارة لهم ولا بيع فيلهيهم عن ذكر الله كقوله :

على لاحب لا يهتدى بمناره . . .

أي لا منار له فيهتدى به .

والثاني : أنهم ذوو تجارة وبيع ولكن لا يشغلهم ذلك عن ذكر الله وعما فرض عليهم ، والظاهر مغايرة التجارة والبيع ، ولذلك عطف فاحتمل أن تكون تجارة من إطلاق العام ويراد به الخاص ، فأراد بالتجارة الشراء ولذلك قابله بالبيع ، أو يراد تجارة الجلب ويقال : تجر فلان في كذا إذا جلبه وبالبيع البيع بالأسواق ، ويحتمل أن يكون ﴿ ولا بيع ﴾ من ذكر خاص بعد عام ، لأن التجارة هي البيع والشراء طلباً للربح .

ونبه على هذا الخاص لأنه في الإلهاء أدخل من قبل أن التاجر إذا اتجهت له بيعة رابحة وهي طلبته الكلية من صناعته ألهته ما لا يلهيه شيء يتوقع فيه الربح لأن هذا يقين وذاك مظنون .

قال الزمخشري : التاء في إقامة عوض من العين الساقطة للإعلال والأصل أقوام ، فلما أضيفت أقيمت الإضافة مقام حرف التعويض فأسقطت ونحوه :

وأخلفوك عد الأمر الذي وعدوا . . .

انتهى .

وهذا الذي ذكر من أن التاء سقطت لأجل الإضافة هو مذهب الفراء ومذهب البصريين

، أن التاء من نحو هذا لا تسقط للإضافة وتقدم لنا الكلام على ﴿ وإقام الصلاة ﴾ في الأنبياء وصدر البيت الذي أنشد عجزه قوله :

إن الخليط أجدوا البين فانجردوا . . .

(53/550)

وقد تأول خالد بن كلثوم قوله عدا الأمر على أنه جمع عدوة ، والعدوة الناحية كأن الشاعر أراد نواحي الأمر وجوانبه .

﴿ يخافون يوماً ﴾ هو يوم القيامة ، والظاهر أن معنى ﴿ تتقلب ﴾ تضطرب من هول ذلك اليوم كما قال تعالى ﴿ وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر ﴾ فتقلبها هو قلقها واضطرابها ، فتتقلب من طمع في النجاة إلى طمع ومن حذر هلاك إلى هلاك .

وهذا المعنى تستعمله العرب في الحروب كقوله :

بل كان قلبك في جناحي طائر . . .

ويبعد قول من قال ﴿ تتقلب ﴾ على جمر جهنم لأن ذلك ليس في يوم القيامة بل بعده .

وقول من قال إن تقلبها ظهور الحق لها أي فتتقلب عن معتقدات الضلال إلى اعتقاد الحق على وجهه فتفقه القلوب بعد أن كانت مطبوعاً عليها ، وتبصر الأبصار بعد أن كانت عمياً

والقول الأول أبلغ في التهويل .

وقرأ ابن محيصن : تُقلب بإدغام التاء في التاء .

واللام في ﴿ ليجزيهم ﴾ متعلقة بمحذوف أي فعلوا ذلك ﴿ ليجزيهم ﴾ ويجوز أن تتعلق بيسبح وهو الظاهر .

وقال الزمخشري : والمعنى يسبحون ويخافون ﴿ ليجزيهم ﴾ انتهى .

والظاهر أن قوله ﴿ يخافون ﴾ صفة لرجال كما أن ﴿ لا تلهيهم ﴾ كذلك .

﴿ أحسن ﴾ هو على حذف مضاف أي ثواب أحسن ما عملوا ، أو ﴿ أحسن ﴾ جزاء ما عملوا .

﴿ ويزيدهم من فضله ﴾ على ما تقتضيه أعمالهم ، فأهل الجنة أبداً في مزيد .

وقال الزمخشري : ﴿ ليجزيهم ﴾ ثوابهم مضاعفاً ﴿ ويزيدهم ﴾ على الثواب تفضيلاً وكذلك معنى قوله ﴿ الحسنى ﴾ وزيادة المثوبة الحسنى ، وزيادة عليها من التفضل وعطاء الله عز وجل إما تفضل وإما ثواب وإما عوض .

﴿ والله يرزق من يشاء ﴾ ما يتفضل به ﴿ بغير حساب ﴾ فأما الثواب فله حسنات لكونه على حسب الاستحقاق انتهى .

وفي قوله على حسب الاستحقاق دسيسة اعتزال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

وقال الثعالبى :

وقوله تعالى : ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَن تُرْفَعَ ﴾

قال ابن عباس وغيره : هي المساجد المخصوصةُ بعبادة اللّه التي من عادتها أنْ تُنَوَّرَ بهذا النوع من المصابيح . وقوله : ﴿ أَذِنَ اللهُ ﴾ : بمعنى : أمر وقضى ، و ﴿ تُرْفَعَ ﴾ قيل : معناه تُبْنَى وتُعَلَّى ؛ قاله مجاهد وغيره ؛ كقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إبراهيم القواعد مِنَ البيت . . . ﴾ [البقرة : 127] .

وقال الحسن : معناه تُعظَّم ويُرْفَعُ شأنها ، وذكر اسمه تعالى هو بالصلاة والعبادة قولاً وفعلاً ، و ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا ﴾ أي : في المساجد ، ﴿ بالغدو والأصال ﴾ قال ابن عباس : أراد ركعتي الضُّحَى . والعصر ، وإنَّ ركعتي الضحى لفي كتاب اللّه وما يغوص عليها إلاَّ غوَّاصٌ ؛ ثم وصف تعالى المسبحين بأنهم لمراقبتهم أمرَ اللّه تعالى وطلبهم رضاه ، لا يشغلهم عن الصلاة وذكرِ اللّه شيءٌ من أمور الدنيا .

قلت : وعن عمر – رضي الله عنه – أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم قال : "يُجْمَعُ النَّاسُ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ ، يَنْفُذُهُمُ البَصَرُ ، ويُسْمِعُهُمُ الدَّاعِي ، فَيُنَادِي مُنَادٍ : سَيَعْلَمُ أَهْلُ الْجَمْعِ لِمَنِ الْكَرَمُ اليَوْمَ ثَلاثَ مَرَّاتٍ ، ثُمَّ يَقُولُ : أَيْنَ الَّذِينَ كَانَتْ ﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ المَضَاجِعِ ﴾ [السجدة : 16] ؟ ثُمَّ يَقُولُ : أَيْنَ الَّذِينَ كَانُوا ﴿ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللهِ ﴾ إلى آخر الآية ، ثُمَّ يُنَادِي مُنَادٍ : سَيَعْلَمُ أَهْلُ الجَمْعِ لِمَنِ الكَرَمُ اليَوْمَ ، ثُمَّ يَقُولُ : أَيْنَ الحَمَّادُونَ الَّذِينَ يَحْمَدُونَ رَبَّهُمْ " مختصراً رواه الحاكم في «المستدرك على الصحيحين» وله طرق عن أَبي إسحاقَ ، انتهى من «السلاح» ، ورواه أيضاً ابن المبارك من طريق ابن عباس قال : " إِذَا كَانَ يَوْمُ القِيَامَةِ نادى مُنَادٍ : سَتَعْلَمُونَ اليَوْمَ مَنْ أَصْحَابُ الكَرَمِ ، لِيَقُمْ الحَامِدُونَ لِلَّهِ تعالى على كُلِّ حَالٍ ، فَيَقُومُونَ ، فَيُسَرَّحُونَ إِلَى الجَنَّةِ ، ثُمَّ يُنَادِي ثَانِيَةً : سَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الكَرَمِ ؛ لِيَقُمِ الَّذِينَ كَانَتْ جُنُوبُهُمْ تتجافى عَنِ المَضَاجِعِ ؛ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ؛ قَالَ : فَيَقُومُونَ ، فَيُسَرَّحُونَ إِلى الجَنَّة ، ثُمَّ يُنَادِي ثَالِثَةً : سَتَعْلَمُونَ اليَوْمَ مَنْ أَصْحَابُ الكَرَمِ ؛ لِيَقُمَ الَّذِينَ كَانَتْ : ﴿ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللهِ وَإِقَامِ الصلاة وَإِيتَاء الزكاة يخافون يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ القلوب والأبصار ﴾ فَيَقُومُونَ ، فَيُسَرَّحُونَ إِلى الجَنَّة " انتهى من «التذكرة» . والزكاة هنا عند ابن عباس : الطاعة لله .

(56/550)

وقال الحسن : هي الزكاةُ المفروضة في المال ، واليوم المخوف : هو يوم القيامة ، ومعنى الآية : إنَّ ذلك اليومِ لشِدَّةِ هوله القلوبُ والأبصارُ فيه مضطربةٌ قِلِقَةٌ متقلبة .

قلت : ومن «الكلم الفارقية» : سعادة القلبِ إقباله على مُقَلِّبِهِ والعالِم بحال مَآله ومُنْقَلَبِهِ ، القلوبُ بحارٌ جواهرُها المعارفُ ، وسواحلها الألسنة وغواصها الفكرة النافذة ، غوّاصُ بحر الصُّوَرِ يغوصُ بصورته في طلب مكسبه ، والعارِفُ يغوص بمعنى قلبه في بحار غَيْبِ رَبِّهِ ، فيلتقط جواهرَ الحكمة ودُرَرَ الدِّرَايَةِ قلوبُ العارفين ، كالبحار تنعقد في أصداف ضمائرهم جواهِرُ المعارف والأسرار ، القلوب كالأراضي إلى من أسلمت إليه قلبك بذر فيه ما عنده أَمَّا مَنْ بذر نفسه ووسواسه العفن المسوس أو بذر فيه معرفته بالرب المقدس ، انتهى .

قلت : فإنْ أردت سلامتك في ذلك اليوم فليكن قلبك الآن مقبلاً على طاعة مولاك ؛ فإنه يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلاَّ مَنْ أَتَى اللّه بقلب سليم .

قال الواحِدِيُّ : تتقلب فيه القلوبُ بين الطمع في النجاة والخوفِ من الهلاك ، والأبصارُ تتقلَّبُ في أيِّ ناحية يؤخذ بهم أذاتَ اليمين أم ذاتَ الشمال ، ومن أيِّ جهة يُؤتون كتبَهم ، انتهى .

أهـ ﴿ الجواهر الحسان حـ 3 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسمه ﴾

لَمَّا ذُكر شأنُ القرآن الكريم في بيانه للشَّرائع والأحكام ومباديها وغاياتها المترتّبةِ عليها من الثَّوابِ والعقاب وغير ذلك من أحوال الآخرة وأهوالِها وأُشير إلى كونِه في غاية ما يكونُ من التَّوضيحِ والإظهار حيثُ مُثّل بما فُصّل من نور المشكاة ، وأُشير إلى أنَّ ذلك النُّورَ مع كونِه في أقصى مراتبِ الظُّهور إنَّما يهتدي بهداه من تعلَّقتْ مشيئةُ الله تعالى بهدايته دُونَ مَن عداه عقَّب ذلك بذكر الفريقينِ وتصوير بعض أعمالهم المُعربةِ عن كيفيَّةِ حالهم في الاهتداءِ وعدمه . والمرادُ بالبيوتِ المساجدُ كلّها حسبما رُوي عن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما وقيل : هي المساجدُ التي بناها نبيٌّ من أنبياء الله تعالى : الكعبةُ التي بناها إبراهيمُ وإسماعيلُ عليهما السَّلامُ وبيتُ المقدسِ الذي بناه داودُ وسليمانُ عليهما السَّلامُ ومسجدُ المدينةِ ومسجدُ قُباءَ اللذانِ بناهما رسولُ الله صلى الله عليه وسلم . وتنكيرُها للتَّفخيم والمرادُ بالإذنِ في رفعها الأمرُ ببنائها رفيعةً لا كسائر البيوتِ وقيل : هو الأمر برفعِ مقدارها بعبادة الله تعالى فيها فيكونُ عطفُ الذِّكرِ عليه من قبيل العطفِ التفسيريِّ . وأيًّا ما كان

ففي التَّعبير عنه بالإذن تلويحٌ بأنَّ اللائقَ بحال المأمور أنْ يكونَ متوجّهاً إلى المأمور به قبل ورود الأمر به ناوياً لتحقيقِه كأنَّه مستأذنٌ في ذلك فيقع الأمرُ به موقعَ الإذن فيه . والمرادُ بذكر اسمه تعالى ما يعمُّ جميعَ أذكارِه تعالى . وكلمةُ في متعلّقةٌ بقوله تعالى : ﴿ يُسَبّحُ لَهُ ﴾ وقولُه تعالى : ﴿ فِيهَا ﴾ تكريرٌ لها للتَّأكيد والتَّذكيرِ لما بينهما من الفاصلةِ وللإيذانِ بأنَّ التَّقديمَ للاهتمام لا لقصر التَّسبيحِ على الوقوع في البيوت فقط . وأصلُ التَّسبيحِ التَّنزيهُ والتَّقديسُ ، يُستعملُ باللامِ وبدونِها أيضاً كما في قوله تعالى : ﴿ سَبّحِ اسم ربّكَ الاعلى ﴾ قالوا : أُريد به

(58/550)

الصَّلواتُ المفروضةُ كما يُنبىء عنه تعيينُ الأوقاتِ بقوله تعالى : ﴿ بالغدو والأصال ﴾ أي بالغَدَواتِ والعَشَايا على أنَّ الغُدوَّ إمَّا جمعُ غداةٍ كقُنيَ في جمع قَنَاةٍ كما قيل . أو مصدرٌ أُطلق على الوقت حسبما يُشعر به اقترانُه بالآصالِ وهو جمع أَصيلٍ وهو العَشِيُّ وهو شامل لأوقاتِ ما عدا صلاةَ الفجرِ المؤدّاةَ بالغداةِ ، ويجوز أنْ يرادَ به نفسُ التَّنزيه على أنَّه عبارة عمَّا يقعُ منه في أثناء الصَّلواتِ وأوقاتها لزيادةِ شرفه وإنافتِه على سائر أفراده أو عمَّا يقعُ في جميع الأوقاتِ . وإفرادُ طرَفي النَّهارِ بالذِّكرِ لقيامِهما مقامَ كلِّها لكونِهما العمدةَ فيها

بكونِهما مشهورينَ وكونِهما أشهرَ ما يقعُ فيه المباشرةُ للأعمال والاشتغالُ بالأشغالِ .

وقُرِىء والإيصالِ وهو الدُّخولُ في الأصيلِ .

وقولُه تعالى : ﴿ رِجَالٌ ﴾ فاعلُ يُسبّحِ ، وتأخيرُه عن الظُّروفِ لما مرَّ مراراً من الاعتناءِ بالمقدَّم والتَّشويق إلى المؤخَّر ولأنَّ في وصفه نوعَ طُولٍ فيُخلُّ تقديمُه بحسن الانتظام . وقُرِىء يُسبِّحِ على البناء للمفعول بإسناده إلى أحد الظُّروف . ورجالٌ مرفوعٌ بما ينبىءُ عنه حكايةُ الفعلِ من غير تسميةِ الفاعل على طريقة قوله

(59/550)

لُيبكَ يزيدُ ضارعٌ لخصومةٍ . . . كأنه قيل : مَنْ يُسبّحِ له ؟ فقيل : يُسبّحِ له رجالٌ . وقُرِىء تُسبّحِ بتأنيثِ الفعلِ مبنيًّا للفاعلِ لأنَّ جمعَ التَّكسيرِ قد يُعامل معاملةَ المؤنَّثِ ومبنياً للمفعول على أنْ يُسندَ إلى أوقات العُدوّ والآصالِ بزيادة الباءِ وتجعلُ الأوقاتُ مسبّحةً مع كونِها فيها أو يُسند إلى ضميرِ التَّسبيحةِ أي تُسبَّح له التَّسبيحةُ على المجازِ المسوّغِ لإسناده إلى الوقتينِ كما خرَّجُوا قراءةَ أبي جَعفر ليُجزَى قوماً أي ليُجزَى الجزاءُ قَوْماً بل هذا أولى من ذلك إذْ ليس هنا مفعولٌ صريحٌ ﴿ لاَّ تُلْهِيهِمْ تجارة ﴾ صفةٌ لرجالٌ مؤكّدةٌ لما أفادَه التَّنكيرُ من الفخامةِ مفيدةٌ لكمال تبتُّلِهم إلى الله تعالى واتغراقهم فيما حُكي عنهم من التَّسبيحِ من غير

صارفٍ يلويهم ولا عاطفٍ يثنيهم كائناً ما كان وتخصيصُ التِّجارةِ بالذِّكرِ لكونِها أقوى الصَّوارفِ عندهم وأشهرَها أي لا يشغلُهم نوعٌ من أنواعِ التِّجارةِ ﴿ وَلاَ بَيْعٌ ﴾ أي ولا فردٌ من أفراد البياعاتِ وإنْ كان في غايةِ الرِّبحِ . وإفرادُه بالذِّكرِ مع اندراجِه تحت التِّجارة للإيذانِ بإنافتِه على سائرِ أنواعِها لأنَّ ربحَهُ متيقَّنٌ ناجزٌ وربحُ ما عداه متوقَّعٌ في ثاني الحال عند البيع فلم يلزمْ من نفيِ إلهاءِ ما عداه نفيُ إلهائِه ولذلك كُرِّرت كلمةُ لا لتذكيرِ النَّفيِ وتأكيدِه وقد نُقل عن الواقديِّ أنَّ المرادَ بالتِّجارة هو الشِّراءُ لأنَّه أصلُها ومبدؤها . وقيل : هو الجَلَبُ لأنَّه الغالبُ فيها ومنه يُقال : تَجَر في كَذا أي جَلَبه .

﴿ عَن ذِكْرِ الله ﴾ بالتَّسبيحِ والتَّحميدِ ﴿ وإقَامِ الصلاة ﴾ أي إقامتِها لمواقيتها من غير تأخيرٍ وقد أُسقطتْ التَّاءُ المُعوّضةُ عن العينِ السَّاقطةِ بالإعلال وعُوّض عنها الإضافةُ كما في قوله

(60/550)

وَأَخْلفُوكَ عِدَ الأَمْرِ الذي وَعدُوا . . . أي عدةَ الأمرِ ﴿ وَإِيتَآءِ الزكاة ﴾ أي المال الذي فُرض إخراجُه للمستحقِّين ، وإيرادُه ها هنا وإنْ لم يكن ممَّا يُفعل في البيوت لكونِه قرينةً لا تُفارق إقامةَ الصَّلاةِ في عامَّة المواضع مع ما فيه من التَّنبيه على أنَّ محاسنَ أعمالِهم غيرُ

منحصرةٍ فيما يقعُ في المساجدِ وكذلك قوله تعالى : ﴿ يَخَافُونَ ﴾ الخ ، فإنه صفةٌ ثانيةٌ لرجالٌ أو حالٌ من مفعول لا تُلهيهم ، وأيًّا ما كان فليس خوفُهم مقصُوراً على كونِهم في المساجد وقوله تعالى : ﴿ يَوْماً ﴾ مفعولُ ليخافون لا ظرفٌ له . وقولُه تعالى : ﴿ تَتَقَلَّبُ فِيهِ القلوب والأبصار ﴾ صفةٌ ليوماً أي تضطربُ وتتغيرُ في أنفسها من الهول والفزعِ وتشخصُ كما في قولِه تعالى :

﴿ وَإِذْ زَاغَتِ الأبصار وَبَلَغَتِ القلوب الحناجر ﴾ أو تتغيرُ أحوالُها وتتقلَّب فتتفقّه القلوبُ بعد أن كانتْ مطبوعاً عليها وتُبصر الأبصارُ بعد أنْ كانت عمياءَ أو تتقلَّب القلوبُ بين توقُّعِ النَّجاةِ وخوفِ الهلاكِ والإبصار من أيِّ ناحيةٍ يُؤخذ بهم ويُؤتى كتابُهم .

(61/550)

﴿ لِيَجْزِيَهُمُ الله ﴾ متعلّق بمحذوفٍ يدلُّ عليه ما حُكي من أعمالهم المرضيَّةِ أي يفعلُون ما يفعلُون من المُداومة على التَّسبيح والذّكرِ وإيتاءِ الزَّكاةِ والخوفِ من غير صارفٍ لهم عن ذلك ليجزيهم الله تعالى ﴿ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ ﴾ أي أحسنَ جزاءِ أعمالِهم حسبما وعد لهم بمقابلةِ حسنةٍ واحدةٍ عشر أمثالها إلى سبعمائةِ ضعفٍ ﴿ وَيَزِيدَهُم مّن فَضْلِهِ ﴾ أي يتفضَّلُ عليهم بأشياءَ لم تُوعد لهم بخصوصيَّاتِها أو بمقاديرِها ولم تخطُر ببالِهم كيفيَّاتُها ولا

كميَّاتُها بل إنَّما وُعدت بطريقِ الإجمالِ في مثل قوله تعالى : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الحسنى وَزِيَادَةٌ ﴾ وقوله عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ حكايةً عنه عزَّ وجلَّ : " أعددتُ لعبادي الصَّالحينَ ما لا عينٌ رأتْ ولا أذنٌ سمعتْ ولا خطرَ على قلبِ بشرٍ " وغيرِ ذلك من المواعيدِ الكريمةِ التي مِن جُملتِها قولُه تعالى : ﴿ واللهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاء بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ فإنَّه تذييلٌ مقرِّرٌ للزيادة ووعدٌ كريم بأنَّه تعالى يُعطيهم غيرَ أجزيةِ أعمالِهم من الخيرات ما لا يفي من الحساب وأما عدمُ سبقِ الوعدَ بالزِّيادة ولو إجمالاً وعدمُ خُطورِها ببالِهم ولو بوجهٍ ما فيأباهُ نظمُها في سلك الغايةِ . والموصولُ عبارةٌ عمَّن ذُكرتْ صفاتُهم الجميلةُ كأنَّه قيل : واللهُ يرزقُهم بغير حسابٍ ، ووضعه موضعَ ضميرهم للتَّنبيه بما في حيِّزِ الصِّلةِ على أنَّ مناطَ الرِّزقِ المذكُور محضُ مشيئتِه تعالى لا أعمالُهم المحكيَّةُ كما أنَّها المناطُ لما سبقَ من الهداية لنوره تعالى لا لتظاهر الأسباب وللإيذان بأنَّهم ممَّن شاءَ اللهُ تعالى أنْ يرزقَهم كما أنَّهم ممَّن شاءَ اللهُ تعالى أنْ يهديَهم لنُوره حسبَما يُعرب عنه ما فُصِّل من أعمالهم الحسنةِ فإنَّ جميعَ ما ذُكر من الذِّكرِ والتَّسبيحِ وإقامِ الصَّلاةِ وإيتاءِ الزَّكاةِ وخوفِ اليوم الآخرِ وأهوالِه ورجاءِ الثَّوابِ

(62/550)

مقتبسٌ من القُرآن الكريم الذي هو المعنيُّ بالنُّور وبه يتمُّ بيانُ أحوالِ مَن اهتدى بهُداه على أوضحِ وجهٍ وأجلاه هذا ، وقد قيل : قوله تعالى : ﴿ فِى بُيُوتٍ ﴾ الخ ، من تتمة التَّمثيلِ وكلمةُ في متعلَّقةٌ بمحذوفٍ هي صفة لمشكاةٍ أي كائنةٍ في بيوتٍ ، وقيل : لمصباح ، وقيل : لزجاجة ، وقيل : متعلّقةٌ بيُوقَد والكلُّ مما لا يليقُ بشأن التَّنزيلِ الجليلِ كيف لا وأنَّ ما بعد قولِه تعالى : ﴿ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ﴾ على ما هو الحقُّ أو ما بعد قوله تعالى : ﴿ نُورٌ على نُورٍ ﴾ على ما قيل إلى قولِه تعالى : ﴿ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ كلامٌ متعلّقٌ بالمُمَثَّل قطعاً فتوسيطُه بين أجزاءِ التَّمثيل مع كونِه من قبيل الفصل بين الشَّجر ولحائِه بالأجنبيِّ يؤدّي إلى كون ذكر حال المنتفعين بالتَّمثيلِ المهدّيِنَ بنور القُرآن الكريم بطريق الاستتباعِ والاستطرادِ مع كون بيانِ أضدادِهم مقصوداً بالذَّاتِ ، ومثلُ هذا ممَّا لا عهدَ به في كلام النَّاسِ فضلاً أنْ يُحملَ عليه الكلامُ المعجزُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 6 صـ ﴾

(63/550)

وقال الآلوسى :

﴿ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسمه يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بالغدو والاصال ﴾ .

﴿ رِجَالٌ ﴾ الخ استئناف لبيان حال من حصلت لهم الهداية لذلك النور وذكر بعض

أعمالهم القلبية والقالبية ، فالجار والمجرور أعني متعلق قوله تعالى : ﴿ فِى بُيُوتٍ ﴾ يسبح وفيها تكرير لذلك جيء به للتأكيد والتذكير بما بعد في الجملة وللإيذان بأن التقديم للاهتمام دون الحصر ، ومثل ما ذكر في التكرير للتأكيد قوله تعالى : ﴿ فَفِى رَحْمَةِ اللهِ هُمْ فِيهَا خالدون ﴾ [آل عمران : 107] وقولك مررت بزيد به ، وبعض النحاة أعرب نحو ذلك بدلاً كما في "شرح التسهيل" ، وفي "المغني" هو من توكيد الحرف بإعادة ما دخل عليه مضمراً وليس الجار والمجرور توكيداً للجار والمجرور لأن الظاهر لكونه أقوى لا يؤكد بالضمير ، وليس المجرور بدلاً بإعادة الجار لأنه لا يبدل مضمر من مظهر وإنما جوزه بعض النحاة قياساً ، وأنت تعلم أن ما ذكر غير وارد لأن المجموع بدل أو توكيد ، وأتى بالظاهر هرباً من التكرار ، و﴿ رِجَالٌ ﴾ فاعل ﴿ يُسَبِّحُ ﴾ وتأخيره عن الظروف لأن في وصفه نوع طول فيخل تقديمه بحسن الانتظام وقال الرماني ﴿ فِى بُيُوتٍ ﴾ متعلق ب ﴿ يوقد ﴾ [النور : 35] ، وقال الحوفي : متعلق بمحذوف وقع صفة ل ﴿ مشكاة ﴾ [النور : 35] ، وقيل هو صفة لمصباح ، وقيل صفة لزجاجة ، وهو على هذه الأقوال الأربعة تقييد للممثل به للمبالغة فيه ، والتنوين في الموصوف للنوعية لا للفردية لينافي ذلك جمع البيوت .

وأورد على ما ذكر أن شيئاً منه لا يليق بشأن التنزيل الجليل كيف لا وأن ما بعد قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ﴾ [النور : 35] على ما هو الحق أو بعد قوله سبحانه : ﴿ نُورٌ على نُورٍ ﴾ على مات قيل إلى قوله تعالى : ﴿ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [النور : 35] كلام متعلق بالممثل قطعاً فتوسيطه بين أجزاء التمثيل مع كونه من قبيل الفصل بين الشجر ولحائه بالأجنبي يؤدي إلى كون ذكر حال المنتفعين بالتمثيل المهديين لنوره تعالى بطريق الاستتباع والاستطراد مع كون بيان حال أضدادهم مقصوداً بالذات ومثل هذا مما لا عهد به في كلام الناس فضلاً أن يحمل عليه الكلام المعجز .

وتعقبه الخفاجي بأنه زخرف من القول إذ لا فصل فيه وما قبله إلى هنا من المثل ، والظاهر عندي أن التمثيل قد تم عند قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ﴾ [النور : 35] وقيل هو متعلق بسبحوا أو نحوه محذوفاً " وتلك الجملة على ما قيل مترتبة على ما قبلها وترك الفاء للعلم به كما في نحو قم يدعوك ، ومنعوا تعلقه بيذكر لأنه من صلة أن فلا يعمل فيما قبله ، والمراد بالبيوت المساجد كلها كما روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما .

وقتادة .

ومجاهد .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد أنه قال : إنما هي أربع مساجد لم يبنهن إلا نبي ، الكعبة

بناها إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام وبيت المقدس بناه داود وسليمان عليهما السلام ومسجد المدينة ومسجد قباء بناهما رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وعن الحسن أن المراد بها بيت المقدس والجمع من حيث أن فيه مواضع يتميز بعضها عن بعض وهو خلاف الظاهر جداً .

وأخرج ابن مردويه عن أنس بن مالك .

(65/550)

وبريدة قال : " قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم : هذه الآية ﴿ فِى بُيُوتٍ ﴾ الخ فقام إليه عليه الصلاة والسلام رجل فقال أي بيوت هذه يا رسول الله ؟ فقال صلى الله عليه وسلم بيوت الأنبياء عليهم السلام فقام إليه أبو بكر رضي الله تعالى عنه فقال : يا رسول الله هذا البيت منها لبيت علي وفاطمة رضي الله تعالى عنهما قال : نعم من أفاضلها " وهذا إن صح لا ينبغي العدول عنه .

وقال أبو حيان : الظاهر أنها مطلقة تصدق على المساجد والبيوت التي تقع فيها الصلاة والعلم ، وجوز أن يراد بها صلاة المؤمنين أو أبدانهم بأن تشبه صلاتهم الجامعة للعبادات القولية والفعلية أو أبدانهم المحيطة بالأنوار بالبيوت المذكورة أعني المساجد ثم يستعار

اسمها لذلك .

وتعقب بأنه لا حسن فيما ذكر وأظنك لا تكتفي بهذا المقدار من الجرح ، والمراد بالإذن الأمر وبالرفع التعظيم أي أمر سبحانه بتعظيم قدرها ، وروي هذا عن الحسن والضحاك ، ولا يخفى أنه إذا أريد بها المساجد فتعظيم قدرها يكون بأشياء شتى كصيانتها عن دخول الجنب والحائض والنفساء ولو على وجه العبور وقد قالوا بتحريم ذلك وإدخال نجاسة فيها يخاف منها التلويث ولذا قالوا : ينبغي لمن أراد أن يدخل المسجد أن يتعاهد النعل والخف عن النجاسة ثم يدخل فيه احترازاً عن تلويث المسجد ، ومنع إدخال الميت فيها ومنع إدخال الصبيان والمجانين وهو حرام حيث غلب تنجيسهم وإلا فهو مكروه ، وقد جاء الأمر بتجنيبهم عن المساجد مطلقاً .

أخرج ابن ماجه عن واثلة بن الأسقع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " جنبوا مساجدكم صبيانكم ومجانينكم وشراءكم وبيعكم وخصوماتكم ورفع أصواتكم وإقامة حدودكم وسل سيوفكم واتخذوا على أبوابها المطاهر وجمروها في الجمع " ومنع إنشاد الضالة وإنشاد الأشعار ، فقد أخرج الطبراني .

وابن السني .

وابن منده عن ثوبان قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " من رأيتموه ينشد شعراً في المسجد فقولوا فض الله تعالى فاك ثلاث مرات ومن رأيتموه ينشد ضالة في المسجد فقولوا : لا وجدتها ثلاث مرات " الحديث .

وينبغي أن يقيد المنع من إنشاد الشعر بما إذا كان فيه شيء مذموم كهجو المسلم .

وصفة الخمر .

وذكر النساء .

والمردان .

وغير ذلك مما هو مذموم شرعاً ، وأما إذا كان مشتملاً على مدح النبوة والإسلام أو كان مشتملاً على حكمة أو باعثاً على مكارم الأخلاق والزهد ونحو ذلك من أنواع الخير فلا بأس بإنشاده فيها ، ومنع القاء القملة فيه بعد قتلها وهو مكروه تنزيهاً على ما صرح به بعض المتأخرين ، ويندب أن لا تلقى حية في المسجد ، فقد أخرج ابن أبي شيبة وأحمد عن رجل من الأنصار قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" إذا وجد أحدكم القملة في المسجد فليصرها في ثوبه حتى يخرجها " ومنع البول فيها ولو في إناء وقد صرحوا بحرمة ذلك ، وفي الأشباه وأما الفصد في المسجد في إناء فلم أره ، وينبغي أن لا فرق أي لأن كلاً من البول والدم نجس مغلظ ، ومنع القاء البصاق فيها .

وفي "البدائع" يكره التوضىء في المسجد لأنه مستقذر طبعاً فيجب تنزيه المسجد عنه كما يجب تنزيهه عن المخاط والبلغم ، وأخرج ابن أبي شيبة عن الشعبي " أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى في قبلة المسجد نخامة فقام إليها فحكها بيده الشريفة صلى الله عليه وسلم ثم دعا بخلوق فلطخ مكانها " فقال الشعبي : هو سنة ، وذكروا أن إلقاء النخامة فوق الحصير أخف من وضعها تحته فإن اضطر إليه دفنها ، وفي حديث أخرجه ابن أبي شيبة عن أنس مرفوعاً " التفل في المسجد خطيئة وكفارته أن يواريه " وروى الطبراني في الأوسط عن ابن عباس مرفوعاً أيضاً نحوه ، ومنع الوطء فيها وفوقها كالتخلي وصرحوا بحرمة ذلك ، ومنع دخول من أكل ذا رائحة كريهة فيها كالثوم والبصل والكراث وآكل الفجل إذا تجشأ كذلك ، وقد كان الرجل في زمان النبي صلى الله عليه وسلم إذا وجد منه ريح الثوم يؤخذ بيده ويخرج إلى البقيع ، والظاهر أن الأبخر أو من به صنان مستحكم حكمه حكم آكل الثوم والبثل ، وكذا حكم من رائحة ثيابه كريهة كثياب الزياتين والدباغين ، وعن مالك أن الزياتين يتأخرون ولا يتقدمون إلى الصف الأول ويقعدون في أخريات الناس ، ومنع النوم والأكل فيها لغير معتكف ، ومنع الجلوس فيها للمصيبة أو للتحدث بكلام الدنيا ، ومنع

اتخاذها طريقاً وهو مكروه أو حرام .

وقد جاء النهي عن ذلك في حديث رواه ابن ماجه عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما مرفوعاً .

وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن مسعود أن اتخاذها طريقاً من أشراط الساعة ؛ وفي القنية معتاد ذلك يأثم ويفسق ، نعم إن كان هناك عذر لم يكره المرور ، ومن تعظيمها رشها وقمها ، فقد أخرج ابن أبي شيبة عن زيد ابن أسلم قال : كان المسجد يرش ويقم على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(68/550)

وأخرج عن يعقوب بن زيد أن النبي عليه الصلاة والسلام كان يتبع غبار المسجد بجريدة ؛ وكذا تعليق القناديل فيها وفرشها بالآجر والحصير ، وفي "مفتاح السعادة" ولأهل المسجد أن يفرشوا المسجد بالآجر والحصير ويعلقوا القناديل لكن من مال أنفسهم لا من مال المسجد إلا بأمر الحاكم ، ولعل محل ذلك ما لم يعين الواقف شيئاً من ريع الوقف لذلك ، وينبغي أن يكون إيقاد القناديل الكثيرة فيها في ليالي معروفة من السنة كليلة السابع والعشرين من رمضان الموجب لاجتماع الصبيان وأهل البطالة ولعبهم ورفع أصواتهم

وامتهانهم بالمساجد بدعة منكرة ، وكذا ينبغي أن يكون فرشها بالقطائف المنقوشة التي تشوش على المصلين وتذهب خشوعهم كذلك ، ومن التعظيم أيضاً تقديم الرجل اليمنى عند دخولها واليسرى عند الخروج منها ، وصلاة الداخل ركعتين قبل الجلوس إذا كان دخوله لغير الصلاة على ما ذكره بعضهم ، وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي قتادة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

" اعطوا المساجد حقها قيل : وما حقها ؟ قال : ركعتان قبل أن تجلس " ومن ذلك أيضاً بناؤها رفيعة عالية لا كسائر البيوت لكن لا ينبغي تزيينها بما يشوش على المصلين ، وفي حديث أخرجه ابن ماجه .

والطبراني عن جبير بن مطعم مرفوعاً أنها لا تبنى بالتصاوير ولا تزين بالقوارير .

وفسر بعضهم الرفع ببنائها رفيعة كما في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إبراهيم القواعد مِنَ البيت وإسماعيل ﴾ [البقرة : 127] والأولى عندي تفسيره بما سبق وجعل بنائها كذلك داخلاً في العموم ويدخل فيه أمور كثيرة غير ما ذكرنا وقد ذكرها الفقهاء وأطالوا الكلام فيها .

(69/550)

وزعم بعض المفسرين أن إسناد الرفع إليها مجاز ، والمراد ترفع الحوائج فيها إلى الله تعالى ، وقيل : ترفع الأصوات بذكر الله عز وجل فيها ، ولا يخفى ما فيه ، وفي التعبير عن الأمر بالإذن تلويح بأن اللائق بحال المأمور أن يكون متوجهاً إلى المأمور به قبل الأمر به ناوياً لتحقيقه كأنه مستأذن في ذلك فيقع الأمر به موقع الأمر فيه ، والمراد بذكر اسمه تعالى شأنه ما يعم جميع أذكاره تعالى ، وجعل من ذلك المباحث العلمية المتعلقة به عز وجل ، وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما المراد به توحيده عز وجل وهو قول : لا إله إلا الله ، وعنه أيضاً المراد تلاوة كتابه سبحانه .

وقيل : ذكر أسمائه تعالى الحسنى .

والظاهر ما قدمنا ، وعطف الذكر على الرفع من قبيل عطف الخاص على العام فإن ذكر اسمه تعالى فيها من أنواع تعظيمها ، وليس من عطف التفسير في شيء خلافاً لمن توهمه ، والتسبيح التنزيه والتقديس ويستعمل باللام وبدونها كما في قوله تعالى : ﴿ سَبِّحِ اسم رَبِّكَ الاعلى ﴾ [الأعلى : 1] والمراد به إما ظاهره أو الصلاة لاشتمالها عليه وروي هذا عن ابن عباس .

والحسن .

والضحاك .

وعن ابن عباس كل تسبيح في القرآن صلاة ، وأيد إرادة الصلاة هنا تعيين الأوقات بقوله

سبحانه : ﴿ بالغدو والاصال ﴾ [النور : 63] والغدو جمع غداة كفتى وفتاة أو مصدر أطلق على الوقت الغدو ، وأيد بأن أبا مجلز قرأ ﴿ والإيصال ﴾ مصدراً أي الدخول في وقت الأصيل ، و ﴿ الآصال ﴾ كما قال الجوهري جمع أصيل كشريف وأشراف ، واختاره جماعة مع أن جمع فعيل على أفعال ليس بقياسي .

واختار الزمخشري أنه جمع أصل كعنق وأعناق ؛ والأصل كالأصيل العشي وهو من زوال الشمس إلى الصباح فيشمل الأوقات ما عدا الغداة وهي من أول النهار إلى الزوال ويطلقان على أول النهار وآخره ، وإفرادهما بالذكر لشرفهما وكونهما أشهر ما يقع فيه المباشرة للأعمال والاشتغال بالأشغال .

(70/550)

وعن ابن عباس أنه حمل الغداة على وقت الضحى وهو مقتضى ما أخرج ابن أبي شيبة .

والبيهقي في شعب الإيمان عنه رضي الله تعالى عنه من قوله : "إن صلاة الضحى لفي القرآن وما يغوص عليها الاغواص وتلا الآية حتى بلغ الآصال .

وقرأ ابن عامر .

وأبو بكر .

والبحتري عن حفص .

ومحبوب عن أبي عمرو والمنهال عن يعقوب .

والمفضل وأبان ﴿ إِلاَّ يُسَبِّحُ ﴾ بالياء التحتية والبناء للمفعول ونائب الفاعل ﴿ لَهُ ﴾ أو ﴿ فِيهَا ﴾ إن لم يتعلق ﴿ فِى بُيُوتٍ ﴾ به أو ﴿ بالغدو ﴾ والأولية للأول لأنه ولى الفعل والاسناد إليه حقيقي دون الأخيرين .

وجوز أن يكون المجرور فيما ذكر نائب الفاعل والجار فيه زائداً ، وفيه ارتكاب لما لا داعي إليه ، ورفع ﴿ رِجَالٌ ﴾ على هذه القراءة على أنه فاعل لفعل محذوف أو خبر مبتدأ محذوف على ما في البحر أي يسبح له أو المسبح له رجال .

والجملة استئناف بياني وقع جواباً لسؤال نشأ من الكلام السابق .

وهذا نظير قوله

: ليبك يزيد ضارع لخصومة . . .

ومختبط مما تطيح الطوائح

وهو قياسي عند الكثير فيجوز عندهم أن يقال : ضربت هند زيد بتقدير ضربها أو ضاربها زيد .

وليس هذا كذكر الفاعل تمييزاً بعد الفعل المبني للمفعول نحو ضرب أخوك رجلاً المصرح

بعدم جوازه ابن هشام في الباب الخامس من المغنى وإن أوهمت العلة أنه مثله فتأمّل .

وقرأ أبو حيوة .

(71/550)

وابن وثاب ﴿ تُسَبّحُ ﴾ بالتاء الفوقية والبناء للفاعل وهو ﴿ رِجَالٌ ﴾ والتأنيث لأن جمع التكثير كثيراً ما يعامل معاملة المؤنث ، وقرى أبو جعفر ﴿ تُسَبّحُ ﴾ بالتاء الفوقية والبناء للمفعول وهو قوله تعالى : ﴿ بالغدو والاصال ﴾ على أن الباء زائدة والإسناد مجازي بجعل الأوقات المسبح فيها ربها مسبحة ، وجوز أبو حيان أن يكون الإسناد إلى ضمير التسبيحة الدالة عليه ﴿ تُسَبّحُ ﴾ أي تسبح هي أي التسبيحة كما قالوا في قوله تعالى : ﴿ لِيَجْزِىَ قَوْماً ﴾ [الجاثية : 14] على قراءة من بني ﴿ يجزى ﴾ للمفعول أي ليجزي هو أي الجزاء .

قال في إرشاد العقل السليم : وهذا أولى من التوجيه الأول إذ ليس هنا مفعول صريح .

وضعفه بعضهم هنا بأن الوحدة لا تناسب المقام ، وأجيب بالتزام كون الوحدة جنسية .

وأياً ما كان فرفع ﴿ رِجَالٌ ﴾ على هذه القراءة على الفاعلية أو الخبرية كما سمعت آنفاً .

والتنوين فيه على جميع القراءات للتفخيم ، وقوله سبحانه : ﴿ لاَّ تُلْهِيهِمْ تجارة ﴾ صفة له

مؤكدة لما أفاده التنوين من الفخامة مفيدة لكمال تبتلهم إلى الله تعالى من غير صارف يلويهم ولا عاطف يثنيهم كائناً مّا كان .

وتخصيص الرجال بالذكر لأنهم الأحقاء بالمساجد .

فقد أخرج أحمد .

والبيهقي عن أم سلمة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم " خير مساجد النساء قعر بيوتهن " وتخصيص التجارة التي هي المعاوضة مطلقاً بذلك لكونها أقوى الصوارف عندهم وأشهرها أي لا يشغلهم نوع من أنواع التجارة ﴿ وَلاَ بَيْعٌ ﴾ أي ولا فرد من أفراد البياعات وإن كان في غاية الربح .

(72/550)

وأفرادهم بالذكر مع اندراجه تحت التجارة للإيذان بإنافته على سائر أنواعها لأن ربحه متيقن ناجز وربح ما عداه متوقع في ثاني الحال عند البيع فلم يلزم من نفي إلهاء ما عداه نفي إلهائه ولذلك كرر كلمة ﴿ لا ﴾ لتذكير النفي وتأكيده ، وجوز أن يراد بالتجارة المعاوضة الرابحة وبالبيع المعاوضة مطلقاً فيكون ذكره بعدها من باب التعميم بعد التخصيص للمبالغة ، ونقل عن الواقدس أن المراد بالتجارة هو الشراء لأنه أصلها ومبدؤها فلا

تخصيص ولا تعميم ، وقيل : المراد بالتجارة الجلب لأنه الغالب فيها فهو لازم لها عادة .

ومنه يقال : تجر في كذا أي جلبه .

ويؤيد هذا ما أخرجه ابن أبي حاتم .

وابن مردويه عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال في هؤلاء الموصوفين بما ذكر : هم الذين يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله تعالى .

وأخرج الديلمي .

وغيره عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً نحوه ، وفي ذلك أيضاً ما يقتضي أنهم كانوا تجاراً وهو الذي يدل عليه ظاهر الآية لأنه لا يقال فلان لا تلهيه التجارة إلا إذا كان تاجراً وروي ذلك عن ابن عباس .

أخرج الطبراني .

وابن مردويه عنه أنه قال : أما والله لقد كانوا تجاراً فلم تكن تجارتهم ولا بيعهم يلهيهم عن ذكر الله تعالى ، وبه قال الضحاك ، وقيل : إنهم لم يكونوا تجاراً والنفي راجع للقيد والمقيد كما في قوله

: على لاحب لا يهتدي بمناره . . .

كأنه قيل : لا تجارة لهم ولا بيع فيلهيهم فإن الآية نزلت فيمن فرغ عن الدنيا كأهل الصفة ، وأنت تعلم أن الآية على الأول المؤيد بما سمعت أمدح ولم نجد لنزولها فيمن فرغ عن الدنيا

سنداً سنداً قوياً أو ضعيفاً ولا يكتفي في هذا الباب بمجرد الاحتمال ﴿ عَن ذِكْرِ الله ﴾ بالتسبيح والتحميد ونحوهما ﴿ لَّيْسَ البر ﴾ أي إقامتها لمواقيتها من غير تأخير .

والأصل أقوام فنقلت حركة الواو لما قبلها فالتقى ساكنان فحذفت فقيل : إقام ، وعن الزجاج أنه قلبت الواو القائم حذف لاجتماع ألفين .

(73/550)

وأورد عليه أنه لا داعي إلى قلبها ألفا مع فقد شرطه وهو أن لا يسكن ما بعدها .

وأوجب الفراء لجواز هذا الحذف تعويض التاء فيقال : إقامة أو الإضافة كما هنا .

وعلى هذا جاء قوله

: إن الخليط أجدوا البين وانجردوا . . .

وأخلفوك عدا الأمر الذي وعدوا

فإنه أراد عدة الأمر .

وتأول خالد بن كلثوم ما في البيت على أن عدا جمع عدوة بمعنى ناحية كأن الشاعر أراد نواحي الأمر وجوانبه .

ومذهب سيبويه جواز الحذف من عير تعويض التاء أو الإضافة ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً ﴾ .

المال الذي فرض إخراجه للمستحقين كما روي عن الحسن .

ويدل على تفسير الزكاة بذلك دون الفعل ظاهر إضافة الإيتاء إليها .

وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما تفسير إيتاء الزكاة بإخلاص طاعة الله تعالى وفيه بعد كما ترى ، وإيراد هذا الفعل ههنا وإن لم يكن مما يفعل في البيوت لكونه قرينة لا تفارق إقامة الصلاة في عامة المواضع مع ما فيه من التنبيه على أن محاسن أعمالهم غير منحصرة فيما يقع في المساجد .

وكذا قوله تعالى : ﴿ يَخَافُونَ ﴾ إلى آخره فإنه صفة أخرى لرجال أو حال من مفعول ﴿ لاَّ تُلْهِيهِمْ ﴾ أو استئناف مسوق للتعليل .

وأياً مّا كان فليس خوفهم مقصوراً على كونهم في المساجد .

(74/550)

وقوله تعالى : ﴿ يَوْماً ﴾ مفعول ليخافون على تقدير مضاف أي عقاب يوم وهو له أو بدونه وجعله ظرفاً لمفعول محذوف بعيد وأما جعله ظرفاً ليخافون والمفعول محذوف فليس بشسيء أصلاً إذ المراد أنهم يخافون في الدنيا يوماً ﴿ تَتَقَلَّبُ فِيهِ القلوب والابصار ﴾ لا أنهم يخافون شيئاً في ذلك اليوم الموصوف بأنه تتقلب فيه الخ ، والمراد به يوم القيامة ومعنى

تقلب القلوب والأبصار فيه اضطرابها وتغيرها أنفسها فيه من الهول والفزع كما في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ زَاغَتِ الأبصار وَبَلَغَتِ القلوب الحناجر ﴾ [الأحزاب : 10] أو تغير أحوالها بأن تفقه القلوب ما لم تكن تفقه وتبصر الأبصار ما لم تكن تبصر أو بأن تتوقع القلوب النجاة تارة وتخاف الهلاك أخرى وتنظر الأبصار يميناً تارة وشمالاً أخرى لما أن أغلب أهل الجمع لا يدرون من أي ناحية يؤخذ بهم ولا من أي جهة يؤتون كتبهم ، وقيل : المراد تقلب فيه القلوب والأبصار على جمر جهنم وليس بشيء ، ومثله قول الجبائي : أن المراد تنتقل من حال إلى حال فتلفحها النار ثم تنضجها ثم تحرقها ، وقرأ ابن محيصن ﴿ تَتَقَلَّبُ ﴾ بإسكان التاء الثانية .

(75/550)

﴿ لِيَجْزِيَهُمُ الله ﴾ متعلق على ما استظهره أبو حيان ب ﴿ يسبح ﴾ [النور : 36] وجوز أبو البقاء أن يتعلق بلا تلهيهم أو بيخافون ولا يخفى أن تعلقه بأحد المذكورين محوج إلى تأويل ، ولعل تعلقه بفعل محذوف يدل عليه ما حكى عنهم أولى من جميع ذلك أي يفعلون ما يفعلون من التسبيح والذكر وإيتاء الزكاة والخوف من غير صارف لهم عن ذلك ليجزيهم الله تعالى : ﴿ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ ﴾ واللام على سائر الأوجه للتعليل وقال أبو البقاء : يجوز أن

تكون لام الصيرورة كالتي في قوله تعالى : ﴿ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً ﴾ [القصص : 8] وموضع الجملة حال والتقدير يخافون ملهمين ليجزيهم الله وهو كما ترى ، والجزاء المقابلة والمكافأة على ما يحمد ويتعدى إلى الشخص المجزي بعن قال تعالى : ﴿ لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا ﴾ [البقرة : 48] وإلى ما فعله ابتداء بعلى تقول جزيته على فعله وقد يتعدى إليه بالباء فيقال جزيته بفعله وإلى ما وقع في مقابلته بنفسه وبالباء ، قال الراغب : يقال جزيته كذا وبكذا ، والظاهر أن أحسن هو ما وقع في المقابلة فيكون الجزاء قد تعدى إليه بنفسه ويحتاج إلى تقدير مضاف أي ليجزيهم أحسن جزاء عملهم أو الذي عملوه حسبما وعد لهم بمقابلة حسنة واحدة عشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف ليكون الأحسن من جنس الجزاء .

وجوز أن يكون الأحسن هو الفعل المجزي عليه أو به الشخص وليس هناك مضاف محذوف والكلام على حذف الجار أي ليجزيهم على أحسن أو بأحسن ما عملوا .

(76/550)

وأحسن العمل أدناه المندوب فاحترز به عن الحسن وهو المباح إذ لا جزاء له ورجح الأول بسلامته عن حذف الجار الذي هو غير مقيس في مثل ما نحن فيه بخلاف حذف المضاف

فإنه كثير مقيس ، وجوز أن يكون المضاف المحذوف قبل "أحسن" أي جزاء أحسن ما عملوا ، والظاهر أن المراد بما عملوا أعم مما سبق وبعضهم فسره به ﴿ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ﴾ أي يتفضل عليهم بأشياء لم توعد لهم بخصوصياتها أو بمقاديرها ولم يخطر ببالهم كيفياتها ولا كميتها بل إنما وعدت بطريق الإجمال في مثله قوله تعالى : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الحسنى وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس : 26] وقوله صلى الله عليه وسلم حكاية عنه عز وجل : " أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر " إلى غير ذلك من المواعيد الكريمة التي من جملتها قوله سبحانه : ﴿ واللهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاء بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ فإنه تذييل مقرر للزيادة ووعد كريم بأنه تعالى يعطيهم غير أجزية أعمالهم من الخيرات ما لا يفي به الحساب والموصول عبارة عمن ذكرت صفاهم الجميلة كأنه قيل والله يرزقهم بغير حساب ، ووضعه موضع ضميرهم للتنبيه بما في حيز الصلة على أن مناط الرزق المذكور محض مشيئته تعالى لا أعمالهم المحكية كما أنها المناط لما سبق من الهداية لنوره عز وجل وللإيذان بأنهم ممن شاء الله تعالى أن يرزقهم كما أنهم ممن شاء سبحانه أن يهديهم لنوره حسبما يعرب عنه ما فصل من أعمالهم الحسنة فإن جميعها من آثار الهداية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 18 صـ ﴾

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

لما بيّن سبحانه من الأحكام ما بين أردف ذلك بكونه سبحانه في غاية الكمال ، فقال ﴿ الله نُورُ السموات والأرض ﴾ ، وهذه الجملة مستأنفة لتقرير ما قبلها ، والاسم الشريف مبتدأ ، و ﴿ نور السموات والأرض ﴾ خبره ، إما على حذف مضاف ، أي : ذو نور السموات ، والأرض ، أو لكون المراد المبالغة في وصفه سبحانه بأنه نور لكمال جلاله ، وظهور عدله ، وبسطه أحكامه ، كما يقال : فلان نور البلد ، وقمر الزمن ، وشمس العصر ، ومنه قول النابغة :

فإنك شمس والملوك كواكب . . . إذا ظهرت لم يبق منهن كوكب

وقول الآخر :

هلا قصدت من البلاد لمفضل . . . قمر القبائل خالد بن يزيد

ومن ذلك قول الشاعر :

إذا سار عبد الله من مرو ليلة . . . فقد سار منها نورها وجمالها

وقول الآخر :

نسبٌ كأن عليه من شمس الضحى . . . نوراً ومن فلق الصباح عمودا

ومعنى النور في اللغة : الضياء ، وهو الذي يبين الأشياء ، ويري الأبصار حقيقة ما تراه ، فيجوز إطلاق النور على الله سبحانه على طريقة المدح ، ولكونه أوجد الأشياء المنوّرة ، وأوجد أنوارها ، ونوّرها ، ويدلّ على هذا المعنى قراءة زيد بن عليّ ، وأبي جعفر ، وعبد العزيز المكي ﴿ اللهُ نُورُ السموات والأرض ﴾ على صيغة الفعل الماضي ، وفاعله ضمير يرجع إلى الله ، والسماوات مفعوله ؛ فمعنى ﴿ اللهُ نُورُ السموات والأرض ﴾ إنه سبحانه صيرهما منيرتين باستقامة أحوال أهلهما ، وكمال تدبيره عزّ وجلّ لمن فيهما ، كما يقال : الملك نوّر البلد ، هكذا قال الحسن ، ومجاهد ، والأزهري ، والضحاك ، والقرظي ، وابن عرفة ، وابن جرير ، وغيرهم ، ومثله قول الشاعر :

وأنت لنا نور وغيث وعصمة . . . ونبت لمن يرجو نداك وريف

(78/550)

وقال هشام الجواليقي ، وطائفة من المجسمة : إنه سبحانه نور لا كالأنوار ، وجسم لا كالأجسام ، وقوله : ﴿ مَثَلُ نُورِهِ ﴾ مبتدأ ، وخبره : ﴿ كَمِشْكَاةٍ ﴾ أي : صفة نوره الفائض عنه ، الظاهر على الأشياء كمشكاة ، والمشكاة الكوّة في الحائط غير النافذة ، كذا حكاه الواحدي عن جميع المفسرين ، وحكاه القرطبي عن جمهورهم .

ووجه تخصيص المشكاة : أنها أجمع للضوء الذي يكون فيه من مصباح ، أو غيره ، وأصل المشكاة : الوعاء يجعل فيه الشيء .

وقيل : المشكاة عمود القنديل الذي فيه الفتيلة .

وقال مجاهد : هي القنديل .

والأوّل أولى ، ومنه قول الشاعر :

كأن عينيه مشكاتان في جحر . . . ثم قال ﴿ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾ وهو السراج ﴿ المصباح فِى زُجَاجَةٍ ﴾ قال الزجاج : النور في الزجاج ، وضوء النار أبين منه في كل شيء ، وضوؤه يزيد في الزجاج ، ووجه ذلك : أن الزجاج جسم شفاف يظهر فيه النور أكمل ظهور .

ثم وصف الزجاجة ، فقال : ﴿ الزجاجة كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ ﴾ أي : منسوب إلى الدرّ لكون فيه من الصفاء والحسن ما يشابه الدرّ .

وقال الضحاك : الكوكب الدرّي الزهرة .

قرأ أبو عمرو " دِريّ " بكسر الدال .

قال أبو عمرو : لم أسمع أعرابياً يقول : إلاّ كأنه كوكب درّيّ بكسر الدال ، أخذوه من درأت النجوم تدرأ إذا اندفعت .

وقرأ حمزة بضم الدال مهموزاً ، وأنكره الفراء والزجاج والمبرد .

وقال أبو عبيد : إن ضممت الدال وجب أن لا تهمز ، لأنه ليس في كلام العرب .

والدّراري : هي المشهورة من الكواكب كالمشتري ، والزهري ، والمريخ ، وما يضاهيها من الثوابت .

ثم وصف المصباح بقوله : ﴿ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مباركة ﴾ و"من" هذه هي الابتدائية : أي : ابتداء إيقاد المصباح منها ، وقيل : هو على تقدير مضاف ، أي : يوقد من زيت شجرة مباركة ، والمباركة : الكثيرة المنافع .

وقيل المنماة ، والزيتون من أعظم الثمار نماء ، ومنه قول أبي طالب ، يرثي مسافر بن أبي عمرو بن أمية بن عبد شمس :

(79/550)

ليت شعري مسافر بن أبي عمرو . . . وليت يقولها المحزون

بورك الميت الغريب كما . . . بورك نبع الرمان والزيتون

قيل : ومن بركتها أن أغصانها تورق من أسفلها إلى أعلاها ، وهي إدام ، ودهان ، ودباغ ، ووقود ، وليس فيها شيء إلاّ وفيه منفعة ، ثم وصفها بأنها ﴿ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ ﴾ .

وقد اختلف المفسرون في معنى هذا الوصف ، فقال عكرمة ، وقتادة ، وغيرهم : إن الشرقية هي التي تصيبها الشمس إذا شرقت ، ولا تصيبها إذا غربت .

والغربية هي التي تصيبها إذا غربت ، ولا تصيبها إذا شرقت .

وهذه الزيتونة هي في صحراء بحيث لا يسترها عن الشمس شيء لا في حال شروقها ، ولا في حال غروبها ، وما كانت من الزيتون هكذا ، فثمرها أجود .

وقيل : إن المعنى : إنها شجرة في دوحة قد أحاطت بها ، فهي غير منكشفة من جهة الشرق ، ولا من جهة الغرب ، حكى هذا ابن جرير عن ابن عباس .

قال ابن عطية : وهذا لا يصح عن ابن عباس ، لأن الثمرة التي بهذه الصفة يفسد جناها ، وذلك مشاهد في الوجود .

ورجح القول الأوّل الفراء ، والزجاج .

وقال الحسن : ليست هذه الشجرة من شجر الدنيا ، وإنما هو مثل ضربه الله لنوره ، ولو كانت في الدنيا لكانت إما شرقية وإما غربية .

قال الثعلبي : قد أفصح القرآن بأنها من شجر الدنيا ، لأن قوله : ﴿ زَيْتُونَةٍ ﴾ بدل من قوله : ﴿ شَجَرَةٍ ﴾ .

قال ابن زيد : إنها من شجر الشام ، فإن الشام لا شرقيّ ، ولا غربيّ ، والشام هي الأرض المباركة .

وقد قرىء " توقد " بالتاء الفوقية على أن الضمير راجع إلى الزجاجة دون المصباح ، وبها قرأ الكوفيون .

وقرأ شيبة ونافع وأيوب وسلام وابن عامر وأهل الشام وحفص : ﴿ يُوقَدُ ﴾ بالتحتية مضمومة ، وتخفيف القاف ، وضم الدال .

وقرأ الحسن ، والسلمي ، وأبو عمرو بن العلاء ، وأبو جعفر " توقد " بالفوقية مفتوحة ، وفتح الواو ، وتشديد القاف ، وفتح الدال على أنه فعل ماض من توقد يتوقد ، والضمير في هاتين القراءتين راجع إلى المصباح .

(80/550)

قال النحاس : وهاتان القراءتان متقاربتان لأنهما جميعاً للمصباح ، وهو أشبه بهذا الوصف لأنه الذي ينير ويضيء ، وإنما الزجاجة وعاء له .

وقرأ نصر بن عاصم كقراءة أبي عمرو ومن معه إلاّ أنه ضم الدال على أنه فعل مضارع ، وأصله تتوقد .

ثم وصف الزيتونة بوصف آخر ، فقال : ﴿ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ﴾ قرأ الجمهور ﴿ تمسسه ﴾ بالفوقية ، لأن النار مؤنثة .

قال أبو عبيد : إنه لا يعرف إلاّ هذه القراءة .

وحكى أبو حاتم : أن السدّي روى عن أبي مالك ، عن ابن عباس : أنه قرأ "يمسسه"

بالتحتية لكون تأنيث النار غير حقيقي .

والمعنى : أن هذا الزيت في صفائه وإنارته يكاد يضيء بنفسه من غير أن تمسه النار أصلاً ، وارتفاع ﴿ نُورٍ ﴾ على أنه خبر مبتدأ محذوف أي : هو نور ، و ﴿ على نُورٍ ﴾ متعلق بمحذوف ، هو صفة لنور مؤكدة له ، والمعنى : هو نور كائن على نور .

قال مجاهد : والمراد النار على الزيت .

وقال الكلبي : المصباح نور ، والزجاجة نور .

وقال السديّ : نور الإيمان ، ونور القرآن ﴿ يَهْدِى اللهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاء ﴾ من عباده أي : هداية خاصة موصلة إلى المطلوب ، وليس المراد بالهداية هنا مجرّد الدلالة ﴿ وَيَضْرِبُ الله الأمثالَ لِلنَّاسِ ﴾ أي : يبين الأشياء بأشباهها ، ونظائرها تقريباً لها إلى الأفهام وتسهيلاً لإدراكها ، لأن إبراز المعقول في هيئة المحسوس ، وتصويره بصورته يزيده وضوحاً وبياناً ﴿ والله بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ لا يغيب عنه شيء من الأشياء معقولاً كان أو محسوساً ، ظاهراً ، أو باطناً .

واختلف في قوله ﴿ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ الله أَن تُرْفَعَ ﴾ بما هو متعلق ؛ فقيل : متعلق بما قبله أي : كمشكاة في بعض بيوت الله ، وهي المساجد ، كأنه قيل : مثل نوره كما ترى في المسجد نور المشكاة التي من صفتها كيت وكيت ، وقيل : متعلق بمصباح .

وقال ابن الأنباري : سمعت أبا العباس يقول : هو حال للمصباح ، والزجاجة ، والكوكب ، كأنه قيل : وهي في بيوت ، وقيل : متعلق بتوقد أي : توقد في بيوت ، وقد قيل : متعلق بما بعده ، وهو ﴿ يسبح ﴾ أي : يسبح له رجال في بيوت ، وعلى هذا يكون قوله ﴿ فِيهَا ﴾ تكريراً كقولك ، زيد في الدار جالس فيها .

وقيل : إنه منفصل عما قبله ، كأنه قال الله : في بيوت أذن الله أن ترفع .

قال الحكيم الترمذي : وبذلك جاءت الأخبار أنه من جلس في المسجد فإنما يجالس ربه .

وقد قيل : على تقدير تعلقه بمشكاة ، أو بمصباح ، أو بتوقد ما الوجه في توحيد المصباح ، والمشكاة ، وجمع البيوت ؟ ولا تكون المشكاة الواحدة ، ولا المصباح الواحد إلاّ في بيت واحد .

وأجيب : بأن هذا من الخطاب الذي يفتح أوّله بالتوحيد ، ويختم بالجمع كقوله سبحانه : ﴿ يأَيُّهَا النبى إِذَا طَلَّقْتُمُ النساء ﴾ [الطلاق : 1] ونحوه .

وقيل : معنى ﴿ في بيوت ﴾ : في كلّ واحد من البيوت ، فكأنه قال : في كلّ بيت ، أو في كلّ واحد من البيوت .

واختلف الناس في البيوت ، على أقوال : الأوّل : أنها المساجد ، وهو قول مجاهد ، والحسن ، وغيرهما .

الثاني : أن المراد بها بيوت بيت المقدس ، روي ذلك عن الحسن .

الثالث : أنها بيوت النبيّ صلى الله عليه وسلم ، روي عن مجاهد .

الرابع : هي البيوت كلها ، قاله عكرمة .

الخامس : أنها المساجد الأربعة الكعبة ، ومسجد قباء ، ومسجد المدينة ، ومسجد بيت المقدس ، قاله ابن زيد .

والقول الأوّل أظهر لقوله : ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بالغدو والآصال ﴾ ، والباء من بيوت تضم ، وتكسر كلّ ذلك ثابت في اللغة ، ومعنى ﴿ أَذِنَ الله أَن تُرْفَعَ ﴾ : أمر وقضى ، ومعنى ﴿ تُرْفَعَ ﴾ تبنى ، قاله مجاهد ، وعكرمة ، وغيرهما ، ومنه قوله سبحانه : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إبراهيم القواعد مِنَ البيت ﴾ [البقرة : 127] .

(82/550)

وقال الحسن البصري ، وغيره : معنى ترفع تعظم ، ويرفع شأنها ، وتطهر من الأنجاس ، والأقذار ، ورجحه الزجاج وقيل : المراد بالرفع هنا مجموع الأمرين ، ومعنى ﴿ يُذْكَرَ فِيهَا اسمه ﴾ : كلّ ذكر لله عزّ وجلّ ، وقيل : هو التوحيد ، وقيل : المراد تلاوة القرآن ، والأوّل أولى .

﴿ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بالغدو والآصال رِجَالٌ ﴾ قرأ ابن عامر ، وأبو بكر " يسبح " بفتح الباء الموحدة مبنياً للمفعول ، وقرأ الباقون بكسرها مبنياً للفاعل إلاّ ابن وثاب ، وأبا حيوة ، فإنهما قرآ بالتاء الفوقية ، وكسر الموحدة ، فعلى القراءة الأولى يكون القائم مقام الفاعل أحد المجرورات الثلاثة ، ويكون رجال مرفوع على أحد وجهين : إما بفعل مقدّر ، وكأنه جواب سؤال مقدّر ، كأنه قيل : من يسبحه ؟ فقيل يسبحه رجال .

الثاني : أن رجال مرتفع على أنه خبر مبتدأ محذوف ، وعلى القراءة الثانية يكون رجال فاعل يسبح ، وعلى القراءة الثالثة يكون الفاعل أيضاً رجال ، وإنما أنث الفعل لكون جمع التكسير يعامل معاملة المؤنث في بعض الأحوال .

واختلف في هذا التسبيح ما هو ؟ فالأكثرون حملوه على الصلاة المفروضة ، قالوا : الغدوّ صلاة الصبح ، والآصال : صلاة الظهر والعصر والعشاءين ، لأن اسم الآصال يشملها ، ومعنى بالغدوّ والآصال : بالغداة والعشي ، وقيل : صلاة الصبح والعصر ، وقيل : المراد صلاة الضحى ، وقيل : المراد بالتسبيح هنا معناه الحقيقي ، وهو : تنزيه الله سبحانه عما لا يليق به في ذاته ، وصفاته ، وأفعاله ، ويؤيد هذا ذكر الصلاة والزكاة بعده ، وهذا أرجح مما قبله ، لكونه المعنى الحقيقي مع وجود دليل يدل على خلاف ما ذهب إليه الأوّلون ، وهو ما ذكرناه .

﴿ لاَّ تُلْهِيهِمْ تجارة وَلاَ بَيْعٌ عَن ذِكْرِ الله ﴾ هذه الجملة صفة لرجال ، أي : لا تشغلهم

التجارة والبيع عن الذكر ؛ وخصّ التجارة بالذكر ؛ لأنها أعظم ما يشتغل به الإنسان عن الذكر .

(83/550)

وقال الفراء : التجارة لأهل الجلب ، والبيع ما باعه الرجل على بدنه ، وخصّ قوم التجارة هاهنا بالشراء لذكر البيع بعدها ، وبمثل قول الفراء .

قال الواقدي ، فقال : التجار هم : الجلاب المسافرون ، والباعة : هم المقيمون ، ومعنى ﴿ عَن ذِكْرِ الله ﴾ : هو ما تقدّم في قوله : ﴿ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسمه ﴾ ، وقيل : المراد الآذان ، وقيل : عن ذكره بأسمائه الحسنى أي : يوحدونه ، ويمجدونه .

وقيل : المراد عن الصلاة ، ويردّه ذكر الصلاة بعد الذكر هنا .

والمراد بإقام الصلاة إقامتها لمواقيتها من غير تأخير ، وحذفت التاء ؛ لأن الإضافة تقوم مقامها في ثلاث كلمات جمعها الشاعر في قوله :

ثلاثة تحذف تاآتها . . . مضافة عند جمع النحاة

وهي إذا شئت أبو عذرها . . . وليت شعري وإقام الصلاة

وأنشد الفراء في الاستشهاد للحذف المذكور في هذه الآية قول الشاعر :

إن الخليط أجدوا البين وانجردوا . . . وأخلفوك عد الأمر الذي وعدوا

أي : عدة الأمر ، وفي هذا البيت دليل على أن الحذف مع الإضافة لا يختص بتلك الثلاثة المواضع .

قال الزجاج : وإنما حذفت الهاء لأنه يقال : أقمت الصلاة إقامة ، وكان الأصل إقواماً ، ولكن قلبت الواو ألفاً ، فاجتمعت ألفان فحذفت إحداهما لالتقاء الساكنين ، فبقي أقمت الصلاة إقاماً ، فأدخلت الهاء عوضاً من المحذوف ، وقامت الإضافة ها هنا في التعويض مقام الهاء المحذوفة ، وهذا إجماع من النحويين .

انتهى .

وقد احتاج من حمل ذكر الله على الصلاة المفروضة : أن يحمل إقامة الصلاة على تأديتها في أوقاتها فراراً من التكرار ، ولا ملجىء إلى ذلك ، بل يحمل الذكر على معناه الحقيقي كما قدّمنا .

والمراد بالزكاة المذكورة هي : المفروضة ، وقيل : المراد بالزكاة طاعة الله ، والإخلاص ، إذ ليس لكلّ مؤمن مال .

(84/550)

﴿ يخافون يَوْماً ﴾ أي : يوم القيامة ، وانتصابه على أنه مفعول للفعل لا ظرف له ، ثم وصف هذا اليوم بقوله ﴿ تَتَقَلَّبُ فِيهِ القلوب والأبصار ﴾ أي : تضطرب ، وتتحوّل ، قيل : المراد بتقلب القلوب انتزاعها من أماكنها إلى الحناجر فلا ترجع إلى أماكنها ، ولا تخرج ، والمراد بتقلب الأبصار هو : أن تصير عمياء بعد أن كانت مبصرة .

وقيل : المراد بتقلب القلوب أنها تكون متقلبة بين الطمع في النجاة ، والخوف من الهلاك ، وأما تقلب الأبصار فهو : نظرها من أيّ ناحية يؤخذون ، وإلى أيّ ناحية يصيرون .

وقيل : المراد تحوّل قلوبهم وأبصارهم عما كانت عليه من الشك إلى اليقين ، ومثله قوله : ﴿ فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءكَ فَبَصَرُكَ اليوم حَدِيدٌ ﴾ [ق : 22] .

فما كان يراه في الدنيا غياً يراه في الآخرة رشداً .

وقيل : المراد : التقلب على جمر جهنم ، وقيل غير ذلك .

﴿ لِيَجْزِيَهُمُ الله أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ ﴾ متعلق بمحذوف ، أي : يفعلون ما يفعلون من التسبيح ، والذكر ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ليجزيهم الله أحسن ما عملوا أي : أحسن جزاء أعمالهم حسبما وعدهم من تضعيف ذلك إلى عشرة أمثاله ، وإلى سبعمائة ضعف ، وقيل : المراد بما في هذه الآية ما يتفضل سبحانه به عليهم زيادة على ما يستحقونه ، والأوّل أولى لقوله : ﴿ وَيَزِيدَهُم مّن فَضْلِهِ ﴾ فإن المراد به التفضل عليهم بما فوق الجزاء الموعود به ﴿ والله يَرْزُقُ مَن يَشَاء بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ أي : من غير أن يحاسبه على ما أعطاه ، أو أن

عطاءه سبحانه لا نهاية له ، والجملة مقرّرة لما سبقها من الوعد بالزيادة .

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله ﴿ اللهُ نُورُ السموات والأرض ﴾ قال : يدبر الأمر فيهما نجومهما ، وشمسهما ، وقمرهما .

(85/550)

وأخرج الفريابي عنه في قوله ﴿ اللهُ نُورُ السموات والأرض ﴾ مثل نوره الذي أعطاه المؤمن ﴿ كَمِشْكَاةٍ ﴾ ، وقال في تفسير ﴿ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ ﴾ إنها التي في سفح جبل لا تصيبها الشمس إذا طلعت ولا إذا غربت ﴿ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ على نُورٍ ﴾ فذلك مثل قلب المؤمن نور على نور .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن الأنباري في المصاحف ، عن الشعبيّ قال : في قراءة أبيّ بن كعب : " مثل نور المؤمن كمشكاة " .

وأخرج ابن أبي حاتم والحاكم وصححه عن ابن عباس في الآية قال : يقول مثل نور من آمن بالله كمشكاة ، وهي الكوّة .

وأخرج ابن أبي حاتم عنه : ﴿ مَثَلُ نُورِهِ ﴾ قال : هي خطأ من الكاتب هو أعظم من أن يكون نوره مثل نور المشكاة ، قال : مثل نور المؤمن كمشكاة .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والبيهقي في الأسماء والصفات عنه أيضاً ﴿ اللهُ نُورُ السموات والأرض ﴾ قال : هادي أهل السماوات والأرض ﴿ مَثَلُ نُورِهِ ﴾ : مثل هداه في قلب المؤمن ﴿ كَمِشْكَاةٍ ﴾ يقول : موضع الفتيلة كما يكاد الزيت الصافي يضيء قبل أن تمسه النار ، فإذا مسته النار ازداد ضوءاً على ضوئه ، كذلك يكون قلب المؤمن يعمل بالهدى قبل أن يأتيه العلم ، فإذا جاءه العلم ازداد هدى على هدى ، ونوراً على نور ، وفي إسناده عليّ بن أبي طلحة ، وفيه مقال .

(86/550)

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه عن أبيّ بن كعب ﴿ اللهُ نُورُ السموات والأرض مَثَلُ نُورِهِ ﴾ قال : هو المؤمن الذي قد جعل الإيمان والقرآن في صدره ، فضرب الله مثله ، فقال ﴿ نُورٍ السموات والأرض مَثَلُ نُورِهِ ﴾ فبدأ بنور نفسه ، ثم ذكر نور المؤمن ، فقال : مثل نور من آمن به ، فكان أبيّ بن كعب يقرؤها " مثل نور من آمن به " فهو المؤمن ، جعل الإيمان والقرآن في صدره ﴿ كَمِشْكَاةٍ ﴾ قال : فصدر المؤمن المشكاة ﴿ فِيهَا مِصْبَاحٌ المصباح ﴾ : النور ، وهو القرآن والإيمان الذي جعل في صدره ﴿ فِى زُجَاجَةٍ ﴾ و ﴿ الزجاجة ﴾ قلبه ﴿ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ

﴿ يقول كوكب مضيء ﴿ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مباركة ﴾ ، والشجرة المباركة : أصل المبارك الإخلاص لله وحده ، وعبادته لا شريك له ﴿ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ ﴾ قال : فمثله كمثل شجرة التفت بها الشجر ، فهي خضراء ناعمة لا تصيبها الشمس على أيّ حال كانت ، لا إذا طلعت ولا إذا غربت ، فكذلك هذا المؤمن قد أجير من أن يضله شيء من الفتن .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس : أن اليهود قالوا لمحمد : كيف يخلص نور الله من دون السماء ؟ فضرب الله مثل ذلك لنوره ، فقال ﴿ اللهُ نُورُ السموات والأرض مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ ﴾ المشكاة كوّة البيت فيها مصباح ، وهو : السراج يكون في الزجاجة ، وهو : مثل ضربه الله لطاعته ، فسمى طاعته نوراً ، ثم سماها أنواعاً شتى ﴿ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ ﴾ قال : وهي وسط الشجر لا تنالها الشمس إذا طلعت ، ولا إذا غربت ، وذلك أجود الزيت ﴿ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ ﴾ بغير نار ﴿ نُورٌ على نُورٍ ﴾ يعني بذلك : إيمان العبد وعلمه ﴿ يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ ﴾ وهو مثل المؤمن .

(87/550)

وأخرج الطبراني وابن عدي وابن مردويه وابن عساكر عن ابن عمر في قوله : ﴿ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾ قال : المشكاة جوف محمد صلى الله عليه وسلم ، والزجاجة قلبه ، والمصباح النور الذي في قلبه .

﴿ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مباركة ﴾ الشجرة : إبراهيم ﴿ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ ﴾ لا يهودية ولا نصرانية ، ثم قرأ ﴿ مَا كَانَ إبراهيم يَهُودِيّا وَلاَ نَصْرَانِيّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ المشركين ﴾ [آل عمران : 67] .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، وابن مردويه عن شمر بن عطية قال : جاء ابن عباس إلى كعب الأحبار فقال : حدّثني عن قول الله ﴿ اللهُ نُورُ السموات والأرض مَثَلُ نُورِهِ ﴾ قال : مثل نور محمد صلى الله عليه وسلم كمشكاة قال : المشكاة : الكوّة ضربها الله مثلاً لقمة فيها مصباح ، والمصباح قلبه ﴿ المصباح فِي زُجَاجَةٍ ﴾ ، والزجاجة صدره ﴿ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ ﴾ شبه صدر محمد صلى الله عليه وسلم بالكوكب الدرّيّ ، ثم رجع المصباح إلى قلبه ، فقال : ﴿ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مباركة .

. .

يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ ﴾ قال : يكاد محمد صلى الله عليه وسلم يبين للناس ، ولو لم يتكلم أنه نبيّ ، كما يكاد الزيت أن يضيء ، ولو لم تمسسه نار .

وأقول : إن تفسير النظم القرآني بهذا ونحوه مما تقدّم عن أبيّ بن كعب وابن عباس وابن عمر رضي الله عنهم ليس على ما تقتضيه لغة العرب ، ولا ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يجوّز العدول عن المعنى العربي إلى هذه المعاني التي هي شبيهة بالألغاز والتعمية ، ولكن هؤلاء الصحابة ، ومن وافقهم ممن جاء بعدهم استبعدوا تمثيل نور الله سبحانه بنور المصباح في المشكاة ، ولهذا قال ابن عباس : هو أعظم من أن يكون نوره مثل نور المشكاة كما قدّمنا عنه ، ولا وجه لهذا الاستبعاد .

(88/550)

فإنا قد قدّمنا في أوّل البحث ما يرفع الإشكال ويوضح ما هو المراد على أحسن وجه ، وأبلغ أسلوب ، وعلى ما تقتضيه لغة العرب ، ويفيده كلام الفصحاء ، فلا وجه للعدول عن الظاهر ، لا من كتاب ، ولا من سنة ، ولا من لغة .

وأما ما حكي عن كعب الأحبار في هذا كما قدّمنا ، فإن كان هو سبب عدول أولئك الصحابة الأجلاء عن الظاهر في تفسير الآية ، فليس مثل كعب رحمه الله ممن يقتدى به في مثل هذا .

وقد نبهناك فيما سبق : أن تفسير الصحابي إذا كان مستنده الرواية عن أهل الكتاب كما

يقع ذلك كثيراً ، فلا تقوم به الحجة ، ولا يسوغ لأجله العدول عن التفسير العربي ، نعم إن صحت قراءة أبيّ بن كعب ، كانت هي المستند لهذه التفاسير المخالفة للظاهر ، وتكون كالزيادة المبينة للمراد ، وإن لم تصح ، فالوقوف على ما تقتضيه قراءة الجمهور من السبعة ، وغيرهم ممن قبلهم ، وممن بعدهم هو المتعين .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس : ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَن تُرْفَعَ ﴾ قال : هي المساجد تكرم ، وينهى عن اللغو فيها ، ويذكر فيها اسم الله ، يتلى فيها كتابه ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بالغدو والآصال ﴾ صلاة الغداة وصلاة العصر ، وهما أوّل ما فرض الله من الصلاة فأحبّ أن يذكرهما ، ويذكر بهما عباده .

وقد ورد في تعظيم المساجد ، وتنزيهها عن القذر ، وتنظيفها ، وتطييبها أحاديث ليس هذا موضع ذكرها .

وأخرج ابن أبي شيبة والبيهقي في الشعب عن ابن عباس قال : إن صلاة الضحى لفي القرآن ، وما يغوص عليها إلى غوّاص في قوله : ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسمه يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بالغدو والآصال ﴾ .

(89/550)

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي هريرة ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله : ﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ قال : " هم الذين يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله " وأخرج ابن مردويه والديلمي عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله : ﴿ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ قال : " هم الذين يبتغون من فضل الله " وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس في الآية ، قال : كانوا رجالاً يبتغون من فضل الله يشترون ويبيعون ، فإذا سمعوا النداء بالصلاة ألقوا ما في أيديهم ، وقاموا إلى المسجد ، فصلوا .

وأخرج ابن أبي حاتم والحاكم والبيهقي في الشعب عنه في الآية ، قال : ضرب الله هذا المثل قوله : ﴿ كَمِشْكَاةٍ ﴾ لأولئك القوم الذين لا تلهيهم تجارة ، ولا بيع عن ذكر الله ، وكانوا أتجر الناس ، وأبيعهم ، ولكن لم تكن تلهيهم تجارتهم ، ولا بيعهم عن ذكر الله .

وأخرج ، عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، عنه أيضاً عَن ذِكْرِ اللَّهِ قال : عن شهود الصلاة .

وأخرج عبد الرزّاق ، وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عمر : أنه كان في السوق ، فأقيمت الصلاة فأغلقوا حوانيتهم ، ثم دخلوا المسجد ، فقال ابن عمر فيهم : نزلت ﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ .

وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير والطبراني والبيهقي في الشعب عن ابن مسعود : أنه

رأى ناساً من أهل السوق سمعوا الأذان ، فتركوا أمتعتهم ، فقال : هؤلاء الذين قال الله فيهم : ﴿ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللهِ ﴾ .

(90/550)

وأخرج هناد بن السري في الزهد ، وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الشعب ، ومحمد ابن نصر في الصلاة ، عن أسماء بنت يزيد قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يجمع الله يوم القيامة الناس في صعيدٍ واحدٍ يسمعهم الداعي ، وينفذهم البصر ، فيقوم منادٍ ، فينادي : أين الذين كانوا يحمدون الله في السرّاء والضرّاء ؟ فيقومون ، وهم قليل ، فيدخلون الجنة بغير حساب ؛ ثم يعود فينادي : أين الذين كانت تتجافى جنوبهم عن المضاجع ؟ فيقومون ، وهم قليل فيدخلون الجنة بغير حساب ؛ ثم يعود فينادي : ليقم الذين كانوا لا تلهيهم تجارة ، ولا بيع عن ذكر الله ، فيقومون ، وهم قليل فيدخلون الجنة بغير حساب ، ثم يقوم سائر الناس ، فيحاسبون " وأخرج الحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الشعب ، عن عقبة بن عامر مرفوعاً نحوه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 4 صـ ﴾

(91/550)

وقال القاسمي :

﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ ﴾

أي : أمر أن تعظم عن اللغو ، أو ترفع بالبناء قدراً . ويتلى فيه اسمه ، ولا يعبد فيها غيره ، لأنه شيدت على اسمه جل شأنه . والظرف صفة لمشكاة أو لمصباح أو لزجاجة أو متعلق بتوقد أو بمحذوف . أي : سبحوه في بيوت . أو بيسبّح . ولفظ فيها تكرار للتوكيد .

قال أبو السعود : لما ذكر شأن القرآن الكريم في بيانه للشرائع والأحكام ، ومبادئها وغاياتها المترتبة عليها من الثواب والعقاب ، وأشير إلى كونه في غاية ما يكون من التوضيح ، حيث مثل بنور المشكاة – عقب ذلك بذكر الفريقين وتصوير بعض أعمالهم المعربة عن كيفية حالهم في الاعتداء وعدمه ، والمراد بالبيوت ، المساجد كلها : ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ ﴾ يعني قبل طلوع الشمس : ﴿ وَالْآصَالِ ﴾ جمع أصيل وهو العشي قبل غروب الشمس : ﴿ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ أي : بالتسبيح والتحميد : ﴿ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ ﴾ أي : إقامتها لمواقيتها من غير تأخير : ﴿ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ﴾ أي : المال الذي يتزكى مؤتيه من دنس الشح ورذيلة البخل ، وتطهر نفسه ويصفو سره : ﴿ يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴾ أي : تضطرب وتتغير من الهول والفزع . كما في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ ﴾ [الأحزاب : 10] , : ﴿ لِيَجْزِيَهُمُ

اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ اللام متعلقة بيسبّح أو لا تلهيهم أو بمحذوف يدل عليه السوق . أي : يفعلون ما يفعلون مما ذكر ، ليجزيهم . وفي آخر الآية تقرير وتنبيه على كمال القدرة ، ونفاذ المشيئة ، وسعة الإحسان ، لأن بغير حساب كناية عن السعة . والمراد أنه لا يدخل تحت حساب الخلق وعدّهم .

تنبيه :

(92/550)

قال السيوطي في " الإكليل " : في هذه الآية الأمر بتعظيم المساجد وتنزيهها عن اللغو والقاذورات . وفيها استحباب ذكر الله والصلاة في المساجد . وفي قوله : ﴿ رِجَالٌ ﴾ إشارة إلى أن الأفضل للنساء الصلاة في قعر بيوتهن . كما صرح به الحديث ، إلا في نحو العيدين لحديث : < ليشهدن الخير ودعوة المسلمين > ، وقوله : ﴿ لَا تُلْهِيهِمْ ﴾ الآية ، فيه أن التجارة لا تنافي الصلاة . لأن مقصود الآية أنهم يتعاطونها ، ومع ذلك لا تلهيهم عن الصلاة وحضور الجماعة . أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عمر أنه كان في السوق ، فأقيمت الصلاة ، فأغلقوا حوانيتهم ودخلوا المسجد . فقال ابن عمر : فيكم نزلت : ﴿ رِجَالٌ لَا

تُلْهِيهِمْ ﴾ الآية . وأخرج عن الضحاك والحسن وسالم وعطاء ومطرف مثل ذلك .

انتهى . انتهى . اهـ ﴿ محاسن التأويل حـ 12 صـ 406. 407 ﴾

(93/550)

وقال ابن عاشور :

﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ ﴾

تردد المفسرون في تعلق الجار والمجرور من قوله : ﴿ في بيوت ﴾ الخ .

فقيل قوله : ﴿ في بيوت ﴾ من تمام التمثيل ، أي فيكون ﴿ في بيوت ﴾ متعلقاً بشيء مما قبله .

فقيل يتعلق بقوله : ﴿ يوقد ﴾ [النور : 35] أي يوقد المصباح في بيوت .

وقيل هو صفة لمشكاة ، أي مشكاة في بيوت وما بينهما اعتراض ؛ وإنما جاء بيوت بصيغة الجمع مع أن ﴿ مشكاة ﴾ و ﴿ مصباح ﴾ [النور : 35] مفردان لأن المراد بهما الجنس فتساوى الإفراد والجمع .

ثم قيل : أريد بالبيوت المساجد .

ولا يستقيم ذلك إذ لم يكن في مساجد المسلمين يومئذٍ مصابيح وإنما أحدثت المصابيح في

المساجد الإسلامية في خلافة عمر بن الخطاب فقال له علي : نوّر الله مضجعك يا بن الخطاب كما نورت مسجدنا .

وروي أن تميماً الداري أسرج المسجد النبوي بمصابيح جاء بها من الشام ولكن إنما أسلم تميم سنة تسع ، أي بعد نزول هذه الآية .

وقيل البيوت مساجد بيت المقدس وكانت يومئذٍ بِيَعاً للنصارى .

ويجوز عندي على هذا الوجه أن يكون المراد بالبيوت صوامع الرهبان وأديرتهم وكانت معروفة في بلاد العرب في طريق الشام يمرون عليها وينزلون عندها في ضيافة رهبانها .

وقد ذكر صاحب "القاموس" عدداً من الأديرة .

ويرجح هذا قوله : ﴿ أن ترفع ﴾ فإن الصوامع كانت مرفوعة والأديرة كانت تبنى على رؤوس الجبال .

أنشد الفراء :

لو أبصرت رهبان دَير بالجبل . . .

لانحدر الرهبان يسعى ويصل

والمراد بإذن الله برفعها أنه ألهم متّخذيها أن يجعلوها عالية وكانوا صالحين يقرأون الإنجيل فهو كقوله تعالى : ﴿ لهدمت صوامع وبيع ﴾ إلى قوله : ﴿ يذكر فيها اسم الله كثيراً ﴾ [الحج : 40] .

وعبر بالإذن دون الأمر لأن الله لم يأمرهم باتخاذ الأديرة في أصل النصرانية ولكنهم أحدثوها للعون على الانقطاع للعبادة باجتهاد منهم ، فلم ينههم الله عن ذلك إذ لا يوجد في أصل الدين ما يقتضي النهي عنها فكانت في قسم المباح ، فلما انضم إلى إباحة اتخاذها نية العون على العبادة صارت مرضية لله تعالى .

وهذا كقوله تعالى : ﴿ ورهبانيةً ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله ﴾ [الحديد : 27] .

وقد كان اجتهاد أحبار الدين في النصرانية وإلهامُهم دلائل تشريع لهم كما تقتضيه نصوص من الإنجيل .

والمقصد من ذكر هذا على هذه الوجوه زيادة إيضاح المشبه به كقول النبي صلى الله عليه وسلم في صفة جهنم : " فإذا لها كلاليبُ مثلُ حَسَك السَّعدان هل رأيتم حسك السَّعْدان ؟ " .

وفيه مع ذلك تحسين المشبه به ليسري ذلك إلى تحسين المشبه كما في قول كعب بن زهير:

شجت بذي شبَم من ماء محنيَةٍ . . .

صاففٍ بأبطح أضحى وهو مشمول

تنفي الرياح القذى عنه وأفرطه . . .

من صوب سارية بيضٌ يعاليل

لأن ما ذكر من وصف البيوت وما يجري فيها مما يكسبها حسناً في نفوس المؤمنين .

وتخصيص التسبيح بالرجال لأن الرهبان كانوا رجالاً .

وأريد بالرجال الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله : الرهبان الذين انقطعوا للعبادة وتركوا الشغل بأمور الدنيا ، فيكون معنى : ﴿ لا تلهيهم تجارة ولا بيع ﴾ : أنهم لا تجارة لهم ولا بيع من شأنهما أن يلهياهم عن ذكر الله ، فهو من باب : على لاحب لا يهتدى بمناره .

والثناء عليهم يومئذٍ لأنهم كانوا على إيمان صحيح إذ لم تبلغهم يومئذٍ دعوة الإسلام ولم تبلغهم إلا بفتوح مشارف الشام بعد غزوة تبوك ، وأما كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى هرقل فإنه لم يُذع في العامة .

وكان الرهبان يتركون الكوى مفتوحة ليظهر ضوء صوامعهم وقد كان العرب يعرفون صوامع الرهبان وأضواءها في الليل .

قال امرؤ القيس:

تُضيء الظلام بالعشيّ كأنها . . .

منارة مُمْسَى راهب متبتل

وقال أيضاً :

يضيء سناه أو مصابيح راهب . . .

أمال السليط بالذبال المفتل

السليط : الزيت .

أي صب الزيت على الذبال فهو في تلك الحالة أكثر إضاءة .

وكانوا يهتدون بها في أسفارهم ليلاً .

قال امرؤ القيس:

سموت إليها والنجوم كأنها . . .

مصابيح رهبان تُشب لقُفَّال

القفال : جمع قافل وهم الراجعون من أسفارهم .

وقيل : أريد بالرفع الرفع المعنوي وهو التعظيم والتنزيه عن النقائص .

فالإذن حينئذٍ بمعنى الأمر .

وبعد فهذا يبعد عن أغراض القرآن وخاصة المدني منه لأن الثناء على هؤلاء الرجال ثناء جم ومعقب بقوله : ﴿ ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ﴾ .

والأظهر عندي : أن قوله : ﴿ في بيوت ﴾ ظرف مستقر هو حال من ﴿ نوره ﴾ في قوله ﴿ مثل نوره كمشكاة ﴾ [النور : 35] الخ مشير إلى أن "نور" في قوله : ﴿ مثل نوره ﴾ مراد منه القرآن ، فيكون هذا الحال تجريداً للاستعارة التمثيلية بذكر ما يناسب الهيئة المشبهة أعني هيئة تلقي القرآن وقراءته وتدبره بين المسلمين مما أشار إليه قول النبي صلى الله عليه وسلم " وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وذكرهم الله فيمن عنده " فكان هذا التجريد رجوعاً إلى حقيقة التركيب الدال على الهيئة المشبهة كقول طرفة:

وفي الحي أحوى ينفض المَرْد شادف . . .

مظاهر سِمطي لؤلؤ وزبرجد

مع ما في الآية من بيان ما أجمل في لفظ : ﴿ مثل نوره ﴾ وبذلك كانت الآية أبلغ من بيت طرفة لأن الآية جمعت بين تجريد وبيان وبيت طرفة تجريد فقط .

ويجوز أن يكون ﴿ في بيوت ﴾ غير مرتبط بما قبله وأنه مبدأ استئناف ابتدائي وأن المجرور متعلق بقوله : ﴿ يسبح له فيها ﴾ .

وتقديم المجرور للاهتمام بتلك البيوت وللتشويق إلى متعلق المجرور وهو التسبيح وأصحابه .

والتقدير : يسبح لله رجال في بيوت ، ويكون قوله : ﴿ فيها ﴾ تأكيداً لقوله : ﴿ في بيوت ﴾ لزيادة الاهتمام بها .

(96/550)

وفي ذلك تنويه بالمساجد وإيقاع الصلاة والذكر فيها كما في الحديث : " صلاة أحدكم في المسجد (أي الجماعة) تفضل صلاته في بيته بسبع وعشرين درجة " .

والمراد بالغدوّ : وقت الغدوّ وهو الصباح لأنه وقت خروج الناس في قضاء شؤونهم .

والآصال : جمع أصيل وهو آخر النهار ، وتقدم في آخر الأعراف (205) وفي سورة الرعد (15) .

والمراد بالرجال : أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن كان مثلهم في التعلق بالمساجد .

وتخصيص التسبيح بالرجال على هذا لأنهم الغالب على المساجد كما في الحديث : " . . . ورجلٌ قلبه معلق بالمساجد " .

ويجوز عندي أن يكون ﴿ في بيوت ﴾ خبراً مقدماً و ﴿ رجال ﴾ مبتدأ ، والجملة

مستأنفة استئنافاً بيانياً ناشئاً عن قوله : ﴿ يهدي الله لنوره من يشاء ﴾ [النور : 35]

فيسأل السائل في نفسه عن تعيين بعض ممن هداه الله لنوره فقيل : رجال في بيوت .

والرجال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والبيوت مساجد المسلمين وغيرها من بيوت الصلاة في أرض الإسلام والمسجد النبوي ومسجد قباء بالمدينة ومسجد جؤاثى بالبحرين .

ومعنى ﴿ لا تلهيهم تجارة ﴾ أنهم لا تشغلهم تجارة ولا بيع عن الصلوات وأوقاتها في المساجد .

فليس في الكلام أنهم لا يتجرون ولا يبيعون بالمرة .

والتجارة : جلب السلع للربح في بيعها ، والبيع أعم وهو أن يبيع أحد ما يحتاج إلى ثمنه .

وقرأ الجمهور : ﴿ يسبح ﴾ بكسر الموحدة بالبناء للفاعل و ﴿ رجال ﴾ فاعله .

وقرأ ابن عامر وأبو بكر عن عاصم بفتح الموحدة على البناء للمجهول فيكون نائب الفاعل أحد المجرورات الثلاثة وهي ﴿ له فيها بالغدو ﴾ ويكون ﴿ رجال ﴾ فاعلاً بفعل محذوف من جملة هي استئناف .

ودل على المحذوف قوله : ﴿ يسبّح ﴾ كأنه قيل : من يسبحه ؟ فقيل : يُسبح له رجال .

على نحو قول نهشل بن حَرِيّ يرثي أخاه يزيد :

لِيُبْكِ يزيدُ ضارعٌ لخصومة . . .

ومختبطٌ مما تُطيح الطوائح

(97/550)

وجملة : ﴿ لا تلهيهم تجارة ﴾ وجملة : ﴿ يخافون ﴾ صفتان ل ﴿ رجال ﴾ ، أي لا يشغلهم ذلك عن أداء ما وجب عليهم من خوف الله ﴿ وإقام الصلاة ﴾ الخ وهذا تعريض بالمنافقين .

و ﴿ إقام ﴾ مصدر على وزن الإفعال .

وهو معتل العين فاستحق نقل حركة عينه إلى الساكن الصحيح قبله وانقلاب حرف العلة ألفاً إلا أن الغالب في نظائره أن يقترن آخره بهاء تأنيث نحو إدامة واستقامة .

وجاء مصدر ﴿ إقام ﴾ غير مقترن بالهاء في بعض المواضع كما هنا .

وتقدم معنى إقامة الصلاة في صدر سورة البقرة (3) .

وانتصب ﴿ يوماً ﴾ من قوله : ﴿ يخافون يوماً ﴾ على المفعول به لا على الظرف بتقدير مضاف ، أي يخافون أهواله .

وتقلّب القلوب والأبصار : اضطرابها عن مواضعها من الخوف والوجل كما يتقلب المرء في

مكانه .

وقد تقدم في قوله تعالى : ﴿ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم ﴾ في سورة الأنعام (110) .

والمقصود من خوفه : العمل لما فيه الفلاح يومئذٍ كما يدل عليه قوله : ﴿ ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ﴾ .

ويتعلق قوله : ﴿ ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ﴾ بـ ﴿ يخافون ﴾ ، أي كان خوفهم سبباً للجزاء على أعمالهم الناشئة عن ذلك الخوف .

والزيادة : من فضله هي زيادة أجر الرهبان إن آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم حينما تبلغهم دعوته لما في الحديث الصحيح : " أن لهم أجرين " أو هي زيادة فضل الصلاة في المساجد إن كان المراد بالبيوت مساجد الإسلام .

وجملة : ﴿ والله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾ تذييل لجملة : ﴿ ليجزيهم الله ﴾ .

وقد حصل التذييل لما في قوله : ﴿ من يشاء ﴾ من العموم ، أي وهم ممن يشاء الله لهم الزيادة .

والحساب هنا بمعنى التحديد كما في قوله : ﴿ إن الله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾ في سورة آل عمران (37) .

وأما قوله : ﴿ جزاء من ربك عطاء حساباً ﴾ [النبأ : 36] فهو بمعنى التعيين والإعداد للاهتمام بهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 18 صـ ﴾

وقال الشيخ الشنقيطي :

﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (36) ﴾ قرأ هذا الحرف جميع السبعة غير ابن عامر ، وشعبة ، عن عاصم : ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا ﴾ بكسر الباء الموحدة المشددة ، مبنياً للفاعل ، وفاعله رجال والمعنى واضح على هذه القراءة . وقرأه ابن عامر ، وشعبة ، عن عاصم : ﴿ يُسَبَّحُ لَهُ فِيهَا ﴾ بفتح الباء الموحدة المشددة ، مبيناً للمفعول ، وعلى هذه القراءة فالفاعل المحذوف قد دلت القراءة الأولى على أن تقديره : رجال فكأنه لما قال يسبح له فيها ، قيل : ومن يسبح له فيها ؟ قال رجال : أي يسبح له فيها رجال .

وقد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك ما لفظه ، وقد التزمنا أنا لا نبينّ القرآن إلا بقراءة سبعية ، سواء كانت قراءة أخرى في الآية المبينة نفسها ، أو آية أخرى غيرها إلى آخره ، وإنما ذكرنا أن الآية بين بعض القراءات فيها معنى بعض ، لأن المقرر عند العلماء أن القراءتين في الآية الواحدة كالآيتين .

وإذا علمت ذلك فاعلم أن قراءة الجمهور : يسبح بكسر الباء وفاعله رجال ، مبينة أن

الفاعل المحذوف في قراءة ابن عامر ، وشعبة ، عن عاصم : يسبح بفتح الباء مبنياً للمفعول لحذف الفاعل هو رجال كما لا يخفى . والآية على هذه القراءة حذف فيها الفاعل ليسبح ، وحذف أيضاً الفعل الرافع للفاعل الذي هو رجال على حد \ قوله في الخلاصة :

ويرفع الفاعل فعل أضمرا . . . كمثل زيد في جواب من قرا

ونظير ذلك في كلام العرب قول ضرار بن نهشل يرثي أخاه يزيد أو غيره :

لُيُبْكَ يَزيد ضارعٌ لخصومة . . . ومُخْتَبطٌ مما تطيح الطوائح

(99/550)

فقوله : لُيُبكَ يزيد بضم الياء المثناة التحتية ، وفتح الكاف مبنياً للمفعول ، فكأنه قيل ومن يبكيه ؟ فقال : يبكيه ضارع لخصومة إلخ . وقراءة ابن عامر ، وشعبة هنا كقراءة ابن كثير : ﴿ كَذَلِكَ يوحي إِلَيْكَ ﴾ [الشورى : 3] بفتح الحاء مبنياً للمفعول فقوله : الله فاعل يوحي المحذوفة ، ووصفة تعالى لهؤلاء الذين يسبّحون له بالغُدو والآصال ، بكونهم لاتلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة على سبيل مدحهم ، والثناء عليهم . يدلّ على أن تلك الصفات لا ينبغي التساهل فيها بحال ، لأن ثناء الله على المتصف بها يدل على أنّ من أخلّ بها يستحق الذمّ الذي هو ضد الثناء ، ويوضح ذلك أن الله نهى عن

الإخلال بها نهياً جازماً في قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ لاَ تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ عَن ذِكْرِ اللهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الخاسرون ﴾ [المنافقون : 9] وقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاَةِ مِن يَوْمِ الجمعة فاسعوا إلى ذِكْرِ اللهِ وَذَرُواْ البيع ﴾ [الجمعة : 9] الآية إلى غير ذلك من الآيات .

مسائل تتعلق بهذه الآية الكريمة

المسألة الأولى : اعلم أنه على قراءة ابن عامر ، وشعبة : يسبَّح بفتح الباء يحسن الوقف على قوله : بالآصال ، وأما على قراءة الجمهور يسبِّح بالكسر ، فلا ينبغي الوقف على قوله : بالآصال ، لأن فاعل يسبح رجال ، والوقف دون الفاعل لا ينبغي كما لا يخفى .

(100/550)

المسألة الثانية : اعلم أن الضمير المؤنث في قوله ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا ﴾ راجع إلى المساجد العبّر عنها بالبيوت في قوله : ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسمه ﴾ [النور : 36] والتحقيق : أن البيوت المذكورة ، هي المساجد .

وإذا علمت ذلك فاعلم أن تخصيصه من يسبح له فيها بالرجال في قوله يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بالغدو والآصال ﴾ يدل بمفهومه على أن النساء يسبحن له في بيوتهن لا في المساجد ، وقد يظهر

للناظر أن مفهوم قوله : رجال مفهوم لقب ، والتحقيق عند الأصوليين أنه لا يحتج به .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : لا شك أن مفهوم لفظ الرجال ، مفهوم لقب بالنظر إلى مجرَّد لفظه ، وأن مفهوم اللقب ليس بحجة على التحقيق ، كما أوضحناه في غير هذا الموضع ، ولكن مفهوم الرجال هنا معتبر ، وليس مفهوم لقب على التحقيق ، وذلك لأن لفظ الرجال ، وإن كان بالنظر إلى مجرّده اسم جنس جامد وهو لقب بلا نزاع ، فإنه يستلزم من صفات الذكورة ما هو مناسب لإناطة الحكم به ، والفرق بينه وبين النساء ، لأنّ الرجال لا تخشى منهم الفتنة ، وليسوا بعورة خلاف النساء ، ومعلوم أو وصف الذكورة وصف صالح لإناطة الحكم به الذي هو التسبيح في المساجد ، والخروج إليها دون وصف الأنوثة .

والحاصل : أن لفظ الرجال في الآية ، وإن كان في الاصطلاح لقباً فإنما يشتمل عليه من أوصاف الذكورة المناسبة للفرق بين الذكور والإناث ، يقتضي اعتبار مفهوم المخالفة في لفظ رجال ، فهو في الحقيقة مفهوم صفة لا مفهوم لقب ، لأن لفظ الرجال مستلزم لأوصاف صالحة لإناطة الحكم به ، والفرق في ذلك بين الرجال والنساء كما لا يخفى .

المسألة الثالثة : إذا علمت أن التحقيق أن مفهوم قوله : رجال مفهوم صفة باعتبار ما يستلزمه من صفات الذكورة المناسبة للفرق بين الذكور والإناث ، في حكم الخروج إلى المساجد لا مفهوم لقب ، وأن مفهوم الصفة معتبر عند الجمهور خلافاً لأبي حنيفة .

فاعلم أن مفهوم قوله هنا : رجال فيه إجمال ، لأنّ غاية ما يفهم منه أن النساء لسن كالرجال في الخروج للمساجد ، وق قدّمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك أن البيان القرآني إذا كان غير واف بالمقصود من تمام البيان . فإنّا نتمم البيان من السنة من حيث إنها تفسير للمبين باسم الفاعل ، وتقدّمت أمثلة لذلك .

وإذا علمت ذلك فاعلم أن السنة النبوية بينت مفهوم المخالفة في قوله تعالى في هذه الآية الكريمة : رجال ، فبينت أن المفهوم المذكور معتبر ، وأن النساء لسن كالرجال في حكم الخروج إلى المساجد ، وأوضحت أن صلاتهن في بيوتهن أفضل لهن من الخروج إلى المساجد والصلاة فيها في الجماعة ، بخلاف الرجال ، وبينت أيضاً أنهن يجوز لهن الخروج إلى المساجد بشروط سيأتي إيضاحها إن شاء الله تعالى ، وأنهن إذا استأذن أزواجهن في الخروج إلى المساجد فهم مأمورون شرعاً بالإذن لهن في ذلك مع التزام الشروط المذكورة .

(102/550)

أما أمر أزواجهن : بالإذن لهن في الخروج إلى المساجد إذا طلبن ذلك فقد صحّ عن النبي صلى الله عليه وسلم : قال البخاري رحمه الله في صحيحه في كتاب النكاح : حدثنا علي

بن عبد الله ، حدثنا سفيان ، حدثنا الزهري عن سالم ، عن أبيه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم « إذا استأْذَنت امرَأةُ أحَدِكم إلى المسجد فلا يمنَعْها » قال البخاري أيضاً في صحيحه في كتاب الصلاة : باب استذان المرأة زوجها بالخروج إلى المسجد : حدثنا مُسَّدد ، حدثنا يزيد بن زُرَيع ، عن مَعْمَر عن الزهري ، عن سالم بن عبد الله ، عن أبيه ، عن أبيه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم « إذا استأذنت امرأةُ أحدِكُم فلا يَمْنَعْها » وقال البخاري رحمه الله في صحيحه أيضاً ، حدثنا عُبيد الله بن موسى ، عن حَنْظلة ، عن سالم بن عبد الله ، عن ابن عُمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « إذا استأذنكم نساؤكم بالليل إلى المسجدِ فأذنوا لهنَّ » تابعته شُعبة عن الأعمش ، عن مجاهد ، عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم . وقال مسلم بن الحجاج رحمه الله في صحيحه : حدثني عمرو الناقد ، وزُهير بن حرب جميعاً عن ابن عُيينة . قال زهير : حدثنا سفيان بن عيينة ، عن الزهري . سمع سالماً يحدث عن أبيه يبلغ به النبي صلى الله عليه وسلم قال « إذا استأذنت أحدكم امرأته إلى المسجد فلا يمنعها » وفي لفظ عند مسلم ، عن ابن عمر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لا تمنعوا نساءكم المساجِد إذا استأذَنَّكم إليها » وفي لفظ عند مسلم أيضاً ، عن ابن عمر أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لا تمنعوا إماء الله مساجد الله » وفي لفظ له عنه أيضاً : سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إذا استأذنكم إلى المسجد فأذنوا لهن »

وفي لفظ له عنه أيضاً ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تمنعوا النساء من الخروج إلى المساجد بالليل » وفي رواية له عنه أيضاً

(103/550)

قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ائذنوا للنساء بالليل إلى المساجد » وفي لفظه عنه أيضاً ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تمنعوا النساء حظوظهن من المساجد إذا استأذنكم » وفي رواية « إذا استأذنوكم » قال النووي في شرح مسلم : وهو صحيح وعوملن معاملة الذكور لطلبهن الخروج إلى مجلس الذكور ، وحديث ابن عمر رضي الله عنهما هذا الذي ذكرناه عن الشيخين بروايات متعددة ، أخرجه أيضاً غيرهما وهو صريح في أنّ أزواج النساء مأمورون على لسانه صلى الله عليه وسلم بالإذن لهنّ في الخروج إلى المساجد ، إذا طلبن ذلك ، ومنهيُّون عن منعهن من الخروج إليها .

(104/550)

وذكر بعض أهل العلم أن العلم أن أمر الأزواج بالإذن لهنّ في الروايات المذكورة ليس للإيجاب ، وإنما هو للندب ، وكذلك نهيه صلى الله عليه وسلم عن منعهن . قالوا : هو لكراهة التنزيه لا للتحريم .

قال ابن حجر في فتح الباري : وفيه إشارة إلى أنّ الإذن المذكور لغير الوجوب ، لأنه لو كان واجباً لانتفى معنى الاستئذان ، لأن ذلك إنما يتحقق إذا كان المستأذن مخيّراً في الإجابة أو الرد .

وقال النووي في شرح المهذب : فإن منعها لم يحرِّم عليه هذا مذهبنا ، قال البيهقي : وبه قال عامة العلماء . ويجاب عن حديث « لا تمنعوا إماء الله مساجد الله » بأنه نهي تنزيه ، لأن حق الزوج في ملازمة المسكن واجب ، فلا تتركه لفضيلة اه .

(105/550)

قال مقيدة عفا الله عنه وغفر له : الذي يظهر لي في هذه المسألة : أن الزوج إذا استأذنته امرأته في الخروج إلى المسجد ، وكانت غير متطيِّبة ، ولا متلبيسة بشيء يستوجب الفتنة مما سيأتي إيضاحه إن شاء الله ، أنه يجب عليه الإذن لها ، ويحرم عليه منعها للنهي الصريح منه صلى الله عليه وسلم عن منعها من ذلك ، وللأمر الصريح بالإذن لها وصيغة الأمر

المجردة عن القرائن تقتضي الوجوب ، كما أوضحناه في مواضع من هذا الكتاب المبارك ، وصيغة النهي كذلك تقتضي التحريم ، وقد قال تعالى : ﴿ فَلْيَحْذَرِ الذين يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور : 36] وقال صلى الله عليه وسلم : « إذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه » إلى غير ذلك من الأدلة ، كما قدمنا . وقول ابن حجر : إن الإذن لا يتحقق إلا إذا كان المستأذن مخيراً في الإجابة ، والرد غير مسلم ، إذ لا مانع عقلاً ، ولا شرعاً ولا عادة من أن يوجب الله عيه الإذن لامرأته في الخروج إلى المسجد من غير تخيير ، فإيجاب الإذن لا مانع منه .

وكذلك تحريم المنع ، وقد دلّ النص الصريح على إيجابه فلا وجه لردّه بأمر محتمل كما ترى .

وقول النووي : لأن حقّ الزوج ملازمة المسكن واجب ، فلا تتركه للفضيلة لا يصلح ، لأن يرد به النص الصريح منه صلى الله عليه وسلم ، فأمره صلى الله عليه وسلم الزوج بالإذن لها يلزمه ذلك ، ويوجبه عليه ، فلا يعارض بما ذكره النووي كما ترى . وما ذكره النووي عن البيهقي : من أن عدم الوجوب قال به عامة العلماء غير مسلم أيضاً ، فقد ثبت في صحيح مسلم وغيره عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، أنه لما حدث عن النبي صلى الله عليه وسلم بالحديث الذي ذكرنا عنه في أمر منكراً عليه ، مخالفته لأمر النبي صلى الله عليه وسلم ، وذلك دليل واضح على اعتقاده وجوب امتثال ذلك الأمر بالإذن لهن .

قال مسلم بن الحجاج رحمه الله في صحيحه : حدثني حَرْمَلة بن يحيى ، أخبرنا ابن وهب ، أخبرني يونس ، عن ابن شهاب قال : أخبرني سالم بن عبد الله بن عمر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لا تمنعوا نساءكم المساجد إذا استأذنكم إليها » فقال بلال بن عبد الله : والله لنمنعهن ، فأقبل عليه عبد الله فسبَّه سباً سيئاً ما سمعته سبه مثله قط ، وقال : أخبرك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتقول : والله لنمنعهن ، وفي لفظ عند مسلم : فَزَبره ابن عمر قال : أقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وتقول : لا ندعهن . وفي لفظ لمسلم أيضاً : فضرب في صدره .

واعلم أن ابن عبد الله بن عمر الذي زعم أنه لم يمتثل أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالإذن للنساء إلى المساجد جاء في صحيح مسلم أنه بلال بن عبد الله بن عمر .

وفي رواية عند مسلم : أنه واقد بن عبد الله بن عمر : والحقّ تعدد ذلك فقد قاله كل من بلال ، وواقد ابني عبد الله بن عمر ، وقد أنكر عمر على كلّ منهما . كما جاءت به الروايات الصحيحة عن المسلم وغيره ، فكون ابن عمر رضي الله عنهما أقبل على ابنه بلال وسبَّه سبًّا وقال منكراً عليه ، أخبرك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وتقول : لنمنعُهنّ : فيه دليل واضح أنّ ابن عمر يرى لزوم الإذن لهنّ ، وأنّ منعهن لا يجوز ، ولو كان يراه جائزاً ما شدّد النكير عليه ابنيه كما لا يخفى .

وقال النووي في شرح مسلم : قوله : فأقبل عليه عبد الله فسبه سبًا سيئاً . وفي رواية فزبره . وفي رواية : فضرب في صدره ، فيه تعزير المعترض على السنة والمعارض لها برأيه .

(107/550)

قال مقيّده عفا الله وغفر له : وكلام النووي هذا الذي رأيت اعتراف منه بأن مذهبه وهو مذهب الشافعي ومن قال بقوله ، كما نقل عن البيهقي ، أنه قول عامة العلماء ، أن جميع القائلين بذلك مستحقُّون للتعزير ، معترضون على السنة ، معارضون لها برأيهم ، والعجب منه كيف يقرّ بأن بلال بن عبد الله بن عمر مستحق للتعزير لاعتراضه على السنة ، ومعارضته لها برأيه ، مع أن مذهبه الذي ينصره وينقل أنه قول عامة العلماء عن البيهقي هو بعينه قول بلال بن عبد الله بن عمر الذي صرح هو بأنه يستحق به التعزير ، وأنّه اعتراض على السنة ومعارضة لها بالرأي . وقال النووي : قوله : فزبره . أي نهره . وقال ابن حجر في فتح الباري : ففي رواية بلال عند مسلم ، فأقبل عليه عبد الله فسبّه سبًا شديداً ما سمعتُه سبه مثله قط ، وفسر عبد الله بن هُبيرة في رواية الطبراني السبّ المذكور باللّعن ثلاث مرات وفي رواية زائدة عن الأعمش فانتهره وقال : أفٍّ لك .

(108/550)

وله عن ابن نمير عن الأعمش فعل الله بك وفعل ، ومثله للترمذي من رواية عيسى بن يونس . ولمسلم من رواية أبي معاوية : فزبره . ولأبي داود من رواية جرير : فسبّه وغضب ، إلى أن قال : وأخذ من إنكار عبد الله على ولده تأديب المعترض على السنن برأيه ، وهو اعتراف منه أيضاً بأنّ من خالف الحديث المذكور معترض على السنن برأيه .

وبه تعلم أن ما قدّمنا عنه من كون الأمر بالإذن لهن إلى المساجد ليس للوجوب اعتراض على السنن بالرأي كما ترى .

وبما ذكرنا أن الدليل قد دلّ من السنة الصحيحة على وجوب الإذن للنساء في الخروج إلى المساجد كما ذكرنا ، ويؤيده أن ابن عمر لم ينكر أحد من الصحابة تشنيعه على ولديه كما أوضحناه آنفاً . والعلم عند الله تعالى .

وإذا علمت أن ما ذكرنا من النصوص الصريحة في الأمر بالإذن لهن يقتضي جواز خروجهن إلى المساجد ، فاعلم أنه ثبت في الصحيح أنهنّ كنّ يخرجن إلى المسجد ، فيصلين مع النبي صلى الله عليه وسلم . قال البخاري رحمه الله في صحيحه : حدثنا يحيى بن بُكير قال : أخبرنا الليث ، عن عُقيل ، عن ابن شهاب قال : أخبرني عُرْوَة بن الزُّبير : أنّ عائشة رضي الله عنها أخبرته قالت : كُنّ نساء المؤمنات يشهدن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاةَ الفجر منلفعات بمطروطِهنَ ، ثم ينقلَبن إلى بيوتهن حين يقضينَ الصلاة لا يعرفُهُنَّ أحدٌ

مِن الغَلَس اه . وهذا الحديث أخرجه أيضاً مسلم وغيره . وقد جاءت أحاديث صحيحه في الصحيحين وغيرهما دالة على ما دل عليه حديث عائشة هذا المتفق عليه من كون النساء كنّ يشهدن الصلاة المسجد معه صلى الله عليه وسلم .

تنبيه

قد علمت مما ذكرنا في روايات حديث ابن عمر المتفق عليه : أنّ في بعض رواياته المتفق عليها تقييد أمر الرجال بالإذن للنساء في الخروج إلى المسجد باللّيل ، وفي بعضها الإطلاق وعدم التقييد بالليل ، وهو أكثر الروايات كما أشار له ابن حجر في الفتح .

(109/550)

وقد يتبادر للناظر أن الأزواج ليسوا مأمورين بالإذن للنساء إلا في خصوص الليل ، لأنه استر ، ويترجّح عنده هذا بما هو مقرر في الأصول من حمل المطلق على المقيّد ، فتحمل روايات الإطلاق على التقييد بالليل فيختصّ الإذن المذكور باللّيل .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : الأظهر عندي تقديم روايات الإطلاق وعدم التقييد بالليل لكثرة الأحاديث الصحيحة الدالة على حضور النساء الصلاة معه صلى الله عليه وسلم في غير الليل ، كحديث عائشة المتفق عليه المذكور آنفاً الدال على حضورهن معه

صلى الله عليه وسلم صلاة الصبح ، وهي صلاة نهار ولا ليل ، ولا يكون لها حكم صلاة الليل ، بسبب كونهنّ التقييد باللّيل ، والعلم عند الله تعالى .

(110/550)

وأما ما يشترط في جواز خروج النساء إلى المساجد فهو المسألة الرابعة .

اعلم أن خروج المرأة إلى المسجد يشترط فيه عند أهل العلم شروط يرجع جميعها إلى شيء واحد ، وهو كون المرأة وقت خروجها للمسجد ليست متلبسة بما يدعو إلى الفتنة مع الأمن من الفساد .

قال النووي في شرح مسلم في الكلام على قوله صلى الله عليه وسلم « لا تمنعوا إماء الله مساجد الله » ما نصّه : هذا وما أشبهه من أحاديث الباب ظاهر في أنها تمنع المسجد ، ولكن بشروط ذكرها العلماء مأخوذة من الأحاديث ، وهي ألا تكون متطيبة ، ولا متزينه ، ولا ذات خلاخل يسمع صوتها ، ولا ثياب فاخرة ، ولا مختلطة بالرجال ، ولا شابه ونحوها . ممن يفتتن بها ، وألا يكون في الطريق ما يخاف منه مفسدة ونحوها . انتهى محل الغرض من كلام النووي .

قال مقيدة عفا الله وغفر له : هذه الشروط التي ذكرها النووي وغيره منها ما هو ثابت عن

النبي صلى الله عليه وسلم ، ومنها ما لا نص فيه ، ولكنه ملحق بالمنصوص لمشاركته له في علته ، وإلحاق بعضها لا يخلو من مناقشة كما سترى إيضاح ذلك كلّه إن شاء الله تعالى . أما ما هو ثابت عنه صلى الله عليه وسلم من تلك الشروط ، فهو عدم التطيّب ، فشرط جواز خروج المرأة إلى المسجد ألاّ تكون متطيبة .

قال مسلم بن الحجاج رحمه الله في صحيحه : حدثنا هارون بن سعيد الأيليُّ ، حدثنا ابن وَهبْ ، أخبرني مخرمة ، عن أبيه عن بُسرِ بن سعيد أن زَينب الثقفية كانت تُحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنَّه قال « إذا شَهَدَتْ إحداكُنَّ العشاء ، فلا تطيّبِ تلك الليلة »

حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة ، حدثنا يحيى بن سعيد القطان ، عن محمد بن عجلان حدثني بكير بن عبد الله الأشج ، عن بُسر بن سعيد ، عن زينب امرأة عبد الله قالت : قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا شهدت إحداكن المسجد فلا تمسَّ طيباً »

(111/550)

حدثنا يحيى بن يحيى وإسحاق بن إبراهيم ، قال يحيى : أخبرنا عبد الله بن محمد بن عبد الله بن أبي فَرْوة ، عن يزيد بن خُصَيْفَة ، عن بُسر بن سعيد ، عن أبي هريرة رضي الله عنه

قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أيما امرأةٍ أصابت بخوراً فلا تَشهد معنا العشاء الآخرة » اه . فهذا الحديث الصحيح الذي أخرجه مسلم في صحيحه عن صحابين ، وهما : أبو هريرة ، وزينب امرأة عبد الله بن مسعود رضي الله عن جميع ، صريح في أن المتطيّبة ليس لها الخروج إلى المسجد ، ويؤيِّد ذلك ما رواه أبو داود في سننه : حدثنا موسى بن إسماعيل ، ثنا حمّاد عن محمد بن عمرو ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال

(112/550)

« لا تمنعوا إماء الله مساجد الله ولكن ليخرجن وهن تفلات » اه . وقوله : وهنّ تفلات : أي غير متطيبات . وقال النووي في شرح المهذب في هذا الحديث وراه أبو داود بإسناد صحيح على شرط البخاري ومسلم . وتفلات بفتح التاء المثناة فوق وكسر الفاء : أي تاركات الطيب اه . ومنه قول امرئ القيس :

إذا ما الضجيع ابتزها من ثيابها . . . تميل عليه هونة غير متغالي

وهذا الحديث أخرجه أيضاً الإمام أحمد وابن خزيمة ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، وأخرجه ابن حبّان من حديث زيد بن خالد . قاله الشوكاني وغيره .

وإذا علمت أن هذه الأحاديث دلّت على المتطيِّبة ليس لها الخروج إلى المسجد ، لأنها تحرِّك شهوة الرجال بريح طيبها .

فاعلم أن أهل العلم ألحقوا بالطيب ما في معناه كالزينة الظاهرة ، وصوت الخلخال والثياب الفاخرة ، والاختلاط بالرجال ، ونحو ذلك بجامع أن الجميع سبب الفتنة بتحريك شهوة الرجال ، ووجهه ظاهر كما ترى . وألحق الشافعيّة بذلك الشابة مطلقاً ، لأن الشباب مظنَّة الفتنة ، وخصصوا الخروج إلى المساجد بالعجائز . والأظهر أن الشابة إذا خرجت مستترة غير متطيِّبة ، ولا متلبِّسة بشيء آخر من أسباب الفتنة أن لها الخروج إلى المسجد لعموم النصوص المتقدّمة . والعلم عند الله تعالى .

المسألة الخامسة : اعلم أن صلاة النساء في بيوتهن أفضل لهنّ من الصلاة في المساجد ، ولو كان المسجد مسجد النبي صلى الله عليه وسلم ، وبه تعلم أن قوله صلى الله عليه وسلم : « صلاة في مسجدي هذا ، خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام » خاص بالرجال ، أما النساء فصلاتهنّ في بيوتهن خير لهن من الصلاة في الجماعة في المسجد .

(113/550)

قال أبو داود في سننه : حدثنا عثمان بن أبي شيبة ، ثنا يزيد بن هارون ، أخبرنا العوام بن حوشب ، حدثني حبيب بن أبي ثابت ، عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تمنعوا نساءكم المساجدّ وبيوتُهنَّ خيرٌ لهنَّ » وقال النووي في شرح المهذب في هذا الحديث : وحديث ابن عمر صحيح رواه أبو داود بلفظه هذا ، بإسناد صحيح على شرط البخاري اه .

وهذا الحديث أخرجه أيضاً الإمام أحمد . وقال ابن حجر في فتح الباري : وقد ورد في بعض روايات هذا الحديث وغيره ، ما يدلّ على أن صلاة المرأة في بيتها أفضل من صلاتها في المسجد ، وذلك في رواية حبيب بن أبي ثابت ، عن ابن عمر بلفظ « لا تمنعوا نساءكم المساجد وبيوتهن خير لهن » أخرجه أبو داود ، وصححه ابن خزيمه ، ولأحمد والطبراني من حديث أم حميد الساعدية أنها جاءت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالت : يا رسول الله صلى الله عليه وسلم أني أحبُّ الصلاة معك ، فقال :

(114/550)

« قد علمتُ وصلاتك في بيتك خيرٌ لكِ من صلاتك في حُجرتك ، وصلاتك في مسجد قومك خير من صلاتك في مسجد الجماعة » وإسناد الأمن فيه من الفتنة . انتهى محل

الغرض من كلام ابن حجر .

وحديث ابن مسعود الذي أشار له هو ما رواه أبو داود في سننه : حدثنا ابن المثنى ، أن عمرو بن عاصم حدثهم قال : ثنا همام عن قتادة ، عن مورق عن أبي الأحوص ، عن عبد الله ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « صلاة المرأة في بيتها أفضل من صلاتها في حُجرتها وصلاتها في مُخدعها أفضل من صلاتها في بيتها » اه .

وقال النووي في شرح المهذب في هذا الحديث : رواه أبو داود بإسناد صحيح على شرط مسلم ، وقد روى أحمد عن أم سلمة عنه صلى الله عليه وسلم : « خير مساجد النساء قعر بيوتهن »

وبما ذكرنا من النصوص تعلم أن صلاة النساء في بيوتهن أفضل لهن من صلاتهن في الجماعة في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم ، وغيره من المساجد لثبوت ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم .

ومما يؤكد صلاتهن في بيوتهن ما أحدثنه من دخول المسجد في ثياب قصيرة هي مظنَّة الفتنة ، ومزاحمتهنَّ للرجال في أبواب المسجد عند الدخول والخروج ، وقد روى الشيخان في صحيحهما عن عائشة رضي الله عنها قالت : لو أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى من النساء ما رأينا ، لمنعهنَّ منَ المسجد كما مَنَعت بنو إسرائيل نساءَها .

وقد علمت مما ذكرنا من الأحاديث أن مفهوم المخالفة في قوله تعالى : ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا

بالغدو والآصال ﴾ الآية معتبر ، وأنه ليس مفهوم لقب ، وقد أوضحنا المفهوم المذكور بالسنة كما رأيت . والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ القلوب والأبصار ﴾ .

(115/550)

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أن الرجال الذين يسبحون له في المساجد بالغدو والآصال ، إلى آخر ما ذكر من صفاتهم : أنهم يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار ، وهو يوم القيامة لشدة هوله ، وما دلّت عليه هذه الآية الكريمة من عظم هول ذلك اليوم ، وتأثيره في القلوب والأبصار ، جاء في آيات كثيرة من كتاب الله العظيم كقوله تعالى : ﴿ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ﴾ [النازعات : 89] وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأبصار ﴾ [إبراهيم : 42] وقوله تعالى : ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الأزفة إِذِ القلوب لَدَى الحناجر ﴾ [غافر : 18] الآية . ونحو ذلك من الآيات الدالة على عظم ذلك اليوم كقوله تعالى : ﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْماً يَجْعَلُ الولدان شِيباً السَّمَآءُ مُنفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً ﴾ [المزمل : 1718] الآية . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ الله لا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلاَ شُكُوراً إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً ﴾ [

الإنسان : 910] إلى غير ذلك من الآيات . وفي معنى تقلب القلوب والأبصار أقوال متعددة لأهل التفسير ، ذكرها القرطبي وغيره .

(116/550)

وأظهرا عندي : أن تقلب القلوب هو حركتها من أماكنها من شدّة الخوف كما قال تعالى : ﴿ إِذِ القلوب لَدَى الحناجر ﴾ [غافر : 18] وأن تقلب الأبصار هو زيغوغتها ودورانها بالنظر في جميع الجهات من شدة الخوف ، كما قال تعالى : ﴿ فَإِذَا جَآءَ الخوف رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدورُ أَعْيُنُهُمْ كالذي يغشى عَلَيْهِ مِنَ الموت ﴾ [الأحزاب : 19] الآية . وكقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ زَاغَتِ الأبصار وَبَلَغَتِ القلوب الحناجر ﴾ [الأحزاب : 10] فالدوران والزيغوغة المذكور ان يعلم بهما معنى تقلب الأبصار ، وإن كانا مذكورين في الخوف من المكروه في الدنيا .

(117/550)

قوله تعالى : ﴿ لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَيَزِيدَهُمْ مِّن فَضْلِهِ ﴾ .

الظاهر أن اللام في قوله : ﴿ لِيَجْزِيَهُمُ ﴾ ، متعلقة بقوله : ﴿ يُسَبِّحُ ﴾ أي يسبحون له ، ويخافون يوماً ليجزيهم الله أحسن ما عملوا . وقوله في هذه الآية الكريمة : ويزيدهم من فضله ، الظاهر أن هذه الزيادة من فضله تعالى ، هي مضاعفة الحسنات ، كما دل عليه قوله تعالى : ﴿ مَن جَآءَ بِالحسنة فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾ [الأنعام : 160] ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا ﴾ [النساء : 40] ، وقوله تعالى : ﴿ واللهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [البقرة : 261] .

وقال بعض أهل العلم : الزيادة هنا كالزيادة في قوله : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الحسنى وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس : 26] والأصح : أن الحسنى الجنة ، والزيادة النظر إلى وجه الله الكريم ، وذلك هو أحد القولين في قوله تعالى : ﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ [ق : 3] .

وقد قدمنا قول بعض أهل العلم : أن قوله تعالى : ﴿ لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ ﴾ ونحوها من الآيات يدل على أن المباح حسن ، لأن قوله : أحسن ما عملوا صيغة تفضيل ، وأحسن ما عملوا هو ما تقرّبوا به الى الله من الواجبات والمستحبات ، وصيغة التفضيل المذكور تدل على أن من أعمالهم حسناً لم يجزه وهو المباح . قال في مراقي السعود :

ما ربُّنا لم يَنْهُ عَنه حَسَن . . . وغيرُه القبيحُ والمستهجنُ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ أضواء البيان حـ 5 صـ ﴾

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ ﴾

بدأت الآية بالجار والمجرور ﴿ فِي بُيُوتٍ ﴾ [النور : 36] ولا بُدَّ أن نبحث له عن متعلق ، فالمعنى : هذا النور الذي سبق الحديث عنه في بيوت أَذِن الله أن تُرفع . والبيت : هو ما أُعِدَّ للبيتوتة ، بل لمعيشة الحياة الثابتة ، وإليه يأوي الإنسان بعد عناء اليوم وطوافه في مناكب الأرض ، والبيت على أية صورة هو مكان الإنسان الخاص الذي يعزله عن المجتمع العام ، ويجعل له خصوصية في ذاته ، وإلا فالإنسان لا يرضى أن يعيش في ساحة عامة مع غيره من الناس .

وهذه الخصوصية في البيوت يتفاوت فيها الناس وتتسامى حسْب إمكاناتهم ، وكل إنسان يريد أنْ يتحيّز إلى مكان خاص به ؛ لأن التحيّز أمر مطلوب في النفس البشرية : الأسرة تريد أن تتحيز عن المجتمع العام ، والأفراد داخل الأسرة يريدون أن يتحيزوا أيضاً ، كل إلى حجرة تخصه ، وكذلك الأمر في اللباس ، ذلك لأن لكل واحد منا مساتير بينه وبين نفسه ، لا يحب أن يطلع عليها أحد .

وقد اتخذ الله له بيتاً في الأرض ، هو أول بيت وُضِع للناس ، كما قال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً ﴾ [آل عمران : 96] .

وهذا هو بيت الله باختيار الله ، ثم تعددتْ بيوت الله التي اختارها خَلْق الله ، فكما اتخذتم لأنفسكم بيوتاً اتخذ الله لنفسه بيوتاً ﴿ أَذِنَ اللهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسمه ﴾ [النور : 36] وأنتم جميعاً عباد الله وعيال الله ، وسوف تجدون الراحة في بيته تعالى كما تجدون الراحة في بيوتكم ، مع الفارق بين الراحة في بيتك والراحة في بيت الله .

الراحة في بيوتكم راحة حِسّية بدنية في صالون مريح أو مطبخ مليء بالطعام ، أمّا في بيت الله فالراحة معنوية قيمية ؛ لأن ربك عز وجل غيْبٌ فيريحك أيضاً بالغيب .

(119/550)

لذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم كلما حزبه أمر يقوم إلى الصلاة ليُلقي باحماله على ربه . وماذا تقول في صنعة تُعرض على صانعها مرة واحدة كل يوم ، أيبقى بها عطل أو فساد ؟ فما بالك إنْ عُرِضَتْ على صانعها خمس مرات في اليوم والليلة ؟

فربُّكَ يدعوك إلى بيته ليريحك ، وليحمل عنك همومك ، ويصلح ما فسد فيك ، ويفتح لك أبواب الفرج . إذن فنور على نور هذه لا تكون إلا في بيوت الله التي أذِن سبحانه أن تُرفعَ

بالذكر وبالطاعات وترفع عما يحل في الأماكن الأخرى وتعظم .

فالبيوت كلها لها مستوى واحد ، لكن ترفع بيوت عن بيوت وتُعلَّى وقد رُفِعَت بيوت الله بالطاعة والعبادة ، فالمسجد مكان للعبادة لا يُعصَى الله فيه أبداً على خلاف البيوت والأماكن الأخرى ، فعظّم الله بيوته أن يُعْصَى فيها ، وعظّم روادها أن يشتغلوا فيها بسفاسف الأمور الحياتية الدنيوية ، فعليك أن تترك الدنيا على باب المسجد كما تترك الحذاء .

لذلك نهى الإسلام أن نعقد صفقة في بيت الله ، أو حتى ننشد فيه الضالة ؛ لأن الصفقة التي تُعقَد في بيت الله خاسرة بائرة ، والضالة التي ينشدها صاحبها فيه لا تُردُّ عليه ، وقد أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نقول لمن يفعل هذا بالمسجد " لا ردها الله عليكم " .

وإنْ جعل الله الأرض كلها لأمة محمد صلى الله عليه وسلم مسجداً وطهوراً ، لكن فَرْقٌ بين الصلاة في المسجد والصلاة في أيِّ مكان آخر ، المسجد خُصِّص للعبادة ، ولا نذكر فيه إلا الله ، أمّا الأماكن الأخرى فتصلح للصلاة ، وأيضاً لمزاولة أمور الدنيا .

(120/550)

وإلا ، فكيف تعيش كل وقتك لأمور الدنيا على مدار اليوم والليلة ، ثم تستكثر على ربك هذه الدقائق التي تؤدي فيها فَرْض الله عليك فتجرجر الدنيا معك حتى في بيت الله ؟ ألا تعلم أن بيوت الله ما جُعِلت إلا لعبادة الله ؟ لابد للمؤمن أن يترك دُنْياه خارج المسجد ، وأن ينوي الاعتكاف على عبادة ربه والمداومة على ذِكْره في بيته ، فلا يليق بك أن تكون في بيت الله وتنشغل بغيره .

فإن التزمتَ بآداب المسجد تلقيتَ من ربك نوراً على نور ، وزال عن كاهلك الهمّ والغم وحُلَّت مشاكلك من حيث لا تحتسب .

إذن : فالحق تبارك وتعالى جعل في الفطرة الإيمانية أن تؤمن بإله ، فالإيمان أمر فطري مهما حاول الإنسان إنكاره ، فالكافر الذي ينكر وجود الله ساعة يتعرَّض لأزمة لا منجاةَ منها بأسباب البشر تجده تلقائياً يتوجه إلى الله يقول : يا رب ، لا يمكن أن يكذبَ على نفسه في هذه الحالة أو يُسلم نفسه ويبيعها رخيصة .

وفي ذلك يقول تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسان ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يدعوا إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَاداً ﴾ [الزمر : 8] .

ومن دقة الأداء القرآني في هذه المسألة قوله تعالى : ﴿ يا أَيُّهَا الذين آمنوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاَةِ مِن يَوْمِ الجمعة فاسعوا إلى ذِكْرِ الله وَذَرُواْ البيع ﴾ [الجمعة : 9] .

فذكر طرفاً واحداً من عملية التجارة وهو البيع ، ولم يقل : والشراء ، قالوا : لأنه حين يُمنع

البيع يُمنع الشراء في الوقت نفسه ؛ ولأن الإنسان يحرص على البيع لكن قد يشتري وهو كاره ، فشهوة الإنسان متعلقة بالبيع لا بالشراء ، لأن الشراء يحتاج منه إلى مال على خلاف البيع الذي يجلب له المال .

(121/550)

إذن : قوله تعالى : ﴿ وَذَرُواْ البيع ﴾ [الجمعة : 9] إنما ذكر قمة حركة الحياة وخلاصتها ، فكل حركات الحياة من تجارة أو زراعة أو صناعة تنتهي إلى مسألة البيع ؛ لذلك يحزن البائع إذا لم يَبِعْ ، أما المشتري فيقول حين لا يجد الشيء أو يجد المحل مُغلَقاً : بركة يا جامع .

ثم إذا انتهتْ الصلاة يعيدنا من حديد إلى حركة الحياة :

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصلاة فانتشروا فِي الأرض وابتغوا مِن فَضْلِ الله ﴾ [الجمعة : 10] .

كأنك ذهبتَ للمسجد لتأخذ شحنة إيمانية تعينك وتسيطر على كُلِّ حواسك في حركتك في التجارة ، وفي الإنتاج ، وفي الاستهلاك ، وفي كل ما ينفعك ويُنمي حياتك . وحين يأمرك ربك أن تفرغ لأداء الصلاة لا يريد من هذا الفراغ أن يُعطّل لك حركة الحياة ، إنما ليعطيك الوقود اللازم لتصبح حركة حياتك على وَفْق ما أراده الله . وما أشبه هذا الوقت الذي نختزله من مصالح دنيانا في عبادة الله بشحن بطارية الكهرباء ، فحين تذهب بالبطارية إلى

جهاز الشحن لا نقول : إنك عطلت البطارية إنما زدتَ من صلاحيتها لأداء مهمتها وأخْذ خيرها .

فأنت تذهب إلى بيت الله بنور الإيمان ، وبنور الاستجابة لنداء : الله أكبر ، فتخرج بأنوار متعددة من فيوضات الله ؛ لذلك ضرب لنا الحق تبارك وتعالى مثلاً لها النور بالمصباح الذي يتنامى نوره ويتصاعد ؛ لأنه في زجاجة تزيد من ضوئه ؛ لأنها مثل كوكب دُرِيٍّ والنور يتصاعد ؛ لأنها بزيت زيتونة ، ويتصاعد لأنها شرقية وغربية في آن واحد ، إذن : عندنا ألوان متعددة في المثل ، فكذلك النور في بيوت الله .

(122/550)

لذلك قال بعض العارفين : أهل الأرض ينظرون في السماء نجوماً متلألئة ، والملائكة في السماء ينظرون نجوماً متلألئة من بيوت الله ، ولا عجبَ في ذلك لأنها أنوار الله تتلألأ وتتدفق في بيته وفي مسجده ، وكيف نستبعد ذلك ونحن نرى نور الشمس كيف يفعل حينما يعكس على سطح القمر فيُلقِي إلينا بالضوء الذي نراه ؟ والشمس والقمر أثر من آثار نور الله الذي يَسْطع في بيوت الله ، ألاّ يعطينا ذلك الإشعاع الذي يفوق إشعاع البدور ؟ ثم يقول تعالى : ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بالغدو والآصال ﴾ [النور : 36] .

فالمساجد جُعِلَتْ لتسبيح الله ؛ لذلك كان بعض الصالحين إذا نزل بلداً يتحيل أن ينزلها في غير وقت الصلاة ، ثم يذهب إلى المسجد فإنْ وجده عامراً في غير وقت الصلاة بالمسبحين علم أن هؤلاء ملتزمون بمنهج الله ، حيث يجلسون قبل وقت الصلاة يُسبِّحون الله وينتظرون الصلاة ، وإنْ وجد الحال غير ذلك انصرف عنها وعلم أنها بلد لا خيرَ فيها .

والغُدوُّ : يعني الصباح ، والآصال : يعني المساء ، فهي لا تخلو أبداً من ذكْر الله وتسبيحه ، وقد وصف هؤلاء الذين يعمرون بيوت الله بالذكر والتسبيح بأنهم : ﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللهِ ﴾

قلنا : إن التجارة هي قمة حركة الحياة ؛ لأنها واسطة بين منتج زارع أو صانع وبين مستهلك ، وهي تقتضي البيع والشراء ، وهما قمة التبادلات ، وهؤلاء الرجال لم تُلْهِهِمْ التجارة عن ذِكْر الله لأنهم عرفوا ما في الزمن المستقطع للصلاة من بركة تنثر في الزمن الباقي .

(123/550)

أو نقول : إن التجارة لم تُلْههم عن ذِكْر الله في ذاتها ، فهُمْ حالَ تجارتهم لا يغفلون عن ذكر الله ، وقد كنا في الصِّغَر نسمع في الأسواق بين البائع والمشتري ، يقول أحدهما للآخر : وحدِّ الله ،

صَلِّ على النبي ، مدَّح النبي ، بالصلاة على النبي ، كل هذه العبارات انقرضت الآن من الأسواق والتعاملات التجارية وحَلَّ محلَّها قيم وعبارات أخرى تعتمد على العَرْض والإعلان ، بل الغش والتدليس . ولم نَعُدْ نسمع هذه العبارات ، حتى إذا لم يتم البيع كنت تسمع البائع يقول : كسبنا الصلاة على النبي ، فهي في حَدِّ ذاتها مكسب حتى لو لم يتم البيع .

﴿ وَإِقَامِ الصلاة وَإِيتَآءِ الزكاة ﴾ [النور : 37] الصلاة لأنها تأخذ وقتاً من العمل ، وكثيراً ما ينشغل المرء بعمله وتجارته عن إقامة الصلاة ظاناً أنها ستُضيِّع عليه الوقت ، وتُفوِّت عليه مصالح كثيرة ، وكذلك ينظر إلى الزكاة على أنها تنقص من ماله ، وهذه نظرة خاطئة حمقاء ؛ لأن الفلاح الذي يُخرِج من مخزنه أردباً من القمح ليزرع به أرضه : الأحمق يقول : المخزن نقص أردباً ، أما العاقل فيثق أن هذا الأردب سيتضاعف عند الحصاد أضعافاً مضاعفة .

أو : أن الله تعالى يفيض عليه من أنواره ، فيبارك له في وقته ، وينجز من الأعمال من الوقت المتبقي ما لا ينجزه تارك الصلاة ، أو : يرزقه بصفقة رابحة تأتيه في دقائق ، ومن حيث لا يحتسب ، والبركة كما قلنا قد تكون سَلْباً وقد تكون إيجاباً ، وهذه كلها أنوار وتجليات يفيض الله بها على الملتزم بمنهجه .

ثم يقول سبحانه في صفات هؤلاء الرجال : ﴿ يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ القلوب والأبصار

﴿ [النور : 37] ذلك لأنهم يتجارون لهدف أسمى وأخلد ، فأهل الدنيا إنما يتاجرون لصيانة دنياهم ، أمّا هؤلاء فيتجارون مع الله تجارة لن تبور ، تجارة تصون الدنيا وتصون الآخرة .

(124/550)

وإذا قِسْتَ زمن دنياك بزمن أُخْراك لوجدته هباء لا قيمةَ له ، كما أنه زمن مظنون لعمر مظنون ، لا تدري متى يفاجئك فيه الموت ، إمّا الآخرة فحياة يقينية باقية دائمة ، وفي الدنيا يفوتك النعيم مهما حَلاَ وطال ، أما الآخرة فنعيمها دائم لا ينقطع .

إذن : فَهُمْ يعملون للآخرة ﴿ يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ القلوب والأبصار ﴾ [النور : 37] واليوم في ذاته لا يُخاف منه ، وإنما يُخَاف ما فيه ، كما يقول الطالب : خِفْت يوم الامتحان ، واليوم يوم عادي لا يخاف منه ، إنما يُخاف مما سيحدث في هذا اليوم ، فالمراد : يخافون عذاب هذا اليوم .

ومعنى ﴿ تَتَقَلَّبُ فِيهِ القلوب والأبصار ﴾ [النور : 37] يعني : رجفة القلب واضطراب حركته ، وما ينتابه من خفقان شديد ، ونحن نرى ما يصيب القلوب من ذلك لمجرد أحداث الدنيا ، فما بالك بهوْل الآخرة ، وما يحدث من اضطراب في القلب ؟

كذلك تضطرب الأبصار وتتقلَّب هنا وهناك ؛ لأنها حين ترى الفزع الذي يخيفها تتقلب ، تنظر هنا وتنظر هنا عَلَّها ترى ما يُطمئنها أو يُخفِّف عنها ما تجد ، لكن هيهات فلن ترى إلا فزعاً آخر أشدّ وأنكى .

لذلك ينتهي الموقف إلى : ﴿ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ ﴾ [القلم : 43] ﴿ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ * أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ﴾ [النازعات : 89] يعني : ذليلة منكسرة حيث لا مفرَّ ولا مَنْجى ، ولن يجد في هذا اليوم راحة إلا مَنْ قدم له العمل الصالح كالتلميذ المجتهد الواثق من نفسه ومعلومات ، يتلهف إلى ورقة الأسئلة ، أما الآخرة فيقف حائراً لا يدري .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَيَزِيدَهُمْ مِّن فَضْلِهِ ﴾

(125/550)

أي : في هذا اليوم يجزيهم الله أحسن ما عملوا ، ما شاء الله على رحمة الله ! ! لكن كيف بأسوأ ما عملوا ؟ هذه دَعْوها لرحمة الله ولمغفرته ﴿ وَيَزِيدَهُمْ مِّن فَضْلِهِ ﴾ [النور : 38] لأن الله تعالى لا يعاملنا في الحسنات بالعدل ، ولا يجازينا عليها بالقسطاس المستقيم وعلى قَدْر ما نستحق ، إنما يزيدنا من فضله .

لذلك ورد في الدعاء : اللهم عاملنا بالفضل لا بالعدل ، وبالإحسان لا بالميزان . فليس لنا

نجاة إلا بهذا ، كما يقول سبحانه : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس : 58] .

﴿ واللهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [النور : 38] والرزق : كُلُّ ما يُنتفع به ، وكل معنى فيه فوقية لك هو رزق ، فالصحة رزق ، والعلم رزق ، والحلم رزق ، والشجاعة رزق . . الخ .

والبعض يظن أن الرزق يعني المال ، وهذا خطأ ؛ لأن الرزق مجموعُ أمورٍ كثيرة ، فإنْ كان رزقُك علماً فعلِّم الجاهل ، وإنْ كان رزقك قوةً فأعِن الضعيف ، وإنْ كان رزقك حِلْماً فاصبر على السَّفيه ، وإن كان رزقك صنعة تجيدها ، فاصنع لآخرَ لا يجيد شيئاً .

وإذن : هذا كله رزق ، وما دام ربك عز وجل يرزقك بغير حساب ، ويفيض عليك من فضله فأعْطِ المحتاجين ، وارزق أنت أيضاً المعدمين ، واعلم أنك مُنَاول عن الله ، والرزق في الأصل من الله وقد تكفّل لعباده به ، وما أنت إلا يد الله الممدودة بالعطاء ، واعلم أنك ما دُمْتَ واسطة في العطاء ، فأنت تعطي من خزائن لا تنفد ، فلا تضنّ ولا تبخل ، فما عندكم ينفد وما عند الله بَاقٍ .

(126/550)

والحساب : أنْ تحسب ثمرة الأفعال : هذه تعطي كذا ، وهذا ينتج كذا ، يعني ميزانية ودراسة جدوى ، أمّا عطاء الله فيأتيك دون هذه الحسابات ، فأنت تحسب ؛ لأن وراءك مَنْ سيحاسبك ، أمّا ربك عز وجل فلا يحاسبه أحد ؛ لذلك يعطيك بلا عمل ودون أسباب ، ويعطيك بلا مُقدّمات ، ويعطيك وأنت لا تستحق ، أَلاَ ترى مَنْ تتعثر قدمه فيجد تحتها كنزاً ؟ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(127/550)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (36) ﴾

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ في بيوت أذن الله أن ترفع ﴾ قال : هي المساجد تكرم ، ونهى عن اللغو فيها ، ﴿ ويذكر فيها اسمه ﴾ ، يتلى فيها كتابه ، يسبح : يصلي له فيها ، بالغدوة : صلاة الغداة ، والآصال : صلاة العصر ، وهما أول ما فرض الله من الصلاة ، وأحب أن يذكرهما ويذكرهما عباده .

وأخرج الحاكم وصححه وابن مردويه عن عقبة بن عامر عن رسول الله صلى الله عليه

وسلم قال : " يجمع الناس في صعيد واحد ، ينفذهم البصر ، ويسمعهم الداعي ، فينادي مناد : سيعلم أهل الجمع لمن الكرم اليوم ثلاث مرات ثم يقول : أين الذين كانت تتجافى جنوبهم عن المضاجع : ثم يقول : أين الذين كانت لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ؟ ثم يقول : أين الحمادون الذين كانوا يحمدون ربهم ؟ " .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة ﴿ في بيوت أذن الله أن ترفع ﴾ قال : هي المساجد . أذن الله في بنيانها ورفعها ، وأمر بعمارتها وبطهورها .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد ﴿ في بيوت أذن الله أن ترفع ﴾ قال : في مساجد أن تبنى .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير عن الحسن في قوله ﴿ أذن الله أن ترفع ﴾ يقول : أن تعظم بذكره ﴿ يسبح ﴾ يصلي له فيها .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد ﴿ في بيوت أذن الله أن ترفع ﴾ قال : إنما هي أربع مساجد لم يُبْنِهُنَّ إلا نبي . الكعبة بناها إبراهيم واسمعيل ، وبيت المقدس بناه داود وسليمان ، ومسجد المدينة بناه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومسجد قباء أسس على التقوى بناه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وأخرج ابن مردويه عن أنس بن مالك وبريدة قال : " قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية ﴿ في بيوت أذن الله أن ترفع ﴾ فقام إليه رجل فقال : أي بيوت هذه يا رسول الله ؟ قال : بيوت الأنبياء . فقام إليه أبو بكر فقال : يا رسول الله هذا البيت منها ؟ البيت علي وفاطمة قال : نعم . من أفاضلها " .

وأخرج ابن أبي شيبة ومسلم والنسائي وابن ماجة وابن مردويه عن ابن بريدة " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع رجلاً يقول : من دعا إلى الجمل الأحمر في المسجد فقال : " لا وجدته ثلاثاً إنما بنيت هذه المساجد للذي بنيت له " " وقال أبو سنان الشيباني في قوله ﴿ في بيوت أذن الله أن ترفع ﴾ قال : تعظم .

وأخرج أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجة عن عائشة قالت : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ببناء المساجد في الدور ، وأن تنظف وتطيب .

وأخرج أحمد عن عروة بن الزبير عمن حدثه من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرنا أن نصنع المساجد في دورنا ، وأن نصلح صنعتها ، ونطهرها .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وأبو يعلى عن ابن عمر . أن عمر كان يجمر المسجد في كل جمعة .

وأخرج ابن أبي شيبة عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " التفل في

المسجد خطيئة وكفارته أن يواريه " .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد والطبراني عن أبي أمامة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " البزاق في المسجد خطيئة ودفنه حسنة " .

وأخرج الطبراني في الأوسط عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " البزاق في المسجد خطيئة وكفارته دفنه " .

وأخرج البزار عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " البزاق في المسجد خطيئة وكفارته دفنه " .

وأخرج البزار عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " تبعث النخامة يوم القيامة في القبلة وهي في وجه صاحبها " .

(129/550)

وأخرج الطبراني عن أبي أمامة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " من بزق في قبلة ولم يوارها جاءت يوم القيامة أحمى ما تكون حتى تقع بين عينيه " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن حذيفة قال " من صلى فبزق تجاه القبلة جاءت البزقة يوم القيامة في وجهه " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن عمر قال " إذا بزق في القبلة جاءت أحمى ما تكون يوم القيامة حتى تقع بين عينيه " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي هريرة قال : إن المسجد لينزوي من المخاط أو النخامة كما تنزوي الجلدة من النار .

وأخرج ابن أبي شيبة عن العباس بن عبد الرحمن الهاشمي قال : " أول ما خلقت المساجد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى في المسجد نخامة ، فحكها ثم أمر بخلوق فلطخ مكانها قال " فخلق الناس المساجد " " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن الشعبي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى في قبلة المسجد نخامة ، فقام إليها فحكها بيده ، ثم دعا بخلوق فقال الشعبي : هو سنة .

وأخرج ابن أبي شيبة عن يعقوب بن زيد ؛ أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يتبع غبار المسجد بجريدة .

وأخرج ابن أبي شيبة عن زيد بن أسلم قال : كان المسجد يرش ويقم على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد عن رجل من الأنصار قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إذا وجد أحدكم القملة في المسجد فليصرها في ثوبه حتى يخرجها " .

وأخرج ابن ماجة عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " خصال لا ينبغين

في المسجد : لا يتخذ طريقاً ، ولا يشهر فيه سلاح ، ولا يقبض فيه بقوس ، ولا يتخذ سوقاً .

وأخرج ابن ماجة عن واثلة بن الأسقع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم " جنبوا مساجدكم صبيانكم ، ومجانينكم ، وشراركم ، وبيعكم ، وخصوماتكم ، واقامة حدودكم ، وسل سيوفكم ، واتخذوا على أبوابها المطاهر ، وبخروها في الجمع " .

(130/550)

وأخرج ابن أبي شيبة والبخاري ومسلم وأبو داود وابن ماجة عن أبي موسى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إذا مر أحدكم بالنبل في المسجد فليمسك على نصولها " .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن البيع والشراء في المسجد ، وعن تناشد الأشعار ، ولفظ ابن أبي شيبة عن انشاد الضوال .

وأخرج الطبراني عن ثوبان قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول " من رأيتموه ينشد شعراً في المسجد فقولوا له فض الله فاك ثلاث مرات ، ومن رأيتموه ينشد ضالة في

المسجد فقولوا لا وجدتها ثلاث مرات ، ومن رأيتموه يبيع أو يبتاع في المسجد فقولوا : لا أربح الله تجارتك " .

وأخرج الطبراني عن جبير بن مطعم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لا تسل السيوف ، ولا تنثر النبل في المساجد ، ولا يحلف بالله في المساجد ، ولا تمنع القائلة في المساجد مقيماً ولا مضيفاً ، ولا تبنى التصاوير ، ولا تزين بالقوارير ، فإنما بنيت بالأمانة ، وشرفت بالكرامة " .

وأخرج الطبراني عن جبير بن مطعم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لا تقام الحدود في المساجد " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن عباس أنه قال لرجل أخرج حصاة من المسجد : ردها وإلا خاصمتك يوم القيامة .

وأخرج ابن أبي شيبة عن كعب قال : إن الحصاة إذا أخرجت من المسجد تناشد صاحبها .

وأخرج ابن أبي شيبة عن مجاهد قال : إذا خرجت الحصاة من المسجد صاحت أو سبحت .

وأخرج ابن أبي شيبة عن سعيد بن جبير قال : الحصاة تسب وتلعن من يخرجها من المسجد .

وأخرج ابن أبي شيبة عن سليمان بن يسار قال : الحصاة إذا خرجت من المسجد تصيح حتى ترد إلى موضعها .

(131/550)

وأخرج ابن أبي شيبة والترمذي وابن ماجة عن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دخل المسجد يقول : " بسم الله والسلام على رسول الله . اللهم اغفر لي ذنوبي ، وافتح لي أبواب رحمتك " . وإذا خرج قال : " بسم الله والسلام على رسول الله . اللهم اغفر لي ذنوبي ، وافتح لي أبواب فضلك " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن قتادة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " اعطوا المساجد حقها قيل : وما حقها ؟ قال : ركعتان قبل أن تجلس " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن مسعود قال : من أشراط الساعة أن تتخذ المساجد طرقاً .

والله أعلم .

أما قوله تعالى : ﴿ يسبح له فيها بالغدوّ والآصال ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد عن عاصم أنه قرأ (يسبح) بنصب الباء .

وأخرج ابن أبي شيبة والبيهقي في شعب الإِيمان عن ابن عباس قال : إن صلاة الضحى لفي

القرآن ، وما يغوص عليها الأغواص . في قوله ﴿ في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدوّ والآصال ﴾ .

﴿ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ (37) ﴾)

أخرج أحمد عن أم سلمة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " خير مساجد النساء قعر بيوتهن " .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر عن أبي حميد الساعدي عن أبيه عن جدته أم حميد قالت : قلت يا رسول الله تمنعنا أزواجنا أن نصلي معك ، ونحب الصلاة معك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " صلاتكن في بيوتكن أفضل من صلاتكن في حجركن ، وصلاتكن في حجركن أفضل من صلاتكن في الجماعة " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن مسعود قال : ما صلت امرأة قط صلاة أفضل من صلاة تصليها في بيتها ، إلا أن تصلي عند المسجد الحرام ؛ إلا عجوز في منقلبها يعني حقبها .

(132/550)

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي هريرة " عن رسول الله في قوله تعالى ﴿ رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ﴾ قال : هم الذين يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله " .

وأخرج ابن مردويه والديلمي عن أبي سعيد الخدري " عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله ﴿ رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ﴾ قال : هم الذين يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله " .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله ﴿ رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ﴾ قال : كانوا رجالاً يبتغون من فضل الله يشترون ويبيعون ، فإذا سمعوا النداء بالصلاة ألقوا ما بأيديهم وقاموا إلى المسجد فصلوا .

وأخرج الطبراني وابن مردويه عن ابن عباس في قوله ﴿ رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ﴾ قال : أما والله ولقد كانوا تجاراً ، فلم تكن تجارتهم ولا بيعهم يلهيهم عن ذكر الله .

وأخرج ابن أبي حاتم والحاكم وصححه والبيهقي في الشعب عن ابن عباس في الآية قال : ضرب الله هذا المثل قوله ﴿ مثل نوره كمشكاة ﴾ لأولئك القوم الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ، وكانوا اتجر الناس وأبيعهم ، ولمن لم تكن تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿ رجال لا تلهيهم تجارة

ولا بيع عن ذكر الله ﴾ قال : عن شهود الصلاة المكتوبة .

وأخرج الفريابي عن عطاء مثله .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عمر : انه كان في السوق ، فأقيمت الصلاة ، فأغلقوا حوانيتهم ، ثم دخلوا المسجد فقال ابن عمر : فيهم نزلت ﴿ رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ﴾ .

وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير والطبراني والبيهقي في الشعب عن ابن مسعود : أنه رأى ناساً من أهل السوق سمعوا الأذان ، فتركوا أمتعتهم ، وقاموا إلى الصلاة فقال : هؤلاء الذين قال الله ﴿ لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ﴾ .

(133/550)

وأخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك في قوله ﴿ رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ﴾ قال : هم في أسواقهم يبيعون ويشترون ، فإذا جاء وقت الصلاة لم يلههم البيع والشراء عن الصلاة ﴿ يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار ﴾ قال : تتقلب في الجوف ، ولا تقدر تخرج حتى تقع في الحنجرة ، فهو قوله ﴿ إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ﴾ [غافر : 18] .

وأخرج ابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم في قوله ﴿ يخافون يوماً ﴾ قال يوم القيامة .

وأخرج أحمد في الزهد وعبد بن حميد عن أبي الدرداء قال : أحب أن أبايع على هذا الدرج ، وأربح كل يوم ثلثمائة دينار ، وأشهد الصلاة في الجماعة ، أما أنا لا أزعم أن ذلك ليس بحلال ، ولكنني أحب أن أكون من الذين قال الله ﴿ رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ﴾ .

وأخرج هناد بن السري ، في الزهد ومحمد بن نصر في كتاب الصلاة ، وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في شعب الإِيمان ، عن أسماء بنت يزيد قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " يجمع الله الناس يوم القيامة في صعيد واحد يسمعهم الداعي ، وينفذهم البصر ؛ فيقوم مناد فينادي : أين الذين كانوا يحمدون الله في السراء والضراء ؟ فيقومون – وهم قليل – فيدخلون الجنة بغير حساب ، ثم يعود فينادي أين الذين كانت تتجافى جنوبهم عن المضاجع ؟ فيقومون – وهم قليل – فيدخلون الجنة بغير حساب ، فيعود فينادي أين الذين كانوا لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ؟ فيقومون – وهم قليل – فيدخلون الجنة بغير حساب ، ثم يقوم سائر الناس فيحاسبون " .

(134/550)

وأخرج الحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في شعب الإِيمان عن عقبة بن عامر قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر فقال : " يجمع الناس في صعيد واحد ينفذهم البصر ، ويسمعهم الداعي ، فينادي مناد : سيعلم أهل الموقف لمن الكرم اليوم ثلاث مرات ، ثم يقول : أين الذين كانت تتجافى جنوبهم عن المضاجع ؟ ثم يقول : أين الذين كانت لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة ؟ إلى آخر الآية . ثم يقول : أين الحمادون الذين كانوا يحمدون ربهم " .

وأخرج أحمد وأبو يعلى وابن حبان عن أبي سعيد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " يقول الرب عز وجل " سيعلم أهل الجمع اليوم من أهل الكرم فقيل : ومن أهل الكرم يا رسول الله ؟ قال : أهل الذكر في المساجد " .

وأخرج البيهقي في شعب الإِيمان عن الحسن قال : إذا كان يوم القيامة نادى مناد : سيعلم أهل الجمع من أولى بالكرم . أين الذين كانت تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ومما رزقناهم ينفقون ؟ فيقومون فيتخطون رقاب الناس ، ثم ينادي مناد : سيعلم أهل الجمع من أولى بالكرم . أين الذين كانت لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ؟ فيقومون فيتخطون رقاب الناس ، ثم ينادي أيضاً فيقول : سيعلم أهل الجمع من أولى بالكرم . أين الحمادون لله على كل حال ؟ فيقومون وهم كثير . ثم تكون التبعة والحساب على من بقي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 6 صـ ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله : ﴿ فِي بُيُوتٍ ﴾ :

فيها ستةُ أوجهٍ . أحدُها : أنها صفةٌ ل " مِشْكاةٍ " أي : كمِشْكاةٍ في بيوتٍ أي : في بيتٍ من بيوتِ الله . الثاني : أنه صفةٌ لمصباح . الثالث : أنه صفةٌ ل " زجاجة " . الرابع : أنه متعلقٌ ب " تُوْقَدُ " . وعلى هذه الأقوالِ لا يُوقف على " عليم " . الخامس : أنه متعلِّقٌ بمحذوفٍ كقوله ﴿ فِي تِسْعِ آيَاتٍ ﴾ [النمل : 12] أي : يُسَبِّحونه في بيوت . السادس : أَنْ يتعلَّقَ ب " يُسَبِّحُ " أي : يُسَبِّحُ رجالٌ في بيوت . وفيها تكريرٌ للتوكيدِ كقوله : ﴿ فَفِي الجنة خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ [هود : 108] . وعلى هذه القولَيْن فيُوْقَفُ على " عليم " .

وقال الشيخ : " وعلى هذه الأقوالِ الثلاثةِ " ولم يُذْكر سوى قولين .

قوله : ﴿ أَذِنَ الله ﴾ في محلِّ جرٍّ صفةً ل " بيوتٍ " ، و " أن تُرفع " على حَذْفِ الجارِّ أي : في أَنْ تُرْفَعَ . ولا يجوز تَعَلُّقُ " في بيوت " بقوله : " ويُذْكَرُ " لأنه عطفٌ على ما في حَيِّز " أَنْ " ، وما بعد " أَنْ " لا يتقدَّم عليها .

قوله : ﴿ يُسَبِّحُ ﴾ قرأ ابنُ عامرٍ وأبو بكر بفتح الباء مبنياً للمفعولِ . والقائمُ مَقامَ الفاعلِ أحدُ المجروراتِ الثلاثة . والأولى منها بذلك الأولُ لاحتياجِ العاملِ إلى مرفوعِه ، والذي يليه أولى . و " رجالٌ " على هذه القراءةِ مرفوعٌ على أحدِ وجهين : إمَّا بفعلٍ مقدرٍ لتَعَذُّرِ إسنادُ الفعلِ إليه ، وكأنه جوابُ سؤالٍ مقدَّرٍ ، كأنه قيل : مَنْ يُسَبِّحه ؟ فقيل : يُسَبِّحُه رجالٌ . وعليه في أحدِ الوجهين قولُ الشاعر :

3448 لِيُبْكَ يَزِيْدُ ضارعٌ لِخُصُومَةٍ . . . ومُخْتَبِطٌ مِمَّا تُطيحُ الطَّوائحُ

(136/550)

كأنه قيل : مَنْ يبكيه ؟ فقيل : يَبْكيه ضارعٌ . إلاَّ أنَّ في اقتياس هذا خلافاً ، منهم مَنْ جَوَّزَه ، ومنهم مَنْ مَنعه . والوجهُ الثاني في البيت : أنَّ " يَزيدُ " منادى حُذِف منه حرفُ النداءِ أي : يا يزيد ، وهو ضعيف جداً .

والثاني : أنَّ رجالاً خبرُ مبتدأ محذوفٍ أي : المُسَبِّحه رجالٌ . وعلى هذه القراءةِ يُوْقفُ على الآصال .

وباقي السبعةِ بكسرِ الباءِ مبنياً للفاعل . والفاعلُ " رجال " فلا يُوْقَفُ على الآصال .

وقرأ ابن وثاب وأبو حيوة " تُسَبِّح " بالتاءِ مِنْ فوقُ وكسرِ الباء ؛ لأنَّ جَمْعَ التكسيرِ يُعامَلُ

مُعامَلَةَ المؤنثِ في بعض الأحكامِ وهذا منها . وقرأ أبو جعفر كذلك إلاَّ أنَّه فَتَح الباءَ .

وخَرَّجها الزمخشري على إسنادِ الفعل إلى الغُدُوّ والآصال على زيادة الباء ، كقولهم : " صِيْد عليه يومان " أي : وَحْشُها . وخَرَّجها غيرُه على أنَّ القائمَ مَقامَ الفاعلِ ضميرُ التسبيحة أي : تُسَبَّح التسبيحةُ ، على المجازِ المُسَوَّغ لإسنادِه إلى الوقتين ، كما خَرَّجوا قراءةَ أبي جعفرٍ أيضاً ﴿ ليجزى قَوْماً بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ [الجاثية : 14] أي : ليجزى الجزاءُ قوماً ، بل هذا أَوْلى مِنْ آيةِ الجاثية ؛ إذ ليس هنا مفعولٌ صريح .

قوله : ﴿ لاَّ تُلْهِيهِمْ ﴾ : في محلِّ رفعٍ صفةً ل " رجالٌ " .

قوله : ﴿ يَخَافُونَ ﴾ يجوز أَنْ تكونَ نعتاً ثانياً لرجال ، وأَنْ تكونَ حالاً مِنْ مفعول " تُلْهِيْهم " ، و " يوماً " مفعولٌ به لا ظرفٌ على الأظهر . و " يتقلَّبُ " صفةٌ ل يوماً .

قوله : ﴿ لِيَجْزِيَهُمُ ﴾ : يجوز تعلُّقُه ب " يُسَبِّح " أي : يُسَبِّحون لأجل الجزاء . ويجوز تعلُّقُه بمحذوفٍ أي : فعلوا ذلك ليَجْزيهم . وظاهرُ كلامِ الزمخشري أنه من بابِ الإعمال فإنه قال : " والمعنى : يُسَبِّحونَ ، ويَخافون ليجزِيَهم ، ويكونُ على إعمالِ الثاني للحذف من الأول .

قوله : ﴿ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ ﴾ أي ثوابَ أحسنِ ، أو أحسنَ جزاءِ ما عملوا . و " ما " مصدريةٌ أو بمعنى الذي أنكرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 409 .

411 ﴾

من لطائف الإمام القشيري في الآية

قال عليه الرحمة :

قوله جلّ ذكره : ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ﴾ .

المساجدُ بيوتَه – سبحانه – وإنَّ الله أَذِنَ أَنْ تُرْفَعُ الحوائجُ فيها إليه فيقضيها ، ورَفَعَ أقدارَ تلك البيوتِ على غيرها من الأبنية والآثار . المساجدُ بيوتُ العبادة والقلوبُ بيوتُ الإرادة ؛ فالعابِدُ يَصِلُ بعبادته إلى ثوابِ الله ، والقاصدُ بإرادته إلى الله .

ويقال القلوبُ بيوتُ المعرفة ، والأرواحُ مَشاهِدُ المحبة ، والأسرار محالُّ المشاهدة .

قوله : ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ . . . ﴾ لم يقل : لا يتجرون ولا يشترون ولا يبيعون ، بل قال : لا تلهيهم تجارةٌ ولا بيعٌ عن ذكر الله ، فإنْ أمكن الجمع بينهما فلا بأسَ – ولكنه كالمعتذر – إلاَّ على الأكابر الذين تجري عليهم الأمورُ وهم عنها مأخوذون .

ويقال هم الذين يُؤْثِرون حقوقَ الحقِّ على حظوظ النَّفْس .

ويقال إذا سمعوا صوتَ المؤذن : حيَّ على الصلاة تركوا ما هم فيه من التجارة والبيع ، وقاموا الأداء حقه .

ويقال هم الخواص والأكابر الذين لا يشغلهم قوله : ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ

عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الصف : 10] عن التحقق بذكره من غير ملاحظة عِوَضٍ أو مطالعة سبب .

قوله جلّ ذكره : ﴿ يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ ﴾ .

أقوامٌ ذلك اليومُ مُؤَجَّلٌ لهم ، وآخرون : ذلك لهم مُعَجَّلٌ وهو بحسب ما هم فيه من الوقت ؛ فإنَّ حقيقةَ الخوفِ تَرَقُّبُ العقوباتِ مع مجاري الأنفاس .

قوله جل ذكره : ﴿ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ .

(138/550)

مَنْ رَفَعَ الحسابَ من الوَسَطِ يَرْفَعْ معه الحساب ، ومَنْ هو في أَسْرِ مطالباته فالوزنُ يومئذٍ الحقُّ .

والرزقُ بغير حساب في أرزاق الأرواح ، فأَمَّا أرزاقُ الأشباحِ فمحصورةٌ معدودةٌ ؛ لأن أرزاقَ الأشباحِ حظوظٌ ؛ وهي وجودُ أفضال وفنونُ نوالٍ ، . وما حَصَرَه الوجودُ مِنَ الحوادثِ فلا بُدَّ أن يأتيَ عليه العَدَدُ ، وأما مكاشفةُ الأرواحِ بشهودِ الجمالِ والجَلال فذلك على الدوام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 614.615 ﴾

(139/550)

قوله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (39) أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ (40) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما أخبر تعالى أن الذين اتبعوا نور الحق سبحانه ، وصلوا – من جزائه بسبب ما هداهم إليه النور من الأعمال الصالحة – إلى حقائق هي في نفس الأمر الحقائق ، أخبر عن أضدادهم الذين اتبعوا الباطل فحالت جباله الوعرة الشامخة بين أبصار بصائرهم وبين تلك الأنوار بضد حالهم فقال : ﴿ والذين كفروا ﴾ أي ستروا بما لزموه من الضلال ما انتشر من نور الله ﴿ أعمالهم ﴾ كائنة في يوم الجزاء ﴿ كسراب ﴾ وهو ما تراه نصف النهار في البراري لاصقاً بالأرض يلمع كأنه ماء ، وكلما قربت منه بعد حتى تصل إلى جبل ونحوه فيخفى ؛ قال الرازي في اللوامع : والسراب شعاع ينكشف فينسرب ويجري كالماء تخيلاً ؛ وقال ابن كثير : يرى عن بعد كأنه بحر طام ، وإنما يكون ذلك بعد نصف النهار ، وأما الآل فإنما يكون أول النهار ، يرى كأنه ماء بين السماء والأرض – انتهى .

وقال البغوي : والآل ما ارتفع عن الأرض ، وهو شعاع يرى بين السماء والأرض بالغدوات شبه الملاءة ، يرفع فيه الشخوص ، يرى فيه الصغير كبيراً ، والقصير طويلاً ، والرقراق يكون بالعشايا ، وهو ما ترقرق من السراب ، أي جاء وذهب .

﴿ بقيعة ﴾ جمع قاع ، وهو أرض سهلة مطمئنة قد انفرجت عنها الجبال والآكام – قاله في القاموس .

وقال أبو عبد الله القزاز في ديوانه : القيعة والقاع واحد ، وهما الأرض المستوية الملساء يحفن فيها التراب ، الفراء : القيعة جمع قاع كجار وجيرة .

(140/550)

وقال الصغاني في مجمع البحرين : والقاع : المستوي من الأرض ، والجمع أقواع وأقوع وقيعان ، صارت الواو ياء لكسرة ما قبلها ، والقيعة مثل قاع ، وهو أيضاً من الواو ، وبعضهم يقول : هو جمع ؛ وقال ابن جرير : والقاع ما انبسط من الأرض واتسع ، وفيه يكون السراب .

وقال عبد الغافر الفارسي في مجمع الغرائب : قال الفراء : القاع : مستنقع الماء ، والقاع : المكان المستوي الواسع في وطأة من الأرض يعلوه المطر فيمسكه ويستوي نباته ، وجمعه قيعة وقيعان .

﴿ يحسبه الظمآن ﴾ أي العطشان الشديد العطش من ضعف العقل ﴿ ماء ﴾ فيقصده ولا يزال سائراً ﴿ حتى إذا جاءه ﴾ أي جاء الموضع الذي توهمه به ﴿ لم يجده شيئاً ﴾ من الأشياء ، فلم يفده قصده غير زيادة العطش بزيادة التعب ، وبعده عن مواطن الرجاء ، فيشتد بأسه ، وتنقطع حليه فيهلك ، وهكذا الكافر يظن أعماله تجديه شيئاً فإذا هي قد أهلكته .

ولما كان الله محيطاً بعلمه وقدرته بكل مكان قال : ﴿ ووجد الله ﴾ أي قدرة المحيط بكل شيء ﴿ عنده ﴾ أي عند ذلك الموضع الذي قصده لما تخيل فيه الخير فخاب ظنه ﴿ فوفاه حسابه ﴾ أي جزاء عمله على ما تقتضيه أعماله على حكم العدل ، فلم يكفِ هذا الجاهل خيبة وكمداً أنه لم يجد ما قصده شيئاً كغيره من السراب حتى وجد عنده الزبانية تعتله إلى نار ، لا يفك أسيرها ، ولا يخمد سعيرها .

ولما كان سبحانه لا يحتاج إلى كاتب ، ولا يدخل عليه لبس ، ولا يصعب عليه ضبط شيء وإن كثر ، ولا يقد أحد أن يتأخر عما يريده به بنوع حيلة ، عبر عن ذلك بقوله : ﴿ والله ﴾ أي الذي له القدرة الكاملة والعلم الشامل ﴿ سريع الحساب ﴾ أي لأنه لا يحتاج إلى حفظ بقلب ، ولا عقد بأصابع ، ولا شيء غير ذلك ، ولكنه عالم بذلك كله قبل أن يعمله العبد وبعد عمله له ، لا يعزب عنه منه ولا من غيره شيء .

ولما بين سبحانه بهذا المثال أنهم لم يصلوا إلى شيء غير التعب ، المثمر للعطب ، وكان هذا لا يفعله بنفسه عاقل ، ضرب مثالاً آخر بين الحامل لهم على الوقوع في ممثول الأول ، وهو السير بغير دليل ، الموقع في خبط العشواء كالماشي في الظلام ، فقال عاطفاً على ﴿كسراب﴾ قوله : ﴿أو﴾ للتخيير ، أي أعمالهم لكونها لا منفعة لها كسراب ، ولكونها خالية عن نور الحق ﴿كظلمات﴾ أو للتنويع ، فإنها إن كانت حسنة الظاهر فكالسراب ، أو قبيحة فكالظلمات ، أو للتقسيم باعتبار وقتين كالظلمات في الدنيا والسراب في الآخرة ﴿في بحر﴾ هو مثال قلب الكافر ﴿لجي﴾ أي ذي لج هو اللج ، إشارة إلى أنه عميق لا يدرك له قرار ، لأن اللج معظم الماء ، ويكون جمع لجة أيضاً ، والأوفق هنا أن يكون منسوباً إلى الجمع ، لأنه أهول ، والمقام للتهويل ، قال القزاز في ديوانه : ولجة البحر معروفة وهو المرضع الذي لا ترى منه أرضاً ولا جبلاً ، وبحر لجي : واسع اللجة ، وجمع اللجة لجج ولج .

﴿يغشاه﴾ أي يغطي هذا البحر ويعلوه ، أو يلحق الكائن فيه ﴿موج﴾ وهو مثل ما يغشى قلبه من الجهل والشك والحيرة ، كائن ﴿من فوقه﴾ أي هذا الموج ﴿موج﴾ آخر ﴿من فوقه﴾ أي هذا الموج الثاني المركوم على الأول ﴿سحاب﴾ قد غطى النجوم ، وهو مثال الرين والختم والطبع على القلب ، فلا سماء تبصر ولا أرض .

ولما كان هذا أمراً مهولاً ، أشار إلى هوله وتصويره بقوله : ﴿ ظلمات ﴾ أي من البحر والموجين والسحاب ﴿ بعضها ﴾ .

(142/550)

ولما كان المراد استغراق الجهة ، لم يثبت الجار فقال : ﴿ فوق بعض ﴾ متراكمة ، فلذلك يبعد كل البعد أن ينفذ فيها بصر ، ولذلك قال : ﴿ إذا أخرج ﴾ أي الكائن في هذا البحر بدلالة المعنى وإن لم يجر له ذكر ﴿ يده ﴾ وهي أقرب شيء إليه ﴿ لم يكد ﴾ أي الكائن فيه ﴿ يراها ﴾ أي يقرب من ذلك فضلاً عن أن يكون ، لأن الله قد ستر عنه كل نور بهذه الظلمات المتكاثفة ، وهو مثال لعمله وأنه عدم لما تقدم من أن العدم كله ظلمة ، فلا عمل له يكون شيئاً ولا يقرب من ذلك لأنه لا أهلية له بوجه ﴿ ومن لم يجعل الله ﴾ أي الملك الأعظم ﴿ له نوراً ﴾ من الأنوار ، وهو قوة الإيجاد والإظهار ﴿ فما له من نور ﴾ أصلاً ، لأنه سبحانه يستر نوره وإن كان ملء السماوات والأرض عمن يشاء بحجب الأهوية ، لأنه قادر على ما يريد . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 268 . 271 ﴾

(143/550)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً ﴾

(144/550)

اعلم أنه سبحانه لما بين حال المؤمن ، وأنه في الدنيا يكون في النور وبسببه يكون متمسكاً بالعمل الصالح ، ثم بين أنه في الآخرة يكون فائزاً بالنعيم المقيم والثواب العظيم ، أتبع ذلك بأن بين أن الكافر يكون في الآخرة في أشد الخسران ، وفي الدنيا في أعظم أنواع الظلمات ، وضرب لكل واحد منهما مثلاً ، أما المثل الدال على خيبته في الآخرة فهو قوله : ﴿ والذين كَفَرُواْ أعمالهم كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ ﴾ قال الأزهري : السراب ما يتراءى للعين وقت الضحى الأكبر في الفلوات شبيه الماء الجاري وليس بماء ولكن الذي ينظر إليه من بعيد يظنه ماء جارياً يقال سرب الماء يسرب سروباً إذا جرى فهو سارب ، أما الآل فهو ما يتراءى للعين في أول النهار فيرى الناظر الصغير كبيراً ، وظاهر كلام الخليل أن الآل والسراب واحد ، وأما القيعة فقال الفراء : هو جمع قاع مثل جار وجيرة والقاع المنبسط المستوي من الأرض وقال

صاحب "الكشاف" القيعة بمعنى القاع ، وقال الزجاج الظمآن : قد يخفف همزه ، وهو الشديد العطش ، ثم وجه التشبيه أن الذي يأتي به الكافر إن كان من أفعال البر فهو لا يستحق عليه ثواباً ، مع أنه يعتقد أن له ثواباً عليه ، وإن كان من أفعال الإثم فهو يستحق عليه عقاباً مع أنه يعتقد أنه يستحق عليه ثواباً ، فكيف كان فهو يعتقد أن له ثواباً عند الله تعالى ، فإذا وافى عرصات القيامة ، ولم يجد الثواب بل وجد العقاب العظيم عظمت حسرته وتناهى غمه ، فيشبه حاله حال الظمآن الذي تشتد حاجته إلى الماء فإذا شاهد السراب تعلق قلبه به ويرجو به النجاة ويقوى طمعه فإذا جاءه وأيس مما كان يرجوه فيعظم ذلك عليه وهذا المثال في غاية الحسن ، قال مجاهد السراب عمل الكافر وإتيانه إياه موته ومفارقة الدنيا فإن قيل قوله : ﴿ حتى إِذَا جَاءهُ ﴾ يدل على كونه شيئاً وقوله : ﴿ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً ﴾ مناقض له ؟ قلنا الجواب عنه من وجوه ثلاثة : الأول : المراد معناه أنه لم يجده شيئاً

(145/550)

نافعاً كما يقال فلان ما عمل شيئاً وإن كان قد اجتهد الثاني : حتى إذا جاءه أي جاء موضع السراب لم يجد السراب شيئاً فاكتفى بذكر السراب عن ذكر موضعه الثالث : الكناية للسراب لأن السراب يرى من بعيد بسبب الكثافة كأنه ضباب وهباء وإذا قرب

منه رق وانتثر وصار كالهواء .

أما قوله : ﴿ وَوَجَدَ اللهَ عِندَهُ فوفاه حِسَابَهُ ﴾ أي وجد عقاب الله الذي توعد به الكافر عند ذلك فتغير ما كان فيه من ظن النفع العظيم إلى تيقن الضرر العظيم ، أو وجد زبانية الله عنده يأخذونه فيقبلون به إلى جهنم فيسقونه الحميم والغساق ، وهم الذين قال الله تعالى فيهم

﴿ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴾ [الغاشية : 3] ، ﴿ وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ [الكهف : 104] ، ﴿ وَقَدِمْنَا إلى مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ ﴾ [الفرقان : 23] وقيل نزلت في عتبة بن ربيعة بن أمية ، كان قد تعبد ولبس المسوح والتمس الدين في الجاهلية ثم كفر في الإسلام .

(146/550)

أما قوله : ﴿ والله سَرِيعُ الحساب ﴾ فذاك لأنه سبحانه عالم بجميع المعلومات فلا يشق عليه الحساب ، وقال بعض المتكلمين معناه لا يشغله محاسبة واحد عن آخر كنحن ، ولو كان يتكلم بآلة كما يقوله المشبهة لما صح ذلك ، وأما المثل الثاني فهو قوله : ﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ ﴾ وفي لفظة (أو) ههنا وجوه : أحدها : اعلم أن الله تعالى بين أن أعمال

الكفار إن كانت حسنة فمثلها السراب وإن كانت قبيحة فهي الظلمات وثانيها : تقدير الكلام أن أعمالهم إما كسراب بقيعة وذلك في الآخرة وإما كظلمات في بحر وذلك في الدنيا وثالثها : الآية الأولى في ذكر أعمالهم وأنهم لا يتحصلون منها على شيء ، والآية الثانية في ذكر عقائدهم فإنها تشبه الظلمات كما قال : ﴿ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظلمات إِلَى النور ﴾ [البقرة : 257] أي من الكفر إلى الإيمان يدل عليه قوله تعالى : ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ الله لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُورٍ ﴾ [النور : 40] وأما البحر اللجي فهو ذو اللجنة التي هي معظم الماء الغمر البعيد القعر ، وفي اللجى لغتان كسر اللام وضمها ، وأما تقرير المثل فهو أن البحر اللجي يكون قعره مظلماً جداً بسبب غمورة الماء ، فإذا ترادفت عليه الأمواج ازدادت الظلمة فإذا كان فوق الأمواج سحاب بلغت الظلمة النهاية القصوى ، فالواقع في قعر هذا البحر اللجى يكون في نهاية شدة الظلمة ، ولما كانت العادة في اليد أنها من أقرب ما يراها ومن أبعد ما يظن أنه لا يراها فقال تعالى : ﴿ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ﴾ وبين سبحانه بهذا البلوغ تلك الظلمة إلى أقصى النهايات ثم شبه به الكافر في اعتقاده وهو ضد المؤمن في قوله تعالى : ﴿ نُورٌ على نُورٍ ﴾ [النور : 35] وفي قوله : ﴿ يسعى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وبأيمانهم ﴾ [الحديد : 12] ولهذا قال أبي بن كعب الكافر يتقلب في خمس من الظلم كلامه وعمله ومدخله ومخرجه ومصيره إلى النار ، وفي كيفية هذا التشبيه وجوه أخر : أحدها :

أن الله تعالى ذكر ثلاثة أنواع من الظلمات ظلمة البحر وظلمة الأمواج وظلمة السحاب وكذا الكافر له ظلمات ثلاثة ظلمة الاعتقاد وظلمة القول وظلمة العمل عن الحسن وثانيها : شبهوا قلبه وبصره وسمعه بهذه الظلمات الثلاث عن ابن عباس وثالثها : أن الكافر لا يدري ولا يدري أنه لا يدري ويعتقد أنه يدري ، فهذه المراتب الثلاث تشبه تلك الظلمات ورابعها : أن هذه الظلمات متراكمة فكذا الكفار لشدة إصراره على كفره ، قد تراكمت عليه الضلالات حتى أن أظهر الدلائل إذا ذكرت عنده لا يفهمها وخامسها : قلب مظلم في صدر مظلم .

أما قوله : ﴿ ظلمات بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ﴾ فروي عن ابن كثير أنه قرأ (سحاب) وقرأ (ظلمات) بالجر على البدل من قوله : ﴿ أَوْ كَظلمات ﴾ وعنه أيضاً أنه قرأ ﴿ سَحَابٌ ظلمات ﴾ كما يقال سحاب رحمة وسحاب عذاب على الإضافة وقراءة الباقين ﴿ سَحَابٌ ظلمات ﴾ كلاهما بالرفع والتنوين وتمام الكلام عند قوله : ﴿ سَحَابٌ ﴾ ثم ابتدأ ﴿ ظلمات ﴾ أي ما تقدم ذكره ظلمات بعضها فوق بعض .

أما قوله : ﴿ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ﴾ ففيه قولان : أحدهما : أن كاد نفيه إثبات وإثباته نفي فقوله : ﴿ وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ [البقرة : 71] نفي في اللفظ ولكنه إثبات في المعنى لأنهم فعلوا ذلك وقوله عليه الصلاة والسلام : "كاد الفقر أن يكون كفراً " إثبات في اللفظ لكنه نفي في

المعنى لأنه لم يكفر فكذا ههنا قوله : ﴿ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ﴾ معناه أنه رآها والثاني : أن كاد معناه المقاربة فقوله : ﴿ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ﴾ معناه لم يقارب الوقوع ومعلوم أن الذي لم يقارب الوقوع لم يقع أيضاً وهذا القول هو المختار والأول ضعيف لوجهين : الأول : أن ما يكون أقل من هذه الظلمات فإنه لا يرى فيه شيء فكيف مع هذه الظلمات الثاني : أن المقصود من هذا التمثيل المبالغة في جهالة الكفار وذلك إنما يحصل إذا لم توجد الرؤية ألبتة مع هذه الظلمات .

(148/550)

أما قوله : ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُورٍ ﴾ فقال أصحابنا إنه سبحانه لما وصف هداية المؤمن بأنها في نهاية الجلاء والظهور عقبها بأن قال : ﴿ يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاء ﴾ ولما وصف ضلالة الكافر بأنها في نهاية الظلمة عقبها بقوله : ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُورٍ ﴾ والمقصود من ذلك أن يعرف الإنسان أن ظهور الدلائل لا يفيد الإيمان وظلمة الطريق لا تمنع منه ، فإن الكل مربوط بخلق الله تعالى وهدايته وتكوينه ، وقال القاضي المراد بقوله : ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُوراً ﴾ أي في الدنيا بالألطاف ﴿ فَمَا لَهُ مِن نُورٍ ﴾ أي لا يهتدي فيتحير ويحتمل ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُوراً ﴾ أي مخلصاً في الآخرة

وفوزاً بالثواب ﴿ فَمَا لَهُ مِن نُورٍ ﴾ والكلام عليه تزييفاً وتقريراً معلوم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 24 صـ 7.9 ﴾

(149/550)

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ ﴾

أما السراب فهو الذي يخيل لمن رآه في الفلاة كأنه الماء الجاري قال الشاعر :

فَلَمَّا كَفَفْنَا الْحَرْبَ كَانَتْ عُهُودُهُمْ . . . كَلَمْعِ سَرَابٍ بِالْفَلاَ مُتَأَلِّقِ

والآل كالسراب إلا أنه يرتفع عن الأرض في وقت الضحى حتى يصير كأنه بين الأرض والسماء ، وقيل : إن السراب بعد الزوال والآل قبل الزوال والرقراق بعد العصر وأما القيعة فجمع قاع مثل جيرة وجار ، والقاع ما انبسط من الأرض واستوى .

﴿ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً ﴾ يعني العطشان يحسب السراب ماءً

. ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً ﴾ وهذا مثل ضربه الله للكافر يعول على ثواب عمله فإذا قدم على الله وجد ثواب عمله بالكفر حابطاً .

﴿ وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ ﴾ فيه وجهان

: أحدهما : وجد أمر الله عند حشره .

الثاني : وجد الله عند عرضه .

﴿ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ﴾ يحتمل وجهين

: أحدهما : ووجد الله عند عمله فجازاه على كفره .

والثاني : وجد الله عند وعيده فوفى بعذابه ويكون الحساب على الوجهين معاً محمولاً على العمل ، كما قال امرؤ القيس :

فوّلى مُدْبِراً وَأَيْقَنَ . . . أَنَّه لاَقِى الْحِسَابَا

﴿ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ يحتمل وجهين

: أحدهما : لأن حسابه آت وكل آت سريع .

الثاني : لأنه يحاسب جميع الخلق في وقت سريع .

قيل إن هذه الآية نزلت في شيبة بن ربيعة وكان يترهب في الجاهلية ويلبس الصوف ويطلب الدين فكفر في الإسلام .

قوله : ﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ ﴾ الظلمات : ظلمة البحر وظلمة السحاب وظلمة الليل .

وفي قوله لجيّ ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنه البحر الواسع الذي لا يرى ساحله ، حكاه ابن عيسى .

الثاني : أنه البحر الكثير الموج ، قاله الكلبي .

(150/550)

الثالث : أنه البحر العميق ، وهذا قول قتادة ، ولجة البحر وسطه ، ومنه ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " مَنْ رَكِبَ البَحْرَ إِذَا الْتَجَّ فَقَدْ بَرِئَتْ مِنْهُ الذِّمَّةُ " يعني إذا توسطه

. ﴿ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ﴾ يحتمل وجهين

: أحدهما : يغشاه موج من فوق الموج ريح ، من فوق الريح سحاب فيجمع خوف الموج وخوف الريح وخوف السحاب .

الثاني : معناه يغشاه موج من بعده فيكون المعنى الموج بعضه يتبع بعضاً حتى كأنه بعضه فوق بعض وهذا أخوف ما يكون إذا توالى موجه وتقارب ، ومن فوق هذا الموج سحاب وهو أعظم للخوف من وجهين :

أحدهما : أنه قد يغطي النجوم التي يهتدى بها .

الثاني : الريح التي تنشأ مع السحاب والمطر الذي ينزل منه .

﴿ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ﴾ يحتمل وجهين

: أحدهما : أن يريد الظلمات التي بدأ بذكرها وهي ظلمة البحر وظلمة السحاب وظلمة الليل .

الثاني : يعني بالظلمات الشدائد أي شدائد بعضها فوق بعض .

﴿ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ﴾ فيه وجهان

: أحدهما : معناه أنه رآها بعد أن كاد لا يراها ، حكاه ابن عيسى .

الثاني : لم يرها ولم يكد ، قاله الزجاج ، وهو معنى قول الحسن .

وفي قوله لم يكد وجهان :

أحدهما : لم يطمع أن يراها .

الثاني : لم يرها ويكاد صلة زائدة في الكلام .

﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴾ فيه وجهان

: أحدهما : ومن لم يجعل الله له سبيلاً إلى النجاة في الآخرة فما له من سبيل إليها حكاه ابن عيسى .

الثاني : ومن لم يهده الله للإسلام لم يهتد إليه ، قاله الزجاج .

وقال بعض أصحاب الخواطر وجهاً ثالثاً : ومن لم يجعل الله نوراً له في وقت القسمة فما له

من نور في وقت الخلقة .

ويحتمل رابعاً : ومن لم يجعل الله له قبولاً في القلوب لم تقبله القلوب .

(151/550)

وهذا المثل ضربه الله للكافر ، فالظمات ظلمة الشرك وظلمة الليل وظلمة المعاصي ، والبحر اللجي قلب الكافر ، يغشاه من فوقه عذاب الدنيا ، فوقه عذاب الآخرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

(152/550)

وقال ابن عطية :

(153/550)

ولما ذكر الله تعالى فيما تقدم من هذه الآية حالة الإيمان والمؤمنين وتنويره قلوبهم عقب ذلك بذكر الكفرة وأعمالهم فمثل لها ولهم تمثيلين : الأول منهما يقتضي حال أعمالهم في الآخرة من أنها غير نافعة ولا مجدية ، والثاني يقتضي حالها في الدنيا من أنها في الغاية من الضلال والغمة التي مآلها ما ذكر من تناهي الظلمة في قوله ﴿ أو كظلمات ﴾ ، و" السراب " ما ترقرق من الهواء في الهجير في فيافي الأرض المنسبطة وأوهم الناظر إليه على البعد أنه ماء ، سمي بذلك لأنه ينسرب كالماء فكذلك أعمال الكافر يظن في دنياه أنه نافعته فإذا كان يوم القيامة لم يجدها شيئاً فهي كالسراب الذي يظنه الرائي العطشان ماء فإذا قصده وأتعب نفسه بالوصول إليه لم يجد شيئاً ، و" القيعة " جمع قاع كجيرة وجار والقاع المنخفض البساط من الأرض ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم في مانع زكاة الأنعام " فيبطح لها بقاع قرقر " ، وقيل القيعة مفرد ، وهو بمعنى القاع ، وقرأ مسلم بن محارب " بقيعات " ، وقرأ أبو جعفر وشيبة ونافع بخلاف " الظمان " بفتح الميم وطرح حركة الهمزة على الميم وترك الهمزة ، وقوله ﴿ حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ﴾ يريد ﴿ شيئاً ﴾ نافعاً في العطش ، أو يريد ﴿ شيئاً ﴾ موجوداً على العموم ويريد ب ﴿ جاءه ﴾ جاء موضعه الذي تخيله فيه ويحتمل أن يعود الضمير في ﴿ جاءه ﴾ على " السراب " ، ثم يكون في الكلام بعد ذلك متروك يدل عليه الظاهر تقديره فكذلك الكافر يوم القيامة يظن عمله نافعاً ﴿ حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ﴾ ويحتمل الضمير أن يعود على العمل الذي يدل عليه قوله ﴿ أعمالهم

﴿ ويكون تمام المثل في قوله ﴿ ماء ﴾ ويستغني الكلام عن متروك على هذا التأويل ، لكن يكون في المثل إيجاز واقتضاب لوضوح المعنى المراد به ، وقوله ﴿ ووجد الله عنده ﴾ أي بالمجازاة ، والضمير في ﴿ عنده ﴾ عائد على العمل ، وباقي الآية بين فيه توعد وسرعة الحساب من حيث هو يعلم لا تكلف فيه

(154/550)

وقوله تعالى : ﴿ أو كظلمات ﴾ عطف على قوله ﴿ كسراب ﴾ ، وهذا المثال الأخير تضمن صفة أعمالهم في الدنيا ، أي إنهم من الضلال ونحوه في مثل هذه الظلمة المجتمعة من هذه الأشياء ، وذهب بعض الناس إلى أن في هذا المثال أجزاء تقابل أجزاء من الممثل فقال " الظلمات " الأعمال الفاسدة والمعتقدات الباطلة ، و" البحر اللجي " صدر الكافر وقلبه ، و" اللجي " معناه ذو اللجة ، وهي معظم الماء وغمره واجتماع ما به أشد لظلمته ، و" الموج " هو الضلال والجهالة التي غمرت قلبه والفكر المعوجة ، و" السحاب " هو شهوته في الكفر وإعراضه عن الإيمان وما رين به على قلبه .

(155/550)

قال الفقيه الإمام القاضي : وهذا التأويل سائغ وإن لا يقدر هذا التقابل سائغ ، وقرأ سفيان بن حسين " أوَ كظلمات " بفتح الواو ، وقرأ جمهور السبعة " سحابٌ " بالرفع والتنوين " ظلمات " بالرفع ، وقرأ ابن كثير في رواية قنبل " سحابٌ " بالرفع والتنوين " ظلمات " بالخفض على البدل من " ظلمات " الأول ، وقرأ ابن أبي بزة عن ابن كثير " سحابُ " بغير تنوين على الإضافة على الظلماتٍ ، وقوله ﴿ إذا أخرج يده لم يكد يراها ﴾ لفظ يقتضي مبالغة الظلمة ، واختلف الناس في هذه اللفظ هل يقتضي أن هذا الرجل المقدر في هذه الأحوال وأخرج يده رأى يده ولم يرها البتة ، فقالت فرقة لم يرها جملة وذلك أن " كاد " معناها قارب فكأنه قال ﴿ إذا أخرج يده ﴾ لم يقارب رؤيتها ، وهذا يقتضي نفي الرؤية جملة ، وقالت فرقة بل رآها بعد عسر وشدة وكان أن لا يراها ووجه ذلك أن " كاد " إذا صحبها حرف النفي وجب الفعل الذي بعدها وإذا لم يصحبها انتفى الفعل عَ وهذا لازم متى كان حرف النفي بعد " كاد " داخلاً على الفعل الذي بعدها ، تقول : كاد زيد يقوم ، فالقيام منفي فإذا قلت كاد زيد أن لا يقوم فالقيام واجب واقع ، وتقول كاد النعام يطير ، فهذا يقتضي نفي الطيران عنه ، فإذا قلت كاد النعام أن يطير وجب الطيران له ، فإذ كان حرف النفي مع " كاد " فالأمر محتمل مرة يوجب الفعل ومرة ينفيه ، تقول المفلوج لا يكاد يسكن فهذا كلام صحيح تضمن نفي السكون ، وتقول رجل متكلم لا يكاد يسكن ، فهذا

كلام صحيح يتضمن إيجاب السكون بعد جهد ونادراً ومنه قوله تعالى : ﴿ فذبحوها وما كادوا يفعلون ﴾ [البقرة : 71] نفي مع كاد تضمن وجوب الذبح ، وقوله في هذه الآية ﴿ لم يكد يراها ﴾ نفي مع كاد يتضمن في أحد التأويلين ، نفي الرؤية ، ولهذا ونحوه قال سيبويه رحمه الله إن أفعال المقاربة لها نحو آخر بمعنى أنها دقيقة التصرف ، وقوله تعالى : ﴿ ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور ﴾ قالت فرقة يريد

(156/550)

في الدنيا ، أي من لم يهده الله لم يهتد ، وقالت فرقة أراد في الآخرة أي من لم يرحمه الله وينور حاله بالعفو والرحمة فلا رحمة له ، والأول أبين وأليق بلفظ الآية ، وأيضاً فذلك لازم نور الآخرة إنما هو لمن نور قلبه في الدنيا وهدى ، وقد قررت الشريعة أن من مر لآخرته على كفره فهو غير مرحوم ولا مغفور له . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(157/550)

وقال ابن الجوزى :

ثم ضرب الله مثلاً للكفار فقال : ﴿ والذين كفروا أعمالهُم كسراب ﴾

قال ابن قتيبة : السراب : ما رأيته من الشمس كالماء نصف النهار ، والآل : ما رأيته في أول النهار وآخره ، وهو يرفع كل شيء ، والقِيعة والقاع واحد .

وقرأ أُبيُّ ابن كعب ، وعاصم الجحدري ، وابن السميفع : ﴿ بِقيعات ﴾ .

وقال الزجاج : القيعة : جمع قاع ، مثل جارٍ وجيرة ، والقيعة والقاع : ما انبسط من الأرض ولم يكن فيه نبات ، فالذي يسير فيه يرى كأن فيه ماءً يجري ، وذلك هو السراب ، والآل مثل السراب ، إلا أنه يرتفع وقت الضحى – كالماء – بين السماء والأرض ، يحسبه الظمآن وهو الشديد العطش ماءً ، حتى إذا جاء إلى موضع السراب رأى أرضاً لا ماء فيها ، فأعلم الله أن الكافر الذي يظن أن عمله قد نفعه عند الله – كظن الذي يظن السراب ماءً – وعملُه قد حبط .

قوله تعالى : ﴿ ووجد اللّهَ عنده ﴾ أي : قَدِم على الله ﴿ فوفّاه حسابَه ﴾ أي : جازاه بعمله ؛ وهذا في الظاهر خبر عن الظمآن ، والمراد به الخبر عن الكافر .

قوله تعالى : ﴿ والله سريع الحساب ﴾ مفسَّر في [البقرة : 202] .

قوله تعالى : ﴿ أو كظلمات ﴾ في هذا المثل قولان .

أحدهما : أنه لعمل الكافر ، قاله الجمهور ، واختاره الزجاج .

والثاني : أنه مَثَل لقلب الكافر في أنه لا يَعْقِل ولا يُبْصِر ، قاله الفراء .

فأما اللُّجِّيّ ، فهو العظيم اللُّجَّة ، وهو العميق ﴿ يغشاه ﴾ أي : يعلو ذلك البحرَ ﴿ موجٌ من فوقه ﴾ أي : من فوق الموج موج ، والمعنى : يتبع الموج موج ، حتى كان بعضه فوق بعض ، ﴿ من فوقه ﴾ أي : من فوق ذلك الموج ﴿ سحاب ﴾ .

ثم ابتدأ فقال : ﴿ ظلماتٌ ﴾ يعني : ظلمة البحر ، وظلمة الموج [الأول ، وظلمة الموج] الذي فوق الموج ، وظلمة السحاب .

وقرأ ابن كثير ، وابن محيصن : ﴿ سحابُ ظلماتٍ ﴾ مضافاً ﴿ إِذا أخرج يده ﴾ يعني : إِذا أخرجها مُخرِجٌ ، ﴿ لم يكد يراها ﴾ فيه قولان .

(158/550)

أحدهما : أنه لم يرها ، قاله الحسن ، واختاره الزجاج .

قال : لأن في دون هذه الظلمات لا يرى الكفّ ؛ وكذلك قال ابن الأنباري : معناه : لم يرها البتَّة ، لأنه قد قام الدليل عند وصف تكاثف الظلمات على أن الرؤية معدومة ، فبان بهذا الكلام أن "يَكَد" زائدة للتوكيد ، بمنزلة "ما" في قوله : ﴿ عمَّا قليلٍ ليُصْبِحُنَّ نادِمِين ﴾ [المؤمنون : 40] .

والثاني : أنه لم يرها إلا بعد الجهد ، قاله المبرّد .

قال الفراء : وهذا كما تقول : ما كدت أبلغ إليك ، وقد بلغتَ ، قال الفراء : وهذا وجه العربية .

فصل

فأما وجه المَثَل ، فقال المفسرون : لمّا ضَرب اللّهُ للمؤمن مَثَلاً بالنُّور ، ضَرب للكافر هذا المثل بالظلمات ؛ والمعنى : أن الكافر في حيرة لا يهتدي لرشدٍ .

وقيل : الظُّلمات : ظُلمة الشّرك وظُلمة المعاصي .

وقال بعضهم : ضربَ الظلمات مثلاً لعمله ، والبحر اللُّجّيّ لقلبه ، والموج لما يغشى قلبه من الشّرك والجهل والحيرة ، والسحاب للرَّين ، والخَتْم على قلبه ، فكلامه ظُلمة ، وعمله ظُلمة ، ومدخله ظُلمة ، ومخرجه ظُلمة ، ومصيره إلى الظُّلمات يوم القيامة .

قوله تعالى : ﴿ ومن لم يَجْعَلِ اللّهُ له نُوراً ﴾ فيه قولان .

أحدهما : دِيناً وإيماناً ، قاله ابن عباس ، والسدي .

والثاني : هداية ، قاله الزجاج . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 6 صـ ﴾

(159/550)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ والذين كفروا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ ﴾

لما ضرب مثل المؤمن ضرب مثل الكافر .

قال مقاتل : نزلت في شيبة بن ربيعة بن عبد شمس ، كان يترهّب متلمّساً للدّين ، فلما خرج صلى الله عليه وسلم كفر .

أبو سهل : في أهل الكتاب .

الضحاك : في أعمال الخير للكافر ؛ كصلة الرحم ونفع الجيران .

والسراب : ما يُرَى نصف النهار في اشتداد الحَرّ ، كالماء في المفاوز يلتصق بالأرض .

والآلُ الذي يكون ضُحاً كالماء إلا أنه يرتفع عن الأرض حتى يصير كأنه بين الأرض والسماء .

وسُمِّيَ السَّراب سراباً لأنه يَسْرُب أي يجري كالماء .

ويقال : سَرَب الفحل أي مضى وسار في الأرض .

ويسمى الآلَ أيضاً ، ولا يكون إلا في البَرِّية والحر فيغترّ به العطشان .

قال الشاعر :

فكنت كمُهْرِيق الذي في سِقائه . . .

لِرَقراقِ آلٍ فوق رابِيَةٍ صَلْدِ

وقال آخر :

فلما كففنا الحرب كانت عهودهم . . .

كلَمْع سراب بالفلا متألق

وقال امرؤ القيس :

ألم أُنْضِ المَطِيّ بكل خَرْقٍ . . .

أَمَقِّ الطُّولِ لَمّاعِ السراب

والقيعة جمع القاع ؛ مثل جُيرة وجار ؛ قاله الهَرَوِيّ وقال أبو عبيدة : قِيعةٌ وقاعٌ واحد ؛ حكاه النحاس .

والقاع ما انبسط من الأرض واتسع ولم يكن فيه نبت ، وفيه يكون السراب .

وأصل القاع الموضعُ المنخفض الذي يستقر فيه الماء ، وجمعه قِيعان .

قال الجوهري : والقاع المستوي من الأرض ؛ والجمع أَقْوُع وأقواع وقِيعان ، صارت الواو ياء لكسر ما قبلها ؛ والقِيعة مثل القاع ، وهو أيضاً من الواو .

وبعضهم يقول : هو جمع ﴿ يَحْسَبُهُ الظمآن ﴾ أي العطشان .

﴿ مَآءً ﴾ أي يحسَب السّرَاب ماء .

﴿ حتى إِذَا جَآءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً ﴾ مما قدّره ووجد أرضاً لا ماء فيها .

وهذا مَثَل ضربه الله تعالى للكفار ، يُعَوّلون على ثواب أعمالهم فإذا قدموا على الله تعالى وجدوا ثواب أعمالهم محبطة بالكفر ؛ أي لم يجدوا شيئاً كما لم يجد صاحب السّراب إلا أرضاً لا ماء فيها ؛ فهو يهلك أو يموت .

﴿ وَوَجَدَ اللهَ عِندَهُ ﴾ أي وجد الله بالمرصاد .

﴿ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ﴾ أي جزاء عمله .

قال امرؤ القيس :

فَوَلَّى مُدْبِراً يَهْوِي حَثِيثاً . . .

وأيقن أنّه لاقَى الحِسَابَا

وقيل : وَجَد وعْد الله بالجزاء على عمله .

وقيل : وجد أمر الله عند حَشْره ؛ والمعنى متقارب .

وقرِىء "بِقِيعَات" .

المهدوِيُّ : ويجوز أن تكون الألف مُشْبَعة من فتحة العين .

ويجوز أن تكون مثل رَجُل عِزْهٍ وعِزْهاة ، للذي لا يقرب النساء .

ويجوز أن يكون جمع قِيعة ، ويكون على هذا بالتاء في الوصل والوقف .

وروي عن نافع وأبي جعفر وشيبة "الظمان" بغير همز ، والمشهور عنهما الهمز ؛ يقال :

ظَمِيء يظمأ ظَمَأً فهو ظمآن ، وإن خففت الهمزة قلت الظمان .

وقوله : ﴿ والذين كفروا ﴾ ابتداء ﴿ أَعْمَالُهُمْ ﴾ ابتداء ثان .

والكاف من ﴿ كَسَرَابٍ ﴾ الخبرُ ، والجملة خبر عن "الذين" .

ويجوز أن تكون "أعمالهم" بدلاً من "الذين كفروا" ؛ أي وأعمال الذين كفروا كسراب ، فحذف المضاف .

قوله تعالى : ﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ ﴾

ضرب تعالى مثلاً آخر للكفار ، أي أعمالهم كسراب بِقِيعة أو كظلمات .

قال الزجاج : إن شئت مثّل بالسّراب وإن شئت مثّل بالظلمات ؛ ف "أوْ" للإباحة حسبما تقدم من القول في ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ ﴾ [البقرة : 19] .

وقال الجُرْجَانِيّ : الآية الأولى في ذكر أعمال الكفار ، والثانية في ذكر كفرهم ، ونسق الكفر على أعمالهم لأن الكفر أيضاً من أعمالهم ، وقد قال تعالى : ﴿ يُخْرِجُهُمْ مِّنَ الظلمات إِلَى النور ﴾ [البقرة : 257] ؛ أي من الكفر إلى الإيمان .

(161/550)

وقال أبو عليّ : "أوْ كظلمات" أو كذي ظلمات ؛ ودل على هذا المضافِ قوله تعالى : ﴿ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ ﴾ فالكناية تعود إلى المضاف المحذوف .

قال القشيريّ : فعند الزجاج التمثيل وقع لأعمال الكفار ، وعند الجُرْجاني لكفر الكافر ، وعند أَبي عليّ للكافر .

وقال ابن عباس في رواية : هذا مَثَل قلب الكافر .

﴿ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ ﴾ قيل : هو منسوب إلى اللُّجّة ، وهو الذي لا يُدْرك قعره .

واللُّجّة معظم الماء ، والجمع لجج .

والتَجّ البحر إذا تلاطمت أمواجه ؛ ومنه ما روي عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " من ركب البحر إذا التَجّ فقد بَرِئت منه الذِّمة " والتجّ الأمر إذا عَظُم واختلط .

وقوله تعالى : ﴿ حَسِبَتْهُ لُجَّةً ﴾ [النمل : 44] أي ما له عمق .

ولَجَّجتِ السفينة أي خاضت اللُّجة (بضم اللام) .

فأما اللَّجّة (بفتح اللام) فأصوات الناس ؛ يقول : سمعت لَجَّةَ الناس ؛ أي أصواتهم وصَخَبهم .

قال أبو النَّجْم :

في لَجَّةٍ أَمْسِكْ فُلاَنًا عن فُلِ . . .

والتجت الأصوات أي اختلطت وعظمت .

﴿ يَغْشَاهُ مَوْجٌ ﴾ أي يعلو ذلك البحر اللُّجّيّ مَوْج .

﴿ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ ﴾ أي من فوق الموج موجٌ ، ومن فوق هذا الموج الثاني سحاب ؛ فيجتمع خوفُ الموج وخوف الريح وخوفُ السحاب .

وقيل : المعنى يغشاه موج من بعده موج ؛ فيكون المعنى : المَوْج يتبع بعضه بعضاً حتى كأن بعضه فوق بعض ، وهو أخوف ما يكون إذا توالى موجه وتقارب ، ومن فوق هذا الموج سحاب .

وهو أعظم للخوف من وجهين : أحدهما : أنه قد غَطَّى النجوم التي يُهتدَى بها .

الثاني : الريح التي تنشأ مع السحابِ والمطر الذي ينزل منه .

﴿ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ﴾ قرأ ابن مُحَيْصِن والبَزّي عن ابن كثير "سحابُ ظلماتٍ" بالإضافة والخفض .

قُنْبُل "سحابٌ" منوّناً "ظلماتٍ" بالجر والتنوين .

الباقون بالرفع والتنوين .

قال المهدوِيّ : من قرأ "مِنْ فوقه سحابُ ظلماتٍ" بالإضافة فلأن السحاب يرتفع وقت هذه الظلمات فأضيف إليها ؛ كما يقال : سحابُ رحمةٍ إذا ارتفع في وقت المطر .

ومن قرأ "سحابٌ ظلماتٍ" جَرّ "ظلماتٍ" على التأكيد ل"ظلماتٍ" الأولى أو البدل منها .

و"سحابٌ" ابتداء و"من فوقه" الخبر .

ومن قرأ "سحابٌ ظلماتٌ" فظلمات خبر ابتداء محذوف ؛ التقدير : هي ظلمات أو هذه ظلمات .

قال ابن الأنبارِيّ : "من فوقه موج" غير تام ؛ لأن قوله : "من فوقه سحاب" صلة للمَوْج ، والوقف على قوله : "من فوقه سحاب" حَسَن ، ثم تبتدىء "ظلماتٌ بعضها فوق بعض" على معنى هي ظلمات بعضها فوق بعض .

وروي عن أهل مكة أنهم قرؤوا "ظُلُماتٍ" على معنى أو كظُلُماتٍ ظُلُماتٍ بعضُها فوق بعض ؛ فعلى هذا المذهب لا يحسن الوقف على السحاب .

ثم قيل : المراد بهذه الظلمات ظلمة السحاب وظلمة الموج وظلمة الليل وظلمة البحر ؛ فلا يُبصر من كان في هذه الظلمات شيئاً ولا كَوْكباً .

وقيل : المراد بالظلمات الشدائد ؛ أي شدائد بعضها فوق بعض .

وقيل : أراد بالظلمات أعمال الكافر ، وبالبحر اللُّجِّي قلبه ، وبالموج فوق الموج ما يغشى قلبه من الجهل والشك والحَيْرة ، وبالسحاب الرَّيْنُ والخَتْم والطبع على قلبه .

رُوِي معناه عن ابن عباس وغيره ؛ أي لا يُبصر بقلبه نور الإيمان ، كما أن صاحب الظلمات في البحر إذا أخرج يده لم يكد يراها .

وقال أُبَيّ بن كعب : الكافر يتقلّب في خمسٍ من الظلمات : كلامه ظلمة ، وعمله ظلمة ، ومدخله ظلمة ، ومخرجه ظلمة ، ومصيره يوم القيامة إلى الظلمات في النار وبئس المصير .

﴿ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ ﴾ يعني الناظر .

﴿ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ﴾ أي من شدّة الظلمات .

قال الزجاج وأبو عبيدة : المعنى لم يرها ولم يَكَد ؛ وهو معنى قول الحسن .

ومعنى "لم يَكَدْ" لم يطمع أن يراها .

وقال الفَرّاء : كاد صلة ، أي لم يرها ؛ كما تقول : ما كدت أعرفه .

(163/550)

وقال المبرّد ؛ يعني لم يرها إلا من بعد الجهد ؛ كما تقول : ما كدت أراك من الظلمة ، وقد رآه بعد يأس وشدّة .

وقيل : معناه قَرُب من الرؤية ولم ير ؛ كما يقال : كاد العروس يكون أميراً ، وكاد النعام يطير ، وكاد المنتعل يكون راكباً .

النحاس : وأصح الأقوال في هذا أن المعنى لم يقارب رؤيتها ، فإذا لم يقارب رؤيتها فلم يرها رؤية بعيدة ولا قريبة .

﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُوراً ﴾ يهتدي به أظلمتْ عليه الأمور .

وقال ابن عباس : أي من لم يجعل الله له دِيناً فما له من دين ، ومن لم يجعل الله له نوراً يمشي به يوم القيامة لم يهتد إلى الجنة ؛ كقوله تعالى : ﴿ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ ﴾ [الحديد : 28] .

وقال الزجاج : ذلك في الدنيا ؛ والمعنى : من لم يهده الله لم يهتد .

وقال مقاتل بن سليمان : نزلت في عتبة بن ربيعة ، كان يلتمس الدِّين في الجاهلية ، ولَبِس المُسُوح ، ثم كفر في الإسلام .

الماوَرْدِيّ : في شيبة بن ربيعة ، وكان يترهّب في الجاهلية ويلبس الصوف ويطلب الدِّين ، فكفر في الإسلام .

قلت : وكِلاَهُمَا مات كافراً ، فلا يبعد أن يكونا هما المراد بالآية وغيرهما .

وقد قيل : نزلت في عبد الله بن جَحْش ، وكان أسلم وهاجر إلى أرض الحبشة ثم تنصّر بعد إسلامه .

وذكر الثّعلبيّ : وقال أنس قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " إن الله تعالى خلقني من نور وخلق أبا بكر من نوري وخلق عمر وعائشة من نور أبي بكر وخلق المؤمنين من أمتي من نور

عمر وخلق المؤمنات من أمتي من نور عائشة فمن لم يحبني ويحب أبا بكر وعمر وعائشة فما له من نور " فنزلت ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُورٍ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 13 صـ ﴾

(164/550)

وقال أبو حيان :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً ﴾

لما ذكر تعالى حالة الإيمان والمؤمنين وتنويره قلوبهم ووصفهم بما وصفهم من الأعمال النافعة في الآخرة أعقب ذلك بذكر مقابلهم الكفرة وأعمالهم ، فمثل لهم ولأعمالهم مثلين أحدهما يقتضي بطلان أعمالهم في الآخرة وأنهم لا ينتفعون بها .

والثاني يقتضي حالها في الدنيا من ارتباكها في الضلال والظلمة شبه أولاً أعمالهم في اضمحلالها وفقدان ثمرتها بسراب في مكان منخفض ظنه العطشان ماء فقصده وأتعب نفسه في الوصول إليه .

﴿ حتى إذا جاءه ﴾ أي جاء موضعه الذي تخيله .

فيه ﴿ لم يجده شيئاً ﴾ أي فقده لأنه مع الدنو لا يرى شيئاً .

كذلك الكافر يظن أن عمله في الدنيا نافعه حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم ينفعه عمله بل صار وبالاً عليه .

وقرأ مسلمة بن محارب : بقيعات بتاء ممطوطة جمع قيعة كديمات وقيمات في ديمة وقيمة ، وعنه أيضاً بتاء شكل الهاء ويقف عليها بالهاء فيحتمل أن يكون جمع قيعة ، ووقف بالهاء على لغة طيء كما قالوا البناه والأخواه في الوقف على البنات والأخوات .

قال صاحب اللوامح : ويجوز أن يريد قيعة كالعامة أي كالقراءة العامة ، لكنه أشبع الفتحة فتولدت منها الألف مثل مخر نبق لينباع .

وقال الزمخشري : وقد جعل بعضهم بقيعات بتاء ممدودة كرجل عزهاة .

وقال صاحب اللوامح : ويجوز أنه جعله مثل سعلة وسعلاة وليلة وليلاة ، والقيعة مفرد مرادف للقاع أو جمع قاع كنار ونيرة ، فتكون على هذا قراءة قيعات جمع صحة تناول جمع تكسير مثل رجالات قريش وجمالات صفر .

(165/550)

وقرأ شيبة وأبو جعفر ونافع بخلاف عنهما ﴿ الظمآن ﴾ بحذف الهمزة ونقل حركتها إلى الميم ، والظاهر أن قوله ﴿ يحسبه الظمآن ﴾ هو من صفات السراب ولا يعني إلاّ مطلق

﴿ الظمآن ﴾ لا الكافر ﴿ الظمآن ﴾ وقال الزمخشري : شبه ما يعمله من لا يعتقد الإيمان ولا يتبع الحق من الأعمال الصالحة التي يحسبها أن تنفعه عند الله وتنجيه من عذابه يوم القيامة ، ثم يخيب في العاقبة أمله ويلقى خلاف ما قدر بسراب يراه الكافر بالساهرة وقد غلبه عطش يوم القيامة فيحسبه ماء ، فيأتيه فلا يجد ما رجاه ويجد ربانية الله عنده ، يأخذونه ويعتلونه ويسقونه الحميم والغساق وهم الذين قال الله فيهم ﴿ عاملة ناصبه ﴾ ﴿ يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ﴾ ﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً ﴾ وقيل : نزلت في عتبة بن ربيعة بن أمية كان قد تعبد ولبس المسوح والتمس الدين في الجاهلية ثم كفر في الإسلام انتهى .

فجعل ﴿ الظمآن ﴾ هو الكافر حتى تطرد الضمائر في ﴿ جاءه ﴾ و ﴿ لم يجده ﴾ ﴿ ووجد ﴾ و ﴿ عنده ﴾ و ﴿ فوفاه ﴾ لشخص واحد ، وغيره غاير بين الضمائر فالضمير في ﴿ جاءه ﴾ و ﴿ لم يجده ﴾ للظمآن .

وفي ﴿ ووجد ﴾ للكافر الذي ضرب له مثلاً بالظمآن ، أي ووجد هذا الكافر وعد الله بالجزاء على عمله بالمرصاد ﴿ فوفاه حسابه ﴾ عمله الذي جازاه عليه .

وهذا معنى قول أبي وابن عباس ومجاهد والحسن وقتادة وأفرد الضمير في ﴿ ووجد ﴾ بعد تقدم الجمع حملاً على كل واحد من الكفار .

وقال ابن عطية : يحتمل أن يعود الضمير في ﴿ جاءه ﴾ على السراب .

ثم في الكلام متروك كثير يدل عليه الظاهر تقديره وكذلك الكافر يوم القيامة يظن عمله نافعاً ﴿ حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ﴾ ويحتمل الضمير أن يعود على العمل الذي يدل عليه قوله ﴿ أعمالهم ﴾ ويكون تمام المثل في قوله ﴿ ماء ﴾ ويستغني الكلام عن متروك على هذا التأويل ، لكن يكون في المثل إيجاز واقتضاب لوضوح المعنى المراد به .

(166/550)

﴿ ووجد الله عنده ﴾ أي بالمجازاة ، والضمير في ﴿ عنده ﴾ عائد على العمل انتهى .

والذي يظهر لي أنه تعالى شبه أعمالهم في عدم انتفاعهم بها بسراب صفته كذا ، وأن الضمائر فيما بعد ﴿ الظمآن ﴾ له .

والمعنى في ﴿ ووجد الله عنده ﴾ أي ﴿ ووجد ﴾ مقدور ﴿ الله ﴾ عليه من هلاك بالظمأ ﴿ عنده ﴾ أي عند موضع السراب ﴿ فوفاه ﴾ ما كتب له من ذلك .

وهو المحسوب له ، والله معجل حسابه لا يؤخره عنه فيكون الكلام متناسقاً آخذاً بعضه بعنق بعض .

وذلك باتصال الضمائر لشيء واحد ، ويكون هذا التشبيه مطابقاً لأعمالهم من حيث أنهم اعتقدوها نافعة فلم تنفعهم وحصل لهم الهلاك بأثر ما حوسبوا .

وأما في قول الزمخشري : فإنه وإن جعل الضمائر للظمآن لكنه جعل ﴿ الظمآن ﴾ هو الكافر وهو تشبيه الشيء بنفسه كما قال .

وشبه الماء بعد الجهد بالماء .

وأما في قول غيره : ففيه تفكيك الكلام إذ غاير بين الضمائر وانقطع ترصيف الكلام بجعل بعضه مفلتاً من بعض .

﴿ أو كظلمات ﴾ هذا التشبيه الثاني لأعمالهم فالأول فيما يؤول إليه أعمالهم في الآخرة ، وهذا الثاني فيما هم عليه في حال الدنيا .

وبدأ بالتشبيه الأول لأنه آكد في الإخبار لما فيه من ذكر ما يؤول إليه أمرهم من العقاب الدائم والعذاب السرمدي .

ثم أتبعه بهذا التمثيل الذي نبههم على ما هي أعمالهم عليه لعلهم يرجعون إلى الإيمان ويفكرون في نور الله الذي جاء به الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، والظاهر أنه تشبيه لأعمالهم وضلالهم بالظلمات المتكاثفة .

وقال أبو علي الفارسي : التقدير أو كذي ظلمات ، قال : ودل على هذا المضاف قوله ﴿ إذا أخرج يده ﴾ فالكناية تعود إلى المضاف المحذوف ، فالتشبيه وقع عند أبي عليّ للكافر لا للأعمال وهو خلاف الظاهر ، ويتخيل في تقرير كلامه أن يكون التقدير أو هم كذي

ظلمات فيكون التشبيه الأول لأعمالهم .

والثاني لهم في حال ضلالهم .

(167/550)

وقال أبو البقاء : في التقدير وجهان أحدهما : أو كأعمال ذي ظلمات ، فيقدر ذي ظلمات ليعود الضمير من قوله ﴿ إذا أخرج يده ﴾ إليه ، ويقدر أعمال ليصح تشبيه أعمال الكفار بأعمال صاحب الظلمة إذ لا معنى لتشبيه العمل بصاحب الظلمات .

والثاني : لا حذف فيه ، والمعنى أنه شبه أعمال الكفار بالظلمة في حيلولتها بين القلب وبين ما يهتدى إليه ، فأما الضمير في قوله ﴿ إذا أخرج يده ﴾ فيعود إلى مذكور حذف اعتماداً على المعنى تقديره إذا أخرج من فيها يده .

وقال الجرجاني : الآية الأولى في ذكر أعمال الكفار .

والثانية في ذكر كفرهم ونسق الكفر على أعمالهم لأن الكفر أيضاً من أعمالهم ، وقد قال تعالى يخرجهم من الظلمات إلى النور .

من الكفر إلى الإيمان ، فيكون التمثيل قد وقع لأعمالهم بكفر الكافر و ﴿ أعمالهم ﴾ منها كفرهم ، فيكون قد شبه ﴿ أعمالهم ﴾ بالظلمات ، والعطف بأو هنا لأنه قصد التنويع

والتفصيل لا أن ﴿ أَو ﴾ للشك .

وقال الكرماني : ﴿ أَو ﴾ للتخيير على تقدير شبه أعمال الكفار بأيهما شئت .

وقرأ سفيان بن حسين ﴿ أو كظلمات ﴾ بفتح الواو جعلها واو عطف تقدّمت عليها الهمزة التي لتقرير التشبيه الخالي عن محض الاستفهام .

والظاهر أن الضمير في ﴿ يغشاه ﴾ عائد على ﴿ بحر لجي ﴾ أي يغشى ذلك البحر أي يغطي بعضه بعضاً ، بمعنى أن تجيء موجة تتبعها أخرى فهو متلاطم لا يسكن ، وأخوف ما يكون إذا توالت أمواجه ، وفوق هذا الموج ﴿ سحاب ﴾ وهو أعظم للخوف لإخفائه النجوم التي يهتدى بها ، وللريح والمطر الناشئين مع السحاب .

ومن قدر أو كذي ظلمات أعاد الضمير في ﴿ يغشاه ﴾ على ذي المحذوف ، أي يغشى صاحب الظلمات .

وقرأ الجمهور ﴿ سحاب ﴾ بالتنوين ﴿ ظلمات ﴾ بالرفع على تقدير خبر لمبتدأ محذوف ، أي هذه أو تلك ﴿ ظلمات ﴾ وأجاز الحوفي أن تكون مبتدأ و ﴿ بعضها فوق بعض ﴾ مبتدأ وخبره في موضع خبر ﴿ ظلمات ﴾ .

(168/550)

والظاهر أنه لا يجوز لعدم المسوغ فيه للابتداء بالنكرة إلاّ إن قدرت صفة محذوفة أي ظلمات كثيرة أو عظيمة ﴿ بعضها فوق بعض ﴾ .

وقرأ البزي ﴿ سحاب ظلمات ﴾ بالإضافة .

وقرأ قنبل ﴿ سحاب ﴾ بالتنوين ﴿ ظلمات ﴾ بالجر بدلاً من ﴿ ظلمات ﴾ و ﴿ بعضها فوق بعض ﴾ مبتدأ وخبر في موضع الصفة لكظلمات .

قال الحوفي : ويجوز على رفع ﴿ ظلمات ﴾ أن يكون ﴿ بعضها ﴾ بدلاً منها ، وهو لا يجوز من جهة المعنى لأن المراد والله أعلم الأخبار بأنها ظلمات ، وأن بعض تلك الظلمات فوق بعض أي هي ظلمات متراكمة وليس على الأخبار بأن بعض ظلمات فوق بعض من غير إخبار بأن تلك الظلمات السابقة ظلمات متراكمة .

وتقدم الكلام في كاد إذا دخل عليها حرف نفي مشبعاً في البقرة في قوله ﴿ وما كادوا يفعلون ﴾ فأغنى عن إعادته ، والمعنى هنا انتفاء مقاربة الرؤية ، ويلزم من ذلك انتفاء الرؤية ضرورة وقول من اعتقد زيادة يكد أو أنه يراها بعد عسر ليس بصحيح ، والزيادة قول ابن الأنباري وأنه لم يرها إلاّ بعد الجهد قول المبرد والفراء .

وقال ابن عطية ما معناه : إذا كان الفعل بعد كان منفياً دل على ثبوته نحو كاد زيد لا يقوم ، أو مثبتاً دل على نفيه كاد زيد يقوم ، وإذا تقدم النفي على كاد احتمل أن يكون منفياً تقول : المفلوخ لا يكاد يسكن فهذا تضمن نفي السكون .

وتقول : رجل منصرف لا يكاد يسكن فهذا تضمن إيجاب السكون بعد جهد انتهى .

والظاهر أن هذا التشبيه الثاني هو تشبيه أعمال الكفار بهذه الظلمات المتكاثفة من غير مقابلة في المعنى بأجزائه لا جزاء المشبه .

قال الزمخشري : وشبهها يعني أعماله في ظلمتها وسوادها لكونا باطلة ، وفي خلوها عن نور الحق بظلمات متراكمة من لجج البحر والأمواج والسحاب ، ومنهم من لاحظ التقابل فقال : الظلمات الأعمال الفاسدة والمعتقدات الباطلة .

(169/550)

والبحر اللجيّ صدر الكافر وقلبه ، والموج الضلال والجهالة التي غمرت قلبه والفكر المعوجة والسحاب شهوته في الكفر وإعراضه عن الإيمان .

وقال الفراء : هذا مثل لقلب الكافر أي إنه يعقل ولا يبصر .

وقيل : ﴿ الظلمات ﴾ أعماله والبحر هواه .

القيعان القريب الغرق فيه الكثير الخطر ، والموج ما يغشى قلبه من جهل وغفلة ، والموج الثاني ما يغشاه من شك وشبهة ، والسحاب ما يغشاه من شرك وحيرة فيمنعه من الاهتداء على عكس ما في مثل نور الدين انتهى .

والتفسير بمقابلة الأجزاء شبيه بتفسير الباطنية ، وعدول عن منهج كلام العرب .

ولما شبه أعمال الكفار بالظلمات المتراكمة وذكر أنه لا يكاد يرى اليد من شدة الظلمة قال ﴿ ومن لم يجعل الله له نوراً ﴾ أي من لم ينور قلبه بنور الإيمان ويهده إليه فهو في ظلمة ولا نور له ، ولا يهتدي أبداً .

وهذا النور هو في الدنيا .

وقيل : هو في الآخرة أي من لم ينوره الله بعفوه ويرحمه برحمته فلا رحمة له ، وكونه في الدنيا أليق بلفظ الآية وأيضاً فذلك متلازم لأن نور الآخرة هو لمن نور الله قلبه في الدنيا .

وقال الزمخشري : ومن لم يوله نور توفيقه وعصمته ولطفه فهو في ظلمة الباطل لا نور له .

وهذا الكلام مجراه مجرى الكنايات لأن الألطاف إنما تردف الإيمان والعمل الصالح أو كونهما مرتقبين ، ألا ترى إلى قوله ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ﴾ وقوله ﴿ ويضل الله الظالمين ﴾ انتهى .

وهو على طريقة الاعتزال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(170/550)

وقال أبو السعود :

﴿ والذين كَفَرُواْ ﴾

عطف على ما ينساق إليه ما قبله كأنَّه قيل : الذين أمنُوا أعمالُهم حالاً ومآلاً كما وُصفَ والذين كفرُوا ﴿ أعمالهم ﴾ أي أعمالُهم التي هي من أبواب البرِّ كصلةِ الأرحامِ وفكِّ العُناةِ وسقايةِ الحاجِّ وعمارةِ البيت وإغاثةِ الملهُوفين وقِرى الأضيافِ ونحو ذلك ممَّا لو قارنَه الإيمانُ لاستتبعَ الثوابَ كما في قوله تعالى : ﴿ مَّثَلُ الذين كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ ﴾ الآيةَ ﴿ كَسَرَابٍ ﴾ وهو ما يُرى في الفَلَوات من لمَعَانِ الشَّمسِ عليها وقتَ الظَّهيرةِ فيُظنُّ أنه ماءٌ يسرُب أو يجري ﴿ بِقِيعَةٍ ﴾ متعلِّق بمحذوف هو صفةٌ لسرابٍ أي كائن في قاعٍ وهي الأرضُ المنبسِطةُ المستويةُ ، وقيل : هي جمعُ قاعٍ كجيرة جمعُ جارٍ . وقُرىء بقيعاتٍ بتاء ممدودةٍ كديماتٍ إمَّا على أنَّها جمعُ قيعةٍ أو على أنَّ الأصلَ قيعة قد أُشبعت فتحةُ العينِ فتولَّد منها ألِفٌ ﴿ يَحْسَبُهُ الظمان مَاء ﴾ صفةٌ أخرى لسرابٍ وتخصيص الحسبان بالظَّمآن مع شموله لكلِّ مَن يراه كائناً من كان من العطشانِ والرَّيانِ لتكميل التَّشبيهِ بتحقيق شركة طرفيه في وجه الشَّبهِ الذي هو المطلعُ المطمع والمقطعُ المؤنسُ ﴿ حتى إِذَا جَاء ﴾ أي إذا جاءَ العطشانُ ما حَسِبَه ماءً ، وقيل : موضعَه ﴿ لَمْ يَجِدْهُ ﴾ أي ما حسبَه ماءً وعلَّق به رجاءَهُ ﴿ شَيْئاً ﴾ أصلاً لا محقَّقاً ، ولا متوهَّماً كما كان يراهُ من قبلُ فضلاً عن وجدانه ماء وبه تمَّ بيانُ أحوالِ الكفرِ بطريق التَّمثيل وقوله تعالى : ﴿ وَوَجَدَ الله عِندَهُ فوفاه

حِسَابَهُ واللهُ سَرِيعُ الحساب ﴾ بيانٌ لبقيَّة أحوالِهم العارضة لهم بعد ذلك بطريقِ التَّكملة لئلاَّ يتوَّهم أنَّ قُصارى أمرِهم هو الخيبةُ والقُنوط كما هو شأنُ الظَّمآنِ ويظهر أنَّه يعتريهم بعد ذلك من سوءِ الحالِ ما لا قدرَ عنده للخيبةِ أصلاً فليستِ الجملةُ معطوفةً على لم يجدْهُ شيئاً بل على ما يُفهم منه بطريقِ

(171/550)

التَّمثيل من عدمِ وجدان الكَفَرةِ من أعمالِهم المذكُورةِ عيناً ولا أثراً كما في قوله تعالى : ﴿ وَقَدِمْنَا إلى مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَّنثُوراً ﴾ كيف لا وأنَّ الحكم بأنَّ أعمالَ الكَفَرة كسراب يحسبه الظمآنُ ماء حتَّى إذا جاءه لم يجدُه شيئاً حكمٌ بأنَّها بحيث يحسبونَها في الدُّنيا نافعةً لهم في الآخرة حتَّى إذا جاءوها لم يجدُوها شيئاً كأنَّه قيل : حتَّى إذا جاء الكَفَرةُ يومَ القيامةِ أعمالَهم التي كانُوا في الدُّنيا يحسبونها نافعةً لهم في الآخرةِ لم يجدُوها شيئاً ووجدُوا اللهَ أي حكمَهُ وقضاءَهُ عند المجيءِ وقيل : عند العملِ فوفَّاهم أي أعطاهُم وافياً كاملاً حسابَهم أي حسابَ أعمالِهم المذكورةِ وجزاءها فإنَّ اعتقادَهم لنفعها بغيرِ إيمانٍ وعملهم بموجبه كفرٌ على كفرٍ موجب للعقاب قطعاً وإفرادُ الضَّميرينِ الرَّاجعينِ إلى الذين كفروا إمَّا لإرادة الجنس كالظَّمآنِ الواقع في التَّمثيلِ وإمَّا للحملِ على كلِّ واحدٍ منهم وكذا

إفرادُ ما يرجع إلى أعمالِهم ، هذا وقد قيل : نزلتْ في عُتبةَ بنِ أبي ربيعةَ بنِ أُميَّةَ كان قد تعبَّد في الجاهليَّةِ ولبس المسوحَ والتمسَ الدِّينَ فلمَّا جاء الإسلامُ كفرَ .

(172/550)

﴿ أَوْ كظلمات ﴾ عطفٌ على كسرابٍ وكلمةُ أو للتَّنويع إثرَ ما مُثِّلت أعمالُهم التي كانُوا يعتمدونَ عليها أقوى اعتمادٍ ويفتخرون بها في كلِّ وادٍ ونادٍ بما ذُكر من حال السَّرابِ مع زيادةِ حسابٍ وعقابٍ مُثِّلتْ أعمالُهم القبيحةُ التي ليس فيها شائبةٌ خيريَّةٌ يغترُّ بها المغترُّون بظلماتٍ كائنة ﴿ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ ﴾ أي عميقٍ كثيرِ الماءِ منسوبٍ إلى اللُّجِّ وهو معظمُ ماءِ البحرِ وقيل : إلى اللُّجَّةِ وهي أيضاً معظمُه ﴿ يغشاه ﴾ صفةٌ أُخرى للبحر أي يسترُه ويُغطِّيه بالكُلِّية ﴿ مَوْجٌ ﴾ وقولُه تعالى : ﴿ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ ﴾ جملةٌ مِن مبتدأ وخبرٍ محلُّها الرَّفعُ على أنَّها صفةٌ لموجٌ أو الصِّفةُ هي الجارُّ والمجرورُ وموجٌ الثَّاني فاعلٌ له لاعتمادِه على الموصوفِ والكلامُ فيهِ كما مرَّ في قولِه تعالى : ﴿ نُّورٌ على نُورٍ ﴾ أي يغشاهُ أمواجٌ متراكمةٌ متراكبةٌ بعضُها على بعضٍ ، وقوله تعالى : ﴿ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ﴾ صفةٌ لموجٌ الثَّاني على أحد الوجهينِ المذكُورينِ أي من فوق ذلك الموجِ سحابٌ ظلمانيٌّ سَتَر أضواءَ النُّجومِ وفيه إيماءٌ إلى غايةِ تراكم الأمواجِ وتضاعفُها حتَّى كأنَّها بلغت السَّحابَ ﴿ ظلمات ﴾ خبرُ

مبتدإٍ محذوفٍ أي هي ظلماتٌ ﴿ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ﴾ أي متكاثفة متراكمة وهذا بيان لكمال شدَّةِ الظُّلماتِ كما أنَّ قوله تعالى : ﴿ نُورٌ على نُورٍ ﴾ بيانٌ لغاية قُوَّةِ النُّورِ خلا أنَّ ذلك متعلّق بالمشبَّهِ وهذا بالمشبَّه به كما يُعربُ عنه ما بعده . وقُرِىء بالجرّ على الإبدالِ من الأُولى ، وقُرِىء بإضافةِ السَّحابِ إليها ﴿ إِذَا أَخْرَجَ ﴾ أي مَن ابتُلِيَ بها . وإضمارُه من غير ذكرِه لدلالة المَعْنى عليه دلالةً واضحة ﴿ يَدَهُ ﴾ وجعلها بمرأى منه قريبةً من عينه لينظرَ إليها ﴿ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ﴾ وهي أقربُ شيءٍ منه فضلاً عن أنْ يراها ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُوراً ﴾

(173/550)

الخ ، اعتراضٌ تذييليٌّ جيء به لتقرير ما أفاده التَّمثيلُ من كون أعمالِ الكَفَرةِ كما فُصِّل ، وتحقيق أنَّ ذلك لعدمِ هدايتِه تعالى إيَّاهم لنورِه ، وإيرادُ الموصولِ للإشارة بما في حيِّزِ الصِّلةِ إلى علَّة الحُكم وأنَّهم ممَّن لم يشأ الله تعالى هدايتَهم أي ومَن لم يشأ الله أنْ يهديَه لنوره الذي هُو القرآنُ هدايةً خاصَّةً مستتبعة للاهتداء حتماً ولم يُوفقه للإيمان به ﴿ فَمَا لَهُ مِن نُورٍ ﴾ أي فما له هدايةٌ ما من أحدٍ أصلاً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 6 صـ ﴾

(174/550)

وقال الآلوسى :

﴿ والذين كَفَرُواْ ﴾ إلى آخره

عطف على ما قبله عطف القصة على القصة أو على مقدر ينساق إليه ما قبله كأنه قيل الذين آمنوا أعمالهم حالا ومآلا كما وصف والذين كفروا ﴿ أعمالهم كَسَرَابٍ ﴾ أي أعمالهم التي هي من أبواب البر كصلة الأرحام وفك العناة وسقاية الحاج وعمارة البيت وإغاثة الملهوفين وقرى الاضياف ونحو ذلك على ما قيل ، وقيل أعمالهم التي يظنون الانتفاع بها سواء كان مما يشترط فيها الإيمان كالحج أم كانت مما لا يشترط فيها ذلك كسقاية الحاج وسائر ما تقدم ، وقيل المراد بها ما يشمل الحسن والقبيح ليتأتى التشبيهان ، وسيأتي إن شاء الله تعالى الكلام في ذلك ، والسراب بخار رقيق يرتفع من قعور القيعان فإذا اتصل به ضوء الشمس أشبه من بعيد الماء السارب أي الجاري واشترط فيه الفراء اللصوق في الأرض ، وقيل هو ما ترقرق من الهواء في الهجير في قيا في الأرض المنبسطة ، وقيل : هو الشعاع الذي يرى نصف النهار عند اشتداد الحر في البر يخيل للناظر أنه ماء سارب ، قال الشاعر

: فلما كففنا الحرب كانت عهودكم . . .

كلمع سراب في الفلا متألق

وإلى هذا ذهب الطبرسي ، وفسر الآل بأنه شعاع يرتفع بين السماء والأرض كالماء ضحوة النهار ﴿ بِقِيعَةٍ ﴾ متعلق بمحذوف هو صفة سراب أي كائن بقيعة وهي الأرض المنبسطة المستوية ، وقيل هي جمع قاع كجيرة في جار ونيرة في نار ، وقرأ مسلمة بن محارب ﴿ بقيعات ﴾ بتاء طويلة على أنه جمع قيعة كديمات وقيمات في ديمة وقيمة ، وعنه أيضاً أنه قرأ ﴿ بقيعاة ﴾ بتاء مدورة ويقف عليها بالهاء فيحتمل أن يكون جمع قيعة ووقف بالهاء على لغة طيء كما قالوا : البناه والأخواه ، ويحتمل كما قال صاحب اللوامح أن يكون مفرداً وأصله قيعة كما في قراءة الجمهور لكنه أشبع الفتحة فتولدت منها الألف ﴿ يَحْسَبُهُ الظمان ﴾ صفة أخرى لسراب .

(175/550)

وجوز أن يكون هو الصفة وبقيعة ظرفاً لما يتعلق به الكاف وهو الخبر ؛ والحسبان الظن على المشهور وفرق بينهما الراغب بأن الظن أن يخطر النقيضان بباله ويغلب أحدهما على الآخر والحسبان أن يحكم باحدهما من غير أن يخطر الآخر بباله فيعقد عليه الأصبع ويكون بعرض أن يعتريه فيه شك ، وتخصيص الحسبان بالظمآن مع شموله لكل من يراه كائناً من كان من العطشان والريان لتكميل التشبيه بتحقيق شركة طرفية في وجه الشبه الذي هو

المطلع المطمع والمقطع المؤيس .

وقرأ سيبة .

وأبو جعفر .

ونافع بخلاف عنهما ﴿ يَحْسَبُهُ الظمان ﴾ بحذف الهمزة ونقل حركتها إلى الميم ﴿ حتى إِذَا جَاءهُ ﴾ أي إذا جاء العطشان ما حسبه ماء ، وقيل إذا جاء موضعه لَمْ يَجدْهُ ﴾ أي لم يجد ما حسبه ماء وعلق رجاءه به ﴿ ﴾ أي لم يجد ما حسبه ماء وعلق رجاءه به ﴿ شَيْئاً ﴾ أصلا لا محققاً ولا مظنوناً كان يراه من قبل فضلاً عن وجه أنه ماء ، ونصب ﴿ شَيْئاً ﴾ قيل على الحالية ، وأمر الاشتقاق سهل ، وقيل على أنه مفعول ثان لوجد بناء على أنها من أخوات ظن ، وجوز أن يكون منصوباً على البدلية من الضمير ، ويجوز إبدال النكرة من المعرفة بلا نعت إذا كان مفيداً كما صرح به الرضى ، واختار أبو البقاء أنه منصوب على المصدرية كأنه قيل لم يجده وجداناً وهو كما ترى ﴿ وَوَجَدَ اللهَ عِندَهُ ﴾ عطف على جملة ﴿ لَمْ يَجِدْهُ ﴾ فهو داخل في التشبيه أي ووجد الظمآن مقدوره تعالى من الهلاك عند السراب المذكور ، وقيل أي وجد الله تعالى محاسباً إياه على أن العندية بمعنى الحساب لذكر التوفية بعد بقوله سبحانه : ﴿ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ ﴾ أي أعطاه وافياً كاملاً حساب عمله وجزاءه أو أتم حسابه بعرض الكتبة ما قدمه ﴿ والله سَرِيعُ الحساب ﴾ لا يشغله حساب عن حساب .

وفي إرشاد العقل السليم أن بيان أحوال الكفرة بطريق التمثيل قد تم بقوله سبحانه : ﴿ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ وَوَجَدَ ﴾ الخ بيان لبقية أحوالهم العارضة لهم بعد ذلك بطريق التكملة لئلا يتوهم أن قصارى أمرهم هو الخيبة والقنوط فقط كما هو شأن الظمآن .

ويظهر أنه يعتريهم بعد ذلك من سوء الحال ما لا قدر للخيبة عنده أصلاً فليست الجملة معطوفة على ﴿ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً ﴾ بل على ما يفهم منه بطريق التمثيل من عدم وجدان الكفرة من أعمالهم عيناً ولا أثراً كما في قوله تعالى : ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَّنثُوراً ﴾ [الفرقان : 23] كيف لا وأن الحكم بأن أعمال الكفرة كسراب يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً حكم بأنها بحيث يحسبونها في الدنيا نافعة لهم في الآخرة حتى إذا جاءوها لم يجدوها شيئاً كأنه قيل : حتى إذا جاء الكفرة يوم القيامة أعمالهم التي كانوا في الدنيا يحسبونها نافعة لهم في الآخرة لم يجدوها شيئاً ووجدوا الله أي حكمه وقضاءه عند المجيء ، وقيل : عند العمل فوفاهم أي أعطاهم وافياً حسابهم أي حساب أعمالهم المذكورة وجزاءها فإن اعتقادهم لنفعها بغير إيمان وعملهم بموجبه كفر

على كفر موجب للعقاب قطعاً ، وإفراد الضميرين الراجعين إلى الذين كفروا إما لإرادة الجنس كالظمآن الواقع في التمثيل وإما للحمل على كل واحد منهم ، وكذا افراد ما يرجع إلى أعمالهم انتهى ، ورلا يخفى ما فيه من البعد وارتكاب خلاف الظاهر .

وأياً ما كان فالمراد بالظمآن مطلق الظمآن ، وقيل المراد به الكافر ، وإليه ذهب الزمخشري قال : شبه سبحانه ما يعمله من لا يعتقد الإيمان بسراب يراه الكافر بالساهرة وقد غلبه عطش القيامة فيحسبه ماء فيأتيه فلا يجده ويجد زبانية الله تعالى عنده يأخذونه فيسقونه الحميم والغساق وكأنه مأخوذ مما أخرجه عبد بن حميد .

وابن المنذر .

(177/550)

وابن أبي حاتم من طريق السدى في غرائبه عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن الكفار يبعثون يوم القيامة ورداً عطاشاً فيقولون أين الماء فيمثل لهم السراب فيحسبونه ماء فينطلقون إليه فيجدون الله تعالى عنده فيوفيهم حسابهم والله سريع الحساب " واستطيب ذلك العلامة الطيبي حيث قال : إنما قيد المشبه به برؤية الكافر وجعل أحواله ما يلقاه يوم القيامة ولم يطلق لقوله تعالى : ﴿ وَوَجَدَ اللهَ عِندَهُ ﴾ الخ لأنه من

تتمة أحوال المشبه به ، وهذا الأسلوب أبلغ لأن خيبة الكافر أدخل وحصوله على خلاف ما يؤمله أعرق .

وتعقبه أبو حيان بأنه يلزم من حمل الظمآن على الكافر تشبيه الشيء بنفسه .

ورد بأن التشبيه على ما ذكره جار الله تمثيلي أو مقيد لا مفرق كما توهم فلا يلزم من اتحاد بعض المفردات في الطرفين تشبيه الشيء بنفسه كاتحاد الفاعل في أراك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى ، وبالجملة هو أحسن مما في الإرشاد كما لا يخفى على من سلم ذهنه من غبار العناد .

والآية على ما روي عن مقاتل نزلت في عتبة بن ربيعة بن أمية كان تعبد ولبس المسوح والتمس الدين في الجاهلية ثم كفر في الإسلام ولا يأبى ذلك قوله تعالى : ﴿ والذين كَفَرُواْ ﴾ لأنه غير خاص بسبب النزول وإن خذل فيه دخولاً أولياً ، ولا يرد عليه أن الآية مدنية نزلت بعد بدر وعتبة قتل في بدر فإن كثيراً من الآيات نزل بسبب الأموات وليس في ذلك محذور أصلاً ، ثم لا يبعد أن يكون في حكم هؤلاء الكفرة الفلاسفة ومتبعوهم من المتزيين بزي الإسلام فإن اعتقاداتهم وأعمالهم حيث لم تكن على وفق الشرع كسراب بقيعة .

(178/550)

﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ ﴾ عطف على ﴿ كَسَرَابٍ ﴾ [النور : 39] ، وكلمة أو قيل لتقسيم حال أعمالهم الحسنة ، وجوز الإطلاق باعتبار وقتين فإنها كالسراب في الآخرة من حيث عدم نفعها وكالظلمات في الدنيا من حيث خلوها عن نور الحق ، وخص هذا بالدنيا لقوله تعالى : ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴾ فإنه ظاهر في الهداية والتوفيق المخصوص بها ، والأول بالآخرة لقوله تعالى : ﴿ وَوَجَدَ ﴾ [النور : 39] الخ وقدم أحوال الآخرة التي هي أعظم وأهم لاتصال ذلك بما يتعلق بها من قوله سبحانه : ﴿ لِيَجْزِيَهُمُ ﴾ [النور : 38] الخ ثم ذكر أحوال الدنيا تتميما لها .

وجوز أن يعكس ذلك فيكون المراد من الأول تشبيه أعمالهم بالسراب في الدنيا حال الموت ، ومن الثاني تشبيهها بالظلمات في القيامة كما في الحديث " الظلم ظلمات يوم القيامة " ويكون ذلك ترقياً مناسباً للترتيب الوقوعي وليس بذلك لما سمعت ، وقيل للتنويع ، وذلك أنه أثر ما مثلت أعمالهم التي كانوا يعتمدون عليها أقوى اعتماد ويفتخرون بها في كل واد وناد بما ذكر من حال السراب مثلت أعمالهم القبيحة التي ليس فيها شائبة خيرية يغتر بها المغترون بالظلمات المذكورة ، وزعم الجرجاني أن المراد هنا تشبيه كفرهم فقط وهو كما ترى .

والظاهر على التنويع أن يراد من الأعمال في قوله تعالى : ﴿ أعمالهم ﴾ [النور : 39] ما يشمل النوعين .

واعترض بأنه يأبى ذلك قوله تعالى : ﴿ وَوَجَدَ اللهَ ﴾ [النور : 39] بناء على دخوله في التشبيه لأن أعمالهم الصالحة وإن سلم أنها لا تنفع مع الكفر لا وخامة في عاقبتها كما يؤذن به قوله سبحانه : ﴿ شَيْئاً وَوَجَدَ ﴾ الخ .

(179/550)

وأجيب بأنه ليس فيه ما يدل على أن سبب العقاب الأعمال الصالحة بل وجد أن العقاب بسبب قبائح أعمالهم لكنها ذكرت جميعها لبيان أن بعضها جعل هباء منثور أو بعضها معاقب به ، وجوز أن تكون للتخيير في التشبيه لمشابهة أعمالهم الحسنة أو مطلقا السراب لكونها لاغية لا منفعة فيها ، والظلمات المذكورة لكونها خالية عن نور الحق ، واختاره الكرماني .

واعترض بأن الرضى كغيره ذكر أنها لا تكون للتخيير إلا في الطلب .

وأجيب بأنه وإن اشتهر ذلك فقد ذهب كثير إلى عدم اختصاصه به كابن مالك .

والزمخشري ووقوعه في التشبيه كثير ، وأياً ما كان فليس في الكلام مضاف محذوف .

وقال أبو علي الفارسي : فيه مضاف محذوف والتقدير أو كذي ظلمات ، ودل عليه ما يأتي من قوله سبحانه : ﴿ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ ﴾ والتشبيه عنده هنا يحتمل أن يكون للأعمال

على نمط التشبيه السابق ويقدر أو كأعمال ذي ظلمات .

ويحتمل أن يكون للكفرة ويقدر أو هم كذي ظلمات والكل خلاف الظاهر ، وأمر الضمير سيظهر لك إن شاء الله تعالى .

وقرأ سفيان بن حسين ﴿ أَوْ كظلمات ﴾ بفتح الواو ، ووجه ذلكفي البحر بأنه جعلها واو عطف تقدمت عليها الهمزة التي لتقرير التشبيه الخالي عن محض الاستفهام .

وقيل هي ﴿ أَوْ ﴾ التي في قراءة الجمهور وفتحت الواو للمجاورة كما كسرت الدال لها في قوله تعالى : ﴿ الحمد للَّهِ ﴾ [الفاتحة : 2] على بعض القراآت ﴿ فِى بَحْرٍ لُّجّىّ ﴾ أي عميق كثير الماء منسوب إلى اللج وهو معظم ماء البحر .

وقيل اللجة وهي أيضاً معظمه وهو صفة ﴿ بَحْرٍ ﴾ وكذا جملة قوله تعالى ﴿ يغشاه ﴾ أي يغطي ذلك البحر ويستره بالكلية ﴿ مَوْجٌ ﴾ وقدمت الأولى لافرادها .

وقيل الجملة صفة ذي المقدر والضمير راجع إليه ، وقد علمت حال ذلك التقدير وقوله تعالى : ﴿ مّن فَوْقِهِ مَوْجٌ ﴾ جملة من بمتدأ وخبر محلها الرفع على أنها صفة لموج أو الصفة الجار والمجرور وما بعده فاعل له لاعتماده على الموصوف .

(180/550)

والمراد يغشاه أمواج متراكمة متراكبة بعضها على بعض ، وقوله تعالى : ﴿ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ﴾ صفة لموج الثاني على أحد الوجهين المذكورين أي من فوق ذلك الموج سحاب ظلماني ستر أضواء النجوم ، وفيه إيماء إلى غاية تراكم الأمواج وتضاعفها حتى كأنها بلغت السحاب ﴿ ظلمات ﴾ خبر مبتدأ محذوف أي هي ظلمات ﴿ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ﴾ أي متكاثفة متراكمة ، وهذا بيان لكمال شدة الظلمات كما أن قوله تعالى : ﴿ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ﴾ [النور : 35] بيان لغايّة قوة النور خلا أن ذلك متعلق بالمشبه وهذا بالمشبه به كما يعرب عنه ما بعده .

وأجاز الحوفي أن يكون ﴿ ظلمات ﴾ مبتدأ خبره قوله تعالى : ﴿ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ﴾ .

وتعقبه أبو حيان وتبعه ابن هشام بأن الظاهر أنه لا يجوز لما فيه من الابتداء بالنكرة من غير مسوغ إلا أن يقدر صفة لها يؤذن بها التنوين أي ظلمات كثيرة أو عظيمة وهو تكلف .

وأجاز أيضاً أن يكون ﴿ بَعْضَهَا ﴾ بدلاً من ﴿ ظلمات ﴾ .

وتعقب بأنه لا يجوز من جهة المعنى لأن المراد والله تعالى أعلم الأخبار بأنها ظلمات وأن بعض تلك الظلمات فوق بعض أي هي ظلمات متراكمة لا الأخبار بأن بعض ظلمات فوق بعض من غير أخبار بأن تلك الظلمات السابقة متراكمة .

وقرأ قنبل ﴿ ظلمات ﴾ بالجر على أنه بدل من ﴿ ظلمات ﴾ الأولى لا تأكيد لها .

وجملة ﴿ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ﴾ في موضع الصفة له .

وقرأ البزي ﴿ سَحَابٌ ظلمات ﴾ بإضافة سحاب إلى ظلمات وهذه الإضافة كالإضافة في لجين الماء أو لبيان أن ذلك السحاب ليس سحاب مطر ورحمة .

﴿ إِذَا أَخْرَجَ ﴾ أي من ابتلى بها ، واضماره من غير ذكر لدلالة المعنى عليه دلالة واضحة .

وكذا تقدير ضمير يرجع إلى ﴿ ظلمات ﴾ واحتيج إليه لأن جملة ﴿ إِذَا أَخْرَجَ ﴾ الخ في موضع الصفة لظلمات ولا بد لها من رابط ولا يتعين ما أشرنا إليه .

(181/550)

وقيل : ضمير الفاعل عائد على اسم الفاعل المفهوم من الفعل على حد "لا يشرب الخمر وهو مؤمن" أي إذا أخرج المخرج فيها ﴿ يَدَهُ ﴾ وجعلها بمرأى منه قريبة من عينيه لينظر إليها ﴿ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ﴾ أي لم يقرب من رؤيتها وهي أقرب شيء إليه فضلاً عن أن يراها .

وزعم ابن الأنباري زيادة ﴿ يَكَدْ ﴾ .

وزعم الفراء .

والمبرد أن المعنى لم يرها إلا بعد الجهد فإنه قد جرى العرف أن يقال : ما كاد يفعل ولم يكد يفعل في فعل قد فعل بجهد مع استبعاد فعله وعليه جاء قوله تعالى : ﴿ فَذَبَحُوهَا وَمَا

كَادُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ [البقرة : 71] ومن هنا خطأ ابن شبرمة ذا الرمة بقوله

: إذا غير النأي المحبين لم يكد . . .

رسيس الهوى من حب مية يبرح

وناداه يا أبا غيلان أراه قد برح ففك وسلم له ذو الرمة ذلك فغير لم يكد بلم يكن أو لم أجد ، والتحقيق أن الذي يقتضيه لم يكد وما كان يفعل أن الفعل لم يكن من أصله ولا قارب في الظن أن يكون ولا يشك في هذا .

وقد علم أن كان موضوعة لشدة قرب الفعل من الوقوع ومشارفته فمحال أن يوجب نفيه وجود الفعل لأنه يؤدي إلى أن يكون ما قارب كذلك فالنظر إلى أنه إذا لم يكن المعنى على أن ثمت حالاً يبعد معها أن تكون ثم تغيرت كما في قوله تعالى : ﴿ فَذَبَحُوهَا ﴾ [البقرة : 71] الخ يلتزم الظاهر ويجعل المعنى أن الفعل لم يقارب أن يكون فضلاً عن أن يكون والآية على ذلك وكذا البيت ، وقد ذكر أن لم يكد فيهما جواب ﴿ إِذَا ﴾ فيكون مستقبلاً وإذا قلت : إذا خرجت لم أخرج فقد نفيت خروجاً في المستقبل فاستحال أن يكون المعنى فيهما على أن الفعل قد كان .

وهذا التحقيق خلاصة ما حقق الشيخ في دلائل الاعجاز ، ومنه يعلم تخطئة من زعم أن كاد نفيها إثبات وإثباتها نفي .

وفي الحواشي الشهابية أن نفي كاد على التحقيق المذكور أبلغ من نفي الفعل الداخلة عليه لأن نفي مقاربته يدل على نفيه بطريق برهاني إلا أنه إذا وقع في الماضي لا ينافي ثبوته في المستقبل وربما أشعر بأنه وقع بعد اليأس منه كما في آية البقرة ، وإذا وقع في المستقبل لا ينافي وقوعه في الماضي فإن قامت قرينة على ثبوته فيه أشعر بأنه انتفى وأيس منه بعد ما كان ليس كذلك كما في هذه الآية فإنه لشدة الظلمة لا يمكنه رؤية يده التي كانت نصب عينيه ، ثم فرع على هذا أن لك أن تقول : إن مراد من قال : إن نفيها إثبات وإثباتها نفي أن نفيها في الماضي يشعر بالثبوت في المستقبل وعكسه كما سمعت ، وهذا وجه تخطئة ابن شبرمة وتغيير ذي الرمة لأن مراده أن قديم هواها لم يقرب من الزوال في جميع الأزمان ونفيه في المستقبل يوهم ثبوته في الماضي فلا يقال : إنهما من فصحاء العرب المستشهد بكلامهم فيكف خفى ذلك عليهما ولذا استبعده في الكشف وذهب إلى أن قصتهما موضوعة أوصى بحفظ ذلك حيث قال : فاحفظه فإنه تحقيق أنيق وتوفيق دقيق سنح بمحض اللطف والتوفيق انتهى .

(183/550)

ولعمري أن ما أول به كلام القائل بعيد غاية البعد ولا أظنه يقع موقع القبول عنده ونفي كل فعل في الماضي لا ينافي ثبوته في المستقبل ونفيه في المستقبل لا ينافي وقوعه في الماضي ولا اختصاص لكاد بذلك فيا ليت شعري هل دفع الإيهام ما عير إليه ذو الرمة بيته فتأمل ذاك والله تعالى يتولى هداك ، ثم إن ظاهر الآية يقتضي أن مانع الرؤية شدة الظلمة وهو كذلك لأن شرط الرؤية بحسب العادة في هذه النشأة الضوء سواء كانت بمحض خلق الله تعالى كما ذهب إليه أهل الحق أو كانت بخروج الشعاع من العين على هيئة مخروط مصمت أو مؤلف من خطوط مجتمعة في الجانب الذي يلي الرأس أولا على هيئة مخروط بل على استواء لكن مع ثبوت طرفه الذي يلي العين واتصاله بالمرئى أو بتكيف الشعاع الذي في العين بكيفية الهواء وصيرورة الكل آلة للرؤية كما ذهب إليه فرق الرياضيين أو كانت بانطباع شبح المرئى في جزء من الرطوبة الجليدية التي تشبه البرد والجمد كما ذهب إليه الطبيعيون ، وهذان المذهبان هما المشهوران للفلاسفة ونسب للاشراقيين منهم .

واختاره شهاب الدين القتيل أن الرؤية بمقابلة المستنير للعضو الباصر الذي فيه رطوبة صقلية وإذا وجدت هذه الشروط مع زوال المانع يقع للنفس علم إشراقي حضوري على المبصر فتدركه النفس مشاهدة ظاهرة جلية بلا شعاع ولا انطباع ، واختار الملأ صدرا أنها بانشاء صورة مماثلة للمرئى بقدرة الله تعالى من عالم الملكوت النفساني مجردة عن المادة الخارجية حاضرة عند النفس المدركة قائمة بها قيام الفعل بفاعله لا قيام المقبول بقابله ،

وتحقيق ذلك بما له وما عليه في مبسوطات كتب الفلسفة وربما يظن أن الظلمة سواء كانت وجودية أو عدم ملكة من شروط الرؤية كالضوء لكن بالنسبة إلى بعض الأجسام كالأشياء التي تلمع بالليل .

(184/550)

ونفي ابن سينا ذلك وقال : لا يمكن أن تكون الظلمة شرطاً لوجود اللوامع مبصرة وذلك لأن المضيء مرئي سواء كان الرائي في الظلمة أو في الضوء كالنار نراها مطلقاً ، وأما الشمس فإنما لا يمكننا أن نراها في الظلمة لأنها متى طلعت لم تبق الظلمة ، وأما الكواكب واللوامع فإنما ترى في الظلمة دون النهار لأن ضوء الشمس غالب على ضوئها وإذا انفعل الحس عن الضوء القوي لا جرم لا ينفعل عن الضعيف ، فإما في الليل فليس هناك ضوء غالب على ضوئها فلا جرم ترى ، وبالجملة فصيرورتها غير مرئية ليس لتوقف ذلك على الظلمة بل لوجود المانع عن الرؤية وهو وجود الضوء الغالب انتهى ، ويمكن أن يقال : إن ضوء الشمس على ما ذكر مانع عن رؤية اللوامع ورفع مانع الرؤية شرط لها ودفع الضوء هو الظلمة فالظلمة شرط رؤية اللوامع بالليل وهو المطلوب فتدبر ولا تغفل والله تعالى أعلم بحقائق الأمور .

﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُورٍ ﴾

اعتراض تذييلي جيء به لتقرير ما أفاده التمثيل من كون أعمال الكفار كما فصل وتحقيق أن ذلك لعدم هدايته تعالى إياهم لنوره ، وإيراد الموصول للإشارة بما في حيز الصلة إلى علة الحكم وأنهم ممن لم يشأ الله تعالى هدايتهم أي من لم يشأ الله تعالى أن يهديه الله سبحانه لنوره في الدنيا فما له هداية ما من أحد أصلاً فيها ، وقيل : معنى الآية من لم يكن له نور في الدنيا فلا نور له في الآخرة .

وقيل : كلا الأمرين في الآخرة ، والمعنى من لم ينوره الله تعالى بعفوه ويرحمه برحمته يوم القيامة فلا رحمة له من أحد فيها والمعول عليه ما تقدم .

(185/550)

والظاهر أن المراد تشبيه أعمال الكفرة بالظلمات المتكاثفة من غير اعتبار أجزاء في طرفي التشبيه يعتبر تشبيه بعضها ببعض ، ومنهم من اعتبر ذلك فقال : الظلمات الأعمال الفاسدة والمعتقدات الباطلة والبحر اللجى صدر الكافر وقلبه والموج الضلال والجهالة التي قد غمرت قلبه والموج الثاني الفكر المعوجة والسحاب شهوته في الكفر وإعراضه عن الإيمان . وقيل : الظلمات أعمال الكافر والبحر هواه العميق القعر الكثير الخطر الغريق هو فيه والموج ما يغشى قلبه من الجهل والغفلة .

والموج الثاني ما يغشاه من شك وشبهة والسحاب ما يغشاه من شرك وحيرة فيمنعه من الاهتداء والكل كما ترى ولو جعل من باب الإشارة لهان الأمر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 18 صـ ﴾

(186/550)

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال الآلوسى :

ومن باب الإشارة : ما قيل إن في قوله تعالى : ﴿ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النور : 2] إشارة إلى أنه ينبغي للشيخ إذا أراد تأديب المريد وكسر نفسه الأمارة أن يؤد به بمحضر طائفة من المريدين الذين لا يحتاجون إلى تأديب .

ومن هنا قال أبو بكر بن طاهر : لا يشهد مواضع التأديب إلا من لا يستحق التأديب وهم طائفة من المؤمنين لا المؤمنون أجمع ، والزنا عندهم إشارة إلى الميل للدنيا وشهواتها ، وفي قوله تعالى : ﴿ الزانى لاَ يَنكِحُ إِلاَّ زَانِيَةً ﴾ [النور : 3] الخ .

وقوله تعالى : ﴿ الخبيثات لِلْخَبِيثِينَ ﴾ [النور : 26] الخ إشارة إلى أنه لا ينبغي للأخيار معاشرة الأشرار ، إن الطيور على أشباهها تقع .

وفي قوله تعالى : ﴿ لاَ تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَّكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ [النور : 11] إشارة إلى أنه لا ينبغي لمن يشنع عليه المنكرون من المشايخ أن يحزن من ذلك ويظنه شراً له فإنه خير له موجب لترقيه .

وفي قوله تعالى : ﴿ وَلاَ يَأْتَلِ أُوْلُواْ الفضل ﴾ [النور : 22] الخ إشارة إلى أنه ينبغي للشيوخ والأكابر أن لا يهجروا أصحاب العثرات وأهل الزلات من المريدين وأن لا يقطعوا إحسانهم وفيوضاتهم عنهم ، وفي قوله تعالى : ﴿ كَرِيمٌ يا أَيُّهَا الذين ءامَنُواْ لاَ تَدْخُلُواْ بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حتى تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلّمُواْ على أَهْلِهَا ﴾ [النور : 27] إشارة إلى أنه لا ينبغي لمن يريد الدخول على الأولياء أن يدخل حتى يجد روح القبول والإذن بإفاضة المدد الروحاني على قلبه المشار إليه بالاستئناس فإنه قد يكون للولي حال لا يليق للداخل أن يحضره فيه وربما يضره ذلك ، وأطرد بعض الصوفية ذلك فيمن يريد الدخول لزيارة قبور الأولياء قدس الله تعالى أسرارهم فقال : ينبغي لمن أراد ذلك أن يقف بالباب على أكمل ما يكون من الأدب ويجمع حواسه ويعتمد بقلبه طالباً الإذن ويجعل شيخه واسطة بينه وبين الولي المزور في ذلك فإن حصل له انشراح صدر ومدد روحاني وفيض باطني فليدخل وإلا فليرجع ، وهذا هو المعنى بأدب الزيارة عندهم ولم نجد ذلك عن أحد من السلف الصالح .

والشيعة عند زيارتهم للأئمة رضي الله تعالى عنهم ينادي أحدهم أأدخل يا أمير المؤمنين أو يا ابن بنت رسول الله عليه الصلاة والسلام أو نحوه ذلك ويزعمون أن علامة الإذن حصول

رقة القلب ودمع العين وهو أيضاً مما لم نعرفه عن أحد من السلف ولا ذكره فقهاؤنا وما أظنه إلا بدعة ولا يعد فاعلها إلا مضحكة للعقلاء ، وكون المزور حياً في قبره لا يستدعي الاستئذان في الدخول لزيارته ، وكذا ما ذكره بعض الفقهاء من أنه ينبغي للزائر التأدب مع المزور كما يتأدب معه حياً كما لا يخفى .

وقد رأيت بعد كتابتي هذه في "الجوهر المنتظم" في زيارة القبر المعظم صلى الله تعالى على صاحبه وسلم لابن حجر المكي ما نصه ، قال بعضهم : وينبغي أن يقف يعني الزائر بالباب وقفة لطيفة كالمستأذن في الدخول على العظماء انتهى .

وفيه أنه لا أصل لذلك ولا حال ولا أدب يقتضيه انتهى .

ومنه يعلم أنه إذا لم يشرع ذلك في زيارة قبره عليه الصلاة والسلام فعدم مشروعيته في زيارة غيره من باب أولى فاحفظ ذاك والله تعالى يعصمنا من البدع وإياك .

وقيل في قوله تعالى : ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبصارهم ﴾ [النور : 30] الخ إن فيه أمراً بغض بصر النفس عن مشتهيات الدنيا وبصر القلب عن رؤية الأعمال ونعيم الآخرة وبصر السر عن الدرجات والقربات وبصر الروح عن الالتفات إلى ما سوى الله تعالى وبصر الهمة عن أن يرى نفسه أهلاً لشهود الحق تنزيهاً له تعالى وإجلالاً ، وأمراً بحفظ فرج الباطن عن تصرفات الكونين فيه ، والإشارة بأمر النساء بعدم إبداء الزينة إلا لمن استثنى إلى أنه لا ينبغي لمن تزين بزينة الإسرار أن يظهرها لغير المحارم ومن لم يسترها عن الأجانب .

وبقوله تعالى : ﴿ وَأَنكِحُواْ الايامى مِنكُمْ ﴾ الخ إلى النكاح المعنوي وهو أن يودع الشيخ الكامل في رحم القلب من صلب الولاية نطفة استعداد قبول الفيض الإلهي .

وقد أشير إلى هذا الاستعداد بقوله سبحانه : ﴿ إِن يَكُونُواْ فُقَرَاء يُغْنِهِمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ ﴾ [النور : 32] ثم قال جل وعلا : ﴿ وَلْيَسْتَعْفِفِ ﴾ أي ليحفظ ﴿ الذين لاَ يَجِدُونَ ﴾ شيخاً في الحال أرحام قلوبهم عن تصرفات الدنيا والهوى والشيطان ﴿ حتى يُغْنِيَهُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ ﴾ بأن يوفق لهم شيخاً كاملاً أو يخصهم سبحانه بجذبة من جذباته ، وأشير بقوله تعالى : ﴿ والذين يَبْتَغُونَ الكتاب ﴾ الخ إلى أن المريد إذا طلب الخلاص عن قيد الرياضة لزم إجابته إن علم فيه الخير وهو التوحيد والمعرفة والتوكل والرضا والقناعة وصدق العمل والوفاء بالعهد ووجب أن يؤتى بعض المواهب التي خصها الله تعالى بها الشيخ ، وأشير بقوله تعالى : ﴿ وَلاَ تُكْرِهُواْ ﴾ [النور : 33] الخ إلى أن النفس إذا لم تكن مائلة إلى التصرف في الدنيا لم تكره عليه .

ولهم في قوله تعالى : ﴿ اللهُ نُورُ السموات والأرض ﴾ [النور : 35] كلام طويل عريض وفيما قدمنا ما يصلح أن يكون من هذا الباب ، وذكر أن قوله تعالى : ﴿ رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تجارة وَلاَ بَيْعٌ عَن ذِكْرِ الله ﴾ [النور : 37] مما يدخل في عمومه أهل الطريقة العلية النقشبندية الذين حصل لهم الذكر القلبي ورسخ في قلوبهم بحيث لا يغفلون عنه سبحانه في حال من الأحوال وهذا وإن ثبت لغيرهم أيضاً من أرباب الطرائق فإنما يثبت في النهايات

دون المبادىء كما يثبت لأهل تلك الطريقة .

وفي مكتوبات الإمام الرباني قدس سره ما يغني عن الإطالة في شرح أحوال هؤلاء القوم وبيان منزلتهم في الذكر والحضور بين سائر الأقوام حشرنا الله تعالى وإياهم تحت لواء النبي عليه الصلاة والسلام ، وقيل إن قوله تعالى : ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُورٍ ﴾ [النور : 40] إشارة لما ورد في حديث " خلق الله تعالى الخلق في ظلمة ثم رش عليهم من نوره فمن أصابه منه اهتدى ومنه أخطأه ضل " والله تعالى الموفق لصالح العمل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعاني حـ 18 صـ ﴾

(187/550)

وقال القاسمي :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا ﴾

عطف على ما ينساق إليه ما قبله . كأنه قيل : الذين آمنوا أعمالهم حالاً ومآلاً كما وصف ، والذين كفروا : ﴿ أَعْمَالُهُمْ ﴾ أي : التي يحسبونها تنفعهم وتأخذ بيدهم من العذاب : ﴿ كَسَرَابٍ ﴾ وهو ما يرى في الفلاة من ضوء الشمس ، وقت الظهيرة ، يسرب على وجه الأرض كأنه ماء يجري : ﴿ بِقِيعَةٍ ﴾ بمعنى القاع ، وهو المنبسط من الأرض . أو جمع قاع

كجيرة في جار : ﴿ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً ﴾ أي : لا محققاً ولا متوهماً . كما كان يراه من قبل ، فضلاً عن وجدانه ماء ، وبه تم بيان أحوال الكفرة بطريق التمثيل . وقوله تعالى : ﴿ وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ أي : وجد عقاب الله وجزائه عند السراب ، أو العمل . وفي التعبير بذلك زيادة تهويل . وقيل : المعنى وجده محاسباً إياه . فالعندية بمعنى الحساب ، على طريق الكناية لذكر التوفية بعده . قيل : هذه الجملة معطوفة على : ﴿ لَمْ يَجِدْهُ ﴾ ولا حاجة إلى عطفه على ما يفيده من نحو : لم يجد ما عمله نافعاً .

(188/550)

قال الشهاب : ويحتمل أن يكون بيان لحال المشبه به ، الكافر فيعطف بحسب المعنى على التمثيل بتمامه . ولو قيل على الأول إنه من تتمة وصف السراب . والمعنى : وجد مقدوره تعالى من الهلاك بالظمأ عند السراب ، فوفاه ما كتب له ، من لا يؤخر الحساب - كان الكلام متناسباً . واختار الثاني أبو السعود حيث قال : هو بيان لبقية أحوالهم العارضة لهم بعد ذلك بطريق التكملة ، لئلا يتوهم أن قصارى أمرهم هو الخيبة والقنوط فقط ، كما هو شأن الظمآن . ويظهر أنه يعتريهم بعد ذلك من سوء الحال ما لا قدر عنده للخيبة أصلاً

. فليست الجملة معطوفة على : ﴿ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً ﴾ بل على ما يفهم منه بطريق التمثيل ، من عدم وجدان الكفرة من أعمالهم المذكورة عيناً ولا أثراً . كما في قوله تعالى : ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً ﴾ [الفرقان : 23] فإن قيل : لِمَ خص الظمآن بالذكر ، مع أنه يتراءى لكل أحد كذلك ؟ فكان الظاهر الرائي بدله .

وأجيب بأنه إنما قيده به ولم يطلقه لقوله : ﴿ وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ ﴾ الخ ، لأنه من تتمة أحوال المشبه به . وهو أبلغ . لأن خيبة الكافر أدخل وأعرق . ونحوه : ﴿ مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ [آل عِمْرَان : 117] ، الخ ، فإن الكافرين هم الذين يذهب حرثهم بالكلية . يعني أنه شبه أعمال الكفار التي يظنونها نافعة ، ومآلها الخيبة ، برؤية الكافر الشديد العطش في المحشر ، سراباً يحسبه شراباً ، فينتظم عطف وجد الله أحسن انتظام كما نوّروه . كذا في " الكشف " .

الثالثة : قال الشهاب : وهذا تشبيه بليغ وقع مثله في قوله مالك بن نويرة :

لَعَمْرِيَ إِنِي وابن جارود كالَّذِي أَرَاقَ شُعَيْبَ الماءِ والآلُ يَبْرُقُ

فَلما أتاه ، خَيَّبَ اللهُ سعيَهُ فأمسى يَغُضّ الطرفَ عيمانَ يَشْهَقُ

ثم أشار تعالى إلى تمثيلهم بنوع آخر ، بقوله :

﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ ﴾

أي : عميق كثير الماء : ﴿ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ ﴾ أي : متراكم بعضه على بعض : ﴿ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ﴾ أي : متكاثفة متراكمة . وهذا بيان لكمال شدة الظلمات : ﴿ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ ﴾ أي : وجعلها بمرأى منه ، قريبة من عينه لينظر إليها : ﴿ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴾ أي : ومن لم يشأ الله أن يهديه لنوره الذي هو القرآن ، فما له هدايةٌ ما . وهذا في مقابلة قوله تعالى في مثل المؤمنين : ﴿ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ والجملة تقرير للتمثيل قبلُ ، وتحقيق أن ذلك لعدم هدايته تعالى إياهم ، إذ لم يجاهدوا لنيل ذلك ، قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ [العنكبوت : 69] .

لطيفة :

قال ابن كثير : هذان المثلان ضربهما الله تعالى لنوعي الكفار . كما ضرب للمنافقين في أول البقرة مثلين : ناريّاً ومائياً . وكما ضرب لما يقرّ في القلوب من الهدى والعلم ، في سورة الرعد ، مثلين مائيّاً وناريّاً .

ثم قال : أما الأول فهو للكفار الدعاة إلى كفرهم أصحاب الجهل المركب الذين يحسبون أنهم على شيء . فمثلهم كالسراب . والثاني لأصحاب الجهل البسيط وهم المقلدون لأئمة

الكفر الصم البكم ، الذين لا يعقلون . فلا يعرف أحدهم حال من يقوده ولا يدري أين يذهب . بل كما يقال في المثل للجاهل : أين تذهب ؟ قال : معهم . قيل : فإلى أين يذهبون ؟ قال : لا أدري انتهى .

(190/550)

وما ذكره مما يحتمله اللفظ الكريم ، وليس بمتعين . ومستنده في ذلك ما ذكره شيخه الإمام ابن القيم ، عليهما الرحمة والرضوان ، في الجيوش الإسلامية ولا بأس بإيرادها لما اشتملت عليه من بدائع الفوائد . قال : انظر كيف انتظمت هذه الآيات طرائق بني آدم أتم انتظام ، واشتملت عليه أكمل اشتمال . فإن الناس قسمان : أهل الهدى والبصائر الذين عرفوا أن الحق فيما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم عن الله سبحانه وتعالى ، وأن كل ما عارضه فشبهات يشتبه على من قل نصيبه من العقل والسمع أمرها ، فيظنها شيئاً له حاصل فينتفع به . وهي كسراب بقيعة الخ ، وهؤلاء هم أهل الهدى ودين الحق ، أصحاب العلم النافع والعمل الصالح ، الذين صدقوا الرسول صلى الله عليه وسلم في أخباره ، ولم يعارضوها بالشبهات . وأطاعوه في أوامره ولم يضيعوها بالشهوات . فلا هم في عملهم ، من أهل الخوض الخراصين : ﴿ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴾ [الذاريات :

11] ولا هم في عملهم من المستمتعين بخلاقهم ، الذين حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك هم الخاسرون . أضاء لهم نور الوحي المبين ، فرأوا في نوره أهل الظلمات في آرائهم يعمهون . وفي ضلالهم يتهوكون . وفي ريبهم يترددون . مغترين بظاهر السراب ، ممحلين مجدبين ما بعث الله تعالى به رسوله صلى الله عليه وسلم من الحكمة وفصل الخطاب : ﴿ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ ﴾ [غافر : 56] ، أوجبه لهم اتباع الهوى ، وهم لأجله يجادلون في آيات الله بغير سلطان .

(191/550)

القسم الثاني : أهل الجهل والظلم الذين جمعوا بين الجهل بما جاء به والظلم باتباع أهوائهم . الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى ﴾ [النجم : 23] ، وهؤلاء قسمان : أحدهما ، الذين يحسبون أنهم على علم وهدى ، وهم أهل الجهل والضلال . فهؤلاء أهل الجهل المركب ، الذين يجهلون الحق ويعادونه ، ويعادون أهله ، وينصرون الباطل ويوالون أهله . وهم يحسبون أنهم على شيء ألا إنهم هم الكاذبون . فهم لاعتقادهم الشيء على خلاف ما هو عليه ، بمنزلة رائي السراب الذي يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً . وهكذا هؤلاء . أعمالهم

وعلومهم بمنزلة السراب الذي يخون صاحبه أحوج ما هو إليه . ولم يقتصر على مجرد الخيبة والحرمان ، كما هو حال مَنْ أَمَّ السراب فلم يجده ماء . بل انضاف إلى ذلك أنه وجد عنده أحكم الحاكمين وأعدل العادلين . سبحانه وتعالى . فحسب له ما عنده من العلم والعمل ، فوفاه إياه بمثاقيل الذر . وقدم إلى ما عمل من عمل يرجو نفعه فجعله هباءً منثوراً . إذ لم يكن خالصاً لوجهه ، ولا على سنة رسوله صلى الله عليه وسلم . وصارت تلك الشبهات الباطلة التي كان يظنها علوماً نافعة ، كذلك هباءً منثوراً . فصارت أعماله وعلومه حسرات عليه . والسراب ما يرى في الفلاة المنبسطة من ضوء الشمس وقت الظهيرة يسرب على وجه الأرض كأنه ماء يجري والقيعة والقاع هو المنبسط من الأرض الذي لا جبل فيه ولا فيه واد . فشبه علوم من لم يأخذ علومه من الوحي وأعماله ، بسراب يراه المسافر في شدة الحر ، فيؤمّه ، فيخيب ظنه ويجده ناراً تلظى . فهكذا علوم أهل الباطل وأعمالهم إذا حشر الناس واشتد بهم العطش ، بدت لهم كالسراب . فيحسبونه ماء . فإذا أتوه وجدوا الله عنده ، فأخذتهم زبانية العذاب ، فَعَتَلُوهم إلى نار الجحيم فَسُقُوا ماء حميماً ، فقطع أمعاءهم . وذلك

(192/550)

الماء الذي سقوه هو تلك العلوم التي لا تنفع ، والأعمال التي كانت لغير الله تعالى صيرها الله تعالى حميماً سقاهم إياه . كما أن طعامهم من ضريع لا يسمن ولا يغني من جوع وهو تلك العلوم والأعمال الباطلة التي كانت في الدنيا كذلك لا تسمن ولا تغني من جوع وهؤلاء هم الذين قال الله فيهم : ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً ﴾ [الكهف : 103 - 104] ، وهم الذين عنى بقوله : ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً ﴾ [الفرقان : 23] ، وهم الذين عنى بقوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴾ [البقرة : 167] .

القسم الثاني من هذا الصنف ، أصحاب الظلمات . وهم المنغمسون في الجهل . بحيث قد أحاط بهم من كل وجه ، فهم بمنزلة الأنعام بل هم أضل سبيلاً . فهؤلاء أعمالهم التي عملوها على غير بصيرة ، بل بمجرد التقليد واتباع الآباء من غير نور من الله تعالى : ﴿ كَظُلُمَاتٍ ﴾ جمع ظلمة وهي ظلمة الجهل وظلمة الكفر وظلمة الظلم واتباع الهوى وظلمة الشك والريب وظلمة الإعراض عن الحق الذي بعث الله تعالى به رسله صلوات الله وسلامه عليهم . والنور الذي أنزله معهم ليخرجوا به الناس من الظلمات إلى النور . فإن المعرض عما بعث الله به تعالى محمداً صلى الله عليه وسلم من الهدى ودين الحق ، يتقلب في خمس ظلمات : قوله : ظلمة . وعمله ظلمة . ومدخله ظلمة ومخرجه ظلمة ومصيره

إلى ظلمة . وقلبه مظلم ووجهه مظلم وكلامه مظلم . وحاله مظلم . وإذا قابلت بصيرته الخفاشية ما بعث الله به محمداً صلى الله عليه وسلم من النور ، جدّ في الهرب منه ، وكاد نوره يخطف بصره ، فهرب إلى ظلمات الآراء التي هي به أنسب وأولى كما قيل :

(193/550)

~خفافيش أعشاها النهارُ بضَوْئه ووافقها قِطْعٌ من الليل مُظْلِمُ

وقوله تعالى : ﴿ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ ﴾ اللجيّ العميق . منسوب إلى لجة البحر وهو معظمه . وقوله تعالى : ﴿ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ﴾ تصوير لحال المعرض عن وحيه . فشبه تلاطم أمواج الشبه والباطل في صدره ، بتلاطم أمواج ذلك البحر ، وأنهم أمواج بعضها فوق بعض . والضمير الأول قوله : ﴿ يَغْشَاهُ ﴾ راجع إلى البحر ، والضمير الثاني في قوله : ﴿ مِنْ فَوْقِهِ ﴾ عائد إلى الموج . ثم إن تلك الأمواج مغشاة بسحاب . فها هنا ظلمات : ظلمة البحر اللّجي ، وظلمة الموج الذي فوقه ، وظلمة السحاب الذي فوق ذلك كله : ﴿ إِذَا أَخْرَجَ ﴾ من في هذا البحر : ﴿ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ﴾ واختلف في معنى ذلك . فقال كثير من النحاة : هو نفي لمقاربة رؤيتها . وهو أبلغ من نفيه الرؤية . وإنه قد ينفي وقوع الشيء ولا تنفى مقاربته . فكأنه قال : لم يقارب رؤيتها بوجه .

قال هؤلاء : كاد من أفعال المقاربة . لها حكم سائر الأفعال في النفي والإثبات . فإذا قيل : كاد يفعل ، فهو إثبات مقاربة الفعل . وإذا قيل : لم يكد يفعل ، فهو نفي لمقاربة الفعل .

وقالت طائفة أخرى : بل هذا دالّ على أنه إنما يراها بعد جهد شديد . وفي ذلك إثبات رؤيتها بعد أعظم العسر ، لأجل تلك الظلمات : قالوا : لأن كاد لها شأن ليس لغيرها من الأفعال . فإنها إذا أثبتت نفت . وإذا نفت أثبتت . فإذا قلت : ما كدت أصل إليك فمعناه : وصلت إليك بعد الجهد والشدة . فهذا إثبات للوصول . وإذا قلت : كاد زيد يقوم فهي نفي لقيامه . كما قال تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً ﴾ [الجن : 19] .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ ﴾ [القلم : 51] ، وأنشد بعضهم في ذلك لغزاً :

(194/550)

~أنحويَّ هذا العصر ! ما هي لفظةٌ جرت في لسانيْ جرهم وثَمُودِ ؟

~إذا استعملت في صورة النفي أثبَتَتْ وإن أثْبَتَتْ قامت مقام جُحُودِ

وقالت فرقة ثالثة ، منهم أبو عبد الله بن مالك وغيره : إن استعمالها مثبتة ، يقتضي نفي

خبرها . كقولك كاد زيد يقوم واستعمالها منفية يقتضي نفيه بطريق الأولى ، فهي عنده تنفي الخبر . سواء كانت منفية أو مثبتة . فلم يكد زيد يقوم أبلغ عند في النفي من لم يقم واحتج بأنها إذا نفيت – وهي من أفعال المقاربة – فقد نفيت مقاربة الفعل . وهو أبلغ من نفيه . وإذا استعملت مثبتة فهي تقتضي مقاربة اسمها لخبرها . وذلك يدل على عدم وقوعه . واعتذر عن مثل قوله تعالى : ﴿ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴾ [البقرة : 71] ، وعن مثل قوله : وصلت إليك وما كدت أصل وسلمت وما كدت أسلم بأن هذا وارد على كلامين متباينين . أي : فعلت كذا بعد أن لم أكن مقارباً له ، فالأول يقتضي وجود العمل ، والثاني يقتضي أنه لم يكن مقارباً له ، بل كان آيساً منه . فهما كلامان مقصود بهما أمران متباينان .

وذهبت فرقة رابعة إلى الفرقة بين ماضيها ومستقبلها . فإذا كانت في الإثبات فهي لمقاربة الفعل . سواء كانت بصيغة الماضي أو المستقبل . وإن كانت في طرف النفي ، فإن كانت بصيغة المستقبل ، كانت لنفي الفعل ومقاربته . نحو قوله : ﴿ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ﴾ وإن كانت بصيغة الماضي فهي تقتضي الإثبات نحو قوله : ﴿ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴾ [البقرة : 71] ، فهذه أربعة طرق للنحاة في هذه اللفظة .

والصحيح أنها فعل يقتضي المقاربة . ولها حكم سائر الأفعال . ونفي الخبر لم يستفد من لفظها ووضعها . فإنها لم توضع لنفيه . وإنما استفيد من لوازم معناها . فإنها إذا اقتضت مقاربة الفعل ، لم يكن واقعاً ، فيكون منفياً باللزوم . وأما إذا استعملت منفية ، فإن كانت في كلام واحد ، فهي لنفي المقاربة . كما إذا قلت : لا يكاد البطال يفلح ولا يكاد البخيل يسود ولا يكاد الجبان يفرح ونحو ذلك . وإن كانت في كلامين ، اقتضت وقوع الفعل ، بعد أن لم يكن مقارباً . كما قال ابن مالك : فهذا التحقيق في أمرها .

والمقصود إن قوله : ﴿ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ﴾ إما أن يدل على أنه لا يقارب رؤيتها لشدة الظلمة ، وهو الأظهر . فإذا كان لا يقارب رؤيتها ، فكيف يراها ؟ قال ذو الرمة :

~إذا غَيَّرَ النأيُ المحبينَ لم يَكَدْ رسيسُ الْهَوَى فِي حُبِّ مَيَّةَ يَبْرَحُ

(196/550)

أي لم يقارب البراح . وهو الزوال ، فكيف يزول ؟ فشبه سبحانه أعمالهم أولاً ، في فوات نفعها وحصول ضررها عليهم ، بسراب خداع يخدع رائيه من بعيد . فإذا جاءه وجده عنده عكس ما أمله ورجاه . شبهها ثانياً في ظلمتها وسوادها ، لكونها باطلة خالية عن

نور الإيمان ، بظلمات متراكمة في لجج البحر المتلاطم الأمواج : الذي قد غشيه السحاب من فوقه . فيا له تشبيهاً ما أبدعه ! وأشد مطابقته بحال أهل البدع والضلال ! وحال من عبد الله سبحانه وتعالى على خلاف ما بعث به رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنزل به كتابه ! وهذا التشبيه هو تشبيه لأعمالهم الباطلة بالمطابقة والتصريح ، ولعلومهم وعقائدهم الفاسدة باللزوم . وكل واحد من السراب والظلمات ، مثل لمجموع علومهم وأعمالهم . فهي سراب لا حاصل لها ، وظلمات لا نور فيها . وهذا عكس مثل أعمال المؤمن وعلومه ، التي تلقاها من مشكاة النبوة . فإنها مثل الغيث الذي به حياة البلاد والعباد . ومثل النور الذي به انتفاع أهل الدنيا والآخرة . ولهذا يذكر سبحانه هذين المثلين في القرآن في غير موضع ، لأوليائه وأعدائه . انتهى . كلام ابن القيم رحمه الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 12 صـ 408.414 ﴾

(197/550)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً ﴾

لمّا جرى ذكر أعمال المتقين من المؤمنين وجزائهم عليها بقوله تعالى : ﴿ يسبح له فيها بالغدو

والآصال رجال ﴾ إلى قوله : ﴿ ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾ [النور : 36 38] أعقب ذلك بضده من حال أعمال الكافرين التي يحسبونها قربات عند الله تعالى وما هي بمغنية عنهم شيئاً على عادة القرآن في إرداف البشارة بالنذارة ، وعكس ذلك كقوله : ﴿ ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد لكن الذين اتقوا ربهم لهم جنات ﴾ [آل عمران : 197 ، 198] الخ فعطْف حال أعمال الكافرين عطف القصة على القصة .

ولعل المشركين كانوا إذا سمعوا ما وعد الله به المؤمنين من الجزاء على الأعمال الصالحة يقولون : ونحن نعمر المسجد الحرام ونطوف ونطعم المسكين ونسقي الحاج ونقري الضيف . كما أشار إليه قوله تعالى : ﴿ أجعلتم سقاية الحج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر ﴾ [التوبة : 19] يعدون أعمالاً من أفعال الخير فكانت هذه الآيات إبطالاً لحسبانهم ، قال تعالى : ﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً ﴾ [الفرقان : 23] وقد أعلمناك أن هذه السورة نزل أكثرها عقب الهجرة وذلك حين كان المشركون يتعقبون أخبار المسلمين في مهاجرهم ويتحسسون ما نزل من القرآن .

والجملة مستأنفة استئنافاً ابتدائياً .

﴿ والذين كفروا ﴾ مبتدأ وخبره جملة : ﴿ أعمالهم كسراب ﴾ الخ .

وجعل المسند إليه ما يدل على ذوات الكافرين ثم بُني عليه مسند إليه آخر وهو ﴿

أعمالهم ﴾ .

ولم يُجعل المسند إليه أعمال الذين كفروا من أول وهلة لما في الافتتاح بذكر الذين كفروا من التشويق إلى معرفة ما سيذكر من شؤونهم ليتقرر في النفس كمال التقرر وليظهر أن للذين كفروا حظاً في التمثيل بحيث لا يكون المشبه أعمالهم خاصة .

(198/550)

وفي الإتيان بالموصول وصلته إيماء إلى وجه بناء الخبر .

وهو أنه من جزاء كفرهم بالله .

على أنه قد يكون عنوان الذين كفروا قد غلب على المشركين من أهل مكة فيكون افتتاح الكلام بهذا الوصف إشارة إلى أنه إبطال لشيء اعتقده الذين كفروا .

فتشبيه الكافرين وأعمالهم تشبيه تمثيلي : شبهت حالة كدهم في الأعمال وحرصهم على الاستكثار منها مع ظنهم أنها تقربهم إلى رضى الله ثم تبيّن أنها لا تجديهم بل يلقون العذاب في وقت ظنهم الفوز : شبه ذلك بحالة ظمأن يرى السراب فيحسبه ماء فيسعى إليه فإذا بلغ المسافة التي خال أنها موقع الماء لم يجد ماء ووجد هنالك غريماً يأسره ويحاسبه على ما سلف من أعماله السيئة .

واعلم أن الحالة المشبهة مركبة من محسوس ومعقول والحالة المشبه بها حالة محسوسة .

أي داخلة تحت إدراك الحواس .

والسراب : رطوبة كثيفة تصعد على الأرض ولا تعلو في الجو تنشأ من بين رطوبة الأرض وحرارة الجو في المناطق الحارة الرملية فيلوح من بعيد كأنه ماء .

وسبب حدوث السراب اشتداد حرارة الرمال في أرض مستوية فتشتد حرارة طبقة الهواء الملاصقة للرمل وتحرُّ الطبقة الهوائية التي فوقها حَرّاً أقل من حرارة الطبقة الملاصقة .

وهكذا تتناقص الحرارة في كل طبقة من الهواء عن حرارة الطبقة التي دونها .

وبذلك تزداد كثافة الهواء بزيادة الارتفاع عن سطح الأرض .

وبحرارة الطبقة السفلى التي تلي الأرض تحدث فيها حركات تموجية فيصعد جزء منها إلى ما فوقها من الطبقات وهكذا .

.

فتكون كل طبقة أكثف من التي تحتها .

فإذا انعكس على تلك الأشعة نور الجو من قرب طلوع الشمس إلى بقية النهار تكيّفت تلك الأشعة بلون الماء .

ففي أول ظهور النور يلوح السراب كأنه الماء الراكد أو البحر وكلما اشتد الضياء ظهر في السراب ترقرق كأنه ماء جار .

ثم قد يطلق السراب على هذا الهواء المتموج في سائر النهار من الغدوة إلى العصر .

وقد يخص ما بين أول النهار إلى الضحى باسم الآل ثم سَراب .

(199/550)

وعلى هذا قول أكثر أهل اللغة والعرب يتسامحون في إطلاق أحد اللفظين مكان الآخر ، وقد شاهدته في شهر نوفمبر فيما بين الفجر وطلوع الشمس بمقربة من موضع يقال له : أم العرائس من جهات توزر ، وأنا في قطار السكة الحديدية فخلت في أول النظر أنا أشرفنا على بحر .

وقوله : ﴿ بقيعة ﴾ الباء بمعنى في .

و(قيعة) أرض ، والجار والمجرور وصف ﴿ لسراب ﴾ وهو وصف كاشف لأن السراب لا يتكون إلا في قيعة .

وهذا كقولهم في المثل للذليل "هو فَقع في قرقر" فإن الفقع لا ينبت إلا في قرقر .

والقيعة : الأرض المنبسطة ليس فيها رُبّى ويُرادفها القاعة .

وقيل قيعة جمع قاع مثل جيرة جمع جار ، ولعله غلب لفظ الجمع فيه حتى ساوى المفرد .

وقوله : ﴿ يحسبه الظمآن ماء ﴾ يفيد وجه الشبه ويتضمن أحد أركان التمثيل وهو

الرجل العطشان وهو مشابه الكافر صاحب العمل .

و﴿ حتى ﴾ ابتدائية فهي بمعنى فاء التفريع .

ومجيء الظمآن إلى السراب يحصل بوصوله إلى مسافة كان يقدرها مبدأ الماء بحسب مرأى تخيله ، كأن يحدده بشجرة أو صخرة .

فلما بلغ إلى حيث توهم وجود الماء لم يجد الماء فتحقق أن ما لاح له سراب .

فهذا معنى قوله : ﴿ حتى إذا جاءه ﴾ ، أي إذا جاء الموضع الذي تخيّل أنه إن وصل إليه يجد ماء .

وإلا فإن السراب لا يزال يلوح له على بُعد كلما تقدم السائر في سيره .

فضرب ذلك مثلاً لقرب زمن إفضاء الكافر إلى عمله وقت موته حين يرى مقعده أو في وقت الحشر .

وقوله : ﴿ لم يجده شيئاً ﴾ أي لم يجد ما كان يخيل إلى عينه أنه ماء لم يجده شيئاً .

والشيء : هو الموجود وجوداً معلوماً للناس ، والسراب موجود ومرئي ، فقوله : ﴿ شيئاً ﴾ أي شيئاً من ماء بقرينة المقام .

وهذا التمثيل كقوله تعالى : ﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً ﴾ [الفرقان : 23] .

و(إذا) هنا ظرف مجرد عن الشرطية .

والمعنى : زمن مجيئه إلى السراب ، أي وصوله إلى الموضع .

(200/550)

وقوله : ﴿ ووجد الله عنده ﴾ هو من تمام التمثيل ، أي لم يجد الماء ووجد في مظنة الماء الذي ينتفع به وجد مَنْ إن أخذ بناصيته لم يفلته ، أي هو عند ظنه الفوز بمطلوبه فاجأه من يأخذه للعذاب ، وهو معنى قوله : ﴿ فوفاه حسابه ﴾ أي أعطاه جزاء كفره وافياً .

فمعنى ﴿ فوفاه ﴾ أنه لا تخفيف فيه ، فهو قد تعب ونصب في العمل فلم يجد جزاء إلا العذاب بمنزلة من ورد الماء للسقي فوجد من له عنده تِرة فأخذه .

وجملة : ﴿ والله سريع الحساب ﴾ تذييل .

والسريع : ضد البطيء .

والمعنى : أنه لا يماطل الحساب ولا يؤخره عند حلول مقتضيه ، فهو عام في حساب الخير والشر ولذلك كان تذييلاً .

واعلم أن هذا التمثل العجيب صالح لتفريق أجزائه في التشبيه بأن ينحل إلى تشبيهات واستعارات .

فأعمال الكافرين شبيهة بالسراب في أن لها صورة الماء وليست بماء ، والكافر يشبه الظمآن في الاحتياج إلى الانتفاع بعمله .

ففي قوله : ﴿ يحسبه الظمآن ﴾ استعارة مصرحة ، وخيبة الكافر عند الحساب تشبه خيبة الظمآن عند مجيئه السراب ففيه استعارة مصرحه ، ومفاجأة الكافر بالأخذ والعتْل من جند الله أو بتكوين الله تشبه مفاجأة من حسب أنه يبلغ الماء للشراب فبلغ إلى حيث تحقق أنه لا ماء فوجد عند الموضع الذي بلغه من يترصد له لأخذه أو أسره .

فهنا استعارة مكنية إذ شبه أمر الله أو ملائكتِه بالعدوّ ، ورمز إلى العدو بقوله : ﴿ فوفاه حسابه ﴾ .

وتعدية فعل ﴿ وجد ﴾ إلى اسم الجلالة على حذف مضاف هي تعدية المجاز العقلي .

﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ﴾

شأن ﴿ أو ﴾ إذا جاءت في عطف التشبيهات أن تدل على تخيير السامع أن يشبه بما قبلها وبما بعدها .

وقد تقدم ذلك عند قوله تعالى : ﴿ أو كصيب من السماء ﴾ في سورة البقرة (19) ، أي مع اتحاد وجه الشبه .

ومنه قول أمرىء القيس :

يُضيء سناه أو مصَابيح راهب . . . . .

وقول لبيد :

(201/550)

أفتلك أم وحشية مسبوعة

خذلت وهادية الصوّار قوامها . . .

فإذا كان الكلام هنا جارياً على ذلك الشأن كان المعنى تمثيل الذين كفروا في أعمالهم التي يظنون أنهم يتقربون بها إلى الله بحال ظلمات ليل غشيت ماخراً في بحر شديد الموج قد اقتحم ذلك البحر ليصل إلى غاية مطلوبة ، فحالهم في أعمالهم تشبه حال سابح في ظلمات ليل في بحر عميق يغشاه موج يركب بعضه بعضاً لشدة تعاقبه ، وإنما يكون ذلك عند اشتداد الرياح حتى لا يكاد يرى يده التي هي أقرب شيء إليه وأوضحُه في رؤيته فكيف يرجو النجاة .

وإن كان الكلام جارياً على التخيير في التشبيه مع اختلاف وجه الشبه كان المعنى تمثيل حال الذين كفروا في أعمالهم التي يعملونها وهم غير مؤمنين بحال من ركب البحر يرجو بلوغ غاية فإذا هو في ظلمات لا يهتدي معها طريقاً .

فوجه الشبه هو ما حف بأعمالهم من ضلال الكفر الحائل دون حصول مبتغاهم .

ويرجح هذا الوجه تذييل التمثيل بقوله : ﴿ ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور ﴾ .

وعلى الوجهين فقوله : ﴿ كظلمات ﴾ عطف على ﴿ كسراب ﴾ [النور : 39]

والتقدير : والذين كفروا أعمالهم كظلمات .

وهذا التمثيل من قبيل تشبيه حالة معقولة بحالة محسوسة كما يقال : شاهدتُ سواد الكفر في وجه فلان .

والظلمات : الظلمة الشديدة .

والجمع مستعمل في لازم الكثرة وهو الشدة ، فالجمع كناية لأن شدة الظلمة يحصل من تظاهر عدة ظلمات .

ألا ترى أن ظلمة بين العشاءين أشد من ظلمة عقب الغروب وظلمة العشاء أشد مما قبلها .

وقد ذكرنا فيما مضى أن لفظ ظلمة بالإفراد لم يرد في القرآن انظر أول سورة الأنعام .

ومعنى كونها ﴿ في بحر ﴾ أنها انطبع سوادها على ماء بحر فصار كأنها في البحر كقوله تعالى : ﴿ أو كصيب من السماء فيه ظلمات ﴾ وقد تقدم في سورة البقرة (19) إذ جعل الظلمات في الصيب .

واللجِّيّ منسوب إلى اللجة ، واللج هو معظم البحر ، أي في بحر عميق ، فالنسب مستعمل في التمكن من الوصف كقول أبي النجم :

والدهر بالإنسان دوّاريّ .

أي دوّار ، وكقولهم : رجل مشركي ورجل غلاّبي ، أي قوي الشرك وكثير الغلب .

والموج : اسم جمع موجة والموجة : مقدار يتصاعد من ماء البحر أو النهر عن سطح مائه بسبب اضطراب في سطحه بهبوب ريح من جانبه يدفعه إلى الشاطىء .

وأصله مصدر : ماج البحر ، أي اضطرب وسمي به ما ينشأ عنه .

ومعنى : ﴿ من فوقه موج ﴾ أن الموج لا يتكسر حتى يلحقه موج آخر من فوقه وذلك أبقى لظلمته .

والسحاب تقدم في سورة الرعد (12) .

والسحاب يزيد الظلمة إظلاماً لأنه يحجب ضوء النجم والهلال .

وقوله : ﴿ ظلمات بعضها فوق بعض ﴾ استئناف .

والتقدير : هي ظلمات والمراد بالظلمات التي هنا غير المراد بقوله : ﴿ أو كظلمات ﴾ لأن الجمع هنا جمع أنواع وهنالك جمع أفراد من نوع واحد .

وقرأ الجمهور : ﴿ سحاب ظلمات ﴾ بالتنوين فيهما .

وقرأ البزي عن ابن كثير ﴿ من فوقه سحاب ظلمات ﴾ بترك التنوين في ﴿ سحاب ﴾ وبإضافته إلى ﴿ ظلمات ﴾ .

وقرأه قنبل عن ابن كثير برفع ﴿ سحاب ﴾ منوناً وبجر ﴿ ظلمات ﴾ على البدل من قوله : ﴿ أو كظلمات ﴾ .

وقوله : ﴿ لم يكد يراها ﴾ هو من قبيل قوله ﴿ فذبحوها وما كادوا يفعلون ﴾ [البقرة : 71] وقد تقدم وجه هذا الاستعمال في سورة البقرة وما فيه من قصة بيت ذي الرمة .

وجملة : ﴿ ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور ﴾ تذييل للتمثيل ، أي هم باءوا بالخيبة فيما ابتغوا مما عملوا وقد حفهم الضلال الشديد فيما عملوا حتى عدموا فائدته لأن الله لم يخلق في قلوبهم الهدى حين لم يوفقهم إلى الإيمان ، أي أن الله جبلهم غير قابلين للهدى فلم يجعل لهم قبوله في قلوبهم فلا يحل بها شيء من الهدى .

وفيه تنبيه على أن الله تعالى متصرف بالإعطاء والمنع على حسب إرادته وحكمته وما سبق من نظام تدبيره .

(203/550)

وهذا التمثيل صالح لاعتبار التفريق في تشبيه أجزاء الهيئة المشبهة بأجزاء الهيئة المشبه بها ؛ فالضلالات تشبه الظلمات ، والأعمال التي اقتحمها الكافر لقصد التقرب بها تشبه البحر ، وما يخالط أعماله الحسنة من الأعمال الباطلة كالبحيرة ، والسائبة يشبه الموج في تخليطه العمل الحسن وتخلله فيه وهو الموج الأول .

وما يرد على ذلك من أعمال الكفر كالذبح للأصنام يشبه الموج الغامر الآتي على جميع ذلك بالتخلل والإفساد وهو الموج الثاني ، وما يحف اعتقاده من الحيرة في تمييز الحسن من العبث ومن القبيح يشبه السحاب الذي يغشى ما بقي في السماء من بصيص أنوار النجوم ، وتطلّبُه الانتفاع من عمله يشبه إخراج الماخر يده لإصلاح أمر سفينته أو تناول ما يحتاجه فلا يرى يده بله الشيء الذي يريد تناوله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 18 صـ ﴾

(204/550)

وقال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ والذين كفروا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظمآن مَآءً حتى إِذَا جَآءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً ﴾ .

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أن أعمال الكفار باطلة ، وأنها لا شيء ، لأنه قال في السراب الذي مثلها به : ﴿ حتى إِذَا جَآءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً ﴾ ، وما دلت عليه هذه الآية الكريمة من بطلان أعمال الكفار ، جاء موضحاً في آيات أخر ، كقوله تعالى : ﴿ مَّثَلُ الذين كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشتدت بِهِ الريح فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لاَّ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ على شَيْءٍ ﴾ [إبراهيم : 18] الآية . وقوله تعالى : ﴿ وَقَدِمْنَآ إلى مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَآءً مَّنثُوراً ﴾ [الفرقان : 23] إلى غير ذلك من الآيات .

وقد قدمنا أن عمل الكافر إذا كان على الوجه الصحيح أنه يُجزى به في الدنيا كما أوضحناه في سورة النحل ، في الكلام على قوله تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أنثى وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ [النحل : 97] الآية .

(205/550)

وقد دلت آيات من كتاب الله على انتفاع الكافر بعمله في الدنيا ، دون الآخرة كقوله تعالى : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخرة نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدنيا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخرة مِن نَّصِيبٍ ﴾ [الشورة : 20] وقوله تعالى : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الحياة الدنيا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ أولئك الذين لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخرة إِلاَّ

النار وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [هود : 1516] وهذا الذي دلت عليه هذه الآيات من انتفاع الكافر بعمله الصالح في الدنيا ، دون الآخر ثبت في صحيح مسلم وغيره من حديث أنس رضي الله عنه كما أوضحناه في الكلام على آية النحل المذكورة ، وهو أحد التفسرين في قوله تعالى : ﴿ وَوَجَدَ اللهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ﴾ الآية أي وفاه حسابه في الدنيا على هذا القول ، وقد بيّن الله جل وعلا في سورة بني إسرائيل أن ما دلت عليه الآيات من انتفاع الكافر بعمله الصالح في الدنيا ، أنه مقيّد بمشيئة الله تعالى ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ العاجلة عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُوماً مَّدْحُوراً ﴾ [الإسراء : 18]

تنبيه

في هذه الآية الكريمة سؤال ذكرناه وذكرنا الجواب عنه في كتابنا ، دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب ، وذلك في قولنا فيه : لا يخفى ما يسبق إلى الذهن من أنّ الضمير في قوله : جاءه يدل على شيء موجود واقع عليه المجيء ، لأن وقوع المجيء على العدم لا يُعقل وقوع المجيء بالفعل ، إلا بإدراك فاعل واقع منه المجيء ، ومفعول به واقع عليه المجيء . وقوله تعالى : يدل على عدم وجود شيء يقع عليه المجيء في قوله تعالى : ﴿ جَآءَهُ ﴾

والجواب عن هذا من وجهين ذكرهما ابن جرير في تفسير هذه الآية الكريمة .

قال فإن قال قائل كيف قيل : ﴿ حتى إِذَا جَآءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً ﴾ فإن لم يكن السراب شيئاً فعلام دخلت الهاء في قوله : ﴿ حتى إِذَا جَآءَهُ ﴾ ، قيل إنه شيء يُرى من بعيد كالضباب الذي يُرى كثيفاً من بعيد ، فإذا قرب منه رقّ وصار كالهواء ، وقد يُحتمل أن يكون معناه حتى إذا جاء موضع السراب لم يجد السراب شيئاً فاكتفى بذكر السراب عن ذكر موضعه انتهى منه .

والوجه الأول أظهر عندي ، وعنده ، بدليل قوله : وقد يحتمل أن يكون معناه إلخ . انتهى كلامنا في دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب ، وقد رأيت فيه جواب ابن جرير الطبري عن السؤال المذكور ، وقوله تعالى في هذه الآية : ﴿ بِقِيعَةٍ ﴾ قيل جماع قاع كجار وجيرة . وقيل : القيعة والقاع بمعنى ، وهو المنبسط المستوى المتسع من الأرض ، وعلى هذا فالقاع واحد القيعان كجار وجيران . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 5 صـ ﴾

(207/550)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً ﴾

الحق تبارك وتعالى يريد أنْ يلفت أنظار مَنْ شغلتهم الدنيا بحركتها ونشاطها عن المراد بالآخرة ، فيصنعون صنائع معروفٍ كثيرة ، لكن لمْ يُخلصوا فيها النية لله ، والأصل في عمل الخير أن يكون من الله ولله ، وسوف يُواجَه هؤلاء بهذه الحقيقة فيقال لأحدهم كما جاء في الحديث : " عملت ليقال وقد قيل " .

لقد مدحوك وأثنَواْ عليك ، وأقاموا لك التماثيل وخَلَّدوا ذِكْراك ؛ لذلك رسم لهم القرآن هذه الصورة : ﴿ والذين كفروا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظمآن مَآءً حتى إِذَا جَآءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً ﴾ [النور : 39] .

﴿ أَعْمَالُهُمْ ﴾ [النور : 39] أي : التي يظنونها خيراً ، وينتظرون ثوابها ، والسراب : ما يظهر في الصحراء وقت الظهيرة كأنه ماء وليس كذلك . وهذه الظاهرة نتيجة انكسار الضوء ، و " قِيعة " : جمع قاع وهي الأرض المستوية مثل جار وجيرة .

وأسند الفعل ﴿ يَحْسَبُهُ ﴾ [النور : 39] إلى الظمآن ؛ لأنه حاجة للماء ، وربما لو لم يكُنْ ضمآناً لما التفتَ إلى هذه الظاهرة ، فلظمئه يجري خلف الماء ، لكنه لا يجد شيئاً ، وليت الأمر ينتهي عند خيبة المسعى إنما ﴿ وَوَجَدَ الله عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ﴾ [النور : 39] فُوجىء بإله لم يكُنْ على باله حينما فعل الخير ، إله لم يؤمن به ، والآن فقط يتنبه ،

ويصحو من غَفْلته ، ويُفَاجأ بضياع عمله .

إذن : تجتمع عليه مصيبتان : مصيبة الظمأ الذي لم يجد له رِياً ، ومصيبة العذاب الذي ينتظره ، كما قال الشاعر :

كَما أبرقَتْ قَوْماً عِطَاشاً غَمَامَةٌ . . . فَلمَّا رأوْهَا أَقْشَعَتْ وتَجلَّتِ

(208/550)

وسبق أن ضربنا مثلاً لهذه المسألة بالسجين الذي بلغ منه العطش مبلغاً ، فطلب الماء ، فأتاه الحارس به حتى إذا جعله عند فيه واستشرف المسكين للارتواء أراق الحارسُ الكوبَ ، ويُسمُّون ذلك : يأْسٌ بعد إطْماع .

لذلك الحق تبارك وتعالى يعطينا في الكون أمثلة تُزهِّد الناس في العمل للناس من أجل الناس ، فالعمل للناس لا بُدَّ أن يكون من أجل الله . وفي الواقع تصادف مَنْ ينكر الجميل ويتنكر لك بعد أنْ أحسنْتَ إليه ، وما ذلك إلا لأنك عملتَ من أجله ، فوجدت الجزاء العادل لتتأدب بعدها ولا تعمل من أجل الناس ، ولو فعلتَ ما فعلتَ من أجل الله لوجدتَ الجزاء والثواب من الله قبل أنْ تنتهي من مباشرة هذ الفعل .

وفي موضع آخر يُشبِّه الحق سبحانه الذي ينفق ماله رياء الناس بالحجر الأملس الذي لا

ينتفع بالماء ، فلا ينبت شيئاً : ﴿ كالذي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَآءَ الناس وَلاَ يُؤْمِنُ بالله واليوم الآخر فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً لاَّ يَقْدِرُونَ على شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ والله لاَ يَهْدِي القوم الكافرين ﴾ [البقرة : 264] .

وقوله تعالى : ﴿ والله سَرِيعُ الحساب ﴾ [النور : 39] فإياك أنْ تستبعد الموت أو البعث ، فالزمن بعد الموت وإلى أن تقوم الساعة زمنٌ لا يُحسَب لأنه يمرُّ عليك دون أن تشعر به ، كما قال سبحانه : ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يلبثوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴾ [النازعات : 46] .

والله تعالى أخفى الموت أسباباً وميعاداً ؛ لأن الإبهام قد يكون غاية البيان ، وبإبهام الموت تظل ذاكراً له عاملاً للآخرة ؛ لأنك تتوقعه في أي لحظة ، فهو دائماً على بالك ، ومَنْ يدريك لعلَّك إنْ خفضْتَ طرْفك لا ترفعه ، وعلى هذا فالحساب قريب وسريع ؛ لذلك قالوا : مَنْ مات فقد قامت قيامته .

(209/550)

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ ﴾

هذا مَثَل آخر توضيحي لأعمال الذين كفروا ، والبحر اللجي : الواسع الكبير الذي تتلاطم

فيه الأمواج ، بعضها فوق بعض ، وفوق هذا كله سحاب إذن : فالظلام مُطبق ؛ لأنه طبقات متتالية ، وفي أعماق بعيدة ، وقد بلغتْ هذه الظلمة حداً لا يرى الإنسان معها حتى يده التي هي جزء منه ، فما بالك بالأشياء الأخرى ؟

وقوله : ﴿ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ﴾ [النور : 40] أي : لم يقرب من أنْ يراها ، وإذا نفى القُرْب من أن يرى فقد نفى الرؤية من باب أَوْلَى ؛ ذلك لأنه ليس له نور من الله يرى به ويهتدي ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُورٍ ﴾ [النور : 40] فكما أنه لم ينتفع بالنور ، ولم يَرَ حتى يده ، كذلك لا ينتفع بشيء من عمله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(210/550)

فائدة

قال ابن القيم :

قوله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً ﴾

ذكر سبحانه للكافرين مثلين مثلا بالسراب ومثلا بالظلمات المتراكمة وذلك لأن المعرضين عن الهدى والحق نوعان أحدهما من يظن انه على شيء فيتبين له عند انكشاف الحقائق خلاف ما كان يظنه وهذه حال أهل الجهل وأهل البدع والأهواء الذين يظنون أنهم على

هدى وعلم فإذا انكشفت الحقائق تبين لهم أنهم لم يكونوا على شيء وأن عقائدهم وأعمالهم التي ترتبت عليها كانت كسراب بقيعة يرى في عين الناظر ماء ولا حقيقة له وهكذا الأعمال التي لغير الله وعلى غير أمره يحسبها العامل نافعة له وليست كذلك وهذه هي الأعمال التي قال الله عز وجل فيها وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا وتأمل جعل الله سبحانه السراب بالقيعة وهي الأرض القفر الخالية من البناء والشجر والنبات والعالم فمحل السراب أرض قفر لا شيء بها والسراب لا حقيقة له وذلك مطابق لأعمالهم وقلوبهم التي أقفرت من الإيمان والهدى وتأمل ما تحت قوله يحسبه الظمآن والظمآن الذي قد اشتد عطشه فرأى السراب فظنه ماء فتبعه فلم يجده شيئا بل خانه أحوج ما كان إليه فكذلك هؤلاء لما كانت أعمالهم على غير طاعة الرسول ولغير الله جعلت كالسراب فرفعت لهم أظمأ ما كانوا وأحوج ما كانوا إليها فلم يجدوا شيئا ووجدوا الله سبحانه ثم فجازاهم بأعمالهم ووفاهم حسابهم

(211/550)

وفي الصحيح من حديث أبي سعيد الخدري عن النبي ص - في حديث التجلي يوم القيامة ثم يؤتى بجهنم تعرض كأنها السراب فيقال لليهود ما كنتم تعبدون فيقولون كنا نعبد عزير ابن

الله فيقال كذبتم لم يكن لله صاحبة ولا ولد فما تريدون قالوا نريد أن تسقينا فيقال اشربوا فيتساقطون في جهنم ثم يقال للنصارى ما كنتم تعبدون فيقولون كنا نعبد المسيح ابن الله فيقال لهم كذبتم لم يكن لله صاحبة ولا ولد فما تريدون فيقولون نريد أن تسقينا فيقال لهم اشربوا فيتساقطون وذكر الحديث وهذه حال كل صاحب باطل فإنه يخونه باطله أحوج ما كان إليه فإن الباطل لا حقيقة له وهو كاسمه باطل فإذا كان الاعتقاد غير مطابق ولا حق كان متعلقه باطلا وكذلك إذا كانت غاية العمل باطلة كالعمل لغير الله أو على غير أمره بطل العمل ببطلان غايته وتضرر عامله ببطلانه وبحصول ضد ما كان يؤمله فلم يذهب عليه عمله واعتقاده لا له ولا عليه بل صار معذبا بفوات نفعه وبحصول ضد النفع فلهذا قال تعالى ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب فهذا مثل الضال الذي يحسب أنه على هدى

فصل

(212/550)

النوع الثاني أصحاب مثل الظلمات المتراكمة وهم الذين عرفوا الحق والهدى وآثروا عليه ظلمات الباطل والضلال فتراكمت عليهم ظلمة الطبع وظلمة النفوس وظلمة الجهل حيث لم

يعملوا بعلمهم فصاروا جاهلين وظلمة اتباع الغنى والهوى فحالهم كحال من كان في بحر لجي لا ساحل له وقد غشيه موج ومن فوق ذلك الموج موج ومن فوقه سحاب مظلم فهو في ظلمة البحر وظلمة الموج وظلمة السحاب وهذا نظير ما هو فيه من الظلمات التي لم يخرجه الله منها إلى نور الإيمان وهذان المثلان بالسراب الذي ظنه مادة الحياة وهو الماء والظلمات المضادة للنور نظير المثلين الذين ضربهما الله للمنافقين والمؤمنين وهو المثل المائي والمثل الناري وجعل حظ المؤمنين منهما الحياة والإشراق وحظ المنافقين منهما الظلمة المضادة للنور والموت المضاد للحياة فكذلك الكفار في هذين المثلين حظهم من الماء السراب الذي يغر الناظر ولا حقيقة له وحظهم الظلمات المتراكمة وهذا يجوز أن يكون المراد به حال كل طائفة من طوائف الكفار وأنهم عدموا مادة الحياة والإضاءة بإعراضهم عن الوحي فيكون المثلان صفتين لموصوف واحد ويجوز أن يكون المراد به تنويع أحوال الكفار وأن أصحاب المثل الأول هم الذين عملوا على غير علم ولا بصيرة بل على جهل وحسن ظن بالأسلاف فكانوا يحسبون أنهم يحسنون صنعا وأصحاب المثل الثاني هم الذين استحبوا الضلالة على الهدى وآثروا الباطل على الحق وعموا عنه بعد أن أبصروه وجحدوه بعد أن عرفوه فهذا حال المغضوب عليهم والأول حال الضالين وحال الطائفتين مخالف لحال المنعم عليهم المذكورين في قوله تعالى الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح إلى قوله ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب

فتضمنت الآيات أوصاف الفرق الثلاثة المنعم عليهم وهم أهل النور

والضالين هم أصحاب السراب والمغضوب عليهم وهم أهل الظلمات المتراكمة والله أعلم

(213/550)

فالمثل الأول من المثلين لأصحاب العمل الباطل الذي لا ينفع والمثل الثاني لأصحاب العلم الذي لا ينفع والاعتقادات الباطلة وكلاهما مضاد للهدى ودين الحق ولهذا مثل حال الفريق الثاني في تلاطم أمواج الشكوك والشبهات والعلوم الفاسدة في قلوبهم بتلاطم أمواج البحر فيه وأنها أمواج متراكمة من فوقها سحاب مظلم وهكذا أمواج الشكوك والشبه في قلوبهم المظلمة التي قد تراكمت عليها سحب الغي والهوى والباطل فليتدبر اللبيب أحوال الفريقين وليطابق بينهما وبين المثلين يعرف عظمة القرآن وجلالته وأنه تنزيل من حكيم حميد

وأخبر سبحانه أن الموجب لذلك أنه لم يجعل لهم نورا بل تركهم في على الظلمة التي خلقوا فيها فلم يخرجهم منها إلى النور فإنه سبحانه ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور

وفي المسند من حديث عبد الله بن عمر أن النبي ص – قال إن الله خلق خلقه في ظلمة وألقى عليهم من نوره فمن أصابه من ذلك النور اهتدى ومن أخطأه ضل فلذلك أقول جف القلم على علم الله فالله سبحانه خلق الخلق في ظلمة فمن أراد هدايته جعل له نورا وجوديا

يحي به قلبه وروحه كما يحي بدنه بالروح التي ينفخها فيه فهما حياتان حياة البدن بالروح وحياة الروح والقلب بالنور ولهذا سمى سبحانه الوحي روحا لتوقف الحياة الحقيقية عليه كما قال تعالى ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده وقال يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده وقال تعالى وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا فجعل وحيه روحا ونورا فمن لم يحيه بهذا الروح فهو ميت ومن لم يجعل له نورا منه فهو في الظلمات ما له من نور

أهـ ﴿ أعلام الموقعين حـ 1 صـ 155.158 ﴾

(214/550)

فائدة

قال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى: ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا ﴾

لا يخفى ما يسبق إلى الذهن فيه من أن الضمير في قوله جاءه يدل على شيء موجود واقع عليه المجيء ؛ لأن وقوع المجيء على العدم لا يعقل ، ومعلوم أن الصفة الإضافية لا تقوم إلا

ين متضائفين فلا تدرك إلا بادراكهما ، فلا يعقل وقوع المجيء بالفعل إلا بإدراك فاعل واقع منه المجيء ومفعول به واقع عليه المجيء وقوله تعالى ﴿ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا ﴾ يدل على عدم وجود شيء يقع عليه المجيء في قوله تعالى: ﴿ جَاءَهُ ﴾ والجواب عن هذا من وجهين ذكرهما ابن جرير في تفسير هذه الآية ؛ قال: فإن قال قائل: وكيف قيل ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا ﴾ فإن لم يكن السراب شيئاً فعلام دخلت الهاء في قوله ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَهُ ؟ . ﴾ قيل إنه شيء يُرى من بعيد كالضباب الذي يرى كثيفاً من بعيد والهباء ، فإذا قرب منه دق وصار كالهواء وقد يحتمل أن يكون معناه حتى إذا جاء موضع السراب لم يجد السراب شيئاً فاكتفى بذكر السراب عن ذكر موضعه انتهى منه بلفظه .

والوجه الأول أظهر عندي وعنده بدليل قوله: وقد يحتمل أن يكون معناه الخ . . . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ دفع إيهام الاضطراب صـ 219 . 220 ﴾

(215/550)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً ﴾

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ والذين كفروا أعمالهم كسراب ﴾ الآية. قال: هو مثل ضربه الله لرجل عطش، فاشتد عطشه، فرأى سراباً، فحسبه ماء، فظن أنه قدر عليه حتى أتى، فلما أتاه لم يجده شيئاً وقبض عند ذلك يقول الكافر: كذلك أن عمله يغني عنه أو نافعه شيئاً. ولا يكون على شيء حتى يأتيه الموت، فأتاه الموت لم يجد عمله أغنى عنه شيئاً، ولم ينفعه إلا كما يقع العطشان المشتد إلى السراب ﴿ أو كظلمات في بحر لجي ﴾ قال: يعني بالظلمات: الأعمال. وبالبحر اللجي: قلب الإنسان. ﴿ يغشاه موج ﴾ يعني بذلك الغشاوة التي على القلب، والسمع والبصر.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ كسراب بقيعة ﴾ يقول: أرض مستوية.

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله ﴿ كسراب بقيعة ﴾ قال: بقاع من الأرض، والسراب عمل الكافر ﴿ حتى إذا جاءه لم يجِدْهُ شيئاً ﴾ واتيانه إياه. موته وفراقه الدنيا ﴿ ووجد الله عنده ﴾ ووجد الله عند فراقه الدنيا ﴿ فوفاه حسابه ﴾.

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير عن قتادة ﴿ كسراب بقيعة ﴾ قال: بقيعة من الأرض.

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق السدي عن أبيه عن أصحاب

محمد صلى الله عليه وسلم قال : " إن الكفار يبعثون يوم القيامة رداً عطاشاً فيقولون : أين الماء ؟ فيمثل لهم السراب ، فيحسبونه ماء ، فينطلقون إليه ، فيجدون الله عنده ، فيوفيهم حسابهم . والله سريع الحساب " .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة ﴿ أو كظلمات في بحر لجي ﴾ قال : اللجي : العميق القعر . ﴿ يغشاه موج من فوقه موج . . . ﴾ قال : هذا مثل عمل الكافر في ضلالات ليس له مخرج ولا منفذ . أعمى فيها لا يبصر .

(216/550)

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن قال : ﴿ إذا أخرج يده لم يكد يراها ﴾ قال : أما رأيت الرجل يقول : والله ما رأيتها ، وما كدت أن أراها .

وأخرج ابن المنذر عن أبي امامة أنه قال : أيها الناس إنكم قد أصبحتم وأمسيتم في منزل تقتسمون فيه الحسنات والسيئات ، ويوشك أن تظعنوا منه إلى منزل آخر وهو القبر . بيت الوحدة ، وبيت الظلمة ، وبيت الضيق إلا ما وسع الله ، ثم تنقلون إلى مواطن يوم القيامة ، وإنكم لفي بعض تلك المواطن حين يغشى الناس أمر من أمر الله ، فتبيض وجوه وتسود وجوه ، ثم تنتقلون إلى منزل آخر ، فيغشى الناس ظلمة شديدة ، ثم يقسم النور ، فيعطى

المؤمن نوراً ، ويترك الكافر والمنافق فلا يعطى شيئاً ، وهو المثل الذي ضربه الله في كتابه ﴿ أو كظلمات في بحر لجي ﴾ إلى قوله ﴿ فما له من نور ﴾ فلا يستضيء الكافر والمنافق بنور المؤمن كما لا يستضيء الأعمى ببصر البصير . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 6 صـ ﴾

(217/550)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله : ﴿ بِقِيعَةٍ ﴾ :

فيه وجهان ، أحدُهما : أنَّه متعلقٌ بمحذوفٍ على أنه صفةٌ لسراب . والثاني : أنَّه ظرفٌ . والعاملُ فيه الاستقرارُ العاملُ في كاف التشبيه . والسَّرابُ : ما يتراءى للإنسانِ في القَفْرِ في شِدةِ الحرِّ مِمَّا يُشْبه الماءَ . وقيل : ما يتكاثَفُ في قُعُوْرِ القِيْعان . قال الشاعر :

3449 فلَّما كَفَفْتُ الحربَ كانَتْ عهودُكُمْ . . . كَلَمْعِ سَرابٍ في الفَلا مُتَأَلِّقِ

يُضرب به المَثَلُ لِمَنْ يَظُنُّ بشيءٍ خيراً فَيَخْلُفُ . / وقيل : هو الشُّعاع الذي يَرْمي به نصفُ النهار في شدَّةِ الحَرِّ ، يُخَيَّل للناظرِ أنه الماءُ السارِبُ أي الجاري . والقِيْعَةُ : بمعنى القاعِ .

وهو المُنبَسِطُ من الأرضِ . وقد تقدَّم في طه . وقيل : بل هي جمعُه كجارٍ وجِيْزَة .

وَقرأ مسلمة بن محارب بتاء ممطوطة . وروي عنه بتاءٍ شَكْلِ الهاء ، ويَقف عليها بالهاء .

وفيها أوجهٌ ، أحدها : أَنْ تكونَ بمعنى قِيْعَة كالعامَّةِ ، وإنما أَشْبع الفتحةَ فتولَّد منها أِلفٌ كقولِه : " مُخْرَنْبِقٌ لِيَنْباعَ " قاله صاحب " اللوامح " . والثاني : أنه جمع قِيْعَة ، وإنما وَقَف عليها بالهاء ذهاباً به مَذْهَبَ لغةِ طيِّىء في قولهم : " الإِخْوَةُ والأخواهْ ، ودَفْنُ البناهُ مِنْ المَكْرُماهُ " أي : والأخوات ، والبنات ، والمَكْرُمات . وهذه القراءةُ تؤيِّدُ أنَّ قِيْعَة جمع قاع . الثالث قال الزمخشري : " وقولُ بعضِهم : بقيعاة بتاء مُدَوَّرَة كرجلٍ عِزْهاة " فظاهرُ هذا أنه جعل هذا بناءً مستقلاً ليس جمعاً ولا اتِّساعاً .

(218/550)

وقوله : ﴿ يَحْسَبُهُ الظمآن ﴾ جملةٌ في محل الجرِّ صفةً لسَراب أيضاً . وحَسُن ذلك لتقدُّمِ الجارِّ على الجملةِ . هذا إنْ جَعَلْنا الجارَّ صفةً . والضمائرُ المرفوعةُ في " جاءَه " وفي " لم يَجِدْه " وفي " وَجَد " ، والضمائرُ في " عنده " وفي " وَفَّاه " وفي " حسابه " كلُّها تَرْجِع إلى الظمآن ؛ لأنَّ المرادَ به الكافرُ المذكورُ أولاً . وهذا قول الزمخشري وهو حَسَنٌ . وقيل : بل الضميران في " جاءه " و " وجد " عائدان على الظمآن ، والباقيةُ عائدةٌ على الكافر ، وإنما

أُفْرِدَ الضميرُ على هذا وإنْ تَقَدَّمه جمعُ وهو قولُه : ﴿ والذين كفروا ﴾ حَمْلاً على المعنى ، إذِ المعنى : كلُّ واحدٍ من الكفار . والأول أَوْلى لاتساقِ الضمائرِ .

وقرأ أَبو جعفر ورُوِيَتْ عن نافع " الظَّمان " بإلقاءِ حركةِ الهمزةِ على الميمِ .

قوله : ﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ ﴾ :

فيه : أوجهٌ ، أحدها : أنه نَسَقٌ على "كسَراب" ، على حَذْفِ مضافٍ واحدٍ تقديرُه : أو كذي ظُلُمات . ودَلَّ على هذا المضافِ قولُه : ﴿ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ﴾ فالكنايةُ تعودُ إلى المضافِ المحذوفِ وهو قولُ أبي عليّ . الثاني : أنه على حَذْفِ مضافين تقديرُهما : أو كأعمال ذي ظلمات ، فتُقَدِّر " ذي " ليصِحَّ عَوْدُ الضميرِ إليه في قوله : ﴿ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُ ﴾ ، وتُقَدِّر " أعمال " ليَصِحَّ تشبيهُ أعمالِ الكفارِ بأعمالِ صاحبِ الظُّلْمَةِ ، إذ لا معنى لتشبيهِ العملِ بصاحبِ الظُّلْمةِ . الثالث : أنه لا حاجةَ إلى حَذْفٍ البتة . والمعنى : أنه شَبَّه أعمالَ الكفارَ في حَيْلولتِها بين القلبِ وما يَهْتدي به بالظُّلْمة . وأمَّا الضميران في " أَخْرِج يَده " فيعودان على محذوفٍ دَلَّ عليه المعنى أي : إذا أخرج يَدَه مَنْ فيها .

و " أو " هنا للتنويعِ لا للشَّكِّ . وقيل : بل هي للتخييرِ أي : شَبِّهوا أعمالَهم بهذا أو بهذا .

(219/550)

وقرأ سفيان بن حسين "أوَ كظُلُمات" بفتح الواو، جَعَلها عاطفةً دَخَلَتْ عليها همزةُ الاستفهام الذي معناه التقريرُ. وقد تَقدَّم ذلك في قولِه: ﴿ أَوَأَمِنَ أَهْلُ القرى ﴾ [الأعراف: 98].

قوله: ﴿ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ ﴾: "في بحرٍ" صفةٌ لظلمات فيتعلَّقُ بمحذوفٍ. واللُّجِّيُّ منسوبٌ إلى اللُّجِّ وهو معظمُ البحرِ. كذا قال الزمخشري. وقال غيرُه: منسوبٌ إلى اللُّجَّة بالتاء وهي أيضاً مُعْظمه، فاللجِّيُّ هو العميقُ الكثيرُ الماءِ.

قوله: ﴿ يَغْشَاهُ مَوْجٌ ﴾ صفةٌ أخرى ل "بَحْرٍ" هذا إذا أَعَدْنا الضميرَ في "يَغْشاه" على "بحرٍ" وهو الظاهر. وإنْ قدَّرنا مضافاً محذوفاً أي: أو كذي ظُلُمات كما فَعَل بعضُهم كان الضميرُ في "يَغْشاه" عائداً عليه، وكانت الجملةُ حالاً منه لتخصُّصِه بالإضافة، أو صفةً له.

قوله: ﴿ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ ﴾ يجوزُ أَنْ تكونَ هذه جملةً مِنْ مبتدأ وخبر، صفةً ل "موجٌ" الأول. ويجوزُ أن يُجْعَلَ الوصفُ الجارَّ والمجرورَ فقط و "مَوْجٌ" فاعلٌ به لاعتمادِه على الموصوفِ.

قوله: ﴿ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ﴾ فيه الوجهان المذكوران قبلَه: من كونِ الجملةِ صفةً ل "موج" الثاني، أو الجارِّ فقط.

قوله: ﴿ ظُلُمَاتٌ ﴾ قرأ العامَّةُ بالرفع وفيه وجهان، أجودُهما: أن يكونَ خبرَ مبتدأ

مضمرٍ تقديرُه : هذه ، أو تلك ظلمات . الثاني : أَنْ يكونَ " ظُلُمات " مبتدأً . والجملةُ من قولِه " بعضُها فوقَ بعض " خبرُه . ذكره الحوفي . وفيه نظرٌ لأَنَّه لا مُسَوِّغ للابتداء بهذه النكرةِ ، اللَّهم إلاَّ أَنْ يُقالَ : إنها موصوفةً تقديراً ، أي : ظلماتٌ كثيرةٌ متكاثفةٌ كقولهم : " السَّمْنُ مَنَوَانِ بدرهم " .

وقرأ ابن كثير " ظلماتٍ " بالجرِّ إلاَّ أنَّ البزيَّ روى عنه حينئذٍ حَذْفَ التنوينِ من " سَحاب " ، فقرأ البزي عنه " سحابُ ظلماتٍ " بإضافة " سَحابُ " ل " ظلمات " .

(220/550)

وروى قنبل عنه التنوينَ في " سَحابٌ " كالجماعة مع جرِّه ل " ظُلُماتٍ " . فأمَّا روايةُ البزي فقال أبو البقاء : / " جَعَلَ الموجَ المتراكمَ بمنزلةِ السحابِ " ، وأمَّا روايةُ قنبل فإنه جَعَلَ " ظلماتٍ " بدلاً مِنْ " ظلماتٍ " الأولى .

قوله : ﴿ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ﴾ جملةٌ مِنْ مبتدأ وخبرٍ في موضعِ رفعٍ أو خبرٍ على حَسَبِ القراءتين في " ظلمات " قبلَها لأنها صفةٌ لها . وجَوَّز الحوفيُّ على قراءةِ رفع " ظلماتٌ " في " بعضُها " أن يكونَ بدلاً من " ظلمات " . ورُدَّ عليه من حيث المعنى ؛ إذ المعنى على الإخبارِ بأنها ظلماتٌ ، وأنَّ بعضَ تلك الظلماتِ فوق بعضٍ وصفاً لها بالتراكم ، لا أنَّ المعنى

: أن بعضَ تلك الظلماتِ فوقَ بعضٍ ، من غيرِ إخبارٍ بأن تلك الظلماتِ السابقةَ ظلماتٌ متراكمةٌ . وفيه نظرٌ ؛ إذ لا فرقَ بين قولِك " بعضُ الظلماتِ فوقَ بعض " ، وبين قولك " الظلماتُ بعضُها فوقَ بعضٍ " وإنْ تُخيِّل ذلك في بادِىءِ الرَّأْيِ .

وقد تقدَّم الكلامُ في "كاد " ، وأن بعضَهم زَعَم أنَّ نَفْيَها إثباتٌ وإثباتَها نفيٌ . وتَقَدَّمَتْ أدلةُ ذلك في البقرة فأَغْنى عن إعادتِه . وقال الزمخشري هنا : " لم يَكَدْ يَراها مبالغةٌ في لم يرها أي : لم يَقْرُبْ أَنْ يَراها فضلاً أنْ يَراها . ومنه قولُ ذي الرمة :

3450 إذا غَيَّر النَّأْيُ المُحِبِّيْنَ لم يَكَدْ . . . رَسِيْسُ الهوى مِنْ حُبِّ مَيَّةَ يَبْرَحُ

(221/550)

أي : لم يَقْرُبْ مِنْ البَراح فما بالُه يَبْرَحُ " . وقال أبو البقاء : " أختلف الناسُ في تأويلِ هذا الكلامِ . ومَنْشَأُ الاختلافِ فيه : أنَّ موضوعَ "كاد " إذا نُفِيَتْ : وقوعُ الفعلِ . وأكثرُ المفسِّرين على أن المعنى : أنَّه لا يرى يدَه ، فعلى هذا : في التقديرِ ثلاثةُ أوجهٍ ، أحدُها : أنَّ التقديرَ : لم يَرَها ولم يَكَدْ ، ذَكَرَه جماعةٌ من النحويين . وهذا خطأٌ ؛ لأنَّ قولَه " لم يَرَها " جزمٌ بنفيِ الرؤيةِ وقوله : " لم يَكَدْ " إذا أخرجها على مقتضى البابِ كان التقديرُ : ولم يكَدْ يَراها كما هو مُصَرَّحٌ به في الآية . فإنْ أراد هذا القائلُ أنَّه لم يَكَدْ يراها ، وأنه رآها بعد جُهْدٍ ،

تناقَضَ ؛ لأنه نفى الرؤية ثم أَثْبَتها ، وإنْ كان معنى " لم يكَدْ يَراها " : لم يَرَها البتةَ على خلافِ الأكثرِ في هذا الباب ، فينبغي أَنْ يُحْمَلَ عليه مِنْ غير أَنْ يُقَدّرَ لم يَرَها . والوجه الثاني : أنَّ " كاد " زائدةٌ وهو بعيدٌ . والثالث : أنَّ " كاد " أُخْرِجَتْ ههنا على معنى " قارب " والمعنى : لم يقارِبْ رؤيتَها ، وإذا لم يقارِبْها باعَدَها .

وعليه جاء قولُ ذي الرمة :

إذا غَيَّر النَّأْيُ . . . . . .

. . . . . .

البيت . أي : لم يقارِبِ البَراحَ . ومِنْ هنا حُكي عن ذي الرمة أنه لَمَّا رُوْجِع في هذا البيت قال : لم أجدْ بدل " لم يَكَدْ " . والمعنى الثاني : أَنَّه رآها بعد جُهْدٍ . والتشبيهُ على هذا صحيحٌ لأَنَّه مع شدَّةِ الظُّلْمة إذا أَحَدَّ نظرَه إلى يدِه وقرَّبها مِنْ عَيْنِه رآها " انتهى .

أمَّا الوجهُ الأولُ وهو ما ذكره أنه قولُ الأكثرِ : مِنْ أَنَّه يكونَ إثباتاً ، فقد تقدَّم أنه غيرُ صحيحٍ وليس هو قولَ الأكثرِ ، وإنما غرَّهم في ذلك آيةُ البقرة . وما أَنْشَدْناه عن بعضِهم لُغْزاً وهو :

3451 أَنْحَوِيَّ هذا العصرِ ما هي لفظَةٌ . . . . . .

. . . . . .

البيتين . وأمَّا [ما] ذكره مِنْ زيادةِ "كاد " فهو قولُ أبي بكرٍ وغيرِه ، ولكنه مردودٌ عندَهم . وأمَّا ما ذكره من المعنى الثاني : وهو أنه رآها بعد جُهْدٍ فهو مذهبُ الفراء والمبرد . والعجبُ كيف يَعْدِلُ عن المعنى الذي أشار إليه الزمخشريُّ وهو المبالغةُ في نفي الرؤية ؟ وقال ابنُ عطية ما معناه : " إذا كان الفعلُ بعد "كاد " منفياً دَلَّ على ثبوتِه نحو : كاد زيدٌ لا يقوم ، أو مُثْبَتاً دَلَّ على نفيه نحو : "كاد زيد يقوم " وإذا تقدَّم النفيُ على "كاد " احتمل أن يكونَ مُوْجَباً ، وأَنْ يكونَ منفياً . تقول : " المفلوج لا يَكاد يَسْكُن " فهذا يتضمَّن نَفْيَ السكونِ . وتقول : رجل منصرف لا يكاد يَسْكُن ، فهذا تضمَّن إيجابَ السكونِ بعد جُهْد " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 411.418 ﴾

(223/550)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا

وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (39) ﴾

وقال تعالى : ﴿ وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً ﴾ [الكهف : 104] وقال : ﴿ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ ﴾ [المجادلة : 18] ومَنْ أَمَّل السرابَ شراباً فلا يلبث إلا قليلاً حتى يعلمَ أنَّه كان تخييلاً ؛ فالعَطَشُ يزداد ، والروح تدعو للخروج .

﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ﴾

ظلماتُ الحسبان ، وغيومُ التفرقة ، وليالي الجُحْدِ ، وحنادسُ لاشكّ إذا اجتمعت فلا سِراجَ لصاحبها ولا نجوم ، ولا أقمارَ ولا شموسَ . . . . فالويلُ ثم الويل ! .

قوله : ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا مِن نُّورٍ ﴾ : إذا لم يسبق لعبدٍ نورُ القسمة ، ولم يساعده تَعَلُّقٌ فجهدُه وكدُّه ، وسَعْيُه وجِدُّه عقيمٌ من ثمراته ، موئسٌ من نَيْلِ بركاته والبدايات غالبةٌ للنهايات ؛ فالقبول لأهْلِه غيرُ مُجَلَّبٍ زالرُّ لأهله غير مُكْتَسَبٍ وسعيدٌ مَن سَعِدْ بالسعادة في عِلْمِه في آزاله ، وأراد كونَ ما عَلِمَ من أفعاله يكون ، وأخبر أن ذلك كذلك يكون ، ثم أجرى ذلك على ما أخبر وأراد وعَلِمَ .

وهكذا القول في الشقاوة ؛ فليس لأفعالها عِلَّةٌ ، ولا تتوجَّهُ عليه لأحدٍ حُجَّةٌ . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 616.615 ﴾

(224/550)

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال الآلوسى :

ومن باب الإشارة : ما قيل إن في قوله تعالى : ﴿ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النور : 2] إشارة إلى أنه ينبغي للشيخ إذا أراد تأديب المريد وكسر نفسه الأمارة أن يؤد به بمحضر طائفة من المريدين الذين لا يحتاجون إلى تأديب .

ومن هنا قال أبو بكر بن طاهر : لا يشهد مواضع التأديب إلا من لا يستحق التأديب وهم طائفة من المؤمنين لا المؤمنون أجمع ، والزنا عندهم إشارة إلى الميل للدنيا وشهواتها ، وفي قوله تعالى : ﴿ الزانى لاَ يَنكِحُ إِلاَّ زَانِيَةً ﴾ [النور : 3] الخ .

وقوله تعالى : ﴿ الخبيثات لِلْخَبِيثِينَ ﴾ [النور : 26] الخ إشارة إلى أنه لا ينبغي للأخيار معاشرة الأشرار ، إن الطيور على أشباهها تقع .

وفي قوله تعالى : ﴿ لاَ تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَّكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ [النور : 11] إشارة إلى أنه لا ينبغي لمن يشنع عليه المنكرون من المشايخ أن يحزن من ذلك ويظنه شراً له فإنه خير له موجب لترقيه .

وفي قوله تعالى : ﴿ وَلاَ يَأْتَلِ أُوْلُواْ الفضل ﴾ [النور : 22] الخ إشارة إلى أنه ينبغي للشيوخ والأكابر أن لا يهجروا أصحاب العثرات وأهل الزلات من المريدين وأن لا يقطعوا إحسانهم وفيوضاتهم عنهم ، وفي قوله تعالى : ﴿ كَرِيمٌ يا أَيُّهَا الذين ءامَنُواْ لاَ تَدْخُلُواْ بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حتى تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلّمُواْ على أَهْلِهَا ﴾ [النور : 27] إشارة إلى أنه لا ينبغي لمن يريد الدخول على الأولياء أن يدخل حتى يجد روح القبول والإذن بإفاضة المدد الروحاني على قلبه المشار إليه بالاستئناس فإنه قد يكون للولي حال لا يليق للداخل أن يحضره فيه وربما يضره ذلك ، وأطرد بعض الصوفية ذلك فيمن يريد الدخول لزيارة قبور الأولياء قدس الله تعالى أسرارهم فقال : ينبغي لمن أراد ذلك أن يقف بالباب على أكمل ما يكون من الأدب ويجمع حواسه ويعتمد بقلبه طالباً الإذن ويجعل شيخه واسطة بينه وبين الولي المزور في ذلك فإن حصل له انشراح صدر ومدد روحاني وفيض باطني فليدخل وإلا فليرجع ، وهذا هو المعنى بأدب الزيارة عندهم ولم نجد ذلك عن أحد من السلف الصالح .

والشيعة عند زيارتهم للأئمة رضي الله تعالى عنهم ينادي أحدهم أأدخل يا أمير المؤمنين أو يا ابن بنت رسول الله عليه الصلاة والسلام أو نحوه ذلك ويزعمون أن علامة الإذن حصول رقة القلب ودمع العين وهو أيضاً مما لم نعرفه عن أحد من السلف ولا ذكره فقهاؤنا وما أظنه إلا بدعة ولا يعد فاعلها إلا مضحكة للعقلاء ، وكون المزور حياً في قبره لا يستدعي

الاستئذان في الدخول لزيارته ، وكذا ما ذكره بعض الفقهاء من أنه ينبغي للزائر التأدب مع المزور كما يتأدب معه حياً كما لا يخفى .

(226/550)

وقد رأيت بعد كتابتي هذه في "الجوهر المنتظم" في زيارة القبر المعظم صلى الله تعالى على صاحبه وسلم لابن حجر المكي ما نصه ، قال بعضهم : وينبغي أن يقف يعني الزائر بالباب وقفة لطيفة كالمستأذن في الدخول على العظماء انتهى .

وفيه أنه لا أصل لذلك ولا حال ولا أدب يقتضيه انتهى .

ومنه يعلم أنه إذا لم يشرع ذلك في زيارة قبره عليه الصلاة والسلام فعدم مشروعيته في زيارة غيره من باب أولى فاحفظ ذاك والله تعالى يعصمنا من البدع وإياك .

وقيل في قوله تعالى : ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أبصارهم ﴾ [النور : 30] الخ إن فيه أمراً بغض بصر النفس عن مشتهيات الدنيا وبصر القلب عن رؤية الأعمال ونعيم الآخرة وبصر السر عن الدرجات والقربات وبصر الروح عن الالتفات إلى ما سوى الله تعالى وبصر الهمة عن أن يرى نفسه أهلاً لشهود الحق تنزيهاً له تعالى وإجلالاً ، وأمراً بحفظ فرج الباطن عن تصرفات الكونين فيه ، والإشارة بأمر النساء بعدم إبداء الزينة إلا لمن استثنى إلى أنه لا

ينبغي لمن تزين بزينة الإسرار أن يظهرها لغير المحارم ومن لم يسترها عن الأجانب .

وبقوله تعالى : ﴿ وَأَنْكِحُواْ الايامى مِنْكُمْ ﴾ الخ إلى النكاح المعنوي وهو أن يودع الشيخ الكامل في رحم القلب من صلب الولاية نطفة استعداد قبول الفيض الإلهي .

(227/550)

وقد أشير إلى هذا الاستعداد بقوله سبحانه : ﴿ إِن يَكُونُواْ فُقَرَاء يُغْنِهِمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ ﴾ [النور : 32] ثم قال جل وعلا : ﴿ وَلْيَسْتَعْفِفِ ﴾ أي ليحفظ ﴿ الذين لاَ يَجِدُونَ ﴾ شيخاً في الحال أرحام قلوبهم عن تصرفات الدنيا والهوى والشيطان ﴿ حتى يُغْنِيَهُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ ﴾ بأن يوفق لهم شيخاً كاملاً أو يخصهم سبحانه بجذبة من جذباته ، وأشير بقوله تعالى : ﴿ والذين يَبْتَغُونَ الكتاب ﴾ الخ إلى أن المريد إذا طلب الخلاص عن قيد الرياضة لزم إجابته إن علم فيه الخير وهو التوحيد والمعرفة والتوكل والرضا والقناعة وصدق العمل والوفاء بالعهد ووجب أن يؤتى بعض المواهب التي خصها الله تعالى بها الشيخ ، وأشير بقوله تعالى : ﴿ وَلاَ تُكْرِهُواْ ﴾ [النور : 33] الخ إلى أن النفس إذا لم تكن مائلة إلى التصرف في الدنيا لم تكره عليه .

ولهم في قوله تعالى : ﴿ اللهُ نُورُ السموات والأرض ﴾ [النور : 35] كلام طويل عريض

وفيما قدمنا ما يصلح أن يكون من هذا الباب ، وذكر أن قوله تعالى : ﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ [النور : 37] مما يدخل في عمومه أهل الطريقة العلية النقشبندية الذين حصل لهم الذكر القلبي ورسخ في قلوبهم بحيث لا يغفلون عنه سبحانه في حال من الأحوال وهذا وإن ثبت لغيرهم أيضاً من أرباب الطرائق فإنما يثبت في النهايات دون المبادىء كما يثبت لأهل تلك الطريقة .

(228/550)

وفي مكتوبات الإمام الرباني قدس سره ما يغني عن الإطالة في شرح أحوال هؤلاء القوم وبيان منزلتهم في الذكر والحضور بين سائر الأقوام حشرنا الله تعالى وإياهم تحت لواء النبي عليه الصلاة والسلام ، وقيل إن قوله تعالى : ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴾ [النور : 40] إشارة لما ورد في حديث " خلق الله تعالى الخلق في ظلمة ثم رش عليهم من نوره فمن أصابه منه اهتدى ومنه أخطأه ضل " والله تعالى الموفق لصالح العمل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعاني حـ 18 صـ ﴾

(229/550)

من الإعجاز العلمى فى القرآن

للدكتور زغلول النجار

بحث بعنوان :

من أسرار القرآن

الإشارات الكونية في القرآن الكريم ومغزي دلالتها العلمية

(53) أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور

بقلم الدكتور : زغلول النجار

هذه الآية القرآنية الكريمة جاءت في أواخر الثلث الثاني من سورة النور , وهي سورة مدنية , وآياتها أربع وستون , وقد سميت بهذا الاسم لورود الإشارة فيها إلي أن الله (تعالي) هو نور السموات والأرض . وأنه (تعالي) هو الذي يهدي لنوره من يشاء , وأن . . . من لم يجعل الله له نورا فما له من نور .

ويدور المحور الرئيسي للسورة حول عدد من التشريعات الإلهية الضابطة لسلوك المسلم في كل من حياته الخاصة والعامة ; والحاكمة للعلاقات في داخل الأسرة المسلمة صونا لحرماتها

.

وتبدأ سورة النور بتأكيد أنها من جوامع سور القرآن الكريم لأن الله (تعالي) فرض فيها علي عباده فرائض ألزمهم بها , وفي مقدمتها تحريم الزنا , وتشريع الحدود الرادعة للواقعين في هذه الجريمة النكراء . . وتبشيعها إلي الناس كافة بقول الحق (تبارك وتعالي) : الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة , والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك , وحرم ذلك علي المؤمنين (النور :3) .

وتنهي السورة الكريمة عن الخوض في أعراض الناس , وتؤكد أن الخائضين في هذا الأمر بغير دليل هم من الفاسقين الذين تجدر بهم العقوبات الرادعة , وتحدد العقوبة المناسبة لهم , وتعتبرهم من الخارجين علي دين الله إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم (النور :5) .

وتشرع سورة النور للملاعنة كوسيلة من وسائل درء الشبهات بين الأزواج ; وتشير إلي فرية الإفك , وتبريء المظلومين من دنسها , وتغلظ

العقوبة للذين افتروها . وتصفه بأنه بهتان عظيم , وتحذر من العودة إلي افتراء مثله أبدا وذلك بقول الحق (تبارك وتعالي : يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا إن كنتم مؤمنين , ويبين الله

لكم الآيات والله عليم حكيم , إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون , ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رؤوف رحيم

(النور :17.20) .

وتحذر سورة النور من اتباع خطوات الشيطان لأنه يأمر بالفحشاء والمنكر ; وتحض السورة الكريمة علي الإنفاق لذي القربي والمساكين والمهاجرين في سبيل الله ; وتنهي عن رمي المحصنات الغافلات المؤمنات , وتغلظ العقوبة علي الوقوع في هذا الجرم بقول الحق (تبارك وتعالي) :

إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم , يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون , يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين . (النور :23.25) , وتضيف السورة الكريمة الدعوة إلي طهارة المجتمعات الإنسانية مؤكدة حكم الحق (تبارك وتعالي) : الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات , والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات , أولئك مبرءون مما يقولون لهم مغفرة ورزق كريم .

(النور :26) .

وتنهي سورة النور عن دخول البيوت دون استئذان وسلام علي أهلها , وتضع الضوابط

الشرعية لدخول البيوت بصفة عامة , وتأمر بغض البصر , وحفظ الفرج , وستر العورات , وبالاحتشام في الملبس والمظهر , وتنهي عن التبرج بزينة , وتضع الضوابط الصحيحة لحجاب المرأة المسلمة , وللزواج , كما تحرم البغاء , واستغلال الجواري للكسب المادي الرخيص من وراء هذه الجريمة المهدرة لكرامة الإنسان وذلك بقسرهن عليها , وإكراههن علي ممارستها .

وتؤكد السورة الكريمة أن الله (تعالي) قد أنزل إلي الناس آيات مبينات

ومثلا من الذين خلوا من قبلهم وموعظة للمتقين , وتؤكد أن الله (تعالي) هو نور السموات والأرض , وأنه (تعالي) هو الذي يهدي لنوره من يشاء : وتضرب مثلا لذلك , ولله المثل الأعلي .

وتدعو سورة النور إلي عتق رقاب الأرقاء ; وإلي بناء المساجد , وإلي القيام علي عمارتها وتطهيرها . . بيوتا لله في الأرض , ومنارات للدعوة إلي دين الله الخاتم , يعبد فيها الله (تعالي) وحده (بغير شريك , ولا شبيه , ولا منازع) ; ويسبح المؤمنون فيها بحمده صباح مساء , لا يشغلهم عن ذلك شيء من ملهيات الدنيا , ومتعتها , وزخارفها . . وذلك

طمعا في مرضاة الله , وتجنبا لسخطه , وتحسبا لأهوال يوم القيامة الذي تتقلب فيه القلوب والأبصار . . . ! ! وتبشر السورة الكريمة أهل المساجد بأن الله (تعالي) سوف يجزيهم . . أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب . (النور :38) .

وفي المقابل تؤكد سورة النور أن الكفار في الآخرة سوف يجدون أعمالهم التي اقترفوها في الدنيا (وهم متصورون أنها أعمال نافعة) وكأنها سراب خادع لا قيمة له , ولا نفع منه ; وسوف يجدون الله (تعالي) حاضرا يوفيهم حسابهم وهو (تعالي) سريع الحساب , وأما أعمالهم السيئة فسوف يجدونها كظلمات متكاثفة يشبهها الله (سبحانه وتعالي) بالظلمات المتراكبة فوق قيعان البحار العميقة , والتي يشارك في إحداثها كل من السحاب , والأمواج السطحية , والأمواج الداخلية والتي لم تكتشف إلا في مطلع القرن العشرين , وتعتبر الإشارة إليها في سورة النور سبقا علميا للقرآن الكريم في زمن لم يكن لأحد من البشر إدراك لوجودها , بل ظلت خافية علي علم الإنسان لمدي ثلاثة عشر قرنا بعد تنزل الوحي بها , والواقف في مثل هذه الظلمات المتكاثفة لا يكاد يري شيئا من حوله ولذلك تقرر الآيات حقيقة كونية واقعة تصفها بقول الحق (تبارك وتعالي) :

. . . ومن لم

يجعل الله له نورا فما له من نور وتأتي الكشوف العلمية في السنوات القليلة الماضية مؤكدة أن كل صور الحياة فوق قيعان البحار العميقة , وكذلك بعض الكائنات الليلية علي سطح الأرض قد زودها الخالق (سبحانه وتعالي) بوسائل إضاءة ذاتية , حتي ينطبق النص القرآني في آخر هذه الآية الكونية علي الواقع المادي المحسوس , كما ينطبق علي المعني الضمني المقصود . . ! ! .

وتؤكد سورة النور أن جميع من في السموات والأرض يسبح لله الذي له ملك كل شئ , وإليه المصير ; وتستشهد علي طلاقة القدرة الإلهية المبدعة بتكوين السحاب الركامي علي هيئة الجبال (وبإنزال كل من المطر والبرد منه , وبنسبة تكون ظاهرة البرق إلي البرد) لأن في الإشارة إلي هذه الحقائق التي لم يصل إليها علم الإنسان إلا في العقود المتأخرة من القرن العشرين ; تأكيد علي أن القرآن كلام الله الخالق , وعلي نبوة الرسول الخاتم الذي تلقاه , وتستشهد الآيات علي ذلك أيضا بتقليب الليل والنهار , وبخلق كل دابة من ماء , وبتصنيف تلك الدواب علي أساس من طرائق مشيها , وتؤكد أن الله (تعالي) علي كل شئ قدير ; وأنه قد أنزل آيات مبينات , وأنه (تعالي) يهدي من يشاء إلي صراط مستقيم وتحذر السورة الكريمة من النفاق والمنافقين , وتفصح عن شيء من دخائل نفوسهم , وما جبلوا عليه من الكذب , والمكر , والخداع , والاحتيال , والحنث في الأيمان , ونقض العهود

والمواثيق (تماما كما يفعل الصهاينة المجرمون اليوم) . وتقارن بين المواقف الكفرية الكاذبة الخائنة المشينة لهؤلاء المنافقين , والمواقف الإيمانية الصادقة الأمينة الكريمة للمؤمنين , وتأمر بطاعة الله ورسوله , فإن أعرض المنافقون فما علي الرسول إلا البلاغ المبين .

وتؤكد سورة النور أن وعد الله قائم للذين آمنوا وعملوا الصالحات بقوله :(تبارك وتعالي) : وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في

الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضي لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئا ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون (النور :55) .

وتعاود الآيات الكريمة الأمر بإقام الصلاة , وإيتاء الزكاة , وطاعة الرسول (صلي الله عليه وسلم) خاصة في الأمر بالجهاد في سبيل الله , مؤكدة أن الذين كفروا (من أمثال الإسرائيليين المجرمين والأمريكان المتجبرين المعتدين) ليسوا بمعجزين في الأرض , وأن مأواهم جميعا النار وبئس المصير , كما تعاود الأمر بالمزيد من ضوابط السلوك في البيت المسلم , وفي حضرة رسول الله (صلي الله عليه وسلم) خاصة (كنموذج للتعامل مع

القيادة الإسلامية في كل زمان ومكان) وتجعل هذا الأدب في التعامل من صفات المؤمنين , وتحذر من مخالفة تلك الأوامر درءا لفتن الدنيا وعذاب الآخرة .

وتختتم سورة النور بالتأكيد مرة أخري أن لله ما في السماوات والأرض , وأنه (تعالي) عليم بخلقه , وأنهم جميعا سوف يرجعون إليه فينبئهم بما فعلوا في الحياة الدنيا , ويجازيهم بأعمالهم فيها إن خيرا فخير وإن شرا فشر . .

ومن الآيات الكونية التي استشهدت بها سورة النور علي صدق ما جاء بها من أحكام وتشريعات ما يلي :

(1) أن الله تعالي هو نور السماوات والأرض , وأنه تعالي هو الذي يهدي لنوره من يشاء , وأن من لم يجعل الله له نورا فما له من نور . وضربت الآيات مثلا للنور الإلهي (ولله المثل الأعلي) .

(2) تشبيه أعمال الكافرين التي اقترفوها في الدنيا (وهم واهمون أنها أعمال نافعة) بالسراب الخادع .

(3) تشبيه أعمال الكافرين السيئة في الحياة الدنيا بالظلمات المتراكبة فوق قيعان المحيطات والبحار العميقة , والتي يشارك في إحداثها كل من السحاب , والأمواج السطحية , والأمواج الداخلية التي لم تكتشف إلا في مطلع القرن العشرين .

(4) التأكيد علي أن من لم يجعل

الله له نورا فما له من نور , وذلك علي مستوي كل من الحقيقة الواقعة المحسوسة , والمعني الضمني المقصود .

(5) التأكيد علي أن كل ما في السموات والأرض يسبح بحمد الله (تعالي) , ويقدسه , ويمجده في عبادة إرادية أو عبادة تسخيرية لا يدركها كثير من الخلق الغافلين .

(6) الإشارة إلي تكون السحب الركامية علي هيئة السلاسل الجبلية وذلك بإزجاء السحاب , ثم التأليف بينه , ثم ركمه , وإنزال كل من المطر والبرد منه , وتكون ظاهرتي البرق والرعد فيه .

(7) التأكيد علي قدرة الله البالغة في تقليب الليل والنهار .

(8) خلق كل دابة من ماء .

(9) الإشارة الضمنية الرقيقة إلي إمكانية تصنيف الدواب علي أساس من طريقة مشيتها .

وكل قضية من هذه القضايا تحتاج إلي معالجة مستقلة , قد لا يتسع المجال لها ولذلك فإنني سوف أقصر حديثي هنا علي الآية الأربعين من سورة النور والتي تتحدث عن الظلمات

المتراكبة فوق قيعان البحار العميقة , وأسباب تكونها , وقبل الخوض في ذلك لابد من استعراض سريع لأقوال عدد من المفسرين في شرح هذه الآية الكريمة .

من أقوال المفسرين

الامواج السطحية تحدث الظلمة الثانية على اسطح البحار والمحيطات

الامواج الداخلية تحدث الظلمة الثالثة فوق قيعان البحار والمحيطات

في تفسير قوله (تعالي) : والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتي إذا جاءه لم يجده شيئًا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب * أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور

(النور :40,39) .

(235/550)

ذكر ابن كثير (يرحمه الله) ما نصه : هذان مثلان ضربهما الله تعالي لنوعي الكفار , فأما الأول من هذين المثلين فهو للكفار الدعاة إلي كفرهم الذين يحسبون أنهم علي شئ من الأعمال والاعتقادات , وليسوا في نفس الأمر علي شئ فمثلهم في ذلك كالسراب الذي يري

في القيعان من الأرض من بعد كأنه بحر طام ; والقيعة جمع قاع كجار وجيرة , وهي الأرض المستوية المتسعة المنبسطة وفيه يكون السراب , يري كأنه ماء بين السماء والأرض , فإذا رأي السراب من هو محتاج إلي الماء يحسبه ماء قصده ليشرب منه , فلما انتهي إليه (لم يجده شيئا) , فكذلك الكافر , يحسب أنه قد عمل عملا وأنه قد حصل شيئا , فإذا وافي الله يوم القيامة وحاسبه عليها ونوقش علي أفعاله لم يجد له شيئا بالكلية , كما قال :(وقدمنا إلي ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا) , وقال ههنا :(ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب) , وفي الصحيحين : أنه يقال يوم القيامة لليهود ما كنتم تعبدون ؟ فيقولون : كنا نعبد عزير ابن الله , فيقال : كذبتم ما اتخذ الله من ولد ماذا تبغون ؟ فيقولون : يارب عطشنا فاسقنا , فيقال : ألا ترون ؟ فتمثل لهم النار كأنها سراب يحطم بعضه بعضا فينطلقون فيتهافتون فيها . وهذا المثال مثال لذوي الجهل المركب . فأما أصحاب الجهل البسيط , وهم الأغشام المقلدون لأئمة الكفر الصم البكم الذين لا يعقلون فمثلهم كما قال تعالي :(أو كظلمات في بحر لجي) قال قتادة :(اللجي) هو العميق ,(يغشاه موج من فوقه موج , من فوقه

سحاب , ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها) أي لم يقارب رؤيتها من شدة الظلام , فهذا مثل قلب الكافر الجاهل البسيط المقلد الذي لا يعرف حال من يقوده , ولا يدري أين يذهب , بل كما يقال في المثل للجاهل : أين تذهب ؟ قال : معهم , قيل فإلي أين يذهبون ؟ قال : لا أدري , وقال ابن عباس رضي الله عنهما (يغشاه موج) يعني بذلك الغشاوة التي علي القلب والسمع والبصر , وهي كقوله :(ختم الله علي قلوبهم وعلي سمعهم , وعلي أبصارهم غشاوة) الآية وكقوله (وختم علي سمعه وقلبه وجعل علي بصره غشاوة) . فالكافر يتقلب في خمس من الظلم : فكلامه ظلمة , وعمله ظلمة , ومدخله ظلمة , ومخرجه ظلمة , ومصيره يوم القيامة إلي الظلمات إلي النار , وقوله تعالي :(ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور) أي من لم يهده الله فهو هالك جاهل بائر كافر , كقوله :(ومن يضلل الله فلا هادي له) وهذا في مقابلة ما قال في مثل المؤمنين (يهدي الله لنوره من يشاء) فنسأل الله العظيم أن يجعل في قلوبنا نورا , وعن أيماننا نورا , وعن شمائلنا نورا , وأن يعظم لنا نورا .

وذكر صاحبا تفسير الجلالين (رحمهما الله) ما نصه : . . . (والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة) جمع (قاع) أي فلاة , قاله الهروي , والصحيح أن (القيعة) مفرد مثل (القاع) وجمعهما (قيعان) وهو (أي : السراب) شعاع يري فيها نصف النهار في شدة الحر يشبه الماء الجاري (يحسبه) يظنه (الظمآن) أي : العطشان (ماء حتي إذا جاءه لم يجده

شيئا) مما حسبه , كذلك الكافر يحسب أن عمله كصدقة ينفعه حتي إذا مات وقدم علي ربه لم يجد عمله , أي : لم ينفعه (ووجد الله عنده) أي : عند عمله (أي : لم يجد ما توقعه وما كان يعبده من دون الله في الدنيا بل وجد أن الله وحده هو الحق , ولم يجد محاسبا له علي عمله غيره فحاسبه) (فوفاه

(237/550)

حسابه) أي : جازاه عليه في الدنيا . . . (والله سريع الحساب) أي : المجازاة (أو) الذين كفروا أعمالهم السيئة (كظلمات في بحر لجي) عميق (يغشاه موج من فوقه) أي : الموج (موج من فوقه) أي : الموج الثاني (سحاب) غيم , هذه (ظلمات بعضها فوق بعض) ظلمة البحر , وظلمة الموج الأول , وظلمة (الموج) الثاني , وظلمة السحاب (إذا أخرج) الناظر (يده) في هذه الظلمات (لم يكد يراها) أي : لم يقرب من رؤيتها (ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور) أي : من لم يهده الله لم يهتد .

وجاء في تفسير الظلال (رحم الله كاتبه برحمته الواسعة) ما نصه : والتعبير يرسم لحال الكافرين وما آلهم بمشهدين عجيبين , حافلين بالحركة والحياة .

في المشهد الأول يرسم أعمالهم كسراب في أرض مكشوفة مبسوطة , يلتمع التماعا كاذبا ,

فيتبعه صاحبه الظامىء , وهو يتوقع الري غافلا عما ينتظره هناك . . يصل فلا يجد ماء يرويه . . . (ووجد الله عنده) ! الله الذي كفر به وجحده , وخاصمه وعاداه , وجده هناك ينتظره ! . . . (فوفاه حسابه) . . و (الله سريع الحساب . . .) .

وفي المشهد الثاني تطبق الظلمة بعد الالتماع الكاذب , ويتمثل الهول في ظلمات البحر اللجي , موج من فوقه موج من فوقه سحاب , وتتراكم الظلمات بعضها فوق بعض , حتي ليخرج يده أمام بصره فلا يراها لشدة الرعب والظلام ! .

إنه الكفر ظلمة منقطعة عن نور الله الفائض في الكون , وضلال لا يري فيه القلب أقرب علامات الهدي , ومخافة لا أمن فيها ولا قرار . . . (ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور) . . . ونور الله هدي في القلب , وتفتح في البصيرة , واتصال في الفطرة بنواميس الله في السماوات والأرض , والبقاء بها علي الله نور السماوات والأرض . فمن لم يتصل بهذا النور فهو في ظلمة لا انكشاف لها , وفي مخافة لا أمن فيها , وفي ضلال لا رجعة منه . ونهاية

العمل سراب ضائع يقود إلي الهلاك والعذاب , لأنه لا عمل بغير عقيدة , ولا صلاح بغير إيمان . إن هدي الله هو الهدي . وإن نور الله هو النور .

وجاء في صفوة البيان لمعاني القرآن (رحم الله كاتبه) ما نصه :(والذين كفروا) بيان لحال الكافرين بضرب مثلين لأعمالهم , بعد بيان حال المؤمنين ومآل أمرهم . (أعمالهم كسراب) هو الشعاع الذي يري وسط النهار عند اشتداد الحر في الفلوات الواسعة ; كأنه ماء سارب وهو ليس بشيء , ويسمي الآل . (بقيعة) جمع قاع , وهو ما انبسط من الأرض واتسع ولم يكن فيه نبت . وفيه يتراءي السراب . . (يحسبه الظمآن) الذي اشتدت حاجته إلي الماء (ماء حتي إذا جاءه لم يجده شيئا) مما حسبه وظنه . شبه ما يعمله الكافر من أنواع البر في الدنيا التي يظنها نافعة له عند الله ومنجية له من عقابه . من حيث هبوطها ومحو أثرها في الآخرة , وخيبة أمله فيها . بسراب يراه الظمآن في الفلاة وهو أشد ما يكن حاجة إلي الماء فيحسبه ماء ; فيأتيه فلا يجده شيئا فيخيب أمله ويتحسر . (ووجد الله عنده) أي وجد حكمه تعالي وقضاءه (فوفاه حسابه) أعطاه وافيا كاملا جزاء كفره ; أما أجورهم عليها فيوفونها في الدنيا فقط .

(أو كظلمات) أي أعمالهم الحسنة في الدنيا من حيث خلوها عن نور الحق كظلمات (في بحر لجي) عميق كثير الماء (يغشاه) يعلوه ويغطيه (موج من فوقه موج) آخر (من فوقه) أي من فوق هذا الموج الأعلي (سحاب) قائم ,(ظلمات) هذه ظلمات متراكمة (بعضها فوق بعض) ظلمة السحاب فوق ظلمة الموج فوق ظلمة البحر . (إذا أخرج يده) من ابتلي بها (لم يكد يراها) من تراكم الظلمات ; أي لم يقرب من رؤيتها فضلا عن أن يراها . وقيل

:(أو) للتنويع , فشبهت أعمالهم الحسنة بالسراب , والسيئة بالظلمات (ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور) أي من لم يشأ الله سبحانه أن يهديه

لنوره في الدنيا فما له من هداية منها من أحد

(239/550)

وكل من أصحاب المنتخب في تفسير القرآن الكريم , وصاحب صفوة التفاسير (جزاهم الله خيرا) ذكر كلاما مشابها وإن أضاف الخبراء علي هامش المنتخب تفسيرا لظلمات البحر اللجي علي أساس من أن عواصف البحار العميقة أو المحيطات تنطلق فيها أمواج مختلفة الطول والسعة أو الارتفاع , بحيث يبدو الموج منطلقا في طبقات بعضها فوق بعض , فيحجب ضياء الشمس , لما تثيره هذه العواصف من سحب . . .

الدلالة العلمية للآية الكريمة

تشير هذه الآية الكريمة إلي الظلمة التامة فوق قيعان البحار العميقة والمحيطات , مؤكدة أنها ظلمة مركبة , يلعب كل من السحب , والأمواج السطحية , والأمواج الداخلية دورا أساسيا في إحداثها , وهي حقيقة لم يدركها الانسان إلا في مطلع القرن العشرين .

ولما كانت الشمس هي مصدر الحرارة والضوء ومختلف صور الطاقة الأخري (فيما عدا

الطاقة النووية) علي سطح الأرض وعلي أسطح غيرها من أجرام المجموعة الشمسية , كان لزاما علينا الرجوع إلي المسافة الفاصلة بين الأرض والشمس للتعرف علي الحواجز التي يمكن أن تعترض أشعة الشمس في طريق وصولها إلي الأرض ومن أهمها الغلاف الغازي للأرض , خاصة جزءه السفلي (نطاق المتغيرات المناخية أو نطاق الرجع) وما به من سحب .

الظلمة الأولي تسببها السحب :

تتكون الأشعة الصادرة من الشمس من كل الموجات الكهرومغناطيسية ابتداء من الأشعة الراديوية إلي الأشعة السينية إلا أن الغالب عليها هو الضوء المرئي وكل من الاشعة تحت الحمراء والأشعة فوق البنفسجية , بالاضافة إلي بعض الجسيمات الأولية المتسارعة مثل الإلكترونات , وأغلب الأشعة فوق البنفسجية يردها إلي الخارج نطاق الأوزون . وعند وصول بقية أشعة الشمس إلي الجزء السفلي من الغلاف الغازي للأرض فإن السحب تعكس وتشتت نحو 30% منها .

وتمتص السحب وما بها من بخار الماء وجزيئات الهواء وهباءات

الغبار وغيرها من نوي التكثيف الأخري حوالي 19% من تلك الأشعة الشمسية المارة من خلالها , تحجب السحب بالانعكاس والتشتيت والامتصاص حوالي 49% من أشعة الشمس , فتحدث قدرا من الظلمة النسبية .

الأمواج السطحية في البحار والمحيطات تسبب الظلمة الثانية

عند وصول ما تبقي من أشعة الشمس إلي أسطح البحار والمحيطات فإن حوالي 35% من الأشعة تحت الحمراء فيها تستهلك في تبخير الماء , وتكوين السحب , وفي عمليات التمثيل الضوئي . التي تقوم بها النباتات البحرية .

أما مايصل إلي سطح البحار والمحيطات مما تبقي من الأشعة المرئية (أو الضوء الأبيض) . فان الأمواج السطحية للبحار تعكس 5% أخري منها , فتحدث قدرا أخر من الظلمة النسبية في البحار والمحيطات .

توهن ضوء الشمس المرئي بمروره

في ماء البحار والمحيطات

الجزء المرئي من أشعة الشمس الذي ينفذ إلي كتل الماء في البحار والمحيطات يتعرض لعمليات كثيرة من الانكسار , والتحلل إلي الأطياف المختلفة والامتصاص بواسطة كل من جزيئات الماء , وجزيئات الأملاح المذابة فيه , وبواسطة المواد الصلبة العالقة به , وبما يحيا فيه من مختلف صور الأحياء , وبما تفرزهتلك الأحياء من مواد عضوية , ولذلك يضعف

الضوء المار في الماء بالتدريج مع العمق .

والطيف الأحمر هو أول مايمتص من أطياف الضوء الأبيض ويتم امتصاصه بالكامل علي عمق لايكاد يتجاوز عشرة أمتار , ويليه في الامتصاص الطيف البرتقالي ثم الطيف الأصفر والذي يتم امتصاصه بالكامل علي عمق لايتجاوز الخمسين مترا , ويلي ذلك الطيف الأخضر والذي يتم امتصاصه بالكامل علي عمق مائة متر في المتوسط , ويستمر الطيف الأزرق بعد ذلك ليتم امتصاصه علي عمق يزيد قليلا علي المائتي متر , ولذلك يبدو ماء البحار والمحيطات باللون الأزرق لتشتت هذا الطيف من أطياف الضوء الأبيض في المائتي متر العليا من تلك الكتل المائية .

وبذلك فإن معظم موجات الضوء

المرئي تمتص علي عمق مائة متر تقريبا من مستوي سطح الماء في البحار والمحيطات , ويستمر 1% منها إلي عمق 150 مترا , و 0,01% إلي عمق 200 متر في الماء الصافي الخالي من العوالق .

وعلي الرغم من السرعة الفائقة للضوء (حوالي 300,000 كيلومتر في الثانية في الفراغ ,

وحوالي 225,000 كيلومتر في الثانية في الأوساط المائية) , فإنه لايستطيع أن يستمر في ماء البحار والمحيطات لعمق يزيد علي الألف متر , فبعد مائتي متر من أسطح تلك الأوساط المائية يبدأ الإظلام شبه الكامل حيث لاينفذ بعد هذا العمق سوي أقل من 0,01% من ضوء الشمس , ويظل هذا القدر الضئيل من الضوء المرئي يتعرض للانكسار والتشتت والامتصاص حتي يتلاشي تماما علي عمق لايكاد يصل إلي كيلومتر واحد تحت مستوي سطح البحر . حيث لايبقي من أشعة الشمس الساقطة علي ذلك السطح سوي واحد من عشرة تريليون جزء منها , ولما كان متوسط أعماق المحيطات يقدر بنحو 3795 مترا , وأن أقصاها عمقا يتجاوز الأحد عشر كيلومترا بقليل (11,034 متر) وبين هذين الحدين تتراوح أعماق البحار والمحيطات بين أربعة وخمسة كيلومترات في المتوسط , وبين ثمانية وعشرة كيلومترات في أكثرها عمقا . فإن معني ذلك أن أعماق تلك المحيطات تغرق في ظلام دامس .

الأمواج الداخلية هي سبب الظلمة الثالثة فوق قيعان البحار العميقة

بالاضافة إلي تحلل الضوء الأبيض عند مروره في ماء البحار والمحيطات فإن السبب الرئيسي في إحداث الإظلام التام فوق قيعان البحار اللجية (أي الغزيرة الماء لعمقها حتي لايكاد يدرك لها قاع , والمتلاطمة الأمواج لقول العرب (إلتج البحر) أي : تلاطمت أمواجه) هي الأمواج الداخلية في تلك البحار العميقة وغير المتجانسة .

وتتكون هذه الأمواج الداخلية بين كتل الماء ذات الكثافات المختلفة , وتختلف كثافة الماء في البحار العميقة والمحيطات باختلاف كل من درجة حرارته , ونسبة الأملاح

(242/550)

المذابة فيه , وتتمايز كتل الماء في تلك المسطحات المائية الكبيرة أفقيا بتمايز مناطقها المناخية , ورأسيا بتمايز كثافتها . وتتحرك التيارات المائية أفقيا بين مساحات شاسعة من خطوط العرض فتكتسب صفات طبيعية جديدة من درجات الحرارة والملوحة بسبب تغير معدلات التسخين أو التبريد , ومعدلات البخر أو سقوط الأمطار , مما يضطرها إلي التحرك رأسيا كذلك .

وتمايز الماء في البحار العميقة والمحيطات إلي كتل سطحية , وكتل متوسطة , وكتل شبه قطبية , وكتل حول قطبية ولايتمايز الماء إلي تلك الكتل إلا في البحار شديدة العمق , ومن هنا فإن الأمواج الداخلية لاتتكون إلا في مثل تلك البحار العميقة , ومن هنا أيضا كان التحديد القرآني بالوصف بحر لجي إعجازا غير مسبوق .

وتتكون الأمواج الداخلية عند الحدود الفاصلة بين كل كتلتين مائيتين مختلفتين في الكثافة , وهي أمواج ذات أطوال وارتفاعات تفوق أطوال وارتفاعات الأمواج السطحية بمعدلات

كبيرة , حيث تتراوح أطوالها بين عشرات ومئات الكيلومترات , وتصل سعتها (أي ارتفاع الموجة) إلي مائتي متر , وتتحرك بسرعات تتراوح بين 100,5 سنتيمتر في الثانية لمدد تتراوح بين أربع دقائق وخمس وعشرين ساعة .

وعلي الرغم من ذلك فهي أمواج لايمكن رؤيتها بطريقة مباشرة , وإن أمكن إدراك حركتها بأجهزة ميكانيكية وذلك بواسطة عدد من القياسات للاضطرابات التي تحدثها تلك الأمواج الداخلية , وهذا ايضا مما يجعل الاشارة القرآنية إليها إعجازا لاينكره إلا جاحد .

كذلك يبدأ تكون الأمواج الداخلية علي عمق 40 مترا تقريبا من مستوي سطح الماء في المحيطات حيث تبدأ صفات الماء فجأة في التغير من حيث كثافتها ودرجة حرارتها , وقد تتكرر علي أعماق أخري كلما تكرر التباين بين كتل الماء في الكثافة , وعجز الانسان في زمن الوحي ولقرون متطاولة من بعده عن الغوص إلي هذا العمق الذي يحتاج إلي أجهزة مساعدة خاصة مما يقطع

باعجاز علمي في هذه الآية الكريمة بإشارتها إلي تلك الأمواج الداخلية , وهي أمواج لم يدركها الإنسان إلا في مطلع القرن العشرين (سنة 1904 م) .

ومن فوق هذه الأمواج الداخلية تأتي الأمواج السطحية ومايصاحبها من العواصف البحرية والتي يحركها كل من الرياح والجاذبية والهزات الأرضية , ودوران الأرض حول محورها من الغرب إلي الشرق , وحركات المد والجزر الناتجة عن جاذبية كل من الشمس والقمر , وغير ذلك من العوامل المعروفة وغير المعروفة , وهذه الأمواج السطحية هي أحد العوائق أمام مرور كل أشعة الشمس الساقطة علي أسطح البحار والمحيطات , في مائها والوصول إلي أعماقها , ولذلك فهي أحد أسباب ظلمة تلك الأعماق , بالإضافة إلي تحلل تلك الأشعة إلي أطيافها وامتصاصها بالتدريج في الماء .

ومن فوق هذه الأمواج السطحية تأتي السحب التي تمتص وتشتت وترد إلي صفحة السماء حوالي 49% من مجموع أشعة الشمس الواصلة إلي نطاق التغييرات المناخية فتحدث قدرا من الظلمة النسبية التي تحتاجها الحياة علي سطح الأرض .

فسبحان الذي أنزل من قبل ألف وأربعمائة سنة قوله الحق :

أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور . (النور :40)

والآية الكريمة جاءت في مقام التشبيه , ولكنها علي الرغم من ذلك جاءت في صياغة علمية دقيقة غاية الدقة , ومحكمة غاية الإحكام شأن كل الآيات القرآنية , ونزلت هذه الآية الكريمة في زمن لم يكن لأحد من الناس إلمام بتلك الحقائق العلمية ولا بطرف منها ,

وظلت أجيال الناس جاهلة بها لقرون متطاولة بعد زمن الوحي حتي تم الإلمام بشيء منها في مطلع القرن العشرين .

ومع افتراض أن أحدا من الناس قد أدرك في القديم دور السحب في إحداث شيء من الظلمة علي الأرض ودور الأمواج السطحية في إحداث شيء من ذلك علي قيعان البحار

(244/550)

والمحيطات (وهو افتراض مستبعد جد) فان من أوضح جوانب الإعجاز العلمي (أي : السبق العلمي) في هذه الآية الكريمة هو تلك الإشارة المبهرة إلي الأمواج الداخلية (InternalWaves)

وهي أمواج لايمكن رؤيتها بالعين المجردة أبدا , ولكن يمكن إدراكها بعدد من القياسات غير المباشرة .

ومن جوانب السبق العلمي في هذه الآية الكريمة أيضا الإشارة إلي الحقيقة المعنوية الكبري التي تصفها الآية بقول الحق (تبارك وتعالي) : . . ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور .

ثم تفاجئنا البحوث العلمية أخيرا بواقع مادي ملموس لتلك الحقيقة بالاضافة إلي مضمونها المعنوي الجميل , فقد كان العلماء إلي عهد قريب جدا لايتصورون إمكانية وجود حياة في

أغوار المحيطات العميقة , أولا للظلمة التامة فيها , وثانيا للبرودة الشديدة لمائها , وثالثا للضغوط الهائلة الواقعة عليها (وزن عمود الماء بسمك يصل إلي أربعة كيلومترات في المتوسط) , ورابعا للملوحة المرتفعة أحيانا لذلك الماء , ولكن بعد تطوير غواصات خاصة لدراسة تلك الأعماق فوجيء دارسو الأحياء البحرية بوجود بلايين الكائنات الحية التي تنتشر في تلك الظلمة الحالكة وقد زودها خالقها بوسائل إنارة ذاتية في صميم بنائها الجسدي تعرف باسم الإنارة الحيوية

(Bioluminescence) ,

وتنتج هذه الإنارة العجيبة عن طريق تفاعل فريد من نوعه بين جزئ لمركب كيميائي عضوي اسمه ليوسيفيرين

(Luciferin)

وجزئ الأوكسجين في وجود إنزيم خاص اسمه ليوسيفيريز

(Luciferase) ,

ويمثل هذا التفاعل الفريد عملية الأكسدة الوحيدة المعروفة لنا في أجساد الكائنات الحية التي لايصاحبها إنتاج قدر مدرك من الحرارة , ومن العجيب أن كل نوع من أنواع هذه الأحياء الخاصة والتي تحيا في بيئات من الظلمة التامة له أنواع خاصة من المركبات

الكيميائية المنتجة للضوء , وله إنزيماته الخاصة أيضا , والسؤال الذي يفرض نفسه : من غير الله

(245/550)

الخالق يمكنه ان يعطي كل نوع من أنواع تلك الأحياء البحرية العميقة , هذا النور الذاتي ؟ وهنا يتضح البعد المادي الملموس لهذا النص القرآني المعجز , كما يتضح بعده المعنوي الرفيع : ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور , فسبحان الذي أنزل القرآن الكريم , أنزله بعلمه علي خاتم أنبيائه ورسله , وحفظه لنا بلغة وحيه (اللغة العربية) حفظا كاملا بكل حرف , وكل كلمة , وكل آية وكل سورة , فجاء ذلك كله معجزا غاية الاعجاز فالحمد لله رب العالمين علي نعمة القرآن وصلي الله وسلم وبارك علي هذا النبي الخاتم الذي تلقاه وعلي آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلي يوم الدين . انتهى انتهى . ا هـ ﴾

الإشارات الكونية في القرآن الكريم ومغزي دلالتها العلمية .

بقلم الدكتور : زغلول النجار ﴾ .

(246/550)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الحادى والخمسون بعد الخمسمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/551)

الجزء الحادى والخمسون بعد الخمسمائة

من الآية ﴿ 41 ﴾ من سورة النور

وحتى الآية ﴿ 50 ﴾ من نفس السورة

(4/551)

قوله تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (41) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (42) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان قيام الأمور ، وظهورها كل ظهور ، إنما هو بالنور ، حساً بالإيجاد ، ومعنى بجعل الموجودات آيات مرئيات تدل على موجدها ، قال تعالى دالاً على ما أخبر به من أنه وحده نور السماوات والأرض ، أي موجدهما بعلمه وقدرته ومن أن من كساه من نوره فإن في يوم البعث الذي يجازي فيه الخلق على ما يقتضيه العلم الذي هو النور في الحقيقة من مقادير أعمالهم ، ومن أعراه من النور هلك : ﴿ ألم تر ﴾ أي تعلم يا رأس الفائزين برتبة الإحسان

علماً هو في ثباته كما بالمشهادة ﴿ أن الله ﴾ الحائز لصفات الكمال ﴿ يسبح له ﴾ أي ينزه عن كل شائبة نقص لأجله خاصة بما له فيه من القدرة الكاملة ﴿ من في السماوات ﴾ .

ولما كان مبنى السورة على شمول العلم والقدرة لم يؤكد فقال : ﴿ والأرض ﴾ أي هما وكل ما فيهما بلسان حاله ، أو آلة مقاله ، وعرف أن المراد العموم بعطفه بعض ما لا يعقل ، وعبر ب " من " لأن المخبر به من وظائف العقلاء .

ولما كان أمر الطير أدل لأنه أعجب ، قال مخصصاً : ﴿ والطير صافات ﴾ أي باسطات أجنحتها في جو السماء ، لا شبهة في أنه لا يمسكهن إلا الله ، وإمساكه لها في الجو مع أنها أجرام ثقيلة ، وتقديره لها فيه على القبض والبسط حجة قاطعة على كمال قدرته .

(5/551)

ولما كان العلم يوصف به ما هو سبب كالكتاب المصنف ونحوه ، ويشتق للشيء اسم فاعل مما لابسه كما يقال : ليله قائم ، ونهاره صائم ، ﴿ ولا تزال تطلع على خائنة منهم ﴾ [المائدة : 13] وكانت أسطر القدرة مجودة على كل كائن ، شديدة الوضوح في صفحات كل شيء ، فكانت الكائنات بذلك دالة على خالقها وما له من كل صفة كمال ، صح إطلاق العلم عليها وإسناده إليها فقال : ﴿ كل ﴾ أي من المخلوقات ﴿ قد علم ﴾ أي بما

كان سبباً له من العلم بما فيه من الآيات الدالة المعلمة بما لموجده من صفات الكمال

﴿ صلاته ﴾ أي الوجه الذي به وصلته بمولاه ونسبته إليه ﴿ وتسبيحه ﴾ أي الحال الذي به براءة صانعه من الشين وتعاليه عن النقص ، وقد صرحت بذلك ألسن أحوالها ، نيابة عن بيان مقالها ، هذا بقيامه صامتاً جامداً ، وهذا بنموه مهتزاً رابياً ، إلجاء وقهراً ، وهذا بحركته بالإرادة ، وقصد وجوه منافعه ، وبعده عن أحوال مضاره بمجرد فطرته وما أودع في طبيعته ، وهذا بنطقه وعقله ، ونباهته وفضله ، مع أن نسبة كل منهم إلى الأرض والسماء واحدة ، ويدل على ذلك دلالة واضحة ما روى الإمام أحمد في المسند عن عبد الله بن عمرو ـ رضى الله عنهما ـ عن " النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن نوحاً عليه السلام أوصى ابنه عند موته بلا إله إلا الله ، فإن السماوات السبع والأرضين السبع لو كن حلقة مبهمة قصمتهن ، وسبحان الله وبحمده ، فإنها صلاة كل شيء وبها يرزق الخلق وقال الغزالي في الإحياء : وروي " أن رجلاً جاء إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : تولت عني الدنيا وقلت ذات يدي ، فقال له رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : " فأين أنت من صلاة الملائكة وتسبيح الخلائق وبها يرزقون " ، قال فقلت : وما هي يا رسول الله ؟ قال : " سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم أستغفر الله مائة مرة ما بين طلوع الفجر إلى أن تصلي الصبح ، تأتيك الدنيا راغمة صاغرة ، ويخلق الله من كل كلمة ملكاً يسبح الله

إلى يوم القيامة لك ثوابه "

قال الحافظ زين الدين العراقي : رواه المستغفري في الدعوات عن ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ وقال : غريب من حديث مالك ، ولا أعرف له أصلاً من حديث مالك " .

ولما كان التقدير : فالله قدير على جميع تلك الشؤون ، عطف عليه قوله : ﴿ والله ﴾ أي المحيط علماً وقدرة ﴿ عليم بما يفعلون ﴾ بما ثبت مما أخبركم به في هذه السورة دقائق أقوالكم وأحوالكم ، وضمائركم وأفعالكم ، وقد تقدم في الأعراف عند ﴿ أو لم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض ﴾ [الأعراف : 185] ما ينفع هنا .

ولما أخبر عما في الكونين بما يستلزم الملك على أنهى وجوه التمام المستلزم للقدرة على البعث ، أخبر عنهما بالتصريح به فقال : ﴿ ولله ﴾ أي الذي لا ملك سواه ﴿ ملك السماوات والأرض ﴾ مع كونه مالكاً مسخراً مصرفاً لجميع ذلك ، فهو جامع للملك والملك .

ولما كان التقدير : ومن الله المبدأ للكل بالإيجاد من العدم ، عطف عليه قوله : ﴿ وإلى الله ﴾ أي الذي له الإحاطة بكل شيء ﴿ المصير ﴾ أي لهم كلهم بعد الفناء ، وإنما طوي هذا المقدر لأنه لا خلف فيه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 271 .

فصل

قال الفخر :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (41) ﴾

اعلم أنه سبحانه لما وصف أنوار قلوب المؤمنين وظلمات قلوب الجاهلين أتبع ذلك بدلائل التوحيد :

فالنوع الأول : ما ذكره في هذه الآية ولا شبهة في أن المراد ألم تعلم لأن التسبيح لا تتناوله الرؤية بالبصر ويتناوله العلم بالقلب ، وهذا الكلام وإن كان ظاهره استفهاماً فالمراد التقرير والبيان ، فنبه تعالى على ما يلزم من تعظيمه بأن من في السموات يسبح له وكذلك من في الأرض .

واعلم أنه إما أن يكون المراد من التسبيح دلالة هذه الأشياء على كونه تعالى منزهاً عن النقائص موصوفاً بنعوت الجلال ، وإما أن يكون المراد منه أنها تنطق بالتسبيح وتتكلم به ، وإما أن يكون المراد منه في حق البعض الدلالة على التنزيه وفي حق الباقين النطق باللسان ،

والقسم الأول أقرب لأن القسم الثاني متعذر ، لأن في الأرض من لا يكون مكلفاً لا يسبح بهذا المعنى ، والمكلفون منهم من لا يسبح أيضاً بهذا المعنى كالكفار ، أما القسم الثالث وهو أن يقال إن من في السموات وهم الملائكة يسبحون باللسان ، وأما الذين في الأرض فمنهم من يسبح باللسان ومنهم من يسبح على سبيل الدلالة فهذا يقتضي استعمال اللفظ الواحد في الحقيقة والمجاز معاً وهو غير جائز فلم يبق إلا القسم الأول وذلك لأن هذه الأشياء مشتركة في أن أجسامها وصفاتها دالة على تنزيه الله سبحانه وتعالى وعلى قدرته وإلهيته وتوحيده وعدله فسمى ذلك تنزيهاً على وجه التوسع .

فإن قيل فالتسبيح بهذا المعنى حاصل لجميع المخلوقات فما وجه تخصيصه ههنا بالعقلاء ؟ قلنا لأن خلقة العقلاء أشد دلالة على وجود الصانع سبحانه لأن العجائب والغرائب في خلقهم أكثر وهي العقل والنطق والفهم .

(8/551)

أما قوله تعالى : ﴿ والطير صافات ﴾ فلقائل أن يقول ما وجه اتصال هذا بما قبله ؟ والجواب : أنه سبحانه لما ذكر أن أهل السموات وأهل الأرض يسبحون ذكر أن الذين استقروا في الهواء الذي هو بين السماء والأرض وهو الطير يسبحون ، وذلك لأن إعطاء

الجرم الثقيل القوة التي بها يقوى على الوقوف في جو السماء صافة باسطة أجنحتها بما فيها من القبض والبسط من أعظم الدلائل على قدرة الصانع المدبر سبحانه وجعل طيرانها سجوداً منها له سبحانه ، وذلك يؤكد ما ذكرناه من أن المراد من التسبيح دلالة هذه الأحوال على التنزيه لا النطق اللساني .

أما قوله : ﴿ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاَتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ﴾ ففيه ثلاثة أوجه : الأول : المراد كل قد علم الله صلاته وتسبيحه قالوا ويدل عليه قوله سبحانه : ﴿ واللهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ وهو اختيار جمهور المتكلمين والثاني : أن يعود الضمير في الصلاة والتسبيح على لفظ ﴿ كُلٌّ ﴾ أي إنهم يعلمون ما يجب عليهم من الصلاة والتسبيح والثالث : أن تكون الهاء راجعة على ذكر الله يعني قد علم كل مسبح وكل مصل صلاة الله التي كلفه إياها وعلى هذين التقديرين فقوله : ﴿ واللهُ عَلِيمٌ ﴾ استئناف وروي عن أبي ثابت قال كنت جالساً عند محمد بن جعفر الباقر رضي الله عنه فقال لي : أتدري ما تقول هذه العصافير عند طلوع الشمس وبعد طلوعها ؟ قال لا ، قال فإنهن يقدسن ربهن ويسألنه قوت يومهن .

واستبعد المتكلمون ذلك فقالوا الطير لو كانت عارفة بالله تعالى لكانت كالعقلاء الذين يفهمون كلامنا وإشارتنا لكنها ليست كذلك ، فإنا نعلم بالضرورة أنها أشد نقصاناً من الصبي الذي لا يعرف هذه الأمور فبأن يمتنع ذلك فيها أولى ، وإذا ثبت أنها لا تعرف الله

تعالى استحال كونها مسبحة له بالنطق ، فثبت أنها لا تسبح الله إلا بلسان الحال على ما تقدم تقريره .

(9/551)

قال بعض العلماء إنا نشاهد أن الله تعالى ألهم الطيور وسائر الحشرات أعمالاً لطيفة يعجز عنها أكثر العقلاء ، وإذا كان كذلك فلم لا يجوز أن يلهمها معرفته ودعاءه وتسبيحه ، وبيان أنه سبحانه ألهمها الأعمال اللطيفة من وجوه : أحدها : احتيالها في كيفية الاصطياد فتأمل في العنكبوت كيف يأتي بالحيل اللطيفة في اصطياد الذباب ، ويقال إن الدب يستلقي في ممر الثور فإذا أرام نطحه شبث ذراعيه بقرينه ولا يزال ينهش ما بين ذراعيه حتى يثخنه ، وأنه يرمي بالحجارة ويأخذ العصا ويضرب الإنسان حتى يتوهم أنه مات فيتركه وربما عاود يتشممه ويتجسس نفسه ويصعد الشجر أخف صعود ويهشم الجوز بين كفيه تعريضاً بالواحدة وصدمة بالأخرى ثم ينفخ فيه فيذر قشره ويستف لبه ، ويحكى عن الفأر في سرقته أمور عجيبة .

(10/551)

وثانيها : أمر النحل ومالها من الرياسة وبناء البيوت المسدسة التي لا يتمكن من بنائها أفاضل المهندسين وثالثها : انتقال الكراكي من طرف من أطراف العالم إلى الطرف الآخر طلباً لما يوافقها من الأهوية ، ويقال إن من خواص الخيل أن كل واحد منها يعرف صوت الفرس الذي قابله وقتاً ما والكلاب تتصايح بالعية المعروفة لها ، والفهد إذا سقي أو شرب من الدواء المعروف بخانق الفهد عمد إلى زبل الإنسان فأكله ، والتماسيح تفتح أفواهها لطائر يقع عليها كالعقعق وينظف ما بين أسنانها ، وعلى رأس ذلك الطير كالشوك فإذا هم التمساح بالتقام ذلك الطير تأذى من ذلك الشوك فيفتح فاه فيخرج الطائر ، والسلحفاة تتناول بعد أكل الحية صعتراً جبلياً ثم تعود وقد عوفيت من ذلك ، وحكى بعض الثقات المجربين للصيد أنه شاهد الحبارى تقاتل الأفعى وتنهزم عنه إلى بقلة تتناول منها ثم تعود ولا يزال ذلك دأبه فكان ذلك الشيخ قاعداً في كن غائر فعل القنصة وكانت البقلة قريبة من مكمنه فلما اشتغل الحبارى بالأفعى قلع البقلة فعادت الحبارى إلى منبتها ففقدته وأخذت تدور حول منبتها دوراناً متتابعاً حتى خر ميتاً فعلم الشيخ أنه كان يتعالج بأكلها من اللسعة ، وتلك البقلة كانت هي الجرجير البري ، وأما ابن عرس فيستظهر في قتال الحية بأكل السذاب فإن النكهة السذابية مما تنفر منها الأفعى والكلاب إذا دودت بطونها أكلت سنبل القمح ، وإذا جرحت اللقالق بعضها بعضاً داوت جراحها بالصعتر الجبلى ورابعها :

القنافذ قد تحس بالشمال والجنوب قبل الهبوب فتغير المدخل إلى جحرها وكان بالقسطنطينية رجل قد أثرى بسبب أنه كان ينذر بالرياح قبل هبوبها وينتفع الناس بإنذاره وكان السبب فيه قنفذاً في داره يفعل الصنيع المذكور فيستدل به ، والخطاف صانع جيد في اتخاذ العش من الطين وقطع الخشب فإن أعوزه الطين ابتل وتمرغ في التراب ليحمل جناحاه قدراً من الطين ، وإذا أفرخ بالغ في تعهد الفراخ ويأخذ ذرقها

(11/551)

بمنقاره ويرميها عن العش ، ثم يعلمها إلقاء الذرق نحو طرف العش ، وإذا دنا الصائد من مكان فراخ القبجة ظهرت له القبجة وقربت منه مطمعة له ليتبعها ثم تذهب إلى جانب آخر سوى جانب فراخها ، وناقر الخشب قلما يقع على الأرض بل على الشجر ينقر الموضع الذي يعلم أن فيه دوداً ، والغرانيق تصعد في الجو جداً عند الطيران فإن حجب بعضها عن بعض ضباب أو سحاب أحدثت عن أجنحتها حفيفاً مسموعاً يلزم به بعضها بعضاً ، فإذا نامت على جبل فإنها تضع رؤوسها تحت أجنحتها إلا القائد فإنه ينام مكشوف الرأس فيسرع انتباهه ، وإذا سمع حرساً صاح ، وحال النمل في الذهاب إلى مواضعها على خط مستقيم يحفظ بعضها بعضاً أمر عجيب ، واعلم أن الاستقصاء في

هذا الباب مذكور في كتاب طبائع الحيوان ، والمقصود أن الأكياس من العقلاء يعجزون عن أمثال هذه الحيل فإذا جاز ذلك فلم لا يجوز أن يقال إنها ملهمة من عند الله تعالى بمعرفته والثناء عليه وإن كانت غير عارفة بسائر الأمور التي يعرفها الناس ؟ ولله در شهاب الإسلام السمعاني حيث قال : جل جناب الجلال عن أن يوزن بميزان الاعتزال .

أما قوله سبحانه : ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السموات والأرض وإلى الله المصير ﴾ فهو مع وجازته فيه دلالة على تمام علم المبدأ والمعاد ، فقوله : ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السموات والأرض ﴾ تنبيه على أن الكل منه لأن كل ما سواه ممكن ومحدث والممكن والمحدث لا يوجدان إلا عند الانتهاء إلى القديم الواجب فدخل في هذه القضية جميع الأجرام والأعراض وأفعال العباد وأقوالهم وخواطرهم .

(12/551)

وأما قوله : ﴿ وإلى الله المصير ﴾ فهو عبارة تامة في معرفة المعاد وهو أنه لا بد من مصير الكل إليه سبحانه ، وله وجه آخر وهو أن الوجود يبدأ من الأشرف فالأشرف نازلاً إلى الأخس فالأخس ثم يأخذ من الأخس فالأخس مترقياً إلى الأشرف فالأشرف ، فإنه يكون جسماً ثم يصيره موصوفاً بالنباتية ثم الحيوانية ثم الإنسانية ثم الملكية ثم ينتهي إلى

واجب الوجود لذاته ، فالاعتبار الأول هو قوله : ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السموات والأرض ﴾ والثاني هو قوله : ﴿ وإلى الله المصير ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 24 صـ 12.10 ﴾

(13/551)

وقال الجصاص :

وقَوْله تَعَالَى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

فَإِنَّ التَّسْبِيحَ هُوَ التَّنْزِيهُ لِلَّهِ تَعَالَى عَمَّا لَا يَجُوزُ عَلَيْهِ مِنْ الصِّفَاتِ ، فَجَمِيعُ مَا خَلَقَهُ اللَّهُ مُنَزَّهٌ لَهُ مِنْ جِهَةِ الدَّلَالَةِ عَلَيْهِ ، وَالْعُقَلَاءُ الْمُطِيعُونَ يُنَزِّهُونَهُ مِنْ جِهَةِ الِاعْتِقَادِ وَالْوَصْفِ لَهُ بِمَا يَلِيقُ بِهِ وَتَنْزِيهِهِ عَمَّا لَا يَجُوزُ عَلَيْهِ .

وقَوْله تَعَالَى : ﴿ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ﴾ يَعْنِي : صَلَاةَ مَنْ يُصَلِّي مِنْهُمْ فَاللَّهُ يَعْلَمُهَا .

وَقَالَ مُجَاهِدٌ : (الصَّلَاةُ لِلْإِنْسَانِ وَالتَّسْبِيحُ لِكُلِّ شَيْءٍ) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(14/551)

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ وَالطَّيْرُ صَآفَّاتٍ ﴾

أي مصطفة الأجنحة في الهواء

. ﴿ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاَتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : أن الصلاة للإنسان والتسبيح لما سواه من سائر الخلق ، قاله مجاهد .

الثاني : أن هذا في الطير وإن ضرب أجنحتها صلاة وأن أصواتها تسبيح ، حكاه النقاش .

الثالث : أن للطير صلاة ليس فيها ركوع ولا سجود ، قاله سفيان . ثم فيه قولان :

أحدهما : أن كل واحد منهم قد علم صلاته وتسبيحه .

الثاني : أن الله قد علم صلاته وتسبيحه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

(15/551)

وقال ابن عطية :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

﴿ ألم تر ﴾ تنبيه ، و" الرؤية " رؤية الفكر ، قال سيبويه كأنه قال انتبه الله يسبح له من في السماوات ، والتسبيح هنا التعظيم والتنزيه فهو من العقلاء بالنطق وبالصلاة من كل ذي دين ، واختلف في تسبيح ﴿ الطير ﴾ وغير ذلك مما قد ورد الكتاب بتسبيحه ، فالجمهور على أنه تسبيح حقيقي وقال الحسن وغيره هو لفظ تجوز وإنما تسبيحه بظهور الحكمة فيه ، فهو لذلك يدعو إلى التسبيح ، وقال المفسرون قوله ﴿ من في السماوات والأرض ﴾ عامة لكل شيء من له عقل وسائر الجمادات ، لكنه لما اجتمع ذلك عبر عنه ب ﴿ من ﴾ تغليباً لحكم من يعقل ، و ﴿ صافات ﴾ معناه مصطفة في الهواء ، وقرأ الأعرج " والطيرَ " بنصب الراء ، وقرأ الحسن و" الطيرُ صافاتٌ " مرفوعتان وقوله : ﴿ كل قد علم صلاته وتسبيحه ﴾ قال الحسن المعنى كل قد علم صلاة نفسه وتسبيح نفسه فهو يثابر عليها ، قال مجاهد " الصلاة " للبشر و" التسبيح " لما عداهم ، وقالت فرقة المعنى كل قد علم صلاة الله وتسبيح الله اللذين أمر بهما وهدى إليهما فهذه إضافة خلق إلى خالق ، وقال الزجاج وغيره المعنى ﴿ كل قد علم ﴾ الله ﴿ صلاته وتسبيحه ﴾ فالضميران للكل ، وقرأت فرقة " عُلم صلاتُه وتسبيحُه " بالرفع وبناء الفعل للمفعول الذي لم يسم فاعله ذكرها أبو حاتم ، وقرأ الجمهور " يفعلون " بالياء على معنى المبالغة في وصف قدرة الله وعلمه بخلقه ، وقرأ عيسى والحسن " تفعلون " بالتاء من فوق ففيه المعنى المذكور وزيادة الوعيد والتخويف من الله تعالى وإعلام بعد بكون الملك على الإطلاق له وتذكيره بأمر المصير إليه

والحشر يقوي أمر التخويف من الله تعالى وفي مصحف أبي بن كعب وابن مسعود " والله بصير بما تفعلون " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(16/551)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السماوات والأرض والطير صَآفَّاتٍ ﴾

لما ذكر وضوح الآيات زاد في الحجة والبيّنات ، وبيّن أن مصنوعاته تدلّ بتغييرها على أن لها صانعاً قادراً على الكمال ؛ فله بِعْثة الرسل ، وقد بعثهم وأيدهم بالمعجزات ، وأخبروا بالجنة والنار .

والخطاب في "ألم تر" للنبيّ صلى الله عليه وسلم ، ومعناه : ألم تعلم ؛ والمراد الكُلّ .

﴿ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السماوات ﴾ من الملائكة .

﴿ والأرض ﴾ من الجن والإنس .

﴿ والطير صَآفَّاتٍ ﴾ قال مجاهد وغيره : الصلاة للإنسان والتسبيح لما سواه من الخلق .

وقال سفيان : للطير صلاةٌ ليس فيها ركوع ولا سجود .

وقيل : إنّ ضربها بأجنحتها صلاة ، وإن أصواتها تسبيح ؛ حكاه النقاش .

وقيل : التسبيح هاهنا ما يرى في المخلوق من أثر الصنعة .

ومعنى "صافاتٍ" مصطفات الأجنحة في الهواء .

وقرأ الجماعة "والطّيْرُ" بالرفع عطفاً على "مَنْ" .

وقال الزجاج : ويجوز "والطيرَ" بمعنى مع الطير .

قال النحاس : وسمعته يخبر "قمتُ وزيداً" بمعنى مع زيد .

قال : وهو أجود من الرفع .

قال : فإن قلت قمت أنا وزيد ، كان الأجود الرفع ، ويجوز النصب .

﴿ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاَتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ﴾ يجوز أن يكون المعنى : كلٌّ قد علم الله صلاته وتسبيحه ؛ أي علم صلاة المصلّي وتسبيحَ المسبّح .

ولهذا قال : ﴿ واللهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ أي لا يخفى عليه طاعتهم ولا تسبيحهم .

ومن هذه الجهة يجوز نصب "كل" عند البصريين والكوفيين بإضمار فعل يفسّره ما بعده .

وقد قيل : المعنى قد علم كلُّ مُصَلٍّ ومسبّح صلاة نفسه وتسبيحه الذي كُلِّفه .

وقرأ بعض الناس "كلٌّ قد عُلِم صلاتُه وتسبيحُه" غير مسمّى الفاعل .

وذكر بعض النحويين أن بعضهم قرأ "كلٌّ قد عَلَّم صلاتَه وتسبيحه" ؛ فيجوز أن يكون تقديره : كلٌّ قد علّمه الله صلاته وتسبيحه .

ويجوز أن يكون المعنى : كلٌّ قد علّم غيرَه صلاته وتسبيحه ، أي صلاة نفسه ؛ فيكون التعليم الذي هو الإفهام والمراد الخصوص ؛ لأن من الناس من لم يُعَلّم .

ويجوز أن يكون المعنى كلٌّ قد استدل منه المستدِلّ ، فعبّر عن الاستدلال بالتعليم ؛ قاله المهدوِيّ .

والصلاة هنا بمعنى التسبيح ، وكرر تأكيداً ؛ كقوله : "يَعْلَمُ السِّرَّ والنَّجْوَى" .

والصلاة قد تسمَّى تسبيحاً ؛ قاله القُشَيْرِيّ .

﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السماوات والأرض وإلى الله المصير ﴾ تقدّم في غير موضع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 13 صـ ﴾

(18/551)

وقال أبو السعود :

وقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ الخ ،

استئنافٌ خُوطب به النبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ للإيذانِ بأَنَّه تعالى قد أفاضَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أعلى مراتب النُّور وأجلاها وبيَّن له من أسرار المُلكِ والمَلَكُوت أدقَّها وأخفَاها .

والهمزةُ للتَّقرير أي قد علمتَ علماً يقينيّاً شبيهاً بالمشاهدة في القوّة والرَّصانةِ بالوحي الصَّريحِ والاستدلالِ الصَّحيحِ ﴿ أَنَّ اللهَ يُسَبِّحُ لَهُ ﴾ أي ينزهه تعالى على الدَّوام في ذاته وصفاتِه وأفعاله عن كلِّ ما لا يليقُ بشأنه الجليلِ من نقص أو خللٍ ﴿ مَن فِى السموات والأرض ﴾ أي ما فيهما إما بطريق الاستقرارِ فيهما من العُقلاء وغيرِهم كائناً ما كان أو بطريق الجُزئية منهما تنزيهاً معنويّاً تفهمه العقولُ السَّليمةُ فإنَّ كلَّ موجود من الموجوداتِ المُمكنة مُركّباً كان أو بسيطاً فهو من حيثُ ماهيتُه ووجودُه وأحوالُه يدلُّ على وجود صانعٍ واجبِ الوجود متَّصفٌ بصفاتِ الكمال مقدَّسٌ عن كلِّ ما لا يليقُ بشأنٍ من شؤونه الجليلةِ وقد نبَّه على كمالِ قُوَّةِ تلك الدّلالةِ وغاية وضوحِها حيثُ عبَّر عنها بما يخصُّ العقلاَ من التَّسبيح الذي هو أقوى مراتب التَّنزيه وأظهرها تنزيلاً للسان الحالِ منزلةَ لسانِ المقالِ وأكَّدَ ذلك بإيثار كلمةِ مَن على مَا كأنَّ كلَّ شيءٍ ممَّا عزَّ وهان وكلَّ فردٍ من أفراد الأعراضِ والأعيان عاقلٌ ناطقٌ ومخبرٌ صادقٌ بعلوِّ شأنِه تعالى وعزَّةِ سُلطانه ، وتخصيصُ التَّنزيه بالذِّكر مع دلالةِ ما فيهما على اتّصافِه تعالى بنعوتِ الكمالِ أيضاً لما أنَّ مساقَ الكلامِ لتقبيح حالِ الكَفَرة في إخلالهم بالتَّنزيه بجعلهم الجماداتِ شركاءَ له في الأُلوهيَّةِ ونسبتهم إيَّاه إلى اتخاذ الولد تعالى عن ذلك عُلُّواً كبيراً .

(19/551)

وحملُ التَّسبيح على ما يليقُ بكلِّ نوعٍ من أنواع المخلوقات بأنْ يُرادَ به معنى مجازيٌّ شاملٌ لتسبيحِ العُقلاءِ وغيرهم حسبما هو المتبادَرُ من قوله تعالى : ﴿ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاَتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ﴾ يردُّه أنَّ بعضاً من العُقلاءِ وهم الكفرةُ من الثَّقلينِ لا يسبِّحونَهُ بذلك المعنى قطعاً وإنَّما تسبيحُهم ما ذُكر من الدِّلالةِ التي يُشاركهم فيها غيرُ العُقلاءِ أيضاً وفيه مزيدُ تخطئةٍ لهم وتعبيرٌ ببيان أنَّهم يسبِّحونه تعالى باعتبارِ أخسِّ جهاتهم التي هي الجماديَّةُ والجسميَّةُ والحيوانيَّةُ ولا يسبِّحونه باعتبارِ أشرفها التي هي الإنسانيَّةُ ﴿ والطير ﴾ بالرَّفعِ عطفاً على مَن وتخصيصُها بالذِّكرِ مع اندراجها في جُملة ما في الأرضِ لعدم استمرارِ قرارها فيها واستقلالها بصنعٍ بارعٍ وإنشاءٍ رائعٍ قُصد بيانُ تسبيحها من تلك الجهةِ لوضوح إنبائِها عن كمال قُدرةِ صانعِها ولطفِ تدبير مُبدعِها حسبما يُعرب عنه التَّقييدُ بقوله تعالى : ﴿ صافات ﴾ أي تُسبِّحه تعالى حال كونِها صافاتٍ أجنحتَها فإنَّ إعطاءه تعالى للأجرام الثَّقيلةِ ما تتمكنُ به من الوقوف في الجوِّ والحركةِ كيف تشاءُ من الأجنحةِ والأذناب الخفيفةِ وإرشادها إلى كيفيَّةِ استعمالها بالقبضِ والبسط حجَّةٌ نيِّرةٌ واضحة المكنونِ وآيةٌ بيِّنة لقومٍ يعقلون دالَّةٌ على كمال قُدرة الصَّانعِ المجيد وغايةِ حكمةِ المبدئِ المُعيدِ ، وقولُه تعالى : ﴿ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاَتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ﴾ بيانٌ لكمالِ عراقةِ كلِّ واحدٍ ممَّا ذُكر في التَّنزيه ورسوخ قدمِه فيه بتمثيل حالِه بحالِ مَن يَعلمُ ما يصدرُ عنه من الأفاعيلِ فيفعلها عن قصدٍ

ونيَّةٍ لا عن اتفاقٍ بلا رويَّةٍ وقد أدمج في تضاعيفِه الإشارة إلى أنَّ لكلِّ واحدٍ من الأشياء المذكورةِ مع ما ذُكر من التَّنزيه حاجةً ذاتيَّةً إليه تعالى واستفاضة منه لما يهمه بلسان استعدادِه وتحقيقه أنَّ كلَّ

(20/551)

واحدٍ من الموجُوداتِ الممكنةِ في حدِّ ذاته بمعزلٍ من استحقاق الوجود لكنَّه مستعدٌّ لأنْ يفيضَ عليه منه تعالى ما يليقُ بشأنه من الوجودِ وما يتبعه من الكمالاتِ ابتداءً وبقاء فهو مستفيضٌ منه تعالى على الاستمرار فيفيض عليه في كلِّ آنٍ من فيوض الفُنونِ المتعلِّقةِ بذاته وصفاته ما لا يحيطُ به نطاقُ البيانِ بحيث لو انقطعَ ما بينه وبين العناية الرَّبَّانيَّةِ من العلاقة لانعدمَ بالمرَّة وقد عبَّر عن تلك الاستفاضةِ المعنويَّةِ بالصَّلاةِ التي هي الدُّعاءُ والابتهالُ لتكميل التَّمثيل وإفادة المزايا المذكُورة فيما مرَّ على التَّفصيلِ وتقديمها على التَّسبيحِ في الذِّكرِ لتقدمها عليه في الرُّتبةِ هذا ويجوز أنْ يكونَ العلمُ على حقيقتِه ويراد به مطلقُ الإدراكِ وبما ناب عنه التَّنوينُ في كلِّ أنواع الطَّيرِ وأفرادها وبالصَّلاة والتَّسبيح ما ألهمه الله تعالى كلَّ واحدٍ منها من الدُّعاءِ والتَّسبيحِ المخصوصينِ به لكن لا على أنْ يكونَ الطَّيرُ معطُوفاً على كلمة مَن مرفوعاً برافعِها فإنَّه يؤدِّي إلى أنْ يُرادَ بالتَّسبيح معنى مجازيٌّ شاملٌ للتَّسبيحِ المقاليِّ

والحاليِّ من العُقلاءِ وغيرهم وقد عرفتَ ما فيه ، بل بفعل مُضمرٍ أريد به التَّسبيحُ المخصوص بالطَّيرِ معطوف على المذكور كما مرَّ في قولِه تعالى : ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنَ الناس ﴾ أي وتسبيحُ الطَّيرِ تسبيحاً خاصًّا بها حال كونِها صافاتٍ أجنحتَها وقوله تعالى : ﴿ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاَتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ﴾ أي دعاءَهُ وتسبيحَه اللَّذينِ ألهمهما الله عزَّ وجلَّ إيَّاه لبيان كمال رُسوخه فيهما وأنَّ صدورَهما عنه ليس بطريقِ الإنفاق بلا رويَّةٍ بل عن علمٍ وإيقانٍ من غير إخلالٍ بشيءٍ منهما حسبما ألهمَه الله تعالى فإنَّ إلهامَه تعالى لكلِّ نوعٍ من أنواعِ المخلوقاتِ علوماً دقيقةً لا يكادُ يهتدِي إليه جهابذةُ العُقلاءِ ممَّا لا سبيلَ إلى إنكاره أصلاً ، كيف

(21/551)

لا وإنَّ القُنفذَ مع كونه أبعدَ الأشياءِ من الإدراك قالُوا : إنَّه يحسُّ بالشَّمالِ والجَنوبِ قبل هبوبِها فيغير المدخلَ إلى جُحرِه حتَّى رُوي أنَّه كان بقُسطنطينيَّةَ قبل الفتحِ الإسلاميِّ رجلٌ قد أثرى بسببِ أنَّه كان يُنذر النَّاسَ بالرِّياحِ قبل هبوبِها وينتفعون بإنذاره بتدارُكِ أمورِ سفائِنهم وغيرها وكانَ السَّببُ في ذلك أنَّه كان يقتنِي في دارِه قُنفذاً يستدلُّ بأحوالِه على ما ذُكر ، وتخصيص تسبيحِ الطَّيرِ بهذا المَعْنى بالذِّكرِ لما أنَّ أصواتَها أظهرُ وجُوداً وأقربُ حملاً على التَّسبيحِ وقولُه تعالى : ﴿ والله عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ أي ما يفعلونَهُ اعتراضٌ مقررٌ

لمضمون ما قبله ، وما على الوجه الأوّل عبارةٌ عمّا ذُكر من الدّلالة الشّاملةِ لجميع الموجُوداتِ من العُقلاءِ وغيرِهم والتّعبيرُ عنها بالفعل مسنداً إلى ضميرِ العُقلاء لما مرّ غيرَ مرّةٍ وعلى الثّاني إمّا عبارة عنها وعن التّسبيح الخاصّ بالطّير معاً أو عن تسبيح الطّيرِ فقط فالفعلُ على حقيقته وإسناده إلى ضميرِ العُقلاء لما مرّ والاعتراضُ حينئذٍ مقررٌ لتسبيح الطّيرِ فقط وعلى الأوّلين لتسبيح الكلّ .

هذا وقد قيل إنّ الضّمير في قوله تعالى : ﴿ قَدْ عَلِمَ ﴾ لله عزّ وجلّ وفي صلاته وتسبيحه لكلٌّ أي قد علم الله تعالى صلاةَ كلِّ واحدٍ ممّا في السّموات والأرضِ وتسبيحه فالاعتراضُ حينئذٍ مقررٌ لمضمونه على الوجهين لكن لا على أنْ تكونَ ما عبارةً عمّا تعلّق به علمُه تعالى من صلاتِه وتسبيحِه بل عن جميع أحوالِه العارضةِ له وأفعاله الصّادرةِ عنه وهما داخلتانِ فيها دخولاً أوليًّا .

(22/551)

﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السموات والأرض ﴾ لا لغيرِه لأنّه الخالقُ لهما ولما فيهما من الذّواتِ والصّفاتِ وهو المتصرفُ في جميعِها إيجاداً وإعداماً بدءاً وإعادةً . وقولُه تعالى : ﴿ وإلى الله ﴾ أي إليهِ تعالى خاصّةً لا إلى غيرِه ﴿ المصير ﴾ أي رجوعُ الكلِّ بالفناء والبعثِ بيانٌ

لاختصاصِ المُلك به تعالى في المعادِ إثرَ بيانِ اختصاصِه به تعالى في المبدإِ . وإظهارُ الاسمِ الجليلِ في موقع الإضمارِ لتربية المهابةِ والإشعارِ بعلَّةِ الحُكم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 6 صـ ﴾

(23/551)

وقال الآلوسى :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِى السموات والأرض ﴾ الخ

استئناف خوطب به النبي صلى الله عليه وسلم للإيذان كما في إرشاد العقل السليم بأن الله تعالى قد أفاض عليه أعلى مراتب النور وأجلاها وبين له من أسرار الملك والملكوت أدقها وأخفاها .

وقال الطبرسي .

هو بيان للآيات التي جعلها نوراً والخطاب له عليه الصلاة والسلام والمراد به جميع المكلفين والهمزة للتقرير والرؤية هنا بمعنى العلم والظاهر أن إطلاقها عليه حقيقة .

وقيل هي حقيقة في الإبصار وإطلاقها على العلم استعارة أو مجاز لعلاقة اللزوم ، وأياً ما كان فالمراد لم تعلم بالوحي أو بالمكاشفة أو بالاستدلال أن الله تعالى ينزهه آناً فآناً في ذاته

وصفاته وأفعاله عن كل ما لا يليق بشأنه الجليل من نقص أو خلل تنزيهاً معنوياً تفهمه العقول السليمة جميع من في السموات والأرض من العقلاء وغيرهم كائناً ما كان فإن كل موجود من الموجودات الممكنة مركباً كان أو بسيطاً فهو من حيث ذاته ووجوده وأحواله المتجددة له يدل على صانع واجب الوجود متصف بصفات الكمال منزه عن كل ما لا يليق بشأن من شؤونه الجليلة وقد نبه سبحانه على كمال قوة تلك الدلالة وغاية وضوحها حيث عبر عنها بما يخص العقلاء من التسبيح الذي هو أقوى مراتب التنزيه وأظهرها تنزيلاً للسان الحال منزلة لسان المقال وتخصيص التنزيه بالذكر مع دلالة ما فيهما على اتصافه تعالى بنعوت الكمال أيضاً لما أن مساق الكلام لتقبيح حال الكفرة في إخلالهم بالتنزيه بجعلهم الجمادات شركاء له سبحانه في الألوهية ونسبتهم إياه عز وجل إلى اتخاذ الولد ونحو ذلك مما تعالى الله عنه علواً كبيراف ، وإطلاق من على العقلاء وعيرهم بطريق التغليب ، ولا يغني عن اعتباره أو اعتبار مجاز مثله إسناد التسبيح المختص بالعقلاء بحسب الظاهر كما توهمه بعض الأجلة ، وحمل بعضهم التسبيح على معنى مجازي شامل لتسبيح العقلاء وغيرهم ويسمى عموم المجاز .

(24/551)

ورد بأن بعضاً من العقلاء وهم الكفرة من الثقلين لا يسبحونه بذلك المعنى قطعاً وإنما تسبيحهم ما ذكر من الدلالة التي يشاركهم فيها غير العقلاء أيضاً .

وفي ذلك من تخطئتهم وتعييرهم ما فيه ، والقول بأن الكفرة يسبحون كالمؤمنين لكن من حيث لا يشعرون كما قال الحلاج : جحودي لك تقديس مما لا يقبله ذوو العقول وحري بأن لا يكون من المقبول ، وقال بعضهم إذا كانت من للتغليب يندرج في عمومها العقلاء المطيعون والعقلاء العاصون وغير العقلاء مطلقاً فيحمل التسبيح على معنى مجازي يصح نسبته إلى كل مما ذكر وأي مانع من ذلك وهو كما ترى .

واستظهر أبو حيان إبقاء التسبيح على ظاهره وتخصيص من بالعقلاء المطيعين وما ذكر أولاً أولى .

(25/551)

﴿ والطير ﴾ بالرفع عطفاً على ﴿ مِنْ ﴾ وتخصيصها بالذكر عليه مع اندراجها في جملة ما في الأرض لعدم استمرار قرارها فيها واستقلالها بصنع بارع وإنشار رائع قصد بيان تسبيحها من تلك الجهة لوضوح إنبائها عن كمال قدرة صانعها ولطف تدبير مبدعها حسبما يعرب عنه التقييد بقوله تعالى : ﴿ صافات ﴾ أي تسبحه الطير حال كونها

صافات أجنحتها فإن إعطاءه تعالى للأجرام الثقيلة ما يتمكن به من الوقوف في الجو والحركة كيف شاء من الأجنحة والأذناب الخفيفة وإرشادها إلى كيفية استعمالها بالقبض والبسط والتحريك يميناً وشمالاً ونحو ذلك حجة واضحة الدلالة على كمال قدرة الصانع المجيد ، وغاية حكمة المبدىء المعيد ، والعطف على ما استظهره أبو حيان على ﴿ مِنْ ﴾ أيضاً وقد صرح بذلك ، ونقل عن الجمهور أن تسبيحها حقيقي وظاهره أنه على نحو تسبيح العقلاء من الثقلين ، ولعل ملتزم ذلك لا يلتزم وجوب كون التسبيح الحقيقي بالألفاظ المألوفة لنا وإلا لا يتسنى القول بأن تسبيحها حقيقي مع هذا الوجوب لفقد الألفاظ المألوفة لنا منها ، ويجوز أن يقال : إنه تعالى ألهم الطير تسبيحاً مخصوصاً يليق بها هو غير التسبيح الحالي الذي هو الدلالة السابقة ويقدر فعل رافع لها يراد منه ذلك المعنى الملهم أي ويسبح الطير ، وتخصيص تسبيحها بذلك المعنى بالذكر لما أن أصواتها أظهر وجوداً وأقرب حملاً على التسبيح لكن التقييد بالحال على هذا حاله في الحسن دون حاله على ما سبق .

وقرأ الأعرج ﴿ والطير ﴾ بالنصب على أنه مفعول معه ، وقرأ الحسن .

(26/551)

وخارجة عن نافع ﴿ والطير صافات ﴾ برفعهما على الابتداء والخبرية ، والظاهر على هذه القراءة أن قوله تعالى : ﴿ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاَتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ﴾ خبر بعد خبر وعلى قراءة الجمهور استئناف جيء به لبيان كمال عراقة كل واحد مما ذكر من الطير وما اندرج في عموم ﴿ مَن فِى السموات والأرض ﴾ في التنزيه ورسوخ قدمه فيه بتمثيل حاله بحال من يعلم ما يصدر عنه من الأفاعيل فيفعلها عن قصد ونية لا عن اتفاق بلا روية ، وقد أدمج سبحانه في تضاعيفه الإشارة إلى أن لكل واحد من الأشياء المذكورة مع ما ذكر من التنزيه حاجة ذاتية إليه تعالى واستفاضة منه عز وجل لما يهمه بلسان استعداده ، وتحقيقه أن كل واحد من الموجودات الممكنة في حد ذاته بمعزل عن استحقاق الوجود لكنه مستعد لأن يفيض عليه منه تعالى ما يليق بشأنه من الوجود وما يتبعه من الكمالات ابتداءً وبقاءً فهو مستفيض منه تعالى على الاستمرار فيفيض عليه في كل آن من فنون الفيوض المتعلقة بذاته وصفاته ما لا يحيط به نطاق البيان بحيث لو انقطع ما بينه وبين العناية الربانية من العلاقة لانعدم بالمرة ، وقد عبر عن تلك الاستفاضة المعنوية بالصلاة التي هي الدعاء والابتهال لتكميل التمثيل ، وتقديمها على التسبيح في الذكر لتقدمها عليه في الرتبة كذا في إرشاد العقل السليم ، والكلام عليه استعارة تمثيلية والمضاف إليه الذي ناب عنه تنوين ﴿ كُلٌّ ﴾ ما يشمل المذكور المصرح به والمندرج تحت العموم حتى الجماد وضمير ﴿ عِلْمٍ ﴾ وكذا ضميرا ﴿ صَلاَتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ﴾ لكل واحد وإليه ذهب الزجاج .

وزعم بعضهم أنه يكون في ﴿ عِلْمٍ ﴾ على ذلك استعارة تبعية وقال في بيان ذلك : إنه يشبه دلالة كل واحد من المذكورين على الحق بلسان الحق والمقال وميل كل منهم إلى النفع اختياراً أو طبعاً بعلم التسبيح والصلاة فيطلق على كل واحد من تلك الدلالة والميل اسم العلم على سبيل الاستعارة ويشتق منه لفظ علم ، ومن له أدنى ذوق لا يرتضيه ، وجوز أيضاً أن يكون الصلاة مجازاً عن الميل والتسبيح مجازاً عن الدلالة ومع هذا قيل إنه وإن صح غير مناسب للتمثيل ، وزعم بعض أن الأولى أن يجعل المضاف إليه غير شامل لجماد وليس بذاك ، وجوز أن يكون ضميرا ﴿ صَلاَتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ﴾ لله تعالى على أن الإضافة للمفعول ، وجوز أن يكون لكل واحد مما في السموات والأرض ويكون ضمير ﴿ عِلْمٍ ﴾ لله عز وجل ، وقال غير واحد : يجوز أن لا يكون هناك استعارة والعلم على حقيقته ويراد به مطلق الإدراك ويراد بما ناب عنه التنوين أنواع الطير أو أفرادها وبالصلاة والتسبيح ما ألهمه الله عز وجل كل واحد من الدعاء والتسبيح المخصوصين به ، ولا بعد في هذا الإلهام فقد ألهم سبحانه كل نوع من أنواع الحيوانات علوماً دقيقة لا يكاد يهتدي إليها جهابذة العقلاء وهذا مما لا سبيل إلى إنكاره أصلاً كيف لا وأن القنفذ مع كونه أبعد الحيوانات من الإدراك

قالوا : إنه يحس بالشمال والجنوب قبل هبوبهما فيغير المدخل إلى جحره ، والجملة على هذا لبيان كمال الرسوخ في الأمرين وأن صدورهما عن الطير ليس بطريق الاتفاق بلا روية بل عن علم وإتقان نظير ما مر لكن لا على سبيل التمثيل ، وقدر فعل رافع للطير عليه أي ويسبح الطير كما تقدم ولم تجعل معطوفة على ﴿ مِنْ ﴾ مرفوعة برافعها قيل لأنه يؤدي إلى أن يراد بالتسبيح الدال عليه الفعل المذكور معنى مجازي شامل للتسبيح المقالي والحالي من العقلاء وغيرهم ، وقد تقدم ما فيه ، وجوز جعل ما ناب عنه التنوين ما يشمل الطير وغيره من المندرج في العموم السابق ، وفيه

(28/551)

أن مما اندرج في العموم الجماد ولا ينسب إليه العلم وإن كان بمعنى مطلق الإدراك والتزم أن له علماً وأنه سبحانه ألهمه صلاة وتسبيحاً لائقين به مما لا يرتضيه كثير من الناس ، وقد تقدم لك ما يتعلق بهذا المقام في سورة الإسراء فتذكر .

وجوز بعضهم على تقدير حمل العلم على المعنى الحقيقي أن يكون عطف التسبيح على الصلاة من عطف التفسير ، وأنت تعلم أنه إذا قيل ذلك على ذلك التقدير فما المانع من قبوله على التقدير السابق من جعل الاستعارة تمثيلية ، نعم يفوت حينئذٍ الإدماج الذي أشير إليه

فيما مر وهو ليس بمانع ، والحق أن احتمال التفسير بعيد ولا داعي إلى ارتكابه بل يفوت عليه ما يفوت كما لا يخفى ، وقوله تعالى : ﴿ واللهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ أي بالذي يفعلونه اعتراض تذييلي مقرر لمضمون ما قبله ، و﴿ مَا ﴾ إما عبارة عن الدلالة الشاملة لجميع الموجودات من العقلاء وغيرهم والتعبير عنها بالفعل مسنداً إلى ضمير العقلاء لما أشرنا إليه أول الكلام ، وأما عبارة عنها وعن التسبيح الخاص بالطير معاً أو عن تسبيح الطير فقط فالفعل على حقيقته وإسناده إلى ضمير العقلاء لما مر ، والاعتراض حينئذٍ مقرر لتسبيح الطير فقط وعلى الأولين لتسبيح الكل ، وإما عبارة عن الأعم من الصلاة والتسبيح وغيرهما من الأفعال الصادرة عمن في السموات والأرض والأحوال العارضة له والاعتراض حينئذٍ مقرر لمضمون ﴿ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ ﴾ أي الله تعالى صلاته وتسبيحه وأمر التعبير بالفعل والإسناد إلى ضمير العقلاء لا يخفى ، ولتعدد الأوجه فيما مر تعددت الاحتمالات هنا فتأمل ولا تغفل .

وقرأ الحسن .

وعيسى .

وسلام .

(29/551)

وهارون عن أبي عمرو ﴿ تَفْعَلُونَ ﴾ بتاء الخطاب ، وفيه كما قيل وعيد وتخويف ولعل الظاهر أن الخطاب فيه للكفرة ، وربما يجوز أن يكون ضمير الجمع على قراءة الجمهور لهم أيضاً على أن المراد بالجملة تخويفهم لإعراضهم عن تسبيحه تعالى بعد أن أخبر سبحانه عمن أخبر بأنه قد علم صلاته وتسبيحه ، وهذا وإن كان بعيداً إلا أن في القراءة المذكورة نوع تأييد له .

﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السموات والأرض ﴾

لا لغيره تعالى استقلالاً أو اشتراكاً لأنه سبحانه الخالق لهما ولما فيهما من الذوات والصفات وهو المتصرف في جميعها إيجاداً وإعداماً وإبداءاً وإعادة ، وقوله تعالى : ﴿ وإلى الله ﴾ أي إليه عز وجل خاصة لا إلى غيره أصلاً ﴿ المصير ﴾ أي رجوع الكل بالفناء والبعث بيان لاختصاص الملك به تعالى في المنتهى إثر بيان اختصاصه به تعالى في المبتدأ ، وقيل : إن الجملة لبيان أن ما يرى من ظهور بعض الآثار على أيدي المخلوقات لا ينافي الحصر السابق بإفادة أن الانتهاء إليه تعالى لا إلى غيره ويكفي ذلك في الحصر ولعل الأول أولى ، وإظهار الاسم الجليل في موضع الإضمار لتربية المهابة والإشعار بعلة الحكم . انتهى انتهى . اهـ

﴿ روح المعانى حـ 18 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

أُعقِب تمثيل ضلال أهل الضلالة وكيف حرمهم الله الهدى في قوله : ﴿ والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة ﴾ إلى قوله : ﴿ ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور ﴾ [النور : 39 ، 40] بطلب النظر والاعتبار كيف هدى الله تعالى كثيراً من أهل السماوات والأرض إلى تنزيه الله المقتضي الإيمان به وحده ، وبما ألهم الطير إلى أصواتها المعربة عن بهجتها بنعمة وجودها ورزقها الناشئَين عن إمداد الله إياها بهما فكانت أصواتها دلائل حال على تسبيح الله وتنزيهه عن الشريك ، فأصواتها تسبيح بلسان الحال .

والجملة استئناف ابتدائي ومناسبته ما علمت .

وجملة : ﴿ كل قد علم صلاته وتسبيحه ﴾ استئناف ثانٍ وهو من تمام العبرة إذ أودع الله في جميع أولئك ما به ملازمتهم لما فُطروا عليه من تعظيم الله وتنزيهه .

فتسبيح العقلاء حقيقة ، وتسبيح الطير مجاز مرسل في الدلالة على التنزيه .

وفيه استعمال لفظ التسبيح في حقيقته ومجازه ، ولذلك خولف بينهما في الجملة الثانية فعبر

بالصلاة والتسبيح مراعاة لاختلاف حال الفريقين : فريق العقلاء .

وفريق الطير وإن جمعتهما كلمة ﴿ كل ﴾ فأطلق على تسبيح العقلاء اسم الصلاة لأنه تسبيح حقيقي .

فالمراد بالصلاة الدعاء وهو من خصائص العقلاء ، وليس في أحوال الطير ما يستقيم إطلاق الدعاء عليه على وجه المجاز وأبقي لدلالة أصوات الطير اسم التسبيح لأنه يطلق مجازاً على الدلالة بالصوت بعلاقة الإطلاق وذلك على التوزيع ؛ ولولا إرادة ذلك لقيل : كل قد علم تسبيحه ، أو كل قد علم صلاته .

والخطاب في قوله : ﴿ ألم تر ﴾ للنبيء صلى الله عليه وسلم والمراد من يَبلُغ إليه ، أو الخطاب لغير معيّن فيعم كل مخاطب كما هو الشأن في أمثاله .

(31/551)

والاستفهام مستعمل كناية عن التعجيب من حال فريق المشركين الذين هم من أصحاب العقول ومع ذلك قد حرموا الهدى لما لم يجعله الله فيهم .

وقد جعل الهدى في العجماوات إذ جبلها على إدراك أثر نعمة الوجود والرزق .

وهذا في معنى قوله تعالى : ﴿ إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً ﴾ [الفرقان : 44

] .

والصافّات من صفات الطير يراد به صفهن أجنحتهن في الهواء حين الطيران .

وتخصيص الطير بالذكر من بين المخلوقات للمقابلة بين مخلوقات الأرض والسماء بذكر مخلوقات في الجو بين السماء والأرض ولذلك قيّدت بـ ﴿ صافات ﴾ .

وفعل ﴿ علم ﴾ مراد به المعرفة لظهور الفرق بين علم العقلاء بصلاتهم وعلم الطير بتسبيحها فإن الثاني مجرد شعور وقصد للعمل .

وضمائر ﴿ علم صلاته وتسبيحه ﴾ راجعة إلى ﴿ كل ﴾ لا محالة .

ولو كان المراد بها التوزيع على من في السماوات والأرض والطير من جهة وعلى اسم الجلالة من جهة لوقع ضمير فصل بعد ﴿ علم ﴾ فلكان راجعاً إلى الله تعالى .

والرؤية هنا بصرية لأن تسبيح العقلاء مشاهد لكل ذي بصر ، وتسبيح الطير مشاهد باعتبار مسماه فما على الناظر إلا أن يعلم أن ذلك المسمى جدير باسم التسبيح .

وعلى هذا الاعتبار كان الاستفهام الإنكاري مكين الوقع .

وإن شئت قلت : إن جملة ﴿ ألم تر ﴾ جارية مجرى الأمثال في كلام البلغاء فلا التفات فيها إلى معنى الرؤية .

وقيل : الرؤية هنا قلبية .

وأغنى المصدر عن المفعولين .

وجملة : ﴿ والله عليم بما يفعلون ﴾ تذييل وهو إعلام بسعة علم الله تعالى الشامل للتسبيح وغيره من الأحوال .

والإتيان بضمير جمع العقلاء تغليب .

وقد تقدم في قوله تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم ﴾ في سورة البقرة (243) وقوله : ﴿ ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن ﴾ في سورة الأنعام (6) .

وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (42)

(32/551)

تحقيق لما دل عليه الكلام السابق من إعطائه الهدى للعجماوات في شؤونه وحرمانه إياه فريقاً من العقلاء فلو كان ذلك جارياً على حسب الاستحقاق لكان هؤلاء أهدى من الطير في شأنهم .

وتقديم المعمولين للاختصاص ، أي أن التصرف في العوالم لله لا لغيره .

وفي هذا انتقال إلى دلالة أحوال الموجودات على تفرد الله تعالى بالخلق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 18 صـ ﴾

(33/551)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

اعلم أن الضمير المحذوف الذي هو فاعل علم قال بعض أهل العلم إنه راجع إلى الله تعالى في قوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السماوات ﴾ الآية ، وعلى هذا فالمعنى كل من المسبحين والمصلين . قد علم الله صلاته وتسبيحه . وقال بعض أهل العلم : إن الضمير المذكور إلى قوله : ﴿ كُلٌّ ﴾ أي كل من المصلين والمسبحين ، قد علم صلاة نفسه وتسبيح نفسه ، وقد قدمنا في سورة النحل في الكلام على قوله تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ [النحل : 97] الآية كلام الأصوليين في أن اللفظ إن احتمل التوكيد والتأسيس حُمل على التأسيس ، وبيّنا أمثلة متعددة لذلك من القرآن العظيم .

وإذا علمت ذلك فاعلم أن الأظهر على مقتضى ما ذكرنا عن الأصوليين ، أن يكون ضمير الفاعل المحذوف في قوله : ﴿ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاَتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ﴾ راجعاً إلى قوله ﴿ كُلٌّ ﴾ أي كل من المصلين قد علم صلاة نفسه ، وكل من المسبحين ، قد علم تسبيح نفسه ، وعلى هذا القول فقوله تعالى ﴿ واللهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ تأسيس لا تأكيد ، أما على القول بأن الضمير راجع إلى الله : أي قد علم صلاته يكون قوله : ﴿ واللهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ كالتكرار مع ذلك فيكون من قبيل التوكيد اللفظي .

وقد علمت أن المقرر في الأصول أن الحمل على التأسيس أرجح من الحمل على التوكيد كما تقدم إيضاحه. والظاهر أن الطير تُسبّح وتصلي صلاة وتسبيحاً يعملهما الله، ونحن لا نعلمهما كما قال تعالى: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ولكن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ [الإسراء: 44].

(34/551)

ومن الآيات الدالة على أن غير العُقلاء الله ونحن لا نعلمه. قوله تعالى في الحجارة ﴿ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ الله ﴾ [البقرة: 74] فأثبت خشية للحجارة، والخشية تكون بإدراك. وقوله تعالى: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هذا القرآن على جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُّتَصَدِّعاً مِّنْ خَشْيَةِ الله ﴾ [الحشر: 21] وقوله تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأمانة عَلَى السماوات والأرض والجبال فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا ﴾ [الأحزاب: 72] الآية. والإباء والإشفاق إنما يكونان بإدراك، والآيات والأحاديث واردة بذلك، وهو الحق. وظاهر الآية أن للطير صلاة وتسبيحاً، ولا مانع من الحمل على الظاهر ونقل القرطبي عن سفيان: أنَّ للطير ليس فيها ركوع ولا سجود اه.

ومعلوم أن الصلاة في اللغة الدعاء، ومنه قول الأعشى:

تقول بنتي وقد غربت مرتحلاً . . . يا ربِّ جنّب أبي الأوصاب والوجعَا

عليكِ مثل الذي صليتِ فاغتبطي . . . نوماً فإنّ لجنب المرء مضجعا

فقوله : مثل الذي صليت أي دعوت يعني قولها : يا رب جنب أبي الأوصاف والوجعا .

وقوله : ﴿ صَآفَّاتٍ ﴾ : أي صافّات أجنحتها في الهواء وقد بيّن تعالى في غير هذا الموضع أن إمساكه الطير صافات أجنحتها في الهواء وقابضات لها من آيات قدرته ، واستحقاقه العبادة وحده ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطير فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ الرحمن ﴾ [الملك : 19] الآية . وقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ إلى الطير مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السمآء مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ الله إِنَّ فِي ذلك لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [النحل : 79] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أضواء البيان حـ 5 صـ ﴾

(35/551)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

يريد الحق سبحانه وتعالى أن يلفتنا إلى ما يدّل على وحدة الخالق الأعلى ، وكمال قيوميته ، وكمال قدرته ، وذُكِرَتْ هذه الآية بعد عدة أوامر نواهٍ ، وكأن ربك عز وجل يريد أنْ

يُطمِئنك على أن هذا الكون الذي خلقه من أجلك وقبل أن تُولد ، بل ، وقبل أن يخلق الله آدم أعدَّ له هذه الكون ، وجعله في استقباله بسمائه وأرضه وشمسه وقمره ومائه وهوائه ، يقول لك ربك : اطمئن فلن يخرج شيء من هذا الكون عن خدمتك فهو مُسخَّر لك ، ولن يأتي يوم يتمرّد فيه ، أو يعصي أوامر الله :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السماوات والأرض ﴾ [النور : 41] .

﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ [النور : 41] يعني : ألم تعلم ، كما في قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الفيل ﴾ [الفيل : 1] ومعلوم أن النبي صلى الله عليه وسلم وُلِد عام الفيل ، ولم يَرَ هذه الحادثة ، فلماذا لم يخاطبه ربُّه بألم تعلم ويريح الناس الذين يتشكّكون في الألفاظ ؟ قالوا : ليدلّك على أن ما يخبرك الله به غيباً عنك أوثقُ مما تخبرك به عينُك مشهداً لك ؛ لأن مصدر علمك هو الله ، أَلَا ترى أن النظر قد يصيبه مرض فتختل رؤيته ، كمن عنده عمى ألوان أو قِصَر نظر . . إلخ إذن : فالنظر نفسه وهو أوثق شيء لديك قد يكذب عليك .

والتسبيح : هو التنزيه ، والتنزيه أن ترتفع بالمنزّه عن مستوى ما يمكن أنْ يجولَ بخاطرك : فالله تعالى له وجود ، وأنت لك وجود ، لكن وجودَ الله ليس كوجودك ، الله له ذاته وصفات ، لكن ليست كذاتك وصفاتك . . إلخ .

إذن : نزّه ذات الله تعالى عن الذوات التي تعرفها ؛ لأنها ذوات وُهِبَتْ الوجود ، أما ذات الله فغير موهوبة ، ذات الله ذاتية ، كذلك لك فِعْل ، ولله تعالى فِعْل .

وقد ذكرنا في قوله تعالى : ﴿ سُبْحَانَ الذي أسرى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ المسجد الحرام إلى المسجد الأقصا ﴾ [الإسراء : 1] .

إن الذين اعترضوا على هذا الفعل اعترضوا بغباء ، فلم يُفرِّقوا بين فِعْل الله وفِعْل العبد ، فرسول الله صلى الله عليه وسلم لم يقل : سريْتُ من مكة ألى بيت المقدس . إنما قال : أُسْرِي بي .

فالاعتراض على هذا فيه مغالطة ، فإنْ كنتم تضربون إليها أكباد الإبل شهراً ؛ فذلك لأن سَيْركم خاضع لقدرتكم وإمكاناتكم ، أمّا الله تعالى فيقول للشيء : كُنْ فيكون ، فلا يحتاج في فِعْله سبحانه إلى زمن . فمن الأدب ألَّا تقارن فِعْل الله بفعلك ، ومن الأدب أنْ تُنزِّه الله عن كل مَا يخطر لك ببال ، نزَّه الله ذاتاً ، ونزِّهه صفاتاً ، ونزهه أفعالاً .

ألا ترى أن (سبحان) مصدر للتسبيح ، يدل على أن تنزيه الله ثابت له سبحانه قبل أن يخلق مَنْ ينزهه ، كما جاء في قوله تعالى :

﴿ شَهِدَ الله أَنَّهُ لاَ إله إِلاَّ هُوَ ﴾ [آل عمران : 18] فشهد الحق تبارك وتعالى لنفسه قبل أنْ تشهدوا ، وقبل أن تشهد الملائكة ، فهذه هي شهادة الذات للذات . وقبل أن يخلق الله

الإنسان المسبِّح سبَّح لله السموات والأرض ساعة خلقهما سبحانه وتعالى .

وحين تتتبع ألفاظ التسبيح في القرآن الكريم تجدها جاءت مرة بصيغة الماضي ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السماوات والأرض ﴾ [الحديد : 1] فهل سبّحَتْ السموات والأرض مرة واحدة ، فقالت : سبحان الله ثم سكتَتْ عن التسبيح ؟ لا إنما سبَّحَتْ في الماضي ، ولا تزال تُسبِّح في الحاضر : ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض ﴾ [الجمعة : 1] .

وما دام أن الكون كله سبَّح لله ، وما يزال يُسبِّح فلم يَبْقَ إلا أنت يا ابن آدم : ﴿ سَبِّحِ اسم رَبِّكَ الأعلى ﴾ [الأعلى : 1] يعني : استح أن يكون الكون كله مُسبِّحاً وأنت غير مُسبِّح ، فصِلْ أنت تسبيحك بتسبيح كل هذه المخلوقات .

(37/551)

وعجيب أن نسمع من يقول أن (مَنْ) في الآية للعاقل ، فهو الذي يُسبِّح أمّا السموات والأرض فلا دخلَ لهما في هذه المسألة ، ونقول : لا دخلَ لها في تصورك أنت ، أمّا الحقيقة فإنها مثلك تُسبِّح كما قال تعالى : ﴿ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاَتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ﴾ [النور : 41] .

وقال : ﴿ وَيُسَبِّحُ الرعد بِحَمْدِهِ والملائكة مِنْ خِيفَتِهِ ﴾ [الرعد : 13] فليس لك بعد كلام الله كلام .

وآخر يقول لك : التسبيح هنا ليس على الحقيقة ، إنما هون تسبيح دلالة وحال ، لا مقال ، يعني : هذه المخلوقات تدلُّ بحالها على تسبيح الله وتنزيهه ، وأنه واحد لا شريك له ، على حد قول الشاعر :

وَفِي كُلِّ شَيء لَهُ آيَةٌ . . . تدُلُّ على أَنَّه الوَاحِدُ

وهذا القول مردود بقوله تعالى : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ولكن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ [الإسراء : 44] .

إذن : فهذه المخلوقات تُسبِّح على الحقيقة ولها لسان ولغة ، لكنك لا تفهم عنها ولا تفقه لغاتها ، وهل فهمتَ أنت كل لغات بني جنسك حتى تفهم لغات المخلوقات الأخرى ؟ إن العربي إذا لم يتعلم الإنجليزية مثلاً لا يستطيع أن يفهم منها شيئاً ، وهي لغة منطوقة مكتوبة ، ولها ألفاظ وكلمات وتراكيب مثل العربية .

إذن : لا تقُلْ تسبيحَ حال ، هو تسبيح مقال ، لكنك لا تفهمه ، وكل شيء له مقال ويعرف مقاله ، بدليل أن الله تعالى إنْ شاء أطلع بعض أهل الاصطفاء على هذه اللغات ، ففهمها كما فهم سليمان عليه السلام عن النملة ﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِّن قَوْلِهَا ﴾ [النمل : 19] وسمع كلام الهدهد وفهم عنه ما يقول عن ملكة سبأ .

ونقول لأصحاب هذا الرأي : تأملوا الخلية المسدَّسة التي يصنعها النحل وما فيها من هندسة تتحدى أساطين الهندسة والمقاييس أن يصنعوا مثلها ، تأمَّلوا عش الطائر وكيف ينسج عيدان القش ، ويُدخل بعضها في بعض ، ويجعل للعُشِّ حافَّة تحمي الصغار ، فإذا وضعْتَ يدك في العُشِّ وهو من القَشِّ وجدتَ له ملمسَ الحرير ، تأملوا خيوط العنكبوت وكيف يصطاد بها فرائسه ؟

لقد شاهدت فِلماً مصوراً يُسجِّل صراعاً بين دب وثور ، الدب رأى قرون الثور طويلة حادة ، وعلم أنها وسيلة الثور التي ستقضي عليه ، فما كان منه إلا أن هجم على الثور وأمسك قَرْنَيْه بيديه ، وظل ينهش رأس الثور بأسنانه حتى أثخنه جراحاً حتى سقط فراح يأكله .

إذن : كيف نستبعد أن يكون لهذه المخلوقات لغات تُسبِّح الله بها لا يعرفها إلا بنو جنسها ، أو مَنْ أفاض الله عليه بعلمها ؟

ثم ألم يتعلَّم الإنسان من الغراب كيف يدفن الموتى لما قَتَل قابيلُ هابيلَ ؟ كما يقول سبحانه :

﴿ فَبَعَثَ اللهُ غُرَاباً يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ ﴾ [المائدة : 31]

وكأن ربنا عز وجل يُعلِّمنا الأدب وعدم الغرور .

وقرأنا أن بعض الباحثين والدارسين لحياة النمل وجدوا أنه يُكوِّن مملكة متكاملة بلغت القمة

في النظام والتعاون ، فقد لاحظوا مجموعة تمرُّ هنا وهناك ، حتى وجدتْ قطعة من طعام فتركوها وانصرفوا ، حيث أتوا ، ثم جاءت بعدهم كوكبة من النمل التفتْ حول هذه القطعة وحملتْها إلى العُشِّ ، ثم قام الباحث بوضع قطعة أخرى ضِعْف الأولى ، فإذا بمجموعة الاستكشاف (أو الناضورجية) تمر عليها وتذهب دون أنْ تحاول حَمْلها ، وبعدها جاء جماعة من النمل ضِعْف الجماعة الأولى ، فكأن النمل يعرف الحجم والوزن والكتلة ويُجيد تقديرها .

(39/551)

وفي إحدى المرات لاحظ الباحث فتاتاً أبيض أمام عُشِّ النمل ، فلما فحصه وجده من جنين الحبة الذي يُكوِّن النبتة ، وقد اهتدى النمل إلى فصل هذا الجنين حتى لا تُنبت الحبة فتهدم عليهم العُشّ ، لهذا الحد عَلِم النمل قانون صيانته ، وعلم كيف يحمي نفسه ، وهو من أصغر المخلوقات ، أبعد هذا كله نستبعد أن يكون للنمل أو لغيره لُغته الخاصة ؟

ثم يقول سبحانه : ﴿ والطير صَآفَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاَتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ﴾ [النور : 41] فلماذا خَصَّ الطير بالذكْر مع أنها داخلة في ﴿ مَن فِي السماوات والأرض ﴾ [النور : 41] .

قالوا : خَصَّها لأن لها خصوصية أخرى وعجيبة ، يجب أن نلتفت إليها ؛ لأن الله تعالى يريد أنْ يجعل الطير مثلاً ونموذجاً لشيء أعظم ، فالطير كائن له وزن وثِقل ، يخضع لقانون الجاذبية التي تجذب للأرض كُلَّ ثقل يعلَقُ في الهواء .

لكن الحق سبحانه وتعالى يخرق هذا القانون للطير حين يصُفُّ أجنحته في الهواء ، يظل مُعلّقاً لا يسقط : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطير فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ الرحمن ﴾ [الملك : 19] .

وكان الخالق عز وجل يقول : خُذُوا من الطير المشاهد نموذجاً ووسيلة إيضاح ، فإذا قلتُ لكم : ﴿ وَيُمْسِكُ السمآء أَن تَقَعَ عَلَى الأرض إِلاَّ بِإِذْنِهِ ﴾ [الحج : 65] فَصدّقوا وآمنوا أن الله يُمسك السماء ، بل : ﴿ إِنَّ الله يُمْسِكُ السماوات والأرض أَن تَزُولاَ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ ﴾ [فاطر : 41] .

فخُذْ من المشهد الذي تدركه دليلاً على ما لا تدركه .

لكن ، مَن الفاعل في ﴿ عَلِمَ صَلاَتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ﴾ [النور : 41] .

(40/551)

يمكن أن يكون الفاعل الطير وكل ما في الوجود ، وأحسن منه أن نقول : علم الله صلاتها وتسبيحها ؛ لأنه سبحانه خالقها وهاديها إلى هذا التسبيح . إذن : فكل ما في الوجود يعلم صلاته ويعلم تسبيحه ، كما تعلم أنت المنهج ، لكنه استقام على منهجه لأنه مُسخّر وانحرفت أنت لأنك مُخيَّر .

فإنْ أردتَ أنْ تستقيمَ أمور حياتك فطبِّق منهج الله كما جاءك ؛ لذلك لا تجد في الكون خللاً أبداً إلا في منطقة الاختيار عند الإنسان ، كل شيء لا دخْلَ للإنسان فيه يسير منتظماً ، فالشمس لم تعترض في يوم من الأيام ولم تتخلف ، كذلك القمر والنجوم والهواء ، إنها منضبطة غاية الإنضباط ، حتى إن الناس يضبطون عليها حساباتهم ومواعيدهم واتجاهاتهم .

لذلك يقول تعالى : ﴿ الشمس والقمر بِحُسْبَانٍ ﴾ [الرحمن : 5] يعني : بحساب دقيق ، وما كان للشمس أنْ تضبط الوقت إلا إذا كانت هي في ذاتها منضبطة .

﴿ واللهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ [النور : 41] أي : لقيوميته تعالى على خَلْقه .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السماوات والأرض ﴾

وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (42)

يريد ربك عز وجل أنْ يُطمئنك أن الذي كلَّفك بما كلَّفك به يضمن لك مُقوِّمات حياتك ، فلن ينقطع عنك الهواء في يوم من الأيام ، ولن تتأبَّى عليك الشمس أو القمر أو الأرض ؛ لأنها

مِلْك لله ، لا يشاركه سبحانه في ملكيتها أحد يمنعها عنك ، فاطمئن إلى أنها ستؤدي مهمتها في خدمتك إلى يوم القيامة ، ولا تشغل نفسك بها ، فقد ضمنها الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(41/551)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

أخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة عن مجاهد في قوله ﴿ ألم تر أن الله يسبح له ﴾ إلى قوله ﴿ كل قد علم صلاته وتسبيحه ﴾ قال : الصلاة للإِنسان ، والتسبيح لما سوى ذلك من خلقه .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله ﴿ والطير صافات ﴾ قال : بسط أجنحتهن .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة ﴿ والطير صافات ﴾ قال : صافات بأجنحتها .

وأخرج أبو الشيخ في العظمة عن مسعر في قوله ﴿ والطير صافات كل قد علم صلاته

وتسبيحه ﴾ قال : قد سمي لها صلاة ، ولم يذكر ركوعاً ولا سجوداً . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الدر المنثور حـ 6 صـ ﴾

(42/551)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله : ﴿ والطير ﴾ :

قرأ العامَّةُ " والطيرُ " رفعاً . " صافاتٍ " نصباً : فالرفعُ عطفٌ على " مَنْ " والنصبُ على الحال . وقرأ الأعرج " والطيرَ " نصباً على المفعولِ معه و " صافَّاتٍ " حالٌ أيضاً . وقرأ الحسن وخارجة عن نافع " والطيرُ صافَّاتٌ " برفعِهما على الابتداءِ والخبر . ومفعولُ " صافَّاتٌ " محذوفٌ أي : أجنحَتَها .

قوله : ﴿ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاَتَهُ ﴾ في هذه الضمائرِ أقوالٌ ، أحدُها : أنَّها كلَّها عائدةٌ على " كل " أي : كلٌّ قد عَلِمَ هو صلاةَ نفسِه وتسبيحَها . وهذا / أولى لتوافُقِ الضمائر . والثاني : أنَّ الضميرَ في " عَلِمَ " عائدٌ على اللهِ تعالى ، وفي " صلاتَه وتسبيحَه " عائدٌ على " كل " . الثالث : بالعكس أي : عَلِمَ كلٌّ صلاةَ اللهِ وتسبيحَه أي : أَمَرَ بهما ، وبأن يُفْعَلا كإضافةِ

الخَلْقِ إلى الخالق .

ورَجَّحَ أبو البقاء أن يكونَ الفاعلُ ضميرَ "كل" قال : "لأنَّ القراءة برفع "كلٌّ" على الابتداء ، فَيَرْجِعُ ضميرُ الفاعلِ إليه ، ولو كان فيه ضميرُ اسمِ اللهِ لكان الأوْلى نَصْبَ "كل" لأنَّ الفعلَ الذي بعدها قد نَصَبَ ما هو مِنْ سببِها ، فيَصيرُ كقولك : "زيداً ضربَ عمروٌ غلامَه" فتنصِبُ "زيداً" بفعلٍ دَلَّ عليه ما بعده ، وهو أقوى من الرفع ، والآخر جائز" . قلت : وليس كما ذكر مِنْ ترجيحِ النصب على الرفعِ في هذه الصورةِ ، ولا في هذه السورة ، بل نصَّ النحويون على أن مثلَ هذه الصورةِ يُرَجَّحُ رفعُها بالابتداء على نصبها على الاشتغال ؛ لأنه لم يكُنْ ثَمَّ قَرينةٌ من القرائنِ التي جعلوها مُرَجِّحةً للنصب ، والنصب يُحْوِجُ إلى إضمارٍ ، والرفعُ لا يُحْوِج إليه ، فكانَ أرجحَ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الدر المصون حـ 8 صـ 418. 419﴾

(43/551)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

التسبيح على قسمين : تسبيحُ قولٍ ونطقٍ ، وتسبيحُ دلالة وخَلْق ؛ فتسبيحُ الخَلْقِ عام من كل مخلوقٍ وعينٍ وأثرٍ ، منه تسبيحٌ خاصٌّ بالحيوانات ، وتسبيحٌ خاصٌّ بالعقلاء وهذا منقسم إلى قسمين : تسبيحٌ صادرٌ عن بصيرة ، وتسبيحٌ حاصلٌ من غير بصيرة ؛ فالذي قرينته البصيرة مقبولٌ ، والذي تجرَّدَ عن العرفان مردود .

وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (42)

المُلْكُ مبالغةٌ من المِلْك ، والملك القدرة على الإيجاد ؛ فالمقدورات – قَبْلَ وجودها – للخالق مملوكة ، كذلك في أحوال حدوثها بعد عَدَمِها عائدةٌ إلى ما كانت عليه ، فَمُلْكُهُ لا يحدث ولا يزوال ولا يَؤُولُ شيءٌ منه إلى البطول . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات جـ2 صـ616.617 ﴾

(44/551)

قوله تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ (43) يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ (44) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما أخبر بذلك فتقرر ملكه وقدرته على البعث على حسب ما وعد به بعد أن تحرر ملكه ، دل عليه بتصرفه في العالم العلوي والسفلي بما يدل على القدرة على الإعادة فقال : ﴿ ألم تر أن الله ﴾ أي ذا الجلال والجمال ﴿ يزجي ﴾ أي يسوق بالرياح ، وسيأتي الكلام عليها في النمل ؛ وقال أبو حيان : إن الإزجاء يستعمل في سوق الثقل برفق .

﴿ سحاباً ﴾ أي بعد أن أنشأه من العدم تارة من السفل ، وتارة من العلو ، ضعيفاً رقيقاً متفرقاً ، قال أبو حيان : وهو اسم جنس واحده سحابة ، والمعنى : يسوق سحابة إلى سحابة .

وهو معنى ﴿ ثم يؤلف بينه ﴾ أي بين أجزائه بعد أن كانت قطعاً في جهات مختلفة ﴿ ثم يجعله ركاماً ﴾ في غاية العظمة متراكباً بعضه على بعض بعد أن كان في غاية الرقة

﴿ فترى ﴾ أي في تلك الحالة المستمرة ﴿ الودق ﴾ أي المطر ، قال القزاز : وقيل : هو احتفال المطر .

﴿ يخرج من خلاله ﴾ أي فتوقه التي حدثت بالتراكم وانعصار بعضه من بعض ﴿ وينزل من السماء ﴾ أي من جهتها مبتدئاً من ﴿ من جبال فيها ﴾ أي في السماء ، وهي السحاب الذي صار بعد تراكمه كالجبال ؛ وبعض فقال : ﴿ من برد ﴾ هو ماء منعقد ؛ وبين أن ذلك بإرداته واختياره بقوله : ﴿ فيصيب به ﴾ أي البرد والمطر على وجه النقمة أو الرحمة ﴿ من يشاء ﴾ من الناس وغيرهم ﴿ ويصرفه عمن يشاء ﴾ صرفه عنه ؛ ثم نبه على ما هو غاية في العجب في ذلك مما في الماء من النار التي ربما نزلت منها صاعقة فأحرقت ما لا تحرق النار فقال : ﴿ يكاد سنا ﴾ أي ضوء ﴿ برقه ﴾ وهو اضطراب النور في خلاله ﴿ يذهب ﴾ أي هو ، ملتبساً ﴿ بالأبصار ﴾ لشدة لمعه وتلألئه ، فتكون قوة البرق دليلاً على تكاثف السحاب وبشيراً بقوة المطر ، ونذيراً بنزول الصواعق ؛ ثم ذكر ما هو أدل على الاختيار ، فقال مترجماً لما مضى بزيادة : ﴿ يقلب الله ﴾ أي الذي له الأمر كله بتحويل الظلام ضياء والضياء ظلاماً ، والنقص تارة والزيادة أخرى ، مع المطر تارة والصحو أخرى ﴿ الليل والنهار ﴾ فينشأ عن ذلك التقليب من الحر والبرد والنمو والينوع واليبس ما يبهر العقول ؛ ولهذا قال منبهاً على النتيجة : ﴿ إن في ذلك ﴾ أي الأمر العظيم الذي ذكر من جميع ما تقدم ﴿ لعبرة لأولي الأبصار ﴾ أي النافذة ، والقلوب الناقدة ، يعبرون منها إلى معرفة ما لمدبر ذلك من القدرة التامة والعلم الشامل الدال قطعاً على الوحدانية . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 272 . 273 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا ﴾

اعلم أن هذا هو النوع الثاني من الدلائل وفيه مسألتان :

المسألة الأولى :

قوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ بعين عقلك والمراد التنبيه والإزجاء السوق قليلاً قليلاً ، ومنه البضاعة المزجاة التي يزجيها كل أحد وإزجاء السير في الإبل الرفق بها حتى تسير شيئاً فشيئاً ثم يؤلف بينه ، قال الفراء (بين) لا يصلح إلا مضافاً إلى اسمين فما زاد ، وإنما قال ﴿ بَيْنَهُ ﴾ لأن السحاب واحد في اللفظ ، ومعناه الجمع والواحد سحابة ، قال الله تعالى : ﴿ وَيُنْشِىءُ السحاب الثقال ﴾ [الرعد : 12] والتأليف ضم شيء إلى شيء أي يجمع بين قطع السحاب فيجعلها سحاباً واحداً ﴿ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَاماً ﴾ أي مجتمعاً ، والركم جمعك شيئاً فوق شيء حتى تجعله مركوماً ، والودق : المطر ، قاله ابن عباس وعن مجاهد : القطر ، وعن أبي مسلم الأصفهاني : الماء .

﴿ مِنْ خِلاَلِهِ ﴾ من (شقوقه ومخارقه) (1) جمع خلل كجبال في جمع جبل ، وقرىء ﴿ مِنْ خلله ﴾ .

---

(1) في الكشاف (فتوقه ومخارجه) 3/ 70 ط. دار الفكر .

(47/551)

المسألة الثانية :

اعلم أن قوله : ﴿ يُزْجِي سَحَاباً ﴾ يحتمل أنه سبحانه ينشئه شيئاً بعد شيء ، ويحتمل أن يغيره من سائر الأجسام لا في حالة واحدة ، فعلى الوجه الأول يكون نفس السحاب محدثاً ، ثم إنه سبحانه يؤلف بين أجزائه ، وعلى الثاني يكون المحدث من قبل الله تعالى تلك الصفات التي باعتبارها صارت تلك الأجسام سحاباً ، وفي قوله : ﴿ ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ﴾ دلالة على وجودها متقدماً متفرقاً إذ التأليف لا يصح إلا بين موجودين ، ثم إنه سبحانه يجعله ركاماً ، وذلك بتركب بعضها على البعض ، وهذا مما لا بد منه لأن السحاب إنما يحمل الكثير من الماء إذا كان بهذه الصفة وكل ذلك من عجائب خلقه ودلالة ملكه واقتداره ، قال أهل الطبائع إن تكون السحاب والمطر والثلج والبرد والطل والصقيع في أكثر

الأمر يكون من تكاثف البخار وفي الأقل من تكاثف الهواء ، أما الأول فالبخار الصاعد إن كان قليلاً وكان في الهواء من الحرارة ما يحلل ذلك البخار فحينئذ ينحل وينقلب هواء .

(48/551)

وأما إن كان البخار كثيراً ولم يكن في الهواء من الحرارة ما يحلل ذلك البخار فتلك الأبخرة المتصاعدة إما أن تبلغ في صعودها إلى الطبقة الباردة من الهواء أو لا تبلغ فإن بلغت فإما أن يكون البرد هناك قوياً أو لا يكون ، فإن لم يكن البرد هناك قوياً تكاثف ذلك البخار بذلك القدر من البرد ، واجتمع وتقاطر فالبخار المجتمع هو السحاب ، والمتقاطر هو المطر ، والديمة والوابل إنما يكون من أمثال هذه الغيوم ، وأما إن كان البرد شديداً فلا يخلو إما أن يصل البرد إلى الأجزاء البخارية قبل اجتماعها وانحلالها حبات كباراً أو بعد صيرورتها كذلك ، فإن كان على الوجه الأول نزل ثلجاً ، وإن كان على الوجه الثاني نزل برداً ، وأما إذا لم تبلغ الأبخرة إلى الطبقة الباردة فهي إما أن تكون كثيرة أو تكون قليلة ، فإن كانت كثيرة فهي قد تنعقد سحاباً ماطراً وقد لا تنعقد ، أما الأول فذاك لأحد أسباب خمسة : أحدها : إذا منع هبوب الرياح عن تصاعد تلك الأبخرة وثانيها : أن تكون الرياح ضاغطة إياها إلى الاجتماع بسبب وقوف جبال قدام الريح .

وثالثها : أن تكون هناك رياح متقابلة متصادمة فتمنع صعود الأبخرة حينئذ ورابعها : أن يعرض للجزء المتقدم وقوف لثقله وبطء حركته ، ثم يلتصق به سائر الأجزاء الكثيرة المدد وخامسها : لشدة برد الهواء القريب من الأرض .

(49/551)

وقد نشاهد البخار يصعد في بعض الجبال صعوداً يسيراً حتى كأنه مكبة موضوعة على وهدة ، ويكون الناظر إليها فوق تلك الغمامة والذين يكونون تحت الغمامة يمطرون والذين يكونون فوقها يكونون في الشمس ، وأما إذا كانت الأبخرة القليلة الارتفاع قليلة لطيفة فإذا ضربها برد الليل كثفها وعقدها ماء محسوساً فنزل نزولاً متفرقاً لا يحس به إلا عند اجتماع شيء يعتد به ، فإن لم يجمد كان طلاً ، وإن جمد كان صقيعاً ، ونسبة الصقيع إلى الطل نسبة الثلج إلى المطر ، وأما تكون السحاب من انقباض الهواء فذلك عندما يبرد الهواء وينقبض ، وحينئذ يحصل منه الأقسام المذكورة والجواب : أنا لما دللنا على حدوث الأجسام وتوسلنا بذلك إلى كونه قادراً مختاراً يمكنه إيجاد الأجسام لم يمكنا القطع بما ذكرتموه لاحتمال أنه سبحانه خلق أجزاء السحاب دفعة لا بالطريق الذي ذكرتموه ، وأيضاً فهب أن الأمر كما ذكرتم ، ولكن الأجسام بالاتفاق ممكنة في ذواتها فلا بد لها من مؤثر .

ثم إنها متماثلة ، فاختصاص كل واحد منها بصفته المعينة من الصعود والهبوط واللطافة والكثافة والحرارة والبرودة لا بد له من مخصص ، فإذا كان هو سبحانه خالقاً لتلك الطبائع وتلك الطبائع مؤثرة في هذه الأحوال وخالق السبب خالق المسبب ، فكان سبحانه هو الذي يزجي سحاباً ، لأنه هو الذي خلق تلك الطبائع المحركة لتلك الأبخرة من باطن الأرض إلى جو الهواء ، ثم إن تلك الأبخرة إذا ترادفت في صعودها والتصق بعضها بالبعض فهو سبحانه هو الذي جعلها ركاماً ، فثبت على جميع التقديرات أن وجه الاستدلال بهذه الأشياء على القدرة والحكمة ظاهر بين .

أما قوله سبحانه : ﴿ وَيُنَزِّلُ مِنَ السماء مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ ﴾ ففيه مسألتان :

المسألة الأولى :

(50/551)

في هذه الآية قولان : أحدهما : أن في السماء جبالاً من برد خلقها الله تعالى كذلك ، ثم ينزل منها ما شاء وهذا القول عليه أكثر المفسرين ، قال مجاهد والكلبي : جبال من برد في السماء والقول الثاني : أن السماء هو الغيم المرتفع على رؤوس الناس سمي بذلك لسموه وارتفاعه ، وأنه تعالى أنزل من هذا الغيم الذي هو سماء البرد وأراد بقوله ﴿ مِن جِبَالٍ ﴾

السحاب العظام لأنها إذا عظمت أشبهت الجبال ، كما يقال فلان يملك جبالاً من مال ووصفت بذلك توسعاً وذهبوا إلى أن البرد ماء جامد خلقه الله تعالى في السحاب ، ثم أنزله إلى الأرض ، وقال بعضهم إنما سمى الله ذلك الغيم جبالاً ، لأنه سبحانه خلقها من البرد ، وكل جسم شديد متحجر فهو من الجبال ، ومنه قوله تعالى :

﴿ واتقوا الذي خَلَقَكُمْ والجبلة الأولين ﴾ [الشعراء : 184] ومنه فلان مجبول على كذا ، قال المفسرون والأول أولى لأن السماء اسم لهذا الجسم المخصوص ، فجعله اسماً للسحاب بطريقة الاشتقاق مجاز ، وكما يصح أن يجعل الله الماء فى السحاب ثم ينزله برداً ، فقد يصح أن يكون في السماء جبال من برد ، وإذا صح في القدرة كلا الأمرين فلا وجه لترك الظاهر .

المسألة الثانية :

قال أبو علي الفارسي قوله تعالى : ﴿ مِنَ السماء مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ ﴾ فمن الأولى لابتداء الغاية لأن ابتداء الإنزال من السماء ، والثانية للتبعيض لأن ما ينزله الله بعض تلك الجبال التي في السماء ، والثالثة للتبيين لأن جنس تلك الجبال جنس البرد ، ثم قال ومفعول الإنزال محذوف والتقدير وينزل من السماء من جبال فيها من برد ، إلا أنه حذف للدلالة عليه .

أما قوله : ﴿ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاء ﴾ فالظاهر أنه راجع إلى البرد ، ومعلوم من حاله أنه قد يضر ما يقع عليه من حيوان ونبات ، فبين سبحانه أنه يصيب به من يشاء على وفق المصلحة ويصرفه ، أي يصرف ضرره عمن يشاء بأن لا يسقط عليه ، ومن الناس من حمل البرد على الحجر وجعل نزوله جارياً مجرى عذاب الاستئصال وذلك بعيد .

أما قوله تعالى : ﴿ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بالأبصار ﴾ ففيه مسائل :

المسألة الأولى :

قرىء ﴿ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ ﴾ على الإدغام وقرىء (بُرَقه) جمع بُرْقة وهي المقدار من البرق وبُرُقه بضمتين للاتباع كما قيل في جمع فعلة فعلات كظلمات ، و (سناء برقه) على المد والمقصور بمعنى الضوء والممدود بمعنى العلو والارتفاع من قولك سنى للمرتفع و ﴿ يَذْهَبُ بالأبصار ﴾ على زيادة الباء كقوله : ﴿ وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التهلكة ﴾ [البقرة : 195] عن أبي جعفر المدني .

المسألة الثانية :

وجه الاستدلال بقوله : ﴿ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بالأبصار ﴾ أن البرق الذي يكون صفته ذلك لا بد وأن يكون ناراً عظيمة خالصة ، والنار ضد الماء والبرد فظهوره من البرد يقتضي ظهور الضد من الضد ، وذلك لا يمكن إلا بقدرة قادر حكيم .

المسألة الثالثة :

اختلف النحويون في أنك إذا قلت ذهبت بزيد إلى الدار فهل يجب أن تكون ذاهباً معه إلى الدار ، فالمنكرون احتجوا بهذه الآية .

أما قوله : ﴿ يُقَلِّبُ الله الليل والنهار ﴾ فقيل فيه وجوه : منها تعاقبهما ومجيء أحدهما بعد الآخر وهو كقوله : ﴿ وَهُوَ الذي جَعَلَ الليل والنهار خِلْفَةً ﴾ [الفرقان : 62] ومنها ولوج أحدهما في الآخر وأخذ أحدهما من الآخر .

ومنها تغير أحوالهما في البرد والحر وغيرهما ولا يمتنع في مثل ذلك أن يريد تعالى معاني الكل لأنه في الإنعام والاعتبار أولى وأقوى .

(52/551)

أما قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذلك لَعِبْرَةً لأُوْلِي الأبصار ﴾ فالمعنى أن فيما تقدم ذكره دلالة لمن يرجع إلى بصيرة ، فمن هذا الوجه يدل أن الواجب على المرء أن يتدبر ويتفكر في هذه الأمور ، ويدل أيضاً على فساد التقليد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 24 صـ 15.12 ﴾

(53/551)

وقال الجصاص :

وقَوْله تَعَالَى : ﴿ وَيُنَزِّلُ مِنْ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ ﴾ .

قِيلَ : إنَّ " مِنْ " الْأُولَى لِابْتِدَاءِ الْغَايَةِ ؛ لِأَنَّ ابْتِدَاءَ الْإِنْزَالِ مِنْ السَّمَاءِ ، وَالثَّانِيَةِ لِلتَّبْعِيضِ ؛ لِأَنَّ الْبَرَدَ بَعْضُ الْجِبَالِ الَّتِي فِي السَّمَاءِ ، وَالثَّالِثَةِ لِتَبْيِينِ الْجِنْسِ ؛ إذْ كَانَ جِنْسُ تِلْكَ الْجِبَالِ جِنْسَ الْبَرَدِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(54/551)

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ يُزْجِي سَحَاباً ﴾

فيه وجهان

: أحدهما : ينزله قليلاً بعد قليل ، ومنه البضاعة المزجاة لقلتها .

الثاني : أنه يسوقه إلى حيث شاء ومنه زجا الخراج إذا انساق إلى أهله قال النابغة :

إنِّي أَتَيْتُكَ من أَهْلِي ومنْ وَطَنِي . . . أُزْجِي حُشَاشَةَ نَفْسٍ ما بِها رَمَقُ

﴿ ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ﴾ أي يجمعه ثم يفرقه عند انتشائه ليقوى ويتصل .

﴿ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَاماً ﴾ أي يركب بعضه بعضاً

. ﴿ فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلاَلِهِ ﴾ فيه قولان

: أحدهما : أن الودق البرق يخرج من خلال السحاب قال الشاعر :

أثرن عجاجة وخرجن منها . . . خروج الودق من خلَلَ السحاب

وهذا قول أبي الأشهب

: الثاني : أنه المطر يخرج من خلال السحاب ، وهو قول الجمهور ، ومنه قول الشاعر :

فلا مزنة ودقت ودقها . . . ولا أرض أبقل أبقالها

﴿ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ ﴾ فيه ثلاثة أوجه

: أحدها : أن في السماء جبال برد فينزل من تلك الجبال ما يشاء فيصيب به من يشاء

ويصرفه عمن يشاء .

الثاني : أنه ينزل من السماء برداً يكون كالجبال .

الثالث : أن السماء السحاب ، سماه لعلوه ، والجبال صفة السحاب أيضاً سمي جبالاً

لِعظمه فينزل منه برداً يصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء فتكون إصابته نقمة وصرفه

نعمة .

﴿ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ ﴾ فيه ثلاثة أوجه

: أحدها : صوت برقه .

الثاني : ضوء برقه ، قاله يحيى بن سلام ومنه قول الشماخ .

وما كادت إذا رفعت سناها . . . ليبصر ضوءها إلاّ البصير

الثالث : لمعان برقه ، قاله قتادة والصوت حادث عن اللمعان كما قال امرؤ القيس :

يضي سناه أو مصابيح راهب . . . أمال السليط بالذبال المفتل

فيكون البرق دليلاً على تكاثف السحاب ، ونذيراً بقوة المطر ، ومحذراً من نزول الصواعق .

قوله تعالى : ﴿ يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيلَ وَالنَّهَارَ ﴾ فيه ثلاث أوجه :

(55/551)

أحدها : هو أن يأتي بالليل بعد النهار ويأتي بالنهار بعد الليل ، حكاه ابن عيسى .

الثاني : أن ينقص من الليل ما يزيد من النهار وينقص من النهار ما يزيد في الليل ، حكاه يحيى بن سلام .

الثالث : أنه يغير النهار بظلمة السحاب تارة وبضوء الشمس أخرى ، ويغير الليل بظلمة السحاب مرة وبضوء القمر مرة ، حكاه النقاش .

ويحتمل رابعاً : أن يقلبها باختلاف ما يقدر فيهما من خير وشر ونفع وضر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

(56/551)

وقال ابن عطية :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا ﴾

" الرؤية في هذه الآية رؤية عين والتقدير أن أمر الله وقدرته ، و ﴿ يزجي ﴾ معناه يسوق ، والإزجاء إنما يستعمل في سوق كل ثقيل ومدافعته كالسحاب والإبل المزاحف كما قال الفرزدق " على مزاحيف تزجيها محارير " ، والبضاعة المزجاة التي تحتاج من الشفاعة والتحسين إلى ما هو كسوق الثقيل ، ومنه قول حبيب في الشيب ، " ونحن نزجيه " ، وسيبويه أبداً يقول في كلامه فأنت تزجيه إلى كذا أي تسوقه ثقيلاً متباطئاً ، وقوله ﴿ يؤلف بينه ﴾ أي بين مفترق السحاب نفسه لأن مفهوم السحاب يقتضي أن بينه فروجاً ، وهذا كما تقول جلست بين الدور ولو أضيفت " بين " إلى مفرد لم يصح إلا أن تريد آخر ، لا تقول جلست بين الدار إلا أن تريد وبين كذا ، وورش عن نافع لا يهمز " يولف " وقالون عن نافع والباقون يهمزون " يؤلف " وهو الأصل ، و " الركام " الذي يركب بعضه بعضاً ويتكاثف ،

والعرب تقول إن الله تعالى إذا جعل السحاب ركاماً بالريح عصر بعضه بعضاً فخرج ﴿ الودق ﴾ منه ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجاً ﴾ [النبأ : 14] ومن ذلك قول حسان بن ثابت : [الكامل]

كلتاهما حلب العصير . . . فعاطني بزجاجة أرخاهما للمفصل

ويروى للمِفصل بكسر الميم وبفتح الصاد ، فالمِفصل واحد المفاصيل والمفصل اللسان ويروى بالقاف ، أراد حسان الخمر والماء الذي مزجت به أي هذه من عصر العنب وهذه من عصر السحاب ، فسر هذا التفسير قاضي البصرة عبد الله بن الحسن العنبري للقوم الذين حلف صاحبهم بالطلاق أن يسأل القاضي عن تفسير بيت حسان ، و﴿ الودق ﴾ المطر ومنه قول الشاعر : [المتقارب]

فلا مزنة ودقت ودقها . . . ولا أرض أبقل إبقالها

(57/551)

وقرأ جمهور الناس " من خلاله " وهو جمع خلل كجبل وجبال ، وقرأ ابن عباس والضحاك " من خلله " ، وقرأ عاصم والأعرج " وينزّل " على المبالغة والجمهور على التخفيف ، وقوله ﴿ من جبال فيها من برد ﴾ قيل تلك حقيقة وقد جعل الله تعالى في السماء جبالاً ﴿ من

برد ﴾ وقالت فرقة ذلك مجاز وإنما أراد وصف كثرته وهذا كما تقول عند فلان جبال من المال وجبال من العلم أي في الكثرة مثل الجبال ، وحكي عن الأخفش تقديره زيادة ﴿ من ﴾ في قوله : ﴿ من برد ﴾ وهو قول ضعيف ، و﴿ من ﴾ في قوله ﴿ من السماء ﴾ في لابتداء الغاية ، وفي قوله ﴿ من الجبال ﴾ هي للتبعيض ، وفي قوله ﴿ من برد ﴾ هي لبيان الجنس ، و" السنا " مقصور ، الضوء والسناء ، ممدود ، المجد والارتفاع في المنزلة ، وقرأ الجمهور " سنا " بالقصر ، وقرأ طلحة بن مصرف " سناء " بالمد والهمز .

وقرأ طلحة أيضاً "بُرَقَة" بضم الباء وفتح الراء وهي جمع "بُرْقة" بضم الباء وسكون الراء فعلة وهي القدر من البرق كلقمة ولقم وغرفة وغرف ، وقرأ الجمهور "يَذهب" بفتح الياء ، وقرأ أبو جعفر "يُذهب" بضمها من أذهب كأن التقدير يذهب النفوس بالأبصار نحو قوله ﴿ ينبت بالدهن ﴾ [المؤمنون : 20] ويحتمل أن يكون مثل قوله ﴿ ومن يرد فيه بإلحاد بظلم ﴾ [الحج : 25] فالباء زائدة دالة على فعل يناسبها ثم اقتضت لفظ الآية الإخبار عن تقبله الليل والنهار والإتيان بهذا بعد هذا دون توطئة هو الذي تعجز عنه الفصحاء حتى يقع منهم التخليق في الألفاظ والتوطئة بالكلام وباقي الآية بين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُزْجِي سحاباً ﴾

أي : يسوقه ﴿ ثم يؤلِّف بينه ﴾ أي : يضم بعضه إلى بعض ، فيجعل القِطَع المتفرِّقة قطعة واحدة .

والسحاب لفظه لفظ الواحد ، ومعناه الجمع ، فلهذا قال : ﴿ يؤلِّف بينه ثم يجعلُه رُكاماً ﴾ أي : يجعل بعض السحاب فوق بعض ﴿ فترى الوَدْقَ ﴾ وهو المطر .

قال الليث : الوَدْقُ : المطر كُلُّه شديدُه وهيِّنُه .

قوله تعالى : ﴿ مِن خِلاله ﴾ وقرأ ابن مسعود ، وابن عباس ، وأبو العالية ، ومجاهد ، والضحاك : ﴿ من خَلَلِهِ ﴾ .

والخِلال : جمع خَلَل ، مثل : جبال وجبل .

﴿ وينزِّل من السماء ﴾ مفعول الإنزال محذوف ، تقديره : وينزِّل من السماء من جبال فيها من بَرَدٍ بَرَداً ، فاستغنى عن ذكر المفعول للدلالة عليه .

و"مِنْ" الأولى ، لابتداء الغاية ، لأن ابتداء الإنزال من السماء ، والثانية ، للتبعيض ، لأن الذي ينزله الله بعض تلك الجبال ، والثالثة ، لتبيين الجنس ، لأن جنس تلك [الجبال] جنس البَرَد ؛ قال المفسرون : وهي جبال في السماء مخلوقة من بَرَد .

وقال الزجاج: معنى الكلام: وينزِّل من السماء من جبال بَرَد فيها ، كما تقول: هذا خاتم في يدي من حديد ، المعنى: هذا خاتم حديد في يدي.

قوله تعالى: ﴿ فيُصيب به ﴾ أي: بالبَرَد ﴿ من يشاء ﴾ فيضرُّه في زرعه وثمره.

والسنا: الضوء ، ﴿ يَذْهَبُ ﴾ وقرأ مجاهد ، وأبو جعفر: ﴿ يُذْهِبُ ﴾ بضم الياء وكسر الهاء.

﴿ يقلِّب اللّهُ الليل والنهار ﴾ أي: يأتي بهذا ، ويذهب بهذا ، ﴿ إِنَّ في ذلك ﴾ التقلُّب ﴿ لعبرةً لأولي الأبصار ﴾ أي: دلالة لأهل البصائر والعقول على وحدانية الله وقدرته.

انتهى انتهى. اهـ ﴿ زاد المسير حـ 6 صـ ﴾

(59/551)

وقال القرطبى:

قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُزْجِي سَحَاباً ﴾

ذكر من حججه شيئاً آخر؛ أي ألم تر بعيْنَيْ قلبك.

"يُزْجِي سَحَاباً" أي يسوق إلى حيث يشاء.

والريح تُزْجِي السحاب ، والبقرة تزجي ولدها أي تسوقه.

ومنه زجا الخراجُ يزجو زَجاءً (ممدوداً) إذا تيسَّرت جِبايته.

وقال النابغة:

إني أتيتك من أهلي ومن وطني . . .

أزجِي حُشاشة نفسٍ ما بها رَمَقُ

وقال أيضاً:

أسْرَتْ عليه من الجوزاء سارِيَةٌ . . .

تُزْجِي الشَّمالُ عليه جامدَ البَرَدِ

﴿ ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ﴾ أي يجمعه عند انتشائه؛ ليقوَى ويتَّصل ويَكْثُف.

والأصل في التأليف الهمز، تقول: تألف.

وقرىء "يُولِّف" بالواو تخفيفاً.

والسحاب واحد في اللفظ، ولكن معناه جمع؛ ولهذا قال: "يُنْشِىءُ السَّحاب".

و"بين" لا يقع إلا لاثنين فصاعداً، فكيف جاز بينه؟ فالجواب أن "بينه" هنا لجماعة السحاب؛ كما تقول: الشجر قد جلستُ بينه لأنه جمع، وذكّر الكناية على اللفظ؛ قال معناه الفراء.

وجواب آخر: وهو أن يكون السحاب واحداً فجاز أن يقال بينه؛ لأنه مشتمل على قطع كثيرة، كما قال: . . . . . .

بين الدَّخُول فحَوْمَلِ . . .

فأوقع "بين" على الدخول ، وهو واحد لاشتماله على مواضع .

وكما تقول : ما زلت أدور بين الكوفة ؛ لأن الكوفة أماكن كثيرة ؛ قاله الزجاج وغيره .

وزعم الأصْمَعِيّ أن هذا لا يجوز ، وكان يروي :

. . . . . .

بين الدَّخُول وحَوْمَلِ . . .

﴿ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَاماً ﴾ أي مجتمعاً ، يركب بعضه بعضاً ؛ كقوله تعالى : ﴿ وَإِن يَرَوْاْ كِسْفاً مِّنَ السمآء سَاقِطاً يَقُولُواْ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴾ [الطور : 44] .

والرَّكْمُ جمع الشيء ؛ يقال منه : رَكَم الشيء يَرْكُمُه رَكْماً إذا جمعه وألقى بعضه على بعض .

وارتكم الشيءُ وتراكم إذا اجتمع .

والرُّكْمة الطين المجموع .

والرُّكَام : الرمل المتراكم .

وكذلك السحاب وما أشبهه .

(60/551)

ومُرْتَكَمُ الطريق (بفتح الكاف) جادّته .

﴿ فَتَرَى الودق يَخْرُجُ مِنْ خِلاَلِهِ ﴾ في "الوَدْق" قولان : أحدهما : أنه البرق ؛ قاله أبو الأشهب العقيلي .

ومنه قول الشاعر :

أثرنا عَجاجة وخرجن منها . . .

خروج الوَدْق من خَلَل السحاب

الثاني : أنه المطر ؛ قاله الجمهور .

ومنه قول الشاعر :

فلا مُزْنة ودَقَتْ ودْقَها . . .

ولا أرضَ أبْقَلَ إبقالها

وقال امرؤ القيس :

فدمعهما وَدْقٌ وسَحٌّ ودِيمَةٌ . . .

وسَكْبٌ وتَوْكَافٌ وتَنْهَمِلانِ

يقال : ودَقَت السحابة فهي وادقة .

ووَدَق المطر يَدِق ودْقاً ؛ أي قَطَر .

ووَدَقْتُ إليه دنوت منه .

وفي المثل : وَدَق العَيْرُ إلى الماء ؛ أي دنا منه .

يُضرب لمن خضع للشيء لحرصه عليه .

والموضع مَوْدِق .

ووَدَقْتُ (به) وَدْقاً استأنستُ به .

ويقال لذات الحافر إذا أرادت الفحل : ودَقَتْ تَدِق وَدْقاً ، وأَوْدَقَتْ واستودَقَتْ .

وأتان وَدُوق وفرس وَدُوق ، ووَدِيق أيضا ، وبها وِداق .

والوَدِيقة : شدّة الحَرّ .

وخِلال جمع خَلَل ؛ مثل الجبل والجبال ، وهي فُرَجُه ومخارج القطر منه .

وقد تقدم في "البقرة" أن كعباً قال : إن السحاب غِرْبال المطر ؛ لولا السحاب حين ينزل الماء من السماء لأفسد ما يقع عليه من الأرض .

وقرأ ابن عباس والضحاك وأبو العالية "من خلله" على التوحيد .

وتقول : كنت في خلال القوم ؛ أي وسطهم .

﴿ وَيُنَزِّلُ مِنَ السمآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ ﴾ قيل : خلق الله في السماء جبالاً من بَرَد ، فهو ينزّل منها بَرَداً ؛ وفيه إضمار ، أي ينزِّل من جبال البرد بَرَدا ، فالمفعول محذوف .

ونحو هذا قول الفرّاء ؛ لأن التقدير عنده : من جبال برد ؛ فالجبال عنده هي البرد .

و "بَرَدٍ" في موضع خفض ؛ ويجب أن يكون على قوله المعنى : من جبالٍ بردٍ فيها ، بتنوين

جبال .

وقيل : إن الله تعالى خلق في السماء جبالاً فيها برد ؛ فيكون التقدير : وينزل من السماء من جبال فيها برد .

و"مِن" صلة .

(61/551)

وقيل : المعنى وينزل من السماء قدر جبال ، أو مثل جبال من بَرَد إلى الأرض ؛ ف"من" الأولى للغاية لأن ابتداء الإنزال من السماء ، والثانية للتبعيض لأن البَرَد بعض الجبال ، والثالثة لتبيين الجنس لأن جنس تلك الجبال من البَرَد .

وقال الأخفش : إن "مِن" في الجبال و"بَرَد" زائدة في الموضعين ، والجبال والبرد في موضع نصب ؛ أي ينزل من السماء بَرَداً يكون كالجبال .

والله أعلم .

﴿ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُ عَمَّن يَشَآءُ ﴾ فتكون إصابته نقمة ، وصرفه نعمة .

وقد مضى في "البقرة" ، و"الرعد" أن من قال حين يسمع الرعد : سبحان من يسبّح الرعد بحمده والملائكة من خِيفته ثلاثاً عُوفي مما يكون في ذلك الرعد .

﴿ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ ﴾ أي ضوء ذلك البرق الذي في السحاب ﴿ يَذْهَبُ بالأبصار ﴾ من شدّة بَريقه وضوئه .

قال الشّمّاخ :

وما كادت إذا رفعَتْ سَناهَا . . .

لِيُبْصِر ضوءها إلاّ البَصِيرُ

وقال امرؤ القيس :

يضيء سَناه أو مصابيحُ راهبٍ . . .

أهان السَّلِيط في الذُّبال المُفَتَّلِ

فالسَّنَا (مقصور) ضَوْء البرق .

والسَّنَا أيضاً نبت يتداوىَ به .

والسَّناء من الرفعة ممدود .

وكذلك قرأ طلحة بن مُصَرِّف "سناء" بالمد على المبالغة في شدة الضوء والصّفاء ؛ فأطلق عليه اسم الشرف .

قال المبرّد : السَّنَا (مقصور) وهو اللمع ؛ فإذا كان من الشّرف والحسب فهو ممدود ، وأصلهما واحد وهو الالتماع .

وقرأ طلحة بن مُصَرِّف "سَنَاءُ بُرَقِه" قال أحمد بن يحيى : وهو جمع بُرْقة .

قال النحاس : البُرْقة المقدار من البَرْق ، والبَرْقة المرّة الواحدة .

وقرأ الجَحْدَرِيّ وابن القَعْقاع "يُذْهِب بالأبصار" بضم الياء وكسر الهاء ؛ من الإذهاب ، وتكون الباء في "بالأبصار" صلةً زائدة .

الباقون "يَذْهَبُ بالأبصار" بفتح الياء والهاء ، والباء للإلصاق .

والبَرْقُ دليل على تكاثف السحاب ، وبشير بقوّة المطر ، ومحذّر من نزول الصواعق .

(62/551)

﴿ يُقَلِّبُ الله الليل والنهار ﴾ قيل : تقليبهما أن يأتي بأحدهما بعد الآخر .

وقيل : تقليبهما نقصهما وزيادتهما .

وقيل : هو تغيير النهار بظلمة السحاب مرّة وبضَوْء الشمس أخرى ؛ وكذا الليل مرّة بظلمة السحاب ومرّة بضوء القمر ؛ قاله النقاش .

وقيل : تقليبهما باختلاف ما يقدّر فيهما من خير وشر ونفع وضرّ .

﴿ إِنَّ فِي ذلك ﴾ أي في الذي ذكرناه من تقلّب الليل والنهار ، وأحوال المطر والصيف والشتاء ﴿ لَعِبْرَةً ﴾ أي اعتباراً ﴿ لأُوْلِي الأبصار ﴾ أي لأهل البصائر من خَلْقي .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 13 صـ ﴾

وقال الثعالبى :

و﴿ يُزْجِي ﴾ معناه : يسوق ، والرُّكام ، الذي يركب بَعْضُه بعضاً ويتكاثف ، والودق : المطر ، قال البخاريُّ : ﴿ مِن خلاله ﴾ أي : من بين أضعاف السحاب ، انتهى .

وقوله تعالى : ﴿ وَيُنَزِّلُ مِنَ السمآء مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ ﴾ قيل : ذلك حقيقةٌ ، وقد جعل اللّه في السماء جبالاً من بَرَدٍ ، وقالت فرقة : ذلك مجازٌ ، وإنَّما أراد وصف كثرته ، وهذا كما تقول : عند فلان جبال من مال وجبال من العلم .

قلت : وحَمْلُ اللفظ على حقيقته أولى إنْ لم يمنع من ذلك مانع ، ومن كتاب «الفرج بعد الشدة» للقاضي أبي علي التنوخي ، أحد الرواة عن أبي الحسن الدَّارَقُطْنِيِّ والمُخْتَصِّينَ به قال : أخبرنا أَبو بكر الصوليُّ عن بعض العلماء قال : رأيتُ امرأةً بالبادية ، وقد جاء البَرَدُ فذهب بزرعِها ، فجاء الناس : يُعَزُّنَها فرفعت رأسها إلى السماء ، وقالت : اللهم أنتَ المَأْمُولُ لأَحْسَنِ الخَلَفِ وبيدك التعويضُ مِمَّا تَلِفَ ، فافعل بنا ما أَنْتَ أهله ، فإنَّ أرزاقنا عليك وآمالنا مصروفة إليك ، قال : فلم أبرحْ حتى مَرَّ رجل من الأَجِلاَّءِ ، فحُدِّث بما كان ؛ فَوَهَبَ لها خَمْسِمائَةِ دينارٍ ، فأجاب اللّه دعوتها وَفَرَّجَ في الحين كربتها ، انتهى . وال ﴿

سنا ﴾ مقصوراً : الضوءُ ، وبالمد : المَجْدُ ، والباء في قوله ﴿ بالأبصار ﴾ يحتمل أنْ تكون زائدة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الجواهر الحسان حـ 3 صـ ﴾

(64/551)

وقال أبو السعود :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُزْجِي سَحَاباً ﴾

الإزجاءُ سوقُ الشَّيءِ برفقٍ وسهولة غلبَ في سوقِ شيءٍ يَسيرٍ أو غيرِ معتدَ به ، ومنه البضاعةُ المُزجاة ففيه إيماءٌ إلى أنَّ السَّحابَ بالنسبة إلى قُدرته تعالى ممَّا لا يعتدُّ به ﴿ ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ﴾ أي بين أجزائه بضمِّ بعضِها إلى بعضٍ . وقُرىء يُولِّف بغير همزةٍ ﴿ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَاماً ﴾ أي مُتراكماً بعضُه فوقَ بعضٍ ﴿ فَتَرَى الودق ﴾ أي المطرَ إثرَ تراكمِه وتكاثفِه ، وقوله تعالى : ﴿ يَخْرُجُ مِنْ خِلاَلِهِ ﴾ أي من فتوقِه . حالٌ من الوَدْق لأنَّ الرُّؤيةَ بصريَّةٌ وفي تعقيب الجعلِ المذكورِ برؤيته خارجاً لا بخروجه من المبالغةِ في سرعةِ الخُروج على طريقة قوله تعالى : ﴿ أَنِ اضرب بِّعَصَاكَ البحر فانفلق ﴾ ومن الاعتناءِ بتقرير الرُّؤيةِ ما لا يخفى . والخِلالُ جمع خَلَلٍ كجبَالٍ وجَبَلٍ ، وقيل : مفردٌ كحِجابٍ وحِجاز ويؤيِّده أنَّه قُرىء من خَلَله ﴿ وَيُنَزِّلُ مِنَ السماء ﴾ من الغمامِ فإن كلَّ ما علاك سماءٌ ﴿ مِن جِبَالٍ ﴾ أي

من قطعٍ عظامٍ تُشبه الجبالَ في العِظَمِ كائنة ﴿ فِيهَا ﴾ وقوله تعالى : ﴿ مِن بَرَدٍ ﴾ مفعولُ ينزل على أنَّ مِن تبعيضيَّةٌ والأُوليانِ لابتداء الغايةِ على أنَّ الثَّانية بدلُ اشتمالٍ من الأُولى بإعادة الجارِّ أي ينزل مبتدئاً من السَّماءِ من جبال فيها بعضُ بَرَدٍ ، وقيل : المفعولُ محذوفٌ ومِن بَرَدٍ بيانٌ للجبال أي ينزل مُبتدئاً من السَّماءِ من جبالٍ فيها من جنس البَرَدِ برداً والأولُ أظهرُ لخُلوهِ عن ارتكاب الحذفِ والتَّصريح ببعضيَّةِ المنزل ، وقيل : المفعولُ مِن جبالٍ على أن مِن تبعيضيَّةٌ ومن بَرَدٍ بيانٌ للجبالِ أي ينزل من السَّماءِ بعضَ جبالٍ كائنة فيها من بَرَدٍ أي مشبهة بالجبالِ في الكثرةِ ، وأيًّا ما كان فتقديمُ الجارِّ والمجرورِ على المفعول لما مرَّ غيرَ مرَّةٍ من الاعتناء بالمقدَّم والتَّشويق إلى المؤخَّر ، وقيل : المرادُ بالسَّماءِ المظلة

(65/551)

وفيها جبال من بَرَد كما أنَّ في الأرض جبالاً من حَجَرٍ وليس في العقل ما ينفيهِ من قاطعٍ والمشهورُ أنَّ الأبخرةَ إذا تصاعدت ولم تحللها حرارةٌ فبلغت الطَّبقةَ الباردةَ من الهواءِ وقوي البردُ اجتمع هناك وصار سَحَاباً وإنْ لم يشتدَّ البردُ تقاطر مطراً وإن اشتدَّ فإنْ وصل إلى الأجزاء البُخاريَّةِ قبل اجتماعها نزل ثَلْجاً والإنزال بَرَداً وقد يبردُ الهواءُ برداً مُفرطاً فينقبض وينعقدُ سحاباً وينزل منه المطر أو الثلجُ وكلُّ ذلك مستندٌ إلى إرادةِ الله تعالى

ومشيئتِه المبنيَّةِ على الحِكَمِ والمَصَالحِ ﴿ فَيُصِيبُ بِهِ ﴾ أي بما ينزله من البَرَد ﴿ مَن يَشَآء ﴾ أنْ يصيبَه به فينالُه من ضرر في نفسه وماله ﴿ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاء ﴾ أنْ يصرفَه عنه فينجُو من غائلتِه ﴿ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ ﴾ أي ضوءُ برقِ السَّحابِ الموصوفِ بما مرَّ من الإزجاءِ والتَّأليفِ وغيرِهما .

وإضافةُ البرقِ إليه قبل الإخبار بوجودِه فيه للإيذانِ بظهور أمرِه واستغنائِه عن التَّصريح به . وقُرِىء بالمدِّ بمعنى الرِّفعةِ والعُلو وبإدغامِ الدَّالِ في السِّينِ . وبُرَقه بفتحِ الرَّاءِ على أنَّه جمع بَرْقة وهي مقدارٌ من البرق كالغُرفةِ وبضمِّها للإتباع لضمَّة الباءِ ﴿ يَذْهَبُ بالأبصار ﴾ أي يخطفُها من فرطِ الإضاءةِ وسرعةِ ورودِها ، وفي إطلاق الأبصارِ مزيدُ تهويلٍ لأمرِه وبيانٌ لشدَّةِ تأثيرِه فيها كأنَّه يكادُ يذهبُ بها ولو عندَ الإغماضِ وهذا مِن أقوى الدَّلائلِ على كمالِ القُدرةِ من حيثُ أنَّه توليدٌ للضدِّ من الضدِّ . وقُرِىء يُذهب من الإذهابِ على زيادةِ الباءِ .

﴿ يُقَلِّبُ اللهُ الليل والنهار ﴾ بالمُعاقبة بينهما أو بنقصِ أحدِهما وزيادةِ الآخرِ أو بتغير أحوالهما بالحرِّ والبردِ وغيرهما ممَّا يقعُ فيهما من الأمور التي من جُملتِها ما ذُكر من إزجاءِ السَّحابِ وما ترتَّب عليهِ .

(66/551)

﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ ﴾ إشارةٌ إلى ما فُصّل آنفاً ، وما فيه من معنى البُعد مع قُربِ المشارِ إليه للإيذانِ بعلوِّ رُتبتِه وبُعدِ منزلتِه ﴿ لَعِبْرَةً ﴾ أي لدلالةً واضحةً على وجود الصّانعِ القديمِ ووحدتِه وكمال قُدرتِه وإحاطة علمِه بجميعِ الأشياءِ ونفاذِ مشيئتِه وتنزهه عمّا لا يليقُ بشأنه العليّ ﴿ لأُوْلِى الأبصار ﴾ لكلِّ مَن له بصرٌ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 6 صـ ﴾

(67/551)

وقال الآلوسى :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُزْجِى سَحَاباً ﴾ الخ

كالتأكيد لما قبله والتنوير له والإزجاء سوق الشيء برفق وسهولة ، وقيل : سوق الثقيل برفق وغلب على ما ذكر بعض الأجلة في سوق شيء يسير أو غير معتد به ، ومنه البضاعة المزجاة أي المسوقة شيئاً بعد شيء على قلة وضعف ، وقيل : أي التي تزجى أي تدفع للرغبة عنها ، وفي التعبير بيزجي على ما ذكر إيماءاً إلى أن السحاب بالنسبة إلى قدرته تعالى مما لا يعتد به ، وهو اسم جنس جمعي واحده سحابة ، والمعنى كما في "البحر" يسوق سحابة إلى سحابة ﴿ ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ﴾ بأن يوصل سحابة بسحابة ، وقال غير

واحد : السحاب واحد كالعماء والمراد يؤلف بين أجزائه وقطعه وهذا لأن بين لا تضاف لغير متعدد وبهذا التأويل يحصل التعدد كما قيل به في قوله :

بين الدخول فحومل . . .

واستغنى بعضهم عنه بجعل السحاب اسم جنس جمعي على ما سمعت .

وقرأ ورش عن نافع ﴿ يُؤَلِّفُ ﴾ غير مهموز ﴿ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَاماً ﴾ أي متراكماً بعضه فوق بعض ﴿ فَتَرَى الودق ﴾ أي المطر شديداً كان أو ضعيفاً إثر تراكمه وتكاثفه ، وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي بجيلة عن أبيه أنه فسر الودق بالبرق ولم نره لغيره والذي رأيناه في معظم التفاسير وكتب اللغة أنه المطر ﴿ يَخْرُجُ مِنْ خِلاَلِهِ ﴾ أي من فتوقه ومخارجه التي حدثت بالتراكم والانعصار وهو جمع خلل كجبال وجبل ، وقيل : هو مفرد كحجاب وحجاز ، وأيد بقراءة ابن عباس .

وابن مسعود .

وابن زيد .

والضحاك .

ومعاذ العنبري عن أبي عمرو .

والزعفراني من ﴿ خلله ﴾ والمراد حينئذٍ الجنس ، والجملة في موضع الحال من ﴿ فَتَرَى الودق ﴾ لأن الرؤية بصرية ، وفي تعقيب الجعل المذكور برؤيته خارجاً لا بخروجه من المبالغة في سرعة الخروج على طريقة قوله تعالى : ﴿ فَقُلْنَا اضرب بِّعَصَاكَ البحر فانفلق ﴾ [الشعراء : 63] ومن الاعتناء بتقرير الرؤية ما لا يخفى ﴿ وَيُنَزِّلُ مِنَ السماء ﴾ أي من السحاب فإن كل ما علاك سماء ، وكأن العدول عنه إلى السماء للإيماء إلى أن للسمو مدخلاً فيما ينزل بناءً على المشهور في سبب تكون البرد ، وجوز أن يراد بها جهة العلو وللإيماء المذكور ذكرت مع التنزيل ﴿ مِن جِبَالٍ ﴾ أي من قطع عظام تشبه الجبال في العظم على التشبيه البليغ كما في قوله تعالى : ﴿ حتى إِذَا جَعَلَهُ نَاراً ﴾ [الكهف : 96] والمراد بها قطع السحاب ، ومن الغريب الذي لا تساعده اللغة كما في "الدرر" و"الغرر الرضوية" قول الأصبهاني : إن الجبال ما جبله الله تعالى أي خلقه من البرد ﴿ فِيهَا ﴾ أي في السماء ، والجار والمجرور في موضع الصفة لجبال ، وقوله تعالى : ﴿ مِن بَرَدٍ ﴾ وهو معروف ، وسمي برداً لأنه يبرد وجه الأرض أي يقشره من بردت الشيء بالمبرد مفعول ﴿ يُنَزِّلِ ﴾ على أن من تبعيضية ، وقيل : زائدة على رأي الأخفش والأوليان لابتداء الغاية ، والجار والمجرور الثاني بدل من الأول بدل اشتمال أو بعض أي ينزل مبتدأ من السماء من جبال كائنة فيها بعض برد أو برداً .

وزعم الحوفي أن من الثانية للتبعيض كالثالثة مع قوله بالبدلية وهو خطأ ظاهر ، وقيل : من الأولى ابتدائية والثانية للتبعيض واقعة موقع المفعول ، وقيل : زائدة على رأي الأخفش أيضاً والثالثة للبيان أي ينزل مبتدأ من السماء بعض جبال أو جبالاً كائنة فيها التي هي برد فالمنزل برد ، وعن الأخفش إن ﴿ مِنْ ﴾ الثانية ومن الثالثة زائدتان وكل من المجرورين في محل نصب أما الأول فعلى المفعولية لينزل وأما الثاني فعلى البدلية منه أي ينزل من السماء جبالاً برداً ومآله ينزل من السماء برداً .

وقال الفراء : هما زائدتان إلا أن المجرور بأولاهما في موضع نصب على المفعولية والمجرور بثانيتهما في موضع رفع إما على أنه مبتدأ و ﴿ فِيهَا ﴾ خبره والضمير من ﴿ فِيهَا ﴾ للجبال أي ينزل من السماء جبالاً في تلك الجبال برد لا شيء آخر من حصى وغيره ، وإما على أنه فاعل ﴿ فِيهَا ﴾ لأنه قد اعتمد على الموصوف أعني الجبال وضمير راجع إليها أيضاً .

والمراد بالجبال على غير ما قول الكثرة مجازاً وقد جاء استعمالها فيها كذلك في قول ابن مقبل :

إذا مت عن ذكر القوافي فلن ترى . . .

لها شاعراً مني أطب وأشعرا

وأكثر بيتاً شاعر ضربت له . . .

بطون جبال الشعر حتى تيسرا

ويقال : عنده جبل من ذهب وجبل من علم ، وعن مجاهد .

(70/551)

والكلبي وأكثر المفسرين أن المراد بالسماء المظلة وبالجبال حقيقتها قالوا : إن الله تعالى خلق في السماء جبالاً من برد كما خلق في الأرض جبالاً من حجر وليس في العقل ما ينفيه من قاطع فيجوز إبقاء الآية على ظاهرها كما قيل ، والمشهور بين أهل الحكمة أن انبعاث قوى السماويات وأشعتها قد يوجب تصعيد أجسام لطيفة مرتفعة عن الماء ممتزجة مع الهواء وهي التس سمي بخاراً ولثقله بالنسبة إلى الدخان لرطوبته ويبس الدخان يقف في حيز الهواء بحيث لا يكون واصلاً إليه الحرارة الكائنة من الشعاع المنعكس عن جرم الأرض ويكون متباعداً عن المتسخن بحرارة النار فيبقى في الطبقة الباردة من الهواء فيبرد ويتكاثف بالتصاعد شيئاً فشيئاً فيرتكم منه سحاب فيقطر مطراً إما كله أو بعضه ويتفرق

بعضه لبقائه على صورته الهوائية واستحالة ما قطر إلى صورته المائية فإن طالت مسافتها اتصلت فكانت قطراتها أكبر وإن اشتد البرد عليها صارت برداً أو نزلت ثلجاً وامتنع تصاعد البخار عند ذلك فيبرد وجه الأرض مع برد الجو فيكون من ذلك البرد القوي فإن صادف ريحاً اشتد البرد لإزالتها البخار الأرضي وإن لم يصادف ريحاً أذاب البخار الثلج وسخن وجه الأرض ، وذكروا أنه كلما طالت المسافة حتى اتصلت وكبرت القطرات وصادف البرد كان البرد أكبر مقداراً وقد ينعقد المطر برداً داخل السحاب ثم ينزل وذلك في الربيع عندما يصيبه سخونة من خارجه فتبطن البرودة في داخله عند انحلاله قطرات فيجمد وقد يكون البخار أكثر تكاثفاً فلا يقوى على الارتفاع ويبرد بسرعة بما يوافيه من برد الليل لعدم الشعاع ، وليس بحيث يصير سحاباً فيكون منه الطل وقد يجمد في الأعالي قبل تراكمه فيكون منه الصقيع وقد يتكاثف الهواء لإفراط البرد فينعقد سحاباً ويمطر بحاله ، والحق أن كل ذلك مستند إلى إرادة الله عز وجل ومشيئته سبحانه المبنية على الحكم والمصالح والأسباب التي ذكرت عادية ولا أرى بأساً بالقول بذلك وباعتبار أن

أول الأسباب القوى السماوية وأشعتها صح أن يقال : إن الإنزال مبتدأ من السماء على ما أشار إليه العلامة البيضاوي في الكلام على سورة البقرة ، وحمل الآية على ما يوافق المشهورة لا يخل بجزالتها بل هي عليه أجزل وعن شكوك العوام أبعد لا سيما أهل الجبال الذين قد يمطرون وينزل على أرضهم البرد وهم فوق الجبال في الشمس ﴿ فَيُصِيبُ بِهِ ﴾ أي بما ينزل من البرد ﴿ مَن يَشَآء ﴾ أي يصيبه فيناله ما يناله من ضرر في ماله ونفسه ﴿ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاء ﴾ أن يصرفه عنه فينجو من غائلته ، ورجوع الضميرين إلى البرد هو الظاهر .

وفي "البحر" يحتمل رجوعهما إلى ﴿ الودق ﴾ والبرد وجرى فيهما مجرى اسم الإشارة كأنه قيل فيصيب بذلك ويصرف ذلك والمطر أغلب في الإصابة والصرف وأبلغ في المنفعة والامتنان اه وفيه بعد ومنع ظاهر .

﴿ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ ﴾ أي ضوء برق السحاب الموصوف بما مر من الإزجاء والتأليف وغيرهما ، وإضافة البرق إليه قبل الإخبار بوجوده فيه للإيذان بظهور أمره واستغنائه على التصريح به وعلى ما صمعت عن أبي بجيلة لا يحتاج إلى هذا ورجوع الضمير إلى البرد أي برق البرد الذي يكون معه ليس بشيء ، وتقدم الكلام في حقيقة البرق فتذكر .

وقرأ طلحة بن مصرف ﴿ سناء ﴾ ممدوداً ﴿ سَنَا بَرْقِهِ ﴾ بضم الباء وفتح الراء جمع برقة بضم الباء وهي المقدار من البرق كالغرفة .

واللقمة ، وعنه أيضاً أنه قرأ ﴿ بَرْقِهِ ﴾ بضم الباء والراء أتبع حركة الراء لحركة الباء كما قيل نظيره في ﴿ ظلمات ﴾ [النور : 40] والسناء ممدوداً بمعنى العلو وارتفاع الشأن ، وهو هنا كناية عن قوة الضوء ، وقرىء ﴿ يَكَادُ سَنَا ﴾ بإدغام الدال في السين ﴿ يَذْهَبُ بالابصار ﴾ أي يخطفها من فرط الإضارة وسرعة ورودها ؛ وفي إطلاق الأبصار مزيد تهويل لأمره وبيان لشدة تأثيره فيها كأنه يكاد يذهب بها ولو عند الإغماض وهذا من أقوى الدلائل على كمال القدرة من حيث أنه توليد للضد من الضد .

(72/551)

وقرأ أبو جعفر ﴿ يَذْهَبُ ﴾ بضم الياء وكسر الهاء ، وذهب الأخفش .

وأبو حاتم إلى تخطئته في هذه القراءة قالا : لأن الباء تعاقب الهمزة ، ولا يجوز اجتماع أداتي تعدية ، وقد أخطآ في ذلك لأنه لم يكن ليقرأ إلا بما روي وقد أخذ القراءة عن سادات التابعين الآخذين عن جلة الصحابة أبي وغيره رضي الله تعالى عنهم ولم ينفرد هو بها كما زعم الزجاج بل قرأ أيضاً كذلك شيبة وخرج ذلك على زيادة الباء أي يذهب الأبصار وعلى أن الباء بمعنى من كما في قوله :

فلثمت فاها قابضاً بقرونها . . .

شرب النزيف يبرد ماء الحشرج

والمفعول محذوف أي يذهب النور من الأبصار ، وأجاز الحريري كما نقل عنه الطيبي الجمع بين أداتي تعدية .

﴿ يُقَلِّبُ اللهُ الليل والنهار ﴾ بإتيان أحدهما بعد الآخر أو بنقص أحدهما وزيادة الآخر أو بتغيير أحوالهما بالحر والبرد وغيرهما مما يقع فيهما من الأمور التي من جملتها ما ذكر من إزجاء السحاب وما ترتب عليه ، وكأن الجملة على هذا استئناف لبيان الحكمة فيما مر ، وعلى الأولين استئناف لبيان أنه عز وجل لا يتعاصاه ما تقدم من الإجاء وما بعده ، وقيل هي معطوفة على ما تقدم داخلة في حيز الرؤية وأسقط حرف العطف لقصد التعداد وهو كما ترى ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ ﴾ إشارة إلى ما فصل آنفاً ، وما فيه من معنى البعد مع قرب المشار إليه للإيذان بعلو رتبته وبعد منزلته ﴿ لَعِبْرَةً ﴾ لدلالة واضحة على وجود الصانع القديم ووحدته وكمال قدرته وإحاطة علمه بجميع الأشياء ونفاذ مشيئته وتنزهه عما لا يليق بشأنه العلي ، ودلالة ذلك على الوحدة بواسطة برهان التمانع وإلا ففيه خفاء بخلاف دلالته على ما عدا ذلك فإنها واضحة ﴿ لأُوْلِى الأبصار ﴾ أي لكل من له بصيرة يراجعها ويعملها فالأبصار هنا جمع بصر بمعنى البصيرة بخلافها فيما سبق .

وقيل : هو بمعنى البصر الظاهر كما هو المتبادر منه ، والتعبير بذلك دون البصائر للإيذان بوضوح الدلالة .

(73/551)

وتعقب بأنه يلزم عليه ذهاب حسن التجنيس وارتكاب ما هو كالإيطاء ، واشتهر أنه ليس في القرآن جناس تام غير ما في قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ ﴾ [الروم : 55] وفيه كلام نقله السيوطي في الإتقان ناشىء عند من دقق النظر من عدم الإتقان ، واستنبط شيخ الإسلام ابن حجر العسقلاني موضعاً آخر وهو هذه الآية الكريمة وهو لا يتم إلا على ما قلنا ، وأشار إليه البيضاوي وغيره ولعل من اختار المتبادر راعى أن حسن تلك الإشارة فوق حسن التجنيس فتأمل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 18 صـ ﴾

(74/551)

وقال القاسمى :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَاباً ﴾

أي : يسوقها برفق . ومنه البضاعة المزجاة ، يزجيها كل أحد . أي : يدفعها لرغبته عنها ،

أو لقدرته على سوقها وإيصالها : ﴿ ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ﴾ بضم بعضه إلى بعض . فيجعل القطع المتفرقة قطعة واحدة : ﴿ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَاماً ﴾ أي : متراكماً بعضه فوق بعض : ﴿ فَتَرَى الْوَدْقَ ﴾ أي : المطر : ﴿ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ ﴾ وهي فرجه ومخارج القطر منه : ﴿ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ ﴾ قال ابن كثير : يحتمل المعنى : فيصيب بما ينزل من السماء من نوعي المطر والبرد رحمة بهم ويصرفه عن آخرين حكمة وابتلاء . ويحتمل المعنى : فيصيب بالبرد من يشاء نقمة لما فيه من نثر الثمار وإتلاف الزروع . ويصرفه عمن يشاء رحمة بهم . انتهى .

وخلاصته أن الضمير إما للأقرب ، على الثاني ، أوله ولما قبله ، على الأول .

لطيفة :

قد ذكرت من الجارّة في الآية ثلاث مرات . فالأولى ابتدائية اتفاقاً . والثانية زائدة أو تبعيضية أو ابتدائية ، على جعل مدخولها بدلاً مما قبله بإعادة الجار . والثالثة فيها هذه الأقوال . وتزيد برابع ، وهو أنها لبيان الجنس . والتقدير : ينزل من السماء بعض جبال ، التي هي البرد .

﴿ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ ﴾ أي : لمعانه : ﴿ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ﴾ أي : يخطفها لشدته وقوته .

﴿ يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ أي : يأتي بكل منهما بدل الآخر خلفاً له . أو يأخذ من طول

أحدهما فيجعله في الآخر رحمة بالعباد ، لانتظام معايشهم : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 12 صـ 415 ﴾

(75/551)

وقال ابن عاشور :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ﴾

أعقب الدلالة على إعطاء الهدى في قوانين الإلهام في العجماوات بالدلالة على خلق الخصائص في الجماد بحيث تسير على السير الذي قدره الله لها سيراً لا يتغير ، فهي بذلك أهدى من فريق الكافرين الذين لهم عقول وحواس لا يهتدون بها إلى معرفة الله تعالى والنظر في أدلتها ، وفي ذلك دلالة على عظم القدرة وسعة العلم ووحدانية التصرف .

وهذا استدلال بنظام بعض حوادث الجو حتى آل إلى قوله ﴿ فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء ﴾ .

وقد حصل من هذا حسن التخلص للانتقال إلى الاستدلال على عظم القدرة وسمو الحكمة وسعة العلم الإلهي .

و﴿ يزجي ﴾ : يسوق .

يقال : أزجى الإبل إزجاء .

وأطلق الإزجاء على دنو بعض السحاب من بعض بتقدير الله تعالى الشبيهِ بالسوْق حتى يصير سحاباً كثيفاً ، فانضمام بعض السحاب إلى بعض عبر عنه بالتأليف بين أجزائه بقوله تعالى : ﴿ ثم يؤلف بينه ﴾ الخ .

وتقدم الكلام على السحاب في سورة البقرة (164) في قوله : ﴿ والسحاب المسخر ﴾ وفي أول سورة الرعد (12) .

ودخلت (بين) على ضمير السحاب لأن السحاب ذو أجزاء كقول امرىء القيس :

بَيْن الدخول فحَوْمَل

أي يؤلف بين السحابات منه .

والركام : مشتق من الركم .

والركم : الجمع والضم .

ووزن فُعال وفُعالة يدل على معنى المفعول .

فالركام بمعنى المركوم كما جاء في قوله تعالى : ﴿ وإن يَروا كسفاً من السماء ساقطاً يقولوا سحاب مركوم ﴾ في سورة الطور (44) .

فإذا تراكم السحاب بعضه على بعض حدث فيه ما يسمى في علم حوادث الجو بالسيال الكهربائي وهو البرق .

فقال بعض المفسرين : هو الودق .

وأكثر المفسرين على أن الودق هو المطر ، وهو الذي اقتصرت عليه دواوين اللغة ، والمطر يخرج من خلال السحاب .

والخلال : الفتوق ، جمع خَلَل كجبل وجبال .

وتقدم ﴿ خلال الديار ﴾ في سورة الإسراء (5) .

(76/551)

ومعنى ﴿ ينزل من السماء ﴾ يُسقط من علو إلى سفل ، أي يُنزل من جو السماء إلى الأرض .

والسماء : الجو الذي فوق جهة من الأرض .

وقوله : ﴿ من جبال ﴾ بدل من ﴿ السماء ﴾ بإعادة حرف الجر العامل في المبدل منه وهو بدل بعض لأن المراد بالجبال سحاب أمثال الجبال .

وإطلاق الجبال في تشبيه الكثرة معروف .

يقال : فلان جبل علم ، وطود علم .

وفي حديث البخاري من طريق أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لو

كان لي مثل أحُد ذهباً لسَرّني أن لا تمر علي ثلاث ليال وعندي منه شيء إلا شيئاً أرصده لدين " أي ما كان يسرني ، فالكلام بمعنى النفي ، أي لمَا سرني .

أو لما كان سرني الخ .

وحرف ﴿ من ﴾ الأول للابتداء و ﴿ من ﴾ الثاني كذلك و ﴿ من ﴾ في قوله ﴿ من برد ﴾ مزيدة في الإثبات على رأي الذين جوزوا زيادة ﴿ من ﴾ في الإثبات .

أو تكون ﴿ من ﴾ اسماً بمعنى بعض .

ومفعول ﴿ ينزل ﴾ محذوف يدل عليه قوله : ﴿ فيها من برد ﴾ والتقدير : يُنزل بَرداً .

ووقوع ﴿ من ﴾ زائدة لقصد مشاكلة قوله : ﴿ من جبال ﴾ .

وقوله : ﴿ فيصيب به من يشاء ﴾ جعل نزول البرد إصابة لأن الإصابة إذا أطلقت في كلامهم دلت على أنها حلول مكروه .

ومن ذلك سميت المصيبةَ الحادثةُ المكروهة .

وأما قوله تعالى : ﴿ إن تصبك حسنة تسؤهم ﴾ [التوبة : 50] فلأن قوله : ﴿ حسنة ﴾ قرينة على إطلاق الإصابة على مطلق الحدوث إما مجازاً مرسلاً وإما مشتركاً لفظياً أو مشتركاً معنوياً فإن (أصاب) مشتق من الصوب وهو النزول ومنه صوب المطر ، فجعل نزول البرَد إصابة لأنه يفسد الزرع والثمرة ، فضمير ﴿ به ﴾ للبرَد .

وجملة : ﴿ يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار ﴾ وصف ل ﴿ سحاباً ﴾ .

وضمير ﴿ برقه ﴾ عائد إلى ﴿ سحاباً ﴾ .

(77/551)

وفائدة هذه الصفة تنبيه العقول إلى التدبر في هذه التغيرات إذ كان شعور الناس بحدوث البرق أوضح وأكثر من شعورهم بتكوّن السحاب وتراكمه ونزول المطر والبرَد ، إذ قد يغفل الناس عن ذلك لكثرة حدوثه وتعودهم به بخلاف اشتداد البرْق فإنه لا يخلو أحد من أن يكون قد عرض له مرات ، فإن أصحاب الأبصار التي حركها خفق البرق يتذكرون تلك الحالة العجيبة الدالة على القدرة .

٧ ولهذه النكتة خصصت هذه الحالة من أحوال البرق بالذكر .

والسنا مقصوراً : ضوء البرق وضوء النار .

وأما السناء الممدود فهو الرفعة .

قال ابن دريد في أبيات له في متشابه المقصور والممدود :

زال السنا عن ناظري

ه وزال عن شرف السناء . . .

ولام التعريف في ﴿ بالأبصار ﴾ لام الحقيقة .

وقوله : ﴿ يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار ﴾ هو كقوله في سورة البقرة (20) ﴿ يكاد البرق يخطف أبصارهم ﴾ سوى أن هذه الآية زيد فيها لفظ ﴿ سنا ﴾ لأن هذه الآية واردة في مقام الاعتبار بتكوين السحاب وإنزال الغيث فكان المقام مقتضياً للتنويه بهذا البرق وشدة ضيائه حتى يكون الاعتبار بأمرين : بتكوين البرق في السحاب .

وبقوة ضيائه حتى يكاد يذهب بالأبصار .

وآية البقرة واردة في مقام التهديد والتشويه لحالهم حين كانوا مظهرين الإسلام ومنطوين على الكفر والجحود فكانت حالهم كحالة الغيث المشتمل على صواعق ورعد وبرق فظاهره منفعة وفي باطنه قوارع ومصائب .

ومن أجل اختلاف المقامين وضع التعبير هنا بـ ﴿ يذهب بالأبصار ﴾ وهنالك بقوله : ﴿ يخطف أبصارهم ﴾ لأن في الخطف من معنى النكاية بهم والتسلط عليهم ما ليس في ﴿ يذهب ﴾ إذ هو مجرد الاستلاب .

وأما التعبير هنا بـ ﴿ الأبصار ﴾ معرفاً باللام فلأن المقصود أن البرق مقارب أن يزيل طائفة من جنس الأبصار إذ اللام هنا لام الحقيقة كما في قوله : ﴿ أن يأكله الذئب ﴾ [يوسف : 13] وقولهم : ادخل السوق ، لأن الحكم على حالة البرق الشديد من حيث هي .

بخلاف آية البقرة فإنها في مقام التوبيخ لهم بأن ما شأنه أن ينتفع الناس به قد أشرف على الضر بهم فلذلك ذكر لفظ أبصار مضافاً إلى ضميرهم مع ما في هذا التخالف من تفنين الكلام الواحد على أفانين مختلفة حتى لا يكون الكلام معاداً وإن كان المعنى متحداً ولا تجد حق الإيجاز فائتاً فإن هذين الكلامين في حد التساوي في الحروف والنطق .

وهكذا نرى بلاغة القرآن وإعجازه وحلاوة نظمه .

وقرأ الجمهور ﴿ يذهب ﴾ بفتح التحتية وفتح الهاء ، فالباء للتعدية ، أي يُذهب الأبصار .

وقرأه أبو جعفر وحده بضم التحتية وكسر الهاء فتكون الباء مزيدة لتأكيد اللصوق مثل ﴿ وامسحوا برؤوسكم ﴾ [المائدة : 6] .

يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ (44)

التقليب تغيير هيئة إلى ضدها ومنه ﴿ فأصبح يُقلب كفيه على ما أنفق فيها ﴾ [الكهف : 42] أي يدير كفيه من ظاهر إلى باطن ، فتقليب الليل والنهار تغيير الأفق من حالة الليل إلى حالة الضياء ومن حالة النهار إلى حالة الظلام ، فالمقلَّب هو الجو بما يختلف عليه من الأعراض ولكن لما كانت حالة ظلمة الجو تُسمى ليلاً وحالة نوره تسمى نهاراً عُبر عن الجو في حالتيه بهما ، وعدي التقليب إليهما بهذا الاعتبار .

ومما يدخل في معنى التقليب تغيير هيئة الليل والنهار بالطول والقصر .

ولرعي تكرر التقلب بمعنييه عبر بالمضارع المقتضي للتكرر والتجدد .

والكلام استئناف .

وجيء به مستأنفاً غير معطوف على آيات الاعتبار المذكورة قبله لأنه أريد الانتقال من الاستدلال بما قد يخفى على بعض الأبصار إلى الاستدلال بما يشاهده كل ذي بصر كل يوم وكل شهر فهو لا يكاد يخفى على ذي بصر .

وهذا تدرج في موقع هذه الجملة عقب جملة ﴿ يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار ﴾ [النور : 43] كما أشرنا إليه آنفاً .

(79/551)

ولذلك فالمقصود من الكلام هو جملة ﴿ إن في ذلك لعبرة لأولى الأبصار ﴾ ، ولكن بني نظم الكلام على تقديم الجملة الفعلية لما تقتضيه من إفادة التجدد بخلاف أن يقال : إن في تقليب الليل والنهار لعبرة .

والإشارة الواقعة في قوله : ﴿ إن في ذلك ﴾ إلى ما تضمنه فعل ﴿ يقلب ﴾ من المصدر .

أي إن في التقليب .

ويرجح هذا القصد ذكر العبرة بلفظ المفرد المنكر .

والتأكيد بـ ﴿ إن ﴾ إما لمجرد الاهتمام بالخبر وإما لتنزيل المشركين في تركهم الاعتبار بذلك منزلة من ينكر أن في ذلك عبرة .

وقيل : الإشارة بقوله : ﴿ إن في ذلك ﴾ إلى جميع ما ذكر آنفاً ابتداء من قوله : ﴿ ألم تر أن الله يزجي سحاباً ﴾ [النور : 43] فيكون الإفراد في قوله : ﴿ لعبرة ﴾ ناظراً إلى أن مجموع ذلك يفيد جنس العبرة الجامعة لليقين بأن الله هو المتصرف في الكون .

ولم تَرد العبرة في القرآن معرّفة بلام الجنس ولا مذكورة بلفظ الجمع . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 18 صـ ﴾

(80/551)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا ﴾

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ [النور : 43] يعني : ألم تعلم ، وقد وقفنا مع تطور العلم على كيفية تكوُّن المطر بين التبخير والتكثيف الذي يُكوِّن السحاب ، وقلنا سابقاً : إن مُسطح الماء على الأرض ثلاثة أرباع اليابسة حتى تكفي هذه المساحة البخر اللازم لتكوّن المطر ،

ونحن نُجري مثل هذه العملية في تقطير الماء حين نغلي الماء ونستقبل البخار على سطح بارد ، فتحدث له عملية التكثيف .

وقد أوضحنا هذه العملية بكوب الماء حين تتركه ممتلئاً وتسافر مثلاً ، فحين تعود تجد الكوب قد نقص قليلاً ، أما إذا أرقْتَهُ على الأرضِ ، فإنه يجفُّ سريعاً ، وقبل أن تغادر المكان ، لماذا ؟ لأنك وسَعْتَ مساحة البَخْر .

ومعنى ﴿ يُزْجِي سَحَاباً ﴾ [النور : 43] أي : يرسله برِفْق ومَهَل ؛ لذلك لما وصف الشاعر مَشْي الفتاة قال :

كَأَنَّ مِشْيَتَها مِنْ بيْتِ جَارَتِها . . . مَرُّ السَّحابَة لاَ رَيْث ولاَ عَجَل

﴿ ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ﴾ [النور : 43] أي : يجمع بعضه على بعض ، وحين يُجمع الشيء بعضه على بعض لا بُدَّ أن يبقى بينه فاصل ، فلا يلتحم بغيره التحاماً تاماً ، ولولا هذه الفواصل بين قِطَع السحاب ، ولولا هذه الفتوق ما نزل الوَدَق من خلاله .

ولو شاء سبحانه لجعل السحاب قطعة واحدة ، ولكنه سبحانه يؤلف بينه ويُجمّعه بعضه على بعض دون أنْ يُوحّده تكويناً ، فيحدث بذلك فراغاً بين قطع السحاب . أرأيتَ حين نلصق الورق بالصمغ مثلاً فمهما وضعت عليه من ثقل لا بُدَّ أن يبقى بينه فراغات ؛ لأنه ليس ذاتاً واحدة .

وعملية تفريغ الهواء هذه تلاحظها حين تضع كوباً مبلولاً وتتركه لفترة ، فيتبخر الماء من تحته ويخرج الهواء ، فإذا أردْتَ رفعه وجدته صعباً لماذا ؟ لتفريغ الهواء من تحت قاعدة الكوب ، وفي هؤلاء الذين يعالجون الآلام الناتجة عن البرد ، فيضعون الكوب مقلوباً على مكان الألم ، ثم يُشعِلُون بداخله قطعة من القماش مثلاً لتحرق الهواء بداخل الكوب .

وبذلك نمنع الخلل في التقاء الكوب بالجسم ، وهذه المسألة هي سِرُّ عظمة قدماء المصريين في البناء ، حيث تتماسك الحجارة دون وجود (مونه) تربط بينها .

إذن : وجود الهواء بين الشيئن يُحدِث خللاً بينهما ، ولولا هذا الخلل في السحاب ما نزل منه الماء ، والمطر آية عظيمة من آيات الله لا نشعر بها ، ولك أنْ تتصور كم يُكلِّفنا كوب الماء المقطّر حين نُعِدُّه في المعمل ، فما بالك بالمطر الذي يسقي الأرض كلها ؟

ثم يقول تعالى : ﴿ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَاماً ﴾ [النور : 43] يعني : مُكدَّساً بعضه على بعض ، وفي آية أخرى : ﴿ وَإِن يَرَوْاْ كِسْفاً مِّنَ السمآء سَاقِطاً يَقُولُواْ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴾ [الطور : 44] متراكم بعضه على بعض ﴿ فَتَرَى الودق ﴾ [النور : 43] أي : المطر : ﴿ يَخْرُجُ مِنْ خِلاَلِهِ ﴾ [النور : 43] أي : من خلال هذه الفجوات والفواصل التي تفصل بين السُّحُب .

وهذا الماء الذي ينزل من السماء فيُحيي به الله الأرض قد يأتي نقمةً وعذاباً ، كما قال

سبحانه : ﴿ وَيُنَزِّلُ مِنَ السمآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَآءُ ﴾ [النور : 43] ولنا في أهل مأرب الذين أغرقهم الله عبرةٌ وعظة .

ولو تأملتَ لوجدتَ الماء والنار عدوَيْن متقابلين يصعب مقاومتهما ؛ لذلك كان العرب إلى عهد قريب يخافون الماء لما عاينوه من غرق بعد انهيار سدِّ مأرب ؛ لذلك آثروا أنْ يعيشوا في الصحراء بعيداً عن الماء .

(82/551)

وبالماء نجَّى الله تعالى موسى عليه السلام وأغرق عدوه فرعون ، ففعل سبحانه الشيء وضده بالشيء الواحد .

وقوله تعالى : ﴿ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بالأبصار ﴾ [النور : 43] أي : الضوء الشديد الذي يُحدِثه السحاب يكاد أن يخطف الأبصار ، وفي البرق تتولد النار من الماء ؛ لذلك حينما يقول تعالى : ﴿ وَإِذَا البحار سُجِّرَتْ ﴾ [التكوير : 6] فصدِّق هذه الآية الغيبية ؛ لأنك شاهدت نموذجاً لها في مسألة البرق .

ثم يقول الحق سحبانه : ﴿ يُقَلِّبُ الله اليل والنهار ﴾

فالليل والنهار آيتان يتتابعان لكن دون رتابة ، فالليل قد يأخذ من النهار ، والنهار يأخذ من

الليل ، وقد يستويان في الزمن تماماً . ومن تقليب الليل والنهار ما يعتريهما من حَرٍّ أو برد أو نور وظلمة .

إذن : فالمسألة ليست ميكانيكية رتيبة ، إنما هي قيومية الله تعالى وقدرته في تصريف الأمور على مراده تعالى ؛ لذلك يقول تعالى بعدها : ﴿ إِنَّ فِي ذلك لَعِبْرَةً لأُوْلِي الأبصار ﴾ [النور : 44] .

العِبرة والعَبرة والعبور والتعبير كلها من مادة واحدة ، نقول : هذا مكان العبور يعني الانتقال من جهة إلى جهة أخرى ، وفلان عبَّر عن كذا ، يعني : نقل الكلام النفسي إلى كلام باللسان ، والعبرة أنْ ننظرَ في الشيء ونعتبر ، ثم ننتقل منه إلى غيره ، وكذلك العَبْرة لأنها حزن أسال شيئاً ، فنزل من عيني الدمع .

والعبرة هنا لمن ؟ ﴿ لأُوْلِي الأبصار ﴾ [النور : 44] والمراد : الأبصار الواعية لا الأبصار التي تدرك فقط ، والإنسان له إدراكات بوسائلها ، وله عقل يستقبل المدركات ويغربلها ، ويخلُص منها إلى قضايا ، ومن الناس مَنْ يبصر لكنه لا يرى شيئاً ولا يصل من رؤيته إلى شيء ، ومنهم أصحاب النظر الواعي المدقِّق ، فالذي كشف قوة البخار رأى القِدْر وهي تغلي وتفور فيرتفع عليها الغطاء ، وهذا منظر نراه جميعاً الرجل والمرأة ، والكبير والصغير ، لكن لم يصل أحد إلى مثل ما وصل إليه .

إذن : المراد الأبصار التي تنقل المبصر إلى العقل ليُحلِّله ويستنبط ما فيه من أسباب ، لعله يستفيد منها بشيء ينفعه ، والله تعالى قد خلق في الكون ظواهرَ وآياتٍ لو تأملها الإنسان ونظر إليها بتعقُّل وتبصُّر لاستنبطَ منها مَا يُثري حياته ويرتقي بها . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(84/551)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا ﴾

أخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك في قوله ﴿ فترى الودق ﴾ قال : المطر .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر عن مجاهد في قوله ﴿ فترى الودق ﴾ قال : القطر .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي بجيلة عن أبيه قال : ﴿ الودق ﴾ البرق .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن زيد في قوله ﴿ من خلاله ﴾ قال : السحاب .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس أنه قرأها ﴿ من خلله ﴾ بفتح الخاء من غير ألف .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة عن كعب قال : لو أن الجليد ينزل من السماء الرابعة ، لم يمر بشيء إلا أهلكه .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ يكاد سنا برقه ﴾ يقول : ضوء برقه .

وأخرج الطستي عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق قال له : أخبرني عن قوله : ﴿ يكاد سنا برقه ﴾ قال : السنا الضوء . قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم . أما سمعت أبا سفيان بن الحارث وهو يقول :

يدعو إلى الحق لا يبغي به بدلاً . . . يجلو بضوء سناه داجي الظلم

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة ﴿ يكاد سنا برقه ﴾ قال : لمعان البرق .

وأخرج ابن أبي حاتم عن شهر بن حوشب أن كعباً سأل عبد الله بن عمرو عن البرق قال : هو ما يسبق من البرد . وقرأ ﴿ جبال فيها من برد يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله ﴿ يقلب الله الليل والنهار ﴾ قال : يأتي الليل ، ويذهب بالنهار ، ويأتي بالنهار ، ويذهب بالليل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 6 صـ ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله : ﴿ بَيْنَهُ ﴾ :

إنما دخلَتْ " بينَ " على مفردٍ وهي إنما تَدْخُلُ على المثَّنى فما فوقَه لأنه : إمَّا أَنْ يُرادَ بالسحاب الجنسُ فعاد الضميرُ عليه على حكمِه ، وإمَّا أَنْ يُرادَ حَذْفُ مضافٍ أي : بين قِطَعِه ، فإنّ كلَّ قطعةٍ سَحابةٌ .

قوله : ﴿ يَخْرُجُ مِنْ خِلاَلِهِ ﴾ تقدَّم الخلافُ في " خِلال " هل هو مفرد كحِجاب أم جمعٌ كجِبال جمع جَبَل ؟ ويؤيِّد الأولَ قراءةُ ابنِ مسعودٍ والضحاكِ ، ويروى عن أبي عمروٍ أيضاً " مِنْ خَلَله " بالإفرادِ .

والوَدْقُ قيلاً : هو المطرُ ضعيفاً كان أوشديداً . قال :

3452 فلا مُزْنَةٌ وَدَقَتْ وَدْقَها . . . ولا أرضَ أَبْقَلَ إبْقالَها

وقيل : هو البَرْقُ . وأُنْشد :

3453 أَثَرْنَ عَجاجةً وخَرَجْنَ منها . . . خُروجَ الوَدْقِ مِنْ خَلَلِ السَّحاب

والوَدْقُ في الأصل : مصدرٌ يقال : وَدَقَ السحابُ يَدِقُ وَدْقاً و "يَخْرُجُ" حالٌ لأنها بَصَرية .

قوله : ﴿ مِنَ السمآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ ﴾ "مِن" الأولى لابتداء الغايةِ اتفاقاً . وأمَّا

الثانيةُ ففيها ثلاثةُ أوجهٍ ، أحدها : أنها لابتداءِ الغايةِ أيضاً فهي ومجرورُها بدلٌ من الأولى بإعادة العامِل . والتقدير : ويُنَزِّلُ من جبالِ السماءِ أي : من جبالٍ فيها ، فهو بدل اشتمالٍ . الثاني : أنها للتبعيض ، قاله الزمخشري وابنُ عطية . فعلى هذا هي ومجرُورها في موضعِ مفعولِ الإنزالِ كأنه قال : ويُنَزِّل بعضَ جبالٍ . الثالثَ : أنها زائدة أي : يُنَزِّل من السماءِ جبالاً . وقال الحوفيُّ : "مِنْ جبال بدلٌ مِن الأُولى" . ثم قال : "وهي للتبعيضِ" .

وردَّه الشيخُ : بأنه لا تَسْتَقيم البدليَّةُ إلا بترافقهما معنىً . لو قلت : "خَرَجْتُ من بغدادَ من الكَرْخِ" لم تكنِ الأولى والثانية إلاَّ لابتداءِ الغاية .

(86/551)

وأمَّا الثالثة ففيها أربعةُ أوجهٍ : الثلاثةُ المتقدمةُ . والرابع : أنها لبيانِ الجنسِ . قاله الحوفي والزمخشري ، فيكون التقديرُ على قولِهما : ويُنَزِّل من السماء بعضَ جبالٍ التي هي البَرَدُ ، فالمُنَزَّل بَرَدٌ لأنَّ بعضَ البَرَدِ بَرَدٌ . ومفعولُ "يُنَزِّلُ" هو "مِنْ جبال" كما تقدَّمَ تقريرُه . وقال الزمخشري : "أو الأَوْلَيان للابتداء ، والثالثةُ للتبعيض" قلت : يعني أن الثانيةَ بدلٌ من الأولى كما تقدَّم تقريرُه ، وحينئذ يكون مفعول "يُنَزِّل" هو الثالثةَ مع مجرورها تقديرُه : ويُنَزِّلُ بعضَ بردٍ من السماء مِنْ جبالِها . وإذا قيل : بأنَّ الثانيةَ والثالثةَ زائدتان فهل مجرورُهما في محلِّ

نصب ، والثاني بدلٌ من الأول ، والتقدير : ويُنَزِّلُ من السماء جبالاً بَرَداً ، وهو بدلُ كلٍ مِنْ كلٍ ، أو بعضٍ مِنْ كلٍ ، أو الثاني في محلِّ نصب مفعولاً ل "يُنَزِّل" ، والثالثُ في محل رفعٍ على الابتداء ، وخبرُه الجارُّ قبلَه ؟ خلافٌ . الأولُ قولُ الأخفشِ ، والثاني قولُ الفراءِ . وتكون الجملةُ على قولِ الفراءِ صفةً ل "جبال" ، فيُحْكَمُ على موضعِها بالجرِّ اعتباراً باللفظِ ، أو بالنصبِ اعتباراً بالمَحَلِّ .

ويجوزُ أن يكونَ "فيها" وحدَه هو الوصفَ ، ويكون "مِنْ بَرَدٍ" فاعلاً به ؛ لاعتمادِه أي : استقرَّ فيها .

وقال الزَّجاج : "معناه : ويُنَزِّلُ مِن السماءِ مِنْ جبالِ بَرَدٍ فيها كما تقولُ : "هذا خاتمٌ في يدي من حديدٍ" أي : خاتم حديدٍ في يدي . وإنما جِئْتَ في هذا وفي الآية ب "مِنْ" لَمَّا فرَّقْتَ ، ولأنَّك إذا قلت : هذا خاتمٌ مِنْ حديدٍ وخاتمٌ حديدٍ كان المعنى واحداً" انتهى . فيكونُ "مِنْ بَرَدٍ" في موضعِ جَرٍّ صفةً/ ل "جبال" ، كما كان "من حديد" صفةً ل "خاتم" ، ويكونُ مفعولُ "يُنَزِّل" "من جبال" . ويَلْزَمُ مِنْ كونِ الجبال برداً أَنْ يكونَ المُنَزَّلُ بَرَداً .

(87/551)

وقال أبو البقاء : " والوجه الثاني : أنَّ التقدير : شيئاً من جبالٍ ، فحُذِفَ الموصوفُ واكتُفِي بالصفةِ . وهذا الوجهُ هو الصحيحُ ؛ لأنَّ قولَه ﴿ فِيهَا مِن بَرَدٍ ﴾ يُحْوِجُك إلى مفعولٍ يعودُ الضميرُ إليه ، فيكونُ تقديرُه : ويُنَزِّلُ مِنْ جبالِ السماء جبالاً فيها بَرَدٌ . وفي ذلك زيادةُ حَذْفٍ ، وتقديرٌ مُسْتغنى عنه " . وفي كلامه نظرٌ ؛ لأنَّ الضميرَ له شيءٌ يعودُ عليه وهو السماء ، فلا حاجةَ إلى تقديرِ شيءٍ آخرَ ؛ لأنَّه مُسْتغنى عنه ، وليسَ ثَمَّ مانعٌ يمنعُ مِنْ عَوْدِه على السماء . وقوله آخراً : " وتَقْديرٌ مستغنى عنه " ، وينافي قولَه : " وهذا الوجه هو الصحيح " . والضميرُ في " به " يجوزُ أن يعودَ على البَرد وهو الظاهرُ ، ويجوزُ أَنْ يعودَ على الوَدْق والبَرَد معاً ، جرياً بالضمير مَجْرى اسمِ الإشارةِ . كأنه قيل : فَيُصيب بذلك ، وقد تقدَّم نظيرُه في مواضعَ .

قوله : ﴿ سَنَا بَرْقِهِ ﴾ العامَّةُ على قَصْر " سَنا " وهو الضَّوْءُ ، وهو مِنْ ذواتِ الواوِ ، يُقال : سَنا يَسْنُو سَناً . أي : أضاءَ يُضيءُ . قال امرؤُ القيس :

3454 يضيءُ سَناه ، أو مصابيحُ راهِبٍ . . . . . .

. . . . . .

والسَّنا بالمدِّ : الرِفْعَةُ . قال :

3455 وسِنٍّ كسُنَّيْقٍ سَناءً وسُنَّماً . . . . . .

. . . . . .

وقرأ ابنُ وثَّاب " سَناءُ بُرَقِه " بالمدّ ، وبضمِّ الباء مِنْ " بُرَقِه " وفتح الراء . ورُوي عنه ضَمُّ الراءِ أيضاً . فأمَّا قراءةُ المدّ فإنه شَبَّه المحسوسَ من البرقِ لارتفاعِه في الهواءِ بغير المحسوسِ من الإنسانِ . وأمَّا " بُرَقِه " فجمعُ بُرْقَة ، وهي المقدارُ من البرقِ كقُرَب . وأمَّا ضمُّ الراءِ فإتباعٌ كظُلُمات بضمِّ اللام إتباعاً لضم الظاء . وإنْ كان أصلُها السكونَ .

(88/551)

وقرأ العامَّة أيضاً " يَذْهَبُ " بفتح الياء والهاء . وأبو جعفر بضمِّ الياءِ وكسرِ الهاءِ مِنْ أَذْهَبَ . وقد خَطَّأ هذه القراءةَ الأخفشُ وأبو حاتم قالا : " لأنَّ الباءَ تُعاقِبُ الهمزة " . وليس رَدُّهما بصوابٍ ؛ لأنها تَتَخَرَّج على ما خُرِّج ما قُرِىء به في المتواتر ﴿ تَنْبُتُ بالدهن ﴾ [المؤمنون : 20] من أنَّ الباء مزيدةٌ ، أو أنَّ المفعولَ محذوفٌ ، والباءُ بمعنى " مِنْ " تقديرُه : يُذْهِبُ النُّورَ من الأَبصارِ كقولِه :

3456 . . . . . شُرْبَ

النَّزِيف بِبَرْدِ ماءِ الحَشْرَجِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 419.424 ﴾

(89/551)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا ﴾

تعرَّف إلى قلوب العلماء بدلالات صُنْعِه في بديع حكمته ، وبما يدل منها على كمال قدرته ، وشمول علمه وحكمته ، ونفوذ إرادته ومشيئته . فَمَنْ أنعم النظرَ وَصَلَ إلى بَرَدِ اليقين ، ومَنْ أعرض بقي في وَهْدَةِ الجُحْدِ وظلمات الجهل .

ترتفع بقدرته بخاراتُ البحرِ ، وتصعد بتسييره وتقديره إلى الهواء وهو السحاب ، ثم يُديرها إلى سَمْتٍ يريد أن ينزل به المطر ، ثم ينزل ما في السحاب من ماء البحر قطرةً قطرةً ؛ ويكون الماء قبل حصول بخارات البحر غير عَذْبٍ فيقلبه عَذْباً ، ويُسِحُّه السحاب سَكْباً ، فيوصل إلى كلِّ موضع قَدْراً يكون له مُراداً معلوماً ، لا بالجهدِ مِنَ المخلوقين يُمْسَكُ أو يُنَزَّلُ ، ولا بالحيلةِ يُسْتَنْزلُ على المكانِ الذي لا يُمْطِره .

﴿ يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ : وكذلك جميع الأغيار من الرسوم والآثار . . . ذلك تقدير العزيز العليم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 617 ﴾

(90/551)

من الإعجاز العلمى فى القرآن

للدكتور زغلول النجار

بحث بعنوان :

من أسرار القرآن

الإشارات الكونية في القرآن الكريم ومغزي دلالتها العلمية

(48) . . . ﴿ وينزل من السماء من جبال فيها من برد

فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار ﴾

بقلم: د . زغلول النجار

النص القرآني المتمم للآية الثالثة والأربعين من سورة النور نص معجز لاحتوائه علي عدد من الحقائق العلمية التي لم يدركها أهل العلوم المكتسبة إلا في العقود المتأخرة من القرن العشرين . وسورة النور سورة مدنية , آياتها أربع وستون , ويدور محورها الرئيسي حول عدد من التشريعات الإلهية التي تحكم سلوك المسلم , وتضبط أخلاقه ومعاملاته , وتحدد له ما يجب أن يتمسك به من آداب في كل من حياته الخاصة والعامة , كما تحدد ضوابط العلاقات في داخل الأسرة المسلمة صونا لحرماتها , وحفاظا عليها من التفكك والانهيار , انطلاقا من كونها محضن الصغار , ولبنة بناء المجتمع المسلم . . . ! !

ولذلك أوردت سورة النور عددا من الحدود الشرعية من مثل حد الزنا , وحد القذف , وضوابط درء الشبهات كاللعان وغيرها , وذلك صونا للمجتمعات الإنسانية من الفساد والإباحية والفوضي واختلاط الأنساب .

وقد سميت السورة باسم سورة النور لورود الإشارة في الآية الخامسة والثلاثين منها إلي حقيقة أن الله (تعالي) هو نور السماوات والأرض . وتبدأ السورة الكريمة بتأكيد أنها من جوامع سور القرآن الكريم , التي أنزلها الله (تعالي) علي خاتم أنبيائه ورسله (صلي الله عليه وسلم) , وفرض فيها علي عباده فرائض ألزمهم بها , كما أنزل عددا من آياته البينات تذكرة للناس ; ومن أول هذه الفرائض تحريم الزنا , ووضع الحدود الرادعة للواقعين فيه ; وتبشيع هذه الجريمة بتأكيد علي أن . . . الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زان

(91/551)

أو مشرك وحرم ذلك علي المؤمنين ; وتشير السورة إلي إشاعة فرية الإفك , وتجرم الخائضين فيها , وتبرئ المظلومين من دنسها , مؤكدة أن الله (تعالي) لايحب أن تشيع الفاحشة بين المؤمنين .

وتحذر سورة النور من اتباع خطوات الشيطان , وتحض علي الإنفاق في سبيل الله , وتنهي عن الخوض في أعراض الناس , وعن قذف المحصنات الغافلات المؤمنات ; وتؤكد أن ألسنة الخائضين في أعراض الناس وأيديهم وأرجلهم سوف تشهد عليهم يوم القيامة بما كانوا يعملون .

وتنهي سورة النور عن دخول البيوت دون استئذان وسلام علي أهلها , وتأمر بغض البصر , وحفظ الفرج , وستر العورات , وبالاحتشام وعدم التبرج بزينة , وتضع ضوابط الزواج , وتحرم البغاء واستغلال الجواري للكسب الدنيوي الرخيص من وراء هذه الجريمة غير الإنسانية وغير الأخلاقية , وتدعو إلي عتق رقاب الأرقاء , وإلي بناء المساجد , والقيام علي تطهيرها , وعمارتها , بيوتا لله في الأرض , ومنارات للهدي , ومراكز للدعوة إلي دين الله , يعبد فيها الله (تعالي) وحده (بغير شريك ولا شبيه ولا منازع) , ويسبح فيها المؤمنون بحمده صباح مساء , لا يشغلهم عن ذلك شيء من شواغل الدنيا وملهياتها , أو زخارفها , وزيناتها ; وذلك طمعا في مرضاة الله , وتجنبا لسخطه وغضبه ; وتحسبا لأهوال يوم القيامة الذي تتقلب فيه القلوب والأبصار , وتبشرهم السورة الكريمة بأن الله (تعالي) سوف يجزيهم أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله , فهو (سبحانه) يهب ما يشاء لمن يشاء , ولا حدود لعطائه . . . ! !

وفي المقابل تؤكد سورة النور أن الكفار في الآخرة سوف يجدون أعمالهم التي اقترفوها في

الدنيا (متصورين أنها أعمال نافعة) وكأنها سراب خادع , لا قيمة له ولا وزن عند الله الذي سوف يوفيهم حسابهم , والله سريع الحساب . . . ! !

وتشبه السورة تخبط الكفار في ظلمات الشرك والكفر والضلال بالواقف في قاع بحر

(92/551)

عميق وسط ظلمات متكاثفة تحدثها ظلمة كل من السحاب , والأمواج السطحية , والأمواج العميقة , فلا يكاد يري شيئا من حوله , وتقرر أنه : . . . ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور .

وتؤكد الآيات أن جميع من في السماوات والأرض يسبح لله الذي له ملك السماوات والأرض وملك كل شيء وإليه المصير , وتصف مراحل تكون السحب الركامية وما يصاحبها من إزجاء , وتأليف وركم , وإنزال لما فيها من ماء وثلج وبرد , وحدوث للبرق , وتشير إلي تبادل الليل والنهار , وإلي خلق كل دابة من ماء , وإلي عدد من الوسائط التي تتحرك بها تلك الدواب , وكلها من الدلائل البينة علي طلاقة القدرة الإلهية .

وتحذر سورة النور من النفاق والمنافقين , وتفضح دخائل نفوسهم , وما جبلوا عليه من الكذب , والمكر , والاحتيال , والحنث في الأيمان , ونقض العهود والمواثيق ,(تماما كما

يفعل الصهاينة المجرمون اليوم) , وتقارن بين مواقف كل من المنافقين والمؤمنين , وتأمرهم بطاعة الله ورسوله فإن أعرضوا فما علي الرسول إلا البلاغ . وتؤكد سورة النور أن وعد الله قائم للذين آمنوا وعملوا الصالحات بأن يستخلفهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم , وأن يمكن لهم دينهم الذي ارتضي لهم , وأن يبدلهم من بعد خوفهم أمنا ما داموا يعبدون الله (تعالي) لا يشركون به شيئا , وأن . . . من كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون . وتعاود الآيات الأمر بإقام الصلاة , وإيتاء الزكاة , وطاعة الرسول (صلي الله عليه وسلم) خاصة في الأمر بالجهاد في سبيل الله , مؤكدة أن الذين كفروا ليسوا بمعجزين في الأرض , وأن مأواهم النار وبئس المصير , كما تعاود إلي المزيد من ضوابط السلوك في البيت المسلم , وفي حضرة رسول الله (صلي الله عليه وسلم) ـ وهو نموذج للتعامل مع أية قيادة إسلامية ـ وتجعل هذا الأدب في التعامل من صفات المؤمنين الملتزمين بأوامر الله ورسوله , وتحذر من

(93/551)

مخالفة تلك الأوامر درءا لفتن الدنيا وعذاب الآخرة .

وتختتم سورة النور بالتأكيد مرة أخري أن لله ما في السماوات والأرض , وأنه (تعالي) عليم

بما في قلوب خلقه (لا تخفي عليه خافية في الأرض ولا في السماء) , وأنهم جميعا سوف يرجعون إليه فينبئهم بما فعلوا في الدنيا ويجازيهم بأعمالهم .

والآيات الكونية التي استشهدت بها سورة النور علي صدق ما جاء بها من حقائق وأحكام آيات عديدة منها ما يلي :

(1) حقيقة أن الله (تعالي) هو نور السماوات والأرض , وضرب المثل لهذا النور بتشبيه علمي دقيق (ولله المثل الأعلي) .

(2) التشبيهات الدقيقة بظواهر السراب , وبالظلمات المركبة فوق قيعان البحار العميقة , وبحقيقة أن من لم يجعل الله له نورا فما له من نور .

(3) تأكيد حقيقة تسبيح كل ما في السماوات والأرض لله .

(4) وصف تكون السحب الركامية والظواهر المصاحبة لتكوينها بدقة بالغة , ونسبة ظاهرة البرق إلي البرد , وهي حقيقة لم يدركها العلماء إلا في أواخر القرن العشرين .

(5) تبادل (تقليب) الليل والنهار .

(6) خلق كل دابة من ماء .

(7) الإشارة إلي إمكانية تصنيف الدواب علي أساس من طريقة مشيها .

وكل قضية من هذه القضايا تحتاج إلي معالجة مستقلة , ولذلك فسوف أقصر حديثي هنا علي إنزال البرد من السحب الركامية , وعلاقة ذلك بحدوث ظاهرة البرق , وقبل الولوج في

ذلك لابد من استعراض لأقوال عدد من المفسرين في شرح هذا النص القرآني المعجز .

من أقوال المفسرين

1. بلورات ثلج تتحول بالتدريج الى جليد

2. صورة مكبرة لحبيبات من البرد فى حجم حبات الخرز

3. صاعقة من البرق بين السحب الركامية وسطح الارض

4. قطاع فى سحابة ركامية بداخلها برد يتكون مسببا عاصفة برقية / رعدية

5. سحب ركامية

في تفسير قوله (تعالي) : . . . وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار .

(94/551)

ذكر ابن كثير (يرحمه الله) ما نصه : . . . وقوله :(وينزل من السماء من جبال فيها من برد) قال بعض النحاة :(من) الأولي لابتداء الغاية , والثانية للتبعيض , والثالثة لبيان الجنس , ومعناه أن في السماء جبال برد ينزل الله منها البرد , وأما من جعل الجبال ههنا كناية عن السحاب فإن (من) الثانية عنده لابتداء الغاية لكنها بدل من الأولي والله أعلم , وقوله

تعالي :(فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء) يحتمل أن يكون المراد بقوله :(فيصيب به) أي بما ينزل من السماء من نوعي المطر والبرد , فيكون قوله :(فيصيب به من يشاء) رحمة لهم (ويصرفه عن من يشاء) أي يؤخر عنهم الغيث , ويحتمل أن يكون المراد بقوله :(فيصيب به) أي بالبرد نقمة علي من يشاء لما فيه من إتلاف زروعهم وأشجارهم ,(ويصرفه عن من يشاء) رحمة بهم , وقوله :(يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار) أي يكاد ضوء برقه من شدته يخطف الأبصار إذا اتبعته وتراءته . . . .

وجاء في تفسير الجلالين (رحم الله كاتبيه رحمة واسعة) ما نصه : . . . (وينزل من السماء)(من) زائدة (جبال فيها) في السماء , بدل بإعادة الجار (من برد) أي بعضه (فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء)(يكاد) يقرب (سنا برقه) لمعانه (يذهب بالأبصار) الناظرة له أي يخطفها .

وجاء في الظلال (رحم الله كاتبها برحمته الواسعة) ما نصه : . . . وهو في هيئة الجبال الضخمة الكثيفة فيها قطع البرد الثلجية الصغيرة . . . ومشهد السحب كالجبال ليبدو كما يبدو لراكب الطائرة وهي تعلو فوق السحب أو تسير بينها فإذا المشهد مشهد الجبال حقا بضخامتها , ومساقطها , وارتفاعاتها , وانخفاضاتها , وإنه لتعبير مصور للحقيقة التي لم يرها

الناس , إلا بعدما ركبوا الطائرات .

وهذه الجبال مسخرة بأمر الله وفق ناموسه الذي يحكم الكون , ووفق هذا الناموس يصيب الله بالمطر من يشاء ويصرفه عن من يشاء . . . وتكملة المشهد الضخم (يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار) ذلك ليتم التناسق مع جو النور الكبير في الكون العريض , علي طريق التناسق في التصوير .

وجاء في صفوة البيان لمعاني القرآن (رحم الله كاتبه برحمته الواسعة) ما نصه : . . . (سنا برقه) أي شدة ضوء برق السحاب ولمعانه . يقال : سنا يسنو سنا , أي أضاء .

وجاء في المنتخب في تفسير القرآن الكريم (جزي الله كاتبيه خيرا) ما نصه : . . . والله ينزل من مجموعات السحب المتكاثفة التي تشبه الجبال في عظمتها بردا , كالحصي ينزل علي قوم فينفعهم أو يضرهم تبعا لقوانينه وإرادته , ولا ينزل علي آخرين كما يريد الله فهو سبحانه الفاعل المختار , ويكاد ضوء البرق الحادث من اصطكاك السحب يذهب بالأبصار لشدته , وهذه الظواهر دلائل قدرة الله الموجبة للإيمان .

وجاء في تعليق الخبراء بالهامش الملاحظتان التاليتان :

(1) لا يعرف التشابه بين السحب والجبال إلا من يركب طائرة تعلو به فوق السحاب فيراها

من فوق كأنها الجبال والآكام , وإذا لم تكن تلك الطائرات موجودة في عصر النبي (صلي الله عليه وسلم) فإنه يكون ذلك دليلا علي أن هذا الكلام من عند الله الذي يعلم ما علا وما انخفض .

(2) تسبق هذه الآية الكريمة ركب العلم فإنها تتناول مراحل تكون السحب الركامية وخصائصها . وما عرف علميا في العهد الأخير من أن السحب الممطرة تبدأ علي هيئة وحدات يتألف عدد منها في مجموعات هي السحب الركامية أي السحب التي تنمو في الاتجاه الرأسي , وترتفع قممها إلي علو (15) إلي (20) كيلو مترا فتبدو كالجبال الشامخة !.

كما أن هذه السحب هي ـ وحدها ـ التي تجود بالبرد , وتشحن بالكهرباء , وقد يتلاحق حدوث البرق في سلسلة تكاد تكون

متصلة (40 تفريغا في الدقيقة الواحدة) فيذهب ببصر الراصد من شدة الضياء . . . .

(96/551)

فهم النص القرآني في ضوء المعارف المكتسبة

أولا : النصف الأول من الآية الكريمة :

في النصف الأول من الآية الكريمة رقم (43) من سورة النور التي يقول فيها ربنا (تبارك وتعالي) مخاطبا خاتم أنبيائه ورسله (صلي الله عليه وسلم) ـ والخطاب من بعده للناس كافة ـ بقوله (عز من قائل) : ألم تر أن الله يزجي سحابا ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما فتري الودق يخرج من خلاله . . . .

(النور :43)

سبق وأن ذكرنا في مقال سابق أن الفعل (يزجي) معناه يسوق سوقا رفيقا (من زجي الشيء , يزجيه , تزجية , وإزجاء أي دفعه برفق .

وقد أثبتت الدراسات الحديثة أن الرياح (المصرفة حسب المشيئة الإلهية) هي التي تثير السحاب , وأن السحاب في بدء استثارته يكون في كثير من الأحوال علي هيئة القطع الصغيرة المتناثرة في صفحة السماء الدنيا , ثم تأتي الرياح لتسوق هذه القطع الصغيرة المتناثرة من السحاب سوقا رفيقا (وهو الإزجاء) , ولما كانت سرعة تحرك قطع السحاب الصغيرة أبطأ من سرعة الرياح التي تسوقها , فإن عملية إزجائها تستغرق وقتا من الزمن حتي تؤدي في النهاية إلي تجميعها في كتلة سحابية ضخمة , ولذلك استخدم القرآن الكريم حرف العطف ثم الذي يدل علي الترتيب مع التراخي ; ويزداد بطء السحابة في تحركها كلما زادت كتلتها , وكلما قربت من منطقة التجمع (حيث يؤلف الله تعالي بينها أي يضم بعضها إلي بعض في التئام ومواءمة) , وهنا تتلاحم مكونات السحب الصغيرة المجتمعة علي

بعضها البعض وتمتزج امتزاجا كاملا في جسم واحد كبير (وهو المقصود بالتآلف) , ومع بطء تحرك هذا التجمع السحابي الكبير تزداد سرعة التيارات الهوائية الصاعدة إلي داخله , ويزداد ارتفاع مكوناته إلي أعلي , ويؤدي ذلك إلي جلب مزيد من بخار الماء إلي داخله ; وباستمرار ارتفاع مكونات هذا

(97/551)

التجمع السحابي إلي مستويات عليا من نطاق المناخ (نطاق الرجع) ـحيث الانخفاض المستمر في كل من الضغط ودرجة الحرارة تزداد الفرص لتكثف ما به من بخار الماء , مما يزيد في سرعة التيارات الهوائية الصاعدة إلي داخل هذا التجمع من السحب , وبالتالي إلي زيادة تدفق بخار الماء إلي قلبه , وزيادة نموه , وكذلك زيادة فرصه في الارتفاع إلي أعلي علي هيئة أعداد من سلاسل السحب التي تأخذ شكل السلاسل الجبلية , ذات القمم السامقة , والتي تتعدد بتعدد التيارات الهوائية الصاعدة إلي داخلها , والمرتفعة بمكوناتها إلي أعلي مستويات تصلها قوة اندفاع تلك التيارات الصاعدة , وهذه التيارات الهوائية الصاعدة تكون في أعلي سرعاتها في وسط السحب , وتتضاءل سرعاتها علي الأطراف فيظهر تأثيرها علي هيئة النافورات المتدفقة بمائها إلي أعلي , أو فوهات البراكين الثائرة التي تلقي

بملايين الأطنان من الحمم إلي أعلي فتتساقط متجمعة ومتكدسة علي جوانب المخروط البركاني , وتؤدي هذه العملية إلي إلقاء السحب بعضها فوق بعض علي جوانب تيارات الهواء الصاعدة بما فيها من بخار الماء المتكثف لتتجمع حول القمة المتكونة , وهذا هو المقصود (بالركم) لأن (الركم) في اللغة هو إلقاء الشيء بعضه فوق بعض [من (ركم) الشيء (يركمه) (ركما) (فارتكم) و (تراكم) أي اجتمعت أجزاؤه شيئًا فوق شيء فأصبح (ركاما) (مركوما) أو (مرتكما) أو (متراكما) بعضه علي بعض]; و (ركم) السحاب يؤدي إلي نموه الرأسي باستمرار علي هيئة سلسلة من القمم الجبلية المفصولة بعدد من التلال والهضاب والأودية ; وكلما زاد نمو تجمعات السحب رأسيا زاد سمكها وزاد ركمها , ومن هنا كانت تسمية هذا النوع من تجمعات السحب باسم السحب الركامية (أو المركومة)

(CumuliformorHeapClouds)

وترجمة هذا التعبير الإنجليزي هو السحب المكدسة أو المتجمعة علي هيئة أكوام متراصة

فوق بعضها تمييزا لها عن غيرها من أنواع السحب , وإبرازا لدور الركم في تكوينها .

ومن السحب الركامية أنواع منخفضة إلي متوسطة الارتفاع (يزيد ارتفاع قواعدها علي كيلو مترين فوق مستوي سطح البحر) , ومنها السحب العالية التي تجاوز قممها الخمسة عشر كيلو مترا فوق مستوي سطح البحر , وتتجاوز قواعدها الستة كيلو مترات فوق هذا المستوي .

ونظرا لكثرة ما بها من بللورات الثلج وحبات البرد وقطرات الماء شديدة البرودة ; فإن السحب الركامية العالية المعروفة باسم السمحاق الركامي والمتوسطة المعروفة باسم السحب الركامية المتوسطة تظهر أحيانا علي شكل أعداد كبيرة من الكريات البيضاء المتراصة في صفوف منتظمة , وإن كانت تأخذ أشكالا متموجة في بعض الأحيان .

وتتكون السحب الركامية المنخفضة الارتفاع والمعروفة باسم السحب الركامية المزنة والمزن الركامية علي هيئة كتل جبلية الشكل ذات نمو رأسي واضح , وقواعد أفقية تقريبا .

وتشتمل السحب الركامية علي بللورات الثلج في قممها , وعلي خليط من حبات البرد وقطرات من ماء شديد البرودة في وسطها , وعلي قطرات الماء البارد في قاعدتها ; وتصاحبها عادة ظواهر البرق والرعد وهطول المطر وسقوط حبات البرد وبللورات الثلج .

ومن السحب الركامية المنخفضة ما يشبه سلاسل التلال بدلا من سلاسل الجبال لقلة سمكها نسبيا , ولتوقف عمليات الركم دون الارتفاعات المناسبة , وهي لقلة ارتفاعها لا يتكون بداخلها البرد ولا الثلج , ولا يصاحبها برق ولا رعد , وإذا أمطرت فلا ينزل منها إلا الماء .

وتتحرك السحب الركامية إلي حيث أراد الله (تعالي) لها أن تصل , وتظل عوامل الركم فيها مستمرة مادامت تيارات الهواء الصاعدة إلي قلبها مندفعة بقوة تمكنها من الاحتفاظ بحمولتها من قطيرات الماء , وحبات البرد وبللورات الثلج ; وعندما تضعف قوة الرياح الصاعدة ـالتي يصرفها الله تعالي كما يصرف غيرها من أنواع الرياح

(99/551)

بعلمه وقدرته وحكمته أو عندما تزيد حمولة هذا التجمع من السحب علي قدرة حملها فإن عملية الركم تتوقف وتبدأ مكوناتها في الهبوط إلي الأرض , وأول ما ينزل منها الماء , وقد يصاحبه أو يتلوه نزول البرد الذي يتلوه نزول الثلج ; ولذلك تقول الآية الكريمة . . . فتري الودق يخرج من خلاله . . . .

وإلفاء من حروف العطف التي تدل علي الترتيب والتعقيب مع الاشتراك وبدونه , و (

الودق) هو المطر , و (من خلاله) أي من فتوق السحاب الركامي ومخارجه , لأن (خلال) جمع (خلل) علي وزن جبال وجبل ; وقد ثبت علميا أنه بتباطؤ سرعة التيارات الهوائية الصاعدة أو توقفها تتكون مناطق خلخلة في قاعدة السحب الركامية فينزل منها الماء بإرادة الله (تعالي) وتقديره أولا من مناطق الخلخلة تلك التي تظل تتسع لتشمل قاعدة السحابة بأكملها حين يسود تيار الهواء الهابط , وقد يصاحبه كل من البرد والثلج أو يتلوه تباعا , وذلك حسب ارتفاع ومكونات السحابة الركامية وتوزيع درجات الحرارة والرطوبة فيها .

ثانيا ـ النصف الثاني من الآية الكريمة :

في النصف الثاني من الآية الكريمة يقول ربنا (تبارك وتعالي) :

. . وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار *(النور :43)

ومعني ذلك أنه بعد (إزجاء السحاب) أي سوقه سوقا رفيقا , و (التأليف بينه) أي ضم بعضه إلي بعض في التئام ومواءمة , وبعد (ركمه) أي تكديسه فوق بعضه بعضا بواسطة حركة التيارات الهوائية الصاعدة في داخل هذا التجمع من السحب , و (خروج الودق) أي المطر من خلاله , ينزل الله (تعالي) من السماء (أي من هذه السحب الركامية) . (من جبال) أي من السحب الركامية المرتفعة التي تشبه الجبال في شكلها وارتفاعها وقممها ,(

فيها من برد) أي في هذه الجبال من السحب الركامية التي تعلو قممها عن خمسة عشر كيلو مترا

(100/551)

فوق مستوي سطح البحر يوجد البرد , والبرد لغة هو مايبرد من المطر في الهواء فيتجمد ويصلب وعلي ذلك فهو يشمل الثلج أيضا , وهما لايتكونان في الغلاف الغازي للأرض إلا في السحب الركامية , وهي توصف بأنها سحب بردة أي ذات برد وثلج , أي أن الله (تعالي) ينزل من السحب الركامية المرتفعة القمم كالجبال شيئا مما فيها من برد وثلج فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء) .

ومما ينزل من السحب الركامية البرد الذي عادة ما يصاحب بالعواصف البرقية الرعدية , ويصل حجم حبيباته إلي عدة سنتيمترات في طول قطرها , وتكون في هذه الحالة ظاهرة مدمرة خاصة للنباتات ولبعض الحيوانات وبالتالي للإنسان , كما قد تصيب بعض المنشآت بأضرار بالغة , ومن هنا كان البرد من جند الله , ينزله حسب تقديره ومشيئته في المكان والزمان المحددين انتقاما من العاصين , وابتلاء للصالحين , وعبرة للناجين .

(يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار) والضمير في (برقة) يعود علي البرد , بمعني أن مرد

ظاهرة البرق يعود إلي (البرد) وهي حقيقة لم تدركها العلوم المكتسبة إلا في منتصف الثمانينيات من القرن العشرين , و (السنا) هو الضوء الساطع , و (سنا برقه) أي شدة ضوء برقه ,(ويذهب بالأبصار) أي يخطفها فيفقدها البصر بالتماعها من شدة ضوء البرق , فسبحان الذي نسب ظاهرة البرق للبرد من قبل ألف وأربعمائه سنة , ولم يدركها الإنسان إلا في أواخر القرن العشرين .

كيفية تكون البرد في داخل السحب الركامية

تصل قمم السحب الركامية عادة إلي ارتفاعات قد تتجاوز الخمسة عشر كيلو مترا فوق مستوي سطح البحر (أي تتجاوز نطاق الرجع بأكمله) , وفي هذه الارتفاعات الشاهقة تنخفض درجة الحرارة انخفاضا شديدا حتي تصل إلي ستين درجة مئوية تحت الصفر فوق خط الاستواء , كذلك يتناقص الضغط الجوي من سطح البحر باستمرار مع الارتفاع حتي يصل إلي واحد من ألف من قيمته بعد ارتفاع

(101/551)

مقداره 48 كيلو مترا فوق مستوي سطح البحر , وتعين هذه الظروف علي تكثف بخار الماء في السحابة ونمو قطيرات الماء فيها إلي أحجام تعتبر نسبيا كبيرة , وتجمد هذه

القطيرات علي هيئة بلورات الثلج في قمم السحب الركامية العالية إذا توافرت لها نوي التبلور , ويتحول في وسطها إلي خليط من البرد والماء الشديد البرودة , ويتكون البرد في درجات أقل من الصفر المئوي وحتي أربعين درجة مئوية تحت الصفر , ويتكون البرد في الأجزاء الوسطي من السحب الركامية نتيجة لسقوط بلورات الثلج من قمم تلك السحب إلي أواسطها حيث تكثر قطيرات الماء المبرد تبريدا شديدا والتي تتجمد , بمجرد اصطدامها بالكتل الثلجية الهابطة والتحامها بها أو باصطدامها مع بعضها البعض فتتكون كرات أو أقراص من الثلج غير المتبلور حول نواة من بلورة أو كتلة ثلجية , أو بدونها , وذلك لأن قطرات الماء شديدة البرودة تكون في حالة غير مستقرة , فإذا اصطدمت ببعضها البعض أو بأي جسم آخر فإنها تتجمد في الحال .

ولايهطل الثلج (الجليد) إلا في المناطق الباردة التي تصل فيها درجة الحرارة إلي مادون الصفر المئوي , وإلا مع توافر نوي التكثف الملائمة في قمم السحب الركامية .

وبللورات الثلج وكذلك حبيبات البرد تنمو بتصادمها مع بعضها البعض علي هيئة صفائح رقيقة حتي تقارب أقطارها السنتيمتر فتنزل بقدر الله وحيث يشاء إلي الأرض التي قدر أن يصيبها به .

ويتساقط الجليد في شتاء المناطق الباردة علي مساحات واسعة , ويظل ينمو علي سطح الأرض من سنتيمترات قليلة في السمك إلي عدة أمتار , ويسبب تجمعه فوق سطح الأرض

هبوطا عاما في درجة الحرارة لبرودته مما يؤدي إلي برودة الجزء الملاصق له من الغلاف الغازي للأرض , ولقيامه بعكس نسبة كبيرة من الإشعاع الشمسي , ولذلك تبقي درجة حرارة الجو في المناطق المكسوة بالجليد في حدود الصفر المئوي أو دونه علي الرغم من سطوع الشمس , وقد يؤدي تراكم

(102/551)

الجليد إلي شل حركة المواصلات , وإتلاف المحاصيل الزراعية لتكسرها بتجمع كتل الثلج فوقها , ولتمزق أوعيتها الخشبية بتجمد العصارة الغذائية فيها , وعلي الرغم من ذلك فقد يكون لنزول الثلج وما يصاحبه من ظواهر الصقيع مردودا إيجابيا علي بعض أشجار الفاكهة المتساقطة الأوراق إذ تحتاج هذه الأشجار لنجاح إثمارها ونموها إلي فترة من السكون خلال الشتاء بتساقط أوراقها وتكسر بعض فروعها مما يحفزها علي النمو والاثمار في الربيع والصيف التاليين , ولذلك قال (تعالي) :

. . . وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء . . .

أي يضر به من يشاء ويصرف ضرره عمن يشاء , أو ينفع به من يشاء ويصرف نفعه عمن

يشاء بعلمه وحكمته وقدرته .

ويبدأ تساقط الجليد عادة في مناطق خطوط العرض العالية ابتداء من شهر ديسمبر , ويستمر متقطعا طيلة فصل الشتاء , كما يغطي الجليد قمم الجبال العالية طيلة السنة تقريبا , ويسمي الارتفاع الذي تظهر عنده الثلوج الدائمة باسم (حد الثلج الدائم) , ويتراوح ارتفاع هذا الحد بين 1,2 كيلو متر في بلد شمالي كالنرويج إلي خمسة كيلو مترات ونصف الكيلو متر في بلد إفريقي مثل تنزانيا , وإلي ستة كيلو مترات ونصف الكيلو متر في بلد أمريكي جنوبي مثل المكسيك , وعندما يذوب بعض هذا الجليد الذي تراكم طوال فصل الشتاء في كل من فصلي الربيع والصيف قد يكون سببا في فيضان بعض الأنهار فيضانا مغرقا في بعض الحالات .

دور البرد في حدوث ظاهرة البرق

إلي منتصف الثمانينيات من القرن العشرين بقي تعريف البرق بأنه تفريغ كهربي بين سحابتين تحمل كل منهما شحنة كهربية مختلفة , أو بين جزءين مختلفين من سحابة واحدة كل منهما يحمل شحنة كهربية مختلفة , وإذا ما تمت عملية التفريغ الكهربي تلك بين السحب والأرض سميت الظاهرة باسم الصاعقة .

ويصاحب ظاهرة البرق انطلاق حرارة عالية قد تصل إلي عشرات الآلاف من

الدرجات المئوية مما يؤدي إلي تسخين فجائي وشديد لكتل من الهواء التي ينتشر البرق فيها فتتمدد فجأة , وينتج عن تمددها سلسلة من أمواج التضاغط والتخلخل في الهواء المحلي ينتج عنها أمواج صوتية علي هيئة جلجلة أو فرقعات شديدة تظل تتردد وتنعكس بين السحب الركامية وقواعدها , وبينها وبين الغلاف الغازي للأرض أو المرتفعات المحيطة بها , أو بينها وبين سطح الأرض مباشرة , وتعرف هذه الموجات الصوتية وتردداتها ورجعها باسم الرعد .

في أواخر الأربعينيات من القرن العشرين أثبتت التجارب المختبرية أنه عند انصهار الثلج تتولد شحنات كهربائية لاتتوقف حتي تتم عملية الانصهار .

وعلي العكس من ذلك أثبتت التجارب المعملية أن الماء عند تجمده من محلول ملحي يتولد تيار كهربائي مصاحب بفرق جهد كهربي ملحوظ بين كتلة الثلج والمحلول المائي المالح المغموسة فيه وعلي السطح الفاصل بينهما , وأن هذا الفرق في الجهد الكهربي يتلاشي باكتمال عملية التجمد .

كذلك ثبت أن شحنة كهربائية يمكن أن تنتقل بين بلورتين من بلورات الثلج بمجرد اصطدامهما , وقد أشارت هذه النتائج المعملية إلي إمكانية أن يكون نمو بلورات الثلج وحبيبات البرد وانصهارها داخل السحب الركامية هو أحد أسباب تولد الشحنات

الكهربائية في داخل تلك السحب , وبالتالي لتكون ظاهرتي البرق والرعد فيها :

وبعد ذلك لاحظ إخصائيو الأرصاد الجوية أن تيارا كهربائيا يتولد في أثناء سقوط كل من الثلج والبرد والمطر وأنه ينساب إلي أعلي , في اتجاه معاكس لاتجاه سقوطها من السحب الركامية .

وفي منتصف الستينيات من القرن العشرين ثبت بالملاحظة تولد قوة كهربائية عند تلامس قطعتين من الثلج في درجتي حرارة مختلفتين أو عند انزلاق إحداهما علي الأخري وذلك بالتأثير الحراري , وأن وجود فقاعات هوائية حبيسة في داخل تلك البلورات الثلجية يؤثر في نوع الشحنة الكهربائية من ناحية كونها موجبة أو سالبة .

كذلك

(104/551)

تتولد شحنات كهربائية عند تصادم قطرات الماء الشديدة البرودة مع بلورات الثلج أو حبات البرد أو مع أي خليط منهما ومعني ذلك أن شحنات كهربائية تتولد عندما يتحول الماء من حال إلي حال : من الماء شديد البرودة إلي البرد أو إلي الثلج , كما تتولد عند تصادم أو ملامسة أي من هذه الحالات مع بعضها البعض , وكلما طرأ علي كل حالة من

حالات الماء الصلبة والسائلة والغازية طاريء يغير من شكلها أو حجمها , أو كتلتها , أو درجة حرارتها .

هذه التجارب والملاحظات المتكررة انتهت في الثمانينيات من القرن العشرين إلي اعتبار البرد بمعناه الشامل للماء شديد البرودة , ولحبات البرد ولبلورات الثلج , هو المولد الحقيقي لشحنات الكهرباء ومن ثم لظاهرة البرق .

وحبات البرد هي تلك الحبات الكرية وشبه الكرية التي تتكون من راقات من الثلج علي هيئة إضافات متتالية لثلج جاف غير متبلور علي هيئة الزبد فوق إحدي نوي التبلور , سواء كانت تلك النواة بلورة من الثلج أو قطعة منه أو هباءة من الغبار أو الهباب الناجم عن عمليات الاحتراق المختلفة , أو مما تقذف به البراكين عبر فوهاتها من غازات وأبخرة , أو ماينتج عن احتراق الشهب باحتكاكها بالغلاف الغازي للأرض في أجزائه العليا , أو من الأملاح المختلفة التي يمكن أن تحملها الأبخرة المتصاعدة من أسطح البحار والمحيطات , أو غير ذلك من ملوثات الهواء .

وعندما يتم تكثف بخار الماء تحت الصفر المئوي بحوالي الثلاثين درجة فإنه يتحول إلي ثلج مباشرة عند توافر نوي التكاثف الصلبة , دون مروره بمرحلة قطران الماء السائل , أما إذا حدثت عملية التكثف في هذه الدرجات المنخفضة من الحرارة دون توافر نوي التكثف الصلبة تتكون نقط من الماء شديد البرودة الذي لايتجمد علي الرغم من

الانخفاض الشديد لدرجة الحرارة إلي ما دون درجة تكون الجليد , وتظل نقط الماء الشديد البرودة تلك في حالة من عدم الاستقرار يجعلها قابلة

(105/551)

للتجمد بمجرد تصادمها مع بعضها البعض أو مع أي جسم صلب , وبذلك يتكون البرد , وبتكونه ينشأ البرق , ويصاحبه الرعد , وتنزل الثلوج والبرد وتهطل الأمطار بإذن الله , وذلك لأن ضغط التشبع بالنسبة للماء السائل أكبر من ضغط التشبع بالنسبة إلي الثلج في نفس درجة الحرارة , ومن هنا فإن سحابة ركامية بها مقادير كافية من قطرات الماء الشديد البرودة تصبح مهيأة لإنزال المطر بإذن الله (تعالي) بمجرد تجمد تلك القطرات . والسحابات الركامية عادة ما تكون لها قمم ناصعة البياض لتوافر بلورات الثلج فيها , وبمجرد تساقط شيء من تلك البلورات الثلجية إلي المنطقة الوسطي من السحابة وهي غنية بقطرات من الماء الشديد البرودة يبدأ البرد في التشكل , وتنشط ظاهرتا البرق والرعد , وتكون السحابة مرشحة لإنزال الماء بأمر من الله (تعالي) وبرحمة منه وفضل علي هيئة رخات قليلة تبدأ من وسط السحابة , ثم لا تلبث أن تنتشر في كل قاعدتها . ومصدر الشحنات الكهربائية المندفعة من السحب الركامية إلي سطح الأرض وبالعكس

أثناء هطول كل من الأمطار والثلوج يوجد علي ارتفاعات تكاد تنحصر بين سطحين في الغلاف الغازي للأرض تتراوح درجتي حرارتهما بين (15) درجة مئوية تحت الصفر , و (25) درجة مئوية تحت الصفر , وعلي الرغم من اختلاف أنواع السحب الركامية مكانا , وزمانا , وبناء , وفي عوامل التكوين إلا أن هذا الحيز الحراري يبقي ثابتا .

ويصحب عملية تكون كل من الثلج والبرد تخلق مجال كهربائي إذا وصل تركيز بلورات الثلج في الحيز المحصور بين (-15 م),(-25 م) إلي عشر بلورات في اللتر الواحد .

من هنا توصل العلماء في منتصف الثمانينيات من القرن العشرين إلي أن البرد بمعناه الواسع هو السبب الرئيسي في تكون ظاهرة البرق والتي يصاحبها الرعد بإذن الله (تعالي) , وهي حقيقة سبق القرآن الكريم بتأكيدها من قبل ألف وأربعمائة سنة وذلك في الآية التي نحن

بصددها (رقم (43) من سورة النور) التي أكدت إزجاء السحاب , ثم التأليف بينه , ثم جعله ركاما , ثم إنزال الودق من خلاله , وفصل بين المراحل الثلاث الأولي بحرف العطف (ثم) الذي يفيد الترتيب مع التراخي لأن كل مرحلة منها تستغرق فترة زمنية حتي تتم , فلما وصل إلي المرحلة الرابعة فصلها بحرف العطف (فـ) والذي من معانيه الترتيب مع التعقيب

لأن نزول المطر بإذن الله (تعالي) يتم بعد إتمام عملية الركم مباشرة , وأن هذا الماء ينزل من خلال وسط قاعدة السحابة الركامية أولا وهي منطقة ضعف تنتج عن توقف اندفاع تيارات الهواء الصاعد أو ضعفها , وغلبة تيار الهواء الهابط عليها , ثم بعد ذلك ينزل من جوانب قاعدة السحابة أو منها كلها .

كذلك فإن وصف السحب الركامية بلفظ الجبال , وقصر نزول البرد عليها , وحدوث البرق بلمعانه الخاطف , ونسبة البرق إلي البرد , كل ذلك من الحقائق العلمية التي لم تصل إليها المعارف المكتسبة إلا بعد مجاهدة طويلة استغرقت آلاف العلماء , ومئات السنين حتي تبلور شيء من فهم الانسان لها في العقود المتأخرة من القرن العشرين , وسبق القرآن الكريم بالاشارة إليها في آية واحدة نري فيها من الإيجاز , والشمول , والكمال , والجمال , والدقة في التعبير والإحاطة بالمعاني مالا يقدر عليه إلا الله الخالق (سبحانه وتعالي) فلم يكن لأحد من البشر إدراك لهذه الحقائق الكونية إلا في العقود الثلاثة الماضية , فصلي الله وسلم وبارك علي سيدنا محمد الذي تلقي هذا القرآن عن ربه , والحمد لله الذي أنزل هذا القرآن بعلمه , وحفظه بوعده وعهده . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الإشارات الكونية في القرآن الكريم ومغزي دلالتها العلمية .

بقلم الدكتور : زغلول النجار ﴾ .

قوله تعالى ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (45) لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (46) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما ذكر أولاً أحوال الخافقين دليلاً على وحدانيته ، وفصل منها الآثار العلوية ، فذكر ما يسقي الأرض ، وطوى ذكر ما ينشأ عنه من النبات للعلم به ، ذكر أحوال ما يتكون به من الحيوانات دليلاً ظاهراً على الإعادة ، وبرهاناً قاهراً على المنكرين لها فقال : ﴿ والله ﴾ أي الذي له العلم الكامل والقدرة الشاملة ﴿ خلق كل دآبة ﴾ أي مما تقدم أنه يسبح له .

ولما ذكر أنواعاً من الحيوان ، نكر بخلاف ما في الأنبياء فقال : ﴿ من ماء ﴾ أي دافق هو أعظم أجزاء مادته كما خلق النبات من ماء " هامر " كذلك ، وفاوت بينه مع كون الكل من الماء الهامر الذي لا تفاوت فيه ﴿ فمنهم ﴾ أي الدواب .

ولما كان في سياق التعظيم ، وكان قد آتى كل نفس من الإدراك ما تعرف به منافعها ومضارها ، عبر عن الكل بأداة من يعقل وإن كانوا متفاوتين في التمييز فقال : ﴿ من يمشي على بطنه ﴾ أي من غير رجل ؛ وقدم هذا لكونه أدل على القدرة ، وسماه مشياً استعارة

ومشاكلة ﴿ ومنهم من يمشي على رجلين ﴾ أي ليس غير ﴿ ومنهم من يمشي على أربع ﴾ أي من الأيدي والأرجل ، وفي هذا تنبيه على من يمشي على أكثر من ذلك ، وإليه الإشارة بقوله : ﴿ يخلق الله ﴾ وعبر باسم الجلالة إعلاماً بتناهي العظمة ؛ وقال : ﴿ ما يشاء ﴾ دلالة على أنه فعله بقدرته واختياره ، لا مدخل لشيء غير ذلك فيه إلا بتقدير العزيز العليم .

ولما كانت هذه الأدلة ناظرة إلى البعث أتم نظر ، وكانوا منكرين له ، أكد قوله : ﴿ إن الله ﴾ أي الذي الكمال المطلق ﴿ على كل شيء ﴾ من ذلك وغيره ﴿ قدير ﴾ .

(108/551)

ولما اتضح بهذا ما لله تعالى من صفات الكمال والتنزه عن كل شائبة نقص ، وقامت أدلة الوحدانية على ساق ، واتسقت براهين الألوهية أي اتساق ، قال مترجماً لتلك الأدلة : ﴿ لقد أنزلنا ﴾ أي في هذه السورة وما تقدمها ، بما لنا من العظمة ﴿ آيات ﴾ أي من الحكم والأحكام والأدلة والأمثال ﴿ مبينات ﴾ لا خفاء في شيء منها عند أحد من الخلق ، لأن الله قد أراد هدايتكم ، بعضكم بالبيان ، وبعضكم بخلق الإذعان ﴿ والله ﴾ أي الملك الأعظم ﴿ يهدي من يشاء ﴾ من العابد كلهم ﴿ إلى صراط مستقيم ﴾ بالقوة

بإنزال الآيات ، والفعل بخلق الإيمان والإخبات ، فيؤمنون إيماناً ثابتاً . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 273 . 274 ﴾

(109/551)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ ﴾

اعلم أن هذا هو النوع الثالث من الدلائل على الوحدانية وذلك لأنه لما استدل أولاً بأحوال السماء والأرض وثانياً بالآثار العلوية استدل ثالثاً بأحوال الحيوانات ، واعلم أن على هذه الآية سؤالات :

السؤال الأول : لم قال الله تعالى : ﴿ الأبصار والله خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مّن مَّاءٍ ﴾ مع أن كثيراً من الحيوانات غير مخلوقة من الماء ؟ أما الملائكة فهم أعظم الحيوانات عدداً وهم مخلوقون من النور ، وأما الجن فهم مخلوقون من النار ، وخلق الله آدم من التراب لقوله : ﴿ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ﴾ [آل عمران : 59] وخلق عيسى من الريح لقوله : ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا ﴾ [التحريم : 12] وأيضاً نرى أن كثيراً من الحيوانات متولد لا عن النطفة والجواب من وجوه

: أحدها : وهو الأحسن ما قاله القفال وهو أن قوله : ﴿ مِّن مَّاءٍ ﴾ صلة كل دابة وليس هو من صلة خلق ، والمعنى أن كل دابة متولدة من الماء فهي مخلوقة لله تعالى وثانيها : أن أصل جميع المخلوقات الماء على ما يروى " أول ما خلق الله تعالى جوهرة فنظر إليها بعين الهيبة فصارت ماء ثم من ذلك الماء خلق النار والهواء والنور " ، ولما كان المقصود من هذه الآية بيان أصل الخلقة وكان الأصل الأول هو الماء لا جرم ذكره على هذا الوجه وثالثها : أن المراد من الدابة التي تدب على وجه الأرض ومسكنهم هناك فيخرج عنه الملائكة والجن ، ولما كان الغالب جداً من هذه الحيوانات كونهم مخلوقين من الماء ، إما لأنها متولدة من النطفة ، وإما لأنها لا تعيش إلا بالماء لا جرم أطلق لفظ الكل تنزيلاً للغالب منزلة الكل .

(110/551)

السؤال الثاني : لم نكر الماء في قوله : ﴿ مِّن مَّاءٍ ﴾ وجاء معرفاً في قوله : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الماء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾ [الأنبياء : 30] والجواب : إنما جاء ههنا منكراً لأن المعنى أنه خلق كل دابة من نوع من الماء يختص بتلك الدابة ، وإنما جاء معرفاً في قوله : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الماء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾ لأن المقصود هناك كونهم مخلوقين من هذا الجنس ، وههنا بيان أن ذلك الجنس ينقسم إلى أنواع كثيرة .

السؤال الثالث : قوله : ﴿ فَمِنْهُمْ ﴾ ضمير العقلاء وكذلك قوله : ﴿ مَّن ﴾ فلم استعمله في غير العقلاء ؟ والجواب : أنه تعالى ذكر ما لا يعقل مع من يعقل وهم الملائكة والإنس والجن فغلب اللفظ اللائق بمن يعقل ، لأن جعل الشريف أصلاً والخسيس تبعاً أولى من العكس ، ويقال في الكلام : من المقبلان ؟ لرجل وبعير .

السؤال الرابع : لم سمى الزحف على البطن مشياً ؟ ويبين صحة هذا السؤال أن الصبي قد يوصف بأنه يحبو ولا يقال إنه يمشي وإن زحف على حد ما تزحف الحية والجواب : هذا على سبيل الاستعارة كما قالوا في الأمر المستمر قد مشى هذا الأمر ، ويقال فلان لا يتمشى له أمر أو على طريق المشاكلة (لذلك) الزاحف مع الماشين .

السؤال الخامس : أنه لم يستوف القسمة لأنا نجد ما يمشي على أكثر من أربع مثال العناكب والعقارب والرتيلات بل مثل الحيوان الذي له أربعة وأربعون رجلاً الذي يسمى دخال الأذن والجواب : القسم الذي ذكرتم كالنادر فكان ملحقاً بالعدم ولأن الفلاسفة يقرون بأن ما له قوائم كثيرة فاعتماده إذا مشى على أربع جهاته لا غير فكأنه يمشي على أربع ، ولأن قوله تعالى : ﴿ يَخْلُقُ اللهُ مَا يَشَاءُ ﴾ كالتنبيه على سائر الأقسام .

(111/551)

السؤال السادس : لم جاءت الأجناس الثلاثة على هذا الترتيب ؟ والجواب : قد قدم ما هو (أعجب) وهو الماشي بغير آله مشى من أجل أو قوائم ثم الماشي على رجلين ثم الماشي على أربع ، واعلم أن قوله : ﴿ يَخْلُقُ اللهُ مَا يَشَاءُ ﴾ تنبيه على أن الحيوانات كما اختلفت بحسب كيفية المشي فكذا هي مختلفة بحسب أمور أخر ، فلنذكر ههنا بعض التقسيمات :

التقسيم الأول : الحيوانات قد تشترك في أعضاء وقد تتباين بأعضاء ، أما الشركة فمثل اشتراك الإنسان والفرس في أن لهما لحماً وعصباً وعظماً ، وأما التباين فإما أن يكون في نفس العضو أو في صفته ، أما التباين في نفس العضو فعلى وجهين : أحدهما : أن لا يكون العضو حاصلاً للآخر ، وإن كانت أجزاؤه حاصلة للثاني كالفرس والإنسان ، فإن الفرس له ذنب والإنسان ليس له ذنب ولكن أجزاء الذنب ليست إلا العظم والعصب واللحم والجلد والشعر ، وكل ذلك حاصل للإنسان والثاني : أن لا يكون ذلك العضو حاصلاً للثاني لا بذاته ولا بأجزائه مثل أن للسلحفاة صدفاً يحيط به وليس للإنسان ذلك وكذا للسمك فلوس وللقنفذ شوك وليس شيء منها للإنسان وأما التباين في صفة العضو ، فإما أن يكون من باب الكمية أو الكيفية أو الوضع أو الفعل أو الانفعال ، أما الذي في الكم ، فإما أن يتعلق بالمقدار مثل أن عين البوم كبيرة وعين العقاب صغيرة أو بالعدد مثل أن أرجل ضرب من العناكب ستة وأرجل ضرب آخر ثمانية أو عشرة ، والذي في الكيف فكاختلافها في

الألوان والأشكال والصلابة واللين ، والذي في الوضع فمثل اختلاف وضع ثدي الفيل فإنه يكون قريباً من الصدر وثدي الفرس فإنه عند السرة .

وأما الذي في الفعل فمثل كون أذن الفيل صالحاً للذب مع كونه آلة للسمع وليس كذلك في الإنسان وكون أنفه آلة للقبض دون أنف غيره .

وأما الذي في الانفعال فمثل كون عين الخفاش سريعة التحير في الضوء وعين الخطاف بخلاف ذلك .

(112/551)

التقسيم الثاني : الحيوان إما أن يكون مائياً بمعنى أن مسكنه الأصلي هو الماء أو أرضياً أو يكون مائياً ثم يصير أرضياً ، أما الحيوانات المائية فتغير أحوالها من وجوه : الأول : أنه إما أن يكون مكانه وغذاؤه ونفسه مائياً فله بدل التنفس في الهواء التنشق المائي فهو يقبل الماء إلى باطنه ثم يرده ولا يعيش إذا فارقه ، والسمك كله كذلك ومنه ما مكانه وغذاؤه مائي ولكنه يتنفس من الهواء مثل السلحفاة المائية ، ومنه ما مكانه وغذاؤه مائي وليس يتنفس ولا يستنشق مثل أصناف من الصدف لا تظهر للهواء ولا تستدخل الماء إلى باطنها الوجه الثاني : الحيوانات المائية بعضها مأواها مياه الأنهار الجارية وبعضها مياه البطائح مثل

الضفادع وبعضها مأواها مياه البحر الوجه الثالث : منها لجية ومنها شطية ومنها طينية ومنها صخرية الوجه الرابع : الحيوان المنتقل في الماء منه ما يعتمد في غوصه على رأسه وفي السباحة على أجنحته كالسمك ومنه ما يعتمد في السباحة على رجليه كالضفدع ومنه ما يمشي في قعر الماء كالسرطان ومنه ما يزحف مثل ضرب من السمك لا جناح له وكالدود ، أما الحيوانات البرية فتغير أحوالها أيضاً من وجهين : الأول : أن منها ما يتنفس من طريق واحد كالفم والخيشوم ومنها ما لا يتنفس كذلك بل على نحو آخر من مسامه مثل الزنبور والنحل الثاني : أن الحيوانات الأرضية منها ما له مأوى معلوم ، ومنها ما مأواه كيف اتفق إلا أن يلد فيقيم للحضانة واللواتي لها مأوى فبعضها مأواه شق وبعضها حفر وبعضها مأواه قلة رابية وبعضها مأواه وجه الأرض الثالث : الحيوان البري كل طائر منه ذو جناح فإنه يمشي برجليه ، ومن جملة ذلك ما مشيه صعب عليه كالخطاف الكبير الأسود والخفاش .

(113/551)

وأما الذي جناحه جلد أو غشاء فقد يكون عديم الرجل كضرب من الحيات الحبشية يطير الرابع : الطير يختلف فبعضها يتعايش معاً كالكراكي وبعضها يؤثر التفرد كالعقاب

وجميع الجوارح التي تتنازع على الطعم لاحتياجها إلى الاحتيال لتصيد ومنافستها فيه ، ومنها ما يتعايش زوجاً ويكون معاً كالقطا ، ومنه ما يجتمع تارة وينفرد أخرى والحيوانات المنفردة قد تكون مدنية وقد تكون برية صرفة وقد تكون بستانية والإنسان من بين الحيوان هو الذي لا يمكنه أن يعيش وحده فإن أسباب حياته ومعيشته تلتئم بالمشاركة المدنية والنحل والنمل وبعض الغرانيق يشارك الإنسان في ذلك لكن النحل والكراكي تطيع رئيساً واحداً والنمل له اجتماع ولا رئيس الخامس : الطير منه آكل لحم ومنه لاقط حب ومنه آكل عشب ، وقد يكون لبعض الطير طعم معين كالنحل فإن غذاءه زهر والعنكبوت فإن غذاءه الذباب وقد يكون بعضه متفق الطعم أما القسم الثالث : وهو الحيوان الذي يكون تارة مائياً ، وأخرى برياً فيقال إنه حيوان يكون في البحر ويعيش فيه ثم إنه يبرز إلى البر ويبقى فيه .

التقسيم الثالث : الحيوان منه ما هو إنسي بالطبع كالإنسان ومنه ما هو إنسي بالمولد كالهرة والفرس ومنه ما هو إنسي بالقسر كالفهد ومنه ما لا يأنس كالنمر والمستأنس بالقسر منه ما يسرع استئناسه ويبقى مستأنساً كالفيل ومنه ما يبطىء كالأسد ويشبه أن يكون من كل نوع صنف إنسي وصنف وحشي حتى من الناس .

التقسيم الرابع : من الحيوان ما هو مصوت ومنه ما لا صوت له وكل مصوت فإنه يصير عند

الاغتلام وحركة شهوة الجماع أشد تصويتاً إلا الإنسان ، وأيضاً لبعض الحيوان شبق يشتد كل وقت كالديك ومنه عفيف له وقت معين .

(114/551)

التقسيم الخامس : بحسب الأخلاق بعض الحيوانات هادىء الطبع قليل الغضب مثل البقرة وبعضه شديد الجهل حاد الغضب كالخنزير البري وبعضها حليم خدوع كالبعير وبعضها رديء الحركات مغتال كالحية وبعضها جريء قوي شهم كبير النفس كريم الطبع كالأسد ومنها قوي مغتال وحشي كالذئب وبعضها محتال مكار رديء الحركات كالثعلب وبعضها غضوب شديد الغضب سفيه إلا أنه ملق متودد كالكلب وبعضها شديد الكيس مستأنس كالفيل والقرد وبعضها حسود متباه بجماله كالطاووس وبعضها شديد التحفظ كالجمل والحمار .

التقسيم السادس : من الحيوان ما تناسله بأن تلد أنثاه حيواناً وبعضها ما تناسله بأن تلد أنثاه دوداً كالنحل والعنكبوت فإنها تلد دوداً ، ثم إن أعضاءه تستكمل بعد وبعضها تناسله بأن تبيض أنثاه بيضاً .

واعلم أن العقول قاصرة عن الإحاطة بأحوال أصغر الحيوانات على سبيل الكمال ، ووجه

الاستدلال بها على الصانع ظاهر لأنه لو كان الأمر بتركيب الطبائع الأربع فذلك بالنسبة إلى الكل على السوية فاختصاص كل واحد من هذه الحيوانات بأعضائها وقواها ومقادير أبدانها وأعمارها وأخلاقها لا بد وأن يكون بتدبير مدبر قاهر حكيم سبحانه وتعالى عما يقول الجاحدون .

وأحسن كلام في هذا الموضع قوله سبحانه : ﴿ يَخْلُقُ اللهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللهَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ لأنه هو القادر على الكل والعالم بالكل فهو المطلع على أحوال هذه الحيوانات ، فأي عقل يقف عليها وأي خاطر يصل إلى ذرة من أسرارها ، بل هو الذي يخلق ما يشاء ولا يمنعه منه مانع ولا دافع .

وأما قوله : ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَا ءايات مبينات ﴾ فالأولى حمله على كل الأدلة والعبر ، ولما كان القرآن كالمشتمل على كل ذلك صح أن يكون هو المراد .

(115/551)

أما قوله : ﴿ واللهُ يَهْدِى مَن يَشَاءُ إلى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ فاستدلال أصحابنا به كما تقدم والجواب : أجاب القاضي عنه بأن المراد يهدي من بلغه حد التكليف دون غيره ، أو يكون المراد من أطاعه واستحق الثواب فيهديه إلى الجنة على ما تقدم في نظائره ، وجوابنا عن

هذا الجواب أيضاً كما تقدم في نظائره ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 24 صـ 18.15 ﴾

(116/551)

وقال الجصاص :

وقَوْله تَعَالَى : ﴿ وَاَللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ ﴾ ق

يل : إنَّ أَصْلَ الْخَلْقِ مِنْ مَاءٍ ، ثُمَّ قُلِبَ إلَى النَّارِ فَخُلِقَ مِنْهُ الْجِنُّ ، ثُمَّ إلَى الرِّيحِ فَخُلِقَتْ الْمَلَائِكَةُ مِنْهَا ، ثُمَّ إلَى الطِّينِ فَخُلِقَ آدَمُ مِنْهُ ، وَذَكَرَ الَّذِي يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَالَّذِي يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ وَلَمْ يَذْكُرْ مَا يَمْشِي عَلَى أَكْثَرَ مِنْ أَرْبَعٍ ؛ لِأَنَّهُ كَالَّذِي يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ فِي رَأْيِ الْعَيْنِ ، فَتَرَكَ ذِكْرَهُ ؛ لِأَنَّ الْعِبْرَةَ تَكْفِي بِذِكْرِ الْأَرْبَعِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(117/551)

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّاءٍ ﴾

فيه قولان

: أحدهما : أن أصل الخلق من ماء ثم قلب إلى النار فخلق منها الجن ، وإلى النور فخلق منها الملائكة ، وإلى الطين فخلق منه من خلق وما خلق ، حكاه ابن عيسى .

الثاني : أنه خالق كل دابة من ماء النطفة ، قاله السدي .

﴿ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ ﴾ كالحية والحوت

. ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ ﴾ الإنسان والطير

. ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ ﴾ كالمواشي والخيل ، ولم يذكر ما يمشي ، ولم يذكر ما يمشى على أكثر من أربع لأنه كالذي يمشي على أربع لأنه يعتمد في المشي على أربع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

(118/551)

وقال ابن عطية :

﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ ﴾

هذه آية اعتبار ، وقرأ حمزة والكسائي " والله خالق كل " على الإضافة ، وقرأ الجمهور " والله خلق كل " ، و" الدابة " كل من يدب من الحيوان أي تحرك منتقلاً أمامه قدماً ، ويدخل فيه الطير إذ قد يدب ومنه قول الشاعر : " دبيب قطا البطحاء في كل منهل " ، ويدخل في الحوت وفي الحديث " دابة من البحر مثل الظرب " ، وقوله ﴿ من ماء ﴾ قال النقاش أراد أمنية الذكور ، وقال جمهور النظرة أراد أن خلقة كل حيوان أن فيها ماء كما خلق آدم من الماء والطين ، وعلى هذا يتخرج قول النبي عليه السلام للشيخ الذي سأل في غزاة بدر ممن أنتما ؟ فقال الرسول صلى الله عليه وسلم " نحن من ماء . . . " الحديث ، و" المشي علي البطن " للحيات والحوت ونحوه من الدود وغيره ، و" على الرجلين " للإنسان والطير إذا مشى ، و" الأربع " لسائر الحيوان ، وفي مصحف أبي بن كعب " ومنهم من يمشي على أكثر " فعم بهذه الزيادة جميع الحيوان ، ولكنه قرآن لم يثبته الإجماع ، لكن قال النقاش : إنما اكتفى لقول بذكر ما ﴿ يمشي على أربع ﴾ عن ذكر ما يمشي على الأكثر لأن جميع الحيوان إنما اعتماده على أربع وهي قوام مشيه وكثرة الأرجل في بعضه زيادة في الخلقة لا يحتاج ذلك الحيوان في مشيه إلى جميعها .

قال القاضي أبو محمد : والظاهر أن تلك الأرجل الكثيرة ليست باطلاً بل هي محتاج إليها في تنقل الحيوان وفي كلها تتحرك في تصرفه وقوله ﴿ آيات مبينات ﴾ يعم كل ما نصب الله تعالى من آية وصنعه للعبرة وكل ما نص في كتابه من آية تنبيه وتذكير وأخبر تعالى أنه أنزل

الآيات ، ثم قيد الهداية إليها لأنها من قبله لبعض دون بعض . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(119/551)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ واللهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ﴾

قرأ يحيى بن وَثّاب والأعمش وحمزة والكسائي "وَاللَّهُ خَالِقُ كلِّ" بالإضافة .

الباقون "خلق" على الفعل .

قيل : إن المعنيين في القراءتين صحيحان .

أخبر الله عز وجل بخبرين ، ولا ينبغي أن يقال في هذا : إحدى القراءتين أصح من الأخرى .

وقد قيل : إن "خلق" لشيء مخصوص ، وإنما يقال خالق على العموم ؛ كما قال الله عز وجل : ﴿ الخالق البارىء ﴾ [الحشر : 24] .

وفي الخصوص "الحمد لله الذي خلق السموات والأرض" وكذا "هو الذي خلقكم من نفس واحدة" .

فكذا يجب أن يكون ﴿ واللهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ﴾ .

والدّابة كل ما دَبَّ على وجه الأرض من الحيوان ؛ يقال : دَبَّ يَدِب فهو دابّ ؛ والهاء للمبالغة .

وقد تقدم في "البقرة" .

﴿ مِّن مَّآءٍ ﴾ لم يدخل في هذا الجنّ والملائكة ؛ لأنا لم نشاهدهم ، ولم يثبت أنهم خلقوا من ماء ، بل في الصحيح : " أن الملائكة خُلقوا من نور والجنّ من نار " وقد تقدّم .

وقال المفسرون : "من ماء" أي من نُطْفة .

قال النقاش : أراد أَمْنِيَة الذكور .

وقال جمهور النَّظَرة : أراد أن خلْقة كل حيوان فيها ماء كما خلق آدم من الماء والطين ؛ وعلى هذا يتخرّج قول النبيّ صلى الله عليه وسلم للشيخ الذي سأله في غَزاة بدر : ممن أنتما ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " نحن من ماء " الحديث .

وقال قوم : لا يستثنى الجن والملائكة ، بل كل حيوان خلق من الماء ؛ وخلق النار من الماء ، وخلق الريح من الماء ؛ إذ أوّل ما خلق الله تعالى من العالم الماء ، ثم خلق منه كل شيء .

قلت : ويدل على صحة هذا قوله تعالى : ﴿ فَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي على بَطْنِهِ ﴾ المشيُ على البطن للحيّات والحُوت ، ونحوه من الدود وغيره .

وعلى الرِّجْلين للإنسان والطير إذا مشى .

والأربع لسائر الحيوان .

(120/551)

وفي مصحف أُبَيّ "ومنهم من يمشي على أكثر" ؛ فعمّ بهذه الزيادة جميع الحيوان كالسّرطان والخِشَاش ؛ ولكنه قرآن لم يثبته إجماع ؛ لكن قال النقاش : إنما اكتفى في القول بذكر ما يمشي على أربع عن ذكر ما يمشي على أكثر ؛ لأن جميع الحيوان إنما اعتماده على أربع ، وهي قوام مشيه ، وكثرة الأرجل في بعضه زيادة في خلقته ، لا يحتاج ذلك الحيوان في مَشْيه إلى جميعها .

قال ابن عطية : والظاهر أن تلك الأرجل الكثيرة ليست باطلاً بل هي محتاج إليها في تنقّل الحيوان ، وهي كلّها تتحرك في تصرفه .

وقال بعضهم : ليس في الكتاب ما يمنع من المشي على أكثر من أربع ؛ إذ لم يقل ليس منها ما يمشي على أكثر من أربع .

وقيل فيه إضمار : ومنهم من يمشي على أكثر من أربع ؛ كما وقع في مصحف أُبَيّ .

والله أعلم .

و"دَابّة" تشمل مَن يعقل وما لا يعقل ؛ فغلّب من يعقل لما اجتمع مع من لا يعقل ؛ لأنه المخاطب والمتعبَّد ؛ ولذلك قال "فمنهم" .

وقال : "مَنْ يمشي" فأشار بالاختلاف إلى ثبوت الصانع ؛ أي لولا أن للجميع صانعاً مختاراً لما اختلفوا ، بل كانوا من جنس واحد ؛ وهو كقوله : ﴿ يسقى بِمَآءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا على بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذلك لآيَاتٍ ﴾ [الرعد : 4] .

﴿ يَخْلُقُ اللهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ اللهَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ مما يريد خلقه ﴿ قَدِيرٌ ﴾ .

﴿ لَّقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ واللهُ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إلى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ تقدم بيانه في غير موضع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 13 صـ ﴾

(121/551)

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

لما ذكر تعالى مثل المؤمن والكافر وأن الإيمان والضلال أمرهما راجع إليه أعقب بذكر الدلائل على قدرته وتوحيده ، والظاهر حمل التسبيح على حقيقته وتخصيص ﴿ من ﴾ في قوله ومن في الأرض بالمطيع لله تعالى من الثقلين .

وقيل : ﴿ من ﴾ عام لكل موجود غلب من يعقل على ما لا يعقل ، فأدرج ما لا يعقل فيه ويكون المراد بالتسبيح دلالته بهده الأشياء على كونه تعالى منزهاً عن النقائص موصوفاً بنعوت الكمال .

وقيل : المراد بالتسبيح التعظيم فمن ذي الدين بالنطق والصلاة ومن غيرهم من مكلف وجماد بالدلالة ، فيكون ذلك قدراً مشتركاً بينهما وهو التعظيم .

وقال سفيان : تسبيح كل شيء بطاعته وانقياده .

﴿ والطير صافات ﴾ أي صفت أجنحتها في الهواء للطيران ، وإنما خص الطير بالذكر لأنها تكون بين السماء والأرض إذا طارت فهي خارجة من جملة ﴿ من في السموات والأرض ﴾ حالة طيرانها .

وقرأ الجمهور ﴿ والطيرُ ﴾ مرفوعاً عطفاً على ﴿ من ﴾ و ﴿ وصافات ﴾ نصب على الحال .

وقرأ الأعرج ﴿ والطير ﴾ بالنصب على أنه مفعول معه .

وقرأ الحسن وخارجة عن نافع ﴿ والطيرُ صافاتٌ ﴾ برفعهما مبتدأ وخبر تقديره يسبحن .

قيل : وتسبيح الطير حقيقي قاله الجمهور .

قال الزمخشري : ولا يبعد أن يلهم الله الطير دعاءه وتسبيحه كما ألهمها سائر العلوم الدقيقة

التي لا يكاد العقلاء يهتدون إليها .

وقال الحسن وغيره : هو تجوّز إنما تسبيحه ظهور الحكمة فيه فهو لذلك يدعو إلى التسبيح .

﴿ كل ﴾ أي كل ممن ذكر ، فيشمل الطير والظاهر أن الفاعل المستكن في ﴿ علم ﴾ وفي ﴿ صلاته وتسبيحه ﴾ عائد على ﴿ كل ﴾ وقاله الحسن قال : فهو مثابر عليهما يؤديهما .

وقال الزجاج : الضمير في ﴿ علم ﴾ وفي ﴿ صلاته وتسبيحه ﴾ لكل .

(122/551)

وقيل : الضمير في ﴿ علم ﴾ لكل وفي ﴿ صلاته وتسبيحه ﴾ لله أي صلاة الله وتسبيحه اللذين أمر بهما وهدى إليهما ، فهذه إضافة خلق إلى خالق .

وقال مجاهد : الصلاة للبشر والتسبيح لما عداهم .

وقرأ الحسن وعيسى وسلام وهارون عن أبي عمر وتفعلون بتاء الخطاب ، وفيه وعيد وتخويف .

﴿ ولله ملك السموات والأرض ﴾ إخبار بأن جميع المخلوقات تحت ملكه يتصرف فيهم بما يشاء تصرف القاهر الغالب .

وإليه ﴿ المصير ﴾ أي إلى جزائه من ثواب وعقاب .

وفي ذلك تذكير وتخويف .

ولما ذكر انقياد من في السموات والأرض والطير إليه تعالى وذكر ملكه لهذا العالم

وصيرورتهم إليه أكد ذلك بشيء عجيب من أفعاله مشعر بانتقال من حال إلى حال .

وكان عقب قوله وإليه المصير فاعلم بانتقال إلى المعاد فعطف عليه ما يدل على تصرفه في

نقل الأشياء من حال إلى حال ومعنى ﴿ يزجي ﴾ يسوق قليلاً قليلاً ويستعمل في سوق

الثقيل برفق كالسحاب والإبل ، والسحاب اسم جنس واحده سحابة ، والمعنى يسوق

سحابة إلى سحابة .

﴿ ثم يؤلف بينه ﴾ أي بين أجزائه لأنه سحابة تتصل بسحابة فجعل ذلك ملتئماً بتأليف

بعض إلى بعض .

وقرأ ورش يولف بالواو ، وباقي السبعة بالهمز وهو الأصل .

فيجعله ﴿ ركاماً ﴾ أي متكاثفاً يجعل بعضه إلى بعض ، وانعصاره بذلك ﴿ من خلاله

﴾ أي فتوقه ومخارجه التي حدثت بالتراكم والانعصار .

والخلال : قيل مفرد .

وقيل : جمع خلل كجبال وجبل .

وقرأ ابن مسعود وابن عباس والضحاك ومعاذ العنبري عن أبي عمرو والزعفراني من خلله

بالإفراد ، والظاهر أن في السماء جبالاً من برد قاله مجاهد والكلبي وأكثر المفسرين : خلقها الله كما خلق في الأرض جبالاً من حجر .

وقيل : جبال مجاز عن الكثرة لا أن في السماء جبالاً كما تقول : فلان يملك جبالاً من ذهب ، وعنده جبال من العلم يريد الكثرة .

قيل : أو هو على حذف حرف التشبيه .

(123/551)

و ﴿ السماء ﴾ السحاب أي ﴿ من السماء ﴾ التي هي جبال أي كجبال كقوله ﴿ حتى إذا جعله ناراً ﴾ أي كنار قاله الزجاج ، فجعل السماء هو السحاب المرتفع سمي بذلك لسموه وارتفاعه .

وعلى القول الأول المراد بالسماء الجسم الأزرق المخصوص وهو المتبادر للذهن ، ومن استعماله الجبال في الكثرة مجازاً قول ابن مقبل :

إذا مت عن ذكر القوافي فلن . . .

ترى لها شاعراً مني أطلب وأشعرا

وأكثر بيتاً شاعراً ضربت له . . .

بطون جبال الشعر حتى تيسرا

واتفقوا على أن ﴿ من ﴾ الأولى لابتداء الغاية .

وأما ﴿ من جبال ﴾ .

فقال الحوفي : هي بدل من ﴿ السماء ﴾ ثم قال : وهي للتبعيض ، وهذا خطأ لأن الأولى لابتداء الغاية في ما دخلت عليه ، وإذ كانت الثانية بدلاً لزم أن يكون مثلها لابتداء الغاية ، لو قلت : خرجت من بغداد من الكرخ لزم أن يكونا معاً لابتداء الغاية .

وقال الزمخشري وابن عطية : هي للتبعيض فيكون على قولهما في موضع المفعول لينزل .

قال الحوفي والزمخشري : والثانية للبيان انتهى .

فيكون التقدير وينزل من السماء بعض جبال فيها التي هي البرد فالمنزل برد لأن بعض البرد برد فمفعول ﴿ ينزل ﴾ ﴿ من جبال ﴾ .

قال الزمخشري : أو الأولان للابتداء والأخيرة للتبعيض ، ومعناه أنه ينزل البرد من السماء من جبال فيها انتهى .

فيكون ﴿ من جبال ﴾ بدلاً ﴿ من السماء ﴾ .

وقيل : ﴿ من ﴾ الثانية والثالثة زائدتان وقاله الأخفش ، وهما في موضع نصب عنده كأنه قال : وينزل من السماء جبالاً فيها أي في السماء برداً وبرداً بدل أي برد جبال .

وقال الفراء : هما زائدتان أي جبالاً فيها برد لا حصى فيها ولا حجر ، أي يجتمع البرد

فيصير كالجبال على التهويل فبرد مبتدأ وفيها خبره .

والضمير في ﴿ فيها ﴾ عائد على ﴿ الجبال ﴾ أو فاعل بالجار والمجرور لأنه قد اعتمد بكونه في موضع الصفة لجبال .

وقيل : ﴿ من ﴾ الأولى والثانية لابتداء الغاية ، والثالثة زائدة أي ﴿ وينزل من السماء من جبال ﴾ السماء برداً .

(124/551)

وقال الزجاج : معناه ﴿ وينزل من السماء من جبال ﴾ برد فيها كما تقول : هذا خاتم في يدي من حديد ، أي خاتم حديد في يدي ، وإنما جئت في هذا وفي الآية بمن لما فرقت ، ولأنك إذا قلت : هذا خاتم حديد كان المعنى واحداً انتهى .

فعلى هذا يكون ﴿ من برد ﴾ في موضع الصفة لجبال ، كما كان من في من حديد صفة لخاتم ، فيكون في موضع جر ويكون مفعول ﴿ ينزل ﴾ هو ﴿ من جبال ﴾ وإذا كانت الجبال ﴿ من برد ﴾ لزم أن يكون المنزل برداً .

والظاهر إعادة الضمير في ﴿ به ﴾ على البرد ، ويحتمل أن يكون أريد به الودق والبرد وجرى في ذلك مجرى اسم الإشارة .

وكأنه قال : فيصيب بذلك والمطر هو أعم وأغلب في الإصابة والصرف أبلغ في المنفعة والامتنان .

وقرأ الجمهور ﴿ سنا ﴾ مقصوراً ﴿ برقه ﴾ مفرداً .

وقرأ طلحة بن مصرف سناء ممدوداً ﴿ بُرَقه ﴾ بضم الباء وفتح الراء جمع برقه بضم الباء ، وهي المقدار من البرق كالغرفة واللقمة ، وعنه بضم الباء والراء اتبع حركة الراء لحركة الباء كما اتبعت في ﴿ ظلمات ﴾ وأصلها السكون .

والسناء بالمدّ ارتفاع الشأن كأنه شبه المحسوس من البرق لارتفاعه في الهواء بغير المحسوس من الإنسان ، فإن ذلك صيب لا يحس به بصر .

وقرأ الجمهور ﴿ يذهب ﴾ بفتح الياء والهاء وأبو جعفر ﴿ يُذْهِب ﴾ بضم الياء وكسر الهاء .

وذهب الأخفش وأبو حاتم إلى تخطئة أبي جعفر في هذه القراءة قالا : لأن الياء تعاقب الهمزة وليس بصواب لأنه لم يكن ليقرأ إلاّ بما روي .

وقد أخذ القراءة عن سادات التابعين الآخذين عن جلة الصحابة أُبيّ وغيره ، ولم ينفرد بها أبو جعفر بل قرأه شيبة كذلك وخرج ذلك على زيادة الباء أي يذهب الأبصار .

وعلى أن الباء بمعنى من والمفعول محذوف تقديره يذهب النور من الأبصار كما قال :

شرب النزيف يبرد ماء الحشرج . . .

يريد من برد .

(125/551)

وتقليب الليل والنهار آيتان أحدهما بعد الآخر أو زيادة هذا وعكسه ، أو يغير النهار بظلمة السحاب مرة وضوء الشمس أخرى ، ويغير الليل باشتداد ظلمته مرة وضوء القمر أخرى ، أو باختلاف ما يقدر فيهما من الخير والنفع والشدة والنعمة والأمن ومقابلاتها ونحو ذلك أقوال أربعة إن في ذلك إشارة إلى ما تقدم من الدلائل الدالة على وحدانيته من تسبيح من ذكر وتسخير السحاب .

وما يحدثه تعالى فيه من أفعاله حتى ينزل المطر فيقسم رحمته بين خلقه وإراءتهم البرق في السحاب الذي يكاد يخطف الأبصار ويقلب الليل والنهار .

﴿ لعبرة ﴾ أي اتّعاظاً .

وخص أولو الأبصار بالاتّعاظ لأن البصر والبصيرة إذا استعملا وصلا إلى إدراك الحق كقوله ﴿ إنما يتذكر أولوا الألباب .

﴿ وقرأ الجمهور ﴿ خَلقَ ﴾ فعلاً ماضياً .

﴿ كل ﴾ نصب .

وقرأ حمزة والكسائي وابن وثاب والأعمش خالق اسم فاعل مضاف إلى ﴿ كل ﴾ .

والدابة : ما يحرك أمامه قدماً ويدخل فيه الطير .

قال الشاعر :

دبيب قطا البطحاء في كل منهل . . .

والحوت وفي الحديث :

" دابة من البحر مثل الظرب " واندرج في ﴿ كل دابة ﴾ المميز وغيره ، فسهل التفصيل بمن التي لمن يعقل وما لا يعقل إذا كان مندرجاً في العام ، فحكم له بحكمه كان الدواب كلهم مميزون .

والظاهر أن ﴿ من ماء ﴾ متعلق بخلق .

و ﴿ من ﴾ لابتداء الغاية ، أي ابتدأ خلقها من الماء .

فقيل : لما كان غالب الحيوان مخلوقاً من الماء لتولده من النطفة أو لكونه لا يعيش إلاّ بالماء أطلق لفظ ﴿ كل ﴾ تنزيلاً للغالب منزلة العام ، ويخرج عما خلق من ماء ما خلق من نور وهم الملائكة ، ومن نار وهم الجنّ ، ومن تراب وهم آدم .

وخلق عيسى من الروح وكثير من الحيوان لا يتولد من نطفة .

وقيل ﴿ كل دابة ﴾ على العموم في هذه الأشياء كلها وإن أصل جميع المخلوقات الماء ، فروي أن أول ما خلق الله جوهرة فنظر إليها بعين الهيبة فصارت ماءً ، ثم خلق من ذلك الماء النار والهواء والنور ، ولما كان المقصود من هذه الآية بيان أصل الخلقة وكان الأصل الأول هو الماء قال : ﴿ خلق كل دابة من ماء ﴾ .

وقال القفال : ليس ﴿ من ماء ﴾ متعلقاً بخلق وإنما هو في موضع الصفة لكل دابة ، فالمعنى الإخبار أنه تعالى خلق كل دابة متولدة من الماء أي متولدة من الماء مخلوقة لله تعالى . ونكر الماء هنا وعرف في ﴿ وجعلنا من الماء كل شيء حي ﴾ لأن المعنى هنا ﴿ خلق كل دابة ﴾ من نوع من الماء مختص بهذه الدابة ، أو ﴿ من ماء ﴾ مخصوص وهو النطفة ، ثم خالف بين المخلوقات من النطفة هوامّ وبهائم وناس كما قال ﴿ يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل ﴾ وهنا قصد أن أجناس الحيوان كلها مخلوقة من هذا الجنس الذي هو جنس الماء ، وذلك أنه هو الأصل وإن تخللت بينها وبينه وسائط كما قيل : إن أصل النور والنار والتراب الماء .

وسمي الزحف على البطن مشياً لمشاكلته ما بعده من ذكر الماشين أو استعارة ، كما قالوا : قد مشى هذا الأمر وما يتمشى لفلان أمر ، كما استعاروا المشفر للشفة والشفة للجحفلة .

والماشي ﴿ على بطنه ﴾ الحيات والحوت ونحو ذلك من الدود وغيره .

و ﴿ على رجلين ﴾ الإنسان والطير والأربع لسائر حيوان الأرض من البهائم وغيرها ، فإن وجد من له أكثر من أربع .

فقيل : اعتماده إنما هو على أربع ولا يفتقر في مشيه إلى جميعها وقدم ما هو أعرف في القدرة وأعجب وهو الماشي بغير آلة مشى من له رجل وقوائم ، ثم الماشي على رجلين ثم الماشي على أربع .

(127/551)

وفي مصحف أُبيّ ومنهم من يمشي على أكثر ، فعم بهذه الزيادة جميع الحيوان لكنه لم يثبت قرآناً ولعله ما أورده مورد قرآن بل تنبيهاً على أن الله خلق من يمشي على أكثر من أربع كالعنكبوت والعقرب والرتيلاء وذي أربع وأربعين رجلاً وتسمى الاذن وهذا النوع لندوره لم يذكر .

﴿ يخلق الله ما يشاء ﴾ إشارة إلى أنه تعالى ما تعلقت به إرادة خلقه أنشأه واخترعه ، وفي ذلك تنبيه على كثرة الحيوان وأنها كما اختلفت بكيفية المشيء اختلفت بأمور أخر .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ واللهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ ﴾

أي كلَّ حيوانٍ يدبُّ على الأرض . وقُرِىء خالقُ كلِّ دابةٍ بالإضافة ﴿ مِن مَّاء ﴾ هو جزءُ مادتِه أو ماءٍ مخصوصٍ هو النُّطفةُ فيكون تنزيلاً للغالب منزلةَ الكلِّ لأنَّ من الحيوانات ما يتولَّد لا عن نُطفةٍ وقيل : من ماءٍ متعلّق بدابةٍ وليست صلةً لخَلَقَ ﴿ فَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِى على بَطْنِهِ ﴾ كالحيَّةِ وتسمية حركتِها مشياً مع كونِها زَحْفاً بطريقِ الاستعارةِ أو المُشاكلةِ ﴿ وَمِنهُمْ مَّن يَمْشِى على رِجْلَيْنِ ﴾ كالإنسِ والطَّيرِ ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِى على أَرْبَعٍ ﴾ كالنَّعمِ والوحش وعدمُ التَّعرضِ لما يمشي على أكثرَ من أربعٍ كالعناكبِ ونحوِها من الحشرات لعدمِ الاعتدادِ بها . وتذكيرُ الضَّميرِ في منهم لتغليبِ العُقلاءِ ، والتَّعبير عن الأصنافِ بكلمة مَن ليوافقَ التَّفصيلُ الإجمالَ ، والتَّرتيبُ لتقديم ما هُو أعرفُ في القُدرةِ ﴿ يَخْلُقُ اللهُ مَا يَشَاء ﴾ ممَّا ذُكر وممَّا لم يُذكرْ بسيطاً كان أو مركّباً على ما يشاء من الصُّورَ والأعضاء والهيئات والحَركات والطَّبائعِ والقُوَى والأفاعيلِ مع اتّحادِ العُنصرِ . وإظهارُ الاسم الجليل في موضعِ الإضمارِ لتفخيمِ شأنِ الخلقِ المذكورِ والإيذانِ بأنَّه من أحكامِ الأُلوهيَّةِ ﴿ إِنَّ اللهَ على كُلِّ

شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ فيفعل ما يشاءُ كما يشاءُ . وإظهارُ الجلالةِ لما ذُكر مع تأكيد استقلال الاستئنافِ التعليليّ .

﴿ لَّقَدْ أَنزَلْنَا ءايات مبينات ﴾ أي لكلِّ ما يليقُ بيانُه من الأحكام الدّينيةِ والأسرار التَّكوينيَّةِ ﴿ واللهُ يَهْدِى مَن يَشَاء ﴾ أنْ يهديَه بتوفيقِه للنَّظرِ الصَّحيحِ فيها وإرشادِه إلى التَّأملِ في مطاويها ﴿ إلى صراط مُّسْتَقِيمٍ ﴾ موصل إلى حقيقة الحقّ والفوز بالجنَّةِ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 6 صـ ﴾

(129/551)

وقال الآلوسى :

﴿ واللهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ ﴾

أي كل حيوان يدب على الأرض وأدخلوا في ذلك الطير والسمك ، وظاهر كلام بعض أئمة التفسير أن الملائكة والجن يدخلون في عموم الدابة ، ولعلها عنده كل ما دب وتحرك مطلقاً ومعظم اللغويين يفسرها بما سمعت ، والتاء فيها للنقل إلى الاسمية لا للتأنيث ، وقيل دابة واحد داب كخائنة وخائن .

وقرأ حمزة .

والكسائي .

وابن وثاب .

والأعمش ﴿ خالق ﴾ اسم فاعل ﴿ كُلَّ دَابَّةٍ ﴾ بالجر بالإضافة ﴿ مِن مَّاء ﴾ هو جزء مادته وخصه بالذكر لظهور مزيد احتياج الحيوان بعد كمال تركيبه إليه وأن امتزاج الأجزاء الترابية به إلى غير ذلك أو ماء مخصوص هو النطفة فالتنكير على الأول للإفراد النوعي ، وعلى الثاني للإفراد الشخصي .

وجوز أن يكون عليهما لذلك ، وكلمة ﴿ كُلٌّ ﴾ على الثاني للتكثير كما في قوله تعالى : ﴿ يجبى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ [القصص : 57] لأن من الدواب ما يتولد لا عن نطفة .

وزعم بعضهم أنها على الأول لذلك أيضاً بناء على شمول الدابة للملائكة المخلوقين من نور وللجن المخلوقين من نار ، وادعى أيضاً أن من الإنس من لم يخلق من ماء أيضاً وهو آدم .

وعيسى عليهما السلام فإن الأول خلق من التراب والثاني خلق من الروح ولا يخفى ما فيه ، وجوز أن يعتبر العموم في ﴿ كُلٌّ ﴾ ويراد بالدابة ما يخلق بالتوالد بقرينة من ماء أي نطفة وفيه بحث ، وقيل ما من شيء دابة كان أو غيره إلا وهو مخلوق من الماء فهو أصل جميع المخلوقات لما روى أن أول ما خلق الله تعالى جوهرة فنظر إليها بعين الهيبة فصارت ماء ثم خلق من ذلك الماء النار والهواء والنور وخلق منها الخلق ، وأياً ما كان فمن متعلقة بخلق ، وقال القفال واستحسنه الإمام : هي متعلقة بمحذوف وقع صفة لدابة فالمراد الإخبار بأنه

تعالى خلق كل دابة كائنة أو متولدة من الماء فعموم الدابة عنده مخصص بالصفة وعموم ﴿ كُلٌّ ﴾ على ظاهره.

(130/551)

والظاهر أنه متعلق بخلق وهو أوفق بالمقام كما لا يخفى على ذوي الأفهام، وتنكير الماء هنا وتعريفه في قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الماء كُلَّ شَىْءٍ حَىّ ﴾ [الأنبياء: 30] لأن القصد هنا إلى معنى الإفراد شخصاً أو نوعاً والقصد هناك إلى معنى الجنس وأن حقيقة الماء مبدأ كل شيء حي ﴿ فَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِى على بَطْنِهِ ﴾ كالحيات والسمك وتسمية حركتها مشياً مع كونها زحفاً مجاز للمبالغة في إظهار القدرة وإنها تزحف بلا آلة كشبه المشي وأقوى، ويزيد ذلك حسناً ما فيه من المشاكلة لذكر الزاحف مع الماشين، ونظير ما هنا من وجه قوله تعالى: ﴿ يَدُ الله فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ [الفتح: 10] على رأي ﴿ وَمِنهُمْ مَّن يَمْشِى على رِجْلَيْنِ ﴾ كالإنس والطير ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِى على أَرْبَعٍ ﴾ كالنعم والوحش.

والظاهر أن المراد أربع أرجل فيفيد إطلاق الرجل على ما تقدم من قوائم ذوات القوائم الأربع وقد جاء إطلاق اليد عليه وعدم ذكر من يمشي على أكثر من أربع كالعناكب وأم

أربع وأربعين وغير ذلك من الحشرات لعدم إطلاق اليد عليه وعدم ذكر من يمشي على أكثر من أربع كالعناكب وأم أربع وأربعين وغير ذلك من الحشرات لعدم الاعتداد بها مع الإشارة إليها بقوله سبحانه : ﴿ يَخْلُقُ اللهُ مَا يَشَاءُ ﴾ أي مما ذكر ومما لم يذكر بسيطاً كان أو مركباً على ما يشاء من الصور والأعضاء والحركات والطبائع والقوى والأفاعيل .

وزعم الفلاسفة أن اعتماد ماله أكثر من أربع من الحيوان إنما هو على أربع ولا دليل لهم على ذلك .

(131/551)

وفي مصحف أبي ومنهم من يمشي على أكثر وهو ظاهر في خلاف ما يزعمون لكنه لم يثبت قرآناً ، وتذكير الضمير في ﴿ مِنْهُمْ ﴾ لتغليب العقلاء ، وبنى على تغليبهم في الضمير التعبير بمن واقعة على ما لا يعقل قاله الرضى ، وظاهر بعض العبارات يشعر باعتبار التغليب في ﴿ كُلَّ دَآبَّةٍ ﴾ وليس بمراد بل المراد أن ذلك لما شمل العقلاء وغيرهم على طريق الاختلاط لزم اعتبار ذلك في الضمير العائد عليه وتغليب العقلاء فيه ، ويفهم من كلام بعض المحققين أن لا تغليب في ﴿ مِنْ ﴾ الأولى والثالثة بل هو في الثانية فقط ، وقد يقال : لا تغليب في الثلاثة بعد اعتباره في الضمير فتدبر .

وترتيب الأصناف حسبما رتبت لتقديم ما هو أعرف في القدرة ؛ ولا ينافي ذلك كون المشي على البطن بمعنى الزحف مجازاً كما توهم ، وإظهار الاسم الجليل في موضع الإضمار لتفخيم شأن الخلق المذكور والإيذان بأنه من أحكام الألوهية ، والإظهار في قوله سبحانه : ﴿ إِنَّ الله على كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أي فيفعل ما يشاء كما يشاء لذلك أيضاً مع تأكيد استقلال الاستئناف التعليلي .

﴿ لَّقَدْ أَنزَلْنَا ءايات مبينات ﴾ أي لكل ما يليق بيانه من الأكام الدينية والأسرار التكوينية أو واضحات في أنفسها ، وهذا كالمقدمة لما بعده ولذا لم يأت بالعاطف فيه كما أتى سبحانه به فيما مر من قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ ءايات مبينات وَمَثَلاً مِّنَ الذين خَلَوْاْ ﴾ [النور : 34] الآية ، ومن اختلاف المساق يعلم وجه ذكر ﴿ إِلَيْكُمْ ﴾ هناك وعدم ذكره هنا .

﴿ والله يَهْدِى مَن يَشَاء ﴾ هدايته بتوفيقه للنظر الصحيح فيها والتدبر لمعانيها ﴿ إلى صراط مُّسْتَقِيمٍ ﴾ موصل إلى حقيقة الحق والفوز بالجنة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 18 صـ ﴾

(132/551)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً ﴾

لما ذكر سبحانه حال المؤمنين ، وما يئول إليه أمرهم ذكر مثلاً للكافرين ، فقال : ﴿ والذين كَفَرُواْ أعمالهم كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ ﴾ المراد بالأعمال هنا : هي الأعمال التي من أعمال الخير كالصدقة ، والصلة ، وفكّ العاني ، وعمارة البيت ، وسقاية الحاجّ ، والسراب : ما يرى في المفاوز من لمعان الشمس عند اشتداد حرّ النهار على صورة الماء في ظنّ من يراه ، وسمي سراباً لأنه يسرب أي : يجري كالماء ؛ يقال : سرب الفحل أي : مضى ، وسار في الأرض ، ويسمى الآل أيضاً .

وقيل : الآل هو الذي يكون ضحى كالماء ، إلاّ أنه يرتفع عن الأرض حتى يصير كأنه بين السماء والأرض ، قال امرؤ القيس :

ألم أنض المطيّ بكلّ خرق . . . طويل الطول لماع السراب

وقال آخر :

فلما كففنا الحرب كانت عهودهم . . . كلمع سرابٍ بالفلا متألق

والقيعة : جمع قاع : وهو الموضع المنخفض الذي يستقرّ فيه الماء ، مثل جيرة ، وجار ، قاله الهروي .

وقال أبو عبيد : قيعة ، وقاع واحد .

قال الجوهري : القاع المستوي من الأرض ، والجمع : أقوع وأقواع وقيعان ، صارت الواو ياء لكسر ما قبلها ، والقيعة مثل القاع .

قال : وبعضهم يقول : هو جمع ﴿ يَحْسَبُهُ الظمآن مَاء ﴾ هذه صفة ثانية لسراب ، والظمآن : العطشان ، وتخصيص الحسبان بالظمآن مع كون الرّيان يراه كذلك ، لتحقيق التشبيه المبنيّ على الطمع ﴿ حتى إِذَا جَاءهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً ﴾ أي : إذا جاء العطشان ذلك الذي حسبه ماء لم يجده شيئاً مما قدّره وحسبه ، ولا من غيره ، والمعنى : أن الكفار يعوّلون على أعمالهم التي يظنونها من الخير ، ويطمعون في ثوابها ، فإذا قدموا على الله سبحانه لم يجدوا منها شيئاً ، لأن الكفر أحبطها ، ومحا أثرها ، والمراد بقوله ﴿ حتى إِذَا جَاءهُ ﴾ مع أنه ليس بشيء أنه جاء الموضع الذي كان يحسبه فيه .

(133/551)

ثم ذكر سبحانه ما يدلّ على زيادة حسرة الكفرة ، وأنه لم يكن قصارى أمرهم مجرّد الخيبة كصاحب السراب ، فقال : ﴿ وَوَجَدَ الله عِندَهُ فوفاه حِسَابَهُ والله سَرِيعُ الحساب ﴾ أي : وجد الله بالمرصاد ، فوفاه حسابه أي : جزاء عمله ، كما قال امرؤ القيس :

فولى مدبراً يهوى حثيثا . . . وأيقن أنه لاقى الحسابا

وقيل : وجد وعد الله بالجزاء على عمله ، وقيل : وجد أمر الله عند حشره ، وقيل : وجد حكمه وقضاءه عند المجيء ، وقيل : عند العمل ، والمعنى متقارب .

وقرأ مسلمة بن محارب " بقيعاه " بهاء مدورة كما يقال : رجل عزهاه .

وروى عنه : أنه قرأ " بقيعات " بتاء مبسوطة .

قيل : يجوز أن تكون الألف متولدة من إشباع العين على الأوّل ، وجمع قيعة على الثاني .

وروي عن نافع ، وأبي جعفر ، وشيبة أنهم قرؤوا : " الظمآن " بغير همز ، والمشهور عنهم الهمز .

﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ ﴾ معطوف على كسراب ، ضرب الله مثلاً لأعمال الكفار كما أنه تشبه السراب الموصوف بتلك الصفات ، فهي أيضاً تشبه الظلمات .

قال الزجاج : أعلم الله سبحانه أن أعمال الكفار إن مثلت بما يوجد ، فمثلها كمثل السراب ، وإن مثلت بما يرى ، فهي كهذه الظلمات التي وصف .

قال أيضاً : إن شئت مثل بالسراب ، وإن شئت مثل بهذه الظلمات ، فأو : للإباحة حسبما تقدّم من القول في ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ ﴾ [البقرة : 19] .

قال الجرجاني : الآية الأولى في ذكر أعمال الكفار ، والثانية في ذكر كفرهم ، ونسق الكفر على أعمالهم لأنه أيضاً من أعمالهم .

قال القشيري : فعند الزجاج التمثيل وقع لأعمال الكفار ، وعند الجرجاني لكفر الكفار ﴿ فِي بَحْرٍ لُّجِّيّ ﴾ اللجة معظم الماء ، والجمع لجج ، وهو : الذي لا يدرك لعمقه .

(134/551)

ثم وصف سبحانه هذا البحر بصفة أخرى ، فقال ﴿ يغشاه مَوْجٌ ﴾ أي : يعلو هذا البحر موج ، فيستره ويغطيه بالكلية ، ثم وصف هذا الموج بقوله ﴿ مّن فَوْقِهِ مَوْجٌ ﴾ أي من فوق هذا الموج موج ، ثم وصف الموج الثاني ، فقال : ﴿ مّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ﴾ أي : من فوق ذلك الموج الثاني سحاب ، فيجتمع حينئذٍ عليهم خوف البحر وأمواجه ، والسحاب المرتفعة فوقه .

وقيل : إن المعنى : يغشاه موج من بعده موج ، فيكون الموج يتبع بعضه بعضاً حتى كأن بعضه فوق بعض ، والبحر أخوف ما يكون إذا توالت أمواجه ، فإذا انضم إلى ذلك وجود السحاب من فوقه زاد الخوف شدّة ، لأنها تستر النجوم التي يهتدي بها من في البحر ، ثم إذا أمطرت تلك السحاب ، وهبت الريح المعتادة في الغالب عند نزول المطر تكاثفت الهموم ، وترادفت الغموم ، وبلغ الأمر إلى الغاية التي ليس وراءها غاية ، ولهذا قال سبحانه : ﴿ ظلمات بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ﴾ أي : هي ظلمات متكاثفة مترادفة ، ففي هذه الجملة بيان

لشدّة الأمر وتعاظمه ، وقرأ ابن محيصن ، والبزي : " سحاب ظلمات " بإضافة سحاب إلى ظلمات ، ووجه الإضافة : أن السحاب يرتفع وقت هذه الظلمات ، فأضيف إليها لهذه الملابسة .

وقرأ الباقون بالقطع ، والتنوين .

ومن غرائب التفاسير : أنه سبحانه أراد بالظلمات : أعمال الكافر ، وبالبحر اللجيّ : قلبه ، وبالموج فوق الموج : ما يغشى قلبه من الجهل ، والشكّ ، والحيرة .

والسحاب : الرين ، والختم ، والطبع على قلبه ، وهذا تفسير هو عن لغة العرب بمكانٍ بعيد .

ثم بالغ سبحانه في هذه الظلمات المذكورة بقوله ﴿ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ﴾ وفاعل أخرج ضمير يعود على مقدّر دلّ عليه المقام أي : إذا أخرج الحاضر في هذه الظلمات أو من ابتلى بها .

قال الزجاج ، وأبو عبيدة : المعنى لم يرها ، ولم يكد .

وقال الفرّاء : إن كاد زائدة .

والمعنى : إذا أخرج يده لم يرها ، كما تقول ما كدت أعرفه .

وقال المبرد : يعني : لم يرها إلاّ من بعد الجهد .

قال النحاس : أصح الأقوال في هذا أن المعنى : لم يقارب رؤيتها ، فإذن لم يرها رؤية بعيدة ، ولا قريبة ، وجملة : ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُورٍ ﴾ مقرّرة لما قبلها من كون أعمال الكفرة على تلك الصفة ، والمعنى : ومن لم يجعل الله له هداية ، فما له من هداية .

قال الزجاج : ذلك في الدنيا ، والمعنى : من لم يهده الله لم يهتد ، وقيل : المعنى : من لم يجعل له نوراً يمشي به يوم القيامة ، فما له من نور يهتدي به إلى الجنة .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السموات والأرض ﴾ قد تقدّم تفسير مثل هذه الآية في سورة سبحان ، والخطاب لكلّ من له أهلية النظر ، أو للرسول صلى الله عليه وسلم ، وقد علمه من جهة الاستدلال ؛ ومعنى ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ : ألم تعلم ، والهمزة للتقرير أي : قد علمت علماً يقينياً شبيهاً بالمشاهدة ، والتسبيح : التنزيه في ذاته ، وأفعاله ، وصفاته عن كل ما لا يليق به ، ومعنى ﴿ مَن فِي السموات والأرض ﴾ : من هو مستقرّ فيهما من العقلاء ، وغيرهم ، وتسبيح غير العقلاء ما يسمع من أصواتها ، ويشاهد من أثر الصنعة البديعة فيها .

وقيل : إن التسبيح هنا هو الصلاة من العقلاء ، والتنزيه من غيرهم .

وقد قيل : إن هذه الآية تشمل الحيوانات ، والجمادات ، وأن آثار الصنعة الإلهية في

الجمادات ناطق ، ومخبر باتصافه سبحانه بصفات الجلال ، والكمال ، وتنزّهه عن صفات النقص ، وفي ذلك تقريع للكفار ، وتوبيخ لهم حيث جعلوا الجمادات التي من شأنها التسبيح لله سبحانه شركاء له يعبدونها كعبادته عزّ وجلّ .

وبالجملة ، فإنه ينبغي حمل التسبيح على ما يليق بكل نوع من أنواع المخلوقات على طريقة عموم المجاز .

قرأ الجمهور ﴿ والطير صافات ﴾ بالرفع للطير ، والنصب لصافات على أن الطير معطوفة على من ، وصافات منتصب على الحال .

(136/551)

وقرأ الأعرج " والطير " بالنصب على المفعول معه ، وصافات حال أيضاً .

قال الزجاج : وهي أجود من الرفع .

وقرأ الحسن ، وخارجة عن نافع " والطير صافات " برفعهما على الابتداء ، والخبر ، ومفعول صافات محذوف أي : أجنحتها ، وخصّ الطير بالذكر مع دخولها تحت من في السماوات والأرض لعدم استمرار استقرارها في الأرض ، وكثرة لبثها في الهواء ، وهو ليس من السماء ولا من الأرض ، ولما فيها من الصنعة البديعة التي تقدر بها تارة على الطيران ،

وتارة على المشي بخلاف غيرها من الحيوانات ، وذكر حالة من حالات الطير ، وهي كون صدور التسبيح منها حال كونها صافات لأجنحتها ؛ لأن هذه الحالة هي أغرب أحوالها ، فإن استقرارها في الهواء مسبحة من دون تحريك لأجنحتها ، ولا استقرار على الأرض من أعظم صنع الله الذي أتقن كلّ شيء .

ثم زاد في البيان فقال : ﴿ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاَتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ﴾ أي : كلّ واحد مما ذكر ، والضمير في علم يرجع إلى كلّ ، والمعنى : أن كل واحد من هذه المسبحات لله قد علم صلاة المصلي وتسبيح المسبح .

وقيل : المعنى أن كلّ مصلّ ومسبح قد علم صلاة نفسه ، وتسبيح نفسه .

قيل : والصلاة هنا بمعنى التسبيح ، وكرّر للتأكيد ، والصلاة قد تسمى تسبيحاً .

وقيل : المراد بالصلاة هنا الدعاء أي : كل واحد قد علم دعاءه ، وتسبيحه .

(137/551)

وفائدة الإخبار بأن كل واحد قد علم ذلك ، أن صدور هذا التسبيح هو عن علم قد علمها الله ذلك ، وألهمها إليه ، لا أن صدوره منها على طريقة الإتفاق بلا روية ، وفي ذلك زيادة دلالة على بديع صنع الله سبحانه ، وعظيم شأنه ، كونه جعلها مسبحة له عالمة بما

يصدر منها غير جاهلة له ﴿ واللهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ هذه الجملة مقرّرة لما قبلها أي : لا تخفى عليه طاعتهم ، ولا تسبيحهم ، ويجوز أن يكون الضمير في ﴿ علم ﴾ لله سبحانه ، أي : كلّ واحد من هذه المسبحة قد علم الله صلاته له ، وتسبيحه إياه ، والأوّل أرجح لاتفاق القرّاء على رفع كل ، ولو كان الضمير في علم لله لكان نصب كل أولى .

وذكر بعض المفسرين : أنها قراءة طائفة من القراء علم على البناء للمفعول .

ثم بين سبحانه : أن المبدأ منه ، والمعاد إليه ، فقال : ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السموات والأرض ﴾ أي : له لا لغيره ﴿ وَإِلَيْهِ المصير ﴾ لا إلى غيره ، والمصير : الرجوع بعد الموت .

وقد تقدّم تفسير مثل هذه الآية في غير موضع .

ثم ذكر سبحانه دليلاً آخر من الآثار العلوية ، فقال : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُزْجِي سَحَاباً ﴾ الإزجاء : السوق قليلاً قليلاً ، ومنه قول النابغة :

إني أتيتك من أهلي ومن وطني . . . أزجي حشاشة نفس ما بها رمق

وقوله أيضاً :

أسرت عليه من الجوزاء سارية . . . يزجي السماك عليه جامد البرد

والمعنى : أنه سبحانه يسوق السحاب سوقاً رقيقاً إلى حيث يشاء ﴿ ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ﴾ أي : بين أجزائه ، فيضم بعضه إلى بعض ، ويجمعه بعد تفرّقه ليقوى ، ويتصل ، ويكثف ، والأصل في التأليف الهمز .

وقرأ ورش ، وقالون عن نافع " يولف " بالواو تخفيفاً ، والسحاب واحد في اللفظ ، ولكن معناه جمع ، ولهذا دخلت "بين" عليه لأن أجزاءه في حكم المفردات له .

(138/551)

قال الفراء : إن الضمير في ﴿ بينه ﴾ راجع إلى جملة السحاب ، كما تقول : الشجر قد جلست بينه ، لأنه جمع ، وأفرد الضمير باعتبار اللفظ ﴿ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَاماً ﴾ أي : متراكماً يركب بعضه بعضاً .

والركم : جمع الشيء ، يقال : ركم الشيء يركمه ركماً أي : جمعه وألقى بعضه على بعض وارتكم الشيء ، وتراكم إذا اجتمع .

والركمة : الطين المجموع ، والركام : الرمل المتراكب ﴿ فَتَرَى الودق يَخْرُجُ مِنْ خِلاَلِهِ ﴾

الودق : المطر عند جمهور المفسرين ، ومنه قول الشاعر :

فلا مزنة ودقت ودقها . . . ولا أرض أبقل إبقالها

وقال امرؤ القيس :

فدمعهما ودق وسح وديمة . . . وسكب وتوكاف وتنهملان

يقال : ودقت السحاب فهي : وادقة ، وودق المطر يدق أي : قطر يقطر ، وقيل : إن الودق

البرق ، ومنه قول الشاعر :

أثرن عجاجة وخرجن منها . . . خروج الودق من خلل السحاب

والأوّل أولى .

ومعنى ﴿ مِنْ خِلاَلِهِ ﴾ : من فتوقه التي هي مخارج القطر ، وجملة : ﴿ يَخْرُجُ مِنْ خِلاَلِهِ ﴾ في محل نصب على الحال ، لأن الرؤية هنا هي البصرية .

وقرأ ابن عباس وابن مسعود والضحاك وأبو العالية " من خلله " على الإفراد .

وقد وقع الخلاف في خلال : هل هو مفرد كحجاب ؟ أو جمع كجبال ؟ ﴿ وَيُنَزِّلُ مِنَ السماء مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ ﴾ المراد بقوله : من سماء : من عال ، لأن السماء قد تطلق على جهة العلوّ ، ومعنى ﴿ من جبال ﴾ : من قطع عظام تشبه الجبال ، ولفظ "فيها" في محل نصب على الحال ، و"من" في ﴿ من برد ﴾ للتبعيض ، وهو مفعول ينزل .

وقيل : إن المفعول محذوف ، والتقدير : ينزل من جبال فيها من برد برداً .

وقيل : إن من في ﴿ من برد ﴾ زائدة ، والتقدير : ينزل من السماء من جبال فيها برد .

وقيل : إن في الكلام مضافاً محذوفاً أي : ينزل من السماء قدر جبال ، أو مثل جبال من برد إلى الأرض .

قال الأخفش : إن من في ﴿ من جبال ﴾ وفي : ﴿ من برد ﴾ زائدة في الموضعين ، والجبال والبرد في موضع نصب أي : ينزل من السماء برداً يكون كالجبال .

والحاصل : أن "من" في ﴿ من السماء ﴾ لابتداء الغاية بلا خلاف ، و"من" في ﴿ من جبال ﴾ فيها ثلاثة أوجه : الأوّل لابتداء الغاية ، فتكون هي ومجرورها بدلاً من الأولى بإعادة الخافض بدل اشتمال .

الثاني : أنها للتبعيض فتكون على هذا هي ومجرورها في محل نصب على أنها مفعول الإنزال ، كأنه قال : وينزل بعض جبال .

الثالث : أنها زائدة أي : ينزل من السماء جبالاً .

وأما "من" في ﴿ من برد ﴾ ففيها أربعة أوجه : الثلاثة المتقدّمة .

والرابع : أنها لبيان الجنس ، فيكون التقدير على هذا الوجه : وينزل من السماء بعض جبال التي هي البرد .

قال الزجاج : معنى الآية : وينزل من السماء من جبال برد فيها كما تقول : هذا خاتم في يدي من حديد أي : خاتم حديد في يدي ، لأنك إذا قلت : هذا خاتم من حديد ، وخاتم حديد كان المعنى واحداً .

انتهى .

وعلى هذا يكون ﴿ من برد ﴾ في موضع جرّ صفة لجبال كما كان من حديد صفة لخاتم ، ويكون مفعول ينزل ﴿ من جبال ﴾ ، ويلزم من كون الجبال برداً أن يكون المنزل برداً .

وذكر أبو البقاء : أن التقدير : شيئاً من جبال ، فحذف الموصوف ، واكتفى بالصفة ﴿ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاء ﴾ أي : يصيب بما ينزل من البرد من يشاء أن يصيبه من عباده ﴿ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاء ﴾ منهم ، أو يصيب به مال من يشاء ، ويصرفه عن مال من يشاء ، وقد تقدّم الكلام عن مثل هذا في البقرة .

﴿ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبصار ﴾ السنا : الضوء ، أي : يكاد ضوء البرق الذي في السحاب يذهب بالأبصار من شدّة بريقه ، وزيادة لمعانه ، وهو كقوله : ﴿ يَكَادُ البرق يَخْطَفُ أبصارهم ﴾ [البقرة : 20] قال الشماخ :

وما كادت إذا رفعت سناها . . . ليبصر ضوءها إلاّ البصير

وقال امرؤ القيس :

يضيء سناه أو مصابيح راهب . . . أمال السليط في الذبال المفتل

فالسنا بالقصر : ضوء البرق ، وبالمدّ : الرفعة ، كذا قال المبرّد ، وغيره .

وقرأ طلحة بن مصرف ، ويحيى ابن وثاب " سناء برقه " بالمدّ على المبالغة في شدّة الضوء ، والصفاء ، فأطلق عليه اسم : الرفعة ، والشرف .

وقرأ طلحة ، ويحيى أيضاً بضم الباء من برقه ، وفتح الراء .

قال أحمد بن يحيى ثعلب : وهي على هذه القراءة جمع برق .

وقال النحاس : البرقة المقدار من البرق ، والبرقة الواحدة .

وقرأ الجحدري ، وابن القعقاع : " يذهب " بضم الياء ، وكسر الهاء من الإذهاب .

وقرأ الباقون ﴿ سنا ﴾ بالقصر و ﴿ بَرْقه ﴾ بفتح الباء ، وسكون الراء ، و ﴿ يَذْهَبُ ﴾ بفتح الياء والهاء من الذهاب ، وخطأ قراءة الجحدري وابن القعقاع الأخفش وأبو حاتم .

ومعنى ذهاب البرق بالأبصار : خطفه إياها من شدّة الإضاءة ، وزيادة البريق ، والباء في ﴿ بالأبصار ﴾ على قراءة الجمهور للإلصاق ، وعلى قراءة غيرهم زائدة .

﴿ يُقَلِّبُ الله اليل والنهار ﴾ أي : يعاقب بينهما ، وقيل يزيد في أحدهما ، وينقص الآخر ، وقيل : يقلبهما باختلاف ما يقدره فيهما من خير وشرّ ، ونفع وضرّ ، وقيل : بالحرّ والبرد ، وقيل : المراد بذلك تغيير النهار بظلمة السحاب مرّة ، وبضوء الشمس أخرى ، وتغيير الليل بظلمة السحاب تارة ، وبضوء القمر أخرى ، والإشارة بقوله : ﴿ إِنَّ فِى ذلك لَعِبْرَةً لأُوْلِى

الأبصار ﴾ إلى ما تقدّم ، ومعنى العبرة : الدلالة الواضحة التي يكون بها الاعتبار ، والمراد بأولي الأبصار : كل من له بصر يبصر به .

(141/551)

ثم ذكر سبحانه دليلاً ثالثاً من عجائب خلق الحيوان ، وبديع صنعته ، فقال ﴿ واللهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مّن مَّاء ﴾ قرأ يحيى بن وثاب والأعمش وحمزة والكسائي " والله خالق كل دابة " ، وقرأ الباقون : ﴿ خلق ﴾ ، والمعنيان صحيحان ، والدابة : كلّ ما دب على الأرض من الحيوان ، يقال : دبّ يدبّ ، فهو : دابّ ، والهاء للمبالغة ، ومعنى ﴿ مِن مَّاء ﴾ من نطفة ، وهي المنيّ ، كذا قال الجمهور .

وقال جماعة : إن المراد الماء المعروف ، لأن آدم خلق من الماء ، والطين .

وقيل : في الآية تنزيل الغالب منزلة الكل على القول الأوّل ، لأن في الحيوانات ما يتولد لا عن نطفة ، ويخرج من هذا العموم الملائكة ، فإنهم خلقوا من نور ، والجانّ ، فإنهم خلقوا من نار .

ثم فصل سبحانه أحوال كلّ دابة ، فقال : ﴿ فَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي على بَطْنِهِ ﴾ ، وهي الحيات والحوت والدود ونحو ذلك ﴿ وَمِنهُمْ مَّن يَمْشِي على رِجْلَيْنِ ﴾ الإنسان والطير

﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي على أَرْبَعٍ ﴾ سائر الحيوانات ، ولم يتعرّض لما يمشي على أكثر من أربع لقلته ، وقيل : لأن المشي على أربع فقط ، وإن كانت القوائم كثيرة ، وقيل : لعدم الاعتداد بما يمشي على أكثر من أربع ، ولا وجه لهذا ، فإن المراد التنبيه على بديع الصنع ، وكمال القدرة ، فكيف يقال : لعدم الاعتداد بما يمشي على أكثر من أربع ؟ وقيل : ليس في القرآن ما يدلّ على عدم المشي على أكثر من أربع ، لأنه لم ينف ذلك ، ولا جاء بما يقتضي الحصر ، وفي مصحف أبيّ : " ومنهم من يمشي على أكثر " ، فعمّ بهذه الزيادة جميع ما يمشي على أكثر من أربع ، كالسرطان والعناكب وكثير من خشاش الأرض ﴿ يَخْلُقُ اللهُ مَا يَشَاء ﴾ مما ذكره هاهنا ، ومما لم يذكره ، كالجمادات مركبها وبسيطها ، ناميها وغير ناميها ﴿ إِنَّ اللهَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ لا يعجزه شيء بل الكلّ من مخلوقاته داخل تحت قدرته سبحانه .

(142/551)

﴿ لَّقَدْ أَنزَلْنَا ءايات مبينات ﴾ أي : القرآن ، فإنه قد اشتمل على بيان كلّ شيء ، وما فرّطنا في الكتاب من شيء ، وقد تقدّم بيان مثل هذا في غير موضع ﴿ واللهُ يَهْدِي مَن يَشَاء ﴾ بتوفيقه للنظر الصحيح ، وإرشاده إلى التأمل الصادق ﴿ إلى صراط مُّسْتَقِيمٍ ﴾ إلى طريق مستوي لا عوج فيه ، فيتوصل بذلك إلى الخير التام ، وهو نعيم الجنة .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ والذين كَفَرُواْ أعمالهم كَسَرَابٍ ﴾ قال : هو مثل ضربه الله كرجل عطش ، فاشتد عطشه ، فرأى سراباً ، فحسبه ماء ، فطلبه ، فظن أنه قدر عليه حتى أتى ، فلما أتاه لم يجده شيئاً ، وقبض عند ذلك ، يقول : الكافر كذلك السراب إذا أتاه الموت لم يجد عمله يغني عنه شيئاً ، ولا ينفعه إلاّ كما نفع السراب العطشان ﴿ أَوْ كظلمات فِي بَحْرٍ لُّجّيّ ﴾ قال : يعني بالظلمات : الأعمال ، وبالبحر اللجيّ : قلب الإنسان ﴿ يغشاه مَوْجٌ ﴾ يعني بذلك : الغشاوة التي على القلب ، والسمع والبصر .

وأخرج ابن جرير عنه ﴿ بِقِيعَةٍ ﴾ : بأرض مستوية .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم مِن طريق السديّ ، عن أبيه ، عن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إن الكفار يبعثون يوم القيامة ورداً عطاشاً ، فيقولون : أين الماء ؟ فيتمثل لهم السراب ، فيحسبونه ماء ، فينطلقون إليه ، فيجدون الله عنده ، فيوفيهم حسابه ، والله سريع الحساب " ، وفي إسناده السديّ عن أبيه ، وفيه مقال معروف .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة في قوله : ﴿ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاَتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ﴾ قال : الصلاة للإنسان ، والتسبيح لما سوى ذلك من خلقه .

وأخرج ابن أبي حاتم عنه في قوله ﴿ والطير صافات ﴾ قال : بسط أجنحتهن .

وأخرج عبد بن حميد ، عن قتادة نحوه .

(143/551)

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ ﴾ يقول : ضوء برقه .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر عن ابن عباس قال : كل شيء يمشي على أربع إلاّ الإنسان .

وأقول : هذه الطيور على اختلاف أنواعها تمشي على رجلين ، وهكذا غيرها ، كالنعامة ، فإنها تمشي على رجلين ، وليست من الطير ، فهذه الكلية المروية عنه رضي الله عنه لا تصحّ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 4 صـ ﴾

(144/551)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ ﴾

لما كان الاعتبار بتساوي أجناس الحيوان في أصل التكوين من ماء التناسل مع الاختلاف في أول أحوال تلك الأجناس في آثار الخلقة وهو حال المشي إنما هو باستمرار ذلك النظام بدون تخلف وكان ذلك محققاً كان إفراغ هذا المعنى بتقديم المسند إليه على الخبر الفعلي مفيداً لأمرين : التحقق بالتقديم على الخبر الفعلي .

والتجدد بكون الخبر فعلياً .

وإظهار اسم الجلالة دون الإضمار للتنويه بهذا الخلق العجيب .

واختير فعل المضي للدلالة على تقرير التقوّي بأن هذا شأن متقرر منذ القدم مع عدم فوات الدلالة على التكرير حيث عقب الكلام بقوله : ﴿ يخلق الله ما يشاء ﴾ .

وقرأ الجمهور ﴿ والله خلق كل دابة ﴾ بصيغة فعل المضي ونصب ﴿ كل ﴾ .

وقرأه الكسائي ﴿ والله خالق كل دابة ﴾ بصيغة اسم الفاعل وجر ﴿ كل ﴾ بإضافة اسم الفاعل إلى مفعوله .

والدابة : ما دبّ على وجه الأرض ، أي مشى .

وغُلب هنا الإنسان فأتي بضمير العقلاء مراداً به الإنسان وغيره مرتين .

وتنكير ﴿ ماء ﴾ لإرادة النوعية تنبيهاً على اختلاف صفات الماء لكل نوع من الدواب إذ

المقصود تنبيه الناس إلى اختلاف النطف للزيادة في الاعتبار .

وهذا بخلاف قوله : ﴿ وجعلنا من الماء كل شيء حي ﴾ [الأنبياء : 30] إذ قُصد ثمة إلى أن أجناس الحيوان كلها مخلوقة من جنس الماء وهو جنس واحد اختلفت أنواعه ، فتعريف الجنس هناك إشارة إلى ما يعرفه الناس إجمالاً ويعهدونه من أن الحيوان كله مخلوق من نطف أصوله .

وهذا مناط الفرق بين التنكير كما هنا وبين تعريف الجنس كما في آية ﴿ وجعلنا من الماء كل شيء حيّ ﴾ [الأنبياء : 30] .

و﴿ من ﴾ ابتدائية متعلقة بـ ﴿ خلق ﴾ .

ورتب ذكر الأجناس في حال المشي على ترتيب قوة دلالتها على عظم القدرة لأن الماشي بلا آلة مشيٍ متمكنةٍ أعجب من الماشي على رجلين ، وهذا المشي زحفاً .

أطلق المشي على الزحف بالبطن للمشاكلة مع بقية الأنواع .

(145/551)

وليس في الآية ما يقتضي حصر المشي في هذه الأحوال الثلاثة لأن المقصود الاعتبار بالغالب المشاهد .

وجملة : ﴿ يخلق الله ما يشاء ﴾ زيادة في العبرة ، أي يتجدد خلق الله ما يشاء أن يخلقه مما علمتم وما لم تعلموا .

فهي جملة مستأنفة .

وجملة : ﴿ إن الله على كل شيء قدير ﴾ تعليل وتذييل .

ووقع فيه إظهار اسم الجلالة في مقام الإضمار ليكون كلاماً مستقلاً بذاته لأن شأن التذييل أن يكون كالمثل .

لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (46)

تذييل للدلائل والعبر السالفة وهو نتيجة الاستدلال ولذلك ختم بقوله : ﴿ والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾ ، أي إن لم يهتد بتلك الآيات أهل الضلالة فذلك لأن الله لم يهدهم لأنه يهدي من يشاء .

والمراد بالآيات هنا آيات القرآن كما يقتضيه فعل ﴿ أنزلنا ﴾ ولذلك لم تعطف هذه الجملة على ما قبلها بعكس قوله السابق ﴿ ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات ﴾ [النور : 34] .

ولما كان المقصود من هذا إقامة الحجة دون الامتنان لم يقيد إنزال الآيات بأنه إلى المسلمين كما قيد في قوله تعالى قبله : ﴿ ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات ﴾ [النور : 34] كما تقدم .

وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب ﴿ مبينات ﴾ بفتح الياء على صيغة

اسم المفعول ، أي بيَّنها الله ووضحها ببلاغتها وقوة حجتها .

وقرأ الباقون بكسر الياء على صيغة اسم الفاعل ، فإسناد التبيين إلى الآيات على هذه القراءة مجاز عقلي لأنها سبب البيان .

والمعنى أن دلائل الحق ظاهرة ولكن الله يقدِّر الهداية إلى الحق لمن يشاء هدايته . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 18 صـ ﴾

(146/551)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ ﴾

الدابة : كلّ ما يدبُّ على الأرض ، سواء أكان إنساناً أو أنعاماً أو وحشاً ، فكُلُّ ما له دبيب على الأرض خلقه الله من ماء حتى النملة لها على الأرض دبيب .

وكل شيء يضخم قابل لأنْ يُصغَّر ، وقد يُضخَّم تضخيماً لدرجة أنك لا تستطيع أن تدرك كُنْهه ، وقد يَصْغُر تصغيراً حتى لا تكاد تراه ، وتحتاج في رؤيته إلى مُكبِّر ، ومن عجائب الخَلْق أن النملة أو الناموسة فيها كل أجهزة الحياة ومُقوِّماتها ، وفيها حياة كحياة الفيل الضخم ، ومن عظمة الخالق سبحانه أن يخلق الشيء الضخم الذي يفوق الإدراك

لضخامته ، ويخلق الشيء الضئيل الذي يفوق الإدراك لضآلته .

ألاَ ترى أن ساعة (يج بن) أخذتْ شهرتها لضخامة حجمها ، ثم جاء بعد ذلك مَنْ صنع الساعة في حجم فصِّ الخاتم ، وفيها نفس الآلات التي في ساعة (يج بن) ، كذلك خلق الله من الماء الفيل الضخم ، وخلق الناموسة التي تؤرق الفيل رغم صِغَرها . . سبحان الخالق .

ولما كان الماء هو الأصل في خِلْقة كل شيء حيٍّ وجدنا العلماء يقتلون حتى الميكروب الصغير الدقيق بأنْ يحجبوا عنه المائية فيموت ، ومن ذلك مداواة الجروح بالعسل ؛ لأنه يمتص المائية أو يحجبها ، فلا يجد الميكروب وسطاً مائياً يعيش فيه .

وهذه الخِلْقة ليست على شكل واحد ولا وتيرة واحدة في قوالب ثابتة ، إنما هي ألوان وأشكال ﴿ فَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي على بَطْنِهِ وَمِنهُمْ مَّن يَمْشِي على رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي على أَرْبَعٍ ﴾ [النور : 45] .

والمشي : هو انتقال الموصوف بالمشي من حَيِّز مكاني إلى حَيِّز مكاني آخر ، والناس تفهم أن المشي ما كان بالقدمين ، لكن يُوضِّح لنا سبحانه أن المشْي أنواع : فمن الدوابِّ مَنْ يمشي على بطنه ، ومنه مَنْ يمشي على رِجْلَيْن ، ومنهم مَنْ يمشي على أربع .

وربنا سبحانه وتعالى بسط لنا هذه المسألة بَسْطاً يتناسب وإعجاز القرآن وإيجازه ، فلم يذكر مثلاً أن من الدواب مَنْ له أربع وأربعون مثلاً ، وفي تنوع طُرق المشي في الدواب عجائب تدلنا على قدرته تعالى وبديع خَلْقه .

لذلك قال بعدها : ﴿ يَخْلُقُ اللهُ مَا يَشَآءُ ﴾ [النور : 45] لأن الآية لم تستقْص كل ألوان المشي ، إنما تعطينا نماذج ، وتحت ﴿ يَخْلُقُ اللهُ مَا يَشَآءُ ﴾ [النور : 45] تندرج مثلاً (أُم أربعة وأربعين) وغيرها من الدواب ، والآية دليل على طلاقة قدرته سبحانه .

وكما سخر الله الإنسان لخدمة الإنسان ، كذلك سخَّر الحيوان لخدمة الحيوان ليُوفِّر له مُقوِّمات حياته ، ألاَ ترى الطير يقتات على فضلات الطعام بين أسنان التمساح مثلاً فينظفها له ، إذن : فما في فم التمساح من الخمائر والبكتيريا هي مخزن قوت لهذه الطيور ، ويحدث بينها توافق وانسجام وتعاون ، حتى إن الطير إنْ رأى الصياد الذي يريد أن يصطاد التمساح فإنها تُحدِث صوتاً لتنبه التمساح حتى ينجو .

ومن المشْيِ أيضاً السَّعْي بين الناس بالنميمة ، كما قال تعالى : ﴿ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ ﴾ [القلم : 11] .

وبعد أن أعطانا الحق تبارك وتعالى الأدلة على أن المُلْك له وحده ، وأن كل شيء يُسبِّح بحمده تعالى وإليه تُرجَع الأمور ، وأنه تعالى خلق كُلَّ دابة من ماء ، قال سبحانه : ﴿ لَّقَدْ

أَنزَلْنَا آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ ﴾

يعني : مَنْ ملك هذا المُلْك وحده ، وخلق لكم هذه العجائب أنزل لكم آيات بينات تحمل إليكم الأحكام ، فكما فعل لكم الجميل ، ووفر لكم ما يخدمكم في الكون ، سمائه وأرضه ، فأدُّوا أنتم ما عليكم نحو منهجه وأحكامه ، واتبعوا هذه الآيات البينات .

(148/551)

ومعنى : ﴿ مُّبَيِّنَاتٍ ﴾ [النور : 46] أي : لاستقامة حركة الحياة ؛ لأن حركة الحياة تحتاج لأنْ يتحرك الجميع ويؤدي كُلٌّ مهمته حتى تتساند الحركات ولا تتعاند ، فالذي يُتعب الدنيا أن تبنى وغيرك يهدم .

إذن : لا بُدَّ من ضابط قيمي يضبط كل الحركات ويحثّ كل صانع أنْ يتقن صَنْعته ويُخلِص فيها ، والإنسان غالباً لا يحسن إلا زاوية واحدة في حياته ، هي حرفته وتخصصه ، وربما لا يحسنها لنفسه ؛ لأنه لا يتقاضى عليها أجراً ، لذلك يقولون (باب النجار مخلع) أما إنْ عمل للآخرين فإنه يُحسِن عمله ويتقن صنعته ، وكذلك يتقن الناس لك ما في أيديهم ، فتستقيم الأمور ، فأحْسن ما في يدك للناس ، يحسنْ لك الناسُ ما في أيديهم .

وقوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [النور : 46] .

ولقائل أنْ يسأل : وما ذنب مَنْ لم يدخل في هذه المشيئة فلم يُهْتد ؟ وسبق أن قلنا : إن الهداية نوعان : هداية الدلالة وهداية المعونة على الدلالة .

فالله تعالى يهدي الجميع هداية الدلالة ، ويبين للكل أسباب الخير وسُبل النجاة وطريق الفلاح والأسلوب الأمثل في إدارة حركة الحياة ، فمَنْ سمع كلام الله ووثق في توجيهه وأطاع في هداية الدلالة أعانه بهداية المعونة .

فساعة تسمع : ﴿ والله لاَ يَهْدِي القوم الفاسقين ﴾ [المائدة : 108] .

﴿ والله لاَ يَهْدِي القوم الظالمين ﴾ [البقرة : 258] .

فاعلم أنهم امتنعوا عن هداية الدلالة فامتنعت عنهم هداية المعونة ، لا هداية الدلالة والإرشاد والبيان .

وقلنا : إن كلمة ﴿ أَنزَلْنَآ ﴾ [النور : 46] تشعر باحترام الشيء المنزّل ؛ لأن الإنزال لا يكون إلا من العُلو إلى الأدنى ، فكأن ربك عز وجل حين يكلفك يقول لك : أريد أن أرتفع بك من مستوى الأرض إلى عُلو السماء ؛ لذلك يقول تعالى في موضع آخر : ﴿ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾ [الأنعام : 151] .

(149/551)

أي : لا تضعوا لأنفسكم القوانين ، ولا تسيروا خلف آرائكم وأفكاركم ، إنما تعالوا إلى الله وخذوا منه سبحانه منهج حياتكم ، فهو الذي خلقكم ، وخلق لكم هذه الحياة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(150/551)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ ﴾

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد ﴿ والله خلق كل دابة من ماء ﴾ قال : النطفة .

وأخرج عبد بن حميد عن عبد الله بن مغفل أنه قرأ ﴿ والله خالق كل دابة من ماء ﴾ .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر عن ابن عباس قال : كل شيء يمشي على أربع إلا الإِنسان ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 6 صـ ﴾

(151/551)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله : ﴿ مِّن مَّآءٍ ﴾ :

فيها وجهان . أحدُهما : أنَّها متعلقةٌ ب " خَلَق " أي : خَلَقَ مِنْ ماءٍ كلَّ دابة . و " مِنْ " لابتداءِ الغايةِ . وعلى هذا فيُقال : وُجِدَ من الدوابِّ ما لم يُخْلَقْ مِنْ ماءٍ كآدمَ فإنه مِنْ تراب ، وعيسى فإنَّه مِنْ رُوحٍ ، والملائكةِ فإنَّهم مِنْ نُور ، والجِنِّ فإنهم مِنْ نارٍ . وأُجيب بأنَّ الأمرَ الغالِبَ ذلك . وفيه نظرٌ فإنَّ الملائكةَ أَضعافُ الحيوان ، والجنَّ أيضاً أضعافُهم . وقيل : لأنَّ الحيوانَ لا يَعيش [إلاَّ] به ، فجُعِل منه لذلك ، وإن كان لنا من الحيوانِ ما لا يَحْتاج إلى الماءِ البتة ، ومنه الضبُّ .

وقيل : جاء في التفسير : أنه كان خَلَق في الأولِ جوهرة فنظرَ إليها فذابَتْ ماء ، فمنها خَلَق ذلك . والثاني : أنَّ " مِنْ " متعلقةٌ بمحذوفٍ على أنها صفةٌ ل " دابَّة " والمعنى : الإخبارُ بأنه خَلَق كلَّ دابةٍ كائنةٍ من الماء ، أي : كلُّ دابة من ماءٍ هي مخلوقةٌ للهِ تعالى . قاله القفَّال . ونكَّر " ماء " وعرَّفه في قوله : ﴿ مِنَ المآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾ [الأنبياء : 30] لأنَّ المقصودَ هنا التنويعُ .

قوله : ﴿ فَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي ﴾ إلى آخره . إنما أَطْلَقَ " مَنْ " على غيرِ العاقلِ لاختلاطِه بالعاقلِ في المفصَّل ب " مَنْ " وهو " كلَّ دابة " ، وكان التعبيرُ ب " مَنْ " أولى لِتَوافُقِ اللفظِ .

وقيل : لَمَّا وصفَهم بما يُوصف به العقلاء وهو المَشْيُ أَطْلق عليها " مَنْ " . وفيه نظرٌ ؛ لأنَّ هذه الصفةَ ليسَتْ خاصةً بالعقلاء ، بخلافِ قولِه تعالى : ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ ﴾ [النحل : 17] . [وقوله :]

3457 . . . . . هل مَنْ يُعِيْرُ جناحَه . . . لَعَلِّي . . . . . .

. . . . . .

(152/551)

البيت . وقد تقدَّم خلافُ القُرَّاء في ﴿ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ ﴾ في سورة إبراهيم . واستعير المَشْيُ للزَحْفِ على البطنِ ، كما استُعير المِشْفَرُ للشَّفَةِ وبالعكسِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 424.426 ﴾

(153/551)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ ﴾

يريد خلقَ كُلِّ حيوانٍ من ماء ، يخرج من صُلْب الأب وتريبة الأمِّ . ثم أجزاءُ الماءِ متساويةٌ متماثِلة ، ثم ينقسم إلى جوارح في الظاهر وجوارح في الباطن ، فيختصُّ كلُّ عضو وينفرد كل شِلْوٍ بنوع من الهيئة والصورة ، وضَرْبٍ من الشكل والبِنْيَةِ . ثم اختلاف هيئات الحيوانات في الريش والصوف والوبر والظفر والحافر والمخلب ، ثم في القامة والمنظر ، ثم انقسام ذلك إلى لحم وشحم وجِلْدٍ وعَظْمٍ وسِنٍّ ومخٍّ وعَصب وعِرْقٍ وشَعْرٍ .

فالنظرُ في هذا – مع العبرة به – يوجِبُ سجودَ البصيرةَ وقوة التحصيل .

لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (46)

الآيات بَيِّنةٌ ولكنَّ اللَّهَ يهدي إليها قوماً ويُلَبِّس على آخرين ، والذي سُدَّ بَصَرُه أَنَّى ينفعه طلوعُ الشمسِ والنجوم ؟ وكذلك الذي سُدَّت بصيرته أَنَّى تنفعه شواهدُ العلوم ودلائل الفهوم ؟ وقالوا في معناه :

وما انتفاعُ أَخي الدنيا بمقلته . . . إذا اسْتَوَتْ عِنْدَهُ الأنوارُ والظُلَمُ . انتهى انتهى . اهـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 618 ﴾

(154/551)

فصل

قال الشيخ سيد قطب فى الآيات السابقة :

﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

في الدرسين الماضيين من السورة عالج السياق أغلظ ما في الكيان البشري . ليرققه ويطهره ويرتفع به إلى آفاق النور . عالج عرامة اللحم والدم ، وشهوة العين والفرج ، ورغبة التجريح والتشهير ، ودفعة الغضب والغيظ . وعالج الفاحشة أن تشيع في النفس وأن تشيع في الحياة ، وأن تشيع في القول . عالجها بتشديد حد الزنا وحد القذف . وعالجها بعرض نموذج شنيع فظيع من رمي المحصنات الغافلات المؤمنات . وعالجها بالوسائل الواقية : بالاستئذان على البيوت وغض البصر وإخفاء الزينة ، والنهي عن مثيرات الفتنة ، وموقظات الشهوة . ثم بالإحصان ، ومنع البغاء ، وتحرير الرقيق . . كل أولئك ليأخذ الطريق على دفعات اللحم والدم ، ويهيئ للنفوس وسائل العفة والاستعلاء والشفافية والإشراق .

وفي أعقاب حديث الإفك عالج ما تخلف عنه من غضب وغيظ ، ومن اضطراب في المقاييس ، وقلق في النفوس . فإذا نفس محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم مطمئنة هادئه . وإذا نفس عائشة رضي الله عنها قريرة راضية . وإذا نفس أبي بكر رضي الله عنه سمحة صافية . وإذا نفس صفوان بن المعطل رضي الله عنه قانعة بشهادة الله وتبرئته . وإذا نفوس المسلمين آيبة تائبة . وقد تكشف لها ما كانت تخبط فيه من التيه .

فثابت إلى ربها شاكرة فضله ورحمته وهدايته . .

بهذا التعليم . . وهذا التهذيب . وهذا التوجيه . عالج الكيان البشري ، حتى أشرق بالنور ؛ وتطلع إلى الأفق الوضيء ؛ واستشرف النور الكبير في آفاق السماوات والأرض ، وهو على استعداد لتلقي الفيض الشامل الغامر في عالم كله إشراق ، وكله نور :

﴿ الله نور السماوات والأرض ﴾ . .

(155/551)

وما يكاد النص العجيب يتجلى حتى يفيض النور الهادئ الوضيء ، فيغمر الكون كله ، ويفيض على المشاعر والجوارح ، وينسكب في الحنايا والجوانح ؛ وحتى يسبح الكون كله في فيض النور الباهر ؛ وحتى تعانقه وترشفه العيون والبصائر ؛ وحتى تنزاح الحجب ، وتشف القلوب ، وترف الأرواح . ويسبح كل شيء في الفيض الغامر ، ويتطهر كل شيء في بحر النور ، ويتجرد كل شيء من كثافته وثقله ، فإذا هو انطلاق ورفرفة ، ولقاء ومعرفة ، وامتزاج وألفه ، وفرح وحبور . وإذا الكون كله بما فيه ومن فيه نور طليق من القيود والحدود ، تتصل فيه السماوات بالأرض ، والأحياء بالجماد ، والبعيد بالقريب ؛ وتلتقي فيه الشعاب والدروب ، والطوايا والظواهر ، والحواس والقلوب . .

﴿ الله نور السماوات والأرض ﴾ . .

النور الذي منه قوامها ومنه نظامها . . فهو الذي يهبها جوهر وجودها ، ويودعها ناموسها . . ولقد استطاع البشر أخيراً أن يدركوا بعلمهم طرفاً من هذه الحقيقة الكبرى ، عندما استحال في أيديهم ما كان يسمى بالمادة بعد تحطيم الذرة إلى إشعاعات منطلقة لا قوام لها إلا النور ! ولا " مادة " لها إلا النور ! فذرة المادة مؤلفة من كهارب وإليكترونات ، تنطلق عند تحطيمها في هيئة إشعاع قوامه هو النور ! فأما القلب البشري فكان يدرك الحقيقة الكبرى قبل العلم بقرون وقرون .

كان يدركها كلما شف ورف ، وانطلق إلى آفاق النور . ولقد أدركها كاملة شاملة قلب محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ففاض بها وهو عائد من الطائف ، نافض كفيه من الناس ، عائذ بوجه ربه يقول : " أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت به الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة " وفاض بها في رحلة الإسراء والمعراج . فلما سألته عائشة : هل رأيت ربك ؟ قال : " نور . أنى أراه " .

(156/551)

ولكن الكيان البشري لا يقوى طويلاً على تلقي ذلك الفيض الغامر دائماً ، ولا يستشرف طويلاً ذلك الأفق البعيد . فبعد أن جلا النص هذا الأفق المترامي ، عاد يقارب مداه ، ويقربه إلى الإدراك البشري المحدود ، في مثل قريب محسوس :

﴿ مثل نوره كمشكاة فيها مصباح . المصباح في زجاجة . الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية ، يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار . نور على نور ﴾ . .

وهو مثل يقرب للإدراك المحدود ؛ ويرسم النموذج المصغر الذي يتأمله الحس ، حين يقصر عن تملي الأصل . وهو مثل يقرب للإدراك طبيعة النور حين يعجز عن تتبع مداه وآفاقه المترامية وراء الإدراك البشري الحسير .

ومن عرض السماوات والأرض إلى المكشاة . وهي الكوة الصغيرة في الجدار غير النافذة ، يوضع فيها المصباح ، فتحصر نوره وتجمعه ، فيبدو قوياً متألقاً : ﴿ كمشكاة فيها مصباح ﴾ . . ﴿ المصباح في زجاجة ﴾ . . تقيه الريح ، وتصفي نوره ، فيتألق ويزداد . . ﴿ الزجاجة كأنها كوكب دري ﴾ . . فهي بذاتها شفافة رائقة سنية منيرة . . هنا يصل بين المثل والحقيقة . بين النموذج والأصل . حين يرتقي من الزجاجة الصغيرة إلى الكوكب الكبير ، كي لا ينحصر التأمل في النموذج الصغير ، الذي ما جعل إلا لتقريب الأصل الكبير . . وبعد هذه اللفتة يعود إلى النموذج . إلى المصباح :

﴿ يوقد من شجرة مباركة زيتونة ﴾ ونور زيت الزيتون كان أصفى نور يعرفه المخاطبون . ولكن ليس لهذا وحده كان اختيار هذا المثل . إنما هو كذلك الظلال المقدسة التي تلقيها الشجرة المباركة . ظلال الوادي المقدس في الطور ، وهو أقرب منابت الزيتون لجزيرة العرب . وفي القرآن إشارة لها وظلال حولها : ﴿ وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للآكلين ﴾ وهي شجرة معمرة ، وكل ما فيها مما ينفع الناس . زيتها وخشبها وورقها وثمرها . . ومرة أخرى يلتفت من النموذج الصغير ليذكر بالأصل الكبير . فهذه الشجرة ليست شجرة بعينها وليست متحيزة إلى مكان أو جهة . إنما هي مثل مجرد للتقريب : ﴿ لا شرقية ولا غربية ﴾ . . وزيتها ليس زيتاً من هذا المشهود المحدود ، إنما هو زيت آخر عجيب : ﴿ يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار ﴾ .

. فهو من الشفافية بذاته ، ومن الإشراق بذاته ، حتى ليكاد يضيء بغير احتراق ؛ ﴿ ولو لم تمسسه نار ﴾ . . ﴿ نور على نور ﴾ . . وبذلك نعود إلى النور العميق الطليق في نهاية المطاف !

إنه نور الله الذي أشرقت به الظلمات في السماوات والأرض . النور الذي لا ندرك كنهه ولا

مداه . إنما هي محاولة لوصل القلوب به ، والتطلع إلى رؤياه : ﴿ يهدي الله لنوره من يشاء ﴾ . . ممن يفتحون قلوبهم للنور فتراه . فهو شائع في السماوات والأرض ، فائض في السماوات والأرض . دائم في السماوات والأرض . لا ينقطع ، ولا يحتبس ، ولا يخبو . فحيثما توجه إليه القلب رآه . وحيثما تطلع إليه الحائر هداه . وحيثما اتصل به وجد الله . إنما المثل الذي ضربه الله لنوره وسيلة لتقريبه إلى المدارك ، وهو العليم بطاقة البشر : ﴿ ويضرب الله الأمثال للناس ، والله بكل شيء عليم ﴾ . .

ذلك النور الطليق ، الشائع في السماوات والأرض ، الفائض في السماوات والأرض ، يتجلى ويتبلور في بيوت الله التي تتصل فيها القلوب بالله ، تتطلع إليه وتذكره وتخشاه ، وتتجرد له وتؤثره على كل مغريات الحياة :

(158/551)

﴿ في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه ، يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة . يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار . ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله ، والله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾ . .

وهناك صلة تصويرية بين مشهد المشكاة هناك ومشهد البيوت هنا ، على طريقة التناسق القرآنية في عرض المشاهد ذات الشكل المتشابه او المتقارب . وهناك صلة مثلها بين المصباح المشرق بالنور في المشكاة ، والقلوب المشرقة بالنور في بيوت الله .

تلك البيوت ﴿ أذن الله أن ترفع ﴾ وإذن الله هو أمر للنفاذ فهي مرفوعة قائمة ، وهي مطهرة رفيعة . يتناسق مشهدها المرفوع مع النور المتألق في السماوات والأرض . وتتناسق طبيعتها الرفيعة مع طبيعة النور السني الوضيء . وتتهيأ بالرفعة والارتفاع لأن يذكر فيها اسم الله : ﴿ ويذكر فيها اسمه ﴾ . وتتسق معها القلوب الوضيئة الطاهرة ، المسبحة الواجفة ، المصلية الواهبة . قلوب الرجال الذين ﴿ لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ﴾ . . والتجارة والبيع لتحصيل الكسب والثراء . ولكنهم مع شغلهم بهما لا يغفلون عن أداء حق الله في الصلاة ، وأداء حق العباد في الزكاة : ﴿ يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار ﴾ . . تتقلب فلا تثبت على شيء من الهول والكرب والاضطراب . وهم يخافون ذلك اليوم فلا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله .

وهم مع هذا الخوف يعلقون رجاءهم بثواب الله :

﴿ ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ، ويزيدهم من فضله ﴾ . .

ورجاؤهم لن يخيب في فضل الله : ﴿ والله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾ من فضله الذي لا حدود له ولا قيود .

في مقابل ذلك النور المتجلي في السماوات والأرض ، المتبلور في بيوت الله ، المشرق في قلوب أهل الإيمان . . يعرض السياق مجالاً آخر . مجالاً مظلماً لا نور فيه . مخيفاً لا أمن فيه . ضائعاً لا خير فيه . ذلك هو مجال الكفر الذي يعيش فيه الكفار :

﴿ والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة ، يحسبه الظمآن ماء ، حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ، ووجد الله عنده فوفاه حسابه . والله سريع الحساب . أو كظلمات في بحر لجي ، يغشاه موج من فوقه موج ، من فوقه سحاب . ظلمات بعضها فوق بعض ، إذا أخرج يده لم يكد يراها . ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور ﴾ . .

والتعبير يرسم لحال الكافرين وما آلهم مشهدين عجيبين ، حافلين بالحركة والحياة .

في المشهد الأول يرسم أعمالهم كسراب في أرض مكشوفة مبسوطة ، يلتمع التماعاً كاذباً ، فيتبعه صاحبه الظامئ ، وهو يتوقع الري غافلاً عما ينتظره هناك . . وفجأة يتحرك المشهد حركة عنيفة . . فهذا السائر وراء السراب ، الظامئ الذي يتوقع الشراب ، الغافل عما ينتظره هناك . . يصل . فلا يجد ماء يرويه ، إنما يجد المفاجأة المذهلة التي لم تخطر له ببال ، المرعبة التي تقطع الأوصال ، وتورث الخبال : ﴿ ووجد الله عنده ﴾ ! الله الذي

كفر به وجحده ، وخاصمه وعاداه . وجده هنالك ينتظره ! ولو وجد في هذه المفاجأة خصماً له من بني البشر لروّعه ، وهو ذاهل غافل على غير استعداد . فكيف وهو يجد الله القوي المنتقم الجبار ؟

﴿ فوفاه حسابه ﴾ . . هكذا في سرعة عاجلة تتناسق مع البغتة والفجاءة ، ﴿ والله سريع الحساب ﴾ . . تعقيب يتناسق مع المشهد الخاطف المرتاع !

وفي المشهد الثاني تطبق الظلمة بعد الالتماع الكاذب ؛ ويتمثل الهول في ظلمات البحر اللجي . موج من فوقه موج . من فوقه سحاب . وتتراكم الظلمات بعضها فوق بعض ، حتى ليخرج يده أمام بصره فلا يراها لشدة الرعب والظلام !

(160/551)

إنه الكفر ظلمة منقطعة عن نور الله الفائض في الكون . وضلال لا يرى فيه القلب أقرب علامات الهدى . ومخافة لا أمن فيها ولا قرار . . ﴿ ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور ﴾ . . ونور الله هدى في القلب ؛ وتفتح في البصيرة ؛ واتصال في الفطرة بنواميس الله في السماوات والأرض ؛ والتقاء بها على الله نور السماوات والأرض . فمن لم يتصل بهذا النور فهو ظلمة لا انكشاف لها ، وفي مخالفة لا أمن فيها ، وفي ضلال لا رجعة منه . ونهاية العمل

سراب ضائع يقود إلى الهلاك والعذاب ؛ لأنه لا عمل بغير عقيدة ، ولا صلاح بغير إيمان . إن هدى الله هو الهدى . وإن نور الله هو النور .

ذلك مشهد الكفر والضلال والظلام في عالم الناس ، يتبعه مشهد الإيمان والهدى والنور في الكون الفسيح . مشهد يتمثل فيه الوجود كله ، بمن فيه وما فيه ، شاخصاً يسبح لله ، إنسه وجنه ، أملاكه وأفلاكه ، أحياؤه وجماده .

. وإذا الوجود كله تتجاوب بالتسبيح أرجاؤه ، في مشهد يرتعش له الوجدان حين يتملاه : ﴿ ألم تر أن الله يسبح له من في السماوات والأرض ، والطير صافات . كل قد علم صلاته وتسبيحه والله عليم بما يفعلون ﴾ . .

إن الإنسان ليس مفرداً في هذا الكون الفسيح ؛ فإن من حوله ، وعن يمينه وعن شماله ، ومن فوقه ومن تحته ؛ وحيثما امتد به النظر أو طاف به الخيال . . إخوان له من خلق الله ، لهم طبائع شتى ، وصور شتى ، وأشكال شتى . ولكنهم بعد ذلك كله يلتقون في الله ، ويتوجهون إليه ، ويسبحون بحمده : ﴿ والله عليم بما يفعلون ﴾ . .

(161/551)

والقرآن يوجه الإنسان إلى النظر فيما حوله من صنع الله ، وإلى من حوله من خلق الله في السماوات والأرض ، وهم يسبحون بحمده وتقواه ؛ ويوجه بصره وقلبه خاصة إلى مشهد في كل يوم يراه ، فلا يثير انتباهه ولا يحرك قلبه لطول ما يراه . ذلك مشهد الطير صافات أرجلها وهي طائرة في الفضاء تسبح بحمد الله : ﴿ كل قد علم صلاته وتسبيحه ﴾ . . والإنسان وحده هو الذي يغفل عن تسبيح ربه ؛ وهو أجدر خلق الله بالإيمان والتسبيح والصلاة .

وإن الكون ليبدو في هذا المشهد الخاشع متجهاً كله إلى خالقه ، مسبحاً بحمده ، قائماً بصلاته ؛ وإنه لكذلك في فطرته ، وفي طاعته لمشيئة خالقه الممثلة في نواميسه . وإن الإنسان ليدرك حين يشف هذا المشهد ممثلاً في حسه كأنه يراه ؛ وإنه ليسمع دقات هذا الكون وإيقاعاته تسابيح لله . وإنه ليشارك كل كائن في هذا الوجود صلاته ونجواه . . كذلك كان محمد بن عبد الله صلاة الله وسلامه عليه إذا مشى سمع تسبيح الحصى تحت قدميه . وكذلك كان داود عليه السلام يرتل مزاميره فتؤوب الجبال معه والطير .

﴿ ولله ملك السماوات والأرض ، وإلى الله المصير ﴾ . .

فلا اتجاه إلا إليه ، ولا ملجأ من دونه ، ولا مفر من لقائه ، ولا عاصم من عقابه ، وإلى الله المصير .

ومشهد آخر من مشاهد هذا الكون التي يمر عليها الناس غافلين ؛ وفيها متعة للنظر ،

وعبرة للقلب ، ومجال للتأمل في صنع الله وآياته ، وفي دلائل النور والهدى والإيمان :

﴿ ألم تر أن الله يزجي سحاباً ، ثم يؤلف بينه ، ثم يجعله ركاماً ، فترى الودق يخرج من خلاله . وينزل من السماء من جبال فيها من برد ، فيصيب به من يشاء ، ويصرفه عمن يشآء يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار ﴾ . . .

والمشهد يعرض على مهل وفي إطالة ، وتترك أجزاؤه للتأمل قبل أن تلتقي وتتجمع . كل أولئك لتؤدي الغرض من عرضها في لمس القلب وإيقاظه ، وبعثه إلى التأمل والعبرة ، وتدبر ما وراءها من صنع الله .

إن يد الله تزجي السحاب وتدفعه من مكان إلى مكان .

(162/551)

ثم تؤلف بنيه وتجمعه ، فإذا هو ركام بعضه فوق بعض . فإذا ثقل خرج منه الماء ، والوبل الهاطل ، وهو في هيئة الجبال الضخمة الكثيفة ، فيها قطع البرد الثلجية الصغيرة . .

ومشهد السحب كالجبال لا يبدو لراكب الطائرة وهي تعلو فوق السحب أو تسير بينها ، فإذا المشهد مشهد الجبال حقاً ، بضخامتها ، ومساقطها ، وارتفاعاتها وانخفاضاتها .

وإنه لتعبير مصور للحقيقة التي لم يرها الناس ، إلا بعد ما ركبوا الطائرات .

وهذه الجبال مسخرة بأمر الله ، وفق ناموسه الذي يحكم الكون ؛ ووفق هذا الناموس يصيب الله بالمطر من يشاء ، ويصرفه عمن يشاء . . وتكملة المشهد الضخم : ﴿ يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار ﴾ ذلك ليتم التناسق مع جو النور الكبير في الكون العريض ، على طريق التناسق في التصوير .

ثم مشهد كوني ثالث : مشهد الليل والنهار :

﴿ يقلب الله الليل والنهار . إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار ﴾ . .

والتأمل في تقلب الليل والنهار بهذا النظام الذي لا يختل ولا يفتر يوقظ في القلب الحساسية وتدبر الناموس الذي يصرف هذا الكون والتأمل في صنع الله . والقرآن يوجه القلب إلى هذه المشاهد التي ذهبت الألفة بوقعها المثير ؛ ليواجه القلب هذا الكون دائماً بحس جديد ، وانفعال جديد . فعجيبة الليل والنهار كم شاقت القلب البشري ، وهو يتأملها أول مرة . وهي هي لم تتغير ؛ ولم تفقد جمالها وروعتها . إنما القلب البشري هو الذي صدئ وهمد ، فلم يعد يخفق لها . وكم ذا نفقد من حياتنا ، وكم ذا نخسر من جمال هذا الوجود ، حين نمر غافلين بهذه الظواهر التي شاقت حِسَّنَا وهي جديدة . أو وحِسُّنا هو الجديد !

(163/551)

والقرآن يجدد حِسَّنَا الخامد ، ويوقظ حواسنا الملول . ويلمس قلبنا البارد . ويثير وجداننا الكليل ؛ لنرتاد هذا الكون دائماً كما ارتدناه أول مرة . نقف أمام كل ظاهرة نتأملها ، ونسألها عما وراءها من سر دفين ، ومن سحر مكنون . ونرقب يد الله تفعل فعلها في كل شيء من حولنا ، ونتدبر حكمته في صنعته ، ونعتبر بآياته المبثوثة في تضاعيف الوجود .

إن الله سبحانه يريد أن يمن علينا ، بأن يهبنا الوجود مرة كلما نظرنا إلى إحدى ظواهره ؛ فاستعدنا نعمة الإحساس بها كأننا نراها أول مرة . فنظل نجد الكون مرات لا تحصى . وكأننا في كل مرة نوهبه من جديد ؛ ونستمتع به من جديد .

وإن هذا الوجود لجميل وباهر ورائع . وإن فطرتنا لمتوافقة مع فطرته ، مستمدة من النبع الذي يستمد منه ، قائمة على ذات الناموس الذي يقوم عليه . فالاتصال بضمير هذا الوجود يهبنا أنساً وطمأنينة ، وصلة ومعرفة ، وفرحة كفرحة اللقاء بالقريب الغائب أو المحجوب !

وإننا لنجد نور الله هناك . فالله نور السماوات والأرض . . نجده في الآفاق وفي أنفسنا في ذات اللحظة التي نشهد فيها هذا الوجود بالحس البصير ، والقلب المتفتح ، والتأمل الواصل إلى حقيقة التدبير .

لهذا يوقظنا القرآن المرة بعد المرة ، ويوجه حسنا وروحنا إلى شتى مشاهد الوجود الباهرة ، كي لا نمر عليها غافلين مغمضي الأعين ، فنخرج من رحلة الحياة على ظهر هذه الأرض بغير رصيد . أو برصيد قليل هزيل . .

ويمضي السياق في عرض مشاهد الكون ، واستثارة تطلعنا إليها فيعرض نشأة الحياة ، من أصل واحد ، وطبيعة واحدة ، ثم تنوعها ، مع وحدة النشأة والطبيعة :

«وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ ماءٍ . فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلى بَطْنِهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلى رِجْلَيْنِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلى أَرْبَعٍ . يَخْلُقُ اللَّهُ ما يَشاءُ . إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» . .

وهذه الحقيقة الضخمة التي يعرضها القرآن بهذه البساطة ، حقيقة أن كل دابة خلقت من ماء ، قد تعني وحدة العنصر الأساسي في تركيب الأحياء جميعا ، وهو الماء ، وقد تعني ما يحاول العلم الحديث أن يثبته من أن الحياة خرجت من البحر ونشأت أصلا في الماء . ثم تنوعت الأنواع ، وتفرعت الأجناس . .

ولكننا نحن على طريقتنا في عدم تعليق الحقائق القرآنية الثابتة على النظريات العلمية القابلة للتعديل والتبديل . .

لا نزيد على هذه الإشارة شيئا . مكتفين بإثبات الحقيقة القرآنية . وهي أن اللّه خلق الأحياء كلها من الماء .

فهي ذات أصل واحد . ثم هي – كما ترى العين – متنوعة الأشكال . منها الزواحف تمشي على بطنها ، ومنها الإنسان والطير يمشي على قدمين . ومنها الحيوان يدب على أربع . كل أولئك وفق سنة اللّه ومشيئته ، لا عن فلتة ولا مصادفة : «يَخْلُقُ اللَّهُ ما يَشاءُ» غير مقيد بشكل ولا هيئة . فالنواميس والسنن التي تعمل في الكون

(165/551)

قد اقتضتها مشيئته الطليقة وارتضتها : «إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» .

وإن تملي الأحياء . وهي بهذا التنوع في الأشكال والأحجام ، والأصول والأنواع ، والشيات والألوان .

وهي خارجة من أصل واحد ، ليوحي بالتدبير المقصود ، والمشيئة العامدة . وينفي فكرة الفلتة والمصادفة .

وإلا فأي فلتة تلك التي تتضمن كل هذا التدبير وأية مصادفة تلك التي تتضمن كل هذا التقدير ؟ إنما هو صنع اللّه العزيز الحكيم الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى . . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 4 صـ 2518 . 2524 ﴾

(166/551)

قوله تعالى ﴿ وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (47) وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ (48) وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (49) أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (50) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان إخفاء هذه الآيات عن البعض بعد بيانها أعجب من ابتداء نصبها ، فكان السياق ظاهراً في أن التقدير : والله يضل من يشاء فيكفرون بالآيات والذكر الحكيم ، وكان الخروج من نورها بعد التلبس بها إلى الظلام أشد غرابة ، عطف على ما قدرته مما دل عليه السياق أتم دلالة قوله دليلاً شهودياً على ذلك مطوي ، معجباً ممن عمي عن دلائل التوحيد التي أقامها تعالى وعددها وأوضحها بحيث صارت كما ذكر تعالى أعظم من نور الشمس : ﴿ ويقولون ﴾ أي الذين ظهر لهم نور الله ، بألسنتهم فقط : ﴿ آمنا بالله ﴾ الذي أوضح لنا جلاله ، وعظمته وكماله ﴿ وبالرسول ﴾ الذي علمنا كمال رسالته وعمومها بما أقام عليها من الأدلة ﴿ وأطعنا ﴾ أي أوجدنا الطاعة لله وللرسول ، وعظم المخالفة بين الفعل والقول بأداة البعد فقال : ﴿ ثم يتولى ﴾ أي يرتد بإنكار القلب ويعرض عن طاعة الله ورسوله ،

ضلالاً منهم عن الحق ﴿ فريق منهم ﴾ أي ناس يقصدون الفرقة من هؤلاء الذين قالوا هذه المقالة .

ولما كان ينبغي أن يكون وقوع الارتداد منهم - كما أشير إليه - في غاية البعد وإن كان في أقل زمن ، أشار إليه بأداة التراخي ، وأكد ذلك بقوله مثبتاً الجارّ : ﴿ من بعد ذلك ﴾ أي القول السديد الشديد المؤكد ، مع الله الذي هو أكبر من كل شيء ، ومع رسوله الذي هو أشرف الخلائق ﴿ وما أولئك ﴾ أي البعداء البضاء الذين صاروا بتوليهم في محل البعد ﴿ بالمؤمنين ﴾ أي بالكاملين في الإيمان قولاً وعقداً ، وإنما هم من أهل الوصف اللساني ، المجرد عن المعنى الإيقاني .

(167/551)

ولما فضحهم بما أخفوه من توليهم ، قبح عليهم ما أظهروه ، فقال معبراً بأداة التحقيق : ﴿ وإذا دعوا ﴾ أي الذين ادعوا الإيمان من أي داع كان ﴿ إلى الله ﴾ أي ما نصب الملك الأعظم من أحكامه ﴿ ورسوله ليحكم ﴾ أي الرسول ﴿ بينهم ﴾ بما أراه الله ﴿ إذا فريق منهم ﴾ أي ناس مجبولون على الأذى المفرق ﴿ معرضون ﴾ أي فاجؤوا الإعراض ، إذا كان الحق عليهم ، لاتباعهم أهواءهم ، مفاجأة تؤذن بثباتهم فيه ﴿ وإن يكن ﴾ أي كوناً

ثابتاً جداً ﴿ لهم ﴾ أي على سبيل الفرض ﴿ الحق ﴾ أي بلا شبهة ﴿ يأتوا إليه ﴾ أي بالرسول ﴿ مذعنين ﴾ أي منقادين أتم انقياد لما وافق من أهوائهم لعلمهم أنه دائر مع الحق لهم وعليهم ، لا لطاعة الله ورسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

ولما كان سبب فعلهم هذا بعد إظهارهم الطاعة مشكلاً ، ناسب أن يسأل عنه ، فقال تعالى مبيناً له بعد التنبيه على ما يحتمله من الحالات : ﴿ أفي قلوبهم مرض ﴾ أي نوع فساد من أصل الفطرة يحملهم على الضلال ﴿ أم ارتابوا ﴾ بأن حدثت لهم شبهة أعمتهم عن الطريق ﴿ أم ﴾ ليس فيهم خلل لا أصلي ولا طارىء ، بل الخلل في الحاكم فهم ﴿ يخافون أن يحيف ﴾ أي يجور ﴿ الله ﴾ الغني عن كل شيء ، لأن له كل شيء ﴿ عليهم ﴾ بنصب حكم جائر وهو منزه عن الأغراض ﴿ ورسوله ﴾ الذي لا ينطق عن الهوى ، بضرب أمر زائغ وقد ثبتت عصمته عن الأدناس .

ولما لم يكن شيء من ذلك كائناً أضرب عنه فقال : ﴿ بل أولئك ﴾ أي البعداء البغضاء ﴿ هم ﴾ أي خاصة ﴿ الظالمون ﴾ أي الكاملون في الظلم ، لأن قلوبهم مطبوعة على المرض والريب ، لا أن فيها نوعاً واحداً منه ، وليسوا يخافون الجور ، بل هو مرادهم إذا كان الحق عليهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 274 . 276 ﴾

(168/551)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ ﴾

اعلم أنه سبحانه لما ذكر دلائل التوحيد أتبعه بذم قوم اعترفوا بالدين بألسنتهم ولكنهم لم يقبلوه بقلوبهم وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

قال مقاتل : نزلت هذه الآية في بشر المنافق وكان قد خاصم يهودياً في أرض وكان اليهودي يجره إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليحكم بينهما ، وجعل المنافق يجره إلى كعب بن الأشرف ، ويقول إن محمداً يحيف علينا وقد مضت قصتهما في سورة النساء ، وقال الضحاك : نزلت في المغيرة بن وائل كان بينه وبين علي بن أبي طالب أرض فتقاسما فوقع إلى علي منها ما لا يصيبه الماء إلا بمشقة ، فقال المغيرة بعني أرضك فباعها إياه وتقابضا فقيل للمغيرة أخذت سبخة لا ينالها الماء .

فقال لعلي اقبض أرضك فإنما اشتريتها إن رضيتها ولم أرضها فلا ينالها الماء فقال علي بل اشتريتها ورضيتها وقبضتها وعرفت حالها لا أقبلها منك ، ودعاه إلى أن يخاصمه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال المغيرة أما محمد فلست آتيه ولا أحاكم إليه فإنه

يبغضني وأنا أخاف أن يحيف علي فنزلت هذه الآية ، وقال الحسن نزلت هذه الآية في المنافقين الذين كانوا يظهرون الإيمان ويسرون الكفر .

المسألة الثانية :

قوله : ﴿ وَيَقُولُونَ آمَنَّا ﴾ إلى قوله : ﴿ وَمَا أولئك بالمؤمنين ﴾ يدل على أن الإيمان لا يكون بالقول إذ لو كان به لما صح أن ينفي كونهم مؤمنين .

(169/551)

وقد فعلوا ما هو إيمان في الحقيقة ، فإن قيل إنه تعالى حكى عن كلهم أنهم يقولون آمنا ، ثم حكى عن فريق منهم التولي فكيف يصح أن يقول في جميعهم ﴿ وَمَا أولئك بالمؤمنين ﴾ مع أن الذي تولى منهم هو البعض ؟ قلنا إن قوله : ﴿ وَمَا أولئك بالمؤمنين ﴾ راجع إلى الذين تولوا لا إلى الجملة الأولى ، وأيضاً فلو رجع إلى الأول يصح ويكون معنى قوله : ﴿ ثُمَّ يتولى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ ﴾ أي يرجع هذا الفريق إلى الباقين منهم فيظهر بعضهم لبعض الرجوع عما أظهروه ، ثم بين سبحانه أنهم إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون ، وهذا ترك للرضا بحكم الرسول ، ونبه بقوله تعالى : ﴿ وَإِن يَكُنْ لَّهُمُ الحق يَأْتُواْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴾ على أنهم إنما يعرضون متى عرفوا الحق لغيرهم أو شكوا فأما إذا عرفوه

لأنفسهم عدلوا عن الإعراض بل سارعوا إلى الحكم وأذعنوا ببذل الرضا ، وفي ذلك دلالة على أنه ليس بهم اتباع الحق ، وإنما يريدون النفع المعجل ، وذلك أيضاً نفاق .

أما قوله تعالى : ﴿ أَفِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ ﴾ ففيه سؤالات :

السؤال الأول : كلمة (أم) للاستفهام وهو غير جائز على الله تعالى والجواب : اللفظ استفهام ومعناه الخبر كما قال جرير :

ألستم خير من ركب المطايا . . (وأندى العالمين بطون راح) (1)

السؤال الثاني : أنهم لو خافوا أن يحيف الله عليهم فقد ارتابوا في الدين وإذ ارتابوا ففي قلوبهم مرض ، فالكل واحد ، فأي فائدة في التعديد ؟ الجواب : قوله : ﴿ أَفِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ ﴾ إشارة إلى النفاق وقوله : ﴿ أَمِ ارْتَابُوا ﴾ إشارة إلى أنه حدث هذا الشك والريب بعد تقرير الإسلام في القلب ، وقوله : ﴿ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ إشارة إلى أنهم بلغوا في حب الدنيا إلى حيث يتركون الدين بسببه .

---

(1) معناه إثبات أنهم كذلك ، ولو كان الاستفهام على حقيقته لكان ذما لهم .

السؤال الثالث : هب أن هذه الثلاثة متغايرة ولكنها متلازمة فكيف أدخل عليها كلمة (أم) ؟ الجواب : الأقرب أنه تعالى ذمهم على كل واحد من هذه الأوصاف فكان في قلوبهم مرض وهو النفاق ، وكان فيها شك وارتياب ، وكانوا يخافون الحيف من الرسول عليه الصلاة والسلام وكل واحد من ذلك كفر ونفاق ، ثم بين تعالى بقوله : ﴿ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظالمون ﴾ بطلان ما هم عليه لأن الظلم يتناول كل معصية كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الشرك لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان : 13] إذ المرء لا يخلو من أن يكون ظالماً لنفسه أو ظالماً لغيره ، ويمكن أن يقال أيضاً لما ذكر تعالى في الأقسام كونهم خائفين من الحيف ، أبطل ذلك بقوله : ﴿ بَلْ أُوْلَئِكَ هُمُ الظالمون ﴾ أي لا يخافون أن يحيف الرسول عليه الصلاة والسلام عليهم لمعرفتهم بأمانته وصيانته وإنما هم ظالمون يريدون أن يظلموا من له الحق عليهم وهم له جحود ، وذلك شيء لا يستطيعونه في مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم يأبون المحاكمة إليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 24 صـ 18 . 20 ﴾

(171/551)

وقال الجصاص :

بَابُ لُزُومِ الْإِجَابَةِ لِمَنْ دُعِيَ إلَى الْحَاكِمِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا دُعُوا إلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ

لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ .

وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مَنْ ادَّعَى عَلَى غَيْرِهِ حَقًّا وَدَعَاهُ إِلَى الْحَاكِمِ فَعَلَيْهِ إِجَابَتُهُ وَالْمَصِيرُ مَعَهُ إِلَيْهِ ؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ ﴾ مَعْنَاهُ : إِلَى حُكْمِ اللَّهِ .

وَيَدُلُّ عَلَى أَنَّ مَنْ أَتَى الْحَاكِمَ فَادَّعَى عَلَى غَيْرِهِ حَقًّا أَنَّ عَلَى الْحَاكِمِ أَنْ يُعَدِّيَهِ وَيُحْضِرَهُ وَيَحُولَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ تَصَرُّفِهِ وَأَشْغَالِهِ .

وَقَدْ حَدَّثَنَا عَبْدُ الْبَاقِي بْنُ قَانِعٍ قَالَ : حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ الْحَرْبِيُّ قَالَ : حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ شَبِيبٍ قَالَ : حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ شَيْبَةَ قَالَ : حَدَّثَنَا فُلَيْحٌ قَالَ : حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ عَنْ يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ وَعُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ عَنْ نَافِعٍ عَنْ ابْنِ عُمَرَ ، أَنَّ الْأَغَرَّ الْجُهَنِيَّ قَالَ : ﴿ جِئْتُ أَسْتَعْدِي رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى رَجُلٍ لِي عَلَيْهِ شَطْرُ تَمْرٍ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَبِي بَكْرٍ : اذْهَبْ مَعَهُ فَخُذْ لَهُ حَقَّهُ .

﴾ وَحَدَّثَنَا عَبْدُ الْبَاقِي قَالَ : حَدَّثَنَا حُسَيْنُ بْنُ إِسْحَاقَ التُّسْتَرِيُّ قَالَ : حَدَّثَنَا رَجَاءُ الْحَافِظُ قَالَ : حَدَّثَنَا شَاهِينُ قَالَ : حَدَّثَنَا رَوْحُ بْنُ عَطَاءٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ الْحَسَنِ عَنْ سُمْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ مَنْ دُعِيَ إِلَى سُلْطَانٍ فَلَمْ يُجِبْ فَهُوَ ظَالِمٌ لَا حَقَّ لَهُ .

﴿ وَحَدَّثَنَا عَبْدُ الْبَاقِي قَالَ : حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدُوسِ بْنُ كَامِلٍ قَالَ : حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ صَالِحٍ قَالَ : حَدَّثَنَا يَحْيَى عَنْ أَبِي الْأَشْهَبِ عَنْ الْحَسَنِ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ مَنْ دُعِيَ إِلَى حَاكِمٍ مِنْ حُكَّامِ الْمُسْلِمِينَ فَلَمْ يُجِبْ فَهُوَ ظَالِمٌ لَا حَقَّ لَهُ ﴾ .

وَحَدَّثَنَا عَبْدُ الْبَاقِي قَالَ :

حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بِشْرٍ أَخُو خَطَّابٍ قَالَ : حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبَّادٍ قَالَ : حَدَّثَنَا حَاتِمٌ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ سِجِلٍّ عَنْ أَبِيهِ عَنْ أَبِي حدرد قَالَ : ﴿ كَانَ لِيَهُودِيٍّ عَلَيَّ أَرْبَعَةُ دَرَاهِمَ ، فَاسْتَعْدَى عَلَيَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : إِنَّ لِي عَلَى هَذَا أَرْبَعَةَ دَرَاهِمَ وَقَدْ غَلَبَنِي عَلَيْهَا ، فَقَالَ : أَعْطِهِ حَقَّهُ قُلْت : وَالَّذِي بَعَثَك بِالْحَقِّ نَبِيًّا مَا أَصْبَحْت أَقْدِرُ عَلَيْهَا قَالَ : أَعْطِهِ حَقَّهُ فَأَعَدْت عَلَيْهِ ، فَقَالَ : أَعْطِهِ حَقَّهُ فَخَرَجْت مَعَهُ إلَى السُّوقِ فَكَانَتْ عَلَى رَأْسِي عِمَامَةٌ وَعَلَيَّ بُرْدَةٌ مُتَّزِرٌ بِهَا ، فَاتَّزَرْت بِالْعِمَامَةِ وَقُلْت : اشْتَرِ الْبُرْدَ فَاشْتَرَاهُ بِأَرْبَعَةِ دَرَاهِمَ ﴾ .

فَهَذِهِ الْأَخْبَارُ مُوَاطِئَةٌ لِمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ الْآيَةُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ .

فِيهَا ثَلَاثُ مَسَائِلَ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : فِي سَبَبِ نُزُولِهَا : رَوَى الطَّبَرِيُّ أَنَّ رَجُلًا مِنْ الْمُنَافِقِينَ كَانَ يُقَالُ لَهُ بِشْرٌ ، كَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَجُلٍ مِنْ الْيَهُودِ خُصُومَةٌ ، وَكَانَ الْيَهُودِيُّ يَدْعُوهُ إلَى [التَّحَاكُمِ عِنْدَ] النَّبِيِّ ، وَكَانَ الْمُنَافِقُ يَدْعُوهُ إلَى كَعْبِ بْنِ الْأَشْرَفِ ، وَقَالَ : إنَّ مُحَمَّدًا يَحِيفُ عَلَيْنَا ، وَكَانَ الْمُنَافِقُ إذَا تَوَجَّهَ عَلَيْهِ الْحَقُّ دَعَا إلَى غَيْرِ النَّبِيِّ ، وَإِذَا كَانَ لَهُ الْحَقُّ دَعَاهُ إلَيْهِ لِيَسْتَوْفِيَهُ لَهُ ؛ فَنَزَلَتْ الْآيَةُ فِيهِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : قَدْ بَيَّنَّا أَنَّ إذَا كَانَ الْحُكْمُ بَيْنَ الْمُعَاهِدِ وَالْمُسْلِمِ أَنَّ الْقَضَاءَ يَكُونُ لِلْمُسْلِمِينَ لَا حَقَّ لِأَهْلِ الذِّمَّةِ فِيهِ ، وَإِنْ كَانَ بَيْنَ ذِمِّيَّيْنِ فَذَلِكَ إلَيْهِمَا ، فَإِذَا جَاءَ قَاضِي الْإِسْلَامِ فَإِنْ شَاءَ حَكَمَ وَإِنْ شَاءَ أَعْرَضَ ، حَسْبَمَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ مُسْتَوْفًى ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : هَذِهِ الْآيَةُ دَلِيلٌ عَلَى وُجُوبِ إجَابَةِ الدَّعْوَى إلَى الْحَاكِمِ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ ذَمَّ مَنْ دُعِيَ إلَى رَسُولِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ خَصْمِهِ فَلَمْ يُجِبْ بِأَقْبَحِ الْمَذَمَّةِ ، وَقَدْ بَيَّنَّا فِي

أُصُولِ الْفِقْهِ أَنَّ حَدَّ الْوَاجِبِ مَا ذُمَّ تَارِكُهُ شَرْعًا .

وَاَللَّهُ أَعْلَمُ .

(174/551)

وَقَدْ رَوَى أَبُو الْأَشْعَثِ ، عَنْ الْحَسَنِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ مَنْ دُعِيَ إلَى حَاكِمٍ مِنْ الْمُسْلِمِينَ فَلَمْ يُجِبْ فَهُوَ ظَالِمٌ ، وَلَا حَقَّ لَهُ ﴾ .

وَهُوَ حَدِيثٌ بَاطِلٌ ، فَأَمَّا قَوْلُهُ : فَهُوَ ظَالِمٌ فَكَلَامٌ صَحِيحٌ .

وَأَمَّا قَوْلُهُ : لَا حَقَّ لَهُ فَلَا يَصِحُّ .

وَيُحْتَمَلُ أَنْ يُرِيدَ بِهِ أَنَّهُ عَلَى غَيْرِ الْحَقِّ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 3 صـ ﴾

(175/551)

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴾

هذه الآية نزلت في بشر ، رجلٌ من المنافقين كان بينه وبين رجل من اليهود خصومة فدعاه اليهودي إلى النبي صلى الله عليه وسلم ودعاه بشر إلى كعب بن الأشرف لأن الحق إذا كان متوجهاً على المنافق إلى غير رسول الله صلى الله عليه وسلم ليسقط عنه ، وإذا كان له حاكم إليه ليستوفيه منه فأنزل الله هذه الآية .

وقيل : إنها نزلت في المغيرة بن وائل من بني أمية كان بينه وبين علي كرم الله وجهه خصومة في ماء وأرض فامتنع المغيرة أن يحاكم علياً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : إنه يبغضني ، فنزلت هذه الآية .

﴿ وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴾ فيه أربعة أوجه

: أحدهما : طائعين ، حكاه ابن عيسى .

الثاني : خاضعين ، حكاه النقاش .

الثالث : مسرعين ، قاله مجاهد .

الرابع : مقرنين ، قاله الأخفش وفيها دليل على أن من دعي إلى حاكم فعليه الإِجابة ويحرج إن تأخر .

وقد روى أبو الأشهب عن الحسن قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " مَنْ دُعِيَ إِلَى حَاكِمٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَلَمْ يُجِبْ فَهُوَ ظَالِمٌ لاَ حَقَّ لَهُ " . ثم قال : ﴿ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : شرك ، قاله الحسن .

الثاني : نفاق ، قاله قتادة .

﴿ أَمِ ارْتَابُواْ ﴾ أي شكوا ويحتمل وجهين

: أحدهما : في عدل رسول الله صلى الله عليه وسلم .

الثاني : في نبوته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

(176/551)

وقال ابن عطية :

، وقوله تعالى : ﴿ ويقولون آمنا بالله ﴾ الآية

نزلت في المنافقين وسببها فيما روي أن رجلاً من المنافقين اسمه بشر كانت بينه وبين رجل من اليهود خصومة فدعاه اليهودي إلى التحاكم عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان المنافق مبطلاً فأبى من ذلك ودعا اليهود إلى كعب بن الأشرف فنزلت هذه الآية فيه ، وأسند الزهراوي عن الحسن بن أبي الحسن أنه قال من دعاه خصمه إلى حكم من حكام المسلمين فلم يجب فهو ظالم ، و ﴿ مذعنين ﴾ أي مظهرين للانقياد والطاعة وهم إنما فعلوا ذلك حيث أيقنوا بالنجح وأما إذا طلبوا بحق فهم عنه ﴿ معرضون ﴾ ثم وقفهم تعالى

على أسباب فعلهم توقيف توبيخ أي ليقروا مما يوبخ به أو مما يمدح به فهو بليغ جداً ومنه قول جرير " ألستم خير من ركب المطايا " البيت ، ثم حكم عليهم بأنهم ﴿ هم الظالمون ﴾ وقال : ﴿ أن يحيف الله عليهم ورسوله ﴾ من حيث الرسول إنما يحكم بأمر الله وشرعه والميل الحيف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(177/551)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ ويقولون آمَنَّا بالله ﴾

قال المفسرون : نزلت في رجل من المنافقين يقال له : بشر كان بينه وبين يهوديّ حكومة ، فدعا اليهوديُّ المنافق إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليحكم بينهما ، فقال المنافق لليهودي : إِن محمداً يَحِيف علينا ، ولكن بيني وبينك كعب بن الأشرف ، فنزلت هذه الآية .

قوله تعالى : ﴿ ثم يتولَّى فريق منهم ﴾ يعني : المنافقين ﴿ مِنْ بَعْدِ ذلك ﴾ أي : من بعد قولهم : آمَنَّا ﴿ وما أولئك ﴾ يعني : المُعْرِضين عن حُكم الله ورسوله ﴿ بالمؤمنين . وإِذا دُعُوا إِلى الله ﴾ أي : إِلى كتابه ﴿ ورسولِه ليحكُم بينهم ﴾ الرسول ﴿ إِذا فريق

منهم مُعْرِضُون ﴾ ومعنى الكلام : أنهم كانوا يُعْرِضُون عن حكم الرسول عليهم ، لِعلمهم أنَّه يحكُم بالحق ؛ وإن كان الحق لهم على غيرهم ، أسرعوا إلى حكمه مذعنين ، لثقتهم أنه يحكم لهم بالحق .

قال الزجاج : والإِذعان في اللغة : الإِسراع مع الطاعة ، تقول : قد أذعن لي ، أي : قد طاوعني لما كنتُ ألتمسه منه .

قوله تعالى : ﴿ أفي قلوبهم مرض ﴾ أي : كفر ﴿ أَم ارتابوا ﴾ أي : شكُّوا في القرآن ؟ وهذا استفهام ذمّ وتوبيخ ، والمعنى : إنهم كذلك ، وإنما ذكره بلفظ الاستفهام ليكون أبلغ في ذمّهم ، كما قال جرير في المدح :

أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ المَطَايَا . . .

[وأندى العالَمِينَ بُطُونَ راحِ]

أي : أنتم كذلك .

فأما الحَيْف ، فهو : المَيْل في الحكم ؛ يقال : حاف في قضيَّته ، أي : جار ، ﴿ بل أولئك هم الظالمون ﴾ أي : لا يَظْلِمُ اللّهُ ورسولُه أحداً ، بل هم الظالمون لأنفسهم بالكفر والإِعراض عن حُكم الرسول . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 6 صـ ﴾

(178/551)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ آمَنَّا بالله وبالرسول ﴾

يعني المنافقين ، يقولون بألسنتهم آمنا بالله وبالرسول من غير يقين ولا إخلاص .

﴿ وَأَطَعْنَا ﴾ أي ويقولون ، وكذبوا .

﴿ ثُمَّ يتولى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مِّن بَعْدِ ذلك وَمَآ أولئك بالمؤمنين ﴾ .

﴿ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ (48) ﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا دعوا إِلَى الله وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ﴾ قال الطبري وغيره : إن رجلاً من المنافقين اسمه بشر كانت بينه وبين رجل من اليهود خصومة في أرضٍ ، فدعاه اليهودِيّ إلى التحاكم عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان المنافق مبطلاً ، فأبى من ذلك وقال : إن محمداً يَحيف علينا ؛ فلنُحَكِّم كعب بن الأشرف ؛ فنزلت الآية فيه .

وقيل : نزلت في المغيرة بن وائل من بني أمية ، كان بينه وبين عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه خصومة في ماء وأرض فامتنع المغيرة أن يحاكم عليًّا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال : إنه يُبْغِضني ؛ فنزلت الآية ، ذكره الماوَرْدِيّ .

وقال : "لِيَحْكُمَ" ولم يقل ليحكما لأن المعنيّ به الرسول صلى الله عليه وسلم ، وإنما بدأ

بذكر الله إعظاماً لله واستفتاح كلام.

الثانية: قوله تعالى: ﴿ وَإِن يَكُنْ لَّهُمُ الحق يأتوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴾ أي طائعين منقادين؛ لعلمهم أنه عليه السلام يحكم بالحق.

يقال: أذعن فلان لحكم فلان يُذعِن إذعاناً.

وقال النقاش: "مذعنين" خاضعين، مجاهد: مسرعين.

الأخفش وابن الأعرابي: مُقِرّين.

﴿ أَفِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ ﴾ شكّ وريْب.

﴿ أَمِ ارتابوا ﴾ أم حَدَث لهم شك في نبوّته وعدله.

﴿ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ الله عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ ﴾ أي يجور في الحكم والظلم.

وأتى بلفظ الاستفهام لأنه أشد في التوبيخ وأبلغ في الذّم؛ كقول جَرير في المدح:

(179/551)

ألستم خير من ركب المطايَا . . .

وأنْدَى العالمين بُطُونَ راحِ

﴿ بَلْ أُولئك هُمُ الظالمون ﴾ أي المعاندون الكافرون؛ لإعراضهم عن حكم الله تعالى.

الثالثة : القضاء يكون للمسلمين إذا كان الحكم بين المُعَاهَد والمسلم ولا حقّ لأهل الذِّمة فيه .

وإذا كان بين ذِمّيّين فذلك إليهما .

فإن جاءا قاضي الإسلام فإن شاء حكم وإن شاء أعرض ؛ كما تقدم في "المائدة" .

الرابعة : هذه الآية دليل على وجوب إجابة الداعي إلى الحاكم لأن الله سبحانه ذمّ من دُعي إلى رسوله ليحكم بينه وبين خصمه بأقبح الذم فقال : "أَفِي قُلُوبِهِمْ مرض" الآية .

قال ابن خُوَيْزِمنداد : واجب على كل من دُعي إلى مجلس الحاكم أن يجيب ، ما لم يعلم أن الحاكم فاسق ، أو عداوة بين المدّعي والمدّعى عليه .

وأسند الزهراوِي عن الحسن بن أبي الحسن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من دعاه خصمه إلى حاكم من حكام المسلمين فلم يُجب فهو ظالم ولا حقّ له " ذكره الماوَرْدِيّ أيضاً .

قال ابن العربي : وهذا حديث باطل ؛ فأما قوله : "فهو ظالم" فكلام صحيح ، وأما قوله "فلا حقّ له" فلا يصح ، ويحتمل أن يريد أنه على غير الحق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 13 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ ﴾

نزلت إلى قوله ﴿ إلا البلاغ المبين ﴾ في المنافقين بسبب منافق اسمه بشر ، دعاه يهودي في خصومة بينهما إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، ودعا هو إلى كعب بن الأشرف فنزلت .

ولما ذكر تعالى دلائل التوحيد أتبع ذلك بذمّ قوم آمنوا بألسنتهم دون عقائدهم .

﴿ ثم يتولى فريق منهم ﴾ عن الإيمان .

﴿ بعد ذلك ﴾ أي بعد قولهم ﴿ آمنا ﴾ ﴿ وما أولئك ﴾ إشارة إلى القائلين فينتفي عن جميعهم الإيمان ، أو إلى الفريق المتولي فيكون ما سبق لهم من الإيمان ليس إيماناً إنما كان ادّعاء باللسان من غير مواطأة بالقلب .

وأفرد الضمير في ﴿ ليحكم بينهم ﴾ وقد تقدم قوله ﴿ إلى الله ورسوله ﴾ لأن حكم الرسول هو عن الله .

قال الزمخشري : كقولك أعجبني زيد وكرمه يريد كرم زيد ومنه :

ومنهل من الفلافي أوسطه . . .

غلسته قبل القطا وفرطه

أراد قبل فرط القطا انتهى .

أي قبل تقدم القطا إليه .

وقرأ أبو جعفر ﴿ ليحكم ﴾ في الموضعين مبنياً للمفعول و ﴿ إذا ﴾ الثانية للفجاءة .

جواب ﴿ إذا ﴾ الأولى الشرطية ، وهذا أحد الدلائل على أن الجواب لا يعمل في إذا الشرطية خلافاً للأكثرين من النحاة ، لأن إذا الفجائية لا يعمل ما بعدها فيما قبلها .

وقد أحكم ذلك في علم النحو .

والظاهر أن ﴿ إليه ﴾ متعلق بيأتوا .

والضمير في ﴿ إليه ﴾ عائد على الرسول (صلى الله عليه وسلم) .

وأجاز الزمخشري أن يتعلق ﴿ إليه ﴾ بمذعنين قال : لأنه بمعنى مسرعين في الطاعة وهذا أحسن لتقدم صلته ودلالته على الاختصاص .

(181/551)

وقد رددنا عليه ذلك وفي ما رجح تهيئة العامل للعمل وقطعه عن العمل وهو مما يضعف ، والمعنى أنهم لمعرفتهم أنه ليس معه إلا الحق المرّ والعدل البحت يزورون عن المحاكمة إليك إذا ركبهم الحق لئلا تنزعه منهم بقضائك عليهم لخصومهم ، وإن ثبت لهم الحق على خصم

أسرع إليك كلهم ولم يرضوا إلا بحكومتك .

﴿ أفي قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون ﴾ ﴿ أم ﴾ هنا منقطعة والتقدير : بل ارتابوا بل أيخافون وهو استفهام توقيف وتوبيخ ، ليقروا بأحد هذه الوجوه التي عليهم في الإقرار بها ما عليهم ، وهذا التوقيف يستعمل في الأمور الظاهرة مما يوبخ به ويذم ، أو مما يمدح به وهو بليغ جداً فمن المبالغة في الذم .

قول الشاعر :

ألست من القوم الذين تعاهدوا . . .

على اللؤم والفحشاء في سالف الدهر

ومن المبالغة في المدح .

قول جرير :

ألستم خير من ركب المطايا . . .

وأندى العالمين بطون راح

وقسم تعالى جهات صدودهم عن حكومته فقال ﴿ أفي قلوبهم مرض ﴾ أي نفاق وعدم إخلاص ﴿ أم ارتابوا ﴾ أي عرضت لهم الريبة والشك في نبوته بعد أن كانوا مخلصين ﴿ أم يخافون ﴾ أي يعرض لهم الخوف من الحيف في الحكومة ، فيكون ذلك ظلماً لهم .

ثم استدرك ببل أنهم ﴿ هم الظالمون ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(182/551)

وقال أبو السعود :

﴿ وَيَقُولُونَ امَنَّا بالله وبالرسول ﴾

شروعٌ في بيان أحوالِ بعضِ مَن لم يشأ الله هدايتَه إلى الصِّراطِ المستقيمِ . قال الحسنُ : نزلتْ في المُنافقين الذين كانُوا يُظهرون الإيمانَ ويُسرُّون الكفرَ ، وقيل : نزلتْ في بشرٍ المُنافقِ خاصمَ يهوديّاً فدعاهُ إلى كعبِ بنِ الأشرفِ واليهوديُّ يدعُوه إلى النبي عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ . وقيل : في المغيرةِ بنِ وائلٍ خاصمَ عليًّا رضي الله عنه في أرضٍ وماءٍ فأبى أنْ يُحاكِم إلى الرَّسُولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ، وأيًّا ما كان فصيغةُ الجمعِ للإيذانِ بأنَّ للقائلِ طائفةً يُساعدونَهُ ويُشايعونَهُ في تلك المقالةِ كما يُقال : بنوُ فلانٍ قتلُوا فُلاناً والقاتلُ واحدٌ منهم ﴿ وَأَطَعْنَا ﴾ أي أطعناهُما في الأمرِ والنَّهيِ ﴿ ثُمَّ يتولى ﴾ عن قبول حُكمِه ﴿ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مِّن بَعْدِ ذلك ﴾ أي من بعد ما صدرَ عنهم ما صدرَ من ادّعاءِ الإيمانِ بالله وبالرَّسولِ والطَّاعةِ لهما على التَّفصيلِ ، وما في ذلك من معنى البُعد للإيذانِ بكونه أمراً معتدّاً به

واجبَ المُراعاةِ ﴿ وَمَا أُوْلَئِكَ ﴾ إشارةٌ إلى القائلينَ لا إلى الفريقِ المتولّي منهم فقط لعدمِ اقتضاءِ نفيِ الإيمانِ عنهم نفيَه عن الأوّلينَ بخلافِ العكسِ فإنَّ نفيَه عنِ القائلينَ مقتضٍ لنفيه عنهم على أبلغِ وجهٍ وآكدِه وما فيه مِن مَعْنى البُعد للإشعارِ ببُعد منزلتهم في الكفر والفسادِ أي وما أُولئك الذين يدَّعُون الإيمانَ والطَّاعةَ ثم يتولَّى بعضُهم الذين يُشاركون في العقدِ والعملِ ﴿ بالمؤمنين ﴾ أي المؤمنينَ حقيقةً كما يُعرب عنه اللامُ أي ليسُوا بالمؤمنينَ المعهودين بالإخلاص في الإيمان والثَّباتِ عليه .

(183/551)

﴿ وَإِذَا دُعُواْ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ ﴾ أي الرَّسولُ ﴿ بَيْنَهُمْ ﴾ لأنَّه المباشرُ حقيقةً للحكمِ وإنْ كانَ ذلك حكمَ الله حقيقةً . وذكرُ الله تعالى لتفخيمه عليه السَّلامُ والإيذانِ بجلالة محلّه عنده تعالى ﴿ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴾ أي فاجأ فريقٌ منهم الإعراضَ عن المحاكمةِ إليه عليه السَّلامُ لكون الحقّ عليهم وعلمِهم بأنَّه عليه السَّلامُ يحكمُ بالحقّ عليهم وهو شرحٌ للتَّولّي ومبالغةٌ فيه .

﴿ وَإِن يَكُنْ لَّهُمُ الحق ﴾ لا عليهم ﴿ يَأْتُواْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴾ مُنقادين لجزمِهم بأنَّه عليه السَّلامُ يحكمُ لهم . وإلى صلةٌ ليأتُوا فإنَّ الإتيانَ والمجيءَ يُعدَّيان بإلى ، أو لمذعنين على

تضمينِ معنى الإسراعِ والإقبال كما في قولِه تعالى : ﴿ فَأَقْبَلُواْ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴾ والتقديمُ للاختصاص .

﴿ أَفِى قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ ﴾ إنكارٌ واستقباحٌ لإعراضِهم المذكورِ وبيانٌ لمنشئه بعد استقصاء عدّةٍ من القبائح المحققةِ فيهم والمتوقَّعةِ منهم وترديدِ المنشئية بينها فمدارُ الاستفهام ليس نفسَ ما وليتْه الهمزةُ وأَمْ من الأمورِ الثَّلاثة بل هو منشئيتها له كأنَّه قيل : أذلك أي إعراضُهم المذكورُ لأنَّهم مرضى القلوبِ لكفرِهم ونفاقِهم .

(184/551)

﴿ أَمْ ﴾ لأنَّهم ﴿ ارتابوا ﴾ في أمر نُبوَّته عليه السَّلامُ مع ظهور حقيَّتِها ﴿ أَمْ ﴾ لأنَّهم ﴿ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ ﴾ ثمَّ أُضربَ عن الكلِّ وأُبطلت منشئيَّتُه وحُكم بأنَّ المنشأَ شيءٌ آخرُ من شنائعِهم حيثُ قيلَ : ﴿ بَلْ أُوْلَئِكَ هُمُ الظالمون ﴾ أي ليسَ ذلك لشيءٍ ممَّا ذُكر ، أمَّا الأوَّلانِ فلأنَّه لو كان لشيءٍ منهما لأعرضُوا عنه عليه السَّلامُ عند كونِ الحقِّ لهم ولَما أتَوا أليه عليه السَّلامُ مُذعنينَ لحُكمِه لتحقُّقِ نفاقِهم وارتيابِهم حينئذٍ أيضاً وأمَّا الثَّالثُ فلانتفائِه رأساً حيثُ كانُوا لا يخافون الحيفَ أصلاً لمعرفتِهم بتفاصيلِ أحوالِه عليه السَّلامُ في الأمانةِ والثَّباتِ على الحقِّ بل لأنَّهم هم الظالمون يُريدون أنْ يظلمُوا مَن له الحقُّ

عليهم ويتمُّ لهم جحودُه فيأبون المحاكمةَ إليه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ لعلمِهم بأنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ يقضي عليهم بالحقِّ فمناطُ النَّفيِ المُستفادِ من الإضراب في الأوَّلينِ هو وصف منشئيَّتِهما للإعراضِ فقط مع تحقُّقِهما في نفسِهما وفي الثَّالثِ هو الأصلُ والوصف جميعاً هذا وقد خُصَّ الارتيابُ بما له منشأٌ مصحح لعروضِه لهم في الجُملةِ والمعنى أمِ ارتابُوا بأنْ رَأَوا منه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ تُهمةً فزالتْ ثقتُهم ويقينُهم به عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ فمدارُ النَّفيِ حينئذٍ نفسُ الارتيابِ ومنشئيَّتُه معاً فتأمَّل فيما ذُكر على التَّفصيلِ ودَعْ عنك ما قيل وقيل حسبما يقتضيه النَّظرُ الجليلُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 6 صـ ﴾

(185/551)

وقال الآلوسى :

﴿ وَيَقُولُونَ ءامَنَّا بالله وبالرسول ﴾

شروع في بيان أحوال بعض من لم يشأ الله تعالى هدايته إلى صراط مستقيم وهم صنف من الكفرة الذي سبق وصف أعمالهم .

أخرج ابن المنذر .

وغيره عن قتادة أنها نزلت في المنافقين وروى عن الحسن نحوه ، وقيل نزلت في بشر المنافق

دعاه يهودي في خصومة بينهما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعا هو اليهودي إلى كعب بن الأشرف ثم تحاكما إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام فحكم لليهودي فلم يرض المنافق بقضائه عليه الصلاة والسلام وقال : نتحاكم إلى عمر رضي الله تعالى عنه فلما ذهبا إليه قال له اليهودي : قضى لي النبي صلى الله عليه وسلم فلم يرض بقضائه فقال عمر للمنافق : أكذلك ؟ فقال : نعم فقال : مكانكما حتى أخرج إليكما فدخل رضي الله تعالى عنه بيته وخرج بسيفه فضرب عنق ذلك المنافق حتى برد وقال : هكذا أقضى لمن لم يرض بقضاء الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم فنزلت ، وقال جبريل عليه السلام : إن عمر فرق بين الحق والباطل فسمى لذلك الفاروق ، وروى هذا عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما .

(186/551)

وقال الضحاك : نزلت في المغيرة بن وائل كان بينه وبين علي كرم الله تعالى وجهه خصومة في أرض فتقاسما فوقع لعلي ما لا يصيبه الماء إلا بمشقة فقال المغيرة : بعني أرضك فباعها أياه وتقابضا فقيل للمغيرة : أخذت سبخة لا ينالها الماء فقال لعلي كرم الله تعالى وجهه : اقبض أرضك فإنما اشتريتها إن رضيتها ولم أرضها فإن الماء لا ينالها فقال علي : قد اشتريت

ورضيتها وقبضتها وأنت تعرف حالها لا أقبلها منك ودعاه إلى أن يخاصمه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أما محمد فلست آتيه فإنه يبغضني وأنا أخاف أن يحيف علي فنزلت ، وعلى هذا وما قبهل جميع الضمير لعموم الحكم أو لأن مع القائل طائفة يساعدونه ويشايعونه في تلك المقالة كما في قولهم بنو فلان قتلوا قتيلاً والقاتل واحد منهم ، وإعادة الباء للمبالغة في دعوى الإيمان وكذا التعبير عنه صلى الله عليه وسلم بعنوان الرسول وقولهم مع ذلك ﴿ وَأَطَعْنَا ﴾ أي وأطعنا الله تعالى والرسول صلى الله عليه وسلم في الأمر والنهي ﴿ ثُمَّ يتولى ﴾ أي يعرض عما يقتضيه هذا القول من قبول الحكم الشرعي عليه ﴿ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مِّن بَعْدِ ذلك ﴾ أي من بعد ما صدر عنهم من ادعاء الايمان بالله تعالى وبالرسول صلى الله عليه وسلم والطاعة لهما ، وما في ذلك من معنى البعد للإيذان بكونه أمراً معتداً به واجب المراعاة ﴿ وَمَا أُوْلَئِكَ ﴾ إشارة إلى القائلين ﴿ مِنَ ﴾ الخ وهم المنافقون جميعهم لا إلى الفريق المتولى منهم فقط ، وما فيه من معنى البعد للإيذان ببعد منزلتهم في الكفر والفساد أي وما أولئك الذين يدعون الايمان والطاعة ثم يتولى بعضهم الذين يشاركونهم في العقد والعمل ﴿ بالمؤمنين ﴾ أي المؤمنين حقيقة كما يعرب عنه اللام أي ليسوا بالمؤمنين المعهودين بالإخلاص والثبات عليه ، ونفي الايمان بهذا المعنى عنهم مقتض لنفيه عن الفريق على أبلغ وجه وآكده ولذا اختير كون الإشارة إليهم ، وجوز أن تكون للفريق على أن

المراد بهم فرق منافقون ، وضمير ﴿ يَقُولُونَ ﴾ للمؤمنين مطلقاً ، والحكم على أولئك الفريق بنفي الايمان لظهور أمارة التكذيب الذي هو التولي منهم ، و ﴿ ثُمَّ ﴾ على هذا حسبما قرره الطيبي للاستبعاد كأنه قيل كيف يدخلون في زمرة المؤمنين الذين يقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يعرضون ويتجاوزون عن الفريق المؤمنين ويرغبون عن تلك المقالة وهذا بعيد عن العاقل المميز ، وعلى الأول حسبما قرره أيضاً للتراخي في الرتبة إيذاناً بارتفاع درجة كفر الفريق المتولى عنهم انحطاط درجة أولئك .

وفي "الكشف" أن الكلام على تقدير كون الإشارة إلى القائلين لا إلى الفريق المتوفي وحده كالاستدراك وفيه دلاله على توغل المتولين في الكفر وأصل الكفر وشامل للطائفتين ، وأما على تقدير اختصاص الإشارة بالمتولين فائدة ﴿ ثُمَّ ﴾ استبعاد التولي بعد تلك المقالة ، وفائدة الأخبار إظهار أنهم لم يثبتوا على قولهم كأنه قيل : يقولون هذا يوجد فيهم ما يضاده فلا يكون في دليل خطابه أن غيرهم مؤمن انتهى ، وعليه فضمير ﴿ يَقُولُونَ ﴾ للمنافقين الشاملين للفريق المتولي لا للمؤمنين مطلقاً على الوجهين فتأمل .

﴿ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ﴾

أي وبين خصومهم ، وضمير ﴿ يُحْكِمُ ﴾ للرسول عليه الصلاة والسلام ، وجوز أن يكون الضمير عائداً إلى ما يفهم من الكلام أي المدعو إليه وهو شامل لله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام لكن المباشر للحكم هو الرسول صلى الله عليه وسلم ، وذكر الله تعالى على الوجهين لتفخيمه عليه الصلاة والسلام والإيذان بجلالة محله عنده تعالى وأن حكمه في الحقيقة حكم الله عز وجل فقد قالوا : إنه إذا ذكر اسمان متعاطفان والحكم إنما هو لأحدهما كما في نحو قوله تعالى : ﴿ يخادعون الله والذين ءامَنُوا ﴾ [البقرة : 9] أفاد قوة اختصاص المعطوف بالمعطوف عليه وإنهما بمنزلة شيء واحد بحيث يصح نسبة أوصاف أحدهما وأحواله إلى الآخر ، وضمير ﴿ دُعُوا ﴾ يعود إلى ما يعود إليه ضمير ﴿ يَقُولُونَ ﴾ [النور : 47] أي وإذا دعى المنافقون أو المؤمنون مطلقاً ﴿ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ أي فاجأ فريق منهم الإعراض عن المحاكمة إليه عليه الصلاة والسلام لكون الحق عليهم وعلمهم بأنه صلى الله عليه وسلم لا يحكم إلا بالحق ، والجملة الشرطية شرح للتولي ومبالغة فيه حيث أفادت مفاجأتهم الإعراض عقب الدعوة دون الحكم عليهم مع ما في الجملة الاسمية الواقعة جزاء من الدلالة على الثبوت والاستمرار على ما هو المشهور ،

والتعبير ﴿ ببينهم ﴾ دون عليهم لأن المتعارف قول أحد المتخاصمين للآخر : اذهب معي إلى فلان ليحكم بيننا لا عليك وهو الطريق المنصف ، وقيل : هذا الإعراض إذا اشتبه عليهم الأمر ، ولذا قال سبحانه : لا عليهم وفي ذلك زيادة في المبالغة في ذمهم وفيه بحث .

﴿ وَإِن يَكُنْ لَّهُمُ الحق ﴾ أي لا عليهم كما يؤذن به تقديم الخبر ﴿ يَأْتُواْ إِلَيْهِ ﴾ أي إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿ مُذْعِنِينَ ﴾ منقادين لعلمهم بأنه عليه الصلاة والسلام يحكم لهم ، والظاهر تعلق إلى بيأتوا .

(189/551)

وجوز تعلقها بمذعنين على أنها بمعنى اللام أو على تضمين الإذعان معنى الإسراع وفسره الزجاج بالإسراع مع الطاعة ، وتقديم المعمول للاختصاص أو للفاصلة أو لهما ، وعبر بإذا فيما مر إشارة إلى تحقق الشرط وبأن هنا إشارة إلى عدم تحققه وفي ذلك أيضاً ذم لهم .

﴿ أَفِى قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ أَمِ ارتابوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ الله عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ ﴾

ترديد لسبب الإعراض المذكور فمدار الاستفهام ما يفهم من الكلام كأنه قيل : أسبب أعراضهم عن المحاكمة إليه صلى الله عليه وسلم أنهم مرضى القلوب لكفرهم ونفاقهم أم

سببه أنهم ارتابوا وشكوا في أمر نبوته عليه الصلاة والسلام مع ظهور حقيتها أم سببه أنهم يخافون أن يحيف ويجور الله تعالى شأنه عليهم ورسوله صلى الله عليه وسلم .

(190/551)

وهذا نظير قولك أفيه مرض أم غاب عن البلد أم يخاف من الواشي بعد قول : هجر الحبيب مثلاً فإن كون المعنى أسبب هجره أن فيه مرضاً أم سببه أنه غاب عن البلد أم سببه أنه يخاف من الواشي ظاهر جداً وهو كثير في المحاورات إلا أن الاستفهام في الآية إنكاري وهو لإنكار السببية ، وقوله تعالى : ﴿ بَلْ أُوْلَئِكَ هُمُ الظالمون ﴾ تعيين للسبب بعد إبطال سببية جميع ما تقدم ففيه تأكيد لما يفيده الاستفهام كأنه قيل : ليس شيء ما ذكر سبباً لذلك الإعراض ، أما الأولان فلأنه لو كان شيء منهما سبباً له لأعرضوا عن المحاكمة إليه صلى الله عليه وسلم عند كون الحق لهم ولما أتوا إليه عليه الصلاة والسلام مذعنين لحكمه لتحقق نفاقهم وارتيابهم حينئذ أيضاً ، وأما الثالث فلانتفائه رأساً حيث كانوا لا يخافون الحيف أصلاً لمعرفتهم بتفاصيل أحواله عليه الصلاة والسلام في الأمانة والثبات على الحق بل سبب ذلك أنهم هم الظالمون يريدون أن يظلموا من الحق له عليهم ولا يتأتى مرامهم مع الانقياد إلى المحاكمة إليه عليه الصلاة والسلام فيعرضون عنها لأنه صلى الله عليه وسلم

يقضي بالحق عليهم ، فمناط النفي المستفاد من الاستفهام الإنكاري والإضراب الإبطالي في الأولين هو وصف سببيتهما للإعراض فقط مع تحققهما في نفسهما ، وفي الثالث هو الأصل والوصل جميعاً ، وإذا خص الارتياب بما له جهة مصححة لعروضه لهم في الجملة كما فعل البعض حيث جعل المعنى أم ارتابوا بأن رأوا منه صلى الله عليه وسلم تهمة فزالت ثقتهم ويقينهم به عليه الصلاة والسلام كان مناط النفي في الثاني كما في الثالث كذا قرره بعض الأجلة ، و ﴿ أَمْ ﴾ عليه متصلة وقد ذهب إلى أنها كذلك الزمخشري .

(191/551)

والبيضاري حيث جعلا ما تقدم تقسيماً لسبب الإعراض إلا أن الأول جعل الإضراب عن الأخير من الأمور الثلاثة ووجه بأنه أدل على ما كانوا عليه وأدخل في الإنكار من حيث أنه يناقض تسرعهم إليه صلى الله عليه وسلم إذا كان الحق لهم على غير ، والثاني جعله إضراباً عن الأخيرين منها لتحقيق القسم الأول ، وقال : وجه التقسيم أن امتناعهم عن المحاكمة إليه صلى الله عليه وسلم إما أن يكون لخلل فيهم أو في الحاكم ، والثاني إما أن يكون محققاً أو متوقعاً وفسر الارتياب برؤية مثل تهمة تزيل يقينهم ثم قال : وكلاهما باطلان فتعين الأول .

أما الأول فظاهر .

وأما الثاني فلأن منصب النبوة وفرط أمانته عليه الصلاة والسلام يمنعه وظلمهم يعم خلل عقيدتهم وميل نفوسهم إلى الحيف .

وقال العلامة الطيبي الحق أن بل إضراب عن نفس التقسيم وهو إضراب انتقالي كأنه قيل : دع التقسيم فإنهم هم الكاملون في الظلم الجامعون لتلك الأوصاف فلذلك صدوا عن حكومتك يدل عليه الإتيان باسم الإشارة والخطاب وتعريف الخبر بلام الجنس وتوسيط ضمير الفصل ، ونقل عن الإمام ما يدل على أن أم منقطعة قال : أثبتهم على كل واحد من هذه الأوصاف فكان في قلوبهم مرض وهو النفاق فكان فيها ارتياب فكانوا يخافون الحيف ، ووجه الإضراب أن كلاً مسبب عن الآخر علم على وجوده وزيادة ، واعترض بأنه لا يجب التسبب إلا أن يدعي في هذه المادة خصوصاً ، وصرح أبو حيان بأنها منقطعة وبأن الاستفهام للتوقيف والتوبيخ ليقروا بأحد هذه الأوجه التي عليها في الإقرار بها عليهم ويستعمل في الذم والمدح كما في قوله

: ألست من القوم الذين تعاهدوا . . .

على اللؤم والفحشاء في سالف الدهر

وقوله

: ألستم خير من ركب المطايا . . .

وأندى العالمين بطون راح

(192/551)

ولا يخفى أن الأظهر أنها متصلة والتلازم بين الأمور الثلاثة ممنوع على أنه لا يضر وأن معنى الآية ما ذكرناه أولاً ، وتقديم ﴿ عَلَيْهِمْ ﴾ على الرسول لتأكيد أن حكمه عليه الصلاة والسلام هو حكم الله تعالى ، ووجه اختلاف أساليب الجمل يظهر بأدنى تأمل . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 18 صـ ﴾

(193/551)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ ﴾

عطف جملة : ﴿ ويقولون ﴾ على جملة : ﴿ والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾ [النور : 46] لما تتضمنه جملة : ﴿ يهدي من يشاء ﴾ من هداية بعض الناس

وحرمان بعضهم من الهداية كما هو مقتضى : ﴿ من يشاء ﴾ .

وهذا تخلص إلى ذكر بعض ممن لم يشأ الله هدايتهم وهم الذين أبطنوا الكفر وأظهروا الإسلام وهم أهل النفاق .

فبعد أن ذُكرت دلائل انفراد الله تعالى بالإلهية وذكر الكفارُ الصرحاء الذين لم يهتدوا بها في قوله : ﴿ والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة ﴾ [النور : 39] الآيات تهيأ المقام لذكر صنف آخر من الكافرين الذين لم يهتدوا بآيات الله وأظهروا أنهم اهتدوا بها .

وضمير الجمع عائد إلى معروفين عند السامعين وهم المنافقون لأن ما ذكر بعده هو من أحوالهم ، وعود الضمير إلى شيء غير مذكور كثير في القرآن ، على أنهم قد تقدم ما يشير إليهم بطريق التعريض في قوله : ﴿ رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ﴾ [النور : 37] .

وقد أشارت الآية إلى المنافقين عامة ، ثم إلى فريق منهم أظهروا عدم الرضى بحكم الرسول صلى الله عليه وسلم فكلا الفريقين موسوم بالنفاق ، ولكن أحدهما استمر على النفاق والمواربة وفريقاً لم يلبثوا أن أظهروا الرجوع إلى الكفر بمعصية الرسول علناً .

ففي قوله : ﴿ يقولون ﴾ إيماء إلى أن حظهم من الإيمان مجرد القول دون الاعتقاد كما قال تعالى : ﴿ قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولمّا يدخلِ الإيمان في قلوبكم ﴾ [الحجرات : 14] .

وعبر بالمضارع لإفادة تجدد ذلك منهم واستمرارهم عليه لما فيه من تكرر الكذب ونحوه من خصال النفاق التي بينتُها في سورة البقرة .

ومفعول ﴿ أطعنا ﴾ محذوف دل عليه ما قبله ، أي أطعنا الله والرسول .

(194/551)

والإشارة في قوله : ﴿ وما أولئك ﴾ إلى ضمير ﴿ يقولون ﴾ ، أي يقولون آمنّا وهم كاذبون في قولهم .

وإنما يظهر كفرهم عند ما تحل بهم النوازل والخصومات فلا يطمئنون بحكم رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يصح جعله إشارة إلى ﴿ فريق ﴾ من قوله : ﴿ إذا فريق منهم معرضون ﴾ لأن إعراضهم كاف في الدلالة على عدم الإيمان .

فالضمير في قوله : ﴿ وإذا دعوا ﴾ عائد إلى معاد ضمير ﴿ يقولون ﴾ .

وإسناد فعل ﴿ دعوا ﴾ إلى جميعهم وإن كان المعرضون فريقاً منهم لا جميعهم للإشارة إلى أنهم سواء في التهيؤ إلى الإعراض ولكنهم لا يظهرونه إلا عند ما تحل بهم النوازل فالمعرضون هم الذين حلت بهم الخصومات .

وقد شملت الآية نفراً من المنافقين كانوا حلت بهم خصومات فأبوا حكم النبي صلى الله

عليه وسلم قبل أن يحكم عليهم أو بعد ما حكم عليهم فلم يُرضهم حكمه ، فروى المفسرون أن بشْراً أحد الأوس أو الخزرج تخاصم إلى النبي صلى الله عليه وسلم مع يهودي فلما حكم النبي لليهودي لم يرض بشر بحكمه ودعاه إلى الحكم عند كعب بن الأشرف اليهودي فأبى اليهودي وتساوقا إلى عمر بن الخطاب فقصّا عليه القضية فلما علم عمر أن بشْراً لم يرض بحكم النبي قال لهما : مكانكما حتى آتيكما .

ودخل بيته فأخرج سيفه وضرب بشراً بالسيف فقتله .

فروي أن النبي صلى الله عليه وسلم لقب عمر يومئذٍ الفاروق لأنه فرق بين الحق والباطل ، أي فرق بينهما بالمشاهدة .

وقيل : إن أحد المنافقين اسمه المغيرة بن وائل من الأوس من بني أمية بن زيد الأوسي تخاصم مع علي بن أبي طالب في أرض اقتسماها ثم كره أمية القسم الذي أخذه فرام نقض القسمة وأبى علي نقضها ودعاه إلى الحكومة لدى النبي صلى الله عليه وسلم فقال المغيرة : أما محمد فلست آتية لأنه يُبغضني وأنا أخاف أن يحيف علي .

فنزلت هذه الآية .

وتقدم ذلك عند قوله تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك ﴾ الآية في سورة النساء (60) .

ومن سماجة الأخبار ما نقله الطبرسي الشيعي في تفسيره المسمى "مجمع البيان" عن البلخي أنه كانت بين علي وعثمان منازعة في أرض اشتراها من علي فخرجت فيها أحجار وأراد ردها بالعيب فلم يأخذها فقال : بيني وبينك رسول الله .

فقال له الحكم بن أبي العاص إن حاكمته إلى ابن عمه يحكمْ له فلا تحاكمه إليه .

فنزلت الآيات .

وهذا لم يروه أحد من ثقات المفسرين ولا أشك في أنه مما اعتيد إلصاقه ببني أمية من تلقاء المشوهين لدولتهم تطلعا للفتنة ، والحكم بن أبي العاص أسلم يوم الفتح وسكن المدينة وهل يظن به أن يقول مثل هذه المقالة بين مسلميْن .

وإنما جعل الدعاء إلى الله ورسوله كليهما مع أنهم دعوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لأن حكم الرسول حكم الله لأنه لا يحكم إلا عن وحي .

ولهذا الاعتبار أفرد الضمير في قوله : ﴿ ليحكم ﴾ العائد إلى أقرب مذكور ولم يقل : ليحكما .

وقوله : ﴿ وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه ﴾ أي إلى الرسول صلى الله عليه وسلم

ومعنى : ﴿ وإن يكن لهم الحق ﴾ أنه يكون في ظن صاحب الحق ويقينه أنه على الحق .

ومفهومه أن من لم يكن له الحق منهم وهو العالم بأنه مبطل لا يأتي إذا دعي إلى الرسول عليه

الصلاة والسلام ، فعُلم منه أن الفريق المعرضين هم المبطلون .

وكذلك شأن كل من هو على الحق أنه لا يأبى من القضاء العادل ، وشأن المبطل أن يأبى العدل لأن العدل لا يلائم حبه الاعتداء على حقوق الناس ، فسبب إعراض المعرضين علمهم بأن في جانبهم الباطل وهم قد تحققوا أن الرسول لا يحكم إلا بصراح الحق .

وهذا وجه موقع جملة : ﴿ أفي قلوبهم مرض ﴾ إلى آخرها .

ووقع حرف ﴿ إذا ﴾ المفاجأة في جواب ﴿ إذا ﴾ الشرطية لإفادة مبادرتهم بالإعراض دون تريث لأنهم قد أيقنوا من قبل بعدالة الرسول وأيقنوا بأن الباطل في جانبهم فلم يترددوا في الإعراض .

والإذعان : الانقياد والطاعة .

(196/551)

ولما كان هذا شأناً عجيباً استؤنف عقبه بالجملة ذات الاستفهامات المستعملة في التنبيه على أخلاقهم ولفت الأذهان إلى ما انطووا عليه والداعي إلى ذلك أنها أحوال خفية لأنهم كانوا يظهرون خلافها .

وأُتبع بعض الاستفهامات بعضاً بحرف ﴿ أم ﴾ المنقطعة التي هي هنا للإضراب الانتقالي

كشأنها إذا عطفت الجمل الاستفهامية فإنها إذا عطفت الجمل لم تكن لطلب التعيين كما هي في عطف المفردات لأن المتعاطفات بها حينئذٍ ليست مما يطلب تعيين بعضه دون بعض ، وأما معنى الاستفهام فملازم لها لأنه يقدر بعد ﴿ أم ﴾ .

والانتقال هنا تدرج في عدّ أخلاقهم .

فالمعنى أنه إن سأل سائل عن اتصافهم بخُلق من هذه المذكورات علم المسؤول أنهم متصفون به ، فكان الاستفهام المكرر ثلاث مرات مستعملاً في التنبيه مجازاً مرسلاً ، ومنه قوله تعالى : ﴿ ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم آذان يسمعون بها ﴾ في سورة الأعراف (195) .

والقلوب : العقول .

والمرض مستعار للفساد أو للكفر قال تعالى : ﴿ في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ﴾ [البقرة : 10] أو للنفاق .

وأتي في جانب هذا الاستفهام بالجملة الاسمية للدلالة على ثبات المرض في قلوبهم وتأصله فيها بحيث لم يدخل الإيمان في قلوبهم .

والارتياب : الشك .

والمراد : ارتابوا في حقيّة الإسلام ، أي حدث لهم ارتياب بعد أن آمنوا إيماناً غير راسخ .

وأتي في جانبه بالجملة الفعلية المفيدة للحدوث والتجدد ، أي حدث لهم ارتياب بعد أن

اعتقدوا الإيمان اعتقاداً مزلزلاً .

وهذا يشير إلى أنهم فريقان : فريق لم يؤمنوا ولكنهم أظهروا الإيمان وكتموا كفرهم ، وفريق آمنوا إيماناً ضعيفاً ثم ظهر كفرهم بالإعراض .

والحيف : الظلم والجور في الحكومة .

وجيء في جانبه بالفعلين المضارعين للإشارة إلى أنه خوف في الحال من الحيف في المستقبل كما يقتضيه دخول ﴿ أن ﴾ ، وهي حرف الاستقبال ، على فعل ﴿ يحيف ﴾ .

(197/551)

فهم خافوا من وقوع الحيف بعد نشر الخصومة فمن ثمة أعرضوا عن التحاكم إلى الرسول صلى الله عليه وسلم

وأسند الحيف إلى الله ورسوله بمعنى أن يكون ما شرعه الإسلام حيفاً لا يظهر الحقوق .

وهذا كناية عن كونهم يعتقدون أنه غير منزل من الله وأن يكون حكم الرسول بغير ما أمر الله ، فهم يطعنون في الحكم وفي الحاكم وما ذلك إلا لأنهم لا يؤمنون بأن شريعة الإسلام منزلة من الله ولا يؤمنون بأن محمداً عليه الصلاة والسلام مرسل من عند الله ، فالكلام كناية عن إنكارهم أن تكون الشريعة إلهية وأن يكون الآتي بها صادقاً فيما أتى به .

واعلم أن المنافقين اتصفوا بهذه الأمور الثلاثة وكلها ناشئة عن عدم تصديقهم الرسول سواء في ذلك من حلت به قضية ومن لم تحل .

وفيما فسرنا به قوله تعالى : ﴿ أفي قلوبهم مرض ﴾ ما يثلج صدر الناظر ويخرج به من سكوت الساكت وحيرة الحائر .

و ﴿ بل ﴾ للإضراب الانتقالي من الاستفهام التنبيهي إلى خبر آخر .

ولم يؤت في هذا الإضراب بـ ﴿ أم ﴾ لأن ﴿ أم ﴾ لا بد معها من معنى الاستفهام ، وليس المراد عطف كونهم ظالمين على الاستفهام المستعمل في التنبيه بل المراد به إفادة اتصافهم بالظلم دون غيرهم لأنه قد اتضح حالهم فلا داعي لإيراده بصيغة استفهام التنبيه .

وليست ﴿ بل ﴾ هنا للإبطال لأنه لا يستقيم إبطال جميع الأقسام المتقدمة فإن منها مرض قلوبهم وهو ثابت ، ولا دليل على قصد إبطال القسم الأخير خاصة ، ولا على إبطال القسمين الآخرين .

وجملة : ﴿ أولئك هم الظالمون ﴾ مستأنفة استئنافاً بيانياً لأن السامع بعد أن طنت بأذنه تلك الاستفهامات الثلاثة ثم أعقبت بحرف الإضراب يترقب ماذا سيُرسي عليه تحقيق حالهم فكان قوله : ﴿ أولئك هم الظالمون ﴾ بياناً لما يترقبه السامع .

والمعنى : أنهم يخافون أن يحيف الرسول عليهم ويظلمهم .

وليس الرسول بالذي يظلم بل هم الظالمون .

فالقصر الحاصل من تعريف الجزأين ومن ضمير الفصل حصر مؤكَّد ، أي هم الظالمون لا شرعُ الله ولا حكم رسوله .

وزاد اسم الإشارة تأكيداً للخبر فحصل فيه أربعة مؤكدات : اثنان من صيغة الحصر إذ ليس الحصر والتخصيص إلا تأكيداً على تأكيد ، والثالث ضمير الفصل ، والرابع اسم الإشارة .

واسم الإشارة الموضوع للتمييز استعمل هنا مجازاً لتحقيق اتصافهم بالظلم ، فهم يقيسون الناس على حسب ما يقيسون أنفسهم ، فلما كانوا أهل ظلم ظنوا بمن هو أهل الإنصاف أنه ظالم كما قال أبو الطيب :

إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه

وصدق ما يعتاده من توهم . . .

ولا تعلق لهذه الآية بحكم من دعي إلى القاضي للخصومة فامتنع لأن الذم والتوبيخ فيها كانا على امتناع ناشىء عن كفرهم ونفاقهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 18 صـ

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ ﴾

وفي آية أخرى يقول الحق سبحانه : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرسول رَأَيْتَ المنافقين يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُوداً ﴾ [النساء : 61] .

وهؤلاء هم المنافقون ، وخَيْبة المنافق أنه متضارب الملكات النفسية ؛ ذلك لأن للإنسان مَلَكات متعددة تتساند حال الاستقامة ، وتتعاند حال المعصية ، فالإنسان تراه طبيعياً حين ينظر إلى ابنته أو زوجته ، لأن مَلَكاته منسجمة مع هذا الفعل ، أما حين ينظر إلى محارم الغير فتراه يختلس النظرة ، يخاف أنْ يراه أحد يتلصّص ويحتاط ؛ لأن مَلَكاته مضطربة غير منسجمة مع هذا الفعل .

لذلك يقولون : الاستقامة استسامة ، فملكات النفس بطبيعتها متساندة لا تتعارض أبداً ، لكن المنافق فضلاً عن كذبه ، فهو متضارب المَلَكات في نفسه ؛ لأن القلب كافر واللسان مؤمن .

لذلك فكرامة الإنسان تكون بينه وبين نفسه قبل أن تكون بينه وبين الناس ، فقد يصنع

الإنسان أمام الناس صنائع خير تُعجب الآخرين ، لكنه يعلم من نفسه الشر ، فهو وإن كسب ثقة المجتمع من حوله ، إلا أنه خسر رَأْي نفسه في نفسه ، وإذا خسر الإنسان نفسه فلن يُعوِّضه عنها شيء حتى إنْ كسب العالم كله ؛ لأن المجتمع لا يكون معك طول الوقت ، أمّا نفسك فملازمة لك كل الوقت لا تنفك عنها ، فأنا كبير أمام الناس ما دُمْت معهم ، أمّا حين أختلي بنفسي أجدها حقيرة : فعلتْ كذا ، وفعلت كذا .

إذن : أنت حكمتَ أنّ رأى الناس أنفَسُ من رأيك ، ولو كان لرأيك عندك قيمة لحاولت أن يكون رأيك في نفسك صحيحاً ، لكن أنت تريد أن يكون رأي الناس فيك صحيحاً ، وإنْ كان رأيك عند نفسك غير ذلك .

(200/551)

ويقول تعالى في هؤلاء : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الذين يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُواْ إِلَى الطاغوت وَقَدْ أُمِرُواْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِ وَيُرِيدُ الشيطان أَن يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيداً ﴾ [النساء : 60] .

فقد حكم عليهم أنهم يزعمون ، والزعم مطيّة الكذب ، والدليل على أنهم يزعمون أنهم يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت ، ولو كانوا مؤمنين بما أُنزِل إليك وما أُنزِل من قبلك ما

تحاكموا إلى الطاغوت ، وهكذا فضحوا هم أنفسهم ، فالثانية فضحتْ الأولى .

لذلك قالوا : إن الكافر أحسن منهم ؛ لأنه منسجم الملَكات : قلبه موافق للسانه ، قلبه كافر ولسانه كذلك ، ومن هنا كان المنافقون في الدَّرْك الأسفل من النار .

والحق تبارك وتعالى يعطينا صورة ونموذجاً يحذرنا ألاَّ نحكم على القول وحده ، فيقول تعالى عن المنافقين : ﴿ إِذَا جَآءَكَ المنافقون قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ الله والله يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ والله يَشْهَدُ إِنَّ المنافقين لَكَاذِبُونَ ﴾ [المنافقون : 1] .

وهذه المقولة ﴿ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ والله ﴾ [المنافقون : 1] مقولة صادقة ، لكن القرآن يُكذِّبهم في أنهم شَهدوا بها .

وقد نزلتْ هذه الآية في أحد المنافقين أظن أنه بشر ، وكانت له خصومة مع يهودي ، فطلب اليهودي أن يتحاكما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وطلب المنافق أنْ يتحاكما عند كعب بن الأشرف ، لكن رَدَّ اليهودي حكومة كعب لما يعلمه من تزييفه وعدم أمانته والإنسان وإن كان في نفسه مُزِّيفاً إلا أنه يحب أنْ يحتكم في أمره إلى الأمين العادل وفعلاً تغلّب اليهودي وذهبا إلى رسول الله فحكم لليهودي .

وفي هذا دلالة على أن اليهودي كان ذكياً فَطِناً ، يعرف الحق ويعرف مكانة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

لكن المنافق لم يَرْضَ حكم رسول الله ، وانتهى بهما الأمر إلى عمر رضي الله عنه وقَصَّا عليه ما كان ، ولما علم أن المنافق رَدَّ حكم رسول الله قام عمر وجاء بالسيف يُشْهِره في وجه المنافق وهو يقول : مَنْ لم يَرْضَ بقضاء رسول الله فذلك قضائي فيه .

إذن : فهؤلاء يقولون : ﴿ آمَنَّا بالله وبالرسول وَأَطَعْنَا ﴾ [النور : 47] كلام جميل وأكثر الله من خيركم ، لكن هذا قول فقط لا يسانده تطبيق عملي ، والإيمان يقتضي أن تجيء الأعمال على وَفْق منطوق الإيمان .

فهذا منهم مجرد كلام ، أما التطبيق : ﴿ ثُمَّ يتولى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مِّن بَعْدِ ذلك ﴾ [النور : 47] والتولِّي : الانصراف عن شيء كان موجوداً إلى شيء مناقض ﴿ وَمَآ أولئك بالمؤمنين ﴾ [النور : 47] فما داموا قد تولوا فهم لم يطيعوا ولم يؤمنوا .

وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ (48)

المراد ما كان من أمر بشر واليهودي ، وقد أعرضا عن حكم الله ورسوله ، وإنْ كان إعراض المنافق واضحاً فالآية لا تريد تبرئة ساحة اليهودي ، لأنه ما رضي بحكم الله إلا لأنه واثق أن الحق له وواثق أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لن يحكم إلا بالحق ، حتى وإنْ كان ليهودي ، وإذن : ما أذعن لحكم الله ورسوله محبةً فيه أو إيماناً به ، إنما لمصلحته الشخصية ، لذلك يقول تعالى بعدها : ﴿ أَفِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ أَمِ ارتابوا ﴾

أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (50)

والمرض : خروج الشيء عن استقامة سلامته ، فكل عضو من أعضائك له سلامة : العين لها سلامة ، والأذن لها سلامة . . الخ والعجيب أن تعيش بالجارحة لا تدري بها طالما هي سليمة صحيحة ، فإذا أصابها مرض تنبهتَ إليها ، وأحسست بنعمة الله عليك فيها حال سلامتها .

(202/551)

﴿ أَمِ ارتابوا ﴾ [النور : 50] يعني : شكُّوا في رسول الله ﴿ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ الله عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ ﴾ [النور : 50] يعني : يجور ويظلم ﴿ بَلْ أولئك هُمُ الظالمون ﴾ [النور : 50] أي : لأنفسهم أولاً ، وذلك منتهى الحُمْق أن يظلم الإنسان نفسه ، لو ظلم غيره لَقُلْنا : خير يجلبه لنفسه ، لكن ما الخير في ظلم الإنسان لنفسه ؟ ومَنْ ظلم نفسه لا تَلُمْه إن ظَلَم الآخرين .

والحق تباك وتعالى حينما يعاقب الظالم ، فذلك لمصلحته حتى لا يتمادى في ظُلْمه ، ويجرُّ

على نفسه جزاء شر بعد أن كان الحق سبحانه يُمنّيه بجزاء خير . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(203/551)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (47) ﴾

أخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة ﴿ ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين ﴾ قال : أناس من المنافقين ، أظهروا الإيمان والطاعة ، وهم في ذلك يصدون عن سبيل الله ، وطاعته ، وجهاد مع رسوله .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن الحسن قال : إن الرجل كان يكون بينه وبين الرجل خصومة ، أو منازعة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا دعي إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو محق أذعن وعلم أن النبي صلى الله عليه وسلم سيقضي له

بالحق ، وإذا أراد أن يظلم فدعي إلى النبي صلى الله عليه وسلم أعرض وقال : انطلق إلى فلان فأنزل الله ﴿ وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم ﴾ إلى قوله ﴿ هم الظالمون ﴾ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " من كان بينه وبين أخيه شيء فدعاه إلى حكم من حكام المسلمين فلم يجب فهو ظالم لا حق له " .

وأخرج الطبراني عن الحسن عن سمرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " من دعي إلى سلطان فلم يجب فهو ظالم لا حق له " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 6 صـ ﴾

(204/551)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله : ﴿ لِيَحْكُمَ ﴾ :

أفردَ الضميرَ وقد تقدَّمه اسمان وهما : اللهُ ورسوله ، فهو كقولِه تعالى : ﴿ واللهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ ﴾ [التوبة : 62] [لأنَّ] حكمَ رسولِه هو حكمُه . قال الزمخشري : " كقولك : " أعجبني زيدٌ وكَرَمُهُ " أي : كرمُ زيدٍ / ومنه :

3458 ومَنْهَلٍ من الفَلا في أوسَطِهْ . . . غَلَسْتُه قبل القَطا وفُرَّطِهْ

أي : قبل فُرَّط القَطا ، يعني قبل تقدُّمِ القطا .

وقرأ أبو جعفرٍ " لِيُحْكَمَ بينَهم " هنا والتي بعدَها مبنياً للمفعولِ ، والظرفُ قائمٌ مقامَ الفاعل

.

قوله : ﴿ إِذَا فَرِيقٌ ﴾ " إذا " هي الفجائيةُ . وقد تقدَّم تحقيقُ القولِ فيها . وهي جوابُ " إذا " الشرطيةِ أولاً . وهذا أحدُ الأدلةِ على مَنْعِ أن يَعْمَلَ في " إذا " الشرطيةِ جوابُها ؛ فإنَّ ما بعدَ الفجائيةِ لا يَعْمَلُ فيما قبلها ، كذا ذكره الشيخ ، وقد تقدَّم تحريرُ هذا ، وجوابُ الجمهور عنه .

وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (49)

قوله : ﴿ إِلَيْهِ ﴾ : يجوزُ تعلُّقُه ب " يَأْتُوا " لأنَّ أتى وجاء قد جاءا مُعَدَّيَيْنِ ب " إلى " . ويجوزُ أَنْ يَتَعَلَّقَ ب " مُذْعِنين " ؛ لأنه بمعنى مُسرِعين في الطاعة . وصَحَّحَه الزمخشري قال : " لِتقدُّمِ صلتِه ودلالتِه على الاختصاص " . و " مُذعِنين " حالٌ . والإِذْعان : الانقيادُ يُقال : أَذْعَنَ فلانٌ لِفلان أي : انقادَ له . وقال الزجاج : " الإِذعانُ الإِسْراعُ مع الطاعةِ " .

قوله : ﴿ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ ﴾ : " أَمْ " فيهما منقطعٌ ، تتقدَّرُ عند الجمهورِ بحرفِ الإِضراب وهمزةِ الاستفهامِ . تقديرُه : بل ارْتابوا ، بل أيخافون . ومعنى الاستفهام هنام

التقريرُ والتوقيفُ ، ويُبالَغُ به تارةً في الذمِّ كقوله :

3459 أَلَسْتَ من القومِ الذينَ تعاهَدُوْا . . . على اللُّؤْمِ والفَحْشاءِ في سالفِ الدهر

(205/551)

وتارةً في المدح كقولِ جرير :

3460 أَلَسْتُمْ خيرَ مَنْ ركبَ المَطايا . . . وأندى العالمينَ بُطونَ راحِ

و[قوله] : ﴿ أَن يَحِيفَ ﴾ مفعول الخوف . والحَيْفُ : المَيْلُ والجَوْرُ في القضاءِ .

يقال : حاف في قضائِه أي : مال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 426 .

428 ﴾

(206/551)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ

بِالْمُؤْمِنِينَ (47) ﴾

يستسلمون في الظاهر ويُقِرُّون باللسان ، ثم المخلص يبقى على صدقه .

والذي قال لخوفِ سيفِ المسلمين ، أو لغَرَضٍ له آخر فاسد يتولى بعد ذلك ، وينحاز إلى جانب الكفرة .

وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ (48)

علموا أن افتضاحهم في حكم نيتهم ، فيمن عَلم أنه قاسط في خصومته لم يَطِب نَفْساً بحُكْمِه . وكذلك المريبُ يَهْرَبُ من الحقِّ ، ويجتهد في الفرار .

وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (49)

منقادين يميلون مع الهوى ، ولا يقبلون حُكمه إيماناً . وكذلك شأن المريض الذي يميل بين الصحة والسقم ؛ فأرباب النفاق مترددون بين الشك والعلم ، فليس منهم نَفْيٌ بالقطع ولا إثباتٌ بالعلم ، فهم متطوّحون في أودية الشك .

أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (50)

فلمَّا انخرطوا في سلك التجويز ما حصلوا إلا في ظُلْمِ الشك ، ولما لم يكن لهم يقينٌ في القلب لم يكن معهم لأهل القلوب ذكر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 619 ﴾

" فصل "

قال الإمام نظام الدين النيسابورى فى الآيات السابقة :

﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

التفسير : أنه سبحانه لما بين من الأحكام ما بين أردفها على عادة القرآن بالإلهيات وقدم لذلك مثلين أحدهما في أن دلائل الإيمان في غاية الظهور ، والثاني أن أديان الكفر في نهاية الظلمة .

(208/551)

أما الأول فهو قوله ﴿ الله نور السموات والأرض ﴾ واعلم أن النور في اللغة موضوع لهذه الكيفية الفائضة من الشمس والقمر والنار على ما يحاذيها من الأجرام ، لا شك أنه لا يمكن أن يكون إلهاً لأنه إن كان عرضاً فظاهر ، وإن كان جسماً فكذلك للدليل الدال على أن إله العالم ليس بجسم ولا جسماني ولا زائل ولا متنقل إلى غير ذلك من أمارات الحدوث والافتقار ، وعند ذلك ذكر العلماء في تأويل الآية وجوهاً : الأول وهو قول ابن عباس والأكثرين ، أن المضاف محذوف أي هو ذو نور السموات والأرض لأنه قال ﴿ مثل نوره ﴾

﴿ ويهدي الله لنوره ﴾ والمضاف مغاير للمضاف إليه . فنظير الاية قولك " زيد كرم وجود " للمبالغة . الثاني أن معناه منور السموات كقراءة من قرأ ﴿ نور ﴾ بالتشديد وعلى القولين ما المراد بالنور ؟ فالأكثرون على أنه الهداية والحق منا قال في آخر الآية ﴿ يهدي الله لنورهه من يشاء ﴾ شبهه بالنور في ظهوره وبيانه . وأضافه إلى السموات والأرض للدلالة على سعة إشراقه وفشوّ إضاءته حتى تضيء له السموات والأرض ، أو على حذف المضاف أي نور أهل السموات والأرض وقيل : نور السماء بالملائكة وبالأجرام النيرة والأرض بها وبالأنبياء والعلماء وهو مروي عن أبيّ بن كعب والحسن وابي العالية . وقيل : هو تدبيره إياهما بحكمة كاملة كما يوصف الرئيس المدبر بأنه نور البلد إذا كان يدبر أمورهم تدبيراً حسناً ، فهو لهم كالنور الذي يهتدي به في المضايق والمزالق . وهذا القول اختيار الأصم والزجاج . وقيل : هو نظمه إياهما على النهج الأحسن والوجه الأصلح . وقد يعبر بالنور عن النظام . يقال : ما أرى لهذه الأمور نوراً . الثالث : ما ذهب إليه الحكماء الأولون الإشراقيون وإليه ميل الشيخ الإمام حجة الإسلام محمد الغزالي على ما قرره في رسالته المسماة بمشكاة الأنوار : أن الله تعالى نور في الحقيقة بل لا نور ، إلا هو بيانه أن للإنسان بصراً يدرك به النور المحسوس الواقع من الأجرام

النيرة على ظواهر الأجسام الكثيفة ، وبصيرة هي القوة العاقلة ، ولا شك أن البصيرة أقوى من البصر لأن القوة الباصرة لا تردك نفسها ولا تدرك إدراكها ولا تدرك آلتها وهي العين ، وأما لقوة العاقلة فإنها تدرك نفسها وتدرك إدراكها وتدرك آلتها في الإدراك وهي القلب أو الدماغ ، والإدراك الحسي غير منتج لأنه لا يصير سبباً لإحساس آخر ، والإدراك العقلي يصير سبباً لإدراكات أخر حتى تجتمع علوم جمة ، والحس يضطرب بكثرة ورود المحسوسات عليه حتى إنه لا يسمع الصوت الضعيف مثلاً بعد سماع الصوت الشديد ، والعقل يزداد بهاؤه ونورانيته بكثرة توارد العلوم وتعاونها ، والقوة الحسية تضعف بضعف البدن ، والقوة العقلية تقوى بعد الأربعين حتى استدل بذلك على بقائها بعد خراب البدن ، والقوة الحسية لا تدرك من القرب القريب ولا من البعد البعيد ، والعقلية لا يختلف حالها في القرب والبعد فيدرك ما فوق العرش إلى ما تحت الثرى في لحظة واحدة ، بل يدرك ذات الله وصفاته مع أنه منزه عن القرب والبعد والجهة ، والحس لا يدرك من الشياء إلا ظواهرها ، والعقل يغوص في حقائق الأشياء وفي أجزائها وجزئياتها وفي ذاتياتها وعرضياتها ، فيوحد الكثير تارة بانتزاع صورة كلية من الجزئيات ، ويكثر الواحد أخرى بالتجنيس والتنويع والتصنيف وغير ذلك من التقسيمات التي لا تكاد تتناهى .

وإدراك العقل قد يكون مقدماً على وجود الشيء ويسمى العلم العقلي ، وإدراك الحس تابع لوجود الشيء وإذا كان الروح الباصر نوراً فالبصيرة التي هي أشرف منها أولى بأن تكون نوراً ، وكما أن نور المبصر يحتاج في إدراكه إلى معين من الخارج هو الشمس أو السراج مثلاً ، فنور البصيرة ايضاً يحتاج في إدراكه إلى مرشد هو النبي أو القرآن فلذلك سمي القرآن نوراً ﴿ والنور الذي أنزلنا ﴾ [التغابن : 8] والنبي نوراً ﴿ وسراجاً منيراً ﴾ [الأحزاب : 46] فروح النبي في عالم الأرواح كالشمس في عالم الأجسام . ثم إن الأنوار النبوية القدسية مقتبسة من أنوار أخرى فوقها لقوله ﴿ علمه شديد القوى ﴾ [النجم : 5] ﴿ قل نزله روح القدس من ربك ﴾ [النحل : 102] فكل الأنوار تنتهي إلى ما لا نور أنور منه ولا أجل وأشرف وهو الله سبحانه . والكلام المجمل في هذا المقام هو الذي قد سلف تحقيقه مراراً وهو أن الكمالات أنوار والملكات الذميمة ظلمات . وأيضاً الوجود نور والعدم ظلمة ، فإن نظرنا إلى الكمال فكل كمال ينتهي إلى الله سبحانه ولا كمال فوق كماله ، فهو نور الأنوار . وإن نظرنا إلى الوجود نفسه فلا ريب أن الممكن وجوده مستفاد من غيره إلى أن ينتهي إلى واجب الوجود لذاته وهو نور الأنوار ، فسبحان من اختفى عن الخلق

لشدة ظهوره ، واحتجب عنهم بإشراق نوره ، ومن هنا قال صلى الله عليه وسلم " إن الله سبعين حجاباً من نور وظلمة لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه كل ما أدرك بصره " وفي بعض الروايات سبعمائة وفي بعضها سبعون الفاً . قال العلماء : الحجب ثلاثة أقسام : حجب ظلمانية محضة ، وحجب ممزوجة من نور وظلمة ، وحجب نورانية صرفة ، أما المحجوبون بالأول فهم الذين بلغوا في الاشتغال بالعلائق البدنية إلى حيث لا يلتفت خاطرهم إلى الاستدلال بالمصنوعات على الصانع . وأما المحجوبون بالثاني فهم الذين اعتقدوا في الممكنات أنها غنية عن المؤثر ، فنفس تصور الاستغناء عن الغير نور لأنه من

(211/551)

صفات الله تعالى ، ولكن اعتقاد حصوله لمن لا يليق به ظلمة فهذا حجاب ممزوج من نور وظلمة ، وأما المحجوبون بالثالث فهم الذين استغرقوا في بحار صفات الله وأفعاله فاحتجبوا بالصفات عن الذات ، فعرف منهذا التقرير أن الحجب لا تكاد تتناهى حيث لا نهاية للممكنات ولا انحصار للسلوب والإضافات ، ولكن الحديث ورد على ما هو المتعارف في باب التكثير .

(212/551)

ولنرجع إلى التفسير قال الفراء : المشكاة الكوة في الجدار غير النافذة وهذا القول أصح عند أئمة اللغة وهي من لغة العرب ومنه المشكاة للزق الصغير . وقيل : هي بلغة الحبشة ، وعن ابن عباس وأبي موسى الأشعري أن المشكاة هي القائم الذي في وسط القنديل الذي يدخل فيه الفتيلة وهو قول مجاهد والقرطبي ، ومثله قول الزجاج هي قصبة القنديل من الزجاجة التي يوضع فيها الفتيلة . وقال الضحاك : هي الحلقة التي يتعلق بها القنديل والمصباح السراج الضخم الثاقب وأصله من الضوء ومنه الصبح والدريّ فمن قرأ بضم الدال وتشديد الياء منسوب إلى الدر اي ابيض متلألئ ، ومن قرأ بالهمز مضموم الدال كمرّيق أو مكسورها كسكيت ، فمعناه أنه يدرأ الظلام بضوئه . وقال أبو عبيد : إن ضممت الدال وجب أن لا تهمزة لأنه ليس في كلام العرب " فعيل " . ومن همزة من القراء فإنما أراد " فعول " على سبوح فاستثقل فرد بعضه غلى الكسر . والدراري من الكواكب هي المشاهير كالمشتري والزهرة والمريخ وما يضاهيها من الثوابت التي هي في العظم الأول . ومعنى ﴿ من شجرة مباركة ﴾ أن ابتداء ثقوبه من شجرة مباركة كثيرة المنافع وهي الزيتون . عن النبي صلى الله عليه وسلم " عليكم بهذه الشجرة زيت الزيتون فتداووا به فإنها مصحة من الباسور " وقيل : سميت مباركة لأنها تنبت في الأرض التي بارك الله فيها للعالمين ، أو بارك فيها سبعون نبياً منهم إبراهيم عليه السلام فقوله ﴿ زيتونة ﴾ بدل

من ﴿ شجرة ﴾ ومعنى ﴿ لا شرقية ولا غربية ﴾ أن منبتها في أكثر الشام وزيتونها أجود الزيتون والشام قريب من وسط العمارة ليس على الطرف الشرقي من الربع المسكون ولا على الطرف الغربي منه ، وعن الحسن أراد شجرة الزيتون في الجنة إذ لو كانت من شجر الدنيا لكانت إما شرقية أو غربية . وضعف بأن المثل إنما يضرب بما يشاهد وإنهم ما شاهدوا شجرة الجنة ، وقيل : أراد أنها شجرة ملفوفة بالأشجار أو بأوراقها فلا تصيبها الشمس في مشرق ولا

(213/551)

مغرب . وزيف بأن الغرض هو صفاء الزيت ولا يحصل إلا بكمال النضج وذلك يتوقف عادة على وصول أثر الشمس إلى الشجرة ، وعن ابن عباس وسعيد بن جبير وقتادة وهو اختيار الفراء والزجاج : المراد أنها ليست مما تطلع عليه الشمس في وقت شروقها أو غروبها فقط ، بل تصيبها بالغداة والعشي جميعاً لأنها في موضع مكشوف ، فيكون فيه دليل على كمال النضج الموجب لصفاء الزيت . ومنهم من قال : لا في مضحى ولا في مقناة وهي المكان الذي لا تطلع عليه الشمس ولكن الظل والشمس يتعاقبان عليها وذلك أجود لكمال الثمرة ، قال صلى الله عليه وسلم

" لا خير في شجرة في مقناة ولا نبات في مقناة ولا خير في مضحى " ثم وصف الزيت بالصفاء والبريق وأنه لتلألئه يكاد يضيء من غير نار ، فإذا مسته النار ازداد ضوءاً على ضوء .

(214/551)

فهذا ما يتعلق بحل الألفاظ على ظاهر التفسير ، أما ما يتعلق بالمعنى فنقول : إن جمهور المتكلمين ذهبوا إلى أنه تعالى شبه الهداية وهي الآيات البينات في الظهور والجلاء ، بالمشكاة التي تكون فيها زجاجة صافية ، وفي الزجاجة مصباح يتقد بزيت بلغ النهاية في الصفاء . وإنما اختار هذا التشبيه دون أن يقول إنها كالشمس في الظهور والوضوح لأن الغالب على أوهام الخلق وخيالاتهم إنما هو الشبهان التي هي كالظلمات وهداية الله تعالى فيما بينها كالضوء الكامل ، وهذا المقصود لا يحصل من ضرب المثل بالشمس لأنها إذا طلعت لم تبق ظلمة أصلاً . والأمور التي اعتبرها الله سبحانه في هذا المثال منها كون المصباح في المشكاة وذلك ليكون أجمع للنور وأعون لتكاثف الأشعة وأصون له عن تعرض الرياح . زعم بعضهم أن في الكلام قلباً والمراد كمصباح في مكشاة والصحيح أنه لا حاجة إليه لأن هذا تشبيه مركب ، ولهذا قال جار الله : أراد صفة نوره العجيبة الشأن في

الإضاءة كصفة مشكاة ، ومنها كون المصباح في زجاجة صافية ، فإن تعاكس الأنوار من جوانب الزجاجة يزيد المصباح نوراً . ومنها كون المصباح متقداً بدهن الزيت فليس في الأدهان ما يدانيه في اللمعان والتطويس . ومنها كون الزيت من شجرة بارزة للشمس فإن ذلك يدل على كما نضج الثمرة ونهاية صفاء ذهنها . وأما الإمام الغزالي رضي الله عنه فإنه يقول : المشكاة والزجاجة والمصباح والشجرة والزيت عبارة عن المراتب الخمس الإنسانية . فأولها القوة الحساسة التي هي أصل الروح الحيواني وتوجد للصبي بل لكل حيوان ، وأوفق مثال لها من عالم الأجسام المشكاة لأن تلك القوى تخرج من عدة ثقب كالعينين والأذنين والمنخرين والفم . وثانيها القوة الخيالية التي تحفظ ما يورده الحواس مخزوناً عندها لتعرضه على القوة العقلية التي فوقها عند الحاجة إليه ، وأنت لا تجد شيئاً في عالم الأجسام يشبه الخيال سوى الزجاجة فإنها في الأصل جوهر كثيف ولكن صفي ورقق حتى

صار بحيث لا يحجب نور المصباح بل يؤديه على وجهه ، ثم يحفظه عن الانطفاء بالرياح العاصفة . كذلك الخيال من طينة العالم السفلي الكثيف بدليل أن الشيء المتخيل ذو قدر

وشكل وحدّ ، ولنه إذا صفي وهذب صار موازياً للمعاني العقلية ومؤدياً لأنوارها ، ولذلك يستدل المعبر بالصور الخيالية على المعاني كما يستدل بالشمس على الملك ، وبالقمر على الوزير ، وبمن يختم فروج الناس وأفواههم على أنه مؤذن يؤذن في رمضان قبل الصبح . وثالثها القوة العقلية القوية على إدراك الماهيات الكلية والمعارف اليقينية ولا يخفى وجه تمثيله بالمصباح كما مر في تسمية النبي سراجاً .

وحين كان الحس كالمقدمة للخيال وهي ما لمقدمة للعقل قيل : إن المشكاة كالظرف للزجاجة التي هي كالظرف للمصباح . ورابعها القوة الفكرية القوية على التقسيمات والاستنتاجات فمثالها مثال الشجرة المثمرة ، وإذا كانت ثمرتها مادة ازدياد أنوار المعارف فبالحري أن لا تشبه إلا بشجرة الزيتون ، لأن لب ثمرتها هو الزيت الذي هو مادة المصباح وله من سائر الأدهان خاصية زيادة الإشراق وقلة الدخان . وإذا كانت الماشية تسمى مباركة لكثرة درها ونسلها فالذي لا تتناهى ثمرته غلى حد محدود أولى أن يسمى مباركاً . وإذا كانت شعب الأفكار العقلية المحضة مجردة عن لواحق الأجسام ناسب أن يقال لها ﴿ لا شرقية ولا غربية ﴾ وخامسها القوة القدسية النبوية التي ﴿ يكاد زيها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور ﴾ .

وأما الشيخ الرئيس أو علي بن سينا فإنه نزل الأمثلة الخمسة على مراتب إدراكات النفس الإنسانية المشهورة . فالمشكاة هي العقل الهيولاني وهو الاستعداد المحض ، والزجاجة هي العقل بالملكة وهي قوة النفس حين حصل لها البديهيات وأمكن لها بواسطتها الترقي إلى النظريات والانتقال إلى الكسبيات . ثم إن كان الانتقال ضعيفاً فهي الشجرة وتسمى فكراً وإن كان قوياً فهي الزيت ويسمى حدساً ، وإن كان في النهاية القصوى سميت قوة قدسية وهي التي ﴿ يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور ﴾ ثم إذا حصل لها المعارف والعلوم المكتسبة بالفعل بحيث تقدر على ملاحظتها متى شاءت من غير تجشم كسب جديد فهو المصباح ويسمى عقلاً بالفعل ، وغياته أن تكون المعقولات حاضرة عندها متمثلة لها كأنها تشاهدها وهي نور على نور ويسمى عقلاً مستفاداً . أما الأول فلأن الملكة نور ومشاهدة تلك الملكة نور آخر ، وأما الثاني فلأن ذلك غاية الاستفادة ونهاية التحصيل . وزعم الشيخ أبو علي أن المخرج من العقل الهيولاني إلى الملكة ثم منها إلى العقل التام هو العقل الفعال مدبر ما تحت كرة القمر عند الحكماء ، وعبر عنه في الآية بالنار . وعن مقاتل أنه قال ﴿ مثل نوره ﴾ أي مثل نور الإيمان في قلب محمد كمشكاة فيها مصباح فالمشكاة نظير صلب عبد الله ، والزجاجة نظير جسد محمد ، والشجرة النبوة والرسالة . وقيل : المشكاة نظير إبراهيم عليه السلام ، والزجاجة نظير إسماعيل والمصباح

نظير جسد محمد وعن أبي بن كعب أنه قرأ ﴿ مثل نور من آمن به ﴾ ورأيت في كتب الشيعة عن علي رضي الله عنه مرفوعاً للقمر وجهان يضيء بهما أهل السموات والأرضين وعلى الوجهين مكتوب أتدرون ما كتابته ؟ فقالوا : الله ورسوله أعلم . فقال : على وجه السموات ﴿ الله نور السموات والأرض ﴾ وعلى وجه الأرض محمد وعلي نور الأرضين . وقيل : المشكاة صدر محمد صلى الله عليه وسلم والزجاجة قلبه ، والمصباح ما في قلبه من الدين ، والشجرة

(217/551)

إبراهيم عليه السلام ، ﴿ ويوقد من شجرة ﴾ كقوله ﴿ فاتبعوا ملة إبراهيم ﴾ [آل عمران : 95] ومعنى ﴿ لا شرقية ولا غربية ﴾ أن إبراهيم لم يكن يصلي قبل المشرق كالنصارى ولا قبل المغرب كاليهود بل كان يصلي قبل الكعبة وهي ما بين المشرق والمغرب ومعنى ﴿ يكاد زيتها يضيء ﴾ أن نور محمد يكاد يتبين للناس قبل أن يتكلم قاله كعب . وقال الضحاك : يكاد محمد يتكلم بالحكمة قبل الوحي ومن هنا قال عبد الله بن رواحة :

لو لم يكن فيه آيات مبينة . . . كانت بديهته تنبيك بالخبر

وقال يحيى بن سلام : قلب المؤمن نوريّ يعرف الحق قبل أن يتبين لموافقته له وهو المراد من قوله صلى الله عليه وسلم " اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله " وقيل : يكاد قلب المؤمن يعمل بالهدى قبل أن يأتيه العلم به ولهذا يزداد نوراً على نور . قال ابي بن كعب : المؤمن بين اربع خلال : إن أعطي شكر وإن ابتلي صبر وإن قال صدق وإن حكم عدل . فهو في سائر الناس كالرجل الحي الذي يمشي بين أموات يتقلب في خمس من النور : كلامه نور ، وعلمه نور ومدخله نور ، ومخرجه نور ، ومصيره إلى النور يوم القيامة . قال الربيع : سألت أبا العالية عن مدخله ومخرجه فقال : سره وعلانيته .

(218/551)

قالت الأشاعرة في قوله ﴿ يهدي الله لنوره من يشاء ﴾ إشارة إلى أن هذه الدلائل مع وضوحها لا تكفي ولا تنفع ما لم يخلق الله الإيمان فيه ، وقالت المعتزلة : اراد يهدي الله لطريق الجنة ، أو أراد بقوله ﴿ من يشاء ﴾ الذين بلغهم حد التكليف والهدى محمول على زيادات الألطاف التي هي ضد الخذلان ولهذا قال في الكشاف : معناه يوفق . لإصابة الحق من نظر وتدبر معنى الإنصاف ، وجانب جانب المراء والاعتساف ، ولم يكن كالأعمى الذي يستوي عنده جنح الليل الدامس وضحوة النهار الشامس وأكدوا ذلك بقوله ﴿

ويضرب الله الأمثال للناس ﴾ يعني النبي والمكلفين من أمته قالوا : إنما ذكره في معرض الإنعام ولو كان الكل بخلق الله تعالى لما تمكنوا من الانتفاع بالمثل فلا يكون نعمة .

ثم زاد التأكيد بقوله ﴿ والله بكل شيء عليم ﴾ ففيه تحذير لمن لا يتفكر ولا يعتبر ولا يستدل ولا ينظر . قوله ﴿ في بيوت ﴾ اعترض أبومسلم على قول من قال إنه يتعلق ب ﴿ كمشكاة ﴾ و ﴿ بتوقد ﴾ لأن كون المشكاة في بعض بيوت الله لا تزيد المصباح إنارة وإضاءة . وأيضاً الموصوف واحد فلا يكون إلا في مكان واحد وقوله ﴿ في بيوت ﴾ أمكنة متعددة ولا يصح أن يكون شيء واحد في أمكنة متعددة في حالة واحدة ، وكذا لو جعل ﴿ في بيوت ﴾ صفة ﴿ مصباح ﴾ و ﴿ زجاجة ﴾ أو ﴿ كوكب ﴾ وأجيب بأن هذه صفة موضحة لا مميزة وذلك أن المشكاة تكون غالباً في بيوت العبادة أو المشكاة التي فيها مصباح إذا كانت في مثل هذه البيوت الرفيعة كانت أعظم وأكثر ضخامة فيكون في باب التمثيل أدخل .

(219/551)

وعن الثاني أنه أريد بالمشكاة النوع لا الواحد كما لو قيل : " الذي يصلح لخدمتي رجل " يرجع إلى علم وكفاية وقناعة يلتزم بيته فإنه يراد به النوع لا الواحد . وذهب أبو مسلم إلا أنه

راجع إلى قوله ﴿ ومثلاً من الذين خلوا ﴾ اي الأنبياء والمؤمنين الذين مضوا وكانوا ملازمين لبيوت العبادة . واعترض عليه بتفكيك النظم إذ ذاك وبأن الذين خلوا هم المكذبون . والأكثرون على أن البيوت هي المساجد ، والإذن الأمر ، والرفع التعظيم أو البناء . وعن عكرمة هي البيوت كلها ، ومعنى الرفع البناء وذكر اسم الله عام في كل ذكر . وعن ابن عباس أن يتلي فيها كتابه . وقيل : لا يتكلم فيها بما لا ينبغي . والتسبيح تنزيه الله عما لا يليق به . وقيل : الصلوات الخمس وقيل : صلاتا الصبح والعصر وكانتا واجبتين فقط في أول الإسلام فزيد فيهما . وعن ابن عباس : إن صلاة الضحى لفي كتاب الله وتلا هذه الآية . والأولى العموم . قيل : خص الرجال بالذكر لأنهم من أهل الجماعات دون النساء . ويحتمل أن يقال : لأنهم أصل والنساء تبع . واختلفوا في ﴿ لا تلهيهم تجارة ﴾ فقيل : نفي الإلهاء لأنه تجارة ولا بيع كقوله : _@_

(220/551)

ولا ترى الضب فيها ينجحر . . . وقيل : أثبت التجارة والبيع وبين أنهم مع ذلك لا يشغلهم شيء عن ذكر الله وهذا قول الأكثرين . وعن الحسن أما والله إن كانوا ليتجرون ولكن إذا جاءت فرائض الله لم يلههم عنها شيء . وما الفرق بين التجارة والبيع ؟ قيل : الأول عام لأن

صناعة التاجر قد يقع فيها البيع وقد يقع فيها الشراء ، وخص البيع لأن الربح فيه يقين وفي الشراء مظنون ، فالبيع أدخل في الالهاء . وقيل : اراد بالتجارة الشراء ، إطلاقاً لاسم الجنس على النوع . وقال الفراء : التجارة لأهل الجلب يقال : تجر فلان في كذا إذا جلبه من غير بلده . وذكر الله دعاؤه والثناء عليه بما هو أهله وقيل : هو الصلاة . ومن هنا قال ابن عباس : أراد بإقام الصلاة إتمامها لمواقيتها ، وبإيتاء الزكاة طاعة الله والإخلاص له . والتاء في ﴿ إقامة ﴾ عوض من العين الساقطة للإعلال ، فلما أضيفت أقيمت الإضافة مقام حرف التعويض فأسقطت . ثم حكى أن هؤلاء الرجال مع ما ذكر من الطاعة والإخلاص موصوفون بالوجل والخوف من أهوال يوم القيامة . وتقلب القلوب اضطرابها من الهول والفزع ، وتقلب الأبصار شخوصها ، أو المراد تقلب أحوالهما فتفقه القلوب بعد أن كانت مطبوعاً عليها ، وتدرك الأبصار بعد أن كانت عمياء عن النظر والاعتبار وكأنهم انقلبوا من الشك والغفلة إلى اليقين والمعاينة . وقال الضحاك : إن القلوب تزول عن أماكنها فتبلغ الحناجر والبصار تصير زرقاً . وقال الجبائي : يحتمل أن يراد تقلبها على جمر جهنم أو تغير ماهياتها بسبب ما ينالها من العذاب فتكون مرة بهيئة ما انضج بالنار ، ومرة بهيئة ما أحرق ، وقيل : إن القلوب تتقلب في ذلك اليوم من طمع النجاة إلى الخوف من الهلاك ، والأبصار تتقلب من أيّ ناحية يؤخذ بهم أم من ناحية اليمين أم من ناحية الشمال ومن اي جهة يعطون كتابهم أمن قبل الأيمان أم من قبل الشمائل .

قوله ﴿ ليجزيهم ﴾ متعلق بما قبله لفظاً أو معنى يسبحون ويخافون أو يفعلون هذه القربات ليجزيهم الله أحسن جزاء أعمالهم وهو الواحد يعشر إلى سبعمائة وأكثر . وقيل : أراد بالأحسن الحسنات أجمع وهي الطاعات فرضها ونفلها . قال مقاتل : إنما ذكر الأحسن تنبيهاً على أنه لا يجازيهم على مساوئ أعمالهم بل يغفرها لهم وقال القاضي : أراد بذلك أن تكون الطاعات منهم مكفرة لمعاصيهم فيصح أن الله تعالى يجزيهم بأحسن الأعمال . وهذا مبني على مذهبه في الإحباط والموازنة . ومعنى ﴿ ويزيدهم من فضله ﴾ كقوله ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾ [يونس : 26] وقوله ﴿ والله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾ قد مر تفسيره في " البقرة " . وحين بين حال المؤمن أنه يكون في الدنيا في النور بسببه يكون متمسكاً بالعمل الصالح وفي الآخرة يفوز بالنعيم المقيم والثواب العظيم ، أتبعه بيان أن الكافر يكون في الدنيا في أنواع الظلمات وفي الآخرة في أصناف الحسرات ، وضرب لكل من حاليه مثلاً ، أما المثل الدال على خيبته في الآخرة فذلك قوله ﴿ والذين كفروا أعمالهم كسراب ﴾ قال الأزهري : هو ما يتراءى للعين وقت الضحى الأكبر في الفلوات شبهاً بالماء الجاري كأنه يسرب على وجه الأرض أي يذهب . وأما الآل فهو ما يتراءى في

أول النهار . وظاهر كلام الخليل أنه لم يفرق بينهما . والقيعة بمعنى اللقاع وهو المستوى من الأرض . وقال الفراء : هي جمع قاع كجيرة في جار . والظمآن الشديد العطش ، ووجه التشبيه أن الكافر يأتي ببعض أعمال البر ويعتقد ثواباً عليه فإذا وافى عرصة القيامة ولم يجد الثواب بل وجد العقاب عظمت حسرته وتناهى غمه وحيرته فيشبه حاله حال الظمآن الذي تشتد حاجته إلى ما يحييه ويبقيه ، فإذا شاهد السراب تعلق قلبه به رجاءً للحياة ، فإذا جاءه ولم يجد شيئاً عظم غمه وطال حزنه ، قال مجاهد : السراب عمل الكافر وإتيانه إياه موته وفراقه الدنيا . وههنا سؤال وهو أنه كيف قال ﴿ جاءه ﴾ فأثبت أنه شيء

(222/551)

لأن العدم لا يتصور المجيء إليه ثم قال ﴿ لم يجده شيئاً ﴾ فنفى كونه شيئاً ؟ والجواب أراد شيئاً نافعاً كما يقال " فلان ما عمل شيئاً " وإن كان قد اجتهد . أو المراد جاء موضع السراب فلم يجد هناك شيئاً وأراد أنه تخيل أولاً ضباباً وهباء شبه الماء وذلك بإعانة من شعاع الشمس فإذا قرب منه رق وانتشر وصار هواء وهذا قول الحمكماء . قوله ﴿ ووجد الله ﴾ أي وجد عقاب الله أو زبانية الله يأخذونه فيصلونه إلى جهنم فيسقونه

الحميم والغساق خلاف ما يتصور من الراحة والنعيم ، قيل : نزلت في عتبة بن ربيعة بن أمية كان قد تعبد ولبس المسوح والتمس الدين في الجاهلية ثم كفر في الإسلام .

وأما المثل الآخر فهو قوله ﴿ أو كظلمات ﴾ وقد يقال معنى أو أنه شبه أعمالهم الحسنة بالسراب والقبيحة بالظلمات ، أو الأول لأعمالهم الظاهرة والثاني لعقائدهم الفاسدة وللجيّ العميق الكثير الماء منسوب إلى اللج وهو معظم ماء البحر ، والظلمات ظلمة البحر وظلمة الأمواج وظلمة السحاب . وكذا الكافر له ظلمة الاعتقاد وظلمة القول وظلمة العمل قاله الحسن . وعن ابن عباس قلبه وبصره وسمعه . وقيل : قلب مظلم في صدر مظلم في جسد مظلم . والظاهر أن الجمع للتكثير ، وأن أنواع الضلالات والأباطيل اجتمعت فيه . والضمير في ﴿ أخرج ﴾ للواقع في الظلمات يدل عليه قرينة الحال . ومعنى ﴿ لم يكد يراها ﴾ لم يقرب أن يراها ، ونفي القرب من الرؤية أبلغ من نفي الرؤية نفسها وقد مر هذا البحث في البقرة في قوله ﴿ وما كادوا يفعلون ﴾ [البقرة : 71] قالت الأشاعرة في قوله ﴿ ومن لم يجعل الله له نوراً ﴾ دلالة على أن الهداية بتخليق الله تعالى وبجعله جملة المعتزلة على منح الألطاف وقد مر أمثال ذلك مراراً .

(223/551)

ولما وصف أنوار المؤمنين وظلمات الكافرين صرح بدلائل التوحيد فقال مستفهماً على سبيل التقرير ﴿ ألم تر أن الله يسبح له ﴾ وقد مر مثله في سورة " سبحان " . والخطاب لكل من له أهلية النظر أو للرسول وقد علمه من جهة الاستدلال . ومعنى ﴿ صافات ﴾ أنهن يصففن أجنحتهن في الهواء والضمير في علم لكل أو لله عز وجل . وعلى الأول فالضمير في ﴿ صلاته وتسبيحه ﴾ إما لكل أو لله . والمعنى كل مسبح قد علم صلاته التي تليق بحاله أو صلاة الله التي كلفه إياها ، وعلى الثاني فالضمير فيهما لكل والصلاة بمعنى الدعاء ولا يبعد أن يلهم الله الطير دعاءه وتسبيحه كما ألهما سائر العلوم الدقيقة التي لا يكاد العقلاء يهتدون إليها ، والاستقصاء في حكاياتهن مذكور في خواص الحيوانات ولا سيما في كتاب عجائب المخلوقات . ثم بين أن المبدأ منه والمعاد إليه فقال ﴿ ولله ملك السموات ﴾ الآية . ثم ذكر دليلاً آخر من الآثار العلوية قائلاً ﴿ الم تر أن الله يزجي سحاباً ﴾ أي يسوقه بالرياح ﴿ ثم يؤلف بينه ﴾ اي بين أجزائه أي يجمع قطع السحاب فيجعلها سحاباً واحداً متراكماً سادا للأفق ﴿ فترى الودق ﴾ المطر أو القطر ﴿ يخرج من خلاله ﴾ من فتوقه ومخارجه جمع خلل كجبال في جبل قوله ﴿ من السماء من جبال فيها من برد ﴾ الأولى لابتداء الغاية والثانية للتبعيض على أن قوله ﴿ من جبال ﴾ مفعول ﴿ ينزل ﴾ والثالثة للبيان أو الأوليان للبيان والثالثة للتبعيض ، ومعناه أنه ينزل بعض البرد من السماء من جبال فيها وقد مر في أول البقرة في قوله

﴿ أو كصيب من السماء ﴾ [البقرة : 19] معنى البرد وأنه بخار يجمد بعدما استحال قطرات ماء . قال عامة المفسرين : إن في السماء جبالاً من برد خلقها الله فيها كما خلق في الأرض جبالاً من حجر . وقال أهل المعنى : السماء ههنا هو الغيم المرتفع على رؤوس الناس ، والمراد بالجبال الكثرة كما يقال " فلان يملك جبالاً من ذهب " ثم بين بقوله ﴿ فيصيب به ﴾ إلى آخر الاية . أنه يقسم رحمته بين خلقه ويقبضها ويبسطها كيف يشاء ، أو يهلك بالبرد من يشاء أن يعذبه به أبصارهم ليعتبروا ويحذروا ، أو يعاقب بين الليل والنهار ويخالف بينهما في الطول والقصر وفي كل ذلك معتبر لذوي الأبصار ، والذين يترقون من المصنوع إلى الصانع ويستدلون بالمحسوس على الغائب منتقلين من ظلمة التقليد إلى نور البرهان . ثم ذكر دليلاً ثالثاً من عجائب خلق الحيوان فقال ﴿ والله خلق كل دابة من ماء ﴾ قال علماء المعاني : التنكير في ﴿ ماء ﴾ للتنويع أي خلق كل دابة من نوع من الماء مختص بتلك الدابة ، أو خلق الكل من ماء مخصوص وهو النطفة . وعلى التقديرين الوحدة نوعية إلا أن شموله على التقدير الثاني أكثر . وإنما عرّف في قوله ﴿ وجعلنا من الماء كل شيء حي ﴾ [الأنبياء : 30] لأنه قصد هناك معنى آخر وهو أن أجناس الحيوان كلها

مخلوقة من هذا الجنس الذي هو جنس الماء . وعن القفال أن قوله ﴿ من ماء ﴾ صفة ﴿ دابة ﴾ لا صلة خلق . والمعنى أن كل دابة متولدة من ماء فهي مخلوقة لله تعالى واحترز بها عن الاعتراض الذي ذكرناه في سورة الأنبياء وهو أن بعض الأحياء لم يخلقهم الله من الماء وقيل : نزل الغالب منزلة الكل أو أراد بالدابة من يدب على وجه الأرض ومسكنهم هناك وكل منها إما متولد من النطفة وإما بحيث لا يعيش إلا بالماء . ثم بين أن اصلهم وإن كان واحداً إلا أن خلقتهم مختلفة ﴿ فمنهم من يمشي على بطنه ﴾ وقدم هذا القسم لغرابته ومنهم كذا ومنهم كذا ، وفي ضمير العقلاء وإطلاق لفظة من تغليب

(225/551)

للعقلاء . وسمي الزحف على البطن مشياً على سبيل المشاكلة أو الاستعارة نظيره قوله " فلان لا يتمشى له أمر " وقد يوجد من الدواب ذوات ارجل أزيد من أربع كالعناكب والعقارب والرتيلاوات بل مثل الحيوان الذي له اربع وأربعون رجلاً المسمى " دخال الأذن " . وإنما لم يذكرها سبحانه لأنها نادرة بالنسبة إلى سائرهن . ومن العقلاء من زعم أن أمثال هذه الدواب إنما يعتمد وقت المشي على اربع فقط .

وقيل : إن في قوله تعالى ﴿ يخلق الله ما يشاء ﴾ تنبيهاً على سائر الأقسام ، ولا ريب أن

اختلاف الحيوانات لا يكاد ينحصر ، إلا أنا نذكر طرفاً من ذلك تذكيراً لعجائب قدرة الله في خلقه فنقول : الاختلاف بين الحيوانات إما في جوهر العضو كالفرس له ذنب دون الإنسان وإن كانت أجزاء الذنب من العظم والعصب واللحم والجلد والشعر حاصلة في غير هذا العضو كالسلحفاة فله صدف يحيط به ليس للإنسان ، وكذا السمك فله فلوس والقنفيذ له شوك ، وإما في كيفية العضو كاختلاف الألوان والأشكال والصلابة واللين ، وإما في الوضع كما أن يدي الفيل أقرب إلى الصدر من يدي الفرس ، وإما في الانفعال كما أن عين الخطاف لا تتحير في الضوء وعين الخفاش تتحير ، وإما في سائر الأحوال وذلك أن من الحيوانات برياً وبحرياً أو برياً فقط أو بحرياً فقط ، ومن البحري ما يعتمد في السباحة على جناحه كالسمك ، ومنها ما يعتمد فيها على أرجله كالضفادع ، وكل من البري والبحري له أماكن مختلفة من البر والبحر .

(226/551)

فمنها ما له مأوى معلوم كالروابي أو الحفر أو الشقوق أو الحجرة في البر أو كالقعر أو الشط أو الصخر أو الطين في البحر ، ومنها ما مأواه كيف اتفق إلا أن يلد فيقيم للحضانة . ومن الحيوانات طيارة فمنها ما يسبح في الهواء فقط ، ومنها ما يسبح على وجه الماء أيضاً ، وكل

طائر فإنه يمشي على رجلين وقد يصعب عليه المشي كالخطاف الكبير السود وكالخفاش ، ومنها ما جناحه جلد أو غشاء . وقد يكون عديم الرجل كضرب من الحيات بالحبشة يطير ، ومنها ما يختار الاجتماع كالكراكي ومنها ما يؤثر التفرد كالعقاب . وكثير من الجوارح التي تنازع على الطعم ، ومنها ما يتعايش زوجاً كالقطا والإنسان من الحيوانات الذي لا يمكنه أن يعيش وحده ، ويضاهيه النحل والنمل إلا أن النمل لا رئيس لها . ومنها آكل لحم ، ومنها لاقط حب ، ومنها آكل عشب وزهر ، ومنه النحل ، ومن الحيوانات ما هو إنسيّ كالإنسان ، وما هو إنسيّ بالمولد كالهرة والغرانيق ، أو بالقهر كالفهد . ومنه ما لا يأنس كالنمر أو يبطئ استئناسه كالأسد . ومن الحيوان ما لا صوت له ومنه ما له صوت ، وكل مصوت فإنه يصير عند الاغتلام وحركة شهوة الجماع أشد تصويتاً حتى الإنسان . ومنه ماله شبق يسفد كل وقت كالديك ، ومنه عفيف له وقت معين ، ومنه ولود ومنه بيوض ، وكل ولود أذون ، وكل صموخ بيوض سوى الخفاش . ومنه هادئ الطبع قليل الغضب كالبقر ، ومنه شديد الجهل حال الغضب كالخنزير البري ومنه حليم حمول كالإبل ، ومنه محتال مكار كالثعلب ، ومنه غضوب سفيه إلا أنه قلق متردد كالكلب ، ومنه شديد الكيس مستأنس كالقرد والفيل ، ومنه حسود تياه كالطاوس ، ومنه شديد الحفظ كالجمل والحمار لا ينسى الطريق الذي رآه . وفي قوله ﴿ إن الله على كل شيء قدير ﴾ إشارة إلى أن اختصاص كل حيوان بهذه الخواص وبأمثالها لا يكون إلا عن فاعل مختار قدير قهار .

وحين فرغ من إثبات هذه الدلائل اراد أن يبين أحوال المكلفين وأن فيهم منافقين فقدم لذلك مقدمة وهي قوله ﴿ ولقد أنزلنا آيات مبينات ﴾ وإنما فقد العاطف ههنا بخلاف قوله ﴿ ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات ومثلا ﴾ [النور : 34] لأن المقصود هناك هو ما سبق من التكاليف والمواعظ ، والغرض ههنا توطئة مقدمة لما يجيء عقيبه من حال أهل النفاق والوفاق . وقوله ﴿ وما أولئك ﴾ إشارة إلى الفريق المتولي . وإنما قال ﴿ بالمؤمنين ﴾ معرّفاً لأنه اراد أنهم ليسوا بالذين عرفت صحة إيمانهم لثباتهم واستقامتهم . ويحتمل ان يكون ﴿ أولئك ﴾ إشارة إلى جميع القائلين آمنا وأطعنا وحينئذ يكون قوله ﴿ ثم يتولى فريق منهم ﴾ حكماً على بعض دفعاً للإلزام والنقض ، فإن الحكم الكلي قلما يخلو عن منع ولمثل هذا قال في الاية الثانية ﴿ إذا فريق منهم معرضون ﴾ والحاصل أنه حكم أولاً على بعضهم بالتولي ثم صرح آخراً بأن الإيمان منتفٍ عن جميعهم . ويجوز أن يراد بالفريق المتولي رؤساء النفاق . وقيل : أراد بتولي هذا الفريق رجوعهم إلى الباقين . قال جار الله : معنى ﴿ إلى الله ورسوله ﴾ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم كقولك " أعجبني زيد وعكرمة " . أما سبب نزول الاية . فعن مقاتل أنها في بشر من المنافقين كما سبق في سورة

النساء في قوله ﴿ يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت ﴾ [النساء : 60] وعن الضحاك : نزلت في المغيرة بن وائل كان بينه وبين علي بن أبي طالب أرض فتقاسما فدفع إلى علي منها ملا يصيبه الماء إلا بمشقة . فقال المغيرة : يعني أرضك فباعها منه وتقابضا . فقيل للمغيرة : أخذت سبخة لا ينالها الماء . فقال لعلي : اقبض ارضك فأبى ودعا المغيرة إلى محاكمة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال المغيرة : أما محمد فلست آتيه ولا أحاكم إليه فإنه يبغضني وأنا أخاف أن يحيف عليّ . قوله ﴿ يأتوا إليه ﴾ الجار صلة أتى فإنه قد يعدَّى بإلى . قال جار الله : والأحسن أن يتصل بمذعنين ليفيد

(228/551)

الاختصاص أي لا يتحاكمون إذا عرفوا أن الحق لهم إلا إلى الرسول مسرعين في طاعته . ثم قسم الأمر في صدودهم عن حكومته إذا كان الحق عليهم بين أن يكونوا مرضى القلوب منافقين أو مرتابين في أمر نبوته أو خائفين الحيف في قضائه ، وهذه الأمور وإن كانت متلازمة إلا أنها متغايرة في الاعتبار فصحت القسمة . ثم بين بقوله ﴿ بل أولئك هم الظالمون ﴾ أنهم لا يخافون حيفه لأنهم عارفون أمانته ولكن الظلم مركوز في جبلتهم وأنهم

لا يستطيعون الظلم في مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فلذلك يأبون المحاكمة إليه إذا كان الحق عليهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 5 صـ 193 . 205 ﴾

(229/551)

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال العلامة نظام الدين النيسابورى :

التأويل : للآية تأويلان : أحدهما من عالم الآفاق والآخر من عالم الأنفس . أما الأول فالمشكاة عالم الأجسام ، والزجاجة العرش ، والمصباح الكرسي ، والشجرة شجرة الملكوت وهي باطن عالم الأجسام ، وهي غير راقية إلى شرق الأزل والقدم ولا إلى غرب الفناء والعدم ، بل هي مخلوقة للأبد لا يعتريها الفناء ﴿ يكاد زيتها ﴾ وهو عالم الأرواح ﴿ يضيء ﴾ اي يظهر من العدم إلى عالم الصورة المتولدة بالازدواج عالم الغيب والشهادة ﴿ ولو لم تمسسه نار ﴾ ونور القدرة الآلهية وذلك لقرب طبيعتها من الوجود ﴿ نور على نور ﴾ فالأول نور الصفة الرحمانية والثاني نور العرش فهو كقوله

﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ [طه : 5] وفي قوله ﴿ يهدي الله لنوره من يشاء ﴾ إشارة إلى أن فيض نور الرحمانية ينقسم على كل من يريد الله تعالى إيجاده من العرش إلى ما

تحت الثرى . وأما التأويل الثاني : فالمشكاة الجسد ، والزجاجة القلب ، والمصباح السر ، والشجرة شجرة الروحانية التي خلقت للبقاء كما مر ، والزيت الروح الإنساني القابل لنور العرفان قبولاً في غاية القرب ، والنار نار التجلي والهداية في الأزل فإذا انضم إلى نور العقل صار نوراً على نور ، وإذا تنور مصباح سر من يشاء بنور القدم تنور زجاجة القلب ومشكاة الجسد ، وتخرج أشعتها من روزنة الحواس فتستضيء أرض البشرية كما قال ﴿ واشرقت الأرض بنور ربها ﴾ [الزمر : 69] وهو مقام "كنت له سمعاً وبصراً " الحديث : ﴿ في بيوت ﴾ هي القلوب ﴿ أذن الله ﴾ أمر واراد ﴿ أن ترفع ﴾ درجاتها من بين سائر الأرواح والنفوس إلى أن تسع الله كما قال " وإنما يسعني قلب عبدي المؤمن " يروى أنه أوحى إلى داود عليه السلام " فرغ لي بيتاً اسكن فيه " فقال : رب أنت منزه عن البيوت . فقال : فرغ لي قلبك . ولن يتأتى هذا الرفع إلا بوساطة ذكر الله فلهذا قال ﴿ ويذكر فيها اسمه ﴾ ﴿ لا تلهيهم تجارة ﴾ هي الفوز بدرجات الجنات كما قال ﴿ هل أدلكم على تجارة تنجيكم ﴾ [الصف : 10] ﴿ ولا بيع ﴾ هو بيع الدنيا بالجنة كقوله ﴿ إن الله اشترى ﴾ [التوبة : 111] إلى قوله ﴿ فاستبشروا ببيعكم ﴾ [التوبة : 111] وفيه أن الرجولية لا تتحقق إلا إذا لم يلتفت إلى الدنيا ولا إلى الآخرة فيكون بحيث لا يتصرف فيه ما سوى الله ، وحينئذ يصلي صلاة الوصال ويفيض على المستعدين زكاة حصول نصاب الكمال ﴿ يخافون يوماً ﴾ هو يوم الفراق ﴿ تتقلب فيه القلوب والأبصار ﴾ والبصائر

لأنها بيد الله يقلبها كيف يشاء ﴿ أو كظلمات في بحر لجي ﴾ هو حب الدنيا ﴿ يغشاه موج ﴾ الرياء ﴿ من فوقه موج ﴾ هو حب الجاه وطلب الرياسة ﴿ من فوقه سحاب ﴾ الشرك الخفي ﴾

(230/551)

إذا أخرج ﴾ يد سعيه واجتهاده ﴿ لم يكد يراها ﴾ يرى طريق خلاصة ﴿ ومن لم يجعل الله له نوراً ﴾ أي لم يصبه رشاش النور الالهي في الأزل ﴿ يزجى ﴾ سحب المعاصي المتفرقة إلى أن تتراكم فترى . والودق هو مطر التوبة ﴿ يخرج من خلاله ﴾ كما خرج من سحاب وعصى آدم مطر ثم اجتباه ربه . ينزل من سماء القلب ﴿ من جبال ﴾ من قساوة ﴿ فيها من برد ﴾ هو برد القهر ﴿ يقلب الله ﴾ ليل المعصية لمن يشاء إلى نهار الطاعة وبالعكس لأولي الأبصار أصحاب البصائر الذين يشاهدون آثار لطفه وقهره في مرآة التقليب ﴿ والله خلق ﴾ كل ذي روح ﴿ من ماء ﴾ هو روح محمد صلى الله عليه وسلم كما قال

" أول ما خلق الله روحي " ﴿ فمنهم من يمشي ﴾ أن تكون سيرته تحصيل مشتهيات بطنه ﴿ ومنهم من يمشي على رجلين ﴾ أن يضيع عمره في مشتهيات الفرج لأن الحيوان إذا

قصد الوقاع يعتمد على رجلين وإن كان من ذوات الأربع ﴿ ومنهم من يمشي على أربع ﴾ هم أصحاب المناصب يركبون الدواب ألبتة ﴿ أفي قلوبهم مرض ﴾ انحراف في الفطرة ﴿ أم ارتابوا ﴾ بتشكيك أهل البدع والأهواء ﴿ أم يخافون ﴾ الحيف حين أمروا بترك اللذات العاجلة لأجل الخيرات الباقية ﴿ وإليه المآب ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 5 صـ 205 . 206 ﴾

(231/551)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثانى والخمسون بعد الخمسمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/552)

الجزء الثانى والخمسون بعد الخمسمائة

من الآية ﴿ 51 ﴾ من سورة النور

وحتى الآية ﴿ 54 ﴾ من نفس السورة

(4/552)

قوله تعالى ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (51) وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (52) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما نفى عنهم الإيمان الكامل بما وصفهم به ، كان كأنه سئل عن حال المؤمنين فقال : ﴿ إنما كان ﴾ أي دائماً ﴿ قول المؤمنين ﴾ أي العريقين في ذلك الوصف ، وأطبق العشرة على نصب القول ليكون اسم كان أوغل الاسمين في التعريف ، وهو " أن " وصلتها لأنه لا سبيل عليه للتنكير ، ولشبهه كما قال ابن جني في المحتسب بالمضمر من حيث إنه لا يجوز وصفه كما لا يجوز وصف المضمر ، وقرأ على ـ رضى الله عنه ـ بخلاف وابن أبي إسحاق ﴿ قول ﴾ بارفع ﴿ إذا دعوا ﴾ أي من أي داع كان ﴿ إلى الله ﴾ أي ما أنزل الملك الذي لا كفوء له من أحكامه ﴿ ورسوله ليحكم ﴾ أي الله بما نصب من أحكامه أو الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بما يخاطبهم به من كلامه ﴿ بينهم ﴾ أي في حكومة من الحكومات لهم أو عليهم ﴿ أن يقولوا سمعنا ﴾ أي الدعاء ﴿ وأطعنا ﴾ أي بالإجابة لله ورسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

ولما كان التقدير : فأولئك هم المؤمنون ، عطف عليه قوله : ﴿ وأولئك ﴾ أي العالو الرتبة ﴿ هم ﴾ خاصة ﴿ المفلحون ﴾ الذين تقدم في أول المؤمنون وصفهم بأنهم يدركون جميع مأمولهم .

(5/552)

ولما رتب سبحانه الفلاح على هذا النوع الخاص من الطاعة ، أتبعه عموم الطاعة فقال : ﴿ ومن يطع الله ﴾ أي الذي له الأمر كله ﴿ ورسوله ﴾ أي في الإذعان للقضاء وغيره فيما ساءه وسره من جميع الأعمال الظاهرة ﴿ ويخش الله ﴾ أي الذي له الجلال والإكرام ، بقلبه لما مضى من ذنوبه ليحمله ذلك على كل خير ، كما كان الصحابة رضوان الله عليهم إذا وقع أحد منهم في تقصير يأتي إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيقول : طهرني ، ويلقن أحدهم الرجوع فلا يرجع ، وفي تطهيره الإتيان على نفسه ، وقع ذلك لرجالهم ونسائهم ـ ـ رضى الله عنه ـ م أجمعين وأحياناً على منهاجهم وحشرنا في زمرتهم ﴿ ويتقه ﴾ أي الله فيما يستقبل بأن يجعل بينه وبين ما يسخطه وقاية من المباحات فيتركها ورعاً .

ولما أفرد الضمائر إشارة إلى قلة المطيع ، جمع لئلا يظن أنه واحد فقال : ﴿ فأولئك ﴾ العالو الرتبة ﴿ هم الفائزون ﴾ بالملك الأبدي ولا فوز لغيرهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 276 ﴾

(6/552)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ ويتقه ﴾ بكسر القاف واختلاس الهاء : يزيد وقالون ويعقوب غير زيد . وأبو عمرو طريق الهاشمي . بكسر القاف وسكون الهاء على أنها للسكت : أبو عمرو غير عباس وخلاد ورجاء ويحيى وحماد وهبيرة من طريق الخزاز وابن مجاهد عن ابن ذكوان . بإسكان القاف وكسر الهاء : حفص غير الخزاز ووجهه أنه شبه " تقه " بكتف فخفف ، وعلى هذا فالهاء ضمير فإِن تحريك هاء السكت ضعيف . الباقون ﴿ ويتقهى ﴾ بالإشباع ﴿ فإن تولوا ﴾ بإِظهار النون وتشديد التاء : البزي وابن فليح ﴿ كما استخلف ﴾ مجهولاً : أبو بكر وعمار ﴿ وليبدلنهم ﴾ خفيفاً : ابن كثير وسهل ويعقوب وأبو كبر وحماد ﴿ لا يحسبن ﴾ على الغيبة : ابن عامر وحمزة ﴿ ثلاث عورات ﴾ بالنصب : حمزة وعلي وخلف وعاصم غير حفص والمفضل . الآخرون بالرفع ﴿ لبعض شأنهم ﴾ بإسكان الضاد وتشديد الشين : شجاع وأبو شعيب وحمله على الإخفاء أولى منه على الإدغام . ﴿ يرجعون ﴾ مبنياً للفاعل : عباس ويعقوب .

(7/552)

الوقوف : ﴿ وأطعنا ﴾ ط ﴿ المفلحون ﴾ 5 ﴿ الفائزون ﴾ 5 ﴿ ليخرجن ﴾ ط ﴿ لا تقسموا ﴾ ج لحق المحذوف مع اتحاد المقول ﴿ معروفة ﴾ ط ﴿ تعملون ﴾ 5 ﴿ الرسول ﴾ ج للشرط مع الفاء ﴿ ما حملتم ﴾ ط ﴿ تهتدوا ﴾ ط ﴿ المبين ﴾ 5 ﴿ من قبلهم ﴾ ص ﴿ أمنا ﴾ ط بناء على أن ما بعده مستأنف ﴿ شيئاً ﴾ ط ﴿ الفاسقون ﴾ 5 ﴿ ترحمون ﴾ ط ﴿ في الأرض ﴾ ج لانقطاع النظم مع اتحاد المقول ﴿ النار ﴾ ط ﴿ المصير ﴾ 5 ﴿ مرات ﴾ ط أي متى كذا وكذا ﴿ العشاء ﴾ قف عند من قرأ ﴿ ثلاث عورات ﴾ بالرفع أي هو ثلاث ﴿ لكم ﴾ ط ﴿ بعدهن ﴾ ط أي هو طوافون ﴿ على بعض ﴾ ص ﴿ الآيات ﴾ ط ﴿ حكيم ﴾ 5 ﴿ من قبلهم ﴾ ط ﴿ آياته ﴾ ط ﴿ حكيم ﴾ 5 ط ﴿ بزينة ﴾ ط ﴿ لهن ﴾ ط ﴿ عليم ﴾ 5 ﴿ صديقكم ﴾ ط ﴿ أشتاتاً ﴾ ط بناء على أن ما بعده استئناف حكم ﴿ طيبة ﴾ ط للعدول من المخاطبة إلى الغيبة ﴿ تعقلون ﴾ 5 ﴿ يستأذنوه ﴾ 5 ﴿ ورسوله ﴾ ط للشرط مع الفاء ﴿ لهم الله ﴾ ط ﴿ رحيم ﴾ 5 ﴿ بعضاً ﴾ ط ﴿ لو إذا ﴾ ج لانقطاع النظم مع فاء التعقيب ﴿ اليم ﴾ 5 ﴿ والأرض ﴾ ط ﴿ عليه ﴾ ط فصلاً بين حال وحال مع العدول من المخاطبة إلى الغيبة ﴿ بما عملوا ﴾ 5 ﴿ عليم ﴾ 5 .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 5 صـ 207 . 208 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (51) ﴾

اعلم أنه تعالى لما حكى قول المنافقين وما قالوه وما فعلوه أتبعه بذكر ما كان يجب أن يفعلوه وما يجب أن يسلكه المؤمنون فقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ المؤمنين ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

قرأ الحسن ﴿ قَوْلَ المؤمنين ﴾ بالرفع ، والنصب أقوى لأن أولى الاسمين بكونه اسماً لكان أوغلهما في التعريف و ﴿ أَن يَقُولُواْ ﴾ أوغل لأنه لا سبيل عليه للتنكير بخلاف ﴿ قَوْلَ المؤمنين ﴾ .

المسألة الثانية :

قوله : ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ المؤمنين ﴾ معناه كذلك يجب أن يكون قولهم وطريقتهم إذا دعوا إلى حكم كتاب الله ورسوله أن يقولوا سمعنا وأطعنا ، فيكون إتيانهم إليه وانقيادهم له سمعاً وطاعة ، ومعنى ﴿ سَمِعْنَا ﴾ أجبنا على تأويل قول المسلمين سمع الله لمن حمده أي قبل وأجاب ، ثم قال : ﴿ وَمَن يُطِعِ الله وَرَسُولَهُ ﴾ أي فيما ساءه وسره ﴿ وَيَخْشَ الله ﴾

فيما صدر عنه من الذنوب في الماضي ﴿ وَيَتَّقْهِ ﴾ فيما بقي من عمره ﴿ فَأُوْلَئِكَ هُمُ المفلحون ﴾ وهذه الآية على إيجازها حاوية لكل ما ينبغي للمؤمنين أن يفعلوه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 24 صـ 20 . 21 ﴾

(9/552)

وقال الجصاص :

وقَوْله تَعَالَى : ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾

تَأْكِيدٌ لِمَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ مِنْ وُجُوبِ الْإِجَابَةِ إلَى الْحَكَمِ إذَا دُعُوا إلَيْهِ ، وَجُعِلَ ذَلِكَ مِنْ صِفَاتِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَدَلَّ عَلَى أَنَّ مَنْ دُعِيَ إلَى ذَلِكَ فَعَلَيْهِ الْإِجَابَةُ بِالْقَوْلِ بَدِيًّا بِأَنْ يَقُولَ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ، ثُمَّ يَصِيرُ مَعَهُ إلَى الْحَاكِمِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(10/552)

وقال ابن عطية :

﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾

وقرأ الجمهور " قولَ " بالنصب ، وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه والحسن وابن أبي إسحاق " قولُ " بالرفع ، واختلف عنهما قال أبو الفتح شرط ﴿ كان ﴾ أن يكون اسمها أعرف من خبرها فقراءة الجمهور أقوى ، والمعنى إنما كان الواجب أن يقوله المؤمنون ﴿ إذا دعوا إلى ﴾ حكم ﴿ الله ورسوله ﴾ ﴿ سمعنا وأطعنا ﴾ فكأن هذه ليست إخباراً عن ماضي زمن وإنما كقول الصديق : ما كان لابن أبي قحافة أن يصلي بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم . وجعل الدعاء إلى الله من حيث هو إلى شرعة ودينه ، وقرأ الجمهور " ليَحكُم " على بناء الفعل للفاعل ، وقرأ أبو جعفر والجحدري وخالد بن الياس والحسن " ليُحكَم " على بناء الفعل للمفعول ، و ﴿ المفلحون ﴾ البالغون آمالهم في دنياهم وآخرتهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(11/552)

وقال ابن عطية :

ثم نعت المؤمنين ، فقال : ﴿ إنما كان قولَ المؤمنين ﴾ قال الفراء : ليس هذا بخبرٍ ماضٍ ،

وإِنما المعنى : إِنما كان ينبغي أن يكون قول المؤمنين إِذا دعوا أن يقولوا سمعنا .

وقرأ الحسن ، وأبو الجوزاء : ﴿ إِنما كان قولُ المؤمنين ﴾ بضم اللام .

وقرأ أبو جعفر ، وعاصم الجحدري ، وابن أبي [ليلى] : ﴿ لِيُحكم بينهم ﴾ برفع الياء وفتح الكاف .

وقال المفسرون : والمعنى : سمعنا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم وأطعنا أمره ، وإِن كان ذلك فيما يكرهونه .

قوله تعالى : ﴿ وَيَخْشَ اللهَ ﴾ أي : فيما مضى من ذنوبه ﴿ وَيَتَّقْهِ ﴾ فيما بعدُ أن يعصيه .

وقرأ ابن كثير ، وحمزة ، والكسائي ، وورش عن نافع : ﴿ وَيَتَّقْهِي ﴾ موصولة بياء .

وروى قالون عن نافع : ﴿ وَيَتَّقْهِ فأولئك ﴾ بكسر الهاء لا يبلغ بها الياء .

وقرأ أبو عمرو ، وابن عامر ، وأبو بكر عن عاصم : ﴿ وَيَتَّقِهْ ﴾ جزماً . انتهى انتهى . اهـ

﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(12/552)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ المؤمنين إِذَا دعوا إِلَى الله وَرَسُولِهِ ﴾

أي إلى كتاب الله وحكم رسوله .

﴿ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ قال ابن عباس : أخبر بطاعة المهاجرين والأنصار ، وإن كان ذلك فيما يكرهون ؛ أي هذا قولهم ، وهؤلاء لو كانوا مؤمنين لكانوا يقولون سمعنا وأطعنا .

فالقول نصب على خبر كان .

واسمها في قوله : "أن يقولوا" نحو ﴿ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ رَبَّنَا اغفر لَنَا ذُنُوبَنَا ﴾ [آل عمران : 147] .

وقيل : إنما قولُ المؤمنين ، وكان صلة في الكلام ؛ كقوله تعالى : ﴿ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي المهد صَبِيّاً ﴾ [مريم : 29] .

وقرأ ابن القَعْقَاع "لِيُحْكَمَ بينهم" غير مسمّى الفاعل .

عليّ بن أبي طالب "إنما كان قول" بالرفع .

قوله تعالى : ﴿ وَمَن يُطِعِ الله وَرَسُولَهُ ﴾ فيما أمر به وحكم .

﴿ وَيَخْشَ الله وَيَتَّقْهِ ﴾ قرأ حفص "وَيَتَّقْهْ" بإسكان القاف على نية الجزم ؛ قال الشاعر :

ومن يَتَّقْ فإنّ الله معه . . .

ورِزْقُ اللهِ مُؤْتابٌ وغادِي

وكسرها الباقون ، لأن جزمه بحذف آخره ، وأسكن الهاء أبو عمرو وأبو بكر .

واختلس الكسرة يعقوب وقالُون عن نافع والبُسْتِيّ عن أبي عمرو وحفص .

وأشبع كسرة الهاء الباقون .

﴿ فأولئك هُمُ الفآئزون ﴾ ذَكر أسلم أن عمر رضي الله عنه بينما هو قائم في مسجد النبيّ صلى الله عليه وسلم وإذا رجل من دهاقين الروم قائم على رأسه وهو يقول : أنا أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله .

فقال له عمر : ما شأنك ؟ قال : أسلمت لله .

قال : هل لهذا سبب ! قال : نعم ! إني قرأت التوراة والزّبور والإنجيل وكثيراً من كتب الأنبياء ، فسمعت أسيراً يقرأ آية من القرآن جمع فيها كل ما في الكتب المتقدمة ، فعلمت أنه من عند الله فأسلمت .

(13/552)

قال : ما هذه الآية ؟ قال قوله تعالى : ﴿ وَمَن يُطِعِ الله ﴾ في الفرائض ﴿ وَرَسُولَهُ ﴾ في السنن ﴿ وَيَخْشَ الله ﴾ فيما مضى من عمره ﴿ وَيَتَّقْهِ ﴾ فيما بقي من عمره ﴿

فأولئك هُمُ الفآئزون ﴾ والفائز من نجا من النار وأدخل الجنة .

فقال عمر : قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " أوتِيتُ جوامع الكَلِم " . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 13 صـ ﴾

(14/552)

وقال أبو حيان :

﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ المؤمنين إِذَا دُعُواْ إِلَى الله وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾

وقرأ عليّ وابن أبي إسحاق والحسن ﴿ إنما كان قول ﴾ بالرفع والجمهور بالنصب .

قال الزمخشري : والنصب أقوى لأن أولى الاسمين بكونه اسماً لكان أوغلهما في التعريف و ﴿ أن يقولوا ﴾ أوغل لأنه لا سبيل عليه للتنكير بخلاف قول المؤمنين .

وكان هذا من قبيل كان في قوله ﴿ ما كان لله أن يتخذ من ولد ﴾ ﴿ ما يكون لنا أن نتكلم بهذا ﴾ انتهى .

ونص سيبويه على أن اسم كان وخبرها إذا كانتا معرفتين فأنت بالخيار في جعل ما شئت منهما الاسم والآخر الخبر من غير اعتبار شرط في ذلك ولا اختيار .

وقرأ أبو جعفر والجحدري وخالد بن الياس ﴿ ليحكم بينهم ﴾ مبنياً للمفعول ، والمفعول الذي لم يسم فاعله هو ضمير المصدر أي ﴿ ليحكم ﴾ هو أي الحكم ، والمعنى ليفعل الحكم ﴿ بينهم ﴾ ومثله قولهم : جمع بينهما وألف بينهما وقوله تعالى ﴿ وحيل بينهم ﴾ قال الزمخشري : ومثله ﴿ لقد تقطع بينكم ﴾ فيمن قرأ ﴿ بينكم ﴾ منصوباً أي وقع التقطع بينكم انتهى .

ولا يتعين ما قاله في الآية إذ يجوز أن يكون الفاعل ضميراً يعود على شيء قبله وتقدم الكلام في ذلك في موضعه .

﴿ أن يقولوا سمعنا ﴾ أي قول الرسول ﴿ وأطعنا ﴾ أي أمره .

وقرىء ﴿ ويتقه ﴾ بالإشباع والاختلاس والإسكان .

وقرىء ﴿ ويتقه ﴾ بسكون القاف وكسر الهاء من غير إشباع أجرى خبر كان المنفصل مجرى المتصل ، فكما يسكن علم فيقال علم كذلك سكن ويتقه لأنه تقه كعلم وكما قال السالم :

قالت سليمى اشتر لنا سويقاً . . .

يريد اشتر لنا ﴿ ومن يطع الله ﴾ في فرائضه ﴿ ورسوله ﴾ في سننه و ﴿ ويخشى الله ﴾ على ما مضى من ذنوبه ﴿ ويتقه ﴾ فيما يستقبل .

وعن بعض الملوك أنه سأل عن آية كافية فتليت له هذه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(15/552)

وقال أبو السعود :

﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ المؤمنين ﴾

بالنَّصبِ على أَنَّه خبرُ كانَ ، وأنْ مع ما في حيّزِها اسمُها . وقُرِىء بالرَّفعِ على العكسِ والأوّلُ أقوى صناعةً لأنَّ الأَولى للاسميَّةِ ما هُو أوغلُ في التَّعريفِ وذلكَ هو الفعلُ المصدَّرُ بأَنْ إذْ لا سبيلَ إليه للتَّنكيرِ بخلافِ قولَ المُؤمنين فإنَّه يحتملُه كما إذا اعتزلتْ عنه الإضافةُ ، لكن قراءةُ الرَّفعِ أقعدُ بحسب المَعْنى وأوفى لمُقتضى المقام لما أنَّ مصبَّ الفائدةِ وموقعَ البيانِ في الجُملِ هو الخبرُ فالأحقُّ بالخبريَّةِ ما هو أكثرُ إفادةً وأظهرُ دلالةً على الحدوثِ وأوفرُ اشتمالاً على نسبٍ خاصَّةٍ بعيدةٍ من الوقُوعِ في الخارجِ وفي ذهنِ السَّامعِ . ولا ريبَ في أنَّ ذلكَ هاهنا في أنَّ مع ما في حيّزِها أتمُّ وأكملُ فإذا هو أحقُّ بالخبريَّةِ ، وأما ما تفيدُه الإضافةُ من النّسبةِ المُطلقةِ الإجماليَّةِ فحيث كانتْ قليلةَ الجَدوى سهلةَ الحُصول خارجاً وذهناً كان حقُّها أنْ تُلاحظ ملاحظةً مجملةً وتجعلَ عُنواناً للموضوعِ فالمعنى إنَّما كانَ مطلقُ القولِ

الصَّادرِ عن المؤمنين ﴿ إِذَا دُعُواْ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ ﴾ أي الرَّسولُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ﴿ بَيْنَهُمْ ﴾ أي وبين خصومِهم سواءً كانُوا منهم أو من غيرِهم ﴿ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ أي خصوصية هذا القولِ المحكيِّ عنهم لا قولاً آخرَ أصلاً .

(16/552)

وأما قراءةُ النَّصبِ فمعناها إنما كانَ قولُ المؤمنين أي إنما كانَ قولاً لهم عند الدَّعوةِ خصوصية قولهم المحكيِّ عنهم ففيه من جعلِ أخصِّ النِّسبتينِ وأبعدهما وقوعاً وحضُوراً في الأذهانِ وأحقِّهما بالبيان مفروغاً عنها عُنواناً للموضوعِ وإبرازِ ما هو بخلافِها في معرضِ القصدِ الأصليِّ ما لا يَخْفى . وقُرِىء لِيُحكمَ على بناءِ الفعلِ للمفعولِ مُسنداً إلى مصدرِه مُجاوباً لقوله تعالى : ﴿ إِذَا دُعُواْ ﴾ أي لِيُفعل الحكمُ كما في قولِه تعالى : ﴿ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ ﴾ أي وقعَ التَّقطُّعُ بينكم .

﴿ وَأُوْلَئِكَ ﴾ إشارةٌ إلى المؤمنينَ باعتبارِ صدورِ القولِ المذكُورِ عنهم ، وما فيه من معنى البُعد للإشعارِ بعلوِّ رُتبتِهم وبُعدِ منزلتِهم في الفضل أي أولئك المنعُوتون بما ذُكر من النَّعتِ الجميلِ ﴿ هُمُ المفلحون ﴾ أي هم الفَائزون بكلِّ مطلبٍ والنَّاجُون من كلِّ محذورٍ .

﴿ وَمَن يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ ﴾ استئنافٌ جيء به لتقريرِ مضمونِ ما قبله من حُسنِ حالِ

المُؤمنين وترغيب مَن عداهُم في الانتظام في سلكِهم أي ومَن يُطعهما كائناً مَن كان فيما أُمرا به من الأحكامِ الشَّرعيَّةِ اللازمةِ والمتعديَّةِ وقيل : في الفرائضِ والسُّننِ والأوَّلُ هو الأنسبُ بالمقام ﴿ وَيَخْشَ اللهَ وَيَتَّقْهِ ﴾ بإسكانِ القافِ المبنيِّ على تشبيهِه بكِتْفٍ . وقُرِئ بكسرِ القافِ والهاءِ وبإسكانِ الهاءِ أي ويخشَ اللهَ على ما مَضَى من ذنوبِه ويتقه فيما يستقبلُ ﴿ فَأُوْلَئِكَ ﴾ الموصُوفون بما ذُكر من الطَّاعةِ والخشية والاتِّقاءِ ﴿ هُمُ الفائزون ﴾ بالنَّعيم المُقيم لا مَن عداهُم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 6 صـ ﴾

(17/552)

وقال الآلوسى :

﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ المؤمنين إِذَا دُعُواْ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾

جار على عادته تعالى في اتباع ذكر المحق المبطل والتنبيه على ما ينبغي بعد إنكاره لما لا ينبغي ، ونصب ﴿ قَوْلَ ﴾ على أنه خبر كان وأن مع ما في حيزها في تأويل مصدر اسمها ، ونص سيبويه في مثل ذلك على جواز العكس فيرفع ﴿ قَوْلَ ﴾ على الاسمية وينصب المصدر الحاصل من السبك على الخبرية .

وقد قرأ علي كرم الله تعالى وجهه .

وابن أبي إسحاق : والحسن برفع ﴿ قَوْلَ ﴾ على ذلك قال الزمخشري : والنصب أقوى لأن الأولى للاسمية ما هو أوغل في التعريف وذلك هو المصدر الذي أول به أن يقولوا لأنه لا سبيل عليه لتلنكير بخلاف ﴿ قَوْلَ المؤمنين ﴾ فإنه يحتمله كما إذا اختزلت عنه الإضافة ، وقيل في وجه أعرفيته أنه لا يوصف كالضمير ، ولا يخفى أنه لا دخل له في الأعرفية ، ثم أنت تعلم أن المصدر الحاصل من سبك أن والفعل لا يجب كونه مضافاً في كل موضع ألا ترى أنهم قالوا في قوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ هذا القرءان أَن يَفْتَرِى ﴾ [يونس : 37] إنه بمعنى ما كان هذا القرآن افتراء .

وذكر أن جواز تنكيره مذهب الفارسي وهو متعين في نحو أن يقوم رجل إذ هو مؤول قطعاً بقيام رجل وهو نكرة بلا ريب .

(18/552)

وفي إرشاد العقل السليم أن النصب أقوى صناعة لكن الرفع أقعد معنى وأوفى لمقتضى المقام لما أن مصب الفائدة وموقع البيان في الجمل هو الخبر فالأحق بالخبرية ما هو أكثر إفادة وأظهر دلالة على الحدوث وأوفر اشتمالاً على نسب خاصة بعيدة من الوقوع في الخارج

وفي ذهن السامع ولا ريب في أن ذلك ههنا في أن مع ما في حيزها أتم وأكمل فإذن هو أحق بالخبرية ، وأما ما تفيده الإضافة من النسب المطلقة الإجمالية فحيث كانت قليلة الجدوى سهلة الحصول خارجاً وذهناً كان حقها أن تلاحظ ملاحظة مجملة وتجعل عنواناً للموضوع فالمعنى إنما كان مطلق القول الصادر عن المؤمنين إذا دعوا إلى الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم ليحكم بينهم وبين خصومهم أن يقولوا سمعنا الخ أي خصوصية هذا القول المحكي عنهم لا قولاً آخر أصلاً ، وأما النصب فالمعنى عليه إنما كان قولاً للمؤمنين خصوصية قولهم ﴿ سَمِعْنَا ﴾ الخ ففيه من جهل أخص النسبتين وأبعدهما وقوعاً وحضوراً في الأذهان وأحقهما بالبيان مفروغاً عنها عنواناً للموضوع وإبراز ما هو بخلافها في معرض القصد الأصلي ما لا يخفى انتهى ، وبحث فيه بعضهم بأن مساق الآية يقتضي أن يكون قول المؤمنين سمعنا وأطعنا في مقابلة إعراض المنافقين فحيث ذم ذلك على أتم وجه ناسب أن يمدح هذا ، ولا شك أن الأنسب في مدحه الأخبار عنه لا الاخبار به فينبغي أن يجعل ﴿ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ اسم كان و ﴿ قَوْلَ المؤمنين ﴾ خبرها وفي ذلك مدح لقولهم سمعنا وأطعنا إذ معنى كونه قول المؤمنين أنه قول لائق بهم ومن شأنهم على أن الأهم بالإفادة كون ذلك القول الخاص هو قولهم : ﴿ إِذَا دُعُواْ إِلَى الله وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ﴾ أي قولهم المقيد بما ذكر ليظهر أتم ظهور مخالفة حال قولهم سمعنا وأطعنا وحال قول المنافقين

﴿ آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ﴾ [النور : 47] فتدبر فإنه لا يخلو عن دغدغة ، والظاهر أن المراد منه فيما سبق فكأنهم أرادوا سمعنا كلامكم وأطعنا أمركم بالذهاب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليحكم بينكم وبيننا ، وقيل المعنى قبلنا قولكم وانقدنا له وأجبنا إلى حكم الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وعن ابن عباس .

ومقاتل أن المعنى سمعنا قول النبي صلى الله عليه وسلم وأطعنا أمره ، وقيل المراد من الطاعة الثبوت أو الإخلاص لتغاير ما مر وهو كما ترى .

وقرأ الجحدري .

وخالد بن إلياس ﴿ لِيَحْكُمَ ﴾ بالبناء للمفعول مجاوباً لدعوا ، وكذلك قرأ أبو جعفر هنا وفيما مر ونائب الفاعل ضمير المصدر أي ليحكم هو أي الحكم ، والمعنى ليفعل الحكم كما في قوله تعالى : ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ .

﴿ [سبأ : 54] ﴿ وَأُوْلَئِكَ ﴾ إشارة إلى المؤمنين باعتبار صدور القول المذكور عنهم ، وما فيه من معنى البعد للإيذان بعلو رتبتهم وبعد منزلتهم في الفضل أي وأولئك المنعوتون بما ذكر من النعت الجليل ﴿ هُمُ المفلحون ﴾ أي هم الفائزون بكل مطلوب والناجون عن كل

محذور .

﴿ وَمَن يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ ﴾ استئناف جيء به لتقرير مضمون ما قبله من حسن حال المؤمنين وترغيب من عداهم في الانتظام في سلكهم أي ومن يطع الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم كائناً من كان فيما أمر به من الأحكام اللازمة والمتعدية ، وعن ابن عباس أنه قال : ومن يطع الله ورسوله في الفرائض والسنن وهو يحتمل اللف والنشر وعلى ذلك جرى في البحر ﴿ وَيَخْشَ اللهَ ﴾ على ما مضى من ذنوبه ﴿ وَيَتَّقْهِ ﴾ فيما يستقبل ﴿ فَأُوْلَئِكَ ﴾ الموصوفون بما ذكر من الطاعة والخشية والاتقاء ﴿ هُمُ الفائزون ﴾ بالنعيم المقيم لا من عدهم .

وقرأ أبو جعفر .

وقالون عن نافع .

ويعقوب ﴿ وَيَتَّقْهِ ﴾ بكسر القاف وكسر الهاء من غير إشباع .

وقرأ أبو عمرو .

وحمزة في رواية العجلي .

وخلاد .

وأبو بكر في رواية حماد .

ويحيى بكسر القاف وسكون الهاء .

وقرأ أبو عمرو .

وحمزة في رواية العجلي .

وخلاد .

وأبو بكر في رواية حماد .

ويحيى بكسر القاف وسكون الهاء .

وقرأ حفص بسكون القاف وكسر الهاء غير مشبعة والباقون بكسر القاف وكسر الهاء مشبعة بحيث يتولد ياء ، ووجه ذلك أبو علي بأن الأصل في الهاء غير مشبعة والباقون بكسر القاف وكسر الهاء مشبعة بحيث يتولد ياء ، ووجه ذلك أبو علي بأن الأصل في هاء الضمير إذا كان ما قبلها متحركاً أن تشبع حركتها كما في يؤته ويؤده ، ووجه عدم الإشباع أن ما قبل الضمير ساكن تقديراً ولا إشباع بحركته فيما إذا سكن ما قبله كفيه ومنه ، ووجه إسكان الهاء إنها هاء السكت وهي تسكن في كلامهم ، وقيل : هي هاء الضمير لكن أجريت مجرى هاء السكت فسكنت وكثيراً ما يجري الوصل مجرى الوقف ، وقد حكى عن سيبويه أنه سمع من يقول : هذه أمة الله في الوصل والوقف ، ووجه قراءة حفص أنه أعطى ﴿ يتقه ﴾ حكم كتف لكونه على وزنه فخفف بسكون وسطه لجعله ككلمة

واحدة كما خفف يلدا في قوله

: وذي ولد لم يلده أبوان . . .

وعن ابن الأنباري أنه لغة لبعض العرب في كل معتل حذف آخره فيقولون لم أر زيداً يسقطون الحرف للجزم ثم يسكنون ما قبل ، وعلى ذلك قوله

: ومن يتق فإن الله معه . . .

ورزق الله مؤتاب وغاد

وقوله

: قالت سليمى اشتر لنا سويقا . . .

وهات خبز البر أو دقيقاً

والهاء إما للسكت وحركت لالتقاء الساكنين أو ضمير ، وكان القياس ضمها حينئذ كما في منه لكن السكون لعروضه لم يعتد به ولئلا ينتقل من كسر لضم تقديراً ، وضعف الأول لتحريك هاء السكت وإثباتها في الوصل كذا قيل فلا تغفل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 18 صـ ﴾

(21/552)

وقال القاسمى :

﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ .

قال السيوطيّ في " الإكليل " : فيها وجوب الحضور على من دعي لحكم الشرع ، وتحريم الامتناع ، واستحباب أن يقول : سمعنا وأطعنا . انتهى . انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 12 صـ 417 ﴾

(22/552)

وقال ابن عاشور :

﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾)

استئناف بياني لأن الإخبار عن الذين يعرضون عندما يدعون إلى الحكومة بأنهم ليسوا بالمؤمنين في حين أنهم يظهرون الإيمان يثير سؤال سائل عن الفاصل الذي يميز بين المؤمن الحق وبين الذي يرائي بإيمانه في حين يُدعى إلى الحكومة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقتضي أن يبين للسائل الفرق بين الحالين لئلا يلتبس عنده الإيمان المزور بالإيمان الصادق ، فقد كان المنافقون يموهون بأن إعراض من أعرض منهم عن التحاكم عند رسول الله ليس

لتزلزل في إيمانه بصدق الرسول ولكنه إعراض لمراعاة أعراض من العلائق الدنيوية كقول بشْر : إن الرسول يُبغضني .

فبيّن الله بطلان ذلك بأن المؤمن لا يرتاب في عدل الرسول وعدم مصانعته .

وقد أفاد هذا الاستئناف أيضاً الثناء على المؤمنين الأحقاء بضد ما كان ذماً للمنافقين .

وذلك من مناسبات هذا الاستئناف على عادة القرآن في إرداف التوبيخ بالترغيب والوعيد بالوعد والنذارة بالبشارة والذم بالثناء .

وجيء بصيغة الحصر بـ ﴿ إنما ﴾ لدفع أن يكون مخالف هذه الحالة في شيء من الإيمان وإن قال بلسانه إنه مؤمن ، فهذا القصر إضافي ، أي هذا قول المؤمنين الصادقين في إيمانهم لا كقول الذين أعرضوا عن حكم الرسول حين قالوا : ﴿ آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ﴾ [النور : 47] فلما دعوا إلى حكم الرسول عصوا أمره فإن إعراضهم نقيض الطاعة ، وسيأتي بيانه قريباً .

وليس قصراً حقيقياً لأن أقوال المؤمنين حين يدعون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليحكم بينهم غير منحصرة في قول : ﴿ سمعنا وأطعنا ﴾ ولا في مرادفه ، فلعل منهم من يزيد على ذلك .

وفي "الموطأ" من حديث زيد بن خالد الجهني : " أن رجلين اختصما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أحدهما : يا رسول الله اقض بيننا بكتاب الله (يعني وهو يريد أن رسول الله يقضي له كما وقع التصريح في رواية الليث بن سعد في "البخاري" أن رجلاً من الأعراب أتى رسول الله فقال : أنشدك بالله إلا قضيت لي بكتاب الله) .

وقال الآخر وهو أفقههما : أجل يا رسول الله فاقض بيننا بكتاب الله وأذن لي أن أتكلم (يريد لا تقض له علي فأذَنْ لي أن أبين) فقال رسول الله تكلم .

.

" الخ .

وليس المراد بقول ﴿ سمعنا وأطعنا ﴾ خصوص هذين اللفظين بل المراد لفظهما أو مرادفهما للتسامح في مفعول فعل القول أن لا يحكى بلفظه كما هو مشهور .

وإنما خص هذان اللفظان بالذكر هنا من أجل أنهما كلمة مشهورة تقال في مثل هذه الحالة وهي مما جرى مجرى المثل كما يقال أيضاً "سمع وطاعة" بالرفع و"سمعاً وطاعة" بالنصب ، وقد تقدم الكلام على ذلك عند قوله تعالى : ﴿ ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا ﴾ في سورة [النساء : 46] .

وفي حديث أبي هريرة : " قال النبي للأنصار : تكفوننا المؤونة ونَشْرِكُكم في الثمرة .

فقال الأنصار : سمعنا وأطعنا " .

و﴿ قول المؤمنين ﴾ خبر ﴿ كان ﴾ و ﴿ أن يقولوا ﴾ هو اسم ﴿ كان ﴾ وقدم خبر كان على اسمها متابعة للاستعمال العربي لأنهم إذا جاؤوا بعد ﴿ كان ﴾ بأن والفعل لم يجيئوا بالخبر إلا مقدماً على الاسم نظراً إلى كون المصدر المنسبك من أن والفعل أعرفَ من المصدر الصريح ، ولم يجيئوا بالخبر إلا مقدماً كراهية توالي أداتين وهما : ﴿ كان ﴾ و ﴿ أن ﴾ .

ونظائر هذا الاستعمال كثيرة في القرآن .

وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا ﴾ في سورة [آل عمران : 147] .

وجيء في وصف المؤمنين بالفلاح بمثل التركيب الذي وصف به المنافقون بالظلم بصيغة القصر المؤكد ليكون الثناء على المؤمنين ضداً لمذمة المنافقين تاماً .

(24/552)

واعلم أن القصر المستفاد من ﴿ إنما ﴾ هنا قصر إفراد لأحد نوعي القول .

فالمقصود منه الثناء على المؤمنين برسوخ إيمانهم وثبات طاعتهم في المنشط والمكره .

وفيه تعريض بالمنافقين إذ يقولون كلمة الطاعة ثم ينقضونها بضدها من كلمات الإعراض والارتياب .

ونظير هذه الآية في طريق قصر بـ (إلاّ) قوله تعالى : ﴿ وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا ﴾ في سورة [آل عمران : 147] .

وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (52)

الواو اعتراضية أو عاطفة على جملة ﴿ وأولئك هم المفلحون ﴾ [النور : 51] .

والتقدير : وهم الفائزون .

فجاء نظم الكلام على هذا الإطناب ليحصل تعميم الحكم والمحكوم عليه .

وموقع هذه الجملة موقع تذييل لأنها تعم ما ذكر قبلها من قول المؤمنين ﴿ سمعنا وأطعنا ﴾ [النور : 51] وتشمل غيره من الطاعات بالقول أو بالفعل .

و﴿ مَن ﴾ شرطية عامة ، وجملة : ﴿ فأولئك ﴾ جواب الشرط .

والفوز : الظفر بالمطلوب الصالح .

والطاعة : امتثال الأوامر واجتناب النواهي .

والخشية : الخوف .

وهي تتعلق بالخصوص بما عسى أن يكون قد فُرّط فيه من التكاليف على أنها تعم التقصير كله .

والتقوى : الحذر من مخالفة التكاليف في المستقبل .

فجمعت الآية أسباب الفوز في الآخرة وأيضاً في الدنيا .

وصيغة الحصر للتعريض بالذين أعرضوا إذا دعوا إلى الله ورسوله وهي على وزن صيغة القصر التي تقدمتها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 18 صـ ﴾

(25/552)

وقال الشيخ الشعراوى :

ثم يأتي السياق بالمقابل : ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ المؤمنين ﴾

فما دُمْت قد آمنتَ ، والإيمان لا يكون إلا عن رغبة واختيار لا يجبرك أحد عليه ، فعليك أن تحترم اختيار نفسك بأنْ تطيعَ هذا الاختيار ، وإلا سفَّهتَ رأيك واختيارك ، لذلك كان حال المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله أن يقولوا : سمعنا وأطعنا .

ولو تأملتَ الكون من حولك لوجدتَهُ يسير على هذه القاعدة ، فما دون الإنسان في كَوْن الله مُسيَّر لا مُخيَّر ، وإنْ كان الأصل أنه خُيِّر أولاً ، فاختار أن يكون مُسيّراً من البداية ، وأراح نفسه ، كما قال سبحانه :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأمانة عَلَى السماوات والأرض والجبال فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا ﴾

[الأحزاب : 72] .

وتصدير الآية الكريمة ب (إنما) يدل على أنها سبقها مقابل ، هذا المقابل على النقيض لما يجيء بعدها ، فالمنافقون أعرضوا وردُّوا حكم الله ورسوله ، والمؤمنون قالوا سمعنا وأطعنا ، كما تقول : فلان كسول إنما أخوه مُجِدٌّ . فقول المنافقين أنهم لا يقبلون حكم الله ورسوله ، أمّا المؤمنون فيقبلون حكْم الله ورسوله .

ومعنى ﴿ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ [النور : 51] يعني : سمعنا سمعاً واعياً يليه إجابة وطاعة ، لا مجرد أنْ يصل الصوت إلى أذن السامع دون أن يُؤثر فيه شيء .

ويقول تعالى في موضع آخر : ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى الرسول ترى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدمع مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ الحق ﴾ [المائدة : 83] .

فالسمع له وظيفة ، وهو هنا بمعنى : أجَبْنا يا رب ، وصممنا على الإجابة ، وهذا وعد كلامي يتبعه تنفيذ وطاعة . مثل قولنا في الصلاة : سمع الله لمن حمده ، يعني : أجاب الله مَنْ حمده .

(26/552)

﴿ وأولئك هُمُ المفلحون ﴾ [النور : 51] المفلحون : الفائزون الذين بلغوا درجة الفلاح ، ومن العجيب أن يستخدم الحق سبحانه كلمة الفلاح ، وهي من فلاحة الأرض ؛ لأن الفلاحة في الأرض هي أصل الاقتيات ، وكل مَنْ أتقن فلاحة أرضه جاءت عليه بالثمرة الطيبة ، وزاد خيره ، وتضاعف محصوله ، حتى إن حبة القمح تعطي سبعمائة حبة ، فإذا كانت الأرض وهي مخلوقة لله تعالى تعطي من يزرعها كل هذا العطاء ، فما بالك بخالق الأرض كيف يكون عطاؤه ؟

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَمَن يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ ﴾

كان سيدنا الشيخ موسى شريف رحمه الله ورضي الله عنه يدرس لنا التفسير ، فلما جاءت هذه الآية قال : اسمعوا ، هذه برقية من الله تعالى : ﴿ وَمَن يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللهَ وَيَتَّقْهِ فأولئك هُمُ الفآئزون ﴾ [النور : 52] فلم تَدَعْ هذه الآية حُكْماً من أحكام الإسلام إلا جاءتْ به في هذه البرقية الموجزة التي جمعتْ المنهج كله .

ومعنى ﴿ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ ﴾ [النور : 52] آمن بالله وأطاعه وصدّق رسوله ﴿ وَيَخْشَ اللهَ ﴾ [النور : 52] أي : يخافه لما سبق من الذنوب ﴿ وَيَتَّقْهِ ﴾ [النور : 52] في الباقي من عمره ﴿ فأولئك هُمُ الفآئزون ﴾ [النور : 52] وهكذا جمعتْ الآيةُ المعانيَ الكثيرة في اللفظ القليل الموجز .

ومعلوم أن التعبير الموجز أصعب من الإطناب والتطويل ، وسبق أنْ ذكرنا قصة الخطيب

الإنجليزي المشهور حين قالوا له : إذا طُلِب منك إعداد خطاب تلقيه في ربع ساعة في كم تُعِدّه ؟ قال : في أسبوع ، قالوا : فإنْ كان في نصف ساعة ؟ قال : أُعِدُّه في ثلاثة أيام ، قالوا : فإذا كان في ساعة ؟ قال : أُعِدّه في يومين ، قالوا : فإنْ كان في ثلاث ساعات ؟ قال : أُعِده الآن .

(27/552)

وقالوا : إن سعد باشا زغلول رحمه الله أرسل من فرنسا خطاباً لصديق في أربع صفحات قال فيه : أما بعد ، فإني أعتذر إليك عن الإطناب (الإطالة) ؛ لأنه لا وقت عندي للإيجاز . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(28/552)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله : ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ المؤمنين ﴾ :

العامَّةُ على نصبِه خبراً ل كان ، والاسمُ "أنْ" المصدريةُ وما بعدَها . وقرأ أمير المؤمنين والحسنُ وابن أبي إسحاق برفعِه على أنه الاسمُ و "أَنْ" وما في حيّزها الخبرُ . وهي عندهم مَرْجوحةٌ ؛ لأنه متى اجتمع معرفتان فالأَوْلى جَعْلُ الأعرفِ الاسمَ ، وإنْ كان سيبويه خَيَّر في ذلك بين كلِّ معرفتين ، ولم يُفَرِّق هذه التفرقةَ . وقد تَقَدَّم تحقيقُ هذا في آل عمران .

قوله : ﴿ وَيَتَّقْهِ ﴾ : القُرَّاءُ فيه بالنسبةِ إلى القافِ على مرتبتين : الأُولى تسكينُ القافِ ، ولم يَقْرأ بها إلاَّ حفصٌ ، والباقون بكسرِها وأمَّا بالنسبةِ إلى هاءِ الكنايةِ فهي على خمسِ مراتبَ : الأولى تحريكُها مفصولة قولاً واحداً ، وبها قرأ ورشٌ وابن ذكوان وخلف وابن كثير والكسائي . الثانيةُ : تسكينُها قولاً واحداً . وبها قرأ أبو عمرو وأبو بكر عن عاصم . الثالثةُ : إسكانُ الهاءِ أو وَصْلُها بياءٍ وبها قرأ خَلاَّدُ . الرابعةُ : تحريكها من غير صلةٍ . وبها قرأ قالون وحفص . الخامسةُ : تحريكُها موصولةً أو مقصورةً . وبها قرأ هشامٌ . فأمَّا إسكانُ الهاءِ وقَصْرُها وإشباعُها فقد مَرَّ تحقيقُها مستوفىً في مواضعَ من هذا التصنيفِ . وأمَّا تسكينُ القافِ فإنهم حَمَلوا المنفصِلَ على المتصلِ : وذلك أنهم يُسَكِّنون عين فَعِل فيقولون : كَبْد وكَتْف وصَبْر في : كَبِد وكَتِف وصَبِر ، لأنها كلمةٌ واحدة ، ثم أُجْرِيَ ما أشبَه ذلك من المنفصل مجرى المتصل ؛ فإنَّ "يَتَّقْهِ" صار منه "تَقِهِ" بمنزلة "كَتِف" فَسُكِّن كما تُسَكَّن . ومنه :

3461 قالَتْ سليمى اشْتَرْ لنا سَوِيقا . . . بسكونِ الراءِ ، كما سَكَّنَ الآخرُ :

3462 فبات مُنْتَصْباً وما تَكَرْدَسا . . . والآخر :

3463 عَجِبْتَ لمَوْلُودٍ وليسَ له أَبُ . . . وذي وَلَدٍ لم يَلْدَهُ أبوان

(29/552)

يريد : مُنْتَصِباً ، ولم يَلِدْه . وقد تَقَدَّمَ في أولِ البقرةِ تحريرُ هذا الضابطِ في قوله : ﴿ فَهِيَ كالحجارة ﴾ [الآية : 74] ، وهي وهو ونحوها .

وقال مكي : " كان يجبُ على مَنْ أسكن القاف أَنْ يَضُمَّ الهاءَ ؛ لأنَّ هاءَ الكنايةِ إذا سَكَن ما قبلها ، ولم يكنْ الساكنُ ياءً ضُمَّتْ نحو : مِنْهُ وعَنْهُ . ولكن لَمَّا كان سكونُ القافِ عارضاً لم يُعْتَدَّ به ، وأبقى الهاءَ على كسرتها التي كانت عليها مع كسرِ القافِ ، ولم يَصِلْها بياءٍ ، لأنَّ الياءَ المحذوفةَ قبل الهاءِ مقدرةٌ مَنْوِيَّةٌ ، فبقي الحذفُ الذي في الياءِ قبل الهاءِ على أصلِه " . وقال الفارسي : " الكسرةُ في الهاءِ لالتقاءِ الساكنين ، وليستْ/ الكسرةَ التي قبل الصلةِ ؛ وذلك أنَّ هاءَ الكنايةِ ساكنةٌ في قراءتِه ، ولَمَّا أُجْرِيَ " تَقْهِ " مجرى " كَتْف " وسكَّن القافَ التقى ساكنان ، ولَمَّا التَقَيا اضْطُرَّ إلى تحريكِ أحدِهما : فإمَّا أَنْ يُحَرِّكَ الأولَ أو الثاني . لا سبيلَ إلى تحريكِ الأولِ لأنه يعودُ إلى ما فَرَّ منه وهو ثِقَلُ فَعِل فحرَّك ثانيهما .

وأصلُ التقاءِ الساكنين [الكسر] فلذلك كسرَ الهاءَ ويؤيِّدهُ قولُه :

. . . . . .

. . . . . لمَ يَلْدَه أَبوانِ

وذلك أنَّ أصلَه " لَمْ يلِده " بكسرِ اللام وسكونِ الدال للجزمِ ، ثم لَمَّا سَكَّن اللامَ التقى ساكنان ، فلو حَرَّكَ الأولَ لعادَ إلى ما فَرَّ منه ، فحَرَّكَ ثانيهما وهو الدالُ وحَرَّكَها بالفتحِ ، وإنْ كان على خلافِ أصلِ التقاءِ الساكنين مراعاةً لفتحةِ الياءِ .

وقد رَدَّ القاسم بن فيره قولَ الفارسي ويقول : " لا يَصِحُّ قولُه : إنه كسر الهاءَ لالتقاءِ الساكنين ؛ لأنَّ حفصاً يُسَكِّن الهاءَ في قراءتِه قط " .

(30/552)

وقد رَدَّ أبو عبد الله شارحُ قصيدتِه هذا الردَّ وقال : " وعجبتُ مِنْ نَفْيِه الإسكانَ عنه مع ثبوتِه عنه في " أَرْجِهْ " و " فَأَلْقِهْ " وإذا قرأه في " أَرْجِهْ " و " فَأَلْقِهْ " احتمل أن يكونَ " يَتَّقْهِ " عنده قبل سكون القاف كذلك ، وربما تَرَجَّح ذلك بما ثَبَتَ عن عاصم مِنْ قراءته إياه بسكونِ الهاء مع كسرِ القاف " .

قلت : لم يَعْنِ الشاطبي بأنه لم يُسَكِّنِ الهاءَ قط ، الهاء من حيث هي هي ، وإنما عَنَى هاءَ "

يَتَّقْهِ " بخصوصِها . وكان الشاطبيُّ أيضاً يعترض التوجيهَ الذي قدَّمْتُه عن مكيّ ويقولُ : " تعليلُه حَذْفَ الصلةِ : بأنَّ الياءَ المحذوفةَ قبل الهاء مقدرةٌ مَنْوِيَّةٌ فبقي في حَذْفِ الصلةِ بعد الهاءِ على أصلِه ، غيرُ مستقيم مِنْ قِبَلِ أنه قرأ "يُؤَدِّهي " وشبهه بالصلة ، ولو كان يَعْتَبِرُ ما قاله من تقدير الياءِ قبل الهاءِ لم يَصِلْها . قال أبو عبد الله : " وهو وإنْ قَرَأَ " يؤدِّهي " وشِبْهَه بالصلةِ فإنه قرأ "يَرْضَهُ " بغيرِ صلةٍ فألحقَ مكي "يَتَّقْهِ " ب "يَرْضَهُ " وجعله ممَّا خَرَجَ فيه عن نظائرِه لاتِّباع الأثَرِ والجمعِ بين اللغتين . وترجَّح ذلك عنده لأنَّ اللفظَ عليه . ولَمَّا كانت القافُ في حكمِ المكسورةِ بدليلِ كسرِ القافِ بعدَها صار كأنه "يَتَّقِهِ " بكسرِ القافِ والهاء من غيرِ صلةٍ كقراءةِ قالون وهشام في أحدِ وجهَيْه ، فَعَلَّله بما يُعَلِّلُ به قراءتَهما . والشاطبيُّ ترجَّح عنده حَمْلُه على الأكثرِ ممَّا قَرَأَ به ، لا على ما قَلَّ ونَدَر ، فاقتضى تعليلَه بما ذكَرَ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الدر المصون حـ 8 صـ 428. 431﴾

(31/552)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾

الذين إيمانهم حقيقةً بحكم التصديق شأنُهم قيامُهم بإظهار ما ضمنوه من التحقيق . ومن يُقابِلْ أمرَ الله بالطاعة ، ويستقبلْ حُكمه بالاستخذاء . . . فأولئك هم الصادقون في الحقيقة ، السالكون في الطريقة ، الآخذون بالوثيقة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 620 ﴾

(32/552)

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

قوله عز وجل : ﴿ اللهُ نُورُ السموات والأرض ﴾

قال ابن عباس رضي الله عنه : هادي أهل السموات وأهل الأرض ، ويقال : هادي أهل السموات والأرض من يشاء ، وبين ذلك في آخر الآية بقوله : ﴿ يَهْدِى لِنُورِهِ مَن يَشَاء ﴾ ويقال : معناه الله مُنَوِّرُ السموات والأرض ، وقال ابن عباس : بدليل قوله : ﴿ مَثَلُ نُورِهِ ﴾ ، فأضاف النور إليه ، وبدليل ما قال في سياق الآية ﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُورٍ ﴾ [النور : 40] .

وروي عن أبي العالية أنه قال : معناه الله منور قلوب أهل السموات وقلوب أهل الأرض بالمغفرة والتوحيد ، يعني : من كان أهلاً للإيمان ؛ ويقال : الله منور السموات والأرض . أما السموات ، فنورها بالشمس والقمر والكواكب ، وأما الأرض ، فنورها بالأنبياء والعلماء والعباد عليهم السلام .

ثم قال تعالى : ﴿ مَثَلُ نُورِهِ ﴾ ، يعني : مثل نور المعرفة في قلب المؤمن ، ﴿ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾ ؛ يعني : كمثل كوة فيها سراج ، ويقال : المشكاة الكوة التي ليست بنافذة وهي بلغة الحبشة .

وروي في قراءة ابن مسعود ﴿ مَثَلُ نُورِهِ ﴾ في قلب المؤمن ، ﴿ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾ .

ثم وصف المصباح ، فقال : ﴿ المصباح فِى زُجَاجَةٍ ﴾ ، يعني : كمثل سراج في قنديل في كوة ، فكذلك الإيمان والمعرفة في قلب المؤمن ؛ والقلب في الصدر ، والصدر في الجسد . فشبه القلب بالقنديل ، والماء الذي في القنديل شبه بالعلم ، والدهن بالرفق . وحسن المعاملة ، وشبه الفتيلة باللسان ، وشبه النار بالجوف في زجاجة .

(33/552)

يعني : في قلب مضيء ؛ ويقال : إنما شبَّه القلب بالزجاجة ، لأن ما في الزجاجة يرى من خارجها ، فكذلك ما في القلب يرى من ظاهره ، ويبيّن ذلك في أعضائه ؛ ويقال : لأن الزجاجة تسرع الكسر بأدنى آفة تصيبها ؛ فكذلك القلب بأدنى آفة تدخل فيه فإنه يفسد .

ثم وصف ﴿ الزجاجة ﴾ ، فقال : ﴿ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ ﴾ ، يعني : استنار القنديل بصفاء الزجاجة .

من قرأ بضم الدال ، فهو منسوب إلى الدر ، يعني : يشبه في ضوئه الدر ، ومن قرأ بكسر الدال ، يعني : الذي يدرأ عن نفسه ، يعني : لا يكاد يقدر النظر إليه من شدة ضوئه .

قرأ نافع ، وابن كثير ، وعاصم في رواية حفص ﴿ دُرِّيٌّ ﴾ بضم الدال غير مهموز ، وقرأ أبو عمرو والكسائي بكسر الدال وبهمز الياء ، وقرأ حمزة وعاصم في رواية أبي بكر بالضم والهمز .

ثم قال تعالى : ﴿ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مباركة ﴾ ، يعني : السراج يوقد بدهن من شجرة مباركة ﴿ زَيْتُونَةٍ ﴾ ؛ قرأ أبو عمر وابن كثير ﴿ توقد ﴾ بنصب التاء والواو والقاف بلفظ التأنيث ؛ وأصله تتوقد فحذف إحدى التاءين ، وقرأ عاصم في رواية أبي بكر وحمزة والكسائي بضم التاء والتخفيف بلفظ التأنيث ، على فعل ما لم يسم فاعله ؛ وقرأ الباقون ﴿ توقد ﴾ بلفظ التذكير والتفسير ، على معنى فعل ما لم يسم فاعله .

فمن قرأ بالتأنيث ، انصرف إلى الزجاجة ؛ ومن قرأ بالتذكير ، انصرف إلى المصباح والسراج .

ثم وصف الشجرة المباركة ، فقال : زَيْتُونَةٍ ﴿ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ ﴾ ، أي لم تكن بحال تصيبها الشمس في أول النهار وآخره ، فكذلك هذا المؤمن تكون كلمة الإخلاص في قلبه ثابتة مثل ثبوت الشجرة ، فلا يكون مشبهياً ، ولا معطلياً ، ولا قدرياً ، ولا جبرياً ؛ ولكنه على الاستقامة ؛ ويقال : ﴿ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ ﴾ ، يعني : تكون في وسط الأشجار ، حتى لا تحرقها الشمس ؛ فكذلك هذا المؤمن بين أصحاب صلحاء ، يثبتونه على الاستقامة .

(34/552)

وروي ، عن الحسن أنه قال : ليس هذه من أشجار الدنيا ، لكن من أشجار الآخرة ، يعني : أن أشجار الدنيا لا تخلو من أن تكون شرقية أو غربية ، ولكن هذه من أشجار الآخرة ، فكذلك هذا المؤمن أصاب المعرفة بتوفيق الله عز وجل .

قال : ﴿ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ﴾ يعني : أن الزيت في الزجاجة . يكاد أن يضيء ، وإن لم يكن موقداً ؛ فكذلك المؤمن يعرف الله تعالى ويخافه ويطيعه ، وإن لم

يكن له أحد يذكره ويأمره وينهاه .

ثم قال : ﴿ نُورٌ على نُورٍ ﴾ ، يعني : الزجاجة نور ، والسراج نور ، والزيت نور ، فكذلك المؤمن اعتقاده نور ، وقوله نور ، وفعله نور .

وقال أبو العالية : فهو يتقلب في خمسة أنوار ، فكلامه نور ، وعمله نور ، ومخرجه نور ، ومدخله نور ، ومصيره إلى النور يوم القيامة .

﴿ يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاء ﴾ ، يعني : يوفق ويعطي من يشاء ، يعني : الهدى وللآية وجه آخر ﴿ اللهُ نُورُ السموات والأرض ﴾ يعني : الله مرسل الرسل لأهل السموات وأهل الأرض ﴿ مَثَلُ نُورِهِ ﴾ يعني : مثل نور محمد صلى الله عليه وسلم ، فسماه نوراً كقوله : " يا أهل الكتاب قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الكتاب وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِّنَ اللهِ نُورٌ وكتاب مُّبِينٌ " [المائدة : 15] .

ثم قال : ﴿ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾ ، يعني : مثل نور محمد صلى الله عليه وسلم في صلب أبيه ، كالقنديل يضيء البيت المظلم .

فكما أن البيت يكون مضيئاً بالقنديل ، فإذا أخذ منه القنديل يبقى البيت مظلماً ؛ فكذلك محمد صلى الله عليه وسلم كان كالقنديل في صلب أبيه فلما خرج بقي صلب أبيه مظلماً .

﴿ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مباركة ﴾ ، يعني : نور محمد صلى الله عليه وسلم من نور إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام ﴿ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ ﴾ ، يعني : لم يكن إبراهيم عليه السلام يهودياً ولا نصرانياً ، ولكن كان حنيفاً مسلماً ؛ ويقال : ﴿ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ ﴾ ، يعني : يعطي الله النبوة لمن يشاء ، ولها وجه آخر ﴿ اللهُ نُورُ السموات والأرض ﴾ ، يعني : منزل القرآن ، فنور بالقرآن السموات والأرض .

﴿ مَثَلُ نُورِهِ ﴾ يعني : مثل نور القرآن في قلب المؤمن ﴿ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾ ، يعني : قلب المؤمن بالقرآن ، ﴿ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مباركة ﴾ يعني : ينزل القرآن من رب كريم ذي بركة ﴿ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ ﴾ ، أي ليس القرآن بلغة السريانية ولا بلغة العبرانية ، ولكنه عربي مبين ﴿ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ﴾ ، يعني : القرآن يضيء وألفاظه مهذبة ، وإن لم تفهم معانيه ﴿ يَهْدِى اللهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ ﴾ ، يعني : يوفق ويكرم بفهم القرآن من يشاء .

﴿ وَيَضْرِبُ اللهُ الامثالَ لِلنَّاسِ ﴾ ؛ يعني : الله عز وجل يبيّن الأشياء للناس لكي يفهموا ، ويقال : المثل كالمرآة يظهر عنده الحق ﴿ واللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ من ضرب الأمثال .

ثم قال الله عز وجل : ﴿ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَن تُرْفَعَ ﴾ ، يعني : ما ذكر من القنديل المضيء ، يعني : هو في المساجد .

ثم وصف المساجد ؛ ويقال هذا ابتداء القصة ، وفيه معنى التقديم ، يعني : أذن الله أن ترفع البيوت وهي المساجد ﴿ أَذِنَ اللهُ أَن تُرْفَعَ ﴾ ، أي تبنى وتعظم ، ﴿ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسمه ﴾ ؛ يعني : توحيده ؛ ويقال : بالأذان والإقامة .

﴿ يُسَبِّحُ لَهُ ﴾ فيها ، يعني : يصلي لله في المساجد ﴿ بالغدو والاصال ﴾ ، يعني : عند الغداة والعشي .

(36/552)

قرأ ابن عامر ، وعاصم في رواية أبي بكر ﴿ يُسَبَّحُ ﴾ بنصب الباء على معنى فعل ما لم يسم فاعله .

ثم قال عز وجل : ﴿ رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تجارة ﴾ يعني : هم رجال ، وقرأ الباقون ﴿ يُسَبِّحُ ﴾ بكسر الباء ، ويكون الفعل للرجال ، يعني : يسبح فيها ﴿ رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ ﴾ ، يعني : لا يشغلهم البيع والشراء عن ذكر الله ، يعني : عن طاعة الله ، وعن مواقيت الصلاة .

﴿ وَلاَ بَيْعٌ عَن ذِكْرِ الله وَإِقَامِ الصلاة ﴾ ، يعني : عن إتمام الصلاة .

قال بعضهم : نزلت الآية في أصحاب الصفة وأمثالهم ، الذين تركوا التجارة ولزموا المسجد ؛ وقال بعضهم : هم الذين يتجرون ولا تشغلهم تجارة عن الصلوات في مواقيتها ، وهذا

أشبه ، لأنه قال : ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً ﴾ ، وأصحاب الصفة وأمثالهم لم يكن عليهم الزكاة ، وقال الحسن : ﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ ﴾ .

أما أنهم كانوا يتجرون ، ولم تكن تشغلهم تجارة عن ذكر الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة .

وروي عن ابن مسعود أنه رأى قوماً من أهل السوق سمعوا الأذان ، فتركوا بياعاتهم ، وقاموا إلى الصلاة ، فقال : هؤلاء من الذين .

﴿ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ .

ثم قال : ﴿ يَخَافُونَ يَوْماً ﴾ يعني : من اليوم الذي ﴿ تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴾ يعني : يتردد فيه القلوب والأبصار في الصدر ، إن كان كافراً فإنه يبلغ الحناجر من الخوف ، وإن كان تقيّاً مؤمناً تقول الملائكة ﴿ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ فبين ما في قلبه في البصر ، وإن كان حزناً فحزن ، وإن كان سروراً فسرور ، ويقال يتقلب يعني : يتحول حالاً بعد حال مرة ، يعرفون ومرة لا يعرفون ، ويقال ينقلب يعني : يتحول عما كانت عليه في الدنيا من الشك حين رأى بالمعاينة فيتحول قلبه وبصره من الشك إلى اليقين .

(37/552)

ثم قال عز وجل : ﴿ لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ ﴾ يعني : يجزيهم الله بإحسانهم ، ويقال : يجزيهم أحسن وأفضل من أعمالهم وهو الجنة ، ويقال : ويجزيهم أكثر من أعمالهم بكل حسنة عشرةً وأضعافاً مضاعفة ويقال يجزيه ويغفر له بأحسن أعماله ويبقى سائر أعماله فضلاً .

ثم قال : ﴿ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ﴾ أي يرزقهم من عطائه ﴿ واللهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاء بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ أي يرزقه ولايحاسبه ، ويقال : يرزقه رزقاً لا يدرك حسابه ، ويقال : ليس أحد يحاسبه فيما يُعطي ، ويقال : بغير حساب ، أي من غير حساب ، أي من حيث لا يحتسب .

ثم ضرب مثلاً لعمل الكفار ، فقال عز وجل :

﴿ والذين كَفَرُواْ أعمالهم كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ ﴾ يعني : مثل أعمالهم الخبيثة في الآخرة ﴿ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ ﴾ يعني : كمثل سراب في مفازة ، ويقال : قاع وقيعة وقيعان ، يعني : أرضاً مستوية كما يقال : صبي وصبية وصبيان .

ثم قال : ﴿ يَحْسَبُهُ الظمان مَاء ﴾ يعني : العطشان إذا رأى السراب من بعيد يحسبه ماء ﴿ حتى إِذَا جَاءهُ ﴾ يعني : فإذا أتاه ليشرب منه ﴿ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً ﴾ ، يعني : لم يجده ماء ويقال لم يجده شيئاً مما طلبه وأراده ، فكذلك الكافر يظن أنه يثاب في صدقته وعتقه وسائر أعماله ، فإذا جاءه يوم القيامة وجده هباءً منثوراً ولا ثواب له .

قوله : ﴿ وَوَجَدَ اللهَ عِندَهُ ﴾ أي يوم القيامة عند عمله وهذا كما قال ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لبالمرصاد ﴾ ، يعني : مصير الخلائق إليه ﴿ فوفاه حِسَابَهُ ﴾ ، يعني : يوفيه ثواب عمله ﴿ واللهُ سَرِيعُ الحساب ﴾ ، فكأنه حاسب ، ويقال : سريع الحفظ ، ويقال : إذا حاسب فحسابه سريع ، فيحاسبهم جميعاً ، فيظن كل واحد منهم أنه يحاسبه خاصة ، فلا يشغله حساب أحدهم عن الآخر ، لأنه لا يحتاج إلى أخذ الحساب ، ولا يجري فيه الغلط ، ولا يلتبس عليه ، ويحفظ على كل صاحب حسابٍ حسابه ليذكره ، فهذا المثل لأعمال الكفار ، والتي في ظاهرها طاعة ، فأخبر أنه لا ثواب لهم بها .

ثم ضرب مثلاً آخر للكافر ، فقال عز وجل : ﴿ أَوْ كظلمات ﴾ قال بعضهم : الألف زيادة ، ومعناه وكظلمات ، يعني : مثلهم أيضاً كظلمات .

ويقال : أو للتخيير ، يعني : إن شئت فاضرب لهم المثل بالسراب ، وإن شئت بالظلمات ، فقال : ﴿ أَوْ كظلمات ﴾ ﴿ فِى بَحْرٍ لُّجِّىّ ﴾ يعني : مثل الكافر كمثل رجل يكون في بحر عميق في الليل ، كثير الماء ﴿ يغشاه مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظلمات ﴾ يعني : يكون في ظلمة البحر ، وظلمة الليل ، وظلمة السحاب ، فكذلك الكافر في ظلمة الكفر ،

وظلمة الجهل ، وظلمة الجور والظلم .

ويقال : ﴿ يغشاه مَوْجٌ مّن فَوْقِهِ مَوْجٌ ﴾ يعني : المعاصي ، ومن فوقه العداوة والحسد والبغضاء ، و ﴿ مّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ﴾ يعني : الخذلان من الله تعالى .

ثم قال : ﴿ ظلمات بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ﴾ كما قال للمؤمن : ﴿ نُّورٌ على نُورٍ ﴾ فيكون للكافر ظلمة على ظلمة ، قوله ظلمة ، وعمله ظلمة ، واعتقاده ظلمة ، ومدخله ظلمة ، ومخرجه ظلمة ومصيره إلى الظلمة ، وهو النار .

ويقال : شبه قلب الكافر بالبحر العميق ، وشبه أعضاءه بالأمواج الثلاث ، طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم ، فهذه الظلمات الثلاث تمنعه عن الحق .

(39/552)

ثم قال : ﴿ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ﴾ يعني : لم يكن أقرب إليه من نفسه ، فإذا أبرز يده لم يكد يراها من شدة الظلمة ، ومع ذلك لم ير نفسه/

فكذلك الكافر لم ينظر إلى القبر ولم يتفكر في أمر نفسه أيضاً ، كقوله عز وجل : ﴿ وفى أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات : 21] .

ثم قال : ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ الله لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُورٍ ﴾ يعني : من لم يكرمه الله بالهدى فما له

من مكرم بالمعرفة .

قرأ ابن كثير ﴿ ظلمات ﴾ بكسر التاء والتنوين ، فكأنه يجعله بمنزلة قوله كظلمات .

وقرأ الباقون بالضم على معنى الابتداء .

وقرىء في الشاذ : سحاب ظلمات ، على معنى الإضافة .

قوله عز وجل : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُسَبِّحُ لَهُ ﴾ يعني : يصلي له ويذكر له .

ويقال : يخضع له .

﴿ مَن فِى السموات والأرض ﴾ أي من في السموات من الملائكة ، ومن في الأرض من الخلق .

﴿ والطير صافات ﴾ يعني : مفتوحة الأجنحة .

وأصل الصّفّ هو البسط ، ولهذا يُسمى اللحم القديد صفيفاً لأنه يبسط ﴿ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاَتَهُ وَتَسْبِيحَهُ واللهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ يعني : كل واحد من المسبحين يعلم كيف يصلي ، وكيف يسبح ، يعني : والله يعلم عمل كل عامل ، فيجازيهم بأعمالهم ، إلا أنه لا يعجل بعقوبة المذنبين والكافرين ، لأنه قادر عليهم .

قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السماوات والأرض ﴾ وهذا معنى قوله وَلِلَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قال مجاهد في قوله : ﴿ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاَتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ﴾ الصلاة للإنسان والتسبيح لما سوى ذلك من خلقه ، ثم قال : ﴿ وإلى الله المصير ﴾ يعني : إليه المرجع في

الآخرة .

قوله عز وجل : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُزْجِي سَحَاباً ﴾ يعني : يسوق سحاباً ﴿ ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ﴾ يعني : يجمع بينه ﴿ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَاماً ﴾ يعني : قطعاً قطعاً ، ويقال : يجعل بعضها فوق بعض .

(40/552)

﴿ فَتَرَى الودق ﴾ يعني : المطر ﴿ يَخْرُجُ مِنْ خِلاَلِهِ ﴾ يعني : من وسط السحاب .

قرأ ابن عباس : يخرج من خلله وقراءة العامة ﴿ مِنْ خِلاَلِهِ ﴾ ، وهي جمع خلل .

﴿ وَيُنَزِّلُ مِنَ السماء مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ ﴾ يعني : من جبال في السماء .

قال مقاتل : روي عن عمر رضي الله عنه أنه قال : جبال السماء أكثر من جبال الأرض ، فيها من برد أي في الجبال من برد ، ويقال : وهو الجبال من البرد ، أي : ينزل من السماء من جبال البرد .

وروي عن ابن عباس أنه قال : البرد هو الثلج ، وما رأيته .

ويقال : الجبال عبارة عن الكثرة ، يعني : ينزل الثلج مقدار الجبال ، كما يقال : عند فلان جبال من مال ، أي : مقدار جبال من كثرته .

ويقال البرد هو الذي له صلابة كهيئة الجمد ﴿ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاء ﴾ يعني : البرد ، يصيب الزرع والإنسان إذا كان في مفازة .

قوله : ﴿ وَيَصْرِفُهُ مَا يَشَاء ﴾ فلا يصيبه ، ويقال : يصيب به ، يعني : يعذب به من يشاء ، ويصرفه عمن يشاء فلا يعذبه .

قوله : ﴿ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ ﴾ يعني : ضوء برقه .

﴿ يَذْهَبُ بالابصار ﴾ يعني : من شدة نوره .

قرأ أبو جعفر المدني : يذهب ، بضمِّ الياء وكسر الهاء ، وقراءة العامة يذهب بنصب الياء والهاء .

ثم قال : ﴿ يُقَلِّبُ الله الليل والنهار ﴾ يعني : يذهب الله بالليل ويجيء بالنهار ، ويقال ينقص من النهار ، ويزيد من الليل .

﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ ﴾ يعني : في تقلبهما ، واختلاف ألوانهما ﴿ لَعِبْرَةً ﴾ يعني : لآية ﴿ لاِوْلِى الابصار ﴾ يعني : لذوي العقول والفهم في الدين .

وسئل سعيد بن المسيب : أي العبادة أفضل ؟ فقال : التفكير في خلقه والتَّفَقُّه في دينه .

ويقال العِبَرُ بالوِقَارِ ، وَالْمُعْتَبِرُ بِمِثْقَالٍ .

ثم قال :

قوله عز وجل : ﴿ واللهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاء ﴾ يعني : من ماء الذكور .

قرأ حمزة والكسائي ﴿ خالق كُلِّ دَابَّةٍ ﴾ على معنى الإضافة .

(41/552)

وقرأ الباقون ﴿ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ ﴾ على معنى فعل الماضي ، ويقال هذا معطوف على ما سبق .

﴿ يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاء ﴾ فكأنَّه يقول : يهدي من يشاء ويضلُّ من يشاء كما أنه يخلق ما يشاء من الخلق ألواناً .

ثم وصف الخلق فقال تعالى : ﴿ فَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي على بَطْنِهِ ﴾ مثل الحية ونحو ذلك فإن قيل لا يقال للدواب منهم ، وإن هذا اللفظ يستعمل للعقلاء ، قيل له : الدابة اسم عام وهو يقع على ذي روح ، فيقع ذلك على العقلاء وغيرهم ، فإذا كان هذا اللفظ يقع على العقلاء وغيرهم فذكر بلفظ العقلاء ، ولو قال : فمنه كان جائزاً ، وينصرف إلى قوله كل ، ولكنه لم يقرأ ، وإنما قال : يمشي على وَجْهِ المجاز ، وإن كان حقيقته المشي بالرِّجل ، لأنه جمعه مع الذي يمشي على وجه التبع .

ثم قال : ﴿ وَمِنهُمْ مَّن يَمْشِي على رِجْلَيْنِ ﴾ مثل الإنسان ونحوه ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي

على أَرْبَعٍ ﴾ أي على أربع قوائم مثل الدوابّ وأشباهها ، فإن قيل : إيش الحكمة في خلق كل شيء من الماء ؟ قيل له : لأن الخلق من الماء أعجب ، لأنه ليس شيء من الأشياء أشدّ طوعاً من الماء ، لأن الإنسان لو أراد أن يمسكه بيده ، أو أراد أن يبني عليه ، أو يتخذ منه شيئاً لا يمكنه ، والناس يتخذون من سائر الأشياء أنواع الأشياء ، قيل : فالله تعالى أخبر أنه يخلق الماء ألواناً من الخلق ، وهو قادر على كل شيء .

ثم قال : ﴿ يَخْلُقُ اللهُ مَا يَشَاءُ ﴾ يعني : كما يشاء ، وكيف يشاء ﴿ إِنَّ اللهَ على كُلِّ شَيْءٍ ﴾ من الخلق وخلقه ﴿ قَدِيرٌ ﴾ أي قادر .

قوله عز وجل : ﴿ لَّقَدْ أَنزَلْنَا ءايات مبينات ﴾ قرأ أبو عمرو وعاصم ونافع وابن كثير وأبو بكر : ﴿ مبينات ﴾ بنصب الياء في جميع القرآن ، يعني : مفصلات .

وقرأ حمزة والكسائي وابن عامر ﴿ مبينات ﴾ بكسر الياء ، يعني : يبين للناس دينهم .

(42/552)

﴿ واللهُ يَهْدِى مَن يَشَاءُ ﴾ أي يرشد من كان أهلاً لذلك ﴿ إلى صراط مُّسْتَقِيمٍ ﴾ يعني : دين مستقيم وهو دين الإسلام .

قوله عز وجل : ﴿ وَيَقُولُونَ امَنَّا بالله وبالرسول ﴾ قال مقاتل نزلت في شأن بشر المنافق

وذلك أن رجلاً من اليهود كانت بينه وبين خصومة ، وأن اليهودي دعا بشراً إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فقال بشر ، نتحاكم إلى كعب بن الأشرف ، فإنَّ محمداً يحيف علينا فنزل : ﴿ وَإِذَا دُعُواْ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ﴾ وقال في رواية أخرى : كان عثمان بن عفان رضي الله عنه اشترى أرضاً من عليّ ، فَنَدَّمَهُ قومه ، وقالوا : عمدت إلى أرض سَبْخَةٍ لا ينالها الماء فاشتريتها : رُدَّها عليه ، فقال : قد ابتعتها منه ، فقالوا : ردها ، فلم يزالوا به حتى أتاه فقال : اقبض مني أرضك ، فإني قد اشتريتها ، ولم أرضها لأنه لا ينالها الماء ، فقال له عليّ رضي الله عنه : بل اشتريتها ورضيتها وقبضتها مني ، وأنت تعرفها ، وتعلم ما هي ، فلا أقبلها منك .

قال : فدعا عليٌّ عثمان رضي الله عنهما أن يخاصمه إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال قوم عثمان : لا تخاصمه إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فإن أنت خاصمته إليه قَضَى له عليك ، وهو ابن عمه ، وأكرم عليه منك ، ثم اختصما إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقضى لعليّ على عثمان ، فنزل في قوم عثمان ﴿ وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالرَّسُولِ ﴾ ﴿ وَأَطَعْنَا ﴾ يعني : صدقنا بالله وبالرسول ، وأطعنا .

﴿ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ ﴾ أي يعرض عن طاعتهما طائفة منهم ﴿ مِن بَعْدِ ذَلِكَ ﴾ الإقرار ﴿ وَمَا أُوْلَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ يعني : بمصدقين .

قال بعضهم : هذا التفسير الذي ذكره الكلبي غير صحيح ، لأن قوم عثمان إن كانوا مؤمنين من الذين هاجروا معه إلى المدينة ، وقد ذكر أنهم ليسوا بمؤمنين .

(43/552)

وقال بعضهم هو الصحيح لأن قوم عثمان بعضهم منافقون مبغضون لبني هاشم لعداوة كانت بينهم في الجاهلية ، وكان عثمان يميل إلى قرابته ، ولا يعرف نفاقهم .

ويقال : ﴿ وَمَا أُوْلَئِكَ بالمؤمنين ﴾ يعني : ليس عملهم عمل المؤمنين المخلصين .

ثم قال عز وجل : ﴿ وَإِذَا دُعُواْ إِلَى الله وَرَسُولِهِ ﴾ يعني : إلى حكم الله ورسوله ويقال : إلى كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ﴿ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ﴾ يعني : ليقضي بينهم بالقرآن ﴿ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴾ يعني : طائفة منهم معرضون عن طاعة الله ورسوله .

قوله عز وجل : ﴿ وَإِن يَكُنْ لَّهُمُ الحق ﴾ يعني : القضاء ﴿ يَأْتُواْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴾ يعني : خاضعين ، مسرعين ، طائعين قال الزجاج : الإذعان الإسراع مع الطاعة .

ثم قال : ﴿ أَفِى قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ ﴾ أي : شك ونفاق ﴿ أَمِ ارتابوا ﴾ يعني : شكوا في القرآن ﴿ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ الله عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ ﴾ يعني : يجور الله عليهم ورسوله .

قال بعضهم : اللفظ لفظ الاستفهام ، والمراد به الإفهام ، فكأن الله تعالى يعلمنا بأن في قلوبهم مرضاً ، وأنهم شكوا .

ويقال في قلوبهم مرض ، يعني : بل في قلوبهم مرض أم ﴿ ارتابوا ﴾ بل شكوا ونافقوا .

ثم قال تعالى : ﴿ بَلْ أُوْلَئِكَ هُمُ الظالمون ﴾ يعني : هم الظالمون لا النبي صلى الله عليه وسلم .

ثم قال عز وجل : ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ المؤمنين ﴾ يعني : المصدقين ﴿ إِذَا دُعُواْ إِلَى الله وَرَسُولِهِ ﴾ يعني : إلى كتاب الله ورسوله يعني : أمر رسوله ﴿ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ﴾ يعني : ليقضي بينهم بالقرآن ﴿ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ أي : سمعنا قول النبي صلى الله عليه وسلم وأطعنا أمره ، فإن فعلوا ذلك ﴿ وأولئك هُمُ المفلحون ﴾ يعني : الناجون الفائزون .

(44/552)

ثم قال عز وجل : ﴿ وَمَن يُطِعِ الله وَرَسُولَهُ ﴾ يعني : يطع الله في الفرائض ، ويطع الرسول في السنن .

﴿ وَيَخْشَ الله ﴾ فيما مضى ﴿ وَيَتَّقْهِ ﴾ فيما يستقبل ﴿ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الفائزون ﴾ أي الناجون .

وروي عن ابن عباس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى : ﴿ وَمَن يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ ﴾ فيوحده ، ورسوله فيصدقه بالرسالة ، ويخشَ الله فيما مضى من ذنوبه ، ويتقه فيما بقي من عمره ، فأولئك هم الفائزون ، يعني : الناجون من العذاب آمنون عند سكرات الموت .

قال : فلما نزلت هذه الآية أقبل ، عثمان إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم وقال : يا رسول الله إن شئت لأخرجن من أرضي ولأدفعنها إليه ، وحلف على ذلك ، فمدحه الله عز وجل بذلك فقال عز وجل : ﴿ وَأَقْسَمُواْ بِاللهِ جَهْدَ أَيمانهم ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ 512.520 ﴾

(45/552)

وقال الثعلبى :

﴿ اللهُ نُورُ السماوات والأرض ﴾ .

قال ابن عباس : الله هادي أهل السموات والأرض لا هادي فيهما غيره ، فهم بنوره الى الحقّ يهتدون ، وبهداه من حيرة الضلالة ينجون وليس يهتدي ملك مقرّب ولا نبيّ مرسل إلاّ بهدى منه .

الضحّاك والقرظي : منوّر السموات والأرض .

مجاهد : مدبر الأُمور في السموات والأرض .

أُبي بن كعب وأبو العالية والحسن : مزيّن السموات بالشمس والقمر والنجوم ، ومزيّن الأرض بالأنبياء والعلماء والمؤمنين .

وقال بعضهم : يعني الأنوار كلّها منه كما يقال : فلان رحمة وسخطة وهو لا يكون في نفسه رحمة ولا سخطة وإنما يكون منه الرحمة والسخطة .

وقال بعض أهل المعاني : أصل النور هو التبرئة والتصفية ، يقال : امرأة نوار نساء نوار إذا كنّ متعرّيات من الريبة والفحشاء ، قال الشاعر :

نوارُ في صواحبها نوارُ . . . كما فاجاك سربٌ أو صوارُ

فمعنى النور هو المنزّه من كل عيب .

وقال بعض العلماء : النور على أربعة أوجه : نور متلألئ ، ونور متولّد ، ونور من جهة صفاء اللون ، ونور من جهة المدح ، فالنور المتلألئ مثل قرص الشمس القمر والكواكب وشعلة السراج ، والمتولد هو الذي يتولد من شعاع الشمس القمر والسراج فيقع على الأرض فيستنير به ، والذي هو من صفاء اللون مثل نور اللآلئ واليواقيت وسائر الجواهر ، وكلّ شيء له نور صاف ، والذي هو من جهة المدح قول الناس : فلان نور البلد وشمس العصر ، قال الشاعر :

فإنّك شمس والملوك كواكب . . . إذا ما بدت لم يبد منهنّ كوكب

وقال آخر :

قمر القبائل خالد بن يزيد . . . وقال آخر :

إذا سار عبد الله من مرو ليلة . . . فقد سار منها نورها وجمالها

ويجوز أن يقال : الله سبحانه نور من جهة المدح ؛ لأنه واجد الأشياء ونور جميع الأشياء منه دون سائر الأوجه ؛ لأنّ النور المحسوس الذي هو ضدّ الظلمة لا يخلو من شعاع وارتفاع وسطوع ولموع وهذه كلّها منفيّة عن الله سبحانه لأنها من أمارات الحدث .

(46/552)

قالوا : ولا يجوز أن يقال : لله يا نور إلاّ أن يضمّ إليه شيء كما لا يجوز أن يقال : يا بديع إلاّ أن يضمّ إليه شيء كما قال الله سبحانه ﴿ بَدِيعُ السماوات والأرض ﴾ [البقرة : 117] ﴿ نُورُ السماوات والأرض ﴾ .

وقرأ علي بن أبي طالب : الله نور السموات والأرض على الفعل .

﴿ مَثَلُ نُورِهِ ﴾ اختلفوا في هذه الكناية فقال بعضهم : هي عائدة الى المؤمن أي مثل نوره في قلب المؤمن حيث جعل الإيمان والقرآن في صدره .

روى الربيع عن أبي العالية عن أُبي بن كعب في هذه الآية قال : بدا بنور نفسه فذكره ثمَّ ذكر نور المؤمن فقال ﴿ مَثَلُ نُورِهِ ﴾ وهكذا كان يقرأ أُبي : مثل نور من آمن به ، وقال ابن عباس والحسن وزيد بن أسلم وابنه : أراد بالنور القرآن ، وقال كعب وسعيد بن جبير : هو محمد صلى الله عليه وسلم ومثله روى مقاتل عن الضحاك ، أضاف هذه الأنوار إلى نفسه تفضيلاً ، وروى عطيّة عن ابن عباس قال : يعني بالنور الطاعة ، يسمّي طاعته نوراً ثمَّ ضرب لها مثلا .

﴿ كَمِشْكَاةٍ ﴾ قال أهل المعاني : هذا من المقلوب أي كمصباح في مشكوة وهي الكوّة التي لا منفذ لها ، وأصلها الوعاء يجعل فيها الشيء ، والمشكاة : وعاء من أدم يُبرَّد فيه الماء ، وهي على وزن مفعلة كالمقراة والمصفاة . قال الشاعر :

كأنّ عينيه مشكاتان في حجر . . . قيضا اقتياضاً بأطراف المناقير

وقيل : المشكوة : عمود القنديل الذي فيه الفتيلة .

وقال مجاهد : هي القنديل

﴿ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾ أي سراج وأصله من الضوء ، ومنه الصبح ، ورجل صبيح الوجه مصبّح إذا كان وضيئاً ، وفرّق قوم بين المصباح والسراج فقال الخليل : المصباح : نفس السراج وقيل : السراج أعظم من المصباح لأنّ الله سبحانه سمّى الشمس سراجاً فقال ﴿

سِرَاجاً وَهَّاجاً ﴾ [النبأ : 13] و ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجاً ﴾ [الفرقان : 61] وقال في غيرها من الكواكب ﴿ وَزَيَّنَّا السماء الدنيا بِمَصَابِيحَ ﴾ [فصلت : 12] .

(47/552)

﴿ المصباح فِي زُجَاجَةٍ ﴾ قرأ نصر بن عاصم : زجاجة بفتح الزاي ، الباقون بضمّه .

قال الأخفش : فيها ثلاث لغات : ضمّ الزاي وفتحه وكسره .

﴿ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ ﴾ أي ضخم مضيء ، ودراريّ النجوم عظامها ، واختلف القرّاء فيه فقرأ أبو عمرو والكسائي مكسورة الدال مهموزة الياء ممدودة وهو من قول العرب : درأ النجم إذا طلع وارتفع ، ومن مكان الى آخر رجع ، وإذا انقضّ في اثر الشيطان فأسرع ، وأصله من الرفع ، ووزنه من الفعل فعيل ، وقرأ حمزة وأبو بكر مضمومة الدال مهموزة ممدودة .

قال أكثر النحاة : هي لحن لأنه ليس في الكلام فُعّيل بضم الفاء وكسر العين .

قال أبو عبيد : وأنا ارى لها وجهاً وذلك أنه درّو على وزن فُعّول من درأت مثل سبّوح وقدوّس ثمّ استثقلوا كثرة الضمّات فيه فردوا بعضها الى الكسرة كما قالوا عتيّاً وهو فعول من عتوت .

وقال بعضهم : هو مشتق على هذه القراءة من الدراة وهي البياض ويقال : منه ملح دَراني ، وقرأ سعيد بن المسيّب وأبو رجاء العطاردي بفتح الدال وبالهمز .

قال أبو حاتم : هو خطأ لأنّه ليس في الكلام فعيل وإن صحّ منهما فهما حجّة ، وقرأ الباقون بضم الدال وتشديد الياء من غير همز ، نسبوه الى الدُرّ في صفائه وهي اختيار أبي عبيد وأبي حاتم ، ثمَّ قال أبو عبيد : وإنما اخترنا هذه القراءة لعلل ثلاث :

إحداها : ما جاء في التفسير أنه منسوب الى الدُرّ لبياضه .

والثانية : للخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنّ أهل الجنة ليرون أهل عليين كما ترون الكوكب الدرّي في أُفق السماء وإنّ أبا بكر وعمر منهم وأنعما .

والثالثة : إجماع أهل الحرمين عليها .

(48/552)

﴿ يُوقَدُ ﴾ اختلف القرّاء فيه أيضاً فقرأ شيبة ونافع وأيوب وابن عامر وعاصم برواية حفص بياء مضمومة يعنون المصباح ، وقرأ حمزة والكسائي وخلف برواية أبي بكر بتاء مضمومة أرادوا الزجاجة ، وقرأ ابن محيص بتاء مفتوحة وتشديد القاف ورفع الدال على معنى تتوقد الزجاجة ، وقرأ الآخرون : بفتح التاء والقاف والدال على المضيء يعنون

المصباح .

﴿ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ ﴾ .

قال عكرمة وجماعة : يعني لا يسترها من الشمس جبل ولا واد ، فإذا طلعت الشمس أصابتها وإذا غربت أصابتها ، فهي صاحبة للشمس طول النهار وليست شرقية وحدها حتى لا تصيبها الشمس إذا غربت ، ولا هي غربية وحدها فلا تصيبها الشمس بالغداة إذا طلعت ، بل تأخذ حظّها من الأمرين ، وإذا كان كذلك كان أجود وأضوأ لزينتها .

وقال السدىّ وجماعة : يعني ليست في مقنوة لا تصيبها الشمس ولا هي بارزة للشمس لا يصيبها الظل ، فهي لم يضرّها الشمس ولا الظلّ .

وقال بعضهم : هي معتدلة ليست من شرق فيلحقها الحرّ ، ولا في غرب فيضرّ بها البرد وهي رواية ابن ظبيان عن ابن عباس .

وقال ابن زيد : هي شاميّة لأنّ الشام لا شرقي ولا غربي ، تقول : هي شرقيّة وغربيّة وهذا كقولك : فلان لا مسافر ولا مقيم ، وليس هذا بأبيض ولا أسود إذا كان له من كلا الأمرين قسط ونصيب ، قال الشاعر :

بأيدي رجال لم يشيموا سيوفهم . . . ولم تكثر القتلى بها حين سُلّت

يعني فعلوا هذا .

وقال الحسن : ليس هذه الشجرة من شجر الدنيا ، ولو كانت في الأرض لكانت شرقية أو

غربية ، وإنّما هو مثل ضربه الله سبحانه لنوره ، وقد أفصح القرآن بأنها من شجر الدنيا لأنها بدل من الشجرة فقال ﴿ زَيْتُونَةٍ ﴾ وإنما خصّ الزيتونة من بين سائر الاشجار أنّ دهنها أضوأ وأصفر .

وقيل : لأنّه يورق غصنها من أوله الى آخره ولا يحتاج دهنه إلى عصّار يستخرجه .

(49/552)

وقيل : لأنّها أول شجرة نبتت من الدنيا ، وقيل : بعد الطوفان ، وقيل : لأنّ منبتها منزل الأنبياء والأولياء والأرض المقدّسة ، وقيل : لأنّهُ بارك فيها سبعون نبيّاً منهم إبراهيم (عليه السلام) قال : لذلك قال ﴿ مُّبَارَكَةٍ ﴾ .

أخبرني أبو عبد الله الحسين بن محمد بن الحسين الحافظ في داري قال : حدّثنا عبد الله ابن يوسف بن أحمد بن مالك قال : حدّثنا أحمد بن عيسى بن السكين البلدي قال : حدّثني هاشم ابن القاسم الحراني قال : حدّثنا يعلى بن الأشدق عن عمّه عبد الله بن حراد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " اللهَم بارك في الزيت والزيتون ، اللهّم بارك في الزيت والزيتون " .

وأخبرني الحسين بن محمد قال : حدّثنا محمد بن علي بن الحسن الصوفي قال : حدّثنا أبو

شعيب الحراني قال : حدّثني أحمد بن عبد الملك قال : حدّثنا زهير قال : حدّثنا عبد الله بن عيسى عن عطاء عن أبي أُسيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "كلوا الزيت وادّهنوا به فإنّه من شجرة مباركة" .

وأخبرني الحسين قال : حدّثنا أحمد بن جعفر بن حمدان قال : حدّثنا إبراهيم بن سهلويه قال : حدّثنا محمد بن علي بن الحسن بن سفيق قال : سمعت أبي يقول : حدّثنا أبو حمزة عن جابر عن أبي الطفيل عن عبد الله بن ثابت الأنصاري قال : دعا بَنِيه ودعا بزيت فقال : ادهنوا رؤوسكم ، فقالوا : لا ندهن رؤوسنا بالزيت قال : فأخذ العصا وجعل يضربهم ويقول : أترغبون عن دهن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

وحدّثنا عبد الله بن يوسف بن مامولة قال : أخبرنا محمد بن عمر بن الخطاب الدينوري قال : حدّثنا أحمد بن عبد الله بن سنان قال : حدّثنا يحيى بن عثمان بن صالح قال : حدّثنا أبي قال : حدّثنا ابن لهيعة عن يزيد بن أبي حبيب عن أبي الخير عن عقبة بن عامر أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "عليكم بهذه الشجرة المباركة زيت الزيتون فتداووا به فإنّه مصحّة من الباسور" .

(50/552)

ثمّ قال سبحانه ﴿ يَكَادُ زَيْتُهَا يضياء ﴾ من صفائه وضيائه . ﴿ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ﴾ قيل : أن تصيبه نار ، واختلف العلماء في معنى هذا المثل والممّثل وفي المعنيّ بالمشكاة والزجاجة والمصباح ، فقال قوم : هذا مثل ضربه الله سبحانه لنبّيه محمد صلى الله عليه وسلم وقال شمر بن عطية : جاء ابن عباس إلى كعب الأحبار فقال له : حدّثني عن قوله سبحانه وتعالى ﴿ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ ﴾ الآية فقال كعب : هذا مثل ضربه الله سبحانه لمحمد صلى الله عليه وسلم فالمشكاة صدره ، والزجاجة قلبه ، والمصباح فيه النبوّة ، توقد من شجرة مباركة وهي شجرة النبوّة ، يكاد نور محمد وأمره يتّبين للناس ولو لم يتكلّم أنّه نبيّ كما يكاد ذلك الزيت يضيء ولو لم تمسَسه نار .

أخبرنا أبو بكر الجوزقي قال : حدّثنا أبو عثمان البصري قال : حدّثنا أحمد بن سلمة قال : حدّثنا الحسين بن منصور قال : حدّثنا أبان بن راشد الحرزي قال : حدّثنا الوراع بن نافع عن سالم عن ابن عمر في هذه الآية قال : المشكاة جوف محمد ، والزجاجة قلبه ، والمصباح النور الذي جعل الله فيه ، لا شرقية ولا غربية لا يهودي ولا نصراني ، توقد من شجرة مباركة إبراهيم ، نور على نور النور الذي جعل الله في قلب إبراهيم كما جعل في قلب محمد صلى الله عليه وسلم

وقال محمد بن كعب القرظي : المشكوة إبراهيم ، والزجاجة إسماعيل ، المصباح محمد صلى الله عليه وسلم سمّاه الله مصباحاً كما سمّاه سراجاً فقال عزَّ من قائل ﴿ وَسِرَاجاً مُّنِيراً ﴾ [الأحزاب : 46] ﴿ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ ﴾ وهي إبراهيم ، سمّاه مباركاً لأنَّ أكثر الأنبياء كانوا من صلبه ، لا شرقية ولا غربية يعني إبراهيم لم يكن يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً ، وإنّما قال ذلك لأنّ اليهود تصلّي قِبل المغرب والنصارى قِبل المشرق ﴿ يَكَادُ زَيْتُهَا يضيء وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ﴾ يعني تكاد محاسن محمد تظهر للناس قبل أن أُوحي إليه ﴿ نُّورٌ على نُورٍ ﴾ أي نبيّ من نسل نبيّ .

وروى مقاتل عن الضحّاك قال : شبّه عبد المطّلب بالمشكاة وعبد الله بالزجاجة والنبي صلى الله عليه وسلم بالمصباح ، كان في صلبهما فورث النبوّة من إبراهيم (عليه السلام) ﴿ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ ﴾ بل هي مكيّة لأنّ مكة وسط الدنيا .

ووصف بعض البلغاء هذه الشجرة فقال : هي شجرة التُقى والرضوان وشجرة الهدى والإيمان شجرة أصلها نبوّة ، وفرعها مروّة ، وأغصانها تنزيل ، وورقها تأويل ، وخدمها جبرئيل وميكائيل .

وقال آخرون : هذا مَثَل ضربه الله سبحانه للمؤمن .

روى الربيع بن أنس عن أبي العالية عن أُبي بن كعب قال : هذا مثل المؤمن ، فالمشكاة نفسه ، والزجاجة صدره ، والمصباح ما جعل الله سبحانه من الإيمان والقرآن في قلبه ، توقد من شجرة مباركة وهي الإخلاص لله وحده لا شريك له ، فمثله مثل شجرة التفَّ بها الشجر فهي خضراء ناعمة لا تصيبها الشمس على أيّ حال كانت لا إذا طلعت ولا إذا غربت ، وكذلك المؤمن قد أُجير من أن يصيبه شيء من الفتن وقد ابتلي بها ، فيثبته الله تعالى فيها ، فهو بين أربع خلال : إن أُعطي شكر ، وإن ابتلي صبر ، وإن حكم عدل ، وإن قال صدق ، فهو في سائر الناس كالرجل الحي يمشي في قبور الأموات .

ثمَّ قال : ﴿ نُورٌ على نُورٍ ﴾ فهو ينقلب في خمسة من النور : فكلامه نور ، وعمله نور ، ومدخله نور ، ومخرجه نور ، ومصيره الى النور يوم القيامة الى الجنة .

وقال ابن عباس : هذا مثل نور الله وهداه في قلب المؤمن كما يكاد الزيت الصافي يضيء قبل أن تمسّه النار ، فإن مسته النار ازداد ضوءاً على ضوئه كما يكاد قلب المؤمن يعمل بالهدى قبل أن يأتيه العلم ، فإذا جاءه العلم ازداد هدىً على هدىً ونوراً على نور كقول إبراهيم (عليه السلام) قبل أن تجيئه المعرفة ﴿ قَالَ هذا رَبِّي ﴾ حين رأى الكوكب من

غير أن أخبره أحد أنّ له ربّاً ، فلمّا أخبره الله أنّه ربّه ازداد هدىً على هدىً ثم قال ﴿ نُورٌ على نُورٍ ﴾ يعني إيمان المؤمن وعمله .

وقال الحسن وابن زيد : هذا مَثَل للقرآن في قلب المؤمن ، فكما أنّ هذا المصباح يُستضاء به وهو كما هو لا ينقص فكذلك القرآن يُهتدى به ويؤخذ به ويعمل به ، فالمصباح هو القرآن ، والزجاجة قلب المؤمن ، والمشكاة لسانه وفمه ، والشجرة المباركة شجرة الوحي .

﴿ يَكَادُ زَيْتُهَا يضيء وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ﴾ يقول : تكاد حجّة القرآن تتّضح وإن لم تُقرأ ، وقيل : تكاد حجج الله على خلقه تضيء لمن فكّر فيها وتدبّرها ولو لم ينزل القرآن .

(53/552)

﴿ نُورٌ على نُورٍ ﴾ يعني أنّ القرآن نور من الله يخلقه مع ما قد أقام لهم من الدلائل والأعلام قبل نزول القرآن فازدادوا بذلك نوراً على نور .

ثمّ أخبر أنّ هذا النور المذكور عزيز فقال عزّ من قائل ﴿ يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَن يَشَآءُ وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمثالَ لِلنَّاسِ ﴾ تقريباً للشيء الذي أراده إلى الأفهام وتسهيلا لسبل الإدراك على الأنام ﴿ واللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ .

ثمّ قال عزّ من قائل ﴿ فِي بُيُوتٍ ﴾ نظم الآية : ذلك المصباح في بيوت ويجوز أن يكون معناه

: توقد في بيوت وهي المساجد ، عن أكثر المفسّرين .

أخبرني ابن فنجويه الدينوري قال : حدّثنا ابن حنش المقري قال : حدّثنا محمد بن أحمد ابن إبراهيم الجوهري قال : حدّثنا عليّ بن أشكاب قال : حدّثنا محمد بن ربيعة الكلابي عن بكير ابن شهاب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : المساجد بيوت الله عزّ وجلّ في الأرض ، وهي تضيء لأهل السماء كما تضئ النجوم لأهل الأرض .

وقال عمرو بن ميمون : أدركت أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم يقولون : المساجد بيوت الله وحقّ على الله أن يكرم من زاره فيها .

وأخبرنا الحسين بن محمد بن الحسين قال : حدّثنا أحمد بن إبراهيم بن شاذان قال : حدّثنا عبيد الله بن ثابت الحريري قال : حدّثنا أبو سعيد الأشجّ قال : حدّثنا أبو أُسامة عن صالح بن حيّان عن ابن أبي بريدة في قوله سبحانه ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَن تُرْفَعَ ﴾ الآية . قال : إنّما هي أربع مساجد لم يبنها إلاّ نبيّ : الكعبة بناها إبراهيم وإسماعيل فجعلاها قبلة ، وبيت المقدس بناه داود وسليمان ، ومسجد المدينة بناه رسول الله صلى الله عليه وسلم ومسجد قباء أُسّس على التقوى ، بناه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(54/552)

وأخبرني أبو عبد الله الحسين بن محمد الدينوري قال : حدّثنا أبو زرعة أحمد بن الحسين بن علي الرازي قال : حدّثنا أبو العباس أحمد بن محمد بن سعيد الهمذاني بالكوفة قال : حدّثنا المنذر بن محمد القابوسي قال : حدّثني الحسين بن سعيد قال : حدّثني أبي عن أبان بن تغلب عن نفيع بن الحرث عن أنس بن مالك وعن بريدة قالا : " قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية ﴿ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ ﴾ إلى قوله ﴿ وَالأَبصَارُ ﴾ فقام رجل فقال : أيّ بيوت هذه يا رسول الله ؟

قال : " بيوت الأنبياء " .

قال : فقام إليه أبو بكر فقال : يا رسول الله هذا البيت منها –لبيت عليّ وفاطمة– ؟

قال : " نعم من أفاضلها " .

الصادق : بيوت النبي صلى الله عليه وسلم السدّي : المدينة .

وأولى الأقوال بالصواب أنّها المساجد لدلالة سياق الآية على أنها بيوت بنيت للصلاة والعبادة .

فإن قيل : ما الوجه في توحيده المشكاة والمصباح وجمع البيوت ، لا يكون مشكاة واحدة إلاّ في بيت واحد ؟ .

قلنا : هذا من الخطاب المتلوّن الذي يفتح بالتوحيد ويختم بالجمع كقوله سبحانه ﴿ يا أيها النبي إِذَا طَلَّقْتُمُ النسآء ﴾ ونحوها ، وقيل : رجع الى كلّ واحد من البيوت ، وقيل : هو مثل

قوله سبحانه ﴿ وَجَعَلَ القمر فِيهِنَّ نُوراً ﴾ [نوح : 16] وإنّما هو في واحدة منها .

﴿ أَن تُرْفَعَ ﴾ أي تبنى عن مجاهد نظيره قوله سبحانه ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ القواعد مِنَ البيت وَإِسْمَاعِيلُ ﴾ [البقرة : 127] وقال الحسن : تعظيم ، ﴿ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسمه ﴾ قال ابن عباس : يتلى فيها كتابهُ ، ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا ﴾ قرأ قتادة وأشهب العقيلي ونصر بن عاصم الليثي وابن عامر وعاصم بفتح الباء على غير تسمية الفاعل .

(55/552)

ثم قال ﴿ رِجَالٌ ﴾ أي هم رجال كما يقال : ضرب زيد وأكل طعامك فيقال : من فعل ؟ فيبيّن فيقول : فلان ، وفلان والوقف على هذه القراءة عند قوله ﴿ والآصال ﴾ . وقرأ الآخرون بكسر الباء جعلوا التسبيح فعلاً للرجال .

قال ابن عباس : كلّ تسبيح في القرآن صلاة يدلّ عليه قوله سبحانه ﴿ بالغدو والآصال ﴾ أي بالغداة والعشيّ .

قال المفسّرون : أراد الصلوات المفروضة ، فالصلاة التي تؤدّى بالغدوّ صلاة الفجر ، والتي تؤدّى في الآصال صلاة الظهر والعصر والعشاءين لأنّ اسم الأصيل لجميعها .

أخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا ابن شنبة قال : حدّثنا عمير بن مرداس قال : حدّثنا

إسماعيل بن أبي أُويس قال : حدّثنا عبد الرَّحْمن بن زيد عن أبيه عن عطاء بن يسار عن أبي هريرة أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ما من أحد يغدو ويروح إلى المسجد ويوثره على ما سواه إلاّ وله عند الله نزل معدّله في الجنّة كلّما غدا وراح ، كما لو أنّ أحدكم زارهُ من يحبّ زيارته في كرامته " .

وأخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا أحمد بن جعفر بن حمدان قال : حدّثنا إبراهيم بن سهلويه قال : حدّثنا أبو سلمة يحيى بن المغيرة المخزومي قال : حدّثنا إسحاق بن إبراهيم الحسني عن إبراهيم المدني عن أبي حازم عن سهل بن سعد الساعدي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " مَن غدا الى المسجد وراح ليتعلّم خيراً أو يعلّمه كان كمثل المجاهد في سبيل الله رجع غانماً ، ومن غدا إليه لغير ذلك كان كالناظر إلى الشيء ليس له ، يرى المصلين وليس منهم ، ويرى الذاكرين وليس منهم " .

(56/552)

ثمَّ وصفهم فقال ﴿ رِجَالٌ ﴾ قيل : وجه تخصيص الرجال بالذكر في هذه البيوت أنّه ليس على النساء جمعة ولا جماعة في المساجد ﴿ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ ﴾ قال أهل المعاني : إنّما خصّ التجارات لأنّها أعظم ما يشتغل بها الإنسان عن الصلوات وسائر الطاعات ﴿ وَلاَ

بَيْعٌ ﴾ إن قيل : إنّ التجارة اسم يقع على البيع والشراء ، فما معنى ضم ذكر البيع الى التجارة ؟ فالجواب عنه ما قال الواقدي أنّه أراد بالتجارة الشراء نظيره قوله سبحانه ﴿ وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَارَةً ﴾ [الجمعة : 11] يعني الشراء .

﴿ عَن ذِكْرِ اللهِ وَإِقَامِ الصلاة ﴾ أي إقامة الصلاة فحذف الهاء الزائدة لأجل الإضافة ، لأنّ الخافض وما خفض عندهم كالحرف الواحد فاستغنوا بالمضاف إليه من الهاء إذ كانت الهاء عوضاً من الواو ، ولأنّ أصل الكلمة أقومت إقواما فاستثقلوا الضمّة على الواو فسكّنوها فاجتمع حرفان ساكنان فأسقطوا الواو ونقلوا حركته الى القاف ، وأبدلوا من الواو المحذوفة هاء في آخر الحرف كالتكثير للحرف كما فعلوا في قولهم : عدة وزنة وأصلها وعدة ووزنة ، فلمّا أُضيفت حذفت الهاء وجعلت الإضافة عوضاً منها ، كقول الشاعر :

إنّ الخليط أجدّوا البين وانجردوا . . . وأخلفوك عِدَ الأمر الذي وعدُوا

أراد : عِدَة الأمر فأسقط الهاء منها لما أضافها .

﴿ وَإِيتَآءِ الزكاة ﴾ المفروضة عن الحسن .

وقال ابن عباس : الزكاة إخلاص الطاعة لله سبحانه وتعالى . قال ابن حيّان : هم أهل الصفّة .

وأخبرني ابن فنجويه قال : أخبرنا أحمد بن جعفر بن حمدان قال : حدّثنا إبراهيم بن سهلويه قال : حدّثنا سلمة بن شبيب قال : حدّثنا عبد الرزاق قال : أخبرنا جعفر بن

سليمان قال : أخبرني عمرو بن دينار مولى لآل الزبير عن سالم عن ابن عمر أنّه كان في السوق فأُقيمت الصلاة ، فأغلقوا حوانيتهم فدخلوا المسجد فقال ابن عمر : فيهم نزلت ﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ .

(57/552)

وأخبرني أبو عبد الله الحسين بن محمد الدينوري قال : حدّثنا أبو سعيد أحمد بن عمر بن حبيش الرازي قال : حدّثنا علي بن طيفور النسائي قال : حدّثنا قتيبة قال : حدّثنا ابن لهيعة عن دراج عن أبي حجير عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إنَّ للمساجد أوتاداً الملائكة جلساؤهم يتفقّدونهم ، وإن مرضوا عادوهم وإن كانوا في حاجة أعانوهم " .

وقال : جليس المسجد على ثلاث خصال : اخ مستفاد ، أو كلمة محكمة ، أو رحمة منتظرة .

﴿ يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ القلوب ﴾ من هوله بين طمع في النجاة وحذر من الهلاك .

﴿ والأبصار ﴾ أيّ ناحية يُؤخذ بهم أذات اليمين أم ذات الشمال ؟ ومن أين يؤتون كتبهم أمن قبل اليمين أم من قبل الشمال ؟ وذلك يوم القيامة .

﴿ لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ ﴾ يعني أنّهم اشتغلوا بذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ﴿ لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ أَحْسَنَ ﴾ أي بأحسن ﴿ مَا عَمِلُواْ ﴾ .

﴿ وَيَزِيدَهُمْ مِّن فَضْلِهِ ﴾ ما لم يستحقّوه بأعمالهم ﴿ واللهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ .

ثمَّ ضرب لأعمال الكافرين مثلا فقال عزَّ من قائل ﴿ والذين كفروا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ ﴾ وهو الشعاع الذي تراه نصف النهار في البراري عند شدّة الحرّ كأنّه ماء فإذا قرب منه الإنسان انفشّ فلم ير شيئاً ، وسمّي سراباً لأنّه ينسرب أي يجري كالماء .

﴿ بِقِيعَةٍ ﴾ وهو جمع القاع مثل جار وجيرة ، والقاع : المنبسط الواسع من الأرض وفيه يكون السراب .

(58/552)

﴿ يَحْسَبُهُ الظمآن ﴾ يظنّه العطشان ﴿ مَآءً حتى إِذَا جَآءَهُ ﴾ يعني ما قدّر أنّه ماء فلم يجده على ما قدّر ، وقيل : معناه جاء موضع السراب فاكتفى بذكر السراب عن موضعه ، كذلك الكافر يحسب أنّ عمله مغنى عنه أو نافعه شيئاً فإذا أتاه الموت واحتاج إلى عمله لم يجد عمله أغنى عنه شيئاً ولا نفعه ﴿ وَوَجَدَ اللهَ عِندَهُ ﴾ أي وجد الله بالمرصاد عند

ذلك ﴿ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ﴾ جزاء عمله ، ﴿ والله سَرِيعُ الحساب * أَوْ كَظُلُمَاتٍ ﴾ .

وهذا مثل آخر ضربه الله تعالى لأعمال الكفّار أيضاً يقول : مثل أعمالهم في خطائها وفسادها ، وضلالتهم وجهالتهم وحيرتهم فيها كظلمات ﴿ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ ﴾ وهو العميق الكثير الماء وذلك أشدّ ظلمة ، ولجّة البحر : معظمه ﴿ يَغْشَاهُ ﴾ يعلوه ﴿ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ ﴾ متراكم ﴿ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ﴾ قرأ ابن كثير برواية النبّال والفلنجي سُحاب بالرفع والتنوين ، ظلمات بالجرّ على البدل من قوله أو كظلمات . روى البّزي عنه ، سحاب ، ظلمات بالاضافة وقرأ الآخرون : سحاب ، ظلمات كلاهما بالرفع والتنوين ، وتمام الكلام عند قوله ﴿ سَحَابٌ ﴾ .

ثمّ ابتدأ فقال ﴿ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ﴾ ظلمة السحاب وظلمة الموج وظلمة البحر .

قال المفسّرون : أراد بالظلمات أعمال الكافر ، وبالبحر اللجّي قلبه ، وبالموج ما يغشى قلبه من الجهل والشك والحيرة ، وبالسحاب الرَّين والختم والطبع على قلبه .

قال أُبي بن كعب في هذه الآية : الكافر ينقلب في خمس من الظلم : فكلامه ظلمة ، وعمله ظلمة ومدخله ، ظلمة ومخرجه ظلمة ، ومصيره إلى الظلمات يوم القيامة إلى النار .

﴿ إِذَا أَخْرَجَ ﴾ يعني الناظر ﴿ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ﴾ أي لم يقرب من أن يراها من شدة الظلمات .

وقال الفرّاء : كادَ صلة أي لم يرها كما تقول : ما كدت أعرفه ، وقال المبرّد : يعني لم يرها إلاّ بعد الجهد كما يقول القائل : ما كدت أراك من الظلمة وقد رآه ولكن بعد يأس وشدّة ، وقيل : معناه قرب من الرؤية ولم يُرَ ، كما يقال : كاد العروس يكون أميراً ، وكاد النعام يطير .

﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُورٍ ﴾ يعني مَن لم يهده الله فلا إيمان له .

قال مقاتل : نزلت في عتبة بن ربيعة بن أُميّة ، كان يلتمس الدين في الجاهلية ولبس المسوح ثم كفر في الإسلام .

أخبرنا أبو عثمان سعيد بن محمد بن محمد بن إبراهيم العدل قال : حدّثنا أبو الحسين محمد بن منصور الواعظ قال : حدّثنا أبو عمر محمد بن عبد الواحد الزاهد قال : حدّثنا محمد ابن يونس الكديمي قال : حدّثنا عبيد الله بن عائشة قال : حدّثنا حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" أُنَّ الله تعالى خلقني من نوره ، وخلق أبا بكر من نوري ، وخلق عمر وعائشة من نور أبي بكر ، وخلق المؤمنين من أُمّتي من الرجال من نور عمر ، وخلق المؤمنات من أُمّتي من النساء من نور عائشة ، فمَن لم يحبّني ويحبّ أبا بكر وعمر وعائشة فما له من نور ، فنزلت عليه ﴿

وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُورٍ ﴾ " .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السماوات والأرض والطير صَآفَّاتٍ ﴾ أجنحتهنّ في الهواء ﴿ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاَتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ﴾ قال المفسّرون : الصلاة لبني آدم ، والتسبيح عام لغيرهم من الخلق وفيه وجوه من التأويل : أحدها : كلّ مصلّ ومسبّح قد علم الله صلاته وتسبيحه .

(60/552)

والثاني : كلّ مسبّح ومصلَ منهم قد علم صلوة نفسه وتسبيحه الذي كلّفه الله ، وقد علم كلّ منهم صلاة الله من تسبيحه . ﴿ والله عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ * وَلِلَّهِ مُلْكُ السماوات والأرض ﴾ أي تقديرها وتدبير أُمورها وتصريف أحوالها كما يشاء ﴿ وإلى الله المصير * أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُزْجِي ﴾ يسوق ﴿ سَحَاباً ﴾ الى حيث يريد ﴿ ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ﴾ أي يجمع بين قطع السحاب المتفرّقة بعضها إلى بعض ، والسّحاب جمع ، وإنما ذكر الكناية على اللفظ ﴿ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَاماً ﴾ متراكماً بعضه فوق بعض ﴿ فَتَرَى الودق يَخْرُجُ مِنْ خِلاَلِهِ ﴾ وسطه وهو جمع خلل ، وقرأ ابن عباس والضحاك من خَلَلِهِ .

﴿ وَيُنَزِّلُ مِنَ السمآء مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ ﴾ أي البرد ، ومن صلة ، وقيل : معناه وينزل

من السماء قدر جبال أو مثال جبال من برد إلى الأرض ، فمِن الأُولى للغاية لأنّ ابتداء الإنزال من السماء ، والثانية : للتبعيض لأنّ البرد بعض الجبال التي في السماء ، والثالثة : لتبيين الجنس لأنّ جنس تلك الجبال جنس البرد ﴿ فَيُصِيبُ بِهِ ﴾ أي بالبرد ﴿ مَن يَشَآءُ ﴾ فيهلكه ويهلك زروعه وأمواله ، ﴿ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَآءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ ﴾ أي ضوء برق السحاب ﴿ يَذْهَبُ بالأبصار ﴾ من شدّة ضوئه وبريقه ، وقرأ أبو جعفر : يُذهب بضم الياء وكسر الهاء ، غيره : من الذهاب .

﴿ يُقَلِّبُ الله الليل والنهار ﴾ يصرفهما في اختلافهما ويعاقبهما ﴿ إِنَّ فِي ذلك ﴾ الذي ذكرت من هذه الاشياء ﴿ لَعِبْرَةً لأُوْلِي الأبصار ﴾ لذوي العقول .

(61/552)

أخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا أبو بكر بن مالك القطيعي قال : حدّثنا عبد الله بن أحمد ابن حنبل قال : حدّثني أبي قال : حدّثنا سفيان عن الزهري عن سعيد عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " قال الله عزَّ وجل : يؤذيني ابن آدم بسبّ الدهر وأنا الدهر ، بيدي الأمر ، أُقلّب الليل والنهار " .

﴿ والله خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ ﴾ خالق على الاسم كوفي غير عاصم ، الباقون : خَلَق كلّ دابّة

على الفعل ﴿ مِّن مَّآءٍ ﴾ أي من نطفة ، وقيل : إنما قال ﴿ مِّن مَّآءٍ ﴾ لأنَّ أصل الخلق من الماء ، ثم قلب بعض الماء الى الريح فخلق منها الملائكة ، وبعضه إلى النار فخلق منه الجن ، وبعضه إلى الطين فخلق منه آدم .

﴿ فَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي على بَطْنِهِ ﴾ كالحيّات والحيتان ﴿ وَمِنهُمْ مَّن يَمْشِي على رِجْلَيْنِ ﴾ كالطير ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي على أَرْبَعٍ ﴾ قوائم كالأنعام والوحوش والسباع ولم يذكر ما يمشي على أكثر من أربع لأنّه كالذي يمشي على أربع في رأي العين .

﴿ يَخْلُقُ الله مَا يَشَآءُ ﴾ كما يشاء ﴿ إِنَّ الله على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (*) لَّقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ والله يَهْدِي مَن يَشَآءُ إلى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (*) وَيَقُولُونَ آمَنَّا بالله وبالرسول وَأَطَعْنَا ﴾ يعني المنافقين ﴿ ثُمَّ يتولى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مِّن بَعْدِ ذلك ﴾ ويدعوا الى غير حكم الله .

(62/552)

قال الله سبحانه وتعالى ﴿ وَمَآ أولئك بالمؤمنين ﴾ نزلت هذه الآيات في بشر المنافق وخصمه اليهودي حين اختصما في أرض فجعل اليهودي يجرّه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليحكم بينهما ، وجعل المنافق يجرّه الى كعب بن الأشرف ويقول : إنّ محمّداً يحيف

علينا ، فذلك قوله ﴿ وَإِذَا دعوا إِلَى الله وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ﴾ الرسول بحكم الله ﴿ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ * وَإِن يَكُنْ لَّهُمُ الحق يأتوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴾ مطيعين منقادين لحكمه ﴿ أَفِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ أَمِ ارتابوا ﴾ يعني أنّهم كذلك فجاء بلفظ التوبيخ ليكون أبلغ في الذمّ ، كقول جرير في المدح :

ألستم خير من ركب المطايا . . . وأندى العالمين بطون راح

يعني أنتم كذلك .

﴿ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ الله عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ ﴾ أي يظلم ﴿ بَلْ أولئك هُمُ الظالمون ﴾ لأنفسهم بإعراضهم عن الحق والواضعون المحاكمة في غير موضعها .

﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ المؤمنين إِذَا دعوا إِلَى الله ﴾ أي الى كتاب الله ﴿ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ﴾ نصب القول على خبر كان واسمه في قوله ﴿ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وأولئك هُمُ المفلحون * وَمَن يُطِعِ الله وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ الله وَيَتَّقْهِ فأولئك هُمُ الفآئزون ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الكشف والبيان حـ 7 صـ 100.114 ﴾

(63/552)

وقال الزمخشري :

﴿ اللَّهُ نُورُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ ﴾

نظير قوله اللَّهُ نُورُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ مع قوله مَثَلُ نُورِهِ ، وَيَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ :

قولك : زيد كرم وجود ، ثم تقول : ينعش الناس بكرمه وجوده . والمعنى : ذو نور السماوات ، وصاحب نور السماوات ، ونور السماوات والأرض الحق ، شبهه بالنور في ظهوره وبيانه ، كقوله تعالى اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ : أي من الباطل إلى الحق .

(64/552)

وأضاف النور إلى السماوات والأرض لأحد معنيين : إما للدلالة على سعة إشراقه وفشوّ إضاءته حتى تضيء له السماوات والأرض . وإما أن يراد أهل السماوات والأرض وأنهم يستضيئون به مَثَلُ نُورِهِ أي صفة نوره العجيبة الشأن في الإضاءة كَمِشْكاةٍ كصفة مشكاة وهي الكوّة في الجدار غير النافذة فِيها مِصْباحٌ سراج ضخم ثاقب فِي زُجاجَةٍ أراد قنديلا من زجاج شامي «1» أزهر . شبهه في زهرته بأحد الدراري من الكواكب وهي المشاهير ، كالمشتري والزهرة والمرّيخ وسهيل ونحوها يُوقَدُ هذا المصباح مِنْ شَجَرَةٍ أي

ابتدأ ثقوبه من شجرة الزيتون ، يعنى : زويت ذبالته «2» بزيتها مُبارَكَةٍ كثيرة المنافع . أو : لأنها تنبت في الأرض التي بارك فيها للعالمين . وقيل : بارك فيها سبعون نبيا ، منهم إبراهيم عليه السلام . وعن النبي صلى اللّه عليه وسلم : «عليكم بهذه الشجرة زيت الزيتون فتداووا به ، فإنه مصحة من الباسور «3»» لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ أى منبتها الشام . وأجود الزيتون : زيتون الشام . وقيل : لا في مضحى ولا مقناة ، «4» ولكن الشمس والظل يتعاقبان عليها ، وذلك أجود لحملها وأصفى لدهنها .

قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «لا خير في شجرة في مقناة ، ولا نبات في مقناة ، ولا خير فيهما في مضحى» «5» وقيل : ليست مما تطلع عليه الشمس في وقت شروقها أو غروبها فقط ، بل تصيبها بالغداة والعشى جميعا ، فهي شرقية وغربية ، ثم وصف الزيت بالصفاء والوبيص ، «6» وأنه لتلألئه يَكادُ يضيء من غير نار نُورٌ عَلى نُورٍ أى هذا الذي شبهت به الحق نور متضاعف قد تناصر فيه المشكاة والزجاجة والمصباح والزيت ، حتى لم تبق مما يقوى النور ويزيده إشراقا ويمدّه بإضاءة : بقية ، وذلك أن المصباح إذا كان في مكان متضايق كالمشكاة كان أضوأ له وأجمع لنوره ، بخلاف المكان الواسع فإنّ الضوء ينبث فيه وينتشر ، والقنديل أعون شيء على زيادة الإنارة ، وكذلك الزيت وصفاؤه يَهْدِي اللَّهُ لهذا النور الثاقب مَنْ يَشاءُ من عباده ، أى : يوفق لإصابة الحق من نظر وتدبر بعين عقله

---

(1) . قوله «شامي» نعت لزجاج ، ويوضحه قوله «أزهر» وعبارة النسفي : شامي

بكسر الزاى ، أى قرأ الشامي :

زجاجة ، بكسر الزاى . (ع) [. . . . .]

(2) . قوله «يعنى زويت ذبالته بزيتها » في الصحاح : زويت الشيء : جمعته وقبضته . وانزوت الجلدة في النار ، أى : اجتمعت وتقبضت . وفيه «الذبالة» الفتيلة ، ولعله «رويت» بالراء» كما في عبارة النسفي .

(3) . أخرجه الطبراني وابن أبى حاتم في العلل وأبو نعيم في الطب والثعلبي كلهم من طريق عثمان بن صالح عن ابن لهيعة عن يزيد بن حبيب عن أبى الخير عن عتبة بن عامر بهذا

(4) . قوله «و لا مقنأة» في الصحاح «المقأة» المكان الذي لا تطلع عليه الشمس .

(5) . لم أجده

(6) . قوله «و الوبيص» البريق واللمعان ، أفاده الصحاح . (ع)

(65/552)

والإنصاف من نفسه ، ولم يذهب عن الجادة الموصلة إليه يمينا وشمالا . ومن لم يتدبر فهو كالأعمى الذي سواء عليه جنح الليل الدامس وضحوة النهار الشامس . وعن علىّ رضى اللّه عنه :

«اللّه نور السماوات والأرض» أى نشر فيها الحق وبثه فأضاءت بنوره. أو نور قلوب أهلها به، وعن أبىّ بن كعب رضى اللّه عنه: مثل نور من آمن به. وقرئ: زجاجة الزجاجة، بالفتح والكسر:

ودرّىّ: منسوب إلى الدرّ أى، أبيض متلألأ. ودرّىء: بوزن سكيت: يدرأ الظلام بضوئه.

ودريء كمريق. ودرى كالسكينة، عن أبى زيد. وتوقد: بمعنى تتوقد. والفعل للزجاجة. ويوقد، وتوقد، بالتخفيف. ويوقد، بالتشديد. ويوقد بحذف التاء وفتح الياء، لاجتماع حرفين زائدين وهو غريب. ويمسه بالياء، لأن التأنيث ليس بحقيقى، والضمير فاصل.

[سورة النور (24): الآيات 36 إلى 38]

فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيها بِالْغُدُوِّ وَالْآصالِ (36) رِجالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقامِ الصَّلاةِ وَإِيتاءِ الزَّكاةِ يَخافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصارُ (37) لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ ما عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ (38)

فِي بُيُوتٍ يتعلق بما قبله، أى، كمشكاة في بعض بيوت اللّه وهي المساجد، كأنه قيل: مثل نوره كما يرى في المسجد نور المشكاة التي من صفتها كيت وكيت. أو بما بعده، وهو

يسبح ، أى : يسبح له رجال في بيوت . وفيها تكرير ، كقولك : زيد في الدار جالس فيها .

أو بمحذوف ، كقوله فِي تِسْعِ آياتٍ أى سبحوا في بيوت . والمراد بالإذن : الأمر . ورفعها : بناؤها ، كقوله بَناها . رَفَعَ سَمْكَها فَسَوَّاها ، وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْراهِيمُ الْقَواعِدَ وعن ابن عباس رضى اللّه عنهما : هي المساجد ، أمر اللّه أن تبنى . أو تعظيمها والرفع من قدرها . وعن الحسن رضى اللّه عنه : ما أمر اللّه أن ترفع بالبناء ، ولكن بالتعظيم وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ أوفق له ، وهو عام في كل ذكر . وعن ابن عباس رضى اللّه عنهما : وأن يتلى فيها كتابه . وقرئ : يسبح ، على البناء للمفعول ، ويسند إلى أحد الظروف الثلاثة ، أعنى : لَهُ فِيها بِالْغُدُوِّ ، ورِجالٌ مرفوع بما دلّ عليه يُسَبِّحُ وهو يسبح له . وتسبح ، بالتاء وكسر الباء . وعن أبى جعفر رضى اللّه عنه بالتاء وفتح الباء . ووجهها أن يسند إلى أوقات الغدوّ والآصال على زيادة الباء ، وتجعل الأوقات مسبحة . والمراد ربها ، كصيد عليه يومان . والمراد وحشهما . والآصال : جمع أصل وهو العشى .

والمعنى : بأوقات الغدوّ ، أى : بالغدوات . وقرئ : والإيصال ، وهو الدخول في الأصيل . يقال : آصل ، كأظهر وأعتم . التجارة : صناعة التاجر ، وهو الذي يبيع ويشترى للربح ، فإما

أن يريد : لا يشغلهم نوع من هذه الصناعة ، ثم خص البيع لأنه في الإلهاء أدخل ، من قبل أن التاجر إذا اتجهت له بيعة رابحة وهي طلبته الكلية من صناعته : ألهته ما لا يلهيه شراء شيء يتوقع فيه الربح في الوقت الثاني ، لأن هذا يقين وذاك مظنون . وإمّا أن يسمى الشراء تجارة ، إطلاقا لاسم الجنس على النوع ، كما تقول : رزق فلان تجارة رابحة إذا اتجه له بيع صالح أو شراء . وقيل :

التجارة لأهل الجلب ، اتجر فلان في كذا : إذا جلبه . التاء في إقامة ، عوض من العين الساقطة للإعلال . والأصل : إقوام» فلما أضيفت أقيمت الإضافة مقام حرف التعويض ، فأسقطت . ونحوه :

وأخلفوك عد الأمر الّذى وعدوا «1»

وتقلب القلوب والأبصار : إما أن تتقلب وتتغير في أنفسها : وهو أن تضطرب من الهول والفزع وتشخص ، كقوله وَإِذْ زاغَتِ الْأَبْصارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَناجِرَ . وإما أن تتقلب أحوالها وتتغير فتفقه القلوب بعد أن كانت مطبوعا عليها لا تفقه ، وتبصر الأبصار بعد أن كانت عميا لا تبصر أَحْسَنَ ما عَمِلُوا أى أحسن جزاء أعمالهم ، كقوله لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنى والمعنى يسبحون ويخافون ، ليجزيهم ثوابهم مضاعفا ويزيدهم على الثواب تفضلا . وكذلك معنى قوله الْحُسْنى وَزِيادَةٌ المثوبة الحسنى وزيادة عليها من التفضل .

وعطاء اللّه تعالى : إما تفضل ، وإما ثواب ، وإما عوض وَاللَّهُ يَرْزُقُ ما يتفضل به بِغَيْرِ حِسابٍ فأما الثواب فله حساب لكونه على حسب الاستحقاق .

[سورة النور (24) : آية 39]

وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمالُهُمْ كَسَرابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ ماءً حَتَّى إِذا جاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسابِ (39)

السراب : ما يرى في الفلاة من ضوء الشمس وقت الظهيرة . يسرب على وجه الأرض كأنه ماء يجرى . والقيعة : بمعنى القاع أو جمع قاع ، وهو المنبسط المستوى من الأرض ، كجيرة في جار . وقرئ : بقيعات : بتاء ممطوطة ، كديمات وقيمات ، في ديمة وقيمة . وقد جعل بعضهم بقيعاة بتاء مدورة ، كرجل عزهاة ، شبه ما يعمله من لا يعتقد الإيمان ولا يتبع الحق من الأعمال الصالحة التي يحسبها تنفعه عند اللّه وتنجيه من عذابه ثم تخيب في العاقبة أمله ويلقى خلاف ما قدّر ، بسراب يراه الكافر بالساهرة وقد غلبه عطش يوم القيامة فيحسبه ماء ، فيأتيه فلا يجد ما رجاه ويجد زبانية اللّه عنده يأخذونه فيعتلونه إلى جهنم فيسقونه الحميم والغساق ، وهم الذين قال اللّه فيهم عامِلَةٌ ناصِبَةٌ ، وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً

، وَقَدِمْنا إِلى ما عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْناهُ هَباءً مَنْثُوراً

---

(1) . تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة 323 فراجعه إن شئت اه مصححه

وقيل : نزلت في عتبة بن ربيعة بن أمية ، قد كان تعبد ولبس المسوح والتمس الدين في الجاهلية ، ثم كفر في الإسلام .

[سورة النور (24) : آية 40]

أَوْ كَظُلُماتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحابٌ ظُلُماتٌ بَعْضُها فَوْقَ بَعْضٍ إِذا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَراها وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَما لَهُ مِنْ نُورٍ (40)

اللجىّ : العميق الكثير الماء ، منسوب إلى اللج وهو معظم ماء البحر . وفي أَخْرَجَ ضمير الواقع فيه لَمْ يَكَدْ يَراها مبالغة في لم يرها أى : لم يقرب أن يراها ، فضلا عن أن يراها . ومثله قول ذى الرمة :

إذا غيّر النّأى المحبّين لم يكد رسيس الهوى من حبّ ميّة يبرح «1»

أى لم يقرب من البراح فما باله يبرح؟ شبه أعمالهم أولا في فوات نفعها وحضور ضررها بسراب لم يجده من خدعه من بعيد شيئا ، ولم يكفه خيبة وكمدا أن لم يجد شيئا كغيره من السراب ، حتى وجد عنده الزبانية تعتله إلى النار ، ولا يقتل ظمأه بالماء . وشبهها ثانيا في ظلمتها وسوادها لكونها باطلة ، وفي خلوها عن نور الحق بظلمات متراكمة من لج البحر

والأمواج والسحاب ، ثم قال : ومن لم يوله نور توفيقه وعصمته ولطفه ، فهو في ظلمة الباطل لا نور له .

وهذا الكلام مجراه مجرى الكنايات ، لأنّ الألطاف إنما تردف الإيمان والعمل . أو كونهما مترقبين . ألا ترى إلى قوله وَالَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا وقوله وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وقرئ : سحاب ظلمات ، على الإضافة . وسحاب ظلمات ، برفع سَحابٌ وتنوينه وجرّ كَظُلُماتٍ بدلا من ظُلُماتٌ الأولى .

[سورة النور (24) : الآيات 41 إلى 42]

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِما يَفْعَلُونَ (41) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (42)

---

(1) إذا غير النأى المحبين لم يكد رسيس الهوى من حب مية يبرح

فلا القرب يدنو من هواها ملالة ولا حبها أن تنزح الدار ينزح

لذي الرمة . والنأى : البعد . ويقال : رس وأرس ، إذا لزم . والرسيس : بقية المرض اللازمة داخل البدن .

ويبرح : يذهب ، أى : لم يقرب من البراح . وروى أنه لما قدم ذو الرمة الكوفة اعترض عليه ابن شبرمة في ذلك بأنه يدل على زوال رسيس الهوى ، فغيره ذو الرمة بقوله : لم أجد ، وقال

ابن عتبة : حدثت أبي بذلك فقال :

أخطأ ابن شبرمة ، وأخطأ ذو الرمة في تغييره ، وإنما هو كقوله تعالى لَمْ يَكَدْ يَراها والملالة :

السآمة . وتنزح :

تبعد . وينزح : يزول .

(68/552)

صَافَّاتٍ يصففن أجنحتهنّ في الهواء . والضمير في عَلِمَ لكل أو للّه . وكذلك في صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ والصلاة : الدعاء . ولا يبعد أن يلهم اللّه الطير دعاءه وتسبيحه كما ألهمها سائر العلوم الدقيقة التي لا يكاد العقلاء يهتدون إليها .

[سورة النور (24) : الآيات 43 إلى 44]

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكاماً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّماءِ مِنْ جِبالٍ فِيها مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشاءُ يَكادُ سَنا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصارِ (43) يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ إِنَّ فِي ذلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصارِ (44)

يُزْجِي يسوق . ومنه : البضاعة المزجاة : التي يزجيها كل أحد لا يرضاها . والسحاب يكون واحدا كالعماء ، وجمعا كالرباب «1» . ومعنى تأليف الواحد : أنه يكون قزعا

«2» فيضم بعضه إلى بعض . وجاز بينه وهو واحد ، لأنّ المعنى بين أجزائه ، كما قيل في قوله :

. . . بين الدّخول فحومل «3»

والركام : المتراكم بعضه فوق بعض . والودق : المطر مِنْ خِلالِهِ من فتوقه ومخارجه : جمع خلل ، كجبال في جبل . وقرئ : من خلله ويُنَزِّلُ بالتشديد . ويكاد سنا : على الإدغام «4» .

---

(1) . قوله «كالرباب» في الصحاح : الرباب - بالفتح - سحاب أبيض . (ع)

(2) . قوله «أن يكون قزعا» القزع : قطع من السحاب رقيقة ، الواحدة : قزعة . (ع)

(3) قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل

لامرئ القيس مطلع معلقته ، وروى أنه راهق ولم يقل شعرا ، فقال أبوه : إنه ليس أبيض . وأمر اثنين من خاصته أن يخرجا به إلى مكان بعيد فيذبحاه هناك ، فلما أرادا ذبحه بكى وأنشأ البيت إلى آخر القصدة ، فرجعا به .

وقالا : هذا أشعر من على وجه الأرض : لقد وقف واستوقف ، وبكى واستبكى ، وذكر واستذكر وهي الحبيب والدار في نصف بيت . والسقط - مثلث - : طرف اللوى ، أى : المكان الملتوى المعوج . وهو هنا اسم مكان بعينه . وبين لا يضاف إلا لمتعدد المعنى ، أو معطوف عليه بالواو خاصة ، فالمعنى : بين أجزاء الدخول فحومل . أى فأجزاء حومل

كلاهما اسم موضع ، ولعل «سقط اللوى» ممتد بينهما . ويجوز أن الفاء بمعنى الواو ، فيكون «سقط اللوى» بين هذين الموضعين ، وتكون استعارة الفاء هنا للدلالة على قرب ما بين الدخول وحومل .

(4) . قوله «ويكاد سنا على الإدغام» لعل رسمه هكذا «يكاسنا» إلا أن يعتبر ما قبل الإدغام . (ع)

(69/552)

وبرقه : جمع برقة ، وهي المقدار من البرق ، كالغرفة واللقمة . وبرقه : بضمتين للإتباع . كما قيل في جمع فعلة : فعلات كظلمات . وسناء برقه : على المدّ المقصور ، بمعنى الضوء .

والممدود :

بمعنى العلو والارتفاع ، من قولك : سنىّ ، المرتفع . ويَذْهَبُ بِالْأَبْصارِ على زيادة الباء ، كقوله وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ عن أبي جعفر المدني . وهذا من تعديد الدلائل على ربوبيته وظهور أمره ، حيث ذكر تسبيح من في السماوات والأرض وكل ما يطير بين السماء والأرض ودعاؤهم له وابتهالهم إليه ، وأنه سخر السحاب التسخير الذي وصفه وما يحدث فيه من أفعاله حتى ينزل المطر منه ، وأنه يقسم رحمته بين خلقه ويقبضها ويبسطها على ما تقتضيه

حكمته ، ويريهم البرق في السحاب الذي يكاد يخطف أبصارهم ، ليعتبروا ويحذروا . ويعاقب بين الليل والنهار ، ويخالف بينهما بالطول والقصر . وما هذه إلا براهين في غاية الوضوح على وجوده وثباته . ودلائل منادية على صفاته ، لمن نظر وفكر وتبصر وتدبر .

فإن قلت : متى رأى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم تسبيح من في السماوات ودعاءهم ، وتسبيح الطير ودعاءه ، وتنزيل المطر من جبال برد في السماء ، حتى قيل له : ألم تر ؟ قلت : علمه من جهة إخبار اللّه إياه بذلك على طريق الوحى .

فإن قلت : ما الفرق بين من الأولى والثانية والثالثة في قوله مِنَ السَّماءِ مِنْ جِبالٍ ، مِنْ بَرَدٍ ؟ قلت : الأولى لابتداء الغاية . والثانية للتبعيض . والثالثة للبيان . أو الأوليان للابتداء ، والآخرة للتبعيض . ومعناه : أنه ينزل البرد من السماء من جبال فيها ، وعلى الأوّل مفعول «ينزل» :

«من جبال» . فإن قلت : ما معنى مِنْ جِبالٍ فِيها مِنْ بَرَدٍ ؟ قلت : فيه معنيان . أحدهما : أن يخلق اللّه في السماء جبال برد كما خلق في الأرض جبال حجر . والثاني : أن يريد الكثرة بذكر الجبال ، كما يقال : فلان يملك جبالا من ذهب .

[سورة النور (24) : آية 45]

وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ ماءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ ما يَشاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (45)

وقرئ : خالق كل دابة . ولما كان اسم الدابة موقعا على المميز وغير المميز ، غلب المميز فأعطى ما وراءه حكمه ، كأن الدواب كلهم مميزون . فمن ثمة قيل : فمنهم ، وقيل : من يمشى في الماشي على بطن والماشي على أربع قوائم . فإن قلت : لم نكر الماء في قوله مِنْ ماءٍ ؟

قلت : لأنّ المعنى أنه خلق كل دابة من نوع من الماء مختص بتلك الدابة . أو خلقها من ماء مخصوص وهو النطفة ، ثم خالف بين المخلوقات من النطفة ، فمنها هوام ومنها بهائم ومنها ناس .

(70/552)

ونحوه قوله تعالى يُسْقى بِماءٍ واحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَها عَلى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ . فإن قلت : فما باله معرّفا في قوله وَجَعَلْنا مِنَ الْماءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ؟ قلت : قصد ثمة معنى آخر : وهو أن أجناس الحيوان كلها مخلوقة من هذا الجنس «1» الذي هو جنس الماء ، وذلك أنه هو الأصل وإن تخللت بينه وبينها وسائط . قالوا : خلق الملائكة من ريح خلقها من الماء ، والجنّ من نار خلقها منه . وآدم من تراب خلقه منه . فإن قلت : لم جاءت الأجناس الثلاثة على هذا الترتيب ؟ قلت :

قدم ما هو أعرق في القدرة وهو الماشي بغير آلة مشى من أرجل أو قوائم ، ثم الماشي على رجلين ، ثم الماشي على أربع . فإن قلت : لم سمى الزحف على البطن مشيا ؟ قلت : على سبيل الاستعارة ، كما قالوا في الأمر المستمرّ : قد مشى هذا الأمر . ويقال : فلان لا يتمشى له أمر .

ونحوه استعارة الشقة مكان الجحفلة «2» ، والمشفر مكان الشفة . ونحو ذلك . أو على طريق المشاكلة لذكر الزاحف مع الماشين .

[سورة النور (24) : الآيات 46 إلى 47]

لَقَدْ أَنْزَلْنا آياتٍ مُبَيِّناتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (46) وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ وَما أُولئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (47)

وَما أُولئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ إشارة إلى القائلين آمنا وأطعنا . أو إلى الفريق المتولى ، فمعناه على الأوّل : إعلام من اللّه بأنّ جميعهم منتف عنهم الإيمان لا الفريق المتولى وحده . وعلى الثاني :

إعلام بأنّ الفريق المتولى لم يكن ما سبق لهم من الإيمان إيمانا ، إنما كان ادّعاء باللسان من غير مواطأة القلب ، لأنه لو كان صادرا عن صحة معتقد وطمأنينة نفس لم يتعقبه التولي والإعراض .

والتعريف في قوله بِالْمُؤْمِنِينَ دلالة على أنهم ليسوا بالمؤمنين الذين عرفت : وهم الثابتون

المستقيمون على الإيمان ، الموصوفون في قوله تعالى إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا .

---

(1) . قال محمود : «إن قلت لم نكر ماء هاهنا وعرفه في قوله وَجَعَلْنا مِنَ الْماءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ؟ قلت :

الغرض فيما نحن فيه أنه تعالى خلق كل دابة من نوع من الماء مخصوص وهو النطفة ، ثم خالف بين المخلوقات بحسب اختلاف نطفها ، فمنها كذا ومنها كذا . ونحوه قوله يُسْقى بِماءٍ واحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَها عَلى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ وأما آية «اقترب» فالغرض فيها أن أجناس الحيوانات كلها مخلوقة من هذا الجنس» قال أحمد : وتحرير الفرق أن المقصد في الأولى إظهار الآية بأن شيئا واحدا تكونت منه بالقدرة أشياء مختلفة ، ذكر تفصيلها في آية النور والرعد :

والمقصد في آية اقترب : أنه خلق الأشياء المتفقة في جنس الحياة من جنس الماء المختلف الأنواع ، فذكر معرفا ليشمل أنواعه المختلفة ، فالآية في الأول لإخراج المختلف من المتفق ، والله أعلم .

(2) . قوله «مكان الجحفلة» في الصحاح : الجحفلة للحافر ، كالشفة للإنسان ، اه أى لذي الحافر . (ع)

[سورة النور (24) : الآيات 48 إلى 49]

وَإِذا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ (48) وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (49)

معنى إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ إلى رسول اللّه كقولك : أعجبنى زيد وكرمه ، تريد : كرم زيد .

ومنه قوله :

غلّسنه قبل القطا وفرّطه «1»

أراد : قبل فرط القطا . روى : أنها نزلت في بشر المنافق وخصمه اليهودي حين اختصما في أرض ، فجعل اليهودىّ يجرّه إلى رسول اللّه ، والمنافق يجرّه إلى كعب بن الأشرف ويقول : إن محمدا يحيف علينا . وروى أنّ المغيرة بن وائل كان بينه وبين علىّ بن أبى طالب رضى اللّه عنه خصومة في ماء وأرض ، فقال المغيرة : أمّا محمد فلست آتيه ولا أحاكم إليه فإنه يبغضني وأنا أخاف أن يحيف علىّ إِلَيْهِ صلة يأتوا ، لأنّ «أتى و«جاء» قد جاءا معدّيين بإلى ، أو يتصل بمذعنين لأنه في معنى مسرعين في الطاعة . وهذا أحسن لتقدّم صلته ودلالته على الاختصاص . والمعنى :

أنهم لمعرفتهم أنه ليس معك إلا الحق المرّ والعدل البحت . يزورّون عن المحاكمة إليك إذا ركبهم الحق ، لئلا تنتزعه من أحداقهم بقضائك عليهم لخصومهم ، وإن ثبت لهم حق على خصم أسرعوا إليك ولم يرضوا إلا بحكومتك ، لتأخذ لهم ما ذاب لهم في ذمّة الخصم «2» .

[سورة النور (24) : آية 50]

أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (50)

---

(1) ومنهل من الفيافي أوسطه غلسنه قبل القطا وفرطه

في ظل أجاج المقيظ مغبطه

المنهل : الوادي ومسيل الماء . والفيافي : الصحارى ، جمع فيفاء . والظاهر أن أوسطه صفة منهل المجرور برب المحذوفة ، وهاؤه للسكت ، ولو جعلته بدل بعض والهاء ضمير المنهل : لزم جر المعرفة برب ، مع إمكان التخلص عنه إلا عند من جعل ضمير النكرة نكرة فلا محذور . ويروى : من الفلا في أوسطه . والفلا واحده فلاة ، أى : مفازة .

والرواية : غلسنه بالتشديد ، أى سرنه في وقت الغلس وهو ظلمة الفجر ، أو وردنه فيه .

والفرط من القطا :

المتقدمات السابقات لغيرها ، جمع فارط ، كركع وراكع . وخصها لأنها أسرع الطير

خروجا من أوكارها .

وأجاج المقيظ : شعاع الشمس يرى في شدة القيظ أى الحر كأنه يسير . وأجت النار : اشتعلت ، والحر : اشتد ، والظليم : أسرع وله حفيف ، والأمر : اختلط . وأجاج : صفة مبالغة منه . وأغبط الشيء فهو مغبط : دام واستمر فمغبطه الدائم الكثير منه .

والمعنى : أنه يبتدئ السير قبل السابقات من القطا ، ويستمر عليه مع اشتداد الحر في ظل شعاع الشمس ، لا يظله إلا هو إن كان له ظل ، وهذا من المبالغة في النفي . ويجوز أنه اعتاده فصار عنده كالظل .

ويجوز أن المعنى : تحت كنفه وسترته وجاهه الشبيه بالظل . [. . . . .]

(2) . قوله «ما ذاب لهم في ذمة الخصم» في الصحاح : ذاب لي عليه من الحق كذا : إذا وجب وثبت . (ع)

(72/552)

ثم قسم الأمر في صدودهم عن حكومته إذا كان الحق عليهم بين أن يكونوا مرضى القلوب منافقين ، أو مرتابين في أمر نبوّته ، أو خائفين الحيف في قضائه . ثم أبطل خوفهم حيفه بقوله بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ أى لا يخافون أن يحيف عليهم لمعرفتهم بحاله ، وإنما هم ظالمون

يريدون أن يظلموا من له الحق عليهم ويتمّ لهم جحوده ، وذلك شيء لا يستطيعونه في مجلس رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، فمن ثمة يأبون المحاكمة إليه .

[سورة النور (24) : آية 51]

إِنَّما كانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنا وَأَطَعْنا وَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (51)

وعن الحسن : قول المؤمنين ، بالرفع والنصب أقوى ، لأنّ أولى الاسمين بكونه اسما لكان . أوغلهما في التعريف ، وأن يقولوا : أوغل ، لأنه لا سبيل عليه للتنكير ، بخلاف قول المؤمنين ، وكان هذا من قبيل كان في قوله ما كانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ ، ما يَكُونُ لَنا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهذا وقرئ ، ليحكم ، على البناء للمفعول . فإن قلت : إلام أسند يحكم ؟ ولا بدّ له من فاعل . قلت :

هو مسند إلى مصدره ، لأن معناه : ليفعل الحكم بينهم ، ومثله : جمع بينهما ، وألف بينهما .

ومثله لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ فيمن قرأ بَيْنَكُمْ منصوبا : أى وقع التقطع بينكم . وهذه القراءة مجاوبة لقوله دُعُوا .

[سورة النور (24) : آية 52]

وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْفائِزُونَ (52)

قرئ: ويتقه، بكسر القاف والهاء مع الوصل وبغير وصل. وبسكون الهاء. وبسكون القاف وكسر الهاء: شبه تقه بكتف فخفف، كقوله:

قالت سليمى اشتر لنا سويقا «1»

ولقد جمع اللّه في هذه الآية أسباب الفوز. وعن ابن عباس في تفسيرها وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ في

---

(1) قالت سليمى اشتر لنا سويقا وهات خبز البرّ أو دقيقا

للعذافر الكندي. يقال: شار العسل ونحوه، واشتاره: إذا اجتناه وأخذه من مكانه، فقوله «اشتر» أمر من الاشتيار. ويحتمل أنه من الاشتراء، وسكنت راؤه للضرورة، أي: اطلب لنا سويقا. وهو ما تعمله العرب من الحنطة والشعير. وهات: بكسر التاء أمر للمذكر، طلبت منه السويق للأدم، وخيرته بين أن يأتي بخبز وبين أن يأتي بدقيق وهي تخبزه. ويروى: «وهات بر البخس أو دقيقا» والبخس: الأرض التي تنبت من غير سقى، وفي بقية الرجز أنها طلبت منه لحما وخادما وصبغا لثيابها بالعصفر، فقال:

يا سلم لو كنت لذا مطيقا ما كان عيشي عندكم ترنيقا

أي: مدة ترنيق الطائر، أي: صف جناحيه في الهواء.

فرائضه وَرَسُولَهُ في سننه وَيَخْشَ اللَّهَ على ما مضى من ذنوبه وَيَتَّقْهِ فيما يستقبل .

وعن بعض الملوك أنه سأل عن آية كافية فتليت له هذه الآية . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الكشاف حـ 3 صـ 240.250 ﴾

(74/552)

وقال الخازن :

قوله عزّ وجلّ ﴿ الله نور السموات والأرض ﴾

قال ابن عباس : معناه الله هادي السموات والأرض فهم بنوره إلى الحق يهتدون ، وبهدايته من حيرة الضلالة ينجون وقيل معناه الله منور السموات والأرض ، نور السماء بالملائكة ونور الأرض بالأنبياء وقيل : معناه مزين السموات والأرض زين السماء بالشمس والقمر والنجوم ، وزين الأرض بالأنبياء والعلماء والمؤمنين ، ويقال : زين الأرض بالنبات والأشجار ، وقيل : معناه إن الأنوار كلها منه وقد يذكر هذا اللفظ على طريق المدح كما قال الشاعر :

إذا سار عبد الله عن مرو ليلة . . .

فقد سار عنها نورها وجمالها

﴿ مثل نوره ﴾ أي مثل نور الله في قلب المؤمن ، وهو النور الذي يهتدي به وقال ابن عباس مثل نوره الذي أعطى المؤمن ، وقيل الكناية عائدة إلى المؤمن أي مثل نور قلب المؤمن وقيل أراد بالنور القرآن وقيل هو محمد (صلى الله عليه وسلم) وقيل هو الطاعة سمي طاعة الله نوراً ، وأضاف هذه الأنوار إلى نفسه تشريفاً وتفصيلاً ﴿ كمشكاة ﴾ هي الكوة التي لا منفذ لها قيل : هي بلغة الحبشة ﴿ فيها مصباح ﴾ أي سراج وأصله من الضوء ﴿ المصباح في زجاجة ﴾ يعني القنديل وإنما ذأر الزجاجة لأن النور ، وضوء النار فيها أبين من كل شيء وضوءه يزيد في الزجاج ثم وصف الزجاجة ، فقال تعالى ﴿ الزجاجة كأنها كوكب دري ﴾ من درأ الكوكب إذا اندفع منقضاً ، فيتضاعف نوره في تلك الحال ، وفي ذلك الوقت وقيل هو من درأ النجم إذا طلع ، وارتفع وقيل دري أي شديد الإنارة نسب إلى الدر ، في صفائه وحسنه وإن كان الكوكب أضوأ من الدر لكنه يفضل الكوكب بصفائه كما يفضل الدر على سائر اللؤلؤ وقيل الكوكب الدري أحد الكواكب الخمسة السيارة ، التي هي زحل والمريخ والمشتري والزهرة وعطارد ، قيل : شبهه بالكواكب ولم يشبهه بالشمس والقمر ، لأنهما يلحقهما الكسوف بخلاف الكواكب ﴿ يوقد ﴾ أي اتقد المصباح ﴿ من

شجرة مباركة زيتونة ﴾ أي من زيت شجرة مباركة كثيرة البركة ، وفيها منافع كثيرة لأن الزيت يسرج به ويدهن به وهو إدام وهو أصفى الأدهان وأضوأها ، وقيل : إنها أول شجرة نبتت بعد الطوفان وقيل : أراد به زيتون الشام لأنها هي الأرض المباركة ، وهي شجرة لا يسقط ورقها ، عن أسيد بن ثابت أو أبي أسيد الأنصاري قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "كلوا الزيت وادهنوا به فإنه شجرة مباركة"

أخرجه الترمذي .

(76/552)

وقوله ﴿ لا شرقية ولا غربية ﴾ أي ليست شرقيه وحدها فلا تصيبها الشمس إذا غربت ولا غربية وحدها فلا تكون الشمس بالغداة ، إذا طلعت بل مصاحبة للشمس طول النهار تصيبها الشمس عند طلوعها ، وعند غروبها فتكون شرقية غربية تأخذ حظها من الأمرين فيكون زيتها أضوأ ، وهذا معنى قول ابن عباس وقيل معناه أنها ليست في مقنأة لا تصيبها الشمس ، ولا في مضحاة لا يصيبها الظل فهي لا تضرها شمس ولا ظل وقيل معناه أنها معتدلة ليست في شرق يضرها الحر ، ولا في غرب يضرها البرد وقيل معناه هي شامية لأن الشام وسط الأرض ، لا شرقي ولا غربي وقيل ليست هذه الشجرة من

أشجار الدنيا لأنها لو كانت في الدنيا لكانت شرقية أو غربية ، وإنما هو مثل ضربه الله لنوره ﴿ يكاد زيتها يضيء ﴾ أي من صفائه ﴿ ولو لم تمسسه نار ﴾ أي قبل أن تمسه النار ﴿ نور على نور ﴾ أي نور المصباح على نور الزجاجة .

فصل في بيان التمثيل المذكور في الآية

(77/552)

اختلف أهل العلم في معنى هذا التمثيل ، فقيل : المراد به الهدى ومعناه أن هداية الله تعالى قد بلغت في الظهور والجلاء إلى أقصى الغايات ، وصار ذلك بمنزلة المشكاة التي فيها زجاجة صافية وفي تلك الزجاجة مصباح يتقد بزيت بلغ النهاية في الصفاء ، والرقة والبياض فإذا كان كذلك كان كاملاً في صفائه ، وصلح أن يجعل مثلاً لهداية الله تعالى وقيل وقع هذا التمثيل لنور محمد (صلى الله عليه وسلم) قال ابن عباس لكعب الأحبار : أخبرني عن قوله تعالى ﴿ مثل نوره كمشكاة ﴾ قال كعب : هذا مثل ضربه الله لنبيّه (صلى الله عليه وسلم) فالمشكاة صدره والزجاجة قلبه والمصباح فيه النبوة توقد من شجرة مباركة هي شجرة النبوة يكاد نور محمد (صلى الله عليه وسلم) وأمره يتبين للناس ولو لم يتكلم به أنه نبيّ كما يكاد ذلك الزيت يضيء ، ولو لم تمسسه نار وروي عن ابن عمر في

هذه الآية قال المشكاة : جوف محمد (صلى الله عليه وسلم) والزجاجة قلبه والمصباح النور الذي جعله الله فيه لا شرقية ولا غربية ، لا يهودي ولا نصراني توقد من شجرة مباركة إبراهيم نور على نور قلب إبراهيم ونور قلب محمد (صلى الله عليه وسلم) : وقال محمد بن كعب القرظي : المشكاة إبراهيم ، والزجاجة إسماعيل والمصباح محمد (صلى الله عليه وسلم) وعليهم أجمعين سمى الله محمداً مصباحاً ، كما سماه سراجاً منيراً والشجرة المباركة إبراهيم عليه السلام لأن أكثر الأنبياء من صلبه لا شرقية ولا غربية ، يعني إبراهيم لم يكن يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً لأن اليهود تصلّي إلى الغرب ، والنصارى تصلّي إلى الشرق يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار تكاد محاسن محمد (صلى الله عليه وسلم) تظهر للناس قبل أن يوحى إليه نور على نور نبي من نسل نبي نور محمد على نور إبراهيم ، وقيل وقع هذا التمثيل لنور قلب المؤمن قال أبيّ بن كعب ، هذا مثل المؤمن فالمشكاة نفسه ، والزجاجة قلبه والمصباح ما جعله

(78/552)

الله فيه من الإيمان والقرآن توقد من شجرة مباركة هي شجرة الإخلاص لله وجده فمثله مثل شجرة التف بها الشجر فهي خضراء ناعمة نضرة ، لا تصيبها الشمس إذا طلعت ولا

إذا غربت فكذلك المؤمن ، قد احترس أن يصيبه شيء من الفتن فهو بين أربع خلال إن أعطي شكر وإن ابتلي صبر وإن حكم عدل وإن قال صدق يكاد زيتها يضيء أي يكاد قلب المؤمن يعرف الحق قبل أن يتبين له لموافقته إياه ، نور على نور قال أبي : فهو يتقلب في خمسة أنوار قوله نور ، وعمله نور ومدخله نور ، ومخرجه نور ومصيره إلى النور يوم القيامة وقال ابن عباس : هذا مثل نور الله وهداه في قلب المؤمن كما يكاد الزيت الصافي يضيء قبل أن تمسسه النار ، فإذا مسته النار ازداد ضوءاً على ضوئه كذلك يكاد قلب المؤمن يعمل بالهدى قبل أن يأتيه العلم ، فإذا جاءه العلم ازداد هدى على هدى ونور على نور ، وقال الكلبي : نور على نور يعني إيمان المؤمن وعمله .

وقيل نور الإيمان ونور القرآن وقيل هذا مثل القرآن فالمصباح هو القرآن فكما يستضاء بالمصباح فكذلك يهتدى بالقرآن والزجاجة قلب المؤمن ، والمشكاة فمه ولسانه والشجرة المباركة شجرة المعرفة في قلبه ، يكاد زيتها يضيء أي نور المعرفة يشرق في قلب المؤمن ، ولو لم يمسسه النار وقيل تكاد حجة القرآن تتضح ، وإن لم يقرأ نور على نور يعني القرآن نور من الله لخلقه مع ما أقام لهم من الدلائل والإعلام قبل نزول القرآن فازدادوا بذلك نوراً على نور .

قوله تعالى ﴿ يهدي الله لنوره من يشاء ﴾ قال ابن عباس : لدين الإسلام وهو نور البصيرة ﴿ ويضرب الله الأمثال للناس ﴾ أي يبين الله الأشياء للناس تقريباً إلى الأفهام ، وتسهيلاً لسبيل الإدراك ﴿ والله بكل شيء عليم ﴾ .

قوله عزّ وجلّ : ﴿ في بيوت ﴾ أي ذلك المصباح يوقد في بيوت والمراد بالبيوت جميع المساجد بيوت الله في الأرض تضيء لأهل السماء كما تضيء النجوم لأهل الأرض وقيل : المراد بالبيوت أربعة مساجد لم يبنها إلا نبي الكعبة بناها إبراهيم وإسماعيل ، فجعلاها قبلة ، وبيت المقدس بناه داود وسليمان ومسجد المدينة بناه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ومسجد قباء أسس على التقوى وبناه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أيضاً ﴿ أذن الله أن ترفع ﴾ أي تبنى وقيل : تعظم فلا يذكر فيها الخنى من القول وتطهر عن الأنجاس والأقذار ﴿ ويذكر فيها اسمه ﴾ قال ابن عباس يتلى فيها كتابه ﴿ ويسبح له فيها ﴾ أي يصلي له فيها ﴿ بالغدو والآصال ﴾ بالغداة والعشي قال أهل التفسير : أراد به الصلاة المفروضة فالتي تؤدّى بالغداة صلاة الفجر والتي تؤدى بالآصال صلاة الظهر والعصر والعشاءين ، لأن اسم الأصيل يقع على هذا الوقت كله وقيل : أراد به الصبح والعصر .

عن أبي موسى الأشعري عن النبيّ (صلى الله عليه وسلم) قال " من صلى صلاة البردين دخل الجنة أراد بالبردين صلاة الصبح ، وصلاة العصر " وقال ابن عباس : التسبيح بالغدو

صلاة الضحى والآصال صلاة العصر عن أبي أمامة قال : قال رسول الله صلى الله عليه سلم " من خرج من بيته متطهراً إلى صلاة مكتوبة كان أجره كأجر الحاج المحرم ، ومن خرج إلى المسجد إلى تسبيح الضحى لا يعنيه إلا ذاك كان أجره كأجر المعتمر وصلاة على أثر صلاة لا لغو بينهما كتاب في عليين " أخرجه أبو داود .

(80/552)

﴿ رجال ﴾ قيل خص الرجال بالذكر في هذه المساجد ، لأن النساء ليس عليهن حضور المساجد لجمعة ولا جماعة ﴿ لا تلهيهم ﴾ أي لا تشغلهم ﴿ تجارة ﴾ وقيل خص التجارة بالذكر لأنها أعظم ما يشتغل الإنسان به عن الصلوات ، والطاعات وأراد بالتجارة الشراء وإن كان اسم التجارة يقع على البيع والشراء جميعاً ، لأنه ذكر البيع بعده وقيل التجارة لأهل الجلب والبيع ما باعه الرجل على يده ﴿ ولا بيع ﴾ أي ولا يشغلهم بيع ﴿ عن ذكر الله ﴾ أي حضور المساجد لإقامة الصلوات ﴿ وإقام الصلاة ﴾ يعني إقامة الصلاة في وقتها لأن من أخر الصلاة عن وقتها لا يكون من مقيمي الصلاة ، وروي عن ابن عمر أنه كان في السوق فأقيمت الصلاة فقام الناس وأغلقوا حوانيتهم ، ودخلوا المساجد فقال ابن عمر فيهم نزلت هذه الآية ﴿ رجال لا تلهيهم تجارة ، ولا بيع عن ذكر الله وإقام

الصلاة ﴾ ﴿ وإيتاء الزكاة ﴾ يعني المفروضة قال ابن عباس إذا حضر ، وقت أداء الزكاة لا يحبسونها ﴿ يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار ﴾ يعني أن هؤلاء الرجال ، وإن بالغوا في ذكر الله والطاعات فإنهم مع ذلك وجلون خائفون لعلهم بأنهم ما عبدوا الله حق عبادته .

قيل : إن القلوب تضطرب من الهول والفزع وتشخص الأبصار .

وقيل : تتقلب القلوب عما كانت عليه في الدنيا من الشك إلى اليقين وترفع عن الأبصار الأغطية .

(81/552)

وقيل : تتقلب القلوب بين الخوف والرجاء فتخشى الهلاك وتطمع في النجاة ، وتتقلب الأبصار من هول ذلك اليوم ، من أي ناحية يؤخذ بهم أمن ذات اليمين ، أم من ذات الشمال ومن أي يؤتون كتبهم أمن اليمين أم من قبل الشمال ؟ وقيل : يتقلب القلب في الجوف ، فيرفع إلى الحنجرة فلا ينزل ولا يخرج ويتقلب البصر فيشخص من هول الأمر وشدته ﴿ ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ﴾ يعني أنهم اشتغلوا بذكر الله وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ليجزيهم الله أحسن ما عملوا والمراد بالأحسن الحسنات كلها وهي الطاعات فرضها ونفلها ، وذكر

الأحسن تنبيهاً على أنه لا يجازيهم على مساوىء أعمالهم ، بل يغفرها لهم وقيل : إنه سبحانه وتعالى يجزيهم جزاء أحسن من أعمالهم ، على الواحد من عشرة إلى سبعمائة ضعف ﴿ ويزيدهم من فضله ﴾ يعني أنه سبحانه وتعالى يجزيهم بأحسن أعمالهم ولا يقتصر على ذلك بل يزيدهم من فضله ﴿ والله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾ فيه تنبيه على كمال قدرته وكمال جوده وسعة إحسانه وفضله .

قوله تعالى : ﴿ والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة ﴾ لما ضرب مثلاً لحال المؤمن وأنه في الدنيا والآخرة في نور ، وأنه فائز بالنعيم المقيم ، أتبعه بضرب مثل لأعمال الكفار وشبهه بالسراب وهو شبه ماء يرى نصف النهار عند شدة الحر في البراري يظنه من رآه ماء ، فإذا قرب منه لم ير شيئاً .

(82/552)

والقيعة القاع وهو المنبسط من الأرض وفيه يكون السراب ﴿ يحسبه ﴾ أي يتوهمه ﴿ الظمآن ﴾ أي العطشان ﴿ ماء حتى إذا جاء ﴾ أي جاء ما قدر أنه ماء وقيل : جاء إلى موضع السراب ﴿ لم يجده شيئاً ﴾ أي لم يجده على ما قدره وظنه ووجه التشبيه أن الذي يأتي به الكافر من أعمال البر ، يعتقد أنه له ثواباً عند الله وليس كذلك فإذا وافى

عرصات القيامة لم يجد الثواب الذي كان يظنه ، بل وجد العقاب العظيم والعذاب الأليم فعظمت حسرته ، وتناهى غمه فشبه حاله بحال الظمآن الذي اشتدت حاجته إلى الماء ، فإذا شاهد السراب في البر تعلق قلبه به فإذا جاءه لم يجده شيئاً فكذلك حال الكافر يحسب أن عمله ، نافعه فإذا احتاج إلى عمله لم يجده أغنى عنه شيئاً ولا نفعه ﴿ ووجد الله عنده ﴾ أي وجد الله بالمرصاد وقيل : قدم على الله ﴿ فوفاه حسابه ﴾ أي جزاء عمله ﴿ والله سريع الحساب ﴾ معناه أنه عالم بجميع المعلومات فلا تشغله محاسبة واحد عن واحد .

(83/552)

ثم ضرب للكفار مثلاً آخر فقال تعالى ﴿ أو كظلمات ﴾ أعلم الله سبحانه وتعالى أن أعمال الكفار إن كانت حسنة ، فهي كسراب بقيعة وإن كانت قبيحة فهي كظلمات ، وقيل : معناه إن مثل أعمالهم في فسادها ، وجهالتهم فيها كظلمات ﴿ في بحر لجي ﴾ أي عميق كثير الماء ولجة البحر معظمه ﴿ يغشاه ﴾ أي يعلوه ﴿ موج من فوقه موج ﴾ أي متراكم ﴿ من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض ﴾ معناه أن البحر اللجي يكون قعره مظلماً جداً بسبب غموره الماء ، فإذا ترادفت الأمواج ازدادت الظلمة فإذا كان فوق

الأمواج سحاب بلغت الظلمة النهاية القصوى ﴿ إذا أخرج يده لم يكد يراها ﴾ أي لم يقرب أن يراها لشدة الظلمة وقيل : معناه لم يرها إلا بعد الجهد وقيل : لما كانت اليد من أقرب شيء يراه الإنسان قال : لم يكد يراها ، ووجه التشبيه أن الله ذكر ثلاثة أنواع من الظلمات : ظلمة البحر وظلمة الأمواج وظلمة السحاب ، وكذلك الكافر له ثلاث ظلمات ظلمة الاعتقاد وظلمة القول وظلمة العمل وقيل : شبه بالبحر اللجي قلبه ، وبالموج ما يتغشى قلبه من الجهل والشك والحيرة ، وبالسحاب الختم والطبع على قلبه .

قال أبيّ بن كعب : الكافر يتقلب في خمس من الظلم كلامه ظلمة وعمله ظلمة ، ومدخله ظلمة ومخرجه ظلمة ، ومصيره إلى الظلمات يوم القيامة في النار ﴿ ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور ﴾ قال ابن عباس من لم يجعل الله له ديناً وإيماناً ، فلا دين له وقيل من لم يهده الله فلا هادي له قيل نزلت هذه الآية في عتبة بن ربيعة بن أمية ، كان يلتمس الدين في الجاهلية ولبس المسوح فلما جاء الإسلام كفر وعاند ، والأصح أن الآية عامة في حق جميع الكفار .

(84/552)

قوله عزّ وجلّ : ﴿ ألم تر أن الله يسبح له من في السموات والأرض والطير صافات ﴾ أي باسطات أجنحتهن في الهواء قيل خص الطير بالذكر من جملة الحيوان لأنها تكون بين

السماء والأرض ، فتكون خارجة عن حكم من في السموات والأرض ﴿ كل قد علم صلاته وتسبيحه ﴾ قيل : الصلاة لبني آدم والتسبيح لسائر الخلق وقيل إن ضرب أجنحة الطير صلاته وتسبيحه ، وقيل : معناه إن كل مصل ومسبح علم الله صلاته وتسبيحه وقيل معناه كل مصل ومسبح منهم قد علم صلاة نفسه وتسبيحه ﴿ والله عليم بما يفعلون ولله ملك السموات والأرض ﴾ أي إن جميع الموجودات ملكه وفي تصرفه وعنه نشأت ومنه بدأت فهو واجد الوجود وقيل معناه أن خزائن المطر والرزق بيده ولا يملكها أحد سواه ﴿ وإلى الله المصير ﴾ أي وإلى الله مرجع العباد بعد الموت .

قوله تعالى ﴿ ألم تر أن الله يزجي ﴾ أي يسوق ﴿ سحاباً ﴾ بأمره إلى حيث يشاء من أرضه وبلاده ﴿ ثم يؤلف بينه ﴾ أي يجمع بين قطع السحاب المتفرقة بعضها إلى بعض ﴿ ثم يجعله ركاماً ﴾ أي متراكماً بعضه فوق بعض ﴿ فترى الودق ﴾ أي المطر ﴿ يخرج من خلاله ﴾ أي من وسطه وهو مخارج القطر ﴿ وينزل من السماء من جبال فيها من برد ﴾ قيل معناه وينزل من جبال من السماء وتلك الجبال من برد .

قال ابن عباس : أخبر الله أن في السماء جبالاً من برد وقيل معناه وينزل من السماء مقدار جبال في الكثرة من برد .

فإن قلت : ما الفرق بين من الأولى والثانية والثالثة .

قلت : من الأولى لابتداء الغاية لأن ابتداء الإنزال من السماء للتبعيض لأن ما ينزله الله بعض تلك الجبال التي في السماء ، والثالثة للتجنيس لأن تلك الجبال من جنس البرد ﴿ فيصيب به ﴾ أي البرد ﴿ من يشاء ﴾ فيهلكه وأمواله ﴿ ويصرفه عمن يشاء ﴾ أي فلا يضره ﴿ يكاد سنا برقه ﴾ أي ضوء برق السحاب ﴿ يذهب بالأبصار ﴾ أي من شدة ضوئه وبريقه ﴿ يقلب الله الليل والنهار ﴾ أي يصرفهما في اختلافهما وتعاقبهما فيأتي بالليل ويذهب بالنهار ويأتي بالنهار ويذهب بالليل (ق) عن أبي هريرة قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال الله تعالى " يؤذيني ابن آدم يسب الدهر ، وأنا الدهر بيدي الأمر أقلب الليل والنهار " معنى هذا الحديث : أن العرب كانوا يقولون عند النوازل والشدائد أصابنا الدهر ويذمونه في أشعارهم فقيل لهم : لا تسبوا الدهر فإن فاعل ذلك هو الله والدهر مصرف تقع فيه التأثيرات كما تقع بكم ، وقوله تعالى ﴿ إن في ذلك ﴾ أي الذي ذكر من هذه الأشياء ﴿ لعبرة لأولي الأبصار ﴾ أي دلالة لأهل العقول والبصائر على قدرة الله وتوحيده .

قوله ﴿ والله خلق كل دابة من ماء ﴾ أي من نطفة وأراد به كل حيوان يشاهد في الدنيا ولا يدخل فيه الملائكة والجن ، لأنا لا نشاهدهم وقيل : إن أصل جميع الخلق من الماء وذلك أن الله خلق ماء فجعل بعضه ريحاً ونوراً فخلق منه الملائكة وجعل بعضه ناراً فخلق منه الجن

، وجعل بعضه طيناً فخلق منه آدم ﴿ فمنهم من يمشي على بطنه ﴾ أي كالحيات والحيتان والديدان ونحو ذلك ﴿ ومنهم من يمشي على رجلين ﴾ يعني مثل بني آدم والطير ﴿ ومنهم من يمشي على أربع ﴾ يعني كالبهائم والسباع .

فإن قلت كيف قال : خلق كل دابة من ماء مع أن كثيراً من الحيوانات يتولد من غير نطفة .

قلت ذلك المخلق من غير نطفة ، لا بد أن يتكون من شيء ، وذلك الشيء أصله من الماء فكان من الماء .

فإن قلت : فمنهم من يمشي ضمير العقلاء ، فلم يستعمل في غير العقلاء .

(86/552)

قلت ذكر الله تعالى ما لا يعقل مع من يعقل لأن جعل الشريف أصلاً ، والخسيس تبعاً أولى .

فإن قلت : لم قدم ما يمشي على بطنه على غيره من المخلوقات .

قلت قدم الأعجب ، والأعرف في القدرة وهو الماشي بغير آلة المشي ، وهي الأرجل والقوائم ثم ذكر ما يمشي على رجلين ثم ما يمشي على أربع .

فإن قلت : لم اقتصر على ذكر الأربع وفي الحيوانات ما يمشي على أكثر من أربع ، كالعناكب والعقارب والرتيلا وما له أربع وأربعون رجلاً ونحو ذلك .

قلت هذا القسم كالنادر فكان ملحقاً بالأغلب وقيل : إن هذه الحيوانات اعتمادها على أربع في المشي والباقي تبع لها ﴿ يخلق الله ما يشاء ﴾ أي مما لا يعقل ولا يعلم ﴿ إن الله على كل شيء قدير ﴾ أي هو القادر على الكل العالم بالكل المطلع على الكل ، يخلق ما يشاء كما يشاء لا يمنعه مانع ولا دافع .

﴿ لقد أنزلنا آيات مبينات ﴾ يعني القرآن هو المبين للهدى والأحكام والحلال والحرام ﴿ والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾ يعني إلى دين الإسلام الذي هو دين الله وطريقه إلى رضاه وجنته .

(87/552)

قوله تعالى ﴿ ويقولون ﴾ يعني المنافقين ﴿ آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ﴾ أي يقولونه : بألسنتهم من غير اعتقاد ﴿ ثم يتولى فريق منهم ﴾ أي يعرض على طاعة الله ورسوله ﴿ من بعد ذلك ﴾ أي من بعد قولهم آمناً ، ويدعو إلى غير حكم الله قال الله تعالى ﴿ وما أولئك بالمؤمنين ﴾ نزلت هذه الآية في بشر المنافق ، كان بينه وبين يهودي خصومة في أرض ، فقال اليهودي : نتحاكم إلى محمد (صلى الله عليه وسلم) وقال المنافق بل نتحاكم إلى كعب بن الأشرف فإن محمداً يحيف فأنزل الله هذه الآية ﴿ وإذا دعوا إلى الله ورسوله

ليحكم بينهم ﴾ أي الرسول يحكم بحكم الله بينهم ﴿ إذا فريق منهم معرضون ﴾ يعني عن الحكم وقيل عن الإجابة ﴿ وإن لم يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين ﴾ أي مطيعين منقادين لحكمه أي إذا كان الحكم لهم على غيرهم أسرعوا إلى حكمه لثقتهم أنه ، كما يحكم عليهم بالحق يحكم لهم أيضاً ﴿ في قلوبهم مرض ﴾ أي كفر ونفاق ﴿ أم ارتابوا ﴾ أي شكوا وهذا استفهام ذم وتوبيخ والمعنى هم كذلك ﴿ أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله ﴾ أي يظلم ﴿ بل أولئك هم الظالمون ﴾ أي لأنفسهم بإعراضهم عن الحق .

قوله عزّ وجلّ ﴿ إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ﴾ أي إلى كتاب الله ﴿ ورسوله ليحكم بينهم ﴾ هذا تعليم أدب الشرع على أي من هذه صفته ﴿ هم المفلحون ومن يطع الله ورسوله ﴾ قال ابن عباس فيما ساءه وسره ﴿ ويخش الله ﴾ أي على ما عمل من الذنوب ﴿ ويتقه ﴾ أي فيما بعد ﴿ فأولئك هم الفائزون ﴾ يعني الناجون . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 5 صـ 76 . 85 ﴾

(88/552)

وقال ابن جزى :

﴿ الله نُورُ السماوات والأرض ﴾

النور يطلق حقيقة على الضوء الذي يدرك بالأبصار ، ومجازاً على المعاني التي تدرك بالقلوب ، والله ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ الشورى : 11] ، فتأويل الآية الله ذو نور السموات والأرض ؛ ووصف نفسه بأنه نور كما تقول زيد كرَم إذا أردت المبالغة في أنه كريم ، فإن أراد بالنور المدرك بالأبصار ، فمعنى نور السموات والأرض أنه خلق النور الذي فيهما من الشمس والقمر والنجوم ، أو أنه خلقهما وأخرجهما من العدم إلى الوجود ، فإنما ظهرت به كما تظهر الأشياء بالضوء ، ومن هذا المعنى قرأ عليّ بن أبي طالب : ﴿ اللهُ نُورُ السماوات والأرض ﴾ بفتح النون والواو والراء وتشديد الواو : أي جعل فيهما النور وإن أراد بالنور المدرك بالقلوب ، فمعنى نور السموات والأرض جاعل النور في قلوب أهل السموات والأرض ولهذا قال ابن عباس : معناه هادي أهل السموات والأرض .

(89/552)

﴿ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾ المشكاة هي الكوة غير النافذة تكون في الحائط ، ويكون المصباح فيها شديد الإضاءة وقيل : المشكاة العمود الذي يكون المصباح على رأسه ، والأول أصح وأشهر ، والمعنى صفة نور الله في وضوحه كصفة مشكاة فيها مصباح ، على أعظم ما يتصوّره البشر من الإضاءة والإنارة ، وإنما شبه بالمشكاة وإن كان

نور الله أعظم ، لأن ذلك غاية ما يدركه الناس من الأنوار ، فضرب المثل لهم بما يصلون إلى إدراكه . وقيل : الضمير في نوره عائد على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وقيل : على القرآن ، وقيل : على المؤمن ، وهذه الأقوال ضعيفة لأنه لم يتقدم ما يعود عليه الضمير ، فإن قيل : كيف يصح أن يقال الله نور السموات والأرض فأخبر أنه هو النور ثم أضاف النور إليه في قوله : ﴿ مَثَلُ نُورِهِ ﴾ ، والمضاف عين المضاف إليه ؟ فالجواب أن ذلك يصح مع التأويل الذي قدمناه أي الله ذو نور السموات والأرض ، أو كما تقول : زيد كرم ، ثم تقول : ينعش بكرمه ﴿ المصباحُ فِي زُجَاجَةٍ ﴾ المصباح هو الفتيل بناره ، والمعنى أنه في قنديل من زجاج لأن الضوء فيه أزهر ، لأنه جسم شفاف ﴿ الزجاجة كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ ﴾ شبه الزجاجة في إنارتها بكوكب دريّ ، وذلك يحتمل معنيين إما أن يريد أنها تضيء بالمصباح الذي فيها ، وإما أن يريد أنها في نفسها شديدة الضوء لصفائها ورقة جوهرها ، وهذا أبلغ الاجتماع نورها مع نور المصباح ، والمراد بالكوكب الدرّي أحد الدراري المضيئة : كالمشتري ، والزهرة ، وسهيل ، ونحوها ، وقيل : أراد الزهرة ، ولا دليل على هذا التخصيص ، وقرأ نافع ﴿ دُرِّيٌّ ﴾ بضم الدال وتشديد الياء بغير همزة ولهذا القراءة وجهان : إما أن ينسب الكوكب إلى الدرّ لبياضه وصفائه ، أو يكون مسهلاً من الهمز ، وقرأ حمزة وأبو بكر : ﴿ دُرِّيٌّ ﴾ بالهمز وكسر الدال ، بالهمز وضم الدال ، وهو مشتق من الدرء بمعنى الدفع .

﴿ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ ﴾ من قرأ يوقد بالياء أو تَوَقَّدَ بالفعل الماضي فالفعل مسند إلى المصباح ، ومن قرأ توقد بالتاء والفعل المضارع فهو مسند إلى الزجاجة ، والمعنى : توقد من زيت شجرة مباركة ، ووصفها بالبركة لكثرة منافعها ، أو لأنها تنبت في الأرض المباركة وهي الشام ﴿ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ ﴾ قيل : يعني أنها بالشام فليست من شرق الأرض ولا من غربها ، وأجود الزيتون زيتون الشام ، وقيل : هي منكشفة تصيبها الشمس طول النهار ، فليست خالصة للشرق فتسمى شرقية ، ولا للغرب فتسمى غربية بل هي غربية شرقية ، لأن الشمس تستدير عليها من الشرق والغرب ، وقيل إنها في وسط دوحة لا في جهة الشرق من الدوحة ولا في جهة الغرب ، وقيل : إنها من شجرة الجنة ولو كانت في الدنيا لكانت شرقية أو غربية ﴿ يَكَادُ زَيْتُهَا يضيء وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ﴾ مبالغة في وصف صفائه وحسنه ﴿ نُّورٌ على نُورٍ ﴾ يعني اجتماع نور المصباح وحسن الزجاجة وطيب الزيت ، والمراد بذلك كمال النور الممثل به ﴿ يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَن يَشَآءُ ﴾ أي يوفق الله من يشاء لإصابة الحق .

﴿ فِي بُيُوتٍ ﴾ يعني المساجد ، وقيل : بيوت أهل الإيمان من مساجد أو مساكن ، والأول أصح ، والجار يتعلق بما قبله : أي كمشكاة في بيوت ، أو توقد في بيوت ، وقيل : بما بعده وهو يسبح ، وكرر الجارّ بعد ذلك تأكيداً ، وقيل : بمحذوف : أي سبحوا ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَن تُرْفَعَ ﴾ ، والمراد بالإذن الأمر ، ورفعها بناؤها ، وقيل : تعظيمها ﴿ بالغدو والآصال ﴾ أي غدوة وعيشة وقيل : أراد الصبح والعصر وقيل : صلاة الضحى والعصر ﴿ رِجَالٌ ﴾ فاعل ﴿ يُسَبِّحُ ﴾ على القراءة بكسر الباء ، وأما على القراءة بالفتح فهو مرفوع بفعل مضمر يدل عليه الأول ﴿ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللهِ ﴾ أي لا تشغلهم ، ونزلت الآية في أهل الأسواق الذين إذا سمعوا النداء بالصلاة تركوا كل شغل وبادروا إليها ، والبيع من التجارة ، ولكنه خصه بالذكر تجريداً كقوله : ﴿ فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴾ [الرحمن : 68] ، أو أراد بالتجارة الشراء ﴿ تَتَقَلَّبُ فِيهِ القلوب والأبصار ﴾ أي تضطرب من شدة الهول والخوف ، وقيل : تفقه القلوب وتبصر الأبصار بعد العمى ، لأن الحقائق تنكشف حنيئذ ، والأول أصبح كقوله : ﴿ وَإِذْ زَاغَتِ الأبصار وَبَلَغَتِ القلوب الحناجر ﴾ [الأحزاب : 10] ، وفي قوله ﴿ تَتَقَلَّبُ فِيهِ القلوب ﴾ تجنيس ﴿ لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ ﴾ متعلق بما قبله ، أو بفعل من معنى ما قبله ﴿ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ ﴾ تقديره

جزاء أحسن ما عملوا ﴿ وَيَزِيدَهُمْ مِّن فَضْلِهِ ﴾ يعني زيادة على ثواب أعمالهم ﴿ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ ذكر في البقرة .

(92/552)

﴿ والذين كفروا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ ﴾ لما ذكر الله حال المؤمنين أعقب ذلك بمثالين لأعمال الكافرين : الأول يقتضي حال أعمالهم في الآخرة ، وأنها لا تنفعهم ، بل يضمحل ثوابها كما يضمحل السراب ، والثاني يقتضي حال أعمالهم في الدنيا ، وأنها في غاية الفساد والضلال كالظلمات التي بعضها فوق بعض ، والسراب هو ما يرى في الفلوات من ضوء الشمس في الهجيرة حتى يظهر كأنه ماء يجري على وجه الأرض ، والقيعة جمع قاع وهو المنسبط من الأرض ، وقيل : بمعنى القاع وليس بجمع ﴿ يَحْسَبُهُ الظمآن مَآءً ﴾ الظمآن العطشان : أي يظن العطشان أن السراب ماء ، فيأتيه ليشربه ، فإذا جاء خاب ما أمل ، وبطل ما ظنّ ، وكذلك الكافر يظن أن أعماله تنفعه ، فإذا كان يوم القيامة لم تنفعه فهي كالسراب ﴿ حتى إِذَا جَآءَهُ ﴾ ضمير الفاعل للظمآن ، وضمير المفعول للسراب أو ضمير الفاعل للكافر وضمير المفعول لعمله ﴿ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً ﴾ أي شيئاً ينتفع به أو شيئاً موجوداً على العموم لأنه معدوم ، ويحتمل أن يكون ضمير الفاعل للظمآن وضمير المفعول

للسراب . أو ضمير الفاعل للكافر وضمير المفعول لعمله ﴿ وَوَجَدَ اللهَ عِندَهُ ﴾ ضمير الفاعل في وجد الكافر ، والضمير في عنده لعمله ، والمعنى وجد الله عنده بالجزاء ، أو وجد زبانية الله .

(93/552)

﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ ﴾ هذا هو المثال الثاني ، وهو عطف على قوله ﴿ كَسَرَابٍ ﴾ ، والمشبه بالظلمات أعمال الكافر : أي هم من الضلالة والحيرة في مثل الظلمات المجتمعة من ظلمة البحر تحت الموج تحت السحاب ﴿ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ ﴾ منسوب إلى اللج ، وهو معظم الماء ، وذهب بعضهم إلى أن أجزاء هذا المثال قوبلت به أجزاء الممثل به : فالظلمات أعمال الكافر ، والبحر اللجي صدره ، والموج جهله ، والسحاب الغطاء الذي على قلبه ، وذهب بعضهم إلى أنه تمثيل بالجملة من غير مقابلة وفي وصف هذه الظلمات بهذه الأوصاف مبالغة كما أن وصف النور المذكور قبلها مبالغة ﴿ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ﴾ المعنى مبالغة في وصف الظلمة ، والضمير في أخرج وما بعده للرجل الذي وقع في الظلمات الموصوفة ، واختلف في تأويل الكلام : فقيل : المعنى إذا أخرج يده لم يقارب رؤيتها ، فنفى الرؤية ومقاربتها ، وقيل : بل رآها بعد عسر وشدة ، لأن كاد إذا نفيت تقتضي

الإيجاب ، وإذا أوجبت تقتضي النفي ، وقال ابن عطية : إنما ذلك إذا دخل حرف النفي على الفعل الذي بعدها ، فأما إذا دخل حرف النفي على كاد كقوله : لم يكد ، فإنه يحتمل النفي والإيجاب .

(94/552)

﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُوراً ﴾ أي من لم يهده الله لم يهتد ، فالنور كناية عن الهدى ، والإيمان ، في الدنيا ، وقيل : أراد في الآخرة أي من لم يرحمه الله فلا رحمة له ، والأول أليق بما قبله ، ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السماوات والأرض والطير صَآفَّاتٍ ﴾ الرؤية هنا بمعنى العلم والتسبيح التنزيه والتعظيم ، وهو من العقلاء بالنطق ، وأما تسبيح الطير وغيرها مما لا يعقل ، فقال الجمهور : إنه حقيقي ، ولا يبعد أن يلهمها الله التسبيح ، كما يلهمها الأمور الدقيقة التي لا يهتدي إليها العقلاء ، وقيل : تسبيحه ظهور الحكمة فيه ﴿ صَآفَّاتٍ ﴾ يصففن أجنحتهن في الهواء ﴿ قَدْ عَلِمَ صَلاَتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ﴾ الضمير في ﴿ عَلِمَ ﴾ لله ، أو لكل ، والضمير في ﴿ صَلاَتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ﴾ لكل ﴿ يُزْجِي ﴾ معناه يسوق ، والإزجاء إنما يستعمل في سوق كل ثقيل كالسحاب ﴿ رُكَاماً ﴾ متكاثف بعضه فوق بعض ﴿ الودق ﴾ المطر ﴿ مِنْ خِلاَلِهِ ﴾ أي من بينه ، وهو جمع خلل كجبل وجبال ﴿

وَيُنَزِّلُ مِنَ السمآء مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ ﴾ قيل : إن الجبال هنا حقيقة وأن الله جعل في السماء جبالاً من برد ، وقيل : إنه مجاز كقولك عند فلان جبال من مال أو علم : أي هي في الكثرة كالجبال ، و ﴿ مَن ﴾ في قوله ﴿ مِنَ السمآء ﴾ لابتداء الغاية ، وفي قوله ﴿ مِن جِبَالٍ ﴾ كذلك ، وهي بدل من الأولى ، وتكون للتبعيض ، فتكون مفعول ينزل ، و ﴿ مِن ﴾ في قوله : ﴿ مِن بَرَدٍ ﴾ : لبيان الجنس أو للتبعيض فتكون مفعول ينزل ، وقال الأخفش : هي زائدة ، وذلك ضعيف ، وقوله : ﴿ فِيهَا ﴾ صفة للجبال ، والضمير يعود على السماء ﴿ سَنَا بَرْقِهِ ﴾ السنا بالقصر الضوء ، وبالمدّ المجد والشرف ﴿ يُقَلِّبُ الله الليل والنهار ﴾ أي يأتي بهذا بعد هذا .

(95/552)

﴿ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ ﴾ يعني بن آدم والبهائم والطير لأن ذلك كله يدب ﴿ مِّن مَّآءٍ ﴾ يعني المنيّ ، وقيل : الماء الذي في الطين الذي خلق منه آدم وغيره ﴿ على بَطْنِهِ ﴾ كالحيات والحوت .

﴿ وَيَقُولُونَ آمَنَّا ﴾ الآية : نزلت في المنافقين ، وسببها أن رجلاً من المنافقين كانت بينه وبين يهودي خصومة ، فدعاه اليهودي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعرض عنه ،

ودعاه إلى كعب بن الأشرف .

﴿ مُذْعِنِينَ ﴾ أي منقادين طائعين لقصد الوصول إلى حقوقهم .

﴿ أَفِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ ﴾ توقيف [سؤال] يراد به التوبيخ ، وكذلك ما بعده ﴿ أَن يَحِيفَ ﴾ معناه أن يجور ، والحيف الميل ، وأسنده إلى الله ، لأن الرسول إنما يحكم بأمر الله وشرعه .

﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ المؤمنين ﴾ الآية . معناه إنما الواجب أن يقول المؤمنون : سمعنا وأطعنا إذا دعوا إلى الله ورسوله ، وجعل الدعاء إلى الله من حيث هو إلى شرعه .

﴿ وَمَن يُطِعِ الله وَرَسُولَهُ ﴾ الآية . قال بان عباس : معناها من يطع الله في فرائضه ، ورسوله في سننه ﴿ وَيَخْشَ الله ﴾ فيما مضى من ذنوبه ﴿ وَيَتَّقْهِ ﴾ فيما يستقبل ، وسأل بعض الملوك عن آية كافية جامعة فذكرت له هذه الآية ، وسمعها بعض بطارقة الروم فأسلم ، وقال إنها جمعت كل ما التوراة والإنجيل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التسهيل حـ 3 صـ 71.67 ﴾

(96/552)

وقال النسفي :

نظير قوله ﴿ اللهُ نُورُ السماوات والأرض ﴾ مع قوله ﴿ مَثَلُ نُورِهِ ﴾ و ﴿ يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ ﴾ قولك زيد كرم وجود ثم تقول : ينعش الناس بكرمه وجوده ، والمعنى ذو نور السماوات و ﴿ نُورُ السماوات والأرض ﴾ الحق شبهه بالنور في ظهوره وبيانه كقوله : ﴿ اللهُ وَلِيُّ الذين ءامَنُواْ يُخْرِجُهُم مّنَ الظلمات إِلَى النور ﴾ [البقرة : 257] أي من الباطل إلى الحق .

وأضاف النور إليهما للدلالة على سعة إشراقه وفشو إضاءته حتى تضيء له السماوات والأرض ، وجاز أن المراد أهل السماوات والأرض وأنهم يستضيئون به ﴿ مَثَلُ نُورِهِ ﴾ أي صفة نوره العجيبة الشأن في الإضاءة ﴿ كَمِشْكَاةٍ ﴾ كصفة مشكاة وهي الكوّة في الجدار غير النافذة ﴿ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾ أي سراج ضخم ثاقب ﴿ المصباح فِى زُجَاجَةٍ ﴾ في قنديل من زجاج شامي بكسر الزاي ﴿ الزجاجة كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ ﴾ مضيء بضم الدال وتشديد الياء منسوب إلى الدر لفرط ضيائه وصفائه ، وبالكسر والهمزة عمرو وعلي كأنه يدرأ الظلام بضوئه ، وبالضم والهمزة أبو بكر وحمزة شبه في زهوته بأحد الكواكب الدراري كالمشتري والزهرة ونحوهما ﴿ يُوقَدُ ﴾ ﴿ توقد ﴾ بالتخفيف : حمزة وعلي وأبو بكر الزجاجة و ﴿ يُوقَدُ ﴾ بالتخفيف : شامي ونافع وحفص ﴿ وتوقد ﴾ بالتشديد : مكي وبصري أي هذا المصباح ﴿ مِن شَجَرَةٍ ﴾ أي ابتدأ ثقوبه من

زيت شجرة الزيتون يعني رويت ذبالته بزيتها ﴿ مباركة ﴾ كثيرة المنافع أو لأنها نبتت في الأرض التي بورك فيها للعالمين .

وقيل : بارك فيها سبعون نبياً منهم إبراهيم عليه السلام ﴿ زَيْتُونَةٍ ﴾ بدل من ﴿ شجرة ﴾ نعتها ﴿ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ ﴾ أي منبتها الشام يعني ليست من المشرق ولا من المغرب بل في الوسط منهما وهو الشام وأجود الزيتون زيتون الشام .

وقيل : ليست مما تطلع عليه الشمس في وقت شروقها أو غروبها فقط بل يصيبها بالغداة والعشي جميعها فهي شرقية وغربية .

(97/552)

﴿ يَكَادُ زَيْتُهَا ﴾ دهنها ﴿ يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ﴾ وصف الزيت بالصفاء والوميض وأنه لتلألئه يكاد يضيء من غير نار ﴿ نُّورٌ على نُورٍ ﴾ أي هذا النور الذي شبه به الحق نور متضاعف قد تناصر فيه المشكاة والزجاجة والمصباح والزيت حتى لم تبق بقية مما يقوي النور ، وهذا لأن المصباح إذا كان في مكان متضايق كالمشكاة كان أجمع لنوره بخلاف المكان الواسع فإن الضوء ينتشر فيه .

والقنديل أعون شيء على زيادة الإنارة وكذلك الزيت وصفاؤه ، وضرب المثل يكون

بدنيء محسوس معهود لا بعلي غير معاين ولا مشهود فأبو تمام لما قال في المأمون :

إقدام عمرو في سماحة حاتم . . .

في حلم أحنف في ذكاء إياس

قيل له : إن الخليفة فوق من مثلته بهم فقال مرتجلاً :

لا تنكروا ضربي له من دونه . . .

مثلاً شروداً في الندى والباس

فالله قد ضرب الأقل لنوره . . .

مثلاً من المشكاة والنبراس

﴿ يَهْدِى اللهُ لِنُورِهِ ﴾ أي لهذا النور الثاقب ﴿ مَن يَشَآءُ ﴾ من عباده أي يوفق لإصابة الحق من يشاء من عباده بإلهام من الله أو بنظره في الدليل ﴿ وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ ﴾ تقريباً إلى أفهامهم ليعتبروا فيؤمنوا ﴿ واللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ فيبين كل شيء بما يمكن أن يعلم به .

وقال ابن عباس رضي الله عنه : مثل نوره أي نور الله الذي هدى به المؤمن .

وقرأ ابن مسعود رحمه الله ﴿ مثل نوره في قلب المؤمن كمشكاة ﴾ وقرأ أبيّ ﴿ مثل نور المؤمن ﴾ .

﴿ فِى بُيُوتٍ ﴾ يتعلق ﴿ بمشكاة ﴾ أي كمشكاة في بعض بيوت الله وهي المساجد كأنه

قيل : مثل نوره كما يرى في المسجد نور المشكاة التي من صفتها كيت وكيت ، أو ب ﴿ توقد ﴾ أي توقد في بيوت ، أو ب ﴿ يسبح ﴾ أي يسبح له رجال في بيوت .

(98/552)

و ﴿ فيها ﴾ تكرير فيه توكيد نحو "زيد في الدار جالس فيها" أو بمحذوف أي سبحوا في بيوت ﴿ أَذِنَ الله ﴾ أي أمر ﴿ أَن تُرْفَعَ ﴾ تبنى كقوله ﴿ بناها رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ﴾ ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إبراهيم القواعد ﴾ [البقرة : 127] أن تعظم من الرفعة .

وعن الحسن : ما أمر الله أن ترفع بالبناء ولكن بالتعظيم ﴿ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسمه ﴾ يتلى فيها كتابه أو هو عام في كل ذكر ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بالغدو والآصال ﴾ أي يصلي له فيها بالغداة صلاة الفجر وبالآصال صلاة الظهر والعصر والعشاءين .

وإنما وحد الغدو لأن صلاته صلاة واحدة ، وفي الآصال صلوات والآصال جمع أصل جمع أصيل وهو العشي ﴿ رِجَالٌ ﴾ فاعل ﴿ يسبح ﴾ ﴿ يسبح ﴾ شامي وأبو بكر ويسند إلى أحد الظروف الثلاثة أعني له فيها بالغدو و ﴿ رِجَالٌ ﴾ مرفوع بما دل عليه ﴿ يسبح ﴾ أي يسبح له ﴿ لاَّ تُلْهِيهِمْ ﴾ لا تشغلهم ﴿ تجارة ﴾ في السفر ﴿ وَلاَ بَيْعٌ ﴾ في الحضر .

وقيل : التجارة الشراء إطلاقاً لاسم الجنس على النوع أو خص البيع بعد ما عم لأنه أوغل في الإلهاء من الشراء لأن الربح في البيعة الرابحة متيقن وفي الشراء مظنون ﴿ عَن ذِكْرِ الله ﴾ باللسان والقلب ﴿ وَإِقامِ الصلاة ﴾ أي وعن إقامة الصلاة .

التاء في إقامة عوض من العين الساقطة للإعلال والأصل إقوام ، فلما قلبت الواو ألفاً اجتمع ألفان فحذفت إحداهما لالتقاء الساكنين فأدخلت التاء عوضاً عن المحذوف ، فلما أضيفت أقيمت الإضافة مقام التاء فأسقطت ﴿ وَإِيتاء الزكاة ﴾ أي وعن إيتاء الزكاة والمعنى لا تجارة لهم حتى تلهيهم كأولياء العزلة ، أو يبيعون ويشترون ويذكرون الله مع ذلك وإذا حضرت الصلاة قاموا إليها غير متثاقلين كأولياء العشرة .

(99/552)

﴿ يخافون يَوْماً ﴾ أي يوم القيامة و ﴿ يخافون ﴾ حال من الضمير في ﴿ تلهيهم ﴾ أو صفة أخرى ل ﴿ رجال ﴾ ﴿ تَتَقَلَّبُ فِيهِ القلوب ﴾ ببلوغها إلى الحناجر ﴿ والأبصار ﴾ بالشخوص والزرقة أو تتقلب القلوب إلى الإيمان بعد الكفران والأبصار إلى العيان بعد إنكاره للطغيان كقوله ﴿ فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءكَ فَبَصَرُكَ اليوم حَدِيدٌ ﴾ [ق : 22]

﴿ لِيَجْزِيَهُمُ الله أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ﴾ أي يسبحون ويخافون ليجزيهم الله

أحسن جزاء أعمالهم أي ليجزيهم ثوابهم مضاعفاً ويزيدهم على الثواب الموعود على العمل تفضلاً ﴿ واللهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاء بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ أي يثيب من يشاء ثواباً لا يدخل في حساب الخلق .

هذه صفات المهتدين بنور الله فأما الذين ضلوا عنه فالمذكورون في قوله ﴿ والذين كَفَرُواْ أعمالهم كَسَرَابٍ ﴾ هو ما يرى في الفلاة من ضوء الشمس وقت الظهر يسرب على وجه الأرض كأنه ماء يجري ﴿ بِقِيعَةٍ ﴾ بقاع أو جمع قاع وهو المنبسط المستوي من الأرض كجيرة في جار ﴿ يَحْسَبُهُ الظمان ﴾ يظنه العطشان ﴿ مَاءً حتى إِذَا جَاءهُ ﴾ أي جاء إلى ما توهم أنه ماء ﴿ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً ﴾ كما ظنه ﴿ وَوَجَدَ الله ﴾ أي جزاء الله كقوله ﴿ يجد الله غفوراً رحيماً ﴾ [النساء : 110] أي يجد مغفرته ورحمته ﴿ عِندَهُ ﴾ عند الكافر ﴿ فوفاه حِسَابَهُ ﴾ أي أعطاه جزاء عمله وافياً كاملاً .

(100/552)

وحد بعد تقدم الجمع حملاً على كل واحد من الكفار ﴿ والله سَرِيعُ الحساب ﴾ لأنه لا يحتاج إلى عد وعقد ولا يشغله حساب عن حساب ، أو قريب حسابه لأن ما هو آتٍ قريب شبه ما يعمله من لا يعتقد الإيمان ولا يتبع الحق من الأعمال الصالحة التي يحسبها تنفعه

عند الله وتنجيه من عذابه ، ثم يخيب في العاقبة أمله ويلقى خلاف ما قدر بسراب يراه الكافر بالساهرة وقد غلبه عطش يوم القيامة فيحسبه ماء فيأتيه فلا يجد ما رجاه ويجد زبانية الله عنده يأخذونه فيعتلونه إلى جهنم فيسقونه الحميم والغساق وهم الذين قال الله فيهم : ﴿ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴾ ﴿ وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ [الكهف : 104] قيل : نزلت في عتبة بن ربيعة بن أمية كان يترهب ملتمساً للدين في الجاهلية فلما جاء الإسلام كفر .

(101/552)

﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ ﴾ "أو" هناك "أو" في ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ ﴾ ﴿ لُّجِّيٍّ ﴾ عميق كثير الماء منسوب إلى اللج وهو معظم ماء البحر ﴿ يغشاه ﴾ يغشى البحر أو من فيه يعلوه ويغطيه ﴿ مَوْجٌ ﴾ هو ما ارتفع من الماء ﴿ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ ﴾ أي من فوق الموج موج آخر ﴿ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ﴾ من فوق الموج الأعلى سحاب ﴿ ظلمات ﴾ أي هذه ظلمات ظلمة السحاب وظلمة الموج وظلمة البحر ﴿ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ﴾ ظلمة الموج على ظلمة البحر وظلمة الموج على الموج وظلمة السحاب على الموج ﴿ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ ﴾ أي الواقع فيه ﴿ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ﴾ مبالغة في لم يرها أي لم يقرب أن يراها فضلاً عن أن يراها ، شبه

أعمالهم أولاً في فوات نفعها وحضور ضررها بسراب لم يجد من خدعه من بعيد شيئاً ولم يكفه خيبة وكمداً أن لم يجد شيئاً كغيره من السراب حتى وجد عنده الزبانية تعتله إلى النار ، وشبهها ثانياً في ظلمتها وسوادها لكونها باطلة وفي خلوها عن نور الحق بظلمات متراكمة من لج البحر والأمواج والسحاب ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُورٍ ﴾ من لم يهده الله لم يهتد عن الزجاج في الحديث " خلق الله الخلق في ظلمة ثم رش عليهم من نوره فمن أصابه من ذلك النور اهتدى ومن أخطأه ضل " ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ ألم تعلم يا محمد علماً يقوم مقام العيان في الإيقان ﴿ أَنَّ اللهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِى السماوات والأرض والطير ﴾ عطف على ﴿ من ﴾ ﴿ صافات ﴾ حال من ﴿ الطير ﴾ أي يصففن أجنحتهن في الهواء ﴿ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاَتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ﴾ الضمير في ﴿ علم ﴾ ل ﴿ كل ﴾ أو لله ، وكذا في صلاته وتسبيحه .

والصلاة الدعاء ولم يبعد أن يلهم الله الطير دعاءه وتسبيحه كما ألهمها سائر العلوم الدقيقة التي لا يكاد العقلاء يتهتدون إليها ﴿ والله عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ لا يعزب عن علمه شيء

﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السماوات والأرض ﴾ لأنه خالقهما ومن ملك شيئاً فبتمليكه إياه ﴿ وإلى الله المصير ﴾ مرجع الكل ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُزْجِى ﴾ يسوق إلى حيث يريد ﴿ سَحَابًا ﴾ جمع سحابة دليله ﴿ ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ﴾ وتذكيره للفظ أي يضم بعضه إلى بعض ﴿ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَاماً ﴾ متراكماً بعضه فوق بعض ﴿ فَتَرَى الودق ﴾ المطر ﴿ يَخْرُجُ مِنْ خِلاَلِهِ ﴾ من فتوقه ومخارجه جمع خلل كجبال في جبل ﴿ وَيُنَزِّلُ ﴾ ﴿ وينزل ﴾ مكي ومدني وبصري ﴿ مِّنَ السماء ﴾ لابتداء الغاية لأن ابتداء الإنزال من السماء ﴿ مِن جِبَالٍ ﴾ "من" للتبعيض لأن ما ينزله الله بعض تلك الجبال التي ﴿ فِيهَا ﴾ في السماء ﴿ مِن بَرَدٍ ﴾ للبيان أو الأولى ان للابتداء والآخرة للتبعيض ، ومعناه أنه ينزل البرد من السماء من جبال فيها .

وعلى الأول مفعول ﴿ ينزل ﴾ ﴿ من جبال ﴾ أي بعض جبال فيها ومعنى ﴿ من جبال فيها من برد ﴾ أن يخلق الله في السماء جبال برد كما خلق في الأرض جبال حجر أو يريد الكثرة بذكر الجبال كما يقال "فلان يملك جبالاً من ذهب" ﴿ فَيُصِيبُ بِهِ ﴾ بالبرد ﴿ مَن يَشَآء ﴾ أي يصيب الإنسان وزرعه ﴿ وَيَصْرِفُهُ عَمَّن مَا يَشَاء ﴾ فلا يصيبه أو يعذب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء فلا يعذبه ﴿ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ ﴾ ضوؤه ﴿ يَذْهَبُ بالأبصار ﴾ يخطفها به ﴿ يَذْهَبُ ﴾ يزيد على زيادة الباء

﴿ يُقَلِّبُ الله الليل والنهار ﴾ يصرفهما في الاختلاف طولاً وقصراً والتعاقب ﴿ إِنَّ فِى

ذَلِكَ ﴾ في إزجاء السحاب وإنزال الودق والبرد وتقليب الليل والنهار ﴿ لَعِبْرَةً لأُوْلِى الأبصار ﴾ لذوي العقول .

وهذا من تعديد الدلائل على ربوبيته حيث ذكر تسبيح من في السماوات والأرض وما يطير بينهما ودعاءهم له وتسخير السحاب إلى آخر ما ذكر ، فهي براهين لائحة على وجوده ودلائل واضحة على صفاته لمن نظر وتدبر .

ثم بين دليلاً آخر فقال تعالى .

(103/552)

﴿ واللهُ خَلَقَ كُلَّ ﴾ ﴿ خالق كل ﴾ حمزة وعلي ﴿ دَآبَّةٍ ﴾ كل حيوان يدب على وجه الأرض ﴿ مِن مَّاء ﴾ أي من نوع من الماء مختص بتلك الدابة أو من ماء مخصوص وهو النطفة ، ثم خالف بين المخلوقات من النطفة فمنها هوام ومنها بهائم ومنها أناسي وهو كقوله ﴿ يسقى بِمَاء واحد وَنُفَضّلُ بَعْضَهَا على بَعْضٍ فِى الأُكل ﴾ [الرعد : و] هذا دليل على أن لها خالقاً ومدبراً وإلا لم تختلف لإتفاق الأصل .

وإنما عرف الماء في قوله : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الماء كُلَّ شَىْءٍ حَىّ ﴾ [الأنبياء : 30] لأن المقصود ثم أن أجناس الحيوان مخلوقة من جنس الماء وأنه هو الأصل وإن تخللت بينه وبينها

وسائط .

قالوا : إن أول ما خلق الله الماء فخلق منه النار والريح والطين ، فخلق من النار الجن ، ومن الريح الملائكة ، ومن الطين آدم ودواب الأرض ، ولما كانت الدابة تشمل المميز وغير المميز غلب المميز فأعطى ما وراءه حكمه كأن الدواب كلهم مميزون فمن ثم قيل ﴿ فَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي على بَطْنِهِ ﴾ كالحية والحوت .

وسمي الزحف على البطن مشياً استعارة كما يقال في الأمر المستمر قد مشى هذا الأمر ، أو على طرائق المشاكلة لذكر الزاحف مع الماشين ﴿ وَمِنهُمْ مَّن يَمْشِي على رِجْلَيْنِ ﴾ كالإنسان والطير ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي على أَرْبَعٍ ﴾ كالبهائم وقدم ما هو أعرق في القدرة وهو الماشي بغير آلة مشي من أرجل أو غيرها ثم الماشي على رجلين ثم الماشي على أربع ﴿ يَخْلُقُ الله مَا يَشَاء ﴾ كيف يشاء ﴿ إِنَّ الله على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ لا يتعذر عليه شيء .

(104/552)

﴿ لَّقَدْ أَنزَلْنَا ءايات مبينات والله يَهْدِي مَن يَشَاء ﴾ بلطفه ومشيئته ﴿ إلى صراط مُّسْتَقِيمٍ ﴾ إلى دين الإسلام الذي يوصل إلى جنته والآيات لإلزام حجته لما ذكر إنزال الآيات

، ذكر بعدها افتراق الناس إلى ثلاث فرق : فرقة صدقت ظاهراً وكذبت باطناً وهم المنافقون ، وفرقة صدقت ظاهراً وباطناً وهم المخلصون ، وفرقة كذبت ظاهراً وباطناً وهم الكافرون على هذا الترتيب .

وبدأ بالمنافقين فقال : ﴿ وَيَقُولُونَ آمَنَّا بالله وبالرسول ﴾ بألسنتهم ﴿ وَأَطَعْنَا ﴾ الله والرسول ﴿ ثُمَّ يتولى ﴾ يعرض عن الانقياد لحكم الله ورسوله ﴿ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مِّن بَعْدِ ذلك ﴾ أي من بعد قولهم آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ﴿ وَمَا أُوْلَئِكَ بالمؤمنين ﴾ أي المخلصين وهو إشارة إلى القائلين آمنا ، وأطعنا ، لا إلى الفريق المتولي وحده .

وفيه إعلام من الله بأن جميعهم منتفٍ عنهم الإيمان لاعتقادهم ما يعتقد هؤلاء والإعراض وإن كان من بعضهم فالرضا بالإعراض من كلهم .

﴿ وَإِذَا دُعُواْ إِلَى الله وَرَسُولِهِ ﴾ أي إلى رسول الله كقولك "أعجبني زيد وكرمه" تريد كرم زيد ﴿ لِيَحْكُمَ ﴾ الرسول ﴿ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴾ أي فاجأ من فريق منهم الإعراض نزلت في بشر المنافق وخصمه اليهودي حين اختصما في أرض فجعل اليهودي يجره إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم والمنافق إلى كعب بن الأشرف ويقول : إن محمداً يحيف علينا ﴿ وَإِن يَكُنْ لَّهُمُ الحق ﴾ أي إذا كان الحق لهم على غيرهم ﴿ يَأْتُواْ إِلَيْهِ ﴾ إلى الرسول ﴿ مُذْعِنِينَ ﴾ حال أي مسرعين في الطاعة طلباً لحقهم لا رضا بحكم

رسولهم .

قال الزجاج : الإذعان الإسراع مع الطاعة .

(105/552)

والمعنى أنهم لمعرفتهم أنه ليس معك إلا الحق المر والعدل البحث يمتنعون عن المحاكمة إليك إذا ركبهم الحق لئلا تنتزعه من أحداقهم بقضائك عليهم لخصومهم ، وإن ثبت لهم حق على خصم أسرعوا إليك ولم يرضوا إلا بحكومتك لتأخذ لهم ما وجب لهم في ذمة الخصم

﴿ أَفِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ ﴾ قسم الأمر في صدودهم عن حكومته إذا كان الحق عليهم بأن يكونوا مرضى القلوب منافقين أو مرتابين في أمر نبوته أو خائفين الحيف في قضائه .

ثم أبطل خوفهم حيفه بقوله ﴿ بَلْ أُوْلَئِكَ هُمُ الظالمون ﴾ أي لا يخافون أن يحيف عليهم لمعرفتهم بحاله وإنما هم ظالمون يريدون أن يظلموا من له الحق عليهم ، وذلك شيء لا يستطيعونه في مجلس رسول الله عليه الصلاة والسلام فمن ثم يأبون المحاكمة إليه .

﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ المؤمنين ﴾ وعن الحسن ﴿ قول ﴾ بالرفع ، والنصب أقوى لأن أولى الاسمين بكونه اسماً لكان أوغلهما في التعريف وأن يقولوا أوغل بخلاف ﴿ قول المؤمنين ﴾

﴿ إِذَا دُعُواْ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ ﴾ النبي عليه الصلاة والسلام ليحكم أي ليفعل الحكم ﴿ بَيْنَهُمْ ﴾ بحكم الله الذي أنزل عليه ﴿ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا ﴾ قوله ﴿ وَأَطَعْنَا ﴾ أمره ﴿ وأولئك هُمُ المفلحون ﴾ الفائزون ﴿ وَمَن يُطِعِ الله ﴾ في فرائضه ﴿ وَرَسُولَهُ ﴾ في سننه ﴿ وَيَخْشَ الله ﴾ على ما مضى من نوبه ﴿ وَيَتَّقْهِ ﴾ فيما يستقبل ﴿ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الفائزون ﴾ وعن بعض الملوك أنه سأل عن آية كافية فتليت له هذه الآية.

وهي جامعة لأسباب الفوز ﴿ ويتقه ﴾ بسكون الهاء: أبو عمرو وأبو بكر بنية الوقف، وبسكون القاف وبكسر الهاء مختلسة: حفص، وبكسر القاف والهاء، غيرهم. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير النسفى حـ 3 صـ 144. 151 ﴾

(106/552)

وقال البيضاوى:

﴿ الله نُورُ السموات والأرض ﴾

(107/552)

النور في الأصل كيفية تدركها الباصرة أولاً وبواسطتها سائر المبصرات كالكيفية الفائضة من النيرين على الأجرام الكثيفة المحاذية لهما ، وهو بهذا المعنى لا يصح إطلاقه على الله تعالى إلا بتقدير مضاف كقولك : زيد كرم بمعنى ذو كرم ، أو على تجوز إما بمعنى منور السموات والأرض وقد قرىء به فإنه تعالى نورهما بالكواكب وما يفيض عنها من الأنوار أو بالملائكة والأنبياء . أو مدبرهما من قولهم للرئيس الفائق في التدبير : نور القوم لأنهم يهتدون به في الأمور . أو موجدهما فإن النور ظاهر بذاته مظهر لغيره وأصل الظهور هو الوجود كما أن أصل الخفاء هو العدم ، والله سبحانه وتعالى موجود بذاته موجد لما عداه . أو الذي به تدرك أو يدرك أهلها من حيث إنه يطلق على الباصرة لتعلقها به أو لمشاركتها له في توقف الإدراك عليه ثم على البصيرة لأنها أقوى إدراكاً فإنها تدرك نفسها وغيرها من الكليات والجزئيات الموجودات والمعدومات ، وتغوص في بواطنها وتتصرف فيها بالتركيب والتحليل ، ثم إن هذه الإدراكات ليست لذاتها وإلا لما فارقتها فهي إذن من سبب يفيضها عليها وهو الله سبحانه وتعالى إبتداء أو بتوسط من الملائكة والأنبياء ولذلك سموا أنواراً ، ويقرب منه قول ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : معناه هادي من فيهما فهم بنوره يهتدون ، وإضافته إليهما للدلالة على سعة إشراقه أو لاشتمالها على الأنوار ، الحسية والعقلية وقصور الإدراكات عليهما وعلى المتعلق بهما والمدلول لهما . ﴿ مَثَلُ نُورِهِ ﴾ صفة نوره العجيبة الشأن ، وإضافته إلى ضميره سبحانه وتعالى دليل على أن إطلاقه عليه لم يكن

على ظاهره. ﴿ كَمِشْكَاةٍ ﴾ كصفة مشكاة، وهي الكوة الغير النافذة. وقرأ الكسائي برواية الدوري بالإِمالة. ﴿ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾ سراج ضخم ثاقب، وقيل المشكاة الأنبوبة في وسط القنديل والمصباح الفتيلة المشتعلة. ﴿ المصباح فِى زُجَاجَةٍ ﴾ في قنديل من الزجاج. ﴿ الزجاجة كَأَنَّهَا

(108/552)

كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ ﴾ مضيء متلألىء كالزهرة في صفائه وزهرته منسوب إلى الدرء أو فعيل كمريق من الدرء فإنه يدفع الظلام بضوئه، أو بعض ضوئه بعضاً من لمعانه إلا أنه قلبت همزته ياء ويدل عليه قراءة حمزة وأبي بكر على الأصل، وقراءة أبي عمرو والكسائي "درىء" كشريب وقد قرىء به مقلوباً.

(109/552)

﴿ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مباركة زَيْتُونَةٍ ﴾ أي إبتداء ثقوب المصباح من شجرة الزيتون المتكاثر نفعه بأن رويت ذبالته بزيتها، وفي إبهام الشجرة ووصفها بالبركة ثم إبدال الزيتونة عنها

تفخيم لشأنها ، وقرأ نافع وابن عامر وحفص بالياء والبناء للمفعول من أوقد وحمزة والكسائي وأبو بكر بالتاء كذلك على إسناده إلى ﴿ الزجاجة ﴾ بحذف المضاف ، وقرىء "توقد" من تتوقد ويوقد بحذف التاء لاجتماع زيادتين وهو غريب . ﴿ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ ﴾ تقع الشمس عليها حيناً بعد حين بل بحيث تقع عليها طول النهار كالتي تكون على قلة ، أو صحراء واسعة فإن ثمرتها تكون أنضج وزيتها أصفى ، أو لا نابتة في شرق المعمورة وغربها بل في وسطها وهو الشام فإن زيتونه أجود الزيتون ، أو لا في مضحى تشرق الشمس عليها دائماً فتحرقها أو في مفيأة تغيب عنها دائماً فتتركها نيئاً وفي الحديث " لا خير في شجرة ولا نبات في مفيأة ولا خير فيهما في مضحى " ﴿ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ﴾ أي يكاد يضيء بنفسه من غير نار لتلألئه وفرط وبيصه . ﴿ نُّورٌ على نُورٍ ﴾ نور متضاعف فإن نور المصباح زاد في إنارته صفاء الزيت وزهرة القنديل وضبط المشكاة لأشعته ، وقد ذكر في معنى التمثيل وجوه ، الأول : أنه تمثيل للهدى الذي دلت عليه الآيات المبينات في جلاء مدلولها وظهور ما تضمنته من الهدى بالمشكاة المنعوتة ، أو تشبيه للهدى من حيث إنه محفوف بظلمات أوهام الناس وخيالاتهم بالمصباح ، وإنما ولي الكاف المشكاة لاشتمالها عليه ، وتشبيهه به أوفق من تشبيهه بالشمس ، أو تمثيل لما نور الله به قلب المؤمن من المعارف والعلوم بنور المشكاة المنبث فيها من مصباحها ، ويؤيده قراءة أبي : "مثل نور المؤمن" ، أو تمثيل لما منح الله به عباده من القوى الداركة الخمس

المترتبة التي منوط بها المعاش والمعاد وهي : الحساسة التي تدرك بها المحسوسات بالحواس الخمس ، والخيالية

(110/552)

التي تحفظ صور تلك المحسوسات لتعرضها على القوة العقلية متى شاءت ، والعاقلة التي تدرك الحقائق الكلية ، والمفكرة وهي التي تؤلف المعقولات لتستنتج منها علم ما لم تعلم ، والقوة القدسية التي تتجلى فيها لوائح الغيب وأسرار الملكوت المختصة بالأنبياء والأولياء المعنية بقوله تعالى : ﴿ ولكن جعلناه نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا ﴾ بالأشياء الخمسة المذكورة في الآية وهي : "المشكاة" ، و"الزجاجة" ، و"المصباح" ، و"الشجرة" ، و"الزيت" ، فإن الحساسة كالمشكاة لأن محلها كالكوى ووجهها إلى الظاهر لا تدرك ما وراءها وإضاءتها بالمعقولات لا بالذات ، والخيالية كالزجاجة في قبول صور المدركات من الجوانب وضبطها للأنوار العقلية وإنارتها بما تشتمل عليه من المعقولات ، والعاقلة كالمصباح لإِضاءتها بالإِدراكات الكلية والمعارف الإِلهية ، والمفكرة كالشجرة المباركة لتأديتها إلى ثمرات لا نهاية لها الزيتونة المثمرة بالزيت الذي هو مادة المصابيح التي لا تكون شرقية ولا غربية لتجردها عن اللواحق الجسمية ، أو لوقوعها بين الصور والمعاني متصرفة

في القبيلين منتفعة من الجانبين ، والقوة القدسية كالزيت فإنها لصفائها وشدة ذكائها تكاد تضيء بالمعارف من غير تفكر ولا تعلم ، أو تمثيل للقوة العقلية في مراتبها بذلك فإنها في بدء أمرها خالية عن العلوم مستعدة لقبولها كالمشكاة ، ثم تنتقش بالعلوم الضرورية بتوسط إحساس الجزئيات بحيث تتمكن من تحصيل النظريات فتصير كالزجاجة متلألئة في نفسها قابلة للأنوار ، وذلك التمكن إن كان بفكر واجتهاد فكالشجرة الزيتونة وإن كان بالحدس فكالزيت ، وإن كان بقوة قدسية فكالتي يكاد زيتها يضيء لأنها تكاد تعلم ولو لم تتصل بملك الوحي والإِلهام الذي مثله النار من حيث إن العقول تشتعل عنه ، ثم إذا حصلت لها العلوم بحيث تتمكن من استحضارها متى شاءت كانت كالمصباح ، فإذا استحضرتها كانت نوراً على نور .

(111/552)

﴿ يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ ﴾ لهذا النور الثاقب . ﴿ مَن يَشَآءُ ﴾ فإن الأسباب دون مشيئته لاغية إذ بها تمامها . ﴿ وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ ﴾ إدناء للمعقول من المحسوس توضيحاً وبياناً . ﴿ واللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ معقولاً كان أو محسوساً ظاهراً كان أو خفياً ، وفيه وعد ووعيد لمن تدبرها وإن لم يكترث بها .

﴿ فِي بُيُوتٍ ﴾ متعلق بما قبله أي كمشكاة في بعض بيوت ، أو توقد في بيوت فيكون تقييد للممثل به بما يكون تحبيراً ومبالغة فيه فإن قناديل المساجد تكون أعظم ، أو تمثيلاً لصلاة المؤمنين أو أبدانهم بالمساجد ، ولا ينافي جمع البيوت وحدة المشكاة إذ المراد بها ماله هذا الوصف بلا اعتبار وحدة ولا كثرة أو بما بعده وهو يسبح ، وفيها تكرير مؤكد لا يبذكر لأنه من صلة أن فلا يعمل فيما قبله أو بمحذوف مثل سبحوا في بيوت ، والمراد بها المساجد لأن الصفة تلائمها . وقيل المساجد الثلاثة والتنكير للتعظيم . ﴿ أَذِنَ اللهُ أَن تُرْفَعَ ﴾ بالبناء أو التعظيم . ﴿ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسمه ﴾ عام فيما يتضمن ذكره حتى المذاكرة في أفعاله والمباحثة في أحكامه . ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بالغدو والآصال ﴾ ينزهونه أي يصلون له فيها بالغدوات والعشيات ، والغدو مصدر أطلق للوقت ولذلك حسن اقترانه بالآصال وهو جمع أصيل ، وقرىء "والايصال" وهو الدخول في الأصيل وقرأ ابن عامر وأبو بكر "يسبح" بالفتح على إسناده إلى أحد الظروف الثلاثة ورفع رجال بما يدل عليه ، وقرىء تسبح بالتاء مكسوراً لتأنيث الجمع ومفتوحاً على إسناده إلى أوقات الغدو .

(112/552)

﴿ رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تجارة ﴾ لا تشغلهم معاملة رابحة . ﴿ وَلاَ بَيْعٌ عَن ذِكْرِ الله ﴾ مبالغة بالتعميم بعد التخصيص إن أريد به مطلق المعارضة ، أو بإفراد ما هو الأهم من قسمي التجارة فإن الربح يتحقق بالبيع ويتوقع بالشراء ، وقيل المراد بالتجارة الشراء فإنه أصلها ومبدؤها ، وقيل الجلب لأنه الغالب فيها ومنه يقال تجر في كذا إذا جلبه وفيه إيماء بأنهم تجار . ﴿ وَإِقَامِ الصلاة ﴾ عوض فيه الإضافة من التاء المعوضة عن العين الساقطة بالإعلال كقوله :

وَأَخْلَفُوكَ عد الأَمرِ الَّذِي وَعَدُوا . . . ﴿ وَإِيتَاء الزكوة ﴾ ما يجب إخراجه من المال للمستحقين . ﴿ يخافون يَوْماً ﴾ مع ما هم عليه من الذكر والطاعة . ﴿ تَتَقَلَّبُ فِيهِ القلوب والأبصار ﴾ تضطرب وتتغير من الهول ، أو تتقلب أحوالها فتفقه القلوب ما لم تكن تفقه وتبصر الأبصار ما لم تكن تبصره ، أو تتقلب القلوب مع توقع النجاة وخوف الهلاك والأبصار من أي ناحية يؤخذ بهم ويؤتى كتبهم .

﴿ لِيَجْزِيَهُمُ الله ﴾ متعلق بيسبح أو لا تلهيهم أو يخافون . ﴿ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ ﴾ أحسن جزاء ما عملوا الموعود لهم من الجنة . ﴿ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ﴾ أشياء لم يعدهم بها على أعمالهم ولم تخطر ببالهم . ﴿ والله يَرْزُقُ مَن يَشَاء بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ تقرير للزيادة وتنبيه على كمال القدرة ونفاذ المشيئة وسعة الإحسان .

﴿ والذين كَفَرُواْ أعمالهم كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ ﴾ والذين كفروا حالهم على ضد ذلك فإن

أعمالهم التي يحسبونها صالحة نافعة عند الله يجدونها لاغية مخيبة في العاقبة كالسراب ، وهو ما يرى في الفلاة من لمعان الشمس عليها وقت الظهيرة فيظن أنه ماء يسرب أي يجري ، والقيعة بمعنى القاع وهو الأرض الخالية عن النبات وغيره المستوية ، وقيل جمعه كجار وجيرة وقرىء "بقيعات" كديمات في ديمة .

(113/552)

﴿ يَحْسَبُهُ الظمآن مَاءً ﴾ أي العطشان وتخصيصه لتشبيه الكافر به في شدة الخيبة عند مسيس الحاجة . ﴿ حتى إِذَا جَاءَهُ ﴾ جاء ما توهمه ماء أو موضعه . ﴿ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً ﴾ مما ظنه . ﴿ وَوَجَدَ الله عِندَهُ ﴾ عقابه أو زبانيته أو وجده محاسباً إياه . ﴿ فوفاه حِسَابَهُ ﴾ استعراضاً أو مجازاة . ﴿ والله سَرِيعُ الحساب ﴾ لا يشغله حساب عن حساب . روي أنها نزلت في عتبة بن ربيعة بن أمية تعبد في الجاهلية والتمس الدين فلما جاء الإِسلام كفر .

﴿ أَوْ كظلمات ﴾ عطف على ﴿ كَسَرَابٍ ﴾ و ﴿ أَوْ ﴾ للتخيير فإن أعمالهم لكونها لاغية لا منفعة لها كالسراب ، ولكونها خالية عن نور الحق كالظلمات المتراكمة من لج البحر والأمواج والسحاب ، أو للتنويع فإن أعمالهم إن كانت حسنة فكالسراب وإن كانت قبيحة

فكالظلمات ، أو للتقسيم باعتبار وقتين فإنها كالظلمات في الدنيا وكالسراب في الآخرة .

﴿ فِي بَحْرٍ لُّجِّيّ ﴾ ذي لج أي عميق منسوب إلى اللج وهو معظم الماء . ﴿ يغشاه ﴾ يغشى البحر . ﴿ مَوْجٌ مّن فَوْقِهِ مَوْجٌ ﴾ أي أمواج مترادفة متراكمة . ﴿ مّن فَوْقِهِ ﴾ من فوق الموج الثاني . ﴿ سَحَابٌ ﴾ غطى النجوم وحجب أنوارها ، والجملة صفة أخرى لل ﴿ بَحْرٍ ﴾ . ﴿ ظلمات ﴾ أي هذه ظلمات . ﴿ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ﴾ وقرأ ابن كثير ﴿ ظلمات ﴾ بالجر على إبدالها من الأولى أو بإضافة ال ﴿ سَحَابٌ ﴾ إليها في رواية البزي . ﴿ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ ﴾ وهي أقرب ما يرى إليه . ﴿ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ﴾ لم يقرب أن يراها فضلاً أن يراها كقول ذي الرمة :

إِذَا غَيَّرَ النَّأْيُ المُحِبِّينَ لَمْ يَكد . . . رَسِيسُ الهَوَى مِنْ حُبِّ مَيَّةَ يَبْرَحُ

والضمائر للواقع في البحر وإن لم يجر ذكره لدلالة المعنى عليه . ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللّهُ لَهُ نُوراً ﴾ ومن لم يقدر له الهداية . لم يوفقه لأسبابها . ﴿ فَمَا لَهُ مِن نُورٍ ﴾ خلاف الموفق الذي له نور على نور .

(114/552)

﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ ألم تعلم علماً يشبه المشاهدة في اليقين والوثاقة بالوحي أو الاستدلال . ﴿ أَنَّ اللهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السموات والأرض ﴾ ينزه ذاته عن كل نقص وآفة أهل السموات والأرض ، و ﴿ مِنْ ﴾ لتغليب العقلاء أو الملائكة والثقلان بما يدل عليه من مقال أو دلالة حال . ﴿ والطير ﴾ على الأول تخصيص لما فيها من الصنع الظاهر والدليل الباهر ولذلك قيدها بقوله : ﴿ صافات ﴾ فإن إعطاء الأجرام الثقيلة ما به تقوى على الوقوف في الجو باسطة أجنحتها بما فيها من القبض والبسط حجة قاطعة على كمال قدرة الصانع تعالى ولطف تدبيره . ﴿ كُلٌّ ﴾ كل واحد مما ذكر أو من الطير . ﴿ قَدْ عَلِمَ صَلاَتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ﴾ أي قد علم الله دعاءه وتنزيهه اختياراً أو طبعاً لقوله : ﴿ والله عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ أو علم كل على تشبيه حاله في الدلالة على الحق والميل إلى النفع على وجه يخصه بحال من علم ذلك مع أنه لا يبعد أن يلهم الله تعالى الطير دعاء وتسبيحاً كما ألهمها علوماً دقيقة في أسباب تعيشها لا تكاد تهتدي إليها العقلاء .

﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السموات والأرض ﴾ فإنه الخالق لهما وما فيهما من الذوات والصفات والأفعال من حيث إنها ممكنة واجبة الانتهاء إلى الواجب . ﴿ وإلى الله المصير ﴾ مرجع الجميع .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُزْجِي سَحَاباً ﴾ يسوقه ومنه البضاعة المزجاة فإنه يزجيها كل أحد . ﴿ ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ﴾ بأن يكون قزعاً فيضم بعضه إلى بعض ، وبهذا الاعتبار صح بينه إذ المعنى بين أجزائه ، وقرأ نافع برواية ورش "يولف" غير مهموز . ﴿ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَاماً ﴾ متراكماً بعضه فوق بعض . ﴿ فَتَرَى الودق ﴾ المطر . ﴿ يَخْرُجُ مِنْ خِلاَلِهِ ﴾ من فتوقه جمع خلل كجبال في جبل ، وقرىء من "خلله" . ﴿ وَيُنَزِّلُ مِنَ السماء ﴾ من الغمام وكل ما علاك فهو سماء . ﴿ مِن جِبَالٍ فِيهَا ﴾ من قطع عظام تشبه الجبال في عظمها أو جمودها . ﴿ مِن بَرَدٍ ﴾ بيان للجبال والمفعول محذوف أي ﴿ يُنَزِّلُ ﴾ مبتدأ ﴿ مِنَ السماء مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ ﴾ برداً ، ويجوز أن تكون من الثانية أو الثالثة للتبعيض واقعة موقع المفعول ، وقيل المراد بالسماء المظلة وفيها جبال من برد كما في الأرض جبال من حجر ، وليس في العقل قاطع يمنعه والمشهور أن الأبخرة إذا تصاعدت ولم تحللها حرارة فبلغت الطبقة الباردة من الهواء وقوي البرد هناك اجتمع وصار سحاباً ، فإن لم يشتد البرد تقاطر مطراً ، وإن اشتد فإن وصل إلى الأجزاء البخارية قبل اجتماعها نزل ثلجاً وإلا نزل برداً ، وقد يبرد الهواء برداً مفرطاً فينقبض وينعقد سحاباً . ينزل منه المطر أو الثلج وكل ذلك لا بد أن يستند إلى إرادة الواجب الحكيم لقيام الدليل على أنها الموجبة لاختصاص الحوادث بمحالها وأوقاتها وإليها أشار بقوله : ﴿ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاء وَيَصْرِفُهُ عن مَن

يَشَاء ﴾ والضمير لل ﴿ بَرَدٍ ﴾ . ﴿ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ ﴾ ضوء برقه ، وقرىء بالمد بمعنى العلو وبإدغام الدال في السين و ﴿ بَرْقِهِ ﴾ بضم الباء وفتح الراء وهو جمع برقة وهي المقدار من البرق كالغرفة وبضمها للاتباع . ﴿ يَذْهَبُ بالأبصار ﴾ بأبصار الناظرين إليه من فرط الإضاءة وذلك أقوى دليل على كمال قدرته من حيث إنه توليد

(116/552)

للضد من الضد ، وقرىء ﴿ يَذْهَبُ ﴾ على زيادة الباء .

﴿ يُقَلِّبُ الله اليل والنهار ﴾ بالمعاقبة بينهما أو بنقص أحدهما وزيادة الآخر ، أو بتغيير أحوالهما بالحر والبرد والظلمة والنور أو بما يعم ذلك . ﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ ﴾ فيما تقدم ذكره . ﴿ لَعِبْرَةً لأُوْلِي الأبصار ﴾ لدلالة على وجود الصانع القديم وكمال قدرته وإحاطة علمه ونفاذ مشيئته وتنزهه عن الحاجة وما يفضي إليها لمن يرجع إلى بصيرة .

﴿ والله خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ ﴾ حيوان يدب على الأرض . وقرأ حمزة والكسائي "خالق كل دابة" بالإضافة . ﴿ مِن مَّاء ﴾ هو جزء مادته ، أو ماء مخصوص هو النطفة فيكون تنزيلاً للغالب منزلة الكل إذ من الحيوانات ما يتولد عن النطفة ، وقيل ﴿ مِن مَّاء ﴾ متعلق ب ﴿ دَآبَّةٍ ﴾ وليس بصلة ل ﴿ خلقَ ﴾ . ﴿ فَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي على بَطْنِهِ ﴾ كالحية وإنما

سمي الزحف مشياً على الاستعارة أو المشاكلة . ﴿ وَمِنهُمْ مَّن يَمْشِي على رِجْلَيْنِ ﴾ كالإِنس والطير . ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي على أَرْبَعٍ ﴾ كالنعم والوحش ويندرج فيه ما له أكثر من أربع كالعناكب فإن اعتمادها إذا مشت على أربع ، وتذكير الضمير لتغليب العقلاء والتعبير عن الأصناف ليوافق التفصيل الجملة والترتيب لتقديم ما هو أعرف في القدرة .

﴿ يَخْلُقُ الله مَا يَشَاء ﴾ مما ذكر ومما لم يذكر بسيطاً ومركباً على اختلاف الصور والأعضاء والهيئات والحركات والطبائع والقوى والأفعال مع اتحاد العنصر بمقتضى مشيئته . ﴿ إِنَّ الله على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ فيفعل ما يشاء .

﴿ لَّقَدْ أَنزَلْنَا ءايات مبينات ﴾ للحقائق بأنواع الدلائل . ﴿ والله يَهْدِي مَن يَشَاء ﴾ بالتوفيق للنظر فيها والتدبر لمعانيها . ﴿ إلى صراط مُّسْتَقِيمٍ ﴾ هو دين الإِسلام الموصل إلى درك الحق والفوز بالجنة .

(117/552)

﴿ وَيِقُولُونَ آمَنَّا بالله وبالرسول ﴾ نزلت في بشر المنافق خاصم يهودياً فدعاه إلى كعب بن الأشرف وهو يدعوه إلى النبي صلى الله عليه وسلم . وقيل في مغيرة بن وائل خاصم علّياً رضي الله عنه في أرض فأبى أن يحاكمه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . ﴿ وَأَطَعْنَا

﴿ أي وأطعناهما . ﴿ ثُمَّ يتولى ﴾ بالامتناع عن قبول حكمه . ﴿ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مِّن بَعْدِ ذلك ﴾ بعد قولهم هذا . ﴿ وَمَا أولئك بالمؤمنين ﴾ إشارة إلى القائلين بأسرهم فيكون إعلاماً من الله تعالى بأن جميعهم وإن آمنوا بلسانهم لم تؤمن قلوبهم ، أو إلى الفريق منهم وسلب الإيمان عنهم لتوليهم ، والتعريف فيه للدلالة على أنهم ليسوا بالمؤمنين الذين عرفتهم وهم المخلصون في الإيمان والثابتون عليه .

﴿ وَإِذَا دُعُواْ إِلَى الله وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ﴾ أي ليحكم النبي صلى الله عليه وسلم فإنه الحاكم ظاهراً والمدعو إليه ، وذكر الله لتعظيمه والدلالة على أن حكمه صلى الله عليه وسلم في الحقيقة حكم الله تعالى ﴿ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴾ فاجأ فريق منهم الإعراض إذا كان الحق عليهم لعلمهم بأنك لا تحكم لهم ، وهو شرح للتولي ومبالغة فيه .

﴿ وَإِن يَكُنْ لَّهُمُ الحق ﴾ أي الحكم لا عليهم . ﴿ يَأْتُواْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴾ منقادين لعلمهم بأنه يحكم لهم ، و﴿ إِلَيْهِ ﴾ صلة ل ﴿ يَأْتُواْ ﴾ أول ﴿ مُذْعِنِينَ ﴾ وتقديمه للاختصاص .

(118/552)

﴿ أَفِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ ﴾ كفر أو ميل إلى الظلم . ﴿ أَمِ ارتابوا ﴾ بأن رأوا منك تهمة فزال يقينهم وثقتهم بك . ﴿ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ ﴾ في الحكومة . ﴿ بَلْ أولئك هُمُ الظالمون ﴾ إضراب عن القسمين الأخيرين لتحقيق القسم فتعين الأول ، ووجه التقسيم أن امتناعهم إما لخلل فيهم أو في الحاكم ، والثاني إما أن يكون محققاً عندهم أو متوقعاً وكلاهما باطل ، لأن منصب نبوته وفرط أمانته صلى الله عليه وسلم يمنعه فتعين الأول وظلمهم يعم خلل عقيدتهم وميل نفوسهم إلى الحيف والفصل لنفي ذلك عن غيرهم سيما المدعو إلى حكمه .

﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ المؤمنين إِذَا دُعُواْ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وأولئك هُمُ المفلحون ﴾ على عادته تعالى في اتباع ذكر المحق المبطل والتنبيه على ما ينبغي بعد إنكاره لما لا ينبغي ، وقرىء ﴿ قَوْلَ ﴾ بالرفع و ﴿ لِيَحْكُمَ ﴾ على البناء للمفعول وإسناده إلى ضمير مصدره على معنى ليفعل الحكم .

﴿ وَمَن يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ ﴾ فيما يأمرانه أو في الفرائض والسنن . ﴿ وَيَخْشَ اللهَ ﴾ على ما صدر عنه من الذنوب . ﴿ وَيَتَّقْهِ ﴾ فيما بقي من عمره ، وقرأ يعقوب وقالون عن نافع بلا ياء وأبو بكر وأبو عمرو بسكون الهاء ، وحفص بسكون القاف فشبه تقه بكتف وخفف والهاء ساكنة في الوقف بالاتفاق . ﴿ فأولئك هُمُ الفائزون ﴾ بالنعيم المقيم .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 4 صـ 187 . 197 ﴾

وقال الخطيب الشربينى :

واختلف في معنى قوله تعالى :

﴿ الله نور السموات والأرض ﴾

فقال ابن عباس : الله هادي أهل السموات والأرض فهم بنوره إلى الحق يهتدون وبهدايته من حيرة الضلال ينجون ، وقال الضحاك : منور السموات والأرض ، فقال : نور السماء بالملائكة ، ونور الأرض بالأنبياء ، وقال مجاهد : مدبر الأمور في السموات والأرض ، وقال أبي بن كعب والحسن وأبو العالية : مزين السموات والأرض ؛ زين السماء بالشمس والقمر والنجوم ، وزين الأرض بالأنبياء والعلماء والمؤمنين ، ويقال : بالنبات والأشجار ، وقيل : معناه الأنوار كلها منه ؛ كما يقال : فلان رحمة أي : منه الرحمة وقد يذكر مثل هذا اللفظ على طريق المدح كما قال القائل:

*إذ سار عبد الله من مرو ليلة

** فقد سار منها نورها وجمالها

وسبب هذا الاختلاف أن النور في الأصل كيفية تدركها الباصرة أولاً وبواسطتها سائر

المبصرات كالكيفية الفائضة من النيران على الأجرام الكثيفة المحاذية لها وهو بهذا المعنى لا يصح إطلاقه على الله تعالى إلا على ضرب من التجوز كالأمثلة المتقدمة أو على تقدير مضاف كقولك : زيد كرم وجود ، ثم تقول : ينعش الناس بكرمه وجوده ، والمعنى ذو نور السموات والأرض ونور السموات والأرض الحق شبه بالنور في ظهوره وبيانه كقوله تعالى : ﴿ الله وليّ الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور ﴾ (البقرة ،)

(120/552)

أي : من الباطل إلى الحق ، وأضاف النور إلى السموات والأرض لأحد معنيين إما للدلالة على سعة إشراقه وفشوّ إضاءته حتى تضيء له السموات والأرض ، وإما أن يراد أهل السموات والأرض وأنهم يستضيئون به ، واختلف أيضاً في معنى قوله تعالى : ﴿ مثل نوره ﴾ فقال ابن عباس : مثل نوره الذي أعطى المؤمن أي : مثل نور الله في قلب المؤمن وهو النور الذي يهتدي به كما قال تعالى : ﴿ فهو على نور من ربه ﴾ (الزمر ،) ، وقال الحسن وزيد بن أسلم : أراد بالنور القرآن ، وقال سعيد بن جبير والضحاك : هو محمد صلى الله عليه وسلم وقيل : أراد بالنور : الطاعة سمى طاعة الله نوراً ، وأضاف هذه الأنوار إلى نفسه تفضلاً أي : صفة نوره العجيبة الشأن في الإضاءة ﴿ كمشكاة ﴾ أي : كصفة

مشكاة وهي الكوة في الجدار غير النافذة ﴿ فيها مصباح ﴾ أي : سراج ضخم ثاقب ﴿ المصباح في زجاجة ﴾ أي : قنديل من زجاج شامي أزهر وإنما ذكر الزجاجة ؛ لأن النور وضوء النهار فيها أبين من كل شيء وضوءه يزيد في الزجاج .

ثم وصف الزجاجة بقوله تعالى : ﴿ الزجاجة كأنها ﴾ أي : النور فيها ﴿ كوكب دري ﴾ أي : مضيء شبهها في الضوء بإحدى الدراري من الكواكب الخمسة العظام وهي المشاهير المشتري والزهرة والمريخ وزحل وعطارد .

فإن قيل : لم شبه بالكواكب ولم يشبه بالشمس والقمر ؟

أجيب : بأنهما يلحقهما الخسوف والكسوف والكواكب لا يلحقها ذلك .

(121/552)

وقرأ أبو عمرو والكسائي بكسر الدال من الدرء بمعنى الدفع لدفعه الظلام والباقون بضمها منسوب إلى الدر أي : اللؤلؤ في صفاته وحسنه ، وإن كان الكوكب أكثر ضوء من الدر لكن يفضل الكواكب بصفائه كما يفضل الدر سائر الحب ، وهمز مع المد أبو عمر وشعبة وحمزة والكسائي والباقون بغير همز وكل من أهل الهمز على مرتبته في المد ﴿ توقد من شجرة مباركة زيتونة ﴾ أي : ابتداء توقده من شجرة الزيتون المتكاثر نفعه بأن رويت فتيلة

المصباح بزيت الشجرة ، وهي شجرة كثيرة البركة وفيها منافع كثيرة ؛ لأن الزيت يسرج به ويدهن به وهو أدام وهو أصفى الأدهان وأضوؤها . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بفتح التاء والواو وبتشديد القاف على وزن تفعل على الماضي أي : المصباح ، وقرأ أبو بكر وحمزة والكسائي بضم التاء الفوقية وتخفيف القاف أي : المصباح ﴿ لاشرقية ولاغربية ﴾ أي : ليست بشرقية وحدها لاتصيبها الشمس إذا غربت ولا غربية وحدها فلا تصيبها الشمس إذا طلعت بل هي مصاحبة للشمس طول النهار تصيبها الشمس عند طلوعها وعند غروبها فتكون شرقية وغربية تأخذ حظها من الأمرين فيكون زيتها أضوأ ، وهذا كما يقال : فلان ليس أسود ولا أبيض أي : ليس أسود خالصاً ولا أبيض خالصاً بل اجتمع فيه كل واحد منهما ، وهذا الرمان ليس بحلو ولا حامض أي : اجتمع فيه الحلاوة والحموضة ، هذا قول ابن عباس والأكثرين ، وقال السدي وجماعة : معناه أنها ليست مقناة لا تصيبها الشمس ولا في مضحاة لايصيبها الظل فهي لا تضرها شمس ولا ظل ، والمقناة بقاف فنون فهمزة وهي بفتح النون وضمها المكان الذي لا تطلع عليه الشمس ، وقول البيضاوي تبعاً للزمخشري

(122/552)

وفي الحديث : "لا خير في شجرة مقناة ولا في نبات في مقناة ، ولا خير فيهما في مضحى" قال ابن حجر العسقلاني : لم أجده ، وقيل : معناه أنها معتدلة ليست في شرق يصيبها الحر ، ولا في غرب يضرها البرد ، وقيل : معناه هي شامية لأن الشام وسط الأرض لا شرقي ولا غربي ، وقيل : ليست هذه الشجرة من أشجار الدنيا لأنها لو كانت في الدنيا لكانت شرقية أو غربية ، وإنما هو مثل ضربه الله تعالى لنوره ﴿ يكاد زيتها ﴾ أي : من صفائه ﴿ يضيء ولو لم تمسسه نار ﴾ أي : يكاد يتلألأ ويضيء بنفسه من غير نار ﴿ نور على نور ﴾ أي : نور المصباح على نور الزجاجة .

تنبيه : اختلف أهل العلم في معنى هذا التمثيل فقال بعضهم : وقع التمثيل لنور محمد صلى الله عليه وسلم قال ابن عباس لكعب الأحبار : أخبرني عن قوله تعالى : ﴿ مثل نوره كمشكاة ﴾ قال كعب : هذا مثل ضربه الله لنبيه صلى الله عليه وسلم فالمشكاة صدره والزجاجة قلبه والمصباح فيه النبوة تتوقد من شجرة مباركة هي شجرة النبوة يكاد نور محمد صلى الله عليه وسلم وأمره يتبين للناس ، ولو لم يتكلم أنه نبي كما يكاد ذلك الزيت يضيء ، ولو لم تمسسه نار .

وروى سالم عن عمر في هذه الآية قال : المشكاة جوف النبي صلى الله عليه وسلم والزجاجة قلبه ، والمصباح النور الذي جعله الله تعالى فيه ، لا شرقية ولا غربية لا يهودي ولا نصراني ، توقد من شجرة مباركة إبراهيم ، نور على نور نور قلب إبراهيم ونور قلب

محمد صلى الله عليهما وسلم ، وقال محمد بن كعب القرظي : المشكاة إبراهيم والزجاجة إسماعيل عليهما السلام ، والمصباح محمد صلى الله عليه وسلم سماه الله تعالى مصباحاً كما سماه سراجاً ، فقال تعالى : ﴿ وسراجاً منيراً ﴾ (الأحزاب ،)

(123/552)

توقد من شجرة مباركة ، وهي إبراهيم عليه السلام سماه مباركاً ؛ لأن أكثر الأنبياء من صلبه ، لا شرقية ولا غربية يعني إبراهيم لم يكن يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً لأن اليهود تصلي قبل المغرب والنصارى قبل المشرق ، يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار تكاد محاسن محمد صلى الله عليه وسلم تظهر للناس قبل أن يوحى إليه ، نور على نور نبي من نسل نبي نور محمد على نور إبراهيم عليهما السلام ، وقال بعضهم : وقع هذا التمثيل لنور قلب المؤمن ، روى أبو العالية عن أبيّ بن كعب قال : هذا مثل المؤمن فالمشكاة نفسه والزجاجة صدره ، والمصباح ما جعل الله من الإيمان والقرآن في قلبه توقد من شجرة مباركة وهي الإخلاص لله وحده ، فمثله كمثل شجرة التف بها الشجر فهي خضراء ناعمة لا تصيبها الشمس لا إذا طلعت ولا إذا غربت ، فكذلك المؤمن قد احترس من أن يصيبه شيء من الفتن ، فهو بين أربع خلال ؛ إن أعطي شكر ، وإن ابتلي صبر ، وإن حكم

عدل ، وإن قال صدق ، يكاد زيتها يضيء ؛ أي : يكاد قلب المؤمن يعرف الحق قبل أن يبين له لموافقته إياه ، نور على نور ؛ قال أبيّ : أي : فهو يتقلب في خمسة أنوار قوله نور وعمله نور ومدخله نور ومخرجه نور ومصيره إلى النور يوم القيامة ؛ قال ابن عباس : هذا مثل نور الله وهداه في قلب المؤمن كما يكاد الزيت الصافي يضيء قبل أن تمسه النار ، فإذا مسته النار ازداد ضوءاً على ضوء كذلك يكاد قلب المؤمن يعمل بالهدى قبل أن يأتيه العلم ، فإذا جاء العلم ازداد هدى على هدى ، ونوراً على نور ، وقال الكلبي : قوله تعالى : نور على نور يعني إيمان المؤمن وعمله ، وقال السدي : نور الإيمان ونور القرآن ، وقال الحسن وابن زيد : هذا مثل للقرآن ، فالمصباح هو القرآن فكما يستضاء بالمصباح يهتدى بالقرآن ، والزجاجة قلب المؤمن والمشكاة فمه ولسانه والشجرة المباركة شجرة الوحي ، يكاد زيتها يضيء يعني : تكاد حجة القرآن تتضح وإن لم يقرأ ، نور على نور يعني القرآن نور من

(124/552)

الله لخلقه

مع ما قام لهم من الدلائل والأعلام قبل نزول القرآن ، فازدادوا بذلك نوراً على نور ﴿ يهدي الله لنوره ﴾ قال ابن عباس : دين الإسلام وقيل : القرآن ﴿ من يشاء ﴾ فإن الأسباب

بدون مشيئته لاغية ، وقيل : يوفق الله لإصابة الحق من نظر وتدبر بعين عقله والإنصاف من نفسه ولم يذهب عن الجادة الموصلة إليه يميناً وشمالاً ، ومن لم يتدبر فهو كالأعمى ، سواء عليه جنح الليل الدامس وضحوة النهار الشامس ﴿ ويضرب ﴾ أي : يبين ﴿ الله الأمثال للناس ﴾ تقريباً للأفهام وتسهيلاً للأكدار ﴿ والله بكل شيء عليم ﴾ معقولاً كان أو محسوساً ، ظاهراً كان أو خفياً ، وفيه وعيد لمن تدبرها ولم يكترث بها ، وقوله تعالى: ﴿ في بيوت ﴾ يتعلق بما قبله أي : كمشكاة في بعض بيوت الله وهي المساجد كأنه قيل : مثل نوره ، كما ترى في المسجد نور المشكاة التي من صفتها كيت وكيت ، أو بما بعده وهو يسبح أي : يسبح رجال في بيوت ، وفي قوله : فيها تكرير لقوله : في بيوت كقوله : زيد في الدار جالس فيها ، أو بمحذوف كقوله ﴿ تعالى في تسع آيات ﴾ (النمل ،)

(125/552)

أي : سبحوا في بيوت ، والبيوت هي المساجد ؛ قال سعيد بن جبير : عن ابن عباس قال : المساجد بيوت الله في الأرض ، وهي تضيء لأهل السماء كما تضيء النجوم لأهل الأرض ، وقيل : المراد بالبيوت المساجد الثلاثة ، وقيل : المراد أربعة مساجد لم يبنها إلا نبيّ ؛ الكعبة بناها إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام فجعلاها قبلة ، وبيت المقدس بناه داود

وسليمان عليهما السلام ، ومسجد المدينة ، ومسجد قباء بناهما النبي صلى الله عليه وسلم وأتى فيها بجمع الكثرة دون جمع القلة للتعظيم ﴿ أذن الله أن ترفع ﴾ قال مجاهد : تبنى ، نظيره قوله تعالى : ﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت ﴾ ، وقال الحسن : تعظم أي : فلا يذكر فيها الفحش من القول وتطهر من الأنجاس والأقذار ، وقوله تعالى : ﴿ ويذكر فيها اسمه ﴾ عام فيما يتضمن ذكره حتى المذاكرة في أفعاله ، والمباحثة في أحكامه ، وقال ابن عباس : يتلى فيها كتابه ﴿ يسبح ﴾ أي : يصلى ﴿ له فيها بالغدو والآصال ﴾ أي : بالغداة والعشي ، قال أهل التفسير : أراد به الصلوات المفروضة ، فالتي تؤدى بالغداة صلاة الفجر ، والتي تؤدى بالآصال صلاة الظهر والعصر والعشاءين ؛ لأن اسم الأصيل يقع على هذا الوقت ، وقيل : أراد به الصبح والعصر ؛ قال صلى الله عليه وسلم "من صلى البردين دخل الجنة" ؛ أراد صلاة الصبح وصلاة العصر ، وقال ابن عباس : التسبيح بالغدو صلاة الضحى ، وروى "من مشى إلى صلاة مكتوبة وهو متطهر فأجره كأجر الحاج المحرم ، ومن مشى إلى تسبيح الضحى ، لا ينصبه إلا إياه فأجره كأجر المعتمر وصلاة على إثر صلاة لا لغو بينهما كتاب في عليين" ، وقرأ ابن عامر وشعبة بفتح الباء الموحدة والباقون بكسرها .

﴿ رجال لا تلهيهم تجارة ﴾ أي : معاملة رابحة ، وقيل : المراد بالتجارة الشراء لقوله تعالى : ﴿ ولا بيع عن ذكر الله ﴾ إطلاقاً لاسم الجنس على النوع كما تقول : رزق فلان تجارة صالحة إذا اتجه له بيع صالح أو شراء ، وعلى الأول ذكر مبالغة للتعظيم والتعميم بعد التخصيص ، وقيل : التجارة لأهل الجلب تقول تجر فلان في كذا أي : جلب .

تنبيه : قوله تعالى : ﴿ رجال ﴾ فاعل يسبح بكسر الباء وعلى فتحها نائب الفاعل له ورجال فاعل فعل مقدر جواب سؤال مقدر كأنه قيل : من يسبحه وحذف من قوله تعالى : ﴿ وإقام الصلاة ﴾ الهاء تخفيفاً أي : وإقامة الصلاة ، وأراد أداءها في وقتها لأن من أخر الصلاة عن وقتها لا يكون من مقيمي الصلاة ، وإنما ذكر إقام الصلاة مع أن المراد من ذكر الله الصلوات الخمس لأنه تعالى أراد بإقامة الصلاة حفظ المواقيت . روى سالم عن ابن عمر : أنه كان في السوق فأقيمت الصلاة ، فقام الناس وغلقوا حوانيتهم فدخلوا المسجد ؛ قال ابن عمر : فيهم نزلت هذه الآية : ﴿ وإيتاء الزكاة ﴾ قال ابن عباس : إذا حضر وقت أداء الزكاة لم يحبسوها أي : فيخرجون ما يجب إخراجه من المال للمستحقين ، وقيل : هي الأعمال الصالحة ومع ما هم عليه ﴿ يخافون يوماً ﴾ هو يوم القيامة ﴿ تتقلب ﴾ أي : تضطرب ﴿ فيه القلوب ﴾ بين النجاة والهلاك ﴿ والأبصار ﴾ بين ناحيتي اليمين والشمال

، وقيل : تتقلب القلوب عما كانت عليه في الدنيا من الشك إلى اليقين وتنفتح الأبصار من الأغطية ، وقوله تعالى:

(127/552)

﴿ ليجزيهم الله ﴾ متعلق بيسبح أو بلا تلهيهم ، أو بيخافون ﴿ أحسن ما عملوا ﴾ في الطاعات فرضها ونفلها أي : ثوابه الموعود لهم ، وأحسن بمعنى حسن ﴿ ويزيدهم من فضله ﴾ ما لم يستحقوه بأعمالهم مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، وقوله تعالى : ﴿ والله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾ تقرير للزيادة ، وتنبيه على كمال القدرة ونفاذ المشيئة وسعة الإحسان وكمال جوده فكأنه سبحانه وتعالى لما وصفهم بالجد والاجتهاد في الطاعة ومع ذلك يكونون في نهاية الخوف ، فالله سبحانه وتعالى يعطيهم الثواب العظيم على طاعتهم ، ويزيدهم الفضل الذي لا حد له في مقابلة خوفهم ، وقوله تعالى:

(128/552)

﴿ والذين كفروا أعمالهم كسراب ﴾ أي : فحالهم على ضد ذلك ، فإن أعمالهم التي يحسبونها صالحة نافعة عند الله تعالى يجدونها لاغية مخيبة في العاقبة كسراب وهو ما يرى في الغلاة وقت الضحى الأكبر شبيهاً بالماء الجاري ، وهو ليس بماء ، ولكن الذي ينظر إليه من بعيد يظنه ماءً جارياً ، وقيل : هو الشعاع الذي يرى نصف النهار في شدّة الحر في البراري الذي يخيل للناظر أنه الماء السارب أي : الجاري ، فإذا قرب منه انغش فلم يرَ شيئاً ، وأما الآل فإنما يكون أول النهار كأنه ماء بين السماء والأرض ، وقال البغوي : والآل ما ارتفع عن الأرض وهو شعاع يجري بين السماء والأرض بالغدوات شبه بالمرآة ترفع فيها الشخوص يرى فيها الصغير كبيراً ، والقصير طويلاً والرقراق يكون بالعشاء وهو ما ترقرق من السراب أي : جاء وذهب ، وقوله تعالى : ﴿ بقيعة ﴾ جمع قاع وهي أرض سهلة مطمئنة قد انفرجت عنها الجبال والآكام قاله في القاموس ، وقيل : القيعة بمعنى القاع ، وهو الأرض المستوية المنبسطة ، وفيها يكون السراب ، وقال الفراء : جمع قاع كجار وجيرة ، وقال الفارسي : جمعه قيعة وقيعان ﴿ يحسبه ﴾ أي : يظنه ﴿ الظمآن ﴾ أي : العطشان الشديد العطش من ضعف العقل ﴿ ماءً ﴾ فيقصده ولا يزال سائراً ﴿ حتى إذا جاءه ﴾ أي : ما قدر أنه ماء ، وقيل : جاء إلى موضع السراب ﴿ لم يجده شيئاً ﴾ مما حسبه ووجه التشبيه أن الذي جاء به الكافر إن كان من أفعال البر ، فهو لا يستحق عليه ثواباً مع أنه يعتقد أن له ثواباً عليه ، وإن كان من أفعال الإثم فهو يستحق عليه العقاب مع أنه يعتقد أن له

ثواباً ، فكيف كان فهو يعتقد أن له ثواباً عند الله تعالى فإذا وافى عرصة القيامة ولم يجد الثواب بل وجد العقاب العظيم عظمت حسرته وتناهى غمه فيشبه حاله حال الظمآن الذي اشتدت حاجته إلى الماء ، فإذا شاهد السراب في البر تعلق به قلبه ، فإذا جاء له لم يجده شيئاً ، فكذلك حال الكافر يحسب أن عمله نافعه فإذا احتاج إلى عمله لم يجده شيئاً ولا

(129/552)

ينفعه ، وقال

مجاهد : السراب عمل الكافر وإتيانه إياه موته ومفارقة الدنيا .

فإن قيل : قوله تعالى : ﴿ حتى إذا جاءه ﴾ يدل على كونه شيئاً ، وقوله تعالى : لم يجده شيئاً مناقض له ؟

أجيب : بأن معناه ﴿ لم يجده شيئاً ﴾ نافعاً كما يقال : فلان ما عمل شيئاً وإن كان قد اجتهد ، أو أنه إذا جاء موضع السراب لم يجد السراب يرى من بعيد بسبب الكثافة كأنه ضباب وهباء ، فإذا قرب منه رق وانتشر وصار كالهواء ﴿ ووجد الله عنده ﴾ أي : ووجد عقاب الله الذي توعد به الكفار أو وجد زبانية الله ، أو وجده محاسباً إياه أو قدم

على الله ﴿ فوفاه حسابه ﴾ أي : جزاء عمله قيل : نزلت في عتبة بن ربيعة فإنه قد تعبد ولبس المسوح والتمس الدين في الجاهلية ، ثم كفر بالإسلام ؛ قال ابن الخازن : والأصح أن الآية عامة في حق جميع الكفار ﴿ والله سريع الحساب ﴾ لأنه تعالى عالم بجميع المعلومات ، فلا يشغله محاسبة واحد عن واحد ، وفي هذا رد على المشبهة قبحهم الله تعالى لأنه تعالى لو كان متكلماً بآلة كما يقولون لما صح ذلك ، وقوله تعالى:

Y

﴿ أو كظلمات ﴾ عطف على كسراب على حذف مضاف واحد تقديره : أو كذي ظلمات ، ودل على هذا المضاف قوله تعالى : ﴿ إذا أخرج يده لم يكد يراها ﴾ (النور ،)

(130/552)

فالكناية تعود إلى المضاف المحذوف ، وهو قول أبي علي ، وقال غيره على حذف مضافين تقديره أو كأعمال ذي ظلمات فقدر ذي ليصح عود الضمير إليه في قوله تعالى : ﴿ إذا أخرج يده ﴾ وقدر أعمال ليصح تشبيه أعمال الكفار بأعمال صاحب الظلمة إذ لا معنى لتشبيه العمل بصاحب الظلمة ، وأو للتخيير فإن أعمالهم لكونها لاغية لا منفعة لها كالسراب ولكونها خالية عن نور الحق كالظلمات المتراكمة من لجج البحر والأمواج

والسحاب ، أو للتنويع ، فإن أعمالهم إن كانت حسنة فكالسراب ، وإن كانت قبيحة فكالظلمات أو للتقسيم باعتبار وقتين ، فإنها كالظلمات في الدنيا وكالسراب في الآخرة ، وقوله تعالى : ﴿ في بحر لجي ﴾ صفة لظلمات فيتعلق بمحذوف ، واللجي منسوب إلى اللج ، وهو معظم البحر ، وقيل : منسوب إلى اللجة بالتاء ، وهي أيضاً معظمه ، فاللجي هو العميق الكثير الماء ، وقوله تعالى : ﴿ يغشاه ﴾ أي : يغطي هذا البحر ويعلوه ﴿ موج ﴾ كائن ﴿ من فوقه موج ﴾ أي : أمواج مترادفة متراكمة ﴿ من فوقه ﴾ أي : الموج الثاني المركوم ، وقوله تعالى : ﴿ سحاب ﴾ أي : غيم غطى النجوم وحجب أنوارها صفة أخرى لبحر ، وقوله تعالى : ﴿ ظلمات ﴾ أي : من البحر والموجين والسحاب خبر مبتدأ مضمر تقديره هذه ظلمات أو تلك ظلمات ، ويجوز أن يكون ظلمات مبتدأ والجملة من قوله تعالى : ﴿ بعضها فوق بعض ﴾ خبره ، قاله الحوفي .

فإن قيل : لا مسوغ للابتداء بهذه النكرة ؟

أجيب : بأنها موصوفة تقديراً ؛ أي : ظلمات كثيرة متكاثفة ، وقرأ البزي سحاب بلا تنوين وجر ظلمات وقنبل ينون سحاب ويجر ظلمات ، والبزي جعل الموج المتراكم بمنزلة السحاب ، وأما قنبل : فإنه جعل ظلمات بدلاً من ظلمات الأولى والباقون بتنوين سحاب ، وظلمات بالرفع فيهما ﴿ إذا أخرج ﴾ أي : الكافر في هذا البحر بدلالة المعنى ، وإن لم يجرِ

له ذكر ﴿ يده ﴾ وهي أقرب ما يرى إليه في هذه الظلمات ﴿ لم يكد ﴾ أي : الكائن فيه ﴿ يراها ﴾ أي : لم يقرب من رؤيتها فضلاً عن أن يراها كقول ذي الرمة:

(131/552)

إذا غير النأي (أي : البعد وفي نسخة الهجر) المحبين لم يكد

رسيس الهوى (أي : ثابته بمعنى الهوى الثابت) من حب مية يبرح

أي : يزول ، والمعنى لم يقرب من البراح فضلاً عن أن يبرح .

تنبيه : في كيفية هذا التشبيه وجوه ؛ أحدها : قال الحسن : إن الله تعالى ذكر ثلاثة أنواع من الظلمة ؛ ظلمة البحر ، وظلمة الأمواج ، وظلمة السحاب ؛ كذا الكافر له ظلمات ثلاثة : ظلمة الاعتقاد ، وظلمة القول ، وظلمة العمل ، ثانيها : قال ابن عباس : شبه قلبه وسمعه وبصره بهذه الظلمات الثلاث ، ثالثها : أن الكافر لا يدري ولا يدري أنه لا يدري ويعتقد أنه يدري ، فهذه المراتب الثلاثة شبه تلك الظلمات الثلاث ، رابعها : قلب مظلم في صدر مظلم في جسد مظلم ، خامسها : أن هذه الظلمات متراكمة ، فكذا الكافر لشدة إصراره على كفره ، قد تراكمت عليه الضلالات حتى لو ذكر عنده أظهر الدلائل لم يفهمه .

﴿ ومن لم يجعل الله ﴾ أي : الملك الأعظم ﴿ له نوراً فما له من نور ﴾ ، قال ابن عباس : من

لم يجعل الله له ديناً وإيماناً فلا دين له ، وقيل : من لم يهده الله فلا هادي له ؛ لأنه تعالى قادر على ما يريد ، ولما وصف تعالى أنوار القلوب قلوب المؤمنين وظلمات قلوب الجاهلين أتبع ذلك بدلائل التوحيد بقوله تعالى:

(132/552)

﴿ ألم ترَ ﴾ أي : تعلم علماً يشبه المشاهدة في اليقين والوثاقة بالوحي والاستدلال ﴿ أن الله ﴾ أي : الحائز لصفات الكمال ﴿ يسبح له ﴾ أي : ينزهه عن كل شائبة نقص ﴿ من في السموات والأرض ﴾ لأن التسبيح لا يرى بالبصر بل يعلم بالقلب ، وهذا استفهام والمراد به التقرير والبيان ، وهذا التسبيح إما أن يكون المراد منه دلالته بخلق هذه الأشياء على كونه تعالى منزهاً عن النقائص موصوفاً بنعوت الجلال ، أو يكون المراد منه في حق البعض الدلالة على التنزيه ، وفي حق الباقين النطق باللسان ؛ قال الرازي : والأول أقرب ؛ لأن القسم الثاني متعذر ؛ لأن في الأرض من لا يكون مكلفاً لا يسبح بهذا المعنى ، والمكلفون منهم من لا يسبح أيضاً بهذا المعنى كالكفار ، وأما القسم الثالث : وهو أن يقال : إن من في السموات وهم الملائكة يسبحون باللسان ، وأما الذين في الأرض فمنهم من يسبح باللسان ، ومنهم من يسبح على لسان الدلالة ، فهذا يقتضي استعمال اللفظ الواحد في الحقيقة والمجاز

معاً وهو غير جائز أي : عند أكثر العلماء فلم يبق إلا القسم الأول وهو أن هذه الأشياء مشتركة في أن أجسامها وصفاتها دالة على تنزيه الله تعالى وقدرته وإلهيته وتوحيده وعدله ، فسمي ذلك تنزيهاً توسعاً .

فإن قيل : فالتسبيح بهذا المعنى حاصل لجميع المخلوقات ، فما وجه تخصيصه ههنا بالعقلاء ؟

أجيب : بأن خلقة العقلاء أشد دلالة على وجود الصانع سبحانه وتعالى ؛ لأن العجائب والغرائب في خلقهم أكثر ، وهي العقل والنطق والفهم ، ولما كان أمر الطير دلالته أعجب ، ولأنها قد تكون بين السماء والأرض فتكون خارجة عن حكم من فيهما خصها بالذكر من جملة الحيوان بقوله تعالى : ﴿ والطير صافات ﴾ أي : باسطات أجنحتها في جو السماء لا شبهة في أنه لا يمسكها إلا الله تعالى وإمساكه لها في الجو مع أنها أجرام ثقيلة وإقداره لها فيه على القبض والبسط حجة قاطعة على كمال قدرته تعالى .

(133/552)

واختلف في عود الضمائر في قوله تعالى : ﴿ كل ﴾ أي : من المخلوقات ﴿ قد علم صلاته وتسبيحه ﴾ على قولين أحدهما : أنها كلها عائدة على كل أي : كل قد علم هو صلاة

نفسه وتسبيحها ؛ قال ابن عادل : وهذا أولى لتوافق الضمائر ، ثانيهما : أن الضمير في علم عائد إلى الله تعالى وفي صلاته وتسبيحه عائد على كل ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ والله ﴾ أي : المحيط علماً وقدرة ﴿ عليم بما يفعلون ﴾ وقيل : إن ضرب أجنحة الطير صلاته وتسبيحه ، وهذا يؤيد أن المراد من التسبيح دلالة هذه الأمور على التنزيه لا النطق باللسان روي أن أبا ثابت قال : كنت جالساً عند أبي جعفر الباقر فقال لي : أتدري ما تقول هذه العصافير عند طلوع الشمس وبعد طلوعها ؟ قال : لا ، قال : فإنهن يقدسن الله ربهن ويسألنه قوت يومهن ؛ قال بعض العلماء : إنا نشاهد من الطيور وسائر الحيوانات أعمالاً لطيفة يعجز عنها كثير من العقلاء ، فإذا كان كذلك فلم لا يجوز أن يلهمها معرفته ودعاءه وتسبيحه ، وبيان أنه تعالى ألهمها الأعمال اللطيفة بوجوه .

أحدها : أن الدب يرمي بالحجارة ويأخذ العصا ويرمي الإنسان حتى يتوهم أنه مات فيتركه وربما عاد يشمه ويتجسس نفسه ، ويصعد الشجرة أخف صعود ، ويهشم الجوز بين كفيه تفريقاً بالواحدة ، وصدمة بالأخرى ، ثم يفتح فاه فيذر قشره ، ويتغذى به ، ويحكى عن الفأر في سرقته أمور عجيبة .

ثانيها : أمر النحل وما لها من الرياسة ، والبيوت المسدسة التي لا يتمكن من بنائها أفاضل المهندسين .

ثالثها : انتقال الكركي من طرف من أطراف العالم إلى الطرف الآخر طالباً لما يوافقه من الأهوية ، ويقال : من خواص الخيل أن كل واحد يعرف صوت الفرس الذي قاتله وقتاً ما ، والتماسيح تفتح أفواهها لطائر يقع عليها يقال لها القطقاط ، وينظف ما بين أسنانها ، وعلى رأس ذلك الطائر كالشوكة فإذا هم التمساح بالتقام ذلك الطائر تأذى من تلك الشوكة فيفتح فاه ، فيخرج ذلك الطائر ، والسلحفاة تتناول بعد أكل الحية سعتراً جبلياً ، ثم تعود وقد عوفيت من ذلك ، وحكي عن بعض الثقات المجربين للصيد أنه شاهد الحباري تقاتل الأفعى وتنهزم عنها إلى بقلة تتناول منها ثم تعود ، ولا تزال كذلك ، وكان ذلك الشخص قاعداً في كن ، وكانت البقلة قريبة من مسكنه ، فلما اشتغل الحباري بالأفعى قلع البقلة ، فعاد الحباري إلى منبتها فلم يجدها فأخذ يدور حول منبتها دوراناً متتابعاً حتى خرَّ ميتاً ، فعلم الشخص أنه يعالج بأكلها من اللسعة ، وتلك البقلة هي الجرجير البري ، وابن عرس يستظهر في مقاتلة الحية بأكل السذاب فإن النكهة السذابية تنفر منها الأفعى ، والكلاب إذا مرضت بطونها أكلت سنبل القمح ، وإذا جرحت داوت الجراحة بالسعتر الجبلي .

(135/552)

رابعها : القنافذ تحس بالشمال والجنوب قبل الهبوب ، فتغير المدخل إلى جحرها ، وكان رجل بالقسطنطينية قد أثرى بسبب أنه ينذر بالرياح قبل هبوبها ، وينفع الناس بإنذاره ، وكان السبب فيه قنفذاً في داره يفعل الصنيع المذكور فيستدل به ، والخطاف صناع في اتخاذ العش من الطين ، وقطع الخشب ، فإن أعوزه الطين ابتل وتمرغ في التراب ليحمل جناحاه قدراً من الطين ، وإذا فرخ بالغ في تعهد الفراخ وتأخذ رزقها بمنقارها ، وترميها من العش ، والغرانيق تصعد في الجو عند الطيران ، فإن حجب بعضها عن بعض سحاب أو ضباب أحدثت عن أجنحتها حفيفاً مسموعاً يتبع به بعضها بعضاً ، وإذا باتت على جبل فإنها تضع رأسها تحت أجنحتها إلا القائد فإنه ينام مكشوف الرأس فيسرع انتباهه وإذا سمع جرساً صاح ، وحال النمل في الذهاب إلى مواضعها على خط مستقيم يحفظ بعضها بعضاً أمر عجيب ، وإذا كشف عن بيوتها الساتر الذي كان يسترها ، وكان تحته بيض لها ، فإن كل نملة تأخذ بيضة في فمها وتذهب في أسرع وقت ، والاستقصاء في هذا الباب مذكور في كتاب طبائع الحيوان ، والمقصود في ذلك أن الفضلاء من العقلاء يعجزون عن أمثال تلك الحيل وإذا كان كذلك فلم لا يجوز أن يقال : إنها تسبح الله تعالى وتثني عليه ، وإن كانت غير عارفة بسائر الأمور التي تعرفها الناس ، ويؤيد هذا قوله تعالى : ﴿ ولكن لا تفقهون تسبيحهم ﴾ (الإسراء ،) ، وقوله صلى الله عليه وسلم "إن نوحاً عليه السلام أوصى بنيه عند موته بلا إله إلا الله فإن السموات السبع والأرضين السبع لو كن في حلقة

مبهمة قصمتهن ، وسبحان الله وبحمده فإنها صلاة كل شيء ، وبها يرزق كل شيء ، وقال الغزالي في الإحياء : روي "أن رجلاً جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : تولت عني الدنيا ، وقلت ذات يدي ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم فأين أنت من صلاة الملائكة وتسبيح الخلائق ، وبها يرزقون ؛ قال : فقلت : وما هي يا رسول الله ، قال : قل سبحان الله وبحمده سبحان الله

(136/552)

العظيم

أستغفر الله مائة مرة ما بين طلوع الفجر إلى أن تصلي الصبح تأتيك الدنيا راغمة صاغرة ، ويخلق الله عز وجل من كل كلمة ملكاً يسبح الله إلى يوم القيامة لك ثوابه" ، ثم نبه سبحانه وتعالى بقوله:

﴿ ولله ملك السموات والأرض ﴾ على أن الكل منه لأن كل ما سواه ممكن ومحدث ، والممكن والمحدث لا يوجد إلا عند الانتهاء إلى القديم الواجب الوجود ويدخل في هذا جميع الأجرام والأعراض ، وأفعال العباد وأحوالهم وخواطرهم ، وفي قوله تعالى : ﴿ وإلى الله ﴾ أي : الذي له الإحاطة بكل شيء ﴿ المصير ﴾ دليل على المعاد وأنه لا بد من

مصير الكل إليه بعد الفناء . والرؤية في قوله تعالى:

﴿ ألم ترَ ﴾ نظرية ﴿ أن الله ﴾ أي : ذا الجلال والجمال ﴿ يزجي سحاباً ﴾ أي : يسوقه برفق بعد أن أنشأه من العدم تارة من السفل وتارة من العلو ضعيفاً رقيقاً متفرقاً ؛ قال أبو حيان : وهو اسم جنس واحده سحابة والمعنى يسوق سحابة إلى سحابة ، وهو معنى قوله تعالى : ﴿ ثم يؤلف بينه ﴾ أي : بين أجزائه بعد أن كان قطعاً في جهات مختلفة ، فيجعل القطع المتفرقة قطعة واحدة ، ﴿ ثم يجعله ركاماً ﴾ في غاية العظمة متراكماً بعضه على بعض بعد أن كان في غاية الرقة ﴿ فترى ﴾ أي : في تلك الحالة المستمرة ﴿ الودق ﴾ أي : المطر ﴿ يخرج من خلاله ﴾ أي : من فتوقه التي حدثت بالتراكم وإرهاص بعضه في بعض .

فإن قيل : بين إنما تدخل على مثنى فما فوقه فلم دخلت هنا على مفرد ؟

(137/552)

أجيب : بأن المراد بالسحاب الجنس فعاد الضمير على حكمه أو على حذف مضاف أي : بين أجزائه كما مر وبين قطعه فإن كل قطعة سحابة ، وقرأ السوسي فترى في الوصل بالإمالة بخلاف عنه والباقون بالفتح ، وأما في الوقف فأبو عمرو وحمزة والكسائي بالإمالة

محضة وورش بالإمالة بين بين ، والباقون بالفتح ، ﴿ وينزل من السماء ﴾ أي : من الغمام وكل ما علا فهو سماء ﴿ من جبال فيها ﴾ أي : في السماء وهي السحاب الذي صار بعد تراكمه كالجبال وقوله تعالى : ﴿ من برد ﴾ بيان للجبال ، والمفعول محذوف أي : ينزل مبتدئاً من السماء من جبال فيها من برد برداً ، فمن الأولى : لابتداء الغاية باتفاق ، والثانية : للتبعيض ، والثالثة : للبيان ، ويجوز أن تكون الثانية لابتداء الغاية أيضاً ومجرورها بدل من الأولى بإعادة العامل والتقدير وينزل من جبال أي : من جبال فيها فهو بدل اشتمال ، والأخيرة للتبعيض واقع موقع المفعول .

فإن قيل : ما معنى من جبال فيها من برد ؟

أجيب : بأن فيه معنيين ؛ أحدهما : أن يخلق الله في السماء جبال برد كما خلق في الأرض جبال حجر وليس في العقل قاطع يمنعه ، الثاني : أن يراد الكثرة بذكر الجبال كما يقال : فلان يملك جبالاً من ذهب ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بسكون النون وإخفائها عند الزاي وتخفيف الزاي والباقون بفتح النون وتشديد الزاي ، ثم بيّن تعالى أن ذلك باختياره وإرادته بقوله تعالى : ﴿ فيصيب به ﴾ أي : بكلٍ من البرد والمطر على وجه النقمة أو الرحمة ﴿ من يشاء ﴾ أي من الناس وغيرهم ﴿ ويصرفه عن من يشاء ﴾ صرفه عنه : فائدة : عن مقطوعة من من في الرسم ، ثم نبه تعالى على ما هو غاية في العجب في ذلك مما في الماء من النور الذي ربما نزل منه صاعقة فأحرقت ما لا تحرق النار بقوله تعالى .

﴿ يكاد ﴾ أي يقرب ﴿ سنا ﴾ أي ضوء ﴿ برقه ﴾ وهو اضطراب النور في خلاله ﴿ يذهب ﴾ أي هو ملتبساً ﴿ بالأبصار ﴾ أي الناظرة له أي يخطفها لشدّة لمعانه وتلألئه فتكون قوة البرق دليلاً على تكاثف السحاب وبشيراً بقوة المطر ونذيراً بنزول الصواعق ، واعلم أن البرق الذي صفته كذلك لا بد وأن يكون ناراً عظيمة خالصة ، والنار ضد الماء والبرد فظهوره يقتضي ظهور الضدّ من الضدّ وذلك لا يمكن إلا بقدرة قادر حكيم ، ثم ذكر تعالى ما هو أدل على الاختيار بقوله تعالى مترجماً لما يشمل ما مضى وزيادة:

﴿ يقلب الله ﴾ أي الذي له الأمر كله بتحويل الظلام ضياء والضياء ظلاماً والنقص تارة والزيادة أخرى مع المطر تارة والصحو أخرى ﴿ الليل والنهار ﴾ فينشأ عن ذلك التقليب من الحر والبرد والنمو والتنويع واليبس ما يبهر العقول ، ولهذا قال منبهاً على النتيجة ﴿ إن في ذلك ﴾ الأمر العظيم الذي ذكر من جميع ما تقدم ﴿ لعبرة ﴾ أي دلالة على وجود الصانع القديم ، وكمال قدرته وإحاطة علمه ، ونفاذ مشيئته ، وتنزيهه عن الحاجة وما يفضي إليها ﴿ لأولي الأبصار ﴾ أي لأصحاب البصائر على قدرة الله تعالى وتوحيده ، ولما استدل تعالى أولاً بأحوال السماء والأرض وثانياً بالآثار العلوية استدل ثالثاً بأحوال

الحيوانات بقوله تعالى:

﴿ والله ﴾ أي : الذي له العلم الكامل والقدرة الشاملة ﴿ خلق كل دابة ﴾ أي : حيوان ﴿ من ماء ﴾ وقرأ حمزة والكسائي بألف بعد الخاء وكسر اللام ورفع القاف وكسر لام كل والباقون بفتح اللام والخاء ولا ألف بينهما ونصب لام كل .

فإن قيل : كثير من الحيوانات لم يخلق من الماء كالملائكة خلقوا من النور وهم أعظم الحيوانات عدداً ، وكذا الجن وهم مخلوقون من النار وخلق آدم من التراب كما قال تعالى : ﴿ خلقه من تراب ﴾ وخلق عيسى من الريح ، كما قال تعالى : ﴿ فنفخنا فيه من روحنا ﴾ ونرى كثيراً من الحيوانات يتوالد لا من نطفة ؟

(139/552)

أجيب : بوجوه ؛ أحسنها : ما قال القفال : إن من ماء صلة كل دابة وليس هو من صلة خلق . والمعنى أن كل دابة متولدة من الماء فهي مخلوقة لله تعالى ، ثانيها : إن أصل جميع المخلوقات من الماء على ما روي "أن أول ما خلق الله تعالى جوهرة فنظر إليها بعين الهيبة فصارت ماء ، ثم قسم ذلك الماء فخلق منه النار والهواء والنور والتراب" ، والمقصود من هذه الآية بيان أصل الخلقة ، فكان أصل الخلقة الماء ، فلهذا ذكره الله تعالى ، ثالثها : المراد

من الدابة التي تدب على وجه الأرض ومسكنها هنالك ، فتخرج الملائكة والجن ، رابعها : لما كان الغالب من هذه الحيوانات كونها مخلوقة من الماء إما لأنها متولدة من النطفة ، وإما لأنها لا تعيش إلا بالماء أطلق عليها لفظ كل تنزيلاً للغالب منزلة الكل .

فإن قيل : لم نكر الماء في قوله تعالى ﴿ من ماء ﴾ وعرفه في قوله تعالى ﴿ من الماء كل شيء حي ﴾ (الأنبياء ،)

؟

أجيب : بأنه جاء ههنا منكراً لأن المعنى خلق كل دابة من نوع من الماء مختصاً بتلك الدابة ، وعرفه في قوله تعالى : ﴿ من الماء كل شيء حيّ ﴾ ؛ لأن المقصود هناك كونهم مخلوقين من هذا الجنس ، وههنا بيان أن ذلك الجنس .

ينقسم إلى أنواع كثيرة ﴿ فمنهم ﴾ أي : الدواب ﴿ من يمشي على بطنه ﴾ . كالحية والحيتان والديدان واستعير المشي للزحف على البطن كما قالوا في الأمر المستمر : قد مشى هذا الأمر ويقال فلان ما مشى له أمر أو سمي بذلك للمشاكلة بذكر الزاحف مع الماشي ﴿ ومنهم من يمشي على رجلين ﴾ أي : فقط كالآدمي والطير ﴿ ومنهم من يمشي عل أربع ﴾ أي : من الأيدي والأرجل كالنعم والوحش فإن قيل : لم حصر القسمة في هذه الثلاثة أنواع من المشي ، وقد نجد من يمشي على أكثر من أربع كالعناكب والعقارب والحيوان الذي له أربع وأربعون رجلاً الذي يسمى دخال الأذن ؟

أجيب : بأن هذا القسم الذي لم يذكر كالنادر ، فكان ملحقاً بالعدم ، وقال النقاش : إنه اكتفى بذكر ما يمشي على أربع عن ذكر ما يمشي على أكثر من أربع ؛ لأن جميع الحيوان إنما اعتماده على أربع وهي قوائم مشيه وكثرة الأرجل لبعض الحيوان زيادة في الخلقة لا يحتاج ذلك الحيوان في مشيه إلى جميعها وبأن قوله تعالى : ﴿ يخلق الله ما يشاء ﴾ كالتنبيه على سائر الأقسام فإن قيل : لم جاءت الأجناس الثلاثة على هذا الترتيب ؟ .

أجيب : بأنه قدم ما هو أعرق في القدرة وهو الماشي بغير آلة مشي من أرجل أو قوائم ، ثم الماشي على رجلين ، ثم الماشي على أربع .

تنبيه : إنما أطلق من على غير العاقل لاختلاطه بالعاقل في المفصل بمن ، وهو كل دابة وكان التعبير بمن أولى ليوافق اللفظ ، ولما كانت هذه الأدلة ناظرة إلى البعث أتم نظر وكانوا منكرين له أكد ذلك بقوله تعالى : ﴿ إن الله ﴾ أي : الذي له الكمال المطلق ﴿ على كل شيء ﴾ من ذلك وغيره ﴿ قدير ﴾ لأنه القادر على الكل والعالم بالكل ، فهو المطلع على أحوال هذه الحيوانات ، فأي عقل يقف عليها ، وأي خاطر يصل إلى ذرة من أسرارها ؛ بل هو الذي يخلق ما يشاء كيف يشاء ، ولا يمنعه منه مانع ، ولما اتضح بهذا ما لله تعالى من صفات

الكمال والتنزه عن كل شائبة نقص وقامت أدلة الوحدانية على ساق واتسقت براهين الألوهية أيّ اتساق ؛ قال تعالى مترجماً لتلك الأدلة:

﴿ لقد أنزلنا ﴾ أي : في هذه السورة وما تقدمها بما لنا من العظمة ﴿ آيات ﴾ أي : مما لنا من الحكم والأحكام والأدلة والأمثال ﴿ مبينات ﴾ للحقائق بأنواع الدلائل التي لا خفاء فيها ﴿ والله ﴾ أي : الملك الأعظم ﴿ يهدي من يشاء ﴾ من عباده ﴿ إلى صراط ﴾ طريق ﴿ مستقيم ﴾ هو دين الإسلام الموصل إلى دار الحق والفوز بالجنة ، ولما ذكر تعالى دلائل التوحيد أتبعه بذم قوم اعترفوا بالدين بألسنتهم ولكنهم لم يفعلوه بقلوبهم ، فقال تعالى:

(141/552)

﴿ ويقولون ﴾ أي : الذين ذمهم الله تعالى : ﴿ آمنا بالله ﴾ أي : الذي أوضح لنا جلاله وعظمته وكماله ﴿ وبالرسول ﴾ أي : الذي علمنا كمال رسالته وعمومها بما قام عليها من الأدلة ﴿ وأطعنا ﴾ أي : وأوجدنا الطاعة لله ولرسوله ، ثم عظم المخالفة بين الفعل والقول بأداة البعد فقال تعالى : ﴿ ثم يتولى ﴾ أي : يرتد بإنكار القلب ، ويعرض عن طاعة الله ورسوله ضلالاً منهم عن الحق ﴿ فريق منهم ﴾ أي : ناس يقصدون الفرقة من هؤلاء الذين قالوا هذه المقالة ﴿ من بعد ذلك ﴾ أي : القول السديد المؤكد مع الله الذي هو أكبر من كل

شيء ، ومع رسوله الذي هو أشرف الخلائق ﴿ وما أولئك ﴾ أي : البعداء البغضاء الذين صاروا بتوليهم في محل البعد ﴿ بالمؤمنين ﴾ أي : المعهودين الموافقة قلوبهم ألسنتهم فإن قيل : إنه تعالى حكى عن كلهم أنهم يقولون : آمنا ، ثم حكى عن فريق منهم التولي ، فكيف يصح أن يقول في جميعهم : وما أولئك بالمؤمنين مع أن المتولي فريق ؟

أجيب : بأن قوله تعالى : ﴿ وما أولئك بالمؤمنين ﴾ راجع إلى الذين تولوا لا إلى الجملة الأولى ، ولو رجع إلى الجملة الأولى لصح ، ويكون معنى قوله تعالى : ﴿ ثم يتولى فريق منهم ﴾ أي : يرجع عن هذا الفريق إلى الباقي ، فيظهر بعضهم لبعض الرجوع كما أظهروه بينهم ، ولما فضحهم بما أخفوه من توليهم قبح عليهم ما أظهروه فقال تعالى معبراً بأداة التحقيق:

n

﴿ وإذا دعوا ﴾ أي : الفريق الذين ادعوا الإيمان من أيّ داعٍ كان ﴿ إلى الله ﴾ أي : إلى ما نصب الملك الأعظم من أحكامه ﴿ ورسوله ﴾ وأفرد الضمير في قوله تعالى :

﴿ ليحكم ﴾ وقد تقدمه اسمان وهما الله ورسوله ، فهو كقوله تعالى : ﴿ والله ورسوله أحق أن يرضوه ﴾ (التوبة ،)

؛ لأن حكم رسوله هو حكمه . قال الزمخشري : كقولك : أعجبني زيد وكرمه ، تريد كرم زيد ومنه قوله:

*ومنهل من الفلافي أوسطه

**غلسته قبل القطا وفرّطه

(142/552)

أي : قبل فرط القطا ﴿ بينهم ﴾ أي : بما أراه الله ﴿ إذا فريق منهم ﴾ أي : ناس مجبولون على الأذى ﴿ معرضون ﴾ أي : فاجؤوا الإعراض إذا كان الحق عليهم لعلمهم بأنك لا تحكم لهم وهو شرح للتولي ومبالغة فيه .

﴿ وإن يكن لهم ﴾ أي : على سبيل الفرض ﴿ الحق ﴾ أي : بلا شبهة ﴿ يأتوا إليه ﴾ أي : الرسول ﴿ مذعنين ﴾ أي : منقادين لعلمهم بأنه يحكم لهم لأنهم يعلمون أنه دائر مع الحق لهم وعليهم ، فليس انقيادهم لطاعة الله ورسوله .

تنبيه : قوله تعالى : ﴿ إليه ﴾ يجوز تعليقه بيأتوا لأن أتى وجاء قد يتعديان بإلى ، ويجوز أن يتعلق بمذعنين ؛ لأنه بمعنى مسرعين في الطاعة ، وصححه الزمخشري قال : لتقدم صلته ودلالته على الاختصاص ومذعنين حال ، ثم قسم تعالى الأمر في عدولهم عن حكومته صلى الله عليه وسلم إذا كان الحق عليهم بين أن يكونوا مرضى القلوب بقوله تعالى:

﴿ أفي قلوبهم مرض ﴾ أي : نوع فساد من أصل الفطرة يحملهم على الضلال ، أو مرتابين في

نبوته بقوله تعالى : ﴿ أم ارتابوا ﴾ أي : بأن رأوا منك تهمة فزالت ثقتهم ويقينهم بك أو خائفين الحيف في قضائه بقوله تعالى : ﴿ أم يخافون أن يحيف ﴾ أي : يجور ﴿ الله ﴾ أي : الغني عن كل شيء لأن له كل شيء ﴿ عليهم ورسوله ﴾ أي : الذي لا ينطق عن الهوى ، ثم أضرب عن القسمين الأخيرين لتحقيق القسم الأول بقوله تعالى : ﴿ بل أولئك ﴾ أي : البعداء البغضاء ﴿ هم الظالمون ﴾ أي : الكاملون في الظلم ، ووجه التقسيم أن امتناعهم إما لخلل فيهم أو في الحاكم ، والثاني : إما أن يكون محققاً عندهم أو متوقعاً ، وكل منهما باطل لأن منصب نبوته وفرط أمانته تمنعه فتعين الأول فظلمهم يعم خلل عقيدتهم وميل نفوسهم إلى الحيف وضمير الفصل لنفي ذلك عن غيرهم فإن قيل : إذا خافوا أن يحيف الله عليهم ورسوله فقد ارتابوا في الدنيا ، وإذا ارتابوا ففي قلوبهم مرض والكل واحد فأي فائدة في التعديد ؟

(143/552)

أجيب : بأن قوله تعالى : ﴿ في قلوبهم مرض ﴾ أشار به إلى النفاق ، وقوله تعالى : ﴿ أم ارتابوا ﴾ إشارة إلى أنهم بلغوا في حب الدنيا حيث يتركون الدين بسببه فإن قيل : هذه الثلاثة متغايرة ولكنها متلازمة فكيف أدخل عليها كلمة أم ؟ أجيب بأنه تعالى نبههم على

كل واحد من هذه الأوصاف فكان في قلوبهم مرض وهو النفاق وكان فيها شك وارتياب وكانوا يخافون الحيف من الرسول ، وكل واحد من ذلك كفر ونفاق ، واختلفوا في سبب نزول هذه الآية ، فقال مقاتل : نزلت في بشر المنافق وكان قد خاصم يهودياً في أرض ، فقال اليهودي : نتحاكم إلى محمد صلى الله عليه وسلم وقال المنافق : نتحاكم إلى كعب بن الأشرف فإن محمداً يحيف علينا ، فأنزل الله تعالى هذه الآية وقد مضت قصتها في سورة النساء .

وقال الضحاك : نزلت في المغيرة بن وائل كان بينه وبين علي رضي الله تعالى عنه أرض تقاسماها فوقع إلى علي ما لا يصيبه الماء إلا بمشقة فقال المغيرة : بعني أرضك فباعه إياها وتقابضا ، فقيل للمغيرة : أخذت سبخة لا ينالها الماء ، فقال لعلي : اقبض أرضك فإنما أشتريتها إن رضيتها ولم أرضها ، فقال علي : بل اشتريتها ورضيتها وقبضتها وعرفت حالها لا أقبلها منك ، ودعاه إلى أن يخاصمه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال المغيرة : أما محمد فلا نأتيه ولا أحاكم إليه فإنه يبغضني وأنا أخاف أن يحيف عليّ ، فنزلت الآية .

وقال الحسن : نزلت في المنافقين الذين كانوا يظهرون الإيمان ويسرون الكفر ، ولما نفى تعالى عنهم الإيمان الكامل بما وصفهم به كان كأنه سئل عن حال المؤمنين ، فقال تعالى:

﴿ إنما كان ﴾ أي : دائماً ﴿ قول المؤمنين ﴾ أي : العريقين في ذلك الوصف ﴿ إذا دعوا ﴾ أي : من أي داع كان ﴿ إلى الله ﴾ أي : إلى ما أنزل الملك الذي لا كفء له من أحكامه ﴿ ورسوله ﴾ الذي لا ينطق عن الهوى ﴿ ليحكم ﴾ أي : الرسول ﴿ بينهم ﴾ بما أراه الله تعالى أي حكومة من الحكومات لهم أو عليهم ﴿ أن يقولوا سمعنا ﴾ أي : الدعاء ﴿ وأطعنا ﴾ أي : بالإجابة لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم وهذا ليس على طريق الخبر ولكنه تعليم أدب الشرع بمعنى أن المؤمنين ينبغي أن يكونوا هكذا

﴿ وأولئك ﴾ أي : العالوا الرتبة ﴿ هم المفلحون ﴾ الذين وصفهم الله تعالى في أول المؤمنين ، وهذا يدل على عادته تعالى في اتباع ذكر المحق المبطل والتنبيه على ما ينبغي بعد إنكاره لما لا ينبغي ، ولما رتب تعالى الفلاح على هذا النوع الخاص أتبعه عموم الطاعة بقوله تعالى:

﴿ ومن يطع الله ﴾ أي : الذي له الأمر كله ﴿ ورسوله ﴾ أي : فيما ساءه وسره ﴿ ويخش الله ﴾ أي : فيما صدر عنه من الذنوب في الماضي ليحمله ذلك على كل خير ﴿ ويتقه ﴾ أي : الله فيما بقي من عمره بأن يجعل بينه وبين ما يسخطه وقاية من المباحات فيتركها ورعاً ﴿ فأولئك ﴾ أي : العالوا الرتبة ﴿ هم الفائزون ﴾ بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر من النعيم المقيم ، وعن ابن عباس في تفسير هذه الآية ومن

يطع الله في فرائضه ورسوله في سننه ويخش الله على ما مضى من ذنوبه ويتقه فيما يستقبل ، وعن بعض الملوك أنه سأل عن آية كافية فتليت عليه هذه الآية .

وقرأ أبو عمرو وشعبة وخلاد ويتقه بسكون الهاء بخلاف عن خلاد وقالون باختلاس كسرة الهاء وحفص بسكون القاف ، وقصر كسرة الهاء ، والباقون وخلاد في أحد وجهيه بإشباع كسرة الهاء . انتهى انتهى . اهـ ﴿ السراج المنير حـ 4 صـ 404 . 421 ﴾

(145/552)

قوله تعالى ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (53) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (54) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما ذكر سبحانه ما رتب على الطاعة الظاهرة التي هي دليل الانقياد الباطن ، ذكر حال المنافقين فيه ، فقال عاطفاً على ﴿ ويقولون ﴾ لأنه ليس المراد منه إلا مجرد القول من غير إرادة تقييد بزمان معين : ﴿ وأقسموا ﴾ وكأنه عبر بالماضي إشارة إلى أنهم لم يسمحوا به

أكثر من مرة ، لما يدل عليه من زيادة الخضوع والذل ﴿ بالله ﴾ أي الملك الذي له الكمال المطلق ؛ واستعار من جهد النفس قوله في موضع الحال : ﴿ جهد أيمانهم ﴾ أي غاية الإقسام ﴿ لئن أمرتهم ﴾ أي بأمر من الأمور ﴿ ليخرجن ﴾ مما هم ملتبسون به من خلافه ، كائناً ما كان ، إلى ما أمرتهم به ، وذلك أنهم كانوا يقولون لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : أينما كنت نكن معك ، إن خرجت خرجنا ، وإن أقمت أقمنا ، وإن أمرتنا بالجهاد جاهدنا – قاله البغوي .

فكأنه قيل : ماذا تفعل في اختبارهم ؟ فقيل : الأمر أوضح من ذلك ، فإن لكل حق حقيقة ، ولكل فعل أدلة ﴿ قل ﴾ أي لهم : ﴿ لا تقسموا ﴾ أي لا تحلفوا فإن العلم بما أنتم عليه لا يحتاج إلى الإقسام ، ولكن المحرك لكم إلى الخروج محبة الامتثال لا إلزام الإقسام ، وفيه إشارة إلى أنهم أهل للاتهام ، وكذا قال المتنبي :

وفي يمينك فيما أنت واعده . . .

ما دل أنك في الميعاد متهم

(146/552)

ثم علل ذلك بقوله : ﴿ طاعة ﴾ أي هذه الحقيقة ﴿ معروفة ﴾ أي منكم ومن غيركم ، وإرادة الحقيقة هو الذي سوغ الابتداء بها مع تنكير لفظها لأن العموم الذي تصلح له كما قالوا من أعرف المعارف ، ولم تعرف ب " ال " لئلا يظن أنها لعهد ذكري أو نحوه ، والمعنى أن الطاعة وإن اجتهد العبد في إخفائها لا بد أن تظهر مخايلها على شمائله ، وكذا المعصية لأنه " ما أسر عبد سريرة إلا ألبسه الله رداءها " رواه الطبراني عن جندب ـ رضى الله عنه ـ ، وروى مسدد عن عثمان بن عفان ـ رضى الله عنه ـ قال : لو أن رجلاً دخل بيتاً في جوف بيت فأدمن هناك عملاً أوشك الناس أن يتحدثوا به ، وما من عامل عمل عملاً إلا كساه الله رداء عمله ، إن كان خيراً فخير ، وإن كان شراً فشر .

ولأبي يعلى والحاكم – وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه عن أبي سعيد ـ رضى الله عنه ـ عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : " لو أن أحدكم يعمل في صخرة صماء ليس لها باب ولا كوة لخرج عمله للناس كائناً ما كان " ثم علل إظهاره للخبء بقوله : ﴿ إن الله ﴾ أي الذي له الإحاطة بكل شيء ﴿ خبير بما تعملون ﴾ وإن إجتهدتم في إخفائه ، فهو ينصب عليه دلائل يعرفه بها عباده ، فالحلف غير مغنٍ عن الحالف ، والتسليم غير ضار للمسلم .

ولما نبه على خداعهم ، أشار إلى عدم الاغترار بإيمانهم ، وإلى قبول شهادة التوسم فيهم ، أمر بترغيبهم وترهيبهم ، مشيراً إلى الإعراض عن عقوبتهم فقال : ﴿ قل أطيعوا ﴾ أيها الذين أقروا بالإيمان ﴿ الله ﴾ أي الذي لم الكمال المطلق ﴿ وأطيعوا الرسول ﴾ أي لاذي له الرسالة المطلقة ، ظاهراً وباطناً لا كالمنافقين ﴿ فإن تولوا ﴾ أي توجد منكم التولية عن ذلك عصياناً له ولو على أدنى وجوه التولية – بما أشار إليه حذف التاء ، تضلوا فلا تضروا إلا أنفسكم ، وهو معنى قوله : ﴿ فإنما عليه ﴾ أي الرسول ﴿ ما حمل ﴾ أي من التبليغ ممن إذا حمل أحداً شيئاً فلا بد من حمله له أو حمل ما هو أثقل منه ﴿ وعليكم ما حملتم ﴾ من القبول ، وليس عليه أن يقسركم على الهداية ؛ وأفهم بقوله : ﴿ وإن تطيعوه ﴾ أي بالإقبال على كل ما يأمركم به ﴿ تهتدوا ﴾ أي إلى كل خير أنه لا هداية لهم بدون متابعته ؛ روى عبد الله ابن الإمام أحمد في زيادات المسند عن النعمان بن بشير ـ رضى الله عنه ـ أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال على المنبر : " من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير ، ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله ، والتحدث بنعمة الله شكر ، وتركه كفر ، والجماعة رحمة ، والفرقة عذاب " قال : فقال أبو أمامة الباهلي ـ رضى الله عنه ـ : عليكم بالسواد الأعظم ! قال فقال رجل : ما السواد الأعظم ؟ فنادى أبو أمامة هذه الآية في سورة النور ﴿ فإن تولوا فإنما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم ﴾ .

ولما كان ما حمله الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ مبهماً ، عينه بقوله : ﴿ وما على الرسول ﴾ أي من جهة غيره ﴿ إلا البلاغ المبين ﴾ أي التبليغ الذي يحصل به البلاغ من غير شك ، إما بالإيضاح وحده أو مضموماً إلى السيف فما دونه من أنواع الزواجر . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 277 . 278 ﴾

(148/552)

فصل

قال الفخر :

أما قوله : ﴿ وَأَقْسَمُواْ بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ﴾

فقال مقاتل : من حلف بالله فقد أجهد في اليمين ، ثم قال لما بين الله تعالى كراهية المنافقين لحكم رسول الله ، فقالوا والله لئن أمرتنا أن نخرج من ديارنا وأموالنا ونسائنا لخرجنا ، وإن أمرتنا بالجهاد جاهدنا ، ثم إنه تعالى أمر رسوله أن ينهاهم عن هذا القسم بقوله : ﴿ قُل لاَّ تُقْسِمُواْ ﴾ ولو كان قسمهم كما يجب لم يجز النهي عنه لأن من حلف على القيام بالبر والواجب لا يجوز أن ينهى عنه ، وإذا ثبت ذلك ثبت أن قسمهم كان لنفاقهم وأن باطنهم خلاف ظاهرهم ، ومن نوى الغدر لا الوفاء فقسمه لا يكون إلا قبيحاً .

أما قوله : ﴿ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ﴾ فهو إما خبر مبتدأ محذوف ، أي المطلوب منكم طاعة معروفة لا أيمان كاذبة ، أو مبتدأ خبره محذوف أي طاعة معروفة أمثل من قسمكم بما لا تصدقون فيه ، وقيل معناه دعوا القسم ولا تغتروا به وعليكم طاعة معروفة فتمسكوا بها .

وقرأ اليزيدي ﴿ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ﴾ بالنصب على معنى أطيعوا طاعة (الله) ﴿ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ أي بصير لا يخفى عليه شيء من سرائركم ، وإنه فاضحكم لا محالة ومجازيكم على نفاقكم . (1)

---

(1) لفظ (الله) غير مثبت في الكشاف للزمخشري حيث إن الكلام منقول عنه . 3 / 73

(149/552)

أما قوله : ﴿ قُلْ أَطِيعُواْ اللهَ وَأَطِيعُواْ الرسول فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَّا حُمِّلْتُمْ ﴾ فاعلم أنه تعالى صرف الكلام عن الغيبة إلى الخطاب على طريقة الالتفات ، وهو أبلغ في تبكيتهم ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ ﴾ يعني إن تولوا عن طاعة الله وطاعة رسوله فإنما على الرسول ما حمل من تبليغ الرسالة وعليكم ما حملتم من الطاعة ﴿ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ ﴾ أي تصيبوا الحق وإن عصيتموه فما على الرسول إلا البلاغ المبين ، والبلاغ بمعنى التبليغ ، والمبين الواضح ، والموضح لما بكم إليه الحاجة ، وعن نافع أنه قرأ ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ ﴾ بفتح

الحاء والتخفيف أي فعليه إثم ما حمل من المعصية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 24 صـ 21 ﴾

(150/552)

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ .

فِيهَا ثَلَاثُ مَسَائِلَ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : قَوْلُهُ : ﴿ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ﴾ يَعْنِي غَايَةَ أَيْمَانِهِمْ ؛ وَقَدْ تَقَدَّمَ بَيَانُهُ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : نَزَلَتْ فِي قَوْمٍ كَانُوا يَتَخَلَّفُونَ عَنْ الْجِهَادِ ثُمَّ يَعْتَذِرُونَ ، فَإِذَا عُوتِبُوا قَالُوا : لَوْ أَمَرْتَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ لَخَرَجْنَا ، وَيَحْلِفُونَ عَلَى ذَلِكَ ، فَقَالَ اللَّهُ لَهُمْ : لَا تُقْسِمُوا ، ثُمَّ قَالَ وَهِيَ : الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : ﴿ طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ ﴾ وَفِيهَا ثَلَاثَةُ تَأْوِيلَاتٍ : الْأَوَّلُ : طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ أَمْثَلُ .

الثَّانِي : طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ بَيْنَكُمْ فِيهَا الْكَذِبُ ، أَيْ هِيَ طَاعَةُ اللَّهِ مَعْرُوفَةٌ قَوْلًا ، بَاطِلَةٌ قَطْعًا ؛ لَا يَفْعَلُونَهَا إلَّا إذَا أَمَرْتَهُمْ وَلَوْ لَمْ يُؤْمَرُوا مَا فَعَلُوا .

الثَّالِثُ : قَالَ مُجَاهِدٌ : مَعْنَى قَوْلِهِ : طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ أَنَّكُمْ تَكْذِبُونَ يَعْنِي لَيْسَتْ لَكُمْ طَاعَةٌ . وَقَدْ قُرِئَتْ " طَاعَةً " بِالنَّصْبِ عَلَى الْمَصْدَرِ ، وَيَكُونُ قَوْلُ طَاعَةٍ مَنْصُوبَةً ابْتِدَاءَ كَلَامٍ ، وَيَرْجِعُ الْمَعْنَى فِيهِ إلَى قَوْلِ مُجَاهِدٍ ، إلَّا أَنَّ الْإِعْرَابَ يَخْتَلِفُ ، وَالْمَعْنَى وَاحِدٌ . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 3 صـ ﴾

(151/552)

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ قُل لَّا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ﴾

يحتمل وجهين

: أحدهما : طاعة صادقة خير من أيمان كاذبة .

الثاني : قد عرف نفاقكم في الطاعة فلا تتجملوا بالأيمان الكاذبة .

قوله تعالى : ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا ﴾ أي أعرضوا عن الرسول .

﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ﴾ أي عليه ما حمل من إبلاغكم ، وعليكم ما حملتم من طاعته .

ويحتمل وجهاً ثانياً : أن عليه ما حمل من فرض جهادكم ، وعليكم ما حملتم من وزر

عباده .

﴿ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ ﴾ يعني إلى الحق

. ﴿ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ ﴾ يعني بالقول لمن أطاع وبالسيف لمن عصى .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

(152/552)

وقال ابن عطية :

﴿ وَأَقْسَمُواْ بِاللّهِ ﴾

و" جهد اليمين " بلوغ الغاية في تعقيدها و﴿ ليخرجن ﴾ معناه إلى الغزو وهذه في المنافقين الذين تولوا حين ﴿ دعوا إلى الله ورسوله ﴾ وقوله : ﴿ قل لا تقسموا طاعة معروفة ﴾ يحتمل معاني أحدها النهي عن القسم الكاذب إذ عرف أن طاعتهم دغلة رديئة .

فكأنه يقول لا تغالطوا فقد عرف ما أنتم عليه ، والثاني أن يكون المعنى لا تتكلفوا القسم طاعة متوسطة على قدر الاستطاعة أمثل وأجدى عليكم ، وفي هذا الوجه إبقاء عليهم ، والثالث أن يكون المعنى لا تقنعوا بالقسم طاعة تعرف منكم وتظهر عليكم هو المطلوب منكم ، والرابع أن يكون المعنى لا تقنعوا لأنفسكم بإرضائنا بالقسم ، طاعة الله معروفة

وشرعه وجهاد عدوه مهيع لائح ، وقوله ﴿ إن الله خبير ﴾ متصل بقوله : ﴿ لا تقسموا ﴾ ، و﴿ طاعة معروفة ﴾ ، اعتراض بليغ ، وقوله ﴿ قل أطيعوا الله ﴾ الآية مخاطبة لأولئك المنافقين وغيرهم من الكفار وكل من يتعتى عن أمر محمد عليه السلام ، وقوله ﴿ تولوا ﴾ معناه تتولوا محذوف التاء الواحدة يدل على ذلك ، قوله : ﴿ وعليكم ما حملتم ﴾ ولو جعلنا ﴿ تولوا ﴾ فعلاً ماضياً وقدرنا في الكلام خروجاً من خطاب الحاضر إلى ذكر الغائب لاقتضى الكلام أن يكون بعد ذلك وعليهم ما حملوا ، والذي حمل رسول الله صلى الله عليه وسلم هو التبليغ ومكافحة الناس بالرسالة وإعمال الجهد في إنذارهم ، والذي حمل الناس هو السمع والطاعة واتباع الحق وباقي الآية بين ، وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائي ونافع في رواية ورش " ويتقهي " بياء بعد الهاء قال أبو علي وهو الوجه . وقرأ قالون عن نافع " ويتقهِ " بكسر الهاء لا يبلغ بها الياء ، وقرأ أبو عمرو وابن عامر وعاصم في رواية أبي بكر " ويتقهْ " جزماً للهاء ، وقرأ حفص عن عاصم ﴿ ويتقه ﴾ بسكون وكسر الهاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(153/552)

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ وأَقسَموا بالله ﴾

قال المفسرون : لمّا نزل في هؤلاء المنافقين ما نزل من بيان كراهتهم لحكم الله ، قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : والله لو أمرتنا أن نخرج من ديارنا وأموالنا ونسائنا لخرجنا ، فكيف لا نرضى حكمك ؟ ! فنزلت هذه الآية .

وقد بيّنّا معنى ﴿ جَهْدَ أيمانهم ﴾ [المائدة : 53] ﴿ لئن أمرتَهم لَيَخْرُجُنَّ ﴾ من أموالهم وديارهم ، وقيل : ليخرجُنّ إلى الجهاد ، ﴿ قل لا تُقْسِموا ﴾ هذا تمام الكلام ؛ ثم قال : ﴿ طاعةٌ معروفةٌ ﴾ قال الزجاج : المعنى : أَمْثَلُ من قَسَمِكم الذي لا تصدُقون فيه طاعةٌ معروفة .

قال ابن قتيبة : وبعض النحويين يقول : الضمير فيها : لتكن منكم طاعة معروفة ، أي : صحيحة لا نِفاق فيها .

قوله تعالى : ﴿ فإن تَوَلَّوا ﴾ هذا خطاب لهم ، والمعنى : فإن تتولَّوا ، فحذف إحدى التاءين ، ومعنى التولّي : الإعراض عن طاعة الله ورسوله ، ﴿ فإنما عليه ﴾ يعني : الرسول ، ﴿ ما حُمِّل ﴾ من التبليغ ﴿ وعليكم ما حُمِّلْتُم ﴾ من الطاعة ؛ وذكر بعض المفسرين أن هذا منسوخ بآية السيف ، وليس بصحيح .

قوله تعالى : ﴿ وإن تُطيعوه ﴾ يعني : رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ تهتدوا ﴾ ،

وكان بعض السلف يقول : مَنْ أمَّر السُّنَّة على نفسه قولاً وفعلاً ، نطق بالحكمة ، ومن أمَّر الهوى على نفسه قولاً وفعلاً ، نطق بالبدعة ، لقوله : ﴿ وإِن تُطيعوه تهتدوا ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(154/552)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَأَقْسَمُواْ بِاللّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ﴾

عاد إلى ذكر المنافقين ، فإنه لما بيّن كراهتهم لحكم النبيّ صلى الله عليه وسلم أَتَوْه فقالوا : والله لو أمرتنا أن نخرج من ديارنا ونساءنا وأموالنا لخرجنا ، ولو أمرتنا بالجهاد لجاهدنا ؛ فنزلت هذه الآية .

أي وأقسموا بالله أنهم يخرجون معك في المستأنف ويطيعون .

﴿ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ﴾ أي طاقة ما قدروا أن يحلفوا .

وقال مقاتل : من حلف بالله فقد أجهد في اليمين .

وقد مضى في "الأنعام" بيان هذا .

و"جَهْدَ" منصوب على مذهب المصدر تقديره : إقساماً بليغاً .

﴿ قُل لاَّ تُقْسِمُواْ ﴾ وتم الكلام .

﴿ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ﴾ أوْلَى بكم من أيمانكم ؛ أو ليكن منكم طاعة معروفة ، وقول معروف بإخلاص القلب ، ولا حاجة إلى اليمين .

وقال مجاهد : المعنى قد عُرفت طاعتكم وهي الكذب والتكذيب ؛ أي المعروف منكم الكذب دون الإخلاص .

﴿ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ من طاعتكم بالقول ومخالفتكم بالفعل .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَطِيعُواْ اللهَ وَأَطِيعُواْ الرسول ﴾ بإخلاص الطاعة وترك النفاق .

﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ ﴾ أي فإن تتوَلّوْا ، فحذف إحدى التاءين .

ودلّ على هذا أن بعده "وعليكم" ولم يقل وعليهم .

﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ ﴾ أي من تبليغ الرسالة .

﴿ وَعَلَيْكُمْ مَّا حُمِّلْتُمْ ﴾ أي من الطاعة له ؛ عن ابن عباس وغيره .

﴿ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ ﴾ جعل الاهتداء مقروناً بطاعته .

﴿ وَمَا عَلَى الرسول إِلاَّ البلاغ ﴾ أي التبليغ ﴿ المبين ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 13 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ وَأَقْسَمُواْ بِاللَّهِ ﴾

ولما بلغ المنافقين ما أنزل تعالى فيهم أتوا إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم) وأقسموا إلى آخره أي ﴿ ليخرجن ﴾ عن ديارهم وأموالهم ونسائهم و ﴿ لئن أمرتهم ﴾ بالجهاد ﴿ ليخرجن ﴾ إليه وتقدم الكلام في ﴿ جهد أيمانهم ﴾ في الأنعام .

ونهاهم تعالى عن قسمهم لعلمه تعالى أنه ليس حقاً .

﴿ طاعة معروفة ﴾ أي معلومة لا شك فيها ولا يرتاب ، كطاعة الخلص من المؤمنين المطابق باطنهم لظاهرهم ، لا أيمان تقسموا بها بأفواهكم وقلوبكم على خلافها ، أو طاعتكم طاعة معروفة بالقول دون الفعل ، أو طاعة معروفة أمثل وأولى بكم من هذه الأيمان الكاذبة قاله الزمخشري .

وقال ابن عطية : يحتمل معاني .

أحدها : النهي عن القسم الكاذب إذ قد عرف أن طاعتهم دغلة رديئة فكأنه يقول : لا تغالطوا فقد عرف ما أنتم عليه .

والثاني : لا تتكلفوا القسم طاعة معروفة متوسطة على قدر الاستطاعة أمثل وأجدى عليكم ، وفي هذا الوجه إبقاء عليهم .

والثالث : لا تقنعوا بالقسم طاعة تعرف منكم وتظهر عليكم هو المطلوب منكم .

والرابع : لا تقنعوا لأنفسكم بإرضائنا بالقسمة طاعة الله معروفة وجهاد عدوه مهيع لائح انتهى .

و﴿ طاعة ﴾ مبتدأ و﴿ معروفة ﴾ صفة والخبر محذوف ، أي أمثل وأولى أو خبر مبتدأ محذوف أي أمرنا أو المطلوب ﴿ طاعة معروفة ﴾ .

وقال أبو البقاء : ولو قرىء بالنصب لكان جائزاً في العربية وذلك على المصدر أي أطيعوا طاعة انتهى .

وقد راه بالنصب زيد بن عليّ واليزيدي وتقدير بعضهم الرفع على إضمار ولتكن ﴿ طاعة معروفة ﴾ ضعيف لأنه لا يحذف الفعل ويبقى الفاعل ، إلاّ إذا كان ثم مشعر به نحو ﴿ رجال ﴾ بعد ﴿ يسبح ﴾ مبنياً للمفعول أي يسبحه رجال ، أو يجاب به نفي نحو : بلى زيد لمن قال : ما جاء أحد .

أو استفهام نحو قوله :

ألا هل أتى أم الحويرث مرسل . . .

بلى خالد إن لم تعقه العوائق

أي أتاها خالد .

﴿ إن الله خبير بما تعملون ﴾ أي مطلع على سرائركم ففاضحكم .

والتفت من الغيبة إلى الخطاب لأنه أبلغ في تبكيتهم .

ولما بكتهم بأن مطلع على سرائرهم تلطف بهم فأمرهم بطاعة الله والرسول وهو أمر عام للمنافقين وغيرهم .

﴿ فإن تولوا ﴾ أي فإن تتولوا .

﴿ فإنما عليه ﴾ أي على الرسول ﴿ ما حمل ﴾ وهو التبليغ ومكافحة الناس بالرسالة وإعمال الجهد في إنذارهم .

﴿ وعليكم ما حملتم ﴾ وهو السمع والطاعة واتّباع الحق .

ثم علق هدايتهم على طاعته فلا يقع إلا بطاعته ﴿ وما على الرسول إلاّ البلاغ المبين ﴾ تقدم الكلام على مثل هذه الجملة في المائدة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ وَأَقْسَمُواْ بِاللَّهِ ﴾

حكايةً لبعضٍ آخرَ من أكاذيبِهم مؤكَّد بالإيمان الفاجرةِ وقوله تعالى : ﴿ جَهْدَ أيمانهم ﴾ نُصبَ على أنَّه مصدرٌ مؤكِّد لفعله الذي هو في حيِّز النَّصبِ على أنَّه حالٌ من فاعلِ أقسمُوا أي أقسمُوا به تعالى يجهدون أيمانَهم جَهداً ومعنى جَهد اليمينِ بلوغُ غايتِها بطريقِ الاستعارةِ من قولِهم : جهدَ نفسَه إذا بلغَ أقصى وُسعِها وطاقتِها أي جاهدين بالغينَ أقصى مراتبِ اليمينِ في الشدَّةِ والوكادةِ ، وقيل : هو مصدرٌ مؤكِّد لأقسمُوا أي أقسمُوا إقسامَ اجتهادٍ في اليمينِ . قال مقاتلٌ : مَن حلفَ باللهِ فقدِ اجتهدَ في اليمينِ ﴿ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ ﴾ أي بالخروجِ إلى الغزوِ لا عن ديارِهم وأموالِهم كما قيل لأنَّه حكايةٌ لما كانُوا يقولون لرسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم : أينما كنتَ نكُنْ معك لئن خرجتَ خرجنَا وإنْ أقمتَ أقمنَا وإن أمرتَنا بالجهادِ جاهدنَا وقوله تعالى : ﴿ لَيَخْرُجَنَّ ﴾ جوابٌ لأقسمُوا بطريقِ حكايةِ فعلِهم لا حكايةِ قولِهم وحيثُ كانتْ مقالتُهم هذه كاذبةً ويمينُهم فاجرةً أُمرَ عليه السَّلامُ بردِّها حيثُ قيل : ﴿ قُلْ ﴾ أي ردًّا عليهم وزَجْراً لهم عن التَّفوه بها وإظهاراً لعدمِ القَبُول لكونِهم كاذبينَ فيها ﴿ لاَّ تُقْسِمُواْ ﴾ أي على ما ينبئُ عنه كلامُكم من الطَّاعةِ وقوله تعالى : ﴿ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ﴾ خبرُ مُبتدأٍ محذوفٍ والجملةُ تعليلٌ للنَّهيِ أي لا تقسمُوا على ما تدَّعُون من الطَّاعةِ لأنَّ طاعتَكم طاعةٌ نفاقيةٌ واقعةٌ باللِّسان فقَط من غيرِ مُواطأةٍ من القلبِ ، وإنَّما

عبر عنها بمعروفةٌ للإيذانِ بأنّ كونَها كذلك مشهورٌ معروفٌ لكلِّ أحدٍ . وقُرِئ بالنَّصبِ والمعنى تُطيعون طاعةً معرُوفةً هذا وحملُها على الطَّاعةِ الحقيقيَّةِ بتقديرِ ما يُناسبها من مبتدأ أو خبرٍ أو فعلٍ ، مثلُ الذي يُطلب منكم طاعةٌ معروفةٌ حقيقيةٌ لا نفاقيةٌ أو طاعةٌ معروفةٌ أمثلُ أو ليكنْ طاعةً معروفةً أو

(158/552)

أطيعوا طاعةً معروفةً ممَّا لا يُساعده المقامُ .

﴿ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ من الأعمالِ الظَّاهرةِ والباطنةِ التي منْ جُملتِها ما تُظهرونه من الأكاذيبِ المؤكّدةِ بالأيمانِ الفاجرةِ وما تُضمرونه في قلوبكم من الكفرِ والنِّفاقِ والعزيمةِ على مُخادعةِ المُؤمنين وغيرِها من فُنونِ الشَّرِّ والفسادِ ، والجملةُ تعليلٌ للحكمِ بأنَّ طاعتَهم طاعةٌ نفاقيَّةٌ تشعر بأنَّ مدارَ شُهرةِ أمرِها فيما بينَ المُؤمنين إخبارُه تعالى بذلك ووعيدٌ لهم بأنَّه تعالى مجازيهم بجميعِ أعمالِهم السَّيِّئةِ التي منها نفاقُهم .

(159/552)

﴿ قُلْ أَطِيعُواْ اللهَ وَأَطِيعُواْ الرسول ﴾ كرّر الأمرَ بالقول لإبراز كمالِ العنايةِ به والإشعارِ باختلافهما من حيثُ أنَّ المقولَ في الأوّلِ نهيٌ بطريق الردّ والتَّقريعِ كما في قوله تعالى : ﴿ اخسئوا فِيهَا وَلاَ تُكَلِّمُونِ ﴾ وفي الثَّاني أمرٌ بطريقِ التَّكليفِ والتَّشريعِ ، وإطلاقُ الطَّاعة المأمورِ بها عن وصفِ الصحَّةِ والإخلاصِ ونحوهما بعد وصف طاعتهم بما ذُكر للتَّنبيه على أنَّها ليستْ من الطَّاعةِ في شيءٍ أصلاً . وقوله تعالى : ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ ﴾ خطابٌ للمأمورين بالطَّاعةِ من جهتِه تعالى واردٌ لتأكيد الأمر بها والمبالغةِ في إيجاب الامتثال به والحملِ عليه بالتَّرهيب والتَّرغيبِ لما أنَّ تغييرَ الكلامِ المسوقِ لمعنى من المعاني وصرفِه عن سَنِنه المسلوكِ ينبىءُ عن اهتمامٍ جديدٍ بشأنه من المتكلّم ويستجلبُ مزيدَ رغبةٍ فيه من السَّامعِ كما أُشير إليه في تفسيرِ قولِه تعالى : ﴿ وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً ﴾ لا سيَّما إذا كان ذلك بتغيير الخطابِ بالواسطةِ إلى الخطابِ بالذَّاتِ فإنَّ في خطابه تعالى إيَّاهم بالذَّات بعد أمرِه تعالى إيَّاهم بوساطتِه عليه السَّلامُ وتصدّيه لبيان حُكمِ الامتثالِ بالأمر والتولّي عنه إجمالاً وتفصيلاً من إفادةِ ما ذُكر من التَّأكيدِ والمُبالغةِ ما لا غايةَ وراءَهُ وتوهُّم أنَّه داخل تحت القولِ المأمور بحكايتِه من جهته تعالى وأنَّه أبلغُ في التَّبكيتِ تعكيسٌ للأمرِ والفاء لترتيبِ ما بعدها على تبليغِه عليه السَّلامُ للمأمور به إليهم ، وعدمُ التَّصريحِ به للإيذانِ بغاية ظهورِ مسارعتِه عليه السَّلامُ إلى تبليغ ما أُمرَ به وعدم الحاجةِ إلى الذِّكرِ أي إنْ تتولَّوا عن

الطَّاعةِ إثرَ ما أُمرتم بهَا ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ ﴾ أي فاعلمُوا أنَّما عليه عليه السَّلام ﴿ مَا حُمّلَ ﴾ أي أُمر به من التَّبليغِ وقد شاهدتمُوه عند قوله : أطيعوا الله والرسول ﴾

(160/552)

وَعَلَيْكُمْ مَّا حُمّلْتُمْ ﴾ أي ما أُمرتم به من الطَّاعة ، ولعلَّ التَّعبيرَ عنه بالتَّحميل للإشعارِ بثقله وكونِه مُؤنةً باقيةً في عهدِهم بعدُ ، كأنَّه قيل : وحيثُ توليتُم عن ذلك فقد بقيتم تحت ذلك الحملِ الثَّقيلِ . وقولُه تعالى : ﴿ مَا حُمّلَ ﴾ محمولٌ على المُشاكلة ﴿ وَإِن تُطِيعُوهُ ﴾ أي فيما أَمركم به من الطَّاعةِ ﴿ تَهْتَدُواْ ﴾ إلى الحقِّ الذي هو المقصدُ الأصليُّ المُوصلُ إلى كلِّ خيرٍ والمُنجّي من كلِّ شرَ ، وتأخيرُه عن بيانِ حكم التَّولّي لما في تقديم التَّرهيبِ من تأكيد التَّرغيبِ وتقريبه ممَّا هو من بابه من الوعد الكريمِ . وقولُه تعالى : ﴿ وَمَا عَلَى الرسول إِلاَّ البلاغ المبين ﴾ اعتراضٌ مقرّرٌ لما قبله من أنَّ غائلةَ التولّي وفائدة الإطاعةِ مقصورتانِ عليهم واللامُ إمَّا للجنسِ المُنتظمِ له عليه السَّلامُ انتظاماً أوليًّا أو للعهد أي ما على جنس الرَّسولِ كائناً مَن كان أو ما عليه عليه السَّلامُ إلاَّ التَّبليغُ الموضّحُ لكلِّ ما يَحتاج إلى الإيضاحِ ، أو الواضحُ على أنَّ المُبينَ مِن أبانَ بمعنى بانَ وقد علمتُم أنَّه قد فعله بما لا مزيدَ عليه وإنما بقيَ ما حُمِّلتم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 6 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ وَأَقْسَمُواْ بِاللّهِ ﴾

حكاية لبعض آخر من أكاذيب الكفرة المنافقين مؤكداً بالأيمان الفاجرة فهو عود على بدء ، والقسم الحلف وأصله من القسامة وهي أيمان تقسم على متهمين بقتل حسبما بين في كتب الفقه ثم صار اسماً لكل حلف ، وقوله سبحانه : ﴿ جَهْدَ أيمانهم ﴾ نصب على أنه مصدر مؤكد لفعله المحذوف ، وجملة ذلك الفعل مع فاعله في موضع الحال أو هو نصب على الحال أي حلفوا به تعالى يجهدون أيمانهم جهداً أو جاهدين أيمانهم ، ومعنى جهد اليمين بلوغ غايتها بطريق الاستعارة من قولهم : جهد نفسها إذا بلغ أقصى وسعها وطاقتها ، والمراد أقسموا بالغين أقصى مراتب اليمين في الشدة والوكادة ، وجوز أن يكون مصدراً مؤكداً لأقسموا أي أقسموا أقسام اجتهاد في اليمين ، قال مقاتل : من حلف بالله تعالى فقد اجتهد في اليمين .

والظاهر هنا أنهم غلظوا الأيمان وشددوها ولم يكتفوا بقول الله ﴿ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ ﴾ أي بالخروج كما يدل عليه قوله تعالى : ﴿ لَيُخْرِجَنَّ ﴾ والمراد بهذا الخروج الخروج للجهاد

كما أخرجه ابن أبي حاتم عن مقاتل .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ما يدل على أن المراد الخروج من الأموال .

وأياً ما كان فالجملة جواب لأقسموا وجواب الشرط محذوف لدلالة هذه الجملة عليه وهي حكاية بالمعنى والأصل لنخرجن بصيغة المتكلم مع الغير ، وقيل : الأصل لخرجنا إلا أنه أريد حكاية الحال الماضية فعبر بذلك .

(162/552)

وتعقب بأن المعتبر زمان الحكم وهو مستقبل ﴿ قُلْ ﴾ أي رداً عليهم وزجراً لهم عن التفوه بتلك الأيمان وإظهاراً لعدم القبول لكونهم كاذبين فيها ﴿ لاَّ تُقْسِمُواْ ﴾ على ما ينبىء عنه كلامكم من الطاعة ﴿ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ﴾ خبر مبتدأ محذوف أي طاعتكم طاعة ، والجملة تعليل للنهي كأنه قيل لا تقسموا على ما تدعون من الطاعة لأن طاعتكم طاعة معروفة بأنها واقعة باللسان فقط من غير مواطأة من القلب لا يجهلها أحد من الناس ، وقيل التقدير المطلوب منكم طاعة معروفة معلومة لا يشك فيها كطاعة الخلص من المؤمنين ، وقيل : ﴿ طَاعَةٌ ﴾ مبتدأ خبره محذوف أي طاعة معروفة متوسطة على قدر

الاستطاعة أمثل وأولى بكم من قسكم .

واختاره الزجاج ، وقيل مرفوع بفعل مقدر أي لتكن طاعة معروفة منكم ، وضعف الكل بأنه مما لا يساعده المقام والأخير بأن فيه حذف الفعل في غير موضع الحذف .

وقال البقاعي : لا تقدير في الكلام و ﴿ طَاعَةٌ ﴾ مبتدأ خبره ﴿ مَّعْرُوفَةٌ ﴾ وسوغ الابتداء بالنكرة أنها أريد بها الحقيقة فتعم والعموم من المسوغات ، ولم تعرف لئلا يتوهم أن تعريفها للعهد ، والجملة تعليل لنهي أي لا تقسموا فإن الطاعة معروفة منكم ومن غيركم لا تخفى فقد جرت سنة الله تعالى على أن العبد وإن اجتهد في إخفاء الطاعة لا بد وأن يظهر سبحانه مخايلها على شمائلها ، وكذا المعصية فلا فائدة في إظهار ما يخالف الواقع ، وفي الأحاديث ما يشهد لما ذكر ، فقد روى الطبراني عن جندب ﴿ مَا أَسَرُّواْ عَبْدُ ﴾ وروى الحاكم وقال : صحيح الإسناد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال :

" لو أن أحدكم يعمل في صخرة صماء ليس لها باب ولا كوة لخرج عمله لإنسان كائناً من كان " وهذا المعنى على ما قيل حسن لكنه خلاف الظاهر .

وقرأ زيد بن علي .

(163/552)

واليزيدي ﴿ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُل لاَّ تُقْسِمُواْ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ﴾ بالنصب على تقدير تطيعون طاعة معروفة نفاقية ، وقيل أطيعوا طاعة معروفة حقيقية وطاعة بمعنى إطاعة كما في قوله تعالى : ﴿ أَنبَتَكُمْ مِّنَ الأَرضِ نَبَاتاً ﴾ [نوح : 71] ﴿ إِنَّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ من الأعمال الظاهرة والباطنة التي من جملتها ما تظهرونه من الأكاذيب المؤكدة بالايمان الفاجرة وما تضمرونه من الكفر والنفاق والعزيمة على مخادعة المؤمنين وغيرها من فنون الشر والفساد والمراد الوعيد بأنه تعالى مجازيهم بجميع أعمالهم السيئة التي منها نفاقهم ، وفي الإرشاد أن الجملة تعليل للحكم بأن طاعتهم طاعة نفاقية مشعر بأن مدار شهرة أمرها فيما بين المؤمنين إخباره تعالى بذلك ووعيد لهم بالمجازاة .

﴿ قُلْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرسول ﴾

كرر الأمر بالقول لإبراز كمال العناية به والإشعار باختلافهما حيث أن المقول الأول نهى بطريق الرد والتبكيت ، وفي الثاني أمر بطريق التكليف والتشريع ، وفي تكرر فعل الإطاعة والعدول عن أطيعوني إلى أطيعوا الرسول ما لا يخفى من الحث على الطاعة وإطلاقها عن وصف الصحة والإخلاص ونحوهما بعد وصف طاعتهم بما تقدم للتنبيه على أنها ليست من الطاعة في شيء .

وقوله تعالى : ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ ﴾ خطاب للمنافقين الذين أمر عليه الصلاة والسلام أن يقول لهم ما سمعت وارد من قبله عز وجل غير داخل في حيز ﴿ قُلْ ﴾ على ما اختاره صاحب التقريب وغيره وفيه تأكيد للأمر السابق والمبالغة في إيجاب الامتثال به والحمل عليه بالترتيب والترغيب لما أن تغيير الكلام المسوق لمعنى من المعاني وصرفه عن سننه المسلوك ينبىء عن اهتمام جديد بشأنه من المتكلم ويستجلب مزيد رغبة فيه من السامع لا سيما إذا كان ذلك بتغيير الخطاب بالواسطة بالذات كما هنا ، والفاء لترتيب ما بعدها على تبليغه عليه الصلاة والسلام للمأمور به إليهم ، وعدم التصريح للإيذان بغاية مسارعته صلى الله عليه وسلم إلى تبليغ ما أمر به وعدم الحاجة إلى الذكر أي إن تتولوا عن الطاعة إثر ما أمركم الرسول صلى الله عليه وسلم بها ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ ﴾ أي على الرسول عليه الصلاة والسلام ﴿ مَا حُمّلَ ﴾ أي ما أمر به من التبليغ وقد شاهدتموه عند قوله ﴿ أَطِيعُواْ الله وَأَطِيعُواْ الرسول ﴾ ﴿ وَعَلَيْكُمْ مَّا حُمّلْتُمْ ﴾ أي ما أمرتم به من الطاعة ، ولعل التعبير بالتحميل أولاً للإشعار بثقل الوحي في نفسه ، وثانياً للإشعار بثقل الأمر عليهم ، وقيل : لعل التعبير بذلك في جانبهم للإشعار بثقه وكون مؤنه باقية في عهدتهم بعد كأنه قيل : وحيث توليتم عن ذلك فقد بقيتم تحت ذلك الحمل الثقيل ؛ والتعبير به في جانبه عليه الصلاة والسلام للمشاكلة والفاء واقعة في جواب الشرط وما بعدها قائم مقام الجواب أو جواب

على حد ما في قوله تعالى : ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ ﴾ [النحل : 53] كأنه قيل فإن تتولوا فاعلموا أنما عليه الخ .

هذا واختار بعضهم دخول الجملة الشرطية في حيز القول .

(165/552)

قال الطيبي : الظاهر أنه تعالى أمر رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يقول لهم : أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا يخاف مضرتهم فكان أصل الكلام قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن تولوا فإنما عليك ما حملت وعليهم ما حملوا بمعنى فما يضرونك شيئاً وإنما يضرون أنفسهم على الماضي والغيبة في ﴿ تَوَلَّوْا ﴾ فصرف الكلام إلى المضارع ، والخطاب في تتولوا بحذف إحدى التاءين بمعنى فما ضررتموه وإنما ضررتم أنفسكم لتكون المواجهة بالخطاب أبلغ في تبكيتهم ، وجعل ذلك جارياً مجرى الالتفات وجعله غيره التفاتاً حقيقياً من حيث أنهم جعلوا أولا غيباً حيث أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بخطابهم بقل لهم ثم خوطبوا بأن تتولوا استقلالاً من الله تعالى لا من رسوله صلى الله عليه وسلم ، ولا يخفى أن حمل الآية على الخطاب الاستقلالي الغير الداخل تحت القول أدخل في التبكيت .

وفي الأحكام أنه استدل بهذه الآية على أن الأمر للوجوب لأنه تعالى أمر بالإطاعة ثم هدد

بقوله تعالى : ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ ﴾ الخ والتهديد على المخالفة دليل الوجوب .

وتعقب بأنه لا نسلم أن ذلك للتهديد بل للاخبار وإن سلمنا أنه للتهديد فهو دليل على الوجوب فيما هدد على تركه ومخالفته من الأوامر وليس فيه ما يدل على أن كل أمر مهدد بمخالفته بدليل أمر الندب فإن المندوب مأمور به وليس مهدداً على مخالفته وإذا انقسم الأمر إلى مهدد عليه وغير مهدد عليه وجب اعتقاد الوجوب فيما هدد عليه دون غيره وبه يخرج الجواب عن كل صيغة أمر هدد على مخالفتها وحذر منها ووصف مخالفها بكونه عاصياً وبه يدفع أكثر ما ذكره القائلون بالوجوب في معرض الاستدلال على دعواهم فتدبر .

(166/552)

﴿ وَإِن تُطِيعُوهُ ﴾ فيما أمركم به عليه الصلاة والسلام من الطاعة ﴿ تَهْتَدُواْ ﴾ إلى الحق الذي هو المقصد الأصل الموصول إلى كل خير المنجى عن كل شر ، ولعل في تقديم الشق الأول وتأخير هذا إشارة إلى أن الترهيب أولى بهم وأنهم ملابسون لما يقتضيه ، وفي الإرشاد تأخير بيان حكم الإطاعة عن بيان حكم التلوي لما في تقديم الترهيب من تأكيد الترغيب وتقريبه مما هو من بابه من الوعد الكريم ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا عَلَى الرسول إِلاَّ

البلاغ المبين ﴾ اعتراض تذييلي مقرر لما قبله من أن غائلة التولي وفائدة الإطلاعة مقصورتان على المخاطبين ، وآل أما للجنس المنتظم له صلى الله عليه وسلم انتظاماً أولياً أو للعهد أي ما على جنس الرسول كائناً من كان أو ما على روسلنا محمد صلى الله عليه وسلم إلا التبليغ الموضح لكل ما يحتاج إلى الإيضاح أو الواضح في نفسه على أن المبين من أبان المتعدى بمعني بأن اللازم ، وقد علمتم أنه عليه الصلاة والسلام قد فعله بما لا مزيد عليه وإنما بقي ما عليكم ، وقوله تعالى : ﴿ وَعَدَ الله الذين ءامَنُواْ مِنْكُمْ ﴾ خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ومن آمن معه ففي الآية تنويع الخطاب حيث خاطب سبحانه المقسمين على تقدير التولي ثم صرفه تعالى عنهم إلى المؤمنين الثابتين وهو كالاعتراض بناء على ما سيأتي إن شاء الله تعالى من كون ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا ﴾ [النور : 65] عطفاً على قوله سبحانه : ﴿ أَطِيعُواْ الله ﴾ [النور : 45] وفائدته أنه لما أفاد الكلام السابق أنه ينبغي أن يأمرهم بالطاعة كفاحاف ولا يخاف مضرتهم أكد بأنه عليه الصلاة والسلام هو الغالب ومن معه فإني للخوف مجال ، وإن شئت فاجعله استئنافاً جيء به لتأكيد ما يفيده الكلام من نفي المضرة على أبلغ وجه من غير اعتبار كونه اعتراضاً فإن في العطف المذكور ما ستسمعه إن شاء الله تعالى ؛ ومن بيانية ، ووسط الجار والمجرور بين جملة ﴿ ءامَنُواْ ﴾ والجملة المعطوفة

عليها الداخلة معها في حيز الصلة أعني . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 18 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ﴾

عطف على جملة : ﴿ ويقولون ءامنا بالله وبالرسول ﴾ [النور : 47] .

أتبعت حكاية قولهم ذلك بحكاية قسم أقسموه بالله ليتنصلوا من وصمة أن يكون إعراضهم عن الحكومة عند الرسول صلى الله عليه وسلم فجاءوه فأقسموا إنهم لا يضمرون عصيانه فيما يقضي به فإنه لو أمرهم الرسول بأشق شيء وهو الخروج للقتال لأطاعوه .

قال ابن عطية : وهذه في المنافقين الذين تولوا حين دعوا إلى الله ورسوله .

وقال القرطبي : لما بيّن كراهتهم لحكم النبي أتوه فقالوا : والله لو أمرتنا أن نخرج من ديارنا وأموالنا لخرجنا ولو أمرتنا بالجهاد لجاهدنا .

فنزلت هذه الآية .

وكلام القرطبي يقتضي أنهم ذكروا خروجيْن .

وبذلك يكون من الإيجاز في الآية حذف متعلق الخروج ليشمل ما يطلق عليه لفظ الخروج من حقيقة ومجاز بقرينة ما هو معروف من قصة سبب نزول الآية يومئذٍ ، فإنه بسبب خصومة

في مال فكان معنى الخروج من المال أسبق في القصد .

واقتصر جمهور المفسرين على أن المراد ليخرجُنّ من أموالهم وديارهم .

واقتصر الطبري على أن المراد ليخرجن إلى الجهاد على اختلاف الرأيين في سبب النزول .

والإقسام : النطق بالقسم ، أي اليمين .

وضمير ﴿ أقسموا ﴾ عائد إلى ما عاد إليه ضمير ﴿ ويقولون ﴾ [النور : 47] .

والتعبير بفعل المضي هنا لأن ذلك شيء وقع وانقضى .

والجَهْد بفتح الجيم وسكون الهاء منتهى الطاقة .

ولذلك يطلق على المشقة كما في حديث بدء الوحي " فغَطّني حتى بلغ منّي الجَهْد " لأن الأمر الشاق لا يعمل إلا بمنتهى الطاقة .

وهو مصدر "جَهَد" كمنع متعدياً إذا أتعب غيره .

ونَصْبُ ﴿ جهد أيمانهم ﴾ يجوز أن يكون على الحال من ضمير ﴿ أقسموا ﴾ على تأويل المصدر باسم الفاعل كقوله ﴿ لا تأتيكم إلا بغتة ﴾ [الأعراف : 187] ، أي جاهدين .

(168/552)

والتقدير : جاهدين أنفسهم ، أي بالغين بها أقصى الطاقة وهذا على طريقة التجريد .

ومعنى ذلك : أنهم كرّروا الأيمان وعدّدوا عباراتها حتى أتعبوا أنفسهم ليوهموا أنهم صادقون في أيمانهم .

وإضافة ﴿ جهد ﴾ إلى ﴿ أيمانهم ﴾ على هذا الوجه إضافة على معنى (من) ، أي جهداً ناشئاً عن أيمانهم .

ويجوز أن يكون ﴿ جهد ﴾ منصوباً على المفعول المطلق الواقع بدلاً من فعله .

والتقدير : جَهَدوا أيمانهم جَهداً .

والفعل المقدر في موضع الحال من ضمير ﴿ أقسموا ﴾ .

والتقدير : أقسموا يَجْهَدون أيمانهم جهداً .

وإضافة ﴿ جهد ﴾ إلى ﴿ أيمانهم ﴾ على هذا الوجه من إضافة المصدر إلى مفعوله ؛ جعلت الأيمان كالشخص الذي له جَهد ، ففيه استعارة مكنية ، ورمز إلى المشبه به بما هو من روادفه وهو أن أحداً يجهده ، أي يستخرج منه طاقته فإن كل إعادة لليمين هي كتكليف لليمين بعمل متكرر كالجهد له ، فهذا أيضاً استعارة .

وتقدم الكلام على شيء من هذا عند قوله تعالى : ﴿ أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم ﴾

في سورة العقود (53) وقوله : وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ﴾ في سورة

الأنعام (109) .

وجملة : ﴿ لئن أمرتهم ﴾ الخ بيان لجملة : ﴿ أقسموا ﴾ .

وحذف مفعول ﴿ أمرتهم ﴾ لدلالة قوله : ﴿ ليخرجن ﴾ .

والتقدير : لئن أمرتهم بالخُروج ليَخرُجن .

فأمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم هذه الكلمات ذات المَعَاني الكثيرة وهي ﴿ لا تقسموا طاعة معروفة ﴾ .

وذلك كلام موجه لأن نهيهم عن أن يقسموا بعد أن صدر القسم يحتمل أن يكون نهياً عن إعادته لأنهم كانوا بصدد إعادته ، بمعنى : لا حاجة بكم إلى تأكيد القسم ، أي فإن التأكيد بمنزلة المؤكد في كونه كذباً .

ويحتمل أن يكون النهي مستعملاً في معنى عدم المطالبة بالقسم ، أي ما كان لكم أن تقسموا إذ لا حاجة إلى القسم لعدم الشك في أمركم .

(169/552)

ويحتمل أن يكون النهي مستعملاً في التسوية مثل ﴿ اصبروا أوْ لاَ تصْبروا سواء عليكم ﴾ [الطور : 16] .

ويحتمل أن يكون النهي مستعملاً في حقيقته والمُقسم عليه محذوف ، أي لا تقسموا على الخروج من دياركم وأموالكم فإن الله لا يكلفكم بذلك .

ومقام مواجهة نفاقهم يقتضي أن تكون هذه الاحتمالات مقصودة .

وقوله : ﴿ طاعة معروفة ﴾ كلام أُرسِل مثلاً وتحته معان جمة تختلف باختلاف الاحتمالات المتقدمة في قوله : ﴿ لا تقسموا ﴾ .

وتنكير ﴿ طاعة ﴾ لأن المقصود به نوع الطاعة وليست طاعة معينة فهو من باب : تمرة خير من جَرادة ، و ﴿ معروفة ﴾ خبره .

فعلى احتمال أن يكون النهي عن القسم مستعملاً في النهي عن تكريره يكون المعنى من قبيل التهكم ، أي لا حرمة للقسم فلا تعيدوه فطاعتكم معروفة ، أي معروف وهنها وانتفاؤها .

وعلى احتمال استعمال النهي في عدم المطالبة باليمين يكون المعنى : لماذا تقسمون أفَأنا أشك في حالكم فإن طاعتكم معروفة عندي ، أي أعرف عدم وقوعها ، والكلام تهكم أيضاً .

وعلى احتمال استعمال النهي في التسوية فالمعنى : قسَمُكُم ونفيُه سواء لأن أيمانكم فاجرة وطاعتكم معروفة .

أو يكون ﴿ طاعة ﴾ مبتدأ محذوف الخبر ، أي طاعة معروفة أوْلَى من الأيمان ، ويَكون وصف ﴿ معروفة ﴾ مشتقاً من المعرفة بمعنى العلم ، أي طاعة تُعلم وتُحقق أوْلى من

الأيمان على طاعة غير واقعةٍ ، وهو كالعرفان في قولهم : لا أعرفنك تفعل كذا .

وإن كان النهي مستعملاً في حقيقته فالمعنى : لا تقسموا هذا القسمَ ، أي على الخروج من دياركم وأموالكم لأن الله لا يكلفكم الطاعة إلا في معروف ، فيكون وصف ﴿ معروفة ﴾ مشتقاً من العرفان ، أي عدم النكران كقوله تعالى : ﴿ ولا يعصِينَك في معروف ﴾ [الممتحنة : 12] .

وجملة : ﴿ إن الله خبير بما تعملون ﴾ صالحة لتذييل الاحتمالات المتقدمة ، وهي تعليل لما قبلها .

﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾

(170/552)

تلقين آخر للرسول عليه الصلاة والسلام بما يَرُدّ بهتانهم بقلة الاكتراث بمواعيدهم الكاذبة وأن يقتصروا من الطاعة على طاعة الله ورسوله فيما كلفهم دون ما تبرعوا به كذباً ، ويختلف معنى ﴿ أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ﴾ بين معاني الأمر بإيجاد الطاعة المفقودة أو إيهام طلب الدوام على الطاعة على حسب زعمهم .

وأعيد الأمر بالقول للاهتمام بهذا القول فيقع كلاماً مستقلاً غير معطوف .

وقوله : ﴿ فإن تولوا ﴾ يجوز أن يكون تفريعاً على فعل ﴿ أطيعوا ﴾ فيكونّ فعلُ ﴿ تولوا ﴾ من جملة ما أمر النبي صلى الله عليه وسلم بأن يقوله لهم ويكون فعلاً مضارعاً بتاء الخطاب .

وأصله : تَتَولوا بتاءين حذفت منهما تاء الخطاب للتخفيف وهو حذف كثير في الاستعمال .

والكلام تبليغ عن الله تعالى إليهم ، فيكون ضميراً ف ﴿ عَلَيْه ما حُمّلَ ﴾ عائدين إلى الرسول صلى الله عليه وسلم

ويجوز أن يكون تفريعاً على فعل ﴿ قل ﴾ أيْ فإذا قلت ذلك فَتَوَلَّوْا ولم يطيعوا الخ ، فيكون فعل ﴿ تولوا ﴾ ماضياً بتاء واحدة مُواجَهاً به النبي صلى الله عليه وسلم أي فإن تولوا ولم يطيعوا فإنما عليك ما حُمِّلْتَ من التبليغ وعليهم ما حُمِّلوا من تَبِعَة التكليف .

كمعنى قوله تعالى : ﴿ فإن تولوا فإنما عليك البلاغ المبين ﴾ في سورة النحل (82) فيكون في ضمائر فإنما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم ﴾ التفاتٌ .

وأصل الكلام : فإنما عليك ما حُملتَ وعليهم ما حُمِّلوا .

والالتفات محسن لا يحتاج إلى نكتة .

وبهذين الوجهين تكون الآية مفيدة معنيين : معنى من تعلق خطاب الله تعالى بهم وهو تعريض بتهديد ووعيد ، ومعنى من موعظة النبي صلى الله عليه وسلم إيَّاهم وموادعة

لهم.

وهذا كله تبكيت لهم ليعلموا أنهم لا يضرون بتولّيهم إلا أنفسهم.

(171/552)

ونظيره قوله في سورة آل عمران (23 32) : ﴿ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً ﴾ من الكتاب (هم اليهود) يُدعَوْن إلى كتاب الله ﴾ إلى قوله : ﴿ قل أطيعوا الله والرسول فإن تَولوا فإن الله لا يحب الكافرين ﴾

واعلم أن هذين الاعتبارين لا يتأتيان في المواضع التي يقع فيها الفعل المضارع المفتتح بتاءين في سياق النهي نحو قوله تعالى : ﴿ ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ﴾ [النساء : 4] وقوله : ﴿ ولا تَيمموا الخبيثَ منه تنفقون ﴾ [البقرة : 267] وقوله : ﴿ ولا تَولوا عنه وأنتم تسمعون ﴾ في سورة الأنفال (20) ، وأما قوله تعالى في سورة القتال (38) ﴿ وإن تتولّوا يستبدل قوماً غيركم ﴾ فثبتت فيه التاءان لأن الكلام فيه موجه إلى المؤمنين فلم يكن فيه ما يقتضي نسج نظمه بما يصلح لإفادة المعنيين المذكورين في سورة النور وفي سورة آل عمران.

والبلاغ : اسم مصدر بمعنى التبليغ كالأداء بمعنى التأدية.

ومعنى كونه مبيناً أنه فصيح واضح .

وجملة : ﴿ وإن تطيعوه تهتدوا ﴾ إرداف الترهيب الذي تضمنه قوله : ﴿ وعليكم ما حملتم ﴾ بالترغيب في الطاعة استقصاء في الدعوة إلى الرشد .

وجملة ﴿ وما على الرسول إلا البلاغ المبين ﴾ بيان لإبهام قوله : ﴿ ما حمل ﴾ . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 18 صـ ﴾

(172/552)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ﴾

القَسَم : هو اليمين والحَلِف ، والإنسان يُقسم ليؤكد المقسَم عليه يريد أن يطمئن المخاطب على أن المقسَم عليه حَقٌّ ، وهؤلاء لم يقسموا بالله سِراً في أنفسهم ، إنما ﴿ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ﴾ [النور : 53] يعني : بَالَغوا وأَتَوْا بمنتهى الجهد في القسم ، فلم يقل أحدهم : وحياة أمي أو أبي ، إنما أقسموا بالله ، وليس هناك قَسَم أبلغ من هذا القسم ، لذلك يقول النبي صلى الله عليه وسلم : " مَنْ كان حالفاً فليحلف بالله ، أو ليصمت " .

فلما أقسموا بالله للرسول أنْ يخرجوا من بيوتهم وأولادهم وأموالهم إلى الجهاد مع رسول الله

فضح الله سرائرهم ، وكشف سترهم ، وأبان عن زيف نواياهم ، كما قال في آية أخرى : ﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُواْ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الذي تَقُولُ ﴾ [النساء : 81] .

وتأمل دقَّة الأداء القرآني في : ﴿ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ ﴾ [النساء : 81] وهذا احتياط ؛ لأن منهم أُناساً يراود الإيمان قلوبهم ويفكرون في أنْ يُخلِصوا إيمانهم ونواياهم لله تعالى ، ويعودوا إلى الإسلام الصحيح .

والقرآن يفضح أمر هؤلاء الذي يُقسِمون عن غير صِدْق في القَسَم ، كمن تعوَّد كثرة الحَلِف والحِنْث فيه ؛ لذلك ينهاهم عن هذا الحَلِف : ﴿ قُل لاَّ تُقْسِمُواْ ﴾ [النور : 53] ولا يمكن أن ينهي المتكلمُ المخاطبَ عن القسم خصوصاً إذا أقسم على خير ، لكن هؤلاء حانثون في قَسَمهم ، فهو كعدمه ، فهم يُقسِمون باللسان ، ويخالفون بالوجدان .

(173/552)

وقوله تعالى : ﴿ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ﴾ [النور : 53] . يُشعِر بتوبيخهم ، كأنه يقول لهم : طاعتكم معروفة لدينا ولها سوابق واضحة ، فهي طاعة باللسان فحسب ، ثم يؤكد هذا المعنى فيقول : ﴿ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [النور : 53] والذي يؤكد هذه الخبرة أنه

يفضح قلوبهم ويفضح نواياهم .

والعجيب أنهم لا يعتبرون بالأحداث السابقة ، ولا يتعظون بها ، وقد سبق لهم أنه كان يجلس أحدهم يُحدِّث نفسه الحديث فيفضح الله ما في نفسه ويخبر به رسول الله ، فيبلغهم بما يدور في نفوسهم ، كما جاء في قول الله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلاَ يُعَذِّبُنَا اللهُ بِمَا نَقُولُ ﴾ [المجادلة : 8] .

ومع ذلك لم يعتبروا ولم يعترفوا لرسول الله بأنه مُؤَيَّد من الله ، وأنه تعالى لن يتخلى عن رسوله ، ولن يدعه لهم يخادعونه ويغشُّونه ، وهذه سوابق تكررتْ منهم مرات عِدّة ، ومع ذلك لم ينتهوا عما هم فيه من النفاق ، ولم يُخلِصوا الإيمان لله .

وبعد هذا كله يوصي الحق تبارك وتعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يُبقِي عليهم ، وألاَّ يرمي (طوبتهم) لعل وعسى ، فيقول عز وجل : ﴿ قُلْ أَطِيعُواْ اللهَ وَأَطِيعُواْ الرسول ﴾ وكأنه تعالى لا يريد أنْ يُغلق الباب دونهم ، فيعطيهم الفرصة : جَدِّدوا طاعة لله ، وجَدِّدوا طاعة لرسوله ، واستدركوا الأمر ؛ ذلك لأنهم عباده وخَلْقه .

وكما ورد في الحديث الشريف : " لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم وقع على بعيره وقد أضله في فلاة " .

ونلحظ في هذه الآية تكرار الأمر أطيعوا ﴿ أَطِيعُواْ اللهَ وَأَطِيعُواْ الرسول ﴾ [النور : 54] وفي آيات أخرى يأتي الأمر مرة واحدة ، كما في الآية السابقة : ﴿ وَمَن يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ

﴾ [النور : 52] ، وفي ﴿ أَطِيعُواْ اللهَ وَرَسُولَهُ ﴾ [الأنفال : 20] وفي ﴿ مَّنْ يُطِعِ الرسول فَقَدْ أَطَاعَ الله ﴾ [النساء : 80] أي : أن طاعتهما واحدة .

(174/552)

قالوا : لأن القرآن ليس كتابَ أحكام فحسب كالكتب السابقة ، إنما هو كتاب إعجاز ، والأصل فيه أنه مُعْجز ، ومع ذلك أدخل فيه بعض الأصول والأحكام ، وترك البعض الآخر لبيان الرسول وتوضيحه في الحديث الشريف ، وجعل له صلى الله عليه وسلم حقاً في التشريع بنصِّ القرآن : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرسول فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فانتهوا ﴾ [الحشر : 7] .

والقرآن حين يُورد الأحكام يوردها إجمالاً ثم يُفصِّلها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فالصلاة مثلاً أمر بها الحق تبارك وتعالى وفرضها ، لكن تفصيلها جاء في السنة النوبية المطهرة ، فإنْ أردتَ التفصيل فانظر في السنة .

كالذي يقول : إذا غاب الموظف عن عمله خمسة عشر يوماً يُفصَل ، مع أن الدستور لم ينص على هذا ، نقول : لكن في الدستور مادة خاصة بالموظفين تنظم مثل هذه الأمور ، وتضع لهم اللوائح المنظِّمة للعمل .

وذكرنا أن الشيخ محمد عبده سأله بعض المستشرقين : تقولون في القرآن : ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي الكتاب مِن شَيْءٍ ﴾ [الأنعام : 38] فهات لي من القرآن : كم رغيفاً في إردب القمح ؟

فما كان من الشيخ إلا أن أرسل لأحد الخبازين وسأله هذا السؤال فأجابه : في الإردب كذا رغيف . فاعترض السائل : أريد من القرآن .

فردَّ الشيخ : هذا من القرآن ؛ لأنه يقول : ﴿ فاسألوا أَهْلَ الذكر إِن كُنْتُم لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل : 43] .

فالأمر الذي يصدر فيه حكم من الله وحكم من رسول الله ، كالصلاة مثلاً : ﴿ إِنَّ الصلاة كَانَتْ عَلَى المؤمنين كِتَاباً مَّوْقُوتاً ﴾ [النساء : 103] .

وفي الحديث : " الصلاة عماد الدين " .

ففي مثل هذه المسألة نقول : أطيعوا الله والرسول ؛ لأنهما متواردان على أمر واحد ، فجاء الأمر بالطاعة واحداً .

(175/552)

أما في مسائل عدد الركعات وما يُقَال في كل ركعة وكوْنها سِراً أو جهراً ، كلها مسائل بيَّنها رسول الله . إذن : فهناك طاعة لله في إجمال التشريع أن الصلاة مفروضة ، وهناك طاعة

خاصة بالرسول في تفصيل هذا التشريع ، لذلك يأتي الأمر مرتين ﴿ أَطِيعُواْ اللهَ وَأَطِيعُواْ الرسول ﴾ [النور : 54] .

كما نلحظ في القرآن : ﴿ وَأَطِيعُواْ الرسول ﴾ [النور : 56] هكذا فحسب .

قالوا : هذه في المسائل التي لم يَرِدْ فيها تشريع ونَصٌّ ، فالرسول في هذه الحالة هو المشرِّع ، وهذه من مميزات النبي صلى الله عليه وسلم عن جميع الرسل ، فقد جاءوا جميعاً لاستقبال التشريع وتبليغه للناس ، وكان صلى الله عليه وسلم هو الوحيد الذي فُوِّض من الله في التشريع .

ثم يقول تعالى : ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَّا حُمِّلْتُمْ ﴾ [النور : 54] لأنه تعالى أعلم بحِرْص النبي على هداية القوم ، وكيف أنه يجهد نفسه في دعوتهم ، كما خاطبه في موضع آخر : ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء : 3] وكأن الحق تبارك وتعالى يقول لنبيه : قُلْ لهم وادْعُهم مرة ثانية لتريح نفسك ﴿ قُلْ أَطِيعُواْ اللهَ وَأَطِيعُواْ الرسول ﴾ [النور : 54] وإنْ كنت غير مكلَّف بالتكرار ، فما عليك إلا البلاغ مرة واحدة .

ومعنى : ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَّا حُمِّلْتُمْ ﴾ [النور : 54] أي : من الله تعالى ، فالرسول حُمِّل الدعوة والبلاغ ، وأنتم حُمِّلْتم الطاعة والأداء ، فعليكم أن تُؤدُّوا ما كلَّفكم الله به .

﴿ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ ﴾ [النور : 54] نلحظ أن المفعول في ﴿ وَإِن تُطِيعُوهُ ﴾ [النور : 54] مفرد ، فلم يقل : تطيعوهما ، لتناسب صدر الآية ﴿ أَطِيعُواْ اللهَ وَأَطِيعُواْ الرسول ﴾ [النور : 54] ذلك لأن الطاعة هنا غير منقسمة ، بل هي طاعة واحدة .

(176/552)

وقوله : ﴿ وَمَا عَلَى الرسول ﴾ [النور : 54] تكليفاً من الله ﴿ إِلاَّ البلاغ المبين ﴾ [النور : 54] المحيط بكل تفصيلات المنهج التشريعي لتنظيم حركة الحياة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(177/552)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ﴾

أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : أتى قوم النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا رسول

الله لو أمرتنا أن نخرج من أموالنا لخرجنا فأنزل الله ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل في قوله ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن أمرتهم ليخرجن ﴾ قال : ذلك من شأن الجهاد ﴿ قل لا تقسموا ﴾ قال : يأمرهم أن لا يحلفوا على شيء ﴿ طاعة معروفة ﴾ قال : أمرهم أن يكون منهم طاعة للنبي صلى الله عليه وسلم ، من غير أن يقسموا .

وأخرج ابن المنذر عن مجاهد ﴿ طاعة معروفة ﴾ يقول قد عرفت طاعتكم أي أنكم تكذبون به .

قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (54)

أخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله ﴿ فإنما عليه ما حمل ﴾ فيبلغ ما أرسل به إليكم ﴿ وعليكم ما حملتم ﴾ قال : أن تطيعوه وتعملوا بما أمركم .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي الزبير عن جابر أنه سئل : إن كان على امام فاجر فلقيت معه أهل ضلالة أقاتل أم لا ليس بي حبه ولا مظاهرة ؟ قال : قاتل أهل الضلالة أينما وجدتهم ، وعلى الإمام ما حمل وعليك ما حملت .

وأخرج البخاري في تاريخه عن وائل " أنه قال للنبي صلى الله عليه وسلم : إن كان علينا أمراء يعملون بغير طاعة الله تعالى ؟ فقال : " عليهم ما حملوا وعليكم ما حملتم " " .

وأخرج ابن أبي شيبة ومسلم والترمذي وابن جرير في تهذيبه وابن مردويه عن علقمة بن وائل الحضرمي عن أبيه قال : " قدم يزيد بن سلمة على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أرأيت إن كان علينا امراء يأخذوا منا الحق ولا يعطونا ؟ فقال : " إنما عليهم ما حملوا وعليكم ما حملتم " " .

(178/552)

وأخرج ابن جرير وابن قانع والطبراني عن علقمة بن وائل الحضرمي عن سلمة بن يزيد الجهني قال : " قلت يا رسول الله أرأيت إن كان علينا أمراء من بعدك يأخذونا بالحق الذي علينا ، ويمنعونا الحق الذي جعله الله لنا ، نقاتلهم ونبغضهم ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم " عليهم ما حملوا وعليكم ما حملتم " " . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 6 صـ ﴾

(179/552)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله : ﴿ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ﴾ :

فيه وجهان ، أحدهما : أنه منصوبٌ على المصدرِ بدلاً من اللفظِ بفعلِه إذ أَصْلُ " أُقْسِمُ بالله جَهْدَ اليمين " : أُقْسِمُ بجَهْدِ اليمينِ جَهْداً ، فَحُذِفَ الفعلُ وقُدِّمَ المصدرُ موضوعاً مَوْضِعَه مضافاً إلى المفعولِ كـ ﴿ ضَرْبَ الرقاب ﴾ [محمد : 4] ، قاله الزمخشري . والثاني أنه حالٌ تقديرُه : مجتهدين في أَيمانِهم كقولِهم : أفعَلْ ذلك جَهْدَكَ وطاقَتَك . وقد خلَطَ الزمخشري الوجهين فجعلهما وجهاً واحداً فقال بعدَ ما قَدَّمْتُه عنه : " وحكمُ هذا المنصوبِ حكمُ الحالِ كأنه قيل : جاهدين أَيمانَهم " . وقد تقدَّم الكلامُ على ﴿ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ﴾ [الآية : 53] في المائدة .

قوله : ﴿ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ﴾ في رفعِها ثلاثةُ أوجهٍ . أحدُها : أنها خبرُ مبتدأ مضمرٍ تقديرُه : أمرُنا طاعةٌ أو المطلوبُ طاعةٌ . الثاني : أنها مبتدأٌ ، والخبرُ محذوفٌ أي : أَمْثَلُ ، أو أولى . وقد تقدَّمَ أنَّ الخبرَ متى كان في الأصلِ مصدراً بدلاً من اللفظِ بفعلِه وَجَبَ حَذْفُ مبتدِئه كقولِه : ﴿ صَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ [يوسف : 18] ولا يَبْرز إلاَّ اضطراراً كقوله :

3464 فقالَتْ على اسمِ اللهِ أَمرُكَ طاعةٌ . . . وإنْ كُنْتُ قد كُلِّفتُ ما لم أُعَوَّدِ

على خلافٍ في ذلك . والثالث : أَنْ تكونَ فاعلةً بفعلٍ محذوفٍ أي : ولْتَكُنْ طاعةٌ ولْتُوْجَدْ طاعةٌ . واستُضْعِفَ ذلك : بأنَّ الفعلَ لا يُحْذَفُ إلاَّ إذا تَقَدَّمَ مُشْعِرٌ به كقوله : ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بالغدو والآصال رِجَالٌ ﴾ [النور : 36] . / في قراءةِ مَنْ بناه للمفعولِ أي : يُسَبِّحه

رجالٌ أو يُجاب به نَفْيٌ كقولِكَ : " بلى زيدٌ " لمَنْ قال : لم يقم أحدٌ ، أو استفهامٌ كقوله :

3465 ألا هَلْ أتى أمَّ الحُوَيْرِثِ مُرْسَلٌ . . . بلى خالد إنْ لم تُعِقْه العَوائقُ

(180/552)

والعامَّةُ على رفعِ " طاعةٌ " على ما تقدَّم . وزيد بن علي واليزيديُّ على نَصبِها بفعلٍ مضمرٍ ، وهو الأصلُ . قال أبو البقاء " ولو قُرِىء بالنصب لكانَ جائزاً في العربية ، وذلك على المصدرِ أي : أَطِيْعوا طاعةً وقولوا قولاً . وقد دَلَّ عليه قولُه تعالى بعدَها ﴿ قُلْ أَطِيعُواْ اللّهَ ﴾ . قلت ما وَدَّ أن يُقرأَ به قد قُرِىء به كما تقدَّم نَقْلُه . وأمَّا قولُه : و ﴿ قُولُواْ قَوْلاً ﴾ فكأنه سَبَقَ لسانُه إلى آية القتال وهي : ﴿ فأولى لَهُمْ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ﴾ [محمد : 21] ولكن النصبَ هناك ممتنعٌ أو بعيدٌ .

قوله : ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ ﴾ :

يجوز أَنْ يكونَ ماضياً ، وتكون الواوُ ضميرَ الغائبين . ويكونُ في الكلام التفاتٌ من الخطاب إلى الغَيْبة . وحَسَّن الالتفاتَ هنا كونُه لم يواجِهْهم بالتَّوَلِّي والإعراضِ ، وأن يكونَ مضارعاً حُذِفَتْ إحدى تاءَيْه . والأصل : تَتَوَلَّوْا . ويُرَجِّحُ هذا قراءةُ البزيِّ بتشديدِ التاء : " فإنْ تَّوَلَّوْا " وإن كان بعضُهم يَسْتَضْعِفُها للجمعِ بينَ ساكنين على غيرِ حَدِّهما . ويُرَجِّحه أيضاً

الخطابُ في قولِه : ﴿ وَعَلَيْكُمْ مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ ﴾ . ودعوى الالتفاتِ من الغيبةِ إلى الخطابِ ثانياً بعيدٌ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 432. 434 ﴾

(181/552)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ﴾

أقسموا بالله غاية اليمين ، ووعدوا من أنفسهم الطاعة لو أمرهم بالخروج في المستقبل ، فقال : لا تَعِدُوا بما هو معلومٌ منكم ألا تفوا به ؛ فطاعةٌ في الوقت أَوْلى من تسويفٍ بالوعد . ثم قال : قُلْ يا محمد أطيعوا الله وأطيعوا الرسول . . فإن أجابوا سَعِدُوا في الدارين ، وأحسنوا إلى أنفسهم . وإنْ تَوَلَّوْا عن الإجابة فما أَضَرُّوا إلا بأنفسهم ويكون الندم في المستقبل عليهم ، وسوف يَلْقَوْنَ سوء عواقبهم ، وليس على الرُسلِ إلا حُسْنُ البلاغ . ويومَ الحَشْرِ يُعْطَى كُلُّ أحدٍ كتابَه ، ويُعامَلَ بمقتضى حساب نفسه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 620 ﴾

(182/552)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثالث والخمسون بعد الخمسمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/553)

الجزء الثالث والخمسون بعد الخمسمائة

من الآية ﴿ 55 ﴾ من سورة النور

وحتى الآية ﴿ 58 ﴾ من نفس السورة

(4/553)

قوله تعالى ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (55) وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (56) لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ (57) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما لاح بهذا الإذن في الكف عن قتل النبي - صلى الله عليه وسلم - للمنافقين لئلا يقول الناس : إن محمداً استنصر بقوم ، فلما نصره الله بهم أقبل يقتلهم .

(5/553)

فيمتنع من يسمع ذلك من الدخول في الإسلام ، فتكون مفسدة قتلهم أعظم من مفسدة إبقائهم ، لأن الدين لم يكن حينئذ تمكن تمكناً لا يؤثر فيه مثل ذلك ، تشوفت النفوس إلى أن هذا الحال هل يستمر ؟ فجلى الله عنهما هذا الكرب بقوله : بياناً لأن تمكن الدين غير مفتقر إليهم سواء أقبلوا أو أدبروا : ﴿ وعد الله ﴾ أي الذي له الإحاطة بكل شيء ﴿ الذين آمنوا ﴾ وهو مع ذلك كالتعليل لما قبله ترغيباً لمن نظر في الدنيا نوع نظر ؛ وقيد بقوله : ﴿ منكم ﴾ تصريحاً بأهل القرن الأول ، ليكون ظاهراً فس إخراج المنافقين المتولين بالإعراض ، إشارة إلى أنهم لا يزالون في ذل وضعة ؛ وقدم هذا القيد اهتماماً به لما ذكر بخلاف ما يأتي في سورة الفتح ﴿ وعملوا ﴾ تصديقاً لإيمانهم ﴿ الصالحات ﴾ من الإذعان للأحكام وغيرها ، وأكد غاية التأكيد بلام القسم ، لما عند أكثر الناس من الريب في ذلك فقال : ﴿ ليستخلفنهم في الأرض ﴾ أي أرض العرب والعجم ، بأن يمد زمانهم ، وينفذ أحكامهم ﴿ كما استخلف ﴾ أي طلب وأوجد خلافة بإيجادهم ﴿ الذين من قبلهم ﴾ أي من الأمم من بني إسرائيل وغيرهم من كل من حصلت له مكنة ، وظفر على الأعداء بعد الضعف الشديد كما كتب في الزبور ﴿ أن الأرض يرثها عبادي الصالحون ﴾ وكما قال موسى عليه السلام : ﴿ إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ﴾ ﴿ وليمكنن لهم ﴾ أي في الباطن والظاهر ﴿ دينهم ﴾ أضافة إليهم إشارة إلى

رسوخ أقدامهم فيه وأنه أبديّ لا ينسخ ﴿ الذي ارتضى لهم ﴾ حتى يقيموا الحدود فيه من قتل وغيره على الشريف والوضيع سواء كان الواقعون في ذلك عصبة أم لا ، لا يراعون أحداً ، ولا يخافون لومة لائم ، لأنه لا يضره إذ ذاك إدباراً مدبر كما قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن الحرورية كافة

" إنه إن أدركهم ليقتلنهم قتل عاد ، بعد أن كف عن قتل رأسهم ونهى عن قتله – وهو واحد في غزوة حنين " .

(6/553)

ولما بشرهم بالتمكين ، أشار لهم إلى مقداره بقوله : ﴿ وليبدلنهم ﴾ وأشار إلى عدم استغراق هذا الأمن العام لجميع الزمان بإثبات الجارّ فقال : ﴿ من بعد خوفهم ﴾ هذا الذي هم فيه الآن ﴿ أمناً ﴾ أي عظيماً بمقدار هذا الخوف ، في زمن النبوة وخلافتها ؛ ثم أتبع ذلك نتيجته بقوله تعليلاً للتمكين وما معه : ﴿ يعبدونني ﴾ أي وحدي ؛ وصرح بالمراد بياناً لحال العابدة النافعة بقوله : ﴿ لا يشركون بي شيئاً ﴾ ظاهراً ولا باطناً ، لأن زمانهم يكون زمن عدل ، فلا يتحابون فيه بالرغبة والرهبة ، روى الطبراني في الوسط عن أبيّ بن كعب ـ رضى الله عنه ـ قال : لما قدم النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه ـ رضى الله

عنه-م المدينة ، وآوتهم الأنصار - -رضى الله عنه-م أجمعين ، رمتهم العرب من قوس واحدة فنزلت ﴿ ليستخلفنهم في الأرض ﴾ الآية .

ولقد صدق الله سبحانه ومن أصدق من الله حديثاً - ففتح سبحانه لهم البلاد ، ونصرهم على جبابرة العباد ، فأذلوا رقاب الأكاسرة ، واستعبدوا أبناء القياصرة ، ومكنوا شرقاً وغرباً مكنة لم تحصل قبلهم لأمة من الأمم ، كما قال -صلى الله عليه وسلم- " إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك أمتي ما زوي لي منها " يعرف ذلك من طالع فتوح البلاد ، وأجمعها وأحسنها النصف الثاني من سيرة الحافظ أبي الربيع بن سالم الكلاعي ، وكتاب شيخه ابن حبيش أيضاً جامع ، ولا أعلم شيئاً أنفع في رسوخ الإيمان ، بعد حفظ القرآن ، من مطالعة السير والفتوح ، وسيرة الكلاعي جامعة للأمرين ، ونظمي للسيرة في القصيدة التي أولها :

ما بال جفنك هامي الدمع هامره . . .

وبحر فكرك وافي الهم وافره

أجمع السير - يسر الله إكمال شرحها ، آمين .

(7/553)

ولما قتلوا عثمان ـ رضى الله عنه ـ ، وخرجوا على عليّ ثم ابنه الحسن ـ رضى الله عنهما ـ ، نزع الله ذلك الأمن كما أشير إليه ب " من " وتنكير " أمناً " وجاء الخوف واستمر يتطاول ويزداد قليلاً قليلاً إلى أن صار في زماننا هذا إلى أمر عظيم – والله المستعان .

ولما كان التقدير : فمن ثبت على دين الإسلام ، وانقاد لأحكامه واستقام ، نال هذه البشرى ، عطف عليه قوله : ﴿ ومن كفر ﴾ أي بالإعراض عن الأحكام أو غيرها ؛ أو هو عطف على ﴿ يعبدونني ﴾ لأن معناه : ومن لم يعبدني .

ولما كان الفاسق الكامل إنما هو من مات على كفره فحبط عمله ، فكان بذلك كفره مستغرقاً لزمانه دون من مات مسلماً وإن كان كافراً في جميع ما مضى له قبل ذلك ، أسقط الجار فقال : ﴿ بعد ذلك ﴾ أي الاستخلاف العظيم على الوجه المشروح ﴿ فأولئك ﴾ البعداء من الخير ﴿ هم ﴾ خاصة ﴿ الفاسقون ﴾ أي الخارجون من الدين خروجاً كاملاً ، لا تقبل معه معذرة ، ولا تقال لصاحبه عثرة ، بل تقام عليهم الأحكام بالقتل وغيره ، ولا يراعى فيهم ملام ، ولا تأخذ بهم رأفة عند الانتقام ، كما تقدم في أول السورة فيمن لزمه الجلد ، ولعل الآية مشيرة إلى أهل الردة .

ولما تمت هذه البشرى ، وكان التقدير : فاعملوا واعبدوا ، عطف عليه قوله : ﴿ وأقيموا الصلاة ﴾ أي فإنها قوام ما بينكم وبين ربكم ، مع أنه يصح عطفه على قوله " أطيعوا الله " فيكون من مقول ﴿ قل ﴾ ﴿ وآتوا الزكاة ﴾ فهي نظام ما بينكم وبين إخوانكم ﴿ وأطيعوا

الرسول ﴾ أي المحيط بالرسالة في كل ما يأمركم به ، فإنما هو عن أمر ربكم ﴿ لعلكم ترحمون ﴾ أي لتكونوا عند من يجهل العواقب على رجاء من حصول الرحمة ممن لا راحم في الحقيقة غيره .

(8/553)

ولما كان الكفار من الكثرة والقوة بمكان ، كان الحال جديراً بتأكيد معنى التمكين ، جواباً لسؤال من كأنه قال : وهل ذلك ممكن فقال : ﴿ لا تحسبن ﴾ أي أيها المخاطب ﴿ الذين كفروا ﴾ أي وإن زادت كثرتهم على العد ، وتجاوزت عظمتهم الحد ، فإن ذلك الحسبان ضعف عقل ، لأن الملك لا يعجزه من تحت قهره ، ويجوز أن يكون خطاباً للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لزيادة تحقيقه ، لأنه على قدر عظمة المخاطب يكون إنجاز الوعد

﴿ معجزين ﴾ لأهل ودنا ﴿ في الأرض ﴾ فإنهم مأخوذون لا محالة ﴿ ومأواهم ﴾ أي مسكنهم ومنزلهم بعد الأخذ ﴿ النار ﴾ .

ولما كانت سكنى الشيء لا تكون إلا بعد الصيرورة إليه قال : ﴿ ولبئس المصير ﴾ مصيرها ! فكيف إذا كان على وجه السكنى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 281.278 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾

اعلم أن تقدير النظم بلغ أيها الرسول وأطيعوه أيها المؤمنون ، فقد وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات أي الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح أن يستخلفهم في الأرض فيجعلهم الخلفاء والغالبين والمالكين كما استخلف عليها من قبلهم في زمن داود وسليمان عليهما السلام وغيرهما ، وأنه يمكن لهم دينهم وتمكينه ذلك هو أن يؤيدهم بالنصرة والإعزاز ويبدلهم من بعد خوفهم من العدو أمناً بأن ينصرهم عليهم فيقتلوهم ويأمنوا بذلك شرهم ، فيعبدوني آمنين لا يشركون بي شيئاً ولا يخافون ﴿ وَمَن كَفَرَ ﴾ أي من بعد هذا الوعد وارتد ﴿ فأولئك هُمُ الفاسقون ﴾ .

واعلم أن هذه الآية مشتملة على بيان أكثر المسائل الأصولية الدينية فلنشر إلى معاقدها :

المسألة الأولى :

قوله تعالى : ﴿ وَعَدَ الله الذين ءَامَنُواْ مِنْكُمْ ﴾ يدل على أنه سبحانه متكلم لأن الوعد نوع

من أنواع الكلام والموصوف بالنوع موصوف بالجنس ، ولأنه سبحانه ملك مطاع والملك المطاع لا بد وأن يكون بحيث يمكنه وعد أوليائه ووعيد أعدائه فثبت أنه سبحانه متكلم .

المسألة الثانية :

الآية تدل على أنه سبحانه يعلم الأشياء قبل وقوعها خلافاً لهشام بن الحكم ، فإنه قال لا يعلمها قبل وقوعها ووجه الاستدلال به أنه سبحانه أخبر عن وقوع شيء في المستقبل إخباراً على التفصيل وقد وقع المخبر مطابقاً للخبر ومثل هذا الخبر لا يصح إلا مع العلم .

المسألة الثالثة :

الآية تدل على أنه سبحانه حي قادر على جميع الممكنات لأنه قال : ﴿ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى الأرض وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الذي ارتضى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً ﴾ وقد فعل كل ذلك وصدور هذه الأشياء لا يصح إلا من القادر على كل المقدورات .

المسألة الرابعة :

(10/553)

الآية تدل على أنه سبحانه هو المستحق للعبادة لأنه قال ﴿ يَعْبُدُونَنِي ﴾ ، وقالت المعتزلة الآية تدل على أن فعل الله تعالى معلل بالغرض لأن المعنى لكي يعبدوني وقالوا أيضاً الآية

دالة على أنه سبحانه يريد العبادة من الكل ، لأن من فعل فعلاً لغرض فلا بد وأن يكون مريداً لذلك الغرض .

المسألة الخامسة :

دلت الآية على أنه تعالى منزه عن الشريك لقوله : ﴿ لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً ﴾ وذلك يدل على نفي الإله الثاني ، وعلى أنه لا يجوز عبادة غير الله تعالى سواء كان كوكباً كما تقوله الصابئة أو صنماً كما تقوله عبدة الأوثان .

المسألة السادسة :

دلت الآية على صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم لأنه أخبر عن الغيب في قوله : ﴿ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى الأرض كَمَا استخلف الذين مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الذي ارتضى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً ﴾ وقد وجد هذا المخبر موافقاً للخبر ومثل هذا الخبر معجز ، والمعجز دليل الصدق فدل على صدق محمد صلى الله عليه وسلم .

المسألة السابعة :

دلت الآية على أن العمل الصالح خارج عن مسمى الإيمان ، خلافاً للمعتزلة لأنه عطف العمل الصالح عن الإيمان والمعطوف خارج عن المعطوف عليه .

المسألة الثامنة :

دلت الآية على إمامة الأئمة الأربعة وذلك لأنه تعالى وعد الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الحاضرين في زمان محمد صلى الله عليه وسلم وهو المراد بقوله ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وأن يمكن لهم دينهم المرضي وأن يبدلهم بعد الخوف أمناً ، ومعلوم أن المراد بهذا الوعد بعد الرسول هؤلاء لأن استخلاف غيره لا يكون إلا بعده ومعلوم أنه لا نبي بعده لأنه خاتم الأنبياء ، فإذن المراد بهذا الاستخلاف طريقة الإمامة ومعلوم أن بعد الرسول الاستخلاف الذي هذا وصفه إنما كان في أيام أبي بكر وعمر وعثمان لأن في أيامهم كانت الفتوح العظيمة وحصل التمكين وظهور الدين والأمن ولم يحصل ذلك في أيام علي رضي الله عنه لأنه لم يتفرغ لجهاد الكفار لاشتغاله بمحاربة من خالفه من أهل الصلاة فثبت بهذا دلالة الآية على صحة خلافة هؤلاء ، فإن قيل الآية متروكة الظاهر لأنها تقتضي حصول الخلافة لكل من آمن وعمل صالحاً ولم يكن الأمر كذلك .

نزلنا عنه ، لكن لم لا يجوز أن يكون المراد من قوله : ﴿ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ ﴾ هو أنه تعالى يسكنهم الأرض ويمكنهم من التصرف لا أن المراد منه خلافة الله تعالى ومما يدل عليه قوله : ﴿ كَمَا استخلف الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ واستخلاف من كان قبلهم لم يكن بطريق الإمامة فوجب أن يكون الأمر في حقهم أيضاً كذلك .

نزلنا عنه ، لكن ههنا ما يدل على أنه لا يجوز حمله على خلافة رسول الله لأن من مذهبكم

أنه عليه الصلاة والسلام لم يستخلف أحداً وروي عن علي عليه السلام أنه قال أتركم كما تركم رسول الله .

(12/553)

نزلنا عنه ، لكن لم لا يجوز أن يكون المراد منه علياً عليه السلام والواحد قد يعبر عنه بلفظ الجمع على سبيل التعظيم كقوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنزلناه فِى لَيْلَةِ القدر ﴾ [القدر : 1] وقال في حق علي عليه السلام : ﴿ والذين يُقِيمُونَ الصلاة ويُؤْتُونَ الزكواة وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴾ [المائدة : 55] نزلنا عنه ، ولكن نحمله على الأئمة الإثني عشر والجواب عن الأول أن كلمة من للتبعيض فقوله : ﴿ مّنكُمْ ﴾ يدل على أن المراد بهذا الخطاب بعضهم وعن الثاني : أن الاستخلاف بالمعنى الذي ذكرتموه حاصل لجميع الخلق فالذكور ههنا في معرض البشارة لا بد وأن يكون مغايراً له .

وأما قوله تعالى : ﴿ كَمَا استخلف الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ فالذين كانوا قبلهم كانوا خلفاء تارة بسبب النبوة وتارة بسبب الإمامة والخلافة حاصلة في الصورتين وعن الثالث : أنه وإن كان من مذهبنا أنه عليه الصلاة والسلام لم يستخلف أحداً بالتعيين ولكنه قد استخلف بذكر الوصف والأمر بالاختيار فلا يمتنع في هؤلاء الأئمة الأربعة أنه تعالى يستخلفهم وأن الرسول

استخلفهم ، وعلى هذا الوجه قالوا في أبي بكر يا خليفة رسول الله ، فالذي قيل إنه عليه السلام لم يستخلف أريد به على وجه التعيين وإذا قيل استخلف فالمراد على طريقة الوصف والأمر وعن الرابع : أن حمل لفظ الجمع على الواحد مجاز وهو خلاف الأصل وعن الخامس : أنه باطل لوجهين : أحدهما : قوله تعالى : ﴿ مّنكُمْ ﴾ يدل على أن هذا الخطاب كان مع الحاضرين وهؤلاء الأئمة ما كانوا حاضرين الثاني : أنه تعالى وعدهم القوة والشوكة والنفاذ في العالم ولم يوجد ذلك فيه فثبت بهذا صحة إمامة الأئمة الأربعة وبطل قول الرافضة الطاعنين على أبي بكر وعمر وعثمان وعلى بطلان قول الخوراج الطاعنين على عثمان وعلي ، ولنرجع إلى التفسير .

(13/553)

أما قوله : ﴿ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ ﴾ فلقائل أن يقول أين القسم المتلقى باللام والنون في ﴿ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ ﴾ ، قلنا : هو محذوف تقديره : وعدهم الله (وأقسم) ليستخلفنهم أو نزل وعد الله في تحققه منزلة القسم فتلقى بما يتلقى به القسم كأنه قال اقسم الله ليستخلفنهم .

أما قوله : ﴿ كَمَا استخلف الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ يعني ﴿ كَمَا استخلف ﴾ هارون ويوشع

وداود وسليمان وتقدير النظم ليستخلفنهم استخلافاً كاستخلاف من قبلهم من هؤلاء الأنبياء عليهم السلام ، وقرىء كما استخلف بضم التاء وكسر اللام ، وقرىء بالفتح .

أما قوله تعالى : ﴿ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الذي ارتضى لَهُمْ ﴾ فالمعنى أنه يثبت لهم دينهم الذي ارتضى لهم وهو الإسلام ، وقرأ ابن كثير وعاصم ويعقوب ﴿ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ ﴾ ومن الإبدال بالتخفيف والباقون بالتشديد ، وقد ذكرنا الفرق بينهما في قوله تعالى : ﴿ بدلناهم جُلُوداً غَيْرَهَا ﴾ [النساء : 56] .

أما قوله : ﴿ يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً ﴾ ففيه دلالة على أن الذين عناهم لا يتغيرون عن عبادة الله تعالى إلى الشرك .

وقال الزجاج يجوز أن يكون في موضع الحال على معنى : وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات في حال عبادتهم وإخلاصهم لله ليفعلن بهم كيت وكيت ويجوز أن يكون استئنافاً على طريق الثناء عليهم .

أما قوله : ﴿ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذلك ﴾ أي جحد حق هذه النعم ﴿ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الفاسقون ﴾ أي العاصون .

وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (56) لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ (57)

أما تفسير إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، ولفظة لعل ولفظة الرحمة ، فالكل قد تقدم مراراً .

وأما قوله : ﴿ لاَ تَحْسَبَنَّ الذين كَفَرُواْ مُعْجِزِينَ فِى الأرض ﴾ فالمعنى لا تحسبن يا محمد الذين كفروا سابقين فائتين حتى يعجزونني عن إدراكهم .

وقرىء ﴿ لاَ يَحْسَبَنَّ ﴾ بالياء المعجمة من تحتها ، وفيه أوجه : أحدها : أن يكون معجزين في الأرض هما المفعولان ، والمعنى لا يحسبن الذين كفروا أحداً يعجز الله في الأرض حتى يطمعوا هم في مثل ذلك وثانيها : أن يكون فيه ضمير الرسول صلى الله عليه وسلم لتقدم ذكره في قوله : ﴿ وَأَطِيعُواْ الرسول ﴾ [النور : 54] والمعنى : لا يحسبن الذين كفروا معجزين وثالثها : أن يكون الأصل ولا يحسبنهم الذين كفروا معجزين ، ثم حذف الضمير الذي هو المفعول الأول .

وأما قوله : ﴿ وَمَأْوَاهُمُ النار وَلَبِئْسَ المصير ﴾ فقال صاحب (الكشاف) : النظم لا يحتمل أن يكون متصلاً بقوله : ﴿ لاَ تَحْسَبَنَّ ﴾ لأن ذلك نفي وهذا إيجاب ، فهو إذن معطوف بالواو على مضمر قبله تقديره لا تحسبن الذين كفروا معجزين في الأرض بل هم مقهورون ومأواهم النار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 24 صـ 21.24 ﴾

وقال الجصاص :

وقَوْله تَعَالَى ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾

فِيهِ الدَّلَالَةُ عَلَى صِحَّةِ نُبُوَّةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛ لِأَنَّهُ قَصَرَ ذَلِكَ عَلَى قَوْمٍ بِأَعْيَانِهِمْ بِقَوْلِهِ : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ فَوُجِدَ مُخْبَرُهُ عَلَى مَا أُخْبِرَ بِهِ فِيهِمْ .

وَفِيهِ الدَّلَالَةُ عَلَى صِحَّةِ إمَامَةِ الْخُلَفَاءِ الْأَرْبَعَةِ أَيْضًا ؛ لِأَنَّ اللَّهَ اسْتَخْلَفَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَمَكَّنَ لَهُمْ كَمَا جَاءَ الْوَعْدُ ، وَلَا يَدْخُلُ فِيهِمْ مُعَاوِيَةُ ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مُؤْمِنًا فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(16/553)

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ .

فِيهَا خَمْسُ مَسَائِلَ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : فِي سَبَبِ نُزُولِهَا : رُوِيَ أَنَّ بَعْضَ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَكَا إِلَيْهِ مَا هُمْ فِيهِ مِنْ الْعَدُوِّ ، وَتَضْيِيقِهِ عَلَيْهِمْ ، وَشِدَّةِ الْخَوْفِ ، وَمَا يَلْقَوْنَ مِنْ الْأَذَى ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ بِالْوَعْدِ الْجَمِيلِ لَهُمْ ، فَأَنْجَزَهُ اللَّهُ ، وَمَلَّكَهُمْ مَا وَعَدَهُمْ ، وَأَظْهَرَهُمْ عَلَى عَدُوِّهِمْ .

وَرَوَى أَبُو الْعَالِيَةِ قَالَ : ﴿ مَكَثَ النَّبِيُّ عَشْرَ سِنِينَ خَائِفًا يَدْعُو اللَّهَ سِرًّا وَجَهْرًا ، ثُمَّ أُمِرَ بِالْهِجْرَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ ، فَمَكَثَ بِهَا وَأَصْحَابُهُ خَائِفِينَ يُصْبِحُونَ فِي السِّلَاحِ وَيُمْسُونَ ، فَقَالَ رَجُلٌ : مَا يَأْتِي عَلَيْنَا يَوْمٌ نَأْمَنُ فِيهِ ، وَنَضَعُ عَنَّا السِّلَاحَ ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَلِمَةً مَعْنَاهَا لَا تَعْبُرُونَ إِلَّا يَسِيرًا حَتَّى يَجْلِسَ الرَّجُلُ مِنْكُمْ مِنْ الْمَلَأِ الْعَظِيمِ مُحْتَبِيًا لَيْسَ بِيَدِهِ حَدِيدَةٌ ﴾ ، وَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : قَالَ مَالِكٌ : نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ إِلَى آخِرِهَا .

(17/553)

وَقَالَ عُلَمَاؤُنَا : هَذِهِ الْآيَةُ وَعْدُ حَقٍّ وَقَوْلُ صِدْقٍ ، يَدُلُّ ذَلِكَ عَلَى صِحَّةِ إمَامَةِ الْخُلَفَاءِ الْأَرْبَعَةِ ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَتَقَدَّمْهُمْ أَحَدٌ فِي الْفَضِيلَةِ إلَى يَوْمِنَا هَذَا ، فَأُولَئِكَ مَقْطُوعٌ بِإِمَامَتِهِمْ ، مُتَّفَقٌ عَلَيْهِمْ .

وَصَدَقَ وَعْدُ اللَّهِ فِيهِمْ ، وَكَانُوا عَلَى الدِّينِ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ ؛ وَاسْتَقَرَّ الْأَمْرُ لَهُمْ ، وَقَامُوا بِسِيَاسَةِ الْمُسْلِمِينَ ، وَذَبُّوا عَنْ حَوْزَةِ الدِّينِ ، فَنَفَذَ الْوَعْدُ فِيهِمْ ، وَصَدَقَ الْكَلَامُ فِيهِمْ ، وَإِذَا لَمْ يَكُنْ هَذَا الْوَعْدُ بِهِمْ يُنْجَزُ ، وَفِيهِمْ نَفَذَ ، وَعَلَيْهِمْ وَرَدَ فَفِيمَنْ يَكُونُ إذَنْ ؟ وَلَيْسَ بَعْدَهُمْ مِثْلُهُمْ إلَى يَوْمِنَا هَذَا ، وَلَا يَكُونُ فِيمَا بَعْدَهُ .

قَامَ أَبُو بَكْرٍ بِدَعْوَةِ الْحَقِّ ، وَاتِّفَاقِ الْخَلْقِ ، وَوَاضِحِ الْحُجَّةِ ، وَبُرْهَانِ الدِّينِ ، وَأَدِلَّةِ الْيَقِينِ ، فَبَايَعَهُ الصَّحَابَةُ ، ثُمَّ اسْتُخْلِفَ عُمَرُ فَلَزِمَتْ الْخِلَافَةُ ، وَوَجَبَتْ النِّيَابَةُ ، وَتَعَيَّنَ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ ، ثُمَّ جَعَلَهَا عُمَرُ شُورَى ، فَصَارَتْ لِعُثْمَانَ بِالنَّظَرِ الصَّحِيحِ ، وَالتَّبْجِيلِ الصَّرِيحِ ، وَالْمَسَاقِ الْفَسِيحِ ؛ جَعَلَ الثَّلَاثَةَ أَمْرَهُمْ إلَى ثَلَاثَةٍ ، ثُمَّ أَخْرَجَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ نَفْسَهُ بِشَرْطِ أَنْ يَكُونَ إلَى مَنْ اخْتَارَهُ مِنْ الرَّجُلَيْنِ ، فَاخْتَارَ عُثْمَانَ ، وَمَا عَدَلَ عَنْ الْخِيَارِ ، وَقَدَّمَهُ وَحَقُّهُ التَّقْدِيمُ عَلَى عَلِيٍّ .

(18/553)

ثُمَّ قُتِلَ عُثْمَانُ مَظْلُومًا فِي نَفْسِهِ ، مَظْلُومًا جَمِيعُ الْخَلْقِ فِيهِ ، فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا عَلِيٌّ أَخْذًا بِالْأَفْضَلِ فَالْأَفْضَلِ ، وَانْتِقَالًا مِنْ الْأَوَّلِ إِلَى الْأَوَّلِ ، فَلَا إِشْكَالَ لِمَنْ جَنَفَ عَنْ الْمُحَالِ أَنَّ التَّنْزِيلَ عَلَى هَؤُلَاءِ الْأَرْبَعَةِ وَعْدُ اللَّهِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ .

ثُمَّ كَمُلَتْ لِحَالِ أَبِي بَكْرٍ فَاتِحَةً وَخَاتِمَةً .

ثُمَّ كَمُلَتْ لِعُمَرَ ، وَكُسِرَ الْبَابُ ، فَاخْتَلَطَ الْخُشَارُ بِاللُّبَابِ ، وَانْجَرَّتْ الْحَالُ مَعَ عُثْمَانَ وَاضِحَةً لِلْعُقَلَاءِ ، مُعْتَرَضًا عَلَيْهَا مِنْ الْحَمْقَى ، ثُمَّ نَفَذَ الْقَدَرُ بِقَتْلِهِ إِيثَارًا لِلْخَلْقِ مِنْهُ عَلَى نَفْسِهِ وَأَهْلِهِ ، ثُمَّ قَامَ عَلِيٌّ أَحْسَنَ قِيَامٍ لَوْ سَاعَدَهُ النَّقْضُ وَالْإِبْرَامُ ، وَلَكِنَّهُ وَجَدَ الْأُمُورَ نَشْرًا ، وَمَا رَامَ رَتْقَ خَصْمٍ إِلَّا انْفَتَقَ عَلَيْهِ خَصْمٌ ، وَلَا حَاوَلَ طَيَّ مُنْتَشِرٍ إِلَّا عَارَضَهُ عَلَيْهِ أَشِرُ ، وَنُسِبَتْ إِلَيْهِ أُمُورٌ هُوَ مِنْهَا بَرِيءٌ بَرَاءَةَ الشَّمْسِ مِنْ الدَّنَسِ ، وَالْمَاءِ مِنْ الْقَبَسِ ، وَطَالَبَهُ الْأَجَلُ حَتَّى غَلَبَهُ ، فَانْقَطَعَتْ الْخِلَافَةُ ، وَصَارَتْ الدُّنْيَا مِلْكًا تَارَةً لِمَنْ غَلَبَ ، وَأُخْرَى لِمَنْ خَلَبَ ، حَتَّى انْتَهَى الْوَعْدُ الصَّادِقُ ابْتِدَاؤُهُ وَانْتِهَاؤُهُ .

أَمَّا الِابْتِدَاءُ فَهَذِهِ الْآيَةُ ، وَأَمَّا الِانْتِهَاءُ فَبِحَدِيثِ سَفِينَةَ قَالَ سَعِيدُ بْنُ حَمْدَانَ عَنْ سَفِينَةَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ خِلَافَةُ النُّبُوَّةِ ثَلَاثُونَ سَنَةً ، ثُمَّ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُلْكَ مَنْ يَشَاءُ ﴾ .

قَالَ سَعِيدٌ : قَالَ لِي سَفِينَةُ : أَمْسِكْ عَلَيْك ، أَبُو بَكْرٍ سَنَتَيْنِ ، وَعُمَرُ عَشْرًا ، وَعُثْمَانُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ ، وَعَلِيٌّ كَذَا .

قَالَ سَعِيدٌ : قُلْت لِسَفِينَةَ : إنَّ هَؤُلَاءِ يَزْعُمُونَ أَنَّ عَلِيًّا لَمْ يَكُنْ خَلِيفَةً .

قَالَ : كَذَبَت اسْتَاهُ بَنُو الزَّرْقَاءِ يَعْنِي بَنِي مَرْوَانَ زَادَ فِي رِوَايَةٍ : اُعْدُدْ ؛ أَبُو بَكْرٍ كَذَا ، وَعُمَرُ كَذَا ، وَعُثْمَانُ كَذَا ، وَعَلِيٌّ كَذَا ، وَالْحَسَنُ سِتَّةُ أَشْهُرٍ ، فَهَؤُلَاءِ ثَلَاثُونَ سَنَةً .

وَقَدْ رَوَى التِّرْمِذِيُّ وَغَيْرُهُ ﴿ أَنَّ رَجُلًا قَامَ إلَى الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ بَعْدَمَا بَايَعَ مُعَاوِيَةَ ، فَقَالَ لَهُ : يَا مُسَوِّدَ وُجُوهِ الْمُؤْمِنِينَ .

فَقَالَ : لَا بَأْسَ ، رَحِمَك اللَّهُ ، فَإِنَّ النَّبِيَّ أُرِيَ بَنِي أُمَيَّةَ عَلَى مِنْبَرِهِ فَسَاءَهُ ذَلِكَ ، فَنَزَلَتْ : ﴿ إنَّا أَعْطَيْنَاك الْكَوْثَرَ ﴾ .

وَنَزَلَتْ : ﴿ إنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ وَمَا أَدْرَاك مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ .

﴿ يَمْلِكُهَا بَعْدَك بَنُو أُمَيَّةَ يَا مُحَمَّدُ .

قَالَ الْقَاسِمُ رَاوِي

الْحَدِيثِ : فَعَدَدْنَاهَا فَإِذَا هِيَ أَلْفُ شَهْرٍ ، لَا تَزِيدُ وَلَا تَنْقُصُ .

وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ ﴿ أَنَّ النَّبِيَّ أَجْلَسَ الْحَسَنَ فِي حِجْرِهِ عَلَى الْمِنْبَرِ ، وَقَالَ : إنَّ

ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ ، وَلَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُصْلِحَ بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ مِنْ الْمُسْلِمِينَ ﴾ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : فَإِنْ قِيلَ : هَذَا الْوَعْدُ يَصِحُّ لَكُمْ فِي أَبِي بَكْرٍ وَحْدَهُ ، فَأَمَّا عُمَرُ فَأَيُّ أَمْنٍ مَعَهُ ، وَقَدْ قُتِلَ غِيلَةً .

(20/553)

وَعُثْمَانُ قَدْ قُتِلَ غَلَبَةً ، وَعَلِيٌّ قَدْ نُوزِعَ بِالْجَنْبَةِ وَالْجَلَبَةِ .

قُلْنَا : هَذَا كَلَامٌ جَاهِلٍ غَبِيٍّ أَوْ مُتَهَاوِنٍ ، يَكِنُّ عَلَى نِفَاقٍ خَفِيٍّ ، أَمَّا عُمَرُ وَعُثْمَانُ فَجَاءَهُمَا أَجَلُهُمَا ، وَمَاتَا مِيتَتَهُمَا الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَهُمَا ، وَلَيْسَ فِي ضِمْنِ الْأَمْنِ السَّلَامَةُ مِنْ الْمَوْتِ بِأَيِّ وَجْهٍ وَقَعَ .

وَأَمَّا عَلِيٌّ فَلَمْ يَكُنْ نِزَالُهُ فِي الْحَرْبِ مُذْهِبًا لِلْأَمْنِ ، فَلَيْسَ مِنْ شَرْطِ الْأَمْنِ رَفْعُ الْحَرْبِ ، إنَّمَا مِنْ شَرْطِهِ مِلْكُ الْإِنْسَانِ لِنَفْسِهِ بِاخْتِيَارِهِ ، وَسَلَامَتُهُ عَنْ الْغَلَبَةِ الْمَشْحُونَةِ بِالذِّلَّةِ ، كَمَا كَانَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ بِمَكَّةَ ، فَأَمَّا بَعْدَمَا صَارُوا إلَى الْمَدِينَةِ فَقَدْ آلُوا إلَى الْأَمْنِ وَالْعِزَّةِ .

فِي الصَّحِيحِ عَنْ ﴿ خَبَّابِ بْنِ الْأَرَتِّ قَالَ شَكَوْنَا إلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ ، فَقُلْنَا لَهُ : أَلَا تَسْتَنْصِرُ لَنَا ، أَلَا تَدْعُو اللَّهَ لَنَا ؟ قَالَ : كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ ، فَيُجْعَلُ فِيهِ فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ ، فَيُوضَعُ عَلَى

رَأْسِهِ ، فَيُشَقُّ بِاثْنَيْنِ ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ ، وَيَمْشُطُهُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمٍ مِنْ عَظْمٍ وَعَصَبٍ ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ ، وَاللَّهِ لَيُتِمَّنَّ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ ، لَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ وَالذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ .

وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ .

(21/553)

وَحَقِيقَةُ الْحَالِ أَنَّهُمْ كَانُوا مَقْهُورِينَ فَصَارُوا قَاهِرِينَ ، وَكَانُوا مَطْلُوبِينَ فَعَادُوا طَالِبِينَ ، وَهَذَا نِهَايَةُ الْأَمْنِ وَالْعِزِّ .

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ : قَالَ قَوْمٌ : إِنَّ هَذَا وَعْدٌ لِجَمِيعِ الْأُمَّةِ فِي مِلْكِ الْأَرْضِ كُلِّهَا تَحْتَ كَلِمَةِ الْإِسْلَامِ ، كَمَا قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ زُوِيَتْ لِي الْأَرْضُ ، فَأُرِيتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا ، وَسَيَبْلُغُ مُلْكُ أُمَّتِي مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا ﴾ .

قُلْنَا لَهُمْ : هَذَا وَعْدٌ عَامٌّ فِي النُّبُوَّةِ وَالْخِلَافَةِ ، وَإِقَامَةِ الدَّعْوَةِ ، وَعُمُومِ الشَّرِيعَةِ ، بِنَفَاذِ الْوَعْدِ فِي كُلِّ أَحَدٍ بِقَدْرِهِ وَعَلَى حَالٍ ، حَتَّى فِي الْمُفْتِينَ وَالْقُضَاةِ وَالْأَئِمَّةِ ؛ وَلَيْسَ لِلْخِلَافِ مَحَلٌّ تَنْفُذُ فِيهِ هَذِهِ الْمَوْعِدَةُ الْكَرِيمَةُ إِلَّا مَنْ تَقَدَّمَ مِنْ الْخُلَفَاءِ الْأَرْبَعَةِ .

الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ : قَوْلُهُ : ﴿ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ فِيهِ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا : أَنَّهَا أَرْضُ

مَكَّةَ ، وُعِدَتْ الصَّحَابَةُ أَنْ يَسْتَخْلِفُوا فِيهَا الْكُفَّارَ .

الثَّانِي : أَنَّهَا بِلَادُ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ .

وَهُوَ الصَّحِيحُ ؛ لِأَنَّ أَرْضَ مَكَّةَ مُحَرَّمَةٌ عَلَى الْمُهَاجِرِينَ .

قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ : لَكِنْ الْبَائِسُ سَعْدُ بْنُ خَوْلَةَ ﴾ يَرْثِي لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ مَاتَ بِمَكَّةَ .

وَقَالَ فِي الصَّحِيحِ أَيْضًا : ﴿ يَمْكُثُ الْمُهَاجِرُ بِمَكَّةَ بَعْدَ قَضَاءِ نُسُكِهِ ثَلَاثًا ﴾ .

مِنْ رِوَايَةِ الْعَلَاءِ بْنِ الْحَضْرَمِيِّ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 3 صـ ﴾

(22/553)

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ ﴾

فيه قولان :

أحدهما : يعني أرض مكة ، لأن المهاجرين سألوا الله ذلك ، قاله النقاش .

والثاني : بلاد العرب والعجم ، قاله ابن عيسى .

روى سليم بن عامر عن المقدام بن الأسود قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " لاَ يَبْقَى عَلَى الأَرْضِ بَيْتُ حَجَرٍ وَلاَ مَدَرٍ وَلاَ وَبَرٍ إِلاَّ أَدْخَلَهُ اللَّهُ كَلِمَةَ الإِسْلاَمِ بِعِزِّ عَزِيزٍ أَوْ ذُلِّ ذَلِيلٍ ، إما يعزهم فيجعلهم من أهلها ، وإما يذلهم فيدينون لها " . ﴿ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ فيه قولان

: أحدهما يعني بني إسرائيل في أرض الشام .

الثاني : داود وسليمان .

﴿ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ ﴾ يعني دين الإِسلام وتمكينه أن يظهره على كل دين .

﴿ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِم أَمْناً ﴾ لأنهم كانوا مطلوبين فطلبوا ، ومقهورين فقهروا .

﴿ يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً ﴾ فيه أربعة أوجه

: أحدها : لا يعبدون إلهاً غيري ، حكاه النقاش .

الثاني : لا يراءون بعبادتي أحداً .

الثالث : لا يخافون غيري ، قاله ابن عباس .

الرابع : لا يحبون غيري ، قاله مجاهد .

قال الضحاك : هذه الآية في الخلفاء الأربعة : أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي رضي الله

عنهم وهم الأئمة المهديون ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : " الخِلاَفَةُ بَعْدِي ثَلاَثونَ سَنَةً" . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

(23/553)

وقال ابن عطية :

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾

قرأ الجمهور " استخلَف " على بناء الفعل للفاعل ، وقرأ أبو بكر عن عاصم والأعرج ، " استُخلِف " على بناء الفعل للمفعول ، وروي أن سبب هذه الآية أن أحد أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم شكا جهد مكافحة العدو وما كانوا فيه من الخوف على أنفسهم وأنهم لا يضعون أسلحتهم فنزلت هذه الآية عامة لأمة محمد عليه السلام ، وقوله ﴿ في الأرض ﴾ يريد في البلاد التي تجاورهم والأصقاع التي قضى بامتدادهم إليها ، و" استخلافهم " هو أن يملكهم ويجعلهم أهلها كما جرى في الشام وفي العراق وخراسان والمغرب ، وقال الضحاك في كتاب النقاش هذه الآية تتضمن خلافة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي لأنهم أهل الإيمان وعمل الصالحات ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " الخلافة بعدي ثلاثون سنة "

قال الفقيه الإمام القاضي : والصحيح في الآية أنها في استخلاف الجمهور ، واللام في قوله ﴿ ليستخلفنهم ﴾ لام القسم ، وقرأ حمزة والكسائي وابن عامر " ليبَدّلنهم " بفتح الباء وشد الدال ، وقرأ ابن كثير وعاصم في رواية أبي بكر والحسن وابن محيصن بسكون الباء وتخفيف الدال ، وجاء في معنى تبديل خوفهم بالأمن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قال أصحابه : ما يأتي علينا يوم نأمن فيه ونضع السلاح قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لا تغبرون إلا قليلاً حتى يجلس الرجل منكم في الملأِ العظيم محتبياً ليس في حديدة " ، وقوله ﴿ يعبدونني ﴾ فعل مستأنف أي هم يعبدونني ، قوله ﴿ ومن كفر ﴾ يحتمل أن يريد كفر هذه النعم إذا وقعت ويكون " الفسق " على هذا غير المخرج عن الملة ، قال بعض الناس في كتاب الطبري ظهر ذلك في قتلة عثمان رضي الله عنه ، ويحتمل أن يريد الكفر والفسق المخرجين عن الملة وهو ظاهر قول حذيفة بن اليمان فإنه قال كان على عهد النبي نفاق وقد ذهب ولم يبق إلا كفر بعد إيمان ، ولما قدم تعالى شرط عمل الصالحات بينها في هذه الآية ، فنص على عظمها وهي إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وعم بطاعة الرسول لأنها عامة لجميع الطاعات ، و ﴿ لعلكم ﴾ معناه في حقكم ومعتقدكم ، ثم أنحى القول على

الكفرة بأن نبه على أنهم ليسوا بمفلتين من عذاب الله ، وقرأ جمهور السبعة " لا تحسبن " بالتاء على المخاطبة للنبي عليه السلام ، وقرأها الحسن بن أبي الحسن بفتح السين ، وقرأ حمزة وابن عامر " لا يحسبن " بالياء قال أبو علي ، وذلك يحتمل وجهين أحدهما أن يكون التقدير لا يحسبن محمد والآخر أن يسند الفعل إلى ﴿ الذين كفروا ﴾ والمفعول أنفسهم ، وأعجز الرجل ، إذا ذهب في الأرض فلم يقدر عليه ثم أخبر بأن " مأواهم النار " وأنها بئس الخاتمة والمصير . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(25/553)

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ وَعَدَ اللّهُ الذين آمنوا منكم ﴾

روى أبو عبد الله الحاكم في "صحيحه" من حديث أُبيّ بن كعب ، قال : لمّا قَدِم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه المدينة ، وآواهم الأنصار ، رمتْهم العرب عن قوس واحدة ، كانوا لا يبيتون إلا في السلاح ، ولا يصبحون إلا في لأْمتهم ، فقالوا : أترون أنّا نعيش حتى نَبيت آمنين مطمئنين لا نخاف إلا الله عز وجل ؟ ! فنزلت هذه الآية .

قال أبو العالية : لمّا أظهر الله عز وجل رسوله على جزيرة العرب ، وضعوا السلاح وأمنوا ،

ثم قبض الله نبيّه ، فكانوا آمنين كذلك في إِمارة أبي بكر ، وعمر ، وعثمان ، حتى وقعوا فيما وقعوا فيه وكفروا بالنعمة ، فأدخل الله عز وجل عليهم الخوف ، فغيَّروا ، فغيَّر الله تعالى ما بهم .

وروى أبو صالح عن ابن عباس : أن هذا الوعد وعده الله أُمَّة محمد في التوراة والإِنجيل .

وزعم مقاتل أن كفار مكة لمّا صدوا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين عن العُمرة عام الحديبية ، قال المسلمون : لو أن الله تعالى فتح علينا مكّة ، فنزلت هذه الآية .

قوله تعالى : ﴿ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ ﴾ أي : ليجعلنَّهم يخلفُون مَنْ قَبْلهم ، والمعنى : ليورثنَّهم أرض الكفار من العرب والعجم ، فيجعلهم ملوكها وساستها وسكَّانها .

وعلى قول مقاتل : المراد بالأرض مكة .

قوله تعالى : ﴿ كما استَخْلَف الذين من قبلهم ﴾ وقرأ أبو بكر عن عاصم : ﴿ كما استُخلِف ﴾ بضم التاء وكسر اللام ؛ يعني : بني إِسرائيل ، وذلك أنه لمّا هلكت الجبابرة بمصر ، أورثهم الله أرضهم وديارهم وأموالهم .

(26/553)

قوله تعالى : ﴿ وَلَيُمَكِّنَنَّ لهم دِينهم ﴾ وهو الإِسلام ، وتمكينه : إظهاره على كل دين ، ﴿ وَلَيُبَدِّلَنَّهم ﴾ وقرأ ابن كثير ، وأبو بكر ، وأبان ، ويعقوب : ﴿ وَلَيُبْدِلَنَّهم ﴾ بسكون الباء وتخفيف الدال ﴿ من بعد خوفهم أَمْناً ﴾ لأنهم كانوا مظلومين مقهورين ، ﴿ يعبُدونني ﴾ هذا استئناف كلام في الثناء عليهم ، ﴿ ومَن كفر بعد ذلك ﴾ بهذه النِّعم ، أي : من جحد حقَّها .

قال المفسرون : وأوّلُ من كفر بهذه النعم قَتَلَهُ عثمان .

قوله تعالى : ﴿ لا تَحْسَبَنَّ الذين كفروا ﴾ قرأ ابن عامر ، وحمزة عن عاصم : ﴿ لا يَحْسَبَنَّ ﴾ بالياء وفتح السين .

وقرأ الباقون : بالتاء وكسر السين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(27/553)

وقال القرطبى :

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾

نزلت في أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ؛ قاله مالك .

وقيل : إن سبب هذه الآية أن بعض أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم شكا جَهْد

مكافحة العدوّ ، وما كانوا فيه من الخوف على أنفسهم ، وأنهم لا يضعون أسلحتهم ؛ فنزلت الآية .

وقال أبو العالية : مكث رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة عشر سنين بعد ما أوحي إليه خائفاً هو وأصحابه ، يدعون إلى الله سرًّا وجهراً ، ثم أُمِر بالهجرة إلى المدينة ، وكانوا فيها خائفين يصبحون ويمسون في السلاح .

فقال رجل : يا رسول الله ، أما يأتي علينا يوم نأمن فيه ونضع السلاح ؟ فقال عليه السلام : " لا تلبثون إلاّ يسيراً حتى يجلس الرجل منكم في الملأ العظيم مُحْتَبِياً ليس عليه حديدة " ونزلت هذه الآية ، وأظهر الله نبيّه على جزيرة العرب فوضعوا السلاح وأمنوا .

قال النحاس : فكان في هذه الآية دلالة على نبوّة رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأن الله جل وعز أنجز ذلك الوعد .

قال الضحاك في كتاب النقاش : هذه الآية تتضمن خلافة أبي بكر وعمر وعثمان وعليّ ؛ لأنهم أهل الإيمان وعملوا الصالحات .

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الخلافة بعدي ثلاثون " وإلى هذا القول ذهب ابن العربيّ في أحكامه ، واختاره وقال : قال علماؤنا هذه الآية دليل على خلافة الخلفاء الأربعة رضي الله عنهم ، وأن الله استخلفهم ورضي أمانتهم ، وكانوا على الدِّين الذي ارتضى لهم ، لأنهم لم يتقدّمهم أحد في الفضيلة إلى يومنا هذا ، فاستقر الأمر لهم ، وقاموا

بسياسة المسلمين ، وذَبُّوا عن حَوْزة الدِّين ؛ فنفذ الوعد فيهم ، وإذا لم يكن هذا الوعد لهم نَجَز ، وفيهم نَفَذ ، وعليهم ورَدَ ، ففيمن يكون إذاً ، وليس بعدهم مثلهم إلى يومنا هذا ، ولا يكون فيما بعده .

رضي الله عنهم .

وحكى هذا القولَ القُشَيْرِي عن ابن عباس .

(28/553)

واحتجُّوا بما رواه سفِينة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : سَمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " الخلافة بعدي ثلاثون سنة ثم تكون مُلْكاً " قال سفينة : أمسك (عليك) خلافة أبي بكر سنتين ، وخلافة عمر عشراً ، وخلافة عثمان ثنتي عشرة سنة ، وخلافة عليّ ستّاً .

وقال قوم : هذا وعد لجميع الأمة في ملك الأرض كلّها تحت كلمة الإسلام ؛ كما قال عليه الصلاة والسلام : " زُوِيَتْ لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها وسيبلغ مُلْك أمتي ما زُوِيَ لي منها " واختار هذا القول ابن عطية في تفسيره حيث قال : والصحيح في الآية أنها في استخلاف الجمهور ، واستخلافهم هو أن يملّكهم البلاد ويجعلهم أهلها ؛ كالذي جرى في

الشأم والعراق وخراسان والمغرب .

قال ابن العربي : قلنا لهم هذا وعد عام في النبوّة والخلافة وإقامة الدعوة وعموم الشريعة ، فنفذ الوعد في كل أحد بقدره وعلى حاله ؛ حتى في المفتين والقضاة والأئمة ، وليس للخلافة محل تنفذ فيه الموعدة الكريمة إلا من تقدّم من الخلفاء .

ثم ذكر اعتراضاً وانفصالاً معناه : فإن قيل هذا الأمر لا يصح إلا في أبي بكر وحده ، فأما عمر وعثمان فقُتِلا غِيلَةً ، وعليّ قد نُوزِع في الخلافة .

قلنا : ليس في ضمن الأمن السلامةُ من الموت بأيّ وجه كان ، وأما عليّ فلم يكن نزاله في الحرب مُذْهِباً للأمن ، وليس من شرط الأمن رفع الحرب إنما شرطه مِلْك الإنسان لنفسه باختياره ، لا كما كان أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم بمكة .

ثم قال في آخر كلامه : وحقيقة الحال أنهم كانوا مقهورين فصاروا قاهرين ، وكانوا مطلوبين فصاروا طالبين ؛ فهذا نهاية الأمن والعز .

قلت : هذه الحال لم تختص بالخلفاء الأربعة رضي الله عنهم حتى يُخَصُّوا بها من عموم الآية ، بل شاركهم في ذلك جميع المهاجرين بل وغيرهم .

(29/553)

ألا ترى إلى إغزاء قريش المسلمين في أُحُد وغيرها وخاصّة الخَنْدق ، حتى أخبر الله تعالى عن جميعهم فقال : ﴿ إِذْ جَآءُوكُمْ مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأبصار وَبَلَغَتِ القلوب الحناجر وَتَظُنُّونَ بالله الظنونا * هُنَالِكَ ابتلي المؤمنون وَزُلْزِلُواْ زِلْزَالاً شَدِيداً ﴾ [الأحزاب : 10 11] .

ثم إن الله ردّ الكافرين لم ينالوا خيراً ، وأمّن المؤمنين وأورثهم أرضهم وديارهم وأموالهم ، وهو المراد بقوله : ﴿ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأرض ﴾ .

وقوله : ﴿ كَمَا استخلف الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ يعني بني إسرائيل ، إذ أهلك الله الجبابرة بمصر ، وأورثهم أرضهم وديارهم فقال : ﴿ وَأَوْرَثْنَا القوم الذين كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأرض وَمَغَارِبَهَا ﴾ [الأعراف : 137] .

وهكذا كان الصحابة مستضعفين خائفين ، ثم إن الله تعالى أمّنهم ومكّنهم وملّكهم ، فصح أن الآية عامّة لأمة محمد صلى الله عليه وسلم غير مخصوصة ؛ إذ التخصيص لا يكون إلا بخبر ممن يجب (له) التسليم ، ومن الأصل المعلوم التمسكُ بالعموم .

وجاء في معنى تبديل خوفهم بالأمن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قال أصحابه : أما يأتي علينا يوم نأمن فيه ونضع السلاح ؟ فقال عليه السلام : " لا تلبثون إلا قليلاً حتى يجلس الرجل منكم في الملأ العظيم مُحْتَبِياً ليس عليه حديدة " وقال صلى الله عليه وسلم : " واللَّهِ لَيُتِمّنّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله

والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون " خرّجه مسلم في صحيحه ؛ فكان كما أخبر صلى الله عليه وسلم .

فالآية معجزة النبوّة ؛ لأنها إخبار عما سيكون فكان .

قوله تعالى : ﴿ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأرض ﴾ فيه قولان : أحدهما : يعني أرض مكة ؛ لأن المهاجرين سألوا الله تعالى ذلك فوُعِدوا كما وُعِدت بنو إسرائيل ؛ قال معناه النقاش .

(30/553)

الثاني : بلاد العرب والعجم .

قال ابن العربيّ : وهو الصحيح ؛ لأن أرض مكة محرّمة على المهاجرين ، قال النبيّ صلى الله عليه وسلم :

" لكن البائسُ سعد بن خَوْلة " يرثي له رسول الله صلى الله عليه وسلم أنْ مات بمكة .

وقال في الصحيح أيضاً : " يمكث المهاجر بمكة بعد قضاء نسكه ثلاثاً " واللام في ﴿ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ ﴾ جواب قَسَم مُضْمَر ؛ لأن الوعد قول ، مجازها : قال الله للذين آمنوا وعملوا الصالحات والله ليستخلفنّهم في الأرض فيجعلهم ملوكها وسكانها .

﴿ كَمَا استخلف الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ يعني بني إسرائيل ، أهلك الجبابرة بمصر والشأم

وأورثهم أرضهم وديارهم .

وقراءة العامة "كما اسْتَخْلَفَ" بفتح التاء واللام ؛ لقوله : "وَعَدَ" .

وقوله : "لَيَسْتَخْلِفنّهم" .

وقرأ عيسى بن عمر وأبو بكر والمفضّل عن عاصم "استُخلِف" بضم التاء وكسر اللام على الفعل المجهول .

﴿ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الذي ارتضى لَهُمْ ﴾ وهو الإسلام ؛ كما قال تعالى : ﴿ وَرَضِيتُ لَكُمُ الأسلام دِيناً ﴾ [المائدة : 3] وقد تقدّم .

وروى سليم بن عامر عن المِقْداد بن الأسود قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " ما على ظهر الأرض بيت حجر ولا مَدَر إلا أدخله الله كلمة الإسلام بعزّ عزيز أو ذلّ ذليل أمّا بعزهم فيجعلهم من أهلها وأما بذلهم فيدينون بها " ذكره الماوردِي حجة لمن قال : إن المراد بالأرض بلاد العرب والعجم ؛ وهو القول الثاني ، على ما تقدم آنفاً .

﴿ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ ﴾ قرأ ابن مُحَيْصِن وابن كثير ويعقوب وأبو بكر بالتخفيف ؛ من أبدل ، وهي قراءة الحسن ، واختيار أبي حاتم .

الباقون بالتشديد ؛ من بدّل ، وهي اختيار أبي عبيد ؛ لأنها أكثر ما في القرآن ، قال الله تعالى : ﴿ لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ الله ﴾ [يونس : 64] .

وقال : ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً ﴾ [النحل : 101] ونحوه ، وهما لغتان .

قال النحاس : وحكى محمد بن الجَهْم عن الفَرّاء قال : قرأ عاصم والأعمش "وليبدّلنّهم" مشددة ، وهذا غلط عن عاصم ؛ وقد ذكر بعده غلطاً أشدّ منه ، وهو أنه حكى عن سائر الناس التخفيف .

قال النحاس : وزعم أحمد بن يحيى أن بين التثقيل والتخفيف فرقاً ، وأنه يقال : بدّلته أي غيّرته ، وأبدلته أزلته وجعلت غيره .

قال النحاس : وهذا القول صحيح ؛ كما تقول : أبدِلْ لي هذا الدرهم ، أي أزله وأعطني غيره .

وتقول : قد بدّلت بعدنا ، أي غيّرت ؛ غير أنه قد يستعمل أحدهما موضع الآخر ؛ والذي ذكره أكثر .

وقد مضي هذا في "النساء" والحمد لله ، وذكرنا في سورة "إبراهيم" الدليلَ من السنة على أن بدل معناه إزالة العين ؛ فتأمله هناك .

وقرئ ﴿ عسى رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا ﴾ [القلم : 32] مخففاً ومثقلاً .

﴿ يَعْبُدُونَنِي ﴾ هو في موضع الحال ؛ أي في حال عبادتهم الله بالإخلاص .

ويجوز أن يكون استئنافاً على طريق الثناء عليهم .

﴿ لاَيُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً ﴾ فيه أربعة أقوال : أحدها : لا يعبدون إلها غيري ؛ حكاه النقاش .

الثاني : لا يراءون بعبادتي أحداً .

الثالث : لا يخافون غيري ؛ قاله ابن عباس .

الرابع : لا يحبّون غيري ؛ قاله مجاهد .

﴿ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذلك ﴾ أي بهذه النعم .

والمراد كفران النعمة ؛ لأنه قال تعالى : ﴿ فأولئك هُمُ الفاسقون ﴾ والكافر بالله فاسق بعد هذا الإنعام وقبله .

وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (56)

تقدّم ؛ فأعاد الأمر بالعبادة تأكيداً .

قوله تعالى : ﴿ لاَ تَحْسَبَنَّ الذين كَفَرُواْ ﴾ هذا تسلية للنبيّ صلى الله عليه وسلم ووعدٌ بالنصرة .

وقراءة العامة "تَحْسَبَنَّ" بالتاء خطاباً .

وقرأ ابن عامر وحمزة وأبو حَيْوة "يَحْسَبَنَّ" بالياء ، بمعنى لا يحسبنّ الذِين كفروا أنفسهم

معجزين الله في الأرض ؛ لأن الحُسْبان يتعدّى إلى مفعولين .

وهذا قول الزجاج .

(32/553)

وقال الفراء وأبو عليّ : يجوز أن يكون الفعل للنبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ أي لا يحسبنّ محمد الذين كفروا معجزين في الأرض .

ف"الذين" مفعول أوّل ، و"معجزين" مفعول ثان .

وعلى القول الأوّل "الذين كفروا" فاعل "أنفسهم" مفعول أوّل ، وهو محذوف مراد "معجزين" مفعول ثان .

قال النحاس : وما علمت أحداً من أهل العربية بَصْرِيًّا ولا كوفِيًّا إلا وهو يخطِّىء قراءة حمزة ؛ فمنهم من يقول : هي لحن ؛ لأنه لم يأت إلا بمفعول واحد ليحسبنّ .

وممن قال هذا أبو حاتم .

وقال الفراء : هو ضعيف ؛ وأجازه على ضعفه ، على أنه يحذف المفعول الأوّل ، وقد بيناه .

قال النحاس : وسمعت علي بن سليمان يقول في هذه القراءة : يكون "الذين كفروا" في

موضع نصب .

قال : ويكون المعنى ولا يحسبنّ الكافر الذين كفروا معجزين في الأرض .

قلت : وهذا موافق لما قاله الفراء وأبو عليّ ؛ إلاّ أنّ الفاعل هناك النبيّ صلى الله عليه وسلم .

وفي هذا القول الكافر .

و"معجزين" معناه فائتين .

وقد تقدّم .

﴿ وَمَأْوَاهُمُ النار وَلَبِئْسَ المصير ﴾ أي المرجع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 13 صـ ﴾

(33/553)

وقال أبو حيان :

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾

روي أن بعض الصحابة شكا جهد مكافحة العدو وما كانوا فيه من الخوف وأنهم لا يضعون أسلحتهم فنزل ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم ﴾ .

وروي أنه عليه الصلاة والسلام لما قال بعضهم ما أتى علينا يوم نأمن من فيه ونضع السلاح ، فقال النبي (صلى الله عليه وسلم) : " لا تغبرون إلا يسيراً حتى يجلس الرجل منكم في الملأ العظيم محتبياً ليس معه حديدة " قال ابن عباس : وهذا الوعد وعده الله أمّة محمد (صلى الله عليه وسلم) في التوراة والإنجيل .

والخطاب في ﴿ منكم ﴾ للرسول وأتباعه و ﴿ من ﴾ للبيان أي الذين هم أنتم وعدهم الله أن ينصر الإسلام على الكفر ويورثهم الأرض ويجعلهم خلفاء .

وقوله ﴿ في الأرض ﴾ هي البلاد التي تجاورهم وهي جزيرة العرب ، ثم افتتحوا بلاد الشرق والغرب ومزقوا ملك الأكاسرة وملكوا خزائنهم واستولوا على الدنيا .

وفي الصحيح : " زويت لي الأرض فأريت مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك أمتي ما زوي لي عنها " قال بعض العلماء : ولذلك اتسع نطاق الإسلام في الشرق والغرب دون اتساعه في الجنوب والشمال .

قلت : ولا سيما في عصرنا هذا بإسلام معظم العالم في المشرق كقبائل الترك ، وفي المغرب كبلاد السودان التكرور والحبشة وبلاد الهند .

﴿ كما استخلف الذين من قبلهم ﴾ أي بني إسرائيل حين أورثهم مصر والشام بعد هلاك الجبابرة .

وقيل : هو ما كان في زمان داود وسليمان عليهما السلام ، وكان الغالب على الأرض

المؤمنون .

وقرىء ﴿ كما استُخْلِفَ ﴾ مبنياً للمفعول .

واللام في ﴿ ليستخلفنهم ﴾ جواب قسم محذوف ، أي وأقسم ﴿ ليستخلفنهم ﴾ أو أجرى وعد الله لتحققه مجرى القسم فجووب بما يجاوب به القسم .

وعلى التقدير حذف القسم بكون معمول ﴿ وعد ﴾ محذوفاً تقديره استخلافكم وتمكين دينكم .

ودل عليه جواب القسم المحذوف .

(34/553)

وقال الضحاك : هذه الآية تتضمن خلافه أبي بكر وعمر وعثمان وعليّ لأنهم أهل الإيمان وعمل الصالحات .

وقال (صلى الله عليه وسلم) : " الخلافة بعدي ثلاثون " انتهى .

ونيدرج من جرى مجراهم في العدل من استخلف من قريش كعمر بن عبد العزيز من الأمويين ، والمهتدين بالله في العباسيين .

﴿ وليمكنن لهم دينهم ﴾ أي يثبته ويوطده بإظهاره وإعزاز أهله وإذلال الشرك وأهله .

و﴿ الذي ارتضى لهم ﴾ صفة مدح جليلة وقد بلغت هذه الأمة في تمكين هذا الدين الغاية القصوى مما أظهر الله على أيديهم من الفتوح والعلوم التي فاقوا فيها جميع العالم من لدن آدم إلى زمان هذه الملة المحمدية .

وقرأ الجمهور ﴿ وليبدلنهم ﴾ بالتشديد وابن كثير وأبو بكر والحسن وابن محيصن بالتخفيف .

وقال أبو العالية : لما أظهر الله عز وجل رسوله (صلى الله عليه وسلم) على جزيرة العرب وضعوا السلاح وآمنوا ، ثم قبض الله نبيه عليه السلام فكانوا آمنين كذلك في إمارة أبي بكر وعمر وعثمان حتى وقعوا فيما وقعوا فيه وكفروا بالنعمة ، فأدخل الله عليهم الخوف فغيروا فغير الله ما بهم .

﴿ يعبدونني ﴾ الظاهر أنه مستأنف فلا موضع له من الإعراب كأنه قيل : ما لهم يستخلفون ويؤمنون فقال ﴿ يعبدونني ﴾ قاله الزمخشري .

وقال ابن عطية : ﴿ يعبدونني ﴾ فعل مستأنف أي هم ﴿ يعبدونني ﴾ ويعني بالاستئناف الجملة لا نفس الفعل وحده وقاله الحوفي قال : ويجوز أن يكون مستأنفاً على طريق الثناء عليهم أي هم ﴿ يعبدونني ﴾ .

وقال الزمخشري : وإن جعلته حالاً عن وعدهم أي وعدهم الله ذلك في حال عبادتهم وإخلاصهم فمحله النصب انتهى .

وقال الحوفي قبله .

وقال أبو البقاء : ﴿ يعبدونني ﴾ حال من ﴿ ليستخلفنهم ﴾ و ﴿ ليبدلنهم ﴾ ﴿ لا يشركون ﴾ بدل من ﴿ يعبدونني ﴾ أو حال من الفاعل في ﴿ يعبدونني ﴾ موحدين انتهى .

(35/553)

والظاهر أنه متى أطلق الكفر كان مقابل الإسلام والإيمان وهو ظاهر قول حذيفة قال : كان النفاق على عهد النبيّ (صلى الله عليه وسلم) ، وقد ذهب ولم يبق إلاّ كفر بعد إيمان .

قال ابن عطية : يحتمل أن يريد كفر هذه النعم إذا وقعت ويكون الفسق على هذا غير مخرج عن الملة .

قيل : ظهر في قتلة عثمان .

وقال الزمخشري : ﴿ ومن كفر ﴾ يريد كفران النعمة كقوله ﴿ فكفرت بأنعم الله ﴾ ﴿ فأولئك هم الفاسقون ﴾ أي هم الكاملون في فسقهم حيث كفروا تلك النعمة العظيمة .

والظاهر أن قوله ﴿ وأقيموا ﴾ التفات من الغيبة إلى الخطاب ويحسنه الخطاب في منكم .

وقال الزمخشري : ﴿ وأقيموا الصلاة ﴾ معطوف على ﴿ أطيعوا الله وأطيعوا الرسول

﴿ وليس ببعيد أن يقع بين المعطوف والمعطوف عليه .

فاصل .

وإن طال لأن حق المعطوف أن يكون غير المعطوف عليه وكررت طاعة الرسول توكيداً لوجوبها انتهى .

وقرأ الجمهور ﴿ لا تحسبن ﴾ بتاء الخطاب والتقدير ، ﴿ لا تحسبن ﴾ أيها المخاطب ولا يندرج فيه الرسول ، وقالوا : هو خطاب للرسول وليس بجيد لأن مثل هذا الحسبان لا يتصوّر وقوعه فيه عليه السلام .

وقرأ حمزة وابن عامر لا يحسبن بالياء للغيبة ، والتقدير لا يحسبن حاسب ، والرسول لا يندرج في حاسب وقالوا : يكون ضمير الفاعل للرسول لتقدم ذكره في ﴿ وأطيعوا الرسول ﴾ قاله أبو عليّ والزمخشري وليس بجيد لما ذكرناه في قراءة التاء .

وقال النحاس : ما علمت أحداً من أهل العربية بصرياً ولا كوفياً إلاّ وهو يخطىء قراءة حمزة ، فمنهم من يقول : هي لحن لأنه لم يأت إلاّ بمفعول واحد ليحسبن ، وممن قال هذا أبو حاتم انتهى .

وقال الفرّاء : هو ضعيف وأجازه على حذف المفعول الثاني وهو قول البصريين تقديره أنفسهم .

و ﴿ معجزين ﴾ المفعول الثاني .

وقال عليّ بن سليمان : ﴿ الذين كفروا ﴾ في موضع نصب قال : ويكون المعنى ولا يحسبن الكافر ﴿ الذين كفروا معجزين في الأرض ﴾ .

وقال الكوفيون : ﴿ معجزين ﴾ المفعول الأول .

(36/553)

و ﴿ في الأرض ﴾ الثاني قيل : وهو خطأ وذلك لأن ظاهر في ﴿ الأرض ﴾ تعلقه بمعجزين ، فلا يكون مفعولاً ثانياً .

وخرج الزمخشري ذلك متبعاً قول الكوفيين .

فقال ﴿ معجزين في الأرض ﴾ هما المفعولان والمعنى لا يحسبن الذين كفروا أحداً يعجز الله في الأرض حتى يطمعوا لهم في مثل ذلك ، وهذا معنى قوي جيد انتهى .

وقال أيضاً : يكون الأصل : لا يحسبنهم ﴿ الذين كفروا معجزين ﴾ ثم حذف الضمير الذي هو المفعول الأول ، وكان الذي سوغ ذلك أن الفاعل والمفعولين لما كانت كالشيء الواحد اقتنع بذكر اثنين عن ذكر الثالث انتهى .

وقد رددنا هذا التخريج في آل عمران في قوله ﴿ لا يحسبن الذين يفرحون بما أتوا ﴾ في قراءة من قرأ بياء الغيبة ، وجعل الفاعل ﴿ الذين يفرحون ﴾ وملخصه أنه ليس هذا من

الضمائر التي يفسرها ما بعدها فلا يتقدر لا يحسبنهم إذ لا يجوز ظنه زيد قائماً على تقدير رفع زيد بظنه .

﴿ ومأواهم النار ﴾ قال الزمخشري : عطف على ﴿ لا تحسبن ﴾ كأنه قيل الذين كفروا لا يفوتون الله ﴿ ومأواهم النار ﴾ والمراد بهم المقسمون جهد أيمانهم انتهى .

وقال صاحب النظام لا يحتمل أن يكون ﴿ ومأواهم ﴾ متصلاً بقوله ﴿ لا تحسن الذين كفروا معجزين في الأرض ﴾ بل هم مقهورون ﴿ ومأواهم النار ﴾ انتهى .

واستبعد العطف من حيث إن ﴿ لا تحسبن ﴾ نهي ﴿ ومأواهم النار ﴾ جملة خبرية فلم يناسب عنده أن يعطف الجملة الخبرية على جملة النهي لتباينهما وهذا مذهب قوم .

ولما أحس الزمخشري بهذا قال : كأنه قيل الذين كفروا لا يفوتون الله فتأول جملة النهي بجملة خبرية حتى تقع المناسبة ، والصحيح أن ذلك لا يشترط بل يجوز عطف الجمل على اختلافها بعضاً على بعض وإن لم تتحد في النوعية وهو مذهب سيبويه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(37/553)

وقال أبو السعود :

وقوله تعالى : ﴿ وَعَدَ اللهُ الذين ءامَنُواْ مِنْكُمْ ﴾

استئنافٌ مقرِّرٌ لما في قوله تعالى : ﴿ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ ﴾ من الوعد الكريمِ ومُعربٌ عنه بطريق التَّصريحِ ومبينٌ لتفاصيلِ ما أُجمل فيه من فنون السَّعاداتِ الدِّينيَّةِ والدُّنيويَّة التي هي من آثار الاهتداءِ ومتضمِّنٌ لما هو المرادُ بالطَّاعة التي نيطَ بها الاهتداءُ والمرادُ بالذين آمنُوا كلُّ من اتَّصف بالإيمان بعد الكُفر على الإطلاق من أيِّ طائفةٍ كان وفي أيِّ وقتٍ كان لا مَن آمنَ من طائفةِ المُنافقين فقط ولا مَن آمنَ بعد نزولِ الآيةِ الكريمةِ فحسب ضرورةَ عمومِ الوعد الكريم للكلِّ كافَّةً فالخطاب في منكم لعامَّةِ الكَفَرةِ لا للمنافقين خاصَّةً ومِن تبعيضيَّةٌ .

(38/553)

﴿ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ عطفٌ على آمنُوا داخلٌ معه في حيِّزِ الصِّلةِ وبه يتمُّ تفسيرُ الطَّاعةِ التي أُمر بها ورُتِّب عليها ما نُظم في سلك الوعدِ الكريمِ كما أُشير إليه . وتوسيطُ الظَّرف بين المعطُوفين لإظهار أصالةِ الإيمانِ وعراقتِه في استتباع الآثارِ والأحكامِ وللإيذانِ بكونِه أوَّلَ ما يُطلب منهم وأهمَّ ما يجبُ عليهم ، وأمَّا تأخيرُه عنهما في قولِه تعالى : ﴿ وَعَدَ

الله الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً ﴾ فلأنَّ مِن هناك بيانيَّةٌ والضَّميرُ للذين معه عليه السَّلامُ من خُلَّصِ المؤمنين ولا ريبَ في أنَّهم جامعون بين الإيمان والأعمال الصَّالحةِ مثابرون عليهما فلا بُدَّ من ورود بيانِهم بعد ذكر نُعوتهم الجليلة بكمالِها ، هذا ومَن جعلَ الخطابَ للنَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ وللأُمةِ عُموماً على أنَّ مِن تبعيضيَّةٌ أوْ له عليهِ السَّلامُ ولمن معه من المُؤمنينَ خُصوصاً على أنَّها بيانيَّةٌ فقد نأَى عمَّا يقتضيهِ سباقُ النَّظمِ الكريمِ وسياقُه بمنازلَ ، وأبعدَ عمَّا يليقُ بشأنه عليه السَّلامُ بمراحلَ ﴿ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى الأرض ﴾ جوابٌ للقسم إمَّا بالإضمار أو بتنزيل وعدِه تعالى منزلةَ القسمِ لتحقُّق إنجازِه لا محالةَ أي ليجعلنَّهم خلفاءَ مُتصرِّفين فيها تصرُّفَ الملوكِ في ممالكهم أو خَلَفاً من الذين لم يكونُوا على حالهم من الإيمانِ والأعمالِ الصَّالحةِ .

(39/553)

﴿ كَمَا استخلف الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ هم بنوُ إسرائيلَ استخلفهم عزَّ وجلَّ في مصرَ والشَّامَ بعد إهلاكِ فرعونَ والجبابرةِ أو هُم ومَن قبلهم من الأمم المؤمنةِ التي أُشير إليهم في قولِه تعالى : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الذين مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ والذين مِن بَعْدِهِمْ لاَ يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ الله جَاءتْهُمْ رُسُلُهُمْ ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ فأوحى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظالمين وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ

الأرض مِن بَعْدِهِمْ ﴾ ومحلُّ الكافِ النَّصبُ على أنَّه مصدرٌ تشبيهيٌّ مؤكِّدٌ للفعل بعد تأكيدِه بالقسم وما مصدريةٌ أي ليستخلفنَّهم استخلافاً كائناً كاستخلافِه للذينَ من قبلِهم . وقُرِىء كما استُخلفَ على البناء للمفعول فليس العاملُ في الكاف حينئذٍ الفعل المذكور بل ما يدلُّ هو عليه من فعلٍ مبنيَ هو للمفعول جارٍ منه مجرى المطاوعِ فإنَّ استخلافَه تعالى إيَّاهم مستلزمٌ لكونِهم مستخلَفين لا محالة كأنَّه قيل : ليستخلفنَّهم في الأرض فيُستخلفُنَّ فيها استخلافاً أيْ مستخلفيَّةً كائنةً كمستخلفيَّةِ مَن قبلهم وقد مرَّ تحقيقُه في قوله تعالى : ﴿ كَمَا سُئِلَ موسى مِن قَبْلُ ﴾ ومن هذا القَبيلِ قوله تعالى : ﴿ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ﴾ على أحدِ الوجهينِ أي فنبتتْ نباتاً حسناً وعليه قولُ مَن قال

وعضَّةُ دَهْرٍ يا ابنَ مَرْوَانَ لَم تَدَعْ . . . مِن المَالِ إلا مُسحَتٌ أو مُجلَّفُ

(40/553)

أي فلم يبق إلا مُسحتٌ الخ ﴿ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ﴾ عطفٌ على ليستخلفنَّهم منتظم معه في سلك الجوابِ وتأخيرُه عنه مع كونه أجلَّ الرَّغائبِ الموعودة وأعظمها لما أنَّ النُّفوسَ إلى الحظوظِ العاجلة أميلُ فتصديرُ المواعيد بها في الاستمالةِ أدخلُ والمعنى ليجعلنَّ دينَهم ثابتاً مُقرَّراً بحيثُ يستمرُّون على العمل بأحكامِه ويرجعون إليهِ في كلِّ ما يأتُون وما يذرُون

والتَّعبيرُ عن ذلك بالتَّمكينِ الذي هو جُعل الشَّيءِ مكاناً لآخرَ يُقال : مكَّن له في الأرضِ أي جعلها مقرًّا له ومنه قولُه تعالى : ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِى الأرض ﴾ ونظائرُه ، وكلمة في للإيذانِ بأنَّ ما جُعل مقرًّا له قطعةٌ منها لا كلُّها للدّلالةِ على كمال ثبات الدّين ورصانةِ أحكامِه وسلامتِه من التَّغييرِ والتَّبديلِ لابتنائه على تشبيهِه بالأرض في الثَّبات والقرار مع ما فيه من مُراعاةِ المُناسبة بينه وبين الاستخلافِ في الأرضِ . وتقديمُ صلةِ التَّمكينِ على مفعوله الصَّريحِ للمُسارعةِ إلى بيان كونِ الموعودِ من منافعِهم تشويقاً لهم إليه وترغيباً لهم في قبوله عند ورودِه ولأنَّ في توسيطها بينَهُ وبينَ وصفِه أعني قوله تعالى : ﴿ الذى ارتضى لَهُمْ ﴾ وفي تأخيرِها عنه من الإخلالِ بجَزَالةِ النَّظمِ الكريم ما لا يَخْفى وفي إضافة الدّين إليهم وهو دينُ الإسلامِ ثم وصفُه بارتضائه لهم تأليفٌ لقلوبِهم ومزيدُ ترغيبٍ فيه وفضلُ تثبيتٍ عليه .

(41/553)

﴿ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ ﴾ بالتَّشديدِ وقُرِىء بالتَّخفيفِ من الإبدالِ ﴿ مّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ ﴾ أي من الأعداءِ ﴿ مِنَ ﴾ حيثُ كان أصحابُ النبيِّ صلى الله عليه وسلم قبل الهجرةِ عشرَ سنين بل أكثرَ خائفين ثم هاجرُوا إلى المدينةِ وكانوا يُصبحون في السّلاحِ ويُمسون كذلك حتى قالَ رجلٌ منهم : ما يأتي علينا يومٌ نأمنُ فيه ؟ فقالَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ : " لا تعبُرون

إلاَّ يسيراً حتى يجلسَ الرَّجلُ منكم في الملإِ العظيمِ مُحتبياً ليس معه حديدةٌ" فأنزل الله عزَّ وجلَّ هذه الآيةَ وأنجز وعدَه وأظهرَهم على جزيرةِ العربِ وفتح لهم بلادَ الشَّرقِ والغربِ وصاروا إلى حالٍ يخافُهم كلُّ مَن عداهُم . وفيه من الدّلالةِ على صحَّةِ النُّبوةِ للإخبارِ بالغيبِ على ما هُو عليه قبل وقوعِه ما لا يخفى . وقيل : المرادُ الخوفُ من العذابِ والأمنُ منه في الآخرةِ ﴿ يَعْبُدُونَنِى ﴾ حالٌ من الموصول الأوَّلِ مفيدةٌ لتقييد الوعد بالثَّباتِ على التَّوحيدِ ، أو استئنافٌ ببيانِ المُقتضي للاستخلافِ وما انتظم معه في سلكِ الوعدِ ﴿ لاَ يُشْرِكُونَ بِى شَيْئاً ﴾ حالٌ من الواوِ أي يعبدونني غيرَ مشركين بي في العبادة شيئاً ﴿ وَمَن كَفَرَ ﴾ أي اتَّصف بالكُفر بأنْ ثبتَ واستمرَّ عليه ولم يتأثَّر بما مرَّ من التَّرهيب والتَّرغيبِ فإنَّ الإصرارَ عليه بعد مُشاهدةِ دلائلِ التَّوحيدِ كفرٌ مستأنفٌ زائدٌ على الأصل ، وقيل : كفرَ بعد الإيمانِ وقيل : كفرَ هذه النّعمةَ العظيمةَ ، والأوّلُ هو الأنسبُ بالمقامِ ﴿ بَعْدَ ذَلِكَ ﴾ أي بعد ذلك الوعدِ الكريمِ بما فُصِّل من المطالب العاليةِ المستوجبةِ لغاية الاهتمامِ بتحصيلها والسعيِ الجميلِ في حيازتِها ﴿ فَأُوْلَئِكَ ﴾ البُعداءُ عن الحقِّ التائهون في تيهِ الغَواية والضَّلال ﴿ هُمُ الفاسقون ﴾ الكاملون في الفِسق والخروجِ عن حُدودِ الكُفر والطُّغيانِ .

﴿ وَأَقِيمُواْ الصلاة وَآتُواْ الزكاة ﴾

عطفٌ على مقدَّرٍ ينسحبُ عليه الكلامُ ويستدعيهِ النّظامُ فإنَّ خطابَه تعالى للمأمورينَ بالطَّاعةِ على طريقِ التَّرهيبِ من التَّولّي بقوله تعالى : ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ ﴾ الخ ، وترغيبَه تعالى إيَّاهم في الطَّاعة بقوله تعالى : ﴿ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ ﴾ الخ ، ووعدَه تعالى إيَّاهم على الإيمان والعملِ الصَّالحِ بما فُصّل من الاستخلافِ وما يتلُوه من الرَّغائبِ الموعُودةِ ووعيدَه على الكفرِ ممَّا يوجبُ الأمرَ بالإيمانِ والعملِ الصَّالحِ والنَّهيِ عن الكُفر فكأنَّه قيل : فآمِنُوا واعملُوا صالحاً وأقيمُوا أو فلا تكفرُوا وأقيمُوا ، وعطفُه على أطيعُوا الله مما لا يليقُ بجزالةِ النَّظمِ الكريمِ ﴿ وَأَطِيعُواْ الرسول ﴾ أمرهم الله سبحانه وتعالى بالذَّاتِ بما أمرَهم به بواسطة الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ من طاعتِه التي هي طاعتُه تعالى في الحقيقة تأكيداً للأمرِ السَّابقِ وتقريراً لمضمونه على أنَّ المرادَ بالمُطاع فيه جميعُ الأحكامِ الشَّرعيةِ المنتظمةِ للآداب المرضيَّةِ أيضاً أي وأطيعُوه في كلِّ ما يأمركم به وينهاكم عنه أو تكميلاً لما قبله من الأمرينِ الخاصَّينِ المتعلّقينِ بالصَّلاةِ والزَّكاةِ على أنَّ المرادَ بما ذُكر ما عداهما من الشَّرائعِ أي وأطيعُوه في سائر ما يأمركم به الخ ، وقوله تعالى : ﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ متعلّقٌ على الأوَّلِ بالأمرِ الأخيرِ المُشتمل على جميعِ الأوامرِ وعلى الثَّاني بالأوامرِ الثَّلاثةِ أي افعلُوا ما ذُكر من الإقامةِ والإيتاءِ والإطاعةِ راجينَ أنْ تُرحموا .

﴿ لاَ تَحْسَبَنَّ الذين كَفَرُواْ ﴾

لَمَّا بُيّن حالَ من أطاعَه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ وأُشير إلى فوزِه بالرَّحمةِ المُطلقة المستتبعةِ لسعادةِ الدَّارينِ عُقّب ذلك ببيانِ حالِ مَن عصاهُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ومآلِ أمرِه في الدُّنيا والآخرةِ بعد بيانِ تناهيهِ في الفسقِ تكميلاً لأمرِ التَّرغيبِ والتَّرهيبِ والخطاب إما لكلِّ أحد ممَّن يصلح له كائناً من كانَ وإمَّا للرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ على منهاج قوله تعالى : ﴿ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ المشركين ﴾ ونظائرِه للإيذانِ بأنَّ الحُسبانَ المذكورَ من القُبحِ والمحذوريَّةِ بحيث يُنهى عنه مَن يمتنعُ صدورُه عنه فكيف بمَن يمكن ذلك منه ؟ ومحلُّ الموصولِ النَّصبُ على أنَّه مفعولٌ أوَّلٌ للحُسبانِ وقوله تعالى : ﴿ معاجزين ﴾ ثانيهما وقوله تعالى : ﴿ فِى الأرض ﴾ ظرفٌ لمعجزين لكن لا لإفادةِ كون الإعجاز المنفيّ فيها لا في غيرها فإن ذلك مما لا تحتاج إلى البيان بل لإفادة شمولِ عدم الإعجازِ بجميعِ أجزائِها أي لا تحسبنَّهم مُعجزين الله عزَّ وجلَّ عن إدراكِهم وإهلاكِهم في قطرٍ من أقطارِ الأرض بما رحُبتْ وإنْ هربُوا منها كلَّ مهربٍ . وقُرِىء لا يَحسَبَنَّ بياءِ الغَيبةِ على أنَّ الفاعلَ كلُّ أحدٍ والمعنى كما ذُكر أي لا يَحسبنَّ أحدٌ الكافرينَ معجزين له سبحانَهُ في الأرضِ أو هو الموصولُ والمفعولُ الأوَّلُ محذوفٌ لكونه عبارةً عن أنفسِهم كأنَّه قيل : لا يحسبنَّ الكافرونَ أنفسَهم مُعجزين في الأرضِ

وأما جعلُ معجزين مفعولاً أوّلَ وفي الأرضِ مفعولاً ثانياً فبمعزلٍ من المُطابقة لمقتضى المقامِ ضرورةَ أنَّ مصبَّ الفائدةِ هو المفعولُ الثَّاني ولا فائدةَ في بيانِ كونِ المُعجزين في الأرضِ وقد مرَّ في قولِه تعالى : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِى الأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ وقولِه تعالى : ﴿ وَمَأْوَاهُمُ النار ﴾ معطوفٌ على جملة النَّهيِ بتأويلِها بجُملةٍ خبريَّةٍ لأنَّ المقصودَ بالنَّهيِ عن الحُسبان تحقيقُ

(44/553)

نفيِ الحُسبانِ كأنَّه قيل : ليسَ الذين كفرُوا مُعجزين ومأواهم الخ ، أو على جملةٍ مقدَّرةٍ وقعتْ تعليلاً للنَّهيِ كأنَّه قيل : لا تحسبنَّ الذين كفرُوا معجزين في الأرضِ فإنَّهم مُدركُونَ ومأواهم الخ ، وقيل : الجملةُ المقدَّرةُ بل هم مقهورون فتدبَّرْ ﴿ وَلَبِئْسَ المصير ﴾ جوابٌ لقسمٍ مقدَّرٍ والمخصوص بالذمِّ محذوفٌ أي وبالله لبئسَ المصيرُ هي أي النَّارُ والجملة اعتراضٌ تذييليٌّ مقرِّرٌ لما قبله وفي إيراد النَّارِ بعنوان كونها مأوى ومصيراً لهم إثرَ نفيِ فوتِهم بالهرب في الأرض كلَّ مهرَبٍ من الجَزَالة ما لا غايةَ وراءَهُ فللَّه درُّ شأنِ التَّنزيلِ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 6 صـ ﴾

(45/553)

وقال الآلوسى :

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾

خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ومن آمن معه إلى المؤمنين الثابتين وهو كالاعتراض بناء على ما سيأتي ان شاء الله تعالى من كون ﴿ وأقيموا الصلاة ﴾ [النور : 56] عطفاً على قوله سبحانه : ﴿ أطيعوا الله ﴾ [النور : 54] وفائدته أنه لما أفاد الكلام من نفي المضرة على أبلغ وجه من غير اعتبار كونه اعتراضاً والجملة المعطوفة الداخلة معها في حيز الصلة أعني قوله تعالى : ﴿ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ مع التأخير في قوله تعالى : ﴿ وَعَدَ الله الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً ﴾ [الفتح : 29] قيل للدلالة على أن الأصل في ثبوت الاستخلاف الإيمان ، ولهذا كان الأصح عدم الانعزال بالفسق الطارىء ودل عليه صحاح الأحاديث ومدخلية الصلاح في ابتداء البيعة وأما في المغفرة والأجر العظيم فكلاهما أثل فكان المناسب التأخير .

وقد يقال : إن ذلك لتعجيل مسرة المخاطبين حيث أن الآية سيقت لذلك ، وقيل : الخطاب للمقسمين والكلام تتميم لقوله تعالى : ﴿ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ ﴾ [النور : 54] ببيان ما لهم في العاجل من الاستخلاف وما يترتب عليه وفي الآجل ما لا يقادر قدره على ما أدمج في قوله سبحانه : ﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [النور : 56] والجار للتبعيض وأمر التوسيط

على حاله ، ولم يرتضه بعض الأجلة لأن ﴿ ءامَنُواْ ﴾ إن كان ماضياً على حقيقته لم يستقم إذ لم يكن فيهم من كان آمن حال الخطاب وإن جعل بمعنى المضارع على المألوف من أخبار الله تعالى فمع نبوه عن هذا المقام لم يكن دليلاً على صحة أمر الخلفاء ولم يطابق الواقع أيضاً لأن هؤلاء الأجلاء لم يكن من بعض من آمن من أولئك المخاطبين ولا كان في المقسمين من نال الخلافة انتهى ، وفيه شيء .

(46/553)

ولعله لا يضر بالغرض وارتضى أبو السعود تعلق الكلام بذلك وادعى أنه استئناف مقرر لما في قوله تعالى : ﴿ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ ﴾ [النور : 54] الخ من الوعد الكريم معرب عنه بطريق التصريح ومبين لتفاصيل ما أجمل فيه من فنون السعادات الدينية والدنيوية التي هي من آثار الاهتداء ومتضمن لما هو المراد بالطاعة التي نيط بها الاهتداء وأن المراد بالذين آمنوا كل من اتصف بالإيمان بعد الكفر على الإطلاق من أي طائفة كان وفي أي وقت كان لا من آمن من طائفة المنافقين فقط ولا من آمن بعد نزول الآية الكريمة فحسب ضرورة عموم الوعد الكريم وأن الخطاب ليس للرسول عليه الصلاة والسلام ومن معه من المؤمنين المخلصين أو من يعمهم وغيرهم من الأمة ولا للمنافقين خاصة بل هو لعامة الكفرة وأن من

للتبعيض ، وقال في نكتة التوسيط : إنه لإظهار إصالة الإيمان وعراقته في استتباع الآثار والأحكام والإيذان بكونه أول ما يطلب منهم وأهم ما يجب عليهم ، وأما التأخير في آية سورة الفتح فلأن من هناك بيانية والضمير للذين معه عليه الصلاة والسلام من خلص المؤمنين ولا ريب في أنهم جامعون بين الإيمان والأعمال الصالحة مثابرون عليها فلا بد من ورود بيانهم بعد ذكر نعوتهم الجليلة بكمالها انتهى .

وأنت تعلم أن كون الخطاب لعامة الكفرة خلاف الظاهر ، وحمل الفعل الماضي على ما يعم الماضي والمستقبل كذلك وفيما ذكره أيضاً بعد عن سبب النزول ، فقد أخرج ابن المنذر .

والطبراني في الأوسط والحاكم وصححه .

وابن مردويه .

والبيهقي في الدلائل .

(47/553)

والضياء في المختارة عن أبي بن كعب رضي الله تعالى عنه قال : لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وآوتهم الأنصار رمتهم العرب عن قوس واحدة فكانوا لا يبيتون إلا في السلاح ولا يصبحون إلا فيه فقالوا ترون أنا نعيش حتى نبيت آمنين مطمئنين لا نخاف إلا الله

تعالى فنزلت : ﴿ وَعَدَ اللهُ الذين ءامَنُواْ مِنْكُمْ ﴾ الآية ولا يتأتى معه الاستدلال بالآية على صحة أمر الخلفاء أصلاً ، ولعله لا يقول به ويستغنى عنه بما هو أوضح دلالة ، وعن ابن عباس .

ومجاهد عامة في أمة محمد صلى الله عليه وسلم وأطلقاً الأمة وهي تطلق على أمة الإجابة وعلى أمة الدعوة لكن الأغلب في الاستعمال الاطلاق الأول فلا تغفل ، وإذا كانت من بيانية فالمعنى وعد الله الذين آمنوا الذين هم أنتم ﴿ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى الأرض ﴾ أي ليجعلهم خلفاء متصرفين فيها تصرف الملوك في مماليكهم أو خلفاء من الذين كانوا يخافونهم من الكفرة بأن ينصرهم عليهم ويورثهم أرضهم ، والمراد بالأرض على ما قيل جزيرة العرب ، وقيل مأواه عليه الصلاة والسلام من مشارق الأرض ومغاربها ففي الصحيح " زويت لي الأرض فاريت مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك أمتي ما زوى لي منها " واللام واقعة في جواب القسم المحذوف ومفعول وعد الثاني محذوف دل عليه الجواب أي وعد الله الذين آمنوا استخلافهم وأقسم لستخلفنهم ، ويجوز أن ينزل وعده تعالى لتحقق انجازه لا محالة منزلة القسم وإليه ذهب الزجاج ويكون ﴿ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ ﴾ منزل منزلة المفعول فلا حذف .

وما في قوله تعالى : ﴿ كَمَا استخلف ﴾ مصدرية والجار والمجرور متعلق بمحذوف وقع صفة لمصدر محذوف أي ليستخلفنهم استخلافاف كائناً كاستخلافه ﴿ الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ وهم بنوا اسرائيل استخلفهم الله عز وجل في الشام بعد إهلاك الجبابرة وكذا في مصر على ما قيل من أنها صارت تحت تصرفهم بعد هلاك فرعون وإن لم يعودوا إليها أو هم ومن قبلهم من الأمم المؤمنة الذين أسكنهم الله تعالى في الأرض بعد إهلاك أعدائهم من الكفرة الظالمين .

وقرىء ﴿ كَمَا استخلف ﴾ بالبناء للمفعول فيكون التقدير ليستخلفنهم في الأرض فيستخلفون فيها استخلافاف أي مستخلفية كائنة كمستخلفية الذين من قبلهم ﴿ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ﴾ عطف على ﴿ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ ﴾ والكلام فيه كالكلام فيه ، وتأخيره عنه مع كونه أجل الرغائب الموعودة وأعظمها لما أنه كالأثر للاستخلاف المذكور . وقيل : لما أن النفوس إلى الحظوظ العاجلة أميل فتصدير المواعيد بها في الاستمالة أدخل ، والتمكين في الأصل جعل الشيء في مكان ثم استعمل في لازمه وهو التثبيت والمعنى ليجعلن دينهم ثابتاً مقرراً بأن يعلى سبحانه شأنه ويقوى بتأييده تعالى أركانه ويعظم أهله في نفوس أعدائهم الذين يستغرقون النهار والليل في التدبير لإطفاء أنواره ويستنهضون الرجال

والخيل للتوصل إلى إعفاء آثاره فيكونون بحيث ييأسون من التجمع لتفريقهم عنه ليذهب من البين ولا تكاد تحدثهم أنفسهم بالحيلولة بينهم وبينه ليعود أثراً بعد عين .

(49/553)

وقيل : المعنى ليجعله مقرراً ثابتاف بحيث يستمرون على العمل بأحكامه ويرجعون إليه في كل ما يأتون وما يدرون ، وأصل التمكين جعل الشيء مكاناف لآخر والتعبير عن ذلك به للدلالة على كمال ثبات الدين ورصانة أحكامه وسلامته عن التغيير والتبديل لابتنائه على تشبيهه بالأرض في الثبات والقرار مع ما فيه من مراعاة المناسبة بينه وبين الاستخلاف في الأرض انتهى ، وفيه بحث ، وتقديم الجار والمجرور على المفعول الصريح للمسارعة إلى بيان كون الموعود من منافعهم مع التشويق إلى المؤخر ولأن في توسيطه بينه وبين وصفه أعني قوله تعالى : ﴿ الذى ارتضى لَهُمْ ﴾ وتأخيره عن الوصف من الاخلال بجزالة النظم الكريم ما لا يخفى ، وفي إضافة الدين وهو دين الإسلام إليهم ثم وصفه بارتضائه لهم من مزيد الترغيب فيه والتثبيت عليه ما فيه ﴿ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ ﴾ بالتشديد ، وقرأ ابن كثير .

وأبو بكر .

والحسن .

وابن محيصن بالتخفيف من الإبدال ، وأخرج ذلك عبد بن حميد عن عاصم وهو عطم على ﴿ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ أَوْ ﴾ ﴿ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ ﴾ بمقتضى البشرية في الدنيا من أعدائهم في الدين ﴿ مِنَ ﴾ لا يقادر قدره ، وقيل : الخوف في الدنيا من عذاب الآخرة والأمن في الآخرة ورجح بأن الكلام عليه أبعد من احتمال التأكيد بوجه من الوجوه بخلافه على الأول .

وأنت تعلم أن الأول أوفق بالمقام والأخبار الواردة في سبب النزول تقتضيه وأمر احتمال التأكيد سهل .

(50/553)

﴿ يَعْبُدُونَنِى ﴾ جوز أن تكون الجملة في موضع نصب على الحال إما من ﴿ الذين ﴾ الأول لتقييد الوعد بالثبات على التوحيد لأن ما في حيز الصلة من الإيمان وعمل الصالحات بصيغة الماضي لما دل على أصل الاتصاف به جيء بما ذكر حالا بصيغة المضارع الدال على الاستمرار التجددي وإما من الضمير العائد عليه في ﴿ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ ﴾ أو في ﴿ ليبدلنهم ﴾ ، وجوز أن تكون مستأنفة إما لمجرد الثناء على أولئك المؤمنين على معنى هم يعبدونني وإما لبيان علة الاستخلاف وما انتظم معه في سلك الوعد ، وقوله تعالى : ﴿

يَعْبُدُونَنِى لاَ يُشْرِكُونَ بِى شَيْئاً ﴾ حال من الواو في ﴿ يَعْبُدُونَنِى ﴾ أو من ﴿ الذين ﴾ أو بدل من الحال أو استئناف .

ونصب ﴿ شَيْئاً ﴾ على أنه مفعول به أي شيئاً مما يشرك به أو مفعول مطلق أي شيئاً من الإشراك .

ومعنى العبادة وعدم الإشراك ظاهر .

وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال في قوله سبحانه : ﴿ يَعْبُدُونَنِى لاَ يُشْرِكُونَ بِى شَيْئاً ﴾ لا يخافون أحداً غيري ، وأخرج هو وجماعة عن مجاهد نحوه .

ولعلهما أراد بذلك تفسير ﴿ لاَ يُشْرِكُونَ بِى شَيْئاً ﴾ وكأنهما عدا خوف غير الله تعالى نوعاً من الإشراك ، واختير على هذا حالية الجملة من الواو كأنه قيل : يعبدونني غير خائفين أحداً غيري ، وجوز أن يكونا قد أرادا بيان المراد بمجموع ﴿ يَعْبُدُونَنِى لاَ يُشْرِكُونَ ﴾ الخ وكأنهما ادعيا أن عدم خوف أحد غيره سبحانه من لوازم العبادة والتوحيد وأن جملة ﴿ يَعْبُدُونَنِى ﴾ الخ استئناف لبيان ما يصلون إليه من الأمن كأنه قيل : يأمنون إلى حيث لا يخافون أحداً غير الله تعالى ولا يخفي ما في التعبير بضمير المتكلم وحده في ﴿ يَعْبُدُونَنِى وَلاَ أَحْسَنَ بِى ﴾ دون ضمير الغائب ودون ضمير العظمة من اللطافة .

﴿ وَمَن كَفَرَ ﴾ أي ومن ارتد من المؤمنين ﴿ بَعْدَ ذَلِكَ ﴾ أي بعد حصول الموعود به ﴿ فَأُوْلَئِكَ ﴾ المرتدون البعداء عن الحق ﴿ هُمُ الفاسقون ﴾ أي الكاملون في الفسق والخروج عن حدود الكفر والطغيان إذ لا عذر لهم حينئذ ولا كجناح بعوضة ، وقيل : كفر من الكفران لا من الكفر مقابل الإيمان وروي ذلك عن أبي العالية وكما لهم في الفسق لعظم النعمة التي كفروها ، وقيل : ذلك إشارة إلى الوعد السابق نفسه ، وفي إرشاد العقل السليم أن المعنى ومن اتصف بالكفر بأن ثبت واستمر عليه ولم يتأثر بما مر من الترغيب والترهيب بعد ذلك الوعد الكريم بما فصل من المطالب العالية المستوجبة لغاية الاهتمام بتحصيلها فأولئك هم الكاملون في الفسق ، وكون المراد بكفر ما ذكر أنسب بالمقام من كون المراد به ارتد أو كفر النعمة انتهى .

والأولى عندي ما تقدم فإنه الظاهر ، وفي الكلام عليه تعظيم لقدر الموعود به من حيث أنه لا يبقى بعد حصوله عذر لمن يرتد ، وقوة مناسبته للمقام لا تخفى .

وهو ظاهر قول حذيفة رضي الله تعالى عنه فقد أخرج ابن مردويه عن أبي الشعثاء قال : كنت جالساً مع حذيفة .

وابن مسعود رضي الله تعالى عنهما فقال حذيفة : ذهب النفاق انما كان النفاق على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وإنما هو الكفر بعد الإيمان فضحك ابن مسعود ثم قال : بم

تقول ؟ قال : بهذه الآية ﴿ وَعَدَ اللهُ الذين ءامَنُواْ مِنْكُمْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ إلى آخر الآية وكأن ضحك ابن مسعود كان استغراباً لذلك وسكوته بعد الاستدلال ظاهر في ارتضائه لما فهمه معدن سر رسول الله صلى الله عليه وسلم من الآية .

(52/553)

و ﴿ مِنْ ﴾ تحتمل أن تكون موصولة وتحتمل أن تكون شرطية وجملة ﴿ مَن كَفَرَ ﴾ الخ قيل معطوفة على جملة ﴿ وَعَدَ الله ﴾ الخ أو على جملة محذوفة كأنه قيل : من آمن فهم الفائزون ومن كفر الخ ، وقيل : إن هذه الجملة وكذا جملة ﴿ يَعْبُدُونَنِى ﴾ استئناف بياني أما ذلك في الأول فالسؤال ناشىء من قوله تعالى : ﴿ وَعَدَ الله ﴾ الخ فكأنه قيل : فما ينبغي للمؤمنين بعد هذا الوعد الكريم أو بعد حصوله ؟ فقيل : يعبدونني لا يشركون بي شيئاً .

وأما في الثانية فالسؤال ناشىء من الجواب المذكور فكأنه قيل فإن لم يفعلوا فماذا ؟ فقيل : ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون وجزاؤهم معلوم وهو كما ترى .

هذا واستدل كثير بهذه الآية على صحة خلافة الخلفاء الأربعة رضي الله تعالى عنهم لأن الله تعالى وعد فيها من في حضرة الرسالة من المؤمنين بالاستخلاف وتمكين الدين والأمن

العظيم من الأعداء ولا بد من وقوع ما وعد به ضرورة امتناع الخلف في وعده تعالى ولم يقع ذلك المجموع إلا في عهدهم فكان كل منهم خليفة حقا باستخلاف الله تعالى إياه حسبما وعد جل وعلا ولا يلزم عموم الاستخلاف لجميع الحاضرين المخاطبين بل وقوعه فيهم كبنو فلان قتلوا فلاناً فلا ينافي ذلك عموم الخطاب الجميع ، وكون من بيانية ، وكذا لا ينافيه ما وقع في خلافة عثمان .

وعلي رضي الله تعالى عنهما من الفتن لأن المراد من الأمن الأمن من أعداء الدين وهم الكفار كما تقدم .

(53/553)

وأقامها بعض أهل السنة دليلاً على الشيعة في اعتقادهم عدم صحة خلافة الخلفاء الثلاثة ، ولم يستدل بها على صحة خلافة الأمير كرم الله تعالى وجهه لأنها مسلمة عند الشيعة والأدلة كثيرة عند الطائفتين على من ينكرها من النواصب عليهم من الله تعالى ما يستحقون فقال : إن الله تعالى وعد فيها جمعاً من المؤمنين الصالحين الحاضرين وقت نزولها بما وعد من الاستخلاف وما معه ووعده سبحانه الحق ولم يقع ذلك إلا في عهد الثلاثة ، والإمام المهدي لم يكن موجوداً حين النزول قطعاً بالإجماع فلا يمكن حمل الآية على وعده

بذلك ، والأمير كرم الله تعالى وجهه وإن كان موجداً إذ ذاك لكن لم يرج الدين المرضى كما هو حقه في زماه رضي الله تعالى عنه بزعم الشيعة بل صار أسوأ حالاً بزعمهم مما كان في عهد الكفار كما صرح بذلك المرتضى في تنزيه الأنبياء والأئمة عليهم السلام بل كل كتب الشيعة تصرح بأن الأمير وشيعته كانوا يخفون دينهم ويظهرون دين المخالفين تقية ولم يكن الأمن الكامل حاصلاً أصلاً في زمانه رضي الله تعالى عنه فقد كان أهل الشام ومصر والمغرب ينكرون أصل إمامته ولا يقبلون أحكامه وهم كفرة بزعم الشيعة وأغلب عسكر الأمير يخافونهم ويحذرون غاية الحذر منهم ، ومع هذا الأمير فرد فلا يمكن إرادته من الذين آمنوا ليكون هو رضي الله تعالى عنه مصداق الآية كما يزعمون فإن حمل لفظ الجمع على واحد خلاف أصولهم إذ أقل الجمع عندهم ثلاثة أفراد ، وأما الأئمة الآخرون الذين ولدوا بعد فلا احتمالا لإرادتهم من الآية إذ ليسوا بموجودين حال نزولها ولم يحصل لهم التسلط في الأرض ولم يقع رواج دينهم المرتضى لهم وما كانوا آمنين بل كانوا خائفين من أعداء الدين متقين منهم كما أجمع عليه الشيعة فلزم أن الخلفاء الثلاثة هم مصداق الآية فتكون خلافتهم حقة وهو المطلوب .

(54/553)

وزعم الطبرسي أن الخطاب للنبي وأهل بيته صلى الله عليه وسلم فهم الموعودون بالاستخلاف وما معه ويكفي في ذلك تحقق الموعود في زمن المهدي رضي الله تعالى عنه ، ولا ينافي ذلك عدم وجوده عند نزول الآية لأن الخطاب الشفاهي لا يخص الموجودين ، وكذا لا ينافي عدم حصوله للكل لأن الكلام نظير بنو فلان قتلوا فلاناف ، واستدل على ذلك بما روي العياشي بإسناده عن علي بن الحسين رضي الله تعالى عنهما أنه قرأ الآية فقال : هم والله شيعتنا أهل البيت يفعل ذلك بهم على يد رجل منا وهو مهدي هذه الأمة وهو الذي قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه : " لو لم يبق من الدنيا إلا يوم واحد لطول الله تعالى ذلك اليوم حتى يلي رجل من عترتي اسمه اسمي يملأ الأرض عدلاً وقسطاً كما ملئت ظلماً وجوراً " .

وزعم أنه روي مثل ذلك عن أبي جعفر .

وأبي عبد الله رضي الله تعالى عنهما .

وهذا على ما فيه مما يأباه السياق والأخبار الصحيحة الواردة في سبب النزول .

وأخبار الشيعة لا يخفي حالها لا سيما على من وقف على التحفة الأثنى عشرية .

نعم ورد من طريقنا ما يستأنس به لهم في هذا المقام لكنه لا يعول عليه أيضاً مثل أخبارهم وهو ما أخرجه عبد بن حميد عن عطية أنه عليه الصلاة والسلام قرأ الآية فقال : أهل البيت ههنا وأشار بيده إلى القبلة .

وزعم بعضهم نحو ما سمعت عن الطبرسي إلا أنه قال : هي في حق جميع أهل البيت علي كرم الله تعالى وجهه وسائر الأئمة الأثنى عشر وتحقق ذلك فيهم زمن الرجعة حين يقوم القائم رضي الله تعالى عنه .

وزعم أنها أحد أدلة الرجعة ، وهذا قد زاد في الطنبور نغمة .

وقال الملا عبد الله المشهدي في كتابه إظهار الحق لابطال الاستدلال بها على صحة خلافة الخلفاء الثلاثة : يحتمل أن يكون الاستخلاف بالمعنى اللغوي وهو الإتيان بواحد خلف آخر أي بعده كما في قوله تعالى في حق بني إسرائيل :

(55/553)

﴿ عسى ربُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى الأرض ﴾ [الأعراف : 129]

فقصارى ما يثبت أنهم خلفاء بالمعنى اللغوي وليس النزاع فيه بل هو في المعنى الاصطلاحي وهو معنى مستحدث بعد رحلة النبي صلى الله عليه وسلم اه .

وأجيب بأنه لو تم هذا لا يتم لهم الاستدلال على خلافة الأمير كرم الله تعالى وجهه بالمعنى المصطلح بحديث " أنت مني بمنزلة هارون من موسى " المعتضد بما حكاه سبحانه عن موسى عليه السلام من قوله لهارون ﴿ اخلفنى فِى قَوْمِى ﴾ [الأعراف : 142] وبما

يروونه من قوله صلى الله عليه وسلم : " يا علي أنت خليفتي من بعدي " وكذا لا يتم لهم الاستدلال على إمامة الأمير كرم الله تعالى وجهه بما تضمن لفظ الإمام لأنه لم يستعمل في الكتاب المجيد بالمعنى المصطلح أصلاً وإنما استعمل بمعنى النبي والمرشد والهادي والمقتدى به في أمر خيراً كان أو شراً أو متى ادعى فهم المعنى المصطلح من ذلك بطريق اللزوم فليدع فهم المعنى المصطلح من الخليفة كذلك وربما يدعي أن فهمه منه أقوى لأنه مقرون حيث وقع في الكتاب العزيز بلفظ في الأرض الدال على التصرف العام الذي هو شأن الخليفة بذلك المعنى على أن مبني الاستدلال على خلافة الثلاثة بهذه الآية ليس مجرد لفظ الاستخلاف حتى يتم غرض المناقش فيه بل ذلك مع ملاحظة إسناد إلى الله تعالى ، وإذا أسند الاستخلاف اللغوي إلى الله عز وجل فقد صار استخلافاً شرعياً ، وقد يستفتي في هذه المسألة من علماء الشيعة فيقال : إن اتيان بني إسرائيل بمكان آل فرعون والعمالقة وجعلهم متصرفين في أرض مصر والشام هل كان حقاً أولاً ولا أظنهم يقولون إلا أنه حق وحينئذ يلزمهم أن يقولوا به في الآية لعدم الفرق وبذلك يتم الغرض هذا حاصل ما قيل في هذا المقام .

(56/553)

والذي أميل أليه أن الآية ظاهرة في نزاهة الخلفاء الثلاثة رضي الله تعالى عنهم عما رماهم الشيعة به من الظلم والجور والتصرف في الأرض بغير الحق لظهور تمكين الدين والأمن التام من أعدائه في زمانهم ولا يكاد يحسن الامتنان بتصرف باطل عقباه العذاب الشديد .

وكذا لا يكاد يحسن الامتنان بما تضمنته الآية على أهل عصرهم مع كونهم الرؤساء الذين بيدهم الحل والعقد ، لو كانوا وحاشاهم كما يزعم الشيعة فيهم ، ومتى ثبت بذلك نزاهتهم عما يقولون اكتفينا به وهذا لا يتوقف إلا على اتصافهم بالإيمان والعمل الصالح حال نزول الآية وإنكار الشيعة له إنكار للضروريات ، وكون المراد بالآية علياً كرم الله تعالى وجهه أو المهدي رضي الله تعالى عنه أو أهل البيت مطلقاً مما لا يقوله منصف .

(57/553)

وفي كلام الأمير كرم الله تعالى وجهه ما يقتضي بسوقه خلاف ما عليه الشيعة ففي نهج البلاغة أن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه لما استشار الأمير كرم الله تعالى وجهه لانطلاقه لقتال أهل فارس حين تجمعوا للحرب قال له : إن هذا الأمر لم يكن نصره ولا خذ لأنه بكثرة ولا بقلة وهو دين الله تعالى الذي أظهره وجنده الذي أعزه وأيده حتى بلغ ما بلغ وطلع حيث طلع ونحن على موعود من الله تعالى حيث قال عز اسمه ﴿ وَعَدَ اللهُ الذين

ءامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ الصالحات لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى الأرض كَمَا استخلف الذين مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الذى ﴾ والله تعالى منجز وعده وناصر جنده ومكان القيم في الإسلام مكان النظام من الخرز فإن انقطع النظام تفرق ورب متفرق لم يجتمع والعرب اليوم وإن كانوا قليلاً فهم كثيرون بالإسلام عزيزون بالاجتماع فكن قطباً واستدر الرحى بالعرب وأصلهم دونك نار الحرب فإنك إن شخصت من هذه الأرض تنقضت عليك العرب من أطرافها وأقطارها حتى يكون ما تدع وراءك من العورات أهم إليك مما بين يديك وكان قد آن للاعاجم أن ينظروا إليك غدا يقولون هذا أصل العرب فإذا قطعتموه استرحتم فيكون ذلك أشد لكلبهم عليك وطمعهم فيك فأما ما ذكرت من عددهم فأنا لم نقاتل فيما مضى بالكثرة وإنما كنا نقاتل بالنصر والمعونة اه فتأمل ذاك والله تعالى يتولى هداك .

﴿ وَأَقِيمُواْ الصلاة وَءاتُواْ الزكواة وَأَطِيعُواْ الرسول ﴾

جوز أن يكون عطفاً على ﴿ أَطِيعُواْ الله ﴾ [النور : 54] داخلاً معه في حيز القول والفاصل ليس بأجنبي من كل وجه فإنه وعد على المأمور به وبعضه من تتمته .

(58/553)

وفي الكشاف ليس ببعيد أن يقع بين المعطوف والمعطوف عليه فاصل وإن طال لأن حق المعطوف أن يكون غير المعطوف عليه والفاصل يؤكد المغايرة ويرشحها لأن المجاورة مظنة الاتصال والاتحاد فيكون تكرير الأمر بإطاعة الرسول عليه الصلاة والسلام للتأكيد ، وأكد دوشن الأمر بطاعة الله تعالى لما أن في النفوس لا سيما نفوس العرب من صعوبة الانقياد للبشر ما ليس فيها من صعوبة الانقاد لله تعالى ولتعليق الرحمة بها أو بالمندرجة هي فيه وهي الجمل الواقعة في حيز القول بقوله تعالى : ﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ كما علق الاهتداء بالإطاعة في قوله تعالى : ﴿ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ ﴾ [النور : 54] والانصاف أن هذا العطف بعيد بل قال بعضهم : إنه مما لا يليق بجزالة النظم الكريم .

وجوز أن يكون عطفاً على ﴿ يَعْبُدُونَنِى ﴾ [النور : 55] وفيه تخصيص بعد التعميم ، وكان الظاهر أن يقال يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الرسول لعلهم يرحمون ، لكن عدل عدن ذلك إلى ما ذكر لخطاب لمزيد الاعتناء وحسنه هنا الخطاب في ﴿ مّنكُمْ ﴾ [النور : 55] .

وتعقب بأنه مما لا وجه له لأنه بعد تسليم الالتفات وجواز عطف الإنشاء على الأخبار لا يناسب ذلك ؛ وكون الجملة السابقة حالاً أو استئنافاً بيانياً ، والذي اختاره كونه عطفاً على مقدر ينسحب عليه الكلام ويستدعيه النظام فإنه سبحانه لما ذكر ﴿ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ

ذلك فَأُوْلَئِكَ هُمُ الفاسقون ﴾ [النور : 55] فهم النهي عن الكفر فكأنه قيل : فلا تكفروا وأقيموا الصلاة الخ .

(59/553)

وجوز أن يكون انفهام المقدر من مجموع ما تقدم من قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَطِيعُواْ الله ﴾ الخ ، حيث أنه يوجب الأمر بالإيمان والعمل الصالح فكأنه قيل فآمنوا واغلوا الصالحات وأقيموا الخ ، وجوز في ﴿ أَطِيعُواْ ﴾ أن يكون أمراً باطاعته صلى الله عليه وسلم بجميع الأحكام الشرعية المنتظمة للآداب المرضية وأن يكون أمراً بالإطاعة فيما عدا الأمرين السابقين فيكون ذكره لتكميلهما كأنه قيل : وأطيعوا الرسول في سائر ما يأمركم به ، وقوله تعالى : ﴿ لَعَلَّكُمْ ﴾ الخ متعلق بالأوامر الثلاثة ، وجعل على الأول متعلقاً بالأخير

﴿ لاَ تَحْسَبَنَّ الذين كَفَرُواْ ﴾ الخ

بيان لمآل الكفرة في الدنيا والآخرة بعد بيان تناهيهم في الفسق وفوز أضدادهم بالرحمة المطلقة المستتبعة لسعادة الدارين ، وفي ذلك أيضاً رفع استبعاد تحقق الوعد السابق مع كثرة عدد الكفرة وعددهم والخطاب لكل من يتأتى منه الحسبان نظير ما في قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ ترى إِذِ المجرمون نَاكِسُواْ رُؤُوسَهُمْ ﴾ [السجدة : 12] .

وجوز أن يكون للرسول صلى الله عليه وسلم على سبيل التعريض بمن صدر منه ذلك كقوله

: إياك أعنى فاسمعي يا جارة . . .

(60/553)

أو الإشارة إلى أن الحسبان المذكور بلغ في القبح والمحذورية إلى حيث ينهي من يمتنع صدوره عنه فكيف بمن يكن ذلك منه كما قيل في قوله تعالى : ﴿ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ المشركين ﴾ [الأنعام : 14] فقول أبي حيان : إن جعل الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم ليس بجيد لأن مثل هذا الحسبان لا يتصور وقوعه منه عليه الصلاة والسلام ليس بجيد لما فيه من الغفلة عما ذكر ؛ ومحل الموصول نصب على أنه مفعول أول للحسبان وقوله تعالى : ﴿ معاجزين ﴾ ثانيهما وقوله تعالى : ﴿ فِى الأرض ﴾ ظرف لمعجزين لكن لا لإفادة كون الإعجاز المقصود بالنفي فيها لا في غيرها فإن ذلك غني عن البيان بل لإفادة شمول عدم الإعجاز لجميع أجزائها أي لا تحسبنهم معجزين الله تعالى عن إدراكهم وأهلاكهم في قطر من أقطار الأرض بما رحبت وإن هربوا منها كل مهرب .

وقرأ حمزة .

وابن عامر ﴿ يَحْسَبَنَّ ﴾ بالياء آخر الحروف على أن الفاعل كل أحد كأنه قيل لا يحسين حاسب الكافرين معجزين له عز وجل في الأرض أو ضميره صلى الله عليه وسلم لتقدم ذكره عليه الصلاة والسلام في قوله تعالى : ﴿ وَأَطِيعُواْ الرسول ﴾ [النور : 56] وإليه ذهب أبو علي .

(61/553)

وزعم أبي حيان أنه ليس بجيد لما تقدم ليس بجيد لما تقدم أو ضمير الكافر أي لا يحسبن الكافر الذين كفروا معجزين ، ونقل ذلك عن علي بن سليمان أو الموصول والمفعول الأول محذوف كأنه قيل : لا يحسبن الذين كفروا أنفسهم معجزين في الأرض ، وذكر أن الأصل على هذا لا يحسبنهم الذين كفكروا معجزين ثم حذف الضمير الذي هو المفعول الأول وكأن الذي سوغ ذلك أن الفاعل والمفعولين لما كانت كالشيء الواحد اقتنع بذكر اثنين عن ذكر الثالث ، وتعقبه في البحر بأن هذا الضمير ليس من الضمائر التي يفسرها ما بعدها فلا يجوز كون الأصل ﴿ لاَيَحْسَبُهُمُ الذين ﴾ الخ كما لا يجوز ظنه زيد قائماً ، وقال الكوفيون ﴿ معاجزين ﴾ المفعول الأول و ﴿ فِى الأرض ﴾ المفعول الثاني ، والمعنى لا يحسبن الذين كفروا أحداً يعجز الله تعالى في الأرض حتى يطمعوا في مثل ذلك ، قال الزمخشري :

وهذا معنى قوي جيد ، وتعقب بأنه بمعزل عن المطابقة لمقتضى المقام ضرورة أن مصب الفائدة هو المفعول الثاني ولا فائدة في بيان كون المعجزين في الأرض .

(62/553)

ورد بأنه وإن كان مصب الفائدة جعل مفروغاً منه وإنما المطلوب بيان المحل أي لا يعجزوه سبحانه في الأرض والإنصاف أن ما ذكر خلاف الظاهر ، والظاهر إنما هو تعلق ﴿ فِى الأرض ﴾ بمعجزين وأياً ما كان فالقراءة المذكورة صحيحة وإن اختلفت مراتب تخريجاتها قوة وضعفاً ، ومن ذلك يعلم ما في قول النحاس ما علمت أحداً من أهل العربية بصرياً ولا كوفياً إلا وهو يخطىء قراءة حمزة ، فمنهم من يقول : هي لحن لأنه لم يأت إلا بمفعول واحد ليحسبن ، ومنهم من قال هذا أبو حاتم انتهى من قلة الوقوف ومزيد الهذيان والجسارة على الطعن في متواتر من القرآن ، ولعمري لو كانت القراءة بالرأي لكان اللائق بمن خفي عليه وجه قراءة حمزة أن لا يتكلم بمثل ذلك الكلام ويتهم نفسه ويحجم عن الطعن في ذلك الإمام ، وقوله تعالى : ﴿ مِنَ النار ﴾ عطف على جملة النهي بتأويلها بجملة خبرية لأن المقصود بالنهي عن الحسبان تحقيق نفي الحسبان كأنه قيل الذين كفروا معجزين ومأواهم النار .

وجوز أن يكون عطفاً على مقدر لأن الأول وعيد الدنيا كأنه قيل فهم مقهورون في الدنيا بالاستئصال ومخزون في الآخرة بعذاب النار ؛ وعن صاحب النظم تقديره بل هم مقدور عليهم ومحاسبون ومأواهم النار .

قال في "الكشف" : وجعله حالاً على معنى لا ينبغي الحسبان لمن مأواه النار كأنه قيل أني للكافر هذا الحسبان وقد أعد له النار ، والعدول إلى ﴿ وَمَأْوَاهُمُ النار ﴾ للمبالغة في التحقق وأن ذلك معلوم لهم لا ريب وجه حسن خال عن كلف الكلفة ألم به بعض الأئمة انتهى ، ولا يخفى أن في ظاهره ميلاً إلى بعض تخريجات قراءة ﴿ يَحْسَبَنَّ ﴾ بياء الغيبة .

(63/553)

وتعقب في "البحر" تأويل جملة النهي لتصحيح العطف عليها بقوله : الصحيح أنه يجوز عطف الجمل على اختلافها بعضاً على بعض وإن لم تتحد في النوعية وهو مذهب سيبويه ، والمأوى اسم مكان ، وجوز فيه المصدرية والأول أظهر ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَبِئْسَ المصير ﴾ جواب لقسم مقدر والمخصوص بالذم محذوف أي وبالله ﴿ لَبِئْسَ المصير ﴾ هي أي النار ، والجملة اعتراض تذييلي مقرر لما قبله ، وفي إيراد النار بعنوان كونها مأوى ومصيراً

لهم أثر نفي فوتهم بالهرب في الأرض كل مهرب من الجزالة ما لا غاية وراءه فلله تعالى در شأن التنزيل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 18 صـ ﴾

(64/553)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (47) ﴾

شرع سبحانه في بيان أحوال من لم تحصل له الهداية إلى الصراط المستقيم ، فقال : ﴿ وَيَقُولُونَ آمَنَّا بالله وبالرسول وَأَطَعْنَا ﴾ وهؤلاء هم المنافقون الذين يظهرون الإيمان ، ويبطنون الكفر ، ويقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم ، فإنهم كما حكى الله عنهم ها هنا ينسبون إلى أنفسهم الإيمان بالله ، وبالرسول والطاعة لله ولرسوله نسبة بمجرد اللسان ، لا عن اعتقاد صحيح ، ولهذا قال : ﴿ ثُمَّ يتولى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ ﴾ أي : من هؤلاء المنافقين القائلين هذه المقالة ﴿ مِن بَعْدِ ذلك ﴾ أي : من بعد ما صدر عنهم ما نسبوه إلى أنفسهم من دعوى الإيمان ، والطاعة ، ثم حكم عليهم سبحانه وتعالى بعدم الإيمان ، فقال : ﴿ وَمَا أُوْلَئِكَ بالمؤمنين ﴾ أي : ما أولئك القائلون هذه المقالة بالمؤمنين على الحقيقة ، فيشمل

الحكم بنفي الإيمان جميع القائلين ، ويندرج تحتهم من تولى اندراجاً أوّلياً .

وقيل : إن الإشارة بقوله ﴿ أولئك ﴾ راجع إلى من تولى ، والأوّل أولى .

والكلام مشتمل على حكمين : الحكم الأوّل : على بعضهم بالتولي ، والحكم الثاني : على جميعهم بعدم الإيمان .

وقيل : أراد بمن تولى : من تولى عن قبول حكمه صلى الله عليه وسلم ، وقيل : أراد بذلك رؤساء المنافقين ، وقيل : أراد بتولي هذا الفريق رجوعهم إلى الباقين ، ولا ينافي ما تحتمله هذه الآية باعتبار لفظها وورودها على سبب خاص ، كما سيأتي بيانه .

(65/553)

ثم وصف هؤلاء المنافقين بأن فريقاً منهم يعرضون عن إجابة الدعوة إلى الله ، وإلى رسوله في خصوماتهم ، فقال : ﴿ وَإِذَا دُعُواْ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ﴾ أي : ليحكم الرسول بينهم ، فالضمير راجع إليه ؛ لأنه المباشر للحكم ، وإن كان الحكم في الحقيقة لله سبحانه ، ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ واللهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ ﴾ [التوبة : 62] .

و"إذا" في قوله ﴿ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴾ هي الفجائية أي : فاجأ فريق منهم الإعراض عن المحاكمة إلى الله والرسول ، ثم ذكر سبحانه : أن إعراضهم إنما هو إذا كان

الحقّ عليهم ، وأما إذا كان لهم فإنهم يذعنون لعلمهم بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يحكم إلاّ بالحق فقال ﴿ وَإِن يَكُنْ لَّهُمُ الحق يَأْتُواْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴾ قال الزجاج : الإذعان الإسراع مع الطاعة ، يقال : أذعن لي بحقي أي : طاوعني لما كنت ألتمس منه ، وصار يسرع إليه ، وبه قال مجاهد .

وقال الأخفش ، وابن الأعرابي : مذعنين مقرّين .

وقال النقاش : مذعنين : خاضعين .

(66/553)

ثم قسم الأمر في إعراضهم عن حكومته إذا كان الحقّ عليهم ، فقال : ﴿ أَفِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ ﴾ ، وهذه الهمزة للتوبيخ ، والتقريع لهم ، والمرض النفاق أي : أكان هذا الإعراض منهم بسبب النفاق الكائن في قلوبهم ﴿ أَمِ ارتابوا ﴾ ، وشكوا في أمر نبوّته صلى الله عليه وسلم ، وعدله في الحكم ﴿ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ الله عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ ﴾ ، والحيف : الميل في الحكم ؛ يقال : حاف في قضيته أي : جار فيما حكم به ، ثم أضرب عن هذه الأمور التي صدّرها بالاستفهام الإنكاري ، فقال ﴿ بَلْ أولئك هُمُ الظالمون ﴾ أي : ليس ذلك لشيء مما ذكر ، بل لظلمهم ، وعنادهم ؛ فإنه لو كان الإعراض لشيء مما ذكر لما أتوا إليه مذعنين إذا

كان الحق لهم ، وفي هذه الآية دليل على وجوب الإجابة إلى القاضي العالم بحكم الله العادل في حكمه ؛ لأن العلماء ورثة الأنبياء ، والحكم من قضاة الإسلام العالمين بحكم الله العارفين بالكتاب ، والسنة ، العادلين في القضاء .

هو : حكم بحكم الله ، وحكم رسوله ، فالداعي إلى التحاكم إليهم قد دعا إلى الله ، وإلى رسوله أي : إلى حكمهما .

قال ابن خويز منداد : واجب على كل من دعي إلى مجلس الحاكم أن يجيب ما لم يعلم أن الحاكم فاسق .

قال القرطبي : في هذه الآية دليل على وجوب إجابة الداعي إلى الحاكم ، لأن الله سبحانه ذمّ من دعي إلى رسوله ليحكم بينه وبين خصمه بأقبح الذمّ ، فقال ﴿ أَفِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ ﴾ الآية .

انتهى .

(67/553)

فإن كان القاضي مقصراً لا يعلم بأحكام الكتاب ، والسنة ، ولا يعقل حجج الله ، ومعاني كلامه ، وكلام رسوله ، بل كان جاهلاً جهلاً بسيطاً ، وهو من لا علم له بشيء من ذلك ، أو

جهلاً مركباً ، وهو : من لا علم عنده بما ذكرنا ، ولكنه قد عرف بعض اجتهادات المجتهدين ، واطلع على شيء من علم الرأي ، فهذا في الحقيقة جاهل ، وإن اعتقد أنه يعلم بشيء من العلم ، فاعتقاده باطل ؛ فمن كان من القضاة هكذا ، فلا تجب الإجابة إليه ؛ لأنه ليس ممن يعلم بحكم الله ورسوله حتى يحكم به بين المتخاصمين إليه ، بل هو من قضاة الطاغوت ، وحكام الباطل ، فإنّ ما عرفه من علم الرأي إنما رخص في العمل به للمجتهد الذي هو منسوب إليه عند عدم الدليل من الكتاب ، والسنة ، ولم يرخص فيه لغيره ممن يأتي بعده .

وإذا تقرّر لديك هذا ، وفهمته حق فهمه علمت : أن التقليد ، والإنتساب إلى عالم من العلماء دون غيره ، والتقيد بجميع ما جاء به من رواية ورأي ، وإهمال ما عداه من أعظم ما حدث في هذه الملة الإسلامية من البدع المضلة ، والفواقر الموحشة ، فإنا لله وإنا إليه راجعون .

وقد أوضحنا هذا في مؤلفنا الذي سميناه : " القول المفيد في حكم التقليد " وفي مؤلفنا الذي سميناه : " أدب الطلب ومنتهى الأرب " فمن أراد أن يقف على حقيقة هذه البدعة التي طبقت الأقطار الإسلامية ، فليرجع إليهما .

ثم لما ذكر ما كان عليه أهل النفاق أتبع بما يجب على المؤمنين أن يفعلوه إذا دعوا إلى حكم الله ، ورسوله ، فقال ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ المؤمنين إِذَا دُعُواْ إِلَى الله وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن

يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ قرأ الجمهور بنصب : ﴿ قول ﴾ على أنه خبر كان واسمها ﴿ أن يقولوا ﴾ .

(68/553)

وقرأ عليّ والحسن وابن أبي إسحاق برفع : " قول " على أنه الاسم ، وأن المصدرية ، وما في حيزها الخبر ، وقد رجحت القراءة الأولى بما تقرّر عند النحاة من أنه إذا اجتمع معرفتان ، وكانت إحداهما أعرف جعلت التي هي أعرف اسماً .

وأما سيبويه فقد خير بين كلّ معرفتين ، ولم يفرق هذه التفرقة ، وقد قدّمنا الكلام على الدعوة إلى الله ، ورسوله للحكم بين المتخاصمين ، وذكرنا من تجب الإجابة إليه من القضاة ، ومن لا تجب ﴿ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ أي : أن يقولوا هذا القول لا قولاً آخر ، وهذا ، وإن كان على طريقة الخبر ، فليس المراد به ذلك ، بل المراد به تعليم الأدب الشرعي عند هذه الدعوة من أحد المتخاصمين للآخر .

والمعنى : أنه ينبغي للمؤمنين أن يكونوا هكذا بحيث إذا سمعوا الدعاء المذكور قابلوه بالطاعة ، والإذعان .

قال مقاتل ، وغيره : يقولون سمعنا قول النبي صلى الله عليه وسلم ، وأطعنا أمره ، وإن كان

ذلك فيما يكرهونه ، ويضرّهم ، ثم أثنى سبحانه عليهم بقوله : ﴿ أولئك ﴾ أي : المؤمنون الذين قالوا هذا القول ﴿ هُمُ المفلحون ﴾ أي : الفائزون بخير الدنيا والآخرة .

ثم أردف الثناء عليهم بثناء آخر فقال : ﴿ وَمَن يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللهَ وَيَتَّقْهِ فأولئك هُمُ الفائزون ﴾ وهذه الجملة مقرّرة لما قبلها من حسن حال المؤمنين ، وترغيب من عداهم إلى الدخول في عدادهم ، والمتابعة لهم في طاعة الله ورسوله ، والخشية من الله عزّ وجلّ ، والتقوى له .

قرأ حفص ﴿ ويتقه ﴾ بإسكان القاف على نية الجزم .

وقرأ الباقون بكسرها ، لأن جزم هذا الفعل بحذف آخره ، وأسكن الهاء أبو عمرو وأبو بكر واختلس الكسرة يعقوب وقالون عن نافع والمثنى عن أبي عمرو وحفص وأشبع كسرة الهاء الباقون .

قال ابن الأنباري : وقراءة حفص هي على لغة من قال : لم أر زيداً ، ولم أشتر طعاماً ، يسقطون الياء للجزم ، ثم يسكنون الحرف الذي قبلها ، ومنه قول الشاعر :

قالت سليمى اشتر لنا دقيقاً . . . وقول الآخر :

عجبت لمولود وليس له أب . . . وذي ولد لم يلده أبوان

وأصله يلد بكسر اللام ، وسكون الدال للجزم ، فلما سكن اللام التقى ساكنان ، فلو حرك الأوّل لرجع إلى ما وقع الفرار منه ، فحرك ثانيهما ، وهو : الدال .

ويمكن أن يقال : إنه حرك الأوّل على أصل التقاء الساكنين ، وبقي السكون على الدال لبيان ما عليه أهل هذه اللغة ، ولا يضرّ الرجوع إلى ما وقع الفرار منه ، فهذه الحركة غير تلك الحركة ، والإشارة بقوله : ﴿ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الفائزون ﴾ إلى الموصوفين بما ذكر من الطاعة ، والخشية ، والتقوى أي : هم الفائزون بالنعيم الدنيوي والأخروي لا من عداهم .

ثم حكى سبحانه عن المنافقين أنهم لما كرهوا حكمه أقسموا بأنه لو أمرهم بالخروج إلى الغزو لخرجوا ، فقال : ﴿ وَأَقْسَمُواْ بالله جَهْدَ أيمانهم لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ﴾ أي : لئن أمرتهم بالخروج إلى الجهاد ليخرجن ، و ﴿ جهد أيمانهم ﴾ منتصب على أنه مصدر مؤكد للفعل المحذوف الناصب له أي : أقسموا بالله يجهدون أيمانهم جهداً .

ومعنى ﴿ جَهْدَ أيمانهم ﴾ : طاقة ما قدروا أن يحلفوا ، مأخوذ من قولهم : جهد نفسه : إذا بلغ طاقتها ، وأقصى وسعها .

وقيل : هو منتصب على الحال والتقدير : مجتهدين في أيمانهم ، كقولهم : افعل ذلك جهدك ، وطاقتك ، وقد خلط الزمخشري الوجهين ، فجعلهما واحداً .

وجواب القسم قوله : ﴿ لَيُخْرِجَنَّ ﴾ ولما كانت مقالتهم هذه كاذبة ، وأيمانهم فاجرة ردّ الله عليهم ، فقال ﴿ قُل لاَّ تُقْسِمُواْ ﴾ أي : ردّ عليهم زاجراً لهم ، وقل لهم : لا تقسموا أي : لا تحلفوا على ما تزعمونه من الطاعة ، والخروج إلى الجهاد إن أمرتم به ، وها هنا تمّ الكلام .

(70/553)

ثم ابتدأ ، فقال : ﴿ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ﴾ ، وارتفاع طاعة على أنها خبر مبتدأ محذوف أي : طاعتهم طاعة معروفة بأنها طاعة نفاقية لم تكن عن اعتقاد ، ويجوز أن تكون طاعة مبتدأ ، لأنها قد خصصت بالصفة ، ويكون الخبر مقدّراً أي : طاعة معروفة أولى بكم من أيمانكم ، ويجوز أن ترتفع بفعل محذوف أي : لتكن منكم طاعة ، أو لتوجد ، وفي هذا ضعف لأن الفعل لا يحذف إلاّ إذا تقدّم ما يشعر به .

وقرأ زيد بن عليّ ، والترمذي " طاعة " بالنصب على المصدر لفعل محذوف أي : أطيعوا طاعة ﴿ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ من الأعمال ، وما تضمرونه من المخالفة لما تنطق به ألسنتكم ، وهذه الجملة تعليل لما قبلها من كون طاعتهم طاعة نفاق .

(71/553)

ثم أمر الله سبحانه نبيه صلى الله عليه وسلم : أن يأمرهم بطاعة الله ورسوله ، فقال : ﴿ قُلْ أَطِيعُواْ اللهَ وَأَطِيعُواْ الرسول ﴾ طاعة ظاهرة ، وباطنة بخلوص اعتقاد ، وصحة نية ، وهذا التكرير منه تعالى لتأكيد وجوب الطاعة عليهم ، فإن قوله : ﴿ قُل لاَّ تُقْسِمُواْ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ﴾ في حكم الأمر بالطاعة ، وقيل : إنهما مختلفان ، فالأوّل نهي بطريق الردّ ، والتوبيخ ، والثاني أمر بطريق التكليف لهم ، والإيجاب عليهم ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ ﴾ خطاب للمأمورين ، وأصله : فإن تتولوا ، فحذف إحدى التاءين تخفيفاً ، وفيه رجوع من الخطاب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الخطاب لهم لتأكيد الأمر عليهم ، والمبالغة في العناية بهدايتهم إلى الطاعة ، والانقياد ، وجواب الشرط قوله : ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمّلَ وَعَلَيْكُمْ مَّا حُمّلْتُمْ ﴾ أي : فاعلموا أنما على النبي صلى الله عليه وسلم ما حمل مما أمر به من التبليغ ، وقد فعل ، وعليكم ما حملتم أي : ما أمرتم به من الطاعة ، وهو وعيد لهم ، كأنه قال لهم : فإن توليتم ، فقد صرتم حاملين للحمل الثقيل ﴿ وَإِن تُطِيعُوهُ ﴾ فيما أمركم به ، ونهاكم عنه ﴿ تَهْتَدُواْ ﴾ إلى الحق ، وترشدوا إلى الخير ، وتفوزوا بالأجر ، وجملة : ﴿ وَمَا عَلَى الرسول إِلاَّ البلاغ المبين ﴾ مقرّرة لما قبلها ، واللام إما للعهد ، فيراد بالرسول نبينا صلى الله عليه وسلم ، وإما للجنس ، فيراد كل رسول ، والبلاغ المبين : التبليغ الواضح ، أو الموضح . قيل : يجوز أن يكون قوله : ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ ﴾ ماضياً ، وتكون الواو لضمير الغائبين ، وتكون

هذه الجملة الشرطية مما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقوله لهم ، ويكون في الكلام التفات من الخطاب إلى الغيبة ، والأوّل أرجح .

(72/553)

ويؤيده الخطاب في قوله ﴿ وَعَلَيْكُمْ مَّا حُمِّلْتُمْ ﴾ ، وفي قوله ﴿ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ ﴾ ، ويؤيده أيضاً قراءة البزي " فإن تولوا " بتشديد التاء ، وإن كانت ضعيفة لما فيها من الجمع بين ساكنين .

﴿ وَعَدَ الله الذين ءامَنُواْ مِنْكُمْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ هذه الجملة مقرّرة لما قبلها من أن طاعتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم سبب لهدايتهم ، وهذا وعد من الله سبحانه لمن آمن بالله وعمل الأعمال الصالحات بالاستخلاف لهم في الأرض لما استخلف الذين من قبلهم من الأمم ، وهو وعد يعم جميع الأمة .

وقيل : هو خاص بالصحابة ، ولا وجه لذلك ، فإن الإيمان وعمل الصالحات لا يختص بهم ، بل يمكن وقوع ذلك من كل واحد من هذه الأمة ، ومن عمل بكتاب الله وسنة رسوله ، فقد أطاع الله ورسوله ، واللام في ﴿ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى الأرض ﴾ جواب لقسم محذوف ، أو جواب للوعد بتنزيله منزلة القسم ، لأنه ناجز لا محالة ، ومعنى ﴿ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأرض

﴾ : ليجعلنهم فيها خلفاء يتصرفون فيها تصرف الملوك في مملوكاتهم ، وقد أبعد من قال : إنها مختصة بالخلفاء الأربعة ، أو بالمهاجرين ، أو بأن المراد بالأرض أرض مكة ، وقد عرفت أن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، وظاهر قوله : ﴿ كَمَا استخلف الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ كل من استخلفه الله في أرضه ، فلا يخصّ ذلك ببني إسرائيل ولا أمة من الأمم دون غيرها .

قرأ الجمهور ﴿ كَمَا استخلف ﴾ بفتح الفوقية على البناء للفاعل .

(73/553)

وقرأ عيسى بن عمر ، وأبو بكر ، والمفضل ، عن عاصم بضمها على البناء للمفعول ، ومحل الكاف النصب على المصدرية أي : استخلافاً كما استخلف ، وجملة ﴿ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الذي ارتضى لَهُمْ ﴾ معطوفة على ليستخلفنهم داخلة تحت حكمه كائنة من جملة الجواب ، والمراد بالتمكين هنا : التثبيت ، والتقرير أي : يجعله الله ثابتاً مقرّراً ، ويوسع لهم في البلاد ، ويظهر دينهم على جميع الأديان ، والمراد بالدين هنا : الإسلام ، كما في قوله : ﴿ وَرَضِيتُ لَكُمُ الإسلام دِيناً ﴾ [المائدة : 3] .

ذكر سبحانه وتعالى الاستخلاف لهم أوّلاً ، وهو جعلهم ملوكاً ، وذكر التمكين ثانياً ، فأفاد

ذلك أن هذا الملك ليس على وجه العروض ، والطروّ ، بل على وجه الاستقرار والثبات ، بحيث يكون الملك لهم ، ولعقبهم من بعدهم .

وجملة ﴿ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً ﴾ معطوفة على التي قبلها .

قرأ ابن كثير وابن محيصن ويعقوب وأبو بكر : " ليبدلنهم " بالتخفيف من أبدل ، وهي قراءة الحسن ، واختارها أبو حاتم .

وقرأ الباقون بالتشديد من بدّل ، واختارها أبو عبيد ، وهما لغتان ، وزيادة البناء تدلّ على زيادة المعنى ، فقراءة التشديد أرجح من قراءة التخفيف .

قال النحاس : وزعم أحمد بن يحيى ثعلب أن بين التخفيف والتثقيل فرقاً ، وأنه يقال : بدّلته أي : غيرته ، وأبدلته : أزلته ، وجعلت غيره .

قال النحاس ، وهذا القول صحيح .

والمعنى : أنه سبحانه يجعل لهم مكان ما كانوا فيه من الخوف من الأعداء أمناً ، ويذهب عنهم أسباب الخوف الذي كانوا فيه بحيث لا يخشون إلاّ الله سبحانه ، ولا يرجون غيره .

(74/553)

وقد كان المسلمون قبل الهجرة ، وبعدها بقليل في خوف شديد من المشركين ، لا يخرجون إلاّ في السلاح ، ولا يمسون ويصبحون إلاّ على ترقب لنزول المضرّة بهم من الكفار ، ثم صاروا في غاية الأمن ، والدعة ، وأذلّ الله لهم شياطين المشركين ، وفتح عليهم البلاد ، ومهد لهم في الأرض ، ومكنهم منها ، فلله الحمد ، وجملة ﴿ يَعْبُدُونَنِي ﴾ في محل نصب على الحال ، ويجوز أن تكون مستأنفة مسوقة للثناء عليهم ، وجملة ﴿ لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً ﴾ في محل نصب على الحال من فاعل يعبدونني أي : يعبدونني ، غير مشركين بي في العبادة شيئاً من الأشياء ، وقيل : معناه لا يراؤون بعبادتي أحداً ، وقيل : معناه لا يخافون غيري ، وقيل : معناه لا يحبون غيري ﴿ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذلك فأولئك هُمُ الفاسقون ﴾ أي : من كفر هذه النعم بعد ذلك الوعد الصحيح ، أو من استمرّ على الكفر ، أو من كفر بعد إيمان ، فأولئك الكافرون ، هم الفاسقون ؛ أي : الكاملون في الفسق .

وهو الخروج عن الطاعة ، والطغيان في الكفر .

وجملة ﴿ وَأَقِيمُواْ الصلاة ﴾ معطوفة على مقدّر يدلّ عليه ما تقدّم ، كأنه قيل لهم : فآمنوا ، واعملوا صالحاً ، وأقيموا الصلاة ، وقيل : معطوف على ﴿ وَأَطِيعُواْ الله ﴾ ، وقيل التقدير : فلا تكفروا ، وأقيموا الصلاة .

وقد تقدّم الكلام على إقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وكرّر الأمر بطاعة الرسول للتأكيد ، وخصه بالطاعة ، لأن طاعته طاعة لله ، ولم يذكر ما يطيعونه فيه لقصد التعميم كما يشعر به الحذف على ما تقرّر في علم المعاني من أن مثل هذا الحذف مشعر بالتعميم ﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ أي : افعلوا ما ذكر من إقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وطاعة الرسول راجين أن يرحمكم الله سبحانه ﴿ لا تَحْسَبَنَّ الذين كَفَرُواْ مُعْجِزِينَ فِى الأرض ﴾ قرأ ابن عامر ، وحمزة ، وأبو حيوة " لا يحسبنّ " بالتحتية بمعنى : لا تحسبنّ الذين كفروا ، وقرأ الباقون بالفوقية أي : لا تحسبنّ يا محمد ، والموصول المفعول الأوّل ، ومعجزين الثاني ، لأن الحسبان يتعدّى إلى مفعولين ، قاله الزجاج والفرّاء وأبو علي .

وأما على القراءة الأولى ، فيكون المفعول الأوّل محذوفاً أي : لا يحسبنّ الذين كفروا أنفسهم .

قال النحاس : وما علمت أحداً بصرياً ولا كوفياً إلاّ وهو يخطّىء قراءة حمزة ، و ﴿ معجزين ﴾ معناه : فائتين .

وقد تقدّم تفسيره ، وتفسير ما بعده .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : ﴿ وَيَقُولُونَ آمَنَّا

بالله وبالرسول ﴾ الآية قال : أناس من المنافقين أظهروا الإيمان ، وهم في ذلك يصدّون عن سبيل الله وطاعته ، وجهاد مع رسوله صلى الله عليه وسلم .

(76/553)

وأخرجوا أيضاً عن الحسن قال : إن الرجل كان يكون بينه ، وبين الرجل خصومة ، أو منازعة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإذا دعي إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو محقّ أذعن ، وعلم أن النبي سيقضي له بالحقّ ، وإذا أراد أن يظلم فدعي إلى النبي صلى الله عليه وسلم أعرض ، وقال : أنطلق إلى فلان ، فأنزل الله سبحانه : ﴿ وَإِذَا دُعُواْ إِلَى الله وَرَسُولِهِ ﴾ إلى قوله : ﴿ هُمُ الظالمون ﴾ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من كان بينه وبين أخيه شيء ، فدعاه إلى حكم من حكام المسلمين ، فلم يجب ، فهو ظالم لا حقّ له " قال ابن كثير بعد أن ساق هذا المتن ما لفظه : وهذا حديث غريب ، وهو مرسل .

وقال ابن العربي : هذا حديث باطل ، فأما قوله : فهو ظالم ، فكلام صحيح .

وأما قوله : فلا حق له ، فلا يصح .

ويحتمل أن يريد أنه على غير الحق .

انتهى .

وأقول : أما كون الحديث مرسلاً ، فظاهر .

وأما دعوى كونه باطلاً ، فمحتاجة إلى برهان ، فقد أخرجه ثلاثة من أئمة الحديث عبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم كما ذكرنا ، ويبعد كل البعد أن ينفق عليهم ما هو باطل ، وإسناده عند ابن أبي حاتم هكذا : قال ابن أبي حاتم : حدّثنا أبيّ حدّثنا موسى بن إسماعيل حدّثنا مبارك حدّثنا الحسن فذكره .

وليس في هؤلاء كذاب ولا وضاع .

ويشهد له ما أخرجه الطبراني عن الحسن عن سمرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من دعي إلى سلطان فلم يجب فهو ظالم لا حقّ له " انتهى .

ولا يخفاك أن قضاة العدل ، وحكام الشرع الذين هم على الصفة التي قدّمنا لك قريباً هم سلاطين الدين المترجمون عن الكتاب ، والسنة ، المبينون للناس ما نزل إليهم .

وأخرج ابن مردويه ، عن ابن عباس قال : أتى قوم النبي صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : يا رسول الله لو أمرتنا أن نخرج من أموالنا لخرجنا ، فأنزل الله ﴿ وَأَقْسَمُواْ بِاللّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ﴾ الآية .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل في الآية قال : ذلك في شأن الجهاد ، قال : يأمرهم أن لا يحلفوا على شيء ﴿ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ﴾ قال : أمرهم أن يكون منهم طاعة معروفة للنبي صلى الله عليه وسلم من غير أن يقسموا .

وأخرج ابن المنذر ، عن مجاهد : ﴿ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ﴾ يقول : قد عرفت طاعتهم أي : إنكم تكذبون به .

وأخرج مسلم ، والترمذي ، وغيرهما ، عن علقمة بن وائل الحضرمي ، عن أبيه قال : قدم زيد بن أسلم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : أرأيت إن كان علينا أمراء يأخذون منا الحق ، ولا يعطونا ؟ قال : " فإنما عليهم ما حملوا وعليكم ما حملتم " وأخرج ابن جرير ، وابن قانع ، والطبراني عن علقمة بن وائل الحضرمي ، عن سلمة بن يزيد الجعفي قال : قلت : يا رسول .

. .

فذكر نحوه .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن الزبير عن جابر أنه سئل : إن كان عليّ إمام فاجر ، فلقيت معه أهل ضلالة أقاتل أم لا ؟ قال : " قاتل أهل الضلالة أينما وجدتهم ، وعلى الإمام ما حمل وعليكم ما حملتم " .

وأخرج ابن أبي حاتم ، وابن مردويه عن البراء في قوله ﴿ وَعَدَ اللهُ الذين ءامَنُواْ مِنْكُمْ ﴾ الآية .

قال : فينا نزلت ، ونحن في خوف شديد .

(78/553)

وأخرج عبد بن حميد ، وابن أبي حاتم ، عن أبي العالية قال : كان النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وأصحابه بمكة نحواً من عشر سنين يدعون إلى الله وحده ، وعبادته وحده لا شريك له سرًّا ، وهم خائفون لا يؤمرون بالقتال ، حتى أمروا بالهجرة إلى المدينة ، فقدموا المدينة ، فأمرهم الله بالقتال ، وكانوا بها خائفين يمسون في السلاح ، ويصبحون في السلاح ، فغبروا بذلك ما شاء الله ، ثم إن رجلاً من أصحابه قال : يا رسول الله أبد الدهر نحن خائفون هكذا ؟ ما يأتي علينا يوم نأمن فيه ، ونضع فيه السلاح ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لن تغبروا إلاّ يسيراً حتى يجلس الرجل منكم في الملأ العظيم محتبياً ليست فيهم حديدة " ، فأنزل الله : ﴿ وَعَدَ اللهُ الذين ءامَنُواْ مِنْكُمْ وَعَمِلُواْ الصالحات لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى الأرض ﴾ إلى آخر الآية ، فأظهر الله نبيه صلى الله عليه وسلم على جزيرة العرب ، فأمنوا ووضعوا السلاح .

ثم إن الله قبض نبيه ، فكانوا كذلك آمنين في إمارة أبي بكر وعمر وعثمان حتى وقعوا فيما وقعوا وكفروا النعمة ، فأدخل الله عليهم الخوف الذي كان رفع عنهم ، واتخذوا الحجر والشرط وغيروا فغير ما بهم .

وأخرج ابن المنذر والطبراني في الأوسط والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الدلائل والضياء في المختارة عن أبيّ بن كعب .

قال : لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ، وآوتهم الأنصار رمتهم العرب عن قوس واحد ، فكانوا لا يبيتون إلاّ في السلاح ، ولا يصبحون إلاّ فيه ، فقالوا : أترون أنا نعيش حتى نبيت آمنين مطمئنين لا نخاف إلاّ الله ، فنزلت : ﴿ وَعَدَ الله الذين ءامَنُواْ مِنْكُمْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ الآية .

وأخرج عبد بن حميد ، عن ابن عباس : ﴿ يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً ﴾ قال : لا يخافون أحداً غيري .

(79/553)

وأخرج الفريابي ، وابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر عن مجاهد مثله ، قال : ﴿ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذلك فأولئك هُمُ الفاسقون ﴾ : العاصون .

وأخرج عبد بن حميد عن أبي العالية قال : كفر بهذه النعمة ، ليس الكفر بالله .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة ﴿ مُعْجِزِينَ فِي الأرض ﴾ قال : سابقين في الأرض .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 4 صـ ﴾

(80/553)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾

الأشبه أن هذا الكلام استئناف ابتدائي انتقل إليه بمناسبة التعرض إلى أحوال المنافقين الذين أبقاهم على النفاق تردّدُهم في عاقبة أمر المسلمين ، وخشيتُهم أن لا يستقر بالمسلمين المُقام بالمدينة حتى يغزوَهم المشركون ، أو يخرجهم المنافقون حين يجدون الفرصة لذلك كما حكى الله تعالى من قول عبد الله بن أُبَيّ : ﴿ لئن رجعنا إلى المدينة ليُخرجن الأعزّ منها الأذَلّ ﴾ [المنافقون : 8] ، فكانوا يظهرون الإسلام اتقاء من تمام أمر الإسلام ويبطنون الكفر ممالاة لأهل الشرك حتى إذا ظهروا على المسلمين لم يلمزوا المنافقين بأنهم قد بدّلوا دينهم ، مع ما لهذا الكلام من المناسبة مع قوله : ﴿ وإن تطيعوه تهتدوا ﴾ [النور : 54] ، فيكون المعنى : وإن تطيعوه تهتدوا وتُنصروا وتأمنوا .

ومع ما روي من حوادث تخوف المسلمين ضُعفهم أمام أعدائهم فكانوا مشفقين عن غزو أهل الشرك ومن كيد المنافقين ودلالتهم المشركين على عورات المسلمين فقيل كانت تلك الحوادث سبباً لنزول هذه الآية .

قال أبو العالية : مكث رسول الله بمكة عشر سنين بعد ما أوحي إليه خائفاً هو وأصحابه ثم أمر بالهجرة إلى المدينة وكانوا فيها خائفين يصبحون ويُمسون في السلاح .

فقال رجل : يا رسول الله أمَا يأتي علينَا يوم نأمن فيه ونضع السلاح ؟ فقال رسول الله : " لا تَغْبُرون (أي لا تمكثون) إلا قليلاً حتى يجلس الرجل منكم في المَلإ العظيم محتبياً ليس عليه حديدة " .

ونزلت هذه الآية .

فكان اجتماع هذه المناسبات سبباً لنزول هذه الآية في موقعها هذا بما اشتملت عليه من الموعود به الذي لم يكن مقتصراً على إبدال خوفهم أمناً كما اقتضاه أثر أبي العالية ، ولكنه كان من جملة الموعود كما كان سببه من عِداد الأسباب .

(81/553)

وقد كان المسلمون واثقين بالأمن ولكن الله قدم على وَعْدهم بالأمن أن وَعَدهم بالاستخلاف في الأرض وتمكين الدين والشريعة فيهم تنبيهاً لهم بأن سنة الله أنه لا تأمن أمة بأس غيرها حتى تكون قوية مكينة مهيمنة على أصقاعها .

ففي الوعد بالاستخلاف والتمكين وتبديل الخوف أمناً إيماء إلى التهيُّؤ لتحصيل أسبابه مع ضمان التوفيق لهم والنجاح إن هم أخذوا في ذلك ، وأنّ ملاك ذلك هو طاعة الله والرسول صلى الله عليه وسلم ﴿ وإن تطيعوه تهتدوا ﴾ [النور : 54] ، وإذا حلّ الاهتداء في النفوس نشأت الصالحات فأقبلت مسبباتها تنهال على الأمة ، فالأسباب هي الإيمان وعمل الصالحات .

والموصول عام لا يختص بمعيّن ، وعُمُومه عُرفي ، أي غالب فلا يناكده ما يكون في الأمة من مقصرين في عمل الصالحات فإن تلك المنافع عائدة على مجموع الأمة .

والخطاب في ﴿ منكم ﴾ لأمة الدعوة بمشركيها ومنافقيها بأن الفريق الذي يتحقق فيه الإيمان وعمل الصالحات هو الموعود بهذا الوعد .

والتعريف في ﴿ الصالحات ﴾ للاستغراق ، أي عملوا جميع الصالحات ، وهي الأعْمال التي وصفها الشرع بأنها صلاح ، وترك الأعمال التي وصفها الشرع بأنها فساد لأن إبطال الفساد صلاح .

فالصالحات جمع صالحة : وهي الخصلة والفَعلة ذات الصلاح ، أي التي شهد الشرع بأنها

صالحة .

وقد تقدم في أول البقرة .

واستغراق ﴿ الصالحات ﴾ استغراق عرفي ، أي عَمِل معظم الصالحات ومهماتها ومراجعها مما يعود إلى تحقيق كليات الشريعة وجري حالة مجتمع الأمة على مسلك الاستقامة ، وذلك يحصل بالاستقامة في الخويصَّة وبحسن التصرف في العلاقة المدنية بين الأمة على حسب ما أمر به الدين أفراد الأمة كل فيما هو من عمل أمثاله الخليفة فمن دونه ، وذلك في غالب أحوال تصرفاتهم ، ولا التفات إلى الفلتات المناقضة فإنها معفو عنها إذا لم يُسترسل عليها وإذا ما وقع السعي في تداركها .

(82/553)

والاستقامة في الخُويصَّة هي موجب هذا الوعد وهي الإيمان وقواعد الإسلام ،

والاستقامة في المعاملة هي التي بها تيسير سبب الموعود به .

وقد بين الله تعالى أصول انتظام أمور الأمة في تضاعيف كتابه وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم مثل قوله تعالى : ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي ﴾ [النحل : 90] وقوله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا

أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراضٍ منكم ولا تقتلوا أنفسكم ﴾ [النساء : 29] وقوله في سياق الذم : ﴿ وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد ﴾ [البقرة : 205] وقوله : ﴿ فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم ﴾ [محمّد : 22] .

وبين الرسول عليه الصلاة والسلام تصرفات ولاة الأمور في شؤون الرعية ومع أهل الذمة ومع الأعداء في الغزو والصلح والمهادنة والمعاهدة ، وبين أصول المعاملات بين الناس .

فمتى اهتم ولاة الأمور وعموم الأمة باتباع ما وضّح لهم الشرع تحقق وعد الله إياهم بهذا الوعد الجليل .

وهذه التكاليف التي جعلها الله قِواماً لصلاح أمور الأمة ووعد عليها بإعطاء الخلافة والتمكين والأمن صارت بترتيب تلك الموعدة عليها أسباباً لها .

وكانت الموعدة كالمسبب عليها فشابهت من هذه الحالة خطاب الوضع ، وجُعل الإيمان عمودها وشرطاً للخروج من عهدة التكليف بها وتوثيقاً لحصول آثارها بأن جعله جالب رضاه وعنايته .

فبه يتيسر للأمة تناول أسباب النجاح ، وبه يحف اللطف الإلهي بالأمة في أطوار مزاولتها واستجلابها بحيث يدفع عنهم العراقيل والموانع ، وربما حف بهم اللطف والعناية عند

تقصيرهم في القيام بها .

وعند تخليطهم الصلاح بالفساد فرفق بهم ولم يعجّل لهم الشر وتلوّم لهم في إنزال العقوبة .

(83/553)

وقد أشار إلى هذا قوله تعالى : ﴿ ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون إن في هذا لبلاغاً لقوم عابدين وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ [الأنبياء : 105 107] يريد بذلك كله المسلمين .

وقد مضى الكلام على ذلك في سورة الأنبياء وقوله:

﴿ إن الله يدافع عن الذين آمنوا ﴾ في سورة الحج (38) .

فلو أن قوماً غير مسلمين عملوا في سيرتهم وشؤون رعيتهم بمثل ما أمر الله به المسلمين من الصالحات بحيث لم يعوزهم إلا الإيمان بالله ورسوله لاجتنوا من سيرتهم صوراً تشبه الحقائق التي يجتنيها المسلمون لأن تلك الأعمال صارت أسباباً وسنناً تترتب عليها آثارها التي جعلها الله سنناً وقوانين عمرانية سوى أنهم لسوء معاملتهم ربهم بجحوده أو بالإشراك به أو بعدم تصديق رسوله يكونون بمنأى عن كفالته وتأييده إياهم ودفع العوادي عنهم ، بل يكلهم إلى أعمالهم وجهودهم على حسب المعتاد .

ألا ترى أن القادة الأروبيين بعد أن اقتبسوا من الإسلام قوانينه ونظامه بما مارسوه من شؤون المسلمين في خلال الحروب الصليبية ثم بما اكتسبوه من ممارسة كتب التاريخ الإسلامي والفقه الإسلامي والسيرة النبوية قد نظموا ممالكهم على قواعد العدل والإحسان والمواساة وكراهة البغي والعدوان فعظمت دولهم واستقامت أمورهم .

ولا عجب في ذلك فقد سلط الله الأشوريين وهم مشركون على بني إسرائيل لفسادهم فقال : ﴿ وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلُنّ علوّاً كبيراً فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا أولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولاً ﴾ وقد تقدم في سورة الإسراء (4 ، 5) .

والاستخلاف : جعلهم خلفاء ، أي عن الله في تدبير شؤون عباده كما قال : ﴿ إني جاعل في الأرض خليفة ﴾ وقد تقدم في سورة البقرة (30) .

والسين والتاء للتأكيد .

وأصله : ليخلفنهم في الأرض .

(84/553)

وتعليق فعل الاستخلاف بمجموع الذين آمنوا وعملوا الصالحات وإن كان تدبير شؤون الأمة منوطاً بولاة الأمور لا بمجموع الأمة من حيث إن لمجموع الأمة انتفاعاً بذلك وإعانة عليه كل بحسب مقامه في المجتمع ، كما حكى تعالى قولَ موسى لبني إسرائيل : ﴿ وجعلكم ملوكاً ﴾ كما تقدم في سورة العقود (20) .

ولهذا فالوجه أن المراد من الأرض جميعُها ، وأن الظرفية المدلولة بحرف (في) ظاهرة في جزء من الأرض وهو موطن حكومة الأمة وحيث تنال أحكامُها سكانه .

والأصل في الظرفية عدم استيعاب المظروف الظرف كقوله تعالى : ﴿ واستعمركم فيها ﴾ [هود : 61] .

وإنما صيغ الكلام في هذا النظم ولم يقتصر على قوله : ﴿ ليستخلفنهم ﴾ دون تقييد بقوله : ﴿ في الأرض ﴾ ل ﴿ ليستخلفنهم ﴾ للإيماء إلى أن الاستخلاف يحصل في معظم الأرض .

وذلك يقبل الامتداد والانقباض كما كان الحال يوم خروج بلاد الأندلس من حكم الإسلام . ولكن حرمة الأمة واتقاء بأسها ينتشر في المعمورة كلها بحيث يخافهم من عداهم من الأمم في الأرض التي لم تدخل تحت حكمهم ويسعون الجهد في مرضاتهم ومسالمتهم .

وهذا استخلاف كامل ولذلك نظّر بتشبيهه باستخلاف الذين من قبلهم يعني الأمم التي حكمت معظم العالم وأخافت جميعه مثل الأشوريين والمصريين والفنيقيين واليهود زمن

سليمان ، والفرس ، واليونان ، والرومان .

وعن مالك : أن هذه الآية نزلت في أبي بكر وعمر فيكون موصول الجمع مستعملاً في معنى المثنى .

وعن الضحاك : هذه الآية تتضمن خلافة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي .

ولعل هذا مراد مالك .

وعلى هذا فالمراد بالذين من قبلهم صلحاء الملوك مثل : يوسف ، وداود ، وسليمان ، وأنوشروان ، وأصحمة النجاشي ، ومُلكي صادق الذي كان في زمن إبراهيم ويدعى حمورابي ، وذي القرنين ، وإسكندر المقدوني ، وبعض من ولي جمهورية اليونان .

(85/553)

وفي الآية دلالة واضحة على أن خلفاء الأمة مثل : أبي بكر وعمر وعثمان وعلي والحسن ومعاوية كانوا بمحل الرضى من الله تعالى لأنه استخلفهم استخلافاً كاملاً كما استخلف الذين من قبلهم وفتح لهم البلاد من المشرق إلى المغرب وأخاف منهم الأكاسرة والقياصرة .

وجملة : ﴿ ليستخلفنهم ﴾ بيان لجملة : ﴿ وعد ﴾ لأنها عين الموعود به .

ولما كانت جملةَ قسم وهو من قبيل القول كانت إحداهما بياناً للأخرى .

وقرأ الجمهور : ﴿ كما استخلف ﴾ بالبناء للفاعل ، أي كما استخلف الله الذين من قبلهم .

وقرأه أبو بكر عن عاصم بالبناء للنائب فيكون ﴿ الذين ﴾ نائب فاعل .

وتمكين الدين : انتشاره في القبائل والأمم وكثرة متبعيه .

استعير التمكين الذي حقيقته التثبيت والترسيخ لمعنى الشيوع والانتشار لأنه إذا انتشر لم يخش عليه الانعدام فكان كالشيء المثبَّت المرسّخ ، وإذا كان متَّبعوه في قلة كان كالشيء المضطرب المتزلزل .

وهذا الوعد هو الذي أشار إليه النبي صلى الله عليه وسلم في أحاديث كثيرة منها حديث الحديبية إذ جاء فيه قوله : " وإن هم أبوا (أي إلا القتال) فوالذي نفسي بيده لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي (أي ينفصل مقدم العنق عن الجسد) ولينفذنَّ الله أمره " .

وقوله : ﴿ لهم ﴾ مقتضى الظاهر فيه أن يكون بعد قوله : ﴿ دينهم ﴾ لأن المجرور بالحرف أضعف تعلقاً من مفعول الفعل ، فقدم ﴿ لهم ﴾ عليه للإيماء إلى العناية بهم ، أي بكون التمكين لأجلهم ، كتقديم المجرور على المفعولين في قوله : ﴿ ألم نشرح لك صدرك ووضعنا عنك وزرك ﴾ [الشرح : 1 ، 2] .

وإضافة الدين إلى ضميرهم لتشريفهم به لأنه دين الله كما دل عليه قوله عقبه : ﴿ الذي ارتضى لهم ﴾ ، أي الذي اختاره ليكون دينهم ، فيقتضي ذلك أنه اختارهم أيضاً ليكونوا

أتباع هذا الدين .

وفيه إشارة إلى أن الموصوفين بهذه الصلة هم الذين ينشرون هذا الدين في الأمم لأنه دينهم فيكون تمكنه في الناس بواسطتهم .

(86/553)

وإنما قال : ﴿ وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً ﴾ ولم يقل : وليؤمننهم ، كما قال في سابقَيْه لأنهم ما كانوا يطمحون يومئذٍ إلا إلى الأمن ، كما ورد في حديث أبي العالية المتقدم آنفاً ، فكانوا في حالة هي ضد الأمن ولو أعطوا الأمن دون أن يكونوا في حالة خوف لكان الأمن منة واحدة .

وإضافة الخوف إلى ضميرهم للإشارة إلى أنه خوف معروف مقرر .

وتنكير ﴿ أمناً ﴾ للتعظيم بقرينة كونه مبدّلاً من بعد خوفهم المعروف بالشدة .

والمقصود : الأمن من أعدائهم المشركين والمنافقين .

وفيه بشارة بأن الله مزيل الشرك والنفاق من الأمة .

وليس هذا الوعد بمقتض أن لا تحدث حوادث خوف في الأمة في بعض الأقطار كالخوف الذي اعترى أهل المدينة من ثورة أهل مصر الذين قادهم الضالّ مالك الأشتر النخعي ،

ومثل الخوف الذي حدث في المدينة يوم الحرّة وغير ذلك من الحوادث وإنما كانت تلك مسببات عن أسباب بشرية وإلى الله إيابهم وعلى الله حسابهم .

وقرأ الجمهور : ﴿ وليُبدّلنهم ﴾ بفتح الموحدة وتشديد الدال .

وقرأه ابن كثير وأبو بكر عن عاصم ويعقوب بسكون الموحدة وتخفيف الدال والمعنى واحد .

وجملة : ﴿ يعبدونني ﴾ حال من ضمائر الغيبة المتقدمة ، أي هذا الوعد جرى في حال عبادتهم إياي .

وفي هذه الحال إيذان بأن ذلك الوعد جزاء لهم ، أي وعدتُّهم هذا الوعد الشامل لهم والباقي في خلفهم لأنهم يعبدونني عبادة خالصة عن الإشراك .

وعبر بالمضارع لإفادة استمرارهم على ذلك تعريضاً بالمنافقين إذ كانوا يؤمنون ثم ينقلبون .

وجملة : ﴿ لا يشركون بي شيئاً ﴾ حال من ضمير الرفع في ﴿ يعبدونني ﴾ تقييداً للعبادة بهذه الحالة لأن المشركين قد يعبدون الله ولكنهم يشركون معه غيره .

وفي هاتين الجملتين ما يؤيد ما قدمناه آنفاً من كون الإيمان هو الشريطة في كفالة الله للأمة هذا الوعد .

وجملة : ﴿ ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ﴾ تحذير بعد البشارة على عادة القرآن في تعقيب البشارة بالنذارة والعكس دفعاً للاتكال .

والإشارة في قوله : ﴿ بعد ذلك ﴾ إلى الإيمان المعبر عنه هنا بـ ﴿ يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ﴾ والمعبر عنه في أول الآيات بقوله : ﴿ وعد الله الذين آمنوا ﴾ ، أي ومن كفر بعد الإيمان وما حصل له من البشارة عليه فهم الفاسقون عن الحق .

وصيغة الحصر المأخوذة من تعريف المسند بلام الجنس مستعملة مبالغة للدلالة على أنه الفسق الكامل .

ووصف الفاسقين له رشيق الموقع ، لأن مادة الفسق تدل على الخروج من المكان من منفذ ضيق .

وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (56)

عطف على جملة : ﴿ يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ﴾ [النور : 55] لما فيها من معنى الأمر بترك الشرك ، فكأنه قيل : اعبدوني ولا تشركوا وأقيموا الصلاة ، لأن الخبر إذا كان يتضمن معنى الأمر كان في قوة فعل الأمر حتى أنه قد يجزم جوابه كما في قوله تعالى : ﴿ تؤمنون بالله ورسوله ﴾ إلى قوله : ﴿ يغفرْ لكم ذنوبكم ﴾ [الصفّ : 11 12] بجزم ﴿ يغفرْ ﴾ لأن قوله : ﴿ تؤمنون ﴾ في قوة أن يقول : آمنوا بالله .

والخطاب موجه للذين آمنوا خاصة بعد أن كان موجهاً لأمة الدعوة على حد قوله تعالى : ﴿ يوسفُ أعرِضْ عن هذا واستغفري لذنبك ﴾ [يوسف : 29] ، فالطاعة المأمور بها هنا غير الطاعة التي في قوله : ﴿ قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن تولوا ﴾ [النور : 54] الخ لأن تلك دعوة للمعرضين وهذه ازدياد للمؤمنين .

وقد جمعت هذه الآية جميع الأعمال الصالحات فأهمها بالتصريح وسائرها بعموم حذف المتعلق بقوله : ﴿ وأطيعوا الرسول ﴾ أي في كل ما يأمركم وينهاكم .

ورتب على ذلك رجاء حصول الرحمة لهم ، أي في الدنيا بتحقيق الوعد الذي من رحمته الأمن وفي الآخرة بالدرجات العلى .

(88/553)

والكلام على (لعل) تقدم في غير موضع في سورة البقرة .

لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ (57)

استئناف ابتدائي لتحقيق ما اقتضاه قوله : ﴿ وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً ﴾ [النور : 55] ، فقد كان المشركون يومئذٍ لم يزالوا في قوة وكثرة ، وكان المسلمون لم يزالوا يخافون بأسهم فربما كان الوعد بالأمن من بأسهم متلقىً بالتعجب والاستبطاء الشبيه بالتردد

فجاء قوله : ﴿ لا تحسبن الذين كفروا معجزين في الأرض ﴾ تطميناً وتسلية .

والخطاب لمن قد يخامره التعجب والاستبطاء دون تعيين .

والمقصود من النهي عن هذا الحسبان التنبيه على تحقيق الخبر .

وقراءة الجمهور : ﴿ تحسبن ﴾ بتاء الخطاب .

وقرأ ابن عامر وحمزة وحده بياء الغيبة فصار ﴿ الذين كفروا ﴾ فاعلّ ﴿ يحسبن ﴾

فيبقى ل ﴿ يحسبن ﴾ مفعول واحد هو ﴿ معجزين ﴾ .

فقال أبو حاتم والنحاس والفراء : هي خطأ أو ضعيفة لأن فعل الحسبان يقتضي مفعولين .

وهذا القول جرأة على قراءة متواترة .

وقال الزجاج : المفعول الأول محذوف تقديره : أنفسهم ، وقد وفق لأن الحذف ليس بعزيز في الكلام .

وفي "الكشاف" أن ﴿ في الأرض ﴾ هو المفعول الثاني ، أي لا يحسبوا ناساً معجزين في الأرض (يعني ما من كائن في الأرض إلا وهو في متناول قدرة الله إن شاء أخذه ، أي فلا ملجأ لهم في الأرض كلها) قال : "وهذا معنى قوي جيّد" .

والمعجز : الذي يُعجز غيره ، أي يجعله عاجزاً عن غلبه .

وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ إن ما توعدون لآتٍ وما أنتم بمعجزين ﴾ في سورة الأنعام (134) .

وكذلك المعاجز بمعنى المحاول عجز ضده تقدم في قوله تعالى : ﴿ والذين سعوا في آياتنا معاجزين ﴾ في سورة الحج (51) .

والأرض : هي أرض الدنيا ، أي هم غير غالبين في الدنيا كما حسبوا أنه ليس ثمة عالم آخر .

(89/553)

وفي الأرض ﴾ متعلق بـ ﴿ بمعجزين ﴾ على قراءة الجمهور وعلى بعض التوجيهات من قراءة حمزة وابن عامر ، أو هو مفعول ثان على بعض التوجيهات كما علمت .

وقوله : ﴿ ومأواهم النار ﴾ أي هم في الآخرة معلوم أن مأواهم النار فقد خسروا الدارين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 18 صـ ﴾

(90/553)

وقال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ وَعَدَ اللهُ الذين آمَنُواْ مِنْكُمْ وَعَمِلُواْ الصالحات لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأرض كَمَا استخلف الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ .

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أنه وعد الذين آمنوا وعملوا الصالحات من هذه الأمة ليستخلفنّهم في الأرض : أي ليجعلنهم خلفاء الأرض ، الذين لهم السيطرة فيها ، ونفوذ الكلمة ، والآيات تدل على أنّ طاعة الله بالإيمان به ، والعمل الصالح سبب للقوّة والاستخلاف في الأرض ونفوذ الكلمة ، كقوله تعالى : ﴿ واذكروا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ الناس فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ ﴾ [الأنفال : 26] الآية . وقوله تعالى : ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ الذين إِنْ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُواْ الصلاة وَآتَوُاْ الزكاة وَأَمَرُواْ بالمعروف وَنَهَوْاْ عَنِ المنكر وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأمور ﴾ [الحج 4041] وقوله تعالى : ﴿ إِن تَنصُرُواْ اللهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ [محمد : 7] إلى غير ذلك من الآيات .

(91/553)

ومن الآيات الموضحة لذلك : قوله تعالى : ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الذين استضعفوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الوارثين وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ ﴾ [القصص : 56] وقوله تعالى عن موسى عليه السلام وعلى نبيّنا الصلاة والسلام : ﴿ عسى رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي

الأرض فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف: 129] وقوله تعالى: ﴿ وَأَوْرَثْنَا القوم الذين كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأرض وَمَغَارِبَهَا التي بَارَكْنَا فِيهَا ﴾ [الأعراف: 137] الآية. إلى غير ذلك من الآيات. وقوله تعالى: ﴿ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ ﴾، اللام موطئة لقسم محذوف: أي وعدهم الله، وأقسم في وعده ليستخلفنهم.

قوله تعالى: ﴿ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الذي ارتضى لَهُم ﴾ هذا الدين الذي ارتضاه لهم هو دين الإسلام بدليل قوله تعالى: ﴿ اليوم أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الأسلام دِيناً ﴾ [المائدة: 3]. وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ الله الإسلام ﴾ [آل عمران: 19]. وقوله تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإسلام دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخرة مِنَ الخاسرين ﴾ [آل عمران: 85]. وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُم ﴾. قال الزمخشري تمكينه هو تثبيته وتوطيده.

(92/553)

﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (56) ﴾

هذه الآية الكريمة تدل على أن إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم سبب لرحمة الله تعالى سواء قلنا إنّ لعل في قوله: ﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ حرف

تعليل أو ترج ، لأنها إن قلنا : إنها حرف تعليل ؛ فإقامة الصلاة وما عطف عليه سبب لرحمة الله ، لأن العلل أسباب شرعية . وإن قلنا : إنّ لعل للترجي : أي أقيموا الصلاة ، وآتوا الزكاة على رجائكم أن الله يرحمكم بذلك ؛ لأن الله ما أطمعهم بتلك الرحمة عند عملهم بموجبها إلا ليرحمهم لما هو معلوم من فضله وكرمه وكون : لعل هنا للترجي إنما هو بحسب علم المخلوقين كما أوضحناه في غير هذا الموضع ، وهذا الذي دلت عليه هذه الآية من أنهم إن أقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، وأطاعوا الرسول رحمهم الله بذلك جاء موضحاً في آية أخرى ، وهي قوله تعالى : ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بالمعروف وَيَنْهَوْنَ عَنِ المنكر وَيُقِيمُونَ الصلاة وَيُؤْتُونَ الزكاة وَيُطِيعُونَ الله وَرَسُولَهُ أولئك سَيَرْحَمُهُمُ الله ﴾ [التوبة : 71] الآية . وقوله تعالى في هذه الآية : ﴿ وَأَطِيعُواْ الرسول ﴾ بعد قوله ﴿ وَأَقِيمُواْ الصلاة ﴾ من عطف العام على الخاص ، لأن إقام الصلاة وعكسه كلاهما من الإطناب المقبول إذا كان في الخاص مزية ليست في غيره من أفراد العام .

(93/553)

قوله تعالى : ﴿ لاَ تَحْسَبَنَّ الذين كَفَرُواْ مُعْجِزِينَ فِي الأرض ﴾ .

نهى الله نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم أن يحسب أي يظن الذين كفروا معجزين في

الأرض ، ومفعول معجزين محذوف : أي لا يظنهم معجزين ربّهم ، بل قارد على عذابهم لا يعجز عن فعل ما أراد بهم لأنه قادر على كل شيء .

وما دلت عليه هذه الآية الكريمة جاء مبيّناً في آيات أخر كقوله تعالى : ﴿ واعلموا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي الله وَأَنَّ الله مُخْزِي الكافرين ﴾ [التوبة : 2] وقوله تعالى : ﴿ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فاعلموا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي الله وَبَشِّرِ الذين كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [التوبة : 3] وقوله تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبَ الذين يَعْمَلُونَ السيئات أَن يَسْبِقُونَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [العنكبوت : 4] وقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِي وربي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ [يونس : 53] . وقوله تعالى : ﴿ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الأرض وَلاَ فِي السمآء وَمَا لَكُمْ مِّن دُونِ الله مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ ﴾ [العنكبوت : 2122] الآية . وقوله في الشورى : ﴿ وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الأرض وَمَا لَكُمْ مِّن دُونِ الله مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ ﴾ [الشورى : 31] إلى غير ذلك من الآيات .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ لاَ تَحْسَبَنَّ الذين كَفَرُواْ ﴾ قرأه ابن عامر وحمزة : ﴿ لا يحسبن ﴾ بالياء المثناة التحتية على الغيبة . وقرأه باقي السبعة : ﴿ لاَ تَحْسَبَنَّ ﴾ بالتاء الفوقية . وقرأ ابن عامر ، وعاصم ، وحمزة بفتح السين وباقي السبعة بكسرها .

والحاصل أن قراءة ابن عامر وحمزة بالياء التحتية وفتح السين ، وقراءة عاصم بالتاء الفوقية وفتح السين ، وقراءة الباقين من السبعة بالتاء الفوقية وكسر السين ، وعلى قراءة من قرأ بالتاء الفوقية فلا إشكال في الآية مع فتح السين وكسرها ، لأن الخطاب بقوله : لا تحسبن للنبي صلى الله عليه وسلم ، وقوله ﴿ الذين كَفَرُوا ﴾ هو المفعول الأوّل . وقوله : ﴿ مُعْجِزِين ﴾ هو المفعول الثاني لتحسبَنَّ . وأما على قراءة : (لا يحسبن) بالياء ففي الآية إشكال معروف وذكر القرطبي الجواب عنه من ثلاثة أوجه :

الأول : أن قوله ﴿ الذين كَفَرُوا ﴾ في محل رفع فاعل (يحسبن) ، والمفعول الأوّل محذوف تقديره : (أنفسهم) . و (معجزين) : مفعول ثان : أي لا يحسبن الذين كفروا أنفسهم معجزين الله في الأرض ، وعزا هذا القول للزجاج ، والمفعول المحذوف قد تدلّ عليه قراءة من قرأ بالتاء الفوقيّة كما لا يخفى ، ومفعولا الفعل القلبي يجوز حذفهما أو حذف أحدهما إن قام عليه دليل كما أشار له ابن مالك في الخلاصة بقوله :

ولا تجز هنا بلا دليل . . . سقوط مفعولين أو مفعول

ومثال حذف المفعولين معاً مع قيام الدليل عليهما في قوله تعالى : ﴿ أَيْنَ شُرَكَآئِيَ الذين كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ [القصص : 6274] أي تزعمونهم شركائي . وقول الكُمَيت :

بأيِّ كتابٍ أمْ بأيَّةِ سُنَّةٍ . . . تَرَى حُبَّهم عاراً عليَّ وتَحْسَبُ

أي وتحسب حبهم عاراً عليَّ ، ومثال حذف أحد المفعولين قول عنترة :

ولقد نزلت فلا تظنّي غيره . . . مني بمنزلة المحبّ المكرم

(95/553)

أي لا تظني غيره واقعاً .

الجواب الثاني : أن فاعل (يحسبن) النبي صلى الله عليه وسلم ، لأنّه مذكور في قوله تعالى قبله ﴿ أَطِيعُواْ اللهَ وَأَطِيعُواْ الرسول ﴾ [النور : 54] أي لا يحسبن محمد صلى الله عليه وسلم الذين كفروا معجزين . وعلى هذا فالذين كفروا مفعول أوّل ، ومعجزين مفعول ثان . وعزا هذا القول للفراء ، وأبي علي .

الجواب الثاني : أن المعنى : لا يحسبن الكفار الذين كفروا معجزين في الأرض وعزا هذا القول لعلي بن سليمان ، وهو كالذي قبله ، إلا أن الفاعل في الأول النبي صلى الله عليه وسلم ، وفي الثاني الكافر . وقال الزمخشري : وقرئ (لا يحسبن) بالياء وفيه أوجه أن يكون معجزين في الأرض هما المفعولان .

والمعنى : لا يحسبن الذين كفروا أحداً يعجز الله في الأرض ، حتى يطمعوا هم في مثل ذلك ، وهذا معنى قوي جيد ، وأن يكون فيه ضمير الرسول لتقدم ذكره في قوله : ﴿ أَطِيعُواْ اللهَ

وَأَطِيعُواْ الرسول ﴾ وأن يكون الأصل : لا يحسبنهم الذين كفروا معجزين ، ثم حذف الضمير الذي هو المفعول الأول ، وكأن الذي سوغ ذلك أن الفاعل والمفعولين لما كانت لشيء واحد ، اقتنع بذكر اثنين عن ذكر الثالث . اه .

وما ذكره النحاس وأبو حاتم وغيرهما من أن قرأءة من قرأ : (لا يحسبن) بالياء التحتية خطأ أو لحن كلام ساقط لا يلتفت إليه ، لأنها قراءة سبعية ثابتة ثبوتاً لا يمكن الطعن فيه ، وقرأ بها من السبعة : ابن عامر ، وحمزة كما تقدم .

وأظهر الأجوبة عندي : أن معجزة في الأرض هما المفعولان ، فالمفعول الأول معجزين ، والمفعول الثاني دل عليه قوله : ﴿ فِي الأرض ﴾ ، أي لا تحسبن معجزين الله موجودين أو كائنين في الأرض ، والعلم عند الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 5 صـ ﴾

(96/553)

وقال الشيخ الشعراوى :

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَعَدَ الله الذين آمَنُواْ مِنْكُمْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾

في أول الحديث عن سورة النور قلنا : إنها سُمِّيَتْ بالنور ؛ لأنها تبين للناس النور الحسيّ في الكون ، وتقيس عليه النور المعنوي في القيم ، وما دُمْنا نطفىء أنوارنا الحسية حين يظهر نور

الله في الشمس ، يجب كذلك أن نطفىء أنوارنا المعنوية حين يأتينا شرع من الله .

فليس لأحد رَأْيٌ مع شرع الله ؛ ذلك لأن الخالق عز وجل يريد لخليفته في الأرض أن يكون في نور حِسِّيٍّ ومعنوي ، ثم ضمن له مقومات بقاء حياته بالطعام والشراب شريطةَ أنْ يكون من حلال حتى تبنى خلاياه وتتكون من الحلال فيَسلم له جهاز الاستقبال عن الله وجهاز الإرسال إنْ أراد الدعاء .

وفي الحديث الشريف : " أيها الناس ، إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً ، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال : ﴿ يا أَيُّهَا الرسل كُلُواْ مِنَ الطيبات واعملوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ [المؤمنون : 51] وقال : ﴿ يا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ [البقرة : 172] ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء يا رب ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغُذِّي بالحرام فأَنَّى يُستجاب لذلك ؟ " .

فهذه أجهزة مُعطَّلة خَرِبة أشبه ما تكون بالراديو الذي لا يحسن استقبال ما تذيعه محطات الإذاعة ، فالإرسال قائم يستقبله غيره ، أما هو فجهاز استقباله غير سليم .

فإذا ضمنتَ سلامة تكوينك بلقمة الحلال ضمن الله لك إجابة الدعاء ، وفي الحديث يقول النبي صلى الله عليه وسلم لسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه : " أَطِبْ مَطْعمك تكُنْ مُسْتجاب الدعوة " .

ثم ضمن الله للإنسان مُقوِّمات بقاء نوعه بالزواج لاستمرار الذرية لتستمر الخلافة في الأرض طاهرة نظيفة ، ثم تحدثتْ السورة مُحذِّرة إياكم أنْ تجترئوا على أعراض الناس ، أو ترْمُوا المحصنات ، أو تدخلوا البيوت دون استئذان ، حتى لا تطّلعوا على عورات الناس . . إلخ .

فالحق سبحانه وتعالى يريد سلامة المجتمع وسلامة الخلافة في الأرض ، وكل هذه الأحكام والمعاني تصبُّ في هذه الآية :

﴿ وَعَدَ اللهُ الذين آمَنُواْ مِنْكُمْ وَعَمِلُواْ الصالحات لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأرض ﴾ [النور : 55] . فمَنْ فعل ذلك كان أَهْلاً للخلافة عن الله ، إنها معركة ابتلاءات وتمحيص تُبيِّن الغَثَّ من السَّمين ، أَلاَ ترى المسلمين الأوائل كيف كانوا يُعذَّبون ويُضطهدون ، ولا يجرؤ أحد على حمايتهم حتى اضطروا للهجرة إلى الحبشة وإلى المدينة ، وقد قال تعالى : ﴿ أَحَسِبَ الناس أَن يتركوا أَن يقولوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ ﴾ [العنكبوت : 2] .

وهؤلاء الصحابة هم الذي حملوا للدنيا مشاعلَ الهداية ، وساحوا بدعوة الله في أنحاء الأرض ، فلا بُدَّ أن يُربوا هذه التربية القاسية ، وأن يُمتحنوا كل هذا الامتحان ، وهم يعلمون جيداً ثمن هذه التضحية وينتظرون ثوابها من الله ، فأهل الحق يدفعون الثمن أولاً ، أما أهل المبادىء الباطلة فيقبضون الثمن أولاً قبل أنْ يتحركوا في اتجاه مبادئهم .

وهذا الابتلاء الذي عاشه المسلمون الأوائل هو من تنقية الخليفة ليكون أَهْلاً لها .

لذلك قال سبحانه : ﴿ وَعَدَ اللهُ ﴾ [النور : 55] والوَعْد : بشارة بخير لم يَأْتِ زمنُه بعد ، حتى يستعد الناس بالوسيلة له ، وضِدّه الوعيد أو الإنذار بشرٍّ لم يأتِ زمنه بعد ، لتكون هناك فرصة للاحتياط وتلافي الوقوع في أسبابه .

(98/553)

وما دام الوعد من الله تعالى فهو صِدْق ، كما قال سبحانه : ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ قِيلاً ﴾ [النساء : 122] وقال سبحانه : ﴿ وَمَنْ أوفى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ ﴾ [التوبة : 111] .

والذي يفسد على الناس وعودهم ، ويجرُّ عليهم عدم الوفاء أن الإنسان مُتغيِّر بطَبْعه مُتقلِّب ، فقد يَعِد إنساناً بخير ثم يتغير قلبه عليه فلا يفي له بما وعد ، وقد يأتي زمن الوفاء فلا يقدر عليه ، أمّا الحق تبارك وتعالى فلا يتغير أبداً ، وهو سبحانه قادر على الوفاء بما وعد به ، فليست هناك قوة أخرى تمنعه ، فهو سبحانه واحد لا إله غيره ؛ لذلك فوَعْده تعالى ناجز .

﴿ وَعَدَ اللهُ الذين آمَنُواْ مِنْكُمْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ [النور : 55] قلنا : إن الإيمان الذي

يقوم على صفاء الينبوع والعقيدة ليس مطلوباً لذاته ، إنما لا بُدَّ أن تكون له ثمرة ، وأن يُرى أثره طاعة وتنفيذاً لأوامر الله ، فطالما آمنتَ بالله فنفِّذ ما يأمرك به ، وهناك من الناس مَنْ يفعل الخير ، لكن ليس من منطلق إيماني مثل المنافقين الذين قال الله فيهم : ﴿ قَالَتِ الأعراب آمَنَّا ﴾ [الحجرات : 14] فَردَّ الله عليهم : ﴿ قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ ولكن قولوا أَسْلَمْنَا ﴾ [الحجرات : 14] يعني : خضعنا للأوامر ، لكن عن غير إيمان ، إذن : فقيمة الإيمان أن تُنفِّذ مطلوبه .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿ والعصر * إِنَّ الإنسان لَفِى خُسْرٍ * إِلاَّ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات وَتَوَاصَوْاْ بالحق وَتَوَاصَوْاْ بالصبر ﴾ [العصر : 13] .

(99/553)

فبماذا وعد الله الذين آمنوا ؟ ﴿ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأرض ﴾ [النور : 55] وهذه ليست جديدة ، فقد سبقهم أسلافهم الأوائل ﴿ كَمَا استخلف الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ [النور : 55] ، فاستخلاف الذين آمنوا ليس بدْعاً ، إنما هو أمر مُشاهد في مواكب الرسل والنبوة ومُشَاهد في المسلمين الأوائل من الصحابة الذين أُذوا وعُذِّبوا واضطهدوا وأُخْرِجوا من ديارهم وأولادهم وأموالهم ولم يُؤمَروا بردِّ العدوان .

حتى إن رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما قدم المدينة في جَمْع من صحابته استقبله الأنصار بالحفاوة ، واحتضنوا هؤلاء المهاجرين ، وفعلوا معهم نموذجاً من الإيثار ليس له مثيل في تاريخ البشرية ، وهل هناك إيثار أعظم من أنْ يعرض الأنصاري زوجاته على المهاجر يقول : اختر إحداهما أُطلّقها لك ، إلى هذه الدرجة فعل الإيمان بنفوس الأنصار .

ولما رأى كفار قريش ما صنعه الأنصار مع المهاجرين توقَّدوا ناراً : كيف يعيش المهاجرون في المدينة هذه العيشة الهنية وتكتلوا جميعاً ضد هذا الدين ليضربوه عن قَوْس واحدة ، وتآمروا على القدوة ليقضوا على هذا الدين الوليد الذي يشكل أعظم الخطر عليهم .

حتى إن الأمر قد بلغ بالمهاجرين والأنصار أنهم لا يبيتون إلا بالسلاح ، ولا يصبحون إلا بالسلاح مخافةَ إنْ ينقضَّ عليهم أعداؤهم ، حتى إن أحد الصحابة يقول لإخوانه : أترونَ أنَّا نعيش حتى نأمن ونطمئن ولا نبيت في السلاح ونصبح فيه ، ولا نخشى إلا الله ؟ يعني : أهناك أمل في هذه الغاية ؟

وآخر يذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : يا رسول الله أبد الدهر نحن خائفون . ؟ ألاَ يأتينا يوم نضع فيه السلاح ونبيت آمنين ؟

(100/553)

فيقول النبي صلى الله عليه وسلم بلسان الواثق من وعد ربه ، وليس كلاماً قد يُكذَّب فيما بعد : " لا تصبرون إلا يسيراً ، حتى يجلس الرجل منكم في الملأ العظيم مُحْتبياً ليست فيه حديدة " يعني : في الملأ الواسع ، والاحتباء جلسة المستريح الهانىء ، والحديدة كناية عن السلاح .

وقد قال صلى الله عليه وسلم : " إن الله زوى لي الأرض ، فرأيت مشارقها ومغاربها ، وسيبلغ مُلْك أمتي ما زُوِيَ لي منها " .

ومعنى " إن الله زوى لي الأرض " معلوم أن للإنسان مجالَ رؤية يلتقي فيه إلى نهاية الأفق ، أمّا الأرض ذاتها فواسعة ، فزُوِيَتْ الأرض لرسول الله يعني : جُمعت في زاوية ، فصار ينظر إليها كلها .

إذن : فهم في هذه المرحلة يشتهون الأمن وهدوء البال ، وقد قال تعالى عنهم في هذه الفترة : ﴿ وَزُلْزِلُواْ حتى يَقُولَ الرسول والذين آمَنُواْ مَعَهُ متى نَصْرُ الله ﴾ [البقرة : 214] .

وفي غمرة هذه الشدة وقمة هذا الضيق يُنزل تعالى على رسوله : ﴿ سَيُهْزَمُ الجمع ويُوَلُّونَ الدبر ﴾ [القمر : 45] حتى إن الصحابة ليتعجبون ، يقول عمر رضي الله عنه : أيُّ جمع هذا ؟ وقد نزلت الآية وهم في مكة في أشد الخوف لا يستطيعون حماية أنفسهم .

لكن بعد بدر وبعد أنْ رأى ما نزل بالكفار قال : صدق الله ﴿ سَيُهْزَمُ الجمع ويُوَلُّونَ الدبر ﴾ [القمر : 45] .

ثم ينزل الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم بعض الآيات التي تُطمئن المؤمنين وتصبرهم : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللّهُ يَحْكُمُ لاَ مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ﴾ [الرعد : 41] .

فاطمئنوا ، فكل يوم ننقص من أرض الكفر ، ونزيد من أرض الإيمان ، فالمقدّمات في صالحكم ، ثم يأتي فتح مكة ويدخلها النبي صلى الله عليه وسلم في موكب مهيب مُطْأطِئاً رأسه ، تواضعاً لمن أدخله ، مُظهِراً ذِلة العبودية لله .

(101/553)

حتى إن أبا سفيان لما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا الموكب يقول للعباس : لقد أصبح مُلْك ابن أخيك عظيماً ، فيقول العباس : إنها النبوة يا أبا سفيان ، يعني : المسألة ليست مُلْكاً إنما هو بشائر النصر لدين الله وظهوره على معقل الأصنام والأوثان في مكة .

ثم يذهب إلى خيبر معقل أهل الكتاب من بني قَيْنُقَاع وبني النضير وبني قريظة وينتصر عليهم ، ثم تسقط في يده البحرين ومجوس هَجَر ، ويدفعون الجزية .

بعد ذلك يرسل صلى الله عليه وسلم كُتُبه إلى الملوك والرؤساء يدعوهم إلى الإسلام ، فيرسل إلى النجاشي مَلِك الحبشة ، وإلى المقوقِس ، وإلى هرقل ، وإلى كسرى ، وتأتيه

الهدايا من كُلِّ هؤلاء .

ويستمر المدُّ الإسلامي والوفاء بوعد الله تعالى لخليفة رسول الله ، فإنْ كان المد الإسلامي قد شمل الجزيرة العربية على عهد رسول الله ، فإنه تعدّاها إلى شتى أنحاء العالم في عهد الخلفاء الراشدين ، حتى ساد الإسلامُ العالَم كله ، وأظهره الله على أكبر حضارتين في ذلك الوقت : حضارة فارس في الشرق ، وحضارة الروم في الغرب في وقت واحد ، ويتحقق وعد الله للذين آمنوا بأنْ يستخلفهم في الأرض .

وبعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم تتحقق النبؤات التي أخبر بها ، ومنها ما كان من أمر سراقة بن مالك الذي خرج خلف رسول الله في رحلة الهجرة يريد طلبه والفوز بجائزة قريش ، وبعد أن تاب سُرَاقة وعاد إلى الجادة كان الصحابة يعجبون لدقة ساعديْه ويصفونهما بما يدعو إلى الضحك " فكان صلى الله عليه وسلم يقول عن ساعدي سراقة : كيف بهما في سواري كسرى ؟ "

ويفتح المسلمون بعد ذلك مُلْك كسرى ، ويكون سِوَارا كسرى من نصيب سُرَاقة ، فيلبسهما ، ويراهما الناس في يديه .

هذه كلها بشائر ومقدمات لوعد الله يراها المؤمنون في أنفسهم ، لا فيمن يأتي بعد ﴿ وَعَدَ اللهُ الذين آمَنُواْ مِنْكُمْ ﴾ [النور : 55] يعني المسألة لن تطول .

كذلك " أم حرام بنت ملحان التي خرجت في غزوة ذات الصواري وركبت البحر ذكرت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ينام هناك ثم يصحو وهو يضحك ، فقالت له : ما يُضحكك يا رسول الله ؟ قال : " أناس من أمتي يركبون زَبَد هذا البحر ، ملوك على الأَسِرَّة أو كالملوك على الأَسِرّة " فقال : ادْعُ الله أن أكون منهم ، فدعا لها فاستجاب الله دعاءه ، وخرجتْ في الغزوة ، ولما ركبوا البحر الأبيض أرادت أن تخرج فماتت " .

إذن : فالبشارة في هذه الآية ليست بشارة لفظية ، إنما هي بشارة واقعية لها واقع يؤيدها ، قد حدث فعلاً .

لكن ، ما المراد بالأرض في ﴿ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأرض ﴾ [النور : 55] ؟ إذا جاءت الأرض هكذا مُفْردةً غير مضافة لشيء فتعني كل الأرض ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسكنوا الأرض ﴾ [الإسراء : 104] يعني : تقطّعوا في كل أنحائها ، ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ الآخرة ﴾ [الإسراء : 104] الذي وعد الله به ﴿ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفاً ﴾ [الإسراء : 104] يعني : جمعناكم من الأراضي كلها ، وهذا هو الأمل القوي الذي نعيش عليه ، وننتظر من الله أنْ يتحقق .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الذي ارتضى لَهُمْ ﴾ [النور : 55] ففوق الاستخلاف في الأرض يُمكِّن الله لهم الدين ، ومعنى تمكين الدين : سيطرته على حركة

الحياة ، فلا يصدر من أمور الحياة أمر إلا في ضوئه وعلى هَدْيه ، لا يكون ديناً مُعطّلاً كما نُعطِّله نحن اليوم ، تمكين الدين يعني توظيفه وقيامه بدوره في حركة الحياة تنظيماً وصيانة .

(103/553)

وقوله سبحانه : ﴿ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً ﴾ [النور : 55] وهم الذين قالوا : نبيت في السلاح ، ونصبح في السلاح ، فيبدلهم الله بعد هذا الخوف أَمْناً ، فإذا ما حدث ذلك فعليهم أنْ يحافظوا على الخلافة هذه ، وأنْ يقوموا بحقها ﴿ يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذلك فأولئك هُمُ الفاسقون ﴾ [النور : 55] .

ومعنى ﴿ كَفَرَ بَعْدَ ذلك ﴾ [النور : 55] يعني : بعد أن استخلفه الله ، ومكّن له الدين وأمّنه وأزال عنه أسباب الخوف .

وفَرْق بين تمكين الإسلام وتمكين مَنْ يُنسب إلى الإسلام ، فالبعض يدّعي الإسلام ، ويركب موجته حتى يحكم ويستتب له الأمر وتنتهي المسألة ، لا . . لأن التمكين ليس لك أيها الحاكم ، إنما التمكين لدين الله .

وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (56)

دائماً ما يقرن القرآن بين هذيْن الركنين ، وتأتي الزكاة بعد الصلاة ؛ ذلك لأن الصلاة هي

الركن الوحيد الذي فُرِض من الله مباشرة ، أما بقية الأركان فقد فُرِضَتْ بالوحي ، وضربنا لذلك مثلاً ، ولله تعالى المثَل الأعلى بالرئيس الذي يُكلِّف مرؤوسيه بتأشيرة أو بالتليفون ، فإنْ كان الأمر مُهماً استدعى الموظف المختص إلى مكتبه وكلَّفه بهذا الأمر مباشرة لأهميته .

فكذلك الحق تبارك وتعالى أمر بكل التكاليف الشرعية بالوحي ، إلا الصلاة فقد فرضها على رسول الله بعد أن استدعاه إلى رحلة المعراج فكلّفه بها مشافهةً دون واسطة ، ولما يعلمه الله تعالى من محبة النبي صلى الله عليه وسلم لأمته قال له : " أنا فرضتُ عليك الصلاة بالقرب ، وكذلك أجعلها للمصلى في الأرض بالقرب ، فإنْ دخل المسجد وجدني " .

(104/553)

وإنْ كانت أركان الإسلام خمسة ، فإن الشهادة والصلاة هما الركنان الدائمان اللذان لا ينحلان عن المؤمن بحال من الأحوال ، فقد لا تتوفر لك شروط الصوم أو الزكاة أو الحج فلا تجب عليك ، كما أن الصلاة هي الفريضة المكررة على مدار اليوم والليلة خمس مرات ، وبها يتم إعلان الولاء لله دائماً ، وقد وزَّعها الحق سبحانه على الزمن ليظل المؤمن على

صلة دائمة بربه كلما شغلتْه الدنيا وجد (الله أكبر) تناديه .

وانظر إلى عظمة الخالق عز وجل حين يطلب من صنعته أن تقابله وتعُرض عليه كل يوم خمس مرات ، وهو سبحانه الذي يطلب هذا اللقاء ويفرضه عليك لمصلحتك أنت ، ولك أن تتصور صنعة تعُرض على صانعها كل يوم خمس مرات أيصيبها عَطَبَ ؟

وربك هو الذي يناديك ويدعوك للقائه ويقول : " لا أملّ حتّى تملَّوا " ومن رحمته بك ومحبته لك تركَ لك حرية اختيار الزمان والمكان ، وترك لك حرية إنهاء المقابلة متى تشاء ، فإنْ أردتَ أنْ تظلّ في بيته وفي معيته فعلى الرَّحْب والسَّعَة .

ولأهمية الصلاة ومكانتها في الإسلام اجتمع فيها كل أركان الإسلام ، ففي الصلاة تتكرر الشهادة : لا إلا إلا الله محمد رسول الله ، وفي الصلاة زكاة ؛ لأن الزكاة فرع العمل ، والعمل فرع الوقت ، والصلاة تأخذ الوقت نفسه ، وفيها صيام حيث تمتنع في الصلاة عما تمتنع عنه في الصوم بل وأكثر ، وفيها حج لأنك تتجه في صلاتك إلى الكعبة .

إذن : فالصلاة نائبة عن جميع الأركان في الاستبقاء ، لذلك كانت هي عمود الدين ، والتي لا تسقط عن المؤمن بحال من الأحوال حتى إنْ لم يستطع الصلاة قائماً صلى جالساً أو مضطجعاً ، ولو أن يشير بأصبعه أو بطرفه أو حتى يخطرها على باله ؛ ذلك لاستدامة الولاء بالعبودية لله المعبود .

والصلاة تحفظ القيم ، فتُسوِّي بين الناس ، فيقف الغني والفقير والرئيس والمرؤوس في صَفٍّ واحد ، الكل يجلس حَسْب قدومه ، وهذا يُحدِث استطراقاً عبودياً في المجتمع ، ففي الصلاة مجال يستوي فيه الجميع .

وإنْ كانت الصلاة قوامَ القيم ، فالزكاة قوام المادة لمنْ ليستْ له قدرة على الكسب والعمل .

إذن : لدينا قوانين للحياة ، ولاستدامة الخلافة على الأرض قوام القيم في الصلاة ، وقوام المادة في الزكاة .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَأَطِيعُواْ الرسول لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [النور : 56] وهنا في الصلاة والزكاة خَصَّ الرسول بالإطاعة ؛ لأنه صاحب البيان والتفصيل لما أجمله الحق سبحانه في فرضية الصلاة والزكاة ، حيث تفصيل كل منهما في السُّنة المطهرة ، فقال : ﴿ وَأَطِيعُواْ الرسول ﴾ [النور : 56] .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ لاَ تَحْسَبَنَّ الذين كَفَرُواْ مُعْجِزِينَ فِي الأرض ﴾

يعود السياق للحديث عن الكافرين : ﴿ لاَ تَحْسَبَنَّ الذين كَفَرُواْ مُعْجِزِينَ فِي الأرض ﴾ [النور : 57] يعني : لا تظنن ، والشيء المعجز هو الذي يثبت العجز للمقابل ، نقول : عملنا شيئاً مُعْجزاً لفلان يعني : لا يستطيع الإتيان بمثله .

فإياك أنْ تظن أن الكافرين مهما عَلَتْ مراتبهم ومهما استشرى طغيانهم يُفْلِتون من عقاب

الله ، فلن يثبتوا له سبحانه العجز عنهم أبداً ، ولن يُعجِزوه ، إنما يُملي لهم سبحانه ويمهلهم حتى إذا أخذهم ، أخذهم أَخذ عزيز مقتدر ، وهو سبحانه مُدركهم لا محالةَ .

وجاء على لسان الجن : ﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ اللهَ فِي الأرض وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَباً ﴾ [الجن : 12] .

(106/553)

ونلحظ في قوله تعالى : ﴿ وَمَأْوَاهُمُ النار ﴾ [النور : 57] أنها عطفتْ هذه الجملة على سابقتها ، وهي منفية ﴿ لاَ تَحْسَبَنَّ ﴾ [النور : 57] فهل يعني هذا أن معناها : ولا تحسبن مأواهم النار ؟ قالوا : لا ، إنما المعنى : ولا تحسبن الذين كفروا معجزين في الأرض لأن مأواهم النار .

﴿ وَلَبِئْسَ المصير ﴾ [النور : 57] أي : المرجع والمآب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(107/553)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾

أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن البراء في قوله ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم ﴾ الآية .

قال : فينا نزلت ونحن في خوف شديد .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن أبي العالية قال : "كان النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه بمكة نحواً من عشر سنين يدعون إلى الله وحده ، وعبادته وحده لا شريك له ، سراً وهم خائفون لا يؤمرون بالقتال حتى أمروا بالهجرة إلى المدينة ، فقدموا المدينة ، فأمرهم الله بالقتال وكانوا بها خائفين ، يمسون في السلاح ، ويصبحون في السلاح ، فغيروا بذلك ما شاء الله ، ثم إن رجلاً من أصحابه قال : يا رسول الله أبد الدهر نحن خائفون هكذا ، أما يأتي علينا يوم نأمن فيه ونضع فيه السلاح ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لن تغيروا إلا قليلاً حتى يجلس الرجل منكم في الملأ العظيم محتبياً ليست فيهم جديدة " فأنزل الله ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض . . . ﴾ إلى آخر الآية . فاظهر الله نبيه على جزيرة العرب ، فأمنوا ووضعوا السلاح ، ثم إن الله قبض نبيه ، فكانوا كذلك آمنين في امارة أبي بكر وعمر وعثمان حتى وقعوا فيما وقعوا ، وكفروا النعمة ، فأدخل الله عليهم الخوف الذي كان رفع عنهم ،

واتخذوا الحجر والشرط ، وغيروا فغير ما بهم " .

وأخرج ابن المنذر والطبراني في الأوسط والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الدلائل والضياء في المختارة عن أبي بن كعب قال : لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه المدينة ، وآوتهم الأنصار ، رمتهم العرب عن قوس واحدة ، فكانوا لا يبيتون إلا في السلاح ولا يصبحون إلا فيه ، فقالوا : أترون أنا نعيش حتى نبيت آمنين مطمئنين لا نخاف إلا الله ؟ فنزلت ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات . . . ﴾ .

(108/553)

وأخرج أحمد وابن مردويه واللفظ له والبيهقي في الدلائل عن أبي بن كعب قال : " لما نزلت على النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ﴾ قال : بشر هذه الأمة بالسنا ، والرفعة ، والدين ، والنصر ، والتمكين في الأرض ، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا لم يكن له في الآخرة من نصيب " .

وأخرج عبد بن حميد عن عاصم أنه قرأ ﴿ ليستخلفنهم ﴾ بالياء ﴿ في الأرض كما استخلف ﴾ برفع التاء وكسر اللام ﴿ وليمكنن ﴾ بالياء مثقلة ﴿ وليبدلنهم ﴾ مخففة بالياء .

وأخرج عبد بن حميد عن عطية ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض ﴾ قال : أهل بيت ههنا وأشار بيده إلى القبلة .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة ﴿ وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ﴾ قال : هو الإِسلام .

وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس ﴿ يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ﴾ قال : لا يخافون أحداً غيري .

وأخرج الفريابي وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد ﴿ يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ﴾ قال : لا يخافون أحداً غيري ﴿ ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ﴾ قال : العاصون .

وأخرج عبد بن حميد عن أبي العالية ﴿ ومن كفر بعد ذلك ﴾ قال : كفر بهذه النعمة ليس الكفر بالله .

وأخرج ابن مردويه عن أبي الشعثاء قال : كنت جالساً مع حذيفة وابن مسعود فقال حذيفة : ذهب النفاق ، إنما كان النفاق على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإنما هو اليوم الكفر بعد الإِيمان ، فضحك ابن مسعود ثم قال : بم تقول ؟ قال : بهذه الآية ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات . . ﴾ إلى آخر الآية .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة ﴿ لا تحسبن الذين كفروا معجزين في الأرض ﴾ قال : سابقين في الأرض والله تعالى أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 6 صـ ﴾

(109/553)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله : ﴿ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ ﴾ :

فيه وجهان ، أحدُهما : هو جوابُ قسمٍ مضمرٍ أي : أُقْسِم لَيَسْتَخْلِفَنَّهم ويكونُ مفعولُ الوعدِ محذوفاً تقديرُه : وَعَدَهم الاستخلافَ لدلالةِ قوله : ﴿ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ ﴾ عليه . والثاني : أَنْ يجريَ " وعد " مَجْرى القسمِ لتحقُّقِه ، فلذلك أُجيب بما يُجاب به القَسَمُ .

قوله : ﴿ كَمَا استخلف ﴾ أي : استخلافاً كاستخلافهم . والعامَّةُ على بناء " اسْتَخْلَفَ " للفاعل . وأبو بكر بناه للمفعول . فالموصولُ منصوبٌ على الأول ، ومرفوعٌ على الثاني .

قوله : ﴿ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ ﴾ قرأ ابن كثير وأبو بكرٍ " وَلَيُبْدِلَنَّهم " بسكونِ الباءِ وتخفيفِ الدال مِنْ " أَبْدَلَ " . وقد تقدَّم توجيهُها في الكهف في قوله : ﴿ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا ﴾ [الكهف :

81] .

قوله : ﴿ يَعْبُدُونَنِي ﴾ فيه سبعةُ أوجهٍ ، أحدُها : أنه مستأنفٌ أي : جوابٌ لسؤالٍ مقدَّر كأنه قيل : ما بالُهم يُسْتَخْلَفون ويُؤَمَّنون ؟ فقيل : يَعْبُدونني . الثاني : أنه خبرُ مبتدأ مضمرٍ أي : هم يعبدونني . والجملةُ أيضاً استئنافيةٌ تقتضي المدحَ . الثالث : أنه حالٌ مِنْ مفعولِ " وَعَدَ اللهُ " . الرابع : أنه حالٌ مِنْ مفعولُ " لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ " . الخامس : أن يكونَ حالاً مِنْ فاعِله . السادس : أَنْ يكونَ حالاً مِنْ مفعولِ " لَيُبَدِّلَنَّهُمْ " . السابع : أَنْ يكونَ حالاً مِنْ فاعِله .

قوله : ﴿ لاَ يُشْرِكُونَ ﴾ يجوز أَنْ يكونَ مستأنفاً ، وأن يكونَ حالاً مِنْ فاعلِ " يَعْبُدُونَنِي " أي : يَعْبُدونني مُوَحِّدين ، وأن يكونَ بدلاً من الجملةِ التي قبلَه الواقعةِ حالاً وقد تَقَدَّم ما فيها .

(110/553)

قوله : ﴿ وَأَقِيمُواْ الصلاة ﴾ : فيه وجهان . أحدُهما : أنه معطوفٌ على ﴿ أَطِيعُواْ الله وَأَطِيعُواْ الرسول ﴾ [الآية : 54] . وليس ببعيدٍ أن يقعَ بين المعطوفِ والمعطوفِ عليه فاصلٌ وإنْ طال ؛ لأنَّ حَقَّ المعطوفِ أن يكونَ غيرَ المعطوفِ عليه . قاله الزمخشري . قلت

: وقولُه : "لأنَّ حَقَّ المعطوفِ " إلى أخره لا يَظْهَرُ علةً للحكمِ الذي ادَّعاه . والثاني : أنَّ قولَه ﴿ وَأَقِيمُواْ ﴾ من بابِ الالتفاتِ من الغَيْبة إلى الخطابِ . وحَسَّنَهُ الخطابُ في قولِه قبل ذلك "منكم" .

قوله : ﴿ لاَ تَحْسَبَنَّ ﴾ :

قرأ العامَّة "لا تَحْسَبَنَّ" بتاءِ الخطابِ . والفاعلُ ضميرُ المخاطبِ أي : لا تَحْسَبَنَّ أيها المخاطبُ . ويمتنعُ أو يَبْعُدُ جَعْلُه للرسولِ عليه السلام ؛ لأنَّ/ مِثْلَ هذا الحُسْبانِ لا يُتَصوَّر منه حتى ينهى عنه . وقرأ حمزةُ وابن عامرٍ "لا يَحْسَبَنَّ" بياء الغَيْبة وهي قراءةٌ حسنةٌ واضحة . فإنَّ الفاعلَ فيها مضمرٌ يعودُ على ما دَلَّ السِّياقُ عليه أي : لا يَحْسَبَنَّ حاسِبٌ أو أحدٌ وإمَّا على الرسولِ لتقدُّمِ ذِكْرِه . ولكنه ضعيفٌ للمعنى المتقدِّمِ خلافاً لِمَنْ لَحَّن قارىءَ هذه القراءةِ كأبي حاتم وأبي جعفر والفراء . قال النحاس : " ما عَلِمْتُ أحداً مِنْ أهلِ العربية بَصْرياً ولا كوفياً إلاَّ وهو يُلَحِّنُ قراءةَ حمزةَ ، فمنهم مَنْ يقولُ : هي لحنٌ لأنه لم يأتِ إلاَّ بمفعولٍ واحدٍ ل "يَحْسَبَنَّ" .

(111/553)

وقال الفراء : " هو ضعيفٌ " وأجازه على حَذْفِ المفعولِ الثاني . التقديرُ : " لا يَحْسَبَنَّ الذين كفروا أنفسَهم مُعْجِزين " قلت : وسببُ تَلْحينِهم هذه القراءةَ أنهم اعتقدوا أنَّ " الذين " فاعلٌ ، ولم يكُنْ في اللفظِ إلاَّ مفعولٌ واحدٌ وهو " معجزين " ، فلذلك قالوا ما قالوا . والجوابُ عن ذلك مِنْ وجوهٍ أحدُها : أنَّ الفاعلَ مضمرٌ يعودُ على ما تقدَّم ، أو على ما يُفْهَمُ من السياق ، كما سَبَقَ تحريرُه . الثاني : أنَّ المفعولَ الأولَ محذوفٌ تقديرُه : لا يَحْسَبَنَّ الذين كفروا أنفسَهم مُعْجزين . إلاَّ أنَّ حَذْفَ أحدِ المفعولَيْنِ ضعيفٌ عند البصريين . ومنه قولُ عنترةَ :

3466 ولَقَدْ نَزَلْتِ فلا تَظُنّي غيرَه . . . مني بمَنزِلَةِ المُحَبِّ المُكْرَمِ

أي : لا تظني غيرَه واقعاً . ولَمَّا نحا الزمخشريُّ إلى هذا الوجه قال : " وأن يكونَ الأصلُ : لا يَحْسَبَنَّهم الذين كفروا مُعْجِزين ، ثم حُذِف الضميرُ الذي هو المفعولُ الأول . وكأنَّ الذي سَوَّغ ذلك أنَّ الفاعلَ والمفعولَيْن لَمَّا كانَتْ لشيءٍ واحدٍ اقْتَنَعَ بذكرِ اثنين عن ذِكْرِ الثالث " فقَدَّرَ المفعولَ الأول ضميراً متصلاً . قال الشيخ : " وقد رَدَدْنا هذا التخريجَ في أواخرِ آلِ عمران في قولِه : ﴿ لاَ يَحْسَبَنَّ الذين يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوْاْ ﴾ في قراءةِ مَنْ قرأه بالغَيْبة ، وجَعَل الفاعلَ " الذين يَفْرحون " . وملخَّصُه : أن هذا ليس من الضمائرِ التي يُفَسِّرها ما بعدَها فلا يتقدَّر " لا يَحْسَبَنَّهم " إذ لا يجوزُ : " ظَنَّه زيدٌ قائماً " على رَفْعِ " زيدٌ " ب " ظَنَّه " قلت : وقد تقدَّم في الموضعِ المذكورِ رَدُّ هذا الردِّ فعليك بالالتفاتِ إليه .

الثالث : أنَّ المفعولَيْنِ هما قولُه : ﴿ مُعْجِزِينَ فِي الأرض ﴾ قاله الكوفيون . ولَمَّا نحا إليه الزمخشريُّ قال : " والمعنى : لا يَحْسَبَنَّ الذين كفروا أحداً يُعْجِزُ اللهَ في الأرض حتى يَطْمَعوا هم في مثلِ ذلك . وهذا معنىً قويٌّ جيد " .

قلت : قيل : هو خطأٌ ؛ لأنَّ الظاهرَ تعلُّقُ في " الأرض " ب " مُعْجِزين " فجعله مفعولاً ثانياً كالتهيئةِ للعملِ والقطعِ عنه ، وهو نظيرُ : " ظَنَنْتُ قائماً في الدار " .

قوله : ﴿ وَمَأْوَاهُمُ النار ﴾ فيه ثلاثةُ أوجهٍ . أحدُها : أنَّ هذه الجملةَ عطفٌ على جملةِ النهيِ قبلَها مِنْ غيرِ تأويلٍ ولا إضمارٍ ، وهو مذهبُ سيبويهِ أعني عَطْفَ الجملِ بعضِها على بعض ، وإن اختلفَتْ أنواعُها خبراً وطَلَباً وإنشاءً . وقد تقدَّم تحقيقُه في أولِ هذا الموضوعِ والدليلُ عليه . الثاني : أنَّها معطوفةٌ عليها ، ولكن بتأويلِ جملةِ النهي بجملةٍ خبريةٍ . والتقدير : الذين كفروا لا يُفوتون اللهَ ومَأْواهم النار . قاله الزمخشري . كأنه يرى تناسُبَ الجملِ شرطاً في العطفِ . هذا ظاهرُ حالِه . الثالث : أنها معطوفةٌ على جملةٍ مقدرةٍ . قال الجرجاني : " لا يُحتمل أَنْ يكونَ " ومَأْواهم " متصلاً بقولِه : " لا تَحْسَبَنَّ ذاك " أي : وهذا إيجابٌ فهو إذن معطوفٌ بالواو على مضمرٍ قبلَه تقديرُه : لا تَحْسَبَنَّ الذين كفروا

مُعْجِزِين في الأرضِ بل هم مقهورون ، ومَأْواهم النار " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 434. 438 ﴾

(113/553)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾

وَعْدُ الله حقٌّ وكلامُه صدقٌ ، والآية تدل على صحة الخلفاء الأربعة لأنه – بالإجماع – لم يتقدمهم في الفضيلة – إلى يومنا – أحدٌ ؛ فأولئك مقطوعٌ بإمامتهم ، وصدَق وعدُ الله فيهم ، وهم على الدين المرضيِّ من قِبلِ الله ، ولقد أَمِنُوا بعد خوفهم ، وقاموا بسياسة المسلمين ، والذَّبِّ عن حوزة الإسلام أحسنَ قيام .

وفي الآية إشارة إلى أئمة الدين الذين هم أركان المِلَّة ودعائم الإسلام ، الناصحون لعباده ، الهادون مَنْ يسترشِدُ في الله ؛ إذ الخَلَلُ في أمر المسلمين من الولاةِ الظَّلَمَة ضَرَرُه مقصورٌ على ما يتعلَّق بأحكام الدنيا ، فأَما حفَّاظُ الدين فهم الأئمة من العلماء وهم أصناف :

قومٌ هم حفَّاظ أخبار الرسول عليه السلام وحفّاظُ القرآن وهم بمنزلة الخزنةِ ، وقوم هم

علماءُ الأصولِ الرادُّون على أهلِ العِناد وأصحابِ البِدَع بواضح الأدلة ، وهلم بطارِقةٌ الإسلام وشجعانُه .

وقوم هم الفقهاء المرجوعُ إليهم في علوم الشريعة من العبادات وكيفية المعاملات وما يتعلق بأحكام المصاهرات وحكم الجراحات والدِّيَات ، وما في معاني الأَيمانِ والنذور والدعاوى ، وفصل الحُكم في المنازعات وهم في الدين بمنزلة الوكلاء والمتصرفين في المُلك .

وقوم هم أهل المعرفة وأصحاب الحقائق وهم في الدِّين كخواصِّ المَلِك وأعيان مجلس السلطان ؛ فالذين معمورٌ بهؤلاء – على اختلافهم إلى يوم القيامة .

﴿ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ (57) ﴾

إنَّ الباطلَ قد تكون له دولةُ ولكنها تخييل – وما لذلك بقاء – وأقلُّ لُبْشاً من عارضٍ ينشأ عن الغيظ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 620. 621 ﴾

(114/553)

فصل

قال الشيخ سيد قطب فى الآيات السابقة :

﴿ لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (46) ﴾

بعد تلك الجولة الضخمة في مجالي النور ، في مشاهد الكون الكبير . . يعود سياق السورة إلى موضوعها الأصيل . موضوع الآداب التي يربي عليها القرآن الجماعة المسلمة ، لتتطهر قلوبها وتشرق ، وتتصل بنور الله في السماوات والأرض .

ولقد تناول في الدرس الماضي حديث الرجال الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة . وحديث الذين كفروا وأعمالهم ومآلهم ، وما هم فيه من ظلمات بعضها فوق بعض .

فالآن في هذا الدرس يتحدث عن المنافقين ، الذين لا ينتفعون بآيات الله المبينات ولا يهتدون . فهم يظهرون الإسلام ، ولكنهم لا يتأدبون بأدب المؤمنين في طاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي الرضى بحكمه ، والطمأنينة إليه . ويوازن بينهم وبين المؤمنين الصادقين في إيمانهم . أولئك الذين وعدهم الله الاستخلاف في الأرض ، والتمكين في الدين ، والأمن في المقام ، جزاء لهم على أدبهم مع الله ورسوله . وطاعتهم لله ورسوله . . وذلك على الرغم من عداء الكافرين . وما الذين كفروا بمعجزين في الأرض ومأواهم النار وبئس المصير . .

﴿ لقد أنزلنا آيات مبينات . والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾ . .

فآيات الله مبينة كاشفة ؛ تجلو نور الله ، وتكشف عن ينابيع هداه . وتحدد الخير والشر ، والطيب والخبيث . وتبين منهج الإسلام في الحياة كاملاً دقيقاً لا لبس فيه ولا غموض ؛

وتحدد أحكام الله في الأرض بلا شبهة ولا إبهام . فإذا تحاكم الناس إليها فإنما يتحاكمون إلى شريعة واضحة مضبوطة ، لا يخشى منها صاحب حق على حقه ؛ ولا يلتبس فيها حق بباطل ، ولا حلال بحرام .

(115/553)

﴿ والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾ . . والمشيئة مطلقة لا يقيدها قيد . غير أن الله سبحانه قد جعل للهدى طريقاً ، من وجه نفسه إليه وجد فيه هدى الله ونوره ، فاتصل به ، وسار على الدرب ، حتى يصل بمشيئة الله ومن حاد عنه وأعرض فقد النور الهادي ولج في طريق الضلال . حسب مشيئة الله في الهدى والضلال .

ومع هذه الآيات المبينات يوجد ذلك الفريق من الناس . فريق المنافقين ، الذين كانوا يظهرون الإسلام ولا يتأدبون بأدب الإسلام :

﴿ ويقولون : آمنا بالله وبالرسول وأطعنا . ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك . وما أولئك بالمؤمنين . وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون . وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين . أفي قلوبهم مرض ؟ أم ارتابوا ؟ أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله ؟ بل أولئك هم الظالمون ﴾ . .

إن الإيمان الصحيح متى استقر في القلب ظهرت آثاره في السلوك . والإسلام عقيدة متحركة ، لا تطيق السلبية . فهي بمجرد تحققها في عالم الشعور تتحرك لتحقق مدلولها في الخارج ؛ ولتترجم نفسها إلى حركة وإلى عمل في عالم الواقع .

ومنهج الإسلام الواضح في التربية يقوم على أساس تحويل الشعور الباطن بالعقيدة وآدابها إلى حركة سلوكية واقعية ؛ وتحويل هذه الحركة إلى عادة ثابتة أو قانون . مع استحياء الدافع الشعوري الأول في كل حركة ، لتبقى حية متصلة بالينبوع الأصيل .

وهؤلاء كانوا يقولون : ﴿ آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ﴾ . . يقولونها بأفواههم ، ولكن مدلولها لا يتحقق في سلوكهم . فيتولون ناكصين يكذبون بالأعمال ما قالوه باللسان : ﴿ وما أولئك بالمؤمنين ﴾ فالمؤمنون تصدق أفعالهم أقوالهم . والإيمان ليس لعبة يتلهى بها صاحبها ؛ ثم يدعها ويمضي ، إنما هو تكيف في النفس ، وانطباع في القلب ، وعمل في الواقع ، ثم لا تملك النفس الرجوع عنه متى استقرت حقيقته في الضمير . .

(116/553)

ولقد كان هؤلاء الذين يدعون الإيمان يخالفون مدلوله حين يدعون ليتحاكموا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم على شريعة الله التي جاء بها :

﴿ وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون . وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين ﴾ . .

فلقد كانوا يعلمون أن حكم الله ورسوله لا يحيد عن الحق ، ولا ينحرف مع الهوى ، ولا يتأثر بالمودة والشنآن . وهذا الفريق من الناس لا يريد الحق ولا يطيق العدل . ومن ثم كانوا يعرضون عن التحاكم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ويأبون أن يجيئوا إليه . فأما إذا كانوا أصحاب حق قضية فهم يسارعون إلى تحكيم رسول الله ، راضين خاضعين ، لأنهم واثقون أنه سيقضي لهم بحقهم ، وفق شريعة الله ، التي لا تظلم ولا تبخس الحقوق .

هذا الفريق الذي كان يدعي الإيمان ، ثم يسلك هذا السلوك الملتوي ، إنما هو نموذج للمنافقين في كل زمان ومكان . المنافقين الذين لا يجرؤون على الجهر بكلمة الكفر ، فيتظاهرون بالإسلام . ولكنهم لا يرضون أن تقضي بينهم شريعة الله ، ولا أن يحكم فيهم قانونه ، فإذا دعوا إلى حكم الله ورسوله أبوا وأعرضوا وانتحلوا المعاذير ﴿ وما أولئك بالمؤمنين ﴾ فما يستقيم الإيمان وإباء حكم الله ورسوله . إلا أن تكون لهم مصلحة في أن يتحاكموا إلى شريعة الله أو يحكموا قانونه !

إن الرضى بحكم الله ورسوله هو دليل الإيمان الحق . وهو المظهر الذي ينبئ عن استقرار حقيقة الإيمان في القلب . وهو الأدب الواجب مع الله ومع رسول الله . وما يرفض حكم الله وحكم رسوله إلا سيِّئ الأدب معتم ، لم يتأدب بأدب الإسلام ، ولم يشرق قلبه بنور الإيمان .

ومن ثم يعقب على فعلتهم هذه بأسئلة تثبت مرض قلوبهم ، وتتعجب من ريبتهم ، وتستنكر تصرفهم الغريب :

﴿ أفي قلوبهم مرض ؟ أم ارتابوا ؟ أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله ؟ ﴾ . .

والسؤال الأول للإثبات . فمرض القلب جدير بأن ينشئ مثل هذا الأثر .

(117/553)

وما ينحرف الإنسان هذا الانحراف وهو سليم الفطرة . إنما هو المرض الذي تختل به فطرته عن استقامتها ، فلا تتذوق حقيقة الإيمان ، ولا تسير على نهجه القويم .

والسؤال الثاني للتعجب . فهل هم يشكون في حكم الله وهم يزعمون الإيمان ؟ هل هم يشكون في مجيئه من عند الله ؟ أو هم يشكون في صلاحيته لإقامة العدل ؟ على كلتا الحالتين فهذا ليس طريق المؤمنين !

والسؤال الثالث للاستنكار والتعجب من أمرهم الغريب . فهل هم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله ؟ وإنه لعجيب أن يقوم مثل هذا الخوف في نفس إنسان . فالله خالق الجميع ورب الجميع . فكيف يحيف في حكمه على أحد من خلقه لحساب أحد من خلقه ؟

إن حكم الله هو الحكم الوحيد المبرأ من مظنة الحيف . لأن الله هو العادل الذي لا يظلم

أحداً . وكل خلقه أمامه سواء . فلا يظلم أحداً منهم لمصلحة أحد . وكل حكم غير حكمه هو مظنة الحيف . فالبشر لا يملكون أنفسهم وهم يشرعون ويحكمون أن يميلوا إلى مصالحهم . أفراداً كانوا أم طبقة أم دولة .

وحين يشرع فرد ويحكم فلا بد أن يلحظ في التشريع حماية نفسه وحماية مصالحه . وكذلك حين تشرع طبقة لطبقة ، وحين تشرع دولة لدولة . أو كتلة من الدول لكتلة . . فأما حين يشرع الله فلا حماية ولا مصلحة . إنما هي العدالة المطلقة ، التي لا يطيقها تشريع غير تشريع الله ، ولا يحققها حكم غير حكمه .

من أجل ذلك كان الذين لا يرتضون حكم الله ورسوله هم الظالمون ، الذين لا يريدون للعدالة أن تستقر ؛ ولا يحبون للحق أن يسود . فهم لا يخشون في حكم الله حيفا ، ولا يرتابون في عدالته أصلاً ﴿ بل أولئك هم الظالمون ﴾ . .

فأما المؤمنون حقاً فلهم أدب غير هذا مع الله ورسوله . ولهم قول آخر إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم ؛ هو القول الذي يليق بالمؤمنين ؛ وينبئ عن إشراق قلوبهم بالنور : ﴿ إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا : سمعنا وأطعنا . وأولئك هم المفلحون ﴾ . .

فهو السمع والطاعة بلا تردد ولا جدال ولا انحراف . السمع والطاعة المستمدان من الثقة المطلقة في أن حكم الله ورسوله هو الحكم وما عداه الهوى ؛ النابعان من التسليم المطلق لله ، واهب الحياة ، المتصرف فيها كيف يشاء ؛ ومن الإطمئنان إلى أن ما يشاؤه الله للناس خير مما يشاءونه لأنفسهم . فالله الذي خلق أعلم بمن خلق . .

﴿ وأولئك هم المفلحون ﴾ . . المفلحون لأن الله هو الذي يدبر أمورهم ، وينظم علاقاتهم ، ويحكم بينهم بعلمه وعدله ؛ فلا بد أن يكونوا خيراً ممن يدبر أمورهم ، وينظم علاقاتهم ، ويحكم بينهم بشر مثلهم ، قاصرون لم يؤتوا من العلم إلا قليلاً . . والمفلحون لأنهم مستقيمون على منهج واحد ، لا عوج فيه ولا التواء ، مطمئنون إلى هذا المنهج ، ماضون فيه لا يتخبطون ، فلا تتوزع طاقاتهم ، ولا يمزقهم الهوى كل ممزق ، ولا تقودهم الشهوات والأهواء .

والنهج الإلهي أمامهم واضح مستقيم .

﴿ ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون ﴾ . .

وقد كان الحديث في الآية السابقة عن الطاعة والتسليم في الأحكام . فالأن يتحدث عن الطاعة كافة في كل أمر أو نهي ، مصحوبة هذه الطاعة بخشية الله وتقواه . والتقوى أعم من الخشية ، فهي مراقبة الله والشعور به عند الصغيرة والكبيرة ؛ والتحرج من إتيان ما يكره

توقيراً لذاته سبحانه ، وإجلالاً له ، وحياء منه ، إلى جانب الخوف والخشية .

ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون ، الناجون في دنياهم وأخراهم . وعد الله ولن يخلف الله وعده . وهم للفوز أهل ، ولديهم أسبابه من واقع حياتهم . فالطاعة لله ورسوله تقتضي السير على النهج القويم الذي رسمه الله للبشرية عن علم وحكمة ، وهو بطبيعته يؤدي إلى الفوز في الدنيا والآخرة . وخشية الله وتقواه هي الحارس الذي يكفل الاستقامة على النهج ، وإغفال المغريات التي تهتف بهم على جانبيه ، فلا ينحرفون ولا يلتفتون .

(119/553)

وأدب الطاعة لله ورسوله ، مع خشية الله وتقواه ، أدب رفيع ، ينبئ عن مدى إشراق القلب بنور الله ، واتصاله به ، وشعوره بهيبته . كما ينبئ عن عزة القلب المؤمن واستعلائه . فكل طاعة لا ترتكن على طاعة الله ورسوله ، ولا تستمد منها ، هي ذلة يأباها الكريم ، وينفر منها طبع المؤمن ، ويستعلي عليها ضميره . فالمؤمن الحق لا يحني رأسه إلا لله الواحد القهار .

وبعد هذه المقابلة بين حسن أدب المؤمنين ، وسوء أدب المنافقين الذين يدعون الإيمان ، وما

هم بمؤمنين . بعد هذه المقابلة يعود إلى استكمال الحديث عن هؤلاء المنافقين :

﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن أمرتهم ليخرجن . قل : لا تقسموا . طاعة معروفة . إن الله خبير بما تعملون . قل : أطيعوا الله وأطيعوا الرسول . فإن تولوا فإنما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم . وإن تطيعوه تهتدوا . وما على الرسول إلا البلاغ المبين ﴾ . .

ولقد كان المنافقون يقسمون لرسول الله صلى الله عليه وسلم لئن أمرهم بالخروج إلى القتال ليخرجن . والله يعلم إنهم لكاذبون . فهو يرد عليهم متهكماً ، ساخراً من أيمانهم : ﴿ قل : لا تقسموا . طاعة معروفة ﴾ . . لا تحلفوا فإن طاعتكم معروف أمرها ، مفروغ منها ، لا تحتاج إلى حلف أو توكيد ! كما تقول لمن تعلم عليه الكذب وهو مشهور به : لا تحلف لي على صدقك . فهو مؤكد ثابت لا يحتاج إلى دليل .

ويعقب على التهكم الساخر بقوله : ﴿ إن الله خبير بما تعملون ﴾ . . فلا يحتاج إلى قسم ولا توكيد ، وقد علم أنكم لا تطيعون ولا تخرجون !

لهذا يعود فيأمرهم بالطاعة . الطاعة الحقيقية . لا طاعتهم تلك المعروفة المفهومة !

﴿ قل : أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ﴾ .

.

﴿ فإن تولوا ﴾ وتعرضوا ، أو تنافقوا ولا تنفذوا ﴿ فإنما عليه ما حمل ﴾ من تبليغ الرسالة وقد قام به وأداه ﴿ وعليكم ما حملتم ﴾ وهو أن تطيعوا وتخلصوا . وقد نكصتم عنه ولم تؤدوه : ﴿ وإن تطيعوه تهتدوا ﴾ إلى المنهج القويم المؤدي إلى الفوز والفلاح . ﴿ وما على الرسول إلا البلاغ المبين ﴾ فليس مسؤولاً عن إيمانكم ، وليس مقصراً إذا أنتم توليتم . إنما أنتم المسؤولون المعاقبون بما توليتم وبما عصيتم وبما خالفتم عن أمر الله وأمر الرسول .

وبعد استعراض أمر المنافقين ، والانتهاء منه على هذا النحو . . يدعهم السياق وشأنهم ، ويلتفت عنهم إلى المؤمنين المطيعين ، يبين جزاء الطاعة المخلصة ، والإيمان العامل ، في هذه الأرض قبل يوم الحساب الأخير :

﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ؛ وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ؛ وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً . يعبدونني لا يشركون بي شيئاً . ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ﴾ . .

ذلك وعد الله للذين أمنوا وعملوا الصالحات من أمة محمد صلى الله عليه وسلم أن يستخلفهم في الأرض . وأن يمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم . وأن يبدلهم من بعد خوفهم أمناً . . ذلك وعد الله . ووعد الله حق . ووعد الله واقع . ولن يخلف الله وعده . . فما

حقيقة ذلك الإيمان ؟ وما حقيقة هذا الاستخلاف ؟

إن حقيقة الإيمان التي يتحقق بها وعد الله حقيقة ضخمة تستغرق النشاط الإنساني كله ؛ وتوجه النشاط الإنساني كله . فما تكاد تستقر في القلب حتى تعلن عن نفسها في صورة عمل ونشاط وبناء وإنشاء موجه كله إلى الله ؛ لا يبتغي به صاحبه إلا وجه الله ؛ وهي طاعة لله واستسلام لأمره في الصغيرة والكبيرة ، لا يبقى معها هوى في النفس ، ولا شهوة في القلب ، ولا ميل في الفطرة إلا وهو تبع لما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من عند الله .

(121/553)

فهو الإيمان الذي يستغرق الإنسان كله ، بخواطر نفسه ، وخلجات قلبه . وأشواق روحه ، وميول فطرته ، وحركات جسمه ، ولفتات جوارحه ، وسلوكه مع ربه في أهله ومع الناس جميعاً . . يتوجه بهذا كله إلى الله . . يتمثل هذا في قول الله سبحانه في الآية نفسها تعليلاً للاستخلاف والتمكين والأمن : ﴿ يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ﴾ والشرك مداخل وألوان ، والتوجه إلى غير الله بعمل أو شعور هو لون من ألوان الشرك بالله .

ذلك الإيمان منهج حياة كامل ، يتضمن كل ما أمر الله به ، ويدخل فيما أمر الله به توفير

الأسباب ، وإعداد العدة ، والأخذ بالوسائل ، والتهيؤ لحمل الأمانة الكبرى في الأرض . .

أمانة الاستخلاف . .

فما حقيقة الاستخلاف في الأرض ؟

إنها ليست مجرد الملك والقهر والغلبة والحكم . . إنما هي هذا كله على شرط استخدامه في الإصلاح والتعمير والبناء ؛ وتحقيق المنهج الذي رسمه الله للبشرية كي تسير عليه ؛ وتصل عن طريقه إلى مستوى الكمال المقدر لها في الأرض ، اللائق بخليقة أكرمها الله .

إن الاستخلاف في الأرض قدرة على العمارة والإصلاح ، لا على الهدم والإفساد . وقدرة على تحقيق العدل والطمأنينة ، لا على الظلم والقهر . وقدرة على الارتفاع بالنفس البشرية والنظام البشري ، لا على الانحدار بالفرد والجماعة إلى مدارج الحيوان !

وهذا الاستخلاف هو الذي وعده الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات . . وعدهم الله أن يستخلفهم في الأرض كما استخلف المؤمنين الصالحين قبلهم ليحققوا النهج الذي أراده الله ؛ ويقرروا العدل الذي أراده الله ؛ ويسيروا بالبشرية خطوات في طريق الكمال المقدر لها يوم أنشأها الله . . فاما الذين يملكون فيفسدون في الأرض ، وينشرون فيها البغي والجور ، وينحدرون بها إلى مدارج الحيوان . . فهؤلاء ليسوا مستخلفين في الأرض . إنما هم مبتلون بما هم فيه ، أو مبتلى بهم غيرهم ، ممن يسلطون عليهم لحكمة يقدرها الله .

آية هذا الفهم لحقيقة الاستخلاف قوله تعالى بعده : ﴿ وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ﴾ . . وتمكين الدين يتم بتمكينه في القلوب ، كما يتم بتمكينه في تصريف الحياة وتدبيرها . فقد وعدهم الله إذن أن يستخلفهم في الأرض ، وأن يجعل دينهم الذي ارتضى لهم هو الذي يهيمن على الأرض . ودينهم يأمر بالإصلاح ، ويأمر بالعدل ، ويأمر بالاستعلاء على شهوات الأرض . . ويأمر بعمارة هذه الأرض ، والانتفاع بكل ما أودعها الله من ثروة ، ومن رصيد ، ومن طاقة ، مع التوجه بكل نشاط فيها إلى الله .

﴿ وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً ﴾ . . ولقد كانوا خائفين ، لا يأمنون ، ولا يضعون سلاحهم أبداً حتى بعد هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى قاعدة الإسلام الأولى بالمدينة .

قال الربيع بن أنس عن أبي العالية في هذه الآية : كان النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه بمكة نحواً من عشر سنين يدعون إلى الله وحده ، وإلى عبادته وحده بلا شريك له ، سراً وهم خائفون لا يؤمرون بالقتال ؛ حتى أمروا بعد الهجرة إلى المدينة ، فقدموها ، فأمرهم الله بالقتال ، فكانوا بها خائفين ، يمسون في السلاح ويصبحون في السلاح ؛ فصبروا على ذلك ما شاء الله . ثم إن رجلاً من الصحابة قال : يا رسول الله أبد الدهر نحن خائفون هكذا ؟ أما يأتي علينا يوم نأمن فيه ونضع عنا السلاح ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه

وسلم " لن تصبروا إلا يسيراً حتى يجلس الرجل منكم في الملأ العظيم ليست فيه حديدة " وأَنزل الله هذه الآية ، فأَظهر الله نبيه على جزيرة العرب ، فأمنوا ووضعوا السلاح ، ثم إن الله قبض نبيه صلى الله عليه وسلم فكانوا كذلك آمنين في إمارة أبي بكر وعمر وعثمان .

(123/553)

حتى وقعوا فيما وقعوا فيه ، فأدخل اللّه عليهم الخوف فاتخذوا الحجزة والشرط ، وغيروا فغير بهم . .

«وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذِلِكَ فَأُولِئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ» . . الخارجون على شرط اللّه . ووعد اللّه . وعهد اللّه . .

لقد تحقق وعد اللّه مرة . وظل متحققا وواقعا ما قام المسلمون على شرط اللّه :

«يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً» . . لا من الآلهة ولا من الشهوات . ويؤمنون – من الإيمان – ويعملون صالحا . ووعد اللّه مذخور لكل من يقوم على الشرط من هذه الأمة إلى يوم القيامة . إنما يبطئ النصر والاستخلاف والتمكين والأمن .

لتخلف شرط اللّه في جانب من جوانبه الفسيحة أو في تكليف من تكاليفه الضخمة حتى إذا انتفعت الأمة بالبلاء ، وجازت الابتلاء ، وخافت فطلبت الأمن ، وذلت فطلبت العزة

، وتخلفت فطلبت الاستخلاف . .

كل ذلك بوسائله التي أرادها اللّه ، وبشروطه التي قررها اللّه . . تحقق وعد اللّه الذي لا يتخلف ، ولا تقف في طريقة قوة من قوى الأرض جميعا .

لذلك يعقب على هذا الوعد بالأمر بالصلاة والزكاة والطاعة وبألا يحسب الرسول – صلى اللّه عليه وسلم – وأمته حسابا لقوة الكافرين الذين يحاربونهم ويحاربون دينهم الذي ارتضى لهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 4 صـ 2524 . 2530 ﴾

(124/553)

قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (58) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان الملل من شيم النفوس ، فكان تدريج الكلام في المقاصد لا سيما الأحكام شيئاً

فشيئاً خلال مقاصد أخرى أوقع في القلب ، وأشهى إلى الطبع ، لا سيما إذا كان على وجوه من المناسبات عجيبة ، وضروب من الاتصالات هي مع دقتها غريبة ، زين الله تأصيلها بتفصيلها فابتدأ السورة بطائفة منها ، وفصلها بدر الوعظ ، وجواهر الحكم ، والحث على معالي الأخلاق ، ومكارم الأعمال ، ثم وصلها بالإلهيات التي هي أصولها ، وعن علي مقاماتها تفرعت فصولها ، فلما ختمها بالتمكين لأهل هذا الدين ، وتوهين أمر المعتدين ، شرع في إكمالها ، بإثبات بقية أحوالها ، تأكيداً لما حكم به من التمكين ، وما ختمه من ذلك من التوهين ، وتحذيراً مما ختمه من العذاب المهين ، وتحقيقاً لما ألزم به من الطاعة ، ولزوم السنة والجماعة ، فقال واصلاً بما ختم به الأحكام الأولى ، من الأمر بإنكاح الأيامى ، والكف عن إكراه البغايا ، إثر الذين لم يظهروا على عورات النساء : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ أي من الرجال والنساء ، إما للتغليب ، وإما لأن النساء أولى بحفظ العورة ﴿ ليستأذنكم ﴾ تصديقاً لدعوى الإيمان ﴿ الذين ملكت أيمانكم ﴾ من العبيد والإماء البالغين ، ومن قاربهم ، للدخول عليكم كراهة الاطلاع على عوراتكم والتطرق بذلك إلى مساءتكم ﴿ والذين ﴾ ظهروا على عورات النساء ، ولكنهم ﴿ لم يبلغوا الحلم ﴾ وقيده بقوله : ﴿ منكم ﴾ ليخرج الأرقاء والكفار ﴿ ثلاث مرّات ﴾ في كل دور ، ويمكن أن يراد : ثلاث استئذانات في كل مرة ، فإن لم يحصل الإذن رجع المستأذن كما تقدم : المرة الأولى من الأوقات الثلاث ﴿ من قبل صلاة الفجر ﴾ لأنه وقت القيام من المضاجع وطرح ثياب النوم

﴿ و ﴾ الثانية ﴿ حين تضعون ثيابكم ﴾ أي التي للخروج بين الناس ﴿ من الظهيرة ﴾ للقائلة ﴿ و ﴾ الثالثة ﴿ من بعد صلاة العشاء ﴾ لأنه وقت الانفصال من ثياب اليقظة ، والاتصال بثياب النوم ، وخص هذه الأوقات لأنها ساعات الخلوة ، ووضع الثياب ، وأثبت من في

(125/553)

الموضعين دلالة على قرب الزمن من الوقت المذكور لضبطه ، وأسقطها في الأوسط دلالة على استغراقه لأنه غير منضبط ، ثم علل ذلك بقوله : ﴿ ثلاث عورات ﴾ أي اختلالات في التستر والتحفظ ، وأصل العورة - كما قال البيضاوي : الخلل .

لأنه لما كانت العورة تبدو فيها سميت بها ﴿ لكم ﴾ لأنها ساعات وضع الثياب والخلوة بالأهل ، وبين حكم ما عدا ذلك بقوله مستأنفاً : ﴿ ليس عليكم ﴾ أي في ترك الأمر ﴿ ولا عليهم ﴾ يعني العبيد والخدم والصبيان ، في ترك الاستئذان ﴿ جناح ﴾ أي إثم ، وأصله الميل ﴿ بعدهن ﴾ أي في جميع ما سوى هذه الأوقات إذا هجموا عليكم ؛ ثم علل الإباحة في غيرها ، مخرجاً لغيرهم ، مبيناً أن حكمة الاستئذان في كل وقت كما مضى بقوله : ﴿ طوافون عليكم ﴾ أي لعمل ما تحتاجونه في الخدمة كما أنتم طوافون عليهم لعمل ما

يصلحهم ويصلحكم في الاستخدام ﴿ بعضكم ﴾ طواف ﴿ على بعض ﴾ لعمل ما يعجز عنه الآخر أو يشق عليه فلو عم الأمر بالاستئذان لأدى إلى الحرج.

ولما أعلى سبحانه البيان في هذه الآيات إلى حد يعجز الإنسان لا سيما وهي في الأحكام، والكلام فيها يعيي أهل البيان، وكان السامع لما جبل عليه من النسيان، يذهل عن أن هذا هو الشأن، في جميع القرآن، قال مشيراً إلى عظم شأنها، في تفريقها وبيانها: ﴿ كذلك ﴾ أي مثل هذا البيان ﴿ يبين الله ﴾ بما له من إحاطة العلم والقدرة ﴿ لكم ﴾ أيتها الأمة الخاصة ﴿ الآيات ﴾ في الأحكام وغيرها وبعلمه وحكمته ﴿ والله ﴾ الذي له الإحاطة العامة بكل شيء ﴿ عليم ﴾ بكل شيء ﴿ حكيم ﴾ يتقن ما يريده، فلا يقدر أحد على نقضه، وختم الآية بهذا الوصف يدل على أنها محكمة لم تنسخ كما قال الشعبي وغيره - أفاده ابن كثير، وحُكي مثله عن ابن عباس - رضى الله عنهما - وسعيد بن جبير. انتهى انتهى. اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 281 . 283 ﴾

(126/553)

فصل

قال الفخر:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾

اعلم أن في الآية مسائل :

المسألة الأولى :

قال القاضي : قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين ءَامَنُواْ لِيَسْتَأْذِنكُمُ الذين مَلَكَتْ أيمانكم ﴾ وإن كان ظاهره الرجال فالمراد به الرجال والنساء لأن التذكير يغلب على التأنيث فإذا لم يميز فيدخل تحت قوله : ﴿ يا أيها الذين ءَامَنُواْ لِيَسْتَأْذِنكُمُ ﴾ الكل ويبين ذلك قوله تعالى : ﴿ الذين مَلَكَتْ أيمانكم ﴾ لأن ذلك يقال في الرجال والنساء والأولى عندي أن الحكم ثابت في النساء بقياس جلي ، وذلك لأن النساء في باب حفظ العورة أشد حالاً من الرجال ، فهذا الحكم لما ثبت في الرجال فثبوته في النساء بطريق الأولى ، كما أنا نثبت حرمة الضرب بالقياس الجلي على حرمة التأفيف .

المسألة الثانية :

(127/553)

ظاهر قوله : ﴿ الذين مَلَكَتْ أيمانكم ﴾ يدخل فيه البالغون والصغار ، وحكي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن المراد الصغار ، واحتجوا بأن الكبير من المماليك ليس له أن

ينظر من المالك إلا إلى ما يجوز للحر أن ينظر إليه ، قال ابن المسيب : لا يغرنكم قوله : ﴿ وَمَا مَلَكَتْ أيمانكم ﴾ لا ينبغي للمرأة أن ينظر عبدها إلى قرطها وشعرها وشيء من محاسنها ، وقال الآخرون : بل البالغ من المماليك له أن ينظر إلى شعر مالكته وما شاكله ، وظاهر الآية يدل على اختصاص عبيد المؤمنين والأطفال من الأحرار بإباحة ما حظره الله تعالى من قبل على جماعة المؤمنين بقوله : ﴿ لاَ تَدْخُلُواْ بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ ﴾ [النور : 27] فإنه أباح لهم إلا في الأوقات الثلاثة وجوز دخولهم مع من لم يبلغ بغير إذن ودخول الموالي عليهم بقوله تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلاَ عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوافُونَ عَلَيْكُمْ ﴾ أي يطوف بعضكم على بعض فيما عدا الأوقات الثلاثة ، وأكد ذلك بأن أوجب على من بلغ الحلم الجري على سنة من قبلهم من البالغين في الاستئذان في سائر الأوقات وألحقهم بمن دخل تحت قوله : ﴿ لاَ تَدْخُلُواْ بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حتى تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ على أَهْلِهَا ﴾ .

المسألة الثالثة :

(128/553)

قوله : ﴿ لِيَسْتَأْذِنكُمُ الذين مَلَكَتْ أيمانكم ﴾ إن أريد به العبيد والإماء إذا كانوا بالغين فغير ممتنع أن يكون أمراً لهم في الحقيقة ، وإن أريد ﴿ الذين لَمْ يَبْلُغُواْ الحلم ﴾ لم يجز أن يكون أمراً

لهم ، ويجب أن يكون أمراً لنا بأن نأمرهم بذلك ونبعثهم عليه كما أمرنا بأمر الصبي ، وقد عقل الصلاة أن يفعلها لا على وجه التكليف لهم ، لكنه تكليف لنا لما فيه من المصلحة لنا ولهم بعد البلوغ ، ولا يبعد أن يكون لفظ الأمر وإن كان في الظاهر متوجهاً عليهم إلا أنه يكون في الحقيقة متوجهاً على المولى كقولك للرجل : ليخفك أهلك وولدك ، فظاهر الأمر لهم وحقيقة الأمر له بفعل ما يخافون عنده .

المسألة الرابعة :

قال ابن عباس رضي الله عنهما إن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث غلاماً من الأنصار إلى عمر ليدعوه فوجده نائماً في البيت فدفع الباب وسلم فلم يستيقظ عمر فعاد ورد الباب وقام من خلفه وحركه فلم يستيقظ فقال الغلام اللهم أيقظه لي ودفع الباب ثم ناداه فاستيقظ وجلس ودخل الغلام فانكشف من عمر شيء وعرف عمر أن الغلام رأى ذلك منه فقال وددت أن الله نهى أبناءنا ونساءنا وخدمنا أن يدخلوا علينا في هذه الساعات إلا بإذن ثم انطلق معه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فوجده قد نزل عليه ﴿ يا أيها الذين ءَامَنُواْ لِيَسْتَأْذِنكُمُ الذين مَلَكَتْ أيمانكم ﴾ فحمد الله تعالى عمر عند ذلك فقال عليه السلام " وما ذاك يا عمر ؟ " فأخبره بما فعل الغلام فتعجب رسول الله صلى الله عليه وسلم من صنعه وتعرف اسمه ومدحه ، وقال : " إن الله يحب الحليم الحي العفيف

المتعفف ، ويبغض البذيء الجريء السائل الملحف " فهذه الآية إحدى الآيات المنزلة بسبب عمر .

(129/553)

وقال بعضهم : نزلت في أسماء بنت أبي مرثد قالت إنا لندخل على الرجل والمرأة ولعلهما يكونان في لحاف واحد ، وقيل دخل عليها غلام لها كبير في وقت كرهت دخوله فيه فأتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت إن خدمنا وغلماننا يدخلون علينا في حال نكرهها فنزلت الآية .

المسألة الخامسة :

قال ابن عمر ومجاهد قوله : ﴿لِيَسْتَأْذِنكُمُ﴾ عنى به الذكور دون الإناث لأن قوله : ﴿الذين مَلَكَتْ أيمانكم﴾ صيغة الذكور لا صيغة الإناث ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما هي في الرجال والنساء يستأذنون على كل حال بالليل والنهار ، والصحيح أنه يجب إثبات هذا الحكم في النساء ، لأن الإنسان كما يكره اطلاع الذكور على أحواله فقد يكره أيضاً اطلاع النساء عليها ولكن الحكم يثبت في النساء بالقياس لا بظاهر اللفظ على ما قدمناه .

المسألة السادسة :

من العلماء من قال الأمر في قوله : ﴿لِيَسْتَأْذِنكُمُ﴾ على الندب والاستحباب ومنهم من قال إنه على الإيجاب وهذا أولى ، لما ثبت أن ظاهر الأمر للوجوب .

أما قوله تعالى : ﴿ والذين لَمْ يَبْلُغُواْ الحلم مِنكُمْ ﴾ ففيه مسائل :

المسألة الأولى :

قرأ ابن عمر ﴿ الحلم ﴾ بالسكون .

المسألة الثانية :

اتفق الفقهاء على أن الاحتلام بلوغ واختلفوا إذا بلغ خمس عشرة سنة ولم يحتلم فقال أبو حنيفة رحمه الله لا يكون الغلام بالغاً حتى يبلغ ثماني عشرة سنة ويستكملها وفي الجارية سبع عشرة سنة ، وقال الشافعي وأبو يوسف ومحمد رحمهم الله في الغلام والجارية خمس عشرة سنة قال أبو بكر الرازي قوله تعالى : ﴿ والذين لَمْ يَبْلُغُواْ الحلم مِنكُمْ ﴾ يدل على بطلان قول من جعل حد البلوغ خمس عشرة إذا لم يحتلم لأن الله تعالى لم يفرق بين من بلغها وبين من قصر عنها بعد أن لا يكون قد بلغ الحلم ، وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم من جهات كثيرة :

" رفع القلم عن ثلاث عن النائم حتى يستيقظ ، وعن المجنون حتى يفيق ، وعن الصبي حتى يحتلم " ولم يفرق بين من بلغ خمس عشرة سنة وبين من لم يبلغها ، فإن قيل فهذا الكلام يبطل التقدير أيضاً بثماني عشرة سنة أجاب بأنا قد علمنا بأن العادة في البلوغ خمس عشرة سنة وكل ما كان مبنياً على طريق العادات فقد تجوز الزيادة فيه والنقصان منه ، وقد وجدنا من بلغ في اثنتي عشرة سنة ، وقد بينا أن الزيادة على المعتاد جائزة كالنقصان منه فجعل أبو حنيفة رحمه الله الزيادة كالنقصان ، وهي ثلاث سنين ، وقد حكى عن أبي حنيفة رحمه الله تسع عشرة سنة للغلام ، وهو محمول على استكمال ثماني عشرة سنة والدخول في التاسعة عشرة .

حجة الشافعي رحمه الله ما روى ابن عمر أنه عرض على النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد وله أربع عشرة سنة فلم يجزه وعرض عليه يوم الخندق وله خمس عشرة سنة فأجازه اعترض أبو بكر الرازي عليه فقال هذا الخبر مضطرب لأن أحداً كان في سنة ثلاث والخندق في سنة خمس فكيف يكون بينهما سنة ؟ ثم مع ذلك فإن الإجازة في القتال لا تعلق لها بالبلوغ لأنه قد يرد البالغ لضعفه ويؤذن غير البالغ لقوته ولطاقته حمل السلاح ويدل على ذلك أنه عليه الصلاة والسلام ما سأله عن الاحتلام والسن .

البحث الثاني : اختلفوا في الإنبات هل يكون بلوغاً ، فأبو حنيفة وأصحابه ما جعلوه بلوغاً والشافعي رحمه الله جعله بلوغاً ، قال أبو بكر الرازي رحمه الله ظاهر قوله : ﴿ والذين لَمْ يَبْلُغُواْ الحلم مِنكُمْ ﴾ ينفي أن يكون الإنبات بلوغاً إذا لم يحتلم كما نفى كون خمس عشرة سنة بلوغاً وكذلك قوله عليه السلام " وعن الصبي حتى يحتلم " حجة الشافعي رحمه الله تعالى ما روى عطية القرظي أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بقتل من أنبت من قريظة واستحياء من لم ينبت قال فنظروا إلى فلم أكن قد أنبت فاستبقاني قال أبو بكر الرازي هذا الحديث لا يجوز إثبات الشرع به وبمثله لوجوه : أحدها : أن عطية هذا مجهول لا يعرف إلا من هذا الخبر لا سيما مع اعتراضه على الآية ، والخبر في نفي البلوغ إلا بالاحتلام وثانيها : أنه مختلف الألفاظ ففي بعضها أنه أمر بقتل من جرت عليه الموسى ، وفي بعضها من اخضر عذاره ومعلوم أنه لا يبلغ هذه الحال إلا وقد تقدم بلوغه ولا يكون قد جرت عليه الموسى إلا وهو رجل كبير ، فجعل الإنبات وجرى الموسى عليه كناية عن بلوغ القدر الذي ذكرنا من السن وهي ثماني عشرة سنة فأكثر وثالثها : أن الإنبات يدل على القوة البدنية فالأمر بالقتل لذاك لا للبلوغ ، قال الشافعي رحمه الله هذه الاحتمالات مردودة بما روي أن عثمان بن

عفان رضي الله عنه سئل عن غلام فقال هل اخضر عذاره ؟ وهدا يدل على أن ذلك كان كالأمر المتفق عليه فيما بين الصحابة .

البحث الثالث : ويروى عن قوم من السلف أنهم اعتبروا في البلوغ أن يبلغ الإنسان في طوله خمسة أشبار ، روي عن علي عليه السلام أنه قال إذا بلغ الغلام خمسة أشبار فقد وقعت عليه الحدود ويقتص له ويقتص منه ، وعن ابن سيرين عن أنس قال أتى أبو بكر بغلام قد سرق فأمر به فشبر فنقص أنملة فخلى عنه ، وهذا المذهب أخذ به الفرزدق في قوله :

ما زال مذ عقدت يداه إزاره . . وسما فأدرك خمسة الأشبار

(132/553)

وأكثر الفقهاء لا يقولون بهذا المذهب ، لأن الإنسان قد يكون دون البلوغ ويكون طويلاً ، وفوق البلوغ ويكون قصيراً فلا عبرة به .

المسألة الثالثة :

قال أبو بكر الرازي دلت هذه الآية على أن من لم يبلغ ، وقد عقل يؤمر بفعل الشرائع وينهى عن ارتكاب القبائح فإن الله أمرهم بالاستئذان في هذه الأوقات ، وقال عليه السلام : " مروهم بالصلاة وهم أبناء سبع واضربوهم عليها وهم أبناء عشر " وعن ابن عمر رضي

الله عنه قال نعلم الصبي الصلاة إذا عرف يمينه من شماله ، وعن زين العابدين أنه كان يأمر الصبيان أن يصلوا الظهر والعصر جميعاً والمغرب والعشاء جميعاً ، فقيل له يصلون الصلاة لغير وقتها فقال خير من أن يتناهوا عنها ، وعن ابن مسعود رضي الله عنه إذا بلغ الصبي عشر سنين كتبت له الحسنات ولا تكتب عليه السيئات حتى يحتلم ، ثم قال أبو بكر الرازي إنما يؤمر بذلك على وجه التعليم وليعتاده ويتمرن عليه فيكون أسهل عليه بعد البلوغ وأقل نفوراً منه ، وكذلك يجنب شرب الخمر ولحم الخنزير وينهى عن سائر المحظورات لأنه لو لم يمنع منه في الصغر لصعب عليه الامتناع بعد الكبر ، وقال الله تعالى : ﴿ قُواْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً ﴾ [التحريم : 6] قيل في التفسير أدبوهم وعلموهم .

المسألة الرابعة :

قال الأخفش : يقال في الحلم حلم الرجل بفتح اللام ، يحلم حلماً بضم اللام ، ومن الحلم حلم بضم اللام ، يحلم حلماً بكسر اللام .

أما قوله تعالى : ﴿ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ مِّن قَبْلِ صلاة الفجر وَحِينَ تَضَعُونَ ثيابكم مِّنَ الظهيرة وَمِن بَعْدِ صلاة العشاء ثَلاَثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ ﴾ ففيه مسائل :

المسألة الأولى :

قوله : ﴿ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ ﴾ يعني ثلاث أوقات ، لأنه تعالى فسرهن بالأوقات ، وإنما قيل ثلاث مرات للأوقات لأنه أراد مرة في كل وقت من هذه الأوقات ، لأنه يكفيهم أن يستأذنوا في كل واحد من هذه الأوقات مرة واحدة ، ثم بين الأوقات فقال : ﴿ مّن قَبْلِ صلاة الفجر وَحِينَ تَضَعُونَ ثيابكم مّنَ الظهيرة وَمِن بَعْدِ صلاة العشاء ﴾ ، يعني الغالب في هذه الأوقات الثلاثة أن يكون الإنسان متجرداً عن الثياب مكشوف العورة .

المسألة الثانية :

قوله : ﴿ ثَلاَثُ عَوْرَاتِ ﴾ قرأ أهل الكوفة : ﴿ ثلاث ﴾ بالنصب على البدل من قوله : ﴿ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ ﴾ وكأنه قال في أوقات ثلاث عورات لكم ، فلما حذف المضاف أعرب المضاف إليه بإعرابه وقراءة الباقين بالرفع أي : هي ثلاث عورات فارتفع لأنه خبر مبتدأ محذوف ، قال القفال فكأن المعنى ثلاث انكشافات والمراد وقت الانكشاف .

المسألة الثالثة :

العورة الخلل ومنه أعور الفارس وأعور المكان والأعور المختل العين ، فسمى الله تعالى كل واحدة من تلك الأحوال عورة ، لأن الناس يختل حفظهم وتسترهم فيها .

المسألة الرابعة :

الآية دالة على أن الواجب اعتبار العلل في الأحكام إذا أمكن لأنه تعالى نبه على العلة في

هذه الأوقات الثلاثة من وجهين : أحدهما : بقوله تعالى : ﴿ ثَلاَثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ ﴾ والثاني : بالتنبيه على الفرق بين هذه الأوقات الثلاثة وبين ما عداها بأنه ليس ذاك إلا لعلة التكشف في هذه الأوقات الثلاثة ، وأنه لا يؤمن وقوع التكشف فيها وليس كذلك ما عدا هذه الأوقات .

المسألة الخامسة :

(134/553)

من الناس من قال إن قوله تعالى : ﴿ يا أَيُّهَا الذين ءَامَنُواْ لاَ تَدْخُلُواْ بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حتى تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلّمُواْ على أَهْلِهَا ﴾ [النور : 27] فهذا يدل على أن الاستئذان واجب في كل حال ، وصار ذلك منسوخاً بهذه الآية في غير هذه الأحوال الثلاثة ، ومن الناس من قال الآية الأولى أريد بها المكلف لأنه خطاب لمن آمن ، وما ذكره الله تعالى في هذه الآية فهو فيمن ليس بمكلف فقيل فيه إن في بعض الأحوال لا يدخل إلا بإذن ، وفي بعضها بغير إذن .

فلا وجه لحمل ذلك على النسخ ، لأن ما تناولته الآية الأولى من المخاطبين لم تتناوله الآية الثانية أصلاً ، فإن قيل بتقدير أن يكون قوله تعالى : ﴿ الذين مَلَكَتْ أيمانكم ﴾ يدخل فيه من قد بلغ فالنسخ لازم ، قلنا لا يجب ذلك أيضاً ، لأن قوله : ﴿ يا أَيُّهَا الذين ءَامَنُواْ لاَ

تَدْخُلُواْ بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ ﴾ لا يدخل إلا من يملك البيوت لحق هذه الإضافة ، وإذا صح ذلك لم يدخل تحت العبيد والإماء ، فلا يجب النسخ أيضاً على هذا القول ، فأما إن حمل الكلام على صغار المماليك فالقول فيه أبين .

المسألة السادسة :

قال أبو حنيفة رحمه الله : لم يصر أحد من العلماء إلى أن الأمر بالاستئذان منسوخ .

وروى عطاء عن ابن عباس أنه قال : ثلاث آيات من كتاب الله تركهن الناس ولا أرى أحداً يعمل بهن ، قال عطاء حفظت اثنتين ونسيت واحدة ، وقرأ هذه الآية وقوله : ﴿ يا أَيُّهَا الناس إِنَّا خلقناكم مّن ذَكَرٍ وأنثى ﴾ [الحجرات : 13] وذكر سعيد بن جبير أن الآية الثالثة قوله : ﴿ وَإِذَا حَضَرَ القسمة أُوْلُواْ القربى ﴾ [النساء : 8] الآية .

أما قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلاَ عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوفُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ على بَعْضٍ ﴾ ففيه سؤالات :

(135/553)

السؤال الأول : أتقولون في قوله : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلاَ عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ ﴾ أنه يقتضي الإباحة على كل حال ؟ الجواب : قد بينا أن ذلك هو في الصغار خاصة ، فمباح لهم الدخول

للخدمة بغير الإذن في غير الأوقات الثلاثة ، ومباح لنا تمكينهم من ذلك والدخول عليهم أيضاً .

السؤال الثاني : فهل يقتضي ذلك إباحة كشف العورة لهم ؟ الجواب : لا وإنما أباح الله تعالى ذلك من حيث كانت العادة أن لا تكشف العورة في غير تلك الأوقات ، فمتى كشفت المرأة عورتها مع ظن دخول الخدم إليها فذلك يحرم عليها ، فإن كان الخادم ممن يتناوله التكليف فيحرم عليه الدخول أيضاً إذا ظن أن هناك كشف عورة ، فإن قيل أليس من الناس من جوز للبالغ من المماليك أن ينظر إلى شعر مولاته ؟ قلنا من جوز ذلك أخرج الشعر من أن يكون عورة لحق الملك ، كما يخرج من أن يكون عورة لحق الرحم ، إذ العورة تنقسم ففيه ما يكون عورة على كل حال .

وفيه ما يختلف حاله بالإضافة فيكون عورة مع الأجنبي غير عورة غيره على ما تقدم ذكره .

السؤال الثالث : أتقولون هذه الإباحة مقصورة على الخدم دون غيرهم ؟ الجواب : نعم وفي قوله : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلاَ عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ ﴾ دلالة عى أن هذا الحكم يختص بالصغار دون البالغين على ما تقدم ذكره وقد نص تعالى على ذلك من بعد فقال : ﴿ وَإِذَا بَلَغَ الأَطفال مِنكُمُ الحلم فَلْيَسْتَأْذِنُواْ كَمَا استأذن الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ والمراد من تجدد منه البلوغ يجب أن يكون بمنزلة من تقدم بلوغه في وجوب الاستئذان ، فهذا معنى قوله : ﴿ كَمَا

استأذن الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ وقد يجوز أن يظن ظان أن من خدم في حال الصغر ، فإذا بلغ يجوز له أن لا يستأذن ويفارق حاله حال من لم يخدم ولم يملك ، فبين تعالى أنه كما حظر على البالغين الدخول إلا بالاستئذان فكذلك على هؤلاء إذا بلغوا وإن تقدمت لهم خدمة أو ثبت فيهم ملك لهن .

(136/553)

السؤال الرابع : الأمر بالاستئذان هل هو مختص بالمملوك ومن لم يبلغ الحلم أو يتناول الكل من ذوي الرحم ؟ والأجنبي أيضاً لو كان المملوك من ذوي الرحم هل يجب عليه الاستئذان ؟

الجواب : أما الصورة الأولى فنعم ، إما لعموم قوله تعالى : ﴿ لاَ تَدْخُلُواْ بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حتى تَسْتَأْنِسُواْ ﴾ [النور : 27] أو بالقياس على المملوك ، ومن لم يبلغ الحلم بطريق الأولى ، وأما الصورة الثانية فيجب عليه الاستئذان لعموم الآية .

السؤال الخامس : ما محل ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ ﴾ ؟ الجواب : إذا رفعت ﴿ ثَلاَثُ عَوْرَاتٍ ﴾ كان ذلك في محل الرفع على الوصف ، والمعنى هن ثلاث عورات مخصوصة بالاستئذان ، وإذا نصبت لم يكن له محل ، وكان كلاماً مقرراً للأمر بالاستئذان في تلك الأحوال خاصة .

السؤال السادس : ما معنى قوله : ﴿ طَوَافُونَ عَلَيْكُمْ ﴾ ؟ الجواب : قال الفراء والزجاج

إنه كلام مستأنف كقولك في الكلام إنما هم خدمكم وطوافون عليكم ، والطوافون الذين يكثرون الدخول والخروج والتردد ، وأصله من الطواف ، والمعنى يطوف بعضكم على بعض بغير إذن .

السؤال السابع : بم ارتفع ﴿ بَعْضُكُمْ ﴾ ؟ الجواب : بالابتداء وخبره ﴿ على بَعْضٍ ﴾ على معنى طائف على بعض ، وإنما حذف لأن ﴿ طَوفُونَ ﴾ يدل عليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 24 صـ 25.30 ﴾

(137/553)

وقال الجصاص :

بَابُ اسْتِئْذَانِ الْمَمَالِيكِ وَالصِّبْيَانِ اسْتِئْذَانُ الْمَمَالِيكِ وَالصِّبْيَانِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ﴾ الْآيَةَ .

رَوَى لَيْثُ بْنُ أَبِي سُلَيْمٍ عَنْ نَافِعٍ عَنْ ابْنِ عُمَرَ وَسُفْيَانَ عَنْ أَبِي حُصَيْنٍ عَنْ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ : ﴿ لِيَسْتَأْذِنْكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ قَالَا : (هُوَ فِي النِّسَاءِ خَاصَّةً وَالرِّجَالُ يَسْتَأْذِنُونَ عَلَى كُلِّ حَالٍ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ) .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : أَنْكَرَ بَعْضُهُمْ هَذَا التَّأْوِيلَ ، قَالَ : لِأَنَّ النِّسَاءَ لَا يُطْلَقُ فِيهِنَّ (الَّذِينَ) إذَا انْفَرَدْنَ ، وَإِنَّمَا يُقَالُ : (اللَّائِي) كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنْ الْمَحِيضِ ﴾ .

(138/553)

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : هَذَا يَجُوزُ إذَا عُبِّرَ بِلَفْظِ الْمَمَالِيكِ ، كَمَا أَنَّ النِّسَاءَ إذَا عُبِّرَ عَنْهُنَّ بِالْأَشْخَاصِ ؛ وَكَذَلِكَ جَائِزٌ أَنْ تُذْكَرَ الْإِنَاثُ إذَا عُبِّرَ عَنْهُنَّ بِلَفْظِ الْمَمَالِيكِ دُونَ النِّسَاءِ وَدُونَ الْإِمَاءِ ؛ لِأَنَّ التَّذْكِيرَ وَالتَّأْنِيثَ يَتْبَعَانِ اللَّفْظَ كَمَا تَقُولُ : (ثَلَاثُ مَلَاحِفَ) فَإِذَا عَبَّرْت بِالْأُزُرِ ذَكَّرْت فَقُلْت : (ثَلَاثَةُ أُزُرٍ) فَالظَّاهِرُ أَنَّ الْمُرَادَ الذُّكُورُ وَالْإِنَاثُ مِنْ الْمَمَالِيكِ وَلَيْسَ الْعَبِيدُ ؛ لِأَنَّ الْعَبِيدَ مَأْمُورُونَ بِالِاسْتِئْذَانِ فِي كُلِّ وَقْتٍ مَا يُوجِبُ الِاقْتِصَارَ بِالْأَمْرِ فِي الْعَوْرَاتِ الثَّلَاثِ عَلَى الْإِمَاءِ دُونَهُمْ ؛ إذْ كَانُوا مَأْمُورِينَ فِي سَائِرِ الْأَوْقَاتِ ، فَفِي هَذِهِ الْأَوْقَاتِ الثَّلَاثَةِ أَوْلَى أَنْ يَكُونُوا مَأْمُورِينَ بِهِ .

حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَكْرٍ قَالَ : حَدَّثَنَا أَبُو دَاوُد قَالَ : حَدَّثَنَا ابْنُ السَّرْحِ وَالصَّبَّاحُ بْنُ سُفْيَانَ وَابْنُ عَبْدَةَ وَهَذَا حَدِيثُهُ قَالَ : أَخْبَرَنَا سُفْيَانُ عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي يَزِيدَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : سَمِعْته يَقُولُ : (لَمْ يُؤْمَرْ بِهَا أَكْثَرُ النَّاسِ آيَةَ الْإِذْنِ ، وَإِنِّي لَآمُرُ جَارِيَتِي هَذِهِ تَسْتَأْذِنُ عَلَيَّ) .

وَحَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَكْرٍ قَالَ : حَدَّثَنَا أَبُو دَاوُد قَالَ : حَدَّثَنَا الْقَعْنَبِيُّ قَالَ : حَدَّثَنَا عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ مُحَمَّدٍ عَنْ عَمْرِو بْنِ أَبِي عَمْرٍو عَنْ عِكْرِمَةَ أَنَّ نَفَرًا مِنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ قَالُوا : يَا ابْنَ عَبَّاسٍ كَيْفَ تَرَى هَذِهِ الْآيَةَ الَّتِي أُمِرْنَا فِيهَا بِمَا أُمِرْنَا وَلَا يَعْمَلُ بِهَا أَحَدٌ ، قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ﴾ الْآيَةَ ، إلَى قَوْلِهِ : ﴿ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ ؟ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : (إنَّ اللَّهَ حَلِيمٌ رَحِيمٌ بِالْمُؤْمِنِينَ يُحِبُّ السَّتْرَ ، وَكَانَ النَّاسُ لَيْسَ لِبُيُوتِهِمْ سِتْرٌ وَلَا حِجَابٌ فَرُبَّمَا دَخَلَ الْخَادِمُ أَوْ الْوَلَدُ أَوْ يَتِيمَةُ الرَّجُلِ وَالرَّجُلُ عَلَى أَهْلِهِ ، فَأَمَرَهُمْ اللَّهُ بِالِاسْتِئْذَانِ فِي تِلْكَ الْعَوْرَاتِ ، فَجَاءَهُمْ اللَّهُ بِالسُّتُورِ وَالْخَيْرِ فَلَمْ أَرَ أَحَدًا يَعْمَلُ بِذَلِكَ بَعْدُ) .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : وَفِي بَعْضِ أَلْفَاظِ حَدِيثِ عَبَّاسٍ هَذَا ، وَهُوَ حَدِيثُ سُلَيْمَانَ بْنِ بِلَالٍ عَنْ عَمْرِو بْنِ أَبِي عَمْرٍو : " فَلَمَّا أَتَى اللَّهُ بِالْخَيْرِ وَاتَّخَذُوا السُّتُورَ وَالْحِجَابَ رَأَى النَّاسُ أَنَّ ذَلِكَ قَدْ كَفَاهُمْ مِنْ الِاسْتِئْذَانِ الَّذِي أُمِرُوا بِهِ " فَأَخْبَرَ ابْنُ عَبَّاسٍ أَنَّ الْأَمْرَ بِالِاسْتِئْذَانِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ كَانَ مُتَعَلِّقًا بِسَبَبٍ ، فَلَمَّا زَالَ السَّبَبُ زَالَ الْحُكْمُ .

وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَرَ الْآيَةَ مَنْسُوخَةً ، وَأَنَّ مِثْلَ ذَلِكَ السَّبَبِ لَوْ عَادَ لَعَادَ الْحُكْمُ وَقَالَ الشَّعْبِيُّ أَيْضًا إِنَّهَا لَيْسَتْ بِمَنْسُوخَةٍ .

وَهَذَا نَحْوُ مَا فَرَضَ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ الْمِيرَاثِ بِالْمُوَالَاةِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ﴾ فَكَانُوا يَتَوَارَثُونَ بِذَلِكَ ، فَلَمَّا أَوْجَبَ التَّوَارُثَ بِالنَّسَبِ جَعَلَ ذَوِي الْأَنْسَابِ أَوْلَى مِنْ مَوْلَى الْمُوَالَاةِ ، وَمَتَى فُقِدَ النَّسَبُ عَادَ مِيرَاثُ الْمُعَاقَدَةِ وَالْوَلَاءِ .

وَقَالَ جَابِرُ بْنُ زَيْدٍ فِي قَوْلِهِ : ﴿ لِيَسْتَأْذِنْكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ﴾ : (أَبْنَاؤُهُمْ الَّذِينَ عَقَلُوا وَلَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْ الْغِلْمَانِ وَالْجَوَارِي يَسْتَأْذِنُونَ عَلَى آبَائِهِمْ قَبْلَ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ يَقِيلُونَ وَيَخْلُونَ وَبَعْدَ صَلَاةِ الْعِشَاءِ وَهِيَ الْعَتَمَةُ فَإِذَا بَلَغُوا الْحُلُمَ اسْتَأْذَنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، إِخْوَانُهُمْ إِذَا كَانُوا رِجَالًا وَنِسَاءً لَا يَدْخُلُونَ عَلَى آبَائِهِمْ إِلَّا بِإِذْنٍ سَاعَةَ يَدْخُلُونَ أَيُّ سَاعَةٍ كَانَتْ) .

وَرَوَى ابْنُ جُرَيْجٍ عَنْ مُجَاهِدٍ : ﴿ لِيَسْتَأْذِنْكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ قَالَ : (عَبِيدُكُمْ) ﴿ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ﴾ قَالَ : (مِنْ أَحْرَارِكُمْ) ؛ وَرُوِيَ عَنْ عَطَاءٍ مِثْلُهُ .

وَأَنْكَرَ بَعْضُهُمْ هَذَا التَّأْوِيلَ ؛ لِأَنَّ الْعَبْدَ الْبَالِغَ بِمَنْزِلَةِ الْحُرِّ الْبَالِغِ فِي تَحْرِيمِ النَّظَرِ إلَى مَوْلَاتِهِ ، فَكَيْفَ يُجْمَعُ إلَى الصِّبْيَانِ الَّذِينَ هُمْ غَيْرُ مُكَلَّفِينَ قَالَ : فَالْأَظْهَرُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ الْعَبِيدَ الصِّغَارَ وَالْإِمَاءَ وَصِغَارَنَا الَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ .

وَقَدْ رُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ كَانَ يَقْرَأُ : (لِيَسْتَأْذِنْكُمْ الَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ) .

وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَالشَّعْبِيُّ : (هَذَا مِمَّا تَهَاوَنَ بِهِ النَّاسُ وَمَا نُسِخَتْ) .

وَقَالَ أَبُو قِلَابَةَ : " لَيْسَ بِوَاجِبٍ وَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَأَشْهِدُوا إذَا تَبَايَعْتُمْ ﴾ " .

وَقَالَ الْقَاسِمُ بْنُ مُحَمَّدٍ : (يَسْتَأْذِنُ عِنْدَ كُلِّ عَوْرَةٍ ، ثُمَّ هُوَ طَوَّافٌ بَعْدَهَا) ؛ يَعْنِي أَنَّهُ يَسْتَأْذِنُ عِنْدَ أَوْقَاتِ الْخَلْوَةِ وَالتَّفَضُّلِ فِي الثِّيَابِ وَطَرْحِهَا وَهُوَ طَوَّافٌ بَعْدَهَا ؛ لِأَنَّهَا أَوْقَاتُ السَّتْرِ ، وَلَا يَسْتَطِيعُ الْخَادِمُ وَالْغُلَامُ وَالصَّبِيُّ الِامْتِنَاعَ مِنْ الدُّخُولِ كَمَا قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْهِرَّةِ : ﴿ إنَّهَا مِنْ الطَّوَّافِينَ عَلَيْكُمْ وَالطَّوَّافَاتِ ﴾ يَعْنِي أَنَّهُ لَا يُسْتَطَاعُ الِامْتِنَاعُ مِنْهَا .

وَرُوِيَ أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِعُمَرَ : أَسْتَأْذِنُ عَلَى أُمِّي ؟ قَالَ : نَعَمْ ؛ وَكَذَلِكَ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَابْنُ مَسْعُودٍ

(142/553)

فَصْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ﴾ يَدُلُّ عَلَى بُطْلَانِ قَوْلِ مَنْ جَعَلَ حَدَّ الْبُلُوغِ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً ؛ إذْ لَمْ يَحْتَلِمْ قَبْلَ ذَلِكَ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يُفَرِّقْ بَيْنَ مَنْ بَلَغَهَا وَبَيْنَ مَنْ قَصُرَ عَنْهَا بَعْدَ أَنْ لَا يَكُونَ قَدْ بَلَغَ الْحُلُمَ .

وَقَدْ رُوِيَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ جِهَاتٍ كَثِيرَةٍ : ﴿ رُفِعَ الْقَلَمُ عَنْ ثَلَاثَةٍ : عَنْ النَّائِمِ حَتَّى يَسْتَيْقِظَ وَعَنْ الْمَجْنُونِ حَتَّى يُفِيقَ وَعَنْ الصَّبِيِّ حَتَّى يَحْتَلِمَ ﴾ .

وَلَمْ يُفَرِّقْ بَيْنَ مَنْ بَلَغَ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً وَبَيْنَ مَنْ لَمْ يَبْلُغْهَا .

وَأَمَّا حَدِيثُ ابْنِ عُمَرَ : ﴿ أَنَّهُ عُرِضَ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ أُحُدٍ وَلَهُ أَرْبَعَ عَشْرَةَ سَنَةً فَلَمْ يُجِزْ وَعُرِضَ عَلَيْهِ يَوْمَ الْخَنْدَقِ وَلَهُ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً فَأَجَازَهُ ﴾ ، فَإِنَّهُ مُضْطَرِبٌ ؛ لِأَنَّ الْخَنْدَقَ كَانَ فِي سَنَةِ خَمْسٍ ، وَأُحُدٌ فِي سَنَةِ ثَلَاثٍ ، فَكَيْفَ يَكُونُ بَيْنَهُمَا سَنَةٌ ثُمَّ مَعَ ذَلِكَ فَإِنَّ الْإِجَازَةَ فِي الْقِتَالِ لَا تَعَلُّقَ لَهَا بِالْبُلُوغِ ؛ لِأَنَّهُ قَدْ يُرَدُّ الْبَالِغُ لِضَعْفِهِ وَيُجَازُ غَيْرُ الْبَالِغِ لِقُوَّتِهِ عَلَى الْقِتَالِ وَطَاقَتِهِ لِحَمْلِ السِّلَاحِ ، كَمَا أَجَازَ رَافِعَ بْنَ خَدِيجٍ وَرَدَّ سَمُرَةَ بْنَ

جُنْدُبٍ ، فَلَمَّا قِيلَ لَهُ : إنَّهُ يَصْرَعُهُ أَمْرُهُمَا فَتَصَارَعَا ، فَصَرَعَهُ سَمُرَةُ فَأَجَازَهُ وَلَمْ يَسْأَلْهُ عَنْ سِنِّهِ .

(143/553)

وَأَيْضًا فَإِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَسْأَلْ ابْنَ عُمَرَ عَنْ مَبْلَغِ سِنِّهِ فِي الْأَوَّلِ وَلَا فِي الثَّانِي وَإِنَّمَا اعْتَبَرَ فِي قُوَّتِهِ وَضَعْفِهِ ؛ فَاعْتِبَارُ السِّنِّ ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَجَازَهُ فِي وَقْتٍ وَرَدَّهُ فِي وَقْتٍ سَاقِطٌ .

وَقَدْ اتَّفَقَ الْفُقَهَاءُ عَلَى أَنَّ الِاحْتِلَامَ بُلُوغٌ ، وَاخْتَلَفُوا إذَا بَلَغَ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً وَلَمْ يَحْتَلِمْ فَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ (لَا يَكُونُ الْغُلَامُ بَالِغًا حَتَّى يَبْلُغَ ثَمَانِيَ عَشْرَةَ سَنَةً وَيَسْتَكْمِلَهَا ، وَفِي الْجَارِيَةِ سَبْعَ عَشْرَةَ سَنَةً وَقَالَ أَبُو يُوسُفَ وَمُحَمَّدٌ وَالشَّافِعِيُّ فِي الْغُلَامِ وَالْجَارِيَةِ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً) وَذَهَبُوا فِيهَا إلَى حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ ، وَقَدْ بَيَّنَّا أَنْ لَا دَلَالَةَ فِيهِ عَلَى أَنَّهَا حَدُّ الْبُلُوغِ ؛ وَيَدُلُّ عَلَيْهِ أَنَّهُ لَمْ يَسْأَلْهُ عَنْ الِاحْتِلَامِ وَلَا عَنْ السِّنِّ .

وَلَمَّا ثَبَتَ بِمَا وَصَفْنَا أَنَّ الْخَمْسَ عَشْرَةَ لَيْسَتْ بِبُلُوغٍ وَظَاهِرُ قَوْلِهِ ﴿ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ﴾ يَنْفِي أَيْضًا أَنْ تَكُونَ الْخَمْسَ عَشْرَةَ بُلُوغًا عَلَى الْحَدِّ الَّذِي بَيَّنَّا ، صَارَ

طَرِيقُ إثْبَاتِ حَدِّ الْبُلُوغِ بَعْدَ ذَلِكَ الِاجْتِهَادَ ؛ لِأَنَّهُ حَدٌّ بَيْنَ الصِّغَرِ وَالْكِبَرِ الَّذِينَ قَدْ عَرَفْنَا طَرِيقَهُمَا وَهُوَ وَاسِطَةٌ بَيْنَهُمَا ، فَكَانَ طَرِيقُهُ الِاجْتِهَادَ .

وَلَيْسَ يَتَوَجَّهُ عَلَى الْقَائِلِ بِمَا وَصَفْنَا سُؤَالٌ ، كَالْمُجْتَهِدِ فِي تَقْوِيمِ الْمُسْتَهْلَكَاتِ وَأُرُوشِ الْجِنَايَاتِ الَّتِي لَا تَوْقِيفَ فِي مَقَادِيرِهَا وَمُهُورِ الْأَمْثَالِ وَنَحْوِهَا .

(144/553)

فَإِنْ قِيلَ : فَلَا بُدَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ اعْتِبَارُهُ لِهَذَا الْمِقْدَارِ دُونَ غَيْرِهِ لِضَرْبٍ مِنْ التَّرْجِيحِ عَلَى غَيْرِهِ يُوجِبُ تَغْلِيبَ ذَلِكَ فِي رَأْيِهِ دُونَ مَا عَدَاهُ مِنْ الْمَقَادِيرِ .

قِيلَ لَهُ : قَدْ عَلِمْنَا أَنَّ الْعَادَةَ فِي الْبُلُوغِ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً وَكُلُّ مَا كَانَ طَرِيقُهُ الْعَادَاتِ فَقَدْ تَجُوزُ الزِّيَادَةُ فِيهِ وَالنُّقْصَانُ مِنْهُ ، وَقَدْ وَجَدْنَا مَنْ بَلَغَ فِي اثْنَتَيْ عَشْرَةَ سَنَةً ، وَقَدْ بَيَّنَّا أَنَّ الزِّيَادَةَ عَلَى الْمُعْتَادِ مِنْ الْخَمْسَ عَشْرَةَ جَائِزَةٌ كَالنُّقْصَانِ عَنْهُ فَجَعَلَ أَبُو حَنِيفَةَ الزِّيَادَةَ عَلَى الْمُعْتَادِ كَالنُّقْصَانِ عَنْهُ وَهِيَ ثَلَاثُ سِنِينَ ؛ كَمَا أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا جَعَلَ الْمُعْتَادَ مِنْ حَيْضِ النِّسَاءِ سِتًّا أَوْ سَبْعًا بِقَوْلِهِ لِحَمْنَةَ بِنْتِ جَحْشٍ : ﴿ تَحِيضِينَ فِي عِلْمِ اللَّهِ سِتًّا أَوْ سَبْعًا كَمَا تَحِيضُ النِّسَاءُ فِي كُلِّ شَهْرٍ ﴾

اقْتَضَى ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ الْعَادَةُ سِتًّا وَنِصْفًا ؛ لِأَنَّهُ جَعَلَ السَّابِعَ مَشْكُوكًا فِيهِ بِقَوْلِهِ : (سِتًّا أَوْ

سَبْعًا) .

ثُمَّ قَدْ ثَبَتَ عِنْدَنَا أَنَّ النُّقْصَانَ عَنْ الْمُعْتَادِ ثَلَاثٌ وَنِصْفٌ ؛ لِأَنَّ أَقَلَّ الْحَيْضِ عِنْدَنَا ثَلَاثٌ وَأَكْثَرُهُ عَشْرَةٌ ، فَكَانَتْ الزِّيَادَةُ عَلَى الْمُعْتَادِ بِإِزَاءِ النُّقْصَانِ مِنْهُ ، وَجَبَ أَنْ يَكُونَ كَذَلِكَ اعْتِبَارُ الزِّيَادَةِ عَلَى الْمُعْتَادِ فِيمَا وَصَفْنَا .

وَقَدْ حُكِيَ عَنْ أَبِي حَنِيفَةَ تِسْعَ عَشْرَةَ سَنَةً لِلْغُلَامِ ؛ وَهُوَ مَحْمُولٌ عَلَى اسْتِكْمَالِ ثَمَانِيَ عَشْرَةَ وَالدُّخُولِ فِي التَّاسِعِ عَشْرَةَ .

(145/553)

وَاخْتُلِفَ فِي الْإِثْبَاتِ هَلْ يَكُونُ بُلُوغًا ، فَلَمْ يَجْعَلْهُ أَصْحَابُنَا بُلُوغًا ، وَالشَّافِعِيُّ يَجْعَلُهُ بُلُوغًا ، وَظَاهِرُ قَوْلِهِ : ﴿ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ﴾ يَنْفِي أَنْ يَكُونَ الْإِثْبَاتُ بُلُوغًا إذَا لَمْ يَحْتَلِمْ ، كَمَا نَفَى كَوْنَ خَمْسَ عَشْرَةَ بُلُوغًا .

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ وَعَنْ الصَّبِيِّ حَتَّى يَحْتَلِمَ ﴾ وَهَذَا خَبَرٌ مَنْقُولٌ مِنْ طَرِيقِ الِاسْتِفَاضَةِ قَدْ اسْتَعْمَلَهُ السَّلَفُ وَالْخَلَفُ فِي رَفْعِ حُكْمِ الْقَلَمِ عَنْ الْمَجْنُونِ وَالنَّائِمِ وَالصَّبِيِّ .

وَاحْتَجَّ مَنْ جَعَلَهُ بُلُوغًا بِحَدِيثِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ عُمَيْرٍ عَنْ عَطِيَّةَ الْقُرَظِيِّ : ﴿ أَنَّ النَّبِيَّ

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمَرَ بِقَتْلِ مَنْ أَنْبَتَ مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ وَاسْتَحْيَا مَنْ لَمْ يُنْبِتْ ، قَالَ : فَنَظَرُوا إِلَيَّ فَلَمْ أَكُنْ أَنْبَتُّ فَاسْتَبْقَانِي ﴾ .

وَهَذَا حَدِيثٌ لَا يَجُوزُ إِثْبَاتُ الشَّرْعِ بِمِثْلِهِ ؛ إِذْ كَانَ عَطِيَّةُ هَذَا مَجْهُولًا لَا يُعْرَفُ إِلَّا مِنْ هَذَا الْخَبَرِ ، لَا سِيَّمَا مَعَ اعْتِرَاضِهِ عَلَى الْآيَةِ وَالْخَبَرِ فِي نَفْيِ الْبُلُوغِ إِلَّا بِالِاحْتِلَامِ ؛ وَمَعَ ذَلِكَ فَهُوَ مُخْتَلِفُ الْأَلْفَاظِ ، فَفِي بَعْضِهَا أَنَّهُ أَمَرَ بِقَتْلِ مَنْ جَرَتْ عَلَيْهِ الْمَوَاسِي ، وَفِي بَعْضِهَا مَنْ اخْضَرَّ إِزَارُهُ ؛ وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ لَا يَبْلُغُ هَذِهِ الْحَالَ إِلَّا وَقَدْ

(146/553)

تَقَدَّمَ فِي بُلُوغِهِ ، وَلَا يَكُونُ قَدْ جَرَتْ عَلَيْهِ الْمَوَاسِي إِلَّا وَهُوَ رَجُلٌ كَبِيرٌ ؛ فَجَعَلَ الْإِثْبَاتَ وَجَرْيَ الْمَوَاسِي عَلَيْهِ كِنَايَةً عَنْ بُلُوغِ الْقَدْرِ الَّذِي ذَكَرْنَا فِي السِّنِّ وَهِيَ ثَمَانِي عَشْرَةَ وَأَكْثَرُ .

وَرُوِيَ عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ وَأَبِي بَصْرَةَ الْغِفَارِيِّ أَنَّهُمَا قَسَمَا فِي الْغَنِيمَةِ لِمَنْ أَنْبَتَ .

وَهَذَا لَا دَلَالَةَ فِيهِ عَلَى أَنَّهُمَا رَأَيَا الْإِنْبَاتَ بُلُوغًا ؛ لِأَنَّ الْقِسْمَةَ جَائِزَةٌ لِلصِّبْيَانِ عَلَى وَجْهِ الرَّضْخِ .

وَقَدْ رُوِيَ عَنْ قَوْمٍ مِنْ السَّلَفِ شَيْءٌ فِي اعْتِبَارِ طُولِ الْإِنْسَانِ لَمْ يَأْخُذْ بِهِ أَحَدٌ مِنْ الْفُقَهَاءِ .

وَرَوَى مُحَمَّدُ بْنُ سِيرِينَ عَنْ أَنَسٍ قَالَ : (أَتَى أَبُو بَكْرٍ بِغُلَامٍ قَدْ سَرَقَ ، فَأَمَرَهُ فَشُبِرَ فَنَقَصَ

أُنْمُلَةً فَخَلَّى عَنْهُ) .

وَرَوَى قَتَادَةَ عَنْ خِلَاسٍ عَنْ عَلِيٍّ قَالَ : (إذَا بَلَغَ الْغُلَامُ خَمْسَةَ أَشْبَارٍ فَقَدْ وَقَعَتْ عَلَيْهِ الْحُدُودُ وَيُقْتَصُّ لَهُ وَيُقْتَصُّ مِنْهُ ، وَإِذَا اسْتَعَانَهُ رَجُلٌ بِغَيْرِ إذْنِ أَهْلِهِ لَمْ يَبْلُغْ خَمْسَةَ أَشْبَارٍ فَهُوَ ضَامِنٌ) .

وَرَوَى ابْنُ جُرَيْجٍ عَنْ ابْنِ أَبِي مُلَيْكَةَ : (أَنَّ ابْنَ الزُّبَيْرِ أُتِيَ بِوَصِيفٍ لِعُمَرَ بْنِ أَبِي رَبِيعَةَ قَدْ سَرَقَ فَقَطَعَهُ ، ثُمَّ حَدَثَ أَنَّ عُمَرَ كَتَبَ إلَيْهِ فِي غُلَامٍ مِنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ ، فَكَتَبَ إلَيْهِ أَنْ اشْبِرْهُ فَشَبَرَهُ فَنَقَصَ أُنْمُلَةً فَسُمِّيَ نُمَيْلَةَ) .

(147/553)

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : وَهَذِهِ أَقَاوِيلُ شَاذَّةٌ بِأَسَانِيدَ ضَعِيفَةٍ تَبْعُدُ أَنْ تَكُونَ مِنْ أَقَاوِيلِ السَّلَفِ ، ؛ إذْ الطُّولُ وَالْقِصَرُ لَا يَدُلَّانِ عَلَى بُلُوغٍ وَلَا نَفْيِهِ ؛ لِأَنَّهُ قَدْ يَكُونُ قَصِيرًا وَلَهُ عِشْرُونَ سَنَةً وَقَدْ يَكُونُ طَوِيلًا وَلَا يَبْلُغُ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً وَلَمْ يَحْتَلِمْ ؛ وَقَوْلُهُ ﴿ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ﴾ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مَنْ لَمْ يَبْلُغْ وَقَدْ عَقَلَ يُؤْمَرُ بِفِعْلِ الشَّرَائِعِ وَيُنْهَى عَنْ ارْتِكَابِ الْقَبَائِحِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ أَهْلِ التَّكْلِيفِ ، عَلَى جِهَةِ التَّعْلِيمِ ؛

كَمَا أَمَرَهُمْ اللَّهُ تَعَالَى بِالِاسْتِئْذَانِ فِي هَذِهِ الْأَوْقَاتِ .

وَقَدْ رُوِيَ عَنْ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ الرَّبِيعِ بْنِ سَبْرَةَ الْجُهَنِيِّ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ إذَا بَلَغَ الْغُلَامُ سَبْعَ سِنِينَ فَمُرُوهُ بِالصَّلَاةِ ، وَإِذَا بَلَغَ عَشْرًا فَاضْرِبُوهُ عَلَيْهَا .

﴿ وَرَوَى عَمْرُو بْنُ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ مُرُوا صِبْيَانَكُمْ بِالصَّلَاةِ إذَا بَلَغُوا سَبْعًا وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا إذَا بَلَغُوا عَشْرًا وَفَرِّقُوا بَيْنَهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ .

﴿ وَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ : (حَافِظُوا عَلَى أَبْنَائِكُمْ فِي الصَّلَاةِ) .

وَرَوَى نَافِعٌ عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ : (يُعَلَّمُ الصَّبِيُّ الصَّلَاةَ إذَا عَرَفَ يَمِينَهُ مِنْ شِمَالِهِ) .

(148/553)

وَرَوَى حَاتِمُ بْنُ إسْمَاعِيلَ عَنْ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ : (كَانَ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ يَأْمُرُ الصِّبْيَانَ أَنْ يُصَلُّوا الظُّهْرَ وَالْعَصْرَ جَمِيعًا وَالْمَغْرِبَ وَالْعِشَاءَ جَمِيعًا ، فَيُقَالُ لَهُ : يُصَلُّونَ الصَّلَاةَ لِغَيْرِ وَقْتِهَا فَيَقُولُ : هَذَا خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَتَنَاهَوْا عَنْهَا) .

وَرَوَى هِشَامُ بْنُ عُرْوَةَ : (أَنَّهُ كَانَ يَأْمُرُ بَنِيهِ بِالصَّلَاةِ إذَا عَقَلُوهَا وَبِالصَّوْمِ إذَا أَطَاقُوهُ) .

وَرَوَى أَبُو إسْحَاقَ عَنْ عَمْرِو بْنِ شُرَحْبِيلَ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ : (إذَا بَلَغَ الصَّبِيُّ عَشْرَ

سِنِينَ كُتِبَتْ لَهُ الْحَسَنَاتُ وَلَا تُكْتَبُ عَلَيْهِ السَّيِّئَاتُ حَتَّى يَحْتَلِمَ) .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : إنَّمَا يُؤْمَرُ بِذَلِكَ عَلَى وَجْهِ التَّعْلِيمِ وَلِيَعْتَادَهُ وَيَتَمَرَّنَ عَلَيْهِ فَيَكُونَ أَسْهَلَ عَلَيْهِ بَعْدَ الْبُلُوغِ وَأَقَلَّ نُفُورًا مِنْهُ ، وَكَذَلِكَ يُجَنَّبُ شُرْبَ الْخَمْرِ وَأَكْلَ لَحْمِ الْخِنْزِيرِ وَيُنْهَى عَنْ سَائِرِ الْمَحْظُورَاتِ ؛ لِأَنَّهُ لَوْ لَمْ يُؤْمَرْ بِذَلِكَ فِي الصِّغَرِ وَخُلِّيَ وَسَائِرُ شَهَوَاتِهِ وَمَا يُؤْثِرُهُ وَيَخْتَارُهُ يَصْعُبُ عَلَيْهِ بَعْدَ الْبُلُوغِ الْإِقْلَاعُ عَنْهُ ؛ وَقَالَ اللَّهُ

تَعَالَى : ﴿ قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ﴾ رُوِيَ فِي التَّفْسِيرِ : أَدِّبُوهُمْ وَعَلِّمُوهُمْ .

وَكَمَا يُنْهَى عَنْ اعْتِقَادِ الْكُفْرِ وَالشِّرْكِ وَإِظْهَارِهِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مُكَلَّفًا ، كَذَلِكَ حُكْمُ الشَّرَائِعِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمْ الْحُلُمَ ﴾ الْآيَةَ .

(149/553)

يَعْنِي أَنَّ الْأَطْفَالَ إذَا بَلَغُوا الْحُلُمَ فَعَلَيْهِمْ الِاسْتِئْذَانُ فِي سَائِرِ الْأَوْقَاتِ كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَهُمْ الْمَذْكُورُونَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ﴾ وَفِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ الِاحْتِلَامَ بُلُوغٌ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ يَعْنِي بَعْدَ هَذِهِ الْعَوْرَاتِ الثَّلَاثِ جَائِزٌ لِلْإِمَاءِ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ أَنْ يَدْخُلُوا بِغَيْرِ اسْتِئْذَانٍ

؛ إذْ كَانَتْ الْأَوْقَاتُ الثَّلَاثُ هُوَ حَالُ التَّكَشُّفِ وَالْخَلْوَةِ وَمَا بَعْدَهَا حَالُ السِّتْرِ وَالتَّأَهُّبِ لِدُخُولِ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَشُقُّ عَلَيْهِمْ الِاسْتِئْذَانُ فِي كُلِّ وَقْتٍ لِكَثْرَةِ دُخُولِهِمْ وَخُرُوجِهِمْ وَهُوَ مَعْنَى ﴿ طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ .

فِي اسْمِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ﴾ رَوَى عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : (لَا تَغْلِبَنَّكُمْ الْأَعْرَابُ عَلَى اسْمِ صَلَاتِكُمْ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ : ﴿ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ﴾ وَإِنَّ الْأَعْرَابَ يُسَمُّونَهَا الْعَتَمَةَ ، وَإِنَّمَا الْعَتَمَةُ عَتَمَةُ الْإِبِلِ لِلْحِلَابِ) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(150/553)

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيمَانُكُم ﴾

فيهم قولان

: أحدهما : أنهم النساء يستأذنَ في هذه الأوقات خاصة ويستأذن الرجال في جميع الأوقات ، قاله ابن عمر .

الثاني : أنهم العبيد والإماء .

وفي المعنى بالاستئذان ثلاثة أقاويل :

أحدها : العبد دون الأمة يستأذن على سيده في هذه الأوقات الثلاثة ، قاله ابن عمر ، ومجاهد .

الثاني : أنها الإِماء لأن العبد يجب أن يستأذن أبداً في هذه الأوقات وغيرها ، قاله ابن عباس .

الثالث : أنه على عمومه في العبد والأمة ، قاله أبو عبد الرحمن السلمي .

﴿ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُواْ الْحُلُمَ مِنْكُم ﴾ هم الصغار الأحرار فمن كان منهم غير مميز لا يصف ما رأى فليس من أهل الاستئذان ومن كان مميزاً يصف ما رأى ويحكي ما شاهد فهو المعني بالاستئذان .

﴿ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ مِّن قَبْلِ صَلاَةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلاَةِ الْعِشَآءِ ﴾ وهذه الساعات الثلاث هي أوقات الاستئذان من تقدم ذكره ولا يلزمهم الاستئذان في غيرها من الأوقات ، فذكر الوقت الأول وهو من قبل صلاة الفجر وهو من بعد الاستيقاظ من النوم إلى صلاة الصبح ، ثم ذكر الوقت الثاني فقال : ﴿ وَحِينَ تَضَعُونَ ﴾ وهو وقت الخلوة لنومة القائلة ، ثم ذكر الوقت الثالث فقال : ﴿ وَمِن بَعْدِ صَلاَةِ الْعَشَآءِ ﴾ يعني الآخرة وقد تسميها العامة العتمة وسميت العشاء لأن ظلام وقتها يعشي البصر .

وإنما خص هذه الأوقات الثلاثة لأنها أوقات خلوات الرجل مع أهله ولأنه ربما بدا فيها عند خلوته ما يكره أن يرى من جسده ، فقد روي أن عمر بن الخطاب كان في منزله وقت القائلة فأنفذ إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بصبي من أولاد الأنصار يقال له مدلج فدخل على عمر بغير إذن وكان نائماً فاستيقظ عمر بسرعة فانكشف شيء من جسده فنظر إليه الغلام فحزن عمر فقال : وددت لو أن الله بفضله نهى أبناءنا عن الدخول علينا في هذه الساعات إلا بإذننا ثم انطلق إلى النبي صلى الله عليه وسلم فوجد هذه الآية قد أنزلت فخرَّ ساجداً [شكراً لله] .

﴿ ثَلاَثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ ﴾ يعني هذه الساعات الثلاث هي أوقات العورات فصارت من عورات الزمان فجرت مجرى عورات الأبدان فلذلك خصت بالإِذن .

﴿ لَيْسَ عَلَيْكَمْ وَلاَ عَلَيْهِمْ جَنَاحٌ بَعْدَهُنَّ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : يعني ليس عليكم يا أهل البيوت جناح في تبذلكم في هذه الأوقات .

الثاني : ليس عليكم جناح في منعهم في هذه الأوقات . ولا على المملوكين والصغار جناح في ترك الاستئذان فيما سوى هذه الأوقات .

﴿ طَوَّافُونَ عَلَيْكَم بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ يعني أنهم طوّافون عليكم للخدمة لكم فلم ينلهم

حرج في دخول منازلكم ، والطوافون الذين يكثرون الدخول والخروج . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

(152/553)

وقال ابن عطية :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾

قال ابن عمر ﴿ الذين ملكت ﴾ يراد به الرجال خاصة ، وقال أبو عبد الرحمن السلمي يراد به النساء خاصة وسبيل الرجال يستأذنوا في كل وقت ، وحكى الزهراوي عن أبي عمر ونحوه ، وقيل الرجال والنساء كلهم مراد ورجحه الطبري ، وقرأ الجمهور الناس " الحُلُم " بضم اللام وكان أبو عمرو يستحسنها ، وهذه الآية محكمة قال ابن عباس تركها الناس وكذلك ترك الناس قوله : ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ [الحجرات : 113] فأبى الناس إلا أن الأكرم هو الأنسب .

قال الفقيه الإمام القاضي : وهذه العبارة بترك إغلاظ وزجر إذ لم تلتزم حق الالتزام ، وإلا فما قال الله هو المعتقد في ذلك العلماء المكتوب في تواليفهم ، أعني في أن الكرم التقوى وأما أمر الاستئذان فإن تغيير المباني والحجب أغنت عن كثير من الاستئذان ، وصيرته على

حد آخر ، وأين أبواب المنازل اليوم من مواضع النوم وقد ذكر المهدوي عن ابن عباس أنه قال كان العمل بهذه الآية واجباً إذ كانوا لا غلق ولا أبواب ولو عادت الحال لعاد الوجوب .

(153/553)

قال الفقيه الإمام القاضي : فهي الآن واجبة في كثير من مساكن المسلمين في البوادي والصحارى ونحوها ، ومعنى الآية عند جماعة من العلماء أن الله تعالى أدب عباده بأن يكون العبيد إذ لا بال لهم والأطفال الذين لم يبلغوا إلا أنهم عقلوا معاني الكشفة ونحوها يستأذنون على أهليهم في هذه الأوقات الثلاثة وهي الأوقات التي تقتضي عادة الناس الانكشاف فيها وملازمة التعري في المضاجع ، وهي عند الصباح لأن الناس في ذلك الوقت عراة في مضاجعهم وقد ينشكف النائم ، فمن مشى ودخل وخرج فحكمه أن يستأذن لئلا يطلع على ما يجب ستره ، وكذلك في وقت القائلة وهي الظهيرة لأن النهار يظهر فيها إذا علا واشتد حره ، وبعد العشاء لأنه وقت التعري للنوم والتبدل للفراش ، وأما غير هذه الأوقات التي هي عروة أي ذات انكشاف ، فالعرف من الناس التحرز والتحفظ فلا حرج في دخول هذه الصنيفة بغير إذن إذ هم ﴿ طوافون ﴾ يمضون ويجيئون لا يجد الناس بداً من ذلك . وقرأ ابن أبي عبلة " طوافين " وقال الحسن إذا أبات الرجل خادمه معه فلا

استئذان عليه ولا في هذه الأوقات الثلاثة ، وقوله ﴿ بعضكم على بعض ﴾ بدل من قوله ﴿ طوافون ﴾ و ﴿ ثلاثَ عورات ﴾ نصب على الظرف لأنهم لم يؤمروا بالاستئذان ثلاثاً إنما أمروا بالاستئذان ثلاث مواطن ، فالظرفية في ﴿ ثلاث ﴾ بينة ، قرأ جمهور السبعة " ثلاثُ عورات " برفع " ثلاثُ " وهذا على الابتداء ، وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم " ثلاثَ عورات " بنصب " ثلاث " ، وهذه على البدل من الظرف في قوله ﴿ ثلاث مرات ﴾ ، وهذا البدل إنما يصح معناه بتقدير أوقات " ثلاث عورات " فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه ، و ﴿ عورات ﴾ جمع عورة وبابه في الصحيح أن يجيء على فعلات بفتح العين كجفنة وجفنات ونحو ذلك وسكنوا العين في المعتل كبيضة وبيضات وجوبة وجوبات ونحوه لأن فتحه داع إلى اعتلاله فلم يفتح لذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(154/553)

وقال القرطبى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾

فيه ثمان مسائل :

الأولى : قال العلماء : هذه الآية خاصّة والتي قبلها عامّة ؛ لأنه قال : ﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ لاَ تَدْخُلُواْ بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حتى تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ على أَهْلِهَا ﴾ ثم خصّ هنا فقال : ﴿ لِيَسْتَأْذِنكُمُ الذين مَلَكَتْ أَيمَانُكُمْ ﴾ فخصَّ في هذه الآية بعض المستأذنين ، وكذلك أيضاً يتأول القول في الأولى في جميع الأوقات عموماً .

وخص في هذه الآية بعض الأوقات ، فلا يدخل فيها عبد ولا أَمَة .

وَغْدا كان أو ذا منظر إلا بعد الاستئذان .

قال مقاتل : نزلت في أسماء بنت مَرْثَد ، دخل عليها غلام لها كبير ، فاشتكت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فنزلت عليه الآية .

وقيل : سبب نزولها دخول مُدْلج على عمر ؛ وسيأتي .

الثانية : اختلف العلماء في المراد بقوله تعالى : ﴿ لِيَسْتَأْذِنكُمُ ﴾ على ستة أقوال :

الأول : أنها منسوخة ، قاله ابن المسيّب وابن جبير .

الثاني : أنها ندب غير واجبة ؛ قاله أبو قِلاَبة ، قال : إنما أمروا بهذا نظراً لهم .

الثالث : عنى بها النساء ؛ قاله أبو عبد الرحمن السُّلَميّ .

وقال ابن عمر : هي في الرجال دون النساء .

وهو القول الرابع .

الخامس : كان ذلك واجباً ، إذ كانوا لا غَلَق لهم ولا أبواب ، ولو عاد الحال لعاد الوجوب ؛

حكاه المهدوِيّ عن ابن عباس .

السادس : أنها محكمة واجبة ثابتة على الرجال والنساء ؛ وهو قول أكثر أهل العلم ؛ منهم القاسم وجابر بن زيد والشَّعْبِيّ .

وأضعفها قول السُّلَمِيّ لأن "الذين" لا يكون للنساء في كلام العرب ، إنما يكون للنساء "اللّاتي واللّواتي" .

وقول ابن عمر يستحسنه أهل النظر ، لأن "الذين" للرجال في كلام العرب ، وإن كان يجوز أن يدخل معهم النساء فإنما يقع ذلك بدليل ، والكلام على ظاهره ، غير أن في إسناده ليْث بن أبي سليم .

(155/553)

وأما قول ابن عباس فروى أبو داود عن عبيد الله بن أبي يزيد سمع ابن عباس يقول : آية لم يؤمر بها أكثر الناس آيةُ الاستئذان وإني لآمر جاريتي هذه تستأذن عليّ .

قال أبو داود : وكذلك رواه عطاء عن ابن عباس "يأمر به" .

وروى عكرمة أن نفراً من أهل العراق قالوا : يا ابن عباس ، كيف ترى في هذه الآية التي أمرنا فيها بما أمرنا ولا يعمل بها (أحد) ، قول الله عز وجل : ﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ لِيَسْتَأْذِنكُمُ

الذين مَلَكَتْ أَيمَانُكُمْ والذين لَمْ يَبْلُغُواْ الحلم مِنكُمْ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ مِّن قَبْلِ صَلاَةِ الفجر وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِّنَ الظهيرة وَمِن بَعْدِ صَلاَةِ العشآء ثَلاَثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلاَ عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ ﴾ .

قال أبو داود : قرأ القَعْنَبِيّ إلى "عليمٌ حكيمٌ" قال ابن عباس : إن الله حليم رحيم بالمؤمنين يحبّ السّتر ، وكان الناس ليس لبيوتهم سُتُور ولا حجال ، فربما دخل الخادم أو الولد أو يتيمة الرجل والرجلُ على أهله ، فأمرهم الله بالاستئذان في تلك العورات ، فجاءهم الله بالستور والخير ، فلم أر أحداً يعمل بذلك (بعد) .

قلت : هذا متن حسن ، وهو يرد قول سعيد وابن جبير ؛ فإنه ليس فيه دليل على نسخ الآية ، ولكن على أنها كانت على حال ثم زالت ، فإن كان مثل ذلك الحال فحكمها قائم كما كان ، بل حكمها لليوم ثابت في كثير من مساكن المسلمين في البوادي والصحارى ونحوها .

وروى وكيع عن سفيان عن موسى بن أبي عائشة عن الشعبي "يأيها الذين آمنوا لِيستأذْنكُم الذين ملكت أيمانكم" قال : ليست بمنسوخة .

قلت : إن الناس لا يعملون بها ؛ قال : الله عز وجل المستعان .

(156/553)

الثالثة : قال بعض أهل العلم : إن الاستئذان ثلاث مأخوذ من قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ لِيَسْتَأْذِنكُمُ الذين مَلَكَتْ أَيمَانُكُمْ والذين لَمْ يَبْلُغُواْ الحلم مِنكُمْ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ ﴾ قال يزيد : ثلاث دفعات .

قال : فورد القرآن في المماليك والصبيان ، وسنّةُ رسول الله صلى الله عليه وسلم في الجميع .

قال ابن عبد البر : ما قاله من هذا وإن كان له وجه فإنه غير معروف عن العلماء في تفسير الآية التي نزع بها ، والذي عليه جمهورهم في قوله : ﴿ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ ﴾ أي في ثلاثة أوقات . ويدلّ على صحة هذا القول ذِكْرُه فيها ﴿ مِّن قَبْلِ صَلاَةِ الفجر وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِّنَ الظهيرة وَمِن بَعْدِ صَلاَةِ العشآء ﴾ .

الرابعة : أدّب الله عز وجل عباده في هذه الآية بأن يكون العبيد إذ لا بال لهم ، والأطفال الذين لم يبلغوا الحُلُم إلا أنهم عَقَلُوا معاني الكَشْفة ونحوها ، يستأذنون على أهليهم في هذه الأوقات الثلاثة ، وهي الأوقات التي تقتضي عادة الناس الانكشافَ فيها وملازمةَ التعَرِّي .

فما قبل الفجر وقتُ انتهاء النوم ووقت الخروج من ثياب النوم ولبس ثياب النهار .

ووقتُ القائلة وقت التجرّد أيضاً وهي الظهيرة ، لأن النهار يظهر فيها إذا علا شعاعه واشتد حَرّه .

وبعد صلاة العشاء وقت التّعَرِّي للنوم ؛ فالتكشف غالب في هذه الأوقات .

يروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث غلاماً من الأنصار يقال له مُدْلج إلى عمر بن الخطاب ظَهِيرةً ليدعوه ، فوجده نائماً قد أغلق عليه الباب ، فدقّ عليه الغلام الباب فناداه ودخل ، فاستيقظ عمر وجلس فانكشف منه شيء ، فقال عمر : وَدِدت أن الله نهى أبناءنا ونساءنا وخدمنا عن الدخول علينا في هذه الساعات إلا بإذن ؛ ثم انطلق إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجد هذه الآية قد أنزلت ، فخر ساجداً شكراً لله .

وهي مكية .

(157/553)

الخامسة : قوله تعالى : ﴿ والذين لَمْ يَبْلُغُواْ الحلم مِنكُمْ ﴾ أي الذين لم يحتلموا من أحراركم ؛ قاله مجاهد .

وذكر إسماعيل بن إسحاق كان يقول : ليستأذنكم الذين لم يبلغوا الحلم مما ملكت أيمانكم ؛ على التقديم والتأخير ، وأن الآية في الإماء .

وقرأ الجمهور بضم اللام ، وسكّنها الحسن بن أبي الحسن لثقل الضمة .

وكان أبو عمرو يستحسنها .

و "ثلاثَ مَرّات" نصب على الظرف ؛ لأنهم لم يؤمروا بالاستئذان ثلاثاً ، إنما أمروا

بالاستئذان في ثلاثة مواطن ، والظرفية في "ثلاث" بيّنة : مِن قبل صلاة الفجر ، وحين تَضَعُون ثيابكم من الظّهِيرة ، ومن بعد صلاة العشاء .

وقد مضى معناه .

ولا يجب أن يستأذن ثلاث مرات في كل وقت .

﴿ ثَلاَثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ ﴾ قرأ جمهور السبعة "ثلاثُ عَوْراتٍ" برفع "ثلاث" .

وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم "ثلاثَ" بالنصب على البدل من الظرف في قوله : "ثلاثَ مرات" .

قال أبو حاتم : النصب ضعيف مردود .

وقال الفَرّاء : الرفع أحب إليّ .

قال : وإنما اخترت الرفع لأن المعنى : هذه الخصال ثلاثُ عورات .

والرفع عند الكسائي بالابتداء ، والخبر عنده ما بعده ، ولم يقل بالعائد ، وقال نَصًّا بالابتداء .

قال : والعَوْرات الساعاتُ التي تكون فيها العَوْرة ؛ إلا أنه قرأ بالنصب ، والنصب فيه قولان : أحدهما : أنه مردود على قوله : "ثلاثَ مرّات" ؛ ولهذا استبعده الفراء .

وقال الزجاج : المعنى ليستأذنكم أوقات ثلاث عورات ؛ فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه .

و"عَوْرات" جمع عَوْرة ، وبابه في الصحيح أن يجيء على فعلات (بفتح العين) كجَفْنة وجَفَنات ، ونحو ذلك .

وسكّنوا العَيْن في المُعْتَلّ كبَيْضة وبَيْضات ؛ لأن فتحه داع إلى اعتلاله فلم يفتح لذلك ؛ فأما قول الشاعر :

أبو بَيَضاتٍ رائحٌ مُتَأَوِّبٌ . . .

رَفِيقٌ بمسح المَنْكِبَيْن سَبُوحُ

(فشاذّ) .

(158/553)

السادسة : قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلاَ عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ ﴾ أي في الدخول من غير أن يستأذنوا وإن كنتم متبذّلين .

﴿ طَوَّافُونَ ﴾ بمعنى هم طوافون .

قال الفراء : كقولك في الكلام إنما هم خدمكم وطوافون عليكم .

وأجاز الفراء نصب "طوافين" لأنه نكرة ، والمضمر في "عليكم" معرفة .

ولا يجيز البصريون أن يكون حالاً من المضمَرَيْن اللّذَيْن في "عليكم" وفي "بَعْضُكُم" لاختلاف

العاملين .

ولا يجوز مررت بزيد ونزلت على عمرو العاقلَيْن ، على النعت لهما .

فمعنى "طَوّافون عليكم" أي يطوفون عليكم وتطوفون عليهم ؛ ومنه " الحديث في الهِرّة : "إنما هي من الطوّافين عليكم أو الطوّافات" " فمنع في الثلاث العورات من دخولهم علينا ؛ لأن حقيقة العَوْرة كل شيء لا مانع دونه ، ومنه قوله : ﴿ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ ﴾ [الأحزاب : 13] أي سهلة للمَدْخَل ، فبيّن العلة الموجبة للإذن ، وهي الخلوة في حال العورة ؛ فتعين امتثاله وتعذر نسخه .

ثم رفع الجُنَاح بقوله : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلاَ عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ على بَعْضٍ ﴾ أي يطوف بعضكم على بعض .

﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيات ﴾ الكاف في موضع نصب ؛ أي يبيّن الله لكم آياته الدالة على متعبّداته بياناً مثل ما يبيّن لكم هذه الأشياء .

﴿ واللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ تقدم .

السابعة : قوله تعالى : ﴿ وَمِن بَعْدِ صَلاَةِ العشآء ﴾ يريد العتمة .

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

" لا تَغْلِبَنّكم الأعراب على اسم صلاتكم ألاَ إنّها العِشاء وهُمْ يعتِمون بالإبِل " وفي رواية "

فإنها في كتاب الله العِشاءُ وإنها تُعْتِم بحِلاب الإبل " وفي البخاري عن أبي بَرْزة : كان النبيّ صلى الله عليه وسلم يؤخّر العشاء .

وقال أنس : أخّر النبيّ صلى الله عليه وسلم العشاء .

(159/553)

وهذا يدل على العشاء الأولى .

وفي الصحيح : فصلاها ، يعني العصر بين العشاءين المغرب والعشاء .

وفي الموَطّأ وغيره : ولو يعلمون ما في العَتَمة والصبح لأتَوْهما ولوْ حَبْواً .

وفي مسلم عن جابر بن سَمُرة قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي الصلواتِ نحواً من صلاتكم ، وكان يؤخّر العَتَمة بعد صلاتكم شيئاً ، وكان يُخِفّ الصلاة .

قال القاضي أبو بكر بن العربي : وهذه أخبار متعارضة ، لا يُعلم منها الأول من الآخر بالتاريخ ، ونهيه عليه السلام عن تسمية المغرب عشاء وعن تسمية العشاء عَتَمة ثابت ، فلا مردّ له من أقوال الصحابة فضلاً عمن عداهم .

وقد كان ابن عمر يقول : من قال صلاة العتمة فقد أثم .

وقال ابن القاسم قال مالك : "وَمِنْ بَعْد صَلاَةِ الْعِشَاءِ" فالله سماها صلاة العشاء فأحبّ

النبيّ صلى الله عليه وسلم أن تسمّى بما سمّاها الله تعالى به ، ويعلّمها الإنسان أهله وولده ، ولا يقال عَتَمة إلا عند خطاب من لا يفهم .

وقد قال حسان بن ثابت :

وكانت لا يزال بها أنيس . . .

خلالَ مُروجِها نَعَمٌ وَشاءُ

فدَعْ هذا ولكن مَنْ لطَيْفٍ . . .

يؤرّقني إذا ذهب العشاء

وقد قيل : إن هذا النهي عن اتباع الأعراب في تسميتهم العشاء عَتَمة ، إنما كان لئلا يُعدل بها عما سمّاها الله تعالى في كتابه إذ قال : ﴿ وَمِن بَعْدِ صَلاَةِ العشآء ﴾ ؛ فكأنه نَهْيُ إرشاد إلى ما هو الأوْلى ، وليس على جهة التحريم ، ولا على أن تسميتها العتمة لا يجوز . ألا ترى أنه قد ثبت أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قد أطلق عليها ذلك ، وقد أباح تسميتها بذلك أبو بكر وعمر رضي الله عنهما .

وقيل : إنما نهى عن ذلك تنزيهاً لهذه العبادة الشريفة الدّينية عن أن يطلق عليها ما هو اسم لفعلة دُنْيَوِيّة ، وهي الحَلْبة التي كانوا يحتلبونها في ذلك الوقت ويسمونها العتمة ؛ ويشهد لهذا قوله : "فإنها تُعْتِم بحِلاب الإبل" .

الثامنة : روى ابن ماجه في سننه حدّثنا عثمان بن أبي شيبة حدّثنا إسماعيل بن عيّاش عن عُمارة بن غَزِيّة عن أنس بن مالك عن عمر بن الخطاب عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول : " من صَلّى في جماعة أربعين ليلة لا تفوته الركعة الأولى من صلاة العشاء كتب الله له بها عِتْقاً من النار " وفي صحيح مسلم عن عثمان بن عفان قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من صلّى العشاء في جماعة فكأنما قام نصفَ الليل ومن صلّى الفجر في جماعة فكأنما قام الليل كلّه " وروى الدّارَقُطْنِيّ في سننه عن سُبيع أو تُبَيْع عن كعب قال : من توضأ فأحسن الوضوء وصلى العشاء الآخرة وصلّى بعدها أربع ركعات فأتمّ ركوعهن وسجودهن ويعلم ما يقترىء فيهن كن له بمنزلة ليلة القدر . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 13 صـ ﴾

(161/553)

وقال أبو حيان :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾

روي أن عمر بعث إليه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) غلاماً من الأنصار يقال له مدلج

، وكان نائماً فدق عليه الباب ودخل ، فاستيقظ وجلس فانكشف منه شيء فقال عمر : وددت أن الله نهى أبناءنا ونساءنا عن الدخول علينا في هذه الساعات إلاّ بإذن .

ثم انطلق إلى الرسول فوجد هذه الآية قد نزلت فخرّ ساجداً .

وقيل : نزلت في أسماء بنت أبي مرثد قيل : دخل عليها غلام لها كبير في وقت كرهت دخوله ، فأتت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقالت : إن خدمنا وغلماننا يدخلون علينا حالاً نكرهها .

﴿ ليستأذنكم ﴾ أمر والظاهر حمله على الوجوب والجمهور على الندب .

وقيل : بنسخ ذلك إذ صار للبيوت أبواب روي ذلك عن ابن عباس وابن المسيب والظاهر عموم ﴿ الذين ملكت أيمانكم ﴾ في العبيد والإماء وهو قول الجمهور .

وقال ابن عمر وآخرون ، العبيد دون الإماء .

وقال السلمي : الإماء دون العبيد .

﴿ والذين لم يبلغوا الحلم منكم ﴾ عام في الأطفال عبيد كانوا أو أحراراً .

وقرأ الحسن وأبو عمر وفي رواية وطلحة ﴿ الحُلْم ﴾ بسكون اللام وهي لغة تميم .

وقيل ﴿ منكم ﴾ أي من الأحرار ذكوراً كانوا أو إناثاً .

والظاهر من قوله ﴿ ثلاث مرات ﴾ ثلاث استئذانات لأنك إذا ضربت ثلاث مرات لا يفهم منه إلاّ ثلاث ضربات ويؤيده قوله عليه الصلاة والسلام : " الاستئذان ثلاث " والذي

عليه الجمهور أن معنى ﴿ ثلاث مرات ﴾ ثلاث أوقات وجعلوا ما بعده من ذكر تلك الأوقات تفسيراً لقوله ﴿ ثلاث مرات ﴾ ولا يتعين ذلك بل تبقى ﴿ ثلاث مرات ﴾ على مدلولها .

﴿ من قبل صلاة الفجر ﴾ لأنه وقت القيام من المضاجع وطرح ما ينام فيه من الثياب ولبس ثياب اليقظة وقد ينكشف النائم .

﴿ وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ﴾ لأنه وقت وضع الثياب للقائلة لأن النهار إذ ذاك يشتد حره في ذلك الوقت .

(162/553)

و ﴿ من ﴾ في ﴿ من الظهيرة ﴾ قال أبو البقاء : لبيان الجنس أي حين ذلك هو الظهيرة ، قال : أو بمعنى من أجل حر الظهيرة و ﴿ حين ﴾ معطوف على موضع ﴿ من قبل ﴾ ﴿ ومن بعد صلاة العشاء ﴾ لأنه وقت التجرد من ثياب اليقظة والالتحاف بثياب النوم ﴿ ثلاث عورات لكم ﴾ سمى كل واحد منها عورة لأن الناس يختل تسترهم وتحفظهم فيها ، والعورة الخلل ومنه أعور الفارس وأعور المكان ، والأعور المختل العين .

وقرأ حمزة والكسائي ﴿ ثلاث ﴾ بالنصب قالوا : بدل من ﴿ ثلاث عورات ﴾ وقدره

الحوفي والزمخشري وأبو البقاء أوقات ﴿ ثلاث عورات ﴾ وقال ابن عطية : إنما يصح يعنى البدل بتقدير أوقات ﴿ عورات ﴾ فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه .

وقرأ باقي السبعة بالرفع أي هن ﴿ ثلاث عورات ﴾ وقرأ الأعمش ﴿ عَوَرات ﴾ بفتح الواو وتقدم أنها لغة هذيل بن مدركة وبني تميم وعلى رفع ﴿ ثلاث ﴾ .

قال الزمخشري : يكون ﴿ ليس عليكم ﴾ الجملة في محل رفع على الوصف والمعنى هن ﴿ ثلاث عورات ﴾ مخصوصة بالاستئذان ، وإذا نصبت لم يكن له محل وكان كلاماً مقرراً بالاستئذان في تلك الأحوال خاصة .

﴿ بعدهن ﴾ أي بعد استئذانهم فيهن حذف الفاعل وحرف الجر بفي بعد استئذانهن ثم حذف المصدر وقيل ﴿ ليس ﴾ على العبيد والإماء ومن لم يبلغ الحلم في الدخول ﴿ عليكم ﴾ بغير استئذان ﴿ جناح ﴾ بعد هذه الأوقات الثلاث ﴿ طوافون ﴾ يمضون ويجيؤون وهو خبر مبتدأ محذوف تقديره هم ﴿ طوافون ﴾ أي المماليك والصغار ﴿ طوافون عليكم ﴾ أي يدخلون عليكم في المنازل غدوة وعشية بغير إذن إلاّ في تلك الأوقات .

وجوّزوا في ﴿ بعضكم على بعض ﴾ أن يكون مبتدأ وخبراً لكن الجر قدروه طائف على بعض وهو كون مخصوص فلا يجوز حذفه .

قال الزمخشري : وحذف لأن طوافون يدل عليه وأن يكون مرفوعاً بفعل محذوف تقديره يطوف بعضكم .

(163/553)

وقال ابن عطية ﴿ بعضكم ﴾ بدل من قوله ﴿ طوافون ﴾ ولا يصح لأنه إن أراد بدلاً من ﴿ طوافون ﴾ نفسه فلا يجوز لأنه يصير التقدير هم ﴿ بعضكم على بعض ﴾ وهذا معنى لا يصح .

وإن جعلته بدلاً من الضمير في ﴿ طوافون ﴾ فلا يصح أيضاً إن قدر الضمير ضمير غيبة لتقدير المبتدأ هم لأنه يصير التقدير هم يطوف ﴿ بعضكم على بعض ﴾ وهو لا يصح .

فإن جعلت التقدير أنتم يطوف ﴿ عليكم بعضكم على بعض ﴾ فيدفعه أن قوله ﴿ عليكم ﴾ بدل على أنهم هم المطوف عليهم ، وأنتم طوافون ، يدل على أنهم طائفون فتعارضا .

وقرأ ابن أبي عبلة طوافين بالنصب على الحال من ضمير ﴿ عليهم ﴾ .

وقال الحسن : إذا بات الرجل خادمه معه فلا استئذان عليه ولا في هذه الأوقات الثلاثة .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ يا أيها الذين ءَامَنُواْ ﴾

رجوع إلى بيان تتمةِ الأحكامِ السَّابقةِ بعد تمهيدِ ما يُوجب الامتثالَ بالأوامر والنَّواهي الواردة فيها وفي الأحكام اللاَّحقةِ من التمثيلات والتَّرغيبِ والتَّرهيبِ والوعدِ والوعيدِ . والخطابُ إمَّا للرِّجالِ خاصَّةً ، والنِّساءُ داخلاتٌ في الحكم بدلالة النَّصِّ أو للفريقينِ جميعاً بطريقِ التَّغليب . رُوي أنَّ غلاماً لأسماءَ بنتِ أبي مَرْثَدٍ دخل عليها في وقتٍ كرهتْهُ فنزلتْ ، وقيلَ : أرسلَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم مِدْلَجَ بنَ عمرٍو الأنصاريَّ وكان غُلاماً وقتَ الظَّهيرةِ ليدعوَ عُمرَ رضي الله عنه فدخلَ عليه وهو نائمٌ قد انكشفَ عنه ثوبُه ، فقال عمرُ رضي الله عنه : لوددتُ أنَّ الله تعالى نَهَى آباءَنا وأبناءَنا وخدمَنا أنْ لا يدخلوا علينا هذه السَّاعاتِ إلا بإذنٍ ثمَّ انطلقَ معه إلى رسولِ الله صلى الله عليه وسلم فوجدَه وقد أُنزلتْ عليه هذه الآيةُ .

﴿ لِيَسْتَأْذِنكُمُ الذين مَلَكَتْ أيمانكم ﴾ من العبيدِ والجَوَاري ﴿ والذين لَمْ يَبْلُغُواْ الحلم ﴾ أي الصِّبيانُ القاصرُون عن درجة البلوغِ المعهود . والتَّعبيرُ عنه بالحُلُم لكونِه أظهرَ دلائِله ﴿ مّنكُمْ ﴾ أي من الأحرارِ ﴿ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ ﴾ أي ثلاثةَ أوقاتٍ في اليَومِ واللَّيلةِ . والتَّعبيرُ عنها بالمرَّات للإيذانِ بأنَّ مدارَ وجوبِ الاستئذانِ مقارنةُ تلك الأوقاتِ لمرور المستأذنينَ بالمخاطبينَ لا أنفسِها ﴿ مّن قَبْلِ صلاة الفجر ﴾ لظهورِ أنَّه وقتُ القيامِ من المضاجعِ وطرحِ ثيابِ النَّومِ ولبسِ ثيابِ اليقظةِ ، ومحلُّه النَّصبُ على أنَّه بدلٌ من ثلاثَ مرَّاتٍ أو الرَّفعُ على أنه خبرٌ لمبتدأٍ محذوفٍ أي أحدُها من قبل الخ ﴿ وَحِينَ تَضَعُونَ ثيابكم ﴾ أي ثيابَكم التي تلبسونَها في النَّهارِ وتخلعونَها لأجل القَيلولةِ وقوله تعالى : ﴿ مّنَ الظهيرة ﴾ وهي شدَّةُ الحرِّ عند انتصافِ النَّهارِ بيانٌ للحينِ . والتَّصريحُ بمدارِ الأمرِ أعني وضعَ الثِّيابِ في هذا الحينِ دُون الأوَّلِ والآخرِ لما أنَّ التَّجردَ عن الثِّيابِ فيه لأجل القيلولةِ لقلَّة زمانِها كما ينبىءُ عنها إيرادُ الحينِ مُضافاً إلى فعلٍ حادثٍ منقضٍ ووقوعُها في النَّهارِ الذي هُو مَئِنَّةٌ لكثرةِ الورودِ والصُّدورِ ومَظِنَّةٌ لظهورِ الأحوالِ وبروزِ الأمورِ ليسَ من التَّحقُّقِ والاطرادِ بمنزلةِ ما في الوقتينِ المذكورينِ فإنَّ تحقُّقَ التَّجردِ واطِّرادَه فيهما أمرٌ معروفٌ لا يحتاجُ إلى التَّصريحِ به ﴿ وَمِن بَعْدِ صلاة العشاء ﴾ ضرورةَ أنَّه وقتُ التَّجردِ عن اللِّباسِ والالتحافِ باللِّحافِ وليسَ المرادُ بالقبليَّةِ والبعديَّةِ المذكورتينِ مطلقَهُما المتحقِّقَ في الوقتِ الممتدِّ المتخللِ بينَ

الصَّلاتينِ كما في قوله تعالى : ﴿ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الغافلين ﴾ وقوله تعالى : ﴿ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشيطان بَيْنِى

(166/553)

وَبَيْنَ إِخْوَتِى ﴾ بل ما يعرض منهما لطرفي ذلك الوقتِ الممتدّ المتصلين بالصَّلاتينِ المذكورتينِ اتّصالاً عاديّاً . وقولُه تعالى : ﴿ ثَلاَثُ عَوْرَاتِ ﴾ خبرُ مبتدأ محذوفٍ . وقولُه تعالى : ﴿ لَكُمْ ﴾ متعلّقٌ بمحذوفٍ هو صفةٌ لثلاثُ عوراتٍ أي كائنةٌ لكم والجملةُ استئنافٌ مسوقٌ لبيان علَّةِ وجوبِ الاستئذانِ أي هنَّ ثلاثةُ أوقاتٍ يختلُّ فيها التَّستُّر عادةً .

والعورةُ في الأصلِ هو الخللُ غلبَ في الخللِ الواقعِ فيما يهمُّ حفظُه ويُعتنى بسترِه . أُطلقتْ على الأوقاتِ المُشتملةِ عليها مبالغةً كأنَّها نفسُ العورةِ . وقُرِىء ثلاثَ عوراتٍ بالنَّصبِ بدلاً من ثلاثَ مرَّاتٍ .

(167/553)

﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلاَ عَلَيْهِمْ ﴾ أي على المماليكِ والصّبيانِ ﴿ جُنَاحٌ ﴾ أي إثمٌ في الدُّخولِ بغيرِ استئذانٍ لعدمِ ما يُوجبه من مخالفةِ الأمرِ والاطّلاعِ على العوراتِ ﴿ بَعْدَهُنَّ ﴾ أي بعد كلِّ واحدةٍ من تلك العوراتِ الثَّلاثِ وهي الأوقاتُ المتخلّلةُ بين كلِّ اثنتينِ منهنَّ وإيرادُها بعُنوان البعديَّةِ مع أنَّ كلَّ وقتٍ من تلكَ الأوقاتِ قبل عورةٍ من العَورات كما أنَّها بعد أخرى منهنَّ لتوفيةِ حقِّ التَّكليفِ والتَّرخيصِ الذي هو عبارةٌ عن رفعه إذ الرُّخصةُ إنَّما تتصور في فعل يقعُ بعد زمان وقوعِ الفعلِ المكلَّف ، والجملة على القراءتينِ مستأنفةٌ مسوقة لتقرير ما قبلها بالطَّردِ والعكس وقد جُوّز على القراءة الأولى كونُها في محلِّ رفعٍ على أنَّها صفة أخرى لثلاثُ عوراتٍ وأمَّا على القراءة الثَّانيةِ فهي مستأنفةٌ لا غير إذ لو جُعلت صفةً لثلاثُ عورات وهي بدلٌ من ثلاثَ مرَّاتٍ لكانَ التَّقديرُ ليستأذنكم هؤلاءِ في ثلاث عورات لا إثمَ في ترك الاستئذانِ بعدهنَّ وحيثُ كان انتفاءُ الإثمِ حينئذٍ ممَّا لم يعلمه السَّامعُ إلا بهذا الكلامِ لم يتسنَّ إبرازُه في معرض الصِّفةِ بخلافِ قراءة الرَّفع فإنَّ انتفاءَ الإثمِ حينئذٍ معلومٌ من صدر الكلام وقوله تعالى : ﴿ طوافون عَلَيْكُمْ ﴾ استئنافٌ ببيان العذر المرخِّص في ترك الاستئذان وهي المخالطةُ الضَّروريةُ وكثرةُ المداخلةِ وفيه دليلٌ على تعليل الأحكامِ وكذا في الفرق بين الأوقات الثَّلاثةِ وبين غيرِها بكونها عَورات .

(168/553)

﴿ بَعْضَكُمْ على بَعْضٍ ﴾ أي بعضكم طائفٌ على بعضٍ طوافاً كثيراً أو بعضُكم يطوفُ على بعضٍ ﴿ كذلك ﴾ إشارةٌ إلى مصدرِ الفعلِ الذي بعدَه ، وما فيه من معنى البُعد لما مرَّ مراراً من تفخيم شأنِ المشار إليهِ حسّاً أي مثلَ ذلك التَّبيين ﴿ يُبيّنُ اللهُ لَكُمُ الآيات ﴾ الدَّالة على الأحكامِ أي ينزلها بينةً واضحة الدلالاتِ عليها لا أنَّه تعالى يبينها بعد أنْ لم تكن كذلك والكافُ مقحمةٌ وقد مرَّ تفصيلُه في قوله تعالى : ﴿ وكذلك جعلناكم أُمَّةً وَسَطًا ﴾ ولكم متعلّق بيبين وتقديمُه على المفعول الصَّريحِ لما مرَّ مراراً من الاهتمام بالمقدَّم والتَّشويقِ إلى المؤخَّر وقيل : يبين عللَ الأحكامِ وليس بواضحٍ مع أنَّه مؤدٍ إلى تخصيص الآياتِ مما ذُكر هاهنا ﴿ واللهُ عَلِيمٌ ﴾ مبالغٌ في العلمِ بجميع المعلوماتِ فيعلم أحوالَكم ﴿ حَكِيمٌ ﴾ في جميع أفاعيلِه فيشرع لكُم ما فيه صلاحُ أمرِكم معاشاً ومعاداً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 6 صـ ﴾

(169/553)

وقال الآلوسى :

﴿ يَا أَيُّهَا الذين ءامَنُواْ ﴾ الخ

رجوع عند الأكثرين إلى بيان تتمة الأحكام السابقة بعد تمهيد ما يوجب الامتثال بالأوامر والنواهي الواردة فيها وفي الأحكام اللاحقة من التمثيلات والترغيب والترهيب والوعد والوعيد ، وفي التحقيق ويحتمل أن يقال : إنه مما يطاع الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم فيه ، وتخصيصه بالذكر لأن دخوله في الطاعة باعتبار أنه من الآداب أبعد من غيره ، والخطاب إما للرجال خاصة والنساء داخلات في الحكم بدلالة النص أو للفريقين تغليباً ، واعترض الأول بأن الآية نزلت بسبب النساء ، فقد روي أن أسماء بنت أبي مرثد دخل عليها غلام كبير لها في وقت كرهت دخوله فأتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : إن خدمنا وغلماننا يدخلون علينا في حال نكرهها فنزلت ، وقد ذكر في "الإتقان" أن دخول سبب النزول في الحكم قطعي .

(170/553)

وأجيب بأنه ما المانع من أن يعلم الحكم في السبب بطريق الدلالة والقياس الجلي ويكون ذلك في حكم الدخول ، ونقل عن السبكي أنه ظني فيجوز إخراجه ؛ وتمام الكلام في ذلك في كتب الأصول ، ثم ما ذكر في سبب النزول ليس مجمعاً عليه ، فقد روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث وقت الظهيرة إلى عمر رضي الله تعالى عنه غلاماً من الأنصار يقال له

مدلج وكان رضي الله تعالى عنه نائماً فدق عليه الباب ودخل فاستيقظ وجلس فانكشف منه شيء فقال عمر رضي الله تعالى عنه : لوددت أن الله تعالى نهى آباءنا وأبناءنا وخدمنا عن الدخول علينا في هذه الساعة إلا بإذن فانطلق معه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجد هذه الآية قد نزلت فخر ساجداً ، وهذا أحد موافقات رأيه الصائب رضي الله تعالى عنه للوحي ، وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي أنه قال : كان أناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يعبهم أن يواقعوا نساءهم في هذه الساعات فيغتسلوا ثم يخرجون إلى الصلاة فأمرهم الله تعالى أن يأمروا المملوكين والغلمان أن لا يدخلوا عليهم في تلك الساعات إلا بإذن بقوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ الذين كَفَرُواْ ﴾ ويعلم منه أن الأمر في قوله سبحانه : ﴿ لِيَسْتَأْذِنكُمُ الذين مَلَكَتْ أيمانكم والذين لَمْ يَبْلُغُواْ الحلم مِنكُمْ ﴾ وإن كان في الظاهر للمملوكين والصبيان لكنه في الحقيقة للمخاطبين فكأنهم أمروا أن يأمروا المذكورين بالاستئذان وبهذا ينحل ما قيل : كيف يأمر الله عز وجل من لم يبلغ الحلم بالاستئذان وهو تكليف ولا تكليف قبل البلوغ ، وحاصله أن الله تعالى لم يأمره حقيقة وإنما أمر سبحانه الكبير أن يأمره بذلك كما أمره أن يأمره بالصلاة ، فقد روي عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال :

" مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين واضربوهم عليها وهم أبناء عشر سنين "

وأمره بما ذكر ونحوه من باب التأديب والتعليم ولا إشكال فيه ، وقيل : الأمر للبالغين من المذكورين على الحقيقة ولغيرهم على وجه التأديب ، وقيل : هو للجميع على الحقيقة والتكليف يعتمد التمييز ولا يتوقف على البلوغ فالمراد بالذين لم يبلغوا الحلم المميزون من الصغار وهو كما ترى .

واختلف في هذا الأمر فذهب بعض إلى أنه للوجوب ، وذهب الجمهور إلى أنه للندب وعلى القولين هو محكم على الصحيح وسيأتي تمام الكلام في ذلك ، والجمهور على عموم ﴿ الذين مَلَكَتْ أيمانكم ﴾ في العبيد والإماء الكبار والصغار ، وعن ابن عمر .

ومجاهد أنه خاص بالذكور كما هو ظاهر الصيغة وروي ذلك عن أبي جعفر .

وأبي عبد الله رضي الله تعالى عنهما ، وقال السلمي : إنه خاص بالإناث وهو قول غريب لا يعول عليه ، وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما تخصيصه بالصغار وهو خلاف الظاهر جداً ، والمراد بالذين لم يبلغوا الحلم الصبيان ذكوراً وإناثاً على ما يقتضيه ما مر في سابقه عن الجمهور وخص بالمراهقين منهم ، و ﴿ مّنكُمْ ﴾ لتخصيصهم بالأحرار ويشعر به المقابلة أيضاً .

وفي "البحر" هو عام في الأطفال عبيداً كانوا أو أحراراً ، وكني عن القصور عن درجة البلوغ بما ذكر لأن الاحتلام أقوى دلائله ، وقد اتفق الفقهاء على أنه إذا احتلم الصبي فقد بلغ ، واختلفوا فيما إذا بلغ خمس عشرة سنة ولم يحتلم فقال أبو حنيفة في المشهور : لا يكون بالغاً حتى يتم له ثماني عشرة سنة وكذا الجارية إذ لم تحتلم أو لم تحض أو لم تحبل لا تكون بالغة عنده حتى يتم لها سبع عشرة سنة ، ودليله قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ﴾ [الأنعام : 152] وأشد الصبي كما روي عن ابن عباس وتبعه القتيبي ثماني عشرة سنة وهو أقل ما قيل فيه فيبنى الحكم عليه للتيقن به غير أن الإناث نشؤهن وإدراكهن أسرع فنقص في حقهن سنة لاشتمالها على الفصول الأربعة التي يوافق واحد منها المزاج لا محالة ، وقال صاحباه .

والشافعي .

وأحمد : إذا بلغ الغلام والجارية خمس عشرة سنة فقد بلغا وهو رواية عن الإمام رضي الله تعالى عنه أيضاً وعليه الفتوى .

ولهم أن العادة الفاشية أن لا يتأخر البلوغ فيهما عن هذه المدة وقيدت العادة بالفاشية لأنه

قد يبلغ الغلام في اثنتي عشرة سنة وقد تبلغ الجارية في تسع سنين ، واستدل بعضهم على ما تقدم بما روى ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أنه عرض على النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد وله أربع عشرة سنة فلم يجزه وعرض عليه عليه الصلاة والسلام يوم الخندق وله خمس عشرة سنة فأجازه ، واعترض أبو بكر الرازي على ذلك بأن أحداً كان في سنة ثلاث والخندق في سنة خمس فكيف يصح ما ذكر في الخبر ، وأيضاً لا دلالة فيه على المدعي لأن الإجازة في القتال لا تعلق لها بالبلوغ فقد لا يؤذن البالغ لضعفه ويؤذن غير البالغ لقوته وقدرته على حمل السلاح.

(173/553)

ولعل عدم إجازته عليه الصلاة والسلام ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أولاً إنما كان لضعفه ويشعر بذلك أنه صلى الله عليه وسلم ما سأله عن الاحتلام والسن .

ومما تفرد به الشافعي رضي الله تعالى عنه على ما قيل جعل الإنبات دليلاً على البلوغ واحتج له بما روى عطية القرظى أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بقتل من أنبت من قريظة واستحياء من لم ينبت قال : فنظروا إلي فلم أكن قد أنبت فاستبقاني صلى الله عليه وسلم ؛ وتعقبه أبو بكر الرازي بأن هذا الخبر لا يجوز إثبات الشرع بمثله فإن عطية هذا مجهول لا

يعرف إلا من هذا الخبر ، وأيضاً هو مختلف الألفاظ ففي بعض رواية أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بقتل من جرت عليه المواسي ، وأيضاً يجوز أن يكون الأمر بقتل من أنبت ليس لأنه بالغ بل لأنه قوي فإن الإنبات يدل على القوة البدنية ، وانتصر للشافعي بأن الاحتمال مردود بما روي عن عثمان رضي الله تعالى عنه أنه سئل عن غلام فقال : هل اخضر إزاره فإنه يدل على أن ذلك كان كالأمر المتفق عليه فيما بين الصحابة رضي الله تعالى عنهم ، ثم المشهور عن الشافعي عليه الرحمة جعل ذلك دليلاً على البلوغ في حق أطفال الكفار ، وتكلف الشافعية في الانتصار له ورد التشنيع عليه بما لا يخفى ما فيه على من راجعه .

ومن الغريب ما روي عن قوم من السلف أنهم اعتبروا في البلوغ أن يبلغ الإنسان في طوله خمسة أشبار ، وروي عن علي كرم الله تعالى وجهه أنه قال : إذا بلغ الغلام خمسة أشبار فقد وقعت عليه الحدود يقتص له ويقتص منه .

وعن ابن سيرين عن أنس قال : أتى أبو بكر رضي الله تعالى عنه بغلام قد سرق فأمر به فشبر فنقص أنملة فخلى عنه ، وبهذا المذهب أخذ الفرزدق في قوله يمدح يزيد بن المهلب :

ما زال مذ عقدت يداه إزاره . . .

وسما فأدرك خمسة الأشبار

يدني كتائب من كتائب تلتقي . . .

بالطعن يوم تجاول وغوار

وأكثر الفقهاء لا يقولون به لأن الإنسان قد يكون دون البلوغ ويكون طويلاً وفوق البلوغ ويكون قصيراً فلا عبرة بذلك .

ولعل الأخبار السابقة لا تصح .

وما نقل عن الفرزدق لا يتعين إرادة البلوغ فيه ، ومن الناس من قال : إنه أراد بخمسة الأشبار القبر كما قال الآخر :

عجباً لأربع أذرع في خمسة . . .

في جوفه جبل أشم كبير

هذا وقرأ الحسن .

وأبو عمرو في رواية ﴿ الحلم ﴾ بسكون اللام وهي لغة تميم ، وذكر الراغب أن الحلم بالضم والحلم السكون كلاهما مصدر حلم في نومه بكذا بالفتح إذا رآه في المنام يحلم بالضم ولم يخص ذلك بلغة دون أخرى ، وعن بعضهم عد حلماً بالفتح مصدراً لذلك أيضاً ، وفي "الصحاح" الحلم بالضم ما يراه النائم تقول منه : حلم بالفتح واحتلم وتقول حلمت بكذا وحلمته أيضاً فيتعدى بالباء وبنفسه قال :

فحلمتها وبنور فيدة دونها . . .

لا يبعدن خيالها المحلوم

والحلم بكسر الحاء الأناة تقول منه : حلم الرجل بالضم إذا صار حليماً ، وفي "القاموس" الحلم بالضم وبضمتين الرؤيا جمعه أحلام ثم قال : وحلم به وعنه رأى له رؤيا أو رآه في النوم والحلم بالضم والاحتلام الجماع في النوم والاسم الحلم كعتق والحلم بالكسر الأناة والعقل وجمعه أحلام وحلوم اه ، والظاهر أن ما نحن فيه بمعنى الجماع في النوم وهو الاحتلام المعروف ووجه الكناية السابقة عليه ظاهر .

(175/553)

وقال الراغب : الحلم زمان البلوغ وسمي الحلم لكونه جديراً صاحبه بالحلم أي الأناة وضبط النفس عن هيجان الغضب وفي النفس منه شيء ﴿ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ ﴾ أي ثلاث أوقات في اليوم والليلة ، والتعبير عنها بالمرات للإيذان بأن مدار طلب الاستئذان مقارنة تلك الأوقات لمرور المستأذنين بالمخاطبين لا أنفسها فنصب ﴿ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ ﴾ على الظرفية للاستئذان وهو الذي ذهب إليه الجمهور ويدل على ما ذكر قوله تعالى : ﴿ مِّن قَبْلِ صلاة الفجر ﴾ الخ فإن الظاهر أنه في محل النصب أو الجر كما قيل أنه بدل من ﴿ ثلاث ﴾ أو من

﴿ مَرَّاتٍ ﴾ بدل مفصل من مجمل .

وجوز أن يكون في محل الرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف أي أحدها من قبل الخ وهو أيضاً يدل على ما ذكرنا ، واختار في "البحر" أن المعنى ثلاث استئذانات كما هو الظاهر فإنك إذا قلت : ضربت ثلاث مرات لا يفهم منه إلا ثلاث ضربات ، ويؤيده قوله عليه الصلاة والسلام " الاستئذان ثلاث " وعليه يكون ﴿ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ ﴾ مفعولاً مطلقاً للاستئذان و ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ الخ ظرف له ، وشرع الاستئذان من قبل صلاة الفجر لظهور أنه وقت القيام عن المضاجع وطرح ثياب النوم ولبس ثياب اليقظة وكل ذلك مظنة انكشاف العورة .

وأيضاً كثيراً ما يجنب الشخص ليلاً فيغتسل في ذلك الوقت ويستحي من الاطلاع عليه في تلك الحالة ولو مستور العورة ﴿ وَحِينَ تَضَعُونَ ثيابكم ﴾ أي وحين تخلعون ثيابكم التي تلبسونها في النهار وتحطونها عنكم ﴿ مّنَ الظهيرة ﴾ بيان للحين ، والظهير كما قال الراغب وقت الظهر ، وفي "القاموس" هي حد انتصاف النهار أو إنما ذلك في القيظ .

(176/553)

وجوز أن تكون ﴿ مِنْ ﴾ أجلية والكلام على حذف مضاف أي وحين تضعون ثيابكم من أجل حر الظهيرة ، وفسر بعضهم الظهيرة بشدة الحر عند انتصاف النهار فلا حاجة إلى

الحذف ؛ و﴿ حِينٍ ﴾ عطف على ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ وهو ظاهر على تقدير كونه في محل نصب ، وأما على التقديرين الآخرين فيلتزم القول ببناء حين على الفتح وإن أضيف إلى مضارع كما قيل في قوله تعالى : ﴿ هذا يَوْمُ يَنفَعُ الصادقين صِدْقُهُمْ ﴾ [المائدة : 119] على قراءة فتح ميم يوم ، والتصريح بمدار الأمر أعني وضع الثياب في هذا الحين دون ما قبل وما بعد لما أن التجرد عن الثياب فيه لأجل القيلولة لقلة زمانها كما ينبىء عنه إيراد الحين مضافاً إلى فعل حادث منقض ووقوعها في النهار الذي هو مئنة لكثرة الورود والصدور ومظنة لظهور الأحوال وبروز الأمور ليس من التحقق والاطراد بمنزلة ما في الوقتين المذكورين فإن تحقق المدار فيهما أمر معروف لا يحتاج إلى التصريح به .

﴿ وَمِن بَعْدِ صلاة العشاء ﴾ ضرورة أنه وقت التجرد عن لباس اليقظة والالتحاف بثياب النوم وكثيراً ما يتعاطى فيه مقدمات الجماع وإن كان الأفضل تأخيره لمن لا يغتسل على الفور إلى آخر الليل ، ويعلم مما ذكر في حيز بيان حكمة مشروعية الاستئذان في الوقت الأول والوقت الأخير أن المراد بالقبلية والبعدية المذكورتين ليس مطلقهما المتحقق في الوقت الممتد المتخلل بين صلاة الفجر وصلاة العشاء بل المراد بهما طرفا ذلك الوقت الممتد المتصلان اتصالاً عادياً بالصلاتين المذكورتين وعدم التعرض للأمر بالاستئذان في الباقي من الوقت الممتد إما لانفهامه بعد الأمر بالاستئذان في الأوقات المذكورة من باب الأولى ، وإما لندرة الوارد فيه جداً كما قيل ، وقيل إن ذاك لجريان العادة على أن من ورد

فيه لا يرد حتى يعلم أهل البيت لما في الورود ودخول البيت فيه من دون إعلام أهله من التهمة ما لا يخفى .

(177/553)

وقوله تعالى : ﴿ ثَلاَثُ عَوْرَاتٍ ﴾ خبر مبتدأ محذوف ، وقوله سبحانه : ﴿ لَكُمْ ﴾ متعلق بمحذوف وقع صفة له أي هن ثلاث عورات كائنة لكم ، والعورة الخلل ومنه أعور الفارس وأعور المكان إذا اختل حاله والأعور المختل العين ، وعورة الإنسان سوأته وأصلها كما قال الراغب : من العار وذلك لما يلحق في ظهورها من العار أي المذمة ، وضمير هن المحذوف للأوقات الثلاثة ، والكلام على حذف مضاف أي هن ثلاث أوقات يختل فيها التستر عادة ، وقدر أبو البقاء المضاف قبل ﴿ ثلاث ﴾ فقال : أي هي أوقات ثلاث عورات أولاً حذف فيه ، وإطلاق العورات على الأوقات المذكورة المشتملة عليها للمبالغة كأنها نفس العورات ، والجملة استئناف مسوق لبيان علة طلب الاستئذان في تلك الأوقات .

وقرأ أبو بكر .

وحمزة .

والكسائي ﴿ ثلاث ﴾ بالنصب على أنه بدل من ﴿ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ ﴾ وجوز أبو البقاء كونه بدلاً من الأوقات المذكورة ، وكونه منصوباً بإضمار أعني .

وقرأ الأعمش ﴿ عورات ﴾ بفتح الواو وهي لغة هذيل بن مدركة .

وبني تميم ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلاَ عَلَيْهِمْ ﴾ أي على الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ﴿ جُنَاحٌ ﴾ أي في الدخول بغير استئذان ﴿ بَعْدَهُنَّ ﴾ أي بعد كل واحدة من تلك العورات الثلاث وهي الأوقات المتخللة بين كل اثنين منهن ، وإيرادها بعنوان البعدية مع أن كل وقت من تلك الأوقات قبل كل عورة من العورات كما أنها بعد أخرى منهن لتوفية حق التكليف والترخيص الذي هو عبارة عن رفعه إذ الرخصة إنما تتصور في فعل يقع بعد زمان وقوع الفعل المكلف كذا في إرشاد العقل السليم ، وظاهره أنه لا حرج في الدخول بغير استئذان في الوقت المتخلل بين ما بعد صلاة العشاء وما قبل صلاة الفجر بالمعنى السابق للبعدية والقبلية ، ومقتضى ما قدمنا ثبوت الحرج في ذلك فيكون كالمستثنى مما ذكر .

(178/553)

وكان الظاهر أن يقال : ليس عليهم جناح بعدهن وعدم التعرض لنفي أن يكون على المخاطبين جناح لأن المأمورين ظاهراً فيما تقدم بالاستئذان في العورات الثلاث هم

المماليك والمراهقون الأحرار لا غير ، وإن اعتبر المأمورون في الحقيقة فيما مر كان الظاهر ههنا أن يقال : ليس عليكم جناح بعدهن مقتصراً عليه ، ولعل اختيار ما في "النظم الجليل" لرعاية المبالغة في الإذن بترك الاستئذان فيما عدا تلك الثلاث حيث نفى الجناح عن المأمورين به فيها ظاهراً وحقيقة .

والظاهر أن المراد بالجناح الإثم الشرعي ، واستشكل بأنه يفهم من الآية ثبوت ذلك للمخاطبين إذا دخل المماليك والذين لم يبلغوا الحلم منهم عليهم من غير استئذان في تلك العورات مع أنه لا تزر وازرة وزر أخرى وثبوته للمماليك والصغار كذلك مع أن الصغار غير مكلفين فلا يتصور في حقهم الإثم الشرعي .

وأجيب بأن ثبوت ذلك لمن ذكر بواسطة المفهوم ولا عبرة به عندنا ، وعلى القول باعتباره يمكن أن يكون ثبوته للمخاطبين حينئذٍ لتركهم تعليمهم والتمكين من الدخول عليهم ويبقى إشكال ثبوته للصغار ولا مدفع له إلا بالتزام القول بأن التكليف يعتمد التمييز ولا يتوقف على البلوغ وهو خلاف ما عليه جمهور الأئمة .

ويرد على القول بأن ثبوت ذلك لمن ذكر بواسطة المفهوم بحث لا يخفى .

والتزم في الجواب كون المراد بالجناح الإثم العرفي الذي مرجعه ترك الأولى وإلا خلق من حيث المروءة والأدب وجواز ثبوت ذلك للمكلف وغير المكلف مما لا كلام فيه فكأن المعنى ليس عليكم أيها المؤمنون جناح في دخولهم عليكم بعدهن لترككم تعليمهم وتمكينكم إياهم منه

المفضي إلى الوقوف على ما تأبى المروءة والغيرة الوقوف عليه ولا عليهم جناح في ذلك لإخلالهم بالأدب المفضي إلى الوقوف على ما تكره ذوو الطباع السليمة الوقوف عليه وينفعون منه .

(179/553)

ولا يأبى ذلك تقدم الأمر السابق ولا ما في الإرشاد من بيان نكتة إيراد العورات الثلاث بعنوان البعدية بما سمعت فتدبر فإنه دقيق .

وذهب بعضهم إلى أن قوله تعالى : ﴿ كَرِيمٌ يا أَيُّهَا الذين ءامَنُواْ لاَ تَدْخُلُواْ بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حتى تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلّمُواْ على أَهْلِهَا ﴾ [النور : 27] منسوخ بهذه الآية حيث دلت على جواز الدخول بدون استئذان بعد الأوقات الثلاث ودل ذلك على خلافه ومن ذهب إليه قال : إنها في الصبيان ومماليك المدخول عليه وآية الاستئذان في الأحرار البالغين ومماليك الغير في حكمهم فلا منافاة ليلتزم النسخ .

ثم اعلم أن نفي الجناح بعدهن على من ذكر ليس على عمومه فإنه متى تحقق أو ظن كون أهل البيت على حال يكرهون اطلاع المماليك والمراهقين من الأحرار عليها كانكشاف عورة أحدهم ومعاشرته لزوجته أو أمته إلى غير ذلك لا ينبغي الدخول عليهم بدون

استئذان سواء كان ذلك في إحدى العورات الثلاث أو في غيرها والأمر بالاستئذان فيها ونفي الجناح بعدها بناءً على العادة الغالبة من كون أهل البيت في الأوقات الثلاث المذكورة على حال يقتضي الاستئذان وكونهم على حال لا يقتضيه في غيرها .

هذا وفي الآية توجيه آخر ذكره أبو حيان وظاهر صنيعه اختياره وعليه اقتصر أبو البقاء وهو أن التقدير ليس عليكم ولا عليهم جناح بعد استئذانهم فيهن فحذف الفاعل وحرف الجر فبقي بعد استئذانهن ثم حذف المصدر فصار بعدهن ، وعليه تقل مؤنة الكلام في الآية إلا أنه خلاف الظاهر جداً .

والجمهور على ما سمعت أولاً في معناها ، والظاهر أن الجملة على القراءتين السابقتين في ثلاث مستأنفة مسوقة لتقرير ما قبلها ، وفي "الكشاف" أنها إذا رفع ﴿ ثلاث ﴾ كانت في محل رفع على الوصف .

(180/553)

والمعنى هن ثلاث مخصوصة بالاستئذان وإذا نصب لم يكن لها محل وكانت كلاماً مقرراً للاستئذان في تلك الأحوال خاصة ، وقال في ذلك صاحب التقريب : إن رفع الحرج وراء الأوقات الثلاثة مقصود في نفسه فإذا وصف به ﴿ ثَلاَثُ عَوْرَاتٍ ﴾ نصباً وهو بدل من

ثلاث مرات كان التقدير ليستأذنكم هؤلاء في ثلاث عورات مخصوصة بالاستئذان .

ويدفعه وجوه مستفادة من علم المعاني .

أحدها : اشتراط تقدم علم السامع بالوصف وهو منتف إذ لم يعلم إلا من هذا .

والثاني : جعل الحكم المقصود وصفاً للظرف فيصير غير مقصود .

والثالث : أن الأمر بالاستئذان في المرات الثلاث حاصل وصفت بأن لا حرج وراءها أو لم توصف فيضيع الوصف .

وأما إذا وصف المرفوع فيزول الدوافع لأنه ابتداء تعليم أي هن ثلاث مخصوصة بالاستئذان وصفة للخبر المقصود ولم يتقيد أمر الاستئذان به فليتأمل فإنه دقيق جليل انتهى ، وتعقب بأن الوجهين الأخيرين ساقطان لا طائل تحتهما والأول هو الوجه .

فإن قيل : هو مشترك الإلزام قيل : قد تقدم في قوله تعالى : ﴿ لِيَسْتَأْذِنكُمُ ﴾ ما يرشد إلى العلم بذلك وليست الجملة الأخيرة من أجزائه كما هي كذلك على فرض جعلها صفة للبدل ولا يحتاج مع هذا إلى حديث أن رفع الحرج وراء الأوقات الثلاثة مقصود في نفسه بل قيل هو في نفسه ليس بشيء فقد قال الطيبي : إن المقصود الأولى الاستئذان في الأوقات المخصوصة ورفع الحرج في غيرها تابع له لقول المحدث رضي الله تعالى عنه لوددت أن الله عز وجل نهى آباءنا وخدمنا عن الدخول علينا في هذه الساعة إلا بإذن ثم انطلق إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقد نزلت الآية .

وفي "الكشف" أنه جيء به أي بالكلام الدال على رفع الحرج أعني ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ ﴾ الخ على رفع ﴿ ثلاث ﴾ مؤكداً للسالف على طريق الطرد والعكس وكذلك إذا نصب وجعل استئنافاً وأما إذا جعل وصفاً فيفوت هذا المعنى .

وهذا أيضاً من الدوافع انتهى فتأمل ولا تغفل .

(181/553)

وقوله تعالى : ﴿ طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ ﴾ خبر مبتدأ محذوف أي هم طوافون والجملة استئناف ببيان العذر المرخص في ترك الاستئذان وهو المخالطة الضرورية وكثرة المداخلة .

وفيه دليل على تعليل الأحكام الشرعية وكذا في الفرق بين الأوقات الثلاث وغيرها بأنها عورات .

وقوله عز وجل : ﴿ بَعْضُكُمْ على بَعْضٍ ﴾ جوز أن يكون مبتدأ وخبراً ومتعلق الجار كون خاص حذف لدلالة ما قبله عليه أي بعضكم طائف على بعض ، وجوز أن يكون معمولاً لفعل محذوف أي يطوف بعضكم على بعض ، وقال ابن عطية : ﴿ بَعْضُكُمْ ﴾ بدل من ﴿ طَوَّافُونَ ﴾ ، وتعقبه في "البحر" بأنه إن أراد أنه بدل من ﴿ طَوَّافُونَ ﴾ نفسه فلا يجوز لأنه يصير التقدير هم بعضكم على بعض وهو معنى لا يصح وإن أراد أنه بدل من الضمير

فيه فلا يصح أيضاً إن قدر الضمير ضمير غيبة لتقديرهم لأنه يصير التقدير هم يطوف بعضكم على بعض وإن جعل التقدير أنتم يطوف عليكم بعضكم على بعض فيدفعه أن ﴿ عَلَيْكُمْ ﴾ يدل على أنهم هم المطوف عليهم وأنتم طوافون يدل على أنهم طائفون فيتعارضان ، وقيل : يقدر أنتم طوافون ويراد بأنتم المخاطبون والغيب من المماليك والصبيان وهو كما ترى ، وجوز أبو البقاء كون الجملة بدلاً من التي قبلها وكونها مبينة مؤكدة ، ولا يخفى عليك ما تضمنته من جبر قلوب المماليك بجعلهم بعضاً من المخاطبين وبذلك يقوى أمر العلية .

وقرأ ابن أبي علبة ﴿ طوافين ﴾ بالنصب على الحال من ضمير عليهم ﴿ قَالَ كَذَلِكَ ﴾ إشارة إلى مصدر الفعل الذي بعد على ما مر تفصيله في تفسير قوله تعالى : ﴿ وكذلك جعلناكم أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [البقرة : 143] وفي غيره أيضاً أي مثل ذلك التبيين ﴿ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيات ﴾ الدالة على ما فيه نفعكم وصلاحكم أي ينزلها مبينة واضحة الدلالة لا أنه سبحانه يبينها بعد أن لم تكن كذلك ، وتقديم الجار والمجرور على المفعول الصريح لما مر غير مرة ، وقيل : يبين علل الأحكام .

(182/553)

وتعقب بأنه ليس بواضح مع أنه مؤد إلى تخصيص الآيات بما ذكر ههنا .

﴿ والله عَلِيمٌ ﴾ مبالغ في العلم بجميع المعلومات فيعلم أحوالكم ﴿ حَكِيمٌ ﴾ في جميع أفاعيله فيشرع لكم ما فيه صلاحكم معاشاً ومعاداً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 18 صـ ﴾

(183/553)

وقال القاسمى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾

أي : من العبيد والجواري : ﴿ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلاةِ الْعِشَاءِ ثَلاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ ﴾ أي : هي ثلاث عورات لكم . إشارة إلى علة وجوب الاستئذان بأنهن أوقات يختلّ فيها التستّر عادة ، ويكون النوم فيها مع الأهل غالباً . فالهجوم على أهل البيت في هذه الأحوال ، مما تأباه النفوس وتكرهه أشد الإباء والكراهة : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ ﴾ أي : ليس عليكم جناح في ترك نهيهم عن الدخول بلا إذن . ولا عليهم جناح من الدخول بدونه ، بعد هذه الأوقات ، وإن احتمل فيها الإخلال بالتستر لندرته .

وذلك لأنهم طوافون عليكم ، فيعسر عليهم الاستئذان في كل مرة : ﴿ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ أي : بعضكم طائف على بعض طوافاً كثيراً . أو بعضكم يطوف على بعض .

(184/553)

قال الزمخشري : يعني أن بكم وبهم حاجة إلى المخالطة والمداخلة ، يطوفون عليكم للخدمة وتطوفون عليهم للاستخدام . فلو جزم الأمر بالاستئذان في كل وقت لأدّى إلى الحرج ﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ يشرع ما فيه الحكمة وصلاح الحال وانتظام الشأن .

تنبيه :

في الآية إقرارُ ما جرت به العادة من أن النوم وقته بعد العشاء وقبل الفجر ووقت الظهيرة . وقد يستدل بها على أن كشف العورة في الخلوة جائز . كذا في " الإكليل " . وقال الرازي : الآية دالة على أن الواجب اعتبار العلل في الأحكام إذا أمكن لأنه تعالى نبه على العلة في هذه الأوقات الثلاثة من وجهين : أحدهما بقوله تعالى : ﴿ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ ﴾ والثاني بالتنبيه على الفرق بين هذه الأوقات الثلاثة ، وبين ما عداها ، بأنه ليس ذاك إلا لعلة

التكشف في هذه الأوقات الثلاثة ، وإنه لا يؤمن وقوع التكشف فيها وليس كذلك ما عدا هذه الأوقات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 12 صـ 420 . 421 ﴾

(185/553)

وقال ابن عاشور :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾

استئناف انتقالي إلى غرض من أحكام المخالطة والمعاشرة .

وهو عود إلى الغرض الذي ابتدئت به السورة وقُطع عند قوله ﴿ وموعظة للمتقين ﴾ [النور : 34] كما تقدم .

وقد ذكر في هذه الآية شرع الاستئذان لأتباع العائلة ومن هو شديد الاختلاط إذا أراد دخول بيت ، فهو من متممات ما ذكر في قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا ﴾ [النور : 27] وهو بمفهوم الزمان يقتضي تخصيص عموم قوله : ﴿ لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم ﴾ الآيات لأن ذلك عام في الأعيان والأوقات فكان قوله : ﴿ الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم ﴾ إلى قوله : ﴿ ومن بعد صلاة العشاء ﴾ تشريعاً لاستئذانهم في هذه الأوقات وهو يقتضي عدم استئذانهم في غير تلك

الأوقات الثلاثة ، فصار المفهوم مخصصاً لعموم النهي في قوله : ﴿ لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا ﴾ .

وأيضاً هذا الأمر مخصص بعموم ﴿ ما ملكت أيمانهن ﴾ [النور : 31] وعموم ﴿ الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ﴾ من قوله تعالى : ﴿ ولا يبدين زينتهن ﴾ [النور : 31] الخ المتقدم آنفاً .

وقد روي أن أسماء بنت مرثد دخل عليها عبد لها كبير في وقت كرهت دخوله فيه فأتت النبي صلى الله عليه وسلم فقالت : إنما خدمنا وغلماننا يدخلون علينا في حالة نكرهها . فنزلت الآية ، (يعني أنها اشتكت إباحة ذلك لهم) .

ولو صحت هذه الرواية لكانت هذه الآية نسخاً لعموم ﴿ أو ما ملكت أيمانهن ﴾ وعموم ﴿ أو الطفل ﴾ لأنها تقتضي أنه وقع العمل بذلك العموم ثم خصص بهذه الآية .

والتخصيص إذا ورد بعد العمل بعموم العام صار نسخاً .

والأمر في قوله : ﴿ ليستئذنكم ﴾ للوجوب عند الجمهور .

وقال أبو قلابة : هو ندب .

فأما المماليك فلأن في عرف الناس أن لا يتحرجوا من اطلاع المماليك عليهم إذ هم خَول وتَبَع .

وقد تقدم ذلك آنفاً عند قوله تعالى : ﴿ أو ما ملكت أيمانهن ﴾ [النور : 31] .

وأما الأطفال فلأنهم لا عناية لهم بتطلع أحوال الناس .

وتقدم آنفاً عند قوله : ﴿ أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ﴾ [النور : 31] .

كانت هذه الأوقات أوقاتاً يتجرد فيها أهل البيت من ثيابهم كما آذن به قوله تعالى : ﴿ وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ﴾ فكان من القبيح أن يرى مماليكهم وأطفالهم عوراتهم لأن ذلك منظر يخجل منه المملوك وينطبع في نفس الطفل لأنه لم يعتد رؤيته ، ولأنه يجب أن ينشأ الأطفال على ستر العورة حتى يكون ذلك كالسجية فيهم إذا كبروا .

ووُجّه الخطاب إلى المؤمنين وجعلت صيغة الأمر موجهة إلى المماليك والصبيان على معنى : لتأمروا الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم أن يستأذنوا عليكم ، لأن على أرباب البيوت تأديب أتباعهم ، فلا يشكل توجيه الأمر إلى الذين لم يبلغوا الحلم .

وقوله : ﴿ الذين ملكت أيمانكم ﴾ يشمل الذكور والإناث لمالكيهم الذكور والإناث .

وأما مسألة النظر وتفصيلها في الكبير والصغير والذكر والأنثى فهي من علائق ستر العورة المفصلة في كتب الفقه .

وقد تقدم شيء من ذلك عند قوله تعالى : ﴿ ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها ﴾ إلى قوله

: ﴿ على عورات النساء ﴾ [النور : 31] فلا ينبغي التصدي بإيراد صورها في هذه الآية .

وتعيين الاستئذان في هذه الأوقات الثلاثة لأنها أوقات خلوة الرجال والنساء وأوقات التعري من الثياب ، وهي أوقات نوم وكانوا غالباً ينامون مجردين من الثياب اجتزاء بالغطاء ، وقد سماها الله تعالى : ﴿ عورات ﴾ .

وما بعد صلاة العشاء هو الليل كله إلى حين الهبوب من النوم قبل الفجر .

وانتصب ﴿ ثلاث مرات ﴾ على أنه مفعول مطلق ل ﴿ يستأذنكم ﴾ لأن مرات في قوة استئذانات .

وقوله : ﴿ من قبل صلاة الفجر ﴾ ظرف مستقر في محل نصب على البدل من ﴿ ثلاث مرات ﴾ بدل مفصل من مجمل .

وحرف (من) مزيد للتأكيد .

(187/553)

وعطف عليه ﴿ وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ومن بعد صلاة العشاء ﴾ .

والظهيرة : وقت الظهر وهو انتصاف النهار .

وقوله : ﴿ ثلاث عورات ﴾ قرأه الجمهور مرفوعاً على أنه خبر مبتدإ محذوف أي هي ثلاث عورات ، أي أوقات ثلاث عورات .

وحذف المسند إليه هنا مما اتبع فيه الاستعمال في كل إخبار عن شيء تقدم الحديث عنه .

و﴿ لكم ﴾ متعلق بـ ﴿ عورات ﴾ .

وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم بالنصب على البدل من ﴿ ثلاث مرات ﴾ .

والعورة في الأصل : الخلل والنقص .

وفيه قيل لمن فقدت عينه أعور وعورت عينه ، ومنه عورة الحي وهي الجهة غير الحصينة منه بحيث يمكن الدخول منها كالثغر ، قال لبيد :

وأجَنَّ عورات الثغور ظلامها

وقال تعالى : ﴿ يقولون إنّ بيوتنا عورة ﴾ [الأحزاب : 13] ثم أطلقت على ما يكره انكشافه كما هنا وكما سمي ما لا يحب الإنسان كشفه من جسده عورة .

وفي قوله : ﴿ ثلاث عورات لكم ﴾ نص على علة إيجاب الاستئذان فيها .

وقوله : ﴿ ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن ﴾ تصريح بمفهوم الظروف في قوله : ﴿ من قبل صلاة الفجر ﴾ وما عطف عليه ، أي بعد تلك الأوقات المحددة .

فصلاة الفجر حد معلوم ، وحالة وضع الثياب من الظهيرة تحديد بالعرف ، وما بعد صلاة العشاء من الحصة التي تسع في العرف تصرفَ الناس في التهيؤ إلى النوم .

ولك أن تجعل (بعدَ) بمعنى (دون) ، أي في غير تلك الأوقات الثلاثة كقوله تعالى : ﴿ فمن يهديه من بعد الله ﴾ [الجاثية : 23] ، وضمير ﴿ بعدهن ﴾ عائد إلى ثلاث عورات ، أي بعد تلك الأوقات .

(188/553)

ونفي الجناح عن المخاطبين في قوله : ﴿ ليس عليكم ﴾ بعد أن كان الكلام على استئذان المماليك والذين لم يبلغوا الحلم إيماء إلى لحن خطاب حاصل من قوله : ﴿ ليستئذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ﴾ فإن الأمر باستئذان هؤلاء عليهم يقتضي أمر أهل البيت بالاستئذان على الذين ملكت أيمانهم إذا دعاهم داع إلى الدخول عليهم في تلك الأوقات كما يرشد السامعَ إليه قوله : ﴿ ثلاث عورات لكم ﴾ .

وإنما لم يصرح بأمر المخاطبين بأن يستأذنوا على الذين ملكت أيمانهم لندور دخول السادة على عبيدهم أو على غلمانهم إذ الشأن أنهم إذا دعتهم حاجة إليهم أن ينادوهم فأما إذا دعت الحاجة إلى الدخول عليهم فالحكم فيهم سواء .

وقد أشار إلى العلة قوله تعالى : ﴿ طوافون عليكم بعضكم على بعض ﴾ .

وقوله : ﴿ طوافون عليكم ﴾ خبر مبتدأ محذوف تقديره : هم طوافون ، يعود على ﴿

الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم ﴾ .

والكلام استئناف بياني ، أي إنما رفع الجناح عليهم وعليكم في الدخول بدون استئذان بعد تلك الأوقات الثلاثة لأنهم طوافون عليكم فلو وجب أن يستأذنوا كان ذلك حرجاً عليهم وعليكم .

وفي الكلام اكتفاء .

تقديره : وأنتم طوافون عليهم دل عليه قوله : ﴿ ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن ﴾

وقوله عقبه : ﴿ بعضكم على بعض ﴾ .

و ﴿ بعضكم على بعض ﴾ جملة مستأنفة أيضاً .

ويجعل ﴿ بعضكم ﴾ مبتدأ ، ويتعلق قوله : ﴿ على بعض ﴾ بجبر محذوف تقديره : طواف على بعض .

وحذف الخبر وبقي المتعلق به وهو كون خاص حذف لدلالة ﴿ طوافون ﴾ عليه .

والتقدير : بعضكم طواف على بعض .

ولا يحسن من جعل ﴿ بعضكم على بعض ﴾ بدلاً من الواو في ﴿ طوافون عليكم ﴾ لأنه عائد إلى ﴿ الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم ﴾ فلا يحسن أن يبدل منه بعض المخاطبين وهم ليسوا من الفريقين إلا بتقدير .

وقوله : ﴿ كذلك يبين الله لكم الآيات ﴾ أي مثل ذلك البيان الذي طرق أسماعكم يبين الله لكم الآيات ، فبيانه بالغ الغاية في الكمال حتى لو أريد تشبيهه لما شبّه إلا بنفسه .

وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً ﴾ في سورة البقرة (143) .

والتعريف في ﴿ الآيات ﴾ تعريف الجنس .

والمراد بالآيات القرآن فإن ما يقع فيه إجمال منها يبين بآيات أخرى ، فالآيات التي أولها ﴿ يا أيها الذين آمنوا ليستئذنكم الذين ملكت أيمانكم ﴾ جاءت بياناً لآيات ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم ﴾ [النور : 27] .

وجملة : ﴿ والله عليم حكيم ﴾ معترضة .

والمعنى : يبين الله لكم الآيات بياناً كاملاً وهو عليم حكيم ، فبيانه بالغ غاية الكمال لا محالة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 18 صـ ﴾

(190/553)

وقال الشيخ الشعراوى :

ثم ينتقل السياق إلى سلوك يمسُّ المجتمع من داخله والأسرة في أدقِّ خصوصياتها ، بعد أنْ ذكر في أول السورة الأحكام الخاصة بالمجتمع الخارجي ، فيقول سبحانه : ﴿ يا أيها الذين ءَامَنُواْ لِيَسْتَأْذِنكُمُ الذين مَلَكَتْ أيمانكم ﴾

تُعلِّمنا هذه الآية آداب الاستئذان داخل الأسرة المكوَّنة من الأبوَيْن والأبناء ، ثم الأتباع مثل الخدم وغيرهم ، والحق تبارك وتعالى يريد أن يُنشِّىءَ هذه الأسرة على أفضل ما يكون ، ويخصّ بالنداء هنا الذين آمنوا ، يعني : يا من آمنتم بي رباً حكيماً مُشرِّعاً لكم حريصاً على مصلحتكم استمعوا إلى هذا الأدب : ﴿ لِيَسْتَأْذِنكُمُ الذين مَلَكَتْ أيمانكم والذين لَمْ يَبْلُغُواْ الحلم مِنكُمْ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ ﴾ [النور : 58] .

معلوم أن طلب المتكلم من المخاطب يأتي على صورتين : فعل الأمر وفعل المضارع المقترن بلام الأمر ، فقوله تعالى : ﴿ لِيَسْتَأْذِنكُمُ ﴾ [النور : 58] يعني : عَلِّموا هؤلاء أن يستأذنوا عليكم مثل : ﴿ وَلْيَسْتَعْفِفِ الذين لاَ يَجِدُونَ نِكَاحاً ﴾ [النور : 33] يعني : استعفوا ، لأن اللام هنا لام الأمر ، ومثل : ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ ﴾ [الطلاق : 7]

.

وهذا الأدب تكليف من الله تعالى يُكلِّف به كل مؤمن داخل الأسرة ، وإنْ كان الأمر هنا لغير المأمور ، فالمأمور بالاستئذان هم مِلْك اليمين والأطفال الصغار ، فأمر الله الكبارَ أن

يُعلِّموا الصغار ، كما ورد في الحديث الشريف : " مروا أولادكم بالصلاة لسبع ، واضربوهم عليها لعشر " .

فلم يُكلِّف بهذا الصغار إنما كُلِّف الكبار ؛ لأن الأطفال لم يبلغوا بَعْد مبلغ التكليف من ربهم ، إنما بلغوا مبلغ التكليف عندكم أنتم ، لذلك أنت الذي تأمر وأنت الذي تتابع وتعاقب .

(191/553)

وأْمُرْ الصغير بالصلاة أو بالاستئذان لِتُربي فيه الدربة والتعود على أمر قد يشقُّ عليه حال كِبَره ، إنما إنْ عوَّدته عليها الآن فإنها تسهل عليهم عند سِنِّ التكليف ، وتتحول العادة في حقه إلى عبادة يسير عليها .

وشرع الله لنا آداب الاستئذان ؛ لأن الإنسان ظاهراً يراه الناس جميعاً ويكثر ظاهره للخاصة من أهله في أمور لا يُظهرها على الآخرين ، إذن : فَرُقْعة الأهل والملاصقين لك أوسع ، وهناك ضوابط اجتماعية للمجتمع العام ، وضوابط اجتماعية للمجتمع الخاص وهو الأسرة ، وحرية المرء في أسرته أوسع من حريته في المجتمع العام ، فإنْ كان في حجرته الخاصة كانت حريته أوسعَ من حريته مع الأسرة .

فلا بُدَّ إذن من ضوابط تحمي هذه الخصوصيات ، وتُنظِّم علاقات الأفراد في الأسرة

الواحدة ، كما سبقت ضوابط تُنظِّم علاقات الأفراد خارج الأسرة .

ومعنى : ﴿ الذين مَلَكَتْ أيمانكم ﴾ [النور : 58] هم العبيد الذين يقومون على خدمة بعض الناس وليس الأجير لأن الأجير يستطيع أن يتركك في أي وقت ، أمَّا العبد فليس كذلك ؛ لأنه مملوك الرقبة لا حريةَ له ، فالمملوكية راجحة في هؤلاء ، وللسيد السيطرة والمهابة فلا يستطيع أن يُفْلت منه .

﴿ والذين لَمْ يَبْلُغُواْ الحلم مِنكُمْ ﴾ [النور : 58] هم الأطفال الصغار الذين لم يبلغوا مبْلَغ التكليف ، ويقضون المصالح ؛ فتراهم في البيت يدخلون ويخرجون دون ضوابط ، فهل نتركهم هكذا يطَّلِعون على خصوصياتنا ؟

(192/553)

وللخدم في البيت طبيعة تقتضي أن يدخلوا علينا ويخرجوا ، وكذلك الصغار ، إلا في أوقات ثلاثة لا يُسْمح لهم فيها بالدخول إلا بعد الاستئذان : ﴿ مِّن قَبْلِ صلاوة الفجر ﴾ [النور : 58] لأنه وقت متصل بالنوم ، والإنسان في النوم يكون حُرَّ الحركة واللباس ﴿ وَحِينَ تَضَعُونَ ثيابكم مِّنَ الظهيرة ﴾ [النور : 58] وهو وقت القيلولة ، وهي وقت راحة يتخفّف فيها المرء من ملابسه ﴿ وَمِن بَعْدِ صلاوة العشآء ﴾ [النور : 58] وبعد

العشاء النوم .

هذه أوقات ثلاثة ، لا ينبغي لأحد أن يدخل عليك فيها إلا بإذنك .

وانظر إلى هذا التحفّظ الذي يوفره لك ربك عز وجل حتى لا تُقيّد حريتك في أمورك الشخصية ومسائلك الخاصة ، وكأن هذه الأوقات مِلْكٌ لك أيها المؤمن تأخذ فيها راحتك وتتمتع بخصوصياتك ، والاستئذان يعطيك الفرصة لتتهيأ لمقابلة المستأذن .

أما في بقية الأوقات فالكل يستأذن عليك حتى الزوجة .

وسبب نزول هذه الآية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أراد سيدنا عمر في أمر من الأمور ، فأرسل إليه غلاماً من الأنصار ، فلما ذهب الغلام دفع الباب ونادى : يا عمر . فلم يرد ؛ لأنه كان نائماً ، فخرج الغلام وجلس في الخارج ودَقَّ الباب فلم يستيقظ عمر ، فماذا يفعل الغلام ؟

رفع الغلام يديه إلى السماء وقال : يا رب أيقظه . ثم دفع الباب ودخل عليه ، وكان عمر نائماً على وضع لا يصح أن يراه عليه أحد ، واستيقظ عمر ولحظ أن الغلام قد رآه على هذا الوضع ، فلما ذهب إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال : يا رسول الله نريد أن يستأذن علينا أبناؤنا ونساؤنا وموالنا وخدمنا ، فقد حدث من الغلام كيت وكيت ، فنزلت هذه الآية .

ويُسمِّي الله تعالى هذه الأوقات الثلاثة عورة : ﴿ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ ﴾ [النور : 58]

والعورة : هي ما يحب الإنسان ألاّ يراها أحد ، أو يراه عليها ؛ لأنها نوع من الخلل والخصوصية ، والله لا يريد أنْ يراك أحد على شيء تكرهه .

(193/553)

لذلك يقولون لمن به خَلَل في عينه مثلاً : أعور : والعرب تقول للكلمة القبيحة : عوراء ، كما قال الشاعر :

وعَوْراء جاءتْ من أخٍ فردَدْتُها . . . بِسالمةِ العَيْنيْنِ طَالِبةً عُذْراً

يعني : كلمة قبيحة لم أردّ عليها بمثلها ، إنما بسالمة لا عين واحدة ، بل بسالمة العينين الاثنين .

ثم يقول سبحانه : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلاَ عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ ﴾ [النور : 58] يعني : بعد هذه الأوقات : لا إثمَ ولا حرجَ عليكم ، ولا على المماليك ، أو الصغار أنْ يدخلوا عليكم ، ففي غير هذه الأوقات يجلس المرء مُسْتعداً لممارسة حياته العادية ، ولا مانع لديه من استقبال الخَدَم أو الأَطفال الصغار دون استئذان ؛ لأن طبيعة المعيشة في البيوت لا تستغني عن دخول هؤلاء وخروجهم باستمرار .

لذلك قال تعالى بعدها : ﴿ طوافون عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ على بَعْضٍ ﴾ [النور : 58] يعني : حركتهم في البيت دائمة ، دخولاً وخروجاً ، فكيف نُقيِّدها في غير هذه الأوقات ؟

﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الأيات ﴾ [النور : 58] أي : بياناً واضحاً ، حتى لا يحدث في المجتمع تناقضات فيما بعد ﴿ واللهُ عَلِيمٌ ﴾ [النور : 58] بكل ما يُصلح الخلافة في الأرض ﴿ حَكِيمٌ ﴾ [النور : 58] في تشريعاته وأوامره ، لا يضع الحكم إلا بحكمة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(194/553)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : (كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) (النور : 58) ، ثم قال : (وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) (النور : 59) ، للسائل أن يقول : لم قال في الأولى : (الآيات) وفي الثانية : (آياته ؟)

والجواب أنه لما تقارب اللفظ الواحد عدل عن تكراره بلفظ واحد فيما تقارب ، على عادة العرب في استثقالها تكرر اللفظ الواحد بعينه في بيت واحد من الشعر أو ما تقارب من الكلام ، ما لم يحمل على ذلك حامل من المعنى ، فجيء بالآيات في الأولى معرفاً بالألف

واللام للعهد فيما تقدم من المعتبرات الواضحة الدلالة ، وفي الآية الثانية مضافاً إلى الضمير (المتصل) لتحصل نسبة الآيات لمن هي له تعالى ، كانت الثانية هي المضافة لأنها مع ما تعطيه من النسبة مبينة للأولى بياناً تأكيدياً ، إذ من المعلوم أنها آياته سبحانه ، فجاء ذلك على ما يجب ، ومن الوارد على هذا الرعي – والله أعلم – قوله في سورة البقرة : (كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ) (البقرة : 219 ، ثم قال تعالى بعد آي : (وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ) (البقرة : 221) ، فهذا مثل الوارد في سورة البقرة ، والله أعلم .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل صـ 372. 373 ﴾

(195/553)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله : ﴿ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ ﴾ :

فيه وجهان ، أحدهما : أنه منصوبٌ على الظرفِ الزماني أي : ثلاثةَ أوقاتٍ ، ثم فَسَّر تلك الأوقاتَ بقوله : ﴿ مِّن قَبْلِ صلاوة الفجر وَحِينَ تَضَعُونَ ﴾ ﴿ وَمِن بَعْدِ صلاوة العشآء ﴾ . والثاني : أنه منصوبٌ على المصدريةِ أي ثلاثةَ استئذاناتٍ . ورجَّحَ الشيخُ هذا

فقال/ : " والظاهرُ مِنْ قوله " ثلاثَ مرات " . ثلاثةَ استئذاناتٍ لأنَّك إذا قلتَ : ضربْتُ ثلاثَ مراتٍ لا تفْهَمُ منه إلاَّ ثلاثَ ضَرَبات . ويؤيِّده قولُه عليه السلام : " الاستئذانُ ثلاث " قلت : مُسَلَّمٌ أنَّ الظاهرَ كذا ، ولكنَّ الظاهرَ هذا متروكٌ للقرينةِ المذكورةِ وهي التفسيرُ بثلاثةِ الأوقاتِ المذكورةِ . وقرأ الحسن وأبو عمرٍو في رواية " الحُلْمَ " بسكونِ العينِ وهي تميميةٌ .

قوله : ﴿ مِّن قَبْلِ صلاوة ﴾ فيه ثلاثةُ أوجهٍ : أحدُها : أنه بدلٌ مِنْ قوله " ثلاث " فتكونُ في محلِّ نصبٍ . الثاني : أنه بدلٌ مِنْ " عورات " فيكونُ في محلِّ جر . الثالث : أنه خبرُ مبتدأ مضمرٍ أي : هي من قبلِ أي : تلك المراتُ فيكونُ في محلِّ رفعٍ .

قوله : ﴿ مِّنَ الظهيرة ﴾ فيه ثلاثةُ أوجهٍ أحدُهما : أنَّ " مِنْ " لبيانِ الجنس أي : حين ذلك الذي هو الظهيرةُ . الثاني : أنها بمعنى " في " أي تَضَعُونها في الظهيرةِ . الثالث : أنَّها بمعنى اللام أي مِنْ أَجْلِ حَرِّ الظهيرةِ . وأمَّا قولُه : ﴿ وَحِينَ تَضَعُونَ ﴾ فعطفٌ على محلِّ ﴿ مِّن قَبْلِ صلاوة الفجر ﴾ ، وقوله : ﴿ وَمِن بَعْدِ صلاوة العشآء ﴾ عطفٌ على ما قبلَه ، والظَّهيرةُ : شِدَّةُ الحَرِّ ، وهو انتصافُ النهارِ .

(196/553)

قوله : ﴿ ثَلاَثُ عَوْرَاتٍ ﴾ قرأ الأخَوان وأبو بكر " ثلاثَ " نصباً . والباقون رفعاً .

فالأولى تَحْتمل ثلاثةَ أوجهٍ ، أحدُها : وهو الظاهر أنَّها بدلٌ مِنْ قوله : ﴿ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ ﴾ . قال ابن عطية : " إنما يَصِحُّ البدلُ بتقديرِ : أوقات ثلاثِ عَوْراتٍ ، فَحُذِف المضافُ وأُقيم المضافُ إليه مُقامَه " ، وكذا قَدَّره الحوفي والزمخشري وأبو البقاء . ويحتمل أنَّه جَعَل نفسَ ثلاثِ المراتِ نفسَ ثلاثِ العوراتِ مبالغةً ، فلا يُحتاج إلى حَذْفِ مضافٍ . وعلى هذا الوجهِ أعني وجهَ البدل لا يجوزُ الوقفُ على ما قبل ﴿ ثَلاَثُ عَوْرَاتٍ ﴾ لأنه بدلٌ منه وتابعٌ له ، ولا يُوْقَفُ على المتبوعِ دونَ تابعِه .

الثاني : أنَّ ﴿ ثَلاَثُ عَوْرَاتٍ ﴾ بدلٌ مِنَ الأوقاتِ المذكورةِ قاله أبو البقاء . يعني قولَه : ﴿ مِّن قَبْلِ صلاوة الفجر ﴾ وما عُطِفَ عليه ، ويكونُ بدلاً على المحلِّ ؛ فلذلك نُصِبَ .

الثالث : أَنْ يَنْتَصِبَ بإضمارِ فِعْلٍ . فقَدَّره أبو البقاء أعني . وأَحْسَنُ من هذا التقديرِ " اتَّقوا " أو " احْذروا " ثلاثَ .

وأمَّا الثانية ف " ثلاثُ " خبرُ مبتدأ محذوفٍ ، تقديرُه : هنَّ ثلاثُ عَوْراتٍ . وقدَّره أبو البقاء مع حَذْفِ مضافٍ فقال : " أي : هي أوقاتُ ثلاثِ عوراتٍ ، فحُذِف المبتدأُ والمضافُ " . قلت : وقد لا يُحتاج إليه على جَعْلِ العوراتِ نفسَ الأوقاتِ مبالغةً وهو المفهومُ من كلامِ الزمخشريِّ ، وإن كان قد قَدَّره مضافاً كما قدَّمْتُه عنه .

قال الزمخشري : " وسمى كلَّ واحدٍ من هذه الأحوالِ عورةً ؛ لأنَّ الناسَ يَخْتَلُّ تَسَتُّرُهم وتَحَفُّظُهم فيها . والعَوْرَةُ : الخَلَلُ ومنه أَعْوَرَ الفارسُ ، وأَعْوَرَ المكانُ . والأَعْوَرُ : المختلُّ العينِ " فهذا منه يُؤْذِنُ بعدمِ تقديرِ أوقاتٍ ، مضافةً لـ " عَوْراتٍ " بخلافِ كلامِه أولاً . فيُؤْخَذُ من مجموعِ كلامِه وجهان ، وعلى قراءةِ الرفع وعلى الوجهين قبلها في تخريجِ قراءةِ النصبِ يُوقف على ما قبلَ ﴿ ثَلاَثَ عَوْرَاتٍ ﴾ لأنَّها ليستْ تابعةً لما قبلها .

وقرأ الأعمش " عَوَرات " وهي لغةُ هُذَيْلٍ وبني تميم : يفتحون عينَ فَعَلات واواً أو ياءً وأُنشِدَ :

3467 أخو بَيَضاتٍ رائحٌ متأوِّبٌ . . . رفيقٌ بمَسْحِ المَنْكِبينِ سَبُوْحُ

قوله : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ ﴾ هذه الجملةُ يجوزُ أَنْ يكونَ لها محلٌّ من الإعرابِ وهو الرفعُ نعتاً لثلاث عَوْرات في قراءةِ مَنْ رفعها كأنه قيل : هُنَّ ثلاثُ عَوْراتٍ مخصوصةً بعدمِ الاستئذانِ ، وأنْ لا يكونَ لها محلٌّ ، بل هي كلامٌ مقرِّر للأمرِ بالاستئذانِ في تلك الأحوالِ خاصةً ، وذلك في قراءةِ مَنْ نصب " ثلاثَ عَوْراتٍ " .

قوله : ﴿ بَعْدَهُنَّ ﴾ قال أبو البقاء : " التقديرُ : بعد استئذانِهم فيهنَّ ، ثم حَذَفَ حرفَ الجرِّ والفاعلَ ، فبقي : بعد استئذانِهم ، ثم حَذَفَ المصدرَ " يعني بالفاعل الضميرَ المضافَ إليه الاستئذانُ فإنه فاعلٌ معنويٌّ بالمصدر . وهذا غيرُ ظاهرٍ ، بل الذي/يَظْهَرُ أنَّ المعنى :

ليس عليكم جناحٌ . ولا عليهم أي : العبيدِ والإماءِ والصبيانِ ، في عَدَمِ الاستئذانِ بعد هذه الأوقاتِ المذكورةِ ، ولا حاجةَ إلى التقديرِ الذي ذكره .

قوله : ﴿ طوافون ﴾ خبرُ مبتدأ مضمرٍ تقديرُه : هم طوّافون ، و " عليكم " متعلّقٌ به .

(198/553)

قوله : ﴿ بَعْضُكُمْ على بَعْضٍ ﴾ في " بعضُكم " ثلاثةُ أوجهٍ ، أحدُها : أنه مبتدأٌ ، و " على بعض " الخبرُ ، فقدَّره أبو البقاء " يَطُوْفُ على بعض " . وتكونُ هذه الجملةُ بدلاً مِمَّا قبلها . ويجوز أن تكونَ مؤكدةً مُبَيِّنة . يعني : أنها أفادَتْ إفادةَ الجملةِ التي قبلها فكانَتْ بدلاً ، أو مؤكِّدةَ . وردَّ الشيخ هذا : بأنه كونٌ مخصوصٌ فلا يجوزُ حَذْفُه . والجوابُ عنه : أن الممتنعَ الحذفِ إذا لم يَدُلَّ عليه دليلٌ وقُصِد إقامةُ الجارِّ والمجرورِ مُقامَه ، وهنا عليه دليلٌ ولم يُقْصَدْ إقامةُ الجارِّ مُقامَه ، ولذلك قال الزمخشري : " خبرُه " على بعض " ، على معنى : طائف على بعض ، وحُذِفَ لدلالةِ " طوّافون " عليه " .

الثاني : أن يَرْتَفِعَ بدلاً مِنْ " طوّافون " قاله ابن عطية . قال الشيخ : " ولا يَصِحُّ إنْ قُدِّر الضميرُ ضميرَ غَيْبةٍ لتقدير المبتدأ " هم " لأنَّه يصيرُ التقديرُ : هم يَطُوف بعضُكم على بعضٍ ، وهو لا يَصِحُّ . فإنْ جَعَلْتَ التقدير : أنتم يَطُوف بعضُكم على بعضٍ ، فيدفَعُه أنَّ قولَه "

عليكم "يَدُلُّ على أنهم هم المَطُوفُ عليهم ، و " أنتم طوّافون "يَدُلُّ على أنَّهم طائِفون فتعارضا " .

قلت : نختار أنَّ التقديرَ : أنتم ، ولا يلزَمُ محذورٌ . قوله : " فيدفعه إلى آخره " لا تعارُضَ فيه لأنَّ المعنى : كلٌّ منكم ومِنْ عبيدِكم طائفٌ على صاحبه ، وإن كان طوافُ أحدِ النوعين غيرَ طوافِ الآخَرِ ؛ لأنَّ المرادَ الظهورُ على أحوالِ الشخصِ ، ويكونُ " بعضُكم " بدلاً من " طوّافون " وقيل : " بعضُ " بدلٌ مِنْ " عليكم " بإعادة العاملِ فأُبْدِلَتْ مرفوعاً مِنْ مرفوعٍ ، ومجروراً من مجرور . ونظيرُه قولُ الشاعرِ :

3468 فلمَّا قَرَعْنا النَّبْعَ بالنَّبْعِ بعضَه . . . ببعضٍ أَبَتْ عِيدانُه أَنْ تكَسَّرا

ف " بعضُه " بدلٌ من " النبعَ " المنصوب ، و " ببعض " بدلٌ من المجرورِ بالباء .

(199/553)

الثالث : أنه مرفوعٌ بفعلٍ مقدَّر أي : يطوفُ بعضُكم على بعضٍ ، حُذِفَ لدلالةِ " طوّافون " عليه . قاله الزمخشري .

وقرأ ابن أبي عبلة " طوّافين " بالنصبِ على الحال من ضميرِ " عليهم " . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 438.443 ﴾

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى الثياب والثواب)

وقد ورد فى القرآن على ثمانية أَوجه :

الأَوّل : ثوب الفراغ والاستراحة ﴿ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِّنَ الظَّهِيرَةِ ﴾ .

الثانى : لباس التجمُّل والزِّينة ﴿ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ ﴾ .

الثالث : ثياب الغفلة والجراءة ﴿ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ ﴾ .

الرّابع : لصناديد قريش ثوب الاطِّلاع على السرِّ والعلانيةِ ﴿ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ ﴾ .

الخامس : للنبىّ صلَّى الله عليه وسلم ثوب الصلاة والطَّهارة ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ .

السّادس : للكفَّار ثوب العذاب والعقوبة ﴿ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ ﴾ .

السابع : لأَهل الإِيمان ثوب العزّ والكرامة ﴿ عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ﴾ .

الثامن : للخواصّ ثياب النُّصرة والخُضْرة فى الحضْرة ﴿ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُنْدُسٍ ﴾ .

وأَصل الثَّوب رجوع الشيءِ إلى حالته الأُولى التى كان عليها ، أَو إلى حالته المقدّرة المقصودة بالفكرة ، وهى الحالة المشار إليها بقولهم : أَول الفكرة آخر العمل .

فمن الرّجوع إلى الحالة الأُولى قولهم : ثاب فلان إلى داره ، وثاب إلىَّ نَفْسى .

ومن الرّجوع إلى الحالة المقصودة المقدّرة بالفكرة الثوب ، سمّى بذلك لرجوع الغَزْل إلى الحالة الَّتى قُدِّر لها .

وكذا ثوب العمل .

وجمع الثوب أَثواب ، وثياب .

والثواب : ما يرجع إلى الإنسان من جزاءِ أَعماله .

فسمّى الجزاءُ ثواباً تصوّراً أَنَّه هو .

أَلا ترى أَنه كيف جعل الجزاء نفس الفعل فى قوله : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ ﴾ ولم يقل : ير جزاءَه .

والثواب يقال فى الخير والشر ، لكن الأكثر المشهور فى الخير .

وكذلك المَثُوبة .

وقوله تعالى ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِّن ذلك مَثُوبَةً ﴾ فإِنَّ ذلك استعارة فى الشرّ كاستعارة البشارة فيه .

والإِثابة يستعمل فى المحبوب ﴿ فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّاتٍ ﴾ وقد قيل ذلك فى المكروه أَيضاً نحو ﴿ فَأَثَابَكُمْ غَمّاً بِغَمٍّ ﴾ على الاستعارة كما تقدّم.

والتثويب لم يرد فى التَّنزيل إلاَّ فيما يكره نحو ﴿ هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ ﴾ قيل : معناه : مكاناً يثوب النَّاس إليه على مرور الأَوقات.

وقيل : مكاناً يكتسب [فيه] الثَّواب قال الشَّاعر.

*وما أَنَا بالباغى على الحُبِّ رِشوة * قبيحٌ هوىً يُبْغى عليه ثوابُ*

*وهل نافعى أَن تُرْفع الحُجْب بيننا * ومن دون ما أَمّلتُ منك حجاب*

*إِذا نلت منك الودّ فالمال هَيّن * وكل الذى فوق التراب تراب*

وقد ورد الثواب فى القرآن على خمسة أَوجه :

الأَوّل : بمعنى جزاء الطَّاعة ﴿ هُوَ خَيْرٌ ثَوَاباً وَخَيْرٌ عُقْباً ﴾ ﴿ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقاً ﴾ .

الثانى : بمعنى الفتح والظفر والغنيمة ﴿ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ ﴾ فثواب الدّنيا هو الفتح والغنيمة.

الثالث بمعنى وعد الكرامة ﴿ فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّاتٍ ﴾ أَى وعدهم.

الرَّابع : بمعنى الزِّيادة على الزِّيادة ﴿ فَأَثَابَكُمْ غَمّاً بِغَمٍّ ﴾ أَى زَادَكُمْ غَمّاً (على غم) .

الخامس : بمعنى الرَّاحة والمنفعة ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 2 صـ 336 . 338 ﴾

(202/553)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله جلّ ذكره : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْتَئْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ مِّن قَبْلِ صَلاَةِ الْفَجْرِ ﴾ .

ضيَّق الأمر من وجهٍ ووسَّعَه من وجهٍ ، وأمر بمراعاة الاحتياط وحسن السياسة لأحكام الدين ومراعاة أمر الحُرُم ، والتحرر من مخاوف الفتنة ، وإذا كانت الجوانبُ محروسةً صارت المخاوفُ مأمونة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 622 ﴾

(203/553)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الرابع والخمسون بعد الخمسمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الرابع والخمسون بعد الخمسمائة

من الآية ﴿ 59 ﴾ من سورة النور

وحتى الآية ﴿ 61 ﴾ من نفس السورة

(4/554)

قوله تعالى ﴿ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (59) وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (60) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما بين حكم الصبيان والأرقاء الذين هم أطوع للأمر ، وأقبل لكل خير ، أتبعه حكم البالغين من الأحرار فقال : ﴿ وإذا بلغ الأطفال منكم ﴾ أي من أحراركم ﴿ الحلم ﴾ أي السن الذي يكون فيه إنزال المني برؤية الجماع في النوم ، هذا أصله ، والمراد سن مطلق الإنزال ﴿ فليستأذنوا ﴾ على غيرهم في جميع الأوقات ﴿ كما استأذن الذين من قبلهم ﴾

على ما بين في أول الآيات القائلة ﴿ لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا ﴾ ونقل ابن كثير عن يحيى بن أبي كثير وسعيد بن جبير أن الغلام إذا كان رباعياً فإنه يستأذن في العورات الثلاث على أبويه ، فإذا بلغ الحلم فليستأذن على كل حال .

ولما كانت آيات الاستئذان أتقن حاسم لمواد الشر ، وتركها أعظم فاتح لأبواب الفتن ، وكان إخراج الكلام ، في أحكام الحلال والحرام ، مع التهذيب والبيان ، في النهاية من الصعوبة ، وكان فطم النفوس عما ألفت في غاية من العسر شديدة ، أشار سبحانه إلى ذلك بتكرير آية البيان ، إشارة إلى أنها – لما لها من العلو – جديرة بالتأكيد ، وإلى أن البلغاء يستبعدون القدرة على البيان كلما أريد على هذا السنن فقال : ﴿ كذلك ﴾ أي مثل ذلك البيان الذي بينه في آيات الأحكام ﴿ يبين الله ﴾ بما له من صفات الكمال ﴿ لكم ﴾ مع ما لكم من خلال النقص ﴿ آياته ﴾ أي العلامات الدالة عليه من هذه الفرعيات وما رقت إليه الأصليات ، فأضافها إليه سبحانه تعظيماً لها ، إشارة إلى أنها مقدمة للآيات الإلهيات ، لأن من لم يتفرغ من مكدرات الأفكار ، لم يطر ذلك المطار ، وحثاً على تدبر ما تقدم منها لاستحضار ما دعت إليه من الحكم ، وفصلت به من المواعظ ، وتنبيهاً على ما فيها من العلوم النافعة ديناً ودنيا ، وزاد في الترغيب في العلم والحكمة إشارة إلى أن ذلك سبب كل سعادة فقال : ﴿ والله ﴾ أي المحيط بكل شيء ﴿ عليم حكيم ﴾ روى الطبراني وغيره

" عن أنس ـ رضى الله عنه ـ قال : لما كانت صبيحة احتلمت دخلت على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأخبرته أني قد احتلمت ، فقال : " لا تدخل على النساء " ، فما أتى عليّ يومٌ كان أشد منه " .

ولما ذكر سبحانه اقتبال الشباب ، في تغيير حكم الحجاب ، أتبعه الحكم عند إدبار الشباب ، في إلقاء الظاهر من الثياب ، فقال : ﴿ والقواعد ﴾ وحقق ألمر بقوله : ﴿ من النساء ﴾ جمع قاعد ، وهي التي قعدت عن الولد وعن الحيض كبراً وعن الزوج .

ولما كان هذا الأخير قطبها قال : ﴿ اللاتي لا يرجون نكاحاً ﴾ أي لعدم رغبتهن فيه أو لوصولهن إلى حد لا يرغب فيهن معه ﴿ فليس عليهن جناح ﴾ أي شيء من الحرج في ﴿ أن يضعن ثيابهن ﴾ أي الظاهرة فوق الثياب الساترة بحضرة الرجال بدليل قراءة ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ ﴿ من ثيابهن ﴾ قال أبو صالح : تضع الجلباب ، وهو ما يغطي ثيابها من فوق كالملحفة ، وتقوم بين يدي الرجل في الدرع والخمار ﴿ غير متبرجات بزينة ﴾ أي متعمدات – بوضع ما أبيح لهن وضعه إظهار وجوههن مع الزينة ، أو غير متظاهرات بالزينة ، قال في الجمع بين العباب والمحكم : تبرجت المرأة : أظهرت وجهها .

وفي القاموس : تبرجت : أظهرت زينتها للرجال – انتهى .

ومادة برج تدور على الظهور كما مضى في الحجر ؛ وقال البيضاوي : وأصل البرج التكلف

في إظهار ما يخفى – انتهى .

وكأنه أشير بصيغة التفعل إلى أن ما ظهر منها من وجهها أو زينتها عفواً غير مقصود به الفساد لا حرج فيه .

ولما ذكر الجائز ، وكان إبداء الوجه داعياً إلى الريبة ، أشار إليه بقوله ذاكراً المستحب ، بعثاً على اختيار أفضل الأعمال وأحسنها : ﴿ وأن يستعففن ﴾ أي يطلبن العفة بدوام الستر وعدم التخفف بإلقاء الجلباب والخمار ﴿ خير لهن ﴾ من الإلقاء المذكور .

(6/554)

ولما كان ما ذكر من حالهن من الخلطة على ذلك الوصف معلوماً أنه لا يخلو عن كلام ، كان التقدير : فالله في وضع الحرج عنهن رؤوف بهن رحيم ، عطف عليه قوله : ﴿ والله ﴾ أي الذي له جميع صفات الكمال ﴿ سميع ﴾ أي لكلامهن إذا خاطبن الرجال هل يخضعن فيه ويتصنعن في ترخيم الصوت به أو يلقينه على الحالة المعروفة غير المنكرة ﴿ عليم ﴾ بما يقصدن به وبكل شيء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 283.284 ﴾

(7/554)

فصل

قال الفخر :

أما قوله : ﴿ والقواعد مِنَ النساء الاتي لاَ يَرْجُونَ نِكَاحاً ﴾

ففيه مسائل :

المسألة الأولى :

قال ابن السكيت : امرأة قاعد إذا قعدت عن الحيض والجمع قواعد ، وإذا أردت القعود قلت قاعدة ، وقال المفسرون : القواعد هن اللواتي قعدن عن الحيض والولد من الكبر ولا مطمع لهن في الأزواج ، والأولى أن لا يعتبر قعودهن عن الحيض لأن ذلك ينقطع والرغبة فيهن باقية ، فالمراد قعودهن عن حال الزوج ، وذلك لا يكون إلا إذا بلغن في السن بحيث لا يرغب فيهن الرجال .

المسألة الثانية :

قوله تعالى في النساء : ﴿ لاَ يَرْجُونَ ﴾ كقوله : ﴿ إِلَّا أَن يَعْفُونَ ﴾ [البقرة : 237] .

المسألة الثالثة :

لا شبهة أنه تعالى لم يأذن في أن يضعن ثيابهن أجمع لما فيه من كشف كل عورة ، فلذلك قال المفسرون : المراد بالثياب ههنا الجلباب والبرد والقناع الذي فوق الخمار ، وروي عن ابن

عباس رضي الله عنهما أنه قرأ ﴿ أَن يَضَعْنَ جلابيبهن ﴾ وعن السدي عن شيوخه (أن يضعن خمرهن رؤوسهن) وعن بعضهم أنه قرأ (أن يضعن من ثيابهن) ، وإنما خصهن الله تعالى بذلك لأن التهمة مرتفعة عنهن ، وقد بلغن هذا المبلغ فلو غلب على ظنهن خلاف ذلك لم يحل لهن وضع الثياب ولذلك قال : ﴿ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ﴾ وإنما جعل ذلك أفضل من حيث هو أبعد من المظنة وذلك يقتضي أن عند المظنة يلزمهن أن لا يضعن ذلك كما يلزم مثله في الشابة .

المسألة الرابعة :

حقيقة التبرج تكلف إظهار ما يجب إخفاؤه من قولهم سفينة بارج لا غطاء عليها ، والبرج سعة العين التي يرى بياضها محيطاً بسوادها كله ، لا يغيب منه شيء إلا أنه اختص بأن تنكشف المرأة للرجال بإبداء زينتها وإظهار محاسنها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 24 صـ 30 ﴾

(8/554)

وقال الجصاص :

وقَوْله تَعَالَى : ﴿ وَالْقَوَاعِدُ مِنْ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا ﴾ الْآيَةَ .

قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ وَمُجَاهِدٌ : (وَالْقَوَاعِدُ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا هُنَّ اللَّاتِي لَا يُرِدْنَهُ ، وَثِيَابُهُنَّ جَلَابِيبُهُنَّ) .

وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ وَابْنُ جُبَيْرٍ : (الرِّدَاءُ) .

وَقَالَ الْحَسَنُ : (الْجِلْبَابُ وَالْمِنْطَقُ) .

وَعَنْ جَابِرِ بْنِ زَيْدٍ : (يَضَعْنَ الْخِمَارَ وَالرِّدَاءَ) .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : لَا خِلَافَ فِي أَنَّ شَعْرَ الْعَجُوزِ عَوْرَةٌ لَا يَجُوزُ لِلْأَجْنَبِيِّ النَّظَرُ إِلَيْهِ كَشَعْرِ الشَّابَّةِ ، وَأَنَّهَا إِنْ صَلَّتْ مَكْشُوفَةَ الرَّأْسِ كَانَتْ كَالشَّابَّةِ فِي فَسَادِ صَلَاتِهَا ، فَغَيْرُ جَائِزٍ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ وَضْعَ الْخِمَارِ بِحَضْرَةِ الْأَجْنَبِيِّ .

فَإِنْ قِيلَ : إِنَّمَا أَبَاحَ اللَّهُ تَعَالَى لَهَا بِهَذِهِ الْآيَةِ أَنْ تَضَعَ خِمَارَهَا فِي الْخَلْوَةِ بِحَيْثُ لَا يَرَاهَا أَحَدٌ .

قِيلَ لَهُ : فَإِذًا لَا مَعْنَى لِتَخْصِيصِ الْقَوَاعِدِ بِذَلِكَ ؛ إِذْ كَانَ لِلشَّابَّةِ أَنْ تَفْعَلَ ذَلِكَ فِي خَلْوَةٍ ، وَفِي ذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ إِنَّمَا أَبَاحَ لِلْعَجُوزِ وَضْعَ رِدَائِهَا بَيْنَ يَدَيْ الرِّجَالِ بَعْدَ أَنْ تَكُونَ مُغَطَّاةَ الرَّأْسِ ، وَأَبَاحَ لَهَا بِذَلِكَ كَشْفَ وَجْهِهَا وَيَدِهَا ؛ لِأَنَّهَا لَا تُشْتَهَى ؛ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ ﴾ فَأَبَاحَ لَهَا وَضْعَ الْجِلْبَابِ ، وَأَخْبَرَ أَنَّ الِاسْتِعْفَافَ بِأَنْ لَا تَضَعَ ثِيَابَهَا أَيْضًا بَيْنَ يَدَيْ الرِّجَالِ خَيْرٌ لَهَا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ

﴾

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ﴾ .

فِيهَا اثْنَتَا عَشْرَةَ مَسْأَلَةً :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : هَذِهِ آيَةٌ خَاصَّةٌ ، وَالَّتِي قَبْلَهَا عَامَّةٌ ؛ لِأَنَّهُ قَالَ فَعَمَّ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ﴾ ، ثُمَّ خَصَّ هَا هُنَا فَقَالَ : ﴿ لِيَسْتَأْذِنْكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ فَخَصَّ فِي هَذِهِ الْآيَةِ بَعْضَ الْمُسْتَأْذِنِينَ ، وَهُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ مَسْأَلَةِ جَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ فِي الْآيَةِ قَبْلَهَا ، وَكَذَلِكَ أَيْضًا تَنَاوَلَ الْقَوْلُ فِي الْآيَةِ الْأُولَى جَمِيعَ الْأَوْقَاتِ عُمُومًا ، وَخَصَّ فِي هَذِهِ الْآيَةِ بَعْضَ الْأَوْقَاتِ ، وَهِيَ الْمُفَسَّرَةُ عَلَى مَا يَأْتِي ذِكْرُهُ إنْ شَاءَ اللَّهُ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : فِي قَوْلِهِ : ﴿ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ : الْأَوَّلُ : أَنَّهُمْ الذُّكْرَانُ وَالْإِنَاثُ .

الثَّانِي : أَنَّهُ الْعَبْدُ دُونَ الْأَمَةِ ؛ قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ ، وَابْنُ عُمَرَ .

الثَّالِثُ : أَنَّهُنَّ الْإِنَاثُ ؛ قَالَهُ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيُّ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : هَلْ الْآيَةُ مُحْكَمَةٌ أَوْ مَنْسُوخَةٌ ؟ فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ : هِيَ مُحْكَمَةٌ يَعْنِي فِي الرِّجَالِ خَاصَّةً .

(10/554)

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : قَدْ ذَهَبَ حُكْمُهَا ؛ رَوَى عِكْرِمَةُ أَنَّ نَفَرًا مِنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ سَأَلُوا ابْنَ عَبَّاسٍ ، فَقَالُوا : يَا ابْنَ عَبَّاسٍ ، كَيْفَ تَرَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ الَّتِي أُمِرْنَا فِيهَا بِمَا أُمِرْنَا ، فَلَا يَعْمَلُ بِهَا أَحَدٌ ؛ قَوْلِ اللَّهِ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ وَقَرَءُوهَا إلَى قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ عَلَى بَعْضٍ ﴾ ؟ فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : إنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ بِجَمِيعِ الْمُؤْمِنِينَ يُحِبُّ السَّتْرَ . وَكَانَ النَّاسُ لَيْسَ لِبُيُوتِهِمْ سُتُورٌ وَلَا حِجَالٌ ، فَرُبَّمَا دَخَلَ الْخَادِمُ أَوْ وَلَدُهُ أَوْ يَتِيمَةُ الرَّجُلِ ، وَالرَّجُلُ عَلَى أَهْلِهِ ؛ فَأَمَرَ اللَّهُ بِالِاسْتِئْذَانِ فِي تِلْكَ الْعَوْرَاتِ ، فَجَاءَهُمْ اللَّهُ بِالسُّتُورِ ، وَالْخَيْرِ ، فَلَمْ أَرَ أَحَدًا يَعْمَلُ بِذَلِكَ .

وَهَذَا ضَعِيفٌ جِدًّا بِمَا بَيَّنَّاهُ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ مِنْ أَنَّ شُرُوطَ النَّسْخِ لَمْ تَجْتَمِعْ فِيهِ مِنْ الْمُعَارَضَةِ ، وَمِنْ التَّقَدُّمِ وَالتَّأَخُّرِ ، فَكَيْفَ يَصِحُّ لِنَاظِرٍ أَنْ يَحْكُمَ بِهِ ؟

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ : فِي التَّنْقِيحِ : اعْلَمُوا وَفَّقَكُمْ اللَّهُ أَنَّ الْحُجْبَةَ وَاقِعَةٌ مِنْ الْخَلْقِ شَرْعًا ،

وَلِذَلِكَ وَجَبَ الِاسْتِئْذَانُ حَتَّى يَخْلُصَ بِهِ الْمَحْجُورُ مِنْ الْمُطْلَقِ ، وَالْمَحْظُورُ مِنْ الْمُبَاحِ ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ﴾ .

(11/554)

ثُمَّ قَالَ : ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ عَلَى مَا شَرَحْنَاهُ ، فَاسْتَثْنَى مَا مَلَكَتْ الْيَمِينُ مِنْ الْمَحْجُورِ ، ثُمَّ اسْتَثْنَى فِي مِلْكِ الْيَمِينِ هَذِهِ الْأَوْقَاتَ الثَّلَاثَةَ ؛ فَالْعَبْدُ إذَا كَانَ وَغْدًا ، أَوْ ذَا مَنْظَرَةٍ ، وَكَانَ حُكْمُهُ فِي الْحُجْبَةِ عَلَى صِفَةٍ فَإِنَّ هَذِهِ الْأَوْقَاتَ الثَّلَاثَةَ لَا يَدْخُلُ فِيهَا عَبْدٌ كَيْفَمَا كَانَ وَلَا أَمَةٌ إلَّا بَعْدَ الِاسْتِئْذَانِ .

الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ : قَوْلُهُ : ﴿ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ﴾ : فَذَكَرَ قَبْلَ صَلَاةِ الْفَجْرِ ، وَعِنْدَ الظَّهِيرَةِ ، وَهِيَ الْقَائِلَةُ ، وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ، وَهِيَ أَوْقَاتُ الْخَلْوَةِ الَّتِي يَكُونُ فِيهِ التَّصَرُّفُ بِخِلَافِ اللَّيْلِ كُلِّهِ ، فَإِنَّهُ وَقْتُ خَلْوَةٍ ، وَلَكِنْ لَا تَصَرُّفَ فِيهِ ؛ لِأَنَّ كُلَّ أَحَدٍ مُسْتَغْرِقٌ بِنَوْمِهِ ، وَهَذِهِ الْأَوْقَاتُ الثَّلَاثَةُ أَوْقَاتُ خَلْوَةٍ وَتَصَرُّفٍ ، فَنُهُوا عَنْ الدُّخُولِ بِغَيْرِ إذْنٍ لِئَلَّا يُصَادِفُوا مَنْظَرَةً مَكْرُوهَةً .

وَفِي الصَّحِيحِ : ﴿ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُصَلِّي كَذَا وَرَكْعَتَيْنِ قَبْلَ صَلَاةِ الصُّبْحِ

وَكَانَتْ سَاعَةً لَا يُدْخَلُ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيهَا مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ .

وَفِي رِوَايَةٍ عَنْهُ : لَا أَدْخُلُ ﴾ .

وَعَنْ عَائِشَةَ : ﴿ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَنَامُ أَوَّلَ اللَّيْلِ ، وَيَقُومُ آخِرَهُ ، ثُمَّ يَرْجِعُ إلَى فِرَاشِهِ حَتَّى يَأْتِيَهُ الْمُؤَذِّنُ ، فَإِنْ كَانَتْ بِهِ حَاجَةٌ اغْتَسَلَ ، وَإِلَّا تَوَضَّأَ وَخَرَجَ ﴾ رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَغَيْرُهُ .

(12/554)

وَفِي الْآثَارِ التَّفْسِيرِيَّةِ ﴿ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَرْسَلَ إلَى عُمَرَ غُلَامًا مِنْ الْأَنْصَارِ يُقَالُ لَهُ مُدْلِجٌ فِي الظَّهِيرَةِ ، فَدَخَلَ عَلَى عُمَرَ بِغَيْرِ إذْنٍ ، فَأَيْقَظَهُ بِسُرْعَةٍ ، فَانْكَشَفَ شَيْءٌ مِنْ جَسَدِهِ ؛ فَنَظَرَ إلَيْهِ الْغُلَامُ ؛ فَحَزِنَ لَهَا عُمَرُ فَقَالَ : وَدِدْت أَنَّ اللَّهَ بِفَضْلِهِ نَهَى عَنْ الدُّخُولِ عَلَيْنَا فِي هَذِهِ السَّاعَاتِ إلَّا بِإِذْنِنَا .

ثُمَّ انْطَلَقَ إلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَوَجَدَ هَذِهِ الْآيَةَ قَدْ أُنْزِلَتْ عَلَيْهِ ، فَحَمِدَ اللَّهَ ﴾ .

الْمَسْأَلَةُ السَّادِسَةُ : يُرِيدُ بِقَوْلِهِ : ﴿ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ﴾ الَّتِي يَدْعُوهَا النَّاسُ الْعَتَمَةَ : وَفِي الصَّحِيحِ مِنْ رِوَايَةِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْمُغَفَّلِ الْمُزَنِيِّ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ لَا

يَغْلِبَنَّكُمْ الْأَعْرَابُ عَلَى اسْمِ صَلَاتِكُمْ الْمَغْرِبِ ﴾ .

قَالَ : وَالْأَعْرَابُ تَقُولُ الْعِشَاءَ ، وَتُسَمَّى أَيْضًا الْعِشَاءَ الْعَتَمَةَ ، فَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ : ﴿ لَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِي الْعَتَمَةِ وَالْفَجْرِ لَأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبْوًا ﴾ .

وَفِي الْبُخَارِيِّ أَيْضًا عَنْ أَبِي بَرْزَةَ : ﴿ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُؤَخِّرُ الْعِشَاءَ ﴾ .

وَقَالَ أَنَسٌ : ﴿ أَخَّرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْعِشَاءَ الْآخِرَةَ ﴾ .

وَفِي حَدِيثِ عَائِشَةَ : ﴿ أَعْتَمَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْعَتَمَةِ ﴾ .

وَقَوْلُ أَنَسٍ فِي الْبُخَارِيِّ : " الْعِشَاءُ الْآخِرَةُ يَدُلُّ عَلَى الْعِشَاءِ الْأُولَى " .

(13/554)

وَفِي الْحَدِيثِ : ﴿ لَا يَغْلِبَنَّكُمْ الْأَعْرَابُ عَلَى اسْمِ صَلَاتِكُمْ الْعِشَاءِ يَدْعُونَهَا الْعَتَمَةَ ﴾ ؛ لِأَنَّهُمْ يُعْتِمُونَ بِحِلَابِ الْإِبِلِ .

وَهَذِهِ أَخْبَارٌ مُتَعَارِضَةٌ لَا يُعْلَمُ مِنْهَا الْأَوَّلُ مِنْ الْآخِرِ بِالتَّارِيخِ ، لَكِنَّ كُلَّ حَدِيثٍ بِذَاتِهِ يُبَيِّنُ وَقْتَهُ ، وَذَلِكَ أَنَّ النَّهْيَ مِنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ تَسْمِيَةِ صَلَاةِ الْمَغْرِبِ عِشَاءً ، وَعَنْ تَسْمِيَةِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ عَتَمَةً ثَابِتٌ ؛ فَلَا مَرَدَّ لَهُ مِنْ أَقْوَالِ الصَّحَابَةِ فَضْلًا عَمَّنْ عَدَاهُمْ .

وَقَدْ كَانَ ابْنُ عُمَرَ يَقُولُ : مَنْ قَالَ صَلَاةُ الْعَتَمَةِ فَقَدْ أَثِمَ .

وَقَالَ ابْنُ الْقَاسِمِ : قَالَ مَالِكٌ : ﴿ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ ﴾ فَاللَّهُ سَمَّاهَا صَلَاةَ الْعِشَاءِ ، فَأَحَبَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ تُسَمَّى بِمَا سَمَّاهَا بِهِ اللَّهُ ، وَيُعَلِّمُهَا الْإِنْسَانُ أَهْلَهُ وَوَلَدَهُ ، وَلَا يَقُلْ عَتَمَةً إلَّا عِنْدَ خِطَابِ مَنْ لَا يَفْهَمُ ، وَقَدْ قَالَ حَسَّانُ : وَكَانَ لَا

يَزَالُ بِهَا أَنِيسٌ خِلَالَ مُرُوجِهَا نَعَمٌ وَشَاءُ فَدَعْ هَذَا وَلَكِنْ مِنْ لَطِيفٍ يُؤَرِّقُنِي إذَا ذَهَبَ الْعِشَاءُ

الْمَسْأَلَةُ السَّابِعَةُ : قَوْلُهُ : ﴿ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ ﴾ : الْعَوْرَةُ كُلُّ شَيْءٍ لَا مَانِعَ دُونَهُ .

(14/554)

وَمِنْهُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ إنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ ﴾ أَيْ سَهْلَةُ الْمَدْخَلِ ، لَا مَانِعَ دُونَهَا ، فَبَيَّنَ الْعِلَّةَ الْمُوجِبَةَ لِلْإِذْنِ ، وَهِيَ الْخَلْوَةُ فِي حَالِ الْعَوْرَةِ ، فَتَعَيَّنَ امْتِثَالُهُ ، وَتَعَذَّرَ نَسْخُهُ ، ثُمَّ رُفِعَ الْجُنَاحُ بَعْدَهُنَّ فِي ذَلِكَ ، وَهُوَ الْمَيْلُ بِالْعِتَابِ أَوْ الْعِقَابِ عَلَى الْفَاعِلِ ، وَهِيَ : الْمَسْأَلَةُ الثَّامِنَةُ : ثُمَّ بَيَّنَ الْعِلَّةَ الْأَصْلِيَّةَ وَالْحَالَةَ الْأَهْلِيَّةَ ، وَهِيَ : الْمَسْأَلَةُ التَّاسِعَةُ : قَوْلُهُ : ﴿ طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ ﴾ : أَيْ مُتَرَدِّدُونَ عَلَيْكُمْ فِي الْخِدْمَةِ ، وَمَا لَا غِنَى بِكُمْ عَنْهُ مِنْهُمْ ؛ فَسَقَطَ الْحَرَجُ عَنْ ذَلِكَ ، وَزَالَ الْمَانِعُ ، ﴿ كَمَا قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْهِرَّةِ حِينَ

أَصْغَى لَهَا الْإِنَاءَ : إِنَّهَا مِنْ الطَّوَّافِينَ عَلَيْكُمْ أَوْ الطَّوَّافَاتِ ﴾ .

وَذَلِكَ مُسْقِطٌ لِحُكْمِ سُؤْرِهَا فِي مُبَاشَرَتِهَا النَّجَاسَةَ وَحَمْلِهَا أَبَدًا عَلَى الطَّهَارَةِ ، إلَّا أَنْ يَرَى فِي فَمِهَا أَذًى .

الْمَسْأَلَةُ الْعَاشِرَةُ : وَقَوْلُهُ : ﴿ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ يُرِيدُ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فِي الْمُخَالَطَةِ وَالْمُلَابَسَةِ ؛ فَلِذَلِكَ سَقَطَ الِاسْتِئْذَانُ لَهُمْ عَلَيْكُمْ ، وَلَكُمْ عَلَيْهِمْ ، كَمَا ارْتَفَعَ الْجُنَاحُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ ، مِنْهُمْ لَكُمْ ، وَمِنْكُمْ لَهُمْ .

(15/554)

الْمَسْأَلَةُ الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ : قَوْلُهُ : ﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ ﴾ الْمَعْنَى يُبَيِّنُ اللَّهُ الْآيَاتِ الدَّالَّةَ عَلَى الْمُعْجِزَةِ وَالتَّوْحِيدِ ، كَمَا يُبَيِّنُ الْآيَاتِ الدَّالَّةَ عَلَى الْأَحْكَامِ ؛ وَقَدْ بَيَّنَّا فِي كُتُبِ الْأُصُولِ مَا يَدُلُّ الشَّرْعُ عَلَيْهِ ، وَمَا يَدُلُّ الْعَقْلُ عَلَيْهِ ، وَمَا يَشْتَرِكُ فِيهِ دَلِيلُ الْعَقْلِ وَالشَّرْعِ بِأَوْضَحِ بَيَانٍ .

وَاَللَّهُ أَعْلَمُ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ : لَا بَأْسَ أَنْ يَجْلِسَ الرَّجُلُ مَعَ أَهْلِهِ وَفَخِذُهُ مُنْكَشِفَةٌ وَحَدِيثُ جَرْهَدٍ ﴿ وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِ الصُّفَّةِ أَنَّهُ قَالَ : جَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عِنْدَنَا

وَفَخِذِي مُنْكَشِفَةٌ ، فَقَالَ : خَمِّرْ عَلَيْك ، أَمَا عَلِمْت أَنَّ الْفَخِذَ عَوْرَةٌ ، وَقَدْ غَطَّاهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عِنْدَ دُخُولِ عُثْمَانَ ؛ لِأَنَّهَا كَانَتْ مُنْكَشِفَةً مِنْ جِهَتِهِ الَّتِي جَلَسَ مِنْهَا ﴾ .

وَمِنْ حَدِيثِ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ : ﴿ إذَا زَوَّجَ أَحَدُكُمْ عَبْدَهُ أَوْ أَجِيرَهُ فَلَا يَنْظُرْ إلَى مَا دُونَ السُّرَّةِ وَفَوْقَ الرُّكْبَةِ فَإِنَّهُ عَوْرَةٌ ﴾ .

وَقَالَ الْأَوْزَاعِيُّ : إنَّمَا أَمَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَرْهَدًا لِأَنَّهُ كَانَ فِي الْمَسْجِدِ مَرِيضًا ، وَلَيْسَ الْفَخِذُ عَوْرَةً .

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمْ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاَللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ .

(16/554)

فِيهَا مَسْأَلَةٌ وَاحِدَةٌ : هَذِهِ الْآيَةُ مُبَيِّنَةٌ قَوْلَهُ : ﴿ أَوْ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ ﴾ ، فَكَانَ الطِّفْلُ مُسْتَثْنًى مِنْ عُمُومِ الْحُجْبَةِ فِي الْآيَةِ الْأُولَى إذَا لَمْ يَظْهَرْ عَلَى الْعَوْرَةِ ؛ ثُمَّ بَيَّنَ اللَّهُ أَنَّ الطِّفْلَ إذَا ظَهَرَ عَلَى الْعَوْرَةِ ، وَهُوَ بِالْبُلُوغِ ، يَسْتَأْذِنُ ، وَقَدْ كَانَ قَوْلُهُ : ﴿ أَوْ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ ﴾ كَافِيًا لِأَنَّ الْمُسْتَثْنَى طِفْلٌ بِصِفَتِهِ الْمُخْتَصَّةِ

بِهِ ، وَيَبْقَى غَيْرُهُ عَلَى الْحَجْرِ ، فَكَانَتْ هَذِهِ الْآيَةُ زِيَادَةَ بَيَانٍ ؛ لِإِبَانَةِ اللَّهِ فِي أَحْكَامِهِ وَإِيضَاحِ حَلَالِهِ وَحَرَامِهِ .

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَالْقَوَاعِدُ مِنْ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاَللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ .

فِيهَا أَرْبَعُ مَسَائِلَ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : قَوْلُهُ : ﴿ الْقَوَاعِدُ مِنْ النِّسَاءِ ﴾ : جَمْعُ قَاعِدٍ بِغَيْرِ هَاءٍ فَرْقًا بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْقَاعِدَةِ مِنْ الْجُلُوسِ فِي قَوْلِ بَعْضِهِمْ .

وَهُنَّ اللَّوَاتِي قَعَدْنَ عَنْ الْحَيْضِ وَعَنْ الْوَلَدِ ، فَلَيْسَ فِيهِنَّ رَغْبَةٌ لِكُلِّ أَحَدٍ ، وَلَا يَتَعَلَّقُ بِهِنَّ الْقَلْبُ فِي نِكَاحٍ ، وَيَجُوزُ النَّظَرُ إلَيْهِنَّ بِخِلَافِ الشَّبَابِ مِنْهُنَّ .

(17/554)

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : قَوْلُهُ : ﴿ فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ ﴾ فِيهِ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا : جِلْبَابَهُنَّ ؛ وَهُوَ قَوْلُ ابْنِ مَسْعُودٍ يَعْنِي بِهِ الرِّدَاءَ أَوْ الْمِقْنَعَةَ الَّتِي فَوْقَ الْخِمَارِ تَضَعُهُ عَنْهَا إذَا سَتَرَهَا مَا بَعْدَهُ مِنْ الثِّيَابِ .

وَالثَّانِي : تَضَعُ خِمَارَهَا ، وَذَلِكَ فِي بَيْتِهَا ، وَمِنْ وَرَاءِ سِتْرِهَا مِنْ ثَوْبٍ أَوْ جِدَارٍ ، وَذَلِكَ

قَوْلُهُ : غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ يَعْنِي وَهِيَ : الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : غَيْرُ مُظْهِرَاتٍ لِمَا يُتَطَلَّعُ إلَيْهِ مِنْهُنَّ ، وَلَا مُتَعَرِّضَاتٍ بِالتَّزْيِينِ لِلنَّظَرِ إلَيْهِنَّ ، وَإِنْ كُنَّ لَيْسَ بِمَحَلِّ ذَلِكَ مِنْهُنَّ ، وَإِنَّمَا خَصَّ الْقَوَاعِدَ بِذَلِكَ دُونَ غَيْرِهِنَّ لِانْصِرَافِ النُّفُوسِ عَنْهُنَّ ، وَلَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ بِالتَّسَتُّرِ الْكَامِلِ خَيْرٌ مِنْ فِعْلِ الْمُبَاحِ لَهُنَّ مِنْ وَضْعِ الثِّيَابِ .

وَاَللَّهُ أَعْلَمُ .

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ : مِنْ التَّبَرُّجِ أَنْ تَلْبَسَ الْمَرْأَةُ ثَوْبًا رَقِيقًا يَصِفُهَا ، وَهُوَ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ : ﴿ رُبَّ نِسَاءٍ كَاسِيَاتٍ عَارِيَاتٍ ، مَائِلَاتٍ مُمِيلَاتٍ ، لَا يَدْخُلْنَ الْجَنَّةَ ، وَلَا يَجِدْنَ رِيحَهَا ﴾ .

وَإِنَّمَا جَعَلَهُنَّ كَاسِيَاتٍ ؛ لِأَنَّ الثِّيَابَ عَلَيْهِنَّ ، وَإِنَّمَا وَصَفَهُنَّ بِعَارِيَاتٍ لِأَنَّ الثَّوْبَ إذَا رَقَّ يَكْشِفُهُنَّ ؛ وَذَلِكَ حَرَامٌ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 3 صـ ﴾

(18/554)

وقال الماوردى :

ثم أوجب على من بلغ من الصبيان الاستئذان إذا احتلموا وبلغوا لأنهم صاروا بالبلوغ في حكم الرجال فقال تعالى :

﴿ وَإِذَا بَلَغَ الأَطْفَالُ مِنكُمُ الحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُواْ كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم ﴾ يعني الرجال .

قوله : ﴿ وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَآءِ ﴾ والقواعد جمع قاعدة وهن اللاتي قعدن بالكبر عن الحيض والحمل ولا يحضن ولا يلدن . قال ابن قتيبة : بل سمين بذلك لأنهن بعد الكبر يكثر منهن القعود . وقال زمعة : لا تراد ، فتقعد عن الاستمتاع بها والأول أشبه . قال الشاعر :

فلو أن ما في بطنه بين نسوة . . . حبلن ولو كان القواعد عقراً

وقوله : ﴿ اللَّاتِي لاَ يَرْجُونَ نِكَاحاً ﴾ أي أنهن لأجل الكبر لا يردن الرجال ولا يريدهن الرجال .

﴿ فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ ﴾ فيه قولان

: أحدهما : جلبابها وهو الرداء الذي فوق خمارها فتضعه عنها إذا سترها باقي ثيابها قاله ابن مسعود وابن جبير .

الثاني : خمارها ورداؤها ، قاله جابر بن زيد .

﴿ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ ﴾ والتبرج أن تظهر من زينتها ما يستدعي النظر إليها فإنه في القواعد وغيرهن محظور . وإنما خص القواعد بوضع الجلباب لانصراف النفوس عنهن ما لم يبد شيء من عوراتهن . والشابات المشتهيات يمنعن من وضع الجلباب أو الخمار ويؤمرن بلبس أكثف الجلابيب لئلا تصفهن ثيابهن . وقد روى مجاهد عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لِلزَّوْجِ مَا تَحْتَ الدِّرْعِ ، وَلِلإِبْنِ وَالأَخِ مَا فَوقَ الدِّرْعِ ، وَلِغَيْرِ ذِي

مُحْرِمٍ أَرْبَعَةُ أَثْوَابٍ : دِرْعٍ وَخِمَارٍ وَجِلْبَابٍ وَإِزَارٍ

" . ﴿ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ﴾ يعني إن يستعفف القواعد عن وضع ثيابهن ويلزمن لبس جلابيبهن خير لهن من وضعها وإن سقط الحرج عنهن فيه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

(19/554)

وقال ابن عطية :

﴿ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾

المعنى أن ﴿ الأطفال ﴾ أمروا بالاستئذان في الأوقات الثلاثة المذكورة وأبيح لهم الأمر في غير ذلك من الأوقات ، ثم أمر تعالى في هذه الآية أن يكونوا إذا بلغوا ﴿ الحلم ﴾ على حكم الرجال في الاستئذان في كل وقت وهذا بيان من الله عز وجل ، وقوله : ﴿ والقواعد ﴾ ، يريد النساء اللائي قد أسنن وقعدن عن الولد واحدتهن قاعد . وقال ربيعة هي هنا التي تستقذر من كبرها ، قال غيره وقد تقعد المرأة عن الولد وفيها مستمتع فلما كان الغالب من النساء أن ذوات هذا السن لا مذهب للرجل فيهن أبيح لهن ما لم يبح لغيرهن .

وأزيل عنهن كلفة التحفظ المتعب إذ علة التحفظ مرتفعة منهن ، وقرأ ابن مسعود " أن

يضعن من ثيابهن " وهي قراءة أبي وروي عن ابن مسعود أيضاً " من جلابيبهن " ، والعرب تقول امرأة واضع للتي كبرت فوضعت خمارها ، ثم استثني عليهن في وضع الثياب أن لا يقصدن به التبرج وإبداء الزينة ، فرب عجوز يبدوا منها الحرص على أن يظهر لها جمال ونحو هذا مما هو أقبح الأشياء وأبعده عن الحق ، و" التبرج " طلب البدو والظهور إلخ . . . . والظهور للعيون ومنه ﴿ بروج مشيدة ﴾ [النساء : 78] وأصل ذلك بروج السماء والأسوار ، والذي أبيح وضعه لهذه الصنيفة الجلباب الذي فوق الخمار والرداء ، قاله ابن مسعود وابن جبير وغيرهما ، ثم ذكر تعالى أن تحفظ الجميع منهن واستعفافهن عن وضع الثياب والتزامهن ما يلزمه الشباب من الستر أفضل لهن وخير ، وقرأ ابن مسعود " وأن يعففن " بغير سين ، ثم ذكر تعالى ﴿ سيمع ﴾ لما يقول كل قائل وقائلة ، ﴿ عليم ﴾ بمقصد كل أحد في قوله ، وفي هاتين الصفتين توعد ، وتحذير والله الموفق للصواب برحمته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(20/554)

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

قوله تعالى : ﴿ لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الذين مَلَكَتْ أيمانُكم ﴾

في سبب نزولها قولان .

أحدهما : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وجَّه غلاماً من الأنصار يقال له : مُدْلج بن عمرو إلى عمر بن الخطاب وقت الظهيرة ليدعوه ، فدخل فرأى عمر على حالة كره عمرُ رؤيتَه عليها ، فقال : يا رسول الله ، وددتُ لو أن الله أمرنا ونهانا في حال الاستئذان ، فنزلت هذه الآية ، قاله ابن عباس .

والثاني : أن أسماء بنت مرثد كان لها غلام ، فدخل عليها في وقت كرهتْه ، فأتت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالت : إنَّ خدمنا وغلماننا يدخلون علينا في حالة نكرهها ، فنزلت هذه الآية ، قاله مقاتل .

ومعنى الآية : ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم ؛ وفيهم قولان .

أحدهما : أنه أراد الذكور دون الإناث ، قاله ابن عمر .

والثاني : الذكور والإناث ، رواه أبو حصين عن أبي عبد الرحمن .

ومعنى الكلام : ليستأذنكم مماليككم في الدخول عليكم .

قال القاضي أبو يعلى : والأظهر أن يكون المراد : العبيد الصغار والإماء الصغار ، لأن العبد البالغ بمنزلة الحر البالغ في تحريم النظر إلى مولاته ، فكيف يضاف إلى الصبيان الذين هم غير مكلفين ؟ !

قوله تعالى : ﴿ والذين لم يبلغوا الحُلُم ﴾ وقرأ عبد الوارث : ﴿ الحُلْم ﴾ باسكان اللام

﴿ منكم ﴾ أي : من أحراركم من الرجال والنساء ، ﴿ ثلاث مرات ﴾ أي : ثلاثة أوقات ؛ ثم بيَّنها فقال : ﴿ من قبل صلاة الفجر ﴾ وذلك لأن الإِنسان قد يَبِيت عُرياناً ، أو على حالة لا يحب أن يُطَّلع عليه فيها ﴿ وحين تضعون ثيابكم من الظَّهيرة ﴾ أي : القائلة ﴿ ومن بعد صلاة العشاء ﴾ حين يأوي الرجل إلى زوجته .

﴿ ثلاثُ عَوْرات ﴾ قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وحفص عن عاصم : ﴿ ثلاثُ عورات ﴾ برفع الثاء من ﴿ ثلاث ﴾ ، والمعنى : هذه الأوقات هي ثلاث عورات ، لأن الإِنسان يضع فيها ثيابه ، فربما بدت عورته .

(21/554)

وقرأ حمزة ، والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم : ﴿ ثلاثَ عورات ﴾ بنصب الثاء ؛ قال أبو علي : وجعلوه بدلاً من قوله : ﴿ ثلاثَ مَرَّات ﴾ والأوقات ليست عورات ، ولكن المعنى : أنها أوقات ثلاث عورات ، فلما حذف المضاف أعرب [باعراب المحذوف] .

وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي ، وسعيد بن جبير ، والأعمش : ﴿ عَوَرات ﴾ بفتح الواو ، ﴿ ليس عليكم ﴾ يعني : المؤمنين الأحرار ﴿ ولا عليهم ﴾ يعني : الخدم والغلمان ﴿ جُنَاح ﴾ أي : حرج ﴿ بَعْدَهُنَّ ﴾ أي : بعد مُضي هذه الأوقات ، أن لا يستأذنوا .

فرفع الحرج عن الفريقين ، ﴿ طَوَّافُون عليكم ﴾ أي : هم طوافون عليكم ﴿ بعضُكم على بعض ﴾ أي : يطوف بعضكم وهم المماليك على بعض وهم الأحرار .

فصل

وأكثر علماء المفسرين على أن هذه الآية محكمة ، وممن روي عنه ذلك ابن عباس ، والقاسم بن محمد ، وجابر بن زيد ، والشعبي .

وحكي عن سعيد بن المسيب أنها منسوخة بقوله : ﴿ وإِذا بلغ الأطفال منكم الحُلُم فليستأذِنوا ﴾ ؛ والأول أصح ، لأن معنى هذه الآية : وإِذا بلغ الأطفال منكم ، أو من الأحرار الحلم ، فليستأذنوا ، أي : في جميع الأوقات في الدخول عليكم ﴿ كما استأذن الذين مِنْ قَبْلهم ﴾ يعني : كما استأذن الأحرار الكبار ، الذين هم قبلهم في الوجود ، وهم الذين أُمروا بالاستئذان على كل حال ؛ فالبالغ يستأذن في كل وقت ، والطفل والمملوك يستأذنان في العورات الثلاث .

(22/554)

قوله تعالى : ﴿ والقواعدُ من النِّساء ﴾ قال ابن قتيبة : يعني : العُجْزَ ، واحدها : قاعدٌ ، ويقال : إِنما قيل لها : قاعدٌ ، لقعودها عن الحيض والولد ، وقد تقعد عن الحيض والولد

ومِثْلُها يرجو النكاح ، ولا أُراها سميتْ قاعداً إلا بالقعُود ، لأنها إذا أسَنَّتْ عجزتْ عن التصرُّف وكثرة الحركة ، وأطالت القعود ، فقيل لها : "قاعد" بلا هاء ، ليدلّ حذف الهاء على أنه قعود كِبَر ، كما قالوا : "امرأةٌ حاملٌ" ، ليدلُّوا بحذف الهاء على أنه حمل حَبَل ، وقالوا في غير ذلك : قاعدةٌ في بيتها ، وحاملةٌ على ظَهرها .

قوله تعالى : ﴿ أن يَضَعْنَ ثيابهُنَّ ﴾ أي : عند الرجال ؛ ويعني بالثياب : الجلباب والرداء والقناع الذي فوق الخِمار ، هذا المراد بالثياب ، لا جميع الثياب ، ﴿ غيرَ متبرّجاتٍ بزِينَةٍ ﴾ أي : من غير أن يُرِدْنَ بوضع الجِلباب أن تُرى زينتُهن ، والتبرُّج : إظهار المرأة محاسنها ، ﴿ وأن يَسْتَعْفِفْنَ ﴾ فلا يَضَعْنَ تلك الثياب ﴿ خَيْرٌ لَهُنَّ ﴾ ، قال ابن قتيبة : والعرب تقول : امرأةٌ واضعٌ : إذا كبِرتْ فوضعت الخِمار ، ولا يكون هذا إلا في الهرِمة .

قال القاضي أبو يعلى : وفي هذه الآية دلالة على أنه يُباح [للعجوز] كشف وجهها ويديها بين يدي الرجال ، وأما شعرها ، فيحرم النظر إليه كشعر الشابّة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(23/554)

وقال القرطبى :

﴿ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا ﴾

قرأ الحسن "الحُلْم" فحذف الضمة لثقلها .

والمعنى : أن الأطفال أمروا بالاستئذان في الأوقات الثلاثة المذكورة ؛ وأبيح لهم الأمر في غير ذلك كما ذكرنا .

ثم أمر الله تعالى في هذه الآية أن يكونوا إذا بلغوا الحلم على حكم الرجال في الاستئذان في كل وقت .

وهذا بيان من الله عز وجل لأحكامه وإيضاح حلاله وحرامه ، وقال : ﴿ فَلْيَسْتَأْذِنُوا ﴾ ولم يقل فليستأذنوكم .

وقال في الأولى "لِيَسْتَأْذِنْكُم" لأن الأطفال غير مخاطبين ولا متعبَّدين .

وقال ابن جُرِيج : قلت لعطاء : "وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا" قال : واجب على الناس أن يستأذنوا إذا احتلموا ، أحراراً كانوا أو عبيداً .

وقال أبو إسحاق الفَزَارِيّ : قلت للأوزاعِيّ ما حدّ الطفل الذي يستأذن ؟ قال : أربع سنين ، قال : لا يدخل على امرأة حتى يستأذن .

وقال الزهريّ : أي يستأذن الرجل على أمّه ؛ وفي هذا المعنى نزلت هذه الآية .

﴿ وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ ﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ والقواعد مِنَ النسآء ﴾ القواعد واحدتها قاعد ، بلا هاء ؛ ليدلّ حذفها على أنه قعود الكِبَر ، كما قالوا : امرأة حامل ؛ ليدلّ بحذف الهاء أنه حمل حَبَل .

قال الشاعر :

فلو أنّ ما في بطنه بين نِسوةٍ . . .

حَبِلْن وإن كنّ القواعدُ عُقرَا

وقالوا في غير ذلك : قاعدة في بيتها ، وحاملة على ظهرها ، بالهاء .

والقواعد أيضاً : أساس البيت ؛ واحده قاعدة ، بالهاء .

الثانية : القواعد : العُجّز اللواتي قعدن عن التصرف من السنّ ، وقعدن عن الولد والمحيض ؛ هذا قول أكثر العلماء .

قال ربيعة : هي التي إذا رأيتها تستقذرها من كِبَرِها .

(24/554)

وقال أبو عبيدة : اللاتي قعدن عن الولد ؛ وليس ذلك بمستقيم ، لأن المرأة تقعد عن الولد وفيها مستمتَع ؛ قاله المهدويّ .

الثالثة : قوله تعالى : ﴿ فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ ﴾ إنما خص القواعد بذلك لانصراف الأنفس عنهن ؛ إذ لا مذهب للرجال فيهن ، فأبيح لهن ما لم يبح لغيرهن ، وأزيل عنهن كُلْفة التحفظ المتعب لهن .

الرابعة : قرأ ابن مسعود وأُبَيّ وابن عباس "أَنْ يَضَعْنَ مِنْ ثيابهن" بزيادة "من" .

قال ابن عباس : وهو الجِلْباب .

وروي عن ابن مسعود أيضاً "من جلابيبهن" .

والعرب تقول : امرأة واضع ، للتي كَبِرت فوضعت خِمارها .

وقال قوم : الكبيرة التي أيِست من النكاح ، لو بدا شعرها فلا بأس ؛ فعلى هذا لا يجوز لها وضع الخمار .

والصحيح أنها كالشابة في التستّر ؛ إلا أن الكبيرة تضع الجلباب الذي يكون فوق الدِّرع والخِمار ؛ قاله ابن مسعود وابن جُبير وغيرهما .

الخامسة : قوله تعالى : ﴿ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ ﴾ أي غير مظهرات ولا متعرضات بالزينة لِيُنْظر إليهن ؛ فإن ذلك من أقبح الأشياء وأبعده عن الحق .

والتبرّج : التكشّف والظهور للعيون ؛ ومنه : بروج مشيّدة .

وبروج السماء والأسوار ؛ أي لا حائل دونها يسترها .

وقيل لعائشة رضي الله عنها : يا أمّ المؤمنين ، ما تقولين في الخِضاب والصِّباغ والتمائم

والقُرْطين والخَلْخال وخاتم الذهب ورقاق الثياب ؟ فقالت : يا معشر النساء ، قصتكنّ قصةُ امرأة واحدة ، أحلّ الله لكن الزينة غير متبرجات لمن لا يحل لكن أن يروْا منكن مُحَرَّماً .

وقال عطاء : هذا في بيوتهن ، فإذا خرجت فلا يحل لها وضع الجلباب .

وعلى هذا "غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ" غير خارجات من بيوتهن .

وعلى هذا يلزم أن يقال : إذا كانت في بيتها فلا بد لها من جلباب فوق الدِّرع ، وهذا بعيد ، إلا إذا دخل عليها أجنبي .

(25/554)

ثم ذكر تعالى أن تحفّظ الجميع منهن ، واستعفافَهنّ عن وضع الثياب والتزامَهنّ ما يلزم الشباب أفضل لهن وخير .

وقرأ ابن مسعود "وأن يتعففن" بغير سين .

ثم قيل : من التبرج أن تلبس المرأة ثوبين رقيقين يصفانها .

روى الصحيح عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" صِنفان من أهل النار لم أرهما قومٌ معهم سِيَاط كأذناب البَقَر يضربون بها الناس ونساءٌ

كاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ مُمِيلاتٌ مائلات رؤوسهن كأَسْنِمة البُخْتِ المائلة لا يدخلن الجنة ولا يجدن رِيحها وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا " قال ابن العربي : وإنما جعلهنّ كاسيات لأن الثياب عليهنّ ، وإنما وصفهنّ بأنهنّ عاريات لأن الثوب إذا رَقَّ يصفهنّ ، ويبدي محاسنهنّ ؛ وذلك حرام .

قلت : هذا أحد التأويلين للعلماء في هذا المعنى .

والثاني : أنهنّ كاسيات من الثياب عارِياتٌ من لباس التّقْوَى الذي قال الله تعالى فيه : ﴿ وَلِبَاسُ التقوى ذلك خَيْرٌ ﴾ [الأعراف : 26] .

وأنشدوا :

إذا المرء لم يلبس ثياباً من التُّقَى . . .

تقلّب عُرْيَاناً وإن كان كاسِيا

وخيُر لباس المرء طاعة رُبّه . . .

ولا خيرَ فيمن كان لِلَّه عاصِيا

وفي صحيح مسلم عن أبي سعيد الخُدْرِيّ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " بينا أنا نائم رأيت الناس يُعْرَضون عليّ وعليهم قُمُص منها ما يبلغ الثُّدِيَّ ومنها ما دون ذلك ومَرّ عمر بن الخطاب وعليه قميص يجرّه" قالوا : ماذا أوّلت ذلك يا رسول الله ؟ قال : "الدّين " فتأويله صلى الله عليه وسلم القميص بالدّين مأخوذ من قوله تعالى : ﴿ وَلِبَاسُ

التقوى ذلك خَيْرٌ ﴾ .

والعرب تكني عن الفضل والعفاف بالثياب ؛ كما قال شاعرهم :

ثياب بني عَوْف طَهارَى نَقِيَّة . . .

وقد " قال صلى الله عليه وسلم لعثمان : "إن الله سيُلْبِسك قميصاً فإن أرادوك أن تخلعه فلا تخلعه" " فعبّر عن الخلافة بالقميص ، وهي استعارة حسنة معروفة .

(26/554)

قلت : هذا التأويل أصح التأويلين ، وهو اللائق بهنّ في هذه الأزمان ، وخاصّةً الشباب ، فإنهنّ يتزيّن ويخرجن متبرّجات ؛ فهن كاسيات بالثياب عاريات من التّقْوَى حقيقة ، ظاهراً وباطناً ، حيث تُبْدِي زينتها ، ولا تبالي بمن ينظر إليها ، بل ذلك مقصودهنّ ، وذلك مشاهد في الوجود منهنّ ، فلو كان عندهنّ شيء من التقوى لما فعلن ذلك ، ولم يعلم أحد ما هنالك .

ومما يقوي هذا التأويل ما ذكر من وصفهنّ في بقيّة الحديث في قوله : "رؤوسهنّ كأسنمة البُخْت" .

والبُخْت ضرب من الإبل عظام الأجسام ، عظام الأسنمة ؛ شبه رؤوسهنّ بها لما رفعن من

ضفائر شعورهنّ على أوساط رؤوسهنّ .

وهذا مشاهد معلوم ، والناظر إليهنّ ملوم .

قال صلى الله عليه وسلم : " ما تركتُ بعدي فتنةً أضرّ على الرجال من النساء " خرّجه البخاري . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 13 صـ ﴾

(27/554)

وقال أبو حيان :

﴿ وإذا بلغ الأطفال ﴾

أي من أولادكم وأقربائكم ﴿ فليستأذنوا ﴾ أي في كل الأوقات فإنهم قبل البلوغ كانوا يستأذنون في ثلاث الأوقات .

﴿ كما استأذن الذين من قبلهم ﴾ يعني البالغين .

وقيل : الكبار من أولاد الرجل وأقربائه .

ودل ذلك على أن الابن والأخ البالغين كالأجنبي في ذلك وتكلموا هنا فيما به البلوغ وهي مسألة تذكر في الفقه .

كذلك الإشارة إلى ما تقدم ذكره من استئذان المماليك وغير البلغ .

ولما أمر تعالى النساء بالتحفظ من الرجال ومن الأطفال غير البلغ في الأوقات التي هي مظنة كشف عورتهن استثنى ﴿ القواعد من النساء ﴾ اللاتي كبرن وقعدن عن الميل إليهن والافتتان بهن فقال ﴿ والقواعد ﴾ وهو جمع قاعد من صفات الإناث .

وقال ابن السكيت : امرأة قاعد قعدت عن الحيض .

وقال ابن قتيبة : سُمِّين بذلك لأنهن بعد الكبر يكثرن القعود .

وقال ربيعة لقعودهن عن الاستمتاع بهن فأيسن ولم يبق لهن طمع في الأزواج .

وقيل قعدن عن الحيض والحبل .

و ﴿ ثيابهن ﴾ الجلباب والرداء والقناع الذي فوق الخمار والملاء الذي فوق الثياب أو الخمر أو الرداء والخمار أقوال ، ويقال للمرأة إذا كبرت امرأة واضع أي وضعت خمارها .

﴿ غير متبرجات بزينة ﴾ أي غير متظاهرات بالزينة لينظر إليهن ، وحقيقة التبرج إظهار ما يجب إخفاؤه أو غير قاصدات التبرج بالوضع ، ورب عجوز يبدو منها الحرص على أن يظهر بها جمال .

﴿ وأن يستعففن ﴾ عن وضع الثياب ويتسترن كالشباب أفضل لهن .

﴿ والله سميع ﴾ لما يقول كل قائل ﴿ عليم ﴾ بالمقاصد .

وفي ذكر هاتين الصفتين توعد وتحذير . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ وَإِذَا بَلَغَ الأطفال مِنكُمُ الحلم ﴾

لَّما بيّن فيما مرَّ آنفاً حكمَ الأطفالِ في أنَّه لا جناح عليهم في ترك الاستئذانِ فيما عدا الأوقاتِ الثلاثة عقب ببيان حالِهم بعد البلوغِ دفعاً لَما عسى يُتوهم أنَّهم وإنْ كانُوا أجانبَ ليسُوا كسائرِ الأجانبِ بسببِ اعتيادهم الدُّخولَ أي إذا بلغَ الأطفالُ الأحرارُ الأجانبُ ﴿ فَلْيَسْتَأْذِنُواْ ﴾ إذا أرادُوا الدخولَ عليكم وقوله تعالى : ﴿ كَمَا استأذن الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ في حيّز النَّصب على أنَّه نعتٌ لمصدر مؤكّد للفعل السَّابقِ والموصول عبارةٌ عمَّن قيل لهم : ﴿ لاَ تَدْخُلُواْ بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حتى تَسْتَأْنِسُواْ ﴾ الآية ، ووصفهم بكونِهم قبل هؤلاء باعتبار ذكرِهم قبل ذكرِهم لا باعتبار بلوغِهم قبل بلوغِهم كما قيل لما أنَّ المقصودَ بالتشبيه بيانُ كيفيَّةِ استئذان هؤلاءِ وزيادةُ إيضاحِه ولا يتسنَّى ذلك إلا بتشبيهِه باستئذانِ المعهودين عند السَّامعِ ولا ريبَ في أنَّ بلوغهم قبلَ بلوغِ هؤلاءِ مما لا يخطُر ببال أحدٍ وإنْ كان الأمرُ كذلك في الواقع وإنَّما المعهودُ المعروفُ ذكرهم قبلَ ذكرِهم أي فليستأذنُوا استئذاناً كائناً مثل استئذانِ المذكورينَ قبلهم بأنْ يستأذنُوا في جميع الأوقاتِ ويرجعُوا إنْ قيل لهم : ارجعُوا حسبما فُصّل فيما سلف ﴿ كذلك يُبَيِّنُ الله لَكُمْ ءاياته والله عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ الكلامُ فيه كالذي سبقَ والتَّكريرُ للتأكيد والمبالغةِ في الأمر بالاستئذانِ ، وإضافةُ الآياتِ إلى

ضمير الجلالةِ لتشريفها .

﴿ والقواعد مِنَ النساء ﴾

(29/554)

أي العجائزُ اللاتي قعدنَ عن الحيض والحملِ ﴿ اللاتى لاَ يَرْجُونَ نِكَاحاً ﴾ أي لا يطمعنَ فيه لكبرهنَّ ﴿ فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ ﴾ أي الثيابَ الظَّاهرةَ كالجلباب ونحوِه ، والفاءُ فيه لأن اللاَّمَ في القواعدِ بمعنى اللاَّتي أو للوصفِ بها ﴿ غَيْرَ متبرجات بزِينَةٍ ﴾ غير مظهراتٍ لزينةٍ ممَّا أمر بإخفائِه في قوله تعالى : ﴿ وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ ﴾ وأصلُ التَّبرجِ التَّكلُّفُ في إظهارِ ما يَخْفى من قولِهم : سفينةٌ بارجةٌ لا غطاءَ عليها والبَرَجُ سعةُ العينِ بحيث يُرى بياضُها محيطاً بسوادِها كلِّه إلا أنَّه خُصَّ بكشفِ المرأةِ زينتَها ومحاسنَها للرِّجال ﴿ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ ﴾ بتركِ الوضعِ ﴿ خَيْرٌ لَّهُنَّ ﴾ من الوضعِ لبُعده من التُّهمَة ﴿ والله سَمِيعٌ ﴾ مبالغٌ في سمعِ جميعِ ما يُسمع فيسمعُ ما يَجري بينهنَّ وبين الرِّجالِ من المقاولةِ ﴿ عَلِيمٌ ﴾ فيعلم مقاصدهنَّ وفيه من التَّرهيبِ ما لا يخفى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 6 صـ ﴾

(30/554)

وقال الآلوسى :

﴿ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ ﴾

لما بين سبحانه آنفاً حكم الأطفال من أنهم لا يحتاجون إلى الاستئذان في غير الأوقات الثلاثة عقب جل وعلا ببيان حالهم إذا بلغوا دفعاً لما عسى أن يتوهم أنهم وإن كانوا أجانب ليسوا كسائر الأجانب بسبب اعتيادهم الدخول فاللام في ﴿ الأصفال ﴾ للعهد إشارة إلى ﴿ الذين لم يبلغوا الحلم ﴾ [النور : 58] المجعولين قسماً للمماليك أي إذا بلغ الأطفال الأحرار الأجانب ﴿ الحلم فَلْيَسْتَأْذِنُواْ ﴾ إذا أرادوا الدخول عليكم ﴿ كَمَا استأذن الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أي الذين ذكروا من قبلهم في قوله تعالى : ﴿ كَرِيمٌ يا أَيُّهَا الذين ءامَنُواْ لاَ تَدْخُلُواْ بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حتى تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلّمُواْ على أَهْلِهَا ﴾ [النور : 72] وجوز أن تكون القبلية باعتبار الوصف لا باعتبار الذكر في "النظم الجليل" بقرينة ذكر البلوغ وحكم الطفولية أي الذين بلغوا من قبلهم .

وأخرج هذا ابن أبي حاتم عن مقاتل وزعم بعضهم أنه أظهر .

وتعقب بأن المراد بالتشبيه بيان كيفية استئذان هؤلاء وزيادة إيضاحه ولا يتسنى ذلك إلا بتشبيهه باستئذان المعهودين عند السامع ، ولا ريب في أن بلوغهم قبل بلوغ هؤلاء مما لا يخطر ببال أحد وإن كان الأمر كذلك في الواقع وإنما المعهود المعروف ذكرهم قبل ذكرهم ،

فالمعنى فليستأذنوا استئذاناً كائناً مثل استئذان المذكورين قبلهم بأن يستأذنوا في جميع الأوقات ويرجعوا إن قيل لهم ارجعوا حسبما فصل فيما سلف ، وكون المراد بالأطفال الأطفال الأحرار الأجانب قد ذهب إليه غير واحد ، وقال بعض الأجلة : المراد بهم ما يعم الأحرار والمماليك فيجب الاستئذان على من بلغ من الفريقين وأوجب هذا استئذان العبد البالغ على سيدته لهذه الآية ، وقال في "البحر" ﴿ مّنكُمْ ﴾ أي من أولادكم وأقربائكم .

وأخرج ابن أبي حاتم نحو هذا التفسير عن سعيد بن جبير .

(31/554)

وأخرج عن سعيد بن المسيب أنه قال : يستأذن الرجل على أمه فإنما نزلت : ﴿ وَإِذَا بَلَغَ الاطفال مِنكُمُ الحلم ﴾ في ذلك .

وأخرج سعيد بن منصور .

والبخاري في الأدب .

وابن المنذر .

وابن أبي حاتم .

وابن مردويه عن عطاء أنه سأل ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أأستأذن على أختي ؟ قال : نعم قلت : إنها في حجري وأنا أنفق عليها وإنها معي في البيت أأستأذن عليها ؟ قال : نعم إن الله تعالى يقول : ﴿ لِيَسْتَأْذِنكُمُ الذين مَلَكَتْ أيمانكم والذين لَمْ يَبْلُغُواْ الحلم ﴾ [النور : 58] الآية فلم يأمر هؤلاء بالاستئذان إلا في العورات الثلاث وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا بَلَغَ الاطفال مِنكُمُ الحلم فَلْيَسْتَأْذِنُواْ كَمَا استأذن الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ فالإذن واجب على خلق الله تعالى أجمعين ، وروي عنه رضي الله تعالى عنه أنهق ال : آية لا يؤمن بها أكثر الناس آية الإذن وإني لآمر جارتي يعني زوجته أن تستأذن علي ، وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه عليكم أن تستأذنوا على آبائكم وأمهاتكم وأخواتكم ، ونقل عن بعضهم أن وجوب الاستئذان المستفاد من الأمر الدال عليه في الآية منسوخ وأنكر ذلك سعيد بن جبير روى عنه يقولون : هي منسوخة لا والله ما هي منسوخة ولكن الناس تهاونوا بها ، وعن الشعبي ليست منسوخة فقيل له : إن الناس لا يعملون بها فقال : الله تعالى المستعان ، وقيل : ذلك مخصوص بعدم الرضا وعدم باب يغلق كما كان في العصر الأول ﴿ كذلك يُبَيِّنُ الله لَكُمْ ءاياته والله عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ الكلام فيه كالذي سبق ، والتكرير للتأكيد والمبالغة في طلب الاستئذان ، وإضافة الآيات إلى ضمير الجلالة لتشريفها وهو مما يوقي أمر التأكيد والمبالغة .

﴿ والقواعد مِنَ النساء ﴾

أي العجائز وهو جمع قاعد كحائض وطامث فلا يؤنث لاختصاصه ولذا جمع على فواعل لأن التاء فيه كالمذكورة أو هو شاذ ، قال ابن السكيت : امرأة قاعد قعدت عن الحيض ، وقال ابن قتيبة : سميت العجائز قواعد لأنهن يكثرن القعود لكبر سنهن ، وقال ابن ربيعة : لقعودهن عن الاستمتاع حيث أيسن ولم يبق لهن طمع في الأزواج فقوله تعالى : ﴿ اللاتى لاَ يَرْجُونَ نِكَاحاً ﴾ أي لا يطمعن فيه لكبرهن صفة كاشفة ﴿ فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ ﴾ أي الثياب الظاهرة التي لا يفضي وضعها لكشف العورة كالجلباب والرداء والقناع الذي فوق الخمار .

وأخرج ابن المنذر عن ميمون بن مهران أنه قال : في مصحف أبي بن كعب .

ومصحف ابن مسعود ﴿ فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ جلابيبهن ﴾ وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن مسعود .

وابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنهما كانا يقرآن كذلك ، ولعله لذلك اقتصر بعض في تفسير الثياب على الجلباب ، والجملة خبر ﴿ القواعد ﴾ والفاء إما لأن اللام في القواعد موصولة بمعنى اللاتي وإما لأنها موصوفة بالموصول .

وقوله تعالى : ﴿ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ ﴾ حال ، وأصل التبرج التكلف في إظهار ما يخفى من قولهم : سفينة بارج لا غطاء عليها ، والبرج سعة العين بحيث يرى بياضها محيطاً بسوادها كله لا يغيب منه شيء ، وقيل : أصله الظهور من البرج أي القصر ثم خص بأن تتكشف المرأة للرجال بإبداء زينتها وإظهار محاسنها ، وليست الزينة مأخوذة في مفهومه حتى يقال : إن ذكر الزينة من باب التجريد ، والظاهر أن الباء للتعدية ، وقيل : زائدة في المفعول لأنهم يفسرون التبرج بمتعد ، ففي "القاموس" تبرجت أظهرتا زينتها للرجال وفيه نظر ، والمراد بالزينة الزينة الخفية لسبق العلم باختصاص الحكم بها ولما في لفظ التبرج من الإشعار ، والتنكير لإفادة الشياع وأن زينة ما وإن دقت داخلة في الحكم أي غير مظهرات زينة مما أمر بإخفائه في قوله تعالى : ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ .

﴿ [النور : 31] ﴿ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ ﴾ بترك الوضع والتستر كالشواب ﴿ خَيْرٌ لَّهُنَّ ﴾ من الوضع لبعده من التهمة فلكل ساقطة لاقطة ، وذكر ابن المنير للآية معنى استحسنه الطيبي فقال : يظهر لي والله تعالى أعلم أن قوله تعالى : ﴿ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ ﴾ من باب

.

على لاحب لا يهتدي بمناره . . .

أي لا منار فيه فيهتدي به وكذلك المراد والقواعد من النساء لا زينة لهن فيتبرجن بها لأن الكلام فيمن هن بهذه المثابة ، وكأنه الغرض من ذلك أن هؤلاء استعففهن عن وضع الثياب خير لهن فما ظنك بذوات الزينة من الشواب ، وأبلغ ما في ذلك أنه جعل عدم وضع الثياب في حق القواعد من الاستعفاف إيذاناً بأن وضع الثياب لا مدخل له في العفة هذا في القواعد فكيف بالكواعب ﴿ واللهُ سَمِيعٌ ﴾ مبالغ في سمع جميع ما يسمع فيسمع بما يجري بنهن وبين الرجال من المقاولة ﴿ عَلِيمٌ ﴾ فيعلم سبحانه مقاصدهن .

وفيه من الترهيب ما لا يخفى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 18 صـ ﴾

(34/554)

وقال القاسمى :

﴿ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ ﴾

أي : الذين رخص لهم في ترك الاستئذان في غير الأوقات المذكورة : ﴿ مِنْكُمُ ﴾ أي : من الأحرار ، دون المماليك ، فإنهم باقون على الرخصة : ﴿ الْحُلُمَ ﴾ أي : حدّ البلوغ بالاحتلام ، و بالسنّ الذي هو مظنة الاحتلام : ﴿ فَلْيَسْتَأْذِنُوا ﴾ أي : في سائر الأوقات

أيضاً : ﴿ كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ أي : الذين بلغوا الحلم من قبلهم ، وهم الرجال أو الذين ذكروا من قبلهم في قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا ﴾ [27] .

والمعنى أن الأطفال مأذون لهم في الدخول بغير إذن ، إلا في العورات الثلاثة . فإذا اعتاد الأطفال ذلك ، ثم خرجوا عن حدّ الطفولة ، بأن يحتلموا أو يبلغوا السنّ التي يحكم فيها عليهم بالبلوغ ، وجب أن يفطموا عن تلك العادة ، ويحملوا على أن يستأذنوا في جميع الأوقات ، كما يستأذن الرجال الكبار الذين لم يعتادوا الدخول عليكم إلا بإذن .

وهذا مما الناس منه في غفلة . وهو عندهم كالشريعة المنسوخة . وعن ابن عباس : آيةٌ لا يؤمن بها أكثر الناس : آية الإذن . وإني لآمر جارتي أن تستأذن عليّ .

وسأله عطاء : أستأذنُ على أختي ؟ قال : نعم ، وإن كانت في حجرك تمونها . وتلا هذه الآية .

وعنه : ثلاث آيات جحدهن الناس : الإذن كله . وقوله : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ [الحجرات : 13] ، فقال ناس : أعظمكم بيتاً . وقوله : ﴿ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ ﴾ [النساء : 8] . كذا في " الكشاف " .

تنبيه :

قال في " الإكليل " : في الآية أن التكليف إنما يكون بالبلوغ . وأن البلوغ يكون بالاحتلام . وأن الأولاد البالغين لا يدخلون على والديهم إلا بالاستئذان ، كالأجانب . انتهى .

وقال التقي السبكي في " إبراز الحكم في شرح حديث رفع القلم " : أجمع العلماء على أن الاحتلام يحصل به البلوغ في حق الرجل . ويدل لذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا ﴾ وقوله صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث : < وعن الصبيّ حتى يحتلم > . وهي رواية ابن أبي السرح عن ابن عباس . قال : والآية أصرح . فإنها ناطقة بالأمر بعد الحلم . وورد أيضاً عن علي رضي الله عنه ، رفعه : < لا يُتم بعد احتلام ، ولا صمات يوم إلى الليل > رواه أبو داود . والمراد بالاحتلام خروج المني . سواء كان في اليقظة أم في المنام ، بحلم أو غير حلم . ولما كان في الغالب لا يحصل إلا في النوم بحلم ، أطلق عليه الحلم والاحتلام ، ولو وجد الاحتلام من غير خروج مني ، فلا حلم له .

ثم قال : وقوله في الحديث : < حتى يحتلم > دليل البلوغ بذلك . وهو إجماع . وهو حقيقة في خروج المني بالاحتلام ، ومجاز في خروجه بغير احتلام يقظة أو مناماً . أو منقول فيما هو أعم من ذلك ، ويخرج منه الاحتلام بغير خروج مني ، إن أطلقناه عليه منقولاً عنه . ولكونه فرداً من أفراد الاحتلام . انتهى .

وفي " القاموس " : الْحلُم بالضم والاحتلام : الجماع في النوم . والاسم الحلم كعنق . انتهى .

وقال الراغب : سمي البلوغ حلماً ، لكون صاحبه جديراً بالحِلم : أي : الأناة والعقل .

(36/554)

﴿ وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ ﴾ أي : اللاتي قعدن عن الحيض والولد ، لكبرهن : ﴿ اللَّاتِي لا يَرْجُونَ نِكَاحاً ﴾ أي : لا يطمعن فيه ، لرغبة الأنفس عنهن : ﴿ فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ ﴾ أي : الظاهرة مما لا يكشف العورة ، لدى الأجانب . أي : يتركن التحفظ في التستر بها . فلا يلقين عليهن جلابيبهن ولا يحتجبن : ﴿ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ ﴾ أي : مظهرات لزينة خفية . يعني الحليّ في مواضعه المذكورة في قوله تعالى : ﴿ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ ﴾ [31] أو المعنى غير قاصدات بالوضع ، التبرج . ولكن التخفف إذا احتجبن إليه : ﴿ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ ﴾ أي : من وضع تلك الثياب : ﴿ خَيْرٌ لَهُنَّ ﴾ لأنه أبلغ في الحياء وأبعد من التهمة والمظنة . ولذا يلزمهن ، عند المظنة ، ألا يضعن ذلك . كما يلزم مثله في الشابة : ﴿ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ أي : فيسمع مقالهن مع الأجانب ، ويعلم مقاصدهن من الاختلاط ووضع الثياب . وفيه من الترهيب ما لا يخفى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 12 صـ 421.423 ﴾

(37/554)

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب فى الآيات السابقة :

﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلاثَ مَرَّاتٍ ﴾

التفسير :

جاءت هذه الآيات الثلاث لتستكمل أدب المعاشرة والمخالطة فى المجتمع الإسلامى ، بعد أن بينت الآيات السابقة أحكام الاستئذان ، والحجاب والتحصن فى الزواج . . وكان من تدبير الحكيم العليم فى هذا ، أنه لم يجىء بهذه الأحكام جميعها فى معرض واحد ، حتى لا تزحم العقل ، وحتى لا يفلت منها شىء فى هذا المزدحم . . فهى جميعها دستور متكامل ، وعقد منتظم ، إن انفرطت حبة منه انفرطت حبّات العقد كلها .

(38/554)

ومن أجل هذا كان هذا الفصل بينها بتلك الآيات ، التي عرضت ما لله سبحانه وتعالى من جلال وقدرة ، وأنه سبحانه نور السموات والأرض ، وما فيهن ، وأن كلّ من فى السموات والأرض يسبح بحمده ، وأن عالم الأحياء خلق جميعه من ماء ، وذلك بقدرة القادر العليم الحكيم . . وأنه كما اختلفت عوالم الأحياء صورا وطبائع ، اختلف الناس عقلا وسفها ، وإيمانا وضلالا . .

فكان فيهم المؤمنون المتقون ، وكان منهم الكافرون الجاحدون ، وكان فيهم المنافقون ، الذين يجمعون بين الكفر والإيمان . .

وبعد هذا العرض الممتد المتنوّع ، تجىء هذه الآيات الثلاث ، لتستوفى أدب المعاشرة والمعايشة ، بين الناس والناس . .

وفى قوله تعالى :

« يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيمانُكُمْ ، وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلاثَ مَرَّاتٍ » - فى هذا أمر للمؤمنين - من رجال ونساء أن يلزموا مواليهم الذين تحت أيديهم - من عبيد وإماء - ألا يدخلوا عليهم خلواتهم ، إلا بعد إذن . . وذلك فى ثلاثة أوقات بينتها الآية كما سنرى . .

وكذلك تحمل الآية أمرا إلى البالغين الراشدين - من أحرار الرجال والنساء - ألا يدعوا الصغار - من بنين وبنات - الذين ، لم يبلغوا الحلم بعد ، ولكنهم يميزون ما للرجل والمرأة ،

ويعرفون العورة وغير العورة. ألّا يدعوهم يدخلون عليهم فى هذه الأوقات الثلاثة إلا بعد استئذان، وإذن . .

وهذه الأوقات، قد بينها اللّه سبحانه وتعالى فى قوله:

. « مِنْ قَبْلِ صَلاةِ الْفَجْرِ . . وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ . . وَمِنْ بَعْدِ صَلاةِ الْعِشاءِ » . .

ففى هذه الأوقات الثلاثة، يتهيأ الإنسان للراحة والنوم، ويتخفف كثيرا من ملابسه ومن تحفظه فى ستر عورته، لأنه على شعور بأنه فى خلوة مع نفسه، أو مع زوجه . .

(39/554)

ففى هذه الأوقات الثلاثة ينبغى ألا يدخل الموالي. عبيدا أو إماء. على سادتهم، من رجال أو نساء، وكذلك الصغار المميزون من بنين وبنات. لا يدخلون على آبائهم أو أمهاتهم، أو غيرهم، إلا بعد أن يستأذنوا ويؤذن لهم.

وذلك سترا للعورات، وحفظا للحياء، وسدّا لذرائع الفتنة.

. وقوله تعالى: « ثَلاثُ عَوْراتٍ لَكُمْ » أي هذه الأوقات، هى أشبه بثلاث عورات لكم، ينبغى أن تصونوا فيها أنفسكم عن أن يدخل عليكم أحد فيها إلا بإذن، حتى أولئك الذين

لا تحتشمون لهم ، ولا تتحرجون كثيرا منهم ، وهم الموالي والصغار . .

ـ وقوله تعالى : « لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ » . . أي لا حرج عليكم ولا عليهم ، بعد هذه الأوقات الثلاثة ، فى أن يدخلوا عليكم من غير استئذان . . إذ كان أمركم غالبا فى غير تلك الأوقات ، أقرب إلى التصوّن والتحفظ . . وفى الاستئذان الملزم للموالى والصغار ، فى جميع الأوقات ، كثير من الحرج ، الذي تأباه هذه الشريعة ، وتعفى أتباعها منه . .

وقوله تعالى : « طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ » . جملة حالية . أي لا جناح عليكم ولا عليهم بعد هذه الأوقات الثلاثة وأنتم طوافون بعضكم على بعض . . فهذا شأنكم وشأنهم ، بحكم المخالطة والمعاشرة . . ومن هنا رفع عنكم وعنهم الحرج ، فى غير هذه الأوقات الثلاثة . . فلكم أن تطوفوا عليهم ، ولهم أن يطوفوا عليكم من غير استئذان !

ـ وقوله تعالى : « كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ » أي مثل هذا البيان الجلىّ الواضح ، يبين اللّه لكم الآيات ، ويجىء بها محكمة ، لا تحتاج إلى تأويل ، حتى تأخذوا بها ، وتستقيموا عليها . . « وَاللَّهُ عَلِيمٌ » بما يصلح حياتكم « حَكِيمٌ » فى وصف الدواء لكل داء ، يعطى منه بالحكمة ، دون إفراط أو تفريط . .

قوله تعالى : « وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ » .

أي أن هؤلاء الأطفال ، الذين أذن لهم بالطواف عليكم من غير استئذان فى كل وقت ، ما عدا هذه الأوقات الثلاثة ـ هؤلاء الأطفال إذا زايلتهم صفة الطفولة ، وبلغوا الحلم ، ودخلوا مدخل البالغين ـ من رجال ونساء ـ أخذوا بحكمهم ، وأصبح لزاما عليهم أن يستأذنوا فى جميع الأوقات ، لا فى هذه الأوقات الثلاثة وحسب . .

ـ وفى قوله تعالى : « كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ » إشارة إلى أن هذا الأمر وإن كان واضحا ، من حيث أن الطفولة هى التي قضت بإعفاء الأطفال من الاستئذان فى غير هذه الأوقات الثلاثة ، فإذا زايلتهم الطفولة زايلهم حكمها الذي ترتب عليها ـ إلا أنه يمكن لمتأول أن يتأول الطفولة بأنها البنوّة ، ومن ثم فإن أبناء الرجل أو المرأة إذا بلغوا ، ظلّ هذا الأعفاء ملازما لهم . . فكان هذا البيان الحكيم ، وضعا للأمر فى موضعه الصحيح ، وقاطعا الطريق على كل تأويل ، إذ كان الأمر من عظم الشأن بحيث يجب كشفه وبيانه على هذه الصورة الواضحة ، حتى لا يقع فيه لبس أو خفاء . .

ولابدّ من أن يقف المرء هنا وقفة متأملة أمام هذا الأدب الإسلامى الرفيع ، الذي يضفى على أتباعه سترا جميلا من التصوّن ، والتعفف ، والحياء ، بهذه الحواجز الرقيقة التي لا

تشف عما وراءها من عورات ، وذلك لا يكون إلا فى مجتمع كملت إنسانيته ، ورقت مشاعره ، فعرف لنفسه قدرها ، ولكرامته حقها . .

(41/554)

إن الحياء هو لباس الإنسانية التي جمّلها اللّه سبحانه وتعالى به . . ولهذا كان أول ما ظهر على آدم من صفات الإنسان هى ستر عورته ، حين ظهرت إرادته بهذا العصيان الذي عصى به ربّه ، وأكل من الشجرة التي نهى عن الأكل منها . . إنه هنا كائن ذو إرادة . . إنه إنسان . . ! ولن يكون إنسانا وهو فى هذا العرى الحيواني . . فكان أن نظر آدم وزوجه إلى وجودهما ، فرأيا سوءتيهما ، وفرض عليهما الحياء أن يسترا ما استحييا منه . . وقد أسعفتهما الحيلة ، فطفقا يخصفان عليهما من أوراق الشجر ، ما ستر العورة .

هذا هو الإنسان فى أصل فطرته . . الحياء أول شعور وجده فى كيانه ، وستر العورة أول صنيع صنعه ليخرج به عن عالم الحيوان . . !

ومن أجل هذا كان من آداب الإسلام ، هذا الحرص الشديد على الحفاظ على عورات المسلمين ، وعلى إيقاظ مشاعر الحياء فيهم ، بما أوجب عليهم من أحكام وآداب ، فى المخالطة والمعاشرة ، والاستئذان وستر العورة ، حتى يظل ماء الحياء ساريا فى كيانهم ،

تتغذّى منه مشاعرهم ، وتسمو به إنسانيتهم . . فإنه لا إنسانية إذا خفّ ماء الحياء فيها . . وفى هذا يقول الرسول الكريم : « الحياء خير كله » . .

« و الحياء شعبة الإيمان » . . « الحياء من الإيمان » . .

فأين هذا الأدب الرفيع من تلك الحياة البهيمية التي تعيش فيها أمم تعد فى نظر المجتمعات الإنسانية قائمة على قمة الرقىّ ، مستولية على زمام المدنية والحضارة ؟ ولا تسل عن الأزياء الخليعة التي تشف عما تحتها ، وتجسّد ما وراءها . .

ولا تقف عند الاختلاط الحيواني بين الرجال والنساء فى الأندية والطرقات ، والبيوت . .

فذلك كله قد صار حياة من حياة تلك المجتمعات ، ووضعا مستقرا من أوضاعها . .

ولكن الذي يثير العجب والدهش حقا أن يصبح هذا الأسلوب من الحياة دينا يدين به الناس ، له فلسفته ، وله آدابه وأحكامه . .

تجد ذلك فى أندية العراة ، وفى مجتمع الوجودية والبرجمانية وغيرها . . مما تضج به حياة الغرب . .

والعجب ، هو أن يكون للفوضى منطق ، وأن يكون للعرى أدب !

(42/554)

قوله تعالى : « وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّساءِ اللَّاتِي لا يَرْجُونَ نِكاحاً فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُناحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ » . .

وهذه الآيات استثناء أيضا من عموم قوله تعالى : « وَقُلْ لِلْمُؤْمِناتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ . . الآية » .

فالقواعد من النساء ، وهن المتقدمات فى السنّ ، اللاتي لا إربة لهن فى الرجال ولا أرب للرجال فيهن ـ هنّ أشبه بالأطفال الذين لم يبلغوا الحلم . . ومن هنا كانت نظرة الشريعة إليهن ، التخفيف مما أخذ به النساء عموما ، من ألا يبدين زينتهن ، ولا يكشفن شيئا من تلك الزينة إلا لمن استثنوا فى الآية من الأزواج وغيرهم . .

فهؤلاء القواعد من النساء اللاتي لا يرجون نكاحا ـ ليس عليهن حرج فى أن يتخففن من ثيابهن ، فى جميع الأوقات ، مع المحارم ، وغير المحارم . .

والمراد من ثيابهن ، الثياب التي يراد منها ستر ما وراءها من زينة . .

كغطاء الرأس ، والخمار وغيرهما . . لا الثياب التي تستر العورات من المرأة . .

وفى قوله تعالى : « غَيْرَ مُتَبَرِّجاتٍ بِزِينَةٍ » قيد للإذن برفع الحرج عنهن فى وضع ثيابهن ، وذلك بألا يكون غرضهن من وضع هذه الثياب إبداء زينتهن ، والتعرض بعرضها للأعين . . فهذا ينافى الوصف الذي وصفن به ، وهو قوله تعالى : « اللَّاتِي لا يَرْجُونَ نِكاحاً » لأن تبرجهن بالزينة ، وعرض أنفسهن بها ، ينقض هذا الوصف . .

وقوله تعالى : « وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ » . . أي وإن يتحفظن ، ويدعن التخفف ، خير لهن . .

(43/554)

فذلك التعفف وعدم التبرج هو من طبيعة المرأة الحرة ، أيا كانت السنّ التي بلغتها . . ثم هو من زينة المرأة المسلمة ، ومن أدبها الذي تعيش به فى المجتمع الإسلامى ! أما هذا التخفيف فهو رخصة ، من اللّه ، للتخفيف والرحمة ، تضعها المرأة فى يدها ، وتستعملها عند الضرورة ، بعقل ، وحكمة ، ودين . .

واللّه سميع عليم . . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التفسير القرآنى للقرآن حـ 2 صـ 1318 . 1324 ﴾

(44/554)

وقال ابن عاشور :

ووقع قوله : ﴿ وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم ﴾ في موقع التصريح بمفهوم الصفة في قوله : ﴿

والذين لم يبلغوا الحلم ﴾ ليعلم أن الأطفال إذا بلغوا الحلم تغير حكمهم في الاستئذان إلى حكم استئذان الرجال الذي في قوله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم ﴾ [النور : 27] الآيات ، فالمراد بقوله : ﴿ الذين من قبلهم ﴾ فيما ذكر من الآية السابقة أو الذين كانوا يستأذنون من قبلهم وهم كانوا رجالاً قبل أن يبلغ أولئك الأطفال مبلغ الرجال .

وقوله : ﴿ كذلك يبين الله لكم آياته والله عليم حكيم ﴾ القول فيه كالقول في نظيره المتقدم آنفاً ، وهو تأكيد له بالتكرير لمزيد الاهتمام والامتنان .

وإنما أضيفت الآيات هنا لضمير الجلالة تفنناً ولتقوية تأكيد معنى كمال التبيين الحاصل من قوله : ﴿ كذلك ﴾ .

وتأكيد معنى الوصفين "العليم الحكيم" .

أي هي آيات من لدن مَن هذه صفاته ومَن تلك صفات بيانه .

﴿ وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا ﴾

هذه الآية مخصّصة لقوله تعالى : ﴿ ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ﴾ إلى قوله : ﴿ على عورات النساء ﴾ [النور : 31] .

ومناسبة هذا التخصيص هنا أنه وقع بعد فرض الاستيذان في الأوقات التي يضع الرجال والنساء فيها ثيابهم عن أجسادهم ، فعطف الكلام إلى نوع من وضع الثياب عن لابسها وهو وضع النساء القواعد بعض ثيابهن عنهن فاستثني من عموم النساء النساءُ المتقدمات

في السن بحيث بلغن إبان الإياس من المحيض فرخص لهن أن لا يضربن بخمرهن على جيوبهن ، وأن لا يدنين عليهن من جلابيبهن .

فعن ابن مسعود وابن عباس : الثياب الجلباب ، أي الرداء والمقنعة التي فوق الخمار .

وقال السدي : يجوز لهن وضع الخمار أيضاً .

والقواعد : جمع قاعد بدون هاء تأنيث مثل : حامل وحائض لأنه وصف نُقل لمعنى خاص بالنساء وهو القعود عن الولادة وعن المحيض .

(45/554)

استعير القعود لعدم القدرة لأن القعود يمنع الوصول إلى المرغوب وإنما رغبة المرأة في الولد والحيضُ من سبب الولادة فلما استعير لذلك وغلب في الاستعمال صار وصف قاعد بهذا المعنى خاصّاً بالمؤنث فلم تلحقه هاء التأنيث لانتفاء الداعي إلى الهاء من التفرقة بين المذكر والمؤنث وقد بينه قوله : ﴿ اللاتي لا يرجون نكاحاً ﴾ ، وذلك من الكبر .

وقوله : ﴿ اللاتي لا يرجون نكاحاً ﴾ وصف كاشف ل ﴿ القواعد ﴾ وليس قيداً .

واقترن الخبر بالفاء في قوله ﴿ فليس عليهن جناح ﴾ لأن الكلام بمعنى التسبب والشرطية ، لأن هذا المبتدأ يشعر بترقب ما يرد بعده فشابه الشرط كما تقدم في قوله تعالى : ﴿

والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما ﴾ [المائدة : 38] .

ولا حاجة إلى ادعاء أن (ال) فيه موصولة إذ لا يظهر معنى الموصول لحرف التعريف وإن كثر ذلك في كلام النحويين .

و﴿ أن يضعن ﴾ متعلق بـ ﴿ جناح ﴾ بتقدير (في) .

والمراد بالثياب بعضها وهو المأمور بإدنائه على المرأة بقرينة مقام التخصيص .

والوضع : إناطة شيء على شيء ، وأصله أن يعدى بحرف (على) وقد يعدى بحرف (عن) إذا أريد أنه أزيل عن مكان ووضع على غيره وهو المراد هنا كفعل (ترغبون) في قوله تعالى : ﴿ وترغبون أن تنكحوهن ﴾ في سورة النساء (127) ، أي أن يزلن عنهن ثيابهن فيضعنها على الأرض أو على المشجب .

وعلة هذه الرخصة هي أن الغالب أن تنتفي أو تقل رغبة الرجال في أمثال هذه القواعد لكبر السن .

e فلما كان في الأمر بضرب الخُمُر على الجيوب أو إدناء الجلابيب كلفة على النساء المأمورات اقتضاها سد الذريعة ، فلما انتفت الذريعة رفع ذلك الحكم رحمة من الله ، فإن الشريعة ما جعلت في حكم مشقة لضرورة إلا رفعت تلك المشقة بزوال الضرورة وهذا معنى الرخصة .

ولذلك عقب هذا الترخيص بقوله : ﴿ وأن يستعففن خير لهن ﴾ .

والاستعفاف : التعفف ، فالسين والتاء فيه للمبالغة مثل استجاب ، أي تعففهن عن وضع الثياب عنهن أفضل لهن ولذلك قيد هذا الإذن بالحال وهو ﴿ غير متبرجات بزينة ﴾ أي وضعاً لا يقارنه تبرج بزينة .

والتبرج : التكشف .

والباء في ﴿ بزينة ﴾ للملابسة فيؤول إلى أن لا يكون وضع الثياب إظهاراً لزينة كانت مستورة .

والمراد : إظهار ما عادة المؤمنات ستره .

قال تعالى : ﴿ ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى ﴾ [الأحزاب : 33] ، فإن المرأة إذا تجلت بزينة من شأنها إخفاؤها إلا عن الزوج فكأنها تعرض باستجلاب استحسان الرجال إياها وإثارة رغبتهم فيها ، وهي وإن كانت من القواعد فإن تعريضها بذلك يخالف الآداب ويزيل وقار سنها ، وقد يرغب فيها بعض أهل الشهوات لما في التبرج بالزينة من الستر على عيوبها أو الإشغال عن عيوبها بالنظر في محاسن زينتها .

فالتبرج بالزينة : التحلي بما ليس من العادة التحلي به في الظاهر من تحمير وتبييض وكذلك

الألوان النادرة ، قال بشار :

وإذا خرجتِ تقنَّعي

بالحُمْر إن الحسن أحمر . . .

وسألت عائشة أم المؤمنين عن الخضاب والصباغ والتمايم (أي حقاق من فضة توضع فيها تمايم ومعاذات تعلقها المرأة) والقرطين والخَلخَال وخاتم الذهب ورقاق الثياب فقالت : "أحل الله لكن الزينة غير متبرجات لمن لا يحل لكن أن يروا منكن محرَّماً" .

فأحالت الأمر على المعتاد والمعروف ، فيكون التبرج بظهور ما كان يحجبه الثوب المطروح عنها كالوشام في اليد أو الصدر والنقش بالسواد في الجيد أو الصدر المسمى في تونس بالحرقوص (غير عربية) .

وفي "الموطإ" : "دخلت حفصة بنت عبد الرحمن بن أبي بكر على عائشة أم المؤمنين وعلى حفصة خمار رقيق فشقته عائشة وكستها خماراً كثيفاً" أي شقته لئلا تختمر به فيما بعد .

(47/554)

وقيل : إن المعنيَّ بقوله : ﴿ غير متبرجات بزينة ﴾ غير منكشفات من منازلهن بالخروج في الطريق ، أي أن يضعن ثيابهن في بيوتهن ، أي فإذا خرجت فلا يحل لها ترك جلبابها ، فيؤول

المعنى ، إلى أن يضعن ثيابهن في بيوتهن ، ويكون تأكيداً لما تقدم في قوله تعالى : ﴿ ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن ﴾ [النور : 31] أي كونهن من القواعد لا يقتضي الترخيص لهن إلا في وضع ثيابهن وضعاً مجرداً عن قصد ترغيب فيهن .

وجملة : ﴿ والله سميع عليم ﴾ مسوقة مساق التذييل للتحذير من التوسع في الرخصة أو جعلها ذريعة لما لا يحمد شرعاً ، فوصف "السميع" تذكير بأنه يسمع ما تحدثهن به أنفسهن من المقاصد ، ووصف "العليم" تذكير بأنه يعلم أحوال وضعهن الثياب وتبرجهن ونحوها .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 18 صـ ﴾

(48/554)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا ﴾

الطفل حين كان طفلاً لم يبلغ الحُلُم كان يدخل دون استئذان في غير هذه الأوقات ، فإنْ بلغ الحُلُم فعليه أنْ يستأذن ، لا نقول : إنه تعوَّد الاستئذان في هذه الأوقات فقط ، لا ، إنما عليه أنْ يستأذن في جميع الأوقات فقد شَبَّ وكَبِر ، وانتهتْ بالنسبة له هذه الحالة .

وبلوغ الحلم أن ينضج الإنسان نُضْجاً يجعله صالحاً لإنجاب مثله ، فهذه علامة اكتمال تكوينه

، وهذا لا يتأتّى إلا باستكمال الغريزة الجنسية التي هي سَبَب النَّسْل والإنجاب ، ومثّلْنا ذلك بالثمرة التي لا تحلو إلا بعد نُضْجها ، فإنْ تركتَها بعد النضج سقطتْ من نفسها ، وهذه آية من آيات الله لبقاء النوع ، فلو أكلنا الثمرة قبل نُضْجها لا تنبت بذرتها وينقرض نوعها ، فمن حكمة الله في الخَلْق ألاَّ تحلو الثمرة إلا بعد التُّضْج .

كذلك الولد حين يبلغ يصبح صالحاً للإنجاب ، ونقول له ، انتهتْ الرخصة التي منحها لك الشرع ، وعليك أن تستأذن في جميع الأوقات .

لذلك يقول تعالى في موضع آخر : ﴿ أَوِ الطفل الذين لَمْ يَظْهَرُواْ على عَوْرَاتِ النسآء ﴾ [النور : 31] .

وجاء بالطفل بصيغة المفرد ؛ لأن الأطفال في هذه السِّنِّ لم تتكوّن لديهم الغريزة ، وليست لهم هذه الميول أو المآرب ، فكأنهم واحد ، أمّا بعد البلوغ وتكوُّن الميول الغريزية قال : ﴿ الأطفال ﴾ [النور : 59] لأن لكل منهم بعد البلوغ ميوله وشخصيته وشطحاته .

وقوله : ﴿ كَمَا استأذن الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ [النور : 59] أي : من الكبار الذين يستأذنون في كل الأوقات ﴿ كذلك ﴾ [النور : 59] أي : مثل ما بينّا في الاستئذان الأول ﴿ يُبَيِّنُ الله لَكُمْ آيَاتِهِ ﴾ [النور : 59] لأنه سبحانه ﴿ عَلِيمٌ ﴾ [النور : 59] بما يُصلِحكم ﴿ حَكِيمٌ ﴾ [النور : 59] لا يُشرِّع لكم إلا بحكمة .

ثم يقول سبحانه : ﴿ والقواعد مِنَ النسآء اللاتي لاَيَرْجُونَ نِكَاحاً ﴾

نعلم أن الشارع الحكيم وضع للمرأة المسلمة قواعد تسير عليها في زِيِّها وسلوكها ومِشْيتها ، حمايةً لها وصيانةً للمجتمع من الفتنة ، وحتى لا يطمع فيها أصحاب النفوس المريضة ، فجعل لها حجاباً يسترها يُخفي زينتها لا يكون شفافاً ولا واصفاً ، وقال : ﴿ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلاَبِيبِهِنَّ ﴾ [الأحزاب : 59] .

لكن القواعد من النساء والكبيرات منهن لَهُنَّ حكم آخر .

والقواعد : جمع قاعد لا قاعدة ، قاعدة تدل على الجلوس ، أمّا القاعد ذكراً أو أنثى فهو الذي قعد عن دورة الحياة ، ولم يَعُدْ له مهمة الإنجاب ، ومثل هؤلاء لم يَعُدْ فيهنَّ إِرْبة ولا مطمع ؛ لذلك لا مانعَ أن يتخفَّفْنَ بعض الشيء من اللباس الذي فُرِض عليهن حال وجود الفتنة ، ولها أن تضع (طرحتها) مثلاً .

لكن هذه مسألة مقولة بالتشكيك : نسبية يعني : فمِن النساء مَنْ ينقطع حَيْضها ويدركها الكِبَر ، لكن ما يزال فيها جمال وفتنة ؛ لذلك ربنا تبارك وتعالى وضع لنا الحكم الاحتياطي ﴿ فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ ﴾ [النور : 60] ثم يدلُّهن على ما هو خير من ذلك ﴿ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ﴾ [النور : 60] .

والمقصود بوَضْع الثياب : التخفّف بعض الشيء من الثياب الخارجية شريطة ﴿ غَيْرَ

مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ ﴾ [النور : 60] فلا يجوز للمرأة أن تضع ثيابها أَخْذاً بهذه الرخصة ، ثم تضع الزينة وتتبرج . ونخشى أن نُعلِّم النساء هذا الحكم فلا يأخذْنَ به حتى لا نقول عنهن : إنهن قواعد ! !

(50/554)

وتعجب حين ترى المرأة عندما تبلغ هذه السِّنَّ فتجدها وَرِعة في ملبسها ، وَرِعة في مظهرها ، وَرِعة في سلوكها ، فتزداد جمالاً وتزداد بهاءً وآسرية ، على خلاف التي لا تحترم سِنّها فتضع على وجهها المساحيق والألوان فتبدو مَسْخاً مُشوَّهاً .

ومعنى ﴿ يَسْتَعْفِفْنَ ﴾ [النور : 60] أي : يحتفظْنَ بملابسهن لا يضعْنَ منها شيئاً ، فهذا أَدْعى للعفة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(51/554)

وقال الشيخ الصابونى فى الآيات السابقة :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ

مَرَّاتٍ ﴾

[8] الاستئذان في أوقات الخلوة

التحليل اللفظي

﴿ لِيَسْتَأْذِنكُمُ ﴾ : اللام لام الأمر ، واستأذن طلب الإذن ، لأن السين والتاء للطلب مثل استنصر طلب النُصرة ، واستغفر طلب المغفرة ، والاستئذان المذكور في الآية يراد منه الإعلام بالحضور ، والسماح للمستأذن بالدخول . والمعنى : ليستأذنْكم في الدخول عليكم عبيدكم وإماؤكم ، والصغار من الأطفال .

﴿ الحلم ﴾ : بضم اللام الاحتلام ومعناه : الرؤيا في النوم ، والحِلْم بكسر الحاء الأناة والعقل ، تقول : حلُم الرجل بالضم إذا صار حليماً .

وفي " القاموس " : الحُلْم بالضم وبضمتين الرؤيا جمعه أحلام ، وحلم به رأى له رؤيا أو رآه في النوم ، والحُلْم بالضم والاحتلام : الجماع في النوم والاسم منه الحُلُم كعنق .

وقال الراغب : الحلم زمان البلوغ سمي الحلم لكون صاحبه جديراً بالحِلم أي الأناة وضبط النفس عن هيجان الغضب . والصحيح أن الحلم هنا بمعنى (الجماع في النوم) وهو الاحتلام المعروف ، وأن الكلام (كناية) عن البلوغ والإدراك ، يقال : بلغ الصبي الحلم أي أصبح في سن البلوغ والتكليف .

﴿ عورات ﴾ : جمع عورة ومعناها الخلل وفي " الصحاح " : أعور الفارس إذا بدا فيه

موضع خلل للضرب : وأعور المكان إذا اختل حاله وبدا فيه خلل يخاف منه العدو ، ومنه قوله تعالى : ﴿ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ ﴾ [الأحزاب : 13] والأعور المختل العين فسمى الله تعالى كل واحدة من تلك الأحوال عورة لأن الناس يختل حفظهم وتسترهم فيها .

وعورة الإنسان (سوأته) سميت عورة لأنها من العار وذلك لما يلحق في ظهورها من المذمة والعار .

(52/554)

قال القرطبي : وعورات جمع عورة وبابه في التصحيح أن يجيء على فعَلات (بفتح العين) كجَفنة وَجَفَنات ونحو ذلك وسكنوا العين في المعتل كبيضة وبيضات لأن فتحة داع إلى اعتلاله فلم يفتح لذلك .

﴿ العشآء ﴾ : المراد بها العشاء الأخيرة والعرب تسميها العَتَمة وفي حديث مسلم " لا تغلبنّكم الأعراب على اسم صلاتكم ألا إنها العشاء وهم يُعْتمون بالإبل " والمغرب تسمى العشاء الأولى وفي الحديث : فصلاها (يعني العصر) بين العشاءين المغرب والعشاء .

قال القرطبي : فالله سماها صلاة العشاء فأحب النبي صلى الله عليه وسلم أن تسمى بما سماها الله تعالى به فكأنه نَهْيُ إرشاد إلى ما هو الأولى وليس له جهة التحريم والعرب كانوا

يسمونها العتمة وهي الحلبة التي كانوا يحْلِبونها في ذلك الوقت ويشهد لذلك قوله صلى الله عليه وسلم فإنها تعتِم بحلاب الإبل .

أقول : قد ورد تسميتها في الكتاب والسنة (بالعشاء) فالأفضل الاقتصار على ذلك ففي الحديث الصحيح " من صلى العشاء في جماعة فكأنه قام نصف الليل ، ومن صلى الفجر في جماعة فكأنما قام الليل كله " . كما اشتهر في الشعر تسميتها بالعشاء قال حسان :

فدع هذا ولكن مَن لطَيْف . . . يؤرقني إذا ذهب العشاء

﴿ طوافون ﴾ : جمع طوّاف بالتشديد وهو الذي يدور على أهل البيت للخدمة ، والطوافُ في الأصل الدوران ومنه الطواف حول الكعبة ، ووصف هؤلاء الخدم بالطواف لأنهم يذهبون في خدمة السادة ويرجعون ومنه الحديث في الهرة " إنما هي من الطوافين عليكم والطوافات " والمراد في الآية أنهم خدمكم يدخلون ويخرجون عليكم للخدمة فلا حرج عليكم ولا عليهم في الدخول بغير استئذان في غير هذه الأوقات .

﴿ والقواعد ﴾ : جمع قاعد بغير هاء ، لأنه مختص بالنساء كحائض وطامث .

قال القرطبي : وحذفها يدل على أنه (قعودُ الكِبَر) كما قالوا امرأة حامل ليدل على أنه حَمل الحَبل ، قال الشاعر :

فلو أنّ ما في بطنه بين نسوة . . . حبلنَ وإنْ كنّ القواعدَ عُقّراً

وقالوا : في غير ذلك قاعدة في بيتها ، وحاملة على ظهرها .

قال في القاموس : إنها التي قعدت عن الولد وعن الحيض وعن الزوج .

والمراد بهن في الآية : العجائز اللواتي لم يبق لهن مطمع في الأزواج لكبرهن ، ولا يرغب فيهن الرجال لعجزهن ، فأما من كانت فيها بقية من جمال وهي محل للشهوة فلا تدخل في حكم هذه الآية .

﴿ غَيْرَ متبرجات ﴾ : أصل التبرج : التكلف في إظهار ما يخفى من الأشياء ومادة (تبرّج) تدل على الظهور والانكشاف ، ومنه بروج مشيدة وبروج السماء ، والمراد بالتبرج في الآية : إظهار المرأة زينتها ومحاسنها للرجال قال تعالى : ﴿ وَلاَ تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الجاهلية الأولى ﴾ [الأحزاب : 33] .

قال الزمخشري : فإن قلت : ما حقيقة التبرج ؟ قلت : تكلف إظهار ما يجب إخفاؤه من قولهم : سفينة بارج أي لا غطاء عليها ، والبَرَج سعة العين يرى بياضها محيطاً بسوادها كله ، لا يغيب منه شيء إلا أنه اختص بأن تنكشف المرأة للرجال بإبداء زينتها وإظهار محاسنها .

المعنى الإجمالي

يقول جل ثناؤه ما معناه : يا أيها المؤمنون الذين صدقوا بالله ورسوله وأيقنوا بشريعة الله نظاماً ، ودستوراً ، ومنهاجاً ، ليستأذنْكم في الدخول عليكم هؤلاء العبيد والإماء الذين تملكونهم بملك اليمين ، والأطفال الذين لم يبلغوا مبلغ الرجال من الأحرار فلا يدخلوا عليكم في هذه الأوقات الثلاثة (وقت الفجر) و (وقت العشاء) إلا بإذن منكم لأن هذه الأوقات أوقات خلودكم إلى النوم والراحة ، وهي أوقات يختل فيها تسترکم ، والتكشف فيها غالب ، فعلّموا عبيدكم وخدمكم وصبيانكم ألاّ يدخلوا عليكم في مثل هذه الأوقات إلا بعد الاستئذان ، وأما في غير هذه الأوقات فلا إثم ولا حرج عليكم ولا عليهم في الدخول بغير إذن ، لأنهم يقومون على خدمتكم والله لا يكلفكم ما فيه حرج أو ضيق عليكم ، لأن تشريعه من أجل صالحكم وهو جل وعلا العليم الحكيم .

وأما إذا بلغ هؤلاء الأطفال مبلغ الرجال فعلموهم الأدب السَّامي ألاّ يدخلوا عليكم إلا بعد الاستئذان كما أُمر الكبارُ من قبل ، وذلك هو أدب الإسلام الذي ينبغي أن يتمسك به المؤمنون ، وأما النساء العجائز اللاتي لا يرغبن في الزواج ولا يطمع فيهن الرجال لكبرهن وقد انعدمت فيهن دوافع الشهوة والفتنة والإغراء ، فلا حرج ولا جناح عليهن أن يضعن

بعض ثيابهن كالرداء والجلباب ويظهَرْنَ أمام الرجال بملابسهنَّ المعتادة التي لا تلفت انتباهاً ، ولا تثير شهوة .

وإذا بالغن في التستر والتعفف ولبسن الجلباب الذي تلبسه الشابات من النساء فذلك خير لهن وأكرم ، وأزكى عند الله وأطهر ، والله يعلم خفايا النفوس ، ومجازٍ كلّ إنسانٍ على ما قدَّم فاتقوه واجتنبوا سخطه وعقابه .

سبب النزول

(55/554)

أولاً : روي ان أسماء بنت أبي مرثد دخل عليها غلام كبير لها في وقت كرهت دخوله فأتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : إن خدمنا وغلماننا يدخلون علينا في حال نكرهها فأنزل الله تعالى : ﴿ يا أَيُّهَا الذين ءَامَنُواْ لِيَسْتَأْذِنكُمُ الذين مَلَكَتْ أيمانكم . . . ﴾ الآية . وروي عن مقاتل بن حيّان أنه قال : بلغنا أن رجلاً من الأنصار وامرأته (أسماء بنت أبي مرثد) صنعا للنبي صلى الله عليه وسلم طعاماً ، فقالت أسماء : يا رسول الله ما أقبح هذا ؟ إنه ليدخل على المرأة وزوجها غلامهما وهما في ثوب واحد بغير إذن ، فأنزل الله في ذلك هذه الآية يعني بها العبيد والإماء .

ثانياً : وروي ان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث غلاماً من الأنصار يقال له (مُدْلج) إلى عمر بن الخطاب وقت الظهيرة ليدعوه فوجده نائماً ، قد أغلق عليه الباب فدقّ عليه الغلام الباب فناداه ودخل فاستيقظ عمر وجلس فانكشف منه شيء ، فقال عمر (وددت أنّ اللَّهَ نهى أبناءنا ونساءنا ، وخدمنا عن الدخول في هذه الساعات إلاّ بإذن) ثم انطلق إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجد هذه الآية قد أنزلت فخرّ ساجداً شكراً لله تعالى .

قال الألوسي : وهذا احد موافات رايه الصائب رضي الله عنه للوحي .

ثالثاً : وروى ابن أبي حاتم عن السدي أنه قال : كان أناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يعجبهم أن يواقعوا نساءهم في هذه الساعات ، فيغتسلوا ثم يخرجوا إلى الصلاة فأمرهم الله تعالى أن يأمروا المملوكين والغلمان أن لا يدخلوا عليهم في تلك الساعات إلا بإذن فذلك قوله تعالى : ﴿ يا أَيُّهَا الذين ءَامَنُواْ لِيَسْتَأْذِنكُمُ . . . ﴾ الآية .

لطائف التفسير

(56/554)

اللطيفة الأولى : قوله تعالى : ﴿ مِنكُمْ ﴾ يدل على أن المراد به الأطفال من الأحرار ، لأن الله سبحانه قد ذكر العبيد والإماء بقوله : ﴿ مَلَكَتْ أيمانكم ﴾ ثم عقّب ذلك بقوله (منكم) فدلت هذه المقابلة على أن المراد به الصغار من الأحرار .

اللطيفة الثانية : قوله تعالى : ﴿ ثلاث مرات ﴾ ليس المقصود الاستئذان ثلاث مرات ، وإنما المراد به في (ثلاثة أوقات) بدليل ذكره تعالى الأوقات بعدها (الظهيرة ، العشاء ، والفجر) وهي أوقات الراحة والنوم . قال أبو السعود : والتعبير عن (الأوقات) بالمرات للإيذان بأنّ مدار وجوب الاستئذان مقارنة تلك الأوقات لمرور المستأذنين بالمخاطبين لا أنفسها .

اللطيفة الثالثة : قوله تعالى : ﴿ وَحِينَ تَضَعُونَ ثيابكم مِّنَ الظهيرة ﴾ صرّح تعالى في هذا الوقت بخلع الثياب وهو وقت القيلولة وعبّر بقوله : (حين) للإشارة بقلة زمانها ولم يذكر وضع الثياب في الوقتين الآخيرين (العشاء) و (الفجر) وفي ذلك إشارة إلى أن أمرهما ظاهر بيّن لا يحتاج إلى تصريح ، فإذا كان وقت الظهيرة لا يحل الدخول فيه إلا بعد الاستئذان فوقت العشاء والفجر من باب أولى ، لأنهما وقت الخلود إلى الراحة والنوم ، والتكشفُ فيهما غالب .

اللطيفة الرابعة : قوله تعالى : ﴿ ثلاث عورات لَّكُمْ ﴾ إطلاق (العورات) على الأوقات الثلاثة التي يكثر فيها التكشف (للمبالغة) حتى كأن هذه الأوقات هي نفسها عورات ،

والجملة مسوقة لبيان علة (وجوب الاستئذان) فكأن الله تعالى يقول هذه هي أوقات ظهور العورات فلا تدخلوا إلا بعد الاستئذان وفي التعبير من المبالغة ما فيه .

اللطيفة الخامسة : قوله تعالى : ﴿ والقواعد مِنَ النسآء ﴾ المراد بها العجائز كما أسلفنا قال ابن قتيبة : سميت العجائز قواعد لأنهن يكثرن من القعود في البيت لكبر سنهن قال الشاعر :

أُطوِّفُ ما أطوّف ثم آوي . . . إلى بيت قعيدته لَكَاع

(57/554)

وقال ابن ربيعة : سميت العجائز قواعد لقعودهن عن الاستمتاع حيث أيسن ولم يبق لهن طمع في الأزواج ، ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ اللاتي لاَ يَرْجُونَ نِكَاحاً ﴾ .

اللطيفة السادسة : قوله تعالى : ﴿ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ ﴾ ليس المقصود بذلك أن يضعن جميع ثيابهن وإنما المراد بعضها كالجلباب والرداء وهي الثياب الظاهرة التي لا يفضي وضعها لكشف العورة ، فهو من باب (إطلاق الكل وإرادة الجزء) ويسميه علماء البلاغة (المجاز المرسل) .

اللطيفة السابعة : قوله تعالى : ﴿ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ﴾ قال بعض العلماء : (إذا كان

استعفاف العجائز عن وضع الثياب خيراً لهن فما ظنك بذوات الزينة من الشواب ؟ وأبلغ من هذا أن التستر والتحفظ إذا كان مطلوباً من القواعد فكيف بالكواعب) ؟ !

والمرأة ولو كانت عجوزاً لا تشتهي فإنّ بعض النفوس قد تميل إليها وتشتهيها ولهذا ينبغي لها الاستعفاف . وفي الأمثال (لكل ساقطة لاقطة) وقد قال الشاعر في هذا المعنى :

لكل ساقطةٍ في الحي لاقطة . . . وكلّ كاسدةٍ يوماً لها سوق

الأحكام الشرعية

الحكم الأول : من المخاطب في الآية الكريمة ؟

ظاهر قوله تعالى : ﴿ يا أَيُّهَا الذين ءَامَنُواْ ﴾ أنه خطاب للرجال ، وقد قال المفسرون : إنّ الآية نزلت في (أسماء بنت أبي مرثد) فيكون المراد فيها (الرجال والنساء) لأن التذكير يغلب التأنيث .

ودخولُ سبب النزول في الحكم قطعي كما هو الراجح في الأصول فيكون الخطاب للرجال والنساء بطريق (التغليب) .

وقال الفخر الرازي : والأولى عندي أن الحكم ثابت في النساء بقياس جلي وذلك لأن النساء في باب حفظ العورة أشد حالاً من الرجال ، فهذا الحكم لمَّا ثبت في الرجال فثبوتهُ في النساء بطريق الأولى ، كما أنَّا نثبت حرمة الضرب بالقياس الجلي على حرمة التأفيف .

وقال أبو السعود : والخطاب إما للرجال خاثة ، والنساءُ داخلات في الحكم بدلالة النص أو (للفريقين) جميعاً بطريق التغليب .

أقول : اختار بعض المفسرين رأياً آخر خلاصته : أن قوله تعالى : ﴿ يا أَيُّهَا الذين ءَامَنُواْ ﴾ ليس خطاباً للذكور بطريق التغليب وإنما هو خطاب لكل من اتصف بالإيمان رجلاً كان أن امرأة فيدخل فيه (الرجال والنساء) معاً ويكون المعنى يا من اتصفتم بالإيمان وصدقتم الله ورسوله ليستأذنْكم في الدخول عليكم عبيدكم وإماؤكم . . إلخ ، ولعل هذا الرأي أوجه فكل نداء بالإيمان يراد منه الوصف فيشمل الذكور والإناث والله أعلم .

الحكم الثاني : ما المراد بقوله : ﴿ مَلَكَتْ أيمانكم ﴾ في الآية الكريمة ؟

المراد به (العبيد والإماء) وظاهر قوله تعالى : ﴿ الذين مَلَكَتْ أيمانكم ﴾ أن الحكم خاص بالذكور ، سواء أكانوا كباراً أم صغاراً ، وبهذا الظاهر قال ابن عمر ومجاهد .

والجمهور على أنه عام في (الذكور والإناث) من الأرقاء الكبار منهم والصغار وهو الصحيح الذي اختاره الطبري وجمهور المفسرين .

فكما أن الأطفال الصغار لا يحسن دخولهم بدون استئذان على الكبار في أوقات الخلوة ، فكذلك لا يحسن دخول الخادم الأنثى ، لأن هذه الأوقات أوقات تكشُّف في الغالب ، والإنسان كما يكره اطلاع الذكور على أحواله فقد يكره اطلاع النساء عليها كذلك .

قال ابن جرير الطبري : وأولى القولين في ذلك عندي بالصواب قول من قال عني به (الذكور والإناث) لأن الله عمّ بقوله ﴿ الذين مَلَكَتْ أيمانكم ﴾ جميع أملاكِ أيماننا ولم يخصص منهم ذكراً ولا أنثى فذلك على جميع من عمّه ظاهر التنزيل .

الحكم الثالث : كيف يخاطب الصغار ولا تكليف قبل البلوغ ؟

(59/554)

الخطاب وإن كان ظاهره للصغار الذين لم يبلغوا الحلم ، إلا أنَّ المراد به الكبار ، فقد أمر الله الرجال أن يعلِّموا مماليكهم وخدمهم وصبيانهم ، ألاّ يدخلوا عليهم إلا بعد الاستئذان ، فهو في (الظاهر) متوجه للصغار وفي (الحقيقة) للمكلفين الكبار ، مثل قوله صلى الله عليه وسلم : " مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع ، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر " وكقولك : للرجل : لِيَخَفْك أهلُكَ وولَدُك ، فظاهر الأمر لهم وحقيقةً الأمر له بفعل ما يخافون عنده .

الحكم الرابع : هل الاستئذان على سبيل الوجوب أو الندب ؟

ظاهر الأمر في قوله تعالى : ﴿ لِيَسْتَأْذِنكُمُ ﴾ أنه للوجوب وبهذا الظاهر قال بعض العلماء . والجمهورُ على أنه أمر (استحباب وندب) وأنه من باب (التعليم والإرشاد) إلى محاسن

الآداب . فالبالغُ يستأذنُ في كلّ وقت ، والطفل والمملوك يستأذنان في العورات الثلاث .

وقد رُويَ عن ابن عباس أنه قال : (آيةٌ لا يؤمنُ بها أكثر الناس : آية الإذن ، وإني لآمر جاريتي أن تستأذن علي) وأشار إلى جارية عنده صغيرة .

والآية محكمة لم ينسخها شيء على رأي الجمهور ، وزعم بعضهم أنها منسوخة لأن عمل الصحابة والتابعين في الصدر الأول كان جارياً على خلافه . وقال آخرون : إنما كان هذا في العصر الأول لأنه لم تكن لهم أبواب تغلق ولا ستور تُرْخى واستدلوا بما رواه عكرمة أن نفراً من أهل العراق قالوا : يا ابن عباس : كيف ترى هذه الآية التي أُمِرْنا فيها بما أُمِرْنا ، ولا يعمل بها أحد ؟ قوله تعالى : ﴿ يا أَيُّهَا الذين ءَامَنُواْ لِيَسْتَأْذِنكُمُ .

. . ﴾ .

(60/554)

قال ابن عباس : (إنّ الله حليم رحيم بالمؤمنين ، يحب الستر ، وكان الناس ليس لبيوتهم سترٌ ولا حجاب ، فربما دخل الخادم ، أو الولد ، أو يتيمة الرجل ، والرجلُ على أهله ، فأمرهم الله بالاستئذان في تلك العورات ، فجاءهم الله بالستور والخير فلم أر أحداً يعمل بذلك بعد) . . والصحيح أن الآية ليست بمنسوخة كما قال القرطبي : وكلامُ ابن عباس لا

يدل على النسخ ، فالأمر بالاستئذان عنده كان متعلقاً بسبب فلما زال السبب زال الحكم . وهذا يدل على أنه النسخ ، فالأمر بالاستئذان عنده كان متعلقاً بسبب فلما زال السبب زال الحكم . وهذا يدل على أنه لم ير الآية منسوخة ، وأنَّ مثل ذلك السبب لو عاد لعاد الحكم وهذا ليس بنسخ .

الحكم الخامس : ما هو سن البلوغ الذي يلزم به التكليف ؟

أشارت الآية الكريمة ، وهي قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا بَلَغَ الأطفال مِنكُمُ الحلم ﴾ إلى أن الطفل يصبح مكلفاً بمجرد الاحتلام وقد اتفق الفقهاء على أن الصبيّ إذا احتلم فقد بلغ وكذلك الجارية (الفتاة) إذا احتلمت أو حاضت أو حَمَلت فقد بلغت . فالاحتلام علامة واضحة على بلوغ الصبي أو الجارية سن التكليف وهذا بإجماع الفقهاء لم يختلف فيه أحد . . ولكنهم اختلفوا في تقدير السن التي يصبح بها الإنسان مكلفاً على رأيين :

1 – مذهب الحنفية في المشهور : إلى أن الطفل لا يكون بالغاً حتى يتم له ثماني عشرة سنة ودليله قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ اليتيم إِلاَّ بالتي هِيَ أَحْسَنُ حتى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ﴾ [الأنعام : 152] وأشدُّ الصبي كما روي عن ابن عباس : أنه ثماني عشرة سنة ، وأما الإناث فنشوءهن وإدراكهن يكون أسرع فنقص في حقهن سنة فيكون بلوغهن سبع عشرة سنة .

2- مذهب الشافعية والحنابلة (الشافعي وأحمد وأبو يوسف ومحمد) إلى أنه بلغ الغلام والجارية خمس عشرة سنة فقد بلغا وهو رواية عن أبي حنيفة أيضاً .

(61/554)

واستدلوا بما روي عن ابن عمر رضي الله عنهما (أنه عُرِض على النبي صلى الله عليه وسلم يوم أُحدٍ وله أربع عشرة سنة فلم يُجِزْه ، وعُرِض عليه يوم الخندق وله خمس عشرة سنة فأجازه) .

وقالوا : إنّ العادة جارية ألاّ يتأخر البلوغ في (الغلام والجارية) عن خمس عشرة سنة فيكون هو سن البلوغ الذي يصبح به الإنسان مكلفاً وذلك بحكم العادة .

قال الجصاص في تفسيره " أحكام القرآن " : قوله تعالى : ﴿ والذين لَمْ يَبْلُغُواْ الحلم ﴾ يدل على بطلان قول من جعل حد البلوغ خمس عشرة سنة إذا لم يحتلم قبل ذلك ، لأن الله تعالى لم يفرّق بين من بلغها وبين من قصّر عنها بعد أن لا يكون قد بلغ الحلم ، وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم من جهات كثيرة

" رفع القلم عن ثلاثة : عن النائم حتى يستيقظ ، وعن المجنون حتى يُفيق ، وعن الصبي حتى يحتلم " ولم يفرّق بين من بلغ خمس عشرة وبين من لم يبلغها .

وأما حديث ابن عمر : أنه عرض على النبي صلى الله عليه وسلم يوم أُحد . . إلخ فإنه مضطرب لأن الخندق كان في سنة خمس ، وأُحد في سنة ثلاث ، فكيف يكون بينهما سنة ؟ ثم مع ذلك فإن الإجازة في القتال لا تَعلُّق لها بالبلوغ لأنه قد يُرَدّ البالغ لضعفه ، ويجاز غير البالغ لقوته على القتال . وطاقته لحمل السلاح كما أجاز (رافع بن خديج) وردّ (سمرة بن جندب) ويدل عليه أنه يسأله عن الاحتلام ولا عن السن .

وقد تكلم بكلام كثير انتصر فيه لمذهب الإمام حنيفة رحمه الله .

الترجيح : والصحيح هو قول الجمهور لما علمنا أن مثل هذا إنما يثبت بحكم العادة ، وقد جرت العادة في الأغلب على الاحتلام في مثل هذا السن ، فيكون هو سن البلوغ المعتبر في التكليف . وقد نص فقهاء الحنفية على أن الفتوى بقول (الصاحبين) وهو رواية عن الإمام أبي حنيفة رحمه الله أيضاً فيكون هو المعتبر ، وكفى الله المؤمنين القتال .

الحكم السادس : هل يعتبر الإنباتُ دليلاً على البلوغ ؟

(62/554)

الراجح من أقوال الفقهاء أن البلوغ لا يكون إلا بالاحتلام أن بالسن وهي سن الخامس عشرة كما مر معنا ، وقد روي عن الإمام الشافعي رحمه الله أنه اعتبر الإنبات دليلاً على البلوغ ،

واستدل بما روي عن (عطية القرظي) أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بقتل من أنبت من قريظة واستحياء من لم ينبت ، قال : فنظروا إليّ فلم أكن قد أنبتُّ فاستبقاني .

وما روي أيضاً أن عثمان رضي الله عنه سئل عن غلام فقال : هل أخضرّ عذاره ؟ وهذا يدل على أن ذلك كان كالأمر المتفق عليه فيما بين الصحابة .

وبقية الفقهاء لا يعتبرون الإنبات دليلاً على البلوغ حتى قال الجصاص إن حديث (عطية القرظي) لا يجوز إثبات الشرع بمثله لوجوه :

أحدها : أن عطية هذا مجهول لا يعرف إلا من هذا الخبر ولا سيما مع اعتراضه على الآية والخبرِ في نفي البلوغ إلاَّ بالاحتلام .

وثانيها : أنه مختلف الألفاظ ففي بعض الروايات أنه أمر بقتل من جرت عليه الموسى ، وفي بعضها من أخضرّ عذاره ، ومعلومٌ أنه لا يبلغ هذه الحال إلا وقد تقدّم بلوغة .

وثالثها : أن الإنبات يدل على القوة البدنية فالأمر للقتل لذلك لا للبلوغ .

والصحيح أن الإمام الشافعي رحمه الله جعل الإنبات دليلاً على البلوغ في حق أطفال الكفار لإجراء أحكام الأسر ، والجزية ، والمعاهدة ، وغيرها من الأحكام لا أنه جعله دليلاً على البلوغ مطلقاً ، كما نبّه على ذلك بعض العلماء .

قال الألوسي : ومن الغريب ما روي عن قوم من السلف أنهم اعتبروا في البلوغ أن يبلغ الإنسان في طوله (خمسة أشبار) وروي عن علي كرم الله وجهه أنه قال : إذا بلغ الغلام

خمسة أشبار فقد وقعت عليه الحدود ويقتصّ له ، ويقتصّ منه .

وعن أنس رضي الله عنه قال : أُتي أبو بكر بغلام قد سرق فأمر به فشبر فنقص أنملة فخلّى عنه وبهذا المذهب أخذ الفرزدق في قوله :

ما زال مذ عقدت يداه إزاره . . . وسما فأدرك خمسة الأشبار

(63/554)

وأكثر الفقهاء لا يقولون بهذا المذهب ، لأن الإنسان قد يكون دون البلوغ ويكون طويلاً ، وفوق البلوغ ويكون قصيراً ، فلا عبرة بذلك ، ولعلّ الأخبار السابقة لا تصح ، وما نقل عن الفرزدق لا يتعيَّن إرادة البلوغ فيه فمن الناس من قال إنه أراد بخمسة أشبار (القبر) كما قال الآخر :

عجباً لأربع أذرع في خمسة . . . في جوفه جبل أشم كبير

الحكم السابع : هل يؤمر الطفل بفعل الفرائض والطاعات ؟

استدل بعض الفقهاء من قوله تعالى : ﴿ والذين لَمْ يَبْلُغُواْ الحلم مِنكُمْ ﴾ على أن من لم يبلغ وقد عقل يؤمر بفعل الشرائع وينهى عن ارتكاب القبائح – وإن لم يكن من أهل التكليف – على وجه التعليم ، فإن الله أمرهم بالاستئذان في هذه الأوقات ، وقال عليه السلام " مروا

أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع " .

وروي عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال : " نعلِّم الصبي إذا عرف يمينه من شماله " .

وروي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال : " إذا بلغ الصبي عشر سنين كتبت له الحسنات ولا تكتب عليه السيئات حتى يحتلم " .

قال أبو بكر الرازي : إنما يؤمر بذلك على وجه (التعليم والتأدب) ليعتاده ويتمرن عليه فيكون أسهل عليه بعد البلوغ وأقل نفوراً منه . وكذلك يجنّب شرب الخمر ، ولحم الخنزير ، ويُنْهى عن سائر المحظورات ، لأنه لو لم يمنع في الصغر ، لصعب عليه الامتناع في الكبر ، وقد قال الله تعالى : ﴿ قوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً ﴾ [التحريم : 6] قيل في التفسير أي أدبوهم وعلموهم .

الحكم الثامن : ما المراد من وضع الثياب في الآية الكريمة ؟

(64/554)

دلت الآية الكريمة وهي قوله تعالى : ﴿ فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ ﴾ على أن المرأة العجوز التي لا تُشْتهى والتي لا يُرغب فيها في العادة أنه لا إثم عليها في وضع الثياب أمام الأجانب من الرجال ، بشرط عدم التبرج وإظهار الزينة ، وليس المراد أن

تخلع المرأة كل ما عليها من الثياب حتى تتعرى فإن ذلك لا يجوز للعجوز ولو كان أمام محارمها فكيف بالأجانب ؟ ولذلك فقد اتفق الفقهاء والمفسرون على أن المراد بالثياب في هذه الآية (الجلباب) التي أُمِرت المسلمة أن تخفي به زينتها في قوله تعالى في سورة الأحزاب [59]

﴿ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ﴾ وهذا الإذن في وضع الجلابيب والخُمُر ليس إلا لأولئك النسوة العجائز اللاتي لم يعدن يرغبن في التزين ، وانعدمت فيهن الغرائز الجنسية ، غير أنه إذا كان لا يزال في هذه النار قبس يتقد ، ويكاد يميل بالمرأة إلى إظهار زينتها فلا يصح لها أن تضع جلبابها .

قال القرطبي : (ومن التبرج أن تلبس المرأة ثوبين رقيقين يصفانها فقد روي في " الصحيح " عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " صنفان من أهل النار لم أرهما . وذكر : ونساء كاسيات عاريات مميلات مائلات رؤوسهن كأسْنِمة البخت المائلة ، لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا " . وفي رواية : من مسيرة خمسمائة عام) .

قال ابن العربي : وإنما جعلهن كاسيات لأن الثياب عليهن ، وإنما وصفهن بأنهن عاريات لأن الثوب إذا رقَّ يصفهن ويبدي محاسنهن وذلك حرام .

قلت : هذا أحد التأويلين للعلماء في هذا المعنى ، والثاني : أنهن كاسيات من الثياب

عاريات من لباس التقوى الذي قال الله فيه : ﴿ وَلِبَاسُ التقوى ذلك خَيْرٌ ﴾ [الأعراف : 26] وأنشدوا :

إذا المرءُ لم يلبس ثياباً من التُّقى . . . تقلّب عُرياناً وإن كان كاسيا

(65/554)

وخيرُ لباسِ المرءِ طاعةُ ربه . . . ولا خيرَ فيمن كان لله عاصيا

ما ترشد إليه الآيات الكريمة

أولاً : ضرورة استئذان الخدم من العبيد ، والإماء في أوقات الخلوات .

ثانياً : تعليم الأطفال الآداب الإسلامية منها (الاستئذان عند الدخول) في الأوقات الثلاثة .

ثالثاً : لا يطلب من الخادم أن يستأذن في كل وقت لضرورة قيامه بالخدمة لسيده .

رابعاً : إذا بلغ الطفل سن (المراهقة) فعليه أن يستأذن قبل الدخول في جميع الأوقات .

خامساً : لا يجوز للمسلمة أن تنكشف أمام الخدم من الغلمان إذا بلغوا مبلغ الرجال .

سادساً : النساء العجائز لا يجب عليهن المبالغة في التستر والبس الجلباب لرفع الحرج عنهن .

سابعاً : التبرج وإظهار الزينة أمام الأجانب يستوي فيه العجائز والأبكار .

ثامناً : شرعُ اللَّهِ حكيم ، ونظامه رحيم ، فعلى المؤمنين أن يتمسكوا به .

حكمة التشريع

الإسلام رسالة إصلاحية فاضلة ، وآداب اجتماعية سامية ، ومُثُل إنسانية رفيعة ، حوى خير ما في التشاريع من نظم ومبادئ ، وخير ما في الأديان من سمو وأخلاق ، فتعاليمُه الرشيدة تدعو إلى الكمال ، ومبادئه الإنسانية تهدف إلى الإصلاح ، وإن شئت فقل : إنه رسالة (الفضائل والآداب) بل إنه رسالة الحياة .

وفي هذه الآيات الكريمة دعوة إلى الآداب الإنسانية (آداب البيوت) وتعليم للأمة أن يتمسكوا بالأخلاق الفاضلة التي ربَّاهم عليها الإسلام ، وأن يعلِّموا أطفالهم وخَدَمهم هذه الآداب الحميدة ، لتبقى الأسرة المسلمة ، والمجتمع المسلم ، في منأى عن المفاسد التي تعجُّ بها المجتمعات الأخرى .

وأول ما يجده الإنسان من (الآداب الاجتماعية) أدب الاستئذان عند دخول البيوت ، وقد تقدم في الآيات الكريمة السابقة

﴿ يا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ لاَ تَدْخُلُواْ بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حتى تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ على أَهْلِهَا ﴾ [النور : 27] . ثم يأتي أدب الاستئذان (داخل البيوت) وهو للخدم والأطفال لئلا يطَّلعوا على العورات ، فقد يكون الإنسان في حالة لا يحِبّ أن يطلع عليه أحد ، وقد يكون مع أهله في حالة لا يصح أن يدخل عليه فيها أحد . لذلك فقد أوجب الإسلام الاستئذان حتى على (الخدم والصغار) في ثلاثة أوقات وسماها (عورات) لانكشاف العورات فيها وفي هذه الأوقات الثلاثة لا بد أن يستأذن الخدم ، وأن يستأذن الخدم ، وأن يستأذن الصغار المميزون الذين لم يبلغوا الحُلُم ، كي لا تقع أنظارهم على عورات أهليهم وهو أدب رفيع يُغْفله الكثيرون في حياتهم ، مستهينين بآثاره النفسية والخلقية ، ظانين أن الخدم لا تمتد أعينهم إلى عورات السادة ، وأن الصغار قبل البلوغ لا ينتبهون لهذه المناظر بينما يقرر – علماء النفس – أن بعض المشاهد التي تقع عليها أنظار الأطفال في صغرهم هي التي تؤثر في مستقبل حياتهم وقد تصيبهم بأمراض نفسية ، وخلقية ، وتوجد فيهم عقداً يصعب شفاؤهم منها .

وهذا الأدب الإسلامي الرفيع لا نجده عند غير المسلمين ، ويكفي الإسلام فخراً وشرفاً أنه دين (الأدب والستر) ودين الحشمة والوقار ، فهو يأمر بغض الأبصار عن عورات الناس ويخصص هذه الأوقات الثلاثة دون غيرها لأنها مظنة انكشاف العورات ، ولا يجعل استئذان الخدم والصغار في كل حين منعاً للحرج ؛ فهم كثيروا الدخول والخروج على أهليهم

بحكم صغر سنهم أو قيامهم بالخدمة وبذلك يجمع بين (الحرص) على ستر العورات وإزالة (الحرج) والمشقة عن الناس .

(67/554)

وأخيراً يدعو النساء إلى إخفاء الزينة منعاً لإثارة الفتن والشهوات ويأمر بالتحجب الكامل والتستر الشامل . ويستثني النساء العجائز اللواتي لا يحركن شهوة ، ولا يثرن فتنة ، فيسمح لهن أن يخلعن ثيابهن الخارجية على ألا تنكشف عوراتهن ولا تظهر زينتهن ، وخير لهن وهنَّ العجائز المسنات أن يبقين كاسيات متسترات محتشمات بثيابهن الفضفاضة فذلك هو أدب الإسلام وذلك هو استعفاف المؤمنة الطاهرة التي تريد أن تحفظ نفسها ، وتصون كرامتها ، وهو ما سماه القرآن (بالاستعفاف) أي طلب العفة وإيثارها على حب الظهور وذلك لما بين (التبرج والفتنة) من صلة ، وبين (التحجب والعفة) من صلة وكفى بذلك برهاناً على سمو الشريعة وطُهْر مقصدها ونبل غايتها والله يقول الحق وهو يهدي السبيل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روائع البيان حـ 2 صـ 201 . 219 ﴾

(68/554)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ﴾

أخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل ابن حيان قال : بلغنا أن رجلاً من الأنصار وامرأته أسماء بنت مرشدة صنعا للنبي صلى الله عليه وسلم طعاماً فقالت أسماء : يا رسول الله ما أقبح هذا ! انه ليدخل على المرأة وزوجها وهما في ثوب واحد كل منهما بغير إذن ، فأنزل الله في ذلك ﴿ يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم ﴾ من العبيد والاماء ﴿ والذين لم يبلغوا الحلم منكم ﴾ قال : من أحراركم من الرجال والنساء .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في هذه الآية قال : كان أناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يعجبهم أن يواقعوا نساءهم في هذه الساعات ليغتسلوا ثم يخرجوا إلى الصلاة ، فأمرهم الله أن يأمروا المملوكين والغلمان أن لا يدخلوا عليهم في تلك الساعات إلا باذن .

وأخرج ابن مردويه عن ثعلبة القرظي عن عبد الله بن سويد قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن العورات الثلاث فقال " إذا أنا وضعت ثيابي بعد الظهيرة ، لم يلج عليّ

أحد من الخدم من الذين لم يبلغوا الحلم ، ولا أحد من الاجراء إلا باذن ، وإذا وضعت ثيابي بعد صلاة العشاء ، ومن قبل صلاة الصبح " .

وأخرج عبد بن حميد والبخاري في الأدب عن ثعلبة بن أبي مالك القرظي ، أنه ركب عبد الله بن سويد أخي بني حارثة بن الحارث يسأله عن العورات الثلاث وكان يعمل بهن فقال : ما تريد ؟ قال : أريد أن أعمل بهن فقال : إذا وضعت ثيابي من الظهيرة لم يدخل عليّ أحد من أهلي بلغ الحلم إلا بإذني إلا أن أدعوه فذلك اذنه ، ولا إذا طلع الفجر وتحرك الناس حتى تصلي الصلاة ، ولا إذا صليت العشاء الآخرة ووضعت ثيابي حتى أنام . قال : فتلك العورات الثلاث .

(69/554)

وأخرج ابن سعد عن سويد بن النعمان أنه سئل عن العورات الثلاث فقال : إذا وضعت ثيابي من الظهيرة لم يدخل علي أحد من أهلي إلا أن أدعوه فذلك اذنه ، واذا طلع الفجر وتحرك الناس حتى يصلي الصبح ، وإذا صليت العشاء وضعت ثيابي ، فتلك العورات الثلاث .

وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وأبو داود وابن مردويه والبيهقي في سننه عن ابن

عباس قال : آية لم يؤمن بها أكثر الناس . آية الاذن وإني لآمر جاريتي هذه الجارية قصيرة قائمة على رأسه أن تستأذن علي .

وأخرج عبد بن حميد عن سعيد بن جبير قال : هذه الآية تهاون الناس بها ﴿ يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم ﴾ وما نسخت قط .

وأخرج ابن أبي شيبة عن الشعبي في قوله ﴿ ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم ﴾ قال : ليست منسوخة . قيل : فإن الناس لا يعملون بها قال : الله المستعان .

وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن عباس قال : يمكث الناس في الساعات الذين ملكت أيمانكم ، والذين لم يبلغوا الحلم منكم .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : ترك الناس ثلاث آيات فلم يعملوا بهن ﴿ يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم . . . ﴾ والآية التي في سورة النساء ﴿ وإذا حضر القسمة ﴾ [النساء : 8] والآية التي في الحجرات ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ [الحجرات : 13] .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في السنن عن ابن عباس في قوله ﴿ ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم . . . ﴾ قال : إذا خلا الرجل بأهله بعد العشاء فلا يدخل عليه خادم ولا صبي إلا باذنه حتى يصلي الغداة ، وإذا خلا بأهله عند الظهر فمثل ذلك ، ورخص لهم في الدخول فيما بين ذلك بغير إذن . وهو قوله ﴿ ليس عليكم ولا عليهم جناح

بعدهن ﴾ فاما من بلغ الحلم فإنه لا يدخل على الرجل وأهله إلا باذن على كل حال . وهو قوله ﴿ وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم ﴾ .

(70/554)

وأخرج أبو داود وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في السنن عن ابن عباس أن رجلين سألاه عن الاستئذان في الثلاث عورات التي أمر الله بها في القرآن فقال ابن عباس : ان الله ستير يحب الستر ، وكان الناس ليس لهم ستور على أبوابهم ، ولا حجال في بيوتهم ، فربما فاجأ الرجل خادمه ، أو ولده ، أو يتيمه في حجره ، وهو على أهله . فأمرهم الله أن يستأذنوا في تلك العورات التي سمى الله ، ثم جاء الله بعد بالستور ، وبسط الله عليهم في الرزق ، فاتخذوا الستور ، واتخذوا الحجال ، فرأى الناس أن ذلك قد كفاهم من الاستئذان الذي أمروا به .

وأخرج ابن أبي شيبة والبخاري في الأدب وابن جرير وابن المنذر عن ابن عمر في قوله ﴿ ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم ﴾ قال هو على الذكور دون الاناث .

وأخرج الفريابي عن ابن عمر في قوله ﴿ ثلاث عورات لكم ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن طوافون عليكم ﴾ قال : هو للاناث دون الذكور أن يدخلوا بغير إذن .

وأخرج ابن مردويه عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن بعض أزواج النبي صلى الله عليه وسلم في قوله ﴿ ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم . . . ﴾ قال : نزلت في النساء أن يستأذن علينا .

وأخرج الحاكم وصححه عن علي بن أبي طالب في قوله ﴿ ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم ﴾ قال : النساء فإن الرجال يستأذنون .

وأخرج الفريابي وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي عبد الرحمن السلمي في هذه الآية قال : هي في النساء خاصة . الرجال يستأذنون على كل حال بالليل والنهار .

وأخرج الفريابي عن موسى بن أبي عائشة قال : سألت الشعبي عن هذه الآية ﴿ يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم ﴾ أمنسوخة هي ؟ قال : لا .

.

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن في قوله ﴿ والذين لم يبلغوا الحلم منكم ﴾ قال : أبناؤكم .

(71/554)

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في قوله ﴿ طوافون عليكم ﴾ قال : يعني بالطوّافين : الدخول والخروج غدوة وعشية بغير إذن . وفي قوله ﴿ وإذا بلغ الأطفال ﴾ يعني الصغار ، ﴿ منكم الحلم ﴾ يعني من الأحرار من ولد الرجل وأقاربه ﴿ فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم ﴾ يعني كما استأذن الكبار من ولد الرجل وأقاربه .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل في قوله ﴿ كما استأذن الذين من قبلهم ﴾ قال : كما استأذن الذين بلغوا الحلم من قبلهم ، الذين أمروا بالاستئذان على كل حال .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن المسيب قال : ليستأذن الرجل على أمه فانما نزلت ﴿ وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم ﴾ في ذلك .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير والبيهقي في السنن عن ابن مسعود أن رجلاً سأله استأذن على أمي ؟ فقال : نعم . ما على كل أحيانها تحب أن تراها .

وأخرج ابن أبي شيبة والبخاري في الأدب عن جابر قال : ليستأذن الرجل على ولده وأمه - وإن كانت عجوزاً - وأخيه وأخته وأبيه .

وأخرج سعيد بن منصور والبخاري في الأدب وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن عطاء أنه سأل ابن عباس استأذن على أختي ؟ قال : نعم . قلت إنها في حجري ، وإني أنفق عليها ، وانها معي في البيت ، استأذن عليها ؟ قال : نعم . إن الله يقول ﴿ ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم . . . ﴾ فلم يؤمر هؤلاء بالإذن إلا في

هؤلاء العورات الثلاث قال : ﴿ وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم ﴾ فالإِذن واجب على خلق الله أجمعين .

وأخرج ابن جرير عن زيد بن أسلم " أن رجلاً سأل النبي صلى الله عليه وسلم استأذن على أمي ؟ قال : نعم . أتحب أن تراها عريانة " .

(72/554)

وأخرج ابن جرير والبيهقي في السنن عن عطاء بن يسار " أن رجلاً قال : يا رسول الله استأذن على أمي ؟ قال : نعم . قال : إني معها في البيت قال : استأذن عليها قال : إني خادمها أفاستأذن عليها كلما دخلت عليها ؟ قال : أفتحب أن تراها عريانة ؟ قال : لا . قال : فاستأذن عليها " .

وأخرج ابن أبي شيبة والبخاري في الأدب والبيهقي عن حذيفة أنه سئل أيستأذن الرجل على والدته ؟ قال : نعم . إن لم تفعل رأيت منها ما تكره .

وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن سيرين في قوله ﴿ والذين لم يبلغوا الحلم منكم ﴾ قال : كانوا يعلمونا إذا جاء أحدنا أن نقول السلام عليكم . أيدخل فلان ؟ .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عبد الرحمن بن عوف أن رسول الله

صلى الله عليه وسلم قال : " لا يغلبنكم الأعراب على اسم صلاتكم قال الله تعالى ﴿ ومن بعد صلاة العشاء ﴾ وإنما العتمة عتمة الابل " .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن مردويه عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لا تغلبنكم الأعراب على اسم صلاتكم العشاء ، فإنما هي في كتاب الله العشاء ، وإنما يعتم بحلاب الإبل " .

وأخرج عبد بن حميد عن عاصم أنه قرأ " ثلاث عورات " بالنصب .

﴿ وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (60) ﴾

أخرج أبو داود والبيهقي في السنن عن ابن عباس ﴿ وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ﴾ فنسخ واستثنى من ذلك ﴿ القواعد من النساء اللاتي لا يرجون نكاحاً . . . ﴾ الآية .

(73/554)

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في السنن عن ابن عباس في قوله ﴿ والقواعد من النساء ﴾ قال : هي المرأة لا جناح عليها أن تجلس في بيتها بدرع وخمار ، وتضع عنها

الجلباب ما لم تتبرج ، لما يكره الله وهو قوله ﴿ فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن غير متبرجات بزينة ﴾ .

وأخرج أبو عبيد في فضائله ، وابن المنذر ، وابن الأنباري في المصاحف ، والبيهقي في السنن عن ابن عباس أنه كان يقرأ ﴿ أن يضعن ثيابهن ﴾ ويقول : هي الجلباب .

وأخرج عبد الرزاق والفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والبيهقي في السنن عن ابن مسعود في قوله ﴿ فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن ﴾ قال : الجلباب والرداء .

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن ابن عمر في الآية قال : تضع الجلباب .

وأخرج عبد الرزاق وابن أبي حاتم عن الحسن ﴿ والقواعد من النساء ﴾ يقول : المرأة إذا قعدت عن النكاح .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير ﴿ والقواعد من النساء ﴾ يعني المرأة الكبيرة التي لا تحيض من الكبر ﴿ اللاتي لا يرجون نكاحاً ﴾ يعني تزويجاً .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله ﴿ اللاتي لا يرجون نكاحاً ﴾ قال : لا يردنه .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي قال : أخبرني مسلم مولى امرأة حذيفة بن اليمان أنه خضب رأس مولاته فدخلت عليها فسألتها فقالت : نعم يا بني إني من ﴿ القواعد من

النساء اللاتي لا يرجون نكاحاً ﴾ وقد قال الله في ذلك ما سمعت .

وأخرج ابن المنذر عن ميمون بن مهران قال : في مصحف أبي بن كعب ومصحف ابن مسعود ﴿ فليس عليهن جناح أن يضعن جلابيبهن غير متبرجات ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن مسعود وابن عباس أنهما كانا يقرآن ﴿ فليس عليهم جناح أن يضعن جلابيبهن غير متبرجات ﴾ .

(74/554)

وأخرج ابن أبي حاتم عن عائشة أنها سئلت : عن الخضاب ، والصباغ ، والقرطين ، والخلخال ، وخاتم الذهب ، وثياب الرقاق ، فقال : يا معشر النساء قصتكن كلها واحدة ، أحل الله لكن الزينة غير متبرجات .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله ﴿ وأن يستعففن خير لهن ﴾ قال : يلبسن جلابيبهن .

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر والبيهقي في السنن عن عاصم الأحول قال : دخلت على حفصة بنت سيرين وقد ألقت عليها ثيابها فقلت أليس يقول الله ﴿ والقواعد من النساء اللاتي لا يرجون نكاحاً فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن ﴾ قال : اقرأ ما بعده

﴿ وأن يستعففن خير لهن ﴾ هو ثياب الجلباب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 6 صـ ﴾

(75/554)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله : ﴿ والقواعد ﴾ :

جمع " قاعِد " من غيرِ تاءِ تأنيثٍ . ومعناه : القواعدُ عن النكاحِ ، أو عن الحيضِ ، أو عن الاستمتاعِ ، أو عن الحَبَل ، أو عن الجميع . ولولا تَخَصُّصُهُنَّ بذلك لوَجَبَتِ التاءُ نحو : ضارِبة وقاعِدة من القعود المعروف . وقوله : ﴿ مِنَ النسآء ﴾ وما بعدَه بيانٌ لهن و " القواعدُ " مبتدأٌ . و " من النساء " حالٌ و " اللاتي " صفةٌ للقواعد لا للنساء . وقوله : ﴿ فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ ﴾ الجملةُ خبرُ المبتدأ ، وإنما دَخَلَتْ لأَنْ المبتدأَ موصوفٌ بموصول ، لو كان ذلك الموصولُ مبتدأً لجاز دخولُها في خبرِه ، ولذلك مَنَعْتُ أَنْ تكونَ " اللاتي " صفةً للنساء ؛ إذ لا يبقى مسوِّغٌ لدخولِ الفاءِ في خبر المبتدأ . وقال أبو البقاء : " ودَخَلَتْ الفاءُ لِما في المبتدأ من معنى الشرطِ ؛ لأنَّ الألفَ واللامَ بمعنى الذي " . وهذا مذهب الأخفش

، وتقدم تحقيقُه في المائدة . ولكن هنا ما يُغْني عن ذلك : وهو ما ذَكَرْتُه من وصفِ المبتدأ بالموصولِ المذكورِ .

و﴿ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ ﴾ حالٌ مِنْ "عليهنَّ" . والتبرُّجُ : الظهورُ ، مِن البُرْج : وهو البناءُ الظاهرُ . و "بزينةٍ" متعلقٌ به .

قوله : ﴿ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ ﴾ مبتدأٌ بتأويل : استعفافُهن ، و "خيرٌ" خبرُه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 443.444 ﴾

(76/554)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ ﴾

يحدث تأثيرٌ بالمضرّة لبناتِ الصدور من دواعي الفتنة واستيلاء سلطان الشهوة ؛ فإذا سَكَنتْ تلك الثائرة سَهُل البابُ ، وأُبيحت الرُّخَصُ وأُمِنَتْ الفتنة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 622 ﴾

قوله تعالى ﴿ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (61) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما أتم سبحانه ما ذكر من حرمات البيوت المستلزمة لصيانة الأبضاع على وجه يلزم منه إحراز الأموال ، أتبعه ما يباح من ذلك للأكل الذي هو من أجلّ مقاصد الأموال اجتماعاً وانفراداً ، فقال في جواب من كأنه سأل : هل هذا التحجير في البيوت سارٍ في الأقارب وغيرهم في جميع الأحوال ؟ : ﴿ ليس على الأعمى حرج ﴾ أي في مؤاكلة غيره وما يأتي من الأحكام ، وإن كره غيره أكله لمد يده كيفما اتفق فإنه مرحوم ، والاستئذان من أجل

البصر ﴿ ولا على الأعرج ﴾ الذي لا يرجى ﴿ حرج ﴾ وإن تقذر منه بعض المترفين فإنه يجامعه في أنه يرحم لنقصه ﴿ ولا على المريض ﴾ أي مرضاً يرجى بعرج أو غيره ﴿ حرج ﴾ كذلك لمرضه ، وأخره لرجاء برئه ﴿ ولا على أنفسكم ﴾ أي ولا على غير من ذكر ، وعبر بذلك تذكيراً بأن الكل من نفس واحدة ﴿ أن تأكلوا من بيوتكم ﴾ أي التي فيها عيالكم ، وذكرها سبحانه لئلا يحصل من تركها لو تركها ريبة ، وليدخل فيها بيوت الأولاد لأنهم من كسب الأب " أطيب ما أكل الرجل من كسبه وإن ولده من كسبه " " أنت ومالك لأبيك " ﴿ أو بيوت آبائكم ﴾ وإن بعدت أنسابكم – ولعله جمع لذلك – فإنها مرباكم وحرمتها حرمتكم ﴿ أو بيوت أمهاتكم ﴾ كذلك ، وقدم الأب لأنه أجل وهو حاكم بيته دائماً والمال له ﴿ أو بيوت إخوانكم ﴾ من الأبوين أو الأب أو الأم بالنسب أو الرضاع ، فإنهم من أولى من رضي بذلك بعد الوالدين ، لأنهم أشقاؤكم ، وهم أولياء بيوتهم ﴿ أو بيوت أخواتكم ﴾ فإنهن بعدهم ، من أجل أن ولي البيت – إذا كن مزوجات – الزوج ﴿ أو بيوت أعمامكم ﴾ فإنهم شقائق آبائكم سواء كانوا أشقاء أو لأب أو أم ، ولو أفرد العم لتوهم أنه الشقيق فقط فإنه أحق بالاسم ﴿ أو بيوت عماتكم ﴾ فهن بعد الأعمام لضعفهن ، ولأنه ربما كان أولياء بيوتهن الأزواج ﴿ أو بيوت أخوالكم ﴾ لأنهم شقائق أمهاتكم ﴿ أو بيوت خالاتكم ﴾ أخرهن لما ذكر ﴿ أو ما ملكتم مفاتحه ﴾ أي التصرف فيه بوجه من الوجوه كالوكالة ﴿ أو صديقكم ﴾ الذي تعرفون رضاه بذلك ولو

بقرينة كما هو الغالب ، ولذلك أطلقه ، وإن لم يكن أمكنكم من مفتاحه بل كان عياله فيه ، كل ذلك من غير إفساد ولا حمل ولا ادخار ، وقد عدل الصديق هنا بالقريب ، تنبيهاً على شريف رتبة الصداقة ولطيف سرها ، وخفيف أمرها ، وأفرده لعزته ؛ وعن جعفر بن محمد : من عظم حرمة الصديق أن جعله كالنفس والأب ومن معه .

قال الأصبهاني : وقالوا : إذا دل ظاهر الحال على رضا المالك قام ذلك مقام الإذن الصريح ، وبما سمج الاستئذان وثقل كمن قدم إليه طعام فاستأذن صاحبه في الأكل .

ولما ذكر معدن الأكل ، ذكر حاله فقال : ﴿ ليس عليكم جناح ﴾ أي شيء من الإثم الذي من شأنه أن يميل بصاحبه عن السواء في ﴿ أن تأكلوا جميعاً ﴾ أي مجتمعين وإن كان بينكم ناقص الخلقة ، لأن من كان معرضاً للآفات جدير بأن يرحم المبتلى ، فلا يستقذره حذراً من انعكاس الحال .

ولما رغب في أول الإسلام – لما كان فيه أكثر الناس من الضيق – في المؤاساة ، والاجتماع مع الضيوف ، ترغيباً ظن به الوجوب ، مع ما كانوا عليه من الكرم الباعث على الجود والاجتماع للأنس بالمحتاج ، خفف عنهم بقوله : ﴿ أو أشتاتاً ﴾ أي متفرقين لغير قصد

الاستقذار ، والترفع والإضرار ، وإن كان الأكل في جماعة أفضل وأبرك – كما يفهمه تقديمه ، فقد روى الإمام أحمد وأبو داود وابن ماجه عن وحشي بن حرب عن أبيه عن جده " أن رجلاً قال للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : إنا نأكل ولا نشبع ، قال : " فلعلكم تأكلون متفرقين ؟ اجتمعوا على طعامكم ، واذكروا اسم الله يبارك لكم فيه " " ولابن ماجه عن عمر ـ رضى الله عنه ـ عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال : "كلوا جميعاً ولا تفرقوا فإن البركة مع الجماعة " .

(79/554)

ولما ذكر موطن الأكل وكيفيته ، ذكر الحال التي يكون عليها الداخل إلى تلك المواطن أو غيرها ، فقال مسبباً عما مضى من الإذن ، معبراً بأداة التحقيق ، بشارة بأنهم يطيعون بعد أن كانوا تحرجوا من ذلك حين أنزل تعالى ﴿ لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ﴾ [النساء : 29] : ﴿ فإذا دخلتم ﴾ أي بسبب ذلك أو غيره ﴿ بيوتاً ﴾ أي مأذوناً فيها ، أيّ بيوت كانت مملوكة أو لا ، مساجد أو غيرها ﴿ فسلموا ﴾ عقب الدخول ﴿ على أنفسكم ﴾ أي أهلها الذين هم منكم ديناً وقرباً ، وعبر بذلك ترغيباً في السلام ، والإحسان في الإكرام ، ولتصلح العبارة لما إذا لم يكن فيها أحد فيقال حينئذ " السلام علينا وعلى عباد الله

الصالحين " فيكون من الاستعمال في الحقيقة والمجاز ﴿ تحية ﴾ مصدر من المعنى دون اللفظ ، أو أوقعوا الدعاء للمحيي بسلامة وحياة وملك بقاء ﴿ من عند الله ﴾ أي هي جديرة لتمام حسنها أن تضاف إلى من له الكمال كله سبحانه ﴿ مباركة ﴾ أي ثابتة أعظم ثبات بكونها موافقة لما شرع الله من خالص قلوبكم ﴿ طيبة ﴾ تلذذ السمع ؛ ثم وصف البيان ، تنبيهاً على ما في هذه الآيات من الحسن والإحسان ، فقال مستأنفاً كما مر غير مرة : ﴿ كذلك ﴾ أي مثل هذا البيان ، العظيم الشأن ﴿ يبين الله ﴾ أي المحيط بكل شيء ﴿ لكم الآيات ﴾ التي لا أكمل منها .

(80/554)

ولما كان الله تعالى ، بعلمه وحكمته ، وعزه وقدرته ، ولطفه وخبرته ، قد خلق عقلاً نيراً يهدي إلى الحق ، وإلى طريق مستقيم ، وقسمه بين عباده ، وخلق فيهم أنواعاً من العوائق لذلك العقل عن النفوذ على سمت الاستقامة ، من الهوى والكسل ، الفتور والملل ، جعلها حجباً تحجبه عن النفوذ ، وتستر عنه المدارك ، وتمنعه من البلوغ ، إلا برياضات ومجاهدات تكل عنها القوى ، وتضعف عندها العزائم ، فلا يكاد الماهر منهم يرتب قياساً صحيحاً ، لغلطه في المقدمات ، فتكون النتيجة حينئذ فاسدة القاعدة ، واهية الأساس ،

فكانوا لا يزالون لذلك مختلفين ، حتى يوصلهم الاختلاف إلى الإحن ، والمشاجرة والفتن ، فيجرهم إلى السيف وذهاب النفوس تلف الأرواح ، فأنزل سبحانه لهم في كل وقت شرعاً يليق بذلك الزمان على لسان رسول من رسله عليهم الصلاة والسلام ، جعل ذلك الشرع يطابق العقل السوي ، والنور الضوي ، والمنهل الروي ، والسبب القوي ، من تمسك به هدي ولم يزغ ، حد فيه سبحانه حدوداً ، وأقام فيه زواجر ، لتظهر حكمته ، ويتضح علمه وقدرته ، فصارت شرائع متفقة الأصول ، مختلفة الفروع ، بحسب الأزمنة ، إشارة إلى أن الفاعل في تغيير الأحكام بحسب الأزمان واحد مختار ، وامتحاناً للعباد ، تمييزاً لأهل الصلاح منهم من أهل الفساد ، وكانت الإغارة على شيء من الأعراض والأموال على غير ما أذن فيه تُذهب العقول ، وتعمي البصائر ، ختم الآية بقوله : ﴿ لعلكم تعقلون ﴾ أي لتكونوا على رجاء عند من يصح منه الرجاء من ثبات هذا الوصف لكم ، وهو ضبط النفوس وردها عن الأهوية ، باتباع آيات الشرع التي أنزلها الذي كرر وصفه هنا بأنه عليم حكيم ، فلا تتولوا بعد قولكم

﴿ سمعنا وأطعنا ﴾ [المائدة : 7] عن الإذعان للأحكام وأنتم معرضون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 284 . 287 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾

اعلم أن في الآية مسائل :

المسألة الأولى :

(82/554)

اختلفوا في المراد من رفع الحرج عن الأعمى والأعرج والمريض فقال ابن زيد : المراد أنه لا حرج عليهم ولا إثم في ترك الجهاد ، وقال الحسن نزلت الآية في ابن أم مكتوم وضع الله الجهاد عنه وكان أعمى وهذا القول ضعيف لأنه تعالى عطف عليه قوله : ﴿ أَن تَأْكُلُواْ ﴾ فنبه بذلك على أنه إنما رفع الحرج في ذلك ، وقال الأكثرون المراد منه أن القوم كانوا يحظرون الأكل مع هؤلاء الثلاثة وفي هذه المنازل ، فالله تعالى رفع ذلك الحظر وأزاله ، واختلفوا في أنهم لأي سبب اعتقدوا ذلك الحظر ، أما في حق الأعمى والأعرج والمريض فذكروا فيه وجوهاً :

أحدها : أنهم كانوا لا يأكلون مع الأعمى لأنه لا يبصر الطعام الجيد فلا يأخذه ، ولا مع

الأعرج لأنه لا يتمكن من الجلوس فإلى أن يأكل لقمة يأكل غيره لقمتين ، وكذا المريض لأنه لا يتأتى له أن يأكل كما يأكل الصحيح ، قال الفراء : فعلى هذا التأويل تكون (على) بمعنى في يعني ليس عليكم في مواكلة هؤلاء حرج وثانيها : أن العميان والعرجان والمرضى تركوا مواكلة الأصحاء ، أما الأعمى فقال إني لا أرى شيئاً فربما آخذ الأجود وأترك الأردأ ، وأما الأعرج والمريض فخافا أن يفسدا الطعام على الأصحاء لأمور تعتري المرضى ، ولأجل أن الأصحاء يتكرهون منهم ولأجل أن المريض ربما حمله الشره على أن يتعلق نظره وقلبه بلقمة الغير ، وذلك مما يكرهه ذلك الغير فلهذه الأسباب احترزوا عن مواكلة الأصحاء ، فالله تعالى أطلق لهم في ذلك وثالثها : روى الزهري عن سعيد بن المسيب وعبيد الله بن عبد الله في هذه الآية أن المسلمين كانوا إذا غزوا خلفوا زمناهم وكانوا يسلمون إليهم مفاتيح أبوابهم ويقولون لهم قد أحللنا لكم أن تأكلوا مما في بيوتنا فكانوا يتحرجون من ذلك قالوا لا ندخلها وهم غائبون ، فنزلت هذه الآية رخصة لهم وهذا قول عائشة رضي الله عنها فعلى هذا معنى الآية نفي الحرج عن الزمنى في أكلهم من بيت من يدفع إليهم المفتاح إذا خرج إلى

الغزو ورابعها : نقل عن ابن عباس ومقاتل بن حيان نزلت هذه الآية في الحارث بن عمرو وذلك أنه خرج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم غازياً وخلف بن مالك بن زيد على أهله فلما رجع وجده مجهوداً فسأله عن حاله فقال تحرجت أن آكل من طعامك بغير إذنك ، وأما في حق سائر الناس فذكروا وجهين : الأول : كان المؤمنون يذهبون بالضعفاء وذوي العاهات إلى بيوت أزواجهم وأولادهم وقراباتهم وأصدقائهم فيطعمونهم منها ، فلما نزل قوله تعالى : ﴿ لاَ تَأْكُلُواْ أموالكم بَيْنَكُمْ بالباطل إِلاَّ أَن تَكُونَ تجارة ﴾ [النساء : 29] أي بيعاً فعند ذلك امتنع الناس أن يأكل بعضهم من طعام بعض فنزلت هذه الآية الثاني : قال قتادة : كانت الأنصار في أنفسها قزازة وكانت لا تأكل من هذه البيوت إذا استغنوا ، قال السدي كان الرجل يدخل بيت أبيه أو بيت أخيه أو أخته فتتحفه المرأة بشيء من الطعام فيتحرج ، لأنه ليس ثم رب البيت .

فأنزل الله تعالى هذه الرخصة .

المسألة الثانية :

قال الزجاج الحرج في اللغة الضيق ومعناه في الدين الإثم .

المسألة الثالثة :

أنه سبحانه أباح الأكل للناس من هذه المواضع وظاهر الآية يدل على أن إباحة الأكل لا تتوقف على الاستئذان ، واختلف العلماء فيه فنقل عن قتادة أن الأكل مباح ولكن لا يجمل ، وجمهور العلماء أنكروا ذلك ثم اختلفوا على وجوه : الأول : كان ذلك في صدر الإسلام ثم نسخ لك بقوله عليه الصلاة والسلام : " لا يحل مال امرىء مسلم إلا عن طيب نفس منه " ومما يدل على هذا النسخ قوله : ﴿ لاَ تَدْخُلُواْ بُيُوتَ النبى إِلاَّ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إلى طَعَامٍ غَيْرَ ناظرين إناه ﴾ [الأحزاب : 53] وكان في أزواج النبي صلى الله عليه وسلم من لهن الآباء والأخوة والأخوات ، فعم بالنهي عن ذهول بيوتهن إلا بعد الإذن في الدخول وفي الأكل ، فإن قيل إنما أذن تعالى في هذا لأن المسلمين لم يكونوا يمنعون قراباتهم هؤلاء من أن يأكلوا من بيوتهم حضروا أو غابوا ، فجاز أن يرخص في ذلك ، قلنا لو كان الأمر كذلك لم يكن لتخصيص هؤلاء الأقارب بالذكر معنى لأن غيرهم كهم في ذلك الثاني : قال أبو مسلم الأصفهاني : المراد من هؤلاء الأقارب إذا لم يكونوا مؤمنين ، وذلك لأنه تعالى نهى من قبل عن مخالطتهم بقوله : ﴿ لاَّ تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بالله واليوم الآخر يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ الله وَرَسُولَهُ ﴾ [المجادلة : 22] ثم إنه سبحانه أباح في هذه الآية ما حظره هناك ، قال ويدل عليه أن في هذه السورة أمر بالتسليم على أهل البيوت فقال : ﴿ حتى تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ على أَهْلِهَا ﴾ [النور : 27] وفي بيوت هؤلاء المذكورين لم يأمر بذلك ، بل أمر أن يسلموا

على أنفسهم ، والحاصل أن المقصود من هذه الآية إثبات الإباحة في الجملة ، لا إثبات الإباحة في جميع الأقات الثالث : أنه لما علم بالعادة أن هؤلاء القوم تطيب أنفسهم بأكل من يدخل عليهم والعادة كالإذن في ذلك ، فيجوز أن يقال خصهم الله بالذكر ، لأن هذه العادة في الأغلب توجد فيهم ولذلك ضم إليهم الصديق ، ولما علمنا

(85/554)

أن هذه الإباحة إنما حصلت في هذه الصورة لأجل حصول الرضا فيها ، فلا حاجة إلى القول بالنسخ .

المسألة الرابعة :

أن الله تعالى ذكر أحد عشر موضعاً في هذه الآية أولها : قوله : ﴿ وَلاَ على أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُواْ مِن بُيُوتِكُمْ ﴾ وفيه سؤال وهو أن يقال أي فائدة في إباحة أكل الإنسان طعامه في بيته ؟ وجوابه المراد في بيوت أزواجكم وعيالكم أضافه إليهم ، لأن بيت المرأة كبيت الزوج ، وهذا قول الفراء .

وقال ابن قتيبة : أراد بيوت أولادهم فنسب بيوت الأولاد إلى الآباء لأن الولد كسب والده وماله كماله ، قال عليه السلام :

" إن أطيب ما يأكل الرجل من كسبه ، وإن ولده من كسبه " والدليل على هذا أنه سبحانه وتعالى عدد الأقارب ولم يذكر الأولاد لأنه إذا كان سبب الرخصة هو القرابة كان الذي هو أقرب منهم أولى وثانيها : بيوت الآباء وثالثها : بيوت الأمهات ورابعها : بيوت الإخوان وخامسها : بيوت الأخوات وسادسها : بيوت الأعمام وسابعها : بيوت العمات وثامنها : بيوت الأخوال وتاسعها : بيوت الخالات وعاشرها : قوله تعالى : ﴿ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحهُ ﴾ وقرىء ﴿ مفتاحه ﴾ وفيه وجوه : الأول : قال ابن عباس رضي الله عنهما : وكيل الرجل وقيمه في ضيعته وماشيته ، لا بأس عليه أن يأكل من ثمر ضيعته ، ويشرب من لبن ماشيته ، وملك المفاتح كونها في يده وفي حفظه الثاني : قال الضحاك : يريد الزمنى الذين كانوا يحرسون للغزاة الثالث : المراد بيوت المماليك لأن مال العبد لمولاه قال الفضل المفاتح واحدها مفتح بفتح الميم ، وواحد المفاتيح مفتح بالكسر الحادي عشر : قوله : ﴿ أَوْ صَدِيقِكُمْ ﴾ والمعنى أو بيوت أصدقائكم ، والصديق يكون واحداً وجمعاً ، وكذلك الخليط والقطين والعدو ويحكى عن الحسن أنه دخل داره وإذا حلقة من أصدقائه وقد (أخرجوا) (1) سلالاً من تحت سريره فيها الخبيص وأطايب الأطعمة وهم مكبون

عليها يأكلون ، فتهللت أسارير وجهه سروراً وضحك وقال هكذا وجدناهم يريد كبراء الصحابة .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما : الصديق أكثر من الوالدين ، لأن أهل الجنة لما استغاثوا لم يستغيثوا بالآباء والأمهات بل بالأصدقاء ، فقالوا مالنا من شافعين ولا صديق حميم ، وحكي أن أخاً للربيع بن خيثم في الله دخل منزله في حال غيبته فانبسط إلى جاريته حتى قدمت إليه ما أكل ، فلما عاد أخبرته بذلك ، فلسروره بذلك قال إن صدقت فأنت حرة .

---

(1) في الكشاف (استلوا) 3 / 77

المسألة الخامسة :

احتج أبو حنيفة رحمه الله بهذه الآية على أن من سرق من ذي رحم محرم أنه لا يقطع لإباحة الله تعالى بهذه الآية الأكل من بيوتهم ودخولها بغير إذنهم ، فلا يكون ماله محرزاً منهم ، فإن قيل فيلزم أن لا يقطع إذا سرق من مال صديقه ، قلنا من أراد سرقة ماله لا يكون صديقاً له .

أما قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُواْ جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً ﴾ فقال أكثر المفسرين :

نزلت الآية في بني ليث بن عمرو وهم حي من كنانة ، كان الرجل منهم لا يأكل وحده يمكث يومه فإن لم يجد من يؤاكله لم يأكل شيئاً ، وربما كانت معه الإبل الحفل فلا يشرب من ألبانها حتى يجد من يشاربه ، فأعلم الله تعالى أن الرجل إذا أكل وحده لا حرج عليه ، هذا قول ابن عباس رضي الله عنهما ، وقال عكرمة وأبو صالح رحمهما الله : كانت الأنصار إذا نزل بواحد منهم ضيف لم يأكل إلا وضيفه معه ، فرخص الله لهم أن يأكلوا كيف شاءوا مجتمعين ومتفرقين .

وقال الكلبي : كانوا إذا اجتمعوا ليأكلوا طعاماً عزلوا للأعمى طعاماً على حدة ، وكذلك للزمن والمريض ، فبين الله لهم أن ذلك غير واجب ، وقال آخرون : كانوا يأكلون فرادى خوفاً من أن يحصل عند الجمعية ما ينفر أو يؤذي ، فبين الله تعالى أنه غير واجب وقوله : ﴿ جَمِيعاً ﴾ نصب على الحال ﴿ وأشتاتاً ﴾ جمع شت وشتى جمع شتيت وشتان تثنية شت قاله المفضل وقيل الشت مصدر بمعنى التفرق ثم يوصف به ويجمع .

أما قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُواْ على أَنفُسِكُمْ ﴾ فالمعنى أنه تعالى جعل أنفس المسلمين كالنفس الواحدة على مثال قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ ﴾ [النساء : 29] قال ابن عباس : فإن لم يكن أحد فعلى نفسه ليقل السلام علينا من قبل ربنا ، وإذا دخل المسجد فليقل السلام على رسول الله وعلينا من ربنا .

قال قتادة : وحدثنا أن الملائكة ترد عليه .

قال القفال : وإن كان في البيت أهل الذمة فليقل السلام على من اتبع الهدى وقوله ﴿ تَحِيَّةً ﴾ نصب على المصدر ، كأنه قال : فحيوا تحية من عند الله ، أي مما أمركم الله به .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : من قال السلام عليكم معناه اسم الله عليكم وقوله : ﴿ مباركة طَيِّبَةً ﴾ قال الضحاك : معنى البركة فيه تضعيف الثواب وقال الزجاج : أعلم الله سبحانه أن السلام مبارك ثابت لما فيه من الأجر والثواب وأنه إذا أطاع الله فيه أكثر خيره وأجزل أجره ﴿ كذلك يُبيّنُ الله لَكُمُ الآيات ﴾ أي يفصل الله شرائعه لكم ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ لتفهموا عن الله أمره ونهيه ، وروى حميد عن أنس قال : "خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين فما قال لي في شيء فعلته لم فعلته ولا قال لي في شيء تركته لم تركته ، وكنت واقفاً على رأس النبي صلى الله عليه وسلم أصب الماء على يديه فرفع رأسه إلي وقال : " ألا أعلمك ثلاث خصال تنتفع بهن ؟ " قلت بأبي وأمي أنت يا رسول الله بلى ، فقال " من لقيت من أمتي فسلم عليهم يطل عمرك ، وإذا دخلت بيتاً فسلم

عليهم يكثر خير بيتك ، وصل صلاة الضحى فإنها صلاة (الأبرار) الأوابين " . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 24 صـ 31.34 ﴾

(89/554)

وقال الجصاص :

وقَوْله تَعَالَى : ﴿ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ ﴾ الْآيَةَ .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : قَدْ اخْتَلَفَ السَّلَفُ فِي تَأْوِيلِهِ وَسَبَبِ نُزُولِهِ ، فَحَدَّثَنَا جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَكَمِ قَالَ : حَدَّثَنَا جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ الْيَمَانِ قَالَ : حَدَّثَنَا أَبُو عُبَيْدٍ قَالَ : حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ صَالِحٍ عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ صَالِحٍ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْمٍ : ﴿ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾ قَالَ : (لَمَّا نَزَلَتْ : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ ﴾ قَالَ الْمُسْلِمُونَ : إنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ نَهَانَا أَنْ نَأْكُلَ أَمْوَالَنَا بَيْنَنَا بِالْبَاطِلِ وَإِنَّ الطَّعَامَ مِنْ أَفْضَلِ أَمْوَالِنَا وَلَا يَحِلُّ لِأَحَدٍ أَنْ يَأْكُلَ عِنْدَ أَحَدٍ ؛ فَكَفَّ النَّاسَ عَنْ ذَلِكَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ ﴾ الْآيَةَ) .

فَهَذَا أَحَدُ التَّأْوِيلَاتِ .

وَحَدَّثَنَا جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ (بْنُ الْحَكَمِ) قَالَ : حَدَّثَنَا جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ (بْنُ الْيَمَانِ) قَالَ :

حَدَّثَنَا أَبُو عُبَيْدٍ قَالَ : حَدَّثَنَا حَجَّاجٌ عَنْ ابْنِ جُرَيْجٍ عَنْ مُجَاهِدٍ فِي هَذِهِ الْآيَةِ قَالَ : (كَانَ رِجَالٌ زَمْنَى وَعُمْيَانٌ وَعُرْجَانٌ وَأُولُو حَاجَةٍ يَسْتَتْبِعُهُمْ رِجَالٌ إِلَى بُيُوتِهِمْ فَإِنْ لَمْ يَجِدُوا لَهُمْ طَعَامًا ذَهَبُوا بِهِمْ إِلَى بُيُوتِ آبَائِهِمْ وَمَنْ مَعَهُمْ ، فَكَرِهَ الْمُسْتَتْبِعُونَ ذَلِكَ ، فَنَزَلَتْ : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ ﴾ الْآيَةَ ، وَأُحِلَّ لَهُمْ الطَّعَامُ حَيْثُ وَجَدُوهُ مِنْ ذَلِكَ) .

(90/554)

فَهَذَا تَأْوِيلٌ ثَانِي .

وَحَدَّثَنَا جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ (بْنُ الْحَكَمِ) قَالَ : حَدَّثَنَا جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ الْيَمَانِ قَالَ : حَدَّثَنَا أَبُو عُبَيْدٍ قَالَ : حَدَّثَنَا ابْنُ مَهْدِيٍّ عَنْ ابْنِ الْمُبَارَكِ عَنْ مَعْمَرٍ قَالَ : قُلْت لِلزُّهْرِيِّ : مَا بَالُ الْأَعْمَى وَالْأَعْرَجِ وَالْمَرِيضِ ذُكِرُوا هَهُنَا ؟ فَقَالَ : أَخْبَرَنِي عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُتْبَةَ : (أَنَّ

الْمُسْلِمِينَ كَانُوا إِذَا غَزَوْا خَلَّفُوا زَمْنَاهُمْ فِي بُيُوتِهِمْ وَسَلَّمُوا إِلَيْهِمْ الْمَفَاتِيحَ وَقَالُوا : قَدْ أَحْلَلْنَا لَكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْهَا ، فَكَانُوا يَتَحَرَّجُونَ مِنْ ذَلِكَ وَيَقُولُونَ : لَا نَدْخُلُهَا وَهُمْ غُيَّبٌ ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ رُخْصَةً لَهُمْ) .

فَهَذَا تَأْوِيلٌ ثَالِثٌ .

وَرُوِيَ فِيهِ تَأْوِيلٌ رَابِعٌ ، وَهُوَ مَا رَوَى سُفْيَانُ عَنْ قَيْسِ بْنِ مُسْلِمٍ عَنْ مِقْسَمٍ قَالَ : (كَانُوا يَمْتَنِعُونَ أَنْ يَأْكُلُوا مَعَ الْأَعْمَى وَالْمَرِيضِ وَالْأَعْرَجِ ؛ لِأَنَّهُ لَا يَنَالُ مَا يَنَالُ الصَّحِيحُ ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ) وَقَدْ أَنْكَرَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ هَذَا التَّأْوِيلَ ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَقُلْ : لَيْسَ عَلَيْكُمْ حَرَجٌ فِي مُؤَاكَلَةِ الْأَعْمَى وَإِنَّمَا أَزَالَ الْحَرَجَ عَنْ الْأَعْمَى وَمَنْ ذُكِرَ مَعَهُ فِي الْأَكْلِ ، فَهَذَا فِي الْأَعْمَى إذَا أَكَلَ مِنْ مَالِ غَيْرِهِ عَلَى أَحَدِ الْوُجُوهِ الْمَذْكُورَةِ عَنْ السَّلَفِ ، وَإِنْ كَانَ تَأْوِيلُ مِقْسَمٍ مُحْتَمَلًا عَلَى بُعْدٍ فِي الْكَلَامِ ، وَتَأْوِيلُ ابْنِ عَبَّاسٍ ظَاهِرٌ ؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى : ﴿ لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ ﴾ وَلَمْ يَكُنْ هَذَا تِجَارَةً وَامْتَنَعُوا مِنْ الْأَكْلِ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ إبَاحَةَ ذَلِكَ .

وَأَمَّا تَأْوِيلُ مُجَاهِدٍ فَهُوَ سَائِغٌ مِنْ وَجْهَيْنِ : أَحَدُهُمَا : أَنَّهُ قَدْ كَانَتْ الْعَادَةُ عِنْدَهُمْ بَذْلَ الطَّعَامِ لِأَقْرِبَائِهِمْ وَمَنْ مَعَهُمْ ، فَكَانَ جَرَيَانُ الْعَادَةِ بِهِ كَالنُّطْقِ بِهِ ، فَأَبَاحَ اللَّهُ لِلْأَعْمَى وَمَنْ ذُكِرَ مَعَهُ إذَا اسْتَتْبَعُوا أَنْ يَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِ مَنْ اتَّبَعُوهُمْ وَبُيُوتِ آبَائِهِمْ .

وَالثَّانِي : أَنَّ ذَلِكَ فِيمَنْ كَانَ بِهِ ضَرُورَةٌ إِلَى الطَّعَامِ ، وَقَدْ كَانَتْ الضِّيَافَةُ وَاجِبَةً فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ لِأَمْثَالِهِمْ ، فَكَانَ ذَلِكَ الْقَدْرُ مُسْتَحَقًّا مِنْ مَالِهِمْ لِهَؤُلَاءِ ؛ فَلِذَلِكَ أُبِيحَ لَهُمْ أَنْ يَأْكُلُوا مِنْهُ مِقْدَارَ الْحَاجَةِ بِغَيْرِ إِذْنٍ .

وَقَالَ قَتَادَةُ : " إِنْ أَكَلْت مِنْ بَيْتِ

صَدِيقِك بِغَيْرِ إِذْنِهِ فَلَا بَأْسَ " ، لِقَوْلِهِ : ﴿ أَوْ صَدِيقِكُمْ ﴾ .

وَرُوِيَ أَنَّ أَعْرَابِيًّا دَخَلَ عَلَى الْحَسَنِ ، فَرَأَى سُفْرَةً مُعَلَّقَةً فَأَخَذَهَا وَجَعَلَ يَأْكُلُ مِنْهَا ، فَبَكَى الْحَسَنُ ، فَقِيلَ لَهُ : مَا يُبْكِيك ؟ فَقَالَ : ذَكَرْت بِمَا صَنَعَ هَذَا إِخْوَانًا لِي مَضَوْا ؛ يَعْنِي أَنَّهُمْ كَانُوا يَنْبَسِطُونَ فِي مِثْلِ ذَلِكَ وَلَا يَسْتَأْذِنُونَ .

وَهَذَا أَيْضًا عَلَى مَا كَانَتْ الْعَادَةُ قَدْ جَرَتْ بِهِ مِنْهُمْ فِي مِثْلِهِ .

(93/554)

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ ﴾ يَعْنِي وَاَللَّهُ أَعْلَمُ : مِنْ الْبُيُوتِ الَّتِي هُمْ سُكَّانُهَا وَهُمْ عِيَالُ غَيْرِهِمْ فِيهَا ، مِثْلُ أَهْلِ الرَّجُلِ وَوَلَدِهِ وَخَادِمِهِ وَمَنْ يَشْتَمِلُ عَلَيْهِ مَنْزِلُهُ فَيَأْكُلُ مِنْ بَيْتِهِ ؛ وَنَسَبَهَا إِلَيْهِمْ ؛ لِأَنَّهُمْ سُكَّانُهَا وَإِنْ كَانُوا فِي عِيَالِ غَيْرِهِمْ وَهُوَ صَاحِبُ الْمَنْزِلِ ؛ لِأَنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ الْإِبَاحَةَ لِلرَّجُلِ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ مَالِ نَفْسِهِ ؛ إِذْ كَانَ ظَاهِرُ

الْخِطَابِ وَابْتِدَاؤُهُ فِي إِبَاحَةِ الْأَكْلِ لِلْإِنْسَانِ مِنْ مَالِ غَيْرِهِ ؛ وَقَالَ اللَّهُ : ﴿ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ ﴾ فَأَبَاحَ الْأَكْلَ مِنْ بُيُوتِ هَؤُلَاءِ الْأَقْرِبَاءِ ذَوِي الْمَحَارِمِ بِجَرَيَانِ الْعَادَةِ بِبَذْلِ الطَّعَامِ لِأَمْثَالِهِمْ وَفَقْدِ التَّمَانُعِ فِي أَمْثَالِهِ ، وَلَمْ يَذْكُرْ الْأَكْلَ فِي بُيُوتِ الْأَوْلَادِ ؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ ﴾ قَدْ أَفَادَهُ ؛ لِأَنَّ مَالَ الرَّجُلِ مَنْسُوبٌ إلَى أَبِيهِ ، قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ أَنْتَ وَمَالُك لِأَبِيك ﴾ وَقَالَ : ﴿ إنَّ أَطْيَبَ مَا أَكَلَ الرَّجُلُ مِنْ كَسْبِهِ وَإِنَّ وَلَدَهُ مِنْ كَسْبِهِ فَكُلُوا مِنْ كَسْبِ أَوْلَادِكُمْ ﴾ ، فَاكْتَفَى بِذِكْرِ بُيُوتِ أَنْفُسِكُمْ عَنْ ذِكْرِ بُيُوتِ الْأَوْلَادِ ؛ إذْ كَانَتْ مَنْسُوبَةً إلَى الْآبَاءِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ

(94/554)

أَوْ صَدِيقِكُمْ ﴾ رُوِيَ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ : ﴿ أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ ﴾ قَالَ : (هُوَ الرَّجُلُ يُؤَاكِلُ الرَّجُلَ بِصَنْعَتِهِ ، يُرَخَّصُ لَهُ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ ذَلِكَ الطَّعَامِ وَالثَّمَرِ وَيَشْرَبَ مِنْ ذَلِكَ اللَّبَنِ) .

وَعَنْ عِكْرِمَةَ فِي قَوْلِهِ : ﴿ أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ ﴾ قَالَ : (إذَا مَلَكَ الْمِفْتَاحَ فَهُوَ جَائِزٌ وَلَا

بَأْسَ أَنْ يَطْعَمَ الشَّيْءَ الْيَسِيرَ) .

وَرَوَى سَعِيدٌ عَنْ قَتَادَةَ فِي قَوْلِهِ : ﴿ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ ﴾ قَالَ : وَكَانَ الرَّجُلُ لَا يُضَيِّفُ أَحَدًا وَلَا يَأْكُلُ مِنْ بَيْتِ غَيْرِهِ تَأَثُّمًا مِنْ ذَلِكَ ، وَكَانَ أَوَّلُ مَنْ رَخَّصَ اللَّهُ لَهُ فِي ذَلِكَ ثُمَّ رَخَّصَ لِلنَّاسِ عَامَّةً ، فَقَالَ : ﴿ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ ﴾ إلَى قَوْلِهِ : ﴿ أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ ﴾ مِمَّا عِنْدَكَ يَا ابْنَ آدَمَ ، أَوْ صَدِيقِكُمْ ، وَلَوْ دَخَلْت عَلَى صَدِيقٍ فَأَكَلْت مِنْ طَعَامِهِ بِغَيْرِ إذْنِهِ كَانَ ذَلِكَ حَلَالًا .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : وَهَذَا أَيْضًا مَبْنِيٌّ عَلَى مَا جَرَتْ الْعَادَةُ بِالْإِذْنِ فِيهِ فَيَكُونُ الْمُعْتَادُ مِنْ ذَلِكَ كَالْمَنْطُوقِ بِهِ ، وَهُوَ مِثْلُ مَا تَتَصَدَّقُ بِهِ الْمَرْأَةُ مِنْ بَيْتِ زَوْجِهَا بِالْكِسْرَةِ وَنَحْوِهَا مِنْ غَيْرِ اسْتِئْذَانِهَا إيَّاهُ ؛ لِأَنَّهُ مُتَعَارَفٌ أَنَّهُمْ لَا يُمْنَعُونَ مِنْ مِثْلِهِ ، كَالْعَبْدِ الْمَأْذُونِ وَالْمُكَاتَبِ يَدْعُوَانِ إلَى طَعَامِهِمَا وَيَتَصَدَّقَانِ بِالْيَسِيرِ مِمَّا فِي أَيْدِيهِمَا فَيَجُوزُ بِغَيْرِ إذْنِ الْمَوْلَى .

(95/554)

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَوْ صَدِيقِكُمْ ﴾ رَوَى الْأَعْمَشُ عَنْ نَافِعٍ عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ : (لَقَدْ رَأَيْتُنِي وَمَا الرَّجُلُ الْمُسْلِمُ بِأَحَقَّ بِدِينَارِهِ وَدِرْهَمِهِ مِنْ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ) .

وَرَوَى عَبْدُ اللَّهِ الرصافي عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ قَالَ : "كَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يَرَى أَحَدُهُمْ أَنَّهُ أَحَقُّ بِالدِّينَارِ وَالدِّرْهَمِ مِنْ أَخِيهِ " وَرَوَى إِسْحَاقُ بْنُ كَثِيرٍ قَالَ :

حَدَّثَنَا الرصافي قَالَ : "كُنَّا عِنْدَ أَبِي جَعْفَرٍ يَوْمًا فَقَالَ : هَلْ يُدْخِلُ أَحَدُكُمْ يَدَهُ فِي كُمِّ أَخِيهِ فَيَأْخُذُ مَالَهُ ؟ قُلْنَا : لَا ، قَالَ : مَا أَنْتُمْ بِإِخْوَانٍ " .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : قَدْ دَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ عَلَى أَنَّ مَنْ سَرَقَ مِنْ ذِي رَحِمٍ مَحْرَمٍ أَنَّهُ لَا يُقْطَعُ لِإِبَاحَةِ اللَّهِ لَهُمْ بِهَذِهِ الْآيَةِ الْأَكْلَ مِنْ بُيُوتِهِمْ وَدُخُولِهَا مِنْ غَيْرِ إِذْنِهِمْ فَلَا يَكُونُ مَالُهُ مُحَرَّزًا مِنْهُمْ .

فَإِنْ قِيلَ : فَيَنْبَغِي أَنْ لَا يُقْطَعَ إِذَا سَرَقَ مِنْ صَدِيقِهِ ؛ لِأَنَّ فِي الْآيَةِ إِبَاحَةَ الْأَكْلِ مِنْ طَعَامِهِ قِيلَ لَهُ : مَنْ أَرَادَ سَرِقَةَ مَالِهِ لَا يَكُونُ صَدِيقًا لَهُ .

وَقَدْ قِيلَ : إِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ مَنْسُوخَةٌ بِقَوْلِهِ : ﴿ لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا ﴾ وَبِقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ لَا يَحِلُّ مَالُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إِلَّا بِطِيبَةٍ مِنْ نَفْسِهِ ﴾ .

(96/554)

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : لَيْسَ فِي ذَلِكَ مَا يُوجِبُ نَسْخَهُ ؛ لِأَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ فِيمَنْ ذُكِرَ فِيهَا ، وَقَوْلُهُ : ﴿ لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ ﴾ فِي سَائِرِ النَّاسِ غَيْرِهِمْ وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ لَا يَحِلُّ مَالُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إِلَّا بِطِيبَةٍ مِنْ نَفْسِهِ ﴾ .

وقَوْله تعَالَى ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ﴾ .

رَوَى سَعِيدٌ عَنْ قَتَادَةَ قَالَ : "كَانَ هَذَا الْحَيُّ مِنْ كِنَانَةَ بَنِي خُزَيْمَةَ يَرَى أَحَدُهُمْ أَنَّهُ مُحَرَّمٌ عَلَيْهِ أَنْ يَأْكُلَ ، وَحْدَهُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ حَتَّى أَنَّ الرَّجُلَ لَيَسُوقُ الذَّوْدَ الْحُفَّلَ وَهُوَ جَائِعٌ حَتَّى يَجِدَ مَنْ يُؤَاكِلُهُ وَيُشَارِبُهُ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ﴾ .

وَرَوَى الْوَلِيدُ بْنُ مُسْلِمٍ قَالَ : حَدَّثَنَا وَحْشِيُّ بْنُ حَرْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ وَحْشِيٍّ أَنَّ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالُوا : إنَّا نَأْكُلُ وَلَا نَشْبَعُ ، قَالَ : ﴿ فَلَعَلَّكُمْ تَفْتَرِقُونَ ؟ قَالُوا

: نَعَمْ ، قَالَ : فَاجْتَمِعُوا عَلَى طَعَامِكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ يُبَارِكْ لَكُمْ فِيهِ ﴾ وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : ﴿ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ﴾ "الْمَعْنَى : يَأْكُلُ مَعَ الْفَقِيرِ فِي بَيْتِهِ" .

وَقَالَ أَبُو صَالِحٍ : (كَانَ إذَا نَزَلَ بِهِمْ ضَيْفٌ تَحَرَّجُوا أَنْ يَأْكُلُوا إلَّا مَعَهُ) .

وَقِيلَ : (إنَّ الرَّجُلَ كَانَ يَخَافُ إنْ أَكَلَ مَعَ غَيْرِهِ أَنْ يَزِيدَ أَكْلُهُ عَلَى أَكْلِ صَاحِبِهِ ، فَامْتَنَعُوا لِأَجْلِ ذَلِكَ مِنْ الِاجْتِمَاعِ عَلَى الطَّعَامِ) .

(97/554)

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : هَذَا تَأْوِيلٌ مُحْتَمَلٌ ، وَقَدْ دَلَّ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى قَوْلُهُ : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ ﴾ فَأَبَاحَ لَهُمْ أَنْ يَخْلِطُوا طَعَامَ الْيَتِيمِ بِطَعَامِهِمْ فَيَأْكُلُوهُ جَمِيعًا ، وَنَحْوُهُ قَوْلُهُ : ﴿ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ ﴾ ، فَكَانَ الْوَرِقُ لَهُمْ جَمِيعًا وَالطَّعَامُ بَيْنَهُمْ فَاسْتَجَازُوا أَكْلَهُ ، فَكَذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا ﴾ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مُرَادُهُ أَنْ يَأْكُلُوا جَمِيعًا طَعَامًا بَيْنَهُمْ وَهِيَ الْمُنَاهَدَةُ الَّتِي يَفْعَلُهَا النَّاسُ فِي الْأَسْفَارِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً ﴾ رَوَى مَعْمَرٌ عَنْ الْحَسَنِ : " فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ ، يُسَلِّمُ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ " .

وَرَوَى مَعْمَرٌ عَنْ عَمْرِو بْنِ دِينَارٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : (هُوَ الْمَسْجِدُ إِذَا دَخَلْتَهُ فَقُلْ السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ) .

وَقَالَ نَافِعٌ عَنْ ابْنِ عُمَرَ : (أَنَّهُ كَانَ إِذَا دَخَلَ بَيْتًا لَيْسَ فِيهِ أَحَدٌ قَالَ : السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ ، وَإِذَا كَانَ فِيهِ أَحَدٌ قَالَ : السَّلَامُ عَلَيْكُمْ ، وَإِذَا دَخَلَ الْمَسْجِدَ قَالَ : بِسْمِ اللَّهِ السَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ) .

وَقَالَ الزُّهْرِيُّ : ﴿ فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ ﴾ (إذَا دَخَلْت بَيْتَك فَسَلِّمْ عَلَى أَهْلِك فَهُمْ أَحَقُّ مَنْ سَلَّمْت عَلَيْهِ ، وَإِذَا دَخَلْت بَيْتًا لَا أَحَدَ فِيهِ فَقُلْ السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ ، فَإِنَّهُ كَانَ يُؤْمَرُ بِذَلِكَ حَدَّثَنَا أَنَّ الْمَلَائِكَةَ تَرُدُّ عَلَيْهِ) .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : لَمَّا كَانَ اللَّفْظُ مُحْتَمِلًا لِسَائِرِ الْوُجُوهِ الَّتِي تَأَوَّلَهُ السَّلَفُ عَلَيْهَا وَجَبَ أَنْ يَكُونَ الْجَمِيعُ مُرَادًا بِعُمُومِ اللَّفْظِ .

وَقَوْله تَعَالَى ﴿ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً ﴾ يَعْنِي أَنَّ السَّلَامَ تَحِيَّةٌ مِنْ اللَّهِ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ أَمَرَ بِهِ ، وَهِيَ مُبَارَكَةٌ طَيِّبَةٌ ؛ لِأَنَّهُ دُعَاءٌ بِالسَّلَامَةِ فَيَبْقَى أَثَرُهُ وَمَنْفَعَتُهُ .

وَفِيهِ الدَّلَالَةُ عَلَى أَنَّ قَوْلَهُ : ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ﴾ قَدْ أُرِيدَ بِهِ السَّلَامُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(99/554)

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى ﴿ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾ .

فِيهَا أَرْبَعَ عَشْرَةَ مَسْأَلَةً :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : فِي سَبَبِ نُزُولِهَا : وَفِي ذَلِكَ ثَمَانِيَةُ أَقْوَالٍ : الْأَوَّلُ : أَنَّ الْأَنْصَارَ كَانُوا يَتَحَرَّجُونَ إذَا دُعُوا إلَى طَعَامٍ أَنْ يَأْكُلُوا مَعَ هَؤُلَاءِ مِنْ طَعَامٍ وَاحِدٍ ، وَيَقُولُونَ : الْأَعْمَى لَا يُبْصِرُ طَيِّبَ الطَّعَامِ ، وَالْأَعْرَجُ لَا يَسْتَطِيعُ الزِّحَامَ عِنْدَ الطَّعَامِ ، وَالْمَرِيضُ يَضْعُفُ عَنْ مُشَارَكَةِ الصَّحِيحِ فِي الطَّعَامِ ، وَكَانُوا يَعْزِلُونَ طَعَامَهُمْ مُفْرَدًا ، وَيَرَوْنَ أَنَّهُ أَفْضَلُ ؛ فَأَنْزَلَ اللَّهُ الْآيَةَ ، وَرَفَعَ الْحَرَجَ عَنْهُمْ فِي مُؤَاكَلَتِهِمْ ؛ وَهَذَا قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ .

الثَّانِي : أَنَّ أَهْلَ الزَّمَانَةِ هَؤُلَاءِ لَيْسَ عَلَيْهِمْ حَرَجٌ أَنْ يَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِ مَنْ سَمَّى اللَّهُ بَعْدَ هَذَا مِنْ أَهَالِيهِمْ ؛ قَالَهُ مُجَاهِدٌ .

الثَّالِثُ : رَوَاهُ مَالِكٌ عَنْ الزُّهْرِيِّ عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ أَنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي أُنَاسٍ كَانُوا إذَا خَرَجُوا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَعْنُونَ فِي الْجِهَادِ وَضَعُوا مَفَاتِيحَ بُيُوتِهِمْ عِنْدَ أَهْلِ الْعِلَّةِ مِمَّنْ يَتَخَلَّفُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : عِنْدَ الْأَعْمَى ، وَالْأَعْرَجِ ، وَالْمَرِيضِ ، وَعِنْدَ أَقَارِبِهِمْ ، وَكَانُوا يَأْمُرُونَهُمْ أَنْ يَأْكُلُوا مِنْ

(100/554)

بُيُوتِهِمْ إذَا احْتَاجُوا إلَى ذَلِكَ ، فَكَانُوا يَتَّقُونَهُ وَيَقُولُونَ : نَخْشَى أَلَّا تَكُونَ نُفُوسُهُمْ بِذَلِكَ طَيِّبَةً ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ يَحِلُّهُ لَهُمْ .

الرَّابِعُ : أَنَّ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَلْحَةَ رَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ لَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ ﴾ .

فَقَالَ الْمُسْلِمُونَ : إِنَّ اللَّهَ قَدْ نَهَانَا أَنْ نَأْكُلَ أَمْوَالَنَا بَيْنَنَا بِالْبَاطِلِ ، وَالطَّعَامُ هُوَ مِنْ أَفْضَلِ الْأَمْوَالِ ، فَلَا يَحِلُّ لِأَحَدٍ مِنَّا أَنْ يَأْكُلَ عِنْدَ أَحَدٍ ، فَكَفَّ النَّاسَ عَنْ ذَلِكَ ؛ فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ إِلَى قَوْلِهِ ﴿ أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ ﴾ وَهُوَ الرَّجُلُ يُوَكِّلُ الرَّجُلَ بِضَيْعَتِهِ .

الْخَامِسُ : مَنْ دُعِيَ إِلَى وَلِيمَةٍ مِنْ هَؤُلَاءِ الزَّمْنَى فَلَا حَرَجَ عَلَيْهِ أَنْ يَدْخُلَ مَعَهُ قَائِدُهُ .

السَّادِسُ : أَنَّهَا نَزَلَتْ حِينَ كَانَتْ الْبُيُوتُ لَا أَبْوَابَ لَهَا وَالسُّتُورُ مُرْخَاةٌ ، وَالْبَيْتُ يُدْخَلُ ، فَرُبَّمَا لَمْ يُوجَدْ فِيهِ أَحَدٌ ، وَالْبُيُوتُ الْيَوْمَ فِيهَا أَهْلُهَا ، فَإِذَا خَرَجُوا أَغْلَقُوهَا .

السَّابِعُ : أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي جَوَازِ مُبَايَعَةِ الزَّمْنَى ، وَمُعَامَلَتِهِمْ ؛ قَالَتْهُ عَائِشَةُ .

الثَّامِنُ : قَالَ الْحَسَنُ : قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾ : نَفْيٌ لِوُجُوبِ الْجِهَادِ عَلَيْهِمْ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى بَعْدَ ذَلِكَ : ﴿ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ ﴾ كَلَامٌ مُسْتَأْنَفٌ خُوطِبَ بِهِ جَمِيعُ النَّاسِ .

(101/554)

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ ﴾ يَعْنِي وَلَا عَلَيْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ ، وَلَكِنْ لَمَّا اجْتَمَعَ مُخَاطَبٌ وَغَيْرُ مُخَاطَبٍ غَلَبَ الْمُخَاطَبُ لِيَنْتَظِمَ الْكَلَامُ .

وَكَانَ الْمَعْنَى يُرَادُ بِهِ جَمِيعُ مَنْ ذُكِرَ : مِنْ الْأَعْمَى ، وَالْأَعْرَجِ ، وَالْمَرِيضِ ، وَأَصْحَابِ الْبُيُوتِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ مِنْ بُيُوتِكُمْ ﴾ فِيهِ ثَلَاثَةُ أَقَاوِيلَ : الْأَوَّلُ : يَعْنِي مِنْ أَمْوَالِ عِيَالِكُمْ وَأَزْوَاجِكُمْ ؛ لِأَنَّهُمْ فِي بَيْتِهِ .

الثَّانِي : مِنْ بُيُوتِ أَوْلَادِكُمْ ، وَنُسِبَتْ أَوْلَادُهُمْ إلَيْهِمْ لِمَا جَاءَ فِي الْأَثَرِ : ﴿ أَنْتَ وَمَالُك لِأَبِيك ﴾ .

وَلِذَلِكَ لَمْ يَذْكُرْ اللَّهُ بُيُوتَ الْأَبْنَاءِ حِينَ ذَكَرَ بُيُوتَ الْآبَاءِ وَالْأَقَارِبِ ، لِدُخُولِهِمْ فِيمَا تَقَدَّمَ مِنْ ذِكْرِ الْأَنْفُسِ ، كَمَا قَرَّرْنَاهُ .

الثَّالِثُ : أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ الْبُيُوتُ الَّتِي أَهْلُوهَا وَسَاكِنُوهَا خَدَمَةٌ لِأَصْحَابِهَا .

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ : قَوْله تَعَالَى ﴿ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ ﴾ فَأَبَاحَ الْأَكْلَ لِهَؤُلَاءِ مِنْ جِهَةِ النَّسَبِ مِنْ غَيْرِ اسْتِئْذَانٍ فِي الْأَكْلِ إذَا كَانَ الطَّعَامُ مَبْذُولًا .

فَإِنْ كَانَ مُحْرَزًا دُونَهُمْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ أَخْذُهُ ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يُجَاوِزُوا إلَى الِادِّخَارِ ، وَلَا إلَى مَا لَيْسَ بِمَأْكُولٍ ، وَإِنْ كَانَ غَيْرَ مُحْرَزٍ عَنْهُمْ إلَّا بِإِذْنٍ مِنْهُمْ ، وَهِيَ الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ .

الْمَسْأَلَةُ السَّادِسَةُ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ ﴾ : فِيهِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ : أَحَدُهَا : أَنَّهُ عَنَى بِهِ وَكِيلَ الرَّجُلِ عَلَى ضَيْعَتِهِ ، وَخَازِنَهُ عَلَى مَالِهِ ؛ فَيَجُوزُ لَهُ أَنْ يَأْكُلَ مِمَّا هُوَ قَيِّمٌ عَلَيْهِ ؛ قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ .

الثَّانِي : أَنَّهُ أَرَادَ بِهِ مَنْزِلَ الرَّجُلِ نَفْسِهِ ، يَأْكُلُ مِمَّا ادَّخَرَهُ فِيهِ ، وَهَذَا قَوْلُ قَتَادَةَ .

الثَّالِثُ : أَنَّهُ عَنَى بِهِ أَكْلَ السَّيِّدِ مِنْ مَنْزِلِ عَبْدِهِ وَمَالِهِ ؛ لِأَنَّ مَالَ الْعَبْدِ لِسَيِّدِهِ ؛ حَكَاهُ ابْنُ عِيسَى .

الْمَسْأَلَةُ السَّابِعَةُ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ أَوْ صَدِيقِكُمْ ﴾ : فِيهِ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا : أَنْ يَأْكُلَ مِنْ بَيْتِ صَدِيقِهِ فِي وَلِيمَةٍ أَوْ غَيْرِهَا إذَا كَانَ الطَّعَامُ حَاضِرًا غَيْرَ مُحْرَزٍ ؛ قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ . وَالْأَصْدِقَاءُ أَكْثَرُ مِنْ الْآبَاءِ ؛ أَلَا تَرَى أَنَّ الْجَهَنَّمِيِّينَ لَمْ يَسْتَغِيثُوا بِالْآبَاءِ وَالْأُمَّهَاتِ ، وَإِنَّمَا قَالُوا : ﴿ فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴾ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّامِنَةُ : فِي تَنْقِيحِ مَعَانِي الْآيَةِ الْمَذْكُورَةِ فِي الْمَسَائِلِ السَّبْعَةِ : وَذَلِكَ يَكُونُ بِنَظْمِ التَّأْوِيلِ فِي الْأَقْوَالِ عَلَى سَرْدٍ ، فَيَتَبَيَّنُ الْمَعْنَى الْمُسْتَقِيمُ مِنْ غَيْرِهِ .

أَمَّا إِنْ قُلْنَا بِقَوْلِ الْحَسَنِ مِنْ أَنَّ نَفْيَ الْحَرَجِ عَنْ الثَّلَاثَةِ الْأَصْنَافِ الزَّمْنَى مَقْطُوعٌ عَمَّا قَبْلَهُ ، وَأَنَّ قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ ﴾ كَلَامٌ مُسْتَأْنَفٌ .

(103/554)

وَأَمَّا قَوْلُ مَنْ قَالَ فِي الْأَوَّلِ : إنَّ الْأَنْصَارَ تَحَرَّجُوا أَنْ يَأْكُلُوا مَعَهُمْ ، فَلَوْ كَانَ هَذَا صَحِيحًا لَكَانَ الْمَعْنَى : لَيْسَ عَلَى مَنْ أَكَلَ مَعَ هَؤُلَاءِ حَرَجٌ ، فَأَمَّا أَنْ يَتَحَرَّجَ غَيْرُهُمْ مِنْهُمْ ، وَيَنْفِي الْحَرَجَ عَنْهُمْ فَهُوَ قَلْبٌ لِلْقَوْلِ مِنْ غَيْرِ ضَرُورَةٍ قُلْ وَلَا رِوَايَةٍ صَحِيحَةٍ فِي نَقْلٍ .

وَأَمَّا الْقَوْلُ الثَّانِي فَإِنَّهُ كَلَامٌ يَنْتَظِمُ ؛ لِأَنَّ نَفْيَ الْحَرَجِ عَنْ أَصْحَابِ الزَّمَانَةِ وَعَمَّنْ سِوَاهُمْ أَنْ يَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِ مَنْ سَمَّى اللَّهُ فَهُوَ كَلَامٌ مُنْتَظِمٌ ، وَلَكِنْ بَقِيَ وَجْهُ الْفَائِدَةِ فِي تَخْصِيصِ أَهْلِ الزَّمَانَةِ بِالذِّكْرِ ، مَعَ أَنَّ عُمُومَ قَوْلِهِ : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا ﴾ يَكْفِي فِي تَخْصِيصِهِمْ ، فَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ وَجْهُهُ أَنَّهُ بَدَأَ بِهِمْ ؛ لِأَنَّهُمْ رَأَوْا أَنَّهُمْ بِضَرَارَتِهِمْ أَحَقُّ مِنْ الْأَصِحَّاءِ بِالْمُوَاسَاةِ وَالْمُشَارَكَةِ .

وَأَمَّا رِوَايَةُ مَالِكٍ عَنْ ابْنِ الْمُسَيِّبِ فَهُوَ أَيْضًا كَلَامٌ مُنْتَظِمٌ ، لِأَجْلِ تَخَلُّفِهِمْ عَنْهُمْ فِي الْجِهَادِ ، وَبَقَاءِ أَمْوَالِهِمْ بِأَيْدِيهِمْ ، لَكِنْ قَوْلُهُ : ﴿ أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ ﴾ قَدْ اقْتَضَاهُ وَأَفَادَهُ ، فَأَيُّ مَعْنًى لِتَكْرَارِهِ ، فَكَأَنَّ هَذَا الْقَوْلَ بَعِيدٌ جِدًّا .

وَأَمَّا الْقَوْلُ بِأَنَّهُ بَيَانٌ لِقَوْلِهِ : ﴿ لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ ﴾ فَيَنْتَظِمُ مَعْنًى ، لَكِنْ ذِكْرُ الزَّمَانَةِ غَيْرُ مُخْتَصٍّ بِهِ وَلَا مُنْتَظِمٍ مَعَهُ .

(104/554)

وَأَمَّا الْقَوْلُ الْخَامِسُ فِي أَكْلِ الْأَصِحَّاءِ مَعَ الزَّمْنَى فَذَلِكَ مَدْخُولٌ بِمَا دَخَلَ بِهِ الْقَوْلُ الْأَوَّلُ ، مِنْ أَنَّ نِظَامَ الْكَلَامِ فِي نَفْيِ الْحَرَجِ عَنْ النَّاسِ فِي الزَّمْنَى عَنْ الزَّمْنَى فِيهِمْ .

وَأَمَّا السَّادِسُ فَحَسَنٌ جِدًّا ، وَكَذَلِكَ السَّابِعُ مِثْلُهُ لَوْ عَضَّدَتْهُ صِحَّةُ النَّقْلِ .

الْمَسْأَلَةُ التَّاسِعَةُ : فِي الْمُخْتَارِ : وَذَلِكَ أَنْ يُقَالَ : إنَّ اللَّهَ رَفَعَ الْحَرَجَ عَنْ الْأَعْمَى فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالتَّكْلِيفِ الَّذِي يُشْتَرَطُ فِيهِ الْبَصَرُ ، وَعَنْ الْأَعْرَجِ فِيمَا يُشْتَرَطُ فِي التَّكْلِيفِ بِهِ الْمَشْيُ ، وَمَا يَتَعَذَّرُ مِنْ الْأَفْعَالِ مَعَ وُجُودِ الْحَرَجِ ، وَعَنْ الْمَرِيضِ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالتَّكْلِيفِ الَّذِي يُؤَثِّرُ الْمَرَضُ فِي إسْقَاطِهِ كَالصَّوْمِ ، وَشُرُوطِ الصَّلَاةِ ، وَأَرْكَانِهَا ، وَالْجِهَادِ ، وَنَحْوِ ذَلِكَ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى بَعْدَ ذَلِكَ مُبَيِّنًا : وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ حَرَجٌ فِي أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ فَهَذَا مَعْنًى صَحِيحٌ ، وَتَفْسِيرٌ مُفِيدٌ ، لَا يُفْتَقَرُ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ إلَى نَقْلٍ ، وَيُعَضِّدُهُ الشَّرْعُ وَالْعَقْلُ ؛ فَأَمَّا الْأَكْلُ مِنْ مَالِ الْأَزْوَاجِ فَذَلِكَ جَائِزٌ لِلزَّوْجَةِ فِيمَا لَيْسَ بِمَحْجُوبٍ عَنْهَا ، وَلَا مُحْرَزٍ مِنْهَا .

قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ إذَا أَنْفَقَتْ الْمَرْأَةُ مِنْ مَالِ زَوْجِهَا غَيْرَ مُفْسِدَةٍ كَانَ لَهَا

أَجْرُهَا بِمَا أَنْفَقَتْ ، وَلِلزَّوْجِ مِثْلُ ذَلِكَ ﴾ .

وَأَمَّا مَا كَانَ مُحْرَزًا

(105/554)

عَنْهَا فَلَا سَبِيلَ لَهَا إلَيْهِ ، وَكَذَلِكَ الزَّوْجُ يَأْكُلُ مِنْ مَالِ زَوْجِهِ غَيْرَ مُفْسِدٍ ، لَكِنْ الزَّوْجَةُ أَبْسَطُ ، لِمَا لَهَا مِنْ حَقِّ النَّفَقَةِ ، وَلِمَا يَلْزَمُهَا مِنْ خِدْمَةِ الْمَنْفَعَةِ .

وَأَمَّا بَيْتُ الِابْنِ فَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّهُ كَبَيْتِ الْمَرْءِ نَفْسِهِ ، لَكِنْ كَمَا بَيَّنَّاهُ فِيمَا كَانَ غَيْرَ مُحْرَزٍ ، فَلَا يَتَبَسَّطُ الْأَبُ عَلَى الِابْنِ فِي هَتْكِ حِرْزٍ وَأَخْذِ مَالٍ ؛ وَإِنَّمَا يَأْكُلُهُ مُسْتَرْسِلًا فِيمَا لَمْ يَقَعْ فِيهِ حِيَازَةٌ ، وَلَكِنْ بِالْمَعْرُوفِ دُونَ فَسَادٍ وَلَا اسْتِغْنَامٍ وَأَمَّا بَيْتُ الْأَبِ لِلِابْنِ فَمِثْلُهُ ، وَلَكِنْ تَبَسُّطُ الِابْنِ أَقَلُّ مِنْ تَبَسُّطِ الْأَبِ ، كَمَا كَانَ تَبَسُّطُ الزَّوْجِ أَقَلَّ مِنْ تَبَسُّطِ الزَّوْجَةِ .

وَأَمَّا بُيُوتُ سَائِرِ الْقَرَابَةِ الَّذِينَ ذُكِرُوا فِي الْآيَةِ فَلَا يَلْحَقُ بِذَلِكَ وَلَا سَبِيلَ إلَيْهِ .

وَأَمَّا بَيْتُ مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ فَهُوَ الْوَكِيلُ قَالَ النَّبِيُّ : ﴿ الْخَازِنُ الْأَمِينُ الَّذِي يُعْطِي مَا أُمِرَ كَامِلًا مُوَفَّرًا طَيِّبَةً بِهِ نَفْسُهُ أَحَدُ الْمُتَصَدِّقِينَ ﴾ .

وَلَا بُدَّ لِلْخَازِنِ مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِمَّا يَخْزُنُ إجْمَاعًا ، وَهَذَا إذَا لَمْ تَكُنْ لَهُ أُجْرَةٌ ، فَإِنْ اسْتَأْجَرَهُ عَلَى الْخَزْنِ حَرُمَ الْأَكْلُ .

وَأَمَّا مَالُ الْعَبْدِ فَيَدْخُلُ فِي قَوْلِهِ : (بُيُوتِكُمْ) لِأَنَّ الْعَبْدَ وَمَالَهُ مِلْكٌ لِلسَّيِّدِ .

وَأَمَّا مَنْ قَالَ : إنَّهُ مَنْزِلُ الرَّجُلِ نَفْسِهِ فَخَطَأٌ مَحْضٌ ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ قَدْ أَفَادَهُ قَوْلُهُ : (بُيُوتِكُمْ) ، كَمَا بَيَّنَّا أَنَّ بَيْتَ الِابْنِ يَدْخُلُ فِيهِ ؛ فَبَيْتُ الْعَبْدِ أَوْلَى وَأَحْرَى بِإِجْمَاعٍ .

(106/554)

وَأَمَّا بَيْتُ الصَّدِيقِ ، فَإِنَّهُ إذَا اسْتَحْكَمَتْ الْأُخُوَّةُ جَرَى التَّبَسُّطُ عَادَةً ، وَفِي الْمَثَلِ : أَيُّهُمْ أَحَبُّ إلَيْك أَخُوك أَمْ صَدِيقُك ؟ قَالَ : أَخِي إذَا كَانَ صَدِيقِي .

قَالَ لَنَا الْإِمَامُ الْعَادِلُ أَبُو الْفَضْلِ بْنُ طَوْقٍ قَالَ لَنَا جَمَالُ الْإِسْلَامِ أَبُو الْقَاسِمِ الْقُشَيْرِيُّ إمَامُ الصُّوفِيَّةِ فِي وَقْتِهِ : عَزِيزٌ مَنْ يَصْدُقُ فِي الصَّدَاقَةِ ،

فَيَكُونُ فِي الْبَاطِنِ كَمَا هُوَ فِي الظَّاهِرِ ، وَلَا يَكُونُ فِي الْوَجْهِ كَالْمِرْآةِ وَمِنْ وَرَائِك كَالْمِقْرَاضِ ، وَفِي مَعْنَاهُ مَا قُلْت : مَنْ لِي بِمَنْ يَثِقُ الْفُؤَادُ بِوُدِّهِ وَإِذَا تَرَحَّلَ لَمْ يَزِغْ عَنْ عَهْدِهِ يَا بُؤْسَ نَفْسِي مِنْ أَخٍ لِي بَاذِلٍ حُسْنَ الْوَفَاءِ بِقُرْبِهِ لَا بُعْدِهِ يُولِي الصَّفَاءَ بِنُطْقِهِ لَا خُلْقِهِ وَيَدُسُّ صَابًا فِي حَلَاوَةِ شَهْدِهِ فَلِسَانُهُ يُبْدِي جَوَاهِرَ عِقْدِهِ وَجَنَانُهُ تُغْلِي مَرَاجِلَ حِقْدِهِ لَاهُمَّ إنِّي لَا أُطِيقُ فِرَاسَةً بِك أَسْتَعِيذُ مِنْ الْحَسُودِ وَكَيْدِهِ

الْمَسْأَلَةُ الْعَاشِرَةُ : فِي تَمَامِ الْمَعْنَى فِي الْآيَةِ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا

جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ﴾ فِيهِ أَرْبَعَةُ أَقْوَالٍ : الْأَوَّلُ : أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي بَنِي كِنَانَةَ ؛ كَانَ الرَّجُلُ مِنْهُمْ يُحَرِّمُ عَلَى نَفْسِهِ أَنْ يَأْكُلَ وَحْدَهُ ، حَتَّى إنَّ الرَّجُلَ لَيُقِيمُ عَلَى الْجُوعِ حَتَّى يَجِدَ مَنْ يُؤَاكِلُهُ ، وَكَانَتْ هَذِهِ السِّيرَةُ مَوْرُوثَةً [عِنْدَهُمْ] عَنْ إبْرَاهِيمَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِنَّهُ كَانَ لَا يَأْكُلُ إلَّا مَعَ غَيْرِهِ .

(107/554)

الثَّانِي : أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي قَوْمٍ مِنْ الْعَرَبِ كَانُوا إذَا نَزَلَ بِهِمْ ضَيْفٌ تَحَرَّجُوا عَنْ أَنْ يَأْكُلَ وَحْدَهُ حَتَّى يَأْكُلُوا مَعَهُ .

الثَّالِثُ : أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي قَوْمٍ كَانُوا يَتَحَرَّجُونَ أَنْ يَأْكُلُوا جَمِيعًا ، وَيَقُولُ الرَّجُلُ : آكُلُ وَحْدِي .

الرَّابِعُ : أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي الْمُسَافِرِينَ يَخْلِطُونَ أَزْوِدَتَهُمْ ، فَلَا يَأْكُلُ حَتَّى يَأْتِيَ الْآخَرُ ، فَأُبِيحَ ذَلِكَ لَهُمْ .

وَهَذَا الْقَوْلُ تَضَمَّنَ جَمِيعَ ذَلِكَ ، فَيَجُوزُ لِلرَّجُلِ أَنْ يَأْكُلَ مَعَ الْآخَرِ ، وَلِلْجَمَاعَةِ ، وَإِنْ كَانَ أَكْلُهُمْ لَا يَنْضَبِطُ ، فَقَدْ يَأْكُلُ الرَّجُلُ قَلِيلًا وَالْآخَرُ كَثِيرًا ، وَقَدْ يَأْكُلُ الْبَصِيرُ أَكْثَرَ مِمَّا يَأْكُلُ الْأَعْمَى ، فَنَفَى اللَّهُ الْحَرَجَ عَنْ ذَلِكَ كُلِّهِ ، وَأَبَاحَ لِلْجَمِيعِ الِاشْتِرَاكَ فِي الْأَكْلِ عَلَى الْمَعْهُودِ ، مَا لَمْ يَكُنْ قَصْدًا إلَى الزِّيَادَةِ ، عَلَى مَا رَوَى ابْنُ عُمَرَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ نَهَى

عَنْ الْقِرَانِ فِي التَّمْرِ إلَّا أَنْ يَسْتَأْذِنَ الرَّجُلُ أَخَاهُ ﴾ .

وَهَذَا هُوَ النِّهْدُ الَّذِي يَجْتَمِعُ عَلَيْهِ الْقَوْمُ ، وَسَوَاءٌ كَانَ مُشْتَرًى مِنْهُمْ ، أَوْ كَانَ بِخَلْطِهِمْ لَهُ فِيمَا بَيْنَهُمْ ، فَإِنْ كَانَ طَعَامَ ضِيَافَةٍ أَوْ وَلِيمَةٍ فَلَا يَلْزَمُ ذَلِكَ فِيهِ ؛ لِأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يَأْكُلُ مِنْ مَالِ غَيْرِهِ ؛ لَا سِيَّمَا وَنَحْنُ نَقُولُ : إنَّ طَعَامَ الضِّيَافَةِ وَالْوَلِيمَةِ يَأْكُلُهُ الْحَاضِرُونَ عَلَى مِلْكِ صَاحِبِهِ

(108/554)

عَلَى أَحَدِ الْقَوْلَيْنِ ، وَهُوَ الصَّحِيحُ ، حَسْبَمَا بَيَّنَّاهُ فِي أُصُولِ الْفِقْهِ ؛ وَلِذَلِكَ لَمْ تَجُزْ التَّغْدِيَةُ وَالتَّعْشِيَةُ عِنْدَنَا فِي طَعَامِ الْكَفَّارَةِ عَلَى مَا بَيَّنَّاهُ فِي مَوْضِعِهِ .

وَقَدْ رَوَى الْبُخَارِيُّ فِي النِّهْدِ حَدِيثَ أَبِي عُبَيْدَةَ فِي جَمْعِ الْأَزْوَادِ ، وَكَانَ يُغَدِّيهِمْ كُلَّ يَوْمٍ تَمْرَةً تَمْرَةً .

وَحَدِيثَ عُمَرَ فِي نَحْرِ الْإِبِلِ وَمَنْعِهِ مِنْ ذَلِكَ ، وَجَمَعَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَزْوَادَ الْجَيْشِ ، وَبَرَّكَ عَلَيْهَا ، ثُمَّ احْتَثَى كُلُّ أَحَدٍ فِي مِزْوَدِهِ وَوِعَائِهِ مِنْ غَيْرِ تَسْوِيَةٍ ، حَتَّى فَرَغُوا ، وَاشْتِقَاقُهُ مِنْ الْخُرُوجِ ، يُقَالُ : نَهَدَ ثَدْيُ الْمَرْأَةِ ، وَنَهَدَ الْقَوْمُ لِغَزْوِهِمْ ، وَنَهَدَ الْجَمَاعَةُ : إذَا أَخْرَجُوا طَعَامًا أَوْ مَالًا ، ثُمَّ جَمَعُوهُ ، وَأَكَلُوا أَوْ أَنْفَقُوا مِنْهُ .

الْمَسْأَلَةُ الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ : قَوْلُهُ : ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ ﴾ فِي الْبُيُوتِ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا : أَنَّهَا الْبُيُوتُ كُلُّهَا .

وَالثَّانِي : أَنَّهَا الْمَسَاجِدُ .

وَالصَّحِيحُ هُوَ الْأَوَّلُ ، لِعُمُومِ الْقَوْلِ ، وَلَا دَلِيلَ عَلَى التَّخْصِيصِ .

فَأَمَّا قَوْلُهُ : ﴿ فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ ﴾ وَهِيَ : الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ : فِيهَا أَرْبَعَةُ أَقْوَالٍ :

الْأَوَّلُ : سَلِّمُوا عَلَى أَهَالِيكُمْ فِي بُيُوتِكُمْ ؛ قَالَهُ قَتَادَةُ .

الثَّانِي : إذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتَ غَيْرِكُمْ فَسَلِّمُوا عَلَيْهِمْ ؛ قَالَهُ الْحَسَنُ .

[الثَّالِثُ : إذَا دَخَلْتُمْ الْمَسَاجِدَ فَسَلِّمُوا عَلَى مَا فِيهَا مِنْ ضَيْفِكُمْ] .

(109/554)

الرَّابِعُ : إذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَارِغَةً فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ ، قُولُوا : السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ ؛ قَالَهُ ابْنُ عُمَرَ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ : فِي الْمُخْتَارِ مِنْ هَذِهِ الْأَقْوَالِ : وَبَيَانُهُ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُولَى : ﴿ لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ﴾ فَنَصَّ عَلَى بُيُوتِ الْغَيْرِ ، ثُمَّ قَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الثَّانِيَةِ : ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ ﴾

أَيْ لِيُسَلِّمَ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ ، وَأَطْلَقَ الْقَوْلَ ؛ لِأَنَّهُ قَدْ بَيَّنَ الْحُكْمَ فِي بُيُوتِ الْغَيْرِ ، لِيَدْخُلَ تَحْتَ هَذَا الْعُمُومِ كُلُّ بَيْتٍ ، كَانَ لِلْغَيْرِ أَوْ لِنَفْسِهِ ، وَقَالَ : ﴿ عَلَى أَنْفُسِكُمْ ﴾ لِيَتَنَاوَلَ اللَّفْظُ سَلَامَ الْمَرْءِ عَلَى عَيْنِهِ ، وَلِيَأْخُذَ الْمَعْنَى سَلَامَ النَّاسِ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، فَإِذَا دَخَلَ بَيْتًا لِغَيْرِهِ اسْتَأْذَنَ كَمَا تَقَدَّمَ ، وَإِنْ دَخَلَ بَيْتًا لِنَفْسِهِ سَلَّمَ ، كَمَا وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ يَقُولُ : السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ ؛ قَالَهُ ابْنُ عُمَرَ .

وَهَذَا إذَا كَانَ فَارِغًا ، فَأَمَّا إذَا كَانَ فِيهِ أَهْلُهُ وَعِيَالُهُ وَخَدَمُهُ فَلْيَقُلْ : " السَّلَامُ عَلَيْكُمْ " فَإِنَّهُمْ أَهْلٌ لِلتَّحِيَّةِ مِنْهُ ، وَإِنْ كَانَ مَسْجِدًا فَلْيَقُلْ كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ : ﴿ السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ ﴾ .

وَعَلَيْهِ حَمَلَ ابْنُ عُمَرَ الْبَيْتَ الْفَارِغَ .

وَالَّذِي اخْتَارَهُ إذَا كَانَ الْبَيْتُ فَارِغًا أَنَّهُ لَا يَلْزَمُ السَّلَامُ

(110/554)

فَإِنَّهُ إذَا كَانَ الْمَقْصُودُ الْمَلَكَ فَالْمَلَائِكَةُ لَا تُفَارِقُ الْعَبْدَ بِحَالٍ ، أَمَّا إنَّهُ إذَا دَخَلْت بَيْتَك يُسْتَحَبُّ لَك ذِكْرُ اللَّهِ بِمَا قَدْ شَرَحْنَاهُ فِي سُورَةِ الْكَهْفِ بِأَنْ يَقُولَ : ﴿ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إلَّا بِاللَّهِ ﴾ .

وَاَللَّهُ أَعْلَمُ .

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ : قَدْ بَيَّنَّا فِي سُورَةِ النِّسَاءِ كَيْفِيَّةَ السَّلَامِ الَّذِي شَرَعَ اللَّهُ لِعِبَادِهِ ، وَأَوْضَحْنَا مَجْرَاهُ ، وَمِمَّا أَجْمَعَ عَلَيْهِ الْعُلَمَاءُ أَنَّ سَلَامَ الْوَاحِدِ عَلَى الْجَمَاعَةِ يَكْفِي فِي الِابْتِدَاءِ وَالرَّدِّ .

وَقَالَ الْحَسَنُ : كَانَ النِّسَاءُ يُسَلِّمْنَ عَلَى الرِّجَالِ ، وَلَا يُسَلِّمُ الرِّجَالُ عَلَى النِّسَاءِ .

وَهَذَا صَحِيحٌ فَإِنَّهَا خُلْطَةٌ وَتَعَرُّضٌ إلَّا أَنْ تَكُونَ امْرَأَةً مُتَجَالَّةً ؛ إذْ الْخُلْطَةُ لَا تَكُونُ بَيْنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ ؛ وَهَذَا هُوَ الْمَقْصُودُ وَالْمُنْتَهَى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أحكام القرآن لابن العربى حـ 3 صـ ﴾

(111/554)

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾

فيه خمسة أقاويل :

أحدها : أن الأنصار كانوا يتحرجون أن يؤاكلوا هؤلاء إذا دعوا إلى الطعام فيقولون : الأعمى لا يبصر أطيب الطعام ، والأعرج لا يستطيع الزحام عند الطعام ، والمريض يضعف

عن مشاركة الصحيح في الطعام . وكانوا يقولون : طعامهم مفرد ويرون أنه أفضل من أن يكونوا شركاء ، فأنزل الله هذه الآية فيهم ورفع الحرج عنهم في مؤاكلتهم ، قاله ابن عباس ، والضحاك ، والكلبي .

الثاني : أنه ليس على هؤلاء من أهل الزمانة حرج أن يأكلوا من بيوت من سمى الله بعد هذا من أهاليهم ، قاله مجاهد .

الثالث : أنه كان المذكورون من أهل الزمانة يخلفون الأنصار في منازلهم إذا خرجوا بجهاد وكانوا يتحرجون أن يأكلوا منها فرخص الله لهم في الأكل من بيوت من استخلفوهم فيها ، قاله الزهري .

الرابع : أنها نزلت في إسقاط الجهاد عمن ذكروا من أهل الزمانة .

الخامس : ليس على من ذكر من أهل الزمانة حرج إذا دُعِي إلى وليمة أن يأخذ معه قائده ، وهذا قول عبد الكريم .

﴿ وَلاَ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُواْ مِن بُيُوتِكُمْ ﴾ فيه ثلاثة أقاويل

: أحدها : من أموال عيالكم وأزواجكم لأنهم في بيته .

الثاني : من بيوت أولادكم فنسب بيوت الأولاد إلى بيوت أنفسهم لقوله صلى الله عليه وسلم : " أَنتَ وَمَالُكَ لأَبِيكَ " ولذلك لم يذكر الله بيوت الأبناء حين ذكر بيوت الآباء والأقارب

اكتفاء بهذا الذكر .

الثالث : يعني بها البيوت التي هم ساكنوها خدمة لأهلها واتصالاً بأربابها كالأهل والخدم .

(112/554)

﴿ أَوْ بُيُوتِ ءَابَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالاَتِكُمْ ﴾ فأباح الأكل من بيوت هؤلاء لمكان النسب من غير استئذانهم في الأكل إذا كان الطعام مبذولاً ، فإن كان محروزاً دونهم لم يكن لهم هتك حرزه . ولا يجوز أن يتجاوزوا الأكل إلى الادخار ، ولا إلى ما ليس بمأكول وإن كان غير محروز عنهم إلا بإذن منهم ثم قال :

﴿ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ ﴾ فيه ثلاثة أقاويل

: أحدها : أنه عَنَى به وكيل الرجل وَقيِّمه في ضيعته يجوز له أن يأكل مما يقوم عليه من ثمار ضيعته ، قاله ابن عباس .

الثاني : أنه أراد منزل الرجل نفسه يأكل مما ادخره ، قاله قتادة .

الثالث : أنه عنى به أكل السيد من منزل عبده وماله لأن مال العبد لسيده ، حكاه ابن عيسى .

﴿ أَوْ صَدِيقِكُمْ ﴾ فيه قولان

: أحدهما : أنه يأكل من بيت صديقه في الوليمة دون غيرها .

الثاني : أنه يأكل من منزل صديقه في الوليمة وغيرها إذا كان الطعام حاضراً غير محرز . قال ابن عباس : الصديق أكثر من الوالدين ، ألا ترى أن الجهنميين لم يستغيثوا بالآباء ولا الأمهات وإنما قالوا : ﴿ فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ وَلاَ صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴾ وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :

" قَدْ جَعَلَ اللَّهُ فِي الصِّدِيقِ البَارِّ عِوَضاً عَنِ الرَّحِمِ المَذْمُومَةِ " والمراد بالصديق الأصدقاء وهو واحد يعبر به عن الجميع ، قال جرير :

دعون الهوى ثم ارتمين قلوبنا . . . . . بأسهم أعداءٍ وهن صديقُ

وفي الصديق قولان

: أحدهما : أنه الذي صدقك عن مودته .

الثاني : أنه الذي يوافق باطنه باطنك كما وافق ظاهره ظاهرك .

ثم اختلفوا في نسخ ما تقدم ذكره بعد ثبوت حكمه على قولين :

أحدهما : أنه على ثبوته لم ينسخ شيء منه ، قاله قتادة .

الثاني : أنه منسوخ بقوله تعالى :

﴿ لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ ﴾ الآية . ويقول النبي صلى الله عليه وسلم : " لا يحل مَالُ امْرِىءٍ مُسْلِمٍ إلاَّ بِطِيبِ نَفْسٍ مِنهُ

" قال تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً ﴾ فيه أربعة أوجه :

أحدها : أنها نزلت في بني كنانة كان رجل منهم يرى أن مُحرَّماً عليه أن يأكل وحده في الجاهلية حتى أن الرجل ليسوق الزود الحفل وهو جائع حتى يجد من يؤاكله ويشاربه ، فأنزل فيهم هذه الآية ، قاله قتادة وابن جريج .

الثاني : أنها نزلت في قوم من العرب كان الرجل منهم إذا نزل به ضيف تحرج أن يتركه يأكل وحده حتى يأكل معه ، فنزل ذلك فيهم ، قال أبو صالح .

الثالث : أنها نزلت في قوم كانوا يتحرجون أن يأكلوا جميعاً ويعتقدون أنه ذنب ويأكل كل واحد منهم منفرداً ، فنزل ذلك فيهم ، حكاه النقاش .

الرابع : أنها نزلت في قوم مسافرين اشتركوا في أزوادهم فكان إذا تأخر أحدهم أمسك الباقون عن الأكل حتى يحضر ، فنزل ذلك فيهم ترخيصاً للأكل جماعة وفرادى .

﴿ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتاً ﴾ فيها قولان

: أحدهما : أنه المساجد .

الثاني : أنها جميع البيوت .

﴿ فَسَلِّمُواْ عَلَى أَنفُسِكُمْ ﴾ فيه خمسة أقاويل

: أحدها : يعني إذا دخلتم بيوت أنفسكم فسلموا على أهاليكم وعيالكم ، قاله جابر .

الثاني : إذا دخلتم المساجد فسلموا على من فيها ، وهذا قول ابن عباس .

الثالث : إذا دخلتم بيوت غيركم فسلموا عليهم ، قاله الحسن .

الرابع : إذا دخلتم بيوتاً فسلموا على أهل دينكم ، قاله السدي .

الخامس : إذا دخلتم بيوتاً فارغة فسلموا على أنفسكم وهو أن يقول : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، قاله ابن عمر ، وإبراهيم ، وأبو مالك ، وقيل : سلامه على نفسه أن يقول : السلام علينا من ربنا تحية من عند الله .

(114/554)

وإذا سلم الواحد من الجماعة أجزأ عن جميعهم ، فإذا دخل الرجل مسجداً ذا جمع كثير سلم يسمع نفسه ، وإذا كان ذا جمع قليل أسمعهم أو بعضهم .

قال الحسن : كان النساء يسلمن على الرجال ولا يسلم الرجال على النساء ، وكان ابن عمر يسلم على النساء ، ولو قيل لا يسلم أحد الفريقين على الآخر كان أولى لأن السلام

مواصلة .

﴿ تَحِيَّةً مِنْ عِندِ اللَّهِ ﴾ فيه أربعة أقاويل

: أحدها : يعني أن السلام اسم من أسماء الله تعالى .

الثاني : أن التحية بالسلام من أوامر الله .

الثالث : أن الرد عليه إذا سلم دعاء له عند الله .

الرابع : أن الملائكة ترد عليه فيكون ثواباً من عند الله .

﴿ مُبَارَكَةً ﴾ فيها وجهان

: أحدهما : لما فيها من الثواب الجزيل .

الثاني : لما يرجى من ثواب الدعاء .

﴿ طَيِّبَةً ﴾ يحتمل وجهين

: أحدهما : لما فيها من طيب العيش بالتواصل .

الثاني : لما فيها من طيب الذكر والشأن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ

﴾

(115/554)

وقال ابن عطية :

﴿ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾

(116/554)

اختلف الناس في المعنى الذي رفع الله فيه " الحرج " عن الأصناف الثلاثة ، فظاهر الآية وأمر الشريعة أن الحرج عنهم مرفوع في كل ما يضطرهم إليه العذر وتقتضي نيتهم الإتيان بالأكمل ، ويقتضي العذر أن يقع منهم الأنقص ، فالحرج مرفوع عنهم في هذا . فأما ما قال الناس في هذا " الحرج " هنا فقال ابن زيد هو الحرج في الغزو أي لا حرج عليهم في تأخرهم ، وقوله : ﴿ ولا على أنفسكم ﴾ الآية معنى مقطوع من الأول ، وقالت فرقة الآية كلها في معنى المطاعم قال وكانت العرب ومن بالمدينة قبل المبعث تتجنب الأكل مع أهل الأعذار فبعضهم كان يفعل ذلك تقذراً لجولان اليد من ﴿ الأعمى ﴾ ولانبساط الجلسة من ﴿ الأعرج ﴾ ولرائحة المريض وعلاته وهي أخلاق جاهلية وكبر ، فنزلت مؤيدة ، وبعضهم كان يفعل ذلك تحرجاً من غبن أهل الأعذار إذ هم مقصرون في الأكل عن درجة الأصحاء لعدم الرؤية في ﴿ الأعمى ﴾ وللعجز عن المزاحمة في ﴿ الأعرج ﴾ ولضعف المريض فنزلت الآية في إباحة الأكل معهم ، وقال ابن عباس في كتاب الزهراوي أن أهل هذه الأعذار

تحرجوا في الأكل مع الناس لأجل عذرهم فنزلت الآية مبيحة لهن ، وقال ابن عباس أيضاً الآية من أولها إلى آخرها إنما نزلت بسبب أن الناس ، لما نزلت ﴿ ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ﴾ [البقرة : 188] قالوا لا مال أعز من الطعام وتحرجوا من أن يأكل أحد مع هؤلاء فيغبنهم في الأكل فيقع في أكل المال بالباطل ، وكذلك تحرجوا عن أكل الطعام القرابات لذلك فنزلت الآية مبيحة جميع هذه المطاعم ومبينة تلك إنما هي في التعدي والقمار وكل ما يأكله المرء من مال الغير والغير كاره أو بصفة فاسدة ونحوه ، وقال عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود قوله في الأصناف الثلاثة إنما نزلت بسبب أن الناس كانوا إذا نهضوا إلى الغزو ، خلفوا أهل العذر في منازلهم وأموالهم ، فكان أهل العذر يتجنبون أكل مال الغائب ، فنزلت الآية مبيحة لهم أكل الحاجة من طعام الغائب

(117/554)

إذا كان الغائب قد بنى على ذلك ، وقيل كان الرجل إذا ساق أهل العذر إلى بيته فلم يجد فيه شيئاً ذهب بهم إلى بيت قرابته فتحرج أهل الأعذار من ذلك ، فنزلت الآية وذكر الله تعالى بيوت القرابات وسقط منها بيوت الأبناء ، فقال المفسرون ذلك داخل في قوله ﴿ من بيوتكم ﴾ لأن بيت ابن الرجل بيته ، وقرأ طلحة بن مصرف " إمهاتكم " بكسر الهمزة

وقوله : ﴿ أم ما ملكتم مفاتحه ﴾ يعني ما حزتم وصار في قبضتكم ، فعظمه ما ملكه الرجل في بيته وتحت غلقه وذلك هو تأويل الضحاك ومجاهد ، وعند جمهور المفسرين يدخل في الآية الوكلاء والعبيد والأجراء بالمعروف ، وقرأ جمهور الناس " مَلَكتم " بفتح الميم واللام ، وقرأ سعيد بن جبير " مُلِّكتم " بضم الميم وكسر اللام وشدها ، وقرأ جمهور الناس " مفاتحه " ، وقرأ سعيد بن جبير " مفاتيحه " بياء بين التاء والحاء الأولى على جمع مَفتح والثانية على جمع مُفتاح ، وقرأ قتادة " ملكتم مفاتحه " وقرن تعالى في هذه الآية الصديق بالقرابة المحضة الوكيدة لأن قرب المودة لصيق ، قال معمر : قلت لقتادة ألا أشرب من هذا الجب ؟ قال أنت لي صديق فما هذا الاستئذان ؟ قال ابن عباس في كتاب النقاش الصديق أوكد من القرابة ، ألا ترى إلى استغاثة الجهنميين

﴿ فما لنا من شافعين ولا صديق حميم ﴾ [الشعراء : 100] وقوله ﴿ ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعاً أو أشتاتاً ﴾ رد لمذهب جماعة من العرب كانت لا تأكل أفراداً البتة ، قاله الطبري ، ومن ذلك قول بعض الشعراء : [الطويل]

إذا صنعت الزاد فالتمسي له . . . أكيلاً فإني لست آكله وحدي

(118/554)

وكان بعض العرب إذا كان له ضيف لا يأكل إلا أن يأكل مع ضيفه فنزلت هذه الآية مبينة سنة الأكل ومذهبة كل ما خلفها من سنة العرب ، ومبيحة من أكل المنفرد ما كان عند العرب محرماً نحت به نحو كرم الخلق فأفرطت في إلزامه وأن إحضار الأكيل لحسن ولكن بأن لا يحرم الانفراد ، وقال بعض أهل العلم هذه الآية منسوخة بقوله عليه السلام : " إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام " وبقوله تعالى : ﴿ لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا ﴾ [النور : 27] وبقوله عليه السلام من حديث ابن عمر " لا يحلبن أحد ماشية أحد إلا بإذنه " الحديث ، ثم ختم الله تعالى الآية بتبيينه سنة السلام في البيوت ، واختلف المتأولون في أي البيوت أراد ، فقال إبراهيم النخعي أراد المساجد ، والمعنى سلموا على من فيها من صنفكم فهذا كما قال ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم ﴾ [التوبة : 128] فإن لم يكن في المساجد أحد فالسلام أن يقول المرء السلام على رسول الله وقيل السلام عليكم يريد الملائكة ثم يقول السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين قوله ﴿ تحية ﴾ مصدر ووصفها بالبركة لأن فيها الدعاء واستجلاب مودة المسلم عليه والكاف من قوله ﴿ كذلك ﴾ كاف تشبيه وذلك إشارة إلى هذه السنن أي كهذا الذي وصف يطرد تبيين الآيات ﴿ لعلكم ﴾ تعقلونها وتعملون بها ، وقال بعض الناس في هذه الآية إنها منسوخة بآية الاستئذان الذي أمر به الناس وهي المقدمة في السورة ، فإذا كان الإذن محجوراً فالطعام

أحرى ، وكذلك أيضاً فرضت فرقة نسخاً بينها وبين قوله تعالى ﴿ ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ﴾ [البقرة : 188] .

(119/554)

قال الفقيه الإمام القاضي : والنسخ لا يتصور في شيء من هذه الآيات بل هي كلها محكمة ، أما قوله ﴿ ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ﴾ [البقرة : 188] ففي التعدي والخدع والإغرار واللهو والقمار ونحوه ، وأما هذه الآية ففي إباحة هذه الأصناف التي يسرها استباحة طعامها على هذه الصفة ، وأما آية الإذن فعلة إيجاب الاستئذان خوف الكشف فإذا استأذن الرجل خوف الكشفة ودخل المنزل بالوجه المباح صح له بعد ذلك أكل الطعام بهذه الإباحة وليس يكون في الآية نسخ فتأمله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(120/554)

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ ليس على الأعمى حَرَجٌ ﴾

في سبب نزولها خمسة أقوال .

أحدها : أنه لمّا نزل قوله تعالى : ﴿ لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ﴾ [النساء : 29] تحرَّج المسلمون عن مؤاكلة المرضى والزَّمنى والعُمْي والعُرْج ، وقالوا : الطعام أفضل الأموال ، وقد نهى الله تعالى عن أكل المال بالباطل ، والأعمى لا يُبْصِر موضع الطعام الطيِّب ، والمريض لا يستوفي الطعام ، فنزلت هذه الآية ، قاله ابن عباس .

والثاني : أن ناساً كانوا إذا خرجوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وضعوا مفاتيح بيوتهم عند الأعمى والأعرج والمريض وعند أقاربهم ، وكانوا يأمرونهم أن يأكلوا مما في بيوتهم إذا احتاجوا ، فكانوا يَتَّقون أن يأكُلوا منها ، ويقولون : نخشى أن لا تكون أنفُسُهم بذلك طيِّبة ، فنزلت هذه الآية ، قاله سعيد بن المسيب .

والثالث : أن العُرجان والعُميان كانوا يمتنعون عن مؤاكلة الأصحاء ، لأن الناس يتقذَّرونهم ، فنزلت هذه الآية ، قاله سعيد بن جبير ، والضحاك .

والرابع : أن قوماً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا إذا لم يكن عندهم ما يُطعمون المريض والزَّمِن ، ذهبوا به إلى بيوت آبائهم وأُمهاتهم وبعض من سمَّى اللّهُ عز وجل في هذه الآية ، فكان أهل الزمَّانَة يتحرَّجون من أكل ذلك الطعام لأنه أطعمهم غير مالكه ،

فنزلت هذه الآية ، قاله مجاهد .

والخامس : أنها نزلت في إِسقاط الجهاد عن أهل الزمَّانَة المذكورين في الآية ، قاله الحسن ، وابن زيد .

فعلى القول الأول يكون معنى الآية : ليس عليكم في الأعمى حرج أن تأكلوا معه ، ولا في الأعرج ، وتكون "على" بمعنى "في" ، ذكره ابن جرير .

وكذلك يخرَّج [معنى الآية] على كل قول بما يليق به .

وقد كان جماعة من المفسرين يذهبون إلى أن آخر الكلام ﴿ ولا على المريض حرج ﴾ وأن ما بعده مستأنَف لا تعلُّق له به ، وهو يقوِّي قول الحسن ، وابن زيد .

(121/554)

قوله تعالى : ﴿ أن تأكُلوا من بيوتكم ﴾ فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها بيوت الأولاد .

والثاني : البيوت التي يسكنونها وهم فيها عيال غيرهم ، فيكون الخطاب لأهل الرجل وولده وخادمه ، ومَن يشتمل عليه منزله ، ونسبها إِليهم لأنهم سكّانها .

والثالث : أنها بيوتهم والمراد أكلُهم من مال عيالهم وأزواجهم ، لأن بيت المرأة كبيت

الرجل .

وإنما أباح الأكل من بيوت القرابات المذكورين ، لجريان العادة ببذل طعامهم لهم ؛ فإن كان الطعام وراء حِرْزٍ ، لم يجز هتك الحرز .

قوله تعالى : ﴿ أو مَا مَلَكْتُمْ مفاتحه ﴾ فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه الوكيل ، لا بأس أن يأكل اليسير ، وهو معنى قول ابن عباس .

وقرأها سعيد بن جبير ، وأبو العالية : ﴿ مُلِّكْتُمْ ﴾ بضم الميم وتشديد اللام مع كسرها على ما لم يسمَّ فاعله ، وفسَّرها سعيد فقال : يعني القهرمان الذي بيده المفاتيح .

وقرأ أنس بن مالك ، وقتادة ، وابن يعمر ﴿ مِفْتَاحَه ﴾ بكسر الميم على التوحيد .

والثاني : بيت الإنسان الذي يملكه ، وهو معنى قول قتادة .

والثالث : بيوت العبيد ، قاله الضحاك .

قوله تعالى : ﴿ أو صَدِيقِكُمْ ﴾ قال ابن عباس : نزلت هذه في الحارث بن عمرو ، خرج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم غازياً ، وخلَّف مالك بن زيد على أهله ، فلما رجع وجده مجهوداً ، فقال : تحرَّجْتُ أن آكل من طعامك بغير إذنك ، فنزلت هذه الآية .

وكان الحسن وقتادة يريان الأكل من طعام الصَّديق بغير استئذان جائزاً .

قوله تعالى : ﴿ ليس عليكم جُنَاحٌ أن تأكُلوا جميعاً ﴾ في سبب نزول هذه [الآية] ثلاثة أقوال .

أحدها : أن حيّاً من بني كنانة يقال لهم : بنو ليث كانوا يتحرَّجون أن يأكل الرجل الطعام وحده ؛ فربما قعد الرجل والطعام بين يديه من الصباح إلى الرَّواح ، فنزلت هذه الآية ، قاله قتادة والضحاك .

(122/554)

والثاني : أن قوماً من الأنصار كانوا لا يأكلون إذا نزل بهم ضيف إلا مع ضيفهم ، فنزلت هذه الآية ، ورخّص لهم أن يأكلوا جميعاً أو أشتاتاً ، قاله عكرمة .

والثالث : أن المسلمين كانوا يتحرَّجون من مؤاكلة أهل الضُّرِّ خوفاً من أن يستأثروا عليهم ، ومن الاجتماع على الطعام ، لاختلاف الناس في مآكلهم وزيادةِ بعضهم على بعض ، فوسّع عليهم ، وقيل : ﴿ ليس عليكم جُناح أن تأكُلوا جميعاً ﴾ أي : مجتمعين ﴿ أو أشتاتاً ﴾ أي : متفرّقين ، قاله ابن قتيبة .

قوله تعالى : ﴿ فإذا دخلتم بيوتاً ﴾ فيها ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها بيوت أنفسكم ، فسلِّموا على أهاليكم وعيالكم ، قال جابر بن عبد الله ، وطاووس ، وقتادة .

والثاني : أنها المساجد ، فسلِّموا على مَنْ فيها ، قاله ابن عباس .

والثالث : بيوت الغير ؛ فالمعنى : إذا دخلتم بيوت غيركم فسلِّموا عليهم ، قاله الحسن .

قوله تعالى : ﴿ تحيةً ﴾ قال الزجاج : هي منصوبة على المصدر ، لأن قوله : ﴿ فسلِّموا ﴾ بمعنى : فحيُّوا ولْيُحَيِّ بعضكم بعضاً تحيَّةً ، ﴿ من عند الله ﴾ قال مقاتل : مباركة بالأجر ، ﴿ طيبةً ﴾ أي : حسنة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(123/554)

وقال القرطبى :

﴿ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾

فيه إحدى عشرة مسألة :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ لَّيْسَ عَلَى الأعمى حَرَجٌ ﴾ اختلف العلماء في تأويل هذه الآية على أقوال ثمانية .

أقربها هل هي منسوخة أو ناسخة أو مُحْكَمة ؛ فهذه ثلاثة أقوال :

الأوّل : أنها منسوخة من قوله تعالى : ﴿ وَلاَ على أَنفُسِكُمْ ﴾ إلى آخر الآية ؛ قاله عبد الرحمن بن زيد ، قال : هذا شيء قد انقطع ، كانوا في أوّل الإسلام ليس على أبوابهم أغلاق ، وكانت الستور مرخاة ، فربما جاء الرجل فدخل البيت وهو جائع وليس فيه أحد ؛

فسوّغ الله عز وجل أن يأكل منه ، ثم صارت الأغلاق على البيوت فلا يحلّ لأحد أن يفتحها ، فذهب هذا وانقطع .

قال صلى الله عليه وسلم : " لا يَحْتَلِبَنّ أحدٌ ماشيةَ أحدٍ إلا بإذنه . . .

" الحديث .

خرّجه الأئمة .

الثاني : أنها ناسخة ؛ قاله جماعة .

روى عليّ بن أبي طلحة عن ابن عباس قال : لما أنزل الله عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ لاَ تأكلوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بالباطل ﴾ [النساء : 29] قال المسلمون : إن الله عز وجل قد نهانا أن نأكل أموالنا بيننا بالباطل ، وأن الطعام من أفضل الأموال ، فلا يحلّ لأحد منّا أن يأكل عند أحد ، فكفّ الناس عن ذلك ؛ فأنزل الله عز وجل ﴿ لَّيْسَ عَلَى الأعمى حَرَجٌ ﴾ إلى ﴿ أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَّفَاتِحهُ ﴾ .

قال : هو الرجل يوكّل الرجل بضيعته .

قلت : عليّ بن أبي طلحة هذا هو مولى بني هاشم سكن الشام ، يُكْنَى أبا الحسن ويقال أبا محمد ، واسم أبيه أبي طلحة سالمٌ ، تُكلِّم في تفسيره ؛ فقيل : إنه لم ير ابن عباس ، والله أعلم .

الثالث : أنها محكمة ؛ قاله جماعة من أهل العلم ممن يُقْتَدى بقولهم ؛ منهم سعيد بن المسيِّب وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود .

(124/554)

وروى الزُّهْرِيّ عن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان المسلمون يُوعِبُون في النَّفِير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكانوا يدفعون مفاتيحهم إلى ضَمْنا هم ويقولون : إن احتجتم فكُلُوا ؛ فكانوا يقولون إنما أحلُّوه لنا عن غير طِيب نَفْس ؛ فأنزل الله عز وجل : ﴿ وَلاَ على أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُواْ مِن بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَآئِكُمْ ﴾ إلى آخر الآية .

قال النحاس : "يُوعِبون" أي يخرجون بأجمعهم في المغازِي ؛ يقال : أوْعَب بنو فلان لبني فلان إذا جاؤوهم بأجمعهم .

وقال ابن السكِّيت : يقال أوْعب بنو فلان جلاءً ؛ فلم يبق ببلدهم منهم أحد .

وجاء الفرسُ بركْضٍ وَعِيب ؛ أي بأقصى ما عنده .

وفي الحديث : " في الأنف إذا استوعِب جَدْعُه الدِّيَةُ " إذا لم يترك منه شيء .

واستيعاب الشيء استئصاله .

ويقال : بَيْتٌ وَعِيبٌ إذا كان واسعاً يَسْتَوْعِب كلّ ما جُعل فيه .

والضَّمْنَى هم الزَّمْنَى ، واحدهم ضَمِن مثل زمِن .

قال النحاس : وهذا القول من أجلّ ما روي في الآية ؛ لما فيه عن الصحابة والتابعين من التوقيف أن الآية نزلت في شيء بعينه .

قال ابن العربي : وهذا كلام منتظم لأجل تخلّفهم عنهم في الجهاد وبقاء أموالهم بأيديهم ، لكن قوله : ﴿ أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَّفَاتِحهُ ﴾ قد اقتضاه ؛ فكان هذا القول بعيداً جداً .

لكن المختار أن يقال : إن الله رفع الحرج عن الأعمى فيما يتعلق بالتكليف الذي يشترط فيه البصر ، وعن الأعرج فيما يشترط في التكليف به من المشي ؛ وما يتعذّر من الأفعال مع وجود العَرَج ، وعن المريض فيما يؤثّر المرض في إسقاطه ؛ كالصوم وشروط الصلاة وأركانها ، والجهاد ونحو ذلك .

ثم قال بعد ذلك مبيّناً : وليس عليكم حرج في أن تأكلوا من بيوتكم .

فهذا معنى صحيح ، وتفسير بيِّن مفيد ، يَعْضُده الشرع والعقل ، ولا يحتاج في تفسير الآية إلى نقل .

(125/554)

قلت : وإلى هذا أشار ابن عطية فقال : فظاهر الآية وأمرُ الشريعة يدلّ على أن الحرج عنهم مرفوع في كل ما يضطرهم إليه العذر ، وتقتضي نيتهم فيه الإتيان بالأكمل ، ويقتضي العذر أن يقع منهم الأنقص ؛ فالحرج مرفوع عنهم في هذا ، فأما ما قال الناس في هذا الحرج هنا وهي :

الثانية : فقال ابن زيد : هو الحرج في الغزو ؛ أي لا حرج عليهم في تأخرهم .

وقوله تعالى : ﴿ وَلاَ على أَنفُسِكُمْ ﴾ الآية ، معنًى مقطوع من الأوّل .

وقالت فرقة : الآية كلّها في معنى المطاعم .

قالت : وكانت العرب ومَن بالمدينة قبل المَبْعث تتجنّب الأكل مع أهل الأعذار ؛ فبعضهم كان يفعل ذلك تقَذُّراً لجَوَلان اليد من الأعمى ، ولانبساط الجلسة من الأعرج ، ولرائحة المريض وعلاّته ؛ وهي أخلاق جاهلية وكبر ، فنزلت الآية مؤذنة .

وبعضهم كان يفعل ذلك تحرّجاً من غير أهل الأعذار ، إذ هم مقصرون عن درجة الأصحاء في الأكل ، لعدم الرؤية في الأعمى ، وللعجز عن المزاحمة في الأعرج ، ولضعف المريض ؛ فنزلت الآية في إباحة الأكل معهم .

وقال ابن عباس في كتاب الزّهْرَاوِيّ : إن أهل الأعذار تحرّجوا في الأكل مع الناس من أجل عذرهم ؛ فنزلت الآية مبيحة لهم .

وقيل : كان الرجل إذا ساق أهل العذر إلى بيته فلم يجد فيه شيئاً ذهب به إلى بيوت قرابته

؛ فتحرّج أهل الأعذار من ذلك ؛ فنزلت الآية .

الثالثة : قوله تعالى : ﴿ وَلاَ على أَنفُسِكُمْ ﴾ هذا ابتداء كلام ؛ أي ولا عليكم أيها الناس .

ولكن لما اجتمع المخاطَب وغير المخاطب غلّب المخاطب لينتظم الكلام .

وذكر بيوت القرابات وسقط منها بيوتُ الأبناء ؛ فقال المفسرون : ذلك لأنها داخلة في قوله : "في بيوتكم" لأن بيت ابن الرجل بيتُه ؛ وفي الخبر : "أنت ومالك لأبيك" .

ولأنه ذكر الأقرباء بعدُ ولم يذكر الأولاد .

(126/554)

قال النحاس : وعارض بعضهم هذا القول فقال : هذا تحكّم على كتاب الله تعالى ؛ بل الأولى في الظاهر ألا يكون الابن مخالفاً لهؤلاء ، وليس الاحتجاج بما رُوي عن النبيّ صلى الله عليه وسلم

" أنت ومالك لأبيك " بقوِيّ لوَهْي هذا الحديث ، وأنه لو صح لم تكن فيه حجة ؛ إذ قد يكون النبيّ صلى الله عليه وسلم علم أن مال ذلك المخاطب لأبيه .

وقد قيل إن المعنى : أنت لأبيك ، ومالك مبتدأ ؛ أي ومالك لك .

والقاطع لهذا التوارثُ بين الأب والابن .

وقال الترمذي الحكيم : ووجه قوله تعالى : ﴿ وَلاَ على أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُواْ مِن بُيُوتِكُمْ ﴾ كأنه يقول مساكنكم التي فيها أهاليكم وأولادكم ؛ فيكون للأهل والولد هناك شيء قد أفادهم هذا الرجل الذي له المسكن ، فليس عليه حرج أن يأكل معهم من ذلك القُوت ، أو يكون للزوجة والولد هناك شيء من ملكهم فليس عليه في ذلك حرج .

الرابعة : قوله تعالى : ﴿ أَوْ بُيُوتِ آبَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالاَتِكُمْ ﴾ قال بعض العلماء : هذا إذا أذنوا له في ذلك .

وقال آخرون : أذنوا له أو لم يأذنوا فله أن يأكل ؛ لأن القرابة التي بينهم هي إذنٌ منهم .

وذلك لأن في تلك القرابة عَطْفاً تسمح النفوس منهم بذلك العطف أن يأكل هذا من شيئهم ويُسَرّوا بذلك إذا علموا .

ابن العربي : أباح لنا الأكل من جهة النسب من غير استئذان إذا كان الطعام مبذولاً ، فإذا كان محوزاً دونهم لم يكن لهم أخذه ، ولا يجوز أن يجاوزوا إلى الادخار ، ولا إلى ما ليس بمأكول وإن كان غير محوز عنهم إلا بإذن منهم .

الخامسة : قوله تعالى : ﴿ أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَّفَاتِحَهُ ﴾ يعني مما اختزنتم وصار في قبضتكم . وعظم ذلك ما ملكه الرجل في بيته وتحت غَلَقه ؛ وذلك هو تأويل الضحاك وقتادة ومجاهد .

وعند جمهور المفسرين يدخل في الآية الوكلاء والعبيد والأُجَراء .

قال ابن عباس : عنى وكيل الرجل على ضيعته ، وخازنه على ماله ؛ فيجوز له أن يأكل مما هو قَيِّم عليه .

وذكر معمر عن قتادة عن عكرمة قال : إذا ملك الرجل المفتاح فهو خازن ، فلا بأس أن يَطْعَم الشيء اليسير .

ابن العربي : وللخازن أن يأكل مما يُخزن إجماعاً ؛ وهذا إذا لم تكن له أجرة ، فأما إذا كانت له أجرة على الخزن حَرُم عليه الأكل .

وقرأ سعيد بن جُبير "مُلِّكْتُم" بضم الميم وكسر اللام وشدها .

وقرأ أيضاً "مفاتيحه" بياء بين التاء والحاء ، جمع مفتاح ؛ وقد مضى في "الأنعام" .

وقرأ قتادة "مفتاحه" على الإفراد .

وقال ابن عباس : نزلت هذه الآية في الحارث بن عمرو ، خرج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم غازياً وخلّف مالك بن زيد على أهله ، فلما رجع وجده مجهوداً فسأله عن حاله فقال : تحرّجت أن آكل من طعامك بغير إذنك ؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية .

السادسة : قوله تعالى : ﴿ أَوْ صَدِيقِكُمْ ﴾ الصديق بمعنى الجمع ، وكذلك العدوّ ؛ قال الله تعالى :

﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي ﴾ [الشعراء : 77] .

وقال جرير :

دعَوْن الهَوَى ثم ارْتَمَيْنَ قلوبَنا . . .

بأسهم أعداء وهن صدِيقُ

والصديق من يَصْدقك في مودّته وتَصْدقه في مودّتك .

ثم قيل : إن هذا منسوخ بقوله : ﴿ لاَ تَدْخُلُواْ بُيُوتَ النبي إِلاَّ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ ﴾ [الأحزاب : 53] ، وقوله تعالى : ﴿ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَداً فَلاَ تَدْخُلُوهَا ﴾ [النور : 28] الآية ، وقوله عليه السلام : " لا يحل مال امرىء مسلم إلا بِطيبة نفس منه " وقيل : هي محكمة ؛ وهو أصح .

ذكر محمد بن ثَوْر عن مَعْمَر قال : دخلت بيت قتادة فأبصرت فيه رُطَباً فجعلت آكله ؛ فقال : ما هذا ؟ فقلت : أبصرت رطباً في بيتك فأكلت ؛ قال : أحسنت ، قال الله تعالى : "أَوْ صَدِيقِكُمْ" .

وذكر عبد الرزاق عن معمر عن قتادة في قوله : "أَوْ صَدِيقِكُمْ" قال : إذا دخلت بيت صديقك من غير مؤامرته لم يكن بذلك بأس .

وقال معمر قلت لقتادة : ألا أشرب من هذا الحُبّ ؟ قال : أنت لي صديق ! فما هذا الاستئذان .

وكان صلى الله عليه وسلم يدخل حائط أبي طلحة المسمّى ببَيْرَحا ويشرب من ماء فيها طيّب بغير إذنه ، على ما قاله علماؤنا ؛ قالوا : والماء متملّك لأهله .

وإذا جاز الشرب من ماء الصديق بغير إذنه جاز الأكل من ثماره وطعامه إذا علم أن نفس صاحبه تطيب به لتفاهته ويسير مؤنته ، أو لما بينهما من المَودّة .

ومن هذا المعنى إطعام أمّ حَرام له صلى الله عليه وسلم إذ نام عندها ؛ لأن الأغلب أن ما في البيت من الطعام هو للرجل ، وأن يد زوجته في ذلك عارِيَة .

وهذا كله ما لم يتخذ الأكل خُبْنة ، ولم يقصد بذلك وقاية ماله ، وكان تافهاً يسيراً .

السابعة : قرن الله عز وجل في هذه الآية الصديق بالقرابة المحضة الوكيدة ، لأن قرب المودة لَصِيق .

قال ابن عباس في كتاب النقاش : الصديق أوكد من القرابة ؛ ألا ترى استغاثة الجَهَنمِيين ﴿ فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ وَلاَ صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴾ [الشعراء : 100 101] .

قلت : ولهذا لا تجوز عندنا شهادة الصديق لصديقه ، كما لا تجوز شهادة القريب لقريبه .

وقد مضى بيان هذا والعلة فيه في "النساء" .

وفي المثل "أيهم أحب إليك أخوك أم صديقك" قال : أخي إذا كان صديقي .

الثامنة : قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُواْ جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً ﴾ قيل : إنها نزلت في بني ليث بن بكر ، وهم حيّ من بني كِنانة ، كان الرجل منهم لا يأكل وحده ويمكث أياماً جائعاً حتى يجد من يؤاكله .

ومنه قول بعض الشعراء :

إذا ما صنعتِ الزاد فالتمسي له . . .

أكِيلاً فإني لست آكله وَحْدِي

قال ابن عطية : وكانت هذه السيرة موروثة عندهم عن إبراهيم صلى الله عليه وسلم ؛ فإنه كان لا يأكل وحده .

(129/554)

وكان بعض العرب إذا كان له ضيف لا يأكل إلا أن يأكل مع ضيفه ؛ فنزلت الآية مبيّنة سُنّة الأكل ، ومذهبة كلّ ما خالفها من سيرة العرب ، ومبيحة من أكل المنفرد ما كان عند العرب

محرّماً ، نحت به نحو كرم الخلق ، فأفرطت في إلزامه ، وإن إحضار الأكيل لحَسَن ، ولكن بألا يحرم الانفراد .

التاسعة : قوله تعالى : ﴿ جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً ﴾ "جميعاً" نصب على الحال .

و"أَشْتَاتاً" جمع شَتّ ، والشَّتُّ المصدر بمعنى التفرّق ؛ يقال : شتّ القوم أي تفرّقوا .

وقد ترجم البخاريّ في صحيحه (باب ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج) الآية .

و(النِّهد والاجتماع) .

ومقصوده فيما قاله علماؤنا في هذا الباب : إباحة الأكل جميعاً وإن اختلفت أحوالهم في الأكل .

وقد سوّغ النبيّ صلى الله عليه وسلم ذلك ، فصارت تلك سنّة في الجماعات التي تدعى إلى الطعام في النِّهد والولائم وفي الإملاق في السفر .

وما ملكت مفاتحه بأمانة أو قرابة أو صداقة فلك أن تأكل مع القريب أو الصديق ووحدك .

والنِّهد : ما يجمعه الرفقاء من مال أو طعام على قدر في النفقة ينفقونه بينهم ؛ وقد تناهدوا ؛ عن صاحب العين .

وقال ابن دُرَيد : يقال من ذلك : تناهد القوم الشيء بينهم .

الهَرَوِيّ : وفي حديث الحَسَن : " أخرجوا نِهْدكم فإنه أعظم للبركة وأحسن لأخلاقكم "

النِّهد : ما تخرجه الرُّفقة عند المناهدة ؛ وهو استقسام النفقة بالسويّة في السفر وغيره .

والعرب تقول : هاتِ نِهْدَك ؛ بكسر النون .

قال المهلّب : وطعام النِّهد لم يوضع للآكلين على أنهم يأكلون بالسّواء ، وإنما يأكل كل واحد على قدر نَهْمته ، وقد يأكل الرجل أكثر من غيره .

وقد قيل : إن تركها أشبه بالوَرَع .

(130/554)

وإن كانت الرُّفقة تجتمع كل يوم على طعام أحدهم فهو أحسن من النهد ؛ لأنهم لا يتناهدون إلا لِيُصيبَ كلّ واحد منهم من ماله ، ثم لا يدري لعل أحدهم يقصّر عن ماله ، ويأكل غيره أكثر من ماله ؛ وإذا كانوا يوماً عند هذا ويوماً عند هذا بلا شرط فإنما يكونون أضيافاً والضّيفُ يأكل بطِيب نَفْس ممّا يُقدَّم إليه .

وقال أيوب السِّختياني : إنما كان النّهد أن القوم كانوا يكونون في السفر فيسبق بعضهم إلى المنزل فيذبح ويهيّىء الطعام ثم يأتيهم ، ثم يسبق أيضاً إلى المنزل فيفعل مثل ذلك ؛ فقالوا : إن هذا الذي تصنع كلُّنا نحب أن نصنع مثله فتعالوْا نجعل بيننا شيئاً لا يتفضل بعضنا على بعض ، فوضعوا النِّهد بينهم .

وكان الصلحاء إذا تناهدوا تحرّى أفضلهم أن يزيد على ما يخرجه أصحابه ، وإن لم يرضوا بذلك منه إذا علموه فعله سرًّا دونهم .

العاشرة : قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُواْ على أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ اختلف المتأولون في أي البيوت أراد ؛ فقال إبراهيم النَّخَعِيّ والحسن : أراد المساجد ؛ والمعنى : سلِّموا على من فيها من صنفكم .

فإن لم يكن في المساجد أحد فالسلام أن يقول المرء : السلام على رسول الله .

وقيل : يقول السلام عليكم ؛ يريد الملائكة ، ثم يقول : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين .

وذكر عبد الرزاق أخبرنا مَعْمَر عن عمرو بن دِينار عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : "فإذا دخلتم بيوتاً فسلّمُوا على أنفسكم" الآية ، قال : إذا دخلت المسجد فقل السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين .

وقيل : المراد بالبيوت البيوت المسكونة ؛ أي فسلموا على أنفسكم .

قاله جابر بن عبد الله وابن عباس أيضاً وعطاء بن أبي رباح .

وقالوا : يدخل في ذلك البيوت غير المسكونة ، ويسلّم المرء فيها على نفسه بأن يقول : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين .

قال ابن العربي : القول بالعموم في البيوت هو الصحيح ، ولا دليل على التخصيص ؛ وأطلق القول ليدخل تحت هذا العموم كل بيت كان للغير أو لنفسه ؛ فإذا دخل بيتاً لغيره استأذن كما تقدّم ، فإذا دخل بيتاً لنفسه سلم كما ورد في الخبر ، يقول : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ؛ قاله ابن عمر .

وهذا إذا كان فارغاً ، فإن كان فيه أهله وخدمه فليقل : السلام عليكم .

وإن كان مسجداً فليقل : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين .

وعليه حمل ابن عمر البيتَ الفارغ .

قال ابن العربي : والذي أختاره إذا كان البيت فارغاً ألا يلزم السلام ، فإنه إن كان المقصود الملائكة فالملائكة لا تفارق العبد بحال ، أما إنه إذا دخلت بيتك يستحب لك ذكر الله بأن تقول : ما شاء الله لا قوة إلا بالله .

وقد تقدم في سورة "الكهف" .

وقال القُشَيْرِي في قوله : "إذا دخلتم بُيُوتاً" : والأوجه أن يقال إن هذا عام في دخول كل بيت ، فإن كان فيه ساكن مسلم يقول السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، وإن لم يكن فيه ساكن

يقول السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، وإن كان في البيت من ليس بمسلم قال السلام على من اتبع الهدى ، أو السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين .

وذكر ابن خُوَيْزمَنْداد قال : كتب إليّ أبو العباس الأصمّ قال : حدثنا محمد بن عبد الله بن عبد الحكم قال حدثنا ابن وهب قال حدثنا جعفر بن ميسرة عن زيد بن أسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إذا دخلتم بيوتاً فسلّموا على أهلها واذكروا اسم الله فإن أحدكم إذا سلّم حين يدخل بيته وذكر اسم الله تعالى على طعامه يقول الشيطان لأصحابه لا مَبِيت لكم ها هنا ولا عَشَاء وإذا لم يسلّم أحدكم إذ دخل ولم يذكر اسم الله على طعامه قال الشيطان لأصحابه أدركتم المبيت والعشاء " .

(132/554)

قلت : هذا الحديث ثَبَت معناه مرفوعاً من حديث جابر ، خرّجه مسلم .

وفي كتاب أبي داود عن أبي مالك الأشجعيّ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا وَلَج الرجل بيته فلْيقل اللَّهُمَّ إني أسألك خير الوُلُوج وخير الخروج باسم الله وَلَجْنَا وباسم الله خرجنا وعلى الله ربّنا توكلنا ثم ليسلِّم على أهله " .

الحادية عشرة : قوله تعالى : ﴿ تَحِيَّةً ﴾ مصدر ؛ لأن قوله : "فسَلِّموا" معناه فحيُّوا .

وصفها بالبركة لأن فيها الدعاء واستجلاب مودّة المسلَّم عليه .

ووصفها أيضاً بالطّيب لأن سامعها يستطيبها .

والكاف من قوله "كذلك" كاف تشبيه .

و"ذلك" إشارة إلى هذه السُّنَن ؛ أي كما بيّن لكم سُنّة دينكم في هذه الأشياء يبيّن لكم سائر ما بكم حاجة إليه في دينكم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 13 صـ ﴾

(133/554)

وقال أبو حيان :

﴿ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾

عن ابن عباس لما نزل ﴿ ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ﴾ تحرج المسلمون عن مواكلة الأعمى لأنه لا يبصر موضع الطعام الطيب ، والأعرج لأنه لا يستطيع المزاحمة على الطعام ، والمريض لأنه لا يستطيع استيفاء الطعام فأنزل الله هذه الآية قيل : وتحرجوا عن أكل طعام القرابات فنزلت مبيحة جميع هذه المطاعم ومبينة أن تلك إنما هي في التعدي والقمار وما يأكله المؤمن من مال من يكره أهله أو بصفقة فاسدة ونحوه .

وقال عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود وابن المسيب كانوا إذا نهضوا إلى الغزو

وخلفوا أهل العذر في منازلهم وأموالهم تحرجوا من أكل مال الغائب فنزلت مبيحة لهم ما تمس إليه حاجتهم من مال الغائب إذا كان الغائب قد بنى على ذلك .

وقال مجاهد : كان الرجل إذا ذهب بأهل العذر إلى بيته فلم يجد فيه شيئاً ذهب بهم إلى بيوت قراباته فتحرج أهل الأعذار من ذلك فنزلت .

وقيل : كانت العرب ومن بالمدينة قبل البعث تجتنب الأكل مع أهل هذه الأعذار فبعضهم تقذراً لمكان جولان يد الأعمى ، ولانبساط الجلسة مع الأعرج ، ولرائحة المريض وهي أخلاق جاهلية وكبر .

فنزلت واستبعد هذا لأنه لو كان هذا السبب لكان التركيب ليس عليكم حرج أن تأكلوا معهم ولم يكن ﴿ ليس على الأعمى حرج ﴾ وأجاب بعضهم : بأن ﴿ على ﴾ في معنى أي في مواكلة الأعمى وهذا بعيد جداً .

وفي كتاب الزهراوي عن ابن عباس أن أهل هذه الأعذار تحرجوا في الأكل مع الناس من أجل عذرهم فنزلت .

وعلى هذه الأقوال كلها يكون نفي الحرج عن أهل العذر ومن بعدهم في المطاعم .

وقال الحسن وعبد الرحمن بن زيد الحرج المنفي عن أهل العذر هو في القعود عن الجهاد وغيره مما رخص لهم فيه ، والحرج المنفي عمن بعدهم في الأكل مما ذكر وهو مقطوع مما قبله

إذ متعلق الحرجين مختلف .

وإن كان قد اجتمعا في انتفاء الحرج .

(134/554)

وهذا القول هو الظاهر .

ولم يذكر بيوت الأولاد اكتفاء بذكر بيوتكم لأن ولد الرجل بعضه وحكمه حكم نفسه ، وبيته بيته .

وفي الحديث " إن أطيب ما يأكل المرء من كسبه وإن ولده من كسبه " .

ومعنى ﴿ من بيوتكم ﴾ .

من البيوت التي فيها أزواجكم وعيالكم ، والولد أقرب من عدد من القرابات فإذا كان سبب الرخصة هو القرابة كان الذي هو أقرب منهم أولى .

وقرأ طلحة إمهاتكم بكسر الهمزة .

﴿ أو ما ملكتم مفاتحه ﴾ .

قال ابن عباس : هو وكيل الرجل أن يتناول من التمر ويشرب من اللبن .

وقال قتادة : العبد لأن ماله لك .

وقال مجاهد والضحاك : خزائن بيوتكم إذا ملكتم مفاتيحها .

وقال ابن جرير : الزمنى ملكوا التصرف في البيوت التي سلمت إليهم مفاتيحها .

وقيل : ولي اليتيم يتناول من ماله بقدر مّا قال تعالى ﴿ ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف ﴾ ومفاتحه بيده .

وقرأ الجمهور ﴿ ملكتم ﴾ بفتح الميم واللام خفيفة .

وقرأ ابن جبير بضم الميم وكسر اللام مشددة ، والجمهور ﴿ مفاتحه ﴾ جمع مفتح وابن جبير مفاتيحه جمع مفتاح ، وقتادة وهارون عن أبي عمرو مفتاحه مفرداً .

﴿ أو صديقكم ﴾ قرىء بكسر الصاد إتباعاً لحركة الدال حكاه حميد الخزاز ، قرن الله الصديق بالقرابة المحضة .

قيل لبعضهم : من أحب إليك أخوك أم صديقك ؟ فقال : لا أحب أخي إلاّ إذا كان صديقي .

وقال معمر : قلت لقتادة ألا أشرب من هذا الحب ؟ قال : أنت لي صديق فما هذا الاستئذان .

وقال ابن عباس : الصديق أوكد من القرابة ألا ترى استغاثة الجهنميين ﴿ فما لنا من شافعين ولا صديق حميم ﴾ ولم يستغيثوا بالآباء والأمهات ومعنى ﴿ أو صديقكم ﴾ أو بيوت أصدقائكم ، والصديق يكون للواحد والجمع كالخليط والقطين ، وقد أكل جماعة من

أصحاب الحسن من بيته وهو غائب فجاء فسر بذلك وقال : هكذا وجدناهم يعني كبراء الصحابة ، وكان الرجل يدخل بيت صديقه فيأخذ من كيسه فيعتق جاريته التي مكنته من ذلك .

(135/554)

وعن جعفر الصادق : من عظم حرمة الصديق أن جعله الله من الأنس والثقة والانبساط وترك الحشمة بمنزلة النفس والأب والابن والأخ .

وقال هشام بن عبد الملك : نلت ما نلت حتى الخلافة وأعوزني صديق لا أحتشم منه .

وقال أهل العلم : إذا دل ظاهر الحال على رضا المالك قام ذلك مقام الإذن الصريح .

وانتصب ﴿ جميعاً أو أشتاتاً ﴾ على الحال أي مجتمعين أو متفرقين .

قال الضحاك وقتادة : نزلت في حي من كنانة تحرجوا أن يأكل الرجل وحده فربما قعدوا لطعام بين يديه لا يجد من يؤاكله حتى يمسي فيضطر إلى الأكل وحده .

وقال بعض الشعراء :

إذا ما صنعت الزاد فالتمسي له . . .

أكيلاً فإني لست آكله وحدي

وقال عكرمة في قوم من الأنصار : إذا نزل بهم ضيف لا يأكلون إلاّ معه .

وقيل في قوم : تحرجوا أن يأكلوا جميعاً مخافة أن يزيد أحدهم على الآخرة في الأكل .

وقيل ﴿ أو صديقكم ﴾ هو إذا دعاك إلى وليمة فحسب .

وقيل : هذه الآية منسوخة بقوله عليه السلام " ألا إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام "

وبقوله عليه السلام من حديث ابن عمر : " لا يحلبن أحد ماشية أحد إلاّ بإذنه " وبقوله

تعالى ﴿ لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا ﴾ الآية .

﴿ فإذا دخلتم بيوتاً فسلموا على أنفسكم ﴾ .

قال ابن عباس والنخعي : المساجد فسلموا على من فيها فإن لم يكن فيها أحد قال السلام

على رسول الله .

وقيل : يقول السلام عليكم يعني الملائكة ، ثم يقول : السلام علينا وعلى عباد الله

الصالحين .

وقال جابر وابن عباس وعطاء : البيوت المسكونة وقالوا يدخل فيها غير المسكونة ، فيقول

: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين .

وقال ابن عمر : بيوتاً خالية .

وقال السدّي ﴿ على أنفسكم ﴾ على أهل دينكم .

وقال قتادة : على أهاليكم في بيوت أنفسكم .

وقيل : بيوت الكفار ﴿ فسلموا على أنفسكم ﴾ وقال الزمخشري ﴿ فإذا دخلتم بيوتاً ﴾ من هذه البيوت لتأكلوا ، فابدؤوا بالسلام على أهلها الذين هم فيها منكم ديناً وقرابة .

(136/554)

و ﴿ تحية من عند الله ﴾ أي ثابتة بأمره مشروعة من لدنه ، أو لأن التسليم والتحية طلب للسلامة وحياة للمسلم عليه ووصفها بالبركة والطيب لأنها دعوة مؤمن لمؤمن يرجى بها من الله زيادة وطيب الرزق انتهى .

وقال مقاتل : مباركة بالأجر .

وقيل : بورك فيها بالثواب .

وقال الضحاك : في السلام عشر حسنات ، ومع الرحمة عشرون ، ومع البركات ثلاثون .

وانتصب ﴿ تحية ﴾ بقوله ﴿ فسلموا ﴾ لأن معناه فحيوا كقولك : قعدت جلوساً .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(137/554)

وقال الثعالبى :

وقوله تعالى : ﴿ لَّيْسَ عَلَى الأعمى حَرَجٌ ﴾ إلى قوله ﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الأيات لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ ظاهر الآية : وأَمْرُ الشريعة أَنَّ الحَرَجَ عنهم مرفوع في كل ما يضطرهم إليه العذر ، وتقتضي نيتهم الإتيان به بالأكمل ، ويقتضي العذر أَنْ يقعَ منهم الأنقص ، فالحرج مرفوع عنهم في هذا ، وللناس أقوال في الآية وتخصيصاتٌ يطول ذكرها ، وذكر اللّه تعالى بيوتَ القراباتِ ، وسقط منها بيوت الأبناء ؛ فقال المفسرون : ذلك لأَنَّها داخلة في قوله : ﴿ من بيوتكم ﴾ لأنَّ بيت ابن الرجل بيتُه .

وقوله تعالى : ﴿ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ ﴾ يريد ما خزنتم وصار في قبضتكم ، فمعظمه ما ملكه الرجلُ في بيته وتحت غلقه ، وهو تأويل الضَّحّاكِ ومجاهد ، وعند جمهور المفسرين : يدخل في الآية الوكلاءُ والعبيدُ والأُجراءُ بالمعروف . وقرأ ابن جبير : «مَلَكْتُمْ مَفَاتِيحَهُ» مبنياً للمفعول وزيادة يا بين التاء والحاء ، وقَرَنَ تعالى في هذه الآية الصديقَ بالقرابة المَحْضَةِ الوكيدة ؛ لأَنَّ قُرْبَ المودة لصيق ؛ قال معمر : قلت : لقتادَة : أَلاَ أشرب من هذا الجُبِّ ؟ قال : أنت لي صديق ، فما هذا الاستئذان ؟ قال ابن عباس في كتاب «النقاش» : الصديق أوكد من القرابة ؛ ألا ترى استغاثة الجهنميين : ﴿ فَمَا لَنَا مِن شافعين * وَلاَ صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴾ [الشعراء : 100 ، 101] .

وقوله تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُواْ جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً ﴾ : ردٌّ لمذهب جماعة

من العرب كانت لا تأكل أفذاذاً البتَّةَ ، نحت به نحو كرم الخلق ، فأفرطت في إلزامه ، وأَنَّ إحضار الأكيل لَحَسَنٌ ولكن بألَّا يحرم الانفرادُ ، قال البخاريُّ : أشتاتاً وشتى واحد ، انتهى .

(138/554)

وقال بعض أهل العلم : هذه الآية منسوخة بقوله عليه السلام : " إنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ " الحديث ، وبقوله تعالى : ﴿ لاَ تَدْخُلُواْ بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حتى تَسْتَأْنِسُواْ ﴾ الآية ، وبقوله عليه السلام من حديث ابن عمر : «لاَ يَحْلِبَنَّ أَحَدُكُمْ مَاشِيَةَ أَحَدٍ إلاَّ بِإِذْنِهِ» الحديث .

قلت : والحق أَنْ لا نسخَ في شيءٍ مِمَّا ذُكِرَ ، وسيأتي مزيد بيان لهذا المعنى .

وقوله سبحانه : ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتاً ﴾ : قال النَّخَعِيُّ : أراد المساجد ، والمعنى : سُلِّمُوا على مَنْ فيها ، فإنْ لم يكن فيها أحد فالسلام أنْ يقول : السلامُ على رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم السلامُ علينا وعلى عبادِ اللّه الصالحين .

وقال ابن عباس وغيره : المراد البيوتُ المسكونة ، أي : سلِّموا على مَنْ فيها ، قالوا : ويدخل في ذلك غيرُ المسكونة ، ويُسَلِّم المرءُ فيها على نفسه بأنْ يقول : السلام علينا وعلى

عباد اللّه الصالحين .

قلت : وفي «سلاح المؤمن» ، وعن ابن عباس في قوله عز وجل : ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتاً فَسَلِّمُواْ عَلَى أَنفُسِكُمْ ﴾ قال : هو المسجدُ إذا دخلته فقل : السلام علينا وعلى عباد اللّه الصالحين رواه الحاكم في «المستدرك» وقال : صحيح على شرط الشيخين ، يعني البخاريَّ ومسلماً ، انتهى ، وهذا هو الصحيح عن ابنِ عباس ، وفَهِمَ النوويُّ أَنَّ الآية في البيوت المسكونة ، قال : ففي الترمذيِّ عن أنس قال : قال لي النبيُّ صلى الله عليه وسلم :

(139/554)

« يَا بُنَيَّ ، إِذَا دَخَلْتَ عَلَى أَهْلِكَ ، فَسَلِّمْ ، يَكُنْ بَرَكَةً عَلَيْكَ وَعَلَى أَهْلِ بَيْتِكَ » قال الترمذي : حديث حسن صحيح ، وفي أبي داودَ عن أبي أُمَامَةَ عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ثَلاَثَةٌ كُلُّهُمْ ضَامِنٌ عَلَى اللّهِ عز وجل : رَجلٌ خَرَجَ غَازِياً فِي سَبِيلِ اللّهِ عز وجل فَهُوَ ضَامِنٌ عَلَى اللّهِ تعالى حَتَّى يَتَوَفَّاهُ فَيُدْخِلَهُ الجَنَّةَ أَوْ يَرُدَّهُ بما نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ ، وَرَجُلٌ رَاحَ إِلَى المَسْجِدِ ؛ فَهُوَ ضَامِنٌ عَلَى اللّهِ تعالى حَتَّى يَتَوَفَّاهُ فَيُدْخِلَهُ الجَنَّةَ أَوْ يَرُدَّهُ بِمَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ وَغَنِيمَةٍ ؛ وَرَجُلٌ دَخَلَ بَيْتَهُ بِسَلامٍ ؛ فَهُوَ ضَامِنٌ عَلَى اللّهِ تعالى » حديث حسن رواه أَبو داودَ بإسناد حسن ، ورواه آخرون ، والضمان : الرعاية للشيء ، والمعنى : أَنَّه في

رعاية اللّه عز وجل ، انتهى . وقوله تعالى : ﴿ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللهِ مباركة ﴾ وصفها تعالى بالبركة ؛ لأَنَّ فيها الدعاءَ واستجلابَ مودَّةِ المسلم عليه .

قلت : وقد ذكرنا في سورة النساءِ : ما ورد في المصافحة من رواية ابن السُّنِّيِّ قال النووي : وَرُوِّينَا في سنن أَبي داودَ والترمذيِّ وابن ماجه عن البَرَاءِ بن عازب قال : قال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم : « مَا مِنْ مُسْلِمَيْنِ يَلْتَقِيَانِ فَيَتَصَافَحَانِ إِلاَّ غُفِرَ لَهُمَا قَبْلَ أَنْ يَفْتَرِقَا » انتهى . والكاف من قوله : ﴿ كذلك ﴾ : كافُ تشبيهٍ ؛ وذلك : إشارة إلى هذه السنن . وقال أيضاً بعضُ الناس في هذه الآية : أَنَّها منسوخة بآية الاستئذان المتقدمة .

(140/554)

قال *ع* : والنسخ لا يُتَصَوَّرُ في شيءٍ من هذه الآيات ، بل هي مُحْكَمَةٌ ، أَمَّا قوله : ﴿ وَلاَ تأكلوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بالباطل ﴾ [البقرة : 188] ففي التعدي والخدع ونحوه ، وأَمَّا هذه الآية ففي إباحة طعام هذه الأصناف التي يسرها استباحَةُ طعامها على هذه الصفة ، وأَمَّا آية الإذن فعلة إيجاب الاستئذان خوف الكَشَفَةِ ، فإذا استأذن المرءُ ودخل المنزل بالوجه المباح صَحَّ له بعد ذلك أكل الطعام بهذه الإباحة ، وليس يكونُ في الآية نسخ فتأمله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الجواهر الحسان حـ 3 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ لَّيْسَ عَلَى الأعمى حَرَجٌ وَلاَ عَلَى الأعرج حَرَجٌ وَلاَ عَلَى المريض حَرَجٌ ﴾

كانت هؤلاء الطوائفُ يتحرَّجُون من مؤاكلةِ الأصحَّاءِ حِذاراً من استقذارِهم إيَّاهم وخَوفاً من تأذِّيهم بأفعالِهم وأوضاعِهم فإنَّ الأعمى رُبَّما سبقتَ يدُه إلى ما سبقتْ إليه عينُ أكيلِه وهو لا يشعرُ به والأعرجُ يتفسَّح في مجلسِه فيأخذُ أكثرَ من موضعِه فيضيقُ على جليسِه والمريضُ لا يخلُو عن حالةٍ تؤذي قرينَه . وقيل : كانُوا يدخلُون على الرَّجل لطلبِ العلمِ فإذا لم يكُن عنده ما يُطعمهم ذهبَ بهم إلى بيوتِ آبائِهم وأمَّهاتِهم أو إلى بعضِ مَن سمَّاهم اللهُ عزَّ وجلَّ في الآيةِ الكريمةِ فكانُوا يتحرَّجون من ذلكَ ويقولُون : ذهبَ بنا إلى بيتِ غيرِه ولعلَّ أهلَه كارهون لذلكَ وكذا كانُوا يتحرَّجُون من الأكلِ من أموالِ الذينَ كانُوا إذا خرجُوا إلى الغزوِ خلَّفوا هؤلاءِ الضُّعفاءَ في بيوتِهم ودفعُوا إليهم مفاتيحَها وأذنُوا لهم أنْ يأكلُوا مما فيها مخافةَ أنْ لا يكون إذنُهم عن طيبِ نفسٍ منهم وكانَ غيرُ هؤلاء أيضاً يتحرَّجون من الأكلِ في بيوتِ غيرِهم فقيل لهم : ليسَ على الطوائفِ المعدودةِ ﴿ وَلاَ على أَنفُسِكُمْ ﴾ أي عليكم وعلى مَن يُماثلكم في الأحوالِ من المؤمنينَ حرجٌ ﴿ أَن تَأْكُلُواْ ﴾ أي تأكلُوا أنتُم وهم

معكم . وتعميمُ الخطابِ للطَّوائفِ المذكورةِ أيضاً يأباهُ ما قبله وما بعدَه فإنَّ الخطابَ فيهما لغير أولئكَ الطَّوائفِ حتماً ﴿ مِن بُيُوتِكُمْ ﴾ أي البيوتِ التي فيها أزواجُكم وعيالُكم فيدخل فيها بيوتُ الأولادِ لأنَّ بيتَهم كبيتِه لقوله عليه الصلاة والسلام : " أنتَ ومالُكَ لأبيكَ " وقوله عليه الصَّلاة والسَّلام : " إنَّ أطيبَ مالِ الرَّجلِ من كسبِه وإنَّ ولدَه من كسبِه " ﴿ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ ﴾ وقُرِىء بكسرِ الهمزةِ والميمِ وبكسرِ الأُولى وفتحِ الثَّانيةِ ﴿ أَوْ بُيُوتِ إخوانكم أَوْ بُيُوتِ أخواتكم أَوْ بُيُوتِ أعمامكم أَوْ بُيُوتِ عماتكم أَوْ بُيُوتِ

(142/554)

أخوالكم أَوْ بُيُوتِ خالاتكم أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَّفَاتِحهُ ﴾ من البيوتِ التي تملكُون التَّصرفَ فيها بإذنِ أربابِها على الوجهِ الذي مرَّ بيانُه ، وقيل : هي بيوتُ المماليكِ ، والمفاتحُ جمع مِفْتحٍ وجمعُ المفتاحِ مفاتيحُ .

(143/554)

وقُرِىء مُفتاحَه ﴿ أَوْ صَدِيقِكُمْ ﴾ أي أو بيوتِ صديقِكم وإنْ لم يكُن بينكم وبينهم قرابةٌ نَسَبيةٌ فإنَّهم أرضى بالتَّبسطِ وأسرُّ به من كثيرٍ من الأقرباءِ . رُوي عن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهُما أنَّ الصَّديقَ أكبرُ من الوالدينِ إن الجهنميين لمَّا استغاثُوا لم يستغيثوا بالآباءِ والأمَّهاتِ بل قالُوا : فما لنا من شافعينَ ولا صديقٍ حميم ، والصَّديقُ يقعُ على الواحدِ والجمعِ كالخَليط والقَطينِ وأضرابِهما وهذا فيما إذا عَلم رضَا صاحبِ البيتِ بصريحِ الإذنِ أو بقرينةٍ دالَّةٍ عليه ولذلكَ خُصص هؤلاءِ بالذِّكرِ لاعتيادِهم التَّبسطَ فيما بينُهم وقولُه تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُواْ جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً ﴾ كلامٌ مستأنفٌ مسوق لبيانِ حكمٍ آخرَ من جنسِ ما بُيِّن قبله حيثُ كان فريقٌ من المؤمنينَ كبني ليثِ بنِ عمرو من كِنانةَ يتحرَّجون أنْ يأكلُوا طعامَهم مُنفردين وكانَ الرَّجلُ منهم لا يأكلُ ويمكثُ يومَه حتَّى يجدَ ضيفاً يأكلُ معه فإنْ لم يجدْ من يُؤاكله لم يأكلْ شيئاً وربَّما قعدَ الرَّجلُ والطَّعامُ بين يديهِ لا يتناولُه من الصَّباحِ إلى الرَّواحِ وربَّما كانتْ معه الإبلُ الحُفَّلِ فلا يشربُ من ألبانِها حتَّى يجدَ مَن يُشاربه فإذا أمسى ولم يجدْ أحداً أكلَ ، وقيل : كان الغنيُّ منهم يدخلُ على الفقيرِ من ذوي قرابته وصداقتِه فيدعُوه إلى طعامِه فيقول : إنِّي أتحرَّجُ أنْ آكلَ معك وأنا غنيٌّ وأنت فقيرٌ ، وقيل : كان قومٌ من الأنصار لا يأكلون إذا نزلَ بهم ضيفٌ إلا مع ضيفِهم فرُخِّص لهم في أن يأكلُوا كيف شاءوا ، وقيل : كانوا إذا اجتمعُوا ليأكلوا طعاماً عزلُوا للأعمى وأشباهِه طعاماً على حدةٍ فبيَّن الله تعالى أن ذلك ليس بواجبٍ وقوله تعالى : ﴿ جَمِيعاً ﴾ حالٌ من فاعلِ تأكلوا وأشتاتاً

عطفٌ عليه داخلٌ في حُكمه وهو جمعُ شَتَ على أنَّه صفةٌ كالحقِّ يقال : أمر شتٌّ أي متفرِّقٌ

(144/554)

أو على أنه في الأصلِ مصدرٌ وصف به مبالغةً أي ليس عليكم جناحٌ أنْ تأكلوا مجتمعين أو متفرِّقين ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُمْ ﴾ شروع في بيان الآدابِ التي تجب رعايتها عند مباشرةِ ما رُخِّص فيه إثرَ بيان الرُّخصةِ فيه ﴿ بُيُوتًا ﴾ أي من البيوتِ المذكورة ﴿ فَسَلِّمُواْ على أَنفُسِكُمْ ﴾ أي على أهلِها الذين بمنزلة أنفسِكم لما بينكم وبينهُم من القرابة الدِّينيةِ والنَّسبيةِ الموجبة لذلك ﴿ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ الله ﴾ أي ثابتةً بأمره مشروعةً من لدنه ويجوزُ أنْ يكون صلةً للتَّحية فإنَّها طلبُ الحياة التي هي من عنده تعالى وانتصابُها على المصدريَّةِ لأنَّها بمعنى التَّسليمِ ﴿ مباركة ﴾ مستتبعة لزيادة الخيرِ والثَّواب ودوامها ﴿ طَيِّبَةً ﴾ تطيبُ بها نفسُ المستمع .

وعن أنس رضي الله عنه أنه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ قال : " متى لقيتَ أحداً من أمَّتي فسلِّم عليه يطُلْ عمرُك وإذا دخلتَ بيتَك فسلِّم عليهم يكثُر خيرُ بيتك وصلِّ صلاةَ الضُّحى فإنَّها صلاةُ الأبرارِ الأوَّابينَ " ﴿ كذلك يُبيِّنُ الله لَكُمُ الآيات ﴾ تكرير لتأكيد الأحكامِ المختتمةِ

به وتفخيمها ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ أي ما في تضاعيفها من الشَّرائعِ والأحكامِ وتعملون بموجبها وتحوزُون بذلك سعادةَ الدَّارين ، وفي تعليل هذا التَّبيينِ بهذه الغاية القُصوى بعد تذييل الأولين بما يُوجبهما من الجَزَالةِ ما لا يخفى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 6 صـ ﴾

(145/554)

وقال الآلوسى :

﴿ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾

في كتاب الزهراوي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن هؤلاء الطوائف كانوا يتحرجون من مؤاكلة الأصحاء حذاراً من استقذارهم إياهم وخوفاً من تأذيهم بأفعالهم وأوضاعهم فنزلت .

وقيل : كانوا يدخلون على الرجال لطلب الطعام فإذا لم يكن عنده ما يطعمهم ذهب بهم إلى بيوت آبائهم وأمهاتهم أو إلى بعض من سماهم الله تعالى في الآية الكريمة فكانوا يتحرجون من ذلك ويقولون : ذهب بنا إلى بيت غيره ولعل أهله كارهون لذلك .

وكذا كانوا يتحرجون من الأكل من أموال الذين كانوا إذا خرجوا إلى الغزو وخلفوا هؤلاء

الضعفاء في بيوتهم ودفعوا إليهم مفاتيحها وأذنوا لهم أن يأكلوا مما فيها مخافة أن لا يكون إذنهم عن طيب نفس منهم .

(146/554)

وكان غير هؤلاء أيضاً يتحرجون من الأكل في بيوت غيرم ، فعن عكرمة كانت الأنصار في أنفسها قزازة لا تأكل من البيوت الذي ذكر الله تعالى ، وقال السدي : كان الرجل يدخل بيت أبيه أو بيت أخيه أو أخته فتتحفه المرأة بشيء من الطعام فيتحرج لأجل أنه ليس ثم رب البيت ، والحرج لغة كما قال الزجاج الضيق من الحرجة وهو الشجر الملتف بعضه ببعض لضيق المسالك فيه ، وقال الراغب : هو في الأصل مجتمع الشيء ثم أطلق على الضيق وعلى الإثم ، والمعنى على الرواية الأولى ليس على هؤلاء حرج في أكلهم مع الأصحاء ، ويقدر على سائر الروايات ما يناسب ذلك مما لا يخفى ، و﴿ على ﴾ معناها في جميع ذلك ، وروى عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه لما نزل ﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أموالكم بَيْنَكُم بالباطل ﴾ [النساء : 29] تحرج المسلمون عن مؤاكلة الأعمى لأنه لا يبصر موضع الطعام الطيب والأعرج لأنه لا يستطيع المزاحمة على الطعام والمريض لأنه لا يستطيع استيفاء الطعام فأنزل الله تعالى هذه الآية ، وقيل : كانت العرب ومن بالمدينة قبل

البعث تجتنب الأكل مع أهل هذه الأعذار لمكان جولان يد الأعمى وانبساط جلسة الأعرج وعدم خلو المريض من رائحة تؤذى أو جرح ينض أو أنف يذن فنزلت .

(147/554)

ومن ذهب إلى هذا جعل ﴿ على ﴾ بمعنى في أي ليس في مؤاكلة الأعمى حرج وهكذا وإلا لكان حق التركيب ليس عليكم أن تأكلوا مع الأعمى حرج وكذا يقال فيما بعد وفيه بعد لا يخفى ، وقيل : لا حاجة إلى أن يقدر محذوف بعد قوله تعالى : ﴿ حَرَجٌ ﴾ حسبما أشير إليه إليه إذ المعنى ليس على الطوائف المعدودة ﴿ وَلاَ على أَنفُسِكُمْ ﴾ حرج ﴿ أَن تَأْكُلُواْ ﴾ أنتم وهم معكم ﴿ مِن بُيُوتِكُمْ ﴾ الخ ، وإلى كون المعنى كذلك ذهب مولانا شيخ الإسلام ثم قال : وتعميم الخطاب للطوائف المذكورة أيضاً يأباه ما قبله وما بعده فإن الخطاب فيهما لغير أولئك الطوائف حتماً ولعل ما تقدم أولى ، وأما تعميم الخطاب فلا أقول به أصلاً ؛ وعن ابن زيد .

والحسن .

(148/554)

وذهب إليه الجبائي وقال أبو حيان : هو القول الظاهر أن الحرج المنفي عن أهل العذر هو الحرج في القعود عن الجهاد وغيره مما رخص لهم فيه والحرج المنفي عمن بعدهم الحرج في الأكل من البيوت المذكورة ، قال "صاحب الكشاف" : والكلام عليه صحيح لالتقاء الطائفتين في أن كلاً منفي عنه الحرج ، ومثاله أن يستفتي مسافر عن الإفطار في رمضان وحاج مفرد عن تقديم الحلق على النحر فتقول : ليس على المسافر حرج أن يفطر ولا عليك يا حاج أن تقدم الحلق على النحر وهو تحقيق لأمر العطف وذلك أنه لما كان فيه غرابة لبعد الجامع بادىء النظر أزاله بأن الغرض لما كان بيان الحكم كفاء الحوادث والحادثتان وإن تباينتا كل التباين إذا تقارنتا في الوقوع والاحتياج إلى البابن قرب الجامع بينهما ولا كذلك إذا كان الكلام في غير معرض الافتاء والبيان ، وليس هذا القول منه بناء على أن الاكتفاء في تصور ما كانف في الجامعية كما ظن ، وبهذا يظهر الجواب عما اعترض به على هذه الرواية من أن الكلام عليها لا يلائم ما قبله ولاما بعده لأن ملاءمته لما بعده قد عرفت وجهها ، وأما ملاءمته لما قبله فغير لازمة إذ لم يعطف عليه ، وربما يقال في وجه ذكر نفي الحرج عن أهل العذر بترك الجهاد ومايشبهه مما رخص لهم فيه أثناء بيان الاستئذان ونحوه : إن نفي الحرج عنهم بذلك مستلزم عدم وجوب الاستئذان منه صلى الله عليه وسلم لترك ذلك فلهم القعود عن الجهاد ونحوه من غير استئذان ولا إذن كما أن للمماليك

والصبيان الدخول في البيوت في غير العورات الثلاث من غير استئذان ولا إذن من أهل البيت ، ومثل هذا يكفي وجهاً في توسيط جملة أثناء جمل ظاهرة التناسب ، ويرد عليه شيء عسى أن يدفع بالتأمل ، وإنما لم يذكر الحرج في قوله تعالى : ﴿ وَلاَ على أَنفُسِكُمْ ﴾ بأن يقال : ولا على أنفسكم حرج اكتفاء بذكره فيما مر والأواخر محل الحذف ، ولم يكتف بحرج واحد بأن يقال : ليس على الأعمى والأعرج والمريض

(149/554)

وأنفسكم حرج أن تأكلوا دفعاً لتوهم خلاف المراد ، وقيل : حذف الحرج آخراً للإشارة إلى مغايرته للمذكور ولا تقدح في دلالته عليه لا سيما إذا قلنا : إن الدال غير منحصر فيه وهو كما ترى ، ومعنى ﴿ على أَنفُسِكُمْ ﴾ كما في "الكشاف" عليكم وعلى من في مثل حالكم من المؤمنين ، وفيه كما في "الكشف" إشارة إلى فائدة إقحام النفس وأن الحاصل ليس على الضعفاء المطعمين ولا على الذاهبين إلى بيوت القرابات ومن مثل حالهم وهم الأصدقاء حرج.

وقيل : إن فائدة إقحامها الإشارة إلى أن الأكل المذكور مع أنه لا حرج فيه لا يخل بقدر من له شأن وهو وجه حسن دقيق لا يلزمه استعمال اللفظ في حقيقته ومجازه ظاهراً ، وكان

منشأه كثرة إقحام النفس في ذوي الشأن ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ على نَفْسِهِ الرحمة ﴾ [الأنعام : 54] ولم يقل سبحانه كتب ربكم عليه الرحمة ، وقوله عز وجل في الحديث القدسي : "يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي" دون أن يقول جل وعلا : إني حرمت الظلم على إلى غير ذلك مما يعرفه المتتبع المنصف ، وما قيل من أنّ فائدة الإقحام الإشارة إلى أن التجنب عن الأكل المذكور لا يخلو عن رعاية حظ النفس مع خفائه لا يلائم إلا بعض الروايات السابقة في سبب النزول ، ونحو ما قيل من أنها أقحمت للإشارة إلى أن نفي الحرج عن المخاطبين في الأكل من البيوت المذكورة لذواتهم بخلاف نفي الحرج عن أهل الأعذار في الأكل منها فإنه لكونهم مع المخاطبين وذهابهم بهم إليها ، والتعرض لنفي الحرج عنهم في أكلهم من بيوتهم مع ظهور انتفاء ذلك لإظهار التسوية بينه وبين قرنائه كما في قوله تعالى : ﴿ تُكَلِّمُ الناس فِى المهد وَكَهْلاً ﴾ [آل عمران : 46] لكن ذلك فيما نحن فيه من أول الأمر ، ولم يتعرض لبيوت أولادهم لظهور أنها كبيوتهم ، وذكر جمع أنها داخلة في بيوت المخاطبني ، فقد روى أبو داود .

وابن ماجه "أنت ومالك لأبيك" وفي حديث رواه الشيخان .

(150/554)

وغيرهما : " إن أطيب ما يأكل المرء من كسبه وإن ولده من كسبه " وقال بعضهم : المراد ببيوت المخاطبين بيوت أولادهم وأضافها إليه لمزيد اختصاصها بهم كما يشهد به الشرع والعرف ، وقيل : المعنى أن تأكلوا من بيوتكم من مال أولادكم وأزواجكم الذين هم في بيوتكم ومن جملة عيالكم وهو كما ترى ﴿ أَوْ بُيُوتِ ءَابَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أمهاتكم ﴾ وقرأ حمزة بكسر الهمزة والميم ، والكسائي .

وطلحة بكسر الهمزة وفتح الميم ﴿ أَوْ بُيُوتِ إخوانكم أَوْ بُيُوتِ أخواتكم أَوْ بُيُوتِ أعمامكم أَوْ بُيُوتِ عماتكم أَوْ بُيُوتِ أخوالكم أَوْ بُيُوتِ خالاتكم أَوْ ﴾ أي أو مما تحت أيديكم وتصرفكم من بستان أو ماشية وكالة أو حفظاً وهو الذي يقتضيه كلام ابن عباس . فقد روى عنه غير واحد أنه قال : ذاك وكيل الرجل وقيمه في ضيعته وماشيته فلا بأس عليه أن يأكل من ثمر حائطه ويشرب من لبن ماشيته ولا يحمل ولا يدخر .

وقال السدي : هو الرجل يولي طعام غيره ويقوم عليه فلا بأس أن يأكل منه .

وقال ابن جرير : هو الزمن يسلم إليه مفتاح البيت ويؤذن له بالتصرف فيه ، وقيل : ولي اليتيم الذي له التصرف بماله فإنه يباح له الأكل منه بالمعروف .

وملك المفتاح على جميع ذلك كناية عن كونه الشيء تحت يد الشخص وتصرفه .

والعطف على ما أشرنا إليه على ما بعد ﴿ مِنْ ﴾ وعن قتادة أن المراد بما ملكتم مفاتحه العبيد فالعطف على ما بعد ﴿ بُيُوتِ ﴾ والتقدير أو بيوت الذين ملكتم مفاتحهم .

وكان ملك المفتاح لما شاع كناية لم ينظر فيه إلى أن المتصرف مما يتوصل إليه بالمفتاح أولاً ومثله كثير ، أو هو ترشيح لجري العبيد مجرى الجماد من الأموال المشعر به استعمال ما فيهم ، ولا يخفى عليك بعد هذا القول وأنه يندرج بيوت العبيد في قوله تعالى : ﴿ بُيُوتِكُمْ ﴾ لأن العبد لا ملك له ، وإرادة المعتوقين منهم بقرينة ﴿ مَلَكْتُم ﴾ بلفظ الماضي مما لا ينبغي أن يلتفت إليه .

(151/554)

وقرأ ابن جبير ﴿ مَلَكْتُم ﴾ بضم الميم وكسر اللام مشددة ﴿ ومفاتيحه ﴾ بياء بعد التاء جمع مفتاح.

وقرأ قتادة .

وهرون عن أبي عمرو ﴿ مفتاحه ﴾ بالإفراد وهو آلة الفتح وكذا المفتح كما في القاموس ، وقال الراغب : المفتح والمفتاح ما يفتح به وجمعه مفاتيح ومفاتح .

وفي بعض الكتب أن جمع مفتح مفاتح وجمع مفتاح مفاتيح ﴿ مَّفَاتِحهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ ﴾ أي أو بيوت صديقكم وهو من يصدق في مودتكم وتصدق في مودته يقع على الواحد والجمع ، والمراد به هنا الجمع ، وقيل : المفرد ، وسر التعبير به دون أصدقائكم الإشارة إلى قلة

الأصدقاء حتى قيل

: صاد الصديق وكاف الكيمياء معا . . .

لا يوجدان فدع عن نفسك الطمعا

ونقل عن هشام بن عبد الملك أنه قال : نلت ما نلت حتى الخلافة وأعوزني صديق لا أحتشم منه ، وقيل : إنه إشارة إلى أن شأن الصداقة رفع الإثنينية .

ورفع الحرج في الأكل من بيت الصديق لأنه أرضى بالتبسط وأسر به من كثير من ذوي القرابة ؛ روى عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما الصديق أكبر من الوالدين إن الجهنميين لما استغاثوا لم يستغيثوا بالآباء والأمهات فقالوا : ﴿ فَمَا لَنَا مِن شافعين وَلاَ صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴾ [الشعراء : 100 101] .

وعن جعفر الصادق رضي الله تعالى عنه من عظم حرمة الصديق أن جعله الله تعالى من الأنس والثقة والانبساط ورفع الحشمة بمنزلة النفس والأب والأخ ، وقيل لأفلاطون : من أحب إليك أخوك أم صديقك ؟ فقال : لا أحب أخي إلا إذا كان صديقي ، وقد كان السلف ينبسطون بأكل أصدقائهم من بيوتهم ولو كانوا غيباً .

(152/554)

يحكى عن الحسن أنه دخل داره وإذا حلقة من أصدقائه وقد استلوا سلالاً من تحت سريره فيها الخبيص وأطايب الأطعمة وهم مكبون عليها يأكلون فتهللت أسارير وجهه سروراً وضحك وقال : هكذا وجدناهم هذا وجدناهم يريد كبراء الصحابة ومن لقيهم من البدريين ، وكان الرجل منهم يدخل دار صديقه وهو غائب فيسأل جاريته كيسه فيأخذ ما شاء فإذا حضر مولاها فأخبرته أعتقها سروراً بذلك ، وهذا شيء قد كان

.

إذا الناس ناس والزمان زمان . . .

وأما اليوم فقد طوى فيما أعلم بساطه واضمحل والأمر لله تعالى فسطاطه وعفت آثاره وأفلت أقماره وصار الصديق اسماً للعدو الذي يخفى عداوته وينتظر لك حرب الزمان وغاءته فآه ثم آه ولا حول ولا قوة إلا بالله

.

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى . . .

عدواً له ما من صداقته بد

(153/554)

ثم إن نفي الحرج في الأكل المذكور ومشروط بما إذا علم رضا صاحب المال بإذن صريح أو قرينة ، ولا يرد أنه إذا وجد الرضا جاز الأكل من مال الأجنبي والعدو أيضاً فلا يكون للتخصيص وجه لأن تخصيص هؤلاء لاعتياد التبسط بنيهم فلا مفهوم له ، وقال أبو موسلم : هذا في الأقارب الكفرة أباح سبحانه في هذه الآية ما حضره في قوله سبحانه : ﴿ لاَّ تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بالله واليوم الآخر يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ الله وَرَسُولَهُ ﴾ [المجادلة : 22] وليس بشيء ، وقيل : كان ذلك في صدر الإسلام ثم نسخ بقوله صلى الله عليه وسلم : " لا يحل مال امرىء مسلم إلا عن طيب نفسه منه " وقوله عليه الصلاة والسلام من حديث ابن عمر رضي الله تعالى عنهما : " لا يحلبن أحد ماشية أحد إلا بإذنه " وقوله تعالى : ﴿ لاَ تَدْخُلُواْ بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حتى تَسْتَأْنِسُواْ ﴾ [النور : 27] الآية ، وقوله عز وجل : ﴿ لاَ تَدْخُلُواْ بُيُوتَ النبى إِلاَّ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إلى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاه ﴾ [الأحزاب : 53] فإنهم إذا منعوا من منزله صلى الله عليه وسلم إلا بالشرط المذكور هو عليه الصلاة والسلام أكرم الناس وأقلهم حجاباً فغيره صلى الله عليه وسلم يعلم بالطريق الأولى .

(154/554)

وأنت تعلم أنه لا حاجة إلى القول بالنسخ بناء على ما قلنا أولاً ، واحتج بالآية بعض أئمة الحنفية على أنه لا قطع بسرقة مال المحارم مطلقاً لا فرق في ذلك بين الوالدين والمولودين وبين غيرهم لأنها دلت على إباحة دخول دارهم بغير إذنهم فلا يكون مالهم محرزاً ومجرد احتمال إرادة الظاهر وعدم النسخ كاف في الشبهة المدرئة للحد ، وبحث فيه بأن درء الحدود بالشبهات ليس على إطلاقه عندهم كما يعلم من أصولهم ، وأورد عليه أيضاً أنه يستلزم أن لا تقطع يد من سرق من الصديق ، وأجيب عن هذا بأن الصديق متى قصد سرقة مال صديقه انقلب عدواً ، وتعقب بأن الشرع ناظر إلى الظاهر لا إلى السرائر ، وقرىء ﴿ صَدِيقِكُمْ ﴾ بكسر الصاد اتباعاً لحركة الدال حكى ذلك حميد الخزاز ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُواْ ﴾ أي مجتمعين وهو نصب على الحال من فاعل ﴿ لاَ تَأْكُلُواْ ﴾ وهو في الأصل بمعنى كل ولا يفيد الاجتماع خلافاً للفراء ، ودل عليه هنا لمقابلته بقوله تعالى : ﴿ أَوْ أَشْتَاتاً ﴾ فإنه عطف عليه داخل في حكمه وهو جمع شت على أنه صفة كالحق يقال : أمر شت أي متفرق أو على أنه في الأصل مصدر وصف به مبالغة .

والآية على ما ذهب أكثر المفسرين كلام مستأنف مسوق لبيان حكم آخر من جني ما بين قبله ، وقد نزلت على ما روى عن ابن عباس .

والضحاك .

وقتادة في بني ليث بن عمرو بن كنانة تحرجوا أن يأكلوا طعامهم منفردين وكان الرجل منهم لا

يأكل ويمكث يومه حتى يجد ضيفاً يأكل معه فإن لم يجد من يؤاكله لم يأكل شيئاً وربما قعد الرجل منهم والطعام بين يديه لا يتناوله من الصباح إلى الرواح وربما كانت معه الإبل الحفل فلا يشرب من ألبانها حتى يجد من يشاربه فإذا أمسى ولم يجد أحداً أكل ، قيل : وهذا التحرج سنة موروثة من الخليل عليه الصلاة والسلام ، وقد قال حاتم

: إذا ما صنعت الزاد فالتمسي له . . .

أكيلاً فإني لست آكله وحدي

(155/554)

وفي الحديث " شر الناس من أكل وحده وضرب عبده ومنع رفده " وهذا الذم لاعتياده بخلاً بالقرى ونفي الجناح عن وقوعه أحياناً بياناً لأنه لا إثم فيه ولا يذم به شرعاً كما ذمت به الجاهلية فلا حاجة إلى القول بأن الوعيد في الحديث لمن اجتمعت فيه الخصال الثلاث دون الانفراد بالأكل وحده فإنه يقتضي أن كلاً منها على الانفراد غير منهي عنه وليس كذلك ، والقول بأنهم أهل لسان لا يخفى عليهم مثله ولكن لمجيء الواو بمعنى أو تركوا كل واحد منها احتياطاً لا وجه له لأن هؤلاء المتحرجين لم يتمسكوا بالحديث ، وكون الواو بمعنى أو توهم لا عبرة به ، ولا شك أن اجتماع الأيدي على الطعام سنة فتركه بغير داع مذمة انتهى .

وعن عكرمة .

وأبي صالح أنه نزلت في قوم من الأنصار كانوا إذا نزل بهم ضيف لا يأكلون إلا معه فرخص لهم أن يأكلوا كيف شاؤا ، وقيل : كان الغني يدخل على الفقير من ذوي قرابته وصداقته فيدعوه إلى طعامه فيقول : إني لأتحرج أن آكل معك وأنا غني وأنت فقير وروى ذلك عن ابن عباس ، وقال الكلبي : كانوا إذا اجتمعوا ليأكلوا طعاماً عزلوا للأعمى ونحوه طعاماً على حدة فبين الله تعالى أن ذلك ليس بواجب .

وقيل : كانوا يأكلون فرادى خوفاً أن يزيد أحدهم على الآخر في الأكل أو أن يحصل من الاجتماع ما ينفر أو يؤذي فنزلت لنفي وجوب ذلك ، وأياً ما كان فالعبرة لعموم اللفظ لا لخصوص السبب ، وقيل : الآية من تتمة ما قبلها على معنى أنها وقعت جواباً لسؤال نشأ منه كأن سائلاً يقول : هل نفى الحرج في الأكل من بيوت من ذكر خاص فيما إذا كان الأكل مع أهل تلك البيوت أم لا ؟ فأجيب بقوله تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُواْ جَمِيعاً ﴾ أي مجتمعين مع أهل تلك البيوت في الأكل أو أشتاتاً أي متفرقين بأن يأكل كل منكم وحده ليس معه صاحب البيت وما ألطف نفي الحرج فيما اتسعت دائرته ونفي الجناح فيما ورد فيه بين أمرين والنكات لا يجب إطرادها كذا قيل فتدبر .

﴿ فَإِذَا دَخَلْتُمْ ﴾ شروع في بيان الأدب الذي ينبغي رعايته عند مباشرة ما رخص فيه بعد بيان الرخصة فيه ﴿ بُيُوتًا ﴾ أي من البيوت المذكورة كما يؤذن به الفاء ﴿ فَسَلِّمُواْ على أَنفُسِكُمْ ﴾ أي على أهلها كما أخرج ذلك ابن المنذر .

وابن أبي حاتم .

والبيهقي في "شعب الايمان" عن ابن عباس .

وقريب منه ما أخرجه عبد الرزاق .

وجماعة عن الحسن أن المعنى فليسلم بعضكم على بعض نظير قوله تعالى : ﴿ فاقتلوا أَنفُسَكُمْ ﴾ والتعبير عن أهل تلك البيوت بالأنفس لتنزيلهم منزلتها لشدة الاتصال ، وفي الاتصاف في التعبير عنهم بذلك تنبيه على السر الذي اقتضى إباحة الأكل من تلك البيوت المعدودة وأن ذلك إنما كان لأنها بالنسبة إلى الداخل كبيت نفسه للقرابة ونحوها ، وقيل : المراد السلام على أهلها على أبلغ وجه لأن المسلم إذا ردت تحيته عليه فكأنه سلم على نفسه كما أن القاتل لاستحقاقه القتل بفعله كأنه قاتل نفسه .

وأخرج عبد الرزاق .

وابن جرير .

والحاكم وصححه .

وغيرهم عن ابن عباس أنه قال في الآية : هو المسجد إذا دخلته فقل السلام علينا وعلى عباد الله تعالى الصالحين فحمل البيوت فيها على المساجد والسلام على الأنفس على ظاهره ، وقيل : المراد بيوت المخاطبين وأهلهم ، وذكر أن الرجل إذا دخل على أهله سن له أن يقول : السلام عليكم تحية من عند الله مباركة طيبة فإن لم يجد أحداً فليقل السلام علينا من ربنا وروى هذا عن عطاء ، وقيل السلام على الأنفس على ظاهره والمراد ببيوت بيوت الكفار وذكر أن داخله وكذا داخل البيوت الخالية يقول ما سمعت آنفاً عن ابن عباس ، وقيل : يقول على الكفار يقول : السلام على من اتبع الهدى ، ولا يخفى المناسب للمقام ، والسلام بمعنى السلامة من الآفات ؛ وقيل : اسم من أسمائه عز وجل وقد مر الكلام في ذلك على أتم وجه فتذكر .

(157/554)

﴿ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللهِ ﴾ أي ثابتة بأمره تعالى مشروعة من لدنه عز وجل فالجار والمجرور متعلق بمحذوف وقع صفة لتحية ، وجوز أن يتعلق بتحية فإنها طلب الحياة وهي من عنده عز وجل ، وأصل معناها أن تقول حياك الله تعالى أي أعطاك سبحانه الحياة ثم عمم لكل دعاء ، وانتصابها على المصدرية لسلموا على طريق قعدت جلوساً فكأنه قيل فسلموا

تسليماً أو فحيوا تحية ﴿ مباركة ﴾ بورك فيها بالأجر كما روى عن مقاتل ، قال الضحاك : في السلام عشر حسنات ومع الرحمة عشرون ومع البركات ثلاثون ﴿ طَيِّبَةً ﴾ تطيب بها نفس المستمع ، والظاهر أنه يزيد المسلم ما ذكر في سلامه ، وعن بعض السلف زيادته كما مر آنفاً ، وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال : ما أخذت التشهد إلا من كتاب الله تعالى سمعت الله تعالى يقول : ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُواْ على أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ الله مباركة طَيِّبَةً ﴾ فالتشهد في الصلاة التحيات المباركات الطيبات لله .

﴿ كذلك يُبَيِّنُ لَكُمُ الآيات ﴾ تكرير لمزيد التأكيد ، وفي ذلك تفخيم فخيم للأحكام المختتمة به ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ ما في تضاعيفها من الشرائع والأحكام وتعملون بموجبها وتحوزون بذلك سعادة الدارين ، وفي تعليل هذا التبيين بهذه الغاية القصوى بعد تذييلي الأولين بما يوجبهما من الجزالة ما لا يخفى ، وذكر بعض الأجلة أنه سبحانه بدأ السورة بقوله تعالى : ﴿ سُورَةٌ أنزلناها وفرضناها وَأَنزَلْنَا ﴾ [النور : 1] وختمها بقوله عز وجل : ﴿ كذلك يُبيّنُ الله لَكُمُ الآيات ﴾ [النور : 85] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 18 صـ ﴾

(158/554)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ﴾

لما فرغ سبحانه من ذكر ما ذكره من دلائل التوحيد رجع إلى ما كان فيه من الاستئذان ، فذكره هاهنا على وجه أخصّ ، فقال : ﴿ يا أَيُّهَا الذين ءَامَنُواْ لِيَسْتَأْذِنكُمُ الذين مَلَكَتْ أيمانكم ﴾ والخطاب للمؤمنين ، وتدخل المؤمنات فيه تغليباً كما في غيره من الخطابات .

قال العلماء : هذه الآية خاصة ببعض الأوقات .

واختلفوا في المراد بقوله : ﴿ لِيَسْتَأْذِنكُمُ ﴾ على أقوال : الأوّل : أنها منسوخة ، قاله سعيد بن المسيب .

وقال سعيد بن جبير : إن الأمر فيها للندب لا للوجوب .

وقيل : كان ذلك واجباً حيث كانوا لا أبواب لهم ، ولو عاد الحال لعاد الوجوب ، حكاه المهدوي عن ابن عباس .

وقيل : إن الأمر هاهنا للوجوب ، وإن الآية محكمة غير منسوخة ، وأن حكمها ثابت على الرجال والنساء .

قال القرطبي : وهو قول أكثر أهل العلم .

وقال أبو عبد الرحمن السلمي : إنها خاصة بالنساء .

وقال ابن عمر : هي خاصة بالرجال دون النساء .

والمراد بقوله : ﴿ مَلَكَتْ أيمانكم ﴾ : العبيد ، والإماء ، والمراد ب ﴿ الذين لم يبلغوا الحلم ﴾ : الصبيان ﴿ منكم ﴾ أي : من الأحرار ، ومعنى ﴿ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ ﴾ : ثلاثة أوقات في اليوم والليلة ، وعبر بالمرات عن الأوقات لأن أصل وجوب الاستئذان هو بسبب مقارنة تلك الأوقات لمرور المستأذنين بالمخاطبين لا نفس الأوقات ، وانتصاب ﴿ ثلاث مرات ﴾ على الظرفية الزمانية أي : ثلاثة أوقات ، ثم فسر تلك الأوقات بقوله : ﴿ مّن قَبْلِ صلاة الفجر ﴾ إلخ ، أو منصوب على المصدرية أي : ثلاث استئذانات ؛ ورجح هذا أبو حيان ، فقال : والظاهر من قوله : ﴿ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ ﴾ ثلاث استئذانات ، لأنك إذا قلت : ضربتك ثلاث مرات لا يفهم منه إلاّ ثلاث ضربات .

(159/554)

ويردّ : بأن الظاهر هنا متروك للقرينة المذكورة ، وهو التفسير بالثلاثة الأوقات .

قرأ الحسن ، وأبو عمرو في رواية الحلم بسكون اللام ، وقرأ الباقون بضمها .

قال الأخفش : الحلم من حلم الرجل بفتح اللام ، ومن الحلم حلم بضم اللام يحلم بكسر

اللام.

ثم فسر سبحانه الثلاث المرات، فقال: ﴿ مّن قَبْلِ صلاة الفجر ﴾، وذلك لأنه وقت القيام عن المضاجع، وطرح ثياب النوم، ولبس ثياب اليقظة، وربما يبيت عرياناً، أو على حال لا يحبّ أن يراه غيره فيها، ومحله النصب على أنه بدل من ثلاث، ويجوز أن يكون في محل رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي: هي من قبل، وقوله: ﴿ وَحِينَ تَضَعُونَ ثيابكم مّنَ الظهيرة ﴾ معطوف على محل ﴿ مّن قَبْلِ صلاة الفجر ﴾، و"من" في ﴿ مّنَ الظهيرة ﴾ للبيان، أو بمعنى: في، أو بمعنى: اللام.

والمعنى: حين تضعون ثيابكم التي تلبسونها في النهار من شدة حرّ الظهيرة، وذلك عند انتصاف النهار، فإنهم قد يتجرّدون عن الثياب لأجل القيلولة.

ثم ذكر سبحانه الوقت الثالث، فقال: ﴿ وَمِن بَعْدِ صلاة العشاء ﴾، وذلك لأنه وقت التجرد عن الثياب، والخلوة بالأهل، ثم أجمل سبحانه هذه الأوقات بعد التفصيل، فقال: ﴿ ثَلاَثُ عَوْرَاتِ لَّكُمْ ﴾ قرأ الجمهور: ﴿ ثلاثُ عورات ﴾ برفع ثلاث وقرأ حمزة وأبو بكر عن عاصم بالنصب على البدل من ثلاث مرات.

قال ابن عطية: إنما يصح البدل بتقدير أوقات ثلاث عورات، فحذف المضاف، وأقيم المضاف إليه مقامه، ويحتمل: أنه جعل نفس ثلاث مرات نفس ثلاث عورات مبالغة؛ ويجوز أن يكون ثلاث عورات بدلاً من الأوقات المذكورة أي: من قبل صلاة الفجر إلخ؛

ويجوز أن تكون منصوبة بإضمار فعل أي : أعني ، ونحوه ، وأما الرفع فعلى أنه خبر مبتدأ محذوف أي : هنّ ثلاث .

قال أبو حاتم : النصب ضعيف مردود .

وقال الفراء : الرفع أحبّ إليّ ، قال : وإنما اخترت الرفع لأن المعنى : هذه الخصال ثلاث عورات .

(160/554)

وقال الكسائي : إن ثلاث عورات مرتفعة بالابتداء ، والخبر ما بعدها .

قال والعورات الساعات التي تكون فيها العورة .

قال الزجاج : المعنى : ليستأذنكم أوقات ثلاث عورات ، فحذف المضاف ، وأقيم المضاف إليه مقامه ، وعورات جمع عورة ، والعورة في الأصل : الخلل ، ثم غلب في الخلل الواقع فيما يهمّ حفظه ويتعين ستره أي : هي ثلاث أوقات يختلّ فيها الستر .

وقرأ الأعمش : " عورات " بفتح الواو ، وهي لغة هذيل وتميم ، فإنهم يفتحون عين فعلات سواء كان واواً أو ياء ، ومنه :

أخو بيضات رايح متأوّب . . . رفيق بمسح المنكبين سبوح

وقوله :

أبو بيضات رايح أو مغتدي . . . عجلان ذا زاد وغير مزوّد

و﴿ لكم ﴾ متعلق بمحذوف ، هو صفة لثلاث عورات أي : كائنة لكم ، والجملة مستأنفة مسوقة لبيان علة وجوب الاستئذان ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلاَ عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ ﴾ أي : ليس على المماليك ، ولا على الصبيان جناح ، أي : إثم في الدخول بغير استئذان لعدم ما يوجبه من مخالفة الأمر ، والإطلاع على العورات .

ومعنى ﴿ بعدهنّ ﴾ : بعد كل واحدة من هذه العورات الثلاث ، وهي الأوقات المتخللة بين كلّ اثنين منها ، وهذه الجملة مستأنفة مقرّرة للأمر بالاستئذان في تلك الأحوال خاصة ، ويجوز أن تكون في محل رفع صفة لثلاث عورات على قراءة الرفع فيها .

قال أبو البقاء : ﴿ بَعْدَهُنَّ ﴾ أي : بعد استئذانهم فيهنّ ، ثم حذف حرف الجرّ والمجرور فبقي بعد استئذانهم ، ثم حذف المصدر ، وهو الاستئذان ، والضمير المتصل به .

وردّ : بأنه لا حاجة إلى هذا التقدير الذي ذكره ، بل المعنى : ليس عليكم جناح ، ولا عليهم ، أي : العبيد والإماء والصبيان جناح في عدم الاستئذان بعد هذه الأوقات المذكورة ، وارتفاع ﴿ طَوافُونَ ﴾ على أنه خبر مبتدأ محذوف أي : هم طوّافون عليكم ، والجملة مستأنفة مبينة للعذر المرخص في ترك الاستئذان .

قال الفراء : هذا كقولك في الكلام هم خدمكم ، وطوّافون عليكم ، وأجاز أيضاً نصب طوّافين لأنه نكرة ، والمضمر في ﴿ عَلَيْكُمْ ﴾ معرفة ، ولا يجيز البصريون أن تكون حالاً من المضمرين اللذين في عليكم ، وفي بعضكم لاختلاف العاملين .

ومعنى ﴿ طوّافون عليكم ﴾ أي : يطوفون عليكم ، ومنه الحديث في الهرّة : " إنما هي من الطوّافين عليكم .

أو الطوّافات " أي : هم خدمكم فلا بأس أن يدخلوا عليكم في غير هذه الأوقات بغير إذن ، ومعنى ﴿ بَعْضَكُمْ على بَعْضٍ ﴾ : بعضكم يطوف ، أو طائف على بعض ، وهذه الجملة بدل مما قبلها ، أو مؤكدة لها .

والمعنى : أن كلا منكم يطوف على صاحبه العبيد على الموالي ، والموالي على العبيد ، ومنه قول الشاعر :

ولما قرعنا النبع بالنبع بعضه . . . ببعض أبت عيدانه أن تكسرا

وقرأ ابن أبي عبلة : " طوّافين " بالنصب على الحال كما تقدّم عن الفراء ، وإنما أباح سبحانه الدخول في غير تلك الأوقات الثلاثة بغير استئذان ، لأنها كانت العادة أنهم لا يكشفون عوراتهم في غيرها ، والإشارة بقوله : ﴿ كذلك يُبيّنُ الله لَكُمُ الآيات ﴾ إلى مصدر الفعل الذي بعده ، كما في سائر المواضع في الكتاب العزيز أي : مثل ذلك التبيين يبين

الله لكم الآيات الدالة على ما شرعه لكم من الأحكام ﴿ والله عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ كثير العلم بالمعلومات ، وكثير الحكمة في أفعاله .

(162/554)

﴿ وَإِذَا بَلَغَ الأطفال مِنكُمُ الحلم ﴾ بين سبحانه ها هنا حكم الأطفال الأحرار إذا بلغوا الحلم بعد ما بين فيما مرّ حكم الأطفال الذين لم يبلغوا الحلم في أنه لا جناح عليهم في ترك الاستئذان فيما عدا الأوقات الثلاثة ، فقال : ﴿ فَلْيَسْتَأْذِنُواْ ﴾ يعني : الذين بلغوا الحلم إذا دخلوا عليكم ﴿ كَمَا استأذن الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ ، والكاف نعت مصدر محذوف أي : استئذاناً كما استأذن الذين من قبلهم ، والموصول عبارة عن الذين قيل لهم : ﴿ لاَ تَدْخُلُواْ بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حتى تَسْتَأْنِسُواْ ﴾ [النور : 27] الآية .

والمعنى : أن هؤلاء الذين بلغوا الحلم يستأذنون في جميع الأوقات كما استأذن الذين من قبلهم من الكبار الذين أمروا بالاستئذان من غير استثناء ، ثم كرّر ما تقدّم للتأكيد ، فقال : ﴿ كذلك يُبَيِّنُ الله لَكُمْ ءاياته والله عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ وقرأ الحسن " الحلم " ، فحذف الضمة لثقلها .

قال عطاء : واجب على الناس أن يستأذنوا إذا احتلموا أحراراً كانوا أو عبيداً .

وقال الزهري : يستأذن الرجل على أمه ، وفي هذا المعنى نزلت هذه الآية ، والمراد بالقواعد من النساء : العجائز اللاتي قعدن عن الحيض ، والولد من الكبر ، واحدتها قاعد بلا هاء ليدلّ حذفها على أنه قعود الكبر ، كما قالوا : امرأة حامل ليدلّ بحذف الهاء على أنه حمل حبل ، ويقال : قاعدة في بيتها ، وحاملة على ظهرها .

قال الزجاج : هن اللاتي قعدن عن التزويج ، وهو معنى قوله : ﴿ اللاتي لاَ يَرْجُونَ نِكَاحاً ﴾ أي : لا يطمعن فيه لكبرهنّ .

وقال أبو عبيدة : اللاتي قعدن عن الولد ، وليس هذا بمستقيم ، لأن المرأة تقعد عن الولد ، وفيها مستمتع .

(163/554)

ثم ذكر سبحانه حكم القواعد ، فقال : ﴿ فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ ﴾ أي : الثياب التي تكون على ظاهر البدن كالجلباب ونحوه ، لا الثياب التي على العورة الخاصة ، وإنما جاز لهنّ ذلك لانصراف الأنفس عنهنّ إذ لا رغبة للرجال فيهنّ ، فأباح الله سبحانه لهنّ ما لم يبحه لغيرهنّ ، ثم استثنى حالة من حالاتهنّ ، فقال : ﴿ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ ﴾ أي : غير مظهرات للزينة التي أمرن بإخفائها في قوله : ﴿ وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ ﴾ [النور : 31

] ، والمعنى : من غير أن يردن بوضع الجلابيب إظهار زينتهنّ ، ولا متعرّضات بالتزين لينظر إليهنّ الرجال .

والتبرّج : التكشف ، والظهور للعيون ، ومنه ﴿ بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾ [النساء : 78] وبروج السماء ، ومنه قولهم : سفينة بارجة أي : لا غطاء عليها ﴿ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ﴾ أي : وأن يتركن وضع الثياب فهو خير لهنّ من وضعها .

وقرأ عبد الله بن مسعود وأبيّ بن كعب وابن عباس : " أن يضعن من ثيابهن " بزيادة من ، وقرأ ابن مسعود : " وأن يعففن " بغير سين ﴿ واللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ كثير السماع والعلم ، أو بليغهما .

﴿ لَّيْسَ عَلَى الأعمى حَرَجٌ وَلاَ عَلَى الأعرج حَرَجٌ وَلاَ عَلَى المريض حَرَجٌ ﴾ اختلف أهل العلم في هذه الآية هل هي محكمة ، أو منسوخة ؟ قال بالأوّل جماعة من العلماء ، وبالثاني جماعة .

قيل : إن المسلمين كانوا إذا غزوا خلفوا زمانهم ، وكانوا يدفعون إليهم مفاتيح أبوابهم ، ويقولون لهم : قد أحللنا لكم أن تأكلوا مما في بيوتنا ، فكانوا يتحرّجون من ذلك وقالوا : لا ندخلها ، وهم غيب ، فنزلت هذه الآية رخصة لهم ؛ فمعنى الآية : نفي الحرج عن الزمنى في أكلهم من بيوت أقاربهم ، أو بيوت من يدفع إليهم المفتاح إذا خرج للغزو .

قال النحاس : وهذا القول من أجلّ ما روي في الآية لما فيه من الصحابة ، والتابعين من التوقيف .

(164/554)

وقيل : إن هؤلاء المذكورين كانوا يتحرّجون من مؤاكلة الأصحاء حذاراً من استقذارهم إياهم ، وخوفاً من تأذيهم بأفعالهم ، فنزلت .

وقيل : إن الله رفع الحرج عن الأعمى فيما يتعلق بالتكليف الذي يشترط فيه البصر ، وعن الأعرج فيما يشترط في التكليف به القدرة الكاملة على المشي على وجه يتعذر الإتيان به مع العرج ، وعن المريض فيما يؤثر المرض في إسقاطه ، وقيل : المراد بهذا الحرج المرفوع عن هؤلاء هو الحرج في الغزو أي : لا حرج على هؤلاء في تأخرهم عن الغزو .

وقيل : كان الرجل إذا أدخل أحداً من هؤلاء الزمنى إلى بيته ، فلم يجد فيه شيئاً يطعمهم إياه ذهب بهم إلى بيوت قرابته ، فيتحرج الزمنى من ذلك ، فنزلت .

ومعنى قوله ﴿ وَلاَ على أَنفُسِكُمْ ﴾ .

عليكم ، وعلى من يماثلكم من المؤمنين ﴿ أَن تَأْكُلُواْ ﴾ أنتم ، ومن معكم ، وهذا ابتداء كلام أي : ولا عليكم أيها الناس .

والحاصل : أن رفع الحرج عن الأعمى والأعرج والمريض إن كان باعتبار مؤاكلة الأصحاء ، أو دخول بيوتهم فيكون ﴿ وَلاَ على أَنفُسِكُمْ ﴾ متصلاً بما قبله ، وإن كان رفع الحرج عن أولئك باعتبار التكاليف التي يشترط فيها وجود البصر ، وعدم العرج وعدم المرض ، فقوله : ﴿ وَلاَ على أَنفُسِكُمْ ﴾ ابتداء كلام غير متصل بما قبله .

ومعنى ﴿ مِن بُيُوتِكُمْ ﴾ : البيوت التي فيها متاعهم ، وأهلهم ، فيدخل بيوت الأولاد ، كذا قال المفسرون ، لأنها داخلة في بيوتهم لكون بيت ابن الرجل بيته ، فلذا لم يذكر سبحانه بيوت الأولاد ، وذكر بيوت الآباء ، وبيوت الأمهات ، ومن بعدهم .

قال النحاس : وعارض بعضهم هذا ، فقال : هذا تحكم على كتاب الله سبحانه بل الأولى في الظاهر أن يكون الابن مخالفاً لهؤلاء .

(165/554)

ويجاب عن هذه المعارضة بأن رتبة الأولاد بالنسبة إلى الآباء لا تنقص عن رتبة الآباء بالنسبة إلى الأولاد ، بل للآباء مزيد خصوصية في أموال الأولاد لحديث : " أنت ومالك لأبيك " ، وحديث : " ولد الرجل من كسبه " ، ثم قد ذكر الله سبحانه هاهنا بيوت الإخوة والأخوات ، بل بيوت الأعمام ، والعمات ، بل بيوت الأخوال ، والخالات ، فكيف ينفي

سبحانه الحرج عن الأكل من بيوت هؤلاء ، ولا ينفيه عن بيوت الأولاد ؟ وقد قيد بعض العلماء جواز الأكل من بيوت هؤلاء بالإذن منهم .

وقال آخرون : لا يشترط الإذن .

قيل : وهذا إذا كان الطعام مبذولاً ، فإن كان محرزاً دونهم لم يجز لهم أكله .

ثم قال سبحانه : ﴿ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ ﴾ أي : البيوت التي تملكون التصرّف فيها بإذن أربابها ، وذلك كالوكلاء ، والعبيد ، والخزّان ، فإنهم يملكون التصرّف في بيوت من أذن لهم بدخول بيته ، وإعطائهم مفاتحه .

وقيل : المراد بها بيوت المماليك .

قرأ الجمهور ﴿ ملكتم ﴾ بفتح الميم ، وتخفيف اللام .

وقرأ سعيد بن جبير بضم الميم ، وكسر اللام مع تشديدها .

وقرأ أيضاً " مفاتيحه " بياء بين التاء ، والحاء .

وقرأ قتادة ﴿ مفاتحه ﴾ على الإفراد ، والمفاتح جمع مفتح ، والمفاتيح جمع مفتاح ﴿ أَوْ صَدِيقِكُمْ ﴾ أي : لا جناح عليكم أن تأكلوا من بيوت صديقكم ، وإن لم يكن بينكم وبينه قرابة ، فإن الصديق في الغالب يسمح لصديقه بذلك ، وتطيب به نفسه ، والصديق يطلق على الواحد والجمع ، ومنه قول جرير :

دعون الهوى ثم ارتمين قلوبنا . . . بأسهم أعداء وهنّ صديق

ومثله العدوّ والخليط والقطين والعشير ، ثم قال سبحانه : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُواْ ﴾ من بيوتكم ﴿ جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً ﴾ انتصاب ﴿ جميعاً ﴾ و ﴿ أشتاتاً ﴾ على الحال .

(166/554)

والأشتات جمع شتّ ، والشتّ المصدر بمعنى : التفرّق ، يقال : شتّ القوم أي : تفرقوا ، وهذه الجملة كلام مستأنف مشتمل على بيان حكم آخر من جنس ما قبله أي : ليس عليكم جناح أن تأكلوا من بيوتكم مجتمعين ، أو متفرقين ، وقد كان بعض العرب يتحرّج أن يأكل وحده حتى يجد له أكيلاً يؤاكله ، فيأكل معه ، وبعض العرب كان لا يأكل إلاّ مع ضيف ، ومنه قول حاتم :

إذا ما صنعت الزاد فالتمسي له . . . أكيلاً فإني لست آكله وحدي

﴿ فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً ﴾ هذا شروع في بيان أدب آخر أدّب به عباده أي : إذا دخلتم بيوتاً غير البيوت التي تقدّم ذكرها ﴿ فَسَلّمُواْ على أَنفُسِكُمْ ﴾ أي : على أهلها الذين هم بمنزلة أنفسكم .

وقيل : المراد البيوت المذكورة سابقاً .

وعلى القول الأوّل ، فقال الحسن ، والنخعي : هي المساجد ، والمراد : سلموا على من فيها من صنفكم ، فإن لم يكن في المساجد أحد ، فقيل : يقول : السلام على رسول الله ، وقيل يقول : السلام عليكم مريداً للملائكة ، وقيل : يقول : السلام علينا ، وعلى عباد الله الصالحين .

وقال بالقول الثاني : أعني أنها البيوت المذكورة سابقاً جماعة من الصحابة ، والتابعين ، وقيل : المراد بالبيوت هنا هي كلّ البيوت المسكونة ، وغيرها ، فيسلم على أهل المسكونة ، وأما غير المسكونة فيسلم على نفسه .

قال ابن العربي : القول بالعموم في البيوت هو الصحيح ، وانتصاب ﴿ تَحِيَّةً ﴾ على المصدرية ، لأن قوله : ﴿ فَسَلِّمُواْ ﴾ معناه : فحيوا أي : تحية ثابتة ﴿ مِنْ عِندِ الله ﴾ أي : إن الله حياكم بها .

وقال الفرّاء : أي : إن الله أمركم أن تفعلوها طاعة له ، ثم وصف هذه التحية ، فقال : ﴿ مباركة ﴾ أي كثيرة البركة والخير دائمتهما ﴿ طَيِّبَةً ﴾ أي تطيب بها نفس المستمع ، وقيل : حسنة جميلة .

(167/554)

وقال الزجاج : أعلم الله سبحانه أن السلام مبارك طيب لما فيه من الأجر والثواب ، ثم كرّر سبحانه ، فقال : ﴿ كذلك يُبيّنُ الله لَكُمُ الآيات ﴾ تأكيداً لما سبق .

وقد قدّمنا : أن الإشارة بذلك إلى مصدر الفعل ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ تعليل لذلك التبيين برجاء تعقل آيات الله سبحانه ، وفهم معانيها .

وقد أخرج ابن أبي حاتم ، عن مقاتل بن حيان قال : بلغنا أن رجلاً من الأنصار ، وامرأته أسماء بنت مرشدة صنعا للنبي صلى الله عليه وسلم طعاماً ، فقالت أسماء : يا رسول الله ما أقبح هذا ! إنه ليدخل على المرأة وزوجها ، وهما في ثوب واحد غلامهما بغير إذن ، فأنزل الله في ذلك ﴿ يا أَيُّهَا الذين ءَامَنُواْ لِيَسْتَأْذِنكُمُ الذين مَلَكَتْ أيمانكم ﴾ يعني : العبيد والإماء ﴿ والذين لَمْ يَبْلُغُواْ الحلم مِنكُمْ ﴾ قال : من أحراركم من الرجال والنساء .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السديّ في هذه الآية قال : كان أناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يعجبهم أن يواقعوا نساءهم في هذه الساعات ليغتسلوا ، ثم يخرجوا إلى الصلاة ، فأمرهم الله أن يأمروا المملوكين ، والغلمان أن لا يدخلوا عليهم في تلك الساعات إلاّ بإذن .

وأخرج ابن مردويه عن ثعلبة القرظي عن عبد الله بن سويد قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن العورات الثلاث ، فقال : " إذا أنا وضعت ثيابي بعد الظهيرة لم يلج عليّ أحد من الخدم من الذين لم يبلغوا الحلم ، ولا أحد لم يبلغ الحلم من الأحرار إلاّ بإذن ، وإذا

وضعت ثيابي بعد صلاة العشاء ، ومن قبل صلاة الصبح "

وأخرجه عبد بن حميد والبخاري في الأدب ، عن عبد الله بن سويد من قوله .

وأخرج نحوه أيضاً ابن سعد عن سويد بن النعمان .

(168/554)

وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وأبو داود ، وابن مردويه ، والبيهقي في سننه عن ابن عباس قال : إنه لم يؤمن بها أكثر الناس يعني : آية الإذن ، وإني لآمر جاريتي هذه ، لجارية قصيرة قائمة على رأسه أن تستأذن عليّ .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس ، قال : ترك الناس ثلاث آيات لم يعملوا بهنّ : ﴿ يا أَيُّهَا الذين ءَامَنُواْ لِيَسْتَأْذِنكُمُ الذين مَلَكَتْ أيمانكم ﴾ والآية التي في سورة النساء ﴿ وَإِذَا حَضَرَ القسمة ﴾ [النساء : 8] الآية ، والآية التي في الحجرات : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عَندَ الله أتقاكم ﴾ [الحجرات : 13] .

وأخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والبيهقي في السنن عنه أيضاً في الآية قال : إذا خلا الرجل بأهله بعد العشاء فلا يدخل عليه صبيّ ، ولا خادم إلاّ بإذنه حتى يصلي الغداة ، وإذا خلا بأهله عند الظهر ، فمثل ذلك ، ورخص لهم في الدخول فيما بين ذلك بغير إذن ،

وهو قوله : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلاَ عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ ﴾ ، فأما من بلغ الحلم ، فإنه لا يدخل على الرجل وأهله إلاّ بإذن على كل حال ، وهو قوله : ﴿ وَإِذَا بَلَغَ الأطفال مِنكُمُ الحلم فَلْيَسْتَأْذِنُواْ كَمَا استأذن الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ .

وأخرج أبو داود ، وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في السنن بسندٍ صحيح من طريق عكرمة عنه أيضاً : أن رجلاً سأله عن الاستئذان في الثلاث العورات التي أمر الله بها في القرآن ، فقال ابن عباس : إن الله ستير يحب الستر ، وكان الناس ليس لهم ستور على أبوابهم ، ولا حجاب في بيوتهم ، فربما فجأ الرجل خادمه ، أو ولده ، أو يتيم في حجره ، وهو على أهله ، فأمرهم الله أن يستأذنوا في تلك العورات التي سمى الله ، ثم جاء الله بعد بالستور ، فبسط عليهم في الرزق ، فاتخذوا الستور ، واتخذوا الحجاب ، فرأى الناس أن ذلك قد كفاهم من الاستئذان الذي أمروا به .

(169/554)

وأخرج ابن أبي شيبة والبخاري في الأدب ، وابن جرير وابن المنذر عن ابن عمر في قوله : ﴿ لِيَسْتَأْذِنكُمُ الذين مَلَكَتْ أيمانكم ﴾ قال : هي على الذكور دون الإناث ، ولا وجه لهذا التخصيص ، فالاطلاع على العورات في هذه الأوقات كما يكرهه الإنسان من الذكور

يكرهه من الإناث .

وأخرج ابن مردويه عن أبي سلمة بن عبد الرحمن ، عن بعض أزواج النبي صلى الله عليه وسلم في الآية قالت : نزلت في النساء أن يستأذنّ علينا .

وأخرج الحاكم وصححه عن عليّ في الآية قال : النساء ، فإن الرجال يستأذنون .

وأخرج الفريابي وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي عبد الرحمن السلمي في هذه الآية قال : هي في النساء خاصة الرجال يستأذنون على كل حال بالليل والنهار .

وأخرج الفريابي ، عن موسى بن أبي عائشة قال : سألت الشعبي عن هذه الآية أمنسوخة هي ؟ قال : لا .

وأخرج سعيد بن منصور ، والبخاري في الأدب ، وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن عطاء : أنه سأل ابن عباس : أأستأذن على أختي ؟ قال : نعم ، قلت : إنها في حجري ، وإني أنفق عليها ، وإنها معي في البيت أأستأذن عليها ؟ قال : نعم ، إن الله يقول : ﴿ لِيَسْتَأْذِنكُمُ الذين مَلَكَتْ أيمانكم والذين لَمْ يَبْلُغُواْ الحلم مِنكُمْ ﴾ الآية ، فلم يؤمر هؤلاء بالإذن إلاّ في هؤلاء العورات الثلاث ، قال : ﴿ وَإِذَا بَلَغَ الأطفال مِنكُمُ الحلم فَلْيَسْتَأْذِنُواْ كَمَا استأذن الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ فالإذن واجب على كل خلق الله أجمعين .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن جرير ، والبيهقي في سننه عن ابن مسعود قال : عليكم إذن

على أمهاتكم.

وأخرج سعيد بن منصور، والبخاري في الأدب عنه قال: يستأذن الرجل على أبيه وأمه وأخيه وأخته.

وأخرج ابن أبي شيبة، والبخاري في الأدب، عن جابر نحوه.

(170/554)

وأخرج ابن جرير، والبيهقي في السنن عن عطاء بن يسار: أن رجلاً قال: يا رسول الله أأستأذن على أمي؟ قال: "نعم"، قال: إني معها في البيت، قال: "استأذن عليها"، قال: إني خادمها أفأستأذن عليها كلما دخلت؟ قال: "أتحبّ أن تراها عريانة؟" قال: لا، قال: "فاستأذن عليها" وهو مرسل.

وأخرج ابن أبي شيبة نحوه عن زيد بن أسلم: أن رجلاً سأل النبي صلى الله عليه وسلم، وهو أيضاً مرسل.

وأخرج أبو داود، والبيهقي في السنن عن ابن عباس: ﴿ وَقُل للمؤمنات يَغْضُضْنَ مِنْ أبصارهن ﴾ [النور: 31] الآية، فنسخ، واستثنى من ذلك ﴿ والقواعد مِنَ النساء اللاتي لاَ يَرْجُونَ نِكَاحاً ﴾ الآية.

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم ، والبيهقي في السنن عنه قال : هي المرأة لا جناح عليها أن تجلس في بيتها بدرع وخمار ، وتضع عليها الجلباب ما لم تتبرّج بما يكرهه الله ، وهو قوله : ﴿ فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ متبرجات بِزِينَةٍ ﴾ .

وأخرج أبو عبيد في فضائله ، وابن المنذر ، وابن الأنباري في المصاحف ، والبيهقي عن ابن عباس : أنه كان يقرأ " أَن يَضَعْنَ مِنْ ثِيَابَهُنَّ " ويقول : هو : الجلباب .

وأخرج سعيد ابن منصور وابن المنذر عن ابن عمر في الآية قال : تضع الجلباب .

وأخرج عبد الرزاق ، والفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والبيهقي في السنن عن ابن مسعود : ﴿ أن يضعن ثيابهنّ ﴾ قال : الجلباب ، والرداء .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال : لما نزلت :

(171/554)

﴿ يَاأَيُّهَا الذين ءَامَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ أموالكم بَيْنَكُمْ بالباطل ﴾ [النساء : 29] قالت الأنصار : ما بالمدينة مال أعزّ من الطعام كانوا يتحرّجون أن يأكلوا مع الأعمى يقولون : إنه لا يبصر موضع الطعام ، وكانوا يتحرّجون الأكل مع الأعرج يقولون : الصحيح يسبقه إلى المكان ، ولا يستطيع أن يزاحم ، ويتحرّجون الأكل مع المريض يقولون : لا يستطيع أن يأكل مثل الصحيح ،

وكانوا يتحرّجون أن يأكلوا في بيوت أقاربهم ، فنزلت : ﴿ لَّيْسَ عَلَى الأعمى ﴾ يعني : في الأكل مع الأعمى .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مقسم نحوه .

وأخرج عبد الرزاق وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي عن مجاهد قال : كان الرجل يذهب بالأعمى أو الأعرج أو المريض إلى بيت أبيه أو بيت أخيه أو بيت عمه أو بيت عمته أو بيت خاله ، أو بيت خالته ، فكان الزمنى يتحرّجون من ذلك يقولون : إنما يذهبون بنا إلى بيوت غيرهم ، فنزلت هذه الآية رخصة لهم .

وأخرج البزار وابن أبي حاتم وابن مردويه وابن النجار عن عائشة قالت : كان المسلمون يرغبون في النفير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيدفعون مفاتيحهم إلى أمنائهم ، ويقولون لهم : قد أحللنا لكم أن تأكلوا مما احتجتم إليه ، فكانوا يقولون : إنه لا يحلّ لنا أن نأكل إنهم أذنوا لنا من غير طيب نفس ، وإنما نحن زمنى ، فأنزل الله : ﴿ وَلاَ على أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُواْ ﴾ إلى قوله : ﴿ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحهُ ﴾ .

(172/554)

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي عن ابن عباس قال : لما نزلت ﴿ يَاأَيُّهَا الذين ءَامَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ أموالكم بَيْنَكُمْ بالباطل ﴾ [النساء : 29] قال المسلمون : إن الله قد نهانا أن نأكل أموالنا بيننا بالباطل ، والطعام هو أفضل الأموال ، فلا يحلّ لأحد منا أن يأكل عند أحد ، فكفّ الناس عن ذلك ، فأنزل الله : ﴿ لَّيْسَ عَلَى الأعمى حَرَجٌ ﴾ إلى قوله : ﴿ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحهُ ﴾ ، وهو : الرجل يوكل الرجل بضيعته ، والذي رخص الله أن يأكل من ذلك الطعام والتمر ويشرب اللبن ، وكانوا أيضاً يتحرّجون أن يأكل الرجل الطعام وحده حتى يكون معه غيره ، فرخص الله لهم فقال ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُواْ جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً ﴾ .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن الضحاك قال : كان أهل المدينة قبل أن يبعث النبي صلى الله عليه وسلم لا يخالطهم في طعامهم أعمى ، ولا مريض ، ولا أعرج لا يستطيع المزاحمة على الطعام ، فنزلت رخصة في مؤاكلتهم .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وأبو داود في مراسيله ، وابن جرير والبيهقي عن الزهري أنه سئل عن قوله : ﴿ لَّيْسَ عَلَى الاعمى حَرَجٌ ﴾ ما بال الأعمى ، والأعرج ، والمريض ذكروا هنا ؟ فقال : أخبرني عبيد الله بن عبد الله : أن المسلمين كانوا إذا غزوا خلفوا زمناهم ، وكانوا يدفعون إليهم مفاتيح أبوابهم يقولون : قد أحللنا لكم أن تأكلوا مما في بيوتنا ، وكانوا يتحرّجون من ذلك يقولون : لا ندخلها ، وهم غيب ، فأنزل الله هذه الآية

رخصة لهم .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة قال : كان هذا الحيّ من بني كنانة بن خزيمة يرى أحدهم أن عليه مخزاة أن يأكل وحده في الجاهلية ، حتى إن كان الرجل يسوق الذود الحفل ، وهو جائع حتى يجد من يؤاكله ويشاربه ، فأنزل الله : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُواْ جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً ﴾ .

(173/554)

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن عكرمة وأبي صالح قالا : كانت الأنصار إذا نزل بهم الضيف لا يأكلون حتى يأكل الضيف معهم ، فنزلت رخصة لهم .

وأخرج الثعلبي عن ابن عباس في الآية ، قال : خرج الحارث غازياً مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وخلف على أهله خالد بن يزيد ، فحرج أن يأكل من طعامه ، وكان مجهوداً ، فنزلت .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : ﴿ أَوْ صَدِيقِكُمْ ﴾ قال : إذا دخلت بيت صديقك من غير مؤامرته ، ثم أكلت من طعامه بغير إذنه لم يكن بذلك بأس .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد في قوله : ﴿ أَوْ صَدِيقِكُمْ ﴾ قال : هذا شيء قد انقطع ، إنما كان هذا في أوّله ، ولم يكن لهم أبواب ، وكانت الستور مرخاة ، فربما دخل الرجل البيت ، وليس فيه أحد ، فربما وجد الطعام وهو جائع فسوّغه الله أن يأكله .

وقال : ذهب ذلك اليوم البيوت فيها أهلها ، فإذا خرجوا أغلقوا فقد ذهب ذلك .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الشعب عن ابن عباس في قوله : ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُواْ على أَنفُسِكُمْ ﴾ يقول : إذا دخلتم بيوتكم ، فسلموا على أنفسكم ﴿ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ الله ﴾ ، وهو السلام ، لأنه اسم الله ، وهو : تحية أهل الجنة .

وأخرج البخاري وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه من طريق أبي الزبير عن جابر بن عبد الله قال : إذا دخلت على أهلك ، فسلم عليهم تحية من عند الله ﴿ مباركة طَيِّبَةً ﴾ .

وأخرج عبد الرزّاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه والبيهقي في الشعب ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ فَسَلِّمُواْ على أَنفُسِكُمْ ﴾ قال : هو المسجد إذا دخلته ، فقل : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين .

وأخرج ابن أبي شيبة ، والبخاري في الأدب عن ابن عمر قال : إذا دخل البيت غير المسكون ، أو المسجد ، فليقل : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 4 صـ ﴾

وقال القاسمي :

﴿ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾

أي : في القعود عن الغزو ، لضعفهم وعجزهم . وهذه الآية كالتي في سورة الفتح وكآية براءة : ﴿ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ [التوبة : 91] ، وهذا ما ذهب إليه عطاء وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم . وزَعْمُ أنه لا يلائم ما قبله ولا ما بعده ، مردود بأن المراد أن كلّاً من الطائفتين منفيّ عنه الحرج . ومثال هذا – كما قال الزمخشريّ – أن يستفتيك مسافر عن الإفطار في رمضان . وحاجّ مفردٍ عن تقديم الحلق على النحر . قلت له : ليس على المسافر حرج أن يفطر ، ولا عليك ، يا حاج أن تقدم الحلق عن النحر . يعني أنه إذا كان في العطف غرابة ، لبعد الجامع في بادئ النظر ، وكان الغرض بيان حكم حوادث تقاربت في الوقوع ، والسؤال عنها والاحتياج إلى البيان لكونها في معرض الاستفتاء ، والإفتاء كان ذلك جامعاً بينها ، محسناً للعطف ، وإن تباينت .

قال الشهاب : وبهذا يظهر الجواب عن زعم أنه لا يلائم ما قبله ولا ما بعده .

لأن ملائمته لما بعده قد عرف وجهها . وأما ملائمته لما قبله فغير لازمة ، إذا لم يعطف عليه . انتهى .

وقيل : كان المؤمنون يذهبون بالضعفاء وذوي العاهات إلى بيوت أزواجهم وأولادهم ، وإلى بيوت قراباتهم وأصدقائهم ، فيطعمونهم منها . فخالج قلوب المطعِمين والمطعَمين ريبة في ذلك . وخافوا أن يلحقهم فيه حرج . وكرهوا أن يكون أكلاً بغير حق ، لقوله تعالى : ﴿ وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ ﴾ [البقرة : 188] ، فقيل لهم : ليس على الضعفاء ، ولا على أنفسكم ، يعني عليكم ، وعلى مَن في مثل حالكم من المؤمنين ، حرج في ذلك .

(175/554)

وقيل : كان هؤلاء يتوقون مجالسة الناس ومواكلتهم ، لما عسى يؤدي إلى الكراهة من قبلهم . ولأن الأعمى ربما سبقت يده إلى ما سبقت عين أكيله إليه وهو لا يشعر . والأعرج يتفسح في مجليه ويأخذ أكثر من موضعه ، فيضيق على جليسه . والمريض لا يخلو عن حالة تؤنف .

وقيل : كانوا يخرجون إلى الغزو ، ويخلفون الضعفاء في بيوتهم ، ويدفعون إليهم المفاتيح ، ويأذنون لهم أن يأكلوا من بيوتهم . فكانوا يتحرجون . فقيل : ليس على هؤلاء الضعفاء

حرج فيما تحرجوا عنه ، ولا عليكم أن تأكلوا من هذه البيوت .

هذا ما ذكروه . ولا يخفى صدق الآية على جميع ذلك ، ونفي الحرج عنه كله .

ولا يستلزم نفي الحرج عن مواكلة المريض على هذه الأوجه الأخر ، أن يشرك أكيله الصحيح في غمس يده من إنائه مما حظر منه الطب ، وغدت الأنفس تعافه . بل يراد به حضوره مع الصحيح على مائدة واختصاصه بقصعة على حدة . وما أحسن عادة الانفراد بالقصاع ، مما تطيب معه نفس المرضى والأصحاء في الاجتماع . وقوله تعالى : ﴿ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ ﴾ أي : بيوت أزواجكم وعيالكم . أضافه إليهم ، لأن بيت المرأة كبيت الزوج وهذا قول الفرّاء .

وقال ابن قتيبة : أراد بيوت أولادهم . فنسب بيوت الأولاد إلى الآباء ، لأن الولد كسب ولده ، ماله كماله . قال صلى الله عليه وسلم : < إن أطيب ما يأكل الرجل من كسبه ، وأن ولده من كسبه > .

قال : والدليل على هذا ، أنه تعالى عدّد الأقارب ولم يذكر الأولاد . لأنه إذا كان سبب الرخصة هو القرابة ، كان الذي هو أقرب منهم أولى . انتهى .

وعليه ، لا يقال إنه ليس في أكل الإنسان من بيت نفسه حرج ، فما فائدة ذكره بأن المراد بالأنفس من هو بمنزلتها من العيال والأولاد ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ [النساء : 29] .

وفي " الكشف " : فائدة إقحام النفس ، أن المراد به ليس على الضعفاء المطعمين ، ولا على الذاهبين إلى بيوت القرابات ، أو من هو في مثل حالهم وهم الأصدقاء – حرج .

وقيل إنه على ظاهره . والمراد إظهار التسوية بينه وبين قرنائه .

قال الشهاب : وهو حسن . ولا يراد عليه أنه حينئذ لم يذكر فيه الأكل من بيوت الأزواج والأولاد ، لأنه داخل في قوله : ﴿ مِنْ بُيُوتِكُمْ ﴾ . انتهى .

﴿ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ ﴾

يعني أموال المرء ، إذا كان له عليها قيم ووكيل يحفظها له ، أن يأكل من ثمر بستانه ويشرب من لبن ماشيته . وملك المفتاح كونها في يده وحفظه : ﴿ أَوْ صَدِيقِكُمْ ﴾ أي : أو بيوت أصدقائكم . والصديق يكون واحداً وجمعاً . وكذلك الخليط والقطين والعدو . كذا في " الكشاف " .

قال الناصر : وقد قال الزمخشري : إن سرّ إفراده في قوله تعالى : ﴿ فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ وَلا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴾ [الشعراء : 100 – 101] ، دون الشافعين ، والتنبيه على قلة

الأصدقاء ، ولا كذلك الشافعون فإن الإنسان قد يحمي له ، ويشفع في حقه من لا يعرفه ، فضلاً عن أن يكون صديقاً .

ويحتمل في الآيتين ، أن يكون المراد به الجمع . فلا كلام . ويحتمل أن يراد الإفراد ، فيكون سرّه ذلك . والله أعلم .

قال الزمخشري : يحكى عن الحسن أنه دخل داره . وإذا حلقة من أصدقائه وقد استلوا سلالاً من تحت سريره ، فيها الخبيص وأطايب الأطعمة ، وهم مكبون عليها يأكلون فتهللت أسارير وجهه سروراً ، وضحك وقال : هكذا وجدناهم ، هكذا وجدناهم . يريد كبراء الصحابة ومن لقيهم من البدريين رضي الله عنهم .

(177/554)

وكان الرجل منهم يدخل دار صديقه وهو غائب ، فيسأل جاريته كيسه ، فيأخذ منه ما شاء . فإذا حضر مولاها فأخبرته ، أعتقها سروراً بذلك .

وعن جعفر بن محمد الصادق رضي الله عنهما : من عظم حرمة الصديق ، أن جعله الله من الأنس والثقة والانبساط وطرح الحشمة ، بمنزلة النفس والأب والأخ والابن .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما : الصديق أكبر من الوالدين . إن الجهنميين لما استغاثوا لم

يستغيثوا بالآباء والأمهات . فقالوا : ﴿ فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ وَلا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴾ [الشعراء : 100 - 101] . وقالوا : إذا دل ظاهر الحال على رضا المالك ، قام ذلك مقام الإذن الصريح . وربما سمج الاستئذان وثقل . كمن قدم إليه طعام ، فاستأذن صاحبه في الأكل منه . انتهى .

﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً ﴾ أي : مجتمعين أو متفرقين . روي أن قوماً من الأنصار إذا نزل بهم ضيف ، لا يأكلون إلا مع ضيفهم . وإن قوماً كانوا تحرجوا من الاجتماع على الطعام ، لاختلاف الناس في الأكل ، وزيادة بعضهم على بعض . فأبيح لهم ذلك .

وقال قتادة : كان هذا الحيّ من بني كنانة ، يرى أحدهم ؛ أن مخزاة عليه ، أن يأكل وحده في الجاهلية . حتى إن كان الرجل ليسوق الذود الحقل وهو جائع ، حتى يجد من يؤاكله ويشاربه . واشتهر هذا عن حاتم لقوله :

~إذا ما صَنَعْتِ الزَّادَ فَالتَمِسِي لَهُ أَكِيلاً فَإِنِي لستُ آكِلَهُ وَحْدِي

قال الشهاب : وفي الحديث : < شر الناس من أكل وحده ، وضرب عبده ، ومنع رفده > والنهي في الحديث لاعتياده بخلاً بالقرى ، ونفي الحرج عن وقوعه أحياناً ، بيان لأنه لا إثم فيه ، ولا يذم به شرعاً ، كما ذمّت به الجاهلية .

﴿ فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ ﴾ أي : إذا دخلتم بيتاً من هذه البيوت لتأكلوا ، فابدأوا بالسلام على أهلها الذين هم منكم ، قرابة وديناً . قاله الزمخشري .

(178/554)

أشار رحمه الله ، إلى أن المراد بالأنفس من هم بمنزلتها ، لشدة الاتصال كقوله : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ [النساء : 29] ويحتمل أن المسلم ، إذا ردت تحيته عليه ، فكأنه سلم على نفسه . كما أن القاتل لاستحقاقه القتل بفعله ، كأنه قاتل نفسه . وأما إبقاؤه على ظاهره ؛ إذا لم يكن في البيت أحد ، يسره أن يقول : السلام علينا وعلى عَبَّاد الله الصالحين . كما روي عن ابن عباس – فبعيد غير مناسب لعموم الآية . كذا في " الشهاب " .

وقال الناصر : في التعبير عنهم ، بالأنفس ، تنبيه على السر الذي اقتضى إباحة الأكل من هذه البيوت المعدودة ، وأن ذلك إنما كان ، لأنها بالنسبة إلى الداخل كبيت نفسه ، لاتحاد القرابة . . فليطب نفساً بانبساط فيها : ﴿ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ أي : ثابتة بأمر ، مشروعة من لدنه : ﴿ مُبَارَكَةً ﴾ أي : مستتبعة لزيادة الخير والثواب ودوامها : ﴿ طَيِّبَةً ﴾ أي : تطيب بها نفس المستمع : ﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ أي :

ما فيها من الأحكام أو الآداب القائدة إلى سعادة الدارين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 12 صـ 423. 427 ﴾

(179/554)

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب :

﴿ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾

اختلف المفسرون فى الحرج الذي رفع عن الأعمى ، والأعرج ، والمريض . .

وذهب أكثرهم إلى القول بأن هذا الحكم نزل فى شأن أولئك الزمنى ، وأصحاب العاهات ، الذين كانوا يقومون على شئون المسلمين الذاهبين إلى الغزو ، حيث يخلّفونهم وراءهم ، ويدعون إليهم التصرف فى شئونهم . . ويضعون فى أيديهم ما يملكون ، من مال أو متاع إلى أن يعودوا من الغزو . . !

وهذا الرأى يعارضه ما جاء فى قوله تعالى فى هذه الآية : « أَوْ ما مَلَكْتُمْ مَفاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ » فهؤلاء الزمنى والمرضى ، يدخلون فى عموم هذا الحكم ، سواء كانوا ممن فى أيديهم مفاتيح المجاهدين ، أو كانوا أصدقاء لهم . .

(180/554)

والذي نذهب إليه ، ونرجو - إن شاء اللّه أن يكون صحيحا - هو أن الآية الكريمة دعوة إلى البر والتوادّ بين المسلمين عامة ، وبين الأهل والأقارب خاصة . . وأنه إذا كان للمسلم أن يتحرج من أن يستطعم أو يطعم من أحد من الناس ، فإنه ليس له أن يتحرج من أن يستطعم أو يطعم من أحد من الناس ، فإنه ليس له أن يتحرج أو يخزى ، إذا هو أصاب طعامه عند أحد من أقاربه هؤلاء ، الذين ذكرهم اللّه سبحانه فى تلك الآية ، من الآباء والأمهات ، والإخوة ، والأخوات ، والأعمام والعمات والأخوال والخالات - فهؤلاء جميعا أبناء أسرة واحدة ، قد قضوا فترة من حياتهم معا ، يظلهم سقف واحد ، وتجمعهم معيشة واحدة . . فإذا التمس أحدهم طعاما ، ولم يجده فى بيته ، كان له أن يلتمسه عند أىّ من الأقارب ، وأن ينال منه شبعه ، بإذن أو بغير إذن . .

هكذا التكافل بين الأقارب وذوى الأرحام . .

ومناسبة هذه الآية لما قبلها ، هى أن الآيات السابقة ، كانت دستورا يحكم العلاقة بين الأقارب ، وذوى الأرحام ، من رجال ونساء ، فى اختلاط بعضهم ببعض ، كما أنها تحكم العلاقة بين المسلمين عامة - من رجال ونساء - فى دخول البيوت ، بعد الاستئذان ، والإذن من أصحابها . .

ولما كان هذا الاختلاط بين الأقارب ، وهذا لتزاور بين المسلمين عامة ، يضع المخالطين

والزائرين فى أحوال يشهدون فيها طعاما بين يدى أهل البيت الذي دخلوا إليه مستأذنين.

فقد كان من تمام الحكمة أن تبين الشريعة ما يقضى به الموقف إزاء هذا الطعام الممدود ، وهل من حرج على من يحضره أن يتناول منه ، إذا دعى إليه ؟ إن الذي دخل البيت هنا لم يكن يقصد الطعام الذي حضرة . . وربّما يقع فى شعور أهل المنزل أنه جاء يطلب الطعام ، ويرصد وقته ، وقد يكون الزائر جائعا فعلا ، ونفسه تشتهى هذا الطعام ، ولكنه يتحرج أن ينال منه . .

إن هناك مشاعر كثيرة مختلطة تشتمل على أهل الدار وعلى زائرهم . .

(181/554)

فكان ما جاءت به الآية الكريمة هنا ، ما يصحح هذه المشاعر ، ويقيمها على ميزان حكيم عادل كما سنرى . .

فقوله تعالى : « لَيْسَ عَلَى الْأَعْمى حَرَجٌ وَلا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ ، وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ ، وَلا عَلى أَنْفُسِكُمْ » . . . هو رفع للحرج عن هذه الأصناف التي ذكرتها الآية ، من أن يستطعموا ، ويطعموا من تلك البيوت التي يطرقونها ولا حرج عليهم فى هذا . .

أما الأعمى ، والأعرج ، والمريض . . فإنهم حين يقعون تحت داعية الحاجة إلى الطعام ،

ويعجزهم حالهم عن أن ينالوا من كسب أيديهم ، فإنهم فى هذه الحال أبناء الأسرة الإسلامية كلها ، وإن لهم على المجتمع حقّ الإطعام ، كما للابن على أبيه أن يدخل بيته ، وينال من الطعام ما يسد جوعته . .

ولكى يتقرر هذا المعنى فى نفوس المسلمين ، ولكى يصبح هذا الأمر حقّا ، للأعمى والأعرج والمريض ، على المجتمع الإسلامى ، يطالب كل منهم به ، ويستأدبه من أي مسلم قادر على الوفاء به ، دون أن يكون فى ذلك جرح لكرامته ، أو منّة وفضل عليه من أحد .

نقول لكى يتقرر هذا ، فقد قدّمهم القرآن على الأهل والأقارب ، إذا كانوا على الصحة والسلامة ، وكانوا أقدر على أن يجدوا حيلة لدفع غائلة الجوع عنهم ، بخلاف هؤلاء العجزة الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا . .

فجاءت الآية برفع الحرج عن هؤلاء العجزة أولا ، ثم دخل معهم هؤلاء الذين جاءت بهم الآية ، من الأقارب ، وذوى الأرحام . . ثانيا .

وهذا الذي ذهبنا إليه ، هو الذي يتفق مع روح تلك الشريعة السمحاء ، التي قامت على التآخى بين الناس ، والتكافل بين المسلمين جميعا . .

(182/554)

وفى هذا يقول الرسول الكريم : « ليلة الضّيف واجبة على كل مسلم ، فإن أصبح بفنائه محروما « 1 » كان دينا عليه « 2 » ، فإن شاء اقتضاه ، وإن شاء تركه » . . ويقول ـ صلوات اللّه وسلامه عليه : « أيما مسلم ضاف قوما فأصبح الضيف محروما ، فإن حقّا على كل مسلم نصره ، حتى يأخذ بقرى ليلته ، من زرعه وماله » .

---

(1) اسم أصبح ضمير يعود إلى الضيف ، أي إذا أصبح الفقير بفناء الغنى محروما . .

(2) أي كان حق هذا المحروم دينا على الغنى .

(183/554)

وروى البخاري ومسلم عن عقبة بن عامر قال : قلنا يا رسول اللّه تبعثنا « 1 » فننزل بقوم فلا يقروننا . . فما ترى فى ذلك ؟ فقال ـ صلوات اللّه وسلامه عليه . . : « إذا نزلتم بقوم فأمروا لكم بما ينبغى للضيف فاقبلوا منهم ، وإن لم يفعلوا ، فخذوا منهم حق الضيف الذي ينبغى لهم » . .

والذي ينظر فى الآية الكريمة يجد أن مساقها يشير إشارة واضحة إلى أن المقصود برفع الحرج فيها ، إنما هو عن أولئك العجزة . . من الأعمى ، والأعرج والمريض ، وأن من دخل بعدهم فى هذا الحكم من الأهل والأقارب ، إنما جاء ليدعم هذه القضية ، قضية العجزة ،

وليدلّ على أنهم أولى فى هذا المقام من الأهل والأقارب ، وأنه إنما رفع الحرج عن الأقارب ، تبعا لهؤلاء . .

ففى قوله تعالى : « وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ » ما يشعر بأن شيئا ما من الحرج مع هذا الإذن ، وأن الإسلام قد تجاوز عنه ، تخفيفا ورحمة ، إذ كان المقام مقام رحمة عامة تنال البعيد ، ولا يحرم منها القريب . .

ولهذا جاء التصريح نصا برفع الحرج ، عن الأعمى ، وعن الأعرج ، وعن المريض . . هكذا .

« ليس على الأعمى . . حرج . .

« ولا على الأعرج . . حرج.

« ولا على المريض . . حرج.

وكل واحد منهم قد نصّ على رفع الحرج عنه . . زيادة فى التقرير ، والتوكيد . . وإلّا كان من مقتضى النظم أن يجىء رفع الحرج . . مرة واحدة

---

(1) أي فى سبيل اللّه . .

عن جميع المتعاطفين . . هكذا : « لَيْسَ عَلَى الْأَعْمى حَرَجٌ ، وَلا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ ، وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ » . . !

ثم إنه حين جاء ذكر الأقارب ، لم يجىء رفع الحرج عنهم نصّا مصرّحا به ، بل جاء بالحمل على الحكم الذي كان للمعطوف عليهم ، وهم هؤلاء العجزة ! . . ولكأن المعنى هو : « حتى ولا على أنفسكم حرج » . .

- وفى قوله تعالى : « أَوْ ما مَلَكْتُمْ مَفاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ »

- إشارة إلى صنفين آخرين من الناس ، ليس عليهم حرج فى أن يأكلوا مما ليس لهم . .

والصنف الأول ، هم الذين فى أيديهم مفاتيح غيرهم ، كالوكلاء ، والأوصياء ، وغيرهم ، ممن يتولّون شئون غيرهم ، وحفظ أموالهم وأمتعتهم ، فهؤلاء لهم أن يأكلوا مما تحت أيديهم ، بالمعروف ، من غير إسراف ، وذلك إذا كانوا فى حاجة إلى هذا الذي يأكلونه . . كما يقول سبحانه : « وَمَنْ كانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ » (6 : النساء)

. . أما الصنف الآخر ، فهم الأصدقاء ، إذ أن لهم على أصدقائهم هذا الحق الذي يجعل لهم مما فى أيدى أصدقائهم شيئا ، أقلّه هو لقمة الطعام عند الحاجة . . لأن الصداقة ، لا تكون صدقا إلا إذا وصلت بين الصديقين بحبل المودّة والإخاء . .

هذا ، ويلاحظ فى الآية الكريمة أمران :

أولهما : أنها لم تذكر الأبناء ، بالنسبة للآباء ، على حين ذكرت الآباء ، وفتحت بيوتهم

للأبناء . . وذلك لأن الأبناء لا يتحرّجون أبدا من أن يطعموا مما يجدون فى بيوت آبائهم . . وكيف وقد أنبتتهم هذه البيوت ، وغذتهم منذ الولادة إلى أن صاروا رجالا . . فهل تنكرهم هذه البيوت بعد هذا ؟ وهل يجد أحد منهم وحشة فى دخولها ، وتناول طعامه منها ؟ ذلك

(185/554)

ما لا يكون ! أما الآباء فإنهم إذ تلجئهم الحاجة إلى بيوت أبنائهم ، فإنهم يغشون بيوتا لم يكن لهم بها عهد . . إنها بيوت مستحدثة ، أحدثها أبناؤهم ، بعد أن كبروا ، واستقلوا بحياتهم . .

ومن هنا تكون الوحشة ، ويكون الحرج . . وقد جاء القرآن الكريم برفع هذا الحرج . . ومن جهة أخرى ، فإن الآباء ، لا يمكن أن يضيقوا أبدا بأبنائهم إذا دخلوا عليهم ، وطعموا من طعامهم ، فى أي وقت ، وعلى أي حال ، بل إن ذلك هو مبعث السعادة والرضا إلى قلوب الآباء ، بخلاف كثير من الأبناء ، فإن فيهم العاقّ الذي لا يرعى حقوق الأبوة ، والذي قد يضيق بدخول أبيه عليه ، والأكل مما عنده . . ولهذا جاء الأمر بفتح هذه الأبواب . . أبواب الأبناء . .

للآباء ! . .

وثانيهما : أن هذا الترتيب الذي جاءت عليه الآية فى ذكر هذه الأصناف ، هو ترتيب تنازلى فى رفع الحرج ، حسب درجة القرابة . . كما هو واضح فى الآية . .

الآباء أولا ، فالأمهات ، فالإخوة ، فالأخوات ، فالأعمام ، فالعمات ، فالأخوال ، فالخالات . .

بقي بعد هذا ، أن نسأل عن تأويل قوله تعالى : « وَلا عَلى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ » فهل هناك حرج فى أن يأكل الإنسان من بيته ، حتى يدخل هذا فى عموم الحكم القاضي برفع الحرج ؟ إن أكل الإنسان من بيته هو الأصل الأصيل فى هذا الباب ، فكيف يجىء حكم برفع حرج عن أمر لا حرج فيه أصلا ؟ .

والجواب على هذا - والله أعلم - هو أن بيت الإنسان ، وما فيه من مال ، ومتاع ، وطعام ، وإن كان ملكا خالصا له ، يتصرف فيه بما يشاء ، وكيف يشاء - إلا أن ذلك ليس على إطلاقه فى مفهوم الشريعة الإسلامية . .

(186/554)

فالشريعة مع تسليمها بحق الإنسان بالتصرف فيما يملك ، وبالتسلط على ما فى يده من مال ومتاع ـ لا تعزل المسلم عن المجتمع الذي يعيش فيه ، ولا تعزل المجتمع عنه فهو ـ أيا كان ـ خلية فى هذا المجتمع ، وعضو من أعضاء هذا الجسد الكبير . . وأن ما يملكه الإنسان ليس ملكا خالصا له ، وإنما تتعلق بهذا الملك حقوق للّه ، وللوالدين والأقربين ، والفقراء والمساكين ، وابن السبيل ، والمجاهدين فى سبيل اللّه . .

هذا ما ينبغى أن يقيم عليه المسلم ، شعوره فى كل ما يملك . . إن له فى هذا الملك شركاء ، منظورين ، وغير منظورين . .

وإذن فلا يغلق بابه على ما فيه من طعام ، ولا يمسك يديه عما معه من مال ، وإنه لن يكون على شريعة الإسلام إذا خلت نفسه من هذا الشعور ، أو ضنّ بما تعلق من حقوق فيما بين يديه من فضل اللّه . .

وعلى هذا نجد ما جاءت به الآية الكريمة من رفع الحرج عن أصحاب البيوت أن يأكلوا من بيوتهم ، هو إلفات حكيم لأصحاب البيوت إلى أنهم ليسوا هم وحدهم أصحابها ، والمستأثرين بما فيها ، وأن هناك أصحاب حقوق يشاركونهم فيما فى هذه البيوت ، فإذا جاء أحد أصحاب الحقوق يطرق أبوابهم ، فليفتحوا له ، وليؤدوا إليه حقه ! وألا إن الطارقين لكثيرون . . يأتون إليهم من قريب وبعيد . .

فلا يضيقوا بهم ، ولا يضجروا . . إنها حقوق يجب أن يؤدوها لهم ، وأن يبرئوا ذمتهم منها ،

إن كانوا مؤمنين بالله ، مطيعين لما يأمر به الله . . وهنا يرفع الحرج عما يملكون ، فى أن ينتفعوا به ، ويطلقوا أيديهم للتصرف فيه ، بعد أن أدّوا ما عليهم من حقوق . . وإلا فإن الحرج قائم . . حتى تؤدى هذه الحقوق . .

هكذا الملكية فى شريعة الإسلام . . ملكية تتعلق بها حقوق ، وتقوم عليها التزامات ، ولن تصبح ملكا خالصا لمالكيها ، حتى يؤدوا ما عليها من حقوق ، ويفوا بما عليها من التزامات . .

(187/554)

.وقوله تعالى : « لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتاتاً » أي ليس عليكم أيها المسلمون حرج فى أن يأكل الواحد منكم وحده أو فى جماعة . .

حسب الظروف والأحوال . . وذلك أنه كان من عادة العرب ألّا يأكل الإنسان إلا إذا التمس من يأكل معه ، ويشاركه فيما يأكل . . وفى هذا يقول شاعرهم :

إذا ما صنعت الزّاد فالتمسى له أكيلا . . فإنى لست آكله وحدي

فلما جاء الإسلام ، ودعا إلى التكافل بين المسلمين ، أمسك المسلمون بهذه العادة ، وجعلوها أمرا ملزما ، وخاصة بعد أن سمعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لهم : «

ألا أخبركم بشراركم ؟ قالوا بلى يا رسول اللّه ؟ قال : « من أكل وحده ، ومنع رفده ، وضرب عبده » .

ولا شك فى أن مقصد الرسول الكريم بمن أكل وحده ، هو ذلك الشره الشحيح الذي يؤثر نفسه بما بين يديه من طعام ، دون أن يلتفت إلى من حوله من زوج ، وولد ، وخادم . . فإنه قلّ أن يأكل الإنسان وحده إلا إذا كان على تلك الصفة . . أما فى غير تلك الحال ، فإنه لا بأس من أن يأكل الإنسان وحده ، ولهذا جاء القرآن برفع الحرج . .

قوله تعالى : « فَإِذا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبارَكَةً طَيِّبَةً كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآياتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ » .

المراد بالبيوت هنا ، هى تلك البيوت التي أشارت إليها الآية ، والتي أذن بدخولها للأصناف الذين ذكروا فيها . .

فهذه البيوت ، لها حرمتها ، ولأهلها الذين هم فيها علاقة مودة وقربى بمن يدخلون عليهم فيها . . ومن أجل هذا كان التسليم على أهلها ، وصلا لهذه المودة ، واستدعاء لهذه القرابة ، التي تجمع المسلمين جميعا . .

(188/554)

ـ وفى قوله تعالى : « فَسَلِّمُوا عَلى أَنْفُسِكُمْ » إشارة إلى أن الذي يدخل هذه البيوت ، هو بعض ممن فيها . وأنه وقد دخلها ـ سواء أكان قريبا ، أو صديقا ، أو غير قريب أو صديق ـ فقد صار من أهلها ، وصار أهلها منه . . وهكذا يصبح بيت كل مسلم بيتا لكل مسلم !

وفى قوله تعالى : « تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبارَكَةً طَيِّبَةً » هو مفعول مطلق لقوله تعالى : « فَسَلِّمُوا » الذي ضمّن معنى : « فَحَيُّوا » أي فحيوا أنفسكم تحية من عند اللّه مباركة طيبة ، هى تحية الإسلام . . أي « السلام عليكم » . . ففى هذه التحية البركة ، والطّيب ، لما تشيع فى النفوس من أمان وسلام ، ومودة وإخاء . .

هذا ويجوز أن يكون « تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ » منصوبا بفعل محذوف ، تقديره ، فسلموا على أنفسكم ، وتقبلوا تحية من عند اللّه مباركة طيبة . .

وفى قوله تعالى : « كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآياتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ » . . وفى جعل فاصلة الآية « لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ » إشارة إلى أن فى هذه الآية معانى دقيقة تحتاج إلى روية وتعقل ، لإدراك مراميها البعيدة ، وأسرارها العظيمة . .

وحسب المرء أن يدبر عقله ، إلى تلك الرعاية التي أوجبها الإسلام على المسلمين فى حق أصحاب العاهات ، والمرضى ، الذين هم الأعضاء الضعيفة فى المجتمع ، تلك الأعضاء التي ينبغى أن تكون موضع رعاية ، وعناية ، كما يرعى الإنسان بعض أعضائه ، إذا أصابها

مكروه . . . ! . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التفسير القرآني للقرآن حـ 9 صـ 1325 .

1333 ﴾

(189/554)

وقال ابن عاشور :

﴿ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾

اختلف في أن قوله تعالى : ﴿ ليس على الأعمى حرج ﴾ الخ منفصل عن قوله ﴿ ولا على أنفسكم ﴾ وأنه في غرض غير غرض الأكل في البيوت ، أي فيكون من تمام آية الاستيذان ، أو هو متصل بما بعده في غرض واحد .

فقال بالأول الحسن وجابر بن زيد وهو مختار الجبائي وابن عطية وابن العربي وأبي حيان .

وقال ابن عطية : إنه ظاهر الآية .

وهو الذي نختاره تفادياً من التكلف الذي ذكره مخالفوهم لبيان اتصاله بما بعده في بيان وجه الرخصة لهؤلاء الثلاثة الأصناف في الطعام في البيوت المذكورة ، ولأن في قوله : ﴿ أن تأكلوا من بيوتكم ﴾ إلى آخر المعدودات لا يظهر اتصاله بالأعمى والأعرج والمريض ، فتكون هذه الآية نفياً للحرج عن هؤلاء الثلاثة فيما تجره ضرارتهم إليهم من الحرج من الأعمال ،

فالحرج مرفوع عنهم في كل ما تضطرهم إليه أعذارهم ، فتقتضي نيتهم الإتيان فيه بالإكمال ويقتضي العذر أن يقع منهم .

فالحرج منفي عن الأعمى في التكليف الذي يشترط فيه البصر ، وعن الأعرج فيما يشترط فيه المشي والركوب ، وعن المريض في التكليف الذي يؤثر المرض في إسقاطه كالصوم وشروط الصلاة والغزو .

ولكن المناسبة في ذكر هذه الرخصة عقب الاستئذان أن المقصد الترخيص للأعمى أنه لا يتعين عليه استئذان لانتفاء السبب الموجبِهِ .

ثم ذكر الأعرج والمريض إدماجاً وإتماماً لحكم الرخصة لهما للمناسبة بينهما وبين الأعمى .

وقال بالثاني جمهور المفسرين وقد تكلفوا لوجه عدّ هذه الأصناف الثلاثة في عداد الآكلين من الطعام الذي في بيوت من ذكروا في الآية الموالية .

والجملة : على كلا الوجهين مستأنفة استئنافاً ابتدائياً .

(190/554)

﴿ وَلاَ على أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُواْ مِن بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أمهاتكم أَوْ بُيُوتِ إخوانكم أَوْ بُيُوتِ أخواتكم أَوْ بُيُوتِ أعمامكم أَوْ بُيُوتِ عماتكم أَوْ بُيُوتِ أخوالكم أَوْ بُيُوتِ

خالاتكم أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُواْ جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً ﴾ .

مناسبة عطف هذه الرخص على رخصة الأعمى ، على تقدير أنه منفصل عنه كما تقدم وهو المختار عند المحققين ، هو تعلق كليهما بالاستئذان والدخول للبيوت سواء كان لغرض الطعام فيها أو كان للزيارة ونحوها لاشتراك الكل في رفع الحرج ، وعلى تقدير أنه متصل به على قول الجمهور فاقتران الجميع في الحكم هو الرخصة للجميع في الأكل ، فأذن الله للأعمى والأعرج والمريض أن يدخلوا البيوت للأكل لأنهم محاويج لا يستطيعون التكسب وكان التكسب زمانئذٍ بعمل الأبدان فرخص لهؤلاء أن يدخلوا بيوت المسلمين لشبع بطونهم .

هذا أظهر الوجوه في توجيه عد هؤلاء الثلاثة مع من عطف عليهم .

وقد ذكر المفسرون وجوهاً أخر أنهاها أبو بكر ابن العربي في "أحكام القرآن" إلى ثمانية ليس منها واحد ينثلج له الصدر .

ولا نطيل بها .

وأعيد حرف (لا) مع المعطوف على المنفي قبله تأكيداً لمعنى النفي وهو استعمال كثير .

والمقصود بالأكل هنا الأكل بدون دعوة وذلك إذا كان الطعام محضراً دون المختزن .

والمراد بالأنفس ذوات المخاطبين بعلامات الخطاب فكأنه قيل : ولا عليكم جناح أن تأكلوا إلى آخره ، فالخطاب للأمة .

والمراد بأكل الإنسان من بيته الأكل غير المعتاد ، أي أن يأكل أكلاً لا يشاركه فيه بقية أهله كأن يأكل الرجل وزوجه غائبة ، أو أن تأكل هي وزوجها غائب فهذه أثرة مرخص فيها .

وعطف على بيوت أنفسهم بيوتُ آبائهم ، ولم يذكر بيوت أولادهم مع أنهم أقرب إلى الآكلين من الآباء فهم أحق بأن يأكلوا من بيوتهم .

(191/554)

قيل : لأن الأبناء كائنون مع الآباء في بيوتهم ، ولا يصح ، فقد كان الابن إذا تزوج بنى لنفسه بيتاً كما في خبر عبد الله بن عمر .

فالوجه أن بيوت الأبناء معلوم حكمها بالأولى من البقية لقول النبي صلى الله عليه وسلم " أنت ومالك لأبيك " .

وهؤلاء المعدودون في الآية بينهم من القرابة أو الولاية أو الصداقة ما يعتاد بسببه التسامح بينهم في الحضور للأكل بدون دعوة لا يتحرج أحد منهم من ذلك غالباً .

و(ما) في قوله : ﴿ ما ملكْتُم مفاتحه ﴾ موصولة صادقة على المكان أو الطعام ، عطف على ﴿ بيوت خالاتكم ﴾ لا على ﴿ أخوالكم ﴾ ولهذا جيء بـ(ما) الغالب استعمالها في غير العاقل .

ومِلك المفاتيح أريد به حفظها بقرينة إضافته إلى المفاتيح دون الدور أو الحوائط .

والمفاتح : جمع مَفْتح وهو اسم آلة الفتح .

ويقال فيها مفتاح ويجمع على مفاتيح .

وهذه رخصة للوكيل والمختزن للطعام وناطور الحائط ذي الثمر أن يأكل كل منهم مما تحت يده بدون إذن ولا يتجاوز شبع بطنه وذلك للعرف بأن ذلك كالإجارة فلذلك قال الفقهاء : إذا كان لواحد من هؤلاء أجرة على عمله لم يجز له الأكل مما تحت يده .

و(صديق) هنا مراد به الجنس الصادق بالجماعة بقرينة إضافته إلى ضمير جماعة المخاطبين ، وهو اسم تجوز فيه المطابقة لمن يجري عليه إن كان وصفاً أو خبراً في الإفراد والتثنية والجمع والتذكير والتأنيث وهو الأصل ، والغالب في فصيح الاستعمال أن يلزم حالة واحدة قال تعالى : ﴿ فما لنا منْ شافعين ولا صديق حميم ﴾ [الشعراء : 100 ، 101] ومثله الخليط والقطين .

والصديق : فعيل بمعنى فاعل وهو الصادق في المودة .

وقد جعل في مرتبة القرابة مما هو موقور في النفوس من محبة الصلة مع الأصدقاء .

وسئل بعض الحكماء : أي الرجلين أحب إليك أخوك أم صديقك ؟ فقال : إنما أحب أخي إذا كان صديقي .

وأعيدت جملة : ﴿ ليس عليكم جُناح ﴾ تأكيداً للأولى في قوله : ﴿ ولا على أنفسكم ﴾ إذ الجناح والحرج كالمترادفين .

(192/554)

وحسّن هذا التأكيد بُعد ما بين الحال وصاحبها وهو واو الجماعة في قوله : ﴿ أن تأكلوا من بيوتكم ﴾ ، ولأجل كونها تأكيداً فصلت بلا عطف .

والجميع : المجتمعون على أمر .

والأشتات : الموزعون فيما الشأن اجتماعهم فيه ، قال تعالى : ﴿ تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ﴾ [الحشر : 14] .

والأشتات : جمع شَتّ ، وهو مصدر شتّ إذا تفرق .

وأما شتّى فجمع شتيت .

والمعنى : لا جناح عليكم أن يأكل الواحد منكم مع جماعة جاءوا للأكل مثله ؛ أو أن يأكل وحده متفرقاً عن مشارك ، لئلا يحسب أحدهم أنه إن وجد من سبقه للأكل أن يترك الأكل حتى يخرج الذي سبقه ، أو أن يأكل الواحد منكم مع أهل البيت .

أو أن يأكل وحده .

وتقدم قراءة ﴿ بيوت ﴾ بكسر الباء للجمهور وبضمها لورش وحفص عن عاصم عند قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم ﴾ في هذه السورة (27) .

﴿ فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُواْ على أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ الله مباركة طَيِّبَةً كَذَلِكَ يُبَيِّنُ الله لَكُمُ الايات لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ .

تفريع على الإذن لهم في الأكل من هذه البيوت بأن ذكَّرهم بأدب الدخول المتقدم في قوله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ﴾ [النور : 27] لئلا يجعلوا القرابة والصداقة والمخالطة مبيحة لإسقاط الآداب فإن واجب المرء أن يلازم الآداب مع القريب والبعيد ولا يغرنَّه قول الناس : إذا استوى الحب سقط الأدب .

ومعنى ﴿ فسلموا على أنفسكم ﴾ فليسلم بعضكم على بعض ، كقوله : ﴿ ولا تقتلوا أنفسكم ﴾ [النساء : 29] .

ولقد عكف قوم على ظاهر هذا اللفظ وأهملوا دقيقته فظنوا أن الداخل يسلم على نفسه إذا لم يجد أحداً وهذا بعيد من أغراض التكليف والآداب .

(193/554)

وأما ما ورد في التشهد من قول : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، فذلك سلام بمعنى الدعاء بالسلامة جعله النبي صلى الله عليه وسلم لهم عوضاً عما كانوا يقولون : السلام على الله ، السلام على النبي ، السلام على جبريل ومكائيل ، السلام على فلان وفلان .

فقال لهم رسول الله : " إن الله هو السلام ، إبطالاً لقولهم السلام على الله " ثم قال لهم : " قولوا السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، فإنكم إذا قلتموها أصابت كل عبد لله صالح في السماء وفي الأرض " .

وأما السلام في هذه الآية فهو التحية كما فسره بقوله : ﴿ تحية من عند الله مباركة طيبة ﴾ ولا يؤمر أحد بأن يسلم على نفسه .

والتحية : أصلها مصدر حيّاه تحية ثم أدغمت الياءان تخفيفاً وهي قول : حياك الله .

وقد تقدم في قوله تعالى : ﴿ وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها ﴾ في سورة النساء (86) .

فالتحية مصدر فعل مشتق من الجملة المشتملة على فعل (حيّا) مثل قولهم : جزّاه .

إذا قال له : جزاك الله خيراً ، كما تقدم في فعل ﴿ وتسلموا على أهلها ﴾ [النور : 27] آنفاً .

وكان هذا اللفظ تحية العرب قبل الإسلام تحية العامة قال النابغة :

حيّاكِ ربي فإنا لا يحل لنا

لهو النساء وإن الدين قد عزَما . . .

وكانت تحية الملوك "عم صباحاً" فجعل الإسلام التحية كلمة "السلام عليكم" ، وهي جائية من الحنيفية ﴿ قالوا سلاماً قال سلام ﴾ [هود : 69] وسماها تحية الإسلام ، وهي من جوامع الكلم لأن المقصود من التحية تأنيس الداخل بتأمينه إن كان لا يعرفه وباللطف له إن كان معروفاً .

(194/554)

ولفظ "السلام" يجمع المعنيين لأنه مشتق من السلامة فهو دعاء بالسلامة وتأمين بالسلام لأنه إذا دعا له بالسلامة فهو مسالم له فكان الخبر كناية عن التأمين ، وإذا تحقق الأمران حصل خير كثير لأن السلامة لا تجامع شيئاً من الشر في ذات السالم ، والأمان لا يجامع شيئاً من الشر يأتي من قِبل المعتدي فكانت دعاء ترجى إجابته وعهداً بالأمن يجب الوفاء به .

وفي كلمة ﴿ عليكم ﴾ معنى التمكن ، أي السلامة مستقرة عليكم .

ولكون كلمة (السلام) جامعة لهذا المعنى امتن الله على المسلمين بها بأن جعلها من عند الله إذ هو الذي علّمها رسوله بالوحي .

وانتصب ﴿ تحية ﴾ على الحال من التسليم الذي يتضمنه ﴿ فسلّموا ﴾ نظير عود الضمير على المصدر في قوله : ﴿ اعدلوا هو أقرب للتقوى ﴾ [المائدة : 8] .

والمباركة : المجعولة فيها البركة .

والبركة : وفرة الخير .

وإنما كانت هذه التحية مباركة لما فيها من نية المسالمة وحسن اللقاء والمخالطة وذلك يوفر خير الأخوة الإسلامية .

والطيِّبة : ذات الطيِّب ، وهو طِيب مجازي بمعنى النزاهة والقبول في نفوس الناس ووجه طِيب التحية أنها دعاء بالسلامة وإيذان بالمسالمة والمصافاة .

ووزن ﴿ طيبة ﴾ فيعلة مبالغة في الوصف مثل : الفيصل .

وتقدم في قوله تعالى : ﴿ قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة ﴾ في آل عمران (38)

وفي قوله : ﴿ وجَرَيْن بِهِمْ بريح طيبة ﴾ في سورة يونس (22) .

والمعنى أن كلمة "السلام عليكم" تحية خيرٌ من تحية أهل الجاهلية .

وهذا كقوله تعالى : ﴿ وتحيتهم فيها سلام ﴾ [يونس : 10] أي تحيتهم هذا اللفظ .

وجملة ﴿ كذلك يبين الله لكم الآيات ﴾ تكرير للجملتين الواقعتين قبلها في آية الاستئذان لأن في كل ما وقع قبل هذه الجملة بياناً لآيات القرآن اتضحت به الأحكام التي تضمنتها وهو

بيان يرجى معه أن يحصل لكم الفهم والعلم بما فيه كمال شأنكم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 18 صـ ﴾

(195/554)

وقال الشيخ الشعراوى :

قوله تعالى : ﴿ لَّيْسَ عَلَى الأعمى حَرَجٌ وَلاَ عَلَى الأعرج حَرَجٌ وَلاَ عَلَى المريض حَرَجٌ ﴾ [النور : 61]

الحرج : هو الضيق ، كما جاء في قوله سبحانه : ﴿ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السمآء ﴾ [الأنعام : 125]

أو الحرج بمعنى : الإثم ، فالحرج المرفوع عن هؤلاء هو الضِّيق أو الإثم الذي يتعلق بالحكم الآتي في مسألة الأكل ، بدليل أنه يقول ﴿ وَلاَ على أَنفُسِكُمْ ﴾ [النور : 61] .

والأعمى يتحرَّج أنْ يأكل مع الناس ؛ لأنه لا يرى طعامه ، وربما امتدتْ يده إلى أطيب الطعام فيأكله ويترك أدناه ، والأعرج يحتاج إلى راحة خاصة في جلْسته ، وربما ضايق بذلك الآخرين ، والمريض قد يتأفف منه الناس . فرفَع الله تعالى عن عباده هذا الحرج ، وقال : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُواْ جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً ﴾ [النور : 61] .

فيصح أن تأكلوا معاً ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى يريد أنْ يجعل التكامل في الذوات لا في الأعراض ، وأيضاً أنك إنْ رأيتَ شاباً مَؤوفاً يعني به آفة ، ثم تعامله معاملة خاصة فربما جرحْتَ شعوره ، حتى إنْ كان ما به أمراً خَلْقياً من الله لا يتأباه ، والبعض يتأبى أن يخلقه الله على هيئة لا يرضاها .

لذلك كانوا في الريف نسمعهم يقولون : اللي يعطي العمى حقه فهو مبصر ، لماذا ؟ لأنه رضي بهذا الابتلاء . وتعامل مع الناس على أنه كذلك ، فطلب منهم المساعدة ؛ لذلك ترى الناس جميعاً يتسابقون إلى مساعدته والأخذ بيده ، فإنْ كان قد فقد عيناً فقد عوَّضه الله بها ألف عَيْن ، أما الذي يتأبّى ويرفض الاعتراف بعجزه ويرتدي نظارة سوداء ليخفي بها عاهته فإنه يسير مُتعسِّراً يتخبّط لا يساعده أحد .

(196/554)

وكأن الحق تبارك وتعالى يريد لأصحاب هذه الآفات أن يتوافقوا مع المجتمع ، لا يأخذون منه موقفاً ، ولا يأخذ المجتمع منهم موقفاً ؛ لذلك يعطف على ﴿ لَّيْسَ عَلَى الأعمى حَرَجٌ وَلاَ عَلَى الأعرج حَرَجٌ وَلاَ عَلَى المريض حَرَجٌ ﴾ [النور : 61] ثم يقول سبحانه ﴿ وَلاَ على أَنفُسِكُمْ ﴾ [النور : 61] يعني : هم مثلكم تماماً ، فلا حرجَ بينكم في شيء .

﴿ أَن تَأْكُلُواْ مِن بُيُوتِكُمْ ﴾ [النور : 61] إلخ .

وكان في الأنصار قزازة ، إذا جلس في بيت لا يأكل منه إلا إذا أَذِنَ له صاحب البيت ، وقد يسافر الرجل منهم ويترك التابع عنده في البيت دون أنْ يأذنَ له في الأكل من طعام بيته ويعود ، فيجد الطعام كما هو ، أو يجده قد فسد دون أنْ يأكل منه التابع شيئاً ، فأراد الحق سبحانه أنْ يرفع هذا الحرج عن الناس ، فقال :

﴿ لَّيْسَ عَلَى الأعمى حَرَجٌ وَلاَ عَلَى الأعرج حَرَجٌ وَلاَ عَلَى المريض حَرَجٌ وَلاَ على أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُواْ مِن بُيُوتِكُمْ ﴾ [النور : 61] إلى آخر هذه المعطوفات .

ولقائل أنْ يقول : وأيّ حرج في أنْ يأكل المرء في بيته ؟ وهل كان يخطر على البال أنْ تجد حَرَجاً ، وأنت تأكل من بيتك ؟

قالوا : لو حاولتَ استقصاء هؤلاء الأقارب المذكورين في الآية لتبيّن لك الجواب ، فقد ذكرتْ الآية آباءكم وأمهاتكم وإخوانكم وأخواتكم وأعمامكم وعماتكم وأخوالكم وخالاتكم ، ولم تذكر شيئاً عن الأبناء وهم في مقدمة هذا الترتيب ، لماذا ؟

قالوا : لأن بيوت الأبناء هي بيوت الآباء ، وحين تأكل من بيت ولدك كأنك تأكل من بيتك ، على اعتبار أن الولد وما ملكتْ يداه مِلْك لأبيه ، إذن : لك أن تضع مكان ﴿ بُيُوتِكُمْ ﴾ [النور : 61] بيوت أبنائكم . ذلك لأن الحق تبارك وتعالى لم يُرِدْ أنْ يجعل للأبناء بيوتاً مع الآباء ، لأنهما شيء واحد .

إذن : لا حرجَ عليك أن تأكل من بيت ابنك أو أبيك أو أمك أو أخيك أو أختك أو عمك أو عمتِك ، أو خالك أو خالتك ﴿ أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَّفَاتِحهُ ﴾ [النور : 61] يعني : يعطيك صاحب البيت مفتاح بيته ، وفي هذا إذْنٌ لك بالتصرُّف والأكل من طعامه إنْ أردتَ .

﴿ أَوْ صَدِيقِكُمْ ﴾ [النور : 61] وتلحظ في هذه أنها الوحيدة التي وردتْ بصيغة المفرد في هذه الآية ، فقبلها : بيوتكم ، آباءكم ، أمهاتكم . . إلخ إلا في الصديق فقال ﴿ أَوْ صَدِيقِكُمْ ﴾ [النور : 61] ولم يقل : أصدقائكم .

ذلك لأن كلمة صديق مثل كلمة عدو تستعمل للجميع بصغية المفرد ، كما في قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي ﴾ [الشعراء : 77] .

لأنهم حتى إنْ كانوا جماعة لا بُدَّ أنْ يكونوا على قلب رجل واحد ، وإلا ما كانوا أصدقاء ، وكذلك في حالة العداوة نقول عدو ، وهم جمع ؛ لأن الأعداء تجمعهم الكراهية ، فكأنهم واحد .

ثم يقول سبحانه : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُواْ جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً ﴾ [النور : 61] ﴿ جَمِيعاً ﴾ [النور : 61] سوياً بعضكم مع بعض ، ﴿ أَوْ أَشْتَاتاً ﴾ [النور : 61]

متفرقين ، كُلٌّ وحده .

وقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُواْ على أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً ﴾ [النور : 61] على أنفسكم ، لأنك حين تُسلِّم على غيرك كأنك تُسلِّم على نفسك ، لأن غيرك هو أيضاً سيسلم عليك ، ذلك لأن الإسلام يريد أن يجعل المجتمع الإيماني وحدة متماسكة ، فحين تقول لغيرك : السلام عليكم سيردّ : وعليكم السلام . فكأنك تُسلِّم على نفسك .

أو : أن المعنى : إنْ دخلتم بيوتاً ليس فيها أحد فسلِّموا على أنفسكم ، وإذا دخلوا المسجد قالوا : السلام على رسول الله وعلينا من ربنا ، قالوا : تُسمع الملائكة وهي ترد .

(198/554)

وقوله تعالى : ﴿ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً ﴾ [النور : 61] وفي آية أخرى يقول سبحانه : ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ﴾ [النساء : 86] . والتحية فوق أنها من عند الله فقد وصفها بأنها ﴿ مُبَارَكَةً ﴾ [النور : 61] والشيء المبارك : الذي يعطي فوق ما ينتظر منه ﴿ كَذَلِكَ ﴾ [النور : 61] أي : كما بيَّن لكم الأحكام السابقة يُبيِّن لكم ﴿ الآيات لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [النور : 61] .

أي : أن الذي كلّفكم بهذه الأحكام رَبٌّ يحب الخير لكم ، وهو غنيٌّ عن هذه ، إنما يأمركم بأشياء ليعود نَفْعها عليكم ، فإنْ أطعتموه فيما أمركم به انتفعتُم بأوامره في الدنيا ، ثم ينتظركم جزاؤه وثوابه في الآخرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(199/554)

وقال الشيخ الصابونى

﴿ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾

[9] إباحة الأكل من بيوت الأقرباء

التحليل اللفظي

﴿ حَرَجٌ ﴾ : قال الزجّاج : الحَرَج في اللغة الضيق ، وفي الشرع : الإثم . قال تعالى : ﴿ لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى المؤمنين حَرَجٌ ﴾ [الأحزاب : 37] والمتحرّج : الكافّ عن الإثم ، وفي الحديث " حدّثُوا عن بني إسرائيل ولا حرج " وتحرّج تأثّم ، والتحريجُ : التضييق . قال ابن الأثير : الحرج في الأصل الضّيقُ ويقع على الإثم والحرام ، وقيل الحَرَج : أضيق الضيق ، ومعنى الحديث لا بأس ولا إثم عليكم أن تحدّثوا عنهم ما سمعتم . وقد ورد الحرج في أحاديث كثيرة وكلها راجعة إلى هذا المعنى .

وفي التنزيل : ﴿ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً ﴾ [الأنعام : 125] أي شديد الضيق لا ينشرح لخير .

﴿ مَّفَاتِحهُ ﴾ : جمع مِفْتَحَ ، وأمّا المفاتيح فجمع مفتاح ، قال في " لسان العرب " : والمفتح ، بكسر الميم والمفتاح : مفتاح الباب وكل ما فتح به الشيء ، قال الجوهري : وكل مستغلق . وفي التنزيل ﴿ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الكنوز مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بالعصبة أُوْلِي القوة ﴾ [القصص : 76] قيل هي مفاتيح الخزائن التي تفتح بها الأبواب ، وقيل : هي الكنوز والخزائن .

قال الأزهري : والأشبه في التفسير أن قوله تعالى : ﴿ مَّفَاتِحهُ ﴾ خزائن ماله ، والله أعلم بما أراد .

﴿ أَشْتَاتاً ﴾ : متفرقين جمع شَتّ ، والشتات : الفرقة ، وتشتّت جمعهم : أي تفرّق جمعهم ، قال الطرماح :

شتّ شعبُ الحيّ بعدَ التّئامِ . . . وشَجَاكَ الرّبْعُ ربعُ المُقَام

(200/554)

قال في " لسان العرب " : الشَتّ : الافتراق والتفريق ، والشّتيتُ المتفرّق ، وفي التنزيل ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ الناس أَشْتَاتاً ﴾ [الزلزلة : 6] أي يصدرون متفرقين ، منهم من عمل صالحاً

، ومنهم من عمل شراً . وجاء القوم أشتاتاً : متفرقين ، واحدهم شَتّ .

ومعنى الآية ؛ أي ليس عليكم إثم أو جناح أن تأكلوا مجتمعين أو متفرقين .

﴿ فَسَلِّمُواْ ﴾ : من التسليم بمعنى التحية ، والمعنى : حيّوا بعضكم بعضاً بتحية الإسلام ، وتحية الإسلام (السلام عليكم ورحمة الله) وفي الحديث " وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف " والتسليم : مشتق من السّلام اسم الله تعالى ، لسلامته من العيب والنقص .

قال في " للسان " : السلام والتحية معناهما واحد ، وهو السلامة من جميع الآفات ، وفي حديث التسليم : " قل السلام عليك ، فإن عليك السلام تحيةُ الموتى " وقد جرت به عادتهم في المراثي كانوا يقدّمون ضمير الميت على الدعاء له كقوله : " عليك سلام الله قيسَ بن عاصم " .

وفي حديث أبي هريرة : (لما خلق الله آدم قال : اذهب فسلّم على أولئك النفر من الملائكة ، فاستمع ما يجيبونك فإنها تحيتك وتحية ذريتك فقال : " السلام عليكم . . . ") الحديث .

﴿ تَحِيَّةً ﴾ : قال الزجّاج : هي منصوبة على المصدر كقولك : قعدت جلوساً ، لأن قوله : (فسلّموا) بمعنى فحيّوا ، ومعنى الآية : فحيّوا بعضكم بعضاً تحية من عند الله مباركة طيبة . والتحية في اللغة : السلام ، قال تعالى :

﴿ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ الله ﴾ [المجادلة : 8] . قال الأزهري : والتحية (

تَفْعِلة) من الحياة ، وإنما أدغمت لاجتماع الأمثال . والهاء لازمة لها والتاء زائدة ، وروي عن أبي الهيثم أنه قال : التحية في كلام العرب ما يحيّي بعضهم بعضاً إذا تلاقَوْا قال الشاعر :

(201/554)

" تحيةُ بَيْنِهم ضربٌ وَجيعُ " . . . ﴿ مباركة ﴾ : بالأجر والثواب ، والبركة في اللغة أصلها : النماء والزيادة .

﴿ طَيِّبَةً ﴾ : حسنة طابت بالدعاء والإيمان أو تطيب نفس المحيّى بها ، قال أبو بكر الجصاص : يعني أن السلام تحية من عند اله ، لأن الله أمر به ، وهي مباركة طيبة ، لأنه دعاء بالسلامة ، فيبقى أثره ومنفعته ، وفيه الدلالة على أن قوله : ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ﴾ [النساء : 86] قد أريد به السلام .

المعنى الإجمالي

يقول الله جلّ ذكره ما معناه : ليس على أهل الأعذار ولا على ذوي العاهات (الأعمى ، والأعرج ، والمريض) حرج أن يأكلوا مع الأصحاء ، فإن الله تعالى يكره الكِبْر والمتكبرين ، ويحب من عباده التواضع . وليس عليكم أيها المؤمنون حرج أن تأكلوا من بيوت أقربائكم أو أصدقائكم ، أو البيوت التي توكّلون عليها ، وتملكون مفاتيحها في غياب أهلها ، ليس

عليكم إثم أو حرج أن تأكلوا مجتمعين أو متفرقين ، فإذا دخلتم بيوت إخوانكم أو أصدقائكم ، فابدءوهم بالسلام ، وسلذموا عليهم بتحية الإسلام ، التي هي شعار المؤمنين ، تحية من عند الله مباركة طيبة ، ذلك شرع الله وحكمه إليكم ، لتتأدبوا بآداب الإسلام ، وتتمسكوا بتعاليمه الرشيدة ، التي فيها سعادتكم وصلاح دينكم ودنياكم ، كذلك يبيّن الله لكم طريق الخير والسعادة لعلكم تعقلون الخير والحق في جميع الأمور وتكونون من المؤمنين المتقين .

سبب النزول

(202/554)

أولاً : عن ابن عباس رضي الله عنهما : لمّا نزل قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَأْكُلوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بالباطل ﴾ [البقرة : 188] تحرّج المسلمون عن مؤاكلة المرضى ، والزَّمنى ، والعُمْي ، والعُرْج وقالوا : الطعام أفضل الأموال وقد نهى الله تعالى عن أكل المال بالباطل ، والأعمى لا يبصر موضع الطعام الطيّب ، والمريض لا يستوفي الطعام بسبب مرضه ، والأعرج لا يستطيع المزاحمة على الطعام ، فنزلت الآية الكريمة ﴿ لَّيْسَ عَلَى الأعمى حَرَجٌ ﴾ .

ثانياً : وعن سعيد بن المسيّب رضي الله عنه أنه قال : إن ناساً كانوا إذا خرجوا مع رسول

الله صلى الله عليه وسلم وضعوا مفاتيح بيوتهم عند الأعمى والأعرج والمريض وعند أقاربهم ، وكانوا يأمرونهم أن يأكلوا مما في بيوتهم إذا احتاجوا فكانوا يتقون أن يأكلوا منها ، ويقولون : نخشى أن لا تكون أنفسهم بذلك طيّبة ، فنزلت هذه الآية .

ثالثاً : وروي عن مجاهد في هذه الآية أنه قال : كان رجال زمنى وعميان وعرجان وأولو حاجة ، يستتبعهم رجال إلى بيوتهم ، فإن لم يجدوا لهم طعاماً ذهبوا بهم إلى بيوت آبائهم وأمهاتهم وبعض من سمّى الله عزّ وجلّ في هذه الآية ، فكان أهل الزّمانة يتحرجون من أكل ذلك الطعام ، لأنه أطعمهم غير مالكة فنزلت هذه الآية .

وجوه القراءات

أولاً – قرأ الجمهور ﴿ مَلَكْتُمْ ﴾ بالبناء للمعلوم ، وقرأ سعيد بن جبير ، وأبو العالية ﴿ مُلِّكْتُمْ ﴾ بضم الميم وتشديد اللام مع كسرها بالبناء للمجهول .

ثانياً – قرأ الجمور ﴿ مَفَاتِحَه ﴾ بالجمع ، وقرأ أنس بن مالك ، وقتادة ﴿ مِفْتَاحَه ﴾ بكسر الميم على الإفراد ، وقرأ بن جبير ﴿ مفاتيحه ﴾ جمع مفتاح .

ثالثاً – قوله تعالى : ﴿ أَوْ صَدِيقِكُمْ ﴾ قرئ بكسر الصاد اتباعاً لحركة الدال وقراءة الجمهور بفتح الصاد ، ومثلها (أُمّهاتكم) بضم الهمزة وقرأ طلحة (إمّهاتكم) بكسر الهمزة .

وجوه الإعراب

أولاً : قوله تعالى : ﴿ لَّيْسَ عَلَى الأعمى حَرَجٌ ﴾ الآية رفع الله تعالى الحرج عن الأعمى والأعرج والمريض ، ولم يذكر في الآية متعلق الحرج فذهب جمهور المفسّري على أن نفي الحرج عن أهل العذر ومن بعدهم في (المَطَاعم) ويكون معنى الآية " ليس عليكم في الأعمى حرج أن تأكلوا معه ، ولا في الأعرج حرج ، ولا في المريض حرج وتكون (على) بمعنى (في) " ذكره ابن جرير .

وقال الحسن ، وعبد الرحمن بن زيد : الحرج المنفي عن أهل العذر هو في القعود عن الجهاد في سبيل الله ، وهو مقطوع ممّا قبله ، إذ متعلّق الحرجين ، مختلف ويكون معنى الآية : " ليس على الأعمى ، ولا على الأعرج ولا على المريض حرج في تركهم للجهاد وعدم خروجهم مع المجاهدين بسبب أعذارهم " ويكون الكلام قد تمّ هنا ، وأنّ ما بعده مستأنف لا تعلّق له به ، وهذا ما اختاره (أبو حيّان) في تفسيره " البحر المحيط " .

ثانياً : قوله تعالى : ﴿ جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً ﴾ قال أبو حيّان : انتصب " جميعاً " و " أشتاتاً " على الحال . أي مجتمعين ، أو متفرقين .

ثالثاً : قوله تعالى : ﴿ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ الله مباركة طَيِّبَةً ﴾ .

قال الزجّاج : تحيّة منصوبة على المصدر ، لأن قوله (فسلّموا) بمعنى فحيّوا فتكون مفعولاً مطلقاً .

وقوله (مباركة طيّبة) صفتان للمصدر (تحيّةً) والجار والمجرور متعلق ب (مباركة) أو بنفس التحية والله أعلم .

لطائف التفسير

اللطيفة الأولى : ذكر الله تعالى بيوت الأقارب (الآباء ، الأمهات ، الإخوان ، الأخوات ، الأعمام ، العمات . . .) إلخ ولم يذكر بيوت الأولاد ، والسّر في ذلك أن مال الولد مال الأب ، وبيته بيته كما ورد (أنت ومالك لأبيك) فلم يذكر اكتفاءً بذكر (بيوتكم) فما يملكه الولد كأنه ملك للأب ، لقوة حقّ القرابة وفي الحديث الشريف (إنَّ أطيبَ ما يأكل الرجل من كسب ولده ، وإنَّ ولده من كسبه) .

(204/554)

قال أبو حيان : ولم يذكر بيوت الأولاد اكتفاءً بذكر بيوتكم ، ومعنى قوله تعالى : ﴿ مِن بُيُوتِكُمْ ﴾ أي من البيوت التي فيها أزواجكم وعيالكم . والولد أقرب من عدّد من القرابات ، فإذا كان سبب الرخصة هو القرابة ، كان الذي هو أقرب منهم أولى .

اللطيفة الثانية : قيل لبعضهم من أحبّ إليك أخوك أم صديقك ؟ فقال : لا أحبّ أخي إلا إذا كان صديقي .

وقد أكل جماعة من أصحاب الحسن من بيته وهو غائب ، فجاء فرآهم فسُرّ بذلك وقال : هكذا وجدناهم ، يعني كبراء الصحابة .

وكان الرجل يدخل بيت صديقه ، فيأخذ من كيسه ، فيعتق جاريته التي مكنته من ذلك .

قال ابن عباس : الصديق أوكد من القرابة ، ألا ترى استغاثة الجهنّميّين حيث يقولون : ﴿ فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ * وَلاَ صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴾ [الشعراء : 100 - 101] ولم يستغيثوا بالآباء والأمهات .

اللطيفة الثالثة : اشتهر العرب بالكرم . وكان قوم من الأنصار لا يأكلون إذا نزل بهم ضيف إلاّ مع ضيفهم ، وكات قبيلة (كنانة) يتحرّج الرجل أن يأكل وحده ، فربما قدع والطعام بين يديه من الصباح إلى المساء ، فإذا لم يجد من يؤاكله اضطر إلى الأكل وحده ، وقد قال بعضهم مفتخراً :

إذا ما صَنَعْتِ الزّاد فالتمسي لهُ . . . أكيلاً فإنّي لستُ آكلُهُ وَحْدي

اللطيفة الرابعة : قال الزمخشري : (فإذا دخلتم بيوتاً) فابدأوا بالسلام على أهلها ، الذين هم فيها منكم ديناً وقرابة . و (تحية من عند الله) أي ثابتة بأمره ومشروعة من لدنه ، أو

لأن التسليم والتحية طلب للسلامة ، وحياة للمسلّم عليه . ووصفُها بالبركة والطيب لأنها دعوة مؤمن لمؤمن يُرْجى بها من الله زيادة الخير ، وطيب الرزق .

(205/554)

اللطيفة الخامسة : قوله تعالى : ﴿ بُيُوتاً ﴾ التنكير يفيد العموم ، أي إذا دخلتم أيّ بيت من البيوت فسلّموا على أنفسكم ، قال الفخر الرازي : (فسلّموا على أنفسكم) قال ابن عباس : فإن لم يكن أحد فعلى نفسه ليقل : السلام علينا من قبل ربنا .

وقال ابن جرير الطبري : وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال معناه : فإذا دخلتم بيوتاً من بيوت المسلمين ، فليسلّم بعضكم على بعض ، قال : وإنما قلنا ذلك أولى بالصواب ، لأن الله جلّ ثناؤه قال : ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً ﴾ ولم يخصّص من ذلك بيتاً دون بيت ، وقال : (فسلّموا على أنفسكم) يعني : بعضكم على بعض ، فكان معلوماً إذ لم يخصص ذلك على بعض البيوت دون بعض ، أنه معنيّ به جميعها ، مساجدها وغير مساجدها .

الأحكام الشرعية

الحكم الأول : ما المراد بالأكل من البيوت ؟

دلت الآية الكريمة على إباحة الأكل من بيوت الأقرباء ، وذلك جار مجرى المؤانسة

والمباسطة وعدم الكلفة ، وقد جرت العادة ببذل الطعام للأقرباء ، لأنه بذلك يسرّهم ، فكان جريان العادة بالإذن كالنطق الصريح ، فيباح للإنسان أن يأكل من بيوت من سمّى الله عز وجل من الأقارب .

وقد اختلف المفسّرون في قوله تعالى : ﴿ أَن تَأْكُلُواْ مِن بُيُوتِكُمْ ﴾ على ثلاثة أقوال :

أحدها : أن المراد بها بيوت الأولاد ، أي بيوت أولادكم لأنها في حكم بيوتكم .

الثاني : أن المراد بها البيوت التي يسكنونها وهم فيها عيال غيرهم ، فيكون الخطاب لأهل الرجل ، وولده ، وخادمه ، ومن يشتمل عليه منزله ، ونسبها إليهم لأنهم سكّانها .

الثالث : أن المراد بها بيوتهم ، والمقصود من الآية أكلهم من مال عيالهم وأزواجهم ، لأن بيت المرأة بيت الرجل .

(206/554)

واختار أبو بكر (الجصّاص) الرأي الثاني فقال : " يعني والله أعلم من البيوت التي هم سكّانها ، وهم عيال غيرهم فيها مثل : أهل الرجل ، وولده ، وخادمه ، ومن يشتمل عليه منزله ، فيأكل من بيته ، ونسبها إليهم لأنهم سكانها ، وإن كانوا في عيال غيرهم وهو صاحب المنزل ، لأنه لا يجوز أن يكون المراد الإباحة للرجل أن يأكل من مال نفسه ، إذ كان

ظاهر الخطاب وابتداؤه في إباحة الأكل للإنسان من مال غيره . وقال الله : ﴿ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أمهاتكم ﴾ فأباح الأكل من بيوت هؤلاء الأقارب ذوي المحارم بجريان العادة ببذل الطعام لأمثالهم ، وفقد التمانع في أمثاله " .

الحكم الثاني : هل للوكيل أن يأكل من مال موكّله ؟

ظاهر قوله تعالى : ﴿ أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَّفَاتِحَهُ ﴾ يدل على أنه يرخّص للوكيل أن يأكل من مال الموكل ، بغير شطط ولا عدوان ، وقد روي عن (عكرمة) أنه قال : " إذا ملك المفتاح فهو جائز ، ولا بأس أن يَطْعم الشيء اليسير " .

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : ﴿ أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَّفَاتِحَهُ ﴾ هو وكيل الرجل يُرخَّص له أن يأكل من التمر ، ويشرب من اللبن .

وقيل : المراد به وليّ اليتيم ، يتناول من ماله بالمعروف دون إضرار باليتيم كما قال تعالى : ﴿ وَمَن كَانَ غَنِيّاً فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بالمعروف ﴾ [النساء : 6] .

الحكم الثالث : هل يباح الأكل من بيت الصّديق بغير إذنه ؟

أباحة الآية الكريمة الأكل من بيوت من سمّى الله عز وجلّ من الأقارب ، ومن بيوت الأصدقاء . وقد كان الواحد لا يأكل من بيت غيره تأثماً ، فرخّص الله تعالى لأهل الأعذار (العمي ، والعرج ، والمرضى) أولاً ثمّ رخّص للنّاس عامة ، فلو دخلت على صديق فأكلت من طعامه بغير إذنه كان ذلك حلالاً .

قال الجصاص : " وهذا أيضاً مبني على ما جرت العادة بالإذن فيه ، فيكون المعتاد من ذلك كالمنطوق به ، وهو مثل ما تتصدق به المرأة من بيت زوجها بالكسرة ونحوها ، من غير استئذانها إيّاه ، لأنه متعارف أنهم لا يمنعون مثله ، كالعبد المأذون والمكاتب يدعوان إلى طعامهما ، ويتصدقان باليسير ممّا في أيديهما ، فيجوز بغير إذن المولى . وقد روي عن نافع عن ابن عمر أنه قال : " لقد رأيتني وما الرجل المسلم بأحقّ بديناره ودرهمه من أخيه المسلم " .

وروى إسحاق بن كثير عن الرصافي قال : "كنا عند أبي جعفر يوماً فقال : هل يُدْخل أحدكم يده في كُمّ أخيه أو في كيسه فيأخذ ماله ؟ قلنا : لا ، قال : ما أنتم بإخوان " .

أقول : يباح للإنسان أن يأكل من بيت صديقه في غيبته لما بينهما من المودّة والصداقة ، وقد جرت العادة بذلك ، ودلت الآية عليه . والصديق يفرح بأكل صديقه عنده ويُسرّ غاية السرور . اللهم إلا إذا كان ممن قال فيهم الشاعر :

سِيَانِ كَسْرُ رغيفِهِ . . . أو كَسْرُ عظم من عظَامِه

نسأله تعالى أن يقينا مرض البخل والشح إنه سميع مجيب الدعاء .

الحكم الرابع : ما هو حكم الشركة في الطعام ؟

(208/554)

يجوز للإنسان أن يشارك غيره في الطعام ، وقد دل على ذلك قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُواْ جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً ﴾ أي مجتمعين أو منفردين . فإذا اشترك جماعة في طعام جاز لهم أن يأكلوا منه مجتمعين . وقد كان الرجل يخاف إن أكل مع غيره أن يزيد أكله على أكل صاحبه ، فامتنعوا لأجل ذلك من الاجتماع على الطعام . فرخّص لهم القرآن الكريم وأباح لهم الأكل حتى ولو كان بعضهم أشهى نفساً ، وأوسع معدة . وقد دلّ على هذا قوله تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ اليتامى قُلْ إِصْلاَحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ ﴾ [البقرة : 220] فأباح لهم أن يخلطوا طعام اليتيم بطعامهم فيأكلوه جميعاً . ونحو هذا قوله تعالى عن أصحاب الكهف ﴿ فابعثوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هذه إلى المدينة فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَآ أَزكى طَعَاماً فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِّنْهُ ﴾ [الكهف : 19] .

فكان الورِق (الفضة) لهم جميعاً . والطعام بينهم فاستجازوا أكله وهذا ما يسميه الفقهاء (المناهدة) وهي الشركة التي يفعلها الناس في الأسفار .

الحكم الخامس : هل تقطع اليد في السرقة من بيت المحارم ؟

قال ابو بكر الجصّاص رحمه الله في كتابه " أحكام القرآن " : " قد دلت هذه الآية على أن من سرق من ذي رحم محرم أنه لا يقطع ؛ لإباحة الله لهم بهذه الآية الأكل من بيوتهم ، ودخولها من غير إذنهم ، فلا يكون ماله مُحْرَزاً منهم .

فإن قيل : فينبغي أن لا يقطع إذا سرق من صديقه ، لأن في الآية إباحة الأكل من طعامه ؟

قيل له : من أراد سرقة ماله لا يكون صديقاً له " .

أقول : الحدود تُدْرأ بالشبهات ، ولمّا كانت السرقة من بيت ذي الرحم المحرم ، وبينهما هذه القرابة القوية وهي (قرابة الرحم) فقد وجدت الشبهة ، فلا قطع حينئذٍ وإنما فيه التعزير والله تعالى أعلم .

الحكم السادس : هل الآية الكريمة منسوخة بآية الاستئذان ؟

(209/554)

ذهب بعض المفسّري إلى أن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى : ﴿ لاَ تَدْخُلُواْ بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حتى تَسْتَأْنِسُواْ ﴾ [النور : 27] وبقوله صلى الله عليه وسلم " لا يحل مال امرئ مسلم إلا بطيبة من نفسه " والصحيح أنها غير منسوخة وهو رأي جمهور المفسّري

ومذهب الإمام أبي بكر الجصّاص والرازي وغيرهما . وقد قال أبو بكر : ليس في ذلك ما يوجب النسخ ، لأن هذه الآية فيمن ذكر فيها – أي من أهل الأعذار والأقارب – وقوله ﴿ لاَ تَدْخُلُواْ بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ ﴾ [النور : 27] في سائر الناس غيرهم ، وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم : " لا يحل مال امرئ مسلم إلا بطيبة من نفسه " فإنه في غير هؤلاء المذكورين في الآية الكريمة والله أعلم .

ما ترشد إليه الآيات الكريمة

أولاً – رفع الحرج عن أهل الأعذار في ترك الجهاد أو في الأكل من بيوت الناس .

ثانياً – إباحة الأكل من بيوت الأقارب للمؤانسة والمباسطة التي تكون في العادة بينهم .

ثالثاً – حق الصداقة عظيم ولذلك رخّص الله في الأكل من بيت الصديق بغير إذنه .

رابعاً – جواز الشركة في الطعام والأكل مع بقية الشركاء مجتمعين أو متفرقين .

خامساً – ضرورة التقيد بآداب الإسلام ومنها السلام على أهل المنزل عند الدخول .

سادساً – تحية المسلم لأخيه المسلم شرعها الباري جلّ وعلا وهي بلفظ السلام عليكم ورحمة الله .

سابعاً – الأحكام التي شرعها الله لعباده المؤمنين فيها خيرهم وصلاحهم وسعادتهم في الدراين .

حكمة التشريع

حرّم الله تعالى الاعتداء على الناس وأكل أموالهم بالباطل ، فلا يجوز لإنسان أن يأكل مال غيره إلاّ بإذنه ، وبطيب نفسٍ منه كما قال صلى الله عليه وسلم : " لا يحل مال امرئ مسلم إلا بطيبة من نفسه " وقال صلى الله عليه وسلم : " كلُّ المسلم على المسلم حرام : دمُه ، ومالُه ، وعرضُه " .

(210/554)

وقد أباح الباري جلّ وعلا للإنسان أن يأكل من بيت أقاربه بدون إذن ، وهم الذين سمّاهم في كتابه العزيز وعدّد أصنافهم وهم (الآباء ، الأمهات ، الإخوان ، الأخوات ، الأعمام ، العمات ، الأخوال ، الخالات) وذلك لما بين هؤلاء من صلة الرحم ، ولأنه يستدعي المحبة والوداد والوئام ، فإنّ أكل الإنسان من بيت أقربائه ، يقوّي أواصر القرابة ، ويزيل الكُلْفة ، ويدعو إلى المؤانسة والانبساط .

كما أباح الأكل من بيت الصديق بدون إذن أيضاً ، لأن الصداقة بمنزلة القرابة ؛ وحق الصديق على صديقه عظيم وكبير ، وكم من صديق أنفع من أخٍ قريب . وقد قيل في الأمثال : " ربّ أخٍ لك لم تلده أمّك " .

ولهذا رخّص المولى جلّ ثناؤه بالأكل من بيوت الأصدقاء . وجعلهم في عداد الأقرباء ،

حتى تدوم الألفة ، وتتمكن الصداقة والمودّة . وتتقوى روابط (الأخوّة الدينيّة) بين المسلمين ، وذلك من أغراض الشريعة الإسلامية ، وأهدافها الإنسانية السامية . وصدق الله : ﴿ إِنَّمَا المؤمنون إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات : 10] .

وقد أمر سبحانه وتعالى عباده المؤمنين ، عند دخولهم لبيوت الآخرين ، أن يبدءوهم بالتحية والسلام . فذلك من الآداب الإجتماعية الرفيعة . التي دعا إليها الإسلام . وأمر بإشاعة السلام لأنه تحية المؤمن وشعار الإسلام . وهو طريق المحبة بين المؤمنين . الذي يربط بين أفراد الأمة الإسلامية . كما قال صلى الله عليه وسلم : " والذي نفسي بيده لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابّوا ، أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم ؟ أفشوا السلام بينكم " .

(211/554)

وقد كان أهل الجاهلية إذا لقي الرجل منهم صديقه أو أخاه . يقول له : أنعم صباحاً ، أو أنعم مساءً . وأنعم الله بك عيناً إلخ . فجاء الإسلام بما هو خير وأزكى وأطهر . جاءهم بالتحية المباركة الطيبة ، بلفظ كريم لطيف " السلام عليكم ورحمة الله " وهذه التحية شرعها الله لعباده كما قال تعالى : ﴿ فَسَلِّمُواْ على أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ الله مباركة

طَيِّبَةً ﴾ والسلام اسم من أسماء الله تعالى فلا يليق بالمسلم أن يدع هذه التحية إلى تحية الجاهلية . أو ما شابهها من ألفاظٍ مستحدثة كقولهم : احترماتي ، تحياتي . صباح الخير ، إلى غير ما هنالك من ألفاظ وعبارات ليس فيها ذلك المعنى اللطيف أو المغزى الدقيق الذي قصد إليه الإسلام ، دين الإنسانية الخالد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روائع البيان حـ 2 صـ 220.234 ﴾

(212/554)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾

أخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال : لما نزلت ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ﴾ [النساء : 29] قالت الأنصار : ما بالمدينة مال أعز من الطعام . كانوا يتحرجون أن يأكلوا مع الأعمى يقولون : أنه لا يبصر موضع الطعام ، وكانوا يتحرجون الأكل مع الأعرج يقولون : الصحيح يسبقه إلى المكان ، ولا يستطيع أن يزاحم ، ويتحرجون الأكل مع المريض يقولون : لا يستطيع أن يأكل مثل الصحيح ، وكانوا يتحرجون أن

يأكلوا في بيوت أقربائهم ، فنزلت ﴿ ليس على الأعمى حرج ﴾ يعني في الأكل مع الأعمى .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مقسم قال : كانوا يكرهون أن يأكلوا مع الأعمى ، والأعرج ، والمريض ، لأنهم لا ينالون كما ينال الصحيح فنزلت ﴿ ليس على الأعمى حرج . . . ﴾ الآية .

وأخرج عبد الرزاق وابن أبي شيبة وإبراهيم وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي عن مجاهد قال : كان الرجل يذهب بالأعمى أو الأعرج والمريض إلى بيت أبيه ، أو بيت أخيه ، أو بيت أخته ، أو بيت عمه ، أو بيت عمته ، أو بيت خاله ، أو بيت خالته ، فكان الزمنى يتحرجون من ذلك يقولون : إنما يذهبون بنا إلى بيوت غيرهم ، فنزلت هذه الآية رخصة لهم .

وأخرج البزار وابن أبي حاتم وابن مردويه وابن النجار عن عائشة قالت : كان المسلمون يرغبون في النفير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيدفعون مفاتيحهم إلى أمنائهم ويقولون لهم : قد أحللنا لكم أن تأكلوا مما احتجتم إليه ، فكانوا يقولون : إنه لا يحل لنا أن نأكل إنهم أذنوا لنا من غير طيب أنفسهم ، وإنما نحن أمناء ، فأنزل الله ﴿ ولا على أنفسكم أن تأكلوا ﴾ إلى قوله ﴿ أو ما ملكتم مفاتحه ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد عن ابن شهاب أخبرني عبيد الله بن عبد الله وابن المسيب أنه كان رجال من أهل العلم يحدثون إنما أنزلت هذه الآية في أمناء المسلمين ، كانوا يرغبون في النفير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سبيل الله ، فيعطون مفاتيحهم أمناءهم ويقولون لهم : قد أحللنا لكم أن تأكلوا مما في بيوتنا فيقول الذين استودعوهم المفاتيح : والله ما يحل لنا مما في بيوتهم شيء ، وإن أحلوه لنا حتى يرجعوا إلينا ، وانها لأمانة ائتمنا عليها ، فلم يزالوا على ذلك حتى أنزل الله هذه الآية ، فطابت أنفسهم .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي عن ابن عباس قال : لما نزلت ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ﴾ [النساء : 29] قال المسلمون : إن الله قد نهانا أن نأكل أموالنا بيننا بالباطل ، والطعام هو من أفضل الأموال ، فلا يحل لأحد منا أن يأكل من عند أحد .

فكف الناس عن ذلك فأنزل الله ﴿ ليس على الأعمى حرج ﴾ إلى قوله ﴿ أو ما ملكتم مفاتحه ﴾ وهو الرجل يوكل الرجل بضيعته ، والذي رخص الله أن يأكل من ذلك الطعام ، والتمر ، وشرب اللبن ، وكانوا أيضاً يتحرجون أن يأكل الرجل الطعام وحده حتى يكون معه غيره ، فرخص الله لهم فقال ﴿ ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعاً أو أشتاتاً ﴾ .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن الضحاك رضي الله عنه قال : كان أهل المدينة قبل أن

يبعث النبي صلى الله عليه وسلم لا يخالطهم في طعامهم أعمى ، ولا مريض ، ولا أعرج ، لأن الأعمى لا يبصر طيب الطعام ، والمريض لا يستوفي الطعام كما يستوفي الصحيح ، والأعرج لا يستطيع المزاحمة على الطعام ، فنزلت رخصة في مؤاكلتهم .

وأخرج الثعلبي عن ابن عباس قال : خرج الحارث غازياً مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلف على أهله خالد بن زيد ، فحرج أن يأكل من طعامه ، وكان مجهوداً ، فنزلت .

(214/554)

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وأبو داود في مراسيله وابن جرير والبيهقي عن الزهري أنه سئل عن قوله ﴿ ليس على الأعمى حرج ﴾ الآية ما بال الأعمى والأعرج والمريض ذكروا هنا ؟ فقال : أخبرنا عبيد الله بن عبد الله : أن المسلمين كانوا إذا غزوا أقاموا أوصاتهم ، وكانوا يدفعون إليهم مفاتيح أبوابهم يقولون : قد أحللنا لكم أن تأكلوا مما في بيوتنا ، وكانوا يتحرجون من ذلك يقولون : لا ندخلها وهم غيب فأنزلت هذه الآية رخصة لهم .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة قال : كان هذا الحي من بني كنانة بن خزيمة يرى أحدهم أن عليه مخزاة أن يأكل وحده في الجاهلية حتى إن كان الرجل بسوق الذود الحفل وهو جائع حتى يجد ما يؤاكله ، ويشاربه فأنزل الله ﴿ ليس عليكم جناح أن

تأكلوا جميعاً أو أشتاتاً ﴾ .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن عكرمة وأبي صالح قالا : كانت الأنصار إذا نزل بهم الضيف لا يأكلون معه حتى يأكل معهم الضيف ، فنزلت رخصة لهم .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ أو صديقكم ﴾ قال : إذا دخلت بيت صديقك من غير مؤامرته ، ثم أكلت من طعامه بغير إذنه ، لم يكن بذلك بأس .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد في قوله ﴿ أو صديقكم ﴾ قال : هذا شيء قد انقطع إنما كان هذا في أوله ، ولم يكن لهم أبواب ، وكانت الستور مرخاة ، فربما دخل الرجل البيت وليس فيه أحد ، فربما وجد الطعام وهو جائع ، فسوّغ له الله أن يأكله قال : وذهب ذلك . اليوم البيوت فيها أهلها ، فإذا خرجوا أغلقوا ، فقد ذهب ذلك .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس في قوله ﴿ فإذا دخلتم بيوتاً فسلموا على أنفسكم ﴾ يقول : إذا دخلتم بيوتاً فسلموا على أهلها تحية من عند الله ؛ وهو السلام ، لأنه اسم الله وهو تحية أهل الجنة .

(215/554)

وأخرج البخاري في الأدب وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه من طريق أبي الزبير عن جابر بن عبد الله قال : إذا دخلت على أهلك فسلم عليهم تحية من عند الله مباركة طيبة قال أبو الزبير : ما رأيته إلا أوجبه .

وأخرج الحاكم عن جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إذا دخلتم بيوتكم فسلموا على أهلها ، واذا طعمتم فاذكروا اسم الله ، وإذا سلم أحدكم حين يدخل بيته وذكر اسم الله على طعامه يقول الشيطان لأصحابه : لا مبيت لكم ولا عشاء ، وإذا لم يسلم أحدكم ولم يسم يقول الشيطان لأصحابه : أدركتم المبيت والعشاء " .

وأخرج البخاري في الأدب عن جابر أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول " إذا دخل الرجل بيته فذكر الله عند دخوله ، وعند طعامه ، قال الشيطان : لا مبيت لكم ولا عشاء ، فإذا دخل فلم يذكر الله عند دخوله قال الشيطان : أدركتم المبيت وإن لم يذكر الله عند طعامه قال الشيطان : أدركتم المبيت والعشاء " .

وأخرج البيهقي في الشعب عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا دخل بيته يقول " السلام علينا من ربنا التحيات الطيبات المباركات لله سلام عليكم " .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير عن عطاء قال : إذا دخلت على أهلك فقل : السلام عليكم تحية من عند الله مباركة طيبة ، فإذا لم يكن فيه أحد فقل : السلام علينا من ربنا .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير عن ماهان في قوله ﴿ فإذا دخلتم بيوتاً فسلموا على أنفسكم ﴾ قال : يقول السلام علينا من ربنا .

(216/554)

وأخرج الطبراني عن أبي البختري قال : جاء الاشعث بن قيس ، وجرير بن عبد الله البجلي ، إلى سلمان فقالا : جئناك من عند أخيك أبي الدرداء قال : فأين هديته التي أرسلها معكما ؟ قالا : ما أرسل معنا بهدية قال : اتقيا الله ، وأديا الأمانة ، ما جاءني أحد من عنده إلا جاء معه بهدية قالا : والله ما بعث معنا شيئاً إلا أنه قال : اقرؤوه مني السلام قال : فأي هدية كنت أريد منكما غير هدية ؟ وأي هدية أفضل من السلام تحية من عند الله مباركة طيبة ؟

وأخرج الطبراني عن سلمان عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " من سره أن لا يجد الشيطان عنده طعاماً ، ولا مقيلاً ، ولا ميتاً ، فليسلم إذا دخل بيته ، وليسم على طعامه " .

وأخرج ابن عدي عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إذا قام أحدكم على حجرته ليدخل فليسم الله فإنه يرجع قرينه من الشيطان الذي معه

ولا يدخل ، فإذا دخلتم فسلموا فأنه يخرج ساكنه منهم ، وإذا وضع الطعام فسموا فإنكم تدحرون الخبيث إبليس عن أرزاقكم ، ولا يشرككم فيها ، وإذا ارتحلتم دابة فسموا الله حين تضعون أول حلس ، فإن كل دابة معتقدة وإنكم إذا سميتم حططتموه عن ظهرها ، وإن نسيتم ذلك شرككم في مراكبكم . ولا تبيتوا منديل الغمر معكم في البيت ، فأنه بيت الشيطان ومضجعه ، ولا تتركوا العمامة ممسية إذا جمعت في جانب الحجرة ، فإنها مقعد الشيطان ، ولا تسكنوا بيوتاً غير مغلقة ، ولا تفترشوا الزبالا التي تفضي إلى ظهور الدواب ، ولا تبيتوا على سطح ليس بمحجور ، وإذا سمعتم نباح الكلاب أو نهيق الحمار فاستعيذوا بالله من الشيطان الرجيم ، فإنهما لا يريان الشيطان إلا نبح ونهق الحمار " .

(217/554)

وأخرج ابن مردويه عن أبي الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال " للاسلام ضياء وعلامات كمنار الطريق فرأسها وجماعها شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله واقام الصلاة ، وايتاء الزكاة ، وتمام الوضوء ، والحكم بكتاب الله وسنة نبيه ، وطاعة ولاة الأمر ، وتسليمكم على أنفسكم ، وتسليمكم إذا دخلتم بيوتكم ، وتسليمكم على بني آدم إذا لقيتموهم " .

وأخرج البزار وابن عدي والبيهقي في شعب الإِيمان عن أنس قال : أوصاني النبي صلى الله عليه وسلم بخمس خصال قال " أسبغ الوضوء يزد في عمرك ، وسلم على من لقيك من أمتي تكثر حسناتك ، وإذا دخلت بيتك فسلم على أهل بيتك يكثر خير بيتك ، وصل صلاة الضحى فإنها صلاة الأوابين قبلك ، يا أنس ارحم الصغير ، ووقر الكبير ، تكن من رفقائي يوم القيامة " .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه والبيهقي عن ابن عباس في قوله ﴿ فإذا دخلتم بيوتاً فسلموا على أنفسكم ﴾ قال : هو المسجد إذا دخلته فقل : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير والبيهقي عن أبي مالك قال : إذا دخلت بيتاً فيه ناس من المسلمين فسلم عليهم ، وإن لم يكن فيه أحد أو كان فيه ناس من المشركين فقل : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين .

وأخرج ابن أبي شيبة والبخاري في الأدب عن ابن عمر قال : إذا دخل البيت غير المسكون ، أو المسجد ، فيلقل : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد قال : إذا دخلت بيتك وليس فيه أحد أو بيت غيرك فقل : بسم الله والحمد لله ، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم والبيهقي عن قتادة في قوله ﴿ فإذا دخلتم بيوتاً فسلموا على أنفسكم ﴾ قال : إذا دخلت بيتك فسلم على أهلك ، وإذا دخلت بيتاً لا أحد فيه فقل : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، فإنه كان يؤمر بذلك ، وحدثنا أن الملائكة ترد عليه .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن الحسن في قوله ﴿ فسلموا على أنفسكم ﴾ قال : ليسلم بعضكم على بعض كقوله ﴿ ولا تقتلوا أنفسكم ﴾ [النساء : 29] .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد في قوله ﴿ فسلموا على أنفسكم ﴾ قال : إذا دخل المسلم على المسلم سلم عليه مثل قوله ﴿ ولا تقتلوا أنفسكم ﴾ [النساء : 29] إنما هو لا تقتل أخاك المسلم وقوله ﴿ ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم ﴾ [البقرة : 85] قال : يقتل بعضكم بعضاً . قريظة ، والنضير . وقوله ﴿ جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ﴾ [الروم : 21] كيف يكون زوج الإِنسان من نفسه ؟ إنما هي جعل لكم أرواحاً من بني آدم ولم يجعل من الإِبل والبقر وكل شيء في القرآن على هذا .

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد في قوله ﴿ فسلموا على أنفسكم ﴾ قال : بعضكم على بعض .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : ما أخذت التشهد إلا من كتاب الله سمعت الله يقول ﴿ فإذا دخلتم بيوتاً فسلموا على أنفسكم تحية من عند الله مباركة طيبة ﴾ فالتشهد في الصلاة " التحيات المباركات الطيبات لله " .

وأخرج سعيد بن منصور عن ثابت بن عبيد قال : أتيت ابن عمر قبل الغداة . وهو جالس في المسجد فقال لي : ألا سلمت حين جئت ؟ فانها تحية من عند الله مباركة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 6 صـ ﴾

(219/554)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله : ﴿ أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَّفَاتِحهُ ﴾ :

العامةُ على فتح/ الميمِ ، واللامُ مخففةٌ . وابن جبير " مُلِّكْتُم " بضمِ الميمِ وكسرِ اللامِ مشددةً أي : مَلَّككم غيرُكم . والعامَّةُ على " مفاتحَه " دونَ ياءٍ جمع مِفْتَح . وجَوَّز أبو البقاء أن

يكون جمع "مِفْتَح" بالكسرِ وهو الآلةُ، وأن يكون جمعَ "مَفْتح" بالفتح وهو المصدر . بمعنى الفتح . وابن جبير "مفاتيحَه" بالياء بعد التاء جمع مِفْتاح . والأول أُقيسُ . وقرأ أبو عمرو في روايةِ هارونَ عنه "مِفْتاحَه" بالإفراد وهي قراءةُ قتادة .

قوله : ﴿ أَوْ صَدِيقِكُمْ ﴾ العامَّةُ على فتحِ الصادِ . وحميد الخزاز روى كسرَها إتْباعاً لكسرةِ الدال . والصَّدِيْق يقع للواحِد والجمع كالخَليط والقَطِين وشِبْهِهما .

قوله : ﴿ جَمِيعاً ﴾ حالٌ من "تَأْكُلوا" ، و "أَشْتاتاً" عطفٌ عليه وهو جمعُ شَتّ .

قوله : ﴿ تَحِيَّةً ﴾ منصوبٌ على المصدرِ مِنْ معنى "فسَلِّموا" فهو من بابِ قَعَدْتُ جُلوساً . وقد تقدَّم وزن التحيَّة . و ﴿ مِّنْ عِندِ اللهِ ﴾ يجوز أن يتعلَّقَ بمحذوفٍ صفةً لـ "تحيةً" ، وأَنْ يتعلَّقَ بنفسِ "تحيّة" أي : التحية صادرةً من جهةِ الله . و "مِنْ" لابتداء الغايةِ مجازاً ، إلاَّ أنه يُعَكِّر على الوصفِ تأخُّرُ الصفةِ الصريحةِ عن المُؤَولةِ . وقد تقدَّم ما فيه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الدر المصون حـ 8 صـ 444.445﴾

(220/554)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله جلّ ذكره : ﴿ لَّيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ وَلاَ عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلاَ عَلَى المَرِيضِ حَرَجٌ وَلاَ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِن بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَائِكُمْ ﴾ .

إذا جاءت الأعذار سُهِلَ الامتحانُ والاختيارُ ، وإذا حصلت القرابةُ سقطت الحشمة ، وإذا صدقت القرابة انتفت التفرقة والأجنبية ؛ فبشهادة هذه الآية إذا انتفت هذه الشروط صَحَّتْ المباسطة في الارتفاق .

ثم قال : ﴿ أَوْ صَدِيقِكُمْ ﴾ [النور : 61] وعزيزٌ منْ يصدُقُ في الصداقة ؛ فيكون في الباطن كما يُرَى في الظاهر ، ولا يكون في الوجه كالمرآه ومِنْ ورائك كالمقْراض ، وفي معناه ما قلت :

مَنْ لي بمن يثق الفؤاد بودّه . . . فإذا تَرحَّلَ لم يزغ عن عهده

يا بؤس نفسي من أخ لي باذلٍ . . . حسنَ الوفاء بوعده لا نَقْدِه

يُولِي الصفاءَ بنُطقه لا خُلقه . . . ويدسُّ صاباً في حلاوة شَهْده

فلسانُه يبدي جواهر عقده . . . وجَنانه تغلي مراجلُ حقده

لا هُمَّ إني لا أطيق مِراسَه . . . بك أستيعذ من الحسود وكيده

وقوله : ﴿ أَوْ صَدِيقِكُمْ ﴾ [النور : 61] مَنْ تُؤْمَنُ منه هذه الخصال وأمثالها .

قوله جلّ ذكره : ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلَى أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الأَيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ .

السلامُ الأمانُ ، وسبيلُ المؤمن إذا دخل بيتاً أن يُسلِّمَ مِنَ اللَّهِ على نَفْسِه ؛ أي يطلب الأمانَ والسلامةَ من اللهِ لِتَسلَمَ نَفْسُه من الإقدام على ما لا يرضاه الله ، إذ لا يحل لمُسلِم أَنْ يفْتُرَ لحظةً عن الاستجارة بالله حتى لا يرفع عنه – سبحانه – ظِلَّ عِصْمَتِه ؛ بإدامة حِفْظِه عن الاتصاف بمكروهٍ في الشرع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 622. 623 ﴾

(221/554)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الخامس والخمسون بعد الخمسمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/555)

الجزء الخامس والخمسون بعد الخمسمائة

من الآية ﴿ 62 ﴾ من سورة النور

وحتى الآية ﴿ 64 ﴾ آخر السورة الكريمة

(4/555)

قوله تعالى ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (62) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان سبحانه قد نفى عنهم الإيمان بالتولي عن الأحكام ، وتلاه بما رأيت أن تظمه أحسن نظام ، حتى ختم بما أوماً إلى أن من عمي عن أحكامه بعد هذا البيان مسلوب العقل ، وكرر في هذه السورة ذكر البيان ، تكريراً أشار إلى لمعان المعاني بأمتن بنان حتى صارت مشخصات للعيان ، وبين من حاز وصف الإيمان ، بحسن الاستئذان ، وكان أمر الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أجلّ موطن تجب الإقامة فيه ويهجر ما عداه من الأوطان ، فتصير الأرض برحبها ضيقة لأجله ، محظوراً سلوكها مِن جرّاه ، بمنزلة بيت الغير الذي لا يحل دخوله بغير إذن ، قال معرفاً بذلك على طريق الحصر مقابلاً لسلب ﴿ وما أولئك بالمؤمنين ﴾ [المائدة : 43] مبيناً عظيم الجناية في الذهاب عن مجلس النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ المقتضي للجمع من غير إذن : ﴿ إنما المؤمنون ﴾ أي الكاملون الذين لهم الفلاح ﴿ الذين آمنوا بالله ﴾ أي الملك الأعلى ﴿ ورسوله ﴾ ظاهراً وباطناً .

(5/555)

ولما كان الكلام في الراسخين ، كان الموضع لأداة التحقيق فقال : ﴿ وإذا ﴾ أي وصدقوا إيمانهم بأنهم إذا ﴿ كانوا معه ﴾ أي الرسول صلى الله عليه السلام ﴿ على أمر جامع ﴾

أي لهم على الله ، كالجهاد لأعداء الله ، والتشاور في مهم ، وصلاة الجمعة ، ونحو ذلك ﴿ لم يذهبوا ﴾ عن ذلك الأمر خطوة إلى موضع من الأرض ولو أنه بيوتهم ، لشيء من الأشياء ولو أنه أهم مهماتهم ، لأنه أخذ عليهم الميثاق بالطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره ﴿ حتى يستأذنوه ﴾ فيأذن لهم ، لأن المأمور به قد صار منزلهم ومأواهم ومتبوأهم ، وصار كل ما سواه من الأماكن والأمور له عليه الصلاة والسلام دونهم ، لا حظ لهم فيه ، فلا يحل لهم أن يدخلوه حساً أو معنى إلا بإذنه ، وهذا من عظيم التنبيه على عليّ أمره ، وشريف قدره ، وذلك أنه سبحانه كما أمرهم بالاستئذان عند الدخول عليه وعلى غيره ، أفرده بأمرهم باستئذانه عند الانصراف عنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وجعل رتبة ذلك تالية لرتبة الإيمان بالله والرسول ، وجعلهما كالتسبيب له مع تصدير الجملة بأداة الحصر ، وإيقاع المؤمنين في مبتدأ مخبراً عنه بموصول أحاطت وصلته بالرتب الثلاث شرحاً له .

ولما نفى عن المؤمنين الذهاب إلى غاية الاستئذان ، فأفهم أن المستأذن مؤمن ، صرح بهذا المفهوم ليكون آكد ، فقال تشديداً في الإخلال بالأدب بين يديه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وتأكيداً لحفظ حرمته والأدب معه لئلا يتشوش فكره في أسلوب آخر ، وبياناً لأن الاستئذان مصداق الإيمان : ﴿ إن الذين يستأذنونك ﴾ أي يطلبون إذنك لهم إذا أرادوا الانصراف ، في شيء من أمورهم التي يحتمل أن تمنع منها ﴿ أولئك ﴾ العالو الرتبة خاصة

﴿ الذين يؤمنون ﴾ أي يوجدون الإيمان في كل وقت ﴿ بالله ﴾ الذي له الأمر كله فلا كفوء له ﴿ ورسوله ﴾ وذلك ناظم لأشتات خصال الإيمان .

(6/555)

ولما قصرهم على الاستئذان ، تسبب عن ذلك إعلامه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بما يفعل إذ ذاك فقال : ﴿ فإذا استأذنوك ﴾ أي هؤلاء الذين صحت دعواهم ؛ وشدد عليهم تأكيداً لتعظيم الأدب معه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بقوله : ﴿ لبعض شأنهم ﴾ وهو ما تشتد الحاجة إليه ﴿ فأذن لمن شئت منهم ﴾ قيل : كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا صعد المنبر يوم الجمعة فمن اراد أن يخرج لعذر قام بحياله فيعرف أنه يستأذن فيأذن لمن شاء ، قال مجاهد : وإذن الإمام يوم الجمعة أن يشير بيده ، وقيل : كذلك ينبغي أن يكون الناي مع أئمتهم ومقدميهم في الدين والعلم لا يخذلونهم في نازلة من النوازل .

ولما أثبت له بهذا التفويض من الشرف ما لا يبلغ وصفه ، أفهمهم أن حال المستأذن قاصرة عن حال المفوض الملازم كيفما كانت ، فقال : ﴿ واستغفر لهم الله ﴾ أي الذي له الغنى المطلق ، فلا تنفعه طاعة ، ولا تضره معصية ، أو يكون الكلام شاملاً لمن صحت دعواه وغيره ؛ ثم علل ذلك ترغيباً في الاستغفار ، وتطييباً لقلوب أهل الأوزار ، بقوله : ﴿ إن

الله ﴾ أي الذي له صفات الكمال ﴿ غفور ﴾ أي له هذا الوصف فهو جدير بأن يغفر لهم ما قصروا فيه ﴿ رحيم ﴾ أي فكل ما أمرهم به فهو خير لهم وإن تراءى لهم خلافه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 287.289 ﴾

(7/555)

فصل

قال الفخر :

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾

وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

قرىء ﴿ على أَمْرٍ جمِيع ﴾ ثم ذكروا في قوله ﴿ على أَمْرٍ جَامِعٍ ﴾ وجوهاً : أحدها : أن الأمر الجامع هو الأمر الموجب للاجتماع عليه فوصف الأمر بالجمع على سبيل المجاز ، وذلك نحو مقاتلة عدو أو تشاور في خطب مهم أو الأمر الذي يعم ضرره ونفعه وفي قوله : ﴿ إِذَا كَانُواْ مَعَهُ على أَمْرٍ جَامِعٍ ﴾ إشارة إلى أنه خطب جليل لا بد لرسول صلى الله عليه وسلم من أرباب التجارب والآراء ليستعين بتجاربهم فمفارقة أحدهم في هذه الحالة مما

يشق على قلبه وثانيها : عن الضحاك في أمر جامع الجمعة والأعياد وكل شيء تكون فيه الخطبة وثالثها : عن مجاهد في الحرب وغيره .

المسألة الثانية :

اختلفوا في سبب نزوله قال الكلبي : كان صلى الله عليه وسلم يعرض في خطبته بالمنافقين ويعيبهم فينظر المنافقون يميناً وشمالاً فإذا لم يرهم أحد انسلوا وخرجوا ولم يصلوا ، وإن أبصرهم أحد ثبتوا وصلوا خوفاً ، فنزلت هذه الآية فكان بعد نزول هذه الآية لا يخرج المؤمن لحاجته حتى يستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان المنافقون يخرجون بغير إذن .

المسألة الثالثة :

قال الجبائي هذا يدل على أن استئذانهم الرسول من إيمانهم ، ولولا ذلك لجاز أن يكونوا كاملي الإيمان وإن تركوا الاستئذان ، وذلك يدل على أن كل فرض لله تعالى واجتناب محرم من الإيمان والجواب : هذا بناء على أن كلمة ﴿ إِنَّمَا ﴾ للحصر وأيضاً فالمنافقون إنما تركوا الاستئذان استخفافا ولا نزاع في أنه كفر .

أما قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين يَسْتَئْذِنُونَكَ ﴾ إلى قوله : ﴿ إِنَّ الله غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ ففيه مسائل :

المسألة الأولى :

﴿ إِنَّ الذين يَسْتَئْذِنُونَكَ ﴾

المعنى تعظيماً لك ورعاية للأدب ﴿ أولئك الذين يُؤْمِنُونَ بالله وَرَسُولِهِ ﴾ أي يعملون بموجب الإيمان ومقتضاه ، قال الضحاك ومقاتل : المراد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وذلك لأنه استأذن في غزوة تبوك في الرجوع إلى أهله فأذن له وقال له انطلق فوالله ما أنت بمنافق يريد أن يسمع المنافقين ذلك الكلام ، فلما سمعوا ذلك قالوا ما بال محمد إذا استأذنه أصحابه أذن لهم ، وإذا استأذناه لم يأذن لنا فوالله ما نراه يعدل ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما إن عمر استأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم في العمرة فأذن له ، ثم قال يا أبا حفص لا تنسنا من صالح دعائك ، وفي قوله : ﴿ واستغفر لَهُمُ الله ﴾ وجهان : أحدهما : أن يستغفر لهم تنبيهاً على أن الأولى أن لا يقع الاستئذان منهم وإن أذن ، لأن الاستغفار يدل على الذنب وربما ذكر عند بعض الرخص الثاني : يحتمل أنه تعالى أمره بأن يستغفر لهم مقابلة على تمسكهم بآداب الله تعالى في الاستئذان .

المسألة الثانية :

قال قتادة نسخت هذه الآية قوله تعالى : ﴿ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ ﴾ [التوبة : 43] .

المسألة الثالثة :

الآية تدل على أنه سبحانه فوض إلى رسوله بعض أمر الدين ليجتهد فيه برأيه . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 24 صـ 34.35 ﴾

(9/555)

وقال الجصاص :

وقَوْله تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ ﴾ قَالَ الْحَسَنُ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ : (فِي الْجِهَادِ) .

وَقَالَ عَطَاءٌ : (فِي كُلِّ أَمْرٍ جَامِعٍ) .

وَقَالَ مَكْحُولٌ : (فِي الْجُمُعَةِ وَالْقِتَالِ) .

وَقَالَ الزُّهْرِيُّ : (الْجُمُعَةُ) ، وَقَالَ قَتَادَةُ : (كُلُّ أَمْرٍ هُوَ طَاعَةٌ لِلَّهِ) .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : هُوَ فِي جَمِيعِ ذَلِكَ لِعُمُومِ اللَّفْظِ .

وَقَالَ سَعِيدٌ عَنْ قَتَادَةَ : ﴿ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ ﴾ الْآيَةَ ، قَالَ : (كَانَ اللَّهُ أَنْزَلَ قَبْلَ ذَلِكَ فِي سُورَةِ بَرَاءَةَ : ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ ﴾ فَرَخَّصَ لَهُ فِي هَذِهِ السُّورَةِ : ﴿ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ ﴾ فَنُسِخَتْ هَذِهِ الْآيَةُ الَّتِي فِي سُورَةِ بَرَاءَةَ) .

وَقَدْ قِيلَ : إنَّهُ لَا مَعْنَى لِلِاسْتِئْذَانِ لِلْمُحْدِثِ فِي الْجُمُعَةِ ؛ لِأَنَّهُ لَا وَجْهَ لِمُقَامِهِ وَلَا يَجُوزُ لِلْإِمَامِ مَنْعُهُ ، فَلَا مَعْنَى لِلِاسْتِئْذَانِ فِيهِ ؛ وَإِنَّمَا هُوَ فِيمَا يَحْتَاجُ الْإِمَامُ فِيهِ إلَى مَعُونَتِهِمْ فِي الْقِتَالِ أَوْ الرَّأْيِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(10/555)

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ إنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاَللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ ﴾ .

فِيهَا مَسْأَلَتَانِ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : فِي سَبَبِ نُزُولِ الْآيَةِ : وَالْمُرَادُ بِمَا فِي ذَلِكَ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ : الْأَوَّلُ : أَنَّ الْأَمْرَ الْجَامِعَ الْجُمُعَةُ ، وَالْعِيدَانِ ، وَالِاسْتِسْقَاءُ ، وَكُلُّ شَيْءٍ يَكُونُ فِيهِ الْخُطْبَةُ ؛ قَالَهُ يَحْيَى بْنُ سَلَّامٍ .

الثَّانِي : أَنَّهُ كُلُّ طَاعَةٍ لِلَّهِ ؛ قَالَهُ مُجَاهِدٌ .

الثَّالِثُ : أَنَّهُ الْجِهَادُ ؛ قَالَهُ زَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ .

وَقَدْ رَوَى أَشْهَبُ ، وَيَحْيَى بْنُ بُكَيْرٍ ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ الْحَكَمِ عَنْ مَالِكٍ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ إنَّمَا

كَانَتْ فِي حَرْبِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ الْخَنْدَقِ ، وَكَذَلِكَ قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ .

وَالَّذِي بَيَّنَ ذَلِكَ أَمْرَانِ صَحِيحَانِ : أَمَّا أَحَدُهُمَا : فَهُوَ قَوْله تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا ﴾ وَذَلِكَ أَنَّ الْمُنَافِقِينَ كَانُوا يَتَلَوَّذُونَ ، وَيَخْرُجُونَ عَنْ الْجَمَاعَةِ ، وَيَتْرُكُونَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَمَرَ اللَّهُ جَمِيعَهُمْ بِأَلَّا يَخْرُجَ [أَحَدٌ] حَتَّى يَأْذَنَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَبِذَلِكَ يَتَبَيَّنُ إِيمَانُهُ .

(11/555)

وَأَمَّا الثَّانِي : فَهُوَ قَوْله تَعَالَى : ﴿ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ ﴾ فَأَيُّ إِذْنٍ فِي الْحَدَثِ وَالْإِمَامُ يَخْطُبُ ، وَلَيْسَ لِلْإِمَامِ خِيَارٌ فِي مَنْعِهِ وَلَا إِبْقَائِهِ ، وَقَدْ قَالَ : ﴿ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْت مِنْهُمْ ﴾ فَبَيَّنَ بِذَلِكَ أَنَّهُ مَخْصُوصٌ فِي الْحَرْبِ الَّتِي يُؤْثَرُ فِيهَا التَّفَرُّقُ أَمَّا إنَّ الْآيَةَ تَدُلُّ بِقُوَّةِ مَعْنَاهَا عَلَى أَنَّ مَنْ حَضَرَ جَمَاعَةً لَا يَخْرُجُ إلَّا لِعُذْرٍ بَيِّنٍ أَوْ بِإِذْنٍ قَائِمٍ مِنْ مَالِكِ الْجَمَاعَةِ وَمُقَدِّمِهَا ؛ وَبِذَلِكَ أَنَّ الِاجْتِمَاعَ كَانَ لِغَرَضٍ ، فَمَا لَمْ يَتِمَّ الْغَرَضُ لَمْ يَكُنْ لِلتَّفَرُّقِ أَصْلٌ ، وَإِذَا كَمُلَ الْغَرَضُ جَازَ التَّفَرُّقُ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْت مِنْهُمْ ﴾

فَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْخِيَارِ إنْ شَاءَ أَذِنَ لَهُ إذَا رَأَى ذَلِكَ ضَرُورَةً لِلْمُسْتَأْذِنِ ، وَلَمْ يَرَ فِيهِ مَضَرَّةً عَلَى الْجَمَاعَةِ ، أَذِنَ بِنَظَرٍ ، أَوْ مَنَعَ بِنَظَرٍ .

وَقَدْ رَوَى مَكْحُولٌ أَنَّ الرَّجُلَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ إذَا رَعَفَ أَوْ أَحْدَثَ يَجْعَلُ يَدَهُ عَلَى أَنْفِهِ ، وَيُشِيرُ إلَى الْإِمَامِ فَيُشِيرُ لَهُ الْإِمَامُ بِيَدِهِ أَنْ اُخْرُجْ .

وَقَالَ ابْنُ سِيرِينَ : كَانُوا يَسْتَأْذِنُونَ الْإِمَامَ وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ ، فَلَمَّا كَثُرَ ذَلِكَ قَالَ زِيَادٌ : مَنْ جَعَلَ يَدَهُ عَلَى أَنْفِهِ فَلْيَخْرُجْ دُونَ إذْنٍ .

(12/555)

وَقَدْ كَانَ هَذَا بِالْمَدِينَةِ ، حَتَّى إنَّ سُهَيْلَ بْنَ أَبِي صَالِحٍ رَعَفَ يَوْمًا فِي الْجُمُعَةِ فَاسْتَأْذَنَ الْإِمَامَ ، وَلَكِنَّ الْأَمْرَ كَمَا بَيَّنَّا مِنْ أَنَّهُ لَا يَحْتَاجُ إلَيْهِ ، إذْ لَا إذْنَ فِيهِ ، وَلَا خِيرَةَ وَلَا مَشِيئَةَ تَتَعَلَّقُ بِهِ ؛ وَإِنَّمَا هُوَ أَمْرٌ صَاحِبُهُ مُؤْتَمَنٌ عَلَيْهِ ، فَيَخْرُجُ إذَا شَاءَ ، وَيَجْلِسُ إذَا شَاءَ . انتهى انتهى .

ا هـ ﴿أحكام القرآن لابن العربى حـ 3 صـ ﴾

(13/555)

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ . . . . وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ ﴾

فيه ثلاثة أقاويل

: أحدها : أن الأمر الجامع الجمعة والعيدان والاستسقاء وكل شيء يكون فيه الخطبة ، قاله يحيى بن سلام .

الثاني : أنه الجهاد ، قاله زيد بن أسلم .

الثالث : طاعة الله ، قاله مجاهد .

﴿ لَّمْ يَذْهَبُواْ حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ ﴾ أي لم ينصرفوا عنه حتى يستأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه .

﴿ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ . . . . ﴾ الآية . وهذا بحسب ما يرى من أعذارهم ونياتهم وروي أن هذا نزل في عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان مع النبي صلى الله عليهم وسلم في غزاة بتوك فاستأذنه في الرجوع إلى أهله فقال : " انْطَلِقْ فَوَاللَّهِ مَا أَنتَ بِمُنَافِقٍ وَلاَ مُرْتَابٍ " وكان المنافقون إذا استأذنوا نظر إليهم ولم يأذن لهم فكان بعضهم يقول لبعض : محمدٌ يزعم أنه بُعِث بالعدل وهكذا يصنع بنا .

﴿ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ ﴾ يعني لمن أذن له من المؤمنين ليزول عنه باستغفاره ملامة الانصراف

قال قتادة : وهذه الآية ناسخة قوله تعالى : ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُم ﴾ الآية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

(14/555)

وقال ابن عطية :

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾

﴿ إنما ﴾ في هذه الآية للحصر اقتضى المعنى لأنه لا يتم إيمان إلا بأن يؤمن المرء ﴿ بالله ورسوله ﴾ وبأن يكون من الرسول سامعاً غير معنت في أن يكون الرسول يريد إكمال أمر فيريد هو إفساده بزواله في وقت الجمع ونحو ذلك ، و" الأمر الجامع " يراد به ما للإمام حاجة إلى جمع الناس فيه لإذاعة مصلحة ، فأدب الإسلام اللازم في ذلك إذا كان الأمر حاضراً أن لا يذهب أحد لعذر إلا بإذنه ، فإذا ذهب بإذن ارتفع عنه الظن السيىء ، والإمام الذي يرتقب إذنه في هذه الآية هو إمام الإمرة ، وقال مكحول والزهري الجمعة من " الأمر الجامع " وإمام الصلاة ينبغي أن يستأذن إذا قدمه إمام الإمرة ، إذا كان يرى المستأذن ، ومشى بعض الناس دهراً على استئذان إمام الصلاة وروي أن هرم بن حيان كان يخطب فقام رجل فوضع يده على أنفه وأشار إلى هرم بالاستئذان فأذن له فلما قضيت الصلاة كشف عن

أمره أنه إنما ذهب لغير ضرورة .

فقال هرم اللهم أخر رجال السوء لزمان السوء .

(15/555)

قال الفقيه الإمام القاضي : وظاهر الآية إنما يقتضي أن يستأذن أمير الإمرة الذي هو في مقعد النبوة فإنه ربما كان له رأي في حبس ذلك الرجل لأمر من أمور الدين ، فأما إمام الصلاة فقط فليس ذلك إليه لأنه وكيل على جزء من أجزاء الدين للذي هو في مقعد النبوة ، ثم أمر الله تعالى نبيه أن يأذن لمن عرف منه صحة العذر وهم الذين يشاء ، وروي أن هذه الآية نزلت في وقت حفر رسول الله صلى الله عليه وسلم خندق المدينة وذلك أن بعض المؤمنين كان يستأذن لضرورة ، وكان المنافقون يذهبون دون استئذان فأخرج الله تعالى الذين لا يستأذنون عن صنيفة المؤمنين وأمر النبي عليه السلام أن يأذن للمؤمن الذي لا تدعوه ضرورة إلى حبسه وهو الذي يشاء ثم أمره بالاستغفار لصنفي المؤمنين من أذن له ومن لم يؤذن له وفي ذلك تأنيس للمؤمنين ورأفة بهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(16/555)

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ وإذا كانوا معه ﴾

يعني : مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ على أمر جامع ﴾ أي : على أمر طاعة يجتمعون عليها ، نحو الجهاد والجمعة والعيد ونحو ذلك ﴿ لم يذهبوا حتى يستأذنوه ﴾ قال المفسرون : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا صَعِد المنبر يوم الجمعة ، وأراد الرجل أن يخرج من المسجد لحاجة أو عذر ، لم يخرج حتى يقوم بحيال رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث يراه ، فيعرف أنه إنما قام ليستأذن فيأذن لمن شاء منهم ، فالأمر إليه في ذلك .

قال مجاهد : وإذن الإمام يوم الجمعة أن يشير بيده .

قوله تعالى : ﴿ واستَغْفِرْ لَهُمُ اللّهُ ﴾ أي : لخروجهم عن الجماعة إن رأيتَ لهم عذراً .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(17/555)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا المؤمنون الذين آمَنُواْ بالله وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُ على أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ

يَذْهَبُواْ حتى يَسْتَأْذِنُوهُ ﴾

فيه مسألتان :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا المؤمنون ﴾ "إنَّمَا" في هذه الآية للحصر ؛ المعنى : لا يتمّ ولا يكمل إيمانُ من آمن بالله ورسوله إلا بأن يكون من الرسول سامعاً غير معنّت في أن يكون الرسول يريد إكمال أمر فيريد هو إفساده بزواله في وقت الجمع ، ونحو ذلك .

وبيّن تعالى في أول السورة أنه أنزل آيات بينات ، وإنما النزول على محمد صلى الله عليه وسلم ؛ فختم السورة بتأكيد الأمر في متابعته عليه السلام ؛ ليعلم أن أوامره كأوامر القرآن .

الثانية : واختلف في الأمر الجامع ما هو ؛ فقيل : المراد به ما للإمام من حاجة إلى جمع الناس فيه لإذاعة مصلحة ، من إقامة سُنّة في الدِّين ، أو لترهيب عدوّ باجتماعهم وللحروب ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأمر ﴾ [آل عمران : 159] .

فإذا كان أمر يشملهم نفعه وضره جمعهم للتشاور في ذلك .

والإمام الذي يُتَرَقَّب إذنه هو إمام الإمْرة ، فلا يذهب أحد لعذر إلا بإذنه ، فإذا ذهب بإذنه ارتفع عنه الظن السيىء .

وقال مَكْحُول والزُّهْرِيّ : الجمعة من الأمر الجامع .

وإمام الصلاة ينبغي أن يُستأذن إذا قدّمه إمام الإمرة ، إذا كان يرى المستأذن .

قال ابن سيرين : كانوا يستأذنون الإمام على المنبر ؛ فلما كثر ذلك قال زياد : من جعل يده

على فيه فليخرج دون إذن ، وقد كان هذا بالمدينة حتى أن سهل بن أبي صالح رَعَف يوم الجمعة فاستأذن الإمام .

وظاهر الآية يقتضي أن يُستأذن أميرُ الإمْرة الذي هو في مقعد النبوّة ، فإنه ربما كان له رأي في حبس ذلك الرجل لأمر من أمور الدين .

فأما إمام الصلاة فقط فليس ذلك إليه ؛ لأنه وكيل على جزء من أجزاء الدِّين للذي هو في مقعد النبوّة .

(18/555)

وروي أن هذه الآية نزلت في حفر الخَنْدق حين جاءت قريش وقائدها أبو سيفان ، وغطفان وقائدها عُيَيْنة بن حِصْن ؛ فضرب النبيّ صلى الله عليه وسلم الخندق على المدينة ، وذلك في شوال سنة خمس من الهجرة ، فكان المنافقون يتسلّلون لِواذاً من العمل ويعتذرون بأعذار كاذبة .

ونحوه روى أشهب وابن عبد الحكم عن مالك ، وكذلك قال محمد بن إسحاق .

وقال مقاتل : نزلت في " عمر رضي الله عنه ، استأذن النبيّ صلى الله عليه وسلم في غَزْوة تَبُوك في الرجعة فأذن له وقال : "انطلق فوالله ما أنت بمنافق" " يريد بذلك أن يُسمع

المنافقين .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما : " إنما استأذن عمر رضي الله عنه في العُمْرة فقال عليه السلام لما أذِن له : "يا أبا حَفْص لا تنسنا في صالح دعائك" " .

قلت : والصحيح الأوّل لتناوله جميع الأقوال .

واختار ابن العربيّ ما ذكره في نزول الآية عن مالك وابن إسحاق ، وأن ذلك مخصوص في الحرب .

قال : والذي يبين ذلك أمران :

أحدهما : قوله في الآية الأخرى : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللهُ الذين يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذاً ﴾ .

وذلك أن المنافقين كانوا يتلوّذون ويخرجون عن الجماعة ويتركون رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأمر الله جميعهم بألا يخرج أحد منهم حتى يأذن له رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وبذلك يتبيّن إيمانه .

الثاني : قوله : ﴿ لَّمْ يَذْهَبُواْ حتى يَسْتَأْذِنُوهُ ﴾ وأيّ إذن في الحدث والإمام يخطب ، وليس للإمام خيار في منعه ولا إبقائه ، وقد قال : ﴿ فَأْذَنِ لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ ﴾ ؛ فبيّن بذلك أنه مخصوص في الحرب .

قلت : القول بالعموم أولى وأرفع وأحسن وأعلى .

﴿ فَأْذَنِ لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ ﴾ فكان النبيّ صلى الله عليه وسلم بالخيار إن شاء أن يأذَن وإن

شاء منع .

وقال قتادة : قوله : "فأذن لمن شئت منهم" منسوخة بقوله : ﴿ عَفَا اللهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ ﴾ [التوبة : 43] .

﴿ واستغفر لَهُمُ الله ﴾ أي لخروجهم عن الجماعة إن علمت لهم عذراً .

﴿ إِنَّ الله غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 13 صـ ﴾

(19/555)

وقال أبو حيان :

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾

لما افتتح السورة بقوله ﴿ سورة أنزلناها ﴾ وذكر أنواعاً من الأوامر والحدود مما أنزله على الرسول عليه السلام اختتمها بما يجب له عليه السلام على أمته من التتابع والتشايع على ما فيه مصلحة الإسلام ومن طلب استئذانه إن عرض لأحد منهم عارض ، ومن توقيره في دعائهم إياه .

وقال الزمخشري : أراد عز وجل أن يريهم عظيم الجناية في ذهاب الذاهب عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بغير إذنه .

﴿ إذا كانوا معه على أمر جامع ﴾ فجعل ترك ذهابهم ﴿ حتى تستأذنوه ﴾ ثالث الإيمان بالله والإيمان برسوله (صلى الله عليه وسلم) ، وجعلهما كالتسبيب له والنشاط لذكره .

وذلك مع تصدير الجملة بإنما وارتفاع المؤمنين مبتدأ ومخبر عنه بموصول أحاطت صلته بذكر الإيمانين ، ثم عقبه بما يزيده توكيداً وتسديداً بحيث أعاده على أسلوب آخر وهو قوله ﴿ إن الذين يستأذنوك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله ﴾ وضمنه شيئاً آخر وهو أنه جعل الاستئذان كالمصداق لصحة الإيمانين ، وعرّض بحال الماضين وتسللهم لواذاً .

ومعنى قوله ﴿ لم يذهبوا حتى يستأذنوه ﴾ لم يذهبوا حتى يستأذنوه ويأذن لهم ، ألا تراه كيف علق الأمر بعد وجود استئذانهم بمشيئته وإذنه لمن استصوب أن يأذن له ، والأمر الجامع الذي يجمع له الناس ، فوصف بالجمع على المجاز وذلك نحو مقابلة عدو وتشاور في أمرهم أو تضام لإرهاب مخالف ، أو ما ينتج في حلف وغير ذلك .

والأمر الذي يعم بضرره أو بنفعه وفي قوله ﴿ وإذا كانوا معه على أمر جامع ﴾ أنه خطب جليل لا بد لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) فيه من ذوي رأي وقوة يظاهرونه عليه ويعاونونه ويستضيء بآرائهم ومعارفهم وتجاربهم في كفاءته ، فمفارقة أحدهم في مثل هذه الحالة مما يشق على قلبه ويشعث عليه رأيه .

فمن ثم غلظ عليهم وضيق الأمر في الاستئذان مع العذر المبسوط ومساس الحاجة إليه واعتراض ما يهمهم ويعينهم ، وذلك قوله ﴿ لبعض شأنهم ﴾ وذكر الاستغفار للمستأذنين دليل على أن الأحسن الأفضل أن لا يحدثوا أنفسهم بالذهاب ولا يستأذنوا فيه .

وقيل : نزلت في حفر الخندق وكان قوم يتسللون بغير إذن لذلك ينبغي أن يكون الناس مع أئمتهم ومقدميهم في الدين والعلم يظاهرونهم ولا يخذلونهم في نازلة من النوازل ، ولا يتفرقون عنهم ، والأمر في الإذن مفوض إلى الإمام إن شاء أذن وإن شاء لم يأذن على حسب ما اقتضاه رأيه انتهى .

وهو تفسير حسن ويجري هذا المجرى إمام الأمرة إذا كان الناس معه مجتمعين لمراعاة مصلحة دينية فلا يذهب أحد منهم عن المجمع إلاّ بإذن منه إذ قد يكون له رأي في حضور ذلك الذاهب .

وقال مكحول والزهري : الجمعة من الأمر الجامع ، فإذا عرض للحاضر ما يمنعه الحضور من سبق رعاف فليستأذن حتى يذهب عنه سوء الظن به .

وقال ابن سيرين : كانوا يستأذنون الإمام على المنبر ، فلما كثر ذلك قال زياد : من جعل يده على أنفه فليخرج دون إذن وقد كان هذا بالمدينة حتى إنّ سهيل بن أبي صالح رعف يوم الجمعة فاستأذن الإمام .

وقال ابن سلام : هو كل صلاة فيها خطبة كالجمعة والعيدين والاستسقاء .

وقال ابن زيد : في الجهاد .

وقال مجاهد : الاجتماع في طاعة الله .

قيل : في قوله ﴿ فائذن لمن شئت منهم ﴾ أريد بذلك عمر بن الخطاب .

وقرأ اليماني على أمر جميع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(21/555)

وقال أبو السعود :

﴿ إِنَّمَا المؤمنون الذين ءامَنُواْ بالله وَرَسُولِهِ ﴾

استئنافٌ جيء به في أواخر الأحكام السَّابقةِ تقريراً لها وتأكيداً لوجوب مراعاتِها وتكميلاً لها ببيانِ بعضٍ آخرَ من جنسها وإنَّما ذكر الإيمان بالله ورسوله في حيّز الصّلةِ للموصول الواقع خبراً للمبتدأ مع تضمُّنِه له قطعاً تغيراً لما قبله وتمهيداً لما بعده وإيذاناً بأنه حقيقٌ بأن يجعل قريناً للإيمان بهما مُنتظماً في سلكه فقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُ على أَمْرٍ جَامِعٍ ﴾ معطوفٌ على آمنُوا داخلٌ معه في حيّز الصّلةِ أي إنَّما الكاملون في الإيمانِ الذين آمنُوا بالله ورسولِه عن صميم قلوبهم وأطاعوهُما في جميع الأحكامِ التي من جُملتها ما فُصّل من

قبل من الأحكامِ المتعلّقةِ بعامة أحوالِهم المطَّردة في الوقوع وأحوالِهم الواقعة بحسب الاتّفاقِ كما إذا كانُوا معه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ على أمر مهمَ يجب اجتماعُهم في شأنه كالجمعةِ والأعيادِ والحروبِ وغيرِها من الأمور الدّاعيةِ إلى اجتماع أولي الآراءِ والتَّجارب ، ووصف الأمر بالجمعِ للمبالغة وقُرِىء أمرٍ جميعٍ ﴿ لَّمْ يَذْهَبُواْ ﴾ أي من المجمعِ مع كون ذلك الأمرِ مما لا يوجبُ حضورَهم لا محالةَ كما عند إقامة الجمعةِ ولقاء العدوّ بل يسوّغ التَّخلفَ عنه ﴿ حتى يَسْتَئْذِنُوهُ ﴾ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ في الذهابِ لا على أنَّ نفسَ الاستئذانِ غايةٌ لعدم الذَّهاب بل الغاية هي الإذنُ المنوط برأيه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ، والاقتصار على ذكرِه لأنَّه الذي يتمُّ من قبلهم وهو المعتبرُ في كمال الإيمانِ لا الإذنُ ولا الذهابُ المترتّبُ عليه ، واعتبارُه في ذلكِ لما أنَّه كالمصداقِ لصحَّتِه والمميّز للمخلصِ فيه عن المنافق فإنَّ ديدنه التَّسللُ للفرار ولتعظيم ما في الذهابِ بغير إذنه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ من الجنايةِ وللتَّنبيهِ على ذلك عقب بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين يَسْتَئْذِنُونَكَ أُوْلَئِكَ الذين يُؤْمِنُونَ بالله

(22/555)

وَرَسُولِهِ ﴾ فقَضَى بأنَّ المستأذنينَ هم المؤمنون بالله ورسولِه كما حكم في الأول بأنَّ الكاملينَ في الإيمان هم الجامعونَ بين الإيمانِ بهما وبين الاستئذانِ وفي أولئك من تفخيم شأنِ

المستأذنينَ ما لا يخفى ﴿ فَإِذَا استئذنوك ﴾ بيانٌ لما هو وظيفتُه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ في هذا البابِ إثرَ بيانِ ما هو وظيفةُ المؤمنينَ وأن الإذن عند الاستئذانِ ليس بأمرٍ محتومٍ بل هو مفوَّض إلى رأيِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ . والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها أي بعد ما تحقَّق أنَّ الكاملين في الإيمان هم المستأذنُون فإذا استأذنوك ﴿ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ ﴾ أي لبعضِ أمرِهم المهم وخَطبهم المُلِمِ ﴿ فَأْذَن لّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ ﴾ لما علمتَ في ذلك من حكمةٍ ومصلحةٍ ﴿ واستغفر لَهُمُ الله ﴾ فإنَّ الاستئذانَ وإنْ كان لعذرٍ قويَ لا يخلُو عن شائبةِ تقديمِ أمرِ الدُّنيا على أمرِ الآخرةِ ﴿ أَنَّ الله غَفُورٌ ﴾ مبالغ في مغفرةِ فرطاتِ العبادِ ﴿ رَّحِيمٌ ﴾ مبالغ في إفاضةِ آثار الرَّحمةِ عليهم . والجملةُ تعليلٌ للمغفرة الموعودةِ في ضمن الأمرِ بالاستغفار لهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 6 صـ ﴾

(23/555)

وقال الآلوسى :

ثم جعل تبارك وتعالى ختام الختم

قوله سبحانه : ﴿ إِنَّمَا المؤمنون الذين ءامَنُواْ بالله وَرَسُولِهِ ﴾ الخ

دلالة على أن ملاك ذلك كله والمنتفع بتلك الآيات جمع من سلم نفسه لصاحب الشريعة

لصلوات الله تعالى وسلامه عليه كالميت بين يدي الغاسل لا يحجم ولا يقدم دون إشارته صلى الله عليه وسلم ولهذه الدقيقة أورد هذه الآية شهاب الحق والدين أبو حفص عمر اليهروردي قدس سره في باب سير المريد مع الشيخ ونبه بذلك أن كل ما يرسمه من أمور الدين فهو أمر جامع .

(24/555)

وقال شيخ الإسلام : إن هذا استئناف جيء به في أواخر الأحكام السابقة تقريراً لها وتأكيداً لوجوب مراعاتها وتكميلاً لها ببيان بعض آخر من جنسها ، وإنما ذكر الإيمان بالله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم صلة للموصول الواقع خبراً للمبتدأ مع تضمنه له قطعاً تقريراً لما قبله وتمهيداً لما بعده وإيذاناً بأنه حقيق بأن يجعل قريناً للايمان المذكور منتظماً في سلكه فقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُ على أَمْرٍ جَامِعٍ ﴾ الخ معطوف على ﴿ ءامَنُواْ ﴾ داخل معه في حيز الصلة وبذلك يصح الحمل ، والحصل باعتبار الكمال أي إنما الكاملون في الايمان الذين آمنوا بالله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم عن صميم قلوبهم وأطاعوا في جميع الأحكام التي من جملتها ما فصل من قبل من الأحكام المتعلقة بعامة أحوالهم المطردة في الوقوع وأحوالهم الواقعة بحسب الاتفاق كما إذا كانوا معه عليه الصلاة والسلام على أمر

مهم يجب اجتماعهم في أنه كالجمعة والأعياد والحروب وغيرها من الأمور الداعية إلى الاجتماع لغرض من الأغراض ، وعن ابن زيد أن الأمر الجامع الجهاد ؛ وقال الضحاك : وابن سلام : هو كل صلاة فيها خطبة كالجمعة والعيدين والاستسقاء ، وعن ابن جبير هو الجهاد وصلاة الجمعة والعيدين ، ولا يخفى أن الأولى العموم وإن كانت الآية نازلة في حفر الخندق ولعل ما ذكر من باب التمثيل ، ووصف الأمر بالجمع مع أنه سبب له للمبالغة ، والظاهر أن ذلك من المجاز العقلي ، وجوز أن يكون هناك استعارة مكنية .

(25/555)

وقرأ اليماني ﴿ على أَمْرٍ جَمِيعٌ ﴾ وهو بمعنى جامع أو مجموع له على الحذف والإيصال ﴿ لَّمْ يَذْهَبُواْ ﴾ عنه صلى الله عليه وسلم ﴿ حتى يَسْتَذِنُوهُ ﴾ عليه الصلاة والسلام في الذهاب فيأذن لهم به فيذهبون فالغاية هي الإذن الحاصل بعد الاستئذان والاقتصار على الاستئذان لأنه الذي يتم من قبلهم وهو المعتبر في كمال الايمان لا الأذن ولا الذهاب المترتب عليه واعتباره في ذلك لما أنه كالمصداق لصحته والمميز للمخلص عن المنافق فإن ديدنه التسلل للفرار ، ولتعظيم ما في الذهاب بغير إذنه عليه الصلاة والسلام من الجناية وللتنبيه على ذلك عقب سبحانه بقوله عز وجل : ﴿ إِنَّ الذين يَسْتَذِنُونَكَ أُوْلَئِكَ الذين يُؤْمِنُونَ بالله

وَرَسُولِهِ ﴾ فقد جعل فيه المستأذنين هم المؤمنون عكس الأول دلالة على أنهما متعاكسان سواء بسواء ومنه يلزم أنه كالمصداق لصحة الأيمانين وكذلك من اسم الإشارة لدلالته على أن استئهال الايمانين لذلك ﴿ فَإِذَا ﴾ بيان لما هو وظيته صلى الله عليه وسلم في هذا الباب إثر بيان ما هو وظيفة المؤمنين ، والفار لترتيب ما بعدها على ما قبلها أي بعد ما تحقق أن الكاملين في الايمان هم المستأذنون فإذا استأذنوك لبَعْض شَأْنهمْ ﴾ أي لبعض أمرهم المهم وخطبهم المسلم ﴿ ﴾ أي لبعض أمرهم المهم وخطبهم المسلم ﴿ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ ﴾ تفويض للأمر إلى رأيه صلى الله عليه وسلم ؛ واستدل به على أن بعض الأحكام مفوضة إلى رأيه صلى الله عليه وسلم ، وهذه مسألة التفويض المختلف في جوازها بين الأصوليين وهي أن يفوض الحكم إلى المجتهد فيقال له : احكم بما شئت فإنه صواب فأجاز ذلك قوم لكن اختلفوا فقال موسى بن عمران : بجواز ذلك مطلقاً للنبي وغيره من العلماء ، وقال أبو علي الجبائي : بجواز ذلك للنبي خصة في أحد قوليه ، وقد نقل عن الإمام الشافعي عليه الرحمة في الرسالة ما يدل على التردد بين الجواز والمنع ومنع من ذلك

(26/555)

الباقون .

والمجوزون اختلفوا في الوقوع ، قال الآمدي : والمختار الجواز دون الوقوع ، وقد أطال الكلام في هذا المقام فليراجع .

والذي أميل إليه جواز أن يفوض الحكم إلى المجتهد إذا علم أنه يحكم ترويا ًلا تشيهاً ويكون التفويض حينئذ كالأمر بالاجتهاد ، والأليق بشأن الله تعالى وشأن رسوله صلى الله عليه وسلم أن ينزل ما هنا على ذلك وتكون المشيئة مقيدة بالعلم بالمصلحة .

وذكر بعض الفضلاء أنه لا خلاف في جواز أن يقال : احكم بما شئت ترويا ًبل الخلاف في جواز أن يقال : احكم بما شئت تشهيا ًكيفما اتفق ، وأنت تعلم أنه بعد التقييد لا يكون ما نحن فيه من محل النزاع ، ومن الغريب ما قيل : إن المراد ممن شئت منهم عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه ولا يخفى ما فيه ﴿ واستغفر لَهُمُ الله ﴾ فإن الاستئذان وإن كان لعذر قوي لا يخلو عن شائبة تقديم أمر الدنيا على أمر الآخرة .

وتقديم ﴿ لَهُمْ ﴾ للمبادرة إلى أن الاستغفار للمستأذنين لا للإذن .

﴿ أَنَّ الله غَفُورٌ ﴾ مبالغ في مغفرة فرطات العباد ﴿ رَّحِيمٌ ﴾ مبالغ في إفاضة شآبيب الرحمة عليهم ، والجملة تعليل للمغفرة الموعودة في ضمن الاستغفار لهم ، وقد بالغ جل شأنه في الاحتفال برسوله صلوات الله تعالى وسلامه عليه فجعل سبحانه الاستئذان للذهاب عنه ذنباً محتاجاً للاستغفار فضلاً عن الذهاب بدون إذن ورتب الإذن على الاستئذان

لبعض شأنهم لا على الاستئذان مطلقاً ولا على الاستئذان لأي أمر مهما كان أو غير مهم ومع ذلك علق الإذن بالمشيئة ، وإذا اعتبرت وجوه المبالغة في قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا المؤمنون ﴾ إلى هنا وجدتها تزيد على العشرة .

(27/555)

وفي أحكام القرآن للجلال السيوطي أن في الآية دليلاً على وجوب استئذانه صلى الله عليه وسلم قبل الانصراف عنه عليه الصلاة والسلام في كل أمر يجتمعون عليه ، قال الحسن : وغير الرسول صلى الله عليه وسلم من الأئمة مثله في ذلك لما فيه من أدب الدين وأدب النفس ، وقال ابن الفرس : لا خلاف في الغزو أنه يستأذن إمامه إذا كان له عذر يدعوه إلى الانصراف واختلف في صلاة الجمعة إذا كان له عذر كالرعاف وغيره فقيل يلزمه الاستئذان سواء كان أمامه الأمير أم غيره أخذاً من الآية وروى ذلك عن مكحول . والزهري . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 18 صـ ﴾

(28/555)

وقال القاسمي :

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ ﴾ .

قال الزمخشري : أراد عزَّ وجلَّ أن يريهم عظم الجناية ذهاب الذاهب من مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم بغير إذنه . فجعل ترك ذهابهم حتى يستأذنوه ، ثالث الإيمان بالله والإيمان برسوله . وجعلهما كالتشبيب له والبساط لذكره . وذلك مع تصدير الجملة بإنما وإيقاع المؤمنين مبتدأ مخبراً عنه بموصول ، أحاطت صلته بذكر الإيمانيْن . ثم عقبه بما يزيده توكيداً وتشديداً ، حيث أعاده على أسلوب آخر ، وهو قوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ وضمنه شيئاً آخر . وهو أنه جعل الاستئذان كالمصداق لصحة الإيمانَيْنِ ، وعرّض بحال المؤمنين وتسلّلهم لواذاً . ومعنى قوله : ﴿ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ ﴾ لم يذهبوا حتى يستأذنوه ويأذن لهم ، ألا تراه كيف علق الأمر بعد وجود استئذانهم بمشيئته وإذنه لمن استوصوبأن يأذن له .

(29/555)

والأمر الجامع : الذي يجمع له الناس . فوصف الأمر بالجمع على سبيل المجاز . وذلك نحو مقاتلة عدوّ ، أو تشاور في خطب مهم ، أو تضامّ لإرهاب مخالف ، أو تسامح في حلف وغير ذلك . أو الأمر الذي يعم بضرره أو بنفعه وقرئ : أمر جميع . وفي قوله : ﴿ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ ﴾ أنه خطب جلل ، لا بد لرسول الله صلى الله عليه وسلم فيه من ذوي رأي وقوة ، يظاهرونه عليه ويعاونونه ، ويستضيء بآرائهم ومعارفهم وتجاربهم ، في كفايته . فمفارقة أحدهم في مثل تلك الحال ، مما يشق على قلبه ، ويشعّث عليه رأيه فمن ثم غلّظ عليهم وضيق عليهم الأمر في الاستئذان ، مع العذر المبسوط ، ومساس الحاجة إليه ، واعتراض ما يهمهم ويعنيهم ، وذلك قوله : ﴿ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ ﴾ وذكرُ الاستغفار للمستأذنين ، دليل على أن الأحسن الأفضل أن لا يحدّثوا أنفسهم بالذهاب ، ولا يستأذنوا فيه .

وقيل : نزلت في حفر الخندق . وكان قوم يتسللون بغير إذن . وقالوا : كذلك ينبغي أن يكون الناس مع أئمتهم ومقدمهم في الدين والعلم ، يظاهرونهم ولا يخذلونهم في نازلة من النوازل ، ولا يتفرقون عنهم ، والأمر في الإذن مفوض إلى الإمام . إن شاء أذن وإن شاء لم يأذن . على حسب ما اقتضاه رأيه .

تنبيه :

استدل بالآية على أن بعض الأحكام مفوّضة إلى رأيه صلى الله عليه وسلم . وتسمى هذه

المسألة مسألة التفويض . وهي مبسوطة في الأصول . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 12 صـ 427. 428 ﴾

(30/555)

وقال ابن عاشور :

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾

لما جرى الكلام السابق في شأن الاستئذان للدخول عُقب ذلك بحكم الاستئذان للخروج ومفارقة المجامع فاعتُني من ذلك بالواجب منه وهو استئذان الرسول صلى الله عليه وسلم في مفارقة مجلسه أو مفارقة جمعٍ جُمِع عن إذنه لأمر مهم كالشورى والقتال والاجتماع للوعظ ونحو ذلك .

وكان من أعمال المنافقين أن يحضروا هذه المجامع ثم يتسللوا منها تفادياً من عمل يشق أو سآمةً من سماع كلام لا يهتبلون به ، فنعى الله عليهم فعلهم هذا وأعلم بمنافاته للإيمان وأنه شعار النفاق ، بأن أعرض عن وصف نفاق المنافقين واعتنى باتصاف المؤمنين الأحقاء بضد صفة المنافقين قال تعالى : ﴿ وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض هل يراكم من أحد ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون ﴾ [التوبة : 127] ولذلك جاء

في أواخر هذه الآيات قوله : ﴿ قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لِوَاذاً ﴾ [النور : 63] .

فالقصر المستفاد من (إنما) قصر موصوف على صفة .

والتعريف في ﴿ المؤمنون ﴾ تعريف الجنس أو العهد ، أي أن جنس المؤمنين أو أن الذين عُرفوا بوصف الإيمان هم الذين آمنوا بالله ورسوله ولم ينصرفوا حتى يستأذنوه .

فالخبر هو مجموع الأمور الثلاثة وهو قصر إضافي قصر إفراد ، أي لا غيرُ أصحاب هذه الصفة من الذين أظهروا الإيمان ولا يستأذنون الرسول عند إرادة الانصراف ، فجعل هذا الوصف علامة مميزة للمؤمنين الأحقاء عن المنافقين يومئذٍ إذ لم يكن في المؤمنين الأحقاء يومئذٍ من ينصرف عن مجلس النبي صلى الله عليه وسلم بدون إذنه ، فالمقصود : إظهار علامة المؤمنين وتمييزهم عن علامة المنافقين .

(31/555)

فليس سياق الآية لبيان حقيقة الإيمان لأن للإيمان حقيقة معلومة ليس استئذان النبي صلى الله عليه وسلم عند إرادة الذهاب من أركانها ، فعلمت أن ليس المقصود من هذا الحصر سلب الإيمان عن الذي ينصرف دون إذن من المؤمنين الأحقاء لو وقع منه ذلك عن غير قصد الخذل للنبيء صلى الله عليه وسلم أو أذاه ، إذ لا يعدو ذلك لو فعله أحد المؤمنين عن

أن يكون تقصيراً في الأدب يستحق التأديب والتنبيه على تجنب ذلك لأنه خصلة من النفاق كما ورد التحذير من خصال النفاق في أحاديث كثيرة .

وعلمتَ أيضاً أن ليس المقصود من التعريف في ﴿ المؤمنون ﴾ معنى الكمال لأنه لو كان كذلك لم يحصل قصد التشهير بنفاق المنافقين .

والأمر : الشأن والحال المهم .

وتقدم في قوله : ﴿ وأولي الأمر منكم ﴾ في سورة النساء (59) .

والجامع : الذي من شأنه أن يجتمع الناس لأجله للتشاور أو التعلم .

والمراد : ما يجتمع المسلمون لأجله حول الرسول عليه الصلاة والسلام في مجلسه أو في صلاة الجماعة .

وهذا ما يقتضيه (مع) و (على) من قوله : ﴿ معه على أمر جامع ﴾ لإفادة (مع) معنى المشاركة وإفادة (على) معنى التمكن منه .

ووصف الأمر بـ ﴿ جامع ﴾ على سبيل المجاز العقلي لأنه سبب الجمع .

وتقدم في قوله تعالى : ﴿ فأجمعوا أمركم ﴾ في سورة يونس (71) .

وعن مالك : أن هذه الآية نزلت في المنافقين يوم الخندق (وذلك سنة خمس) كان المنافقون يتسللون من جيش الخندق ويعتذرون بأعذار كاذبة .

وجملة : ﴿ إن الذين يستأذنونك ﴾ إلى آخرها تأكيد لجملة : ﴿ إنما المؤمنون ﴾ لأن

مضمون معنى هذه الجملة هو مضمون معنى جملة : ﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ﴾ الآية .

(32/555)

وقد تفنن في نظم الجملة الثانية بتغيير أسلوب الجملة الأولى فجعل مضمون المسند في الأولى مسنداً إليه في الثانية والمسند إليه في الأولى مسنداً في الثانية ومآل الأسلوبين واحد لأن المآل الإخبار بأن هذا هو ذاك على حدِّ : وشعري شعري ، تنويهاً بشأن الاستئذان ، وليبنى عليها تفريع ﴿ فإذا استئذنوك لبعض شأنهم ﴾ ليُعلِّم المؤمنين الأعذار الموجبة للاستئذان ، أي ليس لهم أن يستأذنوا في الذهاب إلا لشأن مهم من شؤونهم .

ووقع الالتفات من الغيبة إلى الخطاب في قوله : ﴿ يستأذنوك ﴾ تشريفاً للرسول صلى الله عليه وسلم بهذا الخطاب .

وقد خير الله رسوله في الإذن لمن استأذنه من المؤمنين لأنه أعلم بالشأن الذي قضاؤه أرجح من حضور الأمر الجامع لأن مشيئة النبي لا تكون عن هوى ولكن لعذر ومصلحة .

وقوله : ﴿ واستغفر لهم الله ﴾ مؤذن بأن ذلك الانصراف خلاف ما ينبغي لأنه لترجيح حاجته على الإعانة على حاجة الأمة .

وهذه الآية أصل من نظام الجماعات في مصالح الأمة لأن من السنة أن يكون لكل اجتماع إمام ورئيس يدير أمر ذلك الاجتماع.

وقد أشارت مشروعية الإمامة إلى ذلك النظام.

ومن السنة أن لا يجتمع جماعة إلا أمّروا عليهم أميراً فالذي يترأس الجمع هو قائم مقام ولي أمر المسلمين فهو في مقام النبي صلى الله عليه وسلم فلا ينصرف أحد عن اجتماعه إلا بعد أن يستأذنه، لأنه لو جعل أمر الانسلال لشهوة الحاضر لكان ذريعة لانفضاض الاجتماعات دون حصول الفائدة التي جُمعت لأجلها، وكذلك الأدب أيضاً في التخلف عن الاجتماع عند الدعوة إليه كاجتماع المجالس النيابية والقضائية والدينية أو التخلف عن ميقات الاجتماع المتفق عليه إلا لعذر واستئذان. انتهى انتهى. ا هـ ﴿التحرير والتنوير حـ 18 صـ ﴾

(33/555)

وقال الشيخ الشعراوى:

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾

المؤمن: مَنْ آمن بإله وآمن بالرسول المبلّغ عن الإله، وما دُمْتَ قد آمنتَ بالرسول المبلِّغ عن

الله فلا بُدَّ أن تكون حركتك خاضعةً لأوامره ، ويجب أن تكون ذاتك له ، فإذا رأى الرسول أمراً جامعاً يجمع المسلمين في خَطْب أو حدث أو حرب ، ثم يدعوكم إلى التشاور ليُدلي كل منكم برأيه وتجربته ، ويُوسّع مساحة الشورى في المجتمع ليأتي الحكم صحيحاً سليماً موافقاً للمصلحة العامة .

فالمؤمن الحق إذا دُعي إلى مثل هذا الأمر الجامع ، لا يقوم من مجلسه حتى يستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وليس إلزاماً أنْ يأذن له رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأن أمر المسلمين الجامع لهم قد يكون أهمّ من الأمر الذي يشغلك ، وتريد أن تقوم من أجله ، وتترك مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين يَسْتَأْذِنُونَكَ أولئك الذين يُؤْمِنُونَ بالله وَرَسُولِهِ ﴾ [النور : 62] فالاستئذان هنا من علامات الإيمان ، لا يقوم خِلْسة (وينسلت) من المجلس ، لا يشعر به أحد ، لا بُدَّ من أن يستأذن رسول الله حتى لا يُفوت مصلحة على المؤمنين ، ولربما كان له رَأْيٌ ينتفع به .

والرسول إما يستشير أصحابه ليستنير برأيهم وتجاربهم ، فحين يدعوهم إلى أمر جامع يجب أن يُفهم هذا الأمر على نطاق منزلة الرسول من بلاغة عن الله للأمة ، فإذا دعا نفر نفراً للتشاور ، فإنما يتشاوران في أمر شخصي يخصُّ صاحبه ، لكن حين يدعوهم رسول الله لا يدعو لخصوصية واحدة ، وإنما لخصوصية أمة ، شاء الله أن تكون خير أمة أُخْرِجَتْ

للناس ، وسوف يستفيد الفرد أيضاً من هذه الدعوة ، وربما كانت استفادته من الاستجابة للدعوة العامة التي تنتظم كل الناس خَيْراً من استفادته من دعوته الخاصة ، فيجب أنْ يُقدّرِ المدعو هذا الفارق .

(34/555)

ومع وجود هذا الفارق لم يَحرِمِ اللهُ بعضَ الناس الذين لهم مشاغل أنْ يستأذنوا فيها رسول الله وينصرفوا ؛ لذا شرع لهم الاستئذان ، لكن يجب أنْ يضعوا هذا الفارق في بالهم ، وأنْ يذكروا أنهم انصرفوا لبعض شأنهم ، والرسول قائم في أمر لشئون الدنيا كلها إلى أنْ تقوم الساعة .

فكأنه إنْ شارك في هذا الاجتماع فسيستفيد كفرد ، وستستفيد أمته : المعاصرون منهم والآتُون إلى أنْ تقومَ الساعة ، فإنْ فضّل شأنه الخاص على هذه الشئون فقد أساء ، وفعل مَا لا يليق بمؤمن ؛ لذلك أُمر رسول الله أنْ يأذنَ لمنْ يشاء ، ثم يستغفر له اللهَ .

يقول سبحانه : ﴿ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ ﴾ [النور : 62]

فالأمر متروك لرسول الله يُقدّره حَسْب مصلحة المسلمين العامة ، فَلَهُ أن يأذنَ أو لا يأذنَ .

إذن : لا بُدَّ من استئذان رسول الله صلى الله عليه وسلم فيأذن لمَنْ يشاء منهم ممَّنْ يرى أن

في الباقين عِوَضاً عنه وعن رأيه ، فإنِ استأذن صاحب رأي يستفيد منه المسلمون لم يأذن له .

ثم يقول سبحانه : ﴿ واستغفر لَهُمُ الله ﴾ [النور : 62] ، وكأن مسألة الاستئذان والقيام من مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر لا يريده الله تعالى .

حتى إن استأذنتَ لأمر يهمك ، وحتى إنْ أَذِن لك رسول الله ، فالأفضل ألاَّ تستأذن ؛ لأن الرسول صلى الله عليه وسلم حين يدعو لأمر جامع يُهِمّ جماعة المسلمين ، يجب ألاَّ ينشغل أحد عَمَّا دُعِي إليه ، وألاَّ يُقدِّم على مصلحة المسلمين ومجلس رسول الله شيئاً آخر ، ففي الأمر الجامع ينبغي أنْ يُكتّل الجميع مواهبهم وخواطرهم في الموضوع ، وساعة تستأذن لأمر يخصُّك فأنت منشغل عن الجماعة شارد عنهم .

فحين تنشغل بأمرك الخاص عن أمر المسلمين العام ، فهذه مسألة تحتاج إلى استغفار لك من رسول الله ، فالرسول يأذن لك ، ثم يستغفر لك الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(35/555)

فائدة

قال الشيخ الشنقيطي :

قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ ﴾ .

هذه الآية الكريمة تدل على أنه –صلى الله عليه وسلم– له الإذن لمن شاء وقوله تعالى: ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ ﴾ الآية يوهم خلاف ذلك .

والجواب الظاهر وهو أنه –صلى الله عليه وسلم– له الإذن لمن شاء من أصحابه الذين كانوا معه على أمر جامع كصلاة جمعة أو عيد أو جماعة أو اجتماع في مشورة ونحو ذلك كما بينه تعالى بقوله: ﴿ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ ﴾ .

وأما الإذن في خصوص التخلف عن الجهاد فهو الذي بَيَّن اللهُ لرسوله أن الأَوْلى فيه ألا يبادر بالإذن حتى يتبين له الصادق في عذره من الكاذب وذلك في قوله تعالى: ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴾ .

فظهر أن لا منافاة بين الآيات والعلم عند الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ دفع إيهام الاضطراب صـ 220. 221 ﴾

(36/555)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله : ﴿ على أَمْرٍ جَامِعٍ ﴾ :

" جامع " مِن الإِسنادِ المجازيّ ؛ لأَنَّه لَمَّا كان سبباً في جَمْعِهم نُسِبَ الفعلُ إليه مجازاً . وقرأ اليمانيُّ " على أَمْرٍ جميعٍ " فيُحتمل أَنْ تكونَ صيغةَ مبالغةٍ بمعنى مُجَمِّع ، وأَنْ لا تكونَ . والجملةُ الشرطيةُ مِنْ قولِه : ﴿ وَإِذَا كَانُواْ ﴾ وجوابِها عطفٌ على الصلةِ مِنْ قوله : " آمَنوا " .

قوله : ﴿ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ ﴾ تعليلٌ أي : لأجلِ بعضِ حاجتِهم . وأظهر العامَّةُ الضادَ عند الشينِ ، وأدغَمها أبو عمرٍو فيها لِما بينهما من التقارُبِ ؛ لأنَّ الضادَ من أقصى حافةِ اللسانِ ، والشينَ مِنْ وسَطِه . وقد اسْتَضْعَفَ جماعةٌ من النَّحَويين هذه الروايةَ واسْتَبْعدوها عن أبي عمرٍو رأسِ الصناعةِ من حيث إن الضادَ أقوى من الشين ، ولا يُدْغم الأقوى في الأضعف . وأساء الزمخشري على راويها السوسي .

وقد أجاب الناس فقال : " وجهُ الإِدغامِ أن الشينَ أشدُّ استطالةً من الضادِ ، وفيها نَفَسٌ ليس في الضادِ ، فقد صارَتِ الضادُ أنقصَ منها ، وإدغامُ الأنقصِ في الأَزْيد جائزٌ " . قال : " ويؤيِّد هذا أن سيبويه حكى عن بعضِ العرب " اطَّجَعَ " في " اضْطجع " ، وإذا جاز

إدغامُها في الطاءِ فإدغامُها في الشين أَوْلى " . والخَصْمُ لا يُسَلِّمُ جميعَ ما ذُكِرَ ، وسَنَدُ المَنْعِ واضحٌ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 445.446 ﴾

(37/555)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾

شرطُ الاتباع موافقةُ المتبوعِ ، وألا يتفرقوا فيصيروا أحزاباً كما قال : ﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ﴾ [الحشر : 14] و " العلماءُ وَرَثَةُ الأنبياءِ " . والمريدون لشيوخهم كالأُمَّةِ لنبيّهم ؛ فَشَرْطُ المريدِ ألا يَتَنَفَّسَ بنَفَسٍ إلا بإذن شيخه ، ومَنْ خَالَفَ شيخَه في نَفَسٍ - سِرّاً أو جَهْراً - فإنه يرى غِبَّه سريعاً في غير ما يُحبُّه . ومخالفةُ الشيوخ فيما يستسرونه عنهم أشدُّ مِمَّا يظهر بالجهر بكثير لأن هذا يلتحق بالخيانة . ومَنْ خَالَفَ شيخَه لا يُشمُّ رائحةَ الصِّدقِ ، فإن بَدَرَ منه شيءٌ من ذلك فعليه بسرعة الاعتذار والإفصاح عمَّا حَصَلَ منه من المخالفة والخيانة ، لِيَهْدِيَه شيخُه كفَّارةُ جُرْمِهِ ، ويلتزم في الغرامة بما يحكم به عليه .

وإذا رجع المريدُ إلى شيخه إلى ما فيه بالصدق وَجَبَ على شيخه جبرانَ تقصيره بهمته ؛

فإن المريدين عِيالٌ على الشيوخ؛ فرُضَ عليهم أن يُنْفِقُوا عليهم من قُوَّةِ أحوالهم بما يكون جبراناً لتقصيرهم. انتهى انتهى. اهـ ﴿لطائف الإشارات حـ 2 صـ 624﴾

(38/555)

قوله تعالى ﴿ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (63) أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (64) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي:

ولما أظهرت هذه السورة بعمومها، وهذه الآيات بخصوصها، من شرف الرسول ما بهر العقول، لأجل ما وقع للمنافق من التجرؤ على ذلك الجناب الأشم، والمنصب الأتم، وعلم منه أن له ـ صلى الله عليه وسلم ـ في كل أمره وجميع شأنه خصوصية ليست لغيره، صرح بذلك تفخيماً للشأن، وتعظيماً للمقام، ليتأدب من ناضل عن المنافق، أو توانى في أمره فقصر عن مدى أهل السوابق، فقال منبهاً على أن المصائب سبب لإظهار المناقب أو

إشهار المعايب ﴿ لا تجعلوا ﴾ أي ايها الذين آمنوا ﴿ دعاء الرسول ﴾ أي لكم الذي يوقعه ﴿ بينكم ﴾ ولو على سبيل العموم ، في وجوب الامتثال ﴿ كدعاء بعضكم بعضاً ﴾ فإن أمره عظيم ، ومخالفته استحلالاً كفر ، ولا تجعلوا أيضاً دعاءكم إياه كدعاء بعضكم لبعض بمجرد الاسم ، بل تأدبوا معه بالتفخيم والتبجيل والتعظيم كما سن الله بنحو : يا ايها النبي ، ويا أيها الرسول ، مع إظهار الأدب في هيئة القول الفعل بخفض الصوت والتواضع .

(39/555)

ولما كان بعضهم يظهر المؤالفة ، ويبطن المخالفة ، حذر من ذلك بشمول علمه وتمام قدرته ، فقال معللاً مؤكداً محققاً معلماً بتجديد تعليق العلم الشهودي كلما جدد أحد خيانة لدوام اتصافه بإحاطة العلم من غير نظر إلى زمان : ﴿ قد يعلم الله ﴾ أي الحائز لجميع صفات المجد إن ظننتم أن ما تفعلونه من التستر يخفي أمركم على رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فهو سبحانه يعلم ﴿ الذين يتسللون ﴾ وعين أهل التوبيخ بقوله : ﴿ منكم ﴾ أي يتكلفون سلَّ أنفسهم ليجعلوا ذهابهم في غاية الخفاء ﴿ لواذاً ﴾ أي تسللاً مستخفين به بتستر بعضهم فيه ببعض ؛ يقال : لاذ بالشيء لوذاً ولواذاً وملاوذة : استتر وتحصن ، فهو مصدر لتسلل من غير لفظه ، ولعله أدخل " قد " على المضارع ليزيد أهل التحقيق تحقيقاً ، ويفتح

لأهل الريب إلى الاحتمال طريقاً ، فإنه يكفي في الخوف من النكال طروق الاحتمال ؛ وسبب عن علمه قوله : ﴿ فليحذر ﴾ أي يوقع الحذر ﴿ الذين يخالفون ﴾ أي يوقعون مخالفته بالذهاب مجاوزين معرضين ﴿ عن أمره ﴾ أي أمر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، إلى خلافه ﴿ أن تصيبهم فتنة ﴾ أي شيء يخالطهم في الدنيا فيحل أمورهم إلى غير الحالة المحبوبة التي كانوا عليها ﴿ أو يصيبهم عذاب أليم ﴾ في الآخرة ، وهذا يدل على أن الأمر للوجوب حتى يصرف عنه صارف ، لترتيب العقاب على الإخلال به ، لأن التحذير من العقاب إنما يكون بعد قيام المقتضي لنزول العذاب .

(40/555)

ولما أقام سبحانه الأدلة على أنه نور السماوات والأرض بأنه لا قيام لشيء إلا به سبحانه ، وختم بالتحذير لكل مخالف ، أنتج ذلك أن له كل شيء فقال : ﴿ ألا إن لله ﴾ اي الذي له جميع المجد جميع ﴿ ما في السماوات ﴾ ولثبوت أنه سبحانه محيط العلم والقدرة ، لم يقتض المقام التأكيد بإعادة الموصول فقال : ﴿ والأرض ﴾ أي من جوهر وعرض ، وهما له أيضاً لأن الأرض في السماء ، وكل سماء في التي فوقها حتى ينتهي ذلك إلى العرش الذي صرح في غير آية أنه صاحبه ، وهو سماء أيضاً لعلوه عما دونه ، فكل ما فيه له ، وذلك أبلغ – لدلالته

بطريق المجاز -مما لو صرح به ، فدل ذلك - بعد الدلالة على وجوده - على وحدانيته ، وكمال علمه وقدرته .

(41/555)

ولما كانت أحوالهم من جملة ما له ، كان من المعلوم أنها لم تقم في أصلها ولا بقاء لها إلا بعلمه ولأنها بخلقه ، فلذلك قال محققاً مؤكداً مرهباً : ﴿ قد يعلم ما أنتم ﴾ أيها الناس كلكم ﴿ عليه ﴾ أي الآن ، والمراد بالمضارع هنا وجود الوصف من غير نظر إلى زمان ، ولو عبر بالماضي لتوهم الاختصاص به ، والكلام في إدخال " قد " عليه كما مضى آنفاً باعتبار أولي النفوذ في البصر ، وأهل الكلال والكدر ﴿ ويوم ﴾ أي ويعلم ما هم عليه يوم ﴿ يرجعون ﴾ أي بقهر قاهر لهم على ذلك ، لا يقدرون له على دفاع ، ولا نوع امتناع ﴿ إليه ﴾ وكان الأصل : ما أنتم عليه ، ولكنه أعرض عنهم تهويلاً للأمر ، أو يكون ذلك خاصاً بالمتولين المعرضين إشارة إلى أنهم يناقشون الحساب ، ويكون سر الالتفاف التنبيه على الإعراض عن المكذب بالقيامة ، والإقبال على المصدق ، صوناً لنفيس الكلام ، عن الجفاة الأغبياء اللئام ﴿ فينبئهم ﴾ أي فيتسبب عن ذلك أنه يخبرهم تخبيراً عظيماً ﴿ بما عملوا ﴾ فليعدوا لكل شيء منه جواباً ﴿ والله ﴾ أي الذي له الإحاطة الكاملة ﴿ بكل شيء ﴾

من ذلك وغيره ﴿ عليم ﴾ فلذلك أنزل الآيات البينات ، وكان نور الأرض والسماوات ، فقد رد الختام على المبدأ ، والتحم الآخر بالأول والأثنا – والله الهادي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 289 . 290 ﴾

(42/555)

فصل

قال الفخر :

أما قوله تعالى : ﴿ لاَّ تَجْعَلُواْ دُعَاء الرسول بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً ﴾ ففيه وجوه :

أحدها : وهو اختيار المبرد والقفال ، ولا تجعلوا أمره إياكم ودعاءه لكم كما يكون من بعضكم لبعض إذ كان أمره فرضاً لازماً ، والذي يدل على هذا قوله عقيب هذا ﴿ فَلْيَحْذَرِ الذين يخالفون عَنْ أَمْرِهِ ﴾ وثانيها : لا تنادوه كما ينادي بعضكم بعضاً يا محمد ، ولكن قولوا يا رسول الله يا نبي الله ، عن سعيد بن جبير وثالثها : لا ترفعوا أصواتكم في دعائه وهو المراد من قوله : ﴿ إِنَّ الذين يَغُضُّونَ أصواتهم عِندَ رَسُولِ الله ﴾ [الحجرات : 3] عن ابن عباس ورابعها : احذروا دعاء الرسول عليكم إذا أسخطتموه فإن دعاءه موجب ليس كدعاء غيره ، والوجه الأول أقرب إلى نظم الآية .

أما قوله تعالى : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللهُ الذين يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذاً ﴾ فالمعنى يتسللون قليلاً قليلاً ، ونظير تسلل تدرج وتدخل ، واللواذ : الملاوذة وهي أن يلوذ هذا بذاك وذاك بهذا ، يعني يتسللون عن الجماعة (على سبيل الخفية) واستتار بعضهم ببعض ، و (لواذاً) حال أي ملاوذين وقيل كان بعضهم يلوذ بالرجل إذا استأذن فيؤذن له فينطلق الذي لم يؤذن له معه ، وقرىء ﴿ لِوَاذاً ﴾ بالفتح ثم اختلفوا على وجوه : أحدها : قال مقاتل : كان المنافقون تثقل عليهم خطبة النبي صلى الله عليه وسلم يوم الجمعة فيلوذون ببعض أصحابه ويخرجون من غير استئذان وثانيها : قال مجاهد يتسللون من الصف في القتال وثالثها : قال ابن قتيبة هذا كان في حفر الخندق ورابعها : يتسللون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن كتابه وعن ذكره ، وقوله : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللهُ ﴾ معناه التهديد بالمجازاة .

أما قوله : ﴿ فَلْيَحْذَرِ الذين يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ ﴾ ففيه مسائل :

المسألة الأولى :

(43/555)

قال الأخفش (عن) صلة والمعنى يخالفون أمره وقال غيره معناه يعرضون عن أمره ويميلون عن سنته فدخلت (عن) لتضمين المخالفة معنى الإعراض .

المسألة الثانية :

كما تقدم ذكر الرسول فقد تقدم ذكر الله تعالى لكن القصد هو الرسول فإليه ترجع الكناية ، وقال أبو بكر الرازي : الأظهر أنها لله تعالى لأنه يليه ، وحكم الكناية رجوعها إلى ما يليها دون ما تقدمها .

المسألة الثالثة :

(44/555)

الآية تدل على أن ظاهر الأمر للوجوب ، ووجه الاستدلال به أن نقول : تارك المأمور به مخالف لذلك الأمر ومخالف الأمر مستحق للعقاب فتارك المأمور به مستحق للعقاب ولا معنى للوجوب إلا ذلك ، إنما قلنا إن تارك المأمور به مخالف لذلك الأمر ، لأن موافقة الأمر عبارة عن الإتيان بمقتضاه ، والمخالفة ضد الموافقة فكانت مخالفة الأمر عبارة عن الإخلال بمقتضاه فثبت أن تارك المأمور به مخالف ، وإنما قلنا إن مخالف الأمر مستحق للعقاب لقوله تعالى : ﴿ فَلْيَحْذَرِ الذين يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ فأمر مخالف هذا الأمر بالحذر عن العقاب ، والأمر بالحذر عن العقاب إنما يكون بعد قيام المقتضى لنزول العقاب ، فثبت أن مخالف أمر الله تعالى أو أمر رسوله قد وجد في حقه ما

يقتضي نزول العذاب ، فإن قيل لا نسلم أن تارك المأمور به مخالف للأمر قوله موافقة الأمر عبارة عن الإتيان بمقتضاه ومخالفته عبارة عن الإخلال بمقتضاه ، قلنا لا نسلم أن موافقة الأمر عبارة عن الإتيان بمقتضاه ، فما الدليل عليه ؟ ثم إنا نفسر موافقة الأمر بتفسيرين أحدهما : أن موافقة الأمر عبارة عن الإتيان بما يقتضيه الأمر على الوجه الذي يقتضيه الأمر فإن الأمر لو اقتضاه على سبيل الندب ، وأنت تأتي به على سبيل الوجوب كان ذلك مخالفة للأمر الثاني : أن موافقة الأمر عبارة عن الاعتراف بكون ذلك الأمر حقاً واجب القبول فمخالفته تكون عبارة عن إنكار كونه حقاً واجب القبول ، سلمنا أن ما ذكرته يدل على أن مخالفة الأمر عبارة عن ترك مقتضاه لكنه معارض بوجوه أخر ، وهو أنه لو كان ترك المأمور به مخالفة للأمر لكان ترك المندوب لا محالة مخالفة لأمر الله تعالى ، وذلك باطل وإلا لاستحق العقاب على ما بينتموه في المقدمة الثانية ، سلمنا أن تارك المأمور به مخالف للأمر فلم قلت إن مخالف الأمر مستحق للعقاب لقوله تعالى : ﴿ فَلْيَحْذَرِ

(45/555)

الذين يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ ﴾ ؟ قلنا لا نسلم أن هذه الآية دالة على أمر من يكون مخالفاً للأمر بالحذر بل هي دالة على الأمر بالحذر عن مخالفة الأمر ، فلم لا يجوز أن يكون كذلك ؟

سلمنا ذلك لكنها دالة على أن المخالف عن الأمر يلزمه الحذر ، فلم قلت إن مخالف الأمر لا يلزمه الحذر ؟ فإن قلت لفظة (عن) صلة زائدة فنقول الأصل في الكلام لا سيما في كلام الله تعالى أن لا يكون زائداً ، سلمنا دلالة الآية على أن مخالف أمر الله تعالى مأمور بالحذر عن العذاب ، فلم قلت إنه يجب عليه الحذر عن العذاب ؟ أقصى ما في الباب أنه ورد الأمر به لكن لم قلت إن الأمر للوجوب ؟ وهذا أول المسألة ، فإن قلت هب أنه لا يدل على وجوب الحذر لكن لا بد وأن يدل على حسن الحذر ، وحسن الحذر إنما يكون بعد قيام المقتضي لنزول العذاب قلت : لا نسلم أن حسن الحذر مشروط بقيام المقتضي لنزول العذاب بل الحذر يحسن عند احتمال نزول العذاب ولهذا يحسن الاحتياط وعندنا مجرد الاحتمال قائم لأن هذه المسألة احتمالية لا قطعية ، سلمنا دلالة الآية على وجود ما يقتضي نزول العقاب ، لكن لا في كل أمر بل في أمر واحد لأن قوله ﴿ عَنْ أَمْرِهِ ﴾ لا يفيد إلا أمراً واحداً ، وعندما أن أمراً واحداً يفيد الوجوب ، فلم قلت إن كل أمر كذلك ؟ سلمنا أن كل أمر كذلك ، لكن الضمير في قوله : ﴿ عَنْ أَمْرِهِ ﴾ يحتمل عوده إلى الله تعالى وعوده إلى الرسول ، والآية لا تدل إلا على أن الأمر للوجوب في حق أحدهما ، فلم قلتم إنه في حق الآخر كذلك ؟ الجواب : قوله لم قلتم إن موافقة الأمر عبارة عن الإتيان بمقتضاه ؟ قلنا الدليل عليه أن العبد إذا امتثل أمر السيد حسن أن يقال إن هذا العبد موافق للسيد ويجري على وفق أمره ، ولو لم يمتثل أمره يقال إنه ما وافقه بل خالفه ، وحسن هذا الإطلاق معلوم

بالضرورة من أهل اللغة فثبت أن موافقة الأمر عبارة عن الإتيان بمقتضاه ، قوله الموافقة عبارة عن الإتيان بما

(46/555)

يقتضيه الأمر على الوجه الذي يقتضيه الأمر ، قلنا لما سلمتم أن موافقة الأمر لا تحصل إلا عند الإتيان بمقتضى الأمر ، فنقول لا شك أن مقتضى الأمر هو الفعل لأن قوله : افعل لا يدل إلا على اقتضاء الفعل ، وإذا لم يوجد الفعل لم يوجد مقتضى الأمر ، فلا توجد الموافقة فوجب حصول المخالفة لأنه ليس بين الموافقة والمخالفة واسطة قوله : الموافقة عبارة عن اعتقاد كون ذلك الأمر حقاً واجب القبول ، قلنا هذا لا يكون موافقة للأمر بل يكون موافقة للدليل الدال على أن ذلك الأمر حق ، فإن موافقة الشيء عبارة عن الإتيان بما يقتضي تقرير مقتضاه ، فإذا دل على حقية الشيء كان الاعتراف بحقيته يقتضي تقرير مقتضى ذلك الدليل ، أما الأمر فلما اقتضى دخول الفعل في الوجود كانت موافقته عبارة عما يقرر ذلك الدخول وإدخاله في الوجود يقتضي تقرير دخوله في الوجود فكانت موافقة الأمر عبارة عن فعل مقتضاه .

قوله لو كان كذلك لكان تارك المندوب مخالفاً فوجب أن يستحق العقاب ، قلنا هذا الإلزام

إنما يصح أن لو كان المندوب مأموراً به وهو ممنوع ، قوله لم لا يجوز أن يكون قوله : ﴿ فَلْيَحْذَرِ ﴾ أمراً بالحذر عن المخالف لا أمراً للمخالف بالحذر ؟ قلنا لو كان كذلك لصار التقدير فليحذر المتسللون لواذاً عن الذين يخالفون أمره وحينئذ يبقى قوله : ﴿ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ضائعاً لأن الحذر ليس فعلاً يتعدى إلى مفعولين .

قوله كلمة (عن) ليست بزائدة ، قلنا ذكرنا اختلاف الناس فيها في المسألة الأولى .

قوله لم قلتم إن قوله : ﴿ فَلْيَحْذَرِ ﴾ يدل على وجوب الحذر عن العقاب ؟ قلنا لا ندعي وجوب الحذر ، ولكن لا أقل من جواز الحذر ، وذلك مشروط بوجود ما يقتضي وقوع العقاب .

قوله لم قلت إن الآية تدل على أن كل مخالف للأمر يستحق العقاب ؟ قلنا لأنه تعالى رتب نزول العقاب على المخالفة فوجب أن يكون معللاً به ، فيلزم عمومه لعموم العلة .

(47/555)

قوله هب أن أمر الله أو أمر رسوله للوجوب ، فلم قلتم إن الأمر كذلك ؟ قلنا لأنه لا قائل بالفرق ، والله أعلم .

المسألة الرابعة :

من الناس من قال لفظ الأمر مشترك بين الأمر القولي وبين الشأن والطريق ، كما يقال أمر فلان مستقيم .

وإذا ثبت ذلك كان قوله تعالى : ﴿ عَنْ أَمْرِهِ ﴾ يتناول قول الرسول وفعله وطريقته ، وذلك يقتضي أن كل ما فعله عليه الصلاة والسلام يكون واجباً علينا ، وهذه المسألة مبنية على أن الكناية في قوله ﴿ عَنْ أَمْرِهِ ﴾ راجعة إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، أما لو كانت راجعة إلى الله تعالى فالبحث ساقط بالكلية ، وتمام تقرير ذلك ذكرناه في أصول الفقه ، والله أعلم .

أما قوله تعالى : ﴿ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ فالمراد أن مخالفة الأمر توجب أحد هذين الأمرين ، والمراد بالفتنة العقوبة في الدنيا ، والعذاب الأليم عذاب الآخرة ، وإنما ردد الله تعالى حال ذلك المخالف بين هذين الأمرين لأن ذلك المخالف قد يموت من دون عقاب الدنيا وقد يعرض له ذلك في الدنيا ، فلهذا السبب أورده تعالى على سبيل الترديد ، ثم قال الحسن : الفتنة هي ظهور نفاقهم ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : القتل .

وقيل : الزلازل والأهوال ، وعن جعفر بن محمد يسلط عليهم سلطان جائر .

أما قوله تعالى : ﴿ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السموات والأرض ﴾ فذاك كالدلالة على قدرته تعالى عليهما وعلى ما بينهما وما فيهما ، واقتداره على المكلف فيما يعامل به من المجازاة بثواب أو بعقاب ، وعلمه بما يخفيه ويعلنه ، وكل ذلك كالزجر عن مخالفة أمره .

أما قوله تعالى : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ ﴾ فإنما أدخل ﴿ قَدْ ﴾ لتوكيد علمه بما هم عليه من المخالفة في الدين والنفاق .

ويرجع توكيد العلم إلى توكيد الوعيد : وذلك لأن قد إذا أدخلت على المضارع كانت بمعنى ربما ، فوافقت ربما في خروجها إلى معنى التكثير .

كما في قوله الشاعر :

(48/555)

فإن يمس مهجور الفناء فربما . . أقام به بعد الوفود وفود

والخطاب والغيبة في قوله تعالى : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ ﴾ يجوز أن يكونا جميعاً للمنافقين على طريق الالتفات ، ويجوز أن يكون ما أنتم عليه عاماً ويرجعون للمنافقين ، وقد تقدم في غير موضع أن الرجوع إليه هو الرجوع إلى حيث لا حكم إلا له فلا وجه لإعادته ، والله أعلم .

وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 24 صـ 35.38 ﴾

(49/555)

وقال الجصاص :

وقَوْله تَعَالَى : ﴿ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا ﴾

رُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : (يَعْنِي احْذَرُوا إذَا أَسْخَطْتُمُوهُ دُعَاءَهُ عَلَيْكُمْ فَإِنَّ دُعَاءَهُ مُجَابٌ لَيْسَ كَدُعَاءِ غَيْرِهِ) .

وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ : (ادْعُوهُ بِالْخُضُوعِ وَالتَّعْظِيمِ نَحْوِ يَا رَسُولَ اللَّهِ يَا نَبِيَّ اللَّهِ ، وَلَا تَقُولُوا : يَا مُحَمَّدُ كَمَا يَقُولُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ) قَالَ أَبُو بَكْرٍ : هُوَ عَلَى الْأَمْرَيْنِ جَمِيعًا لِاحْتِمَالِ اللَّفْظِ لَهُمَا .

وقَوْله تَعَالَى : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا ﴾ يَعْنِي بِهِ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ كَانُوا يَنْصَرِفُونَ عَنْ أَمْرٍ جَامِعٍ مِنْ غَيْرِ اسْتِئْذَانٍ يَلُوذُ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ وَيَسْتَتِرُ بِهِ لِئَلَّا يَرَاهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُنْصَرِفًا .

قَوْله تَعَالَى : ﴿ فَلْيَحْذَرْ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

مَعْنَاهُ : فَلْيَحْذَرْ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ أَمْرَهُ .

وَدَخَلَ عَلَيْهِ حَرْفُ الْجَرِّ لِجَوَازِ ذَلِكَ فِي اللُّغَةِ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ ﴾ مَعْنَاهُ : فَبِنَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ .

وَ(الْهَاءُ) فِي (أَمْرِهِ) يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ ضَمِيرًا لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ

يَكُونَ ضَمِيرًا لِلَّهِ تَعَالَى ؛ وَالْأَظْهَرُ أَنَّهَا لِلَّهِ ؛ لِأَنَّهُ يَلِيهِ ، وَحُكْمُ الْكِنَايَةِ رُجُوعُهَا إلَى مَا يَلِيهَا دُونَ مَا تَقَدَّمَهَا .

(50/555)

وَفِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ أَوَامِرَ اللَّهِ عَلَى الْوُجُوبِ ؛ لِأَنَّهُ أَلْزَمَ اللَّوْمَ وَالْعِقَابَ لِمُخَالَفَةِ الْأَمْرِ ، وَذَلِكَ يَكُونُ عَلَى وَجْهَيْنِ : أَحَدُهُمَا : أَنْ لَا يَقْبَلَهُ فَيُخَالِفَهُ بِالرَّدِّ لَهُ .

وَالثَّانِي : أَنْ لَا يَفْعَلَ الْمَأْمُورُ بِهِ وَإِنْ كَانَ مُقِرًّا بِوُجُوبِهِ عَلَيْهِ وَمُعْتَقِدًا لِلُزُومِهِ ؛ فَهُوَ عَلَى الْأَمْرَيْنِ جَمِيعًا وَمَنْ قَصَرَهُ عَلَى أَحَدِ الْوَجْهَيْنِ دُونَ الْآخَرِ خَصَّهُ بِغَيْرِ دَلَالَةٍ .

وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَحْتَجُّ بِهِ فِي أَنَّ أَفْعَالَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الْوُجُوبِ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ جَعَلَ الضَّمِيرَ فِي (أَمْرِهِ) لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَفِعْلُهُ يُسَمَّى أَمْرُهُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴾ يَعْنِي أَفْعَالَهُ وَأَقْوَالَهُ .

وَهَذَا لَيْسَ كَذَلِكَ عِنْدَنَا ؛ لِأَنَّ اسْمَ اللَّهِ تَعَالَى فِيهِ بَعْدَ اسْمِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي قَوْلِهِ : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا ﴾ وَهُوَ الَّذِي تَلِيهِ الْكِنَايَةُ ، فَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ رَاجِعًا إلَيْهِ دُونَ غَيْرِهِ .

آخِرُ سُورَةِ النُّورِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا ﴾ .

فِيهَا أَرْبَعُ مَسَائِلَ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : قَوْله تَعَالَى ﴿ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ ﴾ فِيهِ مَسْأَلَةٌ بَدِيعَةٌ مِنْ الْعَرَبِيَّةِ ، وَهِيَ أَنَّ الْمَصْدَرَ قَدْ يُضَافُ إلَى الْمَفْعُولِ ، كَمَا يُضَافُ إلَى الْفَاعِلِ ، تَقُولُ : أَعْجَبَنِي ضَرْبُ زَيْدٍ عَمْرُو ، عَلَى الْأَوَّلِ ، كَمَا تَقُولُ : كَرِهْت ضَرْبَ زَيْدٍ عَمْرًا ، عَلَى الثَّانِي .

وَقَدْ جَهِلَ بَعْضُ الْأُدَبَاءِ هَذَا الْمِقْدَارَ ، فَعَقَدَ فَصْلًا فِي تَرْغِيبِ النَّاسِ فِي الدُّعَاءِ قَالَ فِيهِ : فَاهْتَبِلُوا بِالدُّعَاءِ ، وَابْتَهِلُوا بِرَفْعِ أَيْدِيكُمْ إلَى السَّمَاءِ ، وَتَضَرَّعُوا إلَى مَالِكِ أَزِمَّةِ الْقَضَاءِ ، فَإِنَّهُ تَعَالَى يَقُولُ : ﴿ قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ ﴾ وَأَرَادَ لَوْلَا سُؤَالُكُمْ إيَّاهُ ، وَطَلَبُكُمْ مِنْهُ ، وَرَأَى أَنَّهُ مَصْدَرٌ أُضِيفَ إلَى فَاعِلٍ .

وَلَيْسَ كَمَا زَعَمَ ، وَإِنَّمَا هُوَ مَصْدَرٌ أُضِيفَ إلَى الْمَفْعُولِ .

وَالْمَعْنَى قُلْ يَا مُحَمَّدُ لِلْكُفَّارِ : مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ بِبَعْثِهِ الرُّسُلَ إلَيْكُمْ ، وَتَبْيِينِ

الْأَدِلَّةِ لَكُمْ ، فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ عَذَابُكُمْ لِزَامًا .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : قَدْ قَالَ جَمَاعَةٌ مِنْ النَّاسِ : إنَّ الْمُرَادَ بِالْإِضَافَةِ هَاهُنَا إضَافَةُ الْمَصْدَرِ إلَى الْفَاعِلِ ، وَيَكُونُ لِذَلِكَ ثَلَاثَةُ مَعَانٍ : أَحَدُهَا : لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ بَيْنَكُمْ ، فَإِنَّ إجَابَتَهُ وَاجِبَةٌ ، وَلَيْسَتْ إجَابَتُكُمْ وَاجِبَةً .

(52/555)

يَعْنِي عَلَى الْإِطْلَاقِ ، وَإِنَّمَا تَجِبُ إجَابَةُ الْخَلْقِ بِقَرَائِنَ مِنْ حُقُوقِ اللَّهِ ، أَوْ مِنْ حُقُوقِ الدَّاعِي .

وَقَدْ تَقَدَّمَ بَيَانُ وُجُوبِ إجَابَةِ دُعَاءِ الرَّسُولِ فِي سُورَةِ الْأَنْفَالِ .

وَالثَّانِي : أَنْ يَكُونَ مَعْنَاهُ احْذَرُوا أَنْ تَتَفَرَّقُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَيَدْعُوَ عَلَيْكُمْ ، وَلَيْسَ دُعَاؤُهُ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا ، فَإِنَّ دَعْوَتَهُ مُجَابَةٌ ، وَلِذَلِكَ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ إنِّي عَاهَدْت رَبِّي عَهْدًا ، قُلْت : اللَّهُمَّ إنِّي بَشَرٌ أَغْضَبُ كَمَا يَغْضَبُ الْبَشَرُ ، فَأَيُّمَا رَجُلٍ لَعَنْتُهُ أَوْ سَبَبْتُهُ فَاجْعَلْ ذَلِكَ صَلَاةً عَلَيْهِ وَرَحْمَةً إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ .

الْمَعْنَى الثَّالِثُ : أَنَّ مَعْنَاهُ لَا تُسَوُّوا بَيْنَ الرَّسُولِ وَبَيْنَكُمْ فِي الدَّعْوَةِ ، كُلُّ أَحَدٍ يُدْعَى بِاسْمِهِ إلَّا رَسُولَ اللَّهِ فَإِنَّهُ يُدْعَى بِخُطَّتِهِ وَهِيَ الرِّسَالَةُ .

وَكَذَلِكَ قَالَ الْعُلَمَاءُ غَفِيرًا : إنَّ الْخَلِيفَةَ يُدْعَى بِهَا ، وَالْأَمِيرَ وَالْمُعَلِّمَ ، وَيُوَفَّرُ عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ حَظُّهُ مِنْ الْخُطَّةِ ، فَيُدْعَى بِهَا قَصْدَ الْكَرَامَةِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ قَوْله تَعَالَى ﴿ فَلْيَحْذَرْ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ ﴾ بِهَذِهِ الْآيَةِ احْتَجَّ الْفُقَهَاءُ عَلَى أَنَّ الْأَمْرَ عَلَى الْوُجُوبِ .

(53/555)

وَقَدْ بَيَّنَّا فِي أُصُولِ الْفِقْهِ أَنَّ الْأَمْرَ صَرِيحٌ فِي الِاقْتِضَاءِ ، وَالْوُجُوبُ لَا يُؤْخَذُ مِنْ نَفْسِ الْأَمْرِ ، وَإِنَّمَا يُؤْخَذُ مِنْ تَوَجُّهِ اللَّوْمِ وَالذَّمِّ ، فَالْأَمْرُ مُقْتَضٍ ، وَاللَّوْمُ وَالذَّمُّ خَاتَمٌ ، وَذِكْرُ الْعِقَابِ بِالنَّارِ مُكَبَّرٌ ، يُعَدُّ بِهِ الْفِعْلُ فِي جُمْلَةِ الْكَبَائِرِ ، فَلْيُنْظَرْ تَحْقِيقُهُ هُنَالِكَ .

وَقَدْ قَالَ جَمَاعَةٌ : إنَّ الْأَمْرَ هَاهُنَا بِمَعْنَى الْبَيَانِ مِنْ قَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ وَهُوَ الصَّحِيحُ وَالْمُخَالَفَةُ تَكُونُ بِالْقَوْلِ وَبِالْفِعْلِ ، وَكُلُّ ذَلِكَ يَتَرَتَّبُ عَلَى أَمْرِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَفِعْلِهِ ، فَإِنْ كَانَ وَاجِبًا كَانَتْ الْمُخَالَفَةُ حَرَامًا ، وَإِنْ كَانَ الْأَمْرُ وَالْفِعْلُ نَدْبًا كَانَتْ الْمُخَالَفَةُ مَكْرُوهَةً ، وَذَلِكَ يَتَرَتَّبُ عَلَى الْأَدِلَّةِ ، وَيَنْسَاقُ بِمُقْتَضَى الْأَحْوَالِ وَالْأَسْبَابِ الْقَاضِيَةِ عَلَيْهِ بِذَلِكَ .

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ : قَالَ عُلَمَاؤُنَا فِي قَوْلِهِ : ﴿ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ ﴾ فِيهِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ : الْأَوَّلُ : الْكُفْرُ .

الثَّانِي : الْعُقُوبَةُ .

الثَّالِثُ : بَلِيَّةٌ يَظْهَرُ بِهَا مَا فِي قُلُوبِهِمْ مِنْ النِّفَاقِ .

(54/555)

وَهَذِهِ الْأَقْوَالُ صَحِيحَةٌ كُلُّهَا ، وَلَكِنَّ مُتَعَلَّقَاتِهَا مُخْتَلِفَةٌ ، فَهُنَالِكَ مُخَالَفَةٌ تُوجِبُ الْكُفْرَ ، وَذَلِكَ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالْعَقَائِدِ ، وَهُنَالِكَ مُخَالَفَةٌ هِيَ مَعْصِيَةٌ ، وَذَلِكَ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِأَعْمَالِ الْجَوَارِحِ ، حَسْبَمَا بَيَّنَّاهُ فِي كُتُبِ أُصُولِ الدِّينِ وَالرَّدِّ عَلَى الْمُخَالِفِينَ مِنْ الْمُبْتَدِعَةِ وَالْمُلْحِدِينَ ، وَرَتَّبْنَا مَنَازِلَ ذَلِكَ كُلِّهِ ، وَمَسَاقَهُ وَمُتَعَلَّقَهُ بِدَلِيلِهِ .

وَقَدْ أَخْبَرَنَا أَبُو الْحَسَنِ الْمُبَارَكُ بْنُ عَبْدِ الْجَبَّارِ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ الْقَاسِمِ الْأَزْدِيُّ ، أَخْبَرَنَا أَبُو الْحَسَنِ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْعَتِيقِيُّ ، أَنْبَأَنَا أَبُو عُمَرَ مُحَمَّدُ بْنُ الْعَبَّاسِ بْنِ حَيْوَةَ ، حَدَّثَنَا جُرْهُمِيُّ بْنُ أَبِي الْعَلَاءِ قَالَ : سَمِعْت الزُّبَيْرَ بْنَ بَكَّارٍ يَقُولُ : سَمِعْت سُفْيَانَ بْنَ عُيَيْنَةَ يَقُولُ : سَمِعْت مَالِكَ بْنَ أَنَسٍ ، وَأَتَاهُ رَجُلٌ ، فَقَالَ : يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ ، مِنْ أَيْنَ أُحْرِمُ ؟ قَالَ : مِنْ ذِي الْحُلَيْفَةِ مِنْ حَيْثُ أَحْرَمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

فَقَالَ : إنِّي أُرِيدُ أَنْ أُحْرِمَ مِنْ الْمَسْجِدِ .

فَقَالَ : لَا تَفْعَلْ .

قَالَ : إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُحْرِمَ مِنْ الْمَسْجِدِ مِنْ عِنْدِ الْقَبْرِ .

قَالَ : لَا تَفْعَلْ ، فَإِنِّي أَخْشَى عَلَيْك الْفِتْنَةَ .

قَالَ : وَأَيُّ فِتْنَةٍ فِي هَذَا ؟ إنَّمَا هِيَ أَمْيَالٌ أَزِيدُهَا .

(55/555)

قَالَ : وَأَيُّ فِتْنَةٍ أَعْظَمُ مِنْ أَنْ تَرَى أَنَّك سَبَقْت إلَى فَضِيلَةٍ قَصَّرَ عَنْهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، إنِّي سَمِعْتُ اللَّهَ يَقُولُ : ﴿ فَلْيَحْذَرْ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ وَثَبَتَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ افْتَرَقَتْ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى عَلَى إحْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَةً ، وَسَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً ، كُلُّهَا فِي النَّارِ ، إلَّا وَاحِدَةً .

قِيلَ : مَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي ﴾ .

وَاَللَّهُ الْمُوَفِّقُ لِلْعِصْمَةِ بِالطَّاعَةِ وَالْمُتَابَعَةِ فِي الْأُلْفَةِ ، فَإِنَّ يَدَ اللَّهِ مَعَ الْجَمَاعَةِ ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 3 صـ ﴾

(56/555)

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ لاَّ تَجْعَلُواْ دُعَآءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضاً ﴾ الآية .

فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنه نهي من الله عن التعرض لدعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بإسخاطه لأن دعاءه يوجب العقوبة وليس كدعاء غيره ، قاله ابن عباس .

الثاني : أنه نهي من الله عن دعاء رسول الله بالغلظة والجفاء وَلْيَدْعُ بالخضوع والتذلل : يا رسول الله ، يا نبي الله ، قاله مجاهد ، وقتادة .

الثالث : أنه نهي من الله عن الإِبطاء عند أمره والتأخر عند استدعائه لهم إلى الجهاد ولا يتأخرون كما يتأخر بعضهم عن إجابة بعض ، حكاه ابن عيسى .

﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذاً ﴾ فيه قولان

: أحدهما : أنهم المنافقون كانوا يتسلّلون عن صلاة الجمعة لواذاً أي يلوذ بعضهم ببعض ينضم إليه استتاراً من رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنه لم يكن على المنافقين أثقل من يوم الجمعة وحضور الخطبة فنزل ذلك فيهم ، حكاه النقاش .

الثاني : أنهم كانوا يتسللون في الجهاد رجوعاً عنه يلوذ بعضهم ببعض لواذاً فنزل ذلك فيهم ، قاله مجاهد .

وقال الحسن معنى قوله : ﴿ لِوَاذاً ﴾ أي فراراً من الجهاد ، ومنه قول حسان ابن ثابت :

وقريش تجول منكم لواذاً . . . لم تحافظ وخفّ منها الحلوم

﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ ﴾ فيه قولان

: أحدهما : يخالفون عن أمر الله ، قاله يحيى بن سلام .

الثاني : عن أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قاله قتادة .

ومعنى قوله : ﴿ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ ﴾ أي يعرضون عن أمره ، وقال الأخفش : ﴿ عَنْ ﴾ في هذا الموضع زائدة ومعنى الكلام فليحذر الذين يخالفون أمره ، وسواء كان ما أمرهم به من أمور الدين أو الدنيا .

﴿ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ ﴾ فيها ثلاثة تأويلات

: أحدها : كفر ، قاله السدي .

الثاني : عقوبة ، قاله ابن كامل .

(57/555)

الثالث : بلية تُظْهِرُ ما في قلوبهم من النفاق ، حكاه ابن عيسى .

﴿ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ فيه قولان

: أحدهما : القتل في الدنيا ، قاله يحيى بن سلام .

الثاني : عذاب بجهنم في الآخرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

(58/555)

وقال ابن عطية :

﴿ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا ﴾

هذه الآية مخاطبة لجميع معاصري رسول الله . وأمرهم الله أن لا يجعلوا مخاطبة رسول الله في النداء كمخاطبة بعضهم لبعض فإن سيرتهم كانت التداعي بالأسماء وعلى غاية البداوة وقلة الاهتبال ، فأمرهم الله تعالى في هذه الآية وفي غيرها أن يدعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بأشرف أسمائه وذلك هو مقتضى التوقير والتعزيز ، فالمنبغي في الدعاء أن يقول يا رسول الله ، وأن يكون ذلك بتوقير وخفض صوت وبر ، وأن لا يجري ذلك على عادتهم بعضهم في بعض قاله مجاهد ، وغيره ، وقال ابن عباس المعنى في هذه الآية إنما هو لا تحسبوا دعاء الرسول عليكم ﴿ كدعاء بعضكم ﴾ على بعض أي دعاؤه عليكم مجاب فاحذروه .

قال الفقيه الإمام القاضي : ولفظ الآية يدفع هذا المعنى .

والأول أصح ثم أخبرهم تعالى أن المتسللين منهم ﴿ لواذاً ﴾ قد علمهم . واللواذ الروغان والمخالفة وهو مصدر لاوذ وليس بمصدر لاذ لأنه كان يقال له لياذاً ذكره الزجاج وغيره ، ثم أمرهم بالحذر من عذاب الله ونقمته إذا خالفوا عن أمره ، وقوله ﴿ يخالفون عن أمره ﴾ معناه يقع خلافهم بعد أمره وهذا كما تقول كان المطر عن ريح وعن هي لما عدا الشيء والفتنة في هذا الموضع الإخبار بالرزايا في الدنيا وبالعذاب الأثيم في الآخرة ولا بد للمنافقين من أحد هذين ملكاً وخلفاً ، ثم أخبرهم أنه قد علم ما أهل الأرض والسماء عليه وخص منهم بالذكر المخاطبين لأن ذلك موضع الحجة عليهم وهم به أعني وقوله : ﴿ ويوم يرجعون ﴾ يجوز أن يكون معمولاً لقوله ﴿ يعلم ﴾ ويجوز أن يكون التقدير والعلم الظاهر لكم أو نحو هذا يوم فيكون النصب على الظرف ، وقرأ الجمهور "يُرجَعون" بضم الياء وفتح الجيم ، وقرأ يحيى بن يعمر وابن أبي إسحاق وأبو عمر "يَرجِعون" بفتح الياء وكسر الجيم ، وقال عقبة بن عامر الجهني رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ هذه الآية خاتمة النور فقال " والله بكل شيء بصير " وباقي الآية بين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ لا تَجْعَلوا دعاء الرسول بينكم كدعاءِ بعضكم بعضاً ﴾

فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه نهي عن التعرُّض لإِسخاط رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فانه إِذا دعا على شخص فدعوتُه موجبة ، قاله ابن عباس .

والثاني : أنهم أُمروا أن يقولوا : يا رسول الله ، ونُهوا أن يقولوا : يا محمد ، قاله سعيد بن خبير ، وعلقمة ، والأسود ، وعكرمة ، ومجاهد .

والثالث : أنه نهي لهم عن الإِبطاء إِذا أمرهم والتأخّر إِذا دعاهم ، حكاه الماوردي .

وقرأ الحسن ، وأبو رجاء ، وأبو المتوكل ، ومعاذ القارىء : ﴿ دعاء الرسولِ نبيِّكم ﴾ بياء مشددة ونون قبل الباء .

قوله تعالى : ﴿ قد يَعْلَمُ اللّهُ الذين يتسلَّلون ﴾ التسلل : الخروج في خفية .

واللِّواذ : أن يستتر بشيء مخافة مَن يراه ، والمُراد بقوله : ﴿ قد يَعْلَمُ ﴾ التهديدُ بالمجازاة .

قال الفراء : كان المنافقون يشهدون الجمعة ، فيذكُرهم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ويعيبهم بالآيات التي أُنزلت فيهم ، فإن خفي لأحدهم القيام قام ، فذلك قوله : ﴿ قد يعلم الله الذين يتسلَّلون منكم لِواذاً ﴾ أي : يلوذ هذا بهذا ، أي : يستتر ذا بذا .

وإنما قال : ﴿ لواذاً ﴾ لأنها مصدر "لاوَذْتُ" ، ولو كان مصدراً ل"لُذْتُ" لقلتَ : لُذْتُ لِيَاذاً ، كما تقول : قُمْتُ قِيَاماً .

وكذلك قال ثعلب : وقع البناء على لاوَذَ مُلاوَذَةً ، ولو بني على لاذ يَلُوذ ، لقيل : لياذاً .

وقيل : هذا كان في حفر الخندق ، كان المنافقون ينصرفون عن غير أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم مختفين .

قوله تعالى : ﴿ فَلْيَحْذَرِ الذين يخالِفون عن أمره ﴾ في هاء الكناية قولان .

أحدهما : أنها ترجع إلى الله عز وجل ، قال مجاهد .

والثاني : إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال قتادة .

وفي "عن" قولان .

أحدهما : [أنها] زائدة ، قاله الاخفش .

والثاني : أن معنى ﴿ يخالفون ﴾ : يُعْرِضون عن أمره .

وفي الفتنة ها هنا ثلاثة أقوال .

(61/555)

أحدها : الضلالة ، قاله ابن عباس .

والثاني : بلاء في الدُّنيا ، قاله مجاهد .

والثالث : كفر ، قاله السدي ، ومقاتل .

قوله تعالى : ﴿ أو يُصِيبَهُمْ عذابٌ أليم ﴾ فيه قولان .

أحدهما : القتل في الدنيا .

والثاني : عذاب جهنم في الآخرة .

قوله تعالى : ﴿ قد يَعْلَمُ ما أنتم عليه ﴾ أي : ما في أنفسكم ، وما تنطوي عليه ضمائركم من الإِيمان والنفاق ؛ وهذا تنبيه على الجزاء على ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(62/555)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ لاَّ تَجْعَلُواْ دُعَآءَ الرسول بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً ﴾

يريد : يَصيح من بعيد : يا أبا القاسم ! بل عظّموه كما قال في الحُجُرات ﴿ إِنَّ الذين يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ الله ﴾ [الحجرات : 3] الآية .

وقال سعيد بن جُبير ومُجاهد : المعنى قولوا يا رسول الله ، في رِفق ولِين ، ولا تقولوا يا محمد بتجهُّم .

وقال قتادة : أمرهم أن يشرّفوه ويفخّموه .

ابن عباس : لا تتعرضوا لدعاء الرسول عليكم بإسخاطه فإن دعوته موجبة .

﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللهُ الذين يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذاً ﴾ التسلّل والانسلال : الخروج .

واللِّواذ من الملاوذة ، وهي أن تستتر بشيء مخافة مَن يراك ؛ فكان المنافقون يتسلّلون عن صلاة الجمعة .

"لِوَاذاً" مصدر في موضع الحال ؛ أي متلاوذين ، أي يلوذ بعضهم ببعض ، ينضم إليه استتاراً من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه لم يكن على المنافقين أثقل من يوم الجمعة وحضور الخطبة ؛ حكاه النقاش ، وقد مضى القول فيه .

وقيل : كانوا يتسلّلون في الجهاد رجوعاً عنه يلوذ بعضهم ببعض .

وقال الحسن : لواذاً فراراً من الجهاد ؛ ومنه قول حسان :

وقريشٌ تجول منا لِوَاذا . . .

لم تحافظ وخَفّ منها الحُلُوم

وصحّت واوها لتحركها في لاوذ .

يقال : لاوذ يلاوِذ ملاوذة ولِواذاً .

ولاذ يلوذ (لواذاً) وِلياذا؛ انقلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها اتباعاً للاذ في الاعتلال؛ فإن كان مصدرَ فاعَل لم يُعَلّ؛ لأن فاعَل لا يجوز أن يُعَلّ.

قوله تعالى: ﴿ فَلْيَحْذَرِ الذين يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ ﴾ بهذه الآية احتجّ الفقهاء على أن الأمر على الوجوب.

ووجهها أن الله تبارك وتعالى قد حذّر من مخالفة أمره، وتوعّد بالعقاب عليها بقوله: ﴿ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ فتحرُم مخالفته، فيجب امتثال أمره.

والفتنة هنا القتل؛ قاله ابن عباس.

(63/555)

عطاء: الزلازل والأهوال.

جعفر بن محمد: سلطان جائر يُسلّط عليهم.

وقيل: الطبع على القلوب بشؤم مخالفة الرسول.

والضمير في "أَمْرِهِ" قيل هو عائد إلى أمر الله تعالى؛ قاله يحيى بن سلام.

وقيل: إلى أمر رسوله عليه السلام؛ قاله قتادة.

ومعنى ﴿ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ ﴾ أي يُعرضون عن أمره.

وقال أبو عبيدة والأخفش : "عن" في هذا الموضع زائدة .

وقال الخليل وسيبويه : ليست بزائدة ؛ والمعنى ؛ يخالفون بعد أمره ؛ كما قال :

. . .

لم تَنْتَطِق عن تَفَضُّلِ . . .

ومنه قوله : "فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ" أي بعد أمر ربه .

و"أن" في موضع نصب بـ"يَحْذر" .

ولا يجوز عند أكثر النحويين حذِر زيداً ، وهو في "أن" جائز ؛ لأن حروف الخفض تحذف معها .

قوله تعالى : ﴿ أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السماوات والأرض ﴾

خلقاً وملكاً .

﴿ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ ﴾ فهو يجازيكم به .

و"يعلم" هنا بمعنى علم .

﴿ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ ﴾ بعد ما كان في خطابٍ رجع في خبر ؛ وهذا يقال له : خطاب التلوين .

﴿ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُواْ ﴾ أي يخبرهم بأعمالهم ويجازيهم بها .

﴿ واللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ من أعمالهم وأحوالهم .

ختمت السورة بما تضمنت من التفسير ، والحمد لله على التيسير . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 13 صـ ﴾

(64/555)

وقال أبو حيان :

﴿ لا تجعلوا ﴾

خطاب لمعاصري الرسول عليه السلام لما كان التداعي بالأسماء على عادة البداوة ، أمروا بتوقير رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بأحسن ما يدعى به نحو : يا رسول الله ، يا نبي الله ، ألا ترى إلى بعض جفاة من أسلم كان يقول : يا محمد وفي قوله ﴿ كدعاء بعضكم بعضاً ﴾ إشارة إلى جواز ذلك مع بضعهم لبعض إذ لم يؤمر بالتوقير والتعظيم في دعائه عليه السلام إلاّ من دعاه لا من دعا غيره .

وكانوا يقولون : يا أبا القاسم يا محمد فنهوا عن ذلك .

وقيل : نهاهم عن الإبطاء والتأخر إذا دعاهم ، واختارهم المبرد والقفال ويدل عليه ﴿ فليحذر الذين يخالفون عن أمره ﴾ وهذا القول موافق لمساق الآية ونظمها .

وقال الزمخشري : إذا احتاج إلى اجتماعكم عنده لأمر فدعاكم فلا تتفرّقوا عنه إلاّ بإذنه ،

ولا تقيسوا دعاءه على دعاء بعضكم بعضاً ورجوعكم عن المجمع بغير إذن الداعي انتهى .

وهو قريب مما قبله .

وقال أيضاً : ويحتمل ﴿ لا تجعلوا ﴾ دعاء الرسول ربه مثل ما يدعو صغيركم كبيركم وفقيركم غنيكم ، يسأله حاجة فربما أجابه وربما رده ، وإن دعوات رسول الله (صلى الله عليه وسلم) مسموعة مستجابة انتهى .

وقال ابن عباس : إنما هو لا تحسبوا دعاء الرسول عليكم كدعاء بعضكم على بعض أي دعاؤه عليكم مجاب فاحذروه .

قال ابن عطية : ولفظ الآية يدفع هذا المعنى انتهى .

وقرأ الحسن ويعقوب في رواية نبيكم بنون مفتوحة وباء مكسورة وياء مشددة بدل قوله ﴿ بينكم ﴾ ظرفاً قراءة الجمهور .

قال صاحب اللوامح : وهو النبيّ عليه السلام على البدل من ﴿ الرسول ﴾ فإنما صار بدلاً لاختلاف تعريفهما باللام مع الإضافة ، يعني أن الرسول معرفة باللام ونبيكم معرفة بالإضافة إلى الضمير فهو في رتبة العلم ، فهو أكثر تعريفاً من ذي اللام فلا يصح النعت به على المذهب المشهور ، لأن النعت يكون دون المنعوت أو مساوياً له في التعريف .

ثم قال صاحب اللوامح : ويجوز أن يكون نعتاً لكونهما معرفتين انتهى .

وكأنه مناقض لما قرر من اختياره البدل وينبغي أن يجوز النعت لأن الرسول قد صار علماً بالغلبة كالبيت للكعبة إذ ما جاء في القرآن والسنة من لفظ الرسول إنما يفهم منه أنه محمد (صلى الله عليه وسلم) ، فإذا كان كذلك فقد تساويا في التعريف .

ومعنى ﴿ يتسللون ﴾ ينصرفون قليلاً قليلاً عن الجماعة في خفية ، ولواذ بعضهم ببعض أي هذا يلوذ بهذا وهذا بذاك بحيث يدور معه حيث دار استتاراً من الرسول .

وقال الحسن ﴿ لواذاً ﴾ فراراً من الجهاد .

وقيل : في حفر الخندق ينصرف المنافقون بغير إذن ويستأذن المؤمنون إذا عرضت لهم حاجة .

وقال مجاهد لوذاً خلافاً .

وقال أيضاً ﴿ يتسللون ﴾ من الصف في القتال وقيل : ﴿ يتسللون ﴾ على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وعلى كتابه وعلى ذكره .

وانتصب ﴿ لواذاً ﴾ على أنه مصدر في موضع الحال أي متلاوذين ، و ﴿ لواذاً ﴾ مصدر لاوذ صحت العين في الفعل فصحت في المصدر ، ولو كان مصدر لاذ لكان لياذاً كقام قياماً .

وقرأ يزيد بن قطيب ﴿ لواذاً ﴾ بفتح اللام ، فاحتمل أن يكون مصدر لاذ ولم يقبل لأنه لا كسرة قبل الواو فهو كطاف طوافاً .

واحتمل أن يكون مصدر لاوذ وكانت فتحة اللام لأجل فتحة الواو وخالف يتعدى بنفسه تقول : خالفت أمر زيد وبالي تقول : خالفت إلى كذا فقوله ﴿ عن أمره ﴾ ضمن خالف معنى صدّ وأعرض فعداه بعن .

وقال ابن عطية : معناه يقع خلافهم بعد أمره كما تقول كان المطر عن ريح و ﴿ عن ﴾ هي لما عدا الشيء .

وقال أبو عبيدة والأخفش ﴿ عن ﴾ زائدة أي ﴿ أمره ﴾ والظاهر أن الأمر بالحذر للوجوب وهو قول الجمهور ، وأن الضمير في ﴿ أمره ﴾ عائد على الله .

وقيل على الرسول .

(66/555)

وقرىء يخلّفون بالتشديد أي يخلفون أنفسهم بعد أمره ، والفتنة القتل قاله ابن عباس أيضاً أو بلاء قاله مجاهد ، أو كفر قاله السدي ومقاتل ، أو إسباغ النعم استدراجاً قاله الجراح ، أو قسوة القلب عن معرفة المعروف والمنكر قاله الجنيد ، أو طبع على القلوب قاله بعضهم .

وهذه الأقوال خرجت مخرج التمثيل لا الحصر وهي في الدنيا .

أو ﴿ عذاب أليم ﴾ .

قيل : عذاب الآخرة .

وقيل : هو القتل في الدنيا .

﴿ ألا إن لله ما في السموات والأرض ﴾ هذا كالدلالة على قدرته تعالى عليهما وعلى المكلف فيما يعامله به من المجازاة من ثوابه وعقابه .

﴿ قد يعلم ما أنتم عليه ﴾ أي من مخالفة أمر الله وأمر رسوله وفيه تهديد ووعيد ، والظاهر أنه خطاب للمنافقين .

وقال الزمخشري : ادخل ﴿ قد ﴾ ليؤكد علمه بما هم عليه من المخالفة عن الدين والنفاق ، ويرجع توكيد العلم إلى توكيد الوعيد وذلك أن قد إذا دخلت على المضارع كانت بمعنى ربما ، فوافقت ربما في خروجها إلى معنى التنكير في نحو قوله :

فإن يمس مهجور الفناء فربما . . .

أقام به بعد الوفود وفود

ونحو من ذلك قول زهير :

أخي ثقة لا يهلك الخمر ماله . . .

ولكنه قد يهلك المال نائله

انتهى .

وكون قد إذا دخلت على المضارع أفادت التكثير قول بعض النحاة وليس بصحيح ، وإنما التكثير مفهوم من سياقة الكلام في المدح والصحيح في رب إنها لتقليل الشيء أو تقليل نظيره فإن فهم تكثير فليس ذلك من رب .

ولا قد إنما هو من سياقه الكلام ، وقد بين ذلك في علم النحو .

وقرأ الجمهور ﴿ يُرجعون ﴾ مبنياً للمفعول .

وقرأ ابن يعمر وابن أبي إسحاق وأبو عمرو مبنياً للفاعل .

والتفت من ضمير الخطاب في ﴿ أنتم ﴾ إلى ضمير الغيبة في ﴿ يرجعون ﴾ ويجوز أن يكون ﴿ ما أنتم عليه ﴾ خطاباً عاماً ويكون ﴿ يرجعون ﴾ للمنافقين .

والظاهر عطف ﴿ ويوم ﴾ على ﴿ ما أنتم عليه ﴾ فنصبه نصب المفعول .

(67/555)

قال ابن عطية : ويجوز أن يكون التقديم والعلم الظاهر لكم أو نحو هذا يوم فيكون النصب على الظرف .

مفردات سورة الفرقان

الهباء قال أبو عبيدة والزجاج : مثل الغبار يدخل الكوة مع ضوء الشمس .

وقال ابن عرفة : الهبوة والهباء التراب الدقيق .

وقال الجوهري يقال منه إذا ارتفع هبا يهبو هبواً ، وأهبيتُه أنا إهباءً .

وقيل : هو الشرر الطائر من النار إذا أضرمت .

النثر : التفريق .

العض : وقع الأسنان على المعضوض بقوة وفعله على وزن فعل بكسر العين ، وحكى الكسائي عضضت بفتح عين الكلمة .

فلان كناية عن علم من يعقل .

الجملة من الكلام هو المجتمع غير المفرق .

الترتيل سرد اللفظ بعد اللفظ يتخلل بينهما زمن يسير من قولهم : ثغر مرتل أي مفلج الأسنان .

السبات : الراحة ، ومنه يوم السبت لما جرت العادة من الاستراحة فيه ويقال للعليل إذا استراح من تعب العلة مسبوت قاله أبو مسلم .

وقال الزمخشري : السبات الموت والمسبوت الميت لأنه مقطوع الحياة .

مرج : قال ابن عرفة خلط ومرج الأمر اختلط واضطرب .

وقيل : مرج وأمرج أجرى ، ومرج لغة الحجاز وأمرج لغة نجد .

العذب : الحلو .

والفرات البالغ في الحلاوة .

الملح : المالح .

والأجاج البالغ في الملوحة .

وقيل : المر .

وقيل : الحار .

الصهر ، قال الخليل : لا يقال لأهل بيت المرأة إلاّ أصهار ، ولأهل بيت الرجل إلاّ أختان ، ومن العرب من يجعلهم أصهاراً كلهم .

السراج : الشمس .

الهون : الرفق واللين .

الغرفة : العلية وكل بناء عال فهو غرفة .

عباءً من العبء وهو الثقيل ، يقال : عبأت الجيش بالتخفيف والتثقيل هيأته للقتال ، ويقال : ما عبأت به أي ما اعتددت به كقولك : ما اكترثت به . انتهى انتهى . ا هـ ﴿البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ لاَّ تَجْعَلُواْ دُعَاء الرسول بَيْنَكُمْ ﴾

استئنافٌ مقرر لمضمون ما قبله والالتفاتُ لإبراز مزيدِ الاعتناءِ بشأنه أي لا تجعلُوا دعوتَه عليه الصلاة والسلام إيّاكم في الاعتقاد والعملِ بها ﴿ كَدُعَاء بَعْضِكُمْ بَعْضاً ﴾ أي لا تقيسُوا دعاءَه عليه الصَّلاة والسَّلام إيّاكُم على دعاء بعضِكم بعضاً في حالٍ من الأحوال وأمرٍ من الأمور التي من جُملتها المساهلةُ فيه والرُّجوعُ عن مجلسه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بغير استئذانٍ فإنَّ ذلكَ من المحرَّماتِ وقيل : لا تجعلُوا دعاءَه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ربَّه كدعاءِ صغيرِكم كبيرَكم يجيبه مرَّةً ويردُّه أُخرى فإنَّ دعاءَه مستجابٌ لا مردَّ له عند الله عزَّ وجلَّ وتقريرُ الجملةِ حينئذٍ لما قبلها أما من حيثُ إنَّ استجابتَه تعالى لدعائِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ممَّا يُوجب امتثالَهم بأوامره عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ومتابعتَهم له في الورود والصُّدورِ أكملَ إيجابٍ وأما من حيثُ إنها موجبةٌ للاحتراز عن التَّعرض لسخطه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ المؤدّي إلى ما يُوجبُ هلاكَهم من دعائه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ عليهم ، وأمَّا ما قيل من أنَّ المعنى لا تجعلُوا نداءَه عليه الصَّلاةُ والسلام كنداءِ بعضِكم بعضاً باسمِه ورفع الصَّوتِ والنّداءِ من وراء الحجراتِ ولكن بلقبِه المعظَّم مثل : يا رسولَ الله يا نبيَّ الله ، مع غايةِ التَّوقيرِ والتَّفخيمِ والتَّواضعِ وخفضِ الصَّوتِ فلا يناسب المقامَ فإن قوله تعالى : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ الله

الذين يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ ﴾ الخ ، وعيدٌ لمخالفي أمرِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ فيما ذُكر من قبل فتوسيطُ ما ذكر بينهما ممَّا لا وجهَ له ، والتَّسللُ الخروجُ من البين على التَّدريجِ والخفيةِ وقد للتَّحقيق كما أنَّ رُبَّ تجيء للتَّكثير حسبما بُيِّن في مطلع سورةِ الحجرِ أي يعلمُ الله الذين يخرجُون من الجماعة قليلاً قليلاً على خُفيةٍ ﴿ لِوَاذاً ﴾ أي مُلاوذةً بأن يستترَ

(69/555)

بعضُهم ببعضٍ حتَّى يخرجَ أو بأن يلوذَ بمن يخرجُ بالإذنِ إراءةً أنَّه من أتباعِه . وقُرِئ بفتحِ اللاَّمِ وانتصابِه على الحاليةِ من ضمير يتسللون أي مُلاوذين أو على أنَّه مصدرٌ مؤكِّد لفعل مضمرٍ هو الحالُ في الحقيقة أي يلوذُون لِواذاً ، والفاء في قوله تعالى : ﴿ فَلْيَحْذَرِ الذين يخالفون عَنْ أَمْرِهِ ﴾ لترتيب الحذرِ أو الأمر به على ما قبلها من علمه تعالى بأحوالهم فإنَّه ممَّا يُوجب الحذرَ ألبتةَ أي يخالفون أمرَه بترك مقتضاه ويذهبونَ سمتاً خلافَ سمتِه إما لتضمُّنه معنى الإعراضِ أو حملِه على معنى يصدُّون على أمره دُون المؤمنين من خالفَه عن الأمر إذا صدَّ عنه دونه ، وحذفُ المفعولِ لما أنَّ المقصودَ بيانُ المُخالِفِ والمُخالَفَ عنه . والضَّميرُ لله تعالى لأنَّه الآمرُ حقيقةً أو للرَّسول عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لأنَّه المقصودُ بالذِّكر ﴿ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ ﴾ أي محنةٌ في الدُّنيا ﴿ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي في الآخرةِ وكلمةُ أَوْ لمنع

الخلوّ دون الجمعِ وإعادة الفعلِ صريحاً للاعتناء بالتَّهديد والتَّحذيرِ واستُدلَّ به على أنَّ الأمرَ للإيجاب فإنَّ ترتيب العذابينِ على مخالفته كما يُعرب عنه التَّحذيرُ عن إصابتهما يوجبُ وجوبَ الامتثالِ به حتماً .

﴿ أَلا إِنَّ للَّهِ مَا فِى السموات والأرض ﴾

(70/555)

من الموجوداتِ بأسرها خَلْقاً ومُلْكاً وتَصرُّفاً وإيجاداً وإعداماً بَدْءاً وإعادةً ﴿ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ ﴾ أيُّها المُكلَّفون من الأحوالِ والأوضاعِ التي من جُملتها الموافقةُ والمخالفةُ والإخلاصُ والنِّفاقُ ﴿ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ ﴾ عطفٌ على ما أنتُم عليه أي يعلمُ يومَ يُرجع المنافقون المخالفون للأمرِ إليه تعالى للجزاءِ والعقابِ وتعليقُ علمِه تعالى بيومِ رجوعِهم لا يرجعهم لزيادةِ تحقيق علمِه تعالى بذلك . وغايةُ تقريرِه لما أنَّ العلمَ بوقت وقوع الشيء مستلزمٌ للعلم بوقوعِه على أبلغِ وجهٍ وآكدِه وفيه إشعارٌ بأنَّ علمَه تعالى لنفسِ رجوعِهم من الظُّهور بحيثُ لا يحتاجُ إلى البيانِ قطعاً . ويجوزُ أن يكونَ الخطابُ أيضاً خاصّاً بالمنافقين على طريقةِ الالتفاتِ . وقُرِىء يَرجعون مبنيّاً للفاعلِ ﴿ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُواْ ﴾ من الأعمال السَّيِّئةِ التي من جُملتها مخالفةُ الأمر فيرتِّب عليه ما يليقُ به من التَّوبيخ والجزاء ، وقد مرَّ

وجهُ التَّعبيرِ عن الجزاء بالتنبئة في قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ على أَنفُسِكُمْ ﴾ الآيةَ ﴿ والله بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ لا يعزبُ عنه مثقالُ ذَرَّةٍ في الأرضِ ولا في السَّماءِ .

عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم : " مَن قرأَ سُورةَ النُّور أُعطي من الأجرِ عشرَ حسناتٍ بعددِ كلِّ مؤمنٍ ومؤمنةٍ فيما مَضَى وفيما بَقِي " والله سبحانَهُ وتعالَى أعلمُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 6 صـ ﴾

(71/555)

وقال الآلوسى :

﴿ لاَّ تَجْعَلُواْ دُعَاء الرسول بَيْنَكُمْ كَدُعَاء بَعْضِكُمْ بَعْضاً ﴾

استئناف مقرر لمضمون ما قبله ، والالتفات لإبراز مزيد الاعتناء بشأنه أي لا تقيسوا دعاءه عليه الصلاة والسلام إياكم على دعاء بعضكم بعضاً في حال من الأحوال وأمر من الأمور التي من جملتها المساهلة فيه والرجوع عن مجلسه عليه الصلاة والسلام بغير استئذان فإن ذلك من المحرمات ، وإلى نحو هذا ذهب أبو مسلم واختاره المبرد .

والقفال ، وقيل المعنى لا تحسبوا دعاءه صلى الله عليه وسلم عليكم كدعاء بعضكم على بعض فتعرضوا لسخطه ودعائه عليكم عليه الصلاة والسلام بمخالفة أمره والرجوع عن

مجلسه بغيره استئذان ونحو ذلك ، وهو مأخوذ مما جاء في بعض الروايات عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما وروي عن الشعبي .

وتعقبه ابن عطية بأن لفظ الآية يدفع هذا المعنى ، وكأنه أراد أن الظاهر عليه على بعض ، وقيل : إنه يأباه ﴿ بَيْنِكُمْ ﴾ وهو في حيز المنع ، وقيل : المعنى لا تجعلوا دعاءه عليه الصلاة والسلام ربه عز وجل كدعاء صغيركم كبيركم وفقيركم غنيكم يسأله حاجته فربما أجابه وربما ربده فإن دعاءه صلى الله عليه وسلم مستجاب لا مرد له عند الله عز وجل فتعرضوا لدعائه لكم بامتثال أمره واستئذانه عند الانصراف عنه إذا كنتم معه على أمر جامع وتحققوا قبول استغفاره لكم ولا تتعرضوا لدعائه عليكم بضد ذلك .

ولا يخفى وجه تقرير الجملة لما ق بلها على هذين القولين ؛ لكن بحث في دعوى أن جميع دعائه عليه الصلاة والسلام مستجاب بأنه قد صح أنه صلى الله عليه وسلم سأل الله تعالى في أمته أن لا يذيق بعضهم بأس بعض فمنعه ، وهو ظاهر في أنه قد يرد بعض دعائه عليه الصلاة والسلام .

(72/555)

وتعقب بأنه كيف يرد وقد قال الله تعالى : ﴿ ادعونى أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر : 60]

وفي الحديث : " إن الله تعالى لا يرد دعاء المؤمن وإن تأخر " وقد قال الإمام السهيلي في "الروض" : الاستجابة أقسام إما تعجيل ما سأل أو أن يدخل له خير مما طلب أو يصرف عنه من البلاء بقدر ما سأل من الخير ، وقد أعطى صلى الله عليه وسلم عوضاً من أن لا يذيق بعضهم بأس بعض الشفاعة وقال :

" أمتي هذه أمة مرحومة ليس عليها في الآخرة عذاب عذابها في الدنيا الزلزال والفتن " كما في أبي داود فإذا كانت الفتنة سبباً لصرف عذاب الآخرة عن الأمة فلا يقال : ما أجاب دعاءه صلى الله عليه وسلم لأن عدم استجابته أن لا يعطى ما سأل أولاً يعوض عنه ما هو خير منه ، والمراد بالمنع في الحديث منع ذلك بخصوصه لا عدم استجابة الدعاء بذلك بالمعنى المذكور ، وتمام الكلام في هذا المقام يطلب من محله .

وقيل : المعنى لا تجعلوا نداءه عليه الصلاة والسلام وتسميته كنداء بعضكم بعضاً باسمه ورفع الصوت به والنداء وراء الحجرات ولكن بلقبه المعظم مثل يا نبي الله ويا رسول الله مع التوقير والتواضع وخفض الصوت .

أخرج ابن أبي حاتم .

وابن مردويه .

وأبو نعيم في الدلائل عن ابن عباس قال : كانوا يقولون : يا محمد يا أبا القاسم فنهاهم الله

تعالى عن ذلك بقوله سبحانه : ﴿ لَّا تَجْعَلُواْ ﴾ الآية إعظاماً لنبيه صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا نبي الله يا رسول الله ، وروي نحو هذا عن قتادة .

الحسن .

وسعيد بن جبير .

ومجاهد ، وفي أحكام القرآن للسيوطي أن في هذا النهي تحريم ندائه صلى الله عليه وسلم باسمه .

والظاهر استمرار ذلك بعد وفاته إلى الآن .

وذكر الطبرسي أن من جملة المنهي عنه النداء بيا ابن عبد الله فإنه مما ينادي به العرب بعضهم بعضاً .

وتعقب هذا القول بأن الآية عليه لا تلائم السباق واللحاق .

(73/555)

وقال بعضهم : وجه الارتباط بما قبلها عليه الإرشاد إلى أن الاستئذان ينبغي أن يكون بقولهم : يا رسول الله إنا نستأذنك ونحوه ، وكذا خطاب من معه في أمر جامع إياه صلى الله عليه وسلم ينبغي أن يكون بنحو يا رسول الله لا بنحو يا محمد ، ويكفي هذا القدر من

الارتباط بما قبل ولا حاجة إلى بيان المناسبة بأن في كل منهما ما ينافي التعظيم اللائق بشأنه العظيم صلى الله عليه وسلم ، نعم الأظهر في معنى الآية ما ذكرناه أولاً كما لا يخفى .

وقرأ الحسن .

ويعقوب في رواية ﴿ نبيكم ﴾ بنون مفتوحة وباء مكسورة وياء آخر الحروف مشددة بدل ﴿ شهادة بَيْنِكُمْ ﴾ الظرف في قراءة الجمهور ، وخرج على أنه بدل من ﴿ الرسول ﴾ ولم يجعل نعتاً له لأنه مضاف إلى الضمير والمضاف إليه في رتبة العلم وهو أعرف من المعرف بأل ويشترط في النعت أن يكون دون المنعوت أو مساوياً له في التعريف ، وقال أبو حيان : ينبغي أن يجوز النعت لأن ﴿ الرسول ﴾ قد صار علماً بالغلبة كالبيت للكعبة فقد تساويا في التعريف .

﴿ قَدْ يَعْلَمُ الله الذين يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ ﴾ وعيد لمن هو بضد أولئك المؤمنين الذين لم يذهبوا حتى يستأذنوه عليه الصلاة والسلام ، والتسلل الخروج من البين على التدريج والخفية ، وقد للتحقيق ، وجوز أن تكون لتقليل المتسللين في جنب معلوماته تعالى وأن تكون للتكثير إما حقيقة أو استعارة ضدية ، وقال أبو حيان : إن قول بعض النحاة بإفادة قد التكثير إذا دخلت على المضارع غير صحيح وإنما التكثير مفهوم من سياق الكلام كما في قول زهير :

أخي ثقة لا يهلك الخمر ماله . . .

ولكنه قد يهلك المال نائله

فإن سياق الكلام للمدح يفهم منه ذلك أي قد يعلم الله الذين يخرجون من الجماعة قليلاً قليلاً على خفية ﴿ لِوَاذاً ﴾ أي ملاوذة بأن يستتر بعضهم ببعض حتى يخرج.

(74/555)

وأخرج أبو داود في مراسيله عن مقاتل قال: كان لا يخرج أحد لرعاف أو إحداث حتى يستأذن النبي صلى الله عليه وسلم يشير إليه بأصبعه التي تلي الإبهام فيأذن له النبي صلى الله عليه وسلم يشير إليه بيده وكان من المنافقين من تثقل عليه الخطبة والجلوس في المسجد فكان إذا استأذن رجل من المسلمين قام المنافق إلى جنبه يستتر به حتى يخرج فأنزل الله تعالى: ﴿ قَدْ يَعْلَمُ ﴾ الآية، وقيل يلوذ به إراءة أنه من أتباعه.

ونصب ﴿ لِوَاذاً ﴾ على المصدرية أو الحالية بتأويل ملاوذين وهو مصدر لاوذ لعدم قلب واوه ياء تبعاً لفعله ولو كان مصدر لاذ لقيل لياذاً كقياماً.

وقرأ يزيد بن قطيب ﴿ لِوَاذاً ﴾ بفتح اللام فاحتمل أن يكون مصدر لاذ ولم تقلب واوه ياء لأنه لا كسرة قبلها فهو كطواف مصدر طاف، واحتمل أن يكون مصدر لاوذ وفتحة اللام لأجل فتحة الواو، والفاء في قوله تعالى: ﴿ فَلْيَحْذَرِ الذين يخالفون عَنْ أَمْرِهِ ﴾ لترتيب الحذر أو الأمر به على ما قبلها من علمه تعالى بأحوالهم فإنه مما يوجب الحذر البتة،

والمخالفة كما قال الراغب : أن يأخذ كل واحد طريقاً غير طريق الآخر في حاله أو فعله والأكثر استعمالها بدون عن فيقال خالف زيد عمراً وإذا استعملت بعن فذاك على تضمين معنى الإعراض .

وقيل الخروج أي يخالفون معرضين أو خارجين عن أمره .

وقال ابن الحاجب : عدى يخالفون بعن لما في المخالفة من معنى التباعد والحيد كأنه قيل الذين يحيدون عن أمره بالمخالفة وهو أبلغ من أن يقال : يخالفون أمره .

وقيل على تضمين معنى الصد ، وقيل إذا عدى بعن يراد به الصد دون تضمين ويتعدى إلى مفعول بنفسه يقال : خالف زيداً عن الأمر أي صده عنه والمفعول عليه هنا محذوف أي يخالفون المؤمنين أي يصدونهم عن أمره وحذف المفعول لأن المراد تقبيح حال المخالف وتعظيم أمر المخالف عنه فذكر الأهم وترك ما لا اهتمام به وقد يتعدى بإلى فيقال خالف إليه إذا أقبل نحوه .

(75/555)

وقال ابن عطية : ﴿ عَنْ ﴾ هنا بمعنى بعد ، والمعنى يقع خلافهم بعد أمره كما تقول : كان المطر عن ريح وأطعمته عن جوع .

وقال أبو عبيدة .

والأخش : هي زائدة أي يخالفون ﴿ أَمْرَهُ ﴾ وضمير أمره لله عز وجل فإن الأمر له سبحانه في الحقيقة أو للرسول صلى الله عليه وسلم فإنه المقصود بالذكر ، والأمر له قيل الطلب أو الشأن أو ما يعمهما ، ولا يخفى أن في تجويز كل على كل من الاحتمالين في الضمير نظراً فلا تغفل .

وقرىء ﴿ يَخْلُفُونَ ﴾ بالتشديد أي يخلفون أنفسهم عن أمره ﴿ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ ﴾ أي بلاء ومحنة في الدنيا كما روي عن مجاهد .

وعن ابن عباس تفسير الفتنة بالقتل .

وعن جعفر الصادق رضي الله تعالى عنه تفسيرها بتسليط سلطان جائر ، وعن السدي .

ومقاتل تفسيرها بالكفر والأول أولى .

﴿ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي في الآخرة .

وقيل في الدنيا ، والمراد بالعذاب الأليم القتل وبالفتنة ما دونه وليس بشيء .

وكلمة أو لمنع الخلو دون الجمع .

وإعادة الفعل صريحاً للاعتناء بالتهديد والتحذير .

وشاع الاستدلال بالآية على أن الأمر للوجوب فإنه تعالى أوجب فيها على مخالف الأمر

الحذر عن العذاب وذلك تهديد على مخالفة الأمر وهو دليل كون الأمر للوجوب إذ لا تهديد على ترك غير الواجب ، وأيضاً بناء حكم الحذر عن العذاب إلى المخالف يقتضي أن يكون حذره عنه من حيث المخالفة ، وذلك إنما يكون إذا أفضى إلى العذاب كما في قولك فليحذر الشاتم للأمير أن يضربه ولا إفضاء في ترك غير الواجب .

(76/555)

وهذا الأمر أعني ﴿ فَلْيَحْذَرِ ﴾ بخصوصه مستعمل في الإيجاب إذ لا معنى لندب الحذر عن العقاب أو إباحته ، وأيضاً إشعار الآية بوجوب الحذر غير خاف بقرينة ورودها في معرض الوعيد بتوقع إصابة العذاب على أنه لو حمل الأمر المذكور على أنه للندب يحصل المطلوب وذلك لأن التحذير عما لم يعلم أو لم يظن تحققه ولا تحقق ما يفضي إلى وقوعه في الجملة سفه غير جائز بمعنى أنه مخالف للحكمة ولهذا يلام من يحذر عن سقوط الجدار المحكم الغير المائل ، وأياً ما كان يندفع ما يقال : لا نسلم أن قوله تعالى : ﴿ فَلْيَحْذَرِ ﴾ للوجوب لأنه عين محل النزاع إذ يكفي في المطلوب على ما قررنا استعماله في الندب أيضاً ، والقول بأن معنى مخالفة الأمر عدم اعتقاد حقيته أو حمله على غير ما هو عليه بأن يكون للوجوب أو الندب مثلاً فيحمل على غيره بعيد جداً ، والظاهر المتبادر إلى الفهم أنه ترك

الامتثال والإتيان بالمأمور به فلا يترك إلى ذلك إلا بدليل .

واعترض بأنه بعد هذا القيل والقال لا يدل على أن جميع الأوامر حقيقة في الوجوب لإطلاق الأمر .

وأجيب بأن ﴿ أَمْرَهُ ﴾ مصدر مضاف وهو يفيد العموم حيث فقدت قرينة العهد على أن الإطلاق كاف في المطلوب ، وهو كون الأمر المطلق للوجوب خاصة إذ لو كان حقيقة لغيره أيضاً لم يترتب التهديد على مخالفة مطلق الأمر .

وقال بعض الأجلة : لا قائل بالفصل في صيغ الأمر بأن بعضها للوجوب وبعضها لغيره .

وزعم بعضهم أن الاستدلال لا يتم إذا أريد بالأمر الطلب ، ولو فسر بالشأن وكان الضمير للرسول عليه الصلاة والسلام لزم من القول بدلالتها على الوجوب أن يكون كل ما يفعله صلى الله عليه وسلم واجباً علينا ولا قائل به .

والزمخشري فسره بالدين والطاعة .

(77/555)

وقال صاحب الكشف : إن الاستدلال بالآية على أن الأمر للوجوب مشهور سواء فسر بما ذكر لأن الطاعة امتثال الأمر القولي أو فسر على الحقيقة ، وأما إذا جعل إشارة إلى ما سبق

من الأمر الجامع ومعنى ﴿ يخالفون عَنْ أَمْرِهِ ﴾ ينصرفون عنه فلا وليس بالوجه وإن آثره جمع لفوات المبالغة والتناول الأولى والعدول عن الحقيقة في لفظ الأمر ثم المخالفة من غير ضرورة انتهى ، وهذا الذي آثره جمع ذكره الطيبي عن البغوي ثم قال : هذا هو التفسير الذي عليه التعويل ويساعد عليه النظم والتأويل لأن الأمر حينئذٍ بمعنى الشأن وواحد الأمور ، وبيانه إن ما قبله حديث في الأمر الجامع وهو الأمر الذي يجمع عليه الناس ومدح من لزم مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يذهب عنه وذم من فارقه بغير الإذن وأمر بالاستغفار في حق من فارق بالإذن لأن قوله تعالى : ﴿ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ ﴾ [النور : 62] يؤذن أن القوم ثلاث فرق المأذون في الذهاب بعد الاستئذان والمتخلف عنه ثم المتخلف إما أن يدوم في مجلسه عليه الصلاة والسلام ولم يل الله صلى الله عليه وسلم ولم يذهب عنه وذم من فارقه بغير الإذن وأمر بالاستغفار في حق من فارق بالإذن لأن قوله تعالى : ﴿ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ ﴾ [النور : 62] يؤذن أن القوم ثلاث فرق المأذون في الذهاب بعد الاستئذان والمتخلف عنه ثم المتخلف إما أن يدوم في مجلسه عليه الصلاة والسلام ولم يعم قيل عليه : إن فوات المبالغة والتناول لا يقاوم العهد ولا عدول عن الحقيقة لأن الأمر حقيقة في الحادثة وكذا المخالفة فيما ذكر ولو سلم فهو مشترك الإلزام فإن الأمر ليس حقيقة في الأمر العام وقوله : بلا ضرورة ممنوع فإن إضافة العهد صارفة .

وتعقب بأن هذا مكابرة ومنع مجرد لا يسمع فإن الأبلغية لا شبهة فيها فإن تهديد من لم يمتثل أمره عليه الصلاة والسلام أشد من تركه بلا إذن وكون الأمر حقيقة في الطلب هو الأصح في الأصول والمخالفة المقارنة للأمر لا شبهة في أن حقيقتها عدم الامتثال واشتراك الإلزام ليس بتام لأن أمره إذا عم يشمل الأمر الجامع بمعنى الطلب أيضاً وعهد الإضافة ليس بمتعين حتى يعد صارفاً كذا قيل وفيه بحث فتأمل ، وقد يقال بناءً على كون الأمر المذكور إشارة إلى الأمر الجامع : إنه جيء بأو في قوله : ﴿ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور : 36] لما أن الأمر الجامع إما أن يكون أمراً دنيوياً كالتشاور في الأمور الحربية فالانصراف عنه مظنة إصابة المحنة الدنيوية للمنصرفين وإما أن يكون أمراً دينياً كإقامة الجمعة التي فيها تعظيم شعائر الإسلام فالانصراف عنه مظنة إصابة العذاب الأخروي .

وبالجملة لا استدلال بالآية على اعتبار العهد وأما إذا لم يعتبر فقد استدل بها ، وقد سمعت شيئاً من الكلام في ذلك وتمامه جرحاً وتعديلاً وغير ذلك في كتب الأصول .

أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (64)

﴿ أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السموات والأرض ﴾ من الموجودات بأسرها خلقاً وملكاً وتصرفاً إيجاداً وإعداماً بدءاً وإعادة لا لأحد غيره شركة أو استقلالاً ﴿ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ ﴾ أيها المكلفون من الأحوال والأوضاع التي من جملتها الموافقة والمخالفة والإخلاص والنفاق ودخول المنافقين مع أن الخطاب فيما قبل للمؤمنين بطريق التغليب ، وقوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ ﴾ خاص بالمنافقين وهو مفعول به عطف على ﴿ مَا أَنتُمْ ﴾ أي يعلم يوم يرجع المنافقون المخالفون للأمر إليه عز وجل للجزاء والعقاب .

وتعليق علمه بيوم رجعهم لا برجعهم لزيادة تحقيق علمه سبحانه بذلك وغاية تقريره لما أن العلم بوقت وقوع الشيء مستلزم للعلم بوقوع الشيء على أبلغ وجه وآكده ، وفيه إشعار بأن علمه جل وعلا بنفس رجعهم من الظهور بحيث لا يحتاج إلى البيان قطعاً .

ويجوز أن يكون الخطاب السابق خاصاً بهم أيضاً فيتحقق التفاتان التفات من الغيبة إلى الخطاب في ﴿ أَنتُمْ ﴾ والتفات من الخطاب إلى الغيبة في ﴿ يَرْجِعُونَ ﴾ والعطف على حاله .

وجوز أن يكون على مقدر أي ما أنتم عليه الآن ويوم الخ فإن الجملة الاسمية تدل على الحال في ضمن الدوام والثبوت .

وقيل : يجوز أن يكون ﴿ يَوْمٍ ﴾ ظرفاً لمحذوف يعطف على ما قبله أي وسيحاسبهم يوم

أو نحو ذلك ولا أرى اختصاصه بالوجه الثاني في الخطاب .

وفي "البحر" بعد ذكر الوجهين فيه والظاهر عطف ﴿ يَوْمٍ ﴾ على ﴿ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ ﴾

وقال ابن عطية : يجوز أن يكون التقدير والعلم يظهر لكم أو نحو هذا يوم فيكون ﴿ يَوْمٍ ﴾

نصباً على الظرفية بمحذوف وقد للتحقيق وفيها الاحتمالان المتقدمان آنفاً ، وقد مر غير

مرة ما يراد بمثل هذه الجملة من الوعيد أو الوعد .

ولا يخفى المناسب لكل من الاحتمالات في ﴿ أَنتُمْ ﴾ وقرأ ابن يعمر .

وابن أبي إسحاق .

(80/555)

وأبو عمرو ﴿ لاَ يَرْجِعُونَ ﴾ مبنياً للمفعول ﴿ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُواْ ﴾ أي بعملهم أو بالذي

عملوه من الأعمال السيئة التي من جملتها مخالفة الأمر فيرتب سبحانه عليه ما يليق به من

التوبيخ والجزاء أو فينبئهم بما عملوا خيراً أو شراً فيرتب سبحانه على ذلك ما يليق به إن

خيراً فخير وإن شراً فشر ﴿ واللهِ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ لا يخفى عليه شيء من الأشياء .

والجملة تذييل مقرر لما قبله ، وإظهار الاسم الجليل في مقام الإضمار لتأكيد استقلال الجملة

والإشعار بعلة الحكم ، وتقديم الظرف لرعاية رؤوس الآي .

وقيل وفيه بحث : إنه للحصر على معنى والله عليم بكل شيء لا ببعض الأشياء كما يزعمه بعض جهلة الفلاسفة ومن حذا حذوهم حفظنا الله تعالى والمسلمين مما هم عليه من الضلالات وجعل لنا نوراً نهتدي به إذا ادلهم ليل الجهالات هذا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 18 صـ ﴾

(81/555)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ ﴾

جملة : ﴿ إِنَّمَا المؤمنون ﴾ مستأنفة مسوقة لتقدير ما تقدّمها من الأحكام ، و ﴿ إِنَّمَا ﴾ من صيغ الحصر .

والمعنى : لا يتم إيمان ولا يكمل حتى يكون ﴿ بالله وَرَسُولِهِ ﴾ ، وجملة : ﴿ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُ على أَمْرٍ جَامِعٍ ﴾ معطوفة على آمنوا داخلة معه في حيز الصلة أي : إذا كانوا مع رسول الله على أمر جامع ، أي على أمر طاعة يجتمعون عليها ، نحو الجمعة والنحر والفطر والجهاد وأشباه ذلك ، وسمي الأمر جامعاً مبالغة ﴿ لَّمْ يَذْهَبُواْ حتى يَسْتَأْذِنُوهُ ﴾ قال

المفسرون : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا صعد المنبر يوم الجمعة ، وأراد الرجل أن يخرج من المسجد لحاجة أو عذر ، لم يخرج حتى يقوم بحيال النبيّ صلى الله عليه وسلم حيث يراه ، فيعرف أنه إنما قام ليستأذن ، فيأذن لمن يشاء منهم .

قال مجاهد : وإذن الإمام يوم الجمعة : أن يشير بيده .

قال الزجاج : أعلم الله أن المؤمنين إذا كانوا مع نبيه فيما يحتاج فيه إلى الجماعة لم يذهبوا حتى يستأذنوه ، وكذلك ينبغي أن يكونوا مع الإمام لا يخالفونه ، ولا يرجعون عنه في جمع من جموعهم إلاّ بإذنه ، وللإمام أن يأذن ، وله أن لا يأذن على ما يرى لقوله تعالى : ﴿ فَأْذَنْ لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ ﴾ ، وقرأ اليماني : " على أمر جميع " .

والحاصل : أن الأمر الجامع ، أو الجميع هو الذي يعمّ نفعه ، أو ضرره ، وهو الأمر الجليل الذي يحتاج إلى اجتماع أهل الرأي ، والتجارب .

قال العلماء : كل أمر اجتمع عليه المسلمون مع الإمام لا يخالفونه ، ولا يرجعون عنه إلاّ بإذنه .

(82/555)

ثم قال سبحانه : ﴿ إِنَّ الذين يَسْتَأْذِنُونَكَ أولئك الذين يُؤْمِنُونَ بالله وَرَسُولِهِ ﴾ فبيّن سبحانه أن المستأذنين هم : المؤمنون بالله ورسوله كما حكم أوّلاً بأن المؤمنين الكاملين الإيمان هم : الجامعون بين الإيمان بهما وبين الاستئذان ﴿ فَإِذَا استأذنوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ ﴾ أي : إذا استأذن المؤمنون رسول الله صلى الله عليه وسلم لبعض الأمور التي تهمهم ، فإنه يأذن لمن شاء منهم ، ويمنع من شاء على حسب ما تقتضيه المصلحة التي يراها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم أرشده الله سبحانه إلى الاستغفار لهم ، وفيه إشارة إلى أن الاستئذان إن كان لعذر مسوّغ ، فلا يخلو عن شائبة تأثير أمر الدنيا على الآخرة ﴿ إِنَّ الله غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أي كثير المغفرة والرحمة بالغ فيهما إلى الغاية التي ليس وراءها غاية .

﴿ لاَّ تَجْعَلُواْ دُعَاء الرسول بَيْنَكُمْ كَدُعَاء بَعْضِكُمْ بَعْضاً ﴾ وهذه الجملة مستأنفة مقرّرة لما قبلها أي لا تجعلوا دعوته إياكم كالدعاء من بعضكم لبعض في التساهل في بعض الأحوال عن الإجابة ، أو الرجوع بغير استئذان ، أو رفع الصوت .

وقال سعيد بن جبير ومجاهد المعنى : قولوا : يا رسول الله في رفق ولين ، ولا تقولوا : يا محمد بتجهم .

وقال قتادة : أمرهم أن يشرّفوه ، ويفخموه .

وقيل : المعنى : لا تتعرّضوا لدعاء الرسول عليكم بإسخاطه ، فإن دعوته موجبة ﴿ قَدْ يَعْلَمُ الله الذين يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذاً ﴾ التسلل : الخروج في خفية ، يقال : تسلل فلان من بين

أصحابه : إذا خرج من بينهم ، واللواذ من الملاوذة ، وهو : أن تستتر بشيء مخافة من يراك ، وأصله أن يلوذ هذا بذاك ، وذاك بهذا ، واللوذ ما يطيف بالجبل ، وقيل : اللواذ : الزوغان من شيء إلى شيء في خفية .

(83/555)

وانتصاب لواذاً على الحال أي : متلاوذين يلوذ بعضهم ببعض ، وينضمّ إليه ، وقيل : هو منتصب على المصدرية لفعل مضمر هو الحال في الحقيقة أي : يلوذون لواذاً .

وقرأ زيد بن قطيب : " لواذاً " بفتح اللام .

وفي الآية بيان ما كان يقع من المنافقين ، فإنهم كانوا يتسللون عن صلاة الجمعة متلاوذين ينضم بعضهم إلى بعض استتاراً من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد كان يوم الجمعة أثقل يوم على المنافقين لما يرون من الاجتماع للصلاة ، والخطبة ، فكانوا يفرّون عن الحضور ، ويتسللون في خفية ، ويستتر بعضهم ببعض ، وينضم إليه .

وقيل : اللواذ : الفرار من الجهاد ، وبه قال الحسن ، ومنه قول حسان :

وقريش تلوذ منكم لواذا . . . لم تحافظ وخفّ منها الحلوم

﴿ فَلْيَحْذَرِ الذين يخالفون عَنْ أَمْرِهِ ﴾ الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها أي : يخالفون

أمر النبي صلى الله عليه وسلم بترك العمل بمقتضاه ، وعديّ فعل المخالفة بعن مع كونه متعدّياً بنفسه لتضمينه معنى الإعراض ، أو الصدّ ، وقيل : الضمير لله سبحانه لأنه الآمر بالحقيقة ، و ﴿ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ ﴾ مفعول يحذر ، وفاعله الموصول .

والمعنى : فليحذر المخالفون عن أمر الله ، أو أمر رسوله ، أو أمرهما جميعاً إصابة فتنة لهم ﴿ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي في الآخرة كما أن الفتنة التي حذرهم من إصابتها لهم هي في الدنيا ، وكلمة "أو" لمنع الخلوّ .

قال القرطبي : احتجّ الفقهاء على أن الأمر للوجوب بهذه الآية ، ووجه ذلك أن الله سبحانه قد حذر من مخالفة أمره ، وتوعد بالعقاب عليها بقوله : ﴿ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ ﴾ الآية ، فيجب امتثال أمره ، وتحرم مخالفته ، والفتنة هنا غير مقيدة بنوع من أنواع الفتن ، وقيل : هي القتل ، وقيل : الزلازل ، وقيل : تسلط سلطان جائر عليهم ، وقيل : الطبع على قلوبهم .

قال أبو عبيدة ، والأخفش : "عن" في هذا الموضع زائدة .

(84/555)

وقال الخليل ، وسيبويه : ليست بزائدة ، بل هي بمعنى بعد ، كقوله : ﴿ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ﴾ [الكهف : 50] أي : بعد أمر ربه ، والأولى ما ذكرناه من التضمين .

﴿ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السموات والأرض ﴾ من المخلوقات بأسرها ، فهي ملكه ﴿ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ ﴾ أيها العباد من الأحوال التي أنتم عليها ، فيجازيكم بحسب ذلك ، ويعلم ها هنا بمعنى علم ﴿ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ ﴾ معطوف على ما أنتم عليه أي : يعلم ما أنتم عليه ، ويعلم يوم يرجعون إليه ، فيجازيكم فيه بما عملتم ، وتعليق علمه سبحانه بيوم يرجعون لا بنفس رجعهم لزيادة تحقيق علمه ، لأن العمل بوقت وقوع الشيء يستلزم العلم بوقوعه على أبلغ وجه ﴿ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُواْ ﴾ أي يخبرهم بما عملوا من الأعمال التي من جملتها مخالفة الأمر ، والظاهر من السياق : أن هذا الوعيد للمنافقين ﴿ والله بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ لا يخفى عليه شيء من أعمالهم .

وقد أخرج ابن إسحاق ، وابن المنذر والبيهقي في الدلائل ، عن عروة ، ومحمد بن كعب القرظي قالا : لما أقبلت قريش عام الأحزاب نزلوا بمجمع الأسيال من رومة بئر بالمدينة ، قائدها أبو سفيان ، وأقبلت غطفان حتى نزلوا بنقمى إلى جانب أحد ، وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم الخبر ، فضرب الخندق على المدينة ، وعمل فيه المسلمون ، وأبطأ رجال من المنافقين ، وجعلوا يورّون بالضعيف من العمل ، فيتسللون إلى أهليهم بغير علم من رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا إذن ، وجعل الرجل من المسلمين إذا نابته النائبة من الحاجة التي لا بد منها يذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ويستأذنه في اللحوق لحاجته فيأذن له ، فإذا قضى حاجته رجع ، فأنزل الله في أولئك ﴿ إِنَّمَا المؤمنون الذين

ءَامَنُواْ بالله ﴾ الآية .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في الآية قال : هي في الجهاد والجمعة والعيدين .

(85/555)

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم في قوله : ﴿ على أَمْرٍ جَامِعٍ ﴾ قال : من طاعة الله عامّ .

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه ، وأبو نعيم في الدلائل عنه في قوله : ﴿ لاَّ تَجْعَلُواْ دُعَاء الرسول ﴾ الآية قال : يعني : كدعاء أحدكم إذا دعا أخاه باسمه ، ولكن وقروه وقولوا له : يا رسول الله يا نبيّ الله .

وأخرج عبد الغني بن سعيد في تفسيره ، وأبو نعيم في الدلائل عنه أيضاً في الآية قال : لا تصيحوا به من بعيدٍ : يا أبا القاسم ، ولكن كما قال الله في الحجرات : ﴿ إِنَّ الذين يَغُضُّونَ أصواتهم عِندَ رَسُولِ الله ﴾ [الحجرات : 3] .

وأخرج أبو داود في مراسيله ، عن مقاتل ، قال : كان لا يخرج أحد لرعاف ، أو إحداث حتى يستأذن النبي صلى الله عليه وسلم يشير إليه بإصبعه التي تلي الإبهام ، فيأذن النبي

صلى الله عليه وسلم يشير إليه بيده ، وكان من المنافقين من يثقل عليه الخطبة والجلوس في المسجد ، فكان إذا استأذن رجل من المسلمين قام المنافق إلى جنبه يستتر به حتى يخرج . فأنزل الله : ﴿ الذين يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذاً ﴾ الآية .

وأخرج أبو عبيد في فضائله ، والطبراني ، قال السيوطي بسندٍ حسن ، عن عقبة بن عامر قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو يقرأ هذه الآية في خاتمة سورة النور ، وهو جاعل على أصبعيه تحت عينيه يقول : " بكل شيء بصير " . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ فتح القدير حـ 4 صـ ﴾

(86/555)

وقال القاسمي :

﴿ لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً ﴾

أي : إذا احتاج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى اجتماعكم عنده لأمر ، فدعاكم ، فلا تفرقوا عنه إلا بإذنه . ولا تقيسوا دعاءه إياكم على دعاء بعضكم بعضاً . ورجوعكم عن المجمع بغير إذن الداعي ، قاله [في المطبوع : قال] الزمخشري .

وكذا قال ابن الأثير في " المثل السائر " أي : إذا حضرتم في مجلسه ، فلا يكن حضوركم

كحضوركم في مجالسكم . أي : لا تفارقوا مجلسه إلا بإذنه ، والزموا معه الأدب .

وذهب قوم إلى أن المراد بالدعاء الأمر . منهم ابن أبي الحديد حيث قال في " الفلك الدائر " : إن المعنى المتقدم ، وإن دلت عليه قرينة متقدمة ، كما قال ابن الأثير – ففي الآية قرينة أخرى متأخرة تقتضي حمله على محمل آخر غير هذا . ولعله الأصح . وهي أن يراد بالدعاء الأمر . يقال : دعا فلان قومه إلى كذا ، أي : أمرهم به وندبهم إليه وقال سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال : 24] ، أي : ندبكم . وقال سبحانه : ﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ ﴾ [نوح : 7] ، أي : أمرتهم وندبتهم ، والقرينة المتأخرة قوله : ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ ﴾ انتهى . وكذا قال المهايمي : أي : لا تجعلوا أمره بينكم كأمركم بينكم بجاب تارة دون أخرى . لأنه واجب الطاعة . لا يسقط بالانسلال عن جملة المدعوّ .

(87/555)

﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذاً ﴾ أي : ينسلون قليلاً قليلاً . واللواذ : الملاوذة ، وهو أن يلوذ هذا بذاك وذاك بهذا . يعني ينسلون عن الجماعة في الخفية على سبيل الملاوذة ، واستتار بعضهم ببعض . ولواذاً حال . أي : ملاوذين .

هذا ، وقيل معنى الآية : لا تجعلوا نداءه وتسميته ، كنداء بعضكم باسمه ورفع الصوت به ، والنداء وراء الحجرة . ولكن بلقبه المعظم . مثل : يا نبيّ الله ! ويا رسول الله ! مع التوقير والتواضع وخفض الصوت .

وضعف بأنه لا يلائم السياق واللحاق . وتكلف بعضهم لربطه بما قبله ، بأن الاستئذان يكون بقولهم : يا رسول الله ! إنا نستأذنك . ولأن من معه في أمر جامع يخاطبه ويناديه . والأول أظهر وأولى كما في " العناية " .

نعم ، في التنزيل عدة آيات ، في إيجاب مشافهته صلوات الله عليه بالأدب ومخاطبته بالتوقير ، جعله من ضرورة الإيمان ومقتضاه . كآية : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا ﴾ [البقرة : 104] الآية ، و : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ ﴾ [الحجرات : 2] ، إلى قوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ ﴾ [الحجرات : 4] ، ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ ﴾ أي : يعرضون عنه ولا يأتون به . فضمن المخالفة معنى الإعراض والصدّ . أو عن صلته . وقيل : إذا تعدى خالف بعن ضمن الخروج . وأصل معنى المخالفة أن يأخذ كل واحد طريقاً غير طريق الآخر في حاله أو فعله ، كما قاله الراغب : ﴿ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ ﴾ أي : محنة في الدنيا : ﴿ أَوْ يُصِيبَهُمْ

عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي : في الآخرة أو فيهما .

تنبيه :

(88/555)

استدل به على وجوب وزن الأمور بميزان شريعته وسنته ، وأصول دينه . فما وافق قبل ، وما خالف رد على قائله وفاعله ، كائناً من كان . كما ثبت في الصحيحين عنه صلوات الله عليه وسلامه : < من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد > واستدل بالآية أيضاً أن الأمر للوجوب . فإنه يدل على أن ترك مقتضى الأمر مقتض لأحد العذابين . قيل : هذا إنما يتم إذا أريد بالأمر الطلب لا الشأن كما في قوله : ﴿ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ ﴾ وقد جوّزا فيه مع إرادتهما معاً . وتفصيل البحث في " الرازي " .

(89/555)

﴿ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ ﴾ أيها المكلفون من المخالفة والموافقة ، والنفاق والإخلاص . وإنما أكد علمه بقد لتأكيد الوعيد ﴿ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ

فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ أي : فلا يخفى عليه خافية . لأن الكل خلقه وملكه . فيحيط علمه به ضرورة ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [الملك : 14] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 12 صـ 429. 430 ﴾

(90/555)

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب :

قوله تعالى : « لا تَجْعَلُوا دُعاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِواذاً فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ . . »

الدعاء : الأمر الذي يحمل دعوة ، أو الدعوة التي تحمل أمرا .

يتسللون : أي ينسحبون فى خفاء ، من غير أن يشعر بهم أحد .

اللّواذ : الفرار طلبا للسلامة والعافية .

والآية تحث المسلمين على الامتثال لأمر الرسول الكريم ، والاستجابة لما يدعوهم إليه ، من غير مهل ، أو تردّد . . فليست دعوة الرسول للمسلمين ، مثل دعوة بعضهم لبعض ، حيث يكون للإنسان الخيار فى أن يجيب دعوة الداعي أو لا يجيب . .

إن دعوة الرسول ، هى أمر من أمر اللّه ، ليس لمؤمن ولا مؤمنة الخيار فى هذا الأمر ، وإنما عليه الطاعة والامتثال . . واللّه سبحانه وتعالى يقول :

« وَما كانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ » (36 : الأحزاب) ودعاء الرسول هنا ، هو دعاء إلى الجهاد فى سبيل اللّه ، وهو أمر ملزم لكل

(91/555)

قادر على حمل السلاح . . وفى هذا يقول اللّه تعالى : « ما كانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ » (120 التوبة) وقد يكون الدعاء لأمر غير الجهاد ، وهو ـ أيا كان ـ أمر ملزم لمن تلقى الأمر من الرسول ، فإنه لا يأمر إلا بخير ، واللّه سبحانه وتعالى يقول : « يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذا دَعاكُمْ لِما يُحْيِيكُمْ » (24 : الأنفال) قوله تعالى :

« قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِواذاً فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ » .

قد ، هنا ، للتحقيق ، والتوكيد . .

والمعنى : إن اللّه ليعلم الذين يتسلّلون من بين المسلمين ، ويخرجون فى خفية ، فرارا بأنفسهم ، وطلبا للدعة والراحة . .

فليحذر هؤلاء المتسلّلون ، الذي خرجوا على أمر الرسول ، ونكصوا على أعقابهم ، أن تصيبهم فتنة وابتلاء فى الدنيا ، حيث يفتضح أمرهم ، ويصبحوا فى عداد المنافقين . .

فإن لم يصبهم هذا فى الدنيا ، لم يفلتوا من عذاب اللّه فى الآخرة . .

وهو عذاب أليم ، نعوذ باللّه منه .

وفى تعدية الفعل « يُخالِفُونَ » بحرف الجر « عَنْ » مع أنه فعل يتعدى بنفسه . . إشارة إلى أن هذا الفعل قد ضمن معنى « الخروج » ، فهو مخالفة ، وخروج معا ، إذ قد تكون المخالفة فى الرأى ، ثم يكون الامتثال بالعمل . .

وهؤلاء المخالفون الذين يتوعدهم اللّه إنما جمعوا بين المخالفة فى الرأى ، والخروج عليه قولا وعملا . .

(92/555)

وهذا يشير إلى أن مراجعة الرسول ، فيما يأمر به ، مما لم يستبن للمسلم منه الحجة الواضحة والدليل المقنع ـ هذه المراجعة ، بل المعارضة أحيانا لا حرج منها ، إذ كانت غايتها هى

وضوح الرؤية ، وانكشاف الطريق ، لعينى المؤمن ، حتى يكون على بينة من أمره ، وحتى يمتثل ما يؤمر به ، وهو على هدى وبصيرة ، واقتناع . .

فدعوة الإسلام دعوة قائمة على العدل ، مستندة إلى الحجة والبرهان . .

ومن ثمّ كان على المسلم أن يعرض أمور دينه كلها على عقله ، وأن يلتمس الدليل المقنع ، والحجة القاطعة فى كل أمر . . فإذا لم يسعفه عقله بالدليل ، وجب عليه امتثال ما يؤمر به ، مع اليقين بأنه هو الحق ، والخير . . إذ ليس العقل إلا حاسّة من الحواس العاملة فى الإنسان ، وشأنه شأن كل حاسّة فى أن له حدودا يعمل فيها ، وأنه إذا جاوز هذه الحدود بطل عمله . .

وفى سيرة الرسول - صلوات اللّه وسلامه عليه - مع صحابته رضوان اللّه عليهم ، كثير من المواقف ، التي يلقى فيها الصحابة رسول اللّه - فى أدب رائع واحترام عظيم - معترضين أو مخالفين ، حتى إذا كشف لهم الرسول - صلوات اللّه وسلامه عليه - عن وجه الأمر ، أو أراهم من نفسه أنه ماض لما أمرهم به ، لم يكن لأحد منهم إلا السمع والطاعة ، فى إيمان ثابت ويقين مكين . .

وتذكر هنا - من باب الإشارة - ما كان من الحباب بن المنذر بن الجموح ، حين رأى النبىّ - صلوات اللّه وسلامه عليه - وقد أنزل المسلمين منزلا فى غزوة بدر ، فلما لم يره الحباب بالمنزل المناسب للمسلمين ، جاء إلى رسول اللّه يسأله قائلا : يا رسول اللّه . . أهو منزل

أنزلكه اللّه ، فليس لنا أن نتحول عنه ، أم هو الرأى والمكيدة والحرب ؟ فقال صلوات اللّه وسلامه عليه : « بل هو الرأى والمكيدة والحرب » . . وهنا أشار الحباب بالمنزل الذي رآه . . فأخذ

(93/555)

النبىّ برأيه ، وتحول بالمسلمين إليه . . فكان المنزل المبارك ، الذي هبت على المسلمين ريح النصر منه ! ! فمخالفة الرسول هنا ليست لمجرد المخالفة ، وإنما هى للنصح للمسلمين ، أو لنصح المرء لنفسه ولدينه ، حتى لا يكون فى صدره حرج مما يؤمر به ! وبذلك تطيب نفس المسلم ، ويسلم له دينه ، ويتضح له طريقه ، ومن هنا يقوم بينه وبين معتقده ألفة وحب ، حيث لا يدخل عليه شىء لم يرضه ، ويعتقده ، عن إيمان واقتناع . .

قوله تعالى :

« أَلا إِنَّ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ ما أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ » .

بهذه الآية تختم السورة الكريمة ، مضيفة هذا الوجود كله إلى اللّه سبحانه وتعالى ، الذي أوجده ، وأقامه على سنن ، وأخذه بنظام حكيم ، لا يتخلف عنه أبدا . والإنسان هو

بعض ما للّه - هو جزء من هذا الوجود . . وهذه الأحكام والشرائع التي سنها اللّه سبحانه وتعالى للإنسان ، وبين له فيها الطريق الذي يسلكه ، والطرق التي يجتنبها - هى من سنن هذا الوجود ، وفى خروج الإنسان عن أمر اللّه خروج على هذه السنن ، وانحراف عن الوضع السليم الذي يجب أن يكون عليه ، الأمر الذي يعرّضه للعزلة عن هذا الوجود ، ويلقى به بعيدا عن دائرة الأمن والسلامة . . ومن هنا يجىء شقاؤه فى الدنيا والآخرة جميعا . .

وفى قوله تعالى : « قَدْ يَعْلَمُ ما أَنْتُمْ عَلَيْهِ » تحذير للمخالفين للّه ، الخارجين على سننه ، المتمردين على أوامره تحذير لهم من عقابه الراصد ، وعذابه الأليم . .

لأنه سبحانه يعلم كل شىء ، ويعلم من الإنسان ما يخفى وما يعلن ، وما هو عليه من صلاح وفساد ، وطاعة وعصيان ، واستقامة وانحراف . . وقد هنا ، للتحقيق والتوكيد . .

(94/555)

- وقوله تعالى : « وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا » هو جواب لسؤال يرد على الخواطر ، بعد الاستماع إلى قوله تعالى : « قَدْ يَعْلَمُ ما أَنْتُمْ عَلَيْهِ » ، وهو : ما وراء هذا العلم الذي علمه اللّه سبحانه وتعالى من الناس وأعمالهم ؟

ـ وفى قوله تعالى : « وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا » . إشارة إلى جواب هذا السؤال ، وهو أنهم سيحاسبون على هذه الأعمال ، كبيرها وصغيرها ، فى الدنيا والآخرة . . أما فى الدنيا فيكون الحساب والجزاء من غير أن يحضروا هذا الحساب ، أو أن يعرفوا سبب هذا الجزاء الذي يجزون به . . وأما فى الآخرة ، ويوم يرجعون إلى اللّه فينبئهم بما عملوا ، حيث يرون كل ما عملوه حاضرا ، فيعرف كل عامل ما عمل ، وما لعمله من ثواب أو عقاب . . كما يقول سبحانه : « يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتاتاً لِيُرَوْا أَعْمالَهُمْ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ » (6 ـ 8 الزلزلة) وكما يقول جل شأنه : « وَكُلَّ إِنسانٍ أَلْزَمْناهُ طائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ كِتاباً يَلْقاهُ مَنْشُوراً اقْرَأْ كِتابَكَ كَفى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً » . . (13 ، 14 : الإسراء) .

وهذا هو بعض السر فى الانتقال من الخطاب : « قَدْ يَعْلَمُ ما أَنْتُمْ عَلَيْهِ » إلى الغيبة : « وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا » . . وكان النظم يقضى بأن يجىء هذا المقطع من الآية الكريمة هكذا : « ويوم ترجعون إليه فينبئكم بما عملتم » . . وذلك لأن الخطاب بعلم اللّه سبحانه وتعالى بما عليه الناس من خير أو شر ـ هو خطاب عام ، موجه إلى الناس جميعا . . أما قوله تعالى : « وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا » فهو موجه إلى المكذبين بهذا اليوم ، الذين لا يرجون لقاء اللّه ، ولكن على طريق الإيماء ، وذلك بتوجيه الحديث ـ الذي هو من شأنهم ـ إلى غيرهم ، من المؤمنين الذين يؤمنون باليوم الآخر ، وما يلقى الناس فيه . .

وكأنهم بهذا غير أهل لأن يخاطبوا . . وأنه إذا كان ثمة حديث « إليهم » ، فليوجه إلى غيرهم ، ممن هم أهل لأن يسمعوا ، ويعقلوا ، وأنه إذا كان لهؤلاء المكذبين بهذا الحديث ، عودة إلى أنفسهم ، وإلى النظر فى هذا الحديث ، فليأخذوه من أهله . .

« وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ » .

هذا ، والله أعلم . . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التفسير القرآنى للقرآن حـ 2 صـ 1337 .

1341 ﴾

(95/555)

وقال ابن عاشور :

﴿ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا ﴾

لما كان الاجتماع للرسول في الأمور يقع بعدَ دَعوته الناس للاجتماع وقد أمرهم الله أن لا ينصرفوا عن مجامع الرسول صلى الله عليه وسلم إلا لعذر بعد إذنه أنبأهم بهذه الآية وجوب استجابة دعوة الرسول إذا دعاهم .

وقد تقدم قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم ﴾ في سورة الأنفال (24) .

والمعنى : لا تجعلوا دعوة الرسول إياكم للحضور لديه مخيَّرين في استجابتها كما تتخيرون في استجابة دعوة بعضكم بعضاً ، فوجه الشبه المنفي بين الدعوتين هو الخيار في الإجابة .

والغرض من هذه الجملة أن لا يتوهموا أن الواجب هو الثبات في مجامع الرسول إذا حضروها ، وأنهم في حضورها إذا دُعوا إليها بالخيار ، فالدعاء على هذا التأويل مصدر دعاه إذا ناداه أو أرسل إليه ليحضر .

وإضافة ﴿ دعاء ﴾ إلى ﴿ الرسول ﴾ من إضافة المصدر إلى فاعله .

ويجوز أن تكون إضافة ﴿ دعاء ﴾ من إضافة المصدر إلى مفعوله والفاعل المقدر ضمير المخاطبين .

والتقدير : لا تجعلوا دعاءكم الرسولَ ، فالمعنى نهيهم .

ووقع الالتفات من الغيبة إلى خطاب المسلمين حثّاً على تلقي الجملة بنشاط فهمٍ ، فالخطاب للمؤمنين الذين تحدث عنهم بقوله : ﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ﴾ [النور : 62] وقوله : ﴿ إن الذين يستأذنونك ﴾ [النور : 62] الخ .

نُهوا عن أن يدْعوا الرسول عند مناداته كما يدعو بعضهم بعضاً في اللفظ أو في الهيئة .

فأما في اللفظ فبأن لا يقولوا : يا محمد ، أو يا ابن عبد الله ، أو يا ابن عبد المطلب ، ولكن يا رسول الله ، أو يا نبيء الله ، أو بكنيته يا أبا القاسم .

وأما في الهيئة فبأن لا يدعُوه من وراء الحجرات ، وأن لا يُلحوا في دعائه إذا لم يخرج إليهم ، كما جاء في سورة الحجرات .

(96/555)

لأن ذلك كله من الجلافة التي لا تليق بعظمة قدر الرسول صلى الله عليه وسلم فهذا أدب للمسلمين وسدّ لأبواب الأذى عن المنافقين .

وإذ كانت الآية تحتمل ألفاظُها هذا المعنى صح للمتدبر أن ينتزع هذا المعنى منها إذ يكفي أن يأخذ من لاح له معنى ما لاح له .

و﴿ بينكم ﴾ ظرف إما لغو متعلق بـ ﴿ تجعلوا ﴾ ، أو مستقِرّ صفة ل ﴿ دعاء ﴾ ، أي دعاءه في كلامكم .

وفائدة ذكره على كلا الوجهين التعريض بالمنافقين الذين تمالؤوا بينهم على التخلف عن رسول الله إذا دعاهم كلما وجدوا لذلك سبيلاً كما أشار إليه قوله تعالى : ﴿ ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ﴾ [التوبة : 120] .

فالمعنى .

لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كما جعل المنافقون بينهم وتواطأوا على ذلك .

وهذه الجملة معترضة بين جملة : ﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ﴾ [النور : 62] وما تبعها وبين جملة : ﴿ قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذاً ﴾ .

وجملة : ﴿ قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذاً ﴾ استئناف تهديد للذين كانوا سبب نزول آية

﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ﴾ [النور : 62] الآية ، أي أولئك المؤمنون وضدهم المعرض بهم ليسوا بمؤمنين .

وقد عِلمَهم الله وأطلع على تسللهم .

(وقد) لتحقيق الخبر لأنهم يظنون أنهم إذا تسللوا متستّرين لم يطلع عليهم النبي فأعلمهم الله أنه عَلمهم ، أي أنه أعْلم رسوله بذلك .

ودخول (قد) على المضارع يأتي للتكثير كثيراً لأن (قد) فيه بمنزلة (رب) تستعمل في التكثير ، ومنه قوله تعالى : ﴿ قد يعلم الله المعوقين منكم ﴾ [الأحزاب : 18] وقول زهير :

أخو ثقةٍ لا تُهلك الخمرُ مالَه

ولكنه قد يُهلك المَالَ نائلُه . . .

و ﴿ الذين يتسللون ﴾ هم المنافقون .

والتسلل : الانسلال من صُبرة ، أي الخروج منه بخفية خروجاً كأنه سَلّ شيء من شيء .

يقال : تسلل ، أي تكلف الانسلال مثل ما يقال : تدخل إذا تكلف إدخال نفسه .

(97/555)

واللواذ : مصدر لاَوَذَهُ ، إذا لاَذَ به ولاذَ به الآخر .

شبه تستر بعضهم ببعض عن اتفاق وتآمر عند الانصراف خفية بلوذ بعضهم ببعض لأن الذي ستر الخارج حتى يخرج هو بمنزلة من لاذ به أيضاً فجعل حصول فعله مع فعل اللائذ كأنه مفاعلة من اللوذ .

وانتصب ﴿ لواذاً ﴾ على الحال لأنه في تأويل اسم الفاعل .

و﴿ منكم ﴾ متعلق بـ ﴿ يتسللون ﴾ .

وضمير ﴿ منكم ﴾ خطاب للمؤمنين ، أي قد علم الله الذين يخرجون من جماعتكم متسلّلين ملاوذين .

وفرع على ما تضمنته جملة : ﴿ قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذاً ﴾ تحذير من مخالفة ما نهى الله عنه بقوله : ﴿ لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم ﴾ الآية بعد التنبيه على أنه تعالى مطلع على تسللهم .

والمخالفة : المغايرة في الطريق التي يمشي فيها بأن يمشي الواحد في طريق غير الطريق الذي مشى فيه الآخر ، ففعلها متعدّ .

وقد حذف مفعوله هنا لظهور أن المراد الذين يخالفون الله ، وتعدية فعل المخالفة بحرف (عن) لأنَّه ضُمّن معنى الصدود كما عُدّي بـ (إلى) في قوله تعالى : ﴿ وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ﴾ لما ضمن معنى الذهاب .

يقال خالفه إلى الماء ، إذا ذهب إليه دونه ، ولو تُرِكت تعديته بحرف جر لأفاد أصل المخالفة في الغرض المسوق له الكلام .

وضمير ﴿ عن أمره ﴾ عائد إلى الله تعالى .

والأمر هو ما تضمنه قوله : ﴿ لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً ﴾ فإن النهي عن الشيء يستلزم الأمرَ بضده فكأنه قال : اجعلوا لدعاء الرسول الامتثال في العلانية والسر .

وهذا كقول ابن أبي ربيعة . . . .

فقلْنَ لها سراً فديناكِ لا يرُحْ

صحيحاً وإن لم تقتليه فألمم . . .

فجعل قولهن : "لا يَرح صحيحاً" وهو نهي في معنى : اقتليه ، فبنى عليه قوله : "وإن لَم تَقتليه فألمم" .

والحذر : تجنب الشيء المخيف .

والفتنة : اضطراب حال الناس ، وقد تقدمت عند قوله تعالى : ﴿ والفتنة أشد من القتل ﴾ في البقرة (191) .

(98/555)

والعذاب الأليم هنا عذاب الدنيا ، وهو عذاب القتل .

﴿ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

ث تذييل لما تقدم في هذه السورة كلها .

وافتتاحه بحرف التنبيه إيذان بانتهاء الكلام وتنبيه للناس ليعُوا ما يرد بعد حرف التنبيه ، وهو أن الله مالك ما في السماوات والأرض ، فهو يجازي عباده بما يستحقون وهو عالم بما يفعلون .

ومعنى : ﴿ ما أنتم عليه ﴾ الأحوال الملابسين لها من خير وشر ، فحرف الاستعلاء مستعار للتمكن .

وذكَّرهم بالمعاد إذ كان المشركون والمنافقون منكرينه .

وقوله : ﴿ فينبئهم بما عملوا ﴾ كناية عن الجزاء لأن إعلامهم بأعمالهم لو لم يكن كناية عن

الجزاء لما كانت له جدوى .

وقوله : ﴿ والله بكل شيء عليم ﴾ تذييل لجملة : ﴿ قد يعلم ما أنتم عليه ﴾ لأنه أعم منه .

وفي هذه الآية لطيفة الاطلاع على أحوالهم لأنهم كانوا يسترون نفاقهم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 18 صـ ﴾

(99/555)

وقال الشيخ الشنقيطي :

قوله تعالى : ﴿ لاَّ تَجْعَلُواْ دُعَآءَ الرسول بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً ﴾ .

لأهل العلم في هذه الآية أقوال راجعة إلى قولين :

أحدهما : أن المصدر الذي هو دعاء إلى مفعوله ، وهو الرسول صلى الله عليه وسلم ، وعلى هذا فالرسول مدعو .

الثاني : أن المصدر المذكور مضاف إلى فاعله ، وهو الرسول صلى الله عليه وسلم ، وعلى هذا فالرسول داع .

وإيضاح معنى قول من قال : إن المصدر مضاف إلى مفعوله ، أن المعنى : لا تجعلوا دعاءكم

الرسول إذا دعوتموه كدعاء بعضكم بعضاً ، فلا تقولوا له : يا محمد مصرّحين باسمه ، ولا ترفعوا أصواتكم عنده كما يفعل بعضكم مع بعض ، بل قولوا له : يا نبيّ الله ، يا رسول الله ، مع خفض الصوت احتراماً له صلى الله عليه وسلم .

(100/555)

وهذا القول : هو الذي تشهد له آيات من كتاب الله تعالى كقوله : ﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ لاَ ترفعوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النبي وَلاَ تَجْهَرُواْ لَهُ بالقول كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ إِنَّ الذين يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ الله أولئك الذين امتحن الله قُلُوبَهُمْ للتَّقْوَى ﴾ [الحجرات : 23] وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ الحجرات أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ حتى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْراً لَّهُم ﴾ [الحجرات : 45] . وقوله تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الذين آمَنُواْ لاَ تَقُولُواْ رَاعِنَا ﴾ [البقرة : 104] الآية ، وهذا القول في الآية مروي عن سعيد بن جبير ، ومجاهد ، وقتادة ز كما ذكره عنهم القرطبي ، وذكره ابن كثير عن الضحاك ، عن ابن عباس ، وذكره أيضاً عن سعيد بن جبير ، ومجاهد ، ومقاتل ، ونقله أيضاً عن مالك عن زيد بن أسلم ، ثم قال : إنّ هذا القول هو الظاهر ، واستدل له بالآيات التي ذكرنا وأما القول الثاني : وهو أن المصدر مضاف إلى

فاعله ففي المعنى وجهان :

الأول : ما ذكره الزمخشري في الكشاف ، قال إذا احتاج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى اجتماعكم عنده لأمر فدعاكم فلا تتقربوا عنه إلاّ بإذنه ، ولا تقيسوا دعاءه إيّاكم على دعاء بعضكم بعضاً ، ورجوعكم عن المجمع بغير إذن الداعي .

والوجه الثاني : هو ما ذكره ابن كثير في تفسيره قال ، والقول في ذلك أن المعنى في ﴿ لاَّ تَجْعَلُواْ دُعَآءَ الرسول بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً ﴾ أي لا تعتقدوا أن دعاءه على غيره كدعاء غيره ، فإنّ دعاءه مستجاب ، فاحذروا أن يدعو عليكم ، فتهلكوا . حكاه ابن أبي حاتم ، عن ابن عباس ، والحسن البصري ، وعطية العوفي والله أعلم . انتهى كلام ابن كثير .

(101/555)

قال مقيّده عفا الله عنه وغفر له : هذا الوجه الأخير يأباه ظاهر القرآن ، لأنّ قوله تعالى : ﴿ كَدُعَآءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً ﴾ يدل على خلافه ، ولو أراد دعاء بعضهم على بعض لقال : لا تجعلوا دعاء الرسول عليكم كدعاء بعضكم على بعض فدعاء بعضهم بعضاً ، ودعاء بعضهم على بعض متغايران كما لا يخفى .

(102/555)

والظاهر أن قوله : لا تجعلوا من جعل التي بمعنى اعتقد ، كما ذكرنا عن ابن كثير آنفاً .

قوله تعالى : ﴿ فَلْيَحْذَرِ الذين يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

الضمير في قوله : عن أمره راجع إلى رسول ، أو إلى الله والمعنى واحد ، لأنّ الأمر من الله والرسول مبلغ عنه ، والعرب تقول : خالف أمره وخالف عن أمره : وقال بعضهم : يخالفون : مضمن معنى يصدون ، أي يصدُّون عن أمره .

وهذا الآية الكريمة قد استدل بها الأصوليون على أن الأمر المجرد عن القرائن يقتضي الوجوب لأنه جل وعلا توعَّد المخالفين عن أمره بالفتنة أو العذاب الأليم وحذَّرهم من مخالفة الأمر . وكلّ ذلك يقتضي أن الأمر للوجوب ، ما لم يصرف عنه صارف ، لأنّ غير الواجب لا يستوجب تركه الوعيد الشديد والتحذير .

(103/555)

وهذا المعنى الذي دلّت عليه هذه الآية الكريمة من اقتضاء الأمر المطلق الوجوب دلّت عليه آيات أخر من كتاب الله كقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ ﴾ [المرسلات : 48] فإن قوله : ﴿ ارْكَعُوا ﴾ أمر مُطلقن وذمّه تعالى للذين لم يتمثلوه بقوله : ﴿ لَا يَرْكَعُونَ ﴾ يدل على أن امتثاله واجب . وكقوله تعالى لإبليس ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾ [الأعراف : 12] فإنكاره تعالى على إبليس موبّخاً بقوله : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾ يدلّ على أنه تارك واجباً . وأنّ امتثال الأمر واجب مع أنّ الأمر المذكور مطلق ، وهو قوله تعالى : ﴿ اسْجُدُوا لِآدَمَ ﴾ [البقرة : 34] و [الأعراف : 11] و [الإسراء : 61] و [الكهف : 50] و [طه : 116] وكقوله تعالى عن موسى ﴿ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴾ [طه : 93] فسمى مخالفة الأمر معصية ، وأمره المذكور مطلق ، وهو قوله : ﴿ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [الأعراف : 142] وكقوله تعالى : ﴿ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم : 6] وإطلاق اسم المعصية على مخالفة الأمر يدل على أن مخالفة عاص ، ولا يكون عاصياً إلا بترك واجب ، أو ارتكاب محرَّم . وكقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ [الأحزاب : 36] فإنّه يدل على أن أمر الله ، وأمر رسوله مانع من الاختيار موجب للامتثال ، وذلك يدل على اقتضائه الوجوب كما

ترى . وأشار إلى أنّ مخالفته معصية بقوله بعده : ﴿ وَمَن يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً مُّبِيناً ﴾ [الأحزاب : 36] .

(104/555)

واعلم أن اللغة تدل على اقتضاء الأمر المطلق الوجوب بدليل أن السيد لو قال لعبده اسقني ماء مثلاً ، ولم يمتثل العبد أمر سيده فعاقبه السيد فليس للعبد أن يقول : عقابك لي ظلم لأن صيغة الأمر في قولك : اسقني ماء لم توجب عليَّ الامتثال فقد عاقبتني على ترك ما لا يلزمني ، بل يُفهم من نفس الصيغة أنّ الامتثال يَلزمه ، وأن العقاب على عدم الامتثال واقع موقعه ، والفتنة في قوله ﴿ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَة ﴾ قيل هي القتل ، وهو مروي عن ابن عباس ، وقيل : الزلازل والأهوال ، وهو مروي عن عطاء .

(105/555)

وقيل : السلطان الجائر ، وهو مروي عن جعفر بن محمد . قال بعضهم : هي الطبع على القلوب بسبب شؤم مخالفة أمر الله ورسوله صلى الله عليه وسلم . وقال بعض العلماء :

فتنة : محنة في الدنيا أو يصيبهم عذاب أليم في الآخرة .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : قد دلّ استقراء القرآن العظيم أن الفتنة فيه أطلقت على أربعة معان .

الأول : أن يراد بها الإحراق بالنار كقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى النارِ يُفْتَنُونَ ﴾ [الذاريات : 13] وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين فَتَنُواْ المؤمنين ﴾ [البروج : 10] الآية . أي أحرقوهم بنار الأخدود على القول بذلك .

الثاني : وهو أشهرها إطلاق الفتنة على الاختبار كقوله تعالى : ﴿ وَنَبْلُوكُم بالشر والخير فِتْنَةً ﴾ [الأنبياء : 35] الآية . قوله تعالى : ﴿ وَأَلَّوِ استقاموا عَلَى الطريقة لأَسْقَيْنَاهُم مَّآءً غَدَقاً لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾ [الجن : 1617] .

والثالث : إطلاق الفتنة على نتيجة الاختيار إن كانت سيئة كقوله تعالى : ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حتى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدين للَّهِ ﴾ [البقرة : 193] . وفي الإنفال : ﴿ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لله ﴾ [الإنفال : 39] . فقوله : ﴿ حتى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾ 193] أي حتى لا يبقى شرك على أصح التفسيرين ، ويدل على صحته قوله بعده : ﴿ حتى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾ [البقرة : 193] ، لأن الدين لا يكون كله لله حتى لا يبقى شِرك كما ترى ، ويوضح ذلك قوله صلى الله عليه وسلم « أُمِرتُ أن أقاتل الناسَ حتَّى يقولوا لا إله إلا الله » كما لا يخفى .

والرابع : إطلاق الفتنة على الحجَّة في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ وَاللّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام : 23] ، أي لم تكن حجَّتهم ، كما قال به بعض أهل العلم .

(106/555)

والأظهر عندي : أن الفتنة في قوله هنا : ﴿ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ ﴾ أنه من النوع الثالث من الأنواع المذكورة .

وأن معناه أن يفتنهم الله أي يزيدهم ضلالاً بسبب مخالفتهم ، عن أمرهن وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم .

وهذا المعنى تدلّ عليه آيات كثيرة من كتاب الله تعالى ، كقوله جلّ وعلا : ﴿ كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ [المطففين : 14] وقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [الصف : 5] وقوله تعالى : ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللّهُ مَرَضاً ﴾ [البقرة : 10] الآية . وقوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا الذين فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً ﴾ [التوبة : 125] الآية . والآيات بمثل ذلك كثيرة والعلم عند الله تعالى .

(107/555)

وقوله تعالى : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ ﴾ .

بين جل وعلا في هذه الآية الكريمة أنّه يعلم ما عليه خلقه أي من الطاعة والمعصية وغير ذلك .

وهذا المعنى الذي دلت عليه هذه الآية مع أنه معلوم بالضرورة من الدّين ، جاء مبيناً في آيات كثيرة كقوله تعالى : ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السمآء وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذلك ولا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [يونس : 61] وقوله تعالى : ﴿ أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُ أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصدور ﴾ [هود : 5] وقوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ على كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ [الرعد : 33] أي هو شهيد على عباده بما هم فاعلون من خير وشر . وقوله تعالى : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى العزيز الرحيم الذي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ وَتَقَلُّبَكَ فِي الساجدين إِنَّهُ هُوَ السميع العليم ﴾ [الشعراء : 217220] . وقوله تعالى : ﴿ سَوَآءٌ مِّنْكُمْ مَّنْ أَسَرَّ القول وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بالليل وَسَارِبٌ بالنهار ﴾ [الرعد : 10] وقوله تعالى : ﴿ وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ اجهروا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصدور ﴾ [الملك : 13] ، وقوله تعالى : ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الغيب لاَ يَعْلَمُهَآ إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي البر والبحر وَمَا تَسْقُطُ

مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام : 59] ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [هود : 6] وقوله تعالى : ﴿ أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ

(108/555)

خَلَقَ وَهُوَ اللطيف الخبير ﴾ [الملك : 14] إلى غير ذلك من الآيات ، وفي هذه الآيات وما في معناها أحسن وعد للمطيعين ، وأشدّ وعيد للعصاة المجرمين ، ولفظة « قد » في قوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ ﴾ للتحقيق ، وإتيان « قد » للتحقيق مع المضارع كثير جداً في القرآن العظيم . كقوله تعالى : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللهُ الذين يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذاً ﴾ [النور : 63] وقوله تعالى : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللهُ المعوقين مِنكُمْ ﴾ الآية . وقوله تعالى : ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الذي يَقُولُونَ ﴾ [الأنعام : 33] الآية . وقوله تعالى : ﴿ قَدْ نرى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السمآء ﴾ [البقرة : 144] الآية .

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُواْ واللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ .

قوله تعالى في هذه الآية : ﴿ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ ﴾ الظاهر أنه ليس بظرف ، بل هو معطوف على المفعول به الذي هو « ما » ، من قوله : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ ﴾ ، أي ويعلم يوم

يرجعون إليه ، وقد ذكر الله جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أنه يوم القيامة ينبئ الخلائق بكلِّ ما عملوا ؛ أي يخبرهم به ثمَّ يجازيهم عليه .

وما دلّت عليه هذه الآية الكريمة من كونه جلّ وعلا يخبرهم يوم القيامة بما عملوا جاء موضحاً في آيات كثيرة ، كقوله تعالى : ﴿ يُنَبَّأُ الإنسان يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾ [القيامة : 13] وقوله تعالى : ﴿ وَوُضِعَ الكتاب فَتَرَى المجرمين مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يا ويلتنا مالِ هذَا الْكِتَابِ لاَ يُغادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِراً وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً ﴾ [الكهف : 49] والآيات بمثل ذلك كثيرة . والعلم عند الله تعالى . انتهى انتهى . اهـ ﴿ أضواء البيان حـ 5 صـ ﴾

(109/555)

وقال الشيخ الشعراوى :

قوله سبحانه : ﴿ لاَّ تَجْعَلُواْ دُعَآءَ الرسول بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً ﴾ [النور : 63]

فأنتم يدعو بعضكم بعضاً في مسألة خاصة ، لكن الرسول يدعوكم لمسألة عامة تتعلق بحركة حياة الناس جميعاً إلى أنْ تقوم الساعة .

أو : أن الدعاء هنا بمعنى النداء يعني : يناديكم الرسول أو تنادونه ؛ لأن لنداء الرسول صلى الله عليه وسلم آداباً يجب مراعاتها ، فهو ليس كأحدكم تنادونه : يا محمد ، وقد عاب القرآن على جماعة لم يلتزموا أدب النداء مع رسول الله ، فقال : ﴿ إِنَّ الذين يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ الحجرات أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ ﴾ [الحجرات : 4] .

فأساءوا حين قالوا : يا محمد ، ولو قالوا حتى : يا أيها الرسول فقد أساءوا ؛ لأنه لا يصحّ أنْ يتعجّلوا رسول الله ، ويجب أنْ يتركوه على راحته ، إنْ وجد فراغاً للقائهم خرج إليهم ، إذن : أساءوا من وجهين .

ولا يليق أن نناديه صلى الله عليه وسلم باسمه : يا محمد . لأن الجامع بين الرسول وأمته ليس أنه محمد ، إنما الجامع أنه رسول الله ، فلا بُدَّ أنْ نناديه بهذا الوصف . ولِمَ لا وربه عز وجل وهو خالقه ومصطفيه قد ميّزه عن سائر إخوانه من الرسل ، ومن أولي العزم ، فناداهم بأسمائهم :

﴿ يَآءَادَمُ اسكن أَنْتَ وَزَوْجُكَ الجنة ﴾ [البقرة : 35] .

وقال : ﴿ يا نوح اهبط بِسَلاَمٍ مِّنَّا ﴾ [هود : 48] .

وقال : ﴿ يا إبراهيم * قَدْ صَدَّقْتَ الرؤيآ ﴾ [الصافات : 104105] .

وقال : ﴿ يا موسى إني أَنَا الله ﴾ [القصص : 30] .

وقال : ﴿ يا عيسى ابن مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ ﴾ [المائدة : 116] .

وقال : ﴿ ياداوود إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأرض ﴾ [ص : 26] .

(110/555)

لكن لم يُنَادِ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم باسمه أبداً ، إنما يناديه ب " يا أَيُّهَا " الرسول ، يا أَيُّهَا النبي . فإذا كان الحق تبارك وتعالى لم يجعل دعاءه للرسول كدعائه لباقي رسله ، أفندعوه نحن باسمه ؟ ينبغي أن نقول : يا أيها الرسول ، يا أيها النبي ، يا رسول الله ، يا نبي الله ، فهذا هو الوصف اللائق المشرِّف .

وكما نُميِّز دعاء رسول الله حين نناديه ، كذلك حين يناديا نحن يجب أن نُقدِّر هذا النداء ، ونعلم أن هذا النداء لخير عام يعود نفعه على الجميع .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ الله الذين يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذاً فَلْيَحْذَرِ الذين يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور : 63] .

لا شكَّ أن الذين يستأذنون رسول الله فيهم إيمان ، فيُراعنون مجلس رسول الله ، ولا يقومون إلا بإذنه ، لكن هناك آخرون يقومون دون استئذان : ﴿ يَتَسَلَّلُونَ ﴾ [النور : 63]

والتسلل : هو الخروج بتدريج وخُفْية كأنْ يتزحزح من مكان لآخر حتى يخرج ، أو يُوهِمك

أنه يريد الكلام مع شخص آخر ليقوم فينسلِتُ من المجلس خُفْية ، وهذا معنى ﴿ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذاً ﴾ [النور : 63] يلوذ بآخر ليخرج بسببه .

ويحذر الله هؤلاء : ﴿ فَلْيَحْذَرِ الذين يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ ﴾ [النور : 63] والتحذير إنذار بالعاقبة السيئة التي تترتب على الانسحاب من مجلس رسول الله ، كأنه يقول لهم : قارنوا بين انسحابكم من مجلس الرسول وبين ما ينتظركم من العقاب عليه .

وقال : ﴿ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ ﴾ [النور : 63] لا يخالفون أمره ، فجعل في المخالفة معنى الإعراض ، لا مجرد المخالفة ، فالمعنى : يُعرِضون عنه .

(111/555)

والأمر : يُراد به فعل الأمر أو النهي أو الموضوع الذي نحن بصدده يعني : ليس طلباً ، وهذا المعنى هو المراد هنا : أي الموضوع الذي نبحثه ونتحدث فيه ، فانظروا ماذا قال رسول الله ولا تخالفوه ولا تعارضوه ؛ لأنه وإنْ كان بشراً مثلكم إلا أنه يُوحَى إليه .

لذلك يحدد الرسول صلى الله عليه وسلم مركزه كبشر وكرسول ، فيقول : "يَرِدُ عليَّ يعني من الحق الأعلى فأقول : أنا لست كأحدكم ، ويُؤخَذ مني فأقول : ما أنا إلا بشر مثلكم " .

لذلك كان الصحابة يفهمون هذه المسألة ، ويتأدبون فيها مع رسول الله ، ويسألونه في الأمر :

أهو من عند الله قد نزل فيه وَحْي ، أم هو الرأْي والمشورة ؟ فإنْ كان الأمر فيه وَحْيٌ من الله فلا كلامَ لأحد مع كلام الله ، وإنْ كان لم يرد فيه من الله شيء أدْلَى كُلٌّ منهم برأيه ومشورته . وهذا حدث فعلاً " في غزوة بدر حين نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم منزلاً رأى بعض الصحابة أن غيره خير منه ، فسألوا رسول الله : أهذا منزل أنزلكَهُ الله ، أم هو الرأْيُ والمشورة ؟ فقال : " بل هو الرأي والمشورة " فأخبروه أنه غير مناسب ، وأن المكان المناسب كذا وكذا " .

وقوله تعالى : ﴿ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ ﴾ [النور : 63] أي : في الدنيا ﴿ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور : 63] أي : في الآخرة ، فإنْ أفلتوا من فتنة الدنيا فلنْ يُفلتوا من عذاب الآخرة .

ثم تختم السورة بقوله تعالى : ﴿ أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السماوات والأرض ﴾

ألا : أداة تنبيه لشيء مهم بعدها ، والتنبيه يأتي لأن الكلام سفارة بين المتكلم والمخاطب ، المتكلم عادةً يُعد كلامه ، ولديْه أُنْسٌ بما سيقول ، لكن المخاطب قد لا يكون خالي الذِّهْن فيفاجئه القول ، وربما شغله ذلك عن الكلام ، فيضيع منه بعضه .

(112/555)

والحق تبارك وتعالى يريد ألاَّ يضيع منك حرف واحد من كلامه ، فينبهك بكلمة هي في الواقع لا معنى لها في ذاتها ، إلا أنها تنبهك وتُذهِب ما عندك من دهشة أو غفلة ، فتعي ما يُقال لك ، وهذا أسلوب عربي عرفته العرب ، وتحدثتْ به قبل نزول القرآن .

ويقول الشاعر الجاهلي يخاطب المرأة التي تناوله الكأس :

أَلاَ هُبِّي بصَحْنِكِ فَاصْبِحِينا . . . وَلاَ تُبْقِي خُمُورَ الأَنْدرِينَا

يريد أن ينبهها إلى الكلام المفيد الذي يأتي بعد .

وبعد ألا التنبيهية يقول سبحانه : ﴿ إِنَّ للَّهِ مَا فِي السماوات والأرض ﴾ [النور : 64]

.

والسموات والأرض ظرف فيهما كل شيء في الكون العُلْوي والسُّفْلي ، فلله ما في السموات وما في الأرض أي : المظروف فيهما ، فما بال الظرف نفسه ؟ قالوا : هو أيضاً لله ، كما جاء في آية أخرى : ﴿ للَّهِ مُلْكُ السماوات والأرض ﴾ [النور : 42] إذن : فالظرف والمظروف مِلْك له سبحانه .

وعادةً ما يكون الظرف أقلَّ قيمةً من المظروف فيه ، فما بداخل الخزينة مثلاً أثمن منها ، وما بداخل الكيس أثمن منه ، وكذلك عظمة السموات والأرض بما فيهما من مخلوقات . لذلك إياك أنْ تجعل المصحف الشريف ظرفاً لشيء مهم عندك فتحفظه في المصحف ؛ لأنه لا شيء أغلى ولا أثمن من كتاب الله ، فلا يليق أن تجعله حافظةً لنقودك ، أو لأوراقك المهمة ؛

لأن المحفوظ عادة أثمن من المحفوظ فيه .

وفي الآية : ﴿ أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السماوات والأرض ﴾ [النور : 64] أسلوب قصر بتقديم الجار والمجرور ، فكلُّ ما في السموات ، وكل ما في الأرض مِلْكٌ لله وحده ، لا يشاركه فيه أحد ، وعلى كثرة المفترين في الألوهية والفرعونية لم يَدَّعِ أحد منهم أن له مُلْكَ شيء منها .

(113/555)

حتى إن النمورد الذي جادل أبانا إبراهيم عليه السلام وقال : أنا أُحي وأميت لمَّا قال له إبراهيم : ﴿ فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بالشمس مِنَ المشرق فَأْتِ بِهَا مِنَ المغرب ﴾ [البقرة : 258] لم يستطع فِعْل شيء وبُهِت وانتهت المسألة .

ومُلْكه تعالى لم يقتصر على الخَلْق ، فخَلَق الأشياء ثم تركها تؤدي مهمتها وحدها ، إنما خلقها وله تعالى قيومية على ما خلق ، وتصرّف في كل شيء ، فلا تظن الكون من حولك يخدُمك آلياً ، إنما هو خاضع لإرادة الله وتصرّفه سبحانه .

فالماء الذي ينساب لك من الأمطار والأنهار قد يُمنع عنك ويصيب أرضك الجفاف ، أو يزيد عن حَدّه ، فيصبح سيولاً تغرق وتدمر ، إذن : المسألة ليست رتابة خَلْق ، وليست المخلوقات آلاتٍ (ميكانيكية) ، إنما لله المُلك والقيومية والتصرُّف في كل ما خلق .

ثم يقول سبحانه : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ ﴾ [النور : 64] لفهم هذه الآية لا بُدَّ أن نعلم أن علاقة الحق تبارك وتعالى بالأحداث ليستْ كعلاقتنا نحن ، فنحن نعلم من علم النحو أن الأفعال ماضٍ ، وهو ما وقع بالفعل قبل أن تتكلم به مثل : جاء محمد ، ومضارع وهو إما للحال مثل : يأكل محمد . أو للاستقبال مثل : سيأكل محمد .

أما بالنسبة لله تعالى ، فالأحداث سواء كلها مَاضٍ وواقع ، وقد تكلمنا في هذه المسألة في قوله تعالى : ﴿ أَتَى أَمْرُ اللهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ [النحل : 1] .

ومعلوم أن الاستعجال يكون للأمر الذي يأْتِ بَعْد ، والقيامة لم تأتِ بعد لكن عبَّر عنها بالماضي (أتى) لأنه سبحانه لا يعوقه ولا يُخرجه شيء عن مراده ، فكأنها أتتْ بالفعل ، إذن : ﴿ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ [النحل : 1] ليست منطقية مع كلامك أنت ، إنما هي منطقية مع كلام الله .

(114/555)

كذلك في قوله تعالى : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ ﴾ [النور : 64] فقد : للتحقيق ، ويعلم بالنسبة لله تعالى تعني عَلِم ، لكنه بالنسبة لك أنت يعلم : إذن : فهناك طرف منك وطرف من الحق سبحانه ، فبالنسبة للتحقيق جاء بقد ، وبالنسبة للاستقبال جاء بيعلم .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُواْ وَاللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [النور : 64] وجاء في آية أخرى : ﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السمآء وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذلك ولا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [يونس : 61] .

فإياك أن تفهم أن نظر الله ورؤيته سبحانه للأبعاض المختلفة في الأماكن المختلفة رؤية جزئية ، تتجه إلى شيء فلا ترى الآخر ، إنما هي رؤية شاملة ، كأن لكل شيء رؤية وحده ، وهذا واضح في قوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ على كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ [الرعد : 33] .

فسبحانه لا يشغله سَمْع عن سمع ، ولا بَصَر عن بصر ، فبصره سبحانه محيط ، واطلاعه دقيق ؛ لذلك يأتي جزاؤه حقاً يناسب دِقّة اطلاعه ، فإياك إذن أن تغفل هذه الحقيقة ، فربُّك قائم عليك ، ناظر إليك ، لا تَخْفى عليه منك خافية .

فيا مَنْ تتسلل لواذاً احذر ، فلا شيء أهمّ من مجلس مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورسول الله نفسه كان حريصاً أن يرى أصحابه في مجلسه بإستمرار ، والله تعالى يوصيه بذلك فيقول له : ﴿ وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ ﴾ [الكهف : 28] .

وكان بعض أصحابه يُصلِّي خلفه ، فكان عندما يسلم ينصرف الرجل مسرعاً فيراه صلى الله عليه وسلم في أول الصلاة ، ولا يراه في آخرها ، فاستوقفه في إحدى الصلوات وقال له : " أزهداً فينا " ؟ وكأنه يعزّ على رسول الله أن يجد أحد أصحابه لا يتواجد مع حضرته ، أو يَزْهَد في مجلسه ، فيُحرم من الخيرات والتجليات التي تتنزل على مجلس رسول الله ، ويُحرَم من إشعاعات بصيرته وبصره إليه .

لذلك أُحرِج الرجل ، وأخذ يوضح لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما يدفعه كل صلاة إلى الإسراع بالانصراف ، وأن هذا منه ليس زهداً في حضرة رسول الله ومجلس رسول الله ، فقال : يا رسول الله إن لي امرأة بالبيت تنتظر ردائي هذا لتصلي فيه .

يعني : ليس لديه في بيته إلا ثوبٌ واحد ، فدعا له النبي صلى الله عليه وسلم بالخير ، فلما عاد لزوجته سألته عن سبب غيابه ، فقصَّ عليها ما كان من أمر رسول الله ، وأنه استوقفه وحكى لها ما دار بينهما ، فقالت لزوجها : أتشكو ربك لمحمد ؟

ولما سألوها بعد ذلك قالت : " غاب عني مقدار مائة تسبيحة " فانظر إلى ساعتها التي تضبط عليها وقتها . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(116/555)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ ﴾

أخرج ابن إسحق وابن المنذر والبيهقي في الدلائل عن عروة ومحمد بن كعب القرظي قالا : لما أقبلت قريش عام الأحزاب ، نزلوا بمجمع الأسيال من بئر رومة بالمدينة قائدها أبو سفيان ، وأقبلت غطفان حتى نزلوا بتغمين إلى جانب أحد ، وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم الخبر ، وضرب الخندق على المدينة وعمل فيه ، وعمل المسلمون فيه ، وابطأ رجال من المنافقين ، وجعلوا يورون بالضعيف من العمل ، فيتسللون إلى أهليهم بغير علم من رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا اذن ، وجعل الرجل من المسلمين إذا نابته النائبة من الحاجة التي لا بد منها ، يذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ويستأذنه في اللحوق لحاجته ، فيأذن له فإذا قضى حاجته رجع ، فأنزل الله في أولئك المؤمنين ﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع . . . ﴾ إلى قوله ﴿ والله بكل شيء عليم ﴾ [النور : 64] .

وأخرج عبد الرزاق والفريابي وسعيد بن منصور وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله ﴿ وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى

يستأذنوه ﴾ قال : ذلك في الغزو ، والجمعة ، وإذن الإِمام يوم الجمعة : أن يشير بيده .

وأخرج الفريابي عن مكحول في قوله ﴿ وإذا كانوا معه على أمر جامع ﴾ قال : إذا جمعهم لأمر حزبهم من الحرب ونحوه لم يذهبوا حتى يستأذنوه .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في الآية قال : هي في الجهاد ، والجمعة ، والعيدين .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ على أمر جامع ﴾ قال : من طاعة الله .

(117/555)

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر عن ابن سيرين قال : كان الناس يستأذنون في الجمعة ويقولون : هكذا ويشيرون بثلاث أصابع . فلما كان زياد كثر عليه فاغتم فقال : من أمسك على أذنه فهو أذنه .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مكحول في الآية قال : يعمل بها الآن في الجمعة والزحف .

وأخرج سعيد بن منصور عن إسمعيل بن عياش قال : رأيت عمرو بن قيس السكوني

يخطب الناس يوم الجمعة ، فقام إليه أبو المدلَّهْ اليحصبي في شيء وجده في بطنه ، فأشار إليه عمرو بيده أي انصرف ، فسألت عمراً وأبا المدلَّهْ فقال : هكذا كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يصنعون .

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه وأبو نعيم في الدلائل عن ابن عباس في قوله ﴿ لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً ﴾ قال : كانوا يقولون : يا محمد . يا أبا القاسم . فنهاهم الله عن ذلك اعظاماً لنبيه صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا نبي الله يا رسول الله .

وأخرج أبو نعيم في الدلائل عن ابن عباس في قوله ﴿ لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً ﴾ يعني كدعاء أحدكم إذا دعا أخاه باسمه ، ولكن وقروه ، وعظموه ، وقولوا له : يا رسول الله . ويا نبي الله .

وأخرج عبد الغني بن سعيد في تفسيره وأبو نعيم في تفسيره عن ابن عباس في قوله ﴿ لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً ﴾ يريد ولا تصيحوا به من بعيد : يا أبا القاسم . ولكن كما قال الله في الحجرات ﴿ إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله ﴾ [الحجرات : 3] .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في الآية قال : أمرهم الله أن يدعوه : يا رسول الله . في لين وتواضع ولا يقولوا : يا محمد . في

تجهم .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في الآية قال : أمر الله أن يهاب نبيه ، وأن يُبَجَّلَ ، وأن يعظم ، وأن يفخم ، ويشرف .

(118/555)

وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة في الآية قال : لا تقولوا يا محمد . ولكن قولوا يا رسول الله .

وأخرج عبد بن حميد عن سعيد بن جبير والحسن . مثله .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس في قوله ﴿ لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم ﴾ يقول : دعوة الرسول عليكم موجبة ، فاحذروها .

وأخرج سعيد بن منصور عن الشعبي في الآية قال : لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم على بعض .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل بن حيان في قوله ﴿ قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذاً ﴾ قال : هم المنافقون . كان يثقل عليهم الحديث في يوم الجمعة - ويعني بالحديث الخطبة - فيلوذون ببعض الصحابة حتى يخرجوا من المسجد ، وكان لا يصلح للرجل أن يخرج من

المسجد إلا بإذن من النبي صلى الله عليه وسلم في يوم الجمعة بعد ما يأخذ في الخطبة ، وكان إذا أراد أحدهم الخروج أشار بأصبعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فيأذن له من غير أن يتكلم الرجل ، لأن الرجل منهم كان إذا تكلم والنبي يخطب بطلت جمعته .

وأخرج أبو داود في مراسيله عن مقاتل قال : كان لا يخرج أحد لرعاف ، أو أحداث ، حتى يستأذن النبي صلى الله عليه وسلم يشير إليه بأصبعه التي تلي الابهام ، فيأذن له النبي صلى الله عليه وسلم يشير إليه بيده ، وكان من المنافقين من يثقل عليه الخطبة والجلوس في المسجد ، فكان إذا استأذن رجل من المسلمين قام المنافق إلى جنبه يستتر به حتى يخرج ، فأنزل الله ﴿ قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذاً ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة ﴿ قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذاً ﴾ قال : يتسللون عن نبي الله ، وعن كتابه ، وعن ذكره .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله ﴿ لواذاً ﴾ قال : خلافاً .

وأخرج عبد بن حميد عن سفيان ﴿ قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذاً ﴾ قال : يتسللون من الصف في القتال ﴿ فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة ﴾ قال : أن يطبع على قلوبهم .

(119/555)

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن بن صالح قال : إني لخائف على من ترك المسح على الخفين أن يكون داخلاً في هذه الآية ﴿ فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم ﴾ .

وأخرج عبد الرزاق في المصنف عن يحيى بن أبي كثير قال : " نهي رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه أن يقاتلوا ناحية من خيبر ، فانصرف الرجال عنهم وبقي رجل ، فقاتلهم ، فرموه ، فقتلوه ، فجيء به إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : أبعد ما نهينا عن القتال ؟ فقالوا : نعم . فتركه ولم يصل عليه " .

وأخرج عبد الرزاق عن مجاهد قال : " أشد حديث سمعناه عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله في سعد بن معاذ في أمر القبر . ولما كانت غزوة تبوك قال " لا يخرج معنا إلا رجل مُقْوٍ " فخرج رجل على بكر له صعب ، فصرعه ، فمات فقال الناس : الشهيد الشهيد . فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بلالاً أن ينادي في الناس " لا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة ولا يدخل الجنة عاص " .

وأخرج عبد الرزاق عن زيد بن أسلم " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه ذات يوم وهو مستقبل العدو : لا يقاتل أحد منكم ، فعمد رجل منهم ورمى العدو وقاتلهم ،

فقتلوه ، فقيل للنبي صلى الله عليه وسلم استشهد فلان فقال : أبعد ما نهيت عن القتال ؟ قالوا : نعم . قال " لا يدخل الجنة عاص " " .

(120/555)

وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك في قوله ﴿ لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله ﴾ [التوبة : 44] قال : كان لا يستأذنه إذا غزا إلا المنافقون . فكان لا يحل لأحد أن يستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم أو يتخلف بعده إذا غزا ، ولا تنطلق سرية إلا باذنه ، ولم يجعل الله للنبي صلى الله عليه وسلم أن يأذن لأحد حتى نزلت الآية ﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع ﴾ يقول : أمر طاعة ﴿ لم يذهبوا حتى يستأذنوه ﴾ فجعل الاذن إليه يأذن لمن يشاء . فكان إذا جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس لأمر يأمرهم وينهاهم صبر المؤمنون في مجالسهم ، وأحبوا ما أحدث لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بما يوحى إليه ، وبما أحبوا وكرهوا ، فإذا كان شيء مما يكره المنافقون ، خرجوا يتسللون يلوذ الرجل بالرجل يستتر لكي لا يراه النبي صلى الله عليه وسلم . فقال الله تعالى : إن الله تعالى يبصر الذين يتسللون منكم لواذاً .

﴿ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا

عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (64) ﴾

أخرج عبد بن حميد عن قتادة في قوله ﴿ قد يعلم ما أنتم عليه ﴾ الآية. قال: ما كان قوم قط على أمر ولا على حال إلا كانوا بعين الله، وإلا كان عليهم شاهد من الله.

وأخرج أبو عبيد في فضائله والطبراني بسند حسن عن عقبة بن عامر قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ هذه الآية؛ يعني خاتمة سورة النور، وهو جاعل أصبعيه تحت عينيه يقول. "والله بكل شيء بصير" والله أعلم. انتهى انتهى. اهـ

﴿ الدر المنثور حـ 6 صـ ﴾

(121/555)

"فوائد لغوية وإعرابية"

قال السمين:

قوله: ﴿ دُعَآءَ الرسول ﴾:

يجوز أَنْ يكونَ هذا المصدرُ مضافاً لمفعولِه أي: دعاءَكم الرسولَ بمعنى: أَنَّكم لا تنادُوه باسمِه فتقولون: يا محمدُ، ولا بكُنيته فتقولون: يا أبا القاسمِ، بل نادُوه وخاطِبوه بالتوقير: يا رسولَ الله يا نبيَّ الله. وعلى هذا جماعةٌ كثيرةٌ، وأَنْ يكونَ مضافاً للفاعل. واختلفت

عباراتُ الناسِ في هذا المعنى فقيل : لا تَجْعَلوا دعاءَه إيّاكم كدعاءِ بعضٍ لبعضٍ فتتباطَؤُون عنه ، كما يتباطَأُ بعضُكم عن بعضٍ إذا دعاه لأمرٍ ، بل يجبُ عليكم المبادرةُ لأمرِه .

واختاره أبو العباس ، ويؤيِّدُه قوله : ﴿ فَلْيَحْذَرِ الذين يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ ﴾ . وقيل : معناه لا تَجْعَلوا دعاءَ الرسولِ ربَّه مثلَ ما يَدْعو صغيرُكم كبيرَكم ، وفقيرُكم غنيَّكم يَسْأله حاجةً ، فرُبَّما تُجابُ دعوتُه ، ورُبَّما لا تُجاب . وإنْ دَعَواتِ الرسولِ عليه السلام مسموعةٌ مستجابةٌ . . . في التخريجةِ الأخرى .

وقرأ الحسنُ "نَبِيِّكم" بتقديم النونِ على الباء المكسورةِ [بعدَها] ياءٌ مشدَّدةٌ مخفوضةٌ مكانَ "بينَكم" الظرفِ في قراءة العامَّة . وفيها ثلاثةُ أوجهٍ ، أحدها : أنَّه بدلٌ من الرسول . الثاني : أنه عطفُ بيانٍ له لأنَّ النبيَّ [رسولٌ] ، بإضافتِه إلى المخاطبين صار أشهرَ من الرسول . الثالث : أنَّه نعتٌ . لا يُقال : إنَّه لا يجوز لأنَّ هذا كما قَرَّرْتُمْ أعرفُ ، والنعتُ لا يكونُ أعرفَ مِنَ المنعوتِ . بل إمَّا أقلُّ أو مساوٍ ؛ لأنَّ الرسولَ صار عَلَماً بالغَلَبةِ على محمدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم فقد تَسَاويا تعريفاً .

(122/555)

قوله : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللهُ ﴾ قد تَدُلُّ على التقليلِ مع المضارعِ إلاَّ في أفعالِ اللهِ تعالى ، فتدُلُّ على التحقيقِ كهذه الآيةِ . وقد رَدَّها بعضُهم إلى التقليلِ لكنْ إلى متعلِّقِ العلمِ ، يعني أنَّ الفاعِلين لذلك قليلٌ ، فالتقليلُ ليس في العِلْمِ بل في متعلَّقِه .

قوله : ﴿ لِوَاذاً ﴾ فيه وجهان ، أحدُهما : أنه منصوبٌ على المصدرِ من معنى الفعلِ الأولِ ؛ إذ التقديرُ : يَتَسَلَّلُون منكم تَسَلُّلاً ، أو يُلاوِذُونِ لواذاً . والثاني : أنه مصدرٌ في موضعِ الحالِ أي مُلاوِذين . واللِّواذُ : مصدرُ لاوَذَ . وإنَّما صَحَّتِ الواوُ وإنْ انكسرَ ما قبلها ، ولم تُقْلَبْ ياءً كما قُلِبَتْ في قيام وصِيام ؛ لأنها صَحَّتْ في الفعلِ نحو : لاوَذَ فلو أُعِلَّتْ في الفعلِ أُعِلَّتْ في المصدرِ نحو : القيام والصِّيام لقَلْبها ألفاً في قام وصام . فأمَّا مصدرُ لاذَ بكذا يَلُوْذُ بهِ/ فمعتلٌّ نحو : لاذَ لِياذاً ، مثل : صام صِياماً وقام قِياماً . واللِّواذُ والمُلاوَذَةُ : التَّسَتُّرُ يُقال : لاوَذَ فلانٌ بكذا أي : اسْتَتَر به . واللَّوْذُ : ما يَطِيْفُ بالجبل . وقيل : اللِّواذُ : الرَّوَغانُ مِنْ شيءٍ إلى شيءٍ في خُفْيَةٍ . وفي التفسير : أنَّ المنافقين كانوا يَخْرُجون مُتَسَتِّرين بالناسِ من غيرِ استئذانٍ حتى لا يُرَوا . والمفاعَلَةُ : لأنَّ كلاً منهم يَلُوْذُ بصاحبِه فالمشاركةُ موجودةٌ .

وقرأ يزيد بن قطيب " لَواذاً " بفتحِ اللامِ ، وهي محتملةٌ لوجهين أحدُهما : أَنْ تكونَ مصدرَ " لاذ " ثلاثياً فتكون مثلَ : طافَ طَوافاً .

وصَلَحَتْ أَنْ تكونَ مصدرَ لاوَذَ ، إلاَّ أنَّه فُتِحَتْ الفاءُ إتباعاً لفتحةِ العينِ وهو تعليلٌ ضعيفٌ يَصْلُحُ لمثلِ هذه القراءةِ .

قوله : ﴿ فَلْيَحْذَرِ الذين ﴾ فيه وجهان ، أشهرُهما : وهو الذي لا يَعْرِف النحاةُ غيرَه أنَّ الموصولَ هو الفاعلُ و " أن تصيبَهم " مفعولُه أي : فَلْيَحْذَرِ المخالفون عن أمرِه إصابتَهم فتنةٌ . والثاني : أنَّ فاعل " فَلْيَحْذَرْ " ضميرٌ مستترٌ ، والموصولُ مفعولٌ به . وقد رُدَّ على هذا بوجوهٍ منها : أنَّ الإِضمارَ على خلافِ الأصلِ . وفيه نظرٌ ؛ لأن هذا الإِضمارَ في قوةِ المنطوقِ به ، فلا يُقال : هو خلافُ الأصلِ . ألا ترى أنَّ نحوَ : قُمْ ولْتقم فاعلُه مضمرٌ ، ولا يُقال في شيءٍ منه : هو خلافُ الأصلِ ، وإنما الإِضمارُ خلافُ الأصلِ فيما كان حَذْفاً نحو : ﴿ وَسْئَلِ القرية ﴾ [يوسف : 82] .

ومنها أنَّ هذا الضميرَ لا مَرْجعَ له أي : ليس له شيءٌ يعودُ عليه فَبَطَلَ أَنْ يكونَ الفاعلُ ضميراً مستتراً ، وأُجيب : بأنَّ الذي يعودُ عليه الضميرُ هو الموصولُ الأولُ أي : فَلْيَحْذَرِ المُتَسَلِّلون المخالِفينَ عن أمرِه فيكونون قد أُمِرُوا بالحَذَرِ منهم أي : أُمِروا باجتنابهم كما يُؤْمَرُ باجتناب الفُسَّاقِ . وقد رَدُّوا هذا بوجهين ، أحدُهما : أنَّ الضميرَ مفردٌ ، والذي يعودُ عليه جمعٌ ، فقاتَتِ المطابقةُ التي هي شرطٌ في تفسيرِ الضمائر . الثاني : أنَّ المُتَسَلِّلين هم

المخالِفُون ، فلو أُمِروا بالحَذَرِ عن الذين يُخالِفُون لكانوا قد أُمِروا بالحَذَرِ من أنفسهم ، وهو لا يجوز ؛ لأنَّه لا يمكِنُ أَنْ يُؤْمَروا بالحَذَرِ من أنفسهم .

(124/555)

ويمكنُ أَنْ يُجابَ عن الأولِ : بأنَّ الضميرَ وإن كان مفرداً فإنما عاد على جمعٍ باعتبارِ أنَّ المعنى : فليحذرْ هو . أي : مِنْ ذِكْرِ مثلِ ذلك . وحكى سيبويه " ضرَبني وضربْتُ قومَك " أي : ضربني مَنْ ثَمَّ ومَنْ ذُكِر ، وهي مسألةٌ معروفةٌ في النحوِ ، أو يكونُ التقديرُ : فليحذرْ كلُّ واحدٍ من المُتَسَلِّلين . وعن الثاني : بأنه يجوز أَنْ يُؤْمَرَ الإنسانُ بالحَذَرِ عن نفسِه مجازاً . يعني أنَّه لا يطاوعُها على شهواتِها وما تُسَوِّلُه له من السوءِ . كأنه قيل : فَلْيحذرِ المخالفونَ أنفسَهم ، فلا يُطِيْعوها في ما تَأْمُرُهُمْ به ، ولهذا يُقال : أَمَر نفسَه ونهاها ، وأَمَرَتْه نفسُه باعتبار المجازِ .

ومنها : أنَّه يَصيرُ قولُه : ﴿ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ مُفْلَتاً ضائعاً ؛ لأنَّ " يَحْذَرُ " يتعدَّى لواحدٍ ، قد أَخَذَه على زَعْمِكم وهو " الذين يُخالفون " ، ولا يتعدى إلى اثنين حتى يَقُولوا : إنَّ " أَنْ تصيبَهم فتنةٌ " في محلِّ مفعولِه الثاني فبقي ضائعاً . وفيه نظرٌ ؛ لأنَّه لا يُسَلَّم ضَياعُه ؛ لأنه مفعولٌ من أجله . واعتُرِضَ على هذا : بأنه لم يَسْتكمل شروطَ

النصبِ لاختلافِ الفاعلِ ؛ لأنَّ فاعلَ الحَذَرِ غيرُ فاعلِ الإصابةِ وهو ضعيفٌ ؛ لأنَّ حَذْفَ حرفِ الجرِّ يَطَّرِدُ مع أَنْ وأنَّ . فنقول : مُسَلَّمٌ شروطُ النصبِ غيرُ موجودة ، وهو مجرورٌ باللامِ تقديراً ، وإنما حُذِفَتْ مع " أَنْ " لطولِها بالصلة .

(125/555)

و " يُخالِفُون " يتعدى بنفسِه نحو : خالَفْتُ أَمْرَ زيدٍ ، و " إلى " نحو : خالَفْتُ إلى كذا ، فكيف تعدى هذا بحرفِ المجاوزة ؟ وفيه أوجهٌ ، أحدها : أنَّه ضُمِّن معنى صَدَّ وأَعْرَضَ أي : صدَّ عن أمرِه وأَعْرَضَ عنه مخالِفاً له . والثاني : قال ابن عطية : " معناه يَقَعُ خلافُهم بعدَ/ أَمْرِه ، كما تقول : كان المطر عن ريحِ كذا ، وعَنْ لما عدا الشيءَ " . الثالث : أنها مزيدةٌ أي : يخالفون أمرَه ، وإليه نحا الأخفش وأبو عبيدة ، والزيادةُ خلافُ الأصلِ .

وقُرِىء " يُخَلِّفون " بالتشديد ، ومَفْعولُه محذوفٌ أي : يُخَلِّفون أنفسَهم .

قوله : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ ﴾ :

قال : الزمخشري : " أَدْخَلَ " قد " ليؤكِّد عِلْمَه بما هم عليه من المخالفةِ عن الدينِ والنفاق ، ويرجع توكيدُ العلمِ إلى توكيدِ الوعيدِ : وذلك أنَّ " قد " إذا دَخَلَتْ على المضارعِ كانت بمعنى " رُبَّما " فوافَقَتْ " رُبَّما " في خروجِها إلى معنى التكثيرِ في نحو قوله :

3469 فإنْ تُمْسِ مهجورَ الفِناءِ فرُبَّما . . . أقامَ به بعدَ الوُفودِ وُفودُ

ونحوٌ من ذلك قولُ زهير :

3470 أَخي ثقةٍ لا تُهْلِكُ الخمرُ مالَه . . . ولكنّه قد يُهْلِكُ المالَ نائلُهْ

قال الشيخ : " وكونُ " قد " إذا دَخَلَت على المضارعِ أفادَتِ التكثير قولٌ لبعضِ النحاةِ . وليس بصحيحٍ ، وإنما التكثيرُ مفهومٌ من السّياق . والصحيحُ : أنَّ " رُبَّ " للتقليلِ للشيءِ ، أو لتقليلِ نظيرِه . وإنْ فُهِم تكثيرٌ فمِنْ السّياقِ لا منها " .

(126/555)

﴿ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ ﴾ في " يوم " وجهان أحدُهما : أنه مفعولٌ به لا ظرفٌ لعطفِه على قولِه : ﴿ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ ﴾ أي : يعلمُ الذي أنتم عليه مِنْ جميعِ أحوالِكم ، ويَعْلَمُ يومَ يُرْجَعُون كقولِه : ﴿ إِنَّ اللهَ عِندَهُ عِلْمُ الساعة ﴾ ﴿ لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلاَّ هُوَ ﴾ . والثاني : أنه ظرفٌ لشيءٍ محذوف . قال ابن عطية : " ويجوزُ أَنْ يكونَ التقديرُ : والعلمُ الظاهرُ لكم أو نحو هذا يومَ ، فيكونُ النصبُ على الظرفِ " انتهى .

وقرأ العامَّةُ " يُرْجَعون " مبنياً للمفعول . وأبو عمرو في آخرين مبنياً للفاعلِ . وعلى كلتا القراءتين فيجوزُ وجهان ، أحدهما : أَنْ يكونَ في الكلامِ التفاتٌ من الخطابِ في قولِه : ﴿ مَآ

أَنتُمْ عَلَيْهِ ﴾ إلى الغَيْبة في قوله : "يُرْجَعون" . والثاني : أنَّ "ما أنتم عليه" خطابٌ عامٌّ لكلِّ أحدٍ . والضميرُ في "يُرْجَعُون" للمنافقين خاصةً ، فلا التفاتَ حينئذٍ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 446. 451 ﴾

(127/555)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله جلّ ذكره : ﴿ لاَّ تَجْعَلُوا دُعَآءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضاً قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذاً ﴾ .

أي عَظِّموه في الخطاب ، واحفظوا في خدمته الأدبَ ، وعانِقوا طاعتَه على مراعاةِ الهيبة والتوقير .

قوله جلّ ذكره : ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

سعادة الدارين في متابعةَ السنَّة ، وشقاوة المنزلين في مخالفة السُّنَّة . ومِنْ أَيسَرِ ما يُصيب مَنْ خَالَفَ سُنتَه حرمانُ الموافقة ، وتَعَذُّرُ المتابعة بعده ، وسقوط حشمة الدارين عن قلبه .

﴿ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (64) ﴾

إنَّ لليوم غداً ، ولِمَا يفعلُ العبدُ حساباً ، وسيُطالَبُ المكلَّفُ بالصغيرِ والكبير ، والنقير والقطمير . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 624.625 ﴾

(128/555)

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

قوله تعالى ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ﴾

يعني : حلفوا بالله ، وإذا حلفوا بالله كان ذلك جهد اليمين .

﴿ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ﴾ من الأموال .

قال الله تعالى للنبي صلى الله عليه وسلم : ﴿ قُل لَّا تُقْسِمُوا ﴾ أي لا تحلفوا ﴿ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ﴾ يعني : هذه منكم طاعة معروفة ، لا طاعة نفاق ، فكأن فيه مضمراً ، لأن بعض الناس منافقون ، فأخبر أن هذه طاعة ليس فيها نفاق .

ثم قال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ يعني : في السر والعلانية ثم قال عز وجل ﴿ قُلْ

أَطِيعُواْ اللهَ وَأَطِيعُواْ الرسول ﴾ يعني : أطيعوا الله في الفرائض ، وأطيعوا الرسول في السنن .

﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ ﴾ يعني : أعرضوا عن الطاعة لله والرسول ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ ﴾ يعني : ما أمر بتبليغ الرسالة وليس عليه من وزركم شيء ، ﴿ وَعَلَيْكُمْ مَّا حُمِّلْتُمْ ﴾ يعني : ما أمرتم ، والإثم عليكم ، وإذا تركتم الإجابة ﴿ وَإِن تُطِيعُوهُ ﴾ يعني : النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ تَهْتَدُواْ ﴾ من الضلالة .

ثم قال : ﴿ وَمَا عَلَى الرسول إِلاَّ البلاغ المبين ﴾ وفي الآية مضمر ، فكأنه يقول : وإن تعصوه ﴿ وَمَا عَلَى الرسول إِلاَّ البلاغ المبين ﴾ يعني : ليس عليه إلا التبليغ .

(129/555)

قوله عز وجل : ﴿ وَعَدَ الله الذين ءامَنُواْ مِنْكُمْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ وذلك أن كفار مكة لما صَدُّوا المسلمين عن مكة عام الحديبية ، فقال المسلمون : لو فتح الله مكة ودخلناها آمنين ، فنزل قوله ﴿ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى الأرض ﴾ يعني : لينزلنهم في أرض مكة ﴿ كَمَا استخلف الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ يعني : من قبل أمة محمد صلى الله عليه وسلم من بني إسرائيل وغيرهم ، ﴿ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ ﴾ يعني : ليظهرن لهم ﴿ دِينَهُمُ ﴾ الإسلام ﴿ الذى

ارتضى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً ﴾ من الكفار ﴿ يَعْبُدُونَنِى ﴾ يعني : لكي يعبدوني ﴿ لاَ يُشْرِكُونَ بِى شَيْئاً ﴾ ويقال : معناه يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ، أي : يظهر عبادة الله تعالى ، ويبطل الشرك .

وروى الربيع بن أنس عن أبي العالية قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه بمكة زماناً ، نحواً من عشر سنين ، وهم خائفون لا يؤمرون بالقتال ، حتى إذا أمروا بالهجرة إلى المدينة ، فقدموا المدينة ، أمرهم الله تعالى بالقتال ، فكانوا بها خائفين يُمسون في السلاح ، ويصبحون في السلاح ، فقال رجل من أصحابه يا رسول الله نحن أبداً خائفون ، هل يأتي علينا يوم نأمن فيه ، ونضع فيه السلاح ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لاَ يَكُونُ إلاَّ يَسِيراً حَتَّى يَجْلِسَ الرَّجُلُ مِنْكُمْ فِي المَلإِ العَظِيمِ مُحْتَبِياً لَيْسَتْ فِيهِ حَدِيدَةٌ " ونزلت هذه الآية ﴿ وَعَدَ الله الذين ءامَنُواْ مِنْكُمْ وَعَمِلُواْ الصالحات ضَلَّلْنَا فِى الأرض ﴾ الآية .

ويقال : نزلت في شأن أبي بكر وعمر وعثمان وعليّ رضي الله عنهم ﴿ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ ﴾ يعني : يكونوا خلفاء بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم واحداً بعد واحد .

ثم قال : ﴿ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذلك ﴾ يعني : بعد الأمن والتمكين ﴿ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الفاسقون ﴾ أي العاصون .

قرأ عاصم في رواية أبي بكر ﴿ كَمَا استخلف ﴾ بضم التاء على فعل ما لم يُسَمَّ فاعله .

وقرأ الباقون بنصب التاء لأنه سبق ذكر الله تعالى .

وقرأ ابن كثير وعاصم في رواية أبي بكر ﴿ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ ﴾ بالتخفيف .

وقرأ الباقون بتشديد الدال من بدَّل يبدِّل والأول من أبْدَلَ يُبْدِلُ .

قوله عز وجل : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا ﴾ يعني : أقروا بها وأتموها .

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا ﴾ يعني : أقروا بها وأعطوها .

﴿ وَأَطِيعُواْ الرسول ﴾ فيما يأمركم به من التوحيد والطاعة ﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ فلا تعذبون .

قوله عز وجل : ﴿ لاَ تَحْسَبَنَّ الذين كَفَرُواْ مُعْجِزِينَ فِى الأرض ﴾ يعني : فائتين ، ويقال سابقين أمر الله تعالى ، ويقال : معناه لا تظن أنهم يهربون منا وأنهم يفوتون من عذابنا .

﴿ وَمَأْوَاهُمُ النار وَبِئْسَ المصير ﴾ يعني : صاروا إليه وبئس المرجع .

قرأ حمزة وابن عامر ﴿ لاَ يَحْسَبَنَّ ﴾ بالياء ونصب السين ، وقرأ الباقون بالتاء بلفظ المخاطبة وكسر السين .

قوله عز وجل : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ الذين كَفَرُواْ ﴾ قال ابن عباس : وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث غلاماً من الأنصار يقال له مدلج إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه ظهيرة ليدعوه فانطلق الغلام ليدعوه ، فوجده نائماً قد أغلق الباب ، فأخبر الغلام أنه في هذا البيت ، فقرع الباب على عمر فلم يستيقظ ، فدخل فاستيقظ عمر ، فجلس ، فانكشف منه شيء ، فرآه الغلام ، فعرف عمر أنه قد رآه ، فقال عمر : وددت أن الله تعالى نهى أبناءنا ونساءنا وخدمنا أن يدخلوا علينا هذه الساعة إلا بإذن ، ثم انطلق معه إلى النبي صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية ﴿ المصير يا أيها الذين ءامَنُواْ لِيَسْتَأْذِنكُمُ الذين مَلَكَتْ أيمانكم ﴾ يعني : العبيد والإماء والولاية ﴿ والذين لَمْ يَبْلُغُواْ الحلم مِنكُمْ ﴾ يعني : وليستأذنكم الذين لم يبلغوا الحلم ، يعني : الاحتلام ، وهم الأحرار من الغلمان ﴿ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ ﴾ لأنها ساعات غرة وغفلة ، ثم بين الساعات الثلاث ، فقال : ﴿ مّن قَبْلِ صلاة الفجر ﴾ لأن ذلك وقت لبس الثياب ﴿ وَحِينَ تَضَعُونَ ثيابكم مّنَ الظهيرة ﴾ أي وقت القيلولة ﴿ وَمِن بَعْدِ صلاة العشاء ﴾ وذلك وقت النوم ﴿ ثَلاَثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ ﴾ يعني : ثلاث ساعات وقت غرة ، أي : عورة وغفلة ، وهن أوقات التجرد وظهور العورة .

وقرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية واحدة ﴿ ثَلاَثُ عَوْرَاتٍ ﴾ بنصب الثاء ، وقرأ

الباقون بالضم ، فمن قرأ بالنصب فمعناه ليستأذنكم ثلاث عورات أي ثلاث ساعات ، ومن قرأ بالضم معناه هي ثلاث عورات ، فيكون خبراً عن الأوقات الثلاثة .

(132/555)

وروى عكرمة أن رجلين من أهل العراق سألا ابن عباس عن قوله : ﴿ لِيَسْتَأْذِنكُمُ الذين مَلَكَتْ أيمانكم والذين لَمْ يَبْلُغُواْ الحلم مِنكُمْ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ ﴾ فقال ابن عباس : إنَّ الله تعالى سِتِّيرٌ يحب الستر ، وكان الناس لم يكن لهم ستور على أبوابهم ، ولا حجاب في بيوتهم ، فربما فاجأ الرجلَ ولده أو خادمه أو يتيم في حجره وهو مع أهله ، فأمرهم الله تعالى أن يستأذنوا في ثلاث ساعات التي سمى الله تعالى ، ثم جاء الله باليسر ، وبسط الرزق عليهم ، فاتخذوا الستور ، واتخذوا الحجاب ، فرأى الناس أن ذلك قد كفاهم من الاستئذان الذي قد أمروا به ، وقد قيل إن فيه دليلاً أن ذلك الحكم إذا ثبت فإذا زال المعنى زال الحكم .

وقال مجاهد : الاستئذان هو التنحنح .

ثم قال تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلاَ عَلَيْهِمْ ﴾ أي ليس عليكم معشر المؤمنين ، ولا عليهم ، يعني : الخدم ﴿ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ ﴾ يعني : بعد الساعات الثلاث ﴿ طَوفُونَ عَلَيْكُمْ ﴾ يعني : يتقلبون فيكم ليلاً ونهاراً يدخلون عليكم بغير استئذان في الخدمة ﴿ بَعْضَكُمْ على بَعْضٍ

﴿ أي يدخل بعضكم على بعض بغير إذن ﴿ كذلك يُبيّنُ الله لَكُمُ الآيات ﴾ يعني : أمره ونهيه في الاستئذان ﴿ والله عَلِيمٌ ﴾ بصلاح الناس ﴿ حَكِيمٌ ﴾ حكم بالاستئذان .

قوله عز وجل : ﴿ وَإِذَا بَلَغَ الاطفال مِنكُمُ الحلم ﴾ يعني : الاحتلام ﴿ فَلْيَسْتَأْذِنُواْ كَمَا استأذن الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ يعني : الكبار من ولد الرجل وأقربائه معناه فليستأذنوا في كل وقت ، كما استأذن الذين من قبلكم ، يعني : من الرجال ﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ الله لَكُمْ آياته ﴾ أي أمره ونهيه في كل وقت ، ﴿ والله عَلِيمٌ ﴾ بِصَلاَحِكُم ﴿ حَكِيمٌ ﴾ حكم بالاستئذان .

﴿ والقواعد مِنَ النساء ﴾ يعني : الآيسات من الحيض .

(133/555)

والقاعدة : المرأة التي قعدت عن الزوج ، وعن الحيض والولد ، والجماعة قواعد ﴿ اللاتى لاَ يَرْجُونَ نِكَاحاً ﴾ يعني : لا يحتجن إلى الزوج ، ولا يرغب فيهن .

﴿ فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ ﴾ أي جلبابهن ويخرجن بغير جلباب ﴿ غَيْرَ متبرجات بِزِينَةٍ ﴾ والتبرج : إظهار الزينة ، يعني : لا يردن بوضع الجلباب أن ترى زينتهن .

﴿ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ ﴾ يعني : يتعففن ، فلا يضعن الجلباب .

﴿ خَيْرٌ لَّهُنَّ ﴾ من الوضع .

﴿ واللهُ سَمِيعٌ ﴾ لمقالتهن يعني : أن العجوز إذا وضعت جلبابها ، وتبدي زينتها وتقول : من يرغب فيَّ ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بنيتها وبفعلها .

ويقال : سميع عليم بجميع ما سبق في هذه السورة .

ويقال : سميع عليم انصرف إلى ما بعده فيما يتحرجون عن الأكل .

قوله عز وجل : ﴿ لَّيْسَ عَلَى الاعمى حَرَجٌ ﴾ قال في رواية الكلبي : كانت الأنصار يتنزهون عن الأكل مع الأعمى والمريض والأعرج ، وقالوا : إن هؤلاء لا يقدرون أن يأكلوا مثل ما نأكل ، فنزل ﴿ لَّيْسَ عَلَى الاعمى حَرَجٌ ﴾ يعني : ليس على من أكل مع الأعمى حَرَجٌ ﴿ وَلاَ عَلَى ﴾ من أكل مع ﴿ الاعرج حَرَجٌ وَلاَ عَلَى ﴾ من أكل مع ﴿ المريض حَرَجٌ ﴾ إذا أنصف في مؤاكلته .

(134/555)

وقال بعضهم : هذا التفسير خطأ ، وهو غير محتمل في اللغة ، لأنه أضاف الحرج إلى الأعمى لا إلى من أكل معه ، وقد قيل : إن هذا صحيح ، لأنه ذكر الأعمى ، وأراد به الأكل مع الأعمى ، كقوله ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا ميثاقكم وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطور خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ

واسمعوا قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُواْ فِى قُلُوبِهِمُ العجل بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إيمانكم إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة : 93] أي حب العجل ، قال : وكما قال : ﴿ واسئل القرية ﴾ وللآية وجه آخر ، وهو أن الأعمى كان يتحرج عن الأكل مع الناس مخافة أن يأكل أكثر منهم وهو لا يشعر ، والأعرج أيضاً يقول : إني أحتاج لزمانتي أن يوسع لي في المجلس ، فيكون عليهم مضرة ، والمريض يقول : الناس يتأذون مني لمرضي ، ويقذرونني ، فيفسد عليهم الطعام ، فنزل ﴿ لَّيْسَ عَلَى الاعمى حَرَجٌ وَلاَ عَلَى الاعرج حَرَجٌ وَلاَ عَلَى المريض حَرَجٌ ﴾ يعني : لا بأس بأن يأكلوا مع الناس ، ولا مأثم عليهم .

ولها وجه آخر وهو ما روي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : كان الناس يخرجون إلى الغزو ، ويدفعون مفاتيحهم إلى الزَّمْنى والمرضى ، ويقولون : قد أحللنا لكم أن تأكلوا في منازلنا .

وكانوا يتورعون منازلهم حتى نزلت هذه الآية ، وإلى هذا يذهب الزهري رضي الله عنه . وذكر أيضاً أن مالك بن زيد ، وكان صديقه الحارث بن عمرو خرج غازياً ، وخلف مالكاً في أهله وماله وولده ، فلما رجع الحارث رأى مالكاً متغيراً لونه ، فقال : ما أصابك ، فقال : لم يكن عندي شيء آكله ، فجهدت من الشدة والجوع ، ولم يكن يحل لي أن آكل شيئاً من مالك ، فنزلت هذه الآية إلى قوله ﴿ أَوْ صَدِيقِكُمْ ﴾ وقوله : ﴿ وَلاَ على أَنفُسِكُمْ جُنَاحٌ

أَن تَأْكُلُواْ مِن بُيُوتِكُمْ ﴾ أي : لا حرج عليكم أن تأكلوا من بيوتكم ، أو من بيوت عيالكم وأزواجكم .

(135/555)

ويقال : بيوتكم أي بيوت أولادكم .

ويقال : من بيوتكم ، يعني : من بيوت بعضكم ، وذلك أنه لما نزل ﴿ وَلاَ تَأْكُلُواْ أموالكم بَيْنَكُم بالباطل ﴾ امتنع الناس من أن يأكل بعضهم من طعام بعض ، فنزل في ذلك : ﴿ وَلاَ على أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُواْ مِن بُيُوتِكُمْ ﴾ يعني : من بيوت بعضكم بعضاً .

﴿ لَّيْسَ عَلَى الاعمى حَرَجٌ وَلاَ عَلَى الاعرج حَرَجٌ وَلاَ عَلَى المريض حَرَجٌ وَلاَ على أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُواْ مِن بُيُوتِكُمْ ﴾ يعني : لا بأس أن يأكل من بيت هؤلاء بغير إذنهم ، لأنه يجري بينهما من الانبساط ما يغني عن الإذن .

ثم قال : ﴿ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحهُ ﴾ أي : خزائنه يعني : عبيدكم وإماءكم ، إذا كان له عبد مأذون ، فلا بأس أن يأكل من ماله ، لأن ذلك من مال مواليه .

ويقال : يعني : حافظ البيوت ، فلا بأس أن يأكل مقدار حاجته .

ثم قال : ﴿ وَصَدِيقِكُمْ ﴾ يعني : لا جناح على الصديق أن يأكل من بيت صديقه إذا كان

بينهما انبساط.

وروي عن قتادة أنه قال: لو دخلت على صديق، ثم أكلت من طعامه بغير إذنه كان حلالاً.

ثم قال: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ أَن تَأْكُلُواْ جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً ﴾ يعني: جماعة أو متفرقين في بيت هؤلاء.

ويقال: إنهم كانوا يمتنعون عن الأكل وحده، وذكر في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الإِنسانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴾ [العاديات: 6] يعني: الذي يأكل وحده، ويمنع رفده، ويضرب عبده، فرخص في هذه الآية، لأن الإنسان لا يمكنه أن يطلب في كل مرة أحداً يأكل معه.

وروى معمر عن قتادة قال: نزلت الآية في حي من العرب كان الرجل منهم لا يأكل طعامه وحده، وكان يحمله بعض يوم حتى يجد من يأكل معه، فنزل ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُواْ جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً ﴾.

(136/555)

ثم قال: ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً ﴾ قال مقاتل: يعني: دخلتم بيوتاً للمسلمين ﴿ فَسَلِّمُواْ على أَنفُسِكُمْ ﴾ يعني: بعضكم على بعض، كما قال: ﴿ وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ ﴾ يعني:

بعضكم بعضاً .

وروى عمرو بن دينار ، عن ابن عباس ، قال : ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً ﴾ قال : هو المسجد ﴿ فَسَلِّمُواْ على أَنفُسِكُمْ ﴾ فقولوا السلام علينا من ربنا ﴿ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ الله ﴾ يعني : السلام ﴿ مباركة ﴾ بالأَجْرِ ﴿ طَيِّبَةً ﴾ بالمغفرة .

وقال إبراهيم النخعي : ﴿ فَسَلِّمُواْ على أَنفُسِكُمْ ﴾ إذا كان في البيت إنسان يقول : السلام عليكم ، وإذا لم يكن فيه أحد يقول : السلام علينا من ربنا ، وعلى عباد الله الصالحين ، وهكذا قال مجاهد ، وقال الحسن والكلبي : ﴿ فَسَلِّمُواْ على أَنفُسِكُمْ ﴾ يعني : بعضكم على بعض .

وروى أبو ذر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " أَبْخَلُ النَّاسِ الَّذِي يَبْخَلُ بِالسَّلامِ " ويقال : معنى السلام : إذا قال السلام عليكم يعني : السلامة لكم مني ، فكأنه أمنه من شر نفسه .

ويقال : يعني : حفظكم الله من الآفات .

ويقال : السلام هو الله ، فكأنه الله حفيظ عليكم ، ومطلع على ضمائركم ، فإن كنتم في خير فزيدوا ، وإن كنتم في شر فانزجروا ﴿ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ الله ﴾ وأصل التحية هو البقاء والحياة كقوله : حَيَّاكَ الله .

وإنما صار نصباً على المصدر ، ثم قال : ﴿ كذلك يُبيّنُ الله لَكُمُ الآيات ﴾ يعني : أمره ونهيه في أمر الطعام والشراب ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ أي لكي تعقلوا وتفهموا .

(137/555)

قوله عز وجل : ﴿ إِنَّمَا المؤمنون ﴾ يعني : المصدقين ﴿ الذين ءامَنُواْ بالله وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُ على أَمْرٍ جَامِعٍ ﴾ يعني : مع النبي صلى الله عليه وسلم إذا جمعهم على أمر لتدبير في أمر جهاد ، أو في أمر من أمور الله تعالى فيه طاعة لله ولرسوله ﴿ لَّمْ يَذْهَبُواْ ﴾ يعني : لم يفارقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ حتى يَسْتَذِنُوهُ ﴾ .

وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يجمعهم يوم الجمعة ، فيستشيرهم في أمر الغزو ، فكان يثقل على بعضهم المقام ، فيخرجون بغير إذنه .

وقال بعضهم : نزلت في يوم الخندق ، وكان بعض الناس يرجعون إلى منازلهم بغير إذن النبي صلى الله عليه وسلم وتركوا النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، فنهاهم الله تعالى عن ذلك ، وأمرهم بأن لا يرجعوا إلا بإذنه عليه السلام ، وكذلك إذا خرجوا إلى الغزو ، ولا ينبغي لأحد أن يرجع بغير إذنه .

وفي الآية بيان حفظ الأدب ، بأن الإمام إذا جمع الناس لتدبير أمر من أمور المسلمين ينبغي أن

لا يرجعوا إلا بإذنه ، وكذلك إذا خرجوا إلى الغزو ، لا ينبغي لأحد أن يرجع إلا بإذنه ، ولا يخالف أمر السرية .

وروي عن مكحول أنه سئل عن هذه الآية وعنده عطاء ، فقال : هذا في الجمعة ، وفي الزحف ، وفي كل أمر جامع .

ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ الذين يَسْتَذِنُونَكَ أُوْلَئِكَ الذين يُؤْمِنُونَ بالله وَرَسُولِهِ ﴾ وليسوا بمنافقين ، وكان المؤمنون بعد نزول هذه الآية لم يكونوا يرجعون حتى يستأذنوا وأما المنافقون فيرجعون بغير إذن .

ثم قال : ﴿ فَإِذَا استذنوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ ﴾ يعني : لبعض أمورهم وحوائجهم ﴿ فَأْذَنْ لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ ﴾ ولا تأذن لمن شئت لأن بعض المنافقين لم يكن لهم في الرجوع حاجة ، فإن أرادوا أن يرجعوا فلم يأذن لهم ، وأذن للمؤمنين .

وقال مقاتل : نزلت في شأن عثمان حين استأذن في غزوة تبوك بالرجوع إلى أهله ، فأذن له .

(138/555)

﴿ واستغفر لَهُمُ الله ﴾ أي فيما استأذنوك من الرجوع بغير حاجة لهم .

﴿ أَنَّ الله غَفُورٌ ﴾ رَحِيمٌ لمن تاب ﴿ رَّحِيمٌ ﴾ به .

ثم قال عز وجل : ﴿ لاَّ تَجْعَلُواْ دُعَاء الرسول بَيْنَكُمْ ﴾ يعني : لا تدعوا محمداً باسمه صلى الله عليه وسلم ﴿ كَدُعَاء بَعْضِكُمْ بَعْضاً ﴾ ولكن وقِّروه وعظموه ، وقولوا : يا رسول الله ، ويا نبي الله ، ويا أبا القاسم .

وفي الآية بيان توقير معلم الخير ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعلم الخير ، فأمر الله عز وجل بتوقيره وتعظيمه ، وفيه معرفة حق الأستاذ ، وفيه معرفة أهل الفضل .

ثم ذكر المنافقين فقال عز وجل : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ الله ﴾ يعني : يرى الله ﴿ الذين يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ ﴾ يعني : يخرجون من المسجد ﴿ لِوَاذاً ﴾ يلوذ بعضهم ببعض ، وذلك أن المنافقين كان يشقُّ عليهم المقام هناك يوم الجمعة وغيره ، فيتسللون من بين القوم ، ويلوذ الرجل بالرجل ، أو بالسارية لِئلاَّ يراه النبي صلى الله عليه وسلم حتى يخرج من المسجد .

يقال : لاذ يلوذ إذا عاذ وامتنع بشيء .

ويقال : معنى (لِوَاذاً) هنا من الخلاف ، يعني : يخالفون خلافاً ، فخوفهم الله تعالى عقوبته فقال : ﴿ فَلْيَحْذَرِ الذين يخالفون عَنْ أَمْرِهِ ﴾ يعني : عن أمر الله تعالى .

ويقال : عن أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ويقال : عن : زيادة في الكلام للصلة .

ومعناه : يخالفون أمره إلى غير ما أمرهم به ﴿ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ ﴾ يعني : الكفر ، لأن أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم واجب ، فمن تركه على وجه الجحود كفر .

ويقال : فتنة ، يعني : بلية في الدنيا .

ويقال : فساد في القلب .

ويقال : ﴿ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ يعني : يصيبهم عذاب عظيم في الآخرة .

ويقال : القتل بالسيف .

ويقال : يجعل حلاوة الكفر في قلبه .

وقوله : ﴿ أَوْ ﴾ على معنى الإبهام ، لا على وجه الشك والتخيير .

(139/555)

ثم قال عز وجل : ﴿ أَلا إِنَّ للَّهِ مَا فِى السموات والأرض ﴾ من الخلق عبيده وإماؤه في مملكته ﴿ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ ﴾ من خير أو شر ، فيجازيكم بذلك ﴿ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ ﴾ في الآخرة ﴿ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُواْ ﴾ من خير أو شر ، فيجازيهم بذلك .

﴿ والله بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ من أعمالهم وأقوالهم ، وبما في أنفسهم .

وروي عن الأعمش ، عن سفيان بن سلمة ، قال : شهدت ابن عباس ولي الموسم ، وقرأ سورة النور على المؤمنين ، وفسرها على المنبر ، فلو سمعتها الروم لأسلمت .

وقال عمر رضي الله تعالى عنه : تعلموا سورة براءة ، وَعَلِّموا نساءكم سورة النور ، والله

أعلم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ 520. 527 ﴾

(140/555)

وقال الثعلبى :

﴿ وَأَقْسَمُواْ بِاللّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ﴾

وذلك أنّ المنافقين كانوا يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم أينما كنت نكن معك ، إن أقمت أقمنا وإن خرجت خرجنا وإن أمرتنا بالجهاد جاهدنا ، فقال الله سبحانه ﴿ قُل لاَّ تُقْسِمُواْ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ﴾ أي هذه طاعة بالقول واللسان دون الاعتقاد فهي معروفة منكم بالكذب أنكم تكذبون فيها ، وهذا معنى قول مجاهد ، وقيل : معناه طاعة معروفة أمثل وأفضل من هذا القسم الذي تحنثون فيه .

﴿ إِنَّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ من طاعتكم ومخالفتكم .

﴿ قُلْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرسول فَإِن تَوَلَّوْاْ ﴾ عن طاعة الله ورسوله والاذعان بحكمهما ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ ﴾ أي على الرسول ﴿ مَا حُمِّلَ ﴾ كُلّف وأُمر به من تبليغ الرسالة ﴿ وَعَلَيْكُمْ مَّا حُمِّلْتُمْ ﴾ من طاعته ومتابعته ﴿ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ ﴾ .

سمعت أبا بكر محمد بن أحمد بن عقيل الورّاق في آخرين قالوا : سمعنا أبا عمرو إسماعيل بن نجيد السلمي يقول : سمعت أبا عثمان سعيد بن إسماعيل الحيري يقول : من أمّر السنّة على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالحكمة ، ومن أمرّ الهوى على نفسه قولا وفعلا نطق بالبدعة لقول الله سبحانه ﴿ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ ﴾ .

﴿ وَمَا عَلَى الرسول إِلاَّ البلاغ المبين * وَعَدَ الله الذين آمَنُواْ مِنْكُمْ وَعَمِلُواْ الصالحات لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأرض ﴾ إنما أدخل اللام بجواب اليمين المضمر لأنّ الوعد قول ، مجازها وقال الله سبحانه ﴿ الذين آمَنُواْ مِنْكُمْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ والله ليستخلفنّهم في الأرض أي ليورثنّهم أرض الكفّار من العرب والعجم ، فيجعلهم ملوكها وسائسيها وسكّانها .

(141/555)

﴿ كَمَا استخلف الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ يعني بني إسرائيل إذ أهلك الجبابرة بمصر والشام وأورثهم أرضهم وديارهم ، وقرأه العامة : كما استخلف بفتح التاء واللام لقوله سبحانه ﴿ وَعَدَ الله ﴾ وقوله ﴿ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ ﴾ .

وروى أبو بكر عن عاصم بضم التاء وكسر اللام على مذهب ما لم يَسمَّ فاعله .

﴿ وَلَيُمَكِّنَنَّ ﴾ وليوطّننّ ﴿ لَهُمْ دِينَهُمُ ﴾ ملّتهم التي ارتضاها لهم وأمرهم بها ﴿

وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ ﴾ قرأ ابن كثير وعاصم ويعقوب بالتخفيف وهو اختيار أبي حاتم ، غيرهم : بالتشديد وهما لغتان . وقال بعض الأئمة : التبديل : تغيير حال الى حال ، والإبدال : رفع شيء وجعل غيره مكانه ﴿ مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَن كَفَرَ ﴾ بهذه النعمة ﴿ بَعْدَ ذلك ﴾ وآثر يعني الكفر بالله ﴿ فأولئك هُمُ الفاسقون ﴾ .

روى الربيع عن أبي العالية في هذه الآية قال : " مكث النبي صلى الله عليه وسلم عشر سنين خائفاً يدعو الى الله سراً وعلانية ثم أُمر بالهجرة الى المدينة ، فمكث بها هو أصحابه خائفين يصبحون في السلاح ويمسون فيه ، فقال رجل : ما يأتي علينا يوم نأمن فيه ونضع عنّا السلاح فقال النبي صلى الله عليه وسلم " لا تغبرّون إلاّ يسيراً حتى يجلس الرجل منكم في الملأ العظيم محتبياً ليس فيه حديده " . " وأنزل الله سبحانه هذه الآية فأنجز الله وعده وأظهره على جزيرة العرب ، فآمنوا ثم تجبّروا وكفروا بهذه النعمة وقتلوا عثمان بن عفان ، فغيّر الله سبحانه ما بهم وأدخل الخوف الذي كان رفعه عنهم .

وقال مقاتل : لمّا رجع النبي صلى الله عليه وسلم من الحديبيّة حزن أصحابه فأطعمهم اللّه نخل خيبر ، ووعدهم أن يدخلوا العام المقبل مكة آمنين ، وأنزل هذه الآية .

قلت : وفيها دلالة واضحة على صحّة خلافة أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه وإمامة الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم .

روى سعيد بن جهمان عن سفينة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الخلافة من بعدي ثلاثون ثم يكون مُلكاً " .

قال سفينة : أمسك خلافة أبي بكر سنتين ، وعمر عشراً ، وعثمان ثنتي عشرة ، وعليّ ستة .

وأخبرنا أبو عبد الله عبد الرَّحْمن بن إبراهيم بن محمد الطبراني بها قال : أخبرنا شافع بن محمد قال : حدّثنا ابن الوشّاء قال : حدّثنا ابن إسماعيل البغدادي قال : حدّثنا محمد بن الصباح قال : حدّثنا هشيم بن بشير عن أبي الزبير عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الخلافة بعدي في أُمّتي في أربع : أبي بكر وعمر وعثمان وعليّ " .

﴿ وَأَقِيمُواْ الصلاة وَآتُواْ الزكاة وَأَطِيعُواْ الرسول لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * لاَ تَحْسَبَنَّ ﴾ يا محمد ﴿ الذين كَفَرُواْ ﴾ هذه قراءة العامة وقرأ ابن عامر وحمزة بالياء على معنى : لا يحسبن الذين كفروا أنفسهم ﴿ مُعْجِزِينَ ﴾ لأنّ الحسبان يتعدّى إلى مفعولين وقال الفرّاء : يجوز أن يكون الفعل للنبي صلى الله عليه وسلم أي لا يحسبنّ محمد الكافرين معجزين ﴿ فِي الأرض وَمَأْوَاهُمُ النار وَلَبِئْسَ المصير * يا أيها الذين ءَامَنُواْ لِيَسْتَأْذِنكُمُ ﴾ .

قال ابن عباس وجّه رسول الله صلى الله عليه وسلم غلاماً من الأنصار يقال له مدلج بن

عمرو الى عمر بن الخطاب وقت الظهيرة ليدعوه ، فدخل فرأى عمر بحالة كره عمر رؤيته ، فقال : يا رسول الله وددت لو أن الله أمرنا ونهانا في حال الاستيذان فأنزل الله سبحانه هذه الآية .

(143/555)

وقال مقاتل : نزلت في أسماء بنت مرثد ، كان لها غلام كبير فدخل عليها في وقت كرهته فأتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : إنّ خدمنا وغلماننا يدخلون علينا في حال نكرهها فأنزل الله سبحانه ﴿ يا أيها الذين ءَامَنُواْ لِيَسْتَأْذِنكُمُ ﴾ اللام لام الأمر ﴿ الذين مَلَكَتْ أيمانكم ﴾ يعني العبيد والإماء ﴿ والذين لَمْ يَبْلُغُواْ الحلم مِنكُمْ ﴾ من الأحرار ﴿ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ ﴾ في ثلاثة أوقات ﴿ مِّن قَبْلِ صلاوة الفجر وَحِينَ تَضَعُونَ ثيابكم مِّنَ الظهيرة ﴾ للقائلة ﴿ وَمِن بَعْدِ صلاوة العشآء ﴾ .

روى عبد الرَّحْمن بن عوف ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لا تغلبنّكم الأعراب على اسم صلواتكم فإن الله سبحانه قال ﴿ وَمِن بَعْدِ صلاوة العشآء ﴾ وإنّما العتمة عتمة الابل ، وإنّما خصّ هذه الأوقات لأنّها ساعات الغفلة والخلوة ووضع الثياب والكسوة ، فذلك قوله سبحانه ﴿ ثَلاَثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ ﴾ " .

قرأ أهل الكوفة ثلاث بالنصب ردّاً على قوله ﴿ ثَلَاثَ مَرَاتٍ ﴾ ورفعه الآخرون على معنى هذه ثلاث عورات ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلاَ عَلَيْهِمْ ﴾ يعني العبيد والخدم والأطفال ﴿ جُنَاحٌ ﴾ على الدخول بغير إذن ﴿ بَعْدَهُنَّ ﴾ أي بعد هذه الأوقات الثلاثة ﴿ طوافون ﴾ أي هم طوّافون ﴿ عَلَيْكُمْ ﴾ يدخلون ويخرجون ويذهبون ويجيؤون ويتردّدون في أحوالهم وأشغالهم بغير إذن ﴿ بَعْضُكُمْ ﴾ يطوف ﴿ على بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ الله لَكُمُ الأيات والله عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ واختلف العلماء في حكم هذه الآية ، فقال قوم : هو منسوخ لا يعمل به اليوم .

(144/555)

أخبرنا أبو محمد الرومي قال : أخبرنا أبو العباس السراج قال : حدّثنا قتيبة قال : حدّثنا عبد العزيز عن عمرو عن عكرمة أنّ نفراً من أهل العراق قالوا لابن عباس : كيف ترى في هذه الآية ؟ أُمرنا فيها بما أُمرنا فلا يعمل بها أحد ، قول الله عزَّ وجل ﴿ يا أيها الذين ءَامَنُواْ لِيَسْتَأْذِنكُمُ الذين مَلَكَتْ أيمانكم ﴾ الآية ، فقال ابن عباس : إنّ الله رفيق حليم رؤوف رحيم ، يحب الستر ، وكان الناس ليست لبيوتهم ستور ولا حجال ، فربّما دخل الخادم والولد والرجل على أهله ، فأمرهم الله سبحانه وتعالى بالاستيذان في تلك العورات

فجاءهم الله بالستور والخير فلم أر أحداً يعمل بذلك .

وقال آخرون : هي محكمة والعمل بها واجب .

روى سفيان عن موسى بن أبي عائشة قال : سألت الشعبي عن هذه الآية ﴿ لِيَسْتَأْذِنكُمُ الذين مَلَكَتْ أيمانكم ﴾ قلت : أمنسوخة هي ؟ قال : لا والله ما نسخت ، قلت : إنّ الناس لا يعملون بها ؟ قال : الله المستعان .

وروى أبو عوانة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير في هذه الآية قال : إن ناساً تقول : نسخت ، والله ما نسخت ولكنها ممّا يتهاون به الناس .

﴿ وَإِذَا بَلَغَ الأطفال مِنكُمُ ﴾ أي من أحراركم ﴿ الحلم فَلْيَسْتَأْذِنُواْ ﴾ في جميع الأوقات في الدخول عليكم ﴿ كَمَا استأذن الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ يعني الأحرار الكبار .

﴿ كذلك يُبَيِّنُ الله لَكُمْ الآيات والله عَلِيمٌ حَكِيمٌ * والقواعد مِنَ النسآء ﴾ يعني اللاتي قعدن عن الولد من الكبر فلا يحضن ولا يلدن ، واحدتها قاعدة .

﴿ اللاتي لاَ يَرْجُونَ نِكَاحاً ﴾ لا يطمعن في التزوّج وأيسن من البعولة .

(145/555)

﴿ فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ ﴾ عند الرجال يعني جلابيبهن والقناع الذي فوق الخمار ، والرداء الذي يكون فوق الثياب ، يدلّ على هذا التأويل قراءة أُبيّ بن كعب : أن يضعن من ثيابهن ﴿ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ ﴾ يعني من غير أن يردن بوضع الجلباب والثياب أن تُرى زينتهن ، والتبرّج هو أن تظهر المرأة محاسنها ممّا ينبغي لها أن تستره .

﴿ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ ﴾ فيلبيسن جلابيبهنّ ﴿ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * لَّيْسَ عَلَى الأعمى حَرَجٌ ﴾ اختلف العلماء في تأويل هذه الآية وحكمها فقال ابن عباس : لمّا أنزل الله سبحانه وتعالى قوله ﴿ يَا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ لاَ تَأْكلوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بالباطل ﴾ [النساء : 29] تحرّج المسلمون عن مؤاكلة المرضى والزمنى والعمي والعرج وقالوا : الطعام أفضل الأموال ، وقد نهانا الله سبحانه عن أكل المال بالباطل ، والاعمى لا يبصر موضع الطعام الطيّب ، والأعرج لا يستطيع المزاحمة على الطعام ، والمريض لا يستوفي الطعام ، فأنزل الله سبحانه هذه الآية ، وعلى هذا التأويل يكون على بمعنى في ، يعني ليس عليكم في مواكله الأعمى والأعرج والمريض حرج .

وقال سعيد بن جبير والضحاك ومقسم : كان العرجان والعميان يتنزّهون عن مؤاكلة الأصحّاء لانّ الناس يتقزّزون منهم ويكرهون مؤاكلتهم ، وكان أهل المدينة لا يخالطهم في طعامهم أعمى ولا أعرج ولا مريض تقزّزاً فأنزل الله سبحانه هذه الآية .

وقال مجاهد : نزلت هذه الآية ترخيصاً للمرضى والزمنى في الأكل من بيوت من سمّى الله سبحانه في هذه الآية وذلك أن قوماً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا إذا لم يكن عندهم ما يطعمونهم ذهبوا بهم إلى بيوت آبائهم وأُمهاتهم أي بعض من سمّى الله في هذه الآية ، فكان أهل الزمانة : يتحرجون من أن يطعموا ذلك الطعام لأنّه أطعمهم غير مالكيه ويقولون : إنما يذهبون بنا الى بيوت غيرهم ، فأنزل الله سبحانه هذه الآية .

وروى عبد الرزاق عن معمّر قال : سألت الزهري عن هذه الآية فقال : أخبرني عبيد الله بن عبد الله أنّ المسلمين كانوا إذا غزوا خلّفوا زمناهم وكانوا يدفعون إليهم مفاتيح أبوابهم ويقولون : قد أحللناكم أن تأكلوا ممّا في بيوتنا ، فكانوا يتحرّجون من ذلك ويقولون : لا ندخلها وهم غُيّب فأُنزلت هذه رخصة لهم .

وقال الحسن وابن زيد : يعني ليس على الأعمى حرج ﴿ وَلاَ عَلَى الأعرج حَرَجٌ وَلاَ عَلَى المريض حَرَجٌ ﴾ في التخلّف عن الجهاد في سبيل الله ، قالا : وههنا تمام الكلام .

وقوله ﴿ وَلاَ على أَنفُسِكُمْ ﴾ الآية . كلام منقطع عمّا قبله .

قال ابن عباس : تحرّج قوم عن الأكل من هذه البيوت لمّا نزل قوله سبحانه ﴿ يَا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ لاَ تأكلوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بالباطل ﴾ [النساء : 29] وقالوا : لا يحلّ لأحد منّا أن يأكل عند أحد ، فأنزل الله سبحانه هذه الآية ﴿ وَلاَ على أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُواْ مِن بُيُوتِكُمْ أَوْ

بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالاَتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَّفَاتِحَهُ ﴾ .

قال ابن عباس : عنى بذلك وكيل الرجل وقيّمه في ضيعته وماشيته ، لا بأس عليه أن يأكل من ثمر ضيعته ويشرب من لبن ماشيته .

(147/555)

وقال الضحّاك : يعني من بيوت عبيدكم ومماليككم .

مجاهد وقتادة : من بيوت أنفسكم ممّا اخترتم وملكتم ، وقرأ سعيد بن جبير : مُلّكتم بالتشديد .

قال ابن عباس : نزلت هذه الآية في الحرث بن عمرو ، خرج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم غازياً وخلّف ملك بن زيد على أهله فلمّا رجع وجده مجهوداً فسأله عن حاله فقال : تحرّجت أن آكل من طعامك بغير إذنك ، فأنزل الله سبحانه هذه الآية .

وكان الحسن وقتادة يريان دخول الرجل بيت صديقه والتحرّج من طعامه من غير استيذان بهذه الآية .

﴿ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُواْ جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً ﴾ .

قال قوم : نزلت في حيّ من كنانة يقال لهم بنو ليث بن عمرو ، كانوا يتحرّجون أن يأكل الرجل الطعام وحده ، فربما قعد الرجل والطعام بين يديه من الصباح الى المساء الرواح والشول جفل والأحوال منتظمة تحرجاً من أن يأكل وحده ، فإذا أمسى ولم يجد أحداً أكل فأنزل الله سبحانه هذه الآية وهذا قول قتادة والضحاك وابن جريج ، ورواية الوالبي عن ابن عباس .

وروى عطاء الخراساني عنه قال : كان الغنىّ يدخل على الفقير من ذوي قرابته وصداقته فيدعوه إلى طعامه فيقول : والله إنّى لأحتج أن آكل معك أي أتحرّج وأنا غنىّ وأنت فقير ، فنزلت هذه الآية .

وقال عكرمة وأبو صالح : نزلت في قوم من الأنصار كانوا لا يأكلون إذا نزل بهم ضيف إلاّ مع ضيفهم فرخّص لهم في أن يأكلوا حيث شاؤوا جميعاً مجتمعين ، أو أشتاتاً متفرقين .

﴿ فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُواْ على أَنفُسِكُمْ ﴾ أي ليسلّم بعضكم على بعض كقوله سبحانه ﴿ وَلاَ تقتلوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ [النساء : 29] .

(148/555)

عن الحسن وابن زيد حدّثنا ابن حبيب لفظاً في شهور سنة ثمان وثمانين وثلاث مائة قال : حدّثنا أبو حاتم محمد بن حيان البستي قال : حدّثنا محمد بن صالح الطبري قال : حدّثنا

الفضل بن سهل الأعرج قال : حدّثنا محمد بن جعفر المدائني قال : حدّثنا ورقاء عن الأعمش عن زيد بن وهب عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " السلام اسم من أسماء الله تعالى فأفشوه بينكم ، فإنّ الرجل المسلم إذا مرَّ بالقوم فسلّم عليهم فردّوا عليه كان له عليهم فضل درجة بذكره إيّاهم بالسلام ، فإن لم يردّوا عليه ردّ عليه من هو خير منهم وأطيب " .

وحدّثنا أبو القاسم قال : أخبرنا أبو حامد أحمد بن محمد بن العباس البغوي قال : حدّثنا أبو محمد عبد الملك بن محمد بن عبد الوهاب البغوي قال : حدّثنا يونس بن عبد الأعلى قال : أخبرنا ابن وهب قال : أخبرني ابن سمعان أن سعيد المقبري أخبره عن أبيه عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنّه قال : " إذا وقف أحدكم على المجلس فليسلّم ، فإن بدا له أن يقعد فليقعد ، وإذا قام فليسلّم ، فإنّ الأُولى ليست بأحقّ من الآخرة " .

وقال بعضهم : معناه : فإذا دخلتم بيوت أنفسكم فسلّموا على أهلكم وعيالكم ، وهو قول جابر بن عبد الله طاووس والزهري وقتادة والضحاك وعمرو بن دينار ، ورواية عطاء الخراساني عن ابن عباس ، قال : فإن لم يكن في البيت أحد فليقل : السلام علينا من ربّنا وعلى عباد الله الصالحين ، السلام على أهل البيت ورحمة الله .

حدّثنا ابن حبيب لفظاً قال : حدّثنا أبو محمد عبد الله بن محمد بن موسى بن كعب العدل إملاءً قال : حدّثنا أبو نصر اليسع بن زيد بن سهل الرسّي بمكة سنة اثنتين وثمانين ومائتين قال : حدّثنا سفيان بن عيينة عن حميد الطويل عن أنس بن مالك قال : " خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم فما قال لي لشيء فعلته : لم فعلته ؟ ولا قال لي لشيء كسرته : لِمَ كسرته ؟ وكنت واقفاً على رأسه أصبّ على يديه الماء فرفع رأسه فقال " ألا أُعلّمك ثلاث خصال تنتفع بها ؟ قلت : بأبي أنت وأمي يا رسول الله بلى ، قال : من لقيت من أُمّتي فسلّم عليه يَطُلْ عمرك ، وإذا دخلت فسلّم عليهم يكثر خير بيتك ، وصلّ صلاة الضُحى فإنّها صلاة الأَبرار " " .

وقال بعضهم : يعني فإذا دخلتم المساجد فسلّموا على مَن فيها .

أخبرنا أبو سعيد محمد بن عبد الله بن حمدون قال : أخبرنا أبو بكر محمد بن حمدون بن خالد قال : حدّثنا محمد بن عبد الله بن مهل الصنعاني قال : حدّثنا عبد الرزاق قال : أخبرنا معمر عن عمرو بن دينار عن ابن عباس في قوله ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُواْ على أَنفُسِكُمْ ﴾ الآية .

قال : إذا دخلت المسجد فقل : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين .

﴿ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ الله ﴾ نصب على المصدر أي تحيّون أنفسكم بها تحيّةً ، وقيل : على

الحال بمعنى تفعلونه تحيّة من عند الله ﴿ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيات لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * إِنَّمَا المؤمنون الذين آمَنُواْ بالله وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُ ﴾ أي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ على أَمْرٍ جَامِعٍ ﴾ يجمعهم من حرب أو صلاة في جمعة أو جماعة أو تشاور في أمر نزل ﴿ لَّمْ يَذْهَبُواْ ﴾ لم يتفرّقوا عنه ولم ينصرفوا عمّا اجتمعوا له من الأمر ﴿ حتى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الذين يَسْتَأْذِنُونَكَ ﴾ يا محمد ﴿ أولئك الذين يُؤْمِنُونَ بالله وَرَسُولِهِ ﴾ .

(150/555)

أخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا محمد بن خلف قال : حدّثنا إسحاق بن محمد قال : حدّثنا أبي قال : حدّثنا إبراهيم بن عيسى قال : حدّثنا علي عن أبي حمزة الثمالي في هذه الآية قال : هو يوم الجمعة ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا صعد المنبر يوم الجمعة وأراد الرجل أن يقضي الحاجة ، والرجل به العلّة لم يخرج من المسجد حتى يقوم بحيال رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث يراه ، فيعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم أنّه إنّما قام ليستأذن ، فيأذن لمن شاء منهم .

﴿ فَإِذَا استأذنوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ ﴾ أمرهم ﴿ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ ﴾ في الانصراف ﴿ واستغفر لَهُمُ الله إِنَّ الله غَفُورٌ رَّحِيمٌ * لاَّ تَجْعَلُواْ دُعَآءَ الرسول بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُمْ

بَعْضاً ﴾ .

قال ابن عباس : يقول : احذروا دعاء الرسول عليكم إذا أسخطتموه ، فإنّ دعاءه موجب ليس كدعاء غيره .

وقال مجاهد وقتادة : لا تدعوه كما يدعو بعضكم بعضا : يا محمد ، ولكن فخّموهُ وشرّفوه وقولوا : يا نبيّ الله ، يا رسول الله ، في لين وتواضع .

﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللهُ الذين يَتَسَلَّلُونَ ﴾ أي يخرجون ، ومنه : تسلّل القطا ﴿ مِنكُمْ ﴾ أيُّها المنصرفون عن نبيّكم بغير إذنه ﴿ لِوَاذاً ﴾ أي يستتر بعضكم ببعض ويروغ في خفّة فيذهب ، واللواذ مصدر لاوذ بفلان يلاوذ ملاوذة ولواذاً ، ولو كان مصدرا للذُتُ لقال : لياذاً مثل القيام والصيام .

وقيل : إنّ هذا في حفر الخندق ، كان المنافقون ينصرفون بغير أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم لواذاً مختفين .

(151/555)

﴿ فَلْيَحْذَرِ الذين يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ ﴾ أي أمره وعن صلة ، وقيل : معناه يعرضون عن أمره وينصرفون عنه بغير إذنه ﴿ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ ﴾ أي قتل عن ابن عباس ، عطاء :

الزلازل والأَهوال ، جعفر بن محمد : سلطان جائر يسلّط عليهم ، الحسن : بلية تظهر ما في قلوبهم من النفاق ﴿ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ وجيع عاجل في الدنيا . ﴿ أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السماوات والأرض ﴾ عبيداً ومِلكاً ومُلكاً وخلقاً ودلالةً على وجوده وتوحيده وكمال قدرته وحكمته .

﴿ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُواْ واللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 7 صـ 114 . 121 ﴾

(152/555)

وقال الزمخشرى :

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيمانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ﴾

جهد يمينه : مستعار من جهد نفسه : إذا بلغ أقصى وسعها ، وذلك إذا بالغ في اليمين وبلغ غاية شدّتها ووكادتها . وعن ابن عباس رضى اللّه عنه : من قال باللّه ، جهد يمينه .

وأصل : أقسم جهد اليمين : أقسم يجهد اليمين جهدا ، فحذف الفعل وقدّم المصدر فوضع موضعه مضافا إلى المفعول كقوله : فَضَرْبَ الرِّقابِ وحكم هذا المنصوب حكم الحال ، كأنه قال : جاهدين أيمانهم .

وطاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ

خبر مبتدإ محذوف. أو مبتدأ محذوف الخبر، أى: أمركم والذي يطلب منكم طاعة معروفة معلومة لا يشك فيها ولا يرتاب، كطاعة الخلص من المؤمنين الذين طابق باطن أمرهم ظاهره، لا أيمان تقسمون بها بأفواهكم وقلوبكم على خلافها. أو طاعتكم طاعة معروفة، بأنها بالقول دون الفعل. أو طاعة معروفة أمثل وأولى بكم من هذه الأيمان الكاذبة.

وقرأ اليزيدي: طاعة معروفة، بالنصب على معنى: أطيعوا طاعة إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ يعلم ما في ضمائركم ولا يخفى عليه شيء من سرائركم، وأنه فاضحكم لا محالة ومجازيكم على نفاقكم.

[سورة النور (24): آية 54]

قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّما عَلَيْهِ ما حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ ما حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَما عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ (54)

صرف الكلام عن الغيبة إلى الخطاب على طريقة الالتفات وهو أبلغ في تبكيتهم. يريد: فإن تتولوا فما ضررتموه وإنما ضررتم أنفسكم، فإنّ الرسول ليس عليه إلا ما حمله اللّه وكلفه من أداء الرسالة، فإذا أدّى فقد خرج عن عهدة تكليفه. وأما أنتم فعليكم ما كلفتم من التلقي بالقبول والإذعان، فإن لم تفعلوا وتوليتم فقد عرضتم نفوسكم لسخط اللّه

وعذابه. وإن أطعتموه فقد أحرزتم نصيبكم من الخروج عن الضلالة إلى الهدى، فالنفع والضرر عائدان إليكم، وما الرسول إلا ناصح وهاد، وما عليه إلا أن يبلغ ما له نفع في قبولكم «1»، ولا عليه ضرر في توليكم:

والبلاغ: بمعنى التبليغ، كالأداء: بمعنى التأدية. ومعنى المبين: كونه مقرونا بالآيات والمعجزات.

[سورة النور (24): آية 55]

وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ (55)

---

(1). قوله «في قبولكم» عبارة النسفي: في قلوبكم: (ع)

الخطاب لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ولمن معه. ومنكم: للبيان، كالتي في آخر سورة الفتح: وعدهم اللّه أن ينصر الإسلام على الكفر، ويورّثهم الأرض، ويجعلهم فيها خلفاء، كما فعل ببني إسرائيل، حين أورثهم مصر والشام بعد إهلاك الجبابرة، وأن يمكن الدين

المرتضى وهو دين الإسلام . وتمكينه : تثبيته وتوطيده ، وأن يؤمن سربهم ويزيل عنهم الخوف الذي كانوا عليه ، وذلك أنّ النبي صلى اللّه عليه وسلم وأصحابه مكثوا بمكة عشر سنين خائفين ، ولما هاجروا كانوا بالمدينة يصبحون في السلاح ويمسون فيه ، حتى قال رجل : ما يأتى علينا يوم نأمن فيه ونضع السلاح ؟ فقال صلى اللّه عليه وسلم : لا تغبرون «1» إلا يسيرا حتى يجلس الرجل منكم في الملأ العظيم محتبيا ليس معه حديدة «2» ، فأنجز اللّه وعده وأظهرهم على جزيرة العرب ، وافتتحوا بعد بلاد المشرق والمغرب ، ومزقوا ملك الأكاسرة وملكوا خزائنهم ، واستولوا على الدنيا ، ثم خرج الذين على خلاف سيرتهم فكفروا بتلك الأنعم وفسقوا ، وذلك قوله صلى اللّه عليه وسلم «الخلافة بعدي ثلاثون سنة ، ثم يملك اللّه من يشاء فتصير ملكا ، ثم تصير بزيزى «3» :

قطع سبيل ، وسفك دماء ، وأخذ أموال بغير حقها «4»» وقرئ : كما استخلف ، على البناء للمفعول وليبدلنهم : بالتشديد . فإن قلت : أين القسم الملتقى باللام والنون في لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ ؟ قلت :

هو محذوف تقديره : وعدهم اللّه ، وأقسم ليستخلفنهم . أو نزّل وعد اللّه في تحققه منزلة القسم ،

---

(1) . قوله : «لا تغيرون إلا يسيرا» أى لا تبقون ، أفاده الصحاح . (ع)

(2) . أخرجه الطبري من طريق أبى جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبى العالية في قوله

تعالى وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ قال : مكث النبي صلى اللّه عليه وسلم عشر سنين خائفا يدعو إلى اللّه سرا وعلانية . ثم أمر بالهجرة إلى المدينة فمكث بها هو وأصحابه - إلى آخره» وصله الحاكم وابن مردويه دون أوله بذكر أبى بن كعب فيه . وأوله «لما قدم النبي صلى اللّه عليه وسلم وأصحابه المدينة وآوتهم الأنصار .

رمتهم العرب عن قوس واحدة لا يبيتون إلا بالسلاح . . . الحديث» .

(3) . قوله «تصير بزيزى» في الصحاح : بزه ينزه بزا : سلبه . والاسم البزيزى مثل الخصيصى . (ع)

(4) . لم أجده . وأوله في السنن وابن ماجة والحاكم وأحمد والطبراني والبيهقي والثعلبي كلهم من حديث سفينة «الخلافة في أمتى ثلاثون سنة ثم ملك بعد ملك» وفي لفظ «ثم يملك اللّه من يشاء» وروى أحمد وابن أبى شيبة والطبراني من طريق عبد الرحمن بن سابط عن أبى ثعلبة عن أبى عبيدة ومعاذ بن جبل مرفوعا . «إن اللّه بدأ هذا الأمر نبوة ثم يصير خلافة . . . الحديث» .

فتلقى بما يتلقى به القسم ، كأنه قيل : أقسم اللّه ليستخلفنهم . فإن قلت : ما محل

يَعْبُدُونَنِي ؟

قلت : إن جعلته استئنافا لم يكن له محل ، كأن قائلا قال : ما لهم يستخلفون ويؤمنون ؟ فقال

:

يعبدونني . وإن جعلته حالا عن وعدهم ، أى وعدهم اللّه ذلك في حال عبادتهم

وإخلاصهم ، فمحله النصب وَمَنْ كَفَرَ يريد كفران النعمة : كقوله فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ .

فَأُولَئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ أى : هم الكاملون في فسقهم . حيث كفروا تلك النعمة العظيمة

وجسروا على غمطها «1» . فإن قلت : هل في هذه الآية دليل على أمر الخلفاء

الراشدين ؟ قلت : أوضح دليل وأبينه لأن المستخلفين الذين آمنوا وعملوا الصالحات هم

هم .

[سورة النور (24) : آية 56]

وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (56)

وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ معطوف على أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وليس ببعيد أن يقع بين المعطوف

والمعطوف عليه فاصل وإن طال : لأنّ حق المعطوف أن يكون غير المعطوف عليه .

وكرّرت طاعة الرسول : تأكيدا لوجوبها .

[سورة النور (24) : آية 57]

لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْواهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ (57)

وقرئ: لا يحسبن، بالياء. وفيه أوجه: أن يكون مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ هما المفعولان. والمعنى: لا يحسبن الذين كفروا أحدا يعجز اللّه في الأرض حتى يطمعوا هم في مثل ذلك. وهذا معنى قوى جيد. وأن يكون فيه ضمير الرسول لتقدم ذكره في قوله وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وأن يكون الأصل: لا يحسبنهم الذين كفروا معجزين، ثم حذف الضمير الذي هو المفعول الأوّل، وكان الذي سوّغ ذلك أنّ الفاعل والمفعولين لما كانت لشيء واحد، اقتنع بذكر اثنين عن ذكر الثالث، وعطف قوله وَمَأْواهُمُ النَّارُ على لا يحسبنّ الذين كفروا معجزين، كأنه قيل: الذين كفروا لا يفوتون اللّه ومأواهم النار. والمراد بهم: المقسمون جهد أيمانهم.

[سورة النور (24): آية 58]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلاةِ الْعِشاءِ ثَلاثُ عَوْراتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلا عَلَيْهِمْ جُناحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلى بَعْضٍ كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآياتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (58)

---

(1). قوله «على غمطها» أى: احتقارها. (ع)

أمر بأن يستأذن العبيد . وقيل : العبيد والإماء والأطفال الذين لم يحتلموا من الأحرار ثَلاثَ مَرَّاتٍ في اليوم والليلة : قبل صلاة الفجر ، لأنه وقت القيام من المضاجع وطرح ما ينام فيه من الثياب ولبس ثياب اليقظة . وبالظهيرة ، لأنها وقت وضع الثياب للقائلة . وبعد صلاة العشاء لأنه وقت التجرّد من ثياب اليقظة والالتحاف بثياب النوم . وسمى كل واحدة من هذه الأحوال عورة ، لأن الناس يختل تسترهم وتحفظهم فيها . والعورة : الخلل . ومنها : أعور الفارس ، «1» وأعور المكان ، والأعور : المختل العين . ثم عذرهم في ترك الاستئذان وراء هذه المرات ، وبين وجه العذر في قوله طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ يعنى أن بكم وبهم حاجة إلى المخالطة والمداخلة : يطوفون عليكم للخدمة ، وتطوفون عليهم للاستخدام ، فلو جزم الأمر بالاستئذان في كل وقت ، لأدّى إلى الحرج . وروى أن مدلج بن عمرو : وكان غلاما أنصاريا : أرسله رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وقت الظهر إلى عمر ليدعوه ، فدخل عليه وهو نائم وقد انكشف عنه ثوبه ، فقال عمر : لوددت أنّ اللّه عز وجل نهى آباءنا وأبناءنا وخدمنا أن لا يدخلوا علينا هذه الساعات إلا بإذن ، ثم انطلق معه إلى النبي صلى اللّه عليه وسلم ، فوجده وقد أنزلت عليه هذه الآية «2» : وهي إحدى الآيات المنزلة بسبب عمر رضى اللّه تعالى عنه . وقيل : نزلت في أسماء بنت أبى مرشد «3» ، قالت : إنا لندخل على الرجل والمرأة ولعلهما يكونان في لحاف واحد «4» .

وقيل : دخل عليها غلام لها كبير في وقت كرهت دخوله ، فأتت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فقالت : إن خدمنا وغلماننا يدخلون علينا في حال نكرهها . وعن أبى عمرو : الْحُلُمَ بالسكون .

وقرئ ثَلاثُ عَوْراتٍ بالنصب بدلا عن ثلاث مرات ، أى : أوقات ثلاث عورات . وعن الأعمش : عورات على لغة هذيل . فإن قلت ما محل ليس عليكم ؟ قلت : إذا رفعت ثلاث عورات كان ذلك في محل الرفع على الوصف . والمعنى : هنّ ثلاث عورات مخصوصة بالاستئذان ، وإذا نصبت : لم يكن له محل وكان كلاما مقرّرا للأمر بالاستئذان في تلك الأحوال خاصة : فإن قلت :

بم ارتفع بَعْضُكُمْ ؟ قلت : بالابتداء وخبره عَلى بَعْضٍ على معنى : طائف على بعض ، وحذف لأن طوافون يدل عليه . ويجوز أن يرتفع بيطوف مضمرا لتلك الدلالة .

[سورة النور (24) : آية 59]

وَإِذا بَلَغَ الْأَطْفالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آياتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (59)

---

(1) . قوله «و منها أعور الفارس» في الصحاح أعور الفارس ، إذا بدا فيه موضع خلل للضرب . (ع)

(2) . هكذا نقله الثعلبي والواحدي والبغوي وابن عباس رضى اللّه عنهما بغير سند .

(3) . قوله «و قيل نزلت في أسماء بنت أبى مرشد» لعله مرثد ، كما في عبارة النسفي .

(ع)

(4) . هكذا نقله الثعلبي والواحدي عن مقاتل .

(156/555)

الْأَطْفالُ مِنْكُمُ أى من الأحرار دون المماليك الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ يريد : الذين بلغوا الحلم من قبلهم ، وهم الرجال . أو الذين ذكروا من قبلهم في قوله يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا الآية : والمعنى أنّ الأطفال مأذون لهم في الدخول بغير إذن إلا في العورات الثلاث ، فإذا اعتاد الأطفال ذلك ثم خرجوا عن حدّ الطفولة بأن يحتلموا أو يبلغوا السنّ التي يحكم فيها عليهم بالبلوغ ، وجب أن يفطموا عن تلك العادة ويحملوا على أن يستأذنوا في جميع الأوقات كما الرجال الكبار الذين لم يعتادوا الدخول عليكم إلا بإذن : وهذا مما الناس منه في غفلة ، وهو عندهم كالشريعة المنسوخة . وعن ابن عباس : آية لا يؤمن بها أكثر الناس : آية الإذن ، وإنى لآمر جارتى أن تستأذن علىّ . وسأل عطاء : أأستأذن على أختى ؟

قال . نعم وإن كانت في حجرك تمونها ، وتلا هذه الاية . وعنه ، ثلاث آيات جحدهنّ

الناس :

الإذن كله . وقوله إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقاكُمْ فقال ناس : أعظمكم بيتا . وقوله وَإِذا حَضَرَ الْقِسْمَةَ . وعن ابن مسعود . عليكم أن تستأذنوا على آبائكم وأمهاتكم وأخواتكم . وعن الشعبي :

ليست منسوخة ، فقيل له ، إن الناس لا يعملون بها ، فقال ، اللّه المستعان . وعن سعيد بن جبير يقولون هي منسوخة ، ولا واللّه ما هي منسوخة ، ولكن الناس تهاونوا بها : فإن قلت ما السنّ التي يحكم فيها بالبلوغ ؟ قلت : قال أبو حنيفة ثماني عشرة سنة في الغلام . وسبع عشرة في الجارية .

وعامة العلماء على خمس عشرة فيهما . وعن على رضى اللّه عنه أنه كان يعتبر القامة ويقدره بخمسة أشبار . وبه أخذ الفرزدق في قوله :

ما زال مذ عقدت يداه إزاره فسما فأدرك خمسة الأشبار «1»

---

(1) ما زال مذ عقدت يداه إزاره وسما فأدرك خمسة الأشبار

يدنى خوافق من خوافق تلتقي في ظل معتبط الغبار مثار

للفرزدق : يرثى يزيد بن المهلب . يقول : لا زال يحارب من حين عقدت يداه إزاره على نفسه كناية عن تمييزه فيتولى أمور نفسه ، فمذ : ظرف زمان لاضافتها إلى الجملة ، ولكنها تفيد معنى من الابتدائية أيضا ، لأن المعنى :

ما زال يقتحم الحروب من حين بلغ أشده إلى أن مات . وإسناد العقد إلى اليد من باب الاسناد للآلة ، لأنه عاقد بها . وسما : ارتفع فبلغت قامته مقدار خمسة الأشبار . قيل : المراد بها مقدار السيف ، وذلك كناية عن بلوغه أشده . وقيل : المراد بها مقدار القبر ، وإدراكها : كناية عن موته . أى : من حين تمييزه إلى حين موته يهيج الحروب وهو أبلغ في المعنى . وعطف «أدرك» بالفاء دلالة على قصر مدته وقرب موته . ويروى : فسما ، بالفاء .

ويجوز أن يكون معناه : ارتفع قدره ، فيكون قد حكى جميع حالاته . وقوله «يدنى» خبر ما زال ، أى : يقرب رايات مضطربات إلى أخرى في الحرب . أو خيلا مضطربة إلى مثلها . والمراد أنه يقرب الكتائب بعضها إلى بعض حتى تلتقي كلها في ظل معتبط من الغبار ، والمعتبط – بالعين المهملة – : اسم مفعول ، أى : لم يقاتل فيه غيره قبله فيثيره من موضعه ، بل هو الذي أثاره منه . أو أنه هو الذي أخرجه من الأرض الصلبة فلم يكن موجودا قبل . ويروى بالغين المعجمة . أى : مكثر : والمعنى : أنه كان يزاد منه ويكثره . ويجوز أنه اسم مكان . ويروى :

معترك العجاج ، وهو موضع المعركة . والعجاج : الغبار . ومثار : صفة معتبط إن لم يتعرف بالاضافة ، ويجوز أن أصله : مثاره ، بالاضافة للضمير ، فحذف للضرورة . وفي إثبات الظل للغبار المعتبط المثار : دلالة على أنه متراكم حاجب ضوء الشمس عن المحاربين .

واعتبر غيره الإنبات . وعن عثمان رضى اللّه عنه . أنه سئل عن غلام ، فقال : هل اخضر إزاره ؟

[سورة النور (24) : آية 60]

وَالْقَواعِدُ مِنَ النِّساءِ اللاَّتِي لا يَرْجُونَ نِكاحاً فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُناحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (60)

القاعد : التي قعدت عن الحيض والولد لكبرها لا يَرْجُونَ نِكاحاً لا يطمعن فيه : والمراد بالثياب : الثياب الظاهرة كالملحفة والجلباب الذي فوق الخمار غَيْرَ مُتَبَرِّجاتٍ بِزِينَةٍ غير مظهرات زينة « 1 » ، يريد : الزينة الخفيفة التي أرادها في قوله وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أو غير قاصدات بالوضع التبرج ، ولكن التخفف إذا احتجن إليه . والاستعفاف من الوضع خير لهنّ لما ذكر الجائز عقبه بالمستحب ، بعثا منه عن اختيار أفضل الأعمال وأحسنها ، كقوله وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوى ، وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ . فإن قلت : ما حقيقة التبرج ؟ قلت :

تكلف إظهار ما يجب إخفاؤه من قولهم : سفينة بارج ، لا غطاء عليها . والبرج : سعة

العين ، يرى بياضها محيطا بسوادها كله لا يغيب منه شيء ، إلا أنه اختص بأن تتكشف المرأة للرجال بإبداء زينتها وإظهار محاسنها . وبدأ ، وبرز ، بمعنى : ظهر ، من أخوات : تبرج وتبلج ، كذلك .

[سورة النور (24) : آية 61]

لَيْسَ عَلَى الْأَعْمى حَرَجٌ وَلا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلا عَلى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَواتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خالاتِكُمْ أَوْ ما مَلَكْتُمْ مَفاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتاتاً فَإِذا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبارَكَةً طَيِّبَةً كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآياتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (61)

---

(1) . قال أحمد : قرر الزمخشري هذه الآية على ظاهرها ، ويظهر لي والله أعلم أن قوله تعالى غَيْرَ مُتَبَرِّجاتٍ بِزِينَةٍ من باب

على لاحب لا يهتدى بمناره

أي : لا منار فيه فيهتدى به ، وكذلك ، المراد هنا : والقواعد من النساء اللاتي لا زينة لهن فيتبرجن بها ، لأن الكلام فيمن هي بهذه المثابة ، وكأن الغرض من ذلك أن هؤلاء استعففهم عن وضع الثياب خير لهن ، فما ظنك بذوات الزينة من الثياب ، وأبلغ ما في

ذلك أنه جعل عدم وضع الثياب في حق القواعد من الاستعفاف إيذانا بأن وضع الثياب لا مدخل له في العفة ، هذا في القواعد ، فكيف بالكواعب ؟ والله أعلم . [. . . . .]

(158/555)

كان المؤمنون يذهبون بالضعفاء وذوى العاهات إلى بيوت أزواجهم وأولادهم وإلى بيوت قراباتهم وأصدقائهم فيطعمونهم منها ، فخالج قلوب المطعمين والمطعمين ريبة في ذلك ، وخافوا أن يلحقهم فيه حرج ، وكرهوا أن يكون أكلا بغير حق ، لقوله تعالى وَلا تَأْكُلُوا أَمْوالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْباطِلِ فقيل لهم : ليس على الضعفاء ولا على أنفسكم ، يعنى : عليكم وعلى من في مثل حالكم من المؤمنين حرج في ذلك . وعن عكرمة : كانت الأنصار في أنفسها قزازة «1» . فكانت لا تأكل من هذه البيوت إذا استغنوا . وقيل : كان هؤلاء يتوقون مجالسة الناس ومؤاكلتهم لما عسى يؤدى إلى الكراهة من قبلهم ، ولأنّ الأعمى ربما سبقت يده إلى ما سبقت عين أكيله إليه وهو لا يشعر ، والأعرج يتفسح في مجلسه ويأخذ أكثر من موضعه فيضيق على جليسه ، والمريض لا يخلو من رائحة تؤذى أو جرح يبض أو أنف يذن «2» ونحو ذلك . وقيل : كانوا يخرجون إلى الغزو ويخلفون الضعفاء في بيوتهم ، ويدفعون إليهم المفاتيح ، ويأذنون لهم أن يأكلوا من بيوتهم فكانوا يتحرّجون . حكى عن

الحرث بن عمرو أنه خرج غازيا وخلف مالك بن زيد في بيته وماله ، فلما رجع رآه مجهودا فقال : ما أصابك ؟ قال : لم يكن عندي شيء ، ولم يحل لي أن آكل «من مالك ، فقيل : ليس على هؤلاء الضعفاء حرج فيما تحرجوا عنه ، ولا عليكم أن تأكلوا من هذه البيوت ، وهذا كلام صحيح ، وكذلك إذا فسر بأن هؤلاء ليس عليهم حرج في القعود عن الغزو ، ولا عليكم أن تأكلوا من البيوت المذكورة ، لالتقاء الطائفتين في أن كل واحدة منهما منفي عنها الحرج. ومثال هذا أن يستفتيك مسافر عن الإفطار في رمضان . وحاج مفرد عن تقديم الحلق على النحر ، فقلت : ليس على المسافر حرج أن يفطر ، ولا عليك يا حاج أن تقدّم الحلق على النحر ، فإن قلت : هلا ذكر الأولاد ، قلت : دخل ذكرهم تحت قوله مِنْ بُيُوتِكُمْ لأنّ ولد الرجل بعضه ، وحكمه حكم نفسه .

وفي الحديث «إن أطيب ما يأكل المرء

---

(1) . قوله «في أنفسها قزازة» في الصحاح «القزازة» التنطس والتباعد عن الدنس . وفيه «التنطس» المبالغة في التطهر . (ع)

(2) . قوله «أو جرح يبض أو أنف يذن» يبض أي يسيل قليلا قليلا . ويذن : أي يسيل مخاطه . أفاده الصحاح . (ع)

من كسبه ، وإن ولده من كسبه «1»» ومعنى مِنْ بُيُوتِكُمْ من البيوت التي فيها أزواجكم وعيالكم ولأنّ الولد أقرب ممن عدّد من القرابات ، فإذا كان سبب الرخصة هو القرابة : كان الذي هو أقرب منهم أولى . فإن قلت : ما معنى أَوْ ما مَلَكْتُمْ مَفاتِحَهُ ؟ قلت : أموال الرجل إذا كان له عليها قيم ووكيل يحفظها له : أن يأكل من ثمر بستانه ويشرب من لبن ماشيته . وملك المفاتح :

كونها في يده وحفظه . وقيل : بيوت المماليك ، لأن مال العبد لمولاه . وقرئ : مفتاحه : فإن قلت : فما معنى أَوْ صَدِيقِكُمْ ؟ قلت : معناه : أو بيوت أصدقائكم . والصديق يكون واحدا وجمعا «2» ، وكذلك الخليط والقطين والعدوّ . يحكى عن الحسن أنه دخل داره وإذا حلقة من أصدقائه وقد استلوا سلالا من تحت سريره فيها الخبيص وأطايب الأطعمة وهم مكبون عليها يأكلون ، فتهللت أسارير وجهه سرورا وضحك وقال : هكذا وجدناهم ، هكذا وجدناهم .

يريد كبراء الصحابة ومن لقيهم من البدريين رضى اللّه عنهم . وكان الرجل منهم يدخل دار صديقه وهو غائب فيسأل جاريته كيسه فيأخذ منه ما شاء ، فإذا حضر مولاها فأخبرته أعتقها سرورا بذلك . وعن جعفر بن محمد الصادق رضى اللّه عنهما : من عظم حرمة الصديق أن جعله اللّه من الأنس والثقة والانبساط وطرح الحشمة بمنزلة النفس

والأب والأخ والابن . وعن ابن عباس رضى اللّه عنهما : الصديق أكبر من الوالدين ، إن الجهنميين لما استغاثوا لم يستغيثوا بالآباء والأمّهات . فقالوا : فما لنا من شافعين ولا صديق حميم . وقالوا : إذا دل ظاهر الحال على رضا المالك ، قام ذلك مقام الإذن الصريح ، وربما سمج الاستئذان وثقل ، كمن قدّم إليه طعام فاستأذن صاحبه في الأكل منه جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً أى مجتمعين أو متفرّقين . نزلت في بنى ليث بن عمرو من كنانة كانوا يتحرجون أن يأكل لرجل وحده فربما قعد منتظرا نهاره إلى الليل ، فان لم يجد من يواكله أكل ضرورة . وقيل في قوم من الأنصار : إذا نزل بهم ضيف

---

(1) . أخرجه أصحاب السنن وعبد الرزاق وابن أبى شيبة وابن حبان والحاكم وأحمد وإسحاق والبزار وأبو يعلى كلهم من حديث عائشة بهذا . قال ابن القطان : يرويه عمارة بن عمير فقال إبراهيم عنه . عن عمته عن عائشة . وقال الحاكم : عن عمارة عن أمه عن عائشة وذكره الدارقطني في العلل والاختلاف فيه وأطال . وفي الباب عن عمرو ابن شعيب عن أبيه عن جده قال «أتى أعرابى النبي صلى اللّه عليه وسلم فقال يا رسول اللّه إن أبى يريد أن يحتاج مالى . قال : أنت ومالك لوالدك إن أطيب ما أكلتم من كسبكم وإن أموال أولادكم من كسبكم فكلوا هنيئا ، رواه ابو داود وابن ماجة من طريق الحجاج بن أرطاة عن عمرو وحجاج مدلس وفيه ضعف .

(2) . قال محمود : «الصديق يكون واحدا وجمعا والمراد هنا الجمع» قال أحمد : وقد قال

الزمخشري : إن سر إفراده في قوله تعالى فَما لَنا مِنْ شافِعِينَ وَلا صَدِيقٍ حَمِيمٍ دون الشافعين التنبيه على قلة الأصدقاء ، ولا كذلك الشافعون ، فان الإنسان قد يحمى له ويشفع في حقه من لا يعرفه فضلا عن أن يكون صديقا ، ويحتمل في الآيتين - والله أعلم - أن يكون المراد به الجمع فلا كلام ، ويحتمل أن يراد الافراد ، فيكون سره ذلك ، والله أعلم .

(160/555)

لا يأكلون إلا مع ضيفهم وقيل : تحرجوا عن الاجتماع على الطعام لاختلاف الناس في الأكل وزيادة بعضهم على بعض فَإِذا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً من هذه البيوت لتأكلوا فبدئوا بالسلام على أهلها الذين هم منكم دينا وقرابة « 1 » تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ أى ثابتة بأمره ، مشروعة من لدنه .

أو لأنّ التسليم والتحية طلب سلامة وحياة للمسلم عليه والمحيا من عند اللّه . ووصفها بالبركة والطيب : لأنها دعوة مؤمن لمؤمن يرجى بها من اللّه زيادة الخير وطيب الرزق . وعن أنس رضى اللّه عنه قال : خدمت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عشر سنين - وروى : تسع سنين - فما قال لي لشيء فعلته لم فعلته ؟ ولا قال لي لشيء كسرته لم كسرته ؟ وكنت واقفا على رأسه أصب الماء على يديه فرفع رأسه فقال : ألا أعلمك ثلاث خصال ننتفع

بها ؟ قلت : بلى بأبى وأمى يا رسول اللّه . قال : متى لقيت من أمّتى أحدا فسلم عليه يطل عمرك ، وإذا دخلت بيتك فسلم عليهم يكثر خير بيتك ، وصل صلاة الضحى فإنها صلاة الأبرار الأوّابين «2»» . وقالوا :

إن لم يكن في البيت أحد فليقل : السلام علينا من ربنا ، السلام علينا وعلى عباد اللّه الصالحين . السلام على أهل البيت ورحمة اللّه . وعن ابن عباس : إذا دخلت المسجد فقل :

السلام علينا وعلى عباد اللّه الصالحين تحية من عند اللّه ، وانتصب تحية بسلموا ، لأنها في معنى تسليما ، كقولك : قعدت جلوسا .

[سورة النور (24) : آية 62]

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (62)

---

(1) . قال محمود : «معناه : فسلموا على الجنس الذي هو منكم دينا وقرابة» قال أحمد : وفي التعبير عنهم بالأنفس تنبيه على السر الذي اقتضى إباحة الأكل من هذه البيوت المعدودة ، وأن ذلك إنما كان لأنها بالنسبة إلى الداخل كبيت نفسه لاتحاد القرابة ، فليطب نفسا بالبساط فيها ، واللّه أعلم .

(2) . أخرجه أبو القاسم حمزة بن يوسف الجرجاني في تاريخ جرجان . والبيهقي في الشعب في الحادي والستين .

والثعلبي من طريق اليسع بن زيد بن سهل عن ابن عتبة عن حميد وعن أنس بتمامه واليسع آخر من زعم أنه سمع من ابن عتبة . مات بعد الثمانين والمائتين وهو واهى الحديث وأصل الحديث دون القصة التي فيه ، في الصحيح من حديث أنس رضى اللّه عنه . وباقيه مروى عن أنس من أوجه . منها ما رواه البزار من طريق عويد بن عمران الجونى عن أبيه قال : «أوصانى النبي صلى اللّه عليه وسلم بخمس خصال قال : أسغ الوضوء يزد في عمرك : وسلم على من لقيت من أمتى تكثر حسناتك . وإذا دخلت بيتك فسلم على أهلك يكثر خير بيتك وصل صلاة الضحى .

فإنها صلاة الأوابين ، وارحم الصغير ووقر الكبير ، تكن من رفاقى» وعويد . قال ابن حبان : يروى عن أبيه ما ليس من حديثه . ورواه أبو يعلى من رواية عمرو بن أبى خليفة عن ضرار بن عمرو عن أنس وإسناده ضعيف جدا وكذا رواه الطبراني في الصغير من رواية عمرو بن دينار عن أنس والراوي عنه ساقط ورواه العقيلي من رواية الفضل بن العباس عن ثابت عن أنس والفضل مجهول . قال العقيلي : لم يتابعه عليه إلا من هو دونه أو قبله ورواه ابن عدى من طريق أزور بن غالب عن سليمان التيمي عن أنس . قال ابن طاهر : أزور منكر الحديث . وله طريق أخرى عن أنس أشد ضعفا من هذه .

[سورة النور (24) : آية 62]

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (62)

أراد عز وجل أن يريهم عظم الجناية في ذهاب الذاهب عن مجلس رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم بغير إذنه إِذا كانُوا مَعَهُ عَلى أَمْرٍ جامِعٍ فجعل ترك ذهابهم حتى يستأذنوه ثالث الإيمان باللّه والإيمان برسوله ، وجعلهما كالتشبيب له « 1 » والبساط لذكره ، وذلك مع تصدير الجملة بإنما وإيقاع المؤمنين مبتدأ مخبرا عنه بموصول أحاطت صلته بذكر الإيمانين ، ثم عقبه بما يزيده توكيدا وتشديدا ، حيث أعاده على أسلوب آخر وهو قوله (إنّ الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون باللّه ورسوله) وضمنه شيأ آخر ، وهو : أنه جعل الاستئذان كالمصداق لصحة الإيمانين ، وعرّض بحال المنافقين وتسللهم لواذا . ومعنى قوله (لم يذهبوا حتى يستأذنوه) لم يذهبوا حتى يستأذنوه ويأذن لهم . ألا تراه كيف علق الأمر بعد وجود استئذانهم بمشيئته وإذنه لمن استصوب أن يأذن له . والأمر الجامع : الذي يجمع له

الناس ، فوصف الأمر بالجمع على سبيل المجاز ، وذلك نحو مقاتلة عدوّ ، أو تشاور في خطب مهمّ ، أو تضام لإرهاب مخالف ، أو تماسح في حلف وغير ذلك . أو الأمر الذي يعم بضرره أو بنفعه . وقرئ : أمر جميع . وفي قوله (إذا كانوا معه على أمر جامع) أنه خطب جليل لا بد لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فيه من ذوى رأى وقوّة ، يظاهرونه عليه ويعاونونه ويستضيء بآرائهم ومعارفهم وتجاربهم في كفايته ، فمفارقة أحدهم في مثل تلك الحال مما يشق على قلبه ويشعث عليه رأيه ، فمن ثمة غلظ عليهم وضيق عليهم الأمر في الاستئذان ، مع العذر المبسوط ومساس الحاجة إليه ، واعتراض ما يهمهم ويعنيهم ، وذلك قوله لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ . وذكر الاستغفار للمستأذنين :

دليل على أنّ الأحسن الأفضل أن لا يحدثوا أنفسهم بالذهاب ولا يستأذنوا فيه . وقيل : نزلت في حفر الخندق وكان قوم يتسللون بغير إذن . وقالوا : كذلك ينبغي أن يكون الناس مع أئمتهم ومقدميهم في الدين والعلم يظاهرونهم ولا يخذلونهم في نازلة من النوازل ولا يتفرقون عنهم . والأمر في الإذن مفوّض إلى الإمام : إن شاء أذن وإن شاء لم يأذن ، على حسب ما اقتضاه رأيه .

[سورة النور (24) : آية 63]

لا تَجْعَلُوا دُعاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِواذاً فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (63)

(1) قوله «وجعلهما كالتشبيب له» في الصحاح التشبيب النسيب يقال هو يشبب بفلانة أي ينسب بها (ع)

(162/555)

إذا احتاج رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم إلى اجتماعكم عنده لأمر فدعاكم فلا تفرقوا عنه إلا بإذنه ، ولا تقيسوا دعاءه إياكم على دعاء بعضكم بعضا ورجوعكم عن المجمع بغير إذن الداعي .

أو لا تجعلوا تسميته ونداءه بينكم كما يسمى بعضكم بعضا ويناديه باسمه الذي سماه به أبواه ، ولا تقولوا : يا محمد ، ولكن : يا نبي اللّه ، ويا رسول اللّه ، مع التوقير التعظيم والصوت المخفوض والتواضع . ويحتمل : لا تجعلوا دعاء الرسول ربه مثل ما يدعو صغيركم كبيركم وفقيركم غنيكم ، يسأله حاجة فربما أجابه وربما ردّه ، فإن دعوات رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم مسموعة مستجابة يَتَسَلَّلُونَ ينسلون قليلا قليلا . ونظير «تسلل» : «تدرّج وتدخل» : واللواذ :

الملاوذة ، وهو أن يلوذ هذا بذاك وذاك بهذا ، يعنى : ينسلون عن الجماعة في الخفية على سبيل الملاوذة واستتار بعضهم ببعض . ولِواذاً حال ، أى : ملاوذين . وقيل : كان بعضهم

يلوذ بالرجل إذا استأذن فيأذن له ، فينطلق الذي لم يؤذن له معه . وقرئ : لو إذا ، بالفتح . يقال .

خالفه إلى الأمر ، إذا ذهب إليه دونه . ومنه قوله تعالى وَما أُرِيدُ أَنْ أُخالِفَكُمْ إِلى ما أَنْهاكُمْ عَنْهُ وخالفه عن الأمر : إذا صدّ عنه دونه . ومعنى الَّذِينَ يُخالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ الذين يصدّون عن أمره دون المؤمنين وهم المنافقون ، فحذف المفعول لأنّ الغرض ذكر المخالف والمخالف عنه .

الضمير في أمره للّه سبحانه أو للرسول صلى اللّه عليه وسلم . والمعنى : عن طاعته ودينه فِتْنَةٌ محنة في الدنيا أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ في الآخرة . وعن ابن عباس رضى اللّه عنهما : فتنة قتل . وعن عطاء : زلازل وأهوال . وعن جعفر بن محمد : يسلط عليهم سلطان جائر .

[سورة النور (24) : آية 64]

أَلا إِنَّ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ ما أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (64)

أدخل (قد) ليؤكد علمه بما هم عليه من المخالفة عن الدين والنفاق ومرجع توكيد العلم إلى توكيد الوعيد ، وذلك أن (قد) إذا دخلت على المضارع كانت بمعنى «ربما» فوافقت «ربما» في خروجها إلى معنى التكثير في نحو قوله :

فان تمس مهجور الفناء فربّما أقام به بعد الوفود وفود «1»

---

(1)

ألا إن عينا لم تجد يوم واسط عليك يجارى دمعها لجمود

عشية قام النائحات وشققت جيوب بأيدى مأتم وخدود

فان تمس مهجور الفناء فربما أقام به بعد الوفود وفود

لابن عطاء السندي : يرثى ابن هبيرة لما قتله المنصور . وواسط : موضع الواقعة . وأتم بالمكان : أقام به .

والمأتم : مكان الاقامة : استعمل في جماعة النساء الحزينات مجازا مشهورا ، وجمعه : مآتم بمد الهمزة . يقول :

إن كل عين لم تبك عليك ذلك اليوم لشديدة الجمود . وعشية : بدل من يوم . وجيب القميص . مخرج الرأس منه ، أى : مزقت الجيوب والخدود بأيدى النساء ، ثم التفت إلى الخطاب ، وصبر وتصبر بقوله : فان تمس مهجور الفناء ، كناية عن الموت ، فربما : أى كثيرا أقام بفناء بيتك جموع من الناس بعد جموع ، يستمنحونك ، أى : فان يهجر فناؤك الآن فلا حزن ، لأنه كثيرا ما اجتمع فيه الناس ومنحوا خيرا .

ونحوه قول زهير :

أخي ثقة لا تهلك الخمر ماله ولكنّه قد يهلك المال نائله «1»

والمعنى . أنّ جميع ما في السموات والأرض مختصة به خلقا وملكا وعلما ، فكيف يخفى عليه أحوال المنافقين وإن كانوا يجتهدون في سترها عن العيون وإخفائها . وسينبئهم يوم القيامة بما أبطنوا من سوء أعمالهم وسيجازيهم حق جزائهم . والخطاب والغيبة في قوله قَدْ يَعْلَمُ ما أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ يجوز أن يكونا جميعا المنافقين على طريق الالتفات . ويجوز أن يكون (ما أنتم عليه) عاما ، و(يرجعون) للمنافقين ، واللّه أعلم .

عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «من قرأ سورة النور أعطى من الأجر عشر حسنات بعدد كل مؤمن ومؤمنة فيما مضى وفيما بقي «2»» . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الكشاف حـ 3 صـ 250. 261 ﴾

---

(1) تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الثاني صفحة 17 فراجعه إن شئت اه مصححه .

(2) أخرجه الثعلبي وابن مردويه باسناديهما إلى أبي بن كعب رضي اللّه عنه .

وقال الخازن :

قوله تعالى ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم ﴾

قيل : جهد اليمين أن يحلف بالله ولا يزيد على ذلك شيئاً ﴿ لئن أمرتهم ليخرجن ﴾ وذلك أن المنافقين كانوا يقولون لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) أينما كنت نكن معك لئن خرجت خرجنا ، ولئن أقمت أقمنا ، ولئن أمرتنا بالجهاد جاهدنا وقيل لما نزل بيان كراهتهم لحكم الله ورسوله قالوا للنبيّ (صلى الله عليه وسلم) لو أمرتنا أن نخرج من ديارنا ، وأموالنا ونسائنا لخرجنا ، فكيف لا نرضى بحكمك فقال الله تعالى ﴿ قل ﴾ لهم ﴿ لا تقسموا ﴾ يعني لا تحلفوا ، وتم الكلام ثم ابتدأ فقال ﴿ طاعة معروفة ﴾ يعني هذه طاعة القول باللسان دون الاعتقاد بالقلب ، هي معروفة يعني أمر عرف منكم أنكم تكذبون ، وتقولون ما لا تفعلون وقيل : معناه طاعة معروفة بنية خالصة أفضل وأمثل من يمين باللسان لا يوافقها الفعل ﴿ إن الله خبير بما تعلمون ﴾ يعني من طاعتكم بالقول ومخالفتكم بالفعل ﴿ قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ﴾ يعني بقلوبكم وصدق نياتكم ﴿ فإن تولوا ﴾ يعني أعرضوا عن طاعة الله ورسوله ﴿ فإنما عليه ﴾ أي على الرسول ﴿ ما حمل ﴾ أي ما كلف وأمر به من تبليغ الرسالة ﴿ وعليكم ما حملتم ﴾ أي ما كلفتم من الإجابة والطاعة ﴿ وإن تطيعوه تهتدوا ﴾ أي تصيبوا الحق والرشد في طاعته ﴿ وما على الرسل إلا البلاغ المبين ﴾ أي التبليغ الواضح البين .

قوله عزّ وجلّ ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض ﴾ قيل مكث النبيّ (صلى الله عليه وسلم) بمكة بعد الوحي عشر سنين مع أصحابه ، وأمروا بالصبر على أذى الكفار فكانوا يصبحون ويمسون خائفين ثم أمروا بالهجرة إلى المدينة وأمروا بالقتال وهم على خوفهم لا يفارق أحد منهم : سلاحه فقال رجل منهم أما يأتي علينا يوم نأمن فيه ونضع السلاح فأنزل الله هذه الآية ، ومعنى ليستخلفنهم والله ليورثنهم أرض الكفار من العرب والعجم ، فجعلهم ملوكها وساستها وسكانها ﴿ كما استخلف الذين من قبلهم ﴾ أي كما استخلف داوُد وسليمان وغيرهما من الأنبياء ، وكما استخلف بني إسرائيل وأهلك الجبابرة بمصر والشام وأورثهم أرضهم وديارهم ﴿ وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى ﴾ أي اختاره ﴿ لهم ﴾ قال ابن عباس يوسع لهم في البلاد حتى يملكوها ويظهر دينهم على سائر الأديان ﴿ وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً يعبدونني ﴾ آمنين ﴿ لا يشركون بي شيئاً ﴾ فأنجز الله وعده وأظهر دينه ونصر أولياءه وأبدلهم بعد الخوف أمناً وبسطاً في الأرض (خ) عن عدي بن حاتم قال : بينا أنا عندي النبيّ (صلى الله عليه وسلم) إذ أتاه رجل فشكا إليه الفاقة ثم أتاه آخر فشكا إليه قطع

السبيل فقال : " يا عدي هل رأيت الحيرة قلت : لم أرها ولقد أنبئت عنها قال فإن طالت بك حياة فلترين الظعينة ترحل عن الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف أحداً إلا الله قلت فيما بيني وبين نفسي ، فإين دعار طيىء الذين قد سعروا البلاد ، ولئن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى قلت كسرى بن هرمز قال كسرى بن هرمز ولئن طالت بك حياة لترين الرجل يخرج ملء كفه من ذهب أو فضة يطلب من يقبله منه وليلقين الله أحدكم يوم القيامة ، وليس بينه وبينه ترجمان يترجم فليقولن ألم أبعث إليك رسولاً ، فيبلغك فيقول بلى يا رب ، ألم أعطك مالاً وأفضل عليك فيقول بلى فينظر عن يمينه فلا يرى إلا جهنم ، وينظر عن شماله فلا يرى إلا

(166/555)

جهنم " قال عدي سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول : " أتقوا النار ولو بشق تمرة فمن لم يجد شق تمرة فبكلمة طيبة " قال عدي : فرأيت الظعينة ترحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف إلى الله وكنت فيمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز ، ولئن طالت بكم حياة لترون ما قال أبو القاسم (صلى الله عليه وسلم) : يخرج الرجل ملء كفه ذهباً إلخ .

وفي الآية دليل على صحة خلافة أبي بكر الصديق والخلفاء الراشدين بعده ، لأن في أيامهم

كانت الفتوحات العظيمة وفتحت كنوز كسرى غيره من الملوك ، وحصل الأمن والتمكين وظهور الدين عن سفينة قال سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول " الخلافة بعدي ثلاثون سنة ثم تكون ملكاً " ثم قال : أمسك خلافة أبي بكر سنتين وخلافة عمر عشر سنين ، وخلافة عثمان اثنتي عشر سنة وعلي ستاً قال علي : قلت لحماد القائل لسعيد أمسك سفينة قال نعم " أخرجه أبو داود والترمذي بنحو هذا اللفظ .

قلت : كذا ورد هذا الحديث بهذا التفصيل ، وفيه إجمال وتفصيله أن خلافة أبي بكر كانت سنتين وثلاثة أشهر ، وخلافة عمر كانت عشر سنين وستة أشهر وخلافة عثمان اثنتي عشر سنة كما ذكر في الحديث ، وخلافة علي أربع سنين وتسعة أشهر ولهذا جاء في بعض روايات الحديث على كذا ، ولم يبين تعيين مدته فعلى هذا التفصيل تكون مدة خلافة الأئمة الأربعة تسعة وعشرين سنة وستة أشهر ، وكملت ثلاثين سنة بخلافة الحسن كانت ستة أشهر ثم نزل عنها والله أعلم ، وقوله تعالى ﴿ ومن كفر بعد ذلك ﴾ أراد به كفران النعمة ولم يرد الكفران بالله ﴿ فأولئك هم الفاسقون ﴾ أي العاصون قال أهل التفسير : أو من كفر بهذه النعمة وجحد حقها الذين قتلوا عثمان ، فلما قتلوه غير الله الله ما بهم وأدخل عليهم الخوف حتى صاروا يقتلون بعد أن كانوا إخواناً .

(167/555)

عن ابن أخي عبد الله بن سلام قال : " لما أريد قتل عثمان جاء عبد الله بن سلام فقال عثمان : ما جاء بك قال : جئت في نصرك قال : اخرج إلى الناس فاطردهم عني فإنك خارجاً خير لي منك داخلاً ، فخرج عبد الله إلى الناس فقال : أيها الناس إن لله سيفاً مغموداً وإن الملائكة قد جاورتكم في بلدكم هذا الذي نزل فيه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فالله الله في هذا الرجل أن تقتلوه فوالله إن قتلتموه لتطردن جيرانكم الملائكة ، وليسلن الله سيفه المغمود عنكم فلا يغمد إلى يوم القيامة قالوا : اقتلوا اليهودي واقتلوا عثمان " أخرجه الترمذي زاد في رواية غير الترمذي " فما قتل نبي قط إلا قتل به سبعون ألفاً ، ولا خليفة إلا قتل به خمسة وثلاثون ألفاً " .

(168/555)

قوله تعالى : ﴿ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون ﴾ أي افعلوا هذه الأشياء على رجاء الرحمة ﴿ لا تحسبن الذي كفروا معجزين ﴾ أي فائتين عنا ﴿ في الأرض ومأواهم النار ولبئس المصير ﴾ قوله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم ﴾ قال ابن عباس وجه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) غلاماً

من الأنصار يقال له : مدلج بن عمرو إلى عمر بن الخطاب وقت الظهيرة ليدعوه ، فدخل فرأى عمر بحالة كره عمر رؤيته عند ذلك فأنزل الله هذه الآية وقيل : نزلت في أسماء بنت مرثد كان لها غلام كبير فدخل عليها في وقت كرهته فأتت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقالت إنا خدمنا وغلماننا يدخلون علينا في حال نكرهها ، فأنزل الله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم ﴾ واللام لام الأمر وفيه قولان أحدهما : أنه على الندب والاستحباب والثاني : أنه على الوجوب وهو الأولى الذين ملكت أيمانكم يعني العبيد والإماء ﴿ والذين لم يبلغوا الحلم منكم ﴾ يعني الأحرار وليس المراد منهم الذين لم يظهروا على عورات النساء ، بل المراد الذين عرفوا أمر النساء ولكنهم لم يبلغوا الحلم وهو سن التمييز والعقل وغيرهما ، واتفق العلماء على أن الاحتلام بلوغ واختلفوا فيما إذا بلغ خمس عشرة سنة ، ولم يحتلم فقال أبو حنيفة لا يكون بالغاً حتى يبلغ ثمان عشرة سنة ويستكملها والجارية سبع عشرة سنة وقال الشافعي وأبو يوسف ومحمد وأحمد في الغلام والجارية بخمسة عشرة سنة يصير مكلفاً ، وتجري عليه الأحكام وإن لم يحتلم ﴿ ثلاث مرات ﴾ أي ليستأذنوا في ثلاثة أوقات ﴿ من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ﴾ أي وقت المقيل ﴿ ومن بعد صلاة العشاء ﴾ وإنما خص هذه الثلاثة الأوقات ، لأنها ساعات الخلوات ووضع الثياب ، فربما يبدو من الإنسان ما لا يجوز أن يراه أحد من العبيد والصبيان ، فأمرهم بالاستئذان في هذه الأوقات وغير العبيد

والصبيان يستأذن في جميع الأوقات ﴿ ثلاث عورات لكم ﴾ سميت هذه الأوقات عورات لأن الإنسان يضع فيها ثيابه فتبدوا عورته ﴿ ليس عليكم ولا عليهم ﴾ يعني العبيد والخدم والصبيان ﴿ جناح ﴾ أي حرج في الدخول عليكم بغير استئذان ﴿ بعدهن ﴾ أي بعد هذه الأوقات الثلاثة طوافون عليكم ﴿ أي العبيد والخدم يترددون ويدخلون ويخرجون في أشغالكم بغير أذن ﴿ بعضكم على بعض ﴾ أي يطوف بعضكم على بعض ﴿ كذلك يبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم ﴾ اختلف العلماء في حكم هذه الآية فقيل : إنها منسوخة حكي ذلك عن سعيد بن المسيب ، روى عكرمة أن نفراً من أهل العراق قالوا يا ابن العباس كيف ترى في هذه الآية التي أمرنا بها ، ولا يعمل بها أحد قول الله عزّ وجلّ ﴿ يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت ايمانكم ﴾ الآية فقال ابن عباس : إن الله حليم رحيم بالمؤمنين يحب الستر وكان الناس ليس لبيوتهم ستور ولا حجاب فربما دخل الخدم أو الولد أو يتيم الرجل والرجل على أهله فأمرهم الله بالاستئذان في تلك العورات ، فجاءهم الله بالستور والخير " فلم أرد أحداً يعمل بذلك بعد .

أخرجه أبو داود في رواية عنه نحوه وزاد فرأيي أن ذلك أغنى عن الاستئذان في تلك

العورات ، وذهب قوم إلى أنها غير منسوخه روى سفيان عن موسى بن أبي عائشة قال : " سألت الشعبي عن هذه الآية ليستأذنكم الذي ملكت أيمانكم أمنسوخة هي ؟ قال : لا والله قلت إن الناس لا يعملون بها قال الله تعالى المستعان وقال سعيد بن جبير في هذه الآية أن ناساً يقولون : نسخت والله ما نسخت ولكنها مما تهاون به الناس قيل ثلاث آيات ترك الناس العمل بهن هذه الآية وقوله ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ والناس يقولون أعظمكم بيتاً ﴿ وإذا حضر القسمة أولو القربى ﴾ الآية .

(170/555)

وقوله عزّ وجلّ : ﴿ وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم ﴾ أي الاحتلام يريد الأحرار الذين بلغوا ﴿ فليستأذنوا ﴾ أي يستأذنوا في جميع الأوقات في الدخول عليكم ﴿ كما استأذن الذين من قبلكم ﴾ أي الأحرار الكبار ﴿ كذلك يبين الله لكم آياته ﴾ أي دلالته وقيل أحكامه ﴿ والله عليم ﴾ أي بأمور خلقه ﴿ حكيم ﴾ بما دبر وشرع قال سعيد بن المسيب : يستأذن الرجل على أمه فإنما أنزلت هذه الآية في ذلك ، وسئل حذيفة أيستأذن الرجل على والدته قال نعم إن لم تفعل رأيت منها ما تكره قوله ﴿ والقواعد من النساء ﴾ يعني اللاتي قعدن عن الحيض والولد من الكبر فلا يلدن ولا يحضن ﴿ اللاتي لا يرجون نكاحاً ﴾ أي

لا يردن الأزواج لكبرهن ، وقيل : هن العجائز اللواتي إذا رآهن الرجال استقذروهن فأما من كانت فيها بقية جمال وهي محل الشهوة فلا تدخل في حكم هذه الآية ﴿ فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن ﴾ أي عند الرجال والمعنى بعض يثابهن وهو الجلباب والرداء الذي فوق الثياب ، والقناع الذي فوق الخمار فأما الخمار فلا يجوز وضعه ﴿ غير متبرجات بزينة ﴾ أي من غير أن يردن وضع الجلباب والرداء إظهار زينتهن .

(171/555)

والتبرج هو أن تظهر المرأة من محاسنها ما يجب عليها أن تستره ﴿ وأن يستعففن ﴾ أي فلا يلقين الجلباب ولا الرداء ﴿ خير لهن والله سميع عليم ﴾ قوله ﴿ ليس على الأعمى حرج ﴾ اختلف العلماء في هذه الآية فقال ابن عباس : لما أنزل الله ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ﴾ تحرج المسلمون عن مؤاكلة المرضى ، الزمنى والعمى والعرج وقالوا الطعام أفضل الأموال وقد نهانا الله عن أكل الأموال بالباطل ، والأعمى لا يبصر موضع الطعام الطيب والأعرج لا يتمكن من الجلوس ، ولا يستطيع المزاحمة على الطعام والمريض يضعف عن التناول فلا يستوفى من الطعام حقه فأنزل الله هذه الآية فعلى هذا التأويل يكون على بمعنى في أي ليس في الأعمى ، والمعنى ليس عليكم في مؤاكلة الأعمى

والمريض والأعرج حرج وقيل كان العميان والعرجان والمرضى يتنزهون عن مؤاكلة الأصحاء لأن الناس يقذرونهم ويكرهون مؤاكلتهم ، وكان الأعمى يقول ربما آكل أكثر من ذلك ويقول الأعرج والأعمى ربما أجلس مكان اثنين فنزلت هذه الآية ، وقيل : نزلت ترخيصاً لهؤلاء في الأكل من بيوت من سماهم الله في باقي الآية ، وذلك أن هؤلاء كانوا يدخلون على الرجل في طلب الطعام فإذا لم يكن عنده شيء ، ذهب بهم إلى بيت أبيه أو بيت أمه أو بعض من سمى الله تعالى فكان أهل الزمانة يتحرجون من ذلك ويقولون ذهب بنا إلى غير بيته فأنزل الله هذه الآية وقيل : كان المسلمون إذا غزوا دفعوا مفاتيح بيوتهم إلى الزمنى ويقولون لهم قد أحللنا لكم أن تأكلوا مما في بيوتنا ، فكانوا يتحرجون من ذلك ويقولون لا ندخلها وأصحابها غيب فأنزل الله هذه الآية رخصة لهم وقيل نزلت رخصة لهؤلاء في التخلف عن الجهاد فعلى هذا تم الكلام عند قوله ﴿ ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج ﴾ وقوله تعالى ﴿ ولا على أنفسكم ﴾ كلام مستأنف قيل لما نزلت

(172/555)

﴿ ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ﴾ قالوا : لا يحل لأحد منا أن يأكل من أحد فأنزل الله تعالى ﴿ ولا على أنفسكم ﴾ ﴿ أن تأكلوا من بيوتكم ﴾ أي لا حرج عليكم أن تأكلوا من

بيوتكم ، قيل أراد من أموال عيالكم وبيوت أزواجكم لأن بيت المرأة كبيت الزوج ، وقيل بيوت أولادكم ونسب بيوت الأولاد إلى الآباء لما جاء في الحديث " أنت ومالك لأبيك " ﴿ أو بيوت آبائكم أو بيوت أمهاتكم أو بيوت إخوانكم أو بيوت أخواتكم أو بيوت أعمامكم أو بيوت عماتكم أو بيوت أخوالكم أو بيوت خالاتكم أو ما ملكتم مفاتحه ﴾ قال ابن عباس : عني بذلك وكيل الرجل وقيمه في ضيعته ماشيته لا بأس عليه أن يأكل من ثمرة ضيعته ، ويشرب من لبن ماشيته ولا يحمل ولا يدخر ، وقيل يعني بيوت عبيدكم ومماليككم ، وذلك أن السيد يملك منزل عبده ، والمفاتح الخزائن ويجوز أن يكون المفتاح الذي يفتح به ، وإذ ملك الرجل المفتاح فهو خازن ، فلا بأس أن يأكل الشيء اليسير ، وقيل : ما ملكتم مفتاحه أي ماخزنتموه عندكم ما ملكتموه ﴿ أو صديقكم ﴾ الصديق هو الذي صدقك في المودة ؛ قال ابن عباس نزلت في الحارث بن عمرو خرج غازياً مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وخلف مالك بن زيد على أهله ، فلما رجع وجده مجهوداً فسأله عن حاله فقال : تحرجت أن آكل من طعامك بغير إذنك فأنزل الله تعالى هذه الآية ، والمعنى أنه ليس عليكم جناح أن تأكلوا من منازل هؤلاء إذا دخلتموها وإن لم يحضروا من غير أن تتزودوا وتحملوا ﴿ ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعاً أو أشتاتاً ﴾ نزلت في بني ليث بن عمرو ، وهم حي من كنانة كان الرجل منهم لا يأكل وحده حتى يجد ضيفاً يأكل معه فربما قعد الرجل والطعام بين يديه من الصباح إلى الرواح ، ربما كانت معه الإبل الحفل فلا يشرب من ألبانها حتى يأتي

من يشاربه ، فإذا أمسى ولم يجد أحداً أكل وقال ابن عباس : كان الغني يدخل على الفقير من ذوي قرابته وصداقته فيدعوه إلى طعامه فيقول : والله إني

(173/555)

لأجنح أي أتحرج أن آكل معك ، وأنا غني وأنت فقير فنزلت هذه الآية وقيل : نزلت في قوم من الأنصار كانوا لا يأكلون إذا أنزل بهم ضيف إلا مع ضيفهم ، فرخص لهم أن يأكلوا كيف شاؤوا جميعاً ، أي مجتمعين أو أشتاتاً أي متفرقين ﴿ فإذا دخلتم بيوتاً فسلموا على أنفسكم ﴾ أي ليسلم بعضكم على بعض هذا في دخول الرجل بيت نفسه يسلم على أهله ، ومن في بيته قال قتادة : إذا دخلت بيتك فسلم على أهلك فهم أحق من سلمت عليه ، وإذا دخلت بيتاً ليس في أحد فقل السلام علينا ، وعلى عباد الله الصالحين السلام على أهل البيت ورحمة الله وبركاته ، حدثنا أن الملائكة ترد عليه وقال ابن عباس إذا لم يكن في البيت أحد ، فيلقل السلام علينا من ربنا السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين السلام على أهل البيت ورحمة الله وبركاته وعن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ فإذا دخلتم بيوتاً فسلموا على أنفسكم ﴾ قال : إذا دخلت المسجد فقل السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ﴿ تحية من عند الله مباركة طيبة ﴾ قال ابن عباس حسنة جميلة وقيل ذكر

البركة والطيب ها هنا لما فيه من الثواب والأجر ﴿ كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تعقلون ﴾ أي عن الله أمره ونهيه وآدابه .

(174/555)

قوله عزّ وجلّ : ﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه ﴾ أي مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ﴿ على أمر جامع ﴾ أي يجمعهم من حرب أو صلاة حضرت ، أو جمعة أو عيد أو جماعة أو تشاور في أمر نزل ﴿ لم يذهبوا ﴾ أي لم يتفرقوا عنه ولم ينصرفوا عما اجتمعوا له ﴿ حتى يستأذنوه ﴾ قال المفسرون " كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إذا صعد المنبر يوم الجمعة ، وأراد الرجل أن يخرج من المسجد لحاجة أو عذر لم يخرج حتى يقوم بحيال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، بحيث يراه فيعرف أنه إنما قام ليستأذن فيأذن لمن شاء منهم " قال مجاهد : وإذن الإمام يوم الجمعة أن يشير بيده قال أهل العلم وكذلك كل أمر اجتمع عليه المسلمون مع الإمام يخالفونه ، ولا يرجعون عنه إلا بإذن وإذا استأذن الإمام إن شاء أذن له وإن شاء لم يأذن وهذا إذا لم يكن حدث سبب يمنعه من المقام فإن حدث سبب يمنعه من المقام ، بأن يكون في المسجد فتحيض امرأة منهم أو يجنب رجل أو يعرض له مرض فلا يحتاج إلى الاستئذان ﴿ إن الذين

يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله فإذا استأذنوك لبعض شأنهم ﴾ أي أمرهم ﴿ فأذن لمن شئت منهم ﴾ أي في الانصراف والمعنى إن شئت فأذن إن شئت فلا تأذن ﴿ واستغفر لهم الله ﴾ أي إن رأيت لهم عذراً في الخروج عن الجماعة ﴿ إن الله غفور رحيم ﴾ قوله ﴿ لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً ﴾ قال ابن عباس : يقول احذروا دعاء الرسول إذا اسخطتموه فإن دعاءه موجب ليس كدعاء غيره وقيل معناه لا تدعوه باسمه ، كما يدعو بعضكم بعضاً يا محمد يا عبد الله ، ولكن فخموه وعظموه وشرفوه وقولوا يا نبيّ الله يا رسول الله في لين وتواضع ﴿ قد يعلم الله الذين يتسللون ﴾ أي يخرجون ﴿ منكم لواذاً ﴾ أي يستتر بعضهم ببعض ويروغ في خفية فيذهب قيل كانوا في حفر الخندق فكان المنافقون ينصرفون عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) مختفين وقال ابن عباس

(175/555)

لواذاً أي يلوذ بعضهم ببعض ، وذلك أن المنافقين كان يثقل عليهم المقام في المسجد يوم الجمعة واستماع خطبة النبيّ (صلى الله عليه وسلم) فكانوا يلوذون ببعض أصحابه ، فيخرجون من المسجد في استتار وقوله قد يعلم فيه التهديد بالمجازاة ﴿ فليحذر الذين يخالفون عن

أمره ﴾ أي يعرضون عن أمره وينصرفون عنه بغير إذن ﴿ أن تصيبهم فتنة ﴾ أي لئلا تصيبهم فتنة أي بلاء في الدنيا ﴿ أو يصيبهم عذاب أليم ﴾ أي وجيع في الآخرة ، ثم عظم الله نفسه .

فقال تعالى : ﴿ ألا إن لله ما في السموات والأرض ﴾ أي ملكاً وعبيداً ﴿ قد يعلم ما أنتم عليه ﴾ أي من الإيمان والنفاق ﴿ ويوم يرجعون إليه ﴾ يعني يوم القيامة ﴿ فينبئهم بما عملوا ﴾ أي من الخير والشر ﴿ والله بكل شيء عليم ﴾

عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " لا تنزلوا النساء الغرف ، ولا تعلموهن الكتابة وعلموهن الغزل وسورة النور " أخرجه أبو عبد الله بن السبع في صحيحه والله سبحانه وتعالى أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 5 صـ 93.85 ﴾

(176/555)

وقال ابن جزى :

﴿ وَأَقْسَمُواْ ﴾ أي حلفوا ، والضمير للمنافقين ﴿ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ﴾ أي بالغوا في اليمين وأكدوها ﴿ لَيَخْرُجُنَّ ﴾ يعني إلى الغزو ﴿ قُل لاَّ تُقْسِمُواْ ﴾ نهى عن اليمين الكاذبة لأنه

قد عرف أنهم يحلفون على الباطل ﴿ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ﴾ مبتدأ وخيره محذوف أي طاعة معروفة أمثل وأولى بكم ، أو خبر مبتدأ محذوف أي المطلوب منكم طاعة معروفة لا يشك فيها ﴿ عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ ﴾ يعني تبليغ الراسلة ﴿ وَعَلَيْكُمْ مَّا حُمِّلْتُمْ ﴾ يعني السمع والطاعة واتباع الشريعة .

﴿ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ ﴾ وعد ظهر صدقه بفتح مشارق الأرض ومغاربها لهذه الأمة ، وقيل : إن المراد بالآية : خلافة أبي بكر وعثمان وعليّ رضي الله عنهما لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الخلافة بعدي ثلاثون سنة " ، وانتهت الثلاثون إلى آخر خلافة عليّ ، فإن قيل : أين القسم الذي جاء قوله ﴿ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ ﴾ جواباً له ؟ فالجواب أنه محذوف تقديره : وعدهم الله وأقسم ، أو جعل الوعد بمنزلة القسم لتحققه .

(177/555)

﴿ لِيَسْتَأْذِنكُمُ الذين مَلَكَتْ أيمانكم ﴾ قيل المراد بالذين ملكت أيمانكم : الرجال خاصة ، وقيل النساء خاصة ، لأن الرجال يستأذنون في كل وقت وقيل الرجال والنساء ﴿ والذين لَمْ يَبْلُغُواْ الحلم ﴾ يعني الأطفال غير البالغين ﴿ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ ﴾ نصب على الظرفية لأنهم أمروا بالاستئذان في ثلاثة مواطن ، فمعى الآية أن الله أمر المماليك والأطفال

بالاستئذانفي ثلاثة أوقات ، وهي قبل الصبح وحين القائلة وسط النهار ، وبعد صلاة العشاء الأخيرة ، لأن هذه الأوقات يكون الناس فيها متجردين للنوم في غالب أمرهم ، وهذه آية محكمة ؛ وقال ابن عباس : ترك الناس العمل بها ، وحملها بعضهم على الندب ﴿ تَضَعُونَ ثيابكم ﴾ يعني تتجّردون ﴿ الظهيرة ﴾ وسط النهار ﴿ ثَلاَثُ عَوْرَاتٍ ﴾ جمع عورة من الانكشاف كقوله : ﴿ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ ﴾ [الأحزاب : 13] ومن رفع ثلاث فهو خبر ابتداء مضمر تقديره : هذه الأوقات ثلاث عورات لكم : أي تنكشفون فيها ، ومن نصبه فهو بدل من ثلاث مرات ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلاَ عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ ﴾ هذا الضمير المؤنث يعود على الأوقات المتقدّمة أي ليس عليكم ولا على المماليك والأطفال جناح في ترك الاستئذان في غير المواطن الثلاثة ﴿ طوافون عَلَيْكُمْ ﴾ تقديره المماليك والأطفال طوافون عليكم ، فلذلك يؤمر بالاستئذان في كل وقت ﴿ بَعْضُكُمْ على بَعْضٍ ﴾ بدل من طوافون : أي بعضكم يطوف على بعض وقال الزمخشري : هو مبتدأ أي بعضكم يطوف على بعض أو فاعل بفعل مضمر .

﴿ وَإِذَا بَلَغَ الأطفال مِنكُمُ الحلم فَلْيَسْتَأْذِنُواْ ﴾ لما أمر الأطفال في الآية المتقدمة بالاستئذان في ثلاثة أوقات ، وأباح لهم الدخول بغير إذن في غيرها : أمرهم هنا بالاستئذان في جميع الأوقات إذا بلغوا ولحقوا بالرجال .

﴿ والقواعد مِنَ النسآء ﴾ جمع قاعد وهي العجوز ، فقيل : هي التي قعدت عن الولد ، وقيل : التي قعدت عن التبرج ﴿ فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ ﴾ أباح الله لهذا الصنف من العجائز ما لم يبح لغيرهنّ من وضع الثياب ، قال ابن مسعود إنما أبيح لهنّ وضع الجلباب الذي فوق الخمار والرداء ، وقال بعضهم : إنما ذلك في منزلها الذي يراها فيه ذوو محارمها ﴿ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ ﴾ إنما أباح الله لهنّ وضع الثياب بشرط ألا يقصدن إظهار زينة ، والتبرج هو الظهور ﴿ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ﴾ المعنى أن الاستعفاف عن وضع الثياب المذكورة خير لهنّ من وضعها ، والأولى لهن أن يلتزمن من ما يلتزم شباب النساء من الستر .

(179/555)

﴿ لَّيْسَ عَلَى الأعمى حَرَجٌ ﴾ الآية اختلف في المعنى الذي رفع فيه الحرج عن الأعمى والأعرج والمريض في هذه الآية فقيل : هو في الغزو أي لا حرج عليهم في تأخيرهم عنه ، وقوله ﴿ وَلاَ على أَنفُسِكُمْ ﴾ مقطوع من الذي قبله على هذا القول كأنه قال : ليس على هؤلاء الثلاثة حرج في ترك الغزو ، ولا عليكم حرج في الأكل ، وقيل : الآية كلها في معنى

الأكل ، واختلف الذاهبون إلى ذلك ، فقيل : إن أهل هذه الأعذار كانوا يتجنبون الأكل مع الناس لئلا يتقذرهم الناس ، فنزلت الآية مبيحة لهم الأكل مع الناس ، وقيل : إن الناس كانوا إذا نهضوا إلى الغزوا وخلفوا أهل هذه الأعذار في بيوتهم ، وكانوا يتجنبون أكل مال الغائب ، فنزلت الآية في ذلك ، وقيل : إن الناس كانوا يتجنبون الأكل معهم تقذراً ، فنزل الآية ، وهذا ضعيف ، لأن رفع الحرج عن أهل الأعذار لا عن غيرهم ، وقيل : إن رفع الحرج عن هؤلاء الثلاثة في كل ما تمنعهم عنه أعذارهم من الجهاد وغيره ﴿ وَلاَ على أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُواْ مِن بُيُوتِكُمْ ﴾ أباح الله تعالى الإنسان الأكل في هذه البيوت المذكورة في الآية ، فبدأ ببيت الرجل نفسه ، ثم ذكر القرابة على ترتيبهم ولم يذكر فيهم الابن ، لأنه دخل في قوله ﴿ مِن بُيُوتِكُمْ ﴾ ، لأن بيت ابن الرجل بيته ، لقوله عليه الصلاة والسلام : " أنت ومالك لأبيك " ، واختلف العلماء فيما ذكر في هذه الآية من الأكل بين بيوت القرابة فذهب قوم إلى أنه منسوخ ، وأنه لا يجوز الأكل من بيت أحد إلا بإذنه والناسخ قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَأْكلوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بالباطل ﴾ [البقرة : 188 ، النساء : 29] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : " لا يحل مال امرىء مسلم إلا عن طيب نفسه منه " وقيل الآية محكمة ، ومعناها إباحة الأكل من بيوت القرابة إذا أذنوا في ذلك ، وقيل بإذن وبغير إذن ﴿ أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَّفَاتِحهُ ﴾ يعني الوكلاء والأجراء والعبيد الذين يمسكون

مفاتح مخازن أموال ساداتهم ، فأباح لهم الأكل منها ، وقيل : المراد ما ملك الإنسان من مفاتح نفسه وهذا ضعيف ﴿ أَوْ صَدِيقِكُمْ ﴾ الصديق يقع على الواحد والجماعة ، كالعدوّ ، والمراد به هنا جمع ليناسب ما ذكر قبله من الجموع في قوله ﴿ آبَآئِكُمْ ﴾ و ﴿ أُمَّهَاتِكُمْ ﴾ وغير ذلك ، وقرن الله الصديق بالقرابة ، لقرب مودّته ، وقال ابن عباس : الصديق أوكد من القرابة .

﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُواْ جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً ﴾ إباحة للأكل في حال الاجتماع والانفراد ، لأنّ بعض العرب كان لا يأكل وحده أبداً خيفة من البخل ، فأباح لهم الله ذلك ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُواْ على أَنفُسِكُمْ ﴾ أي إذا دخلتم بيوتاً مسكونة ، فسلموا على من فيها من الناس ، وإنما قال : ﴿ على أَنفُسِكُمْ ﴾ بمعنى صنفكم كقوله ﴿ وَلاَ تلمزوا أَنفُسَكُمْ ﴾ [الحجرات : 11] وقيل : المعنى إذا دخلتم بيوتاً خالية فسلموا على أنفسكم بأن يقول الرجل : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، وقيل : يعني بالبيوت ، المساجد ، والأمر بالسلام على من فيها ، فإن لم يكن فيها أحد فيسلم على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى الملائكة وعلى عباد الله الصالحين .

﴿ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُ على أَمْرٍ جَامِعٍ ﴾ الآية : الأمر الجامع هو ما يجمع الناس للمشورة فيه ، أو للتعاون عليه . ونزلت هذه الآية في وقت حفر الخندق بالمدينة ، فإن بعض المؤمنين كانوا

يستأذنون في الانصراف لضرورة ، وكان المنافقون يذهبون بغير استئذان ﴿ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ ﴾ أي لبعض حوائجهم .

(181/555)

﴿ لاَّ تَجْعَلُواْ دُعَآءَ الرسول بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً ﴾ في معناها ثلاثة أقوال الأول : أن الدعاء هنا يراد به دعاء النبي صلى الله عليه وسلم إياهم ليجتمعوا إليه في أمر جامع أو في قتال وشبه ذلك ، فالمعنى أن إجابتكم له إذا دعاكم واجبه عليكم بخلاف ما إذا دعا بعضكم بعضاً ، فهو كقوله تعالى : ﴿ استجيبوا للَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم ﴾ [الأنفال : 24] ويقوي هذا القول مناسبته لما قبله من الاستئذان والأمر الجامع ، والقول الثاني أن المعنى لا تدعوا الرسول عليه السلام باسمه كما يدعو بعضكم بعضاً باسمه بل قولوا : يا رسول الله أو يا نبي الله تعظيماً له ودعاء بأشرف أسمائه ، وقيل : المعنى لا تحسبوا دعاء الرسول عليكم كدعاء بعضكم على بعض : أي دعاؤه عليكم يجاب فاحذروه ، ولفظ الآية بعيد من هذا المعنى على أن المعنى صحيح ﴿ قَدْ يَعْلَمُ الله الذين يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذاً ﴾ الذي ينصرفون عن حفر الخندق واللواذ الروغان والمخالفة وقيل : الانصراف في خفية ﴿ فَلْيَحْذَرِ الذين يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ ﴾ الضمير لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم ،

واختلف في عن هنا ، فقيل إنها زائدة وهذا ضعيف ، وقال ابن عطية : معناه يقع خلافهم بعد أمره كما تقول : كان المطر عن ريح ، قال الزمخشري يقال : خالفه إلى الأمر إذا ذهب إليه دونه ، وخالفه عن الأمر إذا صد الناس عنه ، فمعنى يخالفون عن أمره يصدّون الناس عنه ، فحذف المفعول لأن الغرض ذكر المخالف ﴿ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ الفتنة في الدنيا بالرزايا ، أو بالفضيحة أو القتل أو العذاب الآخر .

(182/555)

﴿ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ ﴾ دخلت قد للتأكيد ، وفي الكلام معنى الوعيد ، وقيل : معناها التقليل على وجه التهكم والخطاب لجميع الخلق ، أو للمنافقين خاصة ﴿ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ ﴾ يعني المنافقين ، والعامل في الظرف بينهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التسهيل حـ 3 صـ 71 ﴿74.

(183/555)

وقال النسفى :

﴿ وَأَقْسَمُواْ بِاللَّهِ جَهْدَ أَيمَانِهِمْ ﴾

أي حلف المنافقون بالله جهد اليمين لأنهم بذلوا فيها مجهودهم .

وجهد يمينه مستعار من جهد نفسه إذا بلغ أقصى وسعها وذلك إذا بالغٍ في اليمين وبلغ غاية شدتها ووكادتها .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما : من قال بالله فقد جهد يمينه .

وأصل أقسم جهد اليمين أقسم بجهد اليمين جهداً فحذف الفعل وقدم المصدر فوضع موضعه مضافاً إلى المفعول كقوله ﴿ فضرب الرقاب ﴾ [محمد : 4] وحكم هذا المنصوب حكم الحال كأنه قال جاهدين أيمانهم ﴿ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ﴾ أي لئن أمرنا محمد بالخروج إلى الغزو لغزونا أو بالخروج من ديارنا لخرجنا ﴿ قُل لاَّ تُقْسِمُواْ ﴾ لا تحلفوا كاذبين لأنه معصية ﴿ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ﴾ أمثل وأولى بكم من هذه الأيمان الكاذبة ، مبتدأ محذوف الخبر أو خبر مبتدأ محذوف أي الذي يطلب منكم طاعة معروفة معلومة لا يشك فيها ولا يرتاب كطاعة الخلص من المؤمنين لا أيمان تقسمون بها بأفواهكم وقلوبكم على خلافها ﴿ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ يعلم ما في ضمائركم ولا يخفى عليه شيء من سرائركم وإنه فاضحكم لا محالة ومجازيكم على نفاقكم

﴿ قُلْ أَطِيعُواْ اللهَ وَأَطِيعُواْ الرسول ﴾ صرف الكلام عن الغيبة إلى الخطاب على طريق الالتفات وهو أبلغ في تبكيتهم ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَّا حُمِّلْتُمْ ﴾ يريد فإن تتولوا فما ضررتموه وإنما ضررتم أنفسكم فإن الرسول ليس عليه إلا ما حمله الله تعالى وكلفه من أداء الرسالة فإذا أدى فقد خرج عن عهدة تكليفه ، وأما أنتم فعليكم ما كلفتم من التلقي بالقبول والإذعان فإن لم تفعلوا وتوليتم فقد عرضتم نفوسكم لسخط الله وعذابه ﴿ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ ﴾ أي وإن أطعتموه فيما يأمركم وينهاكم فقد أحرزتم نصيبكم من الهدى ، فالضرر في توليكم والنفع عائدان إليكم ﴿ وَمَا عَلَى الرسول إِلاَّ البلاغ المبين ﴾ وما على الرسول إلا أن يبلغ ما له نفع في قلوبكم ولا عليه ضرر في توليكم .

والبلاغ بمعنى التبليغ كالأداء بمعنى التأدية ، والمبين الظاهر لكونه مقروناً بالآيات والمعجزات .

ثم ذكر المخلصين فقال

ثم ذكر المخلصين فقال ﴿ وَعَدَ اللهُ الذين ءامَنُواْ مِنْكُمْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ الخطاب للنبي عليه الصلاة والسلام ولمن معه و ﴿ منكم ﴾ للبيان .

وقيل : المراد به المهاجرون و "من" للتبعيض ﴿ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى الأرض ﴾ أي أرض

الكفار .

وقيل : أرض المدينة .

(185/555)

والصحيح أنه عام لقوله عليه الصلاة والسلام " ليدخلن هذا الدين على ما دخل عليه الليل " ﴿ كَمَا استخلف ﴾ استخلف أبو بكر ﴿ الذين مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الذى ارتضى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ ﴾ ﴿ وليبدلنهم ﴾ بالتخفيف : مكي وأبو بكر ﴿ مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً ﴾ وعدهم الله أن ينصر الاسلام على الكفر ويورثهم الأرض ويجعلهم فيها خلفاء كما فعل ببني إسرائيل حين أورثهم مصر والشام بعد إهلاك الجبابرة ، وأن يمكن الدين المرتضى وهو دين الاسلام ، وتمكينه تثبيته وتعضيده وأن يؤمن سربهم ويزيل عنهم الخوف الذي كانوا عليه .

وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه مكثوا بمكة عشر سنين خائفين ، ولما هاجروا كانوا بالمدينة يصبحون في السلاح ويمسون فيه حتى قال رجل : ما يأتي علينا يوم نأمن فيه ونضع السلاح فنزلت فقال عليه الصلاة والسلام " لا تغبرون إلا يسيرا حتى يجلس الرجل منكم في الملأ العظيم محتبياً ليس معه حديدة " فأنجز الله وعده وأظهرهم على

جزيرة العرب وافتتحوا أبعد بلاد المشرق والمغرب ومزقوا ملك الأكاسرة وملكوا خزائنهم واستولوا على الدنيا .

والقسم المتلقى باللام والنون في ﴿ ليستخلفنهم ﴾ محذوف تقديره وعدهم الله وأقسم ليستخلفنهم ، أو نزل وعد الله في تحققه منزلة القسم فتلقى بما يتلقى به القسم كأنه قيل : أقسم الله ليستخلفنهم ﴿ يَعْبُدُونَنِى ﴾ إن جعلته استئنافاً فلا محل له كأنه قيل : ما لهم يستخلفون ويؤمنون ؟ فقال : يعبدونني موحدين ، ويجوز أن يكون حالاً بدلاً من الحال الأولى .

وإن جعلته حالاً عن وعدهم أي وعدهم الله ذلك في حال عبادتهم فمحله النصب ﴿ لاَ يُشْرِكُونَ بِى شَيْئاً ﴾ حال من فاعل يعبدون أي يعبدونني موحدين ، ويجوز أن يكون حالاً بدلاً من الحال الأولى .

(186/555)

﴿ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذلك ﴾ أي بعد الوعد والمراد كفران النعمة كقوله تعالى : ﴿ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ الله ﴾ ﴾ [النحل : 112] ﴿ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الفاسقون ﴾ هم الكاملون في فسقهم حيث كفروا تلك النعمة الجسيمة وجسروا على غمطها .

قالوا : أول من كفر هذه النعمة قتلة عثمان رضي الله عنه فاقتتلوا بعد ما كانوا إخواناً وزال عنهم الخوف ، والآية أوضح دليل على صحة خلافة الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم أجمعين لأن المستخلفين الذين آمنوا وعملوا الصالحات هم هم .

﴿ واقيموا الصلاة ﴾ معطوف على ﴿ أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ﴾ ولا يضر الفصل وإن طال ﴿ وَاتُواْ الزكواة وَأَطِيعُواْ الرسول ﴾ فيما يدعوكم إليه وكررت طاعة الرسول تأكيداً لوجوبها ﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ أي لكي ترحموا فإنها من مستجلبات الرحمة ثم ذكر الكافرين فقال ﴿ لاَ تَحْسَبَنَّ الذين كَفَرُواْ مُعْجِزِينَ فِى الأرض ﴾ أي فائتين الله بأن لا يقدر عليهم فيها ، فالتاء خطاب للنبي عليه الصلاة والسلام وهو الفاعل والمفعولان ﴿ الذين كفروا ﴾ و ﴿ معجزين ﴾ وبالياء شامي وحمزة والفاعل النبي صلى الله عليه وسلم لتقدم ذكره والمفعولان ﴿ الذين كَفَرُواْ ﴾ و ﴿ معجزين ﴾ ﴿ وَمَأْوَاهُمُ النار ﴾ معطوف على ﴿ لاَ تَحْسَبَنَّ الذين كَفَرُواْ مُعْجِزِينَ ﴾ كَأَنَّهُ قِيلَ : الذين كَفَرُواْ لاَ يفوتون الله وَمَأْوَاهُمُ النار ﴿ وَلَبِئْسَ المصير ﴾ أي المرجع النار .

(187/555)

﴿ يا أيها الذين ءامَنُواْ لِيَسْتَأْذِنكُمُ الذين مَلَكَتْ أيمانكم ﴾ أمر بأن يستأذن العبيد والإماء ﴿ والذين لَمْ يَبْلُغُواْ الحلم مِنكُمْ ﴾ أي الأطفال الذين لم يحتلموا من الأحرار ، وقريء بسكون اللام تخفيفاً ﴿ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ ﴾ في اليوم والليلة وهي ﴿ مّن قَبْلِ صلاة الفجر ﴾ لأنه وقت القيام من المضاجع وطرح ما ينام فيه من الثياب ولبس ثياب اليقظة ﴿ وَحِينَ تَضَعُونَ ثيابكم مّنَ الظهيرة ﴾ وهي نصف النهار في القيظ لأنها وقت وضع الثياب للقيلولة ﴿ وَمِن بَعْدِ صلاة العشاء ﴾ لأنه وقت التجرد من ثياب اليقظة والالتحاف بثياب النوم ﴿ ثَلاَثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ ﴾ أي هي أوقات ثلاثة عورات فحذف المبتدأ والمضاف .

وبالنصب : كوفي غير حفص بدلاً من ﴿ ثلاث مرات ﴾ أي أوقات ثلاث عورات .

وسمي كل واحد من هذه الأحوال عورة لأن الإنسان يختل تستره فيها ، والعورة : الخلل ومنها الأعور المختل العين .

دخل غلام من الأنصار يقال له مدلج بن عمرو على عمر رضي الله عنه وقت الظهيرة وهو نائم وقد انكشف عنه ثوبه فقال عمر رضي الله عنه : وددت أن الله نهى عن الدخول في هذه الساعات إلا بالإذن ، فانطلق إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقد نزلت عليه الآية .

ثم عذرهم في ترك الاستئذان وراء هذه المرات بقوله ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلاَ عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ ﴾ أي لا إثم عليكم ولا على المذكورين في الدخول بغير استئذان بعدهن .

ثم بين العلة في ترك الاستئذان في هذه الأوقات بقوله ﴿ طَوافُونَ عَلَيْكُمْ ﴾ أي هم طوافون بحوائج البيت ﴿ بَعْضُكُمْ ﴾ مبتدأ خبره ﴿ على بَعْضٍ ﴾ تقديره بعضكم طائف على بعض فحذف طائف لدلالة ﴿ طوافون ﴾ عليه ، ويجوز أن تكون الجملة بدلاً من التي قبلها وأن تكون مبينة مؤكدة يعني أن بكم وبهم حاجة إلى المخالطة والمداخلة يطوفون عليكم للخدمة وتطوفون عليهم للاستخدام ، فلو جزم الأمر بالاستئذان في كل وقت لأفضى إلى الحرج وهو مدفوع في الشرح بالنص ﴿ كذلك يُبيّنُ الله لَكُمُ الآيات ﴾ أي كما بين حكم الاستئذان يبين لكم غيره من الآيات التي احتجتم إلى بيانها ﴿ والله عَلِيمٌ ﴾ بمصالح عباده ﴿ حَكِيمٌ ﴾ في بيان مراده .

﴿ وَإِذَا بَلَغَ الأطفال مِنكُمُ ﴾ أي الأحرار دون المماليك ﴿ الحلم ﴾ أي الاحتلام أي إذا بلغوا وأرادوا الدخول عليكم ﴿ فَلْيَسْتَأْذِنُواْ ﴾ في جميع الأوقات ﴿ كَمَا استأذن الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أي الذين بلغوا الحلم من قبلهم وهم الرجال ، أو الذين ذكروا من قبلهم في قوله : ﴿ يا أيها الذين ءامَنُواْ لاَ تَدْخُلُواْ بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حتى تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلّمُواْ ﴾ الآية .

والمعنى أن الأطفال مأذون لهم في الدخول بغير إذن إلا في العورات الثلاث ، فإذا اعتاد الأطفال ذلك ثم بلغوا بالاحتلام أو بالسن وجب أن يفطموا عن تلك العادة ويحملوا على أن يستأذنوا في جميع الأوقات كالرجال الكبار الذين لم يعتادوا الدخول عليكم إلا بإذن ،

والناس عن هذا غافلون ، وعن ابن عباس رضي الله عنه : ثلاث آيات جحدهن الناس : الإذن كله وقوله : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أتقاكم ﴾ [الحجرات : 13] ﴿ وَإِذَا حَضَرَ القسمة ﴾ [النساء : 8] .

وعن سعيد بن جبير : يقولون هي منسوخة والله ما هي بمنسوخة وقوله ﴿ كذلك يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ ءاياته والله عَلِيمٌ ﴾ بمصالح الأنام ﴿ حَكِيمٌ ﴾ فيما يبين من الأحكام .

(189/555)

﴿ والقواعد ﴾ جمع قاعد لأنها من الصفات المختصة بالنساء كالطالق والحائض أي اللاتي قعدن عن الحيض والولد لكبرهن ﴿ مِّنَ النساء ﴾ حال ﴿ اللاتى لاَ يَرْجُونَ نِكَاحاً ﴾ لا يطمعن فيه وهي في كل الرفع صفة للمبتدأ وهي القواعد والخبر ﴿ فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ ﴾ إثم ودخلت الفاء لما في المبتدأ من معنى الشرط بسبب الألف واللام ﴿ أَن يَضَعْنَ ﴾ في أن يضعن ﴿ ثِيَابَهُنَّ ﴾ أي الظاهرة كالملحفة والجلباب الذي فوق الخمار ﴿ غَيْرِ ﴾ حال ﴿ متبرجات بِزِينَةٍ ﴾ أي غير مظهرات زينة يريد الزينة الخفية كالشعر والنحر والساق ونحو ذلك أي لا يقصدن بوضعها التبرج ولكن التخفيف ، وحقيقة التبرج

يكلف إظهاراً ما يجب إخفاؤه ﴿ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ ﴾ أي يطلبن العفة عن وضع الثياب فيستترون وهو مبتدأ خبره ﴿ خَيْرٌ لَّهُنَّ واللهُ سَمِيعٌ ﴾ لما يعلن ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بما يقصدن .

(190/555)

﴿ لَّيْسَ عَلَى الأعمى حَرَجٌ وَلاَ عَلَى الأعرج حَرَجٌ وَلاَ عَلَى المريض حَرَجٌ ﴾ قال سعيد بن المسيب : كان المسلمون إذا خرجوا إلى الغزو مع النبي صلى الله عليه وسلم وضعوا مفاتيح بيوتهم عند الأعمى والمريض والأعرج وعند أقاربهم ويأذنونهم أن يأكلوا من بيوتهم ، وكانوا يتحرجون من ذلك ويقولون : نخشى أن لا تكون أنفسهم بذلك طيبة فنزلت الآية رخصة لهم ﴿ وَلاَ على أَنفُسِكُمْ ﴾ أي حرج ﴿ أَن تَأْكُلُواْ مِن بُيُوتِكُمْ ﴾ أي بيوت أولادكم لأن ولد الرجل بعضه وحكمه حكم نفسه ولذا لم يذكر الأولاد في الآية ، وقد قال عليه الصلاة والسلام " أنت ومالك لأبيك " أو بيوت أزواجكم لأن الزوجين صار كنفس واحدة فصار بيت المرأة كبيت الزوج ﴿ أو بيوت ءَابائكم أو بيوت أمهاتكم أو بيوت إخوانكم أو بيوت أخواتكم أو بيوت أعمامكم أو بيوت عماتكم أو بيوت أخوالكم أو بيوت خالاتكم ﴾ لأن الإذن من هؤلاء ثابت دلالة ﴿ أوما ملكتم مّفاتحة ﴾ جمع مفتح وهو ما يفتح به الغلق ، قال ابن عباس رضي الله عنه : هو وكيل الرجل وقيمه في ضيعته وماشيته

، له أن يأكل من ثمر ضيعته ويشرب من لبن ماشيته .

وأريد بملك المفاتح كونها في يده وحفظه .

وقيل : أريد به بيت عبده لأن العبد وما في يده لمولاه ﴿ أَوْ صَدِيقِكُمْ ﴾ يعني أو بيوت أصدقائكم والصديق يكون واحداً وجمعاً وهو من يصدقك في مودته وتصدقه في مودتك ، وكان الرجل من السلف يدخل دار صديقه وهو غائب فيسأل جاريته كيسه فيأخذ ما شاء ، فإذا حضر مولاها فأخبرته أعتقها سروراً بذلك ، فأما الآن فقد غلب الشح على الناس فلا يؤكل إلا بإذن .

﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُواْ جَمِيعاً ﴾ مجتمعين ﴿ أَوْ أَشْتَاتاً ﴾ متفرقين جمع شت .

(191/555)

نزلت في بني ليث بن عمرو وكانوا يتحرجون أن يأكل الرجل وحده فربما قعد منتظراً نهاره إلى الليل فإن لم يجد من يؤاكله أكل ضرورة ، أو في قوم من الأنصار إذا نزل بهم ضيف لا يأكلون إلا مع ضيفهم ، أو تحرجوا عن الاجتماع على الطعام لاختلاف الناس في الأكل وزيادة بعضهم على بعض ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً ﴾ من هذه البيوت لتأكلوا ﴿ فَسَلِّمُواْ على أَنفُسِكُمْ ﴾ أي فابدؤوا بالسلام على أهلها الذين هم منكم ديناً وقرابة أو بيوتاً فارغة أو

مسجداً فقولوا : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ﴿ تَحِيَّةً ﴾ نصب ب ﴿ سلموا ﴾ لأنها في معنى تسليماً نحو "قعدت جلوساً" ﴿ مِنْ عِندِ الله ﴾ أي ثابتة بأمره مشروعة من لدنه ، أو لأن التسليم والتحية طلب سلامة وحياة للمسلم عليه والمحيا من عند الله ﴿ مباركة طَيِّبَةً ﴾ وصفها بالبركة والطيب لأنها دعوة مؤمن لمؤمن يرجى بها من الله زيادة الخير وطيب الرزق ﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ الله لَكُمُ الآيات لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ لكي تعقلوا وتفهموا .

﴿ إِنَّمَا المؤمنون الذين ءامَنُواْ بالله وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُ على أَمْرٍ جَامِعٍ ﴾ أي الذي يجمع له الناس نحو الجهاد والتدبير في الحرب وكل اجتماع في الله حتى الجمعة والعيدين ﴿ لَّمْ يَذْهَبُواْ حتى يَسْتَذِنُوهُ ﴾ أي ويأذن لهم .

ولما أراد الله عز وجل أن يريهم عظم الجناية في ذهاب الذاهب عن مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم بغير إذنه إذا كانوا معه على أمر جامع ، جعل ترك ذهابهم حتى يستأذنوه ثالث الإيمان بالله والإيمان برسوله ، وجعلهما كالتشبيب له والبساط لذكره .

(192/555)

وذلك مع تصدير الجملة ب ﴿ إنما ﴾ وإيقاع المؤمنين مبتدأ مخبراً عنه بموصول أحاطت صلته بذكر الإيمانين ، ثم عقبه بما يزيده توكيداً وتشديداً حيث أعاده على أسلوب آخر وهو قوله ﴿ إِنَّ الذين يَسْتَذِنُونَكَ أُوْلَئِكَ الذين يُؤْمِنُونَ بالله وَرَسُولِهِ ﴾ وضمنه شيئاً آخر وهو أنه جعل الاستئذان كالمصداق لصحة الإيمانين وعرض بحال المنافقين وتسللهم لواذاً ﴿ فَإِذَا استذنوك ﴾ في الانصراف ﴿ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ ﴾ أمرهم ﴿ فَأْذَن لّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ ﴾ فيه رفع شأنه عليه الصلاة والسلام ﴿ واستغفر لَهُمُ الله إِنَّ الله غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ وذكر الاستغفار للمستأذنين دليل على أن الأفضل أن لا يستأذن .

قالوا : وينبغي أن يكون الناس كذلك مع أئمتهم ومقدميهم في الدين والعلم يظاهرونهم ولا يتفرقون عنهم إلا بإذن ، قيل : نزلت يوم الخندق كان المنافقون يرجعون إلى منازلهم من غير استئذان ﴿ لاَّ تَجْعَلُواْ دُعَاء الرسول بَيْنَكُمْ كَدُعَاء بَعْضِكُمْ بَعْضاً ﴾ أي إذا احتاج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى اجتماعكم عنده لأمر فدعاكم فلا تفرقوا عنه إلا بإذنه ، ولا تقيسوا دعاءه إياكم على دعاء بعضكم بعضاً ، ورجوعكم عن المجمع بغير إذن الداعي أو لا تجعلوا تسميته ونداءه بينكم كما يسمي بعضكم بعضاً ويناديه باسمه الذي سماه به أبواه ، فلا تقولوا يا محمد ولكن يا نبي الله يا رسول الله مع التوقير والتعظيم والصوت المخفوض .

﴿ قَدْ يَعْلَمُ الله الذين يَتَسَلَّلُونَ ﴾ يخرجون قليلاً قليلاً ﴿ مِنكُمْ لِوَاذاً ﴾ حال أي

ملاوذين اللواذ .

والملاوذة هو أن يلوذ هذا بذاك وذاك بهذا أي ينسلون عن الجماعة في الخفية على سبيل الملاوذة واستتار بعضهم ببعض ﴿ فَلْيَحْذَرِ الذين يخالفون عَنْ أَمْرِهِ ﴾ أي الذين يصدون عن أمره دون المؤمنين وهم المنافقون .

(193/555)

يقال : خالفه إلى الأمر إذا ذهب إليه دونه ومنه : ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنهاكم عَنْهُ ﴾ [هود : 88] وخالفه عن الأمر إذا صد عنه دونه .

والضمير في ﴿ أمره ﴾ لله سبحانه أو للرسول عليه الصلاة والسلام والمعنى عن طاعته ودينه ومفعول ﴿ يحذر ﴾ ﴿ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ ﴾ محنة في الدنيا أو قتل أو زلازل وأهوال أو تسليط سلطان جائر أو قسوة القلب عن معرفة الرب أو إسباغ النعم استدراجاً ﴿ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ في الآخرة .

والآية تدل على أن الأمر للإيجاب .

﴿ أَلا إِنَّ للَّهِ مَا فِى السماوات والأرض ﴾ "ألا" تنبيه على أن لا يخالفوا أمر من له ما في السماوات والأرض ﴿ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ ﴾ أدخل "قد" ليؤكد علمه بما هم عليه من

المخالفة عن الدين ويرجع توكيد العلم إلى توكيد الوعيد ، والمعنى أن جميع ما في السماوات والأرض مختص به خلقاً وملكاً وعلماً فكيف تخفى عليه أحوال المنافقين وإن كانوا يجهدون في سترها ؟ ﴿ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ ﴾ وبفتح الياء وكسر الجيم : يعقوب أي ويعلم يوم يردون إلى جزائه وهو يوم القيامة .

والخطاب والغيبة في قوله ﴿ قد يعلم ﴾ ﴿ ما أنتم عليه ﴾ ﴿ ويوم يرجعون إليه ﴾ يجوز أن يكونا جميعاً للمنافقين على طريق الالتفات ، ويجوز أن يكون ﴿ ما أنتم عليه ﴾ عاماً و ﴿ يرجعون ﴾ للمنافقين ﴿ فَيُنَبِّئُهُمْ ﴾ يوم القيامة ﴿ بِمَا عَمِلُواْ ﴾ بما أبطنوا من سوء أعمالهم ويجازيهم حق جزائهم ﴿ واللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ فلا يخفي عليه خافية .

ورُوي أن ابن عباس رضي الله عنهما قرأ سورة النور على المنبر في الموسم وفسرها على وجه لو سمعت الروم به لأسلمت والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير النسفى حـ 3 صـ 151.157 ﴾

(194/555)

وقال البيضاوى :

﴿ وَأَقْسَمُواْ بِاللهِ جَهْدَ أيمانهم ﴾

إنكار للامتناع عن حكمه . ﴿ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ ﴾ الخروج عن ديارهم وأموالهم . ﴿ لَيَخْرِجَنَّ ﴾ جواب ل ﴿ أَقْسَمُواْ ﴾ على الحكاية . ﴿ قُل لاَّ تُقْسِمُواْ ﴾ على الكذب . ﴿ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ﴾ أي المطلوب منكم طاعة معروفة لا اليمين على الطاعة النفاقية المنكرة . أو ﴿ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ﴾ أمثل منها أو لتكن طاعة ، وقرئت بالنصب على أطيعوا طاعة . ﴿ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ فلا يخفى عليه سرائركم .

﴿ قُلْ أَطِيعُواْ اللهَ وَأَطِيعُواْ الرسول ﴾ أمر بتبليغ ما خاطبهم الله به على الحكاية مبالغة في تبكيتهم . ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ ﴾ أي على محمد صلى الله عليه وسلم . ﴿ مَا حُمِّلَ ﴾ من التبليغ . ﴿ وَعَلَيْكُمْ مَّا حُمِّلْتُمْ ﴾ من الامتثال . ﴿ وَإِن تُطِيعُوهُ ﴾ في حكمه . ﴿ تَهْتَدُواْ ﴾ إلى الحق . ﴿ وَمَا عَلَى الرسول إِلاَّ البلاغ المبين ﴾ التبليغ الموضح لما كلفتم به ، وقد أدى وإنما بقي ﴿ مَّا حُمِّلْتُمْ ﴾ فإن أديتم فلكم وإن توليتم فعليكم .

(195/555)

﴿ وَعَدَ اللهُ الذين ءامَنُواْ مِنْكُمْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ خطاب للرسول صلى الله عليه وسلم وللأمة أوله ولمن معه ومن للبيان ﴿ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأرض ﴾ ليجعلنهم خلفاء متصرفين في الأرض تصرف الملوك في مماليكهم ، وهو جواب قسم مضمر تقديره وعدهم الله وأقسم ليستخلفنهم ، أو الوعد في تحققه منزل منزلة القسم . ﴿ كَمَا استخلف الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ يعني بني إسرائيل استخلفهم في مصر والشام بعد الجبابرة ، وقرأ أبو بكر بضم التاء وكسر اللام وإذا ابتدأ ضم الألف والباقون بفتحهما وإذا ابتدؤوا كسروا الألف . ﴿ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الذي ارتضى لَهُمْ ﴾ وهو الإسلام بالتقوية والتثبيت . ﴿ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ ﴾ من الأعداء ، وقرأ ابن كثير وأبو بكر بالتخفيف . ﴿ أَمْناً ﴾ منهم وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه مكثوا بمكة عشر سنين خائفين ، ثم هاجروا إلى المدينة وكان يصبحون في السلاح ويمسون فيه حتى أنجز الله وعده فأظهرهم على العرب كلهم وفتح لهم بلاد الشرق والغرب ، وفيه دليل على صحة النبوة للإخبار عن الغيب على ما هو به وخلافة الخلفاء الراشدين إذ لم يجتمع الموعود والموعود عليه لغيرهم بالإجماع .

وقيل الخوف من العذاب والأمن منه في الآخرة . ﴿ يَعْبُدُونَنِي ﴾ حال من الذين لتقييد الوعد بالثبات على التوحيد ، أو استئناف ببيان المقتضي للاستخلاف والأمن . ﴿ لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً ﴾ حال من الواو أي يعبدونني غير مشركين . ﴿ وَمَن كَفَرَ ﴾ ومن ارتد

أو كفر هذه النعمة . ﴿ بَعْدَ ذَلِكَ ﴾ بعد الوعد أو حصول الخلافة . ﴿ فأولئك هُمُ الفاسقون ﴾ الكاملون في فسقهم حيث ارتدوا بعد وضوح مثل هذه الآيات ، أو كفروا تلك النعمة العظيمة .

(196/555)

﴿ وَأَقِيمُواْ الصلاة وَآتُواْ الزكوة وَأَطِيعُواْ الرسول ﴾ في سائر ما أمركم به ولا يبعد عطف ذلك على أطيعوا الله فإن الفاصل وعد على المأمور به ، فيكون تكرير الأمر بطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم للتأكيد وتعليق الرحمة بها أو بالمندرجة هي فيه بقوله : ﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ كما علق به الهدى .

﴿ لاَ تَحْسَبَنَّ الذين كَفَرُواْ مُعْجِزِينَ فِي الأرض ﴾ لا تحسبن يا محمد الكفار معجزين لله عن إدراكهم وإهلاكهم ، و ﴿ فِي الأرض ﴾ صلة ﴿ مُعجِزِينَ ﴾ . وقرأ ابن عامر وحمزة بالياء على أن الضمير فيه لمحمد صلى الله عليه وسلم ، والمعنى كما هو في القراءة بالتاء أو ﴿ الذين كَفَرُواْ ﴾ فاعل والمعنى ولا يحسبن الكفار في الأرض أحداً معجزاً لله ، فيكون ﴿ مُعْجِزِينَ فِي الأرض ﴾ مفعوليه أو لا يحسبونهم ﴿ مُعَجِزِينَ ﴾ فحذف المفعول الأول لأن الفاعل والمفعولين لشيء واحد فاكتفى بذكر اثنين عن الثالث . ﴿ وَمَأْوَاهُمُ النار ﴾

عطف عليه من حيث المعنى كأنه قيل : الذين كفروا ليسوا بمعجزين ومأواهم النار ، لأن المقصود من النهي عن الحسبان تحقيق نفي الإِعجاز . ﴿ وَلَبِئْسَ المصير ﴾ المأوى الذي يصيرون إليه .

(197/555)

﴿ يا أيها الذين ءَامَنُواْ لِيَسْتَأْذِنكُمُ الذين مَلَكَتْ أيمانكم ﴾ رجوع إلى تتمة الأحكام السالفة بعد الفراغ من الإِلهيات الدالة على وجوب الطاعة فيما سلف من الأحكام وغيرها والوعد عليها والوعيد على الإِعراض عنها ، والمراد به خطاب الرجال والنساء غلب فيه الرجال لما روي أن غلام أسماء بنت أبي مرثد دخل عليها في وقت كرهته فنزلت . وقيل أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم مدلج بن عمرو الأنصاري وكان غلاماً وقت الظهيرة ليدعو عمر ، فدخل وهو نائم وقد انكشف عنه ثوبه فقال عمر رضي الله تعالى عنه : لوددت أن الله عز وجل نهى آباءنا وأبناءنا وخدمنا أن لا يدخلوا هذه الساعات علينا إلا بإذن ، ثم انطلق معه إلى النبي صلى الله عليه وسلم فوجده وقد أنزلت هذه الآية : ﴿ والذين لَمْ يَبْلُغُواْ الحلم مِنكُمْ ﴾ والصبيان الذين لم يبلغوا من الأحرار فعبر عن البلوغ بالاحتلام لأنه أقوى دلائله . ﴿ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ ﴾ في اليوم والليلة مرة . ﴿ مّن قَبْلِ

صلاة الفجر ﴾ لأنه وقت القيام من المضاجع وطرح ثياب النوم ولبس ثياب اليقظة ، ومحله النصب بدلاً من ثلاث مرات أو الرفع خبراً لمحذوف أي هي من قبل صلاة الفجر .

(198/555)

﴿ وَحِينَ تَضَعُونَ ثيابكم ﴾ أي ثيابكم لليقظة للقيلولة . ﴿ مّنَ الظهيرة ﴾ بيان للحين . ﴿ وَمِن بَعْدِ صلاة العشاء ﴾ لأنه وقت التجرد عن اللباس والالتحاف باللحاف . ﴿ ثَلاَثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ ﴾ أي هي ثلاث أوقات يختل فيها تستركم ، ويجوز أن يكون مبتدأ وخبره ما بعده وأصل العورة الخلل ومنها أعور المكان ورجل أعور . وقرأ أبو بكر وحمزة والكسائي ﴿ ثلاث ﴾ بالنصب بدلاً من ﴿ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ ﴾ . ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلاَ عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ ﴾ بعد هذه الأوقات في ترك الاستئذان ، وليس فيه ما ينافي آية الاستئذان فينسخها لأنه في الصبيان ومماليك المدخول عليه وتلك في الأحرار البالغين . ﴿ طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ ﴾ أي هم طوافون استئناف ببيان العذر المرخص في ترك الاستئذان وهو المخالطة وكثرة المداخلة ، وفيه دليل على تعليل الأحكام وكذا في الفرق بين الأوقات الثلاثة وغيرها بأنها عورات . ﴿ بَعْضَكُمْ على بَعْضٍ ﴾ بعضكم طائف على بعض أو يطوف بعضكم على بعض . ﴿ كذلك ﴾ مثل ذلك التبيين . ﴿ يُبيّنُ الله لَكُمُ الآيات ﴾

أي الأحكام. ﴿ والله عَلِيمٌ ﴾ بأحوالكم. ﴿ حَكِيمٌ ﴾ فيما شرع لكم.

﴿ وَإِذَا بَلَغَ الأطفال مِنكُمُ الحلم فَلْيَسْتَأْذِنُواْ كَمَا استأذن الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ الذين بلغوا من قبلهم في الأوقات كلها ، واستدل به من أوجب استئذان العبد البالغ على سيدته ، وجوابه أن المراد بهم المعهودين الذين جعلوا قسيماً للمماليك فلا يندرجون فيهم. ﴿ كذلك يُبَيِّنُ الله لَكُمْ ءاياته والله عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ كرره تأكيداً ومبالغة في الأمر بالاستئذان.

(199/555)

﴿ والقواعد مِنَ النساء ﴾ العجائز اللاتي قعدن عن الحيض والحمل. ﴿ اللاتي لاَ يَرْجُونَ نِكَاحاً ﴾ لا يطمعن فيه لكبرهن. ﴿ فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ ﴾ أي الثياب الظاهرة كالجلباب ، والفاء فيه لأن اللام في ﴿ القواعد ﴾ بمعنى اللاتي أو لوصفها بها. ﴿ غَيْرَ متبرجات بِزِينَةٍ ﴾ غير مظهرات زينة مما أمرن بإخفائه في قوله تعالى : ﴿ وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ ﴾ وأصل التبرج التكلف في إظهار ما يخفى من قولهم : سفينة بارجة لا غطاء عليها ، والبرج سعة العين بحيث يرى بياضها محيطاً بسوادها كله لا يغيب منه شيء ، إلا أنه خص بتكشف المرأة زينتها ومحاسنها للرجال. ﴿ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ﴾ من الوضع لأنه أبعد من التهمة. ﴿ والله سَمِيعٌ ﴾ لمقالتهن للرجال. ﴿ عَلِيمٌ ﴾

بمقصودهن .

﴿ لَّيْسَ عَلَى الأعمى حَرَجٌ وَلاَ عَلَى الأعرج حَرَجٌ وَلاَ عَلَى المريض حَرَجٌ ﴾ نفي لما كانوا يتحرجون من مؤاكلة الأصحاء حذراً من استقذارهم ، أو أكلهم من بيت من يدفع إليهم المفتاح ويبيح لهم التبسط فيه إذا خرج إلى الغزو وخلفهم على المنازل مخافة أن لا يكون ذلك من طيب قلب ، أو من إجابة من دعوهم إلى بيوت آبائهم وأولادهم وأقاربهم فيطعمونهم كراهة أن يكونوا كلاً عليهم ، وهذا إنما يكون إذا علم رضا صاحب البيت بإذن أو قرينة أو كان في أول الإِسلام ثم نسخ بنحو قوله

(200/555)

﴿ لاَ تَدْخُلُواْ بُيُوتَ النبي إِلاَّ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إلى طَعَامٍ ﴾ وقيل نفي للحرج عنهم في القعود عن الجهاد وهو لا يلائم ما قبله ولا ما بعده . ﴿ وَلاَ على أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُواْ مِن بُيُوتِكُمْ ﴾ من البيوت التي فيها أزواجكم وعيالكم فيدخل فيها بيوت الأولاد لأن بيت الولد كبيته لقوله عليه الصلاة والسلام " أنت ومالك لأبيك " وقوله عليه الصلاة والسلام " إن أطيب ما يأكل المؤمن من كسبه وإن ولده من كسبه " ﴿ أَوْ بُيُوتِ آبَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ

خَالاَتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَّفَاتِحهُ ﴾ وهو ما يكون تحت أيديكم وتصرفكم من ضيعة أو ماشية وكالة أو حفظاً . وقيل بيوت المماليك والمفاتح جمع مفتح وهو ما يفتح به وقرىء ﴿ مفتاحه ﴾ . ﴿ أَوْ صَدِيقِكُمْ ﴾ أو بيوت صديقكم فإنهم أرضى بالتبسط في أموالهم وأسر به ، وهو يقع على الواحد والجمع كالخليط ، هذا كله إنما يكون إذا علم رضا صاحب البيت بإذن أو قرينة ولذلك خصص هؤلاء فإنه يعتاد التبسط بينهم ، أو كان ذلك في أول الإسلام فنسخ فلا احتجاج للحنفية به على أن لا قطع بسرقة مال المحرم . ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُواْ جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً ﴾ مجتمعين أو متفرقين نزلت في بني ليث ابن عمرو من كنانة كانوا يتحرجون أن يأكل الرجل وحده . أو في قوم من الأنصار إذا نزل بهم ضيف لا يأكلون إلا معه . أو في قوم تحرجوا عن الاجتماع على الطعام لاختلاف الطبائع في القذارة والنهمة . ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً ﴾ من هذه البيوت ﴿ فَسَلِّمُواْ على أَنفُسِكُمْ ﴾ على أهلها الذين هم منكم ديناً وقرابة . ﴿ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ الله ﴾ ثابتة بأمره مشروعة من لدنه ، ويجوز أن تكون صلة للتحية فإنه طلب الحياة وهي من

عنده تعالى وانتصابها بالمصدر لأنها بمعنى التسليم . ﴿ مباركة ﴾ لأنها يرجى بها زيادة الخير والثواب . ﴿ طَيِّبَةً ﴾ تطيب بها نفس المستمع . وعن أنس رضي الله تعالى عنه أنه عليه الصلاة والسلام قال لي " متى لقيت أحداً من أمتي فسلم عليه يطل عمرك ، وإذا دخلت بيتك فسلم عليهم يكثر خير بيتك ، وصل صلاة الضحى فإنها صلاة الأبرار الأوابين " ﴿ كذلك يُبيّنُ الله لَكُمُ الآيات ﴾ كرره ثلاثاً لمزيد التأكيد وتفخيم الأحكام المختتمة به وفصل الأولين بما هو المقتضى لذلك وهذا بما هو المقصود منه فقال : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ أي الحق والخير في الأمور .

(202/555)

﴿ إِنَّمَا المؤمنون ﴾ أي الكاملون في الإيمان . ﴿ الذين ءامَنُواْ بالله وَرَسُولِهِ ﴾ من صميم قلوبهم . ﴿ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُ على أَمْرٍ جَامِعٍ ﴾ كالجمعة والأعياد والحروب والمشاورة في الأمور ، ووصف الأمر بالجمع للمبالغة وقرىء "أمر جميع" . ﴿ لَّمْ يَذْهَبُواْ حتى يَسْتَئْذِنُوهُ ﴾ يستأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فيأذن لهم ، واعتباره في كمال الإيمان لأنه كالمصداق لصحته والمميز للمخلص فيه عن المنافق فإن ديدنه التسلل والفرار ، ولتعظيم الجرم في الذهاب عن مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم بغير إذنه ولذلك أعاده مؤكداً

على أسلوب أبلغ فقال : ﴿ إِنَّ الذين يَسْتَذِنُونَكَ أولئك الذين يُؤْمِنُونَ بالله وَرَسُولِهِ ﴾ فإنه يفيد أن المستأذن مؤمن لا محالة وأن الذهاب بغير إذن ليس كذلك . ﴿ فَإِذَا استئذنوك لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ ﴾ ما يعرض لهم من المهام ، وفيه أيضاً مبالغة وتضييق الأمر . ﴿ فَأْذَنْ لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ ﴾ تفويض للأمر إلى رأي الرسول صلى الله عليه وسلم ، واستدل به على أن بعض الأحكام مفوضة إلى رأيه ومن منع ذلك قيد المشيئة بأن تكون تابعة لعلمه بصدقه فكأن المعنى : فأْذن لمن علمت أن له عذراً . ﴿ واستغفر لَهُمُ الله ﴾ بعد الإذن فإن الاستئذان ولو لعذر قصور لأنه تقديم لأمر الدنيا على أمر الدين . ﴿ أَنَّ الله غَفُورٌ ﴾ لفرطات العباد . ﴿ رَّحِيمٌ ﴾ بالتيسير عليهم .

(203/555)

﴿ لاَّ تَجْعَلُواْ دُعَاء الرسول بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً ﴾ لا تقيسوا دعاءه إياكم على دعاء بعضكم بعضاً في جواز الإعراض والمساهلة في الإجابة والرجوع بغير إذن ، فإن المبادرة إلى إجابته عليه الصلاة والسلام واجبة والمراجعة بغير إذنه محرمة . وقيل لا تجعلوا نداءه وتسميته كنداء بعضكم بعضاً باسمه ورفع الصوت به والنداء من وراء الحجرات ، ولكن بلقبه المعظم مثل يا نبي الله ، ويا رسول الله مع التوقير والتواضع وخفض الصوت ، أو

لا تجعلوا دعاءه عليكم كدعاء بعضكم على بعض فلا تبالوا بسخطه فإن دعاءه موجب ، أو لا تجعلوا دعاءه ربه كدعاء صغيركم كبيركم يجيبه مرة ويرده أخرى فإن دعاءه مستجاب . ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللهُ الذين يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ ﴾ ينسلون قليلاً قليلاً من الجماعة ونظير تسلل تدرج وتدخل . ﴿ لِوَاذاً ﴾ يستتر بعضكم ببعض حتى يخرج ، أو يلوذ بمن يؤذن له فينطلق معه كأنه تابعه وانتصابه على الحال وقرىء بالفتح . ﴿ فَلْيَحْذَرِ الذين يخالفون عَنْ أَمْرِهِ ﴾ يخالفون أمره بترك مقتضاه ويذهبون سمتاً خلاف سمته ، و ﴿ عَنْ ﴾ لتضمنه معنى الإِعراض أو يصدون عن أمره دون المؤمنين من خالفه عن الأمر إذا صد عنه دونه ، وحذف المفعول لأن المقصود بيان المخالف والمخالف عنه والضمير لله تعالى ، فإن الأمر له في الحقيقة أو للرسول فإنه المقصود بالذكر . ﴿ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ ﴾ محنة في الدنيا . ﴿ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ في الآخرة واستدل به على أن الأمر للوجوب فإنه يدل على أن ترك مقتضى الأمر مقتض لأحد العذابين ، فإن الأمر بالحذر عنه يدل على خشية المشروط بقيام المقتضي له وذلك يستلزم الوجوب .

(204/555)

﴿ أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السموات والأرض قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ ﴾ أيها المكلفون من المخالفة والموافقة والنفاق والإخلاص ، وإنما أكد علمه ب ﴿ قَدْ ﴾ لتأكيد الوعيد . ﴿ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ ﴾ يوم يرجع المنافقون إليه للجزاء ، ويجوز أن يكون الخطاب أيضاً مخصوصاً بهم على طريق الإلتفات ، وقرأ يعقوب بفتح الياء وكسر الجيم . ﴿ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُواْ ﴾ من سوء الأعمال بالتوبيخ والمجازاة عليه . ﴿ والله بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ لا يخفى عليه خافية .

عن النبي صلى الله عليه وسلم " من قرأ سورة النور أعطي من الأجر عشر حسنات بعدد كل مؤمن ومؤمنة فيما مضى وفيما بقي " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 4 صـ 197.204 ﴾

(205/555)

" فصل "

قال الإمام نظام الدين النيسابورى فى الآيات السابقة :

﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (51) ﴾

التفسير : لما حكى سيرة المنافقين وما قالوه وفعلوه ، أتبعه ذكر ما كان يجب أن يفعلوه وما يجب أن يسلكه المؤمنون من طريق الأخلاق . وعن الحسن أنه قرأ قول المؤمنين بالرفع والقراءة المشهورة وهي النصب أقوى . قال جار الله : لأن أولى الاسمين بكونه اسماً أوغلهما في التعريف ﴿ أن يقولوا ﴾ أوغل لأنه لا سبيل عليه للتنكير بخلاف قول المؤمنين . قلت : وذلك لاحتمال كون الإضافة فيه لفظية و ﴿ أن يقولوا ﴾ يشبه المضمر كما بينا في الأنعام في قوله ﴿ ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا ﴾ [الآية : 23] فلا سبيل إلى تنكيره .

(206/555)

ومعنى ﴿ كان ﴾ صح واستقام أي لا ينبغي أن يكون قولهم إلا السمع والطاعة . عن ابن عباس ﴿ ومن يطع الله ﴾ في فرائضه ﴿ ورسوله ﴾ في سننه ﴿ ويخش الله ﴾ على ما مضى من ذنوبه ﴿ ويتقه ﴾ فيما يستقبل من عمره ﴿ فأولئك هم الفائزون ﴾ وهذه آية جامعة لأسباب الفوز وفقنا الله تعالى للعمل بها . ثم حكى عن المنافقين أنهم يريدون أن يؤكدوا أساس الإيمان بالأيمان الكاذبة . قال مقاتل : من حلف بالله فقد اجتهد في اليمين وكانوا يقولون : والله إن أمرتنا أن نخرج من ديارنا وأموالنا ونسائنا لخرجنا ، وإن أمرتنا بالجهاد جاهدنا ، فنهوا عن هذه الأقسام لما علم من نفاقهم وشقاقهم وإضمارهم الغدر

والخديعة وإلا فمن حلف على فعل البر لا يجوز أن ينهى عنه . وقوله ﴿ طاعة معروفة ﴾ مبتدأ محذوف الخبر أي طاعة معلومة لا شك فيها ولا نفاق أمثل وأولى بكم من هذه الأيمان الكاذبة ، أو خبر محذوف المبتدأ أي أمركم الذي يطلب منكم طاعة معروفة لا ارتياب فيها كطاعة الخلص من المؤمنين ، أو طاعتكم طاعة معروفة بأنها بالقول دون الفعل . ثم صرف الكلام من الغيبة إلى الخطاب لمزيد التبكيت والعتاب . ومعنى ﴿ فإن تولوا ﴾ فإن تتولوا فحذف إحدى التاءين . وما حمل الرسول هو أداء الرسالة ، وما حمل على الأمة هو الطاعة والانقياد ، والبلاغ المبين كون التبليغ مقروناً بالآيات والمعجزات أو كونه واقعاً على سبيل المجاهرة لا المداهنة . وههنا شبه إضمار والتقدير : بلغ أيها الرسول وأطيعوه أيها المؤمنون فقد وعد الله الذين آمنوا منكم أي جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح . وفي الوعد معنى القسم لأن وعد الله محقق الوقوع ولذلك قال في جوابه ﴿ ليستخلفنهم ﴾ أو القسم محذوف أي أقسم ليجعلنكم خلفاء في الأرض كما فعل ببني إسرائيل حين أورثهم مصر والشأم بعد إهلاك الجبابرة . ﴿ وليمكنن ﴾ لأجلهم الدين المرتضى وهو دين الإسلام . وتمكين الدين تثبيته وإشادة قواعده ، كانوا بالمدينة يصبحون في السلاح ويمسون فيه

فسئموا وشكوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : لا تغبرون إلا يسيراً حتى يجلس الرجل في الملأ العظيم محتبياً ليس معه حديدة ، فأنجز الله وعده وأظهرهم على جزيرة العرب وورثوا ملك الأكاسرة خزائنهم ، وهذا إخبار بالغيب فيكون معجزاً . ومحل ﴿ يعبدونني ﴾ نصب على الحال أي وعدهم ذلك في حال عبادتهم وإخلاصهم أو هو استئناف كأن قائلاً قال : ما لهم يستخلفون ويؤمنون ؟ فقال : ﴿ يعبدونني ﴾ وعلى الوجهين فقوله ﴿ لا يشركون ﴾ بدل من ﴿ يعبدونني ﴾ أو بيان لها . وفيه دليل على أن المقصود من الكل هو عبادة الله تعالى والإخلاص له . ﴿ ومن كفر ﴾ بهذه النعم الجسام وهي الاستخلاف والتمكين والأمن بعد الخوف بعد حصول ذلك أو بعد ما ذكر ﴿ فأولئك هم ﴾ الكاملون في الفسق . قال أهل السنة : في الآية دلالة على إمامة الخلفاء الراشدين لأن قوله ﴿ منكم ﴾ للتبعيض وذلك البعض يجب أن يكون من الحاضرين في وقت الخطاب ، ومعلوم أن الأئمة الأربعة كانوا من أهل الإيمان والعمل الصالح ، وكانوا حاضرين وقتئذ وقد حصل لهم الاستخلاف والفتوح ، فوجب أن يكونوا مرادين من الآية . واعترض بأن قوله ﴿ منكم ﴾ لم لا يجوز أن يكون للبيان ، ولم لا يجوز أن يراد بالاستخلاف في الأرض هو إمكان التصرف والتوطن فيها كما في حق بني إسرائيل ؟ سلمنا لكن لم لا يجوز أن يراد به خلافة علي عليه السلام ؟ والجمع للتعظيم أو يراد هو وأولاده الأحد عشر بعده ؟ وقيل : إن في قوله ﴿ ومن كفر بعد ذلك ﴾ إشارة إلى الخلفاء المتغلبين بعد

الراشدين يؤيده قوله صلى الله عليه وسلم " الخلافة من بعدي ثلاثون سنة ثم تصير ملكاً عضوضاً " ﴿ وأقيموا الصلاة ﴾ معطوف على ﴿ أطيعوا ﴾ وليس ببدع أن يقع بين المعطوفين فاصلة وإن طالت ، وكررت طاعة الرسول للتأكيد .

(208/555)

من قرأ ﴿ لا يحسبن ﴾ على الغيبة فمفعولاه ﴿ معجزين في الأرض ﴾ أي لا يحسبن الكفرة أحداً يعجز الله في الأرض حتى يطيعوهم في مثل ذلك ، وفالعه ضمير النبي ، أو المفعول الأول محذوف لأنه هو الفاعل بعينه أي لا يحسبن الكفار أنفسهم معجزين والمراد بهم الذين أقسموا أو عام قوله ﴿ ومأواهم ﴾ قال جار الله : هو معطوف على ما تقدم معنى كأنه قيل : الذين كفروا لا يفوتون الله عز وجل ومأواهم النار . وحين ذكر من دلائل التوحيد وأحوال المكلفين ما ذكر تنشيطاً للاذهان وترغيباً فيما هو الغرض الأصلي من التكاليف وهو العرفان ، عاد إلى ما انجر منه الكلام وهو الحكم العام في باب الاستئذان فذكره ههنا على وجه أخصر فقال ﴿ ليستأذنكم ﴾ قال القاضي : هذا الخطاب للرجال ظاهراً ولكنه من باب التغليب فيدخل فيه النساء . وقال الإمام فخر الدين الرازي : يثبت للنساء بقياس جلي لأنهن في باب حفظ العورة أشد حالاً من الرجال . وظاهر قوله

﴿ الذين ملكت أيمانكم ﴾ يشمل البالغين والصغار ، فالأمر للبالغين على الحقيقة وللصغار على وجه البيان والتأديب كما يؤمرون بالصلاة لسبع ، أو هو تكليف لنا لما فيه من المصلحة لنا ولهم بعد البلوغ كقولك للرجل " ليخفك أهلك وولدك " فظاهره الأمر لهم وحقية الأمر له بفعل ما يخافون عنده . وعن ابن عباس أن المراد الصغار وليس للكبار أن ينظروا إلى مالكيهم إلا إلى ما يجوز للحر أن ينظر إليه . ثم إنه هل يشكل الإماء ؟ فعن ابن عمر ومجاهد لا ، وعن غيرهما نعم ، لأن الإنسان كما يكره إطلاع الذكور على أحواله فقد يكره أيضاً إطلاع الإناث عليها . عن ابن عباس : آية لا يؤمن بها أكثر الناس آية الإذن وإني لآمر جارتي أن تستأذن عليّ أراد امرأته ، وكان ابن عباس ينام بين جاريتين . ومن العلماء من قال : هذا الأمر للاستحباب .

(209/555)

ومنهم من قال للوجوب . ومن هؤلاء من قال : إنه ناسخ لقوله ﴿ لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا ﴾ لأن ذلك يدل على أن الاستئذان واجب في كل حال ، وهذا يدل على وجوبه في الأوقات الثلاثة فقط ، ومنه لزوم النسخ بأن الأولى في المكلفين وهذه في غير المكلفين قالوا : الذين ملكت أيمانكم يشمل البالغين . قلنا : لو سلم فلا نسخ أيضاً لأن قوله

﴿ غير بيوتكم ﴾ لا يشمل العبيد لأن الإضافة توجب الاختصاص والملكية ، والعبد لا يملك شيئاً فلا يملك البيت أمر المماليك والأطفال الذين لم يحتملوا من الأحرار وهذا معنى قوله ﴿ منكم ﴾ أن تستأذنوا ثلاث مرات في اليوم والليلة . إحداها قبل صلاة الفجر لأنه وقت القيام من المضاجع ووقت استبدال ثياب اليقظة بثياب النوم ، وثانيتها عند الظهيرة وهو نصف النهار عند اشتداد الحر وظهوره فحينئذ يضع الناس ثيابهم غالباً ، وثالثها بعد صلاة العشاء يعني الآخرة لأنه وقت التجرد من ثياب اليقظة والالتحاف بثياب النوم . ثم بين حكمة الاستئذان في هذه الأوقات فقال ﴿ ثلاث عورات ﴾ فمن قرأ ﴿ ثلاث ﴾ بالرفع فظاهر كما مر في الوقوف ، ومن قرأ بالنصب فقد قال في الكشاف : إنه بدل من ﴿ ثلاث مرات ﴾ أي أوقات ثلاث عورات قلت : هذا بناء على أن قوله ﴿ ثلاث مرات ﴾ ظرف ويجوز أن يكون ﴿ ثلاث مرات ﴾ مصدراً بمعنى ثلاثة استئذانات ، ويكون ﴿ ثلاث عورات ﴾ تفسيراً وبياناً للأوقات الثلاثة لأنها منصوبة تقديراً . وأصل العورة الخلل ومنه الأعور المختل العين ، وأعور الفارس إذا بدا منه موضع خلل للضرب ، وأعور المكان إذا خيف فيه القطع . قال جار الله : إذا رفعت ﴿ ثلاث عورات ﴾ فمحل هذه الجملة الرفع على الوصف أي هن ثلاث عورات مخصوصة بالاستئذان ، وإذا نصبت لم يكن له محل وكان كلاماً مقرراً للأمر بالاستئذان في تلك الأحوال خاصة .

ثم بين وجع العذر بقوله ﴿ طوّافون عليكم ﴾ وهم الذين يكثرون الدخول والخروج والتردد يعني أن بكم وبهم حاجة إلى المداخلة والمخالطة للاستخدام ونحوه . وارتفع ﴿ بعضكم ﴾ بالإبتداء وخبره ﴿ على بعض ﴾ أو بالفاعلية أي بعضكم طائف ، أو يطوف بعضكم على بعض يدل على المحذوف طوّافون . وفي الاية دلالة على وجوب اعتبار العلل في الأحكام ما أمكن . يروى أن مدلج بن عمرو وكان غلاماً أنصارياً أرسله رسول الله صلى الله عليه وسلم وقت الظهيرة إلى عمر ليدعوه ، فدخل عليه وهو نائم وقد انكشف عنه ثوبه فقال عمر : لوددت أن الله عز وجل نهى آباءنا وأبناءنا وخدمنا أن لا يدخلوا علينا هذه الساعات إلا بإذن . ثم انطلق معه إلى النبي صلى الله عليه وسلم فوجده وقد أنزلت عليه هذه الآية . ثم بين حكم الأطفال والأحرار بعد البلوغ وهو أن لا يكون لهم الدخول إلا بإذن في جميع الأوقات .

ومعنى ﴿ الذين من قبلهم ﴾ الذين بلغوا الحلم من قبلهم وهم الرجال الذين ذكروا من قبلهم في قوله ﴿ يا ايها الذين آمنوا لا تدخلوات بيوتاً ﴾ الآية . ومتى يحكم ببلوغ الطفل ؟ اتفقوا على أنه إذا احتلم كان بالغاً وأما إذا لم يحتلم فعند عامة العلماء وعليه الشافعي أنه إذا بلغ خمس عشرة سنة فهو بالغ حكماً لما روي أن ابن عمر عرض على النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد فلم يجزه وكان له اقل من خمس عشرة سنة ، وعرض عليه يوم الخندق وكان

ابن خمس عشرة سنة فأجازه . وعن بعض السلف ويروى عن علي عليه السلام أيضاً أنه كان يعتبر القامة ويقدر بخمسة الأشبار وعليه يحمل قول الفرزدق :

ما زال مذ عقدت يداه إزاره . . . فسما وأدرك خمسة الأشبار

(211/555)

وإنبات العانة غير معتبر إلا في حق الأطفال الكفار وقد مر في أول سورة النساء . وإنما ختم هذه الآية بقوله ﴿ كذلك يبين الله لكم آياته ﴾ وقبلها وبعدها ﴿ لكم الآيات ﴾ لأنهما يشتملان على علامات يمكن الوقوف عليها وهي في الأولى الأوقات الثلاثة ، وفي الآخرة ﴿ من بيوتكم أو بيوت آبائكم ﴾ إلى آخرها ومثلهما في قوله ﴿ يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا إن كنتم مؤمنين ويبين الله لكم الآيات ﴾ [النور : 1718] يعني حد الزانيين وحد القاذف . وأما بلوغ الأطفال فلم يذكر لها علامات يمكن الوقوف عليها بل تفرد سبحانه بعلم ذلك فخصها بالإضافة إلى نفسه . ﴿ والله عليم ﴾ بمصالح العباد ﴿ حكيم ﴾ في أوامره ونواهية . ثم بين حكم النساء اللواتي خرجن عن محل الفتنة والتهمة فقال و ﴿ القواعد ﴾ وهي جمع " قاعد " بغير هاء كالحائض والطالق ، وقد زعم صاحب الكشاف لها أنها جمع قاعدة بالهاء وفيه نظر لأنه من أوصاف النساء الخاصة

بهن ، سميت بذلك لقعودها عن الحيض والولد لكبرها ولذلك أكد بقوله ﴿ اللاتي لا يرجون نكاحاً ﴾ أي لا يطمعن فيه لعدم من يرغب فيهن وليست من القعود بمعنى الجلوس حتى يحتاج إلى الفرق بين المذكر والمؤنث ، ولا شبهة أنه لا يحل لهن وضع كل ثيابهن لما فيه من كشف كل عورة فلذلك قال المفسرون : المراد بالثياب ههنا الجلباب والرداء والقناع الذي فوق الخمار . وعن ابن عباس أنه قرأ ﴿ أن يضعن جلابيبهن ﴾ وعن السدي عن شيوخه يضعن خمرهن عن رؤوسهن ، خصهن الله تعالى بذلك لأن التهمة مرتفعة عنهن وقد بلغن هذا المبلغ ، فلو غلب على ظنهن خلاف ذلك لم يحل لهن وضع شيء من الثياب الظاهر ، وإنما أبيح وضع الثياب حال كونهن ﴿ غير متبرجات بزينة ﴾ أي غير مظهرات شيئاً من الزين الخفية المذكورة في قوله ﴿ ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن ﴾ أو غير قاصدات بالوضع التبرج ولكن التخفف إذا احتجن إليه . وحقيقة التبرج تكلف إظهار ما يجب إخفاؤه من قوله " سفينة بارج لا غطاء

(212/555)

عليها " .

واليرج سعة العين يرى بياضها محيطاً بسوادها لا يغيب منه شيء . واختص التبرج في الاستعمال بتكشف المرأة للرجال .

(213/555)

وحين ذكر الجائز عقبه بالمستحب تنبيهاً على اختيار الأفضل في كل باب فقال ﴿ وأن يستعففن خير لهن ﴾ وذلك أنهن في الجملة مظنة شهوة وفتنة وإن عرض عارض الكبر والنحول فلكل ساقطة لاقطة . وسئل بعض الظرفاء المذكورين عن حكمة تستر النساء فقال : لأنهن محل فتنة وشهوة فقيل : فعلى هذا كان ينبغي أن لا يحسن تكليف العجائز بالتستر فأجاب بأنه كان يلزم إذ ذاك مصيبتان : أحدهما عدم رؤية الحسان ، والثانية لزوم رؤية القباح . ثم ختم السورة بسائر الصور التي يعتبر فيها الإذن فقال ﴿ ليس على الأعمى حرج ﴾ نفى الحرج عن الأصناف الثلاثة ذوي العاهات ثم قال ﴿ ولا على أنفسكم أن تأكلوا ﴾ فذهب ابن زيد إلى أن المراد نفي الحرج عنهم في القعود عن الجهاد ، ثم عطف على ذلك أنه لا حرج عليكم أن تأكلوا من البيوت المذكورة . ووجه صحة العطف التقاء الطائفتين في أن كل واحدة منهما منفي عنها الحرج . قال جار الله : مثال هذا أن يستفتيك

مسافر عن الإفطار في رمضان وحاج مفرد عن تقديم الحلق على النحر فقلت : ليس على المسافر حرج أن يفطر ولا عليك يا حاج أن تقدم الحلق على النحر . وقال آخرون : كان المؤمنون يذهبون بالضعفاء وذوي الآفات إلى بيوت أزواجهم وأولادهم وإلى بيوت قراباتهم وأصدقائهم فيطعمونهم منها ، فخالج قلوب الكل ريبة خوفاً من أن يكون أكلاً بغير حق لقوله ﴿ ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ﴾ [البقرة : 188] فقيل : لهم ليس على هؤلاء الضعفاء ولا على أنفسكم يعني عليكم وعلى من في مثل حالكم من المؤمنين حرج في ذلك . قال قتادة : كانت الأنصار في أنفسها قزازة وكانت لا تأكل من هذه البيوت إذا استغنوا . والقزازة احتراز مع القزة وهي مدح ، والكزازة ذم . وروى الزهري عن سعيد بن السمي وغيره أن المسلمين كانوا يخرجون إلى الغزو ويخلفون الضعفاء في بيوتهم ويدفعون إليهم المفاتيح ويأذنون لهم أن يأكلوا من بيوتهم ، فكانوا يتحرجون كما يحكى عن الحرث بن عمرو أنه خرج

(214/555)

غازياً وخلف مالك بن زيد في ماله وبيته ، فلما رجع رآه مجهوداً فقال : ما أصابك ؟ قال : لم يكن عندي شيء ولم يحل لي أن آكل من مالك . فقيل : ليس على هؤلاء الضعفاء حرج فيما

تخرجوا عنه ، ولا عليكم أن تأكلوا من هذه البيوت . قال الأكثرون : كان هؤلاء الضعفاء يتوقون مجالسة الناس ومواكلتهم فيقول الأعمى : إني لا ارى شيئاً فربما آخذ الأجود وأترك الردئ ، والأعرج يفسح في مجلسه ويأخذ أكثر من موضعه فيضيق على جليسه ، والمريض لا يخلو من رائحة أو غيرها من اسباب الكراهة . وأيضاً كان المؤمنون يقولون الأعمى لا يبصر الطعام الجيد ولا يأله ، والأعرج لا يتمكن من الجلوس فلا يقدر على الأكل مما ينبغي ، والمريض لا يتأتى له أن يأكل كما يأكل الأصحاء فقيل : ليس على هؤلاء ولا عليكم في المؤاكلة حرج .

(215/555)

ثم إنه تعالى عدد من مواضع الأكل أحد عشر موضعاً : الأول قوله ﴿ من بيوتكم ﴾ وفيه سؤال : وهو أنه أيّ فائدة في إباحة أكل الإنسان طعامه من بيته ؟ والجواب أراد من بيوت أزواجكم وعيالكم لأن بيت المرأة بيت الزوج قاله الفراء . وقال ابن قتيبة : اراد بيوت أولادهم ولهذا لم يذكر الأولاد في جملة الأقارب وإن الولد أقرب الأقربين لأنه بعض الرجل وحكمه حكم نفسه ، وفي الحديث " إن أطيب ما يأكل المرء من كسبه وإن ولده من كسبه " وباقي البيوت لا إشكال فيها إلى البيت العاشر وهو قوله ﴿ أو ما ملكتم مفاتحه ﴾ وفيه

وجوه : أحدها قال ابن عباس وكيل الرجل وقيمه في ضيعته وماشيته لا باس عليه أن يأكل من ثمر ضيعته ويشرب من لبن ماشيته وملك المفاتيح كونها في يده وحفظه . وثانيها قال الضحاك : يريد الزمنى الذين يخلفون الغزاة . وثالثها قيل : أراد بيوت المماليك لأن مال العبد لمولاه . الحادي عشر قوله ﴿ أو صديقكم ﴾ ومعناه أو بيوت أصدقائكم والصديق يكون واحداً وجمعاً كالعدو . وعن الحسن أنه دخل داره وإذا حلقة من اصدقائه وقد استلوا سلالاً من تحت سريره فيها الخبيص واطايب الأطعمة وهم مكبون عليها يأكلون ، فتهللت أسارير وجهه سروراً وضحك وقال : هكذا وجدناهم يريد أكابر الصحابة . وعن جعفر الصادق بن محمد عليه السلام : من عظم حرمة الصديق أن جعله الله من الإنس والثقة والانبساط بمنزلة النفس والأب والأخ والابن . قال العلماء : إذا دل ظاهر الحال على رضا المالك قام ذلك مقام الإذن الصريح ، وربما سمج الاستئذان وثقل كمن قدم إليه طعام فاستأذن صاحبه في الأكل منه . احتج أبويوسف بالآية على أنه لا قطع على من سرق من ذي رحم محرم وذلك أنه تعالى أباح الأكل من بيوتهم ودخولها بغير إذن فلا يكون ماله محرزاً منهم ، وأورد عليه أن لا يقطع إذا سرق من صديقه . فأجاب بأن السارق لاي كون صديقاً للمسروق منه . واعلم أن ظاهر الآية دل على أن إباحة الأكل من هذه المواضع لا تتوقف

على الاستئذان . فعن قتادة أن الأكل مباح ولكنه يجمل . وجمهور العلماء أنكروا ذلك فقيل : كان ذلم مباحاً في صدر الإسلام ثم نسخ ذلك بقوله صلى الله عليه وسلم " لا يحل مال امرئ مسلم إلا عن طيب نفس منه " ومما يدل على هذا النسخ قوله ﴿ لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه ﴾ [الأحزاب : 53] وقال أبو مسلم : هذا في الأقارب الكفرة . وفي هذه الآية إباحة ما حظر وفي قوله

﴿ لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادّون من حاد الله ورسوله ﴾ [المجادلة : 22] وقيل : إن هؤلاء القوم كانت تطيب أنفسهم بأكل من يدخل عليهم والعادة كالإذن في ذلك فلا جرم خصهم الله بالذكر لأن هذه العادة في الأغلب توجد فيهم ولذلك ضم إليهم الصديق . وإذا علمنا أن الإباحة إنما حصلت في هذه الصورة لأجل حصول الرضا ، فلا حاجة إلى القول بالنسخ .

(217/555)

وحين نفى الحرج عنهم في نفس الأكل أراد أن ينفي الحرج عنهم في كيفية الأكل فقال ﴿ ليس عليكم جناح أن تأكلوا ﴾ وانتصب قوله ﴿ جميعاً أو اشتاتاً ﴾ على الحال أي مجتمعين

أو متفرقين . والأشتات جمع شت وهو نعت وقيل مصدر وصف به . ثم اجمع أكثر المفسرين ومنهم ابن عباس على أنها نزلت في بني ليث بن عمرو من كنانة كانوا يتحرّجون عن الانفراد في الطعام ، فربما قعد الرجل منتظراً نهاره إلى الليل فإن لم يجد من يؤاكله أكل . وقال عكرمة وأبو صالح : نزلت في قوم من الأنصار لا يأكلون إلا مع ضيفهم . وقال الكلبي : كانوا إذا اجتمعوا ليأكلوا طعاماً عزلوا للأعمى طعاماً على حدة ، وكذلك الزمن والمريض فبين الله لهم أن ذلك غير واجب . وقال آخرون : كانوا يأكلون فرادى خوفاً من أن يحصل عند الجمعية ما ينفر أو يؤذى فرفع الله الحرج . ثم علمهم أدباً جميلاً قائلاً ﴿ فإذا دخلتم بيوتاً ﴾ أي من البيوت المذكورة لتأكلوا ﴿ فسلموا على أنفسكم ﴾ أي ابدؤا بالسلام على أهلها الذين هم منكم ديناً وقرابة وانتصب ﴿ تحية ﴾ ب ﴿ سلموا ﴾ نحو " قعدت جلوساً " ومعنى ﴿ من عند الله ﴾ أنها ثابتة من عنده مشروعة من لدنه ، أو أراد أن التحية طلب حياة للمخاطب من عند الله وكذا التسليم طلب السلامة له من عنده . ووصفها بالبركة والطيب لأنها دعوة مؤمن لمؤمن يرجى بها من الله زيادة الخير وطيب الرزق وتضعيف الثواب . عن أنس قال : كنت واقفاً على رأس النبي صلى الله عليه وسلم أصب الماء على يديه فرفع رأسه فقال : " ألا أعلمك ثلاث خصال تنتفع بها ؟ قلت : بلى بأبي وأمي يا رسول الله . قال : متى لقيت من أمتي أحداً فسلم عليه يطل عمرك ، وإذا دخلت بيتك فسلم عليهم يكثر خير بيتك ، وصلّ صلاة الضحى فإنها صلاة

الأبرار الأوّابين " قال العلماء : إن لم يكن في البيت أحد فليقل " السلام علينا من ربنا ، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين " ومن صور الإذن قوله سبحانه ﴿ وإنما المؤمنون ﴾ الآية .

(218/555)

والمقصود أن يبين عظم الجناية في ذهاب الذاهب عن مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم بغير إذنه ﴿ إذا كانوا معه على أمر جامع ﴾ وهو الذي يجمع له الناس . فلما كان الأمر سبب الجمع وصف به مجازاً .

قال مجاهد : هو أمر الحرب ونحوه من الأمور التي يعم ضررها ونفعها . وقال الضحاك : هو الجمعة والأعياد وكل شيء تكون فيه الخطبة . وذلك أنه لا بد في الخطوب الجليلة من ذوي رأي وقوة يستعان بهم وبآرائهم وتجاربهم في كفايتها ، فمفارقة أحدهم في مثل تلك الحال مما يشق على قلب الرسول صلى الله عليه وسلم ويشعب عليه رأيه . قال الجبائي : في الآية دلالة على أن استئذانهم الرسول من إيمانهم ولولا ذلك لجاز أن يكونوا كاملي الإيمان وإن تركوا الاستئذان . وأجيب بأن ترك الاستئذان من أهل النفاق لا نزاع أنه كفر لأنهم تركوه استخفافاً . قال جار الله : ومما يدل على عظم هذه الجناية أنه جعل ترك ذهابهم حتى

يستأذنوه فيأذن لهم ثالث الإيمان بالله والإيمان برسوله ، ومع ذلك صدر الجملة بإنما وأوقع المؤمنين مبتدأ مخبراً عنه بموصول أحاطت صلته بذكر الإيمانين . ثم عقبه بمزيد توكيد وتشديد حيث أعاده على أسلوب آخر وهو قوله ﴿ إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله ﴾ فجعل الاستئذان كالمصدق الصحة الإيمان بالله والرسول وفيه تعريض بحال المنافقين وتسللهم لواذاً . وفي قوله ﴿ لبعض شأنهم ﴾ دليل على أن أمر الاستئذان مضيق لا يجوز ارتكابه في كل شأن . وفي قوله ﴿ فأذن لمن شئت منهم ﴾ دلالة على أنه تعالى فوّض بعض أمر الدين إلى اجتهاد الرسول ورايه . وزعم قتادة أنها منسوخة بقوله ﴿ لم أذنت لهم ﴾ [التوبة : 43] وفي قوله ﴿ واستغفر لهم الله ﴾ وجهان : أحدهما أن هذا الاستغفار لأجل أنهم تركوا الأولى والأفضل وهو أن لا يحدثوا أنفسهم بالذهاب ولا يستأذنوا فيه ، والآخر أنه جبراً لهم على تمسكهم بإذن الله تعالى في الاستئذان .

(219/555)

ثم حثهم على طاعة رسوله بقوله ﴿ لا تجعلوا دعاء الرسول ﴾ اي لا تقيسوا دعاءه إياكم لخطب جليل على دعاء بعضكم بعضاً ورجوعكم عن المجمع بغير إذن الداعي ، وذلك أن

أمره فرض لازم وأمر غيره ليس بفرض ، وإنما هو أدب مستحن رعايته مع الأئمة والمتقدمين . هذا ما عليه الأكثرون منهم المبرد والقفال ، وعن سعيد بن جبير : لا تنادوه باسمه ولا تقولوا " يا محمد " ولكن " يا نبي الله ويا رسول الله " مع التوقير والتعظيم والصوت المنخفض . وقيل : اراد احذروا دعاء الرسول ربه عليكم إذا أسخطتموه فإن دعاءه موجب ليس كدعاء غيره . والتسلل الانسلال والذهاب على سبيل التدرج ، واللواذ الملاوذة وهو أن يكون هذا بذاك وذاك بهذا . وانتصابه على الحال والحاصل أنهم يتسللون عن الجماعة في الخفية على سبيل الملاوذة وهو استتار بعضهم ببعض . وقيل : كان يلوذ من لم يؤذن له بالذي أذن له فينطلق معه . قال مقاتل : هذا في الخطبة . وقال مجاهد : في صف القتال . وقال ابن قتيبة : نزلت في حفر الخندق وكان قوم يتسللون بغير إذن .

(220/555)

ومعنى ﴿ قد يعلم ﴾ يكثر العلم والمبالغة فيه كما مر في " البقرة " في قوله ﴿ قد نرى تقلب وجهك ﴾ [البقرة : 144] يقال : خالفته عن القتال أي جبنت عنه واقدم هو وخالفته إلى القتال اي اقدمت ، وجبن هو الفتنة المحنة في الدنيا كالقتل أو الزلازل ، وسائر الأهوال والعذاب الليم هو عذاب النار . وعن جعفر بن محمد عليه السلام : الفتنة أن

يسلط عليهم سلطان جائر . وقال الأصوليون : في الآية دلالة على أن ظاهر الأمر للوجوب لأن تارك المأمور به مخالف لذلك الأمر فإن موافقة الأمر عبارة عن الإتيان بمقتضاه والموافقة ضد المخالفة ، فإذا أخل بمقتضاه كان مخالفاً والمخالف مستحق للعقاب بالآية ، ولا نعني بالوجوب إلا هذا . واعترض عليه بأن موافقة الأمر عبارة عن الإتيان بمقتضاه على الوجه الذي يقتضيه الأمر ، فإن الأمر لو اقتضاه على سبيل الندب وأنت تأتي على سبيل الوجوب كان ذلك مخالفة الأمر . ومنع من أن المندوب مأمور به فإن هذا أول المسألة ، والظاهر أن الضمير في أمره للرسول ولو كان لله لم يضر لأنه لا فرق بين أمر الله وأمر رسوله ، وأمر الرسول متناول عند بعضهم للقول والفعل والطريقة كما يقال " أمر فلان مستقيم " وعلى هذا فكل ما فعله الرسول فإنه يكون واجباً علينا . ثم بين كما قدرته وعمله بقوله ﴿ ألا أن لله ﴾ الخ . تأكيد الوجوب الحذر . قال جار الله : الخطاب والغيبة في قوله ﴿ ما أنتم عليه ويوم يرجعون ﴾ كلاهما للمنافقين على طريقة الالتفات إذ الأول عام والثاني لأهل النفاق . وأقول : يحتمل أن يكون كلاهما عاماً للمنافقين . والفاء في قوله ﴿ فينبئهم ﴾ لتلازم ما قبلها وما بعدها كقولك ﴿ وربك فكبر ﴾ [المدثر : 3] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 5 صـ 208 . 217 ﴾

وقال الخطيب الشربينى :

ولما ذكر تعالى ما رتب على الطاعة الظاهرة التي هي دليل الانقياد الباطن ذكر حال المنافقين بقوله تعالى:

﴿ وأقسموا بالله ﴾ أي : الذي له الكمال المطلق ، وقوله تعالى : ﴿ جهد أيمانهم ﴾ مستعار من جهد نفسه إذا بلغ أقصى وسعها ، وذلك إذا بالغ في اليمين وبلغ غاية شدتها ووكادتها ، وعن ابن عباس : من قال بالله فقد بالغ في اليمين ، وبلغ غاية شدتها ﴿ لئن أمرتهم ﴾ أي : أمر من الأمور ﴿ ليخرجن ﴾ مما هم متلبسون به من خلافه كائناً ما كان ، وذلك أن المنافقين كانوا يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم أينما كنت نكن معك لئن خرجت خرجنا ولئن أقمت أقمنا ، وإن أمرتنا بالجهاد جاهدنا ، فقال الله تعالى :

﴿ قل ﴾ أي : لهم ﴿ لا تقسموا ﴾ أي : لا تحلفوا فإن العلم بما أنتم عليه لا يحتاج إلى الإقسام ، وههنا قد تم الكلام ، ولو كان قسمهم صادقاً لما نهوا عنه ؛ لأن من حلف على القيام بالبر لا ينهى عنه ، فثبت أن قسمهم كان لنفاقهم ، وكان باطنهم يخالف ظاهرهم ، ومن نوى الغدر لا الوفاء فقسمه قبيح ؛ قال المتنبي:

*وفي اليمين على ما أنت واعده

**ما دل أنك في الميعاد متهم

وفي رفع قوله تعالى : ﴿ طاعة معروفة ﴾ ثلاثة أوجه:

أحدها : أنه خبر مبتدأ مضمر تقديره أمرنا طاعة أو المطلوب طاعة ، ثانيها : أنه مبتدأ والخبر محذوف ، أي : أمثل أو أولى أو خير أي : طاعة معروفة للنبي صلى الله عليه وسلم خير من قسمكم الذي لا تصدقون فيه ، ثالثها : طاعة مبتدأ أي : هذه الحقيقة ومعروفة هو الخبر أي : معروفة منكم ومن غيركم وإرادة الحقيقة هو الذي سوغ الابتداء بها مع تنكير لفظها ؛ لأن العموم الذي تصلح له قد تخصص بإرادة الحقيقة كما قالوه في أعرف المعارف .

(222/555)

والمعنى أن الطاعة وإن اجتهد العبد في إخفائها لا بد أن تظهر مخايلها عل شمائله ، وكذا المعصية ؛ لأنه "ما أسر عبد سريرة إلا ألبسه الله رداءها" رواه الطبراني عن عثمان ، وعن عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه قال : لو أن رجلاً دخل بيتاً في جوف بيت فأدى هناك عملاً أوشك الناس أن يتحدثوا به ، وما من عامل عمل عملاً إلا كساه الله رداء عمله إن كان خيراً فخير ، وإن كان شراً فشر ، وعن سعيد : لو أن أحدكم يعمل في صخرة صماء ليس لها باب ولا كوّة لخرج عمله للناس كائناً من كان ﴿ إن الله ﴾ أي : الذي له الإحاطة بكل شيء ﴿ خبير بما تعملون ﴾ أي : لا يخفى عليه شيء من سرائركم فإنه فاضحكم لا

محالة ، ومجازيكم على نفاقكم ، ولما نبه الله تعالى على خداعهم ، وأشار إلى عدم الاغترار بإيمانهم أمر بترغيبهم وترهيبهم مشيراً إلى الإعراض عن عقوبتهم بقوله تعالى:

(223/555)

﴿ قل ﴾ أي : لهم ﴿ أطيعوا الله ﴾ أي : الذي له الكمال المطلق ﴿ وأطيعوا الرسول ﴾ أي : الذي له الرسالة المطلقة ظاهراً وباطناً ، وقوله تعالى : ﴿ فإن تولوا ﴾ أي : عن طاعته بحذف إحدى التاءين خطاب لهم أي : فإن تتولوا فما ضررتموه ، وإنما ضررتم أنفسكم ﴿ فإنما عليه ﴾ أي : محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ ما حمل ﴾ أي : ما حمله الله تعالى من أداء الرسالة ، وإذا أدّى فقد خرج من عهدة التكليف ﴿ وعليكم ﴾ أي : وأما أنتم فعليكم ﴿ ما حملتم ﴾ أي : ما كلفتم من التلقي بالقبول والإذعان ، فإن لم تفعلوا وتوليتم فقد عرضتم أنفسكم لسخط الله وعذابه ، وإن أطعتموه فقد أحرزتم نصيبكم من الخروج عن الضلالة إلى الهدى ، فالنفع والضر عائد إليكم ﴿ وإن تطيعوه ﴾ بالإقبال على كل ما يأمركم به ﴿ تهتدوا ﴾ أي : إلى كل خير ﴿ وما على الرسول ﴾ أي : من جهة غيره ﴿ إلا البلاغ ﴾ أي : وما الرسول إلا ناصح وهاد ، وما عليه إلا أن يبلغ ما له نفع في قبولكم ، ولا عليه ضرر في توليتكم ، والبلاغ بمعنى التبليغ كالأداء بمعنى التأدية ، ومعنى ﴿ المبين ﴾

كونه مقروناً بالآيات والمعجزات . روي أنه صلى الله عليه وسلم قال على المنبر : "من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير ، ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله ، والتحدث بنعمة الله شكر ، وتركه كفر ، والجماعة رحمة والفرقة عذاب" ، وقال أبو أمامة الباهلي : عليكم بالسواد الأعظم ، فقال رجل : ما السواد الأعظم ؟ فنادى أبو أمامة هذه الآية في سورة النور ، فإن تولوا فإنما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم ، وقوله تعالى:

(224/555)

﴿ وعد الله ﴾ أي : الذي له الإحاطة بكل شيء ﴿ الذين آمنوا منكم وعملوا ﴾ أي : تصديقاً لإيمانهم ﴿ الصالحات ﴾ خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وللأمة أو له ولمن معه ومن للبيان ، ثم أكد غاية التأكيد بلام القسم لما عند أكثر الناس من الريب في ذلك بقوله تعالى : ﴿ ليستخلفنهم في الأرض ﴾ أي : أرض العرب والعجم بأن يمد زمانهم وينفذ أحكامهم ، فيجعلهم متصرفين في الأرض تصرف الملوك في مماليكهم ﴿ كما استخلف الذين من قبلهم ﴾ أي : من الأمم من بني إسرائيل وغيرهم من كل من حصلت له مكنة وظفر على الأعداء بعد الضعف الشديد كما كتب في الزبور أن الأرض يرثها عبادي الصالحون ، وكما قال موسى عليه السلام : إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة

للمتقين ، وقرأ أبو بكر بضم التاء الفوقية وكسر اللام ، والباقون بفتح التاء واللام ﴿ وليمكنن لهم ﴾ أي : في الباطن والظاهر ﴿ دينهم الذي ارتضى لهم ﴾ وهو دين الإسلام ، وتمكينه تثبيته وتوكيده ، وأضافه إليهم إشارة إلى رسوخ أقدامهم فيه ، وأنه الذي لا ينسخ ، ولما بشرهم بالتمكين أشار لهم إلى مقداره بقوله تعالى : ﴿ وليبدلنهم من بعد خوفهم ﴾ أي : الذي كانوا عليه ﴿ أمنا ﴾ وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه مكثوا بمكة عشر سنين خائفين ، ولما هاجروا كانوا بالمدينة يصبحون في السلاح ويمسون فيه حتى قال رجل : ما يأتي علينا يوم نأمن فيه ونضع السلاح ، فقال صلى الله عليه وسلم "لا تصبرون إلا يسيراً حتى يجلس الرجل منكم في الملأ العظيم محتبياً ليس فيه حديدة" وأنجز الله تعالى وعده وأظفرهم على جزيرة العرب ، وافتتحوا بعض بلاد المشرق والمغرب ومزقوا ملك الأكاسرة وملكوا خزائنهم ، واستولوا على الدنيا واستعبدوا أبناء القياصرة وتمكنوا اشرقاً وغرباً مكنة لم تحصل قبلهم لأمة من الأمم ، كما قال صلى الله عليه وسلم "إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك أمتي ما زوي لي منها" ، ولما قتلوا عثمان رضي الله عنه وخرجوا

على عليّ

ثم ابنه الحسن نزع الله ذلك الأمر كما أشير إليه بمن ، وتنكير أمنا ، وجاء الخوف واستمر يتطاول ويزداد قليلاً قليلاً إلى أن صار في زماننا هذا إلى أمر عظيم ، وذلك تصديق لقوله عليه أفضل الصلاة والسلام : "الخلافة بعدي ثلاثون سنة ، ثم يملك الله من يشاء ، فتصير ملكاً ثم تصير بزيزي قطع سبيل وسفك دماء وأخذ أموال بغير حقها" ، والثلاثون : خلافة أبي بكر سنتان ، وخلافة عمر عشرة ، وخلافة عثمان اثنا عشر ، وخلافة علي ستة ، والبِزَّيزي بكسر الباء وتشديد الزاي الأولى ، والقصر السلب والتغلب ، وقوله : قطع سبيل إما عطف بيان لقوله : نصب بِزَّيزي ، أو بدل منه ، وقرأ ابن كثير وأبو بكر بسكون الباء الموحدة وتخفيف الدال ، والباقون بفتح الموحدة وتشديد الدال ، ثم أتبع ذلك بنتيجته بقوله تعالى تعليلاً للتمكين وما معه ﴿ يعبدونني ﴾ أي : وحدي ، وقوله تعالى : ﴿ لا يشركون بي شيئاً ﴾ حال من الواو أي : يعبدونني غير مشركين فإن قيل : فما محل يعبدونني ؟

أجيب : بأنه مستأنف لا محل له كأن قائلاً قال ما لهم مستخلفين ويؤمنون ؟ فقال : يعبدونني ويجوز أن يكون حالاً عن وعدهم أي : وعدهم الله ذلك في حال عبادتهم وإخلافهم فمحله النصب ، ولما كان التقدير فمن ثبت على دين الإسلام وانقاد لأحكامه واستقام ، نال هذه البشرى عطف عليه قوله تعالى : ﴿ ومن كفر ﴾ أي : ارتد وكفر هذه النعمة

﴿ بعد ذلك ﴾ أي : بعد الوعد أو الخلافة ﴿ فأولئك ﴾ أي : البعداء من الخير ﴿ هم الفاسقون ﴾ أي : الخارجون عن الدين خروجاً كاملاً لا يقبل معه معذرة ، ولا يقال لصاحبه عثرة ، بل تقام عليهم الأحكام بالقتل وغيره ، ولا يراعى منهم ملام ولا تؤخذ بهم رأفة عند انتقام كما تقدم أول السورة فيمن لزمه الجلد ، وقيل : المراد بالكفر كفران النعمة لا الكفر بالله ، وقوله تعالى : ﴿ فأولئك هم الفاسقون ﴾ أي : العاصون لله ، وقوله تعالى:

﴿

(226/555)

وأقيموا الصلاة ﴾ أي : فإنها قوام ما بينكم وبين ربكم معطوف على أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ؛ قال الزمخشري : وليس ببعيد أن يقع بين المعطوف والمعطوف عليه فاصل وإن طال ؛ لأن حق المعطوف أن يكون غير المعطوف عليه ﴿ وآتوا الزكاة ﴾ فإنها نظام ما بينكم وبين إخوانكم ﴿ وأطيعوا الرسول ﴾ أي : في كل حال يأمركم به ، وكررت طاعة الرسول تأكيداً لوجوبها ﴿ لعلكم ترحمون ﴾ أي : لتكونوا على رجاء من الرحمة ممن لا راحم في الحقيقة غيره . والفاعل في قوله تعالى:

﴿ لا تحسبن ﴾ ضمير المخاطب أي : لا تحسبن أيها المخاطب ﴿ الذين كفروا ﴾ أي :

وإن ازدادت كثرتهم على العدِّ وتجاوزت عظمتهم الحدّ ﴿ معجزين ﴾ أي : لأهل ودنا ، وقيل : لنا ﴿ في الأرض ﴾ أي : فإنهم مأخوذون لا محالة ، وقرأ ابن عامر وحمزة ، بالياء على الغيبة قال النحاس : ما علمت أحداً من أهل العربية بصرياً ولا كوفياً إلا وهو يلحن قراءة حمزة فمنهم من يقول : هي لحن ؛ لأنه لم يأت إلا بمفعول واحد ليحسبن ، وأجيب عن ذلك من وجهين : أحدهما : أن المفعول الأول محذوف تقديره : ولا يحسبن الذين كفروا أنفسهم معجزين إلا أن حذف أحد المفعولين ضعيف عند البصريين ، ومنه قول عنترة:

*ولقد نزلت فلا تظني غيره

** مني بمنزلة المحب المكرم

أي : فلا تظني غيره واقعاً .

والثاني : أن المفعولين هما قوله : ﴿ معجزين في الأرض ﴾ قاله الكوفيون ، وقرأ الباقون بالتاء على الخطاب ، وفتح السين ابن عامر وعاصم وحمزة ، وكسرها الباقون ، وقوله تعالى : ﴿ ومأواهم النار ﴾ أي : مسكنهم معطوف على لا تحسبن الذين كفروا معجزين ، كأنه قيل : الذين كفروا لا يفوتون أهل ودنا أو لا يفوتوننا ومأواهم النار المراد بهم المقسمون عليه بالله جهد أيمانهم ، ولما كانت سكنى الشيء لا تكون إلا بعد المصير إليه ، قال تعالى : ﴿ ولبئس المصير ﴾ أي : المرجع مصيرها ، فكيف إذا كان على وجه السكنى ؟

واختلف في سبب نزول قوله تعالى:

(227/555)

﴿ يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم ﴾ الآية ، فقال ابن عباس : وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم غلاماً من الأنصار يقال له : مدلج بن عمرو إلى عمر رضي الله تعالى عنه وقت الظهيرة ليدعوه ، فدخل فرأى عمر بحالة كره عمر رؤيته ذلك ، فنزلت .

(228/555)

وقال مقاتل : نزلت في أسماء بنت مرثد كان لها غلام كبير ، فدخل عليها في وقت فكرهته فأتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : إن خدمنا وغلماننا يدخلون علينا في حال نكرهها ، فنزلت ، واللام في ﴿ ليستأذنكم ﴾ للأمر ، وملك اليمين يشمل العبيد والإماء . قال بعض المفسرين : هذا الخطاب وإن كان ظاهره للرجال ، فالمراد به الرجال والنساء ؛ لأن التذكير يغلب على التأنيث قال الرازي : والأولى عندي أن الحكم ثابت في النساء بقياس جلي ؛ لأن النساء في باب العورة أشد حالاً من الرجال ، فهو كتحريم الضرب

بالقياس على حرمة التأفيف ، وقال ابن عباس : هي في الرجال والنساء أي : البالغين أو من قاربوا البلوغ يستأذنون على كل حال في الليل والنهار للدخول عليكم كراهة الاطلاع على عوراتكم والتطرق بذلك إلى مساءتكم ، واختلف العلماء في هذا الأمر فقيل : للندب ، وقيل : للوجوب ، واستظهر ﴿ والذين ﴾ أي : وليستأذنكم الذين ظهروا على عورات النساء ، ولكنهم ﴿ لم يبلغوا الحلم ﴾ وقيده بقوله تعالى : ﴿ منكم ﴾ ليخرج الكفار والأرقاء ، وعبر عن البلوغ بالاحتلام ؛ لأنه أقوى دلائله ﴿ ثلاث مرات ﴾ في اليوم والليلة ، وقيل : ثلاث استئذانات في كل مرة ، فإن لم يحصل الإذن رجع المستأذن كما تقدم المرّة الأولى من الأوقات الثلاث ﴿ من قبل صلاة الفجر ﴾ ؛ لأنه وقت القيام من المضاجع ، وطرح ثياب النوم ﴿ و ﴾ المرّة الثانية ﴿ حين تضعون ثيابكم ﴾ أي : التي للخروج بين الناس ﴿ من الظهيرة ﴾ أي : شدة الحرّ ، وهو انتصاف النهار ﴿ و ﴾ المرّة الثالثة ﴿ من بعد صلاة العشاء ﴾ ؛ لأنه وقت الانفصال من ثياب اليقظة والاتصال بثياب النوم ، وخص هذه الأوقات ؛ لأنها ساعات الخلوة ووضع الثياب

(229/555)

والالتحاف باللحاف ، وأثبت من في الموضعين دلالة على قرب الزمن من الوقت المذكور لضبطه ، وأسقطها في الأوسط دلالة على استغراقه ؛ لأنه غير منضبط ، ثم علل بقوله تعالى : ﴿ ثلاث عورات ﴾ أي : اختلالات في التستر والتحفظ ﴿ لكم ﴾ ؛ لأنها من ساعات وضع الثياب والخلوة ؛ قال البيضاوي : وأصل العورة الخلل ، ومنها اعورَّ المكان ، ورجل أعور إذا بدا فيه خلل انتهى .

وسميت هذه الأوقات عورات ؛ لأن الإنسان يضع فيها ثيابه فربما تبدو عورته ، وقرأ أبو بكر وحمزة والكسائي في الوصل ثلاث بالنصب بتقدير أوقات منصوباً بدل من محل ما قبله قام المضاف إليه مقامه ، والباقون بالرفع على أنها خبر مبتدأ مقدر بعده مضاف ، وقام المضاف إليه مقامه أي : هي أوقات ، ويجوز أن يكون مبتدأ وخبره ما بعده ، ثم بين سبحانه وتعالى حكم ما عدا ذلك بقوله تعالى مستأنفاً ﴿ ليس عليكم ﴾ أي : في ترك الأمر ﴿ ولا عليهم ﴾ أي : المماليك والصبيان في ترك الاستئذان ﴿ جناح ﴾ أي : إثم وأصله الميل في الدخول عليكم في جميع الساعات ﴿ بعدهن ﴾ أي : بعد هذه الأوقات الثلاثة إذا هجموا عليكم ، ثم علل الإباحة في غيرها مخرجاً لغيرهم بقوله تعالى :

﴿ طوّافون عليكم ﴾ أي : لعمل ما تحتاجون في الخدمة كما أنتم طوافون عليهم لعمل ما يصلحهم ويصلحكم في الاستخدام ﴿ بعضكم ﴾ طوّاف ﴿ على بعض ﴾ لعمل يعجز

عنه الآخر أو يشق عليه فلو عم الأمر بالاستئذان لأدى إلى الحرج.

فإن قيل: بما رفع ﴿ بعضكم على بعض ﴾ ؟

(230/555)

أجيب: بأنه رفع بالابتداء وخبره على بعض أي: طوّاف على بعض، وحذف؛ لأنّ طوافون يدل عليه، ويجوز أن يرتفع بيطوف مضمراً لتلك الدلالة ﴿ كذلك ﴾ أي: كما بين ما ذكر ﴿ يبين الله ﴾ أي: بما له من إحاطة العلم والقدرة ﴿ لكم ﴾ أيتها الأمة ﴿ الآيات ﴾ في الأحكام وغيرها بعلمه وحكمته ﴿ والله ﴾ أي: الذي له الإحاطة العامة بكل شيء ﴿ عليم ﴾ بكل شيء ﴿ حكيم ﴾ فيما يريده، فلا يقدر أحد على نقضه، وختم الآية بهذا الوصف يدل على أنها محكمة لم تنسخ، واختلف في ذلك فقال الزمخشري: عن ابن عباس أنه قال: آية لا يؤمن بها أكثر الناس آية الأذن، وإني لآمر جاريتي أي: زوجتي أن تستأذن علي، وسأله عطاء: أستأذن على أختي؟ قال: نعم وإن كانت في حجرك تمونها، وتلا هذه الآية، وعنه ثلاث آيات جحدهنّ الناس؛ الإذن كله، وقوله تعالى: ﴿ إن أكرمكم عند اللّه أتقاكم ﴾ فقال الناس: أعظمكم بيتاً، وقوله: ﴿ وإذا حضر القسمة ﴾، وعن ابن مسعود: عليكم أن تستأذنوا على آبائكم وأمهاتكم

وأخواتكم ، وعن الشعبي : ليست منسوخة ، فقيل له : إن الناس لا يعملون بها ، فقال : الله المستعان ، وعن سعيد بن جبير : إن الناس يقولون : هي منسوخة والله ما هي منسوخة ، ولكن الناس تهاونوا بها ، وقال قوم : هي منسوخة . ا

روى البغوي عن ابن عباس أنه قال : لم يكن للقوم ستر ، ولا حجاب فكان الخدم والولائد يدخلون ، فربما يرون منهم ما لا يحبون ، فأمروا بالاستئذان ، وقد بسط الله الرزق واتخذ الناس الستور ، فلعل الرواية اختلفت عن ابن عباس ، ولما بيّن تعالى حكم الصبيان والأرقاء الذين هم أطوع للأمر ، وأقبل لكل خبر أتبعه حكم البالغين من الأحرار بقوله تعالى:

(231/555)

﴿ وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم ﴾ أي : إذا بلغ أطفالكم الأحرار بلوغ السن الذي يكون فيه إنزال المني سواء رأى منياً أم لا ، واختلف في ذلك السن ، فقال عامة العلماء : هو خمس عشرة سنة ، أي : قمرية تحديدية لا فرق في ذلك بين الذكر وغيره ، وقال أبو حنيفة : هو ثماني عشرة سنة في الغلام ، وسبع عشرة سنة في الجارية ، وعن علي رضي الله عنه : أنه تعتبر القامة وتقدر بخمسة أشبار ، وبه أخذ الفرزدق في قوله:

*ما زال مذ عقدت يداه إزاره

**وسما فأدرك خمسة الأشبار

(232/555)

واعتبر غيره الإنبات أي : للعانة ، وعن عثمان رضي الله تعالى عنه أنه سأل عن غلام له فقال : هل اخضر إزاره ، أي : نبت شعر عانته ؟ فأسند الاخضرار إلى الإزار على المجاز ، ولأنه مما اشتمل عليه الإزار ، ونبات العانة الخشن عندنا علامة على بلوغ ولد الكافر فقط أما إذا رأى المني في وقت إمكانه وهو استكمال تسع سنين قمرية فإنا نحكم ببلوغه سواء كان ذكراً أم أنثى مسلماً أم كافراً ، وأما الخنثى فلا بدّ أن يمني من فرجيه أو يحيض بالفرج ، ويمني من الذكر ﴿ فليستأذنوا ﴾ أي : على غيرهم في جميع الأوقات ﴿ كما استأذن الذين من قبلهم ﴾ أي : من الأحرار الكبار الذين جعلوا قسيماً للمماليك ، فلا يدخل في ذلك الأرقاء ، فلا يستدل بذلك على أن العبد البالغ يستأذن على سيدته ، وقيل : المراد الذين كانوا مع إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام ﴿ كذلك ﴾ أي : كما بين لكم ما ذكر ﴿ يبين الله ﴾ أي : الذي له الإحاطة والقدرة ﴿ لكم ﴾ أيتها الأمة ﴿ آياته ﴾ أي : دلالاته ﴿ والله ﴾ أي : الذي يعلم السر وأخفى ﴿ عليم ﴾ أي : بأحوال خلقه

﴿ حكيم ﴾ أي : فيما دبر لهم ، قال سعيد بن المسيب : يستأذن الرجل على أمه ، فإنما أنزلت هذه الآية في ذلك ، وسئل حذيفة : أيستأذن الرجل على والدته ؟ فقال : نعم إن لم تفعل رأيت منها ما تكره ، وعن أنس قال : لما كانت صبيحة يوم احتلمت دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم فأخبرته أني قد احتلمت ، فقال : "لا تدخل على النساء فما أتى علي يوم كان أشد منه" . ولما ذكر تعالى إقبال الشباب في تعيين حكم الحجاب أتبعه الحكم عند إدبار الشباب في اتقاء الظاهر من الشباب بقوله تعالى:

(233/555)

﴿ والقواعد من النساء ﴾ أي : اللاتي قعدن عن الولد والحيض من الكبر ، فلا يلدن ولا يحضن ، واحدتهن قاعد بلا هاء ، وقيل : قعدن عن الأزواج وهو معنى قوله : ﴿ اللاتي لا يرجون نكاحاً ﴾ أي : لا يردن الرجال لكبرهن ، قال ابن منبه : سميت المرأة قاعداً إذا كبرت ؛ لأنها تكثر القعود ، وقال ربيعة : هن العجز اللواتي إذا رآهن الرجل استقذرهن ، فأما من كان فيها بقية من جمال وهي محل الشهوة فلا تدخل في هذه الآية ﴿ فليس عليهن جناح ﴾ أي : حرج في ﴿ أن يضعن ثيابهن ﴾ أي : الظاهرة فوق الثياب الساترة بحضرة الرجال كالجلباب والرداء والقناع فوق الخمار ، أما الخمار فلا يجوز وضعه لما فيه من

كشف العورة ﴿ غير متبرجات بزينة ﴾ أي : من غير أن يردن بوضع الجلباب والرداء إظهار زينتهن ، ثم إن الزينة الخفية في قوله تعالى : ﴿ ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن ﴾ أو غير قاصدات بالوضع التبرج ، والتبرج هو أن تظهر المرأة محاسن ما ينبغي لها أن تستره ، ولما ذكر الله تعالى الجائز عقبه بالمستحب بعثاً منه على اختيار أفضل الأعمال وأحسنها بقوله تعالى : ﴿ وأن يستعففن ﴾ أي : فلا يلقين الرداء أو الجلباب ﴿ خير لهن ﴾ من الإلقاء كقوله تعالى : ﴿ وأن تعفوا أقرب للتقوى ﴾ ، ﴿ وأن تصدقوا ﴾ لأنه أبعد عن التهمة ﴿ والله ﴾ أي : الذي جلت عظمته ﴿ سميع ﴾ لقولكم ﴿ عليم ﴾ بما في قلوبكم ، واختلف في سبب نزول قوله تعالى:

(234/555)

﴿ ليس على الأعمى حرج ﴾ أي : في مؤاكلة غيره ﴿ ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج ﴾ كذلك ، فقال ابن عباس لما أنزل الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ﴾ : تحرج المسلمون عن مؤاكلة المرضى والزمني والعمى والعرج ، وقالوا : الطعام أفضل الأموال ، وقد نهى الله تعالى عن أكل المال بالباطل ، والأعمى لا يبصر موضع الطعام الطيب ، والأعرج لا يتمكن من الجلوس ولا يستطيع المزاحمة على الطعام ،

والمريض يضعف عن التناول فلا يستوفي من الطعام حقه ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ، وعلى هذا تكون على بمعنى في ؛ أي : ليس في الأعمى أي : ليس عليكم في مؤاكلة الأعمى والأعرج والمريض حرج .

وقال سعيد بن جبير والضحاك وغيرهما : كان العرجان والعميان والمرضى يتنزهون عن مؤاكلة الأصحاء ؛ لأن الناس يستقذرون منهم ويكرهون مؤاكلتهم ، وعن عكرمة : كانت الأنصار في أنفسها قزازة فكانت لا تأكل من هذه البيوت إذا استغنوا ، وكان هؤلاء يقولون : الأعمى ربما أكل أكثر ، وربما سبقت يده إلى ما سبقت عين آكليه إليه ، وهو لا يشعر ، والأعرج ربما أخذ في مجلسه مكان اثنين فيضيق على جليسه ، والمريض لا يخلو من رائحة تؤذي أو جرح يبض أو نحو ذلك فنزلت ، وقال مجاهد : نزلت الآية ترخيصاً لهؤلاء في الأكل من بيوت من سمى الله في هذه الآية ، وذلك أن هؤلاء كانوا يدخلون محل الرجل لطلب الطعام ، فإذا لم يكن عنده ما يطعمهم ذهب بهم إلى بيت أبيه وبيت أمه ، وبعض من سمى الله تعالى في هذه الآية ، فكان أهل الزمانة يتحرجون من هذا الطعام ويقولون : ذهب بنا إلى بيت غيره فنزلت الآية .

(235/555)

وقال سعيد بن المسيب : كان المسلمون إذا غزوا غلقوا منازلهم ويدفعون إليهم مفاتيح أبوابهم ويقولون : قد أحللنا لكم أن تأكلوا مما في بيوتنا ، فكانوا يتحرجون من ذلك ويقولون : لا ندخلها وهم غيب ، فأنزل الله تعالى هذه الآية رخصة لهم ، وقال الحسن : نزلت رخصة لهؤلاء في التخلف عن الجهاد ، وقال : تم الكلام عند قوله تعالى : ﴿ ولا على المريض حرج ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ ولا على أنفسكم أن تأكلوا في بيوتكم ﴾ كلام مستأنف منقطع عما قبله فإن قيل : أي فائدة في إباحة أكل الإنسان طعاماً في بيته ؟

أجيب : بأن المراد من البيوت التي فيها أزواجكم وعيالكم فيدخل فيه بيوت الأولاد ؛ لأن بيت ولده كبيته ؛ قال صلى الله عليه وسلم "أنت ومالك لأبيك" ، وقال صلى الله عليه وسلم "إن أطيب ما يأكل المرء من كسبه وإن ولده من كسبه" ، وقيل لما نزل قوله تعالى : ﴿ لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ﴾

(236/555)

قالوا : لا يحل لأحد منا أن يأكل عند أحد ، فأنزل الله تعالى : ﴿ ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم ﴾ أي : لا حرج عليكم أن تأكلوا من بيوتكم ﴿ أو بيوت آبائكم ﴾ أي : وإن بعدت أنسابهم قال البقاعي : ولعله جمع لذلك فإنها مرباكم وحرمتها حرمتكم ﴿ أو بيوت

أمهاتكم ﴾ كذلك وقدم الأب ؛ لأنه أجل وهو حاكم بيته دائماً والمال له ﴿ أو بيوت إخوانكم ﴾ أي : من الأبوين أو الأب أو الأم بالنسب أو الرضاع ، فإنهم من أولى من رضي بذلك بعد الوالدين ؛ لأنهم منكم ، وهم أولياء بيوتهم ﴿ أو بيوت أخواتكم ﴾ ، فإنهن بعدهم من أولي البيت ، فإن كن مزوجات فلا بد من إذن الزوج ﴿ أو بيوت أعمامكم ﴾ فإنهم شقائق آبائكم سواء كانوا أشقاء أو لأب أم لأم ، ولو أفرد العم لتوهم أنه الشقيق فقط ، فإنه أحق بالاسم ﴿ أو بيوت عماتكم ﴾ فإنهن بعد الأعمام لضعفهن ؛ ولأنهن ربما كان أولياء بيوتهن الأزواج ﴿ أو بيوت أخوالكم ﴾ لأنهم شقائق أمهاتكم ﴿ أو بيوت خالاتكم ﴾ أخرهن لما ذكر في العمات ﴿ أو ما ملكتم مفاتحه ﴾ قال ابن عباس : عنى بذلك وكيل الرجل وقيمه في ضيعته وماشيته لا بأس عليه أن يأكل من ثمر ضيعته ويشرب من لبن ماشيته ، ولا يحمل ولا يدخر ، وملك المفاتح كونها في يده وحفظه ، وقال الضحاك : يعني من بيوت عبيدكم ومماليككم ؛ لأن السيد يملك منزل عبده والمفاتح الخزائن بقوله تعالى : ﴿ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ﴾

(237/555)

ويجوز أن تكون الذي يفتح به ، وقال عكرمة : إذا ملك الرجل المفتاح فهو خازن فلا بأس أن يطعم الشيء اليسير ، وقال السدي : الرجل يولي طعام غيره ويقوم عليه فلا بأس أن يأكل منه ، وقيل : أو ما ملكتم مفاتحه ما خزنتموه عندكم ، وقال مجاهد وقتادة : من بيوت أنفسكم مما ادخرتم وملكتم ﴿ أو صديقكم ﴾ أي : أو بيوت أصدقائكم ، والصديق هو الذي صدق في المودة ويكون واحداً وجمعاً ، وكذا الخليط والقطين والعدو قال ابن عباس : نزلت في الحرث بن عمرو خرج غازياً مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلف مالك بن زيد على أهله فلما رجع وجده مجهوداً فسأله عن حاله فقال : تحرجت أكل طعامك بغير إذنك ، فأنزل الله هذه الآية . يحكى عن الحسن أنه دخل داره ، وإذا حلقة من أصدقائه وقد استلوا سلالاً من تحت سريره فيها الخبيص ولطائف الأطعمة وهم مكبون عليها يأكلون ، فتهللت أسارير وجهه سروراً وضحك وقال : هكذا وجدناهم يريد كبراء الصحابة ومن لقيهم من البدريين ، وكان الرجل منهم يدخل دار صديقه وهو غائب فيسأل جاريته كيسه فيأخذ ما شاء ، فإذا حضر مولاها ، فأخبرته أعتقها سروراً بذلك ، وعن جعفر بن محمد : من عظم حرمة الصديق أن جعله الله تعالى في الأنس والثقة والانبساط وطرح الحشمة بمنزلة النفس والأب والابن والأخ .

وعن ابن عباس : الصديق أكبر من الوالدين ، إن الجهنميين لما استغاثوا لم يستغيثوا بالآباء والأمهات بل قالوا : ﴿ فمالنا من شافعين ولا صديق حميم ﴾ (،) ، والمعنى يجوز الأكل

من بيوت من ذكر وإن لم يحضروا إذا علم رضا صاحب البيت بإذن أو قرينة ظاهرة الحال ، فإن ذلك يقوم مقام الإذن الصريح ، ولذلك خصص هؤلاء فإنهم يعتادون التبسط بينهم وربما سمج الاستئذان وثقل كمن قدّم إليه طعام فاستأذن صاحبه في الأكل منه ، فإن قيل : إذا كان ذلك لا بد فيه من العلم بالرضا فحينئذٍ لا فرق بينهم وبين غيرهم ؟

(238/555)

أجيب : بأن هؤلاء يكفي فيهم أدنى قرينة بل ينبغي أن يشترط فيهم أن لا يعلم عدم الرضا بخلاف غيرهم لا بد فيه من صريح الإذن أو قرينة قوية ، هذا ما ظهر لي ولم أرَ من تعرض لذلك ، وكان الحسن وقتادة يريان دخول الرجل بيت صديقه والأكل من طعامه بغير إذنه لهذه الآية ، واحتج أبو حنيفة بهذه الآية على أن من سرق من ذي رحم محرم أنه لا يقطع ؛ لأن الله تعالى أباح لهم الأكل من بيوتهم ودخولها بغير إذنهم .

فإن قيل : فيلزم أن لا يقطع إذا سرق من مال صديقه ؟

أجيب : بأن من سرق من ماله لا يكون صديقاً له ، وقيل : إن هذا كان أول الإسلام ثم نسخ فلا دليل له فيه ، وقرأ بيوتكم وبيوت وبيوتاً ورش وأبو عمرو وحفص بضم الباء الموحدة ، والباقون بالكسر ، وقرأ حمزة والكسائي أمهاتكم في الوصول بكسر الهمزة ، والباقون

بالضم ، وكسر الميم حمزة ، وفتحها الباقون ، ولما ذكر تعالى معدن الأكل ذكر حاله بقوله تعالى:

﴿ ليس عليكم جناح ﴾ أي : إثم ﴿ أن تأكلوا جميعاً ﴾ أي : مجتمعن ﴿ أو أشتاتاً ﴾ أي : متفرقين ، واختلف في سبب نزول هذه الآية ، فقال الأكثرون : نزلت في بني ليث بن عمرو من كنانة ، وكانوا يتحرجون أن يأكل الرجل وحده فربما قعد منتظراً نهاره إلى الليل ، فإن لم يجد من يؤاكله أكل ضرورة ، وقال عطاء عن ابن عباس : كان الغني يدخل على الفقير من ذوي قرابته وصداقته ، فيدعوه إلى طعامه ، فيقول : والله إني لأجنح أي : أتحرج أن آكل معك وأنا غني وأنت فقير ، فنزلت هذه الآية ، وقال عكرمة وأبو صالح : نزلت في قوم من الأنصار كانوا لا يأكلون إذا نزل بهم ضيف إلا مع ضيفهم فرخص لهم في أن يأكلوا كيف شاؤوا مجتمعين أو أشتاتاً متفرقين ، وقال الكلبي : كانوا إذا اجتمعوا ليأكلوا طعاماً عزلوا للأعمى طعاماً وحده ، وكذلك الزمن والمريض ، فبين الله تعالى لهم أن ذلك غير واجب ، وقيل : تحرجوا عن الاجتماع على الطعام لاختلاف الناس في الأكل وزيادة بعضهم على بعض .

(239/555)

تنبيه : ﴿ جميعاً ﴾ حال من فاعل تأكلوا ، وأشتاتاً عطف عليه وهو جمع شتت ، وشتى جمع شتيت وشتان تثنية شت ، روي أن رجلاً قال للنبي صلى الله عليه وسلم إنا نأكل ولا نشبع ، قال : "فلعلكم تأكلون متفرقين اجتمعوا على طعامكم واذكروا اسم الله عليه يبارك لكم فيه" ، وروي أنه صلى الله عليه وسلم قال : "كلوا جميعاً ولا تفرقوا واذكروا اسم الله فإن البركة مع الجماعة" .

ولما بين تعالى مواطن الأكل وكيفيته ذكر الحال التي عليها الداخل إلى تلك المواطن أو غيرها بقوله تعالى : ﴿ فإذا دخلتم ﴾ أي : بسبب ذلك أو غيره ﴿ بيوتاً ﴾ أي : من هذه البيوت ﴿ فسلموا على أنفسكم ﴾ أي : على أهلها الذين هم منكم ديناً وقرابة ، جعل أنفس المؤمنين كالنفس الواحدة كقوله تعالى : ﴿ ولا تقتلوا أنفسكم ﴾ (النساء ،)

(240/555)

وقال ابن عباس : إذا لم يكن في البيت أحد فليقل : السلام علينا من ربنا ، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، وقال قتادة : إذا دخلت بيتك فسلم على أهلك ، فهم أحق بالسلام ممن سلمت عليهم ، وإذا دخلت بيتاً لا أحد فيه فقل : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، حدثنا أن الملائكة ترد عليه ﴿ تحية من عند الله ﴾ أي : ثابتة بأمره

مشروعة من لدنه ﴿ مباركة ﴾ أي : لأنه يرجى بها زيادة الخير والثواب ﴿ طيبة ﴾ أي : تطيب بها نفس المستمع ، والتحية طلب سلامة وحياة للمسلم عليه والمحيا من عند الله ، ووصفها بالبركة والطيب ؛ لأنها دعوة مؤمن لمؤمن يرجى بها من الله تعالى زيادة الخير وطيب الرزق ، وعن أنس قال : خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين ، وقيل : تسع سنين ، فما قال لي لشيء فعلته : لم فعلته ؟ ولا قال لي لشيء تركته : لم تركته ؟ وكنت واقفاً على رأسه أصب الماء على يديه ، فرفع رأسه فقال : "ألا أعلمك ثلاث خصال تنتفع بها" قلت : بلى بأبي أنت وأمي يا رسول الله قال : "متى لقيت من أمتي أحداً فسلم عليه يطل عمرك وإذا دخلت بيتك فسلم عليهم يكثر خير بيتك ، وصلِّ صلاة الضحى فإنها صلاة الأبرار الأوابين" .

تنبيه : تحية منصوب على المصدر من معنى فسلموا ، فهو من باب قعدت جلوساً فكأنه قال : فحيوا تحية ، وقال القفال : وإن كان في البيت أهل الذمة ، فليقل : السلام على من اتبع الهدى ، وكرر قوله تعالى : ﴿ كذلك يبين الله ﴾ أي : الذي أحاط علمه بكل شيء ﴿ لكم الآيات ﴾ ثالثاً لمزيد التأكيد وتفخيم الأحكام المختتمة به ، وفصل الأولين بما هو المقتضي لذلك وهذا بما هو المقصود منه ، فقال تعالى : ﴿ لعلكم تعقلون ﴾ أي : عن الله أمره ونهيه وأدبه ، ولما كان أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أجل موطن تجب الإقامة فيه ويهجر ما عداه من الأوطان قال تعالى:

﴿ إنما المؤمنون ﴾ أي : الكاملون في الإيمان ﴿ الذين آمنوا بالله ﴾ أي : الملك الأعلى ﴿ ورسوله ﴾ أي : ظاهراً وباطناً ﴿ وإذا كانوا معه ﴾ أي : الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿ على أمر جامع ﴾ أي : يجمعهم من حرب حضرت أو صلاة جمعة أو عيد أو جماعة أو تشاور في أمر نزل ، ووصف الأمر بالجمع للمبالغة أو من الإسناد المجازي ؛ لأنه لما كان سبباً في جمعهم نسب الفعل إليه مجازاً ﴿ لم يذهبوا ﴾ أي : يتفرقوا عنه ولم ينصرفوا عما اجتمعوا له لعذر لهم ﴿ حتى يستأذنوه ﴾ قال الكلبي : كان النبي صلى الله عليه وسلم يعرض في خطبته بالمنافقين ، ويعيبهم فينظر المنافقون يميناً وشمالاً فإذا لم يرهم أحد انسلوا وخرجوا ولم يصلوا ، وإن أبصرهم أحد لبثوا وصلوا خوفاً ، فنزلت هذه الآية ، فكان المؤمن بعد نزولها لا يخرج لحاجة حتى يستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان المنافقون يخرجون بغير إذن ، قال مجاهد : إن إذن الإمام يوم الجمعة أن يشير بيده قال أهل العلم : كذلك كل أمر اجتمع عليه المسلمون مع الإمام لا يخالفونه ولا يرجعون عنه إلا بإذن ، وهذا إذا لم يكن سبب يمنعه من المقام ، فإن حدث سبب يمنعه عن المقام كأن يكونوا في المسجد فتحيض منهم امرأة أو يجنب الرجل أو يعرض له مرض فلا يحتاج إلى الاستئذان ،

ولما كان اعتبار الإذن كالمصدق لصحة كمال الإيمان ، والمميز للمخلص فيه أعاده مؤكداً على أسلوب أبلغ بقوله تعالى : ﴿ إن الذين يستأذنونك ﴾ أي : تعظيماً لك ورعاية للأدب ﴿ أولئك ﴾ أي : العالو الرتبة ﴿ الذين يؤمنون بالله ﴾ أي : الذي له الأمر كله ﴿ ورسوله ﴾ فإنه يفيد أن المستأذن مؤمن لا محالة وأن الذاهب بغير إذن ليس كذلك ، ولما نص على الاستئذان تسبب عن ذلك إعلامه صلى الله عليه وسلم بما يفعل إذ ذاك بقوله تعالى : ﴿ فإذا استأذنوك لبعض شأنهم ﴾ وهو ما تشتد الحاجة إليه ، ﴿ فأذن لمن شئت منهم ﴾ بالانصراف أي : إن شئت فأذن ، وإن شئت فلا تأذن ، ففي ذلك تفويض الأمر إلى رسول الله صلى الله عليه

(242/555)

وسلم واستدل به

على أن بعض الأحكام مفوّض إلى رأيه .

قال الضحاك ومقاتل : المراد عمر بن الخطاب وذلك "أنه استأذن في غزوة تبوك في الرجوع إلى أهله ، فأذن له وقال : انطلق فوالله ما أنت بمنافق يريد أن يسمع المنافقون ذلك الكلام ، فلما سمعوا ذلك قالوا : ما بال محمد إذا استأذنه أصحابه أذن لهم وإذا استأذناه أبى ،

فوالله ما نراه يعدل" ، قال ابن عباس : "إن عمر استأذن النبي صلى الله عليه وسلم في العمرة فأذن له ثم قال : يا أبا حفص لا تنسنا من صالح دعائك" ، ولما كان في الاستئذان ولو لعذر قصور ؛ لأن فيه تقديماً لأمر الدنيا على أمر الدين أمره الله تعالى بأن يستغفر لهم بقوله تعالى : ﴿ واستغفر لهم الله ﴾ أي : الذي له الأمر كله بعد الإذن ليكون ذلك شاملاً لمن صحت دعواه وغيره ، ثم علل ذلك ترغيباً في الاستغفار وتطييباً لقلوب أهل الأوزار بقوله تعالى : ﴿ إن الله ﴾ أي : الذي لا يخفى عليه شيء ﴿ غفور ﴾ أي : لفرطات العباد ﴿ رحيم ﴾ أي : بالتستر عليهم ، ولما أظهرت هذه السورة بعمومها ، وهذه الآيات بخصوصها من شرف الرسول ما أبهر العقول صرح بتفخيم شأنه وتعظيم مقامه بقوله تعالى:

(243/555)

﴿ لا تجعلوا ﴾ أي : يا أيها الذين آمنوا ﴿ دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً ﴾ قال سعيد بن جبير وجماعة : معناه : لا تنادوه باسمه فتقولوا : يا محمد ، ولا بكنيته فتقولوا : يا أبا القاسم ، بل نادوه وخاطبوه بالتوقير ، فقولوا : يا رسول الله يا نبي الله ، وعلى هذا يكون المصدر مضافاً لمفعوله ، وقال المبرد والقفال : لا تجعلوا دعاءه إياكم كدعاء بعضكم لبعض ، فتتباطؤون عنه كما يتباطأ بعضكم عن بعض إذا دعاه لأمر بل يجب عليكم

المبادرة لأمره ، ويؤيده قوله تعالى : ﴿ فليحذر الذين يخالفون عن أمره ﴾ (النور ،) ، وعلى هذا يكون المصدر مضافاً للفاعل ، وقال ابن عباس : احذروا دعاء الرسول عليكم إذا أسخطتموه ، فإن دعاءه موجب ليس كدعاء غيره ، وروي عنه أيضاً : لا ترفعوا أصواتكم في دعائه ، وهو المراد من قوله : ﴿ إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله ﴾ (الحجرات ،) ، وقول المبرد كما قال ابن عادل : أقرب إلى نظم الآية .

(244/555)

ولما كان بعضهم يظهر الموافقة ويبطن المخالفة حذر من ذلك بقوله تعالى : ﴿ قد يعلم الله ﴾ أي : الذي لا تخفى عليه خافية ﴿ الذين يتسللون منكم ﴾ أي : ينسلون قليلاً قليلاً ليجعلوا ذهابهم في غاية الخفاء ، ونظير تسلل تدرج وتدخل ، وقوله تعالى : ﴿ لواذاً ﴾ حال أي : ملاوذين ، واللواذ والملاوذة التستر يقال : لاذ فلان بكذا إذا استتر به ، وقال ابن عباس : أي : يلوذ بعضهم ببعض ، وذلك أن المنافقين كان يثقل عليهم المقام في المسجد يوم الجمعة لا سيما في خطبة النبي صلى الله عليه وسلم وكانوا يلوذون ببعض أصحابه فيخرجون من المسجد في استتار ، وقد للتحقيق وتسبب عن علمه تعالى قوله تعالى : ﴿ فليحذر ﴾ أي : يوقع الحذر ﴿ الذين يخالفون عن أمره ﴾ أي : يعرضون عن أمر رسول

الله صلى الله عليه وسلم وينصرفون عنه بغير إذنه ، وقال أبو بكر الرازي : الضمير في أمره لله ؛ لأنه يليه ، وقال الجلال المحلي : أي : الله ورسوله وكلٌّ صحيح ، فإن مخالفة أمر أحدهما مخالفة أمر الآخر ﴿ أن ﴾ أي : لئلا ﴿ تصيبهم فتنة ﴾ قال مجاهد : بلاء في الدنيا ، وعن ابن عباس : فتنة قتل ، وعن عطاء : زلازل وأهوال ، وعن جعفر بن محمد : يسلط الله عليهم سلطاناً جائراً ﴿ أو يصيبهم عذاب أليم ﴾ أي : وجيع في الآخرة .

تنبيه : الآية تدل على أن الأمر للوجوب ؛ لأن تارك الأمور مخالف للأمر ، ومخالف الأمر يستحق العذاب ، ولا معنى للوجوب إلا ذلك ، ولما أقام تعالى الأدلة على أنه نور السموات والأرض وختم بالتحذير لكل مخالف أنتج ذلك أن له كل شيء فقال تعالى:

﴿ ألا إن لله ما في السموات والأرض ﴾ خلقاً وملكاً وعبيداً ، فإن قيل : ما فائدة ذكر عبيداً بعد ملكاً ؟

(245/555)

أجيب : عنه إنما ذكر لئلا يتوهم أن ما لما لا يعقل فقط ، ولما كانت أحوالهم من جملة ما هو له ، وإنها بخلقه قال تعالى : ﴿ قد يعلم ما أنتم ﴾ أي : أيها المكلفون ﴿ عليه ﴾ أي : من الموافقة والمخالفة والإخلاص والنفاق ، وإنما أكد علمه بقد لتأكيد الوعيد ، وذلك أنَّ قد

إذا دخلت على المضارع كانت بمعنى ربما ، فوافقت ربما في خروجها إلى معنى التكثير في نحو قول بعضهم:

*فإن تمس مهجور الفناء فربما

** أقام به بعد الوفود وفود

ونحوه يقول زهير:

*أخي ثقة لا تهلك الخمر

** ماله ولكنه قد يهلك المال نائله

والمعنى : أن جميع ما في السموات والأرض مختص به تعالى فكيف يخفى عليه أحوال المنافقين ، وإن كانوا يجتهدون في سترها عن العيون وإخفائها ؟ وقوله تعالى : ﴿ ويوم ﴾ أي : ويعلم يوم ﴿ يرجعون إليه ﴾ فيه التفات عن الخطاب أي : متى تكون ، أو ويوم يرجع المنافقون إليه للجزاء ﴿ فينبئهم ﴾ أي : فتسبب عن ذلك أنه يخبرهم ﴿ بما عملوا ﴾ أي : من الخير والشر فيجازيهم عليه ﴿ والله ﴾ أي : الذي لا تخفى عليه خافية ﴿ بكل شيء ﴾ أي : من أعمالهم وغيرها ﴿ عليم ﴾ عن عائشة رضي الله تعالى عنها وعن أبويها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "لا تنزلوا النساء الغرف ولا تعلموهن الكتابة وعلموهن الغزل وسورة النور" أخرجه أبو عبد الله في البيع في صحيحه ، وأما قول البيضاوي : تبعاً للكشاف : "من قرأ سورة النور أعطي من الأجر عشر حسنات بعدد كل

مؤمن ومؤمنة فيما مضى وفيما بقي" فهو حديث موضوع. انتهى انتهى. اهـ ﴿السراج المنير جـ4 صـ 421.436﴾

(246/555)

وقال الشيخ سيد قطب:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ﴾

إن الإسلام منهاج حياة كامل؛ فهو ينظم حياة الإنسان في كل أطوارها ومراحلها، وفي كل علاقاتها وارتباطاتها، وفي كل حركاتها وسكناتها. ومن ثم يتولى بيان الآداب اليومية الصغيرة، كما يتولى بيان التكاليف العامة الكبيرة؛ وينسق بينها جميعاً، ويتجه بها إلى الله في النهاية.

وهذه السورة نموذج من ذلك التنسيق. لقد تضمنت بعض الحدود إلى جانب الاستئذان على البيوت. وإلى جانبها جولة ضخمة في مجالي الوجود. ثم عاد السياق يتحدث عن حسن أدب المسلمين في التحاكم إلى الله ورسوله وسوء أدب المنافقين. إلى جانب وعد الله الحق للمؤمنين بالاستخلاف والأمن والتمكين. وها هو ذا في هذا الدرس يعود إلى

آداب الاستئذان في داخل البيوت ؛ إلى جانب الاستئذان من مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وينظم علاقة الزيارة والطعام بين الأقارب والأصدقاء ؛ إلى جانب الأدب الواجب في خطاب الرسول ودعائه . . . فكلها آداب تأخذ بها الجماعة المسلمة وتنتظم بها علاقاتها . والقرآن يربيها في مجالات الحياة الكبيرة والصغيرة على السواء .

﴿ يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ، ثلاث مرات : من قبل صلاة الفجر ، وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ، ومن بعد صلاة العشاء . ثلاث عورات لكم . ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن . طوّافون عليكم بعضكم على بعض . كذلك يبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم ﴾ . .

لقد سبقت في السورة أحكام الاستئذان على البيوت . وهنا يبين أحكام الاستئذان في داخل البيوت .

(247/555)

فالخدم من الرقيق ، والأطفال المميزون لم يبلغوا الحلم يدخلون بلا استئذان . إلا في ثلاثة أوقات تنكشف فيها العورات عادة ، فهم يستأذنون فيها . هذه الأوقات هي : الوقت قبل صلاة الفجر حيث يكون الناس في ثياب النوم عادة أو أنهم يغيرونها ويلبسون ثياب

الخروج. ووقت الظهيرة عند القيلولة، حيث يخلعون ملابسهم في العادة ويرتدون ثياب النوم للراحة. وبعد صلاة العشاء حين يخلعون ملابسهم كذلك ويرتدون ثياب الليل..

وسماها ﴿ عورات ﴾ لانكشاف العورات فيها. وفي هذه الأوقات الثلاثة لا بد أن يستأذن الخدم، وأن يستأذن الصغار المميزون الذين لم يبلغوا الحلم، كي لا تقع أنظارهم على عورات أهليهم. وهو أدب يغفله الكثيرون في حياتهم المنزلية، مستهينين بآثاره النفسية والعصبية والخلقية، ظانين أن الخدم لا تمتد أعينهم إلى عورات السادة! وأن الصغار قبل البلوغ لا ينتبهون لهذه المناظر. بينما يقرر النفسيون اليوم بعد تقدم العلوم النفسية أن بعض المشاهد التي تقع عليها أنظار الأطفال في صغرهم هي التي تؤثر في حياتهم كلها؛ وقد تصيبهم بأمراض نفسية وعصبية يصعب شفاؤهم منها.

والعليم الخبير يؤدب المؤمنين بهذه الآداب؛ وهو يريد أن يبني أمة سليمة الأعصاب، سليمة الصدور، مهذبة المشاعر، طاهرة القلوب، نظيفة التصورات.

ويخصص هذه الأوقات الثلاثة دون غيرها لأنها مظنة انكشاف العورات. ولا يجعل استئذان الخدم والصغار في كل حين منعاً للحرج. فهم كثيرو الدخول والخروج على أهليهم بحكم صغر سنهم أو قيامهم بالخدمة:

﴿ طوافون عليكم بعضكم على بعض ﴾.. وبذلك يجمع بين الحرص على عدم انكشاف العورات، وإزالة الحرج والمشقة لو حتم أن يستأذنوا كما يستأذن الكبار.

فأما حين يدرك الصغار سن البلوغ ، فإنهم يدخلون في حكم الأجانب ، الذين يجب أن يستأذنوا في كل وقت ، حسب النص العام ، الذي مضت به آية الاستئذان .

(248/555)

ويعقب على الآية بقوله : ﴿ والله عليم حكيم ﴾ لأن المقام مقام علم الله بنفوس البشر ، وما يصلحها من الآداب ؛ ومقام حكمته كذلك في علاج النفوس والقلوب .

ولقد سبق الأمر كذلك بإخفاء زينة النساء منعاً لإثارة الفتن والشهوات . فعاد هنا يستثني من النساء القواعد اللواتي فرغت نفوسهن من الرغبة في معاشرة الرجال ؛ وفرغت أجسامهن من الفتنة المثيرة للشهوات :

﴿ والقواعد من النساء اللاتي لا يرجون نكاحاً ؛ ليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن غير متبرجات بزينة وأن يستعففن خير لهن ؛ والله سميع عليم ﴾ . .

فهؤلاء القواعد لا حرج عليهن أن يخلعن ثيابهن الخارجية ، على ألا تنكشف عوراتهن ولا يكشفن عن زينة . وخير لهن أن يبقين كاسيات بثيابهن الخارجية الفضفاضة . وسمي هذا استعفافاً . أي طلباً للعفة وإيثاراً لها ، لما بين التبرج والفتنة من صلة ؛ وبين التحجب والعفة من صلة . . وذلك حسب نظرية الإسلام في أن خير سبل العفة تقليل فرص الغواية ،

والحيلولة بين المثيرات وبين النفوس .

﴿ والله سميع عليم ﴾ . . يسمع ويعلم ، ويطلع على ما يقوله اللسان ، وما يوسوس في الجنان . والأمر هنا أمر نية وحساسية في الضمير .

ثم يمضي في تنظيم العلاقات والارتباطات بين الأقارب والأصدقاء :

﴿ ليس على الأعمى حرج ، ولا على الأعرج حرج ، ولا على المريض حرج ؛ ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم ، أو بيوت آبائكم ، أو بيوت أمهاتكم ، أو بيوت إخوانكم ، أو بيوت أخواتكم ، أو بيوت أعمامكم ، أو بيوت عماتكم ، أو بيوت أخوالكم ، أو بيوت خالاتكم ؛ أو ما ملكتم مفاتحه ، أو صديقكم . ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعاً أو أشتاتاً . فإذا دخلتم بيوتاً فسلموا على أنفسكم ، تحية من عند الله مباركة طيبة . كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تعقلون ﴾ . .

(249/555)

روي أنهم كانوا يأكلون من هذه البيوت المذكورة دون استئذان ويستصحبون معهم العمي والعرج والمرضى ليطعموهم . . الفقراء منهم . . فتحرجوا أن يطعموا وتحرج هؤلاء أن يصحبوهم دون دعوة من أصحاب البيوت أو إذن . ذلك حين نزلت : ﴿ ولا تأكلوا

أموالكم بينكم بالباطل ﴾ فقد كانت حساسيتهم مرهفة . فكانوا يحذرون دائماً أن يقعوا فيما نهى الله عنه ، ويتحرجون أن يلموا بالمحظور ولو من بعيد .

فأنزل الله هذه الآية ، ترفع الحرج عن الأعمى والمريض والأعرج ، وعن القريب أن يأكل من بيت قريبه . وأن يصحب معه أَمثال هؤلاء المحاويج . وذلك محمول على أن صاحب البيت لا يكره هذا ولا يتضرر به . إستناداً إلى القواعد العامة في أنه " لا ضرر ولا ضرار " وإلى أنه " لا يحل مال امرئ مسلم إلا بطيب نفس " .

ولأن الآية آية تشريع ، فإننا نلحظ فيها دقة الأداء اللفظي والترتيب الموضوعي ، والصياغة التي لا تدع مجالاً للشك والغموض . كما نلمح فيها ترتيب القرابات . فهي تبدأ ببيوت الأبناء والأزواج ولا تذكرهم . بل تقول الآية : ﴿ من بيوتكم ﴾ فيدخل فيها بيت الابن وبيت الزوج ، فبيت الابن بيت لأبيه ، وبيت الزوج بيت لزوجته ، وتليها بيوت الآباء ، فبيوت الأمهات . فبيوت الإخوة ، فبيوت الأخوات . فبيوت الأعمام ، فبيوت العمات ، فبيوت الأخوال ، فبيوت الخالات . . ويضاف إلى هذه القرابات الخازن على مال الرجل فله أن يأكل مما يملك مفاتحه بالمعروف ولا يزيد على حاجة طعامه . . ويلحق بها بيوت الأصدقاء . ليلحق صلتهم بصلة القرابة . عند عدم التأذي والضرر . فقد يسر الأصدقاء أن يأكل أصدقاؤهم من طعامهم بدون استئذان .

فإذا انتهى من بيان البيوت التي يجوز الأكل منها ، بين الحالة التي يجوز عليها الأكل : ﴿ ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعاً أو أشتاتاً ﴾ فقد كان من عادات بعضهم في الجاهلية ألا يأكل طعاماً على انفراد ، فإن لم يجد من يؤاكله عاف الطعام ! فرفع الله هذا الحرج المتكلف ، ورد الأمر إلى بساطته بلا تعقيد ، وأباح أن يأكلوا أفراداً أو جماعات .

فإذا انتهى من بيان الحالة التي يكون عليها الأكل ذكر آداب دخول البيوت التي يؤكل فيها : ﴿ فإذا دخلتم بيوتاً فسلموا على أنفسكم تحية من عند الله مباركة طيبة ﴾ . . وهو تعبير لطيف عن قوة الرابطة بين المذكورين في الآية . فالذي يسلم منهم على قريبه أو صديقه يسلم على نفسه . والتحية التي يلقيها عليه هي تحية من عند الله . تحمل ذلك الروح ، وتفوح بذلك العطر . وتربط بينهم بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها . .

وهكذا ترتبط قلوب المؤمنين بربهم في الصغيرة والكبيرة :

﴿ كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تعقلون ﴾ . . وتدركون ما في المنهج الإلهي من حكمة ومن تقدير . .

وينتقل من تنظيم العلاقات بين الأقارب والأصدقاء ، إلى تنظيمها بين الأسرة الكبيرة . . أسرة المسلمين . . ورئيسها وقائدها محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى آداب المسلمين في مجلس الرسول :

﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله . وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه ؛ إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله . فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم ، واستغفر لهم الله .

إن الله غفور رحيم . لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً . قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذاً . فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم . ألا إن لله ما في السماوات والأرض قد يعلم ما أنتم عليه ؛ ويوم يرجعون إليه فينبئهم بما عملوا ، والله بكل شيء عليم ﴾ . .

(251/555)

روى ابن إسحاق في سبب نزول هذه الآيات أنه لما كان تجمع قريش والأحزاب في غزوة الخندق . فلما سمع بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وما أجمعوا له من الأمر ضرب الخندق على المدينة . فعمل فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ترغيباً للمسلمين في الأجر ، وعمل معه المسلمون فيه ، فدأب ودأبوا ، وأبطأ عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعن المسلمين في عملهم ذلك رجال من المنافقين ، وجعلوا يورّون بالضعيف من العمل ، ويتسللون إلى أهليهم بغير علم رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا إذنه ؛ وجعل الرجل من

المسلمين إذا نابته النائبة من الحاجة التي لا بد منها يذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ويستأذنه في اللحوق بحاجته ، فيأذن له ، فإذا قضى حاجته رجع إلى ما كان فيه من عمله ، رغبة في الخير واحتساباً له . فأنزل الله تعالى في أولئك المؤمنين : ﴿ إنما المؤمنون . . . . الآية ﴾ ثم قال تعالى : يعني المنافقين الذين كانوا يتسللون من العمل ، ويذهبون بغير إذن من النبي صلى الله عليه وسلم : ﴿ لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم . . الآية ﴾ . .

وأياً ما كان سبب نزول هذه الآيات فهي تتضمن الآداب النفسية التنظيمية بين الجماعة وقائدها . هذه الآداب التي لا يستقيم أمر الجماعة إلا حين تنبع من مشاعرها وعواطفها وأعماق ضميرها . ثم تستقر في حياتها فتصبح تقليداً متبعاً وقانوناً نافذاً . وإلا فهي الفوضى التي لا حدود لها :

﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ﴾ . . لا الذين يقولون بأفواههم ثم لا يحققون مدلول قولهم ، ولا يطيعون الله ورسوله .

﴿ وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه ﴾ . . والأمر الجامع الأمر الهام الذي يقتضي اشتراك الجماعة فيه ، لرأي أو حرب أو عمل من الأعمال العامة . فلا يذهب المؤمنون حتى يستأذنوا إمامهم . كي لا يصبح الأمر فوضى بلا وقار ولا نظام .

وهؤلاء الذين يؤمنون هذا الإيمان ، ويلتزمون هذا الأدب ، لا يستأذنون إلا وهم مضطرون ؛ فلهم من إيمانهم ومن أدبهم عاصم ألا يتخلوا عن الأمر الجامع الذي يشغل بال الجماعة . ويستدعي تجمعها له . . ومع هذا فالقرآن يدع الرأي في الإذن أو عدمه للرسول صلى الله عليه وسلم رئيس الجماعة . بعد أن يبيح له حرية الإذن : ﴿ فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم ﴾ .

. . [وكان قد عاتبه على الإذن للمنافقين من قبل فقال: (عفا الله عنك ! لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين)] . . يدع له الرأى فإن شاء أذن , وإن شاء لم يأذن , فيرفع الحرج عن عدم الإذن , وقد تكون هناك ضرورة ملحة . ويستبقي حرية التقدير لقائد الجماعة ليوازن بين المصلحة في البقاء والمصلحة في الانصراف . ويترك له الكلمة الأخيرة في هذه المسألة التنظيمية يدبرها بما يراه .

ومع هذا يشير إلى أن مغالبة الضرورة , وعدم الانصراف هو الأولى ; وأن الاستئذان والذهاب فيهما تقصير أو قصور يقتضي استغفار النبي (صلى الله عليه وسلم) للمعتذرين: (واستغفر لهم الله . إن الله غفور رحيم) . . وبذلك يقيد ضمير المؤمن . فلا يستأذن وله مندوحة لقهر العذر الذي يدفع به إلى الاستئذان .

ويلتفت إلى ضرورة توقير الرسول (صلى الله عليه وسلم) عند الاستئذان , وفي كل

الأحوال . فلا يدعى باسمه:يا محمد . أو كنيته:يا أبا القاسم . كما يدعو المسلمون بعضهم بعضا . إنما يدعى بتشريف الله له وتكريمه:يا نبي الله . يا رسول الله:

(لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا) . .

فلا بد من امتلاء القلوب بالتوقير لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) حتى تستشعر توقير كل كلمة منه وكل توجيه .

(253/555)

وهي لفتة ضرورية . فلا بد للمربي من وقار , ولا بد للقائد من هيبة . وفرق بين أن يكون هو متواضعا هينا لينا ; وأن ينسوا هم أنه مربيهم فيدعوه دعاء بعضهم لبعض . . يجب أن تبقى للمربي منزلة في نفوس من يربيهم يرتفع بها عليهم في قرارة شعورهم , ويستحيون هم أن يتجاوزوا معها حدود التبجيل والتوقير .

ثم يحذر المنافقين الذين يتسللون ويذهبون بدون إذن , يلوذ بعضهم ببعض , ويتدارى بعضهم ببعض . . فعين الله عليهم , وإن كانت عين الرسول لا تراهم: (قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا) . . وهو تعبير يصور حركة التخلي والتسلل بحذر من المجلس ; ويتمثل فيها الجبن عن المواجهة , وحقارة الحركة والشعور المصاحب لها في النفوس .

(فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم) .

وإنه لتحذير مرهوب , وتهديد رعيب . . فليحذر الذين يخالفون عن أمره , ويتبعون نهجا غير نهجه , ويتسللون من الصف ابتغاء منفعة أو اتقاء مضرة . ليحذروا أن تصيبهم فتنة تضطرب فيها المقاييس , وتختل فيها الموازين , وينتكث فيها النظام , فيختلط الحق بالباطل , والطيب بالخبيث , وتفسد أمور الجماعة وحياتها ; فلا يأمن على نفسه أحد , ولا يقف عند حده أحد , ولا يتميز فيها خير من شر . . وهي فترة شقاء للجميع:

أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (64)

(أو يصيبهم عذاب أليم) في الدنيا أو في الآخرة . جزاء المخالفة عن أمر الله , ونهجه الذي ارتضاه للحياة . ويختم هذا التحذير , ويختم معه السورة كلها بإشعار القلوب المؤمنة والمنحرفة بأن الله مطلع عليها , رقيب على عملها , عالم بما تنطوي عليه وتخفيه .

(ألا إن لله ما في السماوات والأرض . قد يعلم ما أنتم عليه ; ويوم يرجعون إليه فينبئهم بما عملوا . والله بكل شيء عليم) . .

وهكذا تختم السورة بتعليق القلوب والأبصار بالله ; وتذكيرها بخشيته وتقواه . فهذا هو الضمان الأخير . وهذا هو الحارس لتلك الأوامر والنواهي , وهذه الأخلاق والآداب ,

التي فرضها الله في هذه السورة وجعلها كلها سواء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 4 صـ 2536.2530 ﴾

(254/555)

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال العلامة نظام الدين النيسابورى :

التأويل : ﴿ ومن يطع الله ورسوله ﴾ فيما يدعوانه إلى الحضرة بترك ما سوى الله ﴿ ويخشى ﴾ الانقطاع عن الله ويثق به عما سواه ﴿ فأولئك هم الفائزون ﴾ بالوصول والوصال وصالاً بلا انفصال وزوال ﴿ لئن أمرتهم بالخروج ﴾ عن غير الله ﴿ طاعة معروفة ﴾ بالفعل دون القول ﴿ ليستخلفنهم ﴾ ليخرجن ما في استعدادهم من خلافة الله في أرض البشرية من القوة إلى الفعل . ﴿ وليمكنن ﴾ كل صنف حمل الأمانة المودعة فيه على اختلاف مراتبهم وطباقتهم ، فمنهم حفاظ لأخبار النبي صلى الله عليه وسلم وللقرآن ، ومنهم علماء الأصول ، ومنهم علماء الفروع ، ومنهم أهل المعرفة وأصحاب الحقائق وأرباب السلوك الكاملون المكملون ، وإنهم خلفاء الله على الحقيقة وأقطاب العالم وأوتاد الأرض ﴿ وليبدلنهم من بعد خوفهم ﴾ من الشرك الخفي ﴿ أمنا يعبدونني ﴾

بالإخلاص ﴿ لا يشركون بي شيئاً ﴾ من مطالب الدنيا والآخرة ﴿ ليستأذنكم ﴾ المريدون الذين هم تحت تصرفكم ﴿ والذين لم يبلغوا ﴾ أوان الشيخوخة ﴿ ثلاث مرات ﴾ في المبادي وفي أوساط السلوك وفي نهاية أمرهم ، فإذا صلحت أحوالهم في هذه الأوقات صلح سائرها في الأغلب والله المستعان . ﴿ والقواعد ﴾ فيه إشارة إلى أن المريد إذ صار بحيث أمن منه إفشاء الأسرار وما استودع فيه من متولدات الأحوال ، فلا ضير عليه أن لا يبالغ في التستر والإخفاء من الأغيار والكتمان خير له ﴿ ليس على الأعمى حرج ﴾ قال الشيخ المحقق نجم الدين المعروف بداية رضى الله عنه : فيه إشارة إلى أن من لا يبصر إلا بالله ولا يمشي إلا بالله ولا يعلم إلا بالله فإنهم مخصوصون بالتكون بكينونة الله كما قال "كنت له سمعاً " الحديث .

(255/555)

فإنهم مستعدون لقبول الفيض الإلهي وهم السابقون المقربون فلا حرج في الشرع على من يكون مستعداً لهذا الكمال ، فإن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها . وفي قوله ﴿ ولا على أنفسكم ﴾ الخ إشارة إلى أنه لا حرج على أرباب النفوس على أن يكون مأكلهم من بيوتهم أو بيوت أبناء جنسهم وهي الجنات ومراتبها كما قال ﴿ وفيها ما تشتهيه الأنفس ﴾ [

الزخرف : 71] وفي قوله ﴿ أو ما ملكتم مفاتحه ﴾ إشارة إلى أن درجات الجنة مساكن أهل المكاسب كما أن مقامات أهل القرب عند مليك مقتدر منازل أهل المواهب .

قوله ﴿ أو صديقكم ﴾ فيه أن درج الجنان ينالها المرء ببركة جليسه الصالح ، وقد ينعكس نور ولاية الشيخ على مرآة قلب المريد الصادق فينال به مرتبة لم يكن يصل إليها بمجرد أعماله : ﴿ ليس عليكم جناح ﴾ فيه أنه لا حرج على أهل الجنة أن تكون مآكلهم من درجة واحدة أو من درجات شتى . ﴿ فإذا دخلتم بيوتاً ﴾ أي بلغتم منزلاً من المنازل ﴿ فسلموا ﴾ أي استسلموا لأحكام الربوبية بمزيد العبودية حتى ترتقوا منها إلى منازل أعلى وأطيب ﴿ إنما المؤمنون ﴾ فيه أن المريد الصادق ينبغي أن لا يتنفس إلا بإذن شيخه فإن الشيخ في قومه كالنبي في أمته ﴿ أن تصيبهم فتنة ﴾ من المال أو الجاه أو قبول الخلق أو التزويج أو السفر بإذن الشيخ أو التردد غعلى أبواب الملوك ونحو ذلك ، وما العصمة إلا من واهبها وهو المستعان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 5 صـ 218.217 ﴾

(256/555)

وقال الآلوسى :

ومن باب الإشارة في الآيات : ما قيل في قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُزْجِى سَحَاباً ﴾ إلى آخره أنه إشارة إلى جمع العناصر الأربعة وتركيب الإنسان منها ثم خروج مطر الإحساس من عينيه وأذنيه مثلاً وينزل من سماء العقل الفياض برد حقائق العلوم فيصيب به من يشاء فتظهر آثاره عليه ويصرفه عمن يشاء حسبما تقتضيه الحكمة الإلهية ﴿ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ ﴾ نور تجليه ﴿ يَذْهَبُ الأبصار ﴾ [النور : 43] بأن يعطلها عن الإبصار ويفني أصحابها عنها لما أن الإدراك بنوره فوق الإدراك بنور الإبصار ﴿ يُقَلِّبُ اللهُ الليل والنهار ﴾ [النور : 44] إشارة إلى ليل المحو ونهار الصحو أو ليل القبض ونهار البسط أو ليل الجلال ونهار الجمال أو نحو ذلك .

(257/555)

وقيل : يزجى سحاب المعاصي إلى أن يتراكم فترى مطر التوبة يخرج من خلاله كما خرج من سحاب ﴿ وعصى ءادَمَ ﴾ [طه : 121] مطر ﴿ ثُمَّ اجتباه ﴾ [طه : 122] ربه وينزل من سماء القلوب من جبال القسوة فيها من برد القهر يقلب الله ليل المعصية لمن يشاء إلى نهار الطاعة وبالعكس ﴿ والله خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّاء ﴾ تقدم الكلام في الماء ﴿

فَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي على بَطْنِهِ ﴾ يعتمد في سيره على الباطن وهم أهل الجذبة المغمورون في بحار المحبة ﴿ وَمِنهُمْ مَّن يَمْشِي على رِجْلَيْنِ ﴾ يعتمد في سيره الشريعة والطريقة لكن فيما يتعلق به خاصة منهما وهم صنف من الكاملين سكنوا زوايا الخمول ولم يخالطوا الناس ولم يشتغلوا بالإرشاد ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي على أَرْبَعٍ ﴾ يعتمد في سيره الشريعة والطريقة فيما يتعلق به وبغيره منهما وهم صنف آخر من الكاملين برزوا للناس وخالطوهم واشتغلوا بالإرشاد وعملوا في أنفسهم بما تقتضيه الشريعة والطريقة وعاملوا الناس والمريدين بذلك أيضاً : ﴿ يَخْلُقُ اللهُ مَا يَشَاء ﴾ [النور : 45] فلا يبعد أن يكون في خلقه من يمشي على أكثر كالكاملين الذين أوقفهم الله تعالى على أسرار الملك والملكوت وما حده لكل أمة من الأمم ونوع من أنواع المخلوقات فعاملوا بعد أن عملوا في أنفسهم ما يليق بهم كل أمة وكل نوع بما حد له ﴿ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاَتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ﴾ [النور : 41] .

(258/555)

وفي قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ آمَنَّا بالله وبالرسول ﴾ [النور : 47] الآيات إشارة إلى أحوال المنكرين في القلب على المشايخ وأحوال المصدقين بهم قلباً وقالباً وفي قوله سبحانه : ﴿ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ ﴾ [النور : 54] إشارة إلى أن طاعة الرسول سبب لحصول

المكاشفات ونحوها ، قال أبو عثمان : من أمر السنة على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالحكمة ومن أمر الهوى على نفسه نطق بالبدعة لأن الله تعالى يقول : ﴿ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ ﴾ وفي قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا المؤمنون الذين بالله وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُ على أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُواْ حتى يَسْتَذِنُوهُ ﴾ [النور : 62] إشارة إلى أنه لا ينبغي للمريد الاستبداد بشيء قال عبد الله الرازي : قال قوم من أصحاب أبي عثمان لأبي عثمان أوصنا فقال : عليكم بالاجتماع على الدين وإياكم ومخالفة الأكابر والدخول في شيء من الطاعات إلا بإذنهم ومشورتهم وواسوا المحتاجين بما أمكنكم فإذا فعلتم أرجو أن لا يضيع الله تعالى لكم سعياً ﴿ رَّحِيمٌ لاَّ تَجْعَلُواْ دُعَاء الرسول بَيْنَكُمْ كَدُعَاء بَعْضِكُمْ بَعْضاً ﴾ فيه من تعظيم أمر الرسول صلى الله عليه وسلم ما فيه ، وذكر أن الشيخ في جماعته كالنبي في أمته فينبغي أن يحترم في مخاطبته ويميز على غيره ﴿ فَلْيَحْذَرِ الذين يخالفون عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور : 36] قال أبو سعيد الخراز : الفتنة إسباغ النعم مع الاستدراج ، وقال الجنيد قدس سره : قسوة القلب عن معرفة المعروف والمنكر ، وقال بعضهم : طبع على القلوب والعذاب الأليم هو عذاب البعد والحجاب عن الحضرة نعوذ بالله تعالى من ذلك ونسأله سبحانه التوفيق إلى أقوم المسالك فلا رب غيره ولا يرجى إلا خيره . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ روح المعانى حـ 18 صـ ﴾

من فوائد شيخ الإسلام ابن تيمية فى سورة النور

سُورَةُ النُّورِ

قَالَ الشَّيْخُ الرَّبَّانِيُّ وَالصِّدِّيقُ الثَّانِي : إمَامُ الْأَئِمَّةِ وَمُفْتِي الْأُمَّةِ : وَبَحْرُ الْعُلُومِ وَبَدْرُ النُّجُومِ . وَسَنَدُ الْحُفَّاظِ وَفَارِسُ الْمَعَانِي وَالْأَلْفَاظِ : وَفَرِيدُ الْعَصْرِ وَأَوْحَدُ الدَّهْرِ : وَشَيْخُ الْإِسْلَامِ وَإِمَامُ الْأَئِمَّةِ الْأَعْلَامِ : وَعَلَّامَةُ الزَّمَانِ وَتُرْجُمَانُ الْقُرْآنِ : وَعَلَمُ الزُّهَّادِ وَأَوْحَدُ الْعُبَّادِ وَقَامِعُ الْمُبْتَدِعِينَ وَآخِرُ الْمُجْتَهِدِينَ الْبَحْرُ الزَّاخِرُ وَالصَّارِمُ الْبَاتِرُ : أَبُو الْعَبَّاسِ تَقِيُّ الدِّينِ أَحْمَدُ بْنُ شِهَابِ الدِّينِ أَبِي الْمَحَاسِنِ عَبْدِ الْحَلِيمِ بْنِ شَيْخِ الْإِسْلَامِ مَجْدِ الدِّينِ أَبِي الْبَرَكَاتِ عَبْدِ السَّلَامِ بْنِ أَبِي مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي الْقَاسِمِ الْخَضِرِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ الْخَضِرِ عَلِيِّ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ تَيْمِيَّةَ الْحَرَّانِي قَدَّسَ اللَّهُ رُوحَهُ وَنَوَّرَ ضَرِيحَهُ وَرَحِمَهُ وَرَضِيَ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ :

فَصْلٌ :

فِي مَعَانٍ مُسْتَنْبَطَةٍ مِنْ سُورَةِ النُّورِ

(260/555)

قَالَ تَعَالَى : ﴿ سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ فَفَرَضَهَا بِالْبَيِّنَاتِ وَالتَّقْدِيرِ لِحُدُودِ اللَّهِ الَّتِي مَنْ يَتَعَدَّ حَلَالَهَا إلَى الْحَرَامِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَمَنْ قَرُبَ مِنْ حَرَامِهَا فَقَدْ اعْتَدَى وَتَعَدَّى الْحُدُودَ وَبَيَّنَ فِيهَا فَرْضَ الْعُقُوبَةِ لِلزَّانِيَيْنِ مِائَةَ جَلْدَةٍ وَبَيَّنَ فِيهَا فَرِيضَةَ الشَّهَادَةِ عَلَى الزِّنَا وَأَنَّهَا أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ وَكَذَلِكَ فَرِيضَةُ شَهَادَةِ الْمُتَلَاعِنَيْنِ كُلٌّ مِنْهُمَا يَشْهَدُ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ وَنَهَى فِيهَا عَنْ تَعَدِّي حُدُودِهِ فِي الْفُرُوجِ وَالْأَعْرَاضِ وَالْعَوْرَاتِ وَطَاعَةِ ذِي السُّلْطَانِ سَوَاءٌ كَانَ فِي مَنْزِلِهِ أَوْ فِي وِلَايَتِهِ وَلَا يَخْرُجُ وَلَا يَدْخُلُ إلَّا بِإِذْنِهِ إذْ الْحُقُوقُ نَوْعَانِ : نَوْعٌ لِلَّهِ فَلَا يَتَعَدَّى حُدُودَهُ وَنَوْعٌ لِلْعِبَادِ فِيهِ أَمْرٌ فَلَا يُفْعَلُ إلَّا بِإِذْنِ الْمَالِكِ وَلَيْسَ لِأَحَدِ أَنْ يَفْعَلَ شَيْئًا فِي حَقِّ غَيْرِهِ إلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَإِنْ لَمْ يَأْذَنْ الْمَالِكُ فَإِذْنُ اللَّهِ هُوَ الْأَصْلُ وَإِذْنُ الْمَالِكِ حَيْثُ أَذِنَ اللَّهُ وَجَعَلَ لَهُ الْإِذْنَ فِيهِ . وَلِهَذَا ضَمَّنَهَا الِاسْتِئْذَانَ فِي الْمَسَاكِنِ وَالْمَطَاعِمِ وَالِاسْتِئْذَانَ فِي

(261/555)

الْأُمُورِ الْجَامِعَةِ كَالصَّلَاةِ وَالْجِهَادِ وَنَحْوِهِمَا وَوَسَطَهَا بِذِكْرِ النُّورِ الَّذِي هُوَ مَادَّةُ كُلِّ خَيْرٍ وَصَلَاحُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يَنْشَأُ عَنْ امْتِثَالِ أَمْرِ اللَّهِ وَاجْتِنَابِ نَهْيِهِ وَعَنْ الصَّبْرِ عَلَى ذَلِكَ فَإِنَّهُ ضِيَاءٌ فَإِنَّ حِفْظَ الْحُدُودِ بِتَقْوَى اللَّهِ يَجْعَلُ اللَّهُ لِصَاحِبِهِ نُورًا كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ

وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ . ﴾ فَضِدُّ النُّورِ الظُّلْمَةُ وَلِهَذَا عَقَّبَ ذِكْرَ النُّورِ وَأَعْمَالَ الْمُؤْمِنِينَ فِيهَا بِأَعْمَالِ الْكُفَّارِ وَأَهْلِ الْبِدَعِ وَالضَّلَالِ فَقَالَ : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ ﴾ إلَى قَوْلِهِ ﴿ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴾ وَكَذَلِكَ الظُّلْمُ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَظُلْمُ الْعَبْدِ نَفْسَهُ مِنْ الظُّلْمِ فَإِنَّ لِلسَّيِّئَةِ ظُلْمَةً فِي الْقَلْبِ وَسَوَادًا فِي الْوَجْهِ وَوَهَنًا فِي الْبَدَنِ وَنَقْصًا فِي الرِّزْقِ وَبُغْضًا فِي قُلُوبِ الْخَلْقِ كَمَا رُوِيَ ذَلِكَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ . يُوَضِّحُ ذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ ضَرَبَ مَثَلَ إيمَانِ الْمُؤْمِنِينَ بِالنُّورِ وَمَثَلَ أَعْمَالِ الْكُفَّارِ بِالظُّلْمَةِ . و " الْإِيمَانُ " اسْمٌ جَامِعٌ لِكُلِّ مَا يُحِبُّهُ اللَّهُ وَيَرْضَاهُ . و " الْكُفْرُ "

(262/555)

اسْمٌ جَامِعٌ لِكُلِّ مَا يُبْغِضُهُ اللَّهُ وَيَنْهَى عَنْهُ وَإِنْ كَانَ لَا يَكْفُرُ الْعَبْدُ إذَا كَانَ مَعَهُ أَصْلُ الْإِيمَانِ وَبَعْضُ فُرُوعِ الْكُفْرِ مِنْ الْمَعَاصِي كَمَا لَا يَكُونُ مُؤْمِنًا إذَا كَانَ مَعَهُ أَصْلُ الْكُفْرِ وَبَعْضُ فُرُوعِ الْإِيمَانِ – وَلِغَضِّ الْبَصَرِ اخْتِصَاصٌ بِالنُّورِ كَمَا سَنَذْكُرُ ذَلِكَ إنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى – وَقَدْ رَوَى أَبُو هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ إنَّ الْعَبْدَ إذَا أَذْنَبَ نُكِتَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ فَإِنْ تَابَ وَنَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ صُقِلَ قَلْبُهُ وَإِنْ زَادَ زِيدَ فِيهَا حَتَّى يَعْلُوَ قَلْبَهُ فَذَلِكَ

الران الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ ﴾ رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ . وَفِي الصَّحِيحِ أَنَّهُ قَالَ ﴿ إنَّهُ ليغان عَلَى قَلْبِي وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ ﴾ وَالْغَيْنُ حِجَابٌ رَقِيقٌ أَرَقُّ مِنْ الْغَيْمِ فَأَخْبَرَ أَنَّهُ يَسْتَغْفِرُ اللَّهَ اسْتِغْفَارًا يُزِيلُ الْغَيْنَ عَنْ الْقَلْبِ فَلَا يَصِيرُ نُكْتَةً سَوْدَاءَ كَمَا أَنَّ النُّكْتَةَ السَّوْدَاءَ إذَا أُزِيلَتْ لَا تَصِيرُ رَيْنًا . وَقَالَ حُذَيْفَةُ : إنَّ الْإِيمَانَ يَبْدُو فِي الْقَلْبِ لمظة بَيْضَاءَ فَكُلَّمَا ازْدَادَ الْعَبْدُ إيمَانًا ازْدَادَ قَلْبُهُ بَيَاضًا فَلَوْ كَشَفْتُمْ عَنْ قَلْبِ الْمُؤْمِنِ لَرَأَيْتُمُوهُ أَبْيَضَ مُشْرِقًا وَإِنَّ النِّفَاقَ يَبْدُو مِنْهُ لمظة سَوْدَاءُ فَكُلَّمَا ازْدَادَ الْعَبْدُ نِفَاقًا ازْدَادَ قَلْبُهُ سَوَادًا فَلَوْ كَشَفْتُمْ عَنْ قَلْبِ الْمُنَافِقِ لَوَجَدْتُمُوهُ أَسْوَدَ مِرْبَدًا . وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

(263/555)

وَسَلَّمَ ﴿ إنَّ النُّورَ إذَا دَخَلَ الْقَلْبَ انْشَرَحَ وَانْفَسَحَ قِيلَ : فَهَلْ لِذَلِكَ مِنْ عَلَامَةٍ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : نَعَمْ

(264/555)

التَّجَافِي عَنْ دَارِ الْغُرُورِ وَالْإِنَابَةُ إِلَى دَارِ الْخُلُودِ وَالِاسْتِعْدَادُ لِلْمَوْتِ قَبْلَ نُزُولِهِ ﴾ . وَفِي خُطْبَةِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ الَّتِي كَتَبَهَا فِي كِتَابِهِ فِي الرَّدِّ عَلَى الْجَهْمِيَّةِ وَالزَّنَادِقَةِ قَالَ : " الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ فِي كُلِّ زَمَانٍ فَتْرَةً مِنْ الرُّسُلِ بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ يَدْعُونَ مَنْ ضَلَّ إلَى الْهُدَى وَيَصْبِرُونَ مِنْهُمْ عَلَى الْأَذَى يُحْيُونَ بِكِتَابِ اللَّهِ الْمَوْتَى وَيُبَصِّرُونَ بِنُورِ اللَّهِ أَهْلَ الْعَمَى فَكَمْ مِنْ قَتِيلٍ لِإِبْلِيسَ قَدْ أَحْيَوْهُ وَكَمْ مِنْ ضَالٍّ تَائِهٍ حَيْرَانَ قَدْ هَدَوْهُ فَمَا أَحْسَنَ أَثَرَهُمْ عَلَى النَّاسِ وَأَقْبَحَ أَثَرَ النَّاسِ عَلَيْهِمْ يَنْفُونَ عَنْ كِتَابِ اللَّهِ تَحْرِيفَ الْغَالِينَ وَانْتِحَالَ الْمُبْطِلِينَ وَتَأْوِيلَ الْجَاهِلِينَ الَّذِينَ عَقَدُوا أَلْوِيَةَ الْبِدْعَةِ وَأَطْلَقُوا عِنَانَ الْفِتْنَةِ فَهُمْ مُخْتَلِفُونَ فِي الْكِتَابِ مُخَالِفُونَ لِلْكِتَابِ مُجْمِعُونَ عَلَى مُفَارَقَةِ الْكِتَابِ يَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ وَفِي اللَّهِ وَفِي كِتَابِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ يَتَكَلَّمُونَ بِالْمُتَشَابِهِ مِنْ الْكَلَامِ وَيَخْدَعُونَ جُهَّالَ النَّاسِ بِمَا يُشَبِّهُونَ عَلَيْهِمْ نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُبَهِ الْمُضِلِّينَ . قُلْت : وَقَدْ قَرَنَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ فِي كِتَابِهِ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ بَيْنَ أَهْلِ الْهُدَى وَالضَّلَالِ وَبَيْنَ أَهْلِ الطَّاعَةِ وَالْمَعْصِيَةِ بِمَا يُشْبِهُ هَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ﴾ ﴿ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴾ ﴿ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴾ ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ﴾ وَقَالَ : ﴿ مَثَلُ

الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ ﴾ الْآيَةُ وَقَالَ فِي الْمُنَافِقِينَ :

(266/555)

﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا ﴾ الْآيَاتُ وَقَالَ : ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ الْآيَةُ . وَقَالَ : ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إلَيْك لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إلَى النُّورِ ﴾ . وَالْآيَاتُ فِي ذَلِكَ كَثِيرَةٌ . وَهَذَا النُّورُ الَّذِي يَكُونُ لِلْمُؤْمِنِ فِي الدُّنْيَا عَلَى حُسْنِ عَمَلِهِ وَاعْتِقَادِهِ يَظْهَرُ فِي الْآخِرَةِ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ ﴾ الْآيَةُ فَذَكَرَ النُّورَ هُنَا عَقِيبَ أَمْرِهِ بِالتَّوْبَةِ كَمَا ذَكَرَهُ فِي سُورَةِ النُّورِ عَقِيبَ أَمْرِهِ بِغَضِّ الْبَصَرِ وَأَمْرِهِ بِالتَّوْبَةِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَتُوبُوا إلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ وَذَكَرَ ذَلِكَ بَعْدَ أَمْرِهِ بِحُقُوقِ الْأَهْلِينَ وَالْأَزْوَاجِ وَمَا يَتَعَلَّقُ بِالنِّسَاءِ وَقَالَ فِي سُورَةِ الْحَدِيدِ : ﴿ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ ﴾ الْآيَاتُ إلَى قَوْلِهِ فِي الْمُنَافِقِينَ : ﴿ مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ . ﴾ فَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّ الْمُنَافِقِينَ يَفْقِدُونَ النُّورَ الَّذِي كَانَ الْمُؤْمِنُونَ يَمْشُونَ بِهِ وَيَطْلُبُونَ الِاقْتِبَاسَ مِنْ نُورِهِمْ فَيُحْجَبُونَ عَنْ ذَلِكَ بِحِجَابٍ يُضْرَبُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ كَمَا أَنَّ الْمُنَافِقِينَ لَمَّا فَقَدُوا النُّورَ فِي الدُّنْيَا كَانَ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا

فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ فَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي ﴾ الْآيَةُ فَأَمَرَ بِعُقُوبَتِهِمَا

(267/555)

وَعَذَابِهِمَا بِحُضُورِ طَائِفَةٍ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ وَذَلِكَ بِشَهَادَتِهِ عَلَى نَفْسِهِ أَوْ بِشَهَادَةِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ ؛ لِأَنَّ الْمَعْصِيَةَ إذَا كَانَتْ ظَاهِرَةً كَانَتْ عُقُوبَتُهَا

ظَاهِرَةً ؛ كَمَا جَاءَ فِي الْأَثَرِ : " مَنْ أَذْنَبَ سِرًّا فَلْيَتُبْ سِرًّا وَمَنْ أَذْنَبَ عَلَانِيَةً فَلْيَتُبْ عَلَانِيَةً " وَلَيْسَ مِنْ السَّتْرِ الَّذِي يُحِبُّهُ اللَّهُ تَعَالَى - كَمَا فِي الْحَدِيثِ : ﴿ مَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ ﴾ - بَلْ ذَلِكَ إذَا سُتِرَ كَانَ ذَلِكَ إقْرَارًا لِمُنْكَرٍ ظَاهِرٍ : وَفِي الْحَدِيثِ ﴿ إنَّ الْخَطِيئَةَ إذَا خُفِيَتْ لَمْ تَضُرَّ إلَّا صَاحِبَهَا وَإِذَا أُعْلِنَتْ فَلَمْ تُنْكَرْ ضَرَّتْ الْعَامَّةَ ﴾ فَإِذَا أُعْلِنَتْ أُعْلِنَتْ عُقُوبَتُهَا بِحَسَبِ الْعَدْلِ الْمُمْكِنِ .

(268/555)

وَلِهَذَا لَمْ يَكُنْ لِلْمُعْلِنِ بِالْبِدَعِ وَالْفُجُورِ غِيبَةٌ كَمَا رُوِيَ ذَلِكَ عَنْ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ وَغَيْرِهِ ؛ لِأَنَّهُ لَمَّا أَعْلَنَ ذَلِكَ اسْتَحَقَّ عُقُوبَةَ الْمُسْلِمِينَ لَهُ وَأَدْنَى ذَلِكَ أَنْ يُذَمَّ عَلَيْهِ لِيَنْزَجِرَ وَيَكُفَّ النَّاسُ عَنْهُ وَعَنْ مُخَالَطَتِهِ وَلَوْ لَمْ يُذَمَّ وَيُذْكَرْ بِمَا فِيهِ مِنْ الْفُجُورِ وَالْمَعْصِيَةِ أَوْ الْبِدْعَةِ لَاغْتَرَّ بِهِ النَّاسُ وَرُبَّمَا حَمَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى أَنْ يَرْتَكِبَ مَا هُوَ عَلَيْهِ وَيَزْدَادَ أَيْضًا هُوَ جُرْأَةً وَفُجُورًا وَمَعَاصِيَ فَإِذَا ذُكِرَ بِمَا فِيهِ انْكَفَّ وَانْكَفَّ غَيْرُهُ عَنْ ذَلِكَ وَعَنْ صُحْبَتِهِ وَمُخَالَطَتِهِ قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ : ﴿ أَتَرْغَبُونَ عَنْ ذِكْرِ الْفَاجِرِ اذْكُرُوهُ بِمَا فِيهِ كَيْ يَحْذَرَهُ النَّاسُ ﴾ وَقَدْ رُوِيَ مَرْفُوعًا و " الْفُجُورُ " اسْمٌ جَامِعٌ لِكُلِّ مُتَجَاهِرٍ بِمَعْصِيَةٍ أَوْ كَلَامٍ قَبِيحٍ يَدُلُّ السَّامِعَ لَهُ عَلَى فُجُورِ قَلْبِ قَائِلِهِ . وَلِهَذَا كَانَ مُسْتَحِقًّا لِلْهَجْرِ إذَا أَعْلَنَ بِدْعَةً أَوْ مَعْصِيَةً أَوْ فُجُورًا أَوْ تَهَتُّكًا أَوْ مُخَالَطَةً لِمَنْ هَذَا حَالُهُ بِحَيْثُ لَا يُبَالِي بِطَعْنِ النَّاسِ عَلَيْهِ فَإِنَّ

(269/555)

هَجْرَهُ نَوْعُ تَعْزِيرٍ لَهُ فَإِذَا أَعْلَنَ السَّيِّئَاتِ أُعْلِنَ هَجْرُهُ وَإِذَا أَسَرَّ أُسِرَّ هَجْرُهُ إذْ الْهِجْرَةُ هِيَ الْهِجْرَةُ عَلَى السَّيِّئَاتِ وَهِجْرَةُ السَّيِّئَاتِ هِجْرَةُ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴾ وَقَالَ : ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي

حَدِيثٍ غَيْرِهِ إنَّكُمْ إذًا مِثْلُهُمْ . ﴿ وَقَدْ رُوِيَ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ : أَنَّ ابْنَهُ عَبْدَ الرَّحْمَنِ لَمَّا شَرِبَ الْخَمْرَ بِمِصْرَ وَذَهَبَ بِهِ أَخُوهُ إلَى أَمِيرِ مِصْرَ عَمْرِو بْنِ العاص لِيَجْلِدَهُ الْحَدَّ جَلَدَهُ الْحَدَّ سِرًّا وَكَانَ النَّاسُ يَجْلِدُونَ عَلَانِيَةً فَبَعَثَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ إلَى عَمْرٍو يُنْكِرُ عَلَيْهِ ذَلِكَ . وَلَمْ يَعْتَدَّ عُمَرُ بِذَلِكَ الْجَلْدِ حَتَّى أَرْسَلَ إلَى ابْنِهِ فَأَقْدَمَهُ الْمَدِينَةَ فَجَلَدَهُ الْحَدَّ عَلَانِيَةً وَلَمْ يَرَ الْوُجُوبَ سَقَطَ بِالْحَدِّ الْأَوَّلِ وَعَاشَ ابْنُهُ بَعْدَ ذَلِكَ مُدَّةً ثُمَّ مَرِضَ وَمَاتَ وَلَمْ يَمُتْ مِنْ ذَلِكَ الْجَلْدِ وَلَا ضَرَبَهُ بَعْدَ الْمَوْتِ كَمَا يَزْعُمُهُ الْكَذَّابُونَ . قَوْله تَعَالَى ﴿ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ ﴾ الْآيَةُ : نَهَى تَعَالَى عَمَّا يَأْمُرُ بِهِ الشَّيْطَانُ فِي الْعُقُوبَاتِ عُمُومًا وَفِي أَمْرِ الْفَوَاحِشِ خُصُوصًا فَإِنَّ هَذَا الْبَابَ مَبْنَاهُ عَلَى الْمَحَبَّةِ وَالشَّهْوَةِ وَالرَّأْفَةِ الَّتِي يُزَيِّنُهَا الشَّيْطَانُ بِانْعِطَافِ الْقُلُوبِ عَلَى أَهْلِ الْفَوَاحِشِ وَالرَّأْفَةِ

(270/555)

بِهِمْ حَتَّى يَدْخُلَ كَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ بِسَبَبِ هَذِهِ الْآفَةِ فِي الدِّيَاثَةِ وَقِلَّةِ الْغَيْرَةِ إذَا رَأَى مَنْ يَهْوَى بَعْضُ الْمُتَّصِلِينَ بِهِ أَوْ يُعَاشِرُهُ عِشْرَةً مُنْكَرَةً أَوْ رَأَى لَهُ مَحَبَّةً أَوْ مَيْلًا وَصَبَابَةً وَعِشْقًا وَلَوْ كَانَ وَلَدُهُ رَأَفَ بِهِ وَظَنَّ أَنَّ هَذَا مِنْ رَحْمَةِ الْخَلْقِ وَلِينِ الْجَانِبِ بِهِمْ وَمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ وَإِنَّمَا ذَلِكَ دِيَاثَةٌ وَمَهَانَةٌ وَعَدَمُ دِينٍ وَضَعْفُ إيمَانٍ وَإِعَانَةٌ عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَتَرْكٌ

لِلتَّنَاهِي عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ . وَتَدْخُلُ النَّفْسُ بِهِ فِي الْقِيَادَةِ الَّتِي هِيَ أَعْظَمُ الدِّيَاثَةِ كَمَا دَخَلَتْ عَجُوزُ السُّوءِ مَعَ قَوْمِهَا فِي اسْتِحْسَانِ مَا كَانُوا يَتَعَاطَوْنَهُ مِنْ إتْيَانِ الذُّكْرَانِ وَالْمُعَاوَنَةِ لَهُمْ عَلَى ذَلِكَ وَكَانَتْ فِي الظَّاهِرِ مُسَلِّمَةً عَلَى دِينِ زَوْجِهَا لُوطٍ وَفِي الْبَاطِنِ مُنَافِقَةً عَلَى دِينِ قَوْمِهَا لَا تَقْلِي عَمَلَهُمْ كَمَا قَالَهُ لُوطٌ ؛ فَإِنَّهُ أَنْكَرَهُ وَنَهَاهُمْ عَنْهُ وَأَبْغَضَهُ وَكَمَا فَعَلَ النِّسْوَةُ اللَّوَاتِي بِمِصْرَ مَعَ يُوسُفَ فَإِنَّهُنَّ أَعَنَّ امْرَأَةَ الْعَزِيزِ عَلَى مَا دَعَتْهُ إلَيْهِ مِنْ فِعْلِ الْفَاحِشَةِ مَعَهَا ؛ وَلِهَذَا قَالَ ﴿ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إلَيْهِ ﴾ وَذَلِكَ بَعْدَ قَوْلِهِنَّ ﴿ إنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ .

(271/555)

وَلَا رَيْبَ أَنَّ مَحَبَّةَ الْفَوَاحِشِ مَرَضٌ فِي الْقَلْبِ فَإِنَّ الشَّهْوَةَ تُوجِبُ السُّكْرَ كَمَا قَالَ تَعَالَى عَنْ قَوْمِ لُوطٍ : ﴿ إنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ وَفِي الصَّحِيحَيْنِ وَاللَّفْظُ لِمُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ الْعَيْنَانِ تَزْنِيَانِ وَزِنَاهُمَا النَّظَرُ ﴾ الْحَدِيثُ إلَى آخِرِهِ . فَكَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ يَكُونُ مَقْصُودُهُ بَعْضَ هَذِهِ

(272/555)

الْأَنْوَاعِ الْمَذْكُورَةِ فِي هَذَا الْحَدِيثِ : كَالنَّظَرِ وَالِاسْتِمْتَاعِ وَالْمُخَاطَبَةِ . وَمِنْهُمْ مَنْ يَرْتَقِي إلَى اللَّمْسِ وَالْمُبَاشَرَةِ وَمِنْهُمْ مَنْ يُقَبِّلُ وَيَنْظُرُ وَكُلُّ ذَلِكَ حَرَامٌ وَقَدْ نَهَانَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ تَأْخُذَنَا بِالزُّنَاةِ رَأْفَةٌ بَلْ نُقِيمُ عَلَيْهِمْ الْحَدَّ فَكَيْفَ بِمَا هُوَ دُونَ ذَلِكَ مِنْ هَجْرٍ وَأَدَبٍ بَاطِنٍ وَنَهْيٍ وَتَوْبِيخٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ بَلْ يَنْبَغِي شَنَآنُ الْفَاسِقِينَ وَقَلْيُهمْ عَلَى مَا يَتَمَتَّعُ بِهِ الْإِنْسَانُ مِنْ أَنْوَاعِ الزِّنَا الْمَذْكُورَةِ فِي هَذَا الْحَدِيثِ الْمُتَقَدِّمِ وَغَيْرِهِ . وَذَلِكَ أَنَّ الْمُحِبَّ الْعَاشِقَ وَإِنْ كَانَ إنَّمَا يُحِبُّ النَّظَرَ وَالِاسْتِمْتَاعَ بِصُورَةِ ذَلِكَ الْمَحْبُوبِ وَكَلَامِهِ فَلَيْسَ دَوَاؤُهُ فِي أَنْ يُعْطِيَ نَفْسَهُ مَحْبُوبَهَا وَشَهْوَتَهَا مِنْ ذَلِكَ لِأَنَّهُ مَرِيضٌ وَالْمَرِيضُ إذَا اشْتَهَى مَا يَضُرُّهُ أَوْ جَزِعَ مِنْ تَنَاوُلِ الدَّوَاءِ الْكَرِيهِ فَأَخَذَتْنَا رَأْفَةٌ عَلَيْهِ حَتَّى نَمْنَعَهُ شُرْبَهُ فَقَدْ أَعَنَّاهُ عَلَى مَا يَضُرُّهُ أَوْ يُهْلِكُهُ وَعَلَى تَرْكِ مَا يَنْفَعُهُ فَيَزْدَادُ سَقَمُهُ فَيَهْلَكُ وَهَكَذَا الْمُذْنِبُ الْعَاشِقُ وَنَحْوُهُ هُوَ مَرِيضٌ فَلَيْسَ الرَّأْفَةُ بِهِ وَالرَّحْمَةُ أَنْ يُمَكَّنَ مِمَّا يَهْوَاهُ مِنْ الْمُحَرَّمَاتِ وَلَا يُعَانَ عَلَى ذَلِكَ وَلَا أَنْ يُمَكَّنَ مِنْ تَرْكِ مَا يَنْفَعُهُ مِنْ الطَّاعَاتِ الَّتِي تُزِيلُ مَرَضَهُ قَالَ تَعَالَى : ﴿ إنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾ أَيْ فِيهَا الشِّفَاءُ وَأَكْبَرُ مِنْ ذَلِكَ . بَلْ الرَّأْفَةُ بِهِ أَنْ يُعَانَ عَلَى شُرْبِ الدَّوَاءِ وَإِنْ كَانَ كَرِيهًا : مِثْلَ

الصَّلَاةِ وَمَا فِيهَا مِنْ الْأَذْكَارِ وَالدَّعَوَاتِ وَأَنْ يُحْمَى عَمَّا يُقَوِّي دَاءَهُ وَيَزِيدُ عِلَّتَهُ وَإِنْ اشْتَهَاهُ . وَلَا يَظُنُّ الظَّانُّ أَنَّهُ إذَا حَصَلَ لَهُ اسْتِمْتَاعٌ

(274/555)

بِمُحَرَّمٍ يَسْكُنُ بَلَاؤُهُ بَلْ ذَلِكَ يُوجِبُ لَهُ انْزِعَاجًا عَظِيمًا وَزِيَادَةً فِي الْبَلَاءِ وَالْمَرَضِ فِي الْمَآلِ فَإِنَّهُ وَإِنْ سَكَنَ بَلَاؤُهُ وَهَدَأَ مَا بِهِ عَقِيبَ اسْتِمْتَاعِهِ أَعْقَبَهُ ذَلِكَ مَرَضًا عَظِيمًا عَسِيرًا لَا يَتَخَلَّصُ مِنْهُ بَلْ الْوَاجِبُ دَفْعُ أَعْظَمِ الضَّرَرَيْنِ بِاحْتِمَالِ أَدْنَاهُمَا قَبْلَ اسْتِحْكَامِ الدَّاءِ الَّذِي تَرَامَى بِهِ إلَى الْهَلَاكِ وَالْعَطَبِ وَمِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّ أَلَمَ الْعِلَاجِ النَّافِعِ أَيْسَرُ وَأَخَفُّ مِنْ أَلَمِ الْمَرَضِ الْبَاقِي . وَبِهَذَا يَتَبَيَّنُ لَك أَنَّ الْعُقُوبَاتِ الشَّرْعِيَّةَ كُلَّهَا أَدْوِيَةٌ نَافِعَةٌ يُصْلِحُ اللَّهُ بِهَا مَرَضَ الْقُلُوبِ وَهِيَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ بِعِبَادِهِ وَرَأْفَتِهِ بِهِمْ الدَّاخِلَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ فَمَنْ تَرَكَ هَذِهِ الرَّحْمَةَ النَّافِعَةَ لِرَأْفَةٍ يَجِدُهَا بِالْمَرِيضِ فَهُوَ الَّذِي أَعَانَ عَلَى عَذَابِهِ وَهَلَاكِهِ وَإِنْ كَانَ لَا يُرِيدُ إلَّا الْخَيْرَ إذْ هُوَ فِي ذَلِكَ جَاهِلٌ أَحْمَقُ كَمَا يَفْعَلُهُ بَعْضُ النِّسَاءِ وَالرِّجَالِ الْجُهَّالِ بِمَرْضَاهُمْ وَبِمَنْ يُرَبُّونَهُ مِنْ أَوْلَادِهِمْ وَغِلْمَانِهِمْ وَغَيْرِهِمْ فِي تَرْكِ تَأْدِيبِهِمْ وَعُقُوبَتِهِمْ عَلَى مَا يَأْتُونَهُ مِنْ الشَّرِّ وَيَتْرُكُونَهُ مِنْ الْخَيْرِ رَأْفَةً بِهِمْ فَيَكُونُ ذَلِكَ سَبَبَ فَسَادِهِمْ وَعَدَاوَتِهِمْ وَهَلَاكِهِمْ . وَمِنْ النَّاسِ مَنْ تَأْخُذُهُ الرَّأْفَةُ بِهِمْ لِمُشَارَكَتِهِ لَهُمْ فِي ذَلِكَ

الْمَرَضِ وَذَوْقِهِ مَا ذَاقُوهُ مِنْ قُوَّةِ الشَّهْوَةِ وَبُرُودَةِ الْقَلْبِ وَالدِّيَاثَةِ فَيَتْرُكُ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ مِنْ الْعُقُوبَةِ وَهُوَ فِي

(275/555)

ذَلِكَ مِنْ أَظْلَمِ النَّاسِ وَأَدْيَثِهِمْ فِي حَقِّ نَفْسِهِ وَنُظَرَائِهِ وَهُوَ بِمَنْزِلَةِ جَمَاعَةٍ مِنْ الْمَرْضَى قَدْ وَصَفَ لَهُمْ الطَّبِيبُ مَا يَنْفَعُهُمْ

(276/555)

فَوَجَدَ كَبِيرُهُمْ مَرَارَتَهُ فَتَرَكَ شُرْبَهُ وَنَهَى عَنْ سَقْيِهِ لِلْبَاقِينَ . وَمِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُهُ الرَّأْفَةُ لِكَوْنِ أَحَدِ الزَّانِيَيْنِ مَحْبُوبًا لَهُ إمَّا أَنْ يَكُونَ مُحِبًّا لِصُورَتِهِ وَجَمَالِهِ بِعِشْقٍ أَوْ غَيْرِهِ أَوْ لِقَرَابَةٍ بَيْنَهُمَا أَوْ لِمَوَدَّةٍ أَوْ لِإِحْسَانِهِ إلَيْهِ أَوْ لِمَا يَرْجُو مِنْهُ مِنْ الدُّنْيَا أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ أَوْ لِمَا فِي الْعَذَابِ مِنْ الْأَلَمِ الَّذِي يُوجِبُ رِقَّةَ الْقَلْبِ . وَيَتَأَوَّلُ : ﴿ إنَّمَا يَرْحَمُ اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ الرُّحَمَاءَ ﴾ وَيَقُولُ الْأَحْمَقُ : ﴿ الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمْ الرَّحْمَنُ ارْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمُكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ ﴾ وَغَيْرُ ذَلِكَ وَلَيْسَ كَمَا قَالَ بَلْ ذَلِكَ وَضْعُ الشَّيْءِ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ بَلْ قَدْ وَرَدَ فِي

الْحَدِيثِ ﴿ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ دَيُّوثٌ ﴾ فَمَنْ لَمْ يَكُنْ مُبْغِضًا لِلْفَوَاحِشِ كَارِهًا لَهَا وَلِأَهْلِهَا وَلَا يَغْضَبُ عِنْدَ رُؤْيَتِهَا وَسَمَاعِهَا لَمْ يَكُنْ مُرِيدًا لِلْعُقُوبَةِ عَلَيْهَا فَيُبْقَى الْعَذَابُ عَلَيْهَا يُوجِبُ أَلَمَ قَلْبِهِ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ ﴾ الْآيَةُ . فَإِنَّ دِينَ اللَّهِ هُوَ طَاعَتُهُ وَطَاعَةُ رَسُولِهِ الْمَبْنِيَّ عَلَى مَحَبَّتِهِ وَمَحَبَّةِ رَسُولِهِ وَأَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا ؛ فَإِنَّ الرَّأْفَةَ وَالرَّحْمَةَ يُحِبُّهُمَا اللَّهُ مَا لَمْ تَكُنْ مُضَيِّعَةً لِدِينِ اللَّهِ . وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ إنَّمَا يَرْحَمُ اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ الرُّحَمَاءَ ﴾ وَقَالَ : ﴿ لَا يَرْحَمُ اللَّهُ مَنْ لَا يَرْحَمُ

(277/555)

النَّاسَ ﴾ وَقَالَ :

(278/555)

﴿ مَنْ لَا يَرْحَمْ لَا يُرْحَمْ ﴾ وَفِي السُّنَنِ : ﴿ الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمْ الرَّحْمَنُ ارْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمُكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ ﴾ . فَهَذِهِ الرَّحْمَةُ حَسَنَةٌ مَأْمُورٌ بِهَا أَمْرَ إيجَابٍ أَوْ

اسْتِحْبَابٍ بِخِلَافِ الرَّأْفَةِ فِي دِينِ اللَّهِ فَإِنَّهَا مَنْهِيٌّ عَنْهَا وَالشَّيْطَانُ . يُرِيدُ مِنْ الْإِنْسَانِ الْإِسْرَافَ فِي أُمُورِهِ كُلِّهَا فَإِنَّهُ إنْ رَآهُ مَائِلًا إلَى الرَّحْمَةِ زَيَّنَ لَهُ الرَّحْمَةَ حَتَّى لَا يُبْغِضَ مَا أَبْغَضَهُ اللَّهُ ؛ وَلَا يَغَارَ لِمَا يَغَارُ اللَّهُ مِنْهُ وَإِنْ رَآهُ مَائِلًا إلَى الشِّدَّةِ زَيَّنَ لَهُ الشِّدَّةَ فِي غَيْرِ ذَاتِ اللَّهِ حَتَّى يَتْرُكَ مِنْ الْإِحْسَانِ وَالْبِرِّ وَاللِّينِ وَالصِّلَةِ وَالرَّحْمَةِ مَا يَأْمُرُ بِهِ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَيَتَعَدَّى فِي الشِّدَّةِ فَيَزِيدُ فِي الذَّمِّ وَالْبُغْضِ وَالْعِقَابِ عَلَى مَا يُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ : فَهَذَا يَتْرُكُ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ مِنْ الرَّحْمَةِ وَالْإِحْسَانِ وَهُوَ مَذْمُومٌ مُذْنِبٌ فِي ذَلِكَ وَيُسْرِفُ فِيمَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَرَسُولُهُ مِنْ الشِّدَّةِ حَتَّى يَتَعَدَّى الْحُدُودَ وَهُوَ مِنْ إسْرَافِهِ فِي أَمْرِهِ . فَالْأَوَّلُ مُذْنِبٌ وَالثَّانِي مُسْرِفٌ ﴿ إنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ فَلْيَقُولَا جَمِيعًا : ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى ﴿ إنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ فَالْمُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يَفْعَلُ مَا يُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَيَنْهَى عَمَّا يُبْغِضُهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ

(279/555)

وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَإِنَّهُ يَتَّبِعُ هَوَاهُ فَتَارَةً تَغْلِبُ عَلَيْهِ الرَّأْفَةُ

(280/555)

هَوًى وَتَارَةً تَغْلِبُ عَلَيْهِ الشِّدَّةُ هَوًى فَيَتَّبِعُ مَا يَهْوَاهُ فِي الْجَانِبَيْنِ بِغَيْرِ هُدًى مِنْ اللَّهِ ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنَ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ ﴾ فَإِنَّ الزِّنَا مِنْ الْكَبَائِرِ وَأَمَّا النَّظَرُ وَالْمُبَاشَرَةُ فَاللَّمَمُ مِنْهَا مَغْفُورٌ بِاجْتِنَابِ الْكَبَائِرِ فَإِنْ أَصَرَّ عَلَى النَّظَرِ أَوْ عَلَى الْمُبَاشَرَةِ صَارَ كَبِيرَةً وَقَدْ يَكُونُ الْإِصْرَارُ عَلَى ذَلِكَ أَعْظَمَ مِنْ قَلِيلِ الْفَوَاحِشِ فَإِنَّ دَوَامَ النَّظَرِ بِالشَّهْوَةِ وَمَا يَتَّصِلُ بِهِ مِنْ الْعِشْقِ وَالْمُعَاشَرَةِ وَالْمُبَاشَرَةِ قَدْ يَكُونُ أَعْظَمَ بِكَثِيرٍ مِنْ فَسَادِ زِنَا لَا إصْرَارَ عَلَيْهِ ؛ وَلِهَذَا قَالَ الْفُقَهَاءُ فِي الشَّاهِدِ الْعَدْلِ : أَنْ لَا يَأْتِيَ كَبِيرَةً وَلَا يُصِرَّ عَلَى صَغِيرَةٍ وَفِي الْحَدِيثِ الْمَرْفُوعِ ﴿ لَا صَغِيرَةَ مَعَ إصْرَارٍ وَلَا كَبِيرَةَ مَعَ اسْتِغْفَارٍ ﴾ . بَلْ قَدْ يَنْتَهِي النَّظَرُ وَالْمُبَاشَرَةُ بِالرَّجُلِ إلَى الشِّرْكِ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ﴾ . وَلِهَذَا لَا يَكُونُ عِشْقُ الصُّوَرِ إلَّا مِنْ ضَعْفِ مَحَبَّةِ اللَّهِ وَضَعْفِ الْإِيمَانِ وَاللَّهُ تَعَالَى إنَّمَا ذَكَرَهُ فِي الْقُرْآنِ عَنْ امْرَأَةِ الْعَزِيزِ الْمُشْرِكَةِ وَعَنْ قَوْمِ لُوطٍ الْمُشْرِكِينَ وَالْعَاشِقُ الْمُتَيَّمُ يَصِيرُ عَبْدًا لِمَعْشُوقِهِ مُنْقَادًا لَهُ أَسِيرَ الْقَلْبِ لَهُ . وَقَدْ جَمَعَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذِكْرَ الْحُدُودِ إنْ حَالَتْ شَفَاعَتُهُ دُونَ حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ فَقَدْ ضَادَّ اللَّهَ فِيمَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُد عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ : قَالَ

رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ مَنْ حَالَتْ شَفَاعَتُهُ دُونَ حَدٍّ

(282/555)

مِنْ حُدُودِ اللَّهِ فَقَدْ ضَادَّ اللَّهَ فِي أَمْرِهِ وَمَنْ خَاصَمَ فِي بَاطِلٍ وَهُوَ يَعْلَمُ لَمْ يَزَلْ فِي سُخْطِ اللَّهِ حَتَّى يَنْزِعَ وَمَنْ قَالَ فِي مُسْلِمٍ مَا لَيْسَ فِيهِ حُبِسَ فِي رَدْغَةِ الْخَبَالِ حَتَّى يَخْرُجَ مِمَّا قَالَ ﴾ فَالشَّافِعُ فِي تَعْطِيلِ الْحُدُودِ مُضَادٌّ لِلَّهِ فِي أَمْرِهِ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ أَمَرَ بِالْعُقُوبَةِ عَلَى تَعَدِّي الْحُدُودِ فَلَا يَجُوزُ أَنْ تَأْخُذَ الْمُؤْمِنَ رَأْفَةٌ بِأَهْلِ الْبِدَعِ وَالْفُجُورِ وَالْمَعَاصِي وَالظُّلْمَةِ . وَجِمَاعُ ذَلِكَ كُلِّهِ فِيمَا وَصَفَ اللَّهُ بِهِ الْمُؤْمِنِينَ حَيْثُ قَالَ ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ وَقَالَ ﴿ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ فَإِنَّ هَذِهِ الْكَبَائِرَ كُلَّهَا مِنْ شُعَبِ الْكُفْرِ وَلَمْ يَكُنْ الْمُسْلِمُ كَافِرًا بِمُجَرَّدِ ارْتِكَابِ كَبِيرَةٍ ؛ وَلَكِنَّهُ يَزُولُ عَنْهُ اسْمُ الْإِيمَانِ الْوَاجِبِ كَمَا فِي الصِّحَاحِ عَنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ الْحَدِيثُ إلَى آخِرِهِ فَفِيهِمْ مِنْ نَقْصِ الْإِيمَانِ مَا يُوجِبُ زَوَالَ الرَّأْفَةِ وَالرَّحْمَةِ بِهِمْ وَاسْتَحَقُّوا بِتِلْكَ الشُّعْبَةِ مِنْ الشِّدَّةِ بِقَدْرِ مَا فِيهَا وَلَا مُنَافَاةَ بَيْنَ أَنْ يَكُونَ الشَّخْصُ الْوَاحِدُ يُرْحَمُ وَيُحَبُّ مِنْ وَجْهٍ وَيُعَذَّبُ وَيُبْغَضُ مِنْ وَجْهٍ آخَرَ وَيُثَابُ مِنْ وَجْهٍ وَيُعَاقَبُ مِنْ وَجْهٍ فَإِنَّ مَذْهَبَ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ

أَنَّ الشَّخْصَ الْوَاحِدَ يَجْتَمِعُ فِيهِ الْأَمْرَانِ خِلَافًا لِمَا يَزْعُمُهُ الْخَوَارِجُ وَنَحْوُهُمْ مِنْ الْمُعْتَزِلَةِ فَإِنَّ عِنْدَهُمْ أَنَّ مَنْ اسْتَحَقَّ الْعَذَابَ

(283/555)

مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ لَا يَخْرُجُ مِنْ النَّارِ فَأَوْجَبُوا خُلُودَ أَهْلِ التَّوْحِيدِ . وَقَالَ مَنْ اسْتَحَقَّ الْعَذَابَ : لَا يَسْتَحِقُّ الثَّوَابَ .

(284/555)

وَلِهَذَا جَاءَ فِي السُّنَّةِ أَنَّ مَنْ أُقِيمَ عَلَيْهِ الْحَدُّ وَالْعُقُوبَاتُ وَلَمْ يَأْخُذْ الْمُؤْمِنِينَ بِهِ رَأْفَةٌ أَنْ يُرْحَمَ مِنْ وَجْهٍ آخَرَ فَيُحْسَنُ إلَيْهِ وَيُدْعَى لَهُ وَهَذَا الْجَانِبُ أَغْلَبُ فِي الشَّرِيعَةِ كَمَا أَنَّهُ الْغَالِبُ فِي صِفَةِ الرَّبِّ سُبْحَانَهُ كَمَا فِي الصَّحِيحَيْنِ : ﴿ إنَّ اللَّهَ كَتَبَ كِتَابًا فَهُوَ مَوْضُوعٌ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ : إنَّ رَحْمَتِي تَغْلِبُ غَضَبِي وَفِي رِوَايَةٍ سَبَقَتْ غَضَبِي ﴾ وَقَالَ : ﴿ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ ﴿ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴾ وَقَالَ : ﴿ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ فَجَعَلَ الرَّحْمَةَ صِفَةً لَهُ مَذْكُورَةً فِي أَسْمَائِهِ

الْحُسْنَى وَأَمَّا الْعَذَابُ وَالْعِقَابُ فَجَعَلَهُمَا مِنْ مَفْعُولَاتِهِ غَيْرَ مَذْكُورَيْنِ فِي أَسْمَائِهِ . وَمِنْ هَذَا الْبَابِ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ مِنْ الْغِلْظَةِ عَلَى الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾ وَقَالَ : ﴿ لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ ﴾ الْآيَاتُ إلَى قَوْلِهِ فِي قِصَّةِ إبْرَاهِيمَ : ﴿ حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ﴾ وَكَذَلِكَ آخِرُ الْمُجَادَلَةِ وَقَدْ ثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ الْحَسَنِ عَنْ حطان بْنِ عَبْدِ اللَّهِ عَنْ عبادة بْنِ الصَّامِتِ : " أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ خُذُوا عَنِّي : قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا : الْبِكْرُ بِالْبِكْرِ جَلْدُ مِائَةٍ وَتَغْرِيبُ عَامٍ وَالثَّيِّبُ بِالثَّيِّبِ جَلْدُ مِائَةٍ

(285/555)

وَالرَّجْمُ ﴾ . وَفِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ وَزَيْدِ بْنِ خَالِدٍ أَنَّهُ

(286/555)

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ اخْتَصَمَ إلَيْهِ رَجُلَانِ فَقَالَ أَحَدُهُمَا : يَا رَسُولَ اللَّهِ اقْضِ بَيْنَنَا بِكِتَابِ اللَّهِ . وَقَالَ الْآخَرُ - وَهُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ - يَا رَسُولَ اللَّهِ اقْضِ بَيْنَنَا بِكِتَابِ اللَّهِ وَأْذَنْ لِي :

إِنَّ ابْنِي كَانَ عَسِيفًا عَلَى هَذَا وَإِنَّهُ زَنَى بِامْرَأَتِهِ فَافْتُدِيَتْ مِنْهُ بِمِائَةِ شَاةٍ وَوَلِيدَةٍ وَإِنِّي سَأَلْت أَهْلَ الْعِلْمِ فَقَالُوا : عَلَى ابْنِك جَلْدُ مِائَةٍ وَتَغْرِيبُ عَامٍ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَأَقْضِيَنَّ بَيْنَكُمَا بِكِتَابِ اللَّهِ : أَمَّا الْمِائَةُ شَاةٍ وَالْوَلِيدَةُ فَرَدٌّ عَلَيْك وَعَلَى ابْنِك جَلْدُ مِائَةٍ وَتَغْرِيبُ عَامٍ وَاغْدُ يَا أُنَيْسُ عَلَى امْرَأَةِ هَذَا فَإِنْ اعْتَرَفَتْ فَارْجُمْهَا فَاعْتَرَفَتْ فَرَجَمَهَا ﴿ . فَهَذِهِ الْمَرْأَةُ أَحَدُ مَنْ رَجَمَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَرَجَمَ أَيْضًا الْيَهُودِيَّيْنِ عَلَى بَابِ مَسْجِدِهِ وَرَجَمَ مَاعِزَ بْنَ مَالِكٍ وَرَجَمَ الغامدية . وَرَجَمَ غَيْرَ هَؤُلَاءِ . وَهَذَا الْحَدِيثُ يُوَافِقُ مَا فِي الْآيَةِ مِنْ بَيَانِ السَّبِيلِ الَّذِي جَعَلَهُ اللَّهُ لَهُنَّ : وَهُوَ جَلْدُ مِائَةٍ وَتَغْرِيبُ عَامٍ فِي الْبِكْرِ وَفِي الثَّيِّبِ الرَّجْمُ لَكِنَّ الَّذِي فِي هَذَا الْحَدِيثِ هُوَ الْجَلْدُ وَالنَّفْيُ لِلْبِكْرِ مِنْ الرِّجَالِ وَأَمَّا الْآيَةُ فَفِيهَا ذِكْرُ الْإِمْسَاكِ فِي الْبُيُوتِ لِلنِّسَاءِ خَاصَّةً ؛ وَمِنْ فُقَهَاءِ الْعِرَاقِ مَنْ لَا يُوجِبُ مَعَ الْحَدِّ تَغْرِيبًا وَمِنْهُمْ مَنْ يُفَرِّقُ بَيْنَ الرَّجُلِ وَالْمَرْأَةِ كَمَا أَنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يُوجِبُونَ مَعَ رَجْمِ جِلْدَ مِائَةٍ وَمِنْهُمْ مَنْ يُوجِبُهُمَا جَمِيعًا كَمَا

(287/555)

فَعَلَ عَلِيٌّ بِشُرَاحَةَ الهمدانية حَيْثُ جَلَدَهَا ثُمَّ رَجَمَهَا وَقَالَ : " جَلَدْتهَا بِكِتَابِ اللَّهِ وَرَجَمْتهَا بِسُنَّةِ نَبِيِّهِ "

رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ : وَعَنْ أَحْمَدَ فِي ذَلِكَ رِوَايَتَانِ . وَهُوَ سُبْحَانَهُ ذَكَرَ فِي سُورَةِ النِّسَاءِ مَا يُخْتَصُّ بِالنِّسَاءِ مِنْ الْعُقُوبَةِ بِالْإِمْسَاكِ فِي الْبُيُوتِ إلَى الْمَمَاتِ أَوْ إلَى جَعْلِ السَّبِيلِ ثُمَّ ذَكَرَ مَا يَعُمُّ الصِّنْفَيْنِ فَقَالَ : ﴿ وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ فَآذُوهُمَا ﴾ فَإِنَّ الْأَذَى يَتَنَاوَلُ الصِّنْفَيْنِ وَأَمَّا الْإِمْسَاكُ فَيُخْتَصُّ بِالنِّسَاءِ فَالنِّسَاءُ يُؤْذَيْنَ وَيُحْبَسْنَ بِخِلَافِ الرِّجَالِ فَإِنَّهُ لَمْ يَأْمُرْ فِيهِمْ بِالْحَبْسِ لِأَنَّ الْمَرْأَةَ يَجِبُ أَنْ تُصَانَ وَتُحْفَظَ بِمَا لَا يَجِبُ مِثْلُهُ فِي الرَّجُلِ وَلِهَذَا خُصَّتْ بِالِاحْتِجَابِ وَتَرْكِ إبْدَاءِ الزِّينَةِ وَتَرْكِ التَّبَرُّجِ فَيَجِبُ فِي حَقِّهَا الِاسْتِتَارُ بِاللِّبَاسِ وَالْبُيُوتِ مَا لَا يَجِبُ فِي حَقِّ الرَّجُلِ . لِأَنَّ ظُهُورَ النِّسَاءِ سَبَبُ الْفِتْنَةِ وَالرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَيْهِنَّ . وَقَوْلُهُ ﴿ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ ﴾ دَلَّ عَلَى شَيْئَيْنِ : عَلَى أَنَّ نِصَابَ الشَّهَادَةِ عَلَى الْفَاحِشَةِ أَرْبَعَةٌ وَعَلَى أَنَّ الشُّهَدَاءَ بِهَا عَلَى نِسَائِنَا يَجِبُ أَنْ يَكُونُوا مِنَّا فَلَا تُقْبَلُ شَهَادَةُ الْكُفَّارِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ وَهَذَا لَا نِزَاعَ فِيهِ وَإِنَّمَا النِّزَاعُ فِي قَبُولِ شَهَادَةِ الْكُفَّارِ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ وَفِيهِ قَوْلَانِ عِنْدَ أَحْمَدَ : أَشْهَرُهُمَا عِنْدَهُ وَعِنْدَ أَصْحَابِهِ أَنَّهَا لَا تُقْبَلُ كَمَذْهَبِ مَالِكٍ وَالشَّافِعِيِّ . وَالثَّانِيَةُ أَنَّهَا تُقْبَلُ اخْتَارَهَا أَبُو الْخَطَّابِ مِنْ أَصْحَابِ أَحْمَدَ وَهُوَ قَوْلُ أَبِي حَنِيفَةَ وَهُوَ أَشْبَهُ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ . وَقَدْ قَالَ

(289/555)

النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ لَا تَجُوزُ شَهَادَةُ أَهْلِ مِلَّةٍ عَلَى أَهْلِ مِلَّةٍ إلَّا

(290/555)

أُمَّتِي فَإِنَّ شَهَادَتَهُمْ تَجُوزُ عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ ﴾ فَإِنَّهُ لَمْ يَنْفِ شَهَادَةَ أَهْلِ الْمِلَّةِ الْوَاحِدَةِ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ بَلْ مَفْهُومُ ذَلِكَ جَوَازُ شَهَادَةِ أَهْلِ الْمِلَّةِ الْوَاحِدَةِ بَعْضِهَا عَلَى بَعْضٍ ؛ وَلَكِنْ فِيهِ بَيَانُ أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ تُقْبَلُ شَهَادَتُهُمْ عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ لِقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ وَفِي آخِرِ الْحَجِّ مِثْلُهَا . وَقَدْ ثَبَتَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخدري عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ ﴿ يُدْعَى نُوحٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُقَالُ لَهُ : هَلْ بَلَّغْت ؟ فَيَقُولُ : نَعَمْ فَيُدْعَى قَوْمُهُ فَيُقَالُ هَلْ بَلَّغَكُمْ ؟ فَيَقُولُونَ : مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَيُقَالُ لِنُوحٍ : مَنْ يَشْهَدُ لَك فَيَقُولُ : مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ فَيُؤْتَى بِكُمْ فَتَشْهَدُونَ أَنَّهُ بَلَّغَ ﴾ وَكَذَلِكَ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ فِي شَهَادَتِهِمْ عَلَى تِلْكَ الْجِنَازَتَيْنِ وَأَنَّهُمْ أَثْنَوْا عَلَى إحْدَاهُمَا خَيْرًا وَعَلَى الْأُخْرَى شَرًّا فَقَالَ : ﴿ أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللَّهِ

فِي أَرْضِهِ ﴾ الْحَدِيثُ . وَلِهَذَا لَمَّا كَانَ أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ الَّذِينَ محضوا الْإِسْلَامَ وَلَمْ يُشَوِّبُوهُ بِغَيْرِهِ كَانَتْ شَهَادَتُهُمْ مَقْبُولَةً عَلَى سَائِرِ فِرَقِ الْأُمَّةِ بِخِلَافِ أَهْلِ الْبِدَعِ وَالْأَهْوَاءِ كَالْخَوَارِجِ وَالرَّوَافِضِ فَإِنَّ بَيْنَهُمْ مِنْ الْعَدَاوَةِ وَالظُّلْمِ مَا يُخْرِجُهُمْ عَنْ كَمَالِ هَذِهِ الْحَقِيقَةِ الَّتِي جَعَلَهَا اللَّهُ لِأَهْلِ السُّنَّةِ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيهِمْ :

(291/555)

﴿ يَحْمِلُ هَذَا الْعِلْمَ مِنْ كُلِّ خَلَفٍ عُدُولُهُ يَنْفُونَ عَنْهُ تَحْرِيفَ الْغَالِينَ وَانْتِحَالَ الْمُبْطِلِينَ وَتَأْوِيلَ الْجَاهِلِينَ ﴾ .

(292/555)

وَقَدْ اسْتَدَلَّ مَنْ جَوَّزَ شَهَادَةَ أَهْلِ الذِّمَّةِ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ بِهَذِهِ الْآيَةِ الَّتِي فِي الْمَائِدَةِ وَهِيَ قَوْلُهُ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ ﴾ الْآيَةُ ثُمَّ قَالَ مَنْ أَخَذَ بِظَاهِرِ هَذِهِ الْآيَةِ مِنْ أَهْلِ الْكُوفَةِ : دَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ عَلَى قَبُولِ شَهَادَةِ أَهْلِ الذِّمَّةِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ فَيَكُونُ فِي ذَلِكَ تَنْبِيهٌ وَدَلَالَةٌ

عَلَى قَبُولِ شَهَادَةِ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ بِطَرِيقِ الْأَوْلَى ثُمَّ نَسْخُ الظَّاهِرِ لَا يُوجِبُ نَسْخَ الْفَحْوَى وَالتَّنْبِيهِ وَهَذِهِ الْآيَةُ الدَّالَّةُ عَلَى نُصُوصِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ وَغَيْرِهِ مِنْ أَئِمَّةِ الْحَدِيثِ الْمُوَافِقِينَ لِلسَّلَفِ فِي الْعَمَلِ بِهَذِهِ الْآيَةِ وَمَا يُوَافِقُهَا مِنْ الْحَدِيثِ أَوْجَهُ وَأَقْوَى فَإِنَّ مَذْهَبَهُ قَبُولُ شَهَادَةِ أَهْلِ الذِّمَّةِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ فِي الْوَصِيَّةِ فِي السَّفَرِ لِأَنَّهُ مَوْضِعُ ضَرُورَةٍ فَإِذَا جَازَتْ شَهَادَتُهُمْ لِغَيْرِهِمْ فَعَلَى بَعْضِهِمْ أجوز وأجوز . وَلِهَذَا يَجُوزُ فِي الشَّهَادَةِ لِلضَّرُورَةِ مَا لَا يَجُوزُ فِي غَيْرِهَا كَمَا تُقْبَلُ شَهَادَةُ النِّسَاءِ فِيمَا لَا يَطَّلِعُ عَلَيْهِ الرِّجَالُ حَتَّى نَصَّ أَحْمَدُ عَلَى قَبُولِ شَهَادَتِهِنَّ فِي الْحُدُودِ الَّتِي تَكُونُ فِي مَجَامِعِهِنَّ الْخَاصَّةِ . مِثْلَ الْحَمَّامَاتِ وَالْعُرْسَاتِ وَنَحْوِ ذَلِكَ . فَالْكُفَّارُ الَّذِينَ لَا يَخْتَلِطُ بِهِمْ الْمُسْلِمُونَ أَوْلَى أَنْ تُقْبَلَ شَهَادَةُ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ إذَا حَكَمْنَا بَيْنَهُمْ وَاَللَّهُ أَمَرَنَا أَنْ نَحْكُمَ

(293/555)

بَيْنَهُمْ وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجَمَ الزَّانِيَيْنِ مِنْ الْيَهُودِ مِنْ غَيْرِ سَمَاعِ إقْرَارٍ مِنْهُمَا وَلَا شَهَادَةِ مُسْلِمٍ عَلَيْهِمَا وَلَوْلَا قَبُولُ شَهَادَةِ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ لَمْ يَجُزْ ذَلِكَ وَاَللَّهُ أَعْلَمُ .

(294/555)

ثُمَّ إنَّ فِي تَوَلِّي مَالِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا نِزَاعٌ فَهَلْ يَتَوَلَّى الْكَافِرُ الْعَدْلُ فِي دِينِهِ مَالَ وَلَدِهِ الْكَافِرِ ؟ عَلَى قَوْلَيْنِ فِي مَذْهَبِ أَحْمَدَ وَغَيْرِهِ وَالصَّوَابُ الْمَقْطُوعُ بِهِ : أَنَّ بَعْضَهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ وَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِذَلِكَ وَسُنَّةُ خُلَفَائِهِ وَقَوْلُهُ تَعَالَى ﴿ فَآذُوهُمَا ﴾ أَمْرٌ بِالْأَذَى مُطْلَقًا وَلَمْ يَذْكُرْ كَيْفِيَّتَهُ وَصِفَتَهُ وَلَا قَدْرَهُ بَلْ ذَكَرَ أَنَّهُ يَجِبُ إيذَاؤُهُمَا وَلَفْظُ " الْأَذَى " يُسْتَعْمَلُ فِي الْأَقْوَالِ كَثِيرًا كَقَوْلِهِ : ﴿ لَنْ يَضُرُّوكُمْ إلَّا أَذًى ﴾ وَقَوْلِهِ : ﴿ إنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا ﴾ ﴿ وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ ﴾ وَقَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ لَا أَحَدَ أَصْبَرُ عَلَى أَذًى سَمِعَهُ مِنْ اللَّهِ ﴾ وَنَظَائِرُ ذَلِكَ كَثِيرَةٌ ذَكَرْنَاهَا فِي " كِتَابِ الصَّارِمِ الْمَسْلُولِ " . وَهَذَا كَمَا قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي شَارِبِ الْخَمْرِ ﴿ عَاقِبُوهُ وَآذُوهُ ﴾ وَقَالَ ﴿ فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا ﴾ وَالْإِعْرَاضُ هُوَ الْإِمْسَاكُ عَنْ الْإِيذَاءِ . فَالْمُذْنِبُ لَا يَزَالُ يُؤْذَى وَيُنْهَى وَيُوعَظُ وَيُوَبَّخُ وَيُغَلَّظُ لَهُ فِي الْكَلَامِ إلَى أَنْ يَتُوبَ وَيُطِيعَ اللَّهَ وَأَدْنَى ذَلِكَ هَجْرُهُ فَلَا يُكَلَّمُ بِالْكَلَامِ الطَّيِّبِ كَمَا هَجَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْمُؤْمِنُونَ الثَّلَاثَةَ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى ظَهَرَتْ تَوْبَتُهُمْ وَصَلَاحُهُمْ وَهَذِهِ آيَةٌ مُحْكَمَةٌ لَا

نَسْخَ فِيهَا فَمَنْ أَتَى الْفَاحِشَةَ مِنْ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ فَإِنَّهُ يَجِبُ إيذَاؤُهُ بِالْكَلَامِ الزَّاجِرِ لَهُ عَنْ الْمَعْصِيَةِ إلَى

(296/555)

أَنْ يَتُوبَ وَلَيْسَ ذَلِكَ مَحْدُودًا بِقَدَرٍ وَلَا صِفَةٍ إلَّا مَا يَكُونُ زَاجِرًا لَهُ دَاعِيًا إلَى حُصُولِ الْمَقْصُودِ وَهُوَ تَوْبَتُهُ وَصَلَاحُهُ وَقَدْ عَلَّقَهُ تَعَالَى عَلَى هَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ : التَّوْبَةُ وَالْإِصْلَاحُ . فَإِذَا لَمْ يُوجَدَا فَلَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْأَمْرُ بِالْإِعْرَاضِ مَوْجُودًا فَيُؤْذَى وَالْآيَةُ دَلَّتْ عَلَى وُجُوبِ الْإِيذَاءِ لِلَّذَيْنِ يَأْتِيَانِ الْفَاحِشَةَ مِنَّا وَدَلَّتْ عَلَى وُجُوبِ الْإِعْرَاضِ عَنْ الْأَذَى فِي حَقِّ مَنْ تَابَ وَأَصْلَحَ فَأَمَّا مَنْ تَابَ بِتَرْكِ فِعْلِ الْفَاحِشَةِ وَلَمْ يَصْلُحْ فَقَدْ تَنَازَعَ الْفُقَهَاءُ هَلْ يُشْتَرَطُ فِي قَبُولِ التَّوْبَةِ صَلَاحُ الْعَمَلِ ؟ عَلَى قَوْلَيْنِ فِي مَذْهَبِ أَحْمَدَ وَغَيْرِهِ . وَهَذِهِ تُشْبِهُ قَوْلَهُ تَعَالَى ﴿ فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ﴾ إلَى قَوْلِهِ ﴿ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ﴾ فَأَمَرَ بِقِتَالِهِمْ ثُمَّ عَلَّقَ تَخْلِيَةَ سَبِيلِهِمْ عَلَى التَّوْبَةِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ : وَهُوَ إقَامُ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ مَعَ أَنَّهُمْ إذَا تَكَلَّمُوا بِالشَّهَادَتَيْنِ وَجَبَ الْكَفُّ عَنْهُمْ ثُمَّ إنْ صَلَّوْا وَزَكَّوْا وَإِلَّا عُوقِبُوا بَعْدَ ذَلِكَ عَلَى تَرْكِ الْفِعْلِ ؛ لِأَنَّ الشَّارِعَ فِي التَّوْبَةِ شَرَعَ الْكَفَّ عَنْ

أَذَاهُ وَيَكُونُ الْأَمْرُ فِيهِ مَوْقُوفًا عَلَى التَّمَامِ وَكَذَلِكَ التَّائِبُ مِنْ الْفَاحِشَةِ يَشْرَعُ الْكَفُّ عَنْ أَذَاهُ إلَى أَنْ يَصْلُحَ فَإِنْ أَصْلَحَ وَجَبَ الْإِعْرَاضُ عَنْ أَذَاهُ وَإِنْ لَمْ يَصْلُحْ لَمْ يَجِبْ الْكَفُّ عَنْ أَذَاهُ بَلْ يَجُوزُ أَوْ يَجِبُ

(297/555)

أَذَاهُ . وَهَذِهِ الْآيَةُ مِمَّا يُسْتَدَلُّ بِهَا عَلَى التَّعْزِيرِ بِالْأَذَى وَالْأَذَى وَإِنْ كَانَ

(298/555)

يُسْتَعْمَلُ كَثِيرًا فِي الْكَلَامِ فِي مُرْتَكِبِ الْفَاحِشَةِ فَلَيْسَ هُوَ مُخْتَصًّا بِهِ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِمَنْ بَصَقَ فِي الْقِبْلَةِ : ﴿ إنَّك قَدْ آذَيْت اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ . وَكَذَلِكَ قَالَ فِي حَقِّ فَاطِمَةَ ابْنَتِهِ ﴿ يُرِيبُنِي مَا رَابَهَا وَيُؤْذِينِي مَا آذَاهَا ﴾ وَكَذَلِكَ قَالَ لِمَنْ أَكَلَ الثُّومَ وَالْبَصَلَ : ﴿ إنَّ الْمَلَائِكَةَ تَتَأَذَّى مِمَّا يَتَأَذَّى مِنْهُ بَنُو آدَمَ ﴾ وَقَالَ لِصَاحِبِ السِّهَامِ : ﴿ خُذْ بِنِصَالِهَا لِئَلَّا تُؤْذِيَ أَحَدًا مِنْ الْمُسْلِمِينَ ﴾ وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ ﴾ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى ﴿ فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا ﴾

هَلْ يَكُونُ مِنْ تَوْبَتِهِ اعْتِرَافُهُ بِالذَّنْبِ فَإِذَا ثَبَتَ الذَّنْبُ بِإِقْرَارِهِ فَجَحَدَ إقْرَارَهُ وَكَذَّبَ الشُّهُودُ عَلَى إقْرَارِهِ أَوْ ثَبَتَ بِشَهَادَةِ شُهُودٍ هَلْ يُعَدُّ بِذَلِكَ تَائِبًا ؟ فِيهِ نِزَاعٌ فَذَكَرَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ أَنَّهُ لَا تَوْبَةَ لِمَنْ جَحَدَ وَإِنَّمَا التَّوْبَةُ لِمَنْ أَقَرَّ وَتَابَ وَاسْتَدَلَّ بِقِصَّةِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ أَنَّهُ أُتِيَ بِجَمَاعَةٍ مِمَّنْ شَهِدَ عَلَيْهِمْ بِالزَّنْدَقَةِ فَاعْتَرَفَ مِنْهُمْ نَاسٌ فَتَابُوا فَقَبِلَ تَوْبَتَهُمْ وَجَحَدَ مِنْهُمْ جَمَاعَةٌ فَقَتَلَهُمْ وَقَدْ ﴿ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِعَائِشَةَ إنْ كُنْتِ أَلْمَمْتِ بِذَنْبٍ فَاسْتَغْفِرِي اللَّهَ وَتُوبِي إلَيْهِ فَإِنَّ الْعَبْدَ إذَا اعْتَرَفَ بِذَنْبِهِ ثُمَّ تَابَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ ﴾ رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ . فَمَنْ أَذْنَبَ سِرًّا فَلْيَتُبْ سِرًّا وَلَيْسَ عَلَيْهِ

(299/555)

أَنْ يُظْهِرَ ذَنْبَهُ كَمَا فِي الْحَدِيثِ : ﴿ مَنْ ابْتُلِيَ بِشَيْءٍ مِنْ هَذِهِ الْقَاذُورَاتِ فَلْيَسْتَتِرْ بِسِتْرِ اللَّهِ

(300/555)

فَإِنَّهُ مَنْ يُبْدِ لَنَا صَفْحَتَهُ نُقِمْ عَلَيْهِ كِتَابَ اللَّهِ ﴾ وَفِي الصَّحِيحِ : ﴿ كُلُّ أُمَّتِي مُعَافًى إلَّا الْمُجَاهِرِينَ وَإِنَّ مِنْ الْمُجَاهَرَةِ أَنْ يَبِيتَ الرَّجُلُ عَلَى الذَّنْبِ قَدْ سَتَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ فَيَكْشِفُ

سِتْرَ اللَّهِ عَنْهُ ﴾ فَإِذَا ظَهَرَ مِنْ الْعَبْدِ الذَّنْبُ فَلَا بُدَّ مِنْ ظُهُورِ التَّوْبَةِ وَمَعَ الْجُحُودِ لَا تَظْهَرُ التَّوْبَةُ فَإِنَّ الْجَاحِدَ يَزْعُمُ أَنَّهُ غَيْرُ مُذْنِبٍ ؛ وَلِهَذَا كَانَ السَّلَفُ يَسْتَعْمِلُونَ ذَلِكَ فِيمَنْ أَظْهَرَ بِدْعَةً أَوْ فُجُورًا فَإِنَّ هَذَا أَظْهَرُ حَالِ الضَّالِّينَ وَهَذَا أَظْهَرُ حَالِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَمَنْ أَذَاهُ مَنْعُهُ – مَعَ الْقُدْرَةِ – مِنْ الْإِمَامَةِ وَالْحُكْمِ وَالْفُتْيَا وَالرِّوَايَةِ وَالشَّهَادَةِ وَأَمَّا بِدُونِ الْقُدْرَةِ فَلْيَفْعَلْ الْمَقْدُورَ عَلَيْهِ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ فَآذُوهُمَا ﴾ فَأَمَرَ بِإِيذَائِهِمَا وَلَمْ يُعَلِّقْ ذَلِكَ عَلَى اسْتِشْهَادِ أَرْبَعَةٍ كَمَا عَلَّقَ ذَلِكَ فِي حَقِّ النِّسَاءِ وَإِمْسَاكِهِنَّ فِي الْبُيُوتِ وَلَمْ يَأْمُرْ بِهِ هُنَا كَمَا أَمَرَ بِهِ هُنَاكَ ؛ وَلَيْسَ هَذَا مِنْ بَابِ حَمْلِ الْمُطْلَقِ عَلَى الْمُقَيَّدِ لِأَنَّ ذَلِكَ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ الْحُكْمُ وَاحِدًا مِثْلَ الْإِعْتَاقِ فَإِذَا كَانَ الْحُكْمُ مُتَّفِقًا فِي الْجِنْسِ دُونَ النَّوْعِ كَإِطْلَاقِ الْأَيْدِي فِي التَّيَمُّمِ وَتَقْيِيدِهَا فِي الْوُضُوءِ إلَى الْمَرَافِقِ وَإِطْلَاقِ سِتِّينَ مِسْكِينًا فِي الْإِطْعَامِ وَتَقْيِيدِ الْإِعْتَاقِ بِالْإِيمَانِ مَعَ أَنَّ كِلَاهُمَا عِبَادَةٌ مَالِيَّةٌ يُرَادُ بِهَا نَفْعُ الْخَلْقِ وَفِي ذَلِكَ نِزَاعٌ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ . وَلَمْ يَحْمِلْ

(301/555)

الْمُسْلِمُونَ مِنْ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ الْمُطْلَقَ عَلَى الْمُقَيَّدِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمْ

اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ ﴾ الْآيَةُ : وقَوْله تَعَالَى ﴿ وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ قَالَ الصَّحَابَةُ وَالتَّابِعُونَ وَسَائِرُ أَئِمَّةِ الدِّينِ : الشَّرْطُ فِي الرَّبَائِبِ خَاصَّةً وَقَالُوا : أَبْهَمُوا مَا أَبْهَمَ اللَّهُ وَالْمُبْهَمُ هُوَ الْمُطْلَقُ وَالْمَشْرُوطُ فِيهِ هُوَ الْمُؤَقَّتُ الْمُقَيَّدُ فَأُمَّهَاتُ النِّسَاءِ وَحَلَائِلُ الْآبَاءِ وَالْأَبْنَاءِ يَحْرُمْنَ بِالْعَقْدِ وَالرَّبَائِبُ لَا يَحْرُمْنَ إلَّا إذَا دُخِلَ بِأُمَّهَاتِهِنَّ ؛ لَكِنْ تَنَازَعُوا هَلْ الْمَوْتُ كَالدُّخُولِ ؟ عَلَى قَوْلَيْنِ فِي مَذْهَبِ أَحْمَدَ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْحُكْمَ مُخْتَلِفٌ وَالْقَيْدُ لَيْسَ مُتَسَاوِيًا فِي الْأَعْيَانِ ؛ فَإِنَّ تَحْرِيمَ جِنْسٍ لَيْسَ مِثْلَ تَحْرِيمِ جِنْسٍ آخَرَ يُخَالِفُهُ كَمَا أَنَّ تَحْرِيمَ الدَّمِ وَالْمَيْتَةِ وَلَحْمِ الْخِنْزِيرِ لَمَّا كَانَ أَجْنَاسًا فَلَيْسَ تَقْيِيدُ الدَّمِ بِكَوْنِهِ مَسْفُوحًا يُوجِبُ تَقْيِيدَ الْمَيْتَةِ وَالْخِنْزِيرِ أَنْ يَكُونَ مَسْفُوحًا وَهُنَا الْقَيْدُ كَوْنُ الرَّبِيبَةِ مَدْخُولًا بِأُمِّهَا وَالدُّخُولُ بِالْأُمِّ لَا يُوجَدُ مِثْلُهُ فِي الْحَلِيلَتَيْنِ وَأُمِّ الْمَرْأَةِ ؛ إذْ الدُّخُولُ فِي الْحَلِيلَةِ بِهَا نَفْسِهَا وَفِي أُمِّ الْمَرْأَةِ بِبِنْتِهَا . وَكَذَلِكَ الْمُسْلِمُونَ لَمْ يَحْمِلُوا الْمُطْلَقَ عَلَى الْمُقَيَّدِ فِي نَصْبِ الشَّهَادَةِ ؛ بَلْ لَمَّا ذَكَرَ اللَّهُ فِي آيَةِ الدَّيْنِ رَجُلَيْنِ أَوْ رَجُلًا وامرأتين وَفِي الرَّجْعَةِ رَجُلَيْنِ أَقَرُّوا كُلًّا مِنْهُمَا عَلَى حَالِهِ ؛ لِأَنَّ سَبَبَ الْحُكْمِ مُخْتَلِفٌ وَهُوَ الْمَالُ وَالْبُضْعُ وَاخْتِلَافُ السَّبَبِ يُؤَثِّرُ فِي نِصَابِ الشَّهَادَةِ وَكَمَا فِي

(303/555)

إقَامَةِ الْحَدِّ فِي الْفَاحِشَةِ وَفِي الْقَذْفِ بِهَا اُعْتُبِرَ فِيهِ أَرْبَعَةُ شُهَدَاءَ فَلَا يُقَاسُ بِذَلِكَ عُقُودُ الْأَيْمَانِ وَالْأَبْضَاعِ وَذَكَرَ فِي حَدِّ الْقَذْفِ ثَلَاثَةَ أَحْكَامٍ :

جَلْدُ ثَمَانِينَ وَتَرْكُ قُبُولِ شَهَادَتِهِمْ أَبَدًا وَإِنَّهُمْ فَاسِقُونَ ﴿ إلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ وَأَنَّ التَّوْبَةَ لَا تَرْفَعُ الْجَلْدَ إذَا طَلَبَهُ الْمَقْذُوفُ وَتَرْفَعُ الْفِسْقَ بِلَا تَرَدُّدٍ وَهَلْ تَرْفَعُ الْمَنْعَ مِنْ قَبُولِ الشَّهَادَةِ ؟ فَأَكْثَرُ الْعُلَمَاءِ قَالُوا تَرْفَعُهُ .

(304/555)

وَإِذَا اُشْتُهِرَ عَنْ شَخْصٍ الْفَاحِشَةُ بَيْنَ النَّاسِ لَمْ يُرْجَمْ ؛ لِمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ لَمَّا ذَكَرَ حَدِيثَ الْمُلَاعَنَةِ وَقَوْلَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ إنْ جَاءَتْ بِهِ يُشْبِهُ الزَّوْجَ فَقَدْ كَذَبَ عَلَيْهَا وَإِنْ جَاءَتْ بِهِ يُشْبِهُ الرَّجُلَ الَّذِي رَمَاهَا بِهِ فَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهَا ﴾ فَجَاءَتْ بِهِ عَلَى النَّعْتِ الْمَكْرُوهِ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ لَوْلَا الْأَيْمَانُ لَكَانَ لِي وَلَهَا شَأْنٌ ﴾ فَقِيلَ لِابْنِ عَبَّاسٍ : أَهَذِهِ الَّتِي قَالَ فِيهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

﴿ لَوْ كُنْت رَاجِمًا أَحَدًا بِغَيْرِ بَيِّنَةٍ لَرَجَمْتهَا ﴾ ؟ فَقَالَ : لَا تِلْكَ امْرَأَةٌ كَانَتْ تُعْلِنُ السُّوءَ فِي الْإِسْلَامِ : فَقَدْ أَخْبَرَ أَنَّهُ لَا يَرْجُمُ أَحَدًا إلَّا بِبَيِّنَةٍ وَلَوْ ظَهَرَ عَنْ الشَّخْصِ السُّوءُ . وَدَلَّ هَذَا الْحَدِيثُ عَلَى أَنَّ الشَّبَهَ لَهُ تَأْثِيرٌ فِي ذَلِكَ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ بَيِّنَةٌ وَكَذَلِكَ ثَبَتَ عَنْهُ أَنَّهُ لَمَّا مَرَّ عَلَيْهِ بِتِلْكَ الْجِنَازَةِ فَأَثْنَوْا عَلَيْهَا خَيْرًا إلَى آخِرِهِ قَالَ : ﴿ أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ ﴾ وَفِي الْمُسْنَدِ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ ﴿ يُوشِكُ أَنْ تَعْلَمُوا أَهْلَ الْجَنَّةِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ قِيلَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ وَبِمَ ذَلِكَ ؟ قَالَ : بِالثَّنَاءِ الْحَسَنِ وَالثَّنَاءِ السَّيِّئِ ﴾ . فَقَدْ جَعَلَ الِاسْتِفَاضَةَ

(305/555)

حُجَّةً وَبَيِّنَةً فِي هَذِهِ الْأَحْكَامِ وَلَمْ يَجْعَلْهَا حُجَّةً فِي الرَّجْمِ . وَكَذَلِكَ تُقْبَلُ شَهَادَةُ أَهْلِ الْكِتَابِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ فِي الْوَصِيَّةِ فِي السَّفَرِ عِنْدَ أَحْمَد وَكَذَلِكَ شَهَادَةُ الصِّبْيَانِ فِي الْجِرَاحِ إذَا أَدَّوْهَا قَبْلَ التَّفَرُّقِ فِي إحْدَى الرِّوَايَتَيْنِ وَإِذَا شَهِدَ شَاهِدٌ أَنَّهُ رَأَى الرَّجُلَ وَالْمَرْأَةَ وَالصَّبِيَّ فِي لِحَافٍ أَوْ فِي بَيْتِ مِرْحَاضٍ أَوْ رَآهُمَا مُجَرَّدَيْنِ أَوْ مَحْلُولَيْ السَّرَاوِيلِ وَيُوجَدُ مَعَ ذَلِكَ مَا يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ . مِنْ وُجُودِ اللِّحَافِ قَدْ خَرَجَ عَنْ الْعَادَةِ إلَى مَكَانِهِمَا أَوْ يَكُونُ مَعَ أَحَدِهِمَا أَوْ مَعَهُمَا ضَوْءٌ قَدْ أَظْهَرَهُ فَرَآهُ فَأَطْفَأَهُ فَإِنَّ إطْفَاءَهُ دَلِيلٌ عَلَى اسْتِخْفَائِهِ بِمَا يَفْعَلُ فَإِذَا لَمْ يَكُنْ مَا يُسْتَخْفَى بِهِ إلَّا مَا شَهِدَ بِهِ الشَّاهِدُ كَانَ ذَلِكَ مِنْ أَعْظَمِ الْبَيَانِ عَلَى مَا شَهِدَ

بِهِ . فَهَذَا الْبَابُ بَابٌ عَظِيمُ النَّفْعِ فِي الدِّينِ وَهُوَ مِمَّا جَاءَتْ بِهِ الشَّرِيعَةُ الَّتِي أَهْمَلَهَا كَثِيرٌ مِنْ الْقُضَاةِ وَالْمُتَفَقِّهَةِ زَاعِمِينَ أَنَّهُ لَا يُعَاقَبُ أَحَدٌ إلَّا بِشُهُودٍ عَايَنُوا أَوْ إقْرَارٍ مَسْمُوعٍ وَهَذَا خِلَافُ مَا تَوَاتَرَتْ بِهِ السُّنَّةُ وَسُنَّةُ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ وَخِلَافُ مَا فُطِرَتْ عَلَيْهِ الْقُلُوبُ الَّتِي تَعْرِفُ الْمَعْرُوفَ وَتُنْكِرُ الْمُنْكَرَ وَيَعْلَمُ الْعُقَلَاءُ أَنَّ مِثْلَ هَذَا لَا تَأْبَاهُ سِيَاسَةٌ عَادِلَةٌ ؛ فَضْلًا عَنْ الشَّرِيعَةِ الْكَامِلَةِ وَيَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ ﴾ .

(306/555)

فَفِي الْآيَةِ دَلَالَاتٌ .

(307/555)

أَحَدُهَا قَوْلُهُ : ﴿ إنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا ﴾ فَأَمَرَ بِالتَّبَيُّنِ عِنْدَ مَجِيءِ كُلِّ فَاسِقٍ بِكُلِّ نَبَأٍ ؛ بَلْ مِنْ الْأَنْبَاءِ مَا يُنْهَى فِيهِ عَنْ التَّبَيُّنِ وَمِنْهَا مَا يُبَاحُ فِيهِ تَرْكُ التَّبَيُّنِ وَمِنْ الْأَنْبَاءِ مَا يَتَضَمَّنُ الْعُقُوبَةَ لِبَعْضِ النَّاسِ ؛ لِأَنَّهُ عَلَّلَ الْأَمْرَ بِأَنَّهُ إذَا جَاءَنَا فَاسِقٌ بِنَبَأٍ خَشْيَةَ أَنْ نُصِيبَ

قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَلَوْ كَانَ كُلُّ مَنْ أُصِيبَ بِنَبَأٍ كَذَلِكَ لَمْ يَحْصُلْ الْفَرْقُ بَيْنَ الْعَدْلِ وَالْفَاسِقِ بَلْ هَذِهِ دَلَالَةٌ وَاضِحَةٌ عَلَى أَنَّ الْإِصَابَةَ بِنَبَأِ الْعَدْلِ الْوَاحِدِ لَا يُنْهَى عَنْهَا مُطْلَقًا وَذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى قَبُولِ شَهَادَةِ الْعَدْلِ الْوَاحِدِ فِي جِنْسِ الْعُقُوبَاتِ فَإِنَّ سَبَبَ نُزُولِ الْآيَةِ يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ فَإِنَّهَا نَزَلَتْ فِي إخْبَارِ وَاحِدٍ بِأَنَّ قَوْمًا قَدْ حَارَبُوا بِالرِّدَّةِ أَوْ نَقْضِ الْعَهْدِ . وَفِيهِ أَيْضًا أَنَّهُ مَتَى اقْتَرَنَ بِخَبَرِ الْفَاسِقِ دَلِيلٌ آخَرُ يَدُلُّ عَلَى صِدْقِهِ فَقَدْ اسْتَبَانَ الْأَمْرُ وَزَالَ الْأَمْرُ بِالتَّثَبُّتِ فَتَجُوزُ إصَابَةُ الْقَوْمِ وَعُقُوبَتُهُمْ بِخَبَرِ الْفَاسِقِ مَعَ قَرِينَةٍ إذَا تَبَيَّنَ بِهِمَا الْأُمُورُ فَكَيْفَ خَبَرُ الْوَاحِدِ الْعَدْلِ مَعَ دَلَالَةٍ أُخْرَى ؛ وَلِهَذَا كَانَ أَصَحُّ الْقَوْلَيْنِ أَنَّ مِثْلَ هَذَا لَوْثٌ فِي بَابِ الْقَسَامَةِ فَإِذَا انْضَافَ إيمَانُ الْمُقْسِمِينَ صَارَ ذَلِكَ بَيِّنَةً تُبِيحُ دَمَ الْمُقْسَمِ عَلَيْهِ . وَقَوْلُهُ : ﴿ أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ ﴾ فَجَعَلَ الْمَحْذُورَ هُوَ الْإِصَابَةَ لِقَوْمٍ بِلَا عِلْمٍ فَمَتَى أُصِيبُوا بِعِلْمٍ زَالَ الْمَحْذُورُ وَهَذَا هُوَ

(308/555)

الْمَنَاطُ الَّذِي دَلَّ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ كَمَا قَالَ : ﴿ إلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ وَقَالَ : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ .

(309/555)

وَأَيْضًا فَإِنَّهُ عَلَّلَ ذَلِكَ بِخَوْفِ النَّدَمِ وَالنَّدَمُ إنَّمَا يَحْصُلُ عَلَى عُقُوبَةِ الْبَرِيءِ مِنْ الذَّنْبِ كَمَا فِي سُنَنِ أَبِي دَاوُد : ﴿ ادْرَءُوا الْحُدُودَ بِالشُّبُهَاتِ فَإِنَّ الْإِمَامَ إنْ يُخْطِئْ فِي الْعَفْوِ خَيْرٌ مِنْ أَنْ يُخْطِئَ فِي الْعُقُوبَةِ ﴾ فَإِذَا دَارَ الْأَمْرُ بَيْنَ أَنْ يُخْطِئَ فَيُعَاقِبَ بَرِيئًا أَوْ يُخْطِئَ فَيَعْفُوَ عَنْ مُذْنِبٍ كَانَ هَذَا الْخَطَأُ خَيْرُ الْخَطَأَيْنِ . أَمَّا إذَا حَصَلَ عِنْدَهُ عِلْمٌ أَنَّهُ لَمْ يُعَاقِبْ إلَّا مُذْنِبًا فَإِنَّهُ لَا يَنْدَمُ وَلَا يَكُونُ فِيهِ خَطَأٌ وَاَللَّهُ أَعْلَمُ . وَقَدْ ذَكَرَ الشَّافِعِيُّ وَأَحْمَد أَنَّ التَّغْرِيبَ جَاءَ فِي السُّنَّةِ فِي مَوْضِعَيْنِ " أَحَدُهُمَا " أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ فِي الزَّانِي إذَا لَمْ يُحْصَنْ : ﴿ جَلْدُ مِائَةٍ وَتَغْرِيبُ عَامٍ ﴾ وَالثَّانِي نَفْيُ الْمُخَنَّثِينَ فِيمَا رَوَتْهُ أُمُّ سَلَمَةَ ﴿ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَخَلَ عَلَيْهَا وَعِنْدَهَا مُخَنَّثٌ وَهُوَ يَقُولُ لِعَبْدِ اللَّهِ أَخِيهَا : إنْ فَتَحَ اللَّهُ لَك الطَّائِفَ غَدًا أَدُلُّك عَلَى ابْنَةِ غَيْلَانَ فَإِنَّهَا تُقْبِلُ بِأَرْبَعٍ وَتُدْبِرُ بِثَمَانٍ . فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَخْرِجُوهُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ ﴾ رَوَاهُ الْجَمَاعَةُ إلَّا التِّرْمِذِيُّ . وَفِي رِوَايَةٍ فِي الصَّحِيحِ ﴿ لَا يَدْخُلَنَّ هَؤُلَاءِ عَلَيْكُمْ ﴾ وَفِي رِوَايَةٍ ﴿ أَرَى هَذَا يَعْرِفُ مِثْلَ هَذَا لَا يَدْخُلَنَّ عَلَيْكُمْ بَعْدَ الْيَوْمِ ﴾ . قَالَ ابْنُ جريج : الْمُخَنَّثُ هُوَ هيت وَهَكَذَا ذَكَرَهُ غَيْرُهُ . وَقَدْ قِيلَ : إنَّهُ هَنَبٌ وَزَعَمَ بَعْضُهُمْ أَنَّهُ مَاتِعٌ وَقِيلَ

هَوَانٌ . وَرَوَى الْجَمَاعَةُ إلَّا مُسْلِمًا ﴿ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَعَنَ الْمُخَنَّثِينَ مِنْ الرِّجَالِ ،

(311/555)

والمترجلات مِنْ النِّسَاءِ وَقَالَ : أَخْرِجُوهُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ وَأَخْرِجُوا فُلَانًا وَفُلَانًا : يَعْنِي الْمُخَنَّثِينَ ﴾ وَقَدْ ذَكَرَ بَعْضُهُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا ثَلَاثَةً : - بَهْمٌ وَهِيتُ وَمَاتِعٌ - عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَمْ يَكُونُوا يُرْمَوْنَ بِالْفَاحِشَةِ الْكُبْرَى إنَّمَا كَانَ تَخْنِيثُهُمْ وَتَأْنِيثُهُمْ لِينًا فِي الْقَوْلِ وَخِضَابًا فِي الْأَيْدِي وَالْأَرْجُلِ كَخِضَابِ النِّسَاءِ وَلَعِبًا كَلَعِبِهِنَّ . وَفِي سُنَنِ أَبِي دَاوُد عَنْ أَبِي يَسَارٍ الْقُرَشِيِّ عَنْ أَبِي هَاشِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ . ﴿ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُتِيَ بِمُخَنَّثٍ وَقَدْ خَضَبَ رِجْلَيْهِ وَيَدَيْهِ بِالْحِنَّاءِ فَقَالَ : مَا بَالُ هَذَا ؟ فَقِيلَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ يَتَشَبَّهُ بِالنِّسَاءِ فَأَمَرَ بِهِ فَنُفِيَ إلَى النَّقِيعِ فَقِيلَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلَا نَقْتُلُهُ فَقَالَ : إنِّي نُهِيت عَنْ قَتْلِ الْمُصَلِّينَ ﴾ قَالَ أَبُو أُسَامَةَ حَمَّادُ بْنُ أُسَامَةَ : وَالنَّقِيعُ نَاحِيَةٌ عَنْ الْمَدِينَةِ وَلَيْسَ بِالْبَقِيعِ وَقِيلَ : إنَّهُ الَّذِي حَمَاهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِإِبِلِ الصَّدَقَةِ ثُمَّ حَمَاهُ عُمَرُ وَهُوَ عَلَى عِشْرِينَ فَرْسَخًا مِنْ الْمَدِينَةِ وَقِيلَ : عِشْرِينَ مِيلًا . وَنَقِيعُ الْخُضُمَّاتِ مَوْضِعٌ آخَرُ

قُرْبَ الْمَدِينَةِ وَقِيلَ : هُوَ الَّذِي حَمَاهُ عُمَرُ . وَالنَّقِيعُ مَوْضِعٌ يَسْتَنْقِعُ فِيهِ الْمَاءُ كَمَا فِي الْحَدِيثِ : ﴿ أَوَّلُ جُمْعَةٍ جُمِعَتْ بِالْمَدِينَةِ فِي نَقِيعِ الْخُضُمَّاتِ ﴾ . فَإِذَا كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ أَمَرَ بِإِخْرَاجِ مِثْلِ هَؤُلَاءِ مِنْ الْبُيُوتِ

(312/555)

فَمَعْلُومٌ أَنَّ الَّذِي يُمَكِّنُ الرِّجَالَ مِنْ نَفْسِهِ وَالِاسْتِمْتَاعِ بِهِ وَبِمَا يُشَاهِدُونَهُ مِنْ مَحَاسِنِهِ وَفِعْلِ الْفَاحِشَةِ الْكُبْرَى بِهِ شَرٌّ مِنْ هَؤُلَاءِ وَهُوَ

أَحَقُّ بِالنَّفْيِ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِ الْمُسْلِمِينَ وَإِخْرَاجِهِ عَنْهُمْ ؛ فَإِنَّ الْمُخَنَّثَ فِيهِ إفْسَادٌ لِلرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ ؛ لِأَنَّهُ إذَا تَشَبَّهَ بِالنِّسَاءِ فَقَدْ تُعَاشِرُهُ النِّسَاءُ وَيَتَعَلَّمْنَ مِنْهُ وَهُوَ رَجُلٌ فَيُفْسِدُهُنَّ وَلِأَنَّ الرِّجَالَ إذَا مَالُوا إلَيْهِ فَقَدْ يُعْرِضُونَ عَنْ النِّسَاءِ ؛ وَلِأَنَّ الْمَرْأَةَ إذَا رَأَتْ الرَّجُلَ يَتَخَنَّثُ فَقَدْ تَتَرَجَّلُ هِيَ وَتَتَشَبَّهُ بِالرِّجَالِ فَتُعَاشِرُ الصِّنْفَيْنِ وَقَدْ تَخْتَارُ هِيَ مُجَامَعَةَ النِّسَاءِ كَمَا يَخْتَارُ هُوَ مُجَامَعَةَ الرِّجَالِ . وَأَمَّا إفْسَادُهُ لِلرِّجَالِ فَهُوَ أَنْ يُمَكِّنَهُمْ مِنْ الْفِعْلِ بِهِ - كَمَا يَفْعَلُ بِالنِّسَاءِ - بِمُشَاهَدَتِهِ وَمُبَاشَرَتِهِ وَعِشْقِهِ فَإِذَا أُخْرِجَ مِنْ بَيْنِ النَّاسِ وَسَافَرَ إلَى بَلَدٍ آخَرَ سَاكِنٍ فِيهِ النَّاسُ وَوَجَدَ هُنَاكَ مَنْ يَفْعَلُ بِهِ الْفَاحِشَةَ فَهُنَا يَكُونُ نَفْيُهُ بِحَبْسِهِ فِي مَكَانٍ

وَاحِدٍ لَيْسَ مَعَهُ فِيهِ غَيْرُهُ وَإِنْ خِيفَ خُرُوجُهُ فَإِنَّهُ يُقَيَّدُ إذْ هَذَا هُوَ مَعْنَى نَفْيِهِ وَإِخْرَاجِهِ مِنْ بَيْنِ النَّاسِ .

(313/555)

وَلِهَذَا تَنَازَعَ الْعُلَمَاءُ فِي نَفْيِ الْمُحَارِبِ مِنْ الْأَرْضِ هَلْ هُوَ طَرْدُهُ بِحَيْثُ لَا يَأْوِي فِي بَلَدٍ أَوْ حَبْسُهُ أَوْ بِحَسَبِ مَا يَرَاهُ الْإِمَامُ مِنْ هَذَا وَهَذَا فَفِي مَذْهَبِ أَحْمَد ثَلَاثُ رِوَايَاتٍ الثَّالِثَةُ أَعْدَلُ وَأَحْسَنُ فَإِنَّ نَفْيَهُ بِحَيْثُ لَا يَأْوِي فِي بَلَدٍ لَا يُمْكِنُ لِتَفَرُّقِ الرَّعِيَّةِ وَاخْتِلَافِ هِمَمِهِمْ ؛ بَلْ قَدْ يَكُونُ بِطَرْدِهِ يَقْطَعُ الطَّرِيقَ وَحَبْسُهُ قَدْ لَا يُمْكِنُ ؛ لِأَنَّهُ يَحْتَاجُ إلَى مُؤْنَةٍ إلَى طَعَامٍ وَشَرَابٍ وَحَارِسٍ ؛ وَلَا رَيْبَ أَنَّ النَّفْيَ أَسْهَلُ إنْ أَمْكَنَ .

(314/555)

وَقَدْ رُوِيَ ﴿ أَنَّ هِيتًا لَمَّا اشْتَكَى الْجُوعَ أَمَرَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَدْخُلَ الْمَدِينَةَ مِنْ الْجُمُعَةِ إلَى الْجُمُعَةِ يَسْأَلُ مَا يُقِيتُهُ إلَى الْجُمُعَةِ الْأُخْرَى ﴾ وَمَعْلُومٌ أَنَّ قَوْلَهُ : ﴿ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ﴾ لَا يَتَضَمَّنُ نَفْيَهُ مِنْ جَمِيعِ الْأَرْضِ وَإِنَّمَا هُوَ نَفْيُهُ مِنْ بَيْنِ النَّاسِ وَهَذَا حَاصِلٌ

بِطَرْدِهِ وَحَبْسِهِ . وَهَذَا الَّذِي جَاءَتْ بِهِ الشَّرِيعَةُ مِنْ النَّفْيِ هُوَ نَوْعٌ مِنْ الْهِجْرَةِ أَيْ هَجْرِهِ وَلَيْسَ هَذَا كَنَفْيِ الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا وَلَا هَجْرُهُ كَهَجْرِهِمْ فَإِنَّهُ مَنَعَ النَّاسَ مِنْ مُخَالَطَتِهِمْ وَمُخَاطَبَتِهِمْ حَتَّى أَزْوَاجُهُمْ وَلَمْ يَمْنَعْهُمْ مِنْ مُشَاهَدَةِ النَّاسِ وَحُضُورِ مَجَامِعِهِمْ فِي الصَّلَاةِ وَغَيْرِهَا وَهَذَا دُونَ النَّفْيِ الْمَشْرُوعِ فَإِنَّ النَّفْيَ الْمَشْرُوعَ مَجْمُوعٌ مِنْ الْأَمْرَيْنِ وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْآدَمِيِّينَ مُحْتَاجِينَ إلَى مُعَاوَنَةِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا عَلَى مَصْلَحَةِ دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ فَمَنْ كَانَ بِمُخَالَطَتِهِ لِلنَّاسِ لَا يَحْصُلُ مِنْهُ عَوْنٌ عَلَى الدِّينِ بَلْ يُفْسِدُهُمْ وَيَضُرُّهُمْ فِي دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ اسْتَحَقَّ الْإِخْرَاجَ مِنْ بَيْنِهِمْ وَذَلِكَ أَنَّهُ مَضَرَّةٌ بِلَا مَصْلَحَةٍ ؛ فَإِنَّ مُخَالَطَتَهُ لَهُمْ فِيهَا فَسَادُهُمْ وَفَسَادُ أَوْلَادِهِمْ ؛ فَإِنَّ الصَّبِيَّ إذَا رَأَى صَبِيًّا مِثْلَهُ يَفْعَلُ شَيْئًا تَشَبَّهَ بِهِ وَسَارَ بِسِيرَتِهِ مَعَ الْفُسَّاقِ فَإِنَّ الِاجْتِمَاعَ بِالزُّنَاةِ وَاللُّوطِيِّينَ فِيهِ أَعْظَمُ الْفَسَادِ وَالضَّرَرِ عَلَى النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ وَالرِّجَالِ فَيَجِبُ أَنْ يُعَاقَبَ

(315/555)

اللُّوطِيُّ وَالزَّانِي بِمَا فِيهِ تَفْرِيقُهُ وَإِبْعَادُهُ . وَجِمَاعُ الْهِجْرَةِ هِيَ هِجْرَةُ السَّيِّئَاتِ وَأَهْلِهَا وَكَذَلِكَ هِجْرَانُ الدُّعَاةِ إلَى

(316/555)

الْبدعِ وَهِجْرَانُ الْفُسَّاقِ وَهِجْرَانُ مَنْ يُخَالِطُ هَؤُلَاءِ كُلَّهُمْ أَوْ يُعَاوِنُهُمْ وَكَذَلِكَ مَنْ يَتْرُكُ الْجِهَادَ الَّذِي لَا مَصْلَحَةَ لَهُمْ بِدُونِهِ فَإِنَّهُ يُعَاقَبُ بِهَجْرِهِمْ لَهُ لَمَّا لَمْ يُعَاوِنُهُمْ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى فَالزُّنَاةُ وَاللُّوطِيَّةُ وَتَارِكُ الْجِهَادِ وَأَهْلُ الْبِدَعِ وَشُرْبَةُ الْخَمْرِ هَؤُلَاءِ كُلُّهُمْ وَمُخَالَطَتُهُمْ مُضِرَّةٌ عَلَى دِينِ الْإِسْلَامِ وَلَيْسَ فِيهِمْ مُعَاوَنَةٌ لَا عَلَى بِرٍّ وَلَا تَقْوَى فَمَنْ لَمْ يَهْجُرْهُمْ كَانَ تَارِكًا لِلْمَأْمُورِ فَاعِلًا لِلْمَحْظُورِ فَهَذَا تَرْكُ الْمَأْمُورِ مِنْ الِاجْتِمَاعِ وَذَلِكَ فِعْلُ الْمَحْظُورِ مِنْهُ فَعُوقِبَ كُلٌّ مِنْهَا بِمَا يُنَاسِبُ جُرْمَهُ فَإِنَّ الْعُقُوبَةَ إنَّمَا تَكُونُ عَلَى تَرْكِ مَأْمُورٍ أَوْ فِعْلِ مَحْظُورٍ كَمَا قَالَ الْفُقَهَاءُ : إنَّمَا يَشْرَعُ التَّعْزِيرُ فِي مَعْصِيَةٍ لَيْسَ فِيهَا حَدٌّ فَإِنْ كَانَ فِيهَا كَفَّارَةٌ فَعَلَى قَوْلَيْنِ فِي مَذْهَبِ أَحْمَد وَغَيْرِهِ . قَالَ : وَمَا جَاءَتْ بِهِ الشَّرِيعَةُ مِنْ الْمَأْمُورَاتِ وَالْعُقُوبَاتِ وَالْكَفَّارَاتِ وَغَيْرِ ذَلِكَ فَإِنَّهُ يَفْعَلُ مِنْهُ بِحَسَبِ الِاسْتِطَاعَةِ فَإِذَا لَمْ يَقْدِرْ الْمُسْلِمُ عَلَى جِهَادِ جَمِيعِ الْمُشْرِكِينَ فَإِنَّهُ يُجَاهِدُ مَنْ يَقْدِرُ عَلَى جِهَادِهِ وَكَذَلِكَ إذَا لَمْ يَقْدِرْ عَلَى عُقُوبَةِ جَمِيعِ الْمُعْتَدِينَ فَإِنَّهُ يُعَاقِبُ مَنْ يَقْدِرُ عَلَى عُقُوبَتِهِ فَإِذَا لَمْ يُمْكِنْ النَّفْيُ وَالْحَبْسُ عَنْ جَمِيعِ النَّاسِ كَانَ النَّفْيُ وَالْحَبْسُ عَلَى حَسَبِ الْقُدْرَةِ مِثْلُ أَنْ يُحْبَسَ بِدَارٍ لَا يُبَاشِرُ إلَّا أَهْلَهَا لَا يَخْرُجُ مِنْهَا أَوْ أَنْ لَا يُبَاشِرَ إلَّا شَخْصًا أَوْ

شَخْصَيْنِ فَهَذَا هُوَ الْمُمْكِنُ ؛ فَيَكُونُ هُوَ الْمَأْمُورُ بِهِ وَإِنْ أَمْكَنَ أَنْ يُجْعَلَ فِي مَكَانٍ قَدْ قَلَّ فِيهِ الْقَبِيحُ وَلَا يُعْدَمُ بِالْكُلِّيَّةِ كَانَ ذَلِكَ هُوَ الْمَأْمُورُ بِهِ فَإِنَّ الشَّرِيعَةَ جَاءَتْ بِتَحْصِيلِ

(318/555)

الْمَصَالِحِ وَتَكْمِيلِهَا وَتَعْطِيلِ الْمَفَاسِدِ وَتَقْلِيلِهَا فَالْقَلِيلُ مِنْ الْخَيْرِ خَيْرٌ مِنْ تَرْكِهِ وَدَفْعُ بَعْضِ الشَّرِّ خَيْرٌ مِنْ تَرْكِهِ كُلِّهِ وَكَذَلِكَ الْمَرْأَةُ الْمُتَشَبِّهَةُ بِالرِّجَالِ تُحْبَسُ شَبِيهًا بِحَالِهَا إذَا زَنَتْ سَوَاءٌ كَانَتْ بِكْرًا أَوْ ثَيِّبًا فَإِنَّ جِنْسَ الْحَبْسِ مِمَّا شُرِعَ فِي جِنْسِ الْفَاحِشَةِ . وَمِمَّا يَدْخُلُ فِي هَذَا أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ نَفَى نَصْرَ بْنَ حَجَّاجٍ مِنْ الْمَدِينَةِ وَمِنْ وَطَنِهِ إلَى الْبَصْرَةِ لَمَّا سَمِعَ تَشْبِيبَ النِّسَاءِ بِهِ وَتَشَبُّهَهُ بِهِنَّ وَكَانَ أَوَّلًا قَدْ أَمَرَ بِأَخْذِ شَعْرِهِ ؛ لِيُزِيلَ جَمَالَهُ الَّذِي كَانَ يَفْتِنُ بِهِ النِّسَاءَ فَلَمَّا رَآهُ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ وَجْنَتَيْنِ غَمَّهُ ذَلِكَ فَنَفَاهُ إلَى الْبَصْرَةِ فَهَذَا لَمْ يَصْدُرْ مِنْهُ ذَنْبٌ وَلَا فَاحِشَةٌ يُعَاقَبُ عَلَيْهَا ؛ لَكِنْ كَانَ فِي النِّسَاءِ مَنْ يَفْتَتِنُ بِهِ فَأَمَرَ بِإِزَالَةِ جَمَالِهِ الْفَاتِنِ فَإِنَّ انْتِقَالَهُ عَنْ وَطَنِهِ مِمَّا يُضْعِفُ هِمَّتَهُ وَبَدَنَهُ وَيُعْلَمُ أَنَّهُ مُعَاقَبٌ وَهَذَا مِنْ بَابِ التَّفْرِيقِ بَيْنَ الَّذِينَ يُخَافُ عَلَيْهِمْ الْفَاحِشَةُ وَالْعِشْقُ قَبْلَ وُقُوعِهِ وَلَيْسَ مِنْ بَابِ الْمُعَاقَبَةِ وَقَدْ كَانَ عُمَرُ يَنْفِي فِي الْخَمْرِ إلَى خَيْبَرَ زِيَادَةً فِي عُقُوبَةِ شَارِبِهَا . وَمَنْ أَقْوَى مَا يُهَيِّجُ الْفَاحِشَةَ

إنْشَادُ أَشْعَارِ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مِنْ الْعِشْقِ وَمَحَبَّةِ الْفَوَاحِشِ وَمُقَدِّمَاتِهَا بِالْأَصْوَاتِ الْمُطْرِبَةِ فَإِنَّ الْمُغَنِّيَ إذَا غَنَّى بِذَلِكَ حَرَّكَ الْقُلُوبَ الْمَرِيضَةَ إلَى مَحَبَّةِ الْفَوَاحِشِ فَعِنْدَهَا يَهِيجُ مَرَضُهُ

(319/555)

وَيَقْوَى بَلَاؤُهُ وَإِنْ كَانَ الْقَلْبُ فِي عَافِيَةٍ مِنْ ذَلِكَ جَعَلَ فِيهِ مَرَضًا كَمَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ : الْغِنَاءُ رُقْيَةُ الزِّنَا .

(320/555)

وَرُقْيَةُ الْحَيَّةِ هِيَ مَا تُسْتَخْرَجُ بِهَا الْحَيَّةُ مِنْ جُحْرِهَا وَرُقْيَةُ الْعَيْنِ وَالْحُمَّةِ هِيَ مَا تُسْتَخْرَجُ بِهِ الْعَافِيَةُ وَرُقْيَةُ الزِّنَا هُوَ مَا يَدْعُو إلَى الزِّنَا وَيُخْرِجُ مِنْ الرَّجُلِ هَذَا الْأَمْرَ الْقَبِيحَ وَالْفِعْلَ الْخَبِيثَ كَمَا أَنَّ الْخَمْرَ أُمُّ الْخَبَائِثِ قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ : " الْغِنَاءُ يُنْبِتُ النِّفَاقَ فِي الْقَلْبِ كَمَا يُنْبِتُ الْمَاءُ الْبَقْلَ " وَقَالَ تَعَالَى لِإبْلِيسَ : ﴿ وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ﴾ وَاسْتِفْزَازُهُ إيَّاهُمْ بِصَوْتِهِ يَكُونُ

بِالْغِنَاءِ - كَمَا قَالَ مَنْ قَالَ مِنْ السَّلَفِ - وَبِغَيْرِهِ مِنْ الْأَصْوَاتِ كَالنِّيَاحَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ فَإِنَّ هَذِهِ الْأَصْوَاتَ كُلَّهَا تُوجِبُ انْزِعَاجَ الْقَلْبِ وَالنَّفْسَ الْخَبِيثَةَ إلَى ذَلِكَ وَتُوجِبُ حَرَكَتَهَا السَّرِيعَةَ وَاضْطِرَابَهَا حَتَّى يَبْقَى الشَّيْطَانُ يَلْعَبُ بِهَؤُلَاءِ أَعْظَمَ مِنْ لَعِبِ الصِّبْيَانِ بِالْكُرَةِ وَالنَّفْسُ مُتَحَرِّكَةٌ ؛ فَإِنْ سَكَنَتْ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَإِلَّا فَهِيَ لَا تَزَالُ مُتَحَرِّكَةً . وَشَبَّهَهَا بَعْضُهُمْ بِكُرَةٍ عَلَى مُسْتَوَى أَمْلَسَ لَا تَزَالُ تَتَحَرَّكُ عَلَيْهِ وَفِي الْحَدِيثِ الْمَرْفُوعِ : ﴿ الْقَلْبُ أَشَدُّ تَقَلُّبًا مِنْ الْقِدْرِ إذَا اسْتَجْمَعَتْ غَلَيَانًا ﴾ وَفِي الْحَدِيثِ الْآخَرِ : ﴿ مَثَلُ الْقَلْبِ مَثَلُ رِيشَةٍ بِفَلَاةٍ مِنْ الْأَرْضِ تُحَرِّكُهَا الرِّيحُ ﴾ وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ سَالِمٍ عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ : ﴿ كَانَتْ يَمِينُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا وَمُقَلِّبِ الْقُلُوبِ ﴾ وَفِي

(321/555)

صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : ﴿ اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ اصْرِفْ قُلُوبَنَا إلَى طَاعَتِك ﴾ وَفِي التِّرْمِذِيِّ عَنْ أَبِي سُفْيَانَ ﴿ قَالَ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ : يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِك . قَالَ فَقُلْت : يَا رَسُولَ اللَّهِ آمَنَّا بِك وَبِمَا جِئْت بِهِ فَهَلْ تَخَافُ عَلَيْنَا ؟ قَالَ : نَعَمْ . الْقُلُوبُ بَيْنَ إصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللَّهِ يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ .

وقَوْله تَعَالَى ﴿ الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ لَمَّا أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِعُقُوبَةِ الزَّانِيَيْنِ حَرَّمَ مُنَاكَحَتَهُمَا عَلَى الْمُؤْمِنِينَ هَجْرًا لَهُمَا وَلِمَا مَعَهُمَا مِنْ الذُّنُوبِ وَالسَّيِّئَاتِ . كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾ وَجَعَلَ مُجَالِسَ فَاعِلِ ذَلِكَ الْمُنْكَرِ مِثْلَهُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إنَّكُمْ إذًا مِثْلُهُمْ ﴾ وَهُوَ زَوْجٌ لَهُ وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : ﴿ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ ﴾ أَيْ عُشَرَاءَهُمْ وَقُرَنَاءَهُمْ وَأَشْبَاهَهُمْ وَنُظَرَاءَهُمْ وَلِهَذَا يُقَالُ الْمُسْتَمِعُ شَرِيكُ الْمُغْتَابِ . وَرُفِعَ إلَى عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ قَوْمٌ يَشْرَبُونَ الْخَمْرَ وَكَانَ فِيهِمْ جَلِيسٌ لَهُمْ صَائِمٌ فَقَالَ : ابْدَءُوا بِهِ فِي الْجَلْدِ أَلَمْ تَسْمَعْ اللَّهَ يَقُولُ ﴿ فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ ﴾ ؟ فَإِذَا كَانَ هَذَا فِي الْمُجَالَسَةِ وَالْعِشْرَةِ الْعَارِضَةِ حِينَ فِعْلِهِمْ لِلْمُنْكَرِ يَكُونُ مُجَالِسُهُمْ مِثْلًا لَهُمْ فَكَيْفَ بِالْعِشْرَةِ الدَّائِمَةِ . وَالزَّوْجُ يُقَالُ لَهُ الْعَشِيرُ كَمَا فِي الْحَدِيثِ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ رَأَيْت النَّارَ فَإِذَا أَكْثَرُ أَهْلِهَا النِّسَاءُ

يَكْفُرْنَ قِيلَ : يَكْفُرْنَ بِاللَّهِ ؟ قَالَ : يَكْفُرْنَ الْعَشِيرَ وَيَكْفُرْنَ الْإِحْسَانَ ﴾ فَأَخْبَرَ أَنَّهُ لَا يَفْعَلُ ذَلِكَ إلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ . أَمَّا الْمُشْرِكُ فَلَا إيمَانَ لَهُ يَزْجُرُهُ عَنْ الْفَوَاحِشِ وَمُجَامَعَةِ أَهْلِهَا . وَأَمَّا الزَّانِي فَفُجُورُهُ يَدْعُوهُ إلَى ذَلِكَ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مُشْرِكًا . وَفِي الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الزَّانِيَ لَيْسَ بِمُؤْمِنٍ مُطْلَقِ الْإِيمَانِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ كَافِرًا مُشْرِكًا كَمَا فِي الصَّحِيحِ : ﴿ لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ وَذَلِكَ أَنَّهُ أَخْبَرَ أَنَّهُ لَا يَنْكِحُ إلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ فَعُلِمَ أَنَّ الْإِيمَانَ يَمْنَعُ مِنْ ذَلِكَ وَيَزْجُرُ وَأَنَّ فَاعِلَهُ إمَّا مُشْرِكٌ وَإِمَّا زَانٍ لَيْسَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَمْنَعُهُمْ إيمَانُهُمْ مِنْ ذَلِكَ وَذَلِكَ أَنَّ الزَّانِيَةَ فِيهَا إفْسَادُ فِرَاشِ الرَّجُلِ وَفِي مُنَاكَحَتِهَا مُعَاشَرَةُ الْفَاجِرَةِ دَائِمًا وَمُصَاحَبَتُهَا وَاَللَّهُ قَدْ أَمَرَ بِهَجْرِ السُّوءِ وَأَهْلِهِ مَا دَامُوا عَلَيْهِ وَهَذَا الْمَعْنَى مَوْجُودٌ فِي الزَّانِي فَإِنَّ الزَّانِيَ إنْ لَمْ يُفْسِدْ فِرَاشَ امْرَأَتِهِ كَانَ قَرِينَ سُوءٍ لَهَا كَمَا قَالَ الشَّعْبِيُّ : مَنْ زَوَّجَ كَرِيمَتَهُ مِنْ فَاسِقٍ فَقَدْ قَطَعَ رَحِمَهَا . وَهَذَا مِمَّا يَدْخُلُ بِهِ عَلَى الْمَرْأَةِ ضَرَرٌ فِي دِينِهَا وَدُنْيَاهَا فَنِكَاحُ الزَّانِيَةِ أَشَدُّ مِنْ جِهَةِ الْفِرَاشِ وَنِكَاحُ الزَّانِي أَشَدُّ مِنْ جِهَةِ أَنَّهُ السَّيِّدُ الْمَالِكُ الْحَاكِمُ عَلَى الْمَرْأَةِ فَتَبْقَى الْمَرْأَةُ الْحُرَّةُ الْعَفِيفَةُ فِي أَسْرِ الْفَاجِرِ

الزَّانِي

الَّذِي يُقَصِّرُ فِي حُقُوقِهَا وَيَتَعَدَّى عَلَيْهَا . وَلِهَذَا اتَّفَقَ الْفُقَهَاءُ عَلَى اعْتِبَارِ الْكَفَاءَةِ فِي الدِّينِ وَعَلَى ثُبُوتِ الْفَسْخِ بِفَوَاتِ هَذِهِ الْكَفَاءَةِ وَاخْتَلَفُوا فِي صِحَّةِ النِّكَاحِ بِدُونِ ذَلِكَ وَهُمَا قَوْلَانِ مَشْهُورَانِ فِي مَذْهَبِ أَحْمَد وَغَيْرِهِ فَإِنَّ مَنْ نَكَحَ زَانِيَةً مَعَ أَنَّهَا تَزْنِي فَقَدْ رَضِيَ بِأَنْ يَشْتَرِكَ هُوَ وَغَيْرُهُ فِيهَا وَرَضِيَ لِنَفْسِهِ بِالْقِيَادَةِ وَالدَّيَّاثَةِ وَمَنْ نَكَحَتْ زَانٍ وَهُوَ يَزْنِي بِغَيْرِهَا فَهُوَ لَا يَصُونُ مَاءَهُ حَتَّى يَضَعَهُ فِيهَا ؛ بَلْ يَرْمِيهِ فِيهَا وَفِي غَيْرِهَا مِنْ الْبَغَايَا فَهِيَ بِمَنْزِلَةِ الزَّانِيَةِ الْمُتَّخِذَةِ خِدْنًا فَإِنَّ مَقْصُودَ النِّكَاحِ حِفْظُ الْمَاءِ فِي الْمَرْأَةِ وَهَذَا الرَّجُلُ لَا يَحْفَظُ مَاءَهُ وَاَللَّهُ سُبْحَانَهُ شَرَطَ فِي الرِّجَالِ أَنْ يَكُونُوا مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَقَالَ : ﴿ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ ﴾ وَهَذَا الْمَعْنَى مِمَّا لَا يَنْبَغِي إغْفَالُهُ ؛ فَإِنَّ الْقُرْآنَ قَدْ نَصَّهُ وَبَيَّنَهُ بَيَانًا مَفْرُوضًا كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا ﴾ . فَأَمَّا تَحْرِيمُ نِكَاحِ الزَّانِيَةِ فَقَدْ تَكَلَّمَ فِيهِ الْفُقَهَاءُ مِنْ أَصْحَابِ أَحْمَد وَغَيْرِهِمْ وَفِيهِ آثَارٌ عَنْ السَّلَفِ وَإِنْ كَانَ الْفُقَهَاءُ قَدْ تَنَازَعُوا فِيهِ وَلَيْسَ مَعَ مَنْ أَبَاحَهُ مَا يَعْتَمِدُ عَلَيْهِ . وَقَدْ ادَّعَى بَعْضُهُمْ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ مَنْسُوخَةٌ بِقَوْلِهِ ﴿ وَالْمُحْصَنَاتُ ﴾

وَزَعَمُوا أَنَّ الْبَغْيَ مِنْ الْمُحْصَنَاتِ وَتِلْكَ الْآيَاتُ حُجَّةٌ عَلَيْهِمْ فَإِنَّ أَقَلَّ مَا فِي الْإِحْصَانِ الْعِفَّةُ وَإِذَا اشْتُرِطَ فِيهِ الْحُرِّيَّةُ فَذَاكَ تَكْمِيلٌ لِلْعِفَّةِ وَالْإِحْصَانِ وَمَنْ حَرَّمَ نِكَاحَ الْأَمَةِ لِئَلَّا يُرِقَّ وَلَدَهُ كَيْفَ يُبِيحُ الْبَغِيَّ الَّتِي تُلْحِقُ بِهِ مَنْ لَيْسَ بِوَلَدِهِ وَأَيْنَ فَسَادُ فِرَاشِهِ مِنْ رِقِّ وَلَدِهِ وَكَذَلِكَ مَنْ زَعَمَ أَنَّ النِّكَاحَ هُنَا هُوَ الْوَطْءُ وَالْمَعْنَى أَنَّ الزَّانِيَ لَا يَطَأُ إلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَطَؤُهَا إلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَهَذَا أَبْلَغُ فِي الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ فَمَنْ وَطِئَ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً بِنِكَاحٍ فَهُوَ زَانٍ وَكَذَلِكَ مَنْ وَطِئَهَا زَانٍ فَإِنَّ ذَمَّ الزَّانِي بِفِعْلِهِ الَّذِي هُوَ الزِّنَا حَتَّى لَوْ اسْتَكْرَهَهَا أَوْ اسْتَدْخَلَتْ ذَكَرَهُ وَهُوَ نَائِمٌ كَانَتْ الْعُقُوبَةُ لِلزَّانِي دُونَ قَرِينِهِ وَهَذِهِ الْمَسْأَلَةُ مَبْسُوطَةٌ فِي كُتُبِ الْفِقْهِ .

وَالْمَقْصُودُ قَوْلُهُ ﴿ الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً ﴾ فَإِنَّ هَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الزَّانِيَ لَا يَتَزَوَّجُ إلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَإِنَّ ذَلِكَ حَرَامٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَلَيْسَ هَذَا لِمُجَرَّدِ كَوْنِهِ فَاجِرًا بَلْ لِخُصُوصِ كَوْنِهِ زَانِيًا وَكَذَلِكَ فِي الْمَرْأَةِ لَيْسَ لِمُجَرَّدِ فُجُورِهَا بَلْ لِخُصُوصِ زِنَاهَا بِدَلِيلِ أَنَّهُ جَعَلَ الْمَرْأَةَ زَانِيَةً إذَا تَزَوَّجَتْ زَانِيًا كَمَا جَعَلَ الزَّوْجَ زَانِيًا إذَا تَزَوَّجَ زَانِيَةً هَذَا إذَا كَانَا مُسْلِمَيْنِ يَعْتَقِدَانِ تَحْرِيمَ الزِّنَا وَإِذَا كَانَا مُشْرِكَيْنِ فَيَنْبَغِي أَنْ يُعْلَمَ ذَلِكَ . وَمَضْمُونُهُ

أَنَّ الرَّجُلَ الزَّانِيَ لَا يَجُوزُ نِكَاحُهُ حَتَّى يَتُوبَ وَذَلِكَ بِأَنْ يُوَافِقَ اشْتِرَاطَهُ الْإِحْصَانَ وَالْمَرْأَةُ إذَا كَانَتْ

(327/555)

زَانِيَةً لَا تُحْصِنُ فَرْجَهَا عَنْ غَيْرِ زَوْجِهَا بَلْ يَأْتِيهَا هُوَ وَغَيْرُهُ كَانَ الزَّوْجُ زَانِيًا هُوَ وَغَيْرُهُ يَشْتَرِكُونَ فِي وَطْئِهَا كَمَا تَشْتَرِكُ الزُّنَاةُ فِي وَطْءِ الْمَرْأَةِ الْوَاحِدَةِ وَلِهَذَا يَجِبُ عَلَيْهِ نَفْيُ الْوَلَدِ الَّذِي لَيْسَ مِنْهُ . فَمَنْ نَكَحَ زَانِيَةً فَهُوَ زَانٍ أَيْ تَزَوَّجَهَا وَمَنْ نَكَحَتْ زَانِيًا فَهِيَ زَانِيَةٌ أَيْ تَزَوَّجَتْهُ ؛ فَإِنَّ كَثِيرًا مِنْ الزُّنَاةِ قَصَرُوا أَنْفُسَهُمْ عَلَى الزَّوَانِي فَتَكُونُ الْمَرْأَةُ خِدْنًا وَخَلِيلًا لَهُ لَا يَأْتِي غَيْرَهَا فَإِنَّ الرَّجُلَ إذَا كَانَ زَانِيًا لَا يُعِفُّ امْرَأَتَهُ وَإِذَا لَمْ يُعِفَّهَا تَشَوَّفَتْ هِيَ إلَى غَيْرِهِ فَزَنَتْ بِهِ كَمَا هُوَ الْغَالِبُ عَلَى نِسَاءِ الزَّوَانِي أَوْ مَنْ يَلُوطُ بِالصِّبْيَانِ فَإِنَّ نِسَاءَهُ يَزْنِينَ لِيَقْضِينَ إرْبَهُنَّ وَوَطَرَهُنَّ وَيُرَاغِمْنَ أَزْوَاجَهُنَّ بِذَلِكَ حَيْثُ لَمْ يَعِفُّوا أَنْفُسَهُمْ عَنْ غَيْرِ أَزْوَاجِهِنَّ فَهُنَّ أَيْضًا لَمْ يَعْفِفْنَ أَنْفُسَهُنَّ عَنْ غَيْرِ أَزْوَاجِهِنَّ ؛ وَلِهَذَا يُقَالُ : " عِفُّوا تَعِفَّ نِسَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَبَرُّوا آبَاءَكُمْ تَبَرَّكُمْ أَبْنَاؤُكُمْ " فَإِنَّ الْجَزَاءَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ وَكَمَا تَدِينُ تُدَانُ وَمِنْ عُقُوبَةِ السَّيِّئَةِ السَّيِّئَةُ بَعْدَهَا ؛ فَإِنَّ الرَّجُلَ إذَا رَضِيَ أَنْ يَنْكِحَ زَانِيَةً رَضِيَ بِأَنْ تَزْنِيَ امْرَأَتُهُ وَاَللَّهُ تَعَالَى قَدْ جَعَلَ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً فَأَحَدُهُمَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ مَا يُحِبُّ لِلْآخَرِ فَإِذَا

رَضِيَتْ الْمَرْأَةُ أَنْ تَنْكِحَ زَانِيًا فَقَدْ رَضِيَتْ عَمَلَهُ وَكَذَلِكَ إنْ رَضِيَ الرَّجُلُ أَنْ يَنْكِحَ زَانِيَةً فَقَدْ رَضِيَ

(328/555)

عَمَلَهَا وَمَنْ رَضِيَ الزِّنَا كَانَ بِمَنْزِلَةِ الزَّانِي . فَإِنَّ أَصْلَ الْفِعْلِ هُوَ الْإِرَادَةُ وَلِهَذَا جَاءَ فِي الْأَثَرِ " مَنْ غَابَ عَنْ مَعْصِيَةٍ فَرَضِيَهَا

كَانَ كَمَنْ شَهِدَهَا أَوْ فَعَلَهَا " : وَفِي الْحَدِيثِ ﴿ الْمَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ ﴾ وَأَعْظَمُ الْخِلَّةِ خِلَّةُ الزَّوْجَيْنِ . وَأَيْضًا فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ جَعَلَ فِي نُفُوسِ بَنِي آدَمَ مِنْ الْغَيْرَةِ مَا هُوَ مَعْرُوفٌ فَيَسْتَعْظِمُ الرَّجُلُ أَنْ يَطَأَ الرَّجُلُ امْرَأَتَهُ أَعْظَمَ مِنْ غَيْرَتِهِ عَلَى نَفْسِهِ أَنْ يَزْنِيَ فَإِذَا لَمْ يَكْرَهْ أَنْ تَكُونَ زَوْجَتُهُ بَغِيًّا وَهُوَ دَيُّوثٌ كَيْفَ يَكْرَهُ أَنْ يَكُونَ هُوَ زَانٍ وَلِهَذَا لَمْ يُوجَدْ مَنْ هُوَ دَيُّوثٌ أَوْ قَوَّادٌ يَعِفُّ عَنْ الزِّنَا فَإِنَّ الزَّانِيَ لَهُ شَهْوَةٌ فِي نَفْسِهِ وَالدَّيُّوثُ لَيْسَ لَهُ شَهْوَةٌ فِي زِنَا غَيْرِهِ فَإِذَا لَمْ يَكُنْ مَعَهُ إيمَانٌ يَكْرَهُ بِهِ زِنَا غَيْرِهِ بِزَوْجَتِهِ كَيْفَ يَكُونُ مَعَهُ إيمَانٌ يَمْنَعُهُ مِنْ الزِّنَا فَمَنْ اسْتَحَلَّ أَنْ يَتْرُكَ امْرَأَتَهُ تَزْنِي اسْتَحَلَّ أَعْظَمَ الزِّنَا وَمَنْ أَعَانَ عَلَى ذَلِكَ فَهُوَ كَالزَّانِي وَمَنْ أَقَرَّ عَلَى ذَلِكَ مَعَ إمْكَانِ تَغْيِيرِهِ فَقَدْ رَضِيَهُ وَمَنْ تَزَوَّجَ غَيْرَ تَائِبَةٍ فَقَدْ رَضِيَ أَنْ تَزْنِيَ إذْ لَا يُمْكِنُهُ مَنْعُهَا مِنْ ذَلِكَ فَإِنَّ كَيْدَ النِّسَاءِ عَظِيمٌ .

(329/555)

وَلِهَذَا جَازَ لِلرَّجُلِ إذَا أَتَتْ امْرَأَتُهُ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ أَنْ يَعْضُلَهَا لِتَفْتَدِيَ نَفْسَهَا مِنْهُ وَهُوَ نَصُّ أَحْمَد وَغَيْرِهِ لِأَنَّهَا بِزِنَاهَا طَلَبَتْ الِاخْتِلَاعَ مِنْهُ وَتَعَرَّضَتْ لِإِفْسَادِ نِكَاحِهِ فَإِنَّهُ لَا يُمْكِنُهُ الْمُقَامَ مَعَهَا حَتَّى تَتُوبَ وَلَا يَسْقُطُ الْمُهْرُ بِمُجَرَّدِ زِنَاهَا كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِلْمُلَاعِنِ لَمَّا قَالَ : مَالِي قَالَ ﴿ لَا مَالَ لَك عِنْدَهَا إنْ كُنْت صَادِقًا عَلَيْهَا فَهُوَ بِمَا اسْتَحْلَلْت مِنْ فَرْجِهَا وَإِنْ كُنْت كَاذِبًا عَلَيْهَا

(330/555)

فَهُوَ أَبْعَدُ لَك ﴾ لِأَنَّهَا إذَا زَنَتْ قَدْ تَتُوبُ ؛ لَكِنَّ زِنَاهَا يُبِيحُ لَهُ إعْضَالَهَا حَتَّى تَفْتَدِيَ مِنْهُ نَفْسَهَا إنْ اخْتَارَتْ فِرَاقَهُ أَوْ تَتُوبُ . وَفِي الْغَالِبِ أَنَّ الرَّجُلَ لَا يَزْنِي بِغَيْرِ امْرَأَتِهِ إلَّا إذَا أَعْجَبَهُ ذَلِكَ الْغَيْرُ فَلَا يَزَالُ يَزْنِي بِمَا يُعْجِبُهُ فَتَبْقَى امْرَأَتُهُ بِمَنْزِلَةِ الْمُعَلَّقَةِ الَّتِي لَا هِيَ أَيِّمٌ وَلَا ذَاتُ زَوْجٍ فَيَدْعُوهَا ذَلِكَ إلَى الزِّنَا وَيَكُونُ الْبَاعِثُ لَهَا عَلَى ذَلِكَ مُقَابَلَةُ زَوْجِهَا عَلَى وَجْهِ الْقِصَاصِ مُكَايِدَةً لَهُ وَمُغَايَظَةً ؛ فَإِنَّهُ مَا لَمْ يَحْفَظْ غَيْبَهَا لَمْ تَحْفَظْ غَيْبَهُ وَلَهَا فِي بُضْعِهِ حَقٌّ كَمَا لَهُ فِي

بُضْعِهَا حَقٌّ فَإِذَا كَانَ مِنْ الْعَادِينَ لِخُرُوجِهِ عَمَّا أَبَاحَ اللَّهُ لَهُ لَمْ يَكُنْ قَدْ أَحْصَنَ نَفْسَهُ وَأَيْضًا فَإِنَّ دَاعِيَةَ الزَّانِي تَشْتَغِلُ بِمَا يَخْتَارُهُ مِنْ الْبَغَايَا فَلَا تَبْقَى دَاعِيَتُهُ إلَى الْحَلَالِ تَامَّةً وَلَا غَيْرَتُهُ كَافِيَةً فِي إحْصَانِهِ الْمَرْأَةَ فَتَكُونُ عِنْدَهُ كَالزَّانِيَةِ الْمُتَّخِذَةِ خِدْنًا . وَهَذِهِ مَعَانٍ شَرِيفَةٌ لَا يَنْبَغِي إهْمَالُهَا . وَعَلَى هَذَا فَالْمَرْأَةُ الْمُسَاحِقَةُ زَانِيَةٌ كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ ﴿ زِنَا النِّسَاءِ سِحَاقُهُنَّ ﴾ وَالرَّجُلُ الَّذِي يَعْمَلُ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ بِمَمْلُوكٍ أَوْ غَيْرِهِ هُوَ زَانٍ وَالْمَرْأَةُ النَّاكِحَةُ لَهُ زَانِيَةٌ فَلَا تَنْكِحُهُ إلَّا زَانِيَةٌ أَوْ مُشْرِكَةٌ وَلِهَذَا يَكْثُرُ فِي نِسَاءِ اللُّوطِيَّةِ مَنْ تَزْنِي بِغَيْرِ زَوْجِهَا وَرُبَّمَا زَنَتْ بِمَنْ يَتَلَوَّطُ هُوَ بِهِ مُرَاغَمَةً لَهُ وَقَضَاءً لِوَطَرِهَا وَكَذَلِكَ الْمَرْأَةُ الْمُزَوَّجَةُ بِمُخَنَّثٍ يُنْكَحُ

(331/555)

كَمَا تُنْكَحُ هِيَ مُتَزَوِّجَةٌ بِزَانٍ بَلْ هُوَ أَسْوَأُ الشَّخْصَيْنِ حَالًا فَإِنَّهُ مَعَ الزِّنَا صَارَ مُخَنَّثًا مَلْعُونًا عَلَى نَفْسِهِ لِلتَّخْنِيثِ غَيْرُ اللَّعْنَةِ الَّتِي تُصِيبُهُ بِعَمَلِ قَوْمِ لُوطٍ

فَإِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَعَنَ مَنْ يَعْمَلُ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ وَثَبَتَ عَنْهُ فِي الصَّحِيحِ أَنَّهُ لَعَنَ الْمُخَنَّثِينَ مِنْ الرِّجَالِ وَالْمُتَرَجِّلَاتِ مِنْ النِّسَاءِ وَقَالَ ﴿ أَخْرِجُوهُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ . ﴾ وَكَيْفَ يَجُوزُ لِلْمَرْأَةِ أَنْ تَتَزَوَّجَ بِمُخَنَّثٍ قَدْ انْتَقَلَتْ شَهْوَتُهُ إلَى دُبُرِهِ ؟ فَهُوَ يُؤْتَى كَمَا تُؤْتَى الْمَرْأَةُ

وَتَضْعُفُ دَاعِيَتُهُ مِنْ أَمَامِهِ كَمَا تَضْعُفُ دَاعِيَةُ الزَّانِي بِغَيْرِ امْرَأَتِهِ عَنْهَا فَإِذَا لَمْ تَكُنْ لَهُ غَيْرَةٌ عَلَى نَفْسِهِ ضَعُفَتْ غَيْرَتُهُ عَلَى امْرَأَتِهِ وَغَيْرِهَا ؛ وَلِهَذَا يُوجَدُ مَنْ كَانَ مُخَنَّثًا لَيْسَ لَهُ كَبِيرُ غَيْرَةٍ عَلَى وَلَدِهِ وَمَمْلُوكِهِ وَمَنْ يَكْفُلُهُ وَالْمَرْأَةُ إذَا رَضِيَتْ بِالْمُخَنَّثِ وَاللُّوطِيِّ كَانَتْ عَلَى دِينِهِ فَتَكُونُ زَانِيَةً وَأَبْلَغَ فَإِنَّ تَمْكِينَ الْمَرْأَةِ مِنْ نَفْسِهَا أَسْهَلُ مِنْ تَمْكِينِ الرَّجُلِ مِنْ نَفْسِهِ فَإِذَا رَضِيَتْ ذَلِكَ مِنْ زَوْجِهَا رَضِيَتْهُ مِنْ نَفْسِهَا . وَلَفْظُ هَذِهِ الْآيَةِ وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿ الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إلَّا زَانِيَةً ﴾ الْآيَةَ يَتَنَاوَلُ هَذَا كُلَّهُ إمَّا بِطَرِيقِ عُمُومِ اللَّفْظِ أَوْ بِطَرِيقِ التَّنْبِيهِ وَفَحْوَى الْخِطَابِ الَّذِي هُوَ أَقْوَى مِنْ مَدْلُولِ اللَّفْظِ وَأَدْنَى ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ بِطَرِيقِ الْقِيَاسِ كَمَا قَدْ بَيَّنَّاهُ فِي حَدِّ اللُّوطِيِّ وَنَحْوِهِ وَاَللَّهُ أَعْلَمُ .

(332/555)

وَقَوْلُهُ تَعَالَى ﴿ الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ ﴾ فَأَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ النِّسَاءَ الْخَبِيثَاتِ لِلرِّجَالِ الْخَبِيثِينَ فَلَا تَكُونُ خَبِيثَةٌ لِطَيِّبٍ فَإِنَّ ذَلِكَ خِلَافُ الْحَصْرِ ، فَلَا

(333/555)

تَنْكِحُ الزَّانِيَةُ الْخَبِيثَةُ إلَّا زَانِيًا خَبِيثًا وَأَخْبَرَ أَنَّ الطَّيِّبِينَ لِلطَّيِّبَاتِ فَلَا يَكُونُ الطَّيِّبُ لِامْرَأَةٍ خَبِيثَةٍ فَإِنَّ ذَلِكَ خِلَافُ الْحَصْرِ ؛ إذْ قَدْ ذَكَرَ أَنَّ جَمِيعَ الْخَبِيثَاتِ لِلْخَبِيثِينَ فَلَا تَبْقَى خَبِيثَةٌ لِطَيِّبٍ وَلَا طَيِّبٌ لِخَبِيثَةٍ . وَأَخْبَرَ أَنَّ جَمِيعَ الطَّيِّبَاتِ لِلطَّيِّبِينَ فَلَا تَبْقَى طَيِّبَةٌ لِخَبِيثٍ فَجَاءَ الْحَصْرُ مِنْ الْجَانِبَيْنِ مُوَافِقًا لِقَوْلِهِ : ﴿ الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ وَلِهَذَا قَالَ مَنْ قَالَ مِنْ السَّلَفِ : مَا بَغَتْ امْرَأَةُ نَبِيٍّ قَطُّ فَإِنَّ هَذِهِ السُّورَةَ نَزَلَ صَدْرُهَا بِسَبَبِ أَهْلِ الْإِفْكِ وَمَا قَالُوهُ فِي عَائِشَةَ وَلِهَذَا لَمَّا قِيلَ فِيهَا مَا قِيلَ وَصَارَتْ شُبْهَةٌ اسْتَشَارَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ اسْتَشَارَهُ فِي طَلَاقِهَا قَبْلَ أَنْ تَنْزِلَ بَرَاءَتُهَا ؛ إذْ لَا يَصْلُحُ لَهُ أَنْ تَكُونَ امْرَأَتُهُ غَيْرَ طَيِّبَةٍ وَقَدْ رُوِيَ ﴿ أَنَّهُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ دَيُّوثٌ ﴾ وَالدَّيُّوثُ الَّذِي يُقِرُّ السُّوءَ فِي أَهْلِهِ . وَلِهَذَا كَانَتْ الْغَيْرَةُ عَلَى الزِّنَا مِمَّا يُحِبُّهَا اللَّهُ وَأَمَرَ بِهَا حَتَّى قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ أَتَعْجَبُونَ مِنْ غَيْرَةِ سَعْدٍ ؟ لَأَنَا أَغْيَرُ مِنْهُ وَاَللَّهُ أَغْيَرُ مِنِّي ؛ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ وَلِهَذَا أَذِنَ اللَّهُ لِلْقَاذِفِ إذَا كَانَ زَوْجَهَا أَنْ يُلَاعِنَ : فَيَشْهَدُ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاَللَّهِ إنَّهُ لَمِنْ

الصَّادِقِينَ وَجَعَلَ ذَلِكَ يَدْفَعُ عَنْهُ حَدَّ الْقَذْفِ كَمَا لَوْ أَقَامَ عَلَى ذَلِكَ أَرْبَعَةَ شُهُودٍ لِأَنَّهُ مُحْتَاجٌ إلَى قَذْفِهَا لِأَجْلِ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ مِنْ

(335/555)

الْغَيْرَةِ وَلِأَنَّهَا ظَلَمَتْهُ بِإِفْسَادِ فِرَاشِهِ وَإِنْ كَانَتْ قَدْ حَبِلَتْ مِنْ الزِّنَا فَعَلَيْهِ اللِّعَانُ لِيَنْفِيَ عَنْهُ النَّسَبَ الْبَاطِلَ لِئَلَّا يَلْحَقَ بِهِ مَا لَيْسَ مِنْهُ . وَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالتَّفْرِيقِ بَيْنَ الْمُتَلَاعِنَيْنِ سَوَاءٌ حَصَلَتْ الْفُرْقَةُ بِتَلَاعُنِهِمَا أَوْ احْتَاجَتْ إلَى تَفْرِيقِ الْحَاكِمِ أَوْ حَصَلَتْ عِنْدَ انْقِضَاءِ لِعَانِ الزَّوْجِ ؛ لِأَنَّ أَحَدَهُمَا مَلْعُونٌ أَوْ خَبِيثٌ فَاقْتِرَانُهُمَا بَعْدَ ذَلِكَ يَقْتَضِي مُقَارَنَةَ الْخَبِيثِ الْمَلْعُونِ لِلطَّيِّبِ وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عِمْرَانَ ابْنِ حُصَيْنٍ ﴿ حَدِيثُ الْمَرْأَةِ الَّتِي لَعَنَتْ نَاقَةً لَهَا فَأَمَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَخَذَ مَا عَلَيْهَا وَأُرْسِلَتْ ؛ وَقَالَ : لَا تَصْحَبُنَا نَاقَةٌ مَلْعُونَةٌ ﴾ . وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْهُ أَنَّهُ لَمَّا اجْتَازَ بِدِيَارِ ثَمُودٍ قَالَ : ﴿ لَا تَدْخُلُوا عَلَى هَؤُلَاءِ الْمُعَذَّبِينَ إلَّا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ ؛ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا بَاكِينَ فَلَا تَدْخُلُوا عَلَيْهِمْ لِئَلَّا يُصِيبَكُمْ مَا أَصَابَهُمْ ﴾ فَنَهَى عَنْ عُبُورِ دِيَارِهِمْ إلَّا عَلَى وَجْهِ الْخَوْفِ الْمَانِعِ مِنْ الْعَذَابِ . وَهَكَذَا السُّنَّةُ فِي مُقَارَنَةِ الظَّالِمِينَ وَالزُّنَاةِ وَأَهْلِ الْبِدَعِ وَالْفُجُورِ وَسَائِرِ الْمَعَاصِي : لَا يَنْبَغِي لِأَحَدِ أَنْ يُقَارِنَهُمْ وَلَا يُخَالِطَهُمْ إلَّا عَلَى وَجْهٍ يَسْلَمُ بِهِ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَأَقَلُّ

ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ مُنْكَرًا لِظُلْمِهِمْ مَاقِتًا لَهُمْ شَانِئًا مَا هُمْ فِيهِ بِحَسَبِ الْإِمْكَانِ كَمَا فِي الْحَدِيثِ : ﴿ مَنْ رَأَى مِنْكُمْ

(336/555)

مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ

(337/555)

فَبِقَلْبِهِ وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ ﴾ الْآيَةُ . وَكَذَلِكَ مَا ذَكَرَهُ عَنْ يُوسُفَ الصِّدِّيقِ وَعَمَلِهِ عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ لِصَاحِبِ مِصْرَ لِقَوْمٍ كُفَّارٍ . وَذَلِكَ أَنَّ مُقَارَنَةَ الْفُجَّارِ إنَّمَا يَفْعَلُهَا الْمُؤْمِنُ فِي مَوْضِعَيْنِ : أَحَدُهُمَا أَنْ يَكُونَ مُكْرَهًا عَلَيْهَا وَالثَّانِي : أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ فِي مَصْلَحَةٍ دِينِيَّةٍ رَاجِحَةٍ عَلَى مَفْسَدَةِ الْمُقَارَنَةِ أَوْ أَنْ يَكُونَ فِي تَرْكِهَا مَفْسَدَةٌ رَاجِحَةٌ فِي دِينِهِ فَيَدْفَعُ أَعْظَمَ الْمَفْسَدَتَيْنِ بِاحْتِمَالِ أَدْنَاهُمَا وَتَحْصُلُ الْمَصْلَحَةُ الرَّاجِحَةُ بِاحْتِمَالِ الْمَفْسَدَةِ الْمَرْجُوحَةِ وَفِي الْحَقِيقَةِ فَالْمُكْرَهُ هُوَ مَنْ يَدْفَعُ الْفَسَادَ الْحَاصِلَ بِاحْتِمَالِ أَدْنَاهُمَا وَهُوَ الْأَمْرُ الَّذِي أُكْرِهَ عَلَيْهِ قَالَ تَعَالَى : ﴿ إلَّا مَنْ

أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ ﴾ ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ ﴿ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴾ ﴿ فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾ وَقَالَ

(338/555)

: ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ ﴾ الْآيَةُ .

(339/555)

فَقَدْ دَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ عَلَى النَّهْيِ عَنْ مُنَاكَحَةِ الزَّانِي وَالْمُنَاكَحَةُ نَوْعٌ خَاصٌّ مِنْ الْمُعَاشَرَةِ وَالْمُزَاوَجَةِ وَالْمُقَارَنَةِ وَالْمُصَاحَبَةِ وَلِهَذَا سُمِّيَ كُلٌّ مِنْهُمَا زَوْجًا وَصَاحِبًا وَقَرِينًا وَعَشِيرًا

لِلْآخَرِ وَالْمُنَاكَحَةُ فِي أَصْلِ اللُّغَةِ الْمُجَامَعَةُ وَالْمُضَامَّةُ فَقُلُوبُهُمَا تَجْتَمِعُ إذَا عُقِدَ الْعَقْدُ بَيْنَهُمَا وَيَصِيرُ بَيْنَهُمَا مِنْ التَّعَاطُفِ وَالتَّرَاحُمِ مَا لَمْ يَكُنْ قَبْلَ ذَلِكَ حَتَّى تَثْبُتَ بِذَلِكَ حُرْمَةُ الْمُصَاهَرَةِ فِي غَيْرِ الرَّبِيبَةِ لِمُجَرَّدِ ذَلِكَ وَالتَّوَارُثُ وَعِدَّةُ الْوَفَاةِ وَغَيْرُ ذَلِكَ : وَأَوْسَطُ ذَلِكَ اجْتِمَاعُهُمَا خَالِيَيْنِ فِي مَكَانٍ وَاحِدٍ وَهُوَ الْمُعَاشَرَةُ الْمُقَرِّرَةُ لِلصَّدَاقِ كَمَا قَضَى بِهِ الْخُلَفَاءُ وَآخِرُ ذَلِكَ اجْتِمَاعُ الْمُبَاضَعَةِ وَهَذَا وَإِنْ اجْتَمَعَ بِدُونِ عَقْدِ نِكَاحٍ فَهُوَ اجْتِمَاعٌ ضَعِيفٌ ؛ بَلْ اجْتِمَاعُ الْقُلُوبِ أَعْظَمُ مِنْ مُجَرَّدِ اجْتِمَاعِ الْبَدَنَيْنِ بِالسِّفَاحِ . وَدَلَّ قَوْلُهُ : ﴿ الطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ ﴾ عَلَى ذَلِكَ مِنْ جِهَةِ الْمَعْنَى وَمِنْ جِهَةِ اللَّفْظِ وَدَلَّ أَيْضًا عَلَى النَّهْيِ عَنْ مُقَارَنَةِ الْفُجَّارِ وَمُزَاوَجَتِهِمْ كَمَا دَلَّ عَلَى هَذَا غَيْرُ ذَلِكَ مِنْ النُّصُوصِ : مِثْلُ قَوْلِهِ : ﴿ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ ﴾ أَيْ : وَأَشْبَاهَهُمْ وَنُظَرَاءَهُمْ وَالزَّوْجُ أَعَمُّ مِنْ النِّكَاحِ الْمَعْرُوفِ قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴾ ﴿ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا ﴾ وَقَالَ : ﴿ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴾ وَقَالَ : ﴿ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ و ﴿

(340/555)

كَرِيمٌ ﴾ وَقَالَ : ﴿ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾ وَقَالَ : ﴿ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ وَقَالَ : ﴿ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ﴾ وَقَالَ : ﴿ احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ

اثْنَيْنِ ﴾ وَقَالَ : ﴿ إنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ ﴾ . وَإِنْ كَانَ فِي الْآيَةِ نَصٌّ فِي الزَّوْجَةِ الَّتِي هِيَ الصَّاحِبَةُ وَفِي الْوَلَدِ مِنْهَا فَمَعْنَى ذَلِكَ فِي كُلِّ مُشَابِهٍ وَمُقَارِنٍ وَمُشَارِكٍ وَفِي كُلِّ فَرْعٍ وَتَابِعٍ ف ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ ﴾ و ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ ﴿ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴾ . فَالْمُصَاحَبَةُ وَالْمُصَاهَرَةُ وَالْمُؤَاخَاةُ لَا تَجُوزُ إلَّا مَعَ أَهْلِ طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى مُرَادِ اللَّهِ وَيَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ الْحَدِيثُ الَّذِي فِي السُّنَنِ : ﴿ لَا تُصَاحِبْ إلَّا مُؤْمِنًا وَلَا يَأْكُلْ طَعَامَك إلَّا تَقِيٌّ ﴾ وَفِيهَا : ﴿ الْمَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ ﴾ وَفِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ إذَا زَنَتْ أَمَةُ أَحَدِكُمْ فَلْيَجْلِدْهَا الْحَدَّ ثُمَّ إنْ زَنَتْ فَلْيَجْلِدْهَا الْحَدَّ ثُمَّ إنْ زَنَتْ فَلْيَبِعْهَا وَلَوْ بِضَفِيرٍ ﴾ و " الضَّفِيرُ " الْحَبْلُ وَشَكَّ الرَّاوِي هَلْ أَمَرَ بِبَيْعِهَا فِي الثَّالِثَةِ أَوْ الرَّابِعَةِ . وَهَذَا أَمْرٌ مِنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِبَيْعِ الْأَمَةِ بَعْدَ إقَامَةِ الْحَدِّ عَلَيْهَا مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا وَلَوْ بِأَدْنَى مَالٍ قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَد : إنْ لَمْ يَبِعْهَا كَانَ تَارِكًا لِأَمْرِ

النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

وَالْإِمَاءُ اللَّاتِي يَفْعَلْنَ هَذَا تَكُونُ عَامَّتُهُنَّ لِلْخِدْمَةِ لَا لِلتَّمَتُّعِ فَكَيْفَ بِأَمَةِ التَّمَتُّعِ ؟ وَإِذَا وَجَبَ إخْرَاجُ الْأَمَةِ الزَّانِيَةِ عَنْ مِلْكِهِ فَكَيْفَ بِالزَّوْجَةِ الزَّانِيَةِ وَالْعَبْدُ وَالْمَمْلُوكُ نَظِيرُ الْأَمَةِ وَيَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ كُلِّهِ مَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ أَنَّهُ لَعَنَ مَنْ أَحْدَثَ حَدَثًا أَوْ آوَى مُحْدِثًا ﴾ فَهَذَا يُوجِبُ لَعْنَةَ كُلِّ مَنْ آوَى مُحْدِثًا سَوَاءٌ كَانَ إحْدَاثُهُ بِالزِّنَا أَوْ السَّرِقَةِ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ وَسَوَاءٌ كَانَ الْإِيوَاءُ بِمِلْكِ يَمِينٍ أَوْ نِكَاحٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ لِأَنَّ أَقَلَّ مَا فِي ذَلِكَ تَرْكُهُ إنْكَارًا لِلْمُنْكَرِ .

فَصْلٌ :

وَالْمُؤْمِنُ مُحْتَاجٌ إلَى امْتِحَانِ مَنْ يُرِيدُ أَنْ يُصَاحِبَهُ وَيُقَارِنَهُ بِنِكَاحٍ وَغَيْرِهِ قَالَ تَعَالَى : ﴿ إذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ ﴾ الْآيَةُ . وَكَذَلِكَ الْمَرْأَةُ الَّتِي زَنَى بِهَا الرَّجُلُ فَإِنَّهُ لَا يَتَزَوَّجُ بِهَا إلَّا بَعْدَ التَّوْبَةِ فِي أَصَحِّ الْقَوْلَيْنِ كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ وَالْآثَارُ ؛ لَكِنْ إذَا أَرَادَ أَنْ يَمْتَحِنَهَا هَلْ هِيَ صَحِيحَةُ التَّوْبَةِ أَمْ لَا ؟ فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ ابْنُ عُمَرَ

وَهُوَ الْمَنْصُوصُ عَنْ أَحْمَد : أَنَّهُ يُرَاوِدُهَا عَنْ نَفْسِهَا فَإِنْ أَجَابَتْهُ لَمْ تَصِحَّ تَوْبَتُهَا وَإِنْ لَمْ تُجِبْهُ فَقَدْ تَابَتْ . وَقَالَتْ طَائِفَةٌ : هَذَا الِامْتِحَانُ

(343/555)

فِيهِ طَلَبُ الْفَاحِشَةِ مِنْهَا وَقَدْ تَنْقُضُ التَّوْبَةَ وَقَدْ تَأْمُرُهُ نَفْسُهُ بِتَحْقِيقِ فِعْلِ الْفَاحِشَةِ وَيُزَيِّنُ لَهُمَا الشَّيْطَانُ ذَلِكَ وَلَا سِيَّمَا إنْ كَانَ يُحِبُّهَا وَتُحِبُّهُ وَقَدْ تَقَدَّمَ لَهُ مَعَهَا فِعْلُ الْفَاحِشَةِ مَرَّاتٍ وَذَاقَتْهُ وَذَاقَهَا فَقَدْ تَنْقُضُ التَّوْبَةَ وَلَا تُخَالِفُهُ فِيمَا أَرَادَهُ مِنْهَا . وَمَنْ قَالَ بِالْأَوَّلِ قَالَ : الْأَمْرُ الَّذِي يُقْصَدُ بِهِ امْتِحَانُهَا لَا يُقْصَدُ بِهِ نَفْسُ الْفِعْلِ فَلَا يَكُونُ أَمْرًا بِمَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ وَيُمْكِنُهُ أَنْ لَا يَطْلُبَ الْفَاحِشَةَ ؛ بَلْ يُعَرِّضُ بِهَا وَيَنْوِي شَيْئًا آخَرَ وَالتَّعْرِيضُ لِلْحَاجَةِ جَائِزٌ ؛ بَلْ وَاجِبٌ فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ . وَأَمَّا نَقْضُهَا تَوْبَتَهَا فَإِذَا جَازَ أَنْ تَنْقُضَ التَّوْبَةَ مَعَهُ جَازَ أَنْ تَنْقُضَهَا مَعَ غَيْرِهِ وَالْمَقْصُودُ أَنْ تَكُونَ مُمْتَنِعَةً مِمَّنْ يُرَاوِدُهَا فَإِذَا لَمْ تَكُنْ مُمْتَنِعَةً مِنْهُ لَمْ تَكُنْ مُمْتَنِعَةً مِنْ غَيْرِهِ .

وَأَمَّا تَزْيِينُ الشَّيْطَانِ لَهُ الْفِعْلَ فَهَذَا دَاخِلٌ فِي كُلِّ أَمْرٍ يَفْعَلُهُ الْإِنْسَانُ مِنْ الْخَيْرِ يَجِدُ فِيهِ مَحَبَّتَهُ فَإِذَا أَرَادَ الْإِنْسَانُ أَنْ يُصَاحِبَ الْمُؤْمِنَ أَوْ أَرَادَ الْمُؤْمِنُ أَنْ يُصَاحِبَ أَحَدًا وَقَدْ ذُكِرَ عَنْهُ الْفُجُورُ وَقِيلَ إنَّهُ تَابَ مِنْهُ أَوْ كَانَ ذَلِكَ مَقُولًا عَنْهُ سَوَاءٌ كَانَ ذَلِكَ الْقَوْلُ صِدْقًا أَوْ كَذِبًا :

فَإِنَّهُ يَمْتَحِنُهُ بِمَا يَظْهَرُ بِهِ بِرُّهُ أَوْ فُجُورُهُ وَصِدْقُهُ أَوْ كَذِبُهُ وَكَذَلِكَ إذَا أَرَادَ أَنْ يُوَلِّيَ أَحَدًا وِلَايَةً امْتَحَنَهُ ؛ كَمَا أَمَرَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ غُلَامَهُ أَنْ يَمْتَحِنَ ابْنَ أَبِي مُوسَى

(344/555)

لَمَّا أَعْجَبَهُ سَمْتُهُ فَقَالَ لَهُ : قَدْ عَلِمْت مَكَانِي عِنْدَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فَكَمْ تُعْطِينِي إذَا أَشَرْت عَلَيْهِ بِوِلَايَتِك ؟

فَبَذَلَ لَهُ مَالًا عَظِيمًا فَعَلِمَ عُمَرُ أَنَّهُ لَيْسَ مِمَّنْ يَصْلُحُ لِلْوِلَايَةِ وَكَذَلِكَ فِي الْمُعَامَلَاتِ وَكَذَلِكَ الصِّبْيَانُ وَالْمَمَالِيكُ الَّذِينَ عُرِفُوا أَوْ قِيلَ عَنْهُمْ الْفُجُورُ وَأَرَادَ الرَّجُلُ أَنْ يَشْتَرِيَهُ بِأَنَّهُ يَمْتَحِنُهُ فَإِنَّ الْمُخَنَّثَ كَالْبَغِيِّ وَتَوْبَتُهُ كَتَوْبَتِهَا . وَمَعْرِفَةُ أَحْوَالِ النَّاسِ تَارَةً تَكُونُ بِشَهَادَاتِ النَّاسِ وَتَارَةً تَكُونُ بِالْجَرْحِ وَالتَّعْدِيلِ وَتَارَةً تَكُونُ بِالِاخْتِبَارِ وَالِامْتِحَانِ .

فَصْلٌ :

وَكَمَا عَظَّمَ اللَّهُ الْفَاحِشَةَ عَظَّمَ ذِكْرَهَا بِالْبَاطِلِ وَهُوَ الْقَذْفُ فَقَالَ بَعْدَ ذَلِكَ : ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً ﴾ ثُمَّ ذَكَرَ رَمْيَ الرَّجُلِ امْرَأَتَهُ وَمَا أَمَرَ فِيهِ مِنْ التَّلَاعُنِ ثُمَّ ذَكَرَ قِصَّةَ أَهْلِ الْإِفْكِ وَبَيَّنَ مَا فِي ذَلِكَ مِنْ الْخَيْرِ لِلْمَقْذُوفِ الْمَكْذُوبِ عَلَيْهِ وَمَا فِيهِ مِنْ الْإِثْمِ لِلْقَاذِفِ وَمَا يَجِبُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إذَا سَمِعُوا

ذَلِكَ أَنْ يَظُنُّوا بِإِخْوَانِهِمْ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ الْخَيْرَ وَيَقُولُونَ : هَذَا إفْكٌ مُبِينٌ ؛ لِأَنَّ دَلِيلَهُ كَذِبٌ ظَاهِرٌ ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّهُ قَوْلٌ بِلَا حُجَّةٍ فَقَالَ : ﴿ لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّهُ لَوْلَا فَضْلُهُ عَلَيْهِمْ وَرَحْمَتُهُ لَعَذَّبَهُمْ بِمَا تَكَلَّمُوا بِهِ .

(345/555)

وَقَوْلُهُ : ﴿ إذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ ﴾ فَهَذَا بَيَانٌ لِسَبَبِ الْعَذَابِ وَهُوَ تَلَقِّي الْبَاطِلِ بِالْأَلْسِنَةِ وَالْقَوْلِ بِالْأَفْوَاهِ وَهُمَا نَوْعَانِ مُحَرَّمَانِ : الْقَوْلُ بِالْبَاطِلِ وَالْقَوْلُ بِلَا عِلْمٍ . ثُمَّ قَالَ سُبْحَانَهُ : ﴿ لَوْلَا إذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴾ . فَالْأَوَّلُ تَحْضِيضٌ عَلَى الظَّنِّ الْحَسَنِ وَهَذَا نَهْيٌ لَهُمْ عَنْ التَّكَلُّمِ بِالْقَذْفِ . فَفِي الْأَوَّلِ قَوْلُهُ : ﴿ اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إثْمٌ ﴾ وَيَقُولُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ إيَّاكُمْ وَالظَّنَّ فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ ﴾ وَكَذَا قَوْله تَعَالَى ﴿ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا ﴾ دَلِيلٌ عَلَى حُسْنِ مِثْلِ هَذَا الظَّنِّ الَّذِي أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِعَائِشَةَ : ﴿ مَا أَظُنُّ فُلَانًا وَفُلَانًا يَدْرِيَانِ مِنْ أَمْرِنَا هَذَا شَيْئًا ﴾ . فَهَذَا يَقْتَضِي جَوَازَ بَعْضِ الظَّنِّ كَمَا احْتَجَّ الْبُخَارِيُّ

بِذَلِكَ ؛ لَكِنْ مَعَ الْعِلْمِ بِمَا عَلَيْهِ الْمَرْءُ الْمُسْلِمُ مِنْ الْإِيمَانِ الْوَازِعِ لَهُ عَنْ فِعْلِ الْفَاحِشَةِ يَجِبُ أَنْ يَظُنَّ بِهِ الْخَيْرَ دُونَ الشَّرِّ . وَفِي الْآيَةِ نَهْيٌ عَنْ تَلَقِّي مِثْلِ هَذَا بِاللِّسَانِ وَنَهْيٌ عَنْ أَنْ يَقُولَ الْإِنْسَانُ مَا لَيْسَ لَهُ بِهِ عِلْمٌ لِقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ وَاَللَّهُ تَعَالَى جَعَلَ فِي فِعْلِ الْفَاحِشَةِ

(346/555)

وَالْقَذْفِ مِنْ الْعُقُوبَةِ مَا لَمْ يَجْعَلْهُ فِي شَيْءٍ مِنْ الْمَعَاصِي ؛ لِأَنَّهُ جَعَلَ فِيهَا الرَّجْمَ وَقَدْ رَجَمَ هُوَ - تَعَالَى - قَوْمَ

(347/555)

لُوطٍ إذْ كَانُوا هُمْ أَوَّلَ مَنْ فَعَلَ فَاحِشَةَ اللِّوَاطِ وَجَعَلَ الْعُقُوبَةَ عَلَى الْقَذْفِ بِهَا ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَالرَّمْيَ بِغَيْرِهَا فِيهِ الِاجْتِهَادُ وَيَجُوزُ عِنْدَ بَعْضِ الْعُلَمَاءِ أَنْ يَبْلُغَ الثَّمَانِينَ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنْهُمْ كَمَا قَالَ عَلِيٌّ : " لَا أُوتِيَ بِأَحَدٍ يُفَضِّلُنِي عَلَى أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ إلَّا جَلَدْته حَدَّ الْمُفْتَرِي " . وَكَمَا قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ : إذَا شَرِبَ هَذَى وَإِذَا هَذَى افْتَرَى وَحَدُّ الشُّرْبِ ثَمَانُونَ وَحَدُّ

الْمُفْتَرِي ثَمَانُونَ . وقَوْله تَعَالَى ﴿ إنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾ الْآيَةُ . وَهَذَا ذَمٌّ لِمَنْ يُحِبُّ ذَلِكَ وَذَلِكَ يَكُونُ بِالْقَلْبِ فَقَطْ وَيَكُونُ مَعَ ذَلِكَ بِاللِّسَانِ وَالْجَوَارِحِ وَهُوَ ذَمٌّ لِمَنْ يَتَكَلَّمُ بِالْفَاحِشَةِ أَوْ يُخْبِرُ بِهَا مَحَبَّةً لِوُقُوعِهَا فِي الْمُؤْمِنِينَ : إمَّا حَسَدًا أَوْ بُغْضًا وَإِمَّا مَحَبَّةً لِلْفَاحِشَةِ وَإِرَادَةً لَهَا وَكِلَاهُمَا مَحَبَّةٌ لِلْفَاحِشَةِ وَبُغْضًا لِلَّذِينَ آمَنُوا فَكُلُّ مَنْ أَحَبَّ فِعْلَهَا ذَكَرَهَا . وَكَرِهَ الْعُلَمَاءُ الْغَزَلَ مِنْ الشِّعْرِ الَّذِي يُرَغِّبُ فِيهَا وَكَذَلِكَ ذِكْرُهَا غِيبَةٌ مُحَرَّمَةٌ سَوَاءٌ كَانَ بِنَظْمٍ أَوْ نَثْرٍ وَكَذَلِكَ التَّشَبُّهُ بِمَنْ يَفْعَلُهَا مَنْهِيٌّ عَنْهُ : مِثْلُ الْأَمْرِ بِهَا ؛ فَإِنَّ الْفِعْلَ يُطْلَبُ بِالْأَمْرِ تَارَةً وَبِالْإِخْبَارِ تَارَةً فَهَذَانِ الْأَمْرَانِ لِلْفَجَرَةِ الزُّنَاةِ اللُّوطِيَّةِ : مِثْلُ ذِكْرِ قِصَصِ الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ لِلْمُؤْمِنِينَ أُولَئِكَ يَعْتَبِرُونَ مِنْ الْغَيْرَةِ بِهِمْ

(348/555)

وَهَؤُلَاءِ يَعْتَبِرُونَ مِنْ الِاغْتِرَارِ ؛ فَإِنَّ أَهْلَ الْكُفْرِ وَالْفُسُوقِ وَالْعِصْيَانِ يَذْكُرُونَ مِنْ قِصَصِ

(349/555)

أَشْبَاهِهِمْ مَا يَكُونُ بِهِ لَهُمْ فِيهِمْ قُدْوَةٌ وَأُسْوَةٌ وَمِنْ ذَلِكَ قَوْله تَعَالَى ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ﴾ قِيلَ : أَرَادَ الْغِنَاءَ وَقِيلَ أَرَادَ قِصَصَ الْمُلُوكِ مِنْ الْكُفَّارِ مِنْ الْفُرْسِ . وَبِالْجُمْلَةِ كُلُّ مَا رَغَّبَ النُّفُوسَ فِي طَاعَةِ اللَّهِ وَنَهَاهَا عَنْ مَعْصِيَتِهِ مِنْ خَبَرٍ أَوْ أَمْرٍ فَهُوَ مِنْ طَاعَتِهِ وَكُلُّ مَا رَغَّبَهَا فِي مَعْصِيَتِهِ وَنَهَى عَنْ طَاعَتِهِ فَهُوَ مِنْ مَعْصِيَتِهِ فَأَمَّا ذِكْرُ الْفَاحِشَةِ وَأَهْلِهَا بِمَا يَجِبُ أَوْ يُسْتَحَبُّ فِي الشَّرِيعَةِ : مِثْلَ النَّهْيِ عَنْهَا وَعَنْهُمْ وَالذَّمِّ لَهَا وَلَهُمْ وَذِكْرُ مَا يُبَغِّضُهَا وَيُنَفِّرُ عَنْهَا وَذِكْرُ أَهْلِهَا مُطْلَقًا حَيْثُ يَسُوغُ ذَلِكَ وَمَا يَشْرَعُ لَهُمْ مِنْ الذَّمِّ فِي وُجُوهِهِمْ وَمَغِيبِهِمْ : فَهَذَا كُلُّهُ حَسَنٌ يَجِبُ تَارَةً وَيُسْتَحَبُّ أُخْرَى وَكَذَلِكَ مَا يَدْخُلُ فِيهَا مِنْ وَصْفِهَا وَوَصْفِ أَهْلِهَا مِنْ الْعِشْقِ عَلَى الْوَجْهِ الْمَشْرُوعِ الَّذِي يُوجِبُ الِانْتِهَاءَ عَمَّا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ وَالْبُغْضَ لِمَا يُبْغِضُهُ . وَهَذَا كَمَا أَنَّ اللَّهَ قَصَّ عَلَيْنَا فِي الْقُرْآنِ قِصَصَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُتَّقِينَ وَقِصَصَ الْفُجَّارِ وَالْكُفَّارِ : لِنَعْتَبِرَ بِالْأَمْرَيْنِ : فَنُحِبُّ الْأَوَّلِينَ وَسَبِيلَهُمْ وَنَقْتَدِي بِهِمْ وَنُبْغِضُ الْآخَرِينَ وَسَبِيلَهُمْ وَنَجْتَنِبُ فِعَالَهُمْ . وَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ عَنْ أَنْبِيَائِهِ وَعِبَادِهِ الصَّالِحِينَ مِنْ ذِكْرِ الْفَاحِشَةِ

وَعَلَائِقِهَا عَلَى وَجْهِ الذَّمِّ مَا فِيهِ عِبْرَةٌ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ إلَى آخِرِ الْقِصَّةِ فِي مَوَاضِعَ مِنْ كِتَابِهِ . فَهَذَا لُوطٌ خَاطَبَ أَهْلَ الْفَاحِشَةِ - وَهُوَ رَسُولُ اللَّهِ - بِتَقْرِيعِهِمْ بِهَا بِقَوْلِهِ : ﴿ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ ﴾ وَهَذَا اسْتِفْهَامُ إنْكَارٍ وَنَهْيُ إنْكَارٍ ذَمٍّ وَنَهْيٍ كَالرَّجُلِ يَقُولُ لِلرَّجُلِ : أَتَفْعَلُ كَذَا وَكَذَا ؟ أَمَا تَتَّقِي اللَّهَ ؟ ثُمَّ قَالَ : ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ ﴾ وَهَذَا اسْتِفْهَامٌ ثَانٍ فِيهِ مِنْ الذَّمِّ وَالتَّوْبِيخِ مَا فِيهِ وَلَيْسَ هَذَا مِنْ بَابِ الْقَذْفِ وَاللَّمْزِ . وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴾ إلَى آخِرِ الْقِصَّةِ فَقَدْ وَاجَهَهُمْ بِذَمِّهِمْ وَتَوْبِيخِهِمْ عَلَى فِعْلِ الْفَاحِشَةِ ثُمَّ إنَّ أَهْلَ الْفَاحِشَةِ تَوَعَّدُوهُمْ وَتَهَدَّدُوهُمْ بِإِخْرَاجِهِمْ مِنْ الْقَرْيَةِ وَهَذَا حَالُ أَهْلِ الْفُجُورِ إذَا كَانَ بَيْنَهُمْ مَنْ يَنْهَاهُمْ طَلَبُوا نَفْيَهُ وَإِخْرَاجَهُ وَقَدْ عَاقَبَ اللَّهُ أَهْلَ الْفَاحِشَةِ اللُّوطِيَّةِ بِمَا أَرَادُوا أَنْ يَقْصِدُوا بِهِ أَهْلَ التَّقْوَى ؛ حَيْثُ أَمَرَ بِنَفْيِ الزَّانِي وَنَفْيِ الْمُخَنَّثِ فَمَضَتْ سُنَّةُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِنَفْيِ هَذَا وَهَذَا وَهُوَ سُبْحَانَهُ أَخْرَجَ الْمُتَّقِينَ مِنْ بَيْنِهِمْ عِنْدَ نُزُولِ الْعَذَابِ . وَكَذَلِكَ مَا ذَكَرَهُ تَعَالَى فِي قِصَّةِ يُوسُفَ ﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ ﴾ إلَى قَوْلِهِ : ﴿ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إنَّهُ هُوَ

السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ وَمَا ذَكَرَهُ بَعْدَ ذَلِكَ فَمِنْ كَلَامِ يُوسُفَ مِنْ قَوْلِهِ : ﴿ مَا بَالُ

(352/555)

النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ وَهَذَا مِنْ بَابِ الِاعْتِبَارِ الَّذِي يُوجِبُ انْتِهَارَ النُّفُوسِ عَنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ وَالتَّمَسُّكِ بِالتَّقْوَى وَكَذَلِكَ مَا بَيَّنَهُ فِي آخِرِ السُّورَةِ بِقَوْلِهِ : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ . وَمَعَ هَذَا فَمِنْ النَّاسِ وَالنِّسَاءِ مَنْ يُحِبُّ سَمَاعَ هَذِهِ السُّورَةِ لِمَا فِيهَا مِنْ ذِكْرِ الْعِشْقِ وَمَا يَتَعَلَّقُ بِهِ ؛ لِمَحَبَّتِهِ لِذَلِكَ وَرَغْبَتِهِ فِي الْفَاحِشَةِ حَتَّى إنَّ مِنْ النَّاسِ مَنْ يَقْصِدُ إسْمَاعَهَا لِلنِّسَاءِ وَغَيْرِهِنَّ لِمَحَبَّتِهِمْ لِلسُّوءِ وَيَعْطِفُونَ عَلَى ذَلِكَ وَلَا يَخْتَارُونَ أَنْ يَسْمَعُوا مَا فِي سُورَةِ النُّورِ مِنْ الْعُقُوبَةِ وَالنَّهْيِ عَنْ ذَلِكَ حَتَّى قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ : كُلُّ مَا حَصَّلْته فِي سُورَةِ يُوسُفَ أَنْفَقْته فِي سُورَةِ النُّورِ . وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إلَّا خَسَارًا ﴾ وَقَالَ ﴿ وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ . فَكُلُّ أَحَدٍ يُحِبُّ سَمَاعَ ذَلِكَ لِتَحْرِيكِ الْمَحَبَّةِ الْمَذْمُومَةِ وَيُبْغِضُ سَمَاعَ

ذَلِكَ إعْرَاضًا عَنْ دَفْعِ هَذِهِ الْمَحَبَّةِ وَإِزَالَتِهَا : فَهُوَ مَذْمُومٌ . وَمِنْ هَذَا الْبَابِ ذِكْرُ أَحْوَالِ الْكُفَّارِ وَالْفُجَّارِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا فِيهِ تَرْغِيبٌ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ وَصَدٌّ

(353/555)

عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ .

(354/555)

وَمِنْ هَذَا الْبَابِ سَمَاعُ كَلَامِ أَهْلِ الْبِدَعِ وَالنَّظَرُ فِي كُتُبِهِمْ لِمَنْ يَضُرُّهُ ذَلِكَ وَيَدْعُوهُ إلَى سَبِيلِهِمْ وَإِلَى مَعْصِيَةِ اللَّهِ فَهَذَا الْبَابُ تَجْتَمِعُ فِيهِ الشُّبُهَاتُ وَالشَّهَوَاتُ وَاَللَّهُ تَعَالَى ذَمَّ هَؤُلَاءِ فِي مِثْلِ قَوْلِهِ : ﴿ يُوحِي بَعْضُهُمْ إلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ وَفِي مِثْلِ قَوْلِهِ : ﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴾ وَمِثْلُ قَوْلِهِ : ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴾ الْآيَةُ وَمَا بَعْدَهَا وَمِثْلُ قَوْلِهِ : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ﴾ وَقَوْلِهِ : ﴿ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ ﴾ وَمِثْلُ قَوْلِهِ : ﴿ وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ﴾ وَمِثْلُ قَوْلِهِ : ﴿ وَإِنْ

تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ الْآيَةُ . وَمِثْلُ هَذَا كَثِيرٌ فِي الْقُرْآنِ فَأَهْلُ الْمَعَاصِي كَثِيرُونَ فِي الْعَالَمِ ؛ بَلْ هُمْ أَكْثَرُ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ الْآيَةُ . وَفِي النُّفُوسِ مِنْ الشُّبُهَاتِ الْمَذْمُومَةِ وَالشَّهَوَاتِ قَوْلًا وَعَمَلًا مَا لَا يَعْلَمُهُ إلَّا اللَّهُ وَأَهْلُهَا يَدْعُونَ النَّاسَ إلَيْهَا وَيَقْهَرُونَ مَنْ يَعْصِيهِمْ وَيُزَيِّنُونَهَا لِمَنْ يُطِيعُهُمْ . فَهُمْ أَعْدَاءُ الرُّسُلِ وَأَنْدَادُهُمْ فَرُسُلُ اللَّهِ يَدْعُونَ النَّاسَ إلَى طَاعَةِ اللَّهِ وَيَأْمُرُونَهُمْ بِهَا بِالرَّغْبَةِ وَالرَّهْبَةِ وَيُجَاهِدُونَ عَلَيْهَا

(355/555)

وَيَنْهَوْنَهُمْ عَنْ مَعَاصِي اللَّهِ وَيُحَذِّرُونَهُمْ مِنْهَا بِالرَّغْبَةِ وَالرَّهْبَةِ وَيُجَاهِدُونَ مَنْ يَفْعَلُهَا . وَهَؤُلَاءِ يَدْعُونَ النَّاسَ إلَى مَعْصِيَةِ اللَّهِ

(356/555)

وَيَأْمُرُونَهُمْ بِهَا بِالرَّغْبَةِ وَالرَّهْبَةِ قَوْلًا وَفِعْلًا وَيُجَاهِدُونَ عَلَى ذَلِكَ قَالَ تَعَالَى : ﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا

اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ ﴾ . وَمِثْلُ هَذَا فِي الْقُرْآنِ كَثِيرٌ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ قَدْ أَمَرَنَا بِالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنْ الْمُنْكَرِ وَالْأَمْرُ بِالشَّيْءِ مَسْبُوقٌ بِمَعْرِفَتِهِ فَمَنْ لَا يَعْلَمُ الْمَعْرُوفَ لَا يُمْكِنُهُ الْأَمْرُ بِهِ وَالنَّهْيُ عَنْ الْمُنْكَرِ مَسْبُوقٌ بِمَعْرِفَتِهِ فَمَنْ لَا يَعْلَمُهُ لَا يُمْكِنُهُ النَّهْيُ عَنْهُ وَقَدْ أَوْجَبَ اللَّهُ عَلَيْنَا فِعْلَ الْمَعْرُوفِ وَتَرْكَ الْمُنْكَرِ فَإِنَّ حُبَّ الشَّيْءِ وَفِعْلَهُ وَبُغْضَ ذَلِكَ وَتَرْكَهُ لَا يَكُونُ إلَّا بَعْدَ الْعِلْمِ بِهِمَا حَتَّى يَصِحَّ الْقَصْدُ إلَى فِعْلِ الْمَعْرُوفِ وَتَرْكِ الْمُنْكَرِ فَإِنَّ ذَلِكَ مَسْبُوقٌ بِعِلْمِهِ فَمَنْ لَمْ يَعْلَمْ الشَّيْءَ لَمْ يُتَصَوَّرْ مِنْهُ حُبٌّ لَهُ وَلَا بُغْضٌ وَلَا فِعْلٌ وَلَا تَرْكٌ ؛ لَكِنَّ فِعْلَ الشَّيْءِ وَالْأَمْرَ بِهِ يَقْتَضِي أَنْ يُعْلَمَ عِلْمًا مُفَصَّلًا يُمْكِنُ مَعَهُ فِعْلُهُ وَالْأَمْرُ بِهِ إذَا أُمِرَ

(357/555)

بِهِ مُفَصَّلًا . وَلِهَذَا أَوْجَبَ اللَّهُ عَلَى الْإِنْسَانِ مَعْرِفَةَ مَا أَمَرَ بِهِ مِنْ الْوَاجِبَاتِ : مِثْلَ صِفَةِ الصَّلَاةِ وَالصِّيَامِ وَالْحَجِّ وَالْجِهَادِ وَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ

(358/555)

وَالنَّهْيِ عَنْ الْمُنْكَرِ إذَا أَمَرَ بِأَوْصَافٍ فَلَا بُدَّ مِنْ الْعِلْمِ بِثُبُوتِهَا فَكَمَا أَنَّا لَا نَكُونُ مُطِيعِينَ إذَا عَلِمْنَا عَدَمَ الطَّاعَةِ فَلَا نَكُونُ مُطِيعِينَ إلَّا إذَا لَمْ نَعْلَمْ وُجُودَهَا ؛ بَلْ الْجَهْلُ بِوُجُودِهَا كَالْعِلْمِ بِعَدَمِهَا وَكَوْنُ كُلٍّ مِنْهُمَا مَعْصِيَةً فَإِنَّ الْجَهْلَ بِالتَّسَاوِي كَالْعِلْمِ بِالتَّفَاضُلِ فِي بَيْعِ الْأَمْوَالِ الرِّبَوِيَّةِ بَعْضِهَا بِجِنْسِهِ ؛ فَإِنْ لَمْ نَعْلَمْ الْمُمَاثَلَةَ كَانَ كَمَا لَوْ عَلِمْنَا الْمُفَاضَلَةَ . وَأَمَّا مَعْرِفَةُ مَا يُتْرَكُ وَيُنْهَى عَنْهُ فَقَدْ يُكْتَفَى بِمَعْرِفَتِهِ فِي بَعْضِ الْمَوَاضِعِ مُجْمَلًا فَالْإِنْسَانُ يَحْتَاجُ إلَى مَعْرِفَةِ الْمُنْكَرِ وَإِنْكَارِهِ وَقَدْ يَحْتَاجُ إلَى الْحُجَجِ الْمُبَيِّنَةِ لِذَلِكَ وَإِلَى الْجَوَابِ عَمَّا يُعَارِضُ بِهِ أَصْحَابَهَا مِنْ الْحُجَجِ وَإِلَى دَفْعِ أَهْوَائِهِمْ وَإِرَادَاتِهِمْ وَذَلِكَ يَحْتَاجُ إلَى إرَادَةٍ جَازِمَةٍ وَقُدْرَةٍ عَلَى ذَلِكَ وَذَلِكَ لَا يَكُونُ إلَّا بِالصَّبْرِ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَالْعَصْرِ ﴾ ﴿ إنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴾ ﴿ إلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ .

وَأَوَّلُ ذَلِكَ أَنْ نَذْكُرَ الْأَقْوَالَ وَالْأَفْعَالَ عَلَى وَجْهِ الذَّمِّ لَهَا وَالنَّهْيِ عَنْهَا وَبَيَانِ مَا فِيهَا مِنْ الْفَسَادِ فَإِنَّ الْإِنْكَارَ بِالْقَلْبِ وَاللِّسَانِ قَبْلَ الْإِنْكَارِ بِالْيَدِ وَهَذِهِ طَرِيقَةُ الْقُرْآنِ فِيمَا يَذْكُرُهُ تَعَالَى عَنْ الْكُفَّارِ وَالْفُسَّاقِ وَالْعُصَاةِ مِنْ أَقْوَالِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ ؛ يَذْكُرُ ذَلِكَ عَلَى وَجْهِ الذَّمِّ وَالْبُغْضِ لَهَا وَلِأَهْلِهَا وَبَيَانِ

فَسَادِهَا وَضِدّهَا وَالتَّحْذِيرِ مِنْهَا كَمَا أَنَّ فِيمَا يَذْكُرُهُ عَنْ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ وَمَنْ فِيهِمْ مِنْ أَنْبِيَائِهِ وَأَوْلِيَائِهِ عَلَى وَجْهِ الْمَدْحِ وَالْحُبِّ وَبَيَانِ صَلَاحِهِ وَمَنْفَعَتِهِ وَالتَّرْغِيبِ فِيهِ وَذَلِكَ نَحْوَ قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ

(360/555)

الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ﴾ ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴾ ﴿ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴾ ﴿ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴾ ﴿ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴾ ﴿ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴾ ﴿ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴾ ﴿ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴾ ﴿ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴾ ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ ﴾ الْآيَاتُ . وَهَذَا كَثِيرٌ جِدًّا فَالَّذِي يُحِبُّ أَقْوَالَهُمْ وَأَفْعَالَهُمْ هُوَ مِنْهُمْ : إمَّا كَافِرٌ وَإِمَّا فَاجِرٌ بِحَسَبِ قَوْلِهِ وَفِعْلِهِ وَلَيْسَ مِنْهُمْ مَنْ هُوَ بِعَكْسِهِ وَلَيْسَ عَلَيْهِ عَذَابٌ فِي تَرْكِهِ ؛ لَكِنَّهُ لَا يُثَابُ عَلَى مُجَرَّدِ عَدَمِ ذَلِكَ وَإِنَّمَا يُثَابُ عَلَى قَصْدِهِ لِتَرْكِ ذَلِكَ وَإِرَادَتِهِ وَذَلِكَ مَسْبُوقٌ بِالْعِلْمِ بِقُبْحِ ذَلِكَ وَبُغْضِهِ لِلَّهِ وَهَذَا الْعِلْمُ وَالْقَصْدُ وَالْبُغْضُ هُوَ مِنْ الْإِيمَانِ الَّذِي يُثَابُ عَلَيْهِ وَهُوَ أَدْنَى الْإِيمَانِ ؛ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ ﴾ إلَى آخِرِهِ وَتَغْيِيرُ الْقَلْبِ يَكُونُ بِالْبُغْضِ لِذَلِكَ وَكَرَاهَتِهِ وَذَلِكَ لَا يَكُونُ إلَّا بَعْدَ الْعِلْمِ بِهِ وَبِقُبْحِهِ ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ يَكُونُ الْإِنْكَارُ بِاللِّسَانِ ثُمَّ يَكُونُ بِالْيَدِ وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ ﴿ وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ ﴾ فِيمَنْ رَأَى الْمُنْكَرَ . فَأَمَّا إذَا رَآهُ فَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّهُ مُنْكَرٌ وَلَمْ

(361/555)

يَكْرَهْهُ لَمْ يَكُنْ هَذَا الْإِيمَانُ مَوْجُودًا فِي الْقَلْبِ فِي حَالِ وُجُودِهِ وَرُؤْيَتِهِ : بِحَيْثُ يَجِبُ بُغْضُهُ

(362/555)

وَكَرَاهَتُهُ وَالْعِلْمُ بِقُبْحِهِ يُوجِبُ جِهَادَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ إذَا وُجِدُوا وَإِذَا لَمْ يَكُنْ الْمُنْكَرُ مَوْجُودًا لَمْ يَجِبْ ذَلِكَ وَيُثَابُ مَنْ أَنْكَرَهُ عِنْدَ وُجُودِهِ وَلَا يُثَابُ مَنْ لَمْ يُوجَدْ عِنْدَهُ حَتَّى يُنْكِرَهُ وَكَذَلِكَ مَا يَدْخُلُ فِي ذَلِكَ مِنْ الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ الْمُنْكَرَاتِ قَدْ يَعْرِضُ عَنْهَا كَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ إعْرَاضَهُمْ عَنْ جِهَادِ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَعَنْ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنْ الْمُنْكَرِ فَهَؤُلَاءِ وَإِنْ كَانُوا مِنْ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ هَجَرُوا السَّيِّئَاتِ فَلَيْسُوا مِنْ الْمُجَاهِدِينَ الَّذِينَ يُجَاهِدُونَ فِي

إزَالَتِهَا حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ . فَتَدَبَّرْ هَذَا فَإِنَّهُ كَثِيرًا مَا يَجْتَمِعُ فِي كَثِيرٍ مِنْ النَّاسِ هَذَانِ الْأَمْرَانِ بُغْضُ الْكُفْرِ وَأَهْلِهِ وَبُغْضُ الْفُجُورِ وَأَهْلِهِ وَبُغْضُ نَهْيِهِمْ وَجِهَادِهِمْ كَمَا يُحِبُّ الْمَعْرُوفَ وَأَهْلَهُ وَلَا يُحِبُّ أَنْ يَأْمُرَ بِهِ وَلَا يُجَاهِدَ عَلَيْهِ بِالنَّفْسِ وَالْمَالِ ؛ وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : ﴿ إنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ إنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ

(363/555)

الْفَاسِقِينَ ﴾ وَقَوْلُهُ ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ

(364/555)

أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ ﴾ الْآيَةُ . وَكَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ كَرَاهَتُهُمْ لِلْجِهَادِ عَلَى الْمُنْكَرَاتِ أَعْظَمُ مِنْ كَرَاهَتِهِمْ لِلْمُنْكَرَاتِ لَا سِيَّمَا إذَا كَثُرَتْ الْمُنْكَرَاتُ وَقَوِيَتْ فِيهَا الشُّبُهَاتُ وَالشَّهَوَاتُ فَرُبَّمَا مَالُوا إلَيْهَا تَارَةً وَعَنْهَا أُخْرَى فَتَكُونُ نَفْسُ أَحَدِهِمْ لَوَّامَةً بَعْدَ أَنْ كَانَتْ أَمَّارَةً ثُمَّ إذَا ارْتَقَى إلَى الْحَالِ الْأَعْلَى فِي هَجْرِ السَّيِّئَاتِ وَصَارَتْ نَفْسُهُ مُطْمَئِنَّةً تَارِكَةً لِلْمُنْكَرَاتِ وَالْمَكْرُوهَاتِ لَا تُحِبُّ الْجِهَادَ وَمُصَابَرَةَ الْعَدُوِّ عَلَى ذَلِكَ وَاحْتِمَالَ مَا يُؤْذِيهِ مِنْ الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ : فَإِنَّ هَذَا شَيْءٌ آخَرُ دَاخِلٌ فِي قَوْلِهِ : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ﴾ الْآيَاتُ إلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتًا ﴾ وَالشَّفَاعَةُ الْإِعَانَةُ ؛ إذْ الْمُعِينُ قَدْ صَارَ شَفْعًا لِلْمُعَانِ فَكُلُّ مَنْ أَعَانَ عَلَى بِرٍّ أَوْ تَقْوَى كَانَ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهُ وَمَنْ أَعَانَ عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ كَانَ لَهُ كِفْلٌ مِنْهُ وَهَذَا حَالُ النَّاسِ فِيمَا يَفْعَلُونَهُ بِقُلُوبِهِمْ وَأَلْسِنَتِهِمْ وَأَيْدِيهِمْ مِنْ الْإِعَانَةِ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَالْإِعَانَةِ عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمِنْ ذَلِكَ الْجِهَادُ بِالنَّفْسِ وَالْمَالِ عَلَى ذَلِكَ مِنْ الْجَانِبَيْنِ كَمَا قَالَ تَعَالَى قَبْلَ

(365/555)

ذَلِكَ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِيعًا ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ .

(366/555)

وَمِنْ هُنَا يَظْهَرُ الْفَرْقُ فِي السَّمْعِ وَالْبَصَرِ : مِنْ الْإِيمَانِ وَآثَارِهِ وَالْكُفْرِ وَآثَارِهِ وَالْفَرْقُ بَيْنَ الْمُؤْمِنِ الْبَرِّ وَبَيْنَ الْكَافِرِ وَالْفَاجِرِ ؛ فَإِنَّ الْمُؤْمِنِينَ يَسْمَعُونَ أَخْبَارَ أَهْلِ الْإِيمَانِ فَيَشْهَدُونَ رُؤْيَتَهُمْ عَلَى وَجْهِ الْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ وَالْمَحَبَّةِ وَالتَّعْظِيمِ لَهُمْ وَلِأَخْبَارِهِمْ وَآثَارِهِمْ كَرُؤْيَةِ الصَّحَابَةِ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَسَمْعِهِمْ لِمَا بَلَّغَهُ عَنْ اللَّهِ وَالْكَافِرُ وَالْمُنَافِقُ يَسْمَعُ وَيَرَى عَلَى وَجْهِ الْبُغْضِ وَالْجَهْلِ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ ﴾ وَقَالَ : ﴿ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ﴾ وَقَالَ : ﴿ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴾ وَقَالَ : ﴿ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى فِي حَقِّ الْمُؤْمِنِينَ : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ وَقَالَ فِي حَقِّ الْكُفَّارِ : ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴾ وَالْآيَاتُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ جِدًّا . وَكَذَلِكَ النَّظَرُ إِلَى زِينَةِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِتْنَةٌ فَقَالَ تَعَالَى ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ

عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ وَفِي التَّوْبَةِ ﴿ فَلَا

(367/555)

تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ ﴾ الْآيَةُ وَقَالَ : ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ ﴾ الْآيَةُ وَقَالَ : ﴿ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ وَقَالَ : ﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ

(368/555)

إلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ الْآيَاتُ . وَقَالَ : ﴿ قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ وَقَالَ : ﴿ أَفَلَمْ يَرَوْا إلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ الْآيَةُ وَكَذَلِكَ قَالَ الشَّيْطَانُ : ﴿ إنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ ﴾ وَقَالَ : ﴿ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ ﴾ الْآيَاتُ وَقَالَ : ﴿ إذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا ﴾ الْآيَةُ . فَالنَّظَرُ إلَى مَتَاعِ الدُّنْيَا عَلَى وَجْهِ الْمَحَبَّةِ وَالتَّعْظِيمِ لَهَا وَلِأَهْلِهَا مَنْهِيٌّ عَنْهُ وَالنَّظَرُ إلَى الْمَخْلُوقَاتِ الْعُلْوِيَّةِ وَالسُّفْلِيَّةِ عَلَى وَجْهِ التَّفَكُّرِ وَالِاعْتِبَارِ مَأْمُورٌ بِهِ مَنْدُوبٌ إلَيْهِ . وَأَمَّا رُؤْيَةُ ذَلِكَ عِنْدَ الْجِهَادِ وَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنْ

الْمُنْكَرِ لدَفْعِ شَرِّ أُولَئِكَ وَإِزَالَتِهِ فَمَأْمُورٌ بِهِ وَكَذَلِكَ رُؤْيَةُ الِاعْتِبَارِ شَرْعًا فِي الْجُمْلَةِ فَالْعَيْنُ الْوَاحِدَةُ يُنْظَرُ إلَيْهَا نَظَرًا مَأْمُورًا بِهِ إمَّا لِلِاعْتِبَارِ وَإِمَّا لِبُغْضِ ذَلِكَ وَالنَّظَرُ إلَيْهِ لِبُغْضِ الْجِهَادِ مَنْهِيٌّ عَنْهُ وَكَذَلِكَ الْمُوَالَاةُ وَالْمُعَادَاةُ ؛ وَقَدْ تَحْصُلُ لِلْعَبْدِ فِتْنَةٌ بِنَظَرٍ مَنْهِيٍّ عَنْهُ وَهُوَ يَظُنُّ أَنَّهُ نَظَرُ عِبْرَةٍ وَقَدْ يُؤْمَرُ بِالْجِهَادِ فَيَظُنُّ أَنَّ ذَلِكَ نَظَرُ فِتْنَةٍ كَالَّذِينَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِمْ : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي ﴾ الْآيَةَ فَإِنَّهَا نَزَلَتْ فِي الْجَدِّ بْنِ قَيْسٍ لَمَّا أَمَرَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَتَجَهَّزَ لِغَزْوِ الرُّومِ فَقَالَ : إنِّي مُغْرَمٌ بِالنِّسَاءِ وَأَخَافُ الْفِتْنَةَ بِنِسَاءِ الرُّومِ

(369/555)

فَأْذَنْ لِي فِي الْقُعُودِ قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾

.

(370/555)

فَهَذَا وَنَحْوُهُ مِمَّا يَكُونُ بِاللِّسَانِ مِنْ الْقَوْلِ وَأَمَّا مَا يَكُونُ مِنْ الْفِعْلِ بِالْجَوَارِحِ فَكُلُّ عَمَلٍ يَتَضَمَّنُ مَحَبَّةَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا دَاخِلٌ فِي هَذَا ؛ بَلْ يَكُونُ عَذَابُهُ أَشَدَّ فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ

تَوَعَّدَ بِالْعَذَابِ عَلَى مُجَرَّدِ مَحَبَّةِ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ بِالْعَذَابِ الْأَلِيمِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَهَذِهِ الْمَحَبَّةُ قَدْ لَا يَقْتَرِنُ بِهَا قَوْلٌ وَلَا فِعْلٌ فَكَيْفَ إذَا اقْتَرَنَ بِهَا قَوْلٌ أَوْ فِعْلٌ ؟ بَلْ عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يُبْغِضَ مَا أَبْغَضَهُ اللَّهُ مِنْ فِعْلِ الْفَاحِشَةِ وَالْقَذْفِ بِهَا وَإِشَاعَتِهَا فِي الَّذِينَ آمَنُوا وَمَنْ رَضِيَ عَمَلَ قَوْمٍ حُشِرَ مَعَهُمْ كَمَا حُشِرَتْ امْرَأَةُ لُوطٍ مَعَهُمْ وَلَمْ تَكُنْ تَعْمَلُ فَاحِشَةَ اللِّوَاطِ فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يَقَعُ مِنْ الْمَرْأَةِ لَكِنَّهَا لَمَّا رَضِيَتْ فِعْلَهُمْ عَمَّهَا الْعَذَابُ مَعَهُمْ . فَمِنْ هَذَا الْبَابِ قِيلَ : مَنْ أَعَانَ عَلَى الْفَاحِشَةِ وَإِشَاعَتِهَا مِثْلُ الْقُوَّادِ الَّذِي يَقُودُ النِّسَاءَ وَالصِّبْيَانَ إلَى الْفَاحِشَةِ لِأَجْلِ مَا يَحْصُلُ لَهُ مِنْ رِيَاسَةٍ أَوْ سُحْتٍ يَأْكُلُهُ وَكَذَلِكَ أَهْلُ الصِّنَاعَاتِ الَّتِي تُنْفِقُ بِذَلِكَ : مِثْلُ الْمُغَنِّينَ وَشُرْبَةِ الْخَمْرِ وَضُمَّانِ الْجِهَاتِ السُّلْطَانِيَّةِ وَغَيْرِهَا فَإِنَّهُمْ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ لِيَتَمَكَّنُوا مِنْ دَفْعِ مَنْ يُنْكِرُهَا مِنْ الْمُؤْمِنِينَ بِخِلَافِ مَا إذَا كَانَتْ قَلِيلَةً خَفِيفَةً خَفِيَّةً وَلَا خِلَافَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ أَنَّ مَا يَدْعُو إلَى مَعْصِيَةِ اللَّهِ وَيَنْهَى عَنْ طَاعَتِهِ مَنْهِيٌّ عَنْهُ مُحَرَّمٌ بِخِلَافِ عَكْسِهِ فَإِنَّهُ

(371/555)

وَاجِبٌ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ أَيْ أَنَّ مَا فِيهَا مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ وَذِكْرِهِ وَامْتِثَالِ أَمْرِهِ أَكْبَرُ مِنْ ذَلِكَ .

وَقَالَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ : ﴿ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ ﴾ أَيْ : يُوقِعُهُمْ ذَلِكَ فِي مَعْصِيَتِهِ الَّتِي هِيَ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ الْمُنْكَرَاتِ الَّتِي تَنْهَى عَنْهُ الصَّلَاةُ وَالْخَمْرُ تَدْعُو إلَى الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ كَمَا هُوَ الْوَاقِعُ فَإِنَّ شَارِبَ الْخَمْرِ تَدْعُوهُ نَفْسُهُ إلَى الْجِمَاعِ حَلَالًا كَانَ أَوْ حَرَامًا فَاللَّهُ تَعَالَى لَمْ يَذْكُرْ الْجِمَاعَ لِأَنَّ الْخَمْرَ لَا تَدْعُو إلَى الْحَرَامِ بِعَيْنِهِ مِنْ الْجِمَاعِ فَيَأْتِي شَارِبُ الْخَمْرِ مَا يُمْكِنُهُ مِنْ الْجِمَاعِ سَوَاءٌ كَانَ حَلَالًا أَوْ حَرَامًا وَالسُّكْرُ يُزِيلُ الْعَقْلَ الَّذِي كَانَ يُمَيِّزُ السَّكْرَانُ بِهِ بَيْنَ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ وَالْعَقْلُ الصَّحِيحُ يَنْهَى عَنْ مُوَاقَعَةِ الْحَرَامِ ؛ وَلِهَذَا يُكْثِرُ شَارِبُ الْخَمْرِ مِنْ مُوَاقَعَةِ الْفَوَاحِشِ مَا لَا يُكْثِرُ مِنْ غَيْرِهَا حَتَّى رُبَّمَا يَقَعُ عَلَى ابْنَتِهِ وَابْنِهِ وَمَحَارِمِهِ وَقَدْ يَسْتَغْنِي بِالْحَلَالِ إذَا أَمْكَنَهُ وَيَدْعُو شُرْبُ الْخَمْرِ إلَى أَكْلِ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ : مِنْ سَرِقَةٍ وَمُحَارَبَةٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ ؛ لِأَنَّهُ يَحْتَاجُ إلَى الْخَمْرِ وَمَا يَسْتَتْبِعُهُ مِنْ مَأْكُولٍ وَغَيْرِهِ مِنْ فَوَاحِشَ وَغِنَاءٍ . وَشُرْبُ الْخَمْرِ يُظْهِرُ أَسْرَارَ الرِّجَالِ حَتَّى يَتَكَلَّمَ شَارِبُهُ بِمَا فِي بَاطِنِهِ وَكَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ إذَا أَرَادُوا اسْتِفْهَامَ مَا فِي قُلُوبِ الرِّجَالِ مِنْ الْأَسْرَارِ يَسْقُونَهُمْ الْخَمْرَ وَرُبَّمَا يَشْرَبُونَ مَعَهُمْ مَا لَا يَسْكَرُونَ بِهِ . وَأَيْضًا فَالْخَمْرُ تَصُدُّ الْإِنْسَانَ عَنْ عِلْمِهِ وَتَدْبِيرِهِ وَمَصْلَحَتِهِ فِي

(373/555)

مَعَاشِهِ وَمَعَادِهِ وَجَمِيعِ أُمُورِهِ الَّتِي يُدَبِّرُهَا بِرَأْيِهِ وَعَقْلِهِ فَجَمِيعُ الْأُمُورِ الَّتِي تَصُدُّ

(374/555)

عَنْهَا الْخَمْرُ مِنْ الْمَصَالِحِ وَتُوقِعُهَا مِنْ الْمَفَاسِدِ دَاخِلَةٌ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ . ﴾ وَكَذَلِكَ إيقَاعُ الْعَدَاوَةِ وَالْبَغْضَاءِ هِيَ مُنْتَهَى قَصْدِ الشَّيْطَانِ ؛ وَلِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِأَفْضَلَ مِنْ دَرَجَةِ الصَّلَاةِ وَالصِّيَامِ وَالصَّدَقَةِ وَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنْ الْمُنْكَرِ ؟ قَالُوا : بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ : إصْلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ فَإِنَّ إفْسَادَ ذَاتِ الْبَيْنِ هِيَ الْحَالِقَةُ لَا أَقُولُ تَحْلِقُ الشَّعْرَ وَلَكِنْ تَحْلِقُ الدِّينَ ﴾ . وَقَدْ ذَكَرْنَا فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ أَنَّ الْفَوَاحِشَ وَالظُّلْمَ وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ الذُّنُوبِ تُوقِعُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ وَأَنَّ كُلَّ عَدَاوَةٍ أَوْ بَغْضَاءَ فَأَصْلُهَا مِنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ وَالشَّيْطَانُ يَأْمُرُ بِالْمَعْصِيَةِ لِيُوقِعَ فِيمَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهَا وَلَا يَرْضَى بِغَايَةِ مَا قَدَرَ عَلَى ذَلِكَ . وَأَيْضًا فَالْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ شَرٌّ مَحْضٌ لَا يُحِبُّهَا عَاقِلٌ ؛ بِخِلَافِ الْمَعَاصِي فَإِنَّ فِيهَا لَذَّةً كَالْخَمْرِ وَالْفَوَاحِشِ ؛ فَإِنَّ النُّفُوسَ تُرِيدُ ذَلِكَ

وَالشَّيْطَانُ يَدْعُو إِلَيْهَا النُّفُوسَ حَتَّى يُوقِعَهَا فِي شَرٍّ لَا تَهْوَاهُ وَلَا تُرِيدُهُ وَاللَّهُ تَعَالَى قَدْ بَيَّنَ مَا يُرِيدُهُ الشَّيْطَانُ بِالْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَلَمْ يَذْكُرْ مَا يُرِيدُهُ الْإِنْسَانُ ثُمَّ قَالَ فِي سُورَةِ النُّورِ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾

(375/555)

وَقَالَ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ : ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ ﴿ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ فَنَهَى عَنْ اتِّبَاعِ خُطُوَاتِهِ - وَهُوَ اتِّبَاعُ أَمْرِهِ بِالِاقْتِدَاءِ وَالِاتِّبَاعِ - وَأَخْبَرَ أَنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالسُّوءِ وَالْقَوْلِ عَلَى اللَّهِ بِلَا عِلْمٍ وَقَالَ فِيهَا : ﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا ﴾ فَالشَّيْطَانُ يَعِدُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالسُّوءِ وَاللَّهُ يَعِدُ الْمَغْفِرَةَ وَالْفَضْلَ وَيَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ وَقَالَ عَنْ نَبِيِّهِ : ﴿ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ وَقَالَ عَنْ أُمَّتِهِ : ﴿ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ . وَذَكَرَ مِثْلَ ذَلِكَ فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ . فَتَارَةً يَخُصُّ اسْمَ

الْمُنْكَرِ بِالنَّهْيِ وَتَارَةً يُقْرِنُهُ بِالْفَحْشَاءِ وَتَارَةً يُقْرِنُ مَعَهُمَا الْبَغْيَ وَكَذَلِكَ الْمَعْرُوفُ : تَارَةً يَخُصُّهُ بِالْأَمْرِ وَتَارَةً يُقْرِنُ بِهِ غَيْرَهُ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ﴾ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْأَسْمَاءَ قَدْ يَكُونُ عُمُومُهَا وَخُصُوصُهَا بِحَسَبِ الْإِفْرَادِ

(376/555)

وَالتَّرْكِيبِ : كَلَفْظِ الْفَقِيرِ وَالْمِسْكِينِ فَإِنَّ أَحَدَهُمَا إذَا أُفْرِدَ كَانَ عَامًّا لِمَا يَدُلَّانِ عَلَيْهِ عِنْدَ الِاقْتِرَانِ ؛ بِخِلَافِ اقْتِرَانِهِمَا فَإِنَّهُ يَكُونُ مَعْنَى كُلٍّ

(377/555)

مِنْهُمَا لَيْسَ هُوَ مَعْنَى الْآخَرِ بَلْ أَخَصُّ مِنْ مَعْنَاهُ عِنْدَ الْإِفْرَادِ وَأَيْضًا فَقَدْ يُعْطَفُ عَلَى الِاسْمِ الْعَامِّ بَعْضُ أَنْوَاعِهِ عَلَى سَبِيلِ التَّخْصِيصِ ثُمَّ قَدْ قِيلَ : إنَّ ذَلِكَ الْمُخَصَّصَ يَكُونُ مَذْكُورًا بِالْمَعْنَى الْعَامِّ وَالْخَاصِّ . فَإِذَا عُرِفَ هَذَا . فَاسْمُ " الْمُنْكَرِ " يَعُمُّ كُلَّ مَا كَرِهَهُ اللَّهُ وَنَهَى عَنْهُ وَهُوَ الْمُبْغَضُ وَاسْمُ " الْمَعْرُوفِ " يَعُمُّ كُلَّ مَا يُحِبُّهُ اللَّهُ وَيَرْضَاهُ وَيَأْمُرُ بِهِ فَحَيْثُ أُفْرِدَا

بالذِّكْرِ فَإِنَّهُمَا يَعُمَّانِ كُلَّ مَحْبُوبٍ فِي الدِّينِ وَمَكْرُوهٍ وَإِذَا قُرِنَ الْمُنْكَرُ بِالْفَحْشَاءِ فَإِنَّ الْفَحْشَاءَ مَبْنَاهَا عَلَى الْمَحَبَّةِ وَالشَّهْوَةِ و " الْمُنْكَرُ " هُوَ الَّذِي تُنْكِرُهُ الْقُلُوبُ فَقَدْ يُظَنُّ أَنَّ مَا فِي الْفَاحِشَةِ مِنْ الْمَحَبَّةِ يُخْرِجُهَا عَنْ الدُّخُولِ فِي الْمُنْكَرِ وَإِنْ كَانَتْ مِمَّا تُنْكِرُهَا الْقُلُوبُ فَإِنَّهَا تَشْتَهِيهَا النُّفُوسُ و " الْمُنْكَرُ " قَدْ يُقَالُ : إنَّهُ يَعُمُّ مَعْنَى الْفَحْشَاءِ وَقَدْ يُقَالُ : خُصَّتْ لِقُوَّةِ الْمُقْتَضِي لِمَا فِيهَا مِنْ الشَّهْوَةِ وَقَدْ يُقَالُ : قَصَدَ بِالْمُنْكَرِ مَا يُنْكَرُ مُطْلَقًا وَالْفَحْشَاءُ لِكَوْنِهَا تُشْتَهَى وَتُحَبُّ وَكَذَلِكَ " الْبَغْيُ " قُرِنَ بِهَا لِأَنَّهُ أَبْعَدُ عَنْ مَحَبَّةِ النُّفُوسِ . وَلِهَذَا كَانَ جِنْسُ عَذَابِ صَاحِبِهِ أَعْظَمُ مِنْ جِنْسِ عَذَابِ صَاحِبِ الْفَحْشَاءِ وَمَنْشَؤُهُ مِنْ قُوَّةِ الْغَضَبِ كَمَا أَنَّ الْفَحْشَاءَ مَنْشَؤُهَا عَنْ قُوَّةِ الشَّهْوَةِ وَلِكُلٍّ مِنْ النُّفُوسِ لَذَّةٌ بِحُصُولِ مَطْلُوبِهَا فَالْفَوَاحِشُ وَالْبَغْيُ مَقْرُونَانِ بِالْمُنْكَرِ وَأَمَّا الْإِشْرَاكُ

(378/555)

وَالْقَوْلُ عَلَى اللَّهِ بِلَا عِلْمٍ فَإِنَّهُ مُنْكَرٌ

(379/555)

مَحْضٌ لَيْسَ فِي النُّفُوسِ مَيْلٌ إلَيْهِمَا ؛ بَلْ إنَّمَا يَكُونَانِ عَنْ عِنَادٍ وَظُلْمٍ فَهُمَا مُنْكَرٌ وَظُلْمٌ مَحْضٌ بِالْفِطْرَةِ . فَهَذِهِ الْخِصَالُ فَسَادٌ فِي الْقُوَّةِ الْعِلْمِيَّةِ وَالْعَمَلِيَّةِ فَالصَّلَاةُ تَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ سَوَاءٌ كَانَ الضَّمِيرُ عَائِدًا إلَى الشَّيْطَانِ أَوْ إلَى مَنْ يَتَّبِعُ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّ مَنْ أَتَى الْفَحْشَاءَ وَالْمُنْكَرَ سَوَاءٌ فَإِنْ كَانَ الشَّيْطَانُ أَمَرَهُ فَهُوَ مُتَّبِعُهُ مُطِيعُهُ عَابِدٌ لَهُ وَإِنْ كَانَ الْآتِي هُوَ الْآمِرُ فَالْأَمْرُ بِالْفِعْلِ أَبْلَغُ مِنْ فِعْلِهِ فَمَنْ أَمَرَ بِهَا غَيْرَهُ رَضِيَهَا لِنَفْسِهِ . وَمِنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ اسْتِمَاعُ الْعَبْدِ مَزَامِيرَ الشَّيْطَانِ وَالْمُغَنِّي هُوَ مُؤَذِّنُهُ الَّذِي يَدْعُو إلَى طَاعَتِهِ فَإِنَّ الْغِنَاءَ رُقْيَةُ الزِّنَا وَكَذَلِكَ مِنْ اتِّبَاعِ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ الْقَوْلُ عَلَى اللَّهِ بِلَا عِلْمٍ ﴿ قُلْ إنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ وَهَذِهِ حَالُ أَهْلِ الْبِدَعِ وَالْفُجُورِ وَكَثِيرٌ مِمَّنْ يَسْتَحِلُّ مُؤَاخَاةَ النِّسَاءِ وَالمردان وَإِحْضَارَهُمْ فِي سَمَاعِ الْغِنَاءِ وَدَعْوَى مَحَبَّةِ صُورَهِمْ لِلَّهِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا فُتِنَ بِهِ كَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ فَصَارُوا ضَالِّينَ مُضِلِّينَ . ثُمَّ إنَّهُ سُبْحَانَهُ نَهَى الْمَظْلُومَ بِالْقَذْفِ أَنْ يَمْنَعَ مَا يَنْبَغِي لَهُ فِعْلُهُ مِنْ الْإِحْسَانِ إلَى ذَوِي قَرَابَتِهِ وَالْمَسَاكِينِ وَأَهْلِ التَّوْبَةِ وَأَمَرَهُ بِالْعَفْوِ

(380/555)

وَالصَّفْحِ ؛ فَإِنَّهُمْ كَمَا يُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ فَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا وَلْيَغْفِرُوا وَلَا رَيْبَ أَنَّ صِلَةَ الْأَرْحَامِ وَاجِبَةٌ وَإِيتَاءَ الْمَسَاكِينِ وَاجِبٌ وَإِعَانَةَ الْمُهَاجِرِينَ وَاجِبٌ فَلَا يَجُوزُ تَرْكُ مَا يَجِبُ مِنْ الْإِحْسَانِ لِلْإِنْسَانِ بِمُجَرَّدِ ظُلْمِهِ وَإِسَاءَتِهِ فِي عِرْضِهِ كَمَا لَا يَمْنَعُ الرَّجُلُ مِيرَاثَهُ وَحَقَّهُ مِنْ الصَّدَقَاتِ وَالْفَيْءِ بِمُجَرَّدِ ذَنْبٍ مِنْ الذُّنُوبِ وَقَدْ يُمْنَعُ مِنْ ذَلِكَ لِبَعْضِ الذُّنُوبِ . وَفِي الْآيَةِ دَلَالَةٌ عَلَى وُجُوبِ الصِّلَةِ وَالنَّفَقَةِ وَغَيْرِهَا لِذَوِي الْأَرْحَامِ - الَّذِينَ لَا يَرِثُونَ بِفَرْضٍ وَلَا تَعْصِيبٍ - فَإِنَّهُ قَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ عَائِشَةَ فِي قِصَّةِ الْإِفْكِ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ حَلَفَ أَنْ لَا يُنْفِقَ عَلَى مِسْطَحِ بْنِ أُثَاثَةَ وَكَانَ أَحَدَ الْخَائِضِينَ فِي الْإِفْكِ فِي شَأْنِ عَائِشَةَ وَكَانَتْ أُمُّ مِسْطَحٍ بِنْتُ خَالَةِ أَبِي بَكْرٍ وَقَدْ جَعَلَهُ اللَّهُ مِنْ ذَوِي الْقُرْبَى الَّذِينَ نَهَى عَنْ تَرْكِ إيتَائِهِمْ وَالنَّهْيُ يَقْتَضِي التَّحْرِيمَ فَإِذَا لَمْ يَجُزْ الْحَلِفُ عَلَى تَرْكِ الْفِعْلِ كَانَ الْفِعْلُ وَاجِبًا لِأَنَّ الْحَلِفَ عَلَى تَرْكِ الْجَائِزِ جَائِزٌ .

فَصْلٌ :

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً ﴾ وَقَالَ فِيهَا ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ ﴾ ،

﴿ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً ﴾ وَقَالَ فِيهَا : ﴿ لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ ﴾ فَذَكَرَ عَدَدَ الشُّهَدَاءِ وَأَطْلَقَ صِفَتَهُمْ وَلَمْ يُقَيِّدْهُمْ بِكَوْنِهِمْ مِنَّا وَلَا مِمَّنْ نَرْضَى وَلَا مِنْ ذَوِي الْعَدْلِ كَمَا قَيَّدَ صِفَةَ الشُّهَدَاءِ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ .

(382/555)

وَلِهَذَا تَنَازَعَ الْعُلَمَاءُ : هَلْ شَهَادَةُ الْأَرْبَعَةِ الَّتِي يَجِبُ بِهَا الْحَدُّ عَلَى الزَّانِي مِثْلُ شَهَادَةِ أَهْلِ الْفُسُوقِ وَالْعِصْيَانِ وَغَيْرِهِمْ هَلْ تَدْرَأُ الْحَدَّ عَنْ الْقَاذِفِ ؟ عَلَى قَوْلَيْنِ فِي مَذْهَبِ أَحْمَد . " أَحَدُهُمَا " أَنَّهَا تَدْرَأُ الْحَدَّ عَنْ الْقَاذِفِ وَإِنْ لَمْ تُوجِبْ حَدَّ الزِّنَا عَلَى الْمَقْذُوفِ كَشَهَادَةِ الزَّوْجِ عَلَى امْرَأَتِهِ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ فَإِنَّ ذَلِكَ يَدْرَأُ حَدَّ الْقَذْفِ وَلَا يَجِبُ الْحَدُّ عَلَى امْرَأَتِهِ لِمُجَرَّدِ ذَلِكَ ؛ لِأَنَّهَا تَدْفَعُ الْعَذَابَ عَنْهَا بِشَهَادَتِهَا أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ وَلَوْ لَمْ تَشْهَدْ فَهَلْ تُحَدُّ أَوْ تُحْبَسُ حَتَّى تُقِرَّ أَوْ تُلَاعِنَ أَوْ يُخَلَّى سَبِيلُهَا ؟ فِيهِ نِزَاعٌ مَشْهُورٌ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ فَلَا يَلْزَمُ مِنْ دَرْءِ الْحَدِّ عَنْ الْقَاذِفِ وُجُوبُ حَدِّ الزِّنَا عَلَى الْمَقْذُوفِ ؛ فَإِنَّ كِلَاهُمَا حَدٌّ وَالْحُدُودُ تُدْرَأُ بِالشُّبُهَاتِ وَالْأَرْبَعُ شَهَادَاتٍ لِلْقَاذِفِ شُبْهَةٌ قَوِيَّةٌ وَلَوْ اعْتَرَفَ الْمَقْذُوفُ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا دُرِئَ الْحَدُّ عَنْ الْقَاذِفِ وَلَمْ يَجِبْ الْحَدُّ عَنْهَا عِنْدَ أَكْثَرِ الْعُلَمَاءِ وَلَوْ كَانَ الْمَقْذُوفُ غَيْرَ

مُحْصَنٍ - مِثْلَ أَنْ يَكُونَ مَشْهُورًا بِالْفَاحِشَةِ - لَمْ يُحَدَّ قَاذِفُهُ حَدَّ الْقَذْفِ وَلَمْ يُحَدَّ هُوَ حَدَّ الزِّنَا لِمُجَرَّدِ الِاسْتِفَاضَةِ ،

(383/555)

وَإِنْ كَانَ يُعَاقَبُ كُلٌّ مِنْهُمَا دُونَ الْحَدِّ وَقَدْ اُعْتُبِرَ نِصَابُ حَدِّ الزِّنَا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ . وَكَذَلِكَ تُعْتَبَرُ صِفَاتُهُمْ فَلَا يُقَامُ حَدُّ الزِّنَا عَلَى مُسْلِمٍ إلَّا بِشَهَادَةِ مُسْلِمِينَ لَكِنْ يُقَالُ : لَمْ يُقَيِّدْهُمْ بِأَنْ يَكُونُوا عُدُولًا مَرْضِيِّينَ كَمَا قَيَّدَهُمْ فِي آيَةِ الدَّيْنِ بِقَوْلِهِ : ﴿ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ ﴾ وَقَالَ فِي آيَةِ الْوَصِيَّةِ : ﴿ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ ﴾ وَقَالَ فِي آيَةِ الرَّجْعَةِ ﴿ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ﴾ فَقَدْ أَمَرَنَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِأَنْ نَحْمِلَ الشَّهَادَةَ الْمُحْتَاجَ إلَيْهَا لِأَهْلِ الْعَدْلِ وَالرِّضَا وَهَؤُلَاءِ هُمْ الْمُمْتَثِلُونَ مَا أَمَرَهُمْ اللَّهُ بِهِ بِقَوْلِهِ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا ﴾ الْآيَةَ . وَفِي قَوْلِهِ : ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى ﴾ وَقَوْلِهِ : ﴿ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ ﴾ وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إذَا مَا دُعُوا ﴾ وَقَوْلِهِ : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ ﴾ فَهُمْ يَقُومُونَ بِالشَّهَادَةِ بِالْقِسْطِ لِلَّهِ فَيَحْصُلُ مَقْصُودُ الَّذِي اسْتَشْهَدَهُ . " الْوَجْهُ الثَّانِي " أَنَّ كَوْنَ شَهَادَتِهِمْ مَقْبُولَةً

مَسْمُوعَةً لِأَنَّهُمْ أَهْلُ الْعَدْلِ وَالرِّضَى . فَدَلَّ عَلَى وُجُوبِ ذَلِكَ فِي الْقَبُولِ وَالْأَدَاءِ وَقَدْ نَهَى سُبْحَانَهُ عَنْ قَبُولِ شَهَادَةِ الْفَاسِقِ

(384/555)

بِقَوْلِهِ : ﴿ إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا ﴾ الْآيَةَ لَكِنَّ هَذَا نَصٌّ فِي أَنَّ الْفَاسِقَ الْوَاحِدَ يَجِبُ التَّبَيُّنُ فِي خَبَرِهِ ،

(385/555)

وَأَمَّا الْفَاسِقَانِ فَصَاعِدًا فَالدَّلَالَةُ عَلَيْهِ تَحْتَاجُ إلَى مُقَدِّمَةٍ أُخْرَى وَمَا ذَكَرُوهُ مِنْ عَدَدِ الشُّهُودِ لَا يُعْتَبَرُ فِي الْحُكْمِ بِاتِّفَاقِ الْعُلَمَاءِ فِي مَوَاضِعَ وَعِنْدَ جُمْهُورِهِمْ قَدْ يُحْكَمُ بِلَا شُهُودٍ فِي مَوَاضِعَ عِنْدَ النُّكُولِ وَالرَّدِّ وَنَحْوِ ذَلِكَ وَيُحْكَمُ بِشَاهِدٍ وَيَمِينٍ كَمَا مَضَتْ سُنَّةُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِنَّهُ ﴿ قَضَى بِشَاهِدٍ وَيَمِينٍ ﴾ رَوَاهُ أَبُو دَاوُد وَغَيْرُهُ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ : ﴿ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَضَى بِشَاهِدٍ وَيَمِينٍ ﴾ وَرَوَاهُ غَيْرُهُمَا وَيَدُلُّ عَلَى هَذَا أَنَّ اللَّهَ لَمْ يَعْتَبِرْ عِنْدَ الْأَدَاءِ هَذَا الْقَيْدَ : لَا

فِي آيَةِ الزِّنَا وَلَا فِي آيَةِ الْقَذْفِ بَلْ قَالَ : ﴿ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ ﴾ وَقَالَ : ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ ﴾ وَإِنَّمَا أَمَرَ بِالتَّثَبُّتِ عِنْدَ خَبَرِ الْفَاسِقِ الْوَاحِدِ وَلَمْ يَأْمُرْ بِهِ عِنْدَ خَبَرِ الْفَاسِقِينَ فَإِنَّ خَبَرَ الِاثْنَيْنِ يُوجِبُ مِنْ الِاعْتِقَادِ مَا لَا يُوجِبُهُ خَبَرُ الْوَاحِدِ ؛ وَلِهَذَا قَالَ الْعُلَمَاءُ : إذَا اسْتَرَابَ الْحَاكِمُ فِي الشُّهُودِ فَرَّقَهُمْ وَسَأَلَهُمْ عَنْ مَكَانِ الشَّهَادَةِ وَزَمَانِهَا وَصِفَتِهَا وَتَحَمُّلِهَا وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يَتَبَيَّنُ بِهِ اتِّفَاقُهُمْ وَاخْتِلَافُهُمْ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى ﴿ وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا ﴾ فَهَذَا نَصٌّ فِي أَنَّ هَؤُلَاءِ الْقَذَفَةِ لَا تُقْبَلُ لَهُمْ شَهَادَةٌ أَبَدًا وَاحِدًا كَانُوا أَوْ عَدَدًا ؛ بَلْ

(386/555)

لَفْظُ الْآيَةِ يَنْتَظِمُ الْعَدَدَ عَلَى سَبِيلِ الْجَمْعِ وَالْبَدَلِ ؛ لِأَنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي أَهْلِ الْإِفْكِ بِاتِّفَاقِ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالْحَدِيثِ وَالْفِقْهِ وَالتَّفْسِيرِ وَكَانَ الَّذِينَ قَذَفُوا

(387/555)

عَائِشَةَ عَدَدًا وَلَمْ يَكُونُوا وَاحِدًا لَمَّا رَأَوْهَا قَدْ قَدِمَتْ صُحْبَةَ صَفْوَانِ بْنِ الْمُعَطَّلِ السُّلَمِي بَعْدَ قُفُولِ الْعَسْكَرِ وَكَانَتْ قَدْ ذَهَبَتْ تَطْلُبُ قِلَادَةً لَهَا عَدِمَتْ فَرَفَعَ أَصْحَابُ الْهَوْدَجِ هَوْدَجَهَا مُعْتَقِدِينَ أَنَّهَا فِيهِ لِخِفَّتِهَا وَلَمْ تَكُنْ فِيهِ فَلَمَّا رَجَعَتْ لَمْ تَجِدْ أَحَدًا مِنْ الْجَيْشِ فَمَكَثَتْ مَكَانَهَا وَكَانَ صَفْوَانُ قَدْ تَخَلَّفَ وَرَاءَ الْجَيْشِ فَلَمَّا رَآهَا أَعْرَضَ بِوَجْهِهِ عَنْهَا وَأَنَاخَ رَاحِلَتَهُ حَتَّى رَكِبَتْهَا ثُمَّ ذَهَبَ بِهَا إلَى الْعَسْكَرِ فَكَانَتْ خَلْوَتُهُ بِهَا لِلضَّرُورَةِ كَمَا يَجُوزُ لِلْمَرْأَةِ أَنْ تُسَافِرَ بِلَا مَحْرَمٍ لِلضَّرُورَةِ كَسَفَرِ الْهِجْرَةِ : مِثْلَ مَا قَدِمَتْ أُمُّ كُلْثُومٍ بِنْتُ عُقْبَةَ بْنِ أَبِي معيط مُهَاجِرَةً وَقِصَّةِ عَائِشَةَ . وَقَدْ دَلَّتْ الْآيَةُ عَلَى أَنَّ الْقَاذِفِينَ لَا تُقْبَلُ شَهَادَتُهُمْ مُجْتَمِعِينَ وَلَا مُتَفَرِّقِينَ . وَدَلَّتْ أَيْضًا عَلَى أَنَّ شَهَادَتَهُمْ بَعْدَ التَّوْبَةِ مَقْبُولَةٌ كَمَا هُوَ مَذْهَبُ الْجُمْهُورِ فَإِنَّهُ كَانَ مِنْ جُمْلَتِهِمْ مِسْطَحُ بْنُ أُثَاثَةَ وَحَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ كَمَا فِي الصَّحِيحِ عَنْ عَائِشَةَ وَكَانَ مِنْهُمْ حمنة بِنْتُ جَحْشٍ وَغَيْرُهَا وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ لَمْ يَرُدْ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَا الْمُسْلِمُونَ بَعْدَهُ شَهَادَةَ أَحَدٍ مِنْهُمْ لِأَنَّهُمْ كُلَّهُمْ تَابُوا لَمَّا نَزَلَ الْقُرْآنُ بِبَرَاءَتِهَا وَمَنْ لَمْ يَتُبْ حِينَئِذٍ فَإِنَّهُ كَافِرٌ مُكَذِّبٌ بِالْقُرْآنِ وَهَؤُلَاءِ مَا زَالُوا مُسْلِمِينَ وَقَدْ نَهَى اللَّهُ عَنْ قَطْعِ صِلَتِهِمْ وَلَوْ رُدَّتْ شَهَادَتُهُمْ بَعْدَ التَّوْبَةِ لَاسْتَفَاضَ

(388/555)

ذَلِكَ كَمَا اسْتَفَاضَ رَدُّ عُمَرَ شَهَادَةِ أَبِي بَكْرَةَ وَقِصَّةُ عَائِشَةَ كَانَتْ أَعْظَمَ مِنْ قِصَّةِ الْمُغِيرَةِ ؛ لَكِنَّ مَنْ

رَدَّ شَهَادَةَ الْقَاذِفِ بَعْدَ التَّوْبَةِ قَدْ يَقُولُ : أَرُدُّ شَهَادَةَ مَنْ حُدَّ فِي الْقَذْفِ وَهَؤُلَاءِ لَمْ يُحَدُّوا وَالْأَوَّلُونَ يُجِيبُونَ بِأَجْوِبَةٍ .

(389/555)

أَحَدُهَا أَنَّهُ قَدْ رُوِيَ فِي السُّنَنِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَدَّ أُولَئِكَ . وَالثَّانِي أَنَّ هَذَا الشَّرْطَ غَيْرُ مُعْتَبَرٍ فِي ظَاهِرِ الْقُرْآنِ وَهُمْ لَا يَقُولُونَ بِهِ كَمَا هُوَ مُقَرَّرٌ فِي مَوْضِعِهِ . وَالثَّالِثُ أَنَّ الَّذِينَ اعْتَبَرُوا الْحَدَّ اعْتَبَرُوهُ وَقَالُوا : قَدْ يَكُونُ الْقَاذِفُ صَادِقًا وَقَدْ يَكُونُ كَاذِبًا فَإِعْرَاضُ الْمَقْذُوفِ عَنْ طَلَبِ حَدِّ الْقَذْفِ قَدْ يَكُونُ لِصِدْقِ الْقَاذِفِ فَإِذَا طَلَبَ الْحَدَّ وَلَمْ يَأْتِ الْقَاذِفُ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ ظَهَرَ كَذِبُهُ وَمَعْلُومٌ أَنَّ الَّذِينَ قَذَفُوا عَائِشَةَ ظَهَرَ كَذِبُهُمْ أَعْظَمَ مِنْ ظُهُورِ كَذِبِ كُلِّ أَحَدٍ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي بَرَّأَهَا بِكَلَامِهِ الَّذِي أَنْزَلَهُ مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَوَاتٍ يُتْلَى فَإِذَا كَانَتْ شَهَادَتُهُمْ بَعْدَ تَوْبَتِهِمْ مَقْبُولَةً فَشَهَادَةُ غَيْرِهِمْ مِمَّنْ شَهِدَ عَلَى غَيْرِهَا بِالْقَذْفِ أَوْلَى بِالْقَبُولِ وَقِصَّةُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ الَّتِي حَكَمَ فِيهَا بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ فِي شَأْنِ الْمُغِيرَةِ لَمَّا شَهِدَ عَلَيْهِ ثَلَاثَةٌ بِالزِّنَا وَتَوَقَّفَ الرَّابِعُ عَنْ الشَّهَادَةِ فَجَلَدَ أُولَئِكَ الثَّلَاثَةَ وَرَدَّ

شَهَادَتَهُمْ دَلِيلٌ عَلَى الْفَصْلَيْنِ جَمِيعًا كَمَا دَلَّتْ قِصَّةُ عَائِشَةَ عَلَى قَبُولِ شَهَادَتِهِمْ بَعْدَ التَّوْبَةِ وَالْجَلَدِ ؛ لِأَنَّ اثْنَيْنِ مِنْ الثَّلَاثَةِ تَابَا فَقَبِلَ عُمَرُ

(390/555)

وَالْمُسْلِمُونَ شَهَادَتَهُمَا وَالثَّالِثُ وَهُوَ أَبُو بَكْرَةَ مَعَ كَوْنِهِ مِنْ أَفْضَلِهِمْ لَمْ يَتُبْ فَلَمَّا لَمْ يَتُبْ لَمْ يَقْبَلْ الْمُسْلِمُونَ شَهَادَتَهُ وَكَانَ مِنْ صَالِحِي الْمُسْلِمِينَ وَقَدْ قَالَ عُمَرُ تُبْ أَقْبَلْ شَهَادَتَك ؛ لَكِنْ إذَا كَانَ الْقُرْآنُ قَدْ بَيَّنَ أَنَّ الْقَذَفَةَ إنْ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ لَمْ تُقْبَلْ شَهَادَتُهُمْ أَبَدًا ثُمَّ قَالَ بَعْدَ ذَلِكَ : ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ ﴿ إلَّا الَّذِينَ تَابُوا ﴾ فَمَعْلُومٌ أَنَّ قَوْلَهُ : ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ وَصْفُ ذَمٍّ لَهُمْ زَائِدٌ عَلَى مَا ذَكَرَهُ مِنْ رَدِّ شَهَادَتِهِمْ .

(391/555)

وَأَمَّا تَفْسِيرُ " الْعَدَالَةِ " الْمَشْرُوطَةِ فِي هَؤُلَاءِ الشُّهَدَاءِ : فَإِنَّهَا الصَّلَاحُ فِي الدِّينِ وَالْمُرُوءَةُ وَالصَّلَاحُ فِي أَدَاءِ الْوَاجِبَاتِ وَتَرْكِ الْكَبِيرَةِ وَالْإِصْرَارِ عَلَى الصَّغِيرَةِ . و " الصَّلَاحُ فِي الْمُرُوءَةِ " اسْتِعْمَالُ مَا يُجَمِّلُهُ وَيُزَيِّنُهُ وَاجْتِنَابُ مَا يُدَنِّسُهُ وَيَشِينُهُ فَإِذَا وُجِدَ هَذَا فِي

شَخْصٍ كَانَ عَدْلًا فِي شَهَادَتِهِ وَكَانَ مِنْ الصَّالِحِينَ الْأَبْرَارِ . وَأَمَّا أَنَّهُ لَا يُسْتَشْهَدُ أَحَدٌ فِي وَصِيَّةٍ أَوْ رَجْعَةٍ فِي جَمِيعِ الْأَمْكِنَةِ وَالْأَزْمِنَةِ حَتَّى يَكُونَ بِهَذِهِ الصِّفَةِ فَلَيْسَ فِي كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ مَا يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ ؛ بَلْ هَذَا صِفَةُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي أَكْمَلَ إيمَانَهُ بِأَدَاءِ الْوَاجِبَاتِ وَإِنْ كَانَ الْمُسْتَحَبَّاتِ لَمْ يُكْمِلْهَا وَمَنْ كَانَ كَذَلِكَ كَانَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ الْمُتَّقِينَ . ثُمَّ إنَّ الْقَائِلِينَ بِهَذَا قَدْ يُفَسِّرُونَ الْوَاجِبَاتِ بِالصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ وَنَحْوِهَا ؛ بَلْ قَدْ يَجِبُ عَلَى الْإِنْسَانِ مِنْ حُقُوقِ اللَّهِ وَحُقُوقِ عِبَادِهِ مَا لَا يُحْصِيهِ

(392/555)

إلَّا اللَّهُ تَعَالَى مِمَّا يَكُونُ تَرْكُهُ أَعْظَمَ إثْمًا مِنْ شُرْبِ الْخَمْرِ وَالزِّنَا وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ يَجْعَلُوهُ قَادِحًا فِي عَدَالَتِهِ ؛ إمَّا لِعَدَمِ اسْتِشْعَارِ كَثْرَةِ الْوَاجِبَاتِ وَإِمَّا لِالْتِفَاتِهِمْ إلَى تَرْكِ السَّيِّئَاتِ دُونَ فِعْلِ الْوَاجِبَاتِ وَلَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ فِي الشَّرِيعَةِ وَبِالْجُمْلَةِ هَذَا مُعْتَبَرٌ فِي بَابِ الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ وَالْمَدْحِ وَالذَّمِّ وَالْمُوَالَاةِ وَالْمُعَادَاةِ وَهَذَا أَمْرٌ عَظِيمٌ . وَأَمَّا قَوْلُ مَنْ يَقُولُ : الْأَصْلُ فِي الْمُسْلِمِينَ الْعَدَالَةُ فَهُوَ بَاطِلٌ ؛ بَلْ الْأَصْلُ فِي بَنِي آدَمَ الظُّلْمُ وَالْجَهْلُ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ . وَمُجَرَّدُ التَّكَلُّمِ بِالشَّهَادَتَيْنِ لَا يُوجِبُ انْتِقَالَ الْإِنْسَانِ عَنْ الظُّلْمِ وَالْجَهْلِ إلَى الْعَدْلِ . و (بَابُ الشَّهَادَةِ مَدَارُهُ عَلَى أَنْ يَكُونَ الشَّهِيدُ

مَرْضِيًّا أَوْ يَكُونَ ذَا عَدْلٍ يَتَحَرَّى الْقِسْطَ وَالْعَدْلَ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ وَالصِّدْقَ فِي شَهَادَتِهِ وَخَبَرِهِ وَكَثِيرًا مَا يُوجَدُ هَذَا مَعَ الْإِخْلَالِ بِكَثِيرٍ مِنْ تِلْكَ الصِّفَاتِ ؛ كَمَا أَنَّ الصِّفَاتِ الَّتِي اعْتَبَرُوهَا كَثِيرًا مَا تُوجَدُ بِدُونِ هَذَا كَمَا قَدْ رَأَيْنَا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْ الصِّنْفَيْنِ كَثِيرًا ؛ لَكِنْ يُقَالُ : إنَّ ذَلِكَ مَظِنَّةُ الصِّدْقِ وَالْعَدْلِ وَالْمَقْصُودُ مِنْ الشَّهَادَةِ وَدَلِيلٌ عَلَيْهَا وَعَلَامَةٌ لَهَا ؛ فَإِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ فِي الْحَدِيثِ الْمُتَّفَقِ عَلَى صِحَّتِهِ : ﴿ عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ ؛ فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إلَى الْبِرِّ وَالْبِرَّ يَهْدِي إلَى الْجَنَّةِ ﴾

(393/555)

الْحَدِيثُ إلَى آخِرِهِ .

فَالصِّدْقُ مُسْتَلْزِمٌ لِلْبِرِّ كَمَا أَنَّ الْكَذِبَ مُسْتَلْزِمٌ لِلْفُجُورِ فَإِذَا وُجِدَ الْمَلْزُومُ وَهُوَ تَحَرِّي الصِّدْقِ وُجِدَ اللَّازِمُ وَهُوَ الْبِرُّ وَإِذَا انْتَفَى اللَّازِمُ وَهُوَ الْبِرُّ انْتَفَى الْمَلْزُومُ وَهُوَ الصِّدْقُ وَإِذَا وُجِدَ الْكَذِبُ وَهُوَ الْمَلْزُومُ وُجِدَ الْفُجُورُ وَهُوَ اللَّازِمُ وَإِذَا انْتَفَى اللَّازِمُ وَهُوَ الْفُجُورُ انْتَفَى الْمَلْزُومُ وَهُوَ الْكَذِبُ ؛ فَلِهَذَا اسْتُدِلَّ بِعَدَمِ بِرِّ الرَّجُلِ عَلَى كَذِبِهِ وَبِعَدَمِ فُجُورِهِ عَلَى صِدْقِهِ . فَالْعَدْلُ الَّذِي ذَكَرَهُ الْفُقَهَاءُ مَنْ انْتَفَى فُجُورُهُ وَهُوَ إتْيَانُ الْكَبِيرَةِ وَالْإِصْرَارُ عَلَى الصَّغِيرَةِ وَإِذَا انْتَفَى ذَلِكَ فِيهِ انْتَفَى كَذِبُهُ الَّذِي يَدْعُوهُ إلَى هَذَا الْفُجُورِ وَالْفَاسِقُ هُوَ مَنْ عَدِمَ بِرُّهُ وَإِذَا عَدِمَ

بِرُّهُ عَدِمَ صِدْقُهُ وَدَلَالَةُ هَذَا الْحَدِيثِ مَبْنِيَّةٌ عَلَى أَنَّ الدَّاعِيَ إلَى الْبِرِّ يَسْتَلْزِمُ الْبِرَّ وَالدَّاعِيَ إلَى الْفُجُورِ يَسْتَلْزِمُ الْفُجُورَ . فَالْخَطَأُ كَالنِّسْيَانِ وَالْعَمْدُ كَالْكَذِبِ . وَاَللَّهُ أَعْلَمُ .

وَقَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ - رَحِمَهُ اللَّهُ - :

(394/555)

فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ إنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ - فِي طَرْدِهِ الْكَلَامَ عَلَى مَا يَتَعَلَّقُ بِهَذِهِ الْآيَةِ وَغَيْرِهَا فَقَالَ - وَأَمَّا الْجَوَابُ الْمُفَصَّلُ فَمِنْ ثَلَاثَةِ أَوْجُهٍ . " أَحَدُهَا " أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ فِي أَزْوَاجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَاصَّةً فِي قَوْلِ كَثِيرٍ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ فَرَوَى هَشِيمٌ عَنْ الْعَوَّامِ بْنِ حوشب ثَنَا شَيْخٌ مِنْ بَنِي كَاهِلٍ قَالَ فَسَّرَ ابْنُ عَبَّاسٍ " سُورَةَ النُّورِ " فَلَمَّا أَتَى عَلَى هَذِهِ الْآيَةِ : ﴿ إنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ ﴾ إلَى آخِرِ الْآيَةِ قَالَ : هَذِهِ فِي شَأْنِ عَائِشَةَ وَأَزْوَاجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَاصَّةً وَهِيَ مُبْهَمَةٌ لَيْسَ فِيهَا تَوْبَةٌ وَمَنْ قَذَفَ امْرَأَةً مُؤْمِنَةً فَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَهُ تَوْبَةً ثُمَّ قَرَأَ : ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ ﴾ إلَى قَوْلِهِ : ﴿ إلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا ﴾ فَجَعَلَ لِهَؤُلَاءِ تَوْبَةً وَلَمْ يَجْعَلْ لِأُولَئِكَ تَوْبَةً قَالَ : فَهَمَّ رَجُلٌ أَنْ يَقُومَ فَيُقَبِّلَ رَأْسَهُ مِنْ حُسْنِ مَا فَسَّرَهُ .

(395/555)

وَقَالَ أَبُو سَعِيدٍ الْأَشَجُّ : حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ خِرَاشٍ عَنْ الْعَوَّامِ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ : ﴿ إنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ ﴾ نَزَلَتْ فِي عَائِشَةَ خَاصَّةً وَاللَّعْنَةُ فِي الْمُنَافِقِينَ عَامَّةٌ فَقَدْ بَيَّنَ ابْنُ عَبَّاسٍ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ إنَّمَا نَزَلَتْ فِيمَنْ يَقْذِفُ عَائِشَةَ وَأُمَّهَاتَ الْمُؤْمِنِينَ ؛ لِمَا فِي قَذْفِهِنَّ مِنْ الطَّعْنِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَيْبِهِ فَإِنَّ قَذْفَ الْمَرْأَةِ أَذًى لِزَوْجِهَا كَمَا هُوَ أَذًى لِابْنِهَا لِأَنَّهُ نِسْبَةٌ لَهُ إلَى الدِّيَاثَةِ وَإِظْهَارٌ لِفَسَادِ فِرَاشِهِ ؛ فَإِنَّ زِنَا امْرَأَتِهِ يُؤْذِيهِ أَذًى عَظِيمًا وَلِهَذَا جَوَّزَ لَهُ الشَّارِعُ أَنْ يَقْذِفَهَا إذَا زَنَتْ وَدَرَأَ الْحَدَّ عَنْهُ بِاللِّعَانِ وَلَمْ يُبِحْ لِغَيْرِهِ أَنْ يَقْذِفَ امْرَأَةً بِحَالٍ وَلَعَلَّ مَا يَلْحَقُ بَعْضَ النَّاسِ مِنْ الْعَارِ وَالْخِزْيِ بِقَذْفِ أَهْلِهِ أَعْظَمُ مِمَّا يَلْحَقُهُ لَوْ كَانَ هُوَ الْمَقْذُوفُ .

(396/555)

وَلِهَذَا ذَهَبَ الْإِمَامُ أَحْمَد فِي إحْدَى الرِّوَايَتَيْنِ الْمَنْصُوصَتَيْنِ عَنْهُ إلَى أَنَّ مَنْ قَذَفَ امْرَأَةً مُحْصَنَةً كَالْأَمَةِ وَالذِّمِّيَّةِ وَلَهَا زَوْجٌ أَوْ وَلَدٌ مُحْصَنٌ حُدَّ لِقَذْفِهَا لِمَا أَلْحَقَهُ مِنْ الْعَارِ بِوَلَدِهَا

وَزَوْجِهَا الْمُحْصَنَيْنِ وَالرِّوَايَةُ الْأُخْرَى عَنْهُ وَهِيَ قَوْلُ الْأَكْثَرِينَ أَنَّهُ لَا حَدَّ عَلَيْهِ ؛ لِأَنَّهُ أَذَى لَهُمَا لَا قَذْفٌ لَهُمَا وَالْحَدُّ التَّامُّ إنَّمَا يَجِبُ بِالْقَذْفِ وَفِي جَانِبِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَذًى كَقَذْفِهِ وَمَنْ يَقْصِدُ عَيْبَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِعَيْبِ أَزْوَاجِهِ فَهُوَ مُنَافِقٌ وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِ ابْنِ عَبَّاسٍ اللَّعْنَةُ فِي الْمُنَافِقِينَ عَامَّةٌ . وَقَدْ وَافَقَ ابْنَ عَبَّاسٍ جَمَاعَةٌ فَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَد وَالْأَشَجُّ عَنْ خَصِيفٍ

(397/555)

قَالَ سَأَلْت سَعِيدَ بْنَ جُبَيْرٍ فَقُلْت : الزِّنَا أَشَدُّ أَوْ قَذْفُ الْمُحْصَنَةِ ؟ قَالَ : لَا ؛ بَلْ الزِّنَا قَالَ : قُلْت : فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ : ﴿ إنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾ فَقَالَ : إنَّمَا كَانَ هَذَا فِي عَائِشَةَ خَاصَّةً وَرَوَى أَحْمَد بِإِسْنَادِهِ عَنْ أَبِي الْجَوْزَاءِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ : ﴿ إنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾ فَقَالَ : هَذِهِ الْآيَةُ لِأُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ خَاصَّةً وَرَوَى الْأَشَجُّ بِإِسْنَادِهِ عَنْ الضَّحَّاكِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ قَالَ : هُنَّ نِسَاءُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالَ مَعْمَرٌ عَنْ الْكَلْبِيِّ : إنَّمَا عَنَى بِهَذِهِ الْآيَةِ أَزْوَاجَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَمَّا مَنْ رَمَى امْرَأَةً مِنْ الْمُسْلِمِينَ فَهُوَ فَاسِقٌ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى أَوْ يَتُوبُ . وَوَجْهُ هَذَا أَنَّ لَعْنَةَ اللَّهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَا تُسْتَوْجَبُ بِمُجَرَّدِ

الْقَذْفِ فَتَكُونُ اللَّامُ فِي قَوْلِهِ : ﴿ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ ﴾ لِتَعْرِيفِ الْمَعْهُودِ وَالْمَعْهُودُ هُنَا أَزْوَاجُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَنَّ الْكَلَامَ فِي قِصَّةِ الْإِفْكِ وَوُقُوعِ مَنْ وَقَعَ فِي أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ أَوْ يُقْصَرُ اللَّفْظُ الْعَامُّ عَلَى سَبَبِهِ لِلدَّلِيلِ الَّذِي يُوجِبُ ذَلِكَ . وَيُؤَيِّدُ هَذَا الْقَوْلَ : أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ رَتَّبَ هَذَا الْوَعِيدَ عَلَى قَذْفِ مُحْصَنَاتٍ غَافِلَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ وَقَالَ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ : ﴿ وَالَّذِينَ

(398/555)

يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً ﴾ الْآيَةُ . فَرَتَّبَ الْحَدَّ وَرَدَّ الشَّهَادَةَ وَالْفِسْقَ عَلَى مُجَرَّدِ قَذْفِ الْمُحْصَنَاتِ فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ

(399/555)

الْمُحْصَنَاتُ الْغَافِلَاتُ الْمُؤْمِنَاتُ لَهُنَّ مَزِيَّةٌ عَلَى مُجَرَّدِ الْمُحْصَنَاتِ ؛ وَذَلِكَ - وَاَللَّهُ أَعْلَمُ - لِأَنَّ أَزْوَاجَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَشْهُودٌ لَهُنَّ بِالْإِيمَانِ ؛ لِأَنَّهُنَّ أُمَّهَاتُ الْمُؤْمِنِينَ وَهُنَّ أَزْوَاجُ نَبِيِّهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَعَوَامُّ الْمُسْلِمَاتِ إنَّمَا يُعْلَمُ مِنْهُنَّ فِي الْغَالِبِ ظَاهِرُ الْإِيمَانِ .

وَلِأَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ قَالَ فِي قِصَّةِ عَائِشَةَ : ﴿ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ فَتَخْصِيصُهُ مُتَوَلِّي كِبْرِهِ دُونَ غَيْرِهِ دَلِيلٌ عَلَى اخْتِصَاصِهِ بِالْعَذَابِ الْعَظِيمِ وَقَالَ : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ فَعُلِمَ أَنَّ الْعَذَابَ الْعَظِيمَ لَا يَمَسُّ كُلَّ مَنْ قَذَفَ وَإِنَّمَا يَمَسُّ مُتَوَلِّي كِبْرِهِ فَقَطْ وَقَالَ هُنَا : ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ فَعُلِمَ أَنَّ الَّذِي رَمَى أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ يَعِيبُ بِذَلِكَ رَسُولَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَتَوَلَّى كِبْرَ الْإِفْكِ وَهَذِهِ صِفَةُ الْمُنَافِقِ ابْنُ أُبَيٍّ وَاللَّهُ أَعْلَمُ أَنَّهُ عَلَى هَذَا الْقَوْلِ تَكُونُ هَذِهِ الْآيَةُ حُجَّةً أَيْضًا مُوَافِقَةً لِتِلْكَ الْآيَةِ لِأَنَّهُ لَمَّا كَانَ رَمْيُ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ أَذًى لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لُعِنَ صَاحِبُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلِهَذَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ لَيْسَ فِيهَا تَوْبَةٌ ؛ لِأَنَّ مُؤْذِيَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا تُقْبَلُ تَوْبَتُهُ أَوْ يُرِيدُ إذَا تَابَ مِنْ الْقَذْفِ حَتَّى يُسْلِمَ إسْلَامًا

(400/555)

جَدِيدًا وَعَلَى هَذَا فَرَمْيُهُنَّ نِفَاقٌ مُبِيحٌ لِلدَّمِ إذَا قُصِدَ بِهِ أَذَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَوْ بَعْدَ الْعِلْمِ بِأَنَّهُنَّ أَزْوَاجُهُ فِي الْآخِرَةِ فَإِنَّهُ مَا بَغَتْ امْرَأَةُ نَبِيٍّ قَطُّ .

(401/555)

وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ قَذْفَهُنَّ أَذًى لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا خَرَّجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ فِي حَدِيثِ الْإِفْكِ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ : ﴿ فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَاسْتَعْذَرَ مِنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أُبَيِّ ابْنِ سلول قَالَتْ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ مَنْ يَعْذِرُنِي مِنْ رَجُلٍ قَدْ بَلَغَنِي أَذَاهُ فِي أَهْلِ بَيْتِي فَوَاللَّهِ مَا عَلِمْت عَلَى أَهْلِي إلَّا خَيْرًا وَلَقَدْ ذَكَرُوا رَجُلًا مَا عَلِمْت عَلَيْهِ إلَّا خَيْرًا وَمَا كَانَ يَدْخُلُ عَلَى أَهْلِي إلَّا مَعِي فَقَامَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ الْأَنْصَارِيُّ فَقَالَ : أَنَا أَعْذِرُك مِنْهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إنْ كَانَ مِنْ الْأَوْسِ ضَرَبْنَا عُنُقَهُ وَإِنْ كَانَ مِنْ إخْوَانِنَا مِنْ الْخَزْرَجِ أَمَرْتَنَا فَفَعَلْنَا أَمْرَك فَقَامَ سَعْدُ بْنُ عبادة – وَهُوَ سَيِّدُ الْخَزْرَجِ وَكَانَ رَجُلًا صَالِحًا وَلَكِنْ احْتَمَلَتْهُ الْحَمِيَّةُ – فَقَالَ لِسَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ : لَعَمْرُ اللَّهِ لَا تَقْتُلَنَّهُ وَلَا تَقْدِرُ عَلَى قَتْلِهِ فَقَامَ أسيد بْنُ حضير وَهُوَ ابْنُ عَمِّ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ فَقَالَ لِسَعْدِ بْنِ عبادة : كَذَبْت لَعَمْرُ اللَّهِ لَنَقْتُلَنَّهُ فَإِنَّك مُنَافِقٌ تُجَادِلُ عَنْ الْمُنَافِقِينَ قَالَتْ فَثَارَ الْحَيَّانِ الْأَوْسُ وَالْخَزْرَجُ حَتَّى هَمُّوا أَنْ يَقْتَتِلُوا وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَائِمٌ عَلَى الْمِنْبَرِ فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَخْفِضُهُمْ حَتَّى سَكَتُوا وَسَكَتَ ﴾ وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى صَحِيحَةٍ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ فِي أَزْوَاجِ

رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَاصَّةً . وَيَقُولُ آخَرُونَ يَعْنِي أَزْوَاجَ الْمُؤْمِنِينَ عَامَّةً وَقَالَ أَبُو سَلَمَةَ : قَذْفُ

(403/555)

الْمُحْصَنَاتِ مِنْ الْمُوجِبَاتِ ثُمَّ قَرَأَ : ﴿ إنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ﴾ الْآيَةُ وَعَنْ عُمَرَ بْنِ قَيْسٍ قَالَ : قَذْفُ الْمُحْصَنَةِ يُحْبِطُ عَمَلَ تِسْعِينَ سَنَةً رَوَاهُمَا الْأَشَجُّ وَهَذَا قَوْلُ كَثِيرٍ مِنْ النَّاسِ . وَوَجْهُهُ ظَاهِرُ الْخِطَابِ فَإِنَّهُ عَامٌّ فَيَجِبُ إجْرَاؤُهُ عَلَى عُمُومِهِ ؛ إذْ لَا مُوجِبَ لِخُصُوصِهِ وَلَيْسَ هُوَ مُخْتَصًّا بِنَفْسِ السَّبَبِ بِالِاتِّفَاقِ لِأَنَّ حُكْمَ غَيْرِ عَائِشَةَ مِنْ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَاخِلٌ فِي الْعُمُومِ وَلَيْسَ هُوَ مِنْ السَّبَبِ وَلِأَنَّهُ لَفْظُ جَمْعٍ وَالسَّبَبُ فِي وَاحِدَةٍ هُنَا ؛ وَلِأَنَّ قَصْرَ عمومات الْقُرْآنِ عَلَى أَسْبَابِ نُزُولِهَا بَاطِلٌ فَإِنَّ عَامَّةَ الْآيَاتِ نَزَلَتْ بِأَسْبَابِ اقْتَضَتْ ذَلِكَ وَقَدْ عُلِمَ أَنَّ شَيْئًا مِنْهَا لَمْ يُقْصَرْ عَلَى سَبَبِهِ وَالْفَرْقُ بَيْنَ الْآيَتَيْنِ : أَنَّهُ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ ذَكَرَ الْعُقُوبَاتِ الْمَشْرُوعَةَ عَلَى أَيْدِي الْمُكَلَّفِينَ مِنْ الْجَلْدِ وَرَدِّ الشَّهَادَةِ وَالتَّفْسِيقِ وَهُنَا ذَكَرَ الْعُقُوبَةَ الْوَاقِعَةَ مِنْ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَهِيَ اللَّعْنَةُ فِي الدَّارَيْنِ وَالْعَذَابُ الْعَظِيمُ وَقَدْ رُوِيَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ غَيْرِ وَجْهٍ وَعَنْ أَصْحَابِهِ : ﴿ أَنَّ

قَذْفَ الْمُحْصَنَاتِ مِنْ الْكَبَائِرِ ﴾ وَفِي لَفْظٍ فِي الصَّحِيحِ : ﴿ قَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ . ﴾ ثُمَّ اخْتَلَفَ هَؤُلَاءِ فَقَالَ أَبُو حَمْزَةَ الثُّمَالِي : بَلَغَنَا أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي مُشْرِكِي أَهْلِ مَكَّةَ إذْ كَانَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَهْدٌ فَكَانَتْ

(404/555)

الْمَرْأَةُ إذَا خَرَجَتْ إلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلَى الْمَدِينَةِ

(405/555)

مُهَاجِرَةً قَذَفَهَا الْمُشْرِكُونَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ وَقَالُوا : إنَّمَا خَرَجَتْ تَفْجُرُ فَعَلَى هَذَا يَكُونُ فِيمَنْ قَذَفَ الْمُؤْمِنَاتِ قَذْفًا يَصُدُّهُنَّ بِهِ عَنْ الْإِيمَانِ وَيَقْصِدُ بِذَلِكَ ذَمَّ الْمُؤْمِنِينَ لِيُنَفِّرَ النَّاسَ عَنْ الْإِسْلَامِ كَمَا فَعَلَ كَعْبُ بْنُ الْأَشْرَفِ وَعَلَى هَذَا فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَهُوَ كَافِرٌ وَهُوَ بِمَنْزِلَةِ مَنْ سَبَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . وَقَوْلُهُ : إنَّهَا نَزَلَتْ زَمَنَ الْعَهْدِ يَعْنِي – وَاَللَّهُ أَعْلَمُ – أَنَّهُ عَنَى بِهَا مِثْلَ أُولَئِكَ الْمُشْرِكِينَ الْمُعَاهِدِينَ وَإِلَّا فَهَذِهِ الْآيَةُ نَزَلَتْ لَيَالِيَ الْإِفْكِ وَكَانَ الْإِفْكُ فِي غَزْوَةِ بَنِي الْمُصْطَلِقِ قَبْلَ الْخَنْدَقِ وَالْهُدْنَةُ كَانَتْ بَعْدَ ذَلِكَ بِسِنِينَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَجْرَاهَا عَلَى ظَاهِرِهَا

وَعُمُومِهَا لِأَنَّ سَبَبَ نُزُولِهَا قَذْفُ عَائِشَةَ وَكَانَ فِيمَنْ قَذَفَهَا مُؤْمِنٌ وَمُنَافِقٌ وَسَبَبُ النُّزُولِ لَا بُدَّ أَنْ يَنْدَرِجَ فِي الْعُمُومِ وَلِأَنَّهُ لَا مُوجِبَ لِتَخْصِيصِهَا . وَالْجَوَابُ عَلَى هَذَا التَّقْدِيرِ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ قَالَ هُنَا : ﴿ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾ عَلَى بِنَاءِ الْفِعْلِ لِلْمَفْعُولِ وَلَمْ يُسَمِّ اللَّاعِنَ وَقَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى : ﴿ إنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾ وَإِذَا لَمْ يُسَمَّ الْفَاعِلُ جَازَ أَنْ يَلْعَنَهُمْ غَيْرُ اللَّهِ مِنْ الْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ وَجَازَ أَنْ يَلْعَنَهُمْ اللَّهُ فِي وَقْتٍ وَيَلْعَنَهُمْ بَعْضُ خَلْقِهِ فِي وَقْتٍ وَجَازَ أَنَّ اللَّهَ يَتَوَلَّى لَعْنَةَ بَعْضِهِمْ وَهُوَ مَنْ كَانَ قَذْفُهُ طَعْنًا فِي الدِّينِ

(406/555)

وَيَتَوَلَّى خَلْقُهُ لَعْنَةَ الْآخَرِينَ وَإِذَا كَانَ اللَّاعِنُ مَخْلُوقًا فَلَعْنُهُ قَدْ يَكُونُ بِمَعْنَى

(407/555)

الدُّعَاءِ عَلَيْهِمْ وَقَدْ يَكُونُ بِمَعْنَى أَنَّهُمْ يُبْعِدُونَهُمْ عَنْ رَحْمَةِ اللَّهِ . وَيُؤَيِّدُ هَذَا أَنَّ الرَّجُلَ إذَا قَذَفَ امْرَأَتَهُ تَلَاعَنَا وَقَالَ الزَّوْجُ فِي الْخَامِسَةِ : لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ إنْ كَانَ مِنْ الْكَاذِبِينَ فَهُوَ يَدْعُو

عَلَى نَفْسِهِ إِنْ كَانَ كَاذِبًا فِي الْقَذْفِ أَنْ يَلْعَنَهُ اللَّهُ كَمَا أَمَرَ اللَّهُ رَسُولَهُ أَنْ يُبَاهِلَ مَنْ حَاجَّهُ فِي الْمَسِيحِ بَعْدَ مَا جَاءَهُ مِنْ الْعِلْمِ بِأَنْ يَبْتَهِلُوا فَيَجْعَلُوا لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ فَهَذَا مِمَّا يُلْعَنُ بِهِ الْقَاذِفُ وَمِمَّا يُلْعَنُ بِهِ أَنْ يُجْلَدَ وَأَنْ تُرَدَّ شَهَادَتُهُ وَيُفَسَّقَ فَإِنَّهُ عُقُوبَةٌ لَهُ وَإِقْصَاءٌ لَهُ عَنْ مَوَاطِنِ الْأَمْنِ وَالْقَبُولِ وَهِيَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ وَهَذَا بِخِلَافِ مَنْ أَخْبَرَ اللَّهُ أَنَّهُ لَعَنَهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَإِنَّ لَعْنَةَ اللَّهِ لَهُ تُوجِبُ زَوَالَ النَّصْرِ عَنْهُ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ وَبُعْدَهُ عَنْ أَسْبَابِ الرَّحْمَةِ فِي الدَّارَيْنِ . وَمِمَّا يُؤَيِّدُ الْفَرْقَ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا ﴾ وَلَمْ يَجِئْ إعْدَادُ الْعَذَابِ الْمُهِينِ فِي الْقُرْآنِ إلَّا فِي حَقِّ الْكُفَّارِ كَقَوْلِهِ : ﴿ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴾ وَقَوْلِهِ : ﴿ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴾ وَقَوْلِهِ : ﴿ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ ﴿ إِنَّمَا نُمْلِي

(408/555)

لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ ﴿ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا

(409/555)

شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ ﴿ وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ ﴿ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ . ﴾

وَأَمَّا قَوْله تَعَالَى ﴿ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ فَهِيَ - وَاَللَّهُ أَعْلَمُ - فِيمَنْ جَحَدَ الْفَرَائِضَ وَاسْتَخَفَّ بِهَا عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَذْكُرْ أَنَّ الْعَذَابَ أُعِدَّ لَهُ . وَأَمَّا الْعَذَابُ الْعَظِيمُ فَقَدْ جَاءَ وَعِيدًا لِلْمُؤْمِنِينَ فِي قَوْلِهِ : ﴿ لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ وَقَوْلِهِ : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ وَفِي الْمُحَارِبِ ﴿ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ وَفِي الْقَاتِلِ ﴿ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ وَقَوْلِهِ : ﴿ وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ وَقَدْ قَالَ سُبْحَانَهُ : ﴿ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ ﴾ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْإِهَانَةَ إذْلَالٌ وَتَحْقِيرٌ وَخِزْيٌ وَذَلِكَ قَدْرٌ زَائِدٌ عَلَى أَلَمِ الْعَذَابِ فَقَدْ يُعَذَّبُ الرَّجُلُ الْكَرِيمُ وَلَا يُهَانُ فَلَمَّا قَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ : ﴿ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا ﴾ عُلِمَ أَنَّهُ مِنْ جِنْسِ الْعَذَابِ الَّذِي تَوَعَّدَ بِهِ الْكُفَّارَ

وَالْمُنَافِقِينَ وَلَمَّا قَالَ هُنَاكَ : ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ

(411/555)

عَظِيمٌ ﴾ جَازَ أَنْ يَكُونَ مِنْ جِنْسِ الْعَذَابِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ . ﴾ وَمِمَّا يُبَيِّنُ الْفَرْقَ أَيْضًا أَنَّهُ سُبْحَانَهُ قَالَ هُنَاكَ : ﴿ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا ﴾ وَالْعَذَابُ إنَّمَا أُعِدَّ لِلْكَافِرِينَ ؛ فَإِنَّ جَهَنَّمَ لَهُمْ خُلِقَتْ لِأَنَّهُمْ لَا بُدَّ أَنْ يَدْخُلُوهَا وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ وَأَهْلُ الْكَبَائِرِ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ يَجُوزُ أَنْ يَدْخُلُوهَا إذَا غَفَرَ اللَّهُ لَهُمْ وَإِذَا دَخَلُوهَا فَإِنَّهُمْ يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ قَالَ سُبْحَانَهُ ﴿ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ فَأَمَرَ سُبْحَانَهُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ لَا يَأْكُلُوا الرِّبَا وَأَنْ يَتَّقُوا اللَّهَ وَأَنْ يَتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ فَعُلِمَ أَنَّهُمْ يُخَافُ عَلَيْهِمْ مِنْ دُخُولِ النَّارِ إذَا أَكَلُوا الرِّبَا وَفَعَلُوا الْمَعَاصِيَ مَعَ أَنَّهَا مُعَدَّةٌ لِلْكَافِرِينَ لَا لَهُمْ . وَلِذَلِكَ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ : ﴿ أَمَّا أَهْلُ النَّارِ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا فَإِنَّهُمْ لَا يَمُوتُونَ فِيهَا وَلَا يَحْيَوْنَ وَأَمَّا أَقْوَامٌ لَهُمْ ذُنُوبٌ فَيُصِيبُهُمْ سَفْعٌ مِنْ النَّارِ ثُمَّ يُخْرِجُهُمْ اللَّهُ مِنْهَا . ﴾ وَهَذَا كَمَا أَنَّ الْجَنَّةَ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَإِنْ كَانَ لَا يَدْخُلُهَا الْأَبْنَاءُ بِعَمَلِ

آبَائِهِمْ وَيَدْخُلُهَا قَوْمٌ بِالشَّفَاعَةِ وَقَوْمٌ بِالرَّحْمَةِ وَيُنْشِئُ اللَّهُ لِمَا فَضَلَ مِنْهَا خَلْقًا آخَرَ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ فَيُدْخِلُهُمْ إيَّاهَا وَذَلِكَ لِأَنَّ الشَّيْءَ إنَّمَا يُعَدُّ لِمَنْ يَسْتَوْجِبُهُ وَيَسْتَحِقُّهُ

(412/555)

وَلِمَنْ هُوَ أَوْلَى النَّاسِ بِهِ ثُمَّ قَدْ يَدْخُلُ مَعَهُ غَيْرُهُ بِطَرِيقِ التَّبَعِ أَوْ لِسَبَبٍ آخَرَ . وَاَللَّهُ أَعْلَمُ .

وَقَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ :

فَصْلٌ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ﴾ إلَى قَوْلِهِ : ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ ﴾ وَقَدْ ثَبَتَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ إنَّمَا جُعِلَ الِاسْتِئْذَانُ مِنْ أَجْلِ النَّظَرِ ﴾ . وَالنَّظَرُ الْمَنْهِيُّ عَنْهُ هُوَ نَظَرُ الْعَوْرَاتِ وَنَظَرُ الشَّهَوَاتِ وَإِنْ لَمْ تَكُنْ مِنْ الْعَوْرَاتِ . وَاَللَّهُ سُبْحَانَهُ ذَكَرَ الِاسْتِئْذَانَ عَلَى نَوْعَيْنِ . ذَكَرَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَحَدَهُمَا وَفِي الْآيَتَيْنِ فِي آخِرِ السُّورَةِ النَّوْعَ الثَّانِيَ وَهُوَ اسْتِئْذَانُ الصِّغَارِ وَالْمَمَالِيكِ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ

جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ ﴾ فَأَمَرَ بِاسْتِئْذَانِ الصِّغَارِ وَالْمَمَالِيكِ حِينَ الِاسْتِيقَاظِ مِنْ النَّوْمِ وَحِينَ إرَادَةِ النَّوْمِ ،

(413/555)

وَحِينَ الْقَائِلَةِ ؛ فَإِنَّ فِي هَذِهِ الْأَوْقَاتِ تَبْدُو الْعَوْرَاتُ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ ﴾ . وَفِي ذَلِكَ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمَمْلُوكَ الْمُمَيِّزَ وَالْمُمَيِّزَ مِنْ الصِّبْيَانِ : لَيْسَ لَهُ أَنْ يَنْظُرَ إلَى عَوْرَةِ الرَّجُلِ كَمَا لَا يَحِلُّ لِلرَّجُلِ أَنْ يَنْظُرَ إلَى عَوْرَةِ الصَّبِيِّ وَالْمَمْلُوكِ وَغَيْرِهِمَا . وَأَمَّا دُخُولُ هَؤُلَاءِ فِي غَيْرِ هَذِهِ الْأَوْقَاتِ بِغَيْرِ اسْتِئْذَانٍ فَهُوَ مَأْخُوذٌ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ . وَفِي ذَلِكَ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ الطَّوَّافِينَ يُرَخَّصُ فِيهِمْ مَا لَا يُرَخَّصُ فِي غَيْرِ الطَّوَّافِينَ عَلَيْكُمْ وَالطَّوَّافَاتِ وَالطَّوَّافُ مَنْ يَدْخُلُ بِغَيْرِ إذْنٍ كَمَا تَدْخُلُ الْهِرَّةُ وَكَمَا يَدْخُلُ الصَّبِيُّ وَالْمَمْلُوكُ وَإِذَا كَانَ هَذَا فِي الصَّبِيِّ الْمُمَيِّزِ فَغَيْرُ الْمُمَيِّزِ أَوْلَى . وَيُرَخَّصُ فِي طَهَارَتِهِ كَمَا قَالَ ذَلِكَ طَائِفَةٌ مِنْ الْفُقَهَاءِ مِنْ أَصْحَابِ أَحْمَد وَغَيْرِهِمْ فِي الصِّبْيَانِ وَالْهِرَّةِ وَغَيْرِهِمْ : أَنَّهُمْ إنْ أَصَابَتْهُمْ نَجَاسَةٌ أَنَّهَا تَطْهُرُ بِمُرُورِ الرِّيقِ عَلَيْهَا وَلَا تَحْتَاجُ إلَى غَسْلٍ ؛ لِأَنَّهُمْ مِنْ الطَّوَّافِينَ كَمَا أَخْبَرَ بِهِ الرَّسُولُ فِي الْهِرَّةِ مَعَ عِلْمِهِ

أَنَّهَا تَأْكُلُ الْفَأْرَةَ وَلَمْ تَكُنْ بِالْمَدِينَةِ مِيَاهٌ تَرِدُهَا السَّنَانِيرُ لِيُقَالَ طَهُرَ فَمُهَا بِوُرُودِهَا الْمَاءَ فَعُلِمَ أَنَّ طَهَارَةَ هَذِهِ الْأَفْوَاهِ لَا تَحْتَاجُ إلَى غَسْلٍ فَالِاسْتِئْذَانُ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ قَبْلَ دُخُولِ

(414/555)

الْبَيْتِ مُطْلَقًا وَالتَّفْرِيقُ فِي آخِرِهَا لِأَجْلِ الْحَاجَةِ لِأَنَّ الْمَمْلُوكَ وَالصَّغِيرَ طَوَّافٌ يَحْتَاجُ إلَى دُخُولِ الْبَيْتِ فِي كُلِّ سَاعَةٍ فَشَقَّ اسْتِئْذَانُهُ بِخِلَافِ الْمُحْتَلِمِ .

(415/555)

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ ﴾ الْآيَةُ إلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَتُوبُوا إلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ . فَأَمَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ الرِّجَالَ وَالنِّسَاءَ بِالْغَضِّ مِنْ الْبَصَرِ وَحِفْظِ الْفَرْجِ كَمَا أَمَرَهُمْ جَمِيعًا بِالتَّوْبَةِ وَأَمَرَ النِّسَاءَ خُصُوصًا بِالِاسْتِتَارِ وَأَنْ لَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ وَمَنْ اسْتَثْنَاهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْآيَةِ فَمَا ظَهَرَ مِنْ الزِّينَةِ هُوَ الثِّيَابُ الظَّاهِرَةُ فَهَذَا لَا جُنَاحَ عَلَيْهَا فِي إبْدَائِهَا إذَا لَمْ يَكُنْ فِي ذَلِكَ مَحْذُورٌ آخَرُ ؛ فَإِنَّ هَذِهِ لَا بُدَّ مِنْ إبْدَائِهَا وَهَذَا قَوْلُ ابْنِ مَسْعُودٍ وَغَيْرِهِ وَهُوَ الْمَشْهُورُ عَنْ

أَحْمَد . وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : الْوَجْهُ وَالْيَدَانِ مِنْ الزِّينَةِ الظَّاهِرَةِ وَهِيَ الرِّوَايَةُ الثَّانِيَةُ عَنْ أَحْمَد وَهُوَ قَوْلُ طَائِفَةٍ مِنْ الْعُلَمَاءِ كَالشَّافِعِيِّ وَغَيْرِهِ . وَأَمَرَ سُبْحَانَهُ النِّسَاءَ بِإِرْخَاءِ الْجَلَابِيبِ لِئَلَّا يُعْرَفْنَ وَلَا يُؤْذَيْنَ وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى الْقَوْلِ الْأَوَّلِ وَقَدْ ذَكَرَ عُبَيْدَةُ السلماني وَغَيْرُهُ : أَنَّ نِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ كُنَّ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ الْجَلَابِيبَ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِنَّ حَتَّى لَا يَظْهَرَ إلَّا عُيُونُهُنَّ لِأَجْلِ رُؤْيَةِ الطَّرِيقِ وَثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ : ﴿ أَنَّ الْمَرْأَةَ الْمُحْرِمَةَ تُنْهَى عَنْ الِانْتِقَابِ وَالْقُفَّازَيْنِ ﴾ وَهَذَا مِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ النِّقَابَ

(416/555)

وَالْقُفَّازَيْنِ كَانَا مَعْرُوفَيْنِ فِي النِّسَاءِ اللَّاتِي لَمْ يُحْرِمْنَ وَذَلِكَ يَقْتَضِي سَتْرَ وُجُوهِهِنَّ وَأَيْدِيهِنَّ . وَقَدْ نَهَى اللَّهُ تَعَالَى عَمَّا يُوجِبُ الْعِلْمَ بِالزِّينَةِ الْخَفِيَّةِ بِالسَّمْعِ أَوْ غَيْرِهِ فَقَالَ : ﴿ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ ﴾ وَقَالَ : ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ ﴾ فَلَمَّا نَزَلَ ذَلِكَ عَمَدَ نِسَاءُ الْمُؤْمِنِينَ إلَى خُمُرِهِنَّ فَشَقَقْنَهُنَّ وَأَرْخَيْنَهَا عَلَى أَعْنَاقِهِنَّ . و " الْجَيْبُ " هُوَ شِقٌّ فِي طُولِ الْقَمِيصِ . فَإِذَا ضَرَبَتْ الْمَرْأَةُ بِالْخِمَارِ عَلَى الْجَيْبِ سَتَرَتْ عُنُقَهَا . وَأُمِرَتْ بَعْدَ ذَلِكَ أَنْ تُرْخِيَ مِنْ جِلْبَابِهَا وَالْإِرْخَاءُ إنَّمَا يَكُونُ إذَا خَرَجَتْ مِنْ الْبَيْتِ فَأَمَّا إذَا كَانَتْ فِي الْبَيْتِ فَلَا تُؤْمَرُ بِذَلِكَ وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ : ﴿ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا دَخَلَ بِصَفِيَّةَ قَالَ أَصْحَابُهُ : إنْ أَرْخَى عَلَيْهَا الْحِجَابَ فَهِيَ مِنْ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ وَإِنْ لَمْ يَضْرِبْ عَلَيْهَا الْحِجَابَ فَهِيَ مِمَّا مَلَكَتْ يَمِينُهُ فَضَرَبَ عَلَيْهَا الْحِجَابَ ﴾ وَإِنَّمَا ضُرِبَ الْحِجَابُ عَلَى النِّسَاءِ لِئَلَّا تُرَى وُجُوهُهُنَّ وَأَيْدِيهِنَّ . وَالْحِجَابُ مُخْتَصٌّ بِالْحَرَائِرِ دُونَ الْإِمَاءِ كَمَا كَانَتْ سُنَّةُ الْمُؤْمِنِينَ فِي زَمَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَخُلَفَائِهِ أَنَّ الْحُرَّةَ تَحْتَجِبُ وَالْأَمَةُ تَبْرُزُ وَكَانَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إذَا رَأَى أَمَةً مُخْتَمِرَةً ضَرَبَهَا وَقَالَ أَتَتَشَبَّهِينَ بِالْحَرَائِرِ أَيْ لُكَاعُ فَيَظْهَرُ مِنْ الْأَمَةِ

(417/555)

رَأْسُهَا وَيَدَاهَا وَوَجْهُهَا .

(418/555)

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ ﴾ . فَرَخَّصَ لِلْعَجُوزِ الَّتِي لَا تَطْمَعُ فِي النِّكَاحِ أَنْ تَضَعَ ثِيَابَهَا فَلَا تُلْقِي عَلَيْهَا جِلْبَابَهَا وَلَا تَحْتَجِبُ وَإِنْ كَانَتْ مُسْتَثْنَاةً مِنْ الْحَرَائِرِ

لِزَوَالِ الْمَفْسَدَةِ الْمَوْجُودَةِ فِي غَيْرِهَا كَمَا اسْتَثْنَى التَّابِعِينَ غَيْرَ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنْ الرِّجَالِ فِي إظْهَارِ الزِّينَةِ لَهُمْ لِعَدَمِ الشَّهْوَةِ الَّتِي تَتَوَلَّدُ مِنْهَا الْفِتْنَةُ وَكَذَلِكَ الْأَمَةُ إذَا كَانَ يُخَافُ بِهَا الْفِتْنَةُ كَانَ عَلَيْهَا أَنْ تُرْخِيَ مِنْ جِلْبَابِهَا وَتَحْتَجِبَ وَوَجَبَ غَضُّ الْبَصَرِ عَنْهَا وَمِنْهَا . وَلَيْسَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ إبَاحَةُ النَّظَرِ إلَى عَامَّةِ الْإِمَاءِ وَلَا تَرْكُ احْتِجَابِهِنَّ وَإِبْدَاءُ زِينَتِهِنَّ وَلَكِنَّ الْقُرْآنَ لَمْ يَأْمُرْهُنَّ بِمَا أَمَرَ الْحَرَائِرَ وَالسُّنَّةُ فَرَّقَتْ بِالْفِعْلِ بَيْنَهُنَّ وَبَيْنَ الْحَرَائِرِ وَلَمْ تُفَرِّقْ بَيْنَهُنَّ وَبَيْنَ الْحَرَائِرِ بِلَفْظِ عَامٍّ بَلْ كَانَتْ عَادَةُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ تَحْتَجِبَ مِنْهُمْ الْحَرَائِرُ دُونَ الْإِمَاءِ وَاسْتَثْنَى الْقُرْآنُ مِنْ النِّسَاءِ الْحَرَائِرِ الْقَوَاعِدَ فَلَمْ يَجْعَلْ عَلَيْهِنَّ احْتِجَابًا وَاسْتَثْنَى بَعْضَ الرِّجَالِ وَهُمْ غَيْرُ أُولِي الْإِرْبَةِ فَلَمْ يَمْنَعْ مِنْ إبْدَاءِ الزِّينَةِ الْخَفِيَّةِ لَهُمْ لِعَدَمِ الشَّهْوَةِ فِي هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ فَأَنْ يُسْتَثْنَى بَعْضُ الْإِمَاءِ أَوْلَى وَأَحْرَى وَهُنَّ مَنْ كَانَتْ الشَّهْوَةُ وَالْفِتْنَةُ حَاصِلَةً

(419/555)

بِتَرْكِ احْتِجَابِهَا وَإِبْدَاءِ زِينَتِهَا . وَكَمَا أَنَّ الْمَحَارِمَ أَبْنَاءُ أَزْوَاجِهِنَّ وَنَحْوُهُ مِمَّنْ فِيهِ شَهْوَةٌ وَشَغَفٌ لَمْ يَجُزْ

إبْدَاءُ الزِّينَةِ الْخَفِيَّةِ لَهُ فَالْخِطَابُ خَرَجَ عَامًّا عَلَى الْعَادَةِ فَمَا خَرَجَ عَنْ الْعَادَةِ خَرَجَ بِهِ عَنْ نَظَائِرِهِ فَإِذَا كَانَ فِي ظُهُورِ الْأَمَةِ وَالنَّظَرِ إلَيْهَا فِتْنَةٌ وَجَبَ الْمَنْعُ مِنْ ذَلِكَ كَمَا لَوْ كَانَتْ فِي غَيْرِ

ذَلِكَ وَهَكَذَا الرَّجُلُ مَعَ الرِّجَالِ وَالْمَرْأَةُ مَعَ النِّسَاءِ : لَوْ كَانَ فِي الْمَرْأَةِ فِتْنَةٌ لِلنِّسَاءِ وَفِي الرَّجُلِ فِتْنَةٌ لِلرِّجَالِ لَكَانَ الْأَمْرُ بِالْغَضِّ لِلنَّاظِرِ مِنْ بَصَرِهِ مُتَوَجِّهًا كَمَا يَتَوَجَّهُ إلَيْهِ الْأَمْرُ بِحِفْظِ فَرْجِهِ فَالْإِمَاءُ وَالصِّبْيَانُ إذَا كُنَّ حِسَانًا تَخْتَشِي الْفِتْنَةُ بِالنَّظَرِ إلَيْهِمْ كَانَ حُكْمُهُمْ كَذَلِكَ كَمَا ذَكَرَ ذَلِكَ الْعُلَمَاءُ

(420/555)

قَالَ الْمَرْوَذِيُّ قُلْت لِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ يَعْنِي أَحْمَدَ بْنَ حَنْبَلٍ – الرَّجُلُ يَنْظُرُ إلَى الْمَمْلُوكِ قَالَ : إذَا خَافَ الْفِتْنَةَ لَمْ يَنْظُرْ إلَيْهِ كَمْ نَظْرَةٍ أَلْقَتْ فِي قَلْبِ صَاحِبِهَا الْبَلَاءَ : وَقَالَ الْمَرْوَذِيُّ : قُلْت لِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ : رَجُلٌ تَابَ وَقَالَ : لَوْ ضُرِبَ ظَهْرِي بِالسِّيَاطِ مَا دَخَلْت فِي مَعْصِيَةٍ إلَّا أَنَّهُ لَا يَدَعُ النَّظَرَ فَقَالَ : أَيُّ تَوْبَةٍ هَذِهِ ﴿ قَالَ جَرِيرٌ سَأَلْت رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ نَظْرَةِ الْفَجْأَةِ فَقَالَ : اصْرِفْ بَصَرَك ﴾ . وَقَالَ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا : حَدَّثَنِي أَبِي وَسُوَيْدُ قَالَا : حَدَّثَنِي إبْرَاهِيمُ بْنُ هُرَاسَةَ عَنْ عُثْمَانَ بْنِ صَالِحٍ عَنْ الْحَسَنِ بْنِ ذَكْوَانَ قَالَ : لَا تُجَالِسُوا أَوْلَادَ الْأَغْنِيَاءِ فَإِنَّ لَهُمْ صُوَرًا كَصُوَرِ النِّسَاءِ وَهُمْ أَشَدُّ فِتْنَةً مِنْ الْعَذَارَى . وَهَذَا الِاسْتِدْلَالُ وَالْقِيَاسُ وَالتَّنْبِيهُ بِالْأَدْنَى عَلَى الْأَعْلَى وَكَانَ يُقَالُ :

(421/555)

لَا يَبِيتُ الرَّجُلُ فِي بَيْتٍ مَعَ الْغُلَامِ الْأَمْرَدِ وَقَالَ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا بِإِسْنَادِهِ عَنْ أَبِي سَهْلٍ الصعلوكي : قَالَ سَيَكُونُ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ قَوْمٌ يُقَالُ لَهُمْ اللُّوطِيُّونَ عَلَى ثَلَاثَةِ أَصْنَافٍ . صِنْفٌ يَنْظُرُونَ وَصِنْفٌ يُصَافِحُونَ وَصِنْفٌ يَعْمَلُونَ ذَلِكَ الْعَمَلَ . وَقَالَ إبْرَاهِيمُ النَّخَعِي : كَانُوا يَكْرَهُونَ مُجَالَسَةَ الْأَغْنِيَاءِ وَأَبْنَاءِ الْمُلُوكِ وَقَالَ : مُجَالَسَتُهُمْ فِتْنَةٌ إنَّمَا هُمْ بِمَنْزِلَةِ النِّسَاءِ . وَوَقَفَتْ جَارِيَةٌ لَمْ يُرَ أَحْسَنُ وَجْهًا مِنْهَا عَلَى بِشْرٍ الْحَافِي فَسَأَلَتْهُ عَنْ بَابِ حَرْبٍ فَدَلَّهَا ثُمَّ وَقَفَ عَلَيْهِ غُلَامٌ حَسَنُ الْوَجْهِ فَسَأَلَهُ عَنْ بَابِ حَرْبٍ فَأَطْرَقَ رَأْسَهُ فَرَدَّ عَلَيْهِ الْغُلَامُ السُّؤَالَ فَغَمَّضَ عَيْنَيْهِ فَقِيلَ لَهُ : يَا أَبَا نَصْرٍ جَاءَتْك جَارِيَةٌ فَسَأَلَتْك فَأَجَبْتَهَا وَجَاءَك هَذَا الْغُلَامُ فَسَأَلَك فَلَمْ تُكَلِّمْهُ فَقَالَ : نَعَمْ . يُرْوَى عَنْ سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ أَنَّهُ قَالَ : مَعَ الْجَارِيَةِ شَيْطَانٌ وَمَعَ الْغُلَامِ شَيْطَانَانِ فَخَشِيت عَلَى نَفْسِي شَيْطَانَيْهِ . وَرَوَى أَبُو الشَّيْخِ الْقَزْوِينِيُّ بِإِسْنَادِهِ عَنْ بِشْرٍ أَنَّهُ قَالَ : احْذَرُوا هَؤُلَاءِ الْأَحْدَاثَ وَقَالَ فَتْحٌ الْمُوصِلِيُّ : صَحِبْت ثَلَاثِينَ شَيْخًا كَانُوا يُعَدُّونَ مِنْ الْأَبْدَالِ كُلُّهُمْ أَوْصَانِي عِنْدَ مُفَارَقَتِي لَهُ : اتَّقِ صُحْبَةَ الْأَحْدَاثِ : اتَّقِ مُعَاشَرَةَ الْأَحْدَاثِ . وَكَانَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ لَا يَدَعُ أَمْرَدَ يُجَالِسُهُ وَكَانَ مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ يَمْنَعُ دُخُولَ الْمُرْدِ مَجْلِسَهُ لِلسَّمَاعِ فَاحْتَالَ هِشَامٌ فَدَخَلَ فِي غِمَارِ النَّاسِ مُسْتَتِرًا

بِهِمْ وَهُوَ أَمْرَدُ فَسَمِعَ مِنْهُ سِتَّةَ عَشَرَ حَدِيثًا فَأَخْبَرَ بِذَلِكَ مَالِكٌ فَضَرَبَهُ سِتَّةَ عَشَرَ سَوْطًا فَقَالَ هِشَامٌ : لَيْتَنِي سَمِعْت

(423/555)

مِائَةَ حَدِيثٍ وَضَرَبَنِي مِائَةَ سَوْطٍ وَكَانَ يَقُولُ : هَذَا عِلْمٌ إنَّمَا أَخَذْنَاهُ عَنْ ذَوِي اللِّحَى وَالشُّيُوخِ فَلَا يَحْمِلُهُ عَنَّا إلَّا أَمْثَالُهُمْ وَقَالَ يَحْيَى بْنُ مَعِينٍ : مَا طَمِعَ أَمْرَدُ أَنْ يَصْحَبَنِي وَلَا أَحْمَد بْنَ حَنْبَلٍ فِي طَرِيقٍ . وَقَالَ أَبُو عَلِيٍّ الروذباري : قَالَ لِي أَبُو الْعَبَّاسِ أَحْمَد بْنُ الْمُؤَدِّبِ : يَا أَبَا عَلِيٍّ مِنْ أَيْنَ أَخَذَ صُوفِيَّةُ عَصْرِنَا هَذَا الْأُنْسَ بِالْأَحْدَاثِ وَقَدْ تَصْحَبُهُمْ السَّلَامَةُ فِي كَثِيرٍ مِنْ الْأُمُورِ ؟ فَقَالَ : هَيْهَاتَ قَدْ رَأَيْنَا مَنْ هُوَ أَقْوَى مِنْهُمْ إيمَانًا إذَا رَأَى الْحَدَثَ قَدْ أَقْبَلَ فَرَّ مِنْهُ كَفِرَارِهِ مِنْ الْأَسَدِ وَإِنَّمَا ذَاكَ عَلَى حَسَبِ الْأَوْقَاتِ الَّتِي تَغْلِبُ الْأَحْوَالُ عَلَى أَهْلِهَا فَيَأْخُذُهَا تَصَرُّفُ الطِّبَاعِ مَا أَكْثَرَ الْخَطَأَ مَا أَكْثَرَ الْغَلَطَ قَالَ الْجُنَيْد بْنُ مُحَمَّدٍ جَاءَ رَجُلٌ إلَى أَحْمَد بْنِ حَنْبَلٍ مَعَهُ غُلَامٌ أَمْرَدُ حَسَنُ الْوَجْهِ فَقَالَ لَهُ : مَنْ هَذَا الْفَتَى فَقَالَ الرَّجُلُ : ابْنِي فَقَالَ لَا تَجِئْ بِهِ مَعَك مَرَّةً أُخْرَى فَلَامَهُ بَعْضُ أَصْحَابِهِ فِي ذَلِكَ فَقَالَ أَحْمَد : عَلَى هَذَا رَأَيْنَا أَشْيَاخَنَا وَبِهِ أَخْبَرُونَا عَنْ أَسْلَافِهِمْ . وَجَاءَ حَسَنُ بْنُ الرَّازِي إلَى

أَحْمَد وَمَعَهُ غُلَامٌ حَسَنُ الْوَجْهِ فَتَحَدَّثَ مَعَهُ سَاعَةً فَلَمَّا أَرَادَ أَنْ يَنْصَرِفَ قَالَ لَهُ أَحْمَد : يَا أَبَا عَلِيٍّ لَا تَمْشِ مَعَ هَذَا الْغُلَامِ فِي طَرِيقٍ فَقَالَ : يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ إِنَّهُ ابْنُ أُخْتِي قَالَ : وَإِنْ كَانَ : لَا يَأْثَمُ النَّاسُ فِيك وَرَوَى ابْنُ الْجَوْزِيِّ بِإِسْنَادِهِ عَنْ

(424/555)

سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ قَالَ : إذَا رَأَيْتُمْ الرَّجُلَ يُلِحُّ بِالنَّظَرِ إلَى الْغُلَامِ الْأَمْرَدِ فَاتَّهِمُوهُ وَقَدْ رُوِيَ فِي ذَلِكَ أَحَادِيثُ مُسْنَدَةٌ ضَعِيفَةٌ وَحَدِيثٌ مُرْسَلٌ أَجْوَدُ مِنْهَا وَهُوَ مَا رَوَاهُ أَبُو مُحَمَّدٍ الْخَلَّالُ . ثَنَا عُمَرُ بْنُ شَاهِينَ ثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي سَعِيدٍ الْمُقْرِي . ثَنَا أَحْمَد بْنُ حَمَّادٍ المصيصي ثَنَا عَبَّاسُ بْنُ مُجَوِّزٍ ثَنَا أَبُو أُسَامَةَ عَنْ مُجَالِدٍ عَنْ سَعِيدٍ عَنْ الشَّعْبِيِّ قَالَ : ﴿ قَدِمَ وَفْدُ عَبْدِ الْقَيْسِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَفِيهِمْ غُلَامٌ أَمْرَدُ ظَاهِرُ الْوَضَاءَةِ فَأَجْلَسَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَرَاءَ ظَهْرِهِ وَقَالَ كَانَتْ خَطِيئَةُ دَاوُد فِي النَّظَرِ ﴾ هَذَا حَدِيثٌ مُنْكَرٌ . وَأَمَّا الْمُسْنَدَةُ فَمِنْهَا مَا رَوَاهُ ابْنُ الْجَوْزِيِّ بِإِسْنَادِهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ ﴿ مَنْ نَظَرَ إلَى غُلَامٍ أَمْرَدَ بِرِيبَةٍ حَبَسَهُ اللَّهُ فِي النَّارِ أَرْبَعِينَ عَامًا ﴾ وَرَوَى الْخَطِيبُ الْبَغْدَادِيُّ بِإِسْنَادِهِ عَنْ أَنَسٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ :

﴿ لَا تُجَالِسُوا أَبْنَاءَ الْمُلُوكِ ؛ فَإِنَّ الْأَنْفُسَ تَشْتَاقُ إِلَيْهِمْ مَا لَا تَشْتَاقُ إِلَى الْجَوَارِي الْعَوَاتِقِ ﴾ إلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ الْأَحَادِيثِ الضَّعِيفَةِ .

(425/555)

وَكَذَلِكَ الْمَرْأَةُ مَعَ الْمَرْأَةِ وَكَذَلِكَ مَحَارِمُ الْمَرْأَةِ : مِثْلُ ابْنِ زَوْجِهَا وَابْنِهِ وَابْنِ أَخِيهَا وَابْنِ أُخْتِهَا وَمَمْلُوكِهَا عِنْدَ مَنْ يَجْعَلُهُ مَحْرَمًا : مَتَى كَانَ يَخَافُ عَلَيْهِ الْفِتْنَةَ أَوْ عَلَيْهَا تَوَجَّهَ الِاحْتِجَابُ بَلْ وَجَبَ . وَهَذِهِ الْمَوَاضِعُ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِالِاحْتِجَابِ فِيهَا مَظِنَّةُ الْفِتْنَةِ ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى :

(426/555)

﴿ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ ﴾ فَقَدْ تَحْصُلُ الزَّكَاةُ وَالطَّهَارَةُ بِدُونِ ذَلِكَ لَكِنَّ هَذَا أَزْكَى وَإِذَا كَانَ النَّظَرُ وَالْبُرُوزُ قَدْ انْتَفَى فِيهِ الزَّكَاةُ وَالطَّهَارَةُ لِمَا يُوجَدُ فِي ذَلِكَ مِنْ شَهْوَةِ الْقَلْبِ وَاللَّذَّةِ بِالنَّظَرِ كَانَ تَرْكُ النَّظَرِ وَالِاحْتِجَابُ أَوْلَى بِالْوُجُوبِ وَلَا زَكَاةَ بِدُونِ حِفْظِ الْفَرْجِ مِنْ الْفَاحِشَةِ ؛ لِأَنَّ حِفْظَهُ يَتَضَمَّنُ حِفْظَهُ عَنْ الْوَطْءِ بِهِ فِي الْفُرُوجِ وَالْأَدْبَارِ وَدُونَ ذَلِكَ وَعَنْ الْمُبَاشَرَةِ وَمَسِّ

الْغَيْرِ لَهُ وَكَشْفِهِ لِلْغَيْرِ وَنَظَرِ الْغَيْرِ إلَيْهِ فَعَلَيْهِ أَنْ يَحْفَظَ فَرْجَهُ عَنْ نَظَرِ الْغَيْرِ وَمَسِّهِ . وَلِهَذَا قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حَدِيثِ ﴿ بَهْزِ بْنِ حَكِيمٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ لَمَّا قَالَ لَهُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ عَوْرَاتُنَا مَا نَأْتِي مِنْهَا وَمَا نَذَرُ فَقَالَ : احْفَظْ عَوْرَتَك إلَّا مِنْ زَوْجَتِك أَوْ مَا مَلَكَتْ يَمِينُك قَالَ : فَإِذَا كَانَ الْقَوْمُ بَعْضُهُمْ فِي بَعْضٍ ؟ قَالَ : إنْ اسْتَطَعْت أَنْ لَا يَرَيَنَّهَا أَحَدٌ فَلَا يَرَيَنَّهَا قَالَ : فَإِذَا كَانَ أَحَدُنَا خَالِيًا ؟ قَالَ : فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ يُسْتَحْيَا مِنْهُ مِنْ النَّاسِ ﴾ وَقَدْ ﴿ نَهَى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ تُبَاشِرَ الْمَرْأَةُ الْمَرْأَةَ فِي شِعَارٍ وَاحِدٍ وَأَنْ يُبَاشِرَ الرَّجُلُ الرَّجُلَ فِي شِعَارٍ وَاحِدٍ ﴾ و ﴿ نَهَى عَنْ الْمَشْيِ عُرَاةً ﴾ ﴿ وَنَهَى عَنْ أَنْ يَنْظُرَ الرَّجُلُ إلَى عَوْرَةِ الرَّجُلِ وَأَنْ تَنْظُرَ الْمَرْأَةُ إلَى عَوْرَةِ الْمَرْأَةِ ﴾ وَقَالَ : ﴿ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يَدْخُلُ الْحَمَّامَ إلَّا بِمِئْزَرٍ ﴾

(427/555)

وَفِي رِوَايَةٍ : ﴿ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ مِنْ إنَاثِ أُمَّتِي فَلَا تَدْخُلُ الْحَمَّامَ إلَّا بِمِئْزَرٍ ﴾ .

وَقَالَ الْعُلَمَاءُ : يُرَخَّصُ لِلنِّسَاءِ فِي الْحَمَّامِ عِنْدَ الْحَاجَةِ كَمَا يُرَخَّصُ لِلرِّجَالِ مَعَ غَضِّ الْبَصَرِ وَحِفْظِ الْفَرْجِ وَذَلِكَ مِثْلُ أَنْ تَكُونَ مَرِيضَةً أَوْ نُفَسَاءَ أَوْ عَلَيْهَا غُسْلٌ لَا يُمْكِنُهَا إلَّا فِي الْحَمَّامِ

. وَأَمَّا إذَا اعْتَادَتْ الْحَمَّامَ وَشَقَّ عَلَيْهَا تَرْكُهُ فَهَلْ يُبَاحُ لَهَا عَلَى قَوْلَيْنِ فِي مَذْهَبِ أَحْمَد وَغَيْرِهِ : أَحَدُهُمَا لَا يُبَاحُ وَالثَّانِي يُبَاحُ وَهُوَ مَذْهَبُ أَبِي حَنِيفَةَ وَاخْتَارَهُ ابْنُ الْجَوْزِيّ .

(428/555)

وَكَمَا يَتَنَاوَلُ غَضَّ الْبَصَرِ عَنْ عَوْرَةِ الْغَيْرِ وَمَا أَشْبَهَهَا مِنْ النَّظَرِ إلَى الْمُحَرَّمَاتِ فَإِنَّهُ يَتَنَاوَلُ الْغَضَّ عَنْ بُيُوتِ النَّاسِ فَبَيْتُ الرَّجُلِ يَسْتُرُ بَدَنَهُ كَمَا تَسْتُرُهُ ثِيَابُهُ وَقَدْ ذَكَرَ سُبْحَانَهُ غَضَّ الْبَصَرِ وَحِفْظَ الْفَرْجِ بَعْدَ آيَةِ الِاسْتِئْذَانِ وَذَلِكَ أَنَّ الْبُيُوتَ سُتْرَةٌ كَالثِّيَابِ الَّتِي عَلَى الْبَدَنِ كَمَا جَمَعَ بَيْنَ اللِّبَاسَيْنِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ ﴾ فَكُلٌّ مِنْهُمَا وِقَايَةٌ مِنْ الْأَذَى الَّذِي يَكُونُ سَمُومًا مُؤْذِيًا كَالْحَرِّ وَالشَّمْسِ وَالْبَرْدِ وَمَا يَكُونُ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ النَّظَرِ بِالْعَيْنِ وَالْيَدِ وَغَيْرِ ذَلِكَ . وَقَدْ ذَكَرَ فِي أَوَّلِ " سُورَةِ النَّحْلِ " أُصُولَ النِّعَمِ وَذَكَرَ هُنَا مَا يَدْفَعُ الْبَرْدَ فَإِنَّهُ مِنْ الْمُهْلِكَاتِ وَذَكَرَ فِي أَثْنَائِهَا تَمَامَ النِّعَمِ وَمَا يَدْفَعُ الْحَرَّ فَإِنَّهُ مِنْ الْمُؤْذِيَاتِ ثُمَّ قَالَ : ﴿ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ

(429/555)

تُسْلِمُونَ ﴾ وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ ﴿ أَبِي هُرَيْرَةَ : أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : إذَا اطَّلَعَ فِي بَيْتِك أَحَدٌ وَلَمْ تَأْذَنْ لَهُ فَخَذَفْته بِحَصَاةٍ فَفَقَأْت عَيْنَهُ مَا كَانَ عَلَيْك مِنْ جُنَاحٍ ﴾ وَهَذَا الْخَاصُّ يُفَسِّرُ الْعَامَّ الَّذِي فِي الصَّحِيحِ عَنْ ﴿ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُغَفَّلٍ : أَنَّهُ رَأَى رَجُلًا يَخْذِفُ قَالَ : لَا تَخْذِفْ ؛ فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَهَى عَنْ الْخَذْفِ ﴾ وَقَالَ : إنَّهُ لَا يُصَادُ بِهِ صَيْدٌ وَلَا يُنْكَأُ بِهِ عَدُوٌّ وَلَكِنَّهَا تَكْسِرُ السِّنَّ وَتَفْقَأُ الْعَيْنَ " وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ ﴿ أَنَّ رَجُلًا اطَّلَعَ فِي حُجْرَةٍ فِي بَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِدْرَى يَحُكُّ بِهَا رَأْسَهُ فَقَالَ لَوْ أَعْلَمُ أَنَّك تَنْظُرُ إلَيَّ لَطَعَنْت بِهِ فِي عَيْنِك ؛ إنَّمَا جُعِلَ الِاسْتِئْذَانُ مِنْ أَجْلِ الْبَصَرِ ﴾ . وَقَدْ ظَنَّ طَائِفَةٌ مِنْ الْعُلَمَاءِ أَنَّ هَذَا مِنْ بَابِ دَفْعِ الصَّائِلِ ؛ لِأَنَّ النَّاظِرَ مُعْتَدٍ بِنَظَرِهِ فَيُدْفَعُ كَمَا يُدْفَعُ سَائِرُ الْبُغَاةِ وَلَوْ كَانَ الْأَمْرُ كَمَا قَالُوا لَدُفِعَ بِالْأَسْهَلِ فَالْأَسْهَلِ . وَلَمْ يَجُزْ قَلْعُ عَيْنِهِ ابْتِدَاءً إذَا لَمْ يَذْهَبْ إلَّا بِذَلِكَ وَالنُّصُوصُ تُخَالِفُ ذَلِكَ ؛ فَإِنَّهُ أَبَاحَ أَنْ تَخْذِفَهُ حَتَّى تَفْقَأَ عَيْنَهُ قَبْلَ أَمْرِهِ بِالِانْصِرَافِ وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ ﴿ لَوْ أَعْلَمُ أَنَّك تَنْظُرُنِي لَطَعَنْت بِهِ فِي عَيْنِك ﴾ فَجَعَلَ نَفْسَ النَّظَرِ مُبِيحًا لِلطَّعْنِ فِي الْعَيْنِ وَلَمْ يَذْكُرْ الْأَمْرَ لَهُ

بِالْانْصِرَافِ وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ مِنْ بَابِ الْمُعَاقَبَةِ لَهُ عَلَى ذَلِكَ حَيْثُ جَنَى هَذِهِ الْجِنَايَةَ عَلَى حُرْمَةِ صَاحِبِ الْبَيْتِ فَلَهُ أَنْ يَفْقَأَ عَيْنَهُ بِالْحَصَى وَالْمِدْرَى .

(431/555)

وَالنَّظَرُ إلَى الْعَوْرَاتِ حَرَامٌ دَاخِلٌ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ قُلْ إنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ ﴾ وَفِي قَوْلِهِ : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ ﴾ فَإِنَّ الْفَوَاحِشَ وَإِنْ كَانَتْ ظَاهِرَةً فِي الْمُبَاشَرَةِ بِالْفَرْجِ أَوْ الدُّبُرِ وَمَا يَتْبَعُ ذَلِكَ مِنْ الْمُلَامَسَةِ وَالنَّظَرِ وَغَيْرِ ذَلِكَ وَكَمَا فِي قِصَّةِ لُوطٍ : ﴿ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ ﴿ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾ وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً ﴾ . فَالْفَاحِشَةُ أَيْضًا تَتَنَاوَلُ كَشْفَ الْعَوْرَةِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي ذَلِكَ مُبَاشَرَةٌ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا ﴾ وَهَذِهِ الْفَاحِشَةُ هِيَ طَوَافُهُمْ بِالْبَيْتِ عُرَاةً وَكَانُوا يَقُولُونَ لَا نَطُوفُ بِثِيَابٍ عَصَيْنَا اللَّهَ فِيهَا ؛ إلَّا الْحَمْسَ فَإِنَّهُمْ كَانُوا يَطُوفُونَ فِي ثِيَابِهِمْ وَغَيْرُهُمْ إنْ حَصَلَ لَهُ ثِيَابٌ مِنْ الْحَمْسِ طَافَ فِيهَا وَإِلَّا طَافَ عُرْيَانًا وَإِنْ طَافَ بِثِيَابٍ حُرِّمَتْ عَلَيْهِ فَأَلْقَاهَا فَكَانَتْ تُسَمَّى لِقَاءً وَكَذَلِكَ الْمَرْأَةُ إذَا لَمْ يَحْصُلْ لَهَا ثِيَابٌ جَعَلَتْ يَدَهَا عَلَى فَرْجِهَا وَيَدَهَا الْأُخْرَى عَلَى دُبُرِهَا وَطَافَتْ

وَتَقُولُ : الْيَوْمَ يَبْدُو بَعْضُهُ أَوْ كُلُّهُ وَمَا بَدَا مِنْهُ فَلَا أُحِلُّهُ وَقَدْ سَمَّى اللَّهُ ذَلِكَ فَاحِشَةً وَقَوْلُهُ فِي سِيَاقِ ذَلِكَ : ﴿ قُلْ إنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ يَتَنَاوَلُ كَشْفَ الْعَوْرَةِ أَيْضًا وَإِبْدَاءَهَا وَيُؤَكِّدُ ذَلِكَ أَنَّ إبْدَاءَ فِعْلِ النِّكَاحِ بِاللَّفْظِ

(432/555)

الصَّرِيحِ يُسَمَّى فَحْشَاءَ وَتَفَحُّشًا فَكَشْفُ الْأَعْضَاءِ وَالْفِعْلُ لِلْبَصَرِ كَكَشْفِ ذَلِكَ لِلسَّمْعِ .

(433/555)

وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْ الْكَشْفَيْنِ يُسَمَّى وَصْفًا كَمَا قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿ لَا تَنْعَتْ الْمَرْأَةُ الْمَرْأَةَ لِزَوْجِهَا حَتَّى كَأَنَّهُ يَنْظُرُ إلَيْهَا ﴾ وَيُقَالُ : فُلَانٌ يَصِفُ فُلَانًا وَثَوْبٌ يَصِفُ الْبَشَرَةَ ثُمَّ إنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْ إظْهَارِ ذَلِكَ لِلسَّمْعِ وَالْبَصَرِ يُبَاحُ لِلْحَاجَةِ ؛ بَلْ يُسْتَحَبُّ إذَا لَمْ يَحْصُلْ الْمُسْتَحَبُّ أَوْ الْوَاجِبُ إلَّا بِذَلِكَ ﴿ كَقَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِمَاعِزٍ : أَنِكْتَهَا ﴾ وَكَقَوْلِهِ ﴿ مَنْ تَعَزَّى بِعَزَاءِ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَعِضُّوهُ بِهِنِّ أَبِيهِ وَلَا تَكْنُوا ﴾ . وَالْمَقْصُودُ أَنَّ الْفَاحِشَةَ تَتَنَاوَلُ الْفِعْلَ الْقَبِيحَ وَتَتَنَاوَلُ إظْهَارَ الْفِعْلِ وَأَعْضَاءَهُ وَهَذَا كَمَا أَنَّ ذَلِكَ يَتَنَاوَلُ مَا فَحُشَ وَإِنْ كَانَ

بعَقْدِ نِكَاحٍ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ فَأَخْبَرَ أَنَّ هَذَا النِّكَاحَ فَاحِشَةٌ وَقَدْ قِيلَ إِنَّ هَذَا مِنْ الْفَوَاحِشِ الْبَاطِنَةِ فَظَهَرَ أَنَّ الْفَاحِشَةَ تَتَنَاوَلُ الْعُقُودَ الْفَاحِشَةَ كَمَا تَتَنَاوَلُ الْمُبَاشَرَةَ بِالْفَاحِشَةِ ؛ فَإِنَّ قَوْلَهُ : ﴿ وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ ﴾ يَتَنَاوَلُ الْعَقْدَ وَالْوَطْءَ . وَفِي قَوْلِهِ : ﴿ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ عُمُومٌ لِأَنْوَاعٍ كَثِيرَةٍ مِنْ الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ وَأَمَرَ تَعَالَى بِحِفْظِ الْفَرْجِ مُطْلَقًا بِقَوْلِهِ : ﴿ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ﴾ وَبِقَوْلِهِ : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴾ ﴿ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ﴾ الْآيَاتِ .

(434/555)

وَقَالَ : ﴿ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ ﴾ فَحِفْظُ الْفَرْجِ مِثْلُ قَوْلِهِ : ﴿ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ ﴾ وَحِفْظُهَا هُوَ صَرْفُهَا عَمَّا لَا يَحِلُّ .

وَأَمَّا الْأَبْصَارُ فَلَا بُدَّ مِنْ فَتْحِهَا وَالنَّظَرِ بِهَا وَقَدْ يَفْجَأُ الْإِنْسَانُ مَا يَنْظُرُ إِلَيْهِ بِغَيْرِ قَصْدٍ فَلَا يُمْكِنُ غَضُّهَا مُطْلَقًا وَلِهَذَا أَمَرَ تَعَالَى عِبَادَهُ بِالْغَضِّ مِنْهَا كَمَا أَمَرَ لُقْمَانُ ابْنَهُ بِالْغَضِّ مِنْ صَوْتِهِ . وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﴾ الْآيَةَ فَإِنَّهُ مَدَحَهُمْ عَلَى غَضِّ الصَّوْتِ عِنْدَ رَسُولِهِ مُطْلَقًا فَهُمْ مَأْمُورُونَ بِذَلِكَ فِي مِثْلِ ذَلِكَ يُنْهَوْنَ عَنْ رَفْعِ الصَّوْتِ

عِنْدَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَمَّا غَضُّ الصَّوْتِ مُطْلَقًا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَهُوَ غَضٌّ خَاصٌّ مَمْدُوحٌ وَيُمْكِنُ الْعَبْدُ أَنْ يَغُضَّ صَوْتَهُ مُطْلَقًا فِي كُلِّ حَالٍ وَلَمْ يُؤْمَرْ الْعَبْدُ بِهِ ؛ بَلْ يُؤْمَرُ بِرَفْعِ الصَّوْتِ فِي مَوَاضِعَ : إمَّا أَمْرُ إيجَابٍ أَوْ اسْتِحْبَابٍ فَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ ﴾ فَإِنَّ الْغَضَّ فِي الصَّوْتِ وَالْبَصَرِ جِمَاعُ مَا يَدْخُلُ إلَى الْقَلْبِ وَيَخْرُجُ مِنْهُ فَبِالسَّمْعِ يَدْخُلُ الْقَلْبُ وَبِالصَّوْتِ يَخْرُجُ مِنْهُ كَمَا جَمَعَ الْعُضْوَيْنِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ ﴾ ﴿ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴾ فَبِالْعَيْنِ وَالنَّظَرِ يَعْرِفُ الْقَلْبُ الْأُمُورَ وَاللِّسَانُ وَالصَّوْتُ يُخْرِجَانِ مِنْ عِنْدِ الْقَلْبِ الْأُمُورَ هَذَا رَائِدُ الْقَلْبِ وَصَاحِبُ خَبَرِهِ وَجَاسُوسِهِ وَهَذَا تَرْجُمَانُهُ .

(435/555)

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ ﴾ وَقَالَ : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ﴾ وَقَالَ : ﴿ إنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ وَقَالَ فِي آيَةِ الِاسْتِئْذَانِ :

(436/555)

﴿ وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ ﴾ وَقَالَ : ﴿ فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ﴾ وَقَالَ : ﴿ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ﴾ . وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ اللَّهُمَّ طَهِّرْ قَلْبِي مِنْ خَطَايَايَ بِالْمَاءِ وَالثَّلْجِ وَالْبَرَدِ ﴾ وَقَالَ فِي دُعَاءِ الْجِنَازَةِ : ﴿ وَاغْسِلْهُ بِمَاءٍ وَثَلْجٍ وَبَرَدٍ وَنَقِّهِ مِنْ خَطَايَاهُ كَمَا يُنَقَّى الثَّوْبُ الْأَبْيَضُ مِنْ الدَّنَسِ ﴾ . فَالطَّهَارَةُ - وَاَللَّهُ أَعْلَمُ - هِيَ مِنْ الذُّنُوبِ الَّتِي هِيَ رِجْسٌ وَالزَّكَاةُ تَتَضَمَّنُ مَعْنَى الطَّهَارَةِ الَّتِي هِيَ عَدَمُ الذُّنُوبِ وَمَعْنَى النَّمَاءِ بِالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ : مِثْلُ الْمَغْفِرَةِ وَالرَّحْمَةِ وَمِثْلُ النَّجَاةِ مِنْ الْعَذَابِ وَالْفَوْزِ بِالثَّوَابِ وَمِثْلُ عَدَمِ الشَّرِّ وَحُصُولِ الْخَيْرِ ؛ فَإِنَّ الطَّهَارَةَ تَكُونُ مِنْ الْأَرْجَاسِ وَالْأَنْجَاسِ وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ ﴾ وَقَالَ : ﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ ﴾ وَقَالَ : ﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ﴾ وَقَالَ عَنْ الْمُنَافِقِينَ : ﴿ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ﴾ . وَقَالَ عَنْ قَوْمِ لُوطٍ : ﴿ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ ﴾ وَقَالَ اللُّوطِيَّةُ عَنْ لُوطٍ وَأَهْلِهِ : ﴿ أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ : عَنْ أَدْبَارِ الرِّجَالِ وَيُقَالُ فِي دُخُولِ الْغَائِطِ ﴿ أَعُوذُ بِكَ مِنْ الْخُبْثِ وَالْخَبَائِثِ ﴾

(437/555)

وَمِنْ الرِّجْسِ النَّجِسِ الْخَبِيثِ

(438/555)

الْمُخْبِثِ وَهَذِهِ النَّجَاسَةُ تَكُونُ مِنْ الشِّرْكِ وَالنِّفَاقِ وَالْفَوَاحِشِ وَالظُّلْمِ وَنَحْوِهَا وَهِيَ لَا تَزُولُ إلَّا بِالتَّوْبَةِ عَنْ تَرْكِ الْفَاحِشَةِ وَغَيْرِهَا فَمَنْ تَابَ مِنْهَا فَقَدْ تَطَهَّرَ وَإِلَّا فَهُوَ مُتَنَجِّسٌ وَإِنْ اغْتَسَلَ بِالْمَاءِ مِنْ الْجَنَابَةِ فَذَاكَ الْغُسْلُ يَرْفَعُ حَدَثَ الْجَنَابَةِ وَلَا يَرْفَعُ عَنْهُ نَجَاسَةَ الْفَاحِشَةِ الَّتِي قَدْ تَنَجَّسَ بِهَا قَلْبُهُ وَبَاطِنُهُ ؛ فَإِنَّ تِلْكَ نَجَاسَةٌ لَا يَرْفَعُهَا الِاغْتِسَالُ بِالْمَاءِ وَإِنَّمَا يَرْفَعُهَا الِاغْتِسَالُ بِمَاءِ التَّوْبَةِ النَّصُوحِ الْمُسْتَمِرَّةِ إلَى الْمَمَاتِ . وَهَذَا مَعْنَى مَا رَوَاهُ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا وَغَيْرُهُ : ثَنَا سويد بْنُ سَعِيدٍ ثَنَا مُسْلِمُ بْنُ خَالِدٍ عَنْ إسْمَاعِيلَ بْنِ كَثِيرٍ عَنْ مُجَاهِدٍ قَالَ : لَوْ أَنَّ الَّذِي يَعْمَلُ - يَعْنِي عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ - اغْتَسَلَ بِكُلِّ قَطْرَةٍ فِي السَّمَاءِ وَكُلِّ قَطْرَةٍ فِي الْأَرْضِ لَمْ يَزَلْ نَجِسًا . وَرَوَاهُ ابْنُ الْجَوْزِيِّ وَرَوَى الْقَاسِمُ بْنُ خَلَفٍ فِي "كِتَابِ ذَمِّ اللِّوَاطِ" بِإِسْنَادِهِ عَنْ الْفُضَيْلِ بْنِ عِيَاضٍ أَنَّهُ قَالَ : لَوْ أَنَّ لُوطِيًّا اغْتَسَلَ بِكُلِّ قَطْرَةٍ نَزَلَتْ مِنْ السَّمَاءِ لَلَقِيَ اللَّهَ

غَيْرَ طَاهِرٍ . وَقَدْ رَوَى أَبُو مُحَمَّدٍ الْخَلَّالُ عَنْ الْعَبَّاسِ الْهَاشِمِيِّ ذَلِكَ مَرْفُوعًا . وَحَدِيثُ إبْرَاهِيمَ عَنْ عَلْقَمَةَ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ : اللُّوطِيَّانِ لَوْ اغْتَسَلَا بِمَاءِ الْبَحْرِ لَمْ يُجْزِهِمَا إلَّا أَنْ يَتُوبَا وَرَفْعُ مِثْلِ هَذَا الْكَلَامِ مُنْكَرٌ ؛ وَإِنَّمَا هُوَ مَعْرُوفٌ مِنْ كَلَامِ السَّلَفِ . وَكَذَلِكَ رُوِيَ عَنْ ﴿ أَبِي هُرَيْرَةَ وَابْنِ عَبَّاسٍ قَالَا :

(439/555)

خَطَبَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ فِي خُطْبَتِهِ : مَنْ نَكَحَ امْرَأَةً فِي دُبُرِهَا

(440/555)

أَوْ غُلَامًا أَوْ رَجُلًا : حُشِرَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنْتَنَ مِنْ الْجِيفَةِ يَتَأَذَّى بِهِ النَّاسُ حَتَّى يُدْخِلَهُ اللَّهُ نَارَ جَهَنَّمَ وَيُحْبِطَ اللَّهُ عَمَلَهُ وَلَا يَقْبَلُ مِنْهُ صَرْفًا وَلَا عَدْلًا وَيُجْعَلُ فِي تَابُوتٍ مِنْ نَارٍ وَيُسَمَّرُ عَلَيْهِ بِمَسَامِيرَ مِنْ حَدِيدٍ فَتَشُكُّ تِلْكَ الْمَسَامِيرُ فِي وَجْهِهِ وَجَسَدِهِ ﴾ قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ : هَذَا لِمَنْ لَمْ يَتُبْ وَذَلِكَ أَنَّ تَارِكَ اللِّوَاطِ مُتَطَهِّرٌ كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ فَفَاعِلُهُ غَيْرُ مُتَطَهِّرٍ مِنْ ذَلِكَ فَيَكُونُ مُتَنَجِّسًا ؛ فَإِنَّ ضِدَّ الطَّهَارَةِ النَّجَاسَةُ ؛ لَكِنَّ النَّجَاسَةَ أَنْوَاعٌ مُخْتَلِفَةٌ : تَخْتَلِفُ أَحْكَامُهَا .

وَمِنْ هَاهُنَا غَلِطَ بَعْضُ النَّاسِ مِنْ الْفُقَهَاءِ ؛ فَإِنَّهُمْ لَمَّا رَأَوْا مَا دَلَّ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ مِنْ طَلَبِ طَهَارَةِ الْجُنُبِ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا ﴾ قَالُوا : فَيَكُونُ الْجُنُبُ نَجِسًا وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ : " أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ إنَّ الْمُؤْمِنَ لَا يَنْجُسُ ﴾ لَمَّا انْخَنَسَ مِنْهُ وَهُوَ جُنُبٌ وَكَرِهَ أَنْ يُجَالِسَهُ فَهَذِهِ النَّجَاسَةُ الَّتِي نَفَاهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هِيَ نَجَاسَةُ الطَّهَارَةِ بِالْمَاءِ الَّتِي ظَنَّهَا أَبُو هُرَيْرَةَ وَالْجَنَابَةُ تَمْنَعُ الْمَلَائِكَةَ أَنْ تَدْخُلَ بَيْتًا فِيهِ جُنُبٌ وَقَالَ أَحْمَد : إذَا وَضَعَ الْجُنُبُ يَدَهُ فِي مَاءٍ قَلِيلٍ أَنْجَسَ الْمَاءَ فَظَنَّ بَعْضُ أَصْحَابِهِ أَنَّهُ أَرَادَ النَّجَاسَةَ الْحِسِّيَّةَ وَإِنَّمَا أَرَادَ الْحُكْمِيَّةَ فَإِنَّ الْفَرْعَ لَا يَكُونُ أَقْوَى مِنْ

(441/555)

الْأَصْلِ وَلَا يَكُونُ الْمَاءُ أَعْظَمَ مِنْ الْبَدَنِ ؛ بَلْ غَايَتُهُ أَنْ يَقُومَ بِهِ الْمَانِعُ الَّذِي قَامَ بِالْبَدَنِ وَالْجُنُبُ ظَاهِرُهُ مَمْنُوعٌ مِنْ الصَّلَاةِ فَيَكُونُ الْمَاءُ كَذَلِكَ طَاهِرًا لَا يَتَوَضَّأُ بِهِ لِلصَّلَاةِ .

(442/555)

وَأَمَّا الزَّكَاةُ فَهِيَ مُتَضَمِّنَةٌ النَّمَاءَ وَالزِّيَادَةَ كَالزَّرْعِ وَإِنْ كَانَتْ الطَّهَارَةُ قَدْ تَدْخُلُ فِي مَعْنَاهَا ؛ فَإِنَّ الشَّيْءَ إذَا تَنَظَّفَ مِمَّا يُفْسِدُهُ زَكَا وَنَمَا وَصَلَحَ وَزَادَ فِي نَفْسِهِ كَالزَّرْعِ يُنْقَى مِنْ الدَّغَلِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ ﴾ ﴿ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ ﴾ وَقَالَ : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴾ وَقَالَ : ﴿ فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ ﴾ فَإِنَّ الرُّجُوعَ عَمَلٌ صَالِحٌ يَزِيدُ الْمُؤْمِنَ زَكَاةً وَطَهَارَةً وَقَالَ : ﴿ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ﴾ فَإِنَّ ذَلِكَ مُجَانَبَةٌ لِأَسْبَابِ الرِّيبَةِ ؛ وَذَلِكَ مِنْ نَوْعِ مُجَانَبَةِ الذُّنُوبِ وَالْبُعْدِ عَنْهَا وَمُبَاعَدَتِهَا فَأَخْبَرَ أَنَّ ذَلِكَ أَطْهَرُ لِقُلُوبِ الطَّائِفَتَيْنِ . وَأَمَّا الْآيَةُ الَّتِي نَحْنُ فِيهَا وَهِيَ قَوْلُهُ : ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ ﴾ فَالْغَضُّ مِنْ الْبَصَرِ وَحِفْظُ الْفَرْجِ يَتَضَمَّنُ الْبُعْدَ عَنْ نَجَاسَةِ الذُّنُوبِ وَيَتَضَمَّنُ الْأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ الَّتِي يَزْكُو بِهَا الْإِنْسَانُ وَهُوَ أَزْكَى وَالزَّكَاةُ تَتَضَمَّنُ الطَّهَارَةَ ؛ فَإِنَّ فِيهَا مَعْنَى تَرْكِ السَّيِّئَاتِ وَمَعْنَى فِعْلِ الْحَسَنَاتِ وَلِهَذَا تُفَسَّرُ تَارَةً بِالطَّهَارَةِ وَتَارَةً بِالزِّيَادَةِ وَالنَّمَاءِ وَمَعْنَاهَا يَتَضَمَّنُ الْأَمْرَيْنِ وَإِنْ كَانَ قَرَنَ الطَّهَارَةَ مَعَهَا فِي الذِّكْرِ مِثْلَ قَوْلِهِ : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ

وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ﴾ فَالصَّدَقَةُ تُوجِبُ الطَّهَارَةَ مِنْ الذُّنُوبِ وَتُوجِبُ الزَّكَاةَ الَّتِي هِيَ الْعَمَلُ الصَّالِحُ كَمَا أَنَّ الْغَضَّ مِنْ الْبَصَرِ وَحِفْظَ الْفَرْجِ هُوَ أَزْكَى لَهُمْ

(444/555)

وَهُمَا يَكُونَانِ بِاجْتِنَابِ الذُّنُوبِ وَحِفْظِ الْجَوَارِحِ وَيَكُونَانِ بِالتَّوْبَةِ وَالصَّدَقَةِ الَّتِي هِيَ الْإِحْسَانُ وَهَذَانِ هُمَا التَّقْوَى وَالْإِحْسَانُ و ﴿ إنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ . وَقَدْ رَوَى التِّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ ﴿ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُئِلَ مَا أَكْثَرُ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ النَّارَ ؟ فَقَالَ : الْأَجْوَفَانِ : الْفَمُ وَالْفَرْجُ وَسُئِلَ عَنْ أَكْثَرِ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ الْجَنَّةَ ؟ فَقَالَ : تَقْوَى اللَّهِ وَحُسْنُ الْخُلُقِ ﴾ فَيَدْخُلُ فِي تَقْوَى اللَّهِ حِفْظُ الْفَرْجِ وَغَضُّ الْبَصَرِ وَيَدْخُلُ فِي حُسْنِ الْخُلُقِ الْإِحْسَانُ إلَى الْخَلْقِ وَالِامْتِنَاعُ مِنْ إيذَائِهِمْ وَذَلِكَ يَحْتَاجُ إلَى الصَّبْرِ وَالْإِحْسَانُ إلَى الْخَلْقِ يَكُونُ عَنْ الرَّحْمَةِ وَاَللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ : ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴾ . وَهُوَ سُبْحَانَهُ ذَكَرَ الزَّكَاةَ هُنَا كَمَا قَدَّمَهَا فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا ﴾ فَإِنَّ اجْتِنَابَ الذُّنُوبِ يُوجِبُ الزَّكَاةَ الَّتِي هِيَ زَوَالُ الشَّرِّ وَحُصُولُ الْخَيْرِ وَالْمُفْلِحُونَ هُمْ الَّذِينَ أَدَّوْا الْوَاجِبَاتِ وَتَرَكُوا الْمُحَرَّمَاتِ كَمَا وَصَفَهُمْ فِي أَوَّلِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ فَقَالَ : ﴿ الم ﴾ ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ

﴿ الْآيَاتُ : وَقَالَ : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴾ فَإِذَا كَانَ قَدْ أَخْبَرَ أَنَّ هَؤُلَاءِ مُفْلِحُونَ وَأَخْبَرَ أَنَّ الْمُفْلِحِينَ هُمْ الْمُتَّقُونَ : ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا

(445/555)

رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ وَأَخْبَرَ أَنَّ مَنْ زَكَّى نَفْسَهُ فَهُوَ مُفْلِحٌ : دَلَّ ذَلِكَ عَلَى

(446/555)

أَنَّ الزَّكَاةَ تَنْتَظِمُ الْأُمُورَ الْمَذْكُورَةَ فِي أَوَّلِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ . وَقَوْلُهُ : ﴿ أَلَمْ تَرَ إلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ ﴾ وَقَوْلُهُ : ﴿ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴾ فَالتَّزْكِيَةُ مِنْ الْعِبَادِ لِأَنْفُسِهِمْ هِيَ إخْبَارُهُمْ عَنْ أَنْفُسِهِمْ بِكَوْنِهَا زَاكِيَةً وَاعْتِقَادُ ذَلِكَ ؛ لَا نَفْسُ جَعْلِهَا زَاكِيَةً وَقَالَ تَعَالَى عَنْ إبْرَاهِيمَ : ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ وَقَالَ : ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ الْآيَةَ وَقَالَ : ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ ﴾ الْآيَةَ فَامْتَنَّ سُبْحَانَهُ عَلَى الْعِبَادِ بِإِرْسَالِهِ فِي عِدَّةِ مَوَاضِعَ فَهَذِهِ أَرْبَعَةُ أُمُورٍ أَرْسَلَهُ بِهَا : تِلَاوَةُ آيَاتِهِ عَلَيْهِمْ وَتَزْكِيَتُهُمْ وَتَعْلِيمُهُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ . وَقَدْ أَفْرَدَ تَعْلِيمَهُ

الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ بِالذِّكْرِ مِثْلَ قَوْلِهِ : ﴿ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ ﴾ . وَقَوْلِهِ : ﴿ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ﴾ وَذَلِكَ أَنَّ التِّلَاوَةَ عَلَيْهِمْ وَتَزْكِيَتَهُمْ أَمْرٌ عَامٌّ لِجَمِيعِ الْمُؤْمِنِينَ ؛ فَإِنَّ التِّلَاوَةَ هِيَ تَبْلِيغُ كَلَامِهِ تَعَالَى إلَيْهِمْ وَهَذَا لَا بُدَّ مِنْهُ لِكُلِّ مُؤْمِنٍ وَتَزْكِيَتُهُمْ هُوَ جَعْلُ أَنْفُسِهِمْ زَكِيَّةً بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ النَّاشِئِ عَنْ الْآيَاتِ الَّتِي سَمِعُوهَا وَتُلِيَتْ عَلَيْهِمْ فَالْأَوَّلُ سَمْعُهُمْ وَالثَّانِي طَاعَتُهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يَقُولُونَ

(447/555)

سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا . الْأَوَّلُ عِلْمُهُمْ وَالثَّانِي عَمَلُهُمْ وَالْإِيمَانُ قَوْلٌ وَعَمَلٌ فَإِذَا سَمِعُوا آيَاتِ اللَّهِ وَعَوْهَا بِقُلُوبِهِمْ وَأَحَبُّوهَا وَعَمِلُوا بِهَا وَلَمْ يَكُونُوا كَمَنْ قَالَ فِيهِمْ : ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ وَإِذَا عَمِلُوا بِهَا زَكَوْا بِذَلِكَ وَكَانُوا مِنْ الْمُفْلِحِينَ الْمُؤْمِنِينَ . وَاَللَّهُ قَالَ : ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ وَقَالَ فِي ضِدِّهِمْ : ﴿ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ ﴾ فَأَخْبَرَ أَنَّهُمْ أَعْظَمُ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَجَهْلًا وَذَلِكَ ضِدُّ الْإِيمَانِ وَالْعِلْمِ فَاسْتِمَاعُ آيَاتِ اللَّهِ وَالتَّزَكِّي بِهَا أَمْرٌ وَاجِبٌ عَلَى كُلِّ أَحَدٍ فَإِنَّهُ لَا بُدَّ لِكُلِّ عَبْدٍ مِنْ

سَمَاعِ رِسَالَةِ سَيِّدِهِ الَّتِي أَرْسَلَ بِهَا رَسُولَهُ إلَيْهِ وَهَذَا هُوَ السَّمَاعُ الْوَاجِبُ الَّذِي هُوَ أَصْلُ الْإِيمَانِ وَلَا بُدَّ مِنْ التَّزَكِّي بِفِعْلِ الْمَأْمُورِ وَتَرْكِ الْمَحْظُورِ فَهَذَانِ لَا بُدَّ مِنْهُمَا .

(448/555)

وَأَمَّا الْعِلْمُ بِالْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ فَهُوَ فَرْضٌ عَلَى الْكِفَايَةِ ؛ لَا يَجِبُ عَلَى كُلِّ أَحَدٍ بِعَيْنِهِ أَنْ يَكُونَ عَالِمًا بِالْكِتَابِ : لَفْظُهُ وَمَعْنَاهُ عَالِمًا بِالْحِكْمَةِ جَمِيعِهَا ؛ بَلْ الْمُؤْمِنُونَ كُلُّهُمْ مُخَاطَبُونَ بِذَلِكَ وَهُوَ وَاجِبٌ عَلَيْهِمْ كَمَا هُمْ مُخَاطَبُونَ بِالْجِهَادِ بَلْ وُجُوبُ ذَلِكَ أَسْبَقُ وَأَوْكَدُ مِنْ وُجُوبِ الْجِهَادِ ؛ فَإِنَّهُ أَصْلُ الْجِهَادِ وَلَوْ لَاهُ لَمْ يَعْرِفُوا عَلَامَ يُقَاتِلُونَ وَلِهَذَا كَانَ قِيَامُ الرَّسُولِ وَالْمُؤْمِنِينَ بِذَلِكَ قَبْلَ قِيَامِهِمْ بِالْجِهَادِ فَالْجِهَادُ سَنَامُ الدِّينِ وَفَرْعُهُ وَتَمَامُهُ وَهَذَا أَصْلُهُ وَأَسَاسُهُ وَعَمُودُهُ وَرَأْسُهُ وَمَقْصُودُ الرِّسَالَةِ فِعْلُ الْوَاجِبَاتِ والمستحبات جَمِيعًا وَلَا رَيْبَ أَنَّ اسْتِمَاعَ كِتَابِ اللَّهِ وَالْإِيمَانَ بِهِ وَتَحْرِيمَ حَرَامِهِ وَتَحْلِيلَ حَلَالِهِ . وَالْعَمَلَ بِمُحْكَمِهِ وَالْإِيمَانَ بِمُتَشَابِهِهِ وَاجِبٌ

(449/555)

عَلَى كُلِّ أَحَدٍ وَهَذَا هُوَ التِّلَاوَةُ الْمَذْكُورَةُ فِي : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ . فَأَخْبَرَ عَنْ الَّذِينَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أَنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَبِهِ قَالَ سَلَفُ الْأُمَّةِ مِنْ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَغَيْرِهِمْ وَقَوْلُهُ : ﴿ حَقَّ تِلَاوَتِهِ ﴾ كَقَوْلِهِ ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ﴾ ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ ﴾ . وَأَمَّا حِفْظُ جَمِيعِ الْقُرْآنِ وَفَهْمُ جَمِيعِ مَعَانِيهِ وَمَعْرِفَةُ جَمِيعِ السُّنَّةِ فَلَا يَجِبُ عَلَى كُلِّ أَحَدٍ ؛ لَكِنْ يَجِبُ عَلَى الْعَبْدِ أَنْ يَحْفَظَ مِنْ الْقُرْآنِ وَيَعْلَمَ مَعَانِيَهُ وَيَعْرِفَ مِنْ السُّنَّةِ مَا يَحْتَاجُ إلَيْهِ وَهَلْ يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَسْمَعَ جَمِيعَ الْقُرْآنِ ؟ فِيهِ خِلَافٌ وَلَكِنَّ هَذِهِ الْمَعْرِفَةَ الْحِكَمِيَّةَ الَّتِي تَجِبُ عَلَى كُلِّ عَبْدٍ لَيْسَ هُوَ عِلْمُ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ الَّتِي عَلَّمَهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَصْحَابَهُ وَأُمَّتَهُ ؛ بَلْ ذَلِكَ لَا يَكُونُ إلَّا بِمَعْرِفَةِ حُدُودِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ الْأَلْفَاظِ وَالْمَعَانِي وَالْأَفْعَالِ وَالْمَقَاصِدِ وَلَا يَجِبُ هَذَا عَلَى كُلِّ أَحَدٍ .

(450/555)

وَقَوْلُهُ تَعَالَى ﴿ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴾ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الزَّكَاةَ هِيَ التَّقْوَى وَالتَّقْوَى تَنْتَظِمُ الْأَمْرَيْنِ جَمِيعًا ؛ بَلْ تَرْكُ السَّيِّئَاتِ مُسْتَلْزِمٌ لِفِعْلِ الْحَسَنَاتِ إذْ الْإِنْسَانُ حَارِثٌ

هُمَامٌ وَلَا يَدَعُ إرَادَةَ السَّيِّئَاتِ وَفِعْلَهَا إلَّا بِإِرَادَةِ الْحَسَنَاتِ وَفِعْلِهَا ؛ إذْ النَّفْسُ لَا تَخْلُو عَنْ الْإِرَادَتَيْنِ جَمِيعًا ؛ بَلْ الْإِنْسَانُ بِالطَّبْعِ مُرِيدٌ فَعَّالٌ وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ هَذَا يَكُونُ سَبَبُهُ

(451/555)

الزَّكَاةَ وَالتَّقْوَى الَّتِي بِهَا يَسْتَحِقُّ الْإِنْسَانُ الْجَنَّةَ كَمَا فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ مَنْ تَكَفَّلَ لِي بِحِفْظِ مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ وَرِجْلَيْهِ أَتَكَفَّلُ لَهُ بِالْجَنَّةِ ﴾ . وَمَنْ تَزَكَّى فَقَدْ أَفْلَحَ فَيَدْخُلُ الْجَنَّةَ ؛ وَالزَّكَاةُ مُتَضَمِّنَةٌ حُصُولَ الْخَيْرِ وَزَوَالَ الشَّرِّ فَإِذَا حَصَلَ الْخَيْرُ وَزَالَ الشَّرُّ - مِنْ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ - حَصَلَ لَهُ نُورٌ وَهُدًى وَمَعْرِفَةٌ وَغَيْرُ ذَلِكَ وَالْعَمَلُ يَحْصُلُ لَهُ مَحَبَّةٌ وَإِنَابَةٌ وَخَشْيَةٌ وَغَيْرُ ذَلِكَ . هَذَا لِمَنْ تَرَكَ هَذِهِ الْمَحْظُورَاتِ وَأَتَى بِالْمَأْمُورَاتِ وَيَحْصُلُ لَهُ ذَلِكَ أَيْضًا قُدْرَةٌ وَسُلْطَانًا وَهَذِهِ صِفَاتُ الْكَمَالِ : الْعِلْمُ وَالْعَمَلُ وَالْقُدْرَةُ . وَحُسْنُ الْإِرَادَةِ وَقَدْ جَاءَتْ الْآثَارُ بِذَلِكَ وَأَنَّهُ يَحْصُلُ لِمَنْ غَضَّ بَصَرَهُ نُورٌ فِي قَلْبِهِ وَمَحَبَّةٌ كَمَا جَرَّبَ ذَلِكَ الْعَالِمُونَ الْعَامِلُونَ . وَفِي مَسْنَدِ أَحْمَد حَدَّثَنَا عَتَّابٌ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ - وَهُوَ ابْنُ الْمُبَارَكِ - أَنَا يَحْيَى بْنُ أَيُّوبَ عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ زُحَرٍ عَنْ عَلِيِّ بْنِ يَزِيدَ عَنْ الْقَاسِمِ عَنْ أَبِي أُمَامَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَنْظُرُ إلَى مَحَاسِنِ امْرَأَةٍ ثُمَّ يَغُضُّ بَصَرَهُ إلَّا أَخْلَفَ اللَّهُ لَهُ عِبَادَةً يَجِدُ حَلَاوَتَهَا ﴾ . وَرَوَاهُ أَبُو بَكْرِ بْنُ الْأَنْبَارِيِّ

فِي أَمَالِيهِ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ أَبِي مَرْيَمَ عَنْ يَحْيَى بْنِ أَيُّوبَ بِهِ وَلَفْظُهُ : ﴿ مَنْ نَظَرَ إِلَى امْرَأَةٍ فَغَضَّ بَصَرَهُ عِنْدَ أَوَّلِ دَفْعَةٍ رَزَقَهُ

(452/555)

اللَّهُ عِبَادَةً يَجِدُ حَلَاوَتَهَا ﴾ . وَقَدْ رَوَاهُ أَبُو نُعَيْمٍ فِي الْحِلْيَةِ :

(453/555)

حَدَّثَنَا أَبِي حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَسَنِ حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يَعْقُوبَ : قَالَ : حَدَّثَنَا أَبُو الْيَمَانِ حَدَّثَنَا أَبُو مَهْدِيٍّ سَعِيدُ بْنُ سِنَانٍ عَنْ أَبِي الزاهرية عَنْ كَثِيرِ بْنِ مُرَّةَ عَنْ ابْنِ عُمَرَ : قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ النَّظْرَةُ الْأُولَى خَطَأٌ وَالثَّانِيَةُ عَمْدٌ وَالثَّالِثَةُ تَدَبُّرٌ نَظَرُ الْمُؤْمِنِ إِلَى مَحَاسِنِ الْمَرْأَةِ سَهْمٌ مَسْمُومٌ مِنْ سِهَامِ إِبْلِيسَ مَنْ تَرَكَهُ خَشْيَةَ اللَّهِ وَرَجَاءَ مَا عِنْدَهُ أَثَابَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِذَلِكَ عِبَادَةً تُبَلِّغُهُ لَذَّتَهَا ﴾ رَوَاهُ أَبُو جَعْفَرٍ الخرائطي فِي "كِتَابِ اعْتِلَالِ الْقُلُوبِ " ثَنَا عَلِيُّ بْنُ حَرْبٍ ثَنَا إِسْحَاقُ بْنُ عَبْدِ الْوَاحِدِ ثَنَا هَشِيمٌ ثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ إِسْحَاقَ عَنْ مُحَارِبِ بْنِ دِثَارٍ عَنْ جَبَلَةَ عَنْ حُذَيْفَةَ ابْنِ الْيَمَانِ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ النَّظَرُ إِلَى الْمَرْأَةِ سَهْمٌ مَسْمُومٌ مِنْ سِهَامِ إِبْلِيسَ مَنْ تَرَكَهُ خَوْفًا مِنْ اللَّهِ أَثَابَهُ اللَّهُ إِيمَانًا يَجِدُ حَلَاوَتَهُ فِي قَلْبِهِ ﴾ . وَقَدْ رَوَاهُ أَبُو مُحَمَّدٍ الْخَلَّالُ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ إِسْحَاقَ عَنْ النُّعْمَانِ بْنِ سَعْدٍ عَنْ عَلِيٍّ وَفِيهِ ذِكْرُ السَّهْمِ . وَرَوَاهُ أَبُو نُعَيْمٍ : ثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدٍ هُوَ أَبُو الشَّيْخِ ثَنَا ابْنُ عَفِيرٍ قَالَ ثَنَا شُعَيْبُ بْنُ سَلَمَةَ ثَنَا عِصْمَةُ بْنُ مُحَمَّدٍ عَنْ مُوسَى يَعْنِي ابْنَ عُقْبَةَ عَنْ الْقَاسِمِ بْنِ مُحَمَّدٍ عَنْ عَائِشَةَ : قَالَتْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ مَا مِنْ عَبْدٍ

(454/555)

يَكُفُّ بَصَرَهُ عَنْ مَحَاسِنِ امْرَأَةٍ وَلَوْ شَاءَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَيْهَا لَنَظَرَ إِلَّا أَدْخَلَ اللَّهُ قَلْبَهُ عِبَادَةً يَجِدُ حَلَاوَتَهَا ﴾ وَرَوَى ابْنُ أَبِي الْفَوَارِسِ مِنْ طَرِيقِ

(455/555)

ابْنِ الْجَوْزِيِّ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ ثَنَا عَبْدُ اللَّهِ قَالَ حَدَّثَنِي الْحَسَنُ عَنْ مُجَاهِدٍ قَالَ : " غَضُّ الْبَصَرِ عَنْ مَحَارِمِ اللَّهِ يُورِثُ حُبَّ اللَّهِ " وَقَدْ رَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ مِنْ حَدِيثِ

يُونُسَ بْنِ عُبَيْدٍ عَنْ عَمْرِو بْنِ سَعِيدٍ عَنْ أَبِي زُرْعَةَ بْنِ عَمْرِو بْنِ جَرِيرٍ عَنْ جَدِّهِ ﴿ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ البجلي : قَالَ سَأَلْت رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ نَظَرِ الْفَجْأَةِ فَأَمَرَنِي أَنْ أَصْرِفَ بَصَرِي ﴾ وَرَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَد عَنْ هَشِيمٍ عَنْ يُونُسَ بِهِ وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُد وَالتِّرْمِذِي وَالنَّسَائِي مِنْ حَدِيثِهِ أَيْضًا وَقَالَ : التِّرْمِذِيُّ حَسَنٌ صَحِيحٌ . وَفِي رِوَايَةٍ قَالَ : ﴿ أَطْرِقْ بَصَرَك ﴾ أَيْ انْظُرْ إلَى الْأَرْضِ وَالصَّرْفُ أَعَمُّ فَإِنَّهُ قَدْ يَكُونُ إلَى الْأَرْضِ أَوْ إلَى جِهَةٍ أُخْرَى . وَقَالَ أَبُو دَاوُد : حَدَّثَنَا إسْمَاعِيلُ بْنُ مُوسَى الفزاري حَدَّثَنَا شَرِيكٌ عَنْ رَبِيعَةَ الإيادي عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بريدة عَنْ أَبِيهِ قَالَ : ﴿ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِعَلِيٍّ : يَا عَلِيُّ لَا تُتْبِعْ النَّظْرَةَ النَّظْرَةَ . فَإِنَّ لَك الْأُولَى وَلَيْسَتْ لَك الْأُخْرَى ﴾ وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ مِنْ حَدِيثِ شَرِيكٍ وَقَالَ غَرِيبٌ لَا نَعْرِفُهُ إلَّا مِنْ حَدِيثِهِ وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ إيَّاكُمْ وَالْجُلُوسَ عَلَى الطُّرُقَاتِ قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا لَنَا بُدٌّ مِنْ مَجَالِسِنَا نَقْعُدُ فِيهَا فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إنْ أَبَيْتُمْ فَأَعْطُوا الطَّرِيقَ حَقَّهُ

(456/555)

قَالُوا وَمَا حَقُّ الطَّرِيقِ

(457/555)

يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : غَضُّ الْبَصَرِ وَكَفُّ الْأَذَى وَرَدُّ السَّلَامِ وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنْ الْمُنْكَرِ ﴾ وَرَوَى أَبُو الْقَاسِمِ الْبَغَوِيُّ عَنْ ﴿ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : اُكْفُلُوا لِي سِتًّا أَكْفُلْ لَكُمْ الْجَنَّةَ : إذَا حَدَّثَ أَحَدُكُمْ فَلَا يَكْذِبُ وَإِذَا اؤْتُمِنَ فَلَا يَخُنْ وَإِذَا وَعَدَ فَلَا يُخْلِفُ : غُضُّوا أَبْصَارَكُمْ وَكُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَاحْفَظُوا فُرُوجَكُمْ ﴾ . فَالنَّظَرُ دَاعِيَةٌ إلَى فَسَادِ الْقَلْبِ . قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ : النَّظَرُ سَهْمٌ سُمٌّ إلَى الْقَلْبِ فَلِهَذَا أَمَرَ اللَّهُ بِحِفْظِ الْفُرُوجِ كَمَا أَمَرَ بِغَضِّ الْأَبْصَارِ الَّتِي هِيَ بَوَاعِثُ إلَى ذَلِكَ وَفِي الطَّبَرَانِيِّ مِنْ طَرِيقِ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ يَزِيدَ عَنْ الْقَاسِمِ عَنْ أَبِي أُمَامَةَ مَرْفُوعًا : ﴿ لَتَغُضُّنَّ أَبْصَارَكُمْ وَلَتَحْفَظُنَّ فُرُوجَكُمْ وَلَتُقِيمُنَّ وُجُوهَكُمْ أَوْ لَتُكْسَفَنَّ وُجُوهُكُمْ ﴾ وَقَالَ الطَّبَرَانِيُّ حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ زُهَيْرٍ التُّسْتَرِيُّ قَالَ قَرَأْنَا عَلَى مُحَمَّدِ بْنِ حَفْصِ بْنِ عُمَرَ الضَّرِيرِ الْمُقْرِي : حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ أَبِي كَثِيرٍ حَدَّثَنَا هَزِيمُ بْنُ سُفْيَانَ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ إسْحَاقَ عَنْ الْقَاسِمِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنْ أَبِيهِ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ : ﴿ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إنَّ النَّظَرَ سَهْمٌ مِنْ سِهَامِ إبْلِيسَ مَسْمُومٌ فَمَنْ تَرَكَهُ مِنْ مَخَافَةِ اللَّهِ أَبْدَلَهُ اللَّهُ إيمَانًا يَجِدُ حَلَاوَتَهُ فِي قَلْبِهِ ﴾ وَفِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ الصَّحِيحِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ زِنَا

الْعَيْنَيْنِ النَّظَرُ ﴾ وَذَكَرَ الْحَدِيثَ رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ تَعْلِيقًا وَمُسْلِمٌ مُسْنَدًا وَقَدْ كَانُوا يُنْهَوْنَ

(459/555)

أَنْ يَحِدَّ الرَّجُلُ بَصَرَهُ إلَى الْمردان وَكَانُوا يَتَّهِمُونَ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فِي دِينِهِ . وَقَدْ ذَهَبَ كَثِيرٌ مِنْ الْعُلَمَاءِ إلَى أَنَّهُ لَا يَجُوزُ لِلْمَرْأَةِ أَنْ تَنْظُرَ إلَى الْأَجَانِبِ مِنْ الرِّجَالِ بِشَهْوَةٍ وَلَا بِغَيْرِ شَهْوَةٍ أَصْلًا . قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ : وَأَمَّا النُّورُ وَالْعِلْمُ وَالْحِكْمَةُ فَقَدْ دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي قِصَّةِ يُوسُفَ : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ فَهِيَ لِكُلِّ مُحْسِنٍ . وَفِي هَذِهِ السُّورَةِ ذَكَرَ آيَةَ النُّورِ بَعْدَ غَضِّ الْبَصَرِ وَحِفْظِ الْفَرْجِ وَأَمْرُهُ بِالتَّوْبَةِ مِمَّا لَا بُدَّ مِنْهُ أَنْ يُدْرِكَ ابْنُ آدَمَ مِنْ ذَلِكَ . وَقَالَ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِي : سَمِعْت أَبَا الْحُسَيْنِ الْوَرَّاقَ يَقُولُ : مَنْ غَضَّ بَصَرَهُ عَنْ مُحَرَّمٍ أَوْرَثَهُ اللَّهُ بِذَلِكَ حِكْمَةً عَلَى لِسَانِهِ يَهْتَدِي بِهَا وَيَهْدِي بِهَا إلَى طَرِيقِ مَرْضَاتِهِ . وَهَذَا لِأَنَّ الْجَزَاءَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ ؛ فَإِذَا كَانَ النَّظَرُ إلَى مَحْبُوبٍ فَتَرَكَهُ لِلَّهِ عَوَّضَهُ اللَّهُ مَا هُوَ أَحَبُّ إلَيْهِ مِنْهُ وَإِذَا كَانَ النَّظَرُ بِنُورِ الْعَيْنِ مَكْرُوهًا أَوْ إلَى مَكْرُوهٍ فَتَرَكَهُ لِلَّهِ أَعْطَاهُ اللَّهُ نُورًا فِي قَلْبِهِ وَبَصَرًا يُبْصِرُ بِهِ الْحَقَّ . قَالَ شَاهٌ الكرماني : مَنْ غَضَّ بَصَرَهُ عَنْ الْمَحَارِمِ وَعَمَّرَ بَاطِنَهُ بِدَوَامِ الْمُرَاقَبَةِ وَظَاهِرَهُ بِاتِّبَاعِ السُّنَّةِ وَعَوَّدَ نَفْسَهُ أَكْلَ الْحَلَالِ وَكَفَّ

نَفْسَهُ عَنْ الشَّهَوَاتِ : لَمْ تُخْطِئْ لَهُ فِرَاسَةٌ وَإِذَا صَلَحَ عِلْمُ الرَّجُلِ فَعَرَفَ الْحَقَّ وَعَمِلَهُ وَاتَّبَعَ الْحَقَّ : صَارَ

(460/555)

زَكِيًّا تَقِيًّا مُسْتَوْجِبًا لِلْجَنَّةِ .

وَيُؤَيِّدُ ذَلِكَ حَدِيثُ أَبِي أُمَامَةَ الْمَشْهُورُ مِنْ رِوَايَةِ الْبَغَوِيِّ : حَدَّثَنَا طَالُوتُ بْنُ عَبَّادٍ حَدَّثَنَا فَضَالَةُ بْنُ جُبَيْرٍ سَمِعْتُ أَبَا أُمَامَةَ يَقُولُ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : ﴿ اكْفُلُوا لِي بِسِتٍّ أَكْفُلْ لَكُمْ الْجَنَّةَ : إذَا حَدَّثَ أَحَدُكُمْ فَلَا يَكْذِبْ وَإِذَا اؤْتُمِنَ فَلَا يَخُنْ وَإِذَا وَعَدَ فَلَا يُخْلِفْ غُضُّوا أَبْصَارَكُمْ وَكُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَاحْفَظُوا فُرُوجَكُمْ ﴾ . فَقَدْ كَفَلَ بِالْجَنَّةِ لِمَنْ أَتَى بِهَذِهِ السِّتِّ خِصَالٍ فَالثَّلَاثَةُ الْأُولَى تَبْرِئَةٌ مِنْ النِّفَاقِ وَالثَّلَاثَةُ الْأُخْرَى تَبْرِئَةٌ مِنْ الْفُسُوقِ وَالْمُخَاطَبُونَ مُسْلِمُونَ فَإِذَا لَمْ يَكُنْ مُنَافِقًا كَانَ مُؤْمِنًا وَإِذَا لَمْ يَكُنْ فَاسِقًا كَانَ تَقِيًّا فَيَسْتَحِقُّ الْجَنَّةَ . وَيُوَافِقُ ذَلِكَ مَا رَوَاهُ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا : حَدَّثَنَا أَبُو سَعِيدٍ الْمَدَنِيُّ حَدَّثَنِي عُمَرُ بْنُ سَهْلٍ الْمَازِنِيُّ قَالَ حَدَّثَنِي عُمَرُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ صُهْبَانَ حَدَّثَنِي صَفْوَانُ بْنُ سُلَيْمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ كُلُّ عَيْنٍ بَاكِيَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إلَّا عَيْنٌ

غَضَّتْ عَنْ مَحَارِمِ اللَّهِ وَعَيْنٌ سَهِرَتْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَعَيْنٌ يَخْرُجُ مِنْهَا مِثْلُ رَأْسِ الذُّبَابِ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ .

(461/555)

وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ : ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾ يَتَنَاوَلُ النَّظَرَ إلَى الْأَمْوَالِ وَاللِّبَاسِ وَالصُّوَرِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ مَتَاعِ الدُّنْيَا : أَمَّا اللِّبَاسُ وَالصُّوَرُ فَهُمَا اللَّذَانِ لَا يَنْظُرُ اللَّهُ إلَيْهِمَا كَمَا فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

(462/555)

﴿ إنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إلَى صُوَرِكُمْ وَلَا إلَى أَمْوَالِكُمْ وَإِنَّمَا يَنْظُرُ إلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ ﴾ وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا ﴾ وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ يُمَتِّعُ بِالصُّوَرِ كَمَا يُمَتِّعُ بِالْأَمْوَالِ وَكِلَاهُمَا مِنْ زَهْرَةِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكِلَاهُمَا يَفْتِنُ أَهْلَهُ وَأَصْحَابَهُ وَرُبَّمَا أَفْضَى بِهِ إلَى الْهَلَاكِ دُنْيَا وَأُخْرَى . وَالْهَلْكَى رَجُلَانِ . فَمُسْتَطِيعٌ وَعَاجِزٌ فَالْعَاجِزُ

مَفْتُونٌ بِالنَّظَرِ وَمَدِّ الْعَيْنِ إلَيْهِ وَالْمُسْتَطِيعُ مَفْتُونٌ فِيمَا أُوتِيَ مِنْهُ غَارِقٌ قَدْ أَحَاطَ بِهِ مَا لَا يَسْتَطِيعُ إنْقَاذَ نَفْسِهِ مِنْهُ . وَهَذَا الْمَنْظُورُ قَدْ يُعْجِبُ الْمُؤْمِنَ وَإِنْ كَانَ الْمَنْظُورُ مُنَافِقًا أَوْ فَاسِقًا كَمَا يُعْجِبُهُ الْمَسْمُوعُ مِنْهُمْ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ﴾ فَهَذَا تَحْذِيرٌ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ النَّظَرِ إلَيْهِمْ وَاسْتِمَاعِ قَوْلِهِمْ فَلَا يُنْظَرُ إلَيْهِمْ وَلَا يُسْمَعُ قَوْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ قَدْ أَخْبَرَ أَنَّ رُؤْيَاهُمْ تُعْجِبُ النَّاظِرِينَ إلَيْهِمْ وَأَنَّ قَوْلَهُمْ يُعْجِبُ السَّامِعِينَ . ثُمَّ أَخْبَرَ عَنْ فَسَادِ قُلُوبِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ بِقَوْلِهِ : ﴿ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ ﴾ فَهَذَا مِثْلُ قُلُوبِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ الْآيَةُ : وَقَدْ قَالَ تَعَالَى

(463/555)

فِي قِصَّةِ قَوْمِ لُوطٍ : ﴿ إنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ . وَالتَّوَسُّمُ مِنْ السِّمَةِ وَهِيَ الْعَلَامَةُ فَأَخْبَرَ

(464/555)

سُبْحَانَهُ أَنَّهُ جَعَلَ عُقُوبَاتِ الْمُعْتَدِينَ آيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ . وَفِي التِّرْمِذِيِّ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ اتَّقُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّهِ ﴾ ثُمَّ قَرَأَ : ﴿ إنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ مَنْ اعْتَبَرَ بِمَا عَاقَبَ اللَّهُ بِهِ غَيْرَهُ مِنْ أَهْلِ الْفَوَاحِشِ كَانَ مِنْ الْمُتَوَسِّمِينَ . وَأَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ اللُّوطِيَّةِ أَنَّهُ طَمَسَ أَبْصَارَهُمْ فَكَانَتْ عُقُوبَةُ أَهْلِ الْفَوَاحِشِ طَمْسَ الْأَبْصَارِ كَمَا قَدْ عُرِفَ ذَلِكَ فِيهِمْ وَشُوهِدَ مِنْهُمْ . وَكَانَ ثَوَابُ الْمُعْتَبِرِينَ بِهِمْ التَّارِكِينَ لِأَفْعَالِهِمْ إعْطَاءَ الْأَنْوَارِ وَهَذَا مُنَاسِبٌ لِذِكْرِ آيَةِ النُّورِ عَقِيبَ غَضِّ الْأَبْصَارِ . وَأَمَّا الْقُدْرَةُ وَالْقُوَّةُ الَّتِي يُعْطِيهَا اللَّهُ لِمَنْ اتَّقَاهُ وَخَالَفَ هَوَاهُ فَذَلِكَ حَاصِلٌ مَعْرُوفٌ كَمَا جَاءَ ﴿ إنَّ الَّذِي يَتْرُكُ هَوَاهُ يَفْرُقُ الشَّيْطَانُ مِنْ ظِلِّهِ ﴾ وَفِي الصَّحِيحِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرَعَةِ إنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ ﴾ وَفِي رِوَايَةٍ : ﴿ أَنَّهُ مَرَّ بِقَوْمٍ يَخْذِفُونَ حَجَرًا فَقَالَ : لَيْسَ الشِّدَّةُ فِي هَذَا وَإِنَّمَا الشِّدَّةُ فِي أَنْ يَمْتَلِئَ أَحَدُكُمْ غَيْظًا ثُمَّ يَكْظِمُهُ لِلَّهِ ﴾ أَوْ كَمَا قَالَ . وَهَذَا ذَكَرَهُ فِي الْغَضَبِ ؛ لِأَنَّهُ مُعْتَادٌ لِبَنِي آدَمَ كَثِيرًا وَيَظْهَرُ لِلنَّاسِ . وَسُلْطَانُ الشَّهْوَةِ يَكُونُ فِي الْغَالِبِ مَسْتُورًا عَنْ أَعْيُنِ النَّاسِ وَشَيْطَانُهَا خَافٍ وَيُمْكِنُ فِي كَثِيرٍ مِنْ الْأَوْقَاتِ

الِاعْتِيَاضُ بِالْحَلَالِ عَنْ

(466/555)

الْحَرَامِ وَإِلَّا فَالشَّهْوَةُ إذَا اشْتَعَلَتْ وَاسْتَوْلَتْ قَدْ تَكُونُ أَقْوَى مِنْ الْغَضَبِ وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا ﴾ أَيْ ضَعِيفًا عَنْ النِّسَاءِ لَا يَصْبِرُ عَنْهُنَّ وَفِي قَوْلِهِ : ﴿ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ﴾ ذَكَرُوا مِنْهُ الْعِشْقَ وَالْعِشْقُ يُفْضِي بِأَهْلِهِ إلَى الْأَمْرَاضِ وَالْإِهْلَاكِ وَإِنْ كَانَ الْغَضَبُ قَدْ يَبْلُغُ ذَلِكَ أَيْضًا وَقَدْ دَلَّ الْقُرْآنُ عَلَى أَنَّ الْقُوَّةَ وَالْعِزَّةَ لِأَهْلِ الطَّاعَةِ التَّائِبِينَ إلَى اللَّهِ فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ كَقَوْلِهِ فِي سُورَةِ هُودٍ : ﴿ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إلَى قُوَّتِكُمْ ﴾ وَقَوْلِهِ : ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ . وَإِذَا كَانَ الَّذِي قَدْ يَهْجُرُ السَّيِّئَاتِ يَغُضُّ بَصَرَهُ وَيَحْفَظُ فَرْجَهُ وَغَيْرُ ذَلِكَ مِمَّا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ يَجْعَلُ اللَّهُ لَهُ مِنْ النُّورِ وَالْعِلْمِ وَالْقُوَّةِ وَالْعِزَّةِ وَمَحَبَّةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَمَا ظَنُّك بِالَّذِي لَمْ يَحُمْ حَوْلَ السَّيِّئَاتِ وَلَمْ يُعِرْهَا طَرْفَهُ قَطُّ وَلَمْ تُحَدِّثْهُ نَفْسُهُ بِهَا بَلْ هُوَ يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَهْلَهَا لِيَتْرُكُوا السَّيِّئَاتِ ؟

فَهَلْ هَذَا وَذَاكَ سَوَاءٌ ؟ بَلْ هَذَا لَهُ مِنْ النُّورِ وَالْإِيمَانِ وَالْعِزَّةِ وَالْقُوَّةِ وَالْمَحَبَّةِ وَالسُّلْطَانِ وَالنَّجَاةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ أَضْعَافُ أَضْعَافِ ذَاكَ وَحَالُهُ أَعْظَمُ وَأَعْلَى وَنُورُهُ أَتَمُّ وَأَقْوَى فَإِنَّ

(467/555)

السَّيِّئَاتِ تَهْوَاهَا النُّفُوسُ وَيُزَيِّنُهَا الشَّيْطَانُ فَتَجْتَمِعُ فِيهَا الشُّبُهَاتُ وَالشَّهَوَاتُ . فَإِذَا كَانَ الْمُؤْمِنُ قَدْ حَبَّبَ اللَّهُ إلَيْهِ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قَلْبِهِ وَكَرَّهَ

(468/555)

إلَيْهِ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ حَتَّى يُعَوَّضَ عَنْ شَهَوَاتِ الْغَيِّ بِحُبِّ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَا يَتْبَعُ ذَلِكَ وَعَنْ الشَّهَوَاتِ وَالشُّبُهَاتِ بِالنُّورِ وَالْهُدَى وَأَعْطَاهُ اللَّهُ مِنْ الْقُوَّةِ وَالْقُدْرَةِ مَا أَيَّدَهُ بِهِ : حَيْثُ دَفَعَ بِالْعِلْمِ الْجَهْلَ وَبِإِرَادَةِ الْحَسَنَاتِ إرَادَةَ السَّيِّئَاتِ وَبِالْقُوَّةِ عَلَى الْخَيْرِ الْقُوَّةَ عَلَى الشَّرِّ فِي نَفْسِهِ فَقَطْ وَالْمُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَطْلُبُ فِعْلَ ذَلِكَ فِي نَفْسِهِ وَغَيْرِهِ أَيْضًا حَتَّى يَدْفَعَ جَهْلَهُ بِالظُّلْمِ وَإِرَادَتَهُ السَّيِّئَاتِ بِإِرَادَةِ الْحَسَنَاتِ وَنَحْوَ ذَلِكَ . وَالْجِهَادُ تَمَامُ الْإِيمَانِ وَسَنَامُ الْعَمَلِ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا

وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ وَقَالَ : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ الْآيَةُ وَقَالَ ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ ﴾ الْآيَةُ فَكَذَلِكَ يَكُونُ هَذَا الْجَزَاءُ فِي حَقِّ الْمُجَاهِدِينَ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ فَهَذَا فِي الْعِلْمِ وَالنُّورِ وَقَالَ : ﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ إلَى قَوْلِهِ : ﴿ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴾ فَقَتْلُ النُّفُوسِ هُوَ قَتْلُ بَعْضِهِمْ بَعْضًا وَهُوَ مِنْ الْجِهَادِ وَالْخُرُوجُ مِنْ دِيَارِهِمْ هُوَ الْهِجْرَةُ ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّهُمْ إذَا فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ مِنْ الْهِجْرَةِ وَالْجِهَادِ كَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا فَفِي الْآيَةِ أَرْبَعَةُ أُمُورٍ :

(469/555)

الْخَيْرُ الْمُطْلَقُ وَالتَّثْبِيتُ الْمُتَضَمِّنُ لِلْقُوَّةِ وَالْمُكْنَةِ وَالْأَجْرُ الْعَظِيمُ وَهِدَايَةُ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ وَقَالَ : ﴿ وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ

مَنْ يَنْصُرُهُ ﴾ إلَى قَوْلِهِ : ﴿ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ وَقَالَ : ﴿ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ﴾ . وَأَمَّا أَهْلُ الْفَوَاحِشِ الَّذِينَ لَا يَغُضُّونَ أَبْصَارَهُمْ وَلَا يَحْفَظُونَ فُرُوجَهُمْ فَقَدْ وَصَفَهُمْ اللَّهُ بِضِدِّ ذَلِكَ : مِنْ السَّكْرَةِ وَالْعَمَهِ وَالْجَهَالَةِ وَعَدَمِ الْعَقْلِ وَعَدَمِ الرُّشْدِ

وَالْبُغْضِ وَطَمْسِ الْأَبْصَارِ هَذَا مَعَ مَا وَصَفَهُمْ بِهِ مِنْ الْخُبْثِ وَالْفُسُوقِ وَالْعُدْوَانِ وَالْإِسْرَافِ وَالسُّوءِ وَالْفُحْشِ وَالْفَسَادِ وَالْإِجْرَامِ فَقَالَ عَنْ قَوْمِ لُوطٍ : ﴿ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ فَوَصَفَهُمْ بِالْجَهْلِ وَقَالَ : ﴿ لَعَمْرُكَ إنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ وَقَالَ : ﴿ أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴾ وَقَالَ : ﴿ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ ﴾ وَقَالَ : ﴿ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ ﴾ وَقَالَ : ﴿ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴾ وَقَالَ : ﴿ إنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ ﴾ وَقَالَ : ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ ﴾ إلَى قَوْلِهِ : ﴿ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴾ إلَى قَوْلِهِ : ﴿ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ وَقَوْلُهُ : ﴿ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴾ .

فَصْلٌ :

(470/555)

فِي قَوْلِهِ فِي آخِرِ الْآيَةِ : ﴿ وَتُوبُوا إلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ فَوَائِدُ جَلِيلَةٌ : مِنْهَا أَنَّ أَمْرَهُ لِجَمِيعِ الْمُؤْمِنِينَ بِالتَّوْبَةِ فِي هَذَا السِّيَاقِ تَنْبِيهٌ عَلَى أَنَّهُ لَا يَخْلُو مُؤْمِنٌ مِنْ بَعْضِ هَذِهِ الذُّنُوبِ الَّتِي هِيَ : تَرْكُ غَضِّ الْبَصَرِ وَحِفْظِ الْفَرْجِ وَتَرْكُ إبْدَاءِ الزِّينَةِ وَمَا يَتْبَعُ ذَلِكَ فَمُسْتَقِلٌّ وَمُسْتَكْثِرٌ كَمَا فِي الْحَدِيثِ : ﴿ مَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَنِي آدَمَ إلَّا أَخْطَأَ أَوْ هَمَّ بِخَطِيئَةٍ

إلَّا يَحْيَى بْنُ زَكَرِيَّا ﴾ وَذَلِكَ لَا يَكُونُ إلَّا عَنْ نَظَرٍ وَفِي السُّنَنِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ ﴿ كُلُّ بَنِي آدَمَ خَطَّاءٌ وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ ﴾ وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي ذَرٍّ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : يَا عِبَادِي إنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا وَلَا أُبَالِي فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ . ﴾ وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : " مَا رَأَيْت شَيْئًا أَشْبَهَ بِاللَّمَمِ مِمَّا قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ : ﴿ إنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : إنَّ اللَّهَ كَتَبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حَظَّهُ مِنْ الزِّنَا أَدْرَكَ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ فَزِنَا الْعَيْنَيْنِ النَّظَرُ وَزِنَا اللِّسَانِ النُّطْقُ ﴾ الْحَدِيثُ إلَى آخِرِهِ . وَفِيهِ : ﴿ وَالنَّفْسُ

(471/555)

تَتَمَنَّى ذَلِكَ وَتَشْتَهِي وَالْفَرْجُ يُصَدِّقُ ذَلِكَ أَوْ يُكَذِّبُهُ ﴾ أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ تَعْلِيقًا مِنْ حَدِيثِ طَاوُوسٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ . وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ سُهَيْلِ بْنِ أَبِي صَالِحٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ كُتِبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ نَصِيبُهُ مِنْ الزِّنَا يُدْرِكُ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ : الْعَيْنَانِ زِنَاهُمَا النَّظَرُ وَالْأُذُنَانِ زِنَاهُمَا الِاسْتِمَاعُ وَاللِّسَانُ زِنَاهُ الْكَلَامُ وَالْيَدَانِ زِنَاهُمَا الْبَطْشُ وَالرِّجْلَانِ زِنَاهُمَا الْخُطَى وَالْقَلْبُ يَهْوَى وَيَتَمَنَّى وَيُصَدِّقُ ذَلِكَ الْفَرْجُ أَوْ يُكَذِّبُهُ ﴾ وَقَدْ رَوَى التِّرْمِذِيُّ حَدِيثًا وَاسْتَغْرَبَهُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ ﴿ إلَّا اللَّمَمَ ﴾ ﴿

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنْ تَغْفِرْ اللَّهُمَّ تَغْفِرْ جَمًّا وَأَيُّ عَبْدٍ لَك لَا أَلَمَّا . ﴾

وَمِنْهَا أَنَّ أَهْلَ الْفَوَاحِشِ الَّذِينَ لَمْ يَغُضُّوا أَبْصَارَهُمْ وَلَمْ يَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ مَأْمُورُونَ بِالتَّوْبَةِ وَإِنَّمَا أُمِرُوا بِهَا لِتُقْبَلَ مِنْهُمْ فَالتَّوْبَةُ مَقْبُولَةٌ مِنْهُمْ وَمِنْ سَائِرِ الْمُذْنِبِينَ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ وَسَوَاءٌ كَانَتْ الْفَوَاحِشُ مُغَلَّظَةً لِشِدَّتِهَا وَكَثْرَتِهَا - كَإِتْيَانِ ذَوَاتِ الْمَحَارِمِ وَعَمَلِ قَوْمِ لُوطٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ - وَسَوَاءٌ تَابَ الْفَاعِلُ أَوْ الْمَفْعُولُ بِهِ فَمَنْ تَابَ

(472/555)

تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ بِخِلَافِ مَا عَلَيْهِ طَائِفَةٌ مِنْ النَّاسِ فَإِنَّهُمْ إذَا رَأَوْا مَنْ عَمِلَ مِنْ هَذِهِ الْفَوَاحِشِ شَيْئًا أَيَّسُوهُ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ

(473/555)

حَتَّى يَقُولَ أَحَدُهُمْ : مَنْ عَمِلَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا لَا يُفْلِحُ أَبَدًا وَلَا يَرْجُونَ لَهُ قَبُولَ تَوْبَةٍ وَيُرْوَى عَنْ عَلِيٍّ أَنَّهُ قَالَ : مِنَّا كَذَا وَمِنَّا كَذَا وَالْمَعْفُوجُ لَيْسَ مِنَّا وَيَقُولُونَ : إنَّ هَذَا لَا يَعُودُ صَالِحًا وَلَوْ تَابَ مَعَ كَوْنِهِ مُسْلِمًا مُقِرًّا بِتَحْرِيمِ مَا فَعَلَ . وَيُدْخِلُونَ فِي ذَلِكَ مَنْ اسْتُكْرِهَ عَلَى فِعْلِ شَيْءٍ مِنْ هَذِهِ الْفَوَاحِشِ وَيَقُولُونَ : لَوْ كَانَ لِهَذَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مَا سَلَّطَ عَلَيْهِ مَنْ فَعَلَ بِهِ مِثْلَ هَذَا وَاسْتَكْرَهَهُ كَمَا يُفْعَلُ بِكَثِيرٍ مِنْ الْمَمَالِيكِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَكَمَا يُفْعَلُ بِأُجَرَاءِ أَهْلِ الصِّنَاعَاتِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَكَذَلِكَ مَنْ فِي مَعْنَاهُمْ مِنْ صِبْيَانِ الْكَتَاتِيبِ وَغَيْرِهِمْ وَنَسُوا قَوْلَهُ تَعَالَى ﴿ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ وَهَؤُلَاءِ قَدْ لَا يَعْلَمُونَ صُورَةَ التَّوْبَةِ وَقَدْ يَكُونُ هَذَا حَالًا وَعَمَلًا لِأَحَدِهِمْ وَقَدْ يَكُونُ اعْتِقَادًا فَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ الضَّلَالِ وَالْغَيِّ ؛ فَإِنَّ الْقُنُوطَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ بِمَنْزِلَةِ الْأَمْنِ مِنْ مَكْرِ اللَّهِ تَعَالَى وَحَالُهُمْ مُقَابِلٌ لِحَالِ مُسْتَحِلِّي الْفَوَاحِشِ ؛ فَإِنَّ هَذَا أَمِنَ مَكْرَ اللَّهِ بِأَهْلِهَا وَذَاكَ قَنَّطَ أَهْلَهَا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ؛ وَالْفَقِيهُ كُلُّ الْفَقِيهِ هُوَ الَّذِي لَا يُؤَيِّسُ النَّاسَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ وَلَا يُجَرِّئُهُمْ عَلَى مَعَاصِي اللَّهِ . وَهَذَا فِي أَصْلِ الذُّنُوبِ الْإِرَادِيَّةِ نَظِيرُ مَا عَلَيْهِ

فَإِنَّ أَحَدَهُمْ يَعْتَقِدُ تِلْكَ السَّيِّئَاتِ حَسَنَاتٍ فَيَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ وَكَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ يَعْتَقِدُ أَنَّ تَوْبَةَ الْمُبْتَدِعِ لَا تُقْبَلُ وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ . وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ قَالَ : ﴿ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُسَمِّي لَنَا نَفْسَهُ أَسْمَاءً فَقَالَ : أَنَا مُحَمَّدٌ وَأَنَا أَحْمَد وَالْمُقَفَّى وَالْحَاشِرُ وَنَبِيُّ التَّوْبَةِ وَنَبِيُّ الرَّحْمَةِ ﴾ وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ : ﴿ أَنَا نَبِيُّ الرَّحْمَةِ وَأَنَا نَبِيُّ الْمَلْحَمَةِ ﴾ وَذَلِكَ أَنَّهُ بُعِثَ بِالْمَلْحَمَةِ وَهِيَ : الْمَقْتَلَةُ لِمَنْ عَصَاهُ وَبِالتَّوْبَةِ لِمَنْ أَطَاعَهُ وَبِالرَّحْمَةِ لِمَنْ صَدَّقَهُ وَاتَّبَعَهُ وَهُوَ رَحْمَةٌ لِلْعَالَمِينَ وَكَانَ مَنْ قَبْلَهُ مِنْ الْأَنْبِيَاءِ لَا يُؤْمَرُ بِقِتَالٍ . وَكَانَ الْوَاحِدُ مِنْ أُمَمِهِمْ إذَا أَصَابَ بَعْضَ الذُّنُوبِ يَحْتَاجُ مَعَ التَّوْبَةِ إلَى عُقُوبَاتٍ شَدِيدَةٍ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ﴾ وَقَدْ رُوِيَ عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ وَغَيْرِهِ : أَنَّ أَحَدَهُمْ كَانَ إذَا أَصَابَ ذَنْبًا أَصْبَحَتْ الْخَطِيئَةُ وَالْكَفَّارَةُ مَكْتُوبَةٌ عَلَى بَابِهِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِي حَقِّ هَذِهِ الْأُمَّةِ

: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ ﴾ إلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَنِعْمَ أَجْرُ

(476/555)

الْعَامِلِينَ ﴾ فَخَصَّ الْفَاحِشَةَ بِالذِّكْرِ مَعَ قَوْلِهِ ﴿ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾ وَالظُّلْمُ يَتَنَاوَلُ الْفَاحِشَةَ وَغَيْرَهَا تَحْقِيقًا لِمَا ذَكَرْنَاهُ

(477/555)

مِنْ قَبُولِ التَّوْبَةِ مِنْ الْفَوَاحِشِ مُطْلَقًا : مِنْ الَّذِينَ يَأْتِيَانِهَا مِنْ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ جَمِيعًا . وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ إنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا ﴾ وَفِي الصَّحِيحِ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ مَنْ تَابَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ ﴾ وَفِي السُّنَنِ عَنْهُ أَيْضًا أَنَّهُ قَالَ : ﴿ لَا تَنْقَطِعُ الْهِجْرَةُ حَتَّى تَنْقَطِعَ التَّوْبَةُ وَلَا تَنْقَطِعُ التَّوْبَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا ﴾ وَعَنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ قَالَ الشَّيْطَانُ وَعِزَّتِك يَا رَبِّ

لَا أَبْرَحُ أُغْوِي بَنِي آدَمَ مَا دَامَتْ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ فَقَالَ الرَّبُّ تَعَالَى : وَعِزَّتِي وَجَلَالِي وَارْتِفَاعِ مَكَانِي لَا أَزَالُ أَغْفِرُ لَهُمْ مَا اسْتَغْفَرُونِي ﴾ وَعَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ يَقُولُ اللَّهُ يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّك مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْت لَك عَلَى مَا كَانَ مِنْك وَلَا أُبَالِي ابْنَ آدَمَ لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُك عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْت لَك وَلَا أُبَالِي ابْنَ آدَمَ لَوْ لَقِيتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطِيئَةً ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَأَتَيْتُك بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً . ﴾ وَالَّذِي يَمْنَعُ تَوْبَةَ أَحَدِ هَؤُلَاءِ إمَّا بِحَالِهِ وَإِمَّا بِقَالِهِ وَلَا يَخْلُو مِنْ أَحَدِ أَمْرَيْنِ : أَنْ يَقُولَ : إذَا تَابَ أَحَدُهُمْ لَمْ تُقْبَلْ تَوْبَتُهُ

(478/555)

وَإِمَّا أَنْ

(479/555)

يَقُولَ أَحَدُهُمْ : لَا يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيَّ أَبَدًا أَمَّا الْأَوَّلُ فَبَاطِلٌ بِكِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ وَإِجْمَاعِ الْمُسْلِمِينَ وَإِنْ كَانَ قَدْ تَكَلَّمَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ فِي تَوْبَةِ الْقَاتِلِ وَتَوْبَةِ الدَّاعِي إلَى الْبِدَعِ وَفِي ذَلِكَ

نِزَاعٌ فِي مَذْهَبِ أَحْمَد وَفِي مَذْهَبِ مَالِكٍ أَيْضًا نِزَاعٌ ذَكَرَهُ صَاحِبُ التَّمْثِيلِ وَالْبَيَانِ فِي " الْجَامِعِ " وَغَيْرِهِ وَتَكَلَّمُوا أَيْضًا فِي تَوْبَةِ الزِّنْدِيقِ وَنَحْوِ ذَلِكَ . فَهُمْ قَدْ يَتَنَازَعُونَ فِي كَوْنِ التَّوْبَةِ فِي الظَّاهِرِ تَدْفَعُ الْعُقُوبَةَ : إمَّا لِعَدَمِ الْعِلْمِ بِصِحَّتِهَا وَإِمَّا لِكَوْنِهَا لَا تَمْنَعُ مَا وَجَبَ مِنْ الْحَدِّ وَلَمْ يَقُلْ أَحَدٌ مِنْ الْفُقَهَاءِ : إنَّ الزِّنْدِيقَ وَنَحْوَهُ إذَا تَابَ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ تَوْبَةً صَحِيحَةً لَمْ يَتَقَبَّلْهَا اللَّهُ مِنْهُ وَأَمَّا الْقَاتِلُ وَالْمُضِلُّ فَذَاكَ لِأَجْلِ تَعَلُّقِ حَقِّ الْغَيْرِ بِهِ وَالتَّوْبَةُ مِنْ حُقُوقِ الْعِبَادِ لَهَا حَالٌ آخَرُ وَلَيْسَ هَذَا مَوْضِعَ الْكَلَامِ فِيهَا وَفِي تَفْصِيلِهَا وَإِنَّمَا الْغَرَضُ أَنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ مِنْ كُلِّ ذَنْبٍ كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ . وَالْفَوَاحِشُ خُصُوصًا مَا عَلِمْت أَحَدًا نَازَعَ فِي التَّوْبَةِ مِنْهَا وَالزَّانِي وَالْمُزْنَى بِهِ مُشْتَرِكَانِ فِي ذَلِكَ إنْ تَابَا تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا وَيُبَيِّنُ التَّوْبَةَ خُصُوصًا مِنْ عَمَلِ قَوْمِ لُوطٍ مِنْ الْجَانِبَيْنِ مَا ذَكَرَهُ اللَّهُ فِي قِصَّةِ قَوْمِ لُوطٍ ؛ فَإِنَّهُمْ كَانُوا يَفْعَلُونَ الْفَاحِشَةَ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ وَمَعَ هَذَا فَقَدْ دَعَاهُمْ جَمِيعَهُمْ إلَى تَقْوَى اللَّهِ وَالتَّوْبَةِ مِنْهَا

(480/555)

فَلَوْ كَانَتْ تَوْبَةُ الْمَفْعُولِ بِهِ أَوْ غَيْرِهِ لَا تُقْبَلُ لَمْ يَأْمُرْهُمْ بِمَا لَا يُقْبَلُ قَالَ تَعَالَى : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴾ ﴿ إذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ ﴿ إنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ فَأَمَرَهُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ الْمُتَضَمِّنَةِ

لِتَوْبَتِهِمْ مِنْ هَذِهِ الْفَاحِشَةِ وَالْخِطَابُ وَإِنْ كَانَ لِلْفَاعِلِ فَإِنَّهُ إنَّمَا خُصَّ بِهِ لِأَنَّهُ صَاحِبُ الشَّهْوَةِ وَالطَّلَبِ فِي الْعَادَةِ ؛ بِخِلَافِ الْمَفْعُولِ بِهِ ؛ فَإِنَّهُ لَمْ تُخْلَقْ فِيهِ شَهْوَةٌ لِذَلِكَ فِي الْأَصْلِ ؛ وَإِنْ كَانَتْ قَدْ تَعْرِضُ لَهُ لِمَرَضٍ طَارِئٍ أَوْ أَجْرٍ يَأْخُذُهُ مِنْ الْفَاعِلِ أَوْ لِغَرَضٍ آخَرَ . وَاَللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ .

سُئِلَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ

(481/555)

عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ ﴿ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾ الْآيَةُ وَالْحَدِيثُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي ذِكْرِ " زِنَا الْأَعْضَاءِ كُلِّهَا " وَمَاذَا عَلَى الرَّجُلِ إذَا مَسَّ يَدَ الصَّبِيِّ الْأَمْرَدِ فَهَلْ هُوَ مِنْ جِنْسِ النِّسَاءِ يَنْقُضُ الْوُضُوءَ أَمْ لَا ؟ وَمَا عَلَى الرَّجُلِ إذَا جَاءَتْ إلَى عِنْدِهِ المردان وَمَدَّ يَدَهُ إلَى هَذَا وَهَذَا وَيَتَلَذَّذُ بِذَلِكَ وَمَا جَاءَ فِي التَّحْرِيمِ مِنْ النَّظَرِ إلَى وَجْهِ الْأَمْرَدِ الْحَسَنِ ؟ وَهَلْ هَذَا الْحَدِيثُ الْمَرْوِيُّ : ﴿ إنَّ النَّظَرَ إلَى الْوَجْهِ الْمَلِيحِ عِبَادَةٌ ﴾ صَحِيحٌ أَمْ لَا ؟ وَإِذَا قَالَ أَحَدٌ : أَنَا مَا أَنْظُرُ إلَى الْمَلِيحِ الْأَمْرَدِ لِأَجْلِ شَيْءٍ ؛ وَلَكِنِّي إذَا رَأَيْته قُلْت : سُبْحَانَ اللَّهِ تَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ

الْخَالِقِينَ فَهَلْ هَذَا الْقَوْلُ صَوَابٌ أَمْ لَا ؟ أَفْتُونَا مَأْجُورِينَ . (*)

فَأَجَابَ - قَدَّسَ اللَّهُ رُوحَهُ وَنَوَّرَ ضَرِيحَهُ وَرَحِمَهُ وَرَضِيَ عَنْهُ وَنَفَعَ بِعُلُومِهِ وَحَشَرَنَا فِي زُمْرَتِهِ - :

(482/555)

الْحَمْدُ لِلَّهِ ، إذَا مَسَّ الْأَمْرَدَ لِشَهْوَةٍ فَفِيهِ قَوْلَانِ فِي مَذْهَبِ أَحْمَد وَغَيْرِهِ : " أَحَدُهُمَا " أَنَّهُ كَمَسِّ النِّسَاءِ لِشَهْوَةٍ يَنْقُضُ الْوُضُوءَ وَهُوَ الْمَشْهُورُ فِي مَذْهَبِ مَالِكٍ وَذَكَرَهُ الْقَاضِي أَبُو يُعْلَى فِي شَرْحِ الْمَذْهَبِ وَهُوَ أَحَدُ الْوَجْهَيْنِ فِي مَذْهَبِ الشَّافِعِيِّ . " وَالثَّانِي " أَنَّهُ لَا يَنْقُضُ وَهُوَ الْمَشْهُورُ مِنْ مَذْهَبِ الشَّافِعِيِّ . وَالْقَوْلُ الْأَوَّلُ أَظْهَرُ فَإِنَّ الْوَطْءَ فِي الدُّبُرِ يُفْسِدُ الْعِبَادَاتِ الَّتِي تَفْسُدُ بِالْوَطْءِ فِي الْقُبُلِ كَالصِّيَامِ وَالْإِحْرَامِ وَالِاعْتِكَافِ وَيُوجِبُ الْغُسْلَ كَمَا يُوجِبُهُ هَذَا ؛ فَتَكُونُ مُقَدِّمَاتُ هَذَا فِي بَابِ الْعِبَادَاتِ كَمُقَدِّمَاتِ هَذَا فَلَوْ مَسَّ الْأَمْرَدَ لِشَهْوَةٍ وَهُوَ مُحْرِمٌ فَعَلَيْهِ دَمٌ كَمَا عَلَيْهِ لَوْ مَسَّ أَجْنَبِيَّةً لِشَهْوَةٍ ؛ كَذَلِكَ إذَا مَسَّ الْأَمْرَدَ لِشَهْوَةٍ وَجَبَ أَنْ يَكُونَ كَمَا لَوْ مَسَّ الْمَرْأَةَ لِشَهْوَةٍ فِي نَقْضِ الْوُضُوءِ . وَالَّذِي لَا يَنْقُضُ الْوُضُوءَ بِمَسِّهِ يَقُولُ : إنَّهُ لَمْ يُخْلَقْ مَحَلًّا لِذَلِكَ . فَيُقَالُ : لَا رَيْبَ أَنَّهُ لَمْ يُخْلَقْ لِذَلِكَ وَأَنَّ الْفَاحِشَةَ اللُّوطِيَّةَ مِنْ أَعْظَمِ

الْمُحَرَّمَاتِ ؛ لَكِنَّ هَذَا الْقَدْرَ لَمْ يُعْتَبَرْ فِي بَعْضِ الْوَطْءِ فَلَوْ وَطِئَ فِي الدُّبُرِ تَعَلَّقَ بِهِ مَا ذُكِرَ مِنْ الْأَحْكَامِ وَإِنْ كَانَ الدُّبُرُ لَمْ يُخْلَقْ مَحَلًّا

(483/555)

لِلْوَطْءِ مَعَ أَنَّ نُفْرَةَ الطِّبَاعِ عَنْ الْوَطْءِ فِي الدُّبُرِ أَعْظَمُ مِنْ نُفْرَتِهَا عَنْ الْمُلَامَسَةِ وَنَقْضُ الْوُضُوءِ بِاللَّمْسِ يُرَاعَى فِيهِ حَقِيقَةُ الْحِكْمَةِ وَهُوَ أَنْ يَكُونَ الْمَسُّ لِشَهْوَةِ عِنْدَ الْأَكْثَرِينَ - كَمَالِكٍ وَأَحْمَد وَغَيْرِهِمَا - يُرَاعَى كَمَا يُرَاعَى مِثْلُ ذَلِكَ فِي الْإِحْرَامِ وَالِاعْتِكَافِ وَغَيْرِ ذَلِكَ . وَعَلَى هَذَا الْقَوْلِ فَحَيْثُ وُجِدَ اللَّمْسُ لِشَهْوَةٍ تَعَلَّقَ بِهِ الْحُكْمُ حَتَّى لَوْ مَسَّ بِنْتَهُ وَأُخْتَهُ وَأُمَّهُ لِشَهْوَةٍ انْتَقَضَ وَضُوءُهُ ؛ فَكَذَلِكَ مِنْ الْأَمْرَدِ . وَأَمَّا الشَّافِعِيُّ وَأَحْمَد فِي رِوَايَةٍ فَيُعْتَبَرُ الْمَظِنَّةُ وَهُوَ أَنَّ النِّسَاءَ مَظِنَّةُ الشَّهْوَةِ فَيَنْقُضُ الْوُضُوءَ سَوَاءٌ كَانَ بِشَهْوَةٍ أَوْ بِغَيْرِ شَهْوَةٍ ؛ وَلِهَذَا لَا يَنْقُضُ مَسُّ الْمَحَارِمِ ؛ لَكِنَّ لَوْ مَسَّ ذَوَاتَ مَحَارِمِهِ لِشَهْوَةٍ فَقَدْ وُجِدَتْ حَقِيقَةُ الْحِكْمَةِ . وَكَذَلِكَ إذَا مَسَّ الْأَمْرَدَ لِشَهْوَةٍ وَالتَّلَذُّذُ بِمَسِّ الْأَمْرَدِ - كَمُصَافَحَتِهِ وَنَحْوِ ذَلِكَ - حَرَامٌ بِإِجْمَاعِ الْمُسْلِمِينَ - كَمَا يَحْرُمُ التَّلَذُّذُ بِمَسِّ ذَوَاتِ الْمَحَارِمِ وَالْمَرْأَةِ الْأَجْنَبِيَّةِ كَمَا أَنَّ الْجُمْهُورَ عَلَى أَنَّ عُقُوبَةَ اللُّوطِيِّ أَعْظَمُ مِنْ عُقُوبَةِ الزِّنَا بِالْأَجْنَبِيَّةِ فَيَجِبُ قَتْلُ الْفَاعِلِ وَالْمَفْعُولِ بِهِ سَوَاءٌ كَانَ أَحَدُهُمَا مُحْصَنًا أَوْ لَمْ يَكُنْ وَسَوَاءٌ كَانَ أَحَدُهُمَا مَمْلُوكًا لِلْآخَرِ أَوْ لَمْ يَكُنْ كَمَا

جَاءَ ذَلِكَ فِي السُّنَنِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَمِلَ بِهِ أَصْحَابُهُ مِنْ غَيْرِ نِزَاعٍ يُعْرَفُ بَيْنَهُمْ وَقَتْلُهُ بِالرَّجْمِ كَمَا قَتَلَ

(484/555)

اللَّهُ قَوْمَ لُوطٍ ؛ وَبِذَلِكَ جَاءَتْ الشَّرِيعَةُ فِي قَتْلِ الزَّانِي أَنَّهُ بِالرَّجْمِ ؛ ﴿ فَرَجَمَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَاعِزَ بْنَ مَالِكٍ وَالغامدية وَالْيَهُودِيَّيْنِ

وَالْمَرْأَةَ الَّتِي أَرْسَلَ إلَيْهَا أَنِيسًا وَقَالَ : اذْهَبْ إلَى امْرَأَةِ هَذَا فَإِنْ اعْتَرَفَتْ فَارْجُمْهَا فَرَجَمَهَا ﴾ .

وَالنَّظَرُ إلَى وَجْهِ الْأَمْرَدِ بِشَهْوَةٍ كَالنَّظَرِ إلَى وَجْهِ ذَوَاتِ الْمَحَارِمِ وَالْمَرْأَةِ الْأَجْنَبِيَّةِ بِالشَّهْوَةِ سَوَاءٌ كَانَتْ الشَّهْوَةُ شَهْوَةَ الْوَطْءِ أَوْ كَانَتْ شَهْوَةَ التَّلَذُّذِ بِالنَّظَرِ كَمَا يَتَلَذَّذُ بِالنَّظَرِ إلَى وَجْهِ الْمَرْأَةِ الْأَجْنَبِيَّةِ كَانَ مَعْلُومًا لِكُلِّ أَحَدٍ أَنَّ هَذَا حَرَامٌ فَكَذَلِكَ النَّظَرُ إلَى وَجْهِ الْأَمْرَدِ بِاتِّفَاقِ الْأَئِمَّةِ .

(485/555)

وَقَوْلُ الْقَائِلِ : إنَّ النَّظَرَ إلَى وَجْهِ الْأَمْرَدِ عِبَادَةٌ كَقَوْلِهِ : إنَّ النَّظَرَ إلَى وُجُوهِ النِّسَاءِ الْأَجَانِبِ وَالنَّظَرَ إلَى مَحَارِمِ الرَّجُلِ كَبِنْتِ الرَّجُلِ وَأُمِّهِ وَأُخْتِهِ عِبَادَةٌ . وَمَعْلُومٌ أَنَّ مَنْ جَعَلَ هَذَا النَّظَرَ الْمُحَرَّمَ عِبَادَةً فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ مَنْ جَعَلَ الْفَوَاحِشَ عِبَادَةً . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ . وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ قَدْ يَكُونُ فِي صُوَرِ النِّسَاءِ الْأَجْنَبِيَّاتِ وَذَوَاتِ الْمَحَارِمِ مِنْ الِاعْتِبَارِ وَالدَّلَالَةِ عَلَى الْخَالِقِ مِنْ جِنْسِ مَا فِي صُوَرِ الْمُرْدَانِ فَهَلْ يَقُولُ مُسْلِمٌ : إنَّ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَنْظُرَ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ إلَى صُوَرِ النِّسَاءِ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ وَصُوَرِ مَحَارِمِهِ . وَيَقُولُ : إنَّ ذَلِكَ عِبَادَةٌ ؛ بَلْ مَنْ جَعَلَ مِثْلَ هَذَا

(486/555)

النَّظَرَ عِبَادَةً فَإِنَّهُ كَافِرٌ مُرْتَدٌّ يَجِبُ أَنْ يُسْتَتَابَ فَإِنْ تَابَ وَإِلَّا قُتِلَ . وَهُوَ بِمَنْزِلَةِ مَنْ جَعَلَ إعَانَةَ طَالِبِ الْفَاحِشَةِ عِبَادَةً أَوْ جَعَلَ تَنَاوُلَ يَسِيرِ الْخَمْرِ عِبَادَةً أَوْ جَعَلَ السُّكْرَ مِنْ الْحَشِيشَةِ عِبَادَةً ؛ فَمَنْ جَعَلَ الْمُعَاوَنَةَ بِقِيَادَةٍ أَوْ غَيْرِهَا عِبَادَةً أَوْ جَعَلَ شَيْئًا مِنْ الْمُحَرَّمَاتِ الَّتِي يُعْلَمُ تَحْرِيمُهَا فِي دِينِ الْإِسْلَامِ عِبَادَةً : فَإِنَّهُ يُسْتَتَابُ فَإِنْ تَابَ وَإِلَّا قُتِلَ . وَهُوَ مُضَاهٍ بِهِ لِلْمُشْرِكِينَ ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ

بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ وَفَاحِشَةً أُولَئِكَ إنَّمَا كَانَتْ طَوَافُهُمْ بِالْبَيْتِ عُرَاةً وَكَانُوا يَقُولُونَ : لَا نَطُوفُ فِي الثِّيَابِ الَّتِي عَصَيْنَا اللَّهَ فِيهَا فَهَؤُلَاءِ إنَّمَا كَانُوا يَطُوفُونَ عُرَاةً عَلَى وَجْهِ اجْتِنَابِ ثِيَابِ الْمَعْصِيَةِ . وَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ عَنْهُمْ مَا ذَكَرَ فَكَيْفَ بِمَنْ جَعَلَ جِنْسَ الْفَاحِشَةِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِالشَّهْوَةِ عِبَادَةً . وَاَللَّهُ سُبْحَانَهُ قَدْ أَمَرَ فِي كِتَابِهِ بِغَضِّ الْبَصَرِ . وَهُوَ نَوْعَانِ : غَضُّ الْبَصَرِ عَنْ الْعَوْرَةِ . وَغَضُّهُ عَنْ مَحَلِّ الشَّهْوَةِ . فَالْأَوَّلُ : كَغَضِّ الرَّجُلِ بَصَرَهُ عَنْ عَوْرَةِ غَيْرِهِ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ لَا يَنْظُرُ الرَّجُلُ إلَى عَوْرَةِ الرَّجُلِ وَلَا الْمَرْأَةُ إلَى عَوْرَةِ الْمَرْأَةِ ﴾ وَيَجِبُ عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَسْتُرَ عَوْرَتَهُ كَمَا ﴿ قَالَ لِمعاوية بْنِ حَيْدَةَ : احْفَظْ عَوْرَتَك إلَّا مِنْ

(487/555)

زَوْجَتِك أَوْ مَا مَلَكَتْ يَمِينُك

قُلْت : فَإِذَا كَانَ أَحَدُنَا مَعَ قَوْمِهِ قَالَ : إنْ اسْتَطَعْت أَنْ لَا تُرِيَهَا أَحَدًا فَلَا يَرَيَنَّهَا قُلْت : فَإِذَا كَانَ أَحَدُنَا خَالِيًا ؟ قَالَ : فَاَللَّهُ أَحَقُّ أَنْ يُسْتَحْيَا مِنْهُ مِنْ النَّاسِ ﴾ . وَيَجُوزُ كَشْفُهَا بِقَدْرِ الْحَاجَةِ كَمَا تُكْشَفُ عِنْدَ التَّخَلِّي وَكَذَلِكَ إذَا اغْتَسَلَ الرَّجُلُ وَحْدَهُ - بِحَيْثُ يَجِدُ مَا يَسْتُرُهُ - فَلَهُ أَنْ يَغْتَسِلَ عريانا كَمَا اغْتَسَلَ مُوسَى عريانا وَأَيُّوبُ وَكَمَا فِي اغْتِسَالِ النَّبِيِّ

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ الْفَتْحِ وَاغْتِسَالِهِ فِي حَدِيثِ مَيْمُونَةَ . وَأَمَّا النَّوْعُ الثَّانِي مِنْ النَّظَرِ - كَالنَّظَرِ إلَى الزِّينَةِ الْبَاطِنَةِ مِنْ الْمَرْأَةِ الْأَجْنَبِيَّةِ - فَهَذَا أَشَدُّ مِنْ الْأَوَّلِ كَمَا أَنَّ الْخَمْرَ أَشَدُّ مِنْ الْمَيْتَةِ وَالدَّمِ وَلَحْمِ الْخِنْزِيرِ وَعَلَى صَاحِبِهَا الْحَدُّ وَتِلْكَ الْمُحَرَّمَاتُ إذَا تَنَاوَلَهَا مُسْتَحِلًّا لَهَا كَانَ عَلَيْهِ التَّعْزِيرُ ؛ لِأَنَّ هَذِهِ الْمُحَرَّمَاتِ لَا تَشْتَهِيهَا النُّفُوسُ كَمَا تَشْتَهِي الْخَمْرَ . وَكَذَلِكَ النَّظَرُ إلَى عَوْرَةِ الرَّجُلِ لَا يُشْتَهَى كَمَا يُشْتَهَى النَّظَرُ إلَى النِّسَاءِ وَنَحْوِهِنَّ . وَكَذَلِكَ النَّظَرُ إلَى الْأَمْرَدِ بِشَهْوَةٍ هُوَ مِنْ هَذَا الْبَابِ وَقَدْ اتَّفَقَ الْعُلَمَاءُ عَلَى تَحْرِيمِ ذَلِكَ كَمَا اتَّفَقُوا عَلَى تَحْرِيمِ النَّظَرِ إلَى الْأَجْنَبِيَّةِ وَذَوَاتِ الْمَحَارِمِ بِشَهْوَةٍ . وَالْخَالِقُ سُبْحَانَهُ يُسَبَّحُ عِنْدَ رُؤْيَةِ مَخْلُوقَاتِهِ كُلِّهَا وَلَيْسَ خَلْقُ الْأَمْرَدِ بِأَعْجَبَ فِي قُدْرَتِهِ مِنْ خَلْقِ ذِي اللِّحْيَةِ ؛ وَلَا خَلْقُ النِّسَاءِ بِأَعْجَبَ فِي

(488/555)

قُدْرَتِهِ مِنْ خَلْقِ الرِّجَالِ ؛ فَتَخْصِيصُ الْإِنْسَانِ بِالتَّسْبِيحِ بِحَالِ نَظَرِهِ إلَى الْأَمْرَدِ دُونَ غَيْرِهِ كَتَخْصِيصِهِ بِالتَّسْبِيحِ بِالنَّظَرِ إلَى الْمَرْأَةِ دُونَ الرَّجُلِ ؛ وَمَا ذَاكَ لِأَنَّهُ أَدَلُّ عَلَى عَظَمَةِ الْخَالِقِ عِنْدَهُ ؛ وَلَكِنْ لِأَنَّ الْجَمَالَ يُغَيِّرُ قَلْبَهُ وَعَقْلَهُ وَقَدْ يُذْهِلُهُ مَا رَآهُ فَيَكُونُ تَسْبِيحُهُ لِمَا حَصَلَ فِي نَفْسِهِ مِنْ الْهَوَى كَمَا أَنَّ النِّسْوَةَ لَمَّا رَأَيْنَ يُوسُفَ ﴿ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا

هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ . وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ إنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ وَإِنَّمَا يَنْظُرُ إلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ ﴾ فَإِذَا كَانَ اللَّهُ لَا يَنْظُرُ إلَى الصُّوَرِ وَالْأَمْوَالِ ؛ وَإِنَّمَا يَنْظُرُ إلَى الْقُلُوبِ وَالْأَعْمَالِ فَكَيْفَ يُفَضِّلُ الشَّخْصَ بِمَا لَمْ يُفَضِّلْهُ اللَّهُ بِهِ . وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾ وَقَالَ فِي الْمُنَافِقِينَ : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ﴾ . فَإِذَا كَانَ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقُونَ الَّذِينَ تُعْجِبُ النَّاظِرَ أَجْسَامُهُمْ ؛ لِمَا فِيهِمْ مِنْ الْبَهَاءِ وَالرُّوَاءِ وَالزِّينَةِ الظَّاهِرَةِ وَلَيْسُوا مِمَّنْ يُنْظَرُ إلَيْهِ لِشَهْوَةٍ قَدْ ذَكَرَ اللَّهُ عَنْهُمْ

(489/555)

مَا ذَكَرَ فَكَيْفَ بِمَنْ يُنْظَرُ إلَيْهِ لِشَهْوَةٍ

وَذَلِكَ أَنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ يُنْظَرُ إلَيْهِ لِمَا فِيهِ مِنْ الْإِيمَانِ وَالتَّقْوَى وَهُنَا الِاعْتِبَارُ بِقَلْبِهِ وَعَمَلِهِ لَا بِصُورَتِهِ وَقَدْ يُنْظَرُ إلَيْهِ لِمَا فِيهِ مِنْ الصُّورَةِ الدَّالَّةِ عَلَى الْمُصَوِّرِ فَهَذَا حَسَنٌ . وَقَدْ يُنْظَرُ إلَيْهِ مِنْ جِهَةِ اسْتِحْسَانِ خَلْقِهِ كَمَا يُنْظَرُ إلَى الْخَيْلِ وَالْبَهَائِمِ وَكَمَا يُنْظَرُ إلَى الْأَشْجَارِ وَالْأَنْهَارِ

وَالْأَزْهَارِ ؛ فَهَذَا أَيْضًا إذَا كَانَ عَلَى وَجْهِ اسْتِحْسَانِ الدُّنْيَا وَالرِّئَاسَةِ وَالْمَالِ فَهُوَ مَذْمُومٌ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾ . وَأَمَّا إنْ كَانَ عَلَى وَجْهٍ لَا يَنْقُصُ الدِّينَ وَإِنَّمَا فِيهِ رَاحَةُ النَّفْسِ فَقَطْ : كَالنَّظَرِ إلَى الْأَزْهَارِ فَهَذَا مِنْ الْبَاطِلِ الَّذِي لَا يُسْتَعَانُ بِهِ عَلَى الْحَقِّ . وَكُلُّ قِسْمٍ مِنْ هَذِهِ الْأَقْسَامِ مَتَى كَانَ مَعَهُ شَهْوَةٌ كَانَ حَرَامًا بِلَا رَيْبٍ سَوَاءٌ كَانَتْ شَهْوَةُ تَمَتُّعٍ بِالنَّظَرِ أَوْ كَانَ نَظَرًا بِشَهْوَةِ الْوَطْءِ وَفَرْقٌ بَيْنَ مَا يَجِدُهُ الْإِنْسَانُ عِنْدَ نَظَرِهِ إلَى الْأَشْجَارِ وَالْأَزْهَارِ وَمَا يَجِدُهُ عِنْدَ نَظَرِهِ إلَى النِّسْوَانِ وَالْمُرْدَانِ . فَلِهَذَا الْفُرْقَانِ افْتَرَقَ الْحُكْمُ الشَّرْعِيُّ فَصَارَ النَّظَرُ إلَى الْمُرْدَانِ ثَلَاثَةَ أَقْسَامٍ : " أَحَدُهَا " مَا تَقْتَرِنُ بِهِ الشَّهْوَةُ . فَهُوَ مُحَرَّمٌ بِالِاتِّفَاقِ .

(490/555)

و " الثَّانِي " مَا يُجْزَمُ أَنَّهُ لَا شَهْوَةَ مَعَهُ . كَنَظَرِ الرَّجُلِ الْوَرِعِ إلَى ابْنِهِ الْحَسَنِ وَابْنَتِهِ الْحَسَنَةِ وَأُمِّهِ الْحَسَنَةِ فَهَذَا لَا يَقْتَرِنُ بِهِ شَهْوَةٌ إلَّا أَنْ يَكُونَ الرَّجُلُ مِنْ أَفْجَرِ النَّاسِ وَمَتَى اقْتَرَنَتْ بِهِ الشَّهْوَةُ حَرُمَ . وَعَلَى هَذَا نَظَرُ مَنْ لَا يَمِيلُ قَلْبُهُ إلَى الْمُرْدَانِ كَمَا كَانَ الصَّحَابَةُ وَكَالْأُمَمِ الَّذِينَ لَا يَعْرِفُونَ هَذِهِ الْفَاحِشَةَ فَإِنَّ الْوَاحِدَ مِنْ هَؤُلَاءِ لَا يُفَرِّقُ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ بَيْنَ نَظَرِهِ إلَى ابْنِهِ وَابْنِ جَارِهِ وَصَبِيٍّ أَجْنَبِيٍّ لَا يَخْطُرُ بِقَلْبِهِ شَيْءٌ مِنْ الشَّهْوَةِ ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَعْتَدْ ذَلِكَ وَهُوَ سَلِيمُ الْقَلْبِ

مِنْ قَبْلِ ذَلِكَ وَقَدْ كَانَتْ الْإِمَاءُ عَلَى عَهْدِ الصَّحَابَةِ يَمْشِينَ فِي الطُّرُقَاتِ مُنْكَشِفَاتِ الرُّءُوسِ وَيَخْدِمْنَ الرِّجَالَ مَعَ سَلَامَةِ الْقُلُوبِ فَلَوْ أَرَادَ الرَّجُلُ أَنْ يَتْرُكَ الْإِمَاءَ التُّرْكِيَّاتِ الْحِسَانَ يَمْشِينَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْبِلَادِ وَالْأَوْقَاتِ كَمَا كَانَ أُولَئِكَ الْإِمَاءُ يَمْشِينَ كَانَ هَذَا مِنْ بَابِ الْفَسَادِ . وَكَذَلِكَ الْمُرْدَانُ الْحِسَانُ . لَا يَصْلُحُ أَنْ يَخْرُجُوا فِي الْأَمْكِنَةِ وَالْأَزِقَّةِ الَّتِي يُخَافُ فِيهَا الْفِتْنَةُ بِهِمْ إلَّا بِقَدْرِ الْحَاجَةِ فَلَا يُمَكَّنُ الْأَمْرَدُ الْحَسَنُ مِنْ التَّبَرُّجِ وَلَا مِنْ الْجُلُوسِ فِي الْحَمَّامِ بَيْنَ الْأَجَانِبِ ؛ وَلَا مِنْ رَقْصِهِ بَيْنَ الرِّجَالِ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا فِيهِ فِتْنَةٌ لِلنَّاسِ وَالنَّظَرُ إلَيْهِ كَذَلِكَ . وَإِنَّمَا وَقَعَ النِّزَاعُ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ فِي " الْقِسْمِ الثَّالِثِ " مِنْ النَّظَرِ وَهُوَ النَّظَرُ إلَيْهِ بِغَيْرِ

(491/555)

شَهْوَةٍ ؛ لَكِنْ مَعَ خَوْفِ ثَوَرَانِهَا فَفِيهِ وَجْهَانِ فِي

(492/555)

مَذْهَبِ أَحْمَدَ أَصَحُّهُمَا وَهُوَ الْمَحْكِيُّ عَنْ نَصِّ الشَّافِعِيِّ وَغَيْرِهِ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ . و " الثَّانِي " يَجُوزُ ؛ لِأَنَّ الْأَصْلَ عَدَمُ ثَوَرَانِهَا ؛ فَلَا يَحْرُمُ بِالشَّكِّ بَلْ قَدْ يُكْرَهُ . وَالْأَوَّلُ هُوَ الرَّاجِحُ كَمَا أَنَّ

الرَّاجِحَ فِي مَذْهَبِ الشَّافِعِيِّ وَأَحْمَد أَنْ النَّظَرَ إلَى وَجْهِ الْأَجْنَبِيَّةِ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ لَا يَجُوزُ وَإِنْ كَانَتْ الشَّهْوَةُ مُنْتَفِيَةً ؛ لَكِنْ لِأَنَّهُ يَخَافُ ثَوَرَانَهَا ؛ وَلِهَذَا حَرَّمَ الْخَلْوَةَ بِالْأَجْنَبِيَّةِ ؛ لِأَنَّهُ مَظِنَّةُ الْفِتْنَةِ . وَالْأَصْلُ أَنَّ كُلَّ مَا كَانَ سَبَبًا لِلْفِتْنَةِ فَإِنَّهُ لَا يَجُوزُ فَإِنَّ الذَّرِيعَةَ إلَى الْفَسَادِ سَدُّهَا إذَا لَمْ يُعَارِضْهَا مَصْلَحَةٌ رَاجِحَةٌ . وَلِهَذَا كَانَ النَّظَرُ الَّذِي قَدْ يُفْضِي إلَى الْفِتْنَةِ مُحَرَّمًا إلَّا إذَا كَانَ لِحَاجَةٍ رَاجِحَةٍ مِثْلَ نَظَرِ الْخَاطِبِ وَالطَّبِيبِ وَغَيْرِهِمَا فَإِنَّهُ يُبَاحُ النَّظَرُ لِلْحَاجَةِ مَعَ عَدَمِ الشَّهْوَةِ . وَأَمَّا النَّظَرُ لِغَيْرِ حَاجَةٍ إلَى مَحَلِّ الْفِتْنَةِ فَلَا يَجُوزُ . وَمَنْ كَرَّرَ النَّظَرَ إلَى الْأَمْرَدِ وَنَحْوِهِ وَأَدَامَهُ وَقَالَ : إنِّي لَا أَنْظُرُ لِشَهْوَةٍ كُذِّبَ فِي ذَلِكَ فَإِنَّهُ إذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ دَاعٍ يَحْتَاجُ مَعَهُ إلَى النَّظَرِ لَمْ يَكُنْ النَّظَرُ إلَّا لِمَا يَحْصُلُ فِي الْقَلْبِ مِنْ اللَّذَّةِ بِذَلِكَ . وَأَمَّا نَظَرُ الْفَجْأَةِ فَهُوَ عَفْوٌ إذَا صَرَفَ بَصَرَهُ كَمَا ثَبَتَ فِي الصِّحَاحِ ﴿ عَنْ جَرِيرٍ قَالَ سَأَلْت رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ نَظَرِ الْفَجْأَةِ قَالَ : اصْرِفْ بَصَرَك ﴾ وَفِي . السُّنَنِ أَنَّهُ ﴿ قَالَ لِعَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

(493/555)

يَا عَلِيُّ لَا تُتْبِعْ النَّظْرَةَ النَّظْرَةَ فَإِنَّمَا لَك الْأُولَى وَلَيْسَتْ لَك الثَّانِيَةُ ﴾ وَفِي الْحَدِيثِ الَّذِي فِي الْمُسْنَدِ وَغَيْرِهِ : ﴿ النَّظَرُ سَهْمٌ مَسْمُومٌ مِنْ سِهَامِ إبْلِيسَ ﴾ وَفِيهِ : ﴿ مَنْ نَظَرَ إلَى

مَحَاسِنِ امْرَأَةٍ ثُمَّ غَضَّ بَصَرَهُ عَنْهَا أَوْرَثَ اللَّهُ قَلْبَهُ حَلَاوَةَ عِبَادَةٍ يَجِدُهَا إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ أَوْ كَمَا قَالَ . وَلِهَذَا يُقَالُ : إنَّ غَضَّ الْبَصَرِ عَنْ الصُّورَةِ الَّتِي يُنْهَى عَنْ النَّظَرِ إلَيْهَا : كَالْمَرْأَةِ وَالْأَمْرَدِ الْحَسَنِ يُورِثُ ذَلِكَ ثَلَاثَ فَوَائِدَ جَلِيلَةِ الْقَدْرِ :

" أَحَدُهَا " حَلَاوَةُ الْإِيمَانِ وَلَذَّتُهُ الَّتِي هِيَ أَحْلَى وَأَطْيَبُ مِمَّا تَرَكَهُ لِلَّهِ فَإِنَّ مَنْ تَرَكَ شَيْئًا لِلَّهِ عَوَّضَهُ اللَّهُ خَيْرًا مِنْهُ وَالنَّفْسُ تُحِبُّ النَّظَرَ إلَى هَذِهِ الصُّوَرِ لَا سِيَّمَا نُفُوسُ أَهْلِ الرِّيَاضَةِ وَالصَّفَا ؛ فَإِنَّهُ يَبْقَى فِيهَا رِقَّةٌ تَنْجَذِبُ بِسَبَبِهَا إلَى الصُّوَرِ حَتَّى تَبْقَى الصُّورَةُ تَخْطِفُ أَحَدَهُمْ وَتَصْرَعُهُ كَمَا يَصْرَعُهُ السَّبُعُ . وَلِهَذَا قَالَ بَعْضُ التَّابِعِينَ : مَا أَنَا عَلَى الشَّابِّ التَّائِبِ مِنْ سَبُعٍ يَجْلِسُ إلَيْهِ بِأَخْوَفَ عَلَيْهِ مِنْ حَدَثٍ جَمِيلٍ يَجْلِسُ إلَيْهِ . وَقَالَ بَعْضُهُمْ : اتَّقُوا النَّظَرَ إلَى أَوْلَادِ الْمُلُوكِ فَإِنَّ فِتْنَتَهُمْ كَفِتْنَةِ الْعَذَارَى . وَمَا زَالَ أَئِمَّةُ الْعِلْمِ وَالدِّينِ - كَأَئِمَّةِ الْهُدَى وَشُيُوخِ الطَّرِيقِ - يُوَصُّونَ بِتَرْكِ صُحْبَةِ الْأَحْدَاثِ حَتَّى يُرْوَى عَنْ فَتْحٍ الْمُوصِلِيِّ أَنَّهُ قَالَ : صَحِبْت ثَلَاثِينَ مِنْ

(494/555)

الْأَبْدَالِ كُلُّهُمْ يُوصِينِي عِنْدَ فِرَاقِهِ بِتَرْكِ صُحْبَةِ الْأَحْدَاثِ وَقَالَ بَعْضُهُمْ : مَا سَقَطَ عَبْدٌ مِنْ عَيْنِ اللَّهِ إلَّا ابْتَلَاهُ بِصُحْبَةِ هَؤُلَاءِ الْأَنْتَانِ . ثُمَّ النَّظَرُ يُوَلِّدُ الْمَحَبَّةَ فَيَكُونُ عَلَاقَةً ؛ لِتَعَلُّقِ الْقَلْبِ

بِالْمَحْبُوبِ ثُمَّ صَبَابَةً ؛ لِانْصِبَابِ الْقَلْبِ إلَيْهِ ثُمَّ غَرَامًا ؛ لِلُزُومِهِ لِلْقَلْبِ . كَالْغَرِيمِ الْمُلَازِمِ لِغَرِيمِهِ ثُمَّ عِشْقًا إلَى أَنْ يَصِيرَ تتيما وَالْمُتَيَّمُ الْمُعَبَّدُ وَتَيْمُ اللَّهِ عَبْدُ اللَّهِ ؛ فَيَبْقَى الْقَلْبُ عَبْدًا لِمَنْ لَا يَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ أَخًا وَلَا خَادِمًا . وَهَذَا إنَّمَا يُبْتَلَى بِهِ أَهْلُ الْإِعْرَاضِ عَنْ الْإِخْلَاصِ لِلَّهِ الَّذِينَ فِيهِمْ نَوْعٌ مِنْ الشِّرْكِ وَإِلَّا فَأَهْلُ الْإِخْلَاصِ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي حَقِّ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ فَامْرَأَةُ الْعَزِيزِ كَانَتْ مُشْرِكَةً فَوَقَعَتْ مَعَ تَزَوُّجِهَا فِيمَا وَقَعَتْ فِيهِ مِنْ السُّوءِ وَيُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَعَ عُزُوبَتِهِ وَمُرَاوَدَتِهَا لَهُ وَاسْتِعَانَتِهَا عَلَيْهِ بِالنِّسْوَةِ وَعُقُوبَتِهَا لَهُ بِالْحَبْسِ عَلَى الْعِفَّةِ : عَصَمَهُ اللَّهُ بِإِخْلَاصِهِ لِلَّهِ تَحْقِيقًا لِقَوْلِهِ : ﴿ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ﴿ إلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ قَالَ تَعَالَى : ﴿ إنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ و " الْغَيُّ " هُوَ اتِّبَاعُ الْهَوَى . وَهَذَا الْبَابُ مِنْ أَعْظَمِ أَبْوَابِ اتِّبَاعِ الْهَوَى وَمَنْ أَمَرَ بِعِشْقِ الصُّوَرِ مِنْ الْمُتَفَلْسِفَةِ - كَابْنِ سِينَا

(495/555)

وَذَوِيهِ أَوْ مِنْ الْفُرْسِ كَمَا يُذْكَرُ

(496/555)

عَنْ بَعْضِهِمْ مِنْ جُهَّالِ الْمُتَصَوِّفَةِ - فَإِنَّهُمْ أَهْلُ ضَلَالٍ فَهُمْ مَعَ مُشَارَكَةِ الْيَهُودِ فِي الْغَيِّ وَالنَّصَارَى فِي الضَّلَالِ : زَادُوا عَلَى الْأُمَّتَيْنِ فِي ذَلِكَ فَإِنَّ هَذَا وَإِنْ ظَنَّ أَنَّ فِيهِ مَنْفَعَةً لِلْعَاشِقِ كَتَلْطِيفِ نَفْسِهِ وَتَهْذِيبِ أَخْلَاقِهِ أَوْ لِلْمَعْشُوقِ مِنْ السَّعْيِ فِي مَصَالِحِهِ وَتَعْلِيمِهِ وَتَأْدِيبِهِ وَغَيْرِ ذَلِكَ فَمَضَرَّةُ ذَلِكَ أَضْعَافُ مَنْفَعَتِهِ وَأَيْنَ إثْمُ ذَلِكَ مِنْ نَفْعِهِ ؟ . وَإِنَّمَا هَذَا كَمَا يُقَالُ : إنَّ فِي الزِّنَا مَنْفَعَةً لِكُلٍّ مِنْهُمَا بِمَا يَحْصُلُ لَهُ مِنْ اللَّذَّةِ وَالسُّرُورِ وَيَحْصُلُ لَهَا مِنْ الْجَعْلِ وَغَيْرِ ذَلِكَ وَكَمَا يُقَالُ : إنَّ فِي شُرْبِ الْخَمْرِ مَنَافِعَ بَدَنِيَّةً وَنَفْسِيَّةً . وَقَالَ تَعَالَى فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ : ﴿ قُلْ فِيهِمَا إثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا ﴾ . وَهَذَا قَبْلَ التَّحْرِيمِ دَعْ مَا قَالَهُ عِنْدَ التَّحْرِيمِ وَبَعْدَهُ فَإِنَّ التَّعَبُّدَ بِهَذِهِ الصُّوَرِ هُوَ مِنْ جِنْسِ الْفَوَاحِشِ وَبَاطِنُهُ مِنْ بَاطِنِ الْفَوَاحِشِ وَهُوَ مِنْ بَاطِنِ الْإِثْمِ . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ إنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ . وَلَيْسَ بَيْنَ أَئِمَّةِ الدِّينِ نِزَاعٌ فِي أَنَّ هَذَا لَيْسَ بِمُسْتَحَبٍّ كَمَا أَنَّهُ لَيْسَ بِوَاجِبٍ فَمَنْ جَعَلَهُ

مَمْدُوحًا وَأُثْنِي عَلَيْهِ فَقَدْ خَرَجَ عَنْ إجْمَاعِ الْمُسْلِمِينَ وَالْيَهُودِ وَالنَّصَارَى ؛ بَلْ وَعَمَّا عَلَيْهِ عُقَلَاءُ بَنِي آدَمَ مِنْ جَمِيعِ الْأُمَمِ وَهُوَ

مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنْ اللَّهِ ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ﴾ ﴿ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾ .

(498/555)

وَأَمَّا مَنْ نَظَرَ إلَى المردان ظَانًّا أَنَّهُ يَنْظُرُ إلَى مَظَاهِرِ الْجَمَالِ الْإِلَهِيِّ وَجَعَلَ هَذَا طَرِيقًا لَهُ إلَى اللَّهِ كَمَا يَفْعَلُهُ طَوَائِفُ مِنْ الْمُدَّعِينَ لِلْمَعْرِفَةِ فَقَوْلُهُ هَذَا أَعْظَمُ كُفْرًا مِنْ قَوْلِ عُبَّادِ الْأَصْنَامِ وَمِنْ كُفْرِ قَوْمِ لُوطٍ . فَهَؤُلَاءِ مِنْ شَرِّ الزَّنَادِقَةِ الْمُرْتَدِّينَ الَّذِينَ يَجِبُ قَتْلُهُمْ بِإِجْمَاعِ كُلِّ أُمَّةٍ فَإِنَّ عُبَّادَ الْأَصْنَامِ قَالُوا : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إلَّا لِيُقَرِّبُونَا إلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ . وَهَؤُلَاءِ يَجْعَلُونَ اللَّهَ سُبْحَانَهُ مَوْجُودًا فِي نَفْسِ الْأَصْنَامِ وَحَالًّا فِيهَا ؛ فَإِنَّهُمْ لَا يُرِيدُونَ بِظُهُورِهِ وَتَجَلِّيهِ فِي الْمَخْلُوقَاتِ أَنَّهَا أَدِلَّةٌ عَلَيْهِ وَآيَاتٌ لَهُ بَلْ يُرِيدُونَ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ ظَهَرَ فِيهَا وَتَجَلَّى فِيهَا وَيُشَبِّهُونَ ذَلِكَ بِظُهُورِ الْمَاءِ

فِي الصُّوفَةِ وَالزُّبْدِ فِي اللَّبَنِ وَالزَّيْتِ فِي الزَّيْتُونِ وَالدُّهْنِ فِي السِّمْسِمِ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا يَقْتَضِي حُلُولَ نَفْسِ ذَاتِهِ فِي مَخْلُوقَاتِهِ أَوْ اتِّحَادِهِ بِهَا فَيَقُولُونَ فِي جَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ : نَظِيرَ مَا قَالَهُ النَّصَارَى فِي الْمَسِيحِ خَاصَّةً ثُمَّ يَجْعَلُونَ المردان مَظَاهِرَ الْجَمَالِ فَيُقِرُّونَ هَذَا الشِّرْكَ الْأَعْظَمَ طَرِيقًا إلَى اسْتِحْلَالِ الْفَوَاحِشِ بَلْ إلَى اسْتِحْلَالِ كُلِّ مُحَرَّمٍ ؛ كَمَا قِيلَ لِأَفْضَلِ

(499/555)

مَشَايِخِهِمْ التلمساني : إذَا كَانَ قَوْلُكُمْ بِأَنَّ الْوُجُودَ وَاحِدٌ هُوَ الْحَقُّ فَمَا الْفَرْقُ بَيْنَ أُمِّي وَأُخْتِي وَبِنْتِي حَتَّى يَكُونَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ ؟ قَالَ : الْجَمِيعُ عِنْدَنَا سَوَاءٌ لَكِنَّ هَؤُلَاءِ الْمَحْجُوبُونَ قَالُوا حَرَامٌ فَقُلْنَا حَرَامٌ عَلَيْكُمْ . وَمِنْ هَؤُلَاءِ الْحُلُولِيَّةِ والاتحادية مَنْ يَخُصُّ الْحُلُولَ وَالِاتِّحَادَ بِبَعْضِ الْأَشْخَاصِ إمَّا بِبَعْضِ الْأَنْبِيَاءِ كَالْمَسِيحِ أَوْ بِبَعْضِ الصَّحَابَةِ كَقَوْلِ الْغَالِيَةِ فِي عَلِيٍّ أَوْ بِبَعْضِ الشُّيُوخِ كَالْحَلَّاجِيَّةِ وَنَحْوِهِمْ أَوْ بِبَعْضِ الْمُلُوكِ أَوْ بِبَعْضِ الصُّوَرِ كَصُوَرِ المردان . وَيَقُولُ أَحَدُهُمْ : إنَّمَا أَنْظُرُ إلَى صِفَاتِ خَالِقِي وَأَشْهَدُهَا فِي هَذِهِ الصُّورَةِ وَالْكُفْرُ فِي هَذَا الْقَوْلِ أَبْيَنُ مِنْ أَنْ يَخْفَى عَلَى مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ . وَلَوْ قَالَ مِثْلَ هَذَا الْكَلَامِ فِي نَبِيٍّ كَرِيمٍ لَكَانَ كَافِرًا فَكَيْفَ إذَا قَالَهُ فِي صَبِيٍّ أَمْرَدَ فَقَبَّحَ اللَّهُ طَائِفَةً يَكُونُ مَعْبُودُهَا مِنْ جِنْسِ مَوْطُوئِهَا . وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ

أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ فَإِذَا كَانَ مَنْ اتَّخَذَ الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا مَعَ اعْتِرَافِهِمْ بِأَنَّهُمْ مَخْلُوقُونَ لِلَّهِ كُفَّارًا فَكَيْفَ بِمَنْ اتَّخَذَ بَعْضَ الْمَخْلُوقَاتِ أَرْبَابًا ؟ مَعَ أَنَّ اللَّهَ فِيهَا أَوْ مُتَّحِدٌ بِهَا فَوُجُودُهُ وُجُودُهَا وَنَحْوُ ذَلِكَ مِنْ الْمَقَالَاتِ .

(500/555)

وَأَمَّا " الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ " فِي غَضِّ الْبَصَرِ : فَهُوَ نُورُ الْقَلْبِ وَالْفِرَاسَةِ قَالَ تَعَالَى عَنْ قَوْمِ لُوطٍ : ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ فَالتَّعَلُّقُ بِالصُّوَرِ يُوجِبُ فَسَادَ الْعَقْلِ وَعَمَى الْبَصِيرَةِ وَسُكْرَ الْقَلْبِ بَلْ جُنُونَهُ كَمَا قِيلَ : سكران سُكْرُ هَوًى وَسُكْرُ مُدَامَةٍ * * * فَمَتَى يُفِيقُ مَنْ بِهِ سكران

وَقِيلَ أَيْضًا :

قَالُوا جُنِنْتَ بِمَنْ تَهْوَى فَقُلْتُ لَهُمْ * * * الْعِشْقُ أَعْظَمُ مِمَّا بِالْمَجَانِينِ

الْعِشْقُ لَا يَسْتَفِيقُ الدَّهْرَ صَاحِبُهُ * * * وَإِنَّمَا يُصْرَعُ الْمَجْنُونُ فِي الْحِينِ

وَذَكَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ آيَةَ النُّورِ عَقِيبَ آيَاتِ غَضِّ الْبَصَرِ فَقَالَ : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ وَكَانَ شُجَاعُ بْنُ شَاهٍ الكرماني لَا تُخْطِئُ لَهُ فِرَاسَةٌ وَكَانَ يَقُولُ : مَنْ عَمَّرَ ظَاهِرَهُ بِاتِّبَاعِ السُّنَّةِ وَبَاطِنَهُ بِدَوَامِ

الْمُرَاقَبَةِ وَغَضِّ بَصَرِهِ عَنْ الْمَحَارِمِ وَكَفِّ نَفْسِهِ عَنْ الشَّهَوَاتِ وَذَكَرَ خَصْلَةً سَادِسَةً أَظُنُّهُ هُوَ أَكْلُ الْحَلَالِ : لَمْ تُخْطِئْ لَهُ فِرَاسَةٌ . وَاَللَّهُ تَعَالَى يَجْزِي الْعَبْدَ عَلَى عَمَلِهِ بِمَا هُوَ مِنْ جِنْسِ عَمَلِهِ فَيُطْلِقُ نُورَ بَصِيرَتِهِ وَيَفْتَحُ عَلَيْهِ بَابَ الْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ وَالْكُشُوفِ وَنَحْوَ ذَلِكَ مِمَّا يُنَالُ بِبَصِيرَةِ الْقَلْبِ . " الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ " قُوَّةُ الْقَلْبِ وَثَبَاتُهُ وَشَجَاعَتُهُ ؛ فَيَجْعَلُ اللَّهُ لَهُ سُلْطَانُ الْبَصِيرَةِ مَعَ سُلْطَانِ الْحُجَّةِ فَإِنَّ فِي الْأَثَرِ : ﴿ الَّذِي يُخَالِفُ هَوَاهُ يَفْرَقُ الشَّيْطَانُ مِنْ ظِلِّهِ ﴾ وَلِهَذَا يُوجَدُ فِي الْمُتَّبِعِ هَوَاهُ مَنْ ذُلِّ النَّفْسِ وَضَعْفِهَا وَمَهَانَتِهَا مَا جَعَلَهُ اللَّهُ لِمَنْ عَصَاهُ فَإِنَّ اللَّهَ جَعَلَ الْعِزَّةَ لِمَنْ أَطَاعَهُ وَالذِّلَّةَ لِمَنْ عَصَاهُ . قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ . وَلِهَذَا كَانَ فِي كَلَامِ الشُّيُوخِ : النَّاسُ يَطْلُبُونَ الْعِزَّ بِأَبْوَابِ الْمُلُوكِ وَلَا يَجِدُونَهُ إلَّا فِي طَاعَةِ اللَّهِ . وَكَانَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ يَقُولُ : وَإِنْ هَمْلَجَتْ بِهِمْ الْبَرَاذِينُ وَطَقْطَقَتْ بِهِمْ ذُلُلُ الْبِغَالِ فَإِنَّ ذُلَّ الْمَعْصِيَةِ فِي رِقَابِهِمْ أَبَى اللَّهُ إلَّا أَنْ يُذِلَّ مَنْ عَصَاهُ وَمَنْ أَطَاعَ اللَّهَ فَقَدْ وَالَاهُ فِيمَا أَطَاعَهُ فِيهِ وَمَنْ عَصَاهُ فَفِيهِ قِسْطٌ مِنْ فِعْلِ مَنْ عَادَاهُ

بِمَعَاصِيهِ وَفِي دُعَاءِ الْقُنُوتِ : ﴿ إنَّهُ لَا يَذِلُّ مَنْ وَالَيْت وَلَا يَعِزُّ مَنْ عَادَيْت ﴾ .

ثُمَّ الصُّوفِيَّةُ الْمَشْهُورُونَ عِنْدَ الْأُمَّةِ - الَّذِينَ لَهُمْ لِسَانُ صِدْقٍ فِي الْأُمَّةِ - لَمْ يَكُونُوا يَسْتَحْسِنُونَ مِثْلَ هَذَا ؛ بَلْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَلَهُمْ فِي الْكَلَامِ فِي ذَمِّ صُحْبَةِ الْأَحْدَاثِ وَفِي الرَّدِّ عَلَى أَهْلِ الْحُلُولِ وَبَيَانِ مُبَايَنَةِ الْخَالِقِ : مَا لَا يَتَّسِعُ هَذَا الْمَوْضِعُ لِذِكْرِهِ . وَإِنَّمَا اسْتَحْسَنَهُ مَنْ تَشَبَّهَ بِهِمْ مِمَّنْ هُوَ عَاصٍ أَوْ فَاسِقٌ أَوْ كَافِرٌ فَيَتَظَاهَرُ بِدَعْوَى الْوِلَايَةِ لِلَّهِ وَتَحْقِيقِ الْإِيمَانِ وَالْعِرْفَانِ وَهُوَ مِنْ شَرِّ أَهْلِ الْعَدَاوَةِ لِلَّهِ وَأَهْلِ النِّفَاقِ وَالْبُهْتَانِ . وَاَللَّهُ تَعَالَى يَجْمَعُ لِأَوْلِيَائِهِ الْمُتَّقِينَ خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَجْعَلُ لِأَعْدَائِهِ الصَّفْقَةَ الْخَاسِرَةَ . وَاَللَّهُ سُبْحَانَهُ أَعْلَمُ . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ مجموع الفتاوى حـ 15 صـ 280. 427 ﴾

فصل فى فوائد لغوية وإعرابية وبلاغية فى الآيات السابقة

[سورة النور (24) : آية 35]

اللَّهُ نُورُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكاةٍ فِيها مِصْباحٌ الْمِصْباحُ فِي زُجاجَةٍ الزُّجاجَةُ كَأَنَّها كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكادُ زَيْتُها يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نارٌ نُورٌ عَلى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (35)

الإعراب :

(كمشكاة) متعلّق بمحذوف خبر المبتدأ (مثل) (فيها) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ (مصباح) ، (في زجاجة) خبر المبتدأ (المصباح) ، ونائب الفاعل لفعل (يوقد) ضمير مستتر تقديره هو يعود على المصباح (من شجرة) متعلّق بـ (يوقد) بحذف مضاف أي من زيت شجرة (مباركة ، زيتونة ، لا شرقيّة) صفات لشجرة مجرورة (لا) زائدة لتأكيد النفي (غربيّة) معطوفة على شرقيّة بالواو (الواو) حاليّة (لو) حرف شرط غير جازم (نور) خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو (على نور) متعلّق بنعت لنور الأول (لنوره) متعلّق بـ (يهدي) ، (للناس) متعلّق بـ (يضرب) ، و(بكلّ) متعلّق بـ (عليم) وهو خبر مرفوع .

جملة : " اللّه نور السموات . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " مثل نوره كمشكاة . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " فيها مصباح . . . " في محلّ جرّ نعت لمشكاة .

وجملة : " المصباح في زجاجة " في محلّ رفع نعت لمصباح .

وجملة : " الزجاجة كأنها . . . " في محلّ جرّ نعت لزجاجة " 1 " .

وجملة : " كأنّها كوكب . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (الزجاجة) .

وجملة : " يوقد . . . " في محلّ رفع خبر ثان للمصباح.

وجملة : " يكاد زيتها . . . " في محلّ جرّ نعت لشجرة " 2 " .

---

(1) يجوز أن تكون اعتراضيّة بين المبتدأ وخبره الثاني .

(2) أو في محلّ نصب حال من شجرة لأنها وصفت .

وجملة : " يضيء . . . " في محلّ نصب خبر يكاد .

وجملة : " لم تمسسه نار . . . " في محلّ نصب حال من فاعل يضيء . .

وجواب الشرط محذوف دلّ عليه ما قبله أي : لو لم تمسسه نار يكاد يضيء .

وجملة : " (هو) نور . . . " لا محلّ لها استئنافيّة مؤكّدة لمضمون ما سبق .

وجملة : " يهدي اللّه . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يشاء . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة : " يضرب اللّه . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يهدي .

وجملة : " اللّه . . عليم " لا محلّ لها استئنافيّة " 1 " .

الصرف :

(مشكاة) ، اسم للكوّة غير النافذة أو الأنبوبة وسط القنديل ، وزنه مفعلة بكسر الميم على وزن اسم الآلة من (شكا) ، فيه إعلال لأنّ أصله مشكوة ، تحرّكت الواو بعد فتح قلبت ألفا ، وفي المشكاة أقوال كثيرة في معناها .

(مصباح) ، اسم آلة جاء من الثلاثيّ اللازم (صبح) على غير قياس ، وزنه مفعال بكسر الميم .

(زجاجة) ، واحدة الزجاج اسم جمع للجنس ، هو معروف وزنه فعالة بضمّ الفاء ، قيل يجوز في الفاء الكسر والفتح ، ومثل ذلك الزجاج .

(درّيّ) ، اسم منسوب إلى الدرّ ، الجوهر المعروف لضيائه ولمعانه ، ووزن دريّ فعليّ بضمّ الفاء .

(غربيّة) مؤنّث غربيّ ، اسم منسوب إلى الغرب ، وزنه فعليّة بفتح الفاء .

(زيتها) ، اسم للسائل الذي يؤتدم به ويخرج من الزيتون وغيره ، وزنه فعل بفتح فسكون .

البلاغة

1 – التشبيه المرسل : في قوله تعالى " مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيها مِصْباحٌ . . " الآية فقد جاء التشبيه هنا بواسطة الأداة وهي الكاف ، والمراد أن النور الذي شبه به

(1) أو معطوفة على جملة يهدي اللّه .

الحق ، نور متضاعف ، قد تناصر فيه المشكاة والزجاجة والمصباح والزيت ، حتى لم تبق بقية ، مما يقوي النور ويزيده إشراقا ويمدّه بإضاءة ، وذلك أن المصباح إذا كان في مكان متضايق كالمشكاة كان أضوأ له وأجمع لنوره ، بخلاف المكان الواسع فإنّ الضوء ينبث فيه وينتشر .

وأبدع الكرخي في تحديده هذا التشبيه التمثيلي فقال : " و مثل اللّه نوره ، أي معرفته في قلب المؤمن ، بنور المصباح دون نور الشمس ، مع أن نورها أتم ، لأن المقصود تمثيل النور في القلب ، والقلب في الصدور ، والصدر في البدن ، بالمصباح والمصباح في الزجاجة ، والزجاجة في القنديل .

2 - الطباق : في قوله تعالى " لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ " وقد تكلم علماء البيان كثيرا عن هذا الطباق . قال الزمخشري : وقيل : لا في مضحى ولا في مقنأة " و هو المكان الذي لا تطلع عليه الشمس " ولكن الشمس والظل يتعاقبان عليها ، وذلك أجود لحملها وأصفى لدهنها ،

قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه وآله وسلم) " لا خير في شجرة في مقنأة ، ولا نبات في مقنأة ، ولا خير فيهما في مضحى " .

وقيل : ليست مما تطلع عليه الشمس في وقت شروقها أو غروبها فقط ، بل تصيبها بالغداة والعشي جميعا ، فهي شرقية وغربية .

3 – التنكير : في قوله تعالى " نُورٌ عَلى نُورٍ " :

ضرب من الفخامة والمبالغة ، لا أرشق ولا أجمل منه ، فليس هو نورا واحدا ، معينا أو غير معين ، فوق نور آخر مثله ، وليس هو مجموع نورين اثنين فقط ، بل هو عبارة عن نور متضاعف ، من غير تحديد ، لتضاعفه بحد معين .

4 – تشابه الأطراف : وهو أن ينظر المتكلم إلى لفظه وقعت في آخر جملة من الفقرة في النثر ، أو آخر لفظة وقعت في آخر المصراع الأول في النظم ، فيبتدئ بها .

(506/555)

تأمل في تشابه أطراف هذه الجمل المتلاحقة : " اللَّهُ نُورُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ ، مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكاةٍ فِيها مِصْباحٌ الْمِصْباحُ فِي زُجاجَةٍ ، الزُّجاجَةُ كَأَنَّها كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ " .

الفوائد

- اللَّهُ نُورُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ .

كثيرا ما تعرضنا للمثل ، ودوره في أسلوب القرآن الكريم ، وتقرير تعاليم الإسلام ومبادئه ، بواسطة المثل . ويبلغ المثل ذروته في هذه الآية الكريمة ، التي تصور نور اللّه الذي يشمل الكائنات جميعها ، تصويرا يكاد يقف الفكر مبهوتا أمام إبداعه الرائع ولو لا مخافة الخروج عن خطة الكتاب في الإيجاز ، لآثرنا أن نكتب الصفحات عن هذا التشبيه وما فيه من روعة وإبداع .

ولكن ما على القارئ إلا أن يقف أمام روعته ويتملّى من بلاغة القرآن وإعجازه .

]

سورة النور (24) : الآيات 36 إلى 38]

فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيها بِالْغُدُوِّ وَالْآصالِ (36) رِجالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقامِ الصَّلاةِ وَإِيتاءِ الزَّكاةِ يَخافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصارُ (37) لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ ما عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ (38)

الإعراب :

(في بيوت) متعلّق بـ (يسبّح) ، ونائب الفاعل لفعل (ترفع) ضمير يعود على بيوت (الواو) عاطفة (فيها) متعلّق بـ (يذكر) ، (اسمه) نائب الفاعل لفعل يذكر . .

والمصدر المؤوّل (أن ترفع) في محلّ جرّ بحرف جرّ محذوف أي في أن ترفع ، متعلّق بـ (أذن) ، (له) متعلّق بـ (يسبّح) ، (فيها) الثاني متعلّق بـ (يسبّح) مؤكّدا الجارّ الأول : في بيوت (بالغدوّ) متعلّق بـ (يسبّح) .

(507/555)

جملة : " أذن اللّه . . . " في محلّ جرّ نعت لبيوت .

وجملة : " ترفع . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة : " يذكر فيها اسمه . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة صلة الموصول الحرفيّ .

وجملة : " يسبّح . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

37 - 38 - (رجال) فاعل يسبّح مرفوع (لا) نافية ، والثانية زائدة لتأكيد النفي و(بيع) معطوف على تجارة بالواو (عن ذكر) متعلّق بـ (تلهيهم) ، (يوما) مفعول به منصوب (فيه) متعلّق بـ (تتقلّب) ، (اللام) الأظهر أنّها لام العاقبة (يجزيهم) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام (ما) حرف مصدريّ " 1 " .

والمصدر المؤوّل (ما عملوا . .) في محلّ جرّ مضاف إليه .

والمصدر المؤوّل (أن يجزيهم . .) في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (يسبّح) أو متعلّق بـ (يخافون) "

. " 2

(من فضله) متعلّق بـ (يزيدهم) ، (الواو) استئنافيّة (بغير) متعلّق بحال من فاعل يرزق .

وجملة : " لا تلهيهم تجارة . . . " في محلّ رفع نعت لرجال .

وجملة : " يخافون . . . " في محلّ رفع نعت ثان لرجال " 3 " .

وجملة : " تتقلّب فيه القلوب " في محلّ نصب نعت لـ (يوما) .

وجملة : " يجزيهم اللّه . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

---

(1) أو اسم موصول في محلّ جرّ ، والعائد محذوف أي عملوه ، والجملة بعده صلة .

(2) يجوز تعليقه بفعل محذوف . . أي : فعلوا ذلك ليجزيهم .

(3) يجوز أن تكون في محلّ نصب حال من ضمير المفعول في تلهيهم . أو هي استئناف بيانيّ لا محلّ لها .

وجملة : " عملوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) .

وجملة : " يزيدهم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يجزيهم .

وجملة : " اللّه يرزق . . . " لا محلّ لها استئنافيّة في حكم التعليل .

وجملة : " يرزق . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (اللّه) .

وجملة : " يشاء . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

الفوائد

قوله تعالى " فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ إلخ " كثرت أقوال النحاة حول تعليق الجار والمجرور " في بيوت " . وسبب هذا الاختلاف طول الفصل بين المتعلق والمتعلق به ، ورغم كثرة الخلاف ، وتعدد الأقوال ، فإننا نختار لك منها أهمها :

أ – مثل بأنهما متعلقان بصفة للمشكاة .

ب – وقيل بصفة للمصباح .

ج – وقيل متعلقان بالفعل " يوقد " د – وقيل بمحذوف تقديره " سبحوه في بيوت " ه – وقيل إنهما متعلقان بـ " حال " للمصباح والزجاجة والكوكب ، تقديره " و هو في بيوت " .

و – وقيل متعلقان بـ " توقد " ، أي توقد في بيوت .

فاختر من بين هذه الآراء ما يحلو لك ، وتجده أقرب للذوق والواقع .

والحقيقة أن طول الفصل يجعلنا نفضل تقدير محذوف ، على أن نعود بالتعليق لأول الآية التي ملأت نصف الصفحة وزيادة .

[سورة النور (24) : الآيات 39 إلى 40]

وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمالُهُمْ كَسَرابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ ماءً حَتَّى إِذا جاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً

وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسابِ (39) أَوْ كَظُلُماتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحابٌ ظُلُماتٌ بَعْضُها فَوْقَ بَعْضٍ إِذا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَراها وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَما لَهُ مِنْ نُورٍ (40)

الجدول ج 18 ، ص : 269

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (كسراب) متعلّق بخبر المبتدأ أعمالهم " 1 " ، (بقيعة) متعلّق بنعت لـ (سراب) (ماء) مفعول به ثان لفعل يحسبه (حتّى) حرف ابتداء (شيئا) مفعول به ثان لفعل يجده " 2 " ، (عنده) ظرف منصوب متعلّق بـ (وجد) ، أي لقي ، (الواو) اعتراضيّة . .

جملة : " الذين كفروا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " كفروا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) ، وجملة : " أعمالهم كسراب . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (الذين) .

وجملة : " يحسبه الظمآن . . . " في محلّ جرّ نعت لسراب وجملة : " جاءه . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه وجملة : " لم يجده شيئا . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " وجد اللّه . . . " لا محلّ لها معطوفة على مقدّر " 3 " .

وجملة : " وفّاه . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة وجد اللّه . .

---

(1) يجوز أن يكون خبرا للموصول (الذين) كفروا . . بحذف مضاف أي أعمال الذين

كفروا . . وحينئذ يعرب (أعمالهم) بدلا من الموصول على رأي القرطبيّ .

(2) أي لم يجد ما قدره شيئا .

(3) المقدّر هو نتيجة للتشبيه التمثيليّ أي : والكافر إذا جاءه الموت لم يجد عمله بعد الموت ووجد حساب اللّه أو عقابه أو حكمه عند عمله . . فوفّاه اللّه حسابه .

(509/555)

وجملة : " اللّه سريع . . . " لا محلّ لها اعتراضيّة " 1 " .

40 - (أو) حرف عطف (كظلمات) متعلّق بما تعلّق به كسراب فهو معطوف عليه (في بحر) متعلّق بنعت لـ (ظلمات) (من فوقه) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ (موج) الثاني (من فوقه) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ (سحاب) (ظلمات) خبر لمبتدأ محذوف تقديره هي أو هذه (فوق) ظرف مكان منصوب متعلّق بخبر المبتدأ بعضها (الواو) عاطفة ، وعلامة الجزم لفعل (يجعل) السكون وحرّك بالكسر لالتقاء الساكنين (له) متعلّق بمفعول به ثان (الفاء) رابطة لجواب الشرط (له) الثاني متعلّق بخبر مقدّم (نور) مجرور لفظا مرفوع محلّا مبتدأ مؤخّر .

وجملة : " يغشاه موج " في محلّ جرّ نعت لبحر " 2 " .

وجملة : " من فوقه موج " في محلّ رفع نعت لموج الأول .

وجملة : " من فوقه سحاب) في محلّ رفع نعت لموج الثاني .

وجملة : " (هي) ظلمات . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " بعضها فوق بعض " في محلّ رفع نعت لظلمات .

وجملة : " أخرج . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " لم يكد يراها . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " يراها " في محلّ نصب خبر يكد .

وجملة : " من لم يجعل . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة (هي) ظلمات .

وجملة : " لم يجعل اللّه . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) " 3 " .

وجملة : " ما له من نور " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

---

(1) أو استئناف في حكم التعليل .

(2) يجوز أن تكون في محلّ نصب حال من بحر لأنّه وصف .

(3) يجوز أن يكون الخبر جملتي الشرط والجواب معا . [. . . . .]

الصرف :

(سراب) ، اسم لما يشاهد في النهار الحارّ كأنه ماء .

(قيعة) ، اسم هو جمع قاع : الأرض السهلة المطمئنة ، وزنه فعلة بكسر فسكون ، وثمة جموع أخرى منها قيعان وأقواع .

(الظمآن) ، صفة مشبّهة من ظمئ يظمأ باب فرح وزنه فعلان بفتح فسكون مؤنّثة ظمأى ، جمعه ظماء بكسر الظاء .

(لجّيّ) ، اسم منسوب إلى اللجّ أو اللّجة وهو الماء الغزير أو معظم البحر ، وزنه فعليّ بضمّ الفاء .

البلاغة

1 – التشبيه التمثيلي : في قوله تعالى " أَعْمالُهُمْ كَسَرابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ ماءً " شبه ما يعمله من لا يعتقد الإيمان ، ولا يتبع الحق من الأعمال الصالحة ، التي يحسبها تنفعه عند اللّه ، وتنجيه من عذابه ، ثم تخيب في العاقبة أمله ، ويلقى خلاف ما قدّر ، بسراب يراه الكافر بالساهرة ، وقد غلبه عطش يوم القيامة ، فيحسبه ماء فيأتيه فلا يجد ما رجاه ، ويجد زبانية اللّه عنده ، يأخذونه فيعتلونه إلى جهنم فيسقونه الحميم والغساق . وهم الذين قال اللّه فيهم : " عامِلَةٌ ناصِبَةٌ " " وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً " .

2 – العطف على محذوف : في قوله تعالى " وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ " .

فليست الجملة معطوفة على (لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً) ، بل على ما يفهم منه بطريق التمثيل ، من عدم وجدان الكفرة من أعمالهم المذكورة عينا ولا أثر ، كما في قوله تعالى :

(511/555)

" وَقَدِمْنا إِلى ما عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْناهُ هَباءً مَنْثُوراً " كأنه قيل : حتى إذا جاء الكفرة يوم القيامة أعمالهم ، التي كانوا في الدنيا يحسبونها نافعة لهم في الآخرة ، لم يجدوها شيئا ، ووجدوا حكم اللّه وقضاءه لهم بالمرصاد .

الفوائد

من وأقسامها :

تأتي من على أربعة أقسام :

أ – من الاستفهامية .

ب – من الشرطية .

ج – من الموصولة .

د – من النكرة الموصوفة .

ولكل من هذه الأقسام الأربعة شرائط وتفصيلات . . وقد مرّ معنا شرح ذلك في مواطن ،

فعاوده ، ففي الإعادة كل الإفادة .

[سورة النور (24) : الآيات 41 إلى 42]

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِما يَفْعَلُونَ (41) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (42)

الإعراب :

(الهمزة) للاستفهام ، وعلامة الجزم في (تر) حذف حرف العلّة (له) متعلّق بـ (يسبّح) ، (من) اسم موصول مبنيّ في محلّ رفع فاعل (في السموات) متعلّق بمحذوف صلة من .

والمصدر المؤوّل (أنّ اللّه يسبّح . .) في محلّ نصب سدّ مسدّ مفعولي ترى .

(الواو) عاطفة (الطير) معطوف على الموصول الفاعل (من) ، (صافّات) حال منصوبة من الطير وعلامة النصب الكسرة (كلّ) مبتدأ - على نيّة الإضافة - (قد) للتحقيق ، وفاعل (علم) ضمير يعود على كلّ " 1 " ، أي علم كلّ واحد منهم صلاة نفسه (الواو) استئنافيّة (ما) حرف مصدريّ " 2 " .

---

(1) قيل هو عائد على اللّه ، أي علم اللّه صلاته .

(2) أو اسم موصول ، والعائد محذوف أي يفعلونه ، والجملة بعده صلة له .

والمصدر المؤوّل (ما يفعلون) في محلّ جرّ بالباء متعلّق بالخبر (عليم) .

جملة : " لم تر . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يسبّح . . . " في محلّ رفع خبر أنّ .

وجملة : " كلّ قد علم . . . " في محلّ نصب حال من الموصول (من) وما عطف عليه .

وجملة : " علم . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (كلّ) .

وجملة : " اللّه عليم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يفعلون " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) .

42 - (الواو) عاطفة (للّه) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ (ملك) ، (الواو) عاطفة (إلى اللّه) متعلّق بخبر مقدّم .

وجملة : " للّه ملك . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة اللّه عليم .

وجملة : " إلى اللّه المصير " لا محلّ لها معطوفة على جملة اللّه عليم .

[سورة النور (24) : آية 43]

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكاماً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ وَيُنَزِّلُ

مِنَ السَّماءِ مِنْ جِبالٍ فِيها مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشاءُ يَكادُ سَنا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصارِ (43)

الإعراب:

(ألم تر . . يزجي) مثل الآية السابقة " 1 " ، (ثمّ) حرف عطف في الموضعين (بينه) ظرف منصوب متعلّق بـ (يؤلّف) " 2 " ، (ركاما) مفعول به ثان

---

(1) في الآية (41) من هذه السورة.

(2) أي يؤلّف بين قطعه.

منصوب (الفاء) عاطفة (من خلاله) متعلّق بـ (يخرج) ، (الواو) عاطفة (من السماء) متعلّق بـ (ينزّل) ، و(من) لابتداء الغاية (من جبال) متعلّق بـ (ينزّل) فهو بدل من السماء بإعادة الجارّ ، و(من) لابتداء الغاية ، وهو بدل اشتمال " 1 " ، (فيها) متعلّق بنعت لـ (جبال) ، والضمير يعود إلى السماء (من برد) متعلّق بـ (ينزّل) و(من) تبعيضيّة " 2 " ، (الفاء) عاطفة (به) متعلّق بـ (يصيب) ، (عمّن) متعلّق بـ (يصرفه) ، (بالأبصار) متعلّق بـ (يذهب) ، و(الباء) للتعدية " 3 " .

جملة: " لم تر . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: " يزجي . . . " في محلّ رفع خبر أنّ.

والمصدر المؤوّل (أنّ اللّه يزجي . . .) في محلّ نصب سدّ مسدّ مفعولي ترى .

وجملة : " يؤلّف . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة يزجي .

وجملة : " يجعله . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة يؤلّف .

وجملة : " ترى . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الاستئناف .

وجملة : " يخرج . . . " في محلّ نصب حال من الودق .

وجملة : " ينزّل . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة ترى الودق " 4 " .

وجملة : " يصيب . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة ينزّل .

وجملة : " يشاء . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة : " يصرفه . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يصيب .

وجملة : " يشاء (الثانية) " لا محلّ لها صلة الموصول (من) الثاني .

---

(1) وهي تبعيضيّة عند بعضهم ومتعلّقة بـ (ينزّل) ، أي شيئًا من جبال واختاره أبو البقاء . .

وعند بعضهم زائدة و(جبال) مفعول ينزّل وهو قول الأخفش .

(2) أو (من) زائدة و(برد) مفعول به .

(3) أو هي بمعنى من ، والمفعول محذوف أي يذهب النور من الأبصار .

(4) أو معطوفة على جملة يزجي ، في محلّ رفع ، وكذلك جملة يصيب وجملة يصرفه .

وجملة : " يكاد . . . " في محلّ نصب حال من الودق أو من البرد على اختلاف في العامل .

وجملة : " يذهب . . . " في محلّ نصب خبر يكاد الناقص .

الصرف :

(ركاما) ، اسم للشيء المتراكم ، وزنه فعال مشتقّ من ركم الشيء إذا جمعه من باب نصر .

(الودق) ، اسم للمطر قليلا أو كثيرا ، وهو في الأصل مصدر لفعل ودق ، وزنه فعل بفتح فسكون .

(برد) ، اسم للماء المتجمّد النازل من السماء ، وزنه فعل بفتحتين .

(سنا) ، اسم للضوء ولا سيّما البرق ، فيه إعلال بالقلب ، أصله سنو ، فعله سنا يسنو ، تحرّكت الواو بعد فتح قلبت ألفا .

البلاغة

1 - فن العنوان : في قوله تعالى " أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحاباً " الآية .

فن انفرد به القليل من علماء البيان ، وهو فن العنوان ، وعرفوه بأنه أن يأخذ المتكلم في غرض له ، من وصف أو فخر أو مدح أو عتاب أو هجاء ، أو غير ذلك من الفنون ، ثم يأتي لقصد تكميله ، وتوكيده ، بأمثلة من ألفاظ تكون عنوانات لأخبار متقدمة وقصص سالفة ، ومنه نوع عظيم جدا ، وهو ما يكون عنوانا للعلوم ، وذلك أن تذكر في الكلام ألفاظا ، تكون مفاتيح لعلوم ومداخل لها ، والآية التي نحن بصددها ، فيها عنوان العلم المعروف بالآثار العلوية والجغرافيا الرياضية وعلم الفلك .

2 – التشبيه البليغ : في قوله تعالى " مِنْ جِبالٍ " أي من قطع عظام تشبه الجبال في العظم ، على التشبيه البليغ ، كما في قوله تعالى " حَتَّى إِذا جَعَلَهُ ناراً " والمراد بها قطع السحاب .

الفوائد

– من جبال :

اختلف العلماء في " من " هل هي عاملة أم زائدة . كما اختلفوا في متعلق الجار والمجرور على أوجه ، أهمها ثلاثة :

– الأول : أن تكون للتبعيض .

– الثاني : بيان الجنس .

– الثالث : أنها زائدة .

- وثمة وجه رابع : أنها لابتداء الغاية .

والذي نجده أقرب للذوق ، وأخصر للطريق ، اعتبارها زائدة أي " ينزل من السماء جبال برد " . وهذا الوجه يعفينا من التعليق ، لأن حروف الجر الزائدة لا تحتاج مع مجرورها إلى تعليق .

ومن المفيد أن نذكر لك أحرف الجر التي لا تحتاج إلى تعليق ، وهي خمسة :

أ- حرف الجر الزائد مثل " الباء ومن " نحو "كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً " و " هَلْ مِنْ خالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ "

ب- " لعلّ " في لغة عقيل لأنها بمنزلة الزائد .

ج- " لولا " فيمن قال : لولاي ، ولولاك ، ولولاه ، ويرى سيبويه أن " ما بعد " " لولا " مرفوع المحل ، وهو الأصح .

د - " رب " في نحو " ربّ رجل صالح لقيت " ه - حروف الاستثناء وهي " خلا وعدا وحاشا " إذا خفضن ما بعدهنّ .

وهذا موضوع جدير بالمراجعة في مظانه من كتب النحو ، فإنه جليل الفائدة .

(515/555)

[سورة النور (24) : الآيات 44 إلى 45]

يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ إِنَّ فِي ذلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصارِ (44) وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دابَّةٍ مِنْ ماءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ ما يَشاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (45)

الإعراب :

(في ذلك) متعلّق بخبر إنّ (اللام) لام التوكيد (عبرة) اسم إنّ منصوب (لأولي) متعلّق بـ (عبرة) .

جملة : "يقلّب اللّه . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : "إنّ في ذلك لعبرة" لا محلّ لها تعليليّة .

45 - (الواو) عاطفة (من ماء) متعلّق بـ (خلق) ، (الفاء) عاطفة تفريعيّة (منهم) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ (من) في المواضع الثلاثة (على بطنه) متعلّق بـ (يمشي) الأول (على رجلين) متعلّق بـ (يمشي) الثاني (على أربع) متعلّق بـ (يمشي) الثالث (ما) اسم موصول في محلّ نصب مفعول به (على كلّ) متعلّق بـ (قدير) .

وجملة : "اللّه خلق . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يقلّب .

وجملة : "خلق . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (اللّه) .

وجملة : "منهم من يمشي . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة اللّه خلق .

وجملة : " يمشي (الأولى) " لا محلّ لها صلة الموصول (من) الأول .

وجملة : " منهم من يمشي (الثانية) " لا محلّ لها معطوفة على جملة منهم من (الأولى) .

وجملة : " يمشي (الثانية) " لا محلّ لها صلة الموصول (من) الثاني .

وجملة : " منهم من يمشي (الثالثة) " لا محلّ لها معطوفة على (منهم من . .)

الأولى .

وجملة : " يمشي (الثالثة) " لا محلّ لها صلة الموصول (من) الثالث .

وجملة : " يخلق اللّه . . . " لا محلّ لها استئناف مؤكّد لمضمون ما سبق .

وجملة : " يشاء . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

(516/555)

وجملة : " إنّ اللّه . . . قدير " لا محلّ لها تعليليّة .

البلاغة

1 - المجاز : في قوله تعالى " فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلى بَطْنِهِ " كالحيات والسمك . وتسمية حركتها مشيا ، مع كونها زحفا ، مجاز للمبالغة في إظهار القدرة ، وأنها تزحف بلا آلة كشبه المشي وأقوى ، ويزيد ذلك حسنا ما فيه من المشاكلة ، لذكر الزاحف مع الماشي .

2 – التنكير : في قوله تعالى " مِنْ ماءٍ " .

نكّر الماء ، لأن المعنى أنه خلق كل دابة من نوع من الماء مختص بتلك الدابة . أو خلقها من ماء مخصوص وهو النطفة ، ثم خالف بين المخلوقات من النطفة ، فمنها هوام بهائم ، ومنها ناس . فالمقصد إذا أن شيئًا واحدا تكونت منه بالقدرة أشياء مختلفة .

3 – التغليب : في قوله تعالى " فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلى بَطْنِهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلى رِجْلَيْنِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلى أَرْبَعٍ " تذكير الضمير في " منهم " لتغليب العقلاء ، وبنى على تغليبهم في الضمير التعبير بمن واقعة على ما لا يعقل ، وظاهر بعض العبارات يشعر باعتبار التغليب في (كل دابة) وليس بمراد ، بل المراد أن ذلك لما شمل العقلاء وغيرهم ، على طريق الاختلاط ، لزم اعتبار ذلك في الضمير العائد عليه وتغليب العقلاء فيه .

[سورة النور (24) : آية 46]

لَقَدْ أَنْزَلْنا آياتٍ مُبَيِّناتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (46)

الإعراب :

(لقد . . . أنزلنا آيات مبيّنات) مرّ إعراب نظيرها " 1 " ، (الواو) عاطفة (إلى صراط) متعلّق بـ (يهدي) " 2 " .

جملة : " أنزلنا . . . " لا محلّ لها جواب القسم المقدر . . وجملة القسم المقدّرة لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة: "اللّه يهدي . . . "لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة.

وجملة: "يهدي . . . "في محلّ رفع خبر المبتدأ (اللّه).

وجملة: "يشاء . . . "لا محلّ لها صلة الموصول (من).

---

(1) في الآية (34) من هذه السورة.

(2) فعل (يهدي) يتعدّى إلى المفعول من غير حرف جرّ أو بأحد حرفي الجرّ (اللام) أو (إلى).

[سورة النور (24): الآيات 47 إلى 49]

وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ وَما أُولئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (47) وَإِذا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ (48) وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (49)

الإعراب:

(باللّه) متعلّق بـ (آمنّا) وكذلك (بالرسول)، (منهم) متعلّق بنعت لـ (فريق) (من بعد) متعلّق بـ (يتولّى)، (الواو) حاليّة (ما) نافية عاملة عمل ليس (المؤمنين) مجرور لفظا بالباء منصوب

محلّا خبر ما .

جملة : " يقولون . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " آمنّا . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " أطعنا . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول .

وجملة : " يتولّى فريق . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يقولون .

وجملة : " ما أولئك بالمؤمنين " في محلّ نصب حال من فريق .

48 - (الواو) عاطفة ، و(الواو) في (دعوا) نائب الفاعل (إلى اللّه) متعلّق بـ (دعوا) ، (اللام) للتعليل (يحكم) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام ، و(الفاعل) ضمير يعود إلى الرسول - لأنه المباشر للحكم - (بينهم) ظرف منصوب متعلّق بـ (يحكم) .

والمصدر المؤوّل (أن يحكم . . .) في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (دعوا) .

(إذا) حرف فجاءة (فريق) مبتدأ مرفوع " 1 " ، (منهم) متعلّق بنعت لـ (فريق) (معرضون) خبر مرفوع .

وجملة : " دعوا . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " يحكم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

وجملة : " فريق منهم معرضون " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

49 - (الواو) عاطفة (لهم) متعلّق بمحذوف خبر يكن (إليه) متعلّق بـ (يأتوا) " 2 " ،

(مذعنين) ، حال منصوبة .

وجملة : " يكن لهم الحقّ . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الشرط وفعله وجوابه .

وجملة : " يأتوا . . . " لا محلّ لها جواب شرط جازم غير مقترنة بالفاء .

الصرف :

(مذعنين) ، جمع مذعن ، اسم فاعل من أذعن الرباعيّ بمعنى انقاد أو أطاع مسرعا ، وزنه مفعل بضمّ الميم وكسر العين .

---

(1) الذي سوّغ الابتداء بالنكرة أنّها وصفت بالجاور والمجرور (منهم) .

(2) أو متعلّق بمذعنين .

(518/555)

الفوائد

- أقسام " إذا " :

تأتي " إذا " على ثلاثة أقسام :

أ - إذا التفسيرية ، وهي تحل محل " أي " التفسيرية في الجمل ، وتختلف عنها في أن الفعل بعد " إذا " يكون للمخاطب ، نحو " استغفرت اللّه من الذنب إذا سألته الغفران " .

ب – وتأتي ظرفية ، وهي التي تتضمّن معنى الشرط ، وتكون ظرفا للمستقبل . ولذلك تحتاج إلى فعل الشرط وجوابه ، وتختص بالدخول على الجمل الفعلية ، ويكون الفعل بعدها ماضيا على كثرة ، ومضارعا على قلّة .

وقد اجتمعا في قول أبي ذؤيب :

والنفس راغبة إذا رغبتها وإذا ترد إلى قليل تقنع

وإذا دخلت إذا الظرفية على اسم في الظاهر ، فهي في الحقيقة تكون داخلة على فعل محذوف ، نحو " إِذَا السَّماءُ انْشَقَّتْ " فالتقدير : إذا انشقت السماء . فالسماء فاعل لفعل محذوف يفسره ما بعده .

ج – إذا الفجائية :

وهي تختص بالجمل الاسمية ، ولا تحتاج إلى جواب ، ولا تقع في ابتداء الكلام ، ومعناها الحال . والأرجح أنها حرف ، نحو قوله تعالى :

" فَأَلْقاها فَإِذا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعى " . وتكون جوابا للجزاء ، كالفاء ، قال اللّه تعالى :

" وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذا هُمْ يَقْنَطُونَ " . وحول إذا تفسيرات وخلافات تجدها في المطولات من كتب النحو .

[سورة النور (24) : آية 50]

أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (50)

الإعراب :

(الهمزة) للاستفهام الإنكاريّ (في قلوبهم) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ (مرض) (أم) هي المنقطعة بمعنى بل والهمزة في الموضعين (عليهم) متعلّق بـ (يحيف) .

والمصدر المؤوّل (أن يحيف . . .) في محلّ نصب مفعول به عامله يخافون (بل) للإضراب الانتقاليّ (هم) ضمير فصل " 1 " .

جملة : " في قلوبهم مرض . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " ارتابوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يخافون . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يحيف اللّه . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة : " أولئك . . الظالمون " لا محلّ لها استئنافيّة .

[سورة النور (24) : الآيات 51 إلى 53]

إِنَّما كانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنا وَأَطَعْنا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (51) وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفائِزُونَ

(52) وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لا تُقْسِمُوا طاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ (53)

الإعراب:

(إنّما) كافّة ومكفوفة (قول) خبر كان منصوب (إذا دعوا . . .

بينهم) مرّ إعرابها " 2 " ، (الواو) استئنافيّة. والمصدر المؤوّل (أن يقولوا . .) في محلّ

---

(1) أو ضمير منفصل مبتدأ خبره الظالمون، والجملة الاسميّة هم الظالمون خبر المبتدأ (أولئك).

(2) في الآية (48) من هذه السورة. [. . . . .]

رفع اسم كان مؤخّر.

جملة: "كان قول . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: " دعوا . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه . . وجواب الشرط محذوف دلّ عليه ما قبله أي فإنّما قولهم سمعنا . . " 1 ".

وجملة: " يحكم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفي (أن) المضمر.

وجملة : " يقولوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفي (أن) المذكور .

وجملة : " سمعنا . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " أطعنا . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة سمعنا .

وجملة : " أولئك . . المفلحون " لا محلّ لها استئنافيّة " 2 " .

52 - 53 - (الواو) عاطفة (باللّه) متعلّق بـ (أقسموا) ، (جهد) مفعول مطلق نائب عن المصدر فهو مرادفه بالفعل أو مبيّن لنوعه منصوب " 3 " ، (اللام) موطّئة للقسم (أمرت) فعل ماض مبنيّ على السكون في محلّ جزم فعل الشرط (اللام) الثانية لام القسم (يخرجنّ) مضارع مرفوع وعلامة الرفع ثبوت النون ، وقد حذفت لتوالي الأمثال ، و(الواو) المحذوفة لالتقاء الساكنين فاعل ، و(النون) نون التوكيد (لا) ناهية جازمة (طاعة) مبتدأ " 4 " خبره محذوف أي خبر من قسمكم (ما) حرف مصدريّ " 5 " .

والمصدر المؤوّل (ما تعملون) في محلّ جرّ بالباء متعلّق بالخبر (خبير) .

وجملة : " من يطع . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة إنّما كان قول . .

وجملة : " يطع . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) .

---

(1) يجوز أن يكون الظرف (إذا) مجرّدا من الشرط ، متعلّق بـ (قول) .

(2) يجوز أن تكون اعتراضيّة بين الجمل المتعاطفة .

(3) يجوز أن يكون منصوبا على الحال بتأويل مشتقّ أي جاهدين .

(4) يجوز أن يكون خبرا لمبتدأ محذوف أي : أمرنا طاعة معروفة .

(5) أو اسم موصول في محلّ جرّ ، والعائد محذوف أي تعملونه . . والجملة بعده صلة .

الجدول ج 18 ، ص : 284

وجملة : " يخش . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة يطع .

وجملة : " يتّقه . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة يطع .

وجملة : " أولئك . . الفائزون " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

(521/555)

وجملة : " وجملة أقسموا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة إنّما كان قول . .

وجملة : " إن أمرتهم . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ - أو تفسير لمضمون القسم .

وجملة : " يخرجنّ . . . " لا محلّ لها جواب قسم مقدّر . . وجواب الشرط محذوف دلّ عليه جواب القسم .

وجملة : " قل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " لا تقسموا . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " طاعة معروفة (خير) " لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة : " إنّ اللّه خبير " لا محلّ لها تعليل آخر .

وجملة : " تعملون " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) .

الصرف :

(معروفة) ، مؤنّث معروف ، اسم مفعول من عرف الثلاثيّ ، وزنه مفعول ومفعولة .

البلاغة

الاستعارة : في قوله تعالى " جَهْدَ أَيمانِهِمْ "

.

ومعنى جهد اليمين بلوغ غايتها ، بطريق الاستعارة ، من قولهم : جهد نفسه إذا بلغ أقصى وسعها وطاقتها ، والمراد : أقسموا ، بالغين أقصى مراتب اليمين في الشدة والوكادة .

الفوائد

- تقدّم خبر كان وأخواتها على اسمها : يجوز تقديم خبر هذه الأفعال على أسمائها ، مثل وكان حقا علينا نصر المؤمنين ، إلا إذا منع مانع ، مثل حصر الخبر نحو : " وَما كانَ صَلاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكاءً وَتَصْدِيَةً " ، أو بسبب خفاء إعرابها ، نحو : " أكرم موسى عيسى " فيحدث تقديم الاسم وتأخير الخبر . .

وقد يكون التوسط واجبا نحو " كان في الدار ساكنها " .

[سورة النور (24) : آية 54]

قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّما عَلَيْهِ ما حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ ما حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَما عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ (54)

الإعراب :

(522/555)

(الفاء) الأولى استئنافيّة ، والثانية رابطة لجواب الشرط - أو تعليليّة - (إنّما) كافّة ومكفوفة (عليه) متعلّق بمحذوف خبر مقدّم (ما) حرف مصدريّ " 1 " في الموضعين ، ونائب الفاعل لفعل (حمّل) ضمير يعود على الرسول . .

والمصدر المؤوّل (ما حمّل . .) في محلّ رفع مبتدأ مؤخّر .

(عليكم ما حمّلتم) مثل عليه ما حمّل ، (الواو) عاطفة ، والثانية استئنافيّة (ما) نافية مهملة (على الرسول) متعلّق بخبر مقدّم (إلّا) أداة حصر (البلاغ) مبتدأ مؤخّر .

جملة : " قل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " أطيعوا . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " أطيعوا (الثانية) " في محلّ نصب معطوفة على جملة أطيعوا (الأولى) .

---

(1) أو اسم موصول مبتدأ مؤخّر - في الموضعين - والعائد محذوف أي حمّله ، وحمّلتموه .

وجملة : " تولّوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة . . وجواب الشرط مقدّر أي :

فلا ضرر عليه " 1 " .

وجملة : " عليه ما حمّل . . . " لا محلّ لها تعليل للجواب المقدّر " 2 " .

وجملة : " حمّل . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) .

وجملة : " عليكم ما حمّلتم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة عليه ما حمّل .

وجملة : " حمّلتم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) الثاني .

وجملة : " تطيعوه . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة إن تولّوا . .

وجملة : " تهتدوا . . . " لا محلّ لها جواب الشرط غير مقترنة بالفاء .

وجملة : " ما على الرسول إلّا البلاغ " لا محلّ لها استئنافيّة " 3 " .

[سورة النور (24) : آية 55]

وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ (55)

الإعراب :

المفعول الثاني لـ (وعد) محذوف أي وعدهم الاستخلاف والتمكين (منكم) متعلّق بحال من فاعل آمنوا (اللام) لام القسم لقسم مقدّر " 4 " ، (في الأرض) متعلّق بـ (يستخلفنّهم) ، (ما) حرف مصدريّ . .

---

(1) يجوز في الفعل (تولّوا) أن يكون ماضيا ، وأن يكون مضارعا حذف منه إحدى التاءين ، والمضارع أظهر لمجيء فعل (تطيعوه) معطوفا عليه .

(2) يجوز أن تكون الجملة هي جواب الشرط في محلّ جزم .

(3) أو في محلّ نصب حال من ضمير الغائب في (تطيعوه) .

(4) يجوز أن يجري لفظ الوعد مجرى القسم فيكون جواب القسم جوابا لـ (وعد اللّه . .) .

(524/555)

والمصدر المؤوّل (ما استخلف . .) في محلّ جرّ بالكاف متعلّق بمحذوف مفعول مطلق عامله (يستخلفنّ) .

(من قبلهم) متعلّق بمحذوف صلة الموصول (الذين) ، (الواو) عاطفة (ليمكننّ) مثل

ليستخلفنّ (لهم) متعلّق بـ (يمكننّ) ، و(لهم) الثاني متعلّق بـ (ارتضى) ، (الواو) عاطفة (ليبدّلنّهم) مثل ليمكننّ (من بعد) متعلّق بـ (يبدّلنّهم) ، (أمنا) مفعول به ثان منصوب ، و(النون) الثانية في (يعبدونني) نون الوقاية (بي) متعلّق بـ (يشركون) ، (الواو) عاطفة (بعد) ظرف منصوب متعلّق بـ (كفر) ، (الفاء) رابطة لجواب الشرط (هم) للفصل " 1 " .

جملة : " وعد اللّه . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " آمنوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " عملوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

وجملة : " يستخلفنّهم . . . " لا محلّ لها جواب القسم المقدّر .

وجملة : " استخلف . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) .

وجملة : " يمكّننّ . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب القسم .

وجملة : " ارتضى . . . لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة : " يبدّلنّهم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب القسم .

وجملة : " يعبدونني . . . " في محلّ نصب حال من مفعول يبدّلنّهم " 2 " .

وجملة : " لا يشركون . . . " في محلّ نصب حال من فاعل يعبدون .

وجملة : " من كفر . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة وعد اللّه .

وجملة : " كفر . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) .

---

(1) أو هو ضمير منفصل مبتدأ خبره الفاسقون . . والجملة الاسميّة خبر المبتدأ (أولئك) .

(2) يجوز أن تكون الجملة حالا من مفعول وعد أو من مفعول يستخلفنّهم أو من فاعله أو من فاعل يبدّلنّهم .

(525/555)

وجملة : " أولئك . . الفاسقون " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

الفوائد

أجمع الرواة أن الرسول (صلى اللّه عليه وآله وسلم) لبث بمكة هو وأصحابه عشر سنين خائفين .

ولما هاجروا إلى المدينة ، كانوا يصبحون بالسلاح ويمسون بالسلاح ، حتى قال قائلهم : ما يأتي علينا يوم ، نأمن فيه ، ونضع السلاح . فقال النبي (صلى اللّه عليه وآله وسلم) " لا تغبرون إلا يسيرا ، حتى يجلس الرجل منكم إلى الملأ العظيم ، محتبيا ، ليس معه حديدة " .

فأنجز اللّه وعده ، وأظهرهم على جزيرة العرب ، وافتتحوا بلاد المشرق والمغرب ، ومزّقوا

ملك الأكاسرة، وملكوا خزائنهم، واستولوا على الدنيا . . فليعتبر من يعتبر . . .

[سورة النور (24) : آية 56]

وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (56)

الإعراب:

(الواو) استئنافيّة، والثانية والثالثة عاطفتان، و(الواو) في (ترحمون) نائب الفاعل.

(526/555)

جملة: "أقيموا . . . "لا محلّ لها استئنافيّة" 1 ".

وجملة: "آتوا . . . "لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة.

وجملة: "أطيعوا . . . "لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة.

وجملة: "لعلّكم ترحمون "لا محلّ لها استئناف بيانيّ - أو تعليليّة - وجملة: "ترحمون" في محلّ رفع خبر لعلّ

---

(1) بعض المفسّرين عطفها على قوله: أطيعوا اللّه . . . في الآية (54) من هذه السورة، فهي في محلّ نصب.

[سورة النور (24) : آية 57]

لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْواهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ (57)

الإعراب :

(لا) ناهية جازمة (تحسبنّ) مضارع مبنيّ على الفتح في محلّ جزم ، والفاعل أنت (معجزين) مفعول به ثان منصوب ، وعلامة النصب الياء (في الأرض) متعلّق بـ (معجزين) (الواو) عاطفة والثانية استئنافيّة (اللام) لام القسم لقسم مقدّر (بئس) فعل ماض جامد لإنشاء الذمّ (المصير) فاعل بئس مرفوع ، والمخصوص بالذمّ محذوف .

جملة : "لا تحسبنّ . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : "كفروا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " مأواهم النار . . . " لا محلّ لها معطوفة على استئناف مقدّر أي : بل هم مقهورون ومأواهم النار " 1 " .

وجملة : " بئس المصير " لا محلّ لها جواب قسم مقدّر .

---

(1) يجوز عطفها على الاستئنافيّة الإنشائيّة برغم كونها خبرا . [. . . . .]

[سورة النور (24) : الآيات 58 إلى 60]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلاةِ الْعِشاءِ ثَلاثُ عَوْراتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلا عَلَيْهِمْ جُناحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلى بَعْضٍ كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآياتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (58) وَإِذا بَلَغَ الْأَطْفالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَما اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آياتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (59) وَالْقَواعِدُ مِنَ النِّساءِ اللاَّتِي لا يَرْجُونَ نِكاحاً فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُناحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (60)

الإعراب :

(أيها) منادى نكرة مقصودة مبنيّ على الضمّ في محلّ نصب (الذين) بدل من أيّ في محلّ نصب (اللام) لام الأمر (الذين) الثاني معطوف على الموصول الأول فاعل يستأذن في محلّ رفع (منكم) متعلّق بحال من فاعل يبلغوا (ثلاث) مفعول مطلق نائب عن المصدر فهو عدده " 1 " ، (من قبل) متعلّق بـ (يستأذنكم) ، (حين) ظرف منصوب متعلّق بـ (يستأذنكم) ، (من الظهيرة) متعلّق بـ (تضعون) ، و(من) إمّا لبيان الجنس أي من وقت الظهيرة أو هي سببيّة أي بسبب حرّ الظهيرة (من بعد) متعلّق بـ (يستأذنكم) ، (ثلاث) خبر لمبتدأ محذوف تقديره هي أو هذه ، بحذف مضاف أي : أوقات ثلاث عورات (لكم) متعلّق بنعت لـ (عورات) ، (عليكم) متعلّق بخبر ليس (لا) زائدة لتأكيد النفي (عليهم) مثل الأول ومعطوف عليه (جناح) اسم ليس مؤخّر مرفوع (بعدهنّ) ظرف منصوب متعلّق بالاستقرار الذي تعلّق به عليكم وعليهم (طوّافون) خبر لمبتدأ محذوف تقديره هم (عليكم) متعلّق بـ (طوّافون) (بعضكم) مبتدأ خبره الجارّ (على بعض) " 2 " ، (كذلك) متعلّق بمحذوف مفعول

---

(1) بعضهم جعله ظرفا لأنّه مفسّر بأوقات الفجر والظهيرة والعشاء .

(2) أي طائف على بعض ، ولا يمنع أن يكون الخبر المحذوف كونا خاصّا لدلالة ما قبله

مطلق عامله يبيّن (لكم) متعلّق بـ (يبيّن) ، (الواو) اعتراضيّة – أو حاليّة – (حكيم) خبر ثان مرفوع.

جملة : " النداء وجوابها . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة : " آمنوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " يستأذنكم الذين " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " ملكت أيمانكم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) الثاني .

وجملة : " لم يبلغوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) الثالث .

وجملة : " تضعون . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " ليس عليكم . . . جناح " في محلّ رفع نعت لثلاث . . أو في محلّ جرّ نعت لعورات .

(531/555)

وجملة : " (هي) ثلاث . . . " لا محلّ لها استئناف في حيّز النداء .

وجملة : " (هم) طوّافون . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة : " بعضكم على بعض " لا محلّ لها بدل من جملة هم طوّافون .

وجملة : " يبيّن اللّه . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " اللّه عليم . . . " لا محلّ لها اعتراضيّة - أو في محلّ نصب حال - " 1 " .

59 - (الواو) عاطفة (منكم) متعلّق بحال من الأطفال (الفاء) رابطة لجواب الشرط (اللام) لام الأمر (ما) حرف مصدريّ (من قبلهم) متعلّق بمحذوف صلة الموصول (الذين) . .

والمصدر المؤوّل (ما استأذن) في محلّ جرّ بالكاف متعلّق بمحذوف مفعول

عليه . . ويجوز أن يكون بدلا من (طوّافون) على رأي ابن عطيّة ، أو هو فاعل لفعل محذوف تقديره يطوف بعضكم ، على رأي الزمخشريّ . .

(1) أو استئنافيّة في حكم التعليل .

مطلق عامله يستأذنوا ، (كذلك يبيّن . . . عليم حكيم) مرّ إعراب نظيرها في الآية السابقة .

وجملة : " بلغ الأطفال . . . " في محلّ مضاف إليه .

وجملة : " يستأذنوا . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " استأذن الذين . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) .

وجملة : " يبيّن اللّه . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " اللّه عليم " لا محلّ لها اعتراضيّة - أو في محلّ نصب حال - " 1 " .

60 - (الواو) عاطفة (من النساء) حال من القواعد (اللاتي) اسم موصول في محلّ رفع نعت للقواعد (لا) نافية (يرجون) مضارع مبنيّ على السكون . .

و(النون) ضمير في محلّ رفع فاعل (الفاء) زائدة " 2 " ، (عليهنّ) متعلّق بخبر ليس (جناح) اسم ليس مؤخّر مرفوع (يضعن) مضارع مبنيّ على السكون في محلّ نصب بأن . .

و(النون) فاعل .

والمصدر المؤوّل (أن يضعن . .) في محلّ جرّ بـ (في) محذوف متعلّق بـ (جناح) أي في أن يضعن .

---

(1) أو استئنافيّة في حكم التعليل .

(2) سبب زيادة الفاء أنّ المبتدأ وصف بالموصول الذي يصحّ أن يكون مبتدأ لو حذف المبتدأ ، وهو يشبه الشرط ، أو لأنّ (ال) في القواعد هي اسم موصول .

(غير) حال منصوبة من النون في (يضعن) ، (بزينة) متعلّق بـ (متبرّجات) (الواو) عاطفة (أن يستعففن) مثل أن يضعن (لهنّ) متعلّق بـ (خير) ، (الواو) استئنافيّة . . والمصدر المؤوّل (أن يستعففن) في محلّ رفع مبتدأ خبره (خير) .

وجملة : " القواعد . . ليس عليهنّ " لا محلّ لها معطوفة على جملة : إذا بلغ . . . من الشرط وفعله وجوابه المعطوفة على جملة جواب النداء .

وجملة : " لا يرجون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (اللاتي) .

وجملة : " ليس عليهنّ جناح . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (القواعد) . .

وجملة : " يضعن . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة : " (الاستعفاف) خير لهنّ " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يستعففن . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة : " اللّه سميع . . . " لا محلّ لها استئناف في حكم التعليل .

الصرف :

(الحلم) ، اسم للبلوغ أو مصدر من الثلاثيّ حلم يحلم باب نصر ، وزنه فعل بضمّتين .

(الظهيرة) ، اسم لوقت الظهر وانتصاف النهار ، وزنه فعيلة بفتح الفاء .

(طوّافون) ، جمع طوّاف ، مبالغة اسم الفاعل من طاف يطوف وزنه فعّال . .

(60) القواعد : جمع قاعد – من غير تاء – لأنها صفة لمن قعدت عن حيض أو زواج أو حبل . . . اسم فاعل من الثلاثيّ قعد ، وزنه فاعل والجمع فواعل .

(متبرّجات) ، جمع متبرّجة ، مؤنّث متبرّج ، اسم فاعل من تبرّج الخماسيّ وهو التكلّف في إظهار ما يخفى ، وزنه متفعّل بضمّ الميم وكسر العين المشدّدة .

البلاغة

عكس الظاهر : في قوله تعالى " غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ " .

(534/555)

وبعضهم يسمي هذا الفن نفي الشيء بإيجابه ، وهو من محاسن الكلام ، فإذا تأملته ، وجدت باطنه نفيا وظاهره إيجابا ، أو أن تذكر كلاما ، يدل ظاهره على أنه نفي لصفة موصوف ، وهو نفي للموصوف أصلا ، والمراد هنا في الآية " والقواعد من النساء اللاتي لا زينة لهن فيتبرجن بها " لأن الكلام فيمن هي بهذه المثابة ، وكأن الغرض من ذلك ، أن هؤلاء استعففهن عن وضع الثياب خير لهن ، فما ظنك بذوات الزينة من الثياب ، وأبلغ ما في ذلك ، أنه جعل عدم وضع الثياب في حق القواعد في الاستعفاف ، إيذانا بأن وضع الثياب لا مدخل له في العفة ، هذا في القواعد فكيف بالكواعب ؟ ! .

الفوائد

1 – الظرف غير المتصرف :

الظرف غير المتصرف نوعان :

أ – النوع الأول : ما يلازم النصب على الظرفية أبدا ، فلا يستعمل إلا ظرفا منصوبا ، نحو " قط وعوض وبينا وبينما وإذا وأيان وأنى وذا صباح وذات ليلة " ومنه ما ركّب من الظروف ، كصباح مساء ، وليل ليل .

ب – النوع الثاني : ما يلزم النصب على الظرفية ، أو الجرّ بمن أو إلى أو حتى أو مذ أو منذ ، نحو قبل وبعد ، كما في الآية ، وكذلك فوق وتحت ولدي ولدن وعند ومتى وأين وهنا وثمّ وحيث والآن .

وتجرّ قبل وبعد بـ من من حروف الجر ، وتجرّ فوق وتحت بـ من وإلى ، وتجرّ لدى ولدن وعند بـ من ، وتجرّ متى بـ إلى وحتى ، وتجرّ أين وهنا وثمّ وحيث بـ من وإلى ، وقد تجرّ حيث بـ في أيضا ، وتجرّ الآن بـ من وإلى ومذ ومنذ . وفي ذلك شروح .

2 – أسباب النزول :

قيل : إن مدلج بن عمرو ، وهو غلام أنصاري ، أرسل من قبل رسول اللّه (صلى اللّه عليه وآله وسلم) ليدعو عمر وقت الظهيرة ، فدخل عليه وهو نائم ، وقد انكشف عنه ثوبه ، فقال عمر :

لوددت أن اللّه عز وجل نهى آباءنا ، وأبناءنا وخدمنا أن يدخلوا علينا هذه الساعات إلا بإذن . ثم انطلق معه إلى النبي (صلى اللّه عليه وآله وسلم) فوجده وقد أنزلت هذه الآية .

وهي إحدى الآيات المنزلة بسبب عمر .

وقيل : نزلت في أسماء بنت أبي مرثد .

وقيل : نزلت بأعرابي نظر إلى بيت رسول اللّه (صلى اللّه عليه وآله وسلم) من خصاص الباب . وقد تتكرر الحوادث ويبقى السبب واحدا فتأمّل .

[سورة النور (24) : آية 61]

لَيْسَ عَلَى الْأَعْمى حَرَجٌ وَلا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلا عَلى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَواتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خالاتِكُمْ أَوْ ما مَلَكْتُمْ مَفاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتاتاً فَإِذا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبارَكَةً طَيِّبَةً كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآياتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (61)

الإعراب :

(ليس على الأعمى حرج) مثل ليس عليكم . . . جناح " 1 " ، وكذلك (على الأعرج حرج ، على المريض حرج) فهو معطوف على خبر ليس واسمه و(لا) زائدة لتأكيد النفي في المواضع الثلاثة (على أنفسكم) متعلّق بما تعلّق به (على الأعمى) لأنّه معطوف عليه " 2 " ، (من بيوتكم) متعلّق بـ (تأكلوا) ، (أو) حرف عطف للإباحة في المواضع العشرة ، والأسماء المضافة في ما بين حروف العطف متعاطفة مجرورة . .

---

(1) في الآية (58) من هذه السورة .

(2) قيل (لا) هنا نافية للجنس ، واسمها محذوف دلّ عليه ما قبله أي لا حرج على أنفسكم ، والجارّ خبر لا .

والمصدر المؤوّل (أن تأكلوا . .) في محلّ جرّ بحرف جرّ محذوف متعلّق بـ (حرج) أي حرج في أن تأكلوا .

(جميعا) حال منصوبة من فاعل تأكلوا (أو) حرف عطف للتخيير (أشتاتا) معطوف على (جميعا) منصوب (الفاء) عاطفة والثانية رابطة لجواب الشرط (على أنفسكم) متعلّق بـ (سلّموا) (تحيّة) مفعول مطلق نائب عن المصدر فهو مرادفه (من عند) متعلّق بنعت لـ

(تحيّة) ، (كذلك يبيّن . . .

تعقلون) مرّ إعراب نظيرها " 1 " .

جملة : " ليس على الأعمى حرج . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " تأكلوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة : " ملكتم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " ليس عليكم جناح " لا محلّ لها استئنافيّة مؤكّدة .

وجملة : " تأكلوا (الثانية) " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) الثاني .

وجملة : " دخلتم . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " سلّموا . . . " لا محلّ لها جواب الشرط غير الجازم .

وجملة : " يبيّن اللّه . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " لعلّكم تعقلون . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ – أو تعليليّة – وجملة : " تعقلون " في محلّ رفع خبر لعلّ .

الصرف :

(الأعرج) ، صفة مشبّهة من عرج الثلاثيّ باب فرح وباب فتح ، وزنه أفعل ، والمؤنّث عرجاء زنة فعلاء .

(أعمام) ، جمع عمّ اسم أخي الأب ، وزنه فعل بفتح فسكون ، وجاءت العين واللام من

حرف واحد .

---

(1) في الآيتين (56 ، 58) من هذه السورة .

(أخوال) ، جمع خال اسم أخي الأم ، وزنه فعل بفتحتين ، وفيه إعلال بالقلب أصله خول ، تحرّكت الواو بعد فتح قلبت ألفا .

(صديق) ، صفة مشبّهة من صدق الثلاثيّ باب نصر ، وزنه فعيل ، جمعه أصدقاء وصدقاء بضمّ الصاد وفتح الدال ، وصدقان بضمّ فسكون ، وجمع الجمع أصادق زنة أفاعل ، مؤنثه صديقة زنة فعيلة . . قيل صديق هو للمفرد والجمع .

(أشتاتا) ، جمع شتّ ، وهو مصدر يستعمل وصفا ، فعله شتّ الأمر يشتّ بالكسر باب ضرب بمعنى تفرّق ، وزنه فعل بفتح فسكون والعين واللام من حرف واحد . . وشتّى جمع شتيت كمرضى جمع مريض ووزن أشتات أفعال .

الفوائد

- من صور رفع الحرج :

في تفسير هذه الآية عدة وجوه ، نختار لك منها :

أ- تحرج هؤلاء الأصناف، من مؤاكلة المبصرين الأصحاء، فنزلت هذه الآية، ترفع عنهم الحرج.

ب- وقيل: نزلت بذوي العاهات، كان يذهب بهم إلى بيوت أقربائهم لتناول الطعام، وقد تحرجوا من ذلك، فنزلت بهم هذه الآية.

ج- وقيل: نزلت في رفع الحرج عمن يستخلفونه في بيوتهم وأموالهم أثناء الغزو.

د- وقيل: إنها نزلت رخصة لهذه الفئات من الناس في التخلف عن الجهاد. والله أعلم

الجدول ج 18، ص: 298

[سورة النور (24): آية 62]

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (62)

الإعراب:

(إنّما) كافّة ومكفوفة (الذين) خبر المبتدأ (المؤمنون) (باللّه) متعلّق بـ (آمنوا)، (الواو) عاطفة (معه) ظرف منصوب متعلّق بخبر كانوا (حتّى) حرف غاية وجرّ (يستأذنوه) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد حتّى.

والمصدر المؤوّل (أن يستأذنوه . .) في محلّ جرّ بـ (حتّى) متعلّق بـ (لم يذهبوا) ، (أولئك) مبتدأ خبره (الذين) (باللّه) الثاني متعلّق بـ (يؤمنون) ، (الفاء) عاطفة (لبعض) متعلّق بـ (استأذنوك) ، (الفاء) رابطة لجواب الشرط (لمن) متعلّق بـ (ائذن) ، (منهم) متعلّق بحال من الضمير المحذوف العائد أي : شئت إذنه منهم (لهم) متعلّق بـ (استغفر) ، (رحيم) خبر ثان لـ (إنّ) .

جملة : " المؤمنون الذين . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " آمنوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) الأول .

وجملة : " كانوا . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " لم يذهبوا . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " يستأذنوه . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

وجملة : " إنّ الذين . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة : " يستأذنونك . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) الثاني .

وجملة : " أولئك الذين . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " يؤمنون باللّه . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) الثالث .

وجملة : " استأذنوك . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة: "ائذن . . . "لا محلّ لها جواب شرط غير جازم.

وجملة: "شئت . . . "لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة: "استغفر . . . "لا محلّ لها معطوفة على جملة ائذن.

وجملة: "إنّ اللّه غفور . . . "لا محلّ لها استئنافيّة في حكم التعليل.

[سورة النور (24) : الآيات 63 إلى 64]

(539/555)

لا تَجْعَلُوا دُعاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِواذاً فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (63) أَلا إِنَّ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ ما أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (64)

الإعراب:

(لا) ناهية جازمة (بينكم) ظرف منصوب متعلّق بحال من دعاء الرسول (كدعاء) متعلّق بمفعول ثان (بعضا) مفعول به للمصدر دعاء ، منصوب (قد) حرف تحقيق (منكم) متعلّق بحال من فاعل يتسلّلون أي من جماعتكم (لواذا) مصدر في موضع الحال " 1 " ، (الفاء)

رابطة لجواب شرط مقدّر (اللام) لام الأمر ، وعلامة الجزم في (يحذر) السكون وحرّك بالكسر لالتقاء الساكنين (عن أمره) متعلّق بـ (يخالفون) بتضمينه معنى يصدّون .

---

(1) أو مفعول مطلق نائب عن المصدر فهو يلاقي الفعل في المعنى ، أي يتسلّلون بمعنى يلاوذون .

والمصدر المؤوّل (أن تصيبهم . . .) في محلّ نصب مفعول به عامله يحذر .

(أو) حرف عطف (يصيبهم) مضارع منصوب معطوف على (تصيبهم) .

جملة : " لا تجعلوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

جملة : " قد يعلم اللّه . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة : " يتسلّلون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) الأول .

وجملة : " ليحذر . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي إن يعلم اللّه أفعالكم فليحذر الذين " 1 " . . . .

وجملة : " يخالفون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) الثاني .

وجملة : " تصيبهم فتنة . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة : " يصيبهم عذاب " لا محلّ لها معطوفة على جملة تصيبهم فتنة .

---

(1) العلاقة بين هذه الجملة والجملة التي قبلها (قد يعلم اللّه . .) هي علاقة المسبّب بالسبب .

---

64 - (ألا) أداة تنبيه (للّه) متعلّق بمحذوف خبر مقدّم (ما) موصول في محلّ نصب اسم إنّ (في السموات) متعلّق بمحذوف صلة ما (قد يعلم) مثل الأول (عليه) متعلّق بخبر المبتدأ (أنتم) (الواو) عاطفة (يوم) معطوف على الموصول المفعول (ما أنتم . .) ، و(الواو) في (يرجعون) نائب الفاعل في محلّ رفع (الفاء) عاطفة (ما) اسم موصول في محلّ جرّ متعلّق بـ (ينبّئهم) ، والعائد محذوف (بكلّ) متعلّق بالخبر (عليم) .

وجملة : " إنّ للّه ما في السموات . . . " لا محلّ لها في حكم التعليل لما سبق .

وجملة : " قد يعلم . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " أنتم عليه " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " يرجعون . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " ينبّئهم . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة يرجعون .

وجملة : " عملوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الثاني .

وجملة : " اللّه . . . عليم " لا محلّ لها تعليليّة .

الصرف :

(لواذا) ، مصدر سماعيّ للثلاثيّ لاذ بالقوم أي التجأ إليهم ، وزنه فعال بكسر الفاء ، وثمّة مصادر أخرى منها لوذ ، ولواذ بتثليث اللام .

الفوائد

1 – من آداب الاجتماع :

هذه الآية وإن كانت قد نزلت معرّضة بتصرفات المنافقين وخروجهم على آداب الاجتماع ، فإنها تضع نظاما لهذه الآداب ، إذ لا يجوز لمن يدعى لاجتماع يبحث به شأن من الشؤون العامة والهامة ، أن ينصرف متى شاء ، دون استئذان من المشرف على إدارة الاجتماع ، والمسؤول عن دعوته ونظامه . ولا يتصرف هذا التصرف إلا رجل شاذ لا يقيم للآداب الاجتماعية وزنا .

2 – تحدثنا سابقا عن " قد " بالتفصيل . ونعود الآن فنؤكد ، أنها إذا دخلت على المضارع أفادت التقليل وكانت بمعنى " ربما " ومن ذلك قول زهير بن أبي سلمى :

أخي ثقة لا تهلك الخمر ماله ولكنه قد يهلك المال نائله

الثقة : من وثق ، حذفت فاؤه لأنه من الفعل المعتل بالفاء " المثال " وعوض عنها بالتاء المربوطة ومثلها وعد عدة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الجدول حـ 18 صـ 263 . 301 ﴾

(543/555)

وقال العلامة محيي الدين الدرويش :

(اللَّهُ نُورُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكاةٍ فِيها مِصْباحٌ) اللّه مبتدأ ونور السموات والأرض خبره ومثل مبتدأ ونوره مضاف اليه والكاف اسم بمعنى مثل خبر ومشكاة مضاف اليه ، ويجوز اعراب الكاف حرف جر والجار والمجرور خبر مثل ، وفيها خبر مقدم ومصباح مبتدأ مؤخر والجملة صفة لمشكاة وسيأتي تحقيق هذا الكلام في باب البلاغة وجملة مثل نوره تفسير لما قبلها فلا محل لها .

(الْمِصْباحُ فِي زُجاجَةٍ) مبتدأ وخبر والجملة تفسير لما قبلها فلا محل لها .

(الزُّجاجَةُ كَأَنَّها كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ) الزجاجة مبتدأ وكأن واسمها وكوكب خبرها ودري صفة لكوكب والجملة خبر الزجاجة وجملة

الزجاجة إلخ تفسير لما قبلها فلا محل لها وجملة يوقد صفة ثانية لكوكب ونائب الفاعل مستتر ومن شجرة جار ومجرور متعلقان بيوقد وهي لابتداء الغاية على حذف مضاف أي من زيت شجرة ومباركة صفة لشجرة وزيتونة بدل من شجرة ولا شرقية صفة ثانية لشجرة ودخلت لا لتفيد النفي فلا تحول بين الصفة والموصوف ، ولا غربية عطف وسيأتي المزيد من بيان هذا المعنى في باب البلاغة . (يَكادُ زَيْتُها يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نارٌ نُورٌ عَلى نُورٍ) هذه الجملة صفة ثالثة لشجرة ويكاد فعل مضارع ناقص من أفعال المقاربة وزيتها اسمها وجملة يضيىء خبرها ، ولو الواو حالية ولو شرطية ولم حرف نفي وقلب وجزم وتمسسه فعل مضارع مجزوم بلم وجواب لو محذوف أي لأضاء بدلالة ما تقدم عليه والجملة حال فلو هنا تفيد استقصاء الأحوال أي حتى في هذه الحال ونار فاعل تمسسه ونور خبر

لمبتدأ محذوف أي هذا الذي شبهت به الحق نور متضاعف وعلى نور متعلقان بمحذوف صفة لنور مؤكدة له وسيأتي سر تنكسير النور في باب البلاغة . (يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) الجملة مستأنفة مسوقة لتقرير تنفيذ مشيئته سبحانه ، ولنوره متعلقان بيهدي ومن يشاء مفعول يهدي وجملة يشاء صلة

ويضرب اللّه فعل مضارع وفاعل والأمثال مفعول به وللناس متعلقان بيضرب ، واللّه الواو استئنافية أو عاطفة واللّه مبتدأ وبكل شيء متعلقان بعليم وعليم خبر اللّه . (فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ) في بيوت صفة لمشكاة أي كمشكاة في بيوت أو لمصباح أو لزجاجة أو متعلقان بيوقد ، وعلى هذا لا يوقف على عليم ، ولك أن تقف على عليم فتعلقه بمحذوف تقديره سبحوه في بيوت أو بيسبح وقال ابن الأنباري : سمعت أبا العباس يقول : هو حال للمصباح والزجاجة والكوكب كأنه قيل : وهو في بيوت ، وقيل متعلقان بتوقد أي توقد في بيوت ، وجملة أذن اللّه صفة لبيوت وأن وما في حيزها نصب بنزع الخافض أي في أن ترفع ، ويذكر عطف على ترفع بالبناء للمجهول وفيها متعلقان بيذكر واسمه نائب فاعل . (يُسَبِّحُ لَهُ فِيها بِالْغُدُوِّ وَالْآصالِ) (رِجالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقامِ الصَّلاةِ وَإِيتاءِ الزَّكاةِ) الجملة صفة ثانية لبيوت وله متعلقان بيسبح وبالغدو والآصال حال ورجال فاعل يسبح وجملة لا تلهيهم صفة لرجال وتجارة فاعل تلهيهم ولا بيع عطف على تجارة وعن ذكر اللّه متعلقان بتلهيهم وما بعده عطف على ذكر اللّه . (

يَخافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصارُ) الجملة صفة ثانية لرجال أو حال من مفعول تلهيهم ويخافون فعل وفاعل ويوما مفعول به لا ظرف وجملة تتقلب صفة ليوما وفيه متعلقان بتتقلب والقلوب فاعل تتقلب والابصار عطف على القلوب . (لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ ما عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ)

اللام للتعليل ويجزيهم مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل والهاء مفعول به أول والله فاعل وأحسن مفعول به ثان وما مضاف اليه وجملة عملوا صلة ويزيدهم عطف على ليجزيهم ومن فضله متعلقان بيزيدهم . (وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ) الواو استئنافية والله مبتدأ وجملة يرزق خبر ومن مفعول به وجملة يشاء صلة وبغير حساب حلل .

البلاغة :

حفلت هذه الآيات بأفانين شتى من البلاغة والبيان وسنسهب فيها بعض الشيء جريا على ما درجنا عليه في هذا الكتاب وسنوزع هذه المباحث نجوما متتالية .

1 - التشبيه البليغ في قوله تعالى " اللَّهُ نُورُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ " والمراد به المضمر الأداة وقد سبق ذكره مع أقسام التشبيه وانما سمي بليغا لحذف واسطة الأداة ولو جازته بسبب هذا الحذف ، وقد تكلم علماء البيان مطولا في هذا التشبيه وحاولوا تجسيد الكيفية التي ساغ فيها هذا التشبيه لأن النور كما هو معلوم كيفية أو عرض يدرك بالبصر فلا يصح حمله على الذات المقدسة ، وأحسن ما يقال فيه أن التشبيه جار على التقريب للذهن ، أي : به تعالى

وبقدرته أنارت أضواء السماء والأرض واستقامت أمورها لأن ظهور الموجودات حصل به كما حصل بالضوء جميع المبصرات ، أو انه على التجوز أي منور السماء والأرض ، أو بتقدير مضاف كقولك زيد عدل أي ذو عدول .

2- التشبيه المرسل في قوله " مثل نوره كمشكاة فيها مصباح . . . الآية " فقد جاء التشبيه هنا بواسطة الأداة وهي الكاف ،

(546/555)

و المراد أن النور الذي شبه به الحق نور متضاعف قد تناحر فيه المشكاة والزجاجة والمصباح والزيت حتى لم تبق بقية مما يقوي النور ، واختلفوا في هذا التشبيه هل هو تشبيه تمثيلي أي مركب قصد فيه تشبيه جملة بجملة من غير نظر إلى مقابلة جزء بجزء بل قصد تشبيه هداه وإتقانه صنعته في كل مخلوق على الجملة بهذه الجملة من النور الذي تتخذونه وهو أبلغ صفات النور عندكم ، أو تشبيه غير تمثيلي أي غير مركب قصد فيه مقابلة جزء بجزء ، وأجاز القرطبي الوجهين وهذا نص عبارته :

" قوله مثل نوره أي صفة دلائله التي يقذفها في قلب المؤمن والدلائل تسمى نورا وقد سمى اللّه تعالى كتابه نورا فقال : " وأنزلنا إليكم نورا مبينا " وسمى نبيه نورا فقال : " قد جاءكم من

اللّه نور وكتاب مبين " وهذا لأن الكتاب يهدي ويبين وكذلك الرسول ، ووجه الاضافة إلى اللّه تعالى أنه مثبت الدلالة ومبينها وواضعها ، وتحتمل الآية معنى آخر ليس فيه مقابلة جزء من المثال بجزء من المثل به بل وقع التشبيه فيه لجملة بجملة وذلك أن يريد مثل نور اللّه الذي هو هداه وإتقانه صنعة كل مخلوق وبراهينه الساطعة على الجملة كهذه الجملة من النور الذي تتخذونه أنتم على هذه الصفة التي هي أبلغ صفات النور الذي بين أيدي الناس فمثل نور اللّه في الوضوح كهذا الذي هو منتهاكم أيها البشر " .

وأبدع الكرخي في تحديده هذا التشبيه التمثيلي فقال :

" . . .

ومثل اللّه نوره أي معرفته في قلب المؤمن بنور المصباح دون نور الشمس مع أن نورها أتم لأن المقصود تمثيل النور في القلب والقلب في الصدر والصدر في البدن بالمصباح والمصباح في الزجاجة والزجاجة في القنديل وهذا التمثيل لا يستقيم إلا فيما ذكر أو لأن نور المعرفة له آلات يتوقف هو على اجتماعها كالذهن والفهم والعقل واليقظة وغيرها

ولأن نور الشمس يشرق متوجها إلى العالم السفلي ونور المعرفة يشرق متوجها إلى العالم العلوي كنور المصباح ، ولكثرة نفع الزيت وخلوصه عما يخالطه غالبا وقع التشبيه في نوره دون نور الشمع مع أنه أتم من نور المصباح " .

3- الطباق : في قوله تعالى " لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ " وقد تكلم علماء البيان كثيرا عن هذا الطباق والمقصود منه ، قال الزمخشري :

" وقيل لا في مضحى ولا في مقناة (وهو المكان الذي لا تطلع عليه الشمس) ولكن الشمس والظل يتعاقبان عليها وذلك أجود لحملها وأصفى لدهنها ، قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : لا خير في شجرة في مقناة ولا نبات في مقناة ولا خير فيهما في مضحى وقيل ليست مما تطلع عليه الشمس في وقت شروقها أو غروبها فقط بل تصيبها بالغداة والعشي جميعا فهي شرقية وغربية " .

ولابن الأثير كلام لطيف في هذا الصدد قال : " أما تمثيل نور اللّه تعالى بمشكاة فيها مصباح فإن هذا مثال ضربه للنبي صلى اللّه عليه وسلم ويدل عليه انه قال : " توقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية " وإذا نظرت إلى هذا الموضع وجدته تشبيها لطيفا عجيبا وذاك أن قلب النبي صلى اللّه عليه وسلم وما ألقي فيه من النور وما هو عليه من الصفة الشفافة كالزجاجة التي كأنها كوكب لصفائها وإضاءتها ، وأما الشجرة المباركة المباركة التي لا شرقية ولا غربية فانها عبارة عن ذات النبي صلى اللّه عليه وسلم لأنه من

أرض الحجاز التي لا تميل إلى الشرق ولا إلى الغرب وأما زيت هذه الزجاجة فإنه مضيء من غير أن تمسه نار والمراد بذلك أن فطرته فطرة صافية من الأكدار منيرة من قبل مصافحة الأنوار " .

(548/555)

4- التنكير : في تنكير قوله " نور على نور " ضرب من الفخامة والمبالغة لا أرشق ولا أجمل منه فليس هو نورا واحدا معينا أو غير معين فوق نور آخر مثله ، وليس هو مجموع نورين اثنين فقط بل هو عبارة عن نور متضاعف من غير تحديد لتضاعفه بحد معين . وقد استهوى هذا التعبير شعراءنا العرب فرمقوا سماءه ، قال أبو تمام يصف غربته في مصر :

أخمسة أعوام مضت لمغيبه وشهران بل يومان ثكل على ثكل

وقال أبو الطيب المتنبي :

أرق على أرق ومثلي يأرق وجوى يزيد وعبرة تترقرق

وقال شوقي في العصر الحديث يرثي المرحوم فوزي الغزي أحد أعلام دمشق :

جرح على جرح حنانك جلق حملت ما يوهي الجبال ويرهق

5- تشابه الأطراف : وهو أن ينظر المتكلم إلى لفظة وقعت في آخر جملة من الفقرة في النثر

أو آخر لفظة وقعت في آخر المصراع الأول في النظم فيبتدىء بها . . . تأمل في تشابه أطراف هذه الجمل المتلاحقة " اللّه نور السموات والأرض ، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ، المصباح في زجاجة ، الزجاجة كأنه كوكب دري " ومن أمثلة الشعر في قول ليلى الأخيلية في الحجاج بن يوسف :

إذا نزل الحجاج أرضا مريضة تتبع أقصى دائها فشفاها

شفاها من الداء العضال الذي بها غلام إذا هز القناة س

قاها سقاها فرواها بشرب سجاله دماء رجال يحلبون حراها

وجميل قول أبي تمام :

هوى كان خلسا إن من أبرد الهوى هوى جلت في افنائه وهو خامل

أبا جعفر إنّ الجهالة أمها ولود وأم العلم حذاء حائل

فكن هضبة نأوى إليها وحرة يعدد عنها الاعوجي المناقل

فإن الفتى في كل ضرب مناسب مناسب روحانية من يشاكل

وينسب لأبي نواس قوله :

خزيمة خير بني حازم وحازم خير بني دارم

ودارم خير تميم وما مثل تميم في بني آدم

إلا البهاليل بني هاشم وهم سيوف لبني هاشم

و قد يكون تشابه الأطراف معنويا وهو أن يختم المتكلم كلامه بما يناسب ابتداءه في المعنى لا في اللفظ كقول محمد بن عبيد اللّه السلامي :

بدائع الحسن فيه مفترقه وأعين الناس فيه متفقة

سهام ألحاظه مفوقه فكل من رام لحظه رشقه

قد كتب الحسن فوق عارضه هذا مليح وحق من خلقه

فالرشق في قافية البيت الثاني يناسب السهام في أوله .

وجميل قول السري الرفاء :

ابريقنا عاكف على قدح كأنه الأم ترفع الولدا

أو عابد من بني المجوس إذا توهم الكأس شعلة سجدا

فالسجود مناسب للعابد في أول البيت .

وبلغ ابن الرومي الغاية في وصف مغنية :

جاءت بوجه كأنه قمر على قوام كأنه غصن

غنت فلم تبق فيّ جارحة إلا تمنيت أنها أذن

فالأذن تناسب ذكر الغناء في أول البيت .

استدراك على بعض النقاد :

هذا وقد خفيت على بعض علماء البيان أسرار التشابه في الأطراف

فجزم بأنه إذا ذكرت اللفظة في أول كلام يحتاج إلى تمام فينبغي أن تعاد بعينها في آخره ومتى عدل عن ذلك كان معيبا ثم مثل ذلك بقول أبي تمام وقول أبي الطيب المتنبي فقال : إن أبا تمام أخطأ في قوله :

بسط الرجاء لنا برغم نوائب كثرت بهن مصارع الآمال

فحيث ذكر الرجاء في صدر البيت كان ينبغي أن يعيد ذكره أيضا في عجزه أو كان ذكر الآمال في صدر البيت وعجزه وكذلك أخطأ أبو الطيب في قوله :

اني لأعلم واللبيب خبير أن الحياة وان حرصت غرور

فإنه قال " إني لأعلم واللبيب خبير " وكان ينبغي أن يقول :

الي لأعلم واللبيب عليم ليكون ذلك تقابلا صحيحا .

هذا ما ذكره الناقد وليس بشيء لأن المعتمد عليه في هذا الصدد أنه إذا كانت اللفظة في معنى أختها جاز .

6- المجاز العقلي : في قوله " يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار " فقد أسند إلى القلوب والأبصار التقلب والاضطراب من الهول والفزع .

وفي قوله " يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار " فن الغلو وهو الافراط في وصف الشيء المستحيل عقلا وعادة وهو ينقسم إلى قسمين مقبول وغير مقبول فالمقبول لا بد أن يقربه الناظم إلى القبول بأداة التقريب ، إلا أن يكون الغلو في مدح النبي صلى الله عليه وسلم فلا غلو حينئذ ويجب على الناظم أن يسبكه في قالب التخيلات التي تدعو العقل إلى قبولها في أول وهلة كالآية الكريمة فإن إضاءة الزيت من غير مس النار مستحيلة عقلا ولكن لفظة يكاد قربته فصار مقبولا .

والقسم الثاني وهو الغلو غير المقبول ، كقول ابي نواس :

وأخفت أهل الشرك حتى أنه لتخافك النطف التي لم تخلق

[سورة النور (24) : الآيات 39 إلى 40]

وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمالُهُمْ كَسَرابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ ماءً حَتَّى إِذا جاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسابِ (39) أَوْ كَظُلُماتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحابٌ ظُلُماتٌ بَعْضُها فَوْقَ بَعْضٍ إِذا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَراها وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَما لَهُ مِنْ نُورٍ (40)

اللغة :

(كَسَرابٍ) : السراب : ما يشاهد نصف النهار من اشتداد الحر كأنه ماء تنعكس فيه البيوت والأشجار وغيرها ويضرب به المثل في الكذب والخداع يقال : هو أخدع من السراب ، وسمي سرابا لأنه يتسرب أي يجري كالماء ، يقال سرب الفحل أي مضى وسار ويسمى الآل أيضا ولا يكون إلا في البرية والحر فيغتر به الظمآن .

(بِقِيعَةٍ) : القيعة بمعنى القاع أو جمع قاع وهو المنبسط المستوي من الأرض وفي الصحاح : " والقاع المستوي من الأرض والجمع أقواع وقيعان فصارت الواو ياء لكسر ما قبلها والقيعة مثل القاع وهو أيضا من الواوي وبعضهم يقول هو جمع " وقال الهروي :

(551/555)

" والقيعة جمع القاع مثل جيرة وجار " وفي الأساس : " هو كسراب بقيعة وبقاع ونزلوا بسراب قيعان ولهم قاعة واسعة وهي عرضة الدار وأهل مكة يسمون سفل الدار القاعة ويقولون : فلان قعد في العسية ووضع قماشه في القاعة ، وقال :

سائل مجاور جرم هل جنيت لهم حربا تفرّق بين الجيرة الخلط

وهل تركت نساء الحي ضاحية في قاعة الدار يستوقدن بالغبط

وفي القاموس والتاج ما يفهم منه أن القاع أرض سهلة مطمئنة قد انفرجت عنها الجبال والآكام ويجمع على أقواع وأقوع وقيع وقيعان وقيعة .

)

لُجِّيٍّ) : اللجي : العميق الكثير الماء منسوب إلى اللج وهو معظم البحر هكذا قال الزمخشري ، وقال غيره منسوب إلى اللجة بالتاء وهي أيضا معظمه .

الاعراب :

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمالُهُمْ كَسَرابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ ماءً حَتَّى إِذا جاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً)

كلام مستأنف مسوق لبيان حال عمل من لا يعتقد الايمان ولا يتبع الحق بعد أن بين حال المؤمنين بضرب مثل لهم وهو " مثل نوره كمشكاة " . والذين مبتدأ أول وجملة كفروا صلة الموصول وأعمالهم مبتدأ ثان وكسراب خبر الثاني والمبتدأ الثاني وخبره خبر الاول وجملة يحسبه الظمآن صفة لسراب وماء مفعول به

(552/555)

ثان ليحسبه وحتى حرف غاية وجر وإذا ظرف مستقبل متضمن معنى الشرط وجملة جاءه في محل جر باضافة الظرف إليها وجملة لم يجده لا محل لها لأنها جواب شرط غير

جازم وشيئًا في موضع المصدر أي لم يجده وجدانا وقيل شيئًا هنا بمعنى ما قدّره وظنّه فهي مفعول به ثان ليجده وسيأتي مزيد بحث عنها في باب البلاغة . (وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسابِ) الواو حرف عطف ووجد فعل ماض وفاعل مستتر ولفظ الجلالة مفعول به وعنده متعلقان بمحذوف مفعول به ثان لوجد أي كائنا عند السراب أو العمل ، فوفاه الفاء عاطفة ووفاه فعل وفاعل مستتر ومفعول به أول وحسابه مفعول به ثان أي جازاه عليه في الدنيا والله مبتدأ وسريع الحساب خبر . (أَوْ كَظُلُماتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحابٌ) أو حرف عطف قيل هي للتقسيم أو للتخيير أي أن عمل الكافر قسمان : قسم كالسراب وهو العمل الصالح وقسم كالظلمات وهو العمل السيّء أو أن عمل الكافر لاغ لا منفعة له كالسراب ولكونه خاليا من نور الحق كالظلمات المتراكبة والحنادس المدلهمة . قال الزجاج : " أعلم الله سبحانه أن أعمال الكفار كما أنها تشبه السراب الموصوف بتلك الصفات فهي أيضا تشبه الظلمات ، وانها ان مثلت بما يوجد فمثلها كمثل السراب ، وان مثلت بما يرى فهي كهذه الظلمات التي وصف " وقال أيضا " إن شئت مثل بالسراب وان شئت مثل بهذه الظلمات ، فأو للإباحة " والجار والمجرور نسق على كسراب على حذف مضاف تقديره أو كذي ظلمات ويدل على هذا المضاف قوله " إذا أخرج يده لم يكد يراها " أو على حذف مضافين تقديرهما كأعمال ذي ظلمات ، وفي بحر صفة لظلمات ولجي صفة لبحر وجملة يغشاه موج صفة ثانية لبحر وموج

فاعل ومن فوقه خبر مقدم وموج مبتدأ مؤخر والجملة صفة لموج الأولى وجملة من فوقه سحاب

(553/555)

صفة لموج الثانية . (ظُلُماتٌ بَعْضُها فَوْقَ بَعْضٍ إِذا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَراها) ظلمات خبر لمبتدأ محذوف أي هذه ظلمات والجملة تفسير لما قبلها فلا محل لها وبعضها مبتدأ وفوق بعض الظرف متعلق بمحذوف خبر والجملة صفة لظلمات وإذا ظرف مستقبل متضمن معنى الشرط متعلق بالجواب وجملة أخرج في محل جر باضافة الظرف إليها وفاعل أخرج ضمير الواقع في البحر المرتطم فيه ويده مفعول به ولم حرف نفي وقلب وجزم ويكد فعل مضارع ناقص مجزوم بلم واسمها ضمير مستتر تقديره هو وجملة يراها خبر يكد وجملة لم يكد يراها لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم . (وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَما لَهُ مِنْ نُورٍ) الواو استئنافية ومن اسم شرط جازم مبتدأ ولم حرف نفي وقلب وجزم ويجعل فعل الشرط والله فاعل وله مفعول به ثان ونورا مفعول به أول ليجعل والفاء رابطة للجواب لأنه جملة اسمية وما نافية وله خبر مقدم ومن حرف جر زائد ونور مجرور لفظا مرفوع بالابتداء محلا والجملة في محل جزم جواب الشرط وفعل الشرط وجوابه خبر المبتدأ .

البلاغة :

وقد انطوت هذه الآية على أفانين من البلاغة ندرجها فيما يلي :

1- التشبيه المرسل : فقد أخرج ما لا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه الحاسة ، ولو قيل يحسبه الرائي ماء لكان بليغا ، وأبلغ منه لفظ القرآن لأن الظمآن أشد حرصا عليه وأكثر تعلق قلب به وتشبيه أعمال الكفار بالسراب من أحسن التشبيه وأبلغه فكيفو قد تضمن مع ذلك حسن النظم وعذوبة الألفاظ وصحة الدلالة وصدق التمثيل .

(554/555)

2- التشبيه التمثيلي : وقوله " ووجد اللّه عنده " تشبيه تمثيلي أي وجد عقابه وزبانية عذابه ، ووجه التشبيه أن الذي يأتي به الكافر من أعمال البر ويعتقد أن له ثوابا عند اللّه تعالى وليس كذلك فاذا وافى عرصات القيامة لم يجد الثواب الذي كان يظنه بل وجد العقاب العظيم والعذاب الأليم فعظمت حسرته وتناهى غمه فشبه حاله بحال الظمآن الذي اشتدت حاجته إلى الماء فإذا شاهد السراب في البر تعلق قلبه فإذا جاءه لم يجده شيئا فكذلك حال الكافر يحسب أن عمله نافعه فإذا احتاج إلى عمله لم يجده أغنى عنه شيئا .

3- العطف على محذوف : في قوله تعالى " وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ " عطف على مقدر وليست الجملة معطوفة على " لم يجده شيئًا " بل على ما يفهم منه بطريق التمثيل من عدم وجدان الكفرة من أعمالهم المذكورة عينا ولا أثرا ، كأنه قيل حتى إذا جاء الكفرة يوم القيامة أعمالهم التي كانوا في الدنيا يحسبونها نافعة لهم في الآخرة لم يجدوها شيئا ووجدوا حكم اللّه وقضاءه لهم بالمرصاد .

4- المبالغة في التشبيه : وهذا في قوله : " إذا أخرج يده لم يكد يراها " وقد اختلف الناس في تأويل هذا الكلام ويكاد الإجماع ينعقد على أن المعنى أنه لا يرى يده فعلى هذا في التقدير ثلاثة أوجه :

أحدها أن التقدير لم يرها ولم يكد وهذا غير واضح لأنه نفي للرؤية ثم اتبات لها ، ووجه ثان وهو أن كاد زائدة ولا مساغ له في القرآن فالوجه إذن انه لم يقرب أن يراها فضلا عن أن يراها ، ومثله قول ذي الرمة :

إذا غيّر النأي المحبين لم يكد رسيس الهوى من حب مية يبرح

(555/555)

أي لم يقرب من البراح ، والنأي : البعد ، ويقال رس وأرس إذا لزم والرسيس بقية المرض ، ويبرح يذهب ، وروي أن ذا الرمة لما قدم الكوفة اعترض عليه ابن شبرمة في ذلك بأنه يدل على زوال رسيس الهوى فغيره بقوله لم أجد وقال ابن عتبة حدثت أبي بذلك فقال : أخطأ ابن شبرمة وأخطأ ذو الرمة في تغييره وانما هو كقوله تعالى : " لم يكد يراها " وبعد البيت :

فلا القرب يدنو من هواها ملالة ولا حبها إن تنزح الدار ينزح

[سورة النور (24) : الآيات 41 إلى 44]

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِما يَفْعَلُونَ (41) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (42) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكاماً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّماءِ مِنْ جِبالٍ فِيها مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشاءُ يَكادُ سَنا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصارِ (43) يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ إِنَّ فِي ذلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصارِ (44)

اللغة :

(الطَّيْرُ) : قال أبو عبيدة وقطرب : الطير يقع على الواحد والجمع وقال ابن الانباري : الطير : جماعة وتأنيثها أكثر من التذكير وفي المصباح : " الطائر على صيغة اسم الفاعل من طار يطير طيرانا وهو له في الجو كمشي الحيوان في الأرض ويعدى بالهمزة والتضعيف فيقال :

طيرته وأطرته وجمع الطائر طير مثل صاحب وصحب وراكب وركب وجمع الطير طيور وأطيار " .

(صَافَّاتٍ) : باسطات أجنحتهن في الهواء .

)

(556/555)

يُزْجِي) : يسوق وفي المختار : " زجى الشيء تزجية دفعه برفق وتزجّى بكذا اكتفى به وأزجى الإبل ساقها والمزجى الشيء القليل وبضاعة مزجاة قليلة والريح تزجي السحاب والبقرة تزجي ولدها تسوقه " وفي القاموس وشرحه : " زجا يزجو زجوا وزجّى تزجية وأزجى إزجاء وازدجاه ساقه ودفعه برفق يقال : كيف تزجي أيامك أي كيف تدفعها وزجّى فلان حاجتي أي سهّل تحصيلها وأزجى الأمر أخره وأزجى الدرهم روجه " ومنه قول النابغة :

إني أتيتك من أهلي ومن وطني أزجي حشاشة نفس ما بها رمق

(رُكَاماً) : الركام بضم الراء المتراكم بعضه فوق بعض وفي المختار : " ركم الشيء إذا جمعه وألقى بعضه على بعض وبابه نصر وارتكم الشيء وتراكم : اجتمع والركام الرمل المتراكم

والسحاب ونحوه " .

(الْوَدْقَ) : المطر قيل هو خاص بالضعيف وقيل هو المطر ضعيفا كان أو شديدا وهو في الأصل مصدر يقال ودق السحاب يدق من باب وعد .

(سَنا) : في المختار : " السنا مقصور ضوء البرق والسنا أيضا هو نبت يتداوى به والسناء من الرفعة ممدود والشيء الرفيع وأسناه رفعه وسناه تسنية فتحه وسهله " .

الاعراب :

)

(557/555)

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ) كلام مستأنف مسوق لتقرير هذه الحقيقة ، فالهمزة للاستفهام التقريري ولم حرف نفي وقلب وجزم وتر فعل مضارع مجزوم بلم والفاعل مستتر تقديره أنت وأن وما في حيزها سدت مسد مفعولي تر لأن الرؤية هنا قلبية لأن تسبيح المسبحين لا تتعلق به رؤية البصر أي قد علمت علما يشبه المشاهدة في اليقين ، وجملة يسبح خبر وله متعلقان بيسبح ومن فاعل يسبح وفي السموات والأرض صلة من .

(وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِما يَفْعَلُونَ) الواو للعطف والطير

عطف على من وصافات حال ومفعول صافات محذوف أي باسطات أجنحتها ، وكل مبتدأ وساغ الابتداء به لما فيه من معنى العموم وجملة قد علم خبر كل وفاعل علم يعود على كل أو على اللّه ، ويقول أبو البقاء إن عودته على "كل" أرجح لأن القراءة برفع كل على الابتداء ، فيرجع ضمير الفاعل اليه ولو كان فيه ضمير اسم اللّه لكان الأولى نصب كل لأن الفعل الذي بعدها قد نصب ما هو من سببها فيصير كقولك زيدا ضرب عمر وغلامه فتنصب زيدا بفعل دل عليه ما بعده وهو أقوى من الرفع والآخر جائز " وصلاته مفعول به وتسبيحه عطف على صلاته واللّه مبتدأ وعليم خبر وبما متعلقان بعليم وجملة يفعلون صلة ما .

)

(558/555)

وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ) الواو استئنافية وللّه خبر مقدم وملك السموات والأرض مبتدأ مؤخر والى اللّه خبر مقدم والمصير مبتدأ مؤخر . (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكاماً) الهمزة للاستفهام التقريري وأن وما في حيزها سدت مسد مفعولي تر وقد تقدم اعراب نظيره ، ثم حرف عطف ويؤلف عطف على

يزجي وبينه ظرف متعلق بيؤلف ودخلت بين على مفرد وهي إنما تدخل على المثنى فما فوقه لأنه إما أن يراد بالسحاب الجنس فعاد الضمير على حكمه وإما أن يراد أنه على حذف مضاف أي بين قطعه فإن كل قطعة سحابة ، ثم حرف عطف ويجعله فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به أول وركاما مفعول به ثان . (فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّماءِ مِنْ جِبالٍ فِيها مِنْ بَرَدٍ) الفاء عاطفة وترى الودق فعل مضارع وفاعل مستتر تقديره أنت ومفعول به وجملة يخرج حال لأن الرؤية هنا بصرية ومن خلاله متعلقان بيخرج أي من فتوقه ومخارجه جمع خلل كجبل وجبال ، وينزل من السماء من جبال فيها من برد تقدم اعرابها ونعيده هنا للتقوية فمن الأولى ابتدائية متعلقة بينزل وكذلك الثانية فهي بدل بإعادة العامل وفيها صفة لجبال ومن برد للتبعيض وهي ومجرورها في موضع مفعول الانزال وقيل هي للبيان أي فتكون حالا وتكون من جبال هي في موضع مفعول الانزال ، وأجمل بعضهم اعراب الآية فقال : والحاصل أن من في من السماء لابتداء الغاية بلا خلاف ومن في من جبال فيها ثلاثة أوجه :

الاول : لابتداء الغاية فتكون هي ومجرورها بدلا من الاولى بإعادة الخافض بدل اشتمال .

الثاني : انها للتبعيض فتكون على هذا هي ومجرورها في محل نصب على أنها مفعول الانزال كأنه قال وينزل بعض جبال .

الثالث : انها زائدة أي ينزل من السماء جبالا .

وأما من في من برد ففيها أربعة أوجه :

الثلاثة المتقدمة والرابع انها لبيان الجنس فيكون التقدير على هذا الوجه : وينزل من السماء بعض جبال التي هي البرد .

وقال الزجاج : " ومعنى الآية وينزل من السماء من جبال برد فيها كما تقول : هذا خاتم في يدي من حديد أي خاتم حديد في يدي لأنك إذا قلت هذا خاتم من حديد وخاتم حديد كان المعنى واحدا " وعلى هذا يكون من برد في موضع جر صفة لجبال كما كان من حديد صفة لخاتم ويكون مفعول ينزل من جبال ويلزم من كون الجبال بردا أن يكون المنزل بردا .

وذكر أبو البقاء أن التقدير شيئا من جبال فحذف الموصوف واكتفى بالصفة .

(فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشاءُ) الفاء عاطفة ويصيب فعل مضارع وفاعله ضمير مستتر يعود على اللّه وبه متعلقان بيصيب ومن مفعول به وجملة يشاء صلة الموصول ويصرفه عمن يشاء عطف على الجملة السابقة وهي مماثلة لها . (يَكادُ سَنا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصارِ) (يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ إِنَّ فِي ذلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصارِ)

الجملة صفة لبرد ويكاد فعل مضارع من أفعال المقاربة وسنا برقه اسمها وجملة يذهب بالأبصار خبرها وجملة يقلب تفسير لما قبلها فلا محل لها والله فاعل يقلب والليل مفعول به والنهار عطف على الليل وان حرف مشبه بالفعل وفي ذلك خبرها المقدم واللام المزحلقة وعبرة اسمها المؤخر ولأولي الابصار صفة لعبرة والأبصار بمعنى البصائر .

البلاغة :

1 – فن العنوان :

(560/555)

في قوله " ألم تر أن الله يزجي سحابا " الآية فن انفرد به القليل من علماء البيان وهو فن العنوان ، وعرفوه بأنه أن يأخذ المتكلم في غرض له من وصف أو فخر أو مدح أو عتاب أو هجاء أو غير ذلك من الفنون ثم يأتي لقصد تكميله وتوكيده بأمثلة من ألفاظ تكون عنوانات لأخبار متقدمة وقصص سالفة ، ومنه نوع عظيم جدا وهو ما يكون عنوانا للعلوم وذلك أن تذكر في الكلام ألفاظ تكون مفاتيح لعلوم ومداخل لها والآية التي نحن بصددها فيها عنوان العلم المعروف بالآثار العلوية والجغرافيا الرياضية وعلم الفلك ، ومن أمثلته في الشعر قصيدة أبي فراس الحمداني :

خليلي ما أعددتما لمتيم أسير لدى الأعداء جافي المراقد

فريد عن الأحباب لكن دموعه مثان على الخدين غير فرائد

جمعت سيوف الهند من كل وجهة وأعددت للأعداء كل مجالد

إذا كان غير اللّه للمرء عدة أتته الرزايا من وجوه الفوائد

فقد جرت الحنفاء حتف جذيمة وكان يراها عدة للشدائد

وجرت منايا مالك بن نويرة حليلته الحسناء يا أم خالد

وأردى ذؤابا في بيوت عتيبة بنوه وأهلوه بشدو القصائد

فهذه القصص التي استطرد إليها أبو فراس تكميلا لقصده وتدعيما لرأيه مشهورة ومعروفه ، ويمكن الرجوع إليها في مظانها بكل سهولة .

وقال الفرزدق لجرير :

فهل أنت إن ماتت أتانك راكب إلى آل بسطام بن قيس فخاطب

وإني لأخشى إن خطبت إليهم عليك الذي لاقى يسار الكواعب

(561/555)

و من حديث يسار أنه كان عبدا أسود يرعى لأهله إبلا وكان معه عبد يراعيه وكان لمولى يسار بنت فمرت يوما بإبله وهي ترعى في روض معشب فجاء يسار بعلبة لبن وسقاها وكان أفحج الرجلين فنظرت إلى فحجه فتبسمت ثم شربت وأخذت مضجعها فانطلق فرحا حتى أتى العبد الراعي وقصّ عليه القصة وذكر فرحه بتبسمها فقال صاحبه يا يسار ، كل من لحم الحوار ، واشرب لبن العشار ، وإياك وبنات الأحرار فقال له : دحكت لي دحكة لا أخيبها ، يريد ضحكت لي ضحكة ، ثم قام إلى علبة فملأها وأتى إلى ابنة مولاه فنبهها فشربت ثم اضطجعت فجلس العبد حذاءها فقالت : ما جاء بك ؟ فقال : ما خفي عنك ما جاء بي فقالت : فأي شيء هو ؟ قال : دحكك الذي دحكت إلي فقالت حياك اللّه ثم قامت

الى سفط لها فأخرجت منه بخورا ودهنا وعمدت إلى موسى ودعت بمجمرة وقالت له : إن ريحك ريح الإبل وهذا دهن طيب فوضعت البخور تحته وطأطأت كأنها تصلح البخور وأخذت مذاكيره وقطعتها بالموسى ثم أشمته الدهن فسلتت أنفه وأذنيه وتركته فصار مثلا لكل جان على نفسه ومتعد طوره .

وزعيم هذا الباب أبو تمام فقد كان من أهم مميزات شعره استخدامه الحوادث القديمة والحديثة في أماديحه خاصة كقوله يمدح أبا دلف :

إذا افتخرت يوما تميم بقوسها وزادت على ما وطّدت من مناقب

فأنتم بذي قار أمالت سيوفكم عروش الذين استرهنوا قوس حاجب

فقد ارتقى بمديحه إلى ذكر قصة قوس حاجب ، وخلاصتها أن حاجب بن زرارة سيد بني تميم أتى إلى كسرى في سنة جدب يستميره فقال له كسرى : وما ترهنني ؟ قال قوسي ، فاستعظمه وقدم له ما طلب ، فضرب بقوس حاجب المثل عند العرب ثم كانت وقعة ذي قار وانتصر العرب على العجم لأول مرة وحرروا أرضهم من استعمارهم وكان الفضل يعود إلى بني شيبان الذين يمت إليهم الممدوح بالنسبة ، فقال أبو تمام منوها بذكر هذه الحادثة .

(562/555)

ويطول بنا الحديث إن تقصينا ما ورد في هذا الباب فحسبنا من القلادة ما أحاط بالجيد .

2- المبالغة أو الافراط في الصنعة :

وفي قوله " يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار " فن سماه ابن المعتز الافراط في الصنعة ، وسماه قدامة المبالغة ، وسماه من بعدهما التبليغ ، والناس على تسمية قدامة ، وعرفه بقوله : " هو أن يذكر المتكلم حالا لو وقف عندها لأجزأت فلا يقف عندها حتى يزيد في معنى كلامه ما يكون أبلغ في معنى قصده " وقد قدمنا في مكان آخر من هذا الكتاب ضروب المبالغات في الكتاب العزيز فلا حاجة إلى الإعادة ، ونقف عند الضرب الخامس الذي منه هذه الآية

وهو ما جرى مجرى الحقيقة وهو قسمان : قسم كان مجازا فصار بالقرينة حقيقة كهذه الآية فإن اقتران هذه الجملة بيكاد يصرفها إلى الحقيقة فانقلبت من الامتناع إلى الإمكان ، وقسم أتى بصيغة اسم التفضيل وهو محض الحقيقة من غير قرينة كقوله تعالى " أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا " وقد تقدم القول فيه .

[سورة النور (24) : الآيات 45 إلى 49]

وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ ماءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ ما يَشاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (45) لَقَدْ أَنْزَلْنا آياتٍ مُبَيِّناتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (46) وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ وَما أُولئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (47) وَإِذا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ (48) وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (49)

الاعراب :

)

وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ ماءٍ) كلام مستأنف مسوق لبيان أصناف الخلق ، والله مبتدأ وجملة خلق خبر وكل دابة مفعول به ومن ماء جار ومجرور متعلقان بخلق أي نطفة بحسب الأغلب . (فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلى رِجْلَيْنِ) الفاء تفريعية ومنهم خبر مقدم ومن مبتدأ مؤخر وجملة يمشي صلة الموصول وعلى بطنه متعلقان بيمشي ومنهم من يمشي على رجلين عطف على ما سبقه . (وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلى أَرْبَعٍ) عطف ، وسيأتي سر ذكر من لغير العاقل في باب البلاغة .

(يَخْلُقُ اللَّهُ ما يَشاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) يخلق الله ما يشاء فعل مضارع وفاعل ومفعول به وجملة يشاء صلة وإن الله ان واسمها وعلى كل شيء متعلقان بقدير وقدير خبر إن . (لَقَدْ أَنْزَلْنا آياتٍ مُبَيِّناتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ) كلام مستأنف مسوق لذكر آياته سبحانه على طريق الالتفات كما سيأتي في باب البلاغة ، واللام جواب

(564/555)

للقسم المحذوف وقد حرف تحقيق وأنزلنا فعل وفاعل وآيات مفعول به ومبينات صفة والله مبتدأ وجملة يهدي خبره ومن مفعول به وجملة يشاء صلة والى صراط متعلقان بيهدي ومستقيم صفة . (وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنا) كلام مستأنف مسوق للشروع في

بيان حال المنافقين ، ويقولون فعل مضارع مرفوع وفاعل وجملة آمنا مقول القول وآمنا فعل وفاعل وبالله متعلقان بآمنا وبالرسول عطف على بالله وأطعنا عطف على آمنا . (ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ) ثم حرف عطف ويتولى فعل مضارع مرفوع وفريق فاعل ومنهم صفة ومن بعد ذلك حال ، والاشارة إلى القول المذكور ، والواو حالية وما نافية حجازية وأولئك اسم اشارة في محل رفع اسم ما والباء حرف جر زائد والمؤمنين مجرور لفظا منصوب محلا خبر ما والجملة حالية . (وَإِذا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ) الواو عاطفة وإذا ظرف مستقبل متضمن معنى الشرط ودعوا فعل ماض مبني للمجهول والواو نائب فاعل والى الله متعلقان بدعوا ورسوله عطف على الله والمراد رسول الله كقولك أعجبني زيد وكرمه تريد كرم زيد ، واللام للتعليل ويحكم فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل والجار والمجرور متعلقان بدعوا وبينهم ظرف متعلق بيحكم . (إِذا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ) إذا فجائية وقامت مقام الفاء في ربط الجواب بشرطه وهو إذا الأولى ، وفريق مبتدأ ومنهم صفة وهي التي سوغت الابتداء به ومعرضون خبر فريق . (وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ) الواو عاطفة وإن شرطية ويكن فعل الشرط ولهم خبر يكن المقدم والحق اسمها المؤخر ويأتوا جواب الشرط واليه متعلقان بيأتوا ويجوز أن يتعلق

بمذعنين ، قال الزمخشري : " وهذا أحسن لتقدم صلته ودلالته على الاختصاص والمعنى انهم لمعرفتهم انه ليس معك إلا الحق المر والعدل البحت يزورّون عن المحاكمة إليك إذا ركبهم الحق لئلا تنتزعه من أحداقهم بقضائك عليهم لخصومهم وإن ثبت لهم حق على خصم أسرعوا إليك ولم يرضوا إلا بحكومتك لتأخذ لهم ما ذاب لهم في ذمة الخصم "

ومذعنين حال ، قال الزجاج : الإذعان الاسراع مع الطاعة وفي القاموس :

" أذعن له خضع وذل وأقر وأسرع في الطاعة " .

البلاغة :

1 – صحة التفسير :

في قوله تعالى " وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ " الآية : فيها فن بديع من فنون البلاغة سماه علماؤها " صحة التفسير " وسماه ابن الأثير في المثل السائر " التناسب بين المعاني " وحدّه أن يأتي المتكلم في أول كلامه بمعنى لا يستقل الفهم بمعرفة فحواه ، إما أن يكون مجملا يحتاج إلى تفصيل أو موجها يفتقر إلى توجيه أو محتملا يحتاج المراد منه إلى ترجيح لا يحصل إلا بتفسيره وتبيينه ووقوع التفسير على أنحاء تارة يأتي بعد الشرط أو بعد ما فيه معنى الشرط وطورا بعد الجار والمجرور وآونة بعد المبتدأ الذي التفسير خبره . والآية التي نحن بصددها مما وقع بعد الجار والمجرور فقد ذكر سبحانه الجنس الأعلى مقدما له حيث قال :

"كل دابة" فاستغرق أجناس كل ما دبّ ودرج ثم فسر هذا الجنس الأعلى بالأجناس المتوسطة والأنواع حيث قال "فمنهم" و"ومنهم" مراعيا الترتيب إذ قدم ما يمشي بغير آلة لكونه الآية سيقت

(566/555)

لبيان القدرة والتمدح بها وتعجب السامعين منها ، وما يمشي بغير آلة أعجب مما يمشي بآلة فلذلك اقتضت البلاغة تقديمه ، ثم ثنى بالأفضل فالأفضل فأتى بما يمشي على رجلين وهو الإنسان والطائر لتمام خلق الإنسان وكمال حسن صورته وهيئته وجمال تقويمه المقتضي تخصيصه بالعقل ولما في الطائر من عجب الطيران في الهواء الدال على غاية الخفة ونهاية اللطف مع ما فيه من كثافة ، وثلث بما يمشي على أربع لأنه أحسن الحيوان البهيم وأقواه تغليبا على ما يمشي على أكثر من أربع من الحشرات فاستوعبت جميع الاقسام ، وأحسن الترتيب بالإضافة إلى الترتيب والاشارة والارداف وحسن النسق .

وعرفه صاحب العمدة بأنه أن يستوفي الشاعر شرح ما بدأ به مجملا ، وقلما يجيء هذا إلا في أكثر من بيت واحد ومثل له ببيتين للفرزدق وهما :

لقد جئت قوما لو لجأت إليهم طريد دم أو حاملا ثقل مغرم

لألفيت منهم معطيا ومطاعنا وراءك شزرا بالوشيح المقوم

واشترط صاحب العمدة سلامته من سوء التضمين قال : ومن جيد التفسير قول حاتم الطائي ويروى لعتيبة بن مرداس :

متى ما يجيء يوما إلى المال وارثي يجد جمع كف غير ملأى ولا صفر

يجد فرسا مثل العنان وصارما حساما إذا ما هزّ لم يرض لهبر

وأسمر خطيا كأن كعوبه نوى القسب قد أربى ذراعا على العشر

فهذا هو التفسير الصحيح السالم من التضمين لأنه لم يعلق كلامه ب " لو " كما فعل الفرزدق ومثله قول عروة بن الورد :

وإن امرأ يرجو تراثي وإن ما يصير له منه غدا لقليل

ومالي مال غير درع ومغفر وأبيض من ماء الحديد صقيل

وأسمر خطيّ القناة مثقّف وأجرد عريان السراة طويل

هكذا أنشدوه بالاقواء ويجوز أن يرفع على القطع والإضمار كأنه قال : هو صقيل ، أو قال : ولي أبيض من ماء الحديد يعني سيفه .

وقال ذو الرمة في التفسير :

وليل كجلباب العروس ادّرعته بأربعة والشخص في العين واحد

أحمّ علافيّ وأبيض صارم وأعيس مهري وأروع ماجد

ففسر الأربعة ما هي ؟ ورفع على شرط ما قدمت من الإضمار كأنه قيل له : ما الأربعة التي شخصها في العين واحد ؟ فقال كذا وكذا وكذا .

ومضى صاحب العمدة يورد نماذج من التفسير إلى أن قال :

" ومن التفسير ما يفسر فيه الأكثر بالأقل وذلك ما أتت فيه الجملة بعد الشرح نحو قول أبي الطيب :

من مبلغ الأعراب أني بعدها جالست رسطاليس والاسكندرا

وملت نحر عشارها فأضافني من ينحر البدر النضار لمن قرى

وسمعت بطيلموس دارس كتبه متملكا مبتديا متحضرا

ولقيت كل الفاضلين كأنما رد الإله نفوسهم والأعصرا

نسقوا لنا نسق الحساب مقدما وأتى فذلك إذ أتيت مؤخرا

فقوله : " نسقوا لنا نسق الحساب مقدما " البيت تفسير مليح قليل النظير في أشعار الناس " هذا وقال الواحدي في شرح البيت الأخير : " جمع لنا الفضلاء في الزمان ومضوا متتابعين متقدمين عليك في الوجود فلما أتيت بعدهم كان فيك من الفضل ما كان فيهم مثل الحساب يذكر تفاصيله ثم تجمع تلك التفاصيل فيكتب في آخر الحساب فذلك كذا وكذا فيجمع في

الجملة ما ذكر في التفاصيل ، كذلك أنت جمع فيك ما تفرق فيهم من الفضائل والعلم والحكمة " .

وقال أبو الطيب أيضا في التفسير المستحسن :

إن كوتبوا أو لقوا أو حوربوا وجدوا في الخط واللفظ والهيجاء فرسانا

ففسر وقابل كل نوع بما يليق به من غير تقديم ولا تأخير ، ومن التفسير الحلو قول كشاجم واسمه محمود بن الحسين :

في فمها مسك ومشمولة صرف ومنظوم من الدّر

فالمسك للنكهة والخمر للريقة واللؤلؤ للثغر

وجميل قول ابن هانىء الاندلسي :

المدنفات من البرية كلها جسمي وطرف بابليّ أحور

والمشرقات النيرات ثلاثة الشمس والقمر المنير وجعفر

2- التنكير :

(568/555)

ونكر الماء في قوله " من ماء " وعرفه في قوله " وجعلنا من الماء كل شيء حي " لأن المقصد في الآية هنا اظهار أن شيئا واحدا تكونت منه بالقدرة أشياء مختلفة ذكر تفاصيلها في آية النور والرعد ، والمقصد في آية " اقترب " أنه خلق الأشياء المتفقة في جنس الحياة من جنس الماء المختلف الأنواع فذكر معرفا ليشمل أنواعه المختلفة .

3- الاستعارة :

الاستعارة في قوله " فمنهم من يمشي على بطنه " فقد سمى الزحف على البطن مشيا على سبيل الاستعارة المكنية كما قالوا في الأمر المستمر : قد مشى هذا الأمر ، ويقال فلان لا يتمشى له أمر .

4- التغليب :

وفي قوله " من يمشي على بطنه ومن يمشي على أربع " تغليب للعاقل على غيره وقد مرت له نظائر كثيرة لأنه لما اختلط غير العاقل بالعاقل في الفصل بمن وكل دابة كان التعبير بمن أولى لتوافق اللفظ .

وقيل أوقع " من " على غير العاقل لما اختلط بالعاقل ويحتمل أن تكون من نكرة موصوفة بالجملة بعدها والتقدير فمنهم نوع يمشي على بطنه ونوع يمشي على رجلين ونوع يمشي على أربع على حد : ومن الناس من يعبد الله على حرف ، قال ابن هشام : ويجوز في من أن

تكون نكرة موصوفة بالجملة بعدها والتقدير ومن الناس ناس يعبدون اللّه .

[سورة النور (24) : الآيات 50 إلى 53]

(569/555)

أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (50) إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (51) وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (52) وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (53)

الإعراب :

(أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا) كلام مستأنف مسوق لتقسيم الأمر في صدودهم عن حكومته إذا كان الحق عليهم بين أن يكونوا مرضى القلوب منافقين أو مرتابين في أمر نبوته أو خائفين أن يحيف عليهم لمعرفتهم بحاله . والهمزة للاستفهام التقريري ويبالغ به تارة في الذم وتارة في المدح وهو هنا من النوع الأول ، وفي قلوبهم خبر مقدم ومرض مبتدأ مؤخر وأم حرف عطف بمعنى بل فهي منقطعة وارتابوا فعل وفاعل . (أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ

عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) أم يخافون عطف على ما تقدم وأن يحيف في تأويل مصدر مفعول به يخافون والحيف الميل والجور في القضاء وبل حرف إضراب وأولئك مبتدأ وهم ضمير فصل أو مبتدأ ثان والظالمون خبر هم والجملة خبر المبتدأ الأول أو خبر أولئك . (إِنَّما كانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ)

(570/555)

إنما كافة ومكفوفة وكان فعل ماض ناقص وقول خبر كان المقدم والمؤمنين مضاف إليه وانما ترجح نصبه لأنه متى اجتمع معرفتان فالأولى جعل أوغلهما في التعريف ولكن سيبويه لم يفرق بينهما وسيأتي مزيد بحث في باب الفوائد ، وإذا ظرف مستقبل متضمن معنى الشرط وجملة دعوا في محل جر باضافة الظرف إليها والواو نائب فاعل والى اللّه متعلقان بدعوا ورسوله عطف على اللّه واللام للتعليل ويحكم فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل وبينهم ظرف متعلق بيحكم وجعل الزمخشري فاعل يحكم عائدا إلى المصدر لأن معناه ليفعل الحكم بينهم . (أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنا وَأَطَعْنا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) أن وما حيزها اسم كان وجملة سمعنا مقول القول وأطعنا عطف على سمعنا والواو حرف عطف وأولئك مبتدأ وهم ضمير فصل أو مبتدأ ثان والمفلحون خبر هم أو خبر أولئك وقد تقدم

قريبا .

(وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ) الواو استئنافية ومن اسم شرط جازم مبتدأ ويطع فعل الشرط وفاعله ضمير مستتر تقديره هو ورسوله عطف على اللّه ويتقه عطف على يطع بسكون الهاء وكسرها ومع إشباع وبدونه ، والفاء رابطة لجواب الشرط وأولئك هم الفائزون تقدم فيه القول كثيرا . (وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ)

كلام مستأنف لحكاية قول المنافقين لرسول اللّه أينما كنت نكن معك لئن خرجت خرجنا ولئن أقمت أقمنا ولئن أمرتنا بالجهاد جاهدنا . وأقسموا فعل ماض والواو فاعل وباللّه متعلقان بأقسموا وجهد أيمانهم مفعول مطلق ، وسيأتي مزيد بحث عنه في باب البلاغة ، أو حال تقديره مجتهدين ، وقد خلط الزمخشري الوجهين فجعلهما واحدا ، ولئن اللام موطئة للقسم وان شرطية أمرتهم فعل وفاعل ومفعول به . (لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لا تُقْسِمُوا طاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ

(571/555)

بِما تَعْمَلُونَ)

اللام واقعة في جواب القسم ويخرجن فعل مضارع مرفوع وحذفت النون لتوالي الأمثال والواو فاعل والنون للتوكيد ولم يبن الفعل لأن النون لم تباشره ، وقل فعل أمر وفاعله مستتر تقديره أنت ولا ناهية وتقسموا فعل مضارع مجزوم بلا وطاعة خبر لمبتدأ محذوف تقديره أمركم أي أمركم الذي يطلب منكم طاعة معروفة معلومة لا يشك فيها ، ويجوز أن يعرب مبتدأ محذوف الخبر أي طاعة معروفة أولى بكم وأمثل من هذه الأيمان الكاذبة ، ومعروفة صفة وجملة إن اللّه تعليلية لما تقدم وان واسمها وخبير خبر وبما متعلقان بخبير وجملة تعملون صلة .

البلاغة :

1- الاستعارة :

جهد أيمانكم : لفظ مستعار من جهد نفسه إذا بلغ أقصى وسعها ، وقد استعاره للايمان وأصله أقسم باللّه جهد اليمين جهدا فحذف الفعل وقدم المصدر موضوعا موضعه مضافا إلى المفعول كضرب الرقاب وإذا جعلته حالا جعلته مؤولا باسم الفاعل أي جاهدين .

2- صحة التقسيم :

وفي قوله تعالى : " أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ " الآية فن يقال له صحة التقسيم وقد تقدمت الاشارة

اليه فإنها لم تبق قسما يقع في القلوب من الصوارف عن القبول إلا جاءت به ، ألا ترى أنه تعالى بعد قوله " أ في قلوبهم مرض " ذكر الريبة لأنه لا بد أن يكون الصارف عن الإجابة

(572/555)

فحكم اللّه ورسوله إما إبطان الكفر وإظهار الإسلام وهو المرض ، أو التشكك والتردد والتذبذب في حكم اللّه هل هو جار على العدل أو على غيره وذلك هو الريبة ، أو يكون الصارف خوف الحيف الذي لا يشعر به رجاء الانصاف فلم يبق قسم من الصوارف حتى ذكر فيها ثم ختمها سبحانه بقوله " بل أولئك هم الظالمون " فيكون مرشحا للايغال الذي جاء في فاصلة الآية فحقق الظلم وصفا لهم في الرد عليهم ليبقي ثبوته فيهم وجوده في حكمه سبحانه فحصل من ذلك الافتنان وهو جمع الكلام بين فنيّ الفخر والهجاء فإن في وصفهم بالظلم وصف ذاته بالعدل ووصف نبيه بالعدل أيضا فاذا أضفت إلى ذلك أن الكلام قد أفرغ في قالب من النزاهة والاحتشام واشتمل الهجاء المرير على ما لا يوهم الهجاء وهو من أمضى الهجاء وأقذعه فقد أضفت إلى ما تقدم فن النزاهة وهو فن مشهور من فنون البلاغة عبر عنه أبو عمرو بن العلاء بقوله :

" خير الهجاء ما تنشده العذراء في خدرها فلا يقبح بمثلها " وابن بسام في قوله في الذخيرة

: " الهجاء ينقسم إلى قسمين : قسم يسمونه هجاء الاشراف وهو ما لم يبلغ أن يكون سبا با أو هجوا مستبشعا والثاني السباب الذي أحدثه جرير وطبقته " فقد اجتمع في الآية حسن التقسيم والإيغال والافتنان والنزاهة .

ومما ورد من الهجاء الموجع وليس فيه لفظ فاحش قول أبي تمام :

بني لهيعة ما بالي وبالكم وفي البلاد مناديح ومضطرب

لحاجة لي فيكم ليس يشبهها إلا لحاجتكم في أنكم عرب

الفوائد :

توسط الخبر بين الافعال الناقصة وبين أسمائهن جائز ، قال ابن

(573/555)

مالك : " وفي جميعها توسط الخبر أجز " قال اللّه تعالى " وكان حقا علينا نصر المؤمنين " فحقا خبر كان مقدم ونصر المؤمنين اسمها المؤخر ، ويؤخذ من كلام المغني أن رفع الخبر ضعيف كضعف الاخبار بالضمير عما دونه في التعريف إلا ان يمنع مانع من تقدم الخبر كحصر الخبر نحو " وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية " أو كخفاء اعرابهما نحو كان موسى فتاك ، وقد يكون التوسط واجبا نحو كان في الدار ساكنها فتحصل ثلاثة

أقسام : قسم يجوز وقسم يمتنع وقسم يجب ، وسكتوا عن تقديم أسمائهن لعدم تصوره ، إذ متى تقدم الاسم صار مبتدأ وتحمل الناسخ ضميره فلا يقال ان الاسم تقدم .

[سورة النور (24) : الآيات 54 إلى 55]

قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّما عَلَيْهِ ما حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ ما حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَما عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ (54) وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَما اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ (55)

الإعراب :

(قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ) كلام مستأنف مسوق لخطاب

(574/555)

المأمورين بالطاعة من جهته تعالى . وجملة أطيعوا مقول القول ولفظ الجلالة مفعول به وأطيعوا الرسول عطف على أطيعوا الله . (فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّما عَلَيْهِ ما حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ ما حُمِّلْتُمْ) الفاء عاطفة وإن شرطية وتولوا فعل الشرط وهو مضارع حذفت إحدى تاءيه ،

فإنما الفاء رابطة للجواب والجواب محذوف أي إن تتولوا عن الطاعة إثر ما أمرتم بها فاعلموا أنما عليه السلام ما حمل أي ما أمر به من التبليغ ، وإنما كافة ومكفوفة وعليه خبر مقدم وما حمل مبتدأ مؤخر وجملة حمل صلة وعليكم ما حملتم عطف على ما تقدم . (وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ) الواو عاطفة وان شرطية وتطيعوه فعل الشرط وهو فعل وفاعل ومفعول به وتهتدوا جواب الشرط والواو حالية أو استئنافية وما نافية وعلى الرسول خبر مقدم وإلا أداة حصر والبلاغ مبتدأ مؤخر والمبين صفة . (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ) كلام مستأنف مسوق لتقرير المصير للمؤمنين الذين يعملون الصالحات والتمكين لهم في الأرض . ووعد اللّه الذين فعل وفاعل ومفعول به وجملة آمنوا صلة ومنكم حال وعملوا الصالحات عطف على آمنوا ومفعول وعد الثاني محذوف تقديره الاستخلاف لدلالة قوله ليستخلفنهم عليه ، واللام جواب قسم مضمر أي أقسم ليستخلفنهم وفي الأرض متعلقان بيستخلفنهم ولك أن تنزل وعد منزلة أقسم فتلقى بما يتلقى به القسم . (كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ) الكاف نعت لمصدر محذوف أي استخلافا كاستخلاف الذين من قبلهم ، والذين مفعول استخلف ومن قبلهم متعلقان بمحذوف صلة الذين . (

(575/555)

وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضى لَهُمْ) وليمكنن عطف على ليستخلفنهم فهو مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة ولهم متعلقان بيمكنن ودينهم مفعول به والذي صفة وجملة ارتضى صلة

والعائد محذوف أي ارتضاه ولهم متعلقان بارتضى . (وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً) وليبدلنهم عطف على ما تقدم والهاء مفعول به أول ومن بعد خوفهم حال وأمنا مفعول به ثان . (يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ) جملة يعبدونني استئنافية على الأرجح فلا محل لها وكأنها جواب لسؤال مقدر أي ما بالهم فقيل يعبدونني واختار بعض المعربين أن تكون حالا من مفعول وعد أي وعدهم اللّه ذلك في حال عبادتهم وإخلاصهم فمحلها النصب أو حال من مفعول ليستخلفنهم . وجملة لا يشركون بي شيئا بدل منها ولك أن تجعلها حالا من فاعل يعبدونني أي يعبدونني موحدين وهو جيد ولك أن تجعلها استئنافية كسابقتها ، وشيئا مفعول مطلق أو مفعول به وقد تقدم مثله كثيرا ، ومن كفر الواو استئنافية ومن شرطية مبتدأ وكفر فعل ماض فعل الشرط وبعد ذلك متعلق بكفر ، فأولئك هم الفاسقون الجملة جواب الشرط وقد تقدم اعراب نظيرتها .

الفوائد :

ذكر التاريخ أن النبي صلى اللّه عليه وسلم وأصحابه مكثوا بمكة عشر سنين خائفين ولما

هاجروا كانوا بالمدينة يصبحون في السلاح ويمسون فيه حتى قال رجل : ما يأتي علينا يوم نأمن فيه ونضع السلاح فقال النبي صلى اللّه عليه وسلم : لا تغبرون إلا يسيرا حتى يجلس الرجل منكم الملأ العظيم محتبيا ليس معه حديدة ، فأنجز اللّه وعده وأظهرهم على جزيرة العرب وافتتحوا بلاد المشرق والمغرب ومزقوا ملك الأكاسرة وملكوا خزائنهم واستولوا على الدنيا ، ثم خرج الذين على خلاف سيرتهم فكفروا بتلك الأنعم وفسقوا وذلك قوله صلى اللّه عليه

(576/555)

وسلم " الخلافة بعدي ثلاثون سنة ثم يملك اللّه من يشاء فتصير ملكا ثم تصير بزّيزى قطع سبيل وسفك دماء وأخذ أموال بغير حقها " ومعنى بزيزى قال في الصحاح بزه يبزه بزّا : سلبه والاسم البزيزى مثل الخصّيصى .

[سورة النور (24) : الآيات 56 إلى 58]

وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (56) لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْواهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ (57) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ

تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلاةِ الْعِشَاءِ ثَلاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (58)

الإعراب :

(وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) كلام معطوف على وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول قال الزمخشري :

"

وليس ببعيد أن يقع بين المعطوف والمعطوف عليه فاصل وإن طال لأن حق المعطوف أن يكون غير المعطوف عليه " ولك أن تعطفه على

(577/555)

محذوف يقتضيه السياق وتقديره فآمنوا واعملوا صالحا وأقيموا الصلاة واعراب الجملة واضح كل الوضوح . (لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ) لا ناهية وتحسبن فعل مضارع مبني على الفتح في محل جزم بلا والفاعل مستتر تقديره أنت والذين مفعول تحسبن الأول وجملة كفروا صلة ومعجزين مفعول تحسبن الثاني

وفي الأرض متعلقان بمحذوف حال ومتعلق معجزين محذوف أي لنا ، ومأواهم عطف على لا تحسبن الذين كفروا عطف خبر إنشاء على رأي بعضهم أو معطوف على مقدر تقديره بل هم مفهورون مدركون ومأواهم ولعله أولى لأنه يكون عطف خبر على خبر ، ومأواهم مبتدأ والنار خبره أو بالعكس ، ولبئس اللام موطئة للقسم وبئس فعل ماض جامد للذم والمصير فاعل والمخصوص بالذم محذوف أي مصيرهم ، يعني النار . (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ) جملة مستأنفة مسوقة لبيان حكم الاستئذان وسيأتي في باب الفوائد المزيد منها ، واللام لام الأمر ويستأذنكم فعل مضارع مجزوم بلام الأمر والكاف مفعول به والذين فاعل وجملة ملكت أيمانكم صلة . (

وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلاةِ الْفَجْرِ) والذين عطف على الذين وجملة لم يبلغوا الحلم صلة ومنكم حال وثلاث مرات نصب على الظرفية أو المفعولية المطلقة فان قدرت بمعنى ثلاثة أوقات فهي ظرف وان قدرت بمعنى ثلاثة استئذانات فهي مفعول مطلق ومن قبل صلاة الفجر بدل من ثلاث مرات ويجوز أن يكون في محل رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي هل من قبل ، وانما وجب الاستئذان في ذلك الوقت لأنه وقت القيام من المضاجع وطرح الغلائل وما ينام فيه من الثياب .

(وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ) وحين عطف على محل من قبل صلاة الفجر وجملة تضعون مجرورة باضافة الظرف إليها وثيابكم مفعول

به ومن الظهيرة حال أي حين ذلك الوقت الذي هو الظهيرة أو بتضعون فتكون من بمعنى في .

(وَمِنْ بَعْدِ صَلاةِ الْعِشاءِ ثَلاثُ عَوْراتٍ لَكُمْ) ومن بعد صلاة العشاء عطف على ما قبله وثلاث عورات خبر لمبتدأ محذوف مقدر بعده مضاف وقام المضاف اليه مقامه أي هي أوقات ثلاث عورات وسمي كل واحد من هذه الأحوال عورة لأن الناس يختل تسترهم وتحفظهم فيها . والعورة : الخلل ، وفي الصحاح : أعور الفارس إذا بدا فيه موضع خلل للضرب ، والأعور : المختل العين .

)

لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلا عَلَيْهِمْ جُناحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلى بَعْضٍ) جملة ليس عليكم إلخ صفة لثلاث عورات والمعنى هن ثلاث عورات مخصوصة بالاستئذان وعليكم خبر ليس المقدم وجناح اسمها المؤخر وبعد هن ظرف متعلق بمحذوف صفة لجناح وطوافون خبر لمبتدأ محذوف تقديره هم وعليكم متعلقان بطوافون لأنه صيغة مبالغة لاسم الفاعل وبعضكم مبتدأ وعلى بعض خبره أي طائف على بعض بدلالة طوافون ويجوز أن يعرب بدلا من قوله طوافون ، ولأبي حيان كلام مطول فيه لا جدوى منه . (كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ

لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) الكاف نعت لمصدر محذوف وقد تقدم كثيرا ، ويبين اللّه لكم الآيات فعل مضارع وفاعل ومفعول به واللّه مبتدأ وعليم خبر أول وحكيم خبر ثان .

الفوائد :

روي أن مدلج بن عمرو وكان غلاما أنصاريا أرسله رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وقت الظهيرة إلى عمر ليدعوه فدخل عليه وهو نائم وقد انكشف عنه ثوبه فقال عمر لوددت أن اللّه عز وجل نهى آباءنا

(579/555)

و أبناءنا وخدمنا أن لا يدخلوا علينا هذه الساعات إلا بإذن ثم انطلق معه إلى النبي صلى اللّه عليه وسلم فوجده وقد أنزلت عليه هذه الآية وهي إحدى الآيات المنزلة بسبب عمر ، وقيل نزلت في أسماء بنت أبي مرثد قالت : إنا ندخل على الرجل والمرأة ولعلهما يكونان في لحاف واحد ، وقيل : دخل عليها غلام لها كبير في وقت كرهت دخوله فأتت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم .

وعن أنس رضي اللّه عنه أن رجلا اطلع من بعض حجر النبي صلى اللّه عليه وسلم فقام اليه النبي صلى اللّه عليه وسلم بمشقص أو مشاقص فكأني أنظر اليه يختل الرجل ليطعنه ،

رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي ولفظه : " ان أعرابيا أتى باب النبي صلى اللّه عليه وسلم فألقم عينه خصاصة الباب فبصر به النبي صلى اللّه عليه وسلم فتوخاه بحديدة أو عودة ليفقأ عينه فلما أن أبصره انقمع فقال له النبي صلى اللّه عليه وسلم : أما انك لو ثبت عليك لفقأت عينك " .

والمشقص : بكسر الميم بعد شين ساكنة وقاف مفتوحة هو سهم له نصل عريض وقيل طويل ، وقيل هو النصل العريض نفسه وقيل الطويل .

ويختله : بكسر التاء أي يخدعه ويراوغه .

وخصاصة الباب : بفتح الخاء المعجمة وصادين مهملتين هي الثقب فيه والشقوق ومعناه أنه جعل الشق الذي في الباب محاذيا عينه .

توخاه : أي قصده بتشديد الخاء المعجمة .

[سورة النور (24) : الآيات 59 إلى 61]

(580/555)

وَإِذا بَلَغَ الْأَطْفالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَما اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آياتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (59) وَالْقَواعِدُ مِنَ النِّساءِ اللاَّتِي لا يَرْجُونَ نِكاحاً فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ

جُناحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (60)
لَيْسَ عَلَى الْأَعْمى حَرَجٌ وَلا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلا عَلى أَنْفُسِكُمْ أَنْ
تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَواتِكُمْ أَوْ
بُيُوتِ أَعْمامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خالاتِكُمْ أَوْ ما مَلَكْتُمْ مَفاتِحَهُ
أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتاتاً فَإِذا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلى
أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبارَكَةً طَيِّبَةً كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآياتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (61)

اللغة :

(وَالْقَواعِدُ) : جمع قاعد بغير تاء وفي المصباح : " وقعدت المرأة عن الحيض أسنت وانقطع حيضها فهي قاعد بغير تاء والجمع قواعد

وقعدت عن الزوج فهي لا تشتهيه " ولولا تخصيصهن بذلك لوجبت التاء نحو ضاربة وقاعدة من القعود المعروف .

)

(581/555)

مُتَبَرِّجاتٍ) : مظهرات للزينة ، وحقيقة التبرج تكلف اظهار ما يجب اخفاؤه من قولهم سفينة بارج لا غطاء عليها والبرج محركة سعه العين يرى بياضها محيطا بسوادها كله لا يغيب منه شيء إلا انه اختص بأن تتكشف المرأة للرجال بابداء زينتها وإظهار محاسنها للرجال وفي المختار : " والتبرج اظهار المرأة زينتها ومحاسنها للرجال " فالبرج يعطي معنى الاتساع يقال برج يبرج برجا من باب تعب اتسع أمره في الأكل والشرب ونحوهما ، وبرجت عينه اتسعت بحيث يرى بياضها محدقا بالسواد كله ، والبرج الركن والحصن والقصر وكل بناء مرتفع على شكل مستدير أو مربع ويكون منفردا أو قسما من بناية عظيمة وجمعه برج بضمتين وأبراج وأبرجة ، والبرج أيضا أحد بروج السماء وهي اثنا عشر : الحمل والثور والجوزاء والسرطان والأسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدي والدلو والحوت ، والبارجة سفينة كبيرة للقتال وتجمع على بوارج ، ومن أقوالهم : ما فلان إلا بارجة قد جمع فيه كل الشر أي انه شرير .

(صَدِيقِكُمْ) الصديق يكون واحدا أو جمعا وكذلك الخليط والقطين والعدو وهو الصادق في المودة والمخالّة ، قال الشاعر :

دعون الهوى ثم ارتمين قلوبنا بأعين أعداء وهن صديق

ومن هنا اختلس أبو نواس معناه في قوله :

إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت له عن عدو في ثياب صديق

(أَشْتَاتاً) : جمع شت بمعنى التفرق وفي المختار : " أمر شت بالفتح أي متفرق ، تقول : شت الأمر يشت بالكسر من باب ضرب شتا وشتاتا بفتح الشين فيهما أي تفرق " .

الاعراب :

)

(582/555)

وَإِذا بَلَغَ الْأَطْفالُ مو جملة ليس خبر القواعد وعليهن خبر ليس المقدم وجناح اسمها المؤخر وأن وما في حيزها في موضع نصب بنزع الخافض أي في أن يضعن ثيابهن بمعنى ينزعن ثيابهن فيجوز النظر إلى أيديهن ووجوههن وسيأتي مزيد بسط لهذه الآية في باب البلاغة ، وغير متبرجات حال وبزينة متعلقان بمتبرجات واعتبرها بعضهم بمعنى اللام أي غير مظهرات لزينة واعتبر آخرون الباء للتعدية أي غير مظهرات زينة .

وفي حاشية الشهاب على البيضاوي " قوله غير مظهرات زينة أشار به إلى أن الباء للتعدية ولذا فسر بمتعد مع أن تفسير اللازم بالمتعدي كثير ويؤيده أن أهل اللغة لم يذكروه متعديا بنفسه ولم نر من قال تبرجت المرأة حليها ، وليست الزينة مأخوذة في مفهومه حتى يقال : انه تجريد كما توهم فمن قال انه اشارة إلى زيادة الباء في المفعول به فقد أخطأ " .

(وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) الواو عاطفة وأن وما في حيزها مبتدأ وخير خبر ولهن متعلقان بخير أي والاستعفاف من الوضع خير لهن ، لما ذكر الجائز أعقبه بالمستحب بعثا منه على اختيار أفضل الأعمال وأحسنها كقوله " وأن تعفوا أقرب للتقوى " " وأن تصدقوا خير لكم " والله مبتدأ وسميع خبر أول وعليم خبر ثان . (لَيْسَ عَلَى الْأَعْمى حَرَجٌ وَلا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ) كلام مستأنف مسوق لأمر اختلف العلماء في تأويله ، وأقرب ما ذكروه من تلك التأويلات : ان هؤلاء الطوائف الثلاث كانوا يتحرجون عن مؤاكلة الأصحاء فإن الأعمى ربما سبقت يده إلى أطيب الطعام فسبقت البصير اليه ، والأعرج يتفسح في مجالسه فيأخذ مكانا واسعا فيضيق على السليم ، والمريض لا يخلو من حالة مؤذية لقرينه وجليسه ، فنزلت هذه الآية وسيأتي في باب الفوائد بقية الأقوال .

(583/555)

وليس فعل ماض ناقص وعلى الأعمى خبرها المقدم وحرج اسمها المؤخر ولا على الأعرج حرج عطف على ما سبقه وكذلك ما بعده .

(وَلا عَلى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ) الواو استئنافية وما بعدها كلام مستأنف لتقرير

إباحة ما حرموه على أنفسهم ففي القرطبي " انه لما أنزل اللّه " يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل " قال المسلمون : إن اللّه قد نهانا أن نأكل أموالنا بيننا بالباطل وان الطعام من أفضل الأموال فلا يحل لأحد منا أن يأكل عند أحد فنزلت " ولا نافية وعلى أنفسكم خبر مقدم وأن وما في حيزها مبتدأ مؤخر ومن بيوتكم متعلقان بتأكلوا . (أَوْ بُيُوتِ آبائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوانِكُمْ) عطف على ما تقدم وإخوانكم بمعنى إخوتكم . (أَوْ بُيُوتِ أَخَواتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ) عطف أيضا على ما سبق .

(أَوْ بُيُوتِ أَخْوالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خالاتِكُمْ) عطف ايضا على ما سبق .

)

(584/555)

أَوْ ما مَلَكْتُمْ مَفاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ) ما عطف على ما سبق وجملة ملكتم صلة ومفاتحه مفعول به والمراد بها أموال الرجل إذا كان له عليها قيم أو وكيل يحفظها له ، والمفاتح جمع مفتاح وتجمع على مفاتيح والمراد الخزائن ، وأو حرف عطف وصديقكم معطوف على ما سبق . (لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتاتاً) الجملة بدل من الجملة السابقة وأن

تأكلوا أن وما في حيزها نصب بنزع الخافض أي في أن تأكلوا وجميعا حال وأشتاتا عطف على جميعا والمعنى أنهم لما تحرجوا في الاجتماع على الطعام والمشاركة فيه لاختلاف الآكلين بيّن أنه لا حرج عليهم أن يأكلوا مجتمعين ومتفرقين وسيأتي مزيد بسط لهذا كله في بابي البلاغة والفوائد . (فَإِذا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبارَكَةً طَيِّبَةً) الفاء عاطفة وإذا ظرف مستقبل متضمن معنى الشرط وجملة دخلتم في محل جر باضافة الظرف إليها وبيوتا نصب على المفعولية

على السعة ، وقد اختلف في المراد بهذه البيوت والصحيح أنها عامة لأنه لا دليل على التخصيص ، فسلموا الفاء رابطة وسلموا فعل أمر وفاعل وعلى أنفسكم متعلقان بسلموا وتحية منصوب على المصدر من معنى فسلموا فهو مرادفه كقعدت جلوسا وفرحت جزلا ومن عند اللّه صفة لتحية أو بنفس التحية ومباركة صفة وطيبة صفة أيضا أي يرجى بها زيادة الخير وتطيب بها نفس المستمع . (كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآياتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) الكاف نعت لمصدر محذوف ويبين اللّه فعل مضارع وفاعل ولكم متعلقان بيبين والآيات مفعول به ولعل واسمها وجملة تعقلون خبر لعل .

البلاغة :

1- عكس الظاهر :

في قوله تعالى : " غير متبرجات بزينة " فن يطلق عليه بعض علماء البيان اسم عكس الظاهر وبعضهم يسميه نفي الشيء بايجابه وقد سبقت الاشارة اليه في كتابنا وهو من محاسن الكلام فإذا تأملته وجدت باطنه نفيا وظاهره إيجابا ، أو أن تذكر كلاما يدل ظاهره على أنه نفي لصفة موصوف وهو نفي للموصوف أصلا ومن أهم أبياته قول امرئ القيس :

على لاحب لا يهتدى بمناره إذا سافه العود النباطي جرجرا

فاللاحب هو الطريق الواضح والمنار هو العلامة توضع على الطريق للهداية وفي الحديث " إن للدين صوى ومنارا كمنار الطريق "

وسافه شمه والعود المسن من الإبل والنباطي : الضخم وجرجر رغا وضج وأخرج جرته فقوله " لا يهتدى بمناره " لم يرد أن له منارا لا يهتدى به ولكن أراد أنه لا منار له فيهتدى بذلك المنار .

وكذلك المراد هنا والقواعد من النساء اللاتي لا زينة لهن فيتبرجن بها لأن الكلام فيمن هي بهذه المثابة ، وكأن الغرض من ذلك أن هؤلاء استعففهن عن وضع الثياب خير لهن فما ظنك بذوات الزينة من الثياب ، وأبلغ ما في ذلك أنه جعل عدم وضع الثياب في حق القواعد من الاستعفاف إيذانا بأن وضع الثياب لا مدخل له في العفة ، هذا في القواعد فكيف بالكواعب ؟ ! .

2- الإيضاح:

وفي قوله " ولا على أنفسكم الآية " فن الإيضاح وهو أن يذكر المتكلم كلاما في ظاهره لبس ثم يوضحه في بقية كلامه ، والإشكال الذي يحله الإيضاح يكون في معاني البديع من الألفاظ وفي اعرابها ومعاني النفس دون الفنون ، وقد سبق ذكره في هذا الكتاب ، وهنا في هذه الآية ترد على ظاهرها أسئلة أولها : ما الفائدة في الاخبار برفع الجناح عمن أكل من بيته ؟ وكيف يظن أن على من أكل من بيته جناحا ؟

وثانيها : لم يذكر بيوت الأولاد كما ذكر بيوت غيرهم من الأقارب القريبة ؟

وثالثها : ما فائدة قوله " أو ما ملكتم مفاتحه " وظاهر الحال أن هذا داخل في قوله " من بيوتكم " ؟

(586/555)

ورابعها : كيف وقعت التسوية بين الصديق وبين هؤلاء الأقارب ؟

والأجوبة التي تتضح بها هذه الإشكالات الأربعة هي :

الجواب الأول :

أما فائدة الإخبار برفع الجناح عمن أكل من بيته فإنما ذكر ذلك توطئة ليبني عليه ما يعطفه

على جملته من البيوت التي قصد إباحة الأكل منها ، فإنه إذا علم أن الإنسان لا جناح عليه أن يأكل من بيته فكذلك لا جناح عليه أن يأكل من هذه البيوت ليشير إلى أن أموال هذه القرابة كمال الإنسان ، وإذا تساوت هذه الأموال سرى ذلك التساوي إلى الأزواج ، فيكون سبحانه قد أدمج في ذلك الحض على صلة الأرحام ومعاملتهم معاملة الإنسان نفسه .

الجواب الثاني :

وأما عدم ذكر بيوت الأولاد فإنما ذكر من الأموال ما يظن بأن الأكل منه محظور فاحتاج إلى بيان الإباحة ، وأما أموال الأولاد فتصرف الوالدين فيها كتصرفهم في أموالهم أنفسهم ، لأن ولد الرجل بعضه وحكمه حكم نفسه ، ألا ترى أن الشرع يوجب على الولد نفقة الوالدين إذا كانا محتاجين ؟ وفي الحديث : " إن طيب ما يأكل المرء من كسبه وإن ولده من كسبه " .

الجواب الثالث :

وأما زعم القائل بأن الكلام فيه تداخل لأن قوله " أو ما ملكتم مفاتحه " هو ما في بيوتهم فإنه يحتمل أن يراد بما في البيوت المال التليد

العتيد وما ملك الإنسان مفاتحه : المال الطريف المكتسب الذي يتسبّب الإنسان في تحصيله ويتعب في اكتسابه .

الجواب الرابع :

وأما سر التسوية بين الصديق وبين هؤلاء الأقارب فهو تعريف حق الصديق الذي ساوى

باطنه ظاهره في اخلاص المودة ، ولا يسمى صديقا حتى يكون كذلك ، فإن اشتقاق اسمه من صدق المحبة وصفاء المودة وهو الذي أشار اليه سبحانه بقوله " ولا صديق حميم " فإذا كان الصديق بهذه المثابة وعلى هذه الصفة ساوى هذه القرابة القريبة فليس على الإنسان جناح إذا تصرف في ماله تصرفه في مال نفسه .

(587/555)

فنون أخرى في الآية الكريمة :

هذا وقد اشتملت هذه الآية الكريمة بعض إيضاح هذه الإشكالات على تسعة أضرب من فنون البديع ندرجها فيما يلي مع التلخيص والاختصار :

آ- صحة التقسيم : وذلك لاستيعاب الكلام جميع أقسام الأقارب القريبة بحيث لم يغادر منها شيئًا .

ب- التهذيب : وذلك في انتقال الكلام على مقتضى البلاغة في هذا المكان ، فإن مقتضى البلاغة تقديم الأقرب فالأقرب كما جاء فيها .

ج- حسن النسق : وذلك في اختياره " أو " لعطف الجمل وهي تدل على الإباحة .

د- الكناية : فقد كنى سبحانه عن الأموال بالبيوت التي هي حرز الأموال ومقرها من باب

تسمية الشيء بما جاوره ، كقولهم : سال الميزاب وجرى النهر .

ه- المناسبة : وذلك بمناسبة الألفاظ بعضها ببعض في الزنة وهي واضحة في لفظة آبائكم وإخوانكم وأعمامكم وأخوالكم .

و- المثل : وذلك في قوله : " ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعا وأشتاتا " خرج مخرج المثل السائر الذي يصح أن يتمثل به في كل واقعة تشبه واقعته .

ز- التذييل : فإن الكلام الذي خرج مخرج المثل جاء تذييلا لمعنى الكلام المتقدم لقصد توكيده وتقريره .

ح- المطابقة : وذلك في قوله " جميعا أو أشتاتا " فإن هاتين اللفظتين تضادتا تضادا أوجب لهما وصفها بالمطابقة لأن المعنى جميعا أو متفرقا .

ط- المقارنة : وذلك في موضعين : أحدهما اقتران التمثيل بالتذييل كما تقدم بيانه ، والثاني اقتران المطابقة بالتمكين فإن فاصلة هذا الكلام في غاية التمكين .

الفوائد :

ذكرنا في باب الاعراب أقرب الوجوه في تأويل قوله تعالى " لَيْسَ عَلَى الْأَعْمى حَرَجٌ " الآية ووعدناك بأن نورد بقية الوجوه التي ذكرها المفسرون : فقد كان المؤمنون يذهبون بالضعفاء وذوي العاهات إلى بيوت أزواجهم وأولادهم والى بيوت قراباتهم وأصدقائهم فيطعمونهم منها ، فخالج قلوب المطعمين والمطعمين ريبة في ذلك وخافوا أن يلحقهم

فيه حرج وكرهوا أن يكون أكلا بغير حق لقوله تعالى " وَلا تَأْكُلُوا أَمْوالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْباطِلِ " فقيل لهم ليس على الضعفاء ولا على أنفسكم يعني عليكم وعلى من في مثل حالكم من المؤمنين حرج في ذلك .

وقيل كانوا يخرجون إلى الغزو ويخلفون الضعفاء في بيوتهم ويدفعون إليهم المفاتيح ويأذنون لهم أن يأكلوا من بيوتهم فكانوا يتحرجون ، حكي عن الحارث بن عمرو أنه خرج غازيا وخلف مالك بن زيد في بيته وماله فلما رجع رآه مجهودا فقال : ما أصابك ؟ قال لم يكن عندي شيء ولم يحل لي أن آكل من مالك فقيل لي ليس على هؤلاء الضعفاء حرج فيما تحرجوا منه ولا عليكم أن تأكلوا من هذه البيوت .

وقيل نزلت رخصة لهؤلاء في التخلف عن الجهاد فعلى هذا تم الكلام قوله " ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج " .

[سورة النور (24) : الآيات 62 إلى 64]

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذا كانُوا مَعَهُ عَلى أَمْرٍ جامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ

شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (62) لا تَجْعَلُوا دُعاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِواذاً فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (63) أَلا إِنَّ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ ما أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (64)

اللغة :

(589/555)

(يَتَسَلَّلُونَ) : ينسلون واحدا بعد واحد أو قليلا قليلا .

(لِواذاً) : في القاموس : " اللوذ بالشيء الاستتار والاحتصان به كاللواذ مثلثة واللياذ والملاوذة والإحاطة كالإلاذة وجانب الجبل وما يطيف به ومنعطف الوادي والجمع ألواذ " وكان المنافقون يخرجون متسترين بالناس من غير استئذان حتى لا يروا ، والمفاعلة لأن كلا منهما يلوذ بصاحبه فالمشاركة موجودة وانما صحت الواو في لواذا مع انكسار ما قبلها لأنها تصح في الفعل الذي هو لاوذ ولو كان مصدر لاذ لكان لياذ مثل صام صياما وقام قياما .

(يُخالِفُونَ) : يقال خالفه إلى الأمر إذا ذهب إليه دونه وخالفه عن الأمر إذا صد عنه دونه .

الاعراب :

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ) جملة مستأنفة مسوقة لتقرير حال المنافقين الذين كان يعرض بهم النبي في مجالسه وخطبه .

وانما كافة ومكفوفة والمؤمنون مبتدأ والذين خبره وجملة آمنوا بالله ورسوله صلة الموصول أي هؤلاء هم المؤمنون الكاملو الايمان ، أما

المنافقون فكانوا إذا جلسوا في مجلسه يرامقون أصحابه فإن بدرت لهم منهم غفلة عنهم تسللوا لواذا وذهبوا خفية من غير استئذان .

(590/555)

(وَإِذا كانُوا مَعَهُ عَلى أَمْرٍ جامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ) الواو عاطفة وإذا ظرف مستقبل متضمن معنى الشرط وجملة كانوا في محل جر باضافة الظرف إليها والواو اسم كان ومعه ظرف متعلق بمحذوف خبر وعلى أمر متعلقان بمحذوف حال ولك أن تعكس الأمر وجامع صفة لأمر كالحروب وصلاة الجمعة والعيدين وسيأتي معنى اسناد الجمع للأمر في باب البلاغة ، وجملة لم يذهبوا لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم وحتى حرف غاية وجر ويستأذنوه فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد حتى ويستأذنوه فعل

وفاعل ومفعول به . (إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ) ان واسمها وجملة يستأذنونك صلة ، وأولئك مبتدأ والذين خبره وجملة يؤمنون بالله ورسوله صلة الموصول ، والجملة الاسمية خبر إن . (فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ) الفاء عاطفة وإذا ظرف مستقبل متضمن معنى الشرط وجملة استأذنوك مجرورة باضافة الظرف إليها ولبعض شأنهم متعلقان باستأذنوك بمثابة التعليل للاستئذان ، فائذن الفاء رابطة لجواب إذا وائذن فعل أمر وفاعله مستتر تقديره أنت ولمن متعلقان به وجملة شئت صلة ومنهم حال وفيه تفويض الأمر لرأي رسول الله . (وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) واستغفر عطف على فائذن ولهم جار ومجرور متعلقان باستغفر وجملة ان الله غفور رحيم تعليل للاستغفار فلا محل لها . (لا تَجْعَلُوا دُعاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً) اضطربت عبارات المفسرين في تفسير هذا التعبير وأقرب ما قيل فيه : لا تجعلوا دعاءه إياكم كدعاء بعضكم لبعض فتتلكئون وتحجمون كما يتلكأ ويحجم بعضكم عن بعض إذا دعاه لأمر فالمصدر

(591/555)

و هو دعاء مضاف إلى الفاعل ويجوز أن يكون مضافا إلى المفعول أي دعاءكم الرسول ونداءكم له كدعاء ونداء بعضكم لبعض . ولا ناهية وتجعلوا فعل مضارع مجزوم بلا الناهية والواو فاعل ودعاء الرسول مفعول به وبينكم ظرف متعلق بمحذوف حال والكاف بمعنى مثل مفعول به ثان وبعضكم مضاف لدعاء وبعضا مفعول به لدعاء ونصبه بعضهم بنزع الخافض أي لبعض وذلك متحتم عند ما يقدر دعاء مضافا لمفعوله .

(

قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِواذاً) قد هنا بمعنى ربما وذلك مطرد في دخولها على المضارع وسيأتي مزيد تفصيل عنها في باب الفوائد ، ويعلم اللّه فعل مضارع وفاعل وجملة يتسللون صلة ومنكم متعلقان بيتسللون ولواذا يجوز أن ينصب على المصدر من معنى الفعل إذا كان التقدير يتسللون منكم تسللا أو يلاوذون لواذا ، ويجوز أن يكون مصدر في موضع نصب على الحال أي ملاوذين . (فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ) الفاء الفصيحة أو عاطفة على " قد يعلم " لأنها مترتبة عليه واللام لام الأمر ويحذر فعل مضارع مجزوم بلام الأمر والذين فاعل وجملة يخالفون صلة ومفعول يخالفون محذوف وهو اللّه تعالى لأنه الآمر وجيء ب " عن " لتضمنه معنى الصد والاعراض وأن يصيبهم مفعول يحذر وفتنة فاعل أو يصيبهم عذاب أليم عطف على أن تصيبهم فتنة . (أَلا إِنَّ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ ما أَنْتُمْ عَلَيْهِ) قد للتكثير كما

تقدم وكما سيأتي ويعلم فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على اللّه تعالى وما مفعول به وأنتم مبتدأ وعليه خبر والجملة صلة . (وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) ويوم عطف على مفعول يعلم أي ويعلم ما يرجعون وجملة يرجعون صلة ويرجعون بالبناء للمجهول ، فينبئهم عطف على

(592/555)

يعلم والهاء مفعول وبما عملوا في موضع المفعول الثاني واللّه مبتدأ وبكل شيء متعلقان بعليم وعليم خبر .

الفوائد :

تقدم القول في " قد " ونضيف هنا أنها إذا دخلت على المضارع أفادت التكثير وكانت بمعنى " ربما " ومن ذلك قول زهير بن أبي سلمى :

أخي ثقة لا تهلك الخمر ماله ولكنه قد يهلك المال نائله

ف " قد " هنا للتكثير وإلا لم يكن مدحا ، والثقة من وثق كالعدة من وعد ، وإسناد الإهلاك إلى الخمر مجاز عقلي وكذلك إسناده إلى النائل أي العطاء ، والمراد وصفه بالكرم ، ومن أمثلة " ربما " قول ابن عطاء السندي يرثي ابن هبيرة :

ألا إن عينا لم تجد يوم واسط عليك بجاري دمعها لجمود

عشية قام النائحات وشققت جيوب بأيدي مأتم وخدود

فإن تمس مهجور الفناء فربما أقام به بعد الوفود وفود

وواسط موضع الواقعة التي قتل المنصور فيها ابن هبيرة ، والمأتم مكان الإقامة استعمل في جماعة النساء الحزينات مجازا وجمعه مآتم ، يقول : إن كل عين لم تبك عليك ذلك اليوم شديدة الجمود . وعشية بدل من يوم ، وجيب القميص مخرج الرأس منه أي مزقت الجيوب والخدود بأيدي النساء ثم التفت إلى الخطاب ، وقوله فإن تمس مهجور الفناء كناية عن الموت ، فربما أي كثيرا أقام بفناء بيتك جموع من الناس بعد جموع يستمنحونك ، فإن يهجر فناؤك الآن فلا حزن لأنه كثيرا ما اجتمع فيه الناس ومنحوا خيرا . . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ إعراب القرآن وبيانه حـ 6 صـ 606. 662 ﴾

(593/555)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العَاجِزُ الْفَقِيرُ

عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مُحَمَّدٍ الْقَمَّاش

إِمَامُ وَخَطِيبُ مَسْجِدِ بُورُسْلِى - رَأْسُ الْخَيمَةِ

دَولَةُ الإِمَارَاتِ الْعَرَبِيَّةِ الْمُتَّحِدَةِ

(عَفَا اللهُ عَنْهُ وَغَفَرَ لَهُ)

الجزء السادس والخمسون بعد الخمسمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/556)

الجزء السادس والخمسون بعد الخمسمائة

(سورة الفرقان)

(4/556)

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة الفرقان)

(5/556)

" فصل فى فضل السّورة "

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

فيه الأَحاديث الضعيفة الَّتى منها حديث أُبىّ : مَن قرأَ سورة الفرقان بُعِث يوم القيامة وهو يؤمن أَنَّ السّاعة آتية لا ريب فيها ، وأَنَّ اللهَ يَبْعث مَنْ فى القبور ، ودخل الجَنَّة بغير حساب .

ومن قرأَ هذه السورة يُبعث يوم القيامة آمنًا مِن هَوْلِها ، ويدخل الجَنَّة بغير نَصَب ، وحديث علىّ : يا علىّ من قرأَ ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ ﴾ .

فكأَنَّما قرأَ كلَّ كتاب نزل من السّماءِ ، وكأَنَّما عَبَدَ الله بكلّ آية قرأَها سنَةً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 343 ﴾

(6/556)

" فصل فى مقصود السورة الكريمة "

قال البقاعى :

مقصودها إنذار عامة المكلفين بما له سبحانه من القدرة الشاملة ، المستلزم للعلم التام ، المدلول عليه بهذا القرآن المبين ، المستلزم لأنه لا موجد على الحقيقة سواه ، فهو الحق ، وما سواه باطل ؛ وتسميتها بالفرقان واضح الدلالة على ذلك ، فإن الكتاب ما نزل إلا للتفرقة بين الملتبسات ، وتمييز الحق من الباطل (ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيّ عن بينة) [الأنفال : 42] فلا يكون لأحد على الله حجة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 291 ﴾

(7/556)

" فصل "

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى . . تبارك الذى نزل الفرقان)

السّورة مكِّيَّة بالاتِّفاق .

وعدد آياتها سبع وسبعون .

وكلماتها ثمانمائة واثنتان وسبعون ؟ وحروفها ثلاثة آلاف وسبعمائة وثلاث وثلاثون .

(8/556)

مجموع فواصل آياتها (لا) على اللاّم منها آية واحدة : ﴿ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴾ سمّيت سورة الفرقان لأَنَّ فى فاتحتها ذكرَ الفرقان فى قوله ﴿ نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ ﴾ مقصود السّورة ومعظمُ ما اشتملت عليه : المِنَّة بإنزال القرآن ، ومنشور رسالة سيّد ولد عدنان ، وتنزيهُ الحقّ تعالى من الولد ، والشَّريك ، وذمُّ الأَوثان ، والشكاية من المشركين بطعنهم فى المرسلين ، بأَكل الطَّعام فى أَخسّ مكان ، واستدعائهم مُحالات المعجزات من الأَنبياءِ كلَّ أَوان ، وذُلّ المشركين فى العذاب والهوان ، وعِزّ المؤمنين فى ثوابهم بفراديس الجِنَان ، وخطاب الحق مع الملائكة فى القيامة تهديداً لأَهل الكفر والطُّغيان ، وبشارة الملائكة للمجرمين بالعقوبة فى النّيران ، وبطلان أَعمال الكفَّار يوم يُنصب الميزان ، والإِخبار بمقَرّ المؤمنين فى درجات الجِنَان ، وانشقاق السّموات بحكم الهَوْل وسياسة العُبْدان ، والإِخبار عن ندامة الظَّالمين يوم الهيبة ونطق الأَركان ، وذكر الترتيب والترتيل فى نزول القرآن ، وحكاية حال القُرُون الماضية ، وتمثيل الكفَّار بالأَنعام ، أَخسّ الحيوان ، وتفضيل الأَنعام عليهم فى كلِّ

شان ، وعجائب صنع الله فى ضمن الظلّ والشّمس وتخليق اللّيل ، والنّهار ، والآفات ، والأزمان ، والمِنّة بإنزال الأمطار ، وإنبات الأشجار فى كلّ مكان ، وذكر الحُجّة فى المياه المختلِفة فى البحَار ، وذكر النّسب ، والصهر ، فى نوع الإنسان ، وعجائب الكواكب ، والبروج ، ودَوْر الفلك ، وسير الشمس ، والقمر ، وتفصيل صفات العباد ، وخواصّهم بالتّواضع ، وحكم قيام اللّيل ، والاستعاذة من النّيران ، وذكر الإقتار ، والاقتصاد فى النفقة ، والاحتراز من الشرك والزّنى وقتل النّفس بالظُّلم والعدوان ، والإقبال على التّوبة ، والإعراض من اللّغو ، والزُّور ، والوعد بالغُرَف للصّابرين على عبادة الرّحمن ، وبيان أنّ الحكمة فى تخليف الخَلْق التضرّع والدّعاء والابتهال إلى الله الكريم المنّان ، بقوله : ﴿ قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلاَ دُعَاؤُكُمْ ﴾ الآية . انتهى انتهى . اهـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 341.340 ﴾

(9/556)

فصل فى متشابهات السورة الكريمة

قال ابن جماعة :

سورة الفرقان

305 – مسألة :

قوله تعالى : (وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا)

وفى الرعد : (نَفْعًا وَلَا ضَرًّا) وقد تقدم جوابه في سورة الرعد .

306 – مسألة :

قوله تعالى : (لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا) وقال تعالى في سبأ :

(بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ) . ذكر الأول وأنث الثاني ؟ .

جوابه :

أن التذكير تارة يكون باعتبار اللفظ وتارة باعتبار معناه كقوله تعالى : (السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ) ، وقال تعالى : (إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ (1) . وأيضا فإن ما لا روح فيه يقال فيه ميت ، وما فيه روح يقال له ميتة .

307 – مسألة :

قوله تعالى : (وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ) ؟ .

جوابه :

قد يقال زائدا على ما قدمناه في يونس عليه السلام وغيرها أنه لما كان النفى بالإثبات أنسب لأنه مطلوب مطلقا ، والضر من باب النفى لأنه يطلب نفيه عند حصوله فالنفي فيه أنسب . ولما تقدم في أول السورة : (لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ) قدم النفى على الإثبات

فكان تقديم ما يناسب النص أنسب لتناسب الجملتين .

وههنا ، وفى الرعد لم يتقدم جملة تقدم نفيها على إثباتها فكان

تقديم ما هو من باب الإثبات أنسب مما هو من باب النفى .

فإن قيل : فقد قدم الضر على النفع في سورة يونس عليه السلام ؟ .

قلنا : قد أجبنا ثَمَّ عن الموضعين .

308 - مسألة :

قوله تعالى : (وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ) وقال

في الشعراء : (وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (217) .

جوابه :

أنه أشار ههنا إلى الصفة التي يدوم معها نفع المتوكل عليه

وهي في دوام الحياة ، لأن من يموت ينقطع نفعه .

وأشار في آية الشعراء إلى الصفتين اللتين ينفع معهما

التوكل ، وهي العزة التي يقدر بها على النفع ، والرحمة التي

بها يوصله إلى المتوكل وخص آية الشعراء بختمها بذلك مع ما ذكرناه أي (عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (217) الذي تقدم وصفه مرة بعد مرة في إنجاء الرسل وإهلاك أعدائهم .

309 - مسألة :

قوله تعالى : (إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا)

الآية . ثم قال تعالى : (وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا) ما معناهما حتى تكرر ذلك ؟ .

جوابه :

أنه من تاب فإنه يرجع إلى الله وإلى ثوابه رجوعا أي رجوع

310 - مسألة :

قوله تعالى : (فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ) وقال تعالى في مريم : (فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ) . "

جوابه :

أنه ذكر هنا السبب في دخول الجنة وهي الحسنات . وذكر في مريم المسبب عن ذلك وهو دخول الجنة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿كشف المعاني صـ 273.276 ﴾

(11/556)

وقال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

المتشابهات :

قوله : (تبارك) هذه لفظة لا تستعمل إلاَّ لله تعالى .

ولا تستعمل إلاَّ بلفظ الماضى .

وجاءَ فى هذه السّورة فى ثلاثة مواضع ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ ﴾ ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ ﴾ ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَآءِ بُرُوجاً ﴾ ؛ تعظيماً لذكر الله .

وخُصّت هذه المواضع بالذكر ؛ لأَنَّ ما بعدها عظائم : الأَوّل ذكر الفرقان ، وهو القرآن المشتمل على معانى جميع كتاب أَنزله الله ، والثانى ذكر النبى الذى خاطبه الله بقوله : (لولاك يا محمّد ما خلقت الكائنات) .

والثَّالث ذكر البروج والسيّارات ، والشمس والقمر ، واللَّيل والنَّهار ، ولولاها ما وجد فى الأَرض حيوان ، ولا نبات .

ومثلها ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ ﴾ .

قوله : ﴿ مِن دُونِهِ ﴾ هنا ، وفى مريم ، ويس : ﴿ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ ؛ لأَنَّ فى هذه السّورة وافق ما قبله ، وفى السّورتين لوجاءَ (من دونه) لخالف ما قبله ؛ لأَنَّ ما قبله فى السّورتين بلفظ الجمع ؛ تعظيماً .

فصرّح.

قوله: ﴿ ضَرّاً وَلاَ نَفْعاً ﴾ قدّم الضرّ؛ موافقة لما قبله وما بعده.

فما قبله نفى وإثبات، وما بعده موت وحياة.

وقد سبق.

قوله: ﴿ مَا لاَ يَنفَعُهُمْ وَلاَ يَضُرُّهُمْ ﴾ قدّم النّفع؛ موافقة لقوله تعالى: ﴿ هذا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهذا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾.

قوله: ﴿ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَانُ ﴾ ومثله فى السّجدة يجوز أَن يكون (الَّذى) فى السّورتين

مبتدأ (الرّحمن) خبره فى الفرقان، و ﴿ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُوْنِهِ ﴾ خبره فى السّجدة، وجاز غير ذلك. انتهى. اهـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 341. 343 ﴾

(12/556)

وقال العلامة الكَرْمانى رحمه الله:

سورة الفرقان

342 - قوله تعالى تبارك هذه لفظة لا تستعمل إلا لله ولا تستعمل إلا بلفظ الماضي

وجاءت في هذه السورة في ثلاث مواضع تبارك الذي نزل الفرقان على عبده و وتبارك الذي إن شاء جعل 10 و تبارك الذي جعل في السماء بروجا 61 تعظيما لذكر الله وخصت هذه المواضع بالذكر لأن ما بعدها عظائم الأول ذكر الفرقان وهو القرآن المشتمل على معاني جميع كتب الله والثاني ذكر النبي والله

(13/556)

خاطبه بقوله لولاك يا محمد ما خلقت للكائنات والثالث ذكر للبروج والسيارات والشمس والقمر والليل والنهار ولولاها ما وجد في الأرض حيوان ولا نبات ومثلها فتبارك الله رب العالمين 40 64 و فتبارك الله أحسن الخالقين 23 14 و تبارك الذي بيده الملك 67 1

343 - قوله من دونه 3 في هذه السورة وفي مريم 48 ويس 74 من دون الله لأن في هذه السورة وافق ما قبله وفي السورتين لو جاء من دونه لخالف ما قبله لأن ما قبله في السورتين بلفظ الجمع تعظيما فصرح

344 - قوله ضرا ولا نفعا 3 قدم الضر موافقة لما قبله وما بعده فما قبله نفي وإثبات وما بعده موت وحياة وقد سبق

345 - قوله ما لا ينفعهم ولا يضرهم 55 قدم النفع موافقة لقوله هذا عذب فرات وهذا

ملح أجاج وقد سبق

346 - قوله وعمل عملا 70 بزيادة عملا قد سبق

347 - قوله الذي خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش الرحمن 58 ومثلها في السجدة

يجوز أن يكون الذي في السورتين مبتدأ والرحمن خبره في الفرقان و ما لكم من دونه خبره في السجدة وجاز غير ذلك. انتهى انتهى. ا هـ ﴿أسرار التكرار فى القرآن صـ 152.

153 ﴾

(14/556)

فصل فى التعريف بالسورة الكريمة

قال الشيخ محمد أبو زهرة:

سورة الفرقان

هذه السورة مكية إلا ثلاث آيات هى أرقام 68، 69، 70، وعدد اياتها سبع وسبعون آية.

سميت سورة الفرقان؟ لأنها ابتدأت بذكر تنزيل القرآن على عبده، فقال تعالى: (تبارك

الذي نزل الفرقان عدئ عبده ديكون للعالمين نذيرا) ، ووصف ذاته العلية بأنه الذى له ملك السموات والأرض ، ولم يكن له شريك فى الملك وخلق كل شىء فقدره تقديرا ، ثم ذكر شرك المشركين الذين اتخذوا مع الله آلهة لا يخلقون ، وهم يخلقون ولا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا ، ولا موتا ، ولا حياة ، ولا نشورا ، وأنكروا القرآن الكريم مع عجزهم عن أن يأتوا بمثله ، وقالوا : (إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا (4) وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (5) .

ورد الله سبحانه وتعالى بقوله : (قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (6) ، وتحدثوا فى جدلهم بالنبى وأنكروا أن يكون الرسول (صلى الله عليه وسلم) من البشر : (وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا (7) أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا (8) .

وقد رد سبحانه افتراءاتهم فقال : (انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا (9) .

(15/556)

بعد ذلك بين الله سبحانه وتعالى قدرته بالنسبة لرسوله ، فقال : (تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُورًا (10) بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا (11) إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا (12) وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا (13) لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا (14) ،

ويقال حينئذ (لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا (14) .

وقد وازنت الآيات الكريمات بين نعيم المتقين ، وعذاب الكافرين : (قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا (15) لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا (16) .

3 ذكر سبحانه وتعالى حالهم يوم : (وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ (17) قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا (18) فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا (19) .

وقد بين سبحانه وتعالى أن المرسلين جميعا كانوا يأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق فقال عز من قائل : (وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا (20) .

وقد ذكر سبحانه أنهم كانوا يريدون ملائكة : (وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا (21) يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا (22) .

وقد بين سبحانه أن أعمالهم باطلة فقال : (وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا (23) أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا (24) .

وقد ذكرهم سبحانه بما يكون يوم البعث ، (وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا (25) .

وإنه بعد البعث السلطان ظاهرا وباطنا لله تعالى وحده : (الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا (26) وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا (27) يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا (28) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا (29) .

بعد ذلك ذكر الله سبحانه وتعالى موقف الرسول من هؤلاء الكافرين

(وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا (30) وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا (31) .

ولقد كان المشركون لا يؤمنون بالقران ، ولكنهم يثيرون الشكوك حوله

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً .

وقد بين أن ذلك لتثبيته فى القلوب ، ولإنزاله مرتلا ، وتحفيظه مرتلا ، ولذا قال تعالى : (كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا (32) وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا (33)

وقد ذكر سبحانه أوصافهم عند الحشر (الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا (34) .

وقد أشار سبحانه إلى بعض قصص موسى وهارون : (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا (35) فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا (36) .

وذكر سبحانه من قصة نوح ، وإغراق الكافرين من قومه ، وقال (وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً

وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا (37) وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا (38) وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا (39) ،

(18/556)

وقد بين سبحانه بعد أنهم (أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا (40) ، وبين سبحانه سوء معاملة المشركين للنبى (صلى الله عليه وسلم) فقال : (وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا (41) إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا (42)

ولقد ذكر سبحانه ان دينهم أهواءهم ، فقال (أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا (43) أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا (44) .

وبين الله تعالى من بعد مظاهر الإبداع فى خلقه وتكوينه : (أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا (45) ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا (46) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا (47) وَهُوَ الَّذِي

أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا (48) .

وبين الله تعالى إنذاره لخلقه (وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا (51) فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا (52) ،

ثم بين سبحانه الإبداع فى خلقه (وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا (53) ،

ثم أشار سبحانه إلى الإبداع فى تناسل الإنسان ،

(19/556)

(وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا (54) .

ومع هذا الإحكام فى الخلق ، والإبداع فيه (وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا (55) .

وبين سبحانه مقام محمد (صلى الله عليه وسلم) فى الرسالة وواجبه فقال : (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (56) قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا (57) وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا (58) الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ

الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا (59) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا (60) تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا (61) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا (62) .

ووصف سبحانه بعد ذلك عباد الرحمن ،

(20/556)

(وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا (63) وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (64) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (65) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (66) وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا (67) وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (68) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (69) إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (70) وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا (71) وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا (72)

وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا (73) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا (74) .

وقد بين الله جزاء من يتصفون بهذه الصفات (أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا (75) خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (76) قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا (77) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زهرة التفاسير صـ 5239.5243 ﴾

(21/556)

وقال ابن عاشور :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

سورة الفرقان

سميت هذه السورة سورة الفرقان في عهد النبي صلى الله عليه وسلم وبمسمع منه .

ففي صحيح البخاري عن عمر بن الخطاب أنه قال : " سمعت هشام بن حكيم بن حزام يقرأ سورة الفرقان في حياة رسول الله فاستمعت لقراءته فإذا هو يقرأ على حروف كثيرة لم يقرئنيها رسول الله فكدت أساوره في الصلاة فتصبرت حتى سلم فلببته بردائه فانطلقت به

أقوده إلى رسول الله فقلت : إني سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها .

.

" الحديث .

ولا يعرف لهذه السورة اسم غير هذا .

والمؤدبون من أهل تونس يسمونها " تبارك الفرقان " كما يسمون " سورة الملك " تبارك ، وتبارك الملك .

ووجه تسميتها " سورة الفرقان " لوقوع لفظ الفرقان فيها .

ثلاث مرات في أولها ووسطها وآخرها .

وهي مكية عند الجمهور .

وروي عن ابن عباس أنه استثنى منها ثلاث آيات نزلت بالمدينة وهي قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً ﴾ [الفرقان : 68 - 70] .

والصحيح عنه أن هذه الآيات الثلاث مكية كما في صحيح البخاري في تفسير الفرقان : عن القاسم بن أبي بزة أنه سأل سعيد بن جبير : هل لمن قتل مؤمنا متعمدا من توبة؟ فقرأت عليه : ﴿ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ [الفرقان : 68] .

فقال سعيد : قرأتها على ابن عباس كما قرأتها علي؟ فقال : هذه مكية نسختها " آية

مدنية التي في سورة النساء .

يريد قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً ﴾ [النساء : 93] .

وعن الضحاك : أنها مدنية إلا الآيات الثلاث من أولها إلى قوله : ﴿ وَلا نُشُوراً ﴾ [الفرقان : 3] .

وأسلوب السورة وأغراضها شاهدة بأنها مكية .

(22/556)

وهي السورة الثانية والأربعون في ترتيب النزول ، نزلت بعد سورة يس وقبل سورة فاطر ، وعدد آياتها سبع وسبعون باتفاق أهل العدد .

أغراض هذه السورة

واشتملت هذه السورة على الابتداء بتحميد الله تعالى وإنشاء الثناء عليه ، ووصفه بصفات الإلهية والوحدانية فيها .

وأدمج في ذلك التنويه بالقرآن ، وجلال منزله ، وما فيه من الهدى ، وتعريض بالامتنان على الناس بهديه وإرشاده إلى اتقاء المهالك ، والتنويه بشأن النبي صلى الله عليه وسلم .

وأقيمت هذه السورة على ثلاث دعائم :

الأولى : إثبات أن القرآن منزل من عند الله ، والتنويه بالرسول المنزل عليه صلى الله عليه وسلم ، ودلائل صدقه ، ورفعة شأنه عن أن تكون له حظوظ الدنيا ، وأنه على طريقة غيره من الرسل ، ومن ذلك تلقى قومه دعوته بالتكذيب .

الدعامة الثانية : إثبات البعث والجزاء ، والإنذار بالجزاء في الآخرة ، والتبشير بالثواب فيها للصالحين ، وإنذار المشركين بسوء حظهم يومئذ ، وتكون لهم الندامة على تكذيبهم الرسول وعلى إشراكهم واتباع أئمة كفرهم .

الدعامة الثالثة : الاستدلال على وحدانية الله ، وتفرده بالخلق ، وتنزيهه عن أن يكون له ولد أو شريك ، وإبطال إلهية الأصنام ، وإبطال ما زعموه من بنوة الملائكة لله تعالى .

وافتتحت في آيات كل دعامة من هذه الثلاث بجملة " تبارك الذي " الخ .

قال الطيبي : مدار هذه السورة على كونه صلى الله عليه وسلم مبعوثا إلى الناس كافة ينذرهم ما بين أيديهم وما خلفهم ولهذا جعل براعة استهلالها ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً ﴾ [الفرقان : 1] .

وذكر بدائع من صنعه تعالى جمعا بين الاستدلال والتذكير .

وأعقب ذلك بتثبيت الرسول صلى الله عليه وسلم على دعوته ومقاومته الكافرين .

وضرب الأمثال للحالين ببعثة الرسل السابقين وما لقوا من أقوامهم مثل قوم موسى وقوم نوح وعاد وثمود وأصحاب الرس وقوم لوط .

والتوكل على الله ، والثناء على المؤمنين به ، ومدح خصالهم ومزايا أخلاقهم ، والإشارة إلى عذاب قريب يحل بالمكذبين .

أهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 19 صـ 7.5 ﴾

(23/556)

وقال الشيخ سيد قطب :

مقدمة سورة الفرقان

هذه السورة المكية تبدو كلها وكأنها إيناس لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) وتسرية , وتطمين له وتقوية وهو يواجه مشركي قريش , وعنادهم له , وتطاولهم عليه , وتعنتهم معه , وجدالهم بالباطل , ووقوفهم في وجه الهدي وصدهم عنه .

فهي في لمحة منها تصور الإيناس اللطيف الذي يحيط به الله عبده ورسوله ; وكأنما يمسح على آلامه ومتاعبه مسحا رفيقا ; ويهدهد قلبه , ويفيض عليه من الثقة والطمأنينة , وينسم عليه من أنسام الرعاية واللطف والمودة .

وهي في اللمحة الأخرى تصور المعركة العنيفة مع البشرية الضالة الجاحدة المشاقة لله ورسوله , وهي تجادل في عنف , وتشرد في جموح , وتتطاول في قحة , وتتعنت في عناد ,

وتجنح عن الهدى الواضح الناطق المبين .

إنها البشرية التي تقول عن هذا القرآن العظيم: (إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون) . . أو تقول: (أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا) والتي تقول عن محمد رسول الله الكريم: (إن تتبعون إلا رجلا مسحورا) . . أو تقول في استهزاء: (أهذا الذي بعث الله رسولا ؟) . . والتي لا تكتفي بهذا الضلال , فإذا هي تتطاول في فجور على ربها الكبير: (وإذا قيل لهم: اسجدوا للرحمن قالوا: وما الرحمن ؟ أنسجد لما تأمرنا ؟ وزادهم نفورا) . أو تتعنت فتقول: لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا ؟ .

(24/556)

وهي هي من قديم كما يرسمها سياق السورة من عهد نوح إلى موقفها هذا الأخير مع رسولها الأخير . . لقد اعترض القوم على بشرية الرسول (صلى الله عليه وسلم) فقالوا: (ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ؟ لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا !) .

واعترضوا على حظه من المال , فقالوا: (أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها) .

واعترضوا على طريقة تنزيل القرآن فقالوا: (لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة !) .

وذلك فوق التكذيب والاستهزاء والقحة والافتراء الأثيم .

ووقف الرسول (صلى الله عليه وسلم) يواجه هذا كله , وهو وحيد فريد مجرد من الجاه والمال , ملتزم حده مع ربه لا يقترح عليه شيئا , ولا يزيد على أن يتوجه إليه مبتغيا رضاه , ولا يحفل بشيء سواه: " رب إلا يكن بك علي غضب فلا أبالي . لك العتبى حتى ترضى " . .

فهنا في هذه السورة يؤويه ربه إلى كنفه , ويمسح على آلامه ومتاعبه , ويهدهده ويسري عنه , ويهون عليه مشقة ما يلقى من عنت القوم وسوء أدبهم وتطاولهم عليه , بأنهم يتطاولون على خالقهم ورازقهم , وخالق هذا الكون كله ومقدره ومدبره . . فلا عليه أن ينالوه بشيء من ذاك ! (ويعبدون من دون الله مالا ينفعهم ولا يضرهم وكان الكافر على ربه ظهيرا) . . (واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئا وهم يخلقون , ولا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا) . . (وإذا قيل لهم: اسجدوا للرحمن قالوا: وما الرحمن ؟) . .

ويعزيه عن استهزائهم به بتصوير المستوى الهابط الذي يتمرغون فيه: (أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا ؟ أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ؟ إن هم إلا كالأنعام , بل هم أضل سبيلا !) .

ويعده العون والمساعدة في معركة الجدل والمحاجة: (ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا) . . وفي نهاية المعركة كلها يعرض عليه مصارع المكذبين من قبل: قوم موسى ونوح وعاد وثمود وأصحاب الرس وما بين ذلك من قرون .

ويعرض عليه نهايتهم التعيسة في سلسلة من مشاهد القيامة: (الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم أولئك شر مكانا وأضل سبيلا) . . (بل كذبوا بالساعة وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا . إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا . وإذا ألقوا منها مكانا ضيقا مقرنين دعوا هنالك ثبورا . لا تدعوا اليوم ثبورا واحدا ادعوا ثبورا كثيرا) (ويوم يعض الظالم على يديه يقول: يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا . يا ويلتا ! ليتني لم أتخذ فلانا خليلا) . .

ويسليه بأن مثله مثل الرسل كلهم قبله: (وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق) . . (وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا من المجرمين . وكفى بربك هاديا ونصيرا) .

ويكلفه أن يصبر ويصابر , ويجاهد الكافرين بما معه من قرآن , واضح الحجة قوي البرهان عميق الأثر في الوجدان: (فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهادا كبيرا) . .

ويغريه على مشاق الجهاد بالتوكل على مولاه (وتوكل علي الحي الذي لا يموت وسبح بحمده

, وكفى به بذنوب عباده خبيرا . .

وهكذا تمضي السورة: في لمحة منها إيناس وتسرية وعطف وإيواء من الله لرسوله . وفي لمحة منها مشاقة وعنت من المشركين لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) وتتبير ونكال من الله الكبير المتعال . حتى تقرب من نهايتها , فإذا ريح رخاء وروح وريحان , وطمأنينة وسلام . . وإذا صورة (عباد الرحمن) . . (الذين يمشون على الأرض هونا , وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما . . .)وكأنما تتمخض عنهم معركة الجهاد الشاقة مع البشرية الجاحدة الضالة المعاندة المشاقة ; وكأنما هم الثمرة الحلوة الجنية الممثلة للخير الكامن في شجرة البشرية ذات الأشواك .

(26/556)

وتختم السورة بتصوير هوآن البشرية على الله , لولا تلك القلوب المؤمنة التي تلتجىء إليه وتدعوه: (قل: ما يعبأ بكم ربي لولا دعاؤكم . فقد كذبتم فسوف يكون لزاما) . .

هذه هي ظلال السورة ; وذلك هو محورها الذي تدور عليه , وموضوعها الذي تعالجه . وهي وحدة متصلة , يصعب فصل بعضها عن بعض . ولكن يمكن تقسيمها إلى أربعة أشواط في علاج هذا الموضوع .

يبدأ الشوط الأول منها بتسبيح الله وحمده على تنزيل هذا القرآن على عبده ليكون للعالمين نذيرا . وبتوحيد الله المالك لما في السماوات والأرض , المدبر للكون بحكمة وتقدير , ونفي الولد والشريك . ثم يذكر اتخاذ المشركين مع ذلك آلهة من دونه لا يخلقون شيئا وهم يخلقون . . كل أولئك قبل أن يحكي مقولاتهم المؤذية عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) من تكذيبه فيما جاءهم به , وادعائهم أنه إفك افتراه , وأنه أساطير الأولين اكتتبها . وقبل أن يحكي اعتراضاتهم على بشرية الرسول وحاجته للطعام والمشي في الأسواق , واقتراحاتهم أن ينزل عليه ملك أو يلقى إليه كنز , أو تكون له جنة يأكل منها . وقحتهم في وصفه (صلى الله عليه وسلم) بأنه رجل مسحور . . وكأنما يسبق بمقولاتهم الجاحده لربهم كي يهون على نفس الرسول (صلى الله عليه وسلم) مقولاتهم عنه وعن رسالته . . ومن ثم يعلن ضلالهم وتكذيبهم بالساعة , ويتوعدهم بما أعده الله لهم من سعير , يلقون فيها مكانا ضيقا مقرنين . ويعرض في الصفحة المقابلة صورة المؤمنين في الجنة . (لهم فيها ما يشاءون خالدين) . . ويستمر في عرض مشهدهم يوم الحشر , ومواجهتهم بما كانوا يعبدون من دون الله , وتكذيب هؤلاء لهم فيما كانوا يدعون على الله من شرك . . وينتهي هذا الشوط بتسلية الرسول (صلى الله عليه وسلم) بأن الرسل جميعا كانوا بشرا مثله , يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق .

ويبدأ الشوط الثاني بتطاول المكذبين بلقاء الله على الله , وقولهم: (لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا) . ويعاجلهم بمشهد اليوم الذي يرون فيه الملائكة . . (وكان يوما على الكافرين عسيرا) . . (ويوم يعض الظالم على يديه يقول: يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا) . . ليكون في ذلك تأسية للرسول (صلى الله عليه وسلم) وهم يهجرون القرآن , وهو يشكو لربه هذا الهجران . وهم يعترضون على طريقة تنزيله ويقولون (لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة) . ويعقب على هذا الاعتراض بمشهدهم يوم القيامة يحشرون على وجوههم , وهم المكذبون بيوم القيامة , وبتصوير عاقبة المكذبين قبلهم من قوم موسى وقوم نوح , وعاد وثمود وأصحاب الرس والقرون الكثيرة بين ذلك , ويعجب من أمرهم وهم يمرون على قرية لوط المدمرة ولا يعتبرون . فيهون بذلك كله من وقع تطاولهم على الرسول (صلى الله عليه وسلم) وقولهم: (أهذا الذي بعث الله رسولا ؟) ثم يعقب على هذا الاستهزاء بتحقيرهم ووضعهم في صف الأنعام بل دون ذلك: (إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا) .

والشوط الثالث جولة في مشاهد الكون تبدأ بمشهد الظل , وتستطرد إلى تعاقب الليل والنهار , والرياح المبشرة بالماء المحيي , وخلقة البشر من الماء . ومع هذا فهم يعبدون من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم , ويتظاهرون على ربهم وخالقهم , ويتطاولون في قحة إذا دعوا إلى عبادة الله الحق . . (وإذا قيل لهم: اسجدوا للرحمن قالوا: وما الرحمن ؟) . .

وهو الذي(جعل في السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا . وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا) . . ولكنهم هم لا يتذكرون ولا يشكرون .

.

(28/556)

ثم يجيء الشوط الأخير يصور (عباد الرحمن)الذين يسجدون له ويعبدونه , ويسجل مقوماتهم التي استحقوا بها هذه الصفة الرفيعة . ويفتح باب التوبة لمن يرغب في أن يسلك طريقة عباد الرحمن . ويصور جزاءهم على صبرهم على تكاليف الإيمان والعبادة:(أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلاما) .

وتختم السورة بتقرير هوان البشرية على الله لولا هذه القلوب الطائعة المستجيبة العارفة بالله في هذا القطيع الشارد الضال من المكذبين والجاحدين . .

وفي هذا الهوان تهوين لما يلقاه منهم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فهو يتفق مع ظل السورة وجوها , ويتفق مع موضوعها وأهدافها , على طريقة التناسق الفني في القرآن .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿الظلال حـ 5 صـ 2544 . 2547﴾

(29/556)

وقال الشيخ الصابونى

سورة الفرقان

مكية وآياتها سبع وسبعون آية

بين يدي السورة

سورة الفرقان مكية وهي تعنى بشئون العقيدة ، وتعالج شبهات المشركين حول رسالة محمد (صلى الله عليه وسلم) وحول القرآن العظيم ، ومحور السورة يدور حول آيات صدق القرآن ، وصحة الرسالة المحمدية ، وحول عقيدة الإيمان بالبعث والجزاء ، وفيها بعض القصص للعظة والإعتبار .

* ابتدأت السورة الكريمة بالحديث عن القرآن الذي تفنن المشركون بالطعن فيه ، والتكذيب بآياته ، فتارة زعموا أنه أساطير الأولين ، وأخرى زعموا أنه من إختلاق محمد أعانه عليه بعض أهل الكتاب ، وثالثة زعموا أنه سحر مبين ، فرد الله تعالى عليهم هذه المزاعم الكاذبة ، والأوهام الباطلة ، وأقام الأدلة والبراهين على أنه تنزيل رب العالمين ، ثم تحدثت عن موضوع الرسالة التى طالما خاض فيها المشركون المعاندون ، واقترحوا أن يكون الرسول ملكا لا بشرا ، وأن تكون الرسالة – على فرض تسليم الرسول من البشر – خاصة بذوي الجاه والثراء ، فتكون لإنسان غني عظيم ، لا لفقير يتيم ، وقد رد الله تعالى

شبهتهم بالبرهان القاطع ، والحجة الدامغة ، التي تقصم ظهر الباطل .

* ثم ذكرت الآيات فريقا من المشركين عرفوا الحق وأقروا به ، ثم انتكسوا إلى جحيم الضلال ، وذكرت منهم " عقبة بن أبي معيط " الذي أسلم ثم ارتد عن الدين بسبب صديقه الشقي " أُبي بن خلف " وقد سماه القرآن الكريم بالظالم

[ويوم يعض الظالم على يديه] الآية وسمى صديقه بالشيطان .

(30/556)

---

*وفى ثنايا السورة الكريمة جاء ذكر بعض الأنبياء إجمالا وجاء الحديث عن أقوامهم المكذبين ، وما حل بهم من النكال والدمار ، نتيجة لطغيانهم وتكذيبهم لرسل الله ، كقوم نوح ، وعاد ، وثمود ، وأصحاب الرس ، وقوم لوط ، وغيرهم من الكافرين الجاحدين ، كما تحدثت السورة عن دلائل قدرة الله ووحدانيته ، وعن عجائب صنعه وآثار خلقه في هذا الكون البديع ، الذي هو من آثار قدرة الله ، وشاهد من شواهد العظمة والجلال .

*وختمت السورة ببيان صفات عباد الرحمن ، وما أكرمهم الله به من الأخلاق الحميدة ، التي استحقوا بها الأجر العظيم في جنات النعيم .

التسمية :

سميت السورة الكريمة (سورة الفرقان) لأن الله تعالى ذكر فيها هذا الكتاب المجيد الذي أنزله على عبده محمد (صلى الله عليه وسلم) ، وكان النعمة الكبرى على الإنسانية لأنه النور الساطع والضياء المبين ، الذي فرق الله به بين الحق والباطل ، والنور والظلام ، والكفر والإيمان ، ولهذا كان جديرا بأن يسمى الفرقان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 2 صـ 353.354 ﴾

(31/556)

فصل فى معانى السورة كاملة

قال الشيخ المراغى رحمه الله :

سورة الفرقان

تبارك : من البركة ، وهى كثرة الخير لعباده ، بإنعامه عليهم وإحسانه إليهم كما قال " وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوها " والفرقان : هو القرآن ، سمى بذلك لأنه فرّق فى الإنزال كما قال : " وَقُرْآناً فَرَقْناهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلى مُكْثٍ " على عبده :

أي على رسوله صلّى اللّه عليه وسلّم ، ووصفه بذلك تشريفا له بكونه فى أقصى مراتب العبودية ، وتنبيها إلى أن الرسول لا يكون إلا عبدا للمرسل ، وفيه ردّ على النصارى الذين

يدّعون ألوهية عيسى عليه السلام ، للعالمين : أي الثقلين من الإنس والجن ، فقدره : أي هيّأه لما أعدّه له من الخصائص والأفعال .

الافتراء : الاختلاق والكذب ، من قولهم : افتريت الأديم – الجلد – إذا قطّعته للإفساد ، جاءوا : أي أتوا ، والظلم : وضع الشيء فى غير موضعه ، إذ هم قد نسبوا القبيح إلى من كان مبرأ منه ، والزور : الكذب ، والأساطير : واحدها أسطار أو أسطورة كأحدوثة ، وهو ما سطّره المتقدمون ، اكتتبها : أي أمر بكتابتها ، تملى عليه : أي تلقى عليه بعد اكتتابها ليحفظها ، بكرة وأصيلا : أي صباحا ومساء ، والمراد دائما .

مسحورا : أي سحر فاختلّ عقله ، الأمثال : أي الأقاويل العجيبة الجارية لغرابتها مجرى الأمثال ، فضلوا : أي فبقوا متحيرين فى ضلالهم ، أعتدنا : أي هيأنا والسعير : النار الشديدة الاشتعال ، رأتهم : أي إذا كانت منهم بمرأى الناظر فى البعد ، من قولهم : دور تتراءى أي تتناظر ، ومنه قوله صلّى اللّه عليه وسلم : " إن المؤمن والكافر

(32/556)

لا تتراءى ناراهما " أي لا تتقاربان بحيث تكون إحداهما بمرأى من الأخرى ، إذ يجب على المؤمن مجانبة الكافر والمشرك فى أمور الدين ، والتغيظ : إظهار الغيظ ، والمراد صوت

التغيظ ، والزفير : إخراج النفس بعد مده ، مقرنين : أي قرنت أيديهم إلى أعناقهم فى السلاسل ، والثبور : الهلاك ، وجنة الخلد : هى التي لا ينقطع نعيمها ، مسئولا : أي جديرا أن يسأل ويطلب ، لكونه مما يتنافس فيه المتنافسون .

ضل السبيل : فقده وخرج عنه ، والذكر : ما ذكّر به الناس على ألسنة أنبيائهم ، بورا : أي هالكين وهو لفظ يستوى فيه الواحد والجمع ، صرفا : أي دفعا للعذاب ، يظلم : أي يكفر .

لا يرجون : أي لا يخافون كما جاء فى قوله : " ما لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقاراً " واللقاء : مقابلة الشيء ومصادفته ، ولقاءنا : أي لقاء جزائنا ، واستكبروا فى أنفسهم :

أي أوقعوا الاستكبار فى شأن أنفسهم بعدّها كبيرة الشأن ، والعتوّ : تجاوز الحد فى الظلم تجاوزا بلغ أقصى الغاية حيث كذبوا الرسول الذي جاء بالوحى ولم يكترثوا بالمعجزات التي أتاهم بها ، حجرا محجورا : كلمة تقولها العرب حين لقاء عدو موتور أو هجوم نازلة هائلة ، يقصدون بها الاستعاذة من وقوع ذلك الخطب الذي يلحقهم والمكروه الذي يلمّ بدارهم : أي نسأل اللّه أن يمنع ذلك منعا ويحجره حجرا ، وقدمنا : أي عمدنا وقصدنا ، والهباء كما قال الراغب : دقاق التراب وما انبثّ فى الهواء ولا يبدو إلا فى أثناء ضوء الشمس من كوّة ونحوها ، والمستقر : المكان الذي يستقر فيه المرء فى أكثر الأوقات للجلوس والمحادثة ، والمقيل : المكان الذي يؤوى إليه للاستمتاع بالأزواج والتمتع بحديثهن ،

سمى بذلك لأن التمتع به يكون وقت القائلة غالبا .

جملة واحدة : أي دفعة واحدة ، لنثبت به فؤادك : أي لنقوى به قلبك ، ورتلناه :

(33/556)

أي أتينا ببعضه إثر بعض على تؤدة ومهل من قولهم ثغر مرتّل : أي متفلج الأسنان ، بمثل : أي بنوع من الكلام جار مجرى المثل فى تنميقه وتحسينه ، ورشاقة لفظه وصدق معناه ، تفسيرا : أي إيضاحا ، يحشرون على وجوههم إلى جهنم : أي يسحبون على وجوههم ويجرّون إليها .

قال الزجاج : الوزير من يرجع إليه للاستعانة برأيه ، والتدمير : كسر الشيء على وجه لا يمكن معه إصلاحه ، وأعتدنا . هيّأنا وأعددنا ، الرس : البئر غير المطوية (غير المبنية) والجمع : رساس . قال أبو عبيدة : والمراد بهم كما قال قتادة أهل قرية من اليمامة يقال لها الرسّ والفلج قتلوا نبيهم فهلكوا ، وهم بقية ثمود قوم صالح ، والتتبير : التفتيت والتكسير قال الزجاج : كل شيء كسرته وفتّته فقد تبرّته ومنه التّبر لفتات الذهب والفضة ، والقرية : هى سذوم أعظم قرى قوم لوط ، لا يرجون : أي لا يتوقعون ، والنشور : البعث للحساب والجزاء .

ألم تر : أي ألم تنظر ، إلى ربك : أي إلى صنعه ، مد : بسط ، الظل : ما يحدث من مقابلة جسم كثيف كجبل أو بناء أو شجر للشمس من حين ابتداء طلوعها حتى غروبها ، ساكنا : أي ثابتا على حاله فى الطول والامتداد بحيث لا يزول ولا تذهبه الشمس ، دليلا : أي علامة ، قبضناه : أي محوناه ، يسيرا : أي على مهل قليلا قليلا بحسب سير الشمس فى فلكها ، والسبات : الموت لما فى النوم من زوال الإحساس ، والنشور : البعث ، بشرا : (تخفيف بشر بضمتين) واحدها بشور كرسل ورسول :

أي مبشرات ، والرحمة : المطر ، بين يديه : أي قدامه ، طهورا : أي يتطهر به ، والبلدة :

(34/556)

الأرض ، والميت : التي لا نبات فيها ، والأنعام : الإبل والبقر والغنم ، وخصها بالذكر لأنها ذخيرتنا . ومعاش أكثر أهل المدر منها ، وأناسىّ : واحدهم إنسان (أصله أناسين أبدلت النون ياء وأدغمت فى الياء) وصرفناه : أي حولناه فى أوقات مختلفة إلى بلدان متعددة ، ليذكروا : أي ليعتبروا ، كفورا : أي كفرانا للنعمة وإنكارا لها ، نذيرا :

أي نبيا ينذر أهلها ، والمرج : من قولهم مرج فلان دابته إذا تركها وشأنها ، فرات : أي مفرط العذوبة ، أجاج : أي شديد الملوحة ، برزخا : أي حاجزا ، حجرا محجورا : أي تنافرا

شديدا فلا يبغى أحدهما على الآخر ولا يفسد الملح العذب ، نسبا وصهرا : أي ذكورا ينسب إليهم ، وإناثا يصاهر بهن .

الظهير والمظاهر : المعاون فهو يعاون الشيطان على ربه : أي على رسوله بالعداوة ، وسبح بحمده : أي ونزّهه وصفه بصفات الكمال ، ويقال كفى بالعلم جمالا : أي حسبك ، فلا تحتاج معه إلى غيره ، والخبير بالشيء : العليم بظاهره وباطنه وبكل ما يتصل به ، والبروج : منازل السيارات الاثني عشر المعروفة التي جمعها بعضهم فى قوله :

حمل الثور جوزة السرطان ورعى الليث سنبل الميزان

ورمى عقرب بقوس لجدّى نزح الدلو بركة الحيتان

فهى الحمل والثور والجوزاء والسرطان والأسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدى والدلو والحوت ، وهى منازل الكواكب السيارة السبعة وهى : المريخ وله الحمل والعقرب ، والزهرة : ولها الثور والميزان ، وعطارد : وله الجوزاء والسنبلة ، والقمر : وله السرطان ، والشمس : ولها الأسد ، والمشترى : وله القوس والحوت ، وزحل : وله الجدى والدلو .

وهى فى الأصل القصور العالية . فأطلقت عليها على طريق التشبيه ، والسراج : الشمس خلفة : أي يخلف أحدهما الآخر ويقوم مقامه فيما ينبغى أن يعمل فيه .

الهون : الرفق واللين والمراد أنهم يمشون فى سكينة ووقار ، ولا يضربون بأقدامهم أشرا وبطرا ، الجاهلون : أي السفهاء ، سلاما : أي سلام توديع ومتاركة لا سلام تحية كقول إبراهيم لأبيه : " سَلَامٌ عَلَيْكَ " ويبيتون : أي يدركهم الليل ناموا أو لم يناموا كما يقال بات فلان قلقا ، غراما : أي هلاكا لازما ، قال الأعشى :

إن يعاقب يكن غراما وإن يعط جزيلا فإنه لا يبالى والإسراف : مجاوزة الحد فى النفقة بالنظر لنظرائه فى المال ، والتقتير : التضييق والشح ، قواما : أي وسطا وعدلا لا يدعون : أي لا يشركون ، والآثام : الإثم والمراد جزاؤه ، مهانا : أي ذليلا مستحقرا ، لا يشهدون الزور : أي لا يقيمون الشهادة الكاذبة والمراد أنهم لا يساعدون أهل الباطل على باطلهم ، واللغو ما ينبغى أن يلغى ويطرح مما لا خير فيه ، كراما : أي مكرمين أنفسهم عن الخوض فيه ، والخرور :

السقوط على غير نظام وترتيب ، وقرة العين : يراد بها الفرح والسرور ، والإمام :

يستعمل للمفرد والجمع والمراد الثاني أي أئمة يقتدى بهم فى إقامة مراسم الدين ، والغرفة : كل بناء عال مرتفع ويراد بها الدرجات الرفيعة ، ما يعبأ بكم : أي لا يعتد بكم ، دعاؤكم : أي عبادتكم ، لزاما : أي لازما يحيق بكم حتى يكبكم فى النار . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير المراغى حـ 18 صـ 146 : حـ 19 صـ 35 ﴾ . باختصار .

وقال الإمام أبو جعفر النحاس :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

سورة الفرقان

وهي مكية حدثني يموت بن المزرع قال حدثنا أبو حاتم قال حدثنا أبو عبيدة قال حدثنا يونس بن حبيب قال سمعت أبا عمرو بن العلاء يقول سألت مجاهدا تلخيص الآي المدني من المكي فقال مجاهد سألت ابن عباس وذكر الحديث وقال فيه نزلت سورة الفرقان بمكة فهي مكية 1 - من ذلك قوله جل وعز تبارك الذي نزل الفرقان على عبده آية 1 وقرأ عبد الله بن الزبير على عباده

تبارك تفاعل من البركة وهي حلول الخير ومنه فلان مبارك أي الخير يحل بحلوله مشتق من البرك والبركة وهما المصدر والفرقان القرآن لأنه فرق بين الحق والباطل والمؤمن والكافر والنذير المخوف عذاب الله تبارك وتعالى وكل مخوف نذير ومنذر 2 - وقوله جل وعز وخلق كل شئ فقدره تقديرا آية 2

أي قدره لكل شئ ما يصلحه ويقوم به 3 - وقوله جل وعز ولا يملكون موتا ولا حياة ولا

نشورا آية 3 يقال أنشر الله الموتى فنشروا

4 - ثم قال تعالى وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه آية قال مجاهد وقتادة إفك أي كذب ثم قال تعالى وأعانه عليه قوم آخرون روى ابن أبي نجيح عن مجاهد قال اليهود 5 - ثم قال جل وعز فقد جاءوا ظلما وزورا آية 4 قال مجاهد أي كذبا قال أبو جعفر والتقدير فقد جاءوا بظلم وزور 6 - ثم قال جل وعز وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا آية 5 قال مجاهد أي أحاديث الأولين قال قتادة وأصيلا أي عشيا 7 - وقوله جل وعز وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق آية 7

أي أي شئ له آكلا وماشيا ثم طلبوا أن يكون معه ملك شريكا فقالوا لولا أنزل إليه ملك وقد قال عز وجل ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا

(37/556)

وللبسنا عليهم ما يلبسون أي لو أنزلنا ملكا لم يكونوا يفهمون عنه حتى يكون رجلا وإذا كان رجلا لم يؤمنوا أيضا إلا بتأويل 8 - وقوله جل وعز تبارك الذي إن شاء جعل لك خيرا من ذلك جنات تجري من تحتها الأنهار آية 10 روى سفيان عن حبيب بن أبي ثابت عن خيثمة قال قيل للنبي صلى الله عليه وسلم إن شئت أن نعطيك خزائن الدنيا ومفاتحها ولم

يعط ذلك من قبلك ولا يعطاه أحد بعدك وليس ذلك بناقصك في الآخرة شيئا

وإن شئت جمعنا ذلك لك في الآخرة فقال يجمع لي ذلك في الآخرة فأنزل الله عز وجل تبارك

الذي إن شاء جعل لك خيرا من ذلك جنات تجري من تحتها الأنهار ويجعل لك قصورا آية

9 10 – وقوله جل وعز إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا آية 12 قيل في

معنى هذا قولان أحدهما سمعوا لمن فيها من المعذبين تغيظا وزفيرا واستشهد صاحب

هذا القول بقوله عز وجل لهم فيها زفير وشهيق والقول الآخر أن المعنى سمعوا لها تغيظا

عليهم كما قال

تعالى تكاد تميز من الغيظ

والقول الثاني أولى لأنه قال سمعوا لها ولم يقل سمعوا فيها ولا منها والتقدير سمعوا لها صوت

تغيظ 10 – وقوله جل وعز دعوا هنالك ثبورا آية 13 قال مجاهد والضحاك أي هلاكا

قال أبو جعفر يقال ما ثبرك عن كذا أي ما صرفك عنه فالمثبور ابن هو المصروف عن الخير

والمعنى يقولون واثبوراه وروى علي بن زيد عن أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه

وسلم أنه قال أول من يكسى حلة من جهنم إبليس فيضعها على

جبينه ويسحبها يقول واثبوراه وتتبعه ذريته يقولون واثبوراه فيقال لهم لا تدعوا اليوم ثبورا

واحدا وادعوا ثبورا كثيرا 11 – ثم قال جل وعز قل أذلك خير أم جنة الخلد التي وعد

المتقون آية 15 وليس في ذلك خير فإنما هو على عملكم وعلى ما تفعلون 12 – ثم قال

جل وعز كان على ربك وعدا مسئولا آية 16 قال محمد بن كعب أي يسأله وهو قول الملائكة صلى

الله عليه ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم

(38/556)

وقيل إن ذلك يراد به قولهم لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها 13 - وقوله جل وعز ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله آية 17 قال مجاهد المسيح وعزيرا والملائكة 14 - وقوله جل وعز حتى نسوا الذكر وكانوا قوما بورا آية 18 قال مجاهد أي هالكين قال أبو جعفر يقال لما هلك أو فسد أو كسد بائر ومنه بارت السوق وبارت الأيم وبور يقع للواحد والجماعة على قول أكثر النحويين وقال بعضهم الواحد بائر والجمع بور كما يقال عائد وعوذ وهائد وهود 15 - ثم قال جل وعز فقد كذبوكم بما تقولون آية 19 أي بقولكم إنهم آلهة

وحكى الفراء أنه يقرأ فقد كذبوكم بما يقولون قال أبو جعفر والمعنى على هذا فقد كذبوكم بقولهم ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء 16 - ثم قال تعالى فما يستطيعون صرفا ولا نصرا آية 19

قال يونس الصرف الحيلة من قولهم فلان يتصرف في الأشياء أي فما يستطيعون أن يصرفوا عن أنفسهم العذاب ولا ينصروها 17 - وقوله جل وعز ومن يظلم منكم نذقه عذابا كبيرا آية 19 قال الحسن الشرك 18 - وقوله جل وعز وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون وكان ربك بصيرا آية 20

قال قتادة فتنة أي بلاء قال أبو جعفر الفتنة في اللغة الاختبار والمعنى جعلنا الشريف للوضيع والوضيع للشريف فتنة يروى أن الشريف كان يريد أن يسلم فيمنعه من ذلك أن من هو دونه قد أسلم قبله فيقول أعير بسبقه إياي وإن بعض الزمنى والفقراء كان يقول لم لم أكن غنيا وصحيحا فأسلم ثم قال جل وعز أتصبرون أي إن صبرتم فقد عرفتم أجر الصابرين 19 - ثم خبر أن الذين لا يؤمنون بالآخرة يقترحون من الآيات ما لم يعطه أحد فقال جل وعز وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى

(39/556)

ربنا لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا آية 21 والعتو التجاوز فيما لا ينبغي 20 - ثم قال جل وعز يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حجرا محجورا آية 22 روى عطية عن أبي سعيد الخدري حجرا محجورا قال حراما محرما قال الضحاك أي

تقول لهم الملائكة حراما عليكم محرما أن تكون لكم البشرى اليوم يعني الكفار قال أبو جعفر والمعنى حراما عليكم البشرى ومن هذا حجر القاضي إنما هو منعه ومن هذا حجر الإنسان

21 - وقوله جل وعز وقدمنا إلى ما عملوا من عمل آية 23 قال مجاهد وقدمنا أي عمدنا قال أبو جعفر وأصل هذا أن القادم إلى الموضع يعمد له ويقصد إليه 22 - ثم قال جل وعز فجعلناه هباء منثورا آية 23 روى أبو إسحق عن الحارث عن علي قال الهباء المنثور شعاع الشمس الذي يدخل من الكوة قال أبو جعفر وهباء جمع هباءة فيقال لما يكون من شعاع الشمس

وهو شبيه بالغبار هباء منثور ويقال لما يطير من تحت سنابك الخيل هباء منبث وأصله من أهبأ قوله التراب إهباء له إذا أثاره كما قيل منينا كأنه أهباء 23 - وقوله جل وعز أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا آية 24 قال أبو جعفر القول في هذا كالقول في قوله تعالى أذلك خير أم جنة الخلد والفراء يذهب إلى أنه ليس في هذا سؤال البتة 24 - ثم قال جل وعز وأحسن مقيلا آية 24 قال قتادة أي مأوى ومنزلا قال أبو جعفر المقيل في اللغة هو المقام وقت القيلولة خاصة فقيل إن أهل الجنة ينصرفون إلى نسائهم مقدار وقت

نصف النهار فيقيل أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار ذلك الوقت 25 - ثم قال جل

وعز ونزل الملائكة تنزيلا آية 25 قال قتادة تنزل ملائكة كل سماء سماء فيقول الخلائق لهم أفيكم ربنا جل وعز وذكر الحديث 26 - ثم قال جل وعز الملك يومئذ الحق للرحمن آية 26 لأن ملك الدنيا زائل

(40/556)

---

27 - وقوله جل وعز ويوم يعض الظالم على يديه آية 27 قال سعيد بن المسيب كان عقبة بن أبي معيط خدنا لأمية بن خلف فبلغ أمية أن عقبة عزم على أن يسلم فأتاه فقال له وجهي من وجهك حرام إن لم تكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم ففعل الشقي فأنزل الله جل وعز ويوم يعض الظالم على يديه يقول ياليتني اتخذت مع الرسول سبيلا يا ويلتي ليتني لم أتخذ فلانا خليلا وقال أبو رجاء فلان هو الشيطان واحتج لصاحب هذا القول بأن بعده وكان الشيطان للإنسان خذولا والقول الأول هو الذي عليه أهل التفسير 28 - روى عثمان الجزري عن مقسم عن ابن عباس أن هذا نزل في عقبة وأمية

وفي رواية مقسم فأما عقبة فكان في الأسارى يوم بدر فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بقتله فقال أأقتل دونهم فقال نعم بكفرك وعتوك فقال من للصبية فقال النار فقام علي بن أبي طالب فقتله وأما أمية بن خلف فقتله النبي صلى الله عليه وسلم بيده وكان قال والله لأقتلن

محمدا فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فقال أنا أقتله إن شاء الله وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد قال أمية لعقبة

أصبأت فقال عقبة إنما صنعت طعاما فأبي محمد أن يأكل منه حتى أشهد له بالرسالة والذي قال أبو رجاء ليس بناقض لهذا لأن هذا كان

بإغواء الشيطان وتزيينه فيجوز أن يكون نسب إليه على هذا 29 - وقوله جل وعز وقال الرسول يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا آية 30 قال مجاهد وإبراهيم أي قالوا فيه غير الحق قال إبراهيم ألم تر إلى المريض كيف يهجر أي يهذي وقيل مهجورا أي متروكا 30 - وقوله جل وعز وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا من المجرمين آية 31 قال أبو جعفر يجوز أن يكون عدوا بمعنى أعداء ويجوز أن يكون لواحد

(41/556)

وفي بعض الروايات عن ابن عباس أنه يراد به أبو جهل 31 - وقوله جل وعز وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك آية 32 قيل هذا التمام والمعنى أنزلناه متفرقا لنثبت به فؤادك كذلك التثبيت كما قال جل وعز ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا

لأنه إذا انزله متفرقا كان فيه جواب ما يسألون في وقته فكان في ذلك تثبيت فقيل التمام قوله كذلك وقيل التمام عند قوله جملة واحدة

والمعنى وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كالتوراة والإنجيل ومعنى هذا لم أنزل متفرقا فقال جل وعز كذلك لنثبت به فؤادك أي أنزلناه متفرقا لنثبت به فؤادك 32 – ثم قال جل وعز ورتلناه ترتيلا آية 32 روى مغيرة عن إبراهيم قال أنزل متفرقا وقال الحسن كلما سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن شئ نزل جوابه حتى كمل نزوله في نحو من عشرين سنة 33 – ثم قال جل وعز ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا آية 33 قال الضحاك أي تفصيلا قال أبو جعفر في الكلام حذف والمعنى وأحسن تفسيرا من مثلهم ومثل هذا يحذف كثيرا 34 – ثم قال جل وعز الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم أولئك شر مكانا آية 34 في الحديث الشريف يحشر الناس على ثلاث طبقات

ركبانا ومشاة وعلى وجوههم قال أنس قيل يا رسول الله كيف يحشرون على وجوههم فقال إن الذي أمشاهم على

أرجلهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم 35 – وقوله جل وعز وجعلنا معه أخاه هارون وزيرا آية 35 روى سعيد عن قتادة قال أي عونا وعضدا 36 – وقوله تعالى وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم آية 37 قيل هذا يوجب أن قوم نوح قد كذبوا غير نوح صلى الله عليه وسلم فقيل من كذب نبيا فقد كذب جميع الأنبياء لأن الأنبياء كلهم يؤمنون بالله

جل وعز وبجميع كتبه وقيل هذا كما يقال فلان يركب الدواب وإن لم يركب إلا واحدة أي يركب هذا الجنس

(42/556)

---

37 - وقوله جل وعز وعادا وثمود وأصحاب الرس آية 38 قال قتادة كانوا أصحاب فلج باليمامة وآبار قال مجاهد أصحاب الرس كانوا على بئر لهم وكان اسمها الرس فنسبوا إليها قال أبو جعفر الرس عند أهل اللغة كل بئر غير مطوية ومنه قول الشاعر * تنابلة يحفرون الرساسا يعني آبار المعادن ويروى أنهم قتلوا نبيهم ورسوه في بئر أي دسوه فيها

إلا أن قتادة قال إن أصحاب الأيكة وأصحاب الرس

أمتان أرسل إليهم جميعا شعيب صلى الله عليه وسلم فعذبتا بعذابين 38 - ثم قال جل وعز وقرونا بين ذلك كثيرا آية 38 قال قتادة بلغنا أن القرن سبعون سنة ومعنى تبرنا أهلكنا ودمرنا 39 - وقوله جل وعز ولقد أتوا على القرية التي أمطرت مطر السوء آية 40 قال قتادة يعني مدينة قوم لوط 40 - وقوله جل وعز بل كانوا لا يرجون نشورا آية 40 قال قتادة أي حسابا وبعثا قيل يرجون ههنا بمعنى يخافون وقال من ينكر الأضداد يرجون على بابه أي لا يرجون ثواب الآخرة فيتقوا المعاصي

41 - وقوله جل وعز أرأيت من اتخذ إلهه هواه آية 43 قال الحسن لا يهوى شيئا إلا اتبعه وقال غيره كان أحدهم يعبد الحجر فإذا رأى حجرا أحسن منه أخذه وترك الأول قال أبو جعفر قول الحسن في هذا قول جامع أي يتبع هواه ويؤثره فقد صار له بمنزلة الإله 42 - ثم قال جل وعز أفأنت تكون عليه وكيلا آية 43 قيل حافظا وقيل كفيلا

43 - ثم قال تعالى أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا آية 44

لأن الأنعام تسبح وتجتنب مضارها 44 - وقوله جل وعز ألم تر إلى ربك كيف مد الظل آية 45 ترى ههنا في موضع تعلم ويجوز أن يكون من رؤية العين قال الحسن وأبو مالك وإبراهيم التيمي وقتادة والضحاك في قوله تعالى ألم تر إلى ربك كيف مد الظل هو ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس 45 - ثم قال تعالى ولو شاء لجعله ساكنا آية 45

(43/556)

قال الحسن أي لو شاء لتركه ظلا كما هو وقال الضحاك أي لو شاء لجعل النهار كله ظلا وقال قتادة ساكنا أي دائما ثم جعلنا الشمس عليه دليلا أي تتلوه وتتبعه ثم قبضناه إلينا قبضا يسيرا روى سفيان عن عبد العزيز بن رفيع عن مجاهد يسيرا أي خفيا وقال الضحاك

سريعا وقال أبو مالك وإبراهيم التيمي قبضا يسيرا هو ما تقبضه الشمس من الظل

قال أبو جعفر قول مجاهد أولى في العربية وأشبه بالمعنى لما نذكره وصف الله جل وعز لطفه

وقدرته فقال ألم تر إلى ربك كيف مد الظل أي ما بين طلوع الفجر إلى طلوع

الشمس كما قال أهل التفسير وبينته لك في قوله جل وعز في وصفه الجنة وظل ممدود 46

– ثم قال سبحانه ولو شاء لجعله ساكنا آية 45 أي دائما كما في الجنة ثم جعلنا الشمس

عليه دليلا أي تدل عليه وعلى معناه لأن الشئ يدل على ضده فيدل النور على الظلمة

والحر على البرد وقيل دالة على الله عز وجل ثم قبضناه إلينا قبضا يسيرا أي إذا غابت

الشمس قبض الظل فبضا ذلك خفيا كلما قبض جزء منه جعل مكانه جزء من الظلمة

وليس يزول دفعة واحدة فهذا قول مجاهد وقول أبي مالك وإبراهيم التيمي أن المعنى ثم

قبضنا الظل بمجئ الشمس ويذهبان إلى أن معنى يسيرا سهلا علينا

وقول مجاهد أولى لأن ثم يدل على أن الثاني بعد الأول وقوله أيضا أجمع للمعنى 33 –

وقوله جل وعز وهو الذي جعل لكم الليل لباسا

آية 47 أي سترا والنوم سباتا أي راحة وجعل النهار نشورا أي ينتشر فيه 48 – وقوله

جل وعز وهو الذي أرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته آية 48 أكثر القراء يقرءون ما كان

في معنى الرحمة على الرياح وما كان في معنى العذاب على الريح ويحتج بعضهم بحديث

ضعيف يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا هبت الريح قال اللهم اجعلها رياحا ولا تجعلها ريحا

(44/556)

قال أبو جعفر وقيل إنما وقع هذا هكذا لأن ما يأتي بالرحمة ثلاث رياح وهي الصبا والشمال والجنوب والرابعة الدبور ولا تكاد تأتي بمطر فقيل لما أتى بالرحمة رياح هذا ولا أصل للحديث ومعنى نشرا إحياء أي تأتي بالسحاب الذي فيه المطر الذي به حياة الخلق ونشرا جمع نشور وروى عن عاصم بشرا جمع بشيرة وروي عنه بشرا بحذف الضمة لثقلها أو يكون جمع بشرة كما يقال بسرة وبسر

وعن محمد اليماني بشرى أي بشارة

بين يدي رحمته أي المطر 49 - وقوله جل وعز وأنزلنا من السماء ماء طهورا لنحيي به بلدة ميتا ونسقيه مما خلقنا أنعاما وأناسي كثيرا آية 49 قال محمد بن يزيد أناسي جمع إنسي مثل كرسي وكراسي وقال غيره أناسي جمع إنسان والأصل أناسين مثل سراحين ثم أبدل من النون ياء 50 - ثم قال سبحانه ولقد صرفناه بينهم ليذكروا آية 50 يعني المطر أي نسقي أرضا ونترك أرضا ليذكروا أي ليفكروا في نعم الله جل وعز ويحمدوه

فأبى أكثر الناس إلا كفورا وهو أن يقولوا مطرنا بنوء كذا أي بسقوط كوكب كذا كما يقول المنجمون فجعلهم كفارا بذلك 51 - وقوله جل وعز وجاهدهم به جهادا كبيرا آية 52 أي بالقرآن 52 - وقوله جل وعز وهو الذي مرج البحرين آية 53 أي خلطهما وخلاهما فهما مختلطان في مرآة العين وبينهما حاجز من قدرة الله عز وجل وفي الحديث مرجت أماناتهم أي اختطلت

ويقال مرج السلطان الناس أي خلاهم وأمرجت محمد الدابة

ومرجتها إلى أي خليتها لترعى 53 - ثم قال تعالى هذا عذب فرات آية 53 أي شديد العذوبة وهذا ملح أجاج آية 53 روى معمر عن قتادة قال الأجاج المر قال أبو جعفر والمعروف عند أهل اللغة أن الأجاج الشديد الملوحة ويقال ماء ملح ولا يقال مالح وروي عن طلحة أنه قرأ وهذا ملح أجاج بفتح الميم وكسر اللام 54 - ثم قال جل وعز وجعل بينهما برزخا وحجرا محجورا آية 53

(45/556)

برزخا أي حاجزا وحجرا محجورا أي مانعا 55 - ثم قال تعالى وهو الذي خلق من الماء بشرا آية 54 يعني بالماء النطفة والله عز وجل أعلم 56 - وقوله جل وعز فجعله نسبا

وصهرا آية 54 قيل هو الماء الذي خلق منه أصول الحيوان وقيل النسب البنون ينتسوب كان إليه وخلق له بنات من جهتهن الأصهار وقال أبو إسحاق النسب الذي ليس بصهر من قوله تعالى حرمت عليكم أمهاتكم إلى قوله وأن تجمعوا

بين الأختين إلا ما قد سلف والصهر من يحل له التزوج وروى عميرة مولى ابن عباس عن ابن عباس رضي الله عنه وهو قول الضحاك قال حرم من النسب سبع ومن الصهر سبع

ثم قرأ حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم إلى قوله وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف

وقيل من الصهر خمس وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم إلى وحلائل أبنائكم وهذا لفظ الضحاك

وقد اختلف في الفرق بين الختن والصهر فقال الأصمعي الأختان كل شئ من قبل المرأة مثل أبي المرأة وأخيها وعمها والأصهار يجمع هذا كله يقال صاهر فلان إلى بني فلان وأصهر إليهم وقال ابن الأعرابي الأختان أبو المرأة وأخوها وعمها والصهر زوج ابنة الرجل وأخوه وأبوه وعمه

وقال محمد بن الحسن في رواية أبي سليمان الجوزجاني أختان الرجل أزواج بناته وأخواته وعماته وخالاته وكل ذي محرم منه اصهاره كل ذي رحم محرم من زوجته قال أبو جعفر الأولى في هذا أن يكون القول في الأصهار

ما قال الأصمعي وأن يكون من قبلهما جميعا لأنه يقال صهرت الشئ أي خلطته فكل واحد منهما قد خلط صاحبه والأولى في الأختان ما قاله محمد بن الحسن لجهتين أحدهما

الحديث المرفوع روى محمد بن إسحق عن يزيد بن عبد الله بن قسيط عن محمد بن أسامة بن زيد عن أبيه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أما أنت يا علي فختني وأبو ولدي وأنت مني وأنا منك فهذا يدل على أن زوج البنت ختن

(46/556)

والجهة الأخرى أنه يقال ختنه إذا قطعه فالزوج قد انقطع عن أهله وقطع المرأة عن أهلها فهو أولى بهذا الأسم 57 - وقوله جل وعز وكان الكافر على ربه ظهيرا آية 55 قال مجاهد أي معينا وقال الحسن أي عونا للشيطان على الله عز وجل على المعاصي 58 - ثم قال جل وعز وما أرسلناك إلا مبشرا ونذيرا آية 56 قال قتادة أي مبشرا بالجنة ونذيرا من النار 59 - ثم قال جل وعز قل ما أسألكم عليه من أجر إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا آية 57 قال قتادة بطاعة الله عز وجل

60 - وقوله تعالى الرحمن فاسأل به خبيرا آية 59 قال أبو إسحق أي اسأل عنه وقد حكى هذا جماعة من

أهل اللغة أن الباء بمعنى عن كما قال جل وعز سأل سائل بعذاب واقع وقال الشاعر هلا سألت الخيل يا ابنة مالك إن كنت جاهلة بما لم تعلمي قال علي بن سليمان أهل النظر

ينكرون أن تكون الباء بمعنى عن لأن في هذا فساد المعاني قال ولكن هذا مثل قول العرب لو لقيت فلانا للقيك به الأسد أي للقيك بلقائك إياه الأسد والمعنى فاسأل بسؤالك على ما تقدم

61 - وقوله جل وعز تبارك الذي جعل في السماء بروجا آية 61 قال قتادة أي نجوما وروى إسماعيل بن أبي خالد عن أبي صالح قال البروج النجوم العظام وروى إسماعيل عن يحيى بن رافع قال البروج قصور في السماء قال أبو جعفر يقال لكل ما ظهر وتبين برج ومنه قيل تبرجت المرأة وقد برج برجا إذا ظهر 62 - ثم قال جل وعز وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا آية 61 سراجا يعني الشمس ويقرأ سرجا

(47/556)

وقيل من قرأ هذه القراءة فالمعنى عنده وجعل في البروج سرجا فإن قيل فقد أعاد ذكر القمر وقد قال سرجا والقمر داخل فيها فالجواب أنه أعيد ذكر القمر لفضله عليها كما قال جل وعز فيهما فاكهة ونخل ورمان 63 - وقوله جل وعز وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة آية 62 قال مجاهد أي يخلف هذا هذا ويخلف هذا هذا وقال الحسن من نسي شيئا من التذكر والشكر بالنهار كانت له في الليل عتبى ومن نسيه بالليل كانت له في النهار

عتبى

وقيل خلفة أي مختلفين كما قال جل وعز واختلاف الليل والنهار قال أبو جعفر وأولى هذه الأقوال قول مجاهد والمعنى كل واحد منهما يخلف صاحبه مشتق من الخلف ومنه خلف فلان فلانا بخير أو شر ومنه قول زهير بها العين والآرام يمشين خلفة وأطلاؤها ينهضن من كل مجثم 64 - وقوله جل وعز وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض

هونا آية 63 وكل واحد عبده فنسبهم إليه لاصطفائه إياهم كما يقال بيت الله وناقة الله

65 - وقوله جل وعز الذين يمشون على الأرض هونا آية 63

قال مجاهد أي بالوقار والسكينة وقال الحسن علماء حلماء إن جهل عليهم لم يجهلوا 66 - ثم قال تعالى وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما آية 63 قال مجاهد أي سدادا قال سيبويه وزعم أبو الخطاب أن مثله قولك للرجل سلاما تريد تسلما منك كما قلت براءة منك قال وزعم أن هذه الآية فيما زعم مكية ولم يؤمر المسلمون يومئذ أن يسلموا على المشركين ولكنه على قوله تسلما ولا خير بيننا وبينكم ولا شر 67 - وقوله جل وعز والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما آية 64

يقال بات إذا أدركه الليل نام أو لم ينم كما قال الشاعر فبتنا قياما عند رأس جوادنا يزاولنا عن نفسه ونزاوله

68 - وقوله جل وعز إن عذابها كان غراما آية 65 قال أبو عبيدة أي هلاكا وأنشد ويوم النسار ويوم الجفار كانا عذابا وكانا غراما

وقال الفراء كان غراما أي ملحا ملازما ومنه فلان غريمي أي يلح في الطلب والغرام عند أكثر أهل اللغة أشد العذاب قال الأعشى

إن يعاقب يكن غراما وإن يعط جزيلا فإنه لا يبالي قال محمد بن كعب طالبهم الله بثمن النعم فلما لم يأتوا به غرمهم ثمنها وأدخلهم النار 69 - وقوله جل وعز والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا آية 67 قال سفيان لم يسرفوا لم ينفقوا في غير حق ولم يقتروا لم يمسكوا عن حق وأحسن ما قيل ما حدثنا أبو علي الحسن بن غليب قال حدثني عمران بن أبي عمران قال حدثنا خلاد بن سليمان الحضرمي قال حدثني عمرو بن لبيد عن أبي عبد الرحمن الحبلي في قوله جل وعز والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما قال

من أنفق في غير طاعة الله عز وجل فهو الإسراف ومن أمسك عن طاعة الله عز وجل فهو الإقتار

ومن أنفق في طاعة الله عز وجل فهو القوام وكان بين ذلك قواما أي عدلا قال أحمد بن يحيى يقال هذا قوام الأمر وملاكه وقال بعض أهل اللغة هذا غلط وإنما يقال هذا قوام الأمر واحتج بقوله تعالى وكان بين ذلك قواما قال أبو جعفر والصواب ما قال أحمد بن يحيى

والمعنيان مختلفان فالقوام أبو بالفتح الاستقامة والعدل كما قال لبيد واحب المجامل أو بالجزيل وصرمه باق إذا ضلعت وزاغ قوامها

والقوام بالكسر ما يدوم عليه الأمر ويستقر 70 - وقوله تعالى والذين لا يدعون مع الله إلها آخر آية 68 قال أبو وائل قال عبد الله بن مسعود سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم أي الذنب أعظم فقال أن تشرك بالله جل وعلا وهو خلقك قلت ثم أي قال أن تقتل ولدك من أجل أن يأكل معك وتزني بحليلة جارك ثم قرأ عبد الله والذين لا يدعون مع الله إلها آخر الآية 71 - وقوله جل وعز ومن يفعل ذلك يلق أثاما آية 68

(49/556)

قال مجاهد هو واد في جهنم وقال أبو عمرو الشيباني يقال لقي أثام ذلك أي جزاء ذلك وقال القتبي الأثام جزاء العقوبة وأنشد والعقوق له أثام قال أبو جعفر وأصح ما قيل في هذا وهو قول الخليل وسيبويه أن المعنى يلق جزاء الأثام كما قال سبحانه واسأل القرية وبين جزاء الأثام فقال يضاعف له العذاب يوم القيامة كما بين الشاعر في قوله متى تأتنا تلمم بنا في ديارنا تجد حطبا جزلا ونارا تأججا قال الضحاك لما أنزل الله جل وعز والذين لا يدعون مع الله إلها آخر إلى آخر الآية قال المشركون قد زعم أنه

لا توبة لنا فأنزل الله جل وعز إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا أي تاب من الشرك ودخل في الإسلام ونزل هذا بمكة وأنزل الله قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا الآية ثم أنزل بالمدينة بعد ثماني سنين ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم وهي مبهمة لا مخرج منها

72 - وقوله جل وعز فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات آية 70 روى عاصم عن أبي عثمان عن سلمان قال يقرأ المؤمن في أول كتابه السيئات ويرى الحسنات دون ذلك فينظر وجهه وينظر

أعلاه فإذا هو حسنات كله فيقول هاؤم اقرءوا كتابيه فأولئك الذين يبدل الله سيئاتهم حسنات قال والضحاك أي يبدلهم من الشرك الإيمان وقال الحسن مجاهد قوم يقولون التبديل في الآخرة يوم القيامة وليس كذلك إنما التبديل في الدنيا يبدلهم الله إيمانا من الشرك وإخلاصا من الشك وإحصانا من الفجور قال أبو إسحق ليس يجعل مكان السيئة حسنة ولكن يجعل مكان السيئة التوبة والحسنة مع التوبة

73 - وقوله جل وعز ومن تاب وعمل صالحا فإنه يتوب إلى الله متاب آية 71 أي توبة مؤكدة أي إذا عمل صالحا بعد التوبة قيل تاب متابا أي متابا مرضيا مقبولا 74 - وقوله جل وعز والذين لا يشهدون الزور آية 72 قال محمد بن الحنفية يعني الغناء وقال الضحاك يعني الشرك وأصل الزور في اللغة الكذب

والشرك أشد الكذب 75 – وقوله وإذا مروا باللغو مروا كراما آية 72 قال الضحاك باللغو أي بالشرك وروي عنه أيضا إذا ذكروا النكاح كنوا عنه وقال الحسن اللغو المعاصي كلها وأصل اللغو في اللغة ما ينبغي أن يلغى أي يطرح أي تركوه وأكرموا أنفسهم عنه 76 – وقوله جل وعز والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا آية 73 أي لم يتغافلوا عنها ويتركوها حتى يكونوا بمنزلة من لا يسمع ولا يبصر 77 – ثم قال جل وعز والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين آية 74 قال الضحاك أي مطيعين لك ثم قال واجعلنا للمتقين إماما آية 74 قال الضحاك أي اجعلنا أئمة يقتدى بنا في الخير وقال الحسن أي اجعلنا نقتدي بالمتقين الذين قبلنا ويقتدي بنا من بعدنا

78 – وقوله جل وعز قل ما يعبأ بكم ربي لولا دعاؤكم آية 77

وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد قال أي ما يفعل بكم ربي لولا دعاؤه إياكم لتعبدوه وتطيعوه وهذا أحسن ما قيل في الآية كما قال جل وعز ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم وأصل يعبأ من العبء وهو الثقل وقول الشاعر كأن بصدره وبجانبيه عبيرا بات يعبأه) عروس أي يجعل بعضه على بعض أي أي وزن لكم عند ربكم لولا أنه أراد أن يدعوكم إلى

طاعته

وقال القتبي المعنى ما يعبأ بعذابكم ربي لولا دعاؤكم غيره أي لولا شرككم 79 - ثم قال سبحانه فقد كذبتم فسوف يكون لزاما آية 77 بوى مسروق عن عبد الله قال يعني يوم بدر وكذلك قال مجاهد والضحاك قال أبو إسحاق أي فسوف يكون التكذيب لازما يلزمكم ولا تعطون التوبة وقال القتبي أي فسوف يكون العذاب لزاما وقال أبو عبيدة لزاما أي فيصلا وقال مسلم بن عمار سمعت ابن عباس يقرؤها فقد

(51/556)

كذب الكافرون فسوف يكون لزاما وقال أبو زيد سمعت قعنبا يقرأ فسوف يكون لزاما بفتح اللام قال أبو جعفر وهذا مصدر لزم والأول مصدر لوزم حدثنا بكر بن سهل قال حدثنا أبو صالح قال حدثنا معاوية بن صالح عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قل ما يعبأ بكم ربي لولا دعاؤكم يقول لولا إيمانكم وأخبر الله جل وعز الكفار أنه لا حاجة له بهم إذا لم يخلقهم مؤمنين ولو كان له بهم حاجة لحبب إليهم الإيمان كما حببه إلى المؤمنين فسوف يكون لزاما قال يقول موتا . انتهت سورة الفرقان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للنحاس حـ 4 صـ 7 . 58 ﴾

(52/556)

وقال الفراء :

ومن سورة الفرقان

قوله : تَبارَكَ [1] : هو من البركة . وهو فى العربيّة كقولك تقدّس ربّنا . البركة والتقدّس العظمة وهما بعد سواء .

وقوله : لَوْلا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ [7] جواب بالفاء لأن (لولا) بمنزلة هلّا .

(53/556)

قوله : أَوْ يُلْقى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ [8] له مرفوعان على الرّدّ على (لولا) كقولك «1» فى الكلام أو هلّا يلقى إليه كنز وقد قرئت (نأكل منها) و(يأكل بالياء «2» والنون) .

وقوله : فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا [9] يقول : لا يستطيعون فى أمرك حيلة .

وقوله : تَبارَكَ الَّذِي إِنْ شاءَ جَعَلَ لَكَ [10] جزاء (وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُوراً) مجزومة مردودة على (جعل) و(جعل) فى معنى جزم ، وقد تكون رفعا وهى فى ذلك مجزومة لأنها لام

لقيت لام فسكنت . وإن رفعتها «3» رفعا بيّنا فجائز (ونصبها «4» جائز على الصّرف) .

وقوله : تَغَيُّظاً وَزَفِيراً [12] هو كتغيظ الآدميّ إذا غضب فغلى صدره وظهر فى كلامه .

وقوله : ثُبُوراً واحِداً [13] الثبور مصدر ، فلذلك قال (ثُبُوراً كَثِيراً) لأن المصادر لا تجمع :

ألا ترى أنك تقول : قعدت قعودا طويلا ، وضربته ضربا كثيرا فلا تجمع . والعرب تقول : ما ثبرك عن ذا ؟ أي ما صرفك عنه . وكأنهم دعوا بما فعلوا ، كما يقول الرجل : وا ندامتاه .

وقوله : كانَ عَلى رَبِّكَ وَعْداً مَسْؤُلًا [16] يقول : وعدهم اللّه الجنّة فسألوها إيّاه فى الدنيا إذ قالوا (رَبَّنا «5» وَآتِنا ما وَعَدْتَنا عَلى رُسُلِكَ) يريد على ألسنة رسلك ، وهو يوم القيامة غير مسئول . وقد يكون فى الكلام أن تقول : لأعطينّك ألفا وعدا مسئولا أي هو واجب لك فتسأله لأن المسئول واجب ، وإن لم يسأل كالدّين .

وقوله : سُبْحانَكَ ما كانَ يَنْبَغِي لَنا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِياءَ [18] .

---

(1) ش ، ب : «كقيلك» .

(2) فى ا : «نأكل بالنون ويأكل بالياء» . وقد قرأ حمزة والكسائي وخلف بالنون وافقهم الأعمش ، وقرأ الباقون بالياء .

(3) والرفع قراءة أبى بكر وابن كثير وابن عامر .

(4) فى ا : «قال قيل للفراء : فهل تجيز (ويجعل) بالنصب على الصرف ؟ قال : نعم» .

والنصب على الصرف هنا هو عند البصريين النصب بأن مضمرة بعد واو المعية .

(5) الآية 194 سورة آل عمران .

(54/556)

قالت الأصنام : ما كان لنا أن نعبد غيرك فكيف ندعو إلى عبادتنا ! ثم قالت : ولكنك يا ربّ متّعتهم بالأموال والأولاد حتّى نسوا ذكرك . فقال اللّه للآدميين (فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ) يقول : (كذّبتكم الآلهة بما تقولون) وتقرأ (بما يقولون) بالياء (والتّاء «1») فمن قرأ بالتّاء فهو كقولك كذّبك يكذّبك . ومن قرأ بالياء قال : كذّبوكم بقولهم . والقراء مجتمعة على نصب النون فى (نَتَّخِذَ) إلا أبا جعفر المدنىّ فإنه قرأ (أن نتّخذ) بضم النون (من دونك) فلو لم تكن فى الأولياء (من) كان وجها جيّدا ، وهو على (شذوذه «2» و) قلّة من قرأ به قد يجوز على أن يجعل الاسم «3» فى (من أولياء) وإن كانت قد وقعت فى موقع الفعل 130 ب وإنما آثرت قول الجماعة لأن العرب إنما تدخل (من) فى الأسماء لا فى الأخبار ألا ترى أنهم يقولون : ما أخذت من شىء وما عندى من شىء ، ولا يقولون ما رأيت عبد اللّه من رجل . ولو أرادوا ما رأيت من رجل عبد اللّه فجعلوا عبد اللّه هو الفعل جاز ذلك . وهو

مذهب أبى جعفر المدنىّ .

وقوله (قَوْماً بُوراً) والبور مصدر واحد وجمع والبائر الذي لا شىء فيه . تقول : أصبحت منازلهم بورا أي لا شيء فيها . فكذلك أعمال الكفار باطل . ويقال : رجل بور وقوم بور .

وقوله : إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعامَ [20] (لَيَأْكُلُونَ) صلة لاسم «4» متروك اكتفى بمن المرسلين منه كقيلك فى الكلام : ما بعثت إليك من الناس إلا من إنه ليطيعك ، ألا ترى أن (إنه ليطيعك) صلة لمن . وجاز ضميرها «5» كما قال (وَما مِنَّا «6» إِلَّا لَهُ مَقامٌ مَعْلُومٌ) معناه – والله أعلم – إلا من له مقام وكذلك قوله (وَإِنْ «7» مِنْكُمْ إِلَّا وارِدُها) ما منكم إلا من يردها ، ولو لم تكن اللام جوابا لإنّ كانت إنّ مكسورة أيضا ، لأنها مبتدأة ، إذ كانت صلة .

---

(1) سقط فى ا .

(2) سقط فى ا .

(3) أي يكون هو المفعول الثاني .

(4) يريد من الموصولة .

(5) أي حذفها .

(6) الآية 164 سورة الصافات .

(7) الآية 71 سورة مريم . [. . . . .]

وقوله (وَجَعَلْنا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ) كان الشريف من قريش يقول : قد أسلم هذا من قبلى - لمن هو دونه - أفأسلم بعده فتكون له السّابقة فذلك افتتان بعضهم ببعض . قال اللّه (أَتَصْبِرُونَ) قال الفرّاء يقول : هو هذا الذي ترون .

وقوله : لا يَرْجُونَ لِقاءَنا [21] .

لا يخافون لقاءنا وهى لغة تهاميّة : يضعون الرجاء فى موضع الخوف إذا كان معه جحد «1» . من ذلك قول اللّه (ما لَكُمْ لا تَرْجُونَ «2» لِلَّهِ وَقاراً) أي لا تخافون له عظمة .

وأنشدنى بعضهم :

لا ترتجى حين تلاقى الذائدا أسبعة لاقت معا أم واحدا «3»

يريد : لا تخاف ولا تبالي . وقال لآخر :

إذا لسعته النحل لم يرج لسعها وحالفها فى بيت نوب عوامل «4»

يقال : نوب «5» ونوب . ويقال : أوب وأوب من الرجوع قال الفراء : والنّوب ذكر النحل .

وقوله (وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيراً) جاء العتوّ بالواو لأنه مصدر مصرّح . وقال فى مريم (أَيُّهُمْ أَشَدُّ «6» عَلَى الرَّحْمنِ عِتِيًّا) فمن جعله بالواو كان مصدرا محضا . ومن جعله بالياء قال :

عات وعتىّ فلمّا جمعوا بنى جمعهم على واحدهم . وجاز أن يكون المصدر بالياء أيضا لأن المصدر والأسماء تتّفق فى هذا المعنى : ألا ترى أنهم يقولون : قاعد وقوم قعود ، وقعدت قعودا . فلمّا استويا هاهنا فى القعود لم يبالوا أن يستويا فى العتو والعتىّ .

---

(1) ا : «الجحد»

(2) الآية 13 سورة نوح

(3) انظر ص 286 ، من الجزء الأول

(4) ش : «حالفها» وا : خالفها» وهما روايتان وانظر ص 286 من الجزء الأول

(5) المعروف فى كتب اللغة ضم النون ولم أقف على فتحها للنحل ، وكذا لم أقف على الأوب فيه

(6) الآية 69 من سورة مريم

وقوله : يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلائِكَةَ لا بُشْرى يَوْمَئِذٍ [22] اليوم ليس بصلة للبشرى فيكون نصبه بها . ولكنك مضمر للفاء كقيلك فى الكلام : أمّا اليوم فلا مال . فإذا ألقيت الفاء فأنت مضمر لمثل اليوم بعد لا «1» . ومثله فى الكلام : عندنا لا مال إن أردت لا مال عندنا

فقدّمت (عندنا) لم يجز. وإن أضمرت (عندنا) ثانية بعد (لا مال) صلح ألا ترى أنّك لا تقول: زيدا لا ضارب (يا هذا «2») كما تقول: لا ضارب زيدا.

وقوله: (وَيَقُولُونَ حِجْراً مَحْجُوراً) حراما محرّما أن يكون لهم البشرى. والحجر: الحرام، كما تقول: حجر التاجر على غلامه، وحجر على أهله. وأنشدنى بعضهم:

فهممت أن ألقى إليها محجرا ولمثلها يلقى إليه المحجر «3»

قال الفراء: ألقى وإلقى «4» من لقيت أي مثلها يركب منه المحرّم.

وقوله: وَقَدِمْنا إِلى 131 ما عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ [23] عمدنا بفتح العين: (فَجَعَلْناهُ هَباءً مَنْثُوراً) أي باطلا، والهباء ممدود غير مهموز فى الأصل يصغر هبىّ كما يصغر الكساء كسىّ. وجفاء الوادي مهموز فى الأصل إن صغّرته قلت هذا جفىء. مثل جفيع ويقاس على هذين كلّ ممدود من الهمز ومن الياء ومن الواو «5».

وقوله: أَصْحابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا [24] قال: بعض المحدّثين يرون أنه يفرغ من حساب الناس فى نصف ذلك اليوم فيقيل أهل الجنّة فى الجنّة وأهل النار فى النار. فذلك قوله (خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا) وأهل الكلام إذا اجتمع لهم أحمق وعاقل لم يستجيزوا أن يقولوا: هذا أحمق الرّجلين ولا أعقل الرجلين، ويقولون لا نقول: هذا أعقل الرجلين إلا

---

(1) ب، وش: «بعده»

(2) سقط فى ا

(3) هو لحميد بن ثور والرواية فى الديوان 84 : «أغشى» و«يغشى»

(4) يريد أن بعض العرب يكسر حرف المضارعة فيقول : إلقى

(5) سقط من ا

(57/556)

لعاقلين تفضّل أحدهما على صاحبه . وقد سمعت قول اللّه (خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا) فجعل أهل الجنة خيرا مستقرا من أهل النّار ، وليس فى مستقرّ أهل النار شىء من الخير فاعرف ذلك من خطائهم .

وقوله : وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّماءُ بِالْغَمامِ [25] ويقرأ (تَشَقَّقُ) بالتشديد وقرأها الأعمش «1» وعاصم (تَشَقَّقُ السَّماءُ) بتخفيف الشين فمن قرأ تشّقّق أراد تتشقق بتشديد الشين والقاف فأدغم كما قال (لا يَسَّمَّعُونَ «2» إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلى) ومعناه - فيما ذكروا - تشقّق السماء (عن الغمام «3») الأبيض ثم تنزل «4» فيه الملائكة وعلى وعن والياء فى هذا الموضع (بمعنى «5» واحد) لأنّ العرب تقول :

رميت عن القوس وبالقوس وعلى القوس ، يراد به معنى واحد .

وقوله : لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ [29] يقال : النبىّ ويقال : القرآن . فيه قولان .

وقوله : وَقالَ الرَّسُولُ يا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً [30] متروكا .

ويقال : إنهمجعلوه كالهذيان والعرب تقول (هجر «6» الرجل) فى منامه إذا هذى أو ردّد الكلمة .

وقوله : وَكَذلِكَ جَعَلْنا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا [31] يقول : جعلنا بعض أمّة كل نبىّ أشدّ عليه من بعض وكان الشديد العداوة للنبىّ صلى اللّه عليه وسلم أبو جهل بن هشام .

وقوله : لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً واحِدَةً كَذلِكَ [32] يقال : إنها «7» من قول المشركين .

أي هلا أنزل عليه القرآن جملة ، كما أنزلت التوراة على موسى . قال اللّه (وَرَتَّلْناهُ تَرْتِيلًا) لنثبّت به فؤادك . كان ينزّل الآية والآيتين فمكان بين نزول أوله وآخره عشرون سنة (وَرَتَّلْناهُ تَرْتِيلًا)

---

(1) وكذا أبو عمرو وحمزة والكسائي وخلف .

(2) الآية 9 سورة الصافات

(3) ش : «بالغمام» [. . . . .]

(4) ا : «تتنزل»

(5) ا : «كالواحد»

(6) ا : «الرجل يهجر»

(7) يريد قوله : «كذلك» فى التلاوة

(58/556)

نزّلناه تنزيلا . ويقال : إن (كذلك) من قول اللّه ، انقطع الكلام من قيلهم (جملة واحدة) قال اللّه : كذلك أنزلناه يا محمّد متفرقا لنثبّت به فؤادك .

وقوله : وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً [33] بمنزلة قوله (أَصْحابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا) فى معنى الكلام والنصب .

وقوله : فَقُلْنَا اذْهَبَا [36] وإنما أمر موسى وحده بالذهاب فى المعنى ، وهذا بمنزله قوله (نَسِيا «1» حُوتَهُما) ، وبمنزلة قوله (يَخْرُجُ «2» مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجانُ) وإنما يخرج من أحدهما وقد فسّر شأنه .

وقوله : وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْناهُمْ [37] نصبتهم بأغرقناهم وإن شئت بالتدمير المذكور قبلهم .

وعادا وثمود وأصحاب الرّسّ وقرونا [38] منصوبون بالتدمير قال الفراء يقال : إن الرسّ بئر .

وقوله : وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا [39] أهلكناهم وأبدناهم إبادة .

وقوله : أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ [43] كان أحدهم يمرّ بالشيء الحسن من الحجارة فيعبده فذلك قوله (اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ) .

وقوله : كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ [45] ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس . وقوله (وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا) يقول دائما . وقوله (ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا) يقول : إذا كان فى موضع 131 ب شمس كان فيه قبل ذلك ظلّ ، فجعلت الشمس دليلا على الظلّ .

ثمّ قبضناه إلينا قبضا يسيرا [46] يعنى الظلّ إذا لحقته الشمس قبض الظلّ قبضا يسيرا ، يقول : هيّنا خفيّا .

---

(1) الآية 61 سورة الكهف

(2) الآية 22 سورة الرحمن

(59/556)

وقوله : وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا [48] قرأ أصحاب عبد اللّه (الرياح) ثلاثة مواضع . منها حرفان فى قراءتنا ، وحرف فى النحل وليس فى قراءتنا ، مكان قوله (وَالنُّجُومَ «1» مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ) (والرياح مسخّرات بأمره) وهذا واحد يعنى «2» الذي فى الفرقان .

والآخر فى الروم (الرِّياحَ «3» مُبَشِّراتٍ) وكان عاصم يقرأ ما كان من رحمة الرياح «4» وما كان من عذاب «5» قرأه ريح .

وقد اختلف القراء فى الرحمة فمنهم من قرأ الرّيح ومنهم من قرأ الرياح ولم يختلفوا فى العذاب بالريح ونرى أنهم اختاروا الرياح للرحمة لأن رياح الرّحمة تكون من الصّبا والجنوب والشّمال من الثلاث) «6» المعروفة . وأكثر ما تأتى بالعذاب وما لا مطر فيه الدّبور لأن الدّبور لا تكاد تلقح فسمّيت ريحا موحّدة لأنها لا تدور كما تدور اللواقح .

حدثنا أبو العباس قال حدثنا محمد قال حدثنا الفرّاء قال حدثنى قيس بن الربيع عن أبى إسحاق عن الأسود بن يزيد ومسروق بن الأجدع أنهما قرءا (نشرا «7») وقد قرأت القراء (نشرا «8») و(نشرا «9») وقرأ عاصم (بُشْراً) حدثنا أبو العباس قال حدثنا محمد قال حدثنا الفراء قال حدّثنى قيس عن أبى إسحاق عن أبى عبد الرحمن أنه قرأ (بشرا) كأنه بشيرة وبشر .

وقوله : وَأَناسِيَّ كَثِيراً [49] واحدهم إنسىّ وإن شئت جعلته إنسانا ثم جمعته أناسىّ فتكون الياء عوضا من النون والإنسان فى الأصل إنسيان لأن العرب تصغره أنيسيان .

وإذا قالوا : أناسين

---

(1) الآية 12 سورة النحل

(2) الذي قرأ بالإفراد ابن كثير

(3) الآية 46

(4) ا : «بالرياح» .

(5) ا : «العذاب»

(6) ش ، ب : «الثلاثة» .

(7) ضبط فى ا بفتح النون وسكون الشين . وهى قراءة حمزة والكسائي وخلف

(8) هذه قراءة نافع وابن كثير وأبى عمرو وأبى جعفر ويعقوب . [. . . . .]

(9) هذه قراءة ابن عامر .

(60/556)

فهو بيّن مثل بستان وبساتين ، وإذا قالوا (أَناسِيّ كَثِيراً) فخفّفوا الياء أسقطوا الياء التي تكون فيما بين عين الفعل ولامه مثل قراقير «1» وقراقر ، ويبيّن جواز أناسى بالتخفيف قول العرب أناسية كثيرة ولم نسمعه فى القراءة .

وقوله : وَجَعَلَ بَيْنَهُما بَرْزَخاً [53] البرزخ : الحاجز ، جعل بينهما حاجزا لئلا تغلب الملوحة العذوبة .

وقوله : (وَحِجْراً مَحْجُوراً) (من ذلك «2» أي) حراما محرّما أن يغلب أحدهما

صاحبه .

وقوله : وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْماءِ بَشَراً فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهْراً [54] فأمّا النسب فهو النسب الذي لا يحلّ نكاحه ، وأمّا الصّهر فهو النسب الذي يحلّ نكاحه كبنات العمّ والخال وأشباههن من القرابة التي يحلّ تزويجها .

وقوله : وَكانَ الْكافِرُ عَلى رَبِّهِ ظَهِيراً [55] المظاهر المعاون والظهير العون .

وقوله : قالُوا وَمَا الرَّحْمنُ [60] ذكروا أنّ مسيلمة كان يقال له الرحمن ، فقالوا : ما نعرف الرّحمن إلّا الذي باليمامة ، يعنون مسيلمة الكذّاب ، فأنزل اللّه (قُلِ ادْعُوا «3» اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمنَ أَيًّا ما تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى) .

وقوله : (أَنَسْجُدُ لِما يأمرنا) و(تَأْمُرُنا «4») فمن قرأ بالياء أراد مسيلمة : ومن قرأ بالتاء جاز أن يريد (مسيلمة أيضا) ويكون للأمر أنسجد لأمرك إيانا ومن قرأ بالتّاء والياء يراد به محمد صلّى اللّه عليه وسلم (وهو بمنزلة قوله «5») (قُلْ لِلَّذِينَ «6» كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ) و(سيغلبون) والمعنى لمحمد صلّى اللّه عليه وسلم .

---

(1) جمع قرقور وهى السفينة ، أو هى العظيمة من السفن .

(2) سقط فى ا .

(3) الآية 110 سورة الإسراء .

(4) قرأ بالياء حمزة والكسائي وافقهما الأعمش . وقرأ الباقون بالتاء .

(5) ا : «ذلك المذهب» .

(6) الآية 12 سورة آل عمران وقد قرأ بالياء حمزة والكسائي وخلف وافقهم الأعمش ، وقرأ الباقون بالتاء

(61/556)

وقوله : وجعل فيها سرجا [61] قراءة العوام (سِراجاً «1») حدّثنا أبو العباس قال حدثنا محمد قال حدثنا [الفرّاء] قال حدّثنى هشيم عن مغيرة «2» عن إبراهيم أنه قرأ (سرجا) . وكذلك قراءة أصحاب عبد اللّه فمن قرأ (سراجا) ذهب إلى الشمس وهو وجه حسن لأنه قد قال (وَجَعَلَ «3» الشَّمْسَ سِراجاً) ومن قال (سرجا) ذهب إلى المصابيح إذ كانت يهتدى بها ، جعلها كالسرج والمصباح كالسراج «4» فى كلام العرب 132 ا وقد قال اللّه (الْمِصْباحُ فِي زُجاجَةٍ) «5» وقوله : جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ خِلْفَةً [62] يذهب هذا ويجىء هذا ، وقال زهير فى ذلك :

بها العين والآرام يمشين خلفة وأطلاؤها ينهضن من كل مجثم «6»

فمعنى قول زهير : خلفة : مختلفات فى أنها ضربان فى ألوانها وهيئتها ، وتكون خلفة فى مشيتها . وقد ذكر أن قوله (خِلْفَةً لِمَنْ أَرادَ) أي من فاته عمل من الليل استدركه بالنهار

فجعل هذا خلفا من هذا .

وقوله : (لِمَنْ أَرادَ أَنْ يَذَّكَّرَ) وهى فى قراءة أبىّ (يتذكّر) حجّة لمن شدّد وقراءة أصحاب عبد اللّه وحمزة وكثير من الناس (لمن أراد أن يذكر) بالتخفيف ، ويذكر ويتذكر يأتيان بمعنى واحد ، وفى قراءتنا (وَاذْكُرُوا «7» ما فِيهِ) وفى حرف عبد اللّه (وتذكّروا ما فيه) .

وقوله : عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً [63] حدّثنا أبو العباس قال حدثنا محمد قال حدثنا الفراء قال حدّثنى

---

(1) قرأ حمزة والكسائي وخلف (سرجا) بضم السين والراء وافقهم الأعمش . وقرأ الباقون (سراجا) .

(2) ا : «المغيرة»

(3) الآية 16 سورة نوح

(4) ا : «السراج»

(5) الآية 35 سورة النور .

(6) هذا البيت من معلقته . وقوله : «بها» أي بديار من يتغزل بها ، والعين : البقر واحدها أعين وعيناء أطلق عليها هذا لسعة عيونها ، والآرام : الظباء الخوالص البياض ،

والأطلاء الصغار من البقر والظباء ، والمجثم ما تربض فيه وترقد .

(7) الآية 63 سورة البقرة. [. . . . .]

(62/556)

شريك عن جابر الجعفىّ عن عكرمة ومجاهد فى قوله (الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً)

قال :

بالسّكينة والوقار .

وقوله (وَإِذا خاطَبَهُمُ الْجاهِلُونَ قالُوا سَلاماً) كان أهل مكّة إذا سبّوا المسلمين ردّوا عليهم ردّا جميلا قبل أن يؤمروا بقتالهم .

وقوله : وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِياماً [64] جاء فى التفسير أنّ من قرأ شيئا من القرآن فى صلاة وإن قلت ، فقد بات ساجدا وقائما . وذكروا أنّهما الركعتان بعد المغرب وبعد العشاء ركعتان .

وقوله : إِنَّ عَذابَها كانَ غَراماً [65] يقول ملحّا دائما . والعرب تقول : إن فلانا لمغرم بالنّساء إذا كان مولعا بهنّ ، وإنى بك لمغرم إذا لم تصبر عن الرجل ونرى أن الغريم إنما سمّى غريما «1» لأنّه يطلب حقه ويلحّ حتى يقبضه .

وقوله : وَالَّذِينَ إِذا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا [67] بكسر التاء . قرأ أبو عبد الرحمن وعاصم «2» (ولم يقتروا) من أقترت . وقرأ الحسن (وَلَمْ يَقْتُرُوا) وهى من قترت كقول من قرأ يقتروا بضم الياء . واختلافهما كاختلاف قوله (يَعْرِشُونَ «3») و(يعرشون) و(يَعْكُفُونَ) و(يعكفون) ومعناه (لَمْ يُسْرِفُوا «4») فيجاوزوا فى الإنفاق إلى المعصية (وَلَمْ يَقْتُرُوا) : لم يقصّروا عما يجب عليهم (وَكانَ بَيْنَ ذلِكَ قَواماً) ففى نصب القوام وجهان إن شئت نصبت القوام بضمير اسم فى كان (يكون ذلك «5» الاسم من الإنفاق) أي وكان الانفاق «6» (قواما بين ذلك) كقولك :

---

(1) ش ، ب : «لذلك» وكان الأصل : «بذلك» .

(2) الذي فى الإتحاف أن هذه قراءة نافع وابن عامر وأبى جعفر . وفيه أن (يقتروا) بفتح الياء وكسر التاء قراءة ابن كثير وأبى عمرو ويعقوب وافقهم ابن محيصن والحسن واليزيدي . وقرأ بضم التاء الباقون ومنهم عاصم .

(3) الآية 137 سورة الأعراف والآية 68 سورة النحل .

(4) الآية 138 سورة الأعراف

(5) سقط فى ش

(6) ا : «انفاقهم» .

عدلا بين ذلك أي بين الإسراف والإقتار . وإن شئت جعلت (بين) فى معنى رفع كما تقول :

كان دون هذا كافيا لك ، تريد : أقلّ من هذا كان كافيا لك ، وتجعل (وَكانَ بَيْنَ ذِلكَ) كان الوسط من ذلك قواما . والقوام قوام الشيء بين الشيئين . ويقال للمرأة : إنها لحسنة القوام فى اعتدالها . ويقال : أنت قوام أهلك أي بك يقوم أمرهم وشأنهم وقيام وقيم وقيّم فى معنى قوام .

وقوله : وَمَنْ يَفْعَلْ ذِلكَ يَلْقَ أَثاما [68] يُضاعَفْ لَهُ الْعَذابُ يَوْمَ الْقِيامَةِ [69] قرأت القراء بجزم (يُضاعَفْ) ورفعه عاصم «1» بن أبى النّجود . والوجه الجزم . وذلك أن كلّ مجزوم فسّرته ولم يكن فعلا «2» لما قبله فالوجه فيه الجزم ، وما كان فعلا لما قبله رفعته . فأمّا المفسّر للمجزوم فقوله (وَمَنْ يَفْعَلْ ذِلكَ يَلْقَ أَثاما) ثم فسر الأثام ، فقال (يُضاعَفْ لَهُ الْعَذابُ) ومثله فى الكلام :

إن تكلّمنى توصنى بالخير والبرّ أقبل منك ألا ترى أنك فسّرت الكلام بالبرّ ولم يكن فعلا له ، فلذلك جزمت . ولو كان الثاني فعلا للأوّل لرفعته ، كقولك إن تأتنا تطلب الخير تجده ألا

ترى أنك تجد «3» (تطلب) فعلا للاتيان 132 ب كقيلك: إن تأتنا طالبا للخير تجده.

قال الشاعر «4»:

متى تأته تعشو إلى ضوء ناره تجد خير نار عندها خير موقد

فرفع (تعشو) لأنه أراد: متى تأته عاشيا. ورفع عاصم (يضاعف له) لأنه أراد الاستئناف كما تقول: إن تأتنا نكرمك نعطيك كلّ ما تريد، لا على الجزاء.

وقوله: وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ [72] يقول: لا يحضرون مجالس الكذب والمعاصي.

---

(1) أي فى رواية أبى بكر. وقرأ بالرفع أيضا ابن عامر.

(2) يريد ألا يكون مطلوبا لما قبله فى المعنى، ومن المطلوب لما قبله أن يكون حالا كما فى الشواهد الآتية.

(3) ا: «أن تطلب فعل للإتيان».

(4) أي الخطيئة. ويقال: عشا إلى النار: رآها ليلا من بعيد فقصدها مستضيئا.

(64/556)

ويقال (أعياد المشركين «1» لا يشهدونها) لأنها زور وكذب إذ كانت لغير اللّه. وقوله (باللّغو مرّوا كراما) ذكر أنهم كانوا إذا أجروا ذكر النساء كنوا عن قبيح الكلام فيهنّ.

فذلك مرورهم به .

وقوله : (لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْها صُمًّا وَعُمْيانا ً) [73] يقال : إذا تلى عليهم القرآن لم يقعدوا على حالهم الأولى كأنهم لم يسمعوه . فذلك الخرور . وسمعت العرب تقول : قعد يشتمنى ، وأقبل يشتمنى .

وأنشدنى بعض العرب :

لا يقنع الجارية الخضاب ولا الوشاحان ولا الجلباب

من دون أن تلتقى الأركاب ويقعد الهن له لعاب

قال الفرّاء : يقال لموضع المذاكير : ركب . ويقعد كقولك : يصير .

وقوله : وَذُرِّيَّاتِنا [74] قرأ أصحاب عبد اللّه (وذرّيّتنا) والأكثر (وذرّياتنا) وقوله (قُرَّةَ أَعْيُنٍ) ولو قيل : (عين) كان صوابا كما قالت (قُرَّتُ عَيْنٍ «2» لِي وَلَكَ) ولو قرئت : قرّات أعين لأنهم كثير كان صوابا . والوجه التقليل (قُرَّةَ أَعْيُنٍ) لأنّه فعل والفعل لا (يكاد يجمع «3») ألا ترى أنه قال (لا تَدْعُوا «4» الْيَوْمَ ثُبُوراً واحِداً وَادْعُوا ثُبُوراً كَثِيراً) فلم يجمعه وهو كثير .

والقرّة مصدر . تقول : قرّت عينك قرّة .

وقوله (لِلْمُتَّقِينَ إِماماً) ولم يقل : أئمّة وهو واحد يجوز فى الكلام أن تقول : أصحاب محمد أئمّة الناس وإمام الناس كما قالَ نَا رَسُولُ

«5»بِ الْعالَمِينَ) للاثنين ومعناه : اجعلنا أئمّة يقتدى بنا . وقال مجاهد : اجعلنا يقتدى بمن قبلنا حتى يقتدى بنا من بعدنا .

---

(1) ا : «لا يشهدون أعياد المشركين»

(2) الآية 9 سورة القصص .

(3) ا : «يكادون يجمعونه» .

(4) الآية 14 سورة الفرقان . [. . . . .]

(5) الآية 16 سورة الشعراء .

(65/556)

وقوله : وَيُلَقَّوْنَ [75] و(يلقّون فيها) «1» كل قد قرئ به و(يلقون) أعجب إليّ لأنّ القراءة لو كانت على (يلقّون) كانت بالباء فى العربيّة لأنك تقول : فلان يتلقّى بالسّلام وبالخير . وهو صواب يلقّونه ويلقّون به كما تقول : أخذت بالخطام وأخذته .

وقوله : ما يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي [77] ما استفهام أي ما يصنع بكم (لَوْلا دُعاؤُكُمْ) لولا دعاؤه إياكم إلى الإسلام (فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزاماً) نصبت اللزام لأنك أضمرت فى (يكون) اسما إن شئت كان مجهولا فيكون بمنزله قوله فى قراءة أبىّ (وإن كان «2» ذا عسرة) وإن

شئت جعلت «3» فسوف يكون تكذيبكم عذابا لازما «4» ذكر أنه ما نزل بهم يوم بدر . والرفع فيه جائز لو أتى . وقد تقول العرب : لأضربنّك ضربة تكون لزام يا هذا ، تخفض كما تقول :

دراك ونظار . وأنشد .

لا زلت محتملا عليّ ضغينة حتى الممات تكون منك لزام

قال «5» : أنشدناه فى المصادر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للفراء حـ 2 صـ 275.262 ﴾

---

(1) القراءة الأولى لأبى بكر وحمزة والكسائي وخلف وافقهم الأعمش . والقراءة الأخرى للباقين .

(2) الآية 280 سورة البقرة .

(3) أ : «كان» .

(4) فى أبعده : «يوم بدر» .

(5) أي مستملى الكتاب وهو ؟ ؟ ؟ بن الجهم .

وقال بيان الحق الغزنوى :

سورة الفرقان

(تبارك) [1] تعالى ، اشتق من البرك ، وهو طائر يحلق في الهواء ، ولا يسف إلى الأرض ، ذكره زهير: 849- حتى استغاثت بماء لا رشاء له من الأباطح في حافاته البرك . وقيل: إنه من البركة ، لى معنى الثبوت والنماء كله ، أي: ثبت ملكه [ودام] أمره ، ومنه بروك الإبل وبراكاء القتال .

(يعلم السر في السموات والأرض) [6] أي: أنزله على مقتضى علمه ببواطن الأمور .

(فضلوا) [9] [ناقضوا] ، إذ قالوا: [اختلقها] وافتراها ، وقالوا: فهي [تملى] عليه .

(سمعوا لها تغيظاً وزفيرا) [12] قال زيد بن علي: تشرف عليهم النار بمقدار خمسمائة عام فتزفر تغيظاً عليهم زفرة يسمعها كل أحد .

(وإذا ألقوا منها مكاناً ضيقاً) [13] سئل النبي عليه السلام فقال: "والذي نفسي بيده إنهم يستكرهون في النار ، كما يستكره في النار ، كما يستكره الوتد في الحائط" . (مقرنين) مصفدين ، قد قرنت أيديهم إلى أعناقهم في الأغلال . (وعداً مسئولاً) [16] وهو ما سأله المؤمنون من الجنة والمغفرة .

(بورا) [18] هلكى . وقيل: فاسدين ، من بوار الأرض: تعطيلها من الزرع ، وبارت التجارة: كسدت ، ولفظة بور ، لفظ المصدر يتناول الواحد والجمع . قال ابن الزبعري:

850- يا رسول المليك إن لساني راتق ما فتقت إذ أنا بور 851- إذ أجاري الشيطان في سنن الغي ومن مال ميله مثبور . (فما يستطيعون صرفا) [19]

أي: صرف العذاب عن أنفسهم . وقيل: إن الصرف [الحيلة] والاصطراف: [الاحتيال] . والصيرفي: لاحتياله في الاستيفاء إذا اتزن ، والتطفيف مإذا وزن . أنشد : 852- قد يدرك المال الهدان الجافي 853- من غير ما عقل ولا اصطراف/ (إلا أنهم ليأكلون) [20] إلا قيل: إنهم ليأكلون .

(67/556)

وقيل: كسر "إن" لأنه موضع الابتداء ، كأنه إلا هم يأكلون ، كما يقول: ما أتيته إلا أنه مكرم لي ، قال كثير: 854- ما أعطياني ولا سألتهما إلا وإني لحاجزي كرمي . (وجعلنا بعضكم لبعض فتنة) قيل: إنه افتتان المقل بالمثري [والضوي] بالقوي . (أتصبرون) [20] أي: على هذه الفتنة أم لا تصبرون فيزداد غمكم ، لأن في القول دليلاً على هذا . (وكان ربك بصيرا) [بالحكمة] في اختلاف المعايش .

ويقال: إن بعض الصالحين تبرم برزاحة حاله ، وضنك عيشه ، فخرج ضجراً إلى السوق ، فرأى أسود [خصياً] في موكب عظيم وزينة ظاهر ، فوجم لبعض ما خطر في قلبه ، فإذا

إنسان قرأ عليه: (وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون) فتنبه وازداد تبصراً وتصبراً . (لا يرجون لقاءنا) [21] لا يخافون ، وإنما جاز "يرجو" في موضع "يخاف" ، لأن الراجي الشيء قلق فيما يرجوه ، فمرة يشتد طمعه ، فيصير كالآمن ، ومرة يضعف فيصير كالخائف . قال الهذلي: 855- تدلى عليها بالحبال موثقاً شديد الوصاء نابل وابن نابل

856- إذا لسعته الدبر لم يرج لسعها وخالفها في بيت نوب عوامل . [أي]: لم يخف .

(ويقولون حجراً محجوراً) [22] كان الرجل في الجاهلية ، يلقى رجلاً يخافه في أشهر الحرم ، فيقول: "حجراً محجوراً" ، أي: حراماً محرماً عليك قتلي في هذا الشهر ، فلا ينداه بشر . فإذا كان يوم القيامة رأى المشركون ملائكة العذاب ، فقالوا: حجراً محجوراً ، وظنوا أن ذلك ينفعهم ، كما نفعهم في الدنيا . (وقدمنا)

[23] عمدنا . (من عمل) من قرب . (ويوم تشقق السماء بالغمام/) [25] نزول الملائكة منها في الغمام . (يا[ويلتى] ليتني لم أتخذ فلاناً خليلا) [28] في أبي بن خلف ، وعقبة بن أبي معيط ، ولكنه لو سماهما لم يعم القول جميع الأخلاء المبطلين . (هذا القرآن مهجورا) [30] أي: بإعراضهم عن التدبر . وقيل: بقولهم فيه الهجر .

(68/556)

(لنثبت به فؤادك) [32] أي: لنثبته في فؤادك. وقيل: لنثبت به فؤادك [باتصال] الوحي.

(ورتلناه) [32] فصلناه. (وأصحاب الرس) [38] بئر. وقيل: معدن، وقد ذكره زهير: 857- بكرن بكوراً [واستحرن بسحرة فهن ووادي] الرس كاليد للفم.

(لا يرجون نشورا) [40] لا يخافون بعثاً. و(القرية التي أمطرت مطر السوء) [40] سدوم قرية لوط. (مد الظل) [45] [أي: الليل]، لأنه ظل الأرض الممدود على قريب من نصف وجهها الممتد في الجو إلى مدار القمر الأبعد. وقيل: إنه من طلوع الفجر إلى شروق الشمس. (ولو شاء لجعله ساكناً) أي: بإبطال كلتي الحركتين في السماء، الغربية التي بها النهار والليل، والشرقية التي بها فصول الأزمنة، لأن الشرقية متى لم [تبطل]، مع بطلان الغربية، انقسمت مدة السنة إلى ليل ونهار، وكل واحد منهما مدة ستة أشهر، فلم يكن الليل دائماً. (ثم جعلنا الشمس عليه دليلاً) أي: على وقته وامتداده، لأنه لولا الشمس لما عرف الظل. (قبضاً يسيراً) [46] خفياً سهلاً، لبطء حركة الظل بالقرب من نصف النهار، بخلاف ما هو في طرفيه من السرعة والكثرة. (وجعل النهار نشورا) [47] أي: انتشاراً للمعايش.

والأناسي: جمع أنسي، مثل: كرسي وكراسي. أو جمع إنسان، وكان أناسين، مثل: سرحان وسراحين، فعوضت الياء من النون. (مرج البحرين) [53] [مرج] وأمرج: خلى. (وكان الكافر على ربه/ظهيرا) [55] أي: على أولياء ربه معيناً يعاونهم. أو

المعنى: كان هيناً عليه لا وزن له من قولهم: ظهرت بحاجتي، إذا لم يعنى بها . (وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة) [62] خلفاً عن صاحبه، فما فاته في أحدهما قضاه في الآخر . وقيل: إذا مضى أحدهما خلفه صاحبه . كما قال زهير: 858- بها العين والآرام يمشين خلفة وأطلاؤها ينهضن من كل مجثم

(69/556)

أي: الوحوش خلفت الإنس فيها . (هوناً) [63] أي: بسكينة ووقار، دون مرح واختيال . قال: 859- لئن قدمت قبلي رجالاً [فطالما] مشيت على هون فكنت المقدما . (كان غراماً) [65] هلاكاً . قال بشر: 860- ويوم الجفار ويوم النسار [كانا عذاباً] وكانا غراما .

(أثاماً) [68] عقوبة وجزاء . قال: 861- وإن مقامنا [ندعو] عليكم بأبطح ذي المجاز له أثام .

(يضاعف له العذاب) [69] أي: عذاب الدنيا والآخرة . وقيل: إنه جمع عقوبات الكبائر المختلفة المجتمعة . (يبدل الله سيئاتهم حسنات) [70]

أي: يغير أعمالهم . وقيل: يبدلها بالتوبة والندم على فعلها حسنات . (لم يخروا عليها)

[73] لم يسقطوا . (واجعلنا للمتقين إماما) [74] وحد إماماً على المصدر ، أم إماماً ، كقام قياماً . وقيل: إمام جمع أم ، كقائم وقيام . وقيل: بأن إماماً جمع إمام ، وإن كان على لفظه ، كقوله: درع دلاص ، وأدرع دلاص ، وناقة هجان ، ونوق هجان . قال أبو السيد الهلالي:

862- أراح إلى أفطانه العيس بعد ما تشذبت الأيدي نوامك نيبها 863- فشلت يميني يوم تحلب مربع غزار [هجان] لا أرتوي بحليبها . وفقه هذه اللغة أن العرب تكسر فعيلاً على فعال كثيراً/فتكسر فعالاً على فعال أيضاً ، لأن فعيلاً وفعالاً أختان ، كل واحد منهما ثلاثي الأصل ، وثالثه حرف لين ، وقد اعتقبا أيضاً على المعنى الواحد ، نحو: عبيد وعباد ، وكليب وكلاب ، ولذلك الألف أقرب إلى الياء منها إلى الواو . (ما يعبؤا بكم) [77] ما يصنع بكم . وقيل: ما يبالي بكم . يقال: عبأت الشيء: أعددته . قال زهير:

864- عبأت له حلمي وأكرمت غيره وأعرضت عنه وهو باد مقاتله . (لولا دعاؤكم) رغبتكم إليه ، وطاعتكم له . وقال القتبي: معناه ، ما يصنع بعذابكم لولا ما تدعونـ[ـه] من دونه . (فقد كذبتم) على القول الأول: قصرتم في طاعتي . (لزاماً) عذاباً لازماً . قال الهذلي:

865- فإما ينجوا من حتف أرضي فقد لقيا [حتوفهما] لزاما

[تمت سورة الفرقان] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ باهر البرهان صـ 1014 . 1033 ﴾

وقال الأخفش :

سورة (الفرقان)

﴿ قَالُواْ سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ ولكن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَآءَهُمْ حَتَّى نَسُواْ الذِّكْرَ وَكَانُواْ قَوْماً بُوراً ﴾

قال ﴿ قَوْماً بُوراً ﴾ جماعة "البَائِر" * مثل "اليَهُود" وواحدهم "الهَائِد" وقال بعضهم: "هِي لغة على غير واحد كما يقال "أَنْتَ بَشَرٌ" و "أَنْتُمْ بَشَر" .

﴿ فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفاً وَلاَ نَصْراً وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَاباً كَبِيراً ﴾

وقال ﴿ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفاً وَلاَ نَصْراً ﴾ فحذف "عَنْ الكُفّار" وقد يكون ذلك عن الملائكة والدليل على وجه مخاطبة الكفار انه قال ﴿ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ ﴾ وقال بعضهم "يعني الملائكة" .

﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُواْ يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُواْ لاَ يَرْجُونَ نُشُوراً ﴾

وقال ﴿ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ ﴾ لغتان يقال "مُطِرْنَا" و"أُمْطِرْنَا" وقال ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً ﴾ وهما لغتان.

﴿ لِّنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتاً وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَاماً وَأَنَاسِيَّ كَثِيراً ﴾

وقال ﴿ وَأَنَاسِيَّ كَثِيراً ﴾ مثقّلة لأنها جماعة "الإِنْسِيّ".

(71/556)

﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلاَّ مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً ﴾

وقال ﴿ إِلاَّ مَن شَآءَ ﴾ استثناءٌ خارجٌ من أَوَّلِ الكَلاَمِ على معنى "لكنّ".

﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً ﴾

وقال ﴿ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً ﴾ يقول: "يَخْتَلِفَانِ".

المعاني الواردة في آيات سورة (الفرقان)

﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قَالُواْ سَلاَماً ﴾

وقال ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ ﴾ فهذا ليس له خبرٌ إلاَّ في المعنى والله أعلم.

﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً ﴾

وقال ﴿لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً﴾ فـ"الإِمام" ها هنا جماعة كما قال ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي﴾ ويكون على الحكاية كما يقول الرجل اذا قيل له: "مَنْ أميرُكُم" [155] قال: "هؤلاءِ أَمِيرُنا" وقال الشاعر: [من الكامل وهو الشاهد الخامس والخمسون بعد المئتين]:

يَا عَاذِلاَتِي لا تُرِدْنَ مَلامَتِي * إِنَّ العَوَاذِلَ لَيْسَ لِي بِأَمِير

﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلاَ دُعَآؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَاماً﴾

وقال ﴿مَا يَعْبَأُ بِكُمْ﴾ لأَنَّها من "عَبَأْتُ بِهِ" فـ"أَنَّا أَعْبَأُ بِهِ" "عَبْأً". انتهى انتهى. اهـ

﴿معانى القرآن / للأخفش حـ 2 صـ 458. 459﴾

(72/556)

وقال الإمام ابن قتيبة:

سورة الفرقان

مكية كلها

1 - تَبارَكَ من البركة.

3 - و(النّشور): الحياة بعد الموت.

افْتَراهُ: تخرّصه.

12 - سَمِعُوا لَها تَغَيُّظاً وَزَفِيراً أي : تغيظا عليهم . كذلك قال المفسرون .

وقال قوم : «بل يسمعون فيها تغيظ المعذبين وزفيرهم» . واعتبروا ذلك بقول اللّه جل ثناؤه : لَهُمْ فِيها زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ [سورة هود آية : 106] .

واعتبر الأولون قولهم ، بقوله تعالى في سورة الملك : تَكادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ . وهذا أشبه التفسيرين - إن شاء اللّه - بما أريد ، لأنه قال سبحانه :

سَمِعُوا لَها ، ولم يقل : سمعوا فيها ، ولا منها .

13 - دَعَوْا هُنالِكَ ثُبُوراً أي : بالهلكة . كما يقول القائل :

وا هلاكاه ! .

18 - نَسُوا الذِّكْرَ يعني : القرآن .

وَكانُوا قَوْماً بُوراً أي هلكي ، وهو من «بار يبور» : إذا هلك

(73/556)

وبطل . يقال : بار الطعام ، إذا كسد . وبارت الأيم : إذا لم يرغب فيها .

وكان رسول اللّه - صلّى اللّه عليه وسلّم - يتعوّذ باللّه من بوار الأيم .

قال ابو عبيدة : «يقال : رجل بور ، [ورجلان بور] ، وقوم بور . ولا يجمع ولا يثني» .

واحتج بقول الشاعر :

يا رسول المليك ! إنّ لساني راتق ما فتقت إذ انا بور

وقد سمعنا [هم يقولون] : رجل بائر . ورأيناهم ربما جمعوا «فاعلا» على «فعل» ، نحو عائذ وعوذ ، وشارف وشرف .

19 - فَما تَسْتَطِيعُونَ صَرْفاً ، وَلا نَصْراً . قال يونس : الصّرف : الحيلة من قولهم : إنه ليتصرف [أي يحتال] .

فأما قولهم : «ما يقبل منه صرف ولا عدل» ، فيقال : إن العدل الفريضة ، والصرف النافلة . سميت صرفا : لأنها زيادة على الواجب .

وقال ابو إدريس الخولانيّ «1» : «من طلب صرف الحديث - يبتغي به إقبال وجوه الناس إليه - لم يرح رائحة الجنة» . أي طلب تحسينه بالزيادة فيه .

وفي رواية أبي صالح : «الصّرف : الدّية . والعدل : رجل مثله» كأنه يراد : لا يقبل منه ان يفتدي برجل مثله وعدله ، ولا ان يصرف عن نفسه بدية .

ومنه قيل : صيرفيّ ، وصرفت الدراهم بدنانير . لأنك تصرف هذا إلى هذا .

وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ أي يكفر .

---

(1) هو أبو إدريس الخولاني عائذ بن عبد اللّه فقيه أهل الشام وقاصهم وقاضيهم ، سمع

من أبي الدرداء وطبقته ، وقال ابن عبد اللّه : سماع أبي إدريس عندنا عن معاذ صحيح .

توفي سنة ثمانين للهجرة . (انظر شذرات الذهب ص 88 ج 1) .

(74/556)

---

20 - وَجَعَلْنا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً يعني : الشريف للوضيع ، والوضيع للشريف .

21 - وَقالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنا أي لا يخافون .

22 - وَيَقُولُونَ حِجْراً مَحْجُوراً أي : حراما محرّما ان تكون لهم بشري .

وإنما قيل للحرام حجر : لأنه حجر عليه بالتحريم . يقال : حجرت حجرا . واسم ما حجرت عليه : حجر .

23 - وَقَدِمْنا إِلى ما عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ أي عمدنا إليه ، فَجَعَلْناهُ هَباءً مَنْثُوراً . وأصل «الهباء المنثور» : ما رأيته في الكوة ، مثل الغبار ، من الشمس . واحدها : هباءة و«الهباء المنبث» : وأسطع من سنابك الخيل وهو من «الهبوة» والهبوة : الغبار .

25 - تَشَقَّقُ السَّماءُ بِالْغَمامِ أي تتشقق عن الغمام . وهو سحاب أبيض ، فيما يذكر .

27 - يا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا أي سببا ووصلة .

30 - يا رَبِّ ! إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً : هجروا فيه ، أي : جعلوه

كالهذيات. والهجر الاسم. يقال: فلان يهجر في منامه، أي يهذي.

38 - وَأَصْحابَ الرَّسِّ والرسّ: المعدن. قال الجعدي:

تنابلة يحفرون الرّساسا «1» أي آبار المعدن. وكلّ ركيّة تطوي فهي: رسّ.

39 - تَبَّرْنا تَتْبِيراً أي أهلكنا ودمّرنا.

---

(1) البيت هو.

سبقت إلى فرط بأهل تنابلة يحفرون الرساسا

[.....]

(75/556)

---

43 - أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلٰهَهُ هَواهُ؟ يقول: يتّبع هواه ويدع الحقّ، فهو له كالإله. أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا؟! أي كفيلا. وقيل: حافظا.

45 - كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وامتداده: ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس. وَلَوْ شاءَ لَجَعَلَهُ ساكِناً أي مستقرّا دائما لا تنسخه الشمس.

46 - ثُمَّ قَبَضْناهُ إِلَيْنا قَبْضاً يَسِيراً أي خفيّا. كذلك هو في بعض اللغات.

47 - جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِباساً أي سترا. وَالنَّوْمَ سُباتاً أي راحة. وأصل السّبات:

التمدّد . وقد بينت هذا في كتاب «المشكل» .

وَجَعَلَ النَّهارَ نُشُوراً أي ينتشرون فيه .

50 - وَلَقَدْ صَرَّفْناهُ بَيْنَهُمْ يعني المطر : يسقي أرضا ، ويترك أرضا .

52 - وَجاهِدْهُمْ بِهِ أي بالقرآن .

53 - وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ أي خلاهما . يقال : مرج السلطان الناس ، إذا خلّاهم .

ويقال : امرج الدابة ، إذا رعاها .

و(الفرات) : العذب .

و(الأجاج) : أشدّ المياه ملوحة . وقيل : هو الذي يخالطه مرارة .

ويقال : ماء ملح ، ولا يقال : مالح .

وَجَعَلَ بَيْنَهُما بَرْزَخاً أي حاجزا - وكذلك الحجز والحجاز - : لئلا يختلطا .

54 - خَلَقَ مِنَ الْماءِ بَشَراً يعني من النّطفة . فَجَعَلَهُ نَسَباً يعني قرابة النّسب ، وَصِهْراً يعني : قرابة النكاح .

(76/556)

55 – ظَهِيراً أي عونا .

62 – جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ خِلْفَةً أي يخلف هذا هذا . قال زهير :

بها العين والآرام يمشين خلفة وأطلاؤها ينهضن من كل مجثم

«الآرام» : الظباء البيض . والآرام : الأعلام . واحدة : أرم . أي إذا ذهب فوج الوحش ، جاء فوج .

63 – وَعِبادُ الرَّحْمنِ أي عبيد الرحمن . نسبهم إليه – والناس جميعا عبيده – : [لأصطفائه] إيّاهم . كما يقال : «بيت اللّه» – والبيوت كلها للّه – و«ناقة اللّه» .

يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً . أي مشيا رويدا .

وَإِذا خاطَبَهُمُ الْجاهِلُونَ قالُوا سَلاماً أي سدادا من القول : لا رفث فيه ، ولا هجر .

65 – كانَ غَراماً أي هلكة .

68 – وَمَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ يَلْقَ أَثاماً أي عقوبة . قال الشاعر :

[عقوقا] والعقوق له أثام «1» أي عقوبة .

72 – مَرُّوا كِراماً : لم يخضوا فيه ، وأكرموا أنفسهم عنه .

73 – لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْها صُمًّا وَعُمْياناً أي لم يتغافلوا عنها : فكأنهم صمّ لم يسمعوها ، عمي لم يرها .

77 – قُلْ ما يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي مفسر في كتاب «المشكل» . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تأويل

مشكل القرآن صـ 266. 270 ﴾

---

(1) البيت لبلعام بن قيس الكناني وهو :

جزى اللّه ابن عروة حيث أمس عقوقا والعقوق له أثام

(77/556)

وقال الغزنوى :

ومن سورة الفرقان

1 تَبارَكَ تفاعل من البركة ، وهي الكثرة في كل خير «1» .

وقيل : أصله الثبوت ، من بروك الإبل «2» .

[69/أ] نَذِيراً : داعيا إلى الرشد وصارفا عن الغيّ ، ويجوز صفة للنبي / صلى اللّه عليه وسلم وللقرآن «3» .

6 يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ : أي : أنزله على مقتضى علمه ببواطن الأمور .

9 فَضَلُّوا : ناقضوا إذ قالوا : اختلقها وافتراها وقالوا فَهِيَ تُمْلى عَلَيْهِ «4» .

13 وَإِذا أُلْقُوا مِنْها مَكاناً ضَيِّقاً : في الحديث «5» : «إنهم يستكرهون في

---

(1) عن معاني القرآن للزجاج: 4/ 57.

وانظر معاني الفراء: 2/ 262، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة: 310، وتفسير الطبري:

18/ 179.

(2) ينظر المفردات للراغب: 44، وتفسير الفخر الرازي: 24/ 44، وتفسير القرطبي: 13/ 1، واللسان: 10/ 396 (برك).

(3) تفسير البغوي: 3/ 360، وتفسير القرطبي: 13/ 2.

(4) سورة الفرقان: آية: 5.

(5) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره: 587 (سورة الفرقان) عن يحيى بن أبي أسيد مرفوعا وإسناده منقطع، ويحيى مسكوت عنه.

ينظر الجرح والتعديل: 9/ 129.

وأورد الحافظ ابن كثير هذا الحديث في تفسيره: 6/ 105، ولم يعلق عليه، وكذا الشوكاني في فتح القدير: 4/ 66.

النار كما يستكره الوتد في الحائط» .

مُقَرَّنِينَ : مصفّدين ، قرنت أيديهم إلى أعناقهم في الأغلال «1» ، أو قرنوا مع الشياطين «2» .

14 ثُبُوراً : هلاكا على هلاك «3» ، من ثابر على كذا : داوم .

16 وَعْداً مَسْؤُلًا : هو قول الملائكة : رَبَّنا وَأَدْخِلْهُمْ «4» .

أو قول المؤمنين : رَبَّنا وَآتِنا ما وَعَدْتَنا «5» .

18 بُوراً : هلكى «6» . أو كاسدين ، من بوار التجارة ، وبوار الأرض تعطيلها من الزرع «7» .

19 فَما تَسْتَطِيعُونَ صَرْفاً : صرف العذاب «8» ، أو الصّرف : الحيلة «9»

---

(1) تفسير الطبري : 18/ 187 .

(2) نقل الماوردي هذا القول في تفسيره : 3/ 150 عن يحيى بن سلام .

(3) ينظر تفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 310 ، وتفسير الطبري : 18/ 188 ، ومعاني القرآن للزجاج : 4/ 59 ، والمفردات للراغب : 78 ، واللسان : 4/ 99 (ثبر) . [. . . . .]

(4) من آية 8 سورة غافر .

وانظر هذا القول في معانيا لقرآن للزجاج : 4/ 60 ، وتفسير الماوردي : 3/ 151 ، وزاد

المسير : 6/ 77 .

(5) من آية 194 سورة آل عمران .

وذكر الفراء هذا القول في معانيه : 2/ 263 ، والطبري في تفسيره : 18/ 189 ، وابن الجوزي في زاد المسير : 6/ . 77

(6) مجاز القرآن لأبي عبيدة : 2/ 72 ، وغريب القرآن لليزيدي : 276 ، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 311 ، وتفسير الطبري : 18/ 190 ، والمفردات للراغب : 65 .

(7) تفسير الطبري : 18/ 191 ، ومعاني القرآن للزجاج : 4/ 61 ، وتفسير الماوردي : 3/ 152 ، والمفردات للراغب : 65 ، واللسان : 4/ 86 (بور) .

(8) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره : (18/ 192 ، 193) عن مجاهد ، وابن زيد .

وانظر معاني القرآن للزجاج : 4/ 61 ، والمفردات للراغب : 279 .

(9) ذكره ابن قتيبة في تفسير غريب القرآن : 311 ، ونقله الماوردي في تفسيره : 3/ 152 عن ابن قتيبة .

وانظر تفسير البغوي : 3/ 364 ، واللسان : 9/ 189 (صرف) .

و«الصّيرفيّ» لاحتياله في الاستيفاء إذا اتزن والتطفيف إذا وزن «1» .

20 إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ : أي : إلّا قيل إنهم ليأكلون «2» .

بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً : هو افتتان المقلّ بالمثري والضّويّ «3» بالقويّ .

أَتَصْبِرُونَ : أي : على هذه الفتنة أم لا تصبرون فيزداد غمكم .

وَكانَ رَبُّكَ بَصِيراً : بالحكمة في اختلاف المعاش .

ويحكى أنّ بعض الصالحين تبرّم «4» بضنك عيشه ، فخرج ضجرا فرأى أسود خصيا في موكب عظيم ، فوجم لذلك ، فإذا بإنسان قرأ عليه : وَجَعَلْنا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ فتنبّه وازداد تبصّرا أو تصبّرا .

21 لا يَرْجُونَ لِقاءَنا : لا يخافون «5» ، وجاز «يرجو» بمعنى يخاف لأنّ الراجي قلق فيما يرجوه كالخائف .

22 وَيَقُولُونَ حِجْراً مَحْجُوراً : كان الرجل في الجاهليّة يقول لمن يخافه في أشهر الحرم : حِجْراً مَحْجُوراً : أي : حراما محرّما عليك قتلي في هذا الشهر ، فلا يبدأه بشرّ ، فإذا كان القيامة رأى المشركون ملائكة

---

(1) ينظر الصحاح : 4/ 1368 ، واللسان : 9/ 190 (صرف) .

(2) ذكره البغوي في تفسيره: 3/ 364، وقال: «كما قال في موضع آخر: ما يُقالُ لَكَ إِلَّا ما قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ [سورة فصلت: آية: 43].

وانظر هذا القول في تفسير القرطبي: 13/ 13، وغرائب التفسير للكرماني: 2/ 812.

(3) الضّوى: الضعيف.

النهاية: 3/ 106، واللسان: 14/ 489 (ضوا).

(4) أي: سئم وملّ.

ينظر النهاية: 1/ 121، والصحاح: 5/ 1869، واللسان: 12/ 43 (برم).

(5) ذكره الفراء في معانيه: 2/ 265، وقال: «وهي لغة تهامية، يضعون الرجاء في موضع الخوف إذا كان معه جحد. من ذلك قول اللّه: ما لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقاراً، أي: لا تخافون له عظمة...».

(80/556)

العذاب فقالوا: حِجْراً مَحْجُوراً وظنوا أنّه ينفعهم «1».

23 وَقَدِمْنا: عمدنا وقصدنا «2».

مِنْ عَمَلٍ : من قرب .

24 وَأَحْسَنُ مَقِيلًا : موضع قائلة ، ولا نوم في الجنّة إلا أنه من تمهيدها تصلح للنوم .

تَشَقَّقُ السَّماءُ بِالْغَمامِ : أي : عن الغمام ، وهو نزول الملائكة منها في الغمام «3» / .

27 يَعَضُّ الظَّالِمُ : وذلك فعل النّادم والغضبان ، وفي المثل : يعلك على الأرّم و«يحرق» أيضا «4» . والأرّم الأصابع .

28 يا وَيْلَتى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاناً خَلِيلًا : في عقبة «5» بن أبي معيط ، كان يجالس النّبيّ صلى اللّه عليه وسلم وسمع القرآن فقال له أبيّ بن خلف : تجالسه وهو يسفّه أحلام قريش ، وجهي من وجهك حرام حتى تشتمه ، ففعل ، فلمّا قتل من بين الأسارى قال : أأقتل من بين قريش ؟ ! .

---

(1) نص الكلام السالف في زاد المسير : (6/ 82 ، 83) عن ابن فارس .

وانظر نحوه في تفسير الطبري : 19/ 3 ، وتفسير البغوي : 3/ 365 ، والمحرر الوجيز : 11/ 26 ، وتفسير القرطبي : 13/ 21 .

(2) عن معاني القرآن للزجاج : 4/ 64 ، وقال ابن عطية في المحرر الوجيز : 11/ 27 : «و معنى الآية : وقصدنا إلى أعمالهم التي هي في الحقيقة لا تزن شيئا إذ لا نية معها ، فجعلناها على ما تستحق لا تعدل شيئا ، وصيرناها هباء منثورا ، أي : شيئا لا تحصيل له» .

(3) تفسير الطبري : 19/ 6 . وقال الحافظ ابن كثير في تفسيره : 6/ 114 : «يخبر تعالى عن هول يوم القيامة ، وما يكون فيه من الأمور العظيمة ، فمنها انشقاق القمر وتفطرها وانفراجها بالغمام ، وهو ظلل النور العظيم الذي يبهر الأبصار ، ونزول ملائكة السماء يومئذ ، فيحيطون بالخلائق في مقام المحشر ، ثم يجيء الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء» . [. . . . .]

(4) اللسان : 13/ 14 (أرم) .

(5) عقبة بن أبي معيط بن أبي عمرو بن عبد شمس ، كان شديد الأذى للمسلمين في أول أمر الإسلام بمكة ، أسر يوم بدر ثم قتل .

السيرة لابن هشام : 1/ 708 ، والروض الأنف : 3/ 65 .

(81/556)

فتمثّل عمر : حنّ قدح ليس منها «1» ، وقال : فمن للصّبية ؟ فقال عليه السلام : [النار] «2» .

30 هذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً : بإعراضهم عن التدبر فيه «3» ، أو بقولهم فيه بالهجر «4» .

31 وَكَذلِكَ جَعَلْنا لِكُلِّ نَبِيٍّ : أي : جعلنا ببياننا أنهم أعداؤهم ، كما تقول : جعله لصا

«5» .

---

(1) ورد هذا المثل في كتاب الأمثال لأبي عبيد : 285 ، ومجمع الأمثال للميداني : 1/ 341 ، والجمهرة للعسكري : 1/ 370 ، والمستقصى للزمخشري : 2/ 68 ، واللسان : 13/ 130 (حنن) ، ويضرب هذا المثل للرجل يدخل نفسه في القوم ليس منهم ، أو يمتدح بما لا يوجد فيه .

والهاء في «منها» راجعة إلى القداح .

(2) في الأصل «النكد» ، والمثبت في النص موافق لما أخرجه عبد الرزاق في تفسيره : 376 عن ابن عباس رضي اللّه عنهما ، وأشار إليه ناسخ الأصل المعتمد هنا إلى وروده في نسخة أخرى .

وورد خبر عقبة - أيضا - في السيرة لابن هشام : 1/ 361 ، ودلائل النبوة لأبي نعيم : (2/ 606 ، 607) .

وأسباب النزول للواحدي : 385 ، وتفسير البغوي : 3/ 367 ، والتعريف والإعلام للسهيلي : 123 ، الذي قال : «وكني عنه ولم يصرح باسمه لئلا يكون هذا الوعيد مخصوصا به ولا مقصورا عليه ، بل يتناول جميع من فعل مثل فعليهما واللّه أعلم» اه .

وقال الحافظ ابن كثير في تفسيره : 6/ 116 : «وسواء كان سبب نزولها في عقبة بن أبي معيط أو غيره من الأشقياء ، فإنها عامة في كل ظالم . . .» .

(3) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره : 19/ 9 عن ابن زيد ، ونقله الماوردي في تفسيره :

3/ 156 عن ابن زيد أيضا .

قال الطبري رحمه اللّه : «و هذا القول أولى بتأويل ذلك ، وذلك أن اللّه أخبر عنهم أنهم قالوا : لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه ، وذلك هجرهم إياه» .

(4) قال ابن قتيبة في تفسير غريب القرآن : 313 : «و الهجر الاسم ، يقال : فلان يهجر في منامه ، أي : يهذي ، وفي معاني الزجاج : 4/ 66 : «و الهجر ما لا ينتفع به من القول ، وكانوا يقولون إن النبي صلى اللّه عليه وسلم يهجر» .

(5) ذكر الفخر الرازي هذا القول في تفسيره : 24/ 77 عن أبي علي الجبائي ، ورده بقوله : «إن التبيين لا يسمونه ألبتة جعلا ، لأن من بيّن لغيره وجود الصانع وقدمه لا يقال إنه جعل الصانع وجعل قدمه» .

(82/556)

وَكَفى بِرَبِّكَ هادِياً : يجوز حالا وتمييزا «1» .

32 لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤادَكَ : أي : باتصال الوحي ، أو لنثبته في فؤادك بالإنزال متفرقا .

وَرَتَّلْناهُ : فصّلناه ، والرّتل في الثّغر أن يكون مفلّجا لا لصص فيه «2» .

والقرية التي أمطرت مطر السوء «3» : سدوم قرية لوط «4» عليه السلام .

45 مَدَّ الظِّلَّ : أي : اللّيل لأنّه ظل الأرض الممدود على قريب من نصف وجهها .

وقيل «5» : هو ما بين طلوع الفجر إلى شروق الشمس .

---

(1) ينظر معاني القرآن للزجاج : 4/ 66 ، وتفسير القرطبي : 13/ 28 ، والبحر المحيط :

6/ 496 .

(2) جاء في لسان العرب : «و ثغر رتل ورتل : حسن التنضيد مستوى النبات ، وقيل : المفلّج ، وقيل : بين أسنانه فروج لا يركب بعضها بعضا» .

والفلج في الأسنان : تباعد ما بين الثنايا والرباعيات خلقة .

واللّصص : تقارب ما بين الأضراس حتى لا ترى بينها خللا» .

ينظر اللسان : 2/ 346 (فلج) ، 7/ 87 (لصص) ، 11/ 265 (رتل) .

(3) في قوله تعالى : وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ . . . [آية : 40] .

(4) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره : 19/ 16 عن ابن جريج .

وأورده السيوطي في الدر المنثور : 6/ 259 ، وزاد نسبته إلى عبد الرزاق ، وعبد بن حميد ، وابن أبي حاتم عن قتادة .

وانظر هذا القول في معاني القرآن للزجاج: 4/ 69، وتفسير الماوردي: 3/ 158، وتفسير ابن كثير: 6/ 121، ومفحمات الأقران: 149.

(5) ذكره الفراء في معاني القرآن: 2/ 268، وابن قتيبة في تفسير غريب القرآن: 313.

وأخرجه الطبري في تفسيره: 19/ 18 عن ابن عباس، وسعيد بن جبير.

وانظر هذا القول في معاني الزجاج: 4/ 70، وتفسير البغوي: 3/ 370، وزاد المسير: 6/ 93.

(83/556)

وَلَوْ شاءَ لَجَعَلَهُ ساكِناً: أي: بإبطال كلتي الحركتين: الغربيّة التي بها النهار واللّيل، والشّرقية التي بها فصول السّنة.

ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا: إذ كان طول الظل وقصره بحسب ارتفاع الشّمس وانحطاطها ولأنّ الظلّ إذا لم يدرك أطرافه لم يسمّ ظلا بل ظلاما وليلا.

46 ثُمَّ قَبَضْناهُ إِلَيْنا: [هو] «1» من الغداة إلى الظهيرة، والظلّ هو المخصوص بالقبض

«2» كما أنّ الفيء مخصوص بالبسط وهذه الإضافة لأنّ غاية قصر الظل عند غاية تعالي الشمس ، والعلو موضع الملائكة وجهة السّماء التي فيها أرزاق العباد ، ومنها نزول الغيث والغياث ، وإليها ترتفع أيدي الراغبين وتشخص أبصار الخائفين .

قَبْضاً يَسِيراً : خفيا سهلا «3» لبطء حركة الظل بالقرب من نصف النهار .

[70/أ] و«النّشور» «4» : الانتشار/للمعايش «5» ، و«السبات» : قطع العمل «6» .

و«الأناسي» «7» : جمع أنسي . ك «كرسي» ، و«كراسيّ» ، أو كان

---

(1) ما بين معقوفين عن نسخة «ج» .

(2) معاني القرآن للفراء : 2/ 268 ، وتفسير الطبري : 19/ 20 ، وتفسير القرطبي : 13/ 37 . [. . . . .]

(3) في تفسير الطبري : 19/ 20 : «وقيل : إنما قيل : ثُمَّ قَبَضْناهُ إِلَيْنا قَبْضاً يَسِيراً لأن الظل بعد غروب الشمس لا يذهب كله دفعة ، ولا يقبل الظلام كله جملة ، وإنما يقبض ذلك الظل قبضا خفيا ، شيئًا بعد شيء ويعقب كل جزء منه يقبضه جزء من الظلام» .

وانظر القول الذي ذكره المؤلف في معاني القرآن للفراء : 2/ 268 ، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 313 ، وتفسير الماوردي : 3/ 158 .

(4) من قوله تعالى : وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِباساً وَالنَّوْمَ سُباتاً وَجَعَلَ النَّهارَ نُشُوراً [آية

: 47].

(5) المفردات للراغب: (492، 493).

(6) تفسير الماوردي: 3/ 159، والمفردات: 221، واللسان: 2/ 38 (سبت).

(7) من قوله تعالى: لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنا أَنْعاماً وَأَناسِيَّ كَثِيراً [آية: 49].

(84/556)

«أناسين» جمع «إنسان»، فعوّضت الياء من النون «1».

50 وَلَقَدْ صَرَّفْناهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا: أي: المطر مرّة هاهنا ومرة هناك «2».

وعن ابن عباس «3» رضي اللّه عنه: ما عام بأمطر من عام ولكنّ اللّه يصرّفه كيف يشاء.

فَأَبى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً: يقولون مطرنا بنوء كذا «4».

53 مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ: مرج وأمرج: خلّى «5»، كأنّه أرسلهما في مجاريهما كما يرسل الخيل في المرج.

حِجْراً مَحْجُوراً: لا يفسد أحدهما الآخر «6».

55 وَكانَ الْكافِرُ عَلى رَبِّهِ ظَهِيراً : على أولياء ربّه معينا يعاديهم «7» .

---

(1) عن معاني القرآن للفراء : 2/ 269 ، وانظر تفسير الطبري : 19/ 21 ، ومعاني الزجاج :

4/ 71 .

(2) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره : 19/ 22 عن ابن زيد ، وأخرج نحوه عن مجاهد .

وذكره ابن قتيبة في تفسير غريب القرآن : 314 .

(3) أخرجه الطبري في تفسيره : 19/ 22 ، والحاكم في المستدرك : 2/ 403 ، كتاب التفسير ، وقال : «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه» ، ووافقه الذهبي .

وأخرجه أيضا - البيهقي في السنن الكبرى : 3/ 363 ، كتاب صلاة الاستسقاء ، باب «كثرة المطر وقلته» .

وأورده السيوطي في الدر المنثور : 6/ 264 ، وزاد نسبته إلى عبد بن حميد ، وابن المنذر عن ابن عباس رضي اللّه عنهما .

(4) ينظر تفسير الطبري : 19/ 22 ، ومعاني القرآن للزجاج : 4/ 71 ، وتفسير الماوردي :

3/ 160 ، وتفسير البغوي : 3/ 373 .

(5) في «ج» : خلط . وفي معاني القرآن للزجاج : 4/ 72 : «معنى «مرج» خلّى بينهما ، تقول :

مرجت الدابة وأمرجتها إذا خليتها ترعى . . . » .

وانظر هذا المعنى في مجاز القرآن لأبي عبيدة : 2/ 77 ، وغريب القرآن لليزيدي : 278 ، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 314 ، وتفسير الطبري : 19/ 23 ، واللسان : 2/ 364 (مرج) .

(6) معاني القرآن للفراء : 2/ 270 ، وتفسير الطبري : 19/ 24 ، وتفسير القرطبي : 13/ 59 .

(7) ذكره الماوردي في تفسيره : 3/ 162 ، وابن الجوزي في زاد المسير : 6/ 97 دون عزو .

قال الماوردي : «مأخوذ من المظاهرة ، وهي المعونة» .

(85/556)

أو كان هيّنا عليه لا وزن له «1» ، من قولك : ظهرت بحاجتي إذا لم تعن بها .

59 فَسْئَلْ بِهِ خَبِيراً : سل بسؤالك إياه خبيرا ، وسل به عارفا يخبرك بالحق في صفته .

58 وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ : احمده منزّها له عما لا يجوز عليه .

62 جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ خِلْفَةً : خلفا عن صاحبه فمن فاته من عمل في أحدهما قضاه في الآخر «2» ، أو إذا مضى أحدهما خلفه صاحبه «3» .

يقال : الأمر بينهم خلفة ، أي : نوبة كل واحد يخلف صاحبه «4» ،

---

(1) هذا قول أبي عبيدة في مجاز القرآن : 2/ 77 .

وأورده القرطبي في تفسيره : 13/ 62 ، وقال : «هذا معنى قول أبي عبيدة» .

وذكره الطبري في تفسيره : 19/ 27 ، وعقب عليه بقوله : «وكأن «الظهير» كان عنده «فعيل» صرف من مفعول إليه من مظهور به ، كأنه قيل : وكان الكافر مظهورا به . . . » .

وقال الفخر الرازي في تفسيره : 24/ 102 : «وقياس العربية أن يقال «مظهور» ، أي مستخف به متروك وراء الظهر ، فقيل فيه «ظهير» في معنى «مظهور» ، ومعناه : هين على اللّه أن يكفر الكافر وهو - تعالى - مستهين بكفره» اه .

(2) ذكره الفراء في معانيه : 2/ 271 ، وأخرجه الطبري في تفسيره : (19/ 30 ، 31) عن عمر ابن الخطاب ، وابن عباس ، والحسن رضي اللّه تعالى عنهم .

ونقله الماوردي في تفسيره : 3/ 163 عن عمر رضي اللّه عنه ، والحسن رحمه اللّه

تعالى .

وأورد السيوطي في الدر المنثور : 6/ 270 رواية أبي داود الطيالسي عن الحسن : أن عمر أطال صلاة الضحى ، فقيل له : صنعت اليوم شيئا لم تكن تصنعه فقال : إنه بقي عليّ من وردي شيء وأحببت أن أتمه أو أقضيه . وتلا هذه الآية : وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً . . . الآية ، ولم أقف على هذا الخبر في مسند الطيالسي المطبوع . [. . . . .]

(3) ذكره الفراء في معانيه : 2/ 271 ، وأبو عبيدة في مجاز القرآن : 2/ 79 ، واليزيدي في غريب القرآن : 279 ، وابن قتيبة في تفسير غريب القرآن : 314 ، وأخرجه الطبري في تفسيره : 19/ 31 عن مجاهد ، وكذا ابن أبي حاتم في تفسيره : 772 (سورة الفرقان) .

وأورده السيوطي في الدر المنثور : 6/ 270 ، وزاد نسبته إلى الفريابي ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر عن مجاهد .

(4) المفردات للراغب : (155 ، 156) ، واللسان : 9/ 86 (خلف) .

(86/556)

والقوم خلفة ، أي : مختلفون .

63 وَعِبادُ الرَّحْمنِ : مرفوع إلى آخر السورة على الابتداء ، وخبره :

أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ «1» .

هَوْناً : بسكينة ووقار دون مرح واختيال .

وقيل «2» : حلماء علماء لا يجهلون ، وإن جهل عليهم .

قالُوا سَلاماً : تسلما منكم ، أي : نتاركم ولا نجاهلكم «3» .

وقيل «4» : سلما : سدادا من القول .

65 غَراماً : هلاكا لازما «5» .

68 أَثاماً : عقوبة وجزاء .

69 يُضاعَفْ لَهُ الْعَذابُ : عذاب الدنيا والآخرة ، وجزمه على البدل لأن مضاعفة العذاب هي لقيّ الآثام «6» .

---

(1) من الآية : 75 ، من سورة الفرقان ، وهذا القول الذي ذكره المؤلف في معاني القرآن للزجاج : 4/ 74 .

ونقله النحاس في إعراب القرآن : 3/ 167 عن الزجاج ، وكذا مكي في مشكل إعراب القرآن : 2/ 524 .

قال الزجاج : «ويجوز أن يكون قوله : وَعِبادُ الرَّحْمنِ رفعا بالابتداء ، وخبره الَّذِينَ يَمْشُونَ

عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً .

وقال أبو حيان في البحر المحيط : 6/ 512 : «والظاهر أن وَعِبادُ مبتدأ ، والَّذِينَ يَمْشُونَ الخبر» اه .

(2) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره : 19/ 34 عن عكرمة ، والحسن .

(3) عن معاني القرآن للزجاج : 4/ 74 .

(4) نص هذا القول في تفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 315 ، وتمامه : «لا رفث فيه ، ولا هجر» .

وأخرج نحوه الطبري في تفسيره : 19/ 35 عن مجاهد .

(5) ينظر مجاز القرآن لأبي عبيدة : 2/ 80 ، وغريب القرآن لليزيدي : 279 ، وتفسير الطبري :

19/ 35 ، والمفردات للراغب : 360 .

(6) هذا قول سيبويه في الكتاب : 3/ 87 ، وهو في معاني القرآن للزجاج : 4/ 76 ، وإعراب القرآن للنحاس : 3/ 168 ، وتفسير القرطبي : 13/ 77 عن سيبويه أيضا .

وقراءة الجزم لنافع ، وأبي عمرو ، وحمزة ، والكسائي ، وعاصم في رواية حفص .

وقرأ ابن عامر وأبو بكر عن عاصم يضاعف بالرفع .

السبعة لابن مجاهد : 467 ، والتبصرة لمكي : 276 ، والتيسير للداني : 164 .

قال مكي في مشكل إعراب القرآن : 2/ 526 : «من جزم جعله بدلا من يَلْقَ لأنه جواب الشرط ولأن لقاء الأثام هو تضعيف العذاب والخلود فأبدل منه ، إذ المعنى يشتمل بعضه على بعض ، وعلى هذا المعنى يجوز بدل الأفعال بعضها من بعض ، فإن تباينت معانيها لم يجز بدل بعضها من بعض» .

وانظر حجة القراءات : 514 ، والكشف لمكي : 2/ 147 ، والبيان لابن الأنباري : 2/ 209 .

(87/556)

---

70 يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ : يغيّر أعمالهم أو يبدلها بالتوبة والندم على فعلها حسنات .

72 مَرُّوا كِراماً : أي : مرّ الكرماء الذين لا يرضون باللّغو ومخالطة أهله .

73 لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْها : لم يسقطوا عليها .

صُمًّا وَعُمْياناً : بل سجّدا وبكيا .

[70/ ب] وَاجْعَلْنا لِلْمُتَّقِينَ إِماماً : توحيده على المصدر «1» ، أمّ إماما / كقام قياما أو هو جمع آم كقائم وقيام ، أو إمام نفسه جمع إمام ، وإن كان على لفظه كقولهم : درع دلاص

«2» وأدرع دلاص ، وناقة هجان «3» ونوق هجان ،

---

(1) ينظر هذا المعنى في الكشاف : 3/ 1040 ، والتبيان للعكبري : 2/ 992 ، وتفسير القرطبي :

13/ 83 .

(2) درع دلاص : براقة ملساء لينة بينة الدّلص ، ويقال : درع دلاص وأدرع دلاص ، الواحد والجمع على لفظ واحد » .

انظر الصحاح : 3/ 1040 ، واللسان : 7/ 37 (دلص) .

(3) الهجان من الإبل : البيض الكرام ويستوي فيه المذكر والمؤنث والجمع ، يقال : بعير هجان وناقة هجان .

وفي اللسان : 13/ 431 (هجن) عن ابن سيده : «الهجان من الإبل البيضاء الخالصة اللون» .

وانظر تهذيب اللغة : 6/ 58 ، والصحاح : 6/ 2216 (هجن) .

وفقهه أنه يكسر فعيل على فعال كثيرا ، فيكسر فعال على فعال أيضا لأنّ فعيلا وفعالا أختان كلاهما ثلاثي الأصل وثالثة حرف لين ، وقد اعتقبا أيضا على الشيء الواحد ، نحو عبيد وعباد ، وكليب وكلاب .

77 ما يَعْبَؤُا بِكُمْ : ما يصنع بكم «1» ، أو أيّ وزن يكون لكم «2» ؟ .

لَوْلا دُعاؤُكُمْ : رغبتكم إليه وطاعتكم له ، أو دعاؤه إياكم إلى طاعته .

وقيل «3» : ما يصنع بعذابكم لولا ما تدعون من دونه .

فَقَدْ كَذَّبْتُمْ : على القول [الأول] «4» قصّرتم في طاعتي «5» .

لِزاماً : عذابا لازما . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للغزنوى حـ 2 صـ 608 .

619 ﴾

---

(1) هذا قول الفراء في معانيه : 2/ 275 ، وذكره الطبري في تفسيره : 19/ 55 .

ونقله الماوردي في تفسيره : 3/ 169 عن مجاهد ، وابن زيد .

ونقل الفخر الرازي في تفسيره : 24/ 116 عن الخليل : «ما أعبأ بفلان ، أي : ما أصنع به .

كأنه يستقله ويستحقره» .

(2) في معاني القرآن للزجاج : 4/ 78 : «و تأويل : ما يَعْبَؤُا بِكُمْ أي : أيّ وزن يكون لكم عنده ، كما تقول : ما عبأت بفلان ، أي : ما كان له عندي وزن ولا قدر .

وأصل العبء في اللغة الثقل ، ومن ذلك : عبأت المتاع جعلت بعضه على بعض» .

وانظر هذا المعنى في مجاز القرآن لأبي عبيدة : 2/ 82 ، وتفسير الطبري : 19/ 55 ، والكشاف : 3/ 103 ، والمفردات : 320 .

(3) ذكر نحوه ابن قتيبة في تأويل مشكل القرآن : 438 ، فقال : «في هذه الآية مضمر ، وله أشكلت ، أي : ما يعبأ بعذابكم ربي لولا ما تدعونه من دونه من الشريك والولد . ويوضح ذلك قوله : فَسَوْفَ يَكُونُ لِزاماً ، أي : يكون العذاب لمن كذب ودعا من دونه إلها لازما» اه .

وأشار الطبري في تفسيره : 19/ 57 إلى قول ابن قتيبة فقال : «وقد كان بعض من لا علم له بأقوال أهل العلم يقول في تأويل ذلك : قل ما يعبأ بكم ربي لولا دعاؤكم ما تدعون من دونه من الآية والأنداد .

وهذا قول لا معنى للتشاغل به لخروجه عن أقوال أهل العلم من أهل التأويل» . [. . . . .]

(4) ما بين معقوفين عن نسخة «ج» .

(5) ذكره الماوردي في تفسيره : 3/ 169 ، وقال : «مأخوذ من قولهم : قد كذب في الحرب ، إذا قصّر» .

وقال ملا حويش :

تفسير سورة الفرقان

عدد 42 - 25

نزلت بمكة بعد سورة يس وهي سبع وسبعون آية ، وثلاثمائة واثنتان وتسعون كلمة ، وثلاثة آلاف وسبعمائة وثلاثون حرفا ، ويوجد في القرآن سورتان مبدوءتان بلفظ تبارك هذه وسورة الملك ، ومنها الآيات 68 و69 و70 نزلن بالمدينة ، وما قيل إنها نزلت في مسجد قباء بالمدينة لا صحة له ، وإنما قرأها صلى اللّه عليه وسلم بالمدينة ، عند هجرته إليها كسائر السور التي نزلت بمكة للاطلاع عليها والتقيد بما فيها من أمر ونهي وغيره .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى "تَبارَكَ" علوه وتعالى عزّه وتعاظم مجده ، وتسامى جلاله ، وتكاثر خيره ، وتعمم عطاؤه وبره ، وتنزه عن صفات خلقه جنابه ، وتبرأت عن كل نقص حضرته ، واعلم أن فعل تبارك وتعالى لا يسندان لغيره عز وجل ولا ينصرفان غالبا لمشابهتهما اسم الفعل ، وكرر في الآيتين 10 و61 منها ، وفي الآية 35 من الأعراف المارة ، وفي الآية 43 من الزخرف وفي الآية 63 من المؤمن وفي الآية 14 من المؤمنين في ج 2 وفي الآية 78 من من سورة الرحمن ، وأول تبارك الملك في ج 3 .

قال الحسن معناه تزايد خيره وتكاثر عطاؤه ، وذلك لأنه مأخوذ من البركة لمجمع الماء ولذلك قالوا : معناه دام لدوام الماء فيها عند كبرياء "الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ" الفارق بين الحق والباطل ولفظه يدل على الكثير ، لأنه مصدر فرق فرقا ، وهذا فرقان ، وزيادة المبني تدلّ غالبا على زيادة المعنى ، والفرق الفصل بين الشيئين بما يدركهما البصر أو البصيرة وقيل إذا كان بين الأجسام يقال تفريق ، وإذا كان بين المعاني يقال فرق .

(90/556)

والمراد به القرآن العظيم بدليل قوله جل علاه "عَلَى عَبْدِهِ" محمد صلى اللّه عليه وسلم ، وهو أحب أسمائه إليه ولهذا كرره في سورة الكهف وفي الآية 36 من سورة الزمر في ج 2 وفي الآية 10 من سورة الحديد والآية 23 من البقرة والآية 41 من الأنفال في ج 3 وفي الآية 10 من سورة النجم والآية 19 من سورة الجن المارتين .

وقد أضيف إلى ضمير المتكلم والغائب وإلى اسم الكريم إضافة تشريف ، ولا شك أن العبودية أفضل من العبادة لبقائها في الآخرة ، وإنما أنزلنا على عبدنا هذا القرآن "لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً" 1 محظرا ومخوفا وزاجرا ومحذرا من سوء العاقبة لمن لم يؤمن به في العالمين أجمع أحمرهم وأخضرهم ، أسودهم وأبيضهم ، إنسهم وجنهم ، لان أل فيه للجنس ، فيعم

جميع أفراده ، وفيها دليل قاطع لا يحتمل التأويل على أن محمدا صلى اللّه عليه وسلم مرسل برسالة عامة للخلق كافة خلافا لما يقوله من لا ثقة به من أن رسالته خاصة بالعرب .

وقد بينا ما يتعلق بهذا في الآية 158 من سورة الأعراف وله صلة في تفسير الآية 28 من سورة سبأ في ج 2 ، وتدل هذه الآية صراحة على أنه مرسل لجميع الناس على اختلاف مللهم ونحلهم .

وقرأ ابن الزبير للعالمين بالتثنية ، يريد الإنس والجن وقراءتها بالجمع أحسن ، وعليها المصاحف .

وفي تقديم الجار والمجرور على المتعلق تشويق للسامع بانتظار ما بعده ، ومراعاة لفواصل الآي ، لأن أكثرها جاءت على نسق واحد في هذه السورة كالإسراء وطه ومريم الآتيات والقمر والمرسلات المارتين وسورة الرحمن والإنسان في ج 2 .

ثم وصف نفسه تعالت نفسه بقوله "الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ" يتصرف فيهما وفيما بينهما وما فوقهما وتحتهما كما يريد ويختار ، لا ينازعه فيها أحد إذ الكل تحت قبضته .

(91/556)

واعلم أن لفظ الملك يطلق على الأرض ، والملكوت على السماء ، وما فيهما على الانفراد ، وفي حالة الجمع كما في الآية 75 من سورة الأنعام ج 2 والآية 174 من سورة الأعراف المارّة ، ويجوز استعمال أحدهما مكان الآخر ، راجع تفسير الآية 89 من سورة الأنبياء في ج 2 "وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً" كما يقوله الظالمون لعدم حاجته إليه "وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ" يعاونه على تدبيره أو لا يعاونه ، لأنه العظيم المدبر له وحده الجليل المنفرد في أمره الرحيم المستقل بشؤونه .

وفيها ردّ على من يقول من العرب واليهود والنصارى بأن الملائكة وعزير والمسيح أبناؤه ، وعلى التنويه القائلين بتعدد الآلهة وبأن خالق النور غير خالق الظلمة ، وخالق الخير غير خالق الشر ، تعالى اللّه في ذلك وتنزه

"وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ" من المكونات الأرضية والسماوية "فَقَدَّرَهُ" هيأه لما يصلح إليه ، وما يليق به وما يكون منه "تَقْدِيراً" 2 بديعا لا يبلغ كنهه أحد سبحانه خلق ووفق وسوى وهيأ لكل حيوان وشيء ما يناسبه ويحتاجه وقدر سائر مخلوقاته ، وأحسن كل شيء خلقه ، وهداه لما يحتاجه ويسر له ما يلزم ، فهيأ للإنسان الفهم والإدراك والنظر والتدبر في أمور المعاش والمعاد واستنباط الصنايع المتنوعة ومزاولة الأعمال المختلفة ، وجعل له فكرا واسعا كلما استعمله انصقل وازداد في المعارف الكونية ، وهكذا سائر مخلوقاته يسرها

لمنافعها

،

(92/556)

وسهل عليها ما تحتاجه "وَاتَّخَذُوا" مع هذا كله "مِنْ دُونِهِ آلِهَةً" من الجماد والحيوان ومما صنعته أيديهم "لا يَخْلُقُونَ شَيْئًا" البتة إنسانا ولا حيوانا ولا جمادا "وَهُمْ يُخْلَقُونَ" من قبل عبدتهم لأنهم ينحتونها ويصوغونها ويصورونها وينجزونها بأيديهم وهم مخلوقون بخلقنا ، قال تعالى (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ) الآية 91 من الصافات الآتية "وَلا يَمْلِكُونَ لأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا" فعجزهم عن نفع وضر غيرهم من باب أولى ، لأن من لا يستطيع أن يحفظ نفسه فكيف يدافع عن غيره "وَلا يَمْلِكُونَ" كرره تأكيدا لبيان عجزهم وضعفهم "مَوْتًا" لأحد في الدنيا لأنهم ميتون فيها "وَلا حَيَاةً" لمن يموت في الدنيا "وَلا نُشُورًا" 3 في الآخرة ليحيوا فيها حياة دائمة في الجنة ، فالإله الذي يستحق العبادة هو من يقدر على أن يميت في الدنيا ، ويحيي في الآخرة من يميته ، وينعمه بالجنة إذا كان صالحا ، ويعذبه بالنار إذا كان كافرا ، فالذي لا يقدر على شيء من هذا كالآلهة المتخذة ، يجب أن تهان وتداس لأنها لا ترضي ولا تخشى ، فكيف يليق أن تكون آلهة فأعرضوا أيها الناس عن هذه الأوثان ،

واعبدوا الإله القادر على كل شيء الفعال لما يريد ، مالك الملك والملكوت ، المنصرف به إيجادا وإعداما ، النافع الضار ، المحيي المميت الذي يؤمل خيره ويخشى ضره ويحذر شره "وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ" ما "هَذَا" الذي يتلوه عليكم محمد ويحسنه لكم ويرغبكم فيه ويأمركم باتباعه على أنه كلام اللّه ما هو "إِلَّا إِفْكٌ" كذب محض "افْتَرَاهُ" اختلقه من تلقاء نفسه واخترعه من تصوراته

(93/556)

وليس كما يزعم أنه كلام اللّه أنزله عليه ، كلا وإنما زوره هو "وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ" يعنون عدّاسا وعايشا مولى حويطب بن عبد العزّى ويسار مولى العلاء ابن الحضرمي وجبر مولى عامر ، لأنهم من أهل الكتاب يحسنون قراءة التوراة والإنجيل والزّبور ، وكان صلى اللّه عليه وسلم يتعاهدهم رأفة بهم ، لا أنه يتعلم منهم ، فهم أعجز من أن ينطقوا بآية من القرآن لأنهم أعاجم ، وقال المبرد عنوا جماعة من المؤمنين ، لأن لفظ آخر لا يكون إلا من جنس الأول ، وقد غفل عن أن الاشتراك في الوصف غير لازم ، ألا يرى قوله تعالى (فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ) الآية 13 من سورة آل عمران في ج 3 ، فإن الأخرى فيها ليست من جنس الأولى من حيث الوصف ، مما يدل على أن اللزوم الذي ذكره غير لازم كلزوميات المعرّي إذ

سماها لزوم ما لا يلزم ، وذلك أنه ألزم على نفسه فيها أن يكون حرف الرويّ وما قبله من جنس واحد من كل ما نظمه هناك ، وهو غير لازم في أصول الشعر .

(94/556)

وما قيل إن المراد بهم اليهود فغير صحيح ، لأن اليهود لم يجالسوا الرسول في مكة ، وكل ما وقع منهم معه في المدينة وهذه السورة مكية عدا الآيات المستثنيات الآتية وهذه ليست منها ، وقال جل المفسرين إنها نزلت في النضر بن الحارث بن عبد الدار وجماعته رؤوس الكفر القائلين إن هذا القرآن ليس من عند اللّه وإنما هو من نفس محمد وأعوانه ، فأكذبهم اللّه بقوله "فَقَدْ جاؤُ ظُلْماً" لجعلهم العربي الفصيح يتلقن من الرومي والبربري ، وكلام اللّه أعجز البلغاء بيانه وأفحم العقلاء معناه ، وهؤلاء لا يقدرون على فهمه فضلا عن تعليمه فما جاءوا به تعسفا "وَزُوراً" 4 لاتهامهم حضرة الرسول بنسبه ما هو بريء منه ، كما هو منزه عما وصموه به من السحر والكهانة وشبهها في آيات أخرى "وَقالُوا" أيضا ما هذا القرآن إلا "أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ" خرافاتهم "اكْتَتَبَها" عن غيره "فَهِيَ تُمْلى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا" 5 صباح ماء ليحفظها خفية قبل أن ينتشر خبرها بين الناس ، وبعد انتهائه من كتابتها صار يتلوها علينا ويقول إن اللّه أوحاها إليه .

واعلم أن هذه وأشباهها مما فيها لفظ أساطير الأولين

قد قال فيها ابن عباس إنها من جملة ثمان آيات في معناها ، نزلت في النظر المذكور أعلاه ويراد بها أخبارهم البالية غير المخطوطة المحققة ، كما تقول الآن عند ما تسمع حكاية غير معقولة هذه خرافة وإسرائيلية ، أي لا قيمة لها لعدم الجزم بصحتها لانها لم تنقل عن حديث صحيح وسند حسن ، ولهذا أمره اللّه بأن يردّ عليهم بقوله عز قوله "قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ" كل أمر خفي عن القلب فضلا عن غيره مما هو "فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ" و

(95/556)

مما تسرونه أنتم وليس كما تزعمون وتقولون "إِنَّهُ كانَ غَفُوراً" دائم المغفرة أزلا وأبدا "رَحِيماً" 6 مستمر الرحمة لعباده لا يعجل العقوبة ويمهل عباده علهم يتوبوا ويرجعوا ، ولا يهمل من بصر على كفره ، وأحب شيء إليه رجوع عبده إليه ، فقد جاء عن أنس رضي اللّه عنه أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال : (اللّه أشدّ فرحا بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه ، فأيس منها ، فأتى شجرة فاضطجع في ظلها قد أيس من راحلته ، فبينما هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده ، فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح : اللهم أنت عبدي وأنا ربك ، أخطأ من

شدة الفرح) - رواه الشيخان والترمذي - .

أما الذي لا يتوب ومات على كفره فقد أعد له من العذاب ما لا تقواه قواه ، والمعنى أن الذي أتلوه عليكم أيها الناس هو كلام اللّه ، فمن اتبعه أوصله إلى الجنة ، ومن كفر به أدى به كفره إلى النار ، فآمنوا به لعلكم تفوزون في الدنيا والآخرة "وَقَالُوا" أيضا مدعمين أقوالهم الواهية المارة بما هو أوهى منها وهو " مالِ هذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ" كما نأكل "وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ" كما نمشي يبتغي الرزق مثلنا فمن كان رسولا يجب ان يكون ملكا لا بشرا مثلنا يأكل ويتطلب الرزق ويحتاج إلى البشر "لَوْلا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ" ردا له إذا لم يكن هو ملكا ، وهذا على زعمهم أنهم نزلوا إلى درجة أدنى مما قبلها والحال أنها أكبر "فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً" 7 للبشر ليصدقه في قوله ويقويه في أمره ثم تنزلوا إلى ما هو أدنى أيضا بوهمهم فقالوا أو يلقى إليه كنز من السماء يكتفي به عن السعي كآحاد الناس إذ لا يليق بمن يدعي هذه الدعوة أن

(96/556)

يساوي الناس ، بل يجب أن يتنزه عن مضاهاتهم في المأكل والمشرب والملبس والعمل ، ثم تنزلوا عما هو أقل من ذلك كله "أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا" على الأقل فيسدّ بها حاجته ويمتاز بها عما من شأن الغير وهم يعلمون أنه ما احتاج قط إلى غيره منذ نشأته بينهم إلا لربّه

"وَقالَ الظَّالِمُونَ" وضع الظاهر موضع المضمر تسجيلا عليهم بالظلم في قولهم "إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُوراً" 8 مخدوعا مجنونا وقد وصموه بهذا بعد أن وصموه بالشعر والكهانة ووصموا كلام اللّه بأنه مفترى ، وأنه من أساطير الأولين ، وانه تعلمه من الغير وانه مملى عليه ، إلى غير ذلك .

مطلب اجتماع أشراف قريش مع حضرة الرسول .

(97/556)

أخرج ابن إسحاق وابن المنذر وابن جرير عن ابن عباس أن عتبة وشيبة ابني ربيعة وأبا سفيان بن حرب والنضر بن الحارث وأبا البحتري والأسود ابن المطلب وزمعة بن الأسود والوليد بن المغيرة وأبا جهل بن هشام وعبد اللّه بن أمية وأمية ابن خلف والعاص بن وائل ونبيه ومنبه ابني الحجاج ، اجتمعوا فقال بعضهم لبعض ابعثوا إلى محمد وكلموه وخاصموه حتى تعذروا فيه إذا لم يقبل منكم ما تعرضو عليه من الأمر ، فبعثوا إليه ان أشراف قومك اجتمعوا ليكلموك فاحضر ، فجاء ولما استقر به المقام ، قالوا يا محمد ، إنا بعثنا إليك لنعتذر منك ، فان كنت إنما جئت بهذا الأمر تطلب به مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أغنانا وإن كنت تطلب الشرف نسوّدك بأن نجعلك سيدا علينا ، وان كنت تريد

الملك أيضا ملكناك علينا ، فقال صلى اللّه عليه وسلم : ما لي مما تقولون ما جئنكم بما جئنكم أطلب أموالكم أو الشرف فيكم أو الملك عليكم ، ولكن اللّه بعثني رسولا إليه وأنزل علي كتابا وأمرني أن أكون بشيرا بجنته ورضاه إن أطعتم ، ونذيرا من سخطه وعذابه إن أبيتم ، وإني بلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ، فإن تقبلوا مني ما جئنكم به فهو حظكم بالدنيا والآخرة ، وان تردّوه عليّ أصبر لأمر اللّه تعالى حتى يحكم بيني وبينكم .

قالوا يا محمد ، فإن كنت غير قابل منا شيئا مما عرضناه

عليك فاسأل لنفسك ربّك أن يبعث معك ملكا يصدقك بما تقول ويراجعنا عنك ، أو سله أن يجعل لك كنزا أو جنة تغنيك عما تبتغي حتى نعرف فضلك لديه ، ومنزلتك عنده ، إن كان ما تزعمه صحيحا ، لأنه لا يجدر بك وأنت على دعوتك هذه أن تمشي بالأسواق وتلتمس المعاش مثلنا فقال صلى اللّه عليه وسلم : ما أنا بفاعل ، ما أنا بالذي يسأل ربه ، وما بعثت إليكم بهذا ، وما أنا إلا بشر مثلكم .

(98/556)

فتفروا منه وقالوا ما قالوا قال تعالى "انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ" التي لا علاقه لها بالرسالة ولا فائدة لهم بها فضلا عن أنها غير معقولة "فَضَلُّوا" بها طريق الهدى ومنهج

الصواب "فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً" 9 يخرجون منه لضعف حجتهم ، ولا يقدرون أن يستدلّوا بدليل على ما قالوه وان ما وصموك به لا حجه لهم به ولا برهان كما انهم لا طريق لهم للرشد فلا يؤمنوا بما انزل إليك ولا يقدرون على مباراتك ، وإنا نعلم قولهم هذا كما نعلم جوابك لهم القاطع لقلوبهم قبل أن تقوله لهم "تَبارَكَ الَّذِي إِنْ شاءَ جَعَلَ لَكَ" يا سيد الرسل "خَيْراً مِنْ ذِلِكَ" الذي عرضه عليك قومك وخيرا مما اقترحوه عليك وكلفوك بقبوله "جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ" دائمة مستمرة في جنان الدنيا والآخرة ، لا جنة فانية مثل جنان هذه الدار "وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُوراً" 10 بديعة من صنعه لا من صنع خلقه ، عظيمة يعجز عن إنشاء مثلها البشر أجمع مثل قصور الآخرة ، وهو قادر على أن يجعل لك ذلك كله في الدنيا ، ولكن لا يريده لك فيها ، بل إنه هيأها لك ، خبأها للدار الآخرة ، وذلك لعلمه جل علمه أنه صلى اللّه عليه وسلم غير ميّال إلى الدنيا وزخارفها ، لذلك قال إن شاء ، وإلا لكونها له حال سؤالهم له .

يدل على هذا ما جاء عن أبي أمامة أن النبي صلى اللّه عليه وسلم قال عرض علي ربي ليجعل لي بطحاء مكة ذهبا ، قلت لا يا رب ، ولكن أشبع يوما وأجوع يوما فإذا جعت تضرعت إليك وذكرتك ، وإذا شبعت حمدتك وشكرتك .

وجاء عن عائشة رضي اللّه عنها قالت قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : لو شئت

"ما كلفني به ربي" لسارت معي جبال مكة ذهبا ، جاءني ملك ان حجزته تساوي الكعبة "مقعد

(99/556)

إزاره أو موضع التكة في السروال وهو كناية عن عظمته لأنه إذا كان ذلك منه يساوي الكعبة فكيف بجثته ؟ وهو بضم الحاء وسكون الجيم وفتح الزاي أو بفتحها معناه الظلمة أو الذين يحولون دون المتنازعين يمنعون التعدي "ويفصلون بينهم بالحق" فقال يا محمد إن ربك يقرئك السلام ويقول إن شئت نبيّا عبدا وإن شئت نبيّا ملكا ، فنظرت إلى جبريل فأشار إليّ أن ضع نفسك ، فقلت : نبيا عبدا ، قال فكان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بعد ذلك لا يأكل متكئا ، يقول أنا عبد آكل

كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد .

ذكر هذين الحديثين البغوي في سنده

(100/556)

قال تعالى "بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ" وهي حق ثابت وقد جحدوها وهذا أعظم مما وصموك به لأنه ليس بشيء بالنسبة لانكار وجود القيامة وإعادة الأجساد إلى ما كانت عليه ، وعليه فان ما قالوه لك ليس بعجيب ، لاتيانهم بأعجب منه وهو جحودهم الآخرة التي أمرناك أن تهددهم بها "وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيراً" 11 لأن تكذيبك بها تكذيب لنا قال تعالى "قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ" الآية 30 من سورة الأنعام في ج 2 وقد هيّأنا لهم هذه النار التي لا تنطفيء لبعد مداها وكثرة وقودها بأمثالهم "إِذا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ" بمرأى الناظرين أمثالنا ولا يقال كيف تراهم وهي ليست من أصحاب الرؤية لان الذي سعرها قادر على خلق الرؤية فيها فتراهم من مسيرة أعوام ، لأنها تشرف لأهلها ، أو ان رأتهم بمعنى قابلتهم فتكون بمرأى منهم وإذا رأوها فكأنها رأتهم ، قال تعالى "وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغاوِينَ" الآية 91 من سورة الشعراء الآتية والمعنى أنها لا تخفى على أحد وقريء تراهم أي زبانيتها ولا مندوحة فيه "سَمِعُوا لَها تَغَيُّظاً وَزَفِيراً" 12 غليانا شديدا وصوتا من تلهبها غير صوت تغيظها من توقدها يشبه الغليان بالغيظ بجامع علو الصوت في كل لأن الغضبان يرتفع صوته لحرارة الغضب في جوفه والغليان له صوت يسمع أيضا لحرارة النار والزفير خروج النفس بشدة ، ضد الشهيق الذي هو نزوله بشدة أيضا قال عبيد بن عمير تزخر جهنم يوم القيامة زخرة لا يبقى ملك مقرب ولا نبي مرسل

إلا خرّ على وجهه لهول ما يسمع ويرى فيا ويل أهلها ، ويا سعادة من زحزح عنها اللهم أجرنا منها وأبعدنا عنها "وَإِذا أُلْقُوا مِنْها مَكاناً ضَيِّقاً" شديدا لعذابهم إذ فيها مواقع ضيقة وأخرى واسعة ومتوسطة ولكل منها ناس "مُقَرَّنِينَ" بالسلاسل مصفدين بالحديد بجوامع تجمع بين أيديهم وأعناقهم قال ابن عباس : تضيق عليهم كما يضيق الزج بالرمح ، والكرب مع الضيق أشد منه مع السعة كما أن الروح مع السّعة أروح منه مع الضيق "دَعَوْا هُنالِكَ" في ذلك المكان الضيق الهائل منها تمنوا أن يصيبهم "ثُبُوراً" 13 هلاكا قاضيا عليهم ليتخلصوا مما هم فيه وأشد من الموت ما يتمنى معه الموت ، وأول بعض المفسرين دعوا ينادوا ، أي قالوا يا هلاكاه والأول أولى .

أخرج أحمد وابن أبي شيبة وعبد بن حميد والبزار وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في البعث بسند صحيح عن أنس قال : قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : أول من يكسى حلة من النار إبليس فيضعها على صاحبه وذريته من بعده وهو ينادي يا ثبوراه ، ويقولون يا ثبورهم ، حتى يقف على النار فيقول يا ثبوراه ويقولون يا ثبورهم ، وفي بعض الروايات : أول من يقول ذلك إبليس ، ثم يتبعه أتباعه .

وظاهره شمول الاتباع كفرة الإنس والجن .

مطلب لمعة من أسباب النزول :

(102/556)

قالوا إن هذه الآية نزلت في أبي جهل خاصة مع ان هذا الحديث يفيد أنها في إبليس وأتباعه ولا يخفى أن الآية عامة فدخل فيها إبليس وأبو جهل وأتباعهما وغيرهم ممن قدر عليه ان يعذب فيها فلا تختص فيمن نزلت فيهم إذ لم يوجد ما يقيدها أو يخصصها في أبي جهل أو إبليس أو غيرهما ويعلم أن جل الأقوال الواردة في أسباب النزول منشأوها موافقة الآية ، لمن جعلوها نازلة فيه أو تلاوتها عند ما يناسبها ، وان مطلق التلاوة لمطلق سبب مناسب للآية لا يكون سبب النزول كما ان الموافقة لا تكون مدارا للتخصيص ، وإنما المخصص هو منزل الآيات ، فما وجدنا فيها صريحا في ذلك أو صريحا من قول المنزل عليه صرفناه إليه ، وإلا لا لأن غالب كلام اللّه عام والماضي منه قليل ، وذلك لأن القرآن العظيم لم يخص اللّه

(103/556)

تعالى به زمن الرسول صلى الله عليه وسلم فقط بل عام لكل الأزمان وموافق لكل العصور ومطابق لجميع الدهور ، بخلاف الكتب المتقدمة لأن لها حدا بنزول ما بعدها غالبا ، والقرآن خاتمه الكتب الإلهية ، وقد أنزل على خاتم النبيين ، فهو صالح لكل أوان لآخر الدوران ، جعلنا الله من المتمسكين به العالمين بما فيه المنتفعين بأوامره ونواهيه قال تعالى "لا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُوراً واحِداً" من هول النار وكنتم تجحدونها "وَادْعُوا ثُبُوراً كَثِيراً" 14 لا غاية له فليس بنافع دعاؤكم اليوم لأنكم لم تنتفعوا بدعاء الرسل أمس قال تعالى "فَادْعُوا وَما دُعاءُ الْكافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلالٍ" الآية 50 من سورة المؤمن فيا سيد الرسل "قُلْ" لهؤلاء الذين لا ينظرون عاقبة أمرهم "ذلِكَ" المذكور في العذاب الموصوف بالسعير الموعود به المكذبون "خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ" بها المصدقون بما جاءكم به رسلهم من الله "كانَتْ لَهُمْ" بمقابل تصديقهم الرسل وامتثالهم أوامرهم "جَزاءً وَمَصِيراً" 15 لهم الآن في الآخرة ، وجاء بلفظ الماضي بدل المضارع المناسب الإخبار بالمستقبل لتحققه ، لأن وعد الرسل من وعد الله (وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثاً) (وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً) الآيتين 87 و122 من سورة النساء في ج 3 (وَمَنْ أَوْفى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ) الآية 111 من سورة التوبة "لَهُمْ" أي أولئك المنقون "فِيها ما يَشاؤُنَ" مما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين من كل ما يخطر بالبال في الآخرة ، لأن بالهم الدنيوي بعيد عن تلك الخطرات الأخروية لأن فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، فخطرات الآخرة غير خطرات الدنيا وبينهما ما

بينهما "خالِدِينَ" في نعيمها دائمين دائبين إذ لو انقطع لكان مشوبا بشيء من الغم والآخرة لا غم فيها لأنه غير منقطع ، قال :

(104/556)

أشد الغم عندي في سرور تيقن عنه صاحبه انتقالا

وقد "كانَ" وجود ما يريدونه فيها "عَلى رَبِّكَ وَعْداً مَسْؤُلًا" 16 عنه للطائعين الذين كانوا يقولون في الدنيا (رَبَّنا وَآتِنا ما وَعَدْتَنا عَلى رُسُلِكَ) الآية 194 من آل عمران والاستفهام في صدر الآية المفسرة تقريري يفهم جوابه من المقام لأن

انعدام الأخيرية في النار معلوم ، والقصد توبيخ الكفرة المقصودين بالآية السابقة وأمثالهم وتقريعهم على ما هم متلبسون به ، قال تعالى "وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَما يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ" كالملائكة وعيسى بن مريم وعزير عليهم السلام والإنس والجن والأوثان والشمس والقمر والكواكب والحيوان .

مطلب استعمال من لمن لا يعقل وما لمن يعقل وبراءة المعبودين من العابدين :

ذلك لأن لفظ (ما) هنا يتناول العقلاء وغيرهم باعتبار الوصف ، وفي كل محل يراد بها الوصف لا تخص بالعقلاء ، وقد تأتي على قلّة فيهم كما تأتي من على قلّة في غير العقلاء ،

راجع آية السجدة من سورة النحل ، والآية 53 من سورة يوسف في ج 2 ، وآية السجدة من سورة الحج في 3 ، كما سنبينه في تفسير هذه الآيات إن شاء اللّه ، لذلك كان المراد في هذه الآية نحشرهم ومعبوديهم جميعا بدليل قوله تعالى (ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَ هؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كانُوا يَعْبُدُونَ) الآية 40 من سورة سبأ في ج 2 ، وقوله تعالى (أَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلهَيْنِ) الآية 116 من سورة المائدة في ج 3 ، وقوله تعالى (وَقالَ الشَّيْطانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ) الآية 12 من سورة إبراهيم في ج 2 ، وقوله تعالى أيضا "فَيَقُولُ" اللّه عز وجل للمعبودين كلهم ، لأن إطلاق الآية يفيده "أَ أَنْتُمْ" غلب العقلاء بخطابه على غيرهم .

(105/556)

وقد سبق أن ذكرنا أن اللّه تعالى ينزل في بعض خطابه ما لا يعقل منزلة من يعقل ، وقد يجعله عاقلا لفهم مراده ، وهو القادر على أكثر من ذلك ، راجع الآية 65 من سورة يس المارة "أَ أَضْلَلْتُمْ عِبادِي هؤُلاءِ" في الدنيا يفيد هذا الخطاب الجليل والإشارة العظيمة أنه عزت قدرته جعل المعبودين صفّا والعابدين صفّا مقابلا ليسمع كل منهم خطاب الآخر وخطاب ربه عند مقابلتهم بعضهم ببعض ، أي أأنتم دعوتم هؤلاء لعبادتكم "أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ"

بأنفسهم لإعراضهم عن الذين أرسلناهم لإرشادهم فلم يسلكوا طريقهم لعدم استعمالهم النظر الثاقب في ملوكيتنا والفكر الصحيح في عبادتنا "قالُوا" المعبودون ، وهو أعلم بما يقولون وإنما السؤال والجواب عبارة عن التبكيت بهم

(106/556)

وإطلاع الأمم على ما سيقع منهم ، فابتدءوا بالتنزيه لحضرته المقدسة قائلين "سُبْحانَكَ" أن يكون معك آلهة أو أن يدعى غيرك أو يعبد أحد دونك كيف وأنت يا ربنا إله الكل ، وكيف يجدر بالعاجزين أمثالنا ادعاء الربوبية القاهرة لكل شيء ونحن من جملة المقهورين لربوبيتك وعزتك يا ربنا "ما كانَ يَنْبَغِي لَنا" أن نجرا على ذلك ولا على "أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِياءَ" فكيف ندعو الغير إلى ولاية غيرك ونحن عبيدك المخلصون وكيف نأمرهم بعبادتنا أو نحملهم على أن يتولوا أحدا غيرك من دونك "وَلَكِنْ" يا مولانا هؤلاء هم الغافلون بطبيعتهم لأنك يا ربنا "مَتَّعْتَهُمْ وَآباءَهُمْ" من قبلهم بالنعم وطول العمر على ما هم عليه من الجحود والكفر "حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ" وغفلوا عن الإيمان بذكرك ولم ينتبهوا إلى من ذكرهم به من المرشدين وظنوا أن ما هم عليه حسن ، فتشبثوا به ولم يقلعوا عنه "وَكانُوا" في ذلك "قَوْماً بُوراً" 17 بائرين جمع بائر مثل عائدين جمع عائد ، وأولوه بمعنى هالك ، أي أنهم

هلكوا إذ غلب عليهم الخذلان ، وذلك أن بورا مصدر وصف به الفاعل مبالغة فينوى فيه الواحد والجمع قال :

فلا تكفروا ما قد ضنعنا إليكم وكافوا به فالكفر بور لصانعه

وقال ابن الزبيدي :

يا رسول المليك إن لساني راتق ما فتقت إذ أنا بور

(107/556)

ثم يقول تعالى للعابدين بعد أن أسمعهم قول معبوديهم على زعمهم مواجهة انظروا "فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِما تَقُولُونَ" من زعم هؤلاء أنهم آلهة وأنهم دعوكم في الدنيا لعبادتهم فما تقولون ؟ وهذا زيادة في التقريع والتوبيخ فيصمتون ، ثم يخاطبهم اللّه تعالى بقوله "فَما تَسْتَطِيعُونَ" الآن "صَرْفاً" أي دفع العذاب عنكم بوجه من الوجوه كما يقتضيه التنكير ، أي لا بالذات ولا بالواسطة "وَلا نَصْراً" 18 لكم ولا عونا من أحد ، أي لا أنتم ولا الذين اتخذتموهم آلهة ، فكلاكما بالضعف والعجز سواء ، وقرىء بالياء ، وعليه يكون المعنى فما يقدرون هؤلاء الذين عبدتموهم في الدنيا بصورة من الصور ولا بنوع من الأنواع ، دفع العذاب عنكم بأنفسهم وليس لهم أعوان بذلك ، فهم عاجزون أنفسهم وغيرهم أعجز ، ثم التفت جل شأنه

بخطابه إلى كافة المكلفين فقال "وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ" نفسه أيها الناس فيشرك به "نُذِقْهُ عَذاباً كَبِيراً" 19 على شركه ، لأن يظلم هنا بمعنى يشرك لذلك عظم عذابه ، إذ لا يكون العذاب الكبير إلا على الشرك ، لأن مطلق الظلم لا يستوجب ذلك ، وقد سمى اللّه الشرك ظلما بقوله (إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) الآية 12 من سورة لقمان في ج 2 ، ولأن من الظلم ما هو كبيرة يفسق بها مرتكبه ، والفاسق لدى أهل السنة والجماعة لا يخلد بالنار ، والمراد بقوله تعالى كبيرا أي مخلدا فيصرف هنا بسبب هذا القيد إلى الشرك ، ولا قيمة لقول من يقول إن مرتكب الكبيرة يخلد في النار لمخالفته إجماع الأمة وما عليه عقائدهم ، قال صاحب الشيبانية :

ولا تبصر في نار الجحيم موحدا ولو قتل النفس الحرام تعمدا

أي دون استحلال لأنه به يكفر فيخلد إذا لم يتب .

(108/556)

وسيأتي لهذا البحث صلة في تفسير الآية 72 من سورة مريم الآتية ، ثم التفت جلت عظمته إلى حبيبه صلى اللّه عليه وسلم ليسليه عما قلوه فيه "وَما أَرْسَلْنا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْواقِ" مثلك لأن هذا من شأن البشر فلا

مبرر لهم أن يعيروك فيه لانك لم تدع غير البشر به كي يتوجه إليك قولهم .

ولأن جميع الرسل قبلك كان هذا شأنهم ولك بهم أسوة ، وبما أن ذلك كان عادة مطردة مستمرة لا يستغنى عنها البشر فليست محلا للطعن ، وهذا الخطاب وان كان موجها لحضرة الرسول إلا أنه جاء بمعرض الرد لقومة فكأنه قال قل لهم هكذا ولا تلتفت إلى تقولهم "وَجَعَلْنا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً" بلاء ومحنة واختبارا وامتحانا ، قالوا نزلت هذه الآية في ابتلاء الشريف بالوضيع ، وذلك أن الشريف إذا أراد أن يسلم رأي الوضيع أسلم قبله فيقدم عليه بالإسلام فيأنف عن الإسلام محتجّا بسابقته والفضل له عليه ، فيصر على كفره ، ولم يعلم أن التفضيل يكون بالأعمال الصالحة والآداب الكاملة ، لا بمطلق الإسلام فذلك افتتان بعضهم ببعض ، وقال غير واحد إنها نزلت في الذين عيّروا حضرة الرسول بالفقر تسلية له ، كالآية قبلها إذ نزلت في الذين عيّروه بالأكل والمشي "أَتَصْبِرُونَ" على هذه الحالة أيها المؤمنون من التعيير بالفقر وغيره ، وعلى الأذى الواقع بكم من الكفرة والشدة التي أنتم فيها أم لا ؟ وفي هذا الاستفهام معنى التهديد على عدم الصبر كما لا يخفى ، فاصبروا على هذا كله ليزداد أجركم وتقوى عزيمتكم ، وإلا فيزداد همكم وحزنكم .

(109/556)

هذا على جعل الخطاب للمؤمنين كافة ، أما إذا كان لحضرة الرسول فقط فيكون الخطاب على جهة التعظيم ، لأنه جاء بلفظ الجمع وهو أولى بمن يعظمه ربه ، ويكون المعنى :

جعلتك يا محمد فقيرا تحتاج إلى طلب الرزق في الأسواق كغيرك من البشر فتنة لقومك المعاندين ، لأنك لو كنت غنيا صاحب كنوز وجنان أو كان معك ملك لانقادت الناس إليك عفوا وأطاعتك قسرا طلبا لما عندك في الدنيا أو خوفا من القوة ، لا طاعة خالصة لنا ولا خوفا من عذابنا وطمعا برحمتنا ، ويجوز أن يكون ذلك الافتتان علة للجعل ، أي ابتلينا الغني بالفقير والشريف بالوضيع لنختبركم على حد قوله تعالى "لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا" الآية 2 من سورة الملك في ج 2 ، وعلى كل فالمعنى أخبروني عن اختياركم الصبر أم الضجر ، وهو خبير بما يقولون ويكنّون بدلالة قوله "وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً" 20 ، بك وبهم عالما بالصابر والجازع فلا يضيق صدرك يا سيد الرسل بما يقولون ولا تعبا بهم .

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة يبلغ به النبي صلى اللّه عليه وسلم قال إذا نظر أحدكم إلى من فضل عليه بالمال والجسم فلينظر إلى من دونه في المال والجسم .

هذا لفظ البخاري ، لمسلم : انظروا إلى من هو أسفل منكم ولا تنظروا إلى من هو فوقكم فهو أجدر أن لا تزدروا نعم اللّه عليكم .

وفي تكرير لفظ المال والجسم في رواية البخاري إشارة إلى أنه يطلب من الناس النظر إلى من هو فوقهم في الدين والتقوى وهو كذلك

قال تعالى "وَقَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنا" في الآخرة لأنهم ينكرون البعث أي يخافون بلغة تهامه وهي أيضا من لغة هذيل وهذا الفعل إذا كان مع الرجاء جحد ، أي نفي ذهبوا به إلى معنى الخوف فيقولون فلان لا يرجو ربه أي لا يخافه ففية معنى الجحد ومنه قوله تعالى "ما لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقاراً"

(110/556)

الآية 44 من سورة نوح وإذا قالوا فلان يرجو ربه فليس فيه معنى الجحد ويكون معناه يسأله ضد يأس ويجوز هنا أن يكون بمعنى لا يتوقعون ولا يعتقدون وجود الآخرة التي فيها لقاء اللّه والحساب والعقاب على ما كان منهم في الدنيا وهو أولى "لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ" فتخبرنا بصدق محمد "أَوْ نَرى رَبَّنا" عيانا فيخبرنا بذلك لآمنا بهذا الرسول وصدقناه قال تعالى مستعظما عليهم قولهم "لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ" هؤلاء الكفرة وعدوها كبيرة بأعينهم وعظموا شأنهم في هذا القول العظيم واللّه أجل وهم أحقر من أن ينزل عليهم ملائكته أو يكلمهم أو يرونه فقد فسقوا بقولهم هذا "وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيراً" 21 فتجاوزوا الحد في مقالهم هذا .

ولام لقد واقعة في جواب قسم محذوف ، أي وعزتي وجلالي لقد رأى هؤلاء الكفرة أنفسهم

كبيرة حتى جرأوا على قولهم هذا ، يا سيد الرسل قل لهؤلاء المنحطّين "يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلائِكَةَ" لا يستطيعون التكلم معهم لأنهم لا يرونهم إلا عند الموت الذي فيه صك أسنانهم ، وعند البعث في الآخرة وفيه تذهل عقولهم ، مما يلاقونه من الهول "لا بُشْرى " في هذين الوقتين "يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ" بل لهم الخزي والخوف والذّل والهوان ، وفي هذا القيد بشارة للمؤمنين بالفرح والأمان ، لأن الملائكة عند الموت وفي البعث تبشرهم بما لهم عند اللّه من الكرامة ، فيهون عليهم الأمر فيهما ، كما تقول الكفار لا بشرى لكم بل الويل والثبور ، فيزيد ذعرهم . يدل على هذا قوله تعالى "وَيَقُولُونَ" لهم الملائكة "حِجْراً مَحْجُوراً" 22 أي أنتم ممنوعون من بشارة الخير منعا باتا أيها الكفرة .

قال ابن عباس حراما محرما أن يدخل الجنة إلا من قال لا إله إلا اللّه محمد رسول اللّه .

(111/556)

ومعنى الحجر المنع ، وكانت العرب إذا نزل بهم شدة أو كرب أو رأوا ما يكرهون قالوا : حجرا محجورا ، فهم أيضا يقولون ذلك إذا عاينوا الملائكة لأنهم يكرهونهم ، لعلمهم أنهم يوقعون بهم العذاب الشديد الدائم قال المتلمس :

حنّت إلى النخلة القصوى فقلت لها حجر حرام ألا تلك الدهاريس

أي الدواهي لأنهم يستعملون هذه الكلمة بمعنى الحرمان إذا سألهم سائل ويقولونه بمعنى الاستعاذة وعند رؤية ما يخاف منه ، أي حرام عليك التعرض وقرىء بفتح الحاء وهو الأصل في اللغة إلا أنهم لما خصوه بالاستعاذة أو الحرمان صار كالمنقول عن معناه الأصلي وهو المنع ، ولما تغير لفظه عما هو عليه ، فنقل من الفتح إلى الكسر .

وقرأ أبو رجاء والحسن والضحاك بضم الحاء ، وكل منها جائزة على المعنى المؤدية له .

مطلب ما يؤجر عليه من العمل وما لا يؤجر :

قال تعالى "وَقَدِمْنا إِلى ما عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ" عظيم عندهم كانوا يرجون ثوابه في الدنيا كصلة رحم ، وإقراء ضيف ، وإغاثة ملهوف ، ورد ظالم ومظالم ، ورحمة فقير ، ولطف بحقير ، واطلاق الأسير دون فدية منّا ، وما ضاهاها من الأعمال الحسنة التي جبل عليها العرب قبل الإسلام وازدادت به شرفا ونفوذا على غيرها حسا ومعنى "فَجَعَلْناهُ هَباءً مَنْثُوراً" 23 ذرا متفرقا بالهواء وهذا كناية عن بطلان ثواب أعمالهم وعدم مكافأتهم عليها مهما كانت طيبة حسنة كثيرة ، لأنهم عملوها حال كفرهم مشوبة بالسمعة والرياء والفخر والأنانية ولم تكن حالة الإيمان لتكون خالصة للّه تعالى ، واللّه طيب لا يقبل إلا الطيب المخلص من الطيب المخلص ، وأصل الهباء ما يرى في الظل فهو شيء وليس بشيء وقد سبقه صدقة الكافر به ، لأنها من حيث الحسّ صدقة وعمل صالح محمود ، ومن حيث

المعنى لا ثواب لها ، فكأنها لم تكن ، وهكذا كل شيء لم يبتغ به وجه اللّه ، قال صلى اللّه عليه وسلم كل عمل ليس عليه أمرنا فهو ردّ .

(112/556)

ولكن اللّه الكريم الذي لا يضيع عمل عامل كما جاء في الآية 195 من آل عمران في ج 2 الذي تعهد بالمكافأة على الذرة كما يأتي في سورة الزلزلة في ج 3 قد كافأهم على أعمالهم المذكورة في الدنيا بإطالة أعمارهم وسعة رزقهم ومعافاتهم حتى يلقونه وليس لهم عنده حسنة يرجون ثوابها ، كما أن المؤمنين يمحو اللّه سيئاتهم بمقابل تحملهم الفقر والمرض والذلة في الدنيا حتى يلقوا اللّه ، وليس عليهم سيئة يعاقبون عليها ، وله الحمد هذا ما مر لك أيها القارئ الكريم من حال

(113/556)

أهل النار ، أجارنا اللّه منها أمّا "أَصْحابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ" يوم يكون ما يكون من الشر للكافرين في الآخرة فيكون مستقرهم الذي يأوون إليه لتناول ملاذهم ، فيقولون إنه "خَيْرٌ

مُسْتَقَرًّا" وأشرف مقرا هذا المكان ، فيقيلون به للاستراحة من الراحة لا عن تعب ونصب لأن الجنة لا شيء فيها من ذلك "وَأَحْسَنُ مَقِيلًا" 24 ذلك المكان العالي الشان في تلك الجنان ، والقيلولة النوم وسط النهار أو الاضطجاع للراحة نام أو لم ينم ، والكلام مسوق لبيان راحتهم على طريق التشبيه بأحوال الدنيا ، وإلا فإن الجنة لا نوم فيها ولا تعب والأفضلية هنا للتقريع والتهكم لمن ذكر في الآية قبل من أهل النار كما في قوله تعالى (أَ ذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ) الآية 15 المارة إذ لا يتصور أن يقال نزل أهل الجنة خير من نزل أهل النار ، كما لا يقال العسل أحلى أم الخل مثلا ، وقد يكون لمطلق الزيادة قال تعالى "وَ" اذكر يا محمد لقومك وغيرهم "يَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ" حقيقة كما هو المستفاد من ظاهر الآية ، ولأنها تبدل بغيرها قال تعالى يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات الآية 18 من سورة إبراهيم في ج 2 وقال بعض المفسرين يطلع منها سحاب فيظهر عليها فيتبين للرائي كأنها تنشق به ، والأول أولى والله أعلم وأنسب بالنسبة لقوله "وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا" 25 من السماء إلى أرض الوقف ومن الملائكة حملة العرش ، قال تعالى "وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ" الآية 12 من سورة الحاقة في ج 2 ، مما يدل على انشقاق السماء حقيقة ، قال ابن عباس تشقق سماء الدنيا فينزل أهلها وهم أكثر ممن في الأرض من الجن والإنس ، ثم تشقق الثانية فينزل أهلها وهم أكثر ممن في سماء الدنيا وكذلك حتى تشقق السابعة ، وأهل كل سماء يزيدون على التي قبلها ، ثم تتنزّل الكروبيون ، ثم حملة العرش ، ومن بين الملائكة

ملائكة يحملون صحائف أعمال العباد .

وفي رواية عن ابن عباس ثم ينزل ربنا جل جلاله في ظلل من الغمام قال تعالى "هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمامِ وَالْمَلائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ"

الآية 210 من سورة البقرة في ج 3 ومما يدل على

هذا قوله جل قوله "الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ" أي السلطنة القاهرة والاستيلاء الكلي العام الثابت صورة ومعنى ظاهرا وباطنا ، بحيث لا يزول أبدا ولا يغيب سرمدا هو ثابت "لِلرَّحْمنِ" وحده وهناك يزول ملك كل ملك ولا يبقى إلا ملك المالك الأعظم ، فينادي المنادي "لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ" فلا يجيب أحد فيقول العظيم الجبار الجليل الغفار الستار "لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ"

الآية 16 من سورة المؤمن في ج 2 فيجيب نفسه بنفسه ، وفي اتصافه تعالى بعنوان

الرحمانية بشارة لمن مات مؤمنا به ونذارة بعدم

التّهوين على الكافر في قوله "وَكانَ يَوْماً عَلَى الْكافِرِينَ عَسِيراً" 26 شديدا عسره بالغا شره ، وفيها إيذان بأنه يسير على المؤمنين ، إذ خصّ عسره بالكافرين الذين لا تشملهم رحمته المتناهية في ذلك اليوم العظيم المنوه به بقوله "وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلى يَدَيْهِ" حسرة وندامة

على ما فاته من عمل الخير في الدنيا لا أعظم منه لأنه يوم الحسرة ، والموقف كله يوم واحد ولكنه بالنسبة لطوله ولاختلاف ما يقع فيه من الأهوال التي تشيب الوليد يعد أياما لكل عذاب يوم ، ولكل مجادلة يوم ، ولكل محاسبة يوم ، وذلك تقديري على نسبة أيام الدنيا ، وهذه الآية عامة في كل ظالم لنفسه في الدنيا بحرمانه من الإيمان بالله .

وقد صرفه بعض المفسرين للظالم المعروف بالظلم الموبق به عقبة بن معيط خليل أمية بن خلف الذي كان أسلم أولا فقال له أمية : وجهي من وجهك حرام إن تابعت محمدا .

(115/556)

فارتدّ عن الإيمان ، وتابعه على الكفر .

وقد جاء بالآية معرفا لتخصيصه به ونزول هذه الآية فيه .

ولكن تخصيصها لا يمنع عمومها لكل ظالم كما علمت من أن العبرة لعموم اللفظ لا بخصوص السبب "يَقُولُ" في ذلك اليوم العسير "يا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ" في الدنيا "مَعَ الرَّسُولِ" محمد صلى اللّه عليه وسلم "سَبِيلًا" 27 إلى النجاة من هول هذا اليوم ، ليتني اتبعته ومت مؤمنا على دينه ، فأتخلص من هذا العذاب المحيط بي ، ثم طفق يدعو على نفسه بقوله "يا وَيْلَتى " يا هلاكاه على ما سلف من ارتدادي إلى الكفر ومتابعة أمية بن خلف "لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا"

يريد أمية المذكور على خصوص الآية في عقبة المرتد ، وعلى

إطلاقها تشمل كل ظالم ومضل كائنا من كان ، لأن خصوص السبب لا يقيد الآيات "خَلِيلًا"

28 مأخوذ من الخلة بضم الخاء بمعنى المودة لأنها تتخلل في النفس وتؤثر فيها تأثير السهم في

الرميّة وتأثير الدم في العروق وعليه قوله :

تخللت مسلك الروح مني وبه سمي الخليل خليلا

(116/556)

ثم قال هذا الضال وعزتك يا رب "لَقَدْ أَضَلَّنِي" ذلك المضل "عَنِ الذِّكْرِ" قبول القرآن الذي

هو ذكر اللّه وعن الإيمان به وبمن أنزل عليه "بَعْدَ إِذْ جاءَنِي" من قبل رسولك واتبعته "وَكانَ

الشَّيْطانُ لِلْإِنْسانِ خَذُولًا" 29 يوقع من يطيعه في المهالك ثم يتبرأ منه ، وهذا معنى الخذول

لأنه يقول يوم القيامة لا تلوموني ولوموا أنفسكم الآية 22 من سورة إبراهيم كما قال في الدنيا

لمن خذلهم "إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرى ما لا تَرَوْنَ" الآية 48 من الأنفال في ج 3 وقد سمي

خليله شيطانا تشبيها بفعله بجامع الإغواء في كل أو انه نسب الجنوح إلى قول خليله إلى

الشيطان إذ ينسب إليه كل فعل قبيح وهو المضل لخليله فكأنما أضله فعلا ، وحكم هذه

الآية عام في كل خليل أو حبيب اجتمعا في الدنيا على معصية اللّه فإنها تنقلب إلى عداوة

وندامة وحسرة قال تعالى "الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ" الآية 67 من الزخرف في ج 2 فلينظر أحدكم أيها الناس من يخالل ، فإنه يحشر معه ، لأنه غالبا يكون على دينه ، لأن هذا الذي نزلت فيه هذه الآية بعد أن دخل في الإسلام وتمكن به اغواه صاحبه حتى ردّه عنه فهلكا جميعا قال :

عن المرء لا تسأل وأبصر قرينه فكل قرين بالمقارن يقتدي

فإذا كنت أيها العاقل لا تحب العزلة أو لا تقدر عليها فعليك بصحبة الصادقين ، قال تعالى "يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ" الآية 120 من سورة التوبة في ج 3 ، ولبحث الصحبة صلة في تفسير الآية المذكورة آنفا من سورة الزخرف ، فراجعها .

"وَقَالَ الرَّسُولُ يا رَبِّ" وهذا من طريق بعث الشكوى من محمد صلى اللّه عليه وسلم إلى مولاه على قومه اثر ما شاهد منهم من العتو والطغيان

(117/556)

و الأعراض عن إجابة الدعوة ومقول القول "إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هذَا الْقُرْآنَ" الذي أنزلته لخيرهم وصلاحهم وأمرتني أن آمرهم به وأنها هم لمنفعتهم "مَهْجُوراً" 30 متروكا لا يلتفتون إليه ولا يؤمنون بهديه ولا ينظرون لرشده .

ومعنى الهجر القول السيء ، وذلك أنهم وصموه بالسحر والشعر والكهانة وخرافات الأولين ، فجعلوه بمثابة الهجر ، وفي هذه الآية تخويف لقريش لأن الأنبياء إذا شكوا أقوامهم إلى ربهم أو شك أن يحلّ بهم عذابه ويكدون أن لا يمهلوا

قال تعالى "وَكَذَلِكَ" كما جعلنا لك يا محمد أعداء من قومك "جَعَلْنا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ" أمثالهم ، وهذا كالتسلية له صلى اللّه عليه وسلم لئلا يكبر عليه ما جبهه به قومه وليصبر عليهم كما صبر أولئك الرسل على أقوامهم حتى يأتي وعد اللّه فيهم "وَكَفى بِرَبِّكَ هادِياً" لعباده إلى ما خلقوا له "وَنَصِيراً" 31 لك عليهم .

(118/556)

ثم ذكر جل شأنه نوعا آخر من أباطيل المشركين فقال "وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ" الذي يدعي إنزاله عليه من ربه "جُمْلَةً واحِدَةً" كالتوراة والإنجيل والزبور المنزلة على من قبله "كَذَلِكَ" كمثل ما أنزلنا على من قبلك الكتب جملة واحدة لأنهم يحسنون القراءة والكتابة فلا يعزب عنهم شيء منه ويسهل عليهم تلاوته ، وبما أنك أمي فقد جمعنا لك الأمرين فأنزلناه أولا جملة واحدة من اللوح إلى بيت العزّة ، ثم أنزلناه عليك مفرقا "لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤادَكَ" فنقرّه به أولا بأول لنعيه وتحفظه ، لأنه نظم بديع عظيم ، ولو لم نقو قلبك بقوة منا لما

قدرت على حفظه لأن القوى البشرية لا تقوى على حفظه دفعة واحدة فضلا عن أنه يتلى عن ظهر الغيب بخلاف الكتب الأخرى فإنّها تتلى بالصحف وحتى الآن لا تجد من يستظهر الإنجيل أو التوراة ، وهذا من معجزات القرآن إذ تجد الآلاف تستظهره فضلا عن أن الكتب القديمة لا تضاهيه ولا تحتوي على ما فيه وهو شامل لما كان ويكون مما فيها وفي غيرها من الصحف المنزلة على بقية الأنبياء ومما يحدث بعد إلى يوم القيامة وما يقع فيها من أحوال أهل الجنة والنار وما بعد ذلك ، ولهذا ولكونك أمّيا أنزلناه مفرّقا ليسهل عليك تلقيه وحفظه ، وإن

(119/556)

إنزاله هكذا بحسب الحوادث والوقائع أبلغ في النفوس وأوقع بالأسماع "وَرَتَّلْناهُ تَرْتِيلًا" 32 بيناه تبيانا واضحا بتثبيت وترسّل آية فاية وخمسا فخمسا وسورة فسورة ، ولولا هذه الأسباب لأنزلناه عليك جملة واحدة ، لان هذا في مصلحتك مما هو موافق لما في علمنا فكنت من حيث الإنزال جملة كمن قبلك ومن حيث إنزاله مفرقا زيادة على غيرك من هؤلاء الكفرة على ربهم الذي لا يسأل عما يفعل وما يفعل إلا لحكمة ومن جهلهم عن مراده يعترضون عليه وليس لهم ذلك لانه ليس من خصائصهم قال تعالى "وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ" من

أسئلتهم الواهية وتدخلهم فيما لا يعنيهم وما ليس لهم به علم "إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ" الواضح والجواب القاطع لتبطل به شبههم الباطلة بقول فصل لا محيد عنه ولا مرد له "وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً" 33 بيانا وكشفا لأن برهانك قوي وحجتهم قاصرة ضعيفة وجوابك قاطع ، وأسئلتهم لا شأن لها وكلمة تفسيرا لم تكرر في القرآن .

ثم ذكر ما يؤول إليه أمرهم في الآخرة التي يجب أن يسألوا عنها ويعملوا لأجلها لأن مصيرهم إليها فقال "الَّذِينَ يُحْشَرُونَ" سحبا تحقيرا لهم "عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ أُوْلَئِكَ" وأمثالهم "شَرٌّ مَكَاناً" من غيرهم "وَأَضَلُّ سَبِيلاً" 34 أخطأ طريقا ، لأن جهنم دركات كل واحدة شرّ من الأخرى وأشد عذابا من التي فوقها ، كما أن الجنة درجات وكل درجة أحسن من التي تحتها .

روى الترمذي عن أبي هريرة قال : قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : يحشر الناس يوم القيامة ثلاثة أصناف : صنفا مشاة وصنفا ركبانا وصنفا على وجوههم ، قيل يا رسول اللّه وكيف يمشون على وجوههم ؟ قال إن الذي أمشاهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم ، أما إنهم يتقون بوجوههم كل حدب وشوك .

(120/556)

وهذا يحتمل أنهم حينما يسحبون على وجوههم يصيبهم ذلك ، ويحتمل أنهم ينكسون نكسا فتكون رؤوسهم التي فيها وجوههم مما يلي الأرض ، والأول أولى لموافقته ظاهر القرآن ولهذا البحث صلة بتفسير الآية 97 من سورة الإسراء الآتية .

ثم شرع يقصّ على رسوله أخبار من تقدم من الرسل ، وما لاقوه من أقوامهم ليهون عليه ما يرى

من قومه تسلية له فقال "وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ" المعهود وهو التوراة "وَجَعَلْنا مَعَهُ أَخاهُ هارُونَ وَزِيراً" 35 معينا له لأن الوزير من يؤازر غيره ويعينه على تنفيذ ما يريده ، وإن الشريعة خاصة لموسى بدليل تخصيصه بالكتاب ، وهرون تابع له فيها اتباع الوزير لسلطانه ، "فَقُلْنَا اذْهَبا إِلَى الْقَوْمِ" القبط الذين يرأسهم فرعون "الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا" التسع العظام وغيرها وأرشدهم إلى طريقنا فذهبا ، ولم يجد معهم إرشادهما نفعا وكذبوهما "فَدَمَّرْناهُمْ تَدْمِيراً" 36 إهلاكا هائلا

عجيبا لا يدرك كنهه البشر "وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ" قبله وهم إدريس وشيث وأتباعهم المؤمنين ثم كذبوا نوحا أيضا ، ولهذا جاء بلفظ الجمع إيذانا بأن من كذب رسولا واحدا فكأنما كذب الرسل كلها ، وهو كذلك ، ولهذا فلا مقال على مجيء الآية بلفظ الجمع بسبب أن المذكور واحد "أَغْرَقْناهُمْ وَجَعَلْناهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً" عظيمة ليعتبروا بها هم ومن بعدهم "وَأَعْتَدْنا" هيأنا "لِلظَّالِمِينَ" منهم في الآخرة "عَذاباً أَلِيماً" 37 مبرحا شديدا غير عذاب

الدنيا ، وإنما وصفه بالأليم لأن عذابه لا يقادر قدره في الشدة ، أجارنا اللّه منه "وَعاداً" قوم هود "وَثَمُودَ" قوم صالح "وَأَصْحابَ الرَّسِّ" قوم شعيب أهلكناهم كلهم لمخالفتهم أو أمرنا وعدم انقيادهم لرسلنا وإصرارهم على الكفر .

(121/556)

وقد تقدمت قصصهم في الآية 58 فما بعدها من سورة الأعراف المارة وسيأتي لقصصهم صلة في الآية فما بعدها من سورة هود في ج 2 "وَقُرُوناً" دمرناهم أيضا "بَيْنَ ذلِكَ" بين نوح وشعيب "كَثِيراً" 38 منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص كما سيأتي في الآية 71 من سورة المؤمن في ج 2 أيضا "وَكُلًّا" من الجاحدين والمعاندين المار ذكرهم والآتي ، لأن التنوين في كلا للعرض أي لكل منهم "ضَرَبْنا لَهُ الْأَمْثالَ" في إقامة الحجة عليهم من أخبار الأولين "وَكُلًّا تَبَّرْنا تَتْبِيراً" 39 مزقناهم تمزيقا هائلا يتعجب منه لا تتصوره عقول البشر لعدم إجابتهم الدعوة أيضا "وَلَقَدْ أَتَوْا" أي طائفة من قومك يا محمد "عَلَى الْقَرْيَةِ" التي كانت مسكنا لقوم لوط المسماة سذوما باسم قاضيها

سذوم ، وجاء في المثل : أجور من سذوم .

أعاذنا اللّه مما وقع عليها .

وإنما ذكر هذه القرية دون غيرها لأنها على طريقهم حين يذهبون إلى الشام وقد مروا بها مرارا كثيرة وتناقلت لهم أخبارها فهي "الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ" بالحجارة النازلة من السماء بعد أن قلبت وجعل أسفلها أعلاها "أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا" أجهلوها ألم يعلموا سبب تدميرها "بَلْ" رأوها وعرفوها وبلغهم ما وقع بأهلها ولكنهم "كَانُوا لا يَرْجُونَ نُشُوراً" 40 بعثا بعد الموت ولا يتوقعون حصوله وجهدهم هذا في إصرارهم على فعل الفحشاء أسّ عنادهم وأصل عتوهم ومنشأ عذابهم وسبب إهلاكهم

(122/556)

"وَإِذا رَأَوْكَ" يا سيد الرسل ما "إِنْ يَتَّخِذُونَكَ" هؤلاء الكفرة "إِلَّا هُزُواً" سخرية ويقولون "أَهذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا" 41 استخفافا به قاتلهم اللّه ، نزلت هذه الآية في أبي جهل وأضرابه ، إذ كانوا إذا مرّ بهم حضرة الرسول قالوا ذلك الكلام وقالوا أيضا "إِنْ كادَ لَيُضِلُّنا عَنْ آلِهَتِنا" وقد قرب وأوشك من تنفيذ مراده بها "لَوْلا أَنْ صَبَرْنا عَلَيْها" بتحملنا تأنيب محمد وأصحابه وتعريضهم بها وبنا ، ولكنا لم نلتفت إليهم ، فثبتنا ودمنا على عبادتها ، وإلا لصرفنا عنها بما أوتيه من بلاغة وفصاحة ولين جانب ، وهذا دليل على فرط مجاهدته صلى اللّه عليه وسلم في دعوته إلى اللّه ، ولهذا هددهم فأنزل فيهم هذه الآية

وختمها بقوله "وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ" إذا لم يقلعوا عما هم عليه "حِينَ يَرَوْنَ الْعَذابَ" ال فيه للجنس ، فيشمل عذابي الدنيا والآخرة "مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا" 42 هم أم نحن بل هم حقا حقا يا أكمل الرسل "أَ رَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلهَهُ هَواهُ" بأن أطاع هوى نفسه فيما يأتي ويذر وأطلق لها العنان فلم يقيدها بقيود الشريعة ولم يصغ إلى نصح الرسل "أَ فَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا" 43 تراقبه وتحفظه من عبادة ما يهواه كلا لا تقدر على ذلك "أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ" الوعظ والإرشاد سماع قبول "أَوْ يَعْقِلُونَ" معنى ما يذكرون به من الحجج والدلائل كلا "إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعامِ" في عدم الانتفاع بالذكرى ، وعدم التدبر والتفكر بالمصير ، وعدم

(123/556)

صرف جوارحهم إلى ما خلقت لها "بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا" 44 من الأنعام لأنها تهتدي لمرعاها ومأواها وتتقي الحر والبرد ، وتصرف الضار من النبات ، والنافع والعذاب والمالح والمر من الماء ، وتنقاد لمن يتعهدها ، وتنفر من غيره ، وتسبّح ربها بما ألهمت به من أنواع التسبيح كما سيأتي في الآية 43 من سورة الإسراء الآتية ، وهم لا يعقلون شيئا من ذلك ، مع علمهم بأن اللّه خلقهم ورزقهم ، ولم ينقادوا إليه ، ولم يتبعوا رسله .

ونظير هذه الآية ، الآية 171 من البقرة في ج 3 من حيث المعنى ، ثم طفق يذكر لهم بعض

دلائل توحيده فقال عز قوله "أَلَمْ تَرَ إِلى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ" وهو ما تنسخه الشمس من طلوعها إلى الزوال والفيء ما ينسخ الشمس من الزوال إلى الغروب ، فهو عكسه ، وكل منهما متحرك بحركة لطيفة لا تدرك ، فهو من قبيل الموجود المعدوم كفلكة المروحة لا تكاد تراها وهي موجودة .

قال الإمام الغزالي في تشبيه الدنيا من حيث تلقيها بالظل :

(124/556)

إنه متحرك ساكن ، متحرك في الحقيقة ساكن في الظاهر ، لا تدرك حركته بالبصر بل بالبصيرة الباطنة (ص 186 ج 3 في كتاب ذم الدنيا) أي ألم تر أيها الإنسان إلى صنع ربك البديع ، إذ ليس المقصود هنا رؤية اللّه تعالى ذاته ، لأن الرؤية هنا بصرية بدليل تعديتها بإلى "وَلَوْ شاءَ لَجَعَلَهُ ساكِناً" ثابتا دائما لا تذهب الشمس ، وفي هذا تنبيه على أن لا دخل للأسباب العادية من قرب الشمس إلى الأفق الشرقي على للقول بأن المراد بالظل ما بين طلوع الفجر والشمس أو ما بين غروبها وطلوعها ، أو قيام الشاخص الكثيف على القول بأن المراد مطلق الظل وهو الأولى على ظاهر القرآن ، وإنما المؤثر فيه حقيقة المشيئة والقدرة الإلهية وحدها "ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا" 45 فلولاها لما عرف الظل ، ولولا

النور ما عرفت الظلمة ، والأشياء تعرف بأضدادها "ثُمَّ قَبَضْناهُ إِلَيْنا قَبْضاً يَسِيراً" 46 جدا أي أزلناه بعد ما أنشأناه بتسليط الشمس عليه شيئًا فشيئًا ، بصورة محسوسة فعلا غير محسوسة نظرا لدقة السير ، ذلك صنع الخالق المبدع من غير عسر عليه دلالة على توحيده ، وجاء الخطاب في هذه خاصا كما هو شأن كل خطاب مثله ،

(125/556)

بخلاف الخطاب بقوله (أَ فَلا يَنْظُرُونَ) فإنه للعام ، لأن المراد تقرير رؤيته عليه السلام لكيفية مدّ الظل بينها إلى أن نظره عليه الصلاة والسلام غير مقصود على ما يطالعه من الآيات في آثار اللّه وصنايعه ، بل مطمح أنظاره صلى اللّه عليه وسلم معرفة شؤون الصانع المجيد ، وفي هذه الآية الجليلة إشارة إلى التصوير الشمسي لأن الشمس دالة عليه وتقبضه الآلة الآخذة بسهولة عند مقابلتها لشخص الإنسان ، وهذا من أسرار القرآن التي لم يطلع عليها البشر قبل اختراع آلة التصوير ، ومن أموره الغيبية التي يطلعنا اللّه عليها ، وكم من أسرار ستظهر بعد للبشر من مكوناته وكان التصوير قبلا بطريق النحت والتجميل ، وهذه هي المنهي عنها صنعا واتخاذا .

هذا ومن دلائل توحيده قوله عز قوله "وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِباساً" غطاء ساترا لكم

بظلمته كالثوب يستر لابه فيختفي فيه من أراد الاختفاء عن عيون الناس "وَالنَّوْمَ سُباتاً" لأجل الراحة لا عمل فيه للقوى الحيوانية "وَجَعَلَ النَّهارَ نُشُوراً" 47 ينتشر فيه الناس لمصالحهم ابتغاء فضل اللّه ، ويطلق النشور على الانبعاث من الموت ، كما يطلق على اليقظة من النوم ، وكذلك السبات يطلق على الموت لأن النوم أحد التوفيتين الواردة في قوله تعالى "اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ" الآية 42 من سورة لزمر قال لقمان لابنه : كما تنام توقظ كذلك تموت فتنشر .

وهذا مما اتفقت عليه عامة أهل الكتب السماوية كوجود الآله والاعتراف بالرسل ، وأنكره من لا دين له كالدهرية .

ومن دلائل توحيده قوله جل قوله "وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّياحَ بُشْراً" لعباده بنزول الغيث ولهذا فأن الإبرة المخصوصة الدالة على تقلبات الجو المسمات (بارومتر) وتشير إلى وقوع المطر خلال أربع وعشرين ساعة بسبب هذه الرياح ، وقد يقع خلالها إذا لم يتغير الجو فتبشر بها الناس .

(126/556)

وقريء نشرا بالنون أي ناشرات السحاب وباعثات له ، لأنها تجمعه لا من النشر بمعنى التفريق ، لأنه غير مناسب للمعنى ، إلا أن يراد به معنى السوق مجازا ، ولا محل هنا للمجاز ، فأصبحت الحقيقة "بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ" أي قدام المطر على طريق الاستعارة ، بجامع الخير الكثير والنفع العام في كل من رحمته وغيثه استعارة مليحة لأنه ريح فسحاب فمطر "وَأَنْزَلْنا" بعد إنزال وإثارة الغمام "مِنَ السَّماءِ" الجهة العلوية وكل ما علاك فأظلك فهو سماء "ماءً طَهُوراً" 48 في نفسه مطهرا لغيره "لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً" أرضا لا نبات فيها ، وتطلق البلدة على الأرض وعليه قوله :

أنيخت فألفت بلدة بعد بلدة قليل بها الأصوات إلا بغامها

أي خباؤها ، راجع تفسير الآيتين 57 ، 58 من سورة الأعراف المارة ، والآية العاشرة من سورة طه الآتية .

قال تعالى "وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنا أَنْعاماً وَأَناسِيَّ كَثِيراً" 49 من أهل البوادي والقرى وغيرهم ، وأهل البوادي أحوج من غيرهم إليه ، لأن القرى والأمصار لا تكون إلا على الماء غالبا من نهر أو عين أو مسبح أو بئر أو صهاريج وأناسيّ جمع أنيسي مثل كرسي وكراسي ، وما قيل إنه جمع إنسان أو جمع ناس فغير وجيه ، وقال سيبويه إنه جمع إنسان وعلله بأن أصله أناسين ، فقلبت نونه ياء وأدغمت فيما قبلها .

وقال صاحب الخازن جمع ناسي .

وقري ونسقيه بفتح النون .

(127/556)

وسقى وأسقى لغتان وما جرينا عليه أوجه "وَلَقَدْ صَرَّفْناهُ" على أنحاء وأوقات مختلفة ، وهذا معنى التصريف واللام في لقد للقسم ، والمعنى وعزّتي وجلالي لقد قسمنا مياه الأمطار "بَيْنَهُمْ" أي الناس بحسب الحاجة على البلدان المتغايرة والأوقات المختلفة والصفات المتفاوتة ، راجع الآية 27 من سورة السجدة في ج 2 "لِيَذَّكَّرُوا" في قدرتنا كيف نرسله إلى محل دون آخر ووقت دون وقت ، مرة وابلا وأخرى طلا أي مطرا شديدا وخفيفا وطورا ديمة يداوم أياما ، وتارة طشا متقطعا كالمزن أو متصلا ، وأوانا رذاذا ، على مقتضى الحال والحاجة المحل الذي ينزل فيه ، ومع هذا "فَأَبى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً" 50 بنعمنا المترادفة عليهم ، وعدم التذكر بآلائنا ولم يكتفوا بذلك حتى أسندوه إلى مخلوقاتنا ، إذ يقولون مطرنا بنوء كذا ، روى البخاري ومسلم عن زيد بن خالد الجهمي أنه قال قال صلى بنا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم صلاة الصبح بالحديبية في اثر سماء من الليل ، فلما انصرف أي سلّم أقبل على الناس فقال

أتدرون ماذا قال ربكم ؟ قالوا اللّه ورسوله أعلم ، قال قال أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر ، فأما من قال مطرنا بفضل اللّه ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكواكب ، وأما من قال مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر مؤمن بالكواكب ، والمراد بالأنواء مطالع النجوم في المشرق عند سقوط ما يقابلها بالمغرب ، وكانت العرب تسند بعض الحوادث كالأمطار والرياح وغيرها إلى تلك الأوقات ، ويطلق النوء على النجم أيضا إذا مال إلى الغروب وقدم في هذه الآية الأنعام على الناس لا لفضلها ، بل لأنها قنية الناس وعامة منافعهم ومعايشهم منها من تقويم الأسباب على المسببات كما قدم أحياء الأرض على إسقاء مخلوقاته لأنه السبب في حياتها

(128/556)

قالتعالى "وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيراً" 51 ينذرهم بأسنا ويخوفهم عقابنا ، فما بالهم استكثروا علينا إرسالك عليهم يا خاتم الرسل ألم يعلموا أن من قدر على إرسال واحد يقدر على إرسال أكثر إذ لا يعجزنا إرسال الأنبياء الكثيرين كما فعلنا ذلك في بني إسرائيل ومن قبلهم ، ولكن قضت حكمتنا أن نختم الرسل بك ونعمم رسالتك إلى كافة الخلق وإجلالا لشأنك ، وقد حملناك ثقل إنذار العامة خلافا للرسل قبلك ، إذ أرسلناهم خاصة

لأناس دون آخرين لتستوجب لدينا بصبرك عليهم واجتهادك على نصحهم وعنايتك وجدك بما عهدناه إليك ، ما أعددناه إليك من الكرامة العظيمة والدرجة الرفيعة وحسن المنقلب في دار كرامتنا "فَلا تُطِعِ الْكافِرِينَ" فيما يريدونك عليه من الإمساك عن كلامنا الذي نوحيه إليك لإرشادهم ، وما يندبونك إليه من اتباع دينهم المعوج ، وهذا في حقه محال إلا أن فيه تهييج وإلهاب المؤمنين على التصلب بدينهم تجاه الكفرة وتحريكهم إلى التقدم في أمر دينهم كما يدل عليه قوله تعالى "وَجاهِدْهُمْ بِهِ" عظهم بالقرآن بكل جهدك وازجرهم وأغلظ عليهم بالوعظ "جِهاداً كَبِيراً" 52 شديدا يقطع أملهم عما يريدونه من الميل إلى دينهم ويستميلهم إلى الإيمان بالله وحده .

مطلب بيان البرزخ بين العذب والمالح :

ومن دلائل توحيده قوله "وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ" أرسل "الْبَحْرَيْنِ" في

مجاريهما متجاورين متلاحقين بقدرته وأهل المرج الخلط يقال مرج الأمر إذا اختلط والمرج المكان الواسع الجامع للكلأ والماء ، وفيه أنواع كثيرة من النبات ، ويسمى المرعى مرجا لاختلاط النبات فيه "هذا عَذْبٌ" حلو ماؤه "فُراتٌ" قاطع للعطش لشدة عذوبته المائلة

للحلاوة "وَهذا مِلْحٌ أُجاجٌ" ضد الأول على طرفي نقيض ، والأجاج الشديد الملوحة المائل إلى المرارة ، وفي الإشارة إشارة إلى بعدها عن بعضها بدليل قوله جل قوله "وَجَعَلَ بَيْنَهُما بَرْزَخاً" حاجزا عظيما يمنعهما من التمازج.

وجاء بالفارسية كلمة (برزة) بمعنى برزخ وجاء في سورة الرحمن بينهما برزخ لا يبغيان الآية 20 في ج 3 فالتنوين في هاتين الآيتين يدل على عظم هذا البرزخ الفاصل بينهما وهو كذلك حيث يوجد بينهما مسافات كثيرة قبل التلاقي "وَحِجْراً مَحْجُوراً" 53 تنافر مفرطا كأن أحدهما يتعوذ من الآخر ، وقد ذكرنا في تفسير الآية ، المارة أنهم يستعملون هاتين الكلمتين مقام الاستعاذة عند طروء ملمة أو هجوم عدو أو وقوع نازلة أو حدوث مهم ، والمراد من إيجاد هذا البرزخ العظيم بين العذب والملح لزوم كل منهما صفته التي هو عليها ، لئلا ينقلب العذب ملحا ولا الملح عذبا ، وهو في مكانه لم يختلط بغيره مهما بقي ، وذلك من كمال قدرة اللّه لا بطبيعة الأرض ولا بطبيعة الماء ، وإلا لكان الكل عذبا أو ملحا .

(130/556)

وما قيل إنهما بحران متلاصقان حلو ومالح لم يشاهدهما أحد ، أو أن أحدهما في الأرض والآخر في السماء وأنهما يلتقيان في كل عام كما ذكره بعض المفسرين قيل لا يرتضي ولا

ينبغي أن يقال ، لأن اللّه كلم الناس على لسان نبيه بما يفهمون ويعقلون وهو لا يعجزه جعلها كذلك ، لأنه القادر على أكثر من ذلك ، إلا أنه لا حاجة لذكر غير المعقول والجنوح إليه عند وجود المعقول المشاهد ، على أنه لا ينكر وجود عيون ماء حلو تنبع في وسط البحر وعلى شواطئه تشرب منها الناس وتذهب إليها بالزوارق كما في البحرين ، حيث يوجد نبع ماء فيه يتدفق بقوة وينساب مع ماء البحر على سطحه ويمتاز عنه بلونه ويصير كالخط المستطيل ، إلى أن يندمج فيه .

ولهذا البحث صلة في تفسير الآية 14 من سورة فاطر الآتية

(131/556)

و من دلائل توحيده قوله "وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْماءِ" المني وأطلقه بعض المفسرين على الماء الذي خمّر به طينة آدم عليه السلام ولكنه لا ينطبق على المعنى لأن آدم لم يخلق من الماء وحده بل من الماء والطّين تأمل "بَشَراً فَجَعَلَهُ نَسَباً" ينسب إليه كالذكور من نوعه "وَصِهْراً" يصاهر به الغير كالإناث ، أي أنه جل شأنه قسم البشر المخلوق من النطفة للقسمين المذكورين قال تعالى "فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثى " الآية قبل الأخيرة من سورة القيامة المارة "وَكانَ رَبُّكَ" سابقا ولاحقا "قَدِيراً" 54 على ما أراده وجعله طبق مراده ،

فجعل من المني الواحد المعرفة بالماء وهو النطفة المختلطة من ماء الزوجين ذكرا وأنثى ، وقد يكونا في بطن واحدة ، وجعل النسب المذكور فيقال فلان بن فلان وفلانه بنت فلان ، والصهر للأنثى فيقال فلان صهر فلان إذا تزوج ابنته وأخته ، ولهذا البحث صلة في تفسير الآية الأولى من سورة النساء في ج 3 ، هذا وقد ذكر اللّه تعالى خمس آيات ، من ألم تر إلى هنا مدعمات بالدلائل على عجائب قدرته وبديع صنع وحدانيته ، ليتذكر بها من تذكر من الذين أرسل إليهم محمد إبان نزولها وبعده وإلى قيام الساعة ، وكأنها مع الأسف لم تتل عليهم ولم يسمعوا بها ولم يلقوا لها بالا لقوله تعالى "وَيَعْبُدُونَ" أولئك الكفرة مع بيان هذه الآيات المعجزات والبيّنات أوثانا يخصونها بالعبادة "مِنْ دُونِ اللَّهِ" خالقهم وخالقها ومانحهم هذه النعم العظيمة "ما لا يَنْفَعُهُمْ وَلا يَضُرُّهُمْ" عبدوها أولا لأنها جماد لا تحس بعبادتهم لها ، ويتركون عبادة النافع الضار الإله الواحد ويجحدون وجوده "وَكانَ الْكافِرُ المتوغل بكفره "عَلى رَبِّهِ" الذي يرى آثار نعمه عليه ويحس بها عند الحاجة قال تعالى (وَإِذا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ) الآية 67 من

سورة الإسراء الآتية ، وينسونه عند الفرج ويكون "ظَهِيراً" 55 معينا لنفسه وللشيطان على ربه اللطيف به المعطوف عليه ، وذلك أنه يتابع الشيطان بما يوسوس إليه على عبادة الصنم ويعاونه في إغوائه على معصية اللّه فيغفله وينساه حتى إذا

أدركته الشدة رجع إليه واعترف بربوبيته ، فإذا زالت تلك الشدة عنه ،

وأغدق عليه من المال والولد وغمره في خيره وأقر عينه ، نسى ربه وأعرض عنه ولجأ إلى أوثانه ، فلا حول ولا قوة إلا باللّه .

(133/556)

وهذه الآية عامة في كل كافر هذا شأنه ، وما قيل إنها نزلت في أبي جهل وإخوانه الكفرة على فرض صحته لا يخصصها بهم بل تبقى على عمومها ، لأن العبرة دائما لعموم اللفظ ما لم يقيد أو يخصص ، وما قيل إن ظهيرا بمعنى مهين أخذا من قولهم ظهرت به إذا نبذته خلف ظهرك ، ويكون المعنى حينئذ وكان الكافر مهينا عند اللّه لا خلاق له عنده ، بداعي أن فعيلا بمعنى مفعول كما ذكره الطبري ونقله عنه غيره فهو قيل غير معروف ، لأن المعروف أن ظهر بمعنى معين لا بمعنى مظهور به وهو كما ترى ، قال تعالى "وَما أَرْسَلْناكَ" يا سيد الرسل "إِلَّا مُبَشِّراً" بالثواب العميم لأهل الإيمان "وَنَذِيراً" 56 بالعقاب الجسيم لأهل العصيان

المصرين على كفرهم "قُلْ" يا حبيبي لهؤلاء الذين يقولون لك نجمع لك مالا لتكون أغنانا كما مر في الآية الثامنة "ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ" على تبليغكم هذا القرآن "مِنْ أَجْرٍ" لي مطلقا "إِلَّا مَنْ شاءَ أَنْ يَتَّخِذَ" بإنفاق شيء من ماله لصلة رحمه أو فقراء قومه أو غيرهم من أبناء السبيل واليتامى والأرامل إنفاقا خاصا "إِلى رَبِّهِ" يبتغي بذلك الإنفاق "سَبِيلًا" 57 طريقا طلبا لمرضاته وليوصله إلى نعيم جناته ، لأن هذا من جملة ما أوحى إلي به ربي وأمرني بتبليغه وجعل عليه الخير الكثير والأجر الكبير ، قل لهم هذا يا حبيبي "وَتَوَكَّلْ" في جميع أمورك "عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ" فهو أحق من يتوكل عليه وأوجب من يفوض الأمر إليه ، لأن من يتوكل على من يموت انقطع أمله منه بموته ، ومن يتوكل على الميت طبعا كالأصنام فهو أشر حالا وأسوأ مآلا أيضا .

أخرج ابن الدنيا في التوكل والبيهقي في شعب الإيمان عن عقبة بن أبي بثيث قال : مكتوب في التوراة لا توكل على ابن آدم فإن ابن آدم ليس له قوام ، ولكن توكل على الحي الذي لا يموت .

(134/556)

ولما قرأ بعض السلف هذه الآية قال لا يصح لذي عقل أن يثق بعدها بمخلوق وكيف يثق به وهو متقلّب إن لم يمت يرجع عن قوله ، فتوكل على اللّه وحده أيها العاقل "وَسَبِّحْ

بِحَمْدِهِ"

ليزيدك من أفضاله "وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبادِهِ" ما ظهر منها وما بطن وما كان منها عن قصد أو خطأ أو إكراه أو رغبة "خَبِيراً" 58 بها لأن الخبرة معرفة بواطن الأمور ومن علم البواطن فهو في علم الظواهر أعلم .

وفي هذه الآية وعيد وتهديد فكأنه جل جلاله يقول : إذا خالفتم أمري يكفيكم علمي بما تستحقونه من العقوبة إذ لا يخفى عليّ شيء مما تفعلون أو تتصورون .

مطلب الأيام الستة ومعنى فاسأل به خبيرا :

واعلموا أن ذلك الإله العظيم القادر هو "الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ" زمانية بحسب تقديركم أيها الناس ، والقصد من خلقها في ستة أيام مع أنه قادر على خلقها في لحظة واحدة هو أنه جعل لكل شيء حدا محدودا لا يتعداه ، فلا يدخل شيء من مخلوقاته في الوجود إلّا بالوقت الذي قدره لدخوله فيه ، ولفائدة أخرى هي تعليم عبادة التؤدة والتريث في الأمور والتأني بفعلها .

قال عليه الصلاة والسلام : التأني من اللّه والعجلة من الشيطان .

ولفائدة ثالثة وهي أن الشيء إذا فعل دفعة واحدة ظن وقوعه اتفاقيا ، وإذا حدث شيئا فشيئا على سبيل المصلحة والحكمة كان أبلغ في القدرة وأقوى في الدلالة .

والقول الفصل في هذا وغيره مما هو من شأن اللّه أن أفعال اللّه لا تعلل ، اقرأ قوله جل قوله (لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ) الآية 23 من سورة الأنبياء في ج 2 ، ولا شك أن اللّه تعالى قادر على إبادة هذا الكون بما فيه علوه وسفله وإنشائه كما كان أو على شكل آخر في لحظة واحدة ، لأن أمره بذلك عبارة عن كن ، قال تعالى : (وَما أَمْرُنا إِلَّا واحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ) الآية 50 من سورة القمر المارة ، راجع الآية 82 من سورة يس ، والآية 54 من سورة الأعراف المارتين ، وسيأتي لهذا البحث صلة في الآية 9 من من سورة فصلت في ج 2 ، "ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ" استواء يليق بذاته ويراد به الاستيلاء واللّه أعلم "الرَّحْمنُ" بالرفع بدلا من ضمير استوى "فَسْئَلْ بِهِ خَبِيراً" 59 بكل ما خطر ببالك وما لم يخطر ، قال تعالى (وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ) الآية 14 من سورة فاطر الآتية ، قيل الخبير هنا هو جبريل عليه السلام أو من له علم في الكتب القديمة ، وعلى هذا يعود ضميريه إلى الرحمن ويكون المعنى اسأل رسولي أو من له خبرة بما أنزلته من كتاب يعلمك أفعالي بمن كذب الرسل وصدقهم ، والأول أولى وأحسن ، لأن محمدا صلى اللّه عليه وسلم أولى بمن يسأل ربه وهو أعلم بربه من غيره ، راجع الآية 40 من سورة النحل الآتية ، واعلم أن فعل سأل يتعدى بعن إذا ضمن معنى التفتيش ، ويتعدى بالباء إذا ضمن معنى الاعتناء ، ويتعدى بإلى إذا ضمن معنى الطلب ، وإذا كان كذلك فلا حاجة للجري على القول بأن الباء هنا بمعنى عن لأن لك أن تجعلها

بمعنى من وإلى أيضا ، وغير خاف عليك أن حروف الجر تخلف بعضها كما سننوه به في الآية 71 من سورة طه الآتية ، قال علقمة بن عبيدة :

فإن تسألوني بالنساء فإنني خبير بأدواء النساء طبيب

(136/556)

فقد ضمن الباء هنا معنى عن ، وأمثاله كثير في القرآن والحديث والضمير راجع إلى الرحمن كما ذكرنا ، وقيل يعود إلى ما ذكر من الخلق الاستواء ، والمعنى إن شئت تحقيق ما ذكر أو تفصيله فاسأل عليما به معتنيا بصيرا عظيم الشان محيطا بظواهر الأمور وخوافيها ، عارفا بها ، يخبرك بقدرته ، ومن هذا الخبير الذي يسأله محمد صلى اللّه عليه وسلم غير ربه جلّ وعلا ؟ أي كأنه يقول له اسألني أخبرك لأن من أنشأ هذه الأجرام العظام على هذا النمط الفائق ، والنسق الرائق ، بتدبير متين ، وترتيب مبين ، في أوقات معينة مع كمال الإبداع ، لجدير بالإخبار عن ماهيتها وبيان ما أودع فيها من حكم جميلة وغايات نبيلة لا تقف على تفاصيلها العقول ، وهو أحق أن يسأل لأنه هو وحده القادر على خلقها دفعة واحدة في أقل من لحظة ، وهو جدير بأن يطلعك على جليلة أمرها ووضوح حقائقها لا غير ، قال تعالى "وَإِذا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمنِ قالُوا وَمَا الرَّحْمنُ" لا نعرفه يا محمد من هو ،

وإنما نعرف رحمن اليمامة يعنون مسيلمة الكذاب ، وهذا كقول فرعون لموسى (وَما رَبُّ الْعالَمِينَ) الآية 23 من سورة الشعراء الآتية ، صدق اللّه بقوله (تَشابَهَتْ قُلُوبُهُمْ) الآية 118 من البقرة في ج 3 ، لأن ردّ الكفرة للأنبياء من لدن نوح إلى محمد جاء على وتيرة واحدة ، وسؤالهن هذا من تجاهل العارف لأنه مذكور في الكتب المتقدمة بالعبرانية بلفظ رحمان كما ذكر موسي (موشى) .

وقالوا على طريق الاستفهام الإنكاري "أَنَسْجُدُ لِما تَأْمُرُنا" يا محمد ؟ كلا لا نفعل أبدا "وَزادَهُمْ" طلب السجود والأمر به "نُفُوراً" 60 عن الإيمان باللّه ورسوله وجاهروه بعدم الامتثال .

واعلم أن هذه السجدة من عزائم السجود فتجب على القارئ والسامع ، وقدمنا ما يتعلق بالسجود للّه في الآية الأخيرة من سورة الأعراف وص والنجم المارات فراجعها .

(137/556)

مطلب البروج وأقسامها وما يتعلق بقضاء الورد :

قال تعالى "تَبارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّماءِ بُرُوجاً" قال ابن عباس هي منازل الكواكب السيارات السبع وقد بيناها أول سورة البروج المارة وسميت بروجا تشبيها لها بالمنازل

لمنازل هذه الكواكب ، ومعناها القصور ، فالأسد بيت الشمس ، والسرطان بيت القمر ، والحمل والعقرب بيتا المريخ ، والثور والميزان بيتا الزهرة ، والجوزاء والسنبلة بيتا عطارد ، والقوس والحوت بيتا المشتري ، والجدي والدلو بيتا زحل ، وهي مقسومة على الطبائع الأربع فالحمل والأسد والقوس مثلثة ناريّة ، والثور والسنبلة والجدي مثلثة أرضية ، والجوزاء والميزان والدلو مثلثة هوائية ، والسرطان والعقرب والحوت مثلثة مائية ، وقسمنا في الآية 38 من سورة يس المارة ما يتعلق بالمنازل مفصلا فراجعها ، ولهذين البحثين صلة في الآية 16 من سورة الحجر في ج 2 تستكمل به ما يتعلق بها ان شاء اللّه "وَجَعَلَ فِيها سِراجاً" شمسا "وَقَمَراً مُنِيراً" 61 مضيئا راجع الآية 13 من سورة الإسراء الآتية تجد تمام هذا البحث "وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ خِلْفَةً" لبعضهما يعقب الواحد الآخر ويقوم مقامه بالعمل ، فإذا فات الإنسان عمله بالليل قضاه بالنهار ، وإذا فاته بالنهار أتى به بالليل ، والمراد هنا اختلافها في الزيادة والنقصان أيضا والسواد والبياض وذهاب أحدهما ومجيء الآخر دون فاصلة ، وانما جعلهما يخلف كل منهما الآخر لمقتضى الحكمة والمصلحة "لِمَنْ أَرادَ أَنْ يَذَّكَّرَ" في عبادة ربه فيهما وما فاته من ذكره أو نسيه في أحدهما أو لم يتمكن من إتمام الأذكار المأثورة التي رتّبها على نفسه في الليل قضاه في النهار ، وكذلك بالعكس روى الطيالسي وابن أبي حاتم أن عمر رضي اللّه عنه أطال صلاة الفجر ، فقيل له صنعت شيئا لم تكن تصنعه ؟ قال إنه بقي عليّ من وردي شيء فأحببت أن أتمه أو قال أقضيه .

وتلا هذه الآية .

ومن التذكر المأجور عليه أن يتفكر في كيفية تسخيرهما واختلافهما وانتظام سيرهما ، ويستدل بذلك على عظمة مبدعهما ومدبرهما ، ويستفاد من ظاهر الآية أن الأوراد التي قد اعتادها السادة الصوفية بارك اللّه فيهم لها أصل في النوع مقتبس من هذه الآية المؤيدة بفعل عمر رضي اللّه عنه ، وفيهما دليل على تقننها وأن قضاء ما فات منها لازم على النفوس الطاهرة التي ترى ما التزمته على نفسها من الذكر واعتادته لازما عليها قضاؤه استنباطا من الأصول الفقهية مثل من شرع في نفل وأبطله وجب عليه قضاؤه ، مع أنه نفل "أَوْ أَرادَ شُكُوراً" 62 بأداء نوع من العبادة وردا خاصا له شكرا لنعم ربه وإفضاله عليه لانه لو استغرق زمنه كله في شكر ربه لم يؤد حقه ورحم اللّه الشيخ بشيرا الغزي إذ يقول في مقدمته منظومة الشمسية في علم المنطق :

لو أن كل الكائنات ألسنة تثني على علاه طول الأزمنه

لم تقدر الرحمن حق قدره ولم تؤد موجبات شكره

ويؤذن عطف إرادة الشكر على التذكر إرادة فعل النافلة بعد الفريضة وتلاوة الأذكار

المأثورة بعدها والتفكر في بدايع صنع اللّه مما ينور القلب ويطلعه على علم ما لم يعلم .

فاغتنم أيها العاقل واستكثر من الذكر المشروع ولا تنظر لأقوال المتطفلين على الدين الذين (يَعْلَمُونَ ظاهِراً مِنَ الْحَياةِ الدُّنْيا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غافِلُونَ) الآية 7 من سورة الروم في ج 2 أجارنا اللّه من الغفلة وحمانا من العطلة ، ووفقنا لما به الفلاح والنجاح هذا وقد قرأ زيد بن علي وطلحة وغيرهما (أَنْ يَذَّكَّرَ) بالتخفيف مضارع ذكر وهي قراءة جائزة وتؤيد ما ذكرناه ، ومما يوثقه أيضا وصف اللّه تعالى عباده بقوله "وَعِبادُ الرَّحْمنِ" الذين دأبهم ذكره وشكره العارفون به "الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً" بالسكينة والوقار متواضعين لا يمرحون ولا يختالون ولا يتبخترون .

(139/556)

راجع الآية 36 من الإسراء الآتية ، وقد أضافهم جل شأنه لنفسه للعلم بأنهم المخصوصون بإفضاله المنعم عليهم بصفة كماله ، لأن العبودية فعل المأمورات وترك المنهيات ، لا لرجاء الثواب والنجاة من العقاب الذين تقتضيهما معنى العبادة ، بل لمجرد إحسان اللّه تعالى ومطلق أمره ونهيه ، استحقاقا لذاته المقدسة "وَإِذا خاطَبَهُمُ الْجاهِلُونَ قالُوا سَلاماً" 63 أي ومن صفاتهم أيضا يقولون قولا يدل على المتاركة والإغضاء عند ما

يجابههم السفيه وقليل الأدب والساخر والمستهزئ بما لا ينبغي أن يقال لمثلهم ، ولفظ الجاهل يدخل فيه ما ذكرنا إذ لم يرد فيه في هذه الآية من هو دون البلوغ ولا عديم العلم ، وهذا الجواب الذي علمه اللّه لخيرة خلقه على نهاية من الاستحسان أدبا ومروءة ، وأسلم للغرض ، وأوفق للورع ، ولا وجه لقول من قال أن المراد به السلام المعروف لأنه جاء في الآية 92 من سورة النساء مع أن سورة النساء مدنية وهذه مكية ولم يؤمر فيها بعد بالسلام بل هو سلام متاركة وتوديع لا سلام تحية واستقبال مثله قول سيدنا إبراهيم لأبيه (سلام عليك) الآية 48 من سورة مريم الآتية وفسره بعضهم "بسداد" أي أراد قولا من سداد القول ولينه ، وهو داخل فيما ذكرته أي أنهم يحلمون ولو تعدى عليهم ولا يسفهون وإن تسوفه عليهم ، ولا يجهلون وإن جهل عليهم ، ولا يتمثلون بقول صاحب المعلقة عمرو بن كلثوم :

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

وذلك لأنهم تركوا نفوسهم وأقبلوا على ربهم فلم تبق عندهم أنفة الجاهلية ، ولهذا نهي عن مخالطة الجهال بذلك المعنى لئلا يكون في عدادهم قال علي كرم اللّه وجهه :

فلا تصحب أخا الجهل وإياك وإياه

فكم من جاهل أردى حليما حين آخاه

يقاس المرء بالمرء إذا ما هو ماشاه

وللقلب على القلب دليل حين يلقاه

وقال الآخر :

عن المرء لا تسأل وأبصر قرينه فكل قرين بالمقارن يقتدي

(140/556)

مطلب إحياء الليل والآيات المدنيات وكلمات لغوية :

وهكذا كان شأنهم بالنهار ، وانظر كيف وصفهم ربهم بما يكون منهم بالليل بقوله جل قوله "وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِياماً" 64 أي أنهم يجعلون بدل النوم الصلاة ، لأنهم يتلذذون بالتشوق إلى المعبود أكثر من التذاذهم بالنوم ، والبيتوتة لا تختص بالنوم ، بل إن يدركك الليل نمت أو لم تنم وقيام الليل من السنن التي دأب عليها الصالحون ، لأنه وقت اجتماع المحب بالمحبوب ، والطالب بالمطلوب ، وإحياء الليل أنواع أفضلها إحياؤه كله بالصلاة والذكر ، ثم الاقتصار على ثلثيه ، فعلى ثلثه ، فسدسه ، فعلى ما يتيسر منه ، كما مر في آخر سورة المزمل قال الفقهاء : من قرأ شيئًا من القرآن في الليل في صلاته فقد بات ساجدا .

روى مسلم عن عثمان بن عفان رضي اللّه عنه قال قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم من صلى العشاء في جماعة كان كقيام نصف الليل ، ومن صلى الفجر بجماعة كان كقيام

ليله كله .

وقريء سجودا على وزن قعودا ، وهي أوفق بالنسبة لذكر قياما من حيث اللغة ، إلا إن سجدا يدل على التكثير أكثر من سجودا فهو أنسب بالمقام وأبلغ في المعنى .

ومن أراد الوقوف على الأوراد وأوقاتها وفضلها فليراجع الباب الأول من كتاب عين العلم للأستاذ الملا علي القاري رحمه اللّه ، ففيه كل ما يريده ويتصوره ، قال تعالى في وصف دعائهم "وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذابَها كانَ غَراماً" 65 لازما دائما لا ينفك ، وهذا الغرام يراد منه الامتداد والاستمرار ، فيختص بالكفار أجارنا اللّه منه ، مثله مثل ملازمة الغريم مدينه ، ومعناه الجزاء بأكثر مما يستحق .

(141/556)

ثم وصف اللّه تعالى جهنم بقوله "إِنَّها ساءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقاماً" 66 فبئس الموضع موضعها وبئس المقام مقامها وأنث الضمير لتأويل المستقر بجهنم أو لأجل المطابقة للمخصوص بالذم ، ثم وصف اللّه صدقاتهم فقال "وَالَّذِينَ إِذا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا" أي بأن يتجاوزوا بها قدرتهم أو يعطوها لغير مستحقيها ، فإن هاتين الخصلتين من الإسراف ، فكيف بمن ينفق ماله في معصية اللّه إذا جيء به يوم يؤخذ بالنواصي ، يوم يفوز الطائع ويهلك

العاصي ، يوم لا تملك نفس لنفس شيئا والأمر يومئذ للّه ، أما نفقات الرياء والسمعة فسيأتي ذكرهما في الآية 264 من سورة البقرة في ج 3 إن شاء اللّه "وَلَمْ يَقْتُرُوا" على الفقراء مما أنعم به اللّه عليهم فيعطوهم حقهم وافيا مما افترضه اللّه عليهم لهم وقريء بكسر التاء مع فتح الياء ، وبضم الياء وكسر التاء ، وبضم الياء وفتح القاف ، وتشديد التاء وكسرها وعلى كل ، فمعنى التقتير التضييق على الفقراء بمنع الحق الذي فرض لهم على الأغنياء "وَكانَ" إنفاقهم "بَيْنَ ذِلكَ" الإسراف والتقتير "قَواماً" 67 وسطا وهذا مما يدل على أن الإسراف مجاوزة الحد لأن يصل به إلى حد التبذير ، وبالإقتار التقصير عما لا بد منه حتى يصل إلى منع عيال اللّه وعياله من حقهم ، وهو أوفق لسياق الآية ، ولهذا البحث صلة في تفسير الآيات 26 و 31 من سورة الإسراء الآتية والآيات 260 فما بعدها من البقرة ، أخرج الإمام أحمد عن أبي الدرداء أن النبي صلى اللّه عليه وسلم قال : من فقه الرجل رفقه في معيشته .

(142/556)

واعلم أن معنى هذه الآية عام في نفقة الرجل على نفسه وأهله ومن هو تحت وصايته وولايته وغيرهم ، ومعنى القوام غير الوسط العدل ، وقوام الرجل قامته ، وبكسر القاف ما

أقامك من الرزق ، ومن هذا القبيل حجام بالفتح الفرس ، وبالضم المكوك ، وحصان بالفتح العفة من النساء ، وبالكسر الجواد ، والذل بالكسر ضد الصعوبة ، وبالضم ضد العز ، والطعم بالفتح الشهوة ، وبالضم الطعام ، والجرم بالكسر البدن ، وبالضم الذنب ، والسلم بالكسر الصلح وبالفتح الاستسلام ، والأرب بالفتح الحاجة ، وبسكون الراء الدهاء .

وقد بينا شيئا من هذا في تفسير الآية 17 من سورة التكوير والآية 169 من سورة الأعراف وله صلة في تفسير الآية 59 من سورة مريم الآتية ، وكلمة قوام لم تكرر في القرآن وهذه الآيات المدنيات قال تعالى "وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلها آخَرَ" أي أن صفتهم في تنزيه معبودهم عدم إشراكهم أحدا معه في

(143/556)

دعائهم ووصفهم في عدم التعدي على الغير بقوله "وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ" المزيل لحرمتها وعصمتها كالكفر بعد الإيمان والزنى بعد الإحصان والقصاص "وَلا يَزْنُونَ" أي أنهم مبرّءون من هذه الخبائث التي كان عليها الجاهليون وأنهم مطهرون من كل سوء ، وهذا تعريض بالمشركين الذين كانوا يعملون الكبائر القبيحة كهذه "وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ" كله أو شيئا منه بأن يزني أو يقتل بغير حق أو يرتد عن دينه والعياذ بالله "يَلْقَ أَثَاماً" 68

عقابا كثيرا لا يقادر قدره وقري يلق بضم الياء وتشديد القاف وفتح اللام ، وقريء ابن مسعود أيامى بالياء أي شدائد يقال إلى يوم أيام أي شديدا عظيما ، ويلقى بالألف المقصورة ، كأنه نوى حذف الضمة المقدرة على الألف فأقرّت الألف ، وقد ذكرنا غير مرة أن هذه القراءات التي لا زيادة فيها ولا نقص من حيث الحروف جائزة ، روى البخاري ومسلم عن عبد اللّه بن مسعود قال قال رجل يا رسول اللّه أي الذّنب أكبر عند اللّه ؟ قال أن تدعو مع اللّه ندا وهو خلقك .

قال ثم ؟ قال أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك .

قال ثم ؟ قال تزني بحليلة جارك .

فأنزل اللّه هذه الآية تصديقا لقوله صلى اللّه عليه وسلم .

والأثام قد يأتي بمعنى الجزاء قال عامر بن الطفيل :

وروينا الأسنة من صداء ولاقت حمير منها أثاما

(144/556)

هذا وإن من يفعل هذه الأشياء "يُضاعَفْ لَهُ الْعَذابُ يَوْمَ الْقِيامَةِ" بحسب مضاعفته عصيان ربه وتعدد المعاصي "وَيَخْلُدْ فِيهِ" أي العذاب لأن الكفر والشرك واستحلال قتل

النفس والزنى تقتضي التخليد بالنار إذا لم يتب ومات مصرا على ذلك كما سيأتي ، وقرىء فيه بإشباع الهاء بالكسر ولا يوجد في القرآن مثله وكذلك كلمة "مُهانا" 69 أي ذليلا حقيرا مخزيا "إِلَّا" استثناء من الجنس في موضع النصب لا استثناء المؤمن قد بدل اعتبار الكفر في المستثنى منه "مَنْ تابَ" ومات على توبته "وَآمَنَ" بربه وكتابه ورسوله إيمانا صادقا "وَعَمِلَ عَمَلًا صالِحاً" فيما بينه وبين ربه وبين الناس بعد توبته .

مطلب تبديل الحسنات بالسيئات وشهادة الزور :

"فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئاتِهِمْ حَسَناتٍ" فيبدل شركهم بالإيمان ، وقتل المؤمنين بقتل الكافرين الحربيين والزنى بالإحصان والعفة ، وليس ببعيد على الملك الديان أن يبدل ما عملوه في الدنيا من السيئات بحسنات بالآخرة .

روى مسلم عن أبي ذر رضي اللّه عنه قال قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم إني لأعلم آخر رجل يخرج من النار ، رجل يؤتى به يوم القيمة فيقال اعرضوا عليه صغار ذنوبه وادفعوا عنه كبائرها ، فتعرض عليه صغارها ، فيقال له عملت يوم كذا ، كذا وكذا فيقول نعم ، لا يستطيع أن ينكر وهو مشفق من كبائر ذنوبه أن تعرض عليه ، فيقال له إن لك مكان كل سيئة حسنة .

فيقول يا رب عملت أشياء لا أراها هنا ، قال فلقد رأيت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يضحك حتى بدت نواجذه ، وسبب ضحكه أن الرجل كان خائفا من كبار ذنوبه ولذلك

اعترف بصغارها ، فلما رآها تبدل بحسنات أراد أن يعترف بالكبائر لتبدل أيضا "وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً" 70 بعباده بما يمن عليهم بذلك الفضل العميم .

(145/556)

واعلم أن هذا التبديل لا يكون إلا لمن اتصف بما ذكر في الآيات المارات بدليل الإشارة إليها بقوله أولئك ،

ثم عمم بعد التخصيص فقال "وَمَنْ تابَ" من ذنوبه من العاصين أجمع "وَعَمِلَ صالِحاً" تحقيقا لتوبته "فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتاباً" 71 أي يرجع إلى ربه بعد الموت رجوعا حسنا أفضل من غيره ، فالتوبة الأولى عن أمهات الكبائر وهي الموبقات السبع الثلاثة المبينة في الآية المارة وقذف المحصنات ، والفرار من الزحف ، والسحر ، وشهادة الزور ، والثانية عن فروعها من مقدمات الزنى ، والقتل ، والتعديات الأخر ، والمراد بهذه التوبة الرجوع إلى اللّه والندم طلبا للمجازات والمكافآت إذا أريد بهم التائبون المستثنون أو عن مطلق الذنوب إذا أريد غيرهم "وَ" من صفة أولئك العباد أيضا "الَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ" خصصها بعد التعميم لعظمها عند اللّه ، ولما فيها من تضييع الحقوق وفساد الأخلاق ، لأنها لا تكون إلا بالمقابلة أو بالعصبية أو الرشوة ، وكلها مذمومة .

روى البخاري ومسلم عن

أبي بكر رضي اللّه عنه قال قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ قلنا بلى يا رسول اللّه ، قال الإشراك باللّه وعقوق الوالدين وكان متكئا فجلس وقال : ألا وقول الزور ، فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت . .

وكان عمر ابن الخطاب رضي اللّه عنه يجلد شاهد الزور أربعين جلدة ويسخم وجهه ويطوف به بالأسواق .

فليتنا نفعل بعض هذا في هؤلاء الذين تجارأوا على اللّه في شهاداتهم وأتلفوا حقوق ذوي الحقوق .

(146/556)

اللهم سخر عبادك لاتباع الهدى وسلوك سنن الصلاح واجعلهم داخلين في قولك "وَإِذا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِراماً" 72 معرضين عنه لا يلتفتون إليه ولا يلقون له بالا ، وأسرعوا عن أهله تنزيها لأنفسهم الطاهرة من أن يسمعوا كلام الغواة المتفحشين بالكلام البذيء الذي يجب أن يتباعد عنه وعلى العقلاء أن يعرضوا عن أهل اللغو ولا يجالسوهم ولا يرافقوهم حفظا لكرامتهم وهيبة لوقارهم واحتراما لمكانتهم وإهانة لهم ، أخرج ابن عساكر عن إبراهيم بن

ميسرة قال : بلغني أن ابن مسعود مر بلهو معرضا ولم يقف فقال صلى اللّه عليه وسلم لقد أصبح ابن مسعود وأمسى كريما ، ثم تلا هذه الآية .

فالوقوف مواقف هؤلاء والخوض معهم قد يؤدي للانخراط معهم ولذلك وصف صلى اللّه عليه وسلم ابن مسعود بالكرم لإعراضه عن اللهو ، فمن أراد أن يكون كريما عند اللّه وعند الناس فلا يقفنّ مواقف التهم .

ولا معنى لقول من قال أن هذه الآية منسوخة بآية القتال لأن الإعراض عن مثل هذا مطلوب قبل الأمر بالقتال وبعده ثم ذكر صفتهم عند ما يوعظون فقال "وَالَّذِينَ إِذا ذُكِّرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ" أو زجروا فيها وحذروا مخالفتها فسمعوها سماع قبول بدليل قوله "لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْها" أي يسقطوا وينكبوا "صُمًّا وَعُمْياناً" 73 بأن لا يلقوا لها بالا ، بل يتلقون تلك الآيات التي ذكروا بها بالقبول ، ويعوها بالإذعان ، ويرعوها بالطاعة ، ويخروا لها سجدا وبكيا ، بآذان واعية وقلوب منكسرة وقوالب خاضعة مخبتة ، لا كالكفرة الذين لا يسمعونها إذا تليت ولا يعقلونها ولا ينظرون إليها ولم يقبلوها ولم يستكينوا لربهم .

مطلب قرة العين وسخنها والذرية :

ثم ذكر صفة دعائهم لأنفسهم بقوله "وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا" أولادهم وأولادهم واجعلهم لنا "قُرَّةَ أَعْيُنٍ" أبرارا صالحين أتقياء فائزين تقر أعيننا بهم لما هم عليه من عمل صالح وخلق كريم وذكر حسن .

واعلم أن ليس أقر لعين المؤمن من أن يرى زوجته وأولاده وأحفاده طائعين لأوامر اللّه مطيعين له ليطمع أن يحلوا معه في الجنة فيتم سروره بهم في الدنيا والآخرة ، وإقرار العين بردها لما يرد على صاحبها من الفرح والسرور ، فتدمع دمعا باردا لشدة انشراح صدره ، لهذا يقال أقرّ اللّه عينيك .

وضدّه حمانا اللّه ، أسخن اللّه عينيك .

واسخان العين حرها لما يرد على صاحبها من الضيق والحزن فتدمع دمعا حارا لما حل به من الكرب وضيق الصدر ، قال أبو تمام :

فأما عيون العاشقين فأسخنت وأما عيون الشامتين فقرت

وقال الآخر :

نعم الإله على العباد كثيرة وأجلهن نجابة الأولاد

وقال تعالى هنا ، أعين جمعا للعيون الباهرة ، لأن لفظ العيون في القرآن العظيم كله جمع للعيون الجارية .

وقرئ ذرّيتنا بالإفراد وقرئت بالجمع قال تعالى "وَاجْعَلْنا لِلْمُتَّقِينَ إِماماً" 74 يقتدى بنا في أفعال الخير اللهم اجعلنا منهم وقرّ أعيننا بأولادنا وأحفادنا يا اللّه يا اللّه يا اللّه بجاهك على نفسك ، وحرمة كتبك وحق أنبيائك ومكانة أوليائك عليك وإمام يستعمل مفردا وجمعا واختير على أئمة المطابق لما قبله لكونه أوفق للفواصل التي قبله وبعده ، والمراد هنا الجمع رعاية لمفعول جعل قال تعالى "أُوْلَئِكَ" الذين هذه صفاتهم الممدوحة "يُجْزَوْنَ" من ربهم يوم الجزاء "الْغُرْفَةَ" الدرجة العالية في الجنة ، لأن الغرف تطلق على البيوت الفوقية والحجر على السفلية والبيت عليهما ، وذلك الجزاء الحسن ينالهم "بِما صَبَرُوا" على طاعة ربهم وعن شهوات أنفسهم في الدنيا هذا على أن الباء في بما سببية أو بدل صبرهم على أنها مصدرية وعليه قوله :

فليت لي بهم قوما إذا ركبوا شنّوا الإغارة فرسانا وركبانا

(149/556)

و علاوة على الجزاء الحسن الذي يعطونه ويرون ثوابه فإنهم يكرمون عليه "وَيُلَقَّوْنَ فِيها تَحِيَّةً وَسَلاماً" 75 من كل مكروه ولا مكروه في الجنة أي دعاء بالبقاء فيها ودعاء

بالسلامة ، والسلام من اللّه وملائكته ومن بعضهم أيضا ، وهؤلاء يبقون في هذا النعيم "خالِدِينَ فِيها" أي الجنة الموصوفة بالغرفة التي هي أعلى منازلها وتسمى محل الأمن من الأكوار قال تعالى "وَهُمْ فِي الْغُرُفاتِ آمِنُونَ" الآية 78 من سورة سبأ في ج 2 "حَسُنَتْ" تلك المنزلة الكريمة "مُسْتَقَرًّا وَمُقاماً" 76 كرمت مقاما وقرارا وهذا بمقابل "ساءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقاماً" الآية 66 المارة بسياق أهل العذاب الجهنميين "قُلْ" يا أكرم الرسل إن الفائزين بتلك النعم الجليلة التي يتنافس بها المتنافسون إنما نالوها بما عدد من محاسنهم ، ولولاها لم يعتدّ بهم كغيرهم ، كما أن أولئك الساقطين بتلك البلايا القبيحة التي يتباعد عنها المتباعدون إنما عوقبوا عليها بما عدد من مساويهم الخبيثة ولولاها لكانوا كغيرهم منعمين ، ولهذا أكد عليهم يا حبيبي وقل لهم "ما يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي" ما يصنع وما يبالي بكم "لَوْلا دُعاؤُكُمْ" إياه عند الشدائد الملمات ، ولكن لا ينفع هذا نفعا دائما إلا إذا آمنتم به وبرسوله وبكتابه ، فإذ ذاك يظهر لكم عند ربكم وزن وقيمة ويعلو قدركم وتسمو مكانتكم عنده ، لأنه لم يخلق الخلق إلا ليعبدوه ويحمدوه ويشكروا آلاءه لا لحاجة بهم – راجع تفسير الآية 56 من الذاريات في ج 2 – لأن معنى عبأ ثقل والعبء في الأصل ثقل ، والنفي منه معناه عدم الاعتناء والاعتداد والاكتراث بالشيء .

أي أيّ اعتداد يعتد بكم ربكم إذا لم يكن لكم عنده قدر ، فوجودكم لديه وعدمه سواء ، وجواب لولا محذوف وتقديره لما اعتد بكم ، لأنه لولا ما يقع منكم من الدعاء لكنتم والبهائم سواسية ، وهذا بيان لحال المؤمنين من هذا الخطاب العام ، أما حال الكفرة منهم فقد ذكره بقوله "فَقَدْ كَذَّبْتُمْ" برسولي وكتابي أيها الكفرة وجحدتم ربوبيتي ورفضتم توحيدي وعبادتي وكذبتم بي وأصررتم على مخالفة حكمي ، ولم تقتدوا بأولئك الطائعين الصالحين من عبادي ،

الذين بوأتهم دار كرامتي بإنابتهم وإخباتهم لأوامري .

قالوا قرأ ابن عباس وابن الزبير وعبد اللّه "فقد كذّب الكافرون" وهذه ان صحّت عنهم فإنهم عنوا بها تفسيرا لا قراءة ، وإلا فهي قراءة لا يعتدّ بها ولا يجوز نقلها لما فيها من الزيادة على ما في المصاحف المجمع عليها .

على أن الآية تؤدي هذا المعنى دون حاجة للجنوح إلى هذه القراءة غير الصحيحة المخالفة للإجماع .

أما ما قاله بعض المفسرين من أن الخطاب لكفرة قريش خاصة ، وأن المعنى ما يعبأ بكم لولا إرادته لدعائكم له لعبادته لما عبأ بكم ولا خلقكم ، فلا ينافي ما ذكر في تفسيرها ، لأن الخطاب فيها عام يشمل كفرة قريش وغيرهم كما يشمل المؤمنين صدرها عامة أيضا ، وقد

أوضحنا هذا أعلاه ، ثم هدد الكافرين المرادين بقوله "فَقَدْ كَذَّبْتُمْ" بقوله جل قوله "فَسَوْفَ يَكُونُ" عذابي لكم "لِزاماً" 77 لا يفارقكم ولا ينفك عنكم بل يحيق بكم ويلزمكم حتى يكبكم في النار ويصليكم فيها ، وهذا غاية في التهديد ونهاية في الوعيد لأن المعنى أن التكذيب لازم لمن كذب فلا يعطى التوبة كي ينال جزاءه ، أجارنا اللّه من ذلك ولم تكرر هذه الكلمة في القرآن إلا

هنا وفي الآية 129 من سورة طه الآتية فقط .

(151/556)

هذا ، واللّه أعلم ، وأستغفر اللّه ، ولا حول ولا قوة إلا باللّه العلي العظيم ، وصلى اللّه على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بيان المعاني حـ 2 صـ 65 . 107 ﴾

(152/556)

فصل فى الوقف والابتداء فى آيات السورة الكريمة :

قال شيخ الإسلام / زكريا الأنصاري

سورة الفرقان

مكية إلا قوله ﴿ والذين لايدعون مع الله إلها آخر ﴾ إلى ﴿ رحيما ﴾ فمدني

نذيرا تام ان جعل ما بعده خبر مبتدأ محذوف وصالح ان جعل ذلك بدلا من الذي نزل

الفرقان وانما صلح وان كان فيه فصل بين البدل والمبدل منه لانه رأس آية ولم شريك في الملك

كاف ان جعل ما بعده مستأنفا وان جعل معطوفا على ما قبله فالوقف على تقديرا وهو

كاف وهم يخاقون كاف ولا نشورا تام وقف على قوله ولانفعا كان جائزا قوم آخرون صالح

وكذا وزورا وأصيلا تام والأرض كاف وحيما حسن ويمشي في الاسواق مفهوم يأكل منها

حسن وكذا مسحورا سيلا تام ويجعل لك قصورا كاف لمن جزم يجعل ولمن رفعه لكن

للثاني أن يقف على الانهار أيضا سعيرا كاف وزفيرا صالح ثبورا حسن ثبورا كثيرا تام

وعدا المتقون صالح وكذا مصيرا خالد كاف وكذا مسؤلا من دون الله نفهوم ضلوا السبيل

كاف وكذا قوما بورا ولا نصرا كبيرا تام في الاسواق كاف وكذا فتنة وأتصبرون لكن لا

أحب الجميع بينهما وقال أبو عمرو في أتبصرون تام بصيرا تان ربنا حسن وقال أبو عمرو

كاف عند أبي حاتم وغيره وهو عندي تام كبيرا تام يوم يرون الملائكة كاف ان نصب يوم

باذكر مقدرا وليس بوقف ان نصب بقوله لابشرى حجرا محجورا كاف قال ابن العباس هو

من قول الملائكة أي يقولون حراما محرما ان يكون للمجرمين البشرى وقيل هو من قول المجرمين وقيل حجرا تام وهو من قول المجرمين ومحجورا من قول الله تعلى أي محجورا عليكم ان اعاذوا وتجاورا كما كنتم في الدنيا منثورا ومقيلا تامان ان نصب ويوم تشقق بمحذوف أو بالظرفية لقوله الملك وان جعل توكيد اليوم يرون الملائكة فكافيان تنزيلا تام ان يجعل ويوم تشقق ظرفا للملك والا فجائز للرحمن وقال أبو عمرو كاف عسيرا كاف سبيلا صالح وكذا خليلا وانما صلحا للفاصلة ولطول الكلام بعد اذا جاءني تام وكذا خذولا ومهجورا من المجرمين حسن وقال أبو عمرو تام جملة واحدة كذلك كاف والمعنى كنزول التوارة والإنجيل ثم يبتدئ لنثبت به فؤادك أي أنزلناه متفرقا لذلك والا حسن الوقف على جملة واحدة ويسمى وقف بيان

(153/556)

ثم يبتدئ كذلك على الاول من قول المشركين وعلى الثاني من قول الله تعالى فؤادك صالح تنزيلا تام وكذا وأحسن تفسيرا وسبيلا وزيرا صالح بآياتنا بيان على قراءة فدمرناهم وليس بوقف على قراءة فدمرانهم بالأمر وتشديد النون تدميرا كاف وكذا للناس آية وأليما وكثيرا وله الأمثال تتبيرا تام يرونها كاف نشورا حسن الاهزؤا جائز رسولا كاف صبرنا

عليها من أضل سبيلا تام عليه وكيلا كاف وكذا اة يعقلون أضل سبيلا تام مد الظل كاف يسيرا حسن سباتا جائز نشورا حسن رحمته صالح وأناسى كثيرا تام ليذكروا كاف كفورا حسن نذيرا كاف الكافرين جائز جهاد كبيرا حسن اجاج صالح محجورا حسن وصهرا كاف وقال أبو عمرو فيهما قديرا تام ولا يضرهم كاف وقال أبو عمرو تام ظهيرا تام ونذيرا حسن سبيلا تام لايموت جائز وسبح بحمده حسن خبيرا كاف على العرش ان الرفع الحمن خبر مبتدأ محذوف وليس بوقف ان رفع بدلا من الضمير في استوى بل الوقف على الحمن وهو كاف وأحسن من الاول خبيرا كاف الرحمن حسن لمن قرأ تأمرنا بالتاء الفوقية لانه استئناف قول بعضهم لبعض وليس بوقف لمن قرأه بالياء التحتية لتعلق ما بعده بما قبله واختار الاصل أن الوقف علبه على القراءتين حسن لكن الوقف عليه على الأولى أحسن نفورا تام منيرا حسن وكذا شكورا سلاما كاف وكذا قياما جهنم مفهوم غراما حسن وقال أبو عمرو كاف ومقاما كاف وكذا قواما ولا يزنون حسن وقال أبو عمرو كاف يلق أثاما حسن لمن رفع يضاعف لانه استئناف وليس بوقف لمن جزمه لانه بدل من يلق مهانا كاف بجعل ما بعده بمعنى لكن حسنات كاف رحيما حسن متابا كاف وكذا كراما وعميانا رة أعين جائز اماما حسن وقال أبو عمرو كاف وسلاما صالح وقال أبو عمرو كاف وأحسن منه خالدين فيها ومقاما تام لولا دعاؤكم كاف آخر السورة تام . انتهى انتهى . اهـ ﴾

المقصد صـ 544.554 ﴾

وقال الشيخ أحمد عبد الكريم الأشموني :

سورة الفرقان

مكية إلاَّ قوله والذين لا يدعون مع الله إلها آخر إلى رحيماً فمدني وهي سبع وسبعون آية ليس فيها اختلاف وكلمها ثمانمائة واثنتان وسبعون كلمة وحروفها ثلاثة آلاف وسبعمائة وثلاثة وثلاثون حرفاً وفيها مما يشبه الفواصل وليس معدوداً بإجماع ستة مواضع وهم يخلقون قوم آخرون أساطير الأولين التي وعد المتقون ما يشاؤن خالدين في السماء بروجاً ورؤوس آيها على الألف إلاَّ موضع واحد فإنَّه على اللام وهو قول السبيل 0

نذيراً (تام) إن جعل ما بعده خبر مبتدأ محذوف تقديره هو الذي وكذا إن نصب بتقدير أعني وجائز إن جعل بدلاً أو عطف بيان

في الملك (كاف) على استئناف ما بعده وإن عطف على ما قبله كان الوقف على تقديراً تاماً 0

آلهة ليس بوقف

وهم يخلقون (كاف) على استئناف ما بعده وليس بوقف إن عطف على آلهة داخلاً في

نعتها 0

ولا نفعاً (جائز)

نشوراً (تام)

قوم آخرون (حسن)

وزوراً (أحسن) منه وهو رأس آية 0

أساطير الأولين ليس بوقف لاتصال الكلام بقوله اكتتبها 0

وأصيلاً (كاف) ومثله والأرض

رحيماً (تام)

مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق (حسن) واتفق علماء الرسم على قطع مال عن هذا وكذا مال هؤلاء القوم في النساء ومال هذا الكتاب في الكهف و فمال الذين كفروا في المعارج كتبوا هذه الأربعة منفصلة عما بعدها كلمتين ووجه انفصال هذه الأربعة ما حكاه الكسائي من أنَّ ما جرى مجرى ما بال وما شأن وإن قوله مال زيد وما بال زيد بمعنى واحد وقد صح أنَّ اللام في الأربعة لام جر والأصل أنَّ الرسم سنة متبعة لا يعلل وقيل لا يحسن الوقف على الأسواق لأنَّ ما بعده من تمام الحكاية إلى يأكل منها فلا يوقف على الأسواق ولا على نذيراً للعطف بأو 0

يأكل منها (كاف) لتناهي الحكاية 0

مسحوراً (تام)

فضلوا (جائز)

سبيلاً (تام)

(155/556)

الأنهار (جائز) لمن قرأ ويجعل بالرفع على الاستئناف وبها قرأ ابن كثير وابن عامر وعاصم وليس بوقف لمن جزمه عطفاً على جواب الشرط 0

قصوراً (كاف) إن جعلت بل متعلقة بما يليها أي بل كذبوا بالساعة فكيف يلتفتون إلى ما قلت وإن عطفت بل كذبوا على ما حكى من قولهم كان جائزاً والمعنى قد أتوا بأعجب مما قالوا فيك وهو تكذيبهم بالساعة لأَنَّهم لا يقرون بالميعاد 0

سعيراً (كاف) على استئناف ما بعده ومثله وزفيراً للابتداء بالشرط 0

ثبوراً (حسن) ومثله ثبوراً واحداً 0

كثيراً (كاف)

التي وعد المتقون (حسن)

ومصيراً (كاف)

خالدين (حسن)

مسؤلاً (تام) إن نصب يوم بفعل مقدر 0

من دون الله (كاف) لمن قرأ نحشرهم بالنون والياء التحتية في فيقول لعدوله من التكلم إلى الغيبة وليس بوقف لمن قرأهما بالنون وهو ابن عامر وكذا من قرأهما بالياء وهو ابن كثير وحفص 0

السبيل (كاف)

قالوا سبحانك (جائز) للابتداء بالنفي 0

من أولياء إن قلنا أنَّ لكن لابد أن تقع بين متنافيين فليس بوقف لأنَّ ولكن هو الذي يصح به معنى الكلام ولجواز الوقف مدخل لقوم ومن أولياء مفعول على زيادة من لتأكيد النفي 0

حتى نسوا الذكر (جائز) أي أكثرت عليهم وعلى آبائهم النعم فلم يؤدوا شكرها فكان ذلك سبباً للإعراض عن ذكر الله 0

قوماً بوراً (كاف)

بما تقولون (جائز) لمن قرأ يستطيعون بالياء التحتية للعدول من الخطاب إلى الغيبية وليس بوقف لمن قرأه بتاء الخطاب والمراد عبادها وبها قرأ حفص والباقون بياء الغيبية والمراد الآلهة التي كانوا يعبدونها من عاقل وغيره ولذلك غلب العاقل فجيء بواو الضمير 0

ولا نصراً (كاف) وقيل تام للابتداء بالشرط 0

كبيراً (تام)

(156/556)

من المرسلين ليس بوقف لأنَّ إلاَّ أنَّهم لياكلون الطعام تحقيق بعد نفي وكسروا إن بعد إلاَّ لأنَّ في خبرها اللام وقيل كسرت لأنَّ الجملة بعد إلا في موضع الحال قال ابن الأنباري والتقدير ألا وإنَّهم يعني أنَّها حالية تقدر معها الواو بياناً للحالية والعامة على كسر همزة إن وقرأ سعيد بن جبير بفتحها على زيادة اللام 0

في الأسواق (كاف)

فتنة (حسن)

أتصبرون (أحسن) منه ولا يجمع بينهما لأنَّ قوله أتصبرون متعلق بما قبله والتقدير وجعلنا بعضكم لبعض فتنة لننظر أتصبرون على ما نختبركم به من إغناء قوم وفقر آخرين وصحة قوم وأسقام غيرهم أم لا تصبرون 0

بصيراً (نام) ولا وقف إلى قوله أو نرى ربنا فلا يوقف على الملائكة للعطف بأو بعد 0

ربنا (حسن) وقيل تام للابتداء بلام القسم

كبيراً (تام) إن نصب يوم باذكر مقدّراً فيكون من عطف الجمل أو نصب بيعذبون مقدّراً ولا يجوز أن يعمل فيه نفس بشرى لأنَّها مصدر والمصدر لا يعمل فيما قبله 0

للمجرمين ليس بوقف

حجراً محجوراً (كاف) أي وتقول الملائكة حجراً محجوراً أي حراماً محرماً أن يكون

للمجرمين البشرى قال الشاعر:

حنت إلى النخلة القصوى فقلت لها حجر حرام إلى تلك الدهاريس

(157/556)

ووقف الحسن وأبو حاتم على ويقولون حجراً على أنَّ حجراً من قول المجرمين ومحجوراً من قول الله ردَّ عليهم فقال محجوراً عليكم أن تعاذوا بالذال المعجمة أي لا عياذ لكم من عذابنا ومما نريد أن نوقعه بكم أو تجازوا كما كنتم في الدنيا فحجر الله عليهم ذلك يوم القيامة والأوّل قول ابن عباس وبه قال الفراء قاله ابن الأنباري وقرأ الحسن وأبو رجاء حجراً بضم الحاء والعامة بكسرها وحكى أبو البقاء فيه فتح الحاء و قرئ بها فهي ثلاث لغات قرئ بها وقيل إنَّ ذلك من مقول الكفار قالوه لأنفسهم قاله قتادة فيما ذكره الماوردي وقيل هو من مقول الكفار للملائكة وهي كلمة استعاذة وكانت معروفة في الجاهلية إذا لقي الرجل من

يخافه قال حجراً محجوراً أي حراماً عليك التعرض لي وانتصابه على معنى حجرت عليه أو حجر الله عليك كما تقول سقياً ورعياً فحجراً محجوراً من المصادر المنصوبة بأفعال متروك إظهارها وضعت للاستعاذة يعني إنَّ المجرمين إذا رأوا الملائكة وهم في النار قالوا نعوذ بالله منكم أن تتعرضوا لنا فتقول الملائكة حجراً محجوراً أن تعاذوا من شر هذا اليوم قاله الحسن انتهى من تفسير القرطبي وفي السمين وحجراً من المصادر الملتزم إضمار ناصبه ولا يتصرف فيه قال سبيويه يقول الرجل للرجل تفعل كذا فيقول حجراً وهو من حجره إذا منعه لأنَّ المستعيذ طالب من الله أن يمنع عنه المكروه منعاً ويحجره حجراً ومحجوراً صفة مؤكدة للمعنى كقولهم ذيل ذائل وموت مائت والحجر العقل لأنَّه يمنه صاحبه عما لا يليق وهذا الوقف جدير بأن يخص بتأليف وما ذكر غاية في بيانه ولله الحمد 0

منثوراً (تام) ومثله مقيلاً إن نصب يوم تشقق بمحذوف أو بالظرفية لقوله الملك وإن جعل توكيداً اليوم يرون فكافيان 0

تنزيلاً (تام)

للرحمن (كاف)

عسيراً (تام) إن نصب يوم بمحذوف وجائز إن عطف على يوم تشقق ويعض مضارع عض وزنه فعل بكسر العين وحكى الكسائي فتحها في الماضي قاله السمين 0

سبيلاً (كاف) ومثله خليلاً على استئناف ما بعده واللام في قوله لقد جواب قسم محذوف والمراد بالظالم هنا عقبة بن أبي معيط والخليل أمية بن خلف لعنهما الله ولم يصرّح باسمه لئلاَّ يكون الوعيد خاصاً ومقصوراً عليه بل هو يتناول من فعل مثل فعلهما إذا ما من ظالم إلاَّ وله خليل خاص به 0

بعد إذ جاءني (تام) لأنَّه آخر كلام الظالم وما بعده من كلام الله تعالى وهذا إن جعل ما بعده مستأنفاً فإن جعل الكلام متصلاً من قوله يا ليتني اتخذت إلى آخر كلامه فلا وقف إلا على آخره 0

خذولاً (تام) ومثله مهجوراً 0

من المجرمين (حسن)

ونصيراً (تام)

جملة واحدة كذلك (كاف) إن جعل التشبيه من تمام الكلام أي هلا نزل القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم جملة واحدة كما أنزلت التوراة على موسى كغيرها من الكتب قال تعالى لنثبت به فؤادك أي أنزلناه مفرقاً لنثبت به فؤادك أي لنقوي به قلبك وقيل لتحفظه لأنَّه

كان أمياً والأحسن الوقف على جملة واحدة ثم تبتدئ بكذلك فكذلك على الأول من قول المشركين وعلى الثاني من قول الله 0

لنثبت به فؤادك (جائز)

ترتيلاً (كاف)

تفسيراً (تام) لعدم تعلق ما بعده لأنَّه مبتدأ باتفاق وخبره أولئك فلا يوقف على جهنم 0

سبيلاً (تام)

وزيراً (جائز) والوصل أولى لمكان الفاء 0

بآياتنا (حسن) لمن قرأ فدمرناهم وهي قراءة العامة فعل ماض معطوف على محذوف أي فذهبا فبلغا الرسالة فكذبوهما قال تعالى فدمرناهم أي أدت الرسالة إلى دمارهم وليس بوقف على قراءة من قرأ فدمرناهم بالأمر وتشديد النون لأنَّه كلام واحد وهي قراءة عليّ وعنه أيضاً فدمرا بهم بزيادة باء الجر بعد فعل الأمر ونقل الزمخشري عنه أيضاً فدمرتهم بتاء المتكلم وقرئ فدمرانهم بتخفيف النون عزاها المرادي لبعضهم ولم يذكرها السمين 0

تدميراً (كاف) إن نصب قوم نوح بفعل مضمر تقديره وأغرقنا قوم نوح أغرقناهم على الاشتغال وليس بوقف إن نصب عطفاً على الضمير المنصوب في دمرناهم 0

للناس آية (حسن) لأن و أعتدنا مستأنف غير معطوف ولا متصل 0

عذاباً أليماً (كاف) إن نصب ما بعده بفعل مقدر وليس بوقف إن عطف على الضمير في

جعلناهم وحينئذ لا يوقف على آية ولا على أليماً وأصحاب الرس عند بعضهم 0

كثيراً (كاف)

الأمثال (حسن)

تتبيراً (تام)

مطر السوء (جائز)

يرونها (حسن)

نشوراً (تام)

إلاَّ هزواً (حسن) ومثله رسولاً عند أبي حاتم وقال غيره لا يحسن لأنَّ الكلام متصل من

قوله وإذا رأوك وعليه لا يوقف على هزواً ولا على رسولاً 0

لولا أن صبرنا عليها (تام) لتناهي مقولهم وجواب لولا محذوف تقديره لأضلنا 0

من أضل سبيلاً (تام)

هواه (جائز)

وكيلاً (كاف) على استئناف ما بعده على أن أم منقطعة تتقدر ببل والهمزة كأنَّه قيل بل

أتحسب كان هذا المذمة أشدَّ من التي تقدمتها حتى خفت بالإضراب عنها إليها وهو

كونهم مسلوبي الأسماع 0

أو يعقلون (كاف) للابتداء بالنفي المقدر 0

كالأنعام (جائز)

أضل سبيلاً (تام)

مد الظل (كاف) لتناهي الاستفهام 0

ساكناً (جائز) لعدوله من الغيبة إلى التكلم لأنَّ ذلك من أسباب الوقف0

دليلاً ليس بوقف لأنَّ ثم لترتيب الفعل 0

يسيراً (تام)

سباتاً (جائز)

نشوراً (تام)

رحمته (كاف) على استئناف ما بعده0

طهوراً ليس بوقف لأنَّ قوله لنحي به متعلق بما قبله 0

وأناسي كثيراً (تام)

ليذكروا (كاف)

كفوراً (تام)

نذيراً (كاف)

الكافرين (جائز)

كبيراً (تام)

البحرين (حسن) ومثله أجاج على استئناف ما بعده وليس بوقف إن عطف على ما قبله 0

محجوراً (تام)

وصهراً (كاف)

قديراً (تام)

ولا يضرهم (كاف)

ظهيراً (تام)

ونذيراً (كاف)

سبيلاً (كاف)

لا يموت (جائز) للابتداء بالأمر 0

بحمده (حسن)

خبيراً (كاف) وقيل تام إن جعل ما بعده مبتدأ والخبر قوله الرحمن وإن جعل الذين خبر

مبتدأ محذوف أو نصب بتقدير أعني كان كافياً وليس بوقف إن جعل الذي في محل جر بدلاً من الهاء في به لأنه لا يفصل بين البدل والمبدل منه بالوقف0

(160/556)

على العرش (تام) إن رفع الرحمن خبر مبتدأ محذوف أو مبتدأ وما بعده الخبر وليس بوقف إن رفع بدلاً من الضمير في استوى والوقف على هذا التقدير على الرحمن كاف 0

خبيراً (تام) والباء في به صلة وخبيراً مفعول اسأل أو حال من فاعل اسأل لأنَّ الخبير لا يسأل إلاَّ عن جهة التوكيد وقيل الباء بمعنى عن قال علقمة الشاعر :

فإن تسألوني بالنساء فإنني بصير بأدواء النساء طبيب

أي عن النساء والضمير في به لله ولم يحصل من النبي صلى الله عليه وسلم شك في الله حتى يسأل عنه بل هذا كقوله فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك قل إن كان للرحمن ولد من كل شيء معلق على مستحيل وأما النبي صلى الله عليه وسلم قال أنا لا أشك ولا أسأل بل أشهد أنَّه الحق قال الشاعر:

ألا سألت القوم يا ابنة مالك إن كنت جاهلة بما لم تعلمي

أي هلا سألت القوم عما لم تعلمي0

وما الرحمن (حسن) لمن قرأ تأمرنا بالفوقية وهي قراءة العامة وليس بوقف لمن قرأه بالتحتية وهي قراءة الإخوان أي أنسجد لما يأمرنا به محمد لتعلق ما بعده بما قبله 0

لما تأمرنا (جائز) لمن قرأ بالتاء الفوقية وزادهم مستأنف0

نفوراً (تام)

بروجاً (حسن)

منيراً (كاف)

خلفة ليس بوقف لأنَّ ما بعده تفسير لما قبله ولا يوقف على المفسر بالفتح دون المفسر بالكسر ومعنى خلفة إن كل واحد منهما يخلق صاحبه فمن فاته شيء من الأعمال قضاه في الآخر0

أن يذكر ليس بوقف للعطف بعده بأو 0

شكوراً (تام) إن رفع وعباد مبتدأ والخبر أولئك يجزون الغرفة وكان الوقف على مقاماً وعليه فلا يوقف من قوله وعباد الرحمن إلى حسنت مستقراً ومقاماً إلاَّ لضيق النفس ومن جعل الخبر محذوفاً أو جعل الذين يمشون خبراً وقف على هوناً وهو جائز0

سلاماً (كاف) ومثله قياماً0

عذاب جهنم (جائز)

غراماً أي هلاكاً (كاف) إن لم يجعل ما بعده من تمام كلام الوقف وليس بوقف إن جعل من كلامهم وقواماً ولا يزنون كافيان0

(161/556)

يلق أثاماً (حسن) لمن قرأ يضاعف بالرفع على الاستئناف وهو عاصم وقرأ ابن عامر يضعف بالرفع على الاستئناف أيضاً وليس بوقف لمن جزمه بدلاً من يلق بدل اشتمال بدل فعل من فعل لأن تضعيف العذاب هو لفي الآثام قال الشاعر:

متى تأتنا تلمم بنا في ديارنا تجد حطباً جزلاً وناراً تأججا

مهاناً (جائز) والوصل أولى لأنَّ إلاَّ لا يبتدأ بها انظر التفصيل في قوله إلاَّ أن تتقوا منهم تقاة حسنات (كاف) ورحيماً ومتاباً كافيان 0

الزور ليس بوقف لعطف ما بعده على ما قبله 0

كراماً (كاف) ومعنى كراماً أي معرضين عن أهل اللغو0

وعمياناً (كاف)

قرة أعين (جائز) للابتداء بعد بالجملة الفعلية 0

إماماً (حسن)

بما صبروا (جائز) ومثله وسلاماً وقال أبو عمرو كاف وأكفى منه خالدين فيها لاتصال

الحال بذيها 0

حسنت مستقراً ومقاماً (تام)

لولا دعاؤكم (كاف) لاختلاف الجملتين 0

فقد كذبتم (جائز) للابتداء بالتهديد 0

آخر السورة (تام) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ منار الهدى صـ 544.554 ﴾

(162/556)

" فصل فى ذكر قراءات السورة كاملة "

قال العلامة ابن جنى :

سورة الفرقان :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قرأ ابن الزبير : "نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْادِهِ" 1 .

قال أبو الفتح : وجه ذلك أنه وإن كان إنزاله على رسول الله "صلى الله عليه وسلم" فإنه لما

كان "عليه السلام" موصلا له إلى العباد ومخاطبا به لهم صار كأنه منزل عليهم ، ولذلك كثر

فيه خطاب العباد بالأمر والنهي لهم ، والترغيب والترهيب والمصروف اللفظ إليهم ، ونحو ذلك مما يوجه فيه الخطاب نحوهم .

ومن ذلك قراءة طلحة بن مصرف : "اكْتُتِبَهَا2" ، بضم الألف والتاء الأولى وكسر الثانية .

قال أبو الفتح : قراءة العامة : ﴿ اكْتَتَبَهَا ﴾ معناه استكتبها ، ولا يكون معناه كتبها ، أي : كتبها بيده ؛ لأنه "عليه السلام" كان أميا لا يكتب ، وهو من تمام إعجازه ، وأنه لم يكن يقرأ الكتب فيظن بما يورده من الأنباء المتقادمة الأزمان كان عن قراءته الكتب .

فـ﴿ اكْتَتَبَهَا ﴾ معناه استكتبها ؛ لأنه لم يكن أحد من المشركين يدعي أنه يقرأ الكتب وإذا كان كذلك فمعنى ﴿ اكْتَتَبَهَا ﴾ إنما هو استكتبها ، وهو على القالب ، أي : استكتبت له . ومثله في القلب قراءة من قرأ : "قُدِّرُوهَا تَقْدِيرًا"3 ، أي : قدرت لهم ، والقلب باب ، وشواهده كثيرة ، منها قولهم :

---

1 سورة الفرقان : 1 .

2 سورة الفرقان : 5 .

3 سورة الإنسان : 16 ، وهذه قراءة علي وابن عباس والسلمي والشعبي وغيرهم ، كما في البحر "8 : 397" .

مِثْلُ القنافِذِ هَدّاجُونَ قدْ بَلَغَتْ نجرانَ أو بَلَغَتْ سَوْاءَتِهِمْ هَجَرُ 1

أراد : وبَلَغَتْ سوءاتُهُم هجرا ، ومثله قولهم :

أسلَمُوها في دمشْقَ كَمَا أسلمَتْ وحشيَّةٌ وَهَقَا 2

أي : كما أسلم وهق وحشية ، ومنه قوله :

ما أمسكَ الحبلَ حافِره 3

أي : ما أمسَكَ الحبْلُ حافِرَهُ .

وليس ممتنعا أن يكون قوله : ﴿ اكْتَتَبَهَا ﴾ كتبها وإن لم يلِ ذلك بيده ، إلا أنه لما كان عن رأيه أو أمره نسب ذلك إليه ، كقولنا : ضرب الأمير اللص وإن لم يله بيده . وفي الحديث : "من اكتتب ضمنا كان له كذا" 4 ، أي : زمنا ، يعني كتب اسمه في الفرض .

فعلى هذا يكون "اكْتُتِبَهَا" أي : اكْتُتِبَتْ لَهُ .

ومن ذلك قراءة عبيد الله بن موسى وطلحة بن سليمان : "وَيَجْعَلَكَ" ، بالنصب .

قال أبو الفتح : نصبه على أنه جواب الجزاء بالواو ، كقولك : إن تأتني آتك وأُحْسِنَ إليك .

وجازت إجابته بالنصب [114ظ] لما لم يكن واجبا إلا بوقوع الشرط من قبله وليس قويا من ذلك ، ألا تراه بمعنى قولك : أفعل كذا إن شاء الله ؟

1 في ديوان الأخطل "110" يهجو بني يربوع رهط جرير :

قوم أنابت إليهم كل مخزية وكل فاحشة سبت بها مضر

على العيارات هداجون قد بلغت نجران أو حدثت سوءاتهم هجر

والعيارات : جمع عير ، وهو الحمار . والهدجان محركة : مشى ضعيف . ويضرب المثل بالقنفذ في سرى الليل . يقول : إن قوم جرير يسرون كما تسري القنافذ للسرقة والفجور .

2 الوهق ، محركة ويسكن : الحبل يرمى في أنشوطة فتؤخذ به الدابة والإنسان ، وانظر ديوان الحطيئة : 187 ، والتمام : 180 .

3 انظر التمام : 181 .

4 في اللسان "ضمن" : وفي حديث عبد الله بن عمر : "من اكتتب ضمنا بعثه الله ضمنا يوم القيامة" .

أي : من سأل أن يكتب نفسه في جملة الزمنى ليعذر عن الجهاد ، ولا زمانة – بعثه يوم القيامة زمنا . واكتتب : سأل أن يكتب في جملة المعذورين ، وخرجه بعضهم عن عبد الله بن عمرو بن العاص .

ومن ذلك قراءة الأعرج: "نَحْشِرُهُمْ"1 ، بكسر الشين.

قال أبو الفتح: هذا وإن كان قليلا في الاستعمال فإنه قوي في القياس، وذلك أن "يَفْعِل" في المتعدي أقيس من "يَفْعُل"، فضرَب يضرِب إذاً أقيسُ من قتَل يقتُل؛ وذلك أن "يَفْعُل" إنما بابها الأقيس أن تأتي في مضارع فَعُلَ، كظرُف يظرُف، وكرُم، يكرُم، ثم نقلت إلى مضارع فعَل، نحو يقتُل ويدخُل؛ لتخالف حركة العين في المضارع حركتها في الماضي؛ إذ كان مبني الأفعال على اختلاف مُثُلِهَا، من حيث كان ذلك دليلا على اختلاف أزمنتها، فكلما خالف الماضي المضارع كان أقيس، وباب فَعَلَ إنما هو يَفْعُل، كما أن باب فَعِلَ إنما هو يَفْعَل. فكما انقاد عَلِمَ يَعْلَم فكذلك كان يجب أن ينقاد2 باب ضَرَبَ يضرِب.

فأما يفعُل فبابه – على ما تقدم – فعُل، كشرُف يشرُف. وباب فعُل غيرُ متعدٍ، فالأشبه ما أُخْرِجَ إليه من باب فَعَلَ أن يكون مما ليس متعديا كقَعَدَ يقعُد، فكما أن ضرَب يضرِب أقيسُ من قتَل يقتُل فكذلك قعَد يقعُد أقيسُ من جلَس يجلِس وقد شرَحْنا هذا في كتابنا الموسوم بالمنصف3.

ومن ذلك قراءة زيد بن ثابت وأبي الدرداء وأبي جعفر ومجاهد – بخلاف – ونصر بن علقمة4 ومكحول5 وزيد بن علي6 وأبي رجاء والحسن – واختلف عنهما – وحفص بن حميد 4 وأبي عبد الله محمد بن علي: "تُتَّخَذَ8"، بضم النون.

---

1 سورة الفرقان: 17.

2 في ك : تنقاد ، وهو تحريف .

3 المنصف : 1 : 186 .

4 هو نصر بن علقمة الحضرمي أبو علقمة الحمصي ، ورى عن جبير بن نفير ، وروى عنه يحيى بن حمزة ، ووثقه النسائي . الخلاصة : 344 .

5 هو مكحول الدمشقي ، قال عن نفسه : كنت لعمرو بن سعيد بن العاص ، فوهبني لرجل من هذيل بمصر ، فأنعم علي بها ، فما خرجت منها حتى ظننت أنه ليس بها علم إلا وقد سمعته ثم قدمت المدينة فما خرجت منها حتى ظننت أنه ليس بها علم إلا وقد سمعته ، ثم لقيت الشعبي فلم أر مثله ، وقال : اختلفت إلى شريح ستة أشهر لم أسأله عن شيء ، أكتفي بما أسمعه يقضي به . وكان مكحول من أهل كابل ، وكانت فيه لكنة ، وكان يقول بالقدر ، وكان ضعيفا في حديثه وروايته . مات سنة 118 ، وقيل : سنة 113 . طبقات ابن سعد : 7 : 353 ، 354 .

6 هو زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب العلوي أبو الحسين المدني ، أحد أئمة أهل البيت . روى عن أبيه وأبان عن عثمان ، وروى عنه الزهري وزكريا بن أبي زائدة ، من الثقات . قتل سنة 122 ، أو سنة 121 . الخلاصة : 109 .

7 هو حفص بن حميد القمي ، بالقاف ، أبو عبد الله ، روى عن عكرمة ، وروى عنه

أشعث بن إسحاق وغيره وثقه النسائي . الخلاصة : 74 .

8 سورة الفرقان : 18 .

(165/556)

قال أبو الفتح : أما إذا ضمت النون فإن قوله : "مِن أَولياء" في موضع الحال ، أي : ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك أولياء ، ودخلت "من" زائدة لمكان النفي ، كقولك : اتخذت زيدا وكيلا ، فإن نفيت قلت : ما اتخذت زيدا من وكيل . وكذلك أعطيته درهما ، وما أعطيته من درهم ، وهذا في المفعول .

وأما في قراءة الجماعة : ﴿ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ ﴾ فإن قوله ﴿ مِنْ أَوْلِيَاءَ ﴾ 1 في موضع المفعول به ، أي : أولياء . فهو كقولك : ضربت رجلا ، فإن نفيت قلت : ما ضربت من رجل .

وقوله : ﴿ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ ﴾ أي : لسنا ندعي استحقاق الولاء ولا العبادة لنا .

ومن ذلك قراءة علي "عليه السلام" وعبد الرحمن بن عبد الله : "وَيُمْشَّوْنَ فِي الْأَسْوَاقِ" 2 ، بضم الياء ، وفتح الشين مشددة .

قال أبو الفتح : "يُمشَّون" كقولك : يدعون إلى المشي ، ويحملهم حامل إلى المشي ، وجاء

على فُعَّل لتكثير فعلهم ، إذ هم "عليهم السلام" جماعة ، ولو كانت "يُمشُّون" بضم الشين لكانت أوفق لقوله تعالى : ﴿ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ ﴾ ، إلا أن معناه3 يكثرون المشي كما قال :

يُمَشِّي بَيْنَنا حانُوتُ خَمْرٍ مِنَ الخُرْسِ الصَّراصِرَةِ القطاط4

ومن ذلك ما روي عن ابن كثير وأهل مكة : "وَنُزِّلَ الْمَلائِكَةَ"5 ، وكذلك روى خارجة عن أبي عمرو .

قال أبو الفتح : ينبغي أن يكون محمولا على أنه أراد : ونُنَزِّلُ الملائكة ، إلا أنه حذف النون الثانية التي هي فاء فِعل نزَّل ؛ لالتقاء النونين استخفافا ، وشبهها بما حذف من أحد المثلين

---

1 سقط في ك : فإن قوله من أولياء .

2 سورة الفرقان : 20 .

3 أي : معنى "يمشون" .

4 الحانوت : الخمار . والصراصرة : نبط الشام . والقطاط : الجماد ، جمع قطط بالتحريك والبيت للمتنخل الهذلي . انظر ديوان الهذليين : 2 : 21 ، واللسان "حنت ، وقطط" .

5 سورة الفرقان : 25 .

الزائدين في نحو قولهم : أنتم تَفكرون "115و" وتَطهّرون ، وأنت تريد : تتفكرون وتتطهرون ونحوه قراءة من قرأ : "وَكَذَلِكَ نُجِّي الْمُؤْمِنِين" ، ألا تراه يريد : ننجِّي ، فحذف النون الثانية وإن كانت أصلا لما ذكرنا ؟ وقد تقدم القول على ذلك في سورة النور 1 .

وروى عبد الوهاب عن أبي عمرو : "وَنُزِلَ الْمَلائِكَةُ" ، خفيفة .

قال أبو الفتح : هذا غير معروف ؛ لأن "نَزَلَ" لا يتعدى إلى مفعول به فيبنى هنا للملائكة ؛ لأن هذا إنما يجيء على نَزَلَتُ الملائكةَ ، ونُزِل الملائكةُ . ونَزَلْت غير متعدّ كما ترى .

فإن قلت : فقد جاء فُعِل مما لا يتعدى فَعَلَ منه ، نحو زُكِمَ ، ولا يقال زَكَمَه الله . وجُنّ ، ولا يقال جنَّه الله . وإنما يقال : أزكمه الله ، وأَجَنَّه الله – فإن2 هذا شاذ ومحفوظ ، والقياس عليه مردود مرذول . فإما أن يكون ذلك لغة طارقة لم تقع إلينا ، وإما أن يكون على حذف المضاف ، يريد : ونُزِل نُزولُ الملائكة ، ثم حُذف المضاف وأُقيم المضاف إليه مقامه على ما مضى ، فأقام "الملائكة" مقام المصدر الذي كان مضافا إليها ، كما فعل ذلك الأعشى في قوله :

أَلَمْ تَغْتَمِضْ عَيْنَاكَ لَيلةَ أَرْمَدا3

إنما يريد اغتماض ليلة أرمد فنصْبُ ليلة إذاً إنما هو على المصدر لا على الظرف ؛ لأنه لم يُرد : ألم تغتمض عيناك في ليلة أرمد ، وإنما أراد : ألم تغتمض عيناك من الشوق والأسف اغتماضا مثل اغتماض ليلة رَمِد العين . ومثله قول العجاج .

حَتَّى إذا صَفُّوا لَهُ جِدارا4

"فجدارا" الآن منصوب نصب المصدر ، وليس منصوبا على أنه مفعول به ، كقولك : صففتَ قدمَك ، إنما يريد : اصطفوا له اصطفاف جدار ؛ فحذف الاصطفاف ، وأقام "الجدار"

---

1 انظر الصفحة 111 من هذا الجزء .

2 في ك : وأن ، وهو تحريف .

3 عجزه :

وبت كما بات السليم مسهدا

والبيت مطلع قصيدة مدح بها الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكان عزم على الإسلام فصدته قريش . والسليم : اللديغ . وانظر الديوان : 135 ، والخصائص : 3 : 322 ، ومختصر الشواهد للعيني : 180 .

4 انظر الديوان : 24 ، والبيت من أرجوزة في مدح الحجاج .

مقامه ، فنصبه على المصدر ، كما ينصب الاصطفاف أو ظهر ، وكذلك ما رويناه عن محمد بن الحسن عن ابن الأعرابي من قوله :

وطَعْنَةِ مُسْتَبْسِلٍ ثَائِرٍ يَرُدُّ الكَتِيبَةَ نِصْفَ النَّهارِ 1

أي ردّ نصف النهار ألا ترى أن ابن الأعرابي فسره فقال : يرد الكتيبة مقدار نصف يوم ، فهذا يدلك على أنه أراد : يردُّ الكتيبة ردّ نصف النهار ، أي : الرد الذي يمتد وقته بمقياس ما بين أول النهار إلى نصفه ، وذلك نصف يوم . وليس يريد أنه يردها في هذا الوقت البتة ، وإنما يريد أنه يردها مقدار نصف النهار ، كان ابتداء ذلك في أول النهار أو غيره من نهار أو ليل ، وكأنه قال : يرد الكتيبة ست ساعات ، فهذا لا يخص نهارا من ليل ، فبهذا يعلم أنه لا يريد : يردها في وقت انتصاف النهار دون ما سواه من الأوقات .

وكذلك : "وَنُزِلَ الْمَلائِكَةُ" ، أي نزل نزول الملائكة . ولو سمى الفاعل على هذا التقدير لقيل : نَزَلَ النازلُ الملائكةَ ، فنصب الملائكة انتصاب المصدر ، كما نصب الجدار انتصاب المصدر ، لأن كل مضاف إليه يحذف مِنْ قَبْله ما كان مضافا إليه فإنه يعرَب إعرابه ، لا زيادة عليه ولا نقص منه .

فإن قيل : فما معنى : نُزِل نزولَ الملائكة ، حتى يصح لك تقديره مثبتا ثم تحذفه ؟ فإنه على قولك : هذا نُزولٌ منزول ، وهذا صعودٌ مصعود ، وهذا ضرب مضروب . وقريب منه قولهم : "115ظ" قد قيل فيه قول ، وقد خيف منه خوف . فاعرف ذلك ؛ فإنه أمثل ما

يحتج به لقراءة من قرأ : "وَنُزِلَ الْمَلائِكَةَ

" ، بتخفيف2 الزاي ، فاعرفه .

ومن ذلك قراءة علي بن أبي طالب "كرم الله وجهه" ومسلمة بن محارب : "فَدَمِّرانِّهِمْ تدْمِيرًا"3 . حكى أبو عمرو عن علي أنه قرأ : "فَدَمِرْناهم" ، بكسر الميم مخففة ، وحكى عنه أيضا : "فَدَمِّرا بهم" ، بالباء على وجه الأمر .

قال أبو الفتح : الذي رويناه عن أبي حاتم أنه حكاها قراءة غيرَ معزُوَّة إلى أحد : "فَدَمِّرانِّهِمْ تدْمِيرًا" ، وقال : كأنه أمر موسى وهارون عليهما السلام أن يدمّراهم .

---

1 لسبرة بن عمرو الفقعسي . وروي "حاسر" مكان "ثائر" ، و"تردّ" مكان "يردّ" . وانظر النوادر : 155 ، والخصائص : 3 : 322 .

2 سقط في ك : "بتخفيف الزاي" :

3 سورة الفرقان : 36 .

قال أبو الفتح : ألحقَ نون التوكيد ألف التثنية ، كما تقول : اضربانَّ زيدا ، ولا تقتلانَّ جعفرا .

ومن ذلك قراءة الأعرج: "مَنِ اتَّخَذَ إِلَاهَةً هَوَاهُ"[1].

قال أبو الفتح: ذكر أبو حاتم أنها قراءة لبعض[3] أهل مكة، ولم ينص على أحد. والإلاهةُ: الشمس، ويقال: إلاهةُ بالضم غير مصروفة، روينا عن أبي علي:

تَرَوَّحْنا مِنَ اللَّعْبَاء قَصْرًا فَأَعجَلْنا الإلاهة أنْ تَئُوبا[3]

ويروى: فأعجلنا إلاهة، فتكون إلاهة هذه المقروءة منزوعا عنها حرف التعريف الذي في الإلاهة، فتنكرت، فانصرفت.

فأما قراءة من قرأ: "وَيَذَرَكَ وَإِلَاهَتَكَ"[4] فمعناه: وعبادتك، كذا قالوا عنه. وقد يجوز أن يكون أراد: إلاهة هذه المقروءة، فأضافها إليه لعبادته لها، فيكون كقوله: وَيَذَرَكَ وَشَمْسَكَ، أي الشمس التي تعبدها.

ومن ذلك قراءة ابن السميفع: "الرِّيَاحَ بُشْرَى"[5]، مثل[6] حبلى.

قال أبو الفتح: "بُشْرَى"، مصدر وقع موقع الحال، أي: مُبَشِّرَةً، فهو كقولهم: جاء زيد ركضا، أي: راكضا. وهلم جرا، أي جارا أو منجرا. ومنه قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾[7]، أي: ساعيات. ومثله قوله:

---

1 سورة الفرقان: 43.

2 في ك: قراءة أهل.

3 لمية بنت عتيبة ترثي أباها، وقتل يوم خو. قتلته بنو أسد. وروي "عصرا" مكان

"قصرا" . واللعباء : سبخة معروفة بناحية البحرين بحذاء القطيف ، وسيف البحر .

والقصر : الدخول في العشي ، وهو أيضا : اختلاط الظلام . اللسان "لعب" ، ومعجم البلدان "اللعباء" .

4 سورة الأعراف : 127 .

5 سورة الفرقان : 48 .

6 في ك : مثلى ، وهو تحريف .

7 سورة البقرة : 260 .

(169/556)

فأقبلْتُ زَحْفًا على الركبَتَيْنِ فَثَوْبًا نَسِيتُ وَثَوْبًا أَجُرُّ[1]

أي : أقبلت زاحفا وما أكثر نظائره !

ومن ذلك قراءة طلحة بن مصرف : "وَهَذَا مَلْحٌ أُجَاجٌ[2]" .

قال أبو الفتح : قال أبو حاتم[3] : هذا منكر في القراءة ، فقوله : هو منكر في القراءة يجوز أن يريد به أنه لم يُسمع في اللغة ، وإن كان سُمِعَ فقليلٌ وخبيث ، ويجوز أن يكون ذهب فيه إلى أنه أراد مالح ، فحذف الألف تخفيفا كما ذكرنا قبل من قوله :

إلا عَرَادًا عَرِدَا وصلِّيَانًا بَرِدَا4

وهو يريد عارِدا وبارِدا ، وقد تقدم القول على هذا . وعلى أن "مالحا" ليست فصيحة صريحة ؛ لأن الأقوى في ذلك : ماءٌ ملحٌ . ومثله من الأوصاف على فِعْل : نِضْوٌ5 ، ونِقْضٌ6 ، وهِرْطٌ7 ، وحِلْفٌ . وقد أجاز ابن الأعرابي مالح ، وأنشد :

وأنِّي لا أعِيجُ بِمَالِحٍ

وأنشدوا أيضا فيه :

بَصْرِيّةٌ تزوجَتْ بَصْرِيّا يطعمُها المالحَ والطريّا9

---

1 البيت لامرئ القيس . ويروى شطره الأول

فلما دنوت تسديتها

وتسديتها : علوتها . وقوله : فثوبا نسيت ، أي : ذهبت بفؤادي ، فنسيت ثوبي . وانظر الديوان : 159 ، والكتاب : 1 : 44 .

2 سورة الفرقان : 53 .

3 سقطت "أبو" في ك .

4 المحتسب : 1 : 171 ، 2 : 5 .

5 النضو : المهزول .

6 النقض : المنقوض .

7 الهرط : اللحم المهزول كالمخاط .

8 لعذافر ، وقبله :

لو شاء ربي لم أكن كربا ولم أسق لشعفر المطيا

وشعفر : اسم امرأة . قال ثعلب : هي شغفر ، بالغين المعجمة . وانظر اللسان "ملح ، وشعفر" .

(170/556)

وفيما قرئ على أحمد بن يحيى فاعترف بصحته : سمَك مالح ، وماءٌ مالح . وإنما يقال : سمَك مملوح ومليح ، هذا أفصح الكلام ، والأول يقال .

ومن ذلك قراءة حسان بن عبد الرحمن 1 صاحب عائشة "رضي الله عنه 2" ، وهو الذي يروى عنه قتادة : "116 و" "وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قِوَامًا" 3 .

قال أبو الفتح : القَوَامُ ، بفتح القاف : الاعتدال في الأمر ، ومنه قولهم : جارية حسنة القوام : إذا كانت معتدلة الطول والخلق . وأما "القِوَام" بكسر القاف فإنه ملاك الأمر وعصامه ، يقال : مِلَاك أمرك وقِوَامه أن تتقي الله في سرك وعلانيتك ، فكذلك قوله : "كَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قِوَامًا" ، أي : مِلاكا للأمر ونظاما وعصاما .

ولو اقتُصر فيه على قوله : "وكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ" لكان كافيا ؛ لأنه كان بين الإسراف والتقتير فإنه قصد ونظام للأمر ؛ "فَقِوَام" إذاً تأكيد وجارٍ مجرى الصفة ، أي : توسطا مقيما للحال وناظما . ومعلوم أنه إذا كان متوسطا فإنه قوام ومساك ، وأقل ما فيه أن يكون صفة مؤكدة ، كقوله : ﴿ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى ﴾ 4 ، فالأخرى توكيد كما ترى .

ومن ذلك قراءة طلحة بن سليمان : "نُضَعِّفْ له" – بالنون – "العَذَابَ" – نصب – "وتَخْلُدْ فيه"5 ، وجزم .

---

1 كذا في النسختين ، وقد كان حسان بن ثابت من عصبة الإفك ، فلعل الصواب حسان أبو عبد الرحمن ، فهي إحدى كناه . على أن صاحب أسد الغابة يذكر حسان بن عبد الرحمن الضبعي فيمن يُسمون بحسان ، ولا يذكر أن له صلة بعائشة رضي الله عنها ، ولم نجد في تراجم المسمين بقتادة ذكرا لحسان بن عبد الرحمن مرويا عنه أو راويا عن أحد منهم . وانظر الكشاف : 2 : 85 ، وخلاصة تذهيب الكمال : 64 ، 268 .

2 في ك : عنه .

3 سورة الفرقان : 67 .

4 سورة النجم : 20 .

5 سورة الفرقان : 69 .

قال أبو الفتح : هو عندنا على ترك لفظ الغيبة إلى الخطاب ، أي : وتخلد أيها المضعف له العذاب . وقد مضى القول على ترك الغيبة إلى الحضور ، والحضور إلى الغيبة1 .

ومن ذلك قراءة ابن عباس وابن الزبير : "فَقَدْ كَذَّبَ الكَافِرُونَ"2 .

قال أبو الفتح : وهذا أيضا مما ترك فيه لفظ الحضور إلى الغيبة ، ألا ترى قبله : "قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبَ الكافرون" ؟ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿المحتسب حـ 2 صـ 125.116﴾

---

1 انظر الصفحة 145 من الجزء الأول .

2 سورة الفرقان : 77 .

وقال العلامة الدمياطى :

سورة الفرقان

مكية قيل إلا ثلاث آيات والذين ولا يدعون مع الله إلى رحيما وقيل مدنية إلا من أولها إلى نشور وآيها سبع وسبعون بلا خلاف مشبه الفاصلة تسعة ولم يتخذ ولدا وهم يخلقون قوم آخرون أساطير الأولين وعد المتقون ما يشاؤون خالدين صرفا ولا نصرا في السماء بروجا هونا وعكسه موضعان ضلوا السبيل ظلما وزورا القراآت أدغم دال فقد جاؤا أبو عمرو وهشام وحمزة والكسائي وخلف

وأمال جاؤ ابن ذكوان وهشام بخلفه وحمزة وثلث همزها الأزرق ووقف عليه حمزة بين بين مع المد والقصر وأما إبدالها واو فشاذ

وأمال (تملى) الآية 5 حمزة والكسائي وخلف وقلله الأزرق بخلفه ووقف على ما من مال هذا أبو عمرو واختلف عن الكسائي في الوقف على ما أو اللام كما ذكره الداني

والشاطبي وغيرهما ومقتضاه أن الباقين يقفون على اللام فقط والأصح كما في النشر جواز الوقف على ما لجمع القراء قال فيه وأما اللام فيحتمل الوقف عليها لانفصالها خطأ وهو الأظهر قياسا ويحتمل أن لا يوقف عليها من أجل كونها لام جر وإذا وقف على أحدهما لنحو اختيار امتنع الابتداء بهذا أو هذا

واختلف في ( ) جنة يأكل منها (الآية 8 فحمزة بنون الجمع وافقهم الأعمش والباقون بالياء من تحت على إسناده إلى الرسول عليه السلام أي يأكل هو منها ويستغني عن طعامنا

وقرأ ( ) مسحورا انظر (الآية 8 9 بكسر التنوين أبو عمرو وابن ذكوان بخلفه وعاصم

وحمزة ويعقوب ومر بالبقرة

واختلف في ( ) ويجعل لك ( ) الآية 10 فأبو بكر وابن كثير وابن عامر برفع اللام على الاستئناف أي وهو يجعل أو سيجعل أو عطفا على موضع جعل إذ الشرط إذا وقع ماضيا جاز في جوابه الجزم و الرفع لكن تعقب ذلك بأنه ليس مذهب سيبويه وافقهم ابن محيصن والباقون يجزمها عطفا على محل جعل لأنه جواب الشرط ويلزم منه وجوب الإدغام لاجتماع مثلين أولاهما ساكن

(173/556)

وقرأ (ضيقا) الآية 13 بسكون الياء ابن كثير

واختلف في ﴿ ويوم نحشرهم فنقول ﴾ الآية 17 فابن عامر بنون العظمة فيهما التفاتا من الغيبة إلى التكلم وافقه الحسن والشنبوذي وقرأ ابن كثير وحفص وأبو جعفر ويعقوب بالياء من تحت فيهما مناسبة لقوله كان على ربك والباقون بالنون في الأول وبالياء في الثاني مناسبة لما قبله والتفاتا من تكلم من إلى غيبة وسهل الثانية من أأنتم مع الفصل بالألف قالون وأبو عمرو وهشام من طريق ابن عبدان وغيره عن الحلواني وأبو جعفر وسهلها بلا فصل ورش وابن كثير ورويس وللأزرق أيضا إبدالها ألفا مع المد للساكنين وروى الجمال عن

الحلواني عن هشام التحقيق مع الفصل بالألف والباقون بالتحقيق بلا فصل وهي طريق الداجوني عن هشام فله ثلاثة أوجه وأبدل الثانية ياء مفتوحة من هؤلاء أم نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ورويس

واختلف في ( ) أن نتخذ (الآية 18 فأبو جعفر بضم النون وفتح الخاء مبنيا للمفعول وهو يتعدى تارة لواحد نحو أم اتخذوا آلهة من الأرض وتارة لاثنين من اتخذ إلهه هويه فقيل ما هنا منه فالأول ضمير نتخذ النائب عن الفاعل والثاني من أولياء ومن تبعيضية أي بعض أولياء أو زائدة لكن تعقب بأنها لا تزاد في المفعول الثاني والأحسن ما قاله ابن جنى وغيره أن من أولياء حال ومن مزيدة لتأكيد النفي والمعنى ما كان لنا أن نعبد من دونك ولا نستحق الولاية وافقه الحسن والباقون بفتح النون وكسر الخاء على البناء للفاعل ومن أولياء مفعوله ومن مزيدة وحسن زيادتها انسحاب النفي على نتخذ لأنه معمول لينبغي وإذا انتفى الابتغاء انتفى متعلقه وهو اتخاذ الأولياء

(174/556)

واختلف في ﴿ فقد كذبوكم بما يقولون) ﴾ الآية 19 فروى ابن قنبل بالياء على الغيب أي فقد كذبكم الآلهة بما يقولون سبحانك ما كان ينبغي لنا وقيل المعنى فقد كذبتكم أيها

المؤمنون الكفار بما يقولون من الافتراء عليكم وافقه المطوعي ورواه ابن مجاهد عن قنبل بالتاء على الخطاب كالباقين والمعنى فقد كذبكم المعبودون بما تقولون من أنهم أضلوكم واختلف في ( ) فما تستطيعون ( ) الآية 19 فحفص بالتاء من فوق على خطاب العابدين وافقه الأعمش والباقون بالياء على الغيب على إسناده إلى المعبودين وعن المطوعي ( ) ويقولون حجرا (بضم الحاء والجيم وعن الحسن ضم الحاء فقط والجمهور على كسر الحاء وسكون الجيم وكلها لغات وذكره سيبويه في المصادر المنصوبة غير

المنصرفة بمضمر وجوبا من حجره منعه لأن المستفيد طالب من الله أن يمنع عنه المكروه فكأنه سأل الله أن يمنعه منعا ويحجره حجرا والحجر العقل لأنه يأبى إلا الفضائل

واختلف في ( ) تشقق السماء (الآية 25 هنا و ( ) تشقق الأرض ( ) الآية 44 في فأبو عمرو وعاصم وحمزة والكسائي وخلف بتخفيف الشين فيهما على حذف تاء المضارعة أو تاء التفعل على الخلاف وافقهم الأعمش واليزيدي والباقون بتشديدها فيهما على إدغام تاء التفعل في الشين لتنزله بالتفشي منزلة المتقارب

واختلف في ( ) ونزل الملائكة ( ) الآية 25 فابن كثير بنون مضمومة ثم ساكنة مع تخفيف الزاي المكسورة ورفع اللام مضارع أنزل و (الملائكة) بالنصب مفعول به وحينئذ كان من حق المصدر إنزالا قال أبو علي لما كان أنزل ونزل يجريان مجرى واحدا أجزأ مصدر أحدهما عن الآخر وافقه ابن محيصن والباقون بنون واحدة وكسر الزاي المشددة وفتح اللام ماضيا مبنيا للمفعول والملائكة بالرفع نائب الفاعل وأمال الكافرين أبو عمرو وابن ذكوان من طريق الصوري والدوري عن الكسائي ورويس وقلله الأزرق وفتح ياء يا ليتني اتخذت أبو عمرو وأظهر زال اتخذت ابن كثير وحفص ورويس بخلفه وأمال يا ويلتي حمزة والكسائي وخلف بالفتح والصغرى الأزرق والدوري عن أبي عمرو ووقف عليها بهاء السكت بعد الألف ورويس بخلفه وعن الحسن يا ويلتي بكسر التاء وياء بعدها على الأصل وأدغم وأبو عمرو وهشام ذال إذ جاءني وأمال جاءني ابن ذكوان وهشام بخلفه وحمزة وخلف فتح ياء قومي اتخذوا نافع والبزي وأبو عمرو وأبو جعفر وروح ونقل القرآن ابن كثير كوقف حمزة وقرأ نبيء بالهمز نافع وأبدل همز فؤادك واوا مفتوحة الأصبهاني عن ورش وقرأ وثمودا بغير تنوين حفص وحمزة ويعقوب ممنوعا من الصرف للعلمية والتأنيث مرادا به القبيلة والباقون بالتنوين مصروفا على إرادة الحي وأبدل الهمزة الثانية ياء محضة من مطر السوء أفلم نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ورويس وللأزرق إشباع مد الواو والتوسط وأبدل همز هزوا واوا حفص وأسكن الزاي حمزة وخلف وقف حمزة بالنقل على

القياس وبإبدال الهمزة واوا مفتوحة على الرسم أما بين بين وتشديد الزاي فلا يقرأ بهما كما مر بالبقرة مع التنبيه على ما وقع في الأصل ثمة وقرأ أرأيت بتسهيل الثانية قالون وورش من طريقيه وأبو جعفر وللأزرق وجه آخر وهو إبدالها ألفا خالصة مع أشباع المد وقرأ الكسائي بحذف الهمزة ومر بالأنعام وسهل الهمزة الثانية من أفأنت الأصبهاني وفتح السين من أم تحسب ابن

(176/556)

عامر وعاصم وحمزة ويعقوب وأبو جعفر على الأصل وقرأ الريح بالتوحيد ابن كثير وقرأ ﴿ نشرا ﴾ الآية 48 بضم النون والشين جمع ناشر نافع وابن كثير وابو عمرو وأبو جعفر ويعقوب وقرأ ابن عامر بضم النون وإسكان الشين وقرأ عاصم بالموحدة المضمومة وإسكان الشين وقرأ حمزة والكسائي وخلف بالنون مفتوحة وسكون الشين وتقدم بالأعراف وشدد ياء (ميتا) أبو جعفر وعن المطوعي ونسقيه بفتح النون وقرأ (ليذكروا) بسكون الذال وتخفيف الكاف مضمومة حمزة والكسائي وخلف وسبق في الإسراء وعدم ذكر الكسائي هنا في الأصل لعله سبق قلم أو أشتباه بقوله تعالى أن يذكر الآتي قريبا وأسقط الهمزة الأولى من شاء أن قالون والبزي وأبو عمرو ورويس بخلفه وقرأ ورش وأبو

جعفر ورويس في وجهه الثاني بتسهيل الثانية بين بين وللأزرق إبدالها ألفا مع إشباع المد وقرأ قنبل كوجهي الأزرق وله ثالث وهو إسقاط الأولى كالبزي والباقون بتحقيقهما وأمال شاء ابن ذكوان وهشام بخلفه وحمزة وخلف وقرأ فسل بالنقل ابن كثير والكسائي وكذا خلف كحمزة وقفا

وقرأ هشام والكسائي ورويس قيل لهم بإشمام كسر القاف الضم ومر بالبقرة واختلف في ( ) لما تأمرنا (الآية 60 فحمزة والكسائي بالياء من تحت وافقهما الأعمش والباقون بالخطاب والإسناد عليهما إليه وأما وزادهم هشام من طريق الداجوني وابن ذكوان من طريق الصوري والنقاش عن الأخفش وحمزة

واختلف في ﴿ سرجا ﴾ الآية 61 فحمزة والكسائي وخلف بضم السين والراء بلا ألف على الجمع الشمس والكواكب وذكر القمر تشريفا وافقهم الأعمش والباقون بكسر السين وفتح الراء وألف بعدها على التوحيد وهو الشمس فقط وعن الأعمش قمر بضم القاف وإسكان الميم لغة فيه كالرشد والرشد وعن الحسن بفتح القاف وسكون الميم وقرأ أن يذكر بسكون الذال وضم الكاف مخففة حمزة وخلف وسبق بالإسراء

(177/556)

واختلف في ( ) ولم يقتروا (الآية 67 فنافع وابن عامر وأبو جعفر بضم الياء وكسر التاء من أقتر وإنكار أبي حاتم مجيئه هنا من الرباعي لكونه بمعنى افتقرا ومنه وعلى المقتر قدره مردود بحكاية الأصمعي وغيره أقتر بمعنى ضيق وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب بفتح الياء وكسر التاء كيحمل وافقهم ابن محيصن والحسن واليزيدي والباقون بفتح الياء وضم التاء كيقتل والإقتار التقليل ضد الإسراف وهو مجاوزة الحد في النفقة وإن جل والتضييع في المعصية وإن قل أدغم لام يفعل ذلك أبو الحارث

واختلف في ( ) يضاعف ( ) ويخلد ( ) الآية 69 فابن عامر وابو بكر برفع الفعلين فيضاعف على الحال والاستئناف كأنه جواب ما الآثام ويخلد بالعطف عليه والباقون بجزمهما بدلا من يلق لأنه من معناه إذ لقيه جزاء الإثم تضعيف عذابه

وقرأ ﴿ يضعف ﴾ الآية 69 بالقصر وتشديد عينه ابن كثير وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب

وقرأ ( ) فيه مهانا (الآية 69 بصلة هاء فيه ابن كثير وحفص

واختلف في ﴿ وذريتنا ﴾ فأبو عمرو وابو بكر وحمزة والكسائي وخلف بالإفراد على إرادة الجنس وافقهم اليزيدي والحسن والأعمش والباقون بجمع السلامة بيانا للمعنى

واختلف في (ويلقون) الآية 75 فأبو بكر وحمزة والكسائي وخلف بفتح الياء وسكون اللام وتخفيف القاف من لقى يلقى مبنيا للفاعل معدى لواحد وهو تحية وافقهم الأعمش

والباقون بضم الياء وفتح اللام وتشديد القاف من الرباعي مبنيا للمفعول معدى لاثنين أحدهما ناب عن الفاعل فارتفع وهو الواو والثاني تحية ويوقف لحمزة وهشام على ما يعبؤا المرسوم بالواو بإبدال الهمزة ألفا على القياس وبتخفيفها بحركة نفسها فتبدل واوا مضمومة ثم تسكن للوقف ويتحد معه وجه اتباع الرسم ويجوز الروم والإشمام فهذه أربعة والخامس تسهيلها كالواو على تقدير روم الحركة وهذا أحد المواضع العشر المرسومة بالواو المتقدمة

(178/556)

المرسوم في الإمام كالبقية وثمودا هنا كالعنكبوت والنجم بالألف الريح بألف في بعضها وبالحذف في بعض وفي المكي وننزل الملائكة بنونين وفي غيره بواحدة وفي بعض المصاحف سراجا بألف وروى نافع عن المدني كالبواقي وذريتنا بغير ألف بعد الياء واتفقوا على كتابة ما يعبوا بواو وألف المقطوع اتفقوا على فصل اللام من مال هذا الرسول ياءات الإضافة ثنتان ( ) يا ليتني اتخذت ( ) قومي اتخذوا ( ) الآية 27 30 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿إتحاف فضلاء البشر صـ 415.419﴾

(179/556)

وقال الشيخ عبد الفتاح القاضى :

" سورة الفرقان "

" نذيرا ، تقديرا " افتراه . عليه ، جاءوا . أساطير ، فهي ، السر ، مسحورا انظر ، خيرا سعيرا ، وزفيرا وكثيرا وخير ومصيرا وبصيرا ، جلي .

" مال هذا " تقدم حكمه في سورة النساء ، والأصح جواز الوقف الاختيارى أو الاضطرارى على ما أو اللام لجميع القراء .

" يأكل " قرأ الأخوان وخلف بالنون ، والباقون بالياء .

" ويجعل لك " قرأ المكي والشامي وشعبة برفع اللام ، والباقون بجزمها .

" ضيقا " قرأ المكي بسكون الياء وغيره بكسرها مشددة .

" مسئولا " لا توسط فيه ولا مد لورش كقرآن ؛ ووقف عليه حمزة بالنقل .

" يحشرهم " قرأ بالياء حفص وابن كثير وأبو جعفر ويعقوب ، وبالنون الباقون .

" فيقول " قرأ الشامي بالنون ، وغيره بالياء .

" ءأنتم " قرأ قالون وأبو عمرو وأبو جعفر بالتسهيل والإدخال وورش وابن كثير ورويس بالتسهيل من غير إدخال . ولورش الإبدال حرف مد مع الإشباع وهشام بالتسهيل والتحقيق وكل منهما مع الإدخال ، والباقون بالتحقيق بلا إدخال .

" هؤلاء أم " أبدل الثانية ياء مكسورة المدنيان والمكي والبصري ورويس ، وحققها الباقون

" نتخذ " قرأ أبو جعفر بضم النون وفتح الخاء ، وغيره بفتح النون وكسر الخاء .

" تستطيعون " قرأ حفص بتاء الخطاب ، وغيره بياء الغيبة .

" بصيرا " آخر الربع .

الممال

" افتراه " بالإمالة للأصحاب والبصري ، والتقليل لورش . جاءوا . وشاء لابن ذكوان وخلف وحمزة . تملى ، ويلقى بالإمالة للأصحاب ، والتقليل لورش بخلف عنه .

المدغم

" الصغير " " فقد جاءوا " للبصري وهشام والأخوين وخلف .

" الكبير " " للعالمين نذيرا " خلق كل شيء ، جعل لك ، لك قصورا ، كذب بالساعة ، بالساعة سعيرا .

" تشقق " قرأ البصري والكوفيون بتخفيف الشين والباقون بتشديدها .

" ونزل " قرأ ابن كثير بنونين: الأولى مضمومة والثانية ساكنة مع تخفيف الزاي ورفع اللام ونصب تاء الملائكة ، وغيره بنون واحدة مضمومة مع تشديد الزاي وفتح اللام ورفع تاء الملائكة .

" يا ليتني اتخذت " فتح الياء أبو عمرو ، وأسكنها غيره .

" يا ويلتى " وقف رويس بهاء السكت مع المد الطويل .

" فلانا خليلا " يومئذ خير ، حجرا ، القرآن ، نبي ، ونصيرا ، فؤادك ، وزيرا ، أمطرت ، تحسب ، هزوا . كله واضح .

" قومى اتخذوا " فتح الياء وصلا المدنيان والبزي وأبو عمرو وروح ، وأسكنها الباقون .

" وثمود " قرأ حفص وحمزة ويعقوب بترك التنوين والباقون بالتنوين ومن نون وقف بالألف المبدلة منه ، ومن لم ينون وقف على الدال .

" السوء " لورش فيه التوسط والمد في الحالين ، ولحمزة وهشام في الوقف النقل والإدغام وعلى كل السكون والروم .

" السوء أفلم " أبدل الهمزة الثانية ياء محضة المدنيان والمكي والبصري ورويس وحققها الباقون .

" أرأيت " سهل الهمزة الثانية المدنيان ولورش إبدالها ألفا مع المد المشبع للساكن ، وهذا الوجه لا يكون إلا حالة الوصل وحذفها الكسائي .

" الرياح " قرأ المكي بالإفراد وغيره بالجمع .

" بشرا " قرأ المدنيان والمكي والبصريان بالنون مضمومة مع ضم الشين ، وابن عامر بالنون

مضمومة مع إسكان الشين ، والأخوان وخلف بالنون مفتوحة مع إسكان الشين وعاصم بالباء الموحدة المضمومة مع إسكان الشين .

" ميتا " شدد أبو جعفر الياء مكسورة ، وأسكنها غيره .

" ليذكروا " قرأ الأخوان وخلف بإسكان الذال وضم الكاف مخففة ، وغيرهم بفتح الذال والكاف مشددتين .

" جهادا كبيرا " آخر الربع .

الممال

نرى ، وبشرى: بالإمالة للأصحاب والبصري والتقليل لورش . موسى لدى الوقف عليه بالإمالة للأصحاب والتقليل للبصري وورش بخلف عنه . الكافرين معا بالإمالة لرويس والبصري والدوري والتقليل لورش ، ويلتى بالإمالة للأصحاب والتقليل للدوري وورش بخلف عنه ، جاءني وشاء لابن ذكوان وخلف وحمزة وكفى وهواه فأبى بالإمالة للأصحاب والتقليل لورش بخلف عنه . للناس لدوري البصري .

المدغم

" الصغير " " اتخذت " لغير المكي وحفص ورويس ، إذ جاءني للبصري وهشام ، ولقد صرفناه للبصري وهشام والأخوين وخلف .

" الكبير " " فجعلناه هباء " الملائكة تنزيلا ، أخاه هارون ، ذلك كثيرا ، لا يرجون نشورا ، إلهه هواه ، ربك كيف ، جعل لكم ، الليل لباسا .

" وهو " قيل ، جلي .

" وحجرا ، وصهرا " فيهما لورش الترقيق والتفخيم .

" قديرا " الكافر ، ظهيرا ، مبشرا ونذيرا ، كراما ، ذكروا ، لم يخروا . فيها لورش الترقيق قولا واحدا .

" شاء أن " أسقط الأولى مع القصر والمد قالون والبزي والبصري . وإذا نظرت إلى المنفصل السابق يكون لقالون والدوري ثلاثة أوجه قصر المنفصل مع القصر والمد في شاء أن ثم مد همت وللسوسي والبزي وجهان قصر المنفصل مع وجهي: شاء أن . وسهل الثانية بين بين ورش وقنبل وأبو جعفر ورويس ولورش وقنبل إبدالها ألفا مع المد المشبع .

" فسأل " قرأ بالنقل المكي والكسائي وخلف في اختياره .

" تأمرنا " قرأ الأخوان بياء الغيبة وغيرهما بتاء الخطاب .

" سراجا " قرأ الأخوان وخلف بضم السين والراء من غير ألف ، والباقون بكسر السين وفتح الراء وألف بعدها ورقق ورش الراء .

" أن يذكر " قرأ خلف وحمزة بإسكان الذال وضم الكاف وغيرهما بفتح الذال والكاف

وتشديدهما .

" ولم يقتروا " قرأ المدنيان والشامي بضم الياء التحتية وكسر التاء الفوقية وابن كثير والبصريان بفتح الياء وكسر التاء ، والكوفيون بفتح الياء وضم التاء .

" يضاعف ، ويخلد " قرأ نافع والبصري وحفص والأخوان وخلف بألف بعد الضاد وتخفيف العين وجزم فاء يضاعف ودال يخلد ، وابن كثير وأبو جعفر ويعقوب بحذف الألف بعد الضاد وتشديد العين وجزم الفاء والدال . وابن عامر الألف وتشديد العين ورفع الفاء والدال . وشعبة بالألف والتخفيف ورفع الفاء والدال .

" فيه مهانا " وافق حفص وابن كثير على صلة الهاء والباقون بترك الصلة .

" وذرياتنا " قرأ أبو عمرو وشعبة والأخوان وخلف بحذف الألف بعد الياء ، والباقون بإثباتها .

" ويلقون " قرأ شعبة والأخوان وخلف بفتح الياء وسكون اللام وتخفيف القاف . وغيرهم بضم الياء وفتح اللام وتشديد القاف .

(182/556)

" وسلاما خالدين " فيه إخفاء أبي جعفر .

" يعبؤا " فيه لهشام وحمزة وقفا خمسة أوجه: الإبدال ألفا والتسهيل بالروم والإبدال واوا مع السكون والإشمام والروم .

" دعاؤكم " فيه لحمزة وقفا التسهيل بين بين مع المد والقصر هذا هو الصحيح وما عداه لا يقرأ به .

" لزاما " آخر السورة ، وآخر الربع .

الممال

" شاء " لابن ذكوان وخلف وحمزة وزادهم لحمزة وابن ذكوان بخلف عنه . كفى واستوى بالإمالة للأصحاب والتقليل لورش بخلف عنه . الناس لدوري البصري .

المدغم

" الصغير " يفعل ذلك لأبي الحارث .

" الكبير " ربك قديرا ، قيل لهم ، ذلك قواما . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البدور الزاهرة صـ 234.230 ﴾

(183/556)

فصل فى حجة القراءات فى السورة الكريمة

قال ابن خالويه :

ومن سورة الفرقان

قوله تعالى ﴿ يأكل منها ﴾ يقرأ بالياء والنون فالحجة لمن قرأه بالياء أنه أفرد الرسول بذلك والحجة لمن قرأه بالنون أنه أخبر عنهم بالفعل على حسب ما أخبروا به عن أنفسهم

قوله تعالى ﴿ ويجعل لك ﴾ يقرأ بالجزم والرفع فالحجة لمن جزم أنه رده على معنى قوله ﴿ جعل لك ﴾ لأنه جواب الشرط وإن كان ماضيا فمعناه الاستقبال والحجة لمن استأنفه أنه قطعه من الأول فاستأنفه

قوله تعالى ﴿ ويوم يحشرهم ﴾ ﴿ فيقول ﴾ يقرآن بالياء والنون على ما تقدم من الغيبة والإخبار عن النفس

قوله تعالى ﴿ مكانا ضيقا ﴾ يقرأ بالتشديد والتخفيف فقيل هما لغتان وقيل أراد التشديد فخفف وقيل الضيق فيما يرى ويحد يقال بيت ضيق وفيه ضيق والضيق فيما لا يحد ولا يرى يقال صدر ضيق وفيه ضيق

قوله تعالى ﴿ تشقق السماء ﴾ يقرأ بالتشديد والتخفيف وقد تقدم القول فيه آنفا

قوله تعالى ﴿ ونزل الملائكة ﴾ يقرأ بنون واحدة وتشديد الزاي ورفع الملائكة وبنونين وتخفيف الزاي ونصب الملائكة فالحجة لمن شدد ورفع أنه جعله فعل ما لم يسم فاعله

ماضيا فرفع به ودليله قوله ﴿ تنزيلا ﴾ لأنه من نزل كما كان قوله تعالى ﴿ تقتيلا ﴾ من قتل والحجة لمن قرأه بنونين أنه أخذه من أنزلنا فالأولى نون الأستقبال والثانية نون الأصل وهو من إخبار الله تعالى عن نفسه ولو شدد الزاي مع التنوين لوافق ذلك المصدر

قوله تعالى ﴿ يا ويلتى ﴾ يقرأ بالإمالة والتفخيم فالحجة لمن أمال أنه أوقع الإمالة على الألف فأمال لميل الألف والحجة لمن فخم أنه أتى به على الأصل وأراد فيه الندبة فأسقط الهاء وبقي الألف على فتحها

قوله تعالى ﴿ أرسل الرياح بشرا ﴾ يقرأ بالتوحيد والجمع وقد ذكر في البقرة

ويقرأ بالياء والنون وبالضم والإسكان وقد ذكر في الأعراف

(184/556)

قوله تعالى ﴿ ليذكروا ﴾ يقرأ بتشديد الذال وفتحها وبتخفيفها وإسكانها والحجة لمن شدد أنه أراد ليتعظوا ودليله ﴿ فذكر إنما أنت مذكر ﴾ والحجة لمن خفف أنه أراد بذلك الذكر بعد النسيان

قوله تعالى ﴿ لما تأمرنا ﴾ يقرأ بالتاء والياء على ما ذكرناه في معنى المواجهة والغيبة

قوله تعالى ﴿ سراجا ﴾ يقرأ بالتوحيد والجمع فالحجة لمن وحد أنه أراد الشمس لقوله

بعدها وقمرا والحجة لمن جمع أنه أراد ما أسرج وأضاء من النجوم لأنها مع القمر تظهر وتضيء

قوله تعالى ﴿ ولم يقتروا ﴾ يقرأ بفتح الياء وكسر التاء وضمها وبضم الياء وكسر التاء فالحجة لمن فتح الياء وكسر التاء أنه أخذه من قتر يقتر مثل ضرب يضرب ومن ضم التاء أخذه من قتر يقتر مثل خرج يخرج والحجة لمن ضم الياء وكسر التاء أنه أخذه من أقتر يقتر وهما لغتان معناهما قلة الإنفاق

قوله تعالى ﴿ يضاعف ﴾ يقرأ بإثبات الألف والتخفيف وبحذفها والتشديد وقد ذكرت علته فيما سلف

ويقرأ بالرفع والجزم فالحجة لمن رفع أنه لما اكتفى الشرط بجوابه كان ما أتى بعده مستأنفا فرفعه والحجة لمن جزم أنه لما اتصل بعض الكلام ببعض جعلت يضاعف بدلا من قوله يلق فجزمته ورددت عليه ويخلد بالجزم عطفا بالواو

قوله تعالى ﴿ فيه مهانا ﴾ يقرأ بكسر الهاء وإلحاق ياء بعدها وباختلاس الحركة من غير ياء وقد تقدم القول فيه بما يغني عن إعادته

قوله تعالى ﴿ وذرياتنا ﴾ يقرأ بالجمع والتوحيد فالحجة لمن جمع أنه رد أول الكلام على آخره وزاوج بين قوله ﴿ أزواجنا ﴾ ﴿ وذرياتنا ﴾ والحجة لمن وحد أنه

أراد به الذرية وإن كان لفظها لفظ التوحيد فمعناها معنى الجمع ودليله قوله بعد ذكر الأنبياء ﴿ ذرية بعضها من بعض ﴾

(185/556)

قوله تعالى ﴿ ويلقون فيها تحية ﴾ يقرأ بتشديد القاف وتخفيفها فالحجة لمن شدد أنه أراد تكرير تحية السلام عليهم مرة بعد أخرى ودليله قوله ﴿ ولقاهم نضرة وسرورا ﴾ والحجة لمن خفف أنه جعله من اللقاء لا من التلقي كقوله لقيته ألقاه ويلقاه مني ما يسره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الحجة فى القراءات السبعة صـ 264. 267 ﴾

(186/556)

وقال ابن زنجلة :

سورة الفرقان

أو تكون له جنة يأكل منها تبارك الذي إن شاء جعل لك خيرا من ذلك جنت تجري من تحتها الأنهر ويجعل لك قصورا 8 و10

قرأ حمزة والكسائي نأكل منها بالنون وقرأ الباقون بالياء أي محمد صلى الله عليه وحجتهم

قوله تبارك الذي إن شاء جعل لك خيرا من ذلك فخصه بالوصف ولم يقل جعل لكم

فيدخلوا معه في الوصف ومن قرأ بالنون أخبر المتكلم عن نفسه مع جماعة كأنهم أرادوا أن

يكون للنبي صلى الله عليه جنة له دونهم يرونها ويأكلون منها حتى يتيقنوا صحة ذلك

بأكلهم منه نظير ما أخبر عنهم في قيلهم له لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا

وقيلهم أيضا له ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه ولم يقل تقرؤه

أنت علينا حتى تفجر لنفسك

قرأ ابن كثير وابن عامر وأبو بكر ويجعل لك قصورا برفع اللام على الابتداء قطعوه عما قبله

والمعنى وسيجعل لك قصورا أي سيعطيك الله في الآخرة أكثر مما قالوا

وقرأ الباقون ويجعل لك جزما عطفوا على موضع إن شاء المعنى إن يشأ يجعل لك جنات

ويجعل لك قصورا

وإذا ألقوا منها مكانا ضيقا مقرنين دعوا هنالك ثبورا 13

قرأ ابن كثير ضيقا بالتخفيف و وزنه فعل وقرأ الباقون ضيقا بالتشديد و وزنه فيعل وهما

لغتان مثل هين ولين وهين ولين ومثله ميت وميت

ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول ءانتم أضللتم عبادي هؤلاء 17

قرأ ابن كثير وحفص ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول بالياء جميعا

وقرأ ابن عامر جميعا بالنون وقرأ الباقون نحشرهم بالنون فيقول بالياء

حجة من قرأ جميعا بالياء قوله قبلها كان على ربك وعدا مسؤولا ويوم يحشرهم أي ويوم يحشرهم ربك فيقول ويقوي ذلك ما بعده أضللتم عبادي ولم يقل عبادنا

(187/556)

و حجة من قرأ نحشرهم بالنون فيقول بالياء فإنه على أنه أفرد بعد الجمع مثل قوله وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبني إسرائيل ألا تتخذوا من دوني وكيلا و حجة من قرأ نحشرهم بالنون فالله أخبر عن نفسه أي نحن نحشرهم ثم عطف عليه فنقول بلفظ الجمع وحجته قوله في الأنعام ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للملائكة وكما قال وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا

فقد كذبوكم بما تقولون فما تستطيعون صرفا ولا نصرا 19

قرأ ابن كثير في رواية قنبل فقد كذبوكم بما يقولون بالياء أي كذبوكم بقولهم وقولهم سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء وقولهم أيضا سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء وقولهم أيضا سبحانك أنت ولينا من دونهم ففي قوله أنت ولينا من دونهم دلالة على أنهم لم

يعبدوهم لأنهم لو عبدوهم ورضوا بذلك لم يكن الله وليا لهم من دونهم وقرأ فما يستطيعون بالياء أي فما يستطيع الملائكة لهم صرفا ولا نصرا

وقرأ حفص فقد كذبوكم بما تقولون بالتاء أي فقد كذبتكم الملائكة بما تقولون أي في قولكم إنهم آلهة وقرأ فما تستطيعون بالياء أي فما يستطيع الشركاء صرفا ولا نصرا لكم

ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا 25

قرأ نافع وابن كثير وابن عامر ويوم تشقق السماء بالتشديد أرادوا تتشق فأدغموا التاء في الشين

وقرأ الباقون تشقق بالتخفيف أرادوا ايضا تتشقق فحذفوا إحدى التاءين المعنى تشقق السماء بالغمام أي مع الغمام وقد قيل عن الغمام

قرأ ابن كثير وننزل بنونين الأولى مضمومة والثانية ساكنة واللام مرفوعة الملائكة نصب الله تعالى يخبر عن نفسه أي ننزل نحن الملائكة وحجته قراءة من قرأ ما ننزل الملائكة إلا بالحق وما كانوا إذا منظرين وقوله تنزيلا مصدرا نزل تنزيلا ومن أنزل ينزل إنزالا لا يجيء إلا أنه قد جاء في القرآن مثله وهو قوله وتبتل إليه تبتيلا ولم يقل تبتلا فكذلك قراءة ابن كثير

وقرأ الباقون ونزل الملائكة على ما لم يسم فاعله وهو الاختيار لأن تنزيلا لا يكون إلا مصدر نزل

وهو الذي أرسل الريح بشرا بين يدي رحمته 48

قرأ ابن كثير وهو الذي يرسل الريح بغير ألف وقرأ الباقون بالألف وقد ذكرنا الحجة في سورة البقرة نشرا أيضا قد ذكرنا القراءات والحجج في الأعراف

ولقد صرفناه بينهم ليذكروا 50

قرأ حمزة والكسائي ليذكروا ساكنة الذال من ذكر يذكر أي ليذكروا نعم الله عليهم

وقرأ الباقون ليذكروا بالتشديد أرادوا ليتذكروا فأدغموا التاء في الذال والمعنى ليتعظوا

وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفورا 60

قرأ حمزة والكسائي لما يأمرنا بالياء وحجتهما أن التفسير

ورد بأن مسيلمة الكذاب كان تسمى بالرحمن فلما قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا حينئذ أنسجد لما يأمرنا رحمن اليمامة تكبرا منهم واستهزاء فأنزل الله جل وعز من قيلهم هذه الآية وقد يجوز أن يقولوا له وما الرحمن ثم يقول بعضهم لبعض أنسجد لما يأمرنا محمد بالسجود له على وجه الإنكار منهم لذلك ويجوز أيضا أن يعني أنهم قالوا لا نصدقك فنسجد لما تزعم أنه يأمرنا بذلك

وقرأ الباقون لما تأمرنا بالتاء جعلوا الخطاب للنبي صلى الله عليه و سلم أي أنسجد لما

تأمرنا كأنهم خاطبوه بالرد وزادهم نفورا أي وزادهم أمره إياهم بالسجود نفورا عما أمروا به

تبارك الذي جعل في السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا 61

(189/556)

قرأ حمزة والكسائي وجعل فيها سرجا على الجمع وقرأ الباقون سراجا على التوحيد أرادوا الشمس وحجتهم وجعل الشمس سراجا بالتوحيد فردوا ما اختلفوا فيه إلى ما أجمعوا عليه والهاء في فيها عائدة على السماء وأرادو بالبروج النجوم الكبار ويجوز أن تكون الهاء عائدة على البروج فيكون حينئذ السراج يؤدي عن معنى الجمع كما قال يخرجكم طفلا ويكون التقدير وجعل في البروج سراجا فيؤدي السراج عن معنى الجمع ومن قرأ سرجا الشمس والقمر والكواكب العظام معها والهاء في فيها

عائدة على البروج ويكون تقدير الكلام جعل في البروج سرجا وقمرا منيرا وإذا وجهت القراءة على هذا الوجه أخذت المعنيين الجمع والتوحيد لأن البروج منازل الشمس والقمر والنجوم فهي كلها في البروج والشمس داخلة معها

وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا 62

قرأ حمزة لمن أراد أن يذكر بإسكان الذال وضم الكاف أي لمن أراد الذكر قال الفراء يذكر ويتذكر بمعنى واحد يقال ذكرت حاجتك وتذكرتها وفي التنزيل إنه تذكرة فمن شاء ذكره

وقرأ الباقون يذكر بالتشديد أي يتعظ ويتفكر ويعتبر في اختلافهما والأصل يتذكر ثم أدغموا التاء في الذال وحجتهم قوله إنما يتذكر أولوا الألباب

والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا 67

قرأ نافع وابن عامر ولم يقتروا بضم الياء وكسر التاء من أقتر يقتر مثل أكرم يكرم وحجتهما قوله على المقتر قدره

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو يقتروا بفتح الياء وكسر التاء

وقرأ أهل الكوفة يقتروا بضم التاء من قتر يقتر وهما لغتان تقول قتر يقتر ويقتر مثل عرش يعرش ويعرش و عكف يعكف ويعكف وحجتهم قوله وكان الإنسان قتورا

ومن يفعل ذلك يلق أثاما يضعف له العذاب يوم القيمة ويخلد فيه مهانا 68 و69

قرأ ابن كثير يضعف له العذاب بالتشديد والجزم

وقرأ ابن عامر يضعف بالتشديد والرفع ويخلد بالرفع أيضا

وقرأ أبو بكر يضاعف بالرفع والألف ويخلد بالرفع

وقرأ الباقون يضاعف ويخلد بالألف والجزم فيهما

فمن جزم جعله بدلا من جواب الشرط والشرط قوله ومن يفعل ذلك جوابه يلق وعلامة الجزم فيه سقوط الألف ويضاعف بدل من يلق ويخلد نسق عليه قال الزجاج وتأويل الأثام تأويل المجازاة على الشيء قال أبو عمرو الشيباني يقال لقد لقي أثام ذلك أي جزاء ذلك وسيبويه والخليل يذهبان إلى أن معناه يلقى جزاء الأثام ومثله مشفقين مما كسبوا قال أبو عبيدة يلق أثاما أي عقوبة أي عقوبته

ومن رفع فقد استغنى الكلام وتم جواب الشرط فاستأنف على تأويل تفسير يلق أثاما كأن قائلا قال ما لقي الآثم

فقيل يضاعف للآثم العذاب ويخلد نسق عليه ويضعف جيد تقول ضاعفت الشيء وضعفته

ربنا هب لنا من أزواجنا وذريتنا قرة أعين 74

قرأ نافع وابن كثير وابن عامر وحفص من أزواجنا وذرياتنا بالألف على الجمع وقرأ الباقون ذريتنا واحدة فمن جمع قال الجمع للأزواج ومن وحد قال الذرية في معنى الجمع قال الله تعالى ذرية من حملنا مع نوح

أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلما 75

قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر ويلقون فيها بالتخفيف أي يلقون أهل الجنة فيها تحية وسلاما من الله جعلنا الله منهم فالفعل لهم وحجتهم قوله فسوف يلقون غيا ومن يفعل ذلك يلق أثاما فجعلوا قوله ويلقون فيها بلفظ ما تقدم ليكون الكلام على نظم واحد

وقرأ الباقون ويلقون بالتشديد أي يلقيهم الله أو ملائكته التحية والسلام إذا دخلوا الجنة وحجتهم قوله ولقاهم نضرة وسرورا فعلى لقاهم يلقون

واعلم أن لقي فعل متعد إلى مفعول واحد فإذا ثقل تعدى إلى مفعولين فقوله تحية المفعول الثاني من لقيت زيدا تحية فلما بنيت الفعل للمفعول به قام أحد المفعولين مقام الفاعل فبقي الفعل متعديا إلى مفعول واحد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿حجة القراءات صـ 507.

﴿516

(191/556)

فصل

قال الإمام أبو عمرو الداني :

سورة الفرقان

مكية وقد ذكر نظيرتها في المكي وفي الشامي ونظيرتها في المدنيين سورة الرحمن ولا نظير

لها في الكوفي والبصري

وكلمها ثماني مئة واثنتان وتسعون كلمة

وحروفها ثلاث آلاف وسبع مئة وثلاثة وثمانون حرفا

وهي سبع وسبعون آية في جميع العدد ليس فيها اختلاف

وفيها مما يشبه الفواصل وليس معدودا بإجماع سبعة مواضع (﴿ وهم يخلقون ﴾ قوم آخرون) (﴿ أساطير الأولين ﴾ ما يشاؤون) (﴿ خالدين ﴾ التي وعد المتقون) (﴿ في السماء بروجا ﴾

(192/556)

ورؤوس الآي

نذيرا

1 تقديرا

2 نشورا

3 وزورا

4 وأصيلا

5 رحيما

6 نذيرا

7 مسحورا

8 سبيلا

9 قصورا

10 سعيرا

11 وزفيرا

12 ثبورا

13 كثيرا

14 ومصيرا

15 مسؤولا

16 السبيل

17 بورا

18 كبيرا

19 بصيرا

20 كبيرا

21 محجورا

22 منثورا

23 مقيلا

24 تنزيلا

25 عسيرا

26 سبيلا

27 خليلا

28 خذولا

29 مهجورا

30 ونصيرا

31 ترتيلا

32 تفسيرا

33 سبيلا

34 وزيرا

35 تدميرا

36 أليما

37 كثيرا

38 تتبيرا

39 نشورا

40 رسولا

41 سبيلا

42 وكيلا

43 سبيلا

44 دليلا

45 يسيرا

46 نشورا

47 طهورا

48 كثيرا

49 كفورا

50 نذيرا

51 كبيرا

52 مهجورا

53 قديرا

54 ظهيرا

55 ونذيرا

56 سبيلا

57 خبيرا

58 خبيرا

59 نفورا

60 منيرا

61 شكورا

62 سلاما

63 وقياما

64 غراما

65 ومقاما

66 قواما

67 أثاما

68 مهانا

69 رحيما

70 متابا

71 كراما

72 وعميانا

73 إماما

74 وسلاما

75 ومقاما

76 لزاما

77 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿البيان فى عد آى القرآن صـ 194.195﴾

(193/556)

فصل فى إعراب جميع آيات السورة الكريمة

قال الإمام أبو البقاء العكبرى :

سورة الفرقان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى (ليكون) في اسم كان ثلاثة أوجه: أحدها الفرقان .

والثانى العبد .

والثالث الله تعالى ، وقرئ شاذا على عباده فلا يعود الضمير إليه .

قوله تعالى (الذى له) يجوز أن يكون بدلا من " الذى " الأولى ، وأن يكون خبر مبتدأ محذوف ، وأن يكون في موضع نصب على تقدير أعنى .

قوله تعالى (افتراه) الهاء تعود على عبده في أول السورة .

قوله تعالى (ظلما) مفعول جاءوا : أي أتوا ظلما ، ويجوز أن يكون مصدرا في موضع الحال ، والأساطير قد ذكرت في الأنعام (اكتتبها) في موضع الحال من الأساطير : أي قالوا هذه أساطير الأولين مكتتبة .

قوله تعالى (يأكل الطعام) هو في موضع الحال ، والعامل فيها العامل في لهذا أو نفس الظرف (فيكون) منصوب على جواب الاستفهام أو التحضيض (أو يلقى – أو تكون) معطوف على أنزل لأن أنزل بمعنى ينزل ، أو يلقى بمعنى ألقى ،

ويأكل بالياء والنون والمعنى فيهما ظاهر .

(194/556)

قوله تعالى (جنات) بدل من خيرا (ويجعل لك) بالجزم عطفا على موضع جعل الذى هو جواب الشرط ، وبالرفع على الاستئناف ، ويجوز أن يكون من جزم سكن المرفوع تخفيفا وأدغم .

قوله تعالى (إذا رأتهم) إلى آخر الآية في موضع نصب صفة لسعير .

و(ضيقا) بالتشديد والتخفيف قد ذكر في الأنعام ، ومكانا ظرف ، ومنها حال منه: أي مكانا منها ، و (ثبورا) مفعول به ، ويجوز أن يكون مصدرا من معنى دعوا .

قوله تعالى (خالدين) هو حال من الضمير في يشاءون ، أو من الضمير في لهم (كان على ربك) الضمير في كان يعود على " ما " ويجوز أن يكون التقدير: كان الوعد وعدا ، ودل على هذا المصدر .

قوله تعالى (وعدا) وقوله " لهم فيها " وخبر كان وعدا ، أو على ربك (ويوم نحشرهم) أي واذكر .

قوله تعالى (وما يعبدون) يجوز أن تكون الواو عاطفة ، وأن تكون بمعنى مع .

قوله تعالى (هؤلاء) يجوز أن يكون بدلا من عبادي ، وأن يكون نعتا قوله تعالى (أن نتخذ) يقرأ بفتح النون وكسر الخاء على تسمية الفاعل ، و (من أولياء) هو المفعول الأول ، ومن دونك الثاني ، وجاز دخول " من " لأنه في سياق النفى ، فهو كقوله تعالى " ما اتخذ الله من ولد " ويقرأ بضم النون وفتح الخاء على ما لم يسم فاعله ، والمفعول الأول مضمر ، ومن

أولياء الثاني ، وهذا لا يجوز عند أكثر النحويين لأن " من " لا تزاد في المفعول الثاني ، بل في الأول كقولك: ما اتخذت من أحد وليا ، ولا يجوز ما اتخذت أحدا من ولى ، ولو جاز ذلك لجاز فما منكم

أحد عنه من حاجزين ، ويجوز أن يكون من دونك حالا من أولياء .

قوله تعالى (إلا أنهم) كسرت " إن " لأجل اللام في الخبر ، وقيل لو لم تكن اللام لكسرت أيضا لأن الجملة حالية ، إذ المعنى إلا وهم يأكلون ، وقرئ بالفتح على أن اللام زائدة ، وتكون إن مصدرية ، ويكون التقدير: إلا أنهم يأكلون: أي وما جعلناهم رسلا إلى الناس إلا لكونهم مثلهم ، ويجوز أن تكون في موضع الحال ، ويكون التقدير: إنهم ذوو أكل .

(195/556)

قوله تعالى (يوم يرون) في العامل فيه ثلاثة أوجه: أحدها اذكر يوم .

والثانى يعذبون يوم ، والكلام الذى بعده يدل عليه .

والثالث لا يبشرون يوم يرون .

ولا يجوز أن تعمل فيه البشرى لأمرين: أحدهما أن المصدر لا يعمل فيما قبله .

والثانى أن المنفى لا يعمل فيما قبل لا .

قوله تعالى (يومئذ) فيه أوجه: أحدها هو تكرير ليوم الأول .

والثانى هو خبر بشرى فيعمل فيه المحذوف ، و (للمجرمين) تبيين أو خبر ثان .

والثالث أن يكون الخبر للمجرمين ، والعامل في يومئذ ما يتعلق به اللام .

والرابع أن يعمل فيه بشرى إذا قدرت أنها منونة غير مبنية مع لا ، ويكون الخبر للمجرمين ، وسقط التنوين لعدم الصرف ، ولا يجوز أن يعمل فيه بشرى إذا بنيتها مع لا .

قوله تعالى (حجرا محجورا) هو مصدر ، والتقدير: حجرنا حجرا ، والفتح والكسر لغتان وقد قرئ بهما .

قوله تعالى (ويوم تشقق) يقرأ بالتشديد والتخفيف والأصل تتشقق ، وهذا الفعل يجوز أن يراد به الحال والاستقبال ، وأن يراد به الماضي وقد حكى ، والدليل على أنه عطف عليه ، ونزل وهو ماض ، وذكر بعد قوله " ويقولون حجرا " وهذا يكون بعد تشقق السماء ، وأما انتصاب يوم فعلى تقدير: اذكر ، أو على معنى

وينفرد الله بالملك يوم تشقق السماء (ونزل) الجمهور على التشديد ، ويقرأ بالتخفيف والفتح و (تنزيلا) على هذا مصدر من غير لفظ الفعل ، والتقدير: نزلوا تنزيلا فنزلوا .

قوله تعالى (الملك) مبتدأ ، وفى الخبر أوجه ثلاثة: أحدها (للرحمن) فعلى هذا يكون الحق نعتا للملك ، ويومئذ معمول الملك أو معمول ما يتعلق به اللام ، ولا يعمل فيه الحق لأنه مصدر متأخر عنه .

والثاني أن يكون الخبر الحق ، وللرحمن تبيين أو متعلق بنفس الحق : أي يثبت للرحمن .

والثالث أن يكون الخبر يومئذ ، والحق نعت للرحمن .

قوله تعالى (يقول يا ليتني) الجملة حال ، وفي يا ها هنا وجهان ذكرناهما في قوله تعالى " يا ليتني كنت معهم " .

قوله تعالى (مهجورا) هو مفعول ثان لاتخذوا : أي صيروا للقرآن مهجورا بإعراضهم عنه .

قوله تعالى (جملة) هو حال من القرآن : أي مجتمعا (كذلك) أي أنزل

(196/556)

كذلك ، فالكاف في موضع نصب على الحال ، أو صفة لمصدر محذوف ، واللام في (لنثبت) يتعلق بالفعل المحذوف .

قوله تعالى (جئناك بالحق) أي بالمثل الحق ، أو بمثل أحسن تفسيرا من تفسير مثلهم .

قوله تعالى (الذين يحشرون) يجوز أن يكون التقدير هم الذين ، أو أعني الذين ، و (أولئك) مستأنف ، ويجوز أن يكون الذين مبتدأ وأولئك خبره .

قوله تعالى (هارون) هو بدل .

قوله تعالى (فدمرناهم) يقرأ فدمراهم ، وهو معطوف على اذهبا ، والقراءة

المشهورة معطوفة على فعل محذوف تقديره: فذهبا فأنذرا فكذبوهما فدمرناهم (وقوم نوح) يجوز أن يكون معطوفا على ما قبله: أي ودمرنا قوم نوح ، و (أغرقناهم) تبيين للتدمير ، ويجوز أن يكون التقدير: وأغرقنا قوم نوح (وعادا) أي ودمرنا أو أهلكنا عادا (وكلا) معطوف على ما قبله ، ويجوز أن يكون التقدير وذكرنا كلا ، لأن (ضربنا له الأمثال) في معناه ، وأما (كلا) الثانية فمنصوبة ب (تبرنا) لا غير .

قوله تعالى (مطر السوء) فيه ثلاثة أوجه: أحدها أن يكون مفعولا به ثانيا ، والأصل أمطرت القرية مطرا: أي أوليتها أو أعطيتها .

والثانى أن يكون مصدرا محذوف الزوائد : أي إمطار السوء .

والثالث أن يكون نعتا لمحذوف: أي إمطارا مثل مطر السوء .

قوله تعالى (هزوا) أي مهزوا به ، وفى الكلام حذف تقديره: يقولون (أهذا) والمحذوف حال ، والعائد إلى (الذى) محذوف: أي بعثه ، و (رسولا) يجوز أن يكون بمعنى مرسل ، وأن يكون مصدرا حذف منه المضاف: أي ذا رسول ، وهو الرسالة .

قوله تعالى (إن كاد) هي مخففة من الثقيلة وقد ذكر الخلاف فيها في مواضع أخر .

قوله تعالى (من أضل) هو استفهام ، و (نشورا) قد ذكر في الأعراف .

قوله تعالى (لنحيى به) اللام متعلقة بأنزلنا ، ويضعف تعلقها بطهور لأن الماء ما طهر لنحيى

(مما خلقنا) في موضع نصب على الحال من (أنعاما وأناسى) والتقدير: أنعاما مما خلقنا ، ويجوز أن يتعلق من بنسقيه لابتداء الغاية كقولك:

(197/556)

أخذت من زيد مالا ، فإنهم أجازوا فيه الوجهين ، وأناسى أصله أناسين جمع إنسان كسرحان وسراحين فأبدلت النون فيه ياء وأدغمت ، وقيل هو جمع إنسى على القياس والهاء في (صرفناه) للماء ، والهاء في (به) للقرآن .

قوله تعالى (ملح) المشهور على القياس يقال ماء ملح ، وقرئ " ملح " بكسر اللام ، وأصله مالح على هذا ، وقد جاء في الشذوذ فحذفت الألف كما قالوا في بارد وبرد .

والتاء في فرات أصلية ووزنه فعال ، و (بينهما) ظرف لجعل ، ويجوز أن يكون حالا من برزخ .

قوله تعالى (على ربه) يجوز أن يكون خبر كان ، و (ظهيرا) حال أو خبر ثان ، ويجوز أن يتعلق بظهيرا وهو الأقوى .

قوله تعالى (إلا من شاء) هو استثناء من غير الجنس .

قوله تعالى (بذنوب) هو متعلق ب (خبيرا) أي كفى الله خبيرا بذنوبهم .

قوله تعالى (الذى خلق) يجوز أن يكون مبتدأ ، و (الرحمن) الخبر ، وأن يكون خبرا : أي هو الذى ، أو نصبا على إضمار أعنى ، فيتم الكلام على العرش ، ويكون الرحمن مبتدأ ، وفاسأل به الخبر على قول الأخفش ، أو خبر مبتدإ محذوف: أي هو الرحمن ، أو بدلا من الضمير في استوى .

قوله تعالى (به) فيه وجهان .

أحدهما الباء تتعلق (بخبيرا) وخبيرا مفعول اسأل .

والثانى أن الباء بمعنى عن فتتعلق باسأل ، وقيل التقدير : فاسأل بسؤالك عنه خبيرا ، ويضعف أن يكون خبيرا حالا من الفاعل في اسأل ، لأن الخبير لا يسأل إلا على جهة التوكيد مثل " وهو الحق مصدقا " ويجوز أن يكون حالا من الرحمن إذا رفعته باستوى .

قوله تعالى (لما تأمرنا) يقرأ بالتاء والياء .

وفي " ما " ثلاثة أوجه: أحدها هي بمعنى الذى .

والثانى نكرة موصوفة ، وعلى الوجهين يحتاج إلى عائد ، والتقدير: لما تأمرنا بالسجود له ثم بسجوده ، ثم تأمرنا ، ثم تأمرنا ، هذا على قول أبى الحسن ، وعلى قول سيبويه حذف ذلك كله من غير تدريج .

والوجه الثالث هي مصدرية .

أي أنسجد من أجل أمرك ، وهذا لا يحتاج إلى عائد ، والمعنى: أنعبد الله لأجل أمرك .

قوله تعالى (سراجا) يقرأ على الإفراد ، والمراد الشمس ، وعلى الجمع بضمتين أي الشمس والكواكب ، أو يكون كل جزء من الشمس سراجا لانتشارها وإضاءتها في موضع دون موضع ، و (خلفة) مفعول ثان أو حال ، وأفرد لأن المعنى يخلف أحدهما الآخر فلا يتحقق هذا إلا منهما .

والشكور بالضم مصدر مثل الشكر .

قوله تعالى (وعباد الرحمن) مبتدأ .

وفي الخبر وجهان: أحدهما (الذين يمشون) والثاني قوله تعالى " أولئك يجزون " والذين يمشون صفة .

قوله تعالى (قالوا سلاما) سلاما هنا مصدر ، وكانوا في مبدإ الإسلام إذا خاطبهم الجاهلون ذكروا هذه الكلمة ، لأن القتال لم يكن شرع ثم نسخ .

ويجوز أن يكون قالوا بمعنى سلموا ، فيكون سلاما مصدره .

قوله تعالى (مستقرا) هو تمييز ، وساءت بمعنى بئس ، و (يقتروا) بفتح الياء ، وفي التاء وجهان: الكسر ، والضم وقد قرئ بهما ، والماضي ثلاثي يقال: قتر يقتر ويقتر ، ويقرأ بضم

الياء وكسر التاء ، والماضي أقتر ، وهى لغة ، وعليها جاء " وعلى المقتر قدره " (وكان بين ذلك) أي وكان الإنفاق ، و (قواما) الخبر ، ويجوز أن يكون بين الخبر وقواما حالا ، (إلا بالحق) في موضع الحال ، والتقدير : إلا مستحقين .

قوله تعالى (يضاعف) يقرأ بالجزم على البدل من يلق إذ كان من معناه ، لأن مضاعفة العذاب لقى الآثام ، وقرأ بالرفع شاذا على الاستئناف (ويخلد) الجمهور على فتح الياء ، ويقرأ بضمها وفتح اللام على ما لم يسم فاعله ، وماضيه أخلد بمعنى خلد ، (مهانا) حال ، والأثام اسم للمصدر مثل السلام والكلام (إلا من تاب)

استثناء من الجنس في موضع نصب .

قوله تعالى (وذرياتنا) يقرأ على الإفراد ، وهو جنس في معنى الجمع وبالجمع و (قرة) هو المفعول ، ومن أزواجنا وذرياتنا يجوز أن يكون حالا من قرة ، وأن يكون معمول هب ، والمحذوف من هب فاؤه ، والأصل كسر الهاء لأن الواو لا تسقط إلا على هذا التقدير مثل يعد ، إلا أن الهاء فتحت من يهب لانها حلقية فهى عارضة ، فلذلك لم تعد الواو كما لم تعد في يسع ويدع .

(199/556)

قوله تعالى (إماما) فيه أربعة أوجه: أحدها أنه مصدر مثل قيام وصيام، فلم يجمع لذلك، والتقدير: ذوى إمام.

والثانى أنه جمع إمامة مثل قلادة وقلاد.

والثالث هو جمع آم من آم يؤم مثل حال وحلال.

والرابع أنه واحد اكتفى به عن أئمة كما قال تعالى "نخرجكم طفلا".

(200/556)

قوله تعالى (ويلقون) يقرأ بالتخفيف وتسمية الفاعل، وبالتشديد وترك التسمية، والفاعل في (حسنت) ضمير الغرفة.

قوله تعالى (ما يعبأ بكم) فيه وجهان: أحدهما ما يعبأ بخلقكم لولا دعاؤكم: أي توحيدكم.

والثانى ما يعبأ بعذابكم لولا دعاؤكم معه آلهة أخرى.

قوله تعالى (فسوف يكون) اسم كان مضمر دل عليه الكلام المتقدم، أو يكون الجزاء أو العذاب، و (لزاما) أي ذا لزام أو ملازما، فأوقع المصدر موقع اسم الفاعل، والله أعلم.

انتهى انتهى. اهـ ﴿ إملاء ما من به الرحمن حـ 2 صـ 160. 166 ﴾

(201/556)

وقال الشيخ : حميدان دعاس :

سورة الفرقان

[سورة الفرقان (25) : الآيات 1 الى 3]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

تَبارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقانَ عَلى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعالَمِينَ نَذِيراً (1) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً (2) وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلا نَفْعاً وَلا يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلا حَياةً وَلا نُشُوراً (3)

(202/556)

"تَبارَكَ الَّذِي" ماض واسم الموصول فاعله والجملة مستأنفة "نَزَّلَ الْفُرْقانَ" ماض ومفعوله وفاعله مستتر والجملة صلة "عَلى عَبْدِهِ" متعلقان بنزل والهاء مضاف اليه "لِيَكُونَ" اللام لام التعليل ومضارع ناقص منصوب بأن المضمرة واسمه محذوف "لِلْعالَمِينَ" متعلقان بنذيرا "نَذِيراً" خبر يكون "الَّذِي" بدل من الذي السابقة "لَهُ" متعلقان بالخبر المقدم "مُلْكُ" مبتدأ

والجملة صلة "السَّماواتِ" مضاف إليه "وَالْأَرْضِ" معطوف "وَلَمْ" الواو عاطفة ولم جازمة "يَتَّخِذْ" مضارع مجزوم بلم فاعله مستتر "وَلَداً" مفعول به والجملة معطوفة "وَلَمْ يَكُنْ" مضارع ناقص مجزوم بلم والجملة معطوفة "لَهُ" متعلقان بالخبر المقدم "شَرِيكٌ" اسم يكن والجملة معطوفة "فِي الْمُلْكِ" متعلقان بشريك "وَخَلَقَ كُلَّ" ماض ومفعوله وفاعله مستتر، والجملة معطوفة "شَيْءٍ" مضاف اليه "فَقَدَّرَهُ" الفاء عاطفة وماض فاعله مستتر والهاء مفعوله والجملة معطوفة "تَقْدِيراً" مفعول مطلق "وَاتَّخَذُوا" الواو استئنافية وماض وفاعله والجملة مستأنفة "من دون" متعلقان باتخذوا "اللّه" لفظ الجلالة مضاف اليه "آلِهَةً" مفعول به "لا يَخْلُقُونَ" لا نافية ومضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة صفة لآلهة "شَيْئاً" مفعول به "وَهُمْ" الواو عاطفة ومبتدأ والجملة معطوفة "يُخْلَقُونَ" مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل والجملة خبر "وَلا يَمْلِكُونَ" معطوف على يخلقون وإعرابه مثله "لِأَنْفُسِهِمْ" متعلقان بيملكون "ضَرًّا" مفعول به "وَلا نَفْعاً" معطوف على ضرا "وَلا يَمْلِكُونَ مَوْتاً" معطوف على ما قبله "وَلا حَياةً" معطوف على ما قبله "وَلا نُشُوراً" الواو عاطفة ولا زائدة نشورا معطوف.

[سورة الفرقان (25) : الآيات 4 الى 6]

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذا إِلاَّ إِفْكٌ افْتَراهُ وَأَعانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جاؤُ ظُلْماً وَزُوراً (4) وَقالُوا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَها فَهِيَ تُمْلى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (5) قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كانَ غَفُوراً رَحِيماً (6)

"وَقَالَ الَّذِينَ" الواو عاطفة وماض واسم الموصول فاعله والجملة معطوفة "كَفَرُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "إِنْ" نافية "هَذا" الها للتنبيه وذا اسم إشارة مبتدأ "إِلَّا" أداة حصر "إِفْكٌ" خبر والجملة

(204/556)

مقول القول "افْتَراهُ" ماض مبني على الفتح المقدر على الألف للتعذر وفاعله مستتر والهاء مفعوله والجملة صفة إفك "وَأَعانَهُ" معطوف على افتراه "عَلَيْهِ" متعلقان بأعانه "قَوْمٌ" فاعل "آخَرُونَ" صفة مرفوعة بالواو لأنه جمع مذكر سالم "فَقَدْ" الفاء عاطفة وقد حرف تحقيق "جاؤُ" ماض وفاعله والجملة معطوفة "ظُلْماً" مفعول به "وَزُوراً" معطوف على ظلما "وَقالُوا" الواو عاطفة وماض وفاعله والجملة معطوفة "أَساطِيرُ" خبر لمبتدأ محذوف "الْأَوَّلِينَ" مضاف اليه مجرور بالياء لأنه جمع مذكر سالم والجملة مقول القول "اكْتَتَبَها" ماض

ومفعوله والفاعل مستتر والجملة حالية "فَهِيَ" الفاء عاطفة ومبتدأ "تُمْلى" مضارع مبني للمجهول مرفوع بالضمة المقدرة على الألف ونائب الفاعل مستتر "عَلَيْهِ" متعلقان بالفعل "بُكْرَةً" ظرف زمان "وَأَصِيلًا" معطوف على بكرة والجملة خبر هي "قُلْ" أمر فاعله مستتر والجملة مستأنفة "أَنْزَلَهُ" ماض ومفعوله المقدم والجملة مقول القول "الَّذِي" موصول فاعل "يَعْلَمُ السِّرَّ" مضارع ومفعوله وفاعله مستتر والجملة صلة "فِي السَّماواتِ" متعلقان بيعلم "وَالْأَرْضِ" معطوف على ما قبله "إِنَّهُ" إن واسمها والجملة تعليل لا محل لها "كانَ" ماض ناقص واسمها محذوف والجملة خبر إنه "غَفُوراً رَحِيماً" خبرا كان.

[سورة الفرقان (25) : الآيات 7 الى 9]

وَقالُوا مالِ هذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْواقِ لَوْلا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً (7) أَوْ يُلْقى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْها وَقالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلاً مَسْحُوراً (8) انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً (9)

(205/556)

"وَقالُوا" الواو استئنافية وماض وفاعله والجملة مستأنفة "ما" اسم استفهام مبتدأ "لِهذَا" ذا اسم إشارة في محل جر باللام متعلقان بالخبر "الرَّسُولِ" بدل من اسم الإشارة والجملة

مقول القول "يَأْكُلُ الطَّعامَ" مضارع ومفعوله والفاعل مستتر والجملة حالية "وَيَمْشِي"
معطوف على يأكل مرفوع بالضمة المقدرة على الياء للثقل وفاعله مستتر "فِي الْأَسْواقِ"
متعلقان بيمشي "لَوْلا" حرف تحضيض "أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ" ماض مبني للمجهول وملك نائب
فاعل والجار والمجرور متعلقان بأنزل "فَيَكُونَ" الفاء سببية ومضارع ناقص منصوب بأن
المضمرة بعد فاء السببية "مَعَهُ" ظرف مكان متعلق بنذيرا واسمها محذوف "نَذِيراً" خبر
"أَوْ" عاطفة "يُلْقى إِلَيْهِ كَنْزٌ" مضارع مبني للمجهول مرفوع بالضمة المقدرة على الألف
للتعذر وكنز نائب فاعل والجار والمجرور متعلقان بيلقى والجملة معطوفة "أَوْ" عاطفة
"تَكُونُ" مضارع ناقص "لَهُ" متعلقان بالخبر المقدم "جَنَّةٌ" اسم تكون والجملة معطوفة
"يَأْكُلُ" مضارع فاعله مستتر والجملة صفة لجنة "مِنْها" متعلقان بيأكل "وَقالَ الظَّالِمُونَ"
ماض وفاعله المرفوع بالواو لأنه جمع مذكر سالم والجملة معطوفة "إِنْ" حرف نفي "تَتَّبِعُونَ"
مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة مقول القول "إِلَّا" أداة حصر "رَجُلًا" مفعول
به "مَسْحُوراً" صفة "انْظُرْ" أمر فاعله مستتر والجملة مستأنفة "كَيْفَ" اسم استفهام في
محل نصب حال "ضَرَبُوا" ماض وفاعله والجملة في محل نصب مفعول به لانظر "لَكَ"
متعلقان بالفعل "الْأَمْثالَ" مفعول به "فَضَلُّوا" الفاء عاطفة وماض وفاعله والجملة معطوفة
"فَلا" الفاء عاطفة لا نافية "يَسْتَطِيعُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل "سَبِيلًا"

مفعول به والجملة معطوفة .

[سورة الفرقان (25) : الآيات 10 الى 12]

(206/556)

تَبارَكَ الَّذِي إِنْ شاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْراً مِنْ ذلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُوراً (10) بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيراً (11) إِذا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَها تَغَيُّظاً وَزَفِيراً (12)

"تَبارَكَ الَّذِي" ماض واسم الموصول فاعله والجملة مستأنفة "إِنْ" شرطية "شاءَ" ماض فاعله مستتر والجملة ابتدائية لا محل لها "جَعَلَ" ماض فاعله مستتر والجملة لا محل لها لأنها جواب شرط لم تقترن بالفاء "لَكَ" متعلقان بجعل "خَيْراً" مفعول به "مِنْ ذلِكَ" اسم الإشارة في محل جر بمن متعلقان بخيرا واللام للبعد والكاف للخطاب "جَنَّاتٍ" بدل من خير منصوب مثله وعلامة نصبه الكسرة نيابة عن الفتحة لأنه جمع مؤنث سالم "تَجْرِي" مضارع مرفوع بالضمة المقدرة على الياء للثقل "مِنْ تَحْتِهَا" متعلقان بتجري والهاء مضاف اليه "الْأَنْهارُ" فاعل "وَيَجْعَلْ" الواو عاطفة ومضارع مجزوم لانه معطوف على جواب الشرط وفاعله مستتر "لَكَ" متعلقان بيجعل "قُصُوراً" مفعول به "بَلْ" حرف إضراب "كَذَّبُوا" ماض والواو

فاعل والجملة مستأنفة "بِالسَّاعَةِ" متعلقان بكذبوا "وَأَعْتَدْنا" الواو عاطفة وماض وفاعله والجملة معطوفة "لِمَنْ" اللام حرف جر من موصولية متعلقان بأعتدنا "كَذَّبَ" ماض فاعله مستتر والجملة صلة "بِالسَّاعَةِ" متعلقان بكذب "سَعِيراً" مفعول به "إِذا" ظرف يتضمن معنى الشرط "رَأَتْهُمْ" ماض وفاعله والجملة مضاف إليه "مِنْ مَكانٍ" متعلقان برأتهم "بَعِيدٍ" صفة لمكان "سَمِعُوا" ماض والواو فاعله "لَها" متعلقان بمحذوف حال والجملة لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم "تَغَيُّظاً" مفعول به "وَزَفِيراً" معطوف على تغيظا .

[سورة الفرقان (25) : الآيات 13 الى 16]

(207/556)

وَإِذا أُلْقُوا مِنْها مَكاناً ضَيِّقاً مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنالِكَ ثُبُوراً (13) لا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُوراً واحِداً وَادْعُوا ثُبُوراً كَثِيراً (14) قُلْ أَذلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كانَتْ لَهُمْ جَزاءً وَمَصِيراً (15) لَهُمْ فِيها ما يَشاؤُنَ خالِدِينَ كانَ عَلى رَبِّكَ وَعْداً مَسْؤُلاً (16)

"وَإِذا" الواو عاطفة إذا ظرف يتضمن معنى الشرط "أُلْقُوا" ماض مبني للمجهول والواو نائب فاعل والجملة مضاف إليه والكلام معطوف على ما قبله "مِنْها" متعلقان بألقوا "مَكاناً" ظرف مكان متعلق بألقوا "ضَيِّقاً" صفة "مُقَرَّنِينَ" حال منصوبة بالياء لأنها جمع

مذكر سالم "دَعَوْا" ماض مبني على الضم المقدر على الألف المحذوفة لالتقاء الساكنين والواو فاعل والجملة لا محل لها لأنها جواب شرط

(208/556)

غير جازم "هُنالِكَ" اسم إشارة للمكان واللام للبعد والكاف للخطاب في محل نصب على الظرفية "ثُبُوراً" مفعول مطلق "لا تَدْعُوا" لا ناهية تدعوا مضارع مجزوم بحذف حرف العلة والواو فاعل والجملة مستأنفة "الْيَوْمَ" ظرف زمان متعلق بتدعوا "ثُبُوراً" مفعول مطلق "واحِداً" صفة "وَادْعُوا" أمر وفاعله والجملة معطوفة "ثُبُوراً" مفعول مطلق "كَثِيراً" صفة "قُلْ" أمر فاعله مستتر والجملة مستأنفة "أَذلِكَ" الهمزة للاستفهام واسم الإشارة مبتدأ واللام للبعد والكاف للخطاب "خَيْرٌ" خبر والجملة مقول القول "أَمْ" عاطفة "جَنَّةُ" معطوف على ذلك "الْخُلْدِ" مضاف اليه "الَّتِي" اسم موصول صفة لجنة "وُعِدَ الْمُتَّقُونَ" ماض مبني للمجهول ونائب الفاعل مرفوع بالواو لأنه جمع مذكر سالم والجملة صلة "كانَتْ" كان والتاء للتأنيث واسم كان مستتر "لَهُمْ" متعلقان بمحذوف حال "جَزاءً" خبر كان "وَمَصِيراً" معطوف "لَهُمْ فِيها" كلاهما متعلقان بالخبر المقدم المحذوف "ما" موصولية مبتدأ مؤخر والجملة مستأنفة "يَشاؤُنَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة صلة

"خالِدِينَ" حال منصوبة بالياء لأنها جمع مذكر سالم "كانَ" ماض ناقص واسمها محذوف "عَلى رَبِّكَ" متعلقان بمحذوف حال "وَعْداً" خبر كان "مَسْؤُلًا" صفة لوعدا والجملة مستأنفة.

[سورة الفرقان (25) : الآيات 17 الى 18]

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَما يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبادِي هؤُلاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ (17) قالُوا سُبْحانَكَ ما كانَ يَنْبَغِي لَنا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِياءَ وَلكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآباءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكانُوا قَوْماً بُوراً (18)

(209/556)

"وَيَوْمَ" الواو عاطفة والظرف متعلق بفعل محذوف تقديره واذكر "يَحْشُرُهُمْ" مضارع ومفعوله والفاعل مستتر والجملة مضاف اليه "وَما" الواو عاطفة واسم الموصول معطوف على مفعول يحشرهم "يَعْبُدُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة صلة "مِنْ دُونِ" متعلقان بمحذوف حال "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "فَيَقُولُ" الفاء عاطفة ومضارع فاعله مستتر "أَأَنْتُمْ" الهمزة للاستفهام وأنتم مبتدأ والجملة مقول القول "أَضْلَلْتُمْ" ماض وفاعله والجملة خبر "عِبادِي" مفعول به منصوب بالفتحة المقدرة على ما قبل ياء

المتكلم والياء مضاف اليه "هؤُلاءِ" الها للتنبيه واسم الإشارة بدل "أَمْ" عاطفة "هُمْ" مبتدأ "ضَلُّوا السَّبِيلَ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة معطوفة "قالُوا" ماض وفاعله والجملة مستأنفة "سُبْحانَكَ" مفعول مطلق لفعل محذوف والكاف مضاف اليه "ما" نافية "كانَ" ماض ناقص واسمها محذوف "يَنْبَغِي" مضارع مرفوع بالضمة المقدرة على الياء للثقل والفاعل مستتر والجملة خبر "لَنا" متعلقان بينبغي "أَنْ" ناصبة "نَتَّخِذَ" مضارع منصوب وفاعله مستتر "مِنْ دُونِكَ" متعلقان بنتخذ "مِنْ" زائدة "أَوْلِياءَ" مجرور لفظا منصوب محلا مفعول به أول "وَلكِنْ" الواو عاطفة ولكن حرف استدراك "مَتَّعْتَهُمْ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة معطوفة "وَآباءَهُمْ" معطوفة على مفعول متعتهم "حَتَّى" حرف غاية وجر "نَسُوا" ماض وفاعله "الذِّكْرَ" مفعول به "وَكانُوا" الواو عاطفة وكان واسمها "قَوْماً" خبر والجملة معطوفة. "بُوراً" صفة قوما.

[سورة الفرقان (25) : الآيات 19 الى 20]

(210/556)

فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِما تَقُولُونَ فَما تَسْتَطِيعُونَ صَرْفاً وَلا نَصْراً وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذاباً كَبِيراً (19) وَما أَرْسَلْنا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْواقِ وَجَعَلْنا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكانَ رَبُّكَ بَصِيراً (20)

(211/556)

"فَقَدْ" الفاء الفصيحة قد حرف تحقيق "كَذَّبُوكُمْ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة لا محل لها جواب شرط "بِما" ما موصولية متعلقان بكذبوكم "تَقُولُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة صلة "فَما" الفاء عاطفة ما نافية "تَسْتَطِيعُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة معطوفة "صَرْفاً" مفعول به "وَلا" الواو عاطفة لا زائدة "نَصْراً" معطوف على صرفا "وَمَنْ" الواو استئنافية من شرطية مبتدأ والجملة مستأنفة "يَظْلِمْ" مضارع فعل الشرط وفاعله مستتر "مِنْكُمْ" متعلقان بمحذوف حال "نُذِقْهُ" مضارع مجزوم لأنه جواب الشرط والهاء مفعول به وفاعله مستتر والجملة لا محل لها لأنها جواب شرط لم يقترن بالفاء "عَذاباً" مفعول به "كَبِيراً" صفة "وَما" الواو استئنافية ما نافية "أَرْسَلْنا" ماض وفاعله والجملة مستأنفة "قَبْلَكَ" ظرف زمان متعلق بأرسلنا والكاف مضاف اليه "مِنَ الْمُرْسَلِينَ" متعلقان بأرسلنا "إِلَّا إِنَّهُمْ" أداة حصر وإن واسمها والجملة حالية "لَيَأْكُلُونَ" اللام

لام المزحلقة ومضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة خبر "الطَّعامَ" مفعول به "وَيَمْشُونَ" معطوف على يأكلون وإعرابه مثله "فِي الْأَسْواقِ" متعلقان بيمشون "وَجَعَلْنا بَعْضَكُمْ" ماض وفاعله ومفعوله الأول والجملة معطوفة والكاف مضاف إليه "لِبَعْضٍ" متعلقان بمحذوف حال "فِتْنَةً" مفعول به ثان "أَتَصْبِرُونَ" الهمزة للاستفهام ومضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة مستأنفة "وَكانَ رَبُّكَ بَصِيراً" كان واسمها وخبرها والكاف مضاف اليه والجملة مستأنفة.

[سورة الفرقان (25) : الآيات 21 الى 23]

(212/556)

وَقالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرى رَبَّنا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيراً (21) يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلائِكَةَ لا بُشْرى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْراً مَحْجُوراً (22) وَقَدِمْنا إِلى ما عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْناهُ هَباءً مَنْثُوراً (23)

(213/556)

"وَقَالَ الَّذِينَ" الواو استئنافية وماض واسم الموصول فاعله والجملة مستأنفة "لا يَرْجُونَ" لا نافية ومضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة صلة "لِقاءَنا" مفعول به ونا مضاف اليه "لَوْلا" حرف تحضيض "أُنْزِلَ" ماض مبني للمجهول "عَلَيْنا" متعلقان بأنزل "الْمَلائِكَةُ" نائب فاعل والجملة في محل نصب مقول القول "أَوْ نَرى" أو عاطفة ومضارع مرفوع بالضمة المقدرة على الألف للتعذر وفاعله مستتر "رَبَّنا" مفعول به ونا مضاف إليه "لَقَدِ" اللام واقعة في جواب القسم المحذوف قد حرف تحقيق "اسْتَكْبَرُوا" ماض والواو فاعله "فِي أَنْفُسِهِمْ" متعلقان باستكبروا ، والهاء مضاف إليه والجملة جواب القسم "وَعَتَوْا" معطوف على استكبروا وإعرابه مثله "عَتَوْا" مفعول مطلق "كَبِيراً" صفة "يَوْمَ" ظرف زمان متعلق بفعل محذوف تقديره اذكر "يَرَوْنَ الْمَلائِكَةَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والملائكة مفعوله والجملة مضاف إليه "لا" نافية للجنس "بُشْرى" اسم لا المنصوب بالفتحة المقدرة على الألف للتعذر "يَوْمَئِذٍ" ظرف أضيف إلى مثله "لِلْمُجْرِمِينَ" متعلقان بالخبر المحذوف "وَيَقُولُونَ حِجْراً مَحْجُوراً" الواو عاطفة ومضارع وفاعله ومفعوله والجملة حالية ومحجورا صفة "وَقَدِمْنا" الواو استئنافية وماض وفاعله "إِلى ما" اسم الموصول مجرور بإلى متعلقان بقدمنا والجملة مستأنفة . "عَمِلُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "مِنْ عَمَلٍ" متعلقان بمحذوف حال "فَجَعَلْناهُ" الفاء عاطفة وماض وفاعله ومفعوله الأول والجملة معطوفة

"هَباءً" مفعول به ثان لجعل "مَنْثُوراً" صفة هباء منصوبة مثلها

[سورة الفرقان (25) : الآيات 24 الى 27]

(214/556)

أَصْحابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلاً (24) وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّماءُ بِالْغَمامِ وَنُزِّلَ الْمَلائِكَةُ تَنْزِيلاً (25) الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمنِ وَكانَ يَوْماً عَلَى الْكافِرِينَ عَسِيراً (26) وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلى يَدَيْهِ يَقُولُ يا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً (27)

"أَصْحابُ" مبتدأ "الْجَنَّةِ" مضاف إليه "يَوْمَئِذٍ" ظرف أضيف إلى ظرف متعلق بخير "خَيْرٌ" خبر أصحاب والجملة ابتدائية "مُسْتَقَرًّا" تمييز "وَأَحْسَنُ" معطوف على خير "مَقِيلًا" تمييز "وَيَوْمَ" ظرف منصوب بفعل محذوف تقديره واذكر "تَشَقَّقُ السَّماءُ" مضارع وفاعله والجملة مضاف إليه "بِالْغَمامِ" متعلقان بتشقق "وَنُزِّلَ الْمَلائِكَةُ" ماض مبني للمجهول ونائب فاعله "تَنْزِيلًا" مفعول مطلق والجملة معطوفة "الْمُلْكُ" مبتدأ "يَوْمَئِذٍ" يوم ظرف أضيف إلى ظرف متعلق بالخبر المحذوف "الْحَقُّ" صفة للملك "لِلرَّحْمنِ" متعلقان بالخبر والجملة مستأنفة "وَكانَ يَوْماً" كان واسمها محذوف ويوما خبرها والجملة معطوفة "عَلَى الْكافِرِينَ" متعلقان بعسيرا "عَسِيراً" صفة يوما . "وَيَوْمَ" الواو استئنافية ويوم ظرف زمان

متعلق بفعل محذوف تقديره اذكر والكلام مستأنف "يَعَضُّ الظَّالِمُ" مضارع وفاعله والجملة في محل جر مضاف إليه "عَلى يَدَيْهِ" متعلقان بيعض "يَقُولُ" الجملة في محل نصب على الحال "يا" للتنبيه "لَيْتَنِي" ليت واسمها "اتَّخَذْتُ" ماض وفاعل والجملة خبر ليت وجملة ليت مقول القول "مَعَ" ظرف مكان وقع موقع المفعول الثاني لاتخذت "الرَّسُولِ" مضاف إليه "سَبِيلًا" مفعول به أول.

[سورة الفرقان (25) : الآيات 28 الى 31]

(215/556)

يا وَيْلَتى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاناً خَلِيلاً (28) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جاءَنِي وَكانَ الشَّيْطانُ لِلْإِنْسانِ خَذُولاً (29) وَقالَ الرَّسُولُ يا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً (30) وَكَذلِكَ جَعَلْنا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفى بِرَبِّكَ هادِياً وَنَصِيراً (31)

(216/556)

"يا" للنداء "وَيْلَتى " منادى مضاف وياء المتكلم مضاف إليه وقد انقلبت الياء ألفا وجملة النداء ابتدائية "لَيْتَنِي" ليت واسمها "لَمْ أَتَّخِذْ" مضارع مجزوم بلم والجملة خبر ليت "فُلاناً خَلِيلًا" مفعولا أتخذ وجملة ليتني ابتدائية "لَقَدْ" اللام واقعة في جواب قسم محذوف وقد حرف تحقيق "أَضَلَّنِي" ماض ومفعوله وفاعله مستتر والجملة لا محل لها لأنها جواب قسم "عَنِ الذِّكْرِ" متعلقان بأضلني "بَعْدَ إِذْ" ظرف أضيف إلى ظرف متعلق بمحذوف حال "جاءَنِي" ماض ومفعول به وفاعله مستتر والجملة مضاف إليه "وَكانَ الشَّيْطانُ لِلْإِنْسانِ خَذُولًا" الواو واو الحال وكان واسمها وخبرها والجار والمجرور متعلقان بخذولا والجملة في محل نصب على الحال "وَقالَ الرَّسُولُ" ماض وفاعل والجملة مستأنفة "يا رَبِّ" يا حرف نداء رب منادى مضاف وياء المتكلم المحذوفة مضاف إليه والجملة مقول القول "إِنَّ قَوْمِي" إن واسمها وياء المتكلم في محل جر والجملة مقول القول "اتَّخَذُوا" ماض وفاعله والجملة خبر إن "هذا" الها للتنبيه وذا اسم إشارة مفعول به أول لاتخذوا "الْقُرْآنَ" بدل "مَهْجُوراً" مفعول به ثان "وَكَذلِكَ" الواو استئنافية الكاف حرف جر وذا اسم إشارة مجرور بالكاف متعلقان بمحذوف مفعول مطلق "جَعَلْنا" ماض وفاعل "لِكُلِّ نَبِيٍّ" الجار والمجرور نابا عن المفعول الثاني لجعل ونبي مضاف إليه "عَدُوًّا" مفعول به أول "مِنَ الْمُجْرِمِينَ" متعلقان بعدوا والجملة مستأنفة "وَكَفى " ماض "بِرَبِّكَ" الباء حرف جر زائد ربك فاعل محلا والكاف

مضاف إليه "هادِياً" تمييز "وَنَصِيراً" معطوف على هاديا والجملة معطوفة.

[سورة الفرقان (25) : الآيات 32 الى 34]

(217/556)

وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً واحِدَةً كَذلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤادَكَ وَرَتَّلْناهُ تَرْتِيلاً (32) وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْناكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً (33) الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلى وُجُوهِهِمْ إِلى جَهَنَّمَ أُوْلئِكَ شَرٌّ مَكاناً وَأَضَلُّ سَبِيلاً (34)

"وَقالَ الَّذِينَ" ماض واسم الموصول فاعل والجملة مستأنفة "كَفَرُوا" والجملة صلة "لَوْلا" حرف تحضيض "نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ" ماض مبني للمجهول والقرآن نائب فاعل والجار والمجرور متعلقان بالفعل والجملة مقول القول "جُمْلَةً" حال "واحِدَةً" صفة "كَذلِكَ" متعلقان بصفة لمفعول مطلق محذوف نزلناه تنزيلا كذلك . . "لِنُثَبِّتَ" اللام للتعليل والمضارع منصوب "بِهِ" متعلقان بنثبت والفاعل مستتر "فُؤادَكَ" مفعول به والكاف مضاف إليه "وَرَتَّلْناهُ" ماض وفاعل ومفعول به والجملة معطوفة على نزلناه المحذوفة "تَرْتِيلاً" مفعول مطلق "وَلا" لا نافية "يَأْتُونَكَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والكاف مفعول به والجملة معطوفة "وَلا" لا نافية "يَأْتُونَكَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل ومفعول به "بِالْحَقِّ" متعلقان

بجئناك والجملة في محل نصب على الحال "وَأَحْسَنَ" عطف على الحق وجر بالفتحة لأنه ممنوع من الصرف "تَفْسِيراً" تمييز "الَّذِينَ" مبتدأ "يُحْشَرُونَ" الجملة صلة "عَلى وُجُوهِهِمْ" متعلقان بحال محذوفة "إِلى جَهَنَّمَ" متعلقان بيحشرون "أُوْلَئِكَ شَرٌّ" مبتدأ وخبر "مَكاناً" تمييز "وَأَضَلُّ" معطوفة على شر "سَبِيلًا" تمييز وجملة أولئك إلخ خبر الذين.

[سورة الفرقان (25) : الآيات 35 الى 37]

(218/556)

وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ وَجَعَلْنا مَعَهُ أَخاهُ هارُونَ وَزِيراً (35) فَقُلْنَا اذْهَبا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا فَدَمَّرْناهُمْ تَدْمِيراً (36) وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْناهُمْ وَجَعَلْناهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنا لِلظَّالِمِينَ عَذاباً أَلِيماً (37)

"وَلَقَدْ" الواو استئنافية واللام واقعة في جواب قسم محذوف وقد حرف تحقيق "آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ" ماض وفاعله ومفعولاه والجملة مستأنفة "وَجَعَلْنا" ماض وفاعل والجملة معطوفة "مَعَهُ" ظرف مكان متعلق بالمفعول به الثاني المحذوف "أَخاهُ" مفعول به أول والهاء مضاف إليه "هارُونَ" بدل من أخاه "وَزِيراً" حال "فَقُلْنَا" ماض وفاعل والجملة معطوفة "اذْهَبا" أمر وفاعله والجملة مقول القول "إِلَى الْقَوْمِ" متعلقان باذهبا "الَّذِينَ" اسم موصول

صفة للقوم "كَذَّبُوا" ماض وفاعل والجملة صلة "بِآياتِنا" متعلقان بكذبوا ونا مضاف إليه "فَدَمَّرْناهُمْ" ماض وفاعل ومفعول به والجملة معطوفة على ما قبلها "تَدْمِيراً" مفعول مطلق "وَقَوْمَ" مفعول به لفعل محذوف تقديره وأغرقنا "نُوحٍ" مضاف إليه "لَمَّا" ظرف بمعنى حين أو أداة شرط غير جازمة "كَذَّبُوا الرُّسُلَ" الجملة مضافة "أَغْرَقْناهُمْ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم "وَجَعَلْناهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً" ماض وفاعله ومفعولاه والجار والمجرور متعلقان بجعلناهم "وَأَعْتَدْنا" ماض وفاعل "لِلظَّالِمِينَ" متعلقان بأعتدنا "عَذاباً" مفعول به "أَلِيماً" صفة والجملة معطوفة.

[سورة الفرقان (25) : الآيات 38 الى 40]

(219/556)

وَعاداً وَثَمُودَ وَأَصْحابَ الرَّسِّ وَقُرُوناً بَيْنَ ذلِكَ كَثِيراً (38) وَكُلاًّ ضَرَبْنا لَهُ الْأَمْثالَ وَكُلاًّ تَبَّرْنا تَتْبِيراً (39) وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَها بَلْ كانُوا لا يَرْجُونَ نُشُوراً (40)

"وَعاداً" مفعول به لفعل محذوف تقديره اذكر عادا "وَثَمُودَ" معطوف على عادا "وَأَصْحابَ الرَّسِّ وَقُرُوناً" معطوف على ما قبله "بَيْنَ" ظرف مكان متعلق بمحذوف

صفة قرونا "ذِلكَ" مضاف إليه

"كَثِيراً" صفة ثانية لقرونا . "وَكُلًّا" مفعول به لفعل محذوف "ضَرَبْنا" ماض وفاعله والجملة مفسرة لا محل لها "لَهُ" متعلقان بضربنا "الْأَمْثالَ" مفعول به "وَكُلًّا" مفعول به مقدم لتبرنا "تَبَّرْنا تَتْبِيراً" ماض وفاعل ومفعول مطلق "وَلَقَدْ" الواو استئنافية واللام واقعة في جواب قسم محذوف وقد حرف تحقيق "أَتَوْا" ماض وفاعل والجملة مستأنفة "عَلَى الْقَرْيَةِ" متعلقان بأتوا "الَّتِي" صفة للقرية "أُمْطِرَتْ" ماض مبني للمجهول والجملة صلة "مَطَرَ" مفعول مطلق "السَّوْءِ" مضاف إليه أي الحجارة والقرية هي سدوم قرية لوط المدمرة . "أَفَلَمْ" الهمزة للاستفهام التقريري والفاء استئنافية ولم حرف جازم "يَكُونُوا" مضارع مجزوم ناقص والواو اسمها "يَرَوْنَها" مضارع وفاعل ومفعول به والجملة خبر يكونوا "بَلْ" حرف إضراب "كانُوا" كان واسمها "لا يَرْجُونَ" لا نافية وفعل مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل "نُشُوراً" مفعول به والجملة خبر كانوا وجملة أفلم يكونوا . . استئنافية لا محل لها .

[سورة الفرقان (25) : الآيات 41 الى 42]

(220/556)

وَإِذا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُواً أَهذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً (41) إِنْ كادَ لَيُضِلُّنا عَنْ آلِهَتِنا لَوْلا أَنْ صَبَرْنا عَلَيْها وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً (42)

"وَإِذا" الواو استئنافية وإذا ظرف يتضمن معنى الشرط "رَأَوْكَ" ماض وفاعل ومفعول به والجملة في محل جر مضاف إليه "إِنْ" نافية "يَتَّخِذُونَكَ" مضارع وفاعل ومفعول أول والجملة لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم لم يقترن بالفاء "إِلَّا" أداة حصر "هُزُواً" مفعول به ثان ليتخذونك "أَهذَا" الهمزة للاستفهام التقريري "هذَا" الها للتنبيه وذا اسم إشارة مبتدأ "الَّذِي" اسم موصول خبر والجملة مستأنفة "بَعَثَ اللَّهُ" ماض ولفظ الجلالة فاعل "رَسُولاً" حال والجملة صلة "إِنْ" مخففة من الثقيلة "كادَ" ماض ناقص واسمها محذوف "لَيُضِلُّنا" اللام الفارقة بين النفي والإثبات وفعل مضارع ومفعوله وفاعله مستتر والجملة خبر كاد "عَنْ آلِهَتِنا" متعلقان بيضلنا ونا مضاف إليه "لَوْلا" حرف شرط غير جازم "أَنْ صَبَرْنا" أن مصدرية وماض وفاعله وأن وما بعدها في تأويل مصدر في محل رفع مبتدأ وخبره محذوف "عَلَيْها" متعلقان بصبرنا وجواب لولا محذوف تقديره لولا صبرنا موجود لأضلنا "وَسَوْفَ" الواو للاستئناف وسوف حرف استقبال "يَعْلَمُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة استئنافية "حِينَ" ظرف زمان متعلق بيعلمون "يَرَوْنَ" مضارع وفاعل "الْعَذابَ" مفعول به والجملة مضاف إليه "مَنْ" اسم استفهام مبتدأ

"أَضَلُّ" خبر والجملة مفعول به ليرون "سَبِيلًا" تمييز .

[سورة الفرقان (25) : الآيات 43 الى 44]

(221/556)

أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلٰهَهُ هَواهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً (43) أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً (44)

"أَرَأَيْتَ" الهمزة للاستفهام وفعل ماض وفاعله والجملة مستأنفة ومعنى أرأيت أخبرني "مَنِ" موصول مفعول به أول لرأيت "اتَّخَذَ" ماض فاعله مستتر "إِلٰهَهُ" مفعول به ثان مقدم والهاء مضاف إليه "هَواهُ"

مفعول به أول مؤخر وقدم المفعول به الثاني لأنه أهم "أَفَأَنْتَ" الهمزة للاستفهام والفاء حرف عطف على محذوف "أنت" مبتدأ "تَكُونُ" مضارع ناقص "عَلَيْهِ" متعلقان بوكيلا واسم تكون محذوف "وَكِيلًا" خبر تكون وجملة "تَكُونُ . . " خبر المبتدأ أنت وجملة "أنت . . " مفعول به ثان لأرأيت "أَمْ" حرف عطف "تَحْسَبُ" مضارع فاعله مستتر وجوبا "أَنَّ أَكْثَرَهُمْ" أن واسمها والهاء مضاف إليه وسدت هي واسمها وخبرها مسد مفعولي تحسب "يَسْمَعُونَ" مضارع وفاعله والجملة خبر أن "أَوْ" حرف عطف "يَعْقِلُونَ" الجملة معطوفة

على يسمعون "أَنَّ" حرف نفي "هُمْ" مبتدأ "إِلَّا" أداة حصر "كَالْأَنْعامِ" متعلقان بخبر محذوف والجملة مستأنفة "بَلْ" حرف إضراب وعطف "هُمْ" مبتدأ "أَضَلُّ" خبر "سَبِيلًا" تمييز والجملة معطوفة على هم أضل الاولى.

[سورة الفرقان (25) : الآيات 45 الى 47]

أَلَمْ تَرَ إِلى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شاءَ لَجَعَلَهُ ساكِناً ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً (45) ثُمَّ قَبَضْناهُ إِلَيْنا قَبْضاً يَسِيراً (46) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِباساً وَالنَّوْمَ سُباتاً وَجَعَلَ النَّهارَ نُشُوراً (47)

(222/556)

"أَلَمْ" الهمزة للاستفهام التقريري ولم حرف جازم "تَرَ" مضارع مجزوم بحذف حرف العلة والفاعل مستتر "إِلى رَبِّكَ" متعلقان بالفعل والجملة مستأنفة "كَيْفَ" اسم استفهام في محل نصب على الحال "مَدَّ الظِّلَّ" ماض ومفعوله وفاعله مستتر والجملة بدل اشتمال من الكاف "وَلَوْ" الواو استئنافية ولو حرف شرط غير جازم "شاءَ" الجملة مستأنفة "لَجَعَلَهُ" اللام واقعة في جواب لو وماض فاعله مستتر والهاء مفعول به أول والجملة جواب لو لا محل لها "ساكِناً" مفعول به ثان "ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا" ماض وفاعل ومفعولاه والجار

والمجرور متعلقان بدليلا والجملة معطوفة "ثُمَّ قَبَضْناهُ إِلَيْنا قَبْضاً يَسِيراً" ماض وفاعل ومفعول به ومفعول مطلق وصفة له والجار والمجرور متعلقان بالفعل قبله والجملة معطوفة "وَهُوَ الَّذِي" مبتدأ واسم الموصول خبره والواو حرف استئناف والجملة مستأنفة "جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِباساً" ماض ومفعولاه وفاعله مستتر والجار والمجرور متعلقان بجعل والجملة صلة "وَالنَّوْمَ سُباتاً" عطف على ما قبله "وَجَعَلَ النَّهارَ نُشُوراً" ماض فاعله مستتر ومفعولاه والجملة معطوفة.

[سورة الفرقان (25) : الآيات 48 الى 50]

وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّياحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً طَهُوراً (48) لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنا أَنْعاماً وَأَناسِيَّ كَثِيراً (49) وَلَقَدْ صَرَّفْناهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً (50)

(223/556)

"وَهُوَ الَّذِي" مبتدأ وخبر والجملة مستأنفة "أَرْسَلَ الرِّياحَ بُشْراً" ماض فاعله مستتر ومفعول به وحال والجملة صلة "بَيْنَ" ظرف مكان متعلق ببشرا "يَدَيْ" مضاف إليه والياء مضاف إليه "رَحْمَتِهِ" مضاف إليه والهاء مضاف إليه "وَأَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً طَهُوراً" ماض وفاعل

ومفعول به وصفة له والجار والمجرور متعلقان بأنزلنا والجملة معطوفة "لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً" اللام لام التعليل والمضارع المنصوب

فاعله مستتر ومفعول به والجار والمجرور متعلقان بنحيي وميتا صفة لبلدة أن وما بعدها في تأويل مصدر مجرور باللام وهما متعلقان بأنزلنا "وَنُسْقِيَهُ" الواو عاطفة والمضارع معطوف على ما قبله منصوب وفاعله مستتر والهاء مفعول به أول "مِمَّا" ما اسم الموصول مجرور بمن متعلقان بنسقيه "خَلَقْنا" ماض وفاعله والجملة صلة "أَنْعاماً" مفعول به ثان "وَأَناسِيَّ" معطوف على أنعاما "كَثِيراً" صفة "وَلَقَدْ" الواو واقعة في جواب قسم محذوف وقد حرف تحقيق "صَرَّفْناهُ" ماض وفاعل ومفعول به والجملة مستأنفة "بَيْنَهُمْ" متعلقان بصرفناه "لِيَذَّكَّرُوا" اللام لام التعليل والمضارع منصوب بحذف النون والواو فاعل "فَأَبى أَكْثَرُ النَّاسِ" ماض وفاعل ومضاف إليه والجملة معطوفة "إِلَّا" أداة حصر "كُفُوراً" مفعول به.

[سورة الفرقان (25) : الآيات 51 الى 54]

وَلَوْ شِئْنا لَبَعَثْنا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيراً (51) فَلا تُطِعِ الْكافِرِينَ وَجاهِدْهُمْ بِهِ جِهاداً كَبِيراً (52) وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هذا عَذْبٌ فُراتٌ وَهذا مِلْحٌ أُجاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُما بَرْزَخاً وَحِجْراً مَحْجُوراً (53) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْماءِ بَشَراً فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهْراً وَكانَ رَبُّكَ قَدِيراً (54)

"وَلَوْ شِئْنا" لو حرف شرط غير جازم وماض وفاعل والجملة مستأنفة "لَبَعَثْنا" اللام واقعة في جواب لو وماض وفاعل "فِي كُلِّ" متعلقان ببعثنا "قَرْيَةٍ" مضاف إليه "نَذِيراً" مفعول به "فَلا تُطِعِ" الفاء الفصيحة ولا ناهية ومضارع فاعله مستتر "الْكافِرِينَ" مفعول به والجملة لا محل لها "وَجاهِدْهُمْ بِهِ جِهاداً كَبِيراً" فعل أمر فاعله مستتر ومفعول به ومفعول مطلق وصفة له والجار والمجرور متعلقان بجاهدهم والجملة معطوفة "وَهُوَ الَّذِي" مبتدأ والموصول خبره والجملة مستأنفة "مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ" الجملة صلة وماض فاعله مستتر ومفعول به منصوب بالياء لأنه مثنى "هذا عَذْبٌ" اسم الإشارة مبتدأ وعذب خبره و"فُراتٌ" صفة والجملة مستأنفة "وَهذا مِلْحٌ" مبتدأ وخبر "أُجاجٌ" صفة والجملة معطوفة "وَجَعَلَ بَيْنَهُما بَرْزَخاً" ماض فاعله مستتر وبينهما متعلق بمحذوف في موضع المفعول الثاني وبرزخا مفعوله الأول والجملة معطوفة "وَحِجْراً" معطوف على برزخا "مَحْجُوراً" صفة "وَهُوَ الَّذِي" هو مبتدأ واسم الموصول خبره والجملة مستأنفة "خَلَقَ مِنَ الْماءِ بَشَراً" ماض فاعله مستتر ومفعول به والجار والمجرور متعلقان بخلق والجملة صلة "فَجَعَلَهُ" ماض وفاعل مستتر ومفعول به أول "نَسَباً" مفعول به ثان "وَصِهْراً" معطوف "وَكانَ رَبُّكَ قَدِيراً" كان

واسمها وخبرها والجملة معطوفة.

[سورة الفرقان (25) : الآيات 55 الى 59]

(225/556)

وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَنْفَعُهُمْ وَلا يَضُرُّهُمْ وَكانَ الْكافِرُ عَلى رَبِّهِ ظَهِيراً (55) وَما أَرْسَلْناكَ إِلاَّ مُبَشِّراً وَنَذِيراً (56) قُلْ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلاَّ مَنْ شاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلى رَبِّهِ سَبِيلاً (57) وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفى بِهِ بِذُنُوبِ عِبادِهِ خَبِيراً (58) الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمنُ فَسْئَلْ بِهِ خَبِيراً (59)

"وَيَعْبُدُونَ" الواو استئنافية والجملة مستأنفة "مِنْ دُونِ اللَّهِ" متعلقان بيعبدون ولفظ الجلالة مضاف إليه "ما لا يَنْفَعُهُمْ" ما موصولة مفعول به ولا نافية والجملة صلة "وَلا يَضُرُّهُمْ" الجملة معطوفة على ما لا

(226/556)

ينفعهم "وَكانَ الْكافِرُ عَلى رَبِّهِ ظَهِيراً" كان واسمها وخبرها والجار والمجرور متعلقان بظهيرا والهاء مضاف إليه والجملة معطوفة "وَما أَرْسَلْناكَ" ما نافية وماض وفاعل ومفعول به والجملة معطوفة "إِلَّا" أداة حصر "مُبَشِّراً" حال "وَنَذِيراً" عطف على مبشرا "قُلْ" أمر فاعله مستتر الجملة مستأنفة "ما أَسْئَلُكُمْ" ما نافية ومضارع ومفعوله والجملة مقول القول "عَلَيْهِ" متعلقان بالفعل "مِنْ" حرف جر زائد "أَجْرٍ" مجرور لفظا منصوب محلا مفعول به ثان "إِلَّا" أداة استثناء "مِنْ" اسم موصول في محل نصب على الاستثناء المنقطع "شاءَ" ماض فاعله مستتر والجملة صلة "أَنْ يَتَّخِذَ" أن حرف ناصب وهي والمضارع بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول به لشاء "إِلى رَبِّهِ" متعلقان بيتخذ "سَبِيلًا" مفعول به أول ليتخذ "وَتَوَكَّلْ" أمر فاعله مستتر والجملة مستأنفة "عَلَى الْحَيِّ" متعلقان بتوكل "الَّذِي" اسم الموصول صفة لحي "لا يَمُوتُ" الجملة صلة "وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ" معطوف على توكل "وَكَفى" ماض "بِهِ" الباء حرف جر زائد والهاء مجرور لفظا مرفوع محلا فاعل "بِذُنُوبِ" متعلقان بخبيرا "عِبادِهِ" مضاف إليه "خَبِيراً" تمييز

[سورة الفرقان (25) : الآيات 60 الى 62]

وَإِذا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمنِ قالُوا وَمَا الرَّحْمنُ أَنَسْجُدُ لِما تَأْمُرُنا وَزادَهُمْ نُفُوراً (60) تَبارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّماءِ بُرُوجاً وَجَعَلَ فِيها سِراجاً وَقَمَراً مُنِيراً (61) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرادَ شُكُوراً (62)

"وَإِذا" ظرف يتضمن معنى الشرط "قِيلَ" ماض مبني للمجهول والجملة في محل جر مضاف إليه "لَهُمُ" متعلق بقيل "اسْجُدُوا" أمر وفاعل والجملة مقول القول "لِلرَّحْمنِ" متعلقان باسجدوا "قالُوا" الجملة لا محل لها جواب شرط غير جازم "وَمَا" الواو زائدة وما اسم استفهام مبتدأ "الرَّحْمنُ" خبر والجملة مقول القول "أَنَسْجُدُ" الهمزة للاستفهام الإنكاري وجملة نسجد مقول القول "لِما" ما موصولية وهما متعلقان بنسجد "تَأْمُرُنا" مضارع وفاعل مستتر ونا مفعول به والجملة صلة "وَزادَهُمْ نُفُوراً" ماض فاعله مستتر ومفعول به و"نُفُوراً" تمييز والجملة معطوفة "تَبارَكَ الَّذِي جَعَلَ" ماض وفاعل وجملة جعل صلة "فِي السَّماءِ" متعلقان بجعل "بُرُوجاً" مفعول به "وَجَعَلَ فِيها سِراجاً" معطوف على ما قبله "وَقَمَراً مُنِيراً" معطوف ومنيرا صفة "وَهُوَ الَّذِي" مبتدأ وخبر والجملة مستأنفة "جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ خِلْفَةً" ماض فاعله مستتر ومفعولاه والنهار معطوف على الليل والجملة صلة "لِمَنْ" من اسم موصول مجرور ومتعلقان بجعل وجملة "أَرادَ" صلة "أَنْ يَذَّكَّرَ" مضارع منصوب بأن والمصدر المؤول في محل نصب مفعول به "أَوْ أَرادَ شُكُوراً" الجملة معطوفة على ما قبلها .

[سورة الفرقان (25) : الآيات 63 الى 66]

وَعِبادُ الرَّحْمنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً وَإِذا خاطَبَهُمُ الْجاهِلُونَ قالُوا سَلاماً (63) وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِياماً (64) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذابَها كانَ غَراماً (65) إِنَّها ساءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقاماً (66)

(228/556)

"وَعِبادُ" الواو استئنافية وعباد مبتدأ خبره في آخر السورة وهو قوله "أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ" "الرَّحْمنِ" مضاف إليه "الَّذِينَ" موصول صفة للرحمن أو خبر المبتدأ عباد والجملة مستأنفة "يَمْشُونَ" الجملة صلة "عَلَى الْأَرْضِ" متعلقان بيمشون "هَوْناً" حال أو صفة مفعول مطلق أي مشيا هونا "وَإِذا" ظرف يتضمن معنى الشرط "خاطَبَهُمُ الْجاهِلُونَ" ماض ومفعول به مقدم وفاعل مؤخر والجملة في محل جر بالإضافة "قالُوا سَلاماً" ماض وفاعل ومفعول به والجملة لا محل لها جواب إذا "وَالَّذِينَ" عطف على الذين السابقة "يَبِيتُونَ" الجملة صلة "لِرَبِّهِمْ" متعلقان بسجدا "سُجَّداً" حال "وَقِياماً" معطوفة على سجدا "وَالَّذِينَ" معطوف "يَقُولُونَ" مضارع وفاعله والجملة صلة "رَبَّنَا" منادى بأداة محذوفة مضاف ونا مضاف إليه والجملة مقول القول "اصْرِفْ عَنَّا عَذابَ" فعل دعاء فاعله مستتر ومفعول به وعنا متعلقان باصرف "جَهَنَّمَ" مضاف إليه والجملة مقول القول "إِنَّ عَذابَها" إن واسمها والها مضاف إليه

والجملة مستأنفة "كانَ غَراماً" كان وخبرها واسمها محذوف والجملة خبر إن "إِنَّها" إن واسمها "ساءَتْ" الجملة خبر إن "مُسْتَقَرًّا" تمييز "وَمُقاماً" معطوف على ما قبله.

[سورة الفرقان (25) : الآيات 67 الى 69]

وَالَّذِينَ إِذا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكانَ بَيْنَ ذلِكَ قَواماً (67) وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ يَلْقَ أَثاماً (68) يُضاعَفْ لَهُ الْعَذابُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهاناً (69)

(229/556)

"وَالَّذِينَ" عطف على الذين السابقة "إِذا" ظرف يتضمن معنى الشرط "أَنْفَقُوا" الجملة مضاف إليه "لَمْ يُسْرِفُوا" لم جازمة ويسرفوا مضارع مجزوم بحذف النون والواو فاعل والجملة لا محل لها جواب إذا "وَلَمْ يَقْتُرُوا" معطوف على لم يسرفوا "وَكانَ" كان واسمها مستتر "بَيْنَ" ظرف متعلق بحال محذوفة "ذلِكَ" اسم الإشارة مضاف إليه "قَواماً" خبر كان والجملة معطوفة "وَالَّذِينَ" معطوفة على ما قبلها "لا يَدْعُونَ" لا نافية ويدعون مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل "مَعَ" ظرف متعلق بيدعون "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "إِلهاً" مفعول به "آخَرَ" صفة "وَلا يَقْتُلُونَ" الجملة معطوفة على لا يدعون "النَّفْسَ" مفعول به

"الَّتِي" اسم موصول صفة "حَرَّمَ اللَّهُ" الجملة صلة "إِلَّا" أداة حصر "بِالْحَقِّ" متعلقان بيقتلون "وَلا يَزْنُونَ" الجملة معطوفة "وَمَنْ" اسم شرط جازم "يَفْعَلْ" مضارع مجزوم لأنه فعل الشرط وفاعله مستتر "ذلِكَ" اسم الإشارة مفعول به "يَلْقَ أَثاماً" فعل مضارع مجزوم جواب الشرط وفاعله مستتر ومفعول

به وجملتا الشرط والجواب خبر من "يُضاعَفْ لَهُ الْعَذابُ" مضارع مجزوم بدل من يلق والعذاب نائب فاعل وله متعلقان بيضاعف "يَوْمَ" ظرف زمان متعلق بيضاعف "الْقِيامَةِ" مضاف إليه "وَيَخْلُدْ" معطوف على يضاعف "فِيهِ" متعلقان بيخلد "مُهاناً" حال

[سورة الفرقان (25) : الآيات 70 الى 72]

إِلَّا مَنْ تابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صالِحاً فَأُولئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئاتِهِمْ حَسَناتٍ وَكانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً (70) وَمَنْ تابَ وَعَمِلَ صالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتاباً (71) وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِراماً (72)

(230/556)

"إِلَّا" أداة استثناء "مَنْ" اسم موصول في محل نصب على الاستثناء "تابَ" الجملة صلة "وَآمَنَ" الجملة معطوفة "وَعَمِلَ عَمَلًا صالِحاً" ماض فاعله مستتر ومفعول مطلق وصالحا

صفة والجملة معطوفة "فَأُوْلَئِكَ" الفاء استئنافية واسم الإشارة مبتدأ والكاف للخطاب "يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئاتِهِمْ حَسَناتٍ" مضارع وفاعله ومفعولاه المنصوبان بالكسرة والهاء مضاف إليه والجملة خبر "وَكانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً" كان واسمها وخبراها والجملة مستأنفة "وَمَنْ تابَ" اسم الشرط مبتدأ والجملة خبرها والجملة الاسمية مستأنفة "وَعَمِلَ صالِحاً" ماض فاعله مستتر وصفة لمفعول مطلق والجملة معطوفة "فَإِنَّهُ" الفاء رابطة وإن واسمها "يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتاباً" مضارع فاعله مستتر ومفعول مطلق والجار والمجرور متعلقان بيتوب والجملة في محل جزم جواب الشرط "وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ" اسم الموصول مبتدأ ولا نافية ومضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله والزور مفعوله والجملة مستأنفة "وَإِذا" الواو عاطفة وإذا ظرف يتضمن معنى الشرط "مَرُّوا" الجملة في محل جر بالإضافة "بِاللَّغْوِ" متعلقان بمروا "مَرُّوا كِراماً" ماض وفاعل وحال والجملة لا محل لأنها جواب شرط غير جازم.

[سورة الفرقان (25) : الآيات 73 الى 77]

وَالَّذِينَ إِذا ذُكِّرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْها صُمًّا وَعُمْياناً (73) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنا هَبْ لَنا مِنْ أَزْواجِنا وَذُرِّيَّاتِنا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنا لِلْمُتَّقِينَ إِماماً (74) أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِما صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيها تَحِيَّةً وَسَلاماً (75) خالِدِينَ فِيها حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقاماً (76) قُلْ ما يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلا دُعاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزاماً (77)

(231/556)

"وَالَّذِينَ" اسم موصول معطوف على ما قبله "إِذا ذُكِّرُوا" إذا ظرف يتضمن معنى الشرط وماض مبني للمجهول ونائب فاعل وجملة ذكروا مضاف إليه "بِآياتِ" متعلقان بذكروا "رَبِّهِمْ" مضاف إليه والهاء مضاف إليه "لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْها صُمًّا" المضارع مجزوم بحذف النون والواو فاعل وصما مفعول به والجار والمجرور متعلقان بيخروا "وَعُمْيانًا" معطوف على صما والجملة جواب إذا لا محل لها

(232/556)

"وَالَّذِينَ" معطوف على ما قبله "يَقُولُونَ" مضارع وفاعله والجملة صلة "رَبَّنا" منادى مضاف ونا مضاف إليه والجملة مقول القول "هَبْ" فعل دعاء فاعله مستتر "لَنا" متعلقان بهب "مِنْ أَزْواجِنا" متعلقان بهب ونا مضاف إليه "وَذُرِّيَّاتِنا" معطوف على ما قبله "قُرَّةَ" مفعول به "أَعْيُنٍ" مضاف إليه والجملة مقول القول "وَاجْعَلْنا لِلْمُتَّقِينَ إِماماً" فعل دعاء وفاعله مستتر ومفعولاه ومتعلقان باجعلنا "أُولَئِكَ" مبتدأ "يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ" مضارع مبني

للمجهول والواو نائب فاعل وهو مفعوله الأول والغرفة مفعول به ثان والجملة خبر "بما" متعلقان بيجزون وجملة أولئك . . خبر عباد الرحمن "صَبَرُوا" الجملة صلة "وَيُلَقَّوْنَ فِيها تَحِيَّةً" مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل وتحية مفعول به ثان "فِيها" متعلقان بمحذوف حال "وَسَلاماً" معطوف على تحية "خالِدِينَ" حال "فِيها" متعلقان بخالدين "حَسُنَتْ" ماض فاعله مستتر "مُسْتَقَرًّا" تمييز "وَمُقاماً" معطوف على مستقرا وجملة حسنت مستأنفة "قُلْ" الجملة مستأنفة "ما" نافية "يَعْبَؤُا" مضارع مرفوع "بِكُمْ" متعلقان بيعبؤ "رَبِّي" فاعل والياء مضاف إليه والجملة مقول القول "لَوْلا" حرف شرط غير جازم "دُعاؤُكُمْ" مبتدأ والكاف مضاف إليه والخبر محذوف "فَقَدْ" الفاء الفصيحة وقد حرف تحقيق "كَذَّبْتُمْ" ماض وفاعل والميم علامة جمع الذكور والجملة مستأنفة "فَسَوْفَ" الفاء عاطفة وسوف للاستقبال والتسويف "يَكُونُ" مضارع ناقص واسمه محذوف "لِزاماً" خبر والجملة معطوفة على ما قبلها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿إعراب القرآن / لدعاس حـ 2 صـ 378.364﴾

(233/556)

فصل فى تخريج الأحاديث الواردة فى السورة الكريمة

قال الإمام الزيلعى رحمه الله :

سُورَة الْفرْقَان

ذكر فِيهَا أحد عشر حَدِيثا

894 - الحَدِيث الأول

قَالَ عَلَيْهِ السَّلَام (لَا ترَاءَى ناراهما)

قلت تقدم فِي الْمَائِدَة

895 - الحَدِيث الثَّانِي

رُوِيَ أَن عقبَة بن أبي معيط صنع طَعَاما ودعا رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَأَبَى أَن يَأْكُل من طَعَامه حَتَّى ينْطق بالشَّهَادَتَيْن وَكَانَ أبي بن خلف صديقه فَعَاتَبَهُ وَقَالَ صَبَأت يَا عقبَة قَالَ لَا وَلَكِن آلَى أَلا يَأْكُل من طَعَامي وَهُوَ فِي بَيْتِي فَاسْتَحْيَيْت مِنْهُ فَشَهدت لَهُ وَالشَّهَادَة لَيست فِي نَفسِي فَقَالَ وَجْهي من وَجهك حرَام إِن لقِيت مُحَمَّدًا فَلم تطأ قفاهُ وتبزق فِي وَجهه وتلطم عينه فَوَجَدَهُ سَاجِدا فِي دَار الندوة ففعل ذَلِك فَقَالَ رَسُول الله لَا أَلْقَاك خَارِجا من مَكَّة إِلَّا عَلَوْت رَأسك بالسَّيْفِ) فَقتل يَوْم بدر أَمر عليا رَضِيَ اللَّهُ عَنْه بقتْله

وَقيل قَتله عَاصِم بن ثَابت بن أَفْلح الْأَنْصَارِيّ وَقَالَ يَا مُحَمَّد إِلَى من الصبية قَالَ إِلَى النَّار)

وَطعن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَبَيا بِأحد فَرجع إِلَى مَكَّة فَمَات وَفِيهِمَا نزلت وَيَوْم يعَض الظَّالِم عَلَى

يَدَيْهِ) الْآيَة

(234/556)

قلت رَوَاهُ الْحَافِظ أَبو نعيم الْأَصْبَهَانِيّ بنَقص يسير فِي كِتَابه دَلَائِل النُّبُوَّة فِي فصل الْغَزَوَات وَهُوَ الْفَصْل الثَّامِن وَالْعشْرُونَ فَقَالَ حَدثنَا إِبْرَاهِيم بن أَحْمد الْقمري الْبزوري حَدثنَا أَحْمد بن فرج حَدثنَا أَبو عمر الدوري حَدثنَا مُحَمَّد بن مَرْوَان عَن مُحَمَّد بن السَّائِب الْكَلْبِيّ عَن أبي صَالح عَن ابْن عَبَّاس قَالَ كَانَ عقبَة بن أبي معيط لَا يقدم من سفر إِلَّا صنع طَعَاما فَجمع عَلَيْهِ أهل مَكَّة قَالَ وَكَانَ يكثر مجالسة النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وَيُعْجبهُ حَدِيثه وَلَكِن تغلب عَلَيْهِ الشَّقَاء فَقدم ذَات يَوْم من سفر فَصنعَ طَعَاما ثمَّ دَعَا رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم إِلَى طَعَامه فَقَالَ لَهُ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم مَا أَنا بِالَّذِي آكل من طَعَامك حَتَّى تشهد أَن لَا إِلَه إِلَّا الله وَأَنِّي رَسُول الله) فَقَالَ لَهُ يَا ابْن أخي دَعْنِي واطعم قَالَ مَا أَنا بِالَّذِي أفعل حَتَّى تَقول) قَالَ فَشهد عقبَة بذلك وَطعم رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم من طَعَامه فَبلغ ذَلِك أبي بن خلف فَأَتَاهُ فَقَالَ لَهُ أَصَبَوْت يَا عقبَة قَالَ لَا وَلَكِن دخل عَلَي فَأَبَى

أَن يطعم من طَعَامي إِلَّا أَن اشْهَدْ لَهُ فَاسْتَحْيَيْت أَن يخرج من بَيْتِي قبل أَن يطعم فَشَهدت لَهُ فَطَعِمَ فَقَالَ مَا أَنا بالَّذِي أَرْضَى عَنْك حَتَّى تَأْتيه فَتَبَزَّقَ فِي وَجهه وَتَطَأَ عَلَى عُنُقه قَالَ فَفعل عقبَة ذَلِك فَقَالَ لَهُ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (وَالله لَا أَلْقَاك خَارِجا من مَكَّة إِلَّا عَلَوْت رَأسك بالسَّيْفِ) فَأسر عقبَة يَوْم بدر فَقتل صبرا وَلم يقتل من الْأَسَارَى يَوْمئِذٍ غَيره قَتله ثَابت بن الْأَفْلَح

انْتَهَى

(235/556)

وَرَوَى الطَّبَرِيّ حَدثنِي مُحَمَّد بن عمر وَحدثنَا أَبُو عَاصِم حَدثنَا عِيسَى وحَدثني الْحَارِث حَدثنَا الْحسن حَدثنَا وَرقا جَمِيعًا عَن أبي نجيح عَن مُجَاهِد فِي قَوْله وَيَوْم يعَض الظَّالِم عَلَى يَدَيْهِ . . . قَالَ دَعَا عقبَة بن أبي معيط النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى طَعَام صنعه . . . إِلَى قَوْله لَيست فِي نَفسِي

ثمَّ رَوَى من طَرِيق عبد الرَّزَّاق أَنا معمر عَن قَتَادَة عَن مقسم فِي قَوْله وَيَوْم يعَض الظَّالِم عَلَى يَدَيْهِ . . . الْآيَة قَالَ اجْتمع عقبَة بن أبي معيط وَأبي

ابْن خلف فَقَالَ أَحدهمَا لصَاحبه بَلغنِي أَنَّك أتيت مُحَمَّدًا فَاسْتَمَعْت مِنْهُ وَالله لَا أَرْضَى

عَنْك حَتَّى تَتْفُل فِي وَجهه وَتكذ به فَلم يُسَلّطهُ فَقتل عقبَة يَوْم بدر صبرا وَأما أبي بن خلف فَقتله النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم بِيَدِهِ يَوْم أحد فِي الْقِتَال وهما اللَّذَان أنزل الله فيهمَا وَيَوْم يعَض الظَّالِم عَلَى يَدَيْهِ . . .

انْتَهَى

وَذكره الثَّعْلَبِيّ فِي تَفْسِيره ثمَّ الواحدي فِي أَسبَاب النُّزُول بِلَفْظ الْمُصَنّف من غير سَنَد وَلَا راو

896 - الْحَدِيث الثَّالِث

عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ (من تعلم الْقُرْآن وَعلمه وعلق مُصحفا لم يتعاهده وَلم ينظر فِيهِ جَاءَ يَوْم الْقِيَامَة مُتَعَلقا بِهِ وَيَقُول يَا رب الْعَالمين عَبدك هَذَا اتَّخَذَنِي مَهْجُورًا اقْضِ بيني وَبَينه)

(236/556)

قلت رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ أخبرنَا أَبُو الطّيب الرّبيع بن مُحَمَّد الْحَاتِمِي وَأَبُو نصر مُحَمَّد بن عَلّي بن الْفضل الْخُزَاعِيّ قَالَا أَنا أَبُو الْحسن عَلّي بن مُحَمَّد بن عقبَة الشَّيْبَانِيّ حَدثنَا أَبُو الْقَاسِم الْخضر بن أبان الْقرشِي حَدثنَا أَبُو هَدِيَّة إِبْرَاهِيم بن هدبة حَدثنَا أنس بن مَالك قَالَ قَالَ

رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم من تعلم) إِلَى آخِره سَوَاء

897 - الْحَدِيث الرَّابِع

قَالَت عَائِشَة فِي صفة قِرَاءَته عَلَيْهِ السَّلَام لَا كسَرْدِكُمْ هَذَا لو أَرَادَ السَّامع أَن يعد حُرُوفه لعَدهَا

قلت غَرِيب بِهَذَا اللَّفْظ

وَرَوَى التِّرْمِذِيّ فِي المناقب وَالشَّمَائِل وَالنَّسَائِيّ فِي الْيَوْم وَاللَّيْلَة من حَدِيث الزُّهْرِيّ عَن عُرْوَة عَن عَائِشَة قَالَت مَا كَانَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يسْرد الْحَدِيث سَرْدكُمْ هَذَا وَلَكِن كَانَ يتَكَلَّم بِكَلَام فصل يحفظه من جلس إِلَيْهِ

انْتَهَى

وَرَوَاهُ أَحْمد وَأَبُو يعلي الْموصِلِي وَابْن أبي شيبَة وَإِسْحَاق بن رَاهَوَيْه فِي مسانيدهم

وَعَزاهُ الْبَيْهَقِيّ فِي الْمدْخل لمُسلم فِي الْفَضَائِل

وَذكره عبد الْحق فِي الْمُتَّفق عَلَيْهِ من حَدِيث ابْن وهب أَخْبرنِي يُونُس بن يزِيد عَن ابْن شهَاب أَن عُرْوَة بن الزُّبَيْر حَدثهُ أَن عَائِشَة قَالَت أَلا يُعْجبك أَبُو هُرَيْرَة . . . إِلَى أَن قَالَت إِن رَسُول ال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم لم يكن يسْرد الْحَدِيث كَسَرْدِكُمْ

وَهَذَا لم يصل الْبُخَارِيّ سَنَده بِهِ فَقَالَ فِي بَدْء الْخلق فِي بَاب صفة النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وَقَالَ اللَّيْث عَن يُونُس عَن ابْن شهَاب بِهِ

وَعزا الْبَيْهَقِيّ أَيْضا للْبُخَارِيّ من حَدِيث سُفْيَان عَن الثَّوْرِيّ عَن عُرْوَة قَالَ جلس أَبُو هُرَيْرَة إِلَى جنب حجرَة عَائِشَة . . . إِلَى أَن قَالَت إِن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم إِنَّمَا كَانَ يحدث حَدِيثا لَو عده الْعَاد أَحْصَاهُ

وَينْظرَانِ وَأَعَادَهُ فِي المزمل

898 - الْحَدِيث الْخَامِس

عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ (يحْشر النَّاس يَوْم الْقِيَامَة عَلَى ثَلَاثَة أَثْلَاث ثلث عَلَى الدَّوَابّ وَثلث عَلَى وُجُوههم وَثلث عَلَى أَقْدَامهم يَنْسلونَ نَسْلًا)

قلت رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ فِي تَفْسِير سُورَة الْإِسْرَاء من حَدِيث عَلّي بن زيد بن جدعَان عَن أَوْس بن خَالِد عَن أبي هُرَيْرَة قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (يحْشر النَّاس يَوْم الْقِيَامَة ثَلَاثَة أَصْنَاف صنفا مشَاة وَصِنْفًا ركبانا وَصِنْفًا عَلَى وُجُوههم) قيل يَا رَسُول الله وَكَيف يَمْشُونَ عَلَى وُجُوههم قَالَ إِن الَّذِي أَمْشَاهُم عَلَى أَقْدَامهم قَادر عَلَى أَن يُمشيهمْ عَلَى وُجُوههم أما أَنهم يَتَّقُونَ بِوُجُوهِهِمْ كل حدب وَشَوْك)

انْتَهَى

وَقَالَ حَدِيث حسن

وَرَوَاهُ أَحْمد وَابْن أبي شيبَة وَإِسْحَاق بن رَاهَوَيْه وَأَبُو دَاوُد الطَّيَالِسِيّ

وَرَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ فِي الْبَعْث والنشور بِسَنَدِهِ وَمَتنه

ثمَّ رَوَاهُ من طَرِيق مُسَدّد حَدثنَا بشر بن الْمفضل حَدثنَا عَلّي بن زيد حَدثنَا أَوْس بن أبي أَوْس عَن أبي هُرَيْرَة مَرْفُوعا بِلَفْظ الْمُصَنّف سَوَاء إِلَّا أَنه قدم ثلث الْأَقْدَام عَلَى ثلث الْوُجُوه

(238/556)

وَأخرج الْحَاكِم فِي الْمُسْتَدْرك فِي كتاب الْأَهْوَال عَن الْوَلِيد بن جَمِيع الْقرشِي حَدثنِي أَبُو الطُّفَيْل عَامر بن وَاثِلَة عَن حُذَيْفَة بن أسيد عَن أبي ذر قَالَ حَدثنِي الصَّادِق المصدوق صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم إِن النَّاس يحشرون ثَلَاثَة أَفْوَاج فوجا طاعمين كاسين راكبين وفوجا يَمْشُونَ ويسعون وفوجا تسحبهم الْمَلَائِكَة عَلَى وُجُوههم إِلَى النَّار)

انْتَهَى

وَقَالَ صَحِيح الْإِسْنَاد وَلم يخرجاهُ

قَالَ الذَّهَبِيّ الْوَلِيد بن جَمِيع رَوَى لَهُ مُسلم مُتَابعَة وَاحْتج بِهِ النَّسَائِيّ

انْتَهَى

وَرَوَى التِّرْمِذِيّ فِي الزّهْد وَفِي تَفْسِير سُورَة . . . عَن بهز بن حَكِيم عَن أَبِيه عَن جده مُعَاوِيَة بن حيدة عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم إِنَّكُم مَحْشُورُونَ ركبانا ورجالا وَتجرونَ عَلَى وُجُوهكُم)

انْتَهَى

وَقَالَ حَدِيث حسن وَفِي الْبَاب عَن أبي هُرَيْرَة

انْتَهَى

وَكَذَلِكَ رَوَاهُ النَّسَائِيّ فِي التَّفْسِير فِي سُورَة يس أخبرنَا مُحَمَّد بن إِسْمَاعِيل ابْن إِبْرَاهِيم حَدثنَا يَحْيَى حَدثنَا شبْل سَمِعت أَبَا قزعة يحدث عَمْرو بن دِينَار عَن حَكِيم ابْن مُعَاوِيَة عَن أَبِيه عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ (تحشرون ركبانا وَمُشَاة وَعَلَى وُجُوهكُم يَوْم الْقِيَامَة عَلَى أَفْوَاهكُم الْفِدَام يُوفونَ سبعين أمة أَنْتُم أَكْرمهم عَلَى الله)

مُخْتَصرا

وَكَذَلِكَ رَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه من حَدِيث حَمَّاد بن سَلمَة عَن أبي قزعة عَن حَكِيم بن مُعَاوِيَة بن حيدة عَن أَبِيه فَذكره

899 - الْحَدِيث السَّادِس

قَالَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (لَا صَلَاة إِلَّا بِطهُور)

قلت غَرِيب بِهَذَا اللَّفْظ

وَوَقع فِي رِوَايَةِ للتِّرْمِذِي فَإِنَّهُ قَالَ حَدثنَا قُتَيْبَة بن سعيد حَدثنَا أَبُو عوَانَة عَن سماك بن حَرْب ح وَحدثنَا هناد حَدثنَا وَكِيع عَن إِسْرَائِيل عَن سماك عَن مُصعب بن سعد عَن ابْن عمر عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ (لَا تقبل صَلَاة بِغَيْر طهُور وَلَا صَدَقَة من غلُول) قَالَ هناد فِي حَدِيثه إِلَّا بِطهُور

انْتَهَى

وَرَوَاهُ كَذَلِك ابْن ماجة فِي سننه من حَدِيث ابْن عمر وَمن حَدِيث أُسَامَة قَالَ لَا يقبل الله صَلَاة إِلَّا بِطهُور

وَكَذَلِكَ رَوَاهُ ابْن حبَان فِي صَحِيحه من حَدِيث ابْن عمر وَابْن أبي شيبَة فِي مُصَنفه

وَرَوَى أَبُو يعلي فِي مُسْنده من حَدِيث عباد بن كثير عَن أبي أُمَيَّة عبد الْكَرِيم حَدثنِي الْحسن بن أبي الْحسن عَن أبي هُرَيْرَة أَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ (لَا يقبل الله صَلَاة إِلَّا بِطهُور)

وَهُوَ عِنْد ابْن عدي فِي كَامِله عَن إِسْمَاعِيل بن مُسلم الْمَكِّيّ عَن أبي إِسْحَاق عَن أبي عُبَيْدَة عَن عبد الله مَرْفُوعا نَحوه وَأعله بِإِسْمَاعِيل بن مُسلم

والْحَدِيث رَوَاهُ مُسلم من حَدِيث ابْن عمر (لَا يقبل صَلَاة بِغَيْر طهُور وَلَا صَدَقَة من غلُول) انْتَهَى

وَأقرب مَا وَجَدْنَاهُ للفظ الْكتاب مَا رَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه حَدثنَا أَحْمد بن عبد الرَّحْمَن حَدثنَا أَبُو جَعْفَر النُّفَيْلِي حَدثنَا عِيسَى بن يزِيد بن عبد الله بن أنيس حَدثنَا عِيسَى بن سُبْرَة عَن أَبِيه عَن جده قَالَ صعد النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم الْمِنْبَر ذَات يَوْم فَحَمدَ الله وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثمَّ قَالَ أَيهَا النَّاس لَا صَلَاة إِلَّا بِوضُوء) الحَدِيث

(240/556)

وَرَوَى الدَّارَقُطْنِيّ فِي سننه فِي الطَّهَارَة حَدِيث أبي ثفال عَن رَبَاح بن عبد الرَّحْمَن أَنه سمع جدته تحدث عَن أَبِيهَا أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ (لَا صَلَاة إِلَّا بِوضُوء وَلَا وضوء لمن لم يذكر اسْم الله عَلَيْهِ)

900 - الحَدِيث السَّابع

سُئِلَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم عَن بِئْر بضَاعَة فَقَالَ الْمَاء طهُور لَا يُنجسهُ شَيْء إِلَّا مَا غير لَونه أَو طعمه أَو ريحه)

قلت رَوَاهُ أَبُو دَاوُد وَالتِّرْمِذِيّ وَالنَّسَائِيّ من حَدِيث عبيد الله بن عبد الله ابْن رَافع بن

خديج عَن أبي سعيد الْخُدْرِيّ قَالَ قيل يَا رَسُول الله أَنَتَوَضَّأُ من بِئْر بضَاعَة وَهِي بِئْر يلقى فِيهَا الْحيض وَلُحُوم الْكلاب وَالنَّتن فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَام (المَاء طهُور لَا ينجسهُ شَيْء)

انْتَهَى

قَالَ التِّرْمِذِيّ حَدِيث حسن صَحِيح وَفِيه كَلَام مَبْسُوط فِي أَحَادِيث الْهِدَايَة

قَوْله

إِلَّا مَا غير لَونه أَو طعمه أَو رِيحه) لَيْسَ فِي حَدِيث بِئْر بضَاعَة وَإِنَّمَا فِي حَدِيث آخر رَوَاهُ ابْن ماجة فِي سننه من حَدِيث رَاشد ابْن سعد عَن أبي أُمَامَة قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (المَاء طهُور لَا ينجسهُ شَيْء إِلَّا مَا غلب عَلَى لَونه أَو طعمه أَو رِيحه)

وَفِيه كَلَام

901 – قَوْله عَن ابْن عَبَّاس قَالَ مَا من عَام أقل مَطَرا من عَام وَلَكِن الله قسم ذَلِك بَين عباده عَلَى من يَشَاء وتلا قَوْله تَعَالَى وَلَقَد صرفناه

بَينهم ليذكرُوا) الْآيَة

قلت رَوَاهُ الْحَاكِم فِي مُسْتَدْركه عَن الْحسن بن مُسلم عَن سعيد بن جُبَير عَن ابْن عَبَّاس قَالَ مَا من عَام أمطر من عَام وَلَكِن الله يصرفهُ . . . إِلَى آخِره سَوَاء وَقَالَ حَدِيث صَحِيح عَلَى شَرط الشَّيْخَيْنِ وَلم يخرجَاهُ

انْتَهَى

وَكَذَلِكَ رَوَاهُ الطَّبَرِيّ فِي تَفْسِيره

وَرَوَى الْعقيلِيّ فِي الضُّعَفَاء نَحوه مَرْفُوعا من حَدِيث عَلّي بن حميد السَّلُولي حَدثنَا شُعْبَة عَن أبي إِسْحَاق عَن أبي الْأَحْوَص عَن عبد الله بن مَسْعُود قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم مَا أحد بِأَكْسَبَ من أحد وَمَا من عَام بِأَمْطَر من عَام وَلَكِن الله يصرفهُ حَيْثُ يحب وَإِن الله يُعْطي الْمَال من يحب وَمن لَا يحب وَلَا يُعْطي الْإِيمَان إِلَّا من يحب)

انْتَهَى

ثمَّ قَالَ لَا يُتَابع عَلَى رَفعه عَلَى بن حميد

ثمَّ أخرجه عَن عَمْرو بن مَرْزُوق حَدثنَا شُعْبَة بِهِ مَوْقُوفا قَالَ وَهَذَا أولَى

انْتَهَى

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره من حَدِيث حَمَّاد بن شُعَيْب عَن الْأَعْمَش عَن أبي وَائِل عَن ابْن مَسْعُود مَرْفُوعا

902 - الْحَدِيث الثَّامِن

فِي الْحَدِيث (أحبب حَبِيبك هونا مَا)

قلت رُوِيَ من حَدِيث أبي هُرَيْرَة وَمن حَدِيث ابْن عمر وَمن حَدِيث ابْن عَمْرو

أما حَدِيث أبي هُرَيْرَة فَرَوَاهُ التِّرْمِذِيّ فِي كِتَابه بَاب الْبر والصلة من حَدِيث سُوَيْد بن عَمْرو الْكَلْبِيّ عَن حَمَّاد بن سَلمَة عَن أَيُّوب عَن مُحَمَّد بن سِيرِين عَن أبي هُرَيْرَة أرَاهُ رَفعه قَالَ أحبب حَبِيبك هونا مَا عَسى أَن يكون بَغِيضك يَوْمًا مَا وَأبْغض بَغِيضك هونا مَا عَسى أَن يكون حَبِيبك يَوْمًا

مَا

انْتَهَى

وَقَالَ حَدِيث غَرِيب لَا نعرفه بِهَذَا الْإِسْنَاد إِلَّا من هَذَا الْوَجْه وَقد رَوَاهُ الْحسن بن أبي جَعْفَر بِإِسْنَادِهِ عَن عَلّي عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وَهُوَ ضَعِيف أَيْضا وَالصَّحِيح هَذَا عَن عَلّي مَوْقُوفا

انْتَهَى

(242/556)

وَرَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه الْوسط حَدثنَا مُحَمَّد بن حنيفَة الوَاسِطِيّ حَدثنَا عمي أَحْمد بن مُحَمَّد بن ماهان حَدثنَا أبي عَن عباد بن كثير عَن أبي الزِّنَاد عَن الْأَعْرَج عَن أبي هُرَيْرَة

مَرْفُوعا

وَأما حَدِيث ابْن عمر فَرَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه من حَدِيث أبي الصَّلْت عبد السَّلَام بن صَالح الْهَرَوِيّ عَن جميل بن زيد عَن ابْن عمر عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم . . . نَحوه سَوَاء وَعبد السَّلَام الْهَرَوِيّ ضَعِيف جدا

وَرَوَاهُ ابْن حبَان فِي كتَاب الضُّعَفَاء وَأعله بِهِ وَقَالَ إِنَّه يروي فِي فَضَائِل عَلّي وَأَهله الْعَجَائِب لَا يحْتَج بِهِ إِذا انْفَرد

انْتَهَى

وَأما حَدِيث ابْن عَمْرو فَرَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ أَيْضا حَدثنَا مُحَمَّد بن هِشَام الْمُسْتَمْلِي حَدثنَا مُحَمَّد بن كثير الفِهري حَدثنَا ابْن لَهِيعَة عَن أبي قبيل عَن عبد الله بن عَمْرو ابْن الْعَاص مَرْفُوعا نَحوه سَوَاء

وَأخرجه ابْن عدي فِي كَامِله عَن الْحسن بن دِينَار عَن مُحَمَّد بن سِيرِين عَن أبي هُرَيْرَة مَرْفُوعا نَحوه لَيْسَ فِيهِ سُوَيْد بن عَمْرو قَالَ وَأَجْمع من تكلم فِي الرِّجَال عَلَى ضعف الْحسن بن دِينَار عَلَى أَنِّي لم أجد لَهُ حَدِيثا جَاوز الْحَد فِي الْإِنْكَار وَهُوَ إِلَى الضعْف أقرب

انْتَهَى

وَالْمَوْقُوف عَن عَلّي رَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ فِي كتَاب شعب الْإِيمَان فِي الْبَاب الْحَادِي وَالْأَرْبَعِينَ عَن أبي عبد الله الْحَاكِم بِسَنَدِهِ إِلَى إِسْرَائِيل عَن أبي إِسْحَاق عَن هُبَيْرَة عَن عَلّي

أَنه قَالَ أحبب حَبِيبك هونا مَا . . . إِلَى آخِره

وَقَالَ الدَّارَقُطْنِيّ فِي علله لَا يَصح رَفعه وَالصَّحِيح عَن عَلّي مَوْقُوف

انْتَهَى

(243/556)

وَلم يعزه الطَّيِّبِيّ إِلَّا لِلشِّهَابِ وَهُوَ فِي الشهَاب عَن ابْن عمر وأسنده الْقُضَاعِي فِي مُسْند الشهَاب بِسَنَد الطَّبَرَانِيّ عَن ابْن عمر وَقَالَ ابْن طَاهِر فِي كَلَامه عَلَى أَحَادِيث الشهَاب هَذَا حَدِيث يرويهِ سُوَيْد بن عَمْرو الْكَلْبِيّ عَن حَمَّاد بن سَلمَة عَن أَيُّوب وَهِشَام عَن مُحَمَّد بن سِيرِين عَن أبي هُرَيْرَة مَرْفُوعا وسُويد هَذَا يضع الْأَسَانِيد الصَّحِيحَة عَلَى الْمُتُون الْوَاهِيَة وَرَوَاهُ أَيْضا كَذَلِك الْحسن بن دِينَار عَن ابْن سِيرِين عَن أبي هُرَيْرَة وَالْحسن هَذَا مَتْرُوك وَرَوَاهُ أَيْضا الْحسن بن أبي جَعْفَر الْجعْفرِي عَن أَيُّوب وَهُوَ مَتْرُوك كلهم رَفَعُوهُ وَلَا يَصح رَفعه وَإِنَّمَا هُوَ عَن عَلّي مَوْقُوف وَالله أعلم

وَحَدِيث الْحسن بن أبي جَعْفَر فِي فَوَائِد تَمام أخرجه عَنهُ عَن أَيُّوب عَن حميد بن عبد الرَّحْمَن الْحِمْيَرِي عَن عَلّي بن أبي طَالب مَرْفُوعا

وَأخرجه أَيْضا من طَرِيق مُحَمَّد ابْن إِسْحَاق بن خُزَيْمَة حَدثنَا يَحْيَى بن الْفضل الْعَنزي

حَدثنَا أَبُو عَامر الْعَقدي حَدثنَا هَارُون بن إِبْرَاهِيم الْأَهْوَازِي عَن ابْن سِيرِين عَن حميد بن عبد الرَّحْمَن الْحِمْيَرِي عَن عَلّي مَرْفُوعا . . . فَذكره

وَرَوَاهُ ابْن حبَان فِي كتَاب الضُّعَفَاء بِسَنَد التِّرْمِذِيّ وَأعله بِسُوَيْدٍ وَقَالَ إِنَّه يضع الْمُتُون الْوَاهِيَة عَلَى الْأَسَانِيد الصَّحِيحَة لَا يجوز الِاحْتِجَاج بِهِ بحَال وَلَيْسَ هَذَا من حَدِيث أبي هُرَيْرَة وَإِنَّمَا هُوَ من قَول عَلّي بن أبي طَالب وَقد رَفعه الْحسن ابْن أبي جَعْفَر عَن أَيُّوب عَن حميد بن عبد الرَّحْمَن عَن عَلّي وَهُوَ خطأ فَاحش

انْتَهَى

903 - الحَدِيث التَّاسِع

فِي الحَدِيث (الْمُؤْمِنُونَ هَيِّنُونَ لَيِّنُونَ)

(244/556)

قلت رَوَاهُ ابْن الْمُبَارك فِي كتَاب الزّهْد وَالرَّقَائِق أخبرنَا سعيد بن عبد الْعَزِيز عَن مَكْحُول قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمُؤْمِنُونَ هَيِّنُونَ لَيِّنُونَ هَيِّنُونَ كَالْجمَلِ الْأَلف) قَالَ وَيروَى الْأَنف الَّذِي إِن قيد انْقَادَ وَإِن أُنِيخ عَلَى صَخْرَة ناخ

انْتَهَى

وَمن طَرِيق ابْن الْمُبَارك رَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ فِي شعب الْإِيمَان فِي الْبَاب السَّادِس وَالْخمسين بِسَنَدِهِ وَمَتنه ثمَّ قَالَ هَذَا مُرْسل

ثمَّ أخرجه الْبَيْهَقِيّ عَن عبد الله بن عبد الْعَزِيز بن أبي رواد عَن أَبِيه عَن نَافِع ابْن عمر عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم . . . فَذكره قَالَ وَالْأول مَعَ إرْسَاله أصح

انْتَهَى

وَهَذَا السَّنَد رَوَاهُ الْعقيلِيّ فِي ضعفَاهُ عَن عبد الله بن عبد الْعَزِيز بِهِ وَأعله بِهِ وَقَالَ إِنَّه من مُنْكَرَاته

وَقَالَ ابْن طَاهِر لَا يُتَابع عَلَى روايا ته قَالَ وَرُوِيَ من حَدِيث أنس رَوَاهُ زَكَرِيَّا بن يَحْيَى الْوَقار عَن مُؤَمل بن عبد الرَّحْمَن الثَّقَفِيّ عَن حميد عَن أنس وزَكَرِيا هَذَا يضع الحَدِيث

904 - قَوْله عَن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْه قَالَ كَفَى سَرَفًا أَلَا يَشْتَهِي الرجل شَيْئًا إِلَّا اشْتَرَاهُ فَأَكله

قلت رَوَاهُ عبد الرَّزَّاق فِي تَفْسِيره أخبرنَا سُفْيَان بن عُيَيْنَة عَن رجل عَن الْحسن أَن عمر بن الْخطاب فِي قَوْله تَعَالَى لم يُسْرِفُوا وَلم يقتروا قَالَ كَفَى سَرَفًا أَلَا يَشْتَهِي الرجل شَيْئًا إِلَّا اشْتَرَاهُ فَأَكله

انْتَهَى

وَمن طَرِيق عبد الرَّزَّاق رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ فِي تَفْسِيره

وَرَوَاهُ أَحْمد بن حَنْبَل فِي كتاب الزّهْد أخبرنَا سعيد بن إِبْرَاهِيم حَدثنَا يُونُس عَن الْحسن قَالَ عمر كَفَى بِالْمَرْءِ سَرفًا أَن يَأْكُل كل مَا اشْتَهَى وَفِيه قصَّة

(245/556)

وَقد رُوِيَ نَحوه مَرْفُوعا رَوَاهُ ابْن ماجة فِي كتاب الْأَطْعِمَة حَدثنَا هِشَام ابْن عمار حَدثنَا بَقِيَّة بن الْوَلِيد حَدثنَا يُوسُف بن أبي كثير عَن نوح بن ذكْوَان عَن الْحسن عَن أنس قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (من السَّرف أَن تَأْكُل مَا اشْتهيت)

انْتَهَى

وَرَوَاهُ أَبو يعلي الْموصِلِي فِي مُسْنده وَالْبَيْهَقِيّ فِي شعب الْإِيمَان فِي الْبَاب التَّاسِع وَالثَّلَاثِينَ

905 - الْحَدِيث الْعَاشِر

عَن ابْن مَسْعُود قلت يَا رَسُول الله أَي الذَّنب أعظم قَالَ أَن تجْعَل لله ندا وَهُوَ خلقك) قلت ثمَّ أَي قَالَ أَن تقتل ولدك خشيَة أَن يَأْكُل مَعَك) قلت ثمَّ أَي قَالَ أَن تزَاني حَلِيلَة جَارك)

قلت رَوَاهُ الْبُخَارِيّ فِي صَحِيحه فِي . . . وَمُسلم فِي الْإِيمَان من حَدِيث أبي وَائِل عَن عَمْرو بن شُرَحْبِيل عَن عبد الله بن مَسْعُود قَالَ سَأَلت رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَي الذَّنب أعظم قَالَ أَن تجْعَل لله ندا وَهُوَ خلقك) قلت ثمَّ أَي قَالَ أَن تقتل ولدك مَخَافَة أَن

يطعم مَعَك) قلت ثمّ أَي قَال أَن تزَاني حَلِيلَة جَارك)

انْتَهَى

906 - الحَدِيث الْحَادِي عشر

عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ من قَرَأَ سُورَة الْفرْقَان لَقِي الله يَوْم الْقِيَامَة وَهُوَ مُؤمن بِأَن السَّاعَة آتِيَة لَا ريب فِيهَا وَأدْخل الْجنَّة بِغَيْر نصب)

قلت رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ فِي تَفْسِيره من حَدِيث سَلام بن سليم حَدثنَا هَارُون بن كثير عَن زيد بن أسلم عَن أَبِيه عَن أبي أُمَامَة عَن أبي بن كَعْب قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم . . . فَذكره

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره بسنديه فِي آل عمرَان

(246/556)

وَرَوَاهُ الواحدي فِي تَفْسِيره الْوَسِيط بِسَنَدِهِ الْمُتَقَدّم فِي يُونُس إِلَّا أَنه قَالَ وَأدْخل الْجنَّة بِغَيْر حِسَاب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تخريج الأحاديث والآثار حـ 2 صـ 457 . 469 ﴾

(247/556)

فصل فى ذكر آيات الأحكام فى السورة الكريمة

قال العلامة الكيا هراسي :

(بسم اللّه الرّحمن الرّحيم)

سورة الفرقان

قوله تعالى : (وَأَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً طَهُوراً) ، الآية/ 48 .

قال قائلون : وصف الماء بأنه طهور ، يفيد أنه يصلح للتطهير ، وأنه يقع به هذا الحكم ، كقولهم فطور وسحور إذا صلح لذلك .

وقال آخرون : إنه يفيد المبالغة في التطهير ، والمعنى بيّن .

ولا اختلاف أن للماء هذا الحكم ، إذا كان على خلقته وهو ينزل من السماء ، فما دام على نعت المنزل من السماء وفي قرار الأرض ، فهو طهور ومطلق .

وإذا خالفه غيره ، انقسم المخالط أقساما : فمنه ما يكون نجسا ، ومنه ما يكون طاهرا .

وإذا كان المخالط نجسا ، فمالك لا يحكم بنجاسة الماء ، ويبقيه على حكم وصفه الأصلي .

وأبو حنيفة يقول : ما دام يتوهم خلوص النجاسة إلى الماء الذي يغترف منه ، فلا يجوز التوضؤ به .

والشافعي يقول : يعول على القلتين ، وبعد ذلك لا يؤخذ من الظاهر ، وإنما يؤخذ من المعنى . . وبعضه مأخوذ من الظاهر «1» .

والماء المستعمل مختلف فيه بين العلماء ، فالظاهر يقتضي جواز التوضؤ به ، والقليل من النجاسة لا يمنع من إطلاق اسم الماء عليه لغة ، ولكن امتناع التوضؤ به لدليل آخر .

ومتى قيل : فالماء إذا جعل طهورا ، فهو يطهر ماذا ؟

قيل : إنه يطهر على وجهين :

أحدهما : طهارة الأحداث «2» .

والثانية : الجنب «3» .

فأما طهارة الحدث ، فصريان غسل ووضوء ، ولكل واحد منهما سبب ، فسبب الغسل الجنابة والحيض والنفاس ، ويتبع الجنابة التقاء الختانين وإن لم ينزل .

وأسباب الوضوء مستقصاة في كتب الفقه مع ما فيها من إختلاف العلماء .

واختلف الناس في الماء ، هل خص بالتطهير في الأنجاس كلها ؟

فمنهم من قال ذلك .

ومنهم من قال غير قوله . . وشرح ذلك في كتب الفقه .

والذي يجوز إزالة النجاسة بغير الماء ، ليس يجوزه بطريق القياس على الماء فقط ، فإن من الممكن أن يقال إن التعبد بإزالة النجاسة ، فإن لم تكن

---

(1) راجع كتاب الطهارة من كتاب الأم للإمام الشافعي رضي اللّه عنه

(2) ويسمى ذلك بالحدث الأصغر .

(3) ويسمى ذلك بالحدث الأكبر .

نجاسة زال محل التعبد ، ولأجل ذلك صار داود مع نفي القياس إلى إزالة النجاسة بغير الماء ، لا قياسا لغير على الماء ، لكن لزوال محل التعبد ، فهذا تمام هذا الفن .

قوله تعالى : (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْماءِ بَشَراً فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهْراً) ، الآية/ 54 .

يدل على أن اللّه سبحانه جعل الماء سبب الاجتماع والتآلف والرضاع والخقونة «1» .

وفيه إشارة إلى المحرمات بالسبب والنسب ، وأن كل ذلك تولد من الماء .

وفيه دليل على أن حرمة المصاهرة تثبت بطريق الكرامة لا بطريق النقمة والعقوبة ، ولذلك قال الشافعي : لا يتعلق بالزنا وتحريم المصاهرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أحكام القرآن /

للكيا هراسي حـ 4 صـ 329. 331 ﴾

---

(1) وفي نسخة أخرى الختونة .

(250/556)

وقال العلامة القنوجى :

سورة الفرقان

وهي سبع وسبعون آية

هي مكية ، في قول الجمهور «1» .

قال القرطبي «2» : قال ابن عباس وقتادة : إلا ثلاث آيات منها نزلت بالمدينة وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ الآيات .

[الآية الأولى]

وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّياحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً طَهُوراً (48) .

وَأَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً طَهُوراً (48) : أي يتطهر به ، كما يقول : وضوء للماء الذي يتوضى به .

قال الأزهري : الطهور في اللغة : الطاهر المطهر .

قال ابن الأنباري : الطهور بفتح الطاء الاسم ، وكذلك الوصف ، وبالضم المصدر ، هذا هو المعروف في اللغة .

وقد ذهب الجمهور إلى أن الطهور هو الطاهر المطهر ويؤيد ذلك كونه بناء مبالغة .

وروي عن أبي حنيفة أنه قال : الطهور هو الطاهر ، واستدل لذلك بقوله تعالى :

وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً (21) [الإنسان : 21] يعني طاهرا ، ومنه قول الشاعر :

---

(1) قال في «البحر» (6/ 480) : «هذه السورة مكية في قول الجمهور ، وقال ابن عباس : إلا ثلاث آيات نزلت بالمدينة وهي وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ إلى قوله وَكانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً (70) .

(2) انظره في تفسيره (13/ 1) .

(251/556)

خليلي هل في نظرة بعد توبة [أداوي] «1» بها قلبي عليّ فجور

إلى رجّح الأكفال غيد من الظّبا عذاب الثنايا ريقهنّ طهور

فوصف الريق بأنه طهور وليس بمطهر . ورجح القول الأول ثعلب وهو راجح لما تقدم من حكاية الأزهري لذلك عن أهل اللغة «2» .

وأما وصف الشاعر للريق بأنه طهور فإنه على طريق المبالغة .

وعلى كل حال فقد ورد الشرع بأن الماء في [نفسه] «3» طاهر ومطهر لغيره «4» .

قال اللّه تعالى : وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّماءِ ماءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ [الأنفال : 11] .

قال النبي صلّى اللّه عليه وآله وسلّم : «خلق الماء طهورا» «5» .

[الآية الثانية]

وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِياماً (64) .

وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ : البيتوتة : هي أن يدركك الليل نمت أم لم تنم .

قال الزجاج : من أدركه الليل فقد بات نام أو لم ينم كما يقال : بات فلان قلقا .

والمعنى يبيتون .

لِرَبِّهِمْ سُجَّداً : على وجوههم .

وَقِياماً (64) : على أقدامهم ، ومنه قول امرئ القيس «6» :

فبتنا قياما عند رأس جوادنا يزاولنا عن نفسه ونزاوله

---

(1) حرّف في المطبوع إلى (أوادي) وهو خطأ والتصويب من فتح القدير (4/ 80) .

(2) وانظر : تهذيب اللغة (طهر) ، نيل الأوطار (1/ 14) .

(3) ما بين [] بياض في «المطبوعة» واستدرك من فتح القدير (4/ 80) .

(4) انظر : الروضة الندية للمصنف (1/ 4) ، ونيل الأوطار للشوكاني (1/ 7 ، 16) ،

القرطبي (13/ 55) .

(5) الذي وقفنا عليه هو حديث «إن الماء طهور لا ينجسه شيء إلا . .» رواه أبو داود (66) ، والترمذي (67) ، والنسائي (1/ 174) ، وابن أبي شيبة (1/ 116 ، 167) ، وأحمد في «المسند» (3/ 31) عن أبي سعيد مرفوعا . وحسّنه الترمذي وصححه البغوي وانظر : التلخيص (1/ 13) .

(6) نسبه القرطبي لزهير بن أبي سلمى (13/ 71) ، وهو في «ديوانه» (ص 132) .

(252/556)

والظاهر أنه وصف لهم بإحياء الليل كله أو أكثره .

[الآية الثالثة]

وَالَّذِينَ إِذا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكانَ بَيْنَ ذلِكَ قَواماً (67) .

وَالَّذِينَ [إِذا] «1» أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا : من قتر يقتر ، أو أقتر يقتر . ومعنى الجميع التضييق في الإنفاق .

قال النحاس : أحسن ما قيل في معنى الآية : أن من أنفق في غير طاعة اللّه فهو الإسراف ومن أمسك عن طاعة اللّه فهو الإقتار ومن أنفق في طاعة اللّه فهو القوام «2» .

وقال إبراهيم النخعي : هو الذي لا يجوع ولا يعرى ولا ينفق نفقة يقول الناس قد أسرف .

وقال يزيد بن حبيب : أولئك أصحاب محمد صلّى اللّه عليه وآله وسلّم كانوا لا يأكلون طعاما للتنعم واللذة ، ولا يلبسون ثوبا للجمال ، ولكن كانوا فريدون من الطعام ما يسد عنهم الجوع ويقويهم على عبادة اللّه ، ومن اللباس ما يستر عوراتهم ويقيهم الحر والبرد «3» .

وقال أبو عبيدة : لم يزيدوا على المعروف ولم يبخلوا ، كقوله : وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلى عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْها كُلَّ الْبَسْطِ [الإسراء : 29] .

وَكانَ : أي إنفاقهم .

بَيْنَ ذلِكَ : الإفراط أو التفريط .

قَواماً (67) بكسر القاف : ما يدوم عليه الشيء ويستقر وبالفتح العدل والاستقامة ، قاله ثعلب .

وقيل : بالفتح العدل بين الشيئين ، وبالكسر ما يقام به الشيء لا يفضل عنه ولا

---

(1) ما بين [المعقوفين] سقط من المطبوعة .

(2) انظر كلام النحاس في «معاني القرآن» له (5/ 48 ، 49) . [. . . . .]

(3) انظر : الطبري (19/ 26) ، وزاد المسير (6/ 105) ، وابن قتيبة (315) ، والنكت (3/ 165) ، والبحر المحيط (6/ 515) ، ومجاز أبي عبيدة (2/ 81) ، والقرطبي (13/ 76) ، الدر المنثور (5/ 77) .

ينقص . وقيل : بالكسر السداد والمبلغ «1» .

[الآية الرابعة]

وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنا هَبْ لَنا مِنْ أَزْواجِنا وَذُرِّيَّاتِنا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنا لِلْمُتَّقِينَ إِماماً (74) .

وَاجْعَلْنا لِلْمُتَّقِينَ إِماماً (74) أي قدوة يقتدى بنا في الخير .

وإنما قال إماما ولم يقل أئمة لأنه أريد به الجنس كقوله : ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا [الحج : 5] ، وقيل : إنه من الكلام المقلوب ، وأن المعنى : واجعل المتقين لنا إماما ، وبه قال مجاهد . وقيل : إن هذا الدعاء صادر عنهم بطريق الانفراد وإن عبارة كل واحد منهم عند الدعاء : واجعلني للمتقين إماما ، ولكنها حكيت عبارات الكل بصيغة المتكلم مع الغير لقصد الإيجاز .

وقال الأخفش : الإمام جمع آمّ من أمّ يؤم جمع على فعال كصاحب وصحاب وقائم وقيام وقيل : إنه مصدر كالقيام والصيام . وقيل غير ذلك .

قال النيسابوري : قيل : في الآية دلالة على أن الرياسة الدينية مما يجب أن يطلب ويرغب فيها ، والأقرب أنهم سألوا اللّه أن يبلغهم في الطاعة المبلغ الذي به يشار إليه ويقتدى بهم

«2» . انتهى انتهى . ا هـ ﴿نيل المرام صـ414.417﴾

---

(1) القوام في اللغة : الوسط والعدل ، قال القرطبي : وهذا أدب الشرع ألا يفرط الإنسان حتى يضيّع حقا أو عيالا ، وألا يضيّق ويقتر حتى يجيع العيال ، ويفرط في الشح . اه - (13/ 73) ، وانظر :

الطبري (19/ 37) ، ابن كثير (6/ 134) ، ومعاني الفراء (2/ 273) ، الدر المنثور (5/ 77) .

(2) انظر : الطبري (19/ 53) ، الدر المنثور (5/ 81) .

(254/556)

من مجازات القرآن فى السورة الكريمة

قال ابن المثنى :

«سورة الفرقان» (25)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

« [وَلا] حَياةً وَلا نُشُوراً» (3) مصدر نشر الميّت نشورا وهو أن يبعث ويحيا بعد الموت

قال الأعشى :

حتى يقول الناس مما رأوا يا عجبا للميّت الناشر

«1» [609].

«إِنْ هَذا إِلَّا إِفْكٌ افْتَراهُ» (4) الإفك البهتان وأسوأ الكذب، افتراه أي اختلقه واخترعه من عنده..

«فَهِيَ تُمْلى عَلَيْهِ» (5) أي تقرأ عليه وهى من أمليته عليه «2»، وهى فى موضع آخر أمللت عليه..

«وَأَعْتَدْنا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيراً»

(11) ثم جاء بعده

«إِذا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَها تَغَيُّظاً وَزَفِيراً» (12) والسعير مذكر وهو ما تسعّر من سمار النار، ثم جاء بعده فعل مؤنثة مجازها أنها النار، والعرب تفعل ذلك تظهر مذكرا من سبب مؤنثة ثم يؤنّثون ما بعد المذكر «3» على معنى المؤنثة.

---

(1). - 609: ديوانه ص 105 - والطبري 19/ 513 والجمهرة 2/ 349: والقرطبي 13/ 3 واللسان والتاج (نشر).

(2). - 8 «فهى تملى... أمليته عليه»: روى ابن حجر هذا الكلام عنه وزاد: يشير إلى قوله تعالى فى سورة البقرة «وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ» (282 - فتح الباري 8/ 377).

(3) . - 10 - 12 «اعتدنا . . . المذكر» : روى ابن حجر هذا الكلام عن أبى عبيدة أثناء كلامه على قول البخاري : وقال غيره السعير مذكر (فتح الباري 8/ 377) .

(255/556)

قال المخيّس «1» :

إن تميما خلقت ملموما

[610] فتميم رجل ثم ذهب بفعله إلى القبيلة فأنّثه فقال : خلقت ، ثم رجع إلى تميم فذكّر فعله فقال «ملموما» ثم عاد إلى الجماعة فقال :

قوما ترى واحدهم صهميما

ثم عاد إليه فقال :

لا راحم الناس ولا مرحوما

.

«دَعَوْا هُنالِكَ ثُبُوراً» (13) أي هلكة «2» وهو مصدر ثبر الرجل أي هلك ، قال :

إذا جارى الشيطان فى سنن الغىّ ومن مال ميله مثبور (455) .

«ما كانَ يَنْبَغِي لَنا» (18) مجازه ما يكون لنا و«كان» من حروف الزوائد ها هنا قال ابن

أحمر :

---

(1) . - 610 : «المخيس» : المخيس بن أرطأة الأعرجى الراجز وهو أول شاعر مدح بنى العباس فى خلافتهم فمدح السفاح والمنصور . انظر ترجمته فى معجم المرزباني ص 579 - وأنشد الجوهري هذه الأشطار مع آخر وقال : وأنشد أبو عبيد للمخيس واستشكله ابن برى وقال : صوابه أن يقول وأنشد أبو عبيدة للمخيس الأعرجى قال كذا قال أبو عبيدة فى كتاب المجاز فى سورة الفرقان عند قوله عز وجل «وَأَعْتَدْنا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيراً» فالسعير مذكر ثم أنثه فقال إذا . . . سمعوا لها وكذلك قوله إن تميما . . . الشطر ، فجمع وهو يريد أبا الحي ثم قال فى الآخر : لا راحم ، الشطر قال وهذا الرجز فى رجز رؤية (اللسان - صهم) .

لقد ورد الشطر الأول فقط بين الأبيات المفردات اللاتي فى آخر ديوانه (185) ، والثاني مع الثالث فى الجمهرة 3/ 373 وكلها فى التاج أيضا (صهم) .

(2) . - 8 - 9 «ثبورا - هلكة» : روى ابن حجر هذا الكلام عنه فى فتح الباري 8/ 377 .

ما أمّ غفر على دعجاء ذى علق ينفى القراميد عنها الأعصم الوقل

«1» [611]

فى رأس خلقاء من عنقاء مشرفة لا ينبغى دونها سهل ولا جبل

وقل وو قل وندس وندس وحدث وحدث وفرد وفرد ، والغفر ولد الوعل الصغير ،

والدعجاء : اسم هضبة «2» وذو علق جبل ، والقراميد أولاد الوعول واحدها قرمود ،

والقراهيد «3» الصغار أيضا : الأعصم الذي بإحدى يديه بياض «4» ، والوقل المتوقّل

فى الجبال ، والخلقاء الملساء ، والعنقاء :

الطويلة . قال أبو عبيدة : أي لا يكون سهل ولا جبل مثلها . .

«وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآباءَهُمْ» (18) أي أنسأتهم وأخّرتهم ومددت لهم . .

«وَكانُوا قَوْماً بُوراً» (18) واحدهم بائر أي هالك ومنه قولهم : نعوذ باللّه من بوار الأيم

«5» ، وبار الطعام وبارت السّوق أي هلكت وقال عبد اللّه ابن الزّبعرى :

---

(1) . - 611 : البيتان فى الطبري 23/ 91 والأول فى الجمهرة 3/ 375 ومعجم البلدان 3/ 712 واللسان والتاج (قرمد) .

والثاني فى القرطبي 11/ 158 - «ذو علق» : قال فى معجم البلدان : جبل معروف فى أعلاه هضبة سوداء قال الأصمعى وأنشد أبو عبيدة لابن أحمر البيت . . . إلخ .

(2) . - 4 «الهضبة» كل جبل خلق من صخرة واحدة وقيل كل صخرة راسية صلبة

ضخمة هضبة (اللسان) .

(3) . - 4 : القراميد والقراهيد : قال صاحب اللسان قال الأزهرى القراميد والقراهيد أولاد الوعول واحدها قرد .

(4) . - 5 «الأعصم . . . بياض» : روى صاحب اللسان هذا الكلام عن أبى عبيدة (عصم) وهو فى الجمهرة أيضا (3/ 375)

(5) . - 10 - 11 «نعوذ . . . الأيم» : أي كسادها وهو أن تبقى المرأة فى بيتها لا يخطبها خاطب من بارت السوق إذا كسدت والأيم التي لا زوج لها وهى مع ذلك لا يرغب فيها أحد (اللسان) .

(257/556)

يا رسول المليك إنّ لسانى راتق ما فتقت إذ أنا بور

(390) وقال بعضهم : رجل بور ورجلان بور ورجال بور وقوم بور ، وكذلك الواحدة والثنتان والجميع من المؤنثة «1» . .

«وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا» (21) مجازه لا يخافون ولا يخشون . وقال أبو ذؤيب :

إذا لسعته الدبر لم يرج لسعها وحالفها فى بيت نوب عوامل

(309) ويروى خالفها بالخاء . .

«وَيَقُولُونَ حِجْراً مَحْجُوراً» (22) أي حراما محرّما ، قال المتلمّس :

حنّت إلى النّخلة القصوى فقلت لها حجر حرام ألا تلك الدّهاريس

(235) وفى آية أخرى «لِذِي حِجْرٍ» (89/ 5) أي لذى عقل ولبّ ، ومن الحرام سمّى حجر الكعبة «2» ، والأنثى من الخيل يقال لها حجر . .

«وَقَدِمْنا إِلى ما عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ» (23) مجازه وعمدنا إلى ما عملوا «3» ، قال :

---

(1) . - 2 - 3 «بعضهم . . . المؤنثة» : انظر ما رواه صاحب اللسان عن أبى عبيدة فى تفسيره هذا (بور) .

(2) . - 11 «حجر الكعبة» قال الطبري : لأنه لا يدخل إليه فى الطواف وإنما يطاف من ورائه .

(3) . - 12 - 13 «وعمدنا . . . عملوا» : فى الطبري 19/ 3 . (19/ 2) .

(258/556)

فقدم الخوارج الضّلّال إلى عباد ربّهم فقالوا

«1» [612] إنّ دماءكم لنا حلال مثل الغبار إذا طلعت فيه الشمس وليس له مسّ ولا

يرى فى الظل «2» . .

«يَوْماً عَلَى الْكافِرِينَ عَسِيراً» (26) أي شديدا صعبا . .

«مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا» (27) أي سببا ووصلة قال جرير :

أفبعد مقتلكم خليل محمد ترجو القيون مع الرسول سبيلا

«3» [613] .

«وَقالَ الرَّسُولُ يا رَبِّ» (30) وقال ها هنا فى موضع «يقول» والعرب تفعل ذلك قال الشاعر :

مثل العصافير أحلاما ومقدرة لو يوزنون بزفّ الرّيش ما وزنوا

[614] وهى فى موضع آخر لم يزنوا لأنهم لم يفعلوا بعد وقال :

إن يسمعوا ريبة طاروا بها فرحا منى وما يسمعوا من صالح دفنوا

«4» (210) أي يطيروا ويدفنوا . .

«لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤادَكَ» (32) مجازه لنطيّب به نفسك ونشجّعك .

---

(1) . - 612 : الأشطار فى الطبري 19/ 3 القرطبي 13/ 21 . [. . . . .]

(2) . - 3 - 4 «و هو . . . الظل» : روى ابن حجر هذا الكلام عنه (فتح الباري 7/ 376) .

(3) . - 613 : ديوانه ص 454 .

(4) . - 615 : ديوانه ص 459 .

(259/556)

«أَصْحابَ الرَّسِّ» (38) أي المعدن «1» قال النابغة الجعدىّ :

سبقت إلى فرط ناهل تنابلة يحفرون الرّساسا

«2» [616] والرّساس المعادن . .

«وَكُلًّا تَبَّرْنا تَتْبِيراً» (39) أي أهلكنا واستأصلنا . .

«إِنْ كادَ لَيُضِلُّنا عَنْ آلِهَتِنا» (42) كاد ها هنا فى موضع المقاربة وقد فرغنا فوق هذا من مواضع «كادَ» . .

«تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا» (43) أي حفيظا . .

«كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شاءَ لَجَعَلَهُ ساكِناً ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا» (45) فالظل ما أصبح ونسخته الشمس ، ولو شاء اللّه لم تنسخه الشمس فتركه تاما ممدودا لم تنقصه الشمس ، ولكنه جعل الشمس دليلا عليه ، أي على الظل حيث نسخته ، والشمس مؤنثة وجاءت صفتها على تقدير صفة المذكر ، والعرب قد تفعل ذلك وإنما يريدون به البدل

كقولهم: هى عديلى أي التي تعادلنى ووصىّ ونحو ذلك. قال الأعشى:

هى الصاحب الأدنى وبينى وبينها مجوف علافى وقطع ونمرق

«3» [617]

---

(1). - 1 «الرس أي المعدن»: نقل ابن حجر تفسير أبى عبيدة هذا (فتح الباري 8/ 377).

(2). - 616: ديوانه ص 75 والجمهرة 1/ 81 فى الطبري 19/ 6 وعجزه فى اللسان (رسس) والقرطبي 13/ 32.

(3). - 617: ديوانه ص 147.

(260/556)

رجل علافىّ مجوف ضخم الجوف، وقال:

وصاحبى ذات هباب دمشق

«1» [618] وقالت:

قامت تبكيه على قبره من لى من بعدك يا عامر [619]

تركتنى فى الدار ذا غربة قد ذل من ليس له ناصر

«2» والفيء ما نسخ الشمس من الظل : وهو بالعشي وإذا استدارت الشمس .

«أرسل الرّياح نشرا» (48) أي حياة وهو من «نشر» . .

«بَلْدَةً مَيْتاً» (49) مخففة بمنزلة تخفيف هيّن ولّين وضيّق : هين ولين وضيق ولم تدخل الهاء فيها ، والبلدة مؤنثة فتكون ميتة لأن المعنى وقع على المكان والعرب تفعل ذلك قال :

إن تميما خلقت ملموما

(610) فذهب بتذكيره إلى تميم وقال آخرون : بل الأرض التي ليس فيها نبات ميت بلا هاء ، والروحانية إذا ماتت فهى ميتة بالهاء .

---

(1) . - 618 : من رجز فى اللسان والتاج (دمشق) للزفيان قال فى اللسان : وأنشد أبو عبيدة قول الزفيان والشطر فى الطبري مع آخر 21/ 57 ، الدمشق الناقة الخفيفة السريعة .

(2) . - 619 : التنبيه للبكرى ص 30 والسمط ص 174 وذيله ص 74 واين يعيش 1/ 696 .

«وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ» (53) إذا تركت الشيء وخلّيته فقد مرجته ، ومنه قولهم مرج الأمير الناس أي خلّاهم بعضهم على بعض مرجت دابتك أي تركتها فى أمر مريج أي مختلط ، وإذا رعيت الدابة فقد أمرجتها قال العجّاج :

رعى بها مرج ربيع ممرجا

«1» [620] وفى الحديث مرجت عهودهم وأماناتهم «2» أي اختلطت وفسدت . .

«هذا عَذْبٌ فُراتٌ» (53) أي شديد العذوبة . .

«أُجاجٌ» (53) والأجاج أملح الملوحة وما بين ذلك المسوس والزّعاق الذي يحرق كل شيء من ملوحته قال ذو الإصبع :

لو كنت ماء كنت لا عذب المذاق ولا مسوسا

«3» [621] .

«وَجَعَلَ بَيْنَهُما بَرْزَخاً» (53) كل ما بين شيئين برزخ وما بين الدنيا والآخرة برزخ . .

«وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْماءِ بَشَراً» (54) مجازه خلق من النّطف البشر وفى آية أخرى «مِنْ ماءٍ دافِقٍ» (86/ 6) أي نطفة . .

«وَكانَ الْكافِرُ عَلى رَبِّهِ ظَهِيراً» (55) أي مظهورا به أي هيّنا ومنه ظهرت به فلم التفت إليه .

(1) . - 620 : ديوانه ص 9 واللسان والتاج (مرج) .

(2) . - 6 «مرجت . . أماناتهم» : فى النهاية واللسان (مرج) فى الطبري 19/ 14 والقرطبي 13/ 58 .

(3) . - 621 : ذو الإصبع : هو حرثان بن السموأل الملقب ذا الإصبع العدواني لقب بذلك لان حية لسعت إصبعه فقطعها انظر أخباره فى الأغانى (الدار) 3/ 89 وترجم له فى السمط ص 289 ، والخزانة 2/ 408 - والبيت فى الجمهرة 3/ 429 واللسان (مسس) .

(262/556)

وله موضع آخر مجازه معينا عدوّه . .

«قُلْ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلى رَبِّهِ سَبِيلًا» (57) والعرب قد تستثنى الشيء من الشيء وليس منه على الاختصار ، وفيه ضمير تقديره قل ما أسألكم عليه من أجر إلّا أنه من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا فليتخذه . قال أبو خراش :

نجا سالم والنّفس منه بشدقه ولم ينج الا جفن سيف ومئزرا

(511) فاستثنى الجفن والمئزر وليسا من سالم إنما هو على الاختصار وقال :

وبلد ليس به أنيس إلّا اليعافير وإلّا العيس

(165) يعنى الإبل فاستثنى اليعافير ، والعيس من الناس كأنه قال : إلّا أن بها يعافير وعبسا ، واليعافير الظباء واحدها يعفور ، وفى آية أخرى «فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعالَمِينَ» (26/ 77) وقال :

(263/556)

فديت بنفسه نفسى ومالى وما آلوك إلا ما أطيق

«1» [623] وقال :

يا ابن رفيع هل لها من غبق ما شربت بعد ركىّ العرق

(408) من قطرة غير النجاء الدفق .

«الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما» (59) والسموات جميع فجاءت على تقدير الواحد والعرب إذا جمعوا جميع موات ثم أشركوا بينه وبين واحد جعلوا خبر جميع الجميع المشرك بالواحد على تقدير خبر الواحد قال :

ان المنيّة والحتوف كلاهما توفى المخارم ترقبان سوادى

(576) وكذلك الجميع مع الجميع قال القطامىّ :

ألم يحزنك ان حبال قيس وتغلب قد تباينتا انقطاعا

(577) أي وحبال تغلب . .

«وَجَعَلَ فِيها سِراجاً» (61) أي شمسا وضياء .

و«جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ خِلْفَةً» (62) أي يجيء الليل بعد النهار ويجيء النهار بعد الليل يخلف منه وجعلهما خلفة وهما اثنان لأن الخلفة مصدر فلفظه من الواحد والاثنين والجميع من المذكر والمؤنث واحد وقال الشاعر :

ولها بالماطرون إذا أكل النّمل الذي جمعا «2» [624]

خلفة حتى إذا ارتبعت سكنت من جلّق بيعا

---

(1) . - 623 : البيت فى ديوان عروة بن الورد 205 والطبري 20/ 65 وشواهد المغني ص 328 .

(2) . - 624 : فى الكامل للمبرد 218 والطبري 19/ 19 والجمهرة 2/ 238 والقرطبي 13/ 66 ، وانظر ما تقدم من الخلاف فى عزو البيت فى رقم 232 .

وقال :

بها العين والآرام يمشين خلفة وأطلاؤها ينهضن فى كل مجثم

«1» [625] .

«إِنَّ عَذابَها كانَ غَراماً» (65) أي هلاكا ولزاما لهم ومنه رجل مغرم بالحب حب النساء

من الغرم والدّين قال الأعشى :

فرع نبع يهتزّ فى غصن المج د غزير النّدى شديد المحال (375)

إن يعاقب يكن غراما وإن يع ط جزيلا فإنه لا يبالى

وقال بشر بن أبى خازم :

ويوم النسار ويوم الجفا ر كانوا عذابا وكانوا غراما

«2» [626] أي هلكة . .

«ساءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقاماً» (66) أي قرارا وإقامة لأنه من أقام أي مخلدا ومنزلا ، وقال

جرير :

حيّوا المقام وحيّوا ساكن الدار

«3» [627] وقال سلامة بن جندل :

يومان يوم مقامات وأندية ويوم سير إلى الأعداء تأويب

(1) . - 625 : هذا البيت من معلقة زهير (فى ديوانه ص 5) وهو مما استشهد به المفسرون وأصحاب اللغة فى تفسير الآية ولكن عجز البيت لا يوافق عجز البيت الذي ورد فى النسختين اللتين بأيدينا فأثبتناها فى الفروق والبيت فى الطبري 19/ 19 والجمهرة 2/ 238 واللسان والتاج (خلف) والقرطبي 13/ 65 . [. . . . .]

(2) . - 626 : فى الطبري 19/ 21 والجمهرة 2/ 81 والاقتضاب ص 316 ومعجم البلدان 2/ 89 ، 4/ 779 وينسب فى اللسان إلى الطرماح (غرم) .

(3) . - 627 : ديوانه ص 380 .

(265/556)

وإذا فتحوا أوله فهو من قمت وفى آية أخرى «وَمَقامٍ كَرِيمٍ» (26/ 58) أي مجلس وقال عبّاس بن مرداس :

فأيّ ما وأيك كان شرّا فقيد إلى المقامة لا يراها

«1» [628] يدعو عليه بالعمى «2» ، أي إلى المجلس . .

«يَلْقَ أَثاماً» (68) أي عقوبة .

«يضعّف له العذاب يوم القيامة» (69) أي يلق عقوبة وعقابا كما وصف «يضعّف له

العذاب» وقال بلعاء بن قيس الكناني :

جزى اللّه ابن عروة حيث أمسى عقوقا والعقوق له أثام

«3» [629] أي عقابا .

فى ليلة من جمادى ذات أندية لا يبصر الكلب من ظلمائها الطنبا

«4» [630] التأويب سير النهار كله ثم يتأوب ليلا أهله وقال لبيد

ومقام ضيّق فرّجته بلساني وبيانى وجدل «5» [631]

لو يقوم الفيل أو فيّالة زاح عن مثل مقامى وزجل

---

(1) . - 628 : فى الكتاب 1/ 352 والطبري 19/ 21 ، 20/ 39 ، 21/ 78 والشنتمرى 1/ 399 والخزانة 2/ 230 .

(2) . - 4 «يدعو . . . بالعمى» : أي يدعو العباس بن مرداس على خفاف بن ندبة لأن البيت من جملة أبيات له قالها لخفاف بن ندبة فى أمر شجر بينهما .

(3) . - 629 : «بلعاء» : هو بلعاء بن قيس الكناني . . وكان رأس بنى كنانة فى أكثر حروبهم ومغازيهم وكان كثير الغارات على العرب وهو شاعر محسن وقد قال فى كل فن أشعارا جيادا وانظر ترجمته فى المؤتلف ص 106 وله أخبار فى حروب الفجار وانظر الأغانى 19/ 77 وفاته فى هذه الحرب ص 80 - والبيت فى الكامل للمبرد ص 446 والطبري 19/ 24 واللسان (اثم) والقرطبي 13/ 76 .

(4) . - 630 : فى الحماسة 4/ 124 والصحاح واللسان والتاج (ندى) والعينى 4/ 510.

(5) . - 631 : ديوانه 2/ 16 ومعجم البلدان 3/ 652، 833.

(266/556)

«اللغو» (72) كل كلام ليس بحسن وهو فى اليمين لا واللّه وبلى واللّه . .

«لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْها صُمًّا وَعُمْياناً» (73) مجازه لم يقيموا عليها تاركين لها لم يقبلوها . .

«قُلْ ما يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي» (77) ومنه قولهم ما عبأت بك شيئا «1» أي ما عددتك شيئا . .

«فَسَوْفَ يَكُونُ لِزاماً» (77) أي جزاء وهو الفيصل قال الهذلي :

فإما ينجوا من حتف يوم فقد لقيا حتوفهما لزاما

«2» [632] يلزم كلّ عامل ما عمل من خير أو شر وله موضع آخر فسوف يكون هلاكا

قال أبو ذؤيب :

ففاجئه بعادية لزام كما يتفجّر الحوض اللقيف

«3» [633] الحوض اللقيف الذي قد تهدمت حجارته سقط بعضها على بعض لزام

أي كثيرة بعضها فى إثر بعض. انتهى انتهى. اهـ ﴿ مجاز القرآن حـ 2 صـ 70. 82 ﴾

---

(1) . - 4 - 5 «ومنه . . . شيئا» : روى ابن حجر هذا الكلام عن أبى عبيدة فى فتح الباري 8/ 377 .

(2) . - 632 : ديوان الهذليين 1/ 102 والطبري 19/ 33 والقرطبي 13/ 86 واللسان والتاج (لزم) .

(3) . - 633 : البيت للصحز الغى الهذلي فى ديوان الهذليين 2/ 65 والطبري 19/ 33 والقرطبي 13/ 86 واللسان والتاج (لزم) .

(267/556)

من مجازات القرآن واستعاراته فى السورة الكريمة

قال الشريف الرضى :

ومن السورة التي يذكر فيها «الفرقان»

[سورة الفرقان (25) : آية 12]

إِذا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَها تَغَيُّظاً وَزَفِيراً (12)

قوله تعالى : إِذا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَها تَغَيُّظاً وَزَفِيراً [12] وفى هذه الآية

استعارتان . إحداهما قوله سبحانه : إِذا رَأَتْهُمْ وهو فى صفة نار جهنم ، نعوذ باللّه منها ، ولا تصحّ صفة الرّؤية عليها . وإنما المراد – واللّه أعلم – إذا كانت منهم بمقدار مسافة لو كان بها من يوصف بالرؤية لرآهم . وهذا من لطائف التأويل ، وغرائب التفسير .

وقد يجوز أيضا أن يكون معنى ذلك : إذا قربت منهم ، وظهرت لهم . من قولهم : دور بنى فلان تتراءى . أي تتقارب . وفى الحديث : لا تتراءى نارا هما «1» أي لا تتدانى .

والاستعارة الأخرى قوله سبحانه : سَمِعُوا لَها تَغَيُّظاً وَزَفِيراً وهاتان الصفتان من صفات الحيوان ، ويختص التغيظ بالإنسان ، لأن الغيظ من أعلى منازل الغضب ، والغضب

---

(1) الحديث بأكمله فى «صحيح أبى داود» الجزء الأول . باب على ما يقال المشركون ، كتاب الجهاد . ص 261 ونصه : (حدثنا هناد بن السرى ثنا أبو معاوية عن إسماعيل عن قيس عن جرير بن عبد اللّه . قال : بعث رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم سرية إلى خثعم فاعتصم ناس منهم بالسجود ، فأسرع فيهم القتل قال : فبلغ ذلك النبي صلّى اللّه عليه وسلم ، فأمر لهم بنصف العقل ، وقال : أنا برىء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين ، قالوا يا رسول اللّه لم ؟ قال : لا تراءى ناراهما) وفى سنن النسائي ج 2 ص 245 جاء هذا الحديث فى باب القود بغير حديدة . كتاب القسامة . وقد أورد المؤلف هذا الحديث فى كتابه «المجازات النبوية» وتحدث عما فيه من مجاز حديثا رائعا .

صفحة 200 من المجازات النبوية. طبعة القاهرة سنة 1356 سنة 1937، وجاء هذا الحديث فى «لسان العرب» وفسره صاحب اللسان ثم قال: وقال أبو عبيد: معنى الحديث أن المسلم لا يحل له أن يسكن بلاد المشركين، فيكون معهم بقدر ما يرى كل واحد منهم نار صاحبه.

(268/556)

لا يوصف بحقيقته إلا الناس. والزفير قد يشترك فى الصفة به الإنسان وغير الإنسان. وإنما المراد بهاتين الصفتين المبالغة فى وصف النار بالاهتياج والاضطرام، على عادة المغيظ والغضبان.

[سورة الفرقان (25): الآيات 23 الى 25]

وَقَدِمْنا إِلى ما عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْناهُ هَباءً مَنْثُوراً (23) أَصْحابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلاً (24) وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّماءُ بِالْغَمامِ وَنُزِّلَ الْمَلائِكَةُ تَنْزِيلاً (25)

وقوله تعالى: وَقَدِمْنا إِلى ما عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْناهُ هَباد استقرار وسكون، وإنما يريد أنه قصد إلى سبّه، وتظاهر بثلبه. وقال الشاعر: «1»

فإنّ أباكم تارك ما سألتمو فمهما أتيتم فاقدموه على علم

يقال : قدمت هذا الأمر . وأنا أقدمه . إذا أتيته وقصدته . وقد ذكر بعض العلماء فى ذلك وجها آخر . قال : إنما قال سبحانه : وَقَدِمْنا إِلى ما عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ لأنه عاملهم معاملة القادم من غيبة . أو كان - بطول إمهاله لهم - كالغائب عنهم ثم قدم ، فرآهم على خلاف ما أمرهم به ، واستعملهم فيه ، فأحبط أعمالهم الفاسدة ، وعاقبهم عقاب العاند عن الطاعة ، المرتكس فى الضّلالة . والمعتمد على القول الأول .

وقوله تعالى : فَجَعَلْناهُ هَباءً مَنْثُوراً [23] مجاز آخر . وذلك أنه لم يجعل عملهم على الحقيقة هباء منثورا ، وهو الغبار الدقيق هاهنا . ومنه الهابى . وإنما أراد سبحانه أنه أبطل ذلك العمل فعفا رسمه ، وسقط حكمه ، وبطل بطلان الغبار المحق ، والغثاء المتفرق .

---

(1) لم أعثر على اسم صاحب هذا البيت فى كثير من المراجع .

وقوله تعالى : أَصْحابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا [24] وهذه استعارة . لأن المقيل من صفات المواضع التي ينام فيها ، ولا نوم فى الجنة . وتقدير الكلام : وأحسن موضع قائلة . فكأن ذلك المكان من وثارة مهاده ، وبرد أفيائه ، يصلح أن ينام فيه لو كان ذلك جائزا . وهذا كقوله سبحانه فى ذكر أصحاب الجنة : وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيها بُكْرَةً

وَعَشِيًّا «1» أي مثل أوقات البكرة والعشىّ المعهودين فى حال الدنيا . لأن الجنة لا يوصف زمانها بالأيام والليالى ، لأن ذلك من صفات الزمان الذي تتعاقب عليه الشمس طالعة وغاربة ، فيسمّى نهارا بطلوعها ، ويسمّى ليلا بقبوعها «2» وقوله سبحانه : وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّماءُ بِالْغَمامِ وَنُزِّلَ الْمَلائِكَةُ تَنْزِيلًا [25] .

وهذه استعارة . والمراد بها - والله أعلم - على أحد القولين صفة السماء فى ذلك اليوم بتعاظم الغمام فيها ، وانتشاره فى نواحيها . كما يقول القائل : قد تشققت الغمائم بالبرق ، وتشققت السحاب بالرعد . إذا كثر ذلك فيها . ليس أن هناك تشققا على الحقيقة ، فى قول أهل الشرع . وقيل أيضا : إن المراد بذلك انتقاض بنية السماء وتغيرها إلى غير ما هى عليه الآن ، كما تظهر فى البناء آثار التداعي ، وأعلام التهافت ، من تثلّم أطراف ، وتفطّر أقطار ، فيكون ذلك مؤذنا بانقضاضه ، ومنذرا بانتقاضه .

وقال سبحانه : يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّماواتُ «3» .

وقال تعالى : يَوْمَ نَطْوِي السَّماءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ «4» . ويكون انتقاض

---

(1) سورة مريم . الآية رقم 62 .

(2) القبوع : الاختفاء ومنه : قبع النجم أي ظهر ثم خفى .

(3) سورة إبراهيم . الآية رقم 48 . [. . . . .]

(4) سورة الأنبياء . الآية رقم 104 وقد سبق الحديث عن قراءة «للكتاب» و«للكتب» بالمفرد والجمع ، فى سورة الأنبياء .

(270/556)

بنية السماء عن ظهور الغمام الذي آذننا سبحانه بمجيئه يوم القيامة ، إذ يقول عزّ من قائل : هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمامِ وَالْمَلائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ ، وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ «1» .

ومعنى تشقّق السماء بالغمام . أي عن الغمام . كما يقول القائل : رميت بالقوس ، وعن القوس . بمعنى واحد .

[سورة الفرقان (25) : آية 43]

أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلٰهَهُ هَواهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً (43)

وقوله تعالى : أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلٰهَهُ هَواهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا [43] .

وهذه استعارة على أحد التأويلين . وهو أن يكون فى الكلام تقديم وتأخير . فكأنه تعالى قال : أرأيت من اتخذ هواه إلاهه . معنى ذلك أنه جعل هواه آمرا يطيعه ، وقائدا يتبعه ، فكأنه قد عبده لفرط تعظيمه له .

ومن أمثالهم : الهوى إله معبود . على المعنى الذي ذكرنا . وذكر أحمد بن يحيى البلاذري «2» فى كتاب (الأشراف) أن هذه الآية نزلت فى الحارث بن قيس بن عدىّ السّهمى ، وهو من عبدة الأوثان ، لأنه كان كلما رأى حجرا أحسن من الذي اقتناه لعبادته أخذه واطّرح ما عبده .

[سورة الفرقان (25) : الآيات 45 الى 47]

أَلَمْ تَرَ إِلى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شاءَ لَجَعَلَهُ ساكِناً ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً (45) ثُمَّ قَبَضْناهُ إِلَيْنا قَبْضاً يَسِيراً (46) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِباساً وَالنَّوْمَ سُباتاً وَجَعَلَ النَّهارَ نُشُوراً (47)

وقوله سبحانه : أَلَمْ تَرَ إِلى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شاءَ لَجَعَلَهُ ساكِناً ، ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ، ثُمَّ قَبَضْناهُ إِلَيْنا قَبْضاً يَسِيراً [45] وفى هذه الآية استعارتان . إحداهما قوله تعالى «3» [: أَلَمْ تَرَ إِلى رَبِّكَ [45] أي] ألم تر إلى فعل

---

(1) سورة البقرة ، الآية رقم 210 .

(2) هو المؤرخ الجغرافى النسابة : جالس الخليفة المتوكل العباسي ، ومدح المأمون ، ومات فى أيام المعتمد . سنة 279 ه . ومن كتبه «فتوح البلدان» وهو مصدر وثيق للفتوحات الإسلامية : وقد طبع بأوربا والقاهرة . وكتاب «الأشراف» .

(3) ما بين حاصرتين ليس فى الأصل ، وقد وضعناه ، لأن السياق يقتضيه .

ربك أو إلى حكمة ربك فى مد الظل ، فحذف هذه اللفظة لدلالة الكلام عليها ، إذ كان اللّه سبحانه لا يدرك بالمشاعر ، ولا يرى بالنواظر . وقد يجوز أن يكون معنى الرؤية ها هنا معنى العلم . فكأنه سبحانه قال : ألم تعلم حكمة ربك فى مدّ الظل ؟ وإنما أقام سبحانه الرؤية ها هنا مقام العلم لتحقّق المخاطب الذي هو النبي صلّى اللّه عليه وسلم وجهة اللّه تعالى فى ذلك الفعل ، فقامت معرفة قلبه مقام رؤية عينه ، قطعا باليقين ، وبعدا عن الظنون .

والاستعارة الأخرى قوله تعالى : ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا وهذه استعارة على القلب . لأن الظل فى الشاهد يدل على الشمس ، وذلك أن الظل لا يكون إلا وهناك شمس طالعة ، فيوصف ما لم تطلع عليه لحاجز يحجز ، أو مانع يمنع بأنه ظل . وقد قيل : إن الظل ما كان بالغداة ، والفيء ما كان بالعشيّ . وقيل : إن الظل ما نسخته الشمس ، والفيء ما نسخ الشمس ، فعلى هذا القول يجوز أن يكون معنى قوله تعالى : وَلَوْ شاءَ لَجَعَلَهُ ساكِناً أي دائما لا ترد الشمس عليه فتزيله وتذهب به ، ثم جعلنا الشمس عليه دليلا .

أي دللناها عليه ، فهى تتحيّف من أقطاره ، وتنتقص من أطرافه ، حتى تستوفى أجمعه ،

وتكون بدلا منه. فهذا معنى قوله تعالى: ثُمَّ قَبَضْناهُ إِلَيْنا قَبْضاً يَسِيراً [46].

ويجوز أن يكون معنى دلالة الشمس على الظل أنه لولا الشمس لم يعرف الظل.

ويجوز أن يقول: لولا الظل لم تعرف الشمس.

وقوله سبحانه: وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِباساً، وَالنَّوْمَ سُباتاً، وَجَعَلَ النَّهارَ نُشُوراً [47]. وفى هذه الآية استعارتان. فإحداهما قوله تعالى: وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِباساً. والمراد باللباس ها هنا - والله أعلم - تغطية ظلام الليل النّشوز والقيعا [ن «1»، و] أشخاص الحيوان كما تغطّى الملابس الضّافية، وتستر الجنن الواقية.

وهذه العبارة من أفصح العبارات عن هذا المعنى.

---

(1) ما بين حاصرتين ليس بالأصل المخطوط.

ومعنى السّبات: قطع الأعمال، والرّاحة من الأشغال. والسّيت فى كلامهم: القطع.

والاستعارة الأخرى قوله تعالى: وَجَعَلَ النَّهارَ نُشُوراً والنشور فى الحقيقة: الحياة بعد الموت. وهو ها هنا مستعار الاسم لتصرّف الحىّ وانبساطه، تشبيها للنوم

بالممات ، واليقظة بالحياة . وذلك من أوقع التشبيه ، وأحسن التمثيل .

[سورة الفرقان (25) : آية 49]

لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنا أَنْعاماً وَأَناسِيَّ كَثِيراً (49)

وقوله سبحانه : لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً [49] وهذه استعارة . وقد مضت الإشارة إلى نظيرها فى (الأعراف) «1» .

ووصف البلدة بالموت ها هنا محمول على أحد وجهين : إما أن تكون إنما شبّهت بالميت من فرط يبسها ، لتسلّط المحل عليها ، وتأخر الغيث عنها . أو يكون فيها من النبات والشجر لما مات لانقطاع الماء عنه حسن أن توصف هى بالموت لموت بنيها ، لأنها كالأم التي تكلفه ، والظّئر التي ترضعه .

[سورة الفرقان (25) : آية 53]

وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هذا عَذْبٌ فُراتٌ وَهذا مِلْحٌ أُجاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُما بَرْزَخاً وَحِجْراً مَحْجُوراً (53)

وقوله سبحانه : وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هذا عَذْبٌ فُراتٌ وَهذا مِلْحٌ أُجاجٌ [53] وهذه استعارة . والمراد بذلك- والله أعلم- أنه خلّاهما من مذاهبهما ، وأرسلهما فى مجاريهما ، كما تمرج الخيل أي «2» تخلّى فى المروج مع مراعيها .

فكان وجه الأعجوبة من ذلك أنه سبحانه مع التخلية بينهما فى تقاطعهما ، والتقائهما فى

مناقعهما ، لا يختلط الملح بالعذب ، ولا يلتبس العذب بالملح .

---

(1) وهى فى الأوراق المفقودة من الكتاب .

(2) فى الأصل «أن» وهو تحريف من الناسخ .

ولغة أهل تهامة «مرجه» ولغة أهل نجد «أمرجه» وقال أبو عبيدة «1» : إذا تركت الشيء وخليته فقد مرجته . ومنه قولهم : مرج الأمير الناس . إذا خلّاهم بعضهم على بعض . والأمر المريج : المختلط الملتبس .

[سورة الفرقان (25) : الآيات 61 الى 62]

تَبارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّماءِ بُرُوجاً وَجَعَلَ فِيها سِراجاً وَقَمَراً مُنِيراً (61) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرادَ شُكُوراً (62)

وقوله سبحانه : تَبارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّماءِ بُرُوجاً ، وَجَعَلَ فِيها سِراجاً وَقَمَراً مُنِيراً [61] وقد قرىء : سرجا ، على الجمع . وهى قراءة حمزة والكسائىّ من السبعة .

والباقون يقرءون : سراجا على التوحيد .

فمن قرأ «سرجا» أراد النجوم ، ومن قرأ «سراجا» أراد الشمس ، ويقوّى ذلك قوله

سبحانه فى موضع آخر : وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِراجاً «2» . ويقوّى قراءة من قرأ «سرجا» أن النجوم من شعائر الليل ، والسّرج بأحوال الليل أشبه منها بأحوال النهار .

وإنما شبهت النجوم بالسّرج لاهتداء الناس بها فى الظّلماء ، كما تهتدى بالمصابيح الموضوعة ، والنيران المرفوعة .

وقوله سبحانه : وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرادَ شُكُوراً [62] . وهذه استعارة ، ومعنى خلفة- فى بعض الأقوال- أي جعل الليل والنهار يتخالفان ، فإذا أتى هذا ذهب هذا ، وإذا أدبر هذا أقبل هذا .

وقيل : خلفة أي يخلف أحدهما الآخر ، فيكون ذلك من الخلافة لا من المخالفة .

---

(1) هو معمر بن المثنى النحوي البصري ، كان إماما فى اللغة والأدب . وقال فيه الجاحظ : لم يكن فى الأرض أعلم بجميع العلوم منه . واشتهر بحفظ حديث رسول اللّه . وقد استقدمه الرشيد إلى بغداد سنة 188 ه وقرأ عليه أشياء من كتبه . وتوفى سنة 209 ه .

(2) سورة نوح . الآية رقم 16 .

وقيل : خلفة . أي أحدهما «1» أسود ، والآخر أبيض . وهو أيضا راجع إلى معنى المخالفة .

[سورة الفرقان (25) : آية 73]

وَالَّذِينَ إِذا ذُكِّرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْها صُمًّا وَعُمْياناً (73)

وقوله تعالى : وَالَّذِينَ إِذا ذُكِّرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْها صُمًّا وَعُمْياناً [73] وهذه استعارة . والمراد - والله أعلم - لا يصمّون عن قوارع النّذر ، ولا يعشون عن مواقع العبر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تلخيص البيان صـ 248. 255 ﴾

---

(1) فى الأصل : «إحداهما» وهو تحريف من الناسخ .

(275/556)

فصل فى التفسير الموضوعى للسورة كاملة

قال الشيخ محمد الغزالى :

سورة الفرقان

من حق الله أن نعرفه ولو لم يبعث لنا رسلا ! فآثاره تدل عليه ، وفطرتنا تتجه إليه ، ومع ذلك فقد شاء - رحمة منه وفضلا - أن يبعث إلينا من أنفسنا من نأنس بهم ونتعلم

منهم . . ونحن لا نعرف أعداد المرسلين الذين جاءونا ولا أسماءهم ، ولكنا نعلم أن جماعتهم ختمت برسول جمع كتابه زبدة تعاليمهم ، وقدر الله له أن يصحب الحياة فى مسيرتها الباقية حتى يرث الأرض ومن عليها ، ذلكم هو محمد بن عبد الله " تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا " . إن محمدا إنسان مثلنا ، ولكن أمجاد البشرية التقت فى كيانه ، ولواء الإمامة العامة انعقد له وحده ! ورشد العالم كله ارتبط برسالته الخالدة ، فما يصد عنها إلا محروم . وحين أرسله الله سبحانه وصف نفسه بما هو له أهل " الذي له ملك السماوات والأرض ولم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك وخلق كل شيء فقدره تقديرا " وهى صفات مارى فيها الجاهلون بالله والجاحدون له ، ولكن صاحب الرسالة الخاتمة صنع أمة تؤمن بها ، وتقاتل دونها . وفى سورة الفرقان التى نزلت عليه إحصاء لشبهات وأقوال أعدائه ، نسردها كما وردت مع دحض ما يحتاج منها إلى دحض:

1 - " وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاءوا ظلما وزورا " وتكذيب الرسل خفق شاع فى الناس من قديم ، فلا غرابة إذا كذب المشركون محمدا ، وهم إنما كذبوا دعوته إلى التوحيد ، وضاقوا من نفيه أن يكون لله أولاد ! ! . ومن هم الآخرون الذين أعانوه ؟ ولم يدعوا الرسالة لأنفسهم ؟ . 2 - " وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا " والمملون فى زعم هؤلاء من أهل الكتاب الأولين ،

ترى هل أعانه النصارى على نفى التثليث ؟ أو أعانه اليهود على فضح مثالبهم وهدم دولتهم ؟ إن هذا مجون من القول ! .

(276/556)

---

3 - " وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا " ! ! لايعيب بشرا - رسولا كان أو غير رسول - أن يأكل الطعام ، فهذه طبيعة الناس التى خلقوا بها . وماعسى أن يفعل الملك معه ؟ أينوب عنه فى البلاغ ؟ فلماذا اختاره الله إن كان عاجزا عن تفهيم الناس ؟ . أيؤيده عند التكذيب ؟ إن الله لم يترك رسولا له دون أن يمنحه تأييده الأعلى ! ! . 4 - " وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا * انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا * تبارك الذي إن شاء جعل لك خيرا من ذلك جنات تجري من تحتها الأنهار ويجعل لك قصورا " . ومضت سورة الفرقان تحصى أقوال الكافرين واعتراضاتهم: 5 - " وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا * يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حجرا محجورا " . أى: تقول الملائكة عندما تلقى المشركين يوم الحساب: لا بشرى لكم ، فهى حرام محرم عليكم ، ثم لا قيمة لما قدمتم من

أعمال لقد جعلها الله هباء ! ويلاحظ أن المشركين من قريش كالمشركين من قوم نوح ، كأقوام آخرين طلبوا نزول ملائكة ، ورفضوا الانقياد لبشر أنفة أن يتبعوا واحدا منهم ، وهذا الكبر أرداهم . . . ثم جاء اعتراض آخر : 6 - " وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة . . . " لماذا ينزل القرآن منجما حسب الحوادث ؟ هلا نزل دفعة واحدة ! وكان الجواب : " . . كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا " لكل حادث حديث ، ولكل تساؤل يجد جواب جديد ! . ذلك ومن الشائعات الباطلة أن الكتب الأولى نزلت دفعة واحدة . إن كتابة العهدين القديم والجديد استغرقت قرونا طويلة ، ، فلماذا ينزل القرآن جملة واحدة ؟ ! . 7 - " وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزوا أهذا الذي بعث الله رسولا * إن كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها . . . " وهذا القول اعتراف بأن القرآن زلزل معتقداتهم ، وأبان لهم

زيفها ،

والمشركون مع صدمة الدليل ينكشف لهم باطلهم ويكادون يعترفون بالحق ! كما وقع لقوم إبراهيم

حين رأوا أصنامهم التى يعبدون قطعا مبعثرة ، لقد كادوا يؤمنون بالله " فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون " ثم ألح عليهم العناد والتعصب فنكسوا على رءوسهم وبقوا على باطلهم . كذلك تراجع كفار مكة عن الحق بعدما استبان لهم ، وأخذوا يستهزئون بصاحب الرسالة " وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا " ؟ . ثم أرسل القرآن حكما عاما على عبيد أهوائهم ، إنهم دواب تمشى على قدمين " أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا * أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا " وتحقير الخصوم مقبول يوم يكون إنصافا للحقيقة وصونا لكرامتها . . . لاسيما إذا كان أولئك الخصوم يباهون بقصورهم ، ويفتخرون بترفهم . ولاشك أن شريفا يلبس الأسمال خير من وضيع يخب فى الحرير . . وفى عصرنا هذا لحقت بالحق هزائم أزرت به ، وربما وجدت عابد وثن يركب الطائرة ، وموحدا لله يشق عليه السير فى الأرض . . ! وعلى ضوء ذلك تفهم هذا الاعتراض الأخير . 8 - " وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفورا " والرحمن من الأسماء الحسنى ، ولا يوصف به إلا الله سبحانه ، فهو كاسم الذات " قل ادعوا الله أو

ادعوا الرحمن " وقد عز على المشركين أن يدعوا ما يألفون من أوثانهم ، ويسجدوا لله الرحمن الواحد الأحد ، فقالوا للرسول: ما نطع أمرك ! وانصرفوا عنه نافرين ! . وفى هذه السورة عومل الكفار بأسلوبين ، أولهما : تخويفهم مما أصاب الأمم الأولى أن يحيق بهم ، فحكى لهم مصير الفراعنة ، ومصير عاد وثمود ، وأصحاب الرس – وهم قوم كانوا يفلحون الأرض حول بئر لهم – ثم ذكرهم بهلاك قوم لوط " ولقد أتوا على القرية التي أمطرت مطر السوء أفلم يكونوا يرونها بل كانوا لا يرجون نشورا " . ولهذا التخويف أثره أحيانا ، ولكن الأسلوب الآخر أوقع وأخلد ، وقد

استخدمه القرآن كثيرا : وهو إثارة العقل حتى يرعوى ، وهو ما سوف نتحدث عنه . فى سورة الفرقان آيات تهيب بالعقل أن يفكر فى ملكوت السموات والأرض ، بدأت بالحديث عن الظل ! " ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا ثم جعلنا الشمس عليه دليلا ؟ " .

إننى أرى ظلى أحيانا ضعف قامتى ، ثم بعد حين يتقلص حتى يقع تحت قدمى ! كيف يمتد وينكمش ؟ وقد ذكرت أن ظل الطائرة يسابقها وهى تهبط إلى الأرض ، وأن للكواكب

ظلالا ينشأ عنها الخسوف والكسوف ، وأن كل شيء له ظل يتبعه "ولله يسجد من في السماوات والأرض طوعا وكرها وظلالهم بالغدو والآصال" ونحن عندما تنسخ الشمس ظلا نتحول إلى مكان آخر كما قال الشاعر: وإن صريح الرأى والعقل لامرئ إذا بلغته الشمس أن يتحولا . . . ! هل فكر أين ذهب الظل ؟ وبأى سرعة يسير على وجه الأرض أو فى جو السماء ؟ هل فكر فى لطافة القدرة الإلهية التى تصنع ذلك دون جهد ولا تكلف ؟ . وندع الظل إلى حركتى الليل والنهار ، ومنامنا عندما يضمنا الليل فى أستاره ! عندما آوى إلى فراشى أحسبنى سأهمد وأستريح . . ! ولكن سرعان ما أقول: قد أغمض عينى ، لكن قلبى باق يدق ، وصدرى يعلو ويهبط ، وحركات الجهاز الهضمى فى شغل موصول باعتصار ما بها . . إن عمل الله فى جسمى لا ينتهى إلا بالموت المجهز ! ومع ذلك فقلما نذكر الله ، ونحن ما نخرج من بين أصابع القدرة ! ! ما أطول كنودنا . . ونحن سكان وادى النيل قلما نرقب المطر ، لأن النهر قريب منا نغترف منه ما نشاء ، لكن من أين أتى النهر ؟ لقد ظلت السحب تقبل من المحيط الهندى حاملة الغيث تهمى به آناء الليل وأطراف النهار ، ثم تنحدر المياه إلينا فى نهر ميمون الغدوات والروحات ، تؤمن حاجاتنا من الماء الطهور وحاجات أرضنا إلى الرى والخصب طول العام ! . أليس يتنا ولنا قوله تعالى: " وهو الذي أرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته وأنزلنا من السماء ماء طهورا * لنحيي به بلدة ميتا ونسقيه مما خلقنا أنعاما وأناسي كثيرا " . وفى

(280/556)

مدننا وقرانا نفتح الصنابير فيسيل الماء دون كد ، إننا أسعد ممن ينقلون فى الجرار أو على ظهورهم ! ! " ولقد صرفناه بينهم ليذكروا فأبى أكثر الناس إلا كفورا " . إن الإيمان قريب المصادر ، إنه تحت العين لمن يبصر ، ومع ذلك فما أكثر الملاحدة . . ! ! . وبعد سرد لمظاهر القدرة ، وآيات الله فى الآفاق يقول سبحانه . . " تبارك الذي جعل في السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا " تنامت رحمته وعفت بركته ، والآية بهذه القراءة

(281/556)

تشير إلى الشمس وأسرتها المعروفة ، وهناك قراءة تقول : "وجعل فيها سرجا" وهى تشير إلى عوالم أخرى ، وقد أثبت العلم أن عالمنا واحد من عوالم تحصى بالألوف ، وأننا فى حساب الكون الكبير شىء تافه ، وأننا خلقنا لنواجه اختبارا دقيقا جدا : ترى هل سنذكر أم ننسى ، هل سنكفر أم نشكر ، وبعضنا نختبر بالبعض الآخر كما جاء فى هذه السورة : " وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون وكان ربك بصيرا " . ترى من ينجح فى

هذا الاختبار ومن يفشل ؟ ينجح فيه عباد الرحمن ، ويفشل عباد الشيطان ! وقد شرعت السورة فى سرد وصايا عشر هى خصائص عباد الرحمن ، وهذه الوصايا تنضم لأمثالها فى سور أخرى لتتكون من جملتها صورة السلوك الإسلامى الوضىء : قال تعالى : " وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما " . والمشى الهؤن لا يعنى البطء أو التماوت ، إنما يعنى الاعتدال وعدم التكلف . . ومخاطبة الجاهلين للناس تنطوى على الشراسة ، فلنلق الخصام بالسلام والتجاوز ، فالأمر كما قيل: لو كل كلب عوى ألقمته حجرا لأصبح الصخر مثقالا بدينار . . . ! " والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما " لابد من نوم يجم الجسد ويعين على العمل ! . والمهم ألا ننام عن صلاة العشاء ونوافلها ، وأن نستيقظ قبيل نداء الفجر نستفتح النهار بخير ، فإذا صلى المرء العشاء فى جماعة والفجر فى جماعة فكأنما قام الليل كله . . . " والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراما " . إنها غرامة مهلكة يصحبها الخزى والبلاء المقيم ، وينبغى لكل مؤمن أن يزحزح نفسه عن ذلك المستقبل الأسود ، وليقاوم تيارات الجاهلية الحديثة التى تعلقه بالدنايا ، وتذهله عن الواجبات . " والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما " إن البخل خسة ، والإسراف سفه ، ويعجبنى قول المتنبى فى بيت واحد جمع ثلاث حكم: ذكر الفتى عمره الثانى ، وحاجته ما فاته ، وفضول العيش أشغال ! . . ! ! " والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا

يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون " هذه جرائم ثلاث تنتشر بين الناس على تفاوت ، قد يكون أولها الزنا ، ثم عبادة النفس والهوى مع الله أو من دون الله ، ثم قتل النفس . . . . " ومن يفعل ذلك يلق أثاما * يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا . . . " . ومن أساء يستطيع الإحسان ، ومن أسف يستطيع التوبة ، والتوبة معروضة على الناس كلهم ما بقوا أحياء ، وعندما يغيرون أنفسهم يتغير ما بهم . . " والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراما " المشغول بالجد والمربوط بالحق لا يشهد زورا ولا يقول لغوا . . ! . " والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا " إن تلاوة القرآن تتطلب يقظة القلب ، وحضور الوعى ، وتذوق المعانى ، وشهود المتكلم سبحانه ! . فمن قرأ وهو غائب الفؤاد لم يستفد من حركة اللسان شيئا . " والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماما " أى: قدوة ، فليست الآية طلبا للرياسة ، واستقرار العين على والطهر ، واستقرارها على الذرية أساس الرضا ، وحصانة من الحسد . " أولئك يجزون الغرفة بما صبروا " المنزلة

الرفيعة فى الجنة ، جعلنا الله من أهلها بتجاوزه ومغفرته . . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نحو تفسير موضوعى صـ 279.284 ﴾

(283/556)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء السابع والخمسون بعد الخمسمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/557)

الجزء السابع والخمسون بعد الخمسمائة

من الآية ﴿ 1 ﴾ من سورة الفرقان

وحتى الآية ﴿ 9 ﴾ من نفس السورة

(4/557)

(فى رياض آيات السورة الكريمة)

(5/557)

" فصل "

قال السيوطى :

سورة الفرقان

ظهر لي بفضل الله بعد ما فكرت في هذه: أن نسبة هذه السورة لسورة النور ، كنسبة سورة الأنعام إلى المائدة من حيث أن النور قد ختمت بقوله: (للهِ ما في السمواتِ والأَرض) كما ختمت المائدة بقوله (للهِ ملكُ السمواتِ والأَرض وما فيهن) وكانت جملة النور أخصر من المائدة ، ثم فصلت هذه الجملة في سورة الفرقان فافتتحت بقوله (الذي له ملك السموات) إلى قوله (وخلق كل شيء فقدرهُ تقديراً) كما افتتحت الأنعام بمثل ذلك وكان قوله عقبه (واتخذوا من دونِهِ آلهة) إلى آخره ، نظير قوله هناك (ثم الذين كفروا بربهم يعدلون) ثم ذكر في خلال هذه السورة جملة من المخلوقات ، كمثل الظل ، والليل ، والنوم ، والنهار ، والرياح ، والماء ، والأنعام ، والأناسي ، ومرج البحرين ، والإنسان ، والنسب ، والصهر ، وخلق السموات والأرض في ستة أيام ، والاستواء على العرش ، وبروج السماء ، والسراج ، والقمر ، إلى غير ذلك ، مما هو تفصيل لجملة: (للهِ ما في السمواتِ والأَرض) كما فصل آخر المائدة في الأنعام بمثل ذلك وكان البسط في الأنعام أكثر لطولها ثم أشار في هذه السورة إلى القرون المكذبة وإهلاكم ، كما أشار في الأنعام إلى ذلك ثم أفصح عن هذه الإشارة في السورة التي تليها وهي الشعراء بالبسط التام ، والتفصيل البالغ كما أوضح تلك الإشارة التي في الأنعام ، وفصلها في سورة الأعراف التي تليها فكانت هاتان السورتان الفرقان والشعراء في المثاني ، نظير تينك السورتين الأنعام والأعراف في الطوال ، واتصالهما بآخر النور ، نظير اتصال تلك بآخر المائدة ، المشتملة على فصل القضاء ثم ظهر لي لطيفة أخرى ، وهي أنه

إذا وقعت سورة مكية بعد سورة مدنية ، افتتح أولها بالثناء على الله ، كالأنعام بعد المائدة ، والإسراء بعد النحل ، وهذه بعد النور ، وسبأ بعد الأحزاب ، والحديد بعد الواقعة ، وتبارك بعد التحريم ، لما في ذلك من الإشارة إلى نوع استقلال ، وإلى الإنتقال من نوع إلى نوع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أسرار ترتيب القرآن صـ 119 . 120 ﴾

(6/557)

قوله تعالى ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا (1) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا (2) وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا (3) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

(بسم الله) الذي له الحجة البالغة ، لإحاطة عظمته ، وشمول علمه وقدرته (الرحمن) الذي عم بنعمه الفرقان ، أهل الإيمان والكفران) الرحيم) الذي خص من شاء من عباده بملابس الرضوان .

لما ختم سبحانه تلك بسعة الملك ، وشمول العلم ، وتعظيم الرسول ، والتهديد لمن تجاوز الحد ، افتتح هذه بمثل ذلك على وجه – مع كونه أضخم منه – هو برهان عليه فقال : ﴿ تبارك ﴾ أي ثبت ثبوتاً مع اليمن والخير الذي به سبقت الرحمة الغضب ، والتعالي في الصفات والأفعال ، فلا ثبوت يدانيه ، ولا يكون ذلك كذلك إلا بتمام قدرته ، ولا تتم قدرته إلا بشمول علمه ، وهذا الفعل مطاوع " بارك " وهو مختص بالله تعالى لم يستعمل لغيره ، ولذلك لم ينصرف لمستقبل ولا اسم فاعل ؛ ثم وصف نفسه الشريفة بما يدل على ذلك فقال : ﴿ الذي ﴾ .

(7/557)

ولما كان تكرار الإنذار – الذي هو مقصود السورة – أنفع ، وتفريقه في أوقات متراسلة أصدع للقلوب وأردع ، وكان إيضاح المشكلات ، في الفرق بين الملتبسات ، أعون بما يكون علة ، عبر بما يدل على الفرق وقدمه فقال : ﴿ نزل الفرقان ﴾ أي الكتاب الذي نزل إلى سماء الدنيا فكان كتاباً ، ثم نزل مفرقاً بحسب المصالح ، فسمي لذلك فرقاناً ، ولأنه الفارق بين ملتبس ، فلا يدع خفاء إلا بينه ، ولاحقاً إلا أثبته ، ولا باطلاً إلا نفاه ومحقه ، فيه انتظام الحياة الأولى والأخرى ، فكان قاطعاً على علم منزله ، ومن علمه الباهر إنزاله ﴿ على

عبده ﴾ أي الذي لا أحق منه بإضافته إلى ضميره الشريف ، لأنه خالص له ، لا شائبة لغيره فيه أصلاً ، ولم يحز مخلوق ما حاز من طهارة الشيم ، وارتفاع الهمم ، ولا شك أن الرسول دال على مرسله في مقدار علمه ، وكثرة جنده ، واتساع ملكه ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالاته ﴾ [الأنعام : 124] ثم علل إنزاله عليه بقوله : ﴿ ليكون ﴾ أي العبد أو الفرقان .

ولما كان العالم ما سوى الله ، وكان ربما ادعى مدع أن المراد البعض ، لأنه قد يطلق اللفظ على جزء معناه بدلالة التضمن ، وكان الجمع لا بد أن يفيد ما أفاده المفرد بزيادة ، جمع ليعرف أن المراد المدلول المطابقي ، مع التصريح باستغراق جميع الأنواع الداخلة تحت مفهوم المفرد ، واختار جمع العقلاء تغليباً ، إعلاماً بأنهم المقصودون بالذات فقال : ﴿ للعالمين ﴾ أي المكلفين كلهم من الجن والإنس والملائكة .

(8/557)

ولما كان كل من الكتاب والمنزل عليه بالغاً في معناه ، عبر بما يصح أن يراد به المنذر والإنذار على وجه المبالغة فقال : ﴿ نذيراً ﴾ أي وبشيراً ، وإنما اقتصر على النذارة للإشارة إلى البشارة بلفظ ﴿ تبارك ﴾ ولأن المقام لها ، لما ختم به تلك من إعراض المتولين عن الأحكام

، ونفى الإيمان عنهم بانتفاء الإسلام ، وفيه إشارة إلى كثرة المستحقين للنذارة ، ولا التفات إلى من قال : إن الرازي والبرهان النسفي نقلا الإجماع على أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يرسل الملائكة ، فإن عبارة الرازي في بعض نسخ تفسيره : لكنا أجمعنا على أنه لم يرسل إلى الملائكة ، وفي أكثر النسخ : بينا – بدل : أجمعنا ، على أنه لو اتفقت جميع النسخ عليها لم تضر ، لأنها غير صريحة في إرادة الإجماع ، ولأن الإجماع لا يثبت بنقل واحد لا سيما في مثل هذا الذي تظافرت الظواهر على خلافه ، ولم يرد مانع منه ، وأما البرهان النسفي فمن الرازي أخذ ، وعبر بعبارته ، فصارا واحداً ، وقد بينت ذلك عند قوله تعالى في سورة الأنعام

(9/557)

﴿ لأنذركم به ومن بلغ ﴾ [الأنعام : 19] بياناً شافياً لا ارتياب معه ، بل ولو قيل : إن الآية على ظاهرها ، لا خصوص فيها بالعقلاء ، وتكليف كل شيء بحسبه ، لكان وجهاً ، وبذلك صرح الإمام تاج الدين السبكي في أول الترشيح في قوله : " وأصلي على نبيه محمد المصطفى المبعوث إلى كل شيء " وكذلك المحب الطبري في آخر " القرى لقاصدي أم القرى " وذلك لأنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما دعا جامداً ولا متحركاً غير الإنسان إلا أجابه بما

هو مقتضى ﴿ إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها ﴾ [الأحزاب : 72] دعا غير مرة عدة من أغصان الأشجار فأتته تسجد له ، ثم أمرها بأن ترجع إلى مكانها ففعلت ؛ ودعا الضب وغيره من الحيوانات العجم فأطاعته ؛ ودعا الأشجار غير مرة فسمعت وسعت إليه ؛ وأمر الجبل لما رجف فأذعن ؛ وأرسل إلى نخل وأحجار يأمرهن بالاجتماع ليقضي إليهن حاجة ففعلن ، ثم أرسل يأمرهن بالرجوع إلى أماكنهن فأجبن ؛ وغمز الأرض فنبع منها الماء ؛ وأرسل سهمه إلى البئر فجاشت بالرواء - إلى غير ذلك مما هو مضمن في دلائل النبوة ، بل ولا دعا طفلاً رضيعاً إلا شهد له لكونه على الفطرة الأولى - إلى غير ذلك مما هو دال على ظاهر الآية المقتضي لزيادة شرفه ـ صلى الله عليه وسلم ـ من غير محذور يلزم عليه ولا نص يخالفه - والله الهادي .

(10/557)

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير في برهانه : لما تضمنت سورة النور بيان كثير من الأحكام كحكم الزنى ، ورمي الزوجات به ، والقذف ، والاستئذان ، والحجاب ، وإسعاف الفقير ، والكتابة ، وغير ذلك ، والكشف عن مغيبات ، من تغاير حالات ، تبين بمعرفتها والاطلاع عليها الخبيث من الطيب ، كاطلاعه سبحانه نبيه والمؤمنين على ما تقوله أهل

الإفك ، وبيان سوء حالهم ، واضمحلال محالهم ، في قصة المنافقين في إظهارهم ضد ما يضمرون ؛ ثم كريم وعده للخلفاء الراشدين ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم ﴾ [المائدة : 9] ثم ما فضح به تعالى منافقي الخندق ﴿ قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذاً ﴾ [النور : 63] إلى آخر الآية ، فكان مجموع هذا فرقاناً يعتضد به الإيمان ، ولا ينكره مقر بالرحمن ، يشهد لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بصحة رسالته ، ويوضح مضمن قوله ﴿ لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم ﴾ [النور : 63] من عظيم قدره ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعليّ جلالته ، أتبعه سبحانه بقوله ﴿ تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ﴾ [الفرقان : 1] وهو القرآن الفارق بين الحق والباطل ، والمطلع على ما أخفاه المنافقون وأبطنوه من المكر والكفر ﴿ ليكون للعالمين نذيراً ﴾ [الفرقان : 1] فيحذرهم من مرتكبات المنافقين والتشبه بهم ؛ ثم تناسج الكلام ، والتحم جليل المعهود من ذلك النظام ، وتضمنت هذه السورة من النعي على الكفار والتعريف ببهتهم وسوء مرتكبهم ما لم يتضمن كثير من نظائرها كقولهم

﴿ ما لهذا الرسول يأكل الطعام ﴾ [الفرقان : 7] الآيات ، وقولهم ﴿ لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا ﴾ [الفرقان : 21] وقولهم ﴿ لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة ﴾ [الفرقان : 32] وقولهم ﴿ وما الرحمن ﴾ [الفرقان : 60] إلى ما عضد هذه وتخللها ،

ولهذا ختمت بقاطع الوعيد ، وأشد التهديد ، وهو قوله سبحانه ﴿ فقد كذبتم فسوف يكون لزاماً ﴾ [الفرقان : 77] انتهى .

(11/557)

ولما تقدم ذكر منزل الفرقان سبحانه ، وذكر الفرقان والمنزل عليه على طريق الإجمال ، أتبع ذلك تفصيله على الترتيب ، فبدأ بوصف المنزل سبحانه بما هو أدل دليل على إرادة التعميم في الرسالة لكل من يريد ، فقال : ﴿ الذي له ﴾ أي وحده ﴿ ملك السماوات والأرض ﴾ فلا إنكار لأن يرسل رسولاً إلى كل من فيهما ﴿ ولم يتخذ ولداً ﴾ ليتكبر على رسوله ﴿ ولم يكن له شريك في الملك ﴾ ليناقضه في الرسالة أو يقاسمه إياها ، فيكون بعض الخلق خارجاً عن رسالته ، أو مراعياً لأمر غير أمره .

ولما كان وقوف الشيء عند حد - بحيث لا يقدر أن يتعداه إلى حد شيء آخر سواه ، فهذا حيوان لا يقدر على جعل نفسه جماداً ولا أعلى من الحيوان ، وهذا جماد لا يمكنه جعل نفسه حيواناً ولا أسفل من رتبة الجماد إلى غير ذلك مما يعجز الخلق عن شرحه دالاً على أنه مخلوق مربوب ، قال تعالى : ﴿ وخلق ﴾ أي أحدث إحداثاً مراعى فيه التقدير والتسوية ﴿ كل شيء ﴾ أي مما ادعى فيه الولدية أو الشرك وغيره .

ولما كان قد سوى كل شيء لما يصلح له وهيأه لذلك ، قال شارحاً ومحققاً لمعنى " خلق " :

﴿ فقدره ﴾ في إيجاده من غير تفاوت ﴿ تقديراً ﴾ أي لا يمكن ذلك الشيء مجاوزته فيما خلق لأجله وهيىء ويسر له إلى غيره بوجه من الوجوه .

ولما ذكرهم بما ركز في فطرهم من العلم ، عجب منهم لكل ذي عقل في جملة حالية فيما خالفوا ما لهم من المشاهدة ، فقال مضمراً للفاعل إشارة إل استهجان نسبة هذا الفعل إلى فاعل معين توبيخاً لهم وإرشاداً إلى المبادرة من كل سامع إلى نفيه عنه فقال :

﴿ واتخذوا ﴾ أي كلف أنفسهم عبدة الأوثان أن أخذوا .

ولما كان علوه لا يحد ، فكانت الرتب السافلة لا تحصى ، نبه على ذلك بالجار فقال : ﴿ من دونه ﴾ أي بعد ما قام من الدليل على أنه الإله وحده من الحيثيات التي تقدمت ﴿ آلهة ﴾ المتحدون مشاهدون لأنهم كما قال تعالى : ﴿ لا يخلقون شيئاً ﴾ أي لا أعجز منهم ، لا يكون منهم إيجاد شيء ، فيهم دون من عبدهم .

(12/557)

ولما كان المتعنت ربما ادعى أنهم مع ذلك غير مخلوقين قال : ﴿ وهم يخلقون ﴾ أي بما يشاهد فيهم من التغير والطواعية لمشيئته سبحانه ، ومن ذلك أن عبدتهم افتعلوهم

بالنحت والتصوير .

ولما قرر أنه أنعم على كل شيء ، وكانت النعم أكثر وجوداً ، وكان أدنى نعمة على الشيء خلقه سبحانه له ، أخبر أن ذلك الغير لا يقدر على ضر نفسه ولا بالإعدام ، فقال معبراً بأداة العقلاء تهكماً بعابديهم حيث أقاموهم في ذلك المقام ، أو تغليباً لأنهم عبدوا الملائكة وعزيراً والمسيح عليهم السلام : ﴿ ولا يملكون ﴾ أي لا يتجدد لهم بوجه من الوجوه أن يملكوا ﴿ لأنفسهم ضراً ﴾ ولذلك قدمه ، ونكره ليعم .

فلما ثبت بذلك أنهم خلقه ، ولكن كان ربما قال متعنت : إنهم يملكون ذلك ولكنهم يتركونه عمداً ، لأن أحداً لا يريد ضر نفسه ، قال : ﴿ ولا نفعاً ﴾ أي ولو بالبقاء على حالة واحدة ، وعبدتهم يقدرون على ما أراد الله من ذلك على وجه الكسب ، فهم أعلى منهم وعبادة الأعلى لمن دونه ليست من أفعال العقلاء .

ولما كان الموت والحياة ما ليس لغيرهما من عظيم الشأن ، أعاد العامل فقال : ﴿ ولا يملكون ﴾ وقدم الموت لأن الحياة أكثر ، فقال مبتدئاً بما هو من باب الضر على نسق ما قبله : ﴿ موتاً ﴾ أي لأنفسهم ولا لغيرهم ﴿ ولا حياة ﴾ أي من العدم ﴿ ولا نشوراً ﴾ أي إعادة لما طوي من الحياة بالموت ، وعطفها بالواو وإن كان بعضها مسبباً عما قبله إشارة إلى أن كل واحدة منها كافية في سلب الإلهية عنهم بما ثبت من العجز . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 291 . 295 ﴾

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ جنة نأكل ﴾ بالنون : حمزة وعلي وخلف . الباقون بالياء التحتانية ﴿ ويجعل لك ﴾ بالرفع : ابن عامر وأبو بكر وحماد والمفضل وابن كثير . الباقون بالجزم وذلك أن الشرط إذا وقع ماضياً جاز في جزائه الرفع والجزم ﴿ يحشرهم ﴾ ﴿ فيقول ﴾ كلاهما بالياء : ابن كثير ويزيد وسهل ويعقوب وعباس وحفص ، وقرأ ابن عامر بالنون فيهما . الباقون بالنون في الأول وبالياء في الثاني ﴿ أن يتخذ ﴾ على البناء للمفعول : زيد ويزيد ﴿ بما تقولون ﴾ بتاء الخطاب : يعقوب وعباس وحفص والسرنديبي عن قنبل . ﴿ تستطيعون ﴾ على الخطاب : حفص غير الخزاز .

الوقوف : ﴿ نذيراً ﴾ 5 لا بناء على أن ما بعده بدل من ﴿ الذي نزل ﴾ والتعليل من تمام الصلة ، ولو قدر رفعه أو نصبه على المدح جاز الوقف ﴿ تقديراً ﴾ 5 ﴿ ولا نشوراً ﴾ 5 ﴿ آخرون ﴾ ج لأجل الفاء مع اختلاف القائل أو لاحتمال أن يكون ﴿ فقد جاؤا ﴾ من قول الكفار أي جاء محمد ومن أعانه بظلم وزور ﴿ وزوراً ﴾ 5 ج للاحتمال المذكور

أو لعطف المتفقتين مع عوارض وطول الكلام ﴿ وأصيلاً ﴾ 5 ﴿ والأرض ﴾ ط ﴿ رحيماً ﴾ 5 ﴿ السواق ﴾ ط ﴿ نذيراً ﴾ 5 ﴿ منها ﴾ ط ﴿ مسحوراً ﴾ 5 ﴿ سبيلاً ﴾ 5 ﴿ الأنهار ﴾ ط لمن جعل رفع يجعل على الاستئناف ﴿ قصوراً ﴾ 5 ﴿ سعيراً ﴾ 5 لاحتمال كون ما بعده صفة أو استئنافاً ﴿ وزفيراً ﴾ 5 ﴿ ثبوراً ﴾ الأول 5 ط ﴿ كثيراً ﴾ 5 ﴿ المتقون ﴾ ط لانتهاء الاستفهام ﴿ مصيراً ﴾ 5 ﴿ خالدين ﴾ ط ﴿ مسؤولاً ﴾ 5 ﴿ السبيل ﴾ 5 ﴿ الذكر ﴾ ج لجواز أن يكون المراد وقد كانوا ولجواز أن يراد وصاروا فيتصل بقوله ﴿ بوراً ﴾ 5 ﴿ تقولون ﴾ 5 إلا لمن قرأ ﴿ تستطيعون ﴾ بتاء الخطاب ﴿ نصيراً ﴾ ج 5 للشرط مع العطف ﴿ كبيراً ﴾ 5 ﴿ في السواق ﴾ ط ﴿ فتنة ﴾ ط ﴿ أتصبرون ﴾ ج لاحتمال كون الواو للحال ﴿ بصيراً ﴾ 5 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 5 صـ 220 ﴾

(14/557)

فصل

قال الفخر :

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا (1) ﴾

اعلم أن الله سبحانه وتعالى تكلم في هذه السورة في التوحيد والنبوة وأحوال القيامة ، ثم ختمها بذكر صفات العباد المخلصين الموقنين ، ولما كان إثبات الصانع وإثبات صفات جلاله يجب أن يكون مقدماً على الكل لا جرم افتتح الله هذه السورة بذلك فقال :

﴿ تَبَارَكَ الذى نَزَّلَ الفرقان على عَبْدِهِ ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

قال الزجاج : تبارك : تفاعل من البركة ، والبركة كثرة الخير وزيادته وفيه معنيان : أحدهما : تزايد خيره وتكاثر ، وهو المراد من قوله : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ الله لاَ تُحْصُوهَا ﴾ [إبراهيم : 34] والثاني : تزايد عن كل شيء وتعالى عنه في ذاته وصفاته وأفعاله ، وهو المراد من قوله : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [الشورى : 11] وأما تعاليه عن كل شيء في ذاته ، فيحتمل أن يكون المعنى جل بوجوب وجوده وقدمه عن جواز الفناء والتغير عليه ، وأن يكون المعنى جل بفردانيته ووحدانيته عن مشابهة شيء من الممكنات ، وأما تعاليه عن كل شيء في صفاته فيحتمل أن يكون المعنى جل أن يكون علمه ضرورياً أو كسبياً أو تصوراً أو تصديقاً وفي قدرته أن يحتاج إلى مادة ومدة ومثال وجلب غرض ومنال ، وأما في أفعاله فجل أن يكون الوجود والبقاء وصلاح حال الوجود إلا من قبله ، وقال آخرون : أصل الكلمة تدل على البقاء ، وهو مأخوذ من بروك البعير ، ومن بروك الطير على الماء ، وسميت البركة بركة لثبوت الماء فيها ، والمعنى أنه سبحانه وتعالى باق في ذاته أزلاً وأبداً

ممتنع التغير وباق في صفاته ممتنع التبدل ، ولما كان سبحانه وتعالى هو الخالق لوجوه المنافع والمصالح والمبقى لها وجب وصفه سبحانه بأنه تبارك وتعالى .

المسألة الثانية :

(15/557)

قال أهل اللغة : كلمة (الذي) موضوعة للإشارة إلى الشيء عند محاولة تعريفه بقضية معلومة ، وعند هذا يتوجه الإشكال ، وهو أن القوم ما كانوا عالمين بأنه سبحانه هو الذي نزل الفرقان فكيف حسن ههنا لفظ (الذي) ؟ وجوابه : أنه لما قامت الدلالة على كون القرآن معجزاً ظهر بحسب الدليل كونه من عند الله ، فلقوة الدليل وظهوره أجراه سبحانه وتعالى مجرى المعلوم .

المسألة الثالثة :

لا نزاع أن الفرقان هو القرآن وصف بذلك من حيث إنه سبحانه فرق به بين الحق والباطل في نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وبين الحلال والحرام ، أو لأنه فرق في النزول كما قال : ﴿ وَقُرْءانًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى الناس على مُكْثٍ ﴾ [الإسراء : 106] وهذا التأويل أقرب لأنه قال : ﴿ نَزَّلَ الفرقان ﴾ ولفظة (نزل) تدل على التفريق ، وأما لفظة (أنزل)

فتدل على الجمع ، ولذلك قال في سورة آل عمران : ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ الكتاب بالحق . . . وَأَنزَلَ التوراة والإنجيل ﴾ [آل عمران : 3] واعلم أنه سبحانه وتعالى لما قال أولاً ﴿ تبارك ﴾ ومعناه كثرة الخير والبركة ، ثم ذكر عقبه أمر القرآن دل ذلك على أن القرآن منشأ الخيرات وأعم البركات ، لكن القرآن ليس إلا منبعاً للعلوم والمعارف والحكم ، فدل هذا على أن العلم أشرف المخلوقات وأعظم الأشياء خيراً وبركة .

المسألة الرابعة :

(16/557)

لا نزاع أن المراد من العبد ههنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وعن ابن الزبير على عباده وهم رسول الله وأمته كما قال : ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ ﴾ [الأنبياء : 10] ، ﴿ قُولُواْ ءامَنَّا بالله وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا ﴾ [البقرة : 136] ، وقوله : ﴿ لِيَكُونَ للعالمين نَذِيراً ﴾ فالمراد ليكون هذا العبد نذيراً للعالمين ، وقول من قال : إنه راجع إلى الفرقان فأضاف الإنذار إليه كما أضاف الهداية إليه في قوله : ﴿ إِنَّ هذا القرءان يِهْدِى ﴾ [الإسراء : 9] فبعيد وذلك لأن المنذر والنذير من صفات الفاعل للتخويف ، وإذا وصف به القرآن فهو مجاز ، وحمل الكلام على الحقيقة إذا أمكن هو الواجب ، ثم قالوا هذه الآية تدل على أحكام : الأول : أن

العالم كل ما سوى الله تعالى ويتناول جميع المكلفين من الجن والإنس والملائكة ، لكنا أجمعنا أنه عليه السلام لم يكن رسولاً إلى الملائكة فوجب أن يكون رسولاً إلى الجن والإنس جميعاً ، ويبطل بهذا قول من قال إنه كان رسولاً إلى البعض دون البعض الثاني : أن لفظ ﴿ العالمين ﴾ يتناول جميع المخلوقات فدلت الآية على أنه رسول للخلق إلى يوم القيامة ، فوجب أن يكون خاتم الأنبياء والرسل الثالث : قالت المعتزلة دلت الآية على أنه سبحانه أراد الإيمان وفعل الطاعات من الكل ، لأنه إنما بعثه إلى الكل ليكون نذيراً للكل ، وأراد من الكل الاشتغال بالحسن والإعراض عن القبيح وعارضهم أصحابنا بقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ ﴾ [الأعراف : 179] الآية ، الرابع : لقائل أن يقول إن قوله ﴿ تبارك ﴾ كما دل على كثرة الخير والبركة لا بد وأن يكون المذكور عقيبه ما يكون سبباً لكثرة الخير والمنافع ، والإنذار يوجب الغم والخوف فكيف يليق هذا لهذا الموضع ؟ جوابه : أن هذا الإنذار يجري مجرى تأديب الولد ، وكما أنه كلما كانت المبالغة في تأديب الولد أكثر كان الإحسان إليه أكثر ، لما أن ذاك يؤدي في المستقبل إلى المنافع

(17/557)

العظيمة ، فكذا ههنا كلما كان الإنذار كثيراً كان رجوع الخلق إلى الله أكثر ، فكانت السعادة الأخروية أتم وأكثر ، وهذا كالتنبيه على أنه لا التفات إلى المنافع العاجلة ، وذلك لأنه سبحانه لما وصف نفسه بأنه الذي يعطي الخيرات الكثيرة لم يذكر إلا منافع الدين ، ولم يذكر ألبتة شيئاً من منافع الدنيا .

ثم إنه سبحانه وصف ذاته بأربع أنواع من صفات الكبرياء أولها : قوله : ﴿ الذى لَهُ مُلْكُ السموات والأرض ﴾ وهذا كالتنبيه على الدلالة على وجوده سبحانه لأنه لا طريق إلى إثباته إلا بواسطة احتياج أفعاله إليه ، فكان تقديم هذه الصفة على سائر الصفات كالأمر الواجب وقوله : ﴿ لَّهُ مَا فِي السموات والأرض ﴾ إشارة إلى احتياج هذه المخلوقات إليه سبحانه بزمان حدوثها وزمان بقائها في ماهيتها وفي وجودها ، وأنه سبحانه هو المتصرف فيها كيف يشاء وثانيها : قوله : ﴿ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً ﴾ فبين سبحانه أنه هو المعبود أبداً ، ولا يصح أن يكون غيره معبوداً ووارثاً للملك عنه فتكون هذه الصفة كالمؤكدة لقوله : ﴿ تبارك ﴾ ولقوله : ﴿ الذى لَهُ مُلْكُ السموات والأرض ﴾ وهذا كالرد على النصارى وثالثها : قوله : ﴿ وَلَم يَكُنْ لَّهُ شَرِيكٌ فِى الملك ﴾ والمراد أنه هو المنفرد بالإلهية ، وإذا عرف العبد ذلك انقطع خوفه ورجاؤه عن الكل ، ولا يبقى مشغول القلب إلا برحمته وإحسانه .

وفيه الرد على الثنوية والقائلين بعبادة النجوم والقائلين بعبادة الأوثان ورابعها : قوله : ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً ﴾ وفيه سؤالات :

(18/557)

الأول : هل في قوله : ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ دلالة على أنه سبحانه خالق لأعمال العباد ؟ والجواب : نعم من وجهين : الأول : أن قوله : ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ يتناول جميع الأشياء فيتناول أفعال العباد ، والثاني : وهو أنه تعالى بعد أن نفى الشريك ذكر ذلك ، والتقدير أنه سبحانه لما نفى الشريك كأن قائلاً قال : ههنا أقوام يعترفون بنفي الشركاء والأنداد ، ومع ذلك يقولون إنهم يخلقون أفعال أنفسهم فذكر الله تعالى هذه الآية لتكون معينة في الرد عليهم ، قال القاضي الآية لا تدل عليه لوجوه : أحدها : أنه سبحانه صرح بكون العبد خالقاً في قوله : ﴿ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ ﴾ [المائدة : 110] وقال : ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ [المؤمنون : 14] وثانيها : أنه سبحانه تمدح بذلك فلا يجوز أن يريد به خلق الفساد وثالثها : أنه سبحانه تمدح بأنه قدره تقديراً ولا يجوز أن يريد به إلا الحسن والحكمة دون غيره ، فثبت بهذه الوجوه أنه لا بد من التأويل لو دلت الآية بظاهرها عليه ، فكيف ولا دلالة فيها ألبتة ، لأن الخلق عبارة عن التقدير فهو لا يتناول إلا ما يظهر فيه التقدير

، وذلك إنما يظهر في الأجسام لا في الأعراض والجواب :

أما قوله : ﴿ وَإِذْ تَخْلُقُ ﴾ وقوله : ﴿ أَحْسَنُ الخالقين ﴾ فهما معارضان بقوله : ﴿ الله خالق كُلّ شَىْء ﴾ [الزمر : 62] وبقوله : ﴿ هَلْ مِنْ خالق غَيْرُ الله ﴾ [فاطر : 3]

وأما قوله لا يجوز التمدح بخلق الفساد ، قلنا لم لا يجوز أن يقع التمدح به نظراً إلى تقادير القدرة وإلى أن صفة الإيجاد من العدم والإعدام من الوجود ليست إلا له ؟ وأما قوله : الخلق لا يتناول إلا الأجسام ، فنقول لو كان كذلك لكان قوله ﴿ خَلَقَ كُلَّ شَىْء ﴾ خطأ لأنه يقتضي إضافة الخلق إلى جميع الأشياء مع أنه لا يصح في العقل إضافته إليها .

(19/557)

السؤال الثاني : في الخلق معنى التقدير (فقوله) : ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْء فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً ﴾ (معناه) وقدر كل شيء فقدره تقديراً ؟ والجواب : المعنى (أنه) أحدث كل شيء إحداثاً يراعي فيه التقدير والتسوية ، فقدره تقديراً وهيأه لما يصلح له ، مثاله أنه خلق الإنسان على هذا الشكل المقدر (المستوي) الذي تراه ، فقدره للتكاليف والمصالح المنوطة (به في باب) الدين والدنيا ، وكذلك كل حيوان وجماد جاء به على الجبلة المستوية المقدرة بأمثلة الحكمة والتدبير فقدره لأمر ما ومصلحة ما مطابقاً لما قدر (له) غير (متخلف) عنه .

السؤال الثالث : هل في قوله : ﴿ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً ﴾ دلالة على مذهبكم ؟ الجواب : نعم وذلك من وجوه : أحدها : أن التقدير في حقنا يرجع إلى الظن والحسبان ، أما في حقه سبحانه فلا معنى له إلا العلم به والإخبار عنه ، وذلك متفق عليه بيننا وبين المعتزلة ، فلما علم في الشيء الفلاني أنه لا يقع فلو وقع ذلك الشيء لزم انقلاب علمه جهلاً وانقلاب خبره الصدق كذباً ، وذلك محال والمفضي إلى المحال محال فإذن وقوع ذلك الشيء محال والمحال غير مراد فذلك الشيء غير مراد وإنه مأمور به ، فثبت أن الأمر والإرادة لا يتلازمان ، وظهر أن السعيد من سعد في بطن أمه ، والشقي من شقي في بطن أمه وثانيها : أنه عند حصول القدرة والداعية الخالصة إن وجب الفعل ، كان فعل العبد يوجب فعل الله تعالى ، وحينئذ يبطل قول المعتزلة ، وإن لم يجب فإن استغنى عن المرجح فقد وقع الممكن لا عن مرجح وتجويزه يسد باب إثبات الصانع وإن لم يستغن عن المرجح ، فالكلام يعود في ذلك المرجح ، ولا ينقطع إلا عند الانتهاء إلى واجب الوجود وثالثها : أن فعل العبد لو وقع بقدرته لما وقع إلا الشيء الذي أراد تكوينه وإيجاده ، لكن الإنسان لا يريد إلا العلم والحق فلا يحصل له إلا الجهل والباطل ، فلو كان الأمر بقدرته لما كان كذلك ، فإن قيل إنما كان لأنه

اعتقد شبهة أوجبت له ذلك الجهل ، قلنا إن اعتقد تلك الشبهة لشبهة أخرى لزم التسلسل وهو محال فلا بد من الانتهاء إلى جهل أول ، ووقع في قلب الإنسان لا بسبب جهل سابق ، بل الإنسان أحدثه ابتداء من غير موجب ، وذلك محال لأن الإنسان قط لا يرضى لنفسه بالجهل ولا يحاول تحصيل الجهل لنفسه بل لا يحاول إلا العلم ، فوجب أن لا يحصل له إلا ما قصده وأراده ، وحيث لم يكن كذلك علمنا أن الكل بقضاء سار وقدر نافذ ، وهو المراد من قوله : ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً ﴾ .

(21/557)

﴿ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا (3) ﴾

اعلم أنه سبحانه وتعالى لما وصف نفسه بصفات الجلال والعزة والعلو أردف ذلك بتزييف مذهب عبدة الأوثان وبين نقصانها من وجوه : أحدها : أنها ليست خالقة للأشياء ، والإله يجب أن يكون قادراً على الخلق والإيجاد وثانيها : أنها مخلوقة والمخلوق محتاج ، والإله يجب أن يكون غنياً وثالثها : أنها لا تملك لأنفسها ضراً ولا نفعاً ، ومن كان كذلك فهو لا يملك لغيره أيضاً نفعاً ، ومن كان كذلك فلا فائدة في عبادته ورابعها : أنها لا تملك موتاً ولا

حياة ولا نشوراً ، أي لا تقدر على الإحياء والإماتة في زمان التكليف وثانياً في زمان المجازاة ، ومن كان كذلك كيف يسمى إلهاً ؟ وكيف يحسن عبادته مع أن حق من يحق له العبادة أن ينعم بهذه النعم المخصوصة ، وههنا سؤالات :

الأول : قوله : ﴿ واتخذوا مِن دُونِهِ ءالِهَةً ﴾ هل يختص بعبدة الأوثان أو يدخل فيه النصارى وعبدة الكواكب وعبدة الملائكة ؟ والجواب : قال القاضي : بعيد أن يدخل فيه النصارى لأنهم لم يتخذوا من دون الله آلهة على الجمع ، فالأقرب أن المراد به عباد الأصنام ، ويجوز أن يدخل فيه من عبد الملائكة لأن لمعبودهم كثرة ، ولقائل أن يقول قوله ﴿ واتخذوا ﴾ صيغة جمع وقوله ﴿ ءالِهَةً ﴾ جمع ، والجمع إذا قوبل بالجمع يقابل المفرد بالمفرد ، فلم يكن كون معبود النصارى واحداً مانعاً من دخوله تحت هذا اللفظ .

(22/557)

السؤال الثاني : احتج بعض أصحابنا بقوله : ﴿ واتخذوا مِن دُونِهِ ءالِهَةً لاَّ يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ على أن فعل العبد مخلوق لله تعالى فقال : إن الله تعالى عاب هؤلاء الكفار من حيث عبدوا ما لا يخلق شيئاً ، وذلك يدل على أن من خلق يستحق أن يعبد ، فلو كان العبد خالقاً لكان معبوداً إلهاً ، أجاب الكعبي عنه بأنا لا نطلق اسم الخالق إلا على الله

تعالى .

وقال بعض أصحابنا في الخلق إنه الإحداث لا بعلاج وفكر وتعب ، ولا يكون ذلك إلا لله تعالى ، ثم قال : وقد قال تعالى : ﴿ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا ﴾ [الأعراف : 195] في وصف الأصنام أفيدل ذلك على أن كل من له رجل يستحق أن يعبد ؟ فإذا قالوا لا قيل فكذلك ما ذكرتم ، وقد قال تعالى : ﴿ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الخالقين ﴾ [المؤمنون : 14] هذا كله كلام الكعبي والجواب : قوله لا يطلق اسم الخالق على العبد ، قلنا بل يجب ذلك لأن الخلق في اللغة هو التقدير ، والتقدير يرجع إلى الظن والحسبان ، فوجب أن يكون اسم الخالق حقيقة في العبد مجازاً في الله تعالى ، فكيف يمكنكم منع إطلاق لفظ الخالق على العبد ؟ أما قوله تعالى : ﴿ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا ﴾ فالعيب إنما وقع عليهم بالعجز فلا جرم أن كل من تحقق العجز في حقه من بعض الوجوه لم يحسن عبادته .

وأما قوله تعالى : ﴿ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الخالقين ﴾ فقد تقدم الكلام عليه .

واعلم أن هذه الآية لا يقوى استدلال أصحابنا بها لاحتمال أن العيب لا يحصل إلا بمجموع أمرين : أحدهما أنهم ليسوا بخالقين ، والثاني أنهم مخلوقون ، والعبد وإن كان خالقاً إلا أنه مخلوق فلزم أن لا يكون إلهاً معبوداً .

(23/557)

السؤال الثالث : هل تدل هذه الآية على البعث ؟ الجواب : نعم لأنه تعالى ذكر النشور ومعناه أن المعبود يجب أن يكون قادراً على إيصال الثواب إلى المطيعين والعقاب إلى العصاة ، فمن لا يكون كذلك وجب أن لا يصلح للإلهية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 24 صـ 39 . 43 ﴾

(24/557)

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ تَبَارَكَ . . . . ﴾ في تبارك ثلاثة أوجه

: أحدها : تفاعل مع البركة ، قاله ابن عباس .

الثاني : أنه الذي يجيىء البركة من قِبَلِهِ ، قاله الحسن .

الثالث : خالق البركة : قاله إبراهيم .

وفي البركة ثلاثة أقاويل :

أحدها : العلو . الثاني : الزيادة .

الثالث : العظمة . فيكون تأويله على الوجه الأول : تعالى ، وعلى الوجه الثاني تزايد ،

وعلى الوجه الثالث : تعاظم .

و﴿ الْفُرْقَانَ ﴾ هو القرآن وقيل إنه اسم لكل كتاب منزل كما قال تعالى :

﴿ وَإِذ ءَاتَينَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ ﴾ وفي تسميته فرقاناً وجهان :

أحدهما : لأنه فرق بين الحق والباطل .

الثاني : لأن فيه بيان ما شرع من حلال وحرام ، حكاه النقاش .

﴿ عَلَى عَبْدِهِ ﴾ يعني محمداً صلى الله عليه وسلم ، وقرأ ابن الزبير ﴿ عَلَى عِبَادِهِ ﴾

بالجمع

. ﴿ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً ﴾ فيه قولان

: أحدهما : ليكون محمد نذيراً ، قاله قتادة ، وابن زيد .

الثاني : ليكون الفرقان ، حكاه ابن عيسى . والنذر : المحذر من الهلاك ، ومنه قول الشاعر

:

فلما تلاقينا وقد كان منذر . . . . . نذيراً فلم يقبل نصيحة ذي النذر

والمراد بالعالمين هنا الإِنس والجن لأن النبي صلى الله عليه قد كان رسولاً إليهما ونذيراً لهما

وأنه خاتم الأنبياء ، ولم يكن غيره عامّ الرسالة إلا نوحاً فإنه عم برسالته جميع الإِنس بعد

الطوفان لأنه بدأ به الخلق ، واختلف في عموم رسالته قبل الطوفان على قولين :

أحدهما : عامة لعموم العقاب بالطوفان على مخالفته في الرسالة .

الثاني : خاصة بقومه لأنه ما تجاوزهم بدعائه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

(25/557)

وقال ابن عطية :

﴿ تبارك ﴾ وزنه تفاعل وهو مطاوع بارك من البركة ، وبارك فاعل من واحد معناه زاد ، و ﴿ تبارك ﴾ فعل مختص بالله تعالى لم يستعمل في غيره ، ولذلك لم يصرف منه مستقبل ولا اسم فاعل ، وهو صفة فعل أي كثرت بركاته ومن جملتها إنزال كتابه الذي هو ﴿ الفرقان ﴾ بين الحق والباطل ، وصدر هذه السورة إنما هو رد على مقالات كانت لقريش ، فمن جملتها قولهم إن القرآن افتراه محمد صلى الله عليه وسلم وإنه ليس من عند الله فهو ردّ على هذه المقالة ، وقرأ الجمهور " على عبده " ، وقرأ عبد الله بن الزبير " على عباده " . والضمير في قوله ﴿ ليكون ﴾ يحتمل أن يكون وهو عبده المذكور وهذا تأويل ابن زيد ، ويحتمل أن يكون ل ﴿ الفرقان ﴾ ، وأما على قراءة ابن الزبير فهو ل ﴿ الفرقان ﴾ لا يحتمل غير ذلك إلا بكره ، وقوله ﴿ للعالمين ﴾ عام في كل إنسي وجني عاصره أو جاء بعده وهو متأيد من غير ما موضع من الحديث المتواتر وظاهر الآيات ، و" النذير " المحذر

من الشر والرسول من عند الله نذير ، وقد يكون ﴿ نذيراً ﴾ ليس برسول كما روي في ذي القرنين وكما ورد في رسل رسل الله إلى الجن فإنهم نذر وليسوا برسل الله .

وقوله ﴿ الذي له ملك السماوات ﴾ الآية هي من الرد على قريش في قولهم إن لله شريكاً ، وفي قولهم اتخذ البنات ، وفي قولهم في التلبية إلا شريك هو لك ، وقوله ﴿ خلق كل شيء ﴾ ، هو عام في كل مخلوق وتقدير الأشيء هو حدها بالأمكنة والأزمان والمقادير والمصلحة والإتقان ، ثم عقب تعالى ذكر هذه الصفات التي هي للألوهية بالطعن على قريش في اتخاذهم آلهة ليست لهم هذه الصفات ، فالعقل يعطي أنهم ليسوا بآلهة وقوله ، ﴿ وهم يخلقون ﴾ ، يحتمل أن يريد يخلقهم الله بالاختراع والإيجاد ، ويحتمل أن يريد يخلقهم البشر بالنحت والنجارة وهذا التأويل أشد إبداء لخساسة الأصنام ، وخلق البشر تجوز ولكن العرب تستعمله ومنه قول زهير :

(26/557)

ولأنت تفري ما خلقت وبع . . . ض القوم يخلق ثم لا يفري

وهذا من قولهم خلقت الجلد إذا عملت فيه رسوماً يقطع عليها والفري هو أن يقطع على

ترك الرسوم ، وقوله ، ﴿ موتاً ولا حياة ﴾ يريد إماتة ولا إحياء ، و" النشور " بعث الناس من القبور . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(27/557)

وقال ابن الجوزى :

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا (1) ﴾

قال ابن عباس ، والحسن ، ومجاهد ، وعكرمة ، وقتادة في آخرين : هي مكية .

وحكي عن ابن عباس وقتادة أنهما قالا : إلا ثلاث آيات منها نزلت بالمدينة ، وهي قوله : ﴿ والذين لا يَدْعُون مع الله إلها آخر ﴾ [الفرقان : 68] إلى قوله : ﴿ غفوراً رحيماً ﴾ [الفرقان : 70] .

قوله تعالى : ﴿ تبارك ﴾ قد شرحناه في [الأعراف : 54] والفُرقان : القرآن ، سمي فُرقاناً ، لأنه فُرق به بين الحق والباطل .

والمراد بعبده : محمد صلى الله عليه وسلم ، ﴿ ليكونَ ﴾ فيه قولان .

أحدهما : أنه كناية عن عبده ، قاله الجمهور .

والثاني : عن القرآن ، حكاه الماوردي .

قوله تعالى : ﴿ للعالَمِين ﴾ يعني الجن والإِنس ﴿ نذيراً ﴾ [أي] : مخوّفاً من عذاب الله .

قوله تعالى : ﴿ فقدَّره تقديراً ﴾ فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : سوَّاه وهيَّأه لما يصلح له ، فلا خلل فيه ولا تفاوت .

والثاني : قَدَّر له ما يُصلحه ويُقيمه .

والثالث : قدَّر له تقديراً من الأجَل والرِّزق .

ثم ذكر ما صنعه المشركون ، فقال : ﴿ واتَّخَذوا من دونه آلهة ﴾ يعني : الأصنام ﴿ لا يَخلُقون شيئاً وهم يُخلَقون ﴾ أي : وهي مخلوقة ﴿ ولا يَمْلِكون لأنفسهم ضَرّاً ﴾ أي : دَفْع ضرّ ، ولا جَرّ نفع ، لأنها جماد لا قُدرة لها ، ﴿ ولا يَمْلِكون مَوْتاً ﴾ أي : لا تملك أن تُميت أحداً ، ولا أن تحيي أحداً ، ولا أن تبعث أحداً من الأموات ؛ والمعنى : كيف يعبُدون ما هذه صفته ، ويتركون عبادةَ من يقدر على ذلك كلِّه ؟ ! . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ زاد المسير حـ 6 صـ ﴾

(28/557)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ تَبَارَكَ الذي نَزَّلَ الفرقان ﴾

﴿ تَبَارَكَ ﴾ اختلف في معناه؛ فقال الفرّاء: هو في العربية و"تقدّس" واحد، وهما للعظمة.

وقال الزجاج: ﴿ تَبَارَكَ ﴾ تفاعل من البركة.

قال: ومعنى البركة الكثرة من كل ذي خير.

وقيل: ﴿ تَبَارَكَ ﴾ تعالى.

وقيل: تعالى عطاؤه، أي زاد وكثر.

وقيل: المعنى دام وثبت إنعامه.

قال النحاس: وهذا أولاها في اللغة والاشتقاق؛ من برك الشيء إذا ثبت؛ ومنه برك الجمل والطير على الماء، أي دام وثبت.

فأما القول الأوّل فمخلّط؛ لأن التقديس إنما هو من الطهارة وليس من ذا في شيء.

قال الثعلبي: ويقال تبارك الله، ولا يقال متبارَك ولا مبارَك؛ لأنه ينتهي في أسمائه وصفاته إلى حيث ورد التوقيف.

وقال الطِّرِمَّاح:

تباركتَ لا مُعْطٍ لشيء منعته . . .

وليس لما أعطيتَ يا ربّ مانع

وقال آخر:

تَبَارَكْتَ ما تَقْدِرْ يقعْ ولك الشكرُ . . .

قلت : قد ذكر بعض العلماء في أسمائه الحسنى "المبارك" وذكرناه أيضا في كتابنا .

فإن كان وقع اتفاق على أنه لا يقال فيسلَّم للإجماع ، وإن كان وقع فيه اختلاف فكثير من الأسماء اختلف في عدّه ؛ كالدهر وغيره .

وقد نبهنا على ذلك هنالك ، والحمد لله .

و"الفرقان" القرآن .

وقيل : إنه اسم لكل مُنزَّل ؛ كما قال : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا موسى وَهَارُونَ الفرقان ﴾ [الأنبياء : 48] .

وفي تسميته فرقاناً وجهان : أحدهما : لأنه فرّق بين الحق والباطل ، والمؤمن والكافر .

الثاني : لأن فيه بيان ما شرع من حلال وحرام ؛ حكاه النقاش .

﴿ على عَبْدِهِ ﴾ يريد محمداً صلى الله عليه وسلم .

﴿ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً ﴾ اسم "يَكُون" مضمر يعود على ﴿ عَبْدِهِ ﴾ وهو أوْلى لأنه أقرب إليه .

ويجوز أن يكون يعود على ﴿ الفرقان ﴾ .

وقرأ عبد الله بن الزبير : ﴿ عَلَى عِبَادِهِ ﴾ .

ويقال : أنذر إذا خوّف ؛ وقد تقدم في أول "البقرة" .

والنذير : المحذِّر من الهلاك .

(29/557)

الجوهريّ : والنذير المنذر ، والنذير الإنذار .

والمراد ب ﴿ العالمِين ﴾ هنا الإنس والجن ، لأن النبيّ صلى الله عليه وسلم قد كان رسولاً إليهما ، ونذيراً لهما ، وأنه خاتم الأنبياء ، ولم يكن غيره عامّ الرسالة إلا نوح فإنه عمّ برسالته جميع الإنس بعد الطوفان ، لأنه بدأ به الخلق .

قوله تعالى : ﴿ الذي لَهُ مُلْكُ السماوات والأرض ﴾ عظَّم تعالى نفسه .

﴿ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً ﴾ نزّه سبحانه وتعالى نفسه عما قاله المشركون من أن الملائكة أولاد الله ؛ يعني بنات الله سبحانه وتعالى .

وعما قالت اليهود : عزير ابن الله ؛ جلّ الله تعالى .

وعما قالت النصارى : المسيح ابن الله ؛ تعالى الله عن ذلك .

﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ ﴾ كما قال عبدة الأوثان .

﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ لا كما قال المجوس والثَّنوِيَّة : إن الشيطان أو الظلمة يخلق بعض

الأشياء .

ولا كما يقول من قال : للمخلوق قدرة الإيجاد .

فالآية ردٌّ على هؤلاء .

﴿ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً ﴾ أي قدّر كل شيء مما خلق بحكمته على ما أراد ، لا عن سهوة وغفلة ، بل جرت المقادير على ما خلق الله إلى يوم القيامة وبعد القيامة ، فهو الخالق المقدّر ؛ فإياه فاعبدوه .

قوله تعالى : ﴿ واتخذوا مِن دُونِهِ آلِهَةً ﴾ ذكر ما صنع المشركون على جهة التعجيب في اتخاذهم الآلهة ، مع ما أظهر من الدلالة على وحدانيته وقدرته .

﴿ لاَّ يَخْلُقُونَ شَيْئاً ﴾ يعني الآلهة .

﴿ وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ لمّا اعتقد المشركون فيها أنها تضر وتنفع ، عبّر عنها كما يعبّر عما يعقل .

﴿ وَلاَ يَمْلِكُونَ لأَنْفُسِهِمْ ضَرّاً وَلاَ نَفْعاً ﴾ أي لا دفع ضرّ وجلب نفع ، فحذف المضاف .

وقيل : لا يقدرون أن يضروا أنفسهم أو ينفعوها بشيء ، ولا لمن يعبدهم ، لأنها جمادات .

﴿ وَلاَ يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلاَ حَيَاةً وَلاَ نُشُوراً ﴾ أي لا يميتون أحداً ، ولا يحيونه .

(30/557)

والنشور : الإحياء بعد الموت ؛ أنشر الله الموتى فنشروا .

وقد تقدم .

وقال الأعشى :

حتى يقولَ الناسُ مما رَأَوْا . . .

يا عجباً للميّتِ النَّاشِرِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 13 صـ ﴾

(31/557)

وقال أبو حيان :

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا (1) ﴾

هذه السورة مكية في قول الجمهور .

وقال ابن عباس وقتادة : إلاّ ثلاث آيات نزلت بالمدينة وهي ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ﴾ إلى قوله ﴿ وكان الله غفوراً رحيماً ﴾ وقال الضحاك مدنية إلا من أولها إلى قوله ﴿ ولا نشوراً ﴾ فهو مكي .

ومناسبة أول هذه السورة لآخر ما قبلها أنه لما ذكر وجوب مبايعة المؤمنين للرسول وأنهم إذا

كانوا معه في أمر مهم توقف انفصال واحد منهم على إذنه وحذر من يخالف أمره وذكر أن له ملك السموات والأرض وأنه تعالى عالم بما هم عليه ومجازيهم على ذلك ، فكان ذلك غاية في التحذير والإنذار ناسب أن يفتتح هذه السورة بأنه تعالى منزه في صفاته عن النقائص كثير الخير ، ومن خيره أنه ﴿ نزل الفرقان ﴾ على رسوله منذراً لهم فكان في ذلك اطماع في خيره وتحذير من عقابه .

و﴿ تبارك ﴾ تفاعل مطاوع بارك وهو فعل لا يتصرف ولم يستعمل في غيره تعالى فلا يجيء منه مضارع ولا اسم فاعل ولا مصدر .

وقال الطرماح :

تباركت لا معط لشيء منعته . . .

وليس لما أعطيت يا رب مانع

قال ابن عباس : لم يزل ولا يزول .

وقال الخليل : تمجد .

وقال الضحاك : تعظم .

وحكى الأصمعي تبارك عليكم من قول عربي صعد رابية فقال لأصحابه ذلك ، أي تعاليت وارتفعت .

ففي هذه الأقوال تكون صفة ذات .

وقال ابن عباس أيضاً والحسن والنخعي : هو من البركة وهي التزايد في الخير من قبله ، فالمعنى زاد خيره وعطاؤه وكثر ، وعلى هذا يكون صفة فعل وجاء الفعل مسنداً إلى ﴿ الذي ﴾ وهم وإن كانوا لا يقرون بأنه تعالى هو الذي نزل الفرقان فقد قام الدليل على إعجازه فصارت الصلة معلومة بحسب الدليل ، وإن كانوا منكرين لذلك .

وتقدّم في آل عمران لمَسمي القرآن فرقاناً .

وقرأ الجمهور ﴿ على عبده ﴾ وهو الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) .

(32/557)

وقرأ ابن الزبير على عباده أي الرسول وأمته كما قال ﴿ لقد أنزلنا إليكم ﴾ ﴿ وما أنزل إلينا ﴾ ويبعد أن يراد بالقرآن الكتب المنزلة ، وبعبده من نزلت عليهم فيكون اسم جنس كقوله ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ﴾ والضمير في ﴿ ليكون ﴾ .

قال ابن زيد : عائد على ﴿ عبده ﴾ ويترجح بأنه العمدة المسند إليه الفعل وهو من وصفه تعالى كقوله ﴿ إنّا كنا منذرين ﴾ والظاهر أن ﴿ نذيراً ﴾ بمعن منذر .

وجوز أن يكون مصدراً بمعنى لإنذر كالنكير بمعنى الإنكار ، ومنه ﴿ فكيف كان عذابي ونذر ﴾ و ﴿ للعالمين ﴾ عام للإنس والجن ، ممن عاصره أو جاء بعده وهذا معلوم من

الحديث المتواتر وظواهر الآيات .

وقرأ ابن الزبير ﴿ للعالمين ﴾ للجن والإنس وهو تفسير ﴿ للعالمين ﴾ .

ولما سبق في أواخر السورة ألا إن لله ما في السموات والأرض فكان إخباراً بأن ما فيهما ملك له ، أخبر هنا أنه له ملكهما أي قهرهما وقهر ما فيهما ، فاجتمع له الملك والملك لهما . ولما فيهما ، والذي مقطوع للمدح رفعاً أو نصباً أو نعت أو بد من ﴿ الذي نزل ﴾ وما بعد ﴿ نزل ﴾ من تمام الصلة ومتعلق به فلا يعد فاصلاً بين النعت أو البدل ومتبوعه .

﴿ ولم يتخذ ولداً ﴾ الظاهر نفي الاتخاذ أي لم ينزل أحداً منزلة الولد .

وقيل : المعنى لم يكن له ولد بمعنى قوله لم يلد لأن التوالد مستحيل عليه .

وفي ذلك رد على مشركي قريش وعلى النصارى واليهود الناسبين لله الولد .

﴿ ولم يكن له شريك في الملك ﴾ تأكيد لقوله ﴿ له ملك السموات والأرض ﴾ ورد على من جعل لله شريكاً .

﴿ وخلق كل شيء ﴾ عام في خلق الذوات وأفعالها .

قيل : وفي الكلام حذف تقديره ﴿ وخلق كل شيء ﴾ مما يصح خلقه لتخرج عنه ذاته وصفاته القديمة انتهى .

ولا يحتاج إلى هذا المحذوف لأن من قال : أكرمت كل رجل لا يدخل هو في العموم فكذلك لم يدخل في عموم ﴿ وخلق كل شيء ﴾ ذاته تعالى ولا صفاته القديمة .

﴿ فقدره تقديراً ﴾ إن كان الخلق بمعنى التقدير ، فكيف جاء ﴿ فقدره ﴾ إذ يصير المعنى وقدر كل شيء يقدره ﴿ تقديراً ﴾ .

فقال الزمخشري : المعنى أنه أحدث كل شيء إحداثاً مراعى فيه التقدير والتسوية فقدره وهيأه لما يصلح له ، أو سمي إحداث الله خلقاً لأنه لا يحدث شيئاً لحكمته إلاّ على وجه التقدير من غير تفاوت .

فإذا قيل : خلق الله كذا فهو بمنزلة إحداث الله وأوجد من غير نظر إلى وجه الاشتقاق ، فكأنه قيل : وأوجد كل شيء فقدره في إيجاده متفاوتاً .

وقيل : فجعل له غاية ومنتهى ، ومعناه ﴿ فقدره ﴾ للبقاء إلى أمد معلوم .

وقال ابن عطية : تقدير الأشياء هو حدها بالأمكنة والأزمان والمقادير والمصلحة والاتقان انتهى .

﴿ واتخذوا من دونه آلهة ﴾ الضمير في ﴿ واتخذوا ﴾ عائد على ما يفهم من سياق الكلام لأن في قوله ﴿ ولم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك ﴾ دلالة على ذلك لم ينف إلاّ وقد قيل به .

وقال الكرماني : الواو ضمير للكفار وهم مندرجون في قوله ﴿ للعالمين ﴾ .

وقيل : لفظ ﴿ نذيراً ﴾ ينبىء عنهم لأنهم المنذرون ويندرج في ﴿ واتخذوا ﴾ كل من ادعى إلهاً غير الله ، ولا يختص ذلك بعباد الأوثان وعباد الكواكب .

وقال القاضي : يبعد أن يدخل فيه النصارى لأنهم لم يتخذوا من دون الله آلهة على الجمع . والأقرب أن المراد به عبَدة الأصنام ، ويجوز أن يدخل فيه من عبد الملائكة لأن لعبادها كثرة انتهى .

ولا يلزم ما قال لأن ﴿ واتخذوا ﴾ جمع و ﴿ آلهة ﴾ جمع ، وإذا قوبل الجمع بالجمع تقابل الفرد بالفرد ، ولا يلزم أن يقابل الجمع بالجمع فيندرج معبود النصارى في لفظ ﴿ آلهة ﴾ .

ثم وصف الآلهة بانتفاء إنشائهم شيئاً من الأشياء إشارة إلى انتفاء القدرة بالكلية ، ثم بأنهم مخلوقون لله ذاتاً أو مصنوعون بالنحت والتصوير على شكل مخصوص ، وهذا أبلغ في الخساسة ونسبة الخلق للبشر تجوز .

ومنه قول زهير :

ولأنت تفري ما خلقت وبعض . . .

القوم يخلق ثم لا يفري

(34/557)

وقال الزمخشري : الخلق بمعنى الافتعال كما في قوله ﴿ وتخلقون إفكاً ﴾ والمعنى أنهم آثروا على عبادته عبادة آلهة لا عجز أبْيَنَ من عجزهم ، لا يقدرون على شيء من أفعال الله ولا أفعال العباد حيث لا يفتعلون شيئاً وهم يفتعلون لأن عبدتهم يصنعونهم بالنحت والتصوير ﴿ ولا يملكون لأنفسهم ﴾ دفع ضرر عنها ولا جلب نفع إليها ، وهم يستطيعون وإذا عجزوا عن الافتعال ودفع الضرر وجلب النفع الذي يقدر عليه العباد كانوا عن الموت والحياة والنشور التي لا يقدر عليها إلاّ الله أعجز . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(35/557)

وقال أبو السعود :

﴿ تَبَارَكَ الذى نَزَّلَ الفرقان ﴾

(36/557)

البركةُ النَّماءُ والزِّيادةُ حسيَّةً كانتْ أو معنويَّةً ، وكثرةُ الخيرِ ودوامُه أيضاً ونسبتُها إلى الله عزَّ وجلَّ على المَعْنى الأوَّل وهُو الأليقُ بالمقام باعتبار تعاليهِ عمَّا سواهُ في ذاته وصفاتِه وأفعالِه التي منْ جُمْلتها تنزيلُ القُرآنِ الكريمِ المُعجزِ النَّاطقِ بعلوِّ شأنِه تعالى وسموِّ صفاتِه وابتناءِ أفعالِه على أساس الحِكَمِ والمصالحِ وخلوِّها عن شائبة الخَلَلِ بالكُلِّيةِ . وصيغةُ التَّفاعلُ للمبالغةِ فيما ذُكر فإنَّ ما لا يُتصوَّرُ نسبتُه إليهِ سبحانَهُ حقيقةً من الصِّيغ كالتَّكبر ونحوِه لا تُنسب إليه تعالى إلا باعتبار غايتِها . وعلى المعنى الثَّاني باعتبار كثرةِ ما يفيضُ منه على مخلوقاته لا سيَّما على الإنسان من فُنون الخيراتِ التي من جُملتها تنزيلُ القُرآن المنطويِ على جميع الخيراتِ الدِّينيَّةِ والدُّنيويَّةِ . والصِّيغةُ حينئذٍ يجوزُ أنْ تكونَ لإفادة نماءِ تلك الخيراتِ وتزايدها شيئاً فشيئاً وآناً فآناً بحسب حدوثِها أو حدوثِ متعلَّقاتِها . ولاستقلالِها بالدِّلالة على غايةِ الكمالِ وتحقُّقِها بالفعلِ والإشعارِ بالتَّعجُّبِ المناسبِ للإنشاءِ والإنباءِ عن نهاية التَّعظيمِ لم يجُز استعمالُها في حقِّ غيرِه تعالى ولا استعمالُ غيرِها من الصِّيغِ في حقِّه تعالى ، والفُرقان مصدرُ فرقَ بينَ الشَّيئينِ أي فصَل بينهُما سمِّيَ به القرآنُ لغاية فرقِه بين الحقِّ والباطلِ بأحكامه أو بينَ المُحقِّ والمبطلِ بإعجازِه أو لكونه مفصولاً بعضِه من بعضٍ في نفسه أو في إنزاله ﴿ على عَبْدِهِ ﴾ محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم ، وإيرادُه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بذلك العُنوانِ لتشريفه والإيذانِ بكونِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ في أقصى مراتب العُبوديَّةِ

والتنبيهِ على أنَّ الرَّسولَ لا يكونُ إلا عبداً للمرسِل ردًّا على النَّصارى ﴿ لِيَكُونَ ﴾ غايةٌ للتَّنزيل أي نزَّله عليه ليكونَ هو عليهِ

(37/557)

الصَّلاةُ والسَّلامُ أو الفرقانُ ﴿ للعالمين ﴾ من الثَّقلينِ ﴿ نَذِيراً ﴾ أيْ مُنذراً أو إنذاراً مبالغةً أو ليكون تنزيلُه إنذاراً وعدمُ التَّعرضِ للتَّبشير لانسياق الكلامِ على أحوالِ الكَفَرةِ. وتقديمُ اللامِ على عاملِها لمراعاةِ الفواصلِ، وإبرازُ تنزيل الفرقانِ في معرض الصِّلةِ التي حقُّها أن تكونَ معلومةَ الثُّبوت للموصولِ عند السَّامعِ مع إنكار الكَفَرةِ له لإجرائه مُجرى المعلومِ المسلَّمِ تنبيهاً على كمال قوَّةِ دلائِله وكونِه بحيثُ لا يكادُ يجهلُه أحدٌ كقوله تعالى: ﴿ لاَ رَيْبَ فِيهِ ﴾ ﴿ الذى لَهُ مُلْكُ السموات والأرض ﴾ أي له خاصَّةً دُونَ غيرِه لا استقلالاً ولا اشتراكاً للسُّلطان القاهرِ والاستيلاءِ الباهرِ عليهما المستلزمانِ للقدرة التَّامَّةِ والتَّصرفِ الكليِّ فيهما وفيما فيهما إيجاداً وإعداماً وإحياءً وإماتةً وأمراً ونهياً حسبما تقتضيهِ مشيئتُه المبنيةُ على الحِكَمِ والمَصَالحِ، ومحلُّه الرَّفعُ على أنَّه خبرٌ لمبتدأٍ محذوفٍ، والجملةُ مستأنفةٌ مقررةٌ لما قبلها أو على أنَّه نعتٌ للموصولِ الأوَّلِ أو بيانٌ له أو بدلٌ منه وما بينهُمَا ليس بأجنبيَ لأنَّه من تمامِ صلتِه، ومعلوميةُ مضمونِه للكَفرةِ ممَّا لا ريبَ فيه لقولِه تعالى:

﴿ قُلْ مَن رَّبُّ السموات السبع وَرَبُّ العرش العظيم سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ﴾ ونظائرِه أو مدحٌ له تعالى بالرَّفع أو بالنَّصب ﴿ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً ﴾ كما يزعمُ الذين يقولون في حقِّ المسيحِ والملائكةِ ما يقولُون فسبحان الله عمَّا يصفون وهو معطوفٌ على ما قبلَه من الجملةِ الظَّرفيةِ ، ونظمه في سلك الصِّلةِ للإيذانِ بأنَّ مضمونَهُ من الوضوحِ والظُّهور بحيثُ لا يكادُ يجهله جاهلٌ لا سيَّما بعد تقريرِ ما قبله .

(38/557)

﴿ وَلَم يَكُنْ لَّهُ شَرِيكٌ فِى الملك ﴾ أي مُلكِ السَّمواتِ والأرضِ وهو أيضاً عطفٌ على الصِّلةِ وإفرادُه بالذِّكر مع أنَّ ما ذُكر من اختصاص ملكِهما به تعالى مستلزمٌ له قطعاً للتَّصريح ببُطلان زعم الثَّنويَّةِ القائلين بتعددِ الآلهةِ والدَّرءِ في نحورِهم ، وتوسيطُ نفيِ اتِّخاذِ الولدِ بينهُما للتنبيهِ على استقلالِه وأصالتِه والاحترازِ عن توهُّم كونِه تتمة للأوَّلِ ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ أي أحدثَ كلَّ موجودٍ من الموجوداتِ إحداثاً جارياً على سَنن التَّقديرِ حسبما اقتضتْهُ إرادتُه المبنيَّةُ على الحكم البالغةِ بأنْ خلقَ كُلاًّ منها من موادَّ مخصوصةٍ على صورٍ معينةٍ ورتَّب فيه قُوى وخواصَّ مختلفةَ الآثارِ والأحكامِ ﴿ فَقَدَّرَهُ ﴾ أي هيَّأه لما أرادَ به من الخصائص والأفعالِ اللاَّئقةِ به ﴿ تَقْدِيراً ﴾ بديعاً لا يُقادر قَدرُه ولا يُبلغ كُنهُه كتهيئة

الإنسانِ للفهمِ والإدراكِ والنَّظرِ والتَّدبرِ في أمورِ المعاشِ والمعادِ واستنباطِ الصَّنائعِ المتنوعةِ ومزاولةِ الأعمالِ المختلفةِ وهكذا أحوالُ سائرِ الأنواعِ. وقيل: أُريد بالخَلْقِ مطلقَ الإيجادِ والإحداثِ مجازاً من غيرِ ملاحظةِ معنى التَّقديرِ وإنْ لم يخلُ عنه في نفس الأمر فالمعنى أوجدَ كلَّ شيء فقدَّره في ذلك الإيجاد تقديراً وأما ما قيل من أنَّه سَمَّى إحداثه تعالى خَلْقاً لأنَّه تعالى لا يُحدث شيئاً إلاَّ على وجه التَّقديرِ من غير تفاوت ففيه أنَّ ارتكابَ المجاز بحملِ الخلقِ على مُطلق الإحداثِ لتجريده عن معنى التَّقديرِ فاعتباره فيه بوجهٍ من الوجوه مخلٌّ بالمرام قطعاً، وقيل: المراد بالتَّقدير الثَّاني هو التَّقديرُ للبقاء إلى الأجل المُسمَّى وأيًّا ما كان فالجُملة جاريةٌ مجرى التَّعليلِ لما قبلها من الجُمل المنتظمةِ مثلَها في سلك الصِّلةِ فإنَّ خلقَهُ تعالى لجميع الأشياء على ذلك النَّمطِ البديعِ كما يقتضي استقلاله تعالى

(39/557)

باتِّصافه بصفات الأُلوهيَّةِ يقتضي انتظامَ كلِّ ما سواه كائناً ما كان تحت ملكوته القاهر بحيثُ لا يشذُّ عنها شيء من ذلك قطعاً وما كان كذلك كيف يُتوهَّم كونه ولداً له سبحانه أو شريكاً في ملكه.

(40/557)

﴿ واتخذوا مِن دُونِهِ ءالِهَةً ﴾ بعد ما بيَّن حقيقةَ الحقِّ في مطلع السُّورةِ الكريمة بذكر تنزيله تعالى للفُرقان العظيم على رسولِه صلى الله عليه وسلم ووصفِه تعالى بصفاتِ الكمال وتنزيهه عمَّا لا يليقُ بشأنه الجليل عقَّب ذلك بحكايةِ أباطيلِ المُشركين في حقِّ المنزِّل سبحانَهُ والمنزَّلِ والمُنزَلِ عليه على التَّرتيب وإظهارِ بُطلانها . والإضمارُ من غير جريان ذكرِهم للثقة بدلالة ما قبله من نفيِ الشَّريكِ عليهم أي اتَّخذوا لأنفسِهم متجاوزين الله تعالى الذي ذُكر بعضُ شؤونه الجليلةِ من اختصاصِ مُلكِ السَّمواتِ والأرضِ به تعالى وانتفاءِ الولد والشَّريكِ عنه وخلقِ جميعِ الأشياء وتقديرِها أبدعَ تقديرٍ آلهة ﴿ لاَ يَخْلُقُونَ شَيْئًا ﴾ أي لا يقدرون على خلق شيءٍ من الأشياءِ أصلاً ﴿ وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ كسائر المخلوقاتِ وقيل : لا يقدرُون على أنْ يختلقُوا شيئاً وهم يُختلقون حيث تختلقهم عبدتُهم بالنَّحت والتَّصويرِ . وقولُه تعالى : ﴿ وَلاَ يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ ضَرّاً وَلاَ نَفْعاً ﴾ لبيان ما لم يدلَّ عليه ما قبله من مراتبِ عجزِهم وضعفِهم فإنَّ بعضَ المخلوقين العاجزينَ عن الخلقِ ربَّما يملك دفعَ الضُّرِّ وجلبَ النَّفعِ في الجملة كالحيوان وهؤلاءِ لا يقدرونَ على التَّصرفِ في ضُرَ ما ليدفعُوه عن أنفسِهم ولا في نفعٍ ما حتَّى يجلبوه إليهم فكيف يملكون شَيئاً منهما لغيرِهم . وتقديمُ ذكرِ الضُّرِّ لأنَّ دفعَه مع كونِه أهمَّ في نفسه أوَّلُ مراتبِ النَّفعِ وأقدمُها . والتَّنصيصُ على قولِه تعالى : ﴿ وَلاَ يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلا حَيَاةً وَلاَ نُشُوراً ﴾ أي لا يقدرون على التَّصرفِ في شيءٍ منها

بإماتةِ الأحياءِ وإحياءِ المَوْتى وبعثِهم بعد بيانِ عجزِهم عمَّا هو أهونُ من هذه الأمور من دفع الضُّرِّ وجلب النَّفعِ للتَّصريحِ بعجزهم عن كلِّ واحدٍ ممَّا ذُكر على التَّفصيلِ والتَّنبيهِ على أنَّ الإله يجبُ

(41/557)

أنْ يكونَ قادراً على جميعِ ذلك . وفيه إيذانٌ بغايةِ جهلِهم وسَخافةِ عقولِهم كأنَّهم غيرُ عارفين بانتفاء ما نُفي عن آلهتِهم من الأمورِ المذكُورةِ مفترقون إلى التَّصريح بذلك . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 6 صـ ﴾

(42/557)

وقال الآلوسى :

﴿ تَبَارَكَ الذى نَزَّلَ الفرقان على عَبْدِهِ لِيَكُونَ للعالمين نَذِيراً ﴾

أي تعالى جل شأنه في ذاته وصفاته وأفعاله على أتم وجه وأبلغه كما يشعر به إسناد صيغة التفاعل إليه تعالى وهذا الفعل لا يسند في الأغلب إلى غيره تعالى ومثله تعالى ولا يتصرف

فلا يجيء منه مضارع ولا أمر ولا ولا في الأغلب أيضاً وإلا فقد قرأ أبي كما سيأتي إن شاء الله تعالى تباركت الأرض ومن حولها ، وجاء كما في "الكشف" تباركت النخلة أي تعالت ، وحكى الأصمعي أن أعرابياً صعد رابية فقال لأصحابه : تباركت عليكم ، وقال الشاعر

: إلى الجذع جذع النخلة المتبارك . . .

وقال الخليل : معنى تبارك تمجد ، وقال الضحاك : تعظم وهو قريب من قريب ، وعن الحسن .

(43/557)

والنخعي أن المعنى تزايد خيره وعطاؤه وتكاثر وهي إحدى روايتين عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ، ثانيتهما أن المعنى لم يزل ، ولا يزال وتحقيق ذلك أن تبارك من البركة وهي في الأصل مأخوذة من برك البعير وهو صدره ومنه برك البعير إذا ألقى بركه على الأرض واعتبر فيه معنى اللزوم فقيل براكاء الحرب وبروكاؤها للمكان الذي يلزمه الإبطال وسمي محبس الماء بركة كسدرة ثم أطلقت على ثبوت الخير الإلهي في الشيء ثبوت الماء في البركة ، وقيل : لما فيه ذلك الخير مبارك ولما كان الخير الإلهي يصدر من حيث لا يحس وعلى وجه

لا يحصى ولا يحصر قيل لكل ما يشاهد منه زيادة غير محسوسة هو مبارك وفيه بركة ؛ فمن اعتبر معنى اللزوم كابن عباس بناءً على الرواية الثانية عنه قال : المعنى لم يزل ولا يزال أو نحو ذلك ، ومن اعتبر معنى التزايد انقسم إلى طائفتين فطائفة جعلوه باعتبار كمال الذات في نفسها ونقصان ما سواها ففسروا ذلك بالتعالي ونحوه وطائفة جعلوه باعتبار كمال الفعل ففسروه بتزايد الخير وتكاثره ولا اعتبار للتغير المبني على اعتبار معنى اللزوم لقلة فائدة الكلام عليه وعدم مناسبة ذلك المعنى لما بعد ، ومن هنا ردد الجمهور المعنى بين ما ذكرناه أولاً وما روي عن الحسن ومن معه ؛ وترتيب وصفه تعالى بقوله سبحانه : ﴿ تبارك ﴾ بالمعنى الأول على إنزاله جل شأنه الفرقان لما أنه ناطق بعلو شأنه سبحانه وسمو صفاته وابتناء أفعاله على أساس الحكم والمصالح وخلوها عن شائبة الخلل بالكلية وترتيب ذلك بالمعنى الثاني عليه لما فيه من الخير الكثير لأنه هداية ورحمة للعالمين ، وفيه ما ينتظم به أمر المعاش والمعاد وكلا المعنيين مناسب للمقام ورجح الأول بأنه أنسب به لمكان قوله تعالى : ﴿ لِيَكُونَ للعالمين نَذِيراً ﴾ فقد قال الطيبي في اختصاص النذير دون البشير سلوك طريقة براعة الاستهلال وازيذان بأن هذه السورة مشتملة على ذكر المعاندين المتخذين لله تعالى ولداً وشريكاً

(44/557)

الطاعنين ﴿ فِى كتابه وَرُسُلِهِ واليوم الآخر ﴾ ، وهذا المعنى يؤيد تأويل تبارك بتزايد عن كل شيء وتعالى عنه في صفاته وأفعاله جل وعلا لإفادته صفة الجلال والهيبة وإيذانه من أول الأمر بتعاليه سبحانه عما يقول الظالمون علواً كبيراً وهو من الحسن بمكان ، و ﴿ الفرقان ﴾ مصدر فرق الشيء من الشيء وعنه إذا فصله ، ويقال أيضاً كما ذكره الراغب فرقت بين الشيئين إذا فصلت بينهما سواء كان ذلك بفصل يدركه البصر أو بفصل تدركه البصرة ، والتفريق بمعناه إلا أنه يدل على التكثير دونه ، وقيل عن الفرق في المعاني والتفريق في الأجسام والمراد به القررن وإطلاقه عليه لفصله بين الحق والباطل بما فيه من البيان أو بين المحق والمبطل لما فيه من الإعجاز أو لكونه مفصولاً بعضه عن بعض في نفسه أو في الإنزال حيث لم ينزل دفعة كسائر الكتب ، وسيأتي إن شاء الله تعالى ما يقوله الصوفية في ذلك فهو مصدر بمعنى الفاعل أو بمعنى المفعول ، ويجوز أن يكون ذلك من باب هي إقبال وإدبار فلا تغفل .

(45/557)

والمراد بعبده نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وإيراده عليه الصلاة والسلام بذلك العنوان لتشريفه وازيذان بكونه صلوات الله تعالى وسلامه عليه في أقصى مراتب العبودية والتنبيه على أن الرسول لا يكون إلا عبداً للمرسل رداً على النصارى ، وقيل : المراد بالفرقان جميع الكتب السماوية لأنها كلها فرقت بين الحق والباطل وبعبده الجنس الشامل لجميع من نزلت عليهم ، وأيد بقراءة ابن الزبير ﴿ على عِبَادِهِ ﴾ ، ولا يخفى ما في ذلك من البعد ، والمراد بالعباد في قراءة ابن الزبير الرسول عليه الصلاة والسلام وأمته ، والإنزال كما يضاف إلى الرسول صلى الله عليه وسلم يضاف إلى أمته كما في قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ ﴾ [الأنبياء : 10] لأنه واصل إليهم ونزوله لأجلهم فكأنه منزل عليهم وإن كان إنزاله حقيقة عليه عليه الصلاة والسلام ، وقيل : المراد بالجمع هو صلى الله عليه وسلم وعبر عنه به تعظيماً ، وضمير يكون عائد على عبده ، وقيل على ﴿ الفرقان ﴾ وإسناد الإنذار إليه مجاز ، وقيل على الموصول الذي هو عبارة عنه تعالى ، ورجح بأنه العمدة المسند إليه الفعل والإنذار من صفاته عز وجل كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴾ [الدخان : 3] وقيل على التنزيل المفهوم من ﴿ نَزَّلَ ﴾ ، والمتبادر إلى الفهم هو الأول وهو الذي يقتضيه ما بعد ، والنذير صفة مشبهة بمعنى منذر .

وجوز أن يكون مصدراً بمعنى إنذار كالنكير بمعنى إنكار وحكم الأخبار بالمصدر شهير ،

والإنذار إخبار فيه تخويف ويقابله التبشير ولم يتعرض له لما مر آنفاً ، والمراد بالعالمين عند جمع من العالمين الإنس والجن ممن عاصره صلى الله عليه وسلم إلى يوم القيامة .

(46/557)

ويؤيده قراءة ابن الزبير للعالمين للجن والإنس وإرساله صلى الله عليه وسلم إليهم معلوم من الدين بالضرورة فيكفر منكره ، وكذا الملائكة عليهم السلام كما رجحه جمع محققون كالسبكي ومن تبعه ورد على من خالف ذلك ، وادعى بعضهم دلالة الآية عليه لأن العالم ما سوى الله تعالى وصفاته العلى فيشمل الملائكة عليهم السلام .

وصيغة جمع العقلاء للتغليب أو جمع بعد تخصيصه بالعقلاء .

ومن قال كالبارزي : إنه عليه الصلاة والسلام أرسل حتى إلى الجمادات بعد جعلها مدركة لظاهر خبر مسلم وأرسلت إلى الخلق كافة لم يخصص ، واكتفى بالتغليب وفائدة الإرسال للمعصوم وغير المكلف طلب إذعانهما لشرفه عليه الصلاة والسلام ودخولهما تحت دعوته واتباعه تشريفاً على سائر المرسلين عليهم السلام .

وتقديم الجار والمجرور على متعلقه للتشويق ومراعاة الفواصل وللحصر أيضاً على القول الأول في العالمين ، وإبراز تنزيل الفرقان في معرض الصلة التي حقها أن تكون معلومة الثبوت

للموصول عند السامع مع إنكار الكفرة له لإجرائه مجرى المعلوم المسلم تنبيهاً على قوة دلائله وكونه بحيث لا يكاد يجهله أحد كقوله تعالى : ﴿ لاَ رَيْبَ فِيهِ ﴾ [البقرة : 2] وكذا يقال في نظائره من الصلات التي ينكرها الكفرة : وقال بعضهم : لا حاجة لما ذكر إذ يكفي في الصلة أن تكون معلومة للسامع المخاطب بها ولا يلزم أن تكون معلومة لكل سامع ، والمخاطب بها هنا هو رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عليه الصلاة والسلام عالم بثبوتها للموصول ، وفي شرح التسهيل أنه لا يلزم فيها أن تكون معلومة وإن تعريف الموصول كتعريف أل يكون للعهد والجنس وأنه قد تكون صلته مبهمة للتعظيم كما في قوله

: فإن أستطع أغلب وأن يغلب الهوى . . .

فمثل الذي لاقيت يغلب صاحبه

وما ذكر أولاً من تنزيلها منزلة المعلوم أبلغ لكونه كناية عما ذكر مناسبة للرد على من أنكر النبوة وتوحيد الله تعالى :

﴿ الذى لَهُ مُلْكُ السموات والأرض ﴾

(47/557)

أي له سبحانه خاصة دون غيره لا استقلالاً ولا اشتراكاً السلطان القاهر والاستيلاء الباهر عليهما المستلزم للقدرة التامة والتصرف الكلي فيهما وفيما فيهما إيجاداً وإعاداً وإحياء وإماتة وأمراً ونهياً حسبما تقتضيه مشيئته المبنية على الحكم والمصالح ، ومحل الموصول الرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف ، والجملة مستأنفة مقررة لما قبلها أو على أنه نعت للموصول الأول أو بيان له أو بدل منه ، وما بينهما ليس بأجنبي لأنه من تمام الصلة ومتعلق بها فلا يضر الفصل به بين التابع والمتبوع كما في "البحر" أو محله الرفع أو النصب على المدح بتقدير هو أو أمدح.

واختار الطيبي أن محله الرفع على الإبدال وعلله بقوله لأن من حق الصلة أن تكون معلومة عند المخاطب وتلك الصلة لم تكن معلومة عند المعاندين فأبدل ﴿ الذى لَهُ ﴾ الخ بياناً وتفسيراً وهو بعيد من مثله وسبحان من لا يعاب عليه شيء ﴿ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً ﴾ أي لم ينزل أحداً منزلة الولد ، وقيل أي لم يكن له ولد كما يزعم الذين يقولون في حق المسيح وعزير.

(48/557)

والملائكة عليهم السلام ما يقولون فسبحان الله عما يصفون ، والجملة معطوفة على ما قبلها من الجملة الظرفية وكذا قوله تعالى : ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ ﴾ أي ملك السموات والأرض ، وأفرد بالذكر مع أن ما ذكر من اختصاص ملكهما به تعالى مستلزم له قطعاً للتصريح ببطلان زعم الثنوية القائلين بتعدد الآلهة والرد في نحورهم وتوسيط نفي اتخاذ الولد بينهما للتنبيه على استقلاله وأصالته والاحتراز عن توهم كونه تتمة للأول ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ أي أحدثه إحداثاً جارياً على سنن التقدير والتسوية حسبما اقتضته إرادته المبنية على الحكم البالغة كخلقة الإنسان من مواد مخصوصة وصور وأشكال معينة ﴿ فَقَدَّرَهُ ﴾ أي هيأه لما أرد به من الخصائص والأفعال اللائقة به ﴿ تَقْدِيراً ﴾ بديعاً لا يقادر قدره ولا يبلغ كنهه كتهيئة الإنسان للفهم والإدراك والنظر والتدبر في أمور المعاد والمعاش واستنباط الصنائع المتنوعة ومزاولة الأعمال المختلفة إلى غير ذلك فلا تكرار في الآية لما ظهر من أن التقدير الدال عليه الخلق بمعنى التسوية والمعبر عنه بلفظه بمعنى التهيئة وهما غيران والخلق على هذا على حقيقته ، ويجوز أن يكون الخلق مجازاً بل منقولاً عرفياً في معنى الأحداث والإيجاد غير ملاحظ فيه التقدير وإن لم يخل عنه ولهذا صح التجوز ويكون التصريح بالتقدير دلالة على أن كل واحد مقصود بالذات فكأنه قيل وأوجد كل شيء فقدره في إيجاده لم يوجد متفاوتاً بل أوجده متناصفاً متناسباً ، وقيل التقدير الثاني هو التقدير للبقاء إلى الأجل المسمى فكأنه قيل وأوجد كل شيء على سنن التقدير فأدامه

إلى الأجل المسمى والقول الأول مختار الزجاج وهو كما في "الكشف" أظهر والفاء عليه للتعقيب مع الترتيب .

(49/557)

وزعم بعضهم أن في الكلام قلباً وهو على ما فيه لا يدفع لزوم التكرار بدون أحد الأوجه المذكورة كما لا يخفى ، وجملة ﴿ خُلِقَ ﴾ الخ عطف على ما تقدم وفيها رد على الثنوية القائلين بأن خالق الشر غير خالق الخير ولا يضر كونه معلوماً مما تقدم لأنها تفيد فائد جديدة لما فيها من الزيادة ، وقيل : هي رد على من يعتقد اعتقاد المعتزلة في أفعال الحيوانات الاختيارية .

وفي "إرشاد العقل السليم" أنها جارية مجرى العليل لما قبلها من الجمل المنتظمة في سلك الصلة فإن خلقه تعالى لجميع الأشياء على النمط البديع كما يقتضي استقلاله تعالى باتصافه بصفات الألوهية يقتضي انتظام كل ما سواه كائناً ما كان تحت ملكوته القاهر بحيث لا يشذ من ذلك ومن كان كذلك كيف يتوهم كونه ولداً له سبحانه أو شريكاً في ملكه عز وجل ، وذكر الطيبي أن قوله تعالى : ﴿ لَهُ مَلَكُوتَ السموات والأرض ﴾ توطئة وتمهيد لقوله سبحانه : ﴿ لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَم يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِى الملك ﴾ وأردف بقوله

تعالى : ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ لما أن كونه سبحانه بديع السموات والأرض وفاطرهما ومالكهما مناف لاتخاذ الولد والشريك قال تعالى : ﴿ بَدِيعُ السموات والأرض أنى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ ﴾ [الأنعام : 101] الآية ، وقد يقال : إن هذه الجملة تصريح بما علم قبل ليكون التشنيع على المشركين

﴿ واتخذوا مِن دُونِهِ ءالِهَةً لاَّ يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾

(50/557)

أظهر ، وضمير ﴿ اتخذوا ﴾ للمشركين المفهوم من قوله تعالى : ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِى الملك ﴾ [الفرقان : 2] أو من المقام ، وقوله سبحانه : ﴿ نَذِيراً ﴾ [الفرقان : 1] ، وقال الكرماني : للكفار وهم مندرجون في قوله تعالى : ﴿ للعالمين ﴾ والمراد حكاية أباطيلهم في أمر التوحيد والنبوة وإظهار بطلانها بعد أن بين سبحانه حقيقة الحق في مطلع السورة الكريمة أي اتذوا لأنفسهم متجاوزين الله تعالى الذي ذكر بعض شؤونه العظيمة آلهة لا يقدرون على خلق شيء من الأشياء وهم مخلوقون لله تعالى أو هم يختلقهم عبدتهم بالنحت والتصوير ، ورجح المعنى الأول بأن الكلام عليه أشمل ولا يختص بالأصنام بخلافه على الثاني ويكون التعبير بالمضارع عليه في ﴿ يُخْلَقُونَ ﴾ المبني للمفعول لمشاركة ﴿

يُخْلَقُونَ ﴾ المبني للفاعل مع استحضار الحال الماضية ، ورجح المعنى الثاني بأنه أنسب بالمقام لأن الذين أنذرهم نبينا صلى الله عليه وسلم شفاها عبدة الأصنام وأن الأحكام الآتية أوفق بها ، نعم فيه تفسير الخلق بالافتعال كما في قوله تعالى : ﴿ وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً ﴾ [العنكبوت : 17] لأنه الذي يصح نسبته لغيره عز وجل وكذا الخلق بمعنى التقدير كما في قوله زهير

: ولأنت تفري ما خلقت وبع . . .

ض القوم يخلق ثم لا يفري

(51/557)

والمتبادر منه إيجاد الشيء مقدراً بمقدار كما هو المراد من سابقه ، وتفيره بذلك أيضاً كما فعل الزمخشري بعيد كذا قيل : وتعقب بأنه يجوز أن يراد منه هذا المتبادر والأصنام بذواتها وصورها وأشكالها مخلوقة لله تعالى عند أهل الحق لأن أفعال العباد وما يترتب عليها وينشأ منها من الآثار مخلوقة له عز وجل عندهم كما حقق بل لو قيل بتعين هذه الإرادة على ذلك الوجه لم يبعد ، وقوله تعالى : ﴿ وَلاَ يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرّاً وَلاَ نَفْعاً ﴾ لبيان حالهم بعد خلقهم ووجودهم ، والمراد لا يقدرون على التصرف في ضر ما ليدفعوه

عن أنفسهم ولا في نفع ما حتى يجلبوه إليهم ، ولما كان دفع الضر أهم أفيد أو لأعجزهم عنه ، وقيل : ﴿ لِانفُسِهِمْ ﴾ ليدل على غاية عجزهم لأن من لا يقدر على ذلك في حق نفسه فلأن لا يقدر عليه في حق غيره من باب أولى .

ومن خص الأحكام في الأصنام قال : إن هذا لبيان ما لم يدل عليه ما قبله من مراتب عجزهم وضعفهم فإن بعض المخلوقين العاجزين عن الخلق ربما يملك دفع الضر وجلب النفع في الجملة كالحيوان ، وقد يقال : التصرف في الضر والنفع بالدفع والجلب على الإطلاق ليس على الحقيقة إلا لله عز وجل كما ينبىء عنه قوله سبحانه لنبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿ قُل لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلاَ ضَرّا إِلاَّ مَا شَاء الله ﴾ [الأعراف : 188] وقوله تعالى : ﴿ وَلاَ يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلاَ حياة وَلاَ نُشُوراً ﴾ أي لا يقدرون على التصرف في شيء منها بإماتة الأحياء وإحياء الموتى في الدنيا وبعثهم في الأخرى للتصريح بعجزهم عن كل واحد مما ذكر على التفصيل والتنبيه على أن الإله يجب أن يكون قادراً على جميع ذلك ، وتقديم الموت لمناسبة الضر المقدم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 18 صـ ﴾

(52/557)

وقال القاسمي :

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً ﴾

يحمد تعالى نفسه الكريمة ويثني عليها ، لما أنزله من الفرقان ، كما قال : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجَا قَيِّماً لِيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ ﴾ [الكهف : 1 - 2] .

قال الزمخشري : البركة : كثرة الخير وزيادته . ومنها : ﴿ تَبَارَكَ اللَّهُ ﴾ . وفيه معنيان : تَزَايَدَ خيره وتكاثر أو تزايد عن كل شيء وتعالى عنه ، في صفاته وأفعاله . و : ﴿ الْفُرْقَانَ ﴾ مصدر فرق بين الشيئين ، إذا فصل بينهما . وسمي به القرآن لفصله بين الحق والباطل . أو لأنه لم ينزل جملة واحدة ، ولكن مفروقاً مفصلاً بعضه عن بعض في الإنزال .

ألا ترى إلى قوله : ﴿ وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً ﴾ [الإسراء : 106] ، انتهى .

قال الناصر : والأظهر هاهنا هو المعنى الثاني . لأنه في أثناء السورة بعد آيات : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ﴾ [32] ، قال الله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ ﴾ أي : أنزلناه مفرقاً كذلك : ﴿ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ فيكون وصفه بالفرقان في أول السورة - والله أعلم - . كالمقدمة والتوطئة لما يأتي بعد . انتهى .

قال أبو السعود : وإيراده صلى الله عليه وسلم بذلك العنوان ، لتشريفه والإيذان بكونه في

أقصى مراتب العبودية ، والتنبيه على أن الرسول لا يكون إلا عبداً للمرسل ؛ ردّاً على النصارى ، والكناية في ليكون للعبد أو للفرقان . والنذير صفة بمعنى منذر ، أو مصدر بمعنى الإنذار ، كالنكر مبالغة .

(53/557)

﴿ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً ﴾ أي : أحدثه إحداثاً مراعي فيه التقدير والتسوية لما أريد منه . كخلق الإنسان للإدراك والفهم والنظر والتدبير واستنباط الصنائع المتنوعة ومزاولة الأعمال المفيدة . وكذلك كل حيوان وجماد خلق على الصورة المقدرة . بأمثلة الحكمة والتدبير لأمر ما ، ومصلحته مطابقاً لما قدر له ، غير متجاف عنه .

ولما تضمن هذا إثبات التوحيد والنبوة ، تأثره بالبرهنة عليهما ، وتضليل المخالفين فيهما ، بقوله سبحانه .

﴿ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرّاً وَلَا نَفْعاً وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُوراً ﴾ أي : لا يملكون دفع ضر ولا جلب نفع ولا إماتة أحد وإحياءه أوّلاً وبعثه ثانياً . ومن كان كذلك فبمعزل عن الألوهية ، لعرائه عن لوازمها

واتصافه بما ينافيها . وفيه تنبيه على أن الإله يجب أن يكون قادراً على البعث والجزاء .

أفاده القاضي .

قال الشهاب : قدم الموت لمناسبته للضر المتقدم وفسر الموت والحياة بالإماتة والإحياء والإنشار ، إما بياناً لحاصل المعنى ، لأن ملك الموت له القدرة على الإماتة ، أو إشارة إلى أنه بمعنى الأفعال . كما في قوله : ﴿ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتاً ﴾ [نوح : 17] . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ محاسن التأويل حـ 12 صـ 432.433 ﴾

(54/557)

وقال ابن عاشور :

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا (1) ﴾

افتتاح بديع لندرة أمثاله في كلام بلغاء العرب لأن غالب فواتحهم أن تكون بالأسماء مجردة أو مقترنة بحرف غير منفصل ، مثل قول طرفة:

لخولة أطلال ببُرقةِ ثهمد . . .

أو بأفعال المضارعة ونحوها كقول امرىء القيس:

قِفَا نَبْكِ البيت . . .

أو بحروف التأكيد أو الاستفهام أو التنبيه مثل (إن) و (قد) والهمزة و (هل) .

ومن قبيل هذا الافتتاح قول الحارث بن حلَّزة:

آذَنَّتْنا بِبَيْنِهَا أسماءُ . . .

وقول النَّابغَة:

كتمتُكَ ليلا بالجمومين ساهراً . . .

وهَمَّيْن هَمّاً مستكنّاً وظاهرا

وبهذه الندرة يكون في طالع هذه السورة براعة المطلع لأن الندرة من العزة ، والعزّةُ من محاسن الألفاظ وضدها الابتذال .

وتبارك : تعاظم خيره وتوفر ، والمراد بخيره كمالاته وتنزهاته .

وتقدم في قوله تعالى : ﴿ تبارك الله رب العالمين ﴾ في سورة الأعراف (54) .

والبركة : الخير ، وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ اهبط بسلام مِنَّا وبركاتٍ عليك ﴾ في سورة هود (48) وعند قوله : ﴿ تحية من عند الله مباركة طيبة ﴾ في سورة النور (61) .

وظاهر قوله : ﴿ تبارك الذي نزل الفرقان ﴾ أنه إخبار عن عظمة الله وتوفر كمالاته فيكون المقصود به التعليم والإيقاظ ، ويجوز مع ذلك أن يكون كناية عن إنشاء ثناء على الله تعالى أنشأ الله به ثناء على نفسه كقوله : ﴿ سبحان الذي أسرى بعبده ﴾ [الإسراء : 1] على طريقة الكلام العربي في إنشاء التعجب من صفات المتكلم في مقام الفخر والعظمة

، أو إظهار غرايب صدرت ، كقول امرىء القيس:

ويوم عقرتُ للعذارى مطيتي . . .

فيا عجباً من كوْرها المتحمَّلِ

وإنما يتعجب من إقدامه على أن جَعَل كور المطية يحمله هو بعد عَقرها .

ومنه قول الفِند الزِّمَّاني:

أيا طعنةَ ما شيخٍ . . .

كبيرٍ يفن بَالِي

يريد طعنة طعنها قِرْنَه . . .

.

(55/557)

والذي نزل الفرقان هو الله تعالى .

وإذ قد كانت الصلة من خصائص الله تعالى كان الفعل كالمسند إلى ضمير المتكلم فكأنه

قيل : تباركتُ .

والموصول يومىء إلى علة ما قَبله فهو كناية عن تعظيم شأن الفرقان وبركته على الناس من

قوله : ﴿ ليكون للعالمين نذيراً ﴾ .

فتلك منة عظيمة توجب الثناء على الله .

وهو أيضاً كناية عن تعظيم شأن الرسول عليه الصلاة السلام .

والتعريف بالموصول هنا لكون الصلة من صفات الله في نفس الأمر وعند المؤمنين وإن كان الكفار ينكرونها لكنهم يعرفون أن الرسول أعلنَها فالله معروف بذلك عندهم معرفة بالوجه لا بالكُنه الذي ينكرونه .

والفرقان : القرآن وهو في الأصل مصدر فرق ، كما في قوله : ﴿ وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان ﴾ [الأنفال : 41] وقوله : ﴿ يَجعَلْ لكم فُرقاناً ﴾ [الأنفال : 29] .

وجعل علماً بالغلبة على القرآن لأنه فرّق بين الحق والباطل لما بيَّن من دلائل الحق ودحض الباطل .

وقد تقدم في قوله تعالى : ﴿ وأنزل الفرقان ﴾ في سورة آل عمران (4) .

وإيثار اسم الفرقان بالذكر هنا للإيماء إلى أن ما سيذكر من الدلائل على الوحدانيَّة وإنزال القرآن دلائل قيمة تفرّق بين الحق والباطل .

ووصفُ النبي بـ ﴿ عبده ﴾ تقريب له وتمهيد لإبطال طلبهم منه في قوله:

﴿ وقالوا مالِ هذا الرسول يأكل الطعام ﴾ [الفرقان : 7] الآية .

والمراد بـ ﴿ للعالمين ﴾ جميع الأمم من البشر لأن العالم يطلق على الجنس وعلى النوع

وعلى الصنف بحسب ما يسمح به المقام ، والنذارة لا تكون إلا للعقلاء ممن قُصدوا بالتكليف .

وقد مضى الكلام على لفظ ﴿ العالمين ﴾ في سورة الفاتحة (2) .

والنذير : المخبِر بسوء يقع ، وهو فَعيل بمعنى مُفْعِل بصيغة اسم الفاعل مثل الحَكيم .

(56/557)

والاقتصار في وصف الرسول هنا على النذير دون البشير كما في قوله : ﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ﴾ [سبأ : 28] لأن المقام هنا لتهديد المشركين إذ كذبوا بالقرآن وبالرسول عليه الصلاة والسلام .

فكان مقتضياً لذكر النذارة دون البشارة ، وفي ذلك اكتفاء لأن البشارة تخطر ببال السامع عند ذكر النذارة .

وسيجيء : ﴿ وما أرسلناك إلاّ مبشراً ونذيراً ﴾ في هذه السورة (56) .

وفي هذه الآية جمع بين التنويه بشأن القرآن وأنه منزل من الله وتنويه بشأن النبي عليه الصلاة والسلام ورفعة منزلته عند الله وعموم رسالته .

الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ

شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا (2)

أجريت على اسم الله تعالى هذه الصفات الأربعُ بطريق تعريف الموصوليّة لأن بعض الصلات معروف عند المخاطبين اتصافُ الله به وهما الصفتان الأولى والرابعة ؛ وإذ قد كانتا معلومتين كانت الصلتان الأخريان المذكورتان معهما في حكم المعروف لأنهما أجريتا على مَن عُرِف بالصلتين الأولى والرابعة فإن المشركين ما كانوا يمترون في أن الله هو مالك السماوات والأرض ولا في أن الله هُوَ خالق كل شيء كما في قوله : ﴿ قل مَن رب السماوات السبع ورب العرش العظيم سيقولون لله ﴾ الآياتِ من سورة المؤمنين (86 ، 87) ، ولكنهم يثبتون لله ولَداً وشريكاً في الملك .

ومن بديع النظم أن جعل الوصفان المختلف فيهما مَعهم متوسطين بين الوصفين اللذين لا مرية فيهما حتى يكون الوصفان المسلَّمَين كالدليل أوّلاً والنتيجة آخراً ، فإن الذي له ملك السماوات والأرض لا يليق به أن يتخذ ولَداً ولا أن يتخذ شريكاً لأن ملكه العظيم يقتضي غِنَاهُ المطلقَ فيقتضي أن يكون اتخاذه ولداً وشريكاً عبثاً إذ لا غاية له ، وإذا كانت أفعال العقلاء تصان عن العبث فكيف بأفعال أحكم الحكماء تعالى وتقدس .

فقوله : الذي له ملك السموات والأرض ﴾ بدل مِن ﴿ الذي نزّل الفرقان ﴾ [الفرقان : 1] .

وإعادة اسم الموصول لاختلاف الغرض من الصلتين لأن الصلة الأولى في غرض الامتنان بتنزيل القرآن للهدى ، والصلة الثانية في غرض اتصاف الله تعالى بالوحدانيَّة .

وفي الملك إيماء إلى أن الاشتراك في الملك ينافي حقيقة الملك التامة التي لا يليق به غيرها .

والخلق : الإيجاد ، أي أوجد كل موْجود من عظيم الأشياء وحقيرها .

وفُرع على ﴿ خلق كل شيء فقدره تقديراً ﴾ لأنه دليل على إتقان الخلق إتقاناً يدل على أن الخالق متصف بصفات الكمال .

ومعنى ﴿ قدّره ﴾ جعله على مقدار وحدَ معيّن لا مجرد مصادفة ، أي خلقه مقدراً ، أي محكماً مضبوطاً صالحاً لما خلق لأجله لا تفاوت فيه ولا خلل .

وهذا يقتضي أنه خلقه بإرادة وعلم على كيفية أرادها وعيّنها كقوله : ﴿ إنا كلَّ شيء خلقناه بقَدَر ﴾ [القمر : 49] .

وقد تقدم في قوله تعالى : ﴿ أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقَدَرِها ﴾ في سورة الرعد (17) .

وتأكيد الفعل بالمفعول المطلق بقوله : تقديراً ﴾ للدلالة على أنه تقدير كامل في نوع التقادير .

وما جاء من أول السورة إلى هنا براعة استهلال بأغراضها وهو يتنزل منزلة خطبة الكتاب

أو الرسالة .

وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا (3)

استطراد لانتهاز الفرصة لوصف ضلال أهل الشرك وسفالة تفكيرهم ، فهو عطف على جملة : ﴿ الذي له ملك السماوات والأرض ﴾ [الفرقان : 2] وما تلاها مما هو استدلال على انفراده تعالى بالإلهية ، وأردفت بقوله : ﴿ وخلق كل شيء ﴾ [الفرقان : 2] الشامل لكون ما اتخذوه من الآلهة مخلوقات فكان ما تقدم مهيئاً للتعجيب من اتخاذ المشركين آلهة دون ذلك الإله المنعوت بصفات الكمال والجلال .

(58/557)

فالخبر غير مقصود به الإفادة بل هو للتعجيب من حالهم كيف قابلوا نعمة إنزال الفرقان بالجحد والطغيان وكيف أشركوا بالذي تلك صفاته آلهةً أخرى صفاتهم على الضد من صفات من أشركوهم به ، وإلا فإن اتخاذ المشركين آلهة أمر معلوم لهم وللمؤمنين فلا يقصد إفادتهم لحكم الخبر .

وبين قوله : ﴿ ولم يتخذ ولداً ﴾ [الفرقان : 2] وقوله : ﴿ واتخذوا من دونه آلهة ﴾

محسن الطباق .

وضمير : ﴿ اتخذوا ﴾ عائد إلى المشركين ولم يسبق لهم ذكر في الكلام وإنما هم معروفون في مثل هذا المقام وخاصة من قوله : ﴿ ولم يكن له شريك في الملك ﴾ [الفرقان : 2] .

وجملة : ﴿ لا يخلقون شيئاً ﴾ مقابلة جملة ﴿ الذي له ملك السماوات والأرض ﴾ [الفرقان : 2] .

وجملة : ﴿ وهم يخلقون ﴾ مقابلة جملة : ﴿ ولم يتخذ ولداً ﴾ [الفرقان : 2] لأن ولد الخالق يجب أن يكون متولداً منه فلا يكون مخلوقاً .

وجملة : ﴿ ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ﴾ مقابلة جملة : ﴿ ولم يكن له شريك في الملك ﴾ [الفرقان : 2] لأن الشركة في الملك تقتضي الشركة في التصرف .

وضمير : ﴿ لأنفسهم ﴾ يجوز أن يعود إلى ﴿ آلهة ﴾ أي لا تقدر الأصنام ونحوها على ضر أنفسهم ولا على نفعهم .

ويجوز أن يعود إلى ما عاد إليه ضمير ﴿ واتخذوا ﴾ أي لا تقدر الأصنام على نفع الذين عبدوهم ولا على ضرهم .

واعلم أن ﴿ ضراً ولا نفعاً ﴾ هنا جرى مجرى المثل لقصد الإحاطة بالأحوال ، فكأنه قيل : لا يملكون التصرف بحال من الأحوال .

وهذا نظير أن يقال : شرقاً وغرباً ، وليلاً ونهاراً .

وبذلك يندفع ما يشكل في بادىء الرأي من وجه نفي قدرتهم على إضرار أنفسهم بأنه لا تتعلق إرادة أحد بضر نفسه ، وبذلك أيضاً لا يتطلب وجه لتقديم الضر على النفع ، لأن المقام يقتضي التسوية في تقديم أحد الأمرين ، فالمتكلم مخير في ذلك والمخالفة بين الآيات في تقديم أحد الأمرين مجرد تفنّن .

والمجرور في ﴿ لأنفسهم ﴾ متعلق بـ ﴿ يملكون ﴾ .

(59/557)

والضَّر بفتح الضاد مصدر ضرَّه ، إذا أصابه بمكروه .

وقد تقدم نظيره في قوله تعالى : ﴿ قل لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعاً إلا ما شاء الله ﴾ في سورة يونس (49) .

وجملة : ﴿ ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشوراً ﴾ مقابلة جملة ﴿ وخلق كل شيء فقدره تقديراً ﴾ [الفرقان : 2] لأن أعظم مظاهر تقدير الخلق هو مظهر الحياة والموت ، وذلك من المشاهدات .

وأما قوله : ﴿ ولا نشوراً ﴾ فهو تكميل لقرع المشركين نفاة البعث لأن نفي أن يكون الآلهة يملكون نشوراً يقتضي إثبات حقيقة النشور في نفس الأمر إذ الأكثر في كلام العرب أن نفي

الشيء يقتضي تحقق ماهيته .

وأما نحو قول امرىء القيس:

على لاحب لا يهتدي بمناره . . .

يريد لا منار فيه .

وقول ابن أحمر:

لا تُفزع الأرنبَ أهوالُها . . .

ولا ترى الضبّ بها ينجحر

أراد : أنها لا أرنب فيها ولا ضب .

فهو من قبيل التلميح .

ذُكر في هذه الآية من أقوالهم المقابلة للجمل الموصوف بها الله تعالى اهتماماً بإبطال كفرهم المتعلق بصفات الله لأن ذلك أصل الكفر ومادته .

واعلم أن معنى : ﴿ وهم يخلقون ﴾ وهم يُصنعون ، أي يصنعهم الصانعون لأن أصنامهم كلها حجارة منحوتة فقد قومتها الصنعة ، فأطلق الخلق على التشكيل والنحت من فعل الناس ، وإن كان الخلق شاع في الإيجاد بعد العدم ؛ إما اعتباراً بأصل مادة الخلق وهو تقدير مقدار الجلد قبل فريه كما قال زهير:

ولأنت تفري ما خلقت وبع . . .

ضُ الناس يخلق ثم لا يفري

فأطلق الخلق على النحت ؛ إما على سبيل المجاز المرسل ، وإما مشاكلة لقوله : ﴿ لا يخلقون شيئاً ﴾ .

والمِلك في قوله : ﴿ لا يملكون ﴾ مستعمل في معنى القدرة والاستطاعة كما تقدم في قوله تعالى : ﴿ قل فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم ﴾ في سورة العقود (17) ، وقوله فيها : ﴿ قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضراً ولا نفعاً ﴾ [المائدة : 76] ، أي من لا يقدر على ضركم ولا نفعكم .

(60/557)

فقوله هنا : ﴿ لأنفسهم ﴾ متعلق بـ ﴿ يملكون ﴾ ، واللام فيه لام التعليل ، أي لا يملكون لأجل أنفسهم ، أي لفائدتها .

ثم إن المراد بـ ﴿ أنفسهم ﴾ يجوز أن يكون الجمع فيه باعتبار التوزيع على الآحاد المفادة بضمير ﴿ يملكون ﴾ ، أي لا يملك كل واحد لنفسه ضراً ولا نفعاً ، ويكون المراد بالضر دفعه على تقدير مضاف دل عليه المقام لأن الشخص لا يتعلق غرضه بضر نفسه حتى يقرَع بأنه عاجز عن ضر نفسه .

وتنكير ﴿ موتاً وحياة ﴾ في سياق النفي للعموم ، أي موت أحد من الناس ولا حياته .

والنشور : الإحياء بعد الموت .

وأصله نشر الشيء المطوي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 19 صـ ﴾

(61/557)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا (1) ﴾

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أنه نزل الفرقان ، وهو هذا القرآن العظيم على عبده ، وهو محمد صلى الله عليه وسلم ، لأجل أن يكون للعالمين نذيراً ، أي منذراً ، وقد قدمنا مراراً أن الإنذار هو الإعلام المقترن بتهديد وتخويف وأن كل إنذار إعلام ، وليس كل إعلام إنذاراً كما أوضحناه في أول سورة الأعراف .

وهذه الآية الكريمة تدل على عموم رسالته صلى الله عليه وسلم للأسود والأحمر والجن والإنس لدخول الجميع في قوله تعالى : ﴿ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً ﴾ .

(62/557)

وهذا المعنى الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة جاء موضحاً في آيات أخر كقوله تعالى : ﴿ قُلْ يا أيها الناس إِنّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً ﴾ [الأعراف : 158] وقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَآفَّةً ﴾ [سبأ : 28] الآية أي أرسلناك للناس كافة أي جميعاً وقوله تعالى : ﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللهُ شَهِيدٌ بِيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هذا القرآن لأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَن بَلَغَ ﴾ [الأنعام : 19] وقوله تعالى : ﴿ يا معشر الجن والإنس إِنِ استطعتم أَن تَنفُذُواْ مِنْ أَقْطَارِ السماوات والأرض فانفذوا لاَ تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن : 3334] وقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَراً مِّنَ الجن يَسْتَمِعُونَ القرآن فَلَمَّا حَضَرُوهُ قالوا أَنصِتُواْ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْاْ إلى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ قَالُواْ ياقومنا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنزِلَ مِن بَعْدِ موسى مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يهدي إِلَى الحق وإلى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ياقومنا أَجِيبُواْ دَاعِيَ الله وَآمِنُواْ بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ وَمَن لاَّ يُجِبْ دَاعِيَ الله فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الأرض وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَآءُ أولئك فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأحقاف : 2932] الآية : وفي قوله تعالى تبارك أقوال لأهل العلم . قال القرطبي : تبارك اختلف في معناه . فقال الفراء هو في العربية بمعنى : تقدس وهما للعظمة ، وقال الزجاج ، تبارك : تفاعل من البركة . قال : ومعنى البركة : الكثرة من كل ذي خير وقيل : تبارك : تعالى ، وقيل : تعالى عطاؤه : أي زاد وكثر . وقيل المعنى : دام وثبت إنعامه

قال النحاس : وهذا أولاها في اللغة والاشتقاق من برك الشيء إذا ثبت ومنه برك الجمل والطير

(63/557)

على الماء : أي دام ثبتز انتهى محل الغرض من كلام القرطبي .

وقال أبو حيان في البحر المحيط : قال ابن عباس : تبارك لم يزل ، ولا يزول : وقال الخليل : تمجد وقال الضحاك : تعظم ، وحكى الأصمعي : تباركت عليكم من قول عربي صعد رابية فقال ذلك لأصحابه : أي تعاليت وارتفعت . ففي هذه الأقوال تكون صفة ذات ، وقال ابن عباس أيضاً ، والحسن والنخعي : هو من البركة ، وهو التزايد في الخير من قبله . فالمعنى زاد خيره وعطاؤه وكثر ، وعلى هذا يكون صفة فعل . انتهى محل الغرض من كلام أبي حيان .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : الأظهر في معنى تبارك بحسب اللغة التي نزل بها القرآن أنه تفاعل من البركة ، كما جزم به ابن جرير الطبري ، وعليه فمعنى تبارك تكاثرت البركات والخيرات من قبله ، وذلك يستلزم عظمته وتقدسه عن كل ما لا يليق بكماله وجلاله ، لأن من تأتي من قبله البركات والخيرات ويدر الأرزاق على الناس هو وحده المتفرد بالعظمة ،

واستحقاق إخلاص العبادة له ، والذي لا تأتي من قبله بركة ولا خير ، ولا رزق كالأصنام ، وسائر المعبودات من دون الله لا يصح أن يعبد وعبادته كفر مخلد في نار جهنم ، وقد أشار تعالى إلى هذا في قوله :

(64/557)

﴿ إِنَّ الذين تَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله لاَ يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً فابتغوا عِندَ الله الرزق واعبدوه واشكروا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [العنكبوت : 17] وقوله تعالى : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله مَا لاَ يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقاً مِّنَ السماوات والأرض شَيْئاً وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ ﴾ [النحل : 73] وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلاَ يُطْعَمُ ﴾ [الأنعام : 14] وقوله تعالى : ﴿ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ إِنَّ الله هُوَ الرزاق ذُو القوة المتين ﴾ [الذرايات : 5758] وقوله تعالى : ﴿ هُوَ الذي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السمآء رِزْقاً وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلاَّ مَن يُنِيبُ فادعوا الله مُخْلِصِينَ لَهُ الدين وَلَوْ كَرِهَ الكافرون ﴾ [غافر : 1314] الآية .

تنبيه

اعلم أن قوله تبارك فعل جامد لا يتصرف ، فلا يأتي منه مضارع ، ولا مصدر ولا اسم فاعل ولا غير ذلك ، وهو مما يختص به الله تعالى ، فلا يقال لغيره تبارك خلافاً لما تقدم عن

الأصمعي ، وإسناده تبارك إلى قوله : ﴿ الذي نَزَّلَ الفرقان ﴾ يدل على أن إنزاله الفرقان على عبده من أعظم البركات والخيرات والنعم التي أنعم بها على خلقه ، كما أوضحناه في أول سورة الكهف في الكلام على قوله تعالى : ﴿ الحمد لِلَّهِ الذي أَنْزَلَ على عَبْدِهِ الكتاب ﴾ [الكهف : 1] الاية . وذكرنا الآيات الدالة على ذلك ، وإطلاق العرب تبارك مسنداً إلى الله تعالى معروف في كلامهم ومنه قول الطرماح :

تباركت لا معط لشيء منعته وليس لما أعطيت يا رب مانع

وقول الآخر :

فليس عشيات الحمى برواجع لنا أبداً ما أورق السلم النضر

ولا عائد ذاك الزمان الذي مضى تباركت ما تقدر يقع ولك الشكر

(65/557)

وقد قدمنا الشاهد الأخير في سورة الأنبياء في الكلام على قوله تعالى : ﴿ فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ ﴾ [الأنبياء : 87] وقوله : الفرقان يعني هذا القرآن العظيم ، وهو مصدر زيدت فيه الألف والنون كالكفران والطغيان والرجحان ، وهذا المصدر أريد به اسم الفاعل ، لأن معنى كونه فرقاناً أنه فارق بين الحق والباطل ، وبين الرشد والغي ، وقال بعض

أهل العلم : المصدر الذي هو الفرقان بمعنى اسم المفعول ، لأنه نزل مفرقاً ، ولم ينزل جملة .

واستدل أهل هذا القول بقوله تعالى : ﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ ﴾ [الإسراء : 106] الآية ، وقوله : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴾ [الفرقان : 32] وقوله في هذه الآية الكريمة : نزل بالتضعيف يدل على كثرة نزوله أنجماً منجماً .

قال بعض أهل العلم : ويدل على ذلك قوله في أول سورة آل عمران : ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴾ [آل عمران : 3] الآية . قالوا عبر في نزول القرآن بنزل بالتضعيف لكثرة نزوله وأما التوراة والإنجيل ، فقد عبر في نزولهما بأنزل التي لا تدل على تكثير ، لأنهما نزلا جملة في وقت واحد ، وبعض الآيات لم يعتبر فيه كثرة نزول القرآن كقوله تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ﴾ [الكهف : 1] الآية وقوله في هذه الآية على عبده . قال فيه بعض العلماء . ذكره صفة العبودية مع تنزيل الفرقان ، يدل على أن العبودية لله هي أشرف الصفات ، وقد بينا ذلك في أول سورة بني إسرائيل .

قوله : ﴿ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

بدل من الذي في قوله تعالى : تبارك الذي نزل ، وقال بعضهم : هو مرفوع على المدح ، وقال بعضهم : هو منصوب على المدح. وقد أثنى جل وعلا على نفسه في هذه الآية الكريمة بخمسة أمور ، هي أدلة قاطعة على عظمته ، واستحقاقه وحده لإخلاص العبادة له :

الأول منها : أنه هو الذي له ملك السموات والأرض

والثاني : أنه لم يتخذ ولداً ، سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً .

والثالث : أنه لا شريك له في ملكه .

والرابع : أنه هو خالق كل شيء .

والخامس : أنه قدر كل شيء خلقه تقديراً ، وهذه الأمور الخمسة المذكورة في هذه الآية الكريمة جاءت موضحة في آيات أخر .

أما الأول منها : وهو أنه له ملك السموات والأرض ، فقد جاء موضحاً في آيات كثيرة تعالى في سورة المائدة : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السماوات والأرض ﴾ [المائدة : 40] الآية . وقوله تعالى في سورة النور : ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السماوات والأرض وإلى الله المصير ﴾ [النور : 42] وقوله تعالى : ﴿ ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَهُ الملك والذين تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴾ [فاطر : 13] الآية . وجميع الآيات التي ذكر فيها جل وعلا أن له الملك ، فالملك فيها شامل لملك السموات والأرض ، وما بينهما وغير ذلك . كقوله تعالى : ﴿ قُلِ

اللهم مَالِكَ الملك ﴾ [آل عمران : 26] الآية ، وقوله تعالى : ﴿ تَبَارَكَ الذي بِيَدِهِ الملك ﴾ [الملك : 1] الآية : وقوله تعالى : ﴿ لِّمَنِ الملك اليوم لِلَّهِ الواحد القهار ﴾ [غافر : 16] وقوله تعالى : ﴿ وَلَهُ الملك يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصور ﴾ [الأنعام : 73] الآية . وقوله تعالى : ﴿ مالك يَوْمِ الدين ﴾ [الفاتحة : 4] والآيات الدالة على أن له ملك كل شيء كثيرة جداً معلومة .

(67/557)

وأما الأمر الثاني : وهو كونه تعالى لم يتخذ ولداً ، فقد جاء موضحاً في آيات كثيرة كقوله تعالى : ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ كُفُوا أَحَدٌ ﴾ [الأخلاص : 34] وقوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ تعالى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتخذ صَاحِبَةً وَلاَ وَلَداً ﴾ [الجن : 3] وقوله تعالى : ﴿ بَدِيعُ السماوات والأرض أنى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَّهُ صَاحِبَةٌ ﴾ [الأنعام : 101] الآية . وقوله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ اتخذ الرحمن وَلَداً لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً تَكَادُ السماوات يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأرض وَتَخِرُّ الجبال هَدّاً أَن دَعَوْا للرحمن وَلَداً وَمَا يَنبَغِي للرحمن أَن يَتَّخِذَ وَلَداً إِن كُلُّ مَن فِي السماوات والأرض إِلاَّ آتِي الرحمن عَبْداً ﴾ [مريم : 8893] وقوله تعالى : ﴿ وَيُنْذِرَ الذين قَالُواْ اتخذ الله وَلَداً مَّا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلاَ لآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ

أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِباً ﴾ [الكهف : 45] وقوله تعالى : ﴿ أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بالبنين واتخذ مِنَ الملائكة إِنَاثاً إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيماً ﴾ [الإسراء : 40] وقوله تعالى : ﴿ مَا اتخذ الله مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ ﴾ [المؤمنون : 91] إلى قوله : ﴿ سُبْحَانَ الله عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [المؤمنون : 91] والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة وقد قدمنا ذلك في مواضع من هذا الكتاب المبارك في سورة الكهف وغيرها .

وأما الأمر الثالث ، وهو كونه تعالى لم يكن له شريك في الملك ، فقد جاء موضحاً في غير هذا الموضع ، كقوله تعالى في آخر سورة بني إسرائيل

(68/557)

﴿ وَقُلِ الحمد لِلَّهِ الذي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَم يَكُنْ لَّهُ شَرِيكٌ فِي الملك وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذل وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً ﴾ [الإسراء : 111] الآية ، وقوله تعالى في سورة سبأ : ﴿ قُلِ ادعوا الذين زَعَمْتُمْ مِّن دُونِ الله لاَ يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السماوات وَلاَ فِي الأرض وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِّن ظَهِيرٍ ﴾ [سبأ : 22] وقوله تعالى : ﴿ لِّمَنِ الملك اليوم لِلَّهِ الواحد القهار ﴾ [غافر : 16] لأن قوله : الواحد القهار يدل على تفرده بالملك ، والقهر ، واستحقاقت أخلاص العبادة ، كما لا يخفى . إلى غير ذلك من الآيات .

وأما الأمر الرابع : وهو أنه تعالى خلق كل شي ، فقد جاء موضحاً في آيات كثيرة كقوله تعالى : ﴿ بَدِيعُ السماوات والأرض أنى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ذلكم الله رَبُّكُمْ لا إله إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فاعبدوه وَهُوَ على كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [الأنعام : 101102] وقوله تعالى : ﴿ ذَلِكُمُ الله رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لاَّ إله إِلاَّ هُوَ فأنى تُؤْفَكُونَ كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الذين كَانُواْ بِآيَاتِ الله يَجْحَدُونَ ﴾ [غافر : 6263] إلى غير ذلك من الآيات .

وأما الأمر الخامس : وهو أنه قدَّر كل شيء خلقه تقديراً ، فقد جاء أيضاً في غير هذا الموضع كقوله تعالى : ﴿ الذي خَلَقَ فسوى والذي قَدَّرَ فهدى ﴾ [الأعلى : 23] وقوله تعالى : ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾ [الرعد : 8] وقوله تعالى : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر : 49] إلى غير ذلك من الآيات وقال ابن عطية : تقدير الأشياء هو حدها بالأمكنة ، والأزمان ، والمقادير ، والمصلحة ، والإتقان . انتهى بواسطة نقل أبي حيان في البحر .

تنبيه

في هذه الآية الكريمة سؤال معروف ، وهو أن يقال : الخلق في اللغة العربية ، معناه التقدير ومنه قول زهير :

ولأنت تفرى ما خلقت وبعض . . . القوم يخلق ثم لا يفرى

قال بعضهم : ومنه قوله تعالى : ﴿ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الخالقين ﴾ [المؤمنون : 14] قال : أي أحسن المقدرين ، وعلى هذا فيكون معنى الآية وخلق كل شيء : أي قدر كل شيء فقدره تقديراً ، وهذا تكرار كما ترى ، وقد أجاب الزمخشري عن هذا السؤال ، وذكر أبو حيان جوابه في البحر ولم يتعقبه .

والجواب المذكور هو قوله : فإن قلت في الخلق معنى التقدير ، فما معنى قوله ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً ﴾ كأنه قال : وقدر كل شيء فقدره .

قلت : المعنى أنه أحدث كل شيء إحداثاً مراعي فيه التقدير والتسوية فقدره وهيأه لما يصلح له .

مثاله : أنه خلق الإنسان على هذا الشكل المقدر المسوى ، الذي تراه فقدره للتكاليف والمصالح المنوطة به في بابي الدين والدنيا ، وكذلك كل حيوان وجماد جاء به على الحيلة المستوية المقدرة بامثلة الحكمة والتدبير ، فقدره لأمر ما ومصلحة مطابقاً لما قدر له غير متجاف عنه ، أو سمى إحداث الله خلقاً ، لأنه لا يحدث شيئاً لحكمته إلا على وجه التقدير غير متفاوت ، فإذا قيل : خلق الله كذا ، فهو بمنزلة قولك : أحدث وأوجد من غير

نظر إلى وجه الاشتقاق ، فكأنه قيل : وأوجد كل شيء فقدره في إيجاده لم يوجده متفاوتاً ، وقيل : فجعل له غاية ومنتهى ، ومعناه : فقدره للبقاء إلى أمد معلوم . انتهى كلام صاحب الكشاف وبعضه له اتجاه . والعلم عند الله تعالى .

وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا (3)

(70/557)

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أن الآلهة التي يعبدها المشركون من دونه ، متصفة بستة أشياء كل واحد منها برهان قاطع ، أن عبادتها مع الله ، لا وجه لها بحال ، بل هي ظلم متناه ، وجهل عظيم ، وشرك يخلد به صاحبه في نار جهنم ، وهذا بعد أن أثنى على نفسه جل وعلا بالأمور الخمسة المذكورة في الآية التي قبلها التي هي براهين قاطعة ، على أن المتصف بها هو المعبود وحده ، والأمور الستة التي هي من صفات المعبودات من دون الله :

الأول منها : أنها لا تخلق شيئاً أي لا تقدر على خلق شيء .

والثاني منها : أنها مخلوقة كلها أي خلقها خالق كل شيء .

والثالث : أنها لا تملك لأنفسها ضراً ولا نفعاً .

الرابع والخامس والسادس : أنها لا تملك موتاً ، ولا حياة ، ولا نشوراً ، أي بعثاً بعد الموت ، وهذه الأمور الستة المذكورة في هذه الآية الكريمة ، جاءت مبينة في مواضع أخر من كتاب الله تعالى .

(71/557)

أما الأول منها : وهو كون الآلهة المعبودة من دون الله لا تخلق شيئاً ، فقد جاء مبيناً في آيات كثيرة كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين تَدْعُونَ مِن دُونِ الله لَن يَخْلُقُواْ ذُبَاباً وَلَوِ اجتمعوا لَهُ ﴾ [الحج : 73] الآية . وقوله تعالى : ﴿ والذين يَدْعُونَ مِن دُونِ الله لاَ يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ [النحل : 2021] وقوله تعالى في سورة فاطر ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ الذين تَدْعُونَ مِن دُونِ الله أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ الأرض أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السماوات أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَاباً فَهُمْ على بَيِّنَةٍ مِّنْهُ بَلْ إِن يَعِدُ الظالمون بَعْضُهُم بَعْضاً إِلاَّ غُرُوراً ﴾ [فاطر : 40] وقوله تعالى في سورة لقمان : ﴿ هذا خَلْقُ الله فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الذين مِن دُونِهِ بَلِ الظالمون فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ ﴾ [لقمان : 11] وقوله تعالى في الأحقاف : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ الله أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ الأرض أَمْ

لَهُمْ شِرْكٌ فِي السماوات ائتوني بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هاذا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [الأحقاف : 4] . وقوله تعالى : ﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السماوات والأرض وَلاَ خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ المضلين عَضُداً ﴾ [الكهف : 51] وقد بين تعالى في آيات من كتابه الفرق بين من يخلق ، ومن لا يخلق ، لأن من يخلق هو المعبود ، ومن لا يخلق لا تصح عبادته ، كقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الناس اعبدوا رَبَّكُمُ الذي خَلَقَكُمْ ﴾ [البقرة : 21] الآية . أي وأما من لم يخلقكم ، فليس برب ، ولا بمعبود لكم كما لا يخفى . وقوله تعالى : ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل : 17] وقوله تعالى : ﴿ أَمْ

(72/557)

جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الخلق عَلَيْهِمْ قُلِ الله خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الواحد القهار ﴾ [الرعد : 16] أي ومن كان كذلك ، فهو المعبود وحده جل وعلا وقوله تعالى : ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ [الأعراف : 191] .

وأما الأمر الثاني منها : وهو كون الآلهة المعبودة من دونه مخلوقة ، فقد جاء مبيناً في آيات من كتاب الله كآية النحل والأعراف ، المذكورتين آنفاً .

أما الآية النحل فهي قوله تعالى : ﴿ والذين يَدْعُونَ مِن دُونِ الله لاَ يَخْلُقُونَ ﴾ [النحل :

20] فقوله : وهم يخلقون صريح في ذلك . وأما الآية الأعراف فهي قوله تعالى : ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ [الأعراف : 191] إلى غير ذلك من الآيات .

(73/557)

وأما الأمر الثالث منها : وهو كونهم لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً ، فقد جاء مبيناً أيضاً في مواضع من كتاب الله ، كقوله تعالى : ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ السماوات والأرض قُلِ الله قُلْ أفاتخذتم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَآءَ لاَ يَمْلِكُونَ لأَنْفُسِهِمْ نَفْعاً وَلاَ ضَرّاً ﴾ [الرعد : 16] . وكقوله تعالى : ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْراً وَلاَ أَنْفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴾ [الأعراف : 191192] ومن لا ينصر نفسه فهو لا يملك لها ضراً ولا نفعاً . وقوله تعالى : ﴿ والذين تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ ولا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ ﴾ [الأعراف : 197] وقوله تعالى : ﴿ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الهدى لاَ يَتَّبِعُوكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ إِنَّ الذين تَدْعُونَ مِن دُونِ الله عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فادعوهم فَلْيَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ [الأعراف : 193195] الآية .

وفيها الدلالة الواضحة على أنهم لا يملكون لأنفسهم شيئاً ، وقوله تعالى : ﴿ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذباب شَيْئاً لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ﴾ [الحج : 73] الآية إلى غير ذلك من الآيات .

وأما الرابع والخامس والسادس ، من الأمور المذكورة : أعني كونهم لا يملكون موتاً ، ولا حياة ، ولا نشوراً . فقد جاءت أيضاً مبينة في آيات من كتاب الله كقوله تعالى : ﴿ اللهُ الذي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُمْ مَّن يَفْعَلُ مِن ذَلِكُمْ مِّن شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وتعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الروم : 40] .

(74/557)

فقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء سبحانه وتعالى عما يشركون ، يدل دلالة واضحة على أن شركاءهم ليس واحد منهم يقدر أن يفعل شيئاً من ذلك المذكور في الآية ، ومنه الحياة المعبر عنها بخلقكم ، والموت المعبر عنه بقوله : ثم يميتكم ، والنشور المعبر عنه بقوله : ثم يحييكم ، وبين أنهم لا يملكون نشوراً بقوله : ﴿ أَمِ اتخذوا آلِهَةً مِّنَ الأرض هُمْ يُنشِرُونَ ﴾ [الأنبياء : 21] ، وبين أنهم لا يملكون حياة ولا نشورا في قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُمْ مَّن يَبْدَأُ الخلق ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللهُ يَبْدَأُ الخلق ثُمَّ يُعِيدُهُ فأنى تُؤْفَكُونَ ﴾ [يونس : 34] الآية ، وبين أنه وحده الذي بيده الموت والحياة في

آيات كثيرة كقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ كِتَاباً مُّؤَجَّلاً ﴾ [آل عمران : 145] وقوله تعالى : ﴿ وَلَن يُؤَخِّرَ اللهُ نَفْساً إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ﴾ [المنافقون : 11] الآية ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَجَلَ اللهِ إِذَا جَآءَ لاَ يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [نوح : 4] الآية ، وقوله تعالى : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ [البقرة : 28] الآية ، وقوله تعالى : ﴿ قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ ﴾ [غافر : 11] الآية ، إلى غير ذلك من الآيات . وهذا الذي ذكرنا من بيان هذه الآيات بعضها لبعض معلوم بالضرورة من الدين .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ وَلاَ يَمْلِكُونَ لأَنْفُسِهِمْ ضَرّاً وَلاَ نَفْعاً ﴾ أظهر الأقوال فيه أن المعنى لا يملكون لأنفسهم دفع ضرر ولا جلب نفع . كما قاله القرطبي وغيرهز وغاية ما في هذا التفسير حذف مضاف دل المقام عليه ، وهو كثير في القرآن وفي كلام العرب وقد أشار إليه في الخلاصة بقوله :

(75/557)

وما يلي المضاف يأتي خلفاً عنه في الإعراب إذا ما حذفاً

وقيل المعنى : لا يقدرون أن يضروا أنفسهم ، أو ينفعوها بشيء والأول هو الأظهر : أي وإذا

عجزوا عن دفع ضر عن أنفسهم وجلب نفع لها فهم عن الموت والحياة والنشور أعجز ، لأن ذلك لا يقدر عليه إلا الله جل وعلا .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ وَلَا نُشُوراً ﴾ اعلم أن النشور يطلق في العربية إطلاقين :

الأول : أن يكون مصدر نشر الثلاثي المتعدي ، تقول : نشر الله الميت ينشره نشراً ونشوراً .

والثاني : أن يكون مصدر نشر للميت ينشر نشوراً لازماً ، والميت فاعل نشر .

والحاصل : أن في المادة ثلاث لغات الأولى : أنشره رباعياً بالهمزة ينشره بضم الياء إنشاراً .

ومنه قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴾ [عبس : 22] وقوله تعالى : ﴿ وانظر إِلَى العظام كَيْفَ نُنْشِزُهَا ﴾ [البقرة : 259] بضم النون وبالراء المهملة في قراءة نافع ، وابن كثير ، وأبي عمرو . وهو مضارع أنشره . والثانية نشر الله الميت ينشره بصيغة الثلاثي المتعدي ، والمصدر في هذه اللغة النشر والنشور ، ومنه قوله هنا : ولا نشوراً : أي لا يملكون أن ينشروا أحداً بفتح الياء ، وضم الشين الميت لازماً حيي الميت وعاش بعد موته ، وإطلاق النشر والنشور على الإحياء بعد الموت ، وإطلاق النشور على الحياة بعد الموت معروف في كلام العرب ، ومن إطلاقهم نشر الميت لازماً فهو ناشر أي عاش بعد الموت قول الأعشى :

لو أسندت ميتاً إلى نحرها . . . عاش ولم ينقل إلى قابر

حتى يقول الناس مما رأوا . . . يا عجبا للميت الناشر

ومن إطلاق النشور بمعنى الإحياء بعد الموت ، مصدر الثلاثي المتعدي . قوله هنا : ولا نشوراً : أي بعثاً بعد الموت ، ومن إطلاقهم النشور بمعنى الحياة بعد الموت مصدر الثلاثي اللازم قول الآخر :

إذا قبلتها كرعت بفيها . . . كروع العسجدية في الغدير

فيأخذني العناق وبرد فيها . . . بموت في عظامي أو فتور

(76/557)

فنحيا تارة ونموت أخرى . . . ونخلط ما نموت بالنشور

فقد جعل الغيبوبة من شدة اللذة موتاً ، والإفاقة منها نشوراً ، أي حياة بعد الموت .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ واتخذوا مِن دُونِهِ آلِهَةً ﴾ حذف فيه أحد المفعولين : أي اتخذوا من دونه أصناما آلهة ، كقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً ﴾ [الأنعام : 74] الآية . والآلهة جمع إله ، فهو فعال مجموع على أفعلة ، لأن الألف التي بعد الهمزة مبدلة من همزة ساكنة هي فاء الكلمة كما قال في الخلاصة :

ومدا أبدل ثاني الهمزين من . . . كلمة إن يسكن كآثر وأتمن

والإلة المعبود فهو فعال بمعنى مفعول ، وإتيان الفعال بمعنى المفعول جاءت منه أمثلة في اللغة العربية كالإله بمعنى المألوه : أي المعبود ، والكتاب بمعنى المكتوب ، واللباس بمعنى : الملبوس ، والإمام بمعنى المؤتم به . ومعلوم أن المعبود بحق واحد وغيره من المعبودات أسماء الكفار ، ما أنزل الله بها من سلطان ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ الذين يَدْعُونَ مِن دُونِ الله شُرَكَآءَ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظن وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ ﴾ [يونس : 66] ، ﴿ إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَآبَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ الله بِهَا مِن سُلْطَانٍ ﴾ [النجم : 23] الآية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 6 صـ ﴾

(77/557)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ تَبَارَكَ ﴾ [الفرقان : 1] مادة الباء والراء والكاف عادةً تدلُّ على البركة ، وهي أن يعطيك الشيء من الخير فوق ما تظن فيه ويزيد عن تقديرك ، كما لو رأيتَ طعام الثلاثة يكفي العشرة ، فتقول : إن هذا الطعام مُبَارَكٌ أو فيه بركة .

ومن معاني تبارك : تعالى قَدْره و ﴿ تَبَارَكَ ﴾ [الفرقان : 1] تنزّه عن شبه ما سواه ، وتبارك : عَظُم خَيْره وعطاؤه . وهذه الثلاثة تجدها مُكمِّلة لبعضها .

ومن العجيب أن هذا اللفظ ﴿ تَبَارَكَ ﴾ [الفرقان : 1] مُعجز في رَسْمه ومُعْجز في اشتقاقه ، فلو تتعبتَ القرآن لوجدتَ أن هذه الكلمة وردتْ في القرآن تسْع مرات : سبع منها بالألف ﴿ تَبَارَكَ ﴾ [الفرقان : 1] ومرتان بدون الألف ، فلماذا لم تُكتب بالألف في الجميع ، أو بدونها في الجميع ؟ ذلك ليدلُّك على أن رَسْم القرآن رَسْم توقيفيّ ، ليس أمراً (ميكانيكياً) ، كما في قوله تعالى في أول سورة العلق : ﴿ اقرأ باسم ربِّكَ الذي خَلَقَ ﴾ [العلق : 1] فرَسْم كلمة اسم هنا بالألف ، وفي باقي القرآن بدون الألف .

إذن : فالقرآن ليس عادياً في رَسْمه وكتابته ، وليس عادياً في قراءته ، فأنت تقرأ في أي كتاب آخر على أيِّ حال كنتَ ، إلا في القرآن لا بُدَّ أن تكون على وضوء وتدخل عليه بطُهْر . . الخ ما نعلم من آداب تلاوة القرآن .

ومن حيث الاشتقاق نعلم أن الفعل يُشتَقُّ منه الماضي والمضارع والأمر واسم الفاعل . . الخ ، لكن ﴿ تَبَارَكَ ﴾ [الفرقان : 1] لم يذكر منها القرآن إلا هذه الصيغة ، وكأنه يريد أنْ يخصَّها بتنزيه الله تعالى ، مثلها مثل كلمة سبحان ؛ لذلك على كثرة ما مرَّ في التاريخ من الجبابرة أرغموا الناس على مدحهم والخضوع لهم ، لكن ما رأينا واحداً مهما كان مجرماً في الدين يقول لأحد هؤلاء : سبحانك .

لذلك نقول في تسبيح الله : سبحانك ، ولا تُقال إلا لك . مهما اجترأ الملاحدة فإنهم لا ينطقونها لغير الله .

إذن : ﴿ تَبَارَكَ ﴾ [الفرقان : 1] تدور حول معَانٍ ثلاثة : تعالى قَدْره ، وتنزَّه عن مشابهة ما سواه ، وعَظُم خَيْره وعطاؤه ، ومَنْ تعاظُم خَيْره سبحانه أنه لا مثيل له : في قَدْره ، ولا في ذاته ، ولا في صفاته ، ولا في فعله . وهذا كله من مصلحتنا نحن ، فلا كبيرَ إلا الله ، ولا جبارَ إلا الله ، ولا غنيَّ إلا الله .

وسُمِّي القرآن فرقاناً ؛ لأنه يُفرِّق بين الحق والباطل ، وقد نزل القرآن ليُخرج الناسَ من الظلمات إلى النور ، فيسير الناس على هُدىً وعلى بصيرة ، فالقرآن إذن فَرَق لهم مواضع الخير عن مواضع العطب ، فالفرقان سائر في كل جهات الدين ، ففي الدين قمة هي الحق تبارك وتعالى ومُبلِّغ عن القمة هو الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومُرْسَل إليه هم المؤمنون ، فجاء القرآن ليفرُقَ بين الحق والباطل في هذه الثلاثة .

ففي القمة ، وُجدِ مَنْ ينكر وجود إله خالق لهذا الكون ، وآخرون يقولون بوجود آلهة متعددة ، وكلاهما على طرفي نقيض للآخر ، ليس هناك سيال فكر يجمعهم ، فجاء القرآن ليفرق بين الحق والباطل في هذه المسألة ، ويقول : الأمر وسط بين ما قُلْتم : فالإله موجود ، لكنه إله واحد لا شريكَ له ، ففرقَ في مسألة القمة .

كذلك فَرق في مسألة الرسول وهو بشر من قومه ، فلما اعترض بعضهم عليه وحسدوه على هذه المكانة وهو واحد منهم أيّده الله بالمعجزة التي تُؤيده وتُظهِر صِدْقه في البلاغ عن الله ، وكانت معجزته صلى الله عليه وسلم في شيء نبغ فيه القوم ، وهي الفصاحة والبلاغة والبيان ، والعرب أهل بيان ، وهذه بضاعتهم الرائجة وتحدّاهم بهذه المعجزة فلم يستطيعوا .

وكذلك فَرَق في مسألة الخَلْق من حيث مُقوّمات حياتهم ، فبيَّن لهم الحلال والحرام ، وفي استبقاء النوع بيَّن لهم الحلال ، وشرع لهم الزواج ، ونهاهم عن الزنا ليحفظ سلالة الخليفة لله في الأرض .

(79/557)

إذن : فَرق القرآن في كل شيء : في الإله ، وفي الرسول ، وفي قِوَام حياة المرسَل إليهم ، وما دام قد فَرقَ في كل هذه المسائل فلا يوجد لفظ أفضل من أن نُسمّيه " الفرقان " .

ولا شكّ أن الألفاظ التي ينطق بها الحق تبارك وتعالى لها إشعاعات ، وفي طياتها معَانٍ يعلمها أهل النظر والبصيرة ممَّنْ فتح الله عليهم ، وما أشبهها بفصوص الماس ! والذي جعل الماس ثميناً أن به في كل ذرة من ذراته تكسراتٍ إشعاعية ليست في شيء غيره ، فمن أيِّ

ناحية نظرتَ إليه قابلك شعاع معكوس يعطي بريقاً ولمعاناً يتلألأ من كل نواحيه ، وكذلك ألفاظ القرآن الكريم .

ومن معاني الفرقان التي قال بها بعض العلماء أنه نزل مُفَرَّقاً ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿ وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ ﴾ [الإسراء : 106] يعني : أنزلناه مُفرَّقاً لم ينزل مرة واحدة كالكتب السابقة عليه ، وللحق تبارك وتعالى حكمة في إنزال القرآن مُفرقاً ، حيث يعطي الفرصة لكل نَجْم ينزل من القرآن أنْ يستوعبه الناس ؛ لأنه يرتبط بحادثة معينة ، كذلك ليحدث التدرّج المطلوب في التشريعات .

يقول تعالى : ﴿ وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى الناس على مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً ﴾ [الإسراء : 106] .

لقد كان المسلمون الأوائل في فترة نزول القرآن كثيري الأسئلة ، يستفسرون من رسول الله عن مسائل الدين ، كما قال تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأهلة ﴾ [البقرة : 189] ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الخمر والميسر ﴾ [البقرة : 219] ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأنفال ﴾ [الأنفال : 1] فكان النجم من القرآن ينزل ليُجيب عليهم ويُشرِّع لهم ، وما كان يتأتَّى ذلك لو نزل القرآن جملة واحدة .

وكلمة : ﴿ نَزَّلَ الفرقان ﴾ [الفرقان : 1] تؤيد هذا المعنى وتسانده ؛ لأن نزّل تفيد تكرار الفعل غير " أنزل " التي تفيد تعدِّي الفعل مرة واحدة .

وقوله تعالى : ﴿ على عَبْدِهِ ﴾ [الفرقان : 1] كأن حيثية التنزيل عليه هي العبودية لله تعالى ، فهو العبد المأمون أن ينزل القرآن عليه .

وسبق أن قلنا : أن العبودية لفظ بغيض إن استُعمِل في غير جانب الحق سبحانه ، أمّا العبودية لله فيه عِزٌّ وشرف ولفظ محبوب في عبودية الخَلْق للخالق ؛ لأن العبودية للبشر يأخذ السيد خير عبده ، أمّا العبودية لله فيأخذ العبد خير سيده .

لذلك جعل الله تعالى العبودية له سبحانه حيثية للارتقاء السماوي في رحلة الإسراء ، فقال : ﴿ سُبْحَانَ الذي أسرى بِعَبْدِهِ ﴾ [الإسراء : 1] فالرِّفْعة هنا جاءتْ من العبودية لله .

ثم يقول سبحانه : ﴿ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً ﴾ [الفرقان : 1] العالمين : جمع عَالَم ، والعَالَم ما سوى الله تعالى ، ومن العوالم : عالم الملائكة ، عالم الإنس ، وعالم الجن ، وعالم الحيوان ، وعالم النبات ، وعالم الجماد ، إلا أن بعض هذه العوالم لم يَأْتِها بشير ولا نذير ؛ لأنها ليست مُخيَّرة ، والبشارة والنذارة لا تكون إلا للمخيّر .

يقول تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأمانة عَلَى السماوات والأرض والجبال فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا

وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً ﴾ [الأحزاب : 72] .

فإنْ عزلْتَ من هذه العوالم مَنْ ليس له اختيار ، فيتبقى منها : الجنّ والإنس ، وإليهما أُرسل الرسول صلى الله عليه وسلم بشيراً ونذيراً ، لكن لماذا قال هنا ﴿ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً ﴾ [الفرقان : 1] ولم يقل : بشيراً ونذيراً ؟

قالوا : لأنه سبحانه سيتكلم هنا عن الذين خاضوا في الألوهية ، وهؤلاء تناسبهم النَّذَارة لا البشارة ؛ لذلك قال في الآية بعدها : ﴿ الذي لَهُ مُلْكُ السماوات والأرض ﴾

(81/557)

في آخر سورة النور قال سبحانه : ﴿ أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السماوات والأرض ﴾ [النور : 64] فذكر ملكية المظروف ، وهنا قال : ﴿ الذي لَهُ مُلْكُ السماوات والأرض ﴾ [الفرقان : 2] فذكر مِلْكية الظرف أي : السماوات والأرض .

ثم تكلّم سبحانه في مسألة القمة التي تجرّأوا عليها ، فقال : ﴿ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ ﴾ [الفرقان : 2] .

وسبق أنْ تكلمنا كثيراً عن مسألة اتخذا الولد والحكمة منها ، فالناس تحب الولد ، إما ليكون امتداداً للذكْر ، وإما ليساند والده حالَ ضَعْفه ، وإما للكثرة ، والحق تبارك وتعالى

هو الحيُّ الباقي الذي لا يموت ، ولا يحتاج لمن يُخلِّد ذِكْراه ، وهو القويُّ الذي لا يحتاج لغيره ، فَلِمَ إذنْ يتخذ ولداً ؟

وقوله : ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ ﴾ [الفرقان : 2] وهذا أمر يؤيده الواقع ؛ لأن الله تعالى أول ما شَهِد شهد لنفسه ، فقال سبحانه : ﴿ شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالملائكة وَأُوْلُواْ العلم ﴾ [آل عمران : 18] .

أي : لما خلقتُ الملائكة شهدوا لله تعالى ، ثم شهد أولو العلم بالاستدلال ، فشهادة الحق سبحانه لنفسه شهادة الذات للذات ، والملائكة شهدتْ شهادةَ المشاهدة ، ونحن شهدنا شهادةَ الاستدلال والبرهان .

والحق تبارك وتعالى يُعطينا الدليل على صِدْق هذه الشهادة ، فيقول تعالى : ﴿ مَا اتخذ الله مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إله بِمَا خَلَقَ وَلَعَلاَ بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ ﴾ [المؤمنون : 91] .

وقال سبحانه : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لَّابْتَغَوْاْ إلى ذِي العرش سَبِيلاً ﴾ [الإسراء : 42] .

وهذا هو التفصيل المنطقي العاقل الذي نردُّ به على هؤلاء ، فلو كان مع الله تعالى آلهة أخرى لَذهبَ كل منهم بجزء من الكون ، وجعله إقطاعية خاصة به ، وعَلاَ كل منهم على الآخر وحاربه ، ولو كان معه سبحانه آلهة أخرى لاجتمعوا على هذا الذي أخذ المُلْك منهم ليحاكموه أو ليتوسَّلوا إليه .

وقلنا : إن الدَّعْوى تثْبُتُ لصاحبها إذا لم يَدّعِهَا أحد غيره لنفسه ، وهذه المسألة لم يدَّعها أحد ، فهي إذن ثابتة لله تعالى إلى أنْ يُوجَد مَنْ يدَّعي هذا الخَلْق لنفسه .

وسبق أنْ مثَّلْنا لذلك بجماعة في مجلس فَقَد أحدهم محفظته فيه ، ولما انصرفوا وجدها صاحب البيت ، فسألهم عنها ، فلم يدَّعِها أحد منهم ، ثم اتصل به أحدهم يقول : إنها لي ، فلا شكّ أنها له حتى يوجد مُدَّعٍ آخر ، فنفصل بينهما .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً ﴾ [الفرقان : 2] فخَلْق الله تعالى ليس خَلْقاً كما اتفق ، إنما خَلْقه سبحانه بقَدَرٍ وحساب وحكمة ، فيخلق الشيء على قَدْر مهمته التي يُؤدِّيها ؛ لذلك قال في موضع آخر : ﴿ الذي خَلَقَ فسوى * والذي قَدَّرَ فهدى ﴾ [الأعلى : 23] .

وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا (3)

أي : أتوْا بآلهة غير الله ، هذه الآلهة بإقرارهم وبشهادتهم وواقعهم لا تخلق شيئاً ، ويا ليتها فقط لا تخلق شيئاً ، ولكن هي أنفسها مخلوقة ، فاجتمع فيها الأمران .

(83/557)

وهذه من الآيات التي وقف عندها المستشرقون وقالوا : إن فيها شهبة تناقض ؛ لأن الله سبحانه وتعالى قال : ﴿ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الخَالِقِينَ ﴾ [المؤمنون : 14] فأثبت أن معه آخرين لهم صفة الخَلْق ، بدليل أنه جمعهم معه ، وهو سبحانه أحسنهم . وفي موضع آخر يقول سبحانه : ﴿ وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللهِ ﴾ [آل عمران : 49] .

وللردّ على هؤلاء نقول : تعالوْا أولاً نفهم معنى الخَلْق ، الخَلْق : إيجاد لمعدوم ، كما مثّلْنا سابقاً بصناعة كوب الزجاج من صَهْر بعض المواد ، فالكوب كان معدوماً وهو أوجده ، لكن من شيء موجود ، كما أن الكوب يجمد على حالته ، لكن الحق سبحانه وتعالى يُوجِد من معدوم : معدوماً من معدوم ، ويُوجده على هيئة فيها حياة ونمو وتكاثر من ذاته ، كما قال سبحانه : ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الذاريات : 49] .

والذين يصنعون الآن الورد الصناعي ، ويحاولون جاهدين مُضَاهاة الورد الطبيعي الذي

خلقه ، فيضعون عليه رائحة الورد ليتوفر لها الشكل والرائحة ، ثم ترى الوردة الصناعية زاهية لا تذبُل ، لكن العظمة في الوردة الطبيعية أنها تذبل ؛ لأن ذبُولها يدلُّ على أن بها حياة .

لذلك سمَّى اللهُ الإنسانَ خالقاً ، فأنصفه واحترم إيجاده للمعدوم ، لكنه سبحانه أحسنُ الخالقين ، ووَجْه الحُسْن أن الله تعالى خلق من لا شيء ، وأنت خلقتَ من موجود ، الله خلق خَلْقاً فيه حياة ونمو وتكاثر ، وأنت خلقتَ شيئاً جامداً على حالته الأولى ، ومع ذلك أنصفك ربك .

(84/557)

ففي قوله تعالى : ﴿ أَخْلُقُ لَكُمْ مِّنَ الطين كَهَيْئَةِ الطير ﴾ [آل عمران : 49] معلوم أنه في مقدور كل إنسان أنْ يُصوِّر من الطين طَيْراً ؟ ويُصمِّمه على شكله ، لكن أيُقال له : إنه خلق بهذا التصوير طَيْراً ؟ وهل العظمة في تصويره على هيئة الطير ؟ العظمة في أنْ تبعثَ فيه الحياة ، وهذه لا تكون إلا من عند الله ؛ لذلك قال عيسى عليه السلام : ﴿ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ الله ﴾ [آل عمران : 49] .

فإنْ سلَّمْنا أنهم يخلقون شيئاً فهم في ذات الوقت مخلوقون ، والأدْهَى من هذا أن الذي

يتخذونه إلهاً لا يستطيع حتى أن يحمي نفسه أو يقيمها ، إنْ أطاحتْ به الريح ، وإنْ كُسِر ذراع الإله أخذوه ليُرمموه ، الإله في يد العامل ليصلحه ! ! شيء عجيب وعقليات حمقاء .

لذلك يقول تعالى عن آلهتهم : ﴿ إِنَّ الذين تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَاباً وَلَوِ اجتمعوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذباب شَيْئاً لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطالب والمطلوب ﴾ [الحج : 73]

.

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَلاَ يَمْلِكُونَ لأَنْفُسِهِمْ ضَرّاً وَلاَ نَفْعاً ﴾ [الفرقان : 3] يعني : لا تنفعهم إنْ عبدوها ، ولا تضرّهم إنْ كفروا بها ﴿ وَلاَ يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلاَ حَيَاةً وَلاَ نُشُوراً ﴾ [الفرقان : 3] أي : موتاً أو حياة لغيرهم ، فهم لا يملكون شيئاً من هذا كله ، لأنه من صفات الإله الحق الذي يُحيي ويُميت ، ثم ينشر الناس في الآخرة . إذن : للإنسان مراحل متعددة ، فبعد أنْ كان عَدَماً أوجده الله ، ثم يطرأ عليه الموت فيموت ، ثم يبعثه الله ، ويُحييه حياة الآخرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(85/557)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : (وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ) (الفرقان : 3) ، وفي سورة يس : (وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ) (يس : 74) ، للسائل أن يسأل عن ورود اسمه سبحانه مضمراً في قوله سبحانه : (مِنْ دُونِهِ) في سورة الفرقان ومظهراً في قوله : (مِنْ دُونِ اللَّهِ) في سورة يس ما وجه ذلك ؟

والجواب عنه : أن آية الفرقان تقدم قبلها اسمه سبحانه مكنياً عنه جل وتعالى في قوله : (تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا * الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا) (الفرقان : 1 – 2) ، فورد اسمه سبحانه مكنياً عنه ثماني مرات : أولها الموصول (وهو) الذي من قوله : (تَبَارَكَ الَّذِي) ، وفاعل نزل المضمر ، والضمير في (عَبْدِهِ) والموصول الثاني ، والضمير المجرور باللام ، والضمير الفاعل في (وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا) ، والضمير في (له) المجرور ، والضمير الفاعل في (وخلق) ، فلما تكرر اسمه مكنياً عنه ثماني مرات جرى بعد ذلك في قوله : (وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ) مضمراً على حكم ما تقدم ، ولو ورد مظهراً لم يكن ليناسب ، وأما الوارد في سورة يس فتقدم قبل الآية قوله تعالى : (أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ) (يس : 60) ، فلم يكن ورود اسم الله تعالى هنا مضمراً ليناسبه لو قيل : (واتخذوا من دونه لما تقدم قبله ذكر الشيطان وتحذيرهم من عبادته ،

فجاء كل من الآيتين على ما يجب ويناسب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل صـ 374 ﴾

(86/557)

بحث نفيس فى تقدير الموجودات بدقة

قال صاحب الأمثل :

ليس نظام العالم الدقيق والمتقن ـ وحده ـ من الدلائل المحكمة على معرفة الله وتوحيده ، فتقديراته الدقيقة أيضاً دليل واضح آخر ، أنّنا لا يمكن أن نعتبر مقادير موجودات هذا العالم المختلفة ، وكميتها وكيفيتها المحسوبة ، معلولة للصدفة التي لا تتوافق مع حساب الإحتمالات .

وقد تقصّى العلماء الأمر في هذا الصدد ، وأزاحوا الستار عن أسراره المدهشة التي تذهل فكر الانسان ، وتترك لسانه يترنم بتمجيد عظمة وقدرة الخالق بلا اختيار .

ونعرض لكم ـ ها هنا ـ جانباً من ذلك:

يقول العلماء : لو كانت قشرة الأرض أسمك ممّا هي عليه الآن بمقدار بضعة أقدام ، لما وجد غاز "الاوكسجين" الذي يعتبر المادة الاصلية للحياة ، ولو كانت البحار أعمق من عمقها

الفعلي عدّة أقدام لا متصت جميع ما في الجو من الكاربون و الاوكسجين ، ولما امكن وجود حياة لحيوان ونبات على سطح الارض ، ويحتمل أن تقوم قشرة الأرض والبحار بامتصاص كل الأوكسجين ، وكان على الانسان أن ينتظر نمو النباتات التي تلفظ الأوكسجين .

وطبقاً للحسابات الدقيقة في هذا المجال يتّضح أنّ للأوكسجين مصادر مختلفة ، ولكن مهما كان مصدره فإنّ كميته مطابقة لاحتياجاتنا بالضبط .

ولو كانت طبقة الغلاف الجوي أرق ممّا هي عليه الآن ممّا هو ، فإنّ بعض الشهب التي تحترق كل يوم بالملايين في الهواء الخارجي ، كانت تضرب جميع أجزاء الكرة الأرضية ، وهي تسير بسرعة تتراوح بين ستة أميال وأربعين ميلا في الثّانية ، وكان في إمكانها أن تشعل كل شيء قابل للإحتراق . ولو كانت تسير ببطء رصاصة البندقية لارتطمت كلها بالأرض ولكانت العاقبة مروعة ، ولو تعرض الأنسان للاصطدام بشهاب ضئيل يسير بسرعة تفوق سرعة الرصاصة تسعين مرة ، لتحول الى رماد لمجرّد حرارته .

(87/557)

الغلاف الجوي سميك بالقدر اللازم بالضبط لمرور الأشعة ذات التأثير الكيموي التي يحتاج إليها الزرع والتي تقتل الجراثيم وتنتج الفيتامينات ، دون أن تضر بالإنسان ، إلاّ إذا عرّض

نفسه لها مدة أطول من اللازم . وعلى الرغم من الإنبعاثات الغازية من اعماق الأرض طول الدهور ، ومعظمها سام ، فإنّ الهواء باق دون تلوث في الواقع ، ودون تغير في نسبته المتوازنة اللازمة لوجود الإنسان .

إنّ الجهاز الذي يقوم بهذه الموازنة العظيمة هي تلك الكتلة الفسيحة من الماء ، أي البحار والمحيطات التي هي مصدر الحياة والغذاء والمطر والمناخ المعتدل ، وأخيراً استمد الإنسان نفسه جميع تلك المقومات الحيوية منهما ، فدع من يدرك ذلك يقف في روعة أمام عظمته تعالى ، ويقرُّ بواجباته شاكراً !

إنّ التعادل العجيب بين الأوكسجين وثاني أوكسيد الكاربون فيما يتعلق بالحياة الحيوانية ، وعالم النبات كلّه ، قد استرعت أنظار كل العالم المفكر ، غير أن أهمية ثاني أوكسيد الكاربون لم يدركها الجميع بعد ، وثاني أوكسيد الكاربون هو الغاز المألوف في تعبئة ماء الصودا ، وهو غاز ثقيل ، ولحسن الحظ يعلق بالأرض ، ولا يتمّ فصله إلى أوكسجين وكاربون إلاّ بصعوبة كبيرة ، وإذا أشعلت ناراً ، فإنّ الخشب ـ الذي يتكون غالباً من الأوكسجين والكاربون والهيدروجين ـ يتحلل تحت تأثير الحرارة ويتحد الكاربون مع الأوكسجين بشدّة ، وينتج من ذلك ثاني أوكسيد الكاربون . والهيدروجين الذي يطلق يتحد بمثل تلك الشدة مع الأوكسجين فنحصل على بخار الماء . ومعظم الدخان هو كاربون خالص غير متحد مع غيره .

وحين يتنفس رجل فإنّه يستنشق الأوكسجين فيتلقاه الدم ، ويقوم بتوزيعه الى جميع انحاء جسمه ، ويقوم هذا الأكسجين يحرق طعامه في كل خلية ببطء شديد عند درجة حرارة واطئة نسبياً ، النتيجة هي ثاني أوكسيد الكاربون وبخار الماء .

(88/557)

وبذلك يتسلل ثاني أوكسيد الكاربون إلى رئتيه ، ويعود الى الجو مرّة اُخرى من خلال الزفير ، وكلّ كائن حيواني حي يمتص الاوكسجين ويلفظ ثاني اوكسيد الكاربون .

ما أعجب نظام الضوابط والموازنات الذي منع أي حيوان ـ مهما يكن من وحشيته ، أو ضخامته ، أو مكره ـ من السيطرة على العالم غير أنّ الإنسان وحده بامكانه قلب هذا التوازن الذي للطبيعة بنقله النباتات والحيوانات من مكان إلى آخر ، وسرعان ما يلقى جزاءه القاسي على ذلك ماثلا في تطورات آفات الحيوان والحشرات والنبات .

والواقعة الآتية مثل بارز على أهمية تلك الضوابط فيما يتعلق بوجود الإنسان ، فمنذ سنوات عديدة زرع نوع من الصبّار (الكاكتوس) في أستراليا كسياج وقائي . ولكن هذا الزرع مضى في سبيله حتى غطي مساحة تقرب من مساحة إنجلترا ، وزاحم أهالي المدن والقرى ، وأتلف مزارعهم ، وحال دون الزراعة ، ولم يجد الأهالي وسيلة لصده عن

الإنتشار ، وصارت أستراليا في خطر من اكتساحها بجيش من الزرع الصامت ، يتقدم في سبيله دون عائق !

وطاف علماء الحشرات بنواحي العالم حتى وجدوا أخيراً حشرة لا تعيش إلاّ على ذلك الصبار ولا تتغذى بغيره ، وهي سريعة الإنتشار وليس لها عدو يعوقها في أستراليا . وما لبثت هذه الحشرة حتى تغلبت على الصبّار ، ثمّ تراجعت ، ولم يبق منها سوى بقية قليلة للوقاية ، تكفي لصد الصبّار عن الأنتشار إلى الابدّ .

وهكذا توافرت الضوابط والموازين ، وكانت دائماً مجدية .

ولماذا لم تسيطر بعوضة الملاريا على العالم وتقتل بذلك النوع البشري مع أن البعوض متوفر في جميع انحاء العالم حتى في القطبين ؟ ومثل ذلك أيضاً يمكن أن يقال عن بعوضة الحمى الصفراء التي تقدمت شمالا في أحد الفصول حتى وصلت إلى نيويورك .

(89/557)

ولماذا لم تتطور ذبابة "تسي تسي" "الذبابة المنومة" حتى تستطيع أن تعيش في غير مناطقها الحارة ، وتمحو الجنس البشري من الوجود ؟ يكفي أن يذكر الإنسان الطاعون والأوبئة والجراثيم الفتاكة التي لم يكن منها وقاء حتى الأمس القريب ، وأن يذكر كذلك ما

كان له من جهل تام بقواعد الوقاية الصحية ، ليعلم أن بقاء الجنس البشري معها يدعو حقاً إلى الدهشة ! (1) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الأمثل حـ 11 صـ 191.194 ﴾

---

(1) اُقتباس من كتاب "الإنسان لا يقوم وحده" تأليف كريسي موريسون ، ترجمه محمود صالح الفلكي بعنوان (العلم يدعو للإيمان) ، من الصفحات 65 ، 66 ، 70 ، 71 ، 159 ، 160 .

[194]

(90/557)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا (1) ﴾

قوله : ﴿ لِيَكُونَ ﴾ : اللامُ متعلقةٌ ب " نَزَّل " . وفي اسم " يكون " ثلاثةُ أوجهٍ ، أحدُها : أنه ضميرٌ يعودُ على الذي نزَّل . أي : ليكونَ الذي نَزَّل الفرقانَ نذيراً . الثاني : أنه يعودُ على الفرقانِ وهو القرآنُ . أي : ليكون الفرقانُ نذيراً . الثالث : أنه يعودُ على " عبدِه " أي : ليكونَ عبدُه محمد صلَّى الله عليه وسلَّم نذيراً . وهذا أحسنُ الوجوهِ معنىً وصناعةً

لقُرْبِه ممَّا يعودُ عليه ، والضميرُ يعودُ على أقربِ مذكورٍ . و " للعالمين " متعلقٌ ب " نذيراً " وإنما قُدِّم لأجلِ الفواصلِ . ودعوى إفادةِ الاختصاصِ بعيدةٌ لعدمِ تأتِّيها هنا . ورَجَّح الشيخ عَوْدَه على " الذي " قال : " لأنه العُمْدةُ المسندُ إليه الفعلُ ، وهو مِنْ وصفِه تعالى كقوله : ﴿ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴾ [الدخان : 3] . و " نذيراً " الظاهرُ فيه أنه بمعنى مُنْذِر . وجَوَّزوا أَنْ يكونَ مصدراً بمعنى الإِنذار كالنكير مبعنى الإنكار ومنه ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ [القمر : 16] .

قوله : ﴿ الذي لَهُ مُلْكُ ﴾ : يجوز في " الذي " الرفعُ نعتاً للذي الأولِ ، أو بياناً ، أو بدلاً ، أو خبراً لمبتدأ محذوفٍ ، أو النصبُ على المدحِ . وما بعد " نَزَّل " من تمام الصلة فليس أجنبياً ، فلا يضرُّ الفصلُ به بين الموصولِ الأولِ والثاني إذا جَعَلْنا الثاني تابعاً له .

قوله : ﴿ وَخَلَقَ ﴾ الخَلْقُ هنا عبارةٌ عن الإِحداثِ والتهيئةِ لما يَصْلُح له حتى يجيءَ قولُه : ﴿ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً ﴾ مفيداً ؛ إذ لو حَمَلْنا ﴿ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ على معناه الأصلي من التقدير لصار الكلام : وقَدَّر كلَّ شيءٍ فقدَّره .

(91/557)

قوله : ﴿ واتخذوا ﴾ : يجوز أَنْ يعودَ الضميرُ على الكفارِ الذينَ يَضُمُّهم لَفْظُ " العالمين " ، وأن يعودَ على مَنْ ادَّعَى للهِ شريكاً وَولداً لدلالةِ قولِه : ﴿ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ ﴾ ، وأنْ يعودَ على المُنْذَرين لدلالة " نذيراً " عليهم .

قوله : ﴿ لاَّ يَخْلُقُونَ ﴾ صفةٌ ل " آلهةً " ، وغَلَّبَ العقلاءَ على غيرَهم ؛ لأنَّ الكفارَ/ كانوا يَعْبُدون العقلاءَ كعُزَيْرٍ والمسيح والملائكةِ وغيرِهم كالكواكبِ والأصنامِ . ومعنى " لا يَخْلُقُون " لا يَقْدِرُوْن على التقدير ، والخَلْقُ يُوْصَفُ به العبادُ . قال زهير :

3471 وَلأَنْتَ تَفْري ما خَلَقْتَ وبَعْ . . . ضُ القومِ يَخْلُقُ ثم لا يَفْري

ويقال : خَلَقْتُ الأَديمَ أي : قدَّرْتُه . هذا إذا أُريد بالخَلْقِ التقديرُ . فإنْ أُريد به الإيجادُ فلا يُوْصَفُ به غيرُ الباري تعالى وقد تقدَّم . وقيل : بمعنى يَخْتَلِقون ، كقوله : ﴿ وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً ﴾ [العنكبوت : 17] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 453 . 454 ﴾

(92/557)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله جل ذكره : (بسم الله الرحمن الرحيم)

بسم الله اسم جليل شهدت بجلاله أفعاله ، ونطقت بجماله أفضاله ، دلت على إثباته آياته ، وأخبرت عن صفائه مفعولاته .

بسم الله اسم عزيز عرفت بفعله قدرته ، اسم كريم شهدت بفضله نصرته .

بسم الله عزيز عرفه العقلاء بدلالات أفعاله ، وعرفه الأصفياء باستحقاقه لجلاله وجماله ، فبلطف جماله عرفوا جوده ، ويكشف جلاله عرفوا وجوده .

بسم الله عزيز دعاء لباه ، ومن توكل عليه كفاه ، ومن توسل إليه أكرمه وآواه ، ومن تنصل إليه رحمه وأدناه ، ومن شكا إليه أشكاه ، ومن سأله خوله وأعطاه .

قوله جل ذكره : (تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا)

يقال بِرَكَ الطيرُ على الماء إذا ما دام وقوفُه على ظهر الماء . ومَبَارِكُ الإبلِ مَواضِعُ إقامتها بالليل . وتبارك على وزن تَفَاعَل تفيد دوامَ بقائه ، واستحقاقَه لِقِدَمِ ثوبته وبقاء وجوده لا عن استفتاح ولا إلى انقطاع .

في التفاسير ﴿ تَبَارَكَ ﴾ أي تعظَّمَ وتَكبَّر . وعند قوم أنه من البركة وهي الزيادة والنفع ، فداومه وجودُه ، وتكبره استحقاق ذاته لصفاته العلية ، والبركة أو الزيادة تشير إلى فَضْلِه وإحسانه ولُطْفِه .

فوجوهُ الثناء عليه تنحصر بهذه الأوجه الثلاثة : ثناء عليه بذكر ذاته وحقِّه ، وثناء بذكر

وصفه وعِزّه ، وثناء بذكر إحسانه وفضله ؛ ﴿ تَبَارَكَ ﴾ مجمعُ الثناء عليه – سبحانه .

﴿ الَّذِى نَزَّلَ الفُرْقَانَ ﴾ ، وهو القرآن ﴿ عَلَى عَبْدِهِ ﴾ : فأكرمه بأن نبّاه وفضّله ، وإلى الخَلْق أرسله ، وبَيَّنَ مَعْجِزَته وأمارةَ صِدْقه بالقرآن الذي عليه أنزله ، وجعله بشيراً ونذيراً ، وسراجاً منيراً .

قوله جلّ ذكره : ﴿ الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ .

(93/557)

تَفَرَّدَ بالمُلْكِ فلا شريكَ يساهمه ، وتَوَحَّدَ بالجلال فلا نظيرَ يُقاسِمُه ؛ فهو الواحد بلا قسيم في ذاته ، ولا شريك في مخلوقاته ، ولا شبيهٍ في حَقّه ولا في صفاته .

وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا (3)

اتخذوا من دون اللَّهِ آلهةً لا يملكون قطميراً ، ولا يخلقون نقيراً ، ولا يدفعون عنهم كثيراً ولا يسيراً ، ولا ينفعونهم ولا يُسهّلون عليهم عسيراً ، ولا يملكون لأحدٍ موتاً ولا نُشوراً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 625. 627 ﴾

(94/557)

قوله تعالى ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا (4) وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (5) قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (6) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما وصف منزل الفرقان بما لا يحيط به علم أحد غيره من الشؤون ، فاتضح بذلك إعجاز المنزل الذي أبان ذلك ، وهو هذا القرآن ، وأنه وحده الفرقان ، عجب من حال المكذبين به فقال موضع ﴿ وقالوا ﴾ : ﴿ وقال الذين كفروا ﴾ مظهراً الوصف الذي حملهم على هذا القول ، وهو ستر ما ظهر لهم ولغيرهم كالشمس والاجتهاد في إخفائه : ﴿ إن ﴾ أي ما ﴿ هذا ﴾ أي القرآن ﴿ إلا إفك ﴾ أي كذب مصروف عن ظاهره ووجه هو أسوأ الكذب ﴿ افتراه ﴾ أي تعمد كذبه هذا النذير ، فكان قولهم هذا موضع العجب لكونه ظاهر الخلل .

ولما كان الإنسان مطبوعاً على أنه يتكثر بأدنى شيء من المحاسن فيحب أن تظهر عنه ولا ينسب شيء منها إلى غيره ، كان أعجب من ذلك وأظهر عواراً قولهم : ﴿ وأعانه ﴾ أي محمداً ﴿ عليه ﴾ أي القرآن ﴿ قوم ﴾ أي ذوو كفاية حبوه بما يتشرف به دونهم ؛ وزادوا

بعداً بقولهم : ﴿ آخرون ﴾ أي من غير قومه ؛ فقيل : أرادوا اليهود ، وقيل : غيرهم ممن في بلدهم من العبيد النصارى وغيرهم ، فلذلك تسبب عنه قوله تعالى : ﴿ فقد جاءو ﴾ أي الكفار في ذلك ﴿ ظلماً ﴾ بوضع الإفك على ما لا أصدق منه ولا أعدل ﴿ وزوراً ﴾ أي ميلاً مع جلافة عظيمة عن السنن المستقيم في نسبة أصدق الناس وأطهرهم خليقة ، وأقومهم طريقة ، إلى هذه الدنايا التي لا يرضاها لنفسه أسقط الناس ، فإنها – مع كنها دنيئة في نفسها – مضمونة الفضيحة ؛ قال ابن جرير وأصل الزور تحسين الباطل وتأويل الكلام .

(95/557)

ولما تبين تناقضهم أولاً في ادعائهم في القرآن ما هو واضح المنافاة لوصفه ، وثانياً بأنه أعين عليه بعد ما أشعرت به صيغة الافتعال من الانفراد ، أتبعه تعالى تناقضاً لهم آخر بقوله معجباً : ﴿ وقالوا ﴾ أي الكفار ﴿ أساطير ﴾ جمع إسطارة وأسطورة ﴿ الأولين ﴾ من نحو أحاديث رستم وإسفنديار ، فصرحوا أنه ليس له فيه شيء ﴿ اكتتبها ﴾ أي تطلب كتابتها له ﴿ فهي ﴾ أي فتسبب عن تكلفه أنها ﴿ تملى ﴾ أي تلقى من ملق ما إلقاء جيداً متجدداً مستمراً ﴿ عليه ﴾ من الكتاب الذي اكتتبها فيه في أوقات الفراغ

﴿ بكرة ﴾ قبل أن ينتشر الناس ﴿ وأصيلاً ﴾ أي وعشياً حين يأوون إلى مساكنهم ، أو دائماً ليتكلف حفظها بعد أن تكلف تحصيلها بالانتساخ أنه أمي ، وهذا كما ترى لا يقوله من له مسكة في عقل ولا مروءة ، فإن من المعلوم الذي لا يخفى على عاقل أن إنساناً لو لازم شيئاً عشرة أيام بكرة وعشياً لم يبق ممن يعرفه ويطلع على أحواله أحد حتى عرف ذلك منه ، فلو أنكره بعد لافتضح فضيحة لا يغسل عنه عارها أبداً ، فكيف والبلد صغير ، والرجل عظيم شهير ، وقد ادعوا أنه مصر على ذلك إلى حين مقالتهم وبعدها لا ينفك ، وعيروه بأنه معدم يحتاج إلى المشي في الأسواق ، وهو يدعوهم إلى المعارضة ولو بسورة من مثله ، وفيهم الكتاب والشعراء والبلغاء والخطباء ، وهو أكثر منه مالاً ، وأعظم أعواناً ، فلا يقدرون .

(96/557)

ولما رموه بهذه الأقوال التي هم فيها في خبط عشواء ، وكانت مع كونها ظاهرة العوار ، عند من له أدنى استبصار ، تروج على بعض العرب بعض الرواج ، مع سعة عقولهم ، وصحة أفكارهم ، لشبه واهية مكنهم فيها التقليد ، وشدة الالف لما هم عليه من الزمن المديد ، أمره سبحانه بجوابهم مستأنفاً فقال : ﴿ قل ﴾ أي دالاً على بطلان ما قالوه مهدداً لهم :

﴿ أنزله ﴾ أي القرآن من خزائن علمه خلافاً لجميع ما تقولتموه ﴿ الذي يعلم السر ﴾ أي كله ، لا يخفى عليه منه خافية فكيف بالجهر ! ﴿ في السماوات والأرض ﴾ فهو يجيبكم عن كل ما تقولتموه فيّ وفي كتابه وإن أسررتموه ، ويبين جميع ما يحتاج إليه العباد في الدارين في كلام معجز لفظاً ومعنى على وجه يتحقق كل ذي لب أنه لا يقوله إلا عالم بجميع المعلومات ، ولا يحيط بجميع المعلومات سواه ، وهذا ظاهر جداً من إخباره بالماضي بما يصدقه العلماء من الماضين ، وحكمه على الآتي بما يكون ضربة لازم ، وإظهاره الخبء وإحكامه لجميع ما يقوله ، وقد جرت عادته سبحانه وتعالى بالانتقام ممن كذب عليه بإظهار كذبه أولاً ، ثم بأخذه ثانياً ، ثم عذابه العذاب الأكبر ثالثاً ، فستنظرون من يفعل به ذلك ، وقد بان لعمري صدقه لما وقع من الأمور الثلاثة .

(97/557)

ولما كان من المعلوم أن العالم بكل شيء قادر على شيء كما مضى تقريره في سورة طه ، وكانت العادة جارية بأن من علم استخفاف غيره به وكان قادراً عليه عاجله بالأخذ ، أجيب من كأنه قال : فما له لا يهلك المكذبين له ؟ بقوله مرغباً لهم في التوبة ، مشيراً إلى قدرته بالستر والإنعام ، ومبيناً لفائدة إنزاله إليهم هذا الذكر من الرجوع عما تمادت عليه

أزمانهم من الكفر وأنواع المعاصي : ﴿ إنه كان ﴾ أزلاً وأبداً ﴿ غفوراً ﴾ أي بليغ الستر لما يريد من ذنوب عباده ، بأن لا يعاتبهم عليها ولا يؤاخذهم بها ﴿ رحيماً ﴾ بهم في الإنعام عليهم بعد خلقهم ، برزقهم وتركيب العقول فيهم ، ونصب الأدلة لهم ، وإرسال الرسل وإنزال الكتب فيهم ، وأمهالهم في تكذيبهم ، أي فليس لإمهالهم ووعظهم بما نزله إليهم سبب إلا رحمته وغفرانه وعلمه بأن كتابه صلاح لأحوالهم في الدارين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 295. 297 ﴾

(98/557)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ ﴾

اعلم أنه سبحانه تكلم أولاً في التوحيد ، وثانياً في الرد على عبدة الأوثان ، وثالثاً في هذه الآية تكلم في مسألة النبوة ، وحكى سبحانه شبههم في إنكار نبوة محمد صلى الله عليه وسلم الشبهة الأولى : قولهم : ﴿ إِنْ هذا إِلاَّ إِفْكٌ افتراه ﴾ وأعانه عليه قوم آخرون ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ﴾ [النحل : 103] واعلم أنه يحتمل أن يريدوا به

أنه كذب في نفسه ، ويحتمل أن يريدوا به أنه كذب في إضافته إلى الله تعالى ، ثم ههنا بحثان :

الأول : قال أبو مسلم : الافتراء افتعال من فريت ، وقد يقال في تقدير الأديم فريت الأديم ، فإذا أريد قطع الإفساد قيل أفريت وافتريت وخلقت واختلقت ، ويقال فيمن شتم امرءاً بما ليس فيه افترى عليه .

البحث الثاني : قال الكلبي ومقاتل : نزلت في النضر بن الحارث فهو الذي قال هذا القول ﴿ وأعانه عليه قوم آخرون ﴾ يعني عداس مولى حويطب بن عبد العزى ويسار (غلام عامر) بن الحضرمي ، وجبر مولى عامر ، وهؤلاء الثلاثة كانوا من أهل الكتاب ، وكانوا يقرأون التوراة ويحدثون أحاديث منها فلما أسلموا وكان النبي صلى الله عليه وسلم يتعهدهم ، فمن أجل ذلك قال النضر ما قال .

واعلم أن الله تعالى أجاب عن هذه الشبهة بقوله : ﴿ فَقَدْ جَاءوا ظُلْماً وَزُوراً ﴾ وفيه أبحاث :

الأول : أن هذا القدر إنما يكفي جواباً عن الشبهة المذكورة ، لأنه قد علم كل عاقل أنه عليه السلام تحداهم بالقرآن وهم النهاية في الفصاحة ، وقد بلغوا في الحرص على إبطال أمره كل

غاية ، حتى أخرجهم ذلك إلى ما وصفوه به في هذه الآيات ، فلو أمكنهم أن يعارضوه لفعلوا ، ولكان ذلك أقرب إلى أن يبلغوا مرادهم فيه مما أوردوه في هذه الآية وغيرها ، ولو استعان محمد عليه السلام في ذلك بغيره لأمكنهم أيضاً أن يستعينوا بغيرهم ، لأن محمداً صلى الله عليه وسلم كأولئك المنكرين في معرفة اللغة وفي المكنة من الاستعانة ، فلما لم يفعلوا ذلك والحالة هذه علم أن القرآن قد بلغ النهاية في الفصاحة وانتهى إلى حد الإعجاز ، ولما تقدمت هذه الدلالة مرات وكرات في القرآن وظهر بسببها سقوط هذا السؤال ، ظهر أن إعادة هذا السؤال بعد تقدم هذه الأدلة الواضحة لا يكون إلا للتمادي في الجهل والعناد ، فلذلك اكتفى الله في الجواب بقوله : ﴿ فَقَدْ جَاءوا ظُلْماً وَزُوراً ﴾ .

البحث الثاني : قال الكسائي : قوله تعالى : ﴿ فَقَدْ جَاءوا ظُلْماً وَزُوراً ﴾ أي أتوا ظلماً وكذباً وهو كقوله : ﴿ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً ﴾ [مريم : 89] فانتصب بوقوع المجيء عليه ، وقال الزجاج : انتصب بنزع الخافض ، أي جاءوا بالظلم والزور .

البحث الثالث : أن الله تعالى وصف كلامهم بأنه ظلم وبأنه زور ، أما أنه ظلم فلأنهم نسبوا هذا الفعل القبيح إلى من كان مبرأ عنه ، فقد وضعوا الشيء في غير موضعه وذلك هو الظلم ، وأما الزور فلأنهم كذبوا فيه ، وقال أبو مسلم : الظلم تكذيبهم الرسول والرد عليه ، والزور كذبهم عليهم .

الشبهة الثانية لهم : قوله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ أَساطير الأولين اكتتبها فَهِيَ تملى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ وفيه أبحاث :

(100/557)

البحث الأول : الأساطير ما سطره المتقدمون كأحاديث رستم واسفنديار ، جمع أسطار أو أسطورة كأحدوثة ﴿ اكتتبها ﴾ انتسخها محمد من أهل الكتاب يعني عامراً ويساراً وجبراً ، ومعنى اكتتب ههنا أمر أن يكتب له كما يقال احتجم واقتصد إذا أمر بذلك ﴿ فَهِيَ تملى عَلَيْهِ ﴾ أي تقرأ عليه والمعنى أنها كتبت له وهو أمي فهي تلقي عليه من كتابه ليحفظها لأن صورة الإلقاء على الحافظ كصورة الإلقاء على الكاتب .

أما قوله : ﴿ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ قال الضحاك ما يملى عليه بكرة يقرؤه عليكم عشية ، وما يملى عليه عشية يقرؤه عليكم بكرة .

البحث الثاني : قال الحسن قوله : ﴿ فَهِيَ تملى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ كلام الله ذكره جواباً عن قولهم كأنه تعالى قال إن هذه الآيات تملى عليه بالوحي حالاً بعد حال ، فكيف ينسب إلى أنه أساطير الأولين ، وأما جمهور المفسرين فقد اتفقوا على أن ذلك من كلام القوم ، وأرادوا به أن أهل الكتاب أملوا عليه في هذه الأوقات هذه الأشياء ولا شك أن هذا القول

أقرب لوجوه : أحدها : شدة تعلق هذا الكلام بما قبله ، فكأنهم قالوا اكتتب أساطير الأولين فهي تملى عليه وثانيها : أن هذا هو المراد بقولهم : ﴿ وأعانه عليه قوم آخرون ﴾ وثالثها : أنه تعالى أجاب بعد ذلك عن كلامهم بقوله : ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ الذى يَعْلَمُ السر ﴾ قال صاحب "الكشاف" ، وقول الحسن إنما يستقيم أن لو فتحت الهمزة للاستفهام الذي في معنى الإنكار وحق الحسن أن يقف على ﴿ الأولين ﴾ ، وأجاب الله عن هذه الشبهة بقوله : ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ الذى يَعْلَمُ السر فِى السموات والأرض إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾ وفيه أبحاث :

(101/557)

البحث الأول : في بيان أن هذا كيف يصلح أن يكون جواباً عن تلك الشبهة ؟ وتقريره ما قدمنا أنه عليه السلام تحداهم بالمعارضة وظهر عجزهم عنها ولو كان عليه السلام أتى بالقرآن بأن استعان بأحد لكان من الواجب عليهم أيضاً أن يستعينوا بأحد فيأتوا بمثل هذا القرآن ، فلما عجزوا عنه ثبت أنه وحي الله وكلامه ، فلهذا قال : ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ الذى يَعْلَمُ السر ﴾ وذلك لأن القادر على تركيب ألفاظ القرآن لا بد وأن يكون عالماً بكل المعلومات ظاهرها وخافيها من وجوه : أحدها : أن مثل هذه الفصاحة لا يتأتى إلا من العالم بكل المعلومات وثانيها : أن القرآن مشتمل على الإخبار عن الغيوب ، وذلك لا يتأتى إلا من العالم

بكل المعلومات وثالثها : أن القرآن مبرأ عن النقص وذلك لا يتأتى إلا من العالم على ما قال تعالى :

﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اختلافا كَثِيراً ﴾ [النساء : 82] ورابعها : اشتماله على الأحكام التي هي مقتضية لمصالح العالم ونظام العباد ، وذلك لا يكون إلا من العالم بكل المعلومات وخامسها : اشتماله على أنواع العلوم وذلك لا يتأتى إلا من العالم بكل المعلومات ، فلما دل القرآن من هذه الوجوه على أنه ليس إلا كلام بكل المعلومات لا جرم اكتفى في جواب شبههم بقوله : ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ الذى يَعْلَمُ السر ﴾ .

(102/557)

البحث الثاني : اختلفوا في المراد بالسر ، فمنهم من قال المعنى أن العالم بكل سر في السموات والأرض هو الذي يمكنه إنزال مثل هذا الكتاب ، وقال أبو مسلم : المعنى أنه أنزله من يعلم السر فلو كذب عليه لانتقم منه لقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأقاويل لأَخَذْنَا مِنْهُ باليمين ﴾ [الحاقة : 44] وقال آخرون : المعنى أنه يعلم كل سر خفي في السموات والأرض ، ومن جملته ما تسرونه أنتم من الكيد لرسوله مع علمكم بأن ما يقوله حق ضرورة ، وكذلك باطن أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وبراءته مما تتهمونه به ،

وهو سبحانه مجازيكم ومجازيه على ما علم منكم وعلم منه .

البحث الثالث : إنما ذكر الغفور الرحيم في هذا الموضع لوجهين : الأول : قال أبو مسلم المعنى أنه إنما أنزله لأجل الإنذار فوجب أن يكون غفوراً رحيماً غير مستعجل في العقوبة الثاني : أنه تنبيه على أنهم استوجبوا بمكايدتهم هذه أن يصب عليهم العذاب صباً ولكن صرف ذلك عنهم كونه غفوراً رحيماً يمهل ولا يعجل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 24 صـ 44.46 ﴾

(103/557)

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾

يعني مشركي قريش ، وقال ابن عباس : القائل منهم ذلك النضر بن الحارث .

﴿ إِنْ هَذَآ ﴾ يعني القرآن

. ﴿ إِلاَّ إِفْكٌ افْتَرَاهُ ﴾ أي كذب اختلقه

. ﴿ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ﴾ وفيمن زعموا أنه أعانه عليه أربعة أقاويل

: أحدها : قوم من اليهود ، قاله مجاهد .

الثاني : عبد الله الحضرمي ، قاله الحسن .

الثالث : عدّاس غلام عتبة ، قاله الكلبي .

والرابع : أبو فكيهة الرومي ، قاله الضحاك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

(104/557)

وقال ابن عطية :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ ﴾

المراد ب ﴿ الذين كفروا ﴾ قريش وذلك أن بعضهم قال ﴿ هذا إفك ﴾ وكذب ﴿ افتراه ﴾ محمد واختلف المتأولون في " القوم " المعينين على زعم قريش ، فقال مجاهد أشاروا إلى قوم من اليهود ، وقال ابن عباس أشاروا إلى عبيد كانوا للعرب من الفرس أحدهم أبو فكيهة مولى الحضرميين وجبر ويسار وعداس وغيرهم ، ثم أخبر الله تعالى عنهم أنهم ما ﴿ جاؤوا ﴾ إلا إفكاً ﴿ وزوراً ﴾ أي ما قالوا إلا باطلاً وبهتاناً ، و" الزور " تحسين الباطل هذا عرفه وأصله التحسين مطلقاً ، ومنه قول عمر رضي الله عنه : فأردت أن أقدم بين يدي أبي بكر مقالة كنت زورتها . وقوله . ﴿ وقالوا أساطير الأولين

﴾ ، قال ابن عباس يعني بذلك قول النضر بن الحارث ، وذلك أن كل ما في القرآن من ذكر ﴿ أساطير الأولين ﴾ فإنما هو بسبب قول النضر ابن الحارث حسب الحديث المشهور في ذلك ثم رموا محمداً صلى الله عليه وسلم بأنه ﴿ اكتتبها ﴾ وقرأ طلحة بن مصرف " اكتُتِبها " بضم التاء الأولى وكسر الثانية على معنى اكتتب له ، ذكرها أبو الفتح ، وقرأ طلحة " تُتلى " بتاء بدل الميم ، ثم أمره تعالى أن يقول إن الذي أنزله هو الله ﴿ الذي يعلم ﴾ سر جميع الأشياء التي ﴿ في السماوات والأرض ﴾ ثم أعلم بأنه غفور رحيم ليرجي كل سامع في عفوه ورحمته مع التوبة والإنابة ، والمعنى أن الله غفور رحيم في إبقائه على أهل هذه المقالات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(105/557)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وقال الذين كفروا ﴾

يعني : مشركي قريش ؛ وقال مقاتل : هو قول النَّضْر بن الحارث من بني عبد الدار ﴿ إِنْ هذا ﴾ أي : ما هذا ، يعنون القرآن ﴿ إِلا إِفك ﴾ أي : كذب ﴿ افتراه ﴾ أي : اختلقه من تلقاء نفسه ﴿ وأعانه عليه قوم آخَرون ﴾ قال مجاهد : يعنون اليهود ؛ وقال مقاتل :

أشاروا إلى عدّاس مولى حويطب ، ويسار غلام عامر بن الحضرمي ، وجبر مولى لعامر أيضاً ، وكان الثلاثة من أهل الكتاب .

قوله تعالى : ﴿ فقد جاؤوا ظُلماً وزُوراً ﴾ قال الزجاج : المعنى : فقد جاؤوا بظلم وزور ، فلما سقطت الباء أفضى الفعل فنصب ، والزُّور : الكذب .

﴿ وقالوا أساطير الأوَّلين ﴾ المعنى : وقالوا : الذي جاء به أساطير الأولين ؛ وقد بيَّنَّا ذلك في [الأنعام : 25] .

قال المفسرون : والذي قال هذا هو النضر بن الحارث .

ومعنى ﴿ اكْتَتَبَها ﴾ أَمر أن تُكْتَب له .

وقرأ ابن مسعود ، وإبراهيم النخعي ، وطلحة بن مصرف : ﴿ اكْتُتِبَها ﴾ برفع التاء الأولى وكسر الثانية ، والابتداءُ على قراءتهم برفع الهمزة ﴿ فهي تُملَى عليه ﴾ أي : تُقرَأ عليه ليحفظها لا ليكتبها ، لأنه لم يكن كاتباً .

﴿ بُكرة وأصيلاً ﴾ أي : غُدوة وعشيّاً ﴿ قل ﴾ لهم يا محمد : ﴿ أَنْزَلَه ﴾ يعني : القرآن ﴿ الذي يعلم السرَّ ﴾ أي لا يخفى عليه شيء ﴿ في السماوات والأرض ﴾ .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير حـ 6 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الذين كفروا ﴾

يعني مشركي قريش .

وقال ابن عباس : القائل منهم ذلك النضر بن الحرث ؛ وكذا كلّ ما في القرآن فيه ذكر الأساطير .

قال محمد بن إسحاق : وكان مؤذياً للنبيّ صلى الله عليه وسلم .

﴿ إِنْ هذا ﴾ يعني القرآن .

﴿ إِلاَّ إِفْكٌ افتراه ﴾ أي كذب اختلقه .

﴿ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ ﴾ يعني اليهود ؛ قاله مجاهد .

وقال ابن عباس : المراد بقوله : ﴿ قَوْمٌ آخَرُونَ ﴾ أبو فُكَيْهة مولى بني الحضرمي وعدّاس وجبر ، وكان هؤلاء الثلاثة من أهل الكتاب .

وقد مضى في "النحل" ذكرهم .

﴿ فَقَدْ جَآءُوا ظُلْماً ﴾ أي بظلم .

وقيل : المعنى فقد أتوا ظلماً .

﴿ وَزُوراً وقالوا أَسَاطِيرُ الأولين ﴾ قال الزجاج : واحد الأساطير أسطورة ؛ مثل

أحدوثة وأحاديث .

وقال غيره : أساطير جمع أسطار ؛ مثل أقوال وأقاويل .

﴿ اكتتبها ﴾ يعني محمداً .

﴿ فَهِيَ تملى عَلَيْهِ ﴾ أي تلقى عليه وتقرأ .

﴿ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ حتى تحفظ .

و﴿ تملى ﴾ أصله تُمْلَل ؛ فأبدلت اللام الأخيرة ياء من التضعيف : كقولهم : تَقَضَّى البازي ؛ وشبهه .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ الذي يَعْلَمُ السر فِي السماوات والأرض ﴾ أي قل يا محمد أنزل هذا القرآن الذي يعلم السر ، فهو عالم الغيب ، فلا يحتاج إلى معلم .

وذكر ﴿ السر ﴾ دون الجهر ؛ لأنه من علم السر فهو في الجهر أعلم .

ولو كان القرآن مأخوذاً من أهل الكتاب وغيرهم لما زاد عليها ، وقد جاء بفنون تخرج عنها ، فليس مأخوذاً منها .

وأيضاً ولو كان مأخوذاً من هؤلاء لتمكن المشركون منه أيضاً كما تمكن محمد صلى الله عليه وسلم ؛ فهلا عارضوه فبطل اعتراضهم من كل وجه .

﴿ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾ يريد غفوراً لأوليائه رحيماً بهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 13 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ وقال الذين كفروا ﴾ .

قال ابن عباس : هو النضر بن الحارث وأتباعه ، والإفك أسوأ لكذب .

﴿ وأعانه عليه قوم آخرون ﴾ ، قال مجاهد : قوم من اليهود ألقوا أخبار الأمم إليه .

وقيل : عداس مولى حويطب بن عبد العزّى ، ويسار مولى العلاء بن الحضرمي ، وجبر مولى عامر وكانوا كتابيين يقرؤون التوراة أسلموا وكان الرسول يتعهدهم .

وقال ابن عباس : أشاروا إلى قوم عبيد كانوا للعرب من الفرس أبو فكيهة مولى الحضرميين . وجبر ويسار وعداس وغيرهم .

وقال الضحاك : عنوا أبا فكيهة الرومي .

وقال المبرد : عنوا بقوم آخرين المؤمنين لأن آخر لا يكون إلاّ من جنس الأول انتهى .

وما قاله لا يلزم للاشتراك في جنس الإنسان ، ولا يلزم الاشتراك في الوصف .

ألا ترى إلى قوله ﴿ فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة ﴾ فقد اشتركتا في مطلق الفئة ، واختلفتا في الوصف .

والظاهر أن الضمير في ﴿ فقد جاؤوا ﴾ عائد على ﴿ الذين كفروا ﴾ والمعنى أن هؤلاء الكفار وردوا ظلماً كما تقول : جئت المكان فيكون جاء متعدياً بنفسه قاله الكسائي ، ويجوز أن يحذف الجار أي بظلم وزور ويصل الفعل بنفسه .

وقال الزجاج : إذا جاء يستعمل بهذين الاستعمالين وظلمهم أن جعلوا العربي يتلقن من العجمي كلاماً عربياً أعجز بفصاحته جميع فصحاء العرب ، والزور إن بهتوه بنسبة ما هو بريء منه إليه .

وقيل : الضمير عائد على قوم آخرين وهو من كلام الكفار ، والضمير في ﴿ وقالوا ﴾ للكفار وتقدم الكلام على ﴿ أساطير الأولين ﴾ ﴿ اكتتبها ﴾ أي جمعها من قولهم كتب الشيء أي جمعه أو من الكتابة أي كتبها بيده ، فيكون ذلك من جملة كذبهم عليه وهم يعلمون أنه لا يكتب ويكون كاستكب الماء واصطبه أي سكبه وصبه .

ويكون لفظ افتعل مشعراً بالتكلف والاعتمال أو بمعنى أمر أن يكتب كقولهم احتجم وافتصد إذا أمر بذلك .

﴿ فهي تُملى عليه ﴾ أي تلقى عليه ليحفظها لأن صورة الإلقاء على المتحفظ كصورة الإملاء على الكاتب .

و ﴿ أساطير الأولين ﴾ خبر مبتدأ محذوف أي هو أو هذه ﴿ أساطير ﴾ و ﴿ اكتتبها ﴾ خبر ثان ، ويجوز أن يكون ﴿ أساطير ﴾ مبتدأ و ﴿ اكتتبها ﴾ الخبر .

وقرأ الجمهور ﴿ اكتتبها ﴾ مبنياً للفاعل .

وقراءة طلحة مبنياً للمفعول والمعنى ﴿ اكتتبها ﴾ كاتب له لأنه كان أمّياً لا يكتب بيده وذلك من تمام إعجازه ، ثم حذفت اللام فأفضى الفعل إلى الضمير فصار ﴿ اكتتبها ﴾ إياه كاتب كقوله ﴿ واختار موسى قومه ﴾ ثم بنى الفعل للضمير الذي هو إياه فانقلب مرفوعاً مستتراً بعد أن كان بارزاً منصوباً وبقي ضمير الأساطير على حاله ، فصار ﴿ اكتتبها ﴾ كما ترى انتهى .

وهو من كلام الزمخشري ولا يصح ذلك على مذهب جمهور البصريين لأن ﴿ اكتتبها ﴾ له كاتب وصل فيه اكتتب لمفعولين أحدهما مسرح وهو ضمير الأساطير ، والآخر مقيد وهو ضميره عليه السلام .

وثم اتسع في الفعل فحذف حرف الجر فصار ﴿ اكتتبها ﴾ إياه كاتب فإذا بني هذا الفعل للمفعول إنما ينوب عن الفاعل المفعول المسرح لفظاً وتقديراً لا المسرح لفظاً المقيد تقديراً ، فعلى هذا كان يكون التركيب اكتتبته لا ﴿ اكتتبها ﴾ وعلى هذا الذي قلناه جاء السماع عن العرب في هذا النوع الذي أحد المفعولين فيه مسرح لفظاً وتقديراً والآخر مسرح لفظاً لا

تقديراً .

قال الشاعر وهو الفرزدق :

ومنا الذي اختير الرجال سماحة . . .

وجوداً إذا هب الرياح الزعازع

ولو جاء على ما قرره الزمخشري لجاء التركيب ومنا الذي اختيره الرجال لأن اختار تعدى إلى الرجال على إسقاط حرف الجر إذ تقديره اختير من الرجال .

والظاهر أن قوله ﴿ اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً ﴾ من تمام قول الكفار .

وعن الحسن أنه قول الله سبحانه بكذبهم وإنما يستقيم أن لو فتحت الهمزة في ﴿ اكتتبها ﴾ للاستفهام الذي في معنى الإنكار ، ووجهه أن يكون نحو قوله :

أفرح إن أرزأ الكرام وإن . . .

آخذ ذوداً شصايصاً نبلا

وحق للحسن أن يقف على الأولين .

(109/557)

والظهر تقييد الإملاء بوقت انتشار الناس وحين الإيواء إلى مساكنهم وهما البكرة والأصيل ، أو يكونان عبارة عن الديمومة .

وقرأ طلحة وعيسى فهي تتلى بالتاء بدل الميم .

﴿ قل أنزله الذي يعلم السر ﴾ أي كل سر خفي ، ورد عليهم بهذا وهو وصفه تعالى بالعلم لأن هذا القرآن لم يكن ليصدر إلاّ من علام بكل المعلومات لما احتوى عليه من إعجاز التركيب الذي لا يمكن صدوره من أحد ، ولو استعان بالعالم كلهم ولاشتماله على مصالح العالم وعلى أنواع العلوم واكتفى بعلم السر لأن ما سواه أولى أن يتعلق علمه به ، أو ﴿ يعلم ﴾ ما تسرون من الكيد لرسوله مع علمكم ببطل ما تقولون فهو مجازيكم ﴿ إنه كان غفوراً رحيماً ﴾ إطماع في أنهم إذا تابوا غفر لهم ما فرط من كفرهم ورخمهم .

أو ﴿ غفوراً رحيماً ﴾ في كونه أمهلكم ولم يعاجلكم على ما استوجبتموه من العقاب بسبب مكابرتكم ، أو لما تقدم ما يدل على العقاب أعقبه بما يدل على القدرة عليه لأن المتصف بالغفران والرحمة قادر على أن يعاقب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(110/557)

وقال أبو السعود :

﴿ وَقَالَ الذين كَفَرُواْ إِنْ هذا إِلاَّ إِفْكٌ ﴾

(111/557)

شروعٌ في حكاية إباطيلِهم المتعلّقةِ بالمنزِّل والمنزَّل عليه معاً وإبطالِها . والموصولُ إمَّا عبارةٌ عن غُلاتِهم في الكفر والطُّغيانِ وهم النَّضرُ بنُ الحارث ، وعبدُ اللَّهِ بنُ أُمَيَّةَ ، ونوفلُ بنُ خُويلدٍ ، ومَن ضامّهم . ورُوي عن الكَلْبيّ ومُقاتلٍ أنَّ القائلَ هُو النَّضرُ بنُ الحارث . والجمعُ لمشايعةِ الباقين له في ذلك وإمَّا عن كلِّهم ، ووضعُ الموصولِ موضعَ ضميرِهم لذمِّهم بما في حيِّز الصِّلةِ والإيذانِ بأنَّ ما تفوَّهوا به كفرٌ عظيمٌ وفي كلمةِ (هذا) حطٌّ لرتبة المشارِ إليه أي ما هذا إلا كذبٌ مصروفٌ عن وجهِه ﴿ افتراه ﴾ يريدون أنَّه اختلقَه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ﴿ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ ﴾ أي على اختلاقِه ﴿ قَوْمٌ ءاخَرُونَ ﴾ يعنُون اليَهودَ بأنْ يُلقوا إليه أخبار الأممِ الدَّارجةِ وهو يعبِّر عنها بعبارتِه . وقيل : هما جبرٌ ويسارٌ كانا يصنعانِ السَّيفَ بمكَّةَ ويقرآنِ التَّوراةَ والإنجيلَ . وقيل : هو عابسٌ وقد مرَّ تفصيلُه في سورة النَّحلِ ﴿ فَقَدْ جاءُوا ظُلْماً ﴾ منصوبٌ بجاءوا فإنَّ جاءَ وأَتَى يستعملانِ في معنى فَعَل فيُعدَّيانِ تعديتَه أو بنزعِ الخافضِ أي بظلمٍ قاله الزَّجَّاجُ . والتَّنوينُ للتَّفخيمِ أي جاءوا بما قالُوا

ظلماً هائلاً عظيماً لا يُقادر قَدرُه حيث جعلُوا الحقَّ البحتَ الذي لا يأتيه الباطلُ من بين يديهِ ولا من خلفِه إفكاً مُفترى من قبل البشرِ وهو من جهة نظمِه الرَّائقِ وطرزه الفائقِ بحيث لو اجتمعتِ الإنسُ والجنُّ على مباراتِه لعجزُوا عن الإتيان بمثل آيةٍ من آياتِه ومن جهة اشتمالِه على الحِكَمِ الخفيَّةِ والأحكامِ المستتبعةِ للسَّعاداتِ الدِّينيةِ والدُّنيويَّةِ والأمور الغيبيَّةِ بحيثُ لا يناله عقولُ البشرِ ولا يفي بفهمه القُوى والقُدر ﴿ وَزُوراً ﴾ أي كذباً كبيراً لا يُبلغ غايتُه حيث نسبوا إليه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ما هو بريءٌ منه . والفاء

(112/557)

لترتيبِ ما بعدها على ما قبلها لكن لا على أنَّهما أمرانِ مُتغايران حقيقة يقع أحدُهما عقيب الآخرِ أو يحصل بسببه بل على أنَّ الثَّانِي هو عينُ الأوَّلِ حقيقة وإنَّما التَّرتيبُ بحسب التَّغايرِ الاعتباريِّ . وقد لتحقيقِ ذلك المعنى فإنَّ ما جاءوه من الظُّلمِ والزُّورِ هو عينُ ما حُكي عنهم لكنه لما كان مُغايراً له في المفهوم وأظهرَ منه بُطلاناً رُتِّب عليه بالفاء ترتيبَ اللازم على الملزوم تَهويلاً لأمره .

﴿ وَقَالُواْ أساطير الأولين ﴾ بعد ما جعلوا الحقَّ الذي لا محيدَ عنه إفكاً مختلَقاً بإعانة البشرِ بيَّنوا على زعمهم الفاسدِ كيفيَّةَ الإعانةِ . والأساطيرُ جمع أسطارٍ أو أُسطورةٍ

كأُحدوثةٍ وهي ما سطرَه المتقدّمون من الخُرافاتِ ﴿ اكتتبها ﴾ أي كتبها لنفسِه على الإسناد المجازيّ أو استكتبَها . وقُرِىء على البناءِ للمفعول لأنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أُميٌّ . وأصله اكتتبها له كاتبٌ فحذف اللامُ وأُفضيَ الفعلُ إلى الضَّميرِ فصار اكتتبَها إيَّاه كاتبٌ ثم حُذف الفاعلُ لعدم تعلُّقِ الغرضِ العلميّ بخصوصِه وبُني الفعلُ للضَّميرِ المنفصلِ فاستترَ فيه ﴿ فَهِيَ تملى عَلَيْهِ ﴾ أي تُلقي عليه تلك الأساطيرُ بعد اكتتابِها ليحفظَها من أفواهِ مَن يُمليها عليه من ذلك المكتتب لكونِه أميّاً لا يقدرُ على أنْ يتلقَّاها منه بالقراءةِ أو تملي على الكاتب على أنَّ معنى اكتتبها أرادَ اكتتابَها أو استكتابَها . ورجعُ الضَّميرِ المجرورِ إليه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لإسنادِ الكتابةِ في ضمن الاكتتابِ إليه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ . ﴿ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ أي دائماً أو خُفية قبل انتشارِ النَّاسِ حين يأوون إلى مساكِنهم . انظُر إلى هذهِ الرُّتبةِ من الجراءةِ العظيمةِ قاتلهم الله أنَّى يُؤفكون .

(113/557)

﴿ قُلْ ﴾ لهم ردًّا عليهم وتحقيقاً للحقِّ ﴿ أَنزَلَهُ الذى يَعْلَمُ السر فِى السموات والأرض ﴾ وصفه تعالى بإحاطةِ علمِه بجميع المعلومات الجليَّةِ والخفيَّةِ للإيذان بانطواءِ ما أنزله على أسرارٍ مطويَّةٍ عن عقول البشر مع ما فيه من التَّعريضِ بمجازاتِهم بجناياتهم المحكيَّةِ التي

هي من جُملة معلوماتِه تعالى أي ليس ذلك مِمَّا يُفترى ويُفتعل بإعانة قومٍ وكتابة آخرين من الأحاديثِ المُلفَّقة وأساطيرِ الأوَّلينَ بل هو أمر سماويٌّ أنزله الله الذي لا يعزبُ عن علمه شيءٌ من الأشياءِ وأودع فيه فنونَ الحكمِ والأسرارِ على وجهٍ بديعٍ لا يحومُ حوله الأفهامُ حيث أعجزَكم قاطبةً بفصاحتِه وبلاغتِه وأخبركم بمغيَّباتٍ مستقبلةٍ وأمورٍ مكنونةٍ لا يُهتدى إليها ولا يُوقف عليها إلا بتوفيق العليم الخبيرِ وقد جعلتمُوه إفكاً مُفترى من قبيل الأساطير واستوجبتُم بذلك أنْ يُصَبَّ عليكم سوطُ العذابِ صبّاً . فقولُه تعالى : ﴿ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾ تعليلٌ لِمَا هو المشاهد من تأخير العقوبة أي أنَّه تعالى أزلاً وأبداً مستمرٌّ على المغفرةِ والرَّحمةِ المستتبعين للتَّأخيرِ فلذلك لا يُعجِّلُ بعقوبتكم على ما تقولون في حقِّه مع كمال استيجابِه إيَّاها وغاية قُدرتِه تعالى عليها . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 6 صـ ﴾

(114/557)

وقال الآلوسى :

﴿ وَقَالَ الذين كَفَرُواْ إِنْ هذا إِلاَّ إِفْكٌ ﴾

القائلون كما أخرجه جمع عن قتادة هم مشركو العرب لا جميع الكفار بقرينة ادعاء إعانة

بعض أهل الكتاب له صلى الله عليه وسلم وقد سمى منهم في بعض الروايات النضر بن الحرث .

وعبد الله بن أمية .

ونوفل بن خويلد ، ويجوز أن يراد غلاتهم كهؤلاء ومن ضامهم ، وروى عن ابن عباس ما يؤيده ، وروى عن الكلبي .

ومقاتل أن القائل هو النضر والجمع لمشايعة الباقين له في ذلك ، ومن خص ضمير ﴿ اتخذوا ﴾ [الفرقان : 3] بمشركي العرب وجعل الموصول هنا عبارة عنهم كلهم جعل وضع الموصول موضع ضميرهم لذمّهم بما في حيز الصلة والإيذان بأ ما تفوهوا به كفر عظيم ، وفي كلمة ﴿ هذا ﴾ حط لرتبة المشار إليه أي قالوا ما هذا إلا كذب مصروف عن وجهه ﴿ افتراه ﴾ يريدون أنه اهترعه رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم ينزل عليه عليه الصلاة والسلام ﴿ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ ﴾ أي على افترائه واختراعه أو على الإفك ﴿ قَوْمٌ ءاخَرُونَ ﴾ يعنون اليهود بأن يلقوا إليه صلى الله عليه وسلم أخبار الأمم الدارجة وهو عليه الصلاة والسلام يعبر عنها بعبارته ، وقيل : هم عداس ، وقيل : عائش مولى حويطب بن عبد العزى .

ويسار مولى العلاء بن الحضرمي .

وجبر مولى عامر وكانوا كتابيين يقرؤن التوراة أسلموا وكان الرسول صلى الله عليه وسلم

يتعهدهم فقيل ما قيل ، وقال المبرد : عنوا بقوم آخرين المؤمنين لأن آخر لا يكون إلا من جنس الأول ، وفيه أن الاشتراك في الوصف غير لازم ألا ترى قوله تعالى : ﴿ فِئَةٌ تقاتل فِى سَبِيلِ الله وأخرى كَافِرَةٌ ﴾ [آل عمران : 13] ﴿ فَقَدْ جَاءوا ﴾ أي الذين كفروا كما هو الظاهر ﴿ ظُلْماً ﴾ منصوب بجاءوا فإن جاء وأتى يستعملان ف يمعنى فعل فيتعديان تعديته كما قال الكسائي ، واختار هذا الوجه الطبرسي وأنشد قول طرفة

: على غير ذنب جئته غير أنني . . .

نشدت فلم أغفل حمولة معبد

(115/557)

وقال الزجاج : منصوب بنزع الخافض فهو من باب الحذف والإيصال ، وجوز أبو البقاء كونه حالاً أي ظالمين ، والأول أولى ، والتنوين فيه للتفخيم أي جاؤا بما قالوا ظلماً هائلاً عظيماً لا يقادر قدره حيث جعلوا الحق البحت الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه إفكاً مفتري من قبل البشر وهو من جهة نظمه الرائق وطرازه الفائق بحيث لو اجتمعت الإنس والجن على مباراته لعجزوا عن الإتيان بمثل آية من آياته ومن جهة اشتماله على الحكم الخفية والأحكام المستتبعة للسعادات الدينية والدنيوية والأمور الغيبية بحيث لا تناول

عقول البشر ولا تحيط بفهمه القوى والقدر ، وكذا التنوين في ﴿ وَزُوراً ﴾ أي وكذباً عظيماً لا يبلغ غايته حيث قالوا ما لا احتمال فيه للصدق أصلاً ، وسمي الكذب زوراً لا زوراره أي ميله عن جهة الحق والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها لكن لا على أنهما أمران متغايران حقيقة يقع أحدهما عقيب الآخر أو يحصل بسببه بل على أن الثاني عين الأول حقيقة وإنما الترتيب بحسب التغاير الاعتباري ، وقد لتحقيق ذلك المعنى فإن ما جاءه من الظلم والزور هو عين ما حكى عنهم لكنه لما كان مغايراً له في المفهوم وأظهر منه بطلاناً رتب عليه بالفاء رتيب اللازم على الملزوم تهويلاً لأمره كما قاله شيخ الإسلام ، وقيل : ضمير ﴿ جاؤا ﴾ عائد على قوم آخرين ، والجملة من مقول الكفار وأرادوا أن أولئك المعينين جاءوا ظلماً بإعانتهم وزوراً بما أعانوا به وهو كما ترى .

﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾

بعد ما جعلوا الحق الذي لا محيد عنه إفكاً مختلقاً بإعانة البشر بينوا على زعمهم الفاسد كيفية الإعانة ، وتقدم الكلام في أساطير وهي خبر مبتدأ محذوف أي هذه أو هو أو هي أساطير ، وقوله تعالى : ﴿ اكتتبها ﴾ خبر ثان ، وقيل : حال بتقدير قد .

(116/557)

وتعقب بأن عامل الحال إذا كان معنوياً لا يجوز حذفه كما في "المغني" ، وفيه أنه غير مسلم كما في شرحه ، وجوز أن يكون ﴿ أساطير ﴾ مبتدأ وجملة ﴿ اكتتبها ﴾ الخبر ومرادهم كتبها لنفسه والإسناد مجازي كما في بني الأمير المدين ، والمراد أمر بكتابتها أو يقال حقيقة اكتبت أمر بالكتابة فقد شاعر افتعل بهذا المعنى كاحتجم وافتصد إذا أمر بالحجامة والفصد ، وقيل قالوا ذلك لظنهم أنه يكتب حقيقة أو لمحض الافتراء عليه عليه الصلاة والسلام بناء على علمهم أنه لم يكن يكتب صلى الله عليه وسلم ، وقيل : مرادهم جمعها من كتب الشيء جمعه والجمهور على الأول .

وقرأ طلحة ﴿ اكتتبها ﴾ مبنياً للمفعول والأصل اكتتبها له كاتب فحذف اللام وأفضى الفعل إلى الضمير فصار اكتتبها إياه كتب ثم حذف الفاعل لعدم تعلق الغرض العلمي بخصوصه فبنى الفعل للمفعول وأسند للضمير فانقلب مرفوعاً مستتراً بعد أن كان منصوباً بارزاً ، وهذا مبني على جواز إقامة المفعول الغير الصريح مقام الفاعل مع وجود الصريح وهو هنا ضمير الأساطير وهو الذي ارتضاه الرضى .

وغيره ، وجمهور البصريين على عدم الجواز وتعين المفعول الصريح للإقامة فيقال عندهم : اكتتبته ، وعليه قول الفرزدق

: ومنا الذي اختير الرجال سماحة . . .

وجوداً إذا هب الرياح الزعازع

بنصب الرجال وعلى الأول كان حق التركيب اختيره الرجال بالرفع فإن الأصل اختاره من الرجال مختار وظاهر أنه إذا عمل فيه ما تقدم يصير إلى ما ذكر ﴿ فَهِيَ وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ﴾ أي تلقى تلك الأساطير عليه بعد اكتتابها ليحفظها من أفواه من يمليها عليه من ذلك المكتتب لكونه أمياً لا يقدر على أن يتلقاها منه بالقراءة فالإملاء الإلقاء للحفظ بعد الكتابة استعارة لا الإلقاء للكتابة كما هو المعروف حتى يقال : إن الظاهر العكس بأن يقال : أمليت عليه فهو يكتتبها أو المعنى أراد اكتتابها أو طلب كتابتها فامليت عليه أي عليه نفسه أو على كاتبه فالإملاء حينئذ باق على ظاهره .

وقرأ طلحة .

وعيسى تتلى بالتاء بدل الميم ﴿ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ أي دائماً أو قبل انتشار الناس وحين يأتون إلى مساكنهم وعنوا بذلك أنها تملي عليه خفية لئلا يقف الناس على حقيقة الحال ، وهذة جراءة عظيمة منهم قاتلهم الله تعالى أنى يؤفكون ، وعن الحسن أن ﴿ اكتتبها ﴾ الخ من قول الله عز وجل يكذبهم به ، وإنما يستقيم أن لو افتتحت الهمزة في ﴿ اكتتبها ﴾ للاستفهام الذي هو معنى الإنكار ، ووجه أن يكون نحو قول حضرمي بن عامر وقد خرج

يتحدث في مجلس قوم وهو في حلتين له فقال جزء بن سنان بن مؤلة : والله إن حضر مياً

لجذل بموت أخيه إن ورثه

: أفرح أن أرزأ الكرم وأن . . .

أورث زوداً شصايصا نبلا

من أبيات ، وحق للحسان على ما في "الكشاف" أن يقف على الأولين .

(118/557)

﴿ قُلْ ﴾ لهم رداً عليهم وتحقيقاً للحق ﴿ أَنزَلَهُ الذى يَعْلَمُ السر فِى السموات والأرض ﴾ وصفه تعالى بإحاطة علمه بجميع المعلومات الخفية والجلية المعلومة من باب أولى للإيذان بانطواء ما أنزله على أسرار مطوية عن عقول البشر مع ما فيه من التعريض بمجازاتهم بجناياتهم المحكية التي هي من جملة معلوماته تعالى أي ليس ذلك كما تزعمون بل هو أمر سماوي أنزله الله تعالى الذي لا يعزب عن علمه شيء من الأشياء وأودع فيه فنون الحكم والأسرار على وجه بديع لا تحوم حوله الأفهام حيث أعجزكم قاطبة بفصاحته وبلاغته وأخبركم بمغيبات مستقبلة وأمور مكنونة لا يهتدي إليها ولا يوقف إلا بتوفيق الله تعالى العليم الخبير عليها ، وإذا أرادوا ب ﴿ بكرة وأصيلاً ﴾ [الفرقان : 5] خفية عن

الناس ازداد موقع السر حسناً ، وأما التذييل بقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾ فهو للتنبيه على أنهم استوجبوا العذاب على ما هم عليه من الجنايات المحكية لكن أخر عنهم لما أنه سبحانه أزلاً وأبداً مستمر على المغفرة والرحمة المستتبعتين للتأخير فكأنه قيل إنه جل وعلا متصف بالمغفرة والرحمة على الاستمرار فلذلك لا يعجل عقوبتكم على ما أنتم عليه مع كمال استيجابه إياها وغاية قدرته سبحانه عليها ولولا ذلك لصب عليكم العذاب صباً ، وذكر الطيبي أن فيه على هذا الوجه معنى التعجب كما في قوله تعالى : ﴿ لَقَدِ استكبروا فِى أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوّاً كَبِيراً ﴾ [الفرقان : 21] .

(119/557)

وجوز أن يكون الكلام كناية عن الاقتدار العظيم على عقوبتهم لأنه لا يوصف بالمغفرة والرحمة إلا القادر على العقوبة ، وفي إيثارها تعيير لهم ونعي على فعلهم يعني أنكم فيما أنتم عليه بحيث يتصدى لعذابكم من صفته المغفرة والرحمة وليس بذاك ، وقال "صاحب الفرائد" : يمكن أن يقال : ذكر المغفرة والرحمة بعد ذلك لأجل أن يعرفوا أن هذه الذنوب العظيمة المتجاوزة عن الحد مغفورة إن تابوا وأن رحمته واصلة إليهم بعدها وأن لا ييأسوا

من رحمته تعالى ما فرط منهم مع إصرارهم على ما هم عليه من المعاداة والمخاصمة الشديدة وهو كما ترى. انتهى انتهى. اهـ ﴿ روح المعانى حـ 18 صـ ﴾

(120/557)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا (1) ﴾

تكلم سبحانه في هذه السورة على التوحيد لأنه أقدم وأهمّ ، ثم في النبوّة لأنها الواسطة ، ثم في المعاد لأنه الخاتمة .

وأصل تبارك مأخوذ من البركة ، وهي : النماء والزيادة ، حسية كانت أو عقلية .

قال الزجاج : تبارك تفاعل ، من البركة .

قال : ومعنى البركة : الكثرة من كل ذي خير ، وقال الفراء : إن تبارك وتقدّس في العربية واحد ، ومعناهما : العظمة .

وقيل : المعنى تبارك عطاؤه أي : زاد وكثر .

وقيل : المعنى دام وثبت .

قال النحاس : وهذا أولاها في اللغة ، والاشتقاق من برك الشيء إذا ثبت ، ومنه برك الجمل

، أي : دام وثبت .

واعترض ما قاله الفراء : بأن التقديس إنما هو من الطهارة ، وليس من ذا في شيء .

قال العلماء : هذه اللفظة لا تستعمل إلاّ لله سبحانه ، ولا تستعمل إلاّ بلفظ الماضي ، والفرقان القرآن ، وسمي فرقاناً : لأنه يفرق بين الحقّ والباطل بأحكامه ، أو بين المحق والمبطل ، والمراد بعبده : نبينا صلى الله عليه وسلم .

ثم علل التنزيل : ﴿ لِيَكُونَ للعالمين نَذِيراً ﴾ فإن النذارة هي الغرض المقصود من الإنزال ، والمراد محمد صلى الله عليه وسلم ، أو الفرقان ، والمراد بالعالمين هنا الإنس والجنّ ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم مرسل إليهما ، ولم يكن غيره من الأنبياء مرسلاً إلى الثقلين ، والنذير : المنذر أي : ليكون محمد صلى الله عليه وسلم منذراً ، أو ليكون إنزال القرآن منذراً ، ويجوز أن يكون النذير هنا بمعنى المصدر للمبالغة أي : ليكون إنزاله إنذاراً ، أو ليكون محمد إنذاراً ، وجعل الضمير للنبيّ صلى الله عليه وسلم أولى ، لأن صدور الإنذار منه حقيقة ، ومن القرآن مجاز ، والحمل على الحقيقة أولى ، ولكونه أقرب مذكور .

(121/557)

وقيل : إن رجوع الضمير إلى الفرقان أولى لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ هذا القرءان يِهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء : 9] ،

ثم إنه سبحانه وصف نفسه بصفات أربع : الأولى ﴿ لَّهُ مُلْكُ السموات والأرض ﴾ دون غيره ، فهو المتصرف فيهما ، ويحتمل : أن يكون الموصول الآخر بدلاً ، أو بياناً للموصول الأوّل ، والوصف أولى ، وفيه تنبيه على افتقار الكلّ إليه في الوجود ، وتوابعه من البقاء ، وغيره ، والصفة الثانية ﴿ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً ﴾ ، وفيه ردّ على النصارى ، واليهود .

والصفة الثالثة : ﴿ وَلَم يَكُنْ لَّهُ شَرِيكٌ فِي الملك ﴾ ، وفيه ردّ على طوائف المشركين من الوثنية ، والثنوية ، وأهل الشرك الخفيّ .

والصفة الرابعة : ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ من الموجودات ﴿ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً ﴾ أي : قدّر كل شيء مما خلق بحكمته على ما أراد ، وهيأه لما يصلح له .

قال الواحدي : قال المفسرون : قدر له تقديراً من الأجل والرزق ، فجرت المقادير على ما خلق .

وقيل : أريد بالخلق هنا مجرّد الإحداث ، والإيجاد مجازاً من غير ملاحظة معنى التقدير ، وإن لم يخل عنه في نفس الأمر ، فيكون المعنى : أوجد كل شيء فقدّره لئلا يلزم التكرار .

ثم صرّح سبحانه بتزييف مذاهب عبدة الأوثان ، فقال ﴿ واتخذوا مِن دُونِهِ ءَالِهَةً ﴾ ، والضمير في ﴿ اتخذوا ﴾ للمشركين ، وإن لم يتقدّم لهم ذكر ، لدلالة نفي الشريك عليهم أي

: اتخذ المشركون لأنفسهم متجاوزين الله آلهة ﴿ لاَ يَخْلُقُونَ شَيْئًا ﴾ ، والجملة في محل نصب صفة لآلهة أي : لا يقدرون على خلق شيء من الأشياء ، وغلب العقلاء على غيرهم ، لأن في معبودات الكفار الملائكة ، وعزير والمسيح ﴿ وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ أي : يخلقهم الله سبحانه .

وقيل : عبر عن الآلهة بضمير العقلاء جرياً على اعتقاد الكفار أنها تضرّ وتنفع .

وقيل : معنى ﴿ وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ : أن عبدتهم يصوّرونهم .

(122/557)

ثم لما وصف سبحانه نفسه بالقدرة الباهرة وصف آلهة المشركين بالعجز البالغ ، فقال : ﴿ وَلاَ يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرّاً وَلاَ نَفْعاً ﴾ أي : لا يقدرون على أن يجلبوا لأنفسهم نفعاً ، ولا يدفعوا عنها ضرراً ، وقدّم ذكر الضرّ ، لأن دفعه أهمّ من جلب النفع ، وإذا كانوا بحيث لا يقدرون على الدفع والنفع فيما يتعلق بأنفسهم ، فكيف يملكون ذلك لمن يعبدهم ؟ ثم زاد في بيان عجزهم ، فنصص على هذه الأمور ، فقال : ﴿ وَلاَ يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلاَ حَيَاةً وَلاَ نُشُوراً ﴾ أي : لا يقدرون على إماتة الأحياء ، ولا إحياء الموتى ، ولا بعثهم من القبور ، لأن النشور الإحياء بعد الموت ، يقال : أنشر الله الموتى ، فنشروا ، ومنه قول الأعشى :

حتى يقول الناس مما رأوا . . . يا عجباً للميت الناشر

ولما فرغ من بيان التوحيد ، وتزييف مذاهب المشركين شرع في ذكر شبه منكري النبوّة ، فالشبهة الأولى ما حكاه عنهم بقوله ﴿ وَقَالَ الذين كَفَرُواْ إِنْ هذا إِلاَّ إِفْكٌ ﴾ أي : كذب ﴿ افتراه ﴾ أي : اختلقه محمد صلى الله عليه وسلم ، والإشارة بقوله : ﴿ هذا ﴾ إلى القرآن ﴿ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ ﴾ أي : على الاختلاق ﴿ قَوْمٌ ءاخَرُونَ ﴾ يعنون من اليهود .

قيل : وهم أبو فكيهة يسار مولى الحضرمي ، وعداس مولى حويطب بن عبد العزى ، وجبر مولى ابن عامر ، وكان هؤلاء الثلاثة من اليهود ، وقد مرّ الكلام على مثل هذا في النحل .

ثم ردّ الله سبحانه عليهم ، فقال : ﴿ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْماً وَزُوراً ﴾ أي : فقد قالوا ظلماً هائلاً عظيماً ، وكذباً ظاهراً ، وانتصاب ﴿ ظلماً ﴾ ب ﴿ جاءُوا ﴾ ، فإن جاء قد يستعمل استعمال أتى ، ويعدّى تعديته .

وقال الزجاج : إنه منصوب بنزع الخافض ، والأصل جاءُوا بظلم .

(123/557)

وقيل : هو منتصب على الحال ، وإنما كان ذلك منهم ظلماً ، لأنهم نسبوا القبيح إلى من هو مبرأ منه ، فقد وضعوا الشيء في غير موضعه ، وهذا هو الظلم ، وأما كون ذلك منهم زوراً ، فظاهر لأنهم قد كذبوا في هذه المقالة .

ثم ذكر الشبهة الثانية ، فقال ﴿ وَقَالُواْ أساطير الأولين ﴾ أي : أحاديث الأوّلين ، وما سطروه من الأخبار ، قال الزجاج : واحد الأساطير أسطورة مثل أحاديث وأحدوثة ، وقال غيره : أساطير جمع أسطار مثل أقاويل وأقوال ﴿ اكتتبها ﴾ أي : استكتبها ، أو كتبها لنفسه ، ومحل اكتتبها النصب على أنه حال من أساطير ، أو محله الرفع على أنه خبر ثانٍ ، لأن أساطير مرتفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي : هذه أساطير الأوّلين اكتتبها ، ويجوز أن يكون أساطير مبتدأ ، واكتتبها خبره ، ويجوز أن يكون معنى اكتتبها جمعها من الكتب ، وهو : الجمع ، لا من الكتابة بالقلم ، والأوّل أولى .

وقرأ طلحة " اكتتبها " مبنياً للمفعول ، والمعنى : اكتتبها له كاتب ، لأنه كان أمياً لا يكتب ، ثم حذفت اللام ، فأفضى الفعل إلى الضمير ، فصار اكتتبها إياه ، ثم بنى الفعل للضمير الذي هو إياه ، فانقلب مرفوعاً مستتراً بعد أن كان منصوباً بارزاً ، كذا قال في الكشاف ، واعترضه أبو حيان ﴿ فَهِيَ تملى عَلَيْهِ ﴾ أي : تلقى عليه تلك الأساطير بعد ما اكتتبها ، ليحفظها من أفواه من يمليها عليه من ذلك المكتتب لكونه أمياً لا يقدر على أن يقرأها من ذلك المكتوب بنفسه ، ويجوز : أن يكون المعنى ، اكتتبها : أراد اكتتابها ﴿ فَهِيَ تملى عَلَيْهِ

﴿ لأنه يقال : أمليت عليه ، فهو يكتب ﴿ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ غدوة وعشياً : كأنهم قالوا : إن هؤلاء يعلمون محمداً طرفي النهار ، وقيل : معنى بكرة وأصيلاً : دائماً في جميع الأوقات .

(124/557)

فأجاب سبحانه عن هذه الشبهة بقوله ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ الذى يَعْلَمُ السر فِي السموات والأرض ﴾ أي : ليس ذلك مما يفترى ويفتعل بإعانة قوم ، وكتابة آخرين من الأحاديث الملفقة ، وأخبار الأوّلين ، بل هو أمر سماويّ أنزله الذي يعلم كلّ شيء لا يغيب عنه شيء من الأشياء ، فلهذا عجزتم عن معارضته ، ولم تأتوا بسورة منه ، وخصّ السرّ للإشارة إلى انطواء ما أنزله سبحانه على أسرار بديعة لا تبلغ إليها عقول البشر ، والسرّ : الغيب أي : يعلم الغيب الكائن فيهما ، وجملة : ﴿ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾ تعليل لتأخير العقوبة أي : إنكم وإن كنتم مستحقين لتعجيل العقوبة بما تفعلونه من الكذب على رسوله ، والظلم له ، فإنه لا يعجل عليكم بذلك ، لأنه كثير المغفرة والرحمة .

وقد أخرج ابن أبي حاتم ، عن ابن عباس : ﴿ تبارك ﴾ تفاعل من البركة .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله : ﴿ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ ﴾ قال : يهود ﴿ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْماً وَزُوراً ﴾ قال : كذباً .

(125/557)

وأخرج عبد ابن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، عن قتادة في قوله : ﴿ تَبَارَكَ الذى نَزَّلَ الفرقان على عَبْدِهِ ﴾ هو : القرآن فيه حلاله وحرامه وشرائعه ودينه ، وفرّق الله بين الحق ، والباطل ﴿ لِيَكُونَ للعالمين نَذِيراً ﴾ قال : بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم نذيراً من الله ، لينذر الناس بأس الله ، ووقائعه بمن خلا قبلكم ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً ﴾ قال : بين لكل شيء من خلقه صلاحه ، وجعل ذلك بقدر معلوم ﴿ واتخذوا مِن دُونِهِ ءالِهَةً ﴾ قال : هي الأوثان التي تعبد من دون الله ﴿ لاَ يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ وهو الله الخالق الرازق ، وهذه الأوثان تخلق ولا تخلق شيئاً ، ولا تضرّ ولا تنفع ، ولا تملك موتاً ولا حياة ولا نشوراً يعني : بعثاً ﴿ وَقَالَ الذين كَفَرُواْ ﴾ هذا قول مشركي العرب ﴿ إِنْ هذا إِلاَّ إِفْكٌ ﴾ هو الكذب ﴿ افتراه وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ ﴾ أي : على حديثه هذا ، وأمره ﴿ أساطير الأولين ﴾ كذب الأوّلين ، وأحاديثهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 4 صـ ﴾

(126/557)

وقال القاسمي :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْماً ﴾ أي : بجعل الصدق إفكاً ، والبريء عن الإعانة معيناً : ﴿ وَزُوراً ﴾ أي : باطلاً لا مصداق له ، يعلمون من أنفسهم أنه باطل وبهتان : ﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا ﴾ أي : ما سطروه , كتبها لنفسه وأخذها : ﴿ فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ ﴾ أي : تلقى عليه ليحفظها : ﴿ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ أي : دائماً .

قال ابن كثير : وهذا الكلام ، لسخافته وكذبه وبهته منهم ، يعلم كل أحد بطلانه . فإنه قد علم بالضرورة : أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لم يكن يعاني شيئاً من الكتابة ، لا في أول عمره ولا في آخره . وقد نشأ بين أظهرهم من أول مولده ، إلى أن بعثه الله نحواً من أربعين سنة ، وهم يعرفون مدخله ومخرجه وصدقه وبره ونزاهته وأمانته . وبعده عن الكذب والفجور وسائر الأخلاق الردية ، حتى إنهم كانوا يسمونه في صغره ، وإلى أن بعث بالأمين لما يعلمون من صدقه وبره . فلما أكرمه الله بما أكرمه به ، نصبوا له العداوة ، ورموه بهذه الأقوال ، التي يعلم كل عاقل براءته منها . وحاروا بما يقذفونه به ، فتارة من إفكهم يقولون : ساحر . وتارة يقولون : شاعر . وتارة يقولون : مجنون . وتارة يقولون كذاب ، قال الله تعالى : ﴿ انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً ﴾ [الإسراء : 48] و [9] ، وقال تعالى في جواب ما افتروه هنا .

(127/557)

﴿ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي : الخفيّ فيهما . إشارة إلى علمه تعالى بحالهم بالأولى . ومن مقتضاه رحمته إياهم بإنزاله ، لزيادة حاجتهم وافتقار أمثالهم إلى إخراجهم من الظلمات بأنواره . وفي طيّه ترهيب لهم بأن ما يسرونه من الكيد للنبيّ عليه الصلاة والسلام ، مع ما يتقولونه ويفترونه ، لا يعزب عن علمه . فسيجزيهم عليه بزهوق باطلهم ومحو أثرهم ، وسموق حقه وظهور أمره : ﴿ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً ﴾ تعليل لما هو مشاهد من تأخير عقوبتهم ، مع استيجابهم إياها . أي : فهو يمهل ولا يعاجل لمغفرته ورحمته . أو الوصفان كناية عن كمال قدرته على الانتقام منهم . لأنه لا يوصف بالمغفرة إلا القادر . هذا ما يستفاد من " الكشاف " ومن تابعه ، لبيانه مطابقة ذلك لما قبله .

(128/557)

وقال ابن كثير : قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً ﴾ دعاء لهم إلى التوبة والإنابة ، وإخبار لهم بأن رحمته واسعة ، وأن حلمه عظيم ، وأن من تاب إليه تاب عليه . فهؤلاء مع كذبهم وافترائهم وفجورهم وبهتانهم وكفرهم وعنادهم ، وقولهم عن الرسول والقرآن ما قالوا ، يدعوهم سبحانه إلى التوبة ، والإقلاع عما هم فيه ، إلى الإسلام والهدى . كما قال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ أَفَلا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [المائدة : 73 - 74] وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴾ [البروج : 10] ، قال الحسن البصريّ : انظروا إلى هذا الكرم والجود . قتلوا أولياءه وهو يدعوهم إلى التوبة والرحمة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 12 صـ 433. 435 ﴾

(129/557)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ ﴾

انتقال من ذكر كفرهم في أفعالهم إلى ذكر كفرهم بأقوالهم الباطلة .

والإظهار هنا لإفادة أن مضمون الصلة هو علة قولهم هذا ، أي ما جرأهم على هذا البهتان إلا إشراكهم وتصلبهم فيه ، وليس ذلك لشبهة تبعثهم على هذه المقالة لانتفاء شبهة ذلك ، بخلاف ما حكي آنفاً من كفرهم بالله فإنهم تلقوه من آبائهم ، فالوصف الذي أجري عليهم هنا مناسب لمقالتهم لأنها أصل كفرهم .

وهذه الجملة مقابلة جملة : ﴿ تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ﴾ [الفرقان : 1] فهي المقصود من افتتاح الكلام كما آذنت بذلك فاتحة السورة .

وإنما أخرت هذه الجملة التي تقابل الجملة الأولى مع أن مقتضى ظاهر المقابلة أن تذكر هذه الجملة قبل جملة : ﴿ واتخذوا من دونه آلهة ﴾ [الفرقان : 3] اهتماماً بإبطال الكفر المتعلق بصفات الله كما تقدم آنفاً .

والقصر المشتمل عليه كلامهم المستفاد من (إنْ) النافية و (إلاّ) قصر قلب ؛ زعموا به رد دعوى أن القرآن منزل من عند الله .

وممن قال هذه المقابلة النضر بن الحارث ، وعبد الله بن أمية ، ونوفل بن خويلد .

فإسناد هذا القول إلى جميع الكفار لأنه واقع بين ظهرانيهم وكلهم يتناقلونه .

وهذه طريقة مألوفة في نسبة أمر إلى القبيلة كما يقال : بنو أسد قتلوا حجراً .

واسم الإشارة إلى القرآن حكاية لقولهم حين يسمعون آيات القرآن .

والضمير المرفوع في ﴿ افتراه ﴾ عائد إلى الرسول صلى الله عليه وسلم المعلوم من قوله :

﴿ على عبده ﴾ [الفرقان : 1] .

والإفك : الكذب .

وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ إن الذين جاءو بالإفك ﴾ في سورة النور (11) .

والإفتراء : اختلاق الأخبار ، أي ابتكارها وهو الكذب عن عمد ، وتقدم في قوله : ﴿ ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب ﴾ في سورة العقود (103) .

(130/557)

﴿ وأعانه عليه ﴾ أي على ما يقوله من القرآن قوم آخرون لقنوه بعض ما يقوله ، وأرادوا بالقوم الآخرين اليهود .

روي هذا التفسير عن مجاهد وعن ابن عباس : أشاروا إلى عبيد أربعة كانوا للعرب من الفرس وهم : عدّاس مولى حويطب بن عبد العزى ، ويسار أبو فكيهة الرومي مولى العلاء بن الحضرمي ، وفي "سيرة ابن هشام" أنه مولى صفوان بن أمية بن محرِّث ، وجبر مولى عامر .

وكان هؤلاء من موالي قريش بمكة ممن دانوا بالنصرانية وكانوا يعرفون شيئاً من التوراة والإنجيل ثم أسلموا ، وقد مر ذلك في سورة النحل ، فزعم المشركون أن الرسول صلى الله

عليه وسلم كان يتردد إلى هؤلاء سراً ويستمد منهم أخبار ما في التوراة والإنجيل .

والقصر المستفاد من قوله : ﴿ إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون ﴾ متسلط على كلتا الجملتين ، أي لا يخلو هذا القرآن من مجموع الأمرين ، هما : أن يكون افترى بعضه من نفسه ، وأعانه قوم على بعضه .

وفرع على حكاية قولهم هذا ظهور أنهم ارتكبوا بقولهم ظلماً وزوراً لأنهم حين قالوا ذلك ظهر أن قولهم زور وظلم لأنه اختلاق واعتداء .

و﴿ جاءو ﴾ مستعمل في معنى (عملوا) وهو مجاز في العناية بالعمل والقصد إليه لأن من اهتم بتحصيل شيء مشى إليه ، وبهذا الاستعمال صح تعديته إلى مفعول كما في هذه الآية .

والظلم : الاعتداء بغير حق بقول أو فعل قال تعالى : ﴿ قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه ﴾ [ص : 24] وتقدم في قوله : ﴿ ومن أظلم ممن منع مساجد الله ﴾ في سورة البقرة (114) .

والظلم الذي أتوه هو نسبتهم الرسول إلى الاختلاق فإنه اعتداء على حقه الذي هو الصدق .

والزور : الكذب ، وأحسن ما قيل في الزور : إنه الكذب المحسَّن المموَّه بحيث يشتبه بالصدق .

وكون قولهم ذلك كذباً ظاهر لمخالفته الواقع فالقرآن ليس فيه شيء من الإفك ، والذين زعموهم معينين عليه لا يستطيع واحد منهم أن يأتي بكلام عربي بالغ غاية البلاغة ومرتق إلى حد الإعجاز ، وإذا كان لبعضهم معرفة ببعض أخبار الرسل فما هي إلا معرفة ضئيلة غير محققة كشأن معرفة العامة والدهماء .

وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (5)

الضمير عائد إلى الذين كفروا ، فمدلول الصلة مراعى في هذا الضمير إيماء إلى أن هذا القول من آثار كفرهم .

الأساطير : جمع أسطورة بضم الهمزة كالأُحدوثة والأحاديث ، والأُغلوطة والأغاليط ، وهي القصة المسطورة .

وقد تقدم معناها مفصلاً عند قوله : ﴿ حتى إذا جاءوك يجادلونك يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين ﴾ في سورة الأنعام (25) .

وقائل هذه المقالة هو النضر بن الحارث العبدري قال : إن القرآن قصص من قصص الماضين .

وكان النضر هذا قد تعلم بالحيرة قصص ملوك الفرس وأحاديث رستم واسفنديار فكان يقول لقريش : أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثاً من محمد فهلُمَّ أحدثكم ؛ وكان يقول في القرآن : هو أساطير الأولين .

قال ابن عباس : كل ما ذكر فيه أساطير الأولين في القرآن فالمقصود منه قول النضر بن الحارث .

وقد تقدم هذا في سورة الأنعام وفي أول سورة يوسف .

وجملة : ﴿ اكتتبها ﴾ نعت أو حال ل ﴿ أساطير الأولين ﴾ .

والاكتتاب : افتعال من الكتابة ، وصيغة الافتعال تدل على التكلف لحصول الفعل ، أي حصوله من فاعل الفعل ، فيفيد قوله : ﴿ اكتتبها ﴾ أنه تكلف أن يكتبها .

(132/557)

ومعنى هذا التكلف أن النبي عليه الصلاة والسلام لما كان أميّاً كان إسناد الكتابة إليه إسناداً مجازياً فيؤول المعنى : أنه سأل من يكتبها له ، أي ينقلها ، فكان إسناد الاكتتاب إليه إسناداً مجازياً لأنه سببه ، والقرينة ما هو مقرر لدى الجميع من أنه أميّ لا يكتب ، ومن قوله : ﴿ فهي تملى عليه ﴾ لأنه لو كتبها لنفسه لكان يقرأها بنفسه .

فالمعنى : استنسخها .

وهذا كله حكاية لكلام النضر بلفظه أو بمعناه ، ومراد النضر بهذا الوصف ترويج بهتانه لأنه علم أن هذا الزور مكشوف قد لا يُقبل عند الناس لعلمهم بأن النبي أميّ فكيف يستمد قرآنه من كتب الأولين فهيّأ لقبول ذلك أنه كتبت له ، فاتخذها عنده فهو يناولها لمن يحسن القراءة فيملي عليه ما يقصه القرآن .

والإملاء : هو الإملال وهو إلقاء الكلام لمن يكتب ألفاظه أو يرويها أو يحفظها .

وتفريع الإملاء على الاكتتاب كان بالنظر إلى أن إملاءها عليه ليقرأها أو ليحفظها .

والبُكْرة : أول النهار .

والأصيل : آخر المساء ، وتقدم في قوله : ﴿ بالغدوّ والآصال ﴾ في آخر الأعراف (205) ، أي تملى عليه طرفي النهار .

وهذا مستعمل كناية عن كثرة الممارسة لتلقي الأساطير .

قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (6)

لقن الله رسوله الجواب لرد بهتان القائلين إن هذا القرآن إلا إفك ، وإنه أساطير الأولين ، بأنه أنزله الله على رسوله .

وعبر عن منزل القرآن بطريق الموصول لما تقتضيه الصلة من استشهاد الرسول الله على ما في سره لأن الله يعلم كل سر في كل مكان .

فجملة الصلة مستعملة في لازم الفائدة وهو كون المتكلم ، أي الرسول ، عالماً بذلك .

وفي ذلك كناية عن مراقبته الله فيما يبلغه عنه .

(133/557)

وفي ذلك إيقاظ لهم بأن يتدبروا في هذا الذي زعموه إفكاً أو أساطير الأولين ليظهر لهم اشتماله على الحقائق الناصعة التي لا يحيط بها إلا الله الذي يعلم السر ، فيُوقِنُوا أن القرآن لا يكون إلا من إنزاله ، وليعلموا براءة الرسول صلى الله عليه وسلم من الاستعانة بمن زعموهم يعينونه .

والتعريف في ﴿ السر ﴾ تعريف الجنس يستغرق كل سر ، ومنه إسرار الطاعنين في القرآن عن مكابرة وبهتان ، أي يعلم أنهم يقولون في القرآن ما لا يعتقدونه ظلماً وزوراً منهم ، وبهذا يعلم موقع جملة : ﴿ إنه كان غفوراً رحيماً ﴾ ترغيباً لهم في الإقلاع عن هذه المكابرة وفي اتباع دين الحق ليغفر الله لهم ويرحمهم ، وذلك تعريض بأنهم إن لم يقلعوا ويتوبوا حَق عليهم الغضب والنقمة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 19 صـ ﴾

(134/557)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ ﴾

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أن الذين كفروا وكذبوا النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا في هذا القرآن العظيم ، الذي أوحاه الله إليه : ﴿ إِنْ هذا إِلاَّ إِفْكٌ افتراه ﴾ : أي ما هذا القرآن إلا كذب اختلقه محمد صلى الله عليه وسلم وأعانه عليه على الإفك الذي افتراه قوم آخرون ، قيل : اليهود ، وقيل : عداس مولى حويطب بن عبد العزى ، ويسار مولى العلاء بن الحضرمي ، وأبو فكيهة الرومي ، قال ذلك النَّصر بن الحر العبدري .

وما ذكره جل وعلا في هذه الآية الكريمة من أن الكفار كذبوه وادعوا عليه أن القرآن كذب اختلقه ، وأنه أعانه على ذلك قوم آخرون جاء مبيناً في آيات أخر كقوله تعالى : ﴿ وعجبوا أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الكافرون هذا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ [ص : 4] وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ والله أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قالوا إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [النحل : 101] وقوله تعالى : ﴿ بَلْ كَذَّبُواْ بالحق لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴾ [ق : 5] وقوله تعالى : ﴿ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الحق ﴾ [الأنعام : 66] الآية .

والآيات في ذلك كثيرة معلومة .

وما ذكره جل وعلا في هذه الآية الكريمة من أنهم افتروا على النبي صلى الله عليه وسلم ، أنه أعانه على افتراء القرآن قوم آخرون جاء أيضاً موضحاً في آيات أخر كقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ﴾ [النحل : 103] وقوله تعالى : [المدثر : 24] أي يرويه محمد صلى الله عليه وسلم عن غيره إن هذا إلا قول البشر ، وقوله تعالى : [الأنعام : 105] كما تقدم إيضاحه في الأنعام ، وقد كذبهم الله جل وعلا في هذه الآية الكريمة فيما افتروا عليه من البهتان بقوله : ﴿ فَقَدْ جَآءُوا ظُلْماً وَزُوراً ﴾ قال الزمخشري ظلمهم : أن جعلوا العربي يتلقن من الأعجمي الرومي كلاماً عربياً أعجز بفصاحته جميع فصحاء العرب والزور هو أن بهتوه بنسبه ما هو بريء منه إليه انتهى . وتكذيبه جل وعلا لهم في هذه الآية الكريمة ، جاء موضحاً في مواضع أخر من كتاب الله ، كقوله تعالى : ﴿ لِّسَانُ الذي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وهذا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ [النحل : 103] كما تقدم إيضاحه في سورة النحل وقوله : ﴿ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الحق قُل لَّسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴾ [الأنعام : 66] وقوله تعالى : ﴿ فَقَالَ إِنْ هاذآ إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ إِنْ هاذآ إِلاَّ قَوْلُ البشر سَأُصْلِيهِ سَقَرَ وَمَآ أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ﴾ [المدثر : 2427] الآية ، لأن قوله : ﴿ سَأُصْلِيهِ

سَقَرَ ﴾ بعد ذكر افترائه على القرآن العظيم يدل على عظم افترائه وأنه سيصلى بسببه عذاب سقر ، أعاذنا الله وإخواننا المسلمين منها ، ومن كل ما قرب إليها من قول وعمل .

(136/557)

واعلم أن العرب تستعمل جاء وأتى بمعنى : فعل . فقوله : ﴿ فَقَدْ جَآءُوا ظُلْماً وَزُوراً ﴾ أي فعلوه وقيل بتقدير الباء : أي جاءوا بظلم ، ومن إتيان بمعنى فعل قوله تعالى : ﴿ لاَ تَحْسَبَنَّ الذين يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوْاْ ﴾ [آل عمران : 188] الآية . أي بما فعلوه . وقول زهير بن أبي سلمى :

فما يك من خير أتوه فإنما . . . توارثه آباء آبائهم قبل

واعلم بأن الإفك هو أسوأ الكذب ، لأنه قلب للكلام عن الحق إلى الباطل ، والعرب تقول : أفكه بمعنى قلبه . ومنه قوله تعالى في قوم لوط ﴿ والمؤتفكات أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بالبينات ﴾ [التوبة : 70] وقوله ﴿ والمؤتفكة أهوى ﴾ [النجم : 53] وإنما قيل لها مؤتفكات ، لأن الملك أفكها أي قبلها كما أوضحه تعالى بقوله ﴿ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا ﴾ [الحجرات : 74] .

﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (5) ﴾

ذكر جل وعلا في الأولى من هاتين الآيتين أن الكفار قالوا : إنَّ هذا القرآن أساطير الأولين أي مما كتبهن وسطره الأولون كأحاديث رستم واسفنديار ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم جمعه ، وأخذه من تلك الأساطير ، وأنه اكتتب تلك الأساطير ، قال الزمخشري : أي كتبها لنفسه وأخذها ، كما تقول : استكب الماء واصطبه إذا سكبه وصبه لنفسه وأخذه ، وقوله ﴿ فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ ﴾ أي تلقى إليه ، وتُقرأ عند إرادته كتابتها ليكتبها ، والإملاء إلقاء الكلام على الكاتب ليكتبه ، والهمزة مبدلة من اللام تخفيفاً ، والأصل في الإملال باللام ومنه قوله تعالى : ﴿ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الذي عَلَيْهِ الحق ﴾ [البقرة : 282] الآية وقوله : ﴿ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ البكرة : أول النهار ، والأصيل : آخره .

(137/557)

وما ذكره جل وعلا في هذه الآية من أنَّ الكفار قالوا : إن القرآن أساطير الأولين ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم تعلمه من غيره ، وكتبه جاء موضحاً في آيات متعددة كقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا تتلى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هذا إِنْ هاذآ إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأولين ﴾ [الأنفال : 31] .

وقد ذكرنا آنفاً الآيات الدالة على انهم افتروا عليه أنه تعلم القرآن من غيره ، وأوضحناه

تعنتهم ، وكذبهم في ذلك في سورة النحل ، ودلالة الآيات على ذلك في الكلام على قوله تعالى : ﴿ لِّسَانُ الذي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ ﴾ [النحل : 103] الآية فأغنى ذلك عن إعادته هنا .

(138/557)

ومن الآية الدالة على كذبهم في قوله : ﴿ اكتتبها فَهِيَ تملى عَلَيْه ﴾ قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَّارْتَابَ المبطلون ﴾ [العنكبوت : 48] وقوله تعالى : ﴿ الذين يَتَّبِعُونَ الرسول النبي الأمي ﴾ [الأعراف : 157] إلى قوله تعالى : ﴿ فَآمِنُواْ بالله وَرَسُولِهِ النبي الأمي ﴾ [الأعراف : 58] الآية ، والأمي هو الذي لا يقرأ ولا يكتب وما ذكر جل وعلا في الآية الأخيرة من قوله : ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ الذي يَعْلَمُ السر فِي السماوات والأرض ﴾ الآية . وجاء أيضاً موضحاً في آيات أخر كقوله تعالى : ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ القدس مِن رَّبِّكَ ﴾ [النحل : 102] الآية ، وقوله تعالى : ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوّاً لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ على قَلْبِكَ بِإِذْنِ الله ﴾ [البقرة : 97] الآية . وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ العالمين نَزَلَ بِهِ الروح الأمين على قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ المنذرين بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء : 192195] ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بالقرآن مِن قَبْلِ إِن يقضى إِلَيْكَ

وَحْيُهُ ﴾ [طه : 114] ﴿ لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتبع قُرْآنَهُ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ [القيامة : 1619] وقوله تعالى : ﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ وَمَا لاَ تُبْصِرُونَ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ وَلاَ بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ العالمين ﴾ [الحاقة : 3843] ، وقوله تعالى : ﴿ تَنزِيلاً مِّمَّنْ خَلَقَ الأرض والسماوات العلى ﴾ [طه : 4] إلى غير ذلك من الآيات ، وقوله هنا : ﴿ الذي يَعْلَمُ السر فِي السماوات والأرض ﴾ أي ومن

(139/557)

يعلم السر فلا شك أنه يعلم الجهر .

ومن الآيات الدالة على ما دلت عليه هذه الآية الكريمة من كونه تعالى يعلم السر في السموات والأرض قوله تعالى :

﴿ وَإِن تَجْهَرْ بالقول فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السر وَأَخْفَى ﴾ [طه : 7] وقوله تعالى : ﴿ وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ اجهروا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصدور ﴾ [الملك : 13] وقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُواْ أَنَّ الله يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ الله عَلاَّمُ الغيوب ﴾ [التوبة : 78] وقوله تعالى : ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لاَ نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بلى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ [الزخرف : 8

] ، وقوله تعالى : ﴿ ذلك عَالِمُ الغيب والشهادة العزيز الرحيم ﴾ [السجدة : 6] ، وقوله تعالى : ﴿ واعلموا أَنَّ الله يَعْلَمُ مَا في أَنْفُسِكُمْ فاحذروه ﴾ [البقرة : 235] الآية ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِي السمآء والأرض إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [النمل : 75] ، والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة .

(140/557)

وقوله تعالى : في هذه الآية الكريمة ﴿ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾ ، قال فيه ابن كثير : هو دعاء لهم إلى التوبة والإنابة ، وإخبار لهم بأن رحمته واسعة ، وأن حلمه عظيم ، وأن من تاب إليه تاب عليه ، فهؤلاء مع كذبهم ، وافترائهم ، وفجورهم ، وبهتانهم ، وكفرهم ، وعنادهم ، وقولهم عن الرسول والقرآن ما قالوا يدعوهم إلى التوبة والإقلاع عما هم فيهم إلى الإسلام والهدى ، وكفرهم ، وعنادهم ، وقولهم عن الرسول والقرآن ما قالوا يدعوهم إلى التوبة والإقلاع عما هم فيه إلى الإسلام والهدى ، كما قال : ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ الذين قالوا إِنَّ الله ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ وَمَا مِنْ إله إِلاَّ إله وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الذين كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ أَفَلاَ يَتُوبُونَ إلى الله وَيَسْتَغْفِرُونَهُ والله غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [المائدة : 7374] وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الذين فَتَنُواْ المؤمنين والمؤمنات ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الحريق

﴾ [البروج: 10] .

قال الحسن البصري : انظروا إلى هذا الكرم والجود قتلوا أولياءه ، وهو يدعوهم إلى التوبة والرحمة . انتهى كلام ابن كثير رحمه الله تعالى . وما ذكره واضح .

والآيات الدالة على مثله كثيرة كقوله تعالى : ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴾ [الأنفال: 38] وقوله تعالى : ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى ﴾ [طه: 82] الآية ، إلى غير ذلك من الآيات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أضواء البيان حـ 6 صـ ﴾

(141/557)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ ﴾

بعد أن تكلم الفرقان وفرَق في مسألة القمة والألوهية واتخاذ الولد والشركاء ، وبيَّن الإله الحق من الإله الباطل ، أراد سبحانه أنْ يتكلّم عن الفرقان في الرسالة ، فيحكى ما قاله الكفار عن القرآن ﴿ إِنْ هذا ﴾ [الفرقان: 4] يعني : ما هذا أي القرآن الذي يقوله محمد ﴿ إِلاَّ إِفْكٌ ﴾ [الفرقان: 4] الإفك : تعمُّد الكذب الذي يقلب الحقائق ، وسبق أن قلْنا

: إن النسبة الكلامية إنْ وافقت الواقع فهي صِدْق ، وإنْ خالفتْه فهي كذب .

والإفْك قَلْب للواقع يجعل الموجود غير موجود ، وغير الموجود موجوداً ، كما جاء في حادثة الإفك حين اتهموا عائشة أم المؤمنين بما يخالف الواقع ، فالواقع أن صفوان أناخ لها ناقته حتى ركبت دون أن ينظر إليها ، وهذا يدل على مُنْتهى العِفَّة والصيانة ، وهُمْ بالإفك جعلوا الطُّهْر والعفة عُهْراً .

ومن العجيب أن هؤلاء الذين اتهموا القرآن بأنه إفك هم أنفسهم الذين قالوا عنه :

﴿ لَوْلا نُزِّلَ هذا القرآن على رَجُلٍ مِّنَ القريتين عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف : 31] .

فهم يعترفون بالقرآن ويشهدون له ، لكن يُتعبهم ويُنغِّص عليهم أن يُنزل على محمد بالذات ، فلو نزل فرضاً على غير محمد لآمنوا به .

ومن حُمْقهم أن يقولوا : ﴿ اللهم إن كَانَ هذا هُوَ الحق مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السمآء أَوِ ائتنا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأنفال : 32] .

والمنطق أن يقولوا فاهْدنا إليه ، لكنه العناد والمكابرة .

وقوله : ﴿ افتراه ﴾ [الفرقان : 4] أي : ادعاه ، وعجيب أمر هؤلاء ، يتهمون القرآن بأنه إفك مُفْترى ، فلماذا لا يفترون هم أيضاً مِثْله ، وهم أمة بلاغة وبيان ؟ !

وفي موضع آخر يقول تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الذي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وهذا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ [النحل : 103] .

وقديماً قالوا : إنْ كنتَ كذوباً فكُنْ ذكوراً ، وإلا فكيف تتهمون محمداً أن رجلاً أعجمياً يُعلِّمه القرآن ، والقرآن عربي ؟

وقوله تعالى : ﴿ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ ﴾ [الفرقان : 4] الذي قال هذه المقولة هو النضر بن الحارث ، ولما قالها رددها بعده آخرون أمثال : عدَّاس ، ويسَّار ، وأبي فكيهة الرومي ، والقرآن يرد على كل هذه الاتهامات : ﴿ فَقَدْ جَآءُوا ظُلْماً وَزُوراً ﴾ [الفرقان : 4] أي : حكموا به والظلم هو : الحكم بغير الحق ، والزّور هو : عُدَّة الحكم ودليله .

والظلم يأتي بعد الزور ، لأن القاضي يستمع أولاً إلى الشهادة ، ثم يُرتِّب عليها الحكم ، فإن كانت الشهادةُ شهادةَ زور كان الحكم حينئذ ظالماً .

لكن الحق تبارك وتعالى يقول ﴿ ظُلْماً وَزُوراً ﴾ [الفرقان : 4] وهذا دليل على أن الحكم جاء منهم مُسبقاً ، ثم التمسوا له دليلاً .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وقالوا أَسَاطِيرُ الأولين ﴾

وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (5)

الأساطير : جمع أسطورة ، مثل أعاجيب جمع أعجوبة ، وأحاديث جمعُ أُحْدوثة ، والبكرة

أو النهار ، والأصيل آخره ، والمعنى أنهم قالوا عن القرآن : إنه حكايات وأساطير السابقين ﴿ اكتتبها ﴾ [الفرقان : 5] يعني : أمر بكتابتها . وهذا من ترددهم واضطراب أقوالهم ، فالنبي صلى الله عليه وسلم أُميٌّ لا يقرأ ولا يكتب ، وقولهم : ﴿ فَهِيَ تملى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ [الفرقان : 5] أي : باستمرار ليُكرِّرها ويحفظها .

ويردُّ القرآن عليهم : ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ الذي يَعْلَمُ السر ﴾

(143/557)

قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (6)

﴿ أَنزَلَهُ ﴾ [الفرقان : 6] أي : القرآن مرة واحدة من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا ﴿ الذي يَعْلَمُ السر فِي السماوات والأرض ﴾ [الفرقان : 6] فلا تظن أنك بمجرد خَلْقك قدرْتَ أن تكشف أسرار الله في كونه ، إنما ستظل إلى قيام الساعة تقف على سر ، وتقف عند سر آخر .

لماذا ؟ لأن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يبطل هذه المدعيات ، ويأتي بأشياء غيبية لم تكن تخطر على بال المعاصرين لمحمد ، ثم تتضح هذه الأشياء على مَرِّ القرون ، مع أن القرآن نزل في أُمة أمية ، والرسول الذي نزل عليه القرآن رجل أمي ، ومع ذلك يكشف لنا القرآن كل يوم

عن آية جديدة من آيات الله .

كما قال سبحانه : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفاق وفِي أَنفُسِهِمْ حتى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحق ﴾ [فصلت : 53] .

والحق تبارك وتعالى يكشف لرسوله صلى الله عليه وسلم شيئاً من الغيبيات ، ليراها المعاصرون له ليلقم الكفارَ الذين اتهموه حجراً ، فيكشف بعض الأسرار كما حدث في بدر حيث وقف النبي صلى الله عليه وسلم في ساحة المعركة بعد أن عرف أن مكة ألقتْ بفلذات أكبادها وسادتها في المعركة ، وقف يشير بعصاه إلى مصارع الكفار ، ويقول : " هذا مصرع أبي جهل ، وهذا مصرع عتبة بن ربيعة . . " . الخ يخطط على الأرض مصارع القوم .

ومَنِ الذي يستطيع أن يحكم مسبقاً على معركة فيها كَرٌّ وفَرٌّ ، وضَرْب وانتقال وحركة ، ثم يقول : سيموت فلان في هذا المكان .

والوليد بن المغيرة والذي قال عنه القرآن ﴿ سَنَسِمُهُ عَلَى الخرطوم ﴾ [القلم : 16] يعني : ستأتيه ضربة على أنفه تَسِمُه بسِمَة تلازمه ، وبعد المعركة يتفقده القوم فيجدونه كذلك .

هذه كلها أسرار من أسرار الكون يخبر بها الحق تبارك وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم ، والرسول يخبر بها أمته في غير مظنَّة العلم بها .

ومن ذلك ما يُروى من " أن ابنتي رسول الله صلى الله عليه وسلم قد تزوجتا من ولدين لأبي لهب ، فلما حدثت العداوة بينه وبين رسول الله أمر ولديْه بتطليق ابنتي رسول الله ، وبعدها رأى أحد الولدين رسول الله ماشياً ، فبصق ناحيته ، ورأى رسول الله ذلك فقال له : " أكلك كلب من كلاب الله " . فقال أبو لهب بعد أن علم بهذه الدعوة : أخاف على ولدي من دعوة محمد .

وعجيب أنْ يخاف الكافر من دعوة رسول الله ، وهو الذي يتهمه بالسحر وبالكذب ويكفر به وبدعوته .

ولما خرج هذا الولد في رحلة التجارة إلى الشام أوصى به القوم أن يحرسوه ، ويجعلوا حوله سياجاً من بضائعهم يحميه خشية أن تنفذ فيه دعوة محمد ، وهذا منه كلام غير منطقي ، فهو يعلم صدق النبي صلى الله عليه وسلم وأنه مُرْسَل من عند الله ، لكن يمنعه من الإيمان حقده على رسول الله وتكبّره على الحق .

وخرج الولد في رحلة التجارة ورغم احتياطهم في حمياته هجم عليه سبع في إحدى الليالي واختطفه من بين أصحابه ، فتعجبوا لأن رسول الله قال : " كلب من كلاب الله " وهذا

أسد ليس كلباً . قال أهل العلم : ما دام أن رسول الله نسب الكلب إلى الله ، فكلب الله لا يكون إلا أسداً .

فالمعنى : قل يا محمد في الرد عليهم ولإبطال دعاواهم : ﴿ أَنزَلَهُ الذي يَعْلَمُ السر فِي السماوات والأرض ﴾ [الفرقان : 6] وسوف يفضحكم ويُبطِل افتراءكم على رسول الله من قولكم إفك وكذب وافتراء وأساطير الأولين ، وسوف يُخْزِيكم أمام أعْيُنِ الناس جميعاً .

(145/557)

وعلى عهد رسول الله قامتْ معركة بين الفُرْس والروم غُلبت فيها الروم ، فحزن رسول الله لهزيمة الروم ؛ لأنهم أهل كتاب يؤمنون بالله وبالرسول ، أما الفرس فكانوا كفاراً لا يؤمنون بالله ويعبدون النار وغيرها . فمع أنهما يتفقان في تكذيبهم لرسول الله ، إلا أن إيمان الروم بالله جعل رسول الله يتعصب لهم مع أنهم كافرون به ، فعصبية رسول الله لا تكون إلا لربه عز وجل .

فلما حزن رسول الله لذلك أنزل الله تعالى عليه : ﴿ الم * غُلِبَتِ الروم * في أَدْنَى الأرض وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأمر مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ

المؤمنون * بِنَصْرِ اللهِ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ العزيز الرحيم ﴾ [الروم : 15] .

فأيُّ عقل يستطيع أنْ يحكم على معركة ستحدث بعد عدة سنوات ؟ لو أن المعركة ستحدث غداً لأمكن التنبؤ بنتيجتها ، بناءً على حساب العَدد والعُدة والإمكانات العسكرية ، لكن مَنْ يحكم على معركة ستدور رحاها بعد سبع سنين ؟ ومَنْ يجرؤ أن يقولها قرآناً يُتْلَى ويُتعبَّد به إلى يوم القيامة . فلو أن هذه المدة مرَّت ولم يحدث ما أخبر به رسول الله لكفَر به مَنْ آمن وانفضَّ عنه مَنْ حوله .

إذن : ما قالها رسول الله قرآناً يُتْلَى ويُتعبَّد به إلا وهو واثق من صِدْق ما يخبر به ؛ لأن الذي يخبره ربه عز وجل الذي يعلم السرَّ في السموات والأرض ؛ لذلك قال هنا الحق سبحانه وتعالى :

﴿ قُلْ أَنزَلَهُ الذي يَعْلَمُ السر فِي السماوات والأرض ﴾ [الفرقان : 6] .

ومن العجيب أن ينتصر الروم على الفُرْس في نفس اليوم الذي انتصر فيه الإيمان على الكفر في غزوة بدر ، هذا اليوم الذي قال الله تعالى عنه : ﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ المؤمنون * بِنَصْرِ الله ﴾ [الروم : 45] .

وما دام أن الذي أنزل القرآن هو سبحانه الذي يعلم السِّر في السماوات والأرض ، فلن يحدث تضارب أبداً بين منطوق القرآن ومنطوق الأكوان ؛ لأن خالقهما واحد سبحانه وتعالى فمن أين يأتي الاختلاف أو التضارب ؟

ثم يقول سبحانه : ﴿ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾ [الفرقان : 6] فما مناسبة الحديث عن المغفرة والرحمة هنا ؟ قالوا لأن الله تبارك وتعالى يريد أن يترك لهؤلاء القوم الذين يقرعهم مجالاً للتوبة وطريقاً للعودة إليه عز وجل وإلى ساحة الإيمان .

لذلك يقول النبي صلى الله عليه وسلم لمن أشار عليه بقتل الكفار : " لعلَّ اللهُ يُخرِجِ من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً " .

وكان الصحابة يألمون أشد الألم إنْ أفلتَ أحد رءوس الكفر من القتل في المعركة ، كما حدث مع خالد بن الوليد وعمرو بن العاص قبل إسلامهما ، وهم لا يدرون أن الله تعالى كان يدَّخِرهم للإسلام فيما بعد .

فقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾ [الفرقان : 6] حتى لا يقطع سبيل العودة إلى الإيمان بمحمد على مَنْ كان كافراً به ، فيقول لهم : على رغم ما حدث منكم . إنْ عُدْتم إلى الجادة وإلى حظيرة الإيمان ففي انتظاركم مغفرة الله ورحمته .

والحق تبارك وتعالى يُبيِّن لنا هذه المسألة حتى في النزوع العاطفي عند الخَلْق ، فهند بنت عتبة التي أغرتْ وَحْشِياً بقتل حمزة عم رسول الله وأسد الله وأسد رسوله ، ولم تكتف

بهذا ، بل مثَّلتْ به بعد مقتله ولاكَتْ كبده رضي الله عنه ، ومع ذلك بعد أنْ أسلمتْ وبايعتْ النبي صلى الله عليه وسلم نُسيت لها هذه الفعلة وكأنها لم تكُنْ .

ولما قال أحدهم لعمر بن الخطاب : هذا قاتل أخيك (يشير إليه) والمراد زيد بن الخطاب ، فما كان من عمر إلا أن قال : وماذا أفعل به وقد هداه الله للإسلام ؟ . انتهى انتهى . اهـ

﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(147/557)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله : ﴿ افتراه ﴾ : الهاءُ تعودُ على إفك . وقال أبو البقاء : " الهاء تعود على " عَبْدِه " في أول السورة " ولا أظنّه إلاَّ غَلَطاً ، وكأنه أراد أَنْ يقولَ : الضمير المرفوع في افتراه فَغَلِط .

قوله : ﴿ ظُلْماً ﴾ فيه أوجهٌ ، أحدُها : أَنَّه مفعولٌ به ؛ لأنَّ " جاء " يتعدى بنفسِه وكذلك " أتى " . والثاني : أنه على إسقاطِ الخافضِ أي : جاؤوا بظلمٍ . الثالث : أنه في موضعِ الحال ، فيجيءُ فيه ما في قولك " جاء زيدٌ عَدْلاً " من الأوجه .

قوله : ﴿ اكتتبها ﴾ : يجوز فيه ثلاثةُ أوجهٍ ، أحُدها : أَنْ يكونَ حالاً من أساطيرُ ،

والعاملُ فيها معنى التنبيه ، أو الإشارةِ المقدرةِ ؛ فإنَّ " أساطيرُ " خبرُ مبتدأ محذوفٍ ، تقديرُه : هذه أساطيرُ الأَوَّلين مُكْتَتَبَةً . والثاني : أن يكونَ في موضع خبرٍ ثانٍ ل " هذه " . والثالث : أَنْ يكونَ " أساطيرُ " مبتدأً و " اكْتَتَبها " خبرُه ، واكْتَتَبها : الافتعالُ هنا يجوز أَنْ يكونَ بمعنى أَمَر بكتابتها كاقتصد واحتَجم ، إذا أَمَر بذلك ، ويجوز أَنْ يكونَ بمعنى كَتَبَها ، وهو مِنْ جملةِ افترائِهم عليه لأنه [عليه السلام] كان أمّيّاً لا يَقْرأ ولا يَكْتب ، ويكون كقولهم : اسْتَكَبَّه واصْطَبَّه أي : سكبه وصبَّه . والافتعالُ مُشْعِرٌ بالتكلُّفِ . ويجوز أَنْ يكونَ مِنْ كَتَبَ بمعنى جَمَعَ ، من الكَتْبِ وهو الجَمْعُ ، لا من الكتابة بالقلم .

(148/557)

وقرأ طلحةُ " اكْتُتِبَها " مبنياً للمفعولِ . قال الزمخشري : " والمعنى اكتتبها له كاتِبٌ لأنه كان أمّيّاً لا يكتُب بيدِه ، ثم حُذِفَتِ اللامُ فأفضى الفعلُ إلى الضمير فصار : اكتتبها إياه كاتبٌ . كقولِه : ﴿ واختار موسى قَوْمَهُ ﴾ [الأعراف : 155] ثم بُني الفعلُ للضمير الذي هو " إياه " فانقلب مرفوعاً مستتراً بعد أن كان منصوباً بارزاً ، وبقي ضمير الأساطير على حالِه فصارَ " اكْتُتِبَها " كما ترى " .

قال الشيخ : " ولا يَصِحُّ ذلك على مذهبِ جمهورِ البصريين ؛ لأنَّ " اكتتبها له كاتب " وَصَل

الفعلُ فيه لمفعولين أحدُهما مُسَرَّح، وهو ضميرُ الأساطير، والآخرُ مقيدٌ، وهو ضميرُه عليه السلام، ثم اتُّسِع في الفعلِ فحُذِفَ حرفُ الجر، فصار: اكتتبها إياه كاتبٌ. فإذا بُني هذا للمفعولِ: إنما ينوبُ عن الفاعلِ المفعولُ المُسَرَّحُ لفظاً وتقديراً لا المسرَّحُ لفظاً، المقيَّدُ تقديراً. فعلى هذا يكون التركيب اكْتُتِبَه لا اكتتبها، وعلى هذا الذي قُلْناه جاء السماعُ.

قال: الفرزدق:

3472 ومِنَّا الذي اختير الرجالَ سماحةً . . . وجوداً إذا هَبَّ الرياحُ الزَّعازِعُ

ولو جاء على ما قَرَّره الزمخشريُّ لجاء التركيبُ: "ومنا الذي اختيره الرجالُ" لأنَّ "اخْتير" تَعدَّى إلى الرجال بإسقاطِ حرفِ الجرِّ؛ إذ تقديرُه: اختير من الرِّجال". قلت: وهو اعتراضٌ حَسَنٌ بالنسبة إلى مذهبِ الجمهورِ، ولكن الزمخشريَّ قد لا يلْتزمه، ويوافق الأخفشَ والكوفيين، وإذا كان الأخفشُ وهم، يتركون المَسرَّحَ لفظاً وتقديراً، ويُقيمون المجرورَ بالحرفِ مع وجودِه فهذا أَوْلَى وأحرى.

(149/557)

والظاهر أنَّ الجملةَ مِنْ قوله: ﴿ اكتتبها فَهِيَ تملى ﴾ مِنْ تَتِمَّةِ قول الكفارِ. وعن الحسن أَنَّها من كلامِ الباري تعالى، وكان حَقُّ الكلام على هذا أَنْ يَقْرَأَ "أَكْتَتَبَها" بهمزةٍ مقطوعةٍ

مفتوحةٍ للاستفهام كقوله : ﴿ أفترى عَلَى اللهِ كَذِباً أَم بِهِ جِنَّةٌ ﴾ [سبأ : 8] . ويمكنُ أن يُعْتَذَرَ عنه : أنه حَذَفَ الهمزةَ للعلمِ بها كقوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ ﴾ [الشعراء : 22] . وقول الآخر :

3473 أَفْرَحُ أَنْ أُرْزَأَ الكرامَ وأَنْ . . . أُوْرَثَ ذَوْداً شَصائِصا نَبْلا

يريدُ : أو تلك ، وأَأَفْرَحُ ، فُحُذِفَ لدلالةِ الحالِ ، وحَقُّه أَنْ يقفَ على " الأوَّلين " . قال الزمخشري : "كيف قيل : اكْتَتَبَها فهي تُمْلَى عليه ، وإنما يُقال : أَمْلَيْتُ عليه فهو يكتتبها ؟ قلت : فيه وجهان ، أحدُهما : أراد اكتتابَها وطَلَبه فهي تُمْلَى عليه أو كُتِبَتْ له وهو أُمِّيٌّ فهي تُمْلَى عليه أي : تُلْقَى عليه مِنْ كتابٍ يَتَحفَّظُها ؛ لأنَّ صورةَ الإلقاءِ على الحافظِ كصورة الإلقاءِ على الكاتبِ " .

وقرأ عيسى وطلحة " تُتْلَى " بتاءَيْن مِنْ فوقُ ، من التلاوة . و ﴿ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ ظرفا زمان للإملاء . والياءُ في " تملَى " بدلٌ من اللامِ كقوله : ﴿ فَلْيُمْلِلْ ﴾ [البقرة : 282] وقد تقدَّمَ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 455.457 ﴾

(150/557)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا (4) ﴾

ظنوه كما كانوا ، ولمَّا كانوا بأمثالِهم قد استعانوا فيما عجزوا عنه من أمورِهم ، واستحدثوا لأمثالهم واستكانوا – فقد قالوا من غير حُجَّةٍ وتَقَوَّلوا ، ولم يكن لقولهم تحصيل ، ولأَساطيرُ الأولين تُرَّهاتُهم التي لا يُدْرَى هل كانت ؟ وإن كانت فلا يُعْرَفُ كيف كانت ومتى كانت ؟ ثم قال : يا محمد ، إن هذا الكتاب – الذي أنزله الذي يعلم السِّرَّ في السموات والأرض – لا يَقْدِر أحد على الإتيان بمثله ولو تشاغلوا من الوقت الذي أتى به أعداء الدينِ ، وهم على كثرتهم مجتهدون في معارضته بما يوجب مساواته ؛ فادَّعوا تكذيبه وانقطعت الأعصار وانقضت الأعمال ، ولم يأتِ أحدٌ بسورة مثله . فانتفى الرَّيبُ عن صِدْقِهِ ، ووَجَبَ الإقرارُ بحقِّه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 627 ﴾

(151/557)

قوله تعالى ﴿ وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا (7) أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا (8) انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا (9) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما أتم سبحانه ما أراد من ذكر المنزل والمنزل ، وأخبر عن طعنهم في المنزل الذي هو المقصود بالذات من الرسالة ، وأقام تعالى ذلك الدليل على كذبهم ، أتبعه الإخبار عن طعنهم في الرسول الآتي به ، فقال معجباً عقولهم التي يعدونها أصفى العقول أفكاراً ، وأعلاها آثاراً ، فيما أبدوه من ذلك مما ظنوا أنه دليل على عدم الرسالة ، ولا شيء منه يصلح أن يكون شبهة لذي مسكة من أمره ، فضلاً عن أن يكون دليلاً : ﴿ وقالوا ﴾ أي مستفهمين تهكماً بوصفه ، قادحين فيه بفعله ، قول من هو على ثقة من أن وصف الرسالة ينافيه : ﴿ مال هذا ﴾ والإشارة على هذا الوجه تفهم الاستهانة والتصغير ؛ ثم أظهروا السخرية بقولهم : ﴿ الرسول ﴾ أي الذي يزعم أنه انفرد عن بقية البشر في هذا الزمان بهذا الوصف العالي ﴿ يأكل الطعام ﴾ أي مثل ما نأكل ﴿ ويمشي في الأسواق ﴾ أي التي هي مطالب الدنيا ، كما نمشي .

ولما كانت ترجمة ما مضى : ما له مثلنا وهو يدعي الاختصاص عنا بالرسالة ؟ أتبعوه التعنيف على عدم كونه على واحد من وجوه مغايرة على سبيل التنزل جواباً لمن كأنه قال : فماذا يفعل ؟ بقولهم : ﴿ لولا ﴾ أي هلا ، وهي تأتي للتوبيخ ، وهو مرادهم ﴿ أنزل ﴾ أي من السماء ، من أيّ منزل كان ، منتهياً ﴿ إليه ﴾ أي على الهيئة التي هو عليها في السماء ﴿ ملك ﴾ أي من الملائكة الله على هيئاتهم المباينة لهيئات الآدميين ﴿ فيكون ﴾ بالنصب جواباً للتحضيض ذلك الملك وإن كان هو إنساناً ﴿ معه نذيراً ﴾ فيكون ممتازاً بحال ليس لواحد منا ، ليكون أهيب في النذارة ، لما له من الهيبة والقوة ، وكأنهم عبروا بالماضي إعلاماً بأن مرادهم كونه في الظهور لهم على غير الهيئة التي يخبركم بها من تجدد نزول الملك عليه في كل حين مستسراً بحيث لا ينظره غيره ، أو لأن الملك يمكن أن يكون على حالة المصاحبة له للنذارة ، وإنما لا يتحول عنها بصعود إلى السماء ولا غيره ، بخلاف الكنز فإنه للنفقة ، فإن لم يتعهد كل وقت نفد ، وهذا سر التعبير ب " إلى " دون " على " التي هي للتغشي بالوحي ، ولذلك عبروا بالمضارع في قولهم ، متنزلين عن علو تلك الدرجة : ﴿ أو يلقى ﴾ أي من أي ملق كان .

ولما كان الإلقاء دالاًّ على العلو ، عدلوا عن أداة الاستعلاء التي تقدم التعبير بها في هود عليه السلام من الإنزال إلى حرف النهاية فقالوا : ﴿ إليه ﴾ أي إن لم تكن له تلك الحالة ﴿ كنز ﴾

أي يوجد له هذا الأمر ويتجدد له إلقاؤه غير مكترث ولا معبوء به ، برفعه عن مماثلتنا العامة من كل وجه ، وأيضاً التعبير في هذا والذي بعده بالمضارع أدل على تكالبهم على الدنيا وأنها أكبر همهم .

(153/557)

ثم تنزلوا أيضاً في قولهم : ﴿ أو تكون له ﴾ أي إن لم تكن له شيء مما مضى ﴿ جنة ﴾ أي بستان أو حديقة كما لبعض أكابرنا ﴿ يأكل منها ﴾ فتفرغه عما يتعاطاه في بعض الأحايين من طلب المعاش ، ويكون غناه أعز له وأجلب للخواطر إليه ، وأحث لعكوف الأتباع عليه ، وأنجع فيما يريده – هذا على قراءة الجماعة بالياء التحتية ، وعلى قراءة حمزة والكسائي بالنون يكون المعنى : أنا إذا أمكنا منها ، كان ذلك أجلب لنا إلى اتباعه ، وما قالوه كله فاسد إذ لم يدّع هو ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولا أحد من أتباعه أنه هو ولا أحد من الأنبياء قبله يباين البشر ، ولا أن وصفاً من أوصاف البشر الذاتية ينافي النبوة والرساله ، وأما الاستكثار من الدنيا فهو عائق في الأغلب عن السفر إلى دار الكرامة ، وموطن السلامة ، وحامل على التجبر ، ولا يفرح به إلا أدنياء الهمم ، وخفة ذات اليد لا تقدح إلا في ناقص يسأل الناس تصريحاً أو تلويحاً إرادة لتكميل نقصه بالحطام الفاني ، وقد شرف الله نبيه ـ

صلى الله عليه وسلم ـ عن ذلك بما له من صفات الكمال ، والأخلاق العوال .

ولما كانوا بهذا واضعين الكلام في غير مواضعه ، بعيدين عن وجه الصواب ، قال معجباً من أمرهم : ﴿ وقال الظالمون ﴾ فأظهر الوصف الموجب لهم ذلك : ﴿ إن ﴾ أي ما ﴿ تتبعون ﴾ إن اتبعتم ﴿ إلا رجلاً مسحوراً ﴾ أي يتكلم بما لا يجديه ، فحاله لذلك حال من غلب على عقله بالسحر ، أو ساحراً صار السحر له طبعاً ، فهو يفرق بما جاء به بين المرء وزوجه وولده ونحو ذلك ، وعبروا بصيغة المفعول إشارة إلى هذا ، وهو أنه لكثرة ما يقع منه من ذلك – صار كأنه ينشأ عنه على غير اختياره .

(154/557)

ولما أتم سبحانه ما ذكر من أقوالهم الناشئة عن ضلالهم ، التفت سبحانه إلى رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مسلياً له فقال : ﴿ انظر ﴾ ثم أشار إلى التعجب منهم بأن ما قالوه يستحق الاستفهام بقوله : ﴿ كيف ضربوا ﴾ وقدم ما به العناية فقال : ﴿ لك الأمثال ﴾ فجعلوك تارة مثلهم في الاحتياج إلى الغذاء ، وتارة نظيرهم في التوسل إلى التوصل إلى الأرباح والفوائد ، بلطيف الحيلة وغريز العقل ، وتارة مغلوب العقل مختلط المزاج تأتي بما لا يرضى به عاقل ، وتارة ساحراً تأتي بما يعجز عنه قواهم ، وتحير فيه أفكارهم ﴿ فضلوا ﴾ أي

عن جميع طرق العدل ، وسائر أنحاء البيان بسبب ذلك فلم يجدوا قولاً يستقرون عليه وأبعدوا جداً ﴿ فلا يستطيعون ﴾ في الحال ولا في المآل ، بسبب هذا الضلال ﴿ سبيلاً ﴾ أي سلوك سبيل من السبل الموصلة غلى ما يستحق أن يقصد ، بل هم في مجاهل موحشة ، وفيافي مهلكة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 297 . 299 ﴾

(155/557)

فصل

قال الفخر :

الشبهة الثالثة : وهي في نهاية الركاكة ذكروا له صفات خمسة فزعموا أنها تخل بالرسالة إحداها : قولهم : ﴿ مَّالِ هذا الرسول يَأْكُلُ الطعام ﴾ وثانيتها : قولهم : ﴿ وَيَمْشِى فِى الأسواق ﴾ يعني أنه لما كان كذلك فمن أين له الفضل علينا وهو مثلنا في هذه الأمور وثالثتها : قولهم : ﴿ لَوْلا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً ﴾ يصدقه أو يشهد له ويرد على من خالفه ورابعتها : قولهم : ﴿ أَوْ يلقى إِلَيْهِ كَنْزٌ ﴾ أي من السماء فينفقه فلا يحتاج إلى التردد لطلب المعاش وخامستها : قولهم : ﴿ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ﴾ قرأ حمزة والكسائي ﴿ نَّأْكُلَ

مِنْهَا ﴾ بالنون وقرأ الباقون بالياء والمعنى إن لم يكن لك كنز فلا أقل من أن تكون كواحد من الدهاقين فيكون لك بستان تأكل منه وسادستها : قولهم : ﴿ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُورًا ﴾ وقد تقدمت هذه القصة في آخر سورة بني إسرائيل فأجاب الله تعالى عن هذه الشبهة من وجوه : أحدها : قوله : ﴿ انظر كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ الأمثال فَضَلُّواْ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً ﴾ وفيه أبحاث :

(156/557)

الأول : أن هذا كيف يصلح أن يكون جواباً عن تلك الشبهة ؟ وبيانه أن الذي يتميز الرسول به عن غيره هو المعجزة وهذه الأشياء التي ذكروها لا يقدح شيء منها في المعجزة فلا يكون شيء منها قادحاً في النبوة ، فكأنه تعالى قال انظر كيف اشتغل القوم بضرب هذه الأمثال التي لا فائدة فيها لأجل أنهم لما ضلوا وأرادوا القدح في نبوتك لم يجدوا إلى القدح فيه سبيلاً ألبتة إذ الطعن عليه إنما يكون بما يقدح في المعجزات التي ادعاها لا بهذا الجنس من القول وفيه وجه آخر وهو أنهم لما ضلوا لم يبق فيهم استطاعة قبول الحق ، وهذا إنما يصح على مذهبنا وتقريره بالعقل ظاهر ، وذلك لأن الإنسان إما أن يكون مستوى الداعي إلى الحق والباطل ، وإما أن يكون داعيته إلى أحدهما أرجح من داعيته إلى الثاني ، فإن كان الأول

فحال الاستواء ممتنع الرجحان فيمتنع الفعل وإن كان الثاني فحال رجحان أحد الطرفين يكون حصول الطرف الآخر ممتنعاً ، فثبت أن حال رجحان الضلالة في قلبه استحال منه قبول الحق ، وما كان محالاً لم يكن عليه قدرة ، فثبت أنهم لما ضلوا ما كانوا مستطيعين .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 24 صـ 46 ﴾

(157/557)

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ﴾ .

فِيهَا ثَلَاثُ مَسَائِلَ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : عَيَّرَ الْمُشْرِكُونَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَكْلِهِ الطَّعَامَ ؛ لِأَنَّهُمْ أَرَادُوا أَنْ يَكُونَ الرَّسُولُ مَلَكًا ، وَعَيَّرُوهُ بِالْمَشْيِ فِي السُّوقِ ، فَأَجَابَهُمْ اللَّهُ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ الْمُرْسَلِينَ إلَّا إنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ﴾ ، فَلَا تَرْتَبْ بِذَلِكَ وَلَا تَغْتَمَّ بِهِ ، فَإِنَّهَا شَكَاةٌ ظَاهِرٌ عَنْك عَارُهَا ، وَحُجَّةٌ قَاهِرٌ لَك خَارُهَا .

(158/557)

وَهَذَا إنَّمَا أَوْقَعَهُمْ فِيهِ عِنَادُهُمْ ؛ لِأَنَّهُ لَمَّا ظَهَرَتْ عَلَيْهِمْ الْمُعْجِزَةُ ، وَوَضَحَتْ فِي صِدْقِهِ الدَّلَالَةُ لَمْ يُقْنِعْهُمْ ذَلِكَ ، حَتَّى سَأَلُوهُ آيَاتٍ أُخَرَ سِوَاهَا وَأَلْفُ آيَةٍ كَآيَةٍ عِنْدَ الْمُكَذِّبِ بِهَا ، وَأَوْقَعَهُمْ أَيْضًا فِي ذَلِكَ جَهْلُهُمْ حِينَ رَأَوْا الْأَكَاسِرَةَ وَالْقَيَاصِرَةَ وَالْمُلُوكَ الْجَبَابِرَةَ يَتَرَفَّعُونَ عَنْ الْأَسْوَاقِ أَنْكَرُوا عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَلِكَ ، وَاعْتَقَدُوهُ مَلِكًا يَتَصَرَّفُ بِالْقَهْرِ وَالْجَبْرِ ، وَجَهِلُوا أَنَّهُ نَبِيٌّ يَعْمَلُ بِمُقْتَضَى النَّهْيِ وَالْأَمْرِ ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا يَرَوْنَهُ فِي سُوقِ عُكَاظٍ وَمَجَنَّةِ الْعَامَّةِ ، وَكَانَ أَيْضًا يَدْخُلُ الْخَلَصَةَ بِمَكَّةَ ، فَلَمَّا أَمَرَهُمْ وَنَهَاهُمْ قَالُوا : هَذَا مَلِكٌ يَطْلُبُ أَنْ يَتَمَلَّكَ عَلَيْنَا ، فَمَا لَهُ يُخَالِفُ سِيرَةَ الْمُلُوكِ فِي دُخُولِ الْأَسْوَاقِ ، وَإِنَّمَا كَانَ يَدْخُلُهَا لِحَاجَتِهِ ، أَوْ لِتَذْكِرَةِ الْخَلْقِ بِأَمْرِ اللَّهِ وَدَعْوَتِهِ ، وَيَعْرِضُ نَفْسَهُ عَلَى الْقَبَائِلِ فِي مُجْتَمَعِهِمْ ، لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُرْجِعَ إلَى الْحَقِّ بِهِمْ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : لَمَّا كَثُرَ الْبَاطِلُ فِي الْأَسْوَاقِ ، وَظَهَرَتْ فِيهَا الْمَنَاكِرُ ، كَرِهَ عُلَمَاؤُنَا دُخُولَهَا لِأَرْبَابِ الْفَضْلِ ، وَالْمُهْتَدَى بِهِمْ فِي الدِّينِ ، تَنْزِيهًا لَهُمْ عَنْ الْبِقَاعِ الَّتِي يُعْصَى اللَّهُ فِيهَا .

(159/557)

وَفِي الْآثَارِ : ﴿ مَنْ دَخَلَ السُّوقَ فَقَالَ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، لَهُ الْمُلْكُ ، وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، غُفِرَتْ ذُنُوبُهُ ﴾ إِنْبَاءً بِأَنَّهُ وَحْدَهُ عِنْدَ صَخَبِ الْخَلْقِ وَرَغْبِهِمْ فِي الْمَالِ ، أَقْبَلَ عَلَى ذِكْرِ اللَّهِ ، لَمْ يَقْصِدْ فِي تِلْكَ الْبُقْعَةِ سِوَاهُ ، لِيَعْمُرَهَا بِالطَّاعَةِ إِنْ غُمِرَتْ بِالْمَعْصِيَةِ ، وَلِيُحَلِّيَهَا بِالذِّكْرِ إِنْ عُطِّلَتْ بِالْغَفْلَةِ ، وَلِيُعَلِّمَ الْجَهَلَةَ ، وَيُذَكِّرَ النَّاسِينَ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : أَمَّا أَكْلُ الطَّعَامِ فَضَرُورَةُ الْخَلْقِ ، لَا عَارَ وَلَا دَرَكَ فِيهَا .

وَأَمَّا الْأَسْوَاقُ فَسَمِعْت مَشْيَخَةَ الْعِلْمِ يَقُولُونَ : لَا يَدْخُلُ إِلَّا سُوقَ الْكُتُبِ وَالسِّلَاحِ .

وَعِنْدِي أَنَّهُ يَدْخُلُ كُلَّ سُوقٍ لِلْحَاجَةِ إِلَيْهِ ، وَلَا يَأْكُلُ فِيهِ ، فَإِنَّ ذَلِكَ إِسْقَاطٌ لِلْمُرُوءَةِ وَهَدْمٌ لِلْحِشْمَةِ .

وَمِنْ الْأَحَادِيثِ الْمَوْضُوعَةِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ الْأَكْلُ فِي السُّوقِ دَنَاءَةٌ ﴾ .

وَهُوَ حَدِيثٌ مَوْضُوعٌ ، لَكِنْ رَوَيْنَاهُ مِنْ غَيْرِ طَرِيقٍ ، وَلَا أَصْلَ لَهُ فِي الصِّحَّةِ وَلَا وَصْفَ .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 3 صـ ﴾

(160/557)

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ ﴾

فيه وجهان :

أحدهما : أنهم قالوا ذلك إزراء عليه أنه لما كان مثلهم محتاجاً إلى الطعام ومتبذلاً في الأسواق لم يجز أن يتميز عليهم بالرسالة ووجب أن يكون مثلهم في الحكم .

الثاني : أنهم قالوا ذلك استزادة له في الحال كما زاد عليهم في الاختصاص فكان يجب ألاّ يحتاج إلى الطعام كالملائكة ، ولا يتبذل في الأسواق كالملوك .

ومرادهم في كلا الوجهين فاسد من وجهين :

أحدهما : أنه ليس يوجب اختصاصه بالمنزلة نقله عن موضع الخلقة لأمرين :

أحدهما : أن كل جنس قد يتفاضل أهله في المنزلة ولا يقتضي تمييزهم في الخلقة كذلك حال من فضل في الرسالة .

الثاني : أنه لو نقل عن موضوع الخلقة بتمييزه بالرسالة لصار من غير جنسهم ولما كان رسولاً منهم ، وذلك مما تنفر منه النفوس .

وأما الوجه الثاني : فهو أن الرسالة لا تقتضي منعه من المشي في الأسواق لأمرين :

أحدهما : أن هذا من أفعال الجبابرة وقد صان الله رسوله عن التجبر .

الثاني : لحاجته لدعاء أهل الأسواق إلى نبوته ، ومشاهدة ما هم عليه من منكر يمنع منه

ومعروف يقر عليه .

﴿ لَوْلاَ أُنزِلَ إِلَيهِ ﴾ الآية أي هلا أُنزل إليه ﴿ مَلَكٌ . . . ﴾ وفيه وجهان

: أحدهما : أن يكون الملك دليلاً على صدقه .

الثاني : أن يكون وزيراً له يرجع إلى رأيه .

﴿ أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنزٌ ﴾ فلا يكون فقيراً

. ﴿ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ﴾ والجنة البستان فكأنهم استقلّوه لفقره . قال الحسن :

والله ما زَوَاهَا عن نبيه إلا اختياراً ولا بسطها لغيره إلا اغتراراً ولوا ذاك لما أعاله .

قوله : ﴿ وَقَالَ الظَّالِمُونَ ﴾ يعني مشركي قريش وقيل إنه عبد الله بن الزبعرى .

﴿ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُوراً ﴾ فيه وجهان

: أحدهما : سحر فزال عقله .

الثاني : أي سَحَرَكُمْ فيما يقوله .

(161/557)

قوله تعالى : ﴿ انظُرْ كَيفَ ضَرَبُواْ لَكَ الأَمْثَالَ ﴾ يعني ما تقدم من قولهم .

﴿ فَضَلُّواْ ﴾ فيه وجهان

: أحدهما : فضلواْ عن الحق في ضربها .

الثاني : فناقضوا في ذكرها لأنهم قالوا افتراه ثم قالوا تملى عليه وهما متناقضان .

﴿ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً ﴾ فيه ثلاثة أوجه

: أحدها : مخرجاً من الأمثال التي ضربوها ، قاله مجاهد .

الثاني : سبيلاً إلى الطاعة لله ، قاله السدي .

الثالث : سبيلاً إلى الخير ، قاله يحيى بن سلام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

(162/557)

وقال ابن عطية :

﴿ وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ ﴾

الضمير في قوله ﴿ قالوا ﴾ لقريش ، وذلك أنهم كان لهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلس مشهور ، ذكره ابن إسحاق في السير وغيره ، مضمنة أن سادتهم عتبة بن ربيعة وغيره اجتمعوا معه فقالوا يا محمد إن كنت تحب الرياسة وليناك علينا ، وإن كنت تحب المال جمعنا لك من أموالنا ، فلما أبى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجعوا في باب

الاحتجاج عليه فقالوا له ما بالك وأنت رسول الله تأكل الطعام وتقف بالأسواق وتريد التماس الرزق ، أي إن من كان رسول الله مستغن عن جميع ذلك ، ثم قالوا له سل ربك أن ينزل معك ملكاً ينذر معك أو يلقي إليك كنزاً تنفق منه ، أو يرد لك جبال مكة ذهباً أو تزال الجبال ويكون مكانها جنات تطرد فيها المياه ، وأشاعوا هذه المحاجة فنزلت الآية وكتبت اللام مفردة من قولهم ﴿ ما ل ﴾ هذا إما لأن على المصحف قطع لفظه فاتبعه الكاتب ، وإما لأنهم رأوا أن حروف الجر بابها الانفصال نحو " في ومن وعلى وعن " . وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وعاصم وابن عامر " يأكل منها " بالياء ، وقرأ حمزة والكسائي " نأكل منها " بالنون وهي قراءة ابن وثاب وابن مصرف وسليمان بن مهران ، ثم أخبر تعالى عنهم وهم ﴿ الظالمون ﴾ الذين أشير إليهم أنهم قالوا حين يئسوا من محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ إن يتبعون إلا رجلاً مسحوراً ﴾ أي قد سحر فهو لا يرى مراشده ، ويحتمل ﴿ مسحوراً ﴾ أن يكون من السحر وهي الرؤية فكأنهم ذهبوا إلى تحقيره ، أي رجلاً مثلكم في الخلقة ، ذكره مكي وغيره ، ثم نبّهه الله تعالى مسلياً عن مقالتهم فقال ﴿ انظر كيف ضربوا لك الأمثال ﴾ بالمسحور والكاهي والساحر وغيره ﴿ فضلوا ﴾ أي أخطئوا الطريق فلا يجدون سبيل هداية ولا يطيقونه لالتباسهم بضده من الضلال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وقالوا ﴾ يعني المشركين ﴿ ما لهذا الرسول يأكل الطعام ﴾ أنكروا أن يكون الرسول بَشَراً يأكل الطعام ويمشي في الطُّرق كما يمشي سائر الناس يطلب المعيشة ؛ والمعنى : أنه ليس بملَك ولا مِلك ، لأن الملائكة لا تأكل ، والملوك لا تتبذَّل في الأسواق ، فعجبوا أن يكون مساوياً للبشر لا يتميَّز عليهم بشيء ؛ وإنما جعله الله بشراً ليكون مجانساً للذين أُرسل إليهم ، ولم يجعله مِلكاً يمتنع من المشي في الأسواق ، لأن ذلك من فعل الجبابرة ، ولأنه أُمر بدعائهم ، فاحتاج أن يمشي بينهم .

قوله تعالى : ﴿ لولا أُنزل إليه مَلَكٌ ﴾ وذلك أنهم قالوا له : سل ربك أن يبعث معك ملَكاً يصدّقك ويجعل لك جناناً وقصوراً وكنوزاً ، فذلك قوله : ﴿ أو يُلقَى إليه كَنْزٌ ﴾ أي : ينزل إليه كنز من السماء ﴿ أو تكونُ له جَنَّة يأكُلُ منها ﴾ أي : بستان يأكل من ثماره .

قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وعاصم ، وابن عامر ﴿ يأكل منها ﴾ بالياء ، يعنون النبيَّ صلى الله عليه وسلم .

وقرأ حمزة ، والكسائي : ﴿ نأكل ﴾ بالنون ، قال أبو علي : المعنى : يكون له علينا مزيّة في الفضل بأكلنا من جنته .

وباقي الآية مفسَّر في [بني إسرائيل : 47] .

قوله تعالى : ﴿ انظر ﴾ يا محمد ﴿ كيف ضَربوا لك الأمثال ﴾ حين مثَّلوك بالمسحور ، وبالكاهن والمجنون والشاعر ﴿ فَضَلُّوا ﴾ بهذا عن الهدى ﴿ فلا يستطيعون سبيلاً ﴾ فيه قولان .

أحدهما : لا يستطيعون مَخرجاً من الأمثال التي ضربوها ، قاله مجاهد ، والمعنى : أنهم كذّبوا ولم يجدوا على قولهم حُجَّة وبرهاناً ، وقال الفراء : لا يستطيعون في أمرك حيلة .

والثاني : سبيلاً إلى الطاعة ، قاله السدي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 6 صـ ﴾

(164/557)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ مالِ هذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطعام وَيَمْشِي فِي الأسواق ﴾ .

فيه مسألتان :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ ﴾ ذكر شيئاً آخر من مطاعنهم .

والضمير في ﴿ قالُوا ﴾ لقريش ؛ وذلك أنهم كان لهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلس مشهور ، وقد تقدّم في ﴿ سبحان ﴾ .

ذكره ابن إسحاق في السيرة وغيره .

مضمنه أن سادتهم عتبة بن ربيعة وغيره اجتمعوا معه فقالوا : يا محمد ! إن كنت تحب الرياسة ولّيناك علينا ، وإن كنت تحب المال جمعنا لك من أموالنا ؛ فلما أبى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك رجعوا في باب الاحتجاج معه فقالوا : ما بالك وأنت رسول الله تأكل الطعام ، وتقف بالأسواق ! فعيّروه بأكل الطعام ؛ لأنهم أرادوا أن يكون الرسول ملكاً ، وعيّروه بالمشي في الأسواق حين رأوا الأكاسرة والقياصرة والملوك الجبابرة يترفعون عن الأسواق ، وكان عليه السلام يخالطهم في أسواقهم ، ويأمرهم وينهاهم ؛ فقالوا : هذا يطلب أن يتملك علينا ، فما له يخالف سيرة الملوك ؛ فأجابهم الله بقوله ، وأنزل على نبيه : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ المرسلين إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطعام وَيَمْشُونَ فِي الأسواق ﴾ فلا تغتم ولا تحزن ، فإنها شكَاة ظاهر عنك عارها .

الثانية : دخول الأسواق مباح للتجارة وطلب المعاش .

وكان عليه السلام يدخلها لحاجته ، ولتذكرة الخلق بأمر الله ودعوته ، ويعرِض نفسه فيها على القبائل ، لعلّ الله أن يرجع بهم إلى الحق .

وفي البخاري في صفته عليه السلام : "ليس بفظٍّ ولا غلِيظ ولا سخَّاب في الأسواق" وقد تقدّم في ﴿ الأعراف ﴾ .

وذكر السوق مذكور في غير ما حديث ، ذكره أهل الصحيح .

وتجارة الصحابة فيها معروفة ، وخاصة المهاجرين ؛ كما قال أبو هريرة : وإن إخواننا من

المهاجرين كان يشغلهم الصَّفْق بالأسواق ؛ خرجه البخاري .

وسيأتي لهذه المسألة زيادة بيان في هذه السورة إن شاء الله .

(165/557)

قوله تعالى : ﴿ لولا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ ﴾ أي هلاّ .

﴿ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً ﴾ جواب الاستفهام .

﴿ أَوْ يلقى ﴾ في موضع رفع ؛ والمعنى : أو هلاّ يلقى ﴿ إِلَيْهِ كَنْزٌ ﴾ ﴿ أَوْ ﴾ هلاّ ﴿ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ﴾ ﴿ يَأْكُلُ ﴾ بالياء قرأ المدنيون وأبو عمرو وعاصم .

وقرأ سائر الكوفيين بالنون ، والقراءتان حسنتان تؤدّيان عن معنى ، وإن كانت القراءة بالياء أبين ؛ لأنه قد تقدّم ذكر النبيّ صلى الله عليه وسلم وحده فأن يعود الضمير عليه أبين ؛ ذكره النحاس .

﴿ وَقَالَ الظالمون إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُوراً ﴾ تقدّم في ﴿ سبحان ﴾ والقائل عبد الله بن الزِّبَعْرى فيما ذكره الماورديّ .

قوله تعالى : ﴿ انظر كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ الأمثال ﴾

أي ضربوا لك هذه الأمثال ليتوصلوا إلى تكذيبك .

﴿ فَضَلُّواْ ﴾ عن سبيل الحق وعن بلوغ ما أرادوا .

﴿ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً ﴾ إلى تصحيح ما قالوه فيك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 13 صـ ﴾

(166/557)

وقال أبو حيان :

﴿ وقالوا ﴾ الضمير لكفار قريش ، وكانوا قد جمعهم والرسول مجلس مشهور ذكره ابن إسحاق في السير فقال عتبة وغيره : إن كنت تحب الرئاسة ولَّيناك علينا أو المال جمعنا لك ، فلما أبي عليهم اجتمعوا عليه فقالوا : مالك وأنت رسول من الله تأكل الطعام وتقف بالأسواق لالتماس الرزق سل ربك أن ينزل معك ملكاً ينذر معك ، أو يلقي إليك كنزاً تنفق منه ، أو يرد لك جبال مكة ذهباً وتزال الجبال ، ويكون مكانها جنات تطرد فيها المياه وأشاعوا هذه المحاجة فنزلت الآية .

وكتب في المصحف لام الجر مفصولة من ﴿ هذا ﴾ و ﴿ هذا ﴾ استفهام يصحبه استهزاء أي ﴿ مال هذا ﴾ الذي يزعم أنه رسول أنكروا عليه ما هو عادة للرسل كما قال ﴿ وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلاّ أنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق ﴾ أي حاله

كحالنا أي كان يجب أن يكون مستغنياً عن الأكل والتعيش ، ثم قالوا : وهب أنه بشر فهلا أرفد بملك ينذر معه أو يلقى إليه كنز من السماء يستظهر به ولا يحتاج إلى تحصيل المعاش . ثم اقتنعوا بأن يكون له بستان يأكل منه ويرتزق كالمياسير .

وقرىء فتكون بالرفع حكاه أبو معاذ عطفاً على ﴿ أنزل ﴾ لأن ﴿ أنزل ﴾ في موضع رفع وهو ماض وقع موقع المضارع ، أي هلا ينزل إليه ملك أو هو جواب التحضيض على إضمار هو ، أي فهو يكون .

وقراءة الجمهور بالنصب على جواب التحضيض .

وقوله ﴿ أو يلقى ﴾ ﴿ أو ﴾ يكون عطف على ﴿ أنزل ﴾ أي لولا ينزل فيكون المطلوب أحد هذه الأمور أو مجموعها باعتبار اختلاف القائلين ، ولا يجوز النصب في ﴿ أو يلقى ﴾ ولا في ﴿ أو تكون ﴾ عطفاً على ﴿ فيكون ﴾ لأنهما في حكم المطلوب بالتحضيض لا في حكم الجواب لقوله ﴿ لولا أنزل ﴾ .

وقرأ قتادة والأعمش : أو يكون بالياء من تحت .

وقرأ ﴿ يأكل ﴾ بياء الغيبة أي الرسول ، وزيد بن عليّ وحمزة والكسائي وابن وثاب وطلحة والأعمش بنون الجمع أي يأكلون هم من ذلك البستان فينتفعون به في دنياهم ومعاشهم .

﴿ وقال الظالمون ﴾ أي للمؤمنين .

قال الزمخشري : وأراد بالظالمين إياهم بأعيانهم وضع الظاهر موضع المضمر ليسجل عليهم بالظلم فيما قالوه انتهى .

وتركيبه وأراد بالظالمين إياهم بأعيانهم ليس تركيباً سائغاً بل التركيب العربي أن يقول : وأرادهم بأعيانهم بالظالمين ﴿ مسحوراً ﴾ غلب على عقله السحر وهذا أظهر ، أو ذا سحر وهو الرئة ، أو يسحر بالطعام وبالشراب أي يُغذي ، أو أصيب سحره كما تقول رأسته أصبت رأسه .

وقيل ﴿ مسحوراً ﴾ ساحراً عنوا به أنه بشر مثلهم لا ملك .

وتقدم تفسيره في الإسراء وبهذين القولين قيل : والقائلون ذلك النضر بن الحارث وعبد الله بن أبي أمية ونوفل بن خويلد ومن تابعهم .

﴿ انظر كيف ضربوا لك الأمثال ﴾ أي قالوا فيك تلك الأقوال واخترعوا لك تلك الصفات والأحوال النادرة من نبوة مشتركة بين إنسان وملك وإلقاء كنز عليك وغير ذلك فبقوا متحيرين ضلالاً لا يجدون قولاً يستقرون عليه ، أي فضلوا عن الحق فلا يجدون طريقاً له .

وقيل : ﴿ ضربوا لك الأمثال ﴾ بالمسحور والكاهن والشاعر وغيره ﴿ فضلوا ﴾

أخطؤوا الطريق فلا يجدون سبيل هداية ولا يطيقونه لالتباسهم بضده من الضلال .

وقيل ﴿ فلا يستطيعون سبيلاً ﴾ إلى حجة وبرهان على ما يقولون ، فمرة يقولون هو بليغ فصيح يتقول القرآن من نفسه ويفتريه ومرة مجنون ومرة ساحر ومرة مسحور .

وقال ابن عباس : شبه لك هؤلاء المشركون الأشباه بقولهم هو مسحور فضلوا بذلك عن قصد السبيل ، فلا يجدون طريقاً إلى الحق الذي بعثك به .

وقال مجاهد : لا يجدون مخرجاً يخرجهم عن الأمثال التي ﴿ ضربوا لك ﴾ .

ومعناه أنهم ﴿ ضربوا لك ﴾ هذه ليتوصلوا بها إلى تكذيبك ﴿ فضلوا ﴾ عن سبيل الحق وعن بلوغ ما أرادوا .

(168/557)

وقال أبو عبد الله الرازي ؛ ﴿ انظر كيف ﴾ اشتغل القوم بضرب هذه الأمثال التي لا فائدة فيها لأجل أنهم لما ضلوا وأرادوا القدح في نبوتك ، لم يجدوا إلى القدح سبيلاً إذا لطعن عليه إنما يكون فيما يقدح في المعجزات التي ادعاها لا بهذا الجنس من القول .

وقال الفراء : لا يستطيعون في أمرك حيلة .

وقال السدي ﴿ سبيلاً ﴾ إلى الطعن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ وَقَالُواْ مَّالِ هذا الرسول ﴾

شروعٌ في حكاية جنايتهم المتعلّقة بخصوصيَّةِ المنزَّلِ عليهِ . وما استفهاميَّةٌ بمعنى إنكار الوقوع ونفيه مرفوعةٌ على الابتداءِ خبرُها ما بعدها من الجارّ والمجرورِ . وفي هذا تصغيرٌ لشأنه عليه الصَّلاة والسَّلام وتسميتُه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ رسولاً بطريقِ الاستهزاءِ به عليه الصَّلاة والسَّلام كما قال فرعونُ : "إنَّ رسولَكم الذي أُرسل إليكُم لمجنون" ، وقولُه تعالى : ﴿ يَأْكُلُ الطعام ﴾ حالٌ من الرَّسولِ ، والعاملُ فيها ما عملَ في الجارّ من معنى الاستقرارِ أيْ أيُّ شيءٍ وأيُّ سببٍ حصلَ لهذا الذي يدَّعي الرِّسالةَ حالَ كونِه يأكلُ الطَّعامَ كما نأكلُ ﴿ وَيَمْشِى فِى الأسواق ﴾ لابتغاءِ الأرزاقِ كما نفعلُه ، على توجيه الإنكار والنَّفي إلى السببِ فقط مع تحقُّقِ المُسبَّبِ الذي هو مضمون الجملة الحاليَّةِ كما في قوله تعالى :

﴿ فَمَا لَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ وقوله : ﴿ مَّا لَكُمْ لاَ تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً ﴾ فكما أنّ كلاًّ من عدمِ الإيمانِ وعدمِ الرَّجاءِ أمرٌ محقَّقٌ قد استبعد تحقُّقه لانتفاءِ سببه بل لوجود سبب عدمِه خَلاَ أنَّ استبعادَ المسبَّبِ وإنكارَ السَّببِ ونفيَه في عدم الإيمان وعدم الرجاء بطريق التَّحقيقِ وفي الأكل والمشيِ بطريق التَّهكُّمِ والاستهزاء فإنَّهم لا يستبعدونهما ولا يُنكرون سببَهما حقيقةً بل هم مُعترفون بوجودِهما وتحقُّقِ سببِهما وإنَّما الذي يستبعدونَهُ الرِّسالةَ المُنافيةَ لهما على زعمِهم يعنون أنَّه إنْ صحَّ ما يدَّعيه فما بالُه لم يخالفْ حالُه حالَنا وهل هو إلا لعمهِهم وركاكةِ عقولِهم وقصور أنظارهم على المحسُوسات فإنَّ تميُّزَ الرُّسلِ عمَّن عداهم ليس بأمورٍ جُسمانيَّةٍ وإنما هو بأمورٍ نفسانيَّةٍ كما أُشير إليه بقولِه تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَاْ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يوحى إِلَيَّ أَنَّمَا إلهكم إله وَاحِدٌ ﴾ ﴿ لَوْلا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ ﴾ أي على صورتِه وهيئتِه ﴿ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً ﴾ تنزُّلٌ منهم من اقتراحِ أنْ يكونَ مَلَكاً مستغنياً عن الأكل والشُّربِ إلى اقتراح أنْ يكونَ معه مَلَكٌ يصدِّقه ويكون ردْءاً له في الإنذار وهو يُعبر عنه ويفسِّر ما يقوله للعامَّةِ .

(171/557)

وقوله تعالى : ﴿ أَوْ يلقى إِلَيْهِ كَنْزٌ ﴾ تنزُّلٌ من تلك المرتبةِ إلى اقتراح أنْ يُلقى إليه من السَّماءِ كنزٌ يستظهرُ به ولا يحتاجُ إلى طلب المعاشِ ويكون دليلاً على صدقه . وقولُه تعالى : ﴿ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ﴾ تنزُّلٌ من ذلك إلى اقتراحِ ما هو أيسرُ منه وأقربُ من الوقوع . وقُرِىء نأكلُ بنون الحكايةِ وفيه مزيدُ مكابرةٍ وفَرط تَحكُّمٍ . ﴿ وَقَالَ الظالمون ﴾ هم القائلونَ الأوّلونَ وإنما وضع المظهرِ موضعَ ضميرِهم تسجيلاً عليهم بالظُّلم وتجاوزِ الحدّ فيما قالوه لكونه إضلالاً خارجاً عن حدّ الضَّلالِ مع ما فيه من نسبته عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ إلى المَسْحُوريَّةِ أي قالُوا للمؤمنينَ : ﴿ إِن تَتَّبِعُونَ ﴾ أي ما تتبعون ﴿ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُورًا ﴾ قد سُحرَ فغُلبَ على عقلِه وقيل : ذا سَحْرٍ وهي الرِّئةُ أي بَشراً لا مَلكاً على أنَّ الوصفَ لزيادة التَّقريرِ والأوّلُ هو الأنسبُ بحالِهم .

﴿ انظر كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ الأمثال ﴾ استعظامٌ للأباطيل التي اجترؤُا على التَّفوه بها وتعجيبٌ منها أي انظُر كيف قالوا في حقّك تلكَ الأقاويلَ العجيبةَ الخارجة عن العقول ، الجاريةَ لغرابتها مجرى الأمثالِ واخترعُوا لك تلك الصِّفاتِ والأحوالِ الشَّاذةَ البعيدة من الوقوعِ ﴿ فَضَلُّواْ ﴾ أي عن طريقِ المُحاجّةِ حيث لم يأتُوا بشيءٍ يُمكن صدورُه عمَّن له أدنى عقلٍ وتمييزٍ فبقُوا مُتحيّزين ﴿ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً ﴾ إلى القدح في نبوتك بأنْ يجدوا قولاً يستقرُّون عليه وإنْ كان باطلاً في نفسِه أو فضلُّوا عن الحقِّ ضلالاً مبيناً فلا

يجدون طريقاً موصّلاً إليه فإنَّ مَن اعتاد استعمال أمثال هذه الأباطيلِ لا يكادُ يهتدِي إلى استعمال المقدّماتِ الحقَّةِ. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 6 صـ ﴾

(172/557)

وقال الآلوسى :

﴿ وَقَالُواْ مَّالِ هذا الرسول يَأْكُلُ الطعام ﴾ الخ

نزلت في جماعة من كفار قريش أخرج ابن أبي إسحق .

وابن جرير .

وابن المنذر .

عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن عتبة .

وشيبة ابني ربيعة .

وأبا سفيان بن حرب .

والنضر بن الحرث .

وأبا البحتري .

والأسود بن المطلب .

وزمعة بن الأسود .

والوليد بن المغيرة وأبا جعل بن هشام .

وعبد الله بن أبي أمية .

وأمية بن خلف .

والعاصي بن وائل .

ونبيه بن الحجاج .

(173/557)

ومنبه بن الحجاج اجتمعوا فقال بعضهم لبعض : ابعثوا إلى محمد صلى الله عليه وسلم وكلموه وخاصموه حتى تعذروا منه فبعثوا إليه أن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك فجاءهم عليه الصلاة والسلام فقالوا : يا محمد إنا بعثنا إليك لنعذر منك فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالاً جمعنا لك من أموالنا وإن كنت تطلب الشرف فنحن نسودك وإن كنت تريد ملكاً ملكناك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما بي مما تقولون ما جئتكم بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم ولكن الله تعالى بعثني إليكم رسولاً وأنزل علي كتاباً وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً فبلغتكم

رسالة ربي ونصحت لكم فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة وإن تردوه علي أصبر لأمر الله تعالى حتى يحكم الله عز وجل بيني وبينكم " قالوا : يا محمد فإن كنت غير قابل منا شيئاً مما عرضنا عليك فسل لنفسك سل ربك أن يبعث معك ملكاً يصدقك بما تقول ويراجعنا عنك وسله أن يجعل لك جناناً وقصوراً من ذهب وفضلة تغنيك عما تبتغي فإنك تقوم بالأسواق وتلتمس المعاش كما نلتمسه حتى نعرف فضلك ومنزلتك من ربك إن كنت رسولاً كما تزعم فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما بي مما تقولون ما جئتكم بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم ولكن الله تعالى بعثني إليكم رسولاً وأنزل علي كتاباً وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً فبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة وإن تردوه علي أصبر لأمر الله تعالى حتى يحكم الله عز وجل بيني وبينكم " قالوا : يا محمد فإن كنت غير قابل منا شيئاً مما عرضنا عليك فسل لنفسك سل ربك أن يبعث معك ملكاً يصدقك بما تقول ويراجعنا عنك وسله أن يجعل لك جناناً وقصوراً من ذهب وفضة تغنيك عما تبتغي فإنك تقوم بالأسواق وتلتمس المعاش كما نلتمسه حتى نعرف فضلك ومنزلتك من ربك إن

كنت رسولاً كما تزعم فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" ما أنا بفاعل ما أنا بفاعل بالذي يسأل ربه هذا وما بعثت إلكيم بهذا ولكن الله تعالى بعثني بشيراً ونذيراً " فأنزل الله تعالى في قولهم ذلك ﴿ وَقَالُواْ مَّالِ هذا الرسول ﴾ الخ .

وقد سيق هنا لحكاية جنايتهم المتعلقة بخصوص المنزل عليه الفرقان بعد حكاية جنايتهم التي تتعلق بالمنزل ، وما استفهامية بمعنى إنكار الوقوع ونفيه في محل رفع على الابتداء والجار والمجرور بعدها متعلق بمحذوف خبر لها ، وقد وقعت اللام مفصولة عن هذا المجرور بها في خط الإمام وهي سنة متبعة ، وعنوا بالإشارة والتعبير بالرسول الاستهانة والتهكم ، وجملة ﴿ يَأْكُلُ الطعام ﴾ حال من ﴿ الرسول ﴾ والعامل فيها ما عمل في الجار من معنى الاستقرار ؛ وجوز أن يكون الجار والمجرور أي أي شيء وأي سبب حصل لهذا الزاعم أنه رسول حال كونه يأكل الطعام كما نأكل ﴿ وَيَمْشِى فِى الاسواق ﴾ لابتغاء الأرزاق كما نفعله على توجيه الإنكار والنفي إلى السبب فقط مع تحقق المسبب الذي هو مضمون الجملة الحالية .

ومن الناس من جوز جعل الجملة استئنافية والأول ما ذكرنا ، ومرادهم استبعاد الرسالة المنافية لأكل الطعام وطلب المعاش على زعمهم فكأنهم قالوا : إن صح ما يدعيه فما باله لم يخالف حاله حالنا وليس هذا إلا لعمههم وركاكة عقولهم وقصور أبصارهم على

المحسوسات فإن تميز الرسل عليهم السلام عما عداهم ليس بأمور جسمانية وإنما هو بأمور نفسانية أعني ما جبلهم الله تعالى عليه من الكمال كما يشير إليه قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يوحى إِلَيَّ أَنَّمَا إلهكم إله وَاحِدٌ ﴾ [الكهف : 110] واستدل بالآية على إباحة دخول الأسواق للعلماء وأهل الدين والصلاح خلافاً لمن كرهه لهم .

﴿ لَوْلا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً ﴾ .

(175/557)

﴿ أَوْ يلقى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ﴾ تنزل عما تقدم كأنهم قالوا : إن لم توجد المخالفة بيننا وبينه في الأكل والتعيش فهلا يكون معه من يخالف فيهما يكون ردءاً له في الإنذار فإن لم توجد فهلا يخالفنا في أحدهما وهو طلب المعاش بأن يلقى إليه من السماء كنز يستظهر به ويرتفع احتياجه إلى التعيش بالكلية فإن لم يوجد فلا أقل من رفع الاحتياج في الجملة بإتيان بستان يتعيش بريعه كما للدهاقين والمياسير من الناس .

والزمخشري ذكر أنهم عنوا بقولهم ﴿ مالِ هذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطعام وَيَمْشِى فِى الاسواق ﴾ [الفرقان : 7] أنه كان يجب أن يكون ملكاً ثم نزلوا عن ملكيته إلى صحبة ملك له يعينه ثم نزلوا عن ذلك إلى كونه مرفوداً بكنز ثم نزلوا فاقتنعوا بأن يكون له بستان يأكل منه

ويرتزق ، قيل الجملة الأخيرة فقط تنزل منهم وما قبل استئناف جواباً عما يقال كيف يخالف حاله صلى الله عليه وسلم حالكم وبأي شيء يحصل ذلك ويتميز عنكم ؟ ولا يخفى ما فيه ونصب ﴿ يَكُونَ ﴾ على جواب التحضيض ، وقرىء ﴿ فَيَكُونُ ﴾ بالرفع حكاه أبو معاذ ، وخرج على أن يكون معطوف على ﴿ أَنزَلَ ﴾ [الفرقان : 7] لأنه لو وقع موقعه المضارع لكان مرفوعاً لأنك تقول ابتداء لولا ينزل بالرفع وقد عطف عليه ﴿ يُلْقِى ﴾ و ﴿ تَكُونُ ﴾ وهما مرفوعان أو هو جواب التحضيض على إضمار هو أي فهو يكون ، ولا يجوز في مثل هذا التركيب نصب ﴿ يُلْقِى ﴾ وتكون بالعطف على يكون المنصوب لأنهما في حكم المطلوب بالتحضيض لا في حكم الجواب .

(176/557)

ولعل التعبير أولاً بالماضي مع أن الأصل في لولا التي للتحضيض أو العرض دخولها على المضارع لأن إنزال الملك مع قطع النظر عن أن يكون معه عليه الصلاة والسلام نذيراً أمر متحقق لم يزل مدعياً له صلى الله عليه وسلم فما أخرجوا الكلام حسبما يدعيه عليه الصلاة والسلام وإن لم يكن مسلماً عندهم ، وفيه نوع تهكم منهم قاتلهم الله تعالى بخلاف الإلقاء وحصول الجنة ، ولعل في التعبير بالمضارع فيهما وإن كان هو الأصل إشارة إلى

الاستمرار التجددي كأنهم طلبوا شيئاً لا ينفد .

وذكر ابن هشام في "المغني" عن الهروي أنه قال بمجيء لولا للاستفهام ومثل له بمثالين أحدهما قوله تعالى : ﴿ لَوْلا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ ﴾ ، وتعقب ذلك بأنه معنى لم يذكره أكثر النحويين ، والظاهر أنها في المثال المذكور مثلها في قوله تعالى : ﴿ لَوْلا جَاءوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاء ﴾ [النور : 13] ، وذكر أنها في ذلك للتوبيخ والتنديم وهي حينئذ تختص بالماضي ، ولا يخفى أنه إن عنى بقوله تعالى : ﴿ لَوْلا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ ﴾ [الفرقان : 7] ما وقع هنا فأمر كونها فيه للتوبيخ والتنديم في غاية الخفاء فتدبر ، وقرأ قتادة والأعمش ﴿ أَوْ يَكُونَ ﴾ بالياء آخر الحروف ، وقرأ زيد بن علي .

وحمزة .

والكسائي وابن وثاب .

وطلحة .

(177/557)

والأعمش ﴿ نَّأْكُلَ ﴾ بالنون إسناداً للفعل إلى ضمير الكفر القائلين ما ذكر ﴿ وَقَالَ الظالمون ﴾ هم القائلون الأولون وإنما وضع المظهر موضع ضميرهم تسجيلاً عليهم بالظلم

فيما قالوه لكونه إضلالاً خارجاً عن حد الضلال مع ما فيه من نسبته صلى الله عليه وسلم إلى ما يشهد العقل والنقل ببراءته منه أو إلى ما يصلح أن يكون متمسكاً لما يزعمون من نفي الرسالة ، وقيل : يحتمل أن يكون المراد ، وقال الكاملون في الظلم منهم وأياً ما كان فالمراد أنهم قالوا للمؤمنين ﴿ إِن تَتَّبِعُونَ ﴾ أي ما تتبعون ﴿ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُورًا ﴾ سحر فغلب على عقله فالمراد بالسحر ما به اختلال العقل ، وقيل : أصيب سحره أي رئته فاختل حاله كما يقال مرؤس أي أصيب رأسه ، وقيل : يسحر بالطعام وبالشراب أي يغذي أو ذا سحر أي رئة على أن مفعول للنسب وأرادا أنه عليه الصلاة والسلام ، بشر مثلهم ، وقيل أي ذا سحر بكسر السين وعنوا قاتلهم الله تعالى ساحراً ، والأظهر على ما في "البحر" التفسير الأول ، وذكر هو الأنسب بحالهم .

﴿ انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ ﴾

(178/557)

استعظام للأباطيل التي اجترؤا على التفوه بها وتعجيب منها أي انظر كيف قالوا في حقك الأقاويل العجيبة الخارجة عن العقول الجارية لغرابتها مجرى الأمثال واخترعوا لك تلك الصفات والأحوال الشاذة البعيدة من الوقوع ﴿ فَضَلُّوا فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً ﴾ فبقوا

متحيرين ضلالاً لا يجدون في القدح في نبوتك قولاً يستقرون عليه وإن كان باطلاً في نفسه فالفاء الأولى سببية ومتعلق ﴿ ضَلُّواْ ﴾ غير منيو والفاء الثانية تفسيرية أو فضلوا عن طريق الحق فلا يجدون طريقاً موصولاً إليه فإن من اعتاد استعمال هذه الأباطيل لا يكاد يهتدي إلى استعمال المقدمات الحقة فالفاء في الموضعين سببية ومتعلق ﴿ ضَلُّواْ ﴾ منوي ولعل الأول أولى ، والمراد نفى أن يكون ما أتوا به قادحاً في نبوته صلى الله عليه وسلم ونفى أن يكون عندهم ما يصلح للقدح قطعاً على أبلغ وجه فإن القدح فيها إنما يكون في القدح بالمعجزات الدالة عليها وما أتوا به لا يفيد ذلك أصلاً وأنى لهم بما يفيده . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 18 صـ ﴾

(179/557)

وقال القاسمى :

﴿ وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ ﴾

أي : كما نأكل : ﴿ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ ﴾ أي : يتردد فيها لشؤونه كما نمشي . قال الزمخشري : يعنون أنه كان يجب أن يكون ملَكاً مستغنياً عن الأكل والتعيش . أي : فيخالف حالُه حالنا . قال أبو السعود : وهل هو إلا لعمههم وركاكة عقولهم ، وقصور

أنظارهم على المحسوسات . فإن تميز الرسل عمن عداهم ليس بأمور جسمانية ، وإنما هو بأمور نفسانية . كما أشير إليه بقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ ﴾ [الكهف : 110] ، ثم نزلوا عن اقتراحهم أن يكون مَلَكاً ، إلى اقتراح أن يكون إنساناً معه ملَك حتى يتساندا في الإنذار فقالوا : ﴿ لَوْلا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً ﴾ ثم نزلوا أيضاً إلى اقتراح أن يرفد بكنز ، إن لم يرفد بملك ، فقالوا :

﴿ أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ ﴾ أي : من السماء يستظهر به ، ولا يحتاج إلى طلب المعاش , ويكون دليلاً على صدقه . ثم نزلوا فاقتنعوا باقتراح ما هو أيسر منه ، فقالوا : ﴿ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ﴾ أي : بستان يرتزق منه : ﴿ وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلاً مَسْحُوراً ﴾ أي : مغلوباً على عقله . وقوله :

﴿ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ ﴾ استعظام للأباطيل التي اجترأوا على التفوه بها . والتعجب منها . أي : انظر كيف قالوا في حقك تلك الأقوال الخارجة عن العقول : ﴿ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً ﴾ أي : القدح في نبوّتك ، بأن يجدوا قولاً يستقرّون عليه ، أو فَضَلُّوا عن الحق فلا يجدون طريقاً إليه .

قال ابن كثير : كل من خرج عن الحق وطريق الهدى فإنه ضال ، حيثما توجه ، لأن الحق واحد ، ومنهجه متحد يصدق بعضه بعضاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 12 صـ 435.436 ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَقَالُواْ مالِ هذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطعام وَيَمْشِى فِى الاسواق لولا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً ﴾ ﴿ أَوْ يلقى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ﴾ .

انتقال من حكاية مطاعنهم في القرآن وبيان إبطالها إلى حكاية مطاعنهم في الرسول عليه الصلاة والسلام .

والضمير عائد إلى الذين كفروا ، فمدلول الصفة مراعىً كما تقدم .

وقد أوردوا طعنهم في نبوءة النبي صلى الله عليه وسلم بصيغة الاستفهام عن الحالة المختصة به إذ أوردوا اسم الاستفهام ولام الاختصاص والجملة الحالية التي مضمونها مثارُ الاستفهام .

والاستفهام تعجيبي مستعمل في لازمه وهو بطلان كونه رسولاً بناء على أن التعجب من الدعوى يقتضي استحالتها أو بطلانها .

وتركيب ﴿ ما لهذا ﴾ ونحوه يفيد الاستفهام عن أمر ثابت له ، فاسم الاستفهام مبتدأ و ﴿ لهذا ﴾ خبر عنه فمثار الاستفهام في هذه الآية هو ثبوت حال أكل الطعام والمشي في

الأسواق للذي يدعي الرسالة من الله .

فجملة : ﴿ يأكل الطعام ﴾ جملة حال .

وقولهم : ﴿ لهذا الرسول ﴾ أجروا عليه وصف الرسالة مجاراة منهم لقوله وهم لا يؤمنون به ولكنهم بنوا عليه ليتأتى لهم التعجب والمراد منه الإحالة والإبطال .

والإشارة إلى حاضر في الذهن ، وقد بين الإشارة ما بعدها من اسم معرّف بلام العهد وهو الرسول .

وكنّوا بأكل الطعام والمشي في الأسواق عن مماثلة أحواله لأحوال الناس تذرعاً منهم إلى إبطال كونه رسولاً لزعمهم أن الرسول عن الله تكون أحواله غير مماثلة لأحوال الناس ، وخصّوا أكل الطعام والمشي في الأسواق لأنهما من الأحوال المشاهدة المتكررة ، ورد الله عليهم قولهم هذا بقوله : ﴿ وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق ﴾ [الفرقان : 20] .

ثم انتقلوا إلى اقتراح أشياء تؤيد رسالته فقالوا : ﴿ لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً ﴾ .

وخصوا من أحوال الرسول حال النذارة لأنها التي أنبتت حقدهم عليه .

و(لولا) حرف تحضيض مستعمل في التعجيز ، أي لو أنزل إليه ملك لاتبعناه .

وانتصب (فيكونَ) على جواب التحضيض .

و(أو) للتخيير في دلائل الرسالة في وهَمهم .

ومعنى ﴿ يلقى إليه كنز ﴾ أي ينزل إليه كنز من السماء ، إذ كان الغنى فتنة لقلوبهم .

والإلقاء : الرمي ، وهو هنا مستعار للإعطاء من عند الله لأنهم يتخيلون الله تعالى في السماء .

والكنز تقدم في قوله تعالى : ﴿ أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز ﴾ في سورة هود (12) .

وجعلوا إعطاء جنة له علامة على النبوءة لأن وجود الجنة في مكة خارق للعادة .

وقرأ الجمهور : ﴿ يأكل منها ﴾ بياء الغائب ، والضمير المستتر عائد إلى ﴿ هذا الرسول ﴾ .

وقرأ حمزة والكسائي وخلف ﴿ نأكل منها ﴾ بنون الجماعة .

والمعنى : ليتيقنوا أن ثمرها حقيقةٌ لا سحر .

ذكر أصحاب السير أن هذه المقالة صدرت من كبراء المشركين وفي مجلس لهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم جمع عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة ، وأبا سفيان بن حرب ، وأبا البختري ، والأسود بن عبد المطلب ، وزمعة بن الأسود ، والوليد بن المغيرة ، وأبا جهل

بن هشام ، وأمية بن خلف ، وعبد الله بن أبي أمية ، والعاصي بن وائل ، ونُبيه بن الحجاج ومنبه بن الحجاج ، والنضر بن الحارث ، وأن هذه الأشياء التي ذكروها تداولها أهل المجلس إذ لم يعين أهل السير قائلها .

قال ابن عطية : وأشاعوا ذلك في الناس فنزلت هذه الآية في ذلك .

وقد تقدم شيء من هذا في سورة الإسراء .

وكتبت لام ﴿ مال هذا ﴾ منفصلة عن اسم الإشارة الذي بعدها في المصحف الإمام فاتبعته المصاحف لأن رسم المصحف سنة فيه ، كما كتب ﴿ مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة ﴾ في سورة الكهف (49) ، وكما كتب : ﴿ مال الذين كفروا قبلك مهطعين ﴾ في سورة سأل سائل (36) ، وكما كتب : ﴿ فمال هؤلاء القوم ﴾ في سورة النساء (78) .

(182/557)

ولعل وجه هذا الانفصال أنه طريقة رسم قديم كانت الحروف تكتب منفصلاً بعضها عن بعض ولا سيما حروف المعاني فعاملوا ما كان على حرف واحد معاملة ما كان على حرفين فبقيت على يد أحد كتّاب المصحف أثارة من ذلك ، وأصل حروف الهجاء كلها

الانفصال ، وكذلك هي في الخطوط القديمة للعرب وغيرهم .

وكان وصل حروف الكلمة الواحدة تحسيناً للرسم وتسهيلاً لتبادر المعنى ، وأما ما كان من كلمتين فوصله اصطلاح .

وأكثر ما وصلوا منه هو الكلمة الموضوعة على حرف واحد مثل حروف القسم أو كالواحد مثل (ال) .

﴿ وَقَالَ الظالمون إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُوراً ﴾ ﴿ انظر كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ الامثال فَضَلُّواْ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً ﴾ .

الظالمون : هم المشركون ، فغير عنوانهم الأول إلى عنوان الظلم وهم هم تنبيهاً على أن في هذا القول اعتداء على الرسول بنبزه بما هو بريء منه وهم يعلمون أنه ليس كذلك فظلمهم له أشد ظلم ، وصلى الله عليه وسلم .

ذكر الماوردي : أن قائل : ﴿ إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً ﴾ هو عبد الله بن الزِّبَعْرَى ، أي هو مبتكر هذا البهتان وإنما أسند القول إلى جميع الظالمين لأنهم تلقفوه ولهجوا به .

والمسحور : الذي أصابه السحر ، وهو يورث اختلال العقل عندهم ، أي ما تتبعون إلا رجلاً أصابه خلل العقل فهو يقول ما لا يقول مثله العقلاء .

وذِكْر ﴿ رجلاً ﴾ هنا لتمهيد استحالة كونه رسولاً لأنه رجل من الناس .

وهذا الخطاب خاطبوا به المسلمين الذين اتبعوا النبي صلى الله عليه وسلم

ومعنى : ﴿ انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا ﴾ أنهم ضربوا لك الأمثال الباطلة بأن مثلوك برجل مسحور .

وقوله : ﴿ انظر ﴾ مستعار لمعنى العلم تشبيهاً للأمر المعقول بالأمر المرئي لشدة وضوحه .

و(كيف) اسم للكيفية والحالة مجرد هنا عن معنى الاستفهام .

(183/557)

وفرع على هذا التعجيب إخبار عنهم بأنهم ضلوا في تلفيق المطاعن في رسالة الرسول فسلكوا طرائق لا تصل بهم إلى دليل مقنع على مرادهم ، ففعل ﴿ ضلوا ﴾ مستعمل في معنييه المجازيين هما : معنى عدم التوفق في الحجة ، ومعنى عدم الوصول للدين الحق ، وهو هنا تعجيب من خَطَلِهم وإعراضٌ عن مجاوبتهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 19 صـ ﴾

(184/557)

وقال الشيخ الشنقيطي :

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطعام وَيَمْشِي فِي الأسواق ﴾ .

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أن الكفار قالوا في نبينا صلى الله عليه وسلم ما لهذا الرسول ، يعنون ما لهذا الذي يدّعي أنه رسول ، وذلك كقول فرعون في موسى : ﴿ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الذي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ [الشعراء : 27] أي ما له يأكل الطعام كما نأكله ، فهو محتاج إلى الأكل كاحتياجنا إليه ، ويمشي في الأسواق أي لاحتياجه إلى البيع والشراء ، ليحصل بذلك قوته يعنون أنه لو كان رسولاً من عند الله ، لكان ملكاً من الملائكة لا يحتاج إلى الطعام ، ولا إلى المشي في الأسواق ، وادّعاء الكفار أن الذي يأكل كما يأكل الناس ، ويحتاج إلى المشي في الأسواق ، لقضاء حاجته منها ، ولا يمكن أن يكون رسولاً ، وأن الله لا يرسل إلا ملكاً ، لا يحتاج للطعام ، ولا للمشي في الأسواق ، جاء موضحاً في آيات كثيرة ، وجاء في آيات أيضاً تكذيب الكفار في دعواهم هذه الباطلة .

(185/557)

فمن الآيات الدالة على قولهم مثل ما ذكر عنهم في هذه الآية قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ المَلأُ مِن قَوْمِهِ الذين كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ الآخرة وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الحياة الدنيا مَا هذا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ

يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَراً مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذاً لَّخَاسِرُونَ ﴾ [المؤمنون : 3334] وقوله تعالى : ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَآءَهُمُ الْهُدَى إِلاَّ أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَراً رَّسُولاً ﴾ [الإسراء : 94] ، وقوله تعالى عنهم : ﴿ فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا ﴾ [المؤمنون : 47] الآية ، وقوله تعالى : ﴿ فَقَالُوا أَبَشَراً مِّنَّا وَاحِداً نَّتَّبِعُهُ إِنَّآ إِذاً لَّفِي ضَلاَلٍ وَسُعُرٍ ﴾ [القمر : 24] الآية . وقوله : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْ وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ ﴾ [التغابن : 6] الآية . وقوله تعالى : ﴿ قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَآؤُنَا ﴾ [إبراهيم : 10] .

(186/557)

ومن الآيات التي كذبهم الله بها في دعواهم هذه الباطلة ، وبين فيها أن يأكلون ويمشون في الأسواق ويتزوجون ويولد لهم ، وأنهم من جملة البشر ، إلا أنه فضلهم بوحيه ورسالته ، وأنه لو أرسل للبشر ملكاً لجعله رجلاً ، وأنه لو كانت في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين ، لنزل عليهم ملكاً رسولاً ، لأن المرسل من جنس المرسل إليهم ، قوله تعالى في هذه السورة الكريمة : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا

بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً ﴾ [الفرقان : 20] وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا هُمْ أَزْوَاجاً وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ [الرعد : 38] وقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ مِّنْ أَهْلِ القرى ﴾ [يوسف : 109] ، أي ولم نجعلهم ملائكة ، لأن كونهم رجالاً وكونهم من أهل القرى ، صريح في أنهم ليسوا ملائكة ، وقوله تعالى :

(187/557)

﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾ [الأنعام : 9] وقد أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يقول للكفار : إنه بشر ، وإنه رسول . وذلك لأن البشرية لا تنافي الرسالة في قوله تعالى : ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَراً رَّسُولاً ﴾ [الإسراء : 93] ، وقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يوحى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلهكم إله وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدَا ﴾ [الكهف : 110] ، وقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يوحى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلهكم إله وَاحِدٌ فاستقيموا إِلَيْهِ واستغفروه ﴾ [فصّلت : 6] الآية . وبين جل وعلا أن الرسل قالوا مثل ذلك في قوله : ﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ولكن الله يَمُنُّ على مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ [

إبراهيم : 11] الآية ، وقال تعالى : ﴿ قُل لَوْ كَانَ فِي الأرض ملائكة يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السمآء مَلَكاً رَّسُولاً ﴾ [الإسراء : 95] ، وقوله تعالى : ﴿ وَيَمْشِي فِي الأسواق ﴾ جمع سوق وهي مؤنثة ، وقد تذكر . والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ لولا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً أَوْ يلقى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ﴾ .

اعلم أولاً لولا في هذه الآية الكريمة حرف تحضيض على التحقيق ، والتحضيض . هو الطلب بحث ، وشدة ، وإليه أشار في الخلاصة بقوله :

وبهما التحضيض مزوهلا . . . ألاّ ألا وأولينها الفعلا

وبه تعلم أن المضارع في قوله : فيكون معه نذيراً منصوب بأن مستترة وجوباً ، لأن الفاء في جواب الطلب المحض الذي هو التحضيض ، كما أشار له في الخلاصة بقوله :

(188/557)

وبعد فاجواب نفي أو طلب . . . محضين أن وسترها حتم نصب

ونظير هذا من النصب بأن المستترة بعد الفاء التي هي جواب التحضيض ، قوله تعالى : ﴿ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَاكُمْ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الموت فَيَقُولَ رَبِّ لولا أخرتني إلى أَجَلٍ قَرِيبٍ

فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصالحين ﴾ [المنافقون : 10] لأن قوله : أخرتني طلب منه للتأخير بحث وشدة ، كما دل عليه حرف التحضيض الذي هو لولا ، نظيره من كلام العرب قول الشاعر :

لولا تعوجين يا سلمى على دنف . . . فتخمدي نار وجد كاد يفنيه

فقوله تعالى في الآية الكريمة : فأصدقَ بالنصب ، وقول الشاعر : فتخمدي منصوب أيضاً ، بحذف النون ، لأن الفاء في جواب الطلب المحض الذي هو التحضيض .

واعلم أن جزم الفعل المعطوف على الفعل المنصوب أعني قوله : ﴿ وَأَكُن مِّنَ الصالحين ﴾ إنما ساغ فيه الجزم ، لأنه عطف على المحل لأن الفاء لو حذفت مع قصد جواب التحضيض لجزم الفعل ، وجواز الجزم المذكور عند الحذف المذكور ، هو الذي سوَّغ عطف المجزوم على المنصوب . وقد أشار إلى ذلك في الخلاصة بقوله :

وبعد غير النَّفي جزْماً اعتمد . . . إن تسقط الفا والجزاء قد قصد

وبما ذكرنا تعلم أن ما ذكره القرطبي وغيره ، وأشار له الزمخشري من أن لولا في الآية للاستفهام ، ليس بصحيح .

واعلم أن الكفار في هذه الآية الكريمة اقترحوا بحث وشدة عليه صلى الله عليه وسلم ثلاثة أمور :

الأول : أن ينزل إليه ملك ، فيكون معه نذيراً أي يشهد له بالصدق ، ويعنيه على التبليغ .

الثاني : أن يلقى إليه كنز ، أي ينزل عليه كنز من المال ينفق منه ، ويستغني به عن المشي في الأسواق .

الثالث : أن تكون له جنة يأكل منها ، والجنة في لغة العرب البستان ومنه قول زهير :

كأن عيني في غربي مقتلة . . . من النواضح تسقي جنة سحقا

فقوله : تسقي جنة أي بستاناً ، وقوله : سحقاً يعني أن نخله طوال .

(189/557)

وهذه الأمور الثلاثة المذكورة في هذه الآية الكريمة التي اقترحها الكفار وطلبوها بشدة وحث ، تعنتاً منهم وعناداً ، جاءت مبينة في غير هذا الموضع ، فبين جل وعلا في سورة هود اقتراحهم ، لنزول الكنز ، ومجيء الملك معه ، وأن ذلك العناد والتعنت قد يضيق به صدره صلى الله عليه وسلم وذلك في قوله تعالى : ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ ﴾ [هود : 12] ، وبين جل وعلا في سورة بني إسرائيل اقتراحهم الجنة ، وأوضح أنهم يعنون بها بستاناً من نخيل وعنب ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴾ [

الإسراء : 9091] واقتراحهم هذا شبيه بقول فرعون في موسى : ﴿ فَلَوْلاَ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ الملائكة مُقْتَرِنِينَ ﴾ [الزخرف : 53] تشابهت قلوبهم فشابهت أقوالهم .

(190/557)

وقد قدمنا في الكلام على آية سورة بني إسرائيل ، هذه الآيات الدالة على كثرة اقتراح الكفار ، وشدة تعنتهم وعنادهم ، وأن الله لو فعل لهم كل ما اقترحوا لما آمنوا كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَاباً فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الذين كَفَرُواْ إِنْ هاذا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الأنعام : 7] وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَاباً مِّنَ السماء فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ لَقَالُواْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾ [الحجر : 1415] وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ الملائكة وَكَلَّمَهُمُ الموتى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُواْ لِيؤمنوا إِلاَّ أَن يَشَآءَ الله ولكن أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾ [الأنعام : 111] الآية ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الذين حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ ﴾ [يونس : 9697] الآية . إلى غير ذلك من الآيات كما تقدم .

وقال الزمخشري في تفسير آية الفرقان هذه : يأكل الطعام كما نأكل ، ويتردد في الأسواق كما

نتردد . يعنون أنه كان يجب أن يكون ملكاً مستغنياً عن الأكل والتعيش ، ثم نزلوا عن اقتراحهم أن يكون ملكاً إلى اقتراح أن يكون إنساناً معه ملك ، حتى يتساعدا في الإنذار والتخويف ، ثم نزلوا أيضاً فقالوا إن لم يكن مرفوداً بذلك ، فليكن مرفوداً بكنز يُلقى إليه من السماء ، يستظهر به ، لا يحتاج إلى تحصيل المعاش ، ثم نزلوا فاقتنعوا بأن يكون له بستان يأكل منه ، ويرتزق كالدهاقين أو يأكلون هم من ذلك البستان ، فينتفعون به في دنياهم ، ومعاشهم انتهى منه ، وكل تلك الاقتراحات لشدة تعنتهم ، وعنادهم .

(191/557)

وقرأ هذا الحرف عامة السبعة غير حمزة والكسائي يأكل منها بالمثناة التحتية ، وقرأ حمزة والكسائي : جنة نأكل منها بالنون ، وهذه القراءة هي مراد الزمخشري بقوله : أو يأكلون هم من ذلك البستان .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الظالمون إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُوراً انظر كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ الأَمثال فَضَلُّواْ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً ﴾ .

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أن الظالمين وهم الكفار قالوا للذين اتبعوا النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُوراً ﴾ يعنون : أنه أثر فيه السحر فاختلط

عقله فالتبس عليه أمره ، وقال مجاهد : مسحوراً : أي مخدوعاً كقوله : ﴿ فأنى تُسْحَرُونَ ﴾ [المؤمنون : 89] : أي من أين تخدعون ، وقال بعضهم : مسحوراً : أي له سحر أر رئة فهو لا يستغني عن الطعام والشراب ، فهو بشر مثلكم ، وليس بملك ، وقد قدمنا كلام أهل العلم في قوله : مسحوراً بشواهده العربية في سورة طه في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَلاَ يُفْلِحُ الساحر حَيْثُ أتى ﴾ [طه : 69] ولما ذكر الله هذا الذي قاله الكفار في نبيه صلى الله عليه وسلم ، من الإفك والبهتان خاطب نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله : ﴿ انظر كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ الأمثال فَضَلُّواْ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً ﴾ ، وما قاله الكفار في هذه الآية أعني قولهم : ﴿ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُوراً ﴾ وما قاله الله لنبيه في ذلك ، وهو قوله : ﴿ انظر كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ الأمثال ﴾ الآية . جاء كله مصرحاً به في سورة بني إسرائيل في قوله تعالى : ﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نجوى إِذْ يَقُولُ الظالمون إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُوراً انظر كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ الأمثال فَضَلُّواْ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً ﴾ [الإسراء : 4748] .

(192/557)

قال الزمخشري : ضربوا لك الأمثال قالوا فيك تلك الأقوال ، واقترحوا لك تلك الصفات والأحوال النادرة ، من نبوة مشتركة بين إنسان وملك ، وإلقاء كنز عليك من السماء ، وغير ذلك ، فبقوا متحيرين ضلالاً لا يجدون قولاً يستقرون عليه ، أو فضلوا عن الحق ، فلا يجدون طريقاً إليه اه .

والأظهر عندي في معنى الآية ما قاله غير واحد من أن معنى : ضربوا لك الأمثال : أنهم تارة يقولون إنك ساحر ، وتارة مسحور ، وتارة مجنون ، وتارة شاعر ، وتارة كاهن ، وتارة كذاب ، ومن ذلك ما ذكر الله عنهم من قوله هنا : ﴿ وَقَالَ الذين كفروا إِنْ هذا إِلاَّ إِفْكٌ افتراه ﴾ [الفرقان : 4] الآية ، وقوله : ﴿ وقالوا أَسَاطِيرُ الأولين ﴾ [الفرقان : 5] وقوله : ﴿ وَقَالَ الظالمون إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُوراً ﴾ وقوله تعالى : ﴿ فَضَلُّواْ ﴾ أي عن طريق الحق ، لأن الأقوال التي قالوها ، والأمثال التي ضربوها كلها كذب وافتراء ، وكفر مخلد في نار جهنم ، فالذين قالوها هم أضل الضالين ، وقوله تعالى : ﴿ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً ﴾ فيه أقوال كثيرة متقاربة .

(193/557)

وأظهرها أن معنى : فلا يستطيعون سبيلاً : أي طريقاً إلى الحق والصواب ، نفي الاستطاعة المذكور هنا كقوله تعالى : ﴿ أولئك لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِي الأرض وَمَا كَانَ لَهُمْ مِّن دُونِ الله مِنْ أَوْلِيَآءَ يُضَاعَفُ لَهُمُ العذاب مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ السمع وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ ﴾ [هود : 20] وقوله تعالى : ﴿ الذين كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُواْ لاَ يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً ﴾ [الكهف : 101] وقد قدمنا الآيات الموضحة لذلك في سورة هود في الكلام على قوله تعالى : ﴿ مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ السمع وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ ﴾ [هود : 20] وقد قدمنا أيضاً معنى الظلم والضلال وما فيهما من الإطلاقات في اللغة مع الشواهد العربية في مواضع متعددة من هذا الكتاب المبارك ، فأغنى ذلك عن إعادته هنا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أضواء البيان حـ 6 صـ ﴾

(194/557)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ ﴾

عجيب أمر هؤلاء المعاندين : يعترضون على رسول الله أنْ يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لكسْب العيش ، فهل سبق لهم أنْ رَأَوْا نبياً لا يأكل الطعام ، ولا يمشي في الأسواق ؟ ولو أن

الأمر كذلك لكان لاعتراضهم معنى ، إذن : قولهم ﴿ مَالِ هذا الرسول يَأْكُلُ الطعام وَيَمْشِي فِي الأسواق ﴾ [الفرقان : 7] قولٌ بلا حجة من الواقع ، ليستدركوا بهذه المسألة على رسول الله .

فماذا يريدون ؟

قالوا : ﴿ لولا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً ﴾ [الفرقان : 7] صحيح أن الملَك لا يأكل ، لكن معنى ﴿ لولا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ ﴾ [الفرقان : 7] يعني : يسانده ، وفي هذه الحالة لن يُغيِّر من الأمر شيئاً ، وسيظل كلام محمد هو هو لا يتغير . إذَن : لن يضيف الملَك جديداً إلى الرسالة . . وعليه ، فكلامهم هذا سفسطة وجَدَلٌ لا معنى له .

وكلمة ﴿ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً ﴾ [الفرقان : 7] لم يقولوا بشيراً ، مما يدل على اللدَد واللجاج ، وأنهم لن يؤمنوا ؛ لذلك لن يفارقهم الإنذار .

أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا (8)

تلحظ أنهم يتنزلون في لَدَدهم وجَدَلهم ، فبعد أنْ طلبوا مَلَكاً يقولون ﴿ أَوْ يلقى إِلَيْهِ كَنْزٌ ﴾ [الفرقان : 8] أي : ينزل عليه ليعيش منه ﴿ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ﴾ [الفرقان : 8] أي : بستان ﴿ وَقَالَ الظالمون إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُوراً ﴾ [الفرقان : 8] .

والمسحور هو الذي ذهب السِّحْر بعقله ، والعقل هو الذي يختار بين البدائل ويُرتِّب التصرُّفات ، ففاقد العقل لا يمكن أن يكونَ منطقياً في تصرفاته ولا في كلامه ، ومحمد صلى الله عليه وسلم ليس كذلك ، فأنتم تعرفون خُلقه وأمانته ، وتُسمُّونه " الصادق الأمين " وتعترفون بسلامة تصرفاته وحكمته ، كيف تقولون عنه مجنون ؟

لذلك يقول تعالى ردًّا عليهم : ﴿ ن والقلم وَمَا يَسْطُرُونَ * مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ * وَإِنَّ لَكَ لأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ * وَإِنَّكَ لعلى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم : 14] .

والخُلُق يسوي تصرُّفات الإنسان فيجعلها مُسْعدة غير مفسدة ، فكيف إذن يكون ذو الخُلق مجنوناً ؟ إذن : ليس محمد مسحوراً .

وفي موضع آخر قالوا : ساحر ، وعلى فرض أنه صلى الله عليه وسلم ساحر ، فلماذا لم يسحركم كما سَحَر المؤمنين به ؟ إنه لَجَج الباطل وتخبّطه واضطرابه في المجابهة . ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ انظر كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ الأمثال ﴾

انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا (9)

﴿ انظر ﴾ [الفرقان : 9] خطاب لإيناس رسول الله وتطمينه ﴿ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ الأمثال ﴾ [الفرقان : 9] أي : اتهموك بشتّى التهم فقالوا ساحر . وقالوا : مسحور . وقالوا : شاعر . وقالوا : كاهن ﴿ فَضَلُّواْ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً ﴾ [الفرقان : 9] لأنهم

يقولون كذباً وهُرَاءً وتناقضاً في القول .

﴿ فَضَلُّواْ ﴾ [الفرقان : 9] أي : عن المثل الذي يصدُق فيك ليصرف عنك المؤمنين بك ، ويجعل الذين لم يؤمنوا يُصرُّون على كفرهم ، فلم يصادفوا ولو مثلاً واحداً ، فقالوا : ساحر وكذبوا وقالوا : مسحور وكذبوا ﴿ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً ﴾ [الفرقان : 9] أي : إلى ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(196/557)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله : ﴿ مَالِ هذا ﴾ : " ما " استفهاميةٌ مبتدأةٌ . والجارُّ بعدَها خبرٌ . " ويَأْكل " جملةٌ حاليةٌ ، وبها تَتِمُّ فائدةُ الإخبار كقوله : ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ التذكرة مُعْرِضِينَ ﴾ . وقدت تقدم في النساء أنَّ الجرِّ كُتِبَتْ مفصولةً من مجرورِها وهو خارجٌ عن قياسِ الخطِّ .

/ والعاملُ في الحالِ الاستقرارُ العاملُ في الجارِّ ، أو نفسُ الجارِّ ، ذكرَه أبو البقاء .

قوله : ﴿ فَيَكُونَ ﴾ العامَّةُ على نصبه . وفيه وجهان ، أحدُهما : نصبٌ على جوابِ التحضيضِ . والثاني قال أبو البقاء : فيكونَ منصوبٌ على جوابِ الاستفهام " وفيه نظرٌ ؛

لأنَّ ما بعدَ الفاءِ لا يَتَرَتَّبُ على هذا الاستفهامِ . وشرطُ النصبِ : أن ينعقدَ منها شرطٌ وجزاءٌ . وقُرِىء " فيكونُ " بالرفعِ ، وهو معطوفٌ على " أُنْزِل " . وجاز عطفُه على الماضي ؛ لأنَّ المرادَ بالماضي المستقبلُ ، إذ التقدير : لولا نُنَزِّلُ .

قوله : ﴿ أَوْ يلقى ﴾ : " أو تكونُ " معطوفان على " أُنْزِلَ " لِما تقدَّمَ مِنْ كونِه بمعنى نُنَزِّل . ولا يجوزُ أَنْ يُعْطفا على " فيكونَ " المنصوبِ في الجواب ، لأنهما مُنْدَرجان في التحضيض في حكم الواقعِ بعد " لولا " . وليس المعنى على أنهما جوابٌ للتحضيضِ فيعطفا على جوابِه . وقرأ الأعمش وقتادةُ " أو يكونُ له " بالياء من تحتُ ؛ لأن تأنيثَ الجنةِ مجازيٌّ .

قوله : ﴿ يَأْكُلُ مِنْهَا ﴾ الجملةُ في موضعِ الرفعِ صفةً ل " جنةٌ " . وقرأ الأخَوان " نَأْكُلُ " بنون الجمعِ . والباقون بالياء من تحتُ أي : الرسول .

قوله : ﴿ وَقَالَ الظالمون ﴾ وَضَعَ الظاهرَ موضعَ المضمرِ ، إذ الأصل : وقالوا . قال الزمخشري : " وأرادَ بالظالمين إياهم بأعيانهم " . قال الشيخ : " وقوله ليس تركيباً سائغاً ، بل التركيبُ العربيُّ أَنْ يقولَ : أرادَهم بأعيانِهم " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 458.459 ﴾

(197/557)

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى السحر)

قيل : هو مأخوذ من السِّحْر وهو طَرَف الحلقوم والرئة .

قالت عائشة رضى الله عنها : "مات رسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بين سَحْرى ونَحْرى" أَى مستنِدًا إلى صدرى وما يحاذِى سَحْرى .

وقيل : السَحْرُ ، ما لصِق بالحُلقوم من أَعلى البطن .

والسُّحَارة : ما يُنزع من السَّحْر عند الَّبح فيُرْمَى به .

وجُعل بناؤه بناءَ النُّفاية والسُّقاطة .

ويقال : انتفخ سَحْره ، وانتفخت مساحِره : إذا ملّ وجَبُنَ .

وانقطع منه سَحْرى ، أَى يئست منه .

وأَنا منه غير صَريم سَحْر : غير قانط .

وبلغ سَحَر الأَرض وأَسحارها : أَطرافها وأَواخرها .

وقوله صلَّى الله عليه وسلم : "إِنَّ من البيان لسحْرًا" قيل : معناه : من البيان ما يُكْتَسَبُ به من الإِثم ما يكتسِبه السّاحر بسحره ، فيكون فى مَعْرِض الذمّ .

ويجوز أَن يكون فى معرض المدح ؛ لأَنَّه يُستمال به القلوبُ ويُرَضَّى به الساخطُ ، ويُستنزَل

به الصّعب .

والسِّحْر فى كلامهم : صرف الشىء عن وجهه .

والسِّحْر يقال على معان :

الأَوّل : الخداع ، وتخييلاتٌ لا حقيقة لها ؛ نحو ما يفعله المُشَعْوِذ من صرف الأَبصار عمَّا يفعله بخفّة [يد] ، وما يفعله النمّام بقولٍ مزخرف عائق للاستماع .

وعلى ذلك قوله تعالى : ﴿ سَحَرُواْ أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ ﴾ وقوله : ﴿ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى ﴾ ، وبهذا النَّظر سمَّوا موسى صلوات الله عليه ساحرًا ، فقالوا : ﴿ اَأَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ ﴾ .

الثَّانى : استجلاب معاونة الشيطان بضرب من / التَّقرّب إليه ، كقوله تعالى : ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾ وعلى ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَاكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ ﴾ قال الشاعر :

(198/557)

---

*فَوَاللهِ ما أَدْرى وإِنّى لصادقٌ * أَداءٌ عرانى من جَنابكِ أَم سِحرُ*

*فإِن كان سِحرًا فاعذرينى علىَ الهوى * وإِن كان داءً غيره فَلَكِ العذر*

الثالث : ما يذهب إليه الأَغتام ، وهو اسم لفعل يزعمون أَنَّه من قوّته يغيّر الصّور والطبائع ، فيجعل الإنسان حمارًا .

ولا حقيقة لذلك عند المحصّلين .

وقد تُصوّر من السّحر تارة حُسنهُ ، فقيل : إنَّ من البيان لسحرًا ، وتارة دِقَّة فعلِه ، حتى قالت الأَطبّاءُ : الطبيعة ساحرة .

وسمّوا الغِذاءَ سِحْرًا من حيث إنَّه يدقّ ويلطُف تأثيره .

قال تعالى : ﴿ بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾ أَى مصروفون عن معرفتنا بالسّحر ، وعلى ذلك قوله : ﴿ إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴾ قيل ممّن جعل له سَحْر ، تنبيهاً أَنَّه يحتاج إلى الغِذاءِ ؛ كقوله : ﴿ مَالِ هذا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ ﴾ ، ونبّه أَنَّه كان بَشَرًا ، وقيل : معناه : ممّن جُعل له سِحْر يتوصَّل بلطفه ودقّته إلى ما يأْتى به ويدّعيه .

وعلى الوجهين حُمل قوله : ﴿ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُوراً ﴾ .

ولقيته سَحَرًا ، وسُحْرةً ، وبالسّحَر ، وفى أَعلى السَّحَرين ، وهما سَحَرَان : سَحَر مع الصّبح ، وسحر قبله ، كما يقال : الفجران : الكاذب والصّادق .

وأَسْحَرْنا مثل أَصبحنا .

اسْتَحَرُوا : خرجوا سَحَرًا .

وتسحّر : أَكل السَحُور ، وسحَّرنى فلان .

وإنما سمّى السَّحَر استعارة لأَنَّه وقت إدبار الليل وإقبال النَّهار .

فهو متنفَّس الصّبح .

ويقال إنَّ السِّحْر فى القرآن على سبعة أَوجه :

الأَوّل : بمعنى العِلم ، والسّاحر بمعنى العالم الحاذق : ﴿ يَاأَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ ﴾ أَى يأَيها العالم .

الثانى : بمعنى الزُّور والكذب : ﴿ وَجَآءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾ أَى كذب وزُور ، ﴿ وَيَقُولُواْ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾ ، أَى كذب قوىّ تامّ .

الثالث : بمعنى ربط العيون : ﴿ سَحَرُواْ أَعْيُنَ النَّاسِ ﴾ .

(199/557)

الرَّابع : بمعنى الجنون ، والمسحور المجنون : ﴿ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُوراً ﴾ ، ﴿ إِنِّي لأَظُنُّكَ يامُوسَى مَسْحُوراً ﴾ ، أَى مجنوناً .

الخامس : بمعنى الصّرف عن الحقّ : ﴿ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴾ ، أَى تصرفون .

السّادس : بمعنى الإِحواج إِلى الطعام والشراب : ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴾ .

والسَّابع : بمعنى آخِر اللَّيل ومقدّمة الصّبح : ﴿ نَجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ ﴾ ﴿ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ

بِالأَسْحَارِ﴾ ، ﴿وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿بصائر ذوى التمييز حـ 3 صـ 197 . 200﴾

(200/557)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ ﴾

لما عجزوا عن معارضته أخذوا يعيبونه بكونه بَشَراً من جنسهم يمْشي في الأسواق ، ويأكل الطعام ، وعابوه بالفقر وقالوا : هَلاَّ نُزِّلَ عليه الملائكةَ فَيُرَوْنَ عياناً ؟ وهلاَّ جعل له الكنوزَ فاستكثر مالاً ؟ وهلاَّ خُصَّ بآياتٍ – اقترحوها – فَتَقْطَعَ العُذْرَ وتُزِيلَ عنَّا إشكالاً ؟ ! وما هذا الرجلُ إلا بشرٌ تعتريه مِنْ دواعي السهوات ما يعتري غيره ! فأيُّ خصوصيةٍ له حتى تلْزَمَنا متابَعَتُهُ ولن يُظْهِرَ لنا حجةً ؟ فأجاب الله عنهم وقال : إنَّ الحقَّ قادرٌ على تمليكك ما قالوا وأضعافَ ذلك ، وفي قدرته إظهارُ ما اقترحوه وأضعافُ ذلك ، ولكن ليس لهم هذا التخير بعد ما أزيح العذرُ بإظهار معجزة واحدة ، واقترح ما يَهْوَوْنَ تحكُّمٌ على التقدير ،

وليس لهم ذلك . ثم أخبر أنه لو أظهر تفصيل ما قالوه وأضعافه لم يؤمنوا ؛ لأن حُكْمَ الله بالشقاوة سابق لهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 627. 628 ﴾

(201/557)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثامن والخمسون بعد الخمسمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/558)

الجزء الثامن والخمسون بعد الخمسمائة

من الآية ﴿ 10 ﴾ من سورة الفرقان

وحتى الآية ﴿ 20 ﴾ من نفس السورة

(4/558)

قوله تعالى ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُورًا (10) بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا (11) إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا (12) وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا (13) لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا (14) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما ثبت أنه لا وجود لهم لأنهم لا علم لهم ولا قدرة ، وأنهم لا يمن لهم ولا بركة ، لا على

أنفسهم ولا غيرهم ، أثبت لنفسه سبحانه ما يستحق من الكمال الذي يفيض به على من يشاء من عباده ما يشاء فقال : ﴿ تبارك ﴾ أي ثبت ثباتاً مقترناً باليمن والبركة ، لا ثبات إلا هو ﴿ الذي إن شاء ﴾ فإنه لا مكره له ﴿ جعل لك خيراً من ذلك ﴾ أي الذي قالوه على سبيل التهكم ؛ ثم أبدل منه قوله : ﴿ جنات ﴾ فضلاً عن جنة واحدة ﴿ تجري من تحتها الأنهار ﴾ أي تكون أرضها عيوناً نابعة ، أي موضع أريد منه إجراء نهر جرى ، فهي لا تزال رياً تغني صاحبها عن كل حاجة ولا تحوجه في استثمارها إلى سقي .

ولما كان القصر – وهو بيت المشيد – ليس مما يستمر فيه الجعل كالجنة التي هذه صفتها ، عبر فيه بالمضارع إيذاناً بالتجديد كلما حصل خلل يقدح في مسمى القصر فقال :

﴿ ويجعل لك قصوراً ﴾ أي بيوتاً مشيدة تسكنها بما يليق بها من الحشم والخدم ، قال البغوي : والعرب تسمي كل بيت مشيد قصراً .

وهذه العبارة الصالحة لأن يجعل له سبحانه ذلك في الدنيا مما فتت في أعضادهم ، وخافوا غائلتها فسهلت من قيادهم ، لعلمهم بأن مراسله قادر على ما يريد ، لكنه سبحانه أغناه عن ذلك بتأييده بالأعوان ، من الملائكة والإنس والجان ، حتى اضمحل أمرهم ، وعيل صبرهم ، ولم يشأ سبحانه ما أشار إليه في هذه الآية الشريفة في هذه الدنيا الفانية ، وأخره إلى الآخرة الباقية ، وقد عرض سبحانه عليه ما شاء من ذلك في الدنيا فأباه ، روى البغوي

من طريق ابن المبارك ، والترمذي – وقال : حسن عن أبي أمامة ـ رضى الله عنه ـ عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال :

(5/558)

" عرض عليّ ربي أن يجعل لي بطحاء مكة ذهباً ، فقلت : لا يا رب ! ولكن أشبع يوماً وأجوع يوماً ، فإذا جعت تضرعت إليك ودعوتك ، وإذا شبعت حمدتك وشكرتك "

وروي عن طريق أبي الشيخ عن عائشة ـ رضى الله عنه ـ ا قالت : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : " لو شئت لسارت معي جبال الذهب جاءني ملك إن حجزته لتساوي الكعبة فقال : إن ربك يقرأ عليك السلام ويقول لك : إن شئت نبياً عبداً وإن شئت نبياً ملكاً ، فنظرت إلى جبريل عليه الصلاة والسلام فأشار إلي أن ضع نفسك ، فقلت : نبياً عبداً قال : فكان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد ذلك لا يأكل متكئاً ويقول : " آكل كما يأكل العبد ، وأجلس كما يجلس العبد " " وسيأتي في سورة سبأ عند ﴿ وأرسلنا له عين القطر ﴾ [سبأ : 12] ما يتم هذا ، ولا يبعد عندي أن يكون أشير بالآية الشريفة – وإن كانت في أسلوب الشرط إلى ما فتح عليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الحدائق التي لم يكن مثلها في بلاد العرب لما فتح الله عليه خيبر ووادي القرى ، وتصرف في ذلك بنفسه

الشريفة وأكل منه وإلى ما فتح على أصحابه من بعده من بلاد فارس والروم ذات القصور والجنان التي لا مثل لها ولذلك عبر في الجنات بالماضي ، وفي القصور بالمضارع ، وأتيحوا كنوز كسرى بن هرمز ، فإن اللائق بمقام الملوك أن تكون إشاراتهم أوسع من عباراتهم ، فإذا ذكروا شيئاً ممكناً على سبيل الفرض كان من إرادتهم إيجاده ، ويحبون أن يكتفي منهم بالإيماء ، وأن يعتمد على تلويحهم أعظم مما يعتمد على تصريح غيرهم ، وأن يعد المفروض منهم بمنزلة المجزوم به من غيرهم ، والممكن في كلامهم كالواجب ، فما ظنك بملك الملوك القادر على كل شيء ! وهو قد صرف سبحانه الخطاب إلى أعلى الناس فهماً ، وأغزرهم علماً ، وقد أراه سبحانه ما يكون من ذلك من بعده في غزوة الخندق .

(6/558)

روى البيهقي في دلال النبوة عن عمرو بن عوف المزني ـ رضى الله عنه ـ " أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما خط الخندق ليحفره جعل على كل عشرة أربعين ذراعاً ، وكان سلمان الفارسي ـ رضى الله عنه ـ رجلاً قوياً ، فاختلف فيه المهاجرون والأنصار ، فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : " سلمان منا أهل البيت " فخرجت لهم صخرة بيضاء مدورة ، قال عمرو : فكسرت حديدنا .

وشقت علينا ، فقلنا : يا سلمان ارق إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأخبره خبر هذه الصخرة ، فأخبر فأخذ ـ صلى الله عليه وسلم ـ المعول من سلمان فضربها ثلاث ضربات صدع فيها في كل ضربة صدعاً ، وكسرها في الثالثة ، وبرقت مع كل ضربة برقة أضاءت ما بين لابتي المدينة حتى لكأن مصباحاً في جوف بيت مظلم ، وكبر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مع كل برقة تكبيرة ، ثم أخذ بيد سلمان فرقي فسأله سلمان للقوم : هل رأيتم ما يقول سلمان ؟ قالوا : نعم ! يا رسول الله ! بأبينا أنت وأمنا ! قد رأيناك تضرب فيخرج برق كالموج فرأيناك تكبر ، لانرى شيئاً غير ذلك ، فقال : أضاءت لي من البرقة الأولى قصور الحيرة ومدائن كسرى كأنها أنياب الكلاب ، ومن الثانية القصور الحمر من أرض الروم كأنها أنياب الكلاب ، ومن الثالثة قصور صنعاء كأنها أنياب الكلاب ، وأخبرني ، جبريل عليه الصلاة والسلام أن أمتي ظاهرة عليها .

فاستبشر المسلمون وقالوا : الحمد لله ! موعود صادق بأن وعدنا النصر بعد الحصر ، فطلعت الأحزاب فقال المسلمون ﴿ هذا ما وعدنا الله ورسوله وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً ﴾ [الأحزاب : 22] "

(7/558)

وقال المنافقون في ذلك ما أشار إليه الله تعالى في القرآن ؛ ثم إن الله تعالى كذب المنافقين وصدق رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فافتتح أصحابه ـ رضى الله عنه ـ م جميع ما ذكر ، وغلبوا على سائر مملكة الفرس واليمن وأكثر الروم ، وانتثلوا من كنوز كسرى وقيصر ما يفوت الحصر ، وقد كان ـ صلى الله عليه وسلم ـ تصرف في ذلك من ذلك الوقت تصرف الملوك ، لأن وعد الله لا خلف فيه ، بل غائبه أعظم من حاضره غيره ، وموعودة أوثق من ناجز سواه ، فأعطى ـ صلى الله عليه وسلم ـ تميم بن أوس الداري بلد الخليل عليه الصلاة والسلام من أرض الشام من مملكة الروم ، وأعطى خريم بن أوس – الذي يقال له : شويل – كرامة بنت عبد المسيح ابن بقيلة من سبي الحيرة من بلاد العراق من مملكة فارس ، وكل منهم قبض ما أعطاه عند الفتح كما يعرفه من طالع كتب الفتوح على أيام الخلفاء الراشدين ـ رضى الله عنه ـ م أجمعين ، فعندي أن هذا مما أشارت إليه الاية الشريفة ، نزه الله تعالى نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ عنه وفتحه على أصحابه ، تشريفاً لهم بإزالة أهل الشرك عنه ، وإنعاماً عليهم به تصديقاً لوعده ، وإكراماً لنبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بنصر أوليائه وتكثير أمته ، وحضر ذلك كثير ممن كان من القائلين ﴿ ما لهذا الرسول ﴾ [الفرقان : 7] إلى آخره ، وقد كان قادراً على أن يقويه بجميع ذلك قبل موته ، ولكنه لم يفعل لأن ذلك أوضح في الأمر ، لأن نصره على خلاف ما ينصر به أهل الدنيا من غير جنود كثيرة ظاهرة ،

ولا أموال وافرة ، ولا ملوك معينة قاهرة ، بل كانت الملوك عليه ، ثم صاروا كلهم أهون شيء عليه ، بيد أصحابه من بعده وأحبابه .

(8/558)

ولما ثبت بما أثبت لنفسه الشريفة من الكمال أنه لا مانع من إيجاد ما ساقوه مساق التوبيخ إلا عدم المشيئة ، لا عجز من الجاعل ولا هوان بالمجعول له ، تسلية له ـ صلى الله عليه وسلم ـ في أسلوب مشير بأنه يعطيه ذلك ، سلاه أيضاً بأن ما نسبوه إليه لا يعتقدون حقيقته ، فأضرب عن كلامهم قائلاً : ﴿ بل ﴾ أي لا تظن أنهم كذبوا بما جئت به لأنهم يعتقدون فيك كذباً وافتراء للقرآن ، أو نقصاناً لأكلك الطعام ومشيك في الأسواق ، أو في شيء من أحوالك ، أو لا تظن أنهم يكذبون بقدرته تعالى على ما ذكر أنه إن شاء جعله لك بل ، أو المعنى : دع التفكر فيما قالوه من هذا فإنهم لم يقتصروا في التكذيب عليه بل ﴿ كذبوا بالساعة ﴾ أي بقدرتنا عليها ، واستقر ذلك في أنفسهم دهوراً طويلة ، وأخذوه خلفاً عن سلف ، وأشرب قلوبهم حب هذا الحطام الفاني ، وتقيدت أوهامهم بهذه الظواهر كالبهائم ، فعسر انفكاكهم عن ذلك بما جاءهم من البيان الذي لا يشكون فيه ، فاجترؤوا لذلك على العناد لعدم الخوف من أهوال يوم القيامة كما قال تعالى عن أهل الكتاب

﴿ وغرهم في دينهم ما كانوا يفترون ﴾ [آل عمران : 24] ﴿ وأعتدنا ﴾ أي والحال أنا أعتدنا أي هيأنا بما لنا من العظمة ﴿ لمن كذب ﴾ من هؤلاء وغيرهم ﴿ بالساعة سعيراً ﴾ أي ناراً شديدة الاتقاد بما أعظموا الحريق في قلوب من كذبوهم من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وأتباعهم ـ رضى الله عنه ـ م ﴿ إذا رأتهم ﴾ أي إذا كانت بحيث يمكن أن يروها وتراهم لو كانت مبصرة ﴿ من مكان بعيد ﴾ وهو أقصى ما يمكن رؤيتها منه وهم يساقون إليها ﴿ سمعوا لها ﴾ أي خاصة ﴿ تغيظاً ﴾ أي صوتاً في غليانها وفورانها كصوت المتغيظ في تحرقه ونكارته إذا غلا صدره من الغضب ﴿ وزفيراً ﴾ أي صوتاً يدل على تناهي الغضب ، وأصله صوت يسمع من الجوف .

(9/558)

ولما وصف ملاقاتها لهم ، وصف إلقاءهم فيها قال : ﴿ وإذا ألقوا ﴾ أي طرحوا طرح إهانة فجعلوا بأيسر أمر ملاقين ﴿ منها ﴾ أي النار ﴿ مكاناً ﴾ ووصفه بقوله : ﴿ ضيقاً ﴾ زيادة في فظاعتها ﴿ مقرنين ﴾ بأيسر أمر ، أيديهم إلى أعناقهم في السلاسل ، أو حبال المسد ، أو مع من أغواهم من الشياطين ، والتقرين : جمع شيء إلى شيء في قرن وهو الحبل ﴿ دعوا هنالك ﴾ أي في ذلك الموضع البغيض البعيد عن الرفق ﴿ ثبوراً ﴾ أي

هلاكاً عظيماً فيقولون : يا ثبوراه ! لأنه لا منادم لهم غيره ، وليس بحضرة أحد منهم سواه ؛ قال ابن جرير : وأصل الثبر في كلام العرب الانصراف عن الشيء .

فالمعنى حينئذ : دعوا انصرافهم عن الجنة إلى النار الذي تسببوا فيه بانصرافهم عن الإيمان إلى الكفر ، فلم يكن لهم سمير إلا استحضارهم لذلك تأسفاً وتندماً ، فأجيبوا على طريق الاستئناف بقوله تعالى : ﴿ لا تدعوا اليوم ﴾ أيها الكفار ﴿ ثبوراً واحداً ﴾ لأنكم لا تموتون إذا حلت بكم أسباب الهلاك ﴿ وادعوا ثبوراً كثيراً ﴾ لا يحصره الإحصاء ولا آخر له ، فإنكم وقعتم فيما يوجب ذلك لأن أنواع الهلاك لا تبارحكم أصلاً ولكنه لا موت .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 299 . 303 ﴾

(10/558)

فصل

قال الفخر :

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾

اعلم أن هذا هو الجواب الثاني عن تلك الشبهة فقوله : ﴿ تَبَارَكَ الذى إِن شَاء جَعَلَ لَكَ خَيْراً مّن ذلك ﴾ أي من الله ذكروه من نعم الدنيا كالكنز والجنة وفسر ذلك الخير بقوله :

﴿ جنات تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأنهار وَيَجْعَل لَّكَ قُصُوراً ﴾ نبه بذلك سبحانه على أنه قادر على أن يعطي الرسول كل ما ذكروه ، ولكنه تعالى يدبر عباده بحسب الصالح أو على وفق المشيئة ولا اعتراض لأحد عليه في شيء من أفعاله ، فيفتح على واحد أبواب المعارف والعلوم ، ويسد عليه أبواب الدنيا ، وفي حس الآخر بالعكس وما ذاك إلا أنه فعال لما يريد ، وههنا مسائل :

المسألة الأولى :

قال ابن عباس : خير من ذلك مما عيروك بفقده الجنة ، لأنهم عيروك بفقد الجنة الواحدة وهو سبحانه قادر على أن يعطيك جنات كثيرة ، وقال في رواية عكرمة : ﴿ خَيْراً مّن ذلك ﴾ أي من المشي في الأسواق وابتغاء المعاش .

المسألة الثانية :

قوله : ﴿ إِن شَاء ﴾ معناه أنه سبحانه قادر على ذلك لا أنه تعالى شاك لأن الشك لا يجوز على الله تعالى ، وقال قوم : ﴿ إن ﴾ ههنا بمعنى إذا ، أي قد جعلنا لك في الآخرة جنات وبنينا لك قصوراً وإنما أدخل إن تنبيهاً للعباد على أنه لا ينال ذلك إلا برحمته ، وأنه معلق على محض مشيئته وأنه ليس لأحد من العباد على الله حق لا في الدنيا ولا في الآخرة .

المسألة الثالثة :

القصور جماعة قصر وهو المسكن الرفيع ويحتمل أن يكون لكل جنة قصر فيكون مسكناً

ومتنزهاً ، ويجوز أن يكون القصور مجموعة والجنات مجموعة .

وقال مجاهد : إن شاء جعل لك جنات في الآخرة وقصوراً في الدنيا .

المسألة الرابعة :

(11/558)

اختلف الفراء في قوله ﴿ وَيَجْعَلَ ﴾ فرفع ابن كثير وابن عامر وعاصم اللام وجزمه الآخرون ، فمن جزم فلأن المعنى إن شاء يجعل لك جنات ويجعل لك قصوراً ومن رفع فعلى الاستئناف والمعنى سيجعل لك قصوراً ، هذا قول الزجاج : قال الواحدي وبين القراءتين فرق في المعنى ، فمن جزم فالمعنى إن شاء يجعل لك قصوراً في الدنيا ولا يحسن الوقوف على الأنهار ، ومن رفع حسن له الوقوف على الأنهار ، واستأنف أي ويجعل لك قصوراً في الآخرة .

وفي مصحف أبي وابن مسعود : (تبارك الذي إن شاء يجعل) .

المسألة الخامسة :

عن طاوس عن ابن عباس قال : " بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس وجبريل عليه السلام عنده قال جبريل عليه السلام هذا ملك قد نزل من السماء استأذن ربه في

زيارتك فلم يلبث إلا قليلاً حتى جاء الملك وسلم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : " إن الله يخيرك بين أن يعطيك مفاتيح كل شيء لم يعطها أحداً قبلك ولا يعطيه أحداً بعدك من غير أن ينقصك مما ادخر لك شيئاً ،

(12/558)

" فقال عليه السلام بل يجمعها جميعاً لي في الآخرة ، فنزل قوله تبارك الذي إن شاء " الآية ، وعن ابن عباس قال عليه السلام " عرض عليَّ جبريل بطحاء مكة ذهباً فقلت بل شبعة وثلاث جوعات " وذلك أكثر لذكري ومسألتي لربي ، وفي رواية صفوان بن سليم عن عبد الوهاب قال عليه السلام : " أشبع يوماً وأجوع ثلاثاً ، فأحمدك إذا شبعت وأتضرع إليك إذا جعت " وعن الضحاك "لما عير المشركون رسول الله صلى الله عليه وسلم بالفاقة حزن رسول الله صلى الله عليه وسلم لذلك فنزل جبريل عليه السلام معزياً له ، وقال إن الله يقرؤك السلام ويقول : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ المرسلين إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطعام ﴾ [الفرقان : 20] الآية ، قال فبينما جبريل عليه السلام والنبي صلى الله عليه وسلم يتحدثان إذ فتح باب من أبواب السماء لم يكن فتح قبل ذلك ، ثم قال أبشر يا محمد هذا رضوان خازن الجنة قد أتاك بالرضا من ربك فسلم عليه وقال إن ربك يخيرك بين أن تكون نبياً ملكاً وبين أن

تكون نبياً عبداً ومعه سفط من نور يتلألأ ثم قال هذه مفاتيح خزائن الدنيا فاقبضها من غير أن ينقصك الله مما أعد لك في الآخرة جناح بعوضة فنظر النبي صلى الله عليه وسلم إلى جبريل كالمستشير فأومأ بيده أن تواضع فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بل نبياً عبداً " قال فكان عليه السلام بعد ذلك لم يأكل متكئاً حتى فارق الدنيا .

(13/558)

أما قوله تعالى : ﴿ بَلْ كَذَّبُواْ بالساعة وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بالساعة سَعِيراً ﴾ فهذا جواب ثالث عن تلك الشبهة كأنه سبحانه قال ليس ما تعلقوا به شبهة عيلمة في نفس المسألة ، بل الذي حملهم على تكذيبك تكذيبهم بالساعة استثقالاً للاستعداد لها ، ويحتمل أن يكون المعنى أنهم يكذبون بالساعة فلا يرجون ثواباً ولا عقاباً ولا يتحملون كلفة النظر والفكر ، فلهذا لا ينتفعون بما يورد عليهم من الدلائل ، ثم قال : ﴿ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بالساعة سَعِيراً ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

قال أبو مسلم : ﴿ وَأَعْتَدْنَا ﴾ أي جعلناها عتيداً ومعدة لهم ، والسعير النار الشديدة الاستعار ، وعن الحسن أنه اسم من أسماء جهنم .

المسألة الثانية :

احتج أصحابنا على أن الجنة مخلوقة بقوله تعالى : ﴿ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران : 133] وعلى أن النار التي هي دار العقاب مخلوقة بهذه الآية وهي قوله : ﴿ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بالساعة سَعِيراً ﴾ وقوله : ﴿ أَعْتَدْنَا ﴾ إخبار عن فعل وقع في الماضي ، فدلت الآية على أن دار العقاب مخلوقة قال الجبائي يحتمل وأعتدنا النار في الدنيا وبها نعذب الكفار والفساق في قبورهم ويحتمل نار الآخرة ويكون معنى ﴿ وَأَعْتَدْنَا ﴾ أي سنعدها لهم كقوله :

(14/558)

﴿ وَنَادَى أصحاب الجنة أصحاب النار ﴾ [الأعراف : 44] واعلم أن هذا السؤال في نهاية السقوط لأن المراد من السعير ، إما نار الدنيا وإما نار الآخرة ، فإن كان الأول فإما أن يكون المراد أنه تعالى يعذبهم في الدنيا بنار الدنيا أو يعذبهم في الآخرة بنار الدنيا ، والأول باطل لأنه تعالى ما عذبهم بالنار في الدنيا ، والتالي أيضاً باطل لأنه لم يقل أحد من الأمة أنه تعالى يعذب الكفرة في الآخرة بنيران الدنيا ، فثبت أن المراد نار الآخرة وثبت أنها معدة ، وحمل الآية على أن الله سيجعلها معدة ترك للظاهر من غير دليل ، وعلى أن الحسن قال

السعير اسم من أسماء جهنم فقوله : ﴿ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بالساعة سَعِيراً ﴾ صريح في أنه تعالى أعد جهنم .

المسألة الثالثة :

احتج أصحابنا بهذه الآية على أن السعيد من سعد في بطن أمه فقالوا إن الذين أعد الله تعالى لهم السعير وأخبر عن ذلك وحكم به أن صاروا مؤمنين من أهل الثواب انقلب حكم الله بكونهم من أهل السعير كذباً وانقلب بذلك علمه جهلاً ، وهذا الانقلاب محال والمؤدي إلى المحال محال فصيرورة أولئك مؤمنين من أهل الثواب محال ، فثبت أن السعيد لا ينقلب شقياً ، والشقي لا ينقلب سعيداً ، ثم إنه سبحانه وتعالى وصف السعير بصفات إحداها قوله : ﴿ إِذَا رَأَتْهُمْ مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

السعير مذكر ولكن جاء ههنا مؤنثاً لأنه تعالى قال : ﴿ رَأَتْهُمْ ﴾ وقال : ﴿ سَمِعُواْ لَهَا ﴾ وإنما جاء مؤنثاً على معنى النار .

المسألة الثانية :

مذهب أصحابنا أن البنية ليست شرطاً في الحياة ، فالنار على ما هي عليه يجوز أن يخلق الله الحياة والعقل والنطق فيها ، وعند المعتزلة ذلك غير جائز ، وهؤلاء المعتزلة ليس لهم في هذا الباب حجة إلا استقراء العادات ، ولو صدق ذلك لوجب التكذيب بانخراق العادات في حق الرسل ، فهؤلاء قولهم متناقض ، بل إنكار العادات لا يليق إلا بأصول الفلاسفة ، فعلى هذا قال أصحابنا قول الله تعالى في صفة النار : ﴿ إِذَا رَأَتْهُمْ مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً ﴾ يجب إجراؤه على الظاهر ، لأنه لا امتناع في أن تكون النار حية رائية مغتاظة على الكفار ، أما المعتزلة فقد احتاجوا إلى التأويل وذكروا فيه وجوهاً : أحدها : قالوا معنى رأتهم ظهرت لهم من قولهم دورهم تتراءى وتتناظر ، وقال عليه السلام : " إن المؤمن والكافر لا تتراءى ناراهما " أي لا تتقابلان لما يجب على المؤمن من مجانبة الكافر والمشرك ، ويقال دور فلان متناظرة ، أي متقابلة وثانيها : أن النار لشدة اضطرامها وغليانها صارت ترى الكفار وتطلبهم وتتغيظ عليهم وثالثها : قال الجبائي : إن الله تعالى ذكر النار وأراد الخزنة الموكلة بتعذيب أهل النار ، لأن الرؤية تصح منهم ولا تصح من النار فهو كقوله :

﴿ واسئل القرية ﴾ [يوسف : 82] أراد أهلها .

المسألة الثالثة :

لقائل أن يقول التغيظ عبارة عن شدة الغضب وذلك لا يكون مسموعاً ، فكيف قال الله

تعالى : ﴿ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً ﴾ ؟ والجواب عنه من وجوه : أحدها : أن التغيظ وإن لم يسمع فإنه قد يسمع ما يدل عليه من الصوت وهو كقوله : رأيت غضب الأمير على فلان إذا رأى ما يدل عليه ، وكذلك يقال في المحبة فكذا ههنا ، والمعنى سمعوا لها صوتاً يشبه صوت المتغيظ وهو قول الزجاج وثانيها : المعنى علموا لها تغيظاً وسمعوا لها زفيراً وهذا قول قطرب ، وهو كقول الشاعر : مقلداً سيفاً ورمحاً وثالثها : المراد تغيظ الخزنة .

(16/558)

المسألة الرابعة :

قال عبيد بن عمير : إن جهنم لتزفر زفرة لا يبقى أحد إلا وترعد فرائصه حتى إن إبراهيم عليه السلام يجثو على ركبتيه ويقول نفسي نفسي .

الصفة الثانية للسعير : قوله تعالى : ﴿ وَإِذَآ أُلْقُواْ مِنْهَا مَكَاناً ضَيِّقاً مُّقَرَّنِينَ دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُوراً ﴾ واعلم أن الله سبحانه لما وصف حال الكفار حينما يكونون بالبعد من جهنم وصف حالهم عند ما يلقون فيها ، نعوذ بالله منه بما لا شيء أبلغ منه ، وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

في ﴿ ضَيِّقاً ﴾ قراءتان التشديد والتخفيف وهو قراءة ابن كثير .

المسألة الثانية :

نقل في تفسير الضيق أمور ، قال قتادة : ذكر لنا عبد الله بن عمر قال : " إن جهنم لتضيق على الكافر كضيق الزج على الرمح " وسئل النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك فقال : " والذي نفسي بيده إنهم يستكرهون في النار كما يستكره الوتد في الحائط " قال الكلبي : الأسفلون يرفعهم اللهيب ، والأعلون يخفضهم الداخلون فيزدحمون في تلك الأبواب الضيقة ، قال صاحب "الكشاف" : الكرب مع الضيق ، كما أن الروح مع السعة ، ولذلك وصف الله الجنة بأن عرضها السموات والأرض ، وجاء في الأحاديث " إن لكل مؤمن من القصور والجنان كذا وكذا " ولقد جمع الله على أهل النار أنواع (البلاء حيث ضم إلى العذاب الشديد الضيق) .

المسألة الثالثة :

(17/558)

قالوا في تفسير قوله تعالى : ﴿ مُّقَرَّنِينَ فِى الأصفاد ﴾ إن أهل النار مع ما هم فيه من العذاب الشديد والضيق الشديد ، يكونون مقرنين في السلاسل قرنت أيديهم إلى أعناقهم وقيل يقرن مع كل كافر شيطانه في سلسلة ، وفي أرجلهم الأصفاد ، ثم إنه سبحانه حكى عن أهل النار

أنهم حين ما يشاهدون هذا النوع من العقاب الشديد دعوا ثبوراً ، والثبور الهلاك ، ودعاؤهم أن يقولوا واثبوراه ، أي يقولوا يا ثبور هذا حينك وزمانك ، وروى أنس مرفوعاً : " أول من يكسى حلة من النار إبليس فيضعها على جانبيه ويسحبها من خلفه ذريته وهو يقول يا ثبوراه وينادون يا ثبورهم حتى يردوا النار "

أما قوله : ﴿ لاَّ تَدْعُواْ اليوم ثُبُوراً واحدا ﴾ أي يقال لهم ذلك ، وهم أحقاء بأن يقال لهم ذلك وإن لم يكن ثم قول ، ومعنى ﴿ وادعوا ثُبُوراً كَثِيراً ﴾ ، أنكم وقعتم فيما ليس ثبوركم منه واحداً ، إنما هو ثبور كثير ، إما لأن العذاب أنواع وألوان لكل نوع منها ثبور لشدته وفظاعته ، أو لأنهم كلما نضجت جلودهم بدلوا غيرها ، أو لأن ذلك العذاب دائم خالص عن الشوب فلهم في كل وقت من الأوقات التي لا نهاية لها ثبور ، أو لأنهم ربما يجدون بسبب ذلك القول نوعاً من الخفة ، فإن المعذب إذا صاحب وبكى وجد بسببه نوعاً من الخفة فيزجرون عن ذلك ، ويخبرون بأن هذا الثبور سيزداد كل يوم ليزداد حزنهم وغمهم نعوذ بالله منه ، قال الكلبي نزل هذا كله في حق أبي جهل والكفار الذين ذكروا تلك الشبهات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 24 صـ 47.50 ﴾

(18/558)

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا أُلْقُواْ مِنْهَا مَكَاناً ضَيِّقاً ﴾

قال عبد الله بن عمرو : إن جهنم لتضيق على الكافرين كضيق الزج على الرمح .

﴿ مُّقَرَّنِينَ ﴾ فيه وجهان

: أحدهما : مُكَتَّفِينَ ، قاله أبو صالح .

الثاني : يقرن كل واحد منهم إلى شيطانه ، قاله يحيى بن سلام .

﴿ دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُوراً ﴾ فيه ثلاثة أوجه

: أحدهما : ويلاً ، قاله ابن عباس .

الثاني : هلاكاً ، قاله الضحاك .

الثالث : معناه وانصرافاه عن طاعة الله ، حكاه ابن عيسى وروي النبي صلى الله عليه السلام أنه قال : " أَوَّلُ مَن يَقُولُهُ إِبْلِيسُ " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

(19/558)

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ تبارك الذي ﴾ الآية

رجوع بأمور محمد صلى الله عليه وسلم إلى الله تعالى ، أي هذه جهتك لا هؤلاء الضالون في أمرك ، والإشارة في ذلك قال مجاهد هي إلى ما ذكره الكفار من الكنز والجنة في الدنيا ، وقال ابن عباس هي إلى أكله الطعام ومشيه في الأسواق ، وقال الطبري والأول أظهر .

قال القاضي أبو محمد : لأن هذا التأويل الثاني يوهم أن الجنّات والقصور التي في هذه الآية هي في الدنيا وهذا تأويل الثعلبي وغيره ، ويرد ذلك قوله تعالى بعد ذلك ﴿ بل كذبوا بالساعة ﴾ [الفرقان : 11] والكل محتمل ، وقرأ عاصم في رواية أبي بكر وحفص ونافع وأبي عمرو وحمزة والكسائي " ويجعلْ " بالجزم على العطف على موضع الجواب في قوله ﴿ جعل ﴾ لأن التقدير " تبارك الذي إن يشأ يجعل " .

وقرأ أبو بكر عن عاصم أيضاً وابن كثر وابن عامر " ويجعلُ " بالرفع والاستئناف ، وهي قراءة مجاهد ، ووجوه العطف على المعنى في قوله ﴿ جعل ﴾ لأن جواب الشرط هو موضِع الاستئناف ، ألا ترى أن الجمل من الابتداء والخبر قد تقع موقع جواب الشرط ، وقرأ عبد الله بن موسى وطلحة بن سليمان " ويجعلَ " بالنصب وهو على تقدير " أن " في صدر الكلام ، قال أبو الفتح هي على جواب الجزاء بالواو وهي قراءة ضعيفة ، وأدغم الأعرج ﴿ ويجعل لك ﴾ وروي ذلك عن ابن محيصن ، و" القصور " البيوت المبنية بالجدرات قاله

مجاهد وغيره ، وكانت العرب تسمي ما كان من الشعر والصوف والقصب بيتاً ، وتسمي ما كان بالجدرات قصراً لأنه قصر عن الداخلين والمستأذنين .

﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا (11) ﴾

(20/558)

المعنى ليس بهم في تكذيبك ومشيك في الأسواق بل إنهم كفرة لا يفقهون الحق ، فقوله ﴿ بل ﴾ ترك لنفس اللفظ المتقدم لا لمعناه على ما تقتضيه " بل " في مشهور معناها ، ﴿ وأعتدنا ﴾ جعلنا معداً ، والعتاد ما يعد من الأشياء ، و" السعير " طبق من أطباق . جهنم ، وقوله ﴿ إذا رأتهم ﴾ يريد جهنم ، ﴿ إذا ﴾ اقتضاها لفظ السعير ولفظ ﴿ رأتهم ﴾ يحتمل الحقيقة ويحتمل المجاز على معنى صارت منهم على قدر ما يرى الرائي من البعد إلا أنه ورد حديث يقتضي الحقيقة ، ويحتمل المجاز ، في هذا ذكر الطبري وهو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ بين عيني جهنم مقعده من النار " ، فقيل يا رسول الله أو لجهنم عينان ؟ فقال : " اقرؤوا إن شئتم ﴿ إذا رأتهم من مكان بعيد ﴾ الآية ، وروي في بعض الآثار أن البعد الذي تراهم منه مسيرة خمسمائة سنة ، وقوله ﴿ سمعوا لها تغيظاً ﴾ لفظ فيه تجوز وذلك أن التغيظ لا يسمع

وإنما المسموع ألفاظ دالة على التغيظ ، وهي لا شك احتدامات في النار كالذي يسمع في نار الدنيا إذا اضطربت ، ونسبة هذا المسموع الذي في الدنيا من ذلك نسبة الإحراق من الإحراق وهي سبعون درجة كما ورد في الصحيح ، و" الزفير " صوت ممدود كصوت الحمار المرجع في نهيقه ، قال النقاش " الزفير " آخر صوت الحمار عند نهيقه ، قال عبيد بن عمير إن جهنم لتزفر زفرة لا يبقى ملك ولا نبي إلا خرّ ثم ترعد فرائصه ، " والمكان الضيق " منها ، هو يقصد إلى التضييق عليهم في المكان من النار وذلك نوع من التعذيب ، قال صلى الله عليه وسلم " إنهم ليكرهون في النار كما يكره الوتد في الحائط " أي يدعون لزاً وعنفاً ، وقال ابن عباس تضيق عليم كما يضيق الزج على الرمح ، وقرأ ابن كثير وعبيد عن أبي عمرو " ضيقاً " بتخفيف الياء والباقون يشدّدون و ﴿ مقرنين ﴾ معناه مربوط بعضهم إلى بعض ، وروي أن ذلك بسلاسل من نار ، والقرينان من الثيران ما قرنا بحبل للحرث ومنه قول

(21/558)

الشاعر : [الطويل]

إذا لم يزل حبل القرينين يلتوي . . . فلا بد يوماً من قوى أن تجدما

وقرأ أبو شيبة المهري صاحب معاذ بن جبل رحمه الله " مقرنون " بالواو وهي قراءة شاذة ،

والوجه قراءة الناس ، وقوله ﴿ ثبوراً ﴾ مصدر وليس بالمدعو ، ومفعول ﴿ دعوا ﴾ محذوف تقديره دعوا من لا يجيبهم أو نحو هذا من التقديرات ، ويصح أن يكون " الثبور " هو المدعو كما تدعى الحسرة والويل ، والثبور قال ابن عباس هو الويل ، وقال الضحاك هو الهلاك ومنه قول ابن الزبعرى : [الخفيف]

إذ أجاري الشيطان في سنن الغ . . . ي ومن مال ميله مثبور

وقوله ﴿ لا تدعوا ﴾ إلى آخر الآية معناه يقال لهم على معنى التوبيخ والإعلام بأنهم يخلدون أي لا تقتصروا على حزن واحد بل احزنوا كثيراً لأنكم أهل لذلك . انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(22/558)

وقال ابن الجوزى :

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾

ثم أخبر أنه لو شاء لأعطاه خيراً مما قالوا في الدنيا ، وهو قوله : ﴿ خيراً من ذلك ﴾ يعني : لو شئتُ لأعطيتُك في الدنيا خيراً مما قالوا ، لأنه قد شاء أن يعطيَه ذلك في الآخرة .

﴿ وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُوراً ﴾ قرأ ابن كثير ، وابن عامر ، وأبو بكر عن عاصم ﴿ ويجعل لُكَ

قصوراً ﴾ برفع اللام.

وقرأ أبو عمرو، ونافع، وحمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم: ﴿ ويجعلْ ﴾ بجزم اللام.

فمن قرأ بالجزم، كان المعنى: إن يشأْ يجعلْ لك جنات ويجعلْ [لك] قصوراً.

ومن رفع، فعلى الاستئناف [المعنى]: ويجعلُ لكَ قصوراً في الآخرة.

وقد سبق معنى ﴿ أعتدنا ﴾ [النساء: 37] ومعنى ﴿ السعير ﴾ [النساء: 10].

قوله تعالى: ﴿ إذ رأتْهم من مكان بعيد ﴾ قال السدي عن أشياخه: من مسيرة مائة عام.

فإن قيل: السعير مذكَّر، فكيف قال: ﴿ إذا رأتهم ﴾؟

فالجواب: أنه أراد بالسعير النار.

قوله تعالى: ﴿ سَمِعوا لها تغيُّظاً ﴾ فيه قولان.

أحدهما: غَلَيان تَغَيُّظ، قاله الزجاج.

قال المفسرون: والمعنى: أنها تتغيَّظ عليهم، فيسمعون صوت تغيُّظها وزفيرها كالغضبان إذا غلا صدره من الغيظ.

والثاني: يسمعون فيها تغيُّظ المعذَّبين وزفيرهم، حكاه ابن قتيبة.

قوله تعالى : ﴿ وإذا أُلْقُوا منها مكاناً ضيّقاً مُقَرَّنِين دَعَوا هنالك ثُبوراً ﴾ قال المفسرون : تضيّق عليهم كما يضيّق الزُّجُّ على الرُّمح ، وهم قد قُرنوا مع الشياطين والثُّبور : الهَلَكة .

وقرأ عاصم الجحدري وابن السميفع ﴿ ثَبوراً ﴾ بفتح الثاء .

قوله تعالى : ﴿ وادعوا ثُبوراً كثيراً ﴾ قال الزجاج : الثُّبور مصدر ، فهو للقليل والكثير على لفظ الواحد ، كما تقول : ضربته ضرباً كثيراً ، والمعنى : هلاكهم أكثر من أن يدعوا مرة واحدة .

(23/558)

وروى أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أول من يُكْسى من أهل النار يوم القيامة إبليس ، يُكْسى حُلَّة من النَّار فيضعها على حاجبيه ويسحبها من خلفه وذرِّيَّتُه خلفه وهو يقول : واثبوراه ، وهم ينادون : يا ثبورهم ، حتى يقفوا على النار ، فينادي : يا ثبوراه ، وينادون : يا ثبورهم ، فيقول الله عز وجل : ﴿ لا تدعوا اليوم ثُبوراً واحداً وادعوا ثُبوراً كثيراً ﴾ " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 6 صـ ﴾

(24/558)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ تَبَارَكَ الذي إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْراً مِّن ذلك جَنَّاتٍ ﴾

شرط ومجازاة ، ولم يدغم ﴿ جَعَلَ لَكَ ﴾ لأن الكلمتين منفصلتان ، ويجوز الإدغام

لاجتماع المثلين .

﴿ وَيَجْعَل لَّكَ ﴾ في موضع جزم عطفاً على موضع ﴿ جعل ﴾ .

ويجوز أن يكون في موضع رفع مقطوعاً من الأوّل .

وكذلك قرأ أهل الشام .

ويروى عن عاصم أيضاً : ﴿ وَيَجْعَلُ لَكَ ﴾ بالرفع ؛ أي وسيجعل لك في الآخرة قصوراً .

قال مجاهد : كانت قريش ترى البيت من حجارة قصراً كائناً ما كان .

والقصر في اللغة الحبس ، وسمي القصر قصراً لأن مَن فيه مقصور عن أن يوصل إليه .

وقيل : العرب تسمي بيوت الطين القصر .

وما يتخذ من الصوف والشعر البيت .

حكاه القُشَيري .

وروى سفيان عن حبيب بن أبي ثابت عن خَيْثَمة قال : " قيل للنبي صلى الله عليه وسلم :

إن شئت أن نعطيك خزائن الدنيا ومفاتيحها ولم يعطَ ذلك من قبلك ولا يعطاه أحد بعدك ،

وليس ذلك بناقصك في الآخرة شيئاً ؛ وإن شئت جمعنا لك ذلك في الآخرة ؛ فقال : "يجمع ذلك لي في الآخرة" " فأنزل الله عز وجل : ﴿ تَبَارَكَ الذي إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْراً مِّن ذلك جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار وَيَجْعَل لَّكَ قُصُوراً ﴾ .

ويروى أن هذه الآية أنزلها رضوان خازن الجنان إلى النبي صلى الله عليه وسلم ؛ وفي الخبر : " إن رضوان لما نزل سلم على النبي صلى الله عليه وسلم ؛ ثم قال : يا محمد ! رب العزة يقرئك السلام ، وهذا سَفَط فإذا سَفَط من نور يتلألأ يقول لك ربك : هذه مفاتيح خزائن الدنيا ، مع أنه لا ينقص مالك في الآخرة مثل جناح بعوضة ؛ فنظر النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى جبريل كالمستشير له ؛ فضرب جبريل بيده الأرض يشير أن تواضع ؛ فقال : "يا رضوان لا حاجة لي فيها الفقر أحب إليّ وأن أكون عبداً صابراً شكوراً" .

فقال رضوان : أصبت ! الله لك " وذكر الحديث .

قوله تعالى : ﴿ بَلْ كَذَّبُواْ بالساعة ﴾ يريد يوم القيامة .

(25/558)

﴿ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بالساعة سَعِيراً ﴾ يريد جهنم تتلظى عليهم .

﴿ إِذَا رَأَتْهُمْ مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ أي من مسيرة خمسمائة عام .

﴿ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً ﴾ قيل : المعنى إذا رأتهم جهنم سمعوا لها صوت التغيظ عليهم .

وقيل : المعنى إذا رأتهم خزّانها سمعوا لهم تغيظاً وزفيراً حرصاً على عذابهم .

والأوّل أصح ؛ لما روي مرفوعاً أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من كذب علي متعمداً فليتبوأ بين عيني جهنم مقعداً " قيل : يا رسول الله ! ولها عينان ؟ قال : " أما سمعتم الله عز وجل يقول : ﴿ إِذَا رَأَتْهُمْ مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً ﴾ يخرج عُنق من النار له عينان تبصران ولسان ينطق فيقول وُكِّلت بكل من جعل مع الله إلهاً آخر فلهو أبصر بهم من الطير بحب السمسم فيلتقطه " في رواية " فيخرج عُنق من النار فيلتقط الكفار لقط الطائر حب السمسم " ذكره رَزِين في كتابه ، وصححه ابن العربي في قبسه ، وقال : أي تفصلهم عن الخلق في المعرفة كما يفصل الطائر حب السمسم من التربة .

وخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة قال .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم .

" يَخرج عُنق من النار يوم القيامة له عينان تبصران وأذنان تسمعان ولسان ينطق يقول إني وُكِّلت بثلاث بكل جبّار عنيد وبكلّ من دعا مع الله إلهاً آخر وبالمصوِّرين " وفي الباب عن أبي سعيد قال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب صحيح .

وقال الكلبي : سمعوا لها تغيظاً كتغيظ بني آدم وصوتاً كصوت الحمار .

وقيل : فيه تقديم وتأخير ، سمعوا لها زفيراً وعلموا لها تغيظاً .

وقال قطرب : التغيظ لا يسمع ، ولكن يرُى ، والمعنى : رأوا لها تغيظاً وسمعوا لها زفيراً ؛ كقول الشاعر :

ورأيت زوجَكِ في الوَرى . . .

مُتقلّداً سيفاً ورُمحا

أي وحاملاً رمحاً .

وقيل : ﴿ سَمِعُوا لَهَا ﴾ أي فيها ؛ أي سمعوا فيها تغيظاً وزفيراً للمعذَّبين .

(26/558)

كما قال تعالى : ﴿ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴾ [هود : 106] و"في واللام" يتقاربان ؛ تقول : أفعل هذا في الله ولله .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَآ أُلْقُواْ مِنْهَا مَكَاناً ضَيِّقاً مُّقَرَّنِينَ ﴾ قال قتادة : ذكر لنا أن عبد الله كان يقول : إن جهنم لتضيّق على الكافر كتضييق الزُّج على الرمح ؛ ذكره ابن المبارك في رقائقه . وكذا قال ابن عباس ، ذكره الثعلبي والقُشَيري عنه ، وحكاه الماوردي عن عبد الله بن عمرو .

ومعنى ﴿ مُقَرَّنِينَ ﴾ مكتَّفين ؛ قاله أبو صالح .

وقيل : مصفَّدين قد قرنت أيديهم إلى أعناقهم في الأغلال .

وقيل : قرنوا مع الشياطين ؛ أي قرن كل واحد منهم إلى شيطانه ؛ قاله يحيى بن سلام .

وقد مضى هذا في ﴿ إبراهيم ﴾ وقال عمرو بن كلثوم :

فآبُوا بالنِّهابِ وبالسَّبَايَا . . .

وأُبْنَا بالملوكِ مقرَّنِينا

﴿ دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُوراً ﴾ أي هلاكاً ؛ قاله الضحاك .

ابن عباس : ويلاً .

وروي عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " أوّل من يقوله إبليس وذلك أنه أوّل من يكسى حلة من النار فتوضع على حاجبيه ويسحبها من خلفه وذريته مِن خلفه وهو يقول واثبوراه " وانتصب على المصدر ، أي ثبرنا ثبوراً ؛ قاله الزجاج .

وقال غيره : هو مفعول به .

قوله تعالى : ﴿ لاَّ تَدْعُواْ اليوم ثُبُوراً وَاحِداً وادعوا ثُبُوراً كَثِيراً ﴾ فإن هلاككم أكثر من أن تدعوا مرة واحدة .

وقال : ثبوراً لأنه مصدر يقع للقليل والكثير فلذلك لم يجمع ؛ وهو كقولك : ضربته ضرباً كثيراً ، وقعد قعوداً طويلاً .

ونزلت الآيات في ابن خَطَل وأصحابه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 13 صـ ﴾

(27/558)

وقال أبو حيان :

ولما قال المشركون ما قالوا قيل : فيما يروى إن شئت أن نعطيك خزائن الدنيا ومفاتيحها ، ولم يعط ذلك أحد قبلك ولا يعطاه أحد بعدك وليس ذلك بناقصك في الآخرة شيئاً ، وإن شئت جمعناه لك في الآخرة فقال : يجمع لي ذلك في الآخرة فنزل ﴿ تبارك الذي ﴾ .

وعن ابن عباس عنه عليه السلام قال : عرض على جبريل عليه السلام بطحاء مكة ذهباً فقلت : بل شبعة وثلاث جوعات ، وذلك أكثر لذكري ومسألتي .

قال الزمخشري في ﴿ تبارك ﴾ أي تكاثر خيراً ﴿ الذي إن شاء ﴾ وهب لك في الدنيا ﴿ خيراً ﴾ مما قالوا وهو أن يجعل لك مثل ما وعدك في الآخرة من الجنات والقصور انتهى .

والإشارة بذلك الظاهر أنه إلى ما ذكره الكفار من الجنة والكنز في الدنيا قاله مجاهد .

ويبعد تأويل ابن عباس أنه إشارة إلى أكله الطعام ومشيه في الأسواق والظاهر أن هذا الجعل

كان يكون في الدنيا لو شاءه الله .

وقيل : في الآخرة ودخلت إن على المشيئة تنبيهاً أنه لا ينال ذلك إلاّ برحمته وأنه معلق على محض مشيئته ليس لأحد من العباد على الله حق لا في الدنيا ولا في الآخرة .

والأول أبلغ في تبكيت الكفار والرد عليهم .

قال ابن عطية : ويرده قوله بعد ذلك ﴿ بل كذبوا بالساعة ﴾ انتهى .

ولا يرده لأن المعنى به متمكن وهو عطف على ما حكى عنهم يقول : بل أتى بأعجب من ذلك كله وهو تكذيبهم بالساعة .

وقرأ الجمهور ﴿ ويجعل ﴾ بالجزم قالوا عطفاً على موضع جعل لأن التقدير إن يشأ يجعل ويجوز أن يكون مرفوعاً أدغمت لامه في لام ﴿ لك ﴾ لكن ذلك لا يعرف إلاّ من مذهب أبي عمرو والذي قرأ بالجزم من السبعة نافع وحمزة والكسائي وأبو عمرو ، وليس من مذهب الثلاثة إدغام المثلين إذا تحرك أولهما إنما هو من مذهب أبي عمر وكما ذكرنا .

وقرأ مجاهد وابن عامر وابن كثير وحميد وأبو بكر ومحبوب عن أبي عمرو بالرفع .

قال ابن عطية : والاستئناف ووجهه العطف على المعنى في قوله ﴿ جعل ﴾ لأن جواب الشرط هو موضع استئناف .

(28/558)

ألا ترى أن الجمل من الابتداء والخبر قد تقع موقع جواب الشرط ؟ وقال الحوفي من رفع جعله مستأنفاً منقطعاً مما قبله انتهى .

وقال أبو البقاء وبالرفع على الاستئناف .

وقال الزمخشري : وقرىء ﴿ ويجعل ﴾ بالرفع عطفاً على ﴿ جعل ﴾ لأن الشرط إذا وقع ماضياً جاز في جوابه الجزم والرفع كقوله :

وإن أتاه خليل يوم مسألة . . .

يقول لا غائب مالي ولا حرم

انتهى .

وهذا الذي ذهب إليه الزمخشري من أنه إذا كان فعل الشرط ماضياً جاز في جوابه الرفع ليس مذهب سيبويه ، إذ مذهب سيبويه أن الجواب محذوف وأن هذا المضارع المرفوع النية به التقديم ، ولكون الجواب محذوفاً لا يكون فعل الشرط إلاّ بصيغة الماضي .

وذهب الكوفيون والمبرد إلى أنه هو الجواب وأنه على حذف الفاء ، وذهب غير هؤلاء إلى أنه هو الجواب وليس على حذف الفاء ولا على التقديم ، ولما لم يظهر لأداة الشرط تأثير في فعل الشرط لكونه ماضي اللفظ ضعف عن العمل في فعل الجواب فلم تعمل فيه ، وبقي مرفوعاً وذهب الجمهور إلى أن هذا التركيب فصيح وأنه جائز في الكلام .

وقال بعض أصحابنا : هو ضرورة إذ لم يجيء إلاّ في الشعر وهو على إضمار الفاء والكلام على هذه المذاهب مذكور في علم النحو .

وقرأ عبيد الله بن موسى وطلحة بن سليمان ﴿ ويجعل ﴾ بالنصب على إضمار أن .

وقال أبو الفتح هي على جواب الشرط بالواو ، وهي قراءة ضعيفة انتهى .

ونظير هذه القراءات الثلاث قول النابغة :

فإن يهلك أبو قابوس يهلك . . .

ربيع الناس والشهر الحرام

ونأخذ بعده بذناب عيش . . .

أجب الظهر ليس له سنام

يروى بجرم نأخذ ورفعه ونصبه .

﴿ بل كذبوا بالساعة ﴾ قال الكرماني : المعنى ما منعهم من الإيمان أكلك الطعام ولا مشيك في السوق ، بل منعهم تكذيبهم بالساعة .

وقيل : ليس ما تعلقوا به شبهة بل الحامل على تكذيبك تكذيبهم بالساعة استثقالاً للاستعداد لها .

وقيل : يجوز أن يكون متصلاً بما يليه كأنه قال ﴿ بل كذبوا بالساعة ﴾ فكيف يلتفتون إلى هذا الجواب ، وكيف يصدقون بتعجيل مثل ما وعدك في الآخرة وهم لا يؤمنون بالآخرة انتهى .

وبل لترك اللفظ المتقدم من غير إبطال لمعناه .

وأخذ في لفظ آخر ﴿ واعتدنا ﴾ جعلناه معداً .

﴿ سعيراً ﴾ ناراً كبيرة الإيقاد .

وعن الحسن : اسم من أسماء جهنم .

﴿ إذا رأتهم ﴾ قيل هو حقيقة وإن لجهنم عينين وروي في ذلك أثر فإن صح كان هو القول الصحيح .

وإلاّ كان مجازاً ، أي صارت منهم بقدر ما يرى الرائي من البعد كقولهم : دورهم تتراءى أي تتناظر وتتقابل ، ومنه : لا تتراءى ناراهما .

وقال قوم : النار اسم لحيوان ناري يتكلم ويرى ويسمع ويتغير ويزفر حكاه الكرماني ، وقيل : هو على حذف مضاف أي رأتهم خزنتها من مكان بعيد ، قيل : مسيرة خمسمائة عام .

وقيل : مائة سنة .

وقيل : سنة ﴿ سمعوا لها ﴾ صوت تغيظ لأن التغيظ لا يسمع ، وإذا كان على حذف

المضاف كان المعنى تغيظوا وزفروا غضباً على الكفار وشهوة للانتقام منهم .

وقيل ﴿ سمعوا ﴾ صوت لهيبها واشتعالها وقيل هو مثل قول الشاعر :

فيا ليت زوجك قد غدا . . .

متقلداً سيفاً ورمحاً

وهذا مخرج على تخريجين أحدهما الحذف أي ومعتقلاً رمحاً .

والثاني تضمين ضمن متقلداً معنى متسلحاً فكذلك الآية أي ﴿ سمعوا لها ﴾ ورأوا ﴿ تغيظاً وزفيراً ﴾ وعاد كل واحد إلى ما يناسبه .

أو ضمن ﴿ سمعوا ﴾ معنى أدركوا فيشمل التغيظ والزفير .

وانتصب ﴿ مكاناً ﴾ على الظرف أي في مكان ضيق .

وعن ابن عباس : تضيق عليهم ضيق الزج في الرمح مقرنين قرنت أيديهم إلى أعناقهم بالسلاسل .

وقيل : يقرن مع كل كافر شيطانه في سلسلة وفي أرجلهم الأصفاد .

وقرأ ابن كثير وعبيد عن أبي عمر وضيقاً .

(30/558)

قال ابن عطية : وقرأ أبو شيبة صاحب معاذ بن جبل مقرنون بالواو وهي قراءة شاذة ، والوجه قراءة الناس ونسبها ابن خالويه إلى معاذ بن جبل ووجهها أن يرتفع على البدل من ضمير ﴿ ألقوا ﴾ بدل نكرة من معرفة ونصب على الحال ، والظاهر دعاء الثبور وهي الهلاك فيقولون : واثبوراه أي يقال يا ثبور فهذا أوانك .

وقيل : المدعو محذوف تقديره دعوا من لا يجيبهم قائلين ثبرنا ثبوراً .

والثبور قال ابن عباس : هو الويل ، وقال الضحاك : هو الهلاك ومنه قول ابن الزبعري :

إذ يجاري الشيطان في سنن الغي . . .

ومن مال ميله مثبور

﴿ لا تدعوا اليوم ﴾ يقول لهم ﴿ لا تدعوا ﴾ أو هم أحق أن يقال لهم ذلك وإن لم يكن هناك قول ، أي لا تقتصروا على حزن واحد بل احزنوا حزناً كثيراً وكثرته إما لديمومة العذاب فهو متجدداً دائماً ، وإما لأنه أنواع وكل نوع يكون منه ثبور لشدته وفظاعته .

وقرأ عمرو بن محمد ﴿ ثبوراً ﴾ بفتح الثاء في ثلاثتها وفعول بفتح الواو في المصادر قليل نحو البتول .

وحكى عليّ بن عيسى : ما ثبرك عن هذا الأمر أي ما صرفك .

كأنهم دعوا بما فعلوا فقالوا : واصرفاه عن طاعة الله كما تقول : واندامتاه .

روي أن أول ما ينادي بذلك إبليس يقول : واثبوراه حتى يكسى حلة من جهنم يضعها على

جبينه ويسحبها من خلفه ، ثم يتبعه في القول أتباعه فيقول لهم خزان جهنم ﴿ لا تدعوا ﴾ الآية .

وقيل : نزلت في ابن خطل وأصحابه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(31/558)

وقال أبو السعود :

﴿ تَبَارَكَ الذى ﴾ أي تكاثرَ وتزايدَ خيرُ الذي ﴿ إِن شَاء جَعَلَ لَكَ ﴾ في الدُّنيا عاجلاً شيئاً ﴿ خَيْرًا ﴾ لك ﴿ مّن ذلك ﴾ الذي اقترحُوه مِن أنْ يكون لك جنَّةٌ تأكل منها بأنْ يجعلَ لك مثل ما وعدك في الآخرةِ . وقولُه تعالى : ﴿ جنات تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأنهار ﴾ بدلٌ من خَيراً ومحقق لخيريّتِهِ مّما قالُوا لأنَّ ذلك كان مُطلقاً عن قيدِ التَّعددِ وجريان الأنهارِ ﴿ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُوراً ﴾ عطفٌ على محلِّ الجزاء الذي هو جعلَ وقُرِىء بالرَّفعِ عطفاً على نفسِه لأنَّ الشرَّطَ إذا كان ماضياً جاز في جزائِه الرَّفعُ والجزمُ كما في قولِ القائل

وَإِنْ أَتَاهُ خَلِيلٌ يَوْمَ مَسْأَلَة . . . يقُولُ لا غَائبٌ مالِي ولا حرِمُ

ويجوزُ أنْ يكون استئنافاً بوعدِ ما يكون له في الآخرةِ . وقُرِىء بالنَّصبِ على أنَّه جوابٌ بالواوِ . وتعليقُ ذلك بمشيئَتِه تعالى للإيذانِ بأنَّ عدمَ جعلها بمشيئَته المبنيَّةِ على الحِكَمِ

والمصالحِ ، وعدمُ التعَرضِ لجواب الاقتراحينِ الأوّلينِ للتنبيه على خروجهما عن دائرة العقل واسغنائِهما عن الجواب لظهور بُطلانِهما ومنافاتِهما للحكمة التَّشريعيَّةِ وإنَّما الذي له وجهٌ في الجملة هو الاقتراحُ الأخيرُ فإنَّه غير منافٍ للحكمة بالكلّيةِ فإنَّ بعضَ الأنبياءِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ قد أُوتوا في الدُّنيا مع النُّبوةِ مُلكاً عظيماً .

(32/558)

﴿ بَلْ كَذَّبُواْ بالساعة ﴾ إضرابٌ عن توبيخهم بحكايةِ جنايتهم السَّابقةِ وانتقالٌ منه إلى توبيخِهم بحكاية جناياتِهم الأخرى للتَّخلُّص إلى بيان ما لهم في الآخرة بسببها من فُنون العذاب بقوله تعالى : ﴿ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بالساعة سَعِيراً ﴾ الخ أي أعتدنا لهم ناراً عظيمةً شديدةَ الاشتعالِ شأنُها كيتَ وكيتَ بسبب تكذيبهم بها على ما يُشعر به وضعُ الموصولِ موضعَ ضميرِهم أو لكلِّ مَن كذَّب بها كائناً من كان وهم داخلون في زُمرتهم دخولاً أوليًا . ووضعُ السَّاعة موضعَ ضميرِها للمبالغةِ في التَّشنيع ومدارُ اعتياد السَّعيرِ لهم وإنْ لم يكن مجرَّد تكذيبهم بالسَّاعةِ بل مع تكذيبهم بسائر ما جاء به الشَّريفة لكن السَّاعةَ لمَّا كانتْ هي العلَّةَ القريبة لدخولِهم السَّعيرَ أُشير إلى سببيَّةِ تكذيبها لدخولِها . وقيل : هو عطفٌ على وقالُوا ما لهذا الخ على معنى بل أتوا بأعجبَ من ذلك حيثُ كذَّبوا بالسَّاعةِ وأنكروها

والحال أنَّا قد أعتدنا لكلِّ مَن كذَّب بها سعيراً فإنَّ جراءَتهم على التَّكذيب بها وعدمَ خوفِهم مَّما أُعدَّ لمن كذَّب بها من أنواعِ العذابِ أعجبُ من القولِ السَّابقِ وقيل : هو مُتَّصل بما قبلَه من الجوابِ المبنيِّ على التَّحقيقِ المنبىء عن الوعدِ بالجنَّاتِ في الآخرةِ مسوق لبيان أنَّ ذلك لا يجُدي نفعاً ولا يحلى بطائل على طريقةِ قولِ مَن قال

عُوجُوا لنُعمٍ فَحَيُّوا دِمنَةَ الدَّار . . . مَاذَا تُحيُّون مِنْ نُؤيٍ وأحجارِ

والمعنى أنَّهم لا يُؤمنون بالسَّاعةِ فكيفَ يقتنعُون بهذا الجوابِ وكيف يُصدِّقون بتعجيل مثلِ ما وعدك في الآخرةِ وقيل : المعنى بل كذَّبوا بها فقصُرت أنظارُهم على الحظوظِ الدُّنيويَّةِ وظنُّوا أنَّ الكرامة ليستْ إلا بالمالِ وجعلُوا فقرك ذريعةً إلى تكذيبك .

(33/558)

وقولُه تعالى : ﴿ إِذَا رَأَتْهُمْ ﴾ الخ صفة للسَّعيرِ أي إذا كانت بمرأى الناظرِ في البُعد كقولِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ : " لا تَتَراءَى نارَاهُما " أيْ لا تتقاربانِ بحيثُ تكونُ إحدهُما بمرأى مِن الأُخرى على المجاز كأنَّ بعضَها يرى البعضَ . ونسبةُ الرُّؤيةِ إليها لا إليهم للإيذان بأنَّ التَّغيظَ والزَّفيرَ منها لهيجان غضبِها عليهم عند رُؤيتها إيَّاهم حقيقةً أو تمثيلاً . ومِن في قوله تعالى : ﴿ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ إشعارٌ بأنَّ بُعدَ ما بينهما وبينهم من المسافة حين رأتهُم خارجٌ عن

حدود البُعدِ المعتاد في المسافات المعهودةِ وفيه مزيدُ تهويلٍ لأمرها . قال الكَلْبيُّ والسُّدّيُّ . من مسيرةِ عامٍ وقيل : من مسيرة مائةِ سنةٍ ﴿ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً ﴾ أي صوتُ تغيظٍ على تشبيه صوتِ غليانها بصوتِ المُغتاظِ وزفيرِه وهو صوتٌ يُسمع من جوفِه . هذا وإن الحياةَ لَمَّا لم تكُن مشروطةً عندنا بالبنية أمكن أنْ يخلقَ الله تعالى فيها حياةً فترى وتتغيظُ وتزفرُ ، وقيل : إنَّ ذلك لزبانيتها فنُسب إليها على حذفِ المضافِ .

(34/558)

﴿ وَإِذَآ أُلْقُواْ مِنْهَا مَكَاناً ﴾ نُصبَ على الظَّرفيَّةِ ومنها حالٌ منه لأنَّه في الأصلِ صفةٌ له ﴿ ضَيِّقاً ﴾ صفةٌ لمكاناً مفيدةٌ لزيادة شدَّةٍ فإنَّ الكَرْبَ مع الضَّيقِ كما أنَّ الرَّوحَ مع السَّعةِ ، وهو السِّرُّ في وصف الجنَّةِ بأنَّ عرضَها السَّمواتُ الأرضُ . وعن ابن عبَّاس وابنِ عُمر رضي الله تعالى عنهم : تضيقُ جهنَّمُ عليهم كما يضيقُ الزُّجُّ على الرُّمحِ . وسُئل النبيُّ عليه الصَّلاة والسَّلامُ عن ذلك فقال : " والذي نفسي بيدِه إنَّهم لَيُستكرهون في النَّارِ كما يُستكرهِ الوَتدُ في الحائطِ " . قال الكلبيُّ : الأسفلُون يرفعهم اللَّهبُ والأعْلوَن يحطُّهم الدَّاخلونَ فيزدحمُون فيها . وقُرىء ضَيْقاً بسكون الياء . ﴿ مُقْرِنِينَ ﴾ حالٌ من مفعول أُلقوا أي أُلقوا منها مكاناً ضَيِّقاً حال كونِهم مقرَّنين قد قُرنت أيديهم إلى أعناقهم بالجوامعِ وقيل : مقرَّنين مع

الشَّياطين في السَّلاسلِ ، كلُّ كافرٍ مع شيطانٍ وفي أرجلهم الأصفادُ ﴿ دَعَوْاْ هُنَالِكَ ﴾ أي في ذلك المكانِ الهائلِ والحالةِ الفظيعةِ ﴿ ثُبُوراً ﴾ أي يتمنَّون هلاكاً وينادُونه يا ثُبوراه تعالَ فهذا حِينُك وأوانُك .

(35/558)

﴿ لاَّ تَدْعُواْ اليوم ثُبُوراً واحدا ﴾ على تقدير قول إمَّا منصوبٌ على أنَّه حالٌ من فاعلِ دَعَوا أي دَعَوه مقُولاً لهم ذلك حقيقة بأنْ يخاطبهم الملائكةُ به لتنبيههم على خلودِ عذابِهم وأنَّهم لا يُجابون إلى ما يَدْعُونه ولا ينالون ما يتمنَّونه من الهلاكِ المنجّي ، أو تمثيلاً وتصويراً لحالهم بحال مَن يُقال له ذلك من غير أنْ يكونَ هناك قولٌ ولا خطابٌ أي دَعَوه حالَ كونِهم أحِقَّاءَ بأنْ يُقال لهم ذلك . وإمَّا مُستأنفٌ وقع جواباً عن سؤال ينسحبُ عليه الكلامُ كأنَّه قيل : فماذا يكونُ عند دُعائِهم المذكورِ فقيل يُقال لهم ذلك إقناطاً مَّما علَّقوا به أطماعَهم من الهلاك وتنبيهاً على أنَّ عذابهم الملجيءَ لهم إلى استدعاء الهلاكِ بالمَّرة أبديٌّ لا خلاصَ لهم منه أيْ لا تقتصِرُوا على دُعاء ثبورٍ واحدٍ ﴿ وادعوا ثُبُوراً كَثِيراً ﴾ أي بحسب كثرة الدُّعاء المتعلّق به لا بحسب كثرته في نفسِه فإنَّ ما يدعونَه ثبورٌ واحدٌ في حدّ ذاته لكنه كلَّما تعلَّق به دعاءٌ من تلك الأدعية الكثيرةِ صارَ كأنَّه ثبورٌ مغايرٌ لما تعلَّق به دعاءٌ آخرُ منها

وتحقيقُه لا تدعُوه دُعاءً واحداً وادعُوه أدعيةً كثيرةً فإنَّ ما أنتُم فيه من العذابِ لغايةِ شدَّتِه وطولِ مُدَّتِه مستوجبٌ لتكريرِ الدُّعاءِ في كلِّ آنٍ وهذا أدلُّ على فظاعةِ العذابِ وهوله جعل تعدد الدُّعاءِ وتجدده لتعدد العذاب بتعدد أنواعه وألوانِه أو لتعدُّدِه بتجدُّدِ الجلودِ كما لا يَخْفى .

(36/558)

وأمَّا ما قيل : مِن أنَّ المعنى إنَّكم وقعتُم فيما ليس ثبورُكم فيه واحداً إنَّما هو ثبورٌ كثيرٌ ، إمَّا لأنَّ العذابَ أنواعٌ وألوانٌ كلُّ نوعٍ منها ثبورٌ لشدَّتِه وفظاعتِه أو لأنَّهم كلَّما نضجتْ جلودُهم بُدِّلوا غيرَها فلا غاية لهلاكِهم فلا يلائم المقامَ كيف لا وهُم إنَّما يدعُون هَلاكاً ينهي عذابَهم ويُنجيهِم منه فلا بُدَّ أنْ يكونَ الجوابُ إقناطاً لهم من ذلك ببيانِ استحالتِه ودوام ما يوجبُ استدعاءَه من العذاب الشَّديدِ ، وتقييدُ النَّهي والأمر باليوم لمزيد التَّهويل والتَّفظيعِ والتَّنبيهِ على أنَّه ليس كسائر الأيَّامِ المعهُودةِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 6 صـ ﴾

(37/558)

وقال الآلوسى :

﴿ تَبَارَكَ الذى إِن شَاء جَعَلَ لَكَ خَيْراً مّن ذلك جنات تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأنهار وَيَجْعَل لَّكَ قُصُوراً ﴾

أي تكاثر خير الذي إن شاء وهب لك في الدنيا شيئاً خيراً لك مما اقترحوه وهو أن يجعل لك مثل ما وعدك في الآخرة من الجنات والقصور كذا في "الكشاف" ، وعن مجاهد إن شاء جعل لك جنات في الآخرة وقصوراً في الدنيا ولا يخفى ما فيه ، وقيل : المراد إن شاء جعل ذلك في الآخرة ، ودخلت ﴿ إن ﴾ على فعل المشيئة تنبيهاً على أنه لا ينال ذلك إلا برحمته تعالى وأنه معلق على محض مشيئته سبحانه وليس لأحد من العباد والعباد على الله عز وجل حق لا في الدنيا ولا في الآخرة ، والأول أبلغ في تبكيت الكفار والرد عليهم ، ولا يرد كما زعم ابن عطية قوله تعالى : ﴿ بَلْ كَذَّبُواْ بالساعة ﴾ [الفرقان : 11] كما ستعلمه إن شاء الله تعالى ، والظاهر أن الإشارة إلى ما اقترحوه من الكنز والجنة وخيرية ما ذكر من الجنة لما فيه من تعدد الجنة وجريان الأنهار والمساكن الرفيعة في تلك الجنان بأن يكون في كل منها مسكن أو في كل مساكن ومن الكنز لما أنه مطلوب لذاته بالنسبة إليه وهو إنما يطلب لتحصيل مثل ذلك وهو أيضاً أظهر في الأبهة وأملأ لعيون الناس من الكنز ، وعدم التعرض لجواب الاقتراح الأول لظهور منافاته للحكمة التشريعية وربما يعلم من كثير من الآيات كذا قيل .

وفي إرشاد العقل السليم أن الإشارة إلى ما اقترحوه من أن يكون له صلى الله عليه وسلم جنة يأكل منها ﴿ وجنات ﴾ بدل من ﴿ خَيْرًا ﴾ محقق لخيريته مما قالو لأن ذلك كان مطلقاً عن قيد التعدد وجريان الأنهار ، وتعلق ذلك بمشيئته تعالى للإيذان بأن عدم الجعل لعدم المشيئة المبنية على الحكم والمصالح ، وعدم التعرض لجواب الاقتراحين الأولين للتنبيه على خروجهما عن دائرة العقل واستغنائهما عن الجواب لظهور بطلانهما ومنافاتهما للحكمة التشريعية وإنما الذي له وجه في الجملة هو الاقتراح الأخير فإنه غير مناف للحكمة بالكلية فإن بعض الأنبياء عليهم السلام قد أوتوا في الدنيا مع النبوة ملكاً عظيماً انتهى ، وهذ الذي ذكره في الإشارة جعله الإمام الرازي قول ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ، وما ذكر أولاً استظهره أبو حيان وحكاه عن مجاهد ، وحكى عن ابن عباس أنها إشارة إلى ما عيروا به من أكل الطعام والمشي في الأسواق وقال : إنه بعيد ، وحكاه الإمام عن عكرمة وكأني بك تختار ما اختاره صاحب الإرشاد ، والظاهر أن ﴿ يَجْعَلْ ﴾ مجزوم فيكون معطوفاً على محل الجزاء الذي هو جعل وهو جزاء أيضاً وقد جيء به جملة استقبالية على الأصل في الجزاء ، فقد ذكر أهل المعاني أن الأصل في جملتي إن الشرطية أن تكونا فعليتين

استقباليتين لفظاً كما أنهما مستقبلتان معنى ، والعدول عن ذلك في اللفظ لا يكون إلا لنكتة .

(39/558)

وكأن التعبير على هذا بالجملتين الماضويتين لفظاً في ﴿ إِن شَاءَ جَعَلَ ﴾ الخ لزيادة تبكيت الكفار فيما اقترحوا من جنسه ، ولما لم يقترحوا ما هو جنس جعل القصور لم يسلك فيه ذلك المسلك فتدبر ، وقيل : كان الظاهر نعد التعبير أولاً في الجزاء بالماضي أن يعبر به هنا أيضاً لكنه عدل إلى المضارع لأن جعل القصور في الجنان مستقبل بالنسبة إلى جعل الجنان ، ثم أن هذا العطف يقتضي عدم دخول القصور في الخير المبدل منه قوله سبحانه : ﴿ جنات ﴾ وكان ما تقدم عن "الكشاف" بيان لحاصل المعنى بمعونة السياق ، وجوز أن يكون مرفوعاً أدغمت لامه في لام ﴿ لَكَ ﴾ لكن إدغام المثلين إذا تحرك أولهما إنما هو مذهب أبي عمرو ، والذي قرأ بالتسكين من السبعة هو وحمزة .

والكسائي .

ونافع .

وفي رواية محبوب عنه أنه قرأ بالرفع بلا إدغام وهي قراءة ابن عامر .

وابن كثير .

ومجاهد .

وحميد .

وأبي بكر ، والعطف على هذه القراءة واحتمال الإدغام عند ابن عطية على المعنى في ﴿ جَعَلَ ﴾ لأن جواب الشرط موضع استئناف ألا يرى أن الجملة من المبتدأ والخبر قد تقع موقع جواب الشرط .

وقال الزمخشري : هو معطوف على ﴿ جَعَلَ ﴾ لأن الشرط إذا كان ماضياً جاز في جوابه الجزم والرفع كقول زهير في مدح هرم بن سنان .

وإن أتاه ليل يوم مسغبة . . .

يقول لا غائب مالي ولا حرم

ومذهب سيبويه أن الجواب في مثل ذلك محذوف وأن المضارع المرفوع على نية التقديم ، وذهب الكوفيون ، والمبرد إلى أنه هو الجواب وأنه على حذف الفاء .

والتركيب عند الجمهور فصيح سائغ في النثر كالشعر ، وحكى أبو حيان عن بعض أصحابه أنه لا يجوز إلا في الضرورة إذ لم يجيء إلا في الشعر ، وتمام الكلام في تحقيق المذاهب في محله ، وقال الحوفي .

وأبو البقاء : الرفع على الاستئناف قيل وهو استئناف نحوي ، والكلام وعد له صلى الله عليه وسلم بجعل تلك القصور في الآخرة ولذا عدل عن الماضي إلى المضارع الدال على الاستقبال ، وقيل : هو استئناف بياني كان قائلاً يقول : كيف الحال في الآخرة ؟ فقيل : يجعل لك فيها قصوراً ، وجعل بعضهم على الاستئناف هذا الجعل في الدنيا أيضاً على معنى إن شاء جعل لك في الدنيا جنات ويجعل لك في تلك الجنات قصوراً إن تحققت الشرطية وهو كما ترى ، وقيل : الرفع بالعطف على ﴿ تَجْرِى ﴾ صفة بتقدير ويجعل فيها أي الجنات ، وليس بشيء ، وقرأ عبيد الله بن موسى .

وطلحة بن سليمان ﴿ وَيَجْعَلَ ﴾ بالنصب على إضمار أن ، ووجه على ما نقل عن السيرافي أن الشرط لما كان غير مجزوم أشبه الاستفهام ، وقيل : لما كان غير واقع حال المشارطة أشبه النفي ، وقد ذكر النصب بعده سيبويه ، وقال إنه ضعيف ، وقيل : الفعل مرفوع وفتح لامه اتباعاً للام ﴿ لَكَ ﴾ نظير ما قيل في قوله :

لم يمنع الشرب منها غير أن نطقت . . .

حمامة في غصون ذات أوقال

من أنه فتح راء غير اتباعاً لهمزة أن وهو أحد وجهين في البيت ، ونظير الآية في هذه القراآت قول النابغة :

فإن يهلك أبو قابوس يهلك . . .

ربيع الناس والشهر الحرام

ونأخذ بعده بذناب عيش . . .

أجب الظهر ليس له سنام

فإنه يروى في نأخذ الجزم والرفع والنصب .

﴿ بَلْ كَذَّبُواْ بالساعة ﴾ انتقال إلى حكاية نوع آخر من أباطيلهم متعلق بأمر المعاد وما قبل كان متعلقاً بأمر التوحيد وأمر النبوة ولا يضر في ذلك العود إلى ما يتعلق بالكلام السابق ، واختلاف أساليب الحكاية لاختلاف المحكي ، وما ألطف تصدير حكاية ما يتعلق بالآخرة ببل الانتقالية .

(41/558)

وقوله تعالى : ﴿ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بالساعة سَعِيراً ﴾ الخ لبيان ما لهم مفي الآخرة بسبب أي هيأنا لهم ناراً عظيمة شديدة الاشتعال شأنها كيت وكيت بسبب تكذيبهم بها على ما يشعر به وضع الموصول موضع ضميرهم أو لكل من كذب بها كائناً من كان وهم داخلون في ذلك دخولاً أولياً ، ووضع الساعة موضع ضميرها للمبالغة في التشنيع ، وهذا

الارعتداد وإن كان ليس بسبب تكذيبهم بها خاصة بل يشاركه في السببية له ارتكابهم الاباطيل في أمر التوحيد وأمر النبوة إلا أنه لما كانت الساعة نفسها هي العلة القريبة لدخولهم السعير أشير بما ذكر إلى سببية التكذيب بها لدخولها ولم يتعرض للإشارة إلى سببية شيء آخر ؛ وقيل إن من كذب بالساعة صار كالإسم لأولئك المشركين والمكذبين برسول الله صلى الله عليه وسلم والمكذبين بالساعة أي الجامعين للأوصاف الثلاثة لأن التكذيب بها أخص صفاتهم القبيحة وأكثر دوراناً على ألسنتهم إذ من الكفار من يشرك ويكذب برسول الله عليه الصلاة والسلام ولا يكذب بالساعة .

فالمراد من يكذب بالساعة أولئك الصنف من الكفرة وهو كما ترى .

وقيل : إن قوله تعالى : ﴿ بَلْ كَذَّبُواْ بالساعة ﴾ عطف على قوله تعالى : ﴿ قَالُواْ مالِ هذَا الرَّسُولِ ﴾ [الفرقان : 7] الخ واضراب عنه إلى ما هو أعجب منه على معنى أن ذلك تكذيب للرسول صلى الله عليه وسلم وهذا تكذيب لله سبحانه .

(42/558)

وتعالى ففي "صحيح البخاري" عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " قال الله تعالى كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك إلى قوله تعالى فأما تكذيبه إياي فزعم أني لا أقدر أن أعيده كما كان

" وظاهره أن أعجبية التكذيب بالساعة لأنه تكذيب لله عز وجل ، وقال بعضهم : إن الأعجبية لأنهم أنكروا قدرة الله تعالى على الإعادة مع ما شاهدوه ففي الأنفس والآفاق وما ارتكز في أوهامهم من أن الإعادة أهون من الابداء وليس ذلك لأنه تكذيب الله عز وجل فإنهم لم يسمعوا أمر الساعة إلا من النبي صلى الله عليه وسلم فهو تكذيب له عليه الصلاة والسلام فيه ، وأنت تعلم أن في الحديث إشارة إلى ما ارتضاه .

وقيل : اضراب عن ذاك على معنى أتوا بأعجب منه حيث كذبوا بالساعة وأنكروها والحال أنا قد اعتدنا لمن كذب بها سعيراً فإن جراءتهم على التكذيب بها وعدم خوفهم مما أعد لمن كذب بها من أنواع العذاب أعجب من القول السابق .

وتعقب بأنه لا نسلم كون الجراءة على التكذيب بالساعة أعجب من الجراءة على القول السابق بعد ظهور المعجزة ولا نسلم أن انضمام عدم الخوف مما يترتب عليه إذا كان ذلك الترتب في الساعة المكذب بها يفيد شيئاً وفيه تأمل ، وقيل : هو إضراب عن ذلك على معنى أتوا باعجب منه حيث كذبوا بالساعة التي أخبر بها جميع الأنبياء عليهم السلام فالجراءة على التكذيب بها جراءة على التكذيب بهم والجراءة على التكذيب بهم أعجب من الجراءة على القول السابق .

(43/558)

وتعقب بأن مرادهم من القول السابق نفي نبوته عليه الصلاة والسلام وتكذيبه وحاشاه ثم حاشاه من الكذب في دعواه إياها لعدم مخالفة حاله صلى الله عليه وسلم حالهم واتصافه بما زعموا منافاته للرسالة وذلك موجود ومتحقق في جميع الأنبياء عليهم السلام ، فتكذيبه صلى الله عليه وسلم لذلك تكذيب لهم أيضاً فلا يكون التكذيب بالساعة على ما ذكر أعجب من تكذيب النبي صلى الله عليه وسلم لاشتراك التكذيبين في كونهما في حكم تكذيب الكل ، وقيل : هو متصل بقوله تعالى : ﴿ تَبَارَكَ الذى إِن شَاء ﴾ [الفرقان : 10] الخ الواقع جواباً لهم والمنبىء عن الوعد بالجنات والقصور في الآخرة مسوق لبيان أن ذلك لا يجدي نفعاً على طريقة قول من قال

: عوجوا لنعم فحيوا دمنة الدار . . .

ماذا تحيون من نؤى وأحجار

والمعنى أنهم لا يؤمنون بالساعة فكيف يقتنعون بهذا الجواب وكيف يصدقون بتعجيل مثل ما وعدك في الآخرة ، وقيل : إضراب عن الجواب إلى بيان العلة الداعية لهم إلى التكذيب ، والمعنى بل كذبوا بالساعة فقصرت أنظارهم على الحظوظ الدنيوية وظنوا أن الكرامة ليست إلا بالمال وجعلوا خلو يدك عنه ذريعة إلى تكذيبك

﴿ إِذَا رَأَتْهُمْ ﴾ إلى آخره صفة للسعير والتأنيث باعتبار النار ، وقيل لأنه علم لجهنم كما

روي عن الحسن .

وفيه أنه لو كان كذلك لامتنع دخول أل عليه ولمنع من الصرف للتأنيث والعلمية .

وأجيب بأن دخول أل للمح الصفة وهي تدخل الاعلام لذلك كالحسن .

والعباس وبأنه صرف للتناسب ورعاية الفاصلة .

(44/558)

أو لتأويله بالمكان وتأنيثه هنا للتفنن ، وإسناد الرؤية إليها حقيقة على ما هو الظاهر وكذا نسبة التغيظ والزفير فيما بعد إذ لا امتناع في أن يخلق الله تعالى النار حية مغتاظة زافرة على الكفار فلا حاجة إلى تأويل الظواهر الدالة على أن لها إدراكاً كهذه الآية ، وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امتلات وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾ [ق : 30] وقوله صلى الله عليه وسلم كما في "صحيح البخاري" : " شكت النار إلى ربها فقالت : رب أكل بعضي بعضاً فأذن لها بنفسين نفس في الشتاء ونفس في الصيف " إلى غير ذلك ، وإذا صح ما أخرجه الطبراني .

وابن مردويه من طريق مكحول عن أبي أمامة قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من بين عيني جهنم قالوا : يا رسول الله هل لجهنم من

عين ؟ قال : نعم أم مسعتم الله تعالى يقول : ﴿ إِذَا رَأَتْهُمْ مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ فهل تراهم إلا بعينين " كان ما قلناه هو الصحيح .

وإسنادها إليها لا إليهم للإيذان بأن التغيظ والزفير منها لهيجان غضبها عليهم عند رؤيتها إياهم ﴿ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ هو أقصى ما يمكن أن يرى منه ، وروي أنه هنا مسيرة خمسمائة عام .

وأخرج آدم بن أبي إياس في تفسيره عن ابن عباس أنه مسيرة مائة عام وحكى ذلك عن السدى .

والكلبي .

وروي أيضاً عن كعب ، وقيل : مسيرة سنة وحكاه الطبرسي عن الإمام أبي عبد الله رضي الله تعالى عنه ، ونسبه في إرشاد العقل السليم إلى السدى .

والكلبي ﴿ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظاً ﴾ أي صوت تغيظ ليصح تعلق السماع به .

(45/558)

وفي مفردات الراغب الغيظ أشد الغضب والتغيظ هو إظهار الغيظ وقد يكون ذلك مع صوت مسموع كما في هذه الآية ، وقيل : أريد بالسماع مطلق الإدراك كأنه قيل : أدركوا لها

تغيظاً ﴿ وَزَفِيراً ﴾ هو إخراج النفس بعد مدة على ما في القاموس ، وقال الراغب : هو ترديد النفس حتى تنتفخ الضلوع منه وشاع استعماله في نس صوت ذلك النس ، ولا شبهة في أنه مما يتعلق به السماء ولذا استشكلوا تعلق السماع بالتغيظ دون الزفير فأولوا لذلك بما سمعت ، وقال بعضهم : إن ما ذكر من قبيل قوله

: ورأيت زوجك قد غدا . . .

متقلداً سيفاً ورمحاً

وهو بتقدير سمعوا لها وأدركوا تغيظاً وزفيراً ويعاد كل إلى ما يناسبه .

ومن الناس من قال : الكلام خارج مخرج المبالغة بجعل التغيظ مع أنه ليس من المسموعات مسموعاً ، والتنوين فيه وفي ﴿ زفيراً ﴾ للتفخيم .

وقد جاء في الآثار ما يدل على شدة زفيرها أعاذنا الله تعالى منها ، ففي خبر أخرجه ابن جرير .

وابن أبي حاتم بسند صحيح عن ابن عباس أنها تزفر زفرة لا يبقى أحد إلا خاف .

وأخرج ابن المنذر .

وابن جرير .

وغيرهما عن عبيد بن عمير أنه قال في قوله تعالى : ﴿ بَعِيدٍ سَمِعُواْ لَهَا ﴾ الخ : إن جهنم

لتزفر زفرة لا يبقى ملك مقرب ولا نبي مرسل إلا ترعد فرائصه حتى إن إبراهيم عليه السلام ليجثو على ركبتيه ويقول : يا رب لا أسألك اليوم إلا نفسي .

(46/558)

وأخرج أبو نعيم عن كعب قال : إذا كان يوم القيامة جمع الله تعالى الأولين والآخرين في صعيد واحد فنزلت الملائكة صفوفاً فيقول الله تعالى لجبريل عليه السلام : ائت بجهنم فيأتي بها تقاد بسبعين ألف زمام حتى إذا كانت من الخلائق على قدر مائة عام زفرت زفرة طارت لها أفئدة الخلائق ثم زفرت ثانية فلا يبقى ملك مقرب ولا نبي مرسل إلا جثا لركبتيه ثم تزفر الثالثة فتبلغ القلوب الحناجر وتذهل العقول فيفزع كل امرىء إلى عمله حتى إن إبراهيم عليه السلام يقول : بخلتي لا أسألك إلا نفسي ويقول موسى عليه السلام : بمناجاتي لا أسألك إلا نفسي ويقول عيسى عليه السلام : بما أكرمتني لا أسألك إلا نفسي لا أسألك مريم التي ولدتني ومحمد صلى الله عليه وسلم يقول : أمتي أمتي لا أسألك اليوم نفسي فيجيبه الجليل جل جلاله إن أوليائي من أمتك لا خوف عليهم ولا هم هم يحزنون فوعزتي لأقرن عينك ثم تقف الملائكة عليهم السلام بين يدي الله تعالى ينتظرون ما يؤمرون وهذه الأخبار ظاهرة في أن النار هي التي تزفر وأن الزفير على حقيقته .

وزعم بعضهم أن زفيرها صوت لهيبها واشتعالها ، وقيل : إن كلا من الرؤية والتغيظ والزفير لزبانيتها ونسبته إليها على حذف المضاف ونقل ذلك عن الجبائي ، وقيل : إن قوله تعالى : ﴿ رَأَتْهُمْ ﴾ من قوله صلى الله عليه وسلم " إن المؤمن والكافر لا تتراءى نارهما " وقولهم : دورهم تتراءى وتتناظر كان بعضها يرى بعضاً على سبيل الاستعارة بالكناية والمجاز المرسل ، وجوز أن يكون من باب التمثيل ، وأياً ما كان فالمراد إذا كانت بمرأى منهم ، وقوله سبحانه : ﴿ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظاً ﴾ على تشبيه صوت غليانها بصوت المغتاظ وزفيره وفيه استعارة تصريحية أو مكنية وجوز أن تكون تمثيلية ، وقد ذكر هذا التأويل الزمخشري مقدماً له ؛ وذكر بعض الأئمة أن هذا مذهب المعتزلة لأنهم جعلوا البينة شرطاً في الحياة .

(47/558)

وفي الكشف الأشبه أن ذلك ليس لأن البينة شرط ومن أين العلم بأن بنية نار الآخرة بحيث لا تستعد للحياة بل لأنه لا بد من ارتكاب خلاف الظاهر من جعل الشيء المعروف جماديته حيا ناطقا فكان خبراً على خلاف المعتاد أو الحمل على المجاز التمثيلي الشائع في كلامهم لا سيما في كلام الله تعالى ورسله عليهم السلام وإذ لاح الوجه فكن الحاكم في ترك

الظاهر إلى هذا أو ذاك ، وفتح هذا الباب لا يجر إلى مذهب الفلاسفة كما توهم صاحب الانتصاف ولا يخالف تعبدنا بالظواهر فإن ما يدعونه أيضاً ليس بظاهر انتهى ، وأنت تعلم بعد الاغماض عن المناقشة فيما ذكر أن الحمل على الحقيقة هنا أبلغ في التهويل ولعله يهون أمر الخبر على خلاف المعتاد ؛ وهذا إن لم يصح الخبر السابق أما إذا صح فلا ينبغي العدول عما يقتضيه وليس لأحد قول مع قوله صلى الله عليه وسلم فإنه الأعلم بظاهر الكتاب وخافيه .

﴿ وَإِذَآ أُلْقُواْ مِنْهَا مَكَاناً ﴾ أي في مكان فهو منصوب على الظرفية و ﴿ مِنْهَا ﴾ حال منه لأنه في الأصل صفة ، وجوز تعلقه بألقوا .

وقوله تعالى : ﴿ ضَيّقاً ﴾ صفة لمكانا مقيدة لزيادة شدة الكرب مع الضيق كما أن الروح مع السعة وهو السر في وصف الجنة بأن عرضها السموات والأرض .

وأخرج ابن أبي حاتم عن يحيى بن أسيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن قوله تعالى : ﴿ وَإِذَآ أُلْقُواْ ﴾ الخ فقال : والذي نفسي بيده إنهم ليستكرهون في النار كما يستكره الوتد في الحائط ، وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنها تضيق عليهم كما يضيق الزج في الرمح .

وقرأ الكلبي : الأسفلون يرفعهم اللهب والأعلون يحطهم الداخلون فيزدحمون ، وقرأ ابن كثير ﴿ ضَيّقاً ﴾ بسكون الياء .

﴿ مُقْرِنِينَ ﴾ حال من ضمير ﴿ أُلْقَوْاْ ﴾ أي إذا ألقوا منها مكاناً ضيقاً حال كونهم مقرنين قد قرنت أيديهم إلى أعناقهم بالجوامع ، وقيل : مقرنين مع الشياطين في السلاسل كل كافر مع شيطانه وفي أرجلهم الأصفاد ، وحكى عن الجبائي ، وقرأ أبو شيبة صاحب معاذ بن جبل ﴿ مقرنون ﴾ بالرفع ونسبها ابن خالويه إلى معاذ ، ووجهها على ما في البحر كونه بدلاً من ضمير ﴿ قَالَ أُلْقَوْاْ ﴾ بدل نكرة من معرفة ﴿ دَعَوْاْ هُنَالِكَ ﴾ أي في ذلك المكان الهائل ﴿ ثُبُوراً ﴾ أي هلاكاً كما قال الضحاك .

وقتادة وهو مفعول ﴿ دَّعَوَا ﴾ أي نادوا ذلك فقالوا : يا ثبوراه على معنى أحضر فهذا وقتك ، وجعل غير واحد النداء بمعنى التمني فيتمنون الهلاك ليسلموا مما هو أشد منه كما قيل أشد من الموت ما يتمنى معه الموت .

وجوز أبو البقاء نصب ﴿ ثُبُوراً ﴾ على المصدرية لدعوا على معنى دعوا دعاء ، وقيل : على المصدرية لفعل محذوف ومفعول ﴿ دَّعَوَا ﴾ مقدر أي دعوا من لا يجيبهم قائلين ثبرنا ثبوراً وكلا القولين كما ترى ، ولا اختصاص لدعاء الثبور بكفرة الإنس فإنه يكون للشيطان أيضاً .

أخرج أحمد .

وابن أبي شيبة .

وعبد بن حميد .

والبزار : وابن املنذر .

وابن أبي حاتم .

وابن مردويه .

والبيهقي في البعث بسند صحيح عن أنس قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن أول من يكسي حلة من النار إبليس فيضعها على حاجبيه ويسحبها من خلفه وذريته من بعده وهو ينادي يا ثبوراه ويقولون يا ثبورهم حتى يقف على النار : فيقول يا ثبوراه ويقولون يا ثبورهم " الحديث ، وفي بعض الروايات أن أول من يقول ذلك إبليس ثم يتبعه أتباعه ، وظاهره شمول الاتباع كفرة الأنس والجن ، ولا يتوهم اختصاص ذلك ببعض كفرة الإنس بناء على ما قيل : إن الآية نزلت في أبي جهل .

وأصحابه لما لا يخفى

(49/558)

﴿ لاَّ تَدْعُواْ اليوم ثُبُوراً واحدا ﴾ على تقدير قول إما منصوب على أنه حال من فاعل ﴿ دَّعَوَا ﴾ [الفرقان : 13] أي دعوا مقولاً لهم ذلك حقيقة كما هو الظاهر بأن تخاطبهم الملائكة لتنبيههم على خلود عذابهم وأنهم لا يجابون إلى ما يدعونه أولا ينالون ما يتمنونه من الهلاك المنجى أو تمثيلاً لهم وتصويراً لحالهم بحال من يقال له ذلك من غير أن يكون هناك قول وخطاب كما قيل أي دعوه حال كونهم أحقاء بأن يقال لهم ذلك ، وإما لا محل له من الإعراب على أنه معطوف على ما قبله أي إذا ألقوا منها مكاناً ضيقاً دعوا ثبوراً فيقال لهم : لا تدعوا الخ ، أو على أنه مستأنف وقع جواباً عن سؤال مقدر ينسحب عليه الكلام كأنه قيل : فماذا يكون عند دعائهم المذكور ؟ فقيل : يقال لهم ذلك ، والمراد به إقناطهم عما علقوا به أطماعهم من الهلاك وتنبيههم على أن عذابهم الملجىء لهم إلى ذلك أبدى لاخلاص لهم منه على أبلغ وجه حيث أشار إلى أن المخلص مما هو فيه من العذاب عادة غير مخلص وما يخلص غير ممكن فكأنه قيل : لا تدعوا اليوم هلاكاً واحداً فا لا يخلصكم ﴿ وادعوا ثُبُوراً ﴾ وهلاكاً ﴿ كَثِيراً ﴾ لا غاية لكثرته لتخلصوا به وأنى بالهلاك الكثير

.

ومن لم يمت بالسيف مات بغيره . . .

تعددت الأسباب والموت واحد

وهذا معنى دقيق لم أعلم أن أحداً ذكره ، وقيل : وصف الثبور بالكثرة باعتبار كثرة

الألفاظ المشعرة به فكأنه قيل : لا تقولوا يا ثبوراه فقط وقولوا يا ثبوراه يا هلاكاه يا ويلاه يا لهفاه إلى غير ذلك وهو كما ترى .

(50/558)

وقال شيخ الإسلام : وصفه بذلك بحسب كثرة الدعاء المتعلق به لا بحسب كثرته في نفسه فإن ما يدعونه ثبور واحد في حد ذاته لكنه كلما تعلق به دعاء من تلك الأدعية الكثيرة صار كأنه ثبور مغاير لما تعلق به دعاء آخر ، وتحقيقه لا تدعوه دعاء واحداً وادعوه أدعية كثيرة فإن ما أنتم فيه من العذاب لغاية شدته وطول مدته مستوجب لتكرير الدعاء في كل آن ، ثم قال : وهذا أدل على فظاعة العذاب وهو له من جعل تعدد الدعاء وتجدده لتعدد العذاب بتعدد أنواعه وألوانه أو لتعدده بتجدد الجلود كما لا يخفى ، وأما ما قيل من أن المعنى إنكم وقعتم فيما ليس ثبوركم فيه واحداً إنما هو ثبور كثيراما لأن العذاب أنواع وألوان كل نوع منها ثبور لشدته وفظاعته أو لأنهم كلما نضجت جلودهم بدلوا جلوداً غيرها فلا غاية لهلاكهم فلا يلائم المقام كيف وهم إنما يدعون هلاكاً ينهى عذابهم وينجيهم منه فلا بد أن يكون الجواب إقناطاً لهم عن ذلك ببيان استحالته ودوام ما يوجب استدعاءه من العذاب الشديد انتهى ، وتعقب القول بأن وصف الثبور بالكثرة بحسب

كثرة الدعاء بأنه لا يناسب النظم وكذا كونه بحسب كثرة الألفاظ المشعرة بالثبور لأنه كان الظاهر أن يقال دعاء كثيراً ، وأما قوله : وأما ما قيل الخ فهو لا يخلو عن بحث فتأمل .

وحكى علي بن عيسى ما ثبرك عن هذا الأمر أي ما صرفك عنه ، وجوز أن يكون الثبور في الآية من ذلك كأنهم ندموا على ما فعلوا فقالوا : واصرفاه عن طاعة الله تعالى كما يقال : واندماه فأجيبوا بما أجيبوا ، وتقييد النهي والأمر باليوم لمزيد التهويل والتفظيع والتنبيه على أنه ليس كسائر الأيام المعهودة التي يخلص من عذابها ثبور واحد ، ويجوز أن يكون ذلك لتذكيرهم بالساعة التي أصابهم ما أصابهم بسبب التكذيب بها ففيه زيادة إيلام لهم ، وقرأ عمر بن محمد ﴿ ثُبُوراً ﴾ بفتح الثاء في ثلاثتها وفهول بفتح الفاء في المصادر قليل نحو القفول . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 18 صـ ﴾

(51/558)

وقال القاسمى :

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْراً مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُوراً ﴾

أي : إن شاء جعل لك خيراً مما قالوا . وهو أن يجعل لك مثل ما وعدك في الآخرة من

الجنات والقصور . ولكن قضت حكمته ذلك ليكون الرضوخ للحق لا للمال . وليصدع بأن الأمر مبنيّ على النظر والاستدلال ، لا ما يلهي المشاعر والخيال . مما يتطرق إلى الشغب فيه الجدال ، فسبحان الحكيم المتعال . وقوله تعالى .

﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ ﴾ إضراب انتقاليّ عن توبيخهم بحكاية جنايتهم السابقة ، وانتقال منه إلى توبيخهم بحكاية جنايتهم الأخرى ، للتخلص إلى بيان ما لهم في الآخرة بسببها ، من فنون العذاب ، بقوله : ﴿ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيراً ﴾ أي : ناراً شديدة الاستعار ، أي : التوقد والالتهاب .

وقيل : هذا الإضراب عطف على ما حكى عنهم وهو : ﴿ وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ ﴾ على معنى : بل أتوا بأعجب من ذلك كله ، وهو تكذيبهم بالساعة . والحال أنا قد أعتدنا لكل من كذب بها سعيراً . فإن جراءتهم على التكذيب بها ، وعدم خوفهم مما أعد لمن كذب بها ، أعجب من القول السابق .

ويجوز أن يتصل بما يليه ، كأنه قيل : بل كذبوا بالساعة ، فكيف يلتفتون إلى هذا الجواب ؟ وكيف يصدقون بتعجيل ما وعدك الله في الآخرة وهم لا يؤمنون بها ؟ . ثم وصف تعالى السعير بقوله :

﴿ إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً ﴾ أي : إذا كانت بمرأى منهم : أي : قريبة منهم) ونسبة الرؤية إليها لا إليهم ، للإيذان بأن التغيظ والزفير منها ، لهيجان غضبها عليهم عند رؤيتها إياهم ، حقيقة أو تمثيلاً . ومن في قوله : ﴿ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ إشعار بأن بعد ما بينها وبينهم من المسافة ، حين رأتهم ، خارج عن حدود البعد المعتاد في المسافات المعهودة . فيه مزيد تهويل لأمرها . أفاده أبو السعود . والتغيّظ : إظهار الغيظ وهو أشد الغضب ، وقد يكون مع صوت كما هنا . شبه صوت غليانها بصوت المغتاظ وزفيره ، وهو صوت يسمع من جوفه ، تصريحاً أو مكنياً أو تمثيلاً .

﴿ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَاناً ضَيِّقاً مُقَرَّنِينَ ﴾ أي : قرنت أيديهم إلى أعناقهم بالسلاسل : ﴿ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُوراً ﴾ أي : هلاكاً . أي : نادوه نداء المتمني الهلاك . ليسلموا مما هو أشد منه . كما قيل : أشد من الموت ما يُتمنى معه الموت . فيقال لهم : ﴿ لا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُوراً وَاحِداً وَادْعُوا ثُبُوراً كَثِيراً ﴾ لكثرة أنواعه المتوالية . فإن عذاب جهنم ألوان وأفانين . أو كثرته باعتبار تجدد أفراده وإن كان متحداً . أو كثرته كناية عن دوامه . لأن الكثير شأنه ذلك كما قيل في ضده : ﴿ وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ لا مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ ﴾ [الواقعة : 32 – 33] ، وقيل : وصف الثبور بالكثرة ، لكثرة الدعاء أو المدعوّ به . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ محاسن التأويل حـ 12 صـ 436. 438 ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾

ابتدئت السورة بتعظيم الله وثنائه على أن أنزل الفرقان على رسوله ، وأعقب ذلك بما تلقى به المشركون هذه المزية من الجحود والإنكار الناشىء عن تمسكهم بما اتخذوه من آلهة من صفاتهم ما ينافي الإلهية ، ثم طعنوا في القرآن والذي جاء به بما هو كفران للنعمة ومن جاء بها .

فلما أريد الإعراض عن باطلهم والإقبال على خطاب الرسول بتثبيته وتثبيت المؤمنين أعيد اللفظ الذي ابتدئت به السورة على طريقة وصل الكلام بقوله : ﴿ تبارك الذي إن شاء جعل لك خيراً من ذلك ﴾ .

وهذه الجملة استئناف واقع موقع الجواب عن قولهم ﴿ أو تكون له جنة ﴾ [الفرقان : 8] الخ ، أي إن شاء جعل لك خيراً من الذي اقترحوه ، أي أفضل منه ، أي إن شاء عجله لك في الدنيا ، فالإشارة إلى المذكور من قولهم ، فيجوز أن يكون المراد بالجنات والقصور جناتٍ في الدنيا وقصوراً فيها ، أي خيراً من الذي اقترحوه دليلاً على صدقك في زعمهم

بأن تكون عدة جنات وفيها قصور .

وبهذا فسر جمهور المفسرين .

وعلى هذا التأويل تكون (إن) الشرطية واقعة موقع (لو) ، أي أنه لم يشأ ولو شاءه لفعله ولكن الحكمة اقتضت عدم البسط للرسول في هذه الدنيا ولكن المشركين لا يدركون المطالب العالية .

وقال ابن عطية : يحتمل أن يكون المراد بالجنات والقصور ليست التي في الدنيا ، أي هي جنات الخلد وقصور الجنة فيكون وعداً من الله لرسوله .

واقتران هذا الوعد بشرط المشيئة جار على ما تقتضيه العظمة الإلهية وإلا فسياق الوعد يقتضي الجزم بحصوله ، فالله شاء ذلك لا محالة ، بأن يقال : تبارك الذي جعل لك خيراً من ذلك .

فموقع ﴿ إن شاء ﴾ اعتراض .

وأصل المعنى : تبارك الذي جعل لك خيراً من ذلك جنات إلى آخره .

(54/558)

ويساعد هذا قراءة ابن كثير وابن عامر وأبي بكر عن عاصم ﴿ ويجعلُ لك قصوراً ﴾ برفع ﴿ يجعلُ ﴾ على الاستئناف دون إعمال حرف الشرط ، وقراءة الأكثر بالجزم عطفاً على فعل الشرط وفعل الشرط محقق الحصول بالقرينة ، وهذا المحمل أشد تبكيتاً للمشركين وقطعاً لمجادلتهم ، وقرينة ذلك قوله بعده : ﴿ بل كذبوا بالساعة وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا ﴾ [الفرقان : 11] ، وهو ضد ومقابل لما أعده لرسوله والمؤمنين .

والقصور : المباني العظيمة الواسعة على وجه الأرض وتقدم في قوله : ﴿ تتخذون من سهولها قصوراً ﴾ في سورة الأعراف (74) ، وقوله : ﴿ وقصر مشيد ﴾ في سورة الحج (45) .

بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا (11)

﴿ بل ﴾ للإضراب ، فيجوز أن يكون إضرابَ انتقال من ذكر ضلالهم في صفة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى ذكر ضلالهم في إنكار البعث على تأويل الجمهور قوله : ﴿ إن شاء جعل لك خيراً من ذلك ﴾ [الفرقان : 10] كما تقدم .

ويجوز أن يكون اضرابَ إبطال لما تضمنه قوله : ﴿ إن شاء جعل لك خيراً من ذلك على تأويل ابن عطية من الوعد بإيتائه ذلك في الآخرة ، أي بل هم لا يقنعون بأن حظ الرسول عند ربه ليس في متاع الدنيا الفاني الحقير ولكنه في خيرات الآخرة الخالدة غير المتناهية ، أي أن

هذا رد عليهم ومقنع لهم لو كانوا يصدّقون بالساعة ولكنهم كذبوا بها فهم متمادون على ضلالهم لا تُقنعهم الحجج .

والساعة : اسم غلب على عالم الخلود ، تسمية باسم مبدئه وهو ساعة البعث .

وإنما قصر تكذيبهم على الساعة لأنهم كذبوا بالبعث فهم بما وراءه أحرى تكذيباً .

وجملة : وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيراً ﴾ معترضة بالوعيد لهم ، وهو لعمومه يشمل المشركين المتحدث عنهم ، فهو تذييل .

ومن غرضه مقابلة ما أعد الله للمؤمنين في العاقبة بما أعده للمشركين .

(55/558)

والسعير : الالتهاب ، وهو فعيل بمعنى مفعول ، أي مسعور ، أي زيد فيها الوقود ، وهو معامل معاملة المذكر لأنه من أحوال اللهب ، وتقدم في قوله تعالى : ﴿ كلما خَبَتْ زِدْنَاهُم سعيراً ﴾ في سورة الإسراء (97) .

وقد يطلق علَماً بالغلبة على جهنم وذلك على حذف مضاف ، أي ذات سعير .

﴿ إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا (12) ﴾

تخلص من اليأس من اقتناعهم إلى وصف السعير الذي أعد لهم ، وأجري على السعير

ضمير ﴿ رأتهم ﴾ بالتأنيث لتأويل السعير بجهنم إذ هو علم عليها بالغلبة كما تقدم .

وإسناد الرؤية إلى النار استعارة والمعنى : إذا سيقوا إليها فكانوا من النار بمكان ما يرى الرائي من وصل إليه سمعوا لها تغيظاً وزفيراً من مكان بعيد ، ويجوز أن يكون معنى : ﴿ رأتهم ﴾ رآهم ملائكتها أطلقوا منافذها فانطلقت ألسنتها بأصوات اللهيب كأصوات المتغيظ وزفيره فيكون إسناد الرؤية إلى جهنم مجازاً عقلياً .

والتغيظ : شدة الغيظ .

والغيظ : الغضب الشديد ، وتقدم عند قوله : ﴿ عضوا عليكم الأنامل من الغيظ ﴾ في سورة آل عمران (119) .

فصيغة التفعل هنا الموضوعة في الأصل لتكلف الفعل مستعملة مجازاً في قوته لأن المتكلف لفعل يأتي به كأشد ما يكون .

والمراد به هنا صوت المتغيظ ، بقرينة تعلقه بفعل : ﴿ سمعوا ﴾ فهو تشبيه بليغ .

والزفير : امتداد النفَس من شدة الغيظ وضيق الصدر ، أي صوتاً كالزفير فهو تشبيه بليغ أيضاً .

ويجوز أن يكون الله قد خلق لجهنم إدراكاً للمرئيات بحيث تشتد أحوالها عند انطباع المرئيات فيها فتضطرب وتفيض وتتهيأ لالتهام بعثها فتحصل منها أصوات التغيظ والزفير

فيكون إسناد الرؤية والتغيظ والزفير حقيقة ، وأمور العالم الأخرى لا تقاس على الأحوال المتعارفة في الدنيا .

(56/558)

وعلى هذين الاحتمالين يحمل ما ورد في القرآن والحديث نحو قوله تعالى : ﴿ يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد ﴾ [ق : 30] ، وقول النبي صلى الله عليه وسلم " اشتكت النار إلى ربها فقالت يا رب أكل بعضي بعضاً ، فأذن لها بنفسين نفس في الصيف ونفس في الشتاء " رواه في "الموطأ" : زاد في رواية مسلم : " فما ترون من شدة البرد فذلك من زمهريرها وما ترون من شدة الحر فهو من سَمُومها "

وجُعل إزجاؤهم إلى النار من مكان بعيد زيادة في الكناية بهم لأن بعد المكان يقتضي زيادة المشقة إلى الوصول ويقتضي طول الرعب مما سمعوا .

ووصف وصولهم إلى جهنم من مكان بعيد ووضعهم فيها بقوله : ﴿ وإذا ألقوا منها مكاناً ضيقاً مقرَّنين دعوا هنالك ثبوراً ﴾ فصيغ نظمه في صورة توصيف ضجيج أهل النار من قوله : ﴿ دعوا هنالك ثبوراً ﴾ ، وأدمج في خلال ذلك وصف داخل جهنم ووصف وضع المشركين فيها بقوله : ﴿ مكاناً ضيقاً ﴾ وقوله : ﴿ مقرنين ﴾ تفنناً في أسلوب

الكلام .

والإلقاء : الرمي .

وهو هنا كناية عن الإهانة .

وانتصب ﴿ مكاناً ﴾ على نزع الخافض ، أي في مكان ضيّق .

وقرأ الجمهور ﴿ ضيقاً ﴾ بتشديد الياء ، وقرأه ابن كثير ﴿ ضيْقاً ﴾ بسكون الياء وكلاهما للمبالغة في الوصف مثل : ميّت وميْت ، لأن الضيّق بالتشديد صيغة تمكُّن الوصف من الموصوف ، والضيْق بالسكون وصف بالمصدر .

و﴿ مقرنين ﴾ حال من ضمير ﴿ ألقوا ﴾ أي مقرَّناً بعضهم في بعض كحال الأسرى والمساجين أن يُقرن عدد منهم في وثاق واحد ، كما قال تعالى:

﴿ وآخرين مقرنين في الأصفاد ﴾ [ص : 38] .

والمقرَّن : المقرون ، صيغت له مادة التفعيل للإشارة إلى شدة القرن .

(57/558)

والدعاء : النداء بأعلى الصوت ، والثبور : الهلاك ، أي نادوا : يا ثبورنا ، أو واثبوراه بصيغة الندبة ، وعلى كلا الاحتمالين فالنداء كناية عن التمني ، أي تمنوا حلول الهلاك

فنادوه كما ينادى من يُطلب حضوره ، أو ندبوه كما يندب من يتحسر على فقده ، أي تمنوا الهلاك للاستراحة من فظيع العذاب .

وجملة : ﴿ لا تدعوا اليوم ثبوراً واحداً ﴾ إلى آخرها مقولة لقول محذوف ، أي يقال لهم ، ووصف الثبور بالكثير إما لكثرة ندائه بالتكرير وهو كناية عن عدم حصول الثبور لأن انتهاء النداء يكون بحضور المنادَى ، أو هو يأس يقتضي تكرير التمني أو التحسر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 19 صـ ﴾

(58/558)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ ﴾

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أن الكفار كذبوا بالساعة أي أنكروا القيامة من أصلها لإنكارهم البعث بعد الموت والجزاء ، وأنه جل وعلا أعتد أي هيأ وأعد لمن كذب بالساعة : أي أنكر يوم القيامة سعيراً : اي ناراً شديدة الحر يعذبه بها يوم القيامة .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بالساعة سَعِيراً ﴾ يدل على أن التكذيب بالساعة كفر مستوجب لنار جهنم ، كما سترى الآيات الدالة على ذلك قريباً إن

شاء الله تعالى . وهذان الأمران المذكوران في هذه الآية الكريمة ، وهما تكذيبهم بالساعة ، ووعيد الله لمن كذب بها بالسعير جاءا موضحين في آيات أخر ، أما تكذيبهم بيوم القيامة لإنكارهم البعث ، والجزاء بعد الموت ، فقد جاء في آيات كثيرة عن طوائف الكفار كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ هؤلاء لَيَقُولُونَ إِنْ هِيَ إِلاَّ مَوْتَتُنَا الأولى وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴾ [الدخان : 3435] وقوله تعالى : ﴿ مَن يُحيِي العظام وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ [يس : 78] إلى غير ذلك من الآيات .

(59/558)

وأما كفر من كذب بيوم القيامة ووعيده بالنار ، فقد جاء في آيات كثيرة كقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وعْدَ الله حَقٌّ والساعة لاَ رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا الساعة إِن نَّظُنُّ إِلاَّ ظَنّاً وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ وَقِيلَ اليوم نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هذا وَمَأْوَاكُمُ النار وَمَا لَكُمْ مِّن نَّاصِرِينَ ﴾ [الجاثية : 3234] فقوله : ﴿ وَمَأْوَاكُمُ النار ﴾ بعد قوله : ﴿ قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا الساعة ﴾ [الجاثية : 32] الآية ، يدل على أن قولهم : ﴿ مَّا نَدْرِي مَا الساعة ﴾ هو سبب كون النار مأواهم ، وقوله بعده : ﴿ ذَلِكُم بِأَنَّكُمُ اتخذتم آيَاتِ الله هُزُواً ﴾ [الجاثية : 35] لا ينافي

ذلك لأن من اتخاذهم آيات الله هزواً تكذيبهم الساعة ، وإنكارهم البعث كما لا يخفى ، وكقوله تعالى : ﴿ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ الأغلال في أَعْنَاقِهِمْ وأولئك أَصْحَابُ النار هُمْ فِيهَا خَالِدونَ ﴾ [الرعد : 5] فقد بين جلا وعلا في هذه الآية الكريمة من سورة الرعد أن إنكارهم البعث ، الذي عبروا عنه باستفهام الإنكار في قوله تعالى عنهم : ﴿ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ جامع بين أمرين .

الأول منهما : أنه عجب من العجب لكثرة البراهين القطعية الواضحة الدالة على ما أنكروه .

(60/558)

والثاني منهما : وهو محل الشاهد من الآية أن إنكارهم البعث المذكور كفر مستوجب للنار وأغلالها والخلود فيها ، وذلك في قوله تعالى مشيراً إلى الذين أنكروا البعث ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ الأغلال في أَعْنَاقِهِمْ وأولئك أَصْحَابُ النار هُمْ فِيهَا خَالِدونَ ﴾ [الرعد : 5] ومعلوم أن إنكار البعث إنكار للساعة ، وكقوله تعالى : ﴿ فَلاَ يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لاَّ يُؤْمِنُ بِهَا واتبع هَوَاهُ فتردى ﴾ [طه : 16] أي لا يصدنك من لا يؤمن بالساعة عن

الإيمان بها ، فتردى : أي تهلك لعدم إيمانك بها ، والردى الهلاك ، وهو هنا عذاب النار بسبب التكذيب بالساعة ، وقد قال تعالى :

﴿ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تردى ﴾ [الليل : 11] وقوله تعالى في آية طه هذه : ﴿ فتردى ﴾ يدل دلالة واضحة على أنه إن صده من لا يؤمن بالساعة عن التصديق بها ، أن ذلك يكون سبباً لرداه أي هلاكه بعذاب النار كما لا يخفى ، وكقوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا الذين كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَلِقَآءِ الآخرة فأولئك فِي العذاب مُحْضَرُونَ ﴾ [الروم : 16] فآية الروم هذه ، تدل على أن الذين كذبوا بلقاء الآخرة وهم الذين كذبوا بالساعة معدودون مع الذين كفروا وكذبوا بآيات الله ، وأنهم في العذاب محضرون . وهو عذاب النار . والآيات بمثل ذلك كثيرة .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿ بَلْ كَذَّبُواْ بالساعة ﴾ أظهر الأقوال فيه عندي أنه متصل بما يليه ، وأن بل فيه للإضراب الانتقالي ، وقد أوضحنا معنى السعير مع بعض الشواهد العربية في أول سورة الحج ، والعلم عند الله تعالى .

إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا (12)

(61/558)

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أن النار يوم القيامة ، إذا رأت الكفار من مكان بعيد : أي في عرصات المحشر أشتدّ غيظها على من كفر بربها ، وعلا زفيرها فسمع الكفار صوتها من شدة غيظها ، وسمعوا زفيرها .

وما ذكره جل وعلا في هذه الآية الكريمة بين بعضه في سورة الملك ، فأوضح فيها شدة غيظها من كفر بربها ، وأنهم يسمعون لها أيضاً شهيقاً مع الزفير الذي ذكره في آية الفرقان ، هذه ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ إِذَآ أُلْقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقاً وَهِيَ تَفُورُ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴾ [الملك : 78] أي يكاد بعضها ينفصل عن بعض من شدة غيظها ، على من كفر بالله تعالى .

وللعلماء أقوال في معنى الزفير والشهيق ، وأقربها ، أنهما يمثلهما معاً صوت الحمار في نهيقه ، فأوله زفير ، وآخره الذي يردده في صدره شهيق .

والأظهر أن معنى قوله تعالى : ﴿ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظاً ﴾ أي سمعوا غليانها من شدة غيظها ، ولما كان سبب الغليان التغيظ أطلقه عليه ، وذلك أسلوب عربي معروف . وقال بعض أهل العلم : ﴿ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظاً ﴾ : أي أدركوه ، والإدراك يشمل الرؤية والسمع ، وعلى هذا فالسمع مضمن معنى الإدراك ، وما ذكرنا أظهر .

وقال القرطبي : قيل المعنى إذا رأتهم جهنم سمعوا لها صوت التغيظ عليهم ، ثم ذكر في آخر

كلامه أن هذا القول هو الأصح .

مسألة

(62/558)

اعلم أن التحقيق أن النار تبصر الكفار يوم القيامة ، كما صرح الله بذلك في قوله تعالى : ﴿ إِذَا رَأَتْهُمْ مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ ورؤيتها إياهم من مكان بعيد ، تدل على بصرها كما لا يخفى ، كما أن النار تتكلم كما صرح الله به في قوله : ﴿ قَالُواْ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الحكيم العليم ﴾ [ق : 30] والأحاديث الدالة على ذلك كثيرة ، كحديث محاجة النار مع الجنة ، وكحديث اشتكائها إلى ربها ، فأذن لها في نفسين ، ونحو ذلك ، ويكفي في ذلك أن الله جل وعلا صرح في هذه الآية ، أنها تراهم وأن لها تغيظاً على الكفار ، وأنها تقول : هل من مزيد .

واعلم أن ما يزعمه كثير من المفسرين وغيرهم ، من المنتسبين للعلم من أن النار لا تبصر ، ولا تتكلم ، ولا تغتاظ . وأن ذلك كله من قبيل المجاز ، أو أن الذي يفعل ذلك خزنتها كله باطل ولا معول عليه لمخالفته نصوص الوحي الصحيحة بلا مستند ، والحق هو ما ذكرنا .

وقد أجمع من يعتد به من أهل العلم على أن النصوص من الكتاب والسنة ، لا يجوز صرفها

عن ظاهرها إلا لدليل يجب الرجوع إليه ، كما هو معلوم في محله .

وقال القرطبي في تفسير هذه الآية الكريمة : " إن القول بأن النار تراهم هو الأصح ، ثم قال لما رُوِيَ مرفوعاً أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

(63/558)

" من كَذَبَ عليَّ متعمداً فليتبوَّأ بين عيني جهنم مقعداً . " قيل يا رسول الله أو لَها عينان ؟ قال : " أو ما سمعتم الله عزَّ وجلَّ يقول : ﴿ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً ﴾ يخرج عنق من النار له عينان تبصران ولسان ينطق فيقول : وكلت بكل من جعل مع الله إلهاً آخر فهو أبصر بهم من الطير بحب السمسم فيلتقطه " وفي رواية " يخرج عنق من النار فيلتقط الكفار لقط الطائر حب السمسم " ذكره حب السمسم عن التربة ، وخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " يخرج عنق من النار يوم القيامة له عينان تبصران وأذنان تسمعان ولسان ينطق فيقول : إني وكلت بثلاث : بكل جبار عنيد وبكل من دعا مع الله إلهاً آخر وبالمصورين " وفي الباب عن أبي سعيد قال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب صحيح . انتهى محل الغرض من كلام القرطبي .

وقال صاحب الدر المنثور : وأخرج الطبراني ، وابن مردويه من طريق مكحول ، عن أبي

أمامة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقداً من بين عيني جهنم . قالوا يا رسول الله : وهل لجهنم من عين ؟ قال : نعم أما سمعتم الله يقول : إذا رأتهم من مكان بعيد . فهل تراهم إلا بعينين " وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، من طريق خالد بن دريك ، عن رجل من الصحابة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من يقل عليَّ ما لم أقل ، أو ادعى إلى غير والديه ، أو انتمى إلى غير مواليه ، فليتبوأ بين عيني جهنم مقعداً قيل : يا رسول الله وهل لها من عينين ؟ قال : نعم أما سمعتم الله يقول : ﴿ إِذَا رَأَتْهُمْ مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ إلى آخر كلامه " ، وفيه شدة هول النار ، وأنها تزفر زفرة يخاف منها جميع الخلائق .

نرجو الله جل وعلا أن يعيذنا وإخواننا المسلمين منها ، ومن كل ما قرب إليها من قول وعمل .

(64/558)

وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا (13)

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أن أهل النار إذا ألقوا : أي طرحوا في مكان ضيق من النار ، في حال كونهم مقرنين ، دعوا هنالك : أي في ذلك المكان الضيق ثبوراً ، فيقال لهم :

لا تدعوا ثبوراً واحداً وادعوا ثبوراً كثيراً ، فقوله : مكاناً منصوب على الظرف ، كما قال أبو حيان في البحر المحيط .

وما ذكره هنا من أنهم يلقون في مكان ضيق من النار ، جاء مذكوراً أيضاً في غير هذا الموضع كقوله تعالى : ﴿ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ﴾ [الهمزة : 89] وقوله تعالى : ﴿ والذين كَفَرُواْ بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ المشأمة عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ ﴾ [البلد : 1920] ومعنى مؤصدة في الموضعين بهمز ، وبغير همز : مطبقة أبوابها ، مغلقة عليهم كما أوضحناه بشواهد العربية في سورة الكهف في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بالوصيد ﴾ [الكهف : 18] ومن كان في مكان مطبق مغلق عليه ، فهو في مكان ضيق ، والعياذ بالله ، وقد ذكر أن الواحد منهم يجعل في محله من النار بشدة كما يدق الوتد في الحائط ، وعن ابن مسعود : " أن جهنم تضيق على الكافر كتضييق الزج على الرمح " . والزج بالضم : الحديدة التي في أسفل الرمح .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ مُّقَرَّنِين ﴾ : أي في الأصفاد بدليل قوله تعالى في سورة إبراهيم : ﴿ وَتَرَى المجرمين يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الأصفاد ﴾ [إبراهيم : 49] والأصفاد القيود . والأظهر أن معنى مقرنين : أن الكفار يقرن بعضهم إلى بعض في الأصفاد والسلاسل ، وقال بعض أهل العلم : كل كافر يقرن هو وشيطانه ، وقد قال تعالى ﴿ حتى إِذَا جَآءَنَا قَالَ ياليت بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ المشرقين فَبِئْسَ القرين ﴾ [الزخرف : 38] .

وهذا أظهر من قول من قال : مقرنين مكتفين ، ومن قول من قال : مقرنين : أي قرنت أيديهم إلى أعناقهم في الأغلال ، والثبور : الهلاك والويل والخسران .

وقال ابن كثير : والأظهر أن الثبور يجمع الخسار والهلاك والويل والدمار . كما قال موسى لفرعون : ﴿ وَإِنِّي لأَظُنُّكَ يافرعون مَثْبُوراً ﴾ [الإسراء : 102] أي هالكاً ، قال عبد الله بن الزبعرى السهمي :

إذا جارى الشيطان في سنن الغسى . . . ومن مال ميله مثبور . اه .

وقال الجوهري في صحاحه : والثبور الهلاك والخسران أيضاً ، قال الكميت :

ورأت قضاعة في الأيامن . . . رأي مثبور وثابر

أي مخسور وخاسر يعني في انتسابها لليمين . اه .

وقوله تعالى : ﴿ دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُوراً ﴾ معنى دعائهم الثبور هو قولهم : واثبوراه ، يعنون : يا ويل ، ويا هلاك ، تعال ، فهذا حينك وزمانك .

وقال الزمخشري : ومعنى وادعوا ثبوراً كثيراً أنكم وقعتم فيما ليس ثبوركم فيه واحداً ، إنما هو ثبور كثير ، إما لأن العذاب أنواع وألوان ، كل نوع منها ثبور ، لشدته وفظاعته ، أو لأنهم

كلما نضجت جلودهم بدلوا غيرها ، فلا غاية لهلاكهم . اه .

تنبيه

اعلم أنه تعالى في هذه الآية الكريمة قال : مكاناً ضيقاً ، وكذلك في الأنعام في قوله تعالى : ﴿ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً ﴾ [الأنعام : 125] وقال في هود : ﴿ وَضَآئِقٌ بِهِ صَدْرُكَ ﴾ [هود : 12] فما وجه التعبير في سورة هود ، بقوله : ضائق على وزن فاعل ، وفي الفرقان والأنعام بقوله : ضيقاً على وزن فيعل ، مع أنه في المواضع الثلاثة هو الوصف من ضاق يضيق ، فهو ضيق .

والجواب عن هذا هو أنه تقرر في فن الصرف أن جميع أوزان الصفة المشبهة باسم الفاعل إن قصد بها الحدوث والتجدد جاءت على وزن فاعل مطلقاً ، كما أشار له ابن مالك في لامتيه بقوله :

وفاعل صالح للكل إن قصد . . . الحدوث نحو غداً ذا فارح جذلا

وإن لم يقصد به الحدوث ، والتجدد بقي على أصله .

(66/558)

وإذا علمت ذلك فاعلم أن قوله تعالى في سورة هود : ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يوحى إِلَيْكَ وَضَآئِقٌ بِهِ صَدْرُكَ ﴾ [هود : 12] أريد به أنه يحدث له ضيق الصدر ، ويتجدد له بسبب عنادهم وتعنتهم في قولهم : ﴿ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُ مَلَكٌ ﴾ [هود : 12] ولما كان كذلك ، قيل فيه : ضائق بصيغة اسم الفاعل ، أما قوله : ضيقاً في الفرقان والأنعام فلم يرد به حدوث ، ولذلك بقي على أصله .

ومن أمثلة إتيان الفيعل على فاعل إن قصد به الحدوث قوله تعالى : ﴿ وَضَآئِقٌ بِهِ صَدْرُكَ ﴾ [هود : 12] وقول قيس بن الخطيم الأنصاري :

أبلغ خداشا أنني ميت . . . كل امرئ ذي حسب مائت

فلما أراد حدوث الموت قال : مائت بوزن فاعل ، وأصله ميت على وزن فيعل .

ومن أمثلته في فعل بفتح فكسر قول أبي عمرو أشجع بن عمرو السلمي يرثي قتيبه بن مسلم :

فما أنا من رزء وإن جل جازع . . . ولا بسرور بعد موتك فارح

فلما نفى أن يحدث له في المستقبل فرح ولا جزع قال جازع وفارح ، والأصل جزع وفرح .

ومثاله في فعيل قول لبيد :

حسبت التقى والجود خير تجارة . . . رباحاً إذا ما المرء أصبح ثاقلاً

فلما أراد حدوث الثقل قال : ثاقلاً والأصل ثقيل ، وقول السمهري العكلي :

بمنزلة أما اللئيم فسامن . . . بها وكرام الناس باد شحوبها

فلما أراد حدوث السمن قال : فسامن والأصل سمين .

واعلم أن قراءة ابن كثير ضيقا بسكون الياء في الموضعين راجعة في المعنى إلى قراءة الجمهور بتشديد الياء لأن إسكان الياء تخفيف كهين ولين ، في هين ولين . والعلم عند الله تعالى .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿أضواء البيان حـ 6 صـ ﴾

(67/558)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ تَبَارَكَ ﴾ [الفرقان : 10] كما قلنا : تنزّه وعَظُم خيره ؛ لأن الكلام هنا أيضاً فيه عطاء مُتمثِّل في الخير الذي ساقه الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم ، فعطاؤه سبحانه دائم لا ينقطع ، بحيث لا يقف خبر عند عطائه ، بل يظل عطاؤه خيراً موصولاً ، فإذا أعطاك اليوم عرفتَ أن ما عنده في الغد خير مما أعطاك بالأمس .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ بَلْ كَذَّبُواْ بالساعة ﴾

يُضرِب السياق عن الكلام السابق ، ويعود إلى مسألة تكذيبهم وعدم الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم ؛ لأن الإيمان ليس في مصلحتهم ، فالإيمان يقتضي حساباً وجزاءً ، وهم

يريدون التمادي في باطلهم والاستمرار في لَغْوهم واستهتارهم ومعاصيتهم ؛ لذلك يُكذِّبهم أنفسهم ويخدعونها ليظلوا على ما هم عليه .

ولذلك ترى الذين يُسرفون على أنفسهم في الدنيا من الماديين والملاحدة والفلاسفة يتمنون أنْ تكون قضية الدين قضية فاسدة كاذبة ، فينكرونها بكل ما لديْهم من قوة ، فالدين عندهم أمر غير معقول ؛ لأنهم لو أقروا به فمصيبتهم كبيرة .

ومعنى : ﴿ وَأَعْتَدْنَا ﴾ [الفرقان : 11] هيّأنا وأعددْنا لهم سعيراً ؛ لأن عدم إيمانهم بالساعة هو الذي جَرَّ عليهم العذاب ، ولو أنهم آمنوا بها وبلقاء الله وبالحساب وبالجزاء لاهتَدوْا ، واعتدلوا على الجادة ، ولَنجَوْا من هذا السعير .

والسعير : اسم للنار المسعورة التي التي تلتهم كل ما أمامهم ، كما نقول : كَلْب مسعور ، ثم يقول سبحانه في وصفها : ﴿ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾

يريد الحق تبارك وتعالى أن يُشخِّص لنا النار ، فهي ترى أهلها من بعيد ، وتتحرّش بهم تريد من غَيْظها أنْ تَثِبَ عليهم قبل أنْ يصلوا إليها .

(68/558)

والتغيُّظ : ألم وجداني في النفس يجعل الإنسان يضيق بما يجد ، ومن ذلك نسمع مَنْ يقول : (أنا ح أطلق من جنابي) ، يعني : نتيجة ما بداخله من الغيظ لا يتسع له جوفه ، وما دام الغيظ فوق تحمُّل النفس وسِعَتها فلا بُدَّ أن يشعر الإنسان بالضيق ، وأنه يكاد ينفجر .

لذلك يقول تعالى عن النار في موضع آخر ﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الغَيْظِ ﴾ [الملك : 8] تميّز يعني : تكاد أبعاضها تنفصل بعها عن بعض .

لكن ، لماذا تميّز النار من الغيظ ؟ قالوا : لأن الكون كله مُسبِّح لله حامد شاكر لربه ؛ لذلك يُسَرُّ بالطائع ويحبه ، ويكره العاصي ، أَلَا ترى أن الوجود كله قد فرح لمولد النبي صلى الله عليه وسلم ، فرح لمولده الجمادُ والنباتُ والحيوانُ واستبشر ، لأنه صلى الله عليه وسلم جاء ليعيد للإنسان انسجامه مع الكون المخلوق له ، ويعدل الميزان .

ومع ذلك نرى من البشر العقلاء أصحاب الاختيار مَنْ يكفر ، لذلك تغتاظ النار من هؤلاء الذي شذُّوا عن منظومة التسبيح والتحميد ورَضُوا لأنفسهم أن يكونوا أَدْنى من الجماد والنبات والحيوان ، ومن ذلك يقولون : نَبَا بهم المكان من كفرهم ، يعني الأماكن من الأرض تُنكرهم وتتضايق من وجودهم عليها ، كما تفرح الأرض بالطائع وتحييه ؛ لأنه منسجم معها ، المكان والمكين ينتظمان في منظومة التسبيح والطاعة .

لذلك يُنبِّهنا إلى هذه المسألة الإمام على رضي الله عنه فيقول : إذا مات المؤمن بكى عليه موضعان : موضع في السماء ، وموضع في الأرض ، أما في الأرض فموضع مُصلاَّه ؛ لأنه حُرِم

من صلاته ، وأما موضعه في السماء فمصعد عمله الطيب .

والحق تبارك وتعالى يُظهر لنا هذه الصورة في قوله سبحانه : ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امتلأت وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾ [ق : 30] .

فالنار تتشوّق لأهلها كالذي يأكل ولا يشبع ، فمهما أُلْقِي فيها من العصاة تقول : ﴿ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾ [ق : 30] .

(69/558)

ومعنى ﴿ وَزَفِيراً ﴾ [الفرقان : 12] النفَس الخارج . وفي موضع آخر يقول تعالى : ﴿ إِذَآ أُلْقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقاً وَهِيَ تَفُورُ ﴾ [الملك : 7] فذكر أن لها شهيقاً وزفيراً ، وهي في المكان الضيق .

وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا (13)

فجمع الله عليهم من العذاب ألواناً حتى يقول الواحد منهم لمجرد أن يرى العذاب : ﴿ ياليتني كُنتُ تُرَاباً ﴾ [النبأ : 40] وهنا يدعو بالويل والثبور ، يقول : يا ويلاه يا ثبوراه يعني : يا هلاكي تعالَ احضر ، فهذا أوانك لتُخلِّصني مما أنا فيه من العذاب ، فلن يُنجيني من العذاب إلا الهلاك ؛ لذلك يقولون : أشدّ من الموت الذي يطلب الموت على حَدِّ قول الشاعر :

كَفَى بِكَ دَاءً أَنْ تَرَى الْموتَ شَافِياً . . . وَحَسْبُ المَنَايَا أَنْ يكُنَّ أَمَانِياً

ولك أن تتصور بشاعة العذاب الذي يجعل صاحبه يتمنى الموت ، ويدعو به لنفسه .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ لاَّ تَدْعُواْ اليوم ثُبُوراً وَاحِداً ﴾

يُوبِّخهم الحق سبحانه وتعالى ويُبكِّتهم : يا خيبتكم ويا ضياعكم ، لن ينفعكم أنْ تدعوا ثُبوراً واحداً ، بل ادعوا ثُبوراً وثبوراً وثبوراً ؛ لأنها مسألة لن تنتهي ، فسوف يُسْلِمكم العذاب إلى عذاب ، حتى ينادوا : ﴿ يامالك لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَّاكِثُونَ ﴾ [الزخرف : 77] وهو عذاب متجدد : ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ العذاب ﴾ [النساء : 56] .

ثم يذكر الحق سبحانه المقابل ليكون ذلك أنْكَى لأهل الشر وأَغْيظ لهم ، فيذكر بعد العذاب الثوابَ على الخير وعِظَم الجزاء على الطاعة ، ومثل هذه المقابلات كثيرة في كتاب الله ، كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الأبرار لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الفجار لَفِي جَحِيمٍ ﴾ [الإنفطار : 1314] .

(70/558)

ويقول سبحانه : ﴿ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلاً وَلْيَبْكُواْ كَثِيراً جَزَآءً بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ [التوبة : 82] .

وهنا بعد أنْ ذكر النار وما لها من شهيق وزفير . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(71/558)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا (1) ﴾

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : تبارك تفاعل من البركة .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ﴾ قال : هو القرآن فيه حلال الله وحرامه ، وشرائعه ودينه ، فرق الله به بين الحق والباطل ﴿ ليكون للعالمين نذيراً ﴾ قال : بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم نذيراً من الله لينذر الناس بأس الله ، ووقائعه بمن خلا قبلكم ﴿ وخلق كل شيء فقدره تقديراً ﴾ قال : بين لكل شيء من خلقه صلاحه ، وجعل ذلك بقدر معلوم .

﴿ واتخذوا من دونه آلهة ﴾ قال : هي هذه الأوثان التي تعبد من دون الله ﴿ لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون ﴾ وهو الله الخالق الرازق وهذه الأوثان تخلق ولا تخلق شيئاً ، ولا تضر ولا تنفع ، ولا تملك موتاً ولا حياة ، ولا نشوراً يعني بعثاً ﴿ وقال الذين كفروا إن هذا ﴾ هذا قول مشركي العرب ﴿ إلا إفك ﴾ هو الكذب ﴿ افتراه وأعانه عليه ﴾ أي على حديثه هذا وأمره ﴿ قوم آخرون فقد جاءوا ﴾ فقد أتوا ﴿ ظلماً وزوراً ﴾ ﴿ وقالوا أساطير الأولين ﴾ قال : كذب الأولين وأحاديثهم ﴿ وقالوا ما لهذا الرسول ! ﴾ قال : عجب الكفار من ذلك أن يكون رسول ﴿ يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً ، أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها ﴾ قال الله يرد عليهم ﴿ تبارك الذي إن شاء جعل لك خيراً من ذلك ﴾ يقول : خيراً مما قال الكفار من الكنز والجنة ﴿ جنات تجري من تحتها الأنهار ويجعل لك قصوراً ﴾ قال : وإنه والله من دخل الجنة ليصيبن قصوراً لا تبلى ولا تهدم .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال : كل شيء في القرآن افك ، فهو كذب .

(72/558)

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله ﴿ وأعانه عليه قوم آخرون ﴾ قال : يهود ﴿ فقد جاءوا ظلماً وزوراً ﴾ قال : كذباً .

وأخرج ابن إسحق وابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس . " أن عتبة وشيبة ابني ربيعة ، وأبا سفيان بن حرب ، والنضر بن الحارث ، وأبا البختري ، والأسود بن المطلب ، وزمعة بن الأسود ، والوليد بن المغيرة ، وأبا جهل بن هشام ، وعبد الله بن أمية ، وأمية بن خلف ، والعاصي بن وائل ، ونبيه بن الحجاج . اجتمعوا فقال بعضهم لبعض : ابعثوا إلى محمد فكلموه وخاصموه حتى تعذروا منه ، فبعثوا إليه أن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك قال : فجاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا له : يا محمد انا بعثنا إليك لنعذر منك . فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالاً جمعنا لك من أموالنا ، وإن كنت تطلب الشرف فنحن نسودك ، وإن كنت تريد ملكاً ملكناك . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما لي مما تقولون . ما جئتكم به أطلب أموالكم ، ولا الشرف فيكم ، ولا الملك عليكم ، ولكن الله بعثني إليكم رسولاً ، وأنزل علي كتاباً ، وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً ، فبلغتكم رسالة ربي ، ونصحت لكم ، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وإن تردوه علي أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم .

(73/558)

قالوا : يا محمد فإن كنت غير قابل منا شيئاً مما عرضنا عليك قالوا : فإذا لم تفعل هذا فسل لنفسك وسل ربك أن يبعث معك ملكاً يصدقك بما تقول ، ويراجعنا عنك ، وسله أن يجعل لك جناناً ، وقصوراً من ذهب وفضة تغنيك عما تبتغي – فإنك تقوم بالأسواق ، وتلتمس المعاش كما نلتمسه – حتى نعرف فضلك ومنزلتك من ربك إن كنت رسولاً كما تزعم . فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أنا بفاعل . ما أنا بالذي يسأل ربه هذا ؛ وما بعثت إليكم بهذا ولكن الله بعثني بشيراً ونذيراً ، فأنزل الله في قولهم ذلك ﴿ وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ﴾ إلى قوله ﴿ وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون وكان ربك بصيراً ﴾ أي جعلت بعضكم لبعض بلاء لتصبروا ، ولو شئت أن أجعل الدنيا مع رسولي فلا تخالفوه لفعلت " .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله ﴿ وقال الظالمون إن تتبعون ﴾ قاله الوليد بن المغيرة وأصحابه يوم دار الندوة .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ أنظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلاً ﴾ قال : مخرجاً يخرجهم من الأمثال التي ضربوا لك وفي قوله ﴿ تبارك الذي إن شاء جعل لك خيراً من

ذلك جنات تجري ﴾ قال : حوائط ﴿ ويجعل لك قصوراً ﴾ قال : بيوتاً مبنية مشيدة .

كانت قريش ترى البيت من حجارة قصراً كائناً ما كان .

(74/558)

وأخرج الواحدي وابن عساكر من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : " لما عير المشركون رسول الله صلى الله عليه وسلم بالفاقة قالوا ﴿ مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ﴾ حزن رسول الله صلى الله عليه وسلم لذلك ، فنزل جبريل فقال : إن ربك يقرئك السلام ويقول ﴿ وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا أنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق ﴾ ثم أتاه رضوان خازن الجنان ومعه سفط من نور يتلألأ فقال : هذه مفاتيح خزائن الدنيا ، فنظر النبي صلى الله عليه وسلم إلى جبريل كالمستشير له ، فضرب جبريل إلى الأرض أن تواضع فقال : يا رضوان لا حاجة لي فيها ، فنودي : أن ارفع بصرك ، فرفع فإذا السموات فتحت أبوابها إلى العرش ، وبدت جنات عدن ، فرأى منازل الأنبياء وعرفهم ، وإذا منازله فوق منازل الأنبياء فقال : رضيت . ويرون أن هذه الآية أنزلها رضوان ﴿ تبارك الذي إن شاء جعل لك خيراً من ذلك ﴾ " .

وأخرج الفريابي وابن أبي شيبة في المصنف وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي

حاتم وابن مردويه عن خيثمة قال : " قيل للنبي صلى الله عليه وسلم إن شئت أعطيناك خزائن الأرض ومفاتيحها ما لم يعط نبي قبلك ، ولا يعطاه أحد بعدك ، ولا ينقصك ذلك مما لك عند الله شيئاً ، وإن شئت جمعتها لك في الآخرة قال : اجمعها لي في الآخرة ، فأنزل الله ﴿ تبارك الذي إن شاء جعل لك خيراً من ذلك جنات تجري من تحتها الأنهار ويجعل لك قصوراً ﴾ " .

(75/558)

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال بينما جبريل عند النبي صلى الله عليه وسلم إذ قال " هذا ملك تدلى من السماء إلى الأرض . ما نزل إلى الأرض قط قبلها ، استأذن ربه في زيارتك ، فأذن له ، فلم يلبث ان جاء فقال : السلام عليك يا رسول الله قال : وعليك السلام قال : إن الله يخبرك إن شئت أن يعطيك من خزائن كل شيء ومفاتيح كل شيء ، لم يعط أحداً قبلك ، ولا يعطيه أحداً بعدك ، ولا ينقصك مما دخر لك عنده شيئاً فقال : لا بل يجمعهما لي في الآخرة جميعاً فنزلت ﴿ تبارك الذي إن شاء جعل لك خيراً من ذلك ﴾ " .

إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا (12)

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله ﴿ إذا رأتهم من مكان بعيد ﴾ قال : من مسيرة مائة عام .

وأخرج الطبراني وابن مردويه من طريق مكحول عن أبي أمامة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " من كذب عليّ متعمداً فليتبوّأ مقعداً من بين عيني جهنم " . قالوا : يا رسول الله وهل لجهنم من عين ؟ قال : " نعم . أما سمعتم الله يقول ﴿ إذا رأتهم من مكان بعيد ﴾ فهل تراهم إلا بعينين " .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق خالد بن دريك عن رجل من الصحابة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " من يقل عليَّ ما لم أقل أو ادعى إلى غير والديه ، أو انتمى إلى غير مواليه ، فليتبوأ بين عيني جهنم مقعداً . قيل : يا رسول الله وهل لها من عينين ؟ قال : نعم . أما سمعتم الله يقول ﴿ إذا رأتهم من مكان بعيد ﴾ " .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم بسند صحيح عن ابن عباس قال : إن العبد ليجر إلى النار فتشهق إليه شهقة البغلة إلى الشعير ، ثم تزفر زفرة لا يبقى أحد إلا خاف ، وإن الرجل من أهل النار ما بين شحمة أذنيه وبين منكبيه مسيرة سبعين سنة ، وإن فيها لأودية من قيح تكال ثم تصب في فيه .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عبيد بن عمير في قوله ﴿ سمعوا لها تغيظاً وزفيراً ﴾ قال : إن جهنم لتزفر زفرة لا يبقى ملك مقرب ولا نبي مرسل إلا ترعد فرائصه حتى أن إبراهيم عليه السلام ليجثو على ركبتيه ويقول : يا رب لا أسألك اليوم إلا نفسي .

وأخرج ابن وهب في الأهوال عن العطاف بن خالد قال : " يؤتى بجهنم يومئذ يأكل بعضها بعضاً يقودها سبعون ألف ملك ، فإذا رأت الناس فذلك قوله ﴿ إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظاً وزفيراً ﴾ زفرت زفرة لا يبقى نبي ولا صديق إلا برك لركبتيه ويقول : يا رب نفسي نفسي ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : أمتي . . . أمتي " .

وأخرج أبو الشيخ في العظمة عن مغيث بن سمي قال : ما خلق الله من شيء إلا وهو يسمع زفير جهنم غدوة وعشية ، إلا الثقلين الذين عليهم الحساب والعقاب .

وأخرج آدم بن أبي اياس في تفسيره عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ إذا رأتهم من مكان بعيد ﴾ قال : من مسيرة مائة عام وذلك إذا أتي بجهنم تقاد بسبعين ألف زمام يشد بكل زمام سبعون ألف ملك ، لو تركت لأتت على كل بر وفاجر ﴿ سمعوا لها تغيظاً وزفيراً ﴾ تزفر زفرة لا يبقى قطرة من دمع إلا بدرت ، ثم تزفر الثانية فتنقطع القلوب من أماكنها ، وتبلغ القلوب الحناجر .

وأخرج أبو نعيم في الحلية عن كعب قال : إذا كان يوم القيامة جمع الله الأوّلين والآخرين في صعيد واحد ، ونزلت الملائكة صفوفاً فيقول الله لجبريل : ائت بجهنم ، فيأتي بها تقاد بسبعين ألف زمام حتى إذا كانت من الخلائق على قدر عام زفرت زفرة طارت لها أفئدة الخلائق ، ثم تزفر زفرة ثانية ، فلا يبقى ملك مقرب ولا نبي مرسل إلا جثى لركبتيه ، ثم تزفر الثالثة ، فتبلغ القلوب الحناجر ، وتذهل العقول ، فيفزع كل أمرىء إلى عمله حتى أن إبراهيم عليه السلام يقول : بخلتي لا أسألك إلا نفسي . ويقول موسى : بمناجاتي لا أسألك إلا نفسي . ويقول عيسى : بما أكرمتني لا أسألك إلا نفسي ، لا أسألك مريم التي ولدتني . ومحمد صلى الله عليه وسلم يقول : أمتي . . . أمتي . . . لا أسألك اليوم نفسي . فيجيبه الجليل جل جلاله ألا إن أوليائي من أمتك لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . فوعزتي لا قرن عينك في أمتك ، ثم تقف الملائكة بين يدي الله تعالى ينتظرون ما يؤمرون .

وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا (13) لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا (14)

أخرج ابن أبي حاتم عن يحيى بن أبي أسيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن

قول الله ﴿ وإذا ألقوا منها مكاناً ضيقاً مقرنين ﴾ قال " والذي نفسي بيده أنهم ليستكرهون في النار كما يستكره الوتد في الحائط " .

وأخرج ابن أبي حاتم من طرق عن قتادة عن أبي أيوب عن عبد الله بن عمر ﴿ إذا ألقوا منها مكاناً ضيقاً ﴾ قال : مثل الزج في الرمح .

وأخرج ابن المبارك في الزهد وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق قتادة في الآية قال ذكر لنا أن عبد الله كان يقول : إن جهنم لتضيق على الكافر كضيق الزج على الرمح .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي صالح في قوله ﴿ مقرنين ﴾ قال : مكتفين .

(78/558)

وأخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك ﴿ دعوا هنالك ثبوراً ﴾ قال : دعوا بالهلاك فقالوا : واهلاكاه . واهلكتاه . فقيل لهم : لا تدعوا اليوم بهلاك واحد ، ولكن ادعوا بهلاك كثير .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في البعث بسند صحيح عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن أول من يكسى حلة من النار إبليس فيضعها على حاجبيه ويسحبها من خلفه وذريته من بعده ، وهو ينادي : يا ثبوراه .

ويقولون : يا ثبورهم حتى يقف على النار فيقول : يا ثبوراه . ويقولون : واثبورهم فيقال لهم ﴿ لا تدعوا اليوم ثبوراً واحداً وادعوا ثبوراً كثيراً ﴾ " .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة ﴿ دعوا هنالك ثبوراً ﴾ قال : ويلاً وهلاكاً . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 6 صـ ﴾

(79/558)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله : ﴿ جَنَّاتٍ ﴾ : يجوز أَنْ يكونَ بدلاً مِنْ " خيراً " ، وأَنْ يكونَ عطفَ بيانٍ عند مَنْ يُجَوِّزه في النكراتِ ، وأَنْ يكونَ منصوباً بإضمارِ أعني . و ﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار ﴾ صفةٌ .

قوله : ﴿ وَيَجْعَل لَّكَ ﴾ قرأ ابن كثير وابن عامر وأبو بكر برفع " ويجعَلُ " والباقون بإدغامِ لامِ " يَجْعَلْ " في لام " لك " . وأمَّا الرفعُ ففيه وجهان ، أحدُهما : أَنَّه مستأنفٌ . والثاني : أنه معطوفٌ على جوابِ الشرط . قال الزمخشري : " لأنَّ الشرطَ إذا وقع ماضياً جاز في جوابِه الجزمُ ، والرفعُ كقولِه :

3474 وإنْ أتاه خليلٌ يومَ مَسْألةٍ . . . يقولُ لا غائبٌ مالي ولا حَرِمُ

قال الشيخ : " وليس هذا مذهبَ سيبويه ، بل مذهبُه : أنَّ الجوابَ محذوفٌ ، وأنَّ هذا المضارعَ مَنْوِيٌّ به التقديمُ ، ومذهبُ المبرد والكوفيين أنه جوابٌ على حَذْفِ الفاءِ . ومذهبُ آخرين : أنه جوابٌ لا على حَذْفِها ، بل لمَّا كان الشرطُ ماضياً ضَعُفَ تأثيرُ " إنْ " فارتفع " . قلت : فالزمخشريُّ بنى قولَه على هذين المذهبين . ثم قال الشيخ : " وهذا التركيبُ جائزٌ فصيحٌ . وزعم بعضُ أصحابِنا أنه لا يجيءُ إلاَّ في ضرورة " .

وأمَّا القراءةُ الثانيةُ فتحتمل وجهين ، أحدُهما : أنَّ سكونَ اللامِ للجزمِ عطفاً على مَحَلِّ " جَعَل " ؛ لأنَّه جوابُ الشرط . والثاني : أنه مرفوعٌ ، وإنما سُكِّن لأجلِ الإدغام . قال الزمخشري وغيرُه وفيه نظرٌ ؛ من حيث إنَّ مِنْ جملةِ مَنْ قرأ بذلك وهو نافعٌ والأخَوان وحفصٌ ليس مِنْ أصولِهم الإدغامُ ، حتى يدعى لهم في هذا المكانِ . نعم أبو عمرو أصلُه الإدغامُ وهو يقرأ هنا بسكونِ اللامِ ، فيُحتمل ذلك على قراءته ، وهذا من محاسِنِ علمِ النحوِ والقراءاتِ معاً .

(80/558)

وقرأ طلحةُ بن سليمان " ويَجْعَلَ " بالنصبِ ؛ وذلك بإضمارِ " أنْ " على جوابِ الشرطِ ، واستضعفها ابنُ جني . ومثلُ هذه القراءة :

3475 فإنْ يَهْلَكْ أبو قابوس يَهْلَكْ . . . رَبيعُ الناسِ والبَلدُ الحرامُ

ونَأْخُذْ بعدَه بذِنابِ عيشٍ . . . أَجبَّ الظهرِ ليسَ له سَنامُ

بالتثليث في " نَأْخذ " .

إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا (12)

قوله : ﴿ إِذَا رَأَتْهُمْ ﴾ : هذه الجملةُ الشرطيةُ في موضعِ نصبٍ صفةً ل " سَعيراً " لأنَّه مؤنَّثٌ .

قوله : ﴿ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً ﴾ إنْ قيل : التغيُّظُ لا يُسْمع . فالجوابُ من ثلاثةِ أوجه ، أحدُها : أنه على حَذْفِ مضافٍ أي : صوتَ تغيُّظِها . والثاني : أنه على حَذْفٍ تقديرُه : سَمِعوا وَرَأَوْا تغيُّظاً وزفيراً ، فيرتفع كلُّ واحدٍ إلى ما يَليقُ به أي : رَأَوْا تغيُّظاً وسَمِعوا زَفيراً . والثالث : أَنْ يُضَمَّن " سمعوا " معنىً يَشْمَلُ الشيئَين أي : أَدْرَكوا لها تغيُّظاً وزفيراً .

وهذان الوجهان الأخيران منقولان من قولِه :

3476 يا ليتَ زوجَك قد غَدا . . . متقلِّداً سيفاً ورُمْحاً

ومن قوله :

3477 فَعَلَفْتُها تِبْناً وماءً بارداً . . . . . .

. .

أي : ومُعْتَقِلاً رمحاً ، وسَقَيْتُها ماءً ، أو تضمّنُ " مُتَقَلِّداً " معنى مُتَسَلِّحاً ، و " عَلَفْتُها " معنى : أَطْعَمْتُها تِبْناً وماءً بارداً .

وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا (13)

(81/558)

قوله : ﴿ مَكَاناً ﴾ : منصوب على الظرف و " منها " في محلِّ نصب على الحالِ مِنْ " مكان " لأنه في الأصل صفةٌ له . و " مُقَرَّنين " حال مِنْ مفعول " أُلْقُوا " . و " ثُبوراً " مفعول به . فيقولون : يا ثُبوراه . ويجوز أَنْ يكونَ مصدراً من معنى " دُعُوا " وقيل : منصوبٌ بفعلٍ من لفظِه مقدرٍ تقديرُه : ثَبَرْنا ثُبوراً . وقرأ/ معاذ بن جبل " مُقَرَّنُوْنَ " بالواو . ووجهُها أَنْ تكونَ بدلاً من مفعول " أُلْقُوا " .

وقرأ عمر بن محمد " ثَبورا " بفتح الثاء . والمصادرُ التي على فَعُوْل بالفتح قليلةٌ جداً . ينبغي أن يُضَمَّ هذا إليها ، وقد ذكرْتُها في البقرةِ عند قولِه ﴿ وَقُودُهَا الناس ﴾ [البقرة : 24] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 459.462 ﴾

(82/558)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا (11) ﴾

فهم في حُكم الله من جملة الكفار ، والله أَعَدَّ لهم ولأمثالهم من الكفار وعيدَ الأبدِ . . . فلا محالة يُمْتحنون به .

قوله : ﴿ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً ﴾ : دليلٌ على جواز التكليف بما لا يقدر عليه العبدُ في الحالِ ؛ لأنه أخبر أنهم لا يستطيعون سبيلاً ، وهم معاتبُون مُكلَّفُون .

إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا (12)

فوحشةُ النارِ توجد من مسافة بعيدة قبل شهودِها والامتحان بها ، ونسيمُ الجنةَ يوجد قبل شهودِها والدخولِ فيها ، والنار تُسَجَّر منذ سنين قبل المحترقين بها ، والجنة تُزَيَّن منذ سنين قَبْلَ المسْتَمتِعين بها . وكذَبَ مَنْ أحال وجودهما قبل كون سكانهما وقطانهما من المنتفعين أو المعاقبين ، لأن الصادق أخبر عن صفاتهما التي لا تكون إلا بموجود .

وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا (13) لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا (14)

راحةُ الجنة مقرونة بسعتها ، ووحشة النار مقرونة بضيقها ، فيُضيّق عليهم مكانَهم ، ويضيِّق عليهم قلوبهم ، ويضيق عليهم أوقاتهم . ولو كانت حياتُهم تبطل وكانوا يتخلصون منها لم يكن البلاء كاملاً ، ولكنها آلام لا تتناهى ، ومِحَنٌ لا تنقضي ؛ كلما راموا فرجةً قيل لهم : فلن نزيدكم إلا عذاباً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 629 . 630 ﴾

(83/558)

قوله تعالى ﴿ قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا (15) لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا (16) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كانت عادتهم تجويز الممكن من كل ما يحذرون منه من الخلق ، اقتضى الحال سؤالهم : هل أعدوا لما هددوا به من الخالق عدة أم لا ؟ في سياق الاستفهام عن المفاضلة بينه وبين ما وعده المتقون ، تنبيهاً على أنه أعلى رتبة من الممكن فإنه واقع لا محالة ، وتهكماً بهم ، فقال تعالى : ﴿ قل أذلك ﴾ أي الأمر العظيم الهول الذي أوعدتموه من السعير الموصوفة .

ولما كانت عادة العرب في بيان فضل الشيء دون غيره الإتيان بصيغة أفعل تنبيهاً على أن سلب الخير عن مقابله لا يخفى على أحد ، أو يكون ذلك على طريق التنزل و إرخاء العنان ، تنبيهاً للعاقل على أنه يكفيه في الرجوع عن الغي طروق احتمال لكون ما هو عليه مفضولاً قال : ﴿ خير أم جنة الخلد ﴾ أي الإقامة الدائمة ﴿ التي وعد المتقون ﴾ أي وقع الوعد الصادق المحتم بها ، ممن وعده هو الوعد ، للذين خافوا فصدقوا بالساعة جاعلين بينهم وبين أهوالها وقاية مما أمرتهم به الرسل ؛ ثم حقق تعالى أمرها تأكيداً للبشارة بقوله : ﴿ كانت ﴾ أي تكونت ووجدت بإيجاده سبحانه ﴿ لهم جزاء ﴾ على تصديقهم وأعمالهم ﴿ ومصيراً ﴾ أي مستقراً ومنتهى ، وذلك مدح لجزائهم لأنه إذا كان في محل واسع طيب كان أهنأ له وألذ كما أن العقاب إذا كان في موضع ضيق شنيع كان أنكى وأوجع ، وهو استفهام تقريع وتوبيخ لمن كان يعقل فيجوز الممكنات .

ولما ذكر تعالى نعيمهم بها ذكر ، تنعمهم فيها فقال : ﴿ لهم فيها ﴾ أي الجنة خاصة لا في غيرها ﴿ ما يشاؤون ﴾ من كل ما تشتهيه أنفسهم ﴿ خالدين ﴾ لا يبغون عنه حولاً ﴿ كان ﴾ أي ذلك كله ﴿ على ربك ﴾ أي المحسن إليك بالإحسان إلى أتباعك ﴿ وعداً ﴾ .

ولما أشار سبحانه إلى إيجاب ذلك على نفسه العظيمة بالتعبير ب " على " والوعد ، وكان الإنسان لا سيما مجبولاً على عزة النفس ، لا يكاد يسمح بأن يسأل فيما لا يحقق حصوله ، قال : ﴿ مسئولاً ﴾ أي حقيقاً بأن يسأل إنجازه ، لأن سائله خليق بأن يجاب سؤاله ، وتحقق ظنونه وآماله ، فالمعنى أنه إذا انضاف إلى تحتيمه الشيء على نفسه سؤال الموعود به إياه ، أنجز لا محالة ، وهو من وادي ﴿ أجيب دعوة الداع إذا دعان ﴾ [البقرة : 186] وفيه حث عظيم على الدعاء ، وترجية كبيرة للإجابة ، كما وعد بذلك سبحانه في ﴿ أجيب دعوة الداع ﴾ [البقرة : 186] و ﴿ ادعوني أستجب لكم ﴾ [غافر : 60] وإن لم ير الداعي الإنجاز فإن الأمر على ما رواه الإمام أحمد والبزار وأبو يعلى المنذري : بأسانيد جيدة – والحاكم وقال : صحيح الإسناد عن أبي سعيد الخدري ـ رضى الله عنه ـ أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : " ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث : أما أن يجعل له دعوته ، وإما أن يدخرها له في الآخرة ، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها ، قالوا : إذن نكثر ؟ قال : الله أكثر "

(85/558)

وللحاكم عن جابر ـ رضى الله عنه ـ عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : " يدعو الله بالمؤمن يوم القيامة حتى يوقفه بين يديه فيقول : عبدي ! إني أمرتك أن تدعوني ، ووعدتك أن أستجيب لك فهل كنت تدعوني ؟ فيقول : نعم ! يا رب فيقول : أما إنك لم تدعني بدعوة إلا استجيب لك ؟ أليس دعوتني يوم كذا وكذا لغم نزل بك أن أفرج عنك ففرجت عنك ؟ فيقول : نعم ! يا رب ! فيقول : إني عجلتها لك في الدنيا ، ودعوتني يوم كذا وكذا لغم نزل بك أن أفرج عنك فلم تر فرجاً ؟ قال : نعم ! يا رب فيقول : إني ادخرت لك بها في الجنة كذا وكذا ، ودعوتني في حاجة أقضيها لك في يوم كذا وكذا فقضيتها ؟ فيقول : نعم ! يا رب ! فيقول : إني عجلتها لك في الدنيا ، ودعوتني يوم كذا وكذا في حاجة أقضيها لك فلم تر قضاءها ؟ فيقول : نعم ! يارب ! فيقول أني ادخرت لك بها في الجنة كذا وكذا ، قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : فلا يدع الله دعوة دعا بها عبده المؤمن إلا بين له إما أن يكون عجل له في الدنيا ، وإما أن يكون ادخر له في الآخرة ، فيقول المؤمن في ذلك المقام : يا ليته لم يكن عجل له شيء من دعائه " ولابن حبان في صحيحه والحاكم وقال : صحيح الإسناد – عن أنس ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : " لا تعجزوا في الدعاء فإنه لن يهلك مع الدعاء أحد " وللترمذي والحاكم عن أبي هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : " ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة " وللبخاري ومسلم وأبي داود والترمذي وابن ماجه عن أبي هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ـ

صلى الله عليه وسلم ـ قال : " يستجاب لأحدكم ما لم يعجل ، يقول : دعوت فلم يستجب لي " وفي رواية لمسلم والترمذي : " لا يزال يستجاب للعبد ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم ما لم يستعجل ، قيل : يا رسول الله ! ما الاستعجال ؟ قال : يقول : قد دعوت فلم يستجب لي فيستحسر عند ذلك ويدع الدعاء " قال المنذري :

(86/558)

يستحسر أي يمل ويعيى فيترك الدعاء – انتهى .

وقد فهم من الآية ومن الحديث في استثناء الإثم وقطيعة الرحم أن ما لا مانع من سؤاله موعود بإجابته ونواله ، فليدع الإنسان به موقناً بالإجابة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 303.305 ﴾

(87/558)

فصل

قال الفخر :

﴿ قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا (15) ﴾

في الآية مسائل :

المسألة الأولى :

اعلم أنه تعالى لما وصف حال العقاب المعد للمكذبين بالساعة أتبعه بما يؤكد الحسرة والندامة ، فقال لرسوله : ﴿ قُلْ أذلك خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الخلد ﴾ أن يلتمسوها بالتصديق والطاعة ، فإن قيل : كيف يقال العذاب خير أم جنة الخلد ، وهل يجوز أن يقول العاقل السكر أحلى أم الصبر ؟ قلنا هذا يحسن في معرض التفريع ، كما إذا أعطى السيد عبده مالاً فتمرد وأبى واستكبر فيضربه ضرباً وجيعاً ، ويقول على سبيل التوبيخ : هذا أطيب أم ذاك ؟

المسألة الثانية :

احتج أصحابنا بقوله : ﴿ وُعِدَ المتقون ﴾ على أن الثواب غير واجب على الله تعالى ، لأن من قال السلطان وعد فلاناً أن يعطيه كذا ، فإنه يحمل ذلك على التفضيل ، فأما لو كان ذلك الإعطاء واجباً لا يقال إنه وعده به ، أما المعتزلة فقد احتجوا به أيضاً على مذهبهم قالوا لأنه سبحانه أثبت ذلك الوعد للموصوفين بصفة التقوى ، وترتيب الحكم على الوصف مشعر بالعلية فكذا يدل هذا على أن ذلك الوعد إنما حصل معللاً بصفة التقوى ، والتفضيل غير مختص بالمتقين فوجب أن يكون المختص بهم واجباً .

المسألة الثالثة :

قال أبو مسلم : جنة الخلد هي التي لا ينقطع نعيمها ، والخلد والخلود سواء ، كالشكر والشكور قال الله تعالى : ﴿ لاَ نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاء وَلاَ شُكُوراً ﴾ [الإنسان : 9] فإن قيل : الجنة اسم لدار الثواب وهي مخلدة فأي فائدة في قوله : ﴿ جَنَّةُ الخلد ﴾ ؟ قلنا الإضافة قد تكون للتمييز وقد تكون لبيان صفة الكمال ، كما يقال الله الخالق البارىء ، وما هنا من هذا الباب .

أما قوله : ﴿ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاء وَمَصِيراً ﴾ ففيه مسائل :

المسألة الأولى :

(88/558)

المعتزلة احتجوا بهذه الآية على إثبات الاستحقاق من وجهين : الأول : أن اسم الجزاء لا يتناول إلا المستحق ، فأما الوعد بمحض التفضيل فإنه لا يسمى جزاء ، والثاني : لو كان المراد من الجزاء الأمر الذي يصيرون إليه بمجرد الوعد فحينئذ لا يبقى بين قوله : ﴿ جَزَاء ﴾ وبين قوله : ﴿ مَصِيراً ﴾ تفاوت فيصير ذلك تكراراً من غير فائدة .

قال أصحابنا رحمهم الله لا نزاع في كونه ﴿ جَزَاء ﴾ ، إنما النزاع في أن كونه جزاء ثبت

بالوعد أو بالاستحقاق ، وليس في الآية ما يدل على التعيين .

المسألة الثانية :

قالت المعتزلة الآية تدل على أن الله تعالى لا يعفو عن صاحب الكبيرة من وجهين : الأول : أن صاحب الكبيرة يستحق العقاب فوجب أن لا يكون مستحقاً للثواب ، لأن الثواب هو النفع الدائم الخالص عن شوب الضرر ، والعقاب هو الضرر الدائم الخالص عن شوب النفع ، والجمع بينهما محال ، وما كان ممتنع الوجود امتنع أن يحصل استحقاقه ، فإذن متى ثبت استحقاق العقاب وجب أن يزول استحقاق الثواب فنقول : لو عفا الله عن صاحب الكبيرة لكان إما أن يخرجه من النار ولا يدخله الجنة ، وذلك باطل بالإجماع لأنهم أجمعوا على أن المكلفين يوم القيامة ، إما أن يكونوا من أهل الجنة أو من أهل النار ، لأنه تعالى قال :

﴿ فَرِيقٌ فِى الجنة وَفَرِيقٌ فِى السعير ﴾ [الشورى : 7] وإما أن يخرجه من النار ويدخله الجنة وذلك باطل لأن الجنة حق المتقين لقوله تعالى : ﴿ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاء وَمَصِيراً ﴾ فجعل الجنة لهم ومختصة بهم وبين أنها إنما كانت لهم لكونها جزاء لهم على أعمالهم فكانت حقاً لهم ، وإعطاء حق الإنسان لغيره لا يجوز ، ولما بطلت الأقسام ثبت أن العفو غير جائز

أجاب أصحابنا لم لا يجوز أن يقال : المتقون يرضون بإدخال الله أهل العفو في الجنة ؟ فحينئذ لا يمتنع دخولهم فيها ، الوجه الثاني : قالوا : المتقي في عرف الشرع مختص بمن اتقى الكفر والكبائر ، وإن اختلفنا في أن صاحب الكبيرة هل يسمى مؤمناً أم لا ، لكنا اتفقنا على أنه لا يسمى متقياً ، ثم قال في وصف الجنة إنها كانت لهم جزاء ومصيراً وهذا للحصر ، والمعنى أنها مصير للمتقين لا لغيرهم ، وإذا كان كذلك وجب أن لا يدخلها صاحب الكبيرة ، قلنا أقصى ما في الباب أن هذا العموم صريح في الوعيد فتخصه بآيات الوعد .

المسألة الثالثة :

لقائل أن يقول : إن الجنة ستصير للمتقين جزاء ومصيراً ، لكنها بعد ما صارت كذلك ، فلم قال الله تعالى : ﴿ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاء وَمَصِيراً ﴾ ؟ جوابه من وجهين : الأول : أن ما وعد الله فهو في تحققه كأنه قد كان والثاني : أنه كان مكتوباً في اللوح قبل أن يخلقهم الله تعالى بأزمنة متطاولة أن الجنة جزاؤهم ومصيرهم .

أما قوله تعالى : ﴿ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءونَ خالدين ﴾ فهو نظير قوله : ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِى أَنفُسُكُمْ ﴾ [فصلت : 31] وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

لقائل أن يقول أهل الدرجات النازلة إذا شاهدوا الدرجات العالية لا بد وأن يريدوها ، فإذا سألوها ربهم ، فإن أعطاهم إياها لم يبق بين الناقص والكامل تفاوت في الدرجة ، وإن لم يعطها قدح ذلك في قوله : ﴿ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءونَ ﴾ وأيضاً فالأب إذا كان ولده في درجات النيران وأشد العذاب إذا اشتهى أن يخلصه الله تعالى من ذلك العذاب فلا بد وأن يسأل ربه أن يخلصه منه ، فإن فعل الله تعالى ذلك قدح في أن عذاب الكافر مخلد ، وإن لم يفعل قدح ذلك في قوله : ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِى أَنفُسُكُمْ ﴾ وفي قوله : ﴿ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءونَ ﴾ وجوابه : أن الله تعالى يزيل ذلك الخاطر عن قلوب أهل الجنة بل يكون اشتغال كل واحد منهم بما فيه من اللذات شاغلاً عن الالتفات إلى حال غيره .

المسألة الثانية :

شرط نعيم الجنة أن يكون دائماً ، إذ لو انقطع لكان مشوباً بضرب من الغم ولذلك قال المتنبي :

أشد الغم عندي في سرور . . تيقن عنه صاحبه انتقالا

ولذلك اعتبر الخلود فيه فقال : ﴿ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءونَ خالدين ﴾ .

المسألة الثالثة :

قوله تعالى : ﴿ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءونَ ﴾ كالتنبيه على أن حصول المرادات بأسرها لا يكون

إلا في الجنة فأما في غيرها فلا يحصل ذلك ، بل لا بد في الدنيا من أن تكون راحاتها مشوبة بالجراحات ، ولذلك قال عليه السلام : " من طلب ما لم يخلق أتعب نفسه ولم يرزق ، فقيل وما هو يا رسول الله ؟ فقال سرور يوم "

أما قوله : ﴿كَانَ على ربّكَ وَعْداً مَسْؤُولاً﴾ ففيه مسائل :

المسألة الأولى :

(91/558)

كلمة (على) للوجوب قال عليه السلام : " من نذر وسمى فعليه الوفاء بما سمى " فقوله : ﴿كَانَ على ربِّكَ﴾ يفيد أن ذلك واجب على الله تعالى ، والواجب هو الذي لو لم يفعل لاستحق تاركه بفعله الذم ، أو أنه الذي يكون عدمه ممتنعاً ، فإن كان الوجوب على التفسير الأول كان تركه محالاً ، لأن تركه لما استلزم استحقاق الذم واستحقاق الله تعالى الذم محال ، ومستلزم المحال محال كان ذلك الترك محالاً والمحال غير مقدور ، فلم يكن الله تعالى قادراً على أن لا يفعل فيلزم أن يكون ملجأ إلى الفعل ، وإن كان الوجوب على التفسير الثاني وهو أن يقال الواجب ما يكون عدمه ممتنعاً يكون القول بالإلجاء لازماً ، فلم يكن الله قادراً ، فإن قيل إنه ثبت بحكم الوعد ، فنقول لو لم يفعل لانقلب خبره الصدق كذباً وعلمه جهلاً وذلك

محال ، والمؤدي إلى المحال محال فالترك محال فيلزم أن يكون ملجأ إلى الفعل والملجأ إلى الفعل لا يكون قادراً ، ولا يكون مستحقاً للثناء والمدح ، تمام السؤال وجوابه : أن فعل الشيء متقدم على الإخبار عن فعله وعن العلم بفعله ، فيكون ذلك الفعل فعلاً لا على سبيل الإلجاء ، فكان قادراً ومستحقاً للثناء والمدح .

المسألة الثانية :

قوله : ﴿ وَعْداً ﴾ يدل على أن الجنة حصلت بحكم الوعد لا بحكم الاستحقاق وقد تقدم تقريره .

المسألة الثالثة :

قوله : ﴿ مَسْؤُولاً ﴾ ذكروا فيه وجوهاً أحدها : أن المكلفين سألوه بقولهم : ﴿ رَبَّنَا وآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا على رُسُلِكَ ﴾ [آل عمران : 194] ، وثانيها : أن المكلفين سألوه بلسان الحال لأنهم لما تحملوا المشقة الشديدة في طاعته كان ذلك قائماً مقام السؤال ، قال المتنبي :

وفي النفس حاجات وفيك فطانة . . سكوتي كلام عندها وخطاب

(92/558)

وثالثها : الملائكة سألوا الله تعالى ذلك بقولهم : ﴿ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جنات عَدْنٍ ﴾ [غافر : 8] ورابعها : ﴿ وَعْداً مَسْؤُولاً ﴾ أي واجباً ، يقال لأعطينك ألفاً وعداً مسؤولاً أي واجباً وإن لم تسأل ، قال الفراء .

وسائر الوجوه أقرب من هذا لأن سائر الوجوه أقرب إلى الحقيقة ، وما قاله الفراء مجاز

وخامسها : مسؤولاً أي من حقه أن يكون مسؤولاً لأنه حق واجب ، إما بحكم الاستحقاق على قول المعتزلة ، أو بحكم الوعد على قول أهل السنة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 24 صـ 50.53 ﴾

(93/558)

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ ﴾

يعني من النعيم فأما المعاصي فتصرف عن شهواتهم .

﴿ خَالِدِينَ ﴾ يعني في الثواب كخلود أهل النار في العقاب

. ﴿ كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْداً مَّسْئُولاً ﴾ فيه ثلاثة أوجه

: أحدهما : أنه وعد الله لهم بالجزاء فسألوه الوفاء فوفاه ، وهو معنى قول ابن عباس .

الثاني : الملائكة تسأل الله لهم فيجابون إلى مسألتهم ، وهو معنى قول محمد بن كعب القرظي .

الثالث : أنه سألوا الله الجنة في الدنيا ورَغِبُوا إليه بالدعاء فأجابهم في الآخرة إلى ما سألوا وأعطاهم ما طلبوا ، وهو معنى قول زيد بن أسلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

(94/558)

وقال ابن عطية :

﴿ قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ﴾

المعنى ﴿ قل ﴾ يا محمد لهؤلاء الكفرة الذين هم بسبيل مصير إلى هذه الأحوال من النار ، ﴿ أذلك خير أم جنة الخلد ﴾ ؟ وهذا على جهة التوقيف والتوبيخ ، ومن حيث كان الكلام استفهاماً جاز فيه مجيء لفظ التفضيل بين الجنة والنار في الخير لأن الموقف جائز له أن يوقف محاورة على ما يشاء ليرى هل يجيبه بالصواب أو بالخطأ ، وإنما يمنع سيبويه وغيره من التفضيل بين شيئين لا اشتراك بينهما في المعنى الذي فيه تفضيل إذا كان الكلام خبراً لأنه فيه محالية ، وأما إذا كان استفهاماً فذلك سائغ ، وقيل الإشارة بقوله ﴿ أذلك ﴾ إلى

الجنات التي تجري من تحتها الأنهار وإلى القصور التي في قوله ﴿ تبارك الذي إن شاء جعل لك ﴾ [الفرقان : 10] ، وهذا على أن يكون الجعل في الدنيا وقيل الإشارة بقوله ﴿ أذلك خير ﴾ إلى الكنز والجنة التي ذكر الكفار .

قال الفقيه الإمام القاضي : والأصح إن شاء الله أن الإشارة بقوله ﴿ أذلك ﴾ إلى النار كما شرحناه آنفاً ، و ﴿ المتقون ﴾ في هذه الآية من اتقى الشرك فإنه داخل في الوعد ، ثم تختلف المنازل في الوعد بحسب تقوي المعاصي ، وقوله ﴿ وعداً مسؤولاً ﴾ يحتمل معنيين وهو قول ابن عباس رضي الله عنه وابن زيد إنه مسؤول لأن المؤمنين سألوه أو يسألونه ، وروي أن الملائكة سألت الله نعيم المتقين فوعدهم بذلك ، قال محمد بن كعب هو قول الملائكة ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ، والمعنى الثاني ذكره الطبري عن بعض أهل العربية أن يريد وعداً واجباً قد حتمه فهو لذلك معد أن يسأل ويقتضي وليس يتضمن هذا التأويل أن أحداً سأل الوعد المذكور . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(95/558)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ قل أَذلكَ ﴾ يعني : السعير ﴿ خيرٌ أم جنَّةُ الخُلْد ﴾ وهذا تنبيه على تفاوت ما بين المنزلتين ، لا على أن في السعير خيراً .

وقال الزجاج : قد وقع التساوي بين الجنة والنار في أنهما منزلان ، فلذلك وقع التفضيل بينهما .

قوله تعالى : ﴿ كانت لهم جزاءً ﴾ أي : ثواباً ﴿ ومَصيراً ﴾ أي : مَرْجِعاً .

قوله تعالى : ﴿ كان على ربّك ﴾ المشار إليه ، إما الدخول ، وإما الخُلود ﴿ وَعْداً ﴾ وعدهم الله إياه على ألسنة الرسل .

وفي معنى ﴿ مسؤولاً ﴾ قولان .

أحدهما : مطلوباً .

وفي الطالب له قولان .

أحدهما : أنهم المؤمنون ، سألوا الله في الدنيا إنجاز ما وعدهم [به] .

والثاني : أن الملائكة سألته ذلك لهم ، وهو قوله : ﴿ ربَّنا وأَدْخِلهم جَنَّاتِ عَدْنٍ التي وَعدتَهم ﴾ [غافر : 8]

والثاني : أن معنى المسؤول ؟ الواجب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 6 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَذلك خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الخلد التي وَعِدَ المتقون ﴾ .

إن قيل : كيف قال ﴿ أَذَلِك خَيْرٌ ﴾ ولا خير في النار ؛ فالجواب أن سيبويه حكى عن العرب : الشقاء أحب إليك أم السعادة ، وقد علم أن السعادة أحبّ إليه .

وقيل : ليس هو من باب أفعل منك ، وإنما هو كقولك : عنده خير .

قال النحاس : وهذا قول حسن ؛ كما قال :

فشرٌّكما لخير كما الفِداء . . .

قيل : إنما قال ذلك لأن الجنة والنار قد دخلتا في باب المنازل ؛ فقال ذلك لتفاوت ما بين المنزلتين .

وقيل : هو مردود على قوله : ﴿ تَبَارَكَ الذي إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْراً مِّن ذلك ﴾ الآية .

وقيل : هو مردود على قوله : ﴿ أَوْ يلقى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ﴾ .

وقيل : إنما قال ذلك على معنى عِلمكم واعتقادكم أيها الكفار ؛ وذلك أنهم لما كانوا يعملون عمل أهل النار صاروا كأنهم يقولون إن في النار خيراً .

قوله تعالى : ﴿ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ﴾ أي من النعيم .

﴿ خَالِدِينَ كَانَ على رَبِّكَ وَعْداً مَّسْئُولاً ﴾ قال الكلبيّ : وعد الله المؤمنين الجنة جزاءً

على أعمالهم ، فسألوه ذلك الوعد فقالوا : ﴿ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا على رُسُلِكَ ﴾ [آل عمران : 194] .

وهو معنى قول ابن عباس .

وقيل : إن الملائكة تسأل لهم الجنة ؛ دليله قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ التي وَعَدْتَّهُمْ ﴾ [غافر : 8] الآية .

وهذا قول محمد ابن كعب القُرظِي .

وقيل ؛ معنى ﴿ وَعْداً مَسْئُولاً ﴾ أي واجباً وإن لم يكن يسأل كالدَّين ؛ حكي عن العرب : لأعطينك ألفاً .

وقيل : ﴿ وَعْداً مَسْئُولاً ﴾ يعني أنه واجب لك فتسأله .

وقال زيد بن أسلم : سألوا الله الجنة في الدنيا ورغِبوا إليه بالدعاء ، فأجابهم في الآخرة إلى ما سألوا وأعطاهم ما طلبوا .

وهذا يرجع إلى القول الأول . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 13 صـ ﴾

(97/558)

وقال أبو حيان :

﴿ قُلْ أذلك خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الخلد التي وَعِدَ المتقون ﴾

والظاهر أن الإشارة بذلك إلى النار وأحوال أهلها .

وقيل إلى الجنة والكنز في قولهم .

وقيل إلى الجنة والقصور المجعولة في الدنيا على تقدير المشيئة و﴿ خير ﴾ هنا ليست تدل على الأفضلية بل هي على ما جرت عادة العرب في بيان فضل الشيء وخصوصيته بالفضل دون مقابله كقوله :

فشركما لخيركما الفداء . . .

وكقول العرب : الشقاء أحب إليك أم السعادة .

وكقوله ﴿ السجن أحب إليّ مما يدعونني إليه ﴾ وهذا الاستفهام على سبيل التوقيف والتوبيخ .

قال ابن عطية : ومن حيث كان الكلام استفهاماً جاز فيه مجيء لفظه للتفضيل بين الجنة والنار في الخير لأن الموقف جائز له أن يوقف محاوره على ما شاء ليرى هل يجيبه بالصواب أو بالخطأ ، وإنما منع سيبويه وغيره من التفضيل إذا كان الكلام خبراً لأن فيه مخالفة ، وأما إذا كان استفهاماً فذلك سائغ انتهى .

وما ذكره يخالفه قوله :

فشركما لخيركما الفداء . . .

وقوله ﴿ السجن أحب إليّ ﴾ فإن هذا خبر .

وكذلك قولهم : العسل أحلى من الخل إلاّ إن تقيد الخبر بأنه إذا كان واضحاً الحكم فيه للسامع بحيث لا يختلج في ذهنه ولا يتردد أيهما أفضل فإنه يجوز .

وضمير ﴿ التي ﴾ محذوف أي وعدها وضمير ﴿ ما يشاؤون ﴾ كذلك أي ما يشاؤونه وفي قوله ما يشاؤونه دليل على أن حصول المرادات بأسرها لا تكون ألاّ في الجنة .

وشمل قوله ﴿ جزاءً ومصيراً ﴾ الثواب ومحله كما قال ﴿ نعم الثواب وحسنت مرتفقاً ﴾ وفي ضده ﴿ بئس الشراب وساءت مرتفقاً ﴾ لأنه بطيب المكان يتضاعف النعيم ، كما أنه برداءته يتضاعف العذاب ﴿ وعداً ﴾ أي موعوداً ﴿ مسؤولاً ﴾ سألته الملائكة في قولهم ﴿ ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ﴾ قاله محمد بن كعب والناس في قولهم ﴿ ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ﴾ ﴿ ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة ﴾ وقال معناه ابن عباس وابن زيد .

(98/558)

وقال الفراء : ﴿ وعداً مسؤولاً ﴾ أي واجباً يقال لأعطينك ألفاً وعداً مسؤولاً أي واجباً ، وإن لم يسأل .

قيل : وما قاله الفراء محال انتهى .

وليس محالاً إذ يكون المعنى أنه ينبغي أن يسأل هذا الوعد الذي وعدته أو بصدد أن يسأل أي من حقه أن يكون مسؤولاً .

و ﴿ على ربك ﴾ أي بسبب الوعد صار لا بد منه .

وقال الزمخشري : كان ذلك موعوداً واجباً على ربك انجازه حقيقاً أن يسأل .

ويطلب لأنه جزاء وأجر مستحق ، وهذا على مذهب المعتزلة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(99/558)

وقال أبو السعود :

﴿ قُلْ ﴾ تقريعاً لهم وتهكُّماً بهم وتحسيراً على ما فاتَهم ﴿ أذلك ﴾ إشارةٌ إلى ما ذُكر من السَّعير باعتبار اتَّصافها بما فُصِّل من الأحوال الهائلة ، وما فيه من معنى البُعد للإشعار بكونها في الغاية القاصيةِ من الهول والفظاعةِ أي قُل لهم أذلك الذي ذُكر من السَّعير التي

أعتدت لمن كذَّب بالسَّاعة وشأنُها كيتَ وكيتَ وشأنُ أهلِها ذيتَ وذيتَ ﴿ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الخلد التى وَعِدَ المتقون ﴾ أي وُعدها المتَّقون . وإضافةُ الجَّنةِ إلى الخُلد للمدحِ وقيل : للتَّمييز عن جنَّاتِ الدُّنيا . والمرادُ بالمتَّقين المتَّصفون بمطلق التَّقوى لا بالمرتبة الثَّانيةِ أو الثَّالثةِ منها فَقَطْ ﴿ كَانَتْ ﴾ تلك الجَّنةُ ﴿ لَهُمْ ﴾ في علم الله تعالى أو في اللَّوح المحفوظِ أو لأنَّ ما وعده الله تعالى فهو كائنٌ لا محالةَ فحُكي تحقُّقه ووقوعُه ﴿ جَزَاء ﴾ على أعمالِهم حسبما مرَّ من الوعد الكريم ﴿ وَمَصِيراً ﴾ ينقلبون إليه .

(100/558)

﴿ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءونَ ﴾ أي ما يشاءونه من فنُون الملاذّ والمُشتَهيات وأنواع النَّعيمِ كما في قولِه تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِى أَنفُسُكُمْ ﴾ ولعلَّ كلَّ فريقٍ منهم يقتنعُ بما أُتيح له من درجات النَّعيم ولا تمتدُّ أعناقُ هممِهم إلى ما فوق ذلك من المراتبِ العاليةِ فلا يلزم الحرمانُ ولا تساوي مراتبِ أهلِ الجنانِ ﴿ خالدين ﴾ حالٌ من الضَّمير المستكّنِ في الجارّ والمجرورِ لاعتماده على المبتدأ وقيل : من فاعل يشاءون ﴿ كَانَ ﴾ أي ما يشاؤنه وقيل : الوعدُ المدلولُ عليه بقوله تعالى وُعد المتَّقون ﴿ على رَبّكَ وَعْداً مَّسْئُولاً ﴾ أي موعُوداً حقيقيًّا بأنْ يُسألَ ويُطلبَ لكونِه مَّما يتنافسُ فيه المُتنافسون أو مسؤولاً لا يسألُه النَّاسُ في دُعائهم

بقولِهم ربنا وآتنا ما وعدتنا على رُسلك أو الملائكة بقولهم ربنا وأدخلهم جنَّاتِ عدن التي وعدتهم ، وما في على من معنى الوجوبِ لامتناع الخُلفِ في وعدِه تعالى ولا يلزم منه الإلجاءُ إلى الإنجازِ فإنَّ تعلَّق الإرادة بالموعودِ متقدِّمٌ على الوعدِ الموجبِ للإنجاز ، وفي التَّعرضِ لعُنوان الرُّبوبِيّةِ مع الإضافة إلى ضميره عليه الصَّلاة والسَّلام من تشريفه والإشعارِ بأنه عليه الصَّلاة والسَّلام هو الفائزُ آثر ذي أثيرٍ بمغانم الوعدِ الكريمِ ما لا يَخفْى . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير أبى السعود حـ 6 صـ ﴾

(101/558)

وقال الآلوسى :

﴿ قُلْ ﴾ تقريعاً لهم وتهكماً بهم وتحسيراً على ما فاتهم ﴿ أذلك ﴾ إشارة إلى ما ذكر من السعير باعتبار اتصافها بما فصل من الأحوال الهائلة فإنها التي كثيرا ما تقابل بالجنة ، وما فيه من معنى البعد للإشعار بكونها في الغاية القاصية من الهول والفظاعة ، وقيل : إشارة إلى ما ذكر من الجنة والكنز في قولهم : ﴿ أو يلقى إليه كنز ﴾ [الفرقان : 8] الخ . وقيل : إلى الجنة والقصور المجعولة في الدنيا على تقدير المشيئة وكلا القولين لا يعول عليهما لا سيما الأخير أي أذلك الذي ذكر من السعير التي اعتدت لمن كذب بالساعة وشأنها كيت

وكيت وشأن أهلها ذيت ذيت ﴿ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الخلد التى وَعِدَ المتقون ﴾ أي وعدها المتقون لأن وعد تتعدى لمفعولين وهذا المحذوف هو العائد على الموصول ؛ وإضافة الجنة إلى الخلد إن كانت نسبة الإضافة معلومة للمدح فإن المدح يكون بما هو معلوم ، وإن لم تكن معلومة فلافادة خلود الجنة ، ولا يخدشه قوله تعالى : ﴿ خالدين ﴾ [الفرقان : 16] بعد لأنه للدلالة على خلود أهلها لا خلودها في نفسها وإن تلازماً أو أن ذلك للتمييز عن جنات الدنيا ، وقيل : إن جنة الخلد علم كجنة عدن ، والمراد بالمتقين المتصفون بمطلق التقوى لا بالمرتبة الثانية أو الثالثة منها فقط ، ويدل عليه مقابلتهم بالكافرين في النظم الكريم ، وقيل : يجوز أن يراد الكاملون في التقوى ووعدها إياهم وعدد خولها ابتداء دون سبق عذاب وهو مختص بهم وليس بذاك ، والترديد والتفضيل في ﴿ خَيْرٌ ﴾ مع أنه لا شك في أنه لا خيرية في السعير للتهكم والتقريع كما أشرنا إليه .

(102/558)

وقال ابن عطية : حيث كان الكلام استفهاماً جاز فيه مجيء لفظة التفضيل بين الجنة والسعير في الخير لأن الموقف جائز له أن يوقف محاوره على ما شاء ليرى هل يجيبه بالصواب أو بالخطأ ، وإنما منع سيبويه وغيره من التفضيل إذا كان الكلام خيراً لأن فيه

مخالفة الواقع ، وأما إذا كان استفهاماً فذلك سائغ ، وقال أبو حيان : إن ﴿ خَيْرٌ ﴾ هنا ليس للدلالة على الأفضلية بل هو على ما جرت به عادة العرب في بيان فضل الشيء وخصوصيته بالفضل دون مقابله كقول حسان

: فشركما لخيركما الفدا . . .

وقولهم الشقاء أحب أليك أم السعادة والعسل أحلى من الخل ، وقوله تعالى حكاية عن يوسف عليه السلام ﴿ السجن أَحَبُّ إِلَيَّ ﴾ [يوسف : 33] ولا اختصاص لذلك في استفهام أو خبر .

وما ذكر من أمثلة الخبر يرد على ابن عطية إلا أن يقيد الخير الذي ادعى منه سيبويه فيه بما لم يكن الحكم فيه واضحاً أما إذا كان الحكم فيه واضحاً للسامع بحيث لا يختلج في ذهنه ولا يتردد في الأفضل فإن التفضيل يجوز فيه ، وقد تقدم تحقيق الكلام في هذا المقام وما أشرنا إليه هنا أولى بالاعتبار مما أشار ابن عطية وأبو حيان إليه .

(103/558)

﴿ كَانَتْ ﴾ تلك الجنة ﴿ لَهُمْ ﴾ أي في علم الله تعالى أو في اللوح أو المراد تكون على أنه وعد من أكرم الأكرمين عبر عنه بالماضي على طريق الاستعارة لتحقيق وقوعه فإنه

سبحانه لا يخلف الميعاد ، وجوز أن يكون هذا باعتبار تقدم وعده تعالى في كتبه وعلى لسان رسله عليهم الصلاة والسلام أياهم بها ﴿ جَزَاء ﴾ على أعمالهم بمقتضى الوعد لا بالإيجاب ﴿ وَمَصِيراً ﴾ ينقلبون إليه ، ولم يكتف بقوله تعالى : ﴿ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاء ﴾ لعدم استلزامه ذلك فقد يثبت الملك في الدنيا إنساناً ببستان مثلاً ولا يراه فضلاً عن أن يسكن فيه ، وجملة ﴿ كَانَتْ لَهُمْ ﴾ الخ على ما ذكره الطبرسي في موضع الحال من الضمير المحذوف العائد على الموصول في ﴿ وُعِدَ المتقون ﴾ بتقدير قد أو بدونه ، وجوز أن تكون بدلاً من ﴿ وُعِدَ المتقون ﴾ وتفسيراً له ، وأن تكون استئنافاً في موضع التعليل .

(104/558)

وذكر الزمخشري ما يشعر بأن هذه الجملة تذييل لتذكير النعمة بما خولهم الله تعالى وطيب عيشهم في ذلك المكان الرافع على وجه يتضمن ضد ذلك لأضدادهم فكأنه قيل كانت لهم جزاء موفوراً لا يدخل تحت الوصف ومصيراً أي مصيراً لا يقادر قدره وليس كمصير الكفرة المشار إليه بقوله سبحانه : ﴿ وَإِذَا أُلْقُواْ مِنْهَا مَكَاناً ضَيّقاً ﴾ [الفرقان : 13] ويعلم منه فائدة ذكر المصير مع ذكر الجزاء فتأمل ، وقوله سبحانه : ﴿ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءونَ ﴾ قيل استئناف وقع جواباً لسؤال نشأ مما قبله حيث أفاد أن الجنة مسكن لهم والساكن

في دار يحتاج إلى أشياء كثيرة لتطيب نفسه بسكناها فكأن سائلا يقول : ما لهم إذا صاروا إليها وسكنوا فيها ؟ فقيل لهم فيها ما يشاؤون ، وقال الطبرسي : الجملة في موضع الحال من قوله تعالى : ﴿ المتقون ﴾ [الفرقان : 15] وما موصولة مبتدأ والعائد محذوف و ﴿ لَهُمْ ﴾ خبره ﴾ و ﴿ ﴾ و ﴿ فِيهَا ﴾ متعلق بما تعلق به أي كائن لهم فيها الذي يشاؤونه من فنون الملاذ والمشتهيات وأنواع النعيم الورحاني والجسماني ، ولعل كل فريق يقتنع بما أبيح له من درجات النعيم ويرى ما هو فيه ألذ الأشياء ولا تمتد أعناق هممهم إلى ما فوق ذلك من المراتب العالية ولا يخطر بباله ما يخطر طلبة ولا يتأتى له فلا يشاء آحاد المؤمنين رتبة الأنبياء عليهم السلام ولا يتعرضون للشفاعة لمن كتب عليه الخلود في النار مثلا فلا يلزم الحرمان ولا تساوي مراتب أهل الجنان ، وعلى ضد هؤلاء فيما ذكر أهل النار فقد قال سبحانه فيهم ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ [سبأ : 54] .

(105/558)

﴿ خالدين ﴾ حال من أحد ضمائرهم على ما قيل وظاهره عدم الترجيح ، وقال بعض الأفاضل : جعله حالاً من الأول يقتضي كونها حالاً مقدرة ومن الثالث يوهم تقييد المشيئة بها فخير الأمور أوسطها ، ورجح بعضهم الثالث لقربه والتقييد غير مخل بل مهم ، وجوز

كونها حالاً من المتقين ولا يخفى حاله ، ولبعض الأجلة ههنا كلام فيه بحث ذكره الحمصي في حواشي التصريح فليراجع ﴿ كَانَ ﴾ أي الوعد بما ذكر أو الموعود المفهوم من الكلام فيشمل الوعد بالجنة وبحصول ما يشاؤون لهم فيها وبالخلود على الأول والجنة وحصول المرادات والخلود الموعود بها على الثاني ، وقال بعضهم : الضمير للخلود ، وآخر لحصول ما يشاؤون لهم فيها أوله ولكون الجنة جزاءً ومصيراً ، والإفراد باعتبار ما ذكر ويغني عنه ما سمعت ، والأكثرون على أنه لما يشاؤون وهو اسم كان وقوله تعالى : ﴿ على رَبِّكَ ﴾ متعلق بها أو بمحذوف وقع حالاً من قوله سبحانه : ﴿ وَعْداً ﴾ وهو خبرها ، ولم يجوز تعلق الجار به سواء كان باقياً على مصدريته أو مؤولاً باسم المفعول أي موعوداً لما علمت من الخلاف في مرجع الضمير بناءً على منع تقديم معمول المصدر عليه وإن كان مؤولاً بغيره أو كان المقدم ظرفاً وفيه خلاف ، وجوز أن يكون ﴿ على رَبِّكَ ﴾ متعلقاً بمحذوف هو الخبر و﴿ وَعْداً ﴾ مصدراً مؤكداً ، والأظهر أن يجعل هو الخبر أي كان ذلك وعداً أو موعوداً ﴿ مَّسْئُولاً ﴾ أي حقيقاً أن يسئل ويطلب لكونه مما يتنافس فيه المتنافسون أو سبباً لحصول ذلك فمسؤوليته كناية عن كونه أمراً عظيماً ، ويجوز أن يراد كون الموعود مسؤولاً حقيقة بمعنى يسأله الناس في دعائهم بقولهم :

﴿ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا على رُسُلِكَ ﴾ [آل عمران : 194] ، وقال سعيد بن أبي هلال : سمعت أبا حازم رضي الله تعالى عنه يقول : إذا كان يوم القيامة يقول المؤمنون : ربنا عملنا لك بما أمرتنا فأنجز لنا ما وعدتنا فذلك قوله تعالى : ﴿ وَعْداً مَسْؤُولاً ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق سعيد هذا عن محمد بن كعب القرظي أنه قال في الآية : إن الملائكة عليهم السلام لتسأل ذلك في قولهم : ﴿ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جنات عَدْنٍ التى وَعَدْتَّهُمْ ﴾ [غافر : 8] والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره عليه الصلاة والسلام لتشريفه صلى الله عليه وسلم والإشعار بأنه عليه الصلاة والسلام هو الفائز بمغانم الوعد الكريم .

واستشكلت الآية على مذهب الأشاعرة لأنها تدل على الوجوب على الله تعالى لمكان ﴿ على ﴾ وعندهم لا يجب عليه سبحانه شيء لاستلزام ذلك سلب الاختيار وعدم استحقاق الحمد ، وأجيب بأن الوجوب الذي تدل عليه الآية وجوب بمقتضى الوعد والممتنع إيجاب الإلجاء والقسر من خارج لأنه السالب للاختيار الموجب للمفسدة دون إيجابه تعالى على نفسه شيئاً بمقتضى وعده وكرمه فإنه مسبوق بالإرادة والوجوب الناشىء من الإرادة لا ينافي الاختيار ، وهذا ظاهر إذا كان الوعد حادثاً وأما إذا كان

قديماً فالسابقية والمسبوقية بحسب الذات وذلك لا يستلزم الحدوث ، أو يقال : الحادث بالإرادة تعلقه بالموعود به فافهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 18 صـ ﴾

(107/558)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا (7) ﴾

لما فرغ سبحانه من ذكر ما طعنوا به على القرآن ذكر ما طعنوا به على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال ﴿ وَقَالُواْ مَالِ هذا الرسول ﴾ وفي الإشارة هنا تصغير لشأن المشار إليه ، وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسموه : رسولا استهزاء وسخرية ﴿ يَأْكُلُ الطعام وَيَمْشِي فِي الأسواق ﴾ أي : ما باله يأكل الطعام كما نأكل ، ويتردّد في الأسواق لطلب المعاش كما نتردّد ، وزعموا أنه كان يجب أن يكون ملكاً مستغنياً عن الطعام والكسب ، وما الاستفهامية في محل رفع على الابتداء ، والاستفهام للاستنكار ، أو خبر المبتدأ لهذا الرسول ، وجملة : ﴿ يَأْكُلُ ﴾ في محل نصب على الحال ، وبها تتمّ فائدة الإخبار كقوله : ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ التذكرة مُعْرِضِينَ ﴾ [المدثر : 49] ، والإنكار متوجه

إلى السبب مع تحقق المسبب ، وهو : الأكل والمشي ، ولكنه استبعد تحقق ذلك لانتفاء سببه عندهم تهكماً واستهزاء ، والمعنى : أنه إن صحّ ما يدّعيه من النبوّة ، فما باله لم يخالف حاله حالنا ﴿ لَوْلا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً ﴾ طلبوا : أن يكون النبيّ صلى الله عليه وسلم مصحوباً بملك يعضده ويساعده ، تنزلوا عن اقتراح أن يكون الرسول صلى الله عليه وسلم ملكاً مستغنياً عن الأكل والكسب ، إلى اقتراح أن يكون معه ملك يصدّقه ، ويشهد له بالرسالة ، قرأ الجمهور : ﴿ فيكون ﴾ بالنصب على كونه جواب التحضيض . وقرىء " فيكون " بالرفع على أنه معطوف على أنزل ، وجاز عطفه على الماضي ، لأن المراد به المستقبل .

(108/558)

﴿ أَوْ يلقى إِلَيْهِ كَنْزٌ ﴾ معطوف على أنزل ، ولا يجوز عطفه على فيكون ، والمعنى : أو هلا يلقى إليه كنز ، تنزلوا من مرتبة نزول الملك معه ، إلى اقتراح أن يكون معه كنز يلقى إليه من السماء ؛ ليستغني به عن طلب الرزق ﴿ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ تكون ﴾ بالمثناة الفوقية ، وقرأ الأعمش ، وقتادة : " يكون " بالتحتية ، لأن تأنيث الجنة غير حقيقي .

وقرأ " نأكل " بالنون حمزة وعليّ وخلف ، وقرأ الباقون : ﴿ يأكل ﴾ بالمثناة التحتية أي : بستان نأكل نحن من ثماره ، أو يأكل هو وحده منه ؛ ليكون له بذلك مزية علينا حيث يكون أكله من جنته .

قال النحاس : والقراءتان حسنتان ، وإن كانت القراءة بالياء أبين ، لأنه قد تقدّم ذكر النبي صلى الله عليه وسلم وحده ، فعود الضمير إليه بين ﴿ وَقَالَ الظالمون إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُوراً ﴾ المراد ب ﴿ الظالمون ﴾ هنا : هم القائلون بالمقالات الأولى ، وإنما وضع الظاهر موضع المضمر مع الوصف بالظلم للتسجيل عليهم به أي : ما تتبعون إلاّ رجلاً مغلوباً على عقله بالسحر ، وقيل : إذا سحر ، وهي الرئة أي : بشراً له رئة لا ملكاً ، وقد تقدّم بيان مثل هذا في سبحان .

﴿ انظر كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ الأمثال ﴾ ليتوصلوا بها إلى تكذيبك ، والأمثال هي : الأقوال النادرة ، والاقتراحات الغريبة ، وهي ما ذكروها هنا ﴿ فَضَلُّواْ ﴾ عن الصواب فلا يجدون طريقاً إليه ، ولا وصلوا إلى شيء منه ، بل جاءوا بهذه المقالات الزائفة التي لا تصدر عن أدنى العقلاء ، وأقلهم تمييزاً ، ولهذا قال ﴿ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً ﴾ أي : لا يجدون إلى القدح في نبوّة هذا النبيّ طريقاً من الطرق ﴿ تَبَارَكَ الذي إِن شَاء جَعَلَ لَكَ خَيْراً مّن ذلك ﴾ أي : تكاثر خير الذي إن شاء جعل لك في الدنيا معجلاً خيراً من ذلك الذي اقترحوه .

ثم فسر الخير ، فقال ﴿ جنات تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار ﴾ ، فجنات بدل من ﴿ خيراً ﴾ ﴿ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُوراً ﴾ معطوف على موضع جعل ، وهو الجزم ، وبالجزم قرأ الجمهور .

وقرأ ابن كثير ، وابن عامر ، وأبو بكر برفع " يجعل " على أنه مستأنف ، وقد تقرّر في علم الإعراب : أن الشرط إذا كان ماضياً جاز في جوابه الجزم والرفع ، فجاز أن يكون جعل ها هنا في محل جزم ورفع ، فيجوز فيما عطف عليه أن يجزم ويرفع .

وقرىء بالنصب ، وقرىء بإدغام لام لك في لام يجعل لاجتماع المثلين .

وقرىء بترك الإدغام ؛ لأن الكلمتين منفصلتان ، والقصر : البيت من الحجارة ؛ لأن الساكن به مقصور عن أن يوصل إليه ، وقيل : هو بيت الطين ، وبيوت الصوف والشعر .

ثم أضرب سبحانه عن توبيخهم بما حكاه عنهم من الكلام الذي لا يصدر عن العقلاء ، فقال : ﴿ بَلْ كَذَّبُواْ بالساعة ﴾ أي : بل أتوا بأعجب من ذلك كله .

وهو تكذيبهم بالساعة ، فلهذا لا ينتفعون بالدلائل ، ولا يتأملون فيها .

ثم ذكر سبحانه ما أعدّه لمن كذب بالساعة ، فقال ﴿ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بالساعة سَعِيراً

﴿ أي : ناراً مشتعلة متسعرة ، والجملة في محل نصب على الحال أي : بل كذبوا بالساعة ، والحال أنا أعتدنا .

قال أبو مسلم : ﴿ أعتدنا ﴾ أي : جعلناه عتيداً ، ومعدّاً لهم ﴿ إِذَا رَأَتْهُمْ مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً ﴾ هذه الجملة الشرطية في محل نصب صفة ل ﴿ سعيراً ﴾ لأنه مؤنث بمعنى : النار ، قيل : معنى ﴿ إذا رأتهم ﴾ : إذا ظهرت لهم ، فكانت بمرأى الناظر في البعد ، وقيل : المعنى : إذا رأتهم خزنتها ، وقيل : إن الرؤية منها حقيقية ، وكذلك التغيظ والزفير ، ولا مانع من أن يجعلها الله سبحانه مدركة هذا الإدراك .

ومعنى ﴿ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ : أنها رأتهم ، وهي بعيدة عنهم ، قيل : بينها وبينهم مسيرة خمسمائة عام .

(110/558)

ومعنى التغيظ : أن لها صوتاً يدل على التغيظ على الكفار ، أو لغليانها صوتاً يشبه صوت المغتاظ .

والزفير : هو الصوت الذي يسمع من الجوف .

قال الزجاج : المراد : سماع ما يدل على الغيظ ، وهو الصوت أي : سمعوا لها صوتاً يشبه

صوت المتغيظ .

وقال قطرب : أراد علموا لها تغيظاً ، وسمعوا زفيراً كما قال الشاعر :

متقلداً سيفاً ورمحاً . . . أي : وحاملاً رمحاً ، وقيل : المعنى : سمعوا فيها تغيظاً وزفيراً للمعذبين كما قال : ﴿ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴾ [هود : 106] ، وفي واللام متقاربان ، تقول : افعل هذا في الله ولله .

﴿ وَإِذَا أُلْقُواْ مِنْهَا مَكَاناً ضَيِّقاً ﴾ وصف المكان بالضيق للدلالة على زيادة الشدّة ، وتناهي البلاء عليهم ، وانتصاب ﴿ مُقْرِنِينَ ﴾ على الحال أي : إذا ألقوا منها مكاناً ضيقاً حال كونهم مقرّنين قد قرنت أيديهم إلى أعناقهم بالجوامع مصفدين بالحديد ، وقيل : مكتفين ، وقيل : قرنوا مع الشياطين أي : قرن كل واحد منهم إلى شيطانه ، وقد تقدّم الكلام على مثل هذا في سورة إبراهيم ﴿ دَعَوْاْ هُنَالِكَ ﴾ أي : في ذلك المكان الضيق ﴿ ثُبُوراً ﴾ أي : هلاكاً .

(111/558)

قال الزجاج : وانتصابه على المصدرية أي : ثبرنا ثبوراً ، وقيل : منتصب على أنه مفعول له ، والمعنى : أنهم يتمنون هنالك الهلاك ، وينادونه لما حلّ بهم من البلاء ، فأجيب عليهم

بقوله : ﴿ لاَّ تَدْعُواْ اليوم ثُبُوراً واحدا ﴾ أي : فيقال لهم هذه المقالة ، والقائل لهم هم الملائكة أي : اتركوا دعاء ثبور واحد ، فإن ما أنتم فيه من الهلاك أكبر من ذلك ، وأعظم ، كذا قال الزجاج ﴿ وادعوا ثُبُوراً كَثِيراً ﴾ والثبور مصدر يقع على القليل والكثير ، فلهذا لم يجمع ، ومثله ضربته ضرباً كثيراً ، وقعد قعوداً طويلاً ، فالكثرة ها هنا هي بحسب كثرة الدعاء المتعلق به ، لا بحسب كثرته في نفسه ، فإنه شيء واحد ، والمعنى : لا تدعوا على أنفسكم بالثبور دعاء واحداً ، وادعوه أدعية كثيرة ، فإن ما أنتم فيه من العذاب أشدّ من ذلك لطول مدّته ، وعدم تناهيه ، وقيل : هذا تمثيل وتصوير لحالهم بحال من يقال له ذلك من غير أن يكون هناك قول ، وقيل : إن المعنى : إنكم وقعتم فيما ليس ثبوركم فيه واحداً بل هو ثبور كثير ، لأن العذاب أنواع ، والأولى أن المراد بهذا الجواب عليهم : الدلالة على خلود عذابهم ، وإقناطهم عن حصول ما يتمنونه من الهلاك المنجي لهم مما هم فيه .

ثم وبّخهم الله سبحانه توبيخاً بالغاً على لسان رسوله ، فقال ﴿ قُلْ أذلك خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الخلد التى وَعِدَ المتقون ﴾ والإشارة بقوله ﴿ ذلك ﴾ إلى السعير المتصفة بتلك الصفات العظيمة أي : أتلك السعير خير أم جنة الخلد ؟ وفي إضافة الجنة إلى الخلد إشعار بدوام نعيمها ، وعدم انقطاعه ، ومعنى ﴿ التي وُعِدَ المتقون ﴾ : التي وعدها المتقون ، والمجيء بلفظ خير هنا مع أنه لا خير في النار أصلاً ، لأن العرب قد تقول ذلك ، ومنه ما حكاه سيبويه عنهم ، أنهم يقولون : السعادة أحبّ إليك أم الشقاوة ؟ وقيل : ليس هذا من باب

التفضيل ، وإنما هو كقولك : عنده خير .

قال النحاس : وهذا قول حسن .

كما قال :

(112/558)

أتهجوه ولست له بكفء . . . فشركما لخيركما الفداء

ثم قال سبحانه : ﴿ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيراً ﴾ أي : كانت تلك الجنة للمتقين جزاء على أعمالهم ، ومصيراً يصيرون إليه .

﴿ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ ﴾ أي : ما يشاؤونه من النعيم ، وضروب الملاذ كما في قوله : ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ ﴾ [فصلت : 31] ، وانتصاب خالدين على الحال ، وقد تقدم تحقيق معنى الخلود .

﴿ كَانَ على رَبِّكَ وَعْداً مَسْؤُولاً ﴾ أي : كان ما يشاؤونه ، وقيل : كان الخلود ، وقيل : كان الوعد المدلول عليه بقوله : ﴿ وُعِدَ المتقون ﴾ ومعنى الوعد المسؤول : الوعد المحقق بأن يسأل ويطلب كما في قوله : ﴿ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا على رُسُلِكَ ﴾ [آل عمران :

194] ، وقيل : إن الملائكة تسأل لهم الجنة كقوله : ﴿ وَأَدْخِلْهُمْ جنات عَدْنٍ التي وَعَدْتَّهُمْ ﴾ [غافر : 8] ، وقيل : المراد به : الوعد الواجب ، وإن لم يسأل .

(113/558)

وقد أخرج ابن إسحاق ، وابن جرير ، وابن المنذر ، عن ابن عباس : أن عتبة بن ربيعة وأبا سفيان بن حرب والنضر بن الحارث وأبا البحتري والأسود بن عبد المطلب وزمعة بن الأسود ، والوليد بن المغيرة وأبا جهل بن هشام وعبد الله بن أبي أمية وأمية بن خلف والعاص بن وائل ونبيه بن الحجاج ومنبه بن الحجاج اجتمعوا ، فقال بعضهم لبعض : ابعثوا إلى محمد وكلموه وخاصموه حتى تعذروا منه ، فبعثوا إليه : إن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك ، قال : فجاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : يا محمد إنا بعثنا إليك لنعذر منك ، فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالاً جمعنا لك من أموالنا ، وإن كنت تطلب به الشرف فنحن نسوّدك ، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما بي مما تقولون ، ما جئتكم بما جئتكم به أطلب أموالكم ، ولا الشرف فيكم ، ولا الملك عليكم ، ولكن الله بعثني إليكم رسولاً ، وأنزل عليّ كتاباً ، وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً ، فبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ، فإن تقبلوا مني ما

جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وإن تردّوه عليّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم " ، قالوا : يا محمد ، فإن كنت غير قابل منا شيئاً مما عرضنا عليك ، أو قالوا : فإذا لم تفعل هذا ، فسل لنفسك ، وسل ربك : أن يبعث معك ملكاً يصدقك بما تقول ، ويراجعنا عنك ، وسله أن يجعل لك جناناً وقصوراً من ذهب وفضة تغنيك عما نراك تبتغي ، فإنك تقوم بالأسواق وتلتمس المعاش كما نلتمسه ، حتى نعرف فضلك ومنزلتك من ربك إن كنت رسولاً كما تزعم ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما أنا بفاعل ، ما أنا بالذي يسأل ربه هذا ، وما بعثت إليكم بهذا ، ولكن الله بعثني بشيراً ونذيراً " ، فأنزل الله في ذلك ﴿ وَقَالُواْ مَّالِ هذا الرسول يَأْكُلُ الطعام ﴾ ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ

(114/558)

رَبُّكَ بَصِيراً ﴾ [الفرقان : 20] أي : جعلت بعضكم لبعض بلاء لتصبروا ، ولو شئت أن أجعل الدنيا مع رسلي فلا يخالفون لفعلت .

وأخرج الفريابي ، وابن أبي شيبة في المصنف ، وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن خيثمة قال : قيل للنبي صلى الله عليه وسلم : إن شئت

أعطيناك من خزائن الأرض ، ومفاتيحها ما لم يعط نبيّ قبلك ، ولا نعطها أحداً بعدك ، ولا ينقصك ذلك مما لك عند الله شيئاً ، وإن شئت جمعتها لك في الآخرة ، فقال : " اجمعوها لي في الآخرة " ، فأنزل الله سبحانه : ﴿ تَبَارَكَ الذي إِن شَاء جَعَلَ لَكَ خَيْراً مّن ذلك جنات تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار وَيَجْعَل لَّكَ قُصُوراً ﴾ .

وأخرج نحوه عنه ابن مردويه من طريق أخرى .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق خالد بن دريك عن رجل من الصحابة قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : " من يقل عليّ ما لم أقل ، أو ادعى إلى غير والديه ، أو انتمى إلى غير مواليه ، فليتبوأ بين عيني جهنم مقعداً " ، قيل يا رسول الله : وهل لها من عينين ؟ قال : " نعم ، أما سمعتم الله يقول ﴿ إِذَا رَأَتْهُمْ مّن مّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ "

وأخرج آدم بن أبي إياس في تفسيره عن ابن عباس في قوله : ﴿ إِذَا رَأَتْهُمْ مّن مّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ قال : من مسيرة مائة عام ، وذلك إذا أتى بجهنم تقاد بسبعين ألف زمام يشدّ بكل زمام سبعون ألف ملك لو تركت لأتت على كل برّ وفاجر ﴿ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً ﴾ تزفر زفرة لا تبقي قطرة من دمع إلاّ بدت ، ثم تزفر الثانية ، فتقطع القلوب من أماكنها ، وتبلغ القلوب الحناجر .

وأخرج ابن أبي حاتم عن يحيى بن أسيد : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن قول الله : ﴿ وَإِذَا أُلْقُواْ مِنْهَا مَكَاناً ضَيّقاً مُّقَرَّنِينَ ﴾ قال : " والذي نفسي بيده إنهم ليستكرهون في النار كما يستكره الوتد في الحائط " وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿ دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُوراً ﴾ قال : ويلاً ﴿ لاَّ تَدْعُواْ اليوم ثُبُوراً واحدا ﴾ يقول : لا تدعوا اليوم ويلاً واحداً .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد وعبد بن حميد والبزار وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه ، والبيهقي في البعث .

قال السيوطي بسندٍ صحيح عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن أوّل ما يكسي حلته من النار إبليس ، فيضعها على حاجبيه ويسحبها من خلفه ، وذريته من بعده ، وهو ينادي : يا ثبوراه ، ويقولون : يا ثبورهم حتى يقف على الناس ، فيقول : يا ثبوراه ، ويقولون : يا ثبورهم ، فيقال لهم : ﴿ لاَّ تَدْعُواْ اليوم ثُبُوراً واحدا وادعوا ثُبُوراً كَثِيراً ﴾ " وإسناد أحمد هكذا : حدّثنا عفان عن حميد بن سلمة عن علي بن زيد عن أنس : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فذكره .

وفي عليّ بن زيد بن جدعان مقال معروف .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس : ﴿ كَانَ على ربّكَ وَعْداً مَسْؤُولاً ﴾ يقول : سلوا الذي وعدتكم تنجزوه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 4 صـ ﴾

(116/558)

وقال ابن عاشور :

﴿ قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ﴾

الأمر بالقول يقتضي مخاطباً مقولاً له ذلك : فيجوز أن يقصد : قل لهم ، أي للمشركين الذين يسمعون الوعيد والتهديد السابق : "أذلك خير أم الجنة" ؟ فالجمل متصلة السياق ، والاستفهام حينئذٍ للتهكم إذ لا شبهة في كون الجنة الموصوفة خيراً .

ويجوز أن يقصد : قل للمؤمنين ، فالجملة معترضة بين آيات الوعيد لمناسبة إبداء البون بين حال المشركين وحال المؤمنين ، والاستفهام حينئذٍ مستعمل في التلميح والتلطف .

وهذا كقوله : ﴿ أذلك خيرٌ نُزُلاً أم شجرةُ الزقوم ﴾ في سورة الصافات (62) .

والإشارة إلى المكان الضيق في جهنم .

و ﴿ خير ﴾ اسم تفضيل ، وأصله (أخير) بوزن اسم التفضيل فحذفت الهمزة لكثرة الاستعمال .

والتفضيل على المحمل الأول في موقع الآية مستعمل للتهكم بالمشركين .

وعلى المحمل الثاني مستعمل للتلميح في خطاب المؤمنين وإظهار المنة عليهم .

ووصف الموعودين بأنهم متقون على المحمل الأول جار على مقتضى الظاهر ، وعلى المحمل الثاني جار على خلاف مقتضى الظاهر لأن مقتضى الظاهر أن يؤتى بضمير الخطاب ، فوجه العدول إلى الإظهار ما يفيده ﴿ المتقون ﴾ من العموم للمخاطبين ومن يجيء بعدهم .

وجملة : ﴿ كانت لهم جزاء ومصيراً ﴾ تذييل لجملة : ﴿ جنة الخلد التي وعد المتقون ﴾ لما فيها من التنويه بشأن الجنة بتنكير ﴿ جزاء ومصيراً ﴾ مع الإيماء إلى أنهم وعدوا بها وعد مجازاة على نحو قوله تعالى : ﴿ نعم الثواب وحسنت مرتفقاً ﴾ [الكهف : 31] وقوله : ﴿ بئس الشراب وساءت مرتفقاً ﴾ في سورة الكهف (29 31) .

وجملة : لهم فيها ما يشاؤون ﴾ ، حال من ﴿ جنة الخلد ﴾ أو صفة ثانية .

وجملة : ﴿ كان على ربك وعداً مسئولاً ﴾ حال ثانية والرابط محذوف إذ التقدير : وعداً لهم .

(117/558)

والضمير المستتر في : ﴿ كان على ربك وعداً ﴾ عائد إما إلى الوعد المفهوم من قوله : ﴿ التي وعد المتقون ﴾ ، أي كان الوعد وعداً مسؤولاً وأخبر عن الوعد بـ ﴿ وعداً ﴾ وهو عينه ليبنى عليه ﴿ مسئولاً ﴾ .

ويجوز أن يعود الضمير إلى ﴿ ما يشاءون ﴾ والإخبار عنه بـ ﴿ وعداً ﴾ من الإخبار بالمصدر والمراد المفعول كالخلق بمعنى المخلوق .

ويتعلق : ﴿ على ربك ﴾ بـ ﴿ وعداً ﴾ لتضمين ﴿ وعداً ﴾ معنى (حقّاً) لإفادة أنه ﴿ وعداً ﴾ لا يخلف كقوله تعالى ﴿ وعداً علينا إنا كنا فاعلين ﴾ [الأنبياء : 104] .

والمسؤول : الذي يسأله مستحقه ويطالب به ، أي حقّاً للمتقين أن يترقبوا حصوله كأنه أجر لهم عن عمل .

وهذا مسوق مساق المبالغة في تحقيق الوعد والكرم كما يشكرك شاكر على إحسان فتقول : ما أتيت إلا واجباً ، إذ لا يتبادر هنا غير هذا المعنى ، إذ لا معنى للوجوب على الله تعالى سوى أنه تفضل وتعهد به ، ولا يختلف في هذا أهل الملة وإنما اختلفوا في جواز إخلاف الوعد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 19 صـ ﴾

(118/558)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ﴾

التحقيق أن الإشارة في قوله : أذلك راجعة إلى النار ، وما يلقاه الكفار فيها من أنواع العذاب كما ذكره جل وعلا بقوله : ﴿ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بالساعة سَعِيراً ﴾ [الفرقان : 11] إلى قوله تعالى : ﴿ لاَّ تَدْعُواْ اليوم ثُبُوراً وَاحِداً وادعوا ثُبُوراً كَثِيراً ﴾ [الفرقان : 14] وغير هذا من الأقوال لا يعول عليه ، كقول من قال إن الإشارة راجعة إلى الكنز والجنة في قوله تعالى : ﴿ أَوْ يلقى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ ﴾ [الفرقان : 8] الآية ، وكقول من قال : إنها راجعة إلى الجنات والقصور المعلقة على المشيئة في قوله تعالى : ﴿ تَبَارَكَ الذي إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْراً مِّن ذلك جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار وَيَجْعَل لَّكَ قُصُوراً ﴾ [الفرقان : 10] والتحقيق إن شاء الله أنه لما ذكر شدة عذاب النار وفظاعته قال : أذلك العذاب خير أم جنة الخلد الآية .

وهذا المعنى الذي تضمنته هذه الآية الكريمة ، جاء أيضاً في غير هذا الموضع كقوله تعالى في سورة الصافات : ﴿ إِنَّ هذا لَهُوَ الفوز العظيم لِمِثْلِ هذا فَلْيَعْمَلِ العاملون أَذَلِكَ خَيْرٌ نُّزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزقوم إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الجحيم طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشياطين فَإِنَّهُمْ لآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا البطون ﴾ [الصافات : 6066] إلى

قوله : ﴿ يُهْرَعُونَ ﴾ [الصافات : 70] وكقوله تعالى : ﴿ أَفَمَن يلقى فِي النار خَيْرٌ أَم مَّن يأتي آمِناً يَوْمَ القيامة ﴾ [فصلت : 40] الآية .

وفي هذه الآيات وأمثالها في القرآن إشكال معروف ، وهو أن يقال : لفظة خير في الآيات المذكورة صيغة تفضيل كما قال في الكافية :

(119/558)

وغالباً أغناهم خير وشر عن قولهم أخير منه وأشر

كما قدمناه موضحاً في سورة النحل ، في الكلام على قوله تعالى : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هذه الدنيا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الآخرة خَيْرٌ ﴾ [النحل : 30] الآية .

والمعروف في علم العربية أن صيغة التفضيل تقتضي المشاركة بين المفضل والمفضل عليه فيما فيه التفضيل ، إلا أن المفضل أكثر فيه وأفضل من المفضل عليه ، ومعلوم أن المفضل عليه في الآيات المذكورة الذي هو عذاب النار لا خير فيه البتة ، وإذن فصيغة التفضيل فيها إشكال .

والجواب عن هذا الإشكال من وجهين :

الأول : أن صيغة التفضيل قد تطلق في القرآن ، وفي اللغة مراداً بها مطلق الاتصاف ، لا

تفضيل شيء على شيء . وقدمناه مراراً وأكثرنا من شواهده العربية في سورة النور وغيرها .

الثاني : أن من أساليب اللغة العربية أنهم إذا أرادوا تخصيص شيء بالفضيلة ، دون غيره جاءوا بصيغة التفضيل ، يريدون بها خصوص ذلك الشيء بالفضل ، كقول حسان بن ثابت رضي الله عنه :

أتهجوه ولست له بكفء . . . فَشَرُّكُما لخيركما الفداء

وكقول العرب : الشقاء أحب إليك ، أم السعادة ؟ وقوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ السجن أَحَبُّ إِلَيَّ ﴾ [يوسف : 33] الآية .

قال أبو حيان في البحر المحيط في قوله تعالى : الآية ، وخير هنا ليست تدل على الأفضلية ، بل هي على ما جرت به عادة العرب في بيان فضل الشيء ، وخصوصيته بالفضل دون مقابله كقوله :

فَشَرُّكُمَا لِخيْرِكُمَا الفِداءُ . . . وكقول العرب : الشقاء أحب إليك أم السعادة ، وكقوله : ﴿ قَالَ رَبِّ السجن أَحَبُّ إِلَيَّ ﴾ [يوسف : 33] وهذا الاستفهام على سبيل التوفيق والتوبيخ . اه الغرض من كلام أبي حيان .

وعلى كل حال فعذاب النار شر محض لا يخالطه خير ألبتة كما لا يخفى ، والوجهان المذكوران في الجواب متقاربان .

وقوله تعالى في هذه الآية : ﴿ أَمْ جَنَّةُ الخلد التي وَعِدَ المتقون ﴾ العائد محذوف : أي وعدها المتقون ، والآية تدل على أن الوعد الصادق بالجنة ، يحصل بسبب التقوى .

وقد قدمنا الآيات الدالة على ذلك بإيضاح في سورة النحل في الكلام على قوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ يَجْزِي الله المتقين ﴾ [النحل : 31] وقوله تعالى : ﴿ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآؤونَ ﴾ [النحل : 31] العائد أيضاً محذوف كالذي قبله : أي ما يشاءونه ، وحذف العائد المنصوب بالفعل أو الوصف كثير ، كما قال في الخلاصة :

والحذف عندهم كثير منجلي . . . في عائد متصل إن انتصب

بفعل أو وصف . . . كمن نرجو يهب

وهذه الآية الكريمة ، تدل على أن أهل الجنة يجدون كل ما يشاءونه من أنواع النعيم .

وقد قدمنا الآيات الدالة على ذلك في سورة النحل في الكلام على قوله تعالى : ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآؤونَ ﴾ [النحل : 31] والآيات المذكورة تدل على أن حصول كل ما يشاءه الإنسان لا يكون إلا في الجنة ، وقوله : ﴿ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيراً ﴾ المصير مكان الصيرورة ، وقد مدح الله جزاءهم ومحله كقوله تعالى

: ﴿ نِعْمَ الثواب وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقاً ﴾ [الكهف : 31] لأن حسن المكان وجودته من أنواع النعيم .

وقوله في هذه الآية الكريمة : ﴿ كَانَ على رَبِّكَ وَعْداً مَّسْئُولاً ﴾ فيه وجهان معروفان .

(121/558)

أحدهما : أن معنى كونه مسؤولاً أن المؤمنين كانوا يسألونه . وكانت الملائكة أيضاً تسأله لهم ، أما سؤال المسلمين له فقد ذكره تعالى : بقوله عنهم : ﴿ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا على رُسُلِكَ وَلاَ تُخْزِنَا يَوْمَ القيامة إِنَّكَ لاَ تُخْلِفُ الميعاد ﴾ [آل عمران : 194] وسؤال الملائكة لهم إياه ذكره تعالى تعالى أيضاً في قوله : ﴿ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ التي وَعَدْتَّهُمْ ﴾ [غافر : 8] الآية ، وقال بعض العلماء : مسؤولاً : أي واجباً لأن ما وعد الله به فهو واجب الوقوع ، لأنه لا يخلف الميعاد ، وهو جل وعلا يوجب على نفسه بوعده الصادق ما شاء الله لا معقب لحكمه ويستأنس لهذا القول بلفظة على في قوله تعالى : ﴿ كَانَ على رَبِّكَ وَعْداً مَّسْئُولاً ﴾ كقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ المؤمنين ﴾ [الروم : 47] وقال بعض أهل العلم : إن المسلمين يوم القيامة يقولون : قد فعلنا في دار الدنيا كل ما أمرتنا به فأنجز لنا

ما وعدتنا ، والقولان الأولان أقرب من هذا . والعلم عند الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ أضواء البيان حـ 6 صـ ﴾

(122/558)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ قُلْ ﴾ [الفرقان : 15] أَمْر لرسول الله بأن يقول ، والمقول له هم الذين اعترضوا على نبوته صلى الله عليه وسلم باعتراضات واهية من المعاصرين له ، وكانوا يتخبّطون في هذه المسائل تخبُّط مَنْ لا يعرف فيها حقيقة ، وإنما غرضه فقط أنْ يتعرّض لرسول الله في أمر دعوته ، والتعرُّض لأيِّ نبيٍّ في أمر دعوته من المعاصرين له أمر طبيعي ؛ لأن الرسل إنما يجيئون حين يستشري الفساد .

وسبق أنْ قُلْنا : إن الحق سبحانه وتعالى جعل في كل نفس ملَكةً تجعل الإنسان يفعل شيئاً ، ثم تأتي ملَكة أخرى فيه لتلومه على ذلك ، حينئذ تكون المناعة في ذات الإنسان ويُسمُّونها النفس اللوَّامة ، لكن قد تنطمس فيه هذه الملَكة ، فتتعاون كل مَلَكاته على الشر ، بحيث تكون النفس بكل مَلَكاتها أمّارة بالسوء ، وهي أمَّارة بصيغة المبالغة لا آمرة أي : أنها أخذْت هذا الأمر حِرْفةً لها .

كما لو رأيت رجلاً يَنْجُر في قطعة من الخشب تقول له : ناجر ، فإن اتخذها حرفةً له ، لا يعمل إلا هي ، تقول له : نجار ، ومثله : خائط وخيّاط . فالمعنى : أمّارة يعني : لم يَعُدْ لها عمل في أن تردع عن الشر ، بل دائماً تُقوِّي نوازع الشر في النفس ، وتتأصل فيها تصير لها حرفة .

فماذا يكون الموقف إذن ؟

لا بُدَّ أنْ يجعل الحق سبحانه في نفوس قوم آخرين مَلَكة الخير ليواجهوا أصحاب هذه الأنفس الأمّارة بالسوء ، يواجهونهم بالنصح والإرشاد والموعظة ، ويصرفونهم عن الشر إلى الخير . فإذا ما فسد المجتمع كله ، لا نفسٌ مانعة ، ولا مجتمعٌ مانع ، فلا بُدَّ أنْ تتدخّل السماء برسول جديد .

(123/558)

ومن رحمة الله بالعالم أنه سبحانه ضمن لأمة محمد صلى الله عليه وسلم أن تكون فيها النفس اللوامة ، وضمن لها أنْ يظل مجتمعها آمراً بالمعروف ، ناهياً عن المنكر ؛ لذلك لا حاجةَ لرسول بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم . إذن : فالمناعة موجودة في أمة الإسلام ، ولو لم تكُنْ هذه المناعة موجودة في النفس أولاً ، وفي المجتمع ثانياً لتدخلتْ السماء

بعد رسول الله برسول جديد ومعجزة جديدة ليعيد الخَلْق إلى رُشْدهم .

ولا شكَّ أن في المجتمع طائفةً تنتفع بهذا الفساد ، ويعيشون في ترف في ظله ، فطبيعي إذن أنْ يدافعوا عنه ، وطبيعي أنْ يتصدَّوْا لدعوة الرسول التي جاءتْ لتعدل ميزان المجتمع ، وأنْ يقفوا له بالمرصاد ؛ لأنه يهدِّد هذه النفعية ويقضي على مصلحتهم .

وإنْ كان الرسل السابقون قد تعرّضوا لمثل هذا الاضطهاد ، فقد تعرّض رسول الله صلى الله عليه وسلم لأضعاف ما تعرَّضوا له ؛ لأن اضطهاده صلى الله عليه وسلم جاء مناسباً لضخامة مهمته ، فقد جاءتْ الرسل قبله ، كُلٌّ إلى أمته خاصة في زمن محدد ، أمّا رسالته صلى الله عليه وسلم فقد جاءت للناس كافة ، تعمُّ كل الزمان وكل المكان إلى أن تقوم الساعة ، فلابُدَّ إذن أن تكون مهمته أصعب .

وهؤلاء الكبراء الذين ينتفعون بالفساد في المجتمع يظنون أن رسول الله إذا لُوِّح له بالمال والنعيم يمكن أن يتنازل عن دعوته ، ويترك لهم الساحة ؛ لذلك اجتمع صناديد قريش على رسول الله ، يُلوِّحون له بالمال والجاه والسلطان ، ليصدُّوه عن الدعوة ويصرفوه عنها ،

هؤلاء الذين سماهم أستاذنا الشيخ موسى : دستة الشر ، وكانوا اثنا عشر رجلاً ، منهم : أبو البختري ، وأبو جهل ، وأبو سفيان ، والأسود بن المطلب ، وأمية بن خلف ، والعاص بن وائل ، وعتبة بن ربيعة ، ومُنبِّه بن الحجاج ، والوليد بن المغيرة ، والنضر بن الحارث ، وشيبة بن ربيعة ، ونُبيه بن الحجاج .

لقد ذهب هؤلاء إلى سيدنا محمد رسول الله يقولون : " نحن وفد قومك إليك ، جئنا لنقدّمِ المعذرة حتى لا يلومنا أحد بعد ذلك ، فإنْ كنتَ تريد مالاً جمعنا لك الأموال ، وإنْ كنتَ تريد شرفاً سوَّدناك علينا ، وإن كنت تريد مُلْكاً ملّكناك علينا " .

وفَرْق بين المال والشرف : المال أن يكون الإنسان غنياً ، لكن ربما لا شرفَ له ، ولا مكانةَ بين الناس ، وهناك مَنْ له شرف وسيادة ، وليس له مال .

ونلحظ أنهم ارتقوْا في مساومة رسول الله من المال إلى الشرف والسيادة ، ثم إلى المُلْك .

فماذا كان موقفه صلى الله عليه وسلم ؟ كان موقفه هو الموقف الذي مهَّد الله له به ، حينما عرض عليه جبريل عليه السلام أن يجعل الله له جبال مكة ذهباً ، فقال صلى الله عليه وسلم : " بل أشبع يوماً فأشكر ، وأجوع ثلاثة أيام فأتضرع " .

وفي موقف آخر ، قال له جبريل : "يُخيّرِك ربك أن تكون نبياً ملكاً ، أو نبياً عبداً فقال : بل نبياً عبداً " .

والنبي مالك منهج السماء ، والملك الذي يملك السيطرة بحيث لا يستطيع أحد أن يقف في وجهه ، مثل سليمان عليه السلام ، حيث آتاه الله مُلْكاً لا ينبغي لأحد من بعده ، ومع ذلك

لم يكن هذا المُلْك هو المطلوب في ذاته ، بدليل أن سليمان عليه السلام مع ما أوتية من المُلْك كان لا يأكل إلا الخوشكار يعني : الخبز الأسمر غير النقي (الردَّة) في حين يأكل عبيده ومواليه الدقيق الفاخر النقي ، فلم يكن سليمان يريد المُلْك لذاته ، إنما ليقْوَى به على دعوته ، فلا يعارضه فيها أحد .

لذلك ، لما أرسلتْ إليه ملكة سبأ بهدية لتستميله بها وتَصْرفه عما يريد رَدّ عليها : ﴿ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ آتَانِ اللهُ خَيْرٌ مِّمَّآ آتَاكُمْ بَلْ أَنتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴾ [النمل : 36] .

(125/558)

لذلك جاءته صاغرة تقول : ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ العالمين ﴾ [النمل : 44] .

إذن : مسألة المال هذه عُرِضَتْ على رسول الله قبل أن يقترحها كفار مكة ، فإذا كان صلى الله عليه وسلم قد رفضه مِمَّن يملكه ، فكيف يقبله مِمَّنْ لا يملك شيئاً ؟ لذلك قال لهم :

" والله ما بي حاجة إلى ما تقولون ، ، فلست طالب مال ، ولا مُلْك ، ولا شرف ، إنما أنا

رسول الله أُرسِلْتُ إليكم ، ومعي كتاب فيه منهجكم ، وأمرني ربي أن أكون لكم بشيراً ونذيراً ، فإنْ جئتم على ما أحب فقد ضمنتم حظّ الدنيا والآخرة ، وإنْ رددتُمْ عليَّ قولي فإنني سأصبر إلى أن يحكم الله بيننا ، وهو خير الحاكمين " .

فلجئوا إلى عم النبي صلى الله عليه وسلم ، لعله يستطيع أن يستميله ، فلما كلَّمه عمه قال قولته المشهورة : " والله لو وضعوا الشمس في يميني ، والقمر في يساري ، على أن أترك هذا الأمر ما تركتُه حتى يُظهِره الله أو أهلك دونه " .

﴿ أذلك ﴾ [الفرقان : 15] أي : ما أنتم فيه الآن من العذاب خير ، أم جنة الخلد التي وُعِد المتقون ؟ احكموا أنتم في هذه المسألة وسنرضى بحكمكم ، إنها إغاظة لأهل النار ، حيث جمع الله عليهم مقاساة العذاب مع النظر إلى أهل الجنة وما هم فيه من النعيم ، ولو كانت الأُولى وحدها لكانت كافية ، إنما هو في العذاب ويأتيه أهل الجنةِ لِيُبكّتوه : انظر ما فاتك من النعيم ! !

وفيها أيضاً تقريع لهم ، فليس هناك وجه للمقارنة بين الجنة والنار ، فأنت مثلاً لا تقول : العسل خير أم الخل ؛ لأنه أمر معروف بداهة .

وسبق أنْ تكلّمنا عن الصراط ، ولماذا ضُرِب على مَتْن جنهم ، والجميع يمرون عليه ؛ لأن الله تبارك وتعالى يريد أنْ يجعل لك من مرائي النار التي تمرُّ عليها فوق الصراط نعمة أخرى تُذكِّرك بالنجاة من النار قبل أنْ تباشر نعيم الجنة .

لذلك لا يمتن الله علينا بدخول الجنة فحسب ، إنما أيضاً بالنجاة من النار ، فيقول سبحانه :

﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النار وَأُدْخِلَ الجنة فَقَدْ فَازَ ﴾ [آل عمران : 185] .

فالحق سبحانه وتعالى يذكر لنا النار ، وأن من صفاتها كذا وكذا ، أما في الآخرة فسوف نراها رَأْيَ العين ، كما قال سبحانه : ﴿ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ اليقين ﴾ [التكاثر : 7] وذلك حين تكون على الصراط ، فتحمد الله على الإسلام الذي أنجاك من النار ، وأدخلك الجنة ، فكل نعمة منها أعظم من الأخرى .

وفي قوله تعالى : ﴿ قُلْ أذلك خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الخلد ﴾ [الفرقان : 15] كلمة خير في اللغة تدور على معنيين : خير يقابله شَرٌّ ، وخير يقابله خير أعظم منه . كما جاء في الحديث الشريف : " المؤمن القوي خير وأَحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفي كُلٍّ خير " فكلاهما فيه خير ، وإن زاد الخير في المؤمن القوي ، وعادة ما تأتي (من) في هذا الأسلوب : هذا خير من هذا .

أما الخير الذي يقابله شر ، فمثل قوله تعالى : ﴿ أولئك هُمْ خَيْرُ البرية ﴾ [البينة : 7] .

والجنة كما نستعملها في استعمالات الدنيا ، هي المكان المليء بالأشجار والمزروعات التي تستر السائر فيها ، أو تستر صاحبها أنْ ينتقلَ منها إلى خارجها ؛ لأن بها كل متطلبات حياته ، بحيث يستغني بها عن غيرها ، لذلك أردفها الحق تبارك وتعالى بقوله ﴿ الخلد ﴾ [الفرقان : 15] .

إذن : فالجنة التي تراها في الدنيا مهما بلغت فليست هي جنة الخلد ؛ لأنها لا بد إلى زوال ، فعُمرها من عُمْر دُنْياها ، كأنه سبحانه يقول لكل صاحب جنة في الدنيا : لا تغترْ بجنتك ؛ لأنها ستؤول إلى زوال ، وأشدّ الغم لصاحب السرور أنْ يتيقن زواله ، كما قال الشاعر :

أَشَدُّ الغَمِّ عِنْدي فِي سُرُورٍ . . . تَيَقَّنَ عَنْهُ صَاحِبُه انْتِقَالاَ

(127/558)

لذلك يُطمِئن الله تعالى عباده المؤمنين بأن الجنة التي وعدهم بها هي جنة الخلد والبقاء ، حيث لا يفنى نعيمها ، ولا يُنغّص سرورها ، فلذَّاتها دائمة ، لا مقطوعة ولا ممنوعة .

وقوله تعالى : ﴿ التي وُعِدَ المتقون ﴾ [الفرقان : 15] الوعد هنا من الله تعالى الذي يملك كل أسباب الوفاء ، والوَعْد بشارة بخير قبل مجيئه لتستعد لأن تكون من أهله ، ويقابله الإنذار ، وهو التهديد بشرٍّ قبل مجيئه لتتلافاه ، وتجتنب أسباب الوقوع فيه .

وكلمة (مُتَّقٍ) الأصل فيها مَنْ جعل بينه وبين الشر وقاية ، كما يقول سبحانه : ﴿ فاتقوا النار ﴾ [البقرة : 24] يعني : اجعلوا بينكم وبينها وقاية .

ومن العجيب أن يقول سبحانه : ﴿ واتقوا الله ﴾ [البقرة : 194] ويقول ﴿ فاتقوا النار ﴾ [البقرة : 24] والمعنى : اجعلوا بينكم وبين صفات جلاله القهرية وقايةً ؛ لأنكم لا تتحمّلون صفات قَهْره ، والنار جُنْد من جنود الله في صفات جلاله ، فكأنه تعالى قال : اتقوا جنود صفات الجلال من الله .

وقوله تعالى : ﴿ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً ﴾ [الفرقان : 15] أي : جزاءً لما قدَّموا ، وهذا المعنى واضح في قوله تعالى : ﴿ كُلُواْ واشربوا هَنِيئاً بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِي الأيام الخالية ﴾ [الحاقة : 24] فهذا تعليلُ ما هم فيه من النعيم : أنهم كثيراً ما تَعِبُوا ، واضطهدوا وعُذِّبوا ، وجزاء من عُذِّب في ديننا أن نُسعده الآن في الآخرة .

﴿ وَمَصِيراً ﴾ [الفرقان : 15] أي : يصيرون إليه ، إذن : لا تنظر إلى ما أنت فيه الآن ، لكن انظر إلى ما تصير إليه حَتْماً ، وتأمل وجودك في الدنيا ، وأنه موقوت مظنون ، ووجودك في الآخرة وأنه باقٍ دائم لا ينتهي ، لذلك يقولون : إياك أنْ تدخل مدخلاً لا تعرف كيفية الخروج منه .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَالِدِينَ ﴾

في الآية السابقة قال سبحانه : ﴿ جَنَّةُ الخلد ﴾ [الفرقان : 15] وهنا يقول : ﴿ خَالِدِينَ ﴾ [الفرقان : 16] وهذه من المواضع التي يرى فيها السطحيون تكراراً في كلام الله ، مع أن الفرق واضح بينهما ، فالخُلْد الأول للجنة ، أما الثاني فلأهلها ، بحيث لا تزول عنهم ولا يزولون هم عنها .

وقوله : ﴿ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ﴾ [الفرقان : 16] كأن امتياز الجنة أن يكون للذي دخلها ما يشاء ، وفي هذه المسألة بَحْث يجب أن نتنبه إليه ﴿ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ﴾ [الفرقان : 16] يعني : إذا دخلتَ الجنة فلك فيها ما تشاء . إذن : لك فيها مشيئة من النعيم ، ولا تشاء إلا ما تعرف من النعيم المحدود ، أما الجنة ففيها ما لا عَيْن رأتْ ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

وهذا الوعد لا يتحقق للمؤمن إلا في الجنة ، أما في الدنيا فلا أحدَ ينال كل ما يشاء حتى الأنبياء أَلَا ترى أن نوحاً عليه السلام طلب من ربه نجاة ولده . فقال : ﴿ إِنَّ ابني مِنْ أَهْلِي ﴾ [هود : 45] فلم يُجَبْ إلى ما يشاء .

ومحمد صلى الله عليه وسلم رغم كل المحاولات لم يتمكن من هداية عمه أبي طالب ، وهذا لا يكون إلا في الدنيا ، لذلك فاعلم أن الله تعالى حين يحجب عنك ما تشاء في الدنيا إنما ليدخره لك كما يشاء في الآخرة ، مع أن الكثيرين يظنون هذا حرماناً ، وحاشا لله تعالى أن

يحرم عبده .

وفي قوله : ﴿ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ﴾ [الفرقان : 16] عطاءات أخرى ، لكن ربك يعطيك على قَدْر معرفتك بالنعيم ، ويجعل عليك (كنترولاً) فأنت تطلب وربُّكَ يعطيك ، ويدخر لك ما هو أفضل مما أعطاك .

(129/558)

والمشيئة في الأخرى ستكون بنفسيات ومَلَكات أخرى غير نفسيات ومَلَكات مشيئات الدنيا ، إنها في الآخرة نفوس صفائية خالصة لا تشتهي غير الخير ، على خلاف ما نرى في الدنيا من ملَكات تشتهي السوء ، لأن الملَكات هنا محكومة بحكم الجبر في أشياء والاختيار في أشياء : الجبر في الأشياء التي لا تستطيع أن تتزحزح عنها كالمرض والموت مثلاً ، أما الاختيار ففي المسائل الأخرى .

ثم يقول سبحانه : ﴿ كَانَ على رَبِّكَ وَعْداً مَّسْئُولاً ﴾ [الفرقان : 16] الوعد كما قلنا البشارة بخير قبل أوانه . وبعض العلماء يرى أن وعداً هنا بمعنى حق ، لكن هل لأحد حق عند الله ؟

وفي موضع آخر يُسمِّه تعالى جزاءً ، فهل هو وعد أم جزاء ؟ نقول : حينما شرع الحق

سبحانه الوعد صار جزاءً ؛ لأن الحق تبارك وتعالى لا يرجع في وعده ، ولا يحول شيء دون تحقيقه .

وكلمة ﴿ مَّسْئُولاً ﴾ [الفرقان : 16] مَن السائل هنا ؟ قالوا : الله تعالى علَّمنا أن نسأله ، واقرأ قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا على رُسُلِكَ ﴾ [آل عمران : 194] فقد سألناها نحن .

وكذلك سألتها الملائكة ، كما جاء في قوله سبحانه على لسان الملائكة : ﴿ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ التي وَعَدْتَّهُمْ ﴾ [غافر : 8] .

فالجنة إذن مسئولة من أصحاب الشأن ، ومسئولة من الملائكة الذين يستغفرون لنا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(130/558)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا (15) ﴾

أخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ كانت لهم جزاء ﴾ أي من الله ﴿ ومصيراً ﴾

أي منزلاً .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عطاء بن يسار قال : قال كعب الأحبار : من مات وهو يشرب الخمر لم يشربها في الآخرة وإن دخل الجنة قال عطاء : فقلت له : فإن الله تعالى يقول ﴿ لهم فيها ما يشاءون ﴾ قال كعب : إنه ينساها فلا يذكرها .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ كان على ربك وعداً مسئولاً ﴾ يقول : سلوا الذي وعدتكم تنجزوه .

وأخرج ابن أبي حاتم والبيهقي من طريق سعيد بن هلال عن محمد بن كعب القرظي في قوله ﴿ كان على ربك وعداً مسئولاً ﴾ قال : إن الملائكة تسأل لهم ذلك في قولهم ﴿ وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ﴾ [غافر : 8] قال سعيد : وسمعت أبا حازم يقول : إذا كان يوم القيامة قال المؤمنون : ربنا عملنا لك بالذي أمرتنا ، فانجز لنا ما وعدتنا . فذلك قوله ﴿ وعداً مسئولاً ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 6 صـ ﴾

(131/558)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا (16) ﴾

قوله : ﴿ خَالِدِينَ ﴾ : منصوبٌ على الحالِ : إمَّا مِنْ فاعل "يَشاؤون" وإمَّا مِنْ فاعل "لهم" لوقوعِه خبراً . والعائدُ على "ما" محذوفٌ أي : لهم فيها الذي يَشاؤُونه حال كونِهم خالدين .

قوله : ﴿ كَانَ على رَبِّكَ ﴾ في اسمِ كان وجهان ، أحدهما : أنه ضميرُ "ما يَشاؤون" ، ذكره أبو البقاء . والثاني : أَنْ يعودَ على الوَعْدَ المفهومِ مِنْ قولِه ﴿ وُعِدَ المتقون ﴾ . و ﴿ مَّسْئُولاً ﴾ على المجازِ أي : يُسْأَلُ : هل وُفِّي بك أم لا ؟ أو يَسْأله مَنْ وُعِدَ به ؟ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 462.463 ﴾

(132/558)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا (15) ﴾

المتقون أبداً في النعيم المقيم ؛ حور وسرور وحبور ، وروْحٌ وريحان ، وبهجة وإحسان ، ولطف جديد وفضل مزيده ، وألذُّ شرابٍ وكاساتُ محابِّ ، وبسطُ قلبٍ وطيبُ حالٍ ،

وكمال أُنسٍ ودوام طرب وتمام جَذَلٍ ، لباسهم فيها حرير وفراشهم سندس وإستبرق .

والأسماء أسماءٌ في الدنيا والأعيان بخلاف المعهودات فيها . ثم فيها ما يشاؤون ، وهم أبداً مقيمون لا يبرحون ، ولا هم عنها يخرجون .

قوله جلّ ذكره : ﴿ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ﴾ .

ولكن لا يخلق في قلوبهم إلا إرادةَ ما عَلِم أنه سيفعله ، فما هو المعلوم لله أنه لا يفعله لا تتعلق به إرادتُهم ، ويمنع من قلوبهم مشيئَته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 630 ﴾

(133/558)

قوله تعالى ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ (17) قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا (18) فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا (19) وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا (20) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما ذكر لهم حالهم في الساعة معه سبحانه ، أتبعه ذكر حالهم مع معبوداتهم من دونه ، فقال بالالتفات إلى مظهر العظمة على قراءة الجماعة : ﴿ ويوم ﴾ أي قل لهم ما أمرتك به ، واذكر لهم يوم ﴿ يحشرهم ﴾ أي المشركين ، بما لنا من العظمة التي نبرزها في ذلك اليوم ، من القبور ؛ وقرأ أبو جعفر وابن كثير ويعقوب وحفص عن عاصم بالياء التحتية فيكون الضمير للرب ﴿ وما يعبدون ﴾ أي من الملائكة والإنس والجن وغيرهم ممن يعقل وممن لا يعقل ؛ ونبه على سفول رتبتهم عن ذلك وعدم أهليتهم بقوله : ﴿ من دون الله ﴾ أي الملك الأعلى الذي لا كفوء له ، وذكرها بلفظ " ما " إشارة إلى أن ناطقها وصامتها جماد بل عدم بالنسبة إليه سبحانه بما أشار إليه التعبير بالاسم الأعظم الدال على جميع الكمال ، مع أن " ما " موضوع على العموم للعقلاء وغيرهم وإن كان أكثر استعماله في غير العقلاء ، وعبر سبحانه بقوله : ﴿ فيقول ﴾ بإعادة ضمير الغيبة بعد التعبير بنون العظمة في " نحشر " في قراءة غير ابن عامر لتقدم الجلالة الشريفة ، تحقيقاً للمراد وتصريحاً به ، وإعلاماً بأن المراد بالنون العظمة لا جمع ، وقرأ ابن عامر بالنون موحداً الأسلوب : ﴿ أنتم ﴾ أي أيها المعبودات ! بإيلاء الهمزة الضمير سؤالاً عن المضل ، لأن ضلال العبدة معروف لا يسأل عنه ﴿ أضللتم ﴾ بالقهر والخداع والمكر ﴿ عبادي هؤلاء ﴾ حتى عبدوكم كما في الآية

الأخرى

﴿ ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون ﴾ [سبأ : 40] في أمثالها من الآيات كما في الحديث القدسي : " إني خلقت عبادي حنفاء كلهم فاحتالهم الشياطين " ﴿ أم ﴾ .

(134/558)

ولما كان السؤال – كما مضى – عن الفاعل لا عن الفعل ، كان لا بد من قوله : ﴿ هم ﴾ أي باختيار منهم لإهمالهم استعمال ما أعطيتهم من قويم العقل وسديد النظر ﴿ ضلوا ﴾ وأوصل الفعل بدون " عن " كما في هداة الطريق بدون " إلى " لكثرة الدور ، وللإشارة إلى قوة الفعل فقال : ﴿ السبيل ﴾ أي الذي نهجته ونصبت عليه الأدلة القاطعة ، البراهين الساطعة ﴿ قالوا ﴾ أي المعبودات الحي منهم والجماد ، المطيع والعاصي :

﴿ سبحانك ﴾ أي تنزهت عن أن ينسب إلى غيرك قدرة على فعل من الأفعال .

ولما أنتج التنزيه أنهم لا فعل لغيره سبحانه ، عبروا عنه بقولهم : ﴿ ما كان ينبغي ﴾ أي يصح ويتصور ﴿ لنا أن نتخذ ﴾ أي نتكلف أن نأخذ باختيارنا من غير إرادة منك ﴿ من دونك ﴾ وكل ما سواك فهو دونك ﴿ من أولياء ﴾ أي ينفعوننا ، فإنا مفتقرون إلى من ينفعنا لحاجتنا وفقرنا ، فكيف نترك من بيده كل شيء وهو أقرب إلينا في كل معنى من

معاني الولاية من كل شيء من العلم والقدرة وغيرهما إلى من لا شيء بيده ، وهو أبعد بعيد من كل معنى من معاني الولاية ، فلو تكلفنا جعله قريباً لم يكن كذلك ، وهذه عبارة صالحة سواء كانت من الصالحين ممن عبد من الأنبياء والملائكة أو غيرهم ، فإن كانت من الصالحين فمعناها : ما كان ينبغي لنا ذلك فلم نفعله وأنت أعلم ، كما قال تعالى

(135/558)

﴿ ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس ﴾ [آل عمران : 79] الآية ؛ وإن كانت من الجمادات فالمعنى : ما كنا في حيز من يقدر على شيء من ذلك ، ولكن فعلوه بطراً ؛ وإن كانت من مثل فرعون فالمعنى : ما كان لنا هذا ، ولكن هم أنزلونا هذه المنزلة بمجرد دعائنا لهم كما يقول إبليس – فما كان لنا عليهم من سلطان إلا أن دعوناهم فاستجابوا ، وذلك لعدم نظرهم في حقائق الأمور ، فألقى الكل إلى الله يومئذ السلم ، فثبت أنهم ليسوا في تلك الرتبة التي أنزلوهم إياها ، وفائدة السؤال مع شمول علمه تعالى تبكيت المعاندين وزيادة حسراتهم وأسفهم ، وتغبيط المؤمنين إذا سمعوا هذا الجواب ، هذا مع ما في حكايته لنا من الموعظة البالغة ، وقراءة ابي جعفر بالبناء للمفعول بضم النون وفتح الخاء واضحة المعنى ، أي يتخذنا أحد آلهة تتولى أموره .

ولما كان المعنى : إنا ما أضللناهم ، أما إذا قدر من الملائكة ونحوهم فواضح ، وأما من غيرهم فإن المضل في الحقيقة هو الله ، وفي الظاهر بطرهم النعمة ، واتباعهم الشهوات التي قصرت بهم عن إمعان النظر ، وأوقفتهم مع الظواهر ، حسن الاستدراك بقوله :

﴿ ولكن ﴾ أي ما أضللناهم نحن ، وإنما هم ضلوا بإرادتك لأنك أنت ﴿ متعتهم وآباءهم ﴾ في الحياة الدنيا بما تستدرجهم به من لطائف المنن ، وأطلت أعمارهم في ذلك ﴿ حتى نسوا الذكر ﴾ الذي لا ينبغي أن يطلق الذكر على غيره ، وهو الإيمان بكل ما أرسلت به سبحانك رسلك برهان ما يعرفه كل عاقل من نفسه بما وهبته من غريزة العقل من أنه لا يصح بوجه أن يكون الإله إلا واحداً ، ما بين العاقل وبين ذكر ذلك إلا يسير تأمل ، مع البراءة من شوائب الحظوظ والحاصل أنك سببت لهم أسباباً لم يقدروا على الهداية معها ، فأنت الملك الفعال لما تريد ، لا فعل لأحد سواك ﴿ وكانوا ﴾ في علمك بما قضيت عليهم في الأزل ﴿ قوماً بوراً ﴾ هلكى .

(136/558)

ولما كان هذا أمراً واقعاً لا محالة ، التفت إليهم مبكتاً فقال معبراً بالماضي بعد " قد " المقربة المحققة : ﴿ فقد كذبوكم ﴾ أي المعبودون كذبوا العابدين بسبب إلقائهم السلم المقتضي

لأنهم لا يستحقون العبادة وأنهم يشفعون لكم مقهورين مربوبين ﴿ بما ﴾ أي بسبب ما ﴿ تقولون ﴾ أيها العابدون من أنهم يستحقون العبادة ، وأنهم يشفعون لكم ، وأنهم أضلوكم ، وفي قراءة ابن كثير بالتحتانية المعنى : بما يقول المعبودون من التسبيح لله والإذعان ، في ادعائكم أنهم أضلوكم .

ولما تسبب عن إلقائهم السلم وتخليهم عمن عبدهم أنه لا نفع في أيديهم ولا ضر ، قال : ﴿ فما تستطيعون ﴾ أي المعبودون ﴿ صرفاً ﴾ أي لشيء من الأشياء عن أحد من الناس ، لا أنتم ولا غيركم ، من عذاب ولا غيره ، بوجه حيلة ولا شفاعة ولا مفاداة ﴿ ولا نصراً ﴾ بمغالبة ، وهو نحو قوله تعالى ﴿ فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلاً ﴾ [الإسراء : 56] .

ولما كان التقدير : فمن يعدل منكم لسماع هذا الوعظ بوضع العبادة في موضعها نثبه ثواباً جليلاً ، عطف عليه ما المقام له فقال : ﴿ ومن يظلم منكم ﴾ بوضعها في غير موضعها ، وباعتقاده في الرسل ما لا ينبغي من أنه لا ينبغي لهم أن يكونوا مثل الناس في أكل ولا طلب معيشة ونحو ذلك ﴿ نذقه ﴾ في الدنيا والآخرة ، بما لنا من العظمة ﴿ عذاباً كبيراً ﴾ .

ولما أبطل سبحانه ما وصموا به رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وذكر ما جزاهم عليه . وما أعد لهم وله ولأتباعه ، ونفى ما زعموه في معبوداتهم وختمه بتعذيب الظالم ، ذكر ما ظلموا فيه من قولهم ﴿ ما لهذا الرسول ﴾ ونحوه ، فبين أن ما جعلوه من ذلك وصمة في

حقه هو سنته سبحانه في الرسل من قبله أسوة لنوعهم البشري ، وأتبعه سره فقال زيادة في التسلية والتعزية والتأسية : ﴿ وما أرسلنا ﴾ بما لنا من العظمة .

(137/558)

ولما كان المراد العموم ، أعراه من الجار فقال : ﴿ قبلك ﴾ أي يا محمد أحداً ﴿ من المرسلين إلا ﴾ وحالهم ﴿ إنهم ليأكلون الطعام ﴾ ما نأكل ويأكل غيرك من الآدميين ﴿ ويمشون في الأسواق ﴾ كما تفعل ويفعلون أي إلا وحالهم الأكل والمشي لطلب المعاش كحال سائر الآدميين ، وهو يعلمون ذلك لما سمعوا من أخبارهم ، وهذا تأكيد من الله تعالى فإنهم لا يكذبونه عليه الصلاة والسلام ، ولا يعتقدون فيه نقصاً ، وإبطال لحجتهم بما قالوه من ذلك ، وإقامة للحجة على عنادهم ، وأنهم إنما يقولونه وأمثاله لما تقدم من رسوخ التكذيب بالساعة في أنفسهم ﴿ وجعلنا ﴾ أي بالعطاء والمنع بما لنا من العظمة ﴿ بعضكم لبعض فتنة ﴾ بأن جعلنا هذا نبياً وخصصناه بالرسالة ، وهذا ملكاً وخصصناه بالدنيا ، وهذا فقيراً وحرمناه الدنيا ، ليظهر ما نعلمه من كل من الطاعة والمعصية في عالم الغيب للناس في عالم الشهادة ، فنختبر الفقير بصبره على ما حرم مما أعطيه الغني أو جزعه ، والملك ومن في معناه من الأشراف بصبرهم على ما أعطيه الرسول

من الكرامة والبلوغ بالقرب من الله إلى ما لا يبلغونه مع ما هم فيه من العظمة ، فلأجل ذلك لم أعط رسولي الدنيا ، وجعلته ممن يختار العبوديه والكفاف بطلب المعاش في الأسواق ، لأبتليكم في الطاعة له خالصة ، فإني لو أعطيته الدنيا ، وجعلته ممن يختار الملك ، لسارع الأكثر إلى اتباعه طمعاً في الدنيا ، وهذا معنى ﴿ أتصبرون ﴾ فإنه علة ما قبله ، أي لنعلم علم شهادة هل تصبرون فيما امتحناكم به أم لا ؟ كما كنا نعلمه علم الغيب ، لتقوم عليكم بذلك الحجة في مجاري عاداتكم ، وفيها مع العلية تهديد بليغ لمن تدبر ، ويجوز أن يكون الاستفهام استئنافاً للتهديد .

(138/558)

ولما كان الاختبار ربما أوهم نقصاً في العلم ، وكان إحسانه سبحانه إلى جميع الخلق دون إحسانه إلى سيدهم وعينهم ، وخلاصتهم وزينهم : محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وكان أعلمهم بتنزيهه وتعظيمه ، وكان امتحانهم بجعله نبياً عبداً مع كونه في غاية الإكرام له ربما ظنوه إهانة ، نفى ما لعله يوهمه كل من الاستفهام والامتحان في حق الله سبحانه وحق نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فقال صارفاً وجه الخطاب إليه : ﴿ وكان ربك ﴾ أي المحسن إليك إحساناً لم يحسنه إلى أحد سواك ، لا سيما بجعلك نبياً عبداً ﴿ بصيراً ﴾ بكل شيء

فهو عالم بالإنسان قبل الامتحان ، لم يفده ذلك علماً لم يكن ، وهو سبحانه يضع الأمور في حاق مواضعها وإن رئي غير ذلك ، فينبغي على كل أحد التسليم له في جميع الأمور فإنه يجر إلى خير كبير ، والتدبر لأقواله وأفعاله بحسن الانقياد والتلقي فإنه يوصل إلى علم غزير ، وما أراد بابتلائك بهم وابتلائهم بك في هذا الأذى الكبير إلا إعلاء شأنك وإسفال أمرهم ﴿ ولتعلمن نبأه بعد حين ﴾ [ص : 88] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 309.306 ﴾

(139/558)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ (17) ﴾

اعلم أن قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ ﴾ راجع إلى قوله : ﴿ واتخذوا مِن دُونِهِ ءالِهَةً ﴾ [الفرقان : 3] ثم ههنا مسائل :

المسألة الأولى :

﴿ يَحْشُرُهُمْ ﴾ فنقول كلاهما بالنون والياء وقرىء ﴿ نَحْشُرُهُمْ ﴾ بكسر الشين .

المسألة الثانية :

ظاهر قوله : ﴿ وَمَا يَعْبُدُونَ ﴾ أنها الأصنام ، وظاهر قوله : ﴿ فَيَقُولُ أَءَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى ﴾ أنه من عبد من الأحياء كالملائكة والمسيح وغيرهما ، لأن الإضلال وخلافه منهم يصح فلأجل هذا اختلفوا ، فمن الناس من حمله على الأوثان ، فإن قيل لهم الوثن جماد فكيف خاطبه الله تعالى ، وكيف قدر على الجواب ؟ فعند ذلك ذكروا وجهين : أحدهما : أن الله تعالى يخلق فيهم الحياة ، فعند ذلك يخاطبهم فيردون الجواب وثانيها : أن يكون ذلك الكلام لا بالقول اللساني بل على سبيل لسان الحال كما ذكر بعضهم في تسبيح الموات وكلام الأيدي والأرجل ، وكما قيل : سل الأرض من شق أنهارك ، وغرس أشجارك ؟ فإن لم تجبك حواراً ، أجابتك اعتباراً ! وأما الأكثرون فزعموا أن المراد هو الملائكة وعيسى وعزير عليهم السلام ، قالوا ويتأكد هذا القول بقوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ للملائكة أَهَؤُلاَءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴾ [سبأ : 40] وإذا قيل لهم : لفظة (ما) لا تستعمل في العقلاء أجابوا عنه من وجهين : الأول : لا نسلم أن كلمة (ما) لما لا يعقل بدليل أنهم قالوا (من) لما لا يعقل والثاني : أريد به الوصف كأنه قيل (ومعبودهم) ، وقوله تعالى : ﴿ والسماء وَمَا بناها ﴾ [الشمس : 5] ﴿ وَلاَ أَنتُمْ عابدون مَا أَعْبُدُ ﴾ [الكافرون : 3] لا يستقيم إلا على أحد هذين الوجهين ، وكيف كان فالسؤال ساقط .

المسألة الثالثة :

حاصل الكلام أن الله تعالى يحشر المعبودين ، ثم يقول لهم أأنتم أوقعتم عبادي في الضلال عن طريق الحق ، أم هم ضلوا عنه بأنفسهم ؟ قالت المعتزلة : وفيه كسر بين لقول من يقول إن الله يضل عباده في الحقيقة لأنه لو كان الأمر كذلك لكان الجواب الصحيح أن يقولوا إلهنا ههنا قسم ثالث غيرهما هو الحق وهو أنك أنت أضللتهم ، فلما لم يقولوا ذلك بل نسبوا إضلالهم إلى أنفسهم ، علمنا أن الله تعالى لا يضل أحداً من عباده .

فإن قيل لا نسلم أن المعبودين ما تعرضوا لهذا القسم بل ذكروه ، فإنهم قالوا : ﴿ ولكن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَاءهُمْ حتى نَسُواْ الذكر ﴾ وهذا تصريح بأن ضلالهم إنما حصل لأجل ما فعل الله بهم وهو أنه سبحانه وتعالى متعهم وآباءهم بنعيم الدنيا .

قلنا : لو كان الأمر كذلك لكان يلزمهم أن يصير الله محجوباً في يد أولئك المعبودين ، ومعلوم أنه ليس الغرض ذلك بل الغرض أن يصير الكافر محجوجاً مفحماً ملزماً هذا تمام تقرير المعتزلة في الآية ، أجاب أصحابنا بأن القدرة على الضلال إن لم تصلح للاهتداء فالإضلال من الله تعالى ، وإن صلحت له لم تترجح مصدريتها للإضلال على مصدريتها للاهتداء إلا

لمرجح من الله تعالى ، وعند لذلك يعود السؤال ، وأما ظاهر هذه الآية فهو وإن كان لهم لكنه معارض بسائر الظواهر المطابقة لقولنا .

المسألة الرابعة :

ظاهر الآية يدل على أن هذا السؤال من الله تعالى وإن احتمل أن يكون ذلك من الملائكة بأمر الله تعالى .

بقي على الآية سؤالات .

الأول : ما فائدة أنتم وهم ؟ وهلا قيل أأضللتم عبادي هؤلاء أم ضلوا السبيل ؟ الجواب : ليس السؤال عن الفعل ووجوده ، لأنه لولا وجوده لما توجه هذا العتاب ، وإنما هو عن فاعله فلا بد من ذكره وإيلائه حرف الاستفهام حتى يعلم أنه المسؤول عنه .

(141/558)

السؤال الثاني : أنه سبحانه كان عالماً في الأزل بحال المسؤول عنه فما فائدة هذا السؤال ؟ الجواب : هذا استفهام على سبيل التقريع للمشركين كما قال لعيسى : ﴿ أَأَنت قُلتَ لِلنَّاسِ اتخذونى وَأُمّىَ إلهين مِن دُونِ الله ﴾ [المائدة : 116] ولأن أولئك المعبودين لما برؤا أنفسهم ، وأحالوا ذلك الضلال عليهم صار تبرؤ المعبودين عنهم أشد في حسرتهم

وحيرتهم .

السؤال الثالث : قال تعالى : ﴿ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السبيل ﴾ والقياس أن يقال ضل عن السبيل ، الجواب : الأصل ذلك ، إلا أن الإنسان إذا كان متناهياً في التفريط وقلة الاحتياط ، يقال ضل السبيل .

أما قوله : ﴿ سبحانك ﴾ فاعلم أنه سبحانه حكى جوابهم ، وفي قوله : ﴿ سبحانك ﴾ وجوه : أحدها : أنه تعجب منهم فقد تعجبوا مما قيل لهم لأنهم ملائكة وأنبياء معصومون فما أبعدهم عن الإضلال الذي هو مختص بإبليس وحزبه وثانيها : أنهم نطقوا بسبحانك ليدلوا على أنهم المسبحون (المقدسون المؤمنون) بذلك فكيف يليق بحالهم أن يضلوا عباده وثالثها : قصدوا به تنزيهه عن الأنداد ، سواء كان وثناً أو نبياً أو ملكاً ورابعها : قصدوا تنزيهه أن يكون مقصوده من هذا السؤال استفادة علم أو إيذاء من كان بريئاً عن الجرم ، بل إنه إنما سألهم تقريعاً للكفار وتوبيخاً لهم .

أما قوله : ﴿ مَا كَانَ يَنبَغِى لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاء ﴾ ففيه مسائل :

المسألة الأولى :

القراءة المعروفة ﴿ أَن نَّتَّخِذَ ﴾ بفتح النون وكسر الخاء وعن أبي جعفر وابن عامر برفع النون وفتح الخاء على ما لم يسم فاعله ، قال الزجاج أخطأ من قرأ ﴿ أَن نُّتَّخِذَ ﴾ بضم النون لأن (من) إنما تدخل في هذا الباب في الأسماء إذا كان مفعولاً أولاً ولا تدخل على مفعول الحال تقول ما اتخذت من أحد ولياً ، ولا يجوز ما اتخذت أحداً من ولي ، قال صاحب "الكشاف" اتخذ يتعدى إلى مفعول واحد كقولك اتخذ ولياً ، وإلى مفعولين كقولك اتخذ فلاناً ولياً ، قال الله تعالى : ﴿ واتخذ الله إبراهيم خَلِيلاً ﴾ [النساء : 125] والقراءة الأولى من المتعدي إلى واحد وهو ﴿ مِنْ أَوْلِيَاء ﴾ ، والأصل أن نتخذ أولياء فزيدت من لتأكيد معنى النفي ، والثانية من المتعدي إلى مفعولين ، فالأول ما بني له الفعل ، والثاني ﴿ مِنْ أَوْلِيَاء ﴾ من للتبعيض ، أي لا نتخذ بعض أولياء وتنكير أولياء من حيث إنهم أولياء مخصوصون وهم الجن والأصنام .

المسألة الثانية :

(143/558)

ذكروا في تفسير هذه الآية وجوهاً : أولها : وهو الأصح الأقوى ، أن المعنى إذا كنا لا نرى أن نتخذ من دونك أولياء فكيف ندعو غيرنا إلى ذلك وثانيها : ما كان ينبغي لنا أن نكون أمثال

الشياطين في توليهم الكفار كما يوليهم الكفار ، قال تعالى : ﴿ فقاتلوا أَوْلِيَاء الشيطان ﴾ [النساء : 76] يريد الكفرة ، وقال ﴿ والذين كَفَرُواْ أَوْلِيَاؤُهُمُ الطاغوت ﴾ [البقرة : 257] عن أبي مسلم وثالثها : ما كان لنا أن نتخذ من دون رضاك من أولياء ، أي لما علمنا أنك لا ترضى بهذا ما فعلناه ، والحاصل أنه حذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه ورابعها : قالت الملائكة إنهم عبيدك ، فلا ينبغي لعبيدك أن يتخذوا من دون إذنك ولياً ولا حبيباً ، فضلاً عن أن يتخذ عبد عبداً آخر إلهاً لنفسه وخامسها : أن على قراءة أبي جعفر الإشكال زائل ، فإن قيل هذه القراءة غير جائزة لأنه لا مدخل لهم في أن يتخذهم غيرهم أولياء ، قلنا : المراد إنا لا نصلح لذلك ، فكيف ندعوهم إلى عبادتنا وسادسها : أن هذا قول الأصنام ، وأنها قالت لا يصح منا أن نكون من العابدين ، فكيف يمكننا ادعاؤنا أنا من المعبودين .

المسألة الثالثة :

الآية تدل على أنه لا تجوز الولاية والعداوة إلا بإذن الله ، فكل ولاية مبنية على ميل النفس ونصيب الطبع فذاك على خلاف الشرع .

أما قوله تعالى : ﴿ ولكن مَّتَّعْتَهُمْ وَءابَاءهُمْ حتى نَسُواْ الذكر وَكَانُواْ قَوْماً بُوراً ﴾ ففيه مسائل :

المسألة الأولى :

معنى الآية أنك يا إلهنا أكثرت عليهم وعلى آبائهم من النعم وهي توجب الشكر والإيمان لا الإعراض والكفران ، والمقصود من ذلك بيان أنهم ضلوا من عند أنفسهم لا بإضلالنا ، فإنه لولا عنادهم الظاهر ، وإلا فمع ظهور هذه الحجة لا يمكن الإعراض عن طاعة الله تعالى وقال آخرون إن هذا الكلام كالرمز فيما صرح به موسى عليه السلام في قوله : ﴿ إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ ﴾ [الأعراف : 155] وذلك لأن المجيب قال : إلهي أنت الذي أعطيته جميع مطالبه من الدنيا حتى صار كالغريق في بحر الشهوات ، واستغراقه فيها صار صاداً له عن التوجه إلى طاعتك والاشتغال بخدمتك ، فإن هي إلا فتنتك .

المسألة الثانية :

الذكر ذكر الله والإيمان به (و) القرآن والشرائع ، أو ما فيه حسن ذكرهم في الدنيا والآخرة .

المسألة الثالثة :

قال أبو عبيدة : يقال رجل بور ورجلان بور ورجال بور ، وكذلك الأنثى ، ومعناه هالك ، وقد يقال رجل بائر وقوم بور ، وهو مثل هائر وهور ، والبوار الهلاك ، وقد احتج أصحابنا بهذه الآية في مسألة القضاء والقدر ، ولا شك أن المراد منه وكانوا من الذين حكم عليهم في الآخرة بالعذاب والهلاك ، فالذي حكم الله عليه بعذاب الآخرة وعلم ذلك وأثبته في اللوح المحفوظ وأطلع الملائكة عليه ، لو صار مؤمناً لصار الخبر الصدق كذباً ، ولصار العلم جهلاً ولصارت الكتابة المثبتة في اللوح المحفوظ باطلة ، ولصار اعتقاد الملائكة جهلاً وكل ذلك محال ومستلزم المحال محال ، فصدور الإيمان منه محال ، فدل على أن السعيد لا يمكنه أن ينقلب شقياً ، والشقي لا يمكنه أن ينقلب سعيداً ، ومن وجه آخر هو أنهم ذكروا أن الله تعالى آتاهم أسباب الضلال وهو إعطاء المرادات في الدنيا واستغراق النفس فيها ، ودلت الآية على أن ذلك السبب بلغ مبلغاً يوجب البوار ، فإن ذكر البوار عقيب ذلك السبب يدل على أن البوار إنما حصل لأجل ذلك السبب ، فرجع حاصل الكلام إلى أنه تعالى فعل بالكافر ما صار معه بحيث لا يمكنه ترك الكفر ، وحينئذ ظهر أن السعيد لا ينقلب شقياً ، وأن الشقي لا ينقلب سعيداً .

أما قوله تعالى : ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ ﴾ فاعلم أنه قرىء ﴿ يَقُولُونَ ﴾ بالياء والتاء ، فمعنى من قرأ بالتاء فقد كذبوكم بقولكم إنهم آلهة ، أي كذبوكم في قولكم إنهم آلهة ، ومن قرأ بالياء المنقوطة من تحت ، فالمعنى أنهم كذبوكم (بقولكم) ﴿ سبحانك ﴾ ، ومثاله

قولك كتبت بالقلم .

أما قوله : ﴿ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفاً وَلاَ نَصْراً ﴾ فاعلم أنه قرىء ﴿ يَسْتَطِيعُونَ ﴾ بالياء والتاء أيضاً ، يعني فما تستطيعون أنتم يا أيها الكفار صرف العذاب عنكم ، وقيل الصرف التوبة ، وقيل الحيلة من قولهم إنه ليتصرف ، أي يحتال أو فما يستطيع آلهتكم أن يصرفوا عنكم العذاب (و) أن يحتالوا لكم .

(146/558)

أما قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَاباً كَبِيراً ﴾ ففيه مسألتان :

المسألة الأولى :

قرىء ﴿ يذقه ﴾ بالياء وفيه ضمير الله تعالى أو ضمير (الظلم) .

المسألة الثانية :

أن المعتزلة تمسكوا بهذه الآية في القطع بوعيد أهل الكبائر ، فقالوا ثبت أن (من) للعموم في معرض الشرط ، وثبت أن الكافر ظالم لقوله : ﴿ إِنَّ الشرك لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان : 13] والفاسق ظالم لقوله : ﴿ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظالمون ﴾ [الحجرات : 11] فثبت بهذه الآية أن الفاسق لا يعفى عنه ، بل يعذب لا محالة والجواب : أنا لا نسلم أن كلمة (من)

في معرض الشرط للعموم ، والكلام فيه مذكور في أصول الفقه ، سلمنا أنه للعموم ولكن قطعاً أم ظاهراً ؟ ودعوى القطع ممنوعة ، فإنا نرى في العرف العام المشهور استعمال صيغ العموم ، مع أن المراد هو الأكثر ، أو لأن المراد أقوام معينون ، والدليل عليه قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين كَفَرُواْ سَوَاء عَلَيْهِمْ ءأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ [البقرة : 6] ثم إن كثيراً من الذين كفروا قد آمنوا فلا دافع له إلا أن يقال قوله : ﴿ الذين كَفَرُواْ ﴾ وإن كان يفيد العموم ، لكن المراد منه الغالب أو المراد منه أقوام مخصوصون ، وعلى التقديرين ثبت أن استعمال ألفاظ العموم في الأغلب عرف ظاهر ، وإذا كان كذلك كانت دلالة هذه الصيغ على العموم دلالة ظاهرة لا قاطعة ، وذلك لا ينفي تجويز العفو .

(147/558)

سلمنا دلالته قطعاً ، ولكنا أجمعنا على أن قوله : ﴿ وَمَن يَظْلِم مّنكُمْ ﴾ مشروط بأن لا يوجد ما يزيله ، وعند هذا نقول هذا مسلم ، لكن لم قلت بأن لم يوجد ما يزيله ؟ فإن العفو عندنا أحد الأمور التي تزيله ، وذلك هو أحد الثلاثة أول المسألة سلمنا دلالته على ما قال ، ولكنه معارض بآيات الوعد كقوله : ﴿ إِنَّ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات كَانَتْ لَهُمْ جنات الفردوس نُزُلاً ﴾ [الكهف : 107] فإن قيل آيات الوعيد أولى لأن السارق يقطع على

سبيل التنكيل ومن لم يكن مستحقاً للعقاب لا يجوز قطع يده على سبيل التنكيل ، فإذا ثبت أنه مستحق للعقاب ثبت أن استحقاق الثواب أحبط لما بينا أن الجمع بين الاستحقاقين محال .

قلنا لا نسلم أن السارق يقطع على سبيل التنكيل ، ألا ترى أنه لو تاب فإنه يقطع لا على سبيل التنكيل بل على سبيل المحنة ، نزلنا عن هذه المقامات ، ولكن قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَظْلِم مّنكُمْ ﴾ إنه خطاب مع قوم مخصوصين معينين فهب أنه لا يعفو عنهم فلم قلت إنه لا يعفو عن غيرهم ؟

أما قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ المرسلين إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطعام وَيَمْشُونَ فِى الأسواق ﴾ ففيه مسائل :

المسألة الأولى :

هذا جواب عن قولهم : ﴿ مالِ هذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطعام وَيَمْشِى فِى الأسواق ﴾ [الفرقان : 7] بين الله تعالى أن هذه عادة مستمرة من الله في كل رسله فلا وجه لهذا الطعن .

المسألة الثانية :

حق الكلام أن يقال : ﴿ أَلَا أَنَّهُمْ ﴾ بفتح الألف لأنه متوسط والمكسورة لا تليق إلا بالابتداء ، فلأجل هذا ذكروا وجوهاً : أحدها : قال الزجاج : الجملة بعد (إلا) صفة لموصوف محذوف ، والمعنى وما أرسلنا قبلك أحداً من المرسلين إلا آكلين وماشين ، وإنما حذف لأن في قوله : ﴿ مِنَ المرسلين ﴾ دليلاً عليه ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴾ [الصافات : 164] على معنى وما منا أحد وثانيها : قال الفراء إنه صلة لاسم متروك اكتفى بقوله : ﴿ مِنَ المرسلين ﴾ عنه ، والمعنى إلا من أنهم كقوله : ﴿ وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴾ أي من له مقام معلوم ، وكذلك قوله : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ [مريم : 71] أي إلا من يردها فعلى قول الزجاج : الموصوف محذوف ، وعلى قول الفراء : الموصول هو المحذوف ، ولا يجوز حذف الموصول وتبقية الصلة عند البصريين ، وثالثها : قال ابن الأنباري : تكسر إن بعد الاستثناء بإضمار واو على تقدير إلا وإنهم ورابعها : قال بعضهم المعنى إلا قيل إنهم .

المسألة الثالثة :

قرىء ﴿ يَمْشُونَ ﴾ على البناء للمفعول أي تمشيهم حوائجهم أو الناس ، ولو قرىء ﴿ يَمْشُونَ ﴾ لكان أوجه لولا الرواية .

أما قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً ﴾ ففيه مسائل :

المسألة الأولى :

(149/558)

فيه أقوال : أحدها : أن هذا في رؤساء المشركين وفقراء الصحابة ، فإذا رأى الشريف الوضيع قد أسلم قبله أنف أن يسلم فأقام على كفره لئلا يكون للوضيع السابقة والفضل عليه ، ودليله قوله تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ خَيْراً مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ ﴾ [الأحقاف : 11] وهذا قول الكلبي والفراء والزجاج وثانيها : أن هذا عام في جميع الناس ، روى أبو الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " ويل للعالم من الجاهل ، وويل للسلطان من الرعية ، وويل للرعية من السلطان ، وويل للمالك من المملوك ، وويل للشديد من الضعيف ، وللضعيف من الشديد ، بعضهم لبعض فتنة " وقرأ هذه الآية وثالثها : أن هذا في أصحاب البلاء والعافية ، هذا يقول لم لم أجعل مثله في الخلق والخلق وفي العقل وفي العلم وفي الرزق وفي الأجل ؟ وهذا قول ابن عباس والحسن ورابعها : هذا احتجاج عليهم في تخصيص محمد بالرسالة مع مساواته إياهم في البشرية وصفاتها ، فابتلى المرسلين بالمرسل إليهم وأنواع أذاهم على ما قال : ﴿ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الذين أُوتُواْ الكتاب مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الذين أَشْرَكُواْ أَذًى كَثِيراً ﴾ [

آل عمران : 186] والمرسل إليهم يتأذون أيضاً من المرسل بسبب الحسد وصيرورته مكلفاً بالخدمة وبذل النفس والمال بعد أن كان رئيساً مخدوماً ، والأولى حمل الآية على الكل لأن بين الجميع قدراً مشتركاً .

المسألة الثانية :

(150/558)

قال أصحابنا الآية تدل على القضاء والقدر لأنه تعالى قال : ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً ﴾ قال الجبائي هذا الجعل هو بمعنى التعريف كما يقال فيمن سرق ، إن فلاناً لص جعله لصاً ، وهذا التأويل ضعيف لأنه تعالى أضاف الجعل إلى وصف كونه فتنة لا إلى الحكم بكونه كذلك ، بل العقل يدل على أن المراد غير ما ذكره وذلك لأن فاعل السبب فاعل للمسبب ، فمن خلقه الله تعالى على مزاج الصفراء والحرارة وخلق الغضب فيه ثم خلق فيه الإدراك الذي يطلعه على الشيء المغضب فمن فعل هذا المجموع كان هو الفاعل للغضب لا محالة ، وكذا القول في الحسد وسائر الأخلاق والأفعال ، وعند هذا يظهر أنه سبحانه هو الذي جعل البعض فتنة للبعض .

سلمنا أن المراد ما قاله الجبائي أن المراد من الجعل هو الحكم ولكن المجعول إن انقلب لزم

انقلابه انقلاب حكم الله تعالى من الصدق إلى الكذب وذلك محال ، فانقلاب ذلك الجعل محال ، فانقلاب المجعول أيضاً محال ، وعند ذلك يظهر القول بالقضاء والقدر .

المسألة الثالثة :

الوجه في تعلق هذه الآية بما قبلها أن القوم لما طعنوا في الرسول صلى الله عليه وسلم بأنه يأكل الطعام ويمشي في الأسواق وبأنه فقير كانت هذه الكلمات جارية مجرى الخرافات ، فإنه لما قامت الدلالة على النبوة لم يكن لشيء من هذه الأشياء أثر في القدح فيها ، فكان النبي صلى الله عليه وسلم يتأذى منهم من حيث إنهم كانوا يشتمونه ، ومن حيث إنهم كانوا يذكرون الكلام المعوج الفاسد وما كانوا يفهمون الجواب الجيد ، فلا جرم صبره الله تعالى على كل تلك الأذية ، وبين أنه جعل الخلق بعضهم فتنة للبعض .

أما قوله تعالى : ﴿ أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً ﴾ ففيه مسائل :

المسألة الأولى :

قالت المعتزلة لو كان المراد من قوله : ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً ﴾ الخبر لما ذكر عقيبه ﴿ أَتَصْبِرُونَ ﴾ لأن أمر العاجز غير جائز .

المسألة الثانية :

المعنى أتصبرون على البلاء فقد علمتم ما وعد الله الصابرين ﴿ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً ﴾ أي هو العالم بمن يصبر ومن لا يصبر ، فيجازي كلاً منهم بما يستحقه من ثواب وعقاب .

المسألة الثالثة :

قوله : ﴿ أَتَصْبِرُونَ ﴾ استفهام والمراد منه التقرير وموقعه بعد ذكر الفتنة موقع أيكم بعد الابتلاء في قوله : ﴿ لنبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 24 صـ 53.59 ﴾

(152/558)

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُم ﴾

فيه قولان :

أحدهما أنه حَشْرُ الموت ، قاله مجاهد .

الثاني : حشر البعث ، قاله ابن عباس .

﴿ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ قاله مجاهد : هم عيسى وعزير والملائكة . ﴿ فَيَقُولُ

أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ ﴾ وهذا تقرير لإِكذاب من ادّعى ذلك عليهم وإن خرج مخرج الاستفهام.

وفيمن قال له ذلك القول قولان:

أحدهما أنه يقال هذا للملائكة، قاله الحسن.

الثاني: لعيسى وعزير والملائكة، قاله مجاهد.

﴿ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴾ أي أخطأوا قصد الحق بأجابوا بأن

: ﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ ﴾ فيه وجهان:

أحدهما ما كنا نواليهم على عبادتنا.

الثاني: ما كنا نتخذهم لنا أولياء.

﴿ وَلَكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَاءَهُمْ ﴾ فيه ثلاثة أوجه

: أحدها: متعهم بالسلامة من العذاب، قاله يحيى بن سلام.

الثاني: بطول العمر، حكاه النقاش.

الثالث: بالأموال والأولاد.

﴿ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ ﴾ فيه ثلاثة أقاويل

: أحدها: حتى تركوا القرآن، قاله ابن زيد.

الثاني: حتى غفلوا عن الطاعة.

الثالث : حتى نسوا الإِحسان إليهم والإِنعام عليهم .

﴿ وَكَانَوا قَوْماً بُوراً ﴾ فيه ثلاثة تأويلات

: أحدها : يعني هلكى ، قاله ابن عباس ، مأخوذ من البوار وهو الهلاك .

الثاني : هم الذين لا خير فيهم ، قاله الحسن مأخوذ من بوار الأرض وهو تعطلها من الزرع فلا يكون فيها خير .

الثالث : أن البوار الفساد ، قاله شهر بن حوشب وقتادة ، مأخوذ من قولهم بارت إذا كسدت كساد الفاسد ومنه الأثر المروي : نعوذ بالله من بوار الأيم ، وقال عبد الله بن الزِبعرى :

يا رسول المليك إن لساني . . . . . راتق ما فتقت إذ أنا بُور

(153/558)

﴿ فقد كذبوكُم بما تقولون ﴾ فيه قولان : أحدهما : أن الملائكة والرسل قد كذبوا الكفار فيما يقولون أنهم اتخذوهم أولياء من دونه ، قاله مجاهد .

الثاني : أن المشركين كذبوا المؤمنين فيما يقولونه من نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، قاله ابن زيد .

﴿ فَمَا يَسْتَطِيعُونَ صَرْفاً وَلاَ نَصْراً ﴾ فيه أربعة أوجه

: أحدها : صرف العذاب عنهم ولا ينصرون أنفسهم ، قاله ابن زيد .

الثاني : فما يستطيعون صرف الحجة عنهم ولا نصراً على آلهتهم في تعذيبهم ، قاله الكلبي .

الثالث : فما يستطيعون صرفك يا محمد عن الحق ولا نصر أنفسهم من عذاب التكذيب ، حكاه عيسى .

الرابع : أن الصرف الحيلة حكاه ابن قتيبة والصرف الحيلة مأخوذ من قولهم إنه ليتصرف أي يحتال .

وأما قولهم لا يقبل منهم صرف ولا عَدْل ففيه وجهان :

أحدهما : أن الصرف : النافلة ، والعَدل : الفريضة .

الثاني : أن الصرف : الدية ، والعَدل : القود .

قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ﴾

فيه أربعة أقاويل

: أحدها : أنه افتتان الفقير بالغني أن يقول لو شاء الله لجعلني مثله غنياً والأعمى بالبصير أن يقول لو شاء لجعلني مثله بصيراً ، والسقيم بالصحيح أن يقول لو شاء لجعلني مثله صحيحاً ، قاله الحسن .

الثاني : فتنة بالعدوان في الدين ، حكاه ابن عيسى .

الثالث : أن الفتنة صبر الأنبياء على تكذيب قومهم ، قاله يحيى بن سلام .

الرابع : أنها نزلت حين أسلم أبو ذر الغفاري وعمار وصهيب وبلال وعامر بن فهيرة وسلام مولى أبي حذيفة وأمثالهم من الفقراء الموالي فقال المستهزئون من قريش : انظروا إلى أتباع محمد من فقرائنا وموالينا فنزلت فيهم الآية ، حكاه النقاش .

وفي الفتنة هنا وجهان :

أحدهما : البلاء .

والثاني : الاختبار .

﴿ أَتَصْبِرُونَ ﴾ يعني على ما مُحِنْتُمْ به من هذه الفتنة ، وفيه اختصار وتقديره أم لا تصبرون .

(154/558)

﴿ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً ﴾ قال ابن جريج : بصيراً بما يصبر ممن يجزع .

ويحتمل وجها آخر : بصيراً بالحكمة فيما جعل بعضكم لبعض فتنة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

(155/558)

وقال ابن عطية :

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي ﴾

(156/558)

المعنى واذكر يوم ، والضمير في ﴿ نحشرهم ﴾ للكفار ، وقوله ﴿ وما يعبدون ﴾ يريد به كل شيء عبد من دون الله فغلب العبارة عما لا يعقل من الأوثان لأنها كانت الأغلب وقت المخاطبة ، وقرأ ابن كثير وعاصم في رواية حفص والأعرج وأبو جعفر " يحشرهم " " فيقول " بالياء ، وفي قراءة عبد الله " وما يعبدون من دونك " ، وقرأ الأعرج " نحشِرهم " بكسر الشين وهي قليل في الاستعمال قوية في القياس لأن يفعِل بكسر العين في المتعدي أقيس من يفعُل بضم العين ، وهذه الآية تتضمن الخبر عن أن الله يوبّخ الكفار في القيامة بأن يوقف المعبودين على هذا المعنى ليقع الجواب بالتبري من الذنب فيقع الخزي على الكافرين ، واختلف الناس في الموقف المجيب في هذه الآية ، فقال جمهور المفسرين هو كل من ظلم بأن عبد ممن يعقل كالملائكة وعزير وعيسى وغيرهم ، وقال الضحاك وعكرمة الموقف المجيب الأصنام التي لا تعقل يقدرها الله تعالى يومئذ على هذه المقالة ويجيء خزي الكفرة لذلك

أبلغ ، وقرأ جمهور الناس " نَتخذ " بفتح النون وذهبوا بالمعنى إلى أنه من قول من يعقل وأن هذه الآية بمعنى التي في سورة سبأ : ﴿ ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم ﴾ [سبأ : 40 - 41] ، وكقول عيسى عليه السلام ﴿ وما قلت لهم إلا ما أمرتني به ﴾ [المائدة : 117] ، و ﴿ من أولياء ﴾ في هذه القراءة في موضع المفعول به ، وقرأ أبو جعفر والحسن وأبو الدرداء وزيد بن ثابت وأبو رجاء ونصر بن علقمة ومكحول وزيد بن علي وحفص بن حميد " نُتخذ " بضم النون ، وتذهب هذه مذهب من يرى أن الموقف المجيب الأوثان ويضعف هذه القراءة دخول ﴿ من ﴾ في قوله ﴿ من أولياء ﴾ ، اعترض بذلك سعيد بن جبير ، وغيره ، قال أبو الفتح ﴿ من أولياء ﴾ في موضع الحال ودخلت ﴿ من ﴾ زائدة لمكان النفي المتقدم كما تقول ما اتخذت زيداً من وكيل ، وقرأ علقمة " ما ينبغي " بسقوط " كان "

(157/558)

وثبوتها أمكن في المعنى ، لأنهم أخبروا على حال كانت في الدنيا ووقت الإخبار لا عمل فيه ، وفسّر هذا المجيب بحسب الخلاف فيه الوجه في ضلال الكفار كيف وقع ، وأنه لما متعهم الله تعالى بالنعم الدنياوية وأدرها لهم ولأسلافهم الأحقاب الطويلة ﴿ نسوا الذكر

﴿ أي ما ذكر به الناس على ألسنة الأنبياء ، و﴿ بوراً ﴾ ، معناه هلكاً ، والبوار الهلاك واختلف في لفظة بور ، فقالت فرقة هو مصدر يوصف به الجمع والواحد ومنه قول ابن الزبعرى : ﴿ الخفيف]

يا رسول المليك إن لساني . . . راتق ما فتقت إذ أنا بور

(158/558)

وقالت فرقة هي جمع بائر وهو الذي قد فارقه الخير فحصل بذلك في حكم الهلاك باشره الهلاك بعد أو لم يباشر ، قال الحسن البائر الذي لا خير فيه ، وقوله تعالى : ﴿ فقد كذبوكم ﴾ الآية خطاب من الله تعالى بلا خلاف ، فمن قال إن المجيب الأصنام كان معنى هذه إخبار الكفار أن أصنامهم قد كذبوهم ، وفي هذه الأخبار خزي وتوبيخ ، والفرقة التي قالت إن المجيب هو الملائكة وعزير وعيسى ونحوهم اختلفت في المخاطب بهذه الآية ، فقالت فرقة المخاطب الكفار على جهة التقريع والتوبيخ وقالت فرقة المخاطب هؤلاء المعبودون أعلمهم الله تعالى أن الكفار بأفعالهم القبيحة قد كذبوا هذه المقالة وزعموا أن هؤلاء هم الأولياء من دون الله ، وقالت فرقة خاطب الله تعالى المؤمنين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم أي كذبوكم أيها المؤمنون الكفار فيما تقولونه من التوحيد والشرع ، وقرأ ابن

كثير وأبو بكر عن عاصم " بما يقولون فما يستطيعون " بالياء فيهما ، وقرأ حفص عن عاصم " بما تقولون فما تستطيعون " بالتاء فيهما ، وقرأ الباقون وأبو بكر أيضاً عن عاصم والناس " تقولون " بالتاء من فوق " فما يستطيعون " بالياء من تحت ، ورجحها أبو حاتم ، وقرأ أبو حيوة " يقولون " بالياء ، من تحت " فما تستطيعون " بالتاء من فوق ، وقال مجاهد الضمير في " يستطيعون " هو للمشركين ، قال الطبري وفي مصحف ابن مسعود ، " فما يستطيعون لك صرفاً " وفي قراءة أبي بن كعب " لقد كذبوك فما يستطيعون لك " ، قال أبو حاتم في حرف عبد الله " لكم صرفاً " على جمع الضمير ، و ﴿ صرفاً ﴾ معناه ردّ التكذيب أو العذاب أو ما اقتضاه المعنى بحسب الخلاف المتقدم ، وقوله ﴿ ومن يظلم منكم نذقه ، ﴾ ، قيل هو خطاب للكفار ، وقيل للمؤمنين ، والظلم هنا الشرك قاله الحسن وابن جريج وقد يحتمل أن يعم غيره من المعاصي ، وفي حرف أبي " ومن يكذب منكم نذقه عذاباً كبيراً " .

(159/558)

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ ﴾

هذه الآية رد على كفار قريش في استبعادهم أن يكون من البشر رسول وقولهم ﴿ مال

هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ﴾ [الفرقان : 7] فأخبر الله تعالى محمداً صلى الله عليه وسلم وأمته أنه لم يرسل قبل في سائر الدهر نبياً إلا بهذه الصفة ، والمفعول ب ﴿ أرسلنا ﴾ محذوف يدل عليه الكلام تقديره رجلاً أو رسلاً ، وعلى هذا المحذوف المقدر يعود الضمير في قوله ﴿ إلا إنهم ﴾ وذهبت فرقة إلى أن قوله ﴿ ليأكلون الطعام ﴾ كناية عن الحدث ، وقرأ جمهور الناس " ويَمْشون " بفتح الياء وسكون الميم وتخفيف الشين ، وقرأ علي وعبد الرحمن وابن مسعود "يُمَشَّون " بضم الياء وفتح الميم وشد الشين المفتوحة بمعنى يدعون إلى المشي ويحملون عليه ، وقرأ أبو عبد الرحمن بضم الياء وفتح الميم وضم الشين المشددة وهي بمعنى يمشون ومنه قول الشاعر : [الطويل]

أمشي بأعطان المياه وأبتغي . . . قلائص منها صعبة وركوب

ثم أخبر عز وجل أن السبب في ذلك أن الله تعالى أراد أن يجعل بعض العبيد ﴿ فتنة ﴾ لبعض على العموم في جميع الناس مؤمن وكافر ، فالصحيح فتنة للمريض ، والغني فتنة للفقير ، والفقير الشاكر فتنة للغني ، والرسول المخصوص بكرامة النبوة فتنة لأشراف الناس الكفار في عصره ، وكذلك العلماء وحكام العدل ، وقد تلا ابن القاسم هذه الآية حين رأى أشهب ، والتوقيف ب ﴿ أتصبرون ﴾ خاص للمؤمنين المحقين فهو لأمة محمد صلى الله عليه وسلم كأنه جعل إمهال الكفار فتنة للمؤمنين أي اختباراً ثم وقفهم هل يصبرون أم لا ،

ثم أعرب قوله ﴿ وكان ربك بصيراً ﴾ عن الوعد للصابرين والوعيد للعاصين ، ثم أخبر عن مقالة الكفار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(160/558)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ ويوم يَحْشُرُهُمْ ﴾

قرأ ابن كثير ، وحفص عن عاصم : ﴿ يحشرهم ﴾ ﴿ فيقول ﴾ بالياء فيهما .

وقرأ نافع ، وأبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم : ﴿ نحشرهم ﴾ بالنون ﴿ فيقول ﴾ بالياء .

وقرأ ابن عامر : ﴿ نحشرهم ﴾ ﴿ فنقول ﴾ بالنون فيهما جميعاً ، يعني : المشركين ، ﴿ وما يَعْبُدون ﴾ قال مجاهد : يعني عيسى وعزيراً والملائكة .

وقال عكرمة ، والضحاك : يعني الأصنام ، فيأذن الله للأصنام في الكلام ، ويخاطبها ﴿ فيقول أأنتم أضللتم عِبادي ﴾ أي : أمرتموهم بعبادتكم ﴿ أم هم ضَلُّوا السبيل ﴾ أي : أخطأوا الطريق .

﴿ قالوا ﴾ يعني الأصنام ﴿ سبحانَكَ ﴾ نزّهوا الله تعالى أن يُعْبَدَ غيره ﴿ ما كان ينبغي

لنا أن نَتَّخذ من دونك من أولياء ﴾ نُواليهم؛ والمعنى: ما كان ينبغي لنا أن نَعبد نحن غيرك ، فكيف ندعو إلى عبادتنا ؟! فدل هذا الجواب على أنهم لم يأمروا بعبادتهم.

وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي، وابن جبير، والحسن، وقتادة، وأبو جعفر، وابن يعمر، وعاصم الجحدري: ﴿ أن نُتَّخَذ ﴾ برفع النون وفتح الخاء.

ثم ذكروا سبب تركهم الإيمان، فقالوا: ﴿ ولكن مَتَّعْتَهم ﴾ أي: أطلت لهم العمر وأوسعت لهم الرزق ﴿ حتى نَسُوا الذِّكْر ﴾ أي: تركوا الإيمان بالقرآن والاتِّعاظَ به ﴿ وكانوا قوماً بُوراً ﴾ قال ابن عباس: هَلْكى.

وقال في رواية أخرى، البُور: [في] لغة أزد عُمان: الفاسد.

قال ابن قتيبة: هو من بار يَبُور: إذا هلك وبطَل، يقال: بار الطعامُ: إذا كَسَد، وبارت الأَيمُ، إذا لم يُرغَبْ فيها، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتعوَّذُ من بَوَار الأيمِ، قال: وقال أبو عبيدة: يقال: رجل بُورٌ، وقوم بور لا يُجمَع ولا يُثنَّى، واحتج بقول الشاعر:

يا رَسُولَ المَلِيكِ إنَّ لِسَاني . . .
رَاتِقٌ ما فَتَقْتُ إذْ أنَا بُورُ

(161/558)

وقد سمعنا ب"رجل بائر" ، ورأيناهم ربما جمعوا "فاعلاً" على "فُعْل" ، نحو عائذٍ وعُوذٍ ، وشارِفٍ وشُرْفٍ .

قال المفسرون : فيقال للكفار حينئذ ﴿ فقد كذَّبوكم ﴾ ، أي : فقد كذَّبكم المعبودون في قولكم : إنهم آلهة .

وقرأ سعيد ابن جبير ، ومجاهد ، ومعاذ القارىء ، وابن شنبوذ عن قنبل : ﴿ بما يقولون ﴾ بالياء ؛ والمعنى : كذَّبوكم بقولهم : ﴿ سبحانكَ ما كان ينبغي لنا . . . ﴾ الآية ؛ هذا قول الأكثرين .

وقال ابن زيد : الخطاب للمؤمنين ؛ فالمعنى : فقد كذَّبكم المشركون بما تقولون : إن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : ﴿ فما يَستطيعون صَرْفاً ولا نَصْراً ﴾ قرأ الأكثرون بالياء .

وفيه وجهان .

أحدهما : فما يستطيع المعبودون صرفاً للعذاب عنكم ولا نصراً لكم .

والثاني : فما يستطيع الكفار صرفاً لعذاب الله عنهم ولا نصراً لأنفسهم .

وقرأ حفص عن عاصم : ﴿ تستطيعون ﴾ بالتاء ؛ والخطاب للكفار .

وحكى ابن قتيبة عن يونس البصري أنه قال : الصَّرْف : الحيلةُ من قولهم : إنه ليتصرَّف .

قوله تعالى : ﴿ ومن يَظْلِمْ منكم ﴾ أي : بالشِّرك ﴿ نُذِقْهُ ﴾ في الآخرة .

وقرأ عاصم الجحدري، والضحاك، وأبو الجوزاء [وقتادة]: ﴿ يذقه ﴾ بالياء ﴿ عذاباً كبيراً ﴾ أي: شديداً.

﴿ وما أرسَلْنا قبلكَ من المرسلين ﴾ قال الزجاج: في الآية محذوف، تقديره: وما أرسلنا قبلك رُسلاً من المرسَلين، فحذفت ﴿ رسلاً ﴾ لأن قوله: ﴿ من المرسَلين ﴾ يدلّ عليها.

قوله تعالى: ﴿ إلا إنَّهم لَيَأكُلون الطعام ويمشون في الأسواق ﴾ أي: إنهم كانوا على مثل حالكَ، فكيف تكون بدْعاً منهم؟!

فإن قيل: لم كُسرت ﴿ إنَّهم ﴾ ها هنا، وفتحت في [(براءة: 54) في] في قوله: ﴿ أن تُقْبَلَ منهم نفقاتُهم إلاّ أنَّهم ﴾ فقد بيَّنَّا هنالك عِلَّة فتح تلك؛ فأما كسر هذه، فذكر ابن الأنباري فيه وجهين.

(162/558)

أحدهما: أن تكون فيها واو حال مضمرة، فكسرت بعدها "إنّ" للاستئناف، فيكون التقدير: إلا وإنَّهم ليأكلون الطعام، فأُضمرت الواو ها هنا كما أُضمرت في قوله: ﴿ أو هم قائلون ﴾ [الأعراف: 4]، والتأويل: أو وهم قائلون.

والثاني : أن تكون كُسرت لإِضمار "مَنْ" قبلها ، فيكون التقدير : وما أرسلنا قبلكَ من المرسَلين إلا مَنْ إنهم ليأكلون ، قال الشاعر :

فظلُّوا ومنهم دَمْعُه سَابق له . . .

وآخَرُ يَثني دَمْعَة العَيْنِ بالمَهْلِ

أراد : مَن دمعُه .

قوله تعالى : ﴿ وجعلنا بعضَكم لبعض فِتنة ﴾ الفتنة : الابتلاء والاختبار .

وفي معنى الكلام ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه افتتان الفقير بالغنيّ ، يقول : لو شاء لجعلني غنيّاً ، والأعمى بالبصير ، والسقيم بالصحيح ، قاله الحسن .

والثاني : ابتلاء الشريف بالوضيع ، والعربي بالمولى ، فإذا أراد الشريف أن يُسْلِم فرأى الوضيع قد سبقه بالإِسلام أنف فأقام على كفره ، قاله ابن السائب .

والثالث : أن المستهزئين من قريش كانوا إذا رأوا فقراء المؤمنين ، قالوا : انظروا إلى أتباع محمد من موالينا ورُذالتنا ، قاله مقاتل .

فعلى الأول : يكون الخطاب بقوله : ﴿ أتَصْبِرون ﴾ لأهل البلاء .

وعلى الثاني : للرؤساء ، فيكون المعنى : أتصبرون على سبق الموالي والأتباع .

وعلى الثالث : للفقراء ؛ فالمعنى : أتصبرون على أذى الكفار واستهزائهم ، والمعنى : قد

علمتم ما وُعِد الصابرون ، ﴿ وكان ربُّك بصيراً ﴾ بمن يصبر وبمن يجزع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 6 صـ ﴾

(163/558)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ ﴾

قرأ ابن محيصِن وحميد وابن كثير وحفص ويعقوب وأبو عمرو في رواية الدورِيّ : ﴿ يَحْشُرُهُمْ ﴾ بالياء .

واختاره أبو عبيد وأبو حاتم ؛ لقوله في أول الكلام : "كَانَ عَلَى رَبِّكَ" وفي آخره ﴿ أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَاؤُلاءِ ﴾ .

الباقون بالنون على التعظيم .

﴿ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ ﴾ من الملائكة والإنس والجن والمسيح وعُزير ؛ قاله مجاهد وابن جريج .

الضحاك وعكرمة : الأصنام .

﴿ فَيَقُولُ ﴾ قراءة العامة بالياء وهو اختيار أبي عبيد وأبي حاتم .

وقرأ ابن عامر وأبو حيوة بالنون على التعظيم .

﴿ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السبيل ﴾ وهذا استفهام توبيخ للكفار .

﴿ قَالُواْ سُبْحَانَكَ ﴾ أي قال المعبودون من دون الله سبحانك ؛ أي تنزيهاً لك ﴿ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ ﴾ .

فإن قيل : فإن كانت الأصنام التي تعبد تحشر فكيف تنطق وهي جماد ؟ قيل له : ينطقها الله تعالى يوم القيامة كما ينطق الأيدي والأرجل .

وقرأ الحسن وأبو جعفر : ﴿ أَنْ نُتَّخَذَ ﴾ بضم النون وفتح الخاء على الفعل المجهول .

وقد تكلم في هذه القراءة النحويون ؛ فقال أبو عمرو بن العلاء وعيسى بن عمر : لا يجوز ﴿ نُتَّخَذَ ﴾ .

وقال أبو عمرو : لو كانت ﴿ نُتَّخَذَ ﴾ لحذفت ﴿ مِن ﴾ الثانية فقلت : أن نُتَّخذ من دونك أولياء .

كذلك قال أبو عبيدة ، لا يجوز ﴿ نُتَّخَذَ ﴾ لأن الله تعالى ذكر ﴿ مِن ﴾ مرتين ، ولو كان كما قرأ لقال : أن نُتخذ من دونك أولياءَ .

وقيل : إن ﴿ مِن ﴾ الثانية صلة قال النحاس : ومثل أبي عمرو على جلالته ومحله يستحسن ما قال ؛ لأنه جاء ببينة .

وشرح ما قال أنه يقال : ما اتخذت رجلاً وِلياً ؛ فيجوز أن يقع هذا للواحد بعينه ؛ ثم يقال : ما اتخذت من رجل ولياً فيكون نفياً عاماً ، وقولك ﴿ وليا ﴾ تابع لما قبله فلا يجوز أن تدخل فيه ﴿ مِن ﴾ لأنه لا فائدة في ذلك .

﴿ ولكن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَآءَهُمْ ﴾ أي في الدنيا بالصحة والغنى وطول العمر بعد موت الرسل صلوات الله عليهم .

﴿ حتى نَسُواْ الذكر ﴾ أي تركوا ذكرك فأشركوا بك بطراً وجهلاً فعبدونا من غير أن أمرناهم بذلك .

وفي الذكر قولان : أحدهما : القرآن المنزل على الرسل ؛ تركوا العمل به ؛ قاله ابن زيد .

الثاني ؛ الشكر على الإحسان إليهم والإنعام عليهم .

إنهم ﴿ وَكَانُواْ قَوْماً بُوراً ﴾ أي هلكى ؛ قاله ابن عباس .

مأخوذ من البوار وهو الهلاك .

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه وقد أشرف على أهل حِمص : يا أهل حمص ! هلم إلى أخ لكم ناصح ، فلما اجتمعوا حوله قال : ما لكم لا تستحون ! تبنون ما لا تسكنون ، وتجمعون ما لا تأكلون ، وتأمُلون ما لا تدركون ، إن من كان قبلكم بنوا مشيداً وجمعوا عبيداً ، وأملوا بعيداً ، فأصبح جمعهم بوراً ، وآمالهم غروراً ، ومساكنهم قبوراً .

فقوله : ﴿ بُوراً ﴾ أي هلكى .

وفي خبر آخر : فأصبحت منازلهم بوراً ؛ أي خالية لا شيء فيها .

وقال الحسن : ﴿ بُوراً ﴾ لا خير فيهم .

مأخوذ من بوار الأرض ، وهو تعطيلها من الزرع فلا يكون فيها خير .

وقال شهر بن حَوْشبَ : البوار الفساد والكساد ؛ مأخوذ من قولهم : بارت السلعة إذا كسدت كساد الفاسد ؛ ومنه الحديث : " نعوذ بالله من بوار الأَيِم " وهو اسم مصدر كالزّور يستوي فيه الواحد والاثنان والجمع والمذكر والمؤنث .

قال ابن الزِّبَعْرىَ :

يا رسولَ المليكِ إنّ لساني . . .

راتِقٌ ما فَتَقتُ إذ أنا بُورُ

إذ أُباري الشيطانَ في سَنَنِ الغ . . .

نيِّ ومَنْ مَالَ ميلَه مثْبُورُ

وقال بعضهم : الواحد بائر والجمع بُور .

كما يقال : عائذ وعُوذ ، وهائد وهُود .

وقيل : "بُوراً" عمياً عن الحق .

قوله تعالى : ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ ﴾ أي يقول الله تعالى عند تبرّي المعبودين : ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ ﴾ أي في قولكم إنهم آلهة .

﴿ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ ﴾ يعني الآلهة صرف العذاب عنكم ولا نصركم .

وقيل : فما يستطيع هؤلاء الكفار لما كذبهم المعبودون ﴿ صَرْفاً ﴾ للعذاب ﴿ وَلاَ نَصْراً ﴾ من الله .

وقال ابن زيد : المعنى فقد كذبكم أيها المؤمنون هؤلاء الكفار بما جاء به محمد ؛ وعلى هذا فمعنى ﴿ بِمَا تَقُولُونَ ﴾ بما تقولون من الحق وقال أبو عبيد : المعنى ؛ فيما تقولون فما يستطيعون لكم صرفاً عن الحق الذي هداكم الله إليه ، ولا نصراً لأنفسهم مما ينزل بهم من العذاب بتكذيبهم إياكم .

وقراءة العامة ﴿ بِمَا تَقُولُونَ ﴾ بالتاء على الخطاب .

وقد بيّنا معناه .

وحكى الفراء أنه يقرأ : ﴿ فَقَدْ كَذَبُوكُمْ ﴾ مخففاً ، ﴿ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ .

وكذا قرأ مجاهد والبَزّي بالياء ، ويكون معنى ﴿ يَقُولُونَ ﴾ بقولهم .

وقرأ أبو حَيْوَة : ﴿ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ بياء ﴿ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ ﴾ بتاء على الخطاب لمتخِذِي

الشركاء .

ومن قرأ بالياء فالمعنى : فما يستطيع الشركاء .

﴿ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ ﴾ قال ابن عباس : من يشرك منكم ثم مات عليه .

﴿ نُذِقْهُ ﴾ أي في الآخرة .

﴿ عَذَاباً كَبِيراً ﴾ أي شديداً ؛ كقوله تعالى : ﴿ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كَبِيراً ﴾ [الإسراء : 4] أي شديداً .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ ﴾)

فيه تسع مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ المرسلين ﴾ نزلت جواباً للمشركين حيث قالوا : ﴿ مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ ﴾ .

(166/558)

وقال ابن عباس : لما عير المشركون رسول الله صلى الله عليه وسلم بالفاقة وقالوا : ﴿ مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ ﴾ الآية حزن النبي صلى الله عليه وسلم لذلك فنزلت تعزية له ؛ فقال جبريل عليه السلام : السلام عليك يا رسول اللها الله ربك يقرئك السلام ويقول لك

: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ المرسلين إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطعام وَيَمْشُونَ فِي الأسواق ﴾ أي يبتغون المعايش في الدنيا .

الثانية : قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطعام ﴾ إذا دخلت اللام لم يكن في "إن" إلا الكسر ، ولو لم تكن اللام ما جاز أيضا إلا الكسر ؛ لأنها مستأنفة .

هذا قول جميع النحويين .

قال النحاس : إلا أن عليّ بن سليمان حكى لنا عن محمد بن يزيد قال : يجوز في "إنّ" هذه الفتح وإن كان بعدها اللام ؛ وأحسبه وهْما منه .

قال أبو إسحاق الزجاج : وفي الكلام حذف ؛ والمعنى وما أرسلنا قلبك رسلاً إلا إنهم ليأكلون الطعام ، ثم حذف رسلاً ، لأن في قوله : ﴿ مِن المرسلِينَ ﴾ ما يدل عليه .

فالموصوف محذوف عند الزجاج .

ولا يجوز عنده حذف الموصول وتبقية الصلة كما قال الفراء .

قال الفراء : والمحذوف ﴿ مَن ﴾ والمعنى إلا مَنْ إنهم ليأكلون الطعام .

وشبّهه بقوله : ﴿ وَمَا مِنَّآ إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴾ [الصافات : 164] ، وقوله : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا ﴾ [مريم : 71] أي ما منكم إلا من هو واردها .

وهذا قول الكسائيّ أيضاً .

وتقول العرب : ما بعثت إليك من الناس إلا مَن إنه ليطيعك .

فقولك : إنه ليطيعك صلة من .

قال الزجاج : هذا خطأ ؛ لأن من موصولة فلا يجوز حذفها .

وقال أهل المعاني : المعنى ؛ وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا قيل إنهم ليأكلون ؛ دليله قوله تعالى : ﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ﴾ [فصلت : 43] .

(167/558)

وقال ابن الأنباريّ : كسرت ﴿ إِنَّهُمْ ﴾ بعد ﴿ إلا ﴾ للاستئناف بإضمار واو .

أي إلا وإنهم .

وذهبت فرقة إلى أن قوله : ﴿ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ ﴾ كناية عن الحدث .

قلت : وهذا بليغ في معناه ، ومثله ﴿ مَّا المسيح ابن مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرسل وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلاَنِ الطعام ﴾ [المائدة : 75] .

﴿ وَيَمْشُونَ فِي الأسواق ﴾ قرأ الجمهور ﴿ يَمْشُونَ ﴾ بفتح الياء وسكون الميم وتخفيف الشين .

وقرأ عليّ وابن عوف وابن مسعود بضم الياء وفتح الميم وشد الشين المفتوحة ، بمعنى يُدْعَون إلى المشي ويحملون عليه .

وقرأ أبو عبد الرحمن السُّلَمِيّ بضم الياء وفتح الميم وضم الشين المشدّدة ، وهي بمعنى يَمْشُونَ ؛ قال الشاعر :

ومَشَّى بأعطان المَبَاءة وابتغى . . .
قلائصَ منها صعبةٌ وركُوبُ

وقال كعب بن زهير :

منه تظل سِباعُ الجوِّ ضامِزةً . . .
ولا تُمَشِّي بوادِيه الأَراجيلُ

بمعنى تَمْشي . . .

.

الثالثة : هذه الآية أصل في تناول الأسباب وطلب المعاش بالتجارة والصناعة وغير ذلك . وقد مضى هذا المعنى في غير موضع ، لكنا نذكر هنا من ذلك ما يكفي فنقول : قال لي بعض مشايخ هذا الزمان في كلام جرى : إن الأنبياء عليهم السلام إنما بعثوا ليسنوا الأسباب للضعفاء ؛ فقلت مجيباً له : هذا قول لا يصدر إلا من الجهال والأغِنياء ، والرعاع السفهاء ، أو من طاعن في الكتاب والسنة العلياء ؛ وقد أخبر الله تعالى في كتابه عن أصفيائه ورسله وأنبيائه بالأسباب والاحتراف فقال وقوله الحق : ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ ﴾ [الأنبياء : 80] .

وقال : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ المرسلين إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطعام وَيَمْشُونَ فِي الأسواق ﴾

قال العلماء : أي يتجرون ويحترفون .

(168/558)

وقال عليه الصلاة والسلام : " جُعِل رزقي تحت ظل رُمْحي " وقال تعالى : ﴿ فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلاَلاً طَيِّباً ﴾ [الأنفال : 69] وكان الصحابة رضي الله عنهم يتجرون ويحترفون وفي أموالهم يعملون ، ومن خالفهم من الكفار يقاتلون ؛ أتراهم ضعفاء ! بل هم كانوا والله الأقوياء ، وبهم الخلف الصالح اقتدَى ، وطريقهم فيه الهدى والاهتداء .

قال : إنما تناولوها لأنهم أئمة الاقتداء ، فتناولوها مباشرة في حق الضعفاء ، فأما في حق أنفسهم فلا ؛ وبيان ذلك أصحابُ الصُّفَّة .

قلت : لو كان ذلك لوجب عليهم وعلى الرسول معهم البيان ؛ كما ثبت في القرآن ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذكر لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [النحل : 44] وقال : ﴿ إِنَّ الذين يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ البينات والهدى ﴾ [البقرة : 159] الآية .

وهذا من البينات والهدى .

وأما أصحاب الصُّفة فإنهم كانوا ضيف الإسلام عند ضيق الحال ، فكان عليه السلام إذا

أتته صدقة خصهم بها ، وإذا أتته هدية أكلها معهم ، وكانوا مع هذا يحتطبون ويسوقون الماء إلى أبيات رسول الله صلى الله عليه وسلم .

كذا وصفهم البخاريّ وغيره .

ثم لما افتتَح الله عليهم البلاد ومهد لهم المهاد تأمّروا ، وبالأسباب أُمِروا .

ثم إن هذا القول يدلّ على ضعف النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ؛ لأنهم أُيِّدوا بالملائكة وثُبّتوا بهم ، فلو كانوا أقوياء ما احتاجوا إلى تأييد الملائكة وتأييدهم إذ ذلك سبب من أسباب النصر ؛ نعوذ بالله من قول وإطلاق يؤول إلى هذا ، بل القول بالأسباب والوسائط سنة الله وسنة رسوله ، وهو الحق المبين ، والطريق المستقيم الذي انعقد عليه إجماع المسلمين ؛ وإلا كان يكون قوله الحق : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَّا استطعتم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الخيل ﴾ [الأنفال : 60] الآية مقصوراً على الضعفاء ، وجميع الخطابات كذلك .

(169/558)

وفي التنزيل حيث خاطب موسى الكِليم ﴿ اضرب بِّعَصَاكَ البحر ﴾ [الشعراء : 63] وقد كان قادراً على فلق البحر دون ضرب عصا .

وكذلك مريم عليها السلام ﴿ وهزى إِلَيْكِ بِجِذْعِ النخلة ﴾ [مريم : 25] وقد كان

قادراً على سقوط الرطب دون هزّ ولا تعب ؛ ومع هذا كله فلا ننكر أن يكون رجل يلطَف به ويعان ، أو تجاب دعوته ، أو يكرم بكرامة في خاصة نفسه أو لأجل غيره ، ولا تهدّ لذلك القواعد الكلية والأمور الجملية .

هيهات هيهات ! لا يقال فقد قال الله تعالى : ﴿ وَفِي السمآء رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ [الذاريات : 22] فإنا نقول : صدق الله العظيم ، وصدق رسوله الكريم ، وأن الرزق هنا المطر بإجماع أهل التأويل ؛ بدليل ؛ قوله : ﴿ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السمآء رِزْقاً ﴾ [غافر : 13] وقال : ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ السمآء مَآءً مُّبَارَكاً فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الحصيد ﴾ [ق : 9] ولم يشاهد ينزل من السماء على الخلق أطباقَ الخبز ولا جِفان اللحم ، بل الأسباب أصل في وجود ذلك ؛ وهو معنى قوله عليه السلام : " اطلبوا الرزق في خبايا الأرض " أي بالحرث والحفر والغرس .

وقد يسمى الشيء بما يؤول إليه ، وسمي المطر رزقاً لأنه عنه يكون الرزق ، وذلك مشهور في كلام العرب .

وقال عليه السلام : " لأنّ يأخذ أحدكم حبله فيحتطب على ظهره خير له من أن يسأل أحداً أعطاه أو منعه " وهذا فيما خرج من غير تعب من الحشيش والحطب .

ولو قُدِّر رجل بالجبال منقطعاً عن الناس لما كان له بَد من الخروج إلى ما تخرجه الآكام وظهور الأعلام حتى يتناول من ذلك ما يعيش به ؛ وهو معنى قوله عليه السلام : " لو أنكم

كنتم توكلون على الله حق توكّله لرزقتم كما تُرزق الطير تغدو خِماصا وتروح بِطانا "

فغدوّها ورواحها سبب ؛ فالعجب العجب ممن يدعي التجريد والتوكل على التحقيق ، ويقعد على ثنيات الطريق ، ويدع الطريق المستقيم ، والمنهج الواضح القويم .

(170/558)

ثبت في البخاري عن ابن عباس قال : كان أهل اليمن يحجون ولا يتزوّدون ويقولون نحن المتوكلون ، فإذا قدموا سألوا الناس ؛ فأنزل الله تعالى ﴿ وَتَزَوَّدُواْ ﴾ [البقرة : 197] .

ولم ينقل عن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضوان الله عليهم أنهم خرجوا إلى أسفارهم بغير زاد ، وكانوا المتوكلين حقاً .

والتوكل اعتماد القلب على الرب في أن يُلّم شعثه ويجمع عليه أربَه ؛ ثم يتناول الأسباب بمجرد الأمر .

وهذا هو الحق .

سأل رجل الإمام أحمد بن حنبل فقال : إني أريد الحج على قدم التوكل .

فقال : اخرج وحدك ؛ فقال : لا ، إلاّ مع الناس .

فقال له : أنت إذن متكل على أجربتهم .

وقد أتينا على هذا في كتاب "قمع الحرص بالزهد والقناعة وردّ ذلّ السؤال بالكتب والشفاعة" .

الرابعة : خرّج مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " أحب البلاد إلى الله مساجدها وأبغض البلاد إلى الله أسواقها " وخرّج البزّار عن سلمان الفارسيّ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تكونن إن استطعتْ أوّل من يدخل السوق ولا آخر من يخرج منها فإنها معركة الشيطان وبها ينصب رايته " أخرجه أبو بكر البرْقانيّ مسنداً عن أبي محمد عبد الغني بن سعيد الحافظ من رواية عاصم عن أبي عثمان النهدِيّ عن سلمان قال .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تكن أوّل من يدخل السوق ولا آخر من يخرج منها فبها باض الشيطان وفرّخ " ففي هذه الأحاديث ما يدلّ على كراهة دخول الأسواق ، لا سيما في هذه الأزمان التي يخالط فيها الرجال النسوان .

وهكذا قال علماؤنا لما كثر الباطل في الأسواق وظهرت فيها المناكر : كُره دخولها لأرباب الفضل والمقتدى بهم في الدِّين تنزيهاً لهم عن البقاع التي يُعصى الله فيها .

(171/558)

فحق على من ابتلاَه الله بالسوق أن يخطر بباله أنه قد دخل محل الشيطان ومحل جنوده ، وأنه إن أقام هناك هلك ، ومن كانت هذه حاله اقتصَر منه على قدر ضرورته ، وتحرز من سوء عاقبته وبليته .

الخامسة : تشبيه النبيّ صلى الله عليه وسلم السوق بالمعركة تشبيه حسن ؛ وذلك أن المعركة موضع القتال ، سمي بذلك لتعارك الأبطال فيه ، ومصارعة بعضهم بعضاً . فشبّه السوق وفعل الشيطان بها ونيله منهم مما يحملهم من المكر والخديعة ، والتساهل في البيوع الفاسدة والكذب والأيمان الكاذبة ، واختلاَط الأصوات وغير ذلك بمعركة الحرب ومن يصرع فيها .

السادسة : قال ابن العربي : أما أكل الطعام فضرورة الخلق لا عار ولا درك فيه ، وأما الأسواق فسمعت مشيخة أهل العلم يقولون : لا يدخل إلا سوق الكتب والسلاح ، وعندي أنه يدخل كل سوق للحاجة إليه ولا يأكل فيها ؛ لأن ذلك إسقاط للمروءة وهدم للحشمة ؛ ومن الأحاديث الموضوعة : " الأكل في السوق دناءة " .

قلت : ما ذكرته مشيخة أهل العلم فنعما هو ؛ فإن ذلك خالٍ عن النظر إلى النسوان ومخالطتهن ؛ إذ ليس بذلك من حاجتهن .

وأما غيرهما من الأسواق فمشحونة منهن ، وقلة الحياء قد غلبت عليهن ، حتى ترى المرأة في القيسارِيات وغيرهن قاعدة متبرجة بزينتها ، وهذا من المنكر الفاشي في زماننا هذا .

نعوذ بالله من سخطه .

السابعة : خرّج أبو داود الطيالسيّ في مسنده حدّثنا حماد بن زيد قال حدّثنا عمرو ابن دِينار قهرمان آل الزبير عن سالم عن أبيه عن عمر بن الخطاب قال : " من دخل سوقاً من هذه الأسواق فقال لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو حي لا يموت بيده الخير وهو على كل شيء قدير كتب الله له ألف ألف حسنة ومحا عنه ألفَ ألفِ سيئة وبنى له قصراً في الجنة " خرّجه الترمذيّ أيضاً وزاد بعده " "ومحا عنه ألف ألف سيئة" : "ورفع له ألف ألف درجةٍ وبنى له بيتاً في الجنة" " وقال : هذا حديث غريب .

(172/558)

قال ابن العربيّ : وهذا إذا لم يقصد في تلك البقعة سواه ليعمرها بالطاعة إذ عمرت بالمعصية ، وليحليها بالذكر إذ عطلت بالغفلة ، وليعلم الجهلة ويذكر الناسين .

الثامنة : قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ﴾ أي إن الدنيا دار بلاء وامتحَان ، فأراد سبحانه أن يجعل بعض العبيد فتنة لبعض على العموم في جميع الناس مؤمن وكافر ، فالصحيح فتنة للمريض ، والغني فتنة للفقير ، والفقير الصابر فتنة للغنّي .

ومعنى هذا أن كل واحد مختبَر بصاحبه ؛ فالغني ممتحن بالفقير ، عليه أن يواسيه ولا يسخر منه .

والفقير ممتحَن بالغنّي ، عليه ألا يحسده ولا يأخذ منه إلا ما أعطاه ، وأن يصبر كل واحد منهما على الحق ؛ كما قال الضحاك في معنى ﴿ أَتَصْبِرُونَ ﴾ : أي على الحق .

وأصحاب البلايا يقولون : لِمَ لم نعاف ؟ والأعمى يقول : لِمَ لَمْ أجعل كالبصير ؟ وهكذا صاحب كل آفة .

والرسول المخصوص بكرامة النبوّة فتنة لأشراف الناس من الكفار في عصره .

وكذلك العلماء وحكام العدل .

ألا ترى إلى قولهم : ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هذا القرآن على رَجُلٍ مِّنَ القريتين عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف : 31] .

فالفتنة أن يحسد المبتلى المعافى ، ويحقر المعافى المبتلى .

والصبر : أن يحبس كلاهما نفسه ، هذا عن البطر ، وذاك عن الضجر .

﴿ أَتَصْبِرُونَ ﴾ محذوف الجواب ، يعني أم لا تصبرون .

فيقتضي جواباً كما قاله المزني ، وقد أخرجته الفاقة فرأى خصياً في مراكب ومناكب ، فخطر بباله شيء فسمع من يقرأ الآية ﴿ أَتَصْبِرُونَ ﴾ فقال : بلى ربنا ! نصبِر ونحتسب .

وقد تلا ابن القاسم صاحب مالك هذه الآية حين رأى أشهب بن عبد العزيز في مملكته عابراً عليه ، ثم أجاب نفسه بقوله : سنصبر .

(173/558)

وعن أبي الدرداء أنه سمع النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " ويل للعالِم من الجاهل وويل للجاهل من العالم وويل للمالك من المملوك وويل للمملوك من المالك وويل للشديد من الضعيف وويل للضعيف من الشديد وويل للسلطان من الرعية وويل للرعية من السلطان وبعضهم لبعض فتنة وهو قوله : ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ﴾ " أسنده الثعلبي تغمده الله برحمته .

وقال مقاتل : نزلت في أبي جهل بن هشام والوليد بن المغيرة والعاص بن وائل ، وعقبة بن أبي مُعَيط وعُتْبة بن ربيعة والنضر بن الحرث حين رأوا أبا ذرّ وعبد الله بن مسعود ، وعماراً وبلالاً وصُهيباً وعامر بن فُهَيرة ، وسالماً مولى أبي حُذَيفة ومِهْجَعا مولى عمر بن الخطاب وجبراً مولى الحَضْرمي ، وذويهم ؛ فقالوا على سبيل الاستهزاء : أنسلم فنكون مثل هؤلاء ؟ فأنزل الله تعالى يخاطب هؤلاء المؤمنين : ﴿ أَتَصْبِرُونَ ﴾ على ما ترون من هذه الحال الشديدة والفقر ؛ فالتوقيف ب ﴿ أَتَصْبِرُونَ ﴾ خاص للمؤمنين المحققين من أمة محمد

صلى الله عليه وسلم .

كأنه جعل إمهال الكفار والتوسعة عليهم فتنة للمؤمنين ، أي اختبارا لهم .

ولما صبر المسلمون أنزل الله فيهم : ﴿ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ اليوم بِمَا صبروا ﴾ [المؤمنون : 111] .

التاسعة : قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً ﴾ أي بكل امرىء وبمن يصبر أو يجزع ، ومن يؤمن ومن لا يؤمن ، وبمن أدّى ما عليه من الحق ومن لا يؤدّي .

وقيل : ﴿ أَتَصْبِرُونَ ﴾ أي اصبروا .

مثل ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴾ [المائدة : 91] أي انتهوا ؛ فهو أمر للنبي صلى الله عليه وسلم بالصبر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 13 صـ ﴾

(174/558)

وقال أبو حيان :

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ ﴾

قرأ أبو جعفر والأعرج وابن كثير وحفص ﴿ يحشرهم ﴾ و ﴿ فيقول ﴾ بالياء فيهما .

وقرأ الحسن وطلحة وابن عامر بالنون فيهما .

وقرأ باقي السبعة في نحشرهم بالنون وفي ﴿ فيقول ﴾ بالياء .

وقرأ الأعرج ﴿ يحشرهم ﴾ بكسر الشين .

قال صاحب اللوامح في كل القرآن وهو القياس في الأفعال المتعدية الثلاثية لأن يفعل بضم العين قد يكون من اللازم الذي هو فعل بضمها في الماضي .

وقال ابن عطية : وهي قليلة في الاستعمال قوية في القياس لأن يفعل بكسر العين المتعدي أقيس من يفعل بضم العين انتهى .

وهذا ليس كما ذكر ابل فعل المتعدي الصحيح جميع حروفه إذا لم يكن للمبالغة ولا حلقى عين ولا لام فإنه جاء على يفعل ويفعل كثيراً ، فإن شهر أحد الاستعمالين اتبع وإلاّ فالخيار حتى أن بعض أصحابنا خير فيهما سمعاً للكلمة أو لم يسمعا .

﴿ وما يعبدون ﴾ قال الضحاك وعكرمة : الأصنام التي لا تعقل يقدرها الله على هذه المقالة من الجواب .

وقال الكلبي : يحيي الله الأصنام يومئذ لتكذيب عابديها .

وقال الجمهور : من عبد ممن يعقل ممن لم يأمر بعبادته كالملائكة وعيسى وعزير وهو الأظهر كقوله ﴿ أأنتم أضللتم ﴾ وما بعده من المحاورة التي ظاهرها أنها لا تصدر إلاّ من العقلاء ، وجاء ما يشبه ذلك منصوصاً في قوله ﴿ ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون ﴾ ﴿ أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله ﴾ وسؤاله تعالى وهو عالم

بالمسؤول عنه ليجيبوا بما أجابوا به فيبكت عبدتهم بتكذيبهم إياهم فيزيد حسرتهم ويسر المؤمنون بحالهم ونجاتهم من فضيحة أولئك ، وليكون حكاية ذلك في القرآن لطفاً للمكلفين .

وجاء الاستفهام مقدماً فيه الاسم على الفعل ولم يأت التركيب ﴿ أأضللتم ﴾ ولا أضلوا لأن كلاً من الإضلال والضلال واقع والسؤال إنما هو من فاعله .

(175/558)

وتقدم نظير هذا في ﴿ أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم ﴾ وقال الزمخشري : وفيه كسر بيِّن لقول من يزعم أن الله يضل عباده على الحقيقة حيث يقول للمعبودين من دونه ﴿ أأنتم أضللتم ﴾ أم ضلوا بأنفسهم فيتبرؤون من ضلالهم ويستعيذون به أن يكونوا مضلين ويقولون : بل أنت تفضلت من غير سابقة على هؤلاء وآبائهم تفضل جواد كريم ، فجعلوا الرحمة التي حقها أن تكون سبب الشكر سبب الكفر ونسيان الذكر وكان ذلك سبب هلاكهم فإذا تبرأت الملائكة والرسل أنفسهم من نسبة الضلال الذي هو عمل الشياطين إليهم واستعاذوا منهم فهم لربهم الغنى العدل أشد تبرئة وتنزيهاً منه ، ولقد نزهوه حين أضافوا إليه التفضل بالنعمة والتمتيع بها .

وأسندوا نسيان الذكر والتسبب به للبوار إلى الكفرة فشرحا الإضلال المجازي الذي أسنده الله إلى ذاته في قوله ﴿ يضل من يشاء ﴾ ولو كان هو المضل على الحقيقة لكان الجواب العتيد أن يقولوا بل أنت أضللتم انتهى .

وهو على طريقة المعتزلة .

والمعنى ﴿ أأنتم ﴾ أوقعتم هؤلاء ونسبتم لهم في إضلالهم عن الحق ، أم ﴿ ضلوا ﴾ بأنفسهم عنه .

ضل أصله أن يتعدى بعن كقوله ﴿ من يضل عن سبيله ﴾ ثم أتسع فحذف ، وأضله عن السبيل كما أن هدى يتعدى بإلى ثم يحذف ويضل مطاوع أضل كما تقول : أقعدته فقعد .

و ﴿ سبحانك ﴾ تنزيه لله تعالى أن يشرك معه في العبادة أحد أو يفرد بعبادة فأنّى لهم أن يقع منهم إضلال أحد وهم المنزهون المقدسون ، أن يكون أحد منهم نداً وهو المنزه عن الند والنظير .

وقال الزمخشري : ﴿ سبحانك ﴾ تعجب منهم مما قيل لأنهم ملائكة وأنبياء معصومون فما أبعدهم عن الإضلال الذي هو مختص بإبليس وحزبه انتهى .

وقرأ علقمة ما ينبغي بسقوط كان وقراءة الجمهور بثبوتها أمكن في المعنى لأنهم أخبروا عن حال كانت في الدنيا ووقت الإخبار لا عمل فيه .

وقرأ أبو عيسى الأسود القاري ﴿ يُنْبَغي لنا ﴾ مبنياً للمفعول .

وقال ابن خالويه : زعم سيبويه أن ينبغي لغة .

(176/558)

وقرأ الجمهور : ﴿ أن نتخذ ﴾ مبنياً للفاعل و ﴿ من أولياء ﴾ مفعول على زيادة ﴿ من ﴾ وحسن زيادتها انسحاب النفي على ﴿ نتخذ ﴾ لأنه معمول لينبغي .

وإذا انتفى الابتغاء لزم منه انتفاء متعلقة وهو اتخاذ وليّ من دون الله .

ونظيره ﴿ ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير ﴾ أي خير والمعنى ما كان يصح لنا ولا يستقيم ونحن معصومون أن نتولى أحداً دونك ، فكيف يصح لنا أن نحمل غيرنا على أن يتولونا دونك .

وقال أبو مسلم ﴿ ما كان ينبغي لنا ﴾ أن نكون أمثال الشياطين نريد الكفر فنتولى الكفار قال ﴿ والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت ﴾ وقرأ أبو الدرداء وزيد بن ثابت وأبو رجاء ونصر بن علقمة وزيد بن عليّ وأخوه الباقر ومكحول والحسن وأبو جعفر وحفص بن عبيد والنخعي والسلمي وشيبة وأبو بشر والزعفراني أن يُتخذ مبنياً للمفعول واتخذ مما يتعدى تارة لواحد كقوله ﴿ أم اتخذوا آلهة من الأرض ﴾ وعليه قراءة الجمهور وتارة إلى اثنين

كقوله ﴿ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه ﴾ فقيل : هذه القراءة منه فالأول الضمير في ﴿ نتخذ ﴾ والثاني ﴿ من أولياء ﴾ و ﴿ من ﴾ للتبعيض أي لا يتخذ بعض أولياء وهذا قول الزمخشري .

وقال ابن عطية : ويضعف هذه القراءة دخول ﴿ من ﴾ في قوله ﴿ من أولياء ﴾ اعترض بذلك سعيد بن جبير وغيره .

وقال أبو الفتح ﴿ من أولياء ﴾ في موضع الحال ودخلت ﴿ من ﴾ زيادة لمكان النفي المتقدم كما تقول : ما اتخذت زيداً من وكيل .

وقيل ﴿ من أولياء ﴾ هو الثاني على زيادة ﴿ من ﴾ وهذا لا يجوز عند أكثر النحويين إنما يجوز دخولها زائدة على المفعول الأول بشرطه .

(177/558)

وقرأ الحجاج أن نتخذ من دونك أولياء فبلغ عاصماً فقال : مقت المخدّج أو ما علم أن فيها ﴿ من ﴾ ولما تضمن قولهم ﴿ ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ﴾ أنّا لم نضلهم ولم نحملهم على الامتناع من الإيمان صلح أن يستدرك بلكن ، والمعنى لكن أكثرت عليهم وعلى آبائهم النعم وأطلت أعمارهم وكان يجب عليهم شكرها والإيمان بما جاءت

به الرسل ، فكان ذلك سبباً للإعراض عن ذكر الله .

قيل : ولكن متعتهم كالرمز إلى ما صرح به موسى من قوله ﴿ إن هي إلاّ فتنتك ﴾ أي أنت الذي أعطيتهم مطالبهم من الدنيا حتى صاروا غرقى في بحر الشهوات فكان صارفاً لهم عن التوجه إلى طاعتك والاشتغال بخدمتك و ﴿ الذكر ﴾ ما ذكر به الناس على ألسنة الأنبياء أو الكتب المنزلة أو القرآن .

والبور : قيل مصدر يوصف به الواحد والجمع .

وقيل : جمع بائر كعائذ وعوذ .

قيل : معناه هلكى .

وقيل : فسدى وهي لغة الأزد يقولون : أمر بائر أي فاسد ، وبارت البضاعة : فسدت .

وقال الحسن : لا خير فيهم من قولهم أرض بور أي معطلة لا نبات فيها .

وقيل ﴿ بوراً ﴾ عمياً عن الحق .

﴿ فقد كذبوكم ﴾ هذا من قول الله بلا خلاف وهي مفاجأة ، فالاحتجاج والإلزام حسنة رابعة وخاصة إذا انضم إليها الالتفات وهو على إضمار القول كقوله ﴿ يا أهل الكتاب ﴾ إلى قوله ﴿ فقد جاءكم ﴾ أي فقلنا قد جاءكم .

وقول الشاعر :

قالوا خراسان أقصى ما يراد بنا . . .

ثم القفول فقد جئنا خراسانا

أي فقلنا قد جئنا وكذلك هذا أي فقلنا قد كذبوكم ، فإن كان المجيب الأصنام فالخطاب للكفار أي قد كذبتكم معبوداتكم من الأصنام بقولهم ﴿ ما كان ينبغي لنا ﴾ وإن كان الخطاب للمعبودين من العقلاء عيسى والملائكة وعزير عليهم السلام ، وهو الظاهر لتناسق الخطاب مع قوله ﴿ أأنتم أضللتم ﴾ أي كذبكم المعبودون ﴿ بما تقولون ﴾ أي بقولهم أنكم أضللتموهم ، وزعمهم أنكم أولياؤهم من دون الله .

(178/558)

ومن قرأ ﴿ بما تقولون ﴾ بتاء الخطاب فالمعنى فيما تقولون أي ﴿ سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ﴾ .

وقيل : الخطاب للكفار العابدين أي كذبكم المعبودون بما تقولون من الجواب .

﴿ سبحانك ما كان ينبغي لنا ﴾ أو فيما تقولون أنتم من الافتراء عليهم خوطبوا على جهة التوبيخ والتقريع .

وقيل : هو خطاب للمؤمنين في الدنيا أي قد كذبكم أيها المؤمنون الكفار في الدنيا فيما تقولونه من التوحيد والشرع .

وقرأ الجمهور ﴿ بما تقولون ﴾ بالتاء من فوق .

وأبو حيوة وابن الصلت عن قنبل بالياء من تحت .

وقرأ حفص وأبو حيوة والأعمش وطلحة ﴿ فما تستطيعون ﴾ بتاء الخطاب ، ويؤيد هذه القراءة أن الخطاب في ﴿ كذبوكم ﴾ للكفار العابدين .

وذكر عن ابن كثير وأبي بكر أنهما قرآ بما يقولون فما يستطيعون بالياء فيهما أي هم .

﴿ صرفاً ﴾ أي صرف العذاب أو توبة أو حيلة من قولهم إنه ليتصرف أي يحتال ، هذا إن كان الخطاب في ﴿ كذبوكم ﴾ للكفار فالتاء جارية على ذلك ، والياء التفات وإن كان للمعبودين فالتاء التفات .

والياء جارية على ضمير ﴿ كذبوكم ﴾ المرفوع وإن كان الخطاب للمؤمنين أمّة الرسول عليه السلام في قوله ﴿ فقد كذبوكم ﴾ فالمعنى أنهم شديدو الشكيمة في التكذيب ﴿ فما تستطيعون ﴾ أنتم صرفهم عما هم عليه من ذلك .

وبالياء فما يستطيعون ﴿ صرفاً ﴾ لأنفسهم عما هم عليه .

أو ما يستطيعون صرفكم عن الحق الذي أنتم عليه .

﴿ ولا نصراً ﴾ لأنفسهم من البلاء الذي استوجبوه بتكذيبهم .

﴿ ومن يظلم منكم ﴾ الظاهر أنه عام .

وقيل : خطاب للمؤمنين .

وقيل : خطاب للكافرين .

والظلم هنا الشرك قاله ابن عباس والحسن وابن جريج ، ويحتمل دخول المعاصي غير الشرك في الظلم .

وقال الزمخشري : العذاب الكبير لاحق لكل من ظلم والكافر ظالم لقوله ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾ والفاسق ظالم لقوله ﴿ ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون ﴾ انتهى وفيه دسيسة الاعتزال .

وقرىء : يذقه بياء الغيبة أي الله وهو الظاهر .

(179/558)

وقيل : هو أي الظلم وهو المصدر المفهوم من قوله ﴿ يظلم ﴾ أي يذقه الظلم .

ولما تقدم الطعن على الرسول بأكل الطعام والمشي في الأسواق أخبر تعالى أنها عادة مستمرة في كل رسالة ومفعول ﴿ أرسلنا ﴾ عند الزجاج والزمخشري ومن تبعهما محذوف تقديره أحداً .

وقدره ابن عطية رجالاً أو رسلاً .

وعاد الضمير في ﴿ إنهم ﴾ على ذلك المحذوف كقوله ﴿ وما منا إلاّ له مقام ﴾ أي وما

منا أحد والجملة عند هؤلاء صفة أعني قوله ﴿ إلاّ إنهم ﴾ كأنه قال إلاّ آكلين وماشين .

وعند الفراء المفعول محذوف وهو موصول مقدر بعد إلاّ أي إلاّ من .

﴿ إنهم ﴾ والضمير عائد على ﴿ من ﴾ على معناها فيكون استثناء مفرغاً وقيل : إنهم قبله قول محذوف أي ﴿ إلاّ ﴾ قيل ﴿ إنهم ﴾ وهذان القولان مرجوحان في العربية .

وقال ابن الأنباري : التقدير إلاّ وإنهم يعنى أن الجملة حالية وهذا هو المختار .

قد ردّ على من قال إن ما بعد إلاّ قد يجيء صفة وإما حذف الموصول فضعيف وقد ذهب إلى حكاية الحال أيضاً أبو البقاء قال : وقيل لو لم تكن اللام لكسرت لأن الجملة حالية إذ المعنى إلاّ وهم يأكلون .

وقرىء ﴿ أنهم ﴾ بالفتح على زيادة اللام وإن مصدرية التقدير إلاّ أنهم يأكلون أي ما جعلناهم رسلاً إلى الناس إلاّ لكونهم مثلهم .

وقرأ الجمهور : ﴿ ويمشون ﴾ مضارع مشى خفيفاً .

وقرأ عليّ وابن مسعود وعبد الرحمن بن عبد الله ﴿ يمشّون ﴾ مشدداً مبنياً للمفعول ، أي يمشيهم حوائجهم والناس .

قال الزمخشري : ولو قريء ﴿ يمشون ﴾ لكان أوجَه لولا الرواية انتهى .

وقد قرأ كذلك أبو عبد الرحمن السلمي مشدد مبنياً للفاعل ، وهي بمعنى ﴿ يمشون ﴾

قراءة الجمهور .

قال الشاعر :

ومشى بأعطان المباءة وابتغى . . .

قلائص منها صعبة وركوب

﴿ وجعلنا بعضكم ﴾ .

(180/558)

قال ابن عطية : هو عام للمؤمن والكافر ، فالصحيح فتنة للمريض ، والغني فتنة للفقير ، والفقير الشاكر فتنة للغني ، والرسول المخصوص بكرامة النبوّة فتنة لأشراف الناس الكفار في عصره ، وكذلك العلماء وحكام العدل .

وقد تلا ابن القاسم هذه الآية حين رأى أشهب انتهى .

وروي قريب من هذه عن ابن عباس والحسن .

قال ابن عطية : والتوقيف بأتصبرون خاص للمؤمنين المحقين فهو لأمّة محمد (صلى الله عليه وسلم) ، كأنه جعل إمهال الكفار فتنة للمؤمنين أي اختباراً ثم وقفهم .

هل تصبرون أم لا ؟ ثم أعرب قوله ﴿ وكان ربك بصيراً ﴾ عن الوعد للصابرين والوعيد

للعاصين .

وقال الزمخشري : ﴿ فتنة ﴾ أي محنة وبلاء ، وهذا تصبر لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) على ما قالوه واستبعدوه من أكله الطعام ومشيه في الأسواق بعد ما احتج عليهم بسائر الرسل يقول : جرت عادتي وموجب حكمتي على ابتلاء بعضكم أيها الناس ببعض .

والمعنى أنه ابتلى المرسلين بالمرسل إليهم ومناصبتهم لهم العداوة وأقاويلهم الخارجة عن حد الإنصاف وأنواع أذاهم ، وطلب منهم الصبر الجميل ونحوه ﴿ ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً ﴾ الآية وموقع ﴿ أتصبرون ﴾ بعد ذكر الفتنة موقع ﴿ أيكم ﴾ بعد الابتلاء في قوله ﴿ ليبلوكم أيكم أحسن عملاً ﴾ ﴿ بصيراً ﴾ عالماً بالصواب فيما يبتلى به وبغيره فلا يضيقن صدرك ولا تستخفنك أقاويلهم فإن في صبرك عليهم سعادة ، وفوزك في الدارين .

وقيل : هو تسلية عما عيروه به من الفقر حين قالوا ﴿ أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة ﴾ وأنه جعل الأغنياء فتنة للفقراء لينظر هل تصبرون وأنها حكمته ومشيئته يغني من يشاء ويفقر من يشاء .

وقيل : جعلنا فتنة لهم لأنك لو كنت غنياً صاحب كنوز وجنات لكان ميلهم إليك

وطاعتهم لك للدنيا أو ممزوجة بالدنيا ، وإنما بعثناك فقيراً لتكون طاعة من يطيعك منهم خالصة لوجه الله من غير طمع دنيوي .

(181/558)

وقيل : كان أبو جهل والوليد بن المغيرة والعاصي بن وائل ومن في طبقتهم يقولون إن أسلمنا وقد أسلم قبلنا عمار وصهيب وبلال وفلان وفلان فرفعوا علينا إدلالاً بالسابقة فهو افتتان بعضهم ببعض انتهى .

وفيه تكثير وهذا القول الأخير قول الكلبي والفراء والزجاج .

والأولى أن قوله ﴿ وجعلنا بعضكم لبعض فتنة ﴾ يشمل معاني هذه الألفاظ كلها لأن بين الجميع قدراً مشتركاً .

وقيل : في قوله ﴿ أتصبرون ﴾ أنه استفهام بمعنى الأمر أي اصبروا ، والظاهر حمل الرجاء على المشهور من استعماله والمعنى لا يأملون لقاءنا بالخير وثوابنا على الطاعة لتكذيبهم بالبعث لكفرهم بما جئت به .

وقال أبو عبيدة وقوم : معناه لا يخافون .

وقال الفراء : لا يرجون نشوراً لا يخافون ، وهذه الكلمة تهامية وهي أيضاً من لغة هذيل إذا

كان مع الرجاء جحد ذهبوا به إلى معنى الخوف .

فتقول : فلان لا يرجو ربه يريدون لا يخاف ربه ، ومن ذلك ﴿ ما لكم لا ترجون لله وقاراً ﴾ أي لا تخافون لله عظمة وإذا قالوا : فلان يرجو ربه فهذا معنى الرجاء لا على الخوف .

وقال الشاعر :

إذا لسعته النحل لم يرج لسعها . . .

وحالفها في بيت نوب عوامل

وقال آخر :

لا ترجى حين تلاقي الذائذا . . .

أسبعة لاقت معاً أم واحدا

انتهى .

ومن لازم الرجاء للثواب الخوف من العقاب ، ومن كان مكذباً بالبعث لا يرجو ثواباً ولا يخاف عقاباً ومن تأول لم يرج لسعها على معنى لم يرج دفعها ولا الانفكاك عنها .

فهو لذلك يوطن على الصبر ويجد في شغله فتأويله ممكن لكن الفراء وغيره نقلوا ذلك لغة لهذيل في النفي والشاعر هذلي ، فينبغي أن لا يتكلف للتأويل وأن يحمل على لغته . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ ﴾

(183/558)

نُصب على أنَّه مفعول لمضمرٍ مقدَّمٍ معطوف على قولِه تعالى قل أذلك الخ أي لهم بعد التَّقريعِ والتَّحسيرِ يوم يحشرهم الله عزَّ وجلَّ . وتعليقُ التَّذكيرِ باليوم مع أنَّ المقصودَ تذكيرُ ما وقع فيه من الحوادثِ الهائلةِ قد مرَّ وجُهه غيرَ مرَّةٍ أو على أنَّه ظرفٌ لمضمرٍ مؤخَّرٍ قد حُذف للتَّنبيهِ على كمال هولِه وفظاعةِ ما فيه والإيذانِ بقُصورِ العبارةِ عن بيانِه أي يومَ يحشرُهم يكون من الأحوالِ والأهوالِ ما لا يفي ببيانِه المقالُ . وقُرِىء بنونِ العظمةِ بطريقِ الالتفاتِ من الغَيبةِ إلى التَّكلمِ وبكسرِ الشّينِ أيضاً ﴿ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله ﴾ أُريد به ما يعمُّ العقلاءَ وغيرَهم إمَّا لأنَّ كلمةَ ما موضوعةٌ للكلِّ كما ينبىء عنه أنك إذا رأيت شَبَحاً من بعيدٍ تقولُ ما هو أو لأنَّه أُريد به الوصفُ لا الذَّاتُ كأنَّه قيل : ومعبوديهم أو لتغليب الأصنامِ على غيرِها تنبيهاً على أنَّهم مثلُها في السُّقوطِ عن رُتبةِ المعبودَيَّةِ أو اعتباراً لغلبة عبدتِها أو أُريد به الملائكةُ والمسيحُ وعزيرٌ بقرينةِ السُّؤالِ والجوابِ أو الأصنامُ ينطقها الله تعالى أو تكلُّم

بلسانِ الحالِ كما قيل : في شهادةِ الأيدِي والأرجلِ . ﴿ فَيَقُولُ ﴾ أي الله عزَّ وجلَّ للمعبودينَ إثرَ حشرِ الكلِّ تقريعاً للعَبَدةِ وتبكيتاً لهم . وقُرِىء بالنُّون كما عُطف عليه . وقُرِىء هذا بالياء والأولُ بالنُّون على طريق الالتفاتِ إلى الغَيْبةِ ﴿ ءَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَؤُلاَء ﴾ بأنْ دعوتُموهم إلى عبادتِكم كما في قوله تعالى : ﴿ قُلتَ لِلنَّاسِ اتخذونى وَأُمّىَ إلهين مِن دُونِ الله قَالَ ﴾ ﴿ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السبيل ﴾ أي عن السَّبيلِ بأنفسِهم لإخلالِهم بالنَّظر الصَّحيحِ وإعراضهم عن المرشدِ فحذف الجارَّ وأوصل الفعلُ إلى المفعول كقوله تعالى وهو يهدِي السَّبيلَ والأصلُ إلى السَّبيلِ أو للسَّبيلِ وتقديم الضَّميرينِ على

(184/558)

الفعلينِ لأنَّ المقصودَ بالسُّؤالِ هو المُتصدَّي للفعل لا نفسُه .

﴿ قَالُواْ ﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على سؤال نشأَ من حكاية السُّؤالِ كأنَّه قيل : فماذا قالوا في الجواب فقيل قالوا ﴿ سبحانك ﴾ تعجُّباً ممَّا قيل لهم لأنَّهم إمَّا ملائكةٌ معصومون أو جماداتٌ لا قُدرةَ لها على شيءٍ أو إشعاراً بأنَّهم الموسُومون بتسبيحِه تعالى وتوحيدِه فكيف يتأتَّى منهم إضلالُ عبادِه ، أو تنزيهاً له تعالى عن الأندادِ ﴿ مَا كَانَ يَنبَغِى لَنَا ﴾ أي ما صحَّ وما استقام لنا ﴿ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ ﴾ أي متجاوزينَ إيَّاك ﴿ مِنْ أَوْلِيَاء ﴾

نعبدُهم لما بنا من الحالةِ المُنافيةِ له فأنَّى يُتصوَّرُ أنْ نحملَ غيرَها على أنْ يتَّخذَ ولياً غيرَك فضلاً أنْ يتخذنا وليّاً وأنْ نتخذَ من دونك أولياءَ أي أتباعاً فإنَّ الولي كما يُطلق على المتبوعِ يُطلق على التَّابعِ كالمَوْلى يُطلق على الأَعلى والأسفلِ ومنه أولياءُ الشَّيطانِ أي أتباعُه.

(185/558)

وقُرِىء على البناءِ للمفعولِ من المتعدّي إلى مفعولينِ كما في قوله تعالى: ﴿ واتخذ الله إبراهيم خَلِيلاً ﴾ ومفعوله الثَّاني من أولياء على أنَّ مِن للتبعيضِ أي أنْ نتخذَ بعضَ أولياءٍ وهي على الأول مزيدةٌ. وتنكيرُ أولياء من حيثُ إنَّهم أولياء مخصوصون وهم الجنُّ والأصنام ﴿ ولكن مَّتَّعْتَهُمْ وَءابَاءهُمْ ﴾ استدراك مسوقٌ لبيان أنَّهم هم الضَّالُّون بعد بيان تنزههم عن إضلالهم، وقد نُعي عليهم سوءُ صنيعِهم حيث جعلُوا أسبابَ الهداية أسباباً للضَّلالة أي ما أضللناهم ولكنَّك متعتهم وآباءَهم بأنواعِ النِّعم ليعرفوا حقَّها ويشكروها فاستغرقُوا في الشَّهواتِ وانهمكُوا فيها ﴿ حتى نَسُواْ الذكر ﴾ أي غفَلوا عن ذكرِك أو عن التَّذكرِ في آلائِك والتَّدبرِ في آياتِك فجعلُوا أسبابَ الهداية بسوء اختيارِهم ذريعةً إلى الغَوايةِ ﴿ وَكَانُواْ ﴾ أي في قضائِك المبنيِّ على علمِك الأزليِّ المتعلق بما سيصدرُ عنهم فيما لا يزال باختيارِهم من الأعمالِ السَّيئةِ ﴿ قَوْماً بُوراً ﴾ أي هالكين على أنَّ بُوراً مصدرٌ

وُصف به الفاعلُ مبالغةً ولذلك يستوى فيه الواحدُ والجمعُ أو جمعُ بائرٍ كعُوذٍ في جمعِ عائذٍ .
والجملةُ اعتراضٌ تذييليٌّ مقررٌ لمضمونِ ما قبله .

(186/558)

وقوله تعالى : ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ ﴾ حكايةٌ لاحتجاجِه تعالى على العَبَدة بطريق تلوين الخطابِ وصرفه عن المعبودينَ عند تمام جوابِهم وتوجيهه إلى العَبَدة مبالغةٌ في تقريعهم وتبكيتِهم على تقديرِ قولٍ مرتَّب على الجواب أي فقال الله تعالى عند ذلك فقد كذَّبوكم المعبودون أيُّها الكفرةُ ﴿ بِمَا تَقُولُونَ ﴾ أي في قولِكم إنَّهم آلهةٌ وقيل : في قولكم هؤلاء أضلُّونا ويأباه أنَّ تكذيبَهم في هذا القول لا تعلق له بما بعَدُه من عدم استطاعتِهم للصَّرف والنصر أصلاً ، وإنما الذي يستتبُعه تكذيبُهم في زعمهم أنَّهم آلهتهم وناصروهم ، وأيًا ما كان فالباءُ بمعنى في أو هي صلةٌ للتكذيب على أنَّ الجارَّ والمجرورَ بدلُ اشتمالٍ من الضَّمير المنصوب . وقُرِىء بالياء أي كذبوكم بقولهم سبحانك الآيةَ ﴿ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ ﴾ أي ما تملكُون ﴿ صَرْفاً ﴾ أي دفعاً للعذاب عنكم بوجهٍ من الوجوه كما يُعرب عنه التَّنكيرُ أي لا بالذَّاتِ ولا بالواسطة وقيل : حيلةً من قولهم إنَّه ليتصرف في أموره أي يحتالُ فيها وقيل : توبة ﴿ وَلاَ نَصْراً ﴾ أي فرداً من أفراد النَّصر لا من جهةِ أنفسِكم ولا من جهةِ غيرِكم . والفاءُ

لترتيبِ عدمِ الاستطاعةِ على ما قبلها من التَّكذيبِ لكن لا على أنَّه لولاه لوُجدتْ الاستطاعةُ حقيقةً بل في زعمِهم حيثُ كانُوا يزعمون أنَّهم يدفعون عنهم العذابَ وينصرونهم ، وفيه ضربُ تهكُّمٍ بهم . وقُرِىء يستطيعون على صيغة الغَيبةِ أي ما يستطيعُ آلهتُكم أنْ يصرفوا عنكم العذابَ أو يحتالُوا لكم ولا أنْ ينصروكم ، وترتب ما بعد الفاء على ما قبلَها كما مرَّ بيانُه ﴿ وَمَن يَظْلِم مّنكُمْ ﴾ أيُّها المكلَّفون كدأبِ هؤلاءِ حيث ركبُوا متنَ المُكابرة والعناد واستمرُّوا على ما هم عليه من الفساده وتجاوزوا في اللجاجِ كلَّ حدَ معتادٍ ﴿ نُذِقْهُ ﴾ في الآخرة ﴿ عَذَاباً كَبِيراً ﴾ لا يُقادر قدرُه ، وهو عذابُ النَّارِ . وقُرِىء يُذقه على

(187/558)

أنَّ الضَّمير لله سبحانه وتعالى وقيل لمصدر الفعلِ الواقعِ شرطاً . وتعميمُ الظُّلمِ لا يستلزمُ اشتراكَ الفاسقِ للكافر في إذاقة العذاب الكبيرِ فإنَّ الشَّرطَ في اقتضاء الجزاءِ مقيَّدٌ بعدمِ المُزاحمِ وفاقاً وهو التَّوبةُ ، والإحباطِ بالطَّاعةِ إجماعاً وبالعفوِ عندنا .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ المرسلين إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطعام وَيَمْشُونَ فِى الأَسواق ﴾

(188/558)

جوابٌ عن قولهم : ﴿ مالِ هذا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطعام ويَمْشِي فِي الأسواق ﴾ والجملةُ الواقعةُ بعد إلاَّ صفةٌ لموصوفٍ قد حُذف ثقةً بدلالة الجارّ والمجرورِ عليه وأقيمتْ هي مقامَه كما في قوله تعالى : ﴿ وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴾ والمعنى ما أرسلَنا أحداً قبلكَ من المُرسلين إلا آكلينَ وماشينَ وقيل : في حالٍ ، والتَّقديرُ إلاَّ وإنَّهم ليأكلون الخ وقُرِئ يُمشَون على البناء للمفعول أي يُمشيهم حوائجُهم أو النَّاسُ . ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ ﴾ تلوينٌ للخطاب بتعميمِه لسائر الرُّسلِ عليهم الصَّلاةُ والسلامُ بطريق التَّغليبِ ، والمرادُ بهذا البعضِ كفَّارُ الأممِ فإنَّ اختصاصَهم بالرُّسل وتبعيتهم لهم مصحّحٌ لأنْ يعدُّوا بعضاً منهم وبما في قوله تعالى : ﴿ لِبَعْضٍ ﴾ رسلِهم لكن لا على معنى جعلنا مجموعَ البعضِ الأولِ ﴿ فِتْنَةً ﴾ أي ابتلاءً ومحنةً لمجموعِ البعض الثَّاني ولا على معنى جعلنا كلَّ فردٍ من أفراد البعض الأول فتنةً لكلِّ فردٍ من أفراد البعض الثَّاني ولا على معنى جعلنا بعضاً مُبهماً من الأوَّلينَ فتنةً لبعضٍ مُبهمٍ من الآخرين ضرورةَ أنَّ مجموعَ الرُّسل من حيثُ هو مجموعٌ غيرُ مفتونٍ بمجموعِ الأُممِ ولا كلُّ فردٍ منهم بكلِّ فردٍ من الأمم ولا بعض مبهمٌ من الأوَّلين لبعضٍ مُبهمٍ من الآخرينَ بل على معنى جعلنا كلَّ بعضٍ مُعيَّنٍ من الأُمم فتنةً لبعض معيَّن من الرُّسل كأنَّه قيل : وجعلنا كلَّ أمَّةٍ مخصوصةٍ من الأُممِ الكافرةِ فتنةً لرسولِها المعيَّنِ المبعوثِ إليها وإنَّما لم يُصرِّح بذلك تعويلاً على شهادةِ الحالِ . هذا وأمَّا تعميمُ الخطابِ لجميع المكلَّفين وإبقاء البعضين على العمومِ

والإبهامِ على معنى وجعلنا بعضَكم أيُّها فتنةً لبعضٍ آخرَ منكم فيأباهُ قولُه تعالى : ﴿ أَتَصْبِرُونَ ﴾ فإنَّه غايةٌ للجعلِ المذكورِ ، ومن البيِّنِ أنْ ليسَ ابتلاءُ كلِّ أحدٍ من آحادِ

(189/558)

النَّاس مُغيًّا بالصَّبرِ بل بما يناسبُ حالَه على أنَّ الاقتصارَ على ذكرِه من غير تعرّض لمعالٍ له مما يدلُّ على أنَّ اللائقَ بحال المفتونينَ والمتوقع صدورُه عنهم هو الصَّبرُ لا غيرُ ، فلا بُدَّ أنْ يكونَ المرادُ بهم الرُّسلَ فيحصل به تسليتُه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ فالمعنى جرتْ سُنَّتنا بموجب حكمتِنا على ابتلاءِ المُرسلينَ بأمِمهم وبمناصبتهم لهم العداوةَ وإيذائهم لهم وأقاويلهم الخارجةِ عم حُدودِ الإنصاف لنعلمَ صبرَكم . وقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً ﴾ وعدٌ كريم للرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بالأجرِ الجزيلِ لصبرِه الجميلِ مع مزيدِ تشريفٍ له عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بالالتفاتِ إلى اسمِ الرَّبِّ مُضافاً إلى ضميرِه صلى الله عليه وسلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 6 صـ ﴾

(190/558)

وقال الآلوسى :

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ ﴾

نصب على أنه مفعول لمضمر مقدم معطوف على قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَذلك ﴾ [الفرقان : 15] الخ أي قل لهم ذلك واذكر لهم بعد التقريع والتحسير يوم يحشرهم الله عز وجل ، والمراد تذكيرهم بما فيه من الحوادث الهائلة على ما سمعت في نظائره أو على أنه ظرف لمضمر مؤخر قد حذف للتنبيه على كمال هوله وفظاعة ما فيه والإيذان بأن العبارة لا تحيط ببيانه أي ويوم يحشرهم يكون من الأحوال والأهوال ما لا يفي ببيانه المقال .

وقرأ الحسن .

وطلحة .

وابن عامر .

وكثير من السبعة ﴿ نَحْشُرُهُمْ ﴾ بنون العظمة بطريق الالتفات من الغيبة إلى التكلم .

وقرأ الأعرج ﴿ يَحْشُرُهُمْ ﴾ بكسر الشين ، قال صاحب اللوامح : في كل القرآن وهو القياس في الأفعال المتعدية الثلاثية لأن يفعل بضم العين قد يكون من اللازم الذي هو فعل بضمها في الماضي ، وقال ابن عطية : وهي قليلة في الاستعمال قوية في القياس لأن يفعل بكسر العين في المتعدي أقيس من يفعل بضم العين ، وفيه كلام ذكره أبو حيان في "البحر" ﴿ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ ﴾ عطف على مفعول ﴿ يَحْشُرُهُمْ ﴾ وليست الواو للمعية

وجوز ذلك أبو البقاء ، والمراد بالموصول عند الضحاك .

وعكرمة .

والكلبي الأصنام بناءً أن السياق فيها وينطقها الله تعالى الذي لا يعجزه شيء ، وقيل :

تتكلم بلسان الحال وليس بذاك .

وأخرج جماعة عن مجاهد أن المراد به الملائكة .

وعيسى .

وعزير .

(191/558)

وأضرابهم من العقلاء الذين عبدوا من دون الله سبحانه وتعالى وهو قول الجمهور على ما في "البحر" لأن السؤال والجواب يقتضيانه لاختصاصهما بالعقلاء عادة وإن كان الجماد ينطق يومئذٍ ، وجاء فيما يشبه الاستفهام الآتي النص عليهم نحو قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ يَقُولُ للملائكة أَهَؤُلاَءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴾ [سبأ : 40] وقوله سبحانه : ﴿ قُلتَ لِلنَّاسِ اتخذونى وَأُمِّىَ إِلهين مِن دُونِ الله قَالَ ﴾ [المائدة : 116] والظاهر أن المراد بما على هذا القول العقلاء المعبودون الذين ليس منهم إضلال كالملائكة والأنبياء عليهم السلام لا ما

يشملهم والشياطين مثلاً فإن الجواب يأبى ذلك بظاهره كما لا يخفى ، وأطلقت ﴿ مَا ﴾ على العقلاء إما على أنها تطلق عليهم حقيقة أو مجازاً أو باعتبار الوصف كأنه قيل : أو معبوديهم ، وقال بعض الأجلة : المراد ما يعم العقلاء وغيرهم إما لأن كلمة ما موضوعة للكل كما ينبىء عنه أنك إذا رأيت شبحاً من بعيد تقول : ما هو ؟ أو لأنه أريد بها الوصف فلا تختص حينئذٍ بغير العقلاء كما إذا أريد بها الذات أو لتغليب الأصنام على غيرها تنبيهاً على بعدهم عن استحقاق العبادة وتنزيلهم في ذلك منزلة من لا علم له ولا قدرة أو اعتباراً لغلبة عبدتها وكثرتهم ﴿ فَيَقُولُ ﴾ أي الله عز وجل للمعبودين من دونه أثر حشر الكل تقريعاً للعبدة وتبكيتاً لهم .

وقرأ الحسن .

وطلحة .

وابن عامر ﴿ فنقول ﴾ بنون العظمة أيضاً ، ومن قرأ ممن عداهم هناك بالنون وهنا بالياء كان على قراءته هنا التفاتاً من التكلم إلى الغيبة ، وفي نون العظمة هناك إشارة إلى أن الحشر أمر عظيم .

(192/558)

﴿ ءأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَؤُلاَء ﴾ بأن دعوتموهم إلى عبادتكم وإضافة ﴿ عِبَادِى ﴾ قيل للترحم أو لتعظيم جرمهم لعبادة غير خالقهم أو لتعظيم أمر إضلالهم بدعوتهم إلى عبادتهم مع كونهم عباداً لله عز وجل و ﴿ هَؤُلاء ﴾ بدل منه ، وجوز أن يكون نعتاً له ﴿ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السبيل ﴾ أي عن السبيل بأنفسهم لا خلالهم بالنظر الصحيح وإعراضهم عن المرشد من كتاب أو رسول فحذف الجار وأوصل الفعل إلى المفعول كقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ يَهْدِى السبيل ﴾ [الأحزاب : 4] والأصل إلى السبيل أو للسبيل .

وذكر بعض الأجلة أنه لم يقل عن السبيل للمبالغة فإن ضله بمعنى فقده وضل عنه بمعنى خرج عنه .

والأول أبلغ لأنه يوهم أنه لا وجود له رأساً ، وتقديم الضميرين على الفعلين لما أن المراد بالسؤال التقريعي هو المتصدي للفعل لا نفسه .

﴿ قَالُواْ ﴾ استئناف مبني على سؤال نشأ من حكاية السؤال كأنه قيل : فماذا قالوا في الجواب ؟ فقيل قالوا : ﴿ سبحانك ﴾ وكان الظاهر أن يعبر بالمضارع لمكان ﴿ يِقُولُ ﴾ [الفرقان : 17] أولاً ، وكأن العدول إلى الماضي للدلالة على تحقق التنزيه والتبرئة وأنه حالهم في الدنيا ، وقيل : للتنبيه على أن إجابتهم بهذا القول هو محل الاهتمام فإن بها التبكيت والإلزام فدل بالصيغة على تحقق وقوعها ، وسبحان إما للتعجب مما قيل لهم إما لأنهم جمادات لا قدرة لها على شيء أو لأنهم ملائكة أو أنبياء معصومون أو أولياء عن

مثل ذلك محفوظون وإمّا هو كناية عن كونهم موسومين بتسبيحه تعالى وتوحيده فكيف يتأتى منهم إضلال عباده وإمّا هو على ظاهره من التنزيه والمراد تنزيهه تعالى عن الأضداد ، وهو على سائر الأوجه جواب إجمالي إلا أن في كونه كذلك على الأخير نوع خفاء بالنسبة إلى الأولين ، وقوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ يَنبَغِى لَنَا ﴾ الخ كالتأكيد لذلك والتفصيل له .

(193/558)

وجعل الطيبي قولهم : ﴿ سبحانك ﴾ توطئة وتمهيداً للجواب لقولهم : ﴿ مَا كَانَ ﴾ الخ أي ما صح وما استقام لنا ﴿ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاء ﴾ أي أولياء على أن ﴿ مِنْ ﴾ مزيدة لتأكيد النفي .

ويحسن زيادتها بعد النفي والمنفي وإن كان ﴿ كَانَ ﴾ لكن هذا معمول معمولها فينسحب النفي عليه .

والمراد نفي أن يكونوا هم مضليهم على أبلغ وجه كأنهم قالوا : ما صح وما استقام لنا أن نتخذ متجاوزين إياك أولياء نعبدهم لما بنا من الحالة المنافية له فأنى يتصور أن نحمل غيرنا على أن يتخذ ولياً غيرك فضلاً أن يتخذنا ولياً ، وجوز أن يكون المعنى ما كان ينبغي لنا أن

تتخذ من دونك أتباعاً فإن الولي كما يطلق على المتبوع يطلق على التابع ومنه أولياء الشيطان أي أتباعه .

وقرأ أبو عيسى الأسود القارىء ﴿ يَنبَغِى ﴾ بالبناء للمفعول .

وقال ابن خالويه : زعم سيبويه أن ذلك لغة .

وقرأ أبو الدرداء .

وزيد بن ثابت .

وأبو رجاء .

ونصر بن علقمة .

وزيد بن علي .

وأخوه الباقر رضي الله تعالى عنهما .

ومكحول .

والحسن .

وأبو جعفر .

وحفص بن عبيد .

والنخعي .

والسلمي .

وشيبة .

وأبو بشر .

والزعفراني ﴿ يَتَّخِذِ ﴾ مبنياً للمفعول .

وخرج ذلك الزمخشري على أنه من اتخذ المتعدي إلى مفعولين والمفعول الأول ضمير المتكلم القائم مقام الفاعل والثاني ﴿ مِنْ أَوْلِيَاء ﴾ ومن تبعضية لا زائدة أي أن يتخذونا بعض الأولياء ، ولم يجوز زيادتها بناءً على ما ذهب إليه الزجاج من أنها لا تزاد في المفعول الثاني ، وعلله في "الكشف" بأنه محمول على الأول يشيع بشيوعه ويخص كذلك ، ومراده أنه إذا كان محمولاً لإيراد صدقه على غيره فيشيع ويخص كذلك في الإرادة فلا يرد زيد حيوان فإن المحمول باق على عمومه مع خصوص الموضوع ، وقيل : مراده أن الاختلاف لا يناسب مع إمكان الاتحاد والمثال ليس كذلك .

(194/558)

والزمخشري لما بنى كلامه على ذلك المذهب والتزم التبعيض جاء الإشكال في تنكير ﴿ أَوْلِيَاء ﴾ فأجاب بأنه للدلالة على الخصوص وامتيازهم بما امتازوا وهو للتنويع على الحقيقة .

وقال السجاوندي : المعنى ما ينبغي لنا أن نحسب من بعض ما يقع عليه اسم الولاية فضلاً عن الكل فإن الولي قد يكون معبوداً ومالكاً وناصراً ومخدوماً .

والزجاج خفي عليه أمر هذه القراءة على مذهبه فقال : هذه القراءة خطأ لأنك تقول : ما اتخذت من أحد ولياً ولا يجوز ما اتخذت أحداً من ولي لأن من إنما دخلت لأنها تنفي واحداً في معنى جميع ويقال : ما من أحد قائماً وما من رجل محباً لما يضره ولا يقال : ما قائم من أحد وما رجل من محب لما يضره ولا وجه عندنا لهذا البتة ولو جاز هذا لجاز في ﴿ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حاجزين ﴾ [الحاقة : 47] ما منكم أحد عنه من حاجزين .

وأجاز الفراء هذه القراءة عن ضعف وزعم أن ﴿ مِنْ أَوْلِيَاء ﴾ هو الاسم وما في ﴿ يَتَّخِذِ ﴾ هو الخبر كأنه يجعله على القلب انتهى .

ونقل صاحب المطلع عن صاحب النظم أنه قال : الذي يوجب سقوط هذه القراءة أن من لا تدخل إلا على مفعول لا مفعول دونه نحو قوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ﴾ (مريم ؛ 35) فإذا كان قبل المفعول مفعول سواه لم يحسن دخولها كما في الآية على هذه القراءة .

ولا يخفى عليك أن في الإقدام على القول بأنها خطأ أو ساقطة مع روايتها عمن سمعت من الأجلة خطراً عظيماً ومنشأ ذلك الجهل ومفاسده لا تحصى .

وذهب ابن جني إلى جواز زيادة من في المفعول الثاني فيقال : ما اتخذت زيداً من وكيل على

معنى ما اتخذته وكيلاً أي وكيل كان من أصناف الوكلاء .

ومعنى الآية على هذا المنول ما ينبغي لنا أن يتخذونا من دونك أولياء أي أولياء أي ما يقع عليه اسم الولاية .

(195/558)

وجوز أن يكون ﴿ نَّتَّخِذَ ﴾ على هذه القراءة مما له مفعول واحد ﴿ وَمِنْ دُونِكَ ﴾ صلة و ﴿ مِنْ أَوْلِيَاء ﴾ حال و ﴿ مِنْ ﴾ زائدة وعزا هذا في "البحر" إلى ابن جني .

وجوز بعضهم كون ﴿ نَّتَّخِذَ ﴾ في القراءة المشهورة من اتخذ المتعدي لمفعولين ، وجعل أبو البقاء على هذا ﴿ مِنْ أَوْلِيَاء ﴾ المفعول الأول بزيادة من و ﴿ مِن دُونِكَ ﴾ المفعول الثاني وعلى كونه من المتعدي لواحد يكون هذا حالاً .

وقرأ الحجاج "أن نتخذ من دونك أولياء" فبلغ عاصماً فقال : مقت المخدج أو ما علم أن فيها من .

وقوله تعالى : ﴿ ولكن مَّتَّعْتَهُمْ وَءابَاءهُمْ ﴾ الخ استدراك مسوق لبيان أنهم هم الضالون بعد بيان تنزههم عن إضلالهم على أبلغ وجه كما سمعت ، وقد نعى عليهم سوء صنيعهم حيث جعلوا أسباب الهداية أسباباً للضلالة أي ما أضللناهم ولكن متعتهم وآباءهم بأنواع

النعم ليعرفوا حقها ويشكروها فاستغرقوا في الشهوات وانهمكوا فيها ﴿ حتى نَسُواْ الذكر ﴾ أي غفلوا عن ذكرك والإيمان بك أو عن توحيدك أو عن التذكر لنعمك وآيات ألوهيتك ووحدتك .

وفي "البحر" الذكر ما ذكر به الناس على ألسنة الأنبياء عليهم السلام أو الكتب المنزلة أو القرآن ، ولا يخفى ما في الأخير إذا قيل : بعموم الكفار والمخبر عنهم في الآية وشمولهم كفار هذه الأمة وغيرهم ﴿ وَكَانُواْ ﴾ أي في علمك الأزلي المتعلق بالأشياء على ما هي عليه في أنفسها أو بما سيصدر عنهم فيما لا يزال باختيارهم وسوء استعدادهم من الأعمال السيئة ﴿ قَوْماً بُوراً ﴾ هالكين على أن ﴿ بُوراً ﴾ مصدر وصف به الفاعل مبالغة ولذلك يستوي فيه الواحد والجمع ، وأنشدوا

: فلا تكفروا ما قد صنعنا إليكم . . .

وكافوا به فالكفر بور لصانع

وقول ابن الزبعري

: يا رسول المليك إن لساني . . .

راتق ما فتقت إذ أنا بور

أو جمع بأثر كعوذ في عائذ وتفسيره بهالكين رواه ابن جرير .

وغيره عن مجاهد ، وروي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن نافع بن الأزرق ساله عن ذلك فقال : هلكى بلغة عمان وهم من اليمن ، وقيل : بوراً فاسدين في لغة الأزد ويقولون : أمر بائر أي فاسد وبارت البضاعة إذا فسدت .

وقال الحسن : بوراً لا خير فيهم من قولهم : أرض بور أي متعطلة لا نبات فيها ، وقيل : بوراً عمياً عن الحق ، والجملة اعتراض تذييلي مقرر لمضمون ما قبله على ما قال أبو السعود .

وقال الخفاجي : هي حال بتقدير قد أو معطوفة على مقدر أي كفروا وكانوا أو على ما قبلها ، وقد شنع الزمخشري بما ذكر من السؤال والجواب على أهل السنة فقال : فيه كسر بين لقول من يزعم أن الله تعالى يضل عباده على الحقيقة حيث يقول سبحانه للمعبودين من دونه : أأنتم أضللتم أم هم ضلوا بأنفسهم فيتبرؤن من إضلالهم ويستعيذون به أن يكونوا مضلين ويقولون : بل أنت تفضلت من غير سابقة على هؤلاء وآبائهم تفضل جواد كريم فجعلوا النعمة التي حقها أن تكون سبب الشكر سبب الكفر ونسيان الذكر وكان ذلك سبب هلاكهم فإذا برأت الملائكة والرسل عليهم السلام أنفسهم من نسبة الإضلال الذي هو عمل الشياطين إليهم واستعاذوا منه فهم لربهم الغني العدل أشد تبرئة وتنزيهاً منه .

ولقد نزهوه تعالى حين أضافوا إليه سبحانه التفضل بالنعمة والتمتيع بها وأسندوا نسيان الذكر والتسبب به للبوار إلى الكفرة فشرحوا الإضلال المجازي الذي أسنده الله تعالى إلى

ذاته في قوله سبحانه :

﴿ يُضِلُّ مَن يَشَاء ﴾ [الرعد : 27] ولو كان سبحانه هو المضل على الحقيقة لكان الجواب العتيد أن يقولوا بل أنت أضللتهم انتهى .

(197/558)

وأجاب صاحب الفرائد عن قوله : فيتبرؤن من إضلالهم الخ بأنهم إنما تبرؤا لأنهم يستحقون العذاب بإضلالهم ولم يكن منهم فوجب عليهم أن يقولوا ذلك ليندفع عنهم ما يستحقون به من العذاب وذلك أنهم مسؤولون عما يفعلون والله عز وجل لا يسأل عما يفعل فيلحق بهم النقصان إن ثبت عليهم ولا يمكن لحوقه به تعالى لأنه سبحانه يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، وعن قوله : ولقد نزهوه حيث أضافوا الخ بأن قولهم ولكن متعتهم الخ لا ينافي نسبة الإضلال إليه سبحانه على الحقيقة وأيضاً ما يؤدي إلى الضلال إذا كان منه تعالى وكان معلوماً له عز وجل أنهم يضلون به كان فيه ما في الإضلال بالحقيقة فوجب على مذهبه أنه لا يجوز عليه سبحانه مع أنهم نسبوه إليه سبحانه ، وعن قوله : ولو كان تعالى هو المضل على الحقيقة لكان الجواب العتيد أنت أضللتهم بأن هذا غير مستقيم لأنه تعالى ما سألهم إلا عن أحد الأمرين وما ذكر لا يصلح جواباً له بل هو جواب لمن قال : من أضلهم

انتهى ، وذكر في "الكشف" جواباً عن الأخير أنه ليس السؤال عن تعيين من أضل لأنه تعالى عالم به وإنما هو سؤال تقريع على نحو ﴿ قُلتَ لِلنَّاسِ اتخذونى ﴾ [المائدة : 116] الخ وقد اقتدى بالإمام في ذلك ، وذكر أيضاً قبل هذا الجواب أنه لو قيل : إن في ﴿ مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَاءَهُمْ ﴾ ما يدل على أنه تعالى الفاعل الحقيقي للإضلال وأنه لا ينسب إليه سبحانه أدباً لكان وجهاً ولا ينبغي أن يكون ذلك بعد التسليم المقصود من الجواب بمتعتهم الخ بأن يكون المراد الجواب بأنت أضللتهم لكن عدل عنه إلى ما في "النظم الجليل" أدباً لأن الجواب بذلك مما لا يقتضيه السياق كما لا يخفى .

(198/558)

وقال ابن المنير : إن جواب المسؤولين بما ذكر يدل على معتقدهم الموافق لما عليه أهل الحق لأن أهل الحق يعتقدون أن الله تعالى وإن خلق الضلال إلا أن للعباد اختياراً فيه وعندهم أن كل فعل اختياري له نسبتان إن نظر إلى كونه مخلوقاً فهو منسوب إلى الله تعالى وإن نظر إلى كونه مختاراً للعبد فهو منسوب للعبد وهؤلاء المجيبون نسبوا النسيان أي الانهماك في الشهوات الذي ينشأ عنه النسيان إلى الكفرة لأنهم اختاروه لأنفسهم فصدقت نسبته إليهم ونسبوا السبب الذي اقتضى نسيانهم وانهماكهم في الشهوات إلى الله تعالى وهو

استدراجهم ببسط النعم عليهم وصبها صباً فلا تنافي بين معتقد أهل الحق ومضمون ما قالوا في الجواب بل هما متواطئان على أمر واحد انتهى .

ولا يخفى ما في بيان التوافق من النظر ، وقد يقال : حيث كان المراد من الاستفهام تقريع المشركين وعلم المستفهمين بذلك مما لا ينبغي أن ينكر لا سيما إذا كانوا الملائكة والأنبياء عليهم السلام جيء بالجواب متضمناً ذلك على أتم وجه مشتملاً على تحقق الأمر في منشأ ضلالهم كل ذلك للاعتناء بمراده تعالى من تقريعهم وتبكيتهم ولذا لم يكتفوا في الجواب ب

(199/558)

﴿ هم ضلوا ﴾ [الفرقان : 17] بل افتتحوا بالتسبيح ثم نفوا عن أنفسهم الإضلال على وجه من المبالغة ليس وراءه وراء ثم أفادوا أنهم ضلوا بعد تحقق ما ينبغي أن يكون ذريعة لهم إلى الاهتداء من تمتيعهم بأنواع النعم وذلك من أقبح الضلال ونبهوا على زيادة قبحه فوق ما ذكر بالتعبير عنه بنسيان الذكر ثم ذكروا منشأ ضلالهم والأصل الأصيل فيه بقولهم : ﴿ وَكَانُواْ قَوْماً بُوراً ﴾ أما على معنى كانوا في نفس الأمر قوماً فاسدين وإن شئت قلت هالكين ونحوه مما تقدم فظهروا على حسب ما كانوا لأن ما في نفس الأمر لا يتغير أو على معنى كانوا في العلم التابع للمعلوم في نفسه كذلك فظهروا على حسب ذلك لئلا يلزم الانقلاب

المحال ، وحاصله أن منشأ ضلالهم فساد استعدادهم في نفسه من غير مدخلية للغير في التأثير فيه وهذا شأن جميع ماهيات الأشياء في أنفسها فإن مدخلية الغير إنما هي في نحو وجودها الخارجي لا غير ، وإلى هذا ذهب جمع من الفلاسفة والصوفية وشيد أركانه الشيخ إبراهيم الكوراني عليه الرحمة في أكثر كتبه فإن كان مقبولاً فلا بأس في تخريج الآية الكريمة عليه فتدبر

﴿ فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ ﴾ حكاية لاحتجاجه تعالى على العبدة بطريق تلوين الخطاب وصرفه عن المعبودين عند تمام جوابهم وتوجيهه إلى العبدة مبالغة في تقريعهم وتبكيتهم على تقدير قول مرتب على الجواب أي فقال الله تعالى عند ذلك : قد كذبكم المعبودون أيها الكفرة ، وقال بعض الأجلة : الفاء فصيحة مثلها في قول عباس بن الأحنف

: قالوا خراسان أقصى ما يراد بنا . . .

ثم القفول فقد جئنا خراسانا

(200/558)

والتقدير هنا قلنا أو قال تعالى إن قلتم إنهم آلهة فقد كذبوكم ﴿ بِمَا تَقُولُونَ ﴾ أي في قولكم على أن الباء بمعنى في وما مصدرية والجار والمجرور متعلق بالفعل والقول بمعنى المقول ،

ويجوز أن تكون ما موصولة والعائد محذوف أي في الذي تقولونه ، وجوز أن تكون الباء صلة والمجرور بدل اشتمال من الضمير المنصوب في كذبوكم ، والمراد بمقولهم أنهم آلهة أو هؤلاء أضلونا ، وتعقب بأن تكذيبهم في هذا القول لا تعلق له بما بعده من عدم استطاعتهم للصرف والنصر أصلاً وإنما الذي يستتبعه تكذيبهم في زعمهم أنهم آلهتهم وناصروهم وفيه نظر كما سنشير إليه قريباً إن شاء الله تعالى ، وقيل : الخطاب للمعبودين أي فقد كذبكم العابدون أيها المعبودون في قولكم ﴿ سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ﴾ [الفرقان : 18] حيث زعموا أنكم آلهة ، والمراد الحكم على أولئك المكذبين بالكفر على وجه فيه استزادة غيظ المعبودين عليهم وجعله مفرعاً عليه ما سيأتي إن شاء الله تعالى .

والفاء أيضاً فصيحة ، والجملة جزاء باعتبار الأخبار ، وقيل : هو خطاب للمؤمنين في الدنيا أي فقد كذبكم أيها المؤمنون الكفرة في الدنيا فيما تقولونه من التوحيد وجيء بالكلام ليفرع عليه ما بعد وكلا القولين كما ترى والثاني أبعدهما ، وقرأ أبو حيوة ﴿ يَقُولُونَ ﴾ بالياء آخر الحروف وهي رواية عن ابن كثير .

وقنبل ، والخطاب في ﴿ كَذَّبُوكُمْ ﴾ للعابدين وضمير الجمع فيه وفي ﴿ يَقُولُونَ ﴾ للمعبودين أي فقد كذبكم أيها العبدة المعبودون بزعمكم بقولهم ﴿ سبحانك ﴾ [الفرقان

: 18] الخ والباء للملابسة أو الاستعانة ، وفيه أيضاً القولان السابقان أي فقد كذبكم أيها المعبودون العبدة بقولهم إنكم آلهة أو فقد كذبكم أيها المؤمنون الكفار في التوحيد بقولهم .

(201/558)

إن هؤلاء المحكي عنهم آلهة ﴿ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ ﴾ أي فما تملكون أيها العبدة ﴿ صَرْفاً ﴾ أي دفعاً للعذاب عن أنفسكم بوجه من الوجوه كما يعرب عنه التنكير أي لا بالذات ولا بالواسطة ، وقيل : حيلة من قولهم : إنه ليصرف في أموره أي يحتال فيها ، وقيل : توبة ، وقيل : فدية والأول أظهر فإن أصل الصرف رد الشيء من حالة إلى أخرى وإطلاقه على الحيلة أو التوبة أو الفدية مجاز ، والمراد فما تملكون دفعاً للعذاب قبل حلوله ﴿ وَلاَ نَصْراً ﴾ أي فرداً من أفراد النصر أي العون لا من جهة أنفسكم ولا من جهة غيركم بعد حلوله ، وقيل : نصراً جمع ناصر كصحب جمع صاحب وليس بشيء ، والفاء لترتيب عدم الاستطاعة على ما قبلها من التكذيب لكن لا على معنى أنه لولاه لوجدت الاستطاعة حقيقة بل في زعمهم حيث كانوا يزعمون أنهم يدفعون عنهم العذاب وينصرونهم وفيه ضرب تهكم بهم ، والمراد من التكذيب المرتب عليه ما ذكر تكذيبهم بقولهم إنهم آلهة ،

ويجوز أن يراد به تكذيبهم بقولهم : هؤلاء أضلونا وهو متضمن نفي كونهم آلهة وبذلك يتم أمر الترتيب .

(202/558)

وقرأ علي كرم الله تعالى وجهه وأكثر السبعة ﴿ يَسْتَطِيعُونَ ﴾ بالياء التحتية أي فما يستطيع آلهتكم دفعاً للعذاب عنكم ، وقيل حيلة لدفعه ، وقيل فدية عنكم ولا نصراً لكم ، وقيل في معنى الآية على تقدير كون الخطاب السابق للمؤمنين إنه سبحانه أراد أن هؤلاء الكفرة شديد والشكيمة في التكذيب الموجب للتعذيب فما تستطيعون أنتم صرفهم عنه ولا نصراً لكم فيما يصيبهم مما يستوجبه من العذاب هذا على قراءة حفص ﴿ تَسْتَطِيعُونَ ﴾ بالتاء الفوقية ؛ وأما على قراءة الجماعة ﴿ يَسْتَطِيعُونَ ﴾ بالياء فالمعنى ما يستطيعون صرفاً لأنفسهم عما هم عليه ولا نصراً لها فيما استوجبوه بتكذيبهم من العذاب أو فيما يستطيعون صرفكم عن الحق الذي أنتم عليه ولا نصراً لأنفسهم من العذاب انتهى وهو كما ترى ﴿ وَمَن يَظْلِم ﴾ أي يكفر ﴿ مِّنكُمْ ﴾ أيها المكلفون ويعبد من دون الله تعالى إلهاً آخر كهؤلاء الكفرة ﴿ نُذِقْهُ ﴾ في الآخرة ﴿ عَذَاباً كَبِيراً ﴾ لا يقادر قدره وهو عذاب النار ، وقرىء ﴿ يذقه ﴾ على أن الضمير لله عز وجل ، وقيل : لمصدر يظلم أي

يذقه الظلم والإسناد مجازي ، وتفسير الظلم بالكفر هو المروى عن ابن عباس ، والحسن . وابن جريج .

وأيد بأن المقام يقتضيه فإن الكلام في الكفر ووعيده من مفتتح السورة ، وجوز أن يراد به ما يعم الشرك وسائر المعاصي والوعيد بالعذاب لا ينافي العفو بالنسبة إلى غير المشرك لما حقق في موضعه .

(203/558)

واختار الطيبي التفسير الأول وجعل الخطاب للكفار أيضاً لأن الكلام فيهم من أول وقد سبق ﴿ بُوراً فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ ﴾ وهذه الآية لما يجري عليهم من الأهوال والنكال من لدن قوله تعالى : ﴿ إِذَا رَأَتْهُمْ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ [الفرقان : 12] ومعنى ﴿ وَمَن يَظْلِم ﴾ حينئذٍ ومن يدم على الظلم ، وفي "الكشف" الوجه أن الخطاب عام والظلم الكفر ﴿ وَمَن يَظْلِم ﴾ مظهر أقيم مقام المضمر تنبيهاً على توغلهم في الكفر وتجاوزهم حد الإنصاف والعدل إلى محض الاعتساف والجدل فيما رموا به رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان الأصل فلا يستطيعون صرفاً ولا نصراً ونذيقهم عذاباً كبيراً أو نذيقكم على اختلاف القرائتين والحمل على من يدم على الظلم منكم ليختص الخطاب بالكفار صحيح أيضاً

ولكن تفوته النكتة التي ذكرناها انتهى .

ولا يخفى أن كونه من إقامة المظهر مقام المضمر خلاف الظاهر فتأمل .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ المرسلين إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطعام وَيَمْشُونَ فِى الأسواق ﴾

قيل هو تسلية له صلى الله عليه وسلم عن قولهم ﴿ مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ﴾ [الفرقان : 7] بأن لك في سائر الرسل عليهم السلام أسوة حسنة فإنهم كانوا كذلك ، وقال الزجاج : احتجاج عليهم في قولهم ذلك كأنه قيل كذلك كان من خلا من الرسل يأكل الطعام ويمشي في الأسواق فكيف يكون محمد صلى الله عليه وسلم بدعاً من الرسل عليهم السلام .

(204/558)

ورده الطيبي بأنه لا يساعد عليه "النظم الجليل" لأنه قد أجيب عن تعنتهم بقوله تعالى : ﴿ انظر كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ الامثال ﴾ [الإسراء : 48] وتعقبه في "الكشف" بقوله : ولقائل أن يقول هذا جواب آخر كما أجيب هنالك من أوجه على ما نقل عن الإمام وجعل قوله تعالى : ﴿ بَلْ كَذَّبُواْ ﴾ جواباً ثالثاً وعقبه بقوله تعالى : ﴿ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بالساعة ﴾ [الفرقان : 11] لمكان المناسبة وتم الوعيد ثم أجابهم سبحانه جواباً آخر يتضمن

التسلية أيضاً وهذا يساعد عليه "النظم الجليل" ، والجملة التي بعد إلا قيل صفة ثانية لموصوف مقدر قبل ﴿ مِنَ المرسلين ﴾ والمعنى ما أرسلنا قبلك أحداً من المرسلين إلا آكلين وماشين .

وتعقب بأن فيه الفصل بين الموصوف والصفة بإلا وقد رده أكثر النحاة كما في "المغني" ، ومن هنا جعلها بعضهم صفة لموصوف مقدر بعد إلا وذلك بدل مما حذف قبل وأقيمت صفته مقامه ، والمعنى ما أرسلنا قبلك أحداً من المرسلين إلا رجالاً أو رسلاً أنهم الخ ، وفيه الفصل بين البدل والمبدل منه وهو جائز عندهم .

وقدر الفراء بعد إلا من وهي تحتمل أن تكون موصولة وأن تكون نكرة موصوفة ، وجعل بعضهم الجملة في محل نصب بقول محذوف وجملة القول صفة أي إلا رجالاً أو رسلاً قيل أنهم الخ وهو كما ترى ، وقال ابن الأنباري : الجملة حالية والاستثناء من أعم الأحوال والتقدير إلا وإنهم .

قال أبو حيان : وهو المختار ، وقدر الواو بناءً على أن الاكتفاء في مثل هذه الجملة الحالية بالضمير غير فصيح ، وربما يختار عدم التقدير ويمنع دعوى عدم الفصاحة أو يحمل ذلك على غير المقترن بإلا لأنه في الحقيقة بدل ، ووجه كسر إن وقوعها في الابتداء ووقوع اللام بعدها أيضاً .

وقرىء ﴿ أَنَّهُمْ ﴾ بالفتح على زيادة اللام بعدها وتقدير جار قبلها أي لأنهم يأكلون الخ .

والمراد ما جعلناهم رسلاً إلى الناس إلا لكونهم مثلهم ، وقرأ علي كرم الله تعالى وجهه .

وابن مسعود .

(205/558)

وعبد الرحمن بن عبد الله ﴿ يَمْشُونَ ﴾ بتشديد الشين المفتوحة مع ضم الياء مبنياً للمفعول أي يمشيهم حوائجهم أو الناس والتضعيف للتكثير كما في قول الهذلي

: يمشي بيننا حانوت خمر . . .

وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي كما في "البحر" ﴿ يَمْشُونَ ﴾ بضم الياء والشين مع التشديد مبنياً للفاعل وهو مبالغة يمشي المخفف فهي مطابقة للقراءة المشهورة ولا يحتاج إلى تقدير يمشيهم حوائجهم ونحوه .

وأنشدوا قوله

: ومشى بأغصان المباءة وابتغى . . .

قلائص منها صعبة وذلول

وقوله

: فقد تركت خزينة كل وغد . . .

يمشي بين خاتام وطاق

وفي بعض نسخ الكشاف ما يدل على أنه لم يظفر بهذه القراءة ، وقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ﴾ قيل تسلية له صلى الله عليه وسلم أيضاً لكن عن قولهم : ﴿ أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة ﴾ [الفرقان : 8] أي وجعلنا أغنياءكم أيها الناس ابتلاء لفقرائكم لننظر هل يصبرون ﴿ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً ﴾ أي عالماً بالصواب فيما يبتلى به وغيره فلا يضيقن صدرك ولا تستخفنك أقاويلهم ، وقيل تصبير له عليه الصلاة والسلام على ما قالوه واستبدعوه من أكله الطعام ومشيه في الأسواق بعد الاحتجاج عليهم بسائر الرسل ، والكلام من تلوين الخطاب بتعميمه لسائر الرسل عليهم السلام بطريق التغليب على ما اختاره بعضهم ، والمراد بالبعض الأول كفار الأمم واختصاصهم بالرسل مصحح لأن يعدوا بعضاً منهم وبالبعض الثاني رسلهم على معنى جعلنا كل بعض معين من الأمم فتنة لبعض معين من الرسل كأنه قيل وجعلنا كل أمة مخصوصة من الأمم الكافرة فتنة لرسولها المعين .

(206/558)

وإنما لم يصرح بذلك تعويلاً على شهادة الحال ، وحاصله جرت سنتنا بموجب حكمتنا على ابتلاء المرسلين بأممهم وبمناصبتهم لهم العداوة وإطلاق ألسنتهم فيهم بالأقاويل الخارجة عن حد الإنصاف وسلوكهم في أذاهم كل مسلك لنعلم صبرهم أو هو خطاب للناس كافة على ما قيل وهو الظاهر ، والبعض الأول أعم من الكفار والأغنياء والأصحاء وغيرهم ممن يصلح أن يكون فتنة والبعض الثاني أعم من الرسل والقراء والمرضى وغيرهم ممن يصلح أن يفتن .

والكلام عليه مفيد لتصبره صلى الله عليه وسلم على ما قالوه وزيادة ، وقيل : المراد بالبعض الأول من لا مال له من المرسلين وبالبعض الثاني أممهم ويدخل في ذلك نبينا صلى الله عليه وسلم وأمته دخولاً أولياً فكأنه قيل جعلناك فتنة لأمتك لأنك لو كنت صاحب كنوز وجنات لكان ميلهم إليك وطاعتهم لك للدنيا أو ممزوجة بالدنيا وإنما بعثناك لا مال لك ليكون طاعة من يطيعك منهم خالصة لوجه الله تعالى من غير طمع دنيوي وكذا حال سائر من لا مال له من المرسلين مع أممهم والأظهر عموم الخطاب والبعضين وهو الذي تقتضيه الآثار وإليه ذهب ابن عطية فقال : ذلك عام للمؤمن والكافر فالصحيح فتنة للمريض والغنى فتنة للفقير والرسول المخصوص بكرامة النبوة فتنة لأشراف الناس الكفار في عصره وكذلك العلماء وحكام العدل ، وقد تلا ابن القاسم هذه الآية حين رأى أشهب انتهى .

واختار ذلك أبو حيان .

ولا يضر فيه خصوص سبب النزول .

فقد روي عن الكلبي أنها نزلت في أبي جهل .

والوليد بن المغيرة .

والعاصي بن وائل .

ومن في طبقتهم قالوا : إن أسلمنا وقد أسلم قبلنا عمار .

وصهيب .

وبلال .

وفلان .

وفلان ترفعوا علينا إدلالاً بالسابقة .

والاستفهام إما في حيز التعليل للجعل ومعادله محذوف كما حذف فيما لا يحصى من الأمثلة والتقدير لنعلم أتصبرون أم لا أي ليظهر ما في علمنا .

وقرينة تقدير العلم تضمن الفتنة إياه .

(207/558)

وإما أن لا يكون في حيز التعليل وليس هناك معادل محذوف بأن يكون للترغيب والتحريض والمراد اصبروا فإني ابتليت بعضكم ببعض .

ويجوز أن لا يقدر معادل على تقدير اعتبار التعليل أيضاً بأن يكون الخطاب للرسل عليهم السلام على ما سمعت .

وجعل ابن عطية الخطاب فيما سبق عاماً وفي ﴿ أَتَصْبِرُونَ ﴾ خاصاً بالمؤمنين الذين جعل إمهال الكفار فتنة لهم في ضمن العموم السابق وقدر معادلاً فقال : كأنه جعل إمهال الكفار فتنة للمؤمنين ثم وقفهم أتصبرون أم لا .

وجعل قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً ﴾ وعداً للصابرين ووعيداً للعاصين .

وجعله بعضهم وعداً للرسول صلى الله عليه وسلم بالأجر الجزيل لصبره الجميل مع مزيد تشريف له عليه الصلاة والسلام بالالتفات إلى اسم الرب مضافاً إلى ضميره صلى الله عليه وسلم .

وجوز أن يكون وعيداً لأولئك المعاندين له عليه الصلاة والسلام جيء به إتماماً للتسلية أو التصبر وليس بذاك .

واستدل بالآية على القضاء والقدر فإنها أفادت أن أفعال العباد كعداوة الكفار وإيذائهم بجعل الله تعالى وإرادته والفتنة بمعنى الابتلاء وإن لم تكن من أفعال العباد إلا أنها مفضية

ومستلزمة لما هو منها .

وفيه من الخفاء ما فيه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 18 صـ ﴾

(208/558)

وقال القاسمى :

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ ﴾

أي : الله تعالى للمعبودين ، تقريعاً لعبدتهم : ﴿ أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴾ أي : عن السبيل بأنفسهم ، لإخلالهم بالنظر الصحيح ، وإعراضهم عن المرشد : ﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ ﴾ تعجباً مما قيل لهم . لأنهم إما ملائكة معصومون أو جمادات لا قدرة لها على شيء . أو تنزيهاً له عن الأنداد : ﴿ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ ﴾ أي : نعبدهم فأنى يتصور أن نحمل غيرنا على أن يتخذ وليّاً غيرك ، أو من أولياء أي : أتباعاً للعبادة : ﴿ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ ﴾ استدراك مسوق لبيان أنهم هم الضالون ، بعد بيان تنزههم عن إضلالهم . وقد نعى عليهم سوء صنيعهم حيث جعلوا أسباب الهداية أسباباً للضلالة . أي : ما أضللناهم . ولكن متعتهم وآباءهم بأنواع النعم ، ليعرفوا حقها ويشكروها . فانهمكوا في الشهوات حتى نسوا الذكر ، أي :

ذكرك . أو التذكر في آلائك ، والتدبر في آياتك ، فجعلوا أسباب الهداية ، بسوء اختيارهم ، ذريعة إلى الغواية - أفاده أبو السعود : ﴿ وَكَانُوا قَوْماً بُوراً ﴾ أي : هالكين . ثم أشار تعالى لاحتجاجه على عبدتهم وإلزامهم ما يبكتهم ، بقوله :

﴿ فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ ﴾ أي : المعبودون ، أيها الكفرة : ﴿ بِمَا تَقُولُونَ ﴾ أي : في قولكم إنهم آلهة . أو في قولكم هؤلاء أضلونا : ﴿ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ ﴾ أي : ما تملكون : ﴿ صَرْفاً ﴾ أي : دفعاً للعذاب عنكم بوجه ما : ﴿ وَلا نَصْراً ﴾ أي : لأنفسكم من البوار : ﴿ وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ ﴾ أيها المكلفون ، كذأب هؤلاء : ﴿ نُذِقْهُ عَذَاباً كَبِيراً ﴾ . ثم أجاب عن شبههم السابقة ، بقوله سبحانه :

(209/558)

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ﴾

أي : ليحتاجون إلى التغذي بالطعام ويتجولون في الأسواق للتكسب والتجارة . وليس ذلك بمناف لحالهم ومنصبهم . فإنه تعالى جعل لهم من السمات الحسنة ، والصفات الجميلة ، والأقوال الفاضلة ، والأعمال الكاملة ، والخوارق الباهرة ، والأدلة القاهرة ، ما يستدل به كل ذي لب به كل سليم وبصيرة مستقيمة ، على صدق ما جاءوا به من الله .

ونظير هذه الآية الكريمة قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى ﴾ [يوسف : 109] ، وقوله : ﴿ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ ﴾ [8] .

تنبيه :

قال السيوطيّ في " الإكليل " : في الآية إباحة دخول الأسواق للعلماء وأهل الصلاح خلافاً لمن كرهها لهم .

(210/558)

وقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً ﴾ قال الزمخشريّ : هذا تصبير لرسول الله صلى الله عليه وسلم على ما قالوه واستبدعوه من أكله الطعام ومشيه في الأسواق . بعد ما احتج عليهم بسائر الرسل . يقول : وجرت عادتي وموجب حكمتي على ابتلاء بعضكم ، أيها الناس ، ببعض . والمعنى أنه ابتلى المرسلين بالمرسل إليهم . وبمناصبتهم لهم العداوة . وأقاويلهم الخارجة عن حد الإنصاف ، وأنواع أذاهم ، وطلب منهم الصبر الجميل . ونحوه : ﴿ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ [آل

عِمْرَان : 186] ، وفي قوله تعالى : ﴿ وكانَ رَبُّكَ بَصِيراً ﴾ زيادة تسلية وعدة جليلة . أي : هو عالم فيما يبتلي به وغيره ، فلا يضق صدرك . فإن في صبرك سعادة وفوزاً في الدارين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 12 صـ 438. 440 ﴾

(211/558)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾

عُطف ﴿ ويوم نحشرهم ﴾ إما على جملة : ﴿ قل أذلك خير ﴾ [الفرقان : 15] إن كان المراد : قل للمشركين ، أو عُطف على جملة : ﴿ وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا ﴾ [الفرقان : 11] على جواز أن المراد : قل للمؤمنين .

وعلى كلا الوجهين فانتصاب ﴿ يوم نحشرهم ﴾ على المفعولية لفعل محذوف معلوم في سياق أمثاله ، تقديره : اذكر ذلك اليوم لأنه لما توعدهم بالسعير وما يلاقون من هولها بيّن لهم حال ما قبل ذلك وهو حالهم في الحشر مع أصنامهم .

وهذا مظهر من مظاهر الهول لهم في المحشر إذ يشاهدون خيبة آمالهم في آلهتهم إذ يرون حقارتها بين يدي الله وتبرؤها من عُبّادها وشهادتها عليهم بكفرانهم نعمة الله وإعراضهم

عن القرآن ، وإذ يسمعون تكذيب من عبدوهم من العقلاء من الملائكة وعيسى عليهم السلام والجن ونسبوا إليهم أنهم أمروهم بالضلالات .

وعموم الموصول من قوله : ﴿ وما يعبدون ﴾ شامل لأصناف المعبودات التي عبدوها ولذلك أوثرت (ما) الموصولة لأنها تصدق على العقلاء وغيرهم .

على أن التغليب هنا لغير العقلاء .

والخطاب في ﴿ أأنتم أضللتم ﴾ للعقلاء بقرينة توجيه الخطاب .

فجملة : ﴿ قالوا سبحانك ﴾ جواب عن سؤال الله إياهم : ﴿ أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء أم هم ضلوا السبيل ﴾ ، فهو استئناف ابتدائي ولا يتعلق به ﴿ يوم نحشرهم ﴾ .

وقرأ الجمهور : ﴿ نحشرهم ﴾ بالنون و ﴿ يقول ﴾ بالياء ففيه التفات من التكلم إلى الغيبة .

وقرأه ابن كثير وأبو جعفر ويعقوب ﴿ يحشرهم ويقول ﴾ كليهما بالياء .

وقرأ ابن عامر ﴿ نحشرهم ونقول ﴾ كليهما بالنون .

والاستفهام تقريري للاستنطاق والاستشهاد .

والمعنى : أأنتم أضللتموهم أم ضلوا من تلقاء أنفسهم دون تضليل منكم .

ففي الكلام حذف دل عليه المذكور .

وأخبر بفعل : ﴿ أضللتم ﴾ عن ضمير المخاطبين المنفصل وبفعل ﴿ ضلّوا ﴾ عن ضمير الغائبين المنفصل ليفيد تقديم المسند إليهما على الخبرين الفعليين تقوي الحكم المقرر به لإشعارهم بأنهم لا مناص لهم من الإقرار بأحد الأمرين وأن أحدهم محقق الوقوع لا محالة .

فالمقصود بالتقوية هو معادل همزة الاستفهام وهو : ﴿ أم هم ضلوا السبيل ﴾ .

والمجيبون هم العقلاء من المعبودين الملائكة وعيسى عليهم السلام .

وقولهم : ﴿ سبحانك ﴾ كلمة تنزيه كني بها عن التعجب من قول فظيع .

كقول الأعشى:

قد قلت لما جاءني فخره . . .

سبحان من علقمة الفاخر

وتقدم في سورة النور (16) : ﴿ سبحانك هذا بهتان عظيم ﴾ واعلم أن ظاهر ضمير نحشرهم ﴾ أن يعود على المشركين الذين قرعتهم الآية بالوعيد وهم الذين قالوا : ﴿ مال هذا الرسول يأكل الطعام ﴾ إلى قوله : ﴿ مسحوراً ﴾ [الفرقان : 7 ، 8] ؛ لكن ما يقتضيه وصفهم بـ ﴿ الظالمون ﴾ والإخبار عنهم بأنهم كذبوا بالساعة وما يقتضيه ظاهر الموصول في قوله : ﴿ لمن كذب بالساعة ﴾ [الفرقان : 11] من شمول كل من تحقق فيه

مضمون الصلة ، كل ذلك يقتضي أن يكون ضمير ﴿ نحشرهم ﴾ عائداً إلى ﴿ من كذب بالساعة ﴾ فيشمل المشركين الموجودين في وقت نزول الآية ومن انقرض منهم بعد بلوغ الدعوة المحمدية ومن سيأتي بعدهم من المشركين .

ووصف العباد هنا تسجيل على المشركين بالعبودية وتعريض بكفرانهم حقها .

والإشارة إليهم لتمييزهم من بين بقية العباد .

وهذا أصل في أداء الشهادة على عين المشهود عليه لدى القاضي .

وإسناد القول إلى ما يُعبدون من دون الله يقتضي أن الله يجعل في الأصنام نطقاً يسمعه عبدتها ، أما غير الأصنام ممن عبد من العقلاء فالقول فيهم ظاهر .

وإعادة فعل ﴿ ضلوا ﴾ في قوله : ﴿ أم هم ضلوا السبيل ﴾ ليجري على ضميرهم مسند فعلي فيفيد التقوّي في نسبة الضلال إليهم .

والمعنى : أم هم ضلوا من تلقاء أنفسهم دون تضليل منكم .

(213/558)

وحق الفعل أن يعدى بـ (عن) ولكنه عدي بنفسه لتضمنه معنى (أخطؤوا) ، أو على نزع الخافض .

و﴿ سبحانك ﴾ تعظيم لله تعالى في مقام الاعتراف بأنهم ينزهون الله عن أن يدّعوا لأنفسهم مشاركته في الإلهية .

ومعنى : ﴿ ما كان ينبغي لنا ﴾ ما يطاوعنا طلب أن نتخذ عبدة لأن (انبغى) مطاوع (بغاه) إذا طلبه .

فالمعنى : لا يمكن لنا اتخاذنا أولياء ، أي عباداً ، قال تعالى : ﴿ وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي ﴾ [ص : 35] .

وقد تقدم في قوله تعالى : ﴿ وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولداً ﴾ في سورة مريم (92) .

وهو هنا كناية عن انتفاء طلبهم هذا الاتخاذ انتفاء شديداً ، أي نتبرأ من ذلك ، لأن نفي (كان) وجعل المطلوب نفيه خبراً عن (كان) أقوى في النفي ولذلك يسمى جحوداً .

والخبر مستعمل في لازم فائدته ، أي نعلم أنه لا ينبغي لنا فكيف نحاوله .

(ومن) في قوله : ﴿ من دونك ﴾ للابتداء لأن أصل (دون) أنه اسم للمكان ، ويقدر مضاف محذوف يضاف إليه (دون) نحو : جلست دون ، أي دون مكانه ، فموقع (من) هنا موقع الحال من ﴿ أولياء ﴾ .

وأصلها صفة ل ﴿ أولياء ﴾ فلما قدمت الصفة على الموصوف صارت حالاً .

والمعنى : لا نتخذ أولياء لنا موصوفين بأنهم من جانب دون جانبك ، أي أنهم لا يعترفون لك بالوحدانية في الإلهية فهم يشركون معك في الإلهية .

وعن ابن جني : أن (من) هنا زائدة .

وأجاز زيادة (من) في المفعول .

و(من) في قوله : ﴿ من أولياء ﴾ مزيدة لتأكيد عموم النفي ، أي استغراقه لأنه نكرة في سياق النفي .

والأولياء : جمع الولي بمعنى التابع في الولاء فإن الولي يرادف المولى فيصدق على كلا طرفي الولاء ، أي على السيد والعبد ، أو الناصر والمنصور .

والمراد هنا : الوليّ التابع كما في قوله : ﴿ فتكون للشيطان ولياً ﴾ في سورة مريم (45) ، أي لا نطلب من الناس أن يكونوا عابدين لنا .

وقرأ الجمهور ﴿ نتخذ ﴾ بالبناء للفاعل .

(214/558)

وقرأه أبو جعفر ﴿ نتخذ ﴾ بضم النون وفتح الخاء على البناء للمفعول ، أي أن يتخذنا الناس أولياء لهم من دونك .

فموقع ﴿ من دونك ﴾ موقع الحال من ضمير ﴿ نتخذ ﴾ .

والمعنى عليه : أنهم يتبرّؤون من أن يدعوا الناس لعبادتهم ، وهذا تسفيه للذين عبدوهم

ونسبوا إليهم موالاتهم .

والمعنى لا نتخذ من يوالينا دونك ، أي من يعبدنا دونك .

والاستدراك الذي أفاده (لكن) ناشىء عن التبريء من أن يكونوا هم المضلين لهم بتعقيبه ببيان سبب ضلالهم لئلا يتوهم أن تبرئة أنفسهم من إضلالهم يرفع تبعة الضلال عن الضالين .

والمقصود بالاستدراك ما بعد (حتى) وهو ﴿ نسوا الذكر ﴾ .

وأما ما قبلها فقد أدمج بين حرف الاستدراك ومدخوله ما يسجل عليهم فظاعة ضلالهم بأنهم قَابَلوا رحمةَ الله ونعمتَه عليهم وعلى آبائهم بالكفران ، فالخبر عن الله بأنه متّع الضالين وآباءهم مستعمل في الثناء على الله بسعة الرحمة ، وفي الإنكار على المشركين مقابلة النعمة بالكفران غضباً عليهم .

وجعل نسيانهم الذكر غاية للتمتيع للإيماء إلى أن ذلك التمتيع أفضى إلى الكفران لخبث نفوسهم فهو كجَوْد في أرضٍ سبخةٍ قال تعالى : ﴿ وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون ﴾ [الواقعة : 82] .

والتعرض إلى تمتيع آبائهم هنا مع أن نسيان الذكر إنما حصل من المشركين الذين بلغتهم الدعوة المحمدية ونسوا الذكر ، أي القرآن ، هو زيادة تعظيم نعمة التمتيع عليهم بأنها نعمة متأثلة تليدة ، مع الإشارة إلى أن كفران النعمة قد انجرّ لهم من آبائهم الذين سنّوا لهم عبادة

الأصنام .

ففيه تعريض بشناعة الإشراك ولو قبل مجيء الرسول صلى الله عليه وسلم

وبهذا يظهر أن ضمير ﴿ نسوا ﴾ وضمير ﴿ كانوا ﴾ عائدان إلى الظالمين المكذبين بالإسلام دون آبائهم لأن الآباء لم يسمعوا الذكر .

والنسيان مستعمل في الإعراض عن عمد على وجه الاستعارة لأنه إعراض يشبه النسيان في كونه عن غير تأمل ولا بصيرة .

(215/558)

وتقدم في قوله تعالى : ﴿ وتنسون ما تشركون ﴾ في سورة الأنعام (41) .

والذكر : القرآن لأنه يُتذكر به الحق ، وقد تقدم في قوله تعالى : ﴿ وقالوا يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون ﴾ في سورة الحجر (6) .

والبور : جمع بائر كالعُوذ جمع عائذ ، والبائر : هو الذي أصابه البوار ، أي الهلاك .

وتقدم في قوله تعالى : ﴿ وأحلوا قومهم دار البوار ﴾ [إبراهيم : 28] أي الموت .

وقد استعير البور لشدة سوء الحالة بناء على العرف الذي يعد الهلاك آخر ما يبلغ إليه الحي من سوء الحال كما قال تعالى : ﴿ يُهلكون أنفسهم ﴾ [التوبة : 42] ، أي سوء حالهم في

نفس الأمر وهم عنه غافلون .

وقيل : البوار الفساد في لغة الأزد وأنه وما اشتق منه مما جاء في القرآن بغير لغة مضر .

واجتلاب فعل (كان) وبناء ﴿ بوراً ﴾ على ﴿ قوماً ﴾ دون أن يقال : حتى نسوا الذكر وباروا للدلالة على تمكن البوار منهم بما تقتضيه (كان) من تمكن معنى الخبر ، وما يقتضيه (قوماً) من كون البوار من مقومات قوميتهم كما تقدم عند قوله تعالى : ﴿ لآيات لقوم يعقلون ﴾ في سورة البقرة (164) .

﴿ فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفاً وَلاَ نَصْراً ﴾ .

الفاء فصيحة ، أي إفصاح عن حجة بعد تهيئة ما يقتضيها ، وهو إفصاح رائع وزاده الالتفات في قوله : ﴿ كذبوكم ﴾ .

وفي الكلام حذف فعل قول يدل عليه المقام .

والتقدير : إن قلتم هؤلاء آلهتنا فقد كذبوكم ، وقد جاء التصريح بما يدل على القول المحذوف في قول عباس بن الأحنف:

قالوا خراسان أقصى ما يراد بنا . . .

ثم القفول فقد جئنا خراسانا

أي إن قلتم ذلك فقد جئنا خراسان .

وفي حذف فعل القول في هذه الآية استحضار لصورة المقام كأنه مشاهد غير محكي وكأن السامع آخر الآية قد سمع لهذه المحاورة مباشرة دون حكاية فقرع سمعه شهادة الأصنام عليهم ثم قرع سمعه توجه خطاب التكذيب إلى المشهود عليهم ، وهو تفنن بديع في الحكاية يعتمد على تخييل المحكي واقعاً ، ومنه قوله تعالى : ﴿ يوم يُسْحَبُون في النار على وجوههم ذوقوا مسَّ سقر ﴾ [القمر : 48] .

فجملة ﴿ فقد كذبوكم ﴾ إلخ مستأنفة ابتدائية هو إقبال على خطاب الحاضرين وهو ضرب من الالتفات مثل قوله تعالى : ﴿ واستغفري لذنبك ﴾ بعد قوله : ﴿ يوسف أعرض عن هذا ﴾ [يوسف : 29] .

والباء في قوله : ﴿ بما تقولون ﴾ يجوز أن تكون بمعنى (في) للظرفية المجازية ، أي كذبوكم تكذيباً واقعاً فيما تقولون ، ويجوز أن تكون للسببية ، أي كذبوكم بسبب ما تقولون .

و(ما) موصولة .

والذي قالوه هو ما يستفاد من السؤال والجواب وهو أنهم قالوا إنهم دعوهم إلى أن يعبدوهم .

وفرع على الإعلان بتكذيبهم إياهم تأييسُهم من الانتفاع بهم في ذلك الموقف إذ بين لهم أنهم لا يستطيعون صرفاً ، أي صرف ضر عنهم ، ولا نصراً ، أي إلحاق ضر بمن يغلبهم .

ووجه التفريع ما دل عليه قولهم ﴿ سبحانك ﴾ [الفرقان : 18] الذي يقتضي أنهم في موقف العبودية والخضوع .

وقرأ الجمهور : ﴿ يستطيعون ﴾ بياء الغائب ، وقرأه حفص بتاء الخطاب على أنه خطاب للمشركين الذين عبدوا الأصنام من دون الله .

﴿ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَاباً كَبِيراً ﴾ .

تذييل للكلام يشمل عمومه جميع الناس ، ويكون خطاب ﴿ منكم ﴾ لجميع المكلفين .

ويفيد ذلك أن المشركين المتحدث عنهم معذبون عذاباً كبيراً : والعذاب الكبير هو عذاب جهنم .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ المرسلين إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطعام وَيَمْشُونَ فِى الأسواق ﴾ .

(217/558)

هذا رد على قولهم : ﴿ مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ﴾ [الفرقان : 7] بعد أن رد عليهم قولهم ﴿ أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها ﴾ [الفرقان : 8] بقوله : ﴿ تبارك الذي إن شاء جعل لك خيراً من ذلك ﴾ [الفرقان : 10] ، ولكن لما كان قولهم : ﴿ أو يلقى إليه كنز ﴾ حالة لم تعط للرسل في الحياة الدنيا كان رد قولهم فيها

بأن الله أعطاه خيراً من ذلك في الآخرة .

وأما قولهم : ﴿ مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ﴾ فقد توسلوا به إلى إبطال رسالته بثبوت صفات البشر له ، فكان الرد عليهم بأن جميع الرسل كانوا متصفين بصفات البشر ، ولم يكن المشركون منكرين وجود رسل قبل محمد صلى الله عليه وسلم فقد قالوا : ﴿ فليأتنا بآية كما أرسل الأولون ﴾ [الأنبياء : 5] ، وإذ كانوا موجودين فبالضرورة كانوا يأكلون الطعام إذ هم من البشر ويمشون في أسواق المدن والبادية لأن الدعوة تكون في مجامع الناس .

وقد قال موسى ﴿ موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى ﴾ [طه : 59] .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يدعو قريشاً في مجامعهم ونواديهم ويدعو سائر العرب في عكاظ وفي أيام الموسم .

وجملة : ﴿ ليأكلون الطعام ﴾ في موضع الحال لأن المستثنى منه عموم الأحوال .

والتقدير : وما أرسلنا قبلك من المرسلين في حالٍ إلا في حال ﴿ إنهم ليأكلون الطعام ﴾ .

والتوكيد بـ (إن) واللام لتحقيق وقوع الحال تنزيلاً للمشركين في تناسيهم أحوال الرسل منزلة من ينكر أن يكون الرسل السابقون يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق .

ولم تقترن جملة الحال بالواو لأن وجود أداة الاستثناء كاف في الربط ولا سيما وقد تأكد الربط بحرف التوكيد فلا يزاد حرف آخر فيتوالى أربعة حروف وهي : إلاّ ، وإنّ ، واللام ،

ويزاد الواو بخلاف قوله تعالى : ﴿ وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم ﴾ [الحجر : 4] ، وقوله : ﴿ وما أهلكنا من قرية إلا لها منذرون ﴾ [الشعراء : 208] .

(218/558)

وإنما أبقى الله الرسل على الحالة المعتادة للبشر فيما يرجع إلى أسباب الحياة المادية إذ لا حكمة في تغيير حالهم عن ذلك وإنما يغير الله حياتهم النفسية لأن في تغييرها إعداد نفوسهم لتلقي الفيوضات الإلهية .

ولله تعالى حفاظ على نواميس نظام الخلائق والعوالم لأنه ما خلقها عبثاً فهو لا يغيرها إلا بمقدار ما تتعلق به إرادته من تأييد الرسل بالمعجزات ونحو ذلك .

﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً ﴾ .

تذييل ، فضمير الخطاب في قوله : ﴿ بعضكم ﴾ يعم جميع الناس بقرينة السياق .

وكلا البعضين مبهم يبينه المقام .

وحال الفتنة في كلا البعضين مختلف ، فبعضها فتنة في العقيدة ، وبعضها فتنة في الأمن ، وبعضها فتنة في الأبدان .

والإخبار عنه بـ ﴿ فتنة ﴾ مجازي لأنه سبب الفتنة ، وشمل أحد البعضين النبي صلى الله

عليه وسلم والمؤمنين معه ، والبعض الآخر المشركين ؛ فكان حال الرسول فتنة للمشركين إذ زعموا أن حاله مناف للرسالة فلم يؤمنوا به وكان حال المؤمنين في ضعفهم فتنة للمشركين إذ ترفعوا عن الإيمان الذي يسويهم بهم ، فقد كان أبو جهل والوليد بن المغيرة والعاصي بن وائل وأضرابهم يقولون : إن أسلمنا وقد أسلم قبلنا عمار بن ياسر وصهيب وبلال ترفعوا علينا إدلالاً بالسابقة .

وهذا كقول صناديد قوم نوح لا نؤمن حتى تطرد الذين آمنوا بك فقال : ﴿ وما أنا بطارد الذين آمنوا إنهم ملاقوا ربهم ولكني أراكم قوماً تجهلون ويا قوم من ينصرني من الله إن طردتهم أفلا تذكرون ﴾ [هود : 29 ، 30] .

وقال تعالى للنبيء صلى الله عليه وسلم ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء مَنَّ الله عليهم من بَيْنِنا أليس الله بأعلمَ بالشاكرين ﴾ [الأنعام : 52 ، 53] .

(219/558)

والكلام تسلية للنبيء صلى الله عليه وسلم عن إعراض بعض قومه عن الإسلام ، ولذلك عقب بقوله : ﴿ أتصبرون ﴾ ، وهو استفهام مستعمل في الحث والأمر كقوله : ﴿ فهل أنتم منتهون ﴾ [المائدة : 91] .

وموقع ﴿ وكان ربك بصيراً ﴾ موقع الحث على الصبر المأمور به ، أي هو عليم بالصابرين ، وإيذان بأن الله لا يضيع جزاء الرسول على ما يلاقيه من قومه وأنه ناصره عليهم .

وفي الإسناد إلى وصف الرب مضافاً إلى ضمير النبي إلماع إلى هذا الوعد فإن الرب لا يضيع أولياءه كقوله : ﴿ ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ﴾ [الحجر : 97 99] أي النصر المحقق .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 19 صـ ﴾

(220/558)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾

قرأ هذا الحرف عامة السبعة غير ابن كثير وحفص عن عاصم : نحشرهم : بالنون الدالة على العظيمة ، وقرأ ابن كثير ، وحفص ، عن عاصم : يحشرهم بالياء المثناة التحتية ،

وقرأ عامة السبعة غير ابن عامر ، فيقول بالياء المثناة التحتية ، وقرأ ابن عامر فنقول بنون العظمة .

فتحصل أن ابن كثير وحفصاً يقرآن بالياء التحتية فيهما ، وأن ابن عامر يقرأ بالنون فيهما ، وأن باقي السبعة يقرؤون : نحشرهم بالنون ، فيقول بالياء ، وقد ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أنه يحشر الكفار يوم القيامة ، وما كانوا يعبدون من دونه : أي يجمعهم جميعاً فيقول للمعبودين : أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء فزينتهم لهم أن يعبدوكم من دوني ، أم هم ضلوا السبيل : أي كفروا وأشركوا بعبادتكم إياكم من دوني من تلقاء أنفسهم من غير أن تأمروهم بذلك ولا أن تزينوه لهم ، وأن المعبودين يقولون : سبحانك أي تنزيها لك عن الشركاء وكل ما لا يليق بجلالك وعظمتك ، ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء : أي ليس للخلائق كلهم ، ان يعبدوا أحداً سواك لا نحن ولا هم ، فنحن ما دعوناهم إلى ذلك ، بل فعلوا ذلك من تلقاء أنفسهم ، من غير أمرنا ، ونحن برآء منهم ، ومن عبادتهم ، ثم قال : ﴿ ولكن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَآءَهُمْ ﴾ أي طال عليهم العمر ، حتى نسوا الذكر أي نسوا ما أنزلته عليهم على ألسنة رسلك ، من الدعوة إلى عبادتك وحدك ، لا شريك لك ، وكانوا قوماً بوراً قال ابن عباس " أي هلكى " ، وقال الحسن البصري ومالك عن الزهري : أي لا خير فيهم اه .

الغرض من كلام ابن كثير .

وقال أبو حيان في البحر : ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء : أي ما كان يصح لنا ولا يستقيم إلى آخر كلامه .

(221/558)

وإذا عرفت ما ذكره جل وعلا في هذه الآية من سؤاله للمعبودين وجوابهم له ، فاعلم أن العلماء اختلفوا في المعبودين . فقال بعضهم : المراد بهم الملائكة وعيسى وعزير قالوا : هذا القول يشهد له القرآن ، لأن فيه سؤال عيسى والملائكة عن عبادة من عبدهم ، كما قال في الملائكة : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلاَئِكَةِ أَهؤلاء إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ قَالُواْ سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمْ بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ الجن أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾ [سبأ : 4041] وقال في عيسى عليه السلام وعلى نبينا الصلاة والسلام ﴿ وَإِذْ قَالَ الله يا عيسى ابن مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتخذوني وَأُمِّيَ إلهين مِن دُونِ الله قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الغيوب ﴾ [المائدة : 116] وجواب الملائكة وجواب المعبودين الذين يسألهم الله في سورة الفرقان هذه هم خصوص العقلاء ، دون الأصنام .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : الأظهر عندي شمول المعبودين المذكورين للأصنام ، مع

الملائكة وعيسى ، وعزير لأن ذلك تدل عليه قرينتان قرآنيتان .

الأولى : أنه عبر عن المعبودين المذكورين بما التي هي لغير العاقل في قوله : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ ﴾ الآية . فلفظة ما تدل على شمول غير العقلاء ، وأنه غلب غير العاقل لكثرته .

(222/558)

القرينة الثانية : هي دلالة آيات من كتاب الله ، على أن المعبودين غافلون عن عبادة من عبدهم : أي لا يعلمون بها لكونهم غير عقلاء كقوله تعالى في سورة يونس : ﴿ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُمْ مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ فكفى بالله شَهِيداً بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴾ [يونس : 2829] وإنما كانوا غافلين عنها لأنهم جماد لا يعقلون . وإطلاق اللفظ المختص بالعقلاء عليهم ، نظراً إلى أن المشركين نزلوهم منزلة العقلاء كما أوضحناه في غير هذا الموضع ، وكقوله تعالى في الأحقاف : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ القيامة وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَافِلُونَ وَإِذَا حُشِرَ الناس كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴾ [الأحقاف : 56] فقد دل قوله تعالى : ﴿ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَافِلُونَ ﴾ [الأحقاف : 5] على أنهم لا يعقلون ، ومع ذلك قال : ﴿ وَإِذَا حُشِرَ الناس

كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴾ [الأحقاف : 6] وكقوله تعالى في العنكبوت : ﴿ وَقَالَ إِنَّمَا اتخذتم مِّن دُونِ الله أَوْثَاناً مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الحياة الدنيا ثُمَّ يَوْمَ القيامة يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ ﴾ [العنكبوت : 25] الآية . فصرح بأنهم أوثان ، ثم ذكر أنهم هم وعبدتهم يلعن بعضهم بعضاً . وكقوله تعالى : ﴿ كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدّاً ﴾ [مريم : 82] إلى غير ذلك من الآيات .

(223/558)

وقوله في هذه الآية الكريمة ﴿ حتى نَسُواْ الذكر ﴾ الظاهر أن معنى نسوا تركوا . والأظهر أن الذكر هو ما جاءت به الرسل من التوحيد ، وقيل ذكر الله بشكر نعمه ، والأصح أن قوله بوراً معناه هلكى ، وأصله اسم مصدر يقع على الواحد وعلى الجماعة ، فمن إطلاقه على الجماعة قوله هنا : ﴿ وَكَانُواْ قَوْماً بُوراً ﴾ وقوله في سورة الفتح : ﴿ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السوء وَكُنتُمْ قَوْماً بُوراً ﴾ [الفتح : 12] ومن إطلاقه قول عبد الله بن الزبعرى السهمي رضي الله عنه .

يا رسول المليك إن لساني . . . راتق ما فتقت إذ أنا بور

ويطلق البور على الهلاك . وعن ابن عباس أنها لغة أهل عمان ، وهم أهل اليمن ، ومنه قول

الشاعر :

فلا تكفروا ما قد صنعنا إليكم . . . وكافوا به فالكفر بور لصانعه

واعلم أن ما ذكره الزمخشري في هذه الآية ، وأطنب فيه من أن الله لا يضل أحداً مذهب المعتزلة ، وهو مذهب باطل وبطلانه في غاية الوضوح من كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم فإياك أن تغتر به ، وما ذكر عن الحسن البصري ، ومالك ، عن الزهري من أن معنى بوراً لا خير فيهم له وجه في اللغة العربية ، ولكن التحقيق أنه ليس معنى الآية ، وأن معنى بوراً هلكى كما تقدم ، والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ ﴾ .

ذكر جل وعلا في هذه الآية : أن المعبودين كذبوا العابدين وذلك في قولهم عنهم : ﴿ قَالُواْ سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ ﴾ [الفرقان : 18] .

(224/558)

وما دلت عليه هذه الآية الكريمة من تكذيب المعبودين للعابدين ، جاء في آيات أخر كقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴾ [الأحقاف : 6] وكقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُواْ شُرَكَآءَهُمْ قَالُواْ رَبَّنَا هَؤُلاءِ آ شُرَكَآؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا

نَدْعُوْا مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ القول إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ [النحل : 86] وقوله : ﴿ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُمْ مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴾ [يونس : 28] قوله تعالى : ﴿ كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدّاً ﴾ [مريم : 82] والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة .

قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَاباً كَبِيراً ﴾ .

قال ابن كثير : ومن يظلم منكم أي يشرك بالله ، وذكره القرطبي عن ابن عباس رضي الله عنهما . وهذا التفسير تشهد له آيات من كتاب الله كقوله تعالى : ﴿ والكافرون هُمُ الظالمون ﴾ [البقرة : 254] وقوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَدْعُ مِن دُونِ الله مَا لاَ يَنفَعُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِّنَ الظالمين ﴾ [يونس : 106] وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الشرك لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان : 13] وقد ثبت في صحيح البخاري أن النبي صلى الله عليه وسلم فسر الظلم في قوله تعالى : ﴿ وَلَمْ يلبسوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ ﴾ [الأنعام : 82] فقال : أي بشرك كما قدمناه موضحاً .

قوله تعالى : وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً ﴾ .

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة ، أنه جعل بعض الناس فتنة لبعض .

وهذا المعنى الذي دلت عليه الآية ذكره في قوله تعالى : ﴿ وكذلك فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ ليقولوا أهؤلاء مَنَّ الله عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَآ ﴾ [الأنعام : 53] الآية .

وقال القرطبي في تفسير قوله : ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً ﴾ ومعنى هذا : أن كل واحد مختبر بصاحبه ، فالغني ممتحن بالفقير عليه أن يواسيه ، ولا يسخر منه ، والفقير ممتحن بالغني عليه أن لا يحسده ولا يأخذ منه إلا ما أعطاه ، وأن يصبر كل واحد منهما على الحق ، كما قال الضحاك في معنى : أتصبرون : أي على الحق ، وأصحاب البلايا يقولون : لِمَ لَمْ نعاف ، والأعمى يقول لِمْ أجعل كالبصير ؟ وهكذا صاحب كل آفة ، والرسول المخصوص بكرامة النبوة فتنة لأشراف الناس من الكفار في عصره وكذلك العلماء ، وحكام العدل ألا ترى إلى قولهم : ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هذا القرآن على رَجُلٍ مِّنَ القريتين عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف : 31] فالفتنة أن يحسد المبتلي المعافى ، ويحقر المعافى المبتلي ، والصبر أن يحبس كلاهما نفسه هذا عن البطر ، وذلك عن الضجر . انتهى محل الغرض من كلام القرطبي . وإذا علمت معنى كون بعضهم فتنة لبعض . فاعلم أن قوله تعالى : ﴿ وكذلك فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ ﴾ [الأنعام : 53] الآية . فيه فتنة أغنياء بفقراء المسلمين ، حيث احتقروهم وازدروهم ، وأنكروا أن يكون الله من عليهم دونهم لأنهم في زعمهم لفقرهم ، ورثاثة حالهم ، لا يمكن أن يرحمهم الله ويعطيهم من فضله الواسع كما قال تعالى عنهم إنهم

قالوا فيهم : ﴿ لَوْ كَانَ خَيْراً مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ ﴾ [الأحقاف : 11] وقال : ﴿ أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذكر مِن بَيْنِنَا ﴾ [ص : 8] إلى غير ذلك من الآيات ، وسيوبخهم الله يوم القيامة على احتقارهم لهم في الدنيا كما قال تعالى : ﴿ أهؤلاء الذين أَقْسَمْتُمْ لاَ يَنَالُهُمُ الله بِرَحْمَةٍ ادخلوا الجنة لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ [الأعراف : 49] وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ الذين آمَنُواْ يَضْحَكُونَ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴾ [المطففين : 2930] وقوله تعالى

(226/558)

: ﴿ فاليوم الذين آمَنُواْ مِنَ الكفار يَضْحَكُونَ عَلَى الأرآئك يَنظُرُونَ هَلْ ثُوِّبَ الكفار مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ [المطففين : 3436] وقوله تعالى : ﴿ وَيَسْخَرُونَ مِنَ الذين آمَنُواْ والذين اتقوا فَوْقَهُمْ يَوْمَ القيامة ﴾ [البقرة : 212] وقوله تعالى : أتصبرون ، أي على الحق أم لا تصبرون . والعلم عند الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 6 صـ ﴾

(227/558)

وقال الشيخ الشعراوى :

قوله : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ ﴾ [الفرقان : 17] الحشر : جَمْع الناس أجمعين من لَدُنْ آدم عليه السلام وإلى أنْ تقومَ الساعة في مكان واحد ، ولغاية واحدة ، وإذا كنا الآن نضجّ من الزحام ونشكو من ضيق الأرض بأهلها ، ونحن في جيل واحد ، فما بالك بموقف يجمع فيه كل الخلائق من آدم إلى قيام الساعة ؟

والعبادة : أن يطيع العابدُ أوامرَ معبوده ، فينبغي أن ننظر في كل مَنَ له أمر نطيعه : أهو أمر من ذاته ؟ أم أمر مُبلَّغ من أعلى منه : رسول أو إله ؟ فإنْ كان الأمر من ذاته فعليك أن تنظر أهو مُبَاح أم يتعارض مع نصٍّ شرعي ؟ فإنْ كان مباحاً فلا بأسَ في إطاعته ، أما إنْ كان مخالفاً للشرع فإنْ أطعْتَه فكأنك تعبده من دون الله .

إذن : حينما يأمرك الآمر بالصلاة أو الزكاة أو الصوم فأنت قبل أن تطيعه أطعتَ مَنْ حَمَّله هذه الأمانة ، والذين يطيعون مَنْ يأمرونهم بأشياء مخالفة لمنهج الله عبدوهم من دون الله ، وجعلوهم آلهة مُطاعين ، كما قال سبحانه في الشياطين : ﴿ وَإِنَّ الشياطين لَيُوحُونَ إلى أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ ﴾ [الأنعام : 121] وآخرون عبدوا الطاغوت ، أو عبدوا الشمس ، أو القمر ، أو النجوم ، أو الأصنام والجماد .

ومعلوم أن عبادة هذه الجمادات عبادة باطلة خاطئة ، فالعبادة إطاعة أمر ، وهل للجمادات أمر لأحد ؟ إنما العبادة إنْ صَحَّتْ بهذا المعنى فتكون لمَنْ يملك أمراً أو سلطة

زمنية من الرهبان ، أو من الشياطين ، أو الملائكة ، أو من عيسى عليه السلام حيث قال البعض بألوهيته أو العزيز الخ . ودخلت الجمادات مع هؤلاء على سبيل العموم .

(228/558)

لذلك يقول تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ [الفرقان : 17] يعني : يجمع العابد على الضلال والمعبود على الضلال في مكان واحد معاً ، لماذا ؟ لأن العابد إذا وجد نفسه في العذاب ربما انتظر معبوده أنْ ينقذه من العذاب ، لكن ها هو يسبقه إلى النار ويقطع عنه كلَّ أمل في النجاة .

وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلاَءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السبيل ﴾ [الفرقان : 17] .

والخطاب هنا مُوجَّه لمن يعقل منهم ، ولا مانعَ أن يكون للجميع ، فنحن نتحدث عن القانون الذي نعرفه ، وقد بيَّن لنا الحق تبارك وتعالى أن لكل شيء لغةً ، فلماذا نستبعد أن يكون الخطاب هنا للعاقل ولغير العاقل ، بدليل قوله تعالى : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ولكن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ [الإسراء : 44] .

وقد قال سليمان عليه السلام وهو مِمَّن فقه التسبيح : ﴿ رَبِّ أَوزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ

التي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ ﴾ [الأحقاف : 15] لما سمع النملة تُحذِّر قومها : ﴿ ادخلوا مَسَاكِنَكُمْ ﴾ [النمل : 18] فتبسَّم سليمان عليه السلام لما سمع من النملة وسمَّاه قَوْلاً ، وفي هذا رَدٌّ على مَنْ يقول : إن التسبيح هنا من النملة تسبيحُ حال ، لا تسبيح مقال .

وهو قوْل مخالف لنصِّ القرآن الذي قال : ﴿ ولكن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ [الإسراء : 44] فقد حكم الحق سبحانه بأنك لا تفقه هذا التسبيح ، فإن قُلْتَ : هو تسبيح دلالة فقد فقهته ، وقد حكم سبحانه بعدم فِقْهك له إلا إذا عرّفك الله تعالى ، وأطلعك على لغات هذه المخلوقات .

ولماذا نستبعد هذه المسألة والعلم الحديث يُقرِّر الآن أن لكل أمة من أمم الموجودات لغتها الخاصة ، وألسْنَا نتحدث الآن فيما بيننا بلغة غير منطوقة ، وهي لغة الإشارات التي يتفاهم بها البحارة مثلاً ؟

(229/558)

فالحق سبحانه وتعالى يسأل المعبودين : ﴿ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلاَءِ ﴾ [الفرقان : 17] والله يعلم إنْ كانوا أضلُّوهم أم لا ؛ لذلك أجاب عيسى عليه السلام على مثل هذا السؤال في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ الله يا عيسى ابن مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتخذوني وَأُمِّيَ

إلهين مِن دُونِ الله قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي ﴾ [المائدة : 116] .

وسؤال الله للمعبودين تقريع للعابدين أمام مَنْ عبودهم ، ولو أن عبادتهم بحقٍّ لكان المعبودون دافعوا عن هؤلاء أمام الله ؛ لذلك أجاب عيسى عليه السلام : ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعبدوا الله رَبِّي وَرَبَّكُمْ ﴾ [المائدة : 117] .

أما الآخرون فقالوا : ما أضللناهم ، بل هم ضَلُّوا السبيل .

وكلمة ﴿ عِبَادِي ﴾ [الفرقان : 17] سبق أن قلنا إن (عبد) تُجمع على (عباد) و (عبيد) ، وعبد يعني أنه خاضع لأمر السيد ، وليس له تصرُّف من ذاته ، إنْ نظرتَ هذه النظرة فكل خَلْق الله عبيد ؛ لأن هناك أشياء لا يخرجون فيها عن مراد الله تعالى كميلاده على شكل خاص أو مرضه أو وفاته .

لذلك نقول للذين أَلِفُوا مخالفة أوامر الله والتمرد عليه سبحانه : قد تتمردون على الإيمان به فتكفروا ، وقد تتمردون على الإيمان برسوله فتكذِّبوا ، وقد تتمردون على حُكْم من الأحكام فتخالفوه .

إذن : لكم جَرْأة على المخالفة وإلْف للتمرد ، وما دام لك دُرْبة على ذلك ، فعليك أنْ تتمرد أيضاً عند المرض وتقول : لن أمرض وتتمرّد على الموت فلا تموت ، لكن هيهات ، فهذه

مسائل ، الكل فيها عبيد لله مقهورون لإرادته سبحانه ، المؤمن والكافر ، والطائع والعاصي .

(230/558)

وهناك أمور أخرى جعلها الله بالاختيار ، فالذين سبقتْ لهم من الله الحسنى ، وأُلهموا التوفيق يتنازلون عن اختيارهم لاختيار ربهم ومراده ، فيكونون عبيداً لله في كل الأمور القهريات وغير القهريات ، وهؤلاء هم الذين يستحقون أن يكونوا عباداً لله .

فالعباد إذن يشتركون مع العبيد في القهريات ، ويتميزون عنهم بتنازلهم عن مرادهم لمراد ربهم ، وعن اختيارهم لاختياره عَزَّ وجلَّ ؛ لذلك سمّاهم عباداً ، كما جاء في قوله سبحانه :

﴿ وَعِبَادُ الرحمن الذين يَمْشُونَ على الأرض هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قَالُواْ سَلاَماً ﴾ [الفرقان : 63] .

والاستفهام في قوله سبحانه : ﴿ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي ﴾ [الفرقان : 17] يقول فيه بعض غير المؤهّلين للفَهْم عن الله : أما كان يقول : أأضللتم عبادي ؟ ونقول لهؤلاء : ليس لديكم الملَكَة اللغوية لفَهْمِ القرآن ، فأنت تستفهم عن الفعل إذا لم يكن موجوداً أمامك ، تقول :

أبنيتَ البيت الذي أخبرتني أنك ستبنيه ؟ فيخبرك : بنيتُه أو لم أَبْنِه ، أمَّا حين تقول : أبنيتَ هذا البيت ؟ فالسؤال ليس عن البناء ، إنما عن فاعله ، أنت أم غيرك ؟ لأن البناء قائم أمامك .

إذن : فَرْقٌ بين السؤال عن الحَدث ، والسؤال عن فاعل الحدث ، والضلال هنا موجود فعلاً ، فالسوال عن الفاعل ﴿ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلاَءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السبيل ﴾ [الفرقان : 17] .

وسمَّاهم عباداً هنا مع أنهم ضالون ؛ لأن الكلام في الآخرة ، حيث لم يَعُدْ لأحد اختيار ، الاختيار كان في الدنيا وعليه ميَّزنا بين العبيد والعباد ، أما في الآخرة فالجميع عبيد والجميع عباد ، فقد زال ما يُميِّزهم ؛ لأنهم جمعياً مقهورون لا اختيارَ لأحد منهم .

(231/558)

﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا (18) ﴾

كلمة (سبحان) أي : تنزيهاً لله تعالى في ذاته عن مشابهة الذوات ، وتنزيهاً لله تعالى في صفاته وأفعاله عن مشابهة الصفات والأفعال ، فلله سَمْع ولك سمع ، ولله وجود ولك

وجود ، ولله حياة ولك حياة ، لكن أحياتك كحياة الله ؟ الله جبار وأنت قد تكون جباراً ، الله غني وأنت قد تكون غنياً ، فهل غِنَاك كغِنَى الله ؟ ولله تعالى فِعْل ولك فعل ، فهل فِعْلك كفِعْل الله ؟

إذن : هناك فَرْق بين الصفات الذاتية والصفات الموهوبة التي يقبضها واهبها إنْ شاء .

وقد تُقال سبحان الله ويُقصَد بها التعجب ، فحين تسمع كلاماً عجيباً تقول : سبحانه الله يعني : أنا أنزه أن يكون هذا الكلام حدث .

لذلك يقولون هنا : ﴿ سُبْحَانَكَ ﴾ [الفرقان : 18] يعني : عجيبة أننا نضل ، كيف ونحن نعبدك نجعل الآخرين يعبدوننا ، والمعنى : أن هذا لا يصح مِنَّا ، كيف ونحن ندعو الناس إلى عبادتك ، وليس من المعقول أننا ندعوهم إلى عبادتك ونتحوّل نحن لكي يعبدونا : ﴿ سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ ﴾ [الفرقان : 18] .

فأنت وليُّنا الذي نتقرّب إليه ، وقد بعثْتنا لمهمة من المهمات ، ولا بُدَّ أن صواب اختيارك لنا يمنعنا أن نفعل هذا ، وإلا ما كُنا أمناء على هذه المهمة . فسبحانك : تنزيهاً لك أن تختار مَنْ ليس جديراً بالمهمة ، فيأخذ الأمر منك لنفسه .

(232/558)

ومعنى : ﴿ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَآ ﴾ [الفرقان : 18] نفي الانبغاء ، نقول : ما ينبغي لفلان أن يفعل كذا ، كما قال تعالى في حق رسوله صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشعر وَمَا يَنبَغِي لَهُ ﴾ [يس : 69] والشعر مَلَكَة وموهبة بيان أدائية ، وكان العرب يتفاضلون بهذه الموهبة ، وإنْ نبغ فيهم شاعر افتخروا به ورفع من شأنهم ، ولقد توفرت لرسول الله هذه المَلَكة .

ولو كان صلى الله عليه وسلم شاعراً لكان شاعراً مُبْدعاً ، لكنه صلى الله عليه وسلم ما ينبغي له ذلك ؛ لأن الشعر مبنيٌّ على التخيُّل ؛ لذلك أبعده الله عن الشعر حتى لا يظن القوم أن ما يأتي به محمد من القرآن تخيلات شاعر ، فلم تكُنْ طبيعة رسول الله جامدة لا تصلح للشعر ، إنما كان صلى الله عليه وسلم ذا إحساس مُرْهَفٍ ، ولو قُدِّر له أنْ يكون شاعراً لكان عظيماً .

وقد قال الحق سبحانه وتعالى عن الشعراء :

﴿ والشعرآء يَتَّبِعُهُمُ الغاوون * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لاَ يَفْعَلُونَ ﴾ [الشعراء : 224226] .

وقالوا عن الشعر : أَعْذبه أكذبُه ، لذلك لم يدخل رسول الله طِوَال حياته هذا المجال .

إذن : فقولهم ﴿ سُبْحَانَكَ ﴾ [الفرقان : 18] ردٌّ على ﴿ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلاَءِ ﴾ [الفرقان : 17] ثم يذكر الدليل على ﴿ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السبيل ﴾ [الفرقان : 17] في

قوله : ﴿ ولكن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَآءَهُمْ حتى نَسُواْ الذكر وَكَانُواْ قَوْماً بُوراً ﴾ [الفرقان : 18]

فلما متَّعتهم يا ربّ أترفهم النعيم ، وشغلتْهم النعمة عن المنعِم ، فانحرفوا عن الجادَّة .

والآية تنبه المؤمن ألاّ يَأْسَى على نعيم فاته ، فربما فتنك هذا النعيم وصرفك عن المنعِم عزَّ وجل ، فمن الخير إذن أنْ يمنعه الله عنك ؛ لأنك لا تضمن نفسك حال النعمة .

(233/558)

وقوله تعالى : ﴿ حتى نَسُواْ الذكر ﴾ [الفرقان : 18] أي : نسُوا المُنْعِم ، وحَقُّ النعمة ألاَّ تُنَسِى المنعم ، لذلك سبق أنْ قلْنا : إن الصحيح إنْ كان في نعمة العافية من المنعم سبحانه ، فالمريض الذي حُرِم منها ليس في نعمة المنعِم ، إنما في صحبته ومعيته .

ومن هنا لما مرض أحد العارفين بالله كان يغضب إذا دُعِي له بالشفاء ، ويقول لعائده : لا تقطع عليَّ أُنْسي بربي .

وجاء في الحديث القدسي : " يا ابن آدم ، مرضتُ فلم تَعُدْني ، قال : وكيف أعودُكَ وأنت ربُّ العالمين ، قال : أما علمتَ أن عبدي فلاناً مرض فلم تَعُدْهُ ، أما إنك لو عُدته لوجدتني عنده " .

إذن : حينما يعلم المريض أنه في معية الله يستحي أن يجزع ومعنى ﴿ قَوْماً بُوراً ﴾ [

الفرقان : 18] البُور : الهلاك ، ومنه أرض بُور ، وهي التي لا تُنبت .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ ﴾

بعد أن سألهم الحق تبارك وتعالى وهو أعلم بهم : ﴿ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلاَءِ ﴾ [الفرقان : 17] وأجابوا : ﴿ ولكن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَآءَهُمْ حتى نَسُواْ الذكر وَكَانُواْ قَوْماً بُوراً ﴾ [الفرقان : 18] وقد هَزَّهم هذا السؤال هِزَّة عنيفة أراد سبحانه أنْ يُبرئهم فقال ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ ﴾ [الفرقان : 19] يعني : أنا أعرف أنكم قلتم الحق ، لكنهم كذَّبوكم بما تقولون ﴿ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفاً وَلاَ نَصْراً ﴾ [الفرقان : 19] فالتفت إليهم .

والصرف : أن تدفع بذاتك عن ذاتك الشر إنْ تعرّض به أحد لك ، والنصر : إذا لم تستطع أنت أنْ تدفع عن نفسك فيأتي مَنْ يدفع عنك .

(234/558)

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَاباً كَبِيراً ﴾ [الفرقان : 19] وقد يسأل سائل : لماذا يخاطب الحق سبحانه أولياءه بهذا العنف ؟ قالوا : في الواقع ليس هذا العنف نَهْراً لأولياء الله ، إنما زجر ولَفْتُ نظرٍ للآخرين ، فإذا كان الحق سبحانه يخاطب أهل طاعته بهذا العنف ، فما بالك بأعدائه ، والخارجين على منهجه ؟

إنهم حين يسمعون هذا الخطاب لا بُدَّ أن يقولوا : مع أن الله اصطفاهم وقرّبهم لم يمنعه ذلك أنْ يُوجّههم إلى الحق وينهرهم .

ألم يقل سبحانه عن حبيبه ونبيه محمد صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ * لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴾ [الحاقة : 4446] فالحق تبارك وتعالى يتحدث عن نبيه بهذه الطريقة ليخيف الآخرين ويرهبهم .

والظلم : أخْذُ حقِّ الغير ، ما دام أن الله تعالى حرَّم ذلك ، فهذا يعني أن الله يريد أنْ يتمتع كل واحد بثمرة مجهوده ؛ لأن أمور الحياة لا تستقيم إنْ أخذ الإنسان ثمرةَ غيره ، وتعوَّد أن يعيش على دماء الآخرين وعَرقهم ؛ لذلك نرى في المجتمع بعض المجرمين والمنحرفين (الفاقدين) الذين يعيشون على عَرق الآخرين وهم لا يعرقون .

وحين يُؤخَذ الحق من صاحبه ، ثم لا يجد مَنْ ينصفه ، ويعيد له حقه المسلوب يميل إلى الكسل ويزهَد في العمل وبذْل المجهود ، ومعلوم أن العمل لا تعود ثمرته على صاحبه فحسب ، وإنما على الآخرين حيث يُيسِّر للناس مصالحهم ، ويُسهِم بحركته في حركة المجتمع .

وسبق أن قلنا : إن الفرْق بين المؤمن وغيره في العمل أن الكافر يعمل لنفسه ، أمّا المؤمن فيعمل لما يكفيه ، ويجهد ليساعد الآخرين ؛ لذلك عليك أن تعمل على قَدْر طاقتك لا على قَدْر حاجتك ، فحاجتك تتوفر لك مما أتيته بطاقتك ، ثم يكون الباقي عندك لمن لا يقدر على العمل وليس لديه طاقة .

والمعركة التي تدور بين الكفار والمؤمنين وعلى رأسهم الرسل ، اللهُ تعالى يفصل فيها ، يقول : لا يستطيع أحد من خَلْقي أن يظلمني ، لأن المظلوم فيه نقطة ضعف ، والظالم فيه نقطة قوة ؛ لذلك يقول سبحانه : ﴿ وَمَا ظَلَمُونَا ﴾ [البقرة : 57] أي : لا يقدر أحد على ذلك ﴿ ولكن كانوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [البقرة : 57] فظُلْمهم لأنفسهم ، لا للمؤمنين .

فالحق تبارك وتعالى يغَارُ على عبده أن يظلم نفسه ؛ لأن للإنسان ملكات متعددة : ملكة الاشتهاء العاجل وملكة التأِّني الآجل . فالتلميذ المجتهد اختار الراحة الآجلة ، والكسول اختار الراحة العاجلة ، فكلاهما مُحِبٌ لنفسه يسعى إلى راحتها ، لكن فَرْق بين حُبِّ واعٍ ، وحُبٍّ أحمق ، فالأول يتحمل المشاق لينال في نهاية الأمر أعلى المراتب ، والآخر تستهويه الراحة العاجلة ، وسرعان ما يجد نفسه صُعْلوكاً في المجتمع ، فمتعة الأول أبقى وأطول ، ومتعة الآخر سريعة منتهية .

هذه قاعدة عامة تُقال في عمل الدنيا ، وتُقال في عمل الآخرة ، فالحق تبارك وتعالى خلق الإنسان ويحب منه ألاَّ تظلم ملكَة في النفس ملكةً أخرى ، وألا تظلم ملكة العجلة ملكة التأِّني ؛ لأن ملكة العجلة تأخذ خيراً عاجلاً منتهياً ، أما ملكة التأني فتنال الخير الآجل

الباقي غير المنتهي .

إذن : فالله تعالى يريد لصنعته ، سواء المؤمن أو الكافر ألاّ يظلم نفسه ؛ لأن الله كرَّمه وخلق الكون كله لخدمته وسخَّره من أجله ؛ لذلك يقول له : إنك لا تستطيع أن تظلمني ولا تظلم المؤمنين ، إنما تظلم نفسك ، فربٌّ يعاقب الإنسان على أنه ظلم نفسه فهو نِعْم الربّ .

لذلك جاء في الحديث القدسي : " يا ابن آدم ، أنا لك مُحبٌّ بدليل أنني أعاقبك إذا ظلمتَ نفسك فبحقِّي عليك كُنْ لي مُحِباً " .

(236/558)

وحين يُضخِّم الحق سبحانه وتعالى العقوبة : ﴿ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَاباً كَبِيراً ﴾ [الفرقان : 19] إنما ليُنفِّر عباده منها ، ويبتعد بهم عن أسبابها ، فلا تقع .

وكثيراً ما يعترض أعداء الإسلام على قوله تعالى : ﴿ لاَ إِكْرَاهَ فِي الدين ﴾ [البقرة : 256] يقولون : فلماذا تقتلون مَنْ يرتدّ عن الإسلام ؟ وهؤلاء لا يَدْرُون أن هذا الحكم نضعه عقبةً في طريق كل مَنْ يريد الإيمان ، وتنبيه له حتى يفكر جيداً فيما هو مُقبل عليه إن اختار الإسلام ، فلا يدخله إلا بعد رضاً واقتناع تام ، وحين يعلم هذا الحكم يحتاط للأمر فيدخل عليه بمَحْضِ اختياره وتعقّله .

فالإسلام لا يريد كثرة مُتسرِّعة ، إنما يريد ترويا وتعقّلاً وتدبراً ، وهذا يُحسب للإسلام لا عليه ، فهو سلعة غالية يثق صاحبها في جَوْدتها ، كما تذهب إلى تاجر القماش مثلاً ، فيعرض عليك بضاعته ويُظهِر لك جودتها ويختبرها أمامك ، لماذا ؟ لأنه واثق من جودة بضاعته .

ومن ذلك ما خُتِمَتْ به كثير من آيات الذكر الحكيم مثل : تفكّرون ، تعقلون ، تذكّرون .

وهذا دليل على أنك لو تعقلتَ ، لو تدبرتَ ، لو تذكرتَ لاهتديت إلى ما جاء به القرآن .

إذن : فقوله تعالى : ﴿ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَاباً كَبِيراً ﴾ [الفرقان : 19] كان الذي يؤخذ على القرآن ، أو على الحق سبحانه أن الظالم حين يظلم هو يُعاقِب لنفسه حيث أُخِذ منه شيء ، لكن الحق سبحانه ما أُخذ منه شيء ، إنما هو سبحانه بصفات الكمال فيه سبحانه خلقكم ، فما ظلمتم إلا أنفسكم .

ثم يقول الحق سبحانه عن رسله وأنبيائه : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ المرسلين ﴾

(237/558)

سبق أن تكلمنا في قوله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ مَالِ هذا الرسول يَأْكُلُ الطعام وَيَمْشِي فِي الأسواق ﴾ [الفرقان : 7] وهذه صِفَة كل الرسل ، وليس محمد بِدْعاً في ذلك ، وإذا كان

أَكْل الطعام يقدح في كونه صلى الله عليه وسلم رسولاً ، وكانوا يريدون رسولاً لا يأكل الطعام ، فنقول : بالله إذا كان أَكْل الطعام منعه عندكم أن يكون رسولاً ، فكيف تقولون لمن أكل الطعام أنه إله ؟ كيف وأنتم ما رضيتم به رسولاً ؟

وقد جعل الحق تبارك وتعالى الرسل يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق ؛ لأن الرسول يجب أن يكون قدوة وأُسوْة في كل شيء للخَلْق ، ولذلك كان رسول الله على أقلِّ حالات الكون المادية من ناحية أمور الدنيا من أَكْل وشُرْب ولباس ، ذلك ليكون أُسْوة للناس ، وكذلك نجده صلى الله عليه وسلم حريصاً على أن يكون أهل بيته مثله ، لذلك لم يجعل لهم نصيباً في الزكاة التي يأخذها أمثالهم من الفقراء .

ويقول صلى الله عليه وسلم : " إنَّا معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة " .

ومَنْ كان عليه دَيْن من المسلمين تحمّله عنه رسول الله ، وهذا كله إنْ دلَّ فإنما يدل على أنه صلى الله عليه وسلم واثق من جزاء أُخْراه ، فلا يُحبّ أن يناله منه شيء في الدنيا .

لذلك قُلْنا : لو نظرتَ في مبادىء الحق ومبادىء الباطل أمامك في الدنيا لوجدتَ أن مبدأ الباطل يدفع ثمنه أولاً ، فمثلاً لكي تكون شيوعياً لا بُدَّ أن تأخذ الثمن أولاً ، أما مبدأ الحق فأنت تدفع الثمن مُقدّماً : تتعب وتُظلم وتُعذَّب وتجوع وتتشرد ، وتخرج من أهلك ومن مالك ، ثم تنتظر الجزاء في الآخرة . وبهذا المقياس تستطيع أنْ تُفرِّق بين الحق والباطل .

وقوله تعالى : ﴿ وَيَمْشُونَ فِي الأسواق ﴾ [الفرقان : 20] أي : يرتادونها لقضاء مصالحهم وشراء حاجياتهم ، دليلٌ على تواضعهم وعدم تكبُّرهم على مثل هذه الأعمال ؛ لذلك كان سيدنا رسول الله يحمل حاجته بنفسه ، فإنْ عرض عليه أحدُ صحابته أنْ يحملها عنه يقول صلى الله عليه وسلم : " صاحب الشيء أحقُّ بحمله " .

ومعنى : ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ﴾ [الفرقان : 20] فأيّ بعض فتنة لأيِّ بعض ؟ كما في قوله تعالى : ﴿ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ﴾ [الزخرف : 32] أيُّ بعض مرفوع ، وأيّ بعض مرفوع عليه ؟

نلاحظ في مثل هذه المسائل أن الناس لا تنظر إلا إلى زاوية واحدة : أن هذا غنيٌّ وهذا فقير ، لكنهم لو أخذوا في المفاضلة بكل جوانب النفس الإنسانية لوجدوا أن في كل إنسان موهبةً خَصّه الله بها ، فكلٌّ مِنّا عنده مَيْزةٌ ليست عند أخيه ؛ ذلك ليتكاتف الناس ويتكامل الخَلْق ؛ لأن العالم لو كان نسخة واحدة مكررة ما احتاجَ أحدٌ لأحد ، وما سأل أحد عن أحد ، أمّا حين تتعدد المواهب فيكون عندك ما ليس عندي ، فيترابط المجتمع ترابط الحاجة لا ترابط التفضل .

ولو تصورنا الناس جميعاً تخرجوا في الجامعة وأصبحوا (دكاترة) فمَنْ يكنس الشارع ؟ ساعتها سيتطوع أحدنا يوماً لهذه المهمة ، إذن : تصبح الحاجة بنت تطوُّع وتفضُّل ،

والتفضُّل لا يُلزِم أحداً بعمل ، فقد تتعطل المصالح . أمّا حين تدعوك الحاجة فأنت الذي تُسرع إلى العمل وتبحث عنه .

أَلاَ ترى أصحاب المهن الشاقة يخرجون في الصباح يبحثون عن عمل ، ويغضب الواحد منهم إذا لم يجد فرصة عمل في يومه مع ما سيتحمله من آلام ومشاق ، لماذا ؟ إنها الحاجة .

(239/558)

فالعامل الذي يعمل في المجاري مثلاً ويتحمَّل أذاها هو في قدرته على نفسه ورضاه بقدَر الله فيه أفضل مِنّي أنا في هذه المسألة ، لأنني لا أقدر على هذا العمل وهو يقدر ، ولو ترك الله مثل هذه الأعمال للتفضّل ما أقدم عليها أحد ، إذن : التسخيرات من الحق سبحانه وتعالى لحكمه .

ومثل هذه الأعمال الشاقة أو التي تؤذي العامل يعدُّها البعض أعمالاً حقيرة ، وهذا خطأ ، فأيُّ عمل يُصلح المجتمع لا يُعَدُّ حقيراً ، فلا يوجد عمل حقير أبداً ، وإنما يوجد عامل حقير .

فمعنى : ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً ﴾ [الفرقان : 20] كل بعض منا فتنة للآخر ، فالغنيُّ فتنةٌ للفقير ، والفقير فتنة للغني . . الخ فحين يتعالى الغني على الفقير ويستذلّه فالفقير

هنا فتنة للغني ، وحين يحقد الفقير على الغني ويحسده ، فالغنيّ هنا فتنة للفقر ، وهكذا الصحيح فتنة للمريض ، والرسل فتنة لمن كذّبوهم ، والكفار فتنة للرسل .

والناس يفرون من الفتنة في ذاتها ، وهذا لا يصح ؛ لأن الفتنة تعني الاختبار ، فالذي ينبغي أن نفر منه نتيجة الفتنة ، لا الفتنة ذاتها ، فالامتحان فتنة للطلاب ، مَنْ ينجح فالفتنة له خَيْر ومَنْ يخفق فالفتنة في حَقِّه شَرٌّ . إذن : الفتنة في ذاتها غير مذمومة .

لذلك تُؤخَذ الفتنة من فتنة الذهب حين يُصْهر ، ومعلوم أن الذهَب أفضل المعادن ، وإنْ وُجد ما هو أنفس منه ، لماذا ؟ لأن من مَيْزاته أنه لا يتأكسد ولا يتفاعل مع غيره ، وهو كذلك سهل السَّبْك ؛ لذلك يقولون : المعدن النفيس كالأخيار بَطيءٌ كَسْره ، سريع جَبْره .

فمثلاً حين يتكسر الذهب يسهل إعادته وتصنيعه على خلاف الزجاج مثلاً .

إذن : الفتنة اختبار ، الماهر مَنْ يفوز فيه ، فإنْ كان غنياً كان شاكراً مُؤدِّياً لحقِّ الغني مُتواضعاً يبحث عن الفقراء ويعطف عليهم ، والفقير هو العاجز عن الكسب ، لا الفقير الذي احترف البلطجة وأَكْل أموال الناس بالباطل .

(240/558)

ولما كانت الفتنة تقتضي صَبْراً من المفتون ، قال سبحانه : ﴿ أَتَصْبِرُونَ ﴾ [الفرقان : 20] فكل فتنة تحتاج إلى صبر ، فهل تصبرون عليها ؟

ولأهمية الصبر يقول تعالى في سورة العصر : ﴿ والعصر * إِنَّ الإنسان لَفِى خُسْرٍ ﴾ [العصر : 12] يعني : مُطلَق الإنسان في خُسْر لا ينجيه منه إلاّ أنْ يتصف بهذه الصفات : ﴿ إِلاَّ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات وَتَوَاصَوْاْ بالحق وَتَوَاصَوْاْ بالصبر ﴾ [العصر : 3] .

وتُختم الآية بقوله سبحانه : ﴿ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً ﴾ [الفرقان : 20] لينبهنا الحق سبحانه أن كل حركة من حركاتكم في الفتنة مُبْصَرة لنا ، وبصرنا للأعمال ليس لمجرد العلم ، إنما لنُرتِّب على الأعمال جزاءً على وَفْقها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(241/558)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ (17) ﴾

أخرج الفريابي وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله ﴿ ويوم نحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول ءأنتم أضللتم عبادي ﴾ قال : عيسى وعزير والملائكة .

وأخرج الحاكم وابن مردويه بسند ضعيف عن عبد الله بن غنم قال : سألت معاذ بن جبل عن قول الله ﴿ وما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ﴾ أو نتخذ فقال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ ﴿ إن نتخذ ﴾ بنصب النون فسألته عن ﴿ الم غلبت الروم ﴾ [الروم : 1-2] أو غلبت قال : أقرأني رسول الله صلى الله عليه وسلم (غلبت الروم) .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد عن الضحاك قال : قرأ رجل عند علقمة ﴿ ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك ﴾ برفع النون ونصب الخاء فقال علقمة ﴿ أن نتخذ ﴾ بنصب النون وخفض الخاء .

وأخرج عبد بن حميد عن سعيد بن جبير أنه كان يقرؤها ﴿ ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك ﴾ برفع النون ونصب الخاء .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة ﴿ قالوا سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ﴾ قال : هذا قول الآلهة ﴿ ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوماً بوراً ﴾ قال : البور : الفاسد . وانه ما نسي الذكر قوم قط إلاَّ باروا ، وفسدوا .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ قوماً بوراً ﴾ هَلْكَى .

وأخرج الطستي عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق قال له أخبرني عن قوله عز وجل ﴿ قوماً بوراً ﴾ قال هلكى بلغة عمان وهم من اليمن قال : وهل تعرف العرب ذلك قال : نعم . أما سمعت قول الشاعر وهو يقول :

فلا تكفروا ما قد صنعنا إليكم . . . وكافراً به فالكفر بور لصانعه

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة قال : البور : بكلام عمان .

(242/558)

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن ﴿ بوراً ﴾ قال قاسين لا خير فيهم .

وأخرج الفريابي وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله ﴿ قوماً بوراً ﴾ قال : هالكين ﴿ فقد كذبوكم بما تقولون ﴾ يقول الله للذين كانوا يعبدون عيسى وعزيراً والملائكة حين قالوا سبحانك ! أنت ولينا من دونهم فقد كذبوكم بما تقولون عيسى ، وعزيراً ، والملائكة حين يكذبون المشركين ، بقولهم ﴿ فما يستطيعون صرفاً ولا نصراً ﴾ قال : المشركون لا يستطيعون صرف العذاب ، ولا نصر أنفسهم .

أما قوله تعالى : ﴿ ومن يظلم منكم نذقه عذاباً كبيراً ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم عن وهب بن منبه قال : قرأت اثنين وسبعين كتاباً كلها نزلت من السماء ما سمعت كتاباً أكثر تكريراً فيه الظلم معاتبة عليه من القرآن . وذلك أن الله علم أن فتنة هذه الأمة تكون في الظلم ، وأما الآخر فإن أكثر معاتبته إياهم في الشرك ، وعبادة الأوثان .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير عن الحسن في قوله ﴿ ومن يظلم منكم ﴾ قال هو الشرك .

وأخرج ابن جرير عن ابن جرير في قوله ﴿ ومن يظلم منكم ﴾ قال : يشرك .

وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا (20)

أخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة ﴿ وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا أنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق ﴾ يقول : إن الرسل قبل محمد كانوا بهذه المنزلة ﴿ يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق وجعلنا بعضكم لبعض فتنة ﴾ قال : بلاء .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الشعب عن الحسن ﴿ وجعلنا بعضكم لبعض فتنة ﴾ قال : يقول الفقير : لو شاء الله لجعلني غنياً مثل فلان . ويقول السقيم : لو شاء الله لجعلني صحيحاً مثل فلان . ويقول الأعمى : لو شاء الله لجعلني بصيراً مثل فلان .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة ﴿ وجعلنا بعضكم لبعض فتنة ﴾ قال : هو التفاضل في الدنيا ، والقدرة ، والقهر .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن جريج في قوله ﴿ وجعلنا بعضكم لبعض فتنة ﴾ قال : يمسك على هذا ويوسع على هذا فيقول : لم يعطني ربي ما أعطى فلاناً . ويبتلى بالوجع فيقول : لم يجعلني ربي صحيحاً مثل فلان . في أشباه ذلك من البلاء ليعلم من يصبر ممن يجزع ﴿ وكان ربك بصيراً ﴾ بمن يصبر ومن يجزع .

وأخرج ابن أبي شيبة عن الحسن عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " لو شاء الله لجعلكم أغنياء كلكم لا فقير فيكم . ولو شاء الله لجعلكم فقراء كلكم لا غني فيكم . ولكن ابتلى بعضكم ببعض " .

وأخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول عن رفاعة بن رافع الزرقي قال : قال رجل : يا رسول الله كيف ترى في رقيقنا . أقوام مسلمين يصلون صلاتنا ، ويصومون صومنا ، نضربهم ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " توزن ذنوبهم وعقوبتكم إياهم فإن كانت

عقوبتكم أكثر من ذنوبهم أخذوا منكم قال : أفرأيت سبنا إياهم ؟ قال : يوزن ذنبهم وأذاكم إياهم فإن كان اذاكم أكثر أعطوا منكم قال الرجل : ما أسمع عدوّاً أقرب اليّ منهم ! فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون وكان ربك بصيراً ﴾ فقال الرجل : أرأيت يا رسول الله ولدي أضربهم ؟ قال : إنك لا تتهم في ولدك ، فلا تطيب نفساً تشبع ويجوع ، ولا تكتسي ويعروا " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 6 صـ ﴾

(244/558)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ ﴾ :

قرأ ابنُ عامر " نَحْشُرهم " " فنقول " بالنون فيهما . وابنُ كثير وحفصٌ بالياء مِنْ تحت فيهما . والباقون بالنونِ في الأولِ ، وبالياءِ في الثاني . وهنَّ واضحاتٌ . وقرأ الأعرج " نَحْشِرُهم " بكسر الشين في جميع القرآن . قال ابن عطية : " هي قليلةٌ في الاستعمالِ قويةٌ في القياس ؛ لأنَّ يَفعِلِ بكسرِ العين في المتعدّي أَقْيَسُ مِنْ يَفْعُل بضمّ العين " . وقال أبو الفضل

الرازي : " وهو القياس في الأفعالِ الثلاثيةِ المتعديةِ ؛ لأنَّ يَفْعُل بضهم العين قد يكونُ من اللازمِ الذي هو فَعُل بضمّها في الماضي " . قال الشيخ : " وليس كما ذكرا ، بل فِعْلُ المتعدّي الصحيحُ جميعُ حروفِه ، إذا لم يكن للمغالبةِ ولا حلقيَّ عينٍ ولا لامٍ فإنه جاء على يَفْعِل ويَفْعُل كثيراً . فإنْ شُهِر أحدُ الاستعمالين اتُّبِعَ ، وإلاَّ فالخيارُ . حتى إنَّ بعضَ أصحابِنا خَيَّر فيهما : سُمِعا للكلمة أو لم يُسْمَعا " . قلت : الذي خَيَّرَ في ذلك هو ابنُ عصفور فيُجيزُ أَنْ تقولَ : " زيد يَفْعِل " بكسرِ العينِ ، و " يَضْرُب " [بضمّ] الراءِ مع سماعِ الضمّ في الأول والكسرِ في الثاني . وسبَقَه إلى ذلك ابنُ درستويه ، إلاَّ أنَّ النحاةَ على خلافِه .

قوله : ﴿ وَمَا يَعْبُدُونَ ﴾ عطفٌ على مَفْعولِ " نَحْشُرهم " ويَضْعُفُ نصبُه على المعيَّة . وغَلَّب غيرَ العاقلِ فأتى ب " ما " دونَ " مَنْ " .

قوله : ﴿ هَؤُلاَءِ ﴾ يجوزُ أن يكونَ نعتاً لِعبادي ، أو بدلاً ، أو بياناً .

قوله : ﴿ ضَلُّوا السبيل ﴾ على حَذْفِ الجرّ وهو " عن " ، كما صرَّح به في قوله ﴿ يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ ﴾ [الأنعام : 117] ثم اتُّسِع فيه فَحُذِف نحو : " هَدَى " ، فإنه يتعدَّى ب " إلى " ، وقد يُحْذَفُ اتّساعاً . و " ظَلَّ " مطاوعُ أَضَلَّ .

قوله : ﴿ يَنبَغِي ﴾ : العامَّةُ على بنائِه للفاعل . وأبو عيسى الأسودُ القارىء " ينبغى " مبنياً للمفعول . قال ابنُ خالويه : " زعم سيبويه أن ينبغى لغة " .

قوله : ﴿ أَن نَّتَّخِذَ ﴾ فاعلُ " ينبغي " أو مفعولٌ قائمٌ مقامَ الفاعلِ في قراءةِ الأسود . وقرأ العامَّةُ " نَتَّخِذَ " مبنياً للفاعل . و " من أولياء " مفعولُه ، وزِيْدَتْ فيه " مِنْ " . ويجوز أن يكونَ مفعولاً أولَ على أنَّ " اتَّخَذَ " متعديةٌ لاثنين ، ويجوز أَنْ لا تكون المتعديةَ لاثنين بل لواحدٍ ، فعلى هذا " مِنْ دونِك " متعلِّقٌ بالاتِّخاذ ، أو بمحذوفٍ على أنَّه حالٌ مِنْ " أولياء " .

(246/558)

وقرأ أبو الدَّرْداء وزيد بن ثابت وأبو رجاء والحسن وأبو جعفر في آخرين " نُتَّخَذَ " مبنيَّاً للمفعول . وفيه أوجهٌ ، أحدُها : أنَّها المتعديةُ لاثنين ، والأولُ همزُ ضمير المتكلمين . والثاني : قولُه : " مِنْ أولياء " و " مِنْ " للتبعيضِ أي : ما كان ينبغي أَنْ نَتَّخِذَ بعضَ أولياء ، قاله الزمخشري . الثاني : أنَّ " مِنْ أولياء " هو المفعولُ الثاني ايضاً ، إلاَّ أنَّ " مِنْ " مزيدةٌ في المفعولِ الثاني . وهذا مردودٌ : بأنَّ " مِنْ " لا تُزاد في المفعول الثاني ، إنما تُزاد في الأولِ . قال ابن عطية : " ويُضْعِفُ هذه القراءةَ دخولُ " مِنْ " في قوله : " مِنْ أولياء " . اعترَض بذلك

سعيدُ بن جبير وغيرُه" . الثالث : أَنْ يكونَ "مِنْ أولياء "في موضعِ الحالِ . قاله ابن جني إلاَّ أنه قال : "ودَخَلَتْ "مِنْ" زيادةً لمكانِ النفيِ المتقدم ، كقولك : ما اتَّخذت زيداً مِنْ وكيل" . قلت : فظاهرُ هذا أنه جعَلَ الجارَّ والمجرورَ في موضعِ الحالِ ، وحينئذٍ يَسْتحيل أَنْ تكونَ "مِنْ" مزيدةً ، ولكنه يريدُ أنَّ هذا المجرورَ هو الحالُ نفسُه و "مِنْ" مزيدةٌ فيه ، إلاَّ أنه لا تُحفظ زيادةُ "مِنْ" في الحالِ وإنْ كانَتْ منفيةً ، وإنما حُفِظ زيادةُ الباءِ فيها على خلافٍ في ذلك .

وقوله : ﴿ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ ﴾ ﴿ أَمْ هُمْ ضَلُّوا ﴾ إنما قَدَّم الاسمَ على الفعل لمعنىً ذكرْتُه في قولِه تعالى : ﴿ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ ﴾ [المائدة : 116] .

وقرأ الحَجَّاج "تتخذ مِنْ دونِك [أولياءَ] "فبلغ عاصماً فقال : "مُقِتَ المُخْدِجُ . أَوَعَلِم أنَّ فيها "مِنْ" ؟

قوله : ﴿ ولكن مَّتَّعْتَهُمْ ﴾ لَمَّا تَضَمَّن كلامُهم أَنَّا لم نُضِلَّهم ، ولم نَحْمِلْهم على الضلالِ ، حَسُن هذا الاستدراكُ وهو أَنْ ذَكَرُوا سببَه أي : أَنْعَمْتَ عليهم وتَفَضَّلْتَ فجَعَلوا ذلك ذَرِيْعةً إلى ضلالهم عكسَ القضية .

(247/558)

قوله : ﴿ بُوراً ﴾ يجوز فيه وجهان أحدُهما : أنه جمعُ بائرٍ كعائذٍ وعُوذ . والثاني : أنه مصدرٌ في الأصلِ ، فَيَسْتوي فيه المفردُ والمثنى والمجموعُ والمذكرُ والمؤنثُ . وهو مِنْ البَوارِ وهو الهَلاكُ . وقيل : من الفسادِ . وهي لغةٌ للأزد يقولون : / بارَتْ بضاعتُه أي : فَسَدَتْ . وأمرٌ بائِرٌ أي : فاسدٌ . وهذا معنى قولِهم : "كَسَدَتِ البضاعةُ" . وقال الحسن : " وهو مِنْ قولِهم : أرضٌ بُوْرٌ أي : لا نباتَ بها . وهذا يَرْجعُ إلى معنى الهلاكِ والفساد " .

قوله : ﴿ بِمَا تَقُولُونَ ﴾ : هذه الجملةُ من كلامِ اللهِ تعالى اتفاقاً ، فهي على إضمارِ القولِ والالتفاتِ . قال الزمخشري : " هذه المفاجأةُ بالاحتجاجِ والإلزامِ حسنةٌ رائعةٌ ، وخاصةً إذا انضمَّ إليها الالتفاتُ وحَذْفُ القولِ . ونحوُها قولُه عَزَّ وجَلَّ ﴿ يَا أَهْلَ الكتاب قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ على فَتْرَةٍ مِّنَ الرسل أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلاَ نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ﴾ [المائدة : 19] وقولُ القائل :

3478 قالوا خُراسانُ أَقْصى ما يُرادُ بنا . . . ثم القُفُوْلُ فقد جِئْنا خُرسانا

انتهى . يريد : أن الأصلَ في الآيةِ الكريمة : فقُلْنا : قد كَذَّبوكم ، وفي البيت فقلنا : قد جِئْنا . والخطابُ في "كَذَّبوكم" للكفارِ ، فالمعنى : فقد كَذَّبكم المعبودون بما تقولون مِنْ أَنَّهم أَضَلُّوكم . وقيل : المعنى : فقد كَذَّبوكم فيما تقولون من الافتراءِ عليهم أَنَّهم أَضَلُّوكم وقيل : هو خطابٌ للمؤمنين في الدنيا أي : فقد كَذَّبكم أيُّها المؤمنون الكفارَ بما تقولون من التوحيدِ في الدنيا .

وقرأ أبو حيوة وقنبل في رواية ابن أبي الصلت عنه بالياءِ مِنْ تحتُ أي : فقد كَذَّبكم الآلهةُ بما يقولون ﴿ سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ ﴾ إلى آخِرِه . وقيل : المعنى : فقد كَذَّبكم أيها المؤمنونَ الكفَّارُ بما يقولون من الافتراءِ عليكم .

قوله : ﴿ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ ﴾ قرأ حفص بتاءِ الخطاب والمرادُ عبادُها . والباقون بياءِ الغَيْبة . والمرادُ الآلهةُ التي كانوا يعبُدونها مِنْ عاقلٍ وغيرِه ؛ ولذلك غَلَّب العاقَل فجيْءَ بواوِ الضميرِ .

قوله : ﴿ نُذِقْهُ ﴾ العامَّةُ بنونِ العظمةِ ، وقرىء بالياءِ وفي الفاعلِ وجهان ، أظهرهُما : أنَّه اللهُ تعالى لدلالةِ قراءةِ العامَّةِ على ذلك . والثاني : أنه ضميرُ الظلمِ المفهومِ من الفعل . وفيه تَجَوُّزٌ بإسناد إذاقةِ العذابِ إلى سببِها وهو الظلمُ .

قوله : ﴿ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ﴾ :

في هذه الجملةِ ثلاثةُ أوجهٍ ، أحدُها : أنَّها في محلِّ نصبٍ صفةً لمفعولٍ محذوفٍ ، فقدّره الزمخشريُّ تابعاً للزجَّاج : " وما أَرْسَلْنا قبلَك أحداً من المرسلين إلاَّ آكلين وماشِين " وإنما حُذِف لمكانِ الجارِّ بعدَه . وقَدَّره ابنُ عطية : " رجالاً أو رُسُلاً " . والضميرُ في " إنهم " وما بعدَه عائدٌ على هذا الموصوفِ المحذوفِ . والثاني : أنه لا محلَّ لها من الإعرابِ ، وإنما هي صلةٌ لموصولٍ محذوفٍ هو المفعولُ لأَرْسَلْنا ، تقديرُه : إلاَّ مَنْ إنهم ، فالضميرُ في " إنهم " وما بعدَه عائدٌ على معنى " مَنْ " المقدرةِ ، وإليه ذهب الفراء . وهو مردودٌ : بأنَّ حَذْفَ الموصولِ لا يجوزُ إلاَّ في مواضعَ تَقَدَّم التنبيهُ عليها في البقرةِ . الثالث : أنَّ الجملةَ محلُّها النصبُ على الحالِ . وإليه ذهب أبو بكر بن الأنباري . قال : التقديرُ : إلاَّ وإنهم ، يعني أنَّها حاليةٌ ، فقدَّر معها الواوَ بياناً للحالية . ورُدَّ : بكونِ ما بعدَ " إلاَّ " صفةً لِما قبلَها . وقدَّره أبو البقاء أيضاً .

والعامَّةُ على كسرِ " إنَّ " لوجودِ اللامِ في خبرِها ، ولكونِ الجملةِ حالاً على الراجحِ . قال أبو البقاء : " وقيل : لو لم تكنِ اللامُ لكُسِرَتْ أيضاً ؛ لأنَّ الجملةَ حاليةٌ ، إذ المعنى : إلاَّ وهم [يأْكلون "] . وقُرِىء " أنهم " بالفتح على زيادةِ اللامِ ، و " أَنْ " مصدريةٌ . التقدير : إلاَّ لأنَّهم . أي : ما جَعَلْناهم رسلاً إلى الناسِ إلاَّ لكونِهم مِثْلَهم .

وقرأ العامَّةُ " يَمْشُوْن " خفيفةً . وأمير المؤمنين علي بن أبي طالب وعبد الله " يُمَشَّوْن " مشدَّداً مبنياً للمفعولِ . أي : تُمَشِّيهم حوائجُهم أو الناسُ . وقرأ [أبو] عبد الرحمن "

يُمَشُّون " بالتشديدِ مبنياً للفاعل ، وهي بمعنى "يَمْشُون" . قال الشاعر :

3479 ومشى بأعطانِ المَبَاءَةِ وابتغى . . . قلائِصَ مِنْها صَعْبَةٌ وركُوبُ

(250/558)

قال الزمخشري : " ولو قُرِىء "يُمَشُّون" لكان أوجهَ ، لولا الروايةُ" يعني بالتشديد . قلت : قد قرأ بها السُّلَمِيُّ ولله الحمد .

قوله : ﴿ أَتَصْبِرُونَ ﴾ المعادِلُ محذوفٌ أي : أم لا تصبرون . وهذه الجملةُ الاستفهاميةُ قال الزمخشري : " موقعُها بعد الفتنةِ موقع "أيُّكم" بعد الابتلاءِ في قولِه ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ ﴾ [الملك : 2] يعني أنها معلَّقةٌ لِما فيها مِنْ معنى فِعْلِ القلبِ ، فتكونُ منصوبةَ المحلِّ على إسقاطِ الخافضِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 463 .

470 ﴾

(251/558)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ (17) ﴾

اللَّهُ يحشرُ الكفارَ ويحشر الأصنامَ التي عبدوها من دون الله ، فَيُحْيِيها ويقول لها : هل أمرتم هؤلاء بعبادتكم ؟ فيتبرأون . . كلُّه تهويلٌ وتعظيمٌ للشأن ، وإلا فهو عليم بما كان وما لم يكن . فالأصنام تُتبرأ منهم ، تقابلهم بالتكذيب ، وهم ينادون على أنفسهم بالخطأ والضلالِ ، فيُلْقَون في النار ، ويَبْقَوْنَ في الوعيد إلى الأبد .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ﴾ .

أخبر أن الذين تَقَدَّموه من الرسل كانوا بَشَراً ، ولم تكن الخصوصية لهم إلا ظهورَ المعجزات عليهم . وفي الجملة الفضائل بالمعاني لا بالصورة ، ثم قال :

﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً ﴾ .

فَضَّلَ بعضاً على بعض ، وأمر المفضولَ بالصبر والرضاء ، والفاضلَ بالشكر على العطاء وخصَّ قوماً بالبلاء وجعلهم فتنة لأهل البلاء ، وخصَّ قوماً بالعوافي ، وأخرين بالأسقام والآلام ، فلاِلمَن نَعَّمَه مناقب ، ولاِلمَنْ امتحنه معايب . . . فبحُكمِه لا يجُرْمهم ، وبفضله

لا بفعلهم ، وبإرادته لا بعبادتهم ، وباختياره لا بأوضارهم ، وبأقذاره لا بأوزارهم ، وبه لا يهم .

قوله : ﴿ أَتَصْبِرُونَ ؟ ﴾ استفهام في معنى الأمر ، فَمَنْ ساعَدَه التوفيقُ صبر وشكر ومن قارنه الخذلان أبي وكفر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 630 .

﴿ 631

(252/558)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء التاسع والخمسون بعد الخمسمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/559)

الجزء التاسع والخمسون بعد الخمسمائة

من الآية ﴿ 21 ﴾ من سورة الفرقان

وحتى الآية ﴿ 31 ﴾ من نفس السورة

(4/559)

قوله تعالى ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا (21) يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا (22) وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا (23) أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا (24) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما ذكر هذا الابتلاء بعد أن ذكر أول السورة ما هو سبحانه عليه من العظمة من سعة الملك ، وكثرة الصنائع ، والإحسان إلى جميع الخلق ، وكان من حق كل مربوب أن يتعرف إلى ربه ، كائناً من كان ، لا سيما إذا كان بهذه الصفة ، لينال من إحسانه ، ويتعزز به على أقرانه ، أتبع ذلك أنه كشف الابتلاء عن أنه لا بصر لهم فقال تعالى : ﴿ وقال ﴾ وأظهر في موضع الإضمار الوصف الذي قدم أنه موجب لعماهم فقال : ﴿ الذين لا يرجون ﴾ أي ليست لهم عقول لكونهم نسوا ﴿ لقاءنا ﴾ فهم لا يعملون عملاً يطمعون في إثباتنا لهم عليه بعد الموت على ما يعلمون لنا من العظمة التي من رجاها كانت له فسعد ، ومن أعرض عنها كانت عليه فهلك ، فصارت لذلك عقولهم تبعاً لشهواتهم ، فصاروا يتعرفون إلى جمادات سموها أربابهم ، ويقصدونها ويتمسحون بها رجاء للمحال ، والانهماك في الضلال ، فذكر الرجاء لهذا الغرض مع أنه يلزمه عدم الخوف : ﴿ لولا ﴾ أي هلا ولم لا .

ولما كان مرادهم لجهلهم أن يروهم كلهم دفعة واحدة ، عبر بالإنزال فقال : ﴿ أنزل ﴾ أي على أيّ وجه كان من أيّ منزل كان ﴿ علينا الملائكة ﴾ أي كما أنزلت عليه فيما يزعم ﴿ أو نرى ربنا ﴾ بما له إلينا من الإحسان وما لنا نحن من العظمة بالقوة بالأموال وغيرها ، فيأمرنا بما يريد من غير حاجة إلى واسطة .

ولما كان هذا القول مما لا ينبغي لبشر أن يجترىء عليه ، لأن فيه اعتراضاً على من لا يحد وصف عظمته ، ولا تدرك مقاصد حكمته ، قال مصدراً بحرف التوقع لما أرشد إليه السياق جواباً لمن كأنه سأل : ما حالهم في هذا ؟ ﴿ لقد ﴾ أي وعزتنا لقد ﴿ استكبروا ﴾ أي طلبوا بل أوجدوا الكبر .

ولما لم يكن لكبرهم ثمرة في الظاهر ، لأنه لا يعود بالضرر على أحد غيرهم ، قال : ﴿ في أنفسهم ﴾ أي بطلب رؤية الملائكة .

(5/559)

ولما كان حاصل أمرهم أنهم طلبوا رتبة النبي الذي واسطته الملك ، وزادوا عليه رؤية جميع الملائكة الآخذين عن الله ، وزادوا على ذلك بطلب الرؤية ، قال : ﴿ وعتو ﴾ أي وجاوزوا الحد في الاستكبار بما وراءه من طلبهم رؤية جميع الملائكة ورؤية الملك الجبار ، وزاد في تأكيد هذا المعنى لاقتضاء المقام له بقوله : ﴿ عتواً كبيراً ﴾ وبيان أنهم ما قالوا هذا إلا عتواً وظلماً أن ما جاءهم من الآيات التي أعظمها القرآن دلهم قطعاً بعجزهم عن الإتيان بشيء منه على صدقه ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن الله في كل ما يقوله ، وفي حسن هذا الاستئناف وفحوى هذا السياق دلالة على التعجب من غير لفظ تعجب فالمعنى :

ما أشد استكبارهم وأكبر عتوهم ! ثم بين لهم حالهم عند بعض ما طلبوا فقال : ﴿ يوم ﴾ وناصبه ما دل عليه " لا بشرى " ﴿ يرون الملائكة ﴾ أي يوم القيامة أو قبله في الغزوات أو عند الاحتضار ﴿ لا بشرى ﴾ أي من البشر أصلاً ﴿ يومئذ للمجرمين ﴾ أي لأحد ممن قطع ما أمر الله به أن يوصل ، ولبيان ذلك أظهر موضع الإضمار ﴿ ويقولون ﴾ أي في ذلك الوقت : ﴿ حجراً محجوراً ﴾ أي نطلب منعاً منكم ممنوعاً ، أي مبالغاً في مانعيته ، ويجوز أن يراد بالمفعول الفاعل ، والمعنى واحد في أنهم يريدون أن يكون بينهم وبين الملائكة مانع عظيم يمنعهم منهم ؛ قال أبو عبيدة : وهذا عوذة العرب ، يقوله من خاف آخر في الحرم أو في شهر حرام إذا لقيه وبينهما ترة وقال سيبويه : يريد البراءة من الأمر ويبعد عن نفسه أمراً ، فكأنه قال : أحرم ذلك حراماً محرماً ، ومثل ذلك أن يقول الرجل للرجل : أتفعل كذا وكذا ؟ فيقول : حجراً أي ستراً وبراءة من هذا ، فهذا ينتصب على إضمار الفعل .

وعبر بالمضارع إشارة إلى دوام تجديدهم لهذا القول بعد مفاجأتهم به حال رؤيتهم لهم لعظيم روعتهم منهم ، بخلاف ما بعده فإنه عبر فيه بالماضي إشارة إلى أنه كائن لا محالة .

(6/559)

ولما كان المريد لإبطال الشيء – لشدة كراهته له لا يقنع في إبطاله بغيره ، بل يأتيه بنفسه فيبطله ، عبر بقوله : ﴿ وقدمنا ﴾ أي بما لنا من العظمة الباهرة في ذلك اليوم الذي يرون فيه الملائكة سواء كان في الدنيا أو في الآخرة ﴿ إلى ما عملوا من عمل ﴾ أي من مكارم الأخلاق من الجود وصلة الرحم والحلم والنجدة في الخير وإغاثة الملهوف وغيره ﴿ فجعلناه ﴾ لكونه لم يؤسس على الإيمان ، وإنما هو للهوى والشيطان – باطلاً لا نفع فيه ، وهو معنى ﴿ هباء ﴾ وهو ما يرى في شعاع الشمس الداخل من الكوة مما يشبه الغبار ، فهو أشبه شيء بالعدم لأنه لا نفع له أصلاً .

ولما كان الهباء يرى مع السكون منتظماً ، فإذا حركته الريح تناثر وذهب كل مذهب ، معظم دخوله في حيز العدم مع أنه محسوس ، قال مبلغاً في وصف أعمالهم : ﴿ منثوراً ﴾ وهو صفة ، وقيل : مفعول ثالث لجعل ، أي جعلنا الأعمال جامعة لحقارة الهباء والتناثر .

ولما علم من هذا أن التقدير : فكاون بحيث إنهم لا قرار لهم إذا كانت النار مقيلهم ، تلاه بحال أضدادهم فقال : ﴿ أصحاب الجنة يومئذ ﴾ أي يوم إذ يرون الملائكة ﴿ خير مستقراً ﴾ أي مكاناً يصلح للاستقرار لطيبه ، ويكونون فيه في أكثر أوقاتهم مستقرين على سرر متقابلين يتحادثون ، إشارة إلى أن منزل أولئك لا يمكن الاستقرار فيه ﴿ وأحسن مقيلاً ﴾ أي مكاناً يمكن فيه الاستراحة في مثل وقت القيلولة للاسترواح بأزوجهم ، والتمتع

بما يكون في الخلوات ، روي أن وقت الحساب على طوله يقصر على المؤمنين حتى يكون كما بين أول النهار إلى وقت القائلة فيقيلون في رياض الجنة حتى يفرغ الناس من الحساب .

(7/559)

وعبر بأفعل التفضيل تهكماً بهم أو أنه عبر بذلك لما كان الكلام عاماً لأحوال الدنيا والآخرة ، وهو قاطعون بأنهم في الدنيا أحسن حالاً من المؤمنين ، لما هم فيه من السعة في المال والكثرة والقوة ، وبلفظ الحسن إشارة إلى ما يتزين به مقيلهم من حسن الوجوه وملاحه الصور ونحوه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 309.312 ﴾

(8/559)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا ﴾

اعلم أن قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الذين لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْنَا الملئكة أَوْ نرى رَبَّنَا ﴾

هو الشبهة الرابعة لمنكري نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وحاصلها : لم لم ينزل الله الملائكة حتى يشهدوا أن محمداً محق في دعواه ﴿ أَوْ نرى ربَّنَا ﴾ حتى يخبرنا بأنه أرسله إلينا ؟

وتقرير هذه الشبهة أن من أراد تحصيل شيء ، وكان له إلى تحصيله طريقان ، أحدهما يفضي إليه قطعاً والآخر قد يفضي وقد لا يفضي ، فالحكيم يجب عليه في حكمته أن يختار في تحصيل ذلك المقصود الطريق الأقوى والأحسن ، ولا شك أن إنزال الملائكة ليشهدوا بصدق محمد صلى الله عليه وسلم أكثر إفضاء إلى المقصود ، فلو أراد الله تعالى تصديق محمد صلى الله عليه وسلم لفعل ذلك وحيث لم يفعل ذلك علمنا أنه ما أراد تصديقه هذا حاصل الشبهة ، ثم ههنا مسائل :

المسألة الأولى :

قال الفراء قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الذين لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا ﴾ معناه لا يخافون لقاءنا ووضع الرجاء في موضع الخوف لغة تهامية ، إذا كان معه جحد ، ومثله قوله تعالى : ﴿ مَا لَكُمْ لاَ تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً ﴾ [نوح : 13] أي لا تخافون له عظمة ، وقال القاضي لا وجه لذلك ، لأن الكلام متى أمكن حمله على الحقيقة لم يجز حمله على المجاز ، ومعلوم أن من حال عباد الأصنام أنهم كما لا يخافون العقاب لتكذيبهم بالمعاد ، فكذلك لا يرجون لقاءنا ووعدنا على الطاعة من الجنة والثواب ، ومعلوم أن من لا يرجو ذلك لا يخاف العقاب أيضاً ،

فالخوف تابع لهذا الرجاء .

المسألة الثانية :

(9/559)

المجسمة تمسكوا بقوله تعالى : ﴿ لِقَاءنَا ﴾ أنه جسم وقالوا اللقاء هو الوصول يقال هذا الجسم لقي ذلك أي وصل إليه واتصل به ، وقال تعالى : ﴿ فَالْتَقَى الماء على أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾ [القمر : 12] فدلت الآية على أنه سبحانه جسم والجواب على طريقين الأول : طريق بعض أصحابنا قال المراد من اللقاء هو الرؤية ، وذلك لأن الرائي يصل برؤيته إلى حقيقة المرئي فسمى اللقاء أحد أنواع الرؤية والنوع الآخر الاتصال والمماسة ، فدلت الآية من هذا الوجه على جواز الرؤية الطريق الثاني : وهو كلام المعتزلة ، قال القاضي تفسير اللقاء برؤية البصر جهل باللغة ، فيقال في الدعاء لقاك الله الخير وقد يقول القائل لم ألق الأمير وإن رآه من بعد أو حجب عنه ، ويقال في الضرير لقي الأمير إذا أذن له ولم يحجب وقد يلقاه في الليلة الظلماء ، ولا يراه بل المراد من اللقاء ههنا هو المصير إلى حكمه حيث لا حكم لغيره في يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً لا أن رؤية البصر ، واعلم أن هذا الكلام ضعيف لأنا لا نفسر اللقاء برؤية البصر بل نفسره بمعنى مشترك بين رؤية البصر ، وبين الاتصال والمماسة

وهو الوصول إلى الشيء ، وقد بينا أن الرائي يصل برؤيته إلى المرئي واللفظ الموضوع لمعنى مشترك بين معان كثيرة ، ينطلق على كل واحد من تلك المعاني فيصح قوله لقاك الخير ، ويصح قول الأعمى لقيت الأمير ، ويصح قول البصير لقيته بمعنى رأيته وما لقيته بمعنى ما وصلت إليه ، وإذا ثبت هذا فنقول قوله : ﴿ وَقَالَ الذين لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا ﴾ مذكور في معرض الذم لهم ، فوجب أن يكون رجاء اللقاء حاصلاً ، ومسمى اللقاء مشترك بين الوصول المكاني ، وبين الوصول بالرؤية ، وقد تعذر الأول فتعين الثاني ، وقوله المراد من اللقاء الوصول إلى حكمه صرف للفظ عن ظاهره بغير دليل ، فثبت دلالة الآية على صحة الرؤية بل على وجوبها ، بل على أن إنكارها ليس إلا من دين الكفار .

المسألة الثالثة :

(10/559)

قوله : ﴿ لَوْلا أُنزِلَ ﴾ معناه هلا أنزل ، قال الكلبي ومقاتل : نزلت هذه الآية في أبي جهل والوليد وأصحابهما الذين كانوا منكرين للنبوة والبعث .

أما قوله تعالى : ﴿ لَقَدِ استكبروا فِى أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوّاً كَبِيراً ﴾ فاعلم أن هذا هو

الجواب عن تلك الشبهة ، وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

(11/559)

في تقرير كونه جواباً ، وذلك من وجوه : أحدها : أن القرآن لما ظهر كونه معجزاً فقد ثبتت دلالة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، فبعد ذلك يكون اقتراح أمثال هذه الآيات لا يكون إلا محض الاستكبار والتعنت وثانيها : أن نزول الملائكة لو حصل لكان أيضاً من جملة المعجزات ولا يدل على الصدق لخصوص كونه بنزول الملك ، بل لعموم كونه معجزاً ، فيكون قبول ذلك المعجز ورد ذلك المعجز الآخر ترجيحاً لأحد المثلين على الآخر من غير مزيد فائدة ومرجح ، وهو محض الاستكبار والتعنت وثالثها : أنهم بتقدير أن يروا الرب ويسألوه عن صدق محمد صلى الله عليه وسلم وهو سبحانه يقول نعم هو رسولي ، فذلك لا يزيد في التصديق على إظهار المعجز على يد محمد صلى الله عليه وسلم ، لأنا بينا أن المعجز يقوم مقام التصديق بالقول إذ لا فرق وقد ادعى النبوة بين أن يقول اللهم إن كنت صادقاً فأحيي هذا الميت فيحييه الله تعالى والعادة لم تجر بمثله وبين أن يقول له صدقت ، وإذا كان التصديق الحاصل بالقول أو الحاصل بالمعجز تعيين في كونه تصديقاً للمدعى كان تعيين

أحدهما محض الاستكبار والتعنت ورابعها : وهو أنا نعتقد أن الله سبحانه وتعالى يفعل بحسب المصالح على ما يقوله المعتزلة ، أن نقول إن الله تعالى يفعل بحسب المشيئة عى ما يقوله أصحابنا ، فإن كان الأول لم يجز لهم أن يعينوا المعجز إذ ربما كان إظهار ذلك المعجز مشتملاً على مفسدة لا يعرفها إلا الله تعالى ، وكان التعيين استكباراً وعتواً من حيث إنه لما ظنه مصلحة قطع بكونه مصلحة ، فمن قال ذلك فقد اعتقد في نفسه أنه عالم بكل المعلومات ، وذلك استكبار عظيم ، وإن كان الثاني وهو قول أصحابنا فليس للعبد أن يقترح على ربه فإنه سبحانه فعال لما يريد فكان الاقتراح استكباراً وعتواً وخروجاً عن حد العبودية إلى مقام المنازعة والمعارضة وخامسها : وهو أن المقصود من بعثة الأنبياء الإحسان إلى الخلق فالملك الكبير إذا أحسن إلى بعض

(12/559)

الضعفاء رحمة عليه فأخذ ذلك الضعيف إلى اللجاج والنزاع ، ويقول لا أريد هذا بل أريد ذاك ، حسن أن يقال إن هذا المكدي قد استكبر في نفسه وعتا عتواً شديداً من حيث لا يعرف قدر نفسه ومنتهى درجته فكذا ههنا وسادسها : يمكن أن يكون المراد أن الله تعالى قال لو علمت أنهم ما ذكروا هذا السؤال لأجل الاستكبار والعتو الشديد لأعطيتهم

مقترحهم ، ولكني علمت أنهم ذكروا هذا الاقتراح لأجل الاستكبار والتعنت فلو أعطيتهم مقترحهم لما انتفعوا به فلا جرم لا أعطيهم ذلك ، وهذا التأويل يعرف من اللفظ وسابعها : لعلهم سمعوا من أهل الكتاب أن الله تعالى لا يرى في الدنيا ، وأنه تعالى لا ينزل الملائكة في الدنيا على عوام الخلق ، ثم إنهم علقوا إيمانهم على ذلك على سبيل التعنت أو على سبيل الاستهزاء .

المسألة الثانية :

قالت المعتزلة : الآية دلت على أن الله تعالى لا تجوز رؤيته لأن رؤيته لو كانت جائزة لما كان سؤالها عتواً واستكباراً ، قالوا وقوله : ﴿ لَقَدِ استكبروا فِى أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوّاً كَبِيراً ﴾ ليس إلا لأجل سؤال الرؤية حتى لو أنهم اقتصروا على نزول الملائكة لما خوطبوا بذلك ، والدليل عليه أن الله تعالى ذكر أمر الرؤية في آية أخرى على حدة وذكر الاستعظام وهو قوله : ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حتى نَرَى الله جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصاعقة ﴾ [البقرة : 55] وذكر نزول الملائكة على حدة في آية أخرى فلم يذكر الاستعظام وهو قولهم : ﴿ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْنَا الملئكة ﴾ وهل نرى الملائكة فثبت بهذا أن الاستكبار والعتو في هذه الآية إنما حصل لأجل سؤال الرؤية .

واعلم أن الكلام على ذلك قد تقدم في سورة البقرة ، والذي نريده ههنا أنا بينا أن قوله ﴿ وَقَالَ الذين لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا ﴾ يدل على الرؤية ، وأما الاستكبار والعتو ، فلا يمكن أن يدل ذلك على أن الرؤية مستحيلة لأن من طلب شيئاً محالاً ، لا يقال إنه عتا واستكبر ، ألا ترى أنهم لما قالوا : ﴿ اجعل لَّنَا إلها كَمَا لَهُمْ ءالِهَةٌ ﴾ لم يثبت لهم بطلب هذا المحال عتواً واستكباراً ، بل قال : ﴿ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ [الأعراف : 138] بل العتو والاستكبار لا يثبت إلا إذا طلب الإنسان ما لا يليق به ممن فوقه أو كان لائقاً به ، ولكنه يطلبه على سبيل التعنت .

وبالجملة فقد ذكرنا وجوهاً كثيرة في تحقيق معنى الاستكبار والعتو سواء كانت الرؤية ممتنعة أو ممكنة ، ومما يدل عليه أن موسى لما سأل الرؤية ما وصفه الله تعالى بالاستكبار والعتو ، لأنه عليه السلام طلب الرؤية شوقاً ، وهؤلاء طلبوها امتحاناً وتعنتاً ، لا جرم وصفهم بذلك فثبت فساد ما قاله المعتزلة .

المسألة الثالثة :

إنما قال ﴿ فِى أَنفُسِهِمْ ﴾ لأنهم أضمروا الاستكبار (عن الحق وهو الكفر والعناد) في قلوبهم واعتقدوه كما قال : ﴿ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ مَّا هُم ببالغيه ﴾ [غافر : 56] وقوله : ﴿ وَعَتَوْا عُتُوّاً كَبِيراً ﴾ أي تجاوزوا الحد في الظلم يقال عتا (عتا) فلان وقد

وصف العتو بالكبر فبالغ في إفراطه ، يعني أنهم لم يجترئوا على هذا القول العظيم إلا لأنهم بلغوا غاية الاستكبار وأقصى العتو .

أما قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ الملئكة لاَ بشرى يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْراً مَّحْجُوراً ﴾ فهو جواب لقولهم : ﴿ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْنَا الملئكة ﴾ فبين تعالى أن الذي سألوه سيوجد ، ولكنهم يلقون منه ما يكرهون ، وههنا مسائل :

المسألة الأولى :

(14/559)

ذكروا في انتصاب ﴿ يَوْمٍ ﴾ وجهين : الأول : أن العامل ما دل عليه ﴿ لاَ بشرى ﴾ أي يوم يرون الملائكة (يبغون البشرى) و ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ للتكرير الثاني : أن التقدير اذكر يوم يرون الملائكة .

المسألة الثانية :

اختلفوا في ذلك اليوم ، فقال ابن عباس يريد عند الموت ، وقال الباقون يريد يوم القيامة .

المسألة الثالثة :

إنما يقال للكافر لا بشرى لأن الكافر وإن كان ضالاً مضلاً إلا أنه يعتقد في نفسه أنه كان

هادياً مهتدياً ، فكان يطمع في ذلك الثواب العظيم ، ولأنهم ربما عملوا ما رجوا فيه النفع كنصرة المظلوم وعطية الفقير وصلة الرحم ، ولكنه أبطلها بكفره فبين سبحانه أنهم في أول الأمر يشافهون بما يدل على نهاية اليأس والخيبة ، وذلك هو النهاية في الإيلام وهو المراد من قوله : ﴿ وَبَدَا لَهُمْ مِّنَ اللهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ ﴾ [الزمر : 47] .

المسألة الرابعة :

حق الكلام أن يقال يوم يرون الملائكة لا بشرى لهم ، لكنه قال لا بشرى للمجرمين وفيه وجهان : أحدهما : أنه ظاهر في موضع ضمير والثاني : أنه عام فقد تناولهم بعمومه ، قالت المعتزلة تدل الآية على القطع بوعيد الفساق وعدم العفو لأن قوله : ﴿ لاَ بشرى لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ نكرة في سياق النفي فيعم جميع أنواع البشرى في جميع الأوقات بدليل أن من أراد تكذيب هذه القضية قال بل له بشرى في الوقت الفلاني ، فلما كان ثبوت البشرى في وقت من الأوقات يذكر لتكذيب هذه القضية ، علمنا أن قوله تعالى : ﴿ لاَ بشرى ﴾ يقتضي نفي جميع أنواع البشرى في كل الأوقات ، ثم إنه سبحانه أكد هذا النفي بقوله : ﴿ حِجْراً مَّحْجُوراً ﴾ والعفو من الله من أعظم البشرى ، والخلاص من النار بعد دخولها من أعظم البشرى ، وشفاعة الرسول صلى الله عليه وسلم من أعظم البشرى فوجب أن لا يثبت ذلك لأحد من المجرمين ، والكلام على التمسك بصيغ العموم قد تقدم غير مرة ، قال المفسرون المراد بالمجرمين ههنا الكفار بدليل قوله :

﴿ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ ﴾ [المائدة : 72] .

المسألة الخامسة :

في تفسير قوله : ﴿ حِجْراً مَّحْجُوراً ﴾ ذكر سيبويه في باب المصادر غير المتصرفة المنصوبة بأفعال متروك إظهارها نحو معاذ الله وقعدك (الله) وعمرك (الله) ، وهذه كلمة كانوا يتكلمون بها عند لقاء عدو (موتور) أو هجوم نازلة ونحو ذلك يضعونها موضع الاستعاذة ، قال سيبويه : يقول الرجل للرجل (يفعل) كذا وكذا فيقول حجراً ، وهي من حجره إذا منعه لأن المستعيذ طالب من الله أن يمنع المكروه فلا يلحقه ، فكان المعنى أسأل الله أن يمنع ذلك منعاً ويحجره حجراً ومجيئه على فعل أو فعل في قراءة الحسن تصرف فيه لاختصاصه بموضع واحد ، فإن قيل : لما ثبت أنه من باب المصادر فما معنى وصفه بكونه محجوراً ؟ قلنا : جاءت هذه الصفة لتأكيد معنى الحجر كما قالوا (ذبل ذابل فالذبل) الهوان وموت مائت وحرام محرم .

المسألة السادسة :

اختلفوا في أن الذين يقولون حجراً محجوراً من هم ؟ على ثلاثة أقوال : القول الأول : أنهم هم الكفار وذلك لأنهم كانوا يطلبون نزول الملائكة ويقترحونه ، (ثم) إذا رأوهم عند الموت (و) يوم القيامة كرهوا لقاءهم وفزعوا منهم لأنهم لا يلقونهم إلا بما يكرهون ، فقالوا عند رؤيتهم ما كانوا يقولونه عند لقاء العدو (الموتور) ونزول الشدة القول الثاني : أن القائلين هم الملائكة ومعناه حراماً محرماً عليكم الغفران والجنة والبشرى ، أي جعل الله ذلك حراماً عليكم ، ثم اختلفوا على هذا القول فقال بعضهم إن الكفار إذا خرجوا من قبورهم ، قالت الحفظة لهم حجراً محجوراً ، وقال الكلبي الملائكة على أبواب الجنة يبشرون المؤمنين بالجنة ويقولون للمشركين حجراً محجوراً ، وقال عطية إذا كان يوم القيامة يلقى الملائكة المؤمنين بالبشرى فإذا رأى الكفار ذلك قالوا لهم بشرونا فيقولون حجراً محجوراً القول الثالث : وهو قول القفال والواحدي وروي عن الحسن أن الكفار يوم القيامة إذا شاهدوا ما يخافونه فيتعوذون منه ويقولون حجراً محجوراً ، فتقول الملائكة لا يعاذ من شر هذا اليوم .

أما قوله تعالى : ﴿ وَقَدِمْنَا ﴾ فقد استدلت المجسمة بقوله : ﴿ وَقَدِمْنَا ﴾ لأن القدوم لا يصح إلا على الأجسام ، وجوابه أنه لما قامت الدلالة على امتناع القدوم عليه لأن القدوم حركة والموصوف بالحركة محدث ، ولذلك استدل الخليل عليها السلام بأفول الكواكب على حدوثها وثبت أن الله عز وجل لا يجوز أن يكون محدثاً ، فوجب تأويل لفظ القدوم

وهو من وجوه : أحدها : ﴿ وَقَدِمْنَا إلى مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ ﴾ أي وقصدنا إلى أعمالهم ، فإن القادم إلى الشيء قاصد له ، فالقصد هو المؤثر في المقدوم إليه وأطلق المسبب على السبب مجازاً وثانيها : المراد قدوم الملائكة إلى موضع الحساب في الآخرة ، ولما كانوا بأمره يقدمون جاز أن يقول ﴿ وَقَدِمْنَا ﴾ على سبيل التوسع ونظيره قوله :

(17/559)

﴿ فَلَمَّا ءاسَفُونَا انتقمنا مِنْهُمْ ﴾ [الزخرف : 55] وثالثها : ﴿ إِنَّ الملوك إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا ﴾ [النمل : 34] فلما أباد الله أعمالهم وأفسدها بالكلية صارت شبيهة بالمواضع التي يقدمها الملك فلا جرم قال ﴿ وَقَدِمْنَا ﴾ .

أما قوله : ﴿ إلى مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ ﴾ يعني الأعمال التي اعتقدوها براً وظنوا أنها تقربهم إلى الله تعالى ، والمعنى إلى ما عملوا من أي عمل كان .

أما قوله : ﴿ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَّنثُوراً ﴾ فالمراد أبطلناه وجعلناه بحيث لا يمكن الانتفاع به كالهباء المنثور الذي لا يمكن القبض عليه ونظيره قوله تعالى : ﴿ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ ﴾ [النور : 39] ﴿ كَرَمَادٍ اشتدت بِهِ الريح ﴾ [إبراهيم : 18] ﴿ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾ [الفيل : 5] قال أبو عبيدة والزجاج : الهباء مثل الغبار يدخل من الكوة مع ضوء الشمس .

وقال مقاتل : إنه الغبار الذي يستطير من حوافر الدواب .

أما قوله : ﴿ أصحاب الجنة يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرّاً وَأَحْسَنُ مَقِيلاً ﴾ فاعلم أنه سبحانه لما بين حال الكفار في الخسار الكلي والخيبة التامة شرح وصف أهل الجنة تنبيهاً على أن الحظ كل الحظ في طاعة الله تعالى ، وههنا سؤالات :

الأول : كيف يكون أصحاب الجنة خيراً مستقراً من أهل النار ، ولا خير في النار ، ولا يقال في العسل هو أحل من الخل ؟ والجواب من وجوه : الأول : ما تقدم في قوله : ﴿ أذلك خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الخلد ﴾ [الفرقان : 15] والثاني : يجوز أن يريد أنهم في غاية الخير ، لأن مستقر خير من النار ، كقول الشاعر :

إن الذي سمك السماء بنى لنا . . بيتاً دعائمه أعز وأطول

الثالث : التفاضل الذي ذكر بين المنزلتين إنما يرجع إلى الموضع ، والموضع من حيث إنه موضع لا شرفيه الرابع : هذا التفاضل واقع على هذا التقدير ، أي لو كان لهم مستقر فيه خير لكان مستقر أهل الجنة خيراً منه .

(18/559)

السؤال الثاني : الآية دلت على أن مستقرهم غير مقيلهم فكيف ذلك ؟ والجواب من وجوه : الأول : أن المستقر مكان الاستقرار ، والمقيل زمان القيلولة ، فهذا إشارة إلى أنهم من المكان في أحسن مكان ، ومن الزمان في أطيب زمان الثاني : أن مستقر أهل الجنة غير مقيلهم ، فإنهم يقيلون في الفردوس ، ثم يعودون إلى مستقرهم الثالث : أن بعد الفراغ من المحاسبة والذهاب إلى الجنة يكون الوقت وقت القيلولة ، قال ابن مسعود : " لا ينتصف النهار من يوم القيامة حتى يقيل أهل الجنة في الجنة ، وأهل النار في النار " وقرأ ابن مسعود : (ثم إن مقيلهم لإلى الجحيم) .

وقال سعيد بن جبير : إن الله تعالى إذا أخذ في فصل القضاء قضى بينهم بقدر ما بين صلاة الغداة إلى انتصاف النهار ، فيقيل أهل الجنة في الجنة ، وأهل النار في النار .

وقال مقاتل : يخفف الحساب على أهل الجنة حتى يكون بمقدار نصف يوم من أيام الدنيا ، ثم يقيلون من يومهم ذلك في الجنة .

السؤال الثالث : كيف يصح القيلولة في الجنة والنار ، وعندكم أن أهل الجنة في الآخرة لا ينامون ، وأهل النار أبداً في عذاب يعرفونه ، وأهل الجنة في نعيم يعرفونه ؟ والجواب : قال الله تعالى : ﴿ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيّاً ﴾ [مريم : 62] وليس في الجنة بكرة وعشي ، لقوله تعالى : ﴿ لاَ يَرَوْنَ فِيهَا شَمْساً وَلاَ زَمْهَرِيراً ﴾ [الإنسان : 13] ولأنه إذا لم يكن هناك شمس لم يكن هناك نصف النهار ولا وقت القيلولة ، بل المراد منه بيان أن ذلك

الموضع أطيب المواضع وأحسنها ، كما أن موضع القيلولة يكون أطيب المواضع ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 24 صـ 59 . 64 ﴾

(19/559)

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ﴾

فيه ثلاثة أوجه

: أحدها : لا يخافون ولا يخشون ، قاله السدي ، ومنه قول الشاعر :

إذا لسعته النحل لم يرج لسعها . . . وخالفها في بيت نوب عوامل

أي لم يخش . الثاني : لا يبالون ، قاله ابن عمير ، وأنشد لخبيب .

لعمرك ما أرجوا إذا كنت مسلماً . . . على أي حال كان في الله مصرعي

أي ما أبالي .

الثالث : لا يأملون ، حكاه ابن شجرة وأنشد قول الشاعر :

أترجو أمة قتلت حسينا . . . شفاعة جَدّه يوم الحسابِ

﴿ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ ﴾ فيه قولان

: أحدهما : ليخبرونا أن محمداً نبي قاله يحيى بن سلام .

الثاني : ليكونوا رسلاً إلينا من ربهم بدلاً من رسالة محمد صلى الله عليه وسلم .

﴿ أَوْ نَرَى رَبَّنَا ﴾ فيأمرنا باتباع محمد وتصديقه

. ﴿ لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِم ﴾ فيه وجهان

: أحدهما : تكبروا في أنفسهم لما قل في أعينهم من إرسال محمد صلى الله عليه وسلم نبياً إليهم .

الثاني : استكبروا في أنفسهم بما اقترحوه من رؤية الله ونزول الملائكة عليهم .

﴿ وَعَتَوْ عُتُوّاً كَبِيراً ﴾ فيه خمسة أوجه

: أحدها : أنه التجبر ، قاله عكرمة .

الثاني : العصيان ، قاله يحيى بن سلام .

الثالث : أنه السرف في الظلم ، حكاه ابن عيسى .

الرابع : أنه الغلو في القول ، حكاه النقاش .

الخامس : أنه شدة الكفر ، قاله ابن عباس .

قيل إن هذه الآية نزلت في عبد الله بن أبي أمية بن المغيرة ومكرز بن حفص بن الأخنف في جماعة من قريش قالوا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا .

فنزل فيهم قوله تعالى :

﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلائِكَةَ ﴾ فيه قولان

: أحدهما : عند الموت ، قاله يحيى بن سلام .

الثاني : يوم القيامة ، قاله مجاهد .

(20/559)

﴿ لاَ بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ يعني بالجنة ، قاله عطية العوفي : إذا كان يوم القيامة يلقى المؤمن بالبشرى فإذا رأى الكافر ذلك تمناه فلم يره من الملائكة .

﴿ وَيَقُولُونَ حِجْراً مَّحْجُوراً ﴾ فيه ثلاث أوجه

: أحدها : معناه معاذ الله أن تكون لكم البشرى يومئذ ، قاله مجاهد .

الثاني : معناه : منعنا أن نصل إلى شيء من الخير ، قاله عكرمة .

الثالث : حراماً محرماً أن تكون لكم البشرى يومئذ ، قاله أبو سعيد الخدري ، والضحاك ، وقتادة ومنه قول الملتمس :

حَنّتْ إلى النخلة القصوى فقلت لها . . . حجْرٌ حرام إلا تلك الدهاريس .

وفي القائلين حجراً محجوراً قولان

: أحدهما : أنهم الملائكة قالوه للكفار ، قاله الضحاك .

الثاني : أنهم الكفار قالوه لأنفسهم ، قاله قتادة .

قوله تعالى ﴿ وَقَدِمْنَآ ﴾ أي عمدنا ، قاله مجاهد ، قال الراجز :

وقدم الخوارج الضلال . . . إلى عباد ربهم فقالوا

إن دماءكم لنا حلال . . . ﴿ إِلَى مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ ﴾ فيه قولان

: أحدهما : من عمل خيراً لا يتقبل منهم لإحباطه بالكفر ، قاله مجاهد .

الثاني : من عمل صالحاً لا يراد به وجه الله ، قاله ابن المبارك .

﴿ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُوراً ﴾ فيه خمسة أقاويل

: أحدها : أنه رهج الدواب ، قاله علي بن أبي طالب .

الثاني : أنه كالغبار يكون في شعاع الشمس إذا طلعت في كوة ، قاله الحسن ، وعكرمة .

الثالث : أنه ما ذرته الرياح من يابس أوراق الشجر ، قاله قتادة .

الرابع : أنها الماء المراق ، قاله ابن عباس .

الخامس : أنه الرماد ، قاله عبيد بن يعلى .

قوله تعالى : ﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَراً ﴾ يعني منزلاً في الجنة من مستقر الكفار في النار .

﴿ وَأَحْسَنُ مَقِيلاً ﴾ فيه أربعة أوجه

: أحدها : أنه المستقر في الجنة والمقيل دونها ، قاله أبو سنان .

الثاني : أنه عنى موضع القائلة للدعة وإن لم يقيلوا ، ذكره ابن عيسى .

(21/559)

الثالث : أنه يقيل أولياء الله بعد الحساب على الأسرة مع الحور العين ، ويقيل أعداء الله مع الشياطين المقرنين ، قاله ابن عباس .

الرابع : لأنه يفرغ من حسابهم وقت القائلة وهو نصف النهار ، فذلك أحسن مقيلاً ، من مقيل الكفار ، قاله الفراء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

(22/559)

وقال ابن عطية :

﴿ لولا أنزل علينا الملائكة ﴾ الآية ،

وقوله ﴿ يرجون ﴾ قال أبو عبيدة وقوم معناه يخافون والشاهد لذلك قول الهذلي : [الطويل]

إذا لسعته النحل لم يرج لسعها . . . وخالفها في بيت نوب عوامل

قال القاضي أبو محمد : والذي يظهر لي أن الرجاء في هذه الآية والبيت على بابه لأن خوف لقاء الله تعالى مقترن أبداً برجائه ، فإذا نفي الرجاء عن أحد فإنما أخبر عنه أنه مكذب بالبعث لنفي الخوف والرجاء ، وفي ذكر الكفار بنفي الرجاء تنبيه على غبطة ما فاتهم من رجاء الله تعالى ، وأما بيت الشعر المذكور فمعناه عندي لم يرج دفعها ولا الانفكاك عنها فهو لذلك يوطن على الصبر ويجد في شغله ، ولما تمنت كفار قريش رؤية ربهم أخبر تعالى عنهم أنهم عظموا أنفسهم وسألوا ما ليسوا به بأهل ، ﴿ وعتوا ﴾ ، معناه صعبوا عن الحق واشتدوا ، ويقال عتو وعتي على الأصل ، وعتي معلول باستثقال الضم على الواو فقلبت ياء ثم كسر ما قبلها طلب التناسب .

﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا (22) ﴾

المعنى في هذه الآية أن الكفار لما قالوا ﴿ لولا أنزل علينا الملائكة ﴾ [الفرقان : 21] ، أخبر الله تعالى أنهم ﴿ يوم يرون الملائكة ﴾ إنما هو يوم القيامة ، وقد كان أول الآية يحتمل أن يريد يوم تفيض أرواحهم ، لكن آخرها يقتضي أن الإشارة إلى يوم القيامة ، وأمر العوامل في هذه الظروف بين إذا تأمل فاختصرناه لذلك ، ومعنى هذه الآية أن هؤلاء الذين تمنّوا نزل الملائكة لا يعرفون ما قدر الله في ذلك فإنهم ﴿ يوم يرون الملائكة ﴾ هو شر لهم و ﴿ لا

بشرى ﴾ لهم بل لهم الخسار ولقاء المكروه و﴿ يومئذ ﴾ ، خبر ﴿ لا بشرى ﴾ لأن الظروف تكون إخباراً عن المصادر .

(23/559)

الضمير في قوله ﴿ ويقولون ﴾ ، قال الحسن وقتادة والضحاك ومجاهد هو ل ﴿ لملائكة ﴾ ، المعنى وتقول الملائكة للمجرمين ﴿ حجراً محجوراً ﴾ عليكم البشرى ، أي حراماً محرماً . والحجر الحرم ومنه قول المتلمس جرير بن عبد المسيح : [البسيط]

حنت إلى النخلة القصوى فقلت لها . . . حجر حرام الا تلك الدهاريس

وقال مجاهد أيضاً وابن جريج إن الضمير في قوله ﴿ ويقولون ﴾ هو للكفار المجرمين قال ابن جريج كانت العرب إذا كرهوا شيئاً قالوا حجراً ، قال مجاهد ﴿ حجراً ﴾ عوذاً ، يستعيذون من الملائكة .

قال الفقيه الإمام القاضي : ويحتمل أن يكون المعنى ويقولون حرام محرم علينا العفو ، وقد ذكر أبو عبيدة أن هاتين اللفظتين عوذة للعرب يقولها من خاف آخر في الحرم أو في شهر حرام إذا لقيه وبينهما ترة .

قال الفقيه الإمام القاضي : وهذا المعنى هو مقصد بيت المتلمس الذي تقدّم ، أي هذا

الذي حننت إليه ممنوع . وقرأ الحسن وأبو رجاء " حُجراً " بضم الحاء ، والناس على كسرها ، ثم أخبر تعالى عما يأتي عليه قضاؤه وفعله فقال حكاية عن يوم القيامة ﴿ وقدمنا ﴾ أي قصد حكمنا وإنفاذنا ونحو هذا من الألفاظ اللائقة ، وقيل هو قدوم الملائكة أسنده إليه لأنه عن أمره ، وحسنت لفظة ﴿ قدمنا ﴾ لأن القادم على شيء مكروه لم يقدره ولا أمر به مغير له مذهب ، وأما قول الراجز :

وقدم الخوارج الضلال . . . إلى عباد ربنا فقالوا :

(24/559)

إن دماءكم لنا حلال . . . فالقدوم فيه على بابه ، ومعنى الآية وقصدنا إلى أعمالهم التي هي في الحقيقة لا تزن شيئاً إذ لا نية معها فجعلناها على ما تستحق لا تعد شيئاً وصيرناها ﴿ هباء منثوراً ﴾ أي شيئاً لا تحصيل له ، والهباء هي الأجرام المستدقة الشائعة في الهواء التي لا يدركها حس إلا حين تدخل الشمس على مكان ضيق يحيط به الظل كالكوة أو نحوها ، فيظهر حينئذ فيما قابل الشمس أشياء تغيب وتظهر فذلك هو الهباء ، ووصفه في هذه الآية ب ﴿ منثور ﴾ ، ووصفه في غيرها ب " منبث " ، فقالت فرقة هما سواء ، وقالت فرقة المنبث أرق وأدق من المنثور لأن المنثور يقتضي أن غيره نثره كسنابك

الخيل والريح أو هدم حائط أو كنس ونحو ذلك ، والمنبث كأنه هو انبث من دقته ، وقال ابن عباس الهباء المنثور ، ما تسفي به الرياح وتبثه ، وروي عنه أنه قال أيضاً الهباء الماء المهراق والأول أصح والعرب تقول أهبات الغبار والتراب ونحوه إذا بثثته وقال الشاعر ﴿ الحارث بن حلزة اليشكري] : [الخفيف]

وترى خلفها من الربع والوق . . . ع منيناً كأنه أهباء

ومعنى هذه الآية جعلنا أعمالهم لا حكم لها ولا منزلة ، ثم أخبر عز وجل بأن مستقر أهل الجنة ﴿ خير ﴾ من مستقر أهل النار ، وجاءت ﴿ خير ﴾ ، ها هنا للتفضيل بين شيئين لا شركة بينهما ، فذكر الزجاج وغيره في ذلك أنه لما اشتركا في أن هذا مستقر وهذا مستقر فضل الاستقرار الواحد .

(25/559)

قال القاضي أبو محمد : ويظهر لي أن هذه الألفاظ التي فيها عموم ما يتوجّه حكمها من جهات شتى ، نحو قولك أحب وأحسن وخير وشر يسوغ أن يجاء بها بين شيئين لا شركة بينهما ، فتقول السعد في الدنيا أحب إليّ من الشقاء إذ قد يوجد بوجه ما من يستحب الشقاء كالمتعبد والمغتاظ وكذلك في غيرها ، فإذا كانت أفعل في معنى بين أن الواحد من

الشيئين لا حظ له فيه بوجه فسد الإخبار بالتفضيل به ، كقولك الماء أبرد من النار ، ومن هذا إنك تقول في ياقوته ومدرة وتشير إلى المدرة هذه أحسن وخير وأحب وأفضل من هذه ، ولو قلت هذه ألمع وأشد شراقة من هذه لكان فاسداً ، وقوله ﴿ مقيلاً ﴾ ذهب ابن عباس والنخعي وابن جريج إلى أن حساب الخلق يكمل في وقت ارتفاع النهار ، ويقيل أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار فالمقيل من القائلة .

قال الفقيه الإمام القاضي : ويحتمل أن اللفظة إنما تضمنت تفضيل الجنة جملة ، فالعرب تفضل البلاد بحسن المقيل لأن وقت القائلة يبدو فساد هواء البلاد ، فإذا كان بلد في وقت فساد الهواء حسناً جاز الفضل ومن ذلك قول الأسود بن يعفر الإيادي : [الكامل]

أرض تخيرها لطيب مقيلها . . . كعب بن مامة وابن أم دواد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(26/559)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وقال الذين لا يَرْجُون لقاءنا ﴾

أي : لا يخافون البعث ﴿ لولا ﴾ أي : هلاّ ﴿ أُنْزِلَ علينا الملائكةُ ﴾ فكانوا رُسلاً إلينا

وأخبرونا بصدقك ، ﴿ أو نَرى ربَّنا ﴾ فيخبرنا أنَّكَ رسوله ، ﴿ لقد استكبَروا في أنفسهم ﴾ أي : تكبَّروا حين سألوا هذه الآيات ﴿ وعَتَوْا عُتُوّاً كبيراً ﴾ قال الزجاج : العُتُوُّ في اللغة : مجاوزة القَدْرِ في الظُّلم .

قوله تعالى : ﴿ يومَ يَرَوْنَ الملائكةَ ﴾ فيه قولان .

أحدهما : عند الموت .

والثاني : يوم القيامة .

قال الزجاج : وانتصب اليوم على معنى : لا بشرى للمجرمين يوم يرون الملائكة ، و ﴿ يومَئِذٍ ﴾ مؤكِّد ل ﴿ يومَ يَرَوْنَ الملائكةَ ﴾ ؛ والمعنى : أنهم يُمنَعون البُشرى في ذلك اليوم ؛ ويجوز أن يكون ﴿ يومَ ﴾ منصوباً على معنى : اذكر يوم يرون الملائكة ، ثم أخبر فقال : ﴿ لا بُشرى ﴾ ، والمجرمون هاهنا : الكفار .

قوله تعالى : ﴿ ويقولون حِجْراً مَحْجُوراً ﴾ وقرأ قتادة ، والضحاك ، ومعاذ القارىء : ﴿ حُجْراً ﴾ بضم الحاء .

قال الزجاج : وأصل الحجْر في اللغة : ما حجرتَ عليه ، أي : منعتَ من ان يُوصَل إليه ، ومنه حَجْر القضاة على الأيتام .

وفي القائلين لهذا قولان .

أحدهما : أنهم الملائكة يقولون للكفار : حِجْراً محجوراً ، أي : حراماً محرّماً .

وفيما حرَّموه عليهم قولان .

أحدهما : البُشرى ، فالمعنى : حرام محرَّم أن تكون لكم البشرى ، قاله الضحاك ، والفراء ، وابن قتيبة ، والزجاج.

والثاني : أن تدخلوا الجنة ، قاله مجاهد .

والثاني : أنه قول المشركين إذا عاينوا العذاب ، ومعناه : الاستعاذة من الملائكة ، روي عن مجاهد أيضاً .

وقال ابن فارس : كان الرَّجل إذا لقيَ مَن يخافه في الشهر الحرام ، قال : حِجْراً ، أي : حرام عليكَ أذايَ ، فإذا رأى المشركون الملائكة يوم القيامة ، قالوا : حِجْراً محجوراً ، يظنُّون أنه ينفعهم كما كان ينفعهم في الدنيا .

(27/559)

قوله تعالى : ﴿ وقَدِمْنَا ﴾ قال ابن قتيبه : أي : قَصَدْنا وعَمَدْنا ، والأصل أنَّ من اراد القُدوم إلى موضع عَمَد له وقصده .

قوله تعالى : ﴿ إلى ما عَمِلُوا من عمل ﴾ [أي] من أعمال الخير ﴿ فجعلناه هَبَاءً ﴾ لأن العمل لا يُتقبَّل مع الشِّرك .

وفي الهباء خمسة أقوال .

أحدها : أنه ما رأيتَه يتطاير في الشمس التي تدخل من الكوّة مثل الغبار ، قاله عليّ عليه السلام ، والحسن ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير ، وعكرمة ، واللغويون ؛ والمعنى أنّ الله أحبط أعمالهم حتى صارت بمنزلة الهباء .

والثاني : أنه الماء المُهراق ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس .

والثالث : أنه ما تنسفه الرياح وتذريه من التراب وحطام الشجر ، رواه عطاء الخراساني عن ابن عباس .

والرابع : أنه الشَّرر الذي يطير من النار إذا أُضرمت ، فإذا وقع لم يكن شيئاً ، رواه عطيّة عن ابن عباس .

والخامس : أنه ما يسطع من حوافر الدَّواب ، قاله مقاتل .

والمنثور : المتفرِّق .

قوله تعالى : ﴿ أصحابُ الجَنَّة يومَئذ ﴾ أي : يوم القيامة ، ﴿ خيرٌ مُسْتَقَرّاً ﴾ أفضل منزلاً من المشركين ﴿ وأحسن مَقيلاً ﴾ قال الزجاج : المَقيل : المُقام وقت القائلة ، وهو النوم نصف النهار .

وقال الأزهري : القيلولة عند العرب : الاستراحة نصف النهار إذا اشتد الحرّ وإن لم يكن مع ذلك نوم .

وقال ابن مسعود ، وابن عباس : لا ينتصف النهار من يوم القيامة حتى يَقِيل أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 6 صـ ﴾

(28/559)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الذين لاَ يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ﴾

يريد لا يخافون البعث ولقاء الله ، أي لا يؤمنون بذلك .

قال :

إذا لَسَعَتْه النحل لَم يَرْجُ لَسْعَهَا . . .

وخَالَفَهَا في بيت نُوبٍ عَوامِل

وقيل : ﴿ لاَ يَرْجُونَ ﴾ لا يبالون .

قال :

لعمرك ما أرجو إذا كنتُ مُسْلِماً . . .

على أيِّ جنْبٍ كان في الله مَصْرَعِي

ابن شجرة : لا يأملون ؛ قال :

أترجو أُمَّةٌ قتلتْ حسيناً . . .

شفاعَةَ جدّه يومَ الحسابِ

﴿ لَوْلاَ أُنزِلَ ﴾ أي هلا أنزل.

﴿ عَلَيْنَا الملائكة ﴾ فيخبروا أن محمداً صادق.

﴿ أَوْ نرى ربَّنَا ﴾ عِياناً فيخبرنا برسالته.

نظيره قوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حتى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأرض يَنْبُوعاً ﴾ [الإسراء: 90] إلى قوله: ﴿ أَوْ تَأْتِيَ بالله والملائكة قَبِيلاً ﴾ [الإسراء: 92].

قال الله تعالى: ﴿ لَقَدِ استكبروا في أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوّاً كَبِيراً ﴾ حيث سألوا الله الشطط؛ لأن الملائكة لا ترى إلا عند الموت أو عند نزول العذاب، والله تعالى لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار، فلا عين تراه.

وقال مقاتل: ﴿ عُتُوّاً ﴾ علواً في الأرض.

والعتوّ: أشدّ الكفر وأفحش الظلم.

وإذا لم يكتفوا بالمعجزات وهذا القرآن فكيف يكتفون بالملائكة؟ وهم لا يميزون بينهم وبين الشياطين، ولا بدّ لهم من معجزة يقيمها من يدّعي أنه ملَك، وليس للقوم طلب معجزة بعد أن شاهدوا معجزة، وأن ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ الملائكة لاَ بشرى يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ يريد أن الملائكة لا يراها أحد إلا عند الموت، فتبشر المؤمنين بالجنة، وتضرب المشركين والكفار

بمقامع الحديد حتى تخرج أنفسهم .

﴿ وَيَقُولُونَ حِجْراً مَّحْجُوراً ﴾ يريد تقول الملائكة حراماً محرماً أن يدخل الجنة إلا من قال لا إله إلا الله ، وأقام شرائعها ؛ عن ابن عباس وغيره .

(29/559)

وقيل : إن ذلك يوم القيامة ؛ قاله مجاهد وعطية العوفيّ .

قال عطية : إذا كان يوم القيامة تلقى المؤمن بالبشرى : فإذا رأى ذلك الكافر تمناه فلم يره من الملائكة .

وانتصب ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ ﴾ بتقدير لا بشرى للمجرمين يوم يرون الملائكة .

﴿ يومَئِذٍ ﴾ تأكيد ل ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ ﴾ .

قال النحاس : لا يجوز أن يكون ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ ﴾ منصوباً ب ﴿ بُشْرَى ﴾ لأن ما في حيز النفي لا يعمل فيما قبله ، ولكن فيه تقدير أن يكون المعنى يمنعون البشارة يوم يرون الملائكة ؛ ودلّ على هذ الحذف ما بعده .

ويجوز أن يكون التقدير : لا بشرى تكون يوم يرون الملائكة ، و ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ مؤكد .

ويجوز أن يكون المعنى : اذكر يوم يرون الملائكة : ثم ابتدأ فقال : ﴿ لاَ بشرى يَوْمَئِذٍ

لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْراً مَّحْجُوراً ﴾ أي وتقول الملائكة حراماً محرّماً أن تكون لهم البشرى إلا للمؤمنين .

قال الشاعر :

أَلاَ أَصْبَحتْ أسماءُ حِجْراً مُحرَّماً . . .

وأَصْبَحْتُ من أَدْنَى حُمُوَّتِها حَمَا

أراد ألا أصبحت أسماء حراماً محرماً .

وقال آخر :

حنَّت إلى النَّخْلَةِ الْقُصْوَى فقلتُ لها . . .

حِجْرٌ حرامٌ أَلاَ تِلْكَ الدَّهارِيسُ

وروي عن الحسن أنه قال : "وَيَقُولُونَ حِجْراً" وقفٌ من قول المجرمين ؛ فقال الله عز وجل : ﴿ مَحْجُوراً ﴾ عليهم أن يعاذوا أو يجاروا ؛ فحجر الله ذلك عليهم يوم القيامة .

والأوّل قول ابن عباس .

وبه قال الفرّاء ؛ قاله ابن الأنباريّ .

وقرأ الحسن وأبو رجاء : ﴿ حُجْراً ﴾ بضم الحاء والناس على كسرها .

وقيل : إن ذلك من قول الكفار قالوه لأنفسهم ؛ قاله قتادة فيما ذكر الماوردي .

وقيل : هو قول الكفار للملائكة .

وهي كلمة استعاذة وكانت معروفة في الجاهلية ؛ فكان إذا لقي الرجل من يخافه قال : حجراً محجوراً ؛ أي حراماً عليك التعرض لي .

وانتصابه على معنى : حجرت عليك ، أو حجر الله عليك ؛ كما تقول : سقيا ورعيا .

(30/559)

أي إن المجرمين إذا رأوا الملائكة يلقونهم في النار قالوا : نعوذ بالله منكم ؛ ذكره القشيريّ ، وحكى معناه المهدوي عن مجاهد .

وقيل : ﴿ حِجْراً ﴾ من قول المجرمين .

﴿ مَحْجُوراً ﴾ من قول الملائكة ؛ أي قالوا للملائكة نعوذ بالله منكم أن تتعرضوا لنا .

فتقول الملائكة : ﴿ مَحْجُوراً ﴾ أن تعاذوا من شر هذا اليوم ؛ قاله الحسن .

قوله تعالى : ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَى مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ ﴾ هذا تنبيه على عظم قدر يوم القيامة ؛ أي قصدنا في ذلك إلى ما كان يعمله المجرمون من عمل بَرٍّ عند أنفسهم .

يقال : قدِم فلان إلى أمر كذا أي قصده .

وقال مجاهد : ﴿ قَدِمْنَا ﴾ أي عمدنا .

وقال الراجز :

وقَدِم الخوارجُ الضُّلالُ . . .

إلى عِباد ربِّهم فقالوا

إن دماءكم لنا حلالُ . . .

وقيل : هو قدوم الملائكة ، أخبر به عن نفسه تعالى فاعله .

﴿ فَجَعَلْنَاهُ هَبَآءً مَّنثُوراً ﴾ أي لا ينتفع به ؛ أي أبطلناه بالكفر .

وليس ﴿ هَبَاءً ﴾ من ذوات الهمز وإنما همزت لالتقاء الساكنين .

والتصغير هُبَيٌّ في موضع الرفع ، ومن النحويين من يقول : هُبَيٍّ في موضع الرفع ؛ حكاه النحاس .

وواحده هباة والجمع أهباء .

قال الحارث بن حلِّزة يصف (ناقة) :

فَتَرى خِلْفَها من الرَّجْعِ والوَقْ . . .

عِ مَنِيناً كأنه أهباء

وروى الحرث عن علي قال : الهباء المنثور شعاع الشمس الذي يدخل من الكوّة .

وقال الأزهريّ : الهباء ما يخرج من الكوّة في ضوء الشمس شبيه بالغبار .

تأويله : إن الله تعالى أحبط أعمالهم حتى صارت بمنزلة الهباء المنثور .

فأما الهباء المنبث فهو ما تثيره الخيل بسنابكها من الغبار .

والمنبث المتفرق .

وقال ابن عرفة : الهبوَة والهبَاء التراب الدقيق .

الجوهري : ويقال له إذا ارتفع هبَا يَهْبُو هُبُوًّا وأهبيته أنا .

والهَبْوة الغَبْرة .

قال رؤبة :

تَبْدُو لنا أعلاَمُه بعد الغَرَقْ . . .

في قِطَعِ الآلِ وهَبْوَاتِ الدُّقَقْ

(31/559)

وموضعٌ هابِي التراب أي كأن ترابه مثل الهباءِ في الرقة .

وقيل : إنه ما ذرته الرياح من يابس أوراق الشجر ؛ قاله قتادة وابن عباس .

وقال ابن عباس أيضاً : إنه الماء المهراق .

وقيل : إنه الرماد ؛ قاله عبيد بن يعلى .

قوله تعالى : ﴿ أَصْحَابُ الجنة يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرّاً وَأَحْسَنُ مَقِيلاً ﴾ .

تقدم القول فيه عند قوله تعالى : ﴿ قُلْ أذلك خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الخلد التي وَعِدَ المتقون ﴾ [

الفرقان : 15] .

قال النحاس : والكوفيون يجيزون "العسل أحلى من الخل" وهذا قول مردود ؛ لأن معنى فلان خير من فلان أنه أكثر خيراً منه ولا حلاوة في الخل .

ولا يجوز أن يقال : النصراني خير من اليهودي ؛ لأنه لا خير فيهما فيكون أحدهما أزيد في الخير .

لكن يقال : اليهودي شر من النصراني ؛ فعلى هذا كلام العرب .

و"مُسْتَقَرًّا" نصب على الظرف إذا قدر على غير باب "أفعل منك" والمعنى لهم خير في مستقر .

وإذا كان من باب "أفعل منك" فانتصابه على البيان ؛ قاله النحاس والمهدوي .

قال قتادة : ﴿ وَأَحْسَنُ مِقِيلاً ﴾ منزلاً ومأوى .

وقيل : هو على ما تعرفه العرب من مقيل نصف النهار .

ومنه الحديث المرفوع : " إن الله تبارك وتعالى يفرغ من حساب الخلق في مقدار نصف يوم فيَقِيل أُهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار " ذكره المهدوِي .

وقال ابن مسعود : لا ينتصف النهار يوم القيامة من نهار الدنيا حتى يقيل هؤلاء في الجنة وهؤلاء في النار ، ثم قرأ : ﴿ ثم إِن مقِيلهم لإلى الجحيم ﴾ كذا هي في قراءة ابن مسعود .

وقال ابن عباس : الحساب من ذلك اليوم في أوله ، فلا ينتصف النهار من يوم القيامة حتى

يقيل أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار .

ومنه ما روي : "قِيلوا فإن الشياطين لا تَقِيل" .

وذكر قاسم بن أصبغ من حديث " أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة" فقلت : ما أطول هذا اليوم .

(32/559)

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "والذي نفسي بيده إنه ليخفف عن المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة المكتوبة يصلّيها في الدنيا" " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 13 صـ ﴾

(33/559)

وقال أبو حيان :

﴿ لولا أنزل علينا الملائكة ﴾

فتخبرنا أنك رسول حقاً ﴿ أو نرى ربنا ﴾ فيخبرنا بذلك قاله ابن جريج وغيره .

وهذه كما قالت اليهود ﴿ لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ﴾ وكقولهم أعني المشركين ﴿ أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً ﴾ وهذا كله في سبيل التعنت ، وإلاّ فما جاءهم به من المعجزات كاف لو وفقوا .

﴿ لقد استكبروا ﴾ أي تكبروا ﴿ في أنفسهم ﴾ أي عظموا أنفسهم بسؤال رؤية الله ، وهم ليسوا بأهل لها .

والمعنى أن سؤال ذلك إنما هو لما أضمروا في أنفسهم من الاستكبار عن الحق وهو الكفر والعناد الكامن في قلوبهم الظاهر عنه ما لا يقع لهم كما قال ﴿ إن في صدورهم إلاّ كبر ما هم ببالغيه ﴾ واللام في لقد جواب قسم محذوف و ﴿ عتوا ﴾ تجاوزوا الحد في الظلم ووصفه بكبير مبالغة في إفراطه أي لم يجسروا على هذا القول العظيم إلاّ لأنهم بلغوا غاية الاستكبار وأقصى العتو .

وجاء هنا ﴿ عتواً ﴾ على الأصل وفي مريم ﴿ عتياً ﴾ على استثقال اجتماع الواوين والقلب لمناسبة الفواصل .

قال ابن عباس ﴿ عتوا ﴾ كفروا أشد الكفر وأفحشوا .

وقال عكرمة : تجبروا .

وقال ابن سلام : عصوا .

وقال ابن عيسى : أسرفوا .

قال الزمخشري : هذه الجملة في حسن استيفائها غاية في أسلوبها .

ونحوه قول القائل :

وجارة جساس أبأنا بنابها . . .

كليباً غلت ناب كليب بواؤها

في نحو هذا الفعل دليل على التعجب من غير لفظ تعجب ، ألا ترى أن المعنى ما أشدّ استكبارهم وما أكثر عتوهم وما أغلى نابا بواؤها كليب .

(34/559)

﴿ يوم يرون الملائكة ﴾ ﴿ يوم ﴾ منصوب باذكر وهو أقرب أو بفعل يدل عليه ﴿ لا بشرى ﴾ أي يمنعون البشرى ولا يعمل فيه ﴿ لا بشرى ﴾ لأنه مصدر ولأنه منفي بلا التي لنفي الجنس لأنه لا يعمل ما بعدها فيما قبلها ، وكذا الداخلة على الأسماء عاملة عمل ليس ، ودخول ﴿ لا ﴾ على ﴿ بشرى ﴾ لانتفاء أنواع البشرى وهذا اليوم الظاهر أنه يوم القيامة لقوله بعد ﴿ وقدمنا إلى ما عملوا ﴾ وعن ابن عباس : عند الموت والمعنى أن هؤلاء الذين اقترحوا نزول الملائكة لا يعرفون ما يكون لهم إذا رأوهم من الشر وانتفاء البشارة وحصول الخسار والمكروه .

واحتمل ﴿ بشرى ﴾ أن يكون مبنياً مع ﴿ لا ﴾ واحتمل أن يكون في نية التنوين منصوب اللفظ ، ومنع من الصرف للتأنيث اللازم فإن كان مبنياً مع ﴿ لا ﴾ احتمل أن يكون الخبر ﴿ يومئذ وللمجرمين ﴾ خبر بعد خبر أو نعت لبشرى ، أو متعلق بما تعلق به الخبر ، وأن يكون ﴿ يومئذ ﴾ صفة لبشرى ، والخبر ﴿ للمجرمين ﴾ ويجيء خلاف سيبويه والأخفش هل الخبر لنفس ﴿ لا ﴾ أو الخبر للمبتدأ الذي هو مجموع ﴿ لا ﴾ وما بني معها ؟ وإن كان في نية التنوين وهو معرب جاز أن يكون ﴿ يومئذ ﴾ معمولاً لبشرى ، وأن يكون صفة ، والخبر من الخبر .

وأجاز أن يكون ﴿ يومئذ ﴾ و ﴿ للمجرمين ﴾ خبر وجاز أن يكون ﴿ يومئذ ﴾ خبراً و ﴿ للمجرمين ﴾ صفة ، والخبر إذا كان الاسم ليس مبنياً لنفس لا بإجماع .

وقال الزمخشري : و ﴿ يومئذ ﴾ للتكرير وتبعه أبو البقاء ، ولا يجوز أن يكون تكريراً سواء أريد به التوكيد اللفظي أم أريد به البلد ، لأن ﴿ يوم ﴾ منصوب بما تقدم ذكره من اذكر أو من يعدمون البشرى وما بعد ﴿ لا ﴾ العاملة في الاسم لا يعمل فيه ما قبلها وعلى تقديره يكون العامل فيه ما قبل إلاّ والظاهر عموم المجرمين فيندرج هؤلاء القائلون فيهم .

(35/559)

قيل : ويجوز أن يكون من وضع الظاهر موضع الضمير ، والظاهر أن الضمير في ﴿ ويقولون ﴾ عائد على القائلين لأن المحدث عنهم كانوا يطلبون نزول الملائكة ، ثم إذا رأوهم كرهوا لقاءهم وفزعوا منهم لأنهم لا يلقونهم إلاّ بما يكرهون فقالوا عند رؤيتهم ما كانوا يقولونه عند لقاء العدو ونزول الشدة وقال معناه مجاهد قال ﴿ حجراً ﴾ عواذاً يستعيذون من الملائكة .

وقال مجاهد وابن جريج : كانت العرب إذا كرهت شيئاً قالوا حجراً .

وقال أبو عبيدة : هاتان اللفظتان عوذة للعرب يقولهما من خاف آخر في الحرم أو في شهر حرام إذا لقيه وبينهما ترة انتهى .

ومنه قول المتلمس :

حنت إلى النخلة القصوى فقلت لها . . .

حجر حرام ألا تلك الدهاليس

أي هذا الذي حننت إليه هو ممنوع ، وذكر سيبويه ﴿ حجراً ﴾ في المصادر المنصوبة غير المتصرفة .

وقال بعض الرجاز :

قالت وفيها حيرة وذعر . . .

عوذ يرى منكم وحجر

وأنه واجب إضمار ناصبها .

قال سيبويه : ويقول الرجل للرجل أتفعل كذا ؟ فيقول حجراً وهي من حجره إذا منعه لأن المستعيذ طالب من الله أن يمنع المكروه لا يلحقه .

وقرأ أبو رجاء والحسن والضحاك ﴿ حجراً ﴾ بضم الحاء .

وقيل : الضمير في ﴿ ويقولون ﴾ عائد على الملائكة أي تقول الملائكة للمجرمين ﴿ حجراً محجوراً ﴾ عليكم البشرى و ﴿ محجوراً ﴾ صفة يؤكد معنى ﴿ حجراً ﴾ كما قالوا : موت مائت ، وذيل ذائل ، والقدوم الحقيقي مستحيل في حق الله تعالى فهو عبارة عن حكمه بذلك وإنفاذه .

قيل : أو على حذف مضاف أي قدمت ملائكتنا وأسند ذلك إليه لأنه عن أمره ، وحسنت لفظة ﴿ قدمنا ﴾ لأن القادم على شيء مكروه لم يقرره ولا أمر به مغير له ومذهب ، فمثلت حال هؤلاء وأعمالهم التي عملوها في كفرهم من صلة رحم وإغاثة ملهوف وقرى ضيف ، ومنّ علي أسير .

(36/559)

وغير ذلك من مكارمهم بحال قوم خالفوا سلطانهم فقصد إلى ما تحت أيديهم فمزقها بحيث لم يترك لها أثراً ، وفي أمثالهم أقل من الهباء و ﴿ منثوراً ﴾ صفة للهباء شبهه بالهباء لقلته وأنه لا ينتفع به ، ثم وصفه بمنثوراً لأن الهباء تراه منتظماً مع الضوء فإذا حركته الريح رأيته قد تناثر وذهب .

وقال الزمخشري : أو جعله يعني ﴿ منثوراً ﴾ مفعولاً ثالثاً لجعلناه أي ﴿ فجعلناه ﴾ جامعاً لحقارة الهباء والتناثر .

كقوله ﴿ كونوا قردة خاسئين ﴾ أي جامعين للمسخ والخسء انتهى .

وخالف ابن درستويه فخالف النحويين في منعه أن يكون لكان خبران وأزيد .

وقياس قوله في جعل أن يمنع أن يكون لها خبر ثالث .

وقال ابن عباس : الهباء المنثور ما تسفي به الرياح وتبثه .

وعنه أيضاً : الهباء الماء المهراق والمستقر مكان الاستقرار في أكثر الأوقات .

والمقيل المكان الذي يأوون إليه في الاسترواح إلى الأزواج والتمتع ، ولا نوم في الجنة فسمي مكان استرواحهم إلى الحور ﴿ مقيلاً ﴾ على طريق التشبيه إذ المكان المتخير للقيلولة يكون أطيب المواضع .

وفي لفظ ﴿ أحسن ﴾ رمز إلى ما يتزين به مقيلهم من حسن الوجوه وملاحة الصور إلى غير ذلك من التحاسين .

و﴿ خير ﴾ قيل : ليست على بابها من استعمالها دلالة على الأفضلية فيلزم من ذلك خير في مستقر أهل النار ، ويمكن إبقاؤها على بابها ويكون التفضيل وقع بين المستقرين والمقيلين باعتبار الزمان الواقع ذلك فيه .

فالمعنى ﴿ خير مستقراً ﴾ في الآخرة من الكفار المترفين في الدنيا ﴿ وأحسن مقيلاً ﴾ في الآخرة من أولئك في الدنيا .

وقيل : ﴿ خير مستقراً ﴾ منهم لو كان لهم مستقر ، فيكون التقدير وجود مستقر لهم فيه خير .

وعن ابن مسعود وابن عباس والنخعي وابن جبير وابن جريج ومقاتل : إن الحساب يكمل في مقدار نصف يوم من أيام الدنيا ، ويقيل أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(37/559)

وقال أبو السعود :

﴿ وَقَالَ الذين لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا ﴾

شروعٌ في حكايةِ بعضٍ آخر من أقاويلِهم الباطلةِ وبيانِ بُطلانِها إثرَ إبطالِ أباطيلهم السَّابقةِ .
والجملةُ معطوفةٌ على قولِه تعالى :

(38/559)

﴿ وَقَالُواْ مالِ هذَا الرَّسُولِ ﴾ الخ ووضعُ الموصولِ موضعَ الضَّميرِ للتَّنبيهِ بما في حيّزِ الصّلة على أنَّ ما يُحكى عنهم من الشَّناعةِ بحيثُ لا يصدرُ عمَّن يعتقدُ المصيرَ إلى الله عزَّ وجلَّ .
ولقاءُ الشَّيءِ عبارةٌ عن مصادفتِه من غيرِ أنْ يمنعَ مانعٌ من إدراكِه بوجهٍ من الوجوهِ ، والمرادُ بلقائِه تعالى إمَّا الرُّجوعُ إليه تعالى بالبعثِ والحشرِ أو لقاءُ حسابه تعالى كما في قوله تعالى : ﴿ إِنّى ظَنَنتُ أَنّى ملاق حِسَابِيَهْ ﴾ وبعدم رجائِهم إيَّاه عدمُ توقُّعهم له أصلاً لإنكارِهم البعث والحساب بالكليّة لا عدمُ أملِهم حسنَ اللقاءِ ولا عدمُ خوفِهم سوءَ اللقَّاءِ لأنَّ عدمَهما غيرُ مستلزمٍ لما هم عليه من العُتوِّ والاستكبار وإنكارِ البعثِ والحسابِ رأساً أي وقال الذين لا يتوقعّون الرَّجوعَ إلينا أو حسابَنا المؤدّيَ إلى سُوءِ العذابِ الذي تستوجب .
مقالتُهم ﴿ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْنَا الملائكة ﴾ أي هلاَّ أُنزلوا علينا بطريق ليخبرونَا بصدقِ محمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ وقيل : هَلاَّ أُنزلوا علينا الرّسالةِ وهو الأنسب لقولِهم ﴿ أَوْ نرى رَبَّنَا ﴾ من حيثُ أنَّ كلا القولينِ ناشىءٌ عن غايةِ غُلوهم في المُكابرةِ والعُتوِّ حسبما يَعربُ عنه

قولُه تعالى ﴿ لَقَدِ استكبروا فِى أَنفُسِهِمْ ﴾ أي في شأنِها حتَّى اجترأوا على التَّفوه بمثل هذه العظيمةِ الشَّنعاءِ ﴿ وَعَتَوْا ﴾ أي تجاوزُوا الحدَّ في الظُّلم والطُّغيانِ ﴿ عُتُوًّا كَبِيراً ﴾ بالغاً أقصَى غاياتِه حيثُ أمَّلوا نيلَ مرتبةِ المفاوضةِ الإلهيةِ من غير توسطِ الرَّسولِ والمَلك كما قالوا : ﴿ لَوْلاَ يُكَلِّمُنَا الله ﴾ ولم يكتفُوا بما عاينوا من المعجزاتِ القاهرةِ التي تخرُّ لها صمُّ الجبالِ فذهبُوا في الاقتراح كلَّ مذهبٍ حتَّى منَّتهم أنفسُهم الخبيثةُ أمانيَّ لا تكادُ ترنو إليها أحداقُ الأممِ ولا تمتدُّ إليها أعناقُ الهممِ ولا ينالُها

(39/559)

إلا أولُو العزائم الماضيةِ من الأنبياءِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ . واللامُ جوابُ قسمٍ محذوفٍ أي والله لقد استكبروا الآيةَ وفيه من الدِّلالةِ على غايةِ قُبح ما هُم عليه والإشعارِ بالتَّعجبِ من استكبارِهم وعُتوِّهم ما لا يخفى .

(40/559)

﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ الملائكة ﴾ استئنافٌ مسوقٌ لبيانِ ما يلقَونه عند مشاهدتِهم لما اقترحُوه من نزول الملائكةِ عليهم السَّلامُ بعد استعظامِه وبيانِ كونِه في غاية ما يكون من الشَّناعة وإنَّما قيل يوم يَرَون دُون أنْ يقال يومَ ينزلُ الملائكةُ إيذاناً من أوَّلِ الأمر بأنَّ رؤيتَهم لهم ليست على طريقِ الإجابةِ إلى ما اقترحُوه بل على وجهٍ آخرَ غيرِ معهودٍ . ويومَ منصوبٌ على الظَّرفية بما يدلُّ عليه قولُه تعالى ﴿ لاَ بشرى يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ فإنَّه في معنى لا يُبشَّر يومئذٍ المُجرمون والعُدولُ إلى نفيِ الجنسِ للمبالغةِ في نفيِ البُشرى . وما قيل : من أنَّه بمعنى يمُنعون البُشرى أو يعُدمونها تهوينٌ للخطيبِ في مقام التَّهويل فإنَّ منعَ البُشرى وفقدانُها مُشعرانِ بأنَّ هناك بُشرى يمنعونَها أو يفقِدونها . وأينَ هذا من نفيها بالكُليّة وحيثُ كان نفيُها كنايةً عن إثباتِ ضدّها كما أنَّ نفيَ المحبَّةِ في مثلِ قولِه تعالى : ﴿ فَإِنَّ الله لاَ يُحِبُّ الكافرين ﴾ كنايةٌ عن البُغض والمَقْتِ دلَّ على ثبوت النَّذرى لهم على أبلغِ وجهٍ وآكدِه وقيل : منصوب بفعلٍ مُقدَّر يُؤكّده بشرى على أنَّ لا غير نافية للجنسِ وقيل : منصوب على المفعوليَّةِ بمضمرٍ مقدَّمٍ عليه أي اذكُر يومَ رؤيتهم الملائكةَ ويومئذٍ على كلِّ حالٍ تكريرٌ للتأكيد والتَّهويلِ مع ما فيه من الإيذانِ بأنَّ تقديمَ الظَّرفِ للاهتمامِ لا لقصرِ نفيِ البُشرى على ذلك الوقتِ فقط فإنَّ ذلك مخلٌّ بتفظيعِ حالِهم ، وللمجرمين تبيين على أنَّه مظهرٌ وُضع موضعَ الضَّميرِ تسجيلاً عليهم بالإجرام مع ما هم عليه من الكفر وحملُه على العموم بحيثُ يتناول فسَّاقَ المؤمنين ثم

الالتجاءُ في إخراجِهم عن الحرمانِ الكليِّ إلى أنَّ نفيَ البُشرى حينئذٍ لا يستلزمُ نفيَه في جميعِ الأوقاتِ فيجوزُ أنْ يُبشَّروا بالعفوِ والشَّفاعةِ في وقتٍ آخرَ بمعزلٍ عن الحقِّ بعيدٍ

(41/559)

﴿ وَيَقُولُونَ ﴾ عطفٌ على ما ذُكر من الفعلِ المنفيِّ المنبىء عن كمال فظاعة ما يحيق بهم من الشر وغاية هول مطلعه بيان أنهم يقولون عند مشاهدتِهم له ﴿ حِجْراً مَّحْجُوراً ﴾ وهي كلمةٌ يتكلَّمون بها عند لقاءِ عدوَ موتورٍ وهجومِ نازلةٍ هائلةٍ يضعونها موضعَ الاستعاذةِ حيثُ يطلبون من الله تعالى أن يمنعَ المكروه فلا يلحقهم فكان المَعنى نسألُ الله تعالى أنْ يمنعَ ذلك مَنْعاً ويحجُره حَجْراً وكسرُ الحاءِ تصرفٌ فيه لاختصاصِه بموضعٍ واحدٍ كما في قِعدَك وعَمرَك . وقد قُرىء حُجْراً بالضمِّ والمعنى أنَّهم يطلبون نزولَ الملائكةِ عليهم السَّلامُ ويقترحونَه وهم إذا رَأوهم كرِهُوا لقاءهم أشدَّ كراهةٍ وفزعُوا منهم فزعاً شَديداً وقالوا ما كانوا يقولونَه عند نزولِ خطبٍ شنيعٍ وحلولِ بأسٍ شديدٍ فظيعٍ ومحجُوراً صفةٌ لحِجراً وإرادةٌ للتَّأكيدِ كما قالوا ذيلٌ ذائلٌ وليلٌ أليلٌ وقيل : يقولُها الملائكةُ إقناطاً للكَفَرةِ بمعنى حَراماً محرَّماً عليكم الغفرانُ أو الجنَّةَ أو البُشرى أي جعل الله تعالى ذلك حَرَاماً عليكم وليس بواضح .

﴿ وَقَدِمْنَا إلى مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَّنثُوراً ﴾ بيانٌ لحالِ ما كانُوا يعملونَه في الدُّنيا من صلةِ رحمٍ وإغاثةِ ملهوفٍ . وقرى ضيفٍ ومنَ على أسيرٍ وغيرِ ذلك من مكارمِهم ومحاسِنهم التي لو كانُوا عملُوها مع الإيمانِ لنالُوا ثَوابَها بتمثيلِ حالِهم وحالِ أعمالِهم المذكورةِ بحالِ قومٍ خالفُوا سلطانَهم واستعصَوا عليه فقدمَ إلى أشيائِهم وقصدَ ما تحت أيديهم فأنحى عليها بالإفسادِ والتَّحريقِ ومزَّقها كلَّ تمزيقٍ بحيث لم يَدعْ لها عيناً ولا أثراً أي عمَدنا إليها وأبطلَناها أي أظهرنا بُطلانَها بالكلِّيةِ من غيرِ أنْ يكونَ هناك قدومٌ ولا شيء يُقصد تشبيهه به والهَبَاءُ شبه غبارٍ يُرى في شعاعِ الشَّمسِ يطلع من الكُوَّة من الهبوةِ وهي الغبارُ ومنثُوراً صفتُه شبه به أعمالَهم المُحبَطةَ في الحقارةِ وعدمِ الجَدوى ثمَّ بالمنثُور منه في الانتشارِ بحيثُ لا يمكن نظمُه أو مفعولٌ ثالثٌ من حيثُ إنَّه كالخبر كما في قوله تعالى : ﴿ كُونُواْ قِرَدَةً خاسئين ﴾ ﴿ أصحاب الجنة ﴾ هم المؤمنون المشارُ إليهم في قوله تعالى : قلْ أذلك خيرٌ أو جنَّةُ الخلد التي وُعد المتَّقون الخ ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ أي يومَ إذ يكونُ ما ذُكر من عدمِ التَّبشيرِ وقولِهم حِجْراً محجُوراً وجعلِ أعمالِهم هباءً منثُوراً ﴿ خَيْرٌ مُّسْتَقَرّاً ﴾ المستقرُّ المكانُ الذي يُستقرُّ فيه في أكثرِ الأوقاتِ للتَّجالسِ والتَّحادثِ ﴿ وَأَحْسَنُ مَقِيلاً ﴾ المقيلُ

المكانُ الذي يؤوى إليه للاسترواحِ إلى الأزواجِ والتَّمتعِ بمغازلتهنَّ سُمّي بذلك لما أنَّ التَّمتعَ به يكون وقتَ القَيلولهِ غالباً وقيل : لأنه يُفرغ من الحسابِ في منتصفِ ذلك اليَّوم فقيل أهلُ الجَّنة في الجنَّةِ وأهلُ النَّار في النَّارِ وفي وصفه بزيادةِ الحُسن مع حصولِ الخيرَّيةِ بعطفه على المستقرّ رمزٌ إلى أنه مزَّينٌ بفنون الزَّينِ والزَّخارفِ والتَّفضيلُ المُعتبر

(43/559)

فيهما إمَّا لإرادةِ الزِّيادةِ على الاطلاقِ أي هُم في أقصى ما يكونُ من خيرَّيةِ المُستقرّ وحسنِ المَقيلِ وإمَّا بالإضافةِ إلى مَا للكَفَرةِ المُتنعّمينَ في الدُّنيا أو إلى ما لَهُم في الآخرةِ بطريق التَّهكُّمِ بهم كما مرَّ في قوله تعالى : ﴿ قُلْ أذلك خَيْرٌ ﴾ الآيَة هذا وقد جُوّز أنْ يُرادَ بأحدِهما المصدرُ أو الزَّمانُ إشارةً إلى أنَّ مكانَهم وزمانَهم أطيبُ ما يُخيَّلُ من الأمكنةِ والأزمنةِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 6 صـ ﴾

(44/559)

وقال الآلوسى :

﴿ وَقَالَ الذين لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا ﴾ الخ

شروع في حكاية بعض آخر من أقاويلهم الباطلة وبيان بطلانها إثر حكاية إبطال أباطيلهم السابقة وذكر ما يتعلق بذلك ، والجملة معطوفة على قوله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ مَّالِ هذا الرسول ﴾ [الفرقان : 7] إلى آخره ، ووضع الموصول موضع الضمير للتنبيه بما في حيز الصلة على أن ما يحكى عنهم في الشناعة بحيث لا يصدر عمن يرجو لقاء الله عز وجل ، والرجاء في المشهور الأمل وقد فسر أحدهما بالآخر أكثر اللغويين ، وفي فروق ابن هلال الأمل رجاء يستمر ولذا قيل للنظر في الشيء إذا استمر وطال تأمل ، وقيل : الأمل يكون في الممكن والمستحيل والرجاء يخص الممكن .

وفي المصباح الأمل ضد اليأس وأكثر ما يستعمل فيما يبعد حصوله والطمع يكون فيما قرب حصوله والرجاء بين الأمل والطمع فإن الراجي يخاف أن لا يحصل مأموله ولذا استعمل بمعنى الطمع انتهى ، وفسره أبو عبيدة .

وقوم بالخوف ، وقال الفراء : هذه الكلمة تهامية وهي أيضاً من لغة هذيل إذا كان مع الرجاء جحد ذهبوا به إلى معنى الخوف فيقولون : فلان لا يرجو ربه سبحانه يريدون لا يخاف ربه سبحانه ، ومن ذلك ﴿ مَّا لَكُمْ لاَ تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً ﴾ [نوح : 13] أي لا تخافون لله تعالى عظمة وإذا قالوا : فلان يرجو ربه فهذا على معنى الرجاء لا على معنى الخوف ، وقال

الشاعر :

إذا لسعته النحل لم يرج لسعها . . .

وحالفها في بيت نوب عواسل

وقال آخر :

لا يرتجي حين يلاقي الذائدا . . .

أسبعة لاقت له أو واحداً

(45/559)

انتهى ، وذكر أن استعمال الرجاء في معنى الخوف مجاز لأن الراجي لأمر يخاف فواته ، وأصل اللقاء مقابله الشيء ومصادفته وهو مراد من قال : الوصول إلى الشيء لا المماسة ويطلق على الرؤية لأنها وصول إلى المرئي ، ولقاؤه تعالى هنا كناية عن لقاء جزائه يوم القيامة أو المراد ذلك بتقدير مضاف ؛ والمعنى على التفسير المشهور للرجاء وقال الذين لا يأملون لقاء جزائنا بالخير والثواب على الطاعة لتكذيبهم بالبعث ، وعلى التفسير الآخر وقال الذين لا يخافون لقاء جزائنا بالشر والعقاب على المعصية لتكذيبهم بالبعث كذا قيل . وقيل المراد به رؤيته تعالى في الآخرة والرجاء عليه بمعنى الأمل دون الخوف إذ لا معنى

لكون الرؤية مخوفة وهو خلاف الظاهر وإن لم يأبه ما بعد إذ يكون المعنى عليه إن الذين لا يرجون رؤيتنا في الآخرة التي هي مظنة الرؤية لكثير من الناس اقترحوا رؤيتنا في الدنيا التي ليست مظنة لذلك ، وقد يقال : نفي رجاء لقائه تعالى كناية عن إنكار البعث والحشر ولعله أولى مما تقدم أي وقال الذين ينكرون البعث والحشر ﴿ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْنَا الملائكة ﴾ أي هلا أنزلوا علينا فيخبرونا بصدق محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ أَوْ نرى رَبَّنَا ﴾ فيخبرنا بذلك كما روي عن ابن جريج .

(46/559)

وغيره وفي طلب إنزال ملائكة للتصديق دون إنزال ملك إشارة إلى أنهم بلغوا في التكذيب مبلغاً لا ينفع معه تصديق ملك واحد وإذا اعتبرت أل في الملائكة للاستغراق الحقيقي كانت الإشارة إلى قوة تكذيبهم أقوى ، وتزداد القوة إذا اعتبر في ﴿ عَلَيْنَا ﴾ معنى كل واحد منا ولم يعتبر توزيع ، ويشير أيضاً إلى قوة ذلك تعبيرهم بالمضارع الدال على الاستمرار التجددي في أو ﴿ نرى رَبَّنَا ﴾ كأنهم لم يكتفوا برؤيته تعالى وإخباره سبحانه بصدق رسوله صلى الله عليه وسلم حتى يروه سبحانه ويخبرهم مراراً بذلك ، ولا يأبى قصد الاستمرار من المضارع كون الأصل في ﴿ لَوْلاَ ﴾ التي للتحضيض أو العرض أن تدخل على المضارع وما

لم يكن مضارعاً يؤول به ، ولعل عدولهم إلى الماضي في جانب إنزال الملائكة المعطوف عليه وإن كان في تأويل المضارع على نحو ما قدمنا في تفسير قوله تعالى : ﴿ لَوْلا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ ﴾ فتذكر فما في العهد من قدم .

وقيل : المعنى لولا أنزل علينا الملائكة فيبلغون أمر الله تعالى ونهيه بدل محمد صلى الله عليه وسلم أو نرى ربنا فيخبرنا بذلك من غير توسيط أحد .

ورجح الأول بأن السياق لتكذيبه صلى الله عليه وسلم وحاشاه ثم حاشاه من الكذب والتعنت في طلب مصدق له عليه الصلاة والسلام لا لطلب من يفيدهم الأمر والنهي سواه صلى الله عليه وسلم ، ولا نسلم أن ﴿ لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْنَا الملائكة ﴾ يتكرر عليه مع ﴿ لَوْلا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ ﴾ [الفرقان : 7] السابق لظهور الفرق بين المطلوبين بين فيهما ولو فرض لزوم التكرار بينهما فهو لا يضر كما لا يخفى .

وانتصر للأخير بأن المقام ليس إلا لذكر المكذبين وحكاية أباطيلهم الناشئة عن تكذيبهم . وقد عد فيما سبق بعضاً منها متضمناً تعنتهم في طلب مصدق له صلى الله عليه وسلم فالأولى أن يكون ما هنا حكاية نوع آخر منها ليكون أبعد عن التكرار وأدل على العناد والاستكبار .

ولعل قوله تعالى : ﴿ لَقَدِ استكبروا فِى أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيراً ﴾ أنسب بما ذكر .

ومعنى ﴿ استكبروا فِى أَنفُسِهِمْ ﴾ أوقعوا الاستكبار في شأنها وعدوها كبيرة الشأن ، وفيه تنزيل الفعل المتعدي منزلة اللازم كما في قوله :

يجرح في عراقيبها نصلي . . .

والعتو تجاوز الحد في الظلم وهو المصدر الشائع لعتا ، واللام واقعة في جواب القسم أي والله لقد استكبروا في شأن أنفسهم وتجاوزوا الحد في الظلم والطغيان تجاوزاً كبيراً بالغاً أقصى غايته حيث كذبوا الرسول عليه الصلاة والسلام ولم ينقادوا لبشر مثلهم يوحى إليه في أمرهم ونهيهم ولم يكترثوا بمعجزاته القاهرة وآياته الباهرة فطلبوا ما لا يكاد يرنوا إليه أحداق الأمم وراموا ما لا يحظى به إلا بعض أولي العزم من الرسل صلى الله عليه وسلم .

وقد فسر ﴿ استكبروا فِى أَنفُسِهِمْ ﴾ بأضمروا الاستكبار وهو الكفر والعناد في قلوبهم وهو أظهر مما تقدم وما تقدم أبلغ وأوفق لما انتصر له .

وكذا فسر العتو بالنبو عن الطاعة وما تقدم أبلغ وأوفق بذلك أيضاً .

وفي تعقيب حكاية باطل أولئك الكفرة بالجملة القسمية إيذان بغاية قبح ما هم عليه وإشعار بالتعجب من استكبارهم وعتوهم وهو من الفحوى في الحقيقة ومثل ذلك شائع في الكلام تقول لمن جنى جناية : فعلت كذا وكذا استعظاماً وتعجباً منه ؛ ويستعمل في سائر

الألسنة وجعل الزمخشري من ذلك قول مهلهل :

وجارة جساس أبأنا بنابها . . .

كليباً غلت ناب كليب بواؤها

(48/559)

والطيبي قوله تعالى : ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً ﴾ [الكهف : 5] ، وتعقب بأن ذلك ليس من هذا القبيل لأن الثلاثي المحول إلى فعل لفظاً أو تقديراً موضوع للتعجب كما صرح به النحاة ؛ وذكر الإمام مختار القول الأول في تفسير ﴿ لَوْلا أُنزِلَ ﴾ الخ أن هذه الجملة جواب لقولهم ﴿ لَوْلا أُنزِلَ ﴾ الخ من عدة أوجه ، أحدها : أن القررن لما ظهر كونه معجزاً فقد ثبتت نبوته صلى الله عليه وسلم فبعد ذلك لا يكون اقتراح هذه الآيات إلا محض استكبار .

وثانيها : أن نزول الملائكة عليهم السلام لو حصل لكان أيضاً من جملة المعجزات ولا يدل على الصدق لخصوص كونه نزول الملك بل لعموم كونه معجزاً فيكون قبول ذلك ورد الآخر ترجيحاً لأحد المثلين من غير مرجح .

وثالثها : أنهم بتقدير رؤية الرب سبحانه وتصديقه لرسوله صلى الله عليه وسلم لا يستفيدون علماً أزيد من تصديق المعجز إذ لا فرق بين أن يقول النبي : اللهم إن كنت صادقاً

فأحي هذا الميت فيحييه عز وجل وبين أن يقول : إن كنت صادقاً فصدقني فيصدقه فتعيين أحد الطريقين محض العناد ، ورابعها : أن العبد ليس له أن يعترض على مولاه إما بحكم المالكية عند الأشعري أو بحكم المصلحة عند المعتزلي ، وخامسها : أن السائل الملح المعاند الذي لا يرضى بما ينعم عليه مذموم وإظهار المعجز من جملة الأيادي الجسيمة فرد إحداهما واقتراح الأخرى ليس من الأدب في شيء .

وسادسها : لعل المراد أني لو علمت أنهم ليسوا مستكبرين وعاتين لأعطيتهم مطلوبهم لكني علمت أنهم إنما سألوا لأجل المكابرة والعناد فلا جرم لا أعطيهم ، وسابعها : لعلهم عرفوا من أهل الكتاب أن الله تعالى لا يرى في الدنيا وأنه لا ينزل الملائكة عليهم السلام على عوام الخلق ثم أنهم علقوا إيمانهم على ذلك فهم مستكبرون ساخرون انتهى وفيه ما لا يخلو عن بحث .

واستدلت الأشاعرة بقوله تعالى : ﴿ لاَيَرْجُونَ لِقَاءنَا ﴾ على أن رؤية الله تعالى ممكنة .

(49/559)

واستدلت المعتزلة بقوله سبحانه : ﴿ لَقَدِ استكبروا وَعَتَوْا ﴾ على أنها ممتنعة ولا يخفى ضعف الاستدلالين .

﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ الملائكة ﴾ استئناف مسوق لبيان ما يلقونه عند مشاهدة الملائكة عليهم السلام بعد استعظام طلبهم إنزالهم عليهم وبيان كونه في غاية الشناعة .

وإنما قيل : يوم يرون دون أن يقال يوم تنزل الملائكة إيذاناً من أول الأمر بأن رؤيتهم لهم ليست على طريق الإجابة إلى ما طلبوه بل على وجه آخر لم يمر ببالهم .

﴿ وَيَوْمَ ﴾ منصوب على الظرفية بما يدل عليه قوله تعالى : ﴿ لاَ بشرى يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ فإنه في معنى لا يبشر يومئذٍ المجرمون والعدول إلى نفي الجنس للمبالغة في نفي البشرى فكأنه قيل لا يبشرون يوم يرون الملائكة ، وقدر بعضهم يمنعون البشرى أو يفقدونها والأول أبعد من احتمال توهم تهوين الخطب ، وقدر بعضهم لا بشرى قبل يوم وجعله ظرفاً لذلك ، وجوز أبو البقاء تعلقه بيعذبون مقدراً لدلالة ﴿ لاَ بشرى ﴾ الخ عليه وكونه معمولاً لا ذكر مقدراً قال : أبو حيان وهو أقرب .

وقال صاحب الفرائد : يمكن أن يكون منصوباً بينزل مضمراً لقولهم : ﴿ لولا أنزل علينا الملائكة ﴾ [الفرقان : 21] كأنه قيل ينزل الملائكة يوم يرونهم ، ولا يقال : كيف يكون وقت الرؤية وقتاً للإنزال لأنا نقول : الظرف يحتمل ذلك لسعته واستحسنه الطيبي فقال هو قول لا مزيد عليه لأنه إذا انتصب بينزل يلتئم الكلامان لأن قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ ﴾ الخ نشر لقوله تعالى : ﴿ لَوْلا أُنزِلَ ﴾ [الفرقان : 21] الخ ، وقوله سبحانه : ﴿ وَقَدِمْنَا ﴾ [الفرقان : 23] نشر لقوله عز وجل : ﴿ أَوْ نرى رَبَّنَا ﴾ [الفرقان : 21] ولم يجوز

الأكثرون تعلقه ببشرى المذكور لكونه مصدراً وهو لا يعمل متأخراً وكونه منفياً بلا ولا يعمل ما بعدها فيما قبلها .

(50/559)

﴿ وَيَوْمَئِذٍ ﴾ تأكيد للأول أو بدل منه أو خبر ﴿ وللمجرمين ﴾ تبيين متعلق بمحذوف كما في سقيا له أو خبر ثان أو هو ظرف لما يتعلق به اللام أو لبشرى إن قدرت منونة غير مبنية مع لا فإنها لا تعمل إذ لو عمل اسم لا طال وأشبه المضاف فينتصب .

وفي "البحر" احتمل بشرى أن يكون مبنياً مع لا واحتمل أن يكون في نية التنوين منصوب اللفظ ومنع من الصرف للتأنيث اللازم فإن كان مبنياً لا احتمل أن يكون الخبر ﴿ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ﴾ وللمجرمين خبر بعد خبر أو نعت لبشرى أو متعلق بما تعلق به الخبر ، وأن يكون ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ صفة لبشرى والخبر ﴿ لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ ويجيء خلاف سيبويه والأخفش هل الخبر لنفس لا أو للمبتدأ الذي هو مجموع ولا ما بنى معها .

وإن كان في نية التنوين وهو معرب جاز أن يكون ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ معمولاً لبشرى وأن يكون صفة والخبر ﴿ لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ ، وجاز أن يكون ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ خبراً ﴿ وللمجرمين ﴾ صفة ، وجاز أن يكون ﴿ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ﴾ خبر أو ﴿ لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ خبراً بعد خبر والخبر

إذا كان الاسم ليس مبنياً للا نفسها بالإجماع .

وقال الزمخشري : يومئذٍ تكرير ولا يجوز ذلك سواء أريد بالتكرير التوكيد اللفظي أم أريد به البدل لأن ﴿ يَوْمٍ ﴾ منصوب بما تقدم ذكره من أذكر أو من يفقدون وما بعد لا العاملة في الاسم لا يعمل فيه ما قبلها وعلى تقديره يكون العامل فيه ما قبلها انتهى .

ولا يخفى عليك ما في الاحتمالات التي ذكرها .

(51/559)

وأما ما اعترض به على الزمخشري فتعقب بأن الجملة المنفية معمولة لقول مضمر وقع حالاً من الملائكة التي هي معمول ليرون ﴿ ويرون ﴾ معمول ليوم فلا وما في حيزها من تتمة الظرف الأول من حيث أنه معمولاً لبعض ما في حيزه ومثله لا يعد محذوراً مع أن كون لا لها الصدر مطلقاً أو إذا بنى معها اسمها ليس بمسلم عند جميع النحاة لأنها لكثرة دورها خرجت عن الصدارة فتأمل ، هذا ما وقفنا عليه للمتقدمين في إعراب الآية وما فيه من الجرح والتعديل .

وقال بعض العصريين : يجوز تعلق ﴿ لايّ يَوْمٍ ﴾ بكبيراً وتقييد كبره بذلك اليوم ليس لنفي كبره في نفسه بل لظهور موجبه في ذلك اليوم ونظيره لزيد علم عظيم يوم يباحث الخصوم

وتكون جملة ﴿ لاَ بشرى يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ استئنافاً لبيان ذلك وهو كما ترى ، وأياً ما كان فالمراد بذلك اليوم على ما روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما يوم الموت ، وقال أبو حيان : الظاهر أنه يوم القيامة لقوله تعالى بعد : ﴿ وَقَدِمْنَا إلى مَا عَمِلُواْ ﴾ [الفرقان : 23] الخ وفيه نظر .

(52/559)

ونفي البشرى كناية عن إثبات ضدها كما أن نفي المحبة في مثل قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّ الله لاَ يُحِبُّ الكافرين ﴾ [آل عمران : 32] كناية عن البغض والمقت فيدل على ثبوت النذري لهم على أبلغ وجه ، والمراد بالمجرمين أولئك الذين لا يرجون لقاءه تعالى ، ووضع المظهر موضع ضميرهم تسجيلاً عليهم بالإجرام مع ما هم عليه من الكفر والعناد وإيذاناً بعلة الحكم ، ومن اعتبر المفهوم في مثله ادعى إفادة الآية عدم تحقق الحكم في غيرهم ، وقد دل قوله تعالى في حق المؤمنين : ﴿ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الملائكة أَلاَّ تَخَافُواْ وَلاَ تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ ﴾ [فصلت : 30] الخ على حصول البشرى لهم ، وقيل : المراد بهم ما يعم العصاة والكفار الذين لا يرجون لقاءه تعالى ، ويفيد الكلام سلب البشرى عن الكفار على أتم وجه لدلالته على أن المانع من حصول البشرى هو الإجرام ولا إجرام أعظم من إجرام الذين لا يرجون

لقاءه عز وجل ويقولون ما يقولون فهم أولى به .

ولا يتم استدلال المعتزلة بالآية عليه في نفي العفو والشفاعة للعصاة لأنها لا تفيد النفي في جميع الأوقات فيجوز أن يبشر العصاة بما ذكر في وقت آخر .

وتعقب بأن الجملة قبل النفي لكونها اسمية تفيد الاستمرار فبعد دخول النفي إرادة نفي استمرار البشرى للمجرمين بمعنى أن البشرى تكون لهم لكن لا تستمر مما لا يظن أن أحداً يذهب إليه فيتعين إرادة استمرار النفي كما في قوله تعالى في حق أضدادهم ﴿ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [يونس : 62] فحينئذٍ لا يتسنى قوله : إنها لا تفيد النفي في جميع الأوقات ، فالأولى أن يراد بالمجرمين من سمعت حديثهم ﴿ وَيَقُولُونَ ﴾ عطف على لا يبشرون أو يمنعون البشرى أو نحوه المقدر قبل ﴿ يَوْمٍ ﴾ .

(53/559)

وجوز أن يكون عطفاً على ما قبله باعتبار ما يفهم منه كأنه قيل : يشاهدون أهوال القيامة ويقولون ، وأن يكون عطفاً على ﴿ يَرَوْنَ ﴾ وجملة ﴿ لاَ بشرى ﴾ حال بتقدير القول فلا يضر الفصل به ، وضمير الجمع على ما استظهره أبو حيان لأنهم المحدث عنهم وحكاه الطبرسي عن مجاهد .

وابن جريج للذين لا يرجون أي ويقول أولئك الكفرة ﴿ حِجْراً مَّحْجُوراً ﴾ وهي كلمة تقولها العرب عند لقاء عدو موتور وهجوم نازلة هائلة يضعونها موضع الاستعاذة حيث يطلبون من الله تعالى أن يمنع المكروه فلا يلحقهم فكأن المعنى نسأل الله تعالى أن يمنع ذلك منعاً ويحجره حجراً .

وقال الخليل : كان الرجل يرى الرجل الذي يخاف منه القتل في الجاهلية في الأشهر الحرم فيقول : حجراً محجوراً أي حرام عليك التعرض لي في هذا الشهر فلا يبدؤه بشر ، وقال أبو عبيدة : هي عوذة للعرب يقولها من يخاف آخر في الحرم أو في شهر حرام إذا لقيه وبينهما ترة ، وقال أبو علي الفارسي : مما كانت العرب تستعمله ثم ترك قولهم حجراً محجوراً ، وهذا كان عندهم لمعنيين ، أحدهما : أن يقال عند الحرمان إذا سئل الإنسان فقال ذلك علم السائل أنه يريد أن يحرمه ، ومنه قول المتلمس :

حنت إلي النخلة القصوى فقلت لها . . .

حجر حرام ألا تلك الدهاريس

والمعنى الآخر الاستعاذة كان الإنسان إذا سافر فرأى ما يخاف قال : حجراً محجوراً أي حرام عليك التعرض لي انتهى .

وذكر سيبويه ﴿ حِجْراً ﴾ من المصادر المنصوبة غير المتصرفة وأنه واجب إضمار ناصبها ، وقال : ويقول الرجل للرجل أتفعل كذا فيقول : حجراً وهي من حجره إذا منعه

لأن المستعيذ طالب من الله تعالى أن يمنع المكروه من أن يلحقه والأصل فيه فتح الحاء ، وقرىء به كما قال أبو البقاء لكن لما خصوا استعماله بالاستعاذة أو الحرمان صار كالمنقول فلما تغير معناه تغير لفظه عما هو أصله وهو الفتح إلى الكسر وقد جاء فيه الضم أيضاً وهي قراءة أبي رجاء .

والحسن .

(54/559)

والضحاك ويقال فيه حجري بألف التأنيث أيضاً ؛ ومثله في التغيير عن أصله قعدك الله تعالى بسكون العين وفتح القاف ، وحكى كسرها عن المازني وأنكره الأزهري وقعيدك وهو منصوب على المصدرية ، والمراد رقيبك وحفيظك الله تعالى ثم نقل إلى القسم فقيل قعدك أو قعيدك الله تعالى لا تفعل ، وأصله بإقعاد الله تعالى أي إدامته سبحانه لك وكذا عمرك الله بفتح الراء وفتح العين وضمها وهو منصوب على المصدرية ثم اختص بالقسم ، وأصله بتعميرك الله تعالى أي بإقرارك له بالبقاء ، وما ذكر من أنه لازم النصب على المصدرية بفعل واجب الإضمار اعترض عليه في "الدر المصون" بما أنشده الزمخشري :

قالت وفيها حيدة وذعر . . .

عوذ بربي منكم وحجر

فإنه وقع فيه مرفوعاً ، ووصفه بمحجوراً للتأكيد كشعر شاعر وموت مايت وليل أليل ، وذكر أن مفعولاً هنا للنسب أي ذو حجر وهو كفاعل يأتي لذلك ، وقيل : إنه على الإسناد المجازي وليس بذاك ، والمعنى أنهم يطلبون نزول الملائكة عليهم السلام وهم إذا رأوهم كرهوا لقاءهم أشد كراهة وفزعوا منهم فزعاً شديداً ، وقالوا ما كانوا يقولونه عند نزول خطب شنيع وحلول بأس فظيع ، وقيل : ضمير يقولون للملائكة وروي ذلك عن أبي سعيد الخدري .

والضحاك .

وقتادة .

وعطية .

ومجاهد على ما في "الدر المنثور" قالوا : إن الملائكة يقولون للكفار حجراً محجوراً أي حراماً محرماً عليكم البشرى أي جعلها الله تعالى حراماً عليكم .

(55/559)

وفي بعض الروايات أنهم يطلبون البشرى من الملائكة عليهم السلام فيقولون ذلك لهم ، وقال بعضهم : يعنون حراماً محرماً عليكم الجنة وحكاه في "مجمع البيان" عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ، وقيل : الغفران ، وفي جعل ﴿ حِجْراً ﴾ نصباً على المفعولية لجعل مقدراً كما أشير إليه بحث ، والظاهر على ما ذكر أن إيراد هذه الكلمة للحرمان وهو المعنى الأول من المعنيين اللذين ذكرهما الفارسي ﴿ وَيَقُولُونَ ﴾ على هذا القول قيل معطوف على ما عطف عليه على القول بأن ضميره للكفرة ، وقيل : معطوف على جملة يقولون المقدرة قيل ﴿ لاَ بشرى ﴾ الواقعة حالاً .

وقال الطيبي : هو حال من ﴿ الملائكة ﴾ بتقدير وهم يقولون نظير قولهم : قمت وأصك وجهه وعلى الأول هو عطف على ﴿ يَرَوْنَ ﴾ .

﴿ وَقَدِمْنَا ﴾ أي عمدنا وقصدنا كما روي عن ابن عباس وأخرجه ابن أبي شيبة .

وعبد بن حميد .

وابن جرير .

وابن المنذر .

وابن أبي حاتم عن مجاهد ﴿ إلى مَا عَمِلُواْ ﴾ في الدنيا ﴿ مِنْ عَمَلٍ ﴾ فخيم كصلة رحم .

وإغاثة ملهوف .

وقرى ضعيف .

ومن على أسير وغير ذلك من مكارمهم ومحاسنهم التي لو كانوا عملوها مع الإيمان لنالوا ثوابها ، والجار والمجرور بيان لما وصحة البيان اعتبار التنكير كصحة الاستثناء في ﴿ إِن نَّظُنُّ إِلاَّ ظَنّاً ﴾ [الجاثية : 32] لكن التنكير ههنا للتفخيم كما أشرنا إليه .

وجوز أن يكون للتعميم ودفع ما يتوهم من العهد في الموصول أي عمدنا إلى كل عمل عملوه خال عن الإيمان ، ولعل الأول أنسب بقوله تعالى : ﴿ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء ﴾ مثل هباء في الحقارة وعدم الجدوى ، وهو على ما أخرج عبد الرزاق .

والفريابي .

وابن أبي حاتم عن علي كرم الله تعالى وجهه وهج الغبار يسطع ثم يذهب .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه الشرر الذي يطير من النار إذا اضطرمت ، وفي رواية أخرى عنه أنه الماء المهراق .

وعن يعلى بن عبيد أنه الرماد .

وأخرج جماعة عن مجاهد .

والحسن .

وعكرمة .

وأبي مالك .

وعامر أنه شعاع الشمس في الكوة وكأنهم أرادوا ما يرى فيه من الغبار كما هو المشهور عند اللغويين ، قال الراغب : الهباء دقاق التراب وما أنبث في الهواء فلا يبدو إلا في أثناء ضوء الشمس في الكوة ويقال : هبا الغبار يهبو إذا ثار وسطع ، ووصف بقوله تعالى : ﴿ مَّنثُوراً ﴾ مبالغة في إلغاء أعمالهم فإن الهباء تراه منتظماً مع الضوء فإذا حركته الريح تناثر وذهب كل مذهب فلم يكف أن شبه أعمالهم بالهباء حتى جعل متناثراً لا يمكن جمعه والانتفاع به أصلاً ، ومثل هذا الإرداف يسمى في "البديع" بالتتميم والإيغال ، ومنه قول الخنساء :

أغر أبلج تاتم الهداة به . . .

كأنه علم في رأسه نار

حيث لم يكفها أن جعلته علماً في الهداية حتى جعلته في رأسه نار ، وقيل : وصف بالمنثور أي المتفرق لما أن أغراضهم في أعمالهم متفرقة فيكون جعل أعمالهم هباء متفرقاً جزاءً من جنس العمل ، وجوز أن يكون مفعولاً بعد مفعول لجعل وهو مراد من قال : مفعولاً ثالثاً لها على معنى جعلناه جامعاً لحقارة الهباء والتناثر ، ونظير ذلك قوله تعالى : ﴿ كُونُواْ قِرَدَةً

خاسئين ﴾ [البقرة : 65] أي جامعين للمسخ والخسء ، وفيه خلاف ابن درستويه حيث لم يجوز أن يكون لكان خبران وقياس قوله : أن يمنع أن يكون لجعل مفعول ثالث ، ومع هذا الظاهر الوصفية ، وفي الكلام استعارة تمثيلية حيث مثلت حال هؤلاء الكفرة وحال أعمالهم التي عملوها في كفرهم بحال قوم خالفوا سلطانهم واستعصوا عليه فقدم إلى أشيائهم وقصد إلى ما تحت أيديهم فأفسدها وجعلها شذر مذر ولم يترك لها من عين ولا أثر ، واللفظ المستعار وقع فيه استعمال قدم بمعنى عمد وقصد لاشتهاره فيه وإن كان مجازاً كما يشير إليه كلام الأساس ، ويسمى القصد الموصل إلى المقصد قدوماً لأنه مقدمته ، وتضمن التمثيل تشبيه أعمالهم المحبطة بالهباء المنثور بدون استعارة ، فلا إشكال على ما قيل ، والكلام في ذلك طويل فليطلب من محله .

(57/559)

وجعل بعضهم القدوم في حقه عز وجل عبارة عن حكمه ، وقيل : الكلام على حذف مضاف أي قدم ملائكتنا ، وأسند ذلك إليه عز وجل لأنه عن أمره سبحانه ، ونقل عن بعض السلف أنه لا يؤول في قوله تعالى : ﴿ وَجَاء رَبُّكَ ﴾ [الفجر : 22] وقوله سبحانه : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الغمام ﴾ [البقرة : 210] على ما هو

عادتهم في الصفات المتشابهة ، وقياس ذلك عدم التأويل في الآية ، ولعله من هنا قيل : إن تأويل الزمخشري لها بناءً على معتقده من إنكار الصفات ، والقلب إلى التأويل فيها أميل . وأنت إن لم تؤول القدوم فلا بد لك أن تؤول جعلها هباءً منثوراً بإظهار بطلانها بالكلية وإلغائها عن درجة الاعتبار بوجه من الوجوه ، ولا يأبى ذلك السلف .

﴿ أصحاب الجنة ﴾ هم المؤمنون المشار إليهم في قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الخلد التى وَعِدَ المتقون ﴾ [الفرقان : 15] ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ أي يوم إذ يكون ما ذكر من القدوم إلى أعمالهم وجعلها هباءً منثوراً ، أو من هذا وعدم التبشير ، وقولهم : حجراً محجوراً ﴿ خَيْرٌ مُّسْتَقَرّاً ﴾ المستقر المكان الذي يستقر فيه في أكثر الأوقات للتجالس والتحادث ﴿ وَأَحْسَنُ مَقِيلاً ﴾ المقيل المكان الذي يؤوى إليه للاسترواح إلى الأزواج والتمتع بمغازلتهن ، سمي بذلك لأن التمتع به يكون وقت القيلولة غالباً ، وقيل : هو في الأصل مكان القيلولة وهي النوم نصف النهار ونقل من ذلك إلى مكان التمتع بالأزواج لأنه يشبهه في كون كل منهما محل خلوة واستراحة فهو استعارة ، وقيل : أريد به مكان الاسترواح مطلقاً استعمالاً للمقيد في المطلق فهو مجاز مرسل ، وإنما لم يبق على الأصل لما أنه لا نوم في الجنة أصلاً .

وأخرج ابن المبارك في الزهد .

وعبد بن حميد .

وابن جرير .

وابن المنذر .

وابن أبي حاتم .

(58/559)

والحاكم وصححه عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه لا ينتصف النهار من يوم القيامة حتى يقيل هؤلاء وهؤلاء ، ثم قرأ ﴿ أصحاب الجنة يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرّاً وَأَحْسَنُ مَقِيلاً ﴾ وقرى ﴿ إن مَرْجِعَهُمْ لإِلَى الجحيم ﴾ وأخذ منه بعضهم أن المراد بالمستقر موضع الحساب ، وبالمقيل محل الاستراحة بعد الفراغ منه ، ومعنى يقيل هؤلاء يعني أصحاب الجنة ينقلون إليها وقت القيلولة ، وقيل : المستقر والمقيل في المحشر قبل دخول الجنة ، أو المستقر فيها والمقيل فيه .

فقد أخرج ابن جرير عن سعيد الصواف قال : بلغني أن يوم القيامة يقصر على المؤمن حتى يكون كما بين العصر إلى غروب الشمس ، وإنهم ليقيلون في رياض حتى يفرغ الناس من الحساب ، وذلك قوله تعالى : ﴿ أصحاب الجنة يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرّاً وَأَحْسَنُ مَقِيلاً ﴾ وفي وصفه بزيادة الحسن مع حصول الخيرية بعطفه على المستقر رمز إلى أن لهم ما يتزين به

من حسن الصور وغيره من التحاسين .

فإن حسن المنزل إن لم يكن باعتبار ما يرجع لصاحبه لم تتم المسرة به ، والتفضيل المعتبر فيهما المسرة إما لإرادة الزيادة على الإطلاق ، أي هم في أقصى ما يكون من خيرية المستقر وحسن المقيل .

وإما بالإضافة إلى ما للكفرة المتنعمين في الدنيا أو إلى ما لهم في الآخرة بطريق التهكم بهم ، هذا وتفسير المستقر والمقيل بالمكانين حسبما سمعت هو المشهور وهو أحد احتمالات تسعة .

وذلك أنهم جوزوا أن يكون كلاهما اسم مكان أو اسم زمان أو مصدراً وأن يكون الأول اسم مكان والثاني اسم زمان أو مصدراً وأن يكون الأول اسم زمان والثاني اسم مكان أو مصدراً وأن يكون الأول مصدراً والثاني اسم مكان أو اسم زمان .

وما شئت تخيل في خيرية زمان أصحاب الجنة وأحسنيته وكذا في خيرية استقرارهم وأحسنية استراحتهم يومئذٍ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 19 صـ ﴾

(59/559)

وقال الشوكاني في الآيات السابقة :

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ (17) ﴾

قوله ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ ﴾ الظرف منصوب بفعل مضمر أي : واذكر ، وتعليق التذكير باليوم مع أن المقصود ذكر ما فيه للمبالغة والتأكيد كما مرّ مراراً .

قرأ ابن محيصن وحميد وابن كثير وحفص ويعقوب وأبو عمرو في رواية الدوريّ : ﴿ يحشرهم ﴾ بالياء التحتية ، واختارها أبو عبيد ، وأبو حاتم لقوله في أوّل الكلام ﴿ كَانَ على ربِّكَ ﴾ والباقون بالنون على التعظيم ما عدا الأعرج ، فإنه قرأ " نحشرهم " بكسر الشين في جميع القرآن .

قال ابن عطية : هي قليلة في الاستعمال قوية في القياس ، لأن يفعل بكسر العين في المتعدي أقيس من يفعل بضمها ، وردّه أبو حبان باستواء المضموم والمكسور إلاّ أن يشتهر أحدهما ، اتبع ﴿ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله ﴾ معطوف على مفعول نحشر ، وغلب غير العقلاء من الأصنام والأوثان ، ونحوها على العقلاء من الملائكة والجن والمسيح تنبيهاً على أنها جميعاً مشتركة في كونها غير صالحة لكونها آلهة ، أو لأن من يعبد من لا يعقل أكثر ممن يعبد من يعقل منها ، فغلبت اعتباراً بكثرة من يعبدها ، وقال مجاهد ، وابن جريج : المراد : الملائكة والإنس والجن والمسيح وعزير بدليل خطابهم وجوابهم فيما بعد .

وقال الضحاك ، وعكرمة ، والكلبي : المراد : الأصنام خاصة ، وإنها وإن كانت لا تسمع ولا تتكلم ، فإن الله سبحانه يجعلها يوم القيامة سامعة ناطقة ، ﴿ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السبيل ﴾ قرأ ابن عامر ، وأبو حيوة ، وابن كثير ، وحفص ، " فنقول " بالنون ، وقرأ الباقون بالياء التحتية ، واختارها أبو عبيد كما اختار القراءة بها في نحشرهم ، وكذا أبو حاتم .

(60/559)

والاستفهام في قوله : ﴿ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ ﴾ للتوبيخ والتقريع ، والمعنى : أكان ضلالهم بسببكم وبدعوتكم لهم إلى عبادتكم ، أم هم ضلوا عن سبيل الحق بأنفسهم لعدم التفكر فيما يستدل به على الحق ، والتدبر فيما يتوصل به إلى الصواب ؟

وجملة : ﴿ قَالُواْ سبحانك ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدّر ، ومعنى سبحانك : التعجب مما قيل لهم لكونهم ملائكة ، أو أنبياء معصومين ، أو جمادات لا تعقل أي : تنزيهاً لك ﴿ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاء ﴾ أي : ما صح ، ولا استقام لنا أن نتخذ من دونك أولياء فنعبدهم ، فكيف ندعو عبادك إلى عبادتنا نحن مع كوننا لا نعبد غيرك ؟

والوليّ يطلق على التابع كما يطلق على المتبوع ، هذا معنى الآية على قراءة الجمهور ﴿

نتخذ ﴾ مبنياً للفاعل .

وقرأ الحسن وأبو جعفر : " نتخذ " مبنياً للمفعول أي : ما كان ينبغي لنا أن يتخذنا المشركون أولياء من دونك .

قال أبو عمرو بن العلاء وعيسى بن عمر : لا تجوز هذه القراءة ، ولو كانت صحيحة لحذفت من الثانية .

قال أبو عبيدة : لا تجوز هذه القراءة لأن الله سبحانه ذكر "من" مرتين ، ولو كان كما قرأ لقال : أن نتخذ من دونك أولياء .

وقيل : إن "من" الثانية زائدة ، ثم حكي عنهم سبحانه : بأنهم بعد هذا الجواب ذكروا سبب ترك المشركين للإيمان ، فقال : ﴿ ولكن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَاءهُمْ حتى نَسُواْ الذكر ﴾ وفي هذا ما يدل على أنهم هم الذين ضلوا السبيل ، ولم يضلهم غيرهم ، والمعنى : ما أضللناهم ، ولكنك يا رب متعتهم ، ومتعت آباءهم بالنعم ، ووسعت عليهم الرزق ، وأطلت لهم العمر حتى غفلوا عن ذكرك ونسوا موعظتك والتدبر لكتابك والنظر في عجائب صنعك وغرائب مخلوقاتك .

وقرأ أبو عيسى الأسود القارىء : " ينبغي " مبنياً للمفعول .

قال ابن خالويه : زعم سيبويه أنها لغة ، وقيل : المراد بنسيان الذكر هنا : هو ترك الشكر ﴿ وَكَانُواْ قَوْماً بُوراً ﴾ أي : وكان هؤلاء الذين أشركوا بك ، وعبدوا غيرك في قضائك الأزليّ قوماً بوراً أيْ : هلكى ، مأخوذ من البوار ، وهو الهلاك : يقال : رجل بائر وقوم بور ، يستوي فيه الواحد والجماعة لأنه مصدر يطلق على القليل والكثير ، ويجوز أن يكون جمع بائر .

وقيل : البوار الفساد .

يقال : بارت بضاعته أي : فسدت ، وأمر بائر أي : فاسد ، وهي لغة الأزد .

وقيل : المعنى : لا خير فيهم ، مأخوذ من بوار الأرض ، وهو تعطيلها من الزرع ، فلا يكون فيها خير ، وقيل : إن البوار الكساد ، ومنه بارت السلعة إذا كسدت .

﴿ فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ ﴾ في الكلام حذف ، والتقدير : فقال الله عند تبري المعبودين مخاطباً للمشركين العابدين لغير الله فقد كذبوكم أي : فقد كذبكم المعبودون بما تقولون أي : في قولكم إنهم آلهة ﴿ فَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ أي : الآلهة ﴿ صَرْفاً ﴾ أي : دفعاً للعذاب عنكم بوجه من الوجوه ، وقيل : حيلة ﴿ وَلاَ نَصْراً ﴾ أي : ولا يستطيعون نصركم ، وقيل : المعنى : فما يستطيع هؤلاء الكفار لما كذبهم المعبودون صرفاً للعذاب الذي عذبهم الله به ، ولا نصراً من الله ، وهذا الوجه مستقيم على قراءة من قرأ : " تستطيعون " بالفوقية ،

وهي قراءة حفص ، وقرأ الباقون بالتحتية ، وقال ابن زيد : المعنى : فقد كذبوكم أيها المؤمنون هؤلاء الكفار بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، وعلى هذا ، فمعنى ﴿ بما تقولون ﴾ : ما تقولونه من الحق ، وقال أبو عبيد : المعنى : فما يستطيعون لكم صرفاً عن الحق الذي هداكم الله إليه ولا نصراً لأنفسهم بما ينزل بهم من العذاب بتكذيبهم إياكم .

وقرأ الجمهور ﴿ بما تقولون ﴾ بالتاء الفوقية على الخطاب .

(62/559)

وحكى الفراء : أنه يجوز أن يقرأ : " فقد كذبوكم " مخففاً بما يقولون ، أي : كذبوكم في قولهم ، وكذا قرأ بالياء التحتية مجاهد ، والبزي ﴿ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَاباً كَبِيراً ﴾ هذا وعيد لكل ظالم ، ويدخل تحته الذين فيهم السياق دخولاً أولياً ، والعذاب الكبير عذاب النار ، وقرىء : " يذقه " بالتحتية ، وهذه الآية وأمثالها مقيدة بعدم التوبة .

ثم رجع سبحانه إلى خطاب رسوله موضحاً لبطلان ما تقدّم من قوله : ﴿ يَأْكُلُ الطعام وَيَمْشِي فِي الأسواق ﴾ فقال : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ المرسلين إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطعام وَيَمْشُونَ فِي الأسواق ﴾ قال الزجاج : الجملة الواقعة بعد " إلاّ " صفة لموصوف محذوف ، والمعنى : وما أرسلنا قبلك أحداً من المرسلين إلاّ آكلين وماشين ، وإنما حذف الموصوف

لأن في قوله : ﴿ مِنَ المرسلين ﴾ دليلاً عليه ، نظيره : ﴿ وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴾ [الصافات : 164] أي : وما منا أحد .

وقال الفراء : لا محل لها من الإعراب ، وإنما هي صلة لموصول محذوف هو المفعول ، والتقدير : إلاّ من أنهم ، فالضمير في أنهم وما بعده راجع إلى من المقدّرة ، ومثله قوله تعالى : ﴿ وَإِن مّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا ﴾ [مريم : 71] أي : إلاّ من يردها ، وبه قرأ الكسائي ، قال الزجاج : هذا خطأ ؛ لأنّ من الموصولة لا يجوز حذفها .

وقال ابن الأنباري : إنها في محل نصب على الحال ، والتقدير : إلاّ وأنهم ، فالمحذوف عنده الواو ، قرأ الجمهور : ﴿ إلا إنهم ﴾ بكسر إنّ لوجود اللام في خبرها كما تقرّر في علم النحو ، وهو مجمع عليه عندهم .

قال النحاس : إلاّ أن عليّ بن سليمان الأخفش حكى لنا عن محمد بن يزيد المبرد أنه قال : يجوز في إنّ هذه الفتح ، وإن كان بعدها اللام ، وأحسبه وهماً ، وقرأ الجمهور : ﴿ يمشون ﴾ بفتح الياء ، وسكون الميم ، وتخفيف الشين .

(63/559)

وقرأ عليّ وابن عوف وابن مسعود بضم الياء وفتح الميم وضم الشين المشدّدة ، وهي بمعنى القراءة الأولى ، قال الشاعر :

أمشي بأعطان المياه وأتقي . . . قلائص منها صعبة وركوب

وقال كعب بن زهير :

منه تظل سباع الحيّ ضامزة . . . ولا تمشي بواديه الأراجيل

﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً ﴾ هذا الخطاب عامّ للناس ، وقد جعل سبحانه بعض عبيده فتنة لبعض ، فالصحيح فتنة للمريض ، والغنيّ فتنة للفقير ، وقيل : المراد بالبعض الأوّل : كفار الأمم ، وبالبعض الثاني : الرسل .

ومعنى الفتنة : الابتلاء والمحنة .

والأوّل أولى ، فإن البعض من الناس ممتحن بالبعض مبتلى به ؛ فالمريض يقول : لم لم أجعل كالصحيح ؟ وكذا كل صاحب آفة ، والصحيح مبتلى بالمريض ، فلا يضجر منه ، ولا يحقره ، والغني مبتلى بالفقير يواسيه ، والفقير مبتلى بالغنيّ يحسده .

ونحو هذا مثله ، وقيل : المراد بالآية : أنه كان إذا أراد الشريف أن يسلم ، ورأى الوضيع قد أسلم قبله أنف ، وقال : لا أسلم بعده ، فيكون له علي السابقة والفضل ، فيقيم على كفره ، فذلك افتتان بعضهم لبعض ، واختار هذا الفراء ، والزجاج .

ولا وجه لقصر الآية على هذا ، فإن هؤلاء إن كانوا سبب النزول ، فالاعتبار بعموم اللفظ لا

بخصوص السبب .

ثم قال سبحانه بعد الإخبار بجعل البعض للبعض فتنة : ﴿ أَتَصْبِرُونَ ﴾ هذا الاستفهام للتقرير ، وفي الكلام حذف تقديره ، أم لا تصبرون ؟ أي : أتصبرون على ما ترون من هذه الحال الشديدة ، والابتلاء العظيم .

قيل : موقع هذه الجملة الاستفهامية ها هنا موقع قوله : ﴿ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ في قوله : ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ [الملك : 2] ، ثم وعد الصابرين بقوله : ﴿ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً ﴾ أي : بكل من يصبر ومن لا يصبر ، فيجازي كلاً منهما بما يستحقه .

(64/559)

وقيل : معنى ﴿ أتصبرون ﴾ : اصبروا مثل قوله : ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُّنتَهُونَ ﴾ [المائدة : 91] أي : انتهوا .

﴿ وَقَالَ الذين لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا ﴾ هذه المقالة من جملة شبههم التي قدحوا بها في النبوة ، والجملة معطوفة على ﴿ وَقَالُواْ مَّالِ هذا ﴾ أي : وقال المشركون الذين لا يبالون بلقاء الله كما في قول الشاعر :

لعمرك ما أرجو إذا كنت مسلما . . . على أيّ جنب كان في الله مصرعي

أي : لا أبالي ، وقيل : المعنى : لا يخافون لقاء ربهم كقول الشاعر :

إذا لسعته النحل لم يرج لسعها . . . وخالفها في بيت نوب عوامل

أي : لم يخف ، وهي لغة تهامة .

قال الفراء وضع الرجاء موضع الخوف ، وقيل : لا يأملون ، ومنه قول الشاعر :

أترجو أمة قتلت حسينا . . . شفاعة جدّه يوم الحساب

(65/559)

والحمل على المعنى الحقيقي أولى ، فالمعنى : لا يأملون لقاء ما وعدنا على الطاعة من الثواب ، ومعلوم أن من لا يرجو الثواب لا يخاف العقاب ﴿ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْنَا الملائكة ﴾ أي : هلا أنزلوا علينا ، فيخبرونا أن محمداً صادق ، أو هلا أنزلوا علينا رسلاً يرسلهم الله ﴿ أَوْ نرى رَبَّنَا ﴾ عياناً ، فيخبرنا بأن محمداً رسول ، ثم أجاب سبحانه عن شبهتهم هذه ، فقال ﴿ لَقَدِ استكبروا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوّاً كَبِيراً ﴾ أي : أضمروا الاستكبار عن الحق والعناد في قلوبهم كما في قوله : ﴿ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ مَّا هُم ببالغيه ﴾ [غافر : 56] ، والعتوّ مجاوزة الحد في الطغيان ، والبلوغ إلى أقصى غاياته ، ووصفه بالكبر لكون التكلم بما تكلموا به من هذه المقالة الشنيعة في غاية الكبر والعظم ، فإنهم لم يكتفوا بإرسال البشر

حتى طلبوا إرسال الملائكة إليهم ، بل جاوزوا ذلك إلى التخيير بينه وبين مخاطبة الله سبحانه ، ورؤيته في الدنيا من دون أن يكون بينهم وبينه ترجمان ، ولقد بلغ هؤلاء الرذالة بأنفسهم مبلغاً هي أحقر وأقل وأرذل من أن تكون من أهله ، أو تعدّ من المستعدّين له ، وهكذا من جهل قدر نفسه ، ولم يقف عند حدّه ، ومن جهلت نفسه قدره رأى غيره منه ما لا يرى .

وانتصاب ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ الملائكة ﴾ بفعل محذوف أي : واذكر يوم يرون الملائكة رؤية ليست على الوجه الذي طلبوه ، والصورة التي اقترحوها ، بل على وجه آخر ، وهو يوم ظهورهم لهم عند الموت ، أو عند الحشر ، ويجوز أن يكون انتصاب هذا الظرف بما يدلّ عليه قوله ﴿ لاَ بشرى يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ أي : يمنعون البشرى يوم يرون ، أو لا توجد لهم بشرى فيه ، فاعلم سبحانه بأن الوقت الذي يرون فيه الملائكة ، وهو وقت الموت ، أو يوم القيامة قد حرمهم الله البشرى .

(66/559)

قال الزجاج : المجرمون في هذا الموضع الذين اجترموا الكفر بالله ﴿ وَيَقُولُونَ حِجْراً مَّحْجُوراً ﴾ أي : ويقول الكفار عند مشاهدتهم للملائكة ، حجراً محجوراً ، وهذه كلمة

كانوا يتكلمون بها عند لقاء عدوّ وهجوم نازلة يضعونها موضع الاستعاذة ، يقال للرجل : أتفعل كذا ؟ فيقول : حجراً محجوراً أي : حراماً عليك التعرّض لي .

وقيل : إن هذا من قول الملائكة ، أي : يقولون للكفار : حراماً محرّماً أن يدخل أحدكم الجنة ، ومن ذلك قول الشاعر :

ألا أصبحت أسماء حجراً محرّما . . . وأصبحت من أدنى حمومتها حماء

أي : أصبحت أسماء حراماً محرّماً ، وقال آخر :

حنت إلى النخلة القصوى فقلت لها . . . حجر حرام إلاّ تلك الدهاريس

وقد ذكر سيبويه في باب المصادر المنصوبة بأفعال متروك إظهارها هذه الكلمة ، وجعلها من جملتها .

﴿ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُوراً ﴾ هذا وعيد آخر ، وذلك أنهم كانوا يعملون أعمالاً لها صورة الخير : من صلة الرحم ، وإغاثة الملهوف ، وإطعام الطعام وأمثالها ، ولم يمنع من الإثابة عليها إلاّ الكفر الذي هم عليه ، فمثلت حالهم وأعمالهم بحال قوم خالفوا سلطانهم ، واستعصوا عليه ، فقدم إلى ما معهم من المتاع ، فأفسده ، ولم يترك منها شيئاً ، وإلاّ فلا قدوم ها هنا .

قال الواحدي : معنى قدمنا : عمدنا وقصدنا ، يقال : قدم فلان إلى أمر كذا إذا قصده أو عمده ، ومنه قول الشاعر :

وقدم الخوارج الضلال . . . إلى عباد ربهم فقالوا

إن دماءكم لنا حلال . . . وقيل : هو قدوم الملائكة أخبر به عن نفسه تعالى ، والهباء

واحده هباءة ، والجمع أهباء .

قال النضر بن شميل : الهباء : التراب الذي تطيره الريح كأنه دخان .

(67/559)

وقال الزجاج : هو ما يدخل من الكوّة مع ضوء الشمس يشبه الغبار ، وكذا قال الأزهري :

والمنثور المفرق ، والمعنى : أن الله سبحانه أحبط أعمالهم حتى صارت بمنزلة الهباء

المنثور ، لم يكتف سبحانه بتشبيه عملهم بالهباء حتى وصفه بأنه متفرّق متبدّد وقيل : إن

الهباء : ما أذرته الرياح من يابس أوراق الشجر ، وقيل : هو الماء المهراق .

وقيل : الرماد .

والأوّل هو الذي ثبت في لغة العرب ، ونقله العارفون بها .

ثم ميز سبحانه حال الأبرار من حال الفجار ، فقال ﴿ أصحاب الجنة يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرّاً

﴾ أي : أفضل منزلاً في الجنة ﴿ وَأَحْسَنُ مَقِيلاً ﴾ أي : موضع قائلة ، وانتصاب ﴿

مستقرّاً ﴾ على التمييز .

قال الأزهري : القيلولة عند العرب : الاستراحة نصف النهار إذا اشتدّ الحرّ ، وإن لم يكن مع ذلك يوم .

قال النحاس : والكوفيون يجيزون : العسل أحلى من الخلّ .

وقد أخرج الفريابي وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ ﴾ الآية قال : عيسى ، وعزير ، والملائكة .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس : ﴿ قَوْماً بُوراً ﴾ قال : هلكى .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير عن الحسن في قوله : ﴿ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ ﴾ قال : هو الشرك .

وأخرج ابن جرير عن ابن جريج قال : يشرك .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ المرسلين إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطعام وَيَمْشُونَ فِي الأسواق ﴾ يقول : إن الرسل قبل محمد صلى الله عليه وسلم كانوا بهذه المنزلة يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً ﴾ قال : بلاء .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الشعب عن الحسن : ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً ﴾ قال : يقول الفقير : لو شاء الله لجعلني غنياً مثل فلان ، ويقول السقيم : لو شاء الله لجعلني صحيحاً مثل فلان ، ويقول الأعمى : لو شاء الله لجعلني بصيراً مثل فلان .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَعَتَوْ عُتُوّاً كَبِيراً ﴾ قال : شدّة الكفر .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله : ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ الملائكة ﴾ قال : يوم القيامة .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن عطية العوفيّ نحوه .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد : ﴿ وَيَقُولُونَ حِجْراً مَّحْجُوراً ﴾ قال : عوذاً معاذاً ، الملائكة تقوله .

وفي لفظ قال : حراماً محرّماً أن تكون البشرى في اليوم إلاّ للمؤمنين .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق عطية العوفيّ ، عن أبي سعيد الخدري في قوله : ﴿ وَيَقُولُونَ حِجْراً مَّحْجُوراً ﴾ قال : حراماً محرّماً أن نبشركم بما نبشر به المتقين .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن الحسن وقتادة : ﴿ وَيَقُولُونَ حِجْراً مَّحْجُوراً ﴾ قالا : هي كلمة كانت العرب تقولها ، كان الرجل إذا نزلت به شدّة قال

: حجراً محجوراً حراماً محرّماً .

وأخرج الفريابي وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد ﴿ وَقَدِمْنَا إلى مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ ﴾ قال : عمدنا إلى ما عملوا من خير ممن لا يتقبل منه في الدنيا .

وأخرج سعيد بن منصور ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، عن عليّ بن أبي طالب في قوله : ﴿ هَبَاءً مَّنثُوراً ﴾ قال : الهباء شعاع الشمس الذي يخرج من الكوّة .

(69/559)

وأخرج عبد الرزاق والفريابي وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عليّ بن أبي طالب قال : الهباء وهيج الغبار يسطع ، ثم يذهب ، فلا يبقي منه شيء ، فجعل الله أعمالهم كذلك .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : الهباء الذي يطير من النار إذا اضطرمت يطير منها الشرر ، فإذا وقع لم يكن شيئاً .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه قال : هو ما تسفي الريح وتبثه .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عنه أيضاً قال : هو الماء المهراق .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عنه أيضاً : ﴿ خَيْرٌ مُّسْتَقَرّاً وَأَحْسَنُ مَقِيلاً ﴾ قال : في

الغرف من الجنة .

وأخرج ابن المبارك في الزهد ، وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه عن ابن مسعود قال : لا ينصرف النهار من يوم القيامة حتى يقيل هؤلاء وهؤلاء ، ثم قرأ : ﴿ أصحاب الجنة يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرّاً وَأَحْسَنُ مَقِيلاً ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 4 صـ ﴾

(70/559)

وقال القاسمي :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ﴾

أي : الرجوع إليه بالبعث والحشر : ﴿ لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ ﴾ أي : للرسالة ، أو لتخبرنا بصدق محمد صلى الله عليه وسلم : ﴿ أَوْ نَرَى رَبَّنَا ﴾ أي : فيخبرنا بذلك : ﴿ لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ ﴾ أي : في شأنها حتى تفوّهوا بمثل هذه العظيمة : ﴿ وَعَتَوْا ﴾ أي : تجاوزوا الحد في الظلم والطغيان : ﴿ عُتُوّاً كَبِيراً ﴾ أي : بالغاً أقصى غايته حيث أملوا رتبة التكليم الربانيّ من غير توسط الرسول والملك . ولم يكتفوا بهذا الذكر الحكيم والخارق العظيم .

﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلائِكَةَ ﴾ أي : عند الموت أو في القيامة : ﴿ لا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْراً مَحْجُوراً ﴾ أي : كما كانوا يقولون عند لقاء العدوّ وشدة النازلة : ﴿ حِجْراً ﴾ أي : أسأل الله أن يمنع ذلك منعاً ويحجره حجراً و : ﴿ مَحْجُوراً ﴾ تأكيد لـ : ﴿ حِجْراً ﴾ وقيل هو من قول الملائكة ومعناه حراماً محرماً عليكم الغفران والجنة والبشرى ، أي : جعل الله ذلك حراماً عليكم .

﴿ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ ﴾ أي : مما كانوا يراءون به ابتغاء السمعة والشهرة ، ويرونه من مكارمهم : ﴿ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً ﴾ أي : مثل الغبار المنثور في الجوّ ، في حقارته وعدم نفعه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 12 صـ 440 . 441 ﴾

(71/559)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ ﴾

حكاية مقالة أخرى من مقالات تكذيبهم الرسولَ عليه الصلاة والسلام ، وقد عنون عليهم في هذه المقالة بـ ﴿ الذين لا يَرجُون لقاءنا ﴾ وعنون عليهم في المقالات السابقة بـ ﴿ الذين كفروا ﴾ [الفرقان : 4] وبـ ﴿ الظالمون ﴾ [الفرقان : 8] لأن بين هذا الوصف وبين

مقالتهم انتقاض ، فهم قد كذّبوا بلقاء الآخرة بما فيه من رؤية الله والملائكةِ ، وطَلَبوا رؤية الله في الدنيا ، ونزولَ الملائكة عليهم في الدنيا ، وأرادوا تلقي الدين من الملائكة أو من الله مباشرة ، فكان في حكاية قولهم وذكر وصفهم تعجيب من تناقض مداركهم .

واعلم أن أهل الشرك شهدوا أنفسهم بإنكار البعث وتوهّموا أن شبهتهم في إنكاره أقوى حجة لهم في تكذيب الرسل ، فمن أجل ذلك أيضاً جعل قولهم ذلك طريقاً لتعريفهم بالموصول كما قال تعالى : ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدّله ﴾ في سورة يونس (15) .

و ﴿ لولا ﴾ حرف تحضيض مستعمل في التعجيز والاستحالة ، أي هلا أنزل علينا الملائكة فنؤمن بما جئت به ، يعنون أنه إن كان صادقاً فليسأل من ربه وسيلة أخرى لإبلاغ الدين إليهم .

ومعنى : ﴿ لا يرجون ﴾ لا يظنون ظنّاً قريباً ، أي يَعُدّون لقاء الله محالاً .

ومقصدهم من مقالهم أنهم أعلى من أن يتلقوا الدين من رجل مثلهم ، ولذلك عقب بقوله : ﴿ لقد استكبروا في أنفسهم وعتو عتواً كبيراً ﴾ على معنى التعجيب من ازدهائهم وغرورهم الباطل .

والجملة استئناف يتنزّل منزلة جواب عن قولهم .

والتأكيد بلام القسم لإفادة معنى التعجيب لأن القسم يستعمل في التعجب كقول أحد بني

كِلاب أو بني نُمير أنشده ثعلب في "مجالسه" والقالي في "أماليه":

أَلاَ يَا سَنَا برقٍ على قُلَلِ الحِمى . . .

لَهِنَّكَ مِنْ برقٍ علي كريمُ

(72/559)

فإن قوله: من برق، في قوة التمييز وإنما يكون التمييز فيه لما فيه من معنى التعجب.

والاستكبار: مبالغة في التكبر، فالسين والتاء للمبالغة مثل استجاب.

و﴿ فِي ﴾ للظرفية المجازية؛ شبهت أنفسهم بالظروف في تمكن المظروف منها، أي هو استكبار متمكن منهم كقوله تعالى: ﴿ وفي أنفُسِكم أفلا تُبصرون ﴾ [الذاريات: 21].

ويجوز أن تكون ﴿ في ﴾ للتعليل كما في الحديث "دخلتِ امرأة النارَ في هِرَّةٍ حَبَسْتَها" الحديث، أي استكبروا لأجل عظمة أنفسهم في زعمهم.

وليست الظرفية حقيقيةِ لقلّة جدوى ذلك؛ إذ من المعلوم أن الاستكبار لا يكون إلا في النفس لأنه من الأفعال النفسية.

والعُتوّ: تجاوز الحد في الظلم، وتقدم في قوله تعالى: ﴿ وعَتوا عن أمر ربّهم ﴾ في الأعراف

(77) .

وإنما كان هذا ظلماً لأنهم تجاوزوا مقدار ما خولهم الله من القابلية .

وفي هذا إيماء إلى أن النبوءة لا تكون بالاكتساب وإنما هي إعداد من الله تعالى قال : ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالاته ﴾ [الأنعام : 124] .

يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا (22)

استئناف ثان جواب عن مقالتهم ، فبعد إبداء التعجيب منها عُقّب بوعيد لهم ، فيه حصول بعض ما طلبوا حصوله الآن ، أي هم سيرون الملائكة ولكنها رؤية تسوءهم حين يرون زبانية العذاب يسوقونهم إلى النار ، ففي هذا الاستئناف تلميح وتهكم بهم لأن ابتداءَه مطمع بالاستجابة وآخرَه مؤيس بالوعيد ، فالكلام جرى على طريقة الغَيبة لأنه حكاية عن تورّكهم ، والمقصود إبلاغه لهم حين يَسمعونه .

وانتصب ﴿ يوم يرون ﴾ على الظرفية لِ ﴿ لاَ بُشرى ﴾ .

وتقديم الظرف للاهتمام به لإثارة الطمع وللتشويق إلى تعيين إبانه حتى إذا ورد ما فيه خيبة طمعهم كان له وقع الكآبة على نفوسهم حينما يسمعونه .

وإعادة ﴿ يومئذٍ ﴾ تأكيد .

وذِكر وصف المجرمين إظهار في مقام الإضمار للتسجيل عليهم بأنهم مجرمون بعد أن وصفوا بالكفر والظلم واليأس من لقاء الله .

وانتفاءُ البشرى مستعمل في إثبات ضده وهو الحزن .

و(حجر) بكسر الحاء وسكون الجيم ، ويقال بفتح الحاء وضمها على الندرة فهي كلمة يقولونها عند رؤية ما يُخاف من إصابته بمنزلة الاستعاذة .

قال الخليل وأبو عبيدة : كان الرجل إذا رأى الرجل الذي يَخاف منه أن يقتله في الأشهر الحرم يقول له : ﴿ حِجْراً محجوراً ﴾ ، أي حَرام قتلي ، وهي عوذة .

و(حجر) مصدر : حجَره ، إذا منعه ، قال تعالى ﴿ وحرث حِجر ﴾ [الأنعام : 138] ، وهو في هذا الاستعمال لازم النصب على المفعول المطلق المنصوب بفعل مضمر مثل : معاذ الله ، وأمّا رفعه في قول الرّاجز :

قالت فيها حيدة وذُعْر . . .

عَوْذ بربي منكمُ وحُجْر

فهو تصرف فيه ، ولعله عند سيبويه ضرورة لأنه لم يذكر الرفع في استعمال هذه الكلمات في هذا الغرض وهو الذي حكاه الراجز .

وأمّا رفع (حجر) في غير حالة استعماله للتعوذ فلا مانع منه لأنه الأصل ، وقد جاء في

القرآن منصوباً لا على المفعولية المطلقة في قوله تعالى : ﴿ وجعل بينهما برزخاً وحِجْراً محجوراً ﴾ [الفرقان : 53] ، فإنه معطوف على مفعول ﴿ جعل ﴾ وسننبه عليه قريباً .

و﴿ محجوراً ﴾ وصف ل ﴿ حجراً ﴾ مشتق من مادته للدلالة على تمكن المعنى المشتق منه كما قالوا : ليل أليل ، وذيل ذائل ، وشِعْر شاعر .

وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا (23)

كانوا في الجاهلية يعدّون الأعمال الصالحة مَجلبة لخير الدنيا لأنها ترضي الله تعالى فيجازيهم بنعم في الدنيا إذ كانوا لا يؤمنون بالبعث ، وقد قالت خديجة للنبيء صلى الله عليه وسلم حين تحيّر في أمر ما بدأه من الوحي وقالَ لها : "لقد خشِيتُ على نفسي" ، فقالت : "والله لا يخزيك الله أبداً .

إنك لتصل الرحم وتَقري الضيف وتعين على نوائب الحق" .

(74/559)

فالظاهر أن المشركين إذا سمعوا آيات الوعيد يقولون في أنفسهم : لئن كان البعث حقّاً لنجدنّ أعمالاً عملناها من البرّ تكون سبباً لنجاتنا ، فعلم الله ما في نفوسهم فأخبر بأن

أعمالهم تكون كالعدم يومئذٍ .

والقدوم مستعمل في معنى العَمْد والإرادة ، وأفعال المشي والمجيء تجيء في الاستعمال لمعاني القصد والعَزم والشروع مثل : قَام يفعل ، وذَهب يقول ، وأقبل ، ونحوها .

وأصل ذلك ناشىء عن تمثيل حال العامد إلى فعل باهتمام بحال من يَمشي إليه ، فموقعه في الكلام أرشق من أن يقول : وعَمَدْنا أو أردنا إلى ما عملوا .

و﴿ مِن ﴾ في قوله : ﴿ من عمل ﴾ بيانية لإبهام ﴿ ما ﴾ وتنكير ﴿ عمل ﴾ للنوعية ، والمراد به عمل الخير ، أي إلى ما عملوه من جنس عمل الخير .

والهباء : كائنات جسمية دقيقة لا تُرى إلا في أشعة الشمس المنحصرة في كوّة ونحوها ، تلوح كأنها سَابحة في الهواء وهي أدق من الغبار ، أي فجعلناه كهباء منثور ، وهو تشبيه لأعمالهم في عدم الانتفاع بها مع كونها موجودة بالهَباء في عدم إمساكه مع كونه موجوداً ، وهذا تشبيه بليغ وهو هنا رشيق .

ونظيره قوله تعالى : ﴿ وبُسّت الجبالُ بسّاً فكانت هباءً منبثاً ﴾ [الواقعة : 5 ، 6] .

والمنثور : غير المنتظم ، وهو وصف كاشِف لأن الهباء لا يكون إلاّ منثوراً ، فذكر هذا الوصف للإشارة إلى ما في الهباء من الحقارة ومن التفرق .

أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا (24)

استئناف ابتدائي جيء به لمقابلة حال المشركين في الآخرة بضدها من حال أصحاب الجنة

وهم المؤمنون ، لأنه لما وصف حال المشركين في الآخرة عُلم أن لا حظ لهم في الجنّة فتعينت الجنة لغير المشركين يومئذ وهم المؤمنون ، إذ أهل مكة في وقت نزول هذه الآية فريقان : مشركون ومؤمنون .

فمعنى الكلام : المؤمنون يومئذ هم أصحاب الجنة وهم ﴿ خير مستقراً وأحسن مقيلاً ﴾ .

(75/559)

والخير هنا : تفضيل ، وهو تهكم بالمشركين ، وكذلك ﴿ أحسن ﴾ .

والمستقر : مكان الاستقرار .

والمقيل : المكان الذي يؤوى إليه في القيلولة والاستراحة في ذلك الوقت من عادة المترفين .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 19 صـ ﴾

(76/559)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ ﴾)

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أن الذين لا يرجون لقاء الله قالوا : لولا أنزل علينا الملائكة ، أو نرى ربنا ، ولولا في هذه الآية للتخصيص .

والمعنى أنهم طلبوا بحث وشدة أن تنزل عليهم الملائكة أو يرون ربهم ، وهذا التعنت الذي ذكره الله عنهم هنا من طلبهم إنزال الملائكة عليهم ، أو رؤيتهم ربهم ذكره في غير هذا الموضع كقوله تعالى : ﴿ أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلاً ﴾ [الإسراء : 92] وقولهم : ﴿ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ ﴾ قيل : فتوحي إلينا كما أوحت إليك ، وهذا القول يدل له قوله تعالى : ﴿ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللهِ ﴾ [الأنعام : 124] الآية وقيل : لولا أنزل علينا الملائكة فتراهم عياناً ، وهذا يدل له قوله تعالى : ﴿ أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلاً ﴾ [الإسراء : 92] أي معاينة على القول بذلك ، وقد قدمنا الأقوال في ذلك في سورة بني إسرائيل .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : لا يرجون . قال بعض العلماء : لا يرجون أي لا يخافون لقاءنا لعدم . إيمانهم بالبعث . والرجاء يطلق على الخوف كما يطلق على الطمع . قال بعض العلماء : ومنه قوله تعالى : ﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً ﴾ [نوح : 13] قال أي لا تخافون لله عظمة ، ومنه قول أبي ذؤيب الهذلي :

إذا لسعته النحل لم يرج لسعها . . . وخالفها في بيت نوب عواسل

فقوله لم يرج لسعها : أي لم يخف لسعها ، وقال بعض أهل العلم : إطلاق الرجاء على الخوف لغة تهامة ، وقال بعض العلماء : لا يرجون لقاءنا لا يأملون ، وعزاه القرطبي لابن شجرة وقال : ومنه قول الشاعر :

أترجو أمة قتلت حسيناً . . . شفاعة جده يوم الحساب

(77/559)

أي أتأمل أمه الخ . والذي لا يؤمن بالبعث لا يخاف لقاء الله ، لأنه لا يصدق بالعذاب ، ولا يأمل الخير من تلقائه ، لأنه لا يؤمن بالثواب .

وقوله جل وعلا ﴿ لَقَدِ استكبروا في أَنفُسِهِمْ ﴾ أي أضمروا التكبر عن الحق في قلوبهم ، واعتقدوه عناداً وكفراً ، ويوضح هذا المعنى قوله تعالى : ﴿ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ ﴾ [غافر : 56] وقوله تعالى : ﴿ وَعَتَوْا عُتُوّاً كَبِيراً ﴾ أي تجاوزوا الحد في الظلم والطغيان يقال : عتا علينا فلان : أي تجاوز الحد في ظلمنا ، ووصفه تعالى عتوهم المذكور بالكبر ، يدل على أنه بالغ في إفراطه ، وأنهم بلغوا غاية الاستكبار ، وأقصى العتو ، وهذه الآية الكريمة تدل على أن تكذيب الرسل بعد دلالة المعجزات ، ووضوح الحق

وعنادهم والتعنت عليهم بطلب إنزال الملائكة ، أو رؤية الله استكبار عن الحق عظيم وعتو كبير يستحق صاحبه النكال ، والتقريع ، ولذا شدد الله النكير على من تعنت ذلك التعنت واستكبر عن قبول الحق ، كما في قوله تعالى : ﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ موسى مِن قَبْلُ ﴾ [البقرة : 108] وقوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُكَ أَهْلُ الكتاب أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السماء فَقَدْ سَأَلُوا موسى أَكْبَرَ مِن ذلك فقالوا أَرِنَا الله جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصاعقة بِظُلْمِهِمْ ﴾

[النساء : 153] الآية وقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يا موسى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حتى نَرَى الله جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصاعقة وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ [البقرة : 55] واستدلال المعتزلة بهذه الآية ، وأمثالها على أن الرؤية الله مستحيلة استدلال باطل ومذهبهم والعياذ بالله من أكبر الضلال ، وأعظم الباطل ، وقول الزمخشري في كلامه على هذه الآية : إن الله لا يرى قول باطل ، وكلام فاسد .

(78/559)

والحق الذي لا شك فيه : أن المؤمنين يرون الله بأبصارهم يوم القيامة كما تواترت به الأحاديث عن الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم ، ودلت عليه الآيات القرآنية

منطوقاً ومفهوماً . كما أوضحناه في غير هذا الموضع .

وقد قدمنا في هذه السورة وفي سورة بني إسرائيل الآيات الدالة على أن الله لو فعل لهم كل ما اقترحوا لما آمنوا ، فأغنى ذلك عن إعادته هنا .

يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا (22)

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أن الكفار الذي طلبوا إنزال الملائكة عليهم ، أنهم يرون الملائكة لا بشرى لهم : أي لا تسرهم رؤيتهم ولا تكون لهم في ذلك الوقت بشارة بخير ، ورؤيتهم للملائكة تكون عند احتضارهم ، وتكون يوم القيامة ولا بشرى لهم في رؤيتهم في كلا الوقتين .

(79/559)

أما رؤيتهم الملائكة عند حضور الموت فقد دلت آيات من كتاب الله أنهم لا بشارة لهم فيها لما يلاقون من العذاب من الملائكة عند الموت ، كقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الذين كَفَرُواْ الملائكة يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴾ [الأنفال : 50] الآية وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظالمون فِي غَمَرَاتِ الموت والملائكة باسطوا أَيْدِيهِمْ أَخرجوا أَنْفُسَكُمُ اليوم تُجْزَوْنَ عَذَابَ الهون بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى الله غَيْرَ الحق وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [الأنعام :

93] وقوله تعالى : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الملائكة يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتبعوا مَا أَسْخَطَ الله وَكَرِهُواْ رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ [محمد : 2728] وأما رؤيتهم الملائكة يوم القيامة فلا بشرى لهم فيها أيضاً ، ويدل لذلك قوله تعالى : ﴿ لولا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكاً لَّقُضِيَ الأمر ثُمَّ لاَ يُنظَرُونَ ﴾ [الأنعام : 8] وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ لاَ بشرى يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ يدل بدليل خطابه : أي مفهوم مخالفته ، أن غير المجرمين يوم يرون الملائكة تكون لهم البشرى ، وهذا المفهوم من هذه الآية جاء مصرحاً به في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين قَالُواْ رَبُّنَا الله ثُمَّ استقاموا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الملائكة أَلاَّ تَخَافُواْ وَلاَ تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بالجنة التي كُنتُمْ تُوعَدُونَ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي الحياة الدنيا وَفِي الآخرة وَلَكُمْ فِيهَا مَا تشتهي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (*) نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾ [فصلت : 3032] .

(80/559)

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ وَقُولُونَ حِجْراً مَّحْجُوراً ﴾ أظهر القولين فيه عندي أنه من كلام الكفار ، يوم يرون الملائكة . لا من كلام الملائكة وإيضاحه : أن الكفار الذين اقترحوا إنزال الملائكة إذا رأوا الملائكة توقعوا العذاب من قبلهم ، فيقولون حينئذ للملائكة

: حجراً محجوراً : أي حراماً محرماً عليكم أن تمسونا بسوء أي لأننا لم نرتكب ذنباً نستوجب به العذاب ، كما أوضحه تعالى بقوله عنهم : ﴿ الذين تَتَوَفَّاهُمُ الملائكة ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوُاْ السلم مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سواء بلى إِنَّ الله عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [النحل : 28] فقولهم : ما كنا نعمل من سوء : أي لم نستوجب عذاباً فتعذيبنا حرام محرم ، وقد كذبهم الله في دعواهم هذه بقوله : ﴿ بلى إِنَّ الله عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [النحل : 28] وعادة العرب الذين نزل القرآن بلغتهم ، أنهم بلغتهم ، أنهم يقولون هذا الكلام : أي حجراً محجوراً عند لقاء عدو موتور أو هجوم نازلة أو نحو ذلك .

وقد ذكر سيبويه هذه الكلمة أعني : حجراً محجوراً في باب المصادر غير المتصرفة المنصوبة بأفعال متروك إظهارها نحو : معاذ نحو : معاذ الله ، وعمرك الله ، ونحو ذلك وقوله : حجراً محجوراً ، أصله من حجره بمعنى منعه ، والحجر الحرام ، لأنه ممنوع ومنه قوله : ﴿ وَقَالُواْ هذه أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ ﴾ [الأنعام : 138] أي حرام ﴿ لاَّ يَطْعَمُهَآ إِلاَّ مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ ﴾ [الأنعام : 138] ومنه قول المتلمس :

حنت إلى النخلة القصوى فقلت لها . . . حجر حرام ألا تلك الدهاريس

فقوله حرام تأكيد لقوله حجر لأن معناه حرام وقول الآخر :

ألا أصبحت أسماء حجراً محرماً . . . وأصحبت من أدنى حموتها حم

وقول الآخر :

قالت وفيها حيرة وذعر . . . عوذ بربي منكم وحجر

(81/559)

وقوله : محجوراً توكيد لمعنى الحجر . قال الزمخشري : كقول العرب : ذيل ذائل . والذيل الهوان ، وموت مائت ، وأما على القول بأن حجراً محجوراً من قول الملائكة ، فمعناه : أنهم يقولون للكفار حجراً محجوراً . أي حراماً محرماً أن تكون للكفار اليوم بشرى ، أو أن يغفر لهم ، أو يدخلون الجنة وهذا القول اختاره ابن جرير ، وابن كثير وغير واحد .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ الملائكة ﴾ قال الزمخشري : يوم منصوب بأحد شيئين ، إما بما دل عليه لا بشرى أي يوم يرون الملائكة يمنعون البشرى ، أو يعدمونها ، ويومئذ للتكرير ، وإما بإضمار اذكر : أي اذكر يوم يرون الملائكة ، ثم قال لا بشرى يومئذ للمجرمين .

وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا (23)

قد قدمنا الآيات الموضحة له في مواضع متعددة من هذا الكتاب المبارك في سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الآخرة وسعى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ

فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُوراً ﴾ [الإسراء : 19] الآية . وفي سورة النحل في الكلام على قوله تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ [النحل : 97] الآية . وغير ذلك عن إعادته هنا .

أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا (24)

استنبط بعض العلماء من هذه الآية الكريمة : أن حساب أهل الجنة يسير ، وأنه ينتهي في نصف نهار ، ووجه ذلك أن قوله : مقتيلاً : أي مكان قيلولة وهي الاستراحة في نصف النهار ، قالوا : وهذا الذي فهم من هذه الآية الكريمة ، جاء بيانه في قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (*) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً وَيَنقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُوراً ﴾ [الأنشقاق : 79] .

(82/559)

ويفهم من قوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ أَصْحَابُ الجنة يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرّاً ﴾ الآية . أن أصحاب النار ليسوا كذلك وأن حسابهم غير يسير .

وهذا المفهوم دلت عليه آيات أخر كقوله تعالى قريباً من هذه الآية ﴿ الملك يَوْمَئِذٍ الحق للرحمن وَكَانَ يَوْماً عَلَى الكافرين عَسِيراً ﴾ [الفرقان : 26] فقوله : على الكافرين يدل

على أنه على المؤمنين غير عسير ، كما قال تعالى : ﴿ لاَ يَحْزُنُهُمُ الفزع الأكبر ﴾ [الأنبياء : 103] الآية . وقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي الناقور فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ عَلَى الكافرين غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾ [المدّثّر : 810] وقوله تعالى : ﴿ مُّهْطِعِينَ إِلَى الداع يَقُولُ الكافرون هذا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾ [القمر : 8] وإذا علمت مما ذكرنا ما جاء من الآيات فيه بيان لقوله : أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلاً ، فهذه أقوال بعض المفسرين في المعنى الذي ذكرنا في الآية .

(83/559)

قال صاحب الدر المنثور : " وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ خَيْرٌ مُّسْتَقَرّاً وَأَحْسَنُ مَقِيلاً ﴾ قال " في الغرف من الجنة ، وكان حسابهم أن عرضوا على ربهم عرضة واحدة ، وذلك الحساب اليسير ، وذلك مثل قوله : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً وَيَنقَلِبُ إِلى أَهْلِهِ مَسْرُوراً ﴾ [الانشقاق : 79] وأخرج ابن المبارك في الزهد وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والحاكم ، وصححه عن ابن مسعود قال " لا ينتصف النهار من يوم القيامة حتى يقيل هؤلاء وهؤلاء ثم قرأ : " ﴿ أَصْحَابُ الجنة يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرّاً وَأَحْسَنُ مَقِيلاً ﴾ وقرأ (ثّمّ إِنَّ

مَقِيلَهُمْ لإِلَى الجَحِيم) وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : إنما هي ضحوة . فيقيل أولياء الله على الأسرة مع الحور العين ، ويقيل أعداء الله مع الشياطين مقرنين .

وأخرج ابن المبارك وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر ، وأبو نعيم ، في الحلية ، عن إبراهيم النخعي : كانوا يرون أنه يفرغ من حساب الناس يوم القيامة ، نصف النهار . فيقيل أهل الجنة في الجنة ، وأهل النار في النار ، فذلك قوله ﴿ أَصْحَابُ الجنة يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرّاً وَأَحْسَنُ مَقِيلاً ﴾ .

(84/559)

وأخرج ابن جرير ، عن سعيد بن الصواف قال : بلغني أن يوم القيامة يقصر على المؤمنن حتى يكون كما بين العصر إلى غروب الشمس ، وإنهم ليقيلون في رياض الجنة ، حين يفرغ الناس من الحساب ، وذلك قوله : ﴿ أَصْحَابُ الجنة يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرّاً وَأَحْسَنُ مَقِيلاً ﴾ إلى أن قال : وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة قال : إني لأعرف الساعة التي يدخل فيها أهل الجنة الجنة ، وأهل النار ، النار ، الساعة التي يكون فيها ارتفاع الضحى الأكبرن إذ انقلب الناس إلى أهليهم ، للقيلولة ، فينصرف أهل النار إلى النار ، وأما أهل الجنة فينطلق بهم إلى الجنة ، فكانت قيلولتهم في الجنة ، واطعموا كبد الحوت فأشبعهم كلهم فذلك قوله :

﴿ أَصْحَابُ الجنة يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرّاً وَأَحْسَنُ مَقِيلاً ﴾ انتهى منه .

وذكر نحوه القرطبي مرفوعاً وقال : ذكره المهدوي . والظاهر أنه لا يصح مرفوعاً ، وقال القرطبي أيضاً : وذكر قاسم بن أصبغ من حديث أبي سعيد الخدري ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ " فقلت : ما أطول هذا اليوم . فقال صلى الله عليه وسلم : " والذي نفسي بيده إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة المكتوبة " وهو ضعيف أيضاً ، وما ذكره عن ابن مسعود من أنه قرأ : (ثّمّ إِنَّ مَقِيلَهُمْ لإِلَى الجَحِيم) معلوم أن ذلك ذلك شاذ لا تجوز القراءة به ، وأن القراءة الحق ﴿ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لإِلَى الجحيم ﴾ [الصافات : 68] .

واعلم أن قول قتادة في هذه الآية معروف مشهور ، وعليه فلا دليل في الآية لما ذكرنا ، وقول قتادة هو أن معنى قوله : ﴿ وَأَحْسَنُ مَقِيلاً ﴾ أي منزلاً ومأوى ، وهذا التفسير لا دليل فيه على القيلولة في نصف النهار كما ترى .

(85/559)

وقد بينا في كتابنا : دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب : وجه الجمع بين ما دل عليه قوله هنا : ﴿ وَأَحْسَنُ مَقِيلاً ﴾ من انقضاء الحساب في نصف نهار ، وبين ما دل عليه قوله

تعالى : ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ [المعارج : 4] وذكرنا الآيات المشيرة إلى الجمع ، وبعض الشواهد العربية .

واعلم أن المشهور في كلام العرب أن المقيل القيلولة أو مكانها ، وهي الاستراحة نصف النهار ومن الحر مثلاً ، وإن لم يكن معها نوم ، ومنه قوله :

جزى الله خير الناس خير جزائه . . . رفيقين قالا خيمتي أم معبد

أي نزلا فيها وقت القائلة ، كما قاله صاحب اللسان ، وما فسر به قتادة الآية ، من أن المقيل المنزل والمأوى ، معروف أيضاً في كلام العرب . ومنه قول ابن رواحة :

اليوم نضربكم على تنزيله . . . ضرباً يزيل الهام عن مقيله

فقوله : يزيل الهام عن مقيله ، يعني : الرؤوس عن مواضعها من الأعناق ، ومعلوم أن المقيل فيه المحل الذي تسكن في الرؤوس والظاهر أن من هذا القبيل قول أحيحة بن الجلاح الأنصاري :

وما تدري وإن أجمعت أمراً . . . بأي الأرض يدركك المقيل

وعليه فالمعنى : بأي الأرض يدركك الثواء والإقامة بسبب الموت أو غيره من الأسباب ، وصيغة التفضيل في قوله هنا : ﴿ خَيْرٌ مُّسْتَقَرّاً وَأَحْسَنُ مَقِيلاً ﴾ تكلمنا على مثلها قريباً في الكلام على قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَذلك خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الخلد ﴾ [الفرقان : 15] الآية .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 6 صـ ﴾

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ ﴾

واللقاء : يعني البعث ، وقد آمنا بالله غَيْباً وفي الآخرة نؤمن به تعالى مَشْهداً ﴿ لِّمَنِ الملك اليوم ﴾ [غافر : 16] حتى مَنْ لم يؤمن في الدنيا سيؤمن في الآخرة .

لذلك يقول سبحانه في موضع آخر : ﴿ والذين كفروا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظمآن مَآءً حتى إِذَا جَآءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ الله عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ والله سَرِيعُ الحساب ﴾ [النور : 39] .

ويا ليته جاء فلم يجد عمله ، المصيبة أنه وجد عمله كاملاً ، ووجد الله تعالى يحاسبه ويُجازيه ، ولم يكن هذا كله على باله في الدنيا ؛ لذلك يُفَاجأ به الآن .

وقوله : ﴿ لاَ يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ﴾ [الفرقان : 21] يعني : لا ينتظرونه ولا يؤمنون به ؛ لذلك لم يستعدوا له ، لماذا ؟ لأنهم آثروا عافية العاجلة على عافية الآجلة ، ورأَوْا أمامهم شهواتٍ ومُتَعاً لم يصبروا عليها ، وغفلوا عن الغاية الأخيرة .

ما هو اللقاء ؟ اللقاء يعني الوَصْل والمقابلة ، لكن كيف يتم الوَصْل والمقابلة بين الحق تبارك

وتعالى وبين الخَلْق وهذه من المسائل التي كَثُر فيها الجدال ، وحدثت فيها ضجّة شككتْ المسلمين في كثير من القاضيا .

قالوا : اللقاء يتقضي أن يكون الله تعالى مُجسّماً وهذا ممنوع ، وقال آخرون : ليس بالضرورة أن يكون اللقاء وَصْلاً ، فقد يكون مجردَ الرؤية ؛ لأن رؤية العَيْن للرب ليست لقاء ، وهذا قول أهل السنة .

أما المعتزلة فقد نفَوْا حتى الرؤية ، فقال : لا يلقونه وَصْلاً ولا رؤية ، لأن الرائي يحدد المرئي ، وهذا مُحَال على الله عز وجل .

(87/559)

ونقول للمعتزلة : أنتم تأخذون المسائل بالنسبة لله ، كما تأخذونها بالنسبة لمخلوقات الله ، لماذا لا تأخذون كل شيء بالنسبة لله تعالى في إطار ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [الشورى : 11] فإذا كان لكم ببعض لقاء يقتضي الوَصْل ، فالله تعالى لقاء لا يقتضي الوصل ، وإذا كانت الرؤية تحدد فلله تعالى رؤية لا تحدد . إن لك سَمْعاً ولله سمع أسمعُك كسمع الله عز وجل ؟ إذن : لماذا تريد أن يكون لقاء الله كلقائك يقتضي تجسُّداً ، أو رؤيته كرؤيتك ؟ لذلك في قصة رؤية موسى عليه السلام لربه عز وجل ، ماذا قال موسى ؟ قال : ﴿ رَبِّ

أرني أَنظُرْ إِلَيْكَ ﴾ [الأعراف : 143] فطلب من ربه أن يُريه لأنه لا يستطيع ذلك بذاته ، ولا يصلح لهذه الرؤية ، ألا أن يُريه الله ويطلعه ، فالمسألة ليست من جهة المرئيّ ، إما من جهة الرائي . لكن هل قرَّعه الله على طلبه هذا وقال عنه : استكبر وعتا عُتُواً كبيراً كما قال هنا ؟ لا إنما قال له : ﴿ لَن تَرَانِي ﴾ [الأعراف : 143] ولم يقُلْ سبحانه : لن أُرَى ، وفرْق بين العبارتين .

فقوله : ﴿ لَن تَرَانِي ﴾ [الأعراف : 143] المنع هنا ليس من المرئيّ بل المنع من الرائي ؛ لذلك أعطاه ربه عز وجل الدليل : ﴿ ولكن انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ﴾

[الأعراف : 143] يعني : أأنت أقوى أم الجبل ؟ ﴿ فَلَمَّا تجلى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً وَخَرَّ موسى صَعِقاً ﴾ [الأعراف : 143] .

ولاحظ : ﴿ فَلَمَّا تجلى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ ﴾ [الأعراف : 143] كلمة تجلى أي : أن الله تعالى يتجلى على بعض خَلْقه ، لكن أيصبرون على هذا التجلي ؟ وليس الجبل أكرم عند الله من الإنسان الذي سخّر الله له الجبل وكلّ شيء في الوجود .

(88/559)

إذن : فالإنسان هو الأكرم ، لكن تكوينه وطبيعته لا تصلح لهذه الرؤية ، وليس لديه الاستعداد لتلقّي الأنوار الإلهية ؛ ذلك لأن الله تعالى خلقه للأرض . أما في الآخرة فالأمر مختلف ؛ لذلك سيُعدِّل الله هذا الخلق بحيث تتغير حقائقه ويمكنه أن يرى ، وإذا كان موسى عليه السلام قد صُعِق لرؤية المتجلَّى عليه وهو الجبل ، فكيف به إذا رأى المتجلِّي عز وجل ؟

لذلك ، كان من نعمة الله تعالى على عباده في الآخرة : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة : 2223] .

وقال عن الكفار : ﴿ كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ [المطففين : 15] : إذن : ما يُميِّز المؤمنين عن الكافرين أنهم لا يُحجبون عن رؤية ربهم عز وجل بعد أنْ تغيَّر تكوينهم الأخروي ، فأصبحوا قادرين على رؤية ما لم يَرَوْه في الدنيا . وإذا كان البشر الآن بتقدّم العلم يصنعون لضعاف البصر ما يُزِيد من بصرهم ورؤيتهم ، فلماذا نستبعد هذا بالنسبة لله تعالى ؟

لذلك ، تجد المسرفين على أنفسهم يجادلون بما يريحهم ، فتراهم يُنكِرون البعث ، ويُبعِدون هذه الفكرة عن أنفسهم ؛ لأنهم يعلمون سوء عاقبتهم إنْ أيقنُوا بالبعث واعترفوا به .

ومن المسرفين على أنفسهم حتى مؤمنون بإله ، يقول أحدهم : ما دام أن الله تعالى قدَّر عليَّ المعصية ، فلماذا يُحاسبني عليها ؟ ونعجب لأنهم لم يذكروا المقابل ولم يقولوا : ما دام قد

قدَّر علينا الطاعة ، فلماذا يثيبنا عليها ؟ إذن : لم يقفوا الوقفة العقلية السليمة ؛ لأن الأولى ستجرُّ عليهم الشر فذكروها ، أما الأخرى فخير يُسَاق إليهم ؛ لذلك غفلوا عن ذِكْرها .

وقولهم : ﴿ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْنَا الملائكة أَوْ نرى رَبَّنَا ﴾ [الفرقان : 21] وهذا يدلّ على تكبُّرهم واعتراضهم على كَوْن الرسول بَشَراً ، وفي موضع آخر قالوا : ﴿ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا ﴾ [التغابن : 6] .

(89/559)

إذن : كل ما يغيظهم أن يكون الرسول بشراً ، وهذا الاستدراك يدلُّ على غبائهم ، فلو جاء الرسول ملَكاً ما صَحَّ أن يكون لهم قدوة ، وما جاء الرسول إلا ليكون قُدْوةً ومُعلِّماً للمنهج وأُسْوة سلوك ، ولو جاء ملَكاً لأمكنه نعم أنْ يُعلِّمنا منهج الله ، لكن لا يصح أنْ يكون لنا أُسْوة سلوك ، فلو أمرك بشيء وهو مَلَك لَكان لك أنْ تعترض عليه تقول : أنت مَلَكٌ تقدر على ذلك ، أمَّا أنا فبشر لا أقدر عليه .

فالحق سبحانه يقول : لاحظوا أن للرسل مهمتين : مهمةَ البلاغ ، ومهمة الأُسْوة السلوكية ، فلو أنهم كانوا من غير طبيعة البشر لتأتّى لهم البلاغ ، لكن لا يتأتى لهم أن يكونوا قُدْوة ونموذجاً يُحتذى .

ولو جاء الرسول ملَكًا على حقيقته ما رأيتموه ، ولا حتجتم له على صورة بشرية ، وساعتها لن تعرفوا أهو ملَكٌ أم بشر ، إذن ، لا بُدَّ أن تعود المسألة إلى أن يكون بشراً ، لذلك يقول سبحانه : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾ [الأنعام : 9] .

ومسألة نزول الملائكة مع الرسول من الاقتراحات التي اقترحها الكفار على رسول الله ليطلبها من ربه ، وهذا يعني أنهم يريدون دليلَ تصديق على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وسبق أنْ جاءهم رسول الله بمعجزة من جنس ما نبغُوا فيه وعجزوا أنْ يُجَاروه فيها ، ليثبت أن ذلك جاء من عند ربهم القوي ، ومعنى هذه المعجزة أنها تقوم مقام قوله صدق عبدي في كل ما يُبلِّغ عني . وما دامت المعجزة قد جاءتْ بتصديق الرسول ، فهل هناك معجزة أَوْلَى من معجزة ؟

لقد كانت معجزة القرآن كافية لتقوم دليلاً على صِدْق الرسول في البلاغ عن الله ، وأيضاً جاءكم بغيبيّات لا يمكن أن يطلع عليها إنسان ، لا في القديم الذي حدث قبل أنْ يُولدَ ، ولا في الحديث الذي سيكون بعد أنْ يُولد .

إذن : فدليل صدق الرسول قائم ، فما الذي دعاكم إلى اقتراح معجزات أخرى ؟

وقولهم : ﴿ أَوْ نرى ربَّنَا ﴾ [الفرقان : 21] والله ، لو كان إله يُرَى لكم ما صَحَّ أن يكون إلهاً ؛ لأن المرئي مُحَاطٌ بحدقة الرائي ، وما دام أحاط به فهو إذن محدود ، ومحدوديته تنافي الوهيته .

وإلاَّ فالمعاني التي تختلج بها النفس الإنسانية مثل الحق والعدل الذي يتحدث عنه الناس وينشدونه ويتعصَّبون له ، ويتهافتون عليه لحلِّ مشاكلهم وتيسير حياتهم : أتدرك هذه المعاني وأمثالها بالحواس ؟ كيف تطلب أن تدرك خالقها عز وجل وبالحواسّ ؟

لذلك يختم الحق سبحانه هذه المسألة بقوله : ﴿ لَقَدِ استكبروا في أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوّاً كَبِيرا ﴾ [الفرقان : 21] استكبر وتكبَّر : حاول أن يجعل نفسه فوق قَدْره ، وكلُّ إنسان مِنّا له قَدْر محدود .

ومن هنا جاء القول المأثور : " رَحِمَ الله امرءً عرف قدر نفسه " . فلماذا إذن يتكبّر الإنسان ؟ لو أنك إنسان سويّ فإنك تسعد حين نمنع عنك مَنْ يسرقك ، أو ينظر إلى محارمك أو يعتدي عليك ، فلماذا تغضب حينما نمنعك عن مثل هذا ؟

النظرة العقلية أن تقارن بين مَا لك ومَا عليك ، لقد منعنا يدك وهي واحدة أنْ تسرق ، ومقابل ذلك منعنا عنك جميع أيدي الناس أن تسرق منك ، منعنا عينك أن تمتد إلى محارم الآخرين ، ومنعنا جميع الأَعْيُن أنْ تمتدّ إلى محارمك ؛ فلماذا إذن تفرح لهذه وتغضب من

هذه ؟ كان يجب عليك أن تحكم بنفس المنطق ، فإنْ أحببتَ ما كان لك وكرهتَ ما كان لغيرك فقد جانبتَ الصواب وخالفتَ العدالة .

ومن استكبارهم مواجهتهم لرسول الله في بداية دعوته وقولهم : ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هذا القرآن على رَجُلٍ مِّنَ القريتين عَظِيمٍ ﴾

(91/559)

[الزخرف : 31] إذن : القرآن لا غبارَ عليه ، وهذا حكم واقعي منهم ؛ لأنهم أمة بلاغة وفصاحة ، والقرآن في أَرْقَى مراتب الفصاحة والبيان ، إنما الذي وقف في حُلُوقهم أن يكون الرسول رجلاً من عامة الناس ، يريدونه عظيماً في نظرهم ، حتى إذا ما اتبعوه كان له حيثية تدعو إلى اتباعه .

إذن : الاستكبار أن تستكبر أن تكون تابعاً لمنْ تراه دونك ، ونحن ننكر هذا ؛ لأنك لم تَرَ محمداً صلى الله عليه وسلم قبل أن يقوم بالرسالة أنه دونك ، بل كنت تضعه في المكان الأعلى ، وتُسمِّيه الصادق الأمين ، فمتى إذن جعلْتَه دونك ؟ إنها الهبة التي وهبه الله ، إنها الرسالة التي جعلتك تأخذ منه ما كنتَ تعطيه قبل أن يكون رسولاً .

وهل سبق لكم أَنْ سمعتم عن رسول جاء معه ربه عَزَّ وجَلَّ يقول لقومه : هذا رسولي ؟ وما

دام أن الله تعالى سيواجهكم هذه المواجهة فلا داعيَ إذن للرسول ؛ لأن الله تعالى سيخاطبكم بالتكليف مباشرة وتنتهي المسألة . ومعلوم أن هذا الأمر لم يحدث ، فأنتم تطلبون شيئاً لم تسمعوا به ، وهذا دليل على تلكؤكم واستكباركم عن قبول الإيمان فجئتم بشيء مستحيل .

إذن : المسألة من الكفار تلكؤٌ وعناد واستكبار عن قبول الحق الواضح ، وقد سبق أن اقترحوا مثل هذه الآيات والمعجزات ، فلما أجابهم الله كذّبوا ، مع أن الآيات والمعجزات ليست باقتراح المرسل إليهم ، إنما تفضُّل من الله تعالى واهب هذه الرسالة .

والاستكبار مادته الكاف والباء والراء . وتأتي بمعانٍ عِدَّة : تقول كَبَرَ يكْبَر أي : في عمره وحجمه ، وكَبُر يكبُر أي : عَظُم في ذاته ، ومنها قوله تعالى : ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ﴾ [الكهف : 5] .

وتكبَّر : أظهر صفة الكبرياء للناس ، واستكبر : إذا لم يكُنْ عنده مؤهلات الكِبر ، ومع ذلك يطلب أن يكون كبيراً .

(92/559)

فالمعنى ﴿ استكبروا ﴾ [الفرقان : 21] ليس في حقيقة تكوينهم إنما ﴿ استكبروا في أَنفُسِهِمْ ﴾ [الفرقان : 21] في أنهم يتبعُون الرسول ، أي : أنها كبيرة عليهم أن يكونوا تابعين لرجل يروْنَ غيره أغنى منه أو أحسن منه (على زعمهم) .

ونرى مثلاً أحد الفتوات الذي يخضع له الجميع إذا ما رأى مَنْ هو أقوى منه انكمشَ أمامه وتواضع ؛ لأنه يستكبر بلا رصيد وبشيء ليس ذاتياً فيه . . إذن : المتكبر بلا رصيد غافل عن كبرياء ربه ، ولو استشعر كبرياء الله عَزَّ وجَل لاستحَى أنْ يتكبّر .

لذلك نرى أهل الطاعة والمعرفة دائماً منكسرين ، لماذا ؟ لأنهم دائماً مستشعرون كبرياءَ الله ، والإنسان (لا يتفرعن) إلا إذا رأى الجميع دونه ، وليس هناك مَنْ هو أكبر منه .

فينبغي ألا يَتكبَّر الإنسان إلا بشيء ذاتي فيه لا يُسلبَ منه ، فإن استكبرت بِغنَاك فربما افتقرتَ ، وإنِ استكبرتَ بقوتك فرُبّما أصابك المرض ، وإنِ استكبرتَ بعلمك لا تأمنْ أن يُسلبَ منك لكي لا يعلم من بعد علم شيئاً .

ومن لُطْف الله بالخَلْق ورحمته بهم أنْ يكون له وحده الكبرياء ، وله وحده سبحانه التكبُّر والعظمة ، ويعلنها الحق تبارك وتعالى : " الكبرياء ردائي ، والعظمة إزاري ، فمن نازعني واحداً منهما أدخلته جهنم " .

والحق تبارك وتعالى لا يجعلها جبروتاً على خَلْقه ، إنما يجعلها لهم رحمة ؛ لأن الخَلْق منهم الأقوياء والفُتوات والأغنياء . . حين يعلمون أن لله تعالى الكبرياء المطلق يعرف كل منهم

قدره (ويرعى مساوى) ، فالله هو المتكبر الوحيد ، ونحن جميعاً سواء .

لذلك يقول أهل الريف (اللي ملوش كبير يشتري له كبير) وحين يكون في البلد كبير يخاف منه الجميع لا يجرؤ أحد أنْ يعتديَ على أحد في وجوده ، إنما إنْ فُقِد هذا الكبير فإن القوي يأكل الضعيف . إذن : فالكبرياء من صفات الجلال لله تعالى أنْ جعلها الله لنفع الخَلْق .

(93/559)

ولو تصورنا التكبر مِمَّنْ يملك مؤهلاته ، كأن يكون قوياً ، أو يكون غنياً . . إلخ فلا نتصور الكبر من الضعيف أو من الفقير ؛ لذلك جاء في الحديث : " أبغض ثلاثاً وبغضي لثلاث أشد ، أبغض الغني المتكبر وبُغضي للفقير المتكبر أشد ، وأبغض الفقير البخيل وبغضي للغني البخيل أشدّ ، وأبغض الشاب العاصي وبغضي للشيخ العاصي أشد " .

وقوله تعالى : ﴿ وَعَتَوْا عُتُوّاً كَبِيراً ﴾ [الفرقان : 21] عتوا : بالغوا في الظلم والتحدي وتجاوزوا الحدود ، وكأن هذا غير كافٍ في وصفهم ، فأكّد العُتُو بالمصدر (عتواً) ثم وصف المصدر أيضاً ﴿ عُتُوّاً كَبِيراً ﴾ [الفرقان : 21] لماذا كل هذه المبالغة في التعبير ؟ قالوا : لأنهم ما عَتَوْا بعضهم على بعض ، إنما يتعاتون على رسول الله ، بل وعلى الله عز وجل ؛ لذلك استحقُّوا هذا الوصف وهذه المبالغة .

والعاتي الذي بلغ في الظُّلم الحدَّ مثل الطاغوت الذي إنْ خاف الناس منه انتفش ، وتمادى وازداد قوة .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الكبر عِتِيّاً ﴾ [مريم : 8] ومعلوم أن الكِبَر ضعف ، كما قال سبحانه : ﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً ﴾ [الروم : 54] فكيف إذن يصف الكبر بأنه عَاتٍ ؟ قالوا : العاتي هو القوي الجبار الذي لا يقدر أحد على صَدِّه أو رَفْع رأسه أمامه ، وكذلك الكِبَر على ضَعْفه ، إلا أنه لا توجد قوة تطغى عليه فتمنعه .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ الملائكة ﴾

يتحدث الحق تبارك وتعالى عن هؤلاء الذين اقترحوا على رسول الله الآيات وطلبوا أن تنزل معه الملائكة فيرونها ، وتشهد لهم بصدقه صلى الله عليه وسلم ، فيقول لهم سبحانه : أنتم تشتهون أنْ تروْا الملائكة ، فسوف تروْنها لكن في موقف آخر ، ليس موقف البُشْريات والخيرات ، إنما في موقف الخزي والندامة والعذاب :

(94/559)

﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ الملائكة لاَ بشرى يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ [الفرقان : 22] فسوف ترونهم رؤيا الفزع والخوف عندما يأتون لقبْض أرواحكم ، أو سترونْهَم يوم القيامة يوم يُبشّرونكم بالعذاب .

يوم يستقبلون المؤمنين : ﴿ بُشْرَاكُمُ اليوم جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار ﴾ [الحديد : 12] فيستشرف الكفار لسماع هذه الكلمة لكن هيهات ﴿ لاَ بشرى يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ [الفرقان : 22] فيمنعون عنهم هذه الكلمة المحبّبة التي ينتظرونها ، ويقابلونهم بكلمة أخرى تناسبهم .

يقولون لهم : ﴿ حِجْراً مَّحْجُوراً ﴾ [الفرقان : 22] والحِجْر : المنع ، ومنه : نحجر على فلان يعني : نمنعه من التصرُّف . وقديماً كانوا يقولون في دفع الشر : حِجْراً محجوراً يعني : منعاً ، ومثل ذلك ما نسمعهم يقولون إذا ذُكِرَ الجن : حابس حابس يعني : ابتعد عني لا تقربني .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَقَدِمْنَآ إلى مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَآءً مَّنثُوراً ﴾ حين تنظر في غير المؤمنين تجد من بينهم أهلاً للخير وعمل المعروف ، ومنهم أصحاب مَلَكات طيّبة ، كالذين اجتمعوا في حلف الفضول لنصْرة المظلوم ، وكأهل الكرم وإطعام الطعام ، ومنهم مَنْ كانت له قِدْر عظيمة استظلّ رسول الله في ظلها يوم حر قائظ ، وهذا يعني أنها كانت كبيرة واسعة منصوبة وثابتة كالبناء ، كان يُطْعم منها الفقراء والمساكين ،

وحتى الطير والوحوش ، وما زِلْنا حتى الآن نضرب المثل في الكرم بحاتم الطائي . وكان منهم مَنْ يصل الرحم ويغيث الملهوف . . الخ .

لكن هؤلاء وأمثالهم عملوا لجاه الدنيا ، ولم يكُنْ في بالهم إله يبتغون مرضاته ، والعامل يأخذ أجْره ممَّنْ عمل له ، كما جاء في الحديث القدسي : " فعلت ليقال ، وقد قيل " .

(95/559)

والحق تبارك وتعالى يُوضِّح هذه المسألة في قوله تعالى : ﴿ والذين كفروا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظمآن مَآءً حتى إِذَا جَآءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ الله عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ والله سَرِيعُ الحساب ﴾ [النور : 39] .

وقال تعالى أيضاً : ﴿ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشتدت بِهِ الريح فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ﴾ [إبراهيم : 18] .

فقد عمل هؤلاء أعمالَ خير كثيرة ، لكن لم يكُنْ في بالهم الله ، إنما عملوا للإنسانية وللشهرة وليُقال عنهم ؛ لذلك نراهم في رفاهية من العيش وسَعة مُمتَّعين بألوان النعيم ، لماذا ؟ لأنهم أخذوا الأسباب المخلوقة لله تعالى ، ونفّذوها بدقة ، والله تبارك وتعالى لا يحرم عبده ثمرةَ مجهوده ، وإنْ كان كافراً ، فإنْ ترك العبدُ الأسبابَ وتكاسل حرَمه الله وإنْ كان مؤمناً .

وفَرْق بين عطاءات الربوبية التي تشمل المؤمن والكافر والطائع والعاصي ، وبين عطاءات الألوهية .

فمن الكفار مَنْ أحسن الأَخْذ بالأسباب ، فاخترعوا أشياء نفعتْ الإنسانية ، وأدوية عالجتْ كثيراً من الأمراض . ولا بُدَّ أن يكون لهم جزاء على هذا الخير ، وجزاؤهم أخذوه في الدنيا ذِكْراً وتكريماً وتخليداً لذِكْراهم ، وصُنِعت لهم التماثيل وأُعْطوا النياشين ، وأُلِّفتْ في سيرتهم الكتب ، كأن الله تعالى لم يجحدهم عملهم ، ولم يبخسهم حقهم .

ألاَ ترى أن أبا لهب الذي وقف من رسول الله موقِفَ العداء حتى نزل فيه قوله تعالى : ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَآ أَغنى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴾ [المسد : 12] ومع ذلك يُخفِّف الله عنه العذاب ؛ لأنه أعتقَ جاريته ثويبة حينما بشَّرته بميلاد محمد بن عبد الله ؛ لأنه فرح بهذه البُشْرى وأسعده هذا الخبر .

(96/559)

ومن العجيب أن هؤلاء يقفون عند صناعات البشر التي لا تعدو أن تكون تَرَفاً في الحياة ، فيُؤرِّخون لها ولأصحابها ، وينسون خالق الضروريات التي أعانتهم على الترقِّي في كماليات الحياة وترفها .

وكلمة ﴿ هَبَآءً ﴾ [الفرقان : 23] : الأشياء تتبين للإنسان ، إما لأن حجمها كبير أو لأنها قريبة ، فإنْ كانت صغيرة الحجم عزَّتْ رؤيتها ، فمثلاً يمكنك رؤية طائرة أو عصفور إنْ طار أمامك أو حتى دبور أو نحلة ، لكن ما لو طارتْ أمامك بعوضة لا تستطيع رؤيتها .

إذن : الشيء يختفي عن النظر لأنه صغير التكوين ، لا تستطيع العين إدراكه ؛ لذلك اخترعوا المجاهر والتليسكوب .

وقد يكون الشيء بعيداً عنك فلا تراه لبُعده عن مخروطية الضوء ؛ لأن الضوء يبدأ من نقطة ، ثم يتسع تدريجياً على شكل مخروط ، كما لو نظرتَ من ثُقْب الباب الذي قُطْره سنتيمتر فيمكن رؤية مساحة أوسع منه بكثير .

إذن : إنْ أردتَ أن ترى الصغير تُكبِّره ، وإنْ أردتَ أنْ ترى البعيد تُقرِّبه .

والهباء : هو الذرّات التي تراها في المخروط الضوئي حين ينفذ إلى حجرتك ، ولا تراها بالعين المجرّدة لدِقّتها ، وهذا الهباء الذي تراه في الضوء ﴿ هَبَآءً مَّنثُوراً ﴾ [الفرقان : 23] يعني : لا تستطيع أنْ تجمّعه ؛ لأنه منتشر وغير ثابت ، فمهما أوقفتَ حركة الهواء تجدْه في الضوء يتحركِ لِصِغَر حجمه .

فإنْ قلتَ : نراهم الآن يصنعون (فلاترَ) لحجز هذا الهباء فتُجمّعه وتُنقِّي الهواء منه ، وهي على شكل مَسامّ أسفنجية يعْلَق بها الهباء ، فيمكن تجميعه .

نقول : حتى مع وجود هذه الفلاتر ، فإنها تجمع على قَدْر دِقّة المسامّ ، وتحجز على قَدْرها

، وعلى فَرْض أنك جمعتَه في هذا الفلتر ، ثم أفرغته وقُلتْ لي : هذا هو الهباء ، نقول لك :

أتستطيع أنْ ترد كل ذرة منها إلى أصلها الذي طارتْ منه ؟

أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا (24)

(97/559)

بعد أن وصف الحق تبارك وتعالى ما يؤول إليه عمل الكافرين أراد سبحانه أنْ يُحدّثنا عن جزاء المؤمنين على عادة القرآن في ذكر المتقابلات التي يظهر كل منها الآخر ، وهذه الطريقة في التعبير كثيرة في كتاب الله منها : ﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً ﴾ [التوبة : 82]

.

ومنها أيضاً قول الحق سبحانه : ﴿ إِنَّ الأبرار لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الفجار لَفِي جَحِيمٍ ﴾ [الانفطار : 1314] .

وهكذا ، ينقلك القرآن من الشيء إلى ضِدّه لتميز بينهما ، فالمؤمن في النعيم ينظر إلى النار وحَرِّها ، فيحمد الله الذي نجاه منها ، وهذه نعمة أخرى أعظم من الأولى . والكافر حين ينظر إلى نعيم الجنة يتحسَّر ويعلم عاقبةَ الكفر الذي حرمه من هذا النعيم ، فيكون هذا أبلغَ في النكاية وأشد في العذاب ؛ لذلك قالوا : وبضدّها تتميز الأشياء .

وقوله سبحانه : ﴿ أَصْحَابُ الجنة يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرّاً وَأَحْسَنُ مَقِيلاً ﴾ [الفرقان : 24] صاحب الشيء : المرافق له عن حُبَّ ، فكأن الجنة تعشَق أهلها وهم يعشقونها ، فقد نشأت بينهما محبة وصُحْبة ، فكما تحب أنت المكان يحبك المكان ، وأيضاً كما تبغضه يبغضك . ومنه قولهم : نَبَا به المكان يعني : كَرِهه المكان .

وكلمة ﴿ أَصْحَابُ الجنة ﴾ [الفرقان : 24] تدل أيضاً على الملكية ؛ لأنهم لن يخرجوا منها ، وهي لن تزول ولن تنتهي .

وكلمة ﴿ خَيْرٌ ﴾ [الفرقان : 24] قلنا : إنها تُستعمل استعمالين : خير يقابله شرّ ، كما في قوله تعالى : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ ﴾ [الزلزلة : 78] وقوله تعالى : ﴿ أولئك هُمْ خَيْرُ البرية ﴾ [البينة : 7] . . . . ﴿ أولئك هُمْ شَرُّ البرية ﴾ [البينة : 6] .

(98/559)

وهناك أيضاً خير يقابله خير ، لكن أقلّ منه ، كما لو قلت : هذا خير من هذا ، وكما في الحديث الشريف : " المؤمن القوي خير وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفي كل خير " .

وفي بعض الأساليب لا نكتفي بصيغة (خير) للتمييز بين شيئين ، فنقول بصيغة أفعل التفصيل : هذا أَخْبر من هذا .

وكلمة ﴿ مُّسْتَقَرّاً ﴾ [الفرقان : 24] المستقر : المكان الذي تستقر أنت فيه ، والإنسان لا يُؤْثِر الاستقرار في مكان عن مكان آخر ، إلا إذا كان المكان الذي استقر فيه أكثرَ راحةً لنفسه من غيره ، كما نترك الغرفة مثلاً في الحرِّ ، ونجلس في الحديقة أو الشُّرْفة .

ومن ذلك نقول : إذا ضاقتْ بك أرض فاتركها إلى غيرها ، على حَدِّ قوله تعالى : ﴿ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَماً كَثِيراً ﴾ [النساء : 100] .

ويقول الشاعر :

لَعَمْرُكَ مَا ضَاقَتْ بلادٌ بأَهْلِهَا . . . وَلَكِنَّ أَخْلاقَ الرجَالِ تَضِيقُ

ومعنى ﴿ وَأَحْسَنُ مَقِيلاً ﴾ [الفرقان : 24] المقيل : هو المكان الذي كانت تقضي فيه العرب وقت القيلولة ، وهي ساعة الظهيرة حين تشتدّ حرارة الشمس ، ونسميها في العامية (القيالة) ويقولون لمن لا يستريح في هذه الساعة : العفاريت مِقيّلة ! !

لكن أَفِي الجنة قيلولة وليس فيها حَرٌّ ، ولا برد ، ولا زمهرير ؟

قالوا : القيلولة تعني محلّ فراغ الإنسان لخاصة نفسه ، أَلا ترى أن الحق تبارك وتعالى حينما ذكر أوقات الاستئذان في سورة النور جعل منها هذا الوقت ، فقال سبحانه : ﴿ وَحِينَ

تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِّنَ الظهيرة ﴾ [النور : 58] فأمر الصغار أن يستأذنوا علينا في هذا الوقت ؛ لأنه من أوقات العورة .

(99/559)

إذن : المستقر شيء ، والمقيل للراحة النفسية الشخصية شيء آخر ، لأنك قد تستقر في مكان ومعك غيرك ، أمَّا المقيل فمكان خاصّ بك ، إذن : لك في الجنة مكانان : عام وخاص ؛ لذلك قالوا في قول الله تعالى : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن : 46] قالوا : جنة عامة وجنة خاصة ، كما يكون لك مكان لاستقبال الضيوف ، ومكان لخاصّة نفسك وأهلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(100/559)

فائدة

قال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى: ﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرّاً وَأَحْسَنُ مَقِيلاً ﴾ .

هذه الآية الكريمة تدل على انقضاء الحساب في نصف نهار ؛ لأن المقيل: القيلولة أو مكانها ؛ وهي: الاستراحة نصف النهار في الحر ، وممن قال بانقضاء الحساب في نصف نهار: ابن عباس وابن مسعود وعكرمة وابن جبير ؛ لدلالة هذه الآية على ذلك كما نقله عنهم ابن كثير وغيره ، وفي تفسير الجلالين ما نصه: وأخذ من ذلك انقضاء الحساب في نصف نهار كما ورد في حديث انتهى منه مع أنه تعالى ذكر أن مقدار يوم القيامة خمسون ألف سنة في قوله تعالى: ﴿ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ والظاهر في الجواب أن يوم القيامة يطول على الكفار ويقصر على المؤمنين ويشير لهذا قوله تعالى بعد هذا بقليل: ﴿ الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْماً عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيراً ﴾ فتخصيصه عسر ذلك اليوم بالكافرين يدل على أن المؤمنين ليسوا كذلك وقوله تعالى: ﴿ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾ يدل بمفهومه أيضاً على أنه يسير على المؤمنين غير عسير كما دل عليه قوله تعالى : ﴿ مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾ وقال ابن جرير: حدثني يونس أنبأنا ابن وهب أنبأنا عمرو بن الحارث أن سعيداً الصواف حدثه أنه بلغه أن يوم القيامة يقصر على المؤمنين حتى يكون كما بين العصر إلى غروب الشمس وأنهم يتقلبون في رياض الجنة حتى يفرغ من الناس وذلك قوله: ﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرّاً وَأَحْسَنُ مَقِيلاً ﴾ ونقله عنه ابن كثير في تفسيره ، ومن المعلوم أن السرور يقصر به الزمن ، والكروب والهموم سبب لطوله كما قال أبو سفيان بن الحارث يرثي النبي صلى الله عليه

وسلم:

أرقت فبات ليلي لا يزول

وليل أخي المصيبة فيه طول

وقال الآخر:

(101/559)

فقصار هن مع الهموم طويلة

وطوالهن مع السرور قصار . . .

ولقد أجاد من قال:

ليلي وليلي نفى نومي اختلافهما

في الطول والطول ، طوبى لي لو اعتدلا

يجود بالطول ليلي كلما بخلت

بالطول ليلي وإن جادت به بخلا

ومثل هذا كثير في كلام العرب جداً .

وأما على قول من فسر المقيل بأنه المأوى والمنزل كقتادة رحمه الله فلا تعارض بين الآيتين

أصلاً؛ لأن المعنى على هذا القول أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً وأحسن مأوى ومنزلاً والعلم عند الله تعالى. انتهى انتهى. اهـ ﴿ 222.224 ﴾

(102/559)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا ﴾

أخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن جريج في قوله ﴿ وقال الذين لا يرجون لقاءنا ﴾ قال : هذا قول كفار قريش ﴿ لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا ﴾ فيخبرنا أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وأخرج ابن أبي حاتم عن عبيد بن عمير في قوله ﴿ وقال الذين لا يرجون لقاءنا ﴾ قال لا يسألون.

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة ﴿ لولا أنزل علينا الملائكة ﴾ أي نراهم عياناً.

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله ﴿ وعتو عتواً كبيراً ﴾ قال : شدة الكفر.

وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة قال : ﴿ العتو ﴾ في كتاب الله التجبر.

يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا (22)

أخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله ﴿ يوم يرون الملائكة ﴾ قال : يوم القيامة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عطية في قوله ﴿ لا بشرى يومئذ للمجرمين ﴾ قال : إذا كان يوم القيامة يلقى المؤمن بالبشرى ، فإذا رأى ذلك الكفار قالوا للملائكة : بشرونا قالوا : حجراً محجوراً . حراماً محرماً أن تلقاكم بالبشرى .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد ﴿ ويقولون حجراً محجوراً ﴾ قال : عوذاً معاذاً الملائكة تقوله . وفي لفظ قال : حراماً محرماً أن تكون البشرى اليوم إلا للمؤمنين .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة ﴿ ويقولون حجراً محجوراً ﴾ قال : تقول الملائكة : حراماً محرماً على الكفار البشرى يوم القيامة .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن الضحاك ﴿ ويقولون حجراً محجوراً ﴾ قال : تقول الملائكة : حراماً محرماً على الكفار البشرى حين رأيتمونا .

(103/559)

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق عطية العوفي عن أبي سعيد الخدري ﴿ ويقولون حجراً محجوراً ﴾ قال : حراماً محرماً أن نبشركم بما نبشر به المتقين .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن الحسن وقتادة في قوله ﴿ ويقولون حجراً محجوراً ﴾ قال : هي كلمة كانت العرب تقولها . كان الرجل إذا نزلت به شدة قال : حجراً محجوراً حراماً محرماً .

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن قال : كانت المرأة إذا رأت الشيء تكرهه تقول : حجر من هذا .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك في الآية قال : لما جاءت زلازل الساعة فكان من زلازلها أن السماء انشقت فهي يومئذ واهية ، والملك على ارجائها : على سعة كل شيء تشقق . فهي من السماء فذلك قوله ﴿ يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حجراً محجوراً ﴾ حراماً محرماً أيها المجرمون أن تكون لكم البشرى اليوم حين رأيتمونا .

وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا (23)

أخرج الفريابي وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد ﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل ﴾ قال : قدمنا إلى ما عملوا من خير ممن لا يتقبل منه في الدنيا .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن علي بن أبي طالب في قوله ﴿ هباء منثوراً ﴾ قال : الهباء : شعاع الشمس الذي يخرج من الكوة .

وأخرج عبد الرزاق والفريابي وابن المنذر وابن أبي حاتم عن علي بن أبي طالب قال : الهباء : ريح الغبار يسطع ، ثم يذهب فلا يبقى منه شيء ، فجعل الله أعمالهم كذلك .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : الهباء : الذي يطير من النار إذا اضطرمت يطير منها الشرر ، فإذا وقع لم يكن شيئاً .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس في قوله ﴿ هباء منثوراً ﴾ قال : الماء المهراق .

(104/559)

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن الحسن في قوله ﴿ هباء منثوراً ﴾ قال : الشعاع في كوّة أحدهم . لو ذهبت تقبض عليه لم تستطع .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد في قوله ﴿ هباء منثوراً ﴾ قال : شعاع الشمس من الكوّة .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن عكرمة ﴿ هباء منثوراً

﴿ قال : شعاع الشمس الذي في الكوّة .

وأخرج عبد بن حميد عن أبي مالك وعامر في الهباء المنثور : شعاع الشمس .

وأخرج عبد بن حميد عن الضحاك ﴿ هباء منثوراً ﴾ قال : الغبار .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة ﴿ هباء منثوراً ﴾ قال : هو ما تذروه الرياح من حطام هذا الشجر .

وأخرج ابن أبي حاتم عن معلى بن عبيدة قال : الهباء : الرماد .

وأخرج سمويه في فوائده عن سالم مولى أبي حذيفة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " ليجاء يوم القيامة بقوم معهم حسنات مثال جبال تهامة حتى إذا جيء بهم ، جعل الله تعالى أعمالهم هباء ، ثم قذفهم في النار قال سالم : بأبي وأمي يا رسول الله حل لنا هؤلاء القوم ؟ قال : كانوا يصلون ، ويصومون ويأخذون سنة من الليل ، ولكن كانوا إذا عرض عليهم شيء من الحرام وثبوا عليه ، فأدحض الله تعالى أعمالهم " .

أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا (24)

أخرج عبد بن حميد عن قتادة في قوله ﴿ أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلاً ﴾ قال : أحسن منزلاً ، وخير مأوى .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله ﴿ وأحسن مقيلاً ﴾ قال : مصيراً .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ خير مستقراً وأحسن مقيلاً ﴾

قال : في الغرف من الجنة . وكان حسابهم أن عرضوا على ربهم عرضة واحدة ، وذلك الحساب اليسير ، وذلك مثل قوله ﴿ فأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيراً وينقلب إلى أهله مسروراً ﴾ .

(105/559)

وأخرج ابن المبارك في الزهد وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه عن ابن مسعود قال : لا ينتصف النهار من يوم القيامة حتى يقبل هؤلاء وهؤلاء . ثم قرأ ﴿ أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلاً ﴾ وقرأ ﴿ ثم إن مقيلهم لإِلى الجحيم ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : إنما هي ضحوة فيقيل أولياء الله على الأسرة مع الحور العين ، ويقيل أعداء الله مع الشياطين مقرنين .

وأخرج ابن المبارك وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وأبو نعيم في الحلية عن إبراهيم النخعي قال : كانوا يرون أنه يفرغ من حساب الناس يوم القيامة نصف النهار ، فيقيل أهل الجنة في الجنة ، وأهل النار في النار ، فذلك قوله ﴿ أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلاً ﴾ .

وأخرج ابن جرير عن سعيد بن الصوّاف قال : بلغني أن يوم القيامة يقصر على المؤمن حتى يكون كما بين العصر إلى غروب الشمس ، وإنهم ليقيلون في رياض الجنة حين يفرغ الناس من الحساب . وذلك قوله ﴿ أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلاً ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد وابن حاتم عن قتادة في قوله ﴿ أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلاً ﴾ أي مأوى ومنزلاً قال قتادة : حدث صفوان ابن محرز قال : إنه ليجاء يوم القيامة برجلين ؛ كان أحدهما ملكاً في الدنيا ، فيحاسب ، فإذا عبد لم يعمل خيراً فَيُؤْمَرُ به إلى النار . والآخر كان صاحب كساه في الدنيا ، فيحاسب ، فيقول : يا رب ما أعطيتني من شيء فتحاسبني به فيقول : صدق عبدي ، فارسلوه ، فيؤمر به إلى الجنة ، ثم يتركان ما شاء الله ، ثم يدعى صاحب النار ، فإذا هو مثل الحممة السوداء فيقال له : كيف وجدت مقيلك ؟ فيقول : شر مقيل . فيقال له : عد . ثم يدعى صاحب الجنة ، فإذا هو مثل القمر ليلة البدر فيقال له : كيف وجدت مقيلك ؟ فيقول رب خير مقيل فيقال : عد .

(106/559)

وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة قال : إني لأعرف الساعة التي يدخل فيها أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار : الساعة التي يكون فيها ارتفاع الضحى الأكبر إذا انقلب الناس إلى

أهليهم للقيلولة . فينصرف أهل النار إلى النار ، وأما أهل الجنة ، فينطلق بهم إلى الجنة ، فكانت قيلولتهم في الجنة ، وأطعموا كبد الحوت فاشبعهم كلهم ، فذلك قوله ﴿ أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلاً ﴾ .

وأخرج ابن عساكر عن عكرمة أنه سئل عن يوم القيامة أمن الدنيا هو أم من الآخرة ؟ فقال : صدر ذلك اليوم من الدنيا ، وآخره من الآخرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 6 صـ ﴾

(107/559)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله : ﴿ عُتُوّاً ﴾ : مصدرٌ . وقد صَحَّ هنا ، وهو الأكثرُ ، وأُعِلَّ في سورة مريم في ﴿ عِتِيّاً ﴾ [الآية : 8] لمناسبةٍ ذُكِرَتْ هناك وهي تواخي رؤوسِ الفواصلِ .

قوله : ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ ﴾ : فيه أوجهٌ ، أحدُها : أنه منصوبٌ بإضمار فعلٍ يَدُلُّ عليه قوله : " لا بشرى " أي : يُمْنعون البشرى يومَ يَرَوْن . الثاني : أنه منصوبٌ بـ اذْكُرْ ، فيكونُ مفعولاً به . الثالث : أنه منصوبٌ بـ "يُعَذَّبون " مقدَّراً . ولا يجوز أَنْ يعملَ فيه نفسُ البشرى / لوجهين ،

أحدهما : أنها مصدرٌ ، والمصدرُ لا يعملُ فيما قبله . والثاني : أنها منفيةٌ ب " لا " ، وما بعدَها لا يَعْمل فيما قبلَها .

قوله : ﴿ لاَ بشرى ﴾ هذه الجملةُ معمولةٌ لقولٍ مضمرٍ أي : يَرَوْنَ الملائكةَ يقولون : لا بشرى ، فالقولُ حالٌ من الملائكة . وهو نظيرُ التقديرِ في قولِه تعالى : ﴿ وَالمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِّن كُلِّ بَابٍ سَلاَمٌ عَلَيْكُم ﴾ [الرعد : 23] . قال الشيخ : " واحْتَمَلَ " بُشْرَى " أَنْ يكونَ مبنياً مع " لا " ، واحْتَمَل أن يكونَ في نيةِ التنوينِ منصوبَ اللفظِ ، ومُنِع من الصرفِ للتأنيثِ اللازمِ . فإنْ كان مبنياً مع " لا " احْتَمَلَ أَنْ يكونَ " يومئذٍ " خبراً ، و " للمجرمين " خبرٌ بعد خبرٍ ، أو نعتاً ل " بشرى " ، أو متعلقاً بما تَعَلَّق به الخبرُ ، وأَنْ يكونَ " يومئذٍ " صفةً ل " بُشْرَى " ، والخبرُ " للمجرمين " ويجيءُ خلافُ سيبويهِ والأخفشِ : هل الخبرُ لنفسِ لا ، أو الخبرُ للمبتدأ الذي هو مجموعُ " لا " وما بُني معها ؟ وإن كان في نيةِ التنوينِ وهو معربٌ جاز أن يكونَ " يومئذٍ " و " للمجرمين " . خبرين ، وجاز أَنْ يكونَ " يومئذٍ " خبراً و " للمجرمين " صفةً . والخبرُ إذا كان الاسمُ ليس مبنيّاً لنفسِ " لا " بإجماع " .

(108/559)

قلت : قوله : " واحْتَمَلَ أَنْ يكونَ في نيةِ التنوينِ " إلى آخره لا يتأتى إلاَّ على قولِ أبي إسحاقَ . وهو أنَّه يرى أنَّ اسمَ " لا " النافيةِ للجنسِ معربٌ ، ويَعْتَذِرُ عن حذفِ التنوينِ بكثرةِ الاستعمالِ ، ويَسْتَدِلُّ عليه بالرجوعِ إليه في الضرورةِ . ويُنشِد :

3480 أَلا رجلاً جزاهُ اللهُ خيراً . . . . . .

. .

ويتأَوَّلُه البصريون على إضمار : ألا تَرَوْنَني رجلاً . وكان يمكنُ الشيخُ أنْ يجعلَه معرباً كما ادَّعى بطريق أخرى : وهي أن يَجْعَلَ " بشرَى " عاملةً في " يومَئذٍ " أو في " للمجرمين " فيصيرُ من قبيلِ المُطَوَّل ، والمُطوَّلُ معربٌ ، لكنه لم يُلِمَّ بذلك . وسيأتي شيءٌ من هذا في كلام أبي البقاء رحمه الله . ويجوز أَن يكونَ "بُشرى " معرباً منصوباً بطريقٍ أخرى . وهي أن تكونَ منصوبةً بفعلٍ مقدرٍ أي : لا يُبَشَّرون بشرى كقولِه تعالى : ﴿ لاَ مَرْحَباً بِهِمْ ﴾ [ص : 59] ، " لا أهلا ولا سهلاً " . إلاَّ أنَّ كلامَ الشيخِ لا يمكنُ تنزيلهُ على هذا لقولِه : " جاز أَنْ يكونَ " يومَئذٍ " و " للمجرمين " خبرين " فقد حكمَ أنَّ لها خبراً .

وإذا جُعِلَتْ منصوبةً بفعلٍ مقدرٍ لا يكون ل " لا " حينئذٍ خبرٌ ، لأنها داخلةٌ على ذلك الفعلِ المقدرِ . وهذا موضعٌ حَسَنٌ فتأمَّلْه .

قوله : ﴿ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ قد تقدَّم من " يومئذٍ " أوجهٌ . وجَوَّز أبو البقاء أَنْ يكونَ

منصوباً ب " بشرى " قال : " إذا قَدَّرْتَ أنها منونةٌ غيرُ مبنيةٍ مع " لا " ويكونُ الخبرُ " للمجرمين " .

(109/559)

وجَوَّز أيضاً هو والزمخشريُّ أَنْ يكونَ " يومئذٍ " تكريراً ل " يومَ يَرَوْن " . ورَدَّه الشيخ سواءً أُريد بالتكريرِ التوكيدُ اللفظيُّ أم أريد به البدلُ قال : " لأنَّ يومَ منصوبٌ بما تقدَّم ذِكْرُه مِنْ " اذْكُر " ، أو مِنْ يَعْدِمون البشرى . وما بعد " لا " العاملةِ في الاسمِ لا يَعْمَل فيه ما قبلَها . وعلى تقدير ما ذكراه يكون العاملُ فيه ما قبل لا " . قلت : وما رُدَّ به ليس بظاهرٍ ؛ وذلك لأنَّ الجملةَ المنفيَّةَ معمولةٌ للقولِ المضمرِ الواقعِ حالاً مِنَ " الملائكة " ، والملائكةُ معمولةٌ ل " يَرَوْن " ، ويَرَوْن معمولٌ ل " يوم " خفضاً بالإضافة ، ف " لا " وما في حَيِّزها مِنْ تتمةِ الظرفِ الأولِ من حيث إنَّها معمولةٌ لبعضِ ما في حَيِّزه فليسَتْ بأجنبيةٍ ولا مانعةٍ مِنْ أَنْ يعملَ ما قبلَها فيما بعدَها . والعجبُ له كيف تَخَيَّلَ هذا ، وغَفَلَ عَمَّا قُلْتُه فإنه واضحٌ مع التأمُّل ؟ و " للمُجْرمين " مِنْ وَضْعِ الظاهرِ مَوْضِعَ المضمرِ شهادةً عليهم بذلك . والضميرُ في " يقولون " يجوزُ عَوْدُه للكفارِ و " للملائكة " .

و " حِجْراً " من المصادرِ المُلْتَزَمِ إضمارُ ناصبها ، ولا يُتَصَرَّف فيه . قال سيبويه : " ويقولُ

الرجلُ للرجل : أَتفعل كذا ؟ فيقول : حِجراً " . وهي مِنْ حَجَره إذا مَنَعَه ؛ لأن المستعيذَ طالبٌ من اللهِ أن يمنعَ المكروهَ لا يَلْحَقُه . وكأن المعنى : أسأل اللهَ أَنْ يمنعَه مَنْعاً ويَحْجُرَه حَجْراً .

والعامَّةُ على كسرِ الحاء . والضحاك والحسن وأبو رجاء على ضَمِّها وهو لغةٌ فيه . قال الزمخشري : " ومجيئُه على فِعْل أو فُعْل في قراءةِ الحسنِ تَصَرُّفٌ فيه لاختصاصِه بموضعٍ واحد ، كما كان قَعْدَك وعَمْرك كذلك . وأنشدتُ لبعض الرُجاز :

3481 قالَتْ وفيها حَيْدَةٌ وذُعْرُ . . . عَوْذٌ بربِّي منكُمُ وحُجْرُ

(110/559)

وهذا الذي أنشده الزمخشريُّ يقتضي تَصَرُّفَ " حجراً " وقد تقدَّم نصُّ سيبويهِ على أَنَّه يلزمُ النصبَ . وحكى أبو البقاءِ فيه لغةً ثالثةً وهي الفتحُ . قال : " وقد قُرِىء بها " . فَعَلى هذا كَمَلَ فيه ثلاثُ لغاتٍ مقروءٌ بهنَّ .

ومَحْجُوْراً صفةٌ مؤكَّدةٌ للمعنى كقولهم : ذَيْل ذائِل ، ومَوْت مائتِ . والحِجْر : العقلُ لأنه يمنعُ صاحبَه .

وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا (23)

قوله : ﴿ هَبَآءً ﴾ : الهَباءُ والهَبْوَة : الترابُ الدقيق قاله ابن عرفة . قال الجوهري : "يُقال منه : هبا يَهْبو إذا ارتفع وَأَهْبَيْتُه أنا إهْباءً " . وقال الخليل والزجّاج : " هو مثلُ الغبارِ الداخلِ في الكُوَّة يتراءَى مع ضوءِ الشمس " . وقيل : الهَباء ما تطايَرَ مِنْ شَرَرِ النارِ إذا أُضْرِمَتْ . والواحدةُ هَباءة على حَدّ تَمْر وتمرة . ومَنْثوراً أي مُفَرَّقاً ، نَثَرْتُ الشيء : فَرَّقْتُه . والنَّثْرَة : لنجومٍ متفرقة . والنَّثْرُ : الكلامُ غيرُ المنظوم على المقابلةِ بالشعرِ . وفائدةُ الوصفِ به أنَّ الهباءَ تراه منتظماً مع الضوء / فإذا حَرَّكْتَه تَفَرَّقَ فجِيْءَ بهذه الصفةِ لتفيدَ ذلك . وقال الزمخشري : " أو مفعولٌ ثالثٌ لجَعَلْناه أي : فَجَعَلْناه جامِعاً لحقارةِ الهَباء والتناثُرِ كقوله تعالى : ﴿ كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾ [البقرة : 65] أي : جامعين للمَسْخِ والخَسْءِ " . قال الشيخ : " وخالَفَ ابنُ درستويه ، فخالف النحويين في مَنْعِه أن يكونَ لكان خبران وأزيدُ ، وقياسُ قولِه في " جَعَلَ " أَنْ يمنعَ أن يكونَ لها خبرٌ ثالث " . قلت : مقصودُه أنّ كلامَ الزمخشريِّ مردودٌ قياساً على ما مَنَعَه ابنُ درستويه مِنْ تعديدِ خبر "كان " .

أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا (24)

(111/559)

قوله : ﴿ خَيْرٌ مُّسْتَقَرّاً وَأَحْسَنُ ﴾ : في أفْعَل هنا قولان ، أحدُهما : أنها على بابِها من التفضيل . والمعنى : أنَّ المؤمنين خيرٌ في الآخرة مستقراً مِنْ مستقرِّ الكفارِ ، وأحسنُ مقيلاً مِنْ مَقِيلهم ، لو فُرِض أَنْ يكونَ لهم ذلك ، أو على أنهم خيرٌ في الآخرةِ منهم في الدنيا .

والثاني : أَنْ تكونَ لمجردِ الوصفِ مِنْ غيرِ مفاضلةٍ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 470.475 ﴾

(112/559)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا (21) ﴾

﴿ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ﴾ : لا يؤمنون بالحشر والنشر والرجوع إلى الله في القيامة من الدنيا . وكما كانوا لا يخافون العذابَ ، ولا ينتظرون الحَشْرَ كذلك كانوا لا يُؤْمِنون لقاءَ الله . فَمُنْكِرُ الرؤيةِ من أهل القِبْلَةِ – ممن يؤمِن بالقيامة والحشرِ – مُشَارِكٌ لهؤلاء في جُحْدِ ما وَرَدَ به الخبرُ والنقلُ ؛ لأن النَّقْلَ كما وَرَدَ بكوْنِ الحَشْرِ بكون الرؤية لأهل الإيمان .

فالذين لم يؤمنوا قالوه على جهة رؤية المقام لأنفسهم ، وأنه مُسَلَّمٌ لهم ما اقترحوه من نزول الملائكة عليهم ورؤية ربهم . وذلك وإن كان في القدرة جائزاً – إلا أنه لم يكن واجباً بعد إزاحة عُذْرِهم بظهور معجزات الرسول عليه السلام ، فلم يكن اقتراح ما قالواه جائزاً لهم .

يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا (22)

اقترحوا شيئين : رؤيةَ الملائكةِ ورؤيةَ اللَّهِ ، فأخبر أنهم يرون الملائكة عند التوفِّي ، ولكن تقول الملائكةُ لهم : ﴿ إِلاَّ بُشْرَى لَكُمْ ! ﴾ .

﴿ حِجْراً مَّحْجُوراً ﴾ : أي حراماً ممنوعاً يعني رؤية الله عنهم ، فهذا يعود إلى ما جرى ذكره ، وحَمْلُه على ذلك أَوْلى من حَمْلِه على الجنة ، ولم يجر لها هنا ذِكْرٌ . ثم فيه بشارة للمؤمنين بالرؤية لأنهم يرون الملائكة ويبشرونهم بالجنة ، قال تعالى : ﴿ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلاَئِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ ﴾ [فصلت : 30] فكما لا تكون للكفارة بشارةٌ بالجنة وتكون للمؤمنين لا تكون الرؤيةُ للكفار وتكون للمؤمنين .

(113/559)

وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا (23)

هذه آفة الكفار ؛ ضاع سعيُهم وخاب جُهْدُهم ، وضاع عمرُهم وخَسِرَتْ صفقتُهم

وانقطع رجاؤهم ﴿ وَبَدَا لَهُمْ مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴾ [الزمر : 47] ، ﴿ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ [الكهف : 104] .

وأما أصحاب الحقائق وأرباب التوحيد فيلوح لقلوبهم من سماع هذه الآية ما يحصل به كمال رَوْحِهم ، وتتأدَّى إلى قلوبِهم من الراحات ما يضيق عن وصفه شرحهُم ، ويتقاصر عن ثنائه نُطْقُهم ، حيث يسمعون قوله : ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَى ما عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَآءً مَّنثُوراً ﴾ ولقد ظهرت قيمة أعمالهم حيث قال الحقُّ لأجله ﴿ وَقَدِمْنَا إلى . . . ﴾ فَهُم إذا سمعوا وَجَبَ لهم من الأريحية ما يشغلهم عن الاهتمام لقوله : ﴿ فَجَعَلْنَاهُ هَبَآءً مَّنثُوراً ﴾ ويقولون : يا ليت لنا أعمال أهل الدارين ثم لا تُقْبَلُ منها ذرةٌ وهو يقول بسببها : ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ . . . ﴾ ! لأنهم إذا تخلصوا من مواضع الخلل وموجبات الخجل من أعمالهم عدُّوا ذلك من أجلِ ما ينالون من الإحسان إليهم ، وفي معناه أنشدوا :

سأرجع من حجِّ عامِيَ مُخْجِلاً . . . لأنَّ الذي قد كان لا يُتَقَبَّلُ

أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا (24)

أصحابُ الجنةِ هم الراضون بها ، الواصلون إليها ، والمُكتَفون بوجدانها ، فحسُنَتْ لهم أوطانُهم ، وطابَ لهم مُستَقَرُّهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 633.631 ﴾

قوله تعالى ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا (25) الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا (26) وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا (27) يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا (28) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا (29) وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا (30) وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا (31) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان للكفرة في هذه الدار من العز والقوة والضخامة ما يتعجبون معه من مصير حالهم وحال أخصامهم إلى ما ذكر ، بين أن الأمر في ذلك اليوم على غير ما نعهده ، فقال عاطفاً على ﴿ يوم يرون ﴾ : ﴿ ويوم تشقق ﴾ أي تشققاً عظيماً وإن كان فيه خفاء على البعض - بما أشار إليه حذف تائه ﴿ السماء بالغمام ﴾ أي كما تشقق الأرض بالنبات فيخرج من خلال شقوقها ، وأشار إلى جهل من طلبوا نزولهم دفعة واحدة بقوله : ﴿ ونزل ﴾ أي بالتدريج بأمر حتم لا يمكنهم التخلف عنه ، بأمر من لا أمر لغيره ﴿ الملائكة ﴾ الذين طلبوا أن يروهم في حال واحد ﴿ تنزيلاً ﴾ في أيديهم صحائف الأعمال ؛ قال ابن عباس - رضى

الله عنهما ـ : تشقق السماء في الدنيا فينزل أهلها وهم أكثر ممن في الدنيا من الجن والإنس ، ثم تشقق السماء الثانية فينزل أهلها وهم أكثر من أهل السماء الدنيا وأهل الأرض جناً وإنساً ثم كذلك حتى تشقق السماء السابعة ، وأهل كل سماء يزيدون على أهل السماء التي قبلها ، ثم ينزل الكروبيون ثم حملة العرش .

ولما كان ذلك اليوم سبباً لانكشاف الأمور ومعرفة أنه لا ملك لسواه سبحانه لأنه لا يقضي فيه غيره قال : ﴿ الملك يومئذ ﴾ أي يوم إذ تشقق السماء بالغمام ؛ ثم وصف الملك بقوله : ﴿ الحق ﴾ أي الثابت معناه ثابتاً لا يمكن زواله ؛ ثم أخبر عنه بقوله : ﴿ للرحمن ﴾ أي العام الرحمة في الدارين ، ومن عموم رحمته وحقية ملكه أن يسر قلوب أهل ورده بتعذيب أهل عداوته الذين عادوهم فيه لتضييعهم الحق باتباع الباطل ، ولولا اتصافه بالرحمة لم يدخل أحد الجنة ، ومعنى التركيب أن ملك غيره في ذلك اليوم إنما هو بالاسم الذي تقدم له في الدنيا تسميته به فقط ، لا حكم له أصلاً ولا ظاهراً كما كان في الدنيا ﴿ وكان ﴾ أي ذلك ايوم الذي تظهر فيه الملائكة الذين طلب الكفار رؤيتهم ﴿ يوماً على الكافرين ﴾ أي فقط ﴿ عسيراً ﴾ شديد العسر والاستعار .

(115/559)

ولما كان حاصل حالهم أنهم جانبوا أشرف الخلق الهادي لهم إلى كل خير ، وصاحبوا غيره ممن يقودهم إلى كل شر ، بين عسر ذلك اليوم الذي إنما أوجب جرأتهم تكذيبهم به بتناهي ندمهم على فعلهم هذا فقال : ﴿ ويوم يعض الظالم ﴾ أي لفرط تأسفه لما يرى فيه من الأهوال ﴿ على يديه ﴾ أي كلتيهما فيكاد يقطعهما لشدة حسرته وهو لا يشعر ، حال كونه مع هذا الفعل ﴿ يقول ﴾ أي يجدد في كل لحظة قوله : ﴿ يا ليتني اتخذت ﴾ أي أرغمت نفسي وكلفتها أن آخذ في الدنيا ﴿ مع الرسول سبيلاً ﴾ أي عملاً واحداً من الأعمال التي دعاني إليها ، وأطعته طاعة ما ، لما انكشف لي في هذا اليوم من أن كل من أطاعه ولو لحظة حصلت له سعادة بقدرها ، وعض اليد والأنامل وحرق الأسنان ونحو ذلك كناية عن الغيظ والحسرة لأنها من روادفهما ، فتذكر الرادفه دلالة على المردوف فيرتفع الكلام في طبقة الفصاحة إلى حد يجد السامع عنده في نفسه من الروعة والاستحسان ما لا يجده عند المكنى عنه .

ولما تأسف على مجانبة الرسول ، تندم على مصادقة غيره بقوله : ﴿ يا ويلتي ﴾ أي يا هلاكي الذي ليس لي منادم غيره لأنه ليس بحضرتي سواه .

ولما كان يريد محالاً ، عبر بأداته فقال : ﴿ ليتني لم أتخذ فلاناً ﴾ يعني الذي أضله – يسميه باسمه ، وإنما كنى عنه وهو سبحانه لا يخاف من المناواة ، ولا يحتاج إلى المداجاة ، إرادة للعموم وإن كانت الآية نزلت في شخص معين ﴿ خليلاً ﴾ أي صديقاً أوافقه في أعماله لما

علمت من سوء عاقبتها ، ثم استأنف قوله الذي يتوقع كل سامع أن يقوله : ﴿ لقد ﴾ أي والله لقد ﴿ أضلني عن الذكر ﴾ أي عمّي عليّ طريق القرآن الذي لاذكر في الحقيقة غيره وصرفني عنه ، والجملة في موضع العلة لما قبلها ﴿ بعد إذ جاءني ﴾ ولم يكن لي منه مانع يظهر غير إضلاله .

(116/559)

ولما كان التقدير : ثم ها هو قد خذلني أحوج ما كنت إلى نصرته ، عطف عليه قوله : ﴿ وكان الشيطان ﴾ أي كل من كان سبباً للضلال من عتاة الجن والإنس ﴿ للإنسان خذولاً ﴾ أي شديد الخذلان يورده ثم يسلمه إلى أكره ما يكره ، لا ينصره ، ولو أراد لما استطاع ، بل هو شر من ذلك ، لأن عليه إثمه في نفسه ومثل إثم من أضله .

ولما ذكر سبحانه أقوال الكفار إلى أن ختم بالإضلال عن الذكر ، وكانوا مع إظهارهم التكذيب به وأنه مفتعل في غاية الطرب له ، والاهتزاز به ، والتعجب منه ، والمعرفة بأنه يكون له نبأ ، أشار إلى ذلك بقوله : عاطفاً على ﴿ وقالوا ما لهذا الرسول ﴾ معظماً لهذه الشكاية منه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، مخوفاً لقومه لأن الرسل قبله عليهم الصلاة والسلام كانوا إذا شكوا أنزل بقومهم عذاب الاستئصال : ﴿ وقال الرسول ﴾ يعني محمداً ـ صلى

الله عليه وسلم ـ : ﴿ يا رب ﴾ أيها المحسن إليّ بأنواع الإحسان الذي أعظمه الرسالة ، وعبر بأداة البعد هضماً لنفسه مبالغة في التضرع ﴿ إن قومي ﴾ أي قريشاً الذين لهم قوة وقيام ومنعة ﴿ اتخذوا ﴾ أي بتكليف أنفسهم ضد ما تجده ﴿ هذا القرآن ﴾ أي المقتضي للاجتماع عليه والمبادرة إليه ﴿ مهجوراً ﴾ أي متروكاً ، فأشار بصيغة الافتعال إلى أنهم عالجوا أنفسهم في تركه علاجاً كثيراً ، لما يرون من حسن نظمه ، ويذوقون من لذيذ معانيه ، ورائق أساليبه ، ولطيف عجائبه ، وبديع غرائبه ، كما تعرّف به قصة أبي جهل وأبي سفيان بن حرب والأخنس بن شريق حين كانوا يستمعون لقراءته ليلاً ، كل واحد منهم في مكان لا يعلم به صاحباه ، ثم يجمعهم الطريق إذا أصبحوا فيتلاومون ويتعاهدون على أن لا يعودوا ، ثم يعودون حتى فعلوا ذلك ثلاث ليال ثم أكدوا على أنفسهم العهود حتى تركوا ذلك كما هو مشهور في السير .

(117/559)

ولما كان في هذا الكلام معنى الشكاية وشدة التحرق ، وعظيم التحزن كما يشير إليه إثبات يا التي للبعد ، على خلاف ما جرت به العادة في نداء الخواص الذين هو أخصهم ، والاستفهام عن سبب هجرانهم مع ما لهم إليه من الدواعي ، كان كأنه قيل : ذلك بأن من

فعله عاداك حسداً لك ، وعطف عليه : ﴿ وكذلك ﴾ أي ومثل ما فعلنا من هذا الفعل العظيم وأنت أعظم الخلق لدنيا ﴿ جعلنا ﴾ بما لنا من العظمة ﴿ لكل نبي ﴾ أي من الأنبياء قبلك ، رفعة لدرجاتهم ﴿ عدواً من المجرمين ﴾ الذين طبعناهم على الشغف بقطع ما يقتضي الوصل فأضللناهم بذلك إهانة لهم فاصبر كما صبروا فإني سأهدي بك من شئت ، وأنصرك على غيرهم ، وأكرم قومك من عذاب الاستئصال تشريفاً لك .

ولما كان موطناً تعلق فيه النفوس متشوقة إلى الهداية بعد هذا الطبع ، والنصرة بعد ذلك الجعل ، كان كأنه قيل : لا تحزن فلنجعلن لك ولياً ممن نهديه للإيمان ، ولننصرنهم على عدوهم كما فعلنا بمن قبلك ، بل أعظم حتى نقضي أممهم من ذلك العجب ، ولا يسعهم إلا الخضوع لكم والدخول في ظلال عزكم ، ولما كان ذلك – لكثرة المعادين – أمراً يحق له الاستبعاد ، قال عاطفاً على ما تقديره ؛ ثم نصر إخوانك من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام على من جعلهم أعداءهم ربُّك الذي أرسلهم : ﴿ وكفى بربك ﴾ أي المحسن إليك ﴿ هادياً ﴾ يهدي بك من قضى بسعادته ﴿ ونصيراً ﴾ ينصرك على من حكم بشقاوته .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 312.314 ﴾

(118/559)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا (25) ﴾

اعلم أن هذا الكلام مبني على ما استدعوه من إنزال الملائكة فبين سبحانه أنه يحصل ذلك في يوم له صفات :

الصفة الأولى : أن في ذلك اليوم تشقق السماء بالغمام ، وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

قوله : ﴿ إذا السماء انفطرت ﴾ [الانفطار : 1] يدل على التشقق وقوله : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الغمام ﴾ [البقرة : 210] يدل على الغمام فقوله : ﴿ تَشَقَّقُ السماء بالغمام ﴾ جامع لمعنى الآيتين ونظيره قوله تعالى : ﴿ وَفُتِحَتِ السماء فَكَانَتْ أبوابا ﴾ [النبأ : 19] وقوله : ﴿ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴾ [الحاقة : 16] .

المسألة الثانية :

قرأ أبو عمرو وأهل الكوفة بتخفيف الشين ههنا وفي سورة ق ، والباقون بالتشديد ، قال أبو عبيدة : الاختيار التخفيف كما يخفف تساءلون ومن شدد فمعناه تتشقق .

المسألة الثالثة :

قال الفراء : المراد من قوله : ﴿ بالغمام ﴾ أي عن الغمام ، لأن السماء لا تتشقق بالغمام بل

عن الغمام ، وقال القاضي : لا يمتنع أن يجعل تعالى الغمام بحيث تشقق السماء باعتماده عليه وهو كقوله : ﴿ السَّمَاء مُنفَطِرٌ بِهِ ﴾ [المزمل : 18] .

المسألة الرابعة :

لا بد من أن يكون لهذا التشقق تعلق بنزول الملائكة ، فقيل الملائكة في أيام الأنبياء عليهم السلام كانوا ينزلون من مواضع مخصوصة والسماء على اتصالها ، ثم في ذلك اليوم تتشقق السماء فإذا انشقت خرج من أن يكون حائلاً بين الملائكة وبين الأرض فنزلت الملائكة إلى الأرض .

المسألة الخامسة :

قوله : ﴿ وَنُزِّلَ الملائكة ﴾ صيغة عموم فيتناول الكل ، ولأن السماء مقر الملائكة فإذا تشقق وجب أن ينزلوا إلى الأرض ، ثم قال مقاتل : تشقق سماء الدنيا فينزل أهلها وهم أكثر من سكان الدنيا ، كذلك تتشقق سماء سماء ، ثم ينزل الكروبيون وحملة العرش ، ثم ينزل الرب تعالى .

وروى الضحاك عن ابن عباس : قال تتشقق كل سماء وينزل سكانها فيحيطون بالعالم

ويصيرون سبع صفوف حول العالم ، واعلم أن نزول الرب بالذات باطل قطعاً ، لأن النزول حركة والموصوف بالحركة محدث والإله لا يكون محدثاً .

وأما نزول الملائكة إلى الأرض فعليه سؤال ، وذلك لأنه ثبت أن الأرض بالقياس إلى سماء الدنيا كحلقة في فلاة ، فكيف بالقياس إلى الكرسي والعرش فملائكة هذه المواضع بأسرها كيف تتسع لهم الأرض جميعاً ؟ فلعل الله تعالى يزيد في طول الأرض وعرضها ويبلغها مبلغاً يتسع لكل هؤلاء ، ومن المفسرين من قال : الملائكة يكونون في الغمام منه ، والله تعالى يسكن الغمام فوق أهل القيامة ويكون ذلك الغمام مقر الملائكة .

قال الحسن : والغمام سترة بين السماء والأرض تعرج الملائكة فيه بنسخ أعمال بني آدم والمحاسبة تكون في الأرض .

المسألة السادسة :

أما نزول الملائكة فظاهر ، ومعنى ﴿ تَنْزِيلاً ﴾ توكيد للنزول ودلالة على إسراعهم فيه .

المسألة السابعة :

الألف واللام في الغمام ليس للعموم فهو للمعهود ، والمراد ما ذكروه في قوله :

﴿ عَلَّمَهُ شَدِيدُ القوى ﴾ [النجم : 5] .

والجواب : أنه تعالى قال في علم محمد صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيماً ﴾ [النساء : 113] وقال عليه السلام : " أدبني ربي فأحسن تأديبي " وقال تعالى : ﴿ الرحمن علم القرآن ﴾ [الرحمن : 2] وكان عليه السلام يقول : " أرنا الأشياء كما هي " وقال تعالى لمحمد عليه السلام : ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً ﴾ [طه : 114] وأما الجمع بينه وبين قوله تعالى : ﴿ عَلَّمَهُ شَدِيدُ القوى ﴾ فذاك بحسب التلقين ، وأما التعليم فمن الله تعالى ، كما أنه تعالى قال : ﴿ قُلْ يتوفاكم مَّلَكُ الموت ﴾ [السجدة : 11] ثم قال تعالى : ﴿ اللهُ يَتَوَفَّى الأنفس حِينَ مَوْتِهَا ﴾ [الزمر : 42] .

فإن قيل : قال نوح عليه السلام ﴿ وَمَا أَنَاْ بِطَارِدِ المؤمنين ﴾ [الشعراء : 114] وقال الله تعالى لمحمد عليه السلام : ﴿ وَلاَ تَطْرُدِ الذين يَدْعُونَ رَبَّهُمْ ﴾ [الأنعام : 52] وهذا يدل على أن خلق نوح أحسن .

قلنا : إنه تعالى قال : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحاً إلى قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [نوح : 1] فكان أول أمره العذاب ، وأما محمد عليه السلام فقيل فيه : ﴿ وَمَا أرسلناك إِلاَّ رَحْمَةً للعالمين ﴾ [الأنبياء : 107] ، ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم ﴾ [التوبة : 128] إلى قوله : ﴿ رَءوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ فكان عاقبة نوح أن قال : ﴿ رَّبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأرض مِنَ الكافرين دَيَّاراً ﴾ [نوح : 26] وعاقبة محمد عليه السلام الشفاعة

﴿ عسى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُودًا ﴾ [الإسراء : 79] وأما سائر المعجزات فقد ذكر في "كتب دلائل النبوة" في مقابلة كل واحد منها معجزة أفضل منها لمحمد صلى الله عليه وسلم ، وهذا الكتاب لا يحتمل أكثر مما ذكرناه ، والله أعلم .

وأما قوله تعالى : ﴿ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ ﴾ ففيه مسائل :

(121/559)

المسألة الأولى : المراد منه من كلمه الله تعالى ، والهاء تحذف كثيراً كقوله تعالى : ﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ ﴾ [الزخرف : 71] .

المسألة الثانية : قرىء ﴿ كلم الله ﴾ بالنصب ، والقراءة الأولى أدل على الفضل ، لأن كل مؤمن فإنه يكلم الله على ما قال عليه السلام : " المصلي مناج ربه " إنما الشرف في أن يكلمه الله تعالى ، وقرأ اليماني : ﴿ كالم الله ﴾ من المكالمة ، ويدل عليه قولهم : كليم الله بمعنى مكالمه .

المسألة الثالثة : اختلفوا في أن من كلمه الله فالمسموع هو الكلام القديم الأزلي ، الذي ليس بحرف ولا صوت أم غيره ؟ فقال الأشعري وأتباعه : المسموع هو ذلك فإنه لما لم يمتنع رؤية ما ليس بمكيف ، فكذا لا يستبعد سماع ما ليس بمكيف ، وقال الماتريدي : سماع ذلك

الكلام محال ، وإنما المسموع هو الحرف والصوت .

المسألة الرابعة : اتفقوا على أن موسى عليه السلام مراد بقوله تعالى : ﴿ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ ﴾ قالوا وقد سمع من قوم موسى السبعون المختارون وهم الذين أرادهم الله بقوله : ﴿ واختار موسى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً ﴾ [الأعراف : 155] وهل سمعه محمد صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج ؟ اختلفوا فيه منهم من قال : نعم بدليل قوله :

المسألة الثانية :

استدلت المعتزلة بقوله : ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظالم على يَدَيْهِ ﴾ قالوا الظالم يتناول الكافر والفاسق ، فدل على أن الله تعالى لا يعفو عن صاحب الكبيرة والكلام عليه تقدم .

المسألة الثالثة :

قوله : ﴿ يَعَضُّ الظالم على يَدَيْهِ ﴾ قال الضحاك : يأكل يديه إلى المرفق ثم تنبت فلا يزال كذلك كلما أكلها نبتت ، وقال أهل التحقيق هذه اللفظة مشعرة بالتحسر والغم ، يقال عض أنامله وعض على يديه .

المسألة الرابعة :

كما بينا أن الظالم غير مخصوص بشخص واحد بل يعم جميع الظلمة فكذا المراد بقوله فلاناً ليس شخصاً واحداً بل كل من أطيع في معصية الله ، واستشهد القفال بقوله : ﴿ وَكَانَ الكافر على رَبِّهِ ظَهِيراً ﴾ [الفرقان : 55] ، ﴿ وَيَقُولُ الكافر يا ليتنى كُنتُ ترابا ﴾ [النبأ : 40] يعني به جماعة الكفار .

المسألة الخامسة :

قرىء ﴿ يا ويلتي ﴾ بالياء وهو الأصل لأن الرجل ينادي ويلته وهي هلكته يقول لها : تعالى فهذا أوانك ، وإنما قلبت الياء ألفاً كما في صحارى و (عذارى) .

المسألة السادسة :

قوله : ﴿ عَنِ الذكر ﴾ أي عن ذكر الله أو القرآن وموعظة الرسول ويجوز أن يريد نطقه بشهادة الحق (وغيرته) على الإسلام والشيطان إشارة إلى خليله سماه شيطاناً لأنه أضله كما يضل الشيطان ثم خذله ولم ينفعه في العاقبة ، أو أراد إبليس فإنه هو الذي حمله على أن صار خليلاً لذلك المضل ومخالفة الرسول ثم خذله أو أراد الجنس وكل من تشيطن من الجن والإنس ، ويحتمل أن يكون ﴿ وَكَانَ الشيطان ﴾ حكاية كلام الظالم وأن يكون كلام الله .

﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا (30) ﴾

اعلم أن الكفار لما أكثروا من الاعتراضات الفاسدة ووجوه التعنت ضاق صدر الرسول صلى الله عليه وسلم وشكاهم إلى الله تعالى وقال : ﴿ الرسول يا رب إِنَّ قَوْمِى اتخذوا ﴾

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

أكثر المفسرين أنه قول واقع من الرسول صلى الله عليه وسلم وقال أبو مسلم بل المراد أن الرسول عليه السلام يقوله في الآخرة وهو كقوله : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاء شَهِيداً ﴾ [النساء : 41] والأول أولى لأنه موافق للفظ ولأن ما ذكره الله تعالى من قوله : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً مِّنَ الْمجرمين ﴾ [الفرقان : 31] تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم ولا يليق إلا إذا كان وقع ذلك القول منه .

(123/559)

المسألة الثانية :

ذكروا في المهجور قولين : الأول : أنه من الهجران أي تركوا الإيمان به ولم يقبلوه وأعرضوا عن استماعه الثاني : أنه من أهجر أي مهجورا فيه ثم حذف الجار ويؤكده قوله تعالى : ﴿ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سامرا تَهْجُرُونَ ﴾ [المؤمنون : 67] ثم هجرهم فيه أنهم كانوا يقولون إنه سحر وشعر وكذب وهجر أي هذيان ، وروى أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " من تعلم القرآن (وعلمه) وعلق مصحفاً لم يتعهده ولم ينظر فيه جاء يوم القيامة

متعلقاً به يقول يا رب العالمين عبدك هذا اتخذني مهجوراً ، اقض بيني وبينه " ثم إنه تعالى قال مسلياً لرسوله عليه الصلاة والسلام ومعزياً له ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمجرمين ﴾ وبين بذلك أن له أسوة بسائر الرسل ، فليصبر على ما يلقاه من قومه كما صبروا

ثم فيه مسائل :

المسألة الأولى :

(124/559)

احتج أصحابنا بهذه الآية على أنه تعالى خلق الخير والشر لأن قوله تعالى : ﴿ جَعَلْنَا لِكُلِّ نِبِيٍّ عَدُوًّا ﴾ يدل على أن تلك العداوة من جعل الله ولا شك أن تلك العداوة كفر قال الجبائي : المراد من الجعل التبيين ، فإنه تعالى لما بين أنهم أعداؤه ، جاز أن يقول : جعلناهم أعداءه ، كما إذا بين الرجل أن فلاناً لص يقال جعله لصاً كما يقال في الحاكم عدل فلاناً وفسق فلاناً وجرحه ، قال الكعبي : إنه تعالى لما أمر الأنبياء بعداوة الكفار وعداوتهم للكفار تقتضي عداوة الكفار لهم ، فلهذا جاز أن يقول : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمجرمين ﴾ لأنه سبحانه هو الذي حمله ودعاه إلى ما استعقب تلك العداوة ، وقال أبو مسلم : يحتمل في العدو أنه البعيد لا القريب إذ المعاداة المباعدة كما أن النصر القرب

والمظاهرة ، وقد باعد الله تعالى بين المؤمنين والكافرين والجواب عن الأول : أن التبيين لا يسمونه ألبتة جعلاً لأن من بين لغيره وجود الصانع وقدمه لا يقال إنه جعل الصانع وجعل قدمه والجواب عن الثاني : أن الذي أمره الله تعالى به هل له تأثير في وقوع العداوة في قلوبهم أو ليس له تأثير ؟ فإن كان الأول فقد تم الكلام لأن عداوتهم للرسول صلى الله عليه وسلم كفر فإذا أمر الله الرسول بما له أثر في تلك العداوة فقد أمره بما له أثر في وقوع الكفر وإن لم يكن فيه تأثير ألبتة كان منقطعاً عنه بالكلية فيمتنع إسناده إليه ، وهذا هو الجواب عن قول أبي مسلم .

المسألة الثانية :

(125/559)

لقائل أن يقول إن قول محمد عله السلام : ﴿ يا رب إِنَّ قَوْمِى اتخذوا هذا القرآن مهجوراً ﴾ في المعنى كقول نوح عليه السلام ﴿ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلاً وَنَهَاراً * فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِى إِلاَّ فِرَاراً ﴾ [نوح : 5 ، 6] وكما أن المقصود من هذا إنزال العذاب فكذا ههنا فكيف يليق هذا بمن وصفه الله بالرحمة في قوله : ﴿ وَمَا أرسلناك إِلاَّ رَحْمَةً للعالمين ﴾ [الأنبياء : 107] ؟ جوابه : أن نوحاً عليه السلام لما ذكر ذلك دعا عليهم ، وأما محمد عليه الصلاة

والسلام فلما ذكر هذا ما دعا عليهم بل انتظر فلما قال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمجرمين ﴾ كان ذلك كالأمر له بالصبر على ذلك وترك الدعاء عليهم فظهر الفرق .

المسألة الثالثة :

قوله ﴿ جَعَلْنَا ﴾ صيغة العظماء والتعظيم إذا ذكر نفسه في كل معرض من التعظيم وذكر أنه يعطي فلا بد وأن تكون تلك العطية عظيمة كقوله : ﴿ وَلَقَدْ ءاتيناك سَبْعًا مِّنَ المثاني ﴾ [الحجر : 87] وقوله : ﴿ إِنَّا أعطيناك الكوثر ﴾ [الكوثر : 1] فكيف يليق بهذه الصيغة أن تكون تلك العطية هي العداوة التي هي منشأ الضرر في الدين والدنيا ؟ وجوابه : أن خلق العداوة سبب لازدياد المشقة التي هي موجبة لمزيد الثواب ، والله أعلم .

المسألة الرابعة :

يجوز أن يكون العدو واحداً وجمعاً كقوله : ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّى ﴾ [الشعراء : 77] وجاء في التفسير أن عدو الرسول صلى الله عليه وسلم أبو جهل .

أما قوله : ﴿ وكفى بِرَبِّكَ هَادِياً وَنَصِيراً ﴾ فقال الزجاج الباء زائدة يعني كفى ربك وهادياً ونصيراً منصوبان على الحال هادياً إلى مصالح الدين والدنيا ، ونصيراً على الأعداء ، ونظيره ﴿ يا أيها النبى حَسْبُكَ الله وَمَنِ اتبعك مِنَ المؤمنين ﴾ [الأنفال : 64] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 24 صـ 64.68 ﴾

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَآءُ بِالْغَمَامِ ﴾

فيه قولان

: أحدهما : بمعنى على الغمام كما يقال رميت بالقوس وعن القوس ويكون المراد به الغمام المعهود والذي دون السماء لأنه يبقى دونها إذا انشقت غمام .

والقول الثاني : أنه غمام أبيض يكون في السماء ينزله الله على أنبيائه مثل الذي أظل بني إسرائيل ، وقد قال في ظل من الغمام فتنشق السماء فيخرج منها .

﴿ وَنُزِّلَ الْمَلاَئِكَةُ تَنزِيلاً ﴾ يعني أن الملائكة تنزل فيه يوم القيامة ، وهو يوم التلاق . الذي يلتقي فيه أهل السماء وأهل الأرض .

وفي نزولهم قولان :

أحدهما : ليبشروا المؤمن بالجنة ، والكافر بالنار .

الثاني : ليكون مع كل نفس سائق وشهيد .

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ ﴾ قيل هو عقبة بن أبي معيط .

﴿ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً ﴾ فيه ثلاثة أوجه

: أحدها : سبيلاً بطاعة الله ، قاله قتادة .

الثاني : طريقاً إلى النجاة ، حكاه ابن عيسى .

الثالث : وسيلة عند الرسول يكون وصلة إليه ، قاله الأخفش .

﴿ يَا وَيْلَتِي لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاَنًا خَلِيلاً ﴾ فيه ثلاثة أقاويل

: أحدها : يعني الشيطان ، قاله مجاهد ، وأبو رجاء .

الثاني : أنه أبي بن خلف ، قاله عمرو بن ميمون .

الثالث : أنه أمية بن خلف ، قاله السدي ، وذكر أن سبب ذلك أن عقبة وأمية كانا خليلين وكان عقبة يغشى مجلس النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال أمية بن خلف له : بلغني أنك صبوت إلى دين محمد ، فقال ما صبوت ، قال : فوجهي من وجهك حرام حتى تأتيه فتتفل في وجهه وتتبرأ منه فأتى عقبة رسول الله صلى الله عليه وسلم فتفل على جهه وتبرأ منه ، فاشتد ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله فيه مخبراً عما يصير إليه ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ . . . ﴾ الآية والتي بعدها . وفلانٌ لا يُثنى ولا يُجمع .

(127/559)

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُواْ هَذَا الْقُرْءَانَ مَهْجُوراً ﴾

فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : أنهم هجروه بإعراضهم عنه فصار مهجوراً ، قاله ابن زيد .

الثاني : أنهم قالوا فيه هجراً أي قبيحاً ، قاله مجاهد .

الثالث : أنهم جعلوه هجراً من الكلام وهو ما لا نفع فيه من العبث والهذيان ، قاله ابن قتيبة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

(128/559)

وقال ابن عطية :

وقوله ﴿ ويوم تشقق السماء بالغمام ﴾

يريد يوم القيامة عن انفطار السماء ونزول الملائكة ووقوع الجزاء بحقيقة الحساب ، وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر " تشّقّق " بشد الشين والقاف ، وقرأ الباقون بتخفيف الشين ، وقوله ﴿ بالغمام ﴾ أي يشقق عنه ، والغمام سحاب رقيق أبيض جميل لم يره البشر بعد إلا ما جاء في تظليل بني إسرائيل ، وقرأ جمهور القراء " ونُزِّل الملائكة " بضم النون وشدّ الزاي المكسورة ورفع " الملائكةُ " على مفعول لم يسم فاعله ، وقرأ أبو عمرو في رواية عبد الوهاب

" ونزِل " بتخفيف الزاي المكسورة ، قال أبو الفتح وهذا غير معروف لأن " نزل " لا يتعدى إلى مفعول فيبنى هنا " للملائكة " ، ووجهه أن يكون مثل زكم الرجل وجن فإنه لا يقال إلا أزكمه الله وأجنه وهذا باب سماع لا قياس ، وقرأ أبو رجاء " ونَزّل الملائكة " بفتح النون وشدّ الزاي وقرأ الأعمش ، " وأنزل الملائكة " وكذلك قرأ ابن مسعود ، وقرأ أبي بن كعب " ونزلت الملائكة " ، وقرأ ابن كثير وحده " وننزل الملائكة " بنونين وهي قراءة أهل مكة ، فرويت عن أبي عمرو " ونزل الملائكةُ " بإسناد الفعل إليها ، وقرأت فرقة " وتنزل الملائكة " ، وقرأ أبي بن كعب أيضاً " وتنزلت الملائكة " ثم قرّر أن " الملك الحق هو يومئذ للرحمن " ، إذ قد بطل في ذلك اليوم كل ملك وعسره ﴿ على الكافرين ﴾ توجه بدخول النار عليهم فيه وما في خلال ذلك من المخاوف ، وقوله ﴿ على الكافرين ﴾ ، دليله أن ذلك اليوم سهل على المؤمنين وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إن الله ليهون القيامة على المؤمنين حتى أخف عليهم من صلاة مكتوبة صلوها "

(129/559)

قوله ﴿ ويوم ﴾ ظرف العامل فيه فعل مضمر ، وعض اليدين هو فعل النادم الملهوف المتفجّع ، وقال ابن عباس وجماعة من المفسرين ﴿ الظالم ﴾ في هذه الآية عقبة بن أبي

معيط ذلك أنه كان أسلم أو جنح إلى الإسلام وكان أبي بن خلف الذي قتله رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده يوم أحد ﴿ خليلاً ﴾ لعقبة فنهاه عن الإسلام فقبل نهيه فنزلت الآية فيهما ف ﴿ الظالم ﴾ عقبة . و" فلان " أبي وفي بعض الروايات عن ابن عباس أن ﴿ الظالم ﴾ أبي فإنه كان يحضر النبي صلى الله عليه وسلم فنهاه عقبة فأطاعه .

قال الفقيه الإمام القاضي : ومن أدخل في هذه الآية أمية بن خلف فقد وهم إلا على قول من يرى ﴿ الظالم ﴾ اسم جنس ، وقال مجاهد وأبو رجاء الظالم اسم جنس و" فلان " الشيطان .

(130/559)

قال الفقيه الإمام القاضي : ويظهر أن ﴿ الظالم ﴾ عام وأن مقصد الآية تعظيم يوم القيامة وذكر هوله بأنه يوم تندم فيه الظلمة وتتمنى أن لو لم تطع في دنياها خلانها الذي أمروهم بالظلم ، فلما كان خليل كل ظالم غير خليل الآخر وكان كل ظالم يسمي رجلاً خاصاً به عبر عن ذلك ب " فلان " الذي فيه الشياع التام ومعناه واحد من الناس ، وليس من ظالم إلا وله في دنياه خليل يعينه ويحرضه ، هذا في الأغلب ويشبه أن سبب الآية وترتب هذا المعنى كان عقبة وأبياً ، وقوله ﴿ مع الرسول ﴾ يقوي ذلك بأن يجعل تعريف ﴿ الرسول

﴿ للعهد والإشارة إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، وعلى التأويل الأول التعريف بالجنس ، وكلهم قرأ " يا ليتني " ساكنة الياء غير أبي عمرو فإنه حرك الياء في " ليتني اتخذت " ورواها أبو خليد عن نافع مثل أبي عمرو ، و" السبيل " المتمناة هي طريق الآخرة ، وفي هذه الآية لكل ذي نهية تنبيه على تجنب قرين السوء ، والأحاديث والحكم في هذا الباب كثيرة مشهورة ، وقوله ﴿ يا ويلتى ﴾ التاء فيه عوض من الياء في يا ويلي والألف هي التي في قولهم يا غلاماً وهي لغة ، وقرأت فرقة بإمالة ﴿ يا ويلتى ﴾ يال أبو علي وترك الإمالة أحسن لأن أصل هذه اللفظة الياء ﴿ يا ويلتى ﴾ فبدلت الكسرة فتحة والياء ألفاً فراراً من الياء ، فمن أمال رجع إلى الذي فر منه أولاً ، و﴿ الذكر ﴾ ، هو ما ذكر به الإنسان أمر آخرته من قرآن أو موعظة ونحوه ، وقوله : ﴿ وكان الشيطان للإنسان خذولاً ﴾ يحتمل أن يكون من قول ﴿ الظالم ﴾ ويحتمل أن يكون ابتداء إخبار من الله تعالى على جهة الدلالة على وجه ضلالتهم والتحذير من الشيطان الذي بلغهم ذلك المبلغ ، وقوله تعالى : ﴿ وقال الرسول ﴾ ، حكاية عن قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، في الدنيا وتشكيه ما يلقى من قومه ، هذا قول الجمهور ، وهو الظاهر ، وقالت فرقة هو حكاية عن قوله ذلك في الآخرة ، وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو " قومي " بتحريك

الياء والباقون بسكونها ، و﴿ مهجوراً ﴾ يحتمل أن يريد مبعداً مقصياً من الهَجر بفتح الهاء وهذا قول ابن زيد ، ويحتمل أن يريد مقولاً فيه الهُجر بضم الهاء إشارة إلى قولهم شعر وكهانة وسحر وهذا قول مجاهد وإبراهيم النخعي .

قال القاضي أبو محمد : وقول ابن زيد منبه للمؤمنين على ملازمة المصحف وأن لا يكون الغبار يعلوه في البيوت ويشتغل بغيره ، وروى أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال " من علق مصحفاً ولم يتعاهده جاء يوم القيامة متعلقاً به يقول هذا اتخذني ﴿ مهجوراً ﴾ إفصل يا رب بيني وبينه " ، ثم سلاه عن فعل قومه بأن أعلمه أن غيره من الرسل كذلك امتحن بأعداء في زمنه ، أي فاصبر كما صبروا و﴿ عدواً ﴾ يراد به الجمع ، تقول هؤلاء عدو لي فتصف به الجمع والواحد والمؤنث ثم وعده تعلق بقوله : ﴿ وكفى بربك هادياً ونصيراً ﴾ والباء في ﴿ بربك ﴾ للتأكيد على الأمر إذ المعنى اكتف بربك . انتهى انتهى . اهـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(132/559)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاء بالغَمَام ونُزِّلَ الملائكةُ تنزيلاً ﴾

هذا معطوف على قوله : ﴿ يوم يرون الملائكة ﴾ ، وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وابن عامر : ﴿ تَشَّقَّقُ ﴾ بالتشديد ، فأدغموا التاء فى الشين ، لأن الأصل تتشقق .

قال الفراء : المعنى : تتشقق السماء عن الغمام ، وتنزل فيه الملائكة ، و"على" و"عن" و"الباء" في هذا الموضع بمعنى واحد ، لأن العرب تقول : رميت عن القوس ، وبالقوس ، وعلى القوس ، والمعنى واحد .

وقال أبو علي الفارسي : المعنى : تتشقَّقُ السماء وعليها غمام ، كما تقول : ركب الأمير بسلاحه ، وخرج بثيابه ، وإنما تتشقَّق السماء لنزول الملائكة .

قال ابن عباس : تتشقق السماء عن الغمام ، وهو الغيم الأبيض ، وتنزل الملائكة في الغمام .

وقال مقاتل : المراد بالسماء : السماوات ، تتشقق عن الغمام ، وهو غمام أبيض كهيئة الضَّباب ، فتنزل الملائكة عند انشقاقها .

وقرأ ابن كثير : ﴿ ونُنْزِلُ ﴾ بنونين ، الأولى مضمومة ، والثانية ساكنة ، واللام مضمومة ، و"الملائكةَ" نصباً .

وقرأ عاصم الجحدري ، وأبو عمران الجوني : ﴿ ونَزَّلَ ﴾ بنون واحدة مفتوحة ونصب الزاي وتشديدها وفتح اللام ونصب "الملائكةَ" .

وقرأ ابن يعمر : ﴿ ونَزَلَ ﴾ بفتح النون واللام والزاي والتخفيف ﴿ الملائكةُ ﴾ بالرفع .

قوله تعالى : ﴿ المُلْكُ يَوْمَئِذٍ الحَقُّ للرَّحمن ﴾ قال الزجاج : المعنى : المُلْك الذي هو المُلْك حقّاً للرحمن .

فأما العسير ، فهو الصعب الشديد يشتد على الكفار ، ويهون على المؤمنين فيكون كمقدار صلاة مكتوبة .

قوله تعالى : ﴿ ويَوْمَ يَعَضُّ الظالمُ على يديه ﴾ في سبب نزولها ثلاثة أقوال .

أحدها : أن أُبيَّ بن خَلَف كان يحضر [عند] رسول الله صلى الله عليه وسلم ويجالسه من غير أن يؤمن به ، فزجره عُقبة بن أبي مُعَيط عن ذلك ، فنزلت هذه الآية ، رواه عطاء الخراساني عن ابن عباس .

(133/559)

والثاني : " أن عُقبة دعا قوماً فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم لطعام فأكلوا ، وأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأكل ، وقال "لا آكل حتى تَشهد أن لا إله إلا الله وأنّي رسولُ الله" ، فشهد بذلك عقبة ، فبلغ ذلك أُبيَّ بن خَلَف ، وكان خليلاً له ، فقال : صبوت يا عقبة ؟ فقال : لا والله ، ولكنه أبى أن يأكل حتى قلت ذلك ، وليس من نفسي ، فنزلت

هذه الآية" ، قاله مجاهد .

والثالث : أن عُقبة كان خليلاً لأُميَّة بن خَلَف ، فأسلم عُقبة ، فقال أُمية : وجهي من وجهك حرام إن تابعتَ محمداً ، فكفر وارتدَّ لرضى أُميَّة ، فنزلت هذه الآية ، قاله الشعبي .

فأما الظالم [المذكور] هاهنا ، فهو الكافر ، وفيه قولان .

أحدهما : أنه أُبيُّ بن خَلَف ، رواه العوفي عن ابن عباس .

والثاني : عُقبة بن أبي مُعَيط ، قاله مجاهد ، وسعيد بن جبير ، وقتادة .

قال عطاء : يأكل يديه حتى تذهبا إلى المرفقين ، ثم تنبتان ، فلا يزال هكذا كلَّما نبتت يده أكلها ندامة على ما فعل .

قوله تعالى : ﴿ يا ليتني اتَّخَذْتُ ﴾ الأكثرون يسكِّنون ﴿ يا ليتني ﴾ ، وأبو عمرو يحرِّكها ؛ قال أبو علي : والأصل التحريك ، لأنها بازاء الكاف التي للخطاب ، إلا أن حرف اللِّين تكره فيه الحركة ، ولذلك أسكن من أسكن ؛ والمعنى : ليتني اتَّبعتُه فاتَّخذتُ معه طريقاً إلى الهُدى .

قوله تعالى : ﴿ ليتني لم أتَّخِذ فلاناً ﴾ في المشار إليه أربعة أقوال .

أحدها : أنه عنى أُبيَّ بن خَلَف ، قاله ابن عباس .

والثاني : عقبة بن أبي مُعَيط ، قاله أبو مالك .

والثالث : الشيطان ، قاله مجاهد .

والرابع : أُميَّة ابن خَلَف ، قاله السدي .

فإن قيل : إنما يكنى من يخاف المبادأة أو يحتاج إلى المُداجاة ، فما وجه الكناية ؟

فالجواب : أنه أراد بالظالم : كلَّ ظالم ، وأراد بفلان : كلَّ من أُطيع في معصية وأُرضي بسخط الله ، وإن كانت الآية نزلت في شخص ، قاله ابن قتيبة .

(134/559)

قوله تعالى : ﴿ لقد أضلَّني عن الذِكْر ﴾ أي : صرفني عن القرآن والإيمان به ﴿ بعد إذ جاءني ﴾ مع الرسول ، وها هنا تم الكلام .

ثم قال الله تعالى : ﴿ وكان الشَّيطان للانسان ﴾ يعني : الكافر ﴿ خَذُولاً ﴾ يتبرأ [منه] في الآخرة .

قوله تعالى : ﴿ وقال الرسول ﴾

يعني محمداً صلى الله عليه وسلم ، وهذا عند كثير من العلماء أنه يقوله يوم القيامة ؛ فالمعنى : ويقول الرسول يومئذ .

وذهب آخرون ، منهم مقاتل ، إلى أن الرسول قال ذلك شاكياً من قومه إلى الله تعالى ، حين

كذَّبوه .

وقرأ ابن كثير ، ونافع ، [وأبو عمرو] : ﴿ إِن قوميَ اتخذوا ﴾ بتحريك الياء ؛ وأسكنها عاصم ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي .

وفي المراد بقوله : ﴿ مهجوراً ﴾ قولان .

أحدهما : متروكاً لا يلتفتون إليه ولا يؤمنون به ، وهذا معنى قول ابن عباس ، ومقاتل .

والثاني : هجَروا فيه ، أي : جعلوه كالهذَيان ، ومنه يقال : فلان يَهْجُر في منامه ، أي : يَهْذِي ، قاله ابن قتيبة .

وقال الزجاج : الهُجْر : ما لا يُنتفع به من القول .

قال المفسرون : فعزّاه الله عز وجل ، فقال : ﴿ وكذلك جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيّ عَدُوّاً ﴾ أي : كما جعلنا لك أعداءً من مشركي قومك ، جعلنا لكلِّ نبيّ عدوّاً من كفّار قومه ؛ والمعنى : لا يَكْبُرَنَّ هذا عليك ، فلك بالأنبياء أُسوة ، ﴿ وكفى بربِّك هادياً ونصيراً ﴾ يمنعك من عدوِك .

قال الزجاج : والباء في قوله ﴿ بربِّكَ ﴾ زائدة ؛ فالمعنى : كفى ربُّك هادياً ونصيراً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير حـ 6 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السمآء بالغمام ﴾

أي واذكر يوم تشقق السماء بالغمام .

وقرأه عاصم والأعمش ويحيى وحمزة والكسائيّ وأبو عمرو : ﴿ تشقّقُ ﴾ بتخفيف الشين وأصله تتشقق بتاءين فحذفوا الأولى تخفيفاً ، واختاره أبو عبيد .

الباقون ﴿ تَشَّقَّقُ ﴾ بتشديد الشين على الادغام ، واختاره أبو حاتم .

وكذلك في "ق" .

﴿ بِالْغَمامِ ﴾ أي عن الغمام .

والباء وعن يتعاقبان ؛ كما تقول : رميت بالقوس وعن القوس .

روي أن السماء تتشقق عن سحاب أبيض رقيق مثل الضبابة ، ولم يكن إلا لبني إسرائيل في تِيههِم فتنشق السماء عنه ؛ وهو الذي قال تعالى : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ الله فِي ظُلَلٍ مِّنَ الغمام ﴾ [البقرة : 210] .

﴿ وَنُزِّلَ الملائكة ﴾ من السموات ، ويأتي الربّ جل وعز في الثمانية الذين يحملون العرش لفصل القضاء ، على ما يجوز أن يحمل عليه إتيانه ؛ لا على ما تحمل عليه صفات المخلوقين من الحركة والانتقال .

وقال ابن عباس : تتشقق سماء الدنيا فينزل أهلها وهم أكثر ممن في الأرض من الجن والإنس ، ثم تنشق السماء الثانية فينزل أهلها وهم أكثر ممن في سماء الدنيا ، ثم كذلك حتى تنشق السماء السابعة ، ثم ينزل الكَروبيون وحملة العرش ؛ وهو معنى قوله : ﴿ وَنُزِّلَ الملائكة تَنزِيلاً ﴾ أي من السماء إلى الأرض لحساب الثقلين .

وقيل : إن السماء تنشق بالغمام الذي بينها وبين الناس ؛ فبتشقق الغمام تتشقق السماء ؛ فإذا انشقت السماء انتقض تركيبها وطويت ونزلت الملائكة إلى مكان سواها .

وقرأ ابن كثير : ﴿ وَنُنْزِلُ الْمَلاَئِكَةَ ﴾ بالنصب من الإنزال .

الباقون : ﴿ وَنُزِّلَ الْمَلاَئِكَةُ ﴾ بالرفع .

دليله : ﴿ تَنْزِيلاً ﴾ ولو كان على الأوّل لقال إنزالاً .

وقد قيل : إن نَزَّل وأنزل بمعنى ؛ فجاء ﴿ تَنْزِيلاً ﴾ على ﴿ نَزَّل ﴾ وقد قرأ عبد الوهاب عن أبي عمرو : ﴿ وَنُزِلَ الْمَلاَئِكَةُ تَنْزِيلاً ﴾ .

(136/559)

وقرأ ابن مسعود : ﴿ وأُنْزِلَ الْمَلاَئِكَةَ ﴾ .

أبيّ بن كعب : ﴿ وَنُزِّلَتِ الْمَلاَئِكَةُ ﴾ .

وعنه ﴿ وتنزلت الْمَلاَئِكَةُ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ الملك يَوْمَئِذٍ الحق للرحمن ﴾ ﴿ الْمُلْكُ ﴾ مبتدأ و ﴿ الْحَقُّ ﴾ صفة له و ﴿ لِلرَّحْمَنِ ﴾ الخبر ؛ لأن الملك الذي يزول وينقطع ليس بملك ؛ فبطلت يومئذٍ أملاك المالكين وانقَطعتَ دعاويهم ، وزال كل مِلك وملكه ، وبقي الملك الحق لله وحده .

﴿ وَكَانَ يَوْماً عَلَى الكافرين عَسِيراً ﴾ أي لما ينالهم من الأهوال ويلحقهم من الخزي والهوان ، وهو على المؤمنين أخف من صلاة مكتوبة ؛ على ما تقدّم في الحديث .

وهذه الآية دالة عليه ؛ لأنه إذا كان على الكافرين عسيراً فهو على المؤمنين يسير .

يقال : عَسِرَ يَعْسرَ ، وعَسُرَ يَعسُر .

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظالم على يَدَيْهِ ﴾

الماضي عضِضت .

وحكى الكسائيّ عضَضت بفتح الضاد الأولى .

وجاء التوقيف عن أهل التفسير ، منهم ابن عباس وسعيد بن المسيب أن الظالم ها هنا يراد به عقبة بن أبي مُعَيط ، وأن خليله أمية بن خلف ؛ فعقبة قتله عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه ؛ وذلك أنه كان في الأسارى يوم بدر فأمر النبيّ صلى الله عليه وسلم بقتله ؛ فقال : أأقتل دونهم ؟ فقال : نعم ، بكفرك وعتوّك .

فقال : من للصبية ؟ فقال : النار .

فقام عليّ رضي الله عنه فقتله .

وأمية قتله النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فكان هذا من دلائل نبوّة النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه خبَّر عنهما بهذا فقتلا على الكفر .

ولم يسميا في الآية لأنه أبلغ في الفائدة ، ليعلم أن هذا سبيل كل ظالم قَبِلَ من غيره في معصية الله عز وجل .

قال ابن عباس وقتادة وغيرهما : وكان عقبة قد همّ بالإسلام فمنعه منه أبيّ بن خلف وكانا خِدنين ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم قتلهما جميعاً : قُتل عقبة يوم بدر صبراً ، وأبيّ بن خلف في المبارزة يوم أحد ؛ ذكره القشيريّ والثعلبيّ ، والأوّل ذكره النحاس .

(137/559)

وقال السهيليّ : ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظالم على يَدَيْهِ ﴾ هو عقبة بن أبي مُعَيط ، وكان صديقاً لأمية بن خلف الجُمحِيّ ويروى لأبي بن خلف أخ أمية ، وكان قد صنع وليمة فدعا إليها قريشاً ، ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأبى أن يأتيه إلا أن يسلم .

وكره عقبة أن يتأخر عن طعامه من أشراف قريش أحد فأسلم ونطق بالشهادتين ، فأتاه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأكل من طعامه ، فعاتبه خليله أمية بن خلف ، أو أبيّ بن

خلف وكان غائباً .

فقال عقبة : رأيت عظيماً ألا يحضر طعامي رجل من أشراف قريش .

فقال له خليله : لا أرضى حتى ترجع وتبصق في وجهه وتطأ عنقه وتقول كيت وكيت .

ففعل عدوّ الله ما أمره به خليله ؛ فأنزل الله عز وجل : ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظالم على يَدَيْهِ ﴾ .

قال الضحاك : لما بصق عقبة في وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم رجع بصاقه في وجهه وشوى وجهه وشفتيه ، حتى أثر في وجهه وأحرق خديه ، فلم يزل أثر ذلك في وجهه حتى قتل .

وعضه يديه فعل النادم الحزين لأجل طاعته خليله .

﴿ يَقُولُ ياليتني اتخذت مَعَ الرسول سَبِيلاً ﴾ في الدنيا ، يعني طريقاً إلى الجنة .

﴿ يا ويلتى ﴾ دعاء بالويل والثبور على مخالفة الكافر ومتابعته .

﴿ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاَناً خَلِيلاً ﴾ يعني أمية ، وكنى عنه ولم يصرح باسمه لئلا يكون هذا الوعد مخصوصاً به ولا مقصوراً ، بل يتناول جميع من فعل مثل فعلهما .

وقال مجاهد وأبو رجاء : الظالم عام في كل ظالم ، وفلان : الشيطان .

واحتج لصاحب هذا القول بأن بعده ﴿ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنْسَانِ خَذُولاً ﴾ .

وقرأ الحسن : ﴿ يَا وَيْلَتِي ﴾ وقد مضى في "هود" بيانه .

والخليل : الصاحب والصديق وقد مضى في "النساء" بيانه .

﴿ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذكر ﴾ أي يقول هذا النادم : لقد أضلني من اتخذته في الدنيا خليلاً عن القرآن والإيمان به .

وقيل : ﴿ عَنِ الذِّكْرِ ﴾ أي عن الرسول .

(138/559)

﴿ وَكَانَ الشيطانِ للإِنْسَانِ خَذُولاً ﴾ قيل : هذا من قول الله لا من قول الظالم .

وتمام الكلام على هذا عند قوله : ﴿ بَعْدَ إِذْ جاءَنِي ﴾ .

والخذل الترك من الإعانة ؛ ومنه خذلان إبليس للمشركين لما ظهر لهم في صورة سراقة بن مالك ، فلما رأى الملائكة تبرأ منهم .

وكل من صدّ عن سبيل الله وأطيع في معصية الله فهو شيطان للإنسان ، خذولاً عند نزول العذاب والبلاء .

ولقد أحسن من قال :

تَجَنَّب قرِينَ السُّوءِ واصرِمْ حبالَه . . .

فإن لم تجد عنه مَحِيصاً فدارِه

وأحبب حبيب الصدق واحذر مراءه . . .

تنل منه صفو الود ما لم تمارِهِ

وفي الشيب ما ينهى الحليم عن الصِّبا . . .

إذا اشتعلت نيرانه في عِذارِهِ

آخر :

اصحب خيار الناس حيث لقيتهم . . .

خير الصحابة من يكون عفِيفاً

والناس مثل دراهمٍ ميزتها . . .

فوجدت منها فِضة وزيوفا

وفي الصحيح من حديث أبي موسى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " إنما مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير فحامل المسك إما أن يُحذِيك وإما أن تبتاع منه وإمّا أن تجد ريحاً طيبة ونافخ الكير إما أن يحرِق ثيابك وإما أن تجد ريحاً خبيثة " لفظ مسلم .

وأخرجه أبو داود من حديث أنس .

وذكر أبو بكر البزّار عن ابن عباس قال : " قيل يا رسول الله ؛ أيّ جلسائنا خير ؟ قال : "من ذكركم بالله رؤيته وزاد في علمكم منطقه وذكركم بالآخرة عمله" " وقال مالك بن دِينار : إنك إن تنقل الأحجار مع الأبرار خير لك من أن تأكل الخبيص مع الفجار .

وأنشد :

وصاحب خيار الناس تَنْجُ مسلَّما . . .

وصاحب شرار الناس يوما فتندما

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الرسول يا رب ﴾

يريد محمداً صلى الله عليه وسلم ، يشكوهم إلى الله تعالى .

﴿ إِنَّ قَوْمِي اتخذوا هذا القرآن مَهْجُوراً ﴾ أي قالوا فيه غير الحق من أنه سحر وشعر ؛

عن مجاهد والنخعِيّ .

(139/559)

وقيل : معنى ﴿ مَهْجُوراً ﴾ أي متروكاً ؛ فعزّاه الله تبارك وتعالى وسلاّه بقوله : ﴿

وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً مِّنَ المجرمين ﴾ أي كما جعلنا لك يا محمد عدواً من مشركي

قومِك وهو أبو جهل في قول ابن عباس فكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من مشركي قومه ،

فاصبر ، لأمري كما صبروا ، فإني هادِيك وناصرك على كل من ناوأك .

وقد قيل : إن قول الرسول ﴿ يَا رَبِّ ﴾ إنما يقوله يوم القيامة ؛ أي هجروا القرآن وهجروني

وكذبوني .

وقال أنس قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " من تعلم القرآن وعلَّق مصحفه لم يتعاهده ولم ينظر فيه جاء يوم القيامة متعلقاً به يقول يا رب العالمين إن عبدك هذا اتخذني مهجوراً فاقض بيني وبينه " ذكره الثعلبي .

﴿ وكفى بِرَبِّكَ هَادِياً وَنَصِيراً ﴾ نصب على الحال أو التمييز ، أي يهديك وينصرك فلا تبال بمن عاداك .

وقال ابن عباس : عدوّ النبيّ صلى الله عليه وسلم أبو جهل لعنه الله . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 13 صـ ﴾

(140/559)

وقال أبو حيان :

﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا (25) ﴾

قرأ الحرميان وابن عامر ﴿ تشقق ﴾ بإدغام التاء من تتشقق في الشين هنا .

وفي ق وباقي السبعة بحذف تلك التاء ويعني يوم القيامة كقوله ﴿ السماء منفطر به ﴾

وقرأ الجمهور : ﴿ ونُزِّل ﴾ ماضياً مشدداً مبنياً للمفعول ، وابن مسعود وأبو رجاء ﴿ ونزل ﴾ ماضياً مبنياً للفاعل .

وعنه أيضاً وأنزل مبنياً للفاعل وجاء مصدره ﴿ تنزيلاً ﴾ وقياسه إنزالاً إلاّ أنه لما كان معنى أنزل ونزّل واحداً جاز مجيء مصدر أحدما للآخر كما قال الشاعر :

حتى تطوّيت انطواء الحضب . . .

كأنه قال : حتى انطويت .

وقرأ الأعمش وعبد الله في نقل ابن عطية وأنزل ماضياً رباعياً مبنياً للمفعول مضارعه ينزل .

وقرأ جناح بن حبيش والخفاف عن أبي عمرو ﴿ ونزل ﴾ ثلاثياً مخففاً مبنياً للفاعل ، وهارون عن أبي عمرو وتنزل بالتاء من فوق مضارع نزل مشدداً مبنياً للفاعل ، وأبو معاذ وخارجة عن أبي عمرو ﴿ ونزل الملائكة ﴾ بضم النون وشد الزاي ، أسقط النون من وننزل وفي بعض المصاحف وننزل بالنون مضارع نزل مشدداً مبنياً للفاعل .

ونسبها ابن عطية لابن كثير وحده قال : وهي قراءة أهل مكة ورويت عن أبي عمرو .

وعن أبيّ أيضاً وتنزلت .

وقرأ أُبيّ ونزلت ماضياً مشدداً مبنياً للمفعول بتاء التأنيث .

وقال صاحب اللوامح عن الخفاف عن أبي عمرو : ﴿ ونُزِّل ﴾ مخففاً مبنياً للمفعول ﴿ الملائكة ﴾ رفعاً ، فإن صحت القراءة فإنه حذف منها المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه وتقديره : ونزل نزول الملائكة فحذف النزول ونقل إعرابه إلى ﴿ الملائكة ﴾ بمعنى نزول

نازل الملائكة لأن المصدر يكون بمعنى الاسم ، وهذا مما يجيء على مذهب سيبويه في ترتيب اللازم للمفعول به لأن الفعل يدل على مصدره انتهى .

(141/559)

وقال أبو الفتح : وهذا غير معروف لأن ﴿ نزل ﴾ لا يتعدى إلى مفعول فيبني هنا للملائكة ، ووجهه أن يكون مثل زكم الرجل وجن فإنه لا يقال إلاّ أزكمه الله وأجنه .

وهذا باب سماع لا قياس انتهى .

فهذه إحدى عشرة قراءة .

والظاهر أن الغمام هو السحاب المعهود .

وقيل هو الله في قوله ﴿ في ظلل من الغمام ﴾ وقال ابن جريج : الغمام الذي يأتي الله فيه في الجنة زعموا .

وقال الحسن : سترة بين السماء والأرض تعرج الملائكة فيه تنسخ أعمال بني آدم ليحاسبوا .

وقيل : غمام أبيض رقيق مثل الضبابة ولم يكن لبني إسرائيل في تيههم ، والظاهر أن ﴿ السماء ﴾ هي المظلة لنا .

وقيل : تتشقق سماء سماء قاله مقاتل .

والباء باء الحال أي متغيمة أو باء السبب أي بسبب طلوع الغمام منه كأنه الذي تتشقق به السماء كما تقول : شق السنام بالشفرة وانشق بها ونظيره قوله ﴿ السماء منفطر به ﴾ أو بمعنى عن أقوال ثلاثة .

والفرق بين الباء السببية وعن أن انشق عن كذا تفتح عنه وانشق بكذا أنه هو الشاق له .

﴿ ونزل الملائكة ﴾ أي إلى الأرض لوقوع الجزاء والحساب .

و ﴿ الحق ﴾ صفة للملك أي الثابت لأن كل ملك يومئذ يبطل ، ولا يبقى إلاّ ملكه تعالى وخبر ﴿ الملك ﴾ ﴿ يومئذ ﴾ .

و ﴿ الرحمن ﴾ متعلق بالحق أو للبيان أعني ﴿ للرحمن ﴾ .

وقيل : الخبر ﴿ للرحمن ﴾ و ﴿ يومئذ ﴾ معمول للملك .

وقيل : الخبر ﴿ الحق ﴾ و ﴿ للرحمن ﴾ متعلق به أو للبيان ، وعسر ذلك اليوم على الكافرين بدخولهم النار وما في خلال ذلك من المخاوف .

ودل قوله ﴿ على الكافرين ﴾ على تيسيره على المؤمنين ففي الحديث أنه يهون حتى يكون على المؤمن أخف عليه من صلاة مكتوبة صلاها في الدنيا والظاهر عموم الظالم إذ اللام فيه للجنس قاله مجاهد وأبو رجاء ، وقالا : فلان هو كناية عن الشيطان .

وقال ابن عباس وجماعة : ﴿ الظالم ﴾ هنا عقبة بن أبي معيط إذ كان جنح إلى الإسلام وأُبيّ بن خلف هو المكني عنه بفلان ، وكان بينهما مخالة فنهاه عن الإسلام فقبل منه .

(142/559)

وعن ابن عباس أيضاً .

عكس هذا القول .

قيل وسبب نزولها هو عقبة وأُبي .

وقيل : كان عقبة خليلاً لأمية فأسلم عقبة فقال أمية : وجهي من وجهك حرام إن بايعت محمداً فكفر وارتد لرضا أمية فنزلت قاله الشعبي .

وذكر من إساءة عقبة على الرسول ما كان سبب أن قال له الرسول عليه السلام : " لا ألقاك خارجاً من مكة إلا علوت رأسك بالسيف " فقتل عقبة يوم بدر صبراً أمر علياً فضرب عنقه ، وقتل أبيّ بن خلف يوم أحد في المبارزة .

والمقصود ذكر هول يوم القيامة بتندم الظالم وتمنيه أنه لم يكن أطاع خليله الذي كان يأمره بالظلم وما من ظالم إلا وله في الغالب خليل خاص به يعبر عنه بفلان .

والظاهر أن ﴿ الظالم ﴾ ﴿ يعض على يديه ﴾ فعل النادم المتفجع .

وقال الضحاك : يأكل يديه إلى المرفق ثم تنبت ، ولا يزال كذلك كلما أكلها نبتت .

وقيل : هو مجاز عبر به عن التحير والغم والندم والتفجع ونقل أئمة اللغة أن المتأسف المتحزن المتندم يعض على إبهامه ندماً وقال الشاعر :

لطمت خدها بحمر لطاف . . .

نلن منها عذاب بيض عذاب

فتشكى العناب نور إقاح . . .

واشتكى الورد ناضر العناب

وفي المثل : يأكل يديه ندماً ويسيل دمعه دماً .

وقال الزمخشري : عض الأنامل واليدين والسقوط في اليد وأكل البنان وحرق الأسنان والإرم وفروعها كنايات عن الغيظ والحسرة لأنها من روادفها فتذكر الرادفة .

ويدل بها على المردوف فيرتفع الكلام به في طبقة الفصاحة ، ويجد السامع عنده في نفسه من الروعة والاستحسان ما لا يجد عند لفظ المكنى عنه انتهى .

وقال الشاعر في حرق الناب :

أبى الضيم والنعمان يحرق نابه . . .

عليه فأفضى والسيوف معاقله

﴿ يقول ﴾ في موضع الحال أي قائلاً ﴿ يا ليتني ﴾ فان كانت اللام للعهد فالمعنى أنه تمنى

عقبة أن لو صحب النبيّ (صلى الله عليه وسلم) وسلك طريق الحق ، وإن كانت اللام للجنس فالمعنى أنه تمنى .

(143/559)

سلوك طريق الرسول وهو الإيمان ، ويكون الرسول للجنس لأن كل ظالم قد كلف اتّباع ما جاء به رسول من الله إلى أن جاءت الملة المحمدية فنسخت جميع الملل ، فلا يقبل بعد مجيئه دين غير الذي جاء به .

ثم ينادي بالويل والحسرة يقول ﴿ يا ويلتي ﴾ أي يا هلكاه كقوله ﴿ يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله ﴾ وقرأ الحسن وابن قطيب ﴿ يا ليتني ﴾ بكسر التاء والياء ياء الإضافة وهو الأصل لأن الرجل ينادي ويلته وهي هلكته يقول لها تعالي فهذا أوانك .

وقرأت فرقة بالإمالة .

قال أبو علي : وترك الإمالة أحسن لأن هذه اللفظة الياء فبدلت الكسرة فتحة والياء ألفاً فراراً من الياء فمن أمال رجع إلى الذي عنه فر أولاً .

وفلان كناية عن العلم وهو متصرف .

وقل كناية عن نكرة الإنسان نحو : يا رجل وهو مختص بالنداء ، وفلة بمعنى يا امرأة كذلك

ولام فل ياء أو واو وليس مرخماً من فلان خلافاً للفراء .

ووهم ابن عصفور وابن مالك وصاحب البسيط في قولهم فل كناية عن العلم كفلان .

وفي كتاب سيبويه ما قلناه بالنقل عن العرب .

و﴿ الذكر ﴾ ذكر الله أو القرآن أو الموعظة ، والظاهر حمل الشيطان على ظاهره لأنه هو الذي وسوس إليه في مخالة من أضله سماه شيطاناً لأنه يضل كما يضل الشيطان ثم خذله ولم ينفعه في العاقبة .

وتحتمل هذه الجملة أن تكون من تمام كلام الظالم ، ويحتمل أن تكون إخباراً من كلام الله على جهة الدلالة على وجه ضلالهم والتحذير من الشيطان الذي بلغهم ذلك المبلغ .

وفي الحديث الصحيح تمثيل الجليس الصالح بالمسك والجليس السوء بنافخ الكير .

والظاهر أن دعاء رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ربه وإخباره بهجر قومه قريش القرآن هو مما جرى له في الدنيا بدليل إقباله عليه مسلياً مؤانساً بقوله ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبيّ عدواً من المجرمين ﴾ وأنه هو الكافي في هدايته ونصره فهو وعد منه بالنصر وهذا القول من الرسول وشكايته فيه تخويف لقومه .

(144/559)

وقالت فرقة منهم أبو مسلم إنه قوله عليه السلام في الآخرة كقوله ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً ﴾ والظاهر أن ﴿ مهجوراً ﴾ بمعنى متروكاً من الإيمان به مبعداً مقصياً من الهجر بفتح الهاء .

وقاله مجاهد والنخعي وأتباعه .

وقيل : من الهجر والتقدير ﴿ مهجوراً ﴾ فيه بمعنى أنه باطل .

وأساطير الأولين أنهم إذا سمعوه هجروا فيه كقوله ﴿ وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه ﴾ قال الزمخشري : ويجوز أن يكون المهجور بمعنى الهجر كالملحود والمعقول ، والمعنى اتخذوه هجراً والعدو يجوز أن يكون واحداً وجمعاً انتهى .

وانتصب ﴿ هادياً ﴾ و ﴿ نصيراً ﴾ على الحال أو على التمييز . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(145/559)

وقال أبو السعود :

﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السماء ﴾

أي تتفتحُ وأصلُه تتشقَّقُ فحُذفتْ إحدى التَّاءينِ كما في تلظَّى . وقُرىء بإدغامِ التَّاءِ في

الشّين ﴿ بالغمام ﴾ بسببِ طلوعِ الغمامِ منها وهو الغَمامُ الذي ذُكر في قوله تعالى : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الغمام والملائكة ﴾ قيل هو غمامٌ أبيضُ رقيقٌ مثلُ الضَّبابةِ ولم يكُنْ إلاَّ لبني إسرائيلَ ﴿ وَنُزِّلَ الملائكة تَنزِيلاً ﴾ أي تنزيلاً عجيباً غيرَ معُهودٍ قيل تنشق سماءً سماءً وينزل الملائكةُ خلالَ ذلك الغمامِ بصحائفِ أعمالِ العبادِ وقُرِىء ونُزِّلتِ الملائكةُ ونُنْزل ونُنزّل على صيغة المتكلم من الإنزالِ والتَّنزيل ونزَّل الملائكةَ وأنزل الملائكةَ وتزِلُ الملائكةُ على حذف النُّون الذي هو فاءُ الفعلِ من تنزل .

(146/559)

﴿ الملك يَوْمَئِذٍ الحق للرحمن ﴾ أي السَّلطنةُ القاهرةُ والاستيلاءُ الكليُّ العام الثَّابتُ صورةً ومعنى ظاهراً وباطناً بحيثُ لا زوالَ له أصلاً ثابتٌ الرَّحمِ يومئذٍ فالمُلكُ مبتدأٌ والحقُّ صفتُه وللرَّحمنِ خبرُه ويومئذٍ ظرفٌ لثُبوتِ الخبرِ للمبتدأ ، وفائدةُ التَّقييدِ أنَّ ثبوت المُلك المذكور له تعالى خاصَّةً يومئذٍ وأمَّا فيما عداهُ من أيَّامِ الدُّنيا فيكون لغيرِه أيضاً تصرُّفٌ صوريٌّ في الجُملةِ وقيل : المُلك مبتدأٌ والحقُّ خبرُه وللرَّحمنُ متعلَّق بالحقِّ أو بمحذوفٍ على التَّبيين أو بمحذوفٍ هو صفةٌ للحقِّ ويومئذٍ معمولٌ للملك وقيلَ الخبرُ يومئذٍ والحقُّ نعتٌ للملكِ وللرحمن على ما ذُكر ، وأيّاً ما كان فالجملةُ بمعناها عاملةٌ في الظَّرفِ أي

ينفردُ الله تعالَى بالملكِ يومَ تشقَّقُ وقيل : الظَّرفُ منصوبٌ بما ذُكر فالجملةُ حينئذٍ استئنافٌ مسوقٌ لبيانِ أحوالِه وأهوالِه وإيرادُه تعالى بعُنوانِ الرَّحمانيةِ للإيذانِ بأنَّ اتصافَه تعالى بغايةِ الرَّحمةِ لا يُهوِّنُ الخَطْبَ على الكَفَرةِ لعدمِ استحقاقِهم للرَّحمةِ كما في قولِه تعالى : ﴿ يا أيها الإنسان مَا غَرَّكَ بربِّكَ الكريم ﴾ والمعنى أنَّ الملكَ الحقيقيَّ يومئذٍ للرَّحمنِ ﴿ وكَانَ ﴾ ذلكَ اليوم مع كونِ المُلكِ فيه لله تعالى المبالغ في الرَّحمةِ لعبادِه ﴿ يَوْماً عَلَى الكافرين عَسِيراً ﴾ شَديداً لهُم . وتقديمُ الجارِّ والمجرورِ لمُراعاةِ الفواصلِ وأمَّا للمُؤمنين فيكون يَسيراً بفضلِ الله تعالى ، وقد جاءَ في الحديثِ أنَّه يُهوَّن يومُ القيامةِ على المؤمنِ حتَّى يكونَ أخفَّ عليه من صلاةٍ مكتوبةٍ صلاَّها في الدّنيا ، والجملةُ اعتراضٌ تذييليٌّ مقرِّرٌ لما قبله .

(147/559)

﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظالم على يَدَيْهِ ﴾ عضُّ اليدينِ والأناملِ وأكلُ البنانِ وحرقُ الأسنانِ ونحوها كناياتٌ عن الغيظِ والحسرةِ لأنَّها من روادِفهما . والمرادُ بالظَّالمِ إمَّا عقبةُ بنُ أبي مُعيطٍ على ما قيل : من أنَّه كان يُكثر مجالسةَ النبيِّ صلى الله عليه وسلم فدعاهُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ يوماً إلى ضيافتِه فأبى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أنْ يأكلَ من طعامِه حتَّى ينطِقَ بالشَّهادتينِ ففعلَ وكان أُبيُّ بنُ خَلَفٍ صديقَه فعاتبَه فقال : صَبأتَ فقال : لا ولكنْ أَبَى أنْ

يأكلَ منْ طَعَامي وهو في بيتي فاستحييتُ منه فشهدتُ له فقال : إنيّ لا أرضى منكَ إلا أنْ تأتيَه فتطأَ قفاهُ وتبزقَ في وجههِ فأتاهُ فوجدَه ساجداً في دارِ النَّدوةِ ففعل ذلك فقال عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ، لا ألقاكَ خارجاً من مكَّةَ إلاَّ علوتُ رأسَك بالسَّيفِ فأُسرَ يوم بدرٍ فأمرَ عليّاً رضي الله عنه فقتَلَه وقيل : قَتَله عاصمُ بنُ ثابتٍ الأنصاريُّ وطعنَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أُبيّاً يومَ أُحدٍ في المُبارزة فرجعَ إلى مكَّةَ وماتَ .

وإما جنسُ الظَّالم وهو داخلٌ فيه دخولاً أوليّاً . وقولُه تعالى : ﴿ يقُولُ ﴾ الخ حالٌ من فاعلِ يعضُّ . وقولُه تعالى : ﴿ يا ليتنى ﴾ الخ محكيٌّ به ويَا إمَّا لمجرَّدِ التَّنبيهِ من غيرِ قَصْدٍ إلى تعيينِ المنبَّهِ أو المُنادي محذوفٌ أي يا هؤلاءِ ليتني ﴿ اتخذت مَعَ الرسول سَبيلاً ﴾ أي طريقاً واحداً منجياً من هذه الورطاتِ وهو طريقُ الحقّ ولم تتشعبْ بي طرقُ الضَّلالةِ أو حَصَّلتُ في صحبتِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ طريقاً ولم أكُن ضالاًّ لا طريقَ لي قط .

﴿ يا ويلتى ﴾

(148/559)

بقلب ياءِ المتكلّمِ الفاً كما في صحارى ومدارى . وقُرىء على الأصلِ يا ويلتي أي هَلَكتي تعالَيْ واحضريْ فهذا أوانُكِ ﴿ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلاَناً خَلِيلاً ﴾ يريدُ مَن أضلَّه في الدُّنيا فإنَّ

فُلانا كنايةٌ عن الأعلامِ كما أن الهَنَ كنايةُ عن الأجناسِ . وقيل فُلانٌ كنايةٌ عن علَم ذكورِ مَن يعقلُ ، وفُلانةٌ عن علَم إناثِهم . وقُل كنايةٌ عن نكرةِ مَن يعقلُ من الذكور ، وفُلة عمَّن يعقلُ من الإناثِ ، والفُلانُ والفُلانةُ من غيرِ العاقلِ ويختصُّ فُل بالنّداءِ إلاَّ في ضرورةٍ كما في قوله

في لُجَّةٍ أَمْسِكْ فُلاناً عن فُلِ . . . وقوله

خُذا حدِّثاني عن فُلٍ وفُلانِ . . . وليس فُل مرخَّماً من فُلان خلافاً للفرّاء واختلفُوا في لامِ فُل وفُلان فقيلَ واوٌ وقيل ياءٌ ، هذا فإنْ أُرِيدَ بالظَّالم عقبةُ ففُلان كنايةٌ عن أَبيَ وإنْ أُرِيدَ بِهِ الجنسُ فهوُ كنايةٌ عن علَمِ كلِّ مَن يضلُّه كائناً مَن كان من شياطينِ الإنس والجنِّ وهذا التَّمنِّي منه وإنْ كان مسُوقاً لإبرازِ النَّدمِ والحسرةِ لكنَّه متضمنٌ لنوعِ تعللٍ واعتذارٍ بتوريك جنايتِه إلى الغيرِ .

وقوله تعالى :

(149/559)

﴿ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ الذكر ﴾ تعليلٌ لتمنيه المذكورِ وتوضيحٌ لتعللُّهِ . وتصديُره باللامِ القسميَّةِ للمُبالغةِ في بيانِ خطئِه وإظهارِ ندمهِ وحسرته أي واِ لقد أضلَّني عن ذكرِ الله تعالى أو عن القرآنِ أو عن موعظةِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أو كلمةِ الشَّهادةِ ﴿ بَعْدَ إِذْ

جَاءِنى ﴾ وتمكَّنتُ منه وقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ الشيطان للإنسان خَذُولاً ﴾ أي مُبالغاً في الخِذلانِ حيثُ يواليهِ حتَّى يؤدّيه إلى الهلاكِ ثمَّ يتركُه ولا ينفعُه اعتراضٌ مقرّرٌ لمضمونِ ما قبلَه إما من جهتِه تعالى أو من تمام كلامِ الظَّالمِ على أنَّه سَمَّي خليلَه شيطاناً بعد وصفِهِ بالإضلالِ الذي هو أخصُّ الأوصافِ الشَّيطانيَّةِ أو على أنَّه أرادَ بالشَّيطانِ إبليسَ لأنَّه الذي حملَه على مخالَّةِ المُضلّين ومخالفةِ الرَّسولِ الهادِي عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بوسوسَتِه وإغوائِه لكن وصفُه بالخِذلانِ يُشعر بأنَّه كانَ يعِدُه في الدُّنيا ويُمنيه بأنَّه ينفعه في الآخرةِ وهو أوفقُ بحالِ إبليسَ .

﴿ وَقَالَ الرسول ﴾ عطفٌ على قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الذين لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا ﴾ وما بينهما اعتراضٌ مسوقٌ لاستعظامِ ما قالُوه وبيانِ ما يحيقُ بهم في الآخرةِ من الأهوالِ والخُطوبِ وإيرادُه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بعُنوانِ الرِّسالةِ لتحقيقِ الحقِّ والردِّ على نحورِهم حيثُ كانَ ما حُكي عنهم قَدحاً في رسالتِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أي قالُوا كيتَ وكيتَ وقال الرَّسولُ إثرَ ما شاهدَ منهم غايةَ العُتوِّ ونهايةَ الطُّغيان بطريقِ البثِّ إلى ربِّه عزَّ وجلَّ ﴿ يارب إِنَّ قَوْمِى ﴾ يعني الذين حُكي عنهم ما حُكي من الشَّنائعِ ﴿ اتخذوا هذا القرءان ﴾ الذي من جُملتِه هذه الآياتُ النَّاطقةُ بما يحيقُ بهم في الآخرةِ من فُنونِ العقابِ كما ينبئُ عنه كلمةُ الإشارةِ .

﴿ مَهْجُوراً ﴾ أي متروكاً بالكلّيةِ ولم يُؤمنوا به ولم يرفعوا إليهِ رأساً ولم يتأثَّرُوا بوعيدِه وفيه تلويحٌ بأنَّ من حقِّ المؤمنِ أنْ يكونَ كثيرَ التَّعاهدِ للقرآن كيلا يندرجَ تحت ظاهرِ النَّظمِ الكريمِ فإنَّه رُوي عنه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أنَّه قال : " مَن تعلَّم القرآنَ وعلَّق مُصحفاً لم يتعاهدْهُ ولم ينظرْ فيهِ جاءَ يومَ القيامةِ متعلّقاً به يقولُ يا ربَّ العالمينَ عبدُك هذا اتَّخذني مهجُوراً اقضِ بيني وبينَهُ " وقيل : هو من هجَر إذا هَذَى أي جعلوه مهجُوراً فيه إمَّا على زعمِهم الباطلِ وإمَّا بأنْ هجَّروا فيه إذا سمعُوه كما يُحكى عنه من قولِهم : ﴿ لا تسمعُوا لهذا القُرآنِ والغَوا فيهِ ﴾ وقد جُوِّز أنْ يكون المهجورُ بمعنى الهَجْر كالمجلود والمعقولِ فالمعنى اتَّخذُوه هَجْراً وهَذَياناً وفيه من التَّحذيرِ والتَّخويفِ ما لا يَخْفى فإنَّ الأنبياءَ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ إذا شكَوا إلى الله تعالى قومَهم عجَّل لهم العذابَ ولم يُنظَروا .

(151/559)

وقوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً مِّنَ المجرمين ﴾ تسليةٌ لرسولِ الله صلى الله عليه وسلم وحملٌ له على الاقتداءِ بمن قبلَه من الأنبياءِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ أي كما جعلنا لك أعداءً من المُشركين يقولُون ما يقولُون ويفعلُون ما يفعلُون من الأباطيلِ جعلنا لكلِّ نبيٍّ من

الأنبياءِ الذينَ هم أصحابُ الشَّريعةِ والدّعوةِ إليها عدوّاً من مُجرمي قومِهم فاصبرْ كما صبرُوا وقوله تعالى : ﴿ وكفى بِربّكَ هَادِياً وَنَصِيراً ﴾ وعدٌ كريمٌ له عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بالهدايةِ إلى كافَّةِ مطالبه والنَّصرِ على أعدائِه أي كَفَاك مالكُ أمرِك ومُبلّغك إلى الكمالِ هَادياً لك إلى ما يُوصلكَ إلى غايةِ الغاياتِ التي من جُملتها تبليغُ الكتابِ أجلَه وإجراء أحكامِه في أكنافِ الدُّنيا إلى يومِ القيامةِ ونصيراً لك على جميعِ مَن يُعاديك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 6 صـ ﴾

(152/559)

وقال الآلوسى :

﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السماء بالغمام ﴾

العامل في ﴿ يَوْمٍ ﴾ إما اذكر أو ينفرد الله تعالى بالملك الدال عليه قوله تعالى : ﴿ الملك يَوْمَئِذٍ الحق للرحمن ﴾ [الفرقان : 26] وقيل العامل ذلك بمعناه المذكور .

وقيل : إنه معطوف على ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ [الفرقان : 24] أو ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ ﴾ [الفرقان : 22] و "تشقق" تتفتح والتعبير به دونه للتهويل .

وأصله تتشقق فحذفت إحدى التاءين كما في ﴿ تلظى ﴾ [الليل : 14] وقرأ

الحرميان .

وابن عامر بادغام التاء في الشين لما بينهما من المقاربة ؛ والظاهر أن المراد بالسماء المظلة لنا وبالغمام السحاب المعروف والباء الداخلة عليه باء السبب .

أي تشقق السماء بسبب طلوع الغمام منها .

ولا مانع من أن تشقق به كما يشق السنام بالشفرة والله تعالى على كل شيء قدير .

وحديث امتناع الخرق على السماء حديث خرافة .

وقيل : باء الحال وهي باء الملابسة .

واستظهر بعضهم أي تشقق متغيمة .

وقيل : بمعنى عن وإليه ذهب الفراء ، والفرق بين قولك انشقت الأرض بالنبات وانشقت عنه أن معنى الأول أن الله تعالى شقها بطلوعه فانشقت به .

ومعنى الثاني أن التربة ارتفعت عنه عند طلوعه ، وقيل : المراد بالغمام غمام أبيض رقيق مثل الضبابة ولم يكن إلا لبني إسرائيل في تيههم .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد أنه الغمام الذي يأتي الله تعالى فيه يوم القيامة المذكور في قوله سبحانه : ﴿ هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام ﴾ [البقرة : 210]

قال ابن جريج : وهو غمام زعموا أنه في الجنة ، وعن مقاتل أن المراد بالسماء ما يعم السموات كلها وتشقق سماء سماء ، وروي ذلك عن ابن عباس ، فقد أخرج عبد بن

حميد .

وابن أبي الدنيا في الأهوال .

وابن جرير .

وابن المنذر .

(153/559)

وابن أبي حاتم عنه رضي الله تعالى عنه أنه قرأ هذه الآية إلى قوله تعالى : ﴿ وَنُزِّلَ الملائكة تَنزِيلاً ﴾ أي تنزيلاً عجيباً غير معهود فقال : يجمع الله تعالى الخلق يوم القيامة في صعيد واحد الجن والإنس والبهائم والسباع والطير وجميع الخلق فتنشق السماء الدنيا فينزل أهلها وهم أكثر ممن في الأرض من الجن والإنس وجميع الخلق فيحيطون بجميعهم فتقول أهل الأرض : أفيكم ربنا ؟ فيقولون : لا ، ثم تنشق السماء الثانية فينزل أهلها وهم أكثر من أهل السماء الدنيا ومن الجن والإنس وجميع الخلق فيحيطون بالملائكة الذين نزلوا قبلهم والجن والإنس وجميع الخلق ثم تنشق السماء الثالثة فينزل أهلها وهم أكثر من أهل السماء الثانية والدنيا وجميع الخلق فيحيطون بالملائكة الذين نزلوا قبلهم وبالجن والإنس وجميع الخلق ، ثم ينزل أهل السماء الرابعة وهم أكثر من أهل الثالثة والثانية والأولى وأهل الأرض ، ثم ينزل

أهل السماء الخامسة وهم أكثر ممن تقدم ، ثم أهل السماء السادسية كذلك ، ثم أهل السماء السابعة وهم أكثر من أهل السموات وأهل الأرض ، ثم ينزل ربنا في ظلل من الغمام وحوله الكروبيون وهم أكثر من أهل السموات السبع والإنس والجن وجميع الخلق لهم قرون ككعوب القنا وهم تحت العرش لهم زجل بالتسبيح والتهليل والتقديس لله تعالى ما بين أخمص أحدهم إِلى كعبه مسيرة خمسمائة عام ، ومن فخذه إلى ترقوته مسيرة خمسمائة عام ، ومن ترقوته إلى موضع القرط مسيرة خمسمائة عام وما فوق ذلك خمسمائة عام ، ونزول الرب جل وعلا من المتشابه ، وكذا قوله : "وحوله الكروبيون" وأهل التأويل يقولون : المراد بذلك نزول الحكم والقضاء ، فكأنه قيل : ثم ينزل حكم الرب وحوله الكروبيون أي معه ، وأما نزول الملائكة مع كثرتهم وعظم أجسامهم فلا يمنع عنه ما يشاهد من صغر الأرض لأن الأرض يومئذ تمتد بحيث تسع أهلها وأهل السموات أجمعين ، وسبحان من لا يعجزه شيء ، ثم الخبر الظاهر في أن الملائكة

(154/559)

عليهم السلام لا ينزلون في الغمام ، وذكر بعضهم في الآية أن السماء تنفتح بغمام يخرج منها ، وفي الغمام الملائكة ينزلون وفي أيديهم صحائف الأعمال ، وقرأ ابن مسعود .

وأبو رجاء دونزل ﴾ ماضياً مبنياً للفاعل مشدداً ، وعنه أيضاً "وأنزل" مبنياً للفاعل وجاء مصدره تنزيلاً وقياسه إنزالاً إلا أنه لما كان معنى أنزل ونزل واحداً جاء مصدر أحدهما للآخر كما قال الشاعر :

حتى تطويت انطواء الخصب . . .

كأنه قال : حتى انطويت ، وقرأ الأعمش .

وعبد الله في نقل ابن عطية "وأنزل" ماضياً رباعياً مبنياً للمفعول ، وقرأ جناح بن حبيش .

والخفاف عن أبي عمرو "ونزل" ثلاثياً مخففاً مبنياً للفاعل ، وقرأ أبو معاذ .

وخارجة عن أبي عمرو "ونزل" بضم النون وشد الزاي وكسرها ونصب "الملائكة" وخرجها ابن حنى بعد أن نسبها إلى ابن كثير .

وأهل مكة على أن الأصل "ننزل" كما وجد في بعض المصاحف فحذفت النون التي هي فاء الفعل تخفيفاً لالتقاء النونين ، وقرأ أبي "ونزلت" ماضياً مشدداً مبنياً للمفعول بتاء التأنيث .

وقال صاحب اللوامح عن الخفاف عن أبي عمرو "ونزل" مخففاً مبنياً للمفعول و"الملائكة" بالرفع فإن صحت القراءة فإنه حذف منها المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه .

والتقدير ونزل نزول الملائكة فحذف النزول ونقل إعرابه إلى الملائكة بمعنى نزل نازل الملائكة لأن المصدر يكون بمعنى الاسم اه ، وقال الطيبي : قال ابن جنى : نزل بالبناء للفعول غير

معروف لأن نزل لا يتعدى إلى مفعول به ولا يقاس بجن حيث أنه مما لا يتعدى إلى المفعول فلا يقال جنة الله تعالى بل أجنة الله تعالى ، وقد بني للمفعول لأنه شاذ والقياس عليه مرود فأما أن يكون ذلك لغة نادرة وإما أن يكون من حذف المضاف أي نزل نزول الملائكة فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه قال العجاج :

حتى إذا اصطفوا له حذاراً . . .

(155/559)

فحذاراً منصوب مصدراً لا مفعولاً به يريد اصطفوا له اصطفافاً حذاراً ونزل نزول الملائكة على حذ قولك : هذا نزول منزول وصعود مصعود وضرب مضروب وقريب منه ، وقد قيل قول وقد خيف منه خوف فاعرف ذلك فإنه أمثل ما يحتج به لهذه القراءة اه .

وهو أحسن من كلام صاحب اللوامح .

وعن أبي عمرو أيضاً أنه قرأ ﴿ نُنَزِّلُ الملائكة ﴾ فهذه مع قراءة الجمهور وما في بعض المصاحف عشرة قراءات وما كان منها بصيغة المضارع وجهه ظاهر ، وأما ما كان بصيغة الماضي فوجهه على ما قيل الإشارة إلى سرعة الفعل .

﴿ الملك يَوْمَئِذٍ الحق للرحمن ﴾ أي السلطنة القاهرة والاستيلاء الكلي العام الثابت

صورة ومعنى ظاهراً وباطناً بحيث لا زوال له ثابت للرحمن يوم إذ تشقق السماء ونزل للملائكة ، فالملك مبتدأ و﴿ الحق ﴾ صفته و﴿ للرحمن ﴾ خبره و﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ ظرف لثبوت الخبر للمبتدأ ، وفائدة التقييد ان ثبوت الملك له تعالى خاصة يومئذ وأما فيما عدداه من أيام الدنيا فيكون لغيره عز وجل أيضاً تصرف صوري في الجملة واختار هذا بعض المحققين ، ولعل أمر الفصل بين الصفة والموصوف بالظرف المذكور سهل ، وقيل : "الملك" مبتدأ و"يومئذ" متعلق به وهو بمعنى المالكية ﴿ والحق ﴾ خبره و﴿ للرحمن ﴾ متعلق بالحق .

وتعقب بأنه لا يظهر حينئذ نكتة إيراد المسند معرفاً فإن الظاهر عليه أن يقال : الملك يومئذ حق للرحمن .

وأجيب بأن في تعلقه بما ذكر تأكيد لما يفيده تعريف الطرفين ، وقيل : هو متعلق بمحذوف على التبيين كما في سقيا لك والمبين من له الملك ، وقيل : متعلق بمحذوف وقع صفة للحق وهو كما ترى ، وقيل : "يومئذ" هو الخبر و"الحق" نعت للملك و"الرحمن" متعلق به ، وفيه الفصل بين الصفة والموصوف بالخبر فلا تغفل .

(156/559)

ومنعوا تعلق ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ فأما إذا لم يكن خبراً بالحق وعللوا ذلك بأنه مصدر والمصدر لا تتقدم عليه صلته ولو ظرفا وفيه بحث ، والجملة على أكثر الاحتمالات السابقة في عامل ﴿ يَوْم ﴾ [الفرقان : 25] استئناف مسوق لبيان أحوال ذلك اليوم وأهواله ، وإيراده تعالى بعنوان الرحمانية للإيذان بأن اتصافه عز وجل بغاية الرحمة لا يهون الخطب على الكفرة المشار إليه بقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ يَوْماً عَلَى الكافرين عَسِيراً ﴾ أي وكان ذلك اليوم مع كون الملك فيه لله تعالى المبالغ في الرحمة بعباده شديداً على الكافرين ، والمراد شدة ما فيه من الأهوال ، وفسر الراغب العسير بما لا يتيسر فيه أمر ؛ والجملة اعتراض تذييلي مقرر لما قبله ، وفيها إشارة إلى كون ذلك اليوم يسيراً للمؤمنين وفي الحديث " إنه يهون على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة صلاها في الدنيا " .

﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظالم على يَدَيْهِ ﴾ قال الطبرسي : العامل في ﴿ يَوْمٍ ﴾ اذكر محذوفاً ؛ ويجوز أن يكون معطوفاً على ما قبله ، والظاهر أن أل في الظالم للجنس فيعم كل ظالم وحكى ذلك أبو حيان عن مجاهد .

(157/559)

وأبى رجاء ، وذكر أن المراد بفلان فيما بعد الشيطان ، وقيل : لتعريف العهد ، والمراد بالظالم عقبة بن أبي معيط لعنه الله تعالى وبفلان أبي بن خلف ، فقد روي أنه كان عقبة بن أبي معيط لا يقدم من سفر إلا صنع طعاماً فدعا عليه أهل مكة كلهم وكان يكثر مجالسة النبي صلى الله عليه وسلم ويعجبه حديثه وغلب عليه الشقاء فقدم ذات يوم من سفر فصنه طعاماً ثم دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى طعامه فقال : ما أنا بالذي آكل من طعامك حتى تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله فقال : اطعم يا ابن أخي فقال صلى الله عليه وسلم : ما أنا بالطي أفعل حتى تقول فشهد بذلك وطعم عليه الصلاة والسلام من طعامه فبلغ ذلك أبي بن خلف فأتاه فقال : أصبوت يا عقبة وكان خليله فقال : والله ما صبوت ولكن دخل على رجل فأبى أن يطعم من طعامي إلا أن أشهد له فاستحييت أن يخرج من بيتي قبل أن يطعم فشهدت له فطعم فقال : ما أنا بالذي أرضى عنك حتى تأتيه فتفعل كذا وذكر فعلاً لا يليق إلا بوجه القائل اللعين ففعل عقبة فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا ألقاك خارجاً عن مكة إلا علوت رأسك بالسيف ، وفي رواية إن وجدتك خارجاً من جبال مكة أضرب عنقك صبراً فلما كان يوم بدر وخرج أصحابه أبى أن يخرج فقال له أصحابه : أخرج معنا قال : قد وعدني هذا الرجل إن وجدني خارجاً من جبال مكة أن يضرب عنقي صبراً فقالوا : لك جمل أحمر لا يدرك فلو كانت الهزيمة طرت عليه

فخرج معهم فلما هزم الله تعالى المشركين رحل به جملة في جدد من الأرض فأخذ أسيراً في سبعين من قريش وقدم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمر علياً كرم الله تعالى وجهه .

(158/559)

وفي رواية ثابت بن أبي الأفلح بأن يضرب عنقه فقال أتقتلني من بين هؤلاء ؟ قال : نعم قال : بم ؟ قال : بكفرك وفجورك وعتوك على الله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام ، وفي رواية أنه صلى الله عليه وسلم صرح له بما فعل معه ثم ضربت عنقه ، وأما أبي بن خلف فمع فعله ذلك قال : والله لأقتلن محمداً صلى الله عليه وسلم فبلغ ذلك رسول الله عليه الصلاة والسلام فقال : بل أقتله إن شاء الله تعالى فأنزعه ذلك وقال لمن أخبره : أنشدك بالله تعالى أسمعته يقول ذلك ؟ قال نعم فوقعت في نفسه لما علموا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قال قولاً إلا كان حقاً فلما كان يوم أحد خرج مع المشركين فجعل يلتمس غفلة النبي عليه الصلاة والسلام ليحمل عليه فيحول رجل من المسلمين بين النبي عليه الصلاة والسلام وبينه فلما رأى ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه : خلوا عنه فأخذ الحربة فرماه بها فوقعت في ترقوته فلم يخرج منه دم كثير واحتقن الدم في جوفه فخر يخور كما يخور الثور فأتي أصحابه حتى احتملوه وهو يخور فقالوا : ما هذا فوالله ما بك الأخدش فقال :

والله لو لم يصبني ألا بريقه لقتلني أليس قد قال : أنا أقتله ، والله لو أن الذي بي بأهل ذي المجاز لقتلهم فما لبث إلا يوماً أو نحو ذلك حتى ذهب إلى النار فأنزل الله تعالى هذه الآية ، وروي هذا القول عن ابن عباس .

وجماعة ، وفي رواية أخرى عن ابن عباس أن ظالم أبي بن خلف وفلان عقبة ، وعض اليدين إما على ظاهره ، وروي ذلك عن الضحاك .

وجماعة قالوا : يأكل يديه إلى المرفق ثم تنبت ولا يزال كذلك كلما أكلها نبتت وإما كناية عن فرط الحسرة والندامة ، وكذا عض الأنامل والسقوط في اليد وحرق الأسنان والأدم ونحوها لأنها لازمة لذلك في العادة والعرف وفي المثل يأكل يديه ندماً ويسيل دمعه دماً ، وقال الشاعر :

أبي الضيم والنعمان يحرق نابه . . .

عليه فأفضى والسيوف معاقله

(159/559)

والفعل عض على وزن فعل مكسور العين ، وحكى الكسائي عضضت بفتح العين .

﴿ يَقُولُ يا ليتنى لَيْتَنِى اتخذت مَعَ الرسول سَبِيلاً ﴾ الجملة مع موضع الحال من الظالم أو

جملة مستأنفة أو مبينة لما قبلها و﴿ يا ويلتى لَيْتَنِى ﴾ الخ مقول القول ، ويا اما لمجرد التنبيه من غير قصد إلى تعيين المنبه أو المنادى محذوف يا قومي ليتني ، وأل في ﴿ الرسول ﴾ أما للجنس فيعم كل رسول وإما للعهد فالمراد به رسول هذه الأمة محمد صلى الله عليه وسلم والأول إذا كانت أل في الظالم للجنس والثاني إذا كانت للعهد ، وتنكير ﴿ سَبِيلاً ﴾ أما للشيوع أو للوحدة وعدم تعريفه لادعاء تعينه أي يا ليتني اتخذت طريقاً إلى النجاة أي طريق كان أو طريقاً واحداً وهو طريق الحق ولم تتشعب بي طرق الضلالة .

﴿ يَا ويلتى ﴾ بقلب ياء المتكلم ألفاً كما في صحاري ، وقرأ الحسن .

وابن قطيب يا ويلتي بكسر التاء والياء على الأصل ، وقرأت فرقة بالإمالة ، قال أبو علي : وترك الإمالة أحسن لأن الأصل في هذه اللفظة الياء فأبدلت الكسرة فتحة والياء ألفاً فراراً من الياء فمن أمال رجع إلى الذي عنه فر أولا ، وأياً ما كان فالمعنى يا هلكتي تعالى واحضري فهذا أو أنك ﴿ سَبِيلاً يا ويلتى لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلاَناً خَلِيلاً ﴾ أراد بفلان الشيطان أو من أضله في الدنيا كائناً من كان أو أبيا ان كان الظالم أبيا ، وهو كناية عن علم مذكر وفلانة عن علم مؤنث ، واشترط ابن الحاجب في فلان أن يكون محكياً بالقول كما هنا ، ورده في "شرح التسهيل" بأنه سمع خلافه كثيراً كقوله :

وإذا فلان مات عن أكرومة . . .

دفعوا معاوز فقره بفلان

وتقدير القول فيه غير ظاهر ، والفلان والفلانة كناية عن غير العاقل من الحيوانات كما قال الراغب ، وفل وفلة كناية عن نكرة من يعقل فالأول بمعنى رجل والثاني بمعنى امرأة ، ووهم ابن عصفور .

وابن مالك .

(160/559)

وصاحب البسيط كما في البحر في قولهم : فل كناية عن العلم كفلان ويختص بالنداء إلا ضرورة كما في قوله :

في لجنة أمسك فلان عن فل . . .

وليس مرخم فلان خلافاً للفراء ، واختلفوا في لام فل وفلان فقيل واو ، وقيل : ياء ، وكنوا بهن بفتح الهاء وتخيف النون عن أسماء الأجناس كثيراً ، وقد كني به عن الأعلام كما في قوله :

والله أعطاك فضلاً عن عطيته . . .

على هن وهن فيما مضى وهن

فإنه على ما قال الخفاجي أراد عبد الله .

وإبراهيم وحسناً .

والخليل من الخلة بضم الخاء بمعنى المودة أطلق عليها ذلك إما لأنها تتخلل النفس أي تتوسطها ، وأنشد :

قد تخللت مسلك الروح مني . . .

وبه سمى الخليل خليلاً

وإما لأنها تخلها فتؤثر فيها تأثير السهم في الرمية ، وإما لفرط الحاجة إليها ، وهذا التمني وإن كان مسوقاً لابراز الندم والحسرة لكنه متضمن لنوع تعلل واعتذار بتوريك جنايته إلى الغير ، وقوله تعالى :

﴿ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ الذكر ﴾ تعليل لتمنيه المذكور وتوضيح لتعلله ، وتصديره باللام القسمية للمبالغة في بيان خطئه وإظهار ندمه وحسرته أي والله لقد أضلني فلأن عن ذكر الله تعالى أو عن موعظة الرسول عليه الصلاة والسلام أو عن كلمة الشهادة أو عن القرآن ﴿ بَعْدَ إِذْ جَاءِنى ﴾ أي وصل إلى وعلمته أو تمكنت منه فلا دلالة في الآية على إيمان من أنزلت فيه ثم ارتداده ﴿ وَكَانَ الشيطان للإنسان خَذُولاً ﴾ مبالغاً في الخذلان وهو ترك المعاونة والنصرة وقت الحاجة ممن يظن فيه ذلك ، والجملة اعتراض مقرر لمضمون ما قبله إما من جهته تعالى أو من تمام كلام الظالم على أنه سمي خليله شيطاناً بعد وصفه بالاضلال الذي هو أخص الأوصاف الشيطانية أو على أنه أراد بالشيطان ابليس لأنه الذي حمله

على مجالسة المضلين ومخالفة الرسول الهادي عليه الصلاة والسلام بوسوسته وإغوائه فإن وصفه بالخذلان يشعر بأنه كان يعده في الدنيا ويمنيه بأن ينفعه في الآخرة وهو أوفق الحال إبليس عليه اللعنة .

(161/559)

﴿ وَقَالَ الرسول ﴾ عطف على قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الذين لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا ﴾ [الفرقان : 21] الخ وما بينهما اعتراض مسوق لاستعظام ما قالوه وبيان ما يحيق بهم من الأهوال والخطوب ، والمراد بالرسول نبينا صلى الله عليه وسلم وشرف وعظم وكرم ، وإيراده عليه الصلاة والسلام بعنوان الرسالة لتحقيق الحق والرد على نحورهم حيث كان ما حكى عنهم قدحاً في رسالته صلى الله عليه وسلم أي قالوا كيت وكيت وقال الرسول إثر ما شاهد منهم غاية العتو ونهاية الطغيان بطريق البث إلى ربه عز وجل" والشكوى عليهم ﴿ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى ﴾ الذين حكى عنهم ما حكى من الشنائع ﴿ اتخذوا هذا القرءان ﴾ الجليل الشأن المشتمل على ما فيه صلاح معاشهم ومعادهم ﴿ مَهْجُوراً ﴾ أي متروكاً بالكلية ولم يؤمنوا به ولم يرفعوا إليه رأساً ولم يتأثروا بوعيده ووعده ، فمهجوراً من الهجر بفتح الهاء بمعنى الترك وهو الظاهر ، وروي ذلك عن مجاهد .

والنخعي .

وغيرهما ، واستدل ابن الفرس بالآية على كراهة هجر المصحف وعدم تعاهده بالقراءة فيه ، وكان ذلك لئلا يندرج من لم يتعاهد القراءة فيه تحت ظاهر النظم الكريم فإن ظاهره ذم الهجر مطلقاً وإن كان المراد به عدم القبول لا عدم الاشتغال مع القبول ولاماً يعمهما فإن كان مثل هذا يكفي في الاستدلال فذاك وإلا فليطلب دليل آخر للكراهة .

وأورد بعضهم في ذلك خبراً وهو "من تعلم القرآن وعلق مصحفه لم يتعاهده ولم ينظر فيه جاء يوم القيامة متعلقاً به يقول : يا رب عبدك هذا اتخذني مهجوراً اقض بيني وبينه" وقد تعقب هذا الخبر العراقي بأنه روي عن أبي هدبة وهو كذاب ، والحق أنه متى كان ذلك مخلاً باحترام القرآن والاعتناء به كره بل حرم وإلا فلا .

(162/559)

وقيل : مهجورا من الهجر بالضم على المشهور أي الهذيان وفحش القول والكلام على الحذف والإيصال أي جعلوه مهجوراً فيه إما على زعمهم الباطل نحو ما قالوا : إنه ﴿ أساطير الأولين اكتتبها ﴾ [الفرقان : 5] وإما بأن هجروا فيه ورفعوا أصواتهم بالهذيان لما قرىء لئلا يسمع كما قالوا : ﴿ لاَ تَسْمَعُواْ لهذا القرءان والغوا فِيهِ ﴾ [فصلت : 26]

وجوز أن يكون مصدراً من الهجر بالضم كالمعقول بمعنى العقل والمجلود بمعنى الجلادة أي اتخذوه نفس الهجر والهذيان ، ومجيء مفعول مصدراً مما أثبته الكوفيون لكن على قلة ، وفي هذه الشكوى من التخويف والتحذير ما لا يخفى فإن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إذا شكوا إلى الله تعالى قومهم عجل لهم العذاب ولم ينظروا .

وقيل : إن ﴿ قَالَ ﴾ الخ عطف على ﴿ يَعَضُّ الظالم ﴾ [الفرقان : 27] ، والمراد ويقول الرسول إلا أنه عدل إلى الماضي لتحقق الوقوع مع عدم قصد الاستمرار التجددي المراد بمعونة المقام في بعض وإن كان إخباراً عما في الآخرة .

وحال عطفه على ﴿ وَكَانَ الشيطان ﴾ [الفرقان : 29] الخ على أنه من كلامه تعالى لا يخفى حالة ، وقول : الرسول ذلك يوم القيامة وهو كالشهادة على أولئك الكفرة وليس بتخويف وإلى ذلك ذهبت فرقة منهم أبو مسلم ، والأول أنسب بقوله تعالى :

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ المجرمين ﴾

(163/559)

فإنه تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وحمل له على الاقتداء بمن قبله من الأنبياء عليهم السلام ، والبلية إذا عمت هانت ، والعدو يحتمل أن يكون واحداً وجمعاً أي كما

جعلنا لك أعداء من المشركين يقولون ما يقولون ويفعلون ما يفعلون من الأباطيل جعلنا لكل نبي من الأنبياء الذين هم أصحاب الشريعة والدعوة إليها عدواً من مرتكبي الجرائم والآثام ويدخل في ذلك آدم عليه السلام لدخول الشياطين وقابيل في المجرمين ويكتفي بدخول قابيل إن أريد بالمجرمين مجرمو الإنس أو مجرمو أمة النبي ، وقيل : الكلية بمعنى الكثرة ، والمراد بجعل الأعداء جعل عداوتهم وخلقها وما ينشأ منها فيهم لا جعل ذواتهم ، ففي ذلك رد على المعتزلة في زعمهم إن خالق الشر غيره تعالى شأنه ، وقوله تعالى : ﴿ وكفى بِرّبكَ هَادِياً وَنَصِيراً ﴾ وعد كريم له عليه الصلاة والسلام بالهداية إلى كافة مطالبة والنصر على أعدائه أي كفاك مالك أمرك ومبلغك إلى الكمال هادياً لك إلى ما يوصلك إلى غاية الغايات التي من جملتها تبليغ ما أنزل إليك وإجراء أحكامه في أكناف الدنيا إلى أن يبلغ الكتاب أجله وناصراً لك عليهم على أبلغ وجه .

وقدر بعضهم متعلق "هادياً" إلى طريق قهرهم ، وقيل : المعنى هادياً لمن آمن منهم ونصيراً لك على غيره ، وقيل : هادياً للأنبياء إلى التحرز عن عداوة المجرمين بالاعتصام بحبله ونصيراً لهم عليهم وهو كما ترى .

ونصب الوصفين على الحال أو التمييز . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 19 صـ ﴾

(164/559)

وقال القاسمي :

﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ ﴾

أي : ينصدع نظامها فلا يبقى أمر ما فيها من الكواكب على ما يرى اليوم . فيخرب العالم بأسره . والباء بمعنى : مع أي : مع السحب الجوية أو بمعنى : عن أي : تنفطر عن الغمام الذي يسوّد الجو ويظلمه ، ويغم القلوبَ مرآه : ﴿ وَنُزِّلَ الْمَلائِكَةُ تَنْزِيلاً ﴾ فيحيطون بالخلائق في المحشر .

﴿ الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ ﴾

أي : فلا يدعيه ثَمَّ غيره . ويكون له سبحانه السلطة القاهرة الشاملة : ﴿ وَكَانَ يَوْماً عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيراً وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ ﴾ أي : تشتد حسراته وتتصاعد زفراته : ﴿ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاناً خَلِيلاً ﴾ يعني من أضلّه عن الذكر ، وصده عن سبيل الله : ﴿ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ ﴾ أي : القرآن ، أو موعظة الرسول : ﴿ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولاً ﴾ أي : مبالغاً في إضلاله ، يعده ويمنيه في الدنيا ، ما يحسّره عليه في العقبى .

﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ ﴾ أي : إثر ما شاهد من عتوهم وعنادهم : ﴿ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً ﴾ أي : متروكاً ، معرضاً عنه . وجملة : ﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ ﴾

عطف على : ﴿ وقال الذين لا يرجون ﴾ وما بينهما اعتراض ، سيقت لانتظام ما قالوه ، وطلب النصر عليهم واستنزال الفرج الإلهيّ مما أضاقوا به الصدور ، وجلبوه من الكدور ، وللإشارة إلى ما يحيق بهم من شقاء الدارين .

تنبيه :

(165/559)

الآية ، وإن كانت في المشركين ، وإعراضُهم هو عدم إيمانهم ، إلا أن نظمها الكريم مما يرهب عموم المعرضين عن العمل به ، والأخذ بآدابه . الذي هو حقيقة الهجر . لأن الناس إنما تعبدوا منه بذلك . إذ لا تؤثر تلاوته إلا لمن تدبرها . ولا يتدبرها إلا من يقوم بها ويتمسك بأحكامها .

ومن فوائد الإمام ابن القيم رحمه الله . قوله في هذه الآية : هجر القرآن أنواع :

أحدها : هجر سماعه والإيمان به والإصغاء إليه .

والثاني : هجر العمل به والوقوف عند حلاله وحرامه ، وإن قرأه وآمن به .

والثالث : هجر تحكيمه والتحاكم إليه في أصول الدين وفروعه ، واعتقاد أنه لا يفيد اليقين ، وأن أدلته لفظية لا تحصل العلم .

والرابع : هجر الاستشفاء والتداوي به في جميع أمراض القلوب وأدوائها . فيطلب شفاء دائه من غيره ، ويهجر التداوي به .

قال : وكل هذا داخل في هذه الآية ، وإن كان بعض الهجر أهون من بعض . انتهى .

وفي " الإكليل " : إن في الآية إشارة إلى التحذير من هجر المصحف وعدم تعاهد بالقراءة فيه . وكذا قال أبو السعود : فيه تلويح بأن من حق المؤمن أن يكون كثير التعاهد للقرآن ، كيلا يندرج تحت ظاهر النظم الكريم . ثم قال : وفيه من التحذير ما لا يخفى . فإن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، إذا شكوا إلى الله تعالى قومهم ، عجل لهم العذاب ولم يُنظروا . ثم ذكر تعالى ما يكون أسوة لنبيه ، وتسلية له ، ووعداً بالنصرة ، بقوله :

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِياً ﴾

أي : إلى ما يبلغك ما تتمناه : ﴿ وَنَصِيراً ﴾ أي : لك على كل من يناوئك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 12 صـ 441. 443 ﴾

(166/559)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا (25) ﴾

عطف على جملة ﴿ يوم يرون الملائكة ﴾ [الفرقان : 22] .

والمقصود تأييسهم من الانتفاع بأعمالهم وبآلهتهم وتأكيد وعيدهم .

وأدمج في ذلك وصف بعض شؤون ذلك اليوم ، وأنه يوم تنزيل الملائكة بمرأى من الناس .

وأعيد لفظ ﴿ يَومَ ﴾ على طريقة الإظهار في مقام الإضمار وإن كان ذلك يوماً واحداً لبعد ما بين المعاد ومكان الضمير .

والتشقق : التفتح بين أجزاءٍ ملتئمة ، ومنه ﴿ إذا السماء انشقت ﴾ [الانشقاق : 1] .

ولعله انخراق يحصل في كُوَر تلك العوالم ، والذين قالوا : السموات لا تقبل الخرق ثم الالتئام بنوه على تخيّلهم إياها كقباب من معادن صُلبة ، والحكماء لم يصلوا إلى حقيقتها حتى الآن .

وتشقُّق السماءِ حالة عجيبة تظهر يوم القيامة ، ومعناه زوال الحواجز والحدود التي كانت تمنع الملائكة من مبارحة سماواتهم إلا من يؤذن له بذلك ، فاللام في الملائكة للاستغراق ، أي بين جمع الملائكة فهو بمنزلة أن يقال : يوم تفتح أبواب السماء .

قال (تعالى) : ﴿ وفتحت السماء فكانت أبواباً ﴾ [النبأ : 19] ؛ على أن التشقّق يستعمل في معنى انجلاء النور كما قال النابغة:

فانشق عنها عمود الصبح جافلة . . .

عَدْو النَّحُوص تخاف القَانِصَ اللَّحِما

وحاصل المعنى : أن هنالك انبثاقاً وانتفاقاً يقارنه نزول الملائكة لأن ذلك الانشقاق إذنٌ للملائكة بالحضور إلى موقع الحشر والحساب .

والتعبير بالتنزيل يقتضي أن السموات التي تنشقّ عن الملائكة أعلى من مكان حضور الملائكة .

وقرأ الجمهور ﴿ تشّقق ﴾ بتشديد الشين .

وقرأه أبو عمرو وحمزة والكسائي وخلف بتخفيف الشين .

والغَمام : السحاب الرقيق .

وهو ما يغشى مكان الحساب ، قال تعالى : ﴿ هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظُلَل مِن الغَمام والملائكةُ وقُضِيَ الأمر ﴾ تقدم في سورة البقرة (210) .

(167/559)

والباء في قوله : ﴿ بالغمام ﴾ قيل بمعنى (عن) أي تشقق عن غمام يحفّ بالملائكة .

وقيل للسببية ، أي يكون غمام يخلقه الله فيه قوة تنشقّ بها السماء لينزل الملائكة مثل قوة البرق التي تشق السحاب .

وقيل الباء للملابسة ، أي تشَقَّق ملابسة لغمام يظهر حينئذ .

وليس في الآية ما يقتضي مقارنة التشقق لنزول الملائكة ولا مقارنة الغمام للملائكة ، فدَعْ الفهم يذهبْ في ترتيب ذلك كلَّ مذهب ممكن .

وأُكد ﴿ نُزِّل الملائكة ﴾ بالمفعول المطلق لإفادة أنه نزول بالذات لا بمجرد الاتصال النُوراني مثل الخواطر الملكية التي تشعشع في نفوس أهل الكمال .

وقرأ الجمهور ﴿ ونُزِّلَ الملائكةُ ﴾ بنون واحدة وتشديد الزاي وفتح اللام ورفع ﴿ الملائكة ﴾ مبنياً للنائب .

وقرأه ابن كثير ﴿ ونُنْزِل ﴾ بنونين أولاهما مضمومة والثانية ساكنة وبضم اللام ونصب ﴿ الملائكة ﴾ .

وقوله : ﴿ الملك يومئذٍ ﴾ هو صدر الجملة المعطوفة فيتعلق به ﴿ يَومَ تشقق السماء بالغمام ﴾ ، وإنما قدم عليه للوجه المذكور في تقديم قوله : ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ الملائكة ﴾ [الفرقان : 22] وكذلك القول في تكرير ﴿ يومئذ ﴾ .

و﴿ الحق ﴾ : الخالص ، كقولك : هذا ذهب حقّاً .

وهو المُلك الظاهر أنه لا يماثله مُلك ، لأن حالة الملك في الدنيا متفاوتة .

والمُلك الكامل إنما هو لله ، ولكن العقول قد لا تلتفت إلى ما في الملوك من نقص وعجز وتَبهرهم بهرجة تصرفاتهم وعطاياهم فينسون الحقائق ، فأما في ذلك اليوم فالحقائق منكشفة وليس ثمة من يدّعي شيئاً من التصرف ، وفي الحديث : " ثم يقول الله : أنا المَلِكُ

أين ملوكُ الأرض "

ووصف اليوم بعسير باعتبار ما فيه من أمور عسيرة على المشركين .

وتقديم ﴿ على الكافرين ﴾ للحصر .

وهو قصر إضافي ، أي دون المؤمنين .

﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا (27) ﴾

(168/559)

هذا هو ذلك اليوم أعيد الكلام عليه باعتبار حال آخر من أحوال المشركين فيه ، أو باعتبار حال بعض المشركين المقصود من الآية .

والتعريف في ﴿ الظالم ﴾ يجوز أن يكون للاستغراق .

والمراد بالظلم الشرك فيعم جميع المشركين الذين أشركوا بعد ظهور الدعوة المحمدية بقرينة قوله : ﴿ يقول يا ليتني اتخذتُ مع الرسول سبيلاً ﴾ ، ويكون قوله : ﴿ ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً ﴾ إعلاماً بما لا تخلو عنه من صحبة بعضهم مع بعض وإغراء بعضهم بعضاً على مناوأة الإسلام .

ويجوز أن يكون للعهد المخصوص .

والمراد بالظلم الاعتداء الخاص المعهود من قصة معينة وهي قصة عقبة بن أبِي معيْط وما أغراه به أُبَيّ بن خلف .

قال الواحدي وغيره عن الشعبي وغيره : كان عقبة بن أبي مَعيط خليلاً لأمية بن خلف ، وكان عقبة لا يقدَم من سفر إلا صنع طعاماً ودعا إليه أشرافَ قومه ، وكان يُكثر مجالسة النبي صلى الله عليه وسلم فقدِم من بعض أسفاره فصنع طعاماً ودعا رسول الله (صلى الله عليه وسلم فلما قرّبوا الطعام قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم : ما أنا بآكل من طعامك حتى تَشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ، فقال عقبة : أشهد أن لا إله إلاّ الله وأن محمداً رسول الله ، فأكل رسول الله من طعامه .

(169/559)

وكان أُبَيّ بن خلف غائباً فلما قدم أُخبر بقضيته ، فقال : صَبَأتَ يا عقبةُ ، قال : والله ما صبأتُ ولكن دخل عليّ رجل فأبى أن يأكل من طعامي حتى أشهد له ، فاستحييتُ أن يخرج من بيتي ولم يَطْعَم ، فشهدتُ له فطَعِم ، فقال أُبَيّ : ما أنا بالذي أرضى عنك أبداً إلاّ أن تأتيه فتبصق في وجهه ، فكفَر عقبة وأخذ في امتثال ما أمره به أبيّ بن خلف ، فيكون المراد بـ (فلان) الكناية عن أَبَيّ بن خلف فخصوصه يقتضي لحاق أمثاله من المشركين الذين

أطاعوا أخلّتهم في الشرك ولم يتّبِعُوا سبيل الرسول ، ولا يخلو أحد من المشركين عن خليل مشرك مثله يصدّه عن متابعة الإسلام إذا هَمّ به ويثْبِته على دين الشرك فيتندم يوم الجزاء على طاعته ويذكره باسمه .

والعَضّ : الشدّ بالأسنان على الشيء ليُؤلمه أو ليُمسكه ، وحقه التعدية بنفسه إلا أنه كثرت تعديته بـ ﴿ على ﴾ لإفادة التمكن من المعضوض إذا قصدوا عضّاً شديداً كما في هذه الآية .

والعضّ على اليد كناية عن الندامة لأنهم تعارفوا في بعض أغراض الكلام أن يصحبوها بحركات بالجسد مثل التّشذر ، وهو رفع اليد عند كلام الغضب قال ، لبيد :

غُلْب تشذّر بالدخول كأنهم . . .

جن البدي رواسياً أقدامها

ومثل وضع اليد على الفم عند التعجب .

قال تعالى : ﴿ فَرَدُّوا أيديهم في أفواههم ﴾ [إبراهيم : 9] .

ومنه في الندم قرع السن بالأصبع ، وعَضّ السبابة ، وعَضّ اليد .

ويقال : حَرَّق أسنانه وحرّق الأُرَّم (بوزن رُكَّع) الأضراس أو أطراف الأصابع ، وفي الغيظ عضّ الأنامل قال تعالى : ﴿ عَضُّوا عليكم الأنامل من الغيظ ﴾ في سورة [آل عمران : 119] ، وكانت كناياتٍ بناء على ما يلازمها في العرف من معان نفسية ، وأصل نشأتها

عن تهيج القوة العصبية من جراء غضب أو تلهف .

والرّسول : هو المعهود وهو محمد صلى الله عليه وسلم

(170/559)

واتخاذ السبيل : أخذه ، وأصل الأخذ : التناول باليد ، فأطلق هنا على قصد السير فيه قال تعالى : ﴿ واتّخذ سبيله في البحر ﴾ [الكهف : 63] .

و ﴿ مع الرسول ﴾ أي متابعاً للرسول كما يتابع المسافر دليلاً يسلك به أحسن الطرق وأفضاها إلى المكان المقصود .

وإنما عُدل عن الإتيان بفعل الاتباع ونحوه بأن يقال : يا ليتني اتبعتُ الرسول ، إلى هذا التركيب المطنب لأن في هذا التركيب تمثيل هيئة الاقتداء بهيئة مُسايَرة الدليلِ تمثيلاً محتوياً على تشبيه دعوة الرسول بالسبيل ، ومتضمناً تشبيه ما يحصل عن سلوك ذلك السبيل من النجاة ببلوغ السائر إلى الموضع المقصود ، فكان حصول هذه المعاني صائراً بالإطناب إلى إيجاز ، وأما لفظ المتابعة فقد شاع إطلاقه على الاقتداء فهو غير مشعر بهذا التمثيل .

وعُلِم أن هذا السبيل سبيلُ نجاح مَن تمناه لأن التمني طلب الأمر المحبوب العزيز المنال .

و ﴿ يا ليتني ﴾ نداء للكلام الدال على التمني بتنزيل الكلمة منزلة العاقل الذي يطلب

حضوره لأن الحاجة تدعو إليه في حالة الندامة ، كأنه يقول : هذا مقامُك فاحضري ، على نحو قوله : ﴿ يا حَسْرَتَنا على ما فرطنا فيها ﴾ في سورة [الأنعام : 31] .

وهذا النداء يزيد المتمني استبعاداً للحصول .

وكذلك قوله : ﴿ يا وَيْلَتَا ﴾ هو تحسّر بطريق نداء الويل .

والويل : سوء الحال ، والألف عوض عن ياء المتكلم ، وهو تعويض مشهور في نداء المضاف إلى ياء المتكلم .

وقد تقدم الكلام على الويل في قوله تعالى : ﴿ فويل للذين يَكْتُبون الكتاب ﴾ في سورة [البقرة : 79] .

وعلى ﴿ يا وَيْلَتنا ﴾ في قوله : ﴿ يا وَيْلَتَنا مَالِ هَذَا الكتاب ﴾ في سورة [الكهف : 49] .

وأتبَع التحسّرَ بتمني أن لا يكون ﴿ اتّخذ فلاناً خليلاً ﴾ .

(171/559)

وجملة ﴿ ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً ﴾ بدل من جملة ﴿ ليتني اتّخذتُ مع الرسول سبيلاً ﴾ بدل اشتمال لأن اتباع سبيل الرسول يشتمل على نبذ خُلّة الذين يصدون عن سبيله

فتمني وقوع أولهما يشتمل على تمني وقوع الثاني .

وجملة ﴿ يا ويلتا ﴾ معترضة بين جملة ﴿ يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً ﴾ وجملة ﴿ ليتني لم اتخذ فلاناً خليلاً ﴾ .

و(فلان) : اسم يكنّى عمّن لا يُذكر اسمه العلَمُ ، كما يُكنّى بـ (فلانة) عمّن لا يُراد ذكر اسمها العلم ، سواء كان ذلك في الحكاية أم في غيرها .

قاله ابن السكيت وابن مالك خلافاً لابن السراج وابنِ الحاجب في اشتراط وقوعه في حكايةٍ بالقول ، فيعامل (فلانُ) معاملةَ العَلَم المقرون بالنون الزائدة و (فلانة) معاملة العَلَم المقترن بهاء التأنيث ، وقد جمعهما قول الشاعر :

ألاَ قاتل اللَّه الوشَاةَ وقولَهم . . .

فُلانة أضحت خُلة لفلان

أراد نفسه وحبيبته .

وقال المَرار العبسي :

وإذا فلان مات عن أُكرومة . . .

دَفعوا معاوز فقده بفلان

أراد : إذا مات مَن له اسم منهم أخلفوه بغيره في السؤدد ، وكذلك قول معن بن أوس :

وحتى سألتُ القَرض من كل ذي . . .

الغنى ورَدّ فلان حاجتي وفلان

وقال أبو زيد في "نوادره" : أنشدني المفضل لرجل من ضبة هلك منذ أكثر من مائة سنة ، أي في أواسط القرن الأول للهجرة:

إن لسعد عندنا ديواناً . . .

يخزي فلاناً وابنَه فلاناً

والداعي إلى الكناية بفلان إما قصد إخفاء اسمه خيفة عليه أو خيفة من أهلهم أو للجهل به ، أو لعدم الفائدة لذكره ، أو لقصد نوع من له اسمٌ عَلَم .

وهذان الأخيران هما اللذان يجريان في هذه الآية إن حُمِلت على إرادة خصوص عُقبة وأُبَيَ أو حملت على إرادة كل مشرك له خليل صَدّه عن اتّباع الإسلام .

وإنّما تمنّى أن لا يكون اتّخذه خليلاً دون تمنِّي أن يكون عصاه فيما سوّل له قصداً للاشمئزاز من خلّته من أصلها إذ كان الإضلال من أحوالها .

(172/559)

وفيه إيماء إلى أن شأن الخُلّة الثقة بالخليل وحمل مشورته على النصح فلا ينبغي أن يضع المرءُ خلّته إلا حيث يوقن بالسلامة من إشارات السوء قال الله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا

تتَّخِذوا بطانةً من دُونِكم لا يألونكم خبالاً ﴾ [آل عمران : 118] فعلى من يريد اصطفاء خليل أن يسير سيرته في خُويصّته فإنه سيحمل من يخالّه على ما يسير به لنفسه ، وقد قال خالد بن زهير وهو ابن أخت أبي ذؤيب الهُذلي:

فأول راضٍ سُنة مَن يسيرها . . .

وهذا عندي هو محمل قول النبي صلى الله عليه وسلم " لو كنتُ متّخِذاً خليلاً غيرَ ربّي لاتّخذت أبا بكر خليلاً " فإن مقام النبوءة يستدعي من الأخلاق ما هو فوق مكارم الأخلاق المتعارفة في الناس فلا يليق به إلا متابعة ما لله من الكمالات بقدر الطاقة ولهذا قالت عائشة : كان خُلُقُه القرآن .

وعلمنا بهذا أن أبا بكر أفضل الأمة مكارمَ أخلاق بعد النبي صلى الله عليه وسلم لأن النبي جعَله المخيَّرَ لخلته لو كان مُتّخذاً خليلاً غيرَ الله .

وجملة ﴿ لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني ﴾ تعليلية لتمنّيه أن لا يكون اتخذ فلاناً خليلاً بأنه قد صدر عن خُلته أعظم خسران لخليله إذ أضله عن الحق بعد أن كاد يتمكن منه .

وقوله : ﴿ أضلني عن الذكر ﴾ معناه سوّل لي الانصراف عن الحق .

والضلال : إضاعة الطريق وخطؤه بحيث يسلك طريقاً غيرَ المقصود فيقع في غير المكان الذي أراده ، وإنما وقع في أرض العدوّ أو في مَسبَعة .

ويستعار الضلال للحياد عن الحق والرشد إلى الباطل والسفه كما يستعار ضده وهو الهُدى (الذي هو إصابة الطريق) لمعرفة الحق والصواب حتى تساوى المعنيان الحقيقيان والمعنيان المجازيان لكثرة الاستعمال ، ولذلك سموا الدليل الذي يَسلك بالركب الطريقَ المقصود هَادياً .

(173/559)

والإضلال مستعار هنا للصرف عن الحق لمناسبة استعارة السبيل لهدى الرسول وليس مستعملاً هنا في المعنى الذي غلب على الباطل بقرينة تعديته بحرف ﴿ عن ﴾ في قوله : ﴿ عن الذكر ﴾ فإنه لو كان الإضلال هو تسويل الضلال لما احتاج إلى تعديته ولكن أريد هنا متابعة التمثيل السابق .

ففي قوله : ﴿ أضلني ﴾ مكنية تقتضي تشبيه الذكر بالسبيل الموصل إلى المنجَى ، وإثبات الإضلال عنه تخييل كإثبات الأظفار للمنية ، فهذه نكت من بلاغة نظْم الآية .

و﴿ الذكر ﴾ : هو القرآن ، أي نهاني عن التدبر فيه والاستماع له بعد أن قاربت فهمه .

والمجيء في قوله : ﴿ إذ جاءني ﴾ مستعمل في إسماعه القرآن فكأنَّ القرآن جاءٍ حلَّ عنده .

ومنه قولهم : أتاني نبأ كذا ، قال النابغة:

أتاني أبيْتَ اللعن أنك لُمتَني . . .

فإذا حُمل الظالم في قوله : ﴿ ويوم يعضّ الظالم على يديه ﴾ على معيّن وهو عقبة بن أبي مُعيْط فمعنى مَجيء الذكر إياه أنه كان يجلس إلى النبي صلى الله عليه وسلم ويأنس إليه حتى صرفه عن ذلك أُبيُّ بن خلف وحمله على عداوته وأذاته ، وإذا حُمِل الظالم على العموم فمجيء الذكر هو شيوع القرآن بينهم ، وإمكان استماعهم إياه .

وإضلال خِلاّنهم إياهم صرفُ كل واحد خليلَه عن ذلك ، وتعاوُن بعضهم على بعض في ذلك .

وقيل : ﴿ الذكر ﴾ : كلمة الشهادة ، بناء على تخصيص الظالم بعقبة بن أبي معيط كما تقدم ، وتأتي في ذلك الوجوه المتقدمة ، فإن كلمة الشهادة لما كانت سببَ النجاة مثلت بسبيل الرسول الهادي ، ومُثل الصرف عنها بالإضلال عن السبيل .

و﴿ إذْ ﴾ ظرف للزمن الماضي ، أي بعد وقتٍ جاءني فيه الذكر ، والإتيان بالظرف هنا دون أن يقال : بعد ما جاءني ، أو بعد أن جاءني ، للإشارة إلى شدة التمكن من الذكر لأنه قد استقر في زمن وتحقق ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وما كان اللهُ لِيُضِلّ قوماً بعد إذْ هداهم ﴾ [التوبة : 115] أي تمكن هديه منهم .

وجملة ﴿ وكان الشيطان للإنسان خَذولاً ﴾ تذييل من كلام الله تعالى لا من كلام الظالم تنبيها للناس على أن كل هذا الإضلال من عمل الشيطان فهو الذي يسوّل لخليل الظالم إضلال خليله لأن الشيطان خذول الإنسان ، أي مجبول على شدة خذله .

والخذل : ترك نصر المستنجِد مع القدرة على نصره ، وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ وإن يَخْذُلْكم فَمَنْ ذَا الذي يَنصرُكُم مِن بَعده ﴾ في سورة [آل عمران : 160] .

فإذا أعان على الهزيمة فهو أشد الخذل ، وهو المقصود من صيغة المبالغة في وصف الشيطان بخذل الإنسان لأن الشيطان يكيد الإنسان فيورطه في الضر فهو خذول .

وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا (30)

عطف على أقوال المشركين ومناسبته لقوله : ﴿ لقد أضلّني عن الذكر ﴾ [الفرقان : 29] أن الذكر هو القرآن فحكيت شكاية الرسول إلى ربّه قومَه من نبذهم القرآن بتسويل زعمائهم وسادتهم الذين أضلوهم عن القرآن ، أي عن التأمل فيه بعد أن جاءهم وتمكنوا من النظر ، وهذا القول واقع في الدنيا والرسول هو محمد صلى الله عليه وسلم وهو خبر مستعمل في الشكاية .

والمقصود من حكاية قول الرسول إنذار قريش بأن الرسول توجه إلى ربّه في هذا الشأن فهو يستنصر به ويوشك أن ينصره ، وتأكيده بـ ﴿ إنّ ﴾ للاهتمام به ليكون التشكّي أقوى .

والتعبير عن قريش بـ ﴿ قومي ﴾ لزيادة التذمر من فعلهم معه لأن شأن قوم الرجل أن يوافقوه .

وفعل الاتخاذ إذا قيّد بحالة يفيد شدة اعتناء المتَّخذ بتلك الحالة بحيث ارتكب الفعل لأجلها وجعله لها قصداً .

فهذا أشد مبالغة في هجرهم القرآن من أن يقال : إن قومي هجروا القرآن .

واسم الإشارة في ﴿ هذا القرآن ﴾ لِتَعظيمه وأن مثله لا يُتّخَذ مهجوراً بل هو جدير بالإقبال عليه والانتفاع به .

والمهجور : المتروك والمفارَق .

والمراد هنا ترك الاعتناء به وسماعِه .

(175/559)

وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا (31)

هذه تسلية للنبيء صلى الله عليه وسلم بأن ما لَقِيَه من بعض قومه هو سنة من سنن الأمم مع أنبيائهم .

وفيه تنبيه للمشركين ليَعْرِضوا أحوالهم على هذا الحكم التاريخي فيعلموا أن حالهم كحال

مَن كذّبوا من قوم نوح وعاد وثمود .

والقول في قوله : ﴿ وكذلك ﴾ تقدم في قوله تعالى : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً ﴾ [البقرة : 143] .

والعدوّ : اسم يقع على المفرد والجمع والمراد هنا الجمع .

ووصف أعداء الأنبياء بأنهم من المجرمين ، أي من جملة المجرمين ، فإن الإجرام أعمّ من عداوة الأنبياء وهو أعظمها .

وإنما أريد هنا تحقيق انضواء أعداء الأنبياء في زمرة المجرمين ، لأن ذلك أبلغ في الوصف من أن يقال : عدوًّا مجرمين كما تقدم عند قوله تعالى : ﴿ قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين ﴾ في سورة البقرة (67) .

وأعقب التسلية بالوعد بهداية كثير ممّن هم يومئذ مُعرِضون عنه كما قال النبي : لعلّ الله أن يُخرج من أصلابهم مَن يعبدُه وبأنه ينصره على الذين يُصرّون على عداوته لأن قوله : وكفى بربك هادياً ونصيراً ﴾ تعريض بأن يفوض الأمر إليه فإنه كاف في الهداية والنصر .

والباء في قوله : ﴿ بربك ﴾ تأكيد لاتصال الفاعل بالفعل .

وأصله : كفى ربُّك في هذه الحالة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 19 صـ ﴾

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا (25) ﴾

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أن السماء تتشقق يوم القيامة بالغمام ، وأن الملائكة تنزل تنزيلاً . وقال القرطبي : تتشقق السماء بالغمام أي عن الغمام . قال : والباء وعن يتعاقبان كقولك : رميت بالقوس ، وعن القاموس انتهى . ويستأنس لمعنى عن بقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَشَقَّقُ الأرض عَنْهُمْ سِرَاعاً ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴾ [ق : 44] الآية .

وهذه الأمور الثلاثة المذكورة في هذه الآية الكريمة من تشقق السماء يوم القيامة ووجود الغمام ، وتنزيل الملائكة كلها جاءت موضحة في غير هذا الموضع .

(177/559)

أما تشقق السماء يوم القيامة فقد بينه جل وعلا في آيات كثيرة من كتابه كقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا انشقت السمآء فَكَانَتْ وَرْدَةً كالدهان ﴾ [الرحمن : 37] وقوله تعالى : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الواقعة وانشقت السمآء فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴾ [الحاقة : 1516] وقوله : ﴿ إِذَا السمآء انشقت ﴾ [الانشقاق : 1] الآية وقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا النجوم طُمِسَتْ

وَإِذَا السمآء فُرِجَتْ ﴾ [المرسلات : 89] الآية فقوله : فرجت : أي شقت ، فكان فيها فروج أي شقوق كقوله : ﴿ إِذَا السمآء انفطرت ﴾ [الأنفطار : 1] وقوله تعالى : ﴿ وَفُتِحَتِ السمآء فَكَانَتْ أَبْوَاباً ﴾ [النبّأ : 19] وأما الغمام ونزول الملائكة ، فقد ذكرهما معاً في قوله تعالى : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الغمام والملائكة ﴾ [البقرة : 210] الآية . وقد ذكر جل وعلا نزول الملائكة في آيات أخرى كقوله : ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ والملك صَفّاً صَفّاً ﴾ [الفجر : 22] وقوله تعالى : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمُ الملائكة أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ ﴾ [الأنعام : 158] الآية وقوله تعالى : ﴿ مَا نُنَزِّلُ الملائكة إِلاَّ بالحق وَمَا كَانُواْ إِذاً مُّنظَرِينَ ﴾ [الحجر : 8] .

قال الزمخشري : والمعنى : أن السماء تنفتح بغمام يخرج منها ، وفي الغمام الملائكة ينزلون ، وفي أيديهم صحف أعمال العباد . انتهى منه .

وقرأ هذا الحرف نافع وابن كثير وابن عامر تشقق بتشديد الشين ، والباقون بتخفيفها بحذف إحدى التاءين ، وقرأ ابن كثير : وننزل الملائكة بنونين الأولى مضمومة ، والثانية ساكنة مع تخفيف الزاي ، وضم اللام ، مضارع أنزل ، والملائكة بالنصب مفعول به ، والباقون بنون واحدة وكسر الزاي المشددة ماضياً مبنياً للمفعول ، والملائكة مرفوعاً نائب فاعل نزل ، والأظهر أن يوم منصوب باذكر مقدراً ، كما قاله القرطبي ، والعلم عند الله تعالى .

الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا (26)

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أن الملك الحق يوم القيامة له جل وعلا دون غيره ، وأن يوم القيامة كان عسيراً على الكافرين .

وهذان الأمران المذكوران في هذه الآية الكريمة جاءا موضحين في آيات من كتاب الله أما كون الملك له يوم القيامة ، فقد ذكره تعالى في آيات من كتابه كقوله جل وعلا : ﴿ مالك يَوْمِ الدين ﴾ [الفاتحة : 4] وقوله : ﴿ لِّمَنِ الملك اليوم لِلَّهِ الواحد القهار ﴾ [غافر : 16] وقوله تعالى : ﴿ وَلَهُ الملك يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصور ﴾ [الأنعام : 73] الآية إلى ذلك من الآيات .

وأما كون يوم القيامة عسيراً على الكافرين ، فقد قدمنا الآيات الدالة عليه قريباً في الكلام على قوله تعالى : ﴿ أَصْحَابُ الجنة يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرّاً ﴾ [الفرقان : 24] الآية .

﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا (27) ﴾

من المشهور عند علماء التفسير أن الظالم الذي نزلت فيه هذه الآية ، هو عقبة بن أبي معيط ، وأن فلاناً الذي أضله عن الذكر أمية بن خلف ، أو أخوه أبي بن خلف ، وذكر بعضهم أن

في قراءة بعض الصحابة . ليتني لم أتخذ أبياً خليلاً ، وهو على تقدير ثبوته من قبيل التفسير ، لا القراءة ، وعلى كل حال فالعبرة بعموم الألفاظ ، لا بخصوص الأسباب ، فكل ظالم أطاع خليله في الكفر ، حتى مات على ذلك يجري له مثل ما جرى لابن أبي معيط .

(179/559)

وما ذكره جل وعلا في هذه الآيات الكريمة جاء موضحاً في غيرها . فقوله : ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظالم على يَدَيْهِ ﴾ كناية عن شدة الندم والحسرة ، لأن النادم ندماً شديداً ، يعض على يديه ، وندم الكافر يوم القيامة وحسرته الذي دلت عليه هذه الآية ، جاء موضحاً في آيات أخر ، كقوله تعالى في سورة يونس : ﴿ وَأَسَرُّواْ الندامة لَمَّا رَأَوُاْ العذاب وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بالقسط وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴾ [يونس : 54] الآية . وقوله تعالى في سورة سبأ ﴿ وَأَسَرُّواْ الندامة لَمَّا رَأَوُاْ العذاب وَجَعَلْنَا الأغلال في أَعْنَاقِ الذين كَفَرُواْ ﴾ [سبأ : 33] الآية : وقوله تعالى : ﴿ قَالُواْ ياحسرتنا على مَا فَرَّطْنَا فِيهَا ﴾ [الأنعام : 31] الآية . والحسرة أشد الندامة وقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الذين اتبعوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ الله أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النار ﴾ [البقرة : 167] إلى غير ذلك من الآيات ، وما ذكره هنا من أن الكافر يتمنى أن يكون آمن بالرسول في دار

الدنيا ، واتخذ معه سبيلاً : أي طريقاً إلى الجنة في قوله هنا : ﴿ ياليتني اتخذت مَعَ الرسول سَبِيلاً ﴾ جاء موضحاً في آيات أخر كقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النار يَقُولُونَ ياليتنا أَطَعْنَا الله وَأَطَعْنَا الرسولا ﴾ [الأحزاب : 66] وقوله تعالى : ﴿ يَقُولُ ياليتني قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴾ [الفجر : 24] وقوله تعالى : ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ الذين كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ ﴾ [الحجر : 2] إلى غير ذلك من الآيات .

(180/559)

والسبيل التي يتمنى الكافر أن يتخذها مع الرسول المذكورة في هذه الآية ، ذكرت أيضاً في آيات أخر كقوله تعالى في هذه السورة الكريمة سورة الفرقان ﴿ قُلْ مَآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلاَّ مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إلى رَبِّهِ سَبِيلاً ﴾ [المزّمّل : 19] و [الإنسان : 29] في المزمل والإنسان ، ويقرب من معناه المآب المذكورة في قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ اليوم الحق فَمَن شَآءَ اتخذ إلى رَبِّهِ مَآباً ﴾ [النبأ : 39] وما ذكره هنا من أن الكافر ينادي بالويل ، ويتمنى أنه لم يتخذ من أضله خليلاً ، ذكره في غير هذا الموضع ، أما دعاء الكفار بالويل : فقد تقدم في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَآ أُلْقُواْ مِنْهَا مَكَاناً ضَيِّقاً مُّقَرَّنِينَ دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُوراً لاَّ تَدْعُواْ اليوم ثُبُوراً وَاحِداً وادعوا ثُبُوراً كَثِيراً ﴾ [الفرقان : 1314] وأما تمنيهم لعدم طاعة من أضلهم ،

فقد ذكره أيضاً في غير هذا الموضع كقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الذين اتبعوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا ﴾

(181/559)

[البقرة : 167] فلفظه لو في قوله : ﴿ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً ﴾ للتمني ، ولذلك نصب الفعل المضارع بعد الفاء في قوله : ﴿ فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُم ﴾ الآي . وهو دليل واضح على ندمهم على موالاتهم ، وطاعتهم في الدنيا ، وما ذكره جل وعلا هنا من أن أخلاء الضلال من شياطين الإنس والجن ، يضلون أخلاءهم عن الذكر بعد إذ جاءهم ذكره في غير هذا الموضع كقوله تعالى : ﴿ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الغي ثُمَّ لاَ يُقْصِرُونَ ﴾ [الأعراف : 202] وقوله تعالى : ﴿ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ [فصلت : 25] الآية وقوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يحْشُرُهُمْ جَمِيعاً يَامَعْشَرَ الجن قَدِ استكثرتم مِّنَ الإنس ﴾ [الأنعام : 128] الآية ، وقوله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا السبيلا ﴾ [الأحزاب : 67] وقوله تعالى : ﴿ حتى إِذَا اداركوا فِيهَا جَمِيعاً قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاَهُمْ رَبَّنَا هؤلاء أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِّنَ النار ﴾ [الأعراف : 38] وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ ترى إِذِ الظالمون مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ القول يَقُولُ الذين

استضعفوا لِلَّذِينَ استكبروا لَوْلاَ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴾ [سبأ : 31] الآيات . إلى غير ذلك من الآيات ، وقوله تعالى هنا : ﴿ وَكَانَ الشيطانِ لِلإِنْسَانِ خَذُولاً ﴾ الأظهر أنه من كلام الله ، وليس من كلام الكافر النادم يوم القيامة ، والخذول صيغة مبالغة ، والعرب تقول : خذله إذا ترك نصره مع كونه يترقب النصر منه ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الذي يَنصُرُكُم مِّنْ بَعْدِهِ ﴾ [آل عمران : 160] وقول الشاعر :

إن المرء ميتاً بانقضاء حياته . . . ولكن بأن يبغي عليه فيخذلا

وقول الآخر :

(182/559)

إن الألى وصفوا قومي لهم فبهم . . . هذا اعتصم تلق من عاداك مخذولا

ومن الآيات الدالة على أن الشيطان يخذل الإنسان قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الشيطان لَمَّا قُضِيَ الأمر إِنَّ الله وَعَدَكُمْ وَعْدَ الحق وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فاستجبتم لِي فَلاَ تَلُومُونِي ولوموا أَنفُسَكُمْ مَّآ أَنَاْ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظالمين لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [إبراهيم : 22] وقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشيطان أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لاَ غَالِبَ لَكُمُ اليوم مِنَ الناس وَإِنِّي

جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَآءَتِ الفِئَتَانِ نَكَصَ على عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بريء مِّنْكُمْ إني أرى مَا لاَ تَرَوْنَ إني أَخَافُ الله والله شَدِيدُ العقاب ﴾ [الأنفال : 48] الآية . وقوله تعالى في هذه الآية : ﴿ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذكر ﴾ [الفرقان : 29] الأظهر أن الذكر القرآن وقوله : ﴿ لَمْ أَتَّخِذْ فُلاَناً خَلِيلاً ﴾ العرب تطلق لفظه فلان كناية عن العلم : أي لم أتخذ أبياً أو أمية خليلاً ، ويكنون عن علم الأنثى بفلانة ومنه قول عروة بن حزام العذري :

ألا قاتل الله الوشاة وقولهم . . . فلانة أضحت خلة لفلان

وقوله : ﴿ يَعَضُّ الظالم ﴾ [الفرقان : 27] من عضض بكسر العين في الماضي ، يعض بفتحها في المضارع على القياس ، ومنه قول الحارس بن وعلة الذهلي :

الآن لما أبيض مسربتي . . . وعضضت من نابى على جذم

فإن الرواية المشهورة في البيت عضضت بكسر الضاد الأولى وفيها لغة بفتح العين في الماضي ، والكسر أشهر ، وعض تتعدى بعلى كما في الآية وبيت الحارث بن وعلة ، المذكورين وربما عديت بالباء ومنه قول ابن أبي ربيعة :

فقالت وعضت بالبنان فضحتني . . . وأنت امرؤ ميسور أمرك أعسر

(183/559)

وهذه الآية الكريمة تدل على أن قرين السوء ، قد يدخل قرينه النار والتحذير من قرين السوء مشهور معروف ، وقد بين جل وعلا في سورة الصافات : أن رجلاً من أهل الجنة أقسم بالله أن قرينه كاد يرديه أي يهلكه بعذاب النار ، ولكن لطف الله به فتداركه برحمته وإنعامه فهداه وأنقذه من النار ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ المصدقين ﴾ [الصافات : 5152] إلى قوله تعالى : ﴿ فاطلع فَرَآهُ فِي سَوَآءِ الجحيم قَالَ تالله إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ وَلَوْلاَ نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ المحضرين ﴾ [الصافات : 5557] .

وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا (30)

معنى هذه الآية الكريمة ظاهر ، وهو أن نبينا صلى الله عليه وسلم شكا إلى ربه هجر قومه ، وهم كفار قريش لهذا القرآن العظيم أي تركهم لتصديقه ، والعمل به وهذه شكوى عظيمة ، وفيها أعظم تخويف لمن هجر هذا القرآن العظيم ، فلم يعمل بما فيه من الحلال والحرام والآداب والمكارم ، ولم يعتقد ما فيه من العقائد ، ويعتبر بما فيه من الزواجر والقصص والأمثال .

واعلم أن السبكي قال إنه استنبط من هذه الآية الكريمة من سورة الفرقان مسألة أصولية ، وهي أن الكف عن الفعل فعل . والمراد بالكف الترك ، قال في طبقاته : لقد وقفت على ثلاثة أدلة تدل على أن الكف فعل لم أر أحداً عثر عليها .

أحدها : قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الرسول يارب إِنَّ قَوْمِي اتخذوا هذا القرآن مَهْجُوراً ﴾ فإن الأخذ التناول والمهجور المتروك ، فصار المعنى تناولوه متروكاً أي : فعلوا تركه . انتهى محل الغرض منه بواسطة نقل صاحب نشر البنود ، شرح مراقي السعود في الكلام على قوله :

(184/559)

فكفنا بالنهي مطلوب النبي . . . قال مقيده عفا الله وغفر له : استنباط السبكي من هذه الآية أن الكف فعل وتفسيره لها بما يدل على ذلك ، ولم يظهر لي كل الظهور ، ولكن هذا المعنى الذي زعم أن هذه الآية الكريمة دلت عليه ، وهو كون الكف فعلاً دلت عليه آيتان كريمتان من سورة المائدة ، دلالة واضحة لا لبس فيها ، ولا نزاع . فعلى تقدير صحة ما فهمه السبكي من آية الفرقان هذه فإنه قد بينته بإيضاح الآيتان المذكورتان من سورة المائدة . أما الأولى منهما فهي قوله تعالى : ﴿ لَوْلاَ يَنْهَاهُمُ الربانيون والأحبار عَن قَوْلِهِمُ الإثم وَأَكْلِهِمُ السحت لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴾ [المائدة : 63] فترك الربانيين والأحبار نهيهم عن قول الإثم وأكل السحت سماه الله جل وعلا في هذه الآية الكريمة صنعاً في قوله : ﴿ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴾ [المائدة : 63] . أي وهو تركهم النهي المذكور ، والصنع أخص من مطلق الفعل ، فصراحة دلالة هذه الآية الكريمة على أن الترك فعل في غاية الوضوح كما

ترى .

وأما الآية الثانية فهي قوله تعالى : ﴿ كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ [المائدة : 79] فقد سمى جل وعلا في هذه الآية الكريمة : تركهم التناهي ، عن المنكر فعلاً ، وأنشأ له الذم بلفظة بئس التي هي فعل جامد لإنشاء الذم في قوله : ﴿ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴾ [المائدة : 79] أي وهو تركهم التناهي ، عن كل منكر فعلوه ، وصراحة دلالة هذه الآية أيضاً على ما ذكر واضحة كما ترى .

وقد دلت أحاديث نبوية على ذلك كقوله صلى الله عليه وسلم : " المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده " فقد سمى صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث ترك أذى المسلمين إسلاماً ، ومما يدل من كلام العرب على أن الترك فعل قول بعض الصحابة في وقت بنائه صلى الله عليه وسلم لمسجده بالمدينة :

(185/559)

لئن قعدنا والنبي يعمل . . . لذاك منا العمل المضلل

فسمى قعودهم عن العمل ، وتركهم له عملاً مضللاً ، وقد أشار صاحب مراقي السعود إلى أن الكف فعل على المذهب . أي وهو الحق . وبين فروعاً مبينة على ذلك نظمها

الشيخ الزقاق في نظمه المسمى بالمنهج المنتخب ، وأورد أبيات الزقاق في ذلك وقال :

وجلبتها هنا على سبيل التضمين ، وهذا النوع يسمى استعانة ، وهو تضمين بيت فأكثر بقوله :

فكفنا بالنهي مطلوب النبي . . . والكف فعل في صحيح المذهب

له فروع ذكرت في المنهج . . . وسردها من بعد ذا البيت يجي

من شرب أو خيط ذكاة فضل ما . . . وعمد رسم شهادة وما

عطل ناظر وذو الرهن كذا . . . مفرط في العلف فادر المآخذا

وكالتي ردت بعيب وعدم . . . وليها وشبهها مما علم

فالأبيات الثلاثة الأخيرة من نظم الشيخ الزقاق المسمى بالمنهج المنتخب ، وفيها بعض الفروع المبنية على الخلاف في الكف ، هل هو فعل ، وهو الحق أو لا ، وقول الزقاق في الأول من أبياته من شرب متعلق بقوله قبله :

وهل كمن فعل تارك كمن . . . له بنفع قدرة لكن كمن

من شرب إلخ فقوله : من شرب بيان للنفع الكامن في قوله : له بنفع قدره ، لكن كمن : أي لكنه ترك النفع مع قدرته عليه ، فتركه له كفعله لما حصل بسبب تركه من الضرر على القول بأن الترك فعل يضمن ديته ، وعلى أنه ليس بفعل ، فلا ضمان عليه ، وفضل الطعام كفضل الشراب في ذلك ، وقوله : أو خيط يعني أن من منع خيطاً عنده ممن شق بطنه ، أو كانت به

جائفة ، حتى مات ضمن الدية على القول بأن الترك فعل ، وعلى عكسه فلا ضمان ، وقوله : ذكاة : يعني أن من مر بصيد لم ينفذ مقتله وأمكنته تذكيته فلم يذكه حتى مات ، هل يضمنه أو لا على الخلاف المذكور ؟

(186/559)

وقوله : فضل ما : يعني أن من عنده ماء فيه فضل عن سقي زرعه ولجاره زرع ولا ماء له ، إذا منع منه الماء ، حتى هلك زرعه ، هل يضمنه أو لا على الخلاف المذكور ، وقوله : وعمد : يعني إذا كانت عنده عمد جمع عمود فمنعها من جار له جدار يخاف سقوطه حتى سقط ، هل يضمن أو لا ؟ وقوله : رسم شهادة : يعني أن من منه وثيقة فيها الشهادة بحق حتى ضاع الحق ، هل يضمنه أو لا ؟ وقوله : وما عطل ناظر : يعني أن الناظر على مال اليتيم مثلاً إذا عطل دوره ، فلم يكرها ، حتى فات الانتفاع بكرائها زمناً أو ترك الأرض حتى تبورت هل يضمن أو لا ، وقوله : وذو الرهن : يعني إذا عطل المرتهن كراء الرهن ، حتى فات الانتفاع به زمناً ، وكان كراؤه له أهمية ، هل يضمن أو لا ؟ وقوله : كذا مفرط في العلف : يعني أن من ترك دابة عند أحد ومعها علفها ، وقال له قدم لها العلف ، فترك تقديمه لها حتى ماتت ، هل يضمن أو لا ، والعلف في البيت بسكون الثاني ، وهو تقديم العلف

بفتح الثاني .

وقوله : وكالتي ردت بعيب وعدم . وليها : يعني أن الولي القريب إذا زوج وليته ، وفيها عيب يوجب رد النكاح وسكتت الزوجة ، ولم تبين عيب نفسها وفلس الولي هل يرجع الزوج على الزوجة بالصداق أو لا ؟ فهذه الفروع وما شابهاه مبنية على الخلاف في الكف هل هو فعل أو لا ؟ والصحيح أن الكف فعل ، كما دل عليه الكتاب والسنة واللغة ، كما تقدم إيضاحه ، وعليه فالصحيح لزوم الضمان فيما ذكر .

وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا (31)

(187/559)

لما شكا النبي صلى الله عليه وسلم إلى ربه في قوله : ﴿ وَقَالَ الرسول يارب إِنَّ قَوْمِي اتخذوا هذا القرآن مَهْجُوراً ﴾ [الفرقان : 30] أنزل الله قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً ﴾ الآية ، تسلية له صلى الله عليه وسلم : أي كما جعلنا الكفار أعداء لك ، يكذبونك ، ويتخذون القرآن الذي أنزل إليك مهجوراً ، كذلك الجعل لكل نبي عدواً : أي جعلنا لك أعداء ، كما جعلنا لكل نبي عدواً .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً ﴾ الآية . قد قدمنا

إيضاحه في الأنعام في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإِنس ﴾ [الأنعام : 112] الآية ، وقوله تعالى : ﴿ وكفى بِرَبِّكَ هَادِياً وَنَصِيراً ﴾ قد قدمنا الكلام مستوفى على كفى اللازمة ، والمتعدية بشواهده العربية في سورة الإسراء في الكلام على قوله : ﴿ كَفَى بِنَفْسِكَ اليوم عَلَيْكَ حَسِيباً ﴾ [الإسراء : 14] وقوله : ﴿ وكفى بِرَبِّكَ هَادِياً ﴾ جاء معناه موضحاً في آيات كثيرة ، كقوله : ﴿ مَن يَهْدِ الله فَهُوَ المهتد ﴾ [الكهف : 17] وقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى الله هُوَ الهدى ﴾ [البقرة : 120] وقوله : ونصيراً : أي وكفى بربك نصيراً ، جاء معناه أيضاً في آيات كثيرة ، كقوله تعالى : ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ الله فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الذي يَنصُرُكُم مِّنْ بَعْدِهِ ﴾ [آل عمران : 160] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 6 صـ ﴾

(188/559)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا (25) ﴾

وقد سبق منهم أنْ طلبوا من الله أنْ ينزل عليهم ملائكة ، فها هي الملائكة تنزل عليهم كما يريدون ، لكن في غير مسرّة لكم ، ولا إجابة لسؤال منكم .

والسماء : هي السقف المرفوع فوقنا المحفوظ الذي ننظر إليه ، فلا نرى فيه فطوراً ولا شروخاً ، ولك أن تنظر إلى السماء حال صفائها ، وسوف تراها ملساء لا نتوءَ فيها ، ولا اعوجاج على اتساعها هذا وقيامها هكذا بلا عَمَد .

لذلك يدعوك الحق تبارك وتعالى إلى النظر والتأمل ، يقول لك : لن نغشك . . انظر في السماء وتأمل : ﴿ ثُمَّ ارجِعِ البَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ البَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ [الملك : 4] .

والسماء التي تراها فوقك على هذه القوة والتماسك لا يُمسكها فوقك إلا الله ، كما يقول سبحانه : ﴿ إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السماوات والأرض أَن تَزُولاَ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ ﴾ [فاطر : 41] .

ويقول تعالى : ﴿ وَيُمْسِكُ السمآء أَن تَقَعَ عَلَى الأرض إِلاَّ بِإِذْنِهِ ﴾ [الحج : 65] إذن : هناك إذْن للسماء أن تقع على الأرض ، وأنْ تتشقق وتتبدل ، كما قال سبحانه : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأرض غَيْرَ الأرض والسماوات ﴾ [إبراهيم : 48] .

ويقول تعالى عن تشقُّق السماء في الآخرة : ﴿ إِذَا السمآء انشقت * وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴾ [الانشقاق : 12] .

معنى : ﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا ﴾ [الانشقاق : 2] يعني : استمعتْ وأطاعتْ بمجرد الاستماع .

وهنا يقول تعالى : ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السماء بالغمام ﴾ [الفرقان : 25] أي : تنشقّ وينزل من الشقوق الغمام ، وقد ذُكِر الغمام أيضاً في قوله تعالى : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ الله فِي ظُلَلٍ مِّنَ الغمام والملائكة ﴾ [البقرة : 210] .

(189/559)

وقوله تعالى : ﴿ وَنُزِّلَ الملائكة تَنزِيلاً ﴾ [الفرقان : 25] يدل على قوة النزول ليباشروا عملية الفصل في موقف القيامة .

الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا (26)

إنْ كانت الدنيا يُملِّك الله فيها بعض خَلْقه بعض خَلْقه ، كما قال سبحانه : ﴿ قُلِ اللهم مَالِكَ الملك تُؤْتِي الملك مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ الملك مِمَّنْ تَشَآءُ . . . ﴾ [آل عمران : 26]

وقلنا : فَرْق بين المِلْك والمُلْك : المِلْك كل ما تملك ولو كان حتى ثوبك الذي ترتديه فهو مِلك ، أمّا المُلْك فهو أن تملك مَنْ يملك ، وهذا يعطيه الله تعالى ، ويهبه لمن يشاء من باطن مُلْكه تعالى ، كما أعطاه للذي حاجّ خليلَه إبراهيم عليه السلام : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الذي حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ الله الملك ﴾ [البقرة : 258] .

هذا في الدنيا ، أما في الآخرة فلا مُلْك ولا مُلْك لأحد ، فقد سلب هذا كله ، والمُلْك اليوم

لله وحده : ﴿ لِّمَنِ الملك اليوم للَّهِ الواحد القهار ﴾ [غافر : 16] .

إذن : فما في يدك من مُلْك الدنيا مُلْك غير مستقر ، سرعان ما يُسلَب منك ؛ لذلك يقول أحد العارفين للخليفة : لو دام المُلْك لغيرك ما وصل إليك ، فالمسألة ليست ذاتية فيك ، فمُلْكك من باطن مُلْك الله تعالى صاحب الملك ، وهو الملك الحق ، فمُلْكه تعالى ثابت مستقر ، لا ينتقل ولا يزول .

وإن انتقلتْ الملكية في الدنيا من شخص لآخر فإنها تُجمَع يوم القيامة في يده تعالى ، وتجمّع المُلْك والسلطة في يد واحدة إنْ كانت ممقوتة عندنا في الدنيا ، حيث نكره الاحتكار والدكتاتورية التي تجعل السلطة والقهر في يد واحدة ، إنْ كانت هذه مذمومة في البشر فهي محمودة عند الله تعالى ؛ لأنها تتركز في الدنيا في يد واحد صاحب هوى .

(190/559)

أما في الآخرة فهي في يده تعالى ، فالرحمة في الدنيا أن يوزع المُلْك والسلطان ، والرحمة في الآخرة أن تُجمع في يده تعالى : ﴿ الملك يَوْمَئِذٍ الحق للرحمن ﴾ [الفرقان : 26] إذن : اجتماع المُلْك يوم القيامة لله تعالى من مظاهر الرحمة بنا ، فلا تأخذها على أنها احتكار أو جبروت ؛ لأنها في يد الرحمن الرحيم .

وكأن الحق تبارك وتعالى يُطمئنك : لا تقلق ، فالمُلْك يوم القيامة ليس لأحد تخاف أن تقع تحت سطوته ، إنما الملك يومئذ الحق للرحمن .

والحق : الشيء الثابت الذي لا يتغير ، وما دام ثابتاً لا يتغير فهو لا يتناقض ولا يتعارض ، فالرجل إذا كلّمك بكلام له واقع في الحياة وطلبتَ منه أن يعيده لك أعاده ألف مرة ، دون أن يُغيّر منه شيئاً ، لماذا ؟ لأنه يقول من خلال ما يستوحي من الحقيقة التي شاهدها ، أمّا إنْ كان كاذباً فإنه لا يستوحي شيئاً ؛ لذلك لا بُدَّ أن يختلف قوله في كل مرة عن الأخرى ؛ لذلك قالوا : إنْ كنتَ كذوباً فكُنْ ذكوراً .

ومن رحمانيته تعالى أن يقول سبحانه : ﴿ وَكَانَ يَوْماً عَلَى الكافرين عَسِيراً ﴾ [الفرقان : 26] فينبهنا إلى الخطر قبل الوقوع فيه ، وهذه رحمة بنا أن ينصحنا ربنا ويعدل لنا ، وإلا لو فاجأنا بالعقوبة لكان الأمر صعباً .

فإن ذكرت المقابل تقول إنه يسير على المؤمنين ، فاحرص أيها الإنسان أن تكون من الميسّر لهم لا من المعسّر عليهم .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظالم على يَدَيْهِ ﴾

هذه عدّة أيام ذكرتها هذه الآيات : ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ الملائكة لاَ بشرى يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ [الفرقان : 22] ، ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السمآء بالغمام ﴾ [الفرقان : 25] ، ﴿ الملك يَوْمَئِذٍ

الحق ﴾ [الفرقان : 26] ، ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظالم على يَدَيْهِ ﴾ [الفرقان : 27] فيوم القيامة جامع لهذا كله .

(191/559)

وقلنا : إن الظالم : الذي يأخذ حَقَّ غيره ، والحق تبارك وتعالى يُوضِّح هذا الظلم بقوله تعالى : ﴿ وَمَا ظَلَمُونَا ولكن كانوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [البقرة : 57] .

لأنهم لا يقدرون على ظُلْم الله تعالى ، ولا على ظُلْم النبي صلى الله عليه وسلم ، فكلمة الله ورسوله هي العُلْيا ، وسينتصر دين الله في نهاية المطاف . ومع ذلك يعاقبهم الله تعالى على ظلمهم لأنفسهم ، فنِعْم الإله إله يفعل هذا مع مَنْ عصاه .

والكافر حتى في مظهرية ظُلْمه للغير يظلم نفسه ؛ لأنه يضعها في موضع المسئولية عن هذه المظالم . إذن : لو حقَّق الإنسان الظلم لوجده لا يعود إلا على الظالم نفسه .

وحين يرى الظالمُ عاقبةَ ظُلْمه ، ويعاين جزاء فِعْله يعضُّ على يديْه ندماً وحَسْرة . والعَضُّ : انطباق الفكيْن الأعلى والأسفل على شيء ، وللعضِّ مراحل تتناسب مع المُفْزع الذي يُلجىء الإنسانَ له ، وفي موضع آخر يقول سبحانه : ﴿ وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ الأنامل مِنَ الغيظ ﴾ [آل عمران : 119] .

والأنامل : اطراف الأصابع وعَضُّها من الغيظ عادة معروفة حينما يتعرّض الإنسان لموقف يصعُب عليه التصرف فيه فيعضُّ على أنامله عَضّاً يناسب الموقف والحدث ، فإنْ كان الحدث أعظمَ ناسبه أنْ يعضّ يده لا مجرد أصابعه ، فإنْ عظم عَضَّ على يديْه معاً كما يحدث لهم في الآية التي معنا : ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظالم على يَدَيْهِ ﴾ [الفرقان : 27] لأنه في موقف حسرة وندم على الفرصة التي فاتته ولن تعود ، والخطأ الذي لا يمكن تداركه ؛ لذلك يُعذِّب نفسه قبل أن يأتيه العذاب .

فيعضُّ على يديْه معاً ، فكأن الأمر المُفْزِع الذي يعاينه بلغ الغاية ؛ لذلك عضَّ على يديه ليبلغ الغاية في المعضوض ، وهو العاضّ والمعضوض ، ولا يُعذِّب نفسه بهذه الطريقة إلا مَنْ يئس من النجاة .

(192/559)

ثم يُبيِّن علة ذلك : ﴿ يَقُولُ ياليتني اتخذت مَعَ الرسول سَبِيلاً ﴾ [الفرقان : 27] وإنْ كانت هذه الآية قد نزلت في حدث مخصوص وفي شخص بعينه ، فإنها تعمّ كل مَنْ فعل هذا ، فالعبرة كما يقولون بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، فهذا جزاء كل ظالم حَادَ عن الجادة .

وهذه الآية " نزلت في حدث خاص باثنين : عقبة بن أبي معيط ، وكان رجلاً كريماً يُطعم الطعام ، وقد دعا مرة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى طعامه ، لكن رسول الله اعتذر له وقال : لا أستطيع أن أحضر طعامك إلا أنْ تشهد أن : لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، فلما شهد الرجل الشهادتين زاره رسول الله وأكل من طعامه ، فأغضب ذلك أمية ابن خلف صاحب عقبة فقال له : لقد صبوتَ يا عقبة ، فقال عقبة : والله ما قلتُ ذلك إلا لأنني أحببتُ أن يأكلَ محمد عندي كما يأكل الناس ، فقال أمية : فلا يبرئك مني إلا أنْ تذهب إلى محمد في دار الندوة فتطأ عنقة وتبصق . . إلخ ، وفعل عقبة ما أشار عليه به صاحبه " فنزلت الآية : ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظالم على يَدَيْهِ يَقُولُ ياليتني اتخذت مَعَ الرسول سَبِيلاً ﴾ [الفرقان : 27] والمراد بالسبيل قوله : لا إله إلا الله محمد رسول الله .

ثم يقول : ﴿ يا ويلتى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاَناً خَلِيلاً ﴾

الويل : الهلاك ، فهو يدعو الهلاك ويناديه أنْ يحلّ به ، والإنسان لا يطلب الهلاك لنفسه إلا إذا تعرّض لعذاب أشدّ من الهلاك ، كما قال أحدهم :

أَشَدُّ من السّقم الذي يُذهِب السّقما . . . وقول الشاعر :

كَفَى بِكَ دَاءً أَنْ تَرَى المَوْتَ شَافِياً . . . وحَسْبُ المَنَايَا أَنْ يكُنَّ أَمَانِيَا

فلما كانت المسألة أكبر منه وفوق احتماله نادى يا ويلتي احضري ، فهذا أوانك لتُخلِّصيني مما أنا فيه من العذاب .

وقوله ﴿ لَيْتَنِي ﴾ [الفرقان : 28] تَمَنٍّ ، والتمنّي طلب أمر محبوب لا سبيلَ إلى حصوله ، كما قال الشاعر في التمني :

(193/559)

لَيْتَ الكَوَاكِبَ تَدْنُو لِي فَأَنْظِمَهَا . . . عُقودَ مَدْحٍ فَمَا أَرْضَى لكُمْ كَلِمِي

وهذا أمر لا يمكن أنْ يُنال .

وآخر يقول :

فيا لَيْتَ الشَّبَابَ يَعُودُ يَوْماً . . . فَأُخبرَه بِمَا فعَل المشيبُ

فقصارى ما يعطيه أسلوب التمني أنه يدلّ على أمر محبوب ، كنت أحب أن يحدث ، لكن أيحدث بالفعل ؟ لا .

وكلمة (فلان) تقولها كناية عن شخص لا تحب حتى ذِكْر اسمه ، فعقبة (ابن أبي مُعيط) لم يقل : ليتني لم أتخذ أمية (بن خلف) خليلاً إنما قال (فلاناً) لأنه كاره له يبغض حتى ذكر اسمه .

والخليل : من الخُلَّة والمخالَّة يعني : الصداقة المتداخلة المتبادلة وفي ذلك يقول الشاعر :

وَلَمَّا التقَيْنَا قَرَّبَ الشَّوْقُ جَهْده . . . خَليلَيْنِ ذَابَا لَوْعَةً وعِتَابَا

كأنَّ خَلِيلاً في خِلاَلِ خَلِيلِهِ . . . تَسرَّب أَثْنَاءَ العِنَاقِ وغَابَا

ثم ذكر علة ذلك : ﴿ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذكر ﴾

﴿ خَذُولاً ﴾ [الفرقان : 29] صيغة مبالغة من الخذلان ، تقول : خاذل وخذول ، ومعنى خذلك أي : تخلّى عنك في الأمر بعد أنْ مدَّ لك حبالَ الأمل ، فإذا ما جاء وقت الحاجة إليه تخلّى عنك وتركك ، كذلك الشيطان يفعل بأوليائه ، كما جاء في آيات أخرى : ﴿ كَمَثَلِ الشيطان إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكفر فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بريء مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ الله رَبَّ العالمين ﴾ [الحشر : 16] وفي آية أخرى : ﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشيطان أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لاَ غَالِبَ لَكُمُ اليوم مِنَ الناس وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ ﴾ [الأنفال : 48] .

وفي موضع آخر يقول لأتباعه : ﴿ مَّآ أَنَاْ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُمْ بِمُصْرِخِيَّ ﴾ [إبراهيم : 22] .

(194/559)

فحين يقولون له : لقد أغويتنا وأضللْتنا يقول لهم : ﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِّن سُلْطَانٍ ﴾ [إبراهيم : 22] لا سلطانَ حجة أقنعكم به ولا سلطان قهر أحملكم به وأقهركم على طاعتي ، بل كنتم على (تشويرة) : ﴿ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فاستجبتم لِي ﴾ [إبراهيم : 22]

.

ثم يقول الحق سبحانه عن رسوله صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَقَالَ الرسول يا رب إِنَّ قَوْمِي ﴾

القوم : قوْم الرجل : أهله وعشيرته والمقيمون معه ويجمعهم : إما أرض ، وإما دين . وسُمُّوا قَوْماً لأنهم هم الذين يقومون على أمر الأشياء ، فهم الرجال خاصة ؛ لأن النساء المفروض فيهن السكن والقرار في البيوت .

والحق تبارك وتعالى يوضح لنا هذا الفرق في قوله تعالى : ﴿ يا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عسى أَن يَكُونُواْ خَيْراً مِّنْهُمْ وَلاَ نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عسى أَن يَكُنَّ خَيْراً مِّنْهُنَّ ﴾ [الحجرات : 11] إذن : فالقوم هم الرجال خاصة .

ومن ذلك أيضاً قول الشاعر :

وَمَا أدري ولَسْتُ إخَالُ أَدْرِي . . . أَقَوْمٌ آلُ حِصْنٍ أَمْ نساءُ

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ قَوْمِي اتخذوا هذا القرآن مَهْجُوراً ﴾ [الفرقان : 30] أضاف القوم إليه صلى الله عليه وسلم لأنه منهم يعرفونه ويعرفون أصْله ، وقد شهدوا له بالصدق والأمانة ومكارم الأخلاق قبل أن يُبعثَ ، وكان عندهم مؤتمناً على نفائس أموالهم ؛ لذل خاطبهم الحق تبارك وتعالى بقوله : ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بالمؤمنين رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة : 128] .

إذن : فالرسول ليس بعيداً عنكم ، ولا مجهولاً لكم ، فمَنْ لم يؤمن به كرسول ينبغي أنْ يؤمن به كأسْوة وقدوة سلوك لسابق تاريخه فيكم .

(195/559)

لذلك نرى أن سيدنا أبا بكر ما انتظر من رسول الله دعوةً ، ولا أنْ يقرأ له قرآناً ، أو يُظهِر له معجزة ، إنما آمن وصدَّق بمجرد أن قال رسول الله ، فما دام قد قال فقد صدق ، ليس بمعجزة رآها أبو بكر ، إنما برصيده القديم في معرفة رسول الله في سلوكه وخُلُقه ، فما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ليَدع الكذب على الخَلْق ، ويكذب على الخالق .

وكذلك السيدة خديجة : هل انتظرت من رسول الله ما يُثبت نبوته ؟ إنها بمجرد أن قال رسول الله صدَّقتْ به ، ووقفت بجانبه وثبَّتته وهدَّأتْ من روعه ، وقالت له : " والله لا يُسلمك الله أبداً ، إنك لتصِل الرحم ، وتحمل الكَلَّ ، وتعين على نوائب الدهر " .

ومعنى : ﴿ مَهْجُوراً ﴾ [الفرقان : 30] من الهجر وهو قَطْع الصلة ، فإنْ كانت من جانب واحد فهي هَجْر ، وإن كانت من الجانبين فهي (هاجراً) . والمعنى : أنهم هجروا القرآن ، وقطعوا الصلة بينهم وبينه ، وهذا يعني أنهم انقطعوا عن الألوهية وانقطعوا عن الرسالة المحمدية ، فلم يأخذوا أدلة اليقين العقدية ، وانقطعوا عن الرسالة المحمدية حينما

كذَّبوا بها ، وانقطعوا عن الأحكام حينما عَصَوْها ، وبذلك اتخذوا هذا القرآن مهجوراً في كل هذه المسائل : العقائد والعبادات والتصديق بالرسول .

مع أن العرب لو فهموا قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ [الزخرف : 44] لمجّدوا القرآن وتمسّكوا به ، فهو الذي عصمهم وعصم لغتهم ، وأعْلَى ذِكْرهم بين الأمم ، ولو أن كل أمة من الأمم المعاصرة أخذتْ لهجتها الخاصة الوطنية ، وجعلت منها لغةً لتلاشت العربية كلغة .

(196/559)

وفي كثير من بلدان الوطن العربي لو حدَّثوك بلهجتهم الخاصة لا تفهم منها شيئاً ، ولولا أن الفُصْحى لغة القرآن تربط بين هذه اللهجات لأصبحتْ كلٌّ منها لغةً خاصة ، كما حدث في اللغات اللاتينية التي تولدت منها الفرنسية والإيطالية والألمانية والإنجليزية ، ولكل منها أسسها وقواعدها الخاصة بها ، وكانت في الأصل لغة واحدة ، إلا أنها لا رابطَ لها من كتاب مقدس .

فالحق تبارك وتعالى يُنبِّههم إلى أن القرآن فيه ذِكْرهم وشرفهم وعزتهم ، وفيه شهرتهم وصيتهم ، فالقرآن جعل العرب على كل لسان ، ولولاه لذابوا بين الأمم كما ذابتْ قبلهم أمم

وحضارات لم يسمع عنها أحد .

لذلك يقول لهم النبي صلى الله عليه وسلم : " إنْ تؤمنوا بما جئت به يكُنْ حظكم في الدنيا والآخرة ، وإن تردوا عليَّ قولي صبرتُ حتى يحكم الله بيني وبينكم " .

وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا (31)

وإذا لم يكُنْ للرسول أعداء ، فلماذا جاء ؟ لو انتظرنا من الجميع ساعةَ يأتي الرسول أنْ يُصدقوه ويؤمنوا به إذن : فلماذا جاء الرسول ؟ لا يأتي الرسول إلى إذا طَمَّ الفساد وعَمّ ، كما أننا لا نأتي بالطبيب إلا إذا حدث مرض أو وباء .

وهؤلاء القوم كانت لهم سيادة ومكانة ، وقد جاء الإسلام ليُسوّي بين الناس ، ويسلب هؤلاء سيادتهم ، فلا بُدَّ أن يقفوا منه موقف العداء ، وهذا العداء هو حيثية وجود الرسول فيهم . وليس النبي صلى الله عليه وسلم بِدْعاً في ذلك ، فما من نبي إلا وكان له أعداء ، مع أن الأنبياء السابقين كان النبي منهم في فترة زمنية محدودة وفي مكان محدود .

أما رسالة محمد صلى الله عليه وسلم فكانت رسالة عامة في الزمان وفي المكان ، ولا بُدَّ أنْ يتناسب العداء إذن مع انتشار الرسالة وعمومها في الزمان والمكان إلى قيام الساعة وعلى النبي صلى الله عليه وسلم أن يُوطِّن نفسه على ذلك .

وكلمة (عدو) من الكلمات التي تُطلق مفردة ، وتشمل المثنى والجمع ، ومن ذلك قوله تعالى على لسان سيدنا إبراهيم : ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الشعراء : 77] .

وفي سورة الكهف : ﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ﴾ [الكهف : 50] ولم يقل : أعداء .

وفي بعض الآيات تأتي بصيغة الجمع كما في قوله تعالى : ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ ﴾ [آل عمران : 103] فلو كانت قضية لغوية لجاءتْ بصيغة المفرد في كل الآيات .

لكن لماذا عدلَ القرآن هنا عن صيغة المفرد إلى صيغة الجمع ؟

قالوا : إنْ كانت العداوة من المفرد والمثنى والجمع عداوة واحدة قال : (عدو) بصيغة المفرد لاتحاد سبب العداوة ، فإنْ كانت العداوات مختلفة : هذا يعاديك لشرفك ، وهذا يعاديك لعلمك ، وهذا يعاديك لمالك ، فتعددت أسباب العداوة قال (أعداء) أما في مسألة الإيمان واليقين بالنسبة للكافرين فالعداوة واحدة ، لكن في أمور الدنيا العداوات متعددة : هذا يعاديك لكذا ، وهذا يعاديك لكذا ؛ لأنه مخالف لهواه .

وحينما تحدثنا عن قوله تعالى : ﴿ وَلَا عَلَى أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِن بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ ﴾ [النور : 61] كلها بصيغة الجمع إلا في قوله تعالى : ﴿ أَوْ صَدِيقِكُمْ

﴾ [النور : 61] بصيغة المفرد ، لماذا ؟ لأن صداقة المؤمنين ينبغي ألاَّ تكون إلا لمعنى واحد ، هو الحب لله ، وفي الله ، لا ينبغي أن يكون لك صديق لكذا وصديق لكذا .

وفي ذلك يقول النبي صلى الله عليه وسلم : " ثلاث من كُنَّ فيه وجد حلاة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأنْ يحبَّ المرءَ لا يُحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يُقذف في النار " .

(198/559)

فإذا كان أصدقاؤك يحبونك لله ، فهم جميعاً كصديق واحد .

وقوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ ﴾ [الفرقان : 31] يعني : كأعدائك الذين اتخذوا القرآن مهجوراً ، والذين وقفوا منك موقف التعنت والإيذاء والسخرية .

﴿ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً مِّنَ الْمجرمين ﴾ [الفرقان : 31] أي : الذين يُجرِمون يعني : يرتكبون الجرائم ، وهي المعاصي والذنوب حَسْب مدلولاتها .

الحق تبارك وتعالى حينما يكشف لرسوله صلى الله عليه وسلم حقيقة أعدائه ، وأنهم كثيرون ، وأنهم مجرمون إنما ليوَطِّن نفسه على ذلك ، فلا يُفَاجأ به ، ويتحمل أذاهم إنْ أصابوه بسوء . وهذه المسألة كالمصْل والتحصين الذي يعطونه للناس لمواجهة المرض قبل

حدوثه ، فالحق سبحانه يعطي رسوله المناعة اللازمة لمواجهة أعداء الدعوة .

لذلك نجد " تشرشل " القائد البريطاني الذي ساس الحرب العالمية الثانية كان يواجه جنوده بالحقائق أفظع مما هي في الواقع ليُوطِّن شعبه على قوة التحمل ، وعلى التصدِّي للصعوبات الشديدة ، ومهما واجههم من مصاعب قال لهم ما زال هناك المزيد منها ، حتى إذا ما حدث ذلك كانوا على استعداد له .

وقوله تعالى : ﴿ وكفى بِرَبِّكَ هَادِياً وَنَصِيراً ﴾ [الفرقان : 31] أي : أن الله تعالى سيهديك إلى الطريق الذي بمقتضاه تنتصر على هؤلاء جميعاً . وسبق أن ذكرنا عن الفاروق عمر رضي الله عنه أنه حينما نزل قوله تعالى : ﴿ سَيُهْزَمُ الجمع وَيُوَلُّونَ الدبر ﴾ [القمر : 45] قال : أيُّ جمع هذا ؟ يعني تعجب كيف سنهزم هؤلاء ونحن الآن عاجزون حتى عن حماية أنفسنا ؟ ولا نبيت إلا في السلاح ، ولا نصبح إلا في السلاح نخاف أن يتخطفنا الناس ، فلما وقعتْ بدر وهُزِم المشركون وحُصدت أرواح صناديدهم قال : صدق الله : ﴿ سَيُهْزَمُ الجمع وَيُوَلُّونَ الدبر ﴾ [القمر : 45] .

(199/559)

كيف حدث هذا ؟ حدث من هداية الله لرسوله صلى الله عليه وسلم إلى أسباب النصر ، والحق تبارك وتعالى ينصر بالشيء وينصر بضده ، وقد اجتمع في بدر سادات قريش وأقوياؤها وأغنياؤها وصناديد الكفر بها ، حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " هذه مكة ، قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها " وقد خرجوا جمعياً على حال الاستعداد للحرب ، أما المؤمنون فقد كانوا قِلَّة مستضعفين على غير استعداد للحرب ، ومع ذلك نصرهم الله .

والحق سبحانه يُطمئن رسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين معه : ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ الله ﴾ [البقرة : 249] .

وقال تعالى : ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الغالبون ﴾ [الصافات : 173] .

وقال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِي الأَرض نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾ [الرعد : 41] أي : ننقص من أرض الكفر ، ونزيد في أرض الإيمان ، والحق سبحانه أخبرنا بقضايا ، يجب أن تُوجَد أحداث في الحياة والواقع خادمةً لتصديق هذه القضايا . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(200/559)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا (25) ﴾

أخرج عبد بن حميد وابن أبي الدنيا في الأهوال وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم عن ابن عباس أنه قرأ ﴿ ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلاً ﴾ قال : يجمع الله الخلق يوم القيامة في صعيد واحد . الجن والإِنس والبهائم والسباع والطير وجميع الخلق ، فتشقق السماء الدنيا ، فينزل أهلها وهم أكثر ممن في الأرض من الجن والإِنس وجميع الخلق ، فيحيطون بالجن والانس وجميع الخلق فيقول أهل الأرض : أفيكم ربنا ؟ فيقولون : لا .

ثم تشقق السماء الثانية ، فينزل أهلها ، وهم أكثر من أهل السماء الدنيا ومن الجن والإِنس وجميع الخلق ، فيحيطون بالملائكة الذين نزلوا قبلهم والجن والانس وجميع الخلق .

ثم ينزل أهل السماء الثالثة ، فيحيطون بالملائكة الذين نزلوا قبلهم والجن والانس وجميع الخلق .

ثم ينزل أهل السماء الرابعة ، وهم أكثر من أهل الثالثة والثانية والأولى وأهل الأرض ، ثم ينزل أهل السماء الخامسة وهم أكثر ممن تقدم ، ثم أهل السماء السادسة كذلك ، ثم أهل السماء السابعة . وهم أكثر من أهل السموات وأهل الأرض ، ثم ينزل ربنا في ظلل من الغمام

وحوله الكروبيون ، وهم أكثر من أهل السموات السبع والانس والجن وجميع الخلق ، لهم قرون ككعوب القنا ، وهم حملة العرش ، لهم زجل بالتسبيح والتحميد والتقديس لله تعالى ، ومن أخمص قدم أحدهم إلى كعبة مسيرة خمسمائة عام ، ومن كعبه إلى ركبته خمسمائة عام ، ومن ركبته إلى فخذه مسيرة خمسمائة عام ، ومن فخذه إلى ترقوته مسيرة خمسمائة عام ، ومن ترقوته إلى موضع القرط مسيرة خمسمائة عام ، وما فوق ذلك خمسمائة عام .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن الضحاك ﴿ ويوم تشقق السماء بالغمام ﴾ قال : هو قطع السماء إذا انشقت .

(201/559)

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد ﴿ ويوم تشقق السماء بالغمام ﴾ قال : هو الذي قال ﴿ في ظلل من الغمام ﴾ [البقرة : 120] الذي يأتي الله فيه يوم القيامة .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في الآية . يقول : تشقق عن الغمام الذي يأتي الله فيه . غمام زعموا في الجنة .

﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا (27) ﴾

أخرج ابن مردويه وأبو نعيم في الدلائل بسند صحيح من طريق سعيد بن جبير عن ابن

عباس رضي الله عنهما : " ان أبا معيط كان يجلس مع النبي صلى الله عليه وسلم بمكة لا يؤذيه ، وكان رجلاً حليماً ، وكان بقية قريش إذا جلسوا معه آذوه ، وكان لأبي معيط خليل غائب عنه بالشام فقالت قريش : صبا أبو معيط ، وقدم خليله من الشام ليلاً فقال لامرأته : ما فعل محمد مما كان عليه ؟ فقالت : أشد مما كان أمراً فقال : ما فعل خليلي أبو معيط ؟ فقالت : صبأ . فبات بليلة سوء ، فلما أصبح أتاه أبو معيط فحياه ، فلم يرد عليه التحية فقال : ما لك . لا ترد عليَّ تحيتي ؟ فقال : كيف أرد عليك تحيتك وقد صبوت ؟ قال : أوقد فعلتها قريش ؟ ! قال : نعم . قال فما يبرىء صدورهم إن أنا فعلت قال : نأتيه في مجلسه ، وتبصق في وجهه ، وتشتمه بأخبث ما تعلمه من الشتم . ففعل ، فلم يزد النبي صلى الله عليه وسلم أن مسح وجهه من البصاق ، ثم التفت إليه فقال : إن وجدتك خارجاً من جبال مكة أضرب عنقك صبراً .

(202/559)

فلما كان يوم بدر ، وخرج أصحابه ، أبى أن يخرج فقال له أصحابه : اخرج معنا قال : قد وعدني هذا الرجل إن وجدني خارجاً من جبال مكة أن يضرب عنقي صبراً فقالوا : لك جمل أحمر لا يُدْرَكَ ، فلو كانت الهزيمة طرت عليه ، فخرج معهم ، فلما هزم الله المشركين ،

وحل به جمله في جدد من الأرض ، فأخذه رسول الله صلى الله عليه وسلم أسيراً في سبعين من قريش ، وقدم إليه أبو معيط فقال : تقتلني من بين هؤلاء ؟ قال : نعم . بما بصقت في وجهي ، فأنزل الله في أبي معيط ﴿ ويوم يعض الظالم على يديه ﴾ إلى قوله ﴿ وكان الشيطان للإنسان خذولاً ﴾ " .

وأخرج أبو نعيم من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال : "كان عقبة بن أبي معيط لا يقدم من سفر إلا صنع طعاماً فدعا إليه أهل مكة كلهم ، وكان يكثر مجالسة النبي صلى الله عليه وسلم ويعجبه حديثه ، وغلب عليه الشقاء فقدم ذات يوم من سفر فصنع طعاماً ثم دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى طعامه فقال : ما أنا بالذي آكل من طعامك حتى تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله . فقال : أطعم يا ابن أخي . قال : ما أنا بالذي أفعل حتى تقول . . . فشهد بذلك وطعم من طعامه .

فبلغ ذلك أُبي بن خلف فأتاه فقال : أصبوت يا عقبة ؟ – وكان خليله – فقال : لا والله ما صبوت . ولكن دخل عليّ رجل فأبى أن يطعم من طعامي إلا أن أشهد له ، فاستحييت أن يخرج من بيتي قبل أن يطعم ، فشهدت له ، فطعم . فقال : ما أنا بالذي أرضى عنك حتى تأتيه فتبصق في وجهه . ففعل عقبة فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا ألقاك خارجاً من مكة إلا علوت رأسك بالسيف ، فأسر عقبة يوم بدر فقتل صبراً ولم يقتل من الأسارى يومئذ غيره " .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن مردويه من طرق عن ابن عباس قال : "كان أبي بن خلف يحضر النبي صلى الله عليه وسلم فزجره عقبة بن أبي معيط ، فنزل ﴿ ويوم يعض الظالم على يديه ﴾ إلى قوله ﴿ وكان الشيطان للإنسان خذولاً ﴾ " .

(203/559)

وأخرج عبد الرزاق في المصنف وابن جرير وابن المنذر عن مقسم مولى ابن عباس قال : " إن عقبة بن أبي معيط ، وأبي بن خلف الجمحي التقيا . فقال عقبة بن أبي معيط لأبي بن خلف – وكانا خليلين في الجاهلية – وكان أبي قد أتى النبي صلى الله عليه وسلم فعرض عليه الإِسلام ، فلما سمع بذلك عقبة قال : لا أرضى عنك حتى تأتي محمداً فتتفل في وجهه وتشمته وتكذبه . قال : فلم يسلطه الله على ذلك .

فلما كان يوم بدر ، أسر عقبة بن أبي معيط في الأسارى فأمر به النبي صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب أن يقتله فقال عقبة : يا محمد أمن بين هؤلاء أقتل ؟ قال : نعم . قال : بم ؟ قال : بكفرك وفجورك وعتوك على الله وعلى رسوله ، فقام إليه علي بن أبي طالب فضرب عنقه .

وأما أبي بن خلف فقال : والله لا قتلن محمداً فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم

فقال : بل أنا أقتله إن شاء الله . فافزعه ذلك فوقعت في نفسه لأنهم لم يسمعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال قولاً إلا كان حقاً ، فلما كان يوم أحد خرج مع المشركين ، فجعل يلتمس غفلة النبي صلى الله عليه وسلم ليحمل عليه . فيحول رجل من المسلمين بين النبي صلى الله عليه وسلم وبينه . فلما رأى ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه : خلفوا عنه فأخذ الحربة فرماه بها ، فوقعت ترقوته ، فلم يخرج منه كبير دم واحتقن الدم في جوفه ، فخار كما يخور الثور فأتى أصحابه حتى احتملوه وهو يخور وقالوا : ما هذا ؟ ! فوالله ما بك إلا خدش فقال : والله لو لم يصبني إلا بريقه لقتلني أليس قد قال : أنا أقتله ، والله لو كان الذي بي بأهل ذي المجاز لقتلهم .

قال : فما لبث إلا يوماً أو نحو ذلك حتى مات إلى النار ، وأنزل الله فيه ﴿ ويوم يعض الظالم على يديه ﴾ إلى قوله ﴿ وكان الشيطان للإنسان خذولاً ﴾ " .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن سابط قال :

(204/559)

" صنع أبي بن خلف طعاماً ثم أتى مجلساً فيه النبي صلى الله عليه وسلم فقال : قوموا . فقاموا غير النبي صلى الله عليه وسلم فقال : لا أقوم حتى تشهد أن لا إله إلا الله وأني

رسول الله ، فتشهد . فقام النبي صلى الله عليه وسلم فلقيه عقبة بن أبي معيط فقال : قلت : كذا وكذا قال : إنما أردت لطعامنا فذلك قوله ﴿ ويوم يعض الظالم على يديه ﴾ "

وأخرج الفريابي وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله ﴿ ويوم يعض الظالم على يديه ﴾ قال : " عقبة بن أبي معيط دعا مجلساً فيه النبي صلى الله عليه وسلم لطعام ، فأبى النبي صلى الله عليه وسلم أن يأكل وقال : " لا آكل حتى تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . فلقيه أمية بن خلف فقال : أقد صبوت ؟ فقال : إن أخاك على ما تعلم ولكن صنعت طعاماً فأبى أن يأكل حتى قلت ذلك ، فقلته وليس من نفسي " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن هشام في قوله ﴿ ويوم يعض الظالم على يديه ﴾ قال : يأكل كفيه ندامة حتى يبلغ منكبه لا يجد مسها .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سفيان في قوله ﴿ ويوم يعض الظالم على يديه ﴾ قال : يأكل يده ثم تنبت .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي عمران الجوني في قوله ﴿ ويوم يعض الظالم على يديه ﴾ قال : بلغني أنه يعضه حتى يكسر العظم ثم يعود .

وأخرج عبد بن حميد وابن حاتم عن سعيد بن المسيب قال : نزلت في أمية بن خلف ، وعقبة بن أبي معيط ، ﴿ ويوم يعض الظالم على يديه ﴾ قال : هذا عقبة . ﴿ لم أتخذ فلاناً

خليلاً ﴾ قال : أمية وكان عقبة خدناً لأمية فبلغ أمية أن عقبة يريد الإِسلام ، فأتاه وقال وجهي من وجهك حرام إن أسلمت أن أكلمك أبداً . ففعل ، فنزلت هذه الآية فيهما .

(205/559)

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر عن أبي مالك في قوله ﴿ لم أتخذ فلاناً خليلاً ﴾ قال : عقبة بن أبي معيط ، وأمية بن خلف كانا متواخيين في الجاهلية يقول أمية بن خلف : يا ليتني لم أتخذ عقبة بن أبي معيط خليلاً .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عمرو بن ميمون في قوله ﴿ ويوم يعض الظالم على يديه ﴾ قال : " نزلت في عقبة بن أبي معيط ، وأبي بن خلف ، دخل النبي صلى الله عليه وسلم على عقبة في حاجة وقد صنع طعاماً للناس ، فدعا النبي صلى الله عليه وسلم إلى طعامه قال : لا . . . حتى تسلم . فأسلم فأكل . . . وبلغ الخبر أبي بن خلف ، فأتى عقبة فذكر له ما صنع فقال له عقبة أترى مثل محمد يدخل منزلي وفيه طعام ثم يخرج ولا يأكل ! قال : فوجهي من وجهك حرام حتى ترجع عما دخلت فيه . فرجع . فنزلت الآية " .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال ﴿ ويوم يعض الظالم على يديه ﴾ قال : أبي بن خلف ، وعقبة بن أبي معيط . وهما الخليلان في جهنم على منبر من نار .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة قال : ذكر لنا أن رجلاً من قريش كان يغشى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلقيه رجل من قريش – وكان له صديقاً – فلم يزل به حتى صرفه وصده عن غشيان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأنزل الله فيهما ما تسمعون .

وأخرج الفريابي وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد ﴿ يا ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً ﴾ قال : الشيطان .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة ﴿ وكان الشيطان للإنسان خذولاً ﴾ قال : خذل يوم القيامة وتبرأ منه ﴿ وقال الرسول يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً ﴾ هذا قول نبيكم يشتكي قومه إلى ربه قال الله يعزي نبيه : ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبي عدوّاً من المجرمين ﴾ يقول : إن الرسل قد لقيت هذا من قومها قبلك فلا يكبرن عليك .

(206/559)

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله ﴿ اتخذوا هذا القرآن مهجوراً ﴾ قال : يهجرون فيه بالقول السيء . يقولون : هذا سحر .

وأخرج الفريابي وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن إبراهيم النخعي في قوله ﴿ اتخذوا هذا القرآن مهجوراً ﴾ قالوا : فيه هجيراً غير الحق . ألم تر المريض إذا هذى قيل : هجر ؟ أي قال : غير الحق .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبي عدوّاً من المجرمين ﴾ قال : لم يبعث نبي قط إلا كان المجرمون له أعداء . ولم يبعث نبي قط إلا كان بعض المجرمين أشد عليه من بعض .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبي عدوّاً من المجرمين ﴾ قال : كان عدوّ النبي صلى الله عليه وسلم أبو جهل ، وعدوّ موسى قارون ، وكان قارون ابن عم موسى .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبي عدوّاً من المجرمين ﴾ قال : يوطن محمد صلى الله عليه وسلم أنه جاعل له عدوّاً من المجرمين كما جعل لمن قبله . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 6 صـ ﴾

(207/559)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله : ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ﴾ :

العامل في " يومَ " : إمَّا اذْكُرْ ، وإمَّا : ينفردُ اللهُ بالمُلْك يومَ تَشَقَّقُ ، لدلالة قوله : ﴿ الملك يَوْمَئِذٍ الحق للرحمن ﴾ [الفرقان : 26] عليه .

وقرأ الكوفيون وأبو عمرو هنا وفي ق " تَشَقَّق " بالتخفيف . والباقون بالتشديدِ . وهما واضحتان . حَذَفَ الأَوَّلون تاءَ المضارعةِ ، أو تاءَ التَّفَعُّلِ ، على خلافٍ في ذلك .

والباقون أَدْغموا تاء التَفَعُّل في الشينِ لما بينهما من المقاربَةِ ، وهما " كَتَظَاهَرون وتَظَّاهرون " حَذْفاً وإدغاماً . وقد مضى في البقرة .

قوله : ﴿ بالغمام ﴾ في هذه الباء ثلاثةُ أوجهٍ ، أحدها : على السببيَّة أي : بسببِ الغَمام ، يعني بسببِ طُلوعِه منها . ونحو ﴿ السَّمَآءُ مُنفَطِرٌ بِهِ ﴾ [المزمل : 18] كأَنَّه الذي تَنْشَقُّ به السماءُ . الثاني : أنها للحالِ أي : ملتبسَةً بالغَمام . الثالث : أنها بمعنى عَنْ أي : عن الغمامِ كقوله : ﴿ يَوْمَ تَشَقَّقُ الأرض عَنْهُمْ ﴾ [ق : 44] .

قوله : ﴿ وَنُزِّلَ الملائكة ﴾ فيها اثنتا عشرة قراءة : ثِنْتان في المتواتِر ، وعشرٌ في الشاذ . فقرأ ابن كثير من السبعة " ونُنْزِلُ " بنونٍ مضمومةٍ ثم أُخْرى ساكنةٍ وزايٍ خفيفةٍ مكسورةٍ مضارعَ " أَنْزَلَ " ، و " الملائكةَ بالنصبِ مفعولٌ به . وكان من حَقِّ المصدرِ أَنْ يجيءَ بعد

هذه القراءةِ على إنْزال . قال أبو علي : "لَمَّا كان أُنْزَل ونَزَّل يَجْريان مَجْرىً واحِداً ، أجرى مصدرَ أحدِهما على مصدرِ الآخر : وأنشدَ :

(208/559)

3482 وقد تَطَوَّيتُ انْطِواءَ الحِضْبِ . . . لأنَّ تَطَوَّيتُ وانْطَوَيْتُ بمعنىً " . قلت : ومثلُه ﴿ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً ﴾ [المزمل : 8] أي : تَبَتُّلاً . وقرأ الباقون من السبعةِ " ونُزِّل " بضمِّ النون وكسرِ الزاي المشدَّدةِ وفتحِ اللامِ ، ماضياً مبنياً للمفعول . " الملائكةُ " بالرفعِ لقيامةِ مقامَ الفاعلِ . وهي موافقةٌ لمصدرِها .

وقرأ ابن مسعود وأبو رجاء " ونَزَّلَ " بالتشديد ماضياً مبنياً للفاعلِ ، وهو الله تعالى ، " الملائكةَ " مفعولٌ به . وعنه أيضاً " وأَنْزَل " مبنياً للفاعلِ عَدَّاه بالتضعيفِ مرةً ، وبالهمزة أخرى . والاعتذارُ عن مجيء مصدرِه على التفعيلِ كالاعتذارِ عن ابنِ كثير . وعنه أيضاً " وأُنْزِل " مبنياً للمفعولِ .

وقرأ هارون عن أبي عمرٍو " وتُنَزِّل الملائكةُ " بالتاء من فوق وتشديدِ الزاي ورفعِ اللام مضارعاً مبنياً للفاعل ، " الملائكةُ " بالرفعِ ، مضارعَ نَزَّل بالتشديد ، وعلى هذه القراءةِ فالمفعولُ محذوفٌ أي : وتُنَزِّل الملائكةُ ما أُمِرَتْ أَنْ تُنَزِّلَه .

وقرأ الخَفَّاف عنه ، وجناح بن حبيش " ونَزَل " مخففاً مبنياً للفاعلِ " الملائكةُ " بالرفع .

وخارجة عن أبي عمرٍو أيضاً وأبو معاذ " ونُزِّلُ " بضم النون وتشديدِ الزاي ونصب " الملائكةَ " . والأصل : ونُنَزِّلُ بنونين حُذِفَتْ إحداهما .

وقرأ أبو عمرٍو وابنُ كثيرٍ في روايةٍ عنهما بهذا الأصلِ " ونُنَزِّل " بنونين وتشديدِ الزاي . وقرأ أُبَيٌّ و " نُزِّلَتْ " بالتشديدِ مبنياً للمفعولِ . و " تَنَزَّلَتْ " بزيادةِ تاءٍ في أولِه ، وتاءِ التأنيث فيهما .

(209/559)

وقرأ أبو عمرٍو في طريقةِ الخَفَّاف عنه " ونُزِلَ " بضمّ النون وكسرِ الزاي خفيفةً مبنياً للمفعول ، قال صاحب اللوامح : " فإنْ صَحَّتِ القراءةُ فإنَّه حُذِفَ منها المضافُ وأُقيم المضافُ إليه مُقامَه ، تقديره : ونُزِل نزولُ الملائكةِ ، فحُذِفَ النزولُ ، ونُقِل إعرابُه إلى الملائكة . بمعنى : نُزِل نازلُ الملائكةِ ؛ لأنَّ المصدرَ يجيءُ بمعنى الاسمِ . وهذا ممَّا يجيءُ على مذهب سيبويهِ/ في ترتيب بناءِ اللازمِ للمفعولِ به ؛ لأنَّ الفعلَ يَدُلُّ على مصدره " ، قلت : وهذا تَمَحُّلٌ كثيرٌ دَعَتْ إليه ضرورةُ الصناعةِ ، وقال ابن جني : " وهذا غيرُ معروفٍ ؛ لأنَّ نَزَلَ لا يتعدى إلى مفعولٍ فيبنى هنا للملائكة . ووجهُه : أُنْ يكونَ مثل : زُكِم الرجلُ وجُنَّ ، فإنه لا

يُقال : إلاَّ : أَزْكمه وأَجَنَّه الله ، وهذا بابُ سماعٍ لا قياسٍ " . قلت : ونظيرُ هذه القراءة ما تقدَّم في سورة الكهفِ في قراءةِ مَنْ قرأ ﴿ فَلاَ يقوم له يَوْمَ القيامة وَزْناً ﴾ [الآية : 105] بنصب " وَزْناً " من حيث تَعْدِيَةُ القاصرِ وتَقَدَّم ما فيها .

قوله : ﴿ الملك يَوْمَئِذٍ ﴾ : فيه أوجهٌ ، أحدها : أن يكونَ " المُلْكُ " مبتدأً ، والخبر : " الحق " ، و " يومئذٍ " متعلِّقٌ بالمُلْك . و " للرحمن " متعلقٌ بالحق ، أو بمحذوفٍ على التبيين ، أو بمحذوفٍ على أنه صفةٌ للحق . الثاني : أنَّ الخبرَ " يومئذٍ " ، و " الحقُّ " نعتٌ للمُلْك . و " للرحمن " على ما تقدَّم . الثالث : أنَّ الخبرَ " للرحمن " و " يومئذٍ " متعلقٌ بالمُلْك ، و " الحقُّ " نعتٌ للمُلك .

(210/559)

قوله : ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ﴾ : معمولٌ لمحذوفٍ ، أو معطوفٌ على " يومَ تَشَقَّقُ " . و " يَعَضُّ " مضارعُ عَضَّ ، ووزنُه فَعِل بكسرِ العينِ ، بدليلِ قولِهم : عَضِضْتُ أَعَضُّ ، وحكى الكسائيُّ فتحَها في الماضي ، فعلى هذا يُقال : أَعِضُّ بالكسر في المضارع . والعَضُّ هنا كنايةٌ عن شدَّةِ اللزومِ . ومثله : حَرَقَ نابَه ، قال :

3483 أبى الضَّيْمَ والنُّعمانُ يَحْرِقُ نابَه . . . عليه فأَفضى والسيوفُ مَعاقِلُهْ

وهذه الكنايةُ أبلغُ من تصريحِ المكنى عنه . وأَلْ في " الظالم " تحتملُ العهدَ ، والجنسَ ، على حَسَبِ الخلافِ في ذلك .

قوله : ﴿ يَقُولُ ﴾ هذه الجملةُ حال مِنْ فاعل "يَعَضُّ" . وجملةُ التمنّي بعد القولِ مَحْكِيَّةٌ به . وتقدَّم الكلامُ في مباشرة " يا " ل " ليت " في النساء .

وفلانٌ كنايةٌ عن عَلَمِ مَنْ يَعْقِل وهو منصرفٌ ، وفُلٌ كنايةٌ عن نكرةِ مَنْ يَعْقِل من الذكور ، وفُلَةُ عَمَّن يَعْقِلُ من الإناثِ ، والفلانُ والفلانةُ بالألف واللام عن غير العاقلِ . ويختصُّ فُلٌ وفُلَةُ بالنداءِ إلاَّ في ضرورةٍ كقوله :

(211/559)

3484 في لَجَّةٍ أَمْسِكْ فُلاناً عن فُلِ . . . وليس " فُلٌ " مُرَخَّماً من فلان خلافاً للفراء ، وزعم الشيخ أنَّ ابنَ عصفورٍ وابنَ مالك وابن العلج وَهِمُوا في جَعْلهم " فُلٌ " كنايةً عن عَلَم مَنْ يَعْقِل كفُلان . ولامُ فُل وفلان فيها وجهان ، أحدهما : أنها واوٌ . والثاني : أنها ياءٌ ، وقرأ الحسن " يا ويلتي " بكسرِ التاء وياءٍ صريحةٍ بعدها ، وهي الأصلُ ، وقرأ الدُّوريُّ بالإمالة ، قال أبو عليّ : " وتَرْكُ الإمالةِ أحسنُ ؛ لأنَّ أصلَ هذه اللفظةِ الياءُ ، فبُدِّلت الكسرةُ فتحةً ، والياءُ ألفاً ؛ فِراراً من الياءِ . فَمَنْ أمال رَجَعَ إلى الذي منه فَرَّ أولاً " قلت :

وهذا منقوضٌ بنحو " باع " فإنَّ أصلَه الياءُ ومع ذلك أمالوا ، وقد أمالُوا ﴿ يا حسرتى عَلَى مَا فَرَّطتُ ﴾ [الزمر : 56] و ﴿ يَا أَسَفَى ﴾ [يوسف : 84] وهما ك " يا ويلتى " في كونِ ألِفهما عن ياءِ المتكلم .

قوله : ﴿ وَكَانَ الشيطان ﴾ : يُحتمل أَنْ تكونَ هذه الجملةُ من مقولِ الظالمِ ، فتكونُ منصوبةَ المحلِّ بالقولِ ، وأَنْ تكونَ من مقولِ الباري تعالى : فلا مَحَلَّ لها لاستئنافِها .

قوله : ﴿ مَهْجُوراً ﴾ : مفعولٌ ثانٍ ل " اتَّخَذُوا " أو حال . وهو مفعولٌ مِنْ الهَجْرِ بفتحِ الهاءِ وهو التَّرْكُ والبُعْدُ . أي : جعلوه متروكاً بعيداً . وقيل : هو من الهُجْر بالضم أي : مهجوراً فيه ، حيث يقولون فيه : إنه شِعْرٌ وأساطيرُ ، وجَعَل الزمخشري مفعولاً هنا مصدراً بمعنى الهَجْر قال : " كالمَجْلود والمَعْقُول " . قلت : وهو غيرُ مَقيسٍ ، ضَبَطَه أهلُ اللغةِ في أَلْفاظٍ فلا تتعدى إلاَّ بنَقْلٍ .

وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا (31)

قوله : ﴿ هَادِياً ﴾ : حالٌ أو تمييزٌ . وقد تقدَّم إعرابُ مثلِ هذه الجملةِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 475. 481 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا (25) ﴾

يريد يومَ القيامة إذا بَدَتْ أهوالُها ، وظَهَرت للمبعوثين أحوالُها عَمِلُوا وتحققوا – ذلك اليومَ – أنَّ المُلْكَ للرحمن . ولم يتخصص ملكُه بذلك اليوم ، وإنما علْمُهم ويقينهُم حَصَلَ لهم ذلك الوقت .

ويقال تنقطع دواعي الأغيار ، وتنتفي أوهامُ الخلْق فلا يتجدَّدُ له – سبحانه – وصفٌ ولكن تتلاشى للخلْق أوصاف ، وذلك يومٌ على الكافرين عسير ، ودليل الخطاب يقتضي أنَّ ذلك اليوم على المؤمنين يسيرٌ وإلا بطل الفرقُ ؛ فيجب ألا يكون مؤمن إلاَّ وذلك اليوم يكون عليه هيناً .

وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا (27) يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا (28)

يندم الكافر على صحبة الكفار . ودليل الخطاب يتقضي سرورَ المؤمنين بمصاحبة أخدانهم وأحبائهم في الله ، وأمَّا الكافر فَيُضِلُّ صاحبَه فيقع معه في الثبور ، ولكن المؤمن يهدي صاحبه إلى الرشد فيصل به إلى السرور .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴾ .

شكا إلى الله منهم ، وتلك سنَّةُ المرسلين ؛ أخبر الله عن يعقوب – عليه السلام – أنه قال :

﴿ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ ﴾ [يوسف : 86] فَمنْ شكا من الله فهو جاحد ، ومنْ شكا إلى الله فهو عارف واجد .

ثم إنه أخبر أنه لم يُخْلِ نبياً من أنبيائه صلوات الله عليهم إلا سلَّطَ عليه عَدُّواً في وقته ، إلا أنَّه لم يغادِرْ من أعدائِهم أحداً ، وأذاقهم وبالَ ما استوجبوه على كفرهم وغَيِّهم قوله جلّ ذكره :

﴿ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِياً وَنَصِيراً ﴾ .

كفى بربك اليوم هادياً إلى معرفته ، وغداً نصيراً على رؤيته .

(213/559)

ويقال آخر فتنة للمؤمنين ما ورد في الخبر : " أن كل أمة ترى في القيامة الصنم الذي عبدوه يتبعونه فيحشرون إلى النار ، فيُلْقَوْن فيها ويبقى المؤمنون ، فيقال لهم : ما وقفكم ؟ فيقولون : إنهم رأوا معبودهم فتبعوه ونحن لم نرَ معبودنا ! فيقال لهم : ولو رأيتموه . . . فهل تعرفونه ؟ فيقولون : نعم . فيقال لهم : بِمَ تعرفونه ؟ فيقولون : بيننا وبينه علامة . فيريهم شيئاً في صورة شخص فيقول لهم : أنا معبودكم . فيقولون : معاذ الله . . . نعوذ بالله منك ! ما

عبدناك . فيتجلَّى الحقُّ لهم فَيَسجدون له " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 633.634 ﴾

(214/559)

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ تبارك ﴾

قال ابن عباس رضي الله عنه يعني : تعالى وتعظم .

قال ابن عباس : ويقال : تفاعل من البركة ، وهذه لفظة مخصوصة ، ولا يقال : يتبارك ، كما يقال يتعالى .

ولا يقال : متبارك ، كما يقال متعالٍ .

ويقال تبارك أي ذو بركة .

والبركة هي كثرة الخير .

ويقال : أصله من بروك الإبل .

ويقال للواحد بارك ، وللجماعة برك .

وكان الإنسان إذا كان له إبل كثيرة وقد برك هو على الباب يقولون : فلان ذو بركة ، ويقولون للذي كان له إبل تحمل إليه الأموال من بلاد بعيدة : فلان ذو بركة ، فصار ذلك أصلاً ، حتى أنه لو كان له مال سوى الإبل لا يقال فلان ذو بركة .

قال الله تعالى : ﴿ تبارك ﴾ أي ذو البركة .

ويقال : أصله من الدوام .

ويقال : بارك في موضوع إذا دام فيه .

ويقال : معناه البركة في اسمه وفي الذي ذكر عليه اسمه .

ثم قال : ﴿ الذى نَزَّلَ الفرقان ﴾ يعني : أنزل جبريل عليه السلام بالقرآن والفرقان هو المخرج من الشبهات ﴿ على عَبْدِهِ ﴾ يعني : محمداً صلى الله عليه وسلم ﴿ لِيَكُونَ للعالمين نَذِيراً ﴾ يعني : ليكون الفرقان نذيراً للإنس والجن .

ويقال : يعني : النبي صلى الله عليه وسلم ويقال يعني : الله تبارك وتعالى وأراد ها هنا جميع الخلق ، وقد يذكر العام ويراد به الخاص من الناس ، كقوله عزّ وجل : ﴿ يا بنى إسرائيل اذكروا نِعْمَتِىَ التى أَنْعَمْتُ عَلَيْكُم وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى العالمين ﴾ [البقرة : 47و122] أي : على عالمي زمانهم ، ويذكر ويراد به جميع الخلائق ، كقوله : ﴿ الحمد للَّهِ رَبِّ العالمين ﴾ [الفاتحة : 2] ثم قال عز وجل : ﴿ الذى لَهُ مُلْكُ السموات والأرض ﴾ يعني : خزائن السموات والأرض .

ويقال : له نفاذ الأمر في السموات والأرض .

﴿ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً ﴾ ليورثه ملكه ﴿ وَلَم يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِى الملك ﴾ فينازعه في عظمته .

(215/559)

﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ كما ينبغي أن يخلقهم .

﴿ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً ﴾ يعني : بين الصلاح في كل شيء ، وجعله مقدراً معلوماً .

ويقال : كل شي خلقه من الخلق فقدره تقديراً ، أي : قدر لكل ذكر وأنثى .

قوله عز وجل : ﴿ واتخذوا مِن دُونِهِ ءالِهَةً ﴾ يعني : تركوا عبادة الله الذي خلق هذه الأشياء ، وعبدوا غيره .

﴿ لاَ يَخْلُقُونَ شَيْئًا ﴾ يعني : عبدوا شيئاً لا يقدر أن يخلق ذباباً ، ولا غيره ﴿ وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ يتخذونها بأيديهم ﴿ وَلاَ يَمْلِكُونَ لِانفُسِهِمْ ضَرّاً ﴾ أي : لا تقدر الآلهة أن تمتنع ممن أراد بها سوءاً ﴿ وَلاَ نَفْعاً ﴾ أي لا تقدر أن تسوق إلى نفسها خيراً .

ويقال : لا يملكون دفع مضرة ، ولا جر منفعة .

﴿ وَلاَ يَمْلِكُونَ مَوْتاً ﴾ يعني : لا يقدرون أن يميتوا أحداً ﴿ وَلاَ يَمْلِكُونَ ﴾ أي : ولا

يحيون أحداً ﴿ وَلاَ نُشُوراً ﴾ يعني : بعث الأموات .

ويقال : ولا يملكون موتاً ، يعني : الموت الذي كان قبل أن يخلقوا ، ولا حياة ، يعني : أن يزيدوا في الأجل ، ولا نشوراً بعد الموت .

ويقال : ﴿ لاَّ يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلاَ حياة ﴾ يعني : أن يبقوا أحداً ﴿ وَلاَ نُشُوراً ﴾ يعني : أن يحيوه بعد الموت .

وإنما ذكر الأصنام بلفظ العقلاء ، لأن الكفار يجعلونهم بمنزلة العقلاء ، فخاطبهم بلغتهم .

ثم قال عز وجل : ﴿ وَقَالَ الذين كَفَرُواْ ﴾ يعني : كفار مكة ﴿ إِنْ هذا إِلاَّ إِفْكٌ ﴾ يعني : ما القرآن إلا كذب ﴿ افتراه ﴾ يعني : كذباً اختلقه من ذات نفسه ﴿ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ ءاخَرُونَ ﴾ يعني : جبراً ويساراً ﴿ فَقَدْ جَاءوا ظُلْماً وَزُوراً ﴾ وقال بعضهم : هذا قول الله تعالى ردّاً على الكفار بقولهم هذا ﴿ فَقَدْ جَاءوا ظُلْماً وَزُوراً ﴾ يعني : شركاً وكذباً ﴿ وَقَالُواْ أساطير الاولين اكتتبها ﴾ يعني : أباطيل اكتتبها ، أي كتبها من جبر ويسار يعني : أساطير الأولين .

(216/559)

﴿ فَهِيَ تملى عَلَيْهِ ﴾ يعني : تقرأ وتملى عليه ﴿ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ يعني : غدوة وعشية .

قوله عز وجل : ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد ﴿ أَنزَلَهُ ﴾ يعني : القرآن ﴿ الذى يَعْلَمُ السر فِى السموات والأرض ﴾ يعني : يعلم السِّرَّ والعلانية ، ومعناه : لو كان هذا القول من ذات نفسه لعلمه الله تعالى ، وإذا علمه عاقبه ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الاقاويل لأَخَذْنَا مِنْهُ باليمين ﴾ [الحاقة : 44 ، 45] ثم قال ﴿ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾ فكأنه يقول : ارجعوا وتوبوا ، فإنه كان غفوراً لمن تاب ، رحيماً بالمؤمنين .

قوله عز وجل : ﴿ وَقَالُواْ مَّالِ هذا الرسول يَأْكُلُ الطعام ﴾ مثل ما نأكل ﴿ وَيَمْشِى فِى الاسواق ﴾ يعني : يتردد في الطريق ﴿ لَوْلا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً ﴾ يعني : معيناً يخبره بما يراد به من الشر ﴿ أَوْ يلقى إِلَيْهِ كَنْزٌ ﴾ يعني : يعطى له كنز ﴿ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ ﴾ يعني : بستاناً ﴿ يَأْكُلُ مِنْهَا ﴾ أي وذلك أن كفار قريش اجتمعوا في بيت ، فبعثوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأتاهم ، فقال له العاص بن وائل السهمي وقريش معه : قد تعلم يا محمد أن لا بلاد أضيق من بلادنا ساحة ، ولا أقل أنهاراً ولا زرعاً ، ولا أشدَّ عيشاً ، فادع ربك أن يسير عنا هذه الجبال ، حتى يفسح لنا في بلادنا ، ثم يفجر لنا فيها أنهاراً ، حتى نعرف فضلك عند ذلك .

ونراك تمشي في الأسواق معنا تبتغي من سير العيش ، فاسأل ربك أن يجعل لك قصوراً أو جناناً ، وليبعث معك ملكاً يصدقك ، فنزل حكاية عن قولهم : ﴿ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ

مِنْهَا ﴾ قرأ حمزة والكسائي : نأكل بالنون ، وقرأ الباقون بالتاء .

﴿ وَقَالَ الظالمون إِن تَتَّبِعُونَ ﴾ يعني : ما تطيعون يا أصحاب محمد ﴿ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُورًا ﴾ يعني : مغلوب العقل .

(217/559)

ويقال : مسحوراً أي مخلوقاً ، لأن الذي يكون مخلوقاً يكون حياته بالمعالجة بالأكل والشرب ، فيسمى مسحوراً .

ويقال : مسحوراً أي سحر به .

قوله عز وجل : ﴿ انظر كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ الامثال ﴾ يعني : انظر يا محمد كيف وصفوا لك الأشباه إلى ماذا شبهك قومك بساحر وكاهن وكذاب ﴿ فَضَلُّواْ ﴾ عن الهدى ، ويقال ذهبت حيلتهم ، وأخطؤوا في المقالة .

﴿ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً ﴾ يعني : لا يجدون حيلة ، ولا حجة على ما قالوا لك ، ولا مخرجاً لأنه تناقض كلامهم ، حيث قالوا مرة : مجنون ، ومرة : ساحر .

ثم قال عز وجل : ﴿ تبارك ﴾ وتعالى ، وقد ذكرناه ﴿ الذى إِن شَاء جَعَلَ لَكَ خَيْراً مّن ذلك ﴾ يعني : خيراً مما يقول الكفار في الآخرة ﴿ جنات تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأنهار وَيَجْعَل

لَّكَ قُصُوراً ﴾ في الجنة ، ويقال في الدنيا إن شاء أعطاك .

وروى سفيان ، عن حبيب بن أبي ثابت قال : عن خيثمة قال : قيل للنبيِّ صلى الله عليه وسلم إن شئت أن نعطيك خزائن الأرض ومفاتحها ما لم نعط من قبلك أحداً ، ولا نعطي من بعدك أحداً ، ولا ينقص ذلك مما عند الله شيئاً وإن شئت جمعناها لك في الآخرة .

قال صلى الله عليه وسلم : "بَلْ اجْمَعُوها لِي في الآخِرَة" فنزل ﴿ تَبَارَكَ الذى إِن شَاء جَعَلَ لَكَ خَيْراً مّن ذلك ﴾ الآية قرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم في رواية أبي بكر (وَيَجْعَلُ) بضم اللام على معنى خبر الابتداء والباقون بالجزم لأنه جواب الشرط ثم قال عز وجل ﴿ بَلْ كَذَّبُواْ بالساعة ﴾ معناه ولكن كذبوا بالساعة يعني : بالقيامة ﴿ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بالساعة سَعِيراً ﴾ يعني : هيأنا لمن كذب بالقيامة وقوداً ، وهُوَ نار جهنم ﴿ إِذَا رَأَتْهُمْ ﴾ جهنم ﴿ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ يعني : من مسيرة خمسمائة عام .

ويقال : من مسيرة خمسمائة سنة ﴿ سَمِعُواْ لَهَا ﴾ يعني : منها ﴿ تَغَيُّظاً ﴾ على الكفار ﴿ وَزَفِيراً ﴾ يعني : صوتاً كصوت الحمار .

(218/559)

وقال قوم : معناه يسمعون منها تغيظ المعذبين وزفيرهم ، كما قال : ﴿ فَأَمَّا الذين شَقُواْ فَفِى النار لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴾ [هود : 106] وقال عامة المفسرين : التغيظ زفير يسمع من النار ، ألا ترى أنه قال : ﴿ سَمِعُواْ لَهَا ﴾ ، ولم يقل : سمعوا منها ، ولا فيها .

وقال في آية أخرى : ﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴾ [الملك : 8] وروي في الخبر " أن جهنم تزفر زفرة لا يبقى ملك مقرَّب ولا نبيٌّ مرسل إلا خرَّ على وجهه ترعد فرائصهم حتى إن إبراهيم الخليل عليه السلام ليجثو على ركبتيه ويقول : يا رب لا أسألك إلا نفسي " ثم قال عز وجل : ﴿ وَإِذَآ أُلْقُواْ مِنْهَا ﴾ يعني : فيها ﴿ مَكَاناً ضَيِّقاً ﴾ يعني : يضيق عليهم المكان كتضييق الزُّجِّ من الرُّمح ﴿ مُقْرِنِينَ ﴾ أي : مسلسلين في القيود ، موثقين في الحديد قرنوا مع الشياطين ﴿ دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُوراً ﴾ فعند ذلك دعوا بالويل ، يعني : يقولون : واهلاكاه ، فتقول لهم الخزنة ﴿ لاَّ تَدْعُواْ اليوم ثُبُوراً واحدا وادعوا ثُبُوراً كَثِيراً ﴾ يعني : ادعوا ويلاً كثيراً دائماً .

قال الله تعالى للنبي صلى الله عليه وسلم : ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد لكفار مكة ﴿ أذلك خَيْرٌ ﴾ يعني : هذا الذي وصف من العذاب خير ﴿ أَمْ جَنَّةُ الخلد ﴾ فإن قيل كيف يقال خير وليس في النار خير ؟ قيل له : قد يقال على وجه المجاز ، وإن لم يكن فيه خير ، والعاقبة تقول العاقبة خير من البلاء ، وإنما خاطبهم بما يتعارفون في كلامهم ﴿ التى وُعِدَ المتقون

﴿ يعني : الذين يتقون الشرك والكبائر .

﴿ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاء وَمَصِيراً ﴾ يعني : جزاء بأعمالهم الحسنة ومرجعاً إليها .

(219/559)

ثم قال عز وجل : ﴿ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءونَ ﴾ أي : يحبون ﴿ خالدين ﴾ أي : دائمين في الجنة ﴿ كَانَ على ربّكَ وَعْداً ﴾ منه في الدنيا ﴿ مَسْؤُولاً ﴾ يسأله المتقون .

ويقال ﴿ مَسْؤُولاً ﴾ يسأل لهم الملائكة عليهم السلام ، وهو قوله عز وجل : ﴿ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جنات عَدْنٍ التى وَعَدْتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وأزواجهم وذرياتهم إِنَّكَ أَنتَ العزيز الحكيم ﴾ [غافر : 8] ويقال : وعداً على لسان رسولهم ، وقد سألوا الله عز وجل ذلك ، وهو قوله : ﴿ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا على رُسُلِكَ ﴾ ويقال : وعداً لا خلف فيه لمن سأله .

قوله عز وجل : ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ ﴾ يعني : نجمعهم ﴿ وَمَا يَعْبُدُونَ ﴾ يعني : ونحشر ما يعبدون ﴿ مِن دُونِ الله ﴾ يعني : الأصنام .

ويقال المسيح وعزير .

ويقال : الملائكة عليهم السلام ﴿ فَيَقُولُ أَءَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ ﴾ يعني : أأنتم أمرتم ﴿ عِبَادِى

هَؤُلاَء ﴾ أن يعبدوكم ﴿ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السبيل ﴾ يعني : أم هم أخطؤوا الطريق ، فتبرأت الملائكة والأصنام .

قوله تعالى : ﴿ قَالُواْ سبحانك ﴾ أي : تنزيهاً لك ﴿ مَا كَانَ يَنبَغِى لَنَا ﴾ أي : ما يجوز لنا ﴿ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاء ﴾ وقرأ الحسن وأبو جعفر المدني أن ﴿ نَّتَّخِذَ ﴾ بضم النون ونصب الخاء ، ومعناه : ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك إلها فيعبد .

وقراءة العامة بنصب النون وكسر الخاء ، يعني : ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء فيعبدوننا .

ويقال : معناه ما كان فينا روح نأمرهم بطاعتنا .

(220/559)

ويقال : ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء فنعبدهم ، فكيف نأمر غيرنا بعبادتنا ، كقوله تعالى : ﴿ قَالُواْ سبحانك أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمْ بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ الجن أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾ [سبأ : 41] قرأ ابن كثير وعاصم في رواية حفص : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ ﴾ بالياء .

﴿ فَيَقُولُ ﴾ بالياء وقرأ ابن عامر كليهما بالنون .

وقرأ الباقون الأول بالنون والثاني بالياء .

ثم قال : ﴿ ولكن مَّتَّعْتَهُمْ وَءابَاءهُمْ ﴾ يعني : أن هذا كان بكرمك وفضلك ، حيث لما عصوك لم تمنع عنهم الدنيا حتى اغتروا بذلك ، وظنوا أنهم على الحق ، حيث لم يصبهم بلاء ولم تمنع منهم النعمة ، فذلك قوله تعالى : ﴿ ولكن مَّتَّعْتَهُمْ ﴾ يعني : تركتهم في الدنيا يتمتعون ، وأجلتهم وآباءهم في المتاع والسعة .

﴿ حتى نَسُواْ الذكر ﴾ يعني : تركوا التوحيد والإيمان بالقرآن .

﴿ وَكَانُواْ قَوْماً بُوراً ﴾ أي هلكى فاسدين .

وأصله الكساد يقال : بارت السوق إذا كسدت .

وقال الكلبي : بوراً يعني : هالكين ، فاسدة قلوبهم ، غير متقين ، ولا محسنين .

يقول الله تعالى لعبدة الأوثان ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ ﴾ يعني : الأصنام ، ويقال الملائكة ﴿ فَمَا يَسْتَطِيعُونَ صَرْفاً وَلاَ نَصْراً ﴾ يعني : لا يستطيع الكفار انصرافاً إلى غير حجتهم التي تكلموا بها .

ويقال : لا يستطيعون صرفاً ، أي : انصرافاً عن حجتهم ولا نصراً ، يعني : ولا ينتصرون من آلهتهم حين كذبتهم .

ويقال : لا يقدرون ، يعني : الأصنام ، ولا الملائكة صرف العذاب عنهم ﴿ وَلاَ نَصْراً ﴾ يعني : لا يمنعونهم منه .

ويقال : الصرف الحيلة .

ويقال : لا يقبل منهم فدية أن يصرفوا عن أنفسهم بالفدية .

قرأ عاصم في رواية حفص ﴿ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ ﴾ بالتاء على معنى المخاطبة ، يعني : يقال لهم : لا تستطيعون صرف ذلك .

(221/559)

وقرأ الباقون بالياء ، ومعناه أن الله تعالى يقول للنبي صلى الله عليه وسلم : فما يستطيعون صرف ذلك عنهم .

ثم قال تعالى : ﴿ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ ﴾ يعني : يشرك بالله في الدنيا .

ويقال : يكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن ﴿ نُذِقْهُ عَذَاباً كَبِيراً ﴾ في الآخرة ، وهو عذاب النار .

قوله عز وجل : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ المرسلين ﴾ جواباً لقولهم : ﴿ مالِ هذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطعام ﴾ ﴿ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطعام وَيَمْشُونَ فِى الاسواق ﴾ يعني : كانت الرسل من الآدميين ، ولم يكونوا من الملائكة عليهم السلام .

ثم قال : ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ﴾ يقول : ابتلينا بعضكم ببعض ، الفقير

بالغني ، والضعيف بالقوي ، وذلك أن الشريف إذا رأى الوضيع قد أسلم ، أنف عن الإسلام .

وقال : أأسلم ، فأكون مثل هذا ، فثبت على دينه حمية .

يقول الله تعالى للشريف : ﴿ أَتَصْبِرُونَ ﴾ أن تكونوا شرعاً ، سواء في الدين ﴿ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً ﴾ أي عالماً بمن يؤمن ، ومن لا يؤمن ، ويقال : ﴿ جَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً ﴾ يعني بلية الغني للفقير ، والقوي للضعيف ، لأن ضعفاء المسلمين وفقراءهم ، إذا رأوا الكفار في السعة والغنى ، يتأذون منهم ، وكان في ذلك بلية لهم ، فقال تعالى : ﴿ أَتَصْبِرُونَ ﴾ اللفظ لفظ الاستفهام ، والمراد به الأمر ، يعني : اصبروا كقوله : ﴿ أَفَلاَ يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [المائدة : 74] يعني : توبوا إلى الله .

ويقال : أهل النعم بلية لأهل الشدة ، لأن أهل الشدة إذا رأوا أهل النعمة تنغص عيشهم ، فأمرهم الله تعالى بالصبر .

وذكر عن بعض المتقدمين أنه كان إذا رأى غنياً من الأغنياء .

(222/559)

يقول : نصبر يا رب نصبر يا رب ، أراد جواباً لقوله تعالى : ﴿ أَتَصْبِرُونَ ﴾ ﴿ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً ﴾ يعني : عالماً بمن يصلح له الغنى والفقر ويقال : ﴿ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً ﴾ يعني : عالماً بثواب الصابرين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ 528.533 ﴾

(223/559)

وقال الثعلبى :

﴿ تَبَارَكَ ﴾

تفاعل ، من البركة ، عن ابن عباس ، كأنّ معناه : جاء بكل بركة ، دليله قول الحسن : تجيء البركة من قبله ، الضحّاك : تعظّم ، الخليل : تمجّد ، وأصل البركة النّماء والزيادة .

وقال المحققون : معنى هذه الصفة ثبتَ ودام بما لم يزل ولا يزال ، وأصل البركة الثبوت يقال : برك الطير على الماء وبرك البعير ، ويقال : تبارك الله ولا يقال لله متبارك أو مبارك لأنّه ينتهى في صفاته وأسمائه الى حيث ورد التوقيف .

﴿ الذي نَزَّلَ الفرقان ﴾ القرآن ﴿ على عَبْدِهِ ﴾ محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ ﴾ الجنّ والإنس ﴿ نَذِيراً ﴾ .

قال بعضهم : النذير هو القرآن ، وقيل : هو محمد .

﴿ الذي لَهُ مُلْكُ السماوات والأرض ولَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ ممّا يطلق له صفة المخلوق ﴿ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً ﴾ فسوّاه وهيّأه لما يصلح له ، فلا خلل فيه ولا تفاوت .

﴿ واتخذوا ﴾ يعني عبدة الأوثان ﴿ مِن دُونِهِ آلِهَةً لاَّ يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلاَ يَمْلِكُونَ لأَنْفُسِهِمْ ضَرّاً وَلاَ نَفْعاً وَلاَ يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلاَ حَيَاةً وَلاَ نُشُوراً * وَقَالَ الذين كفروا ﴾ يعني النضر بن الحرث واصحابه ﴿ إِنْ هذا ﴾ ما هذا القرآن ﴿ إِلاَّ إِفْكٌ افتراه ﴾ اختلقه محمد ﴿ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ ﴾ يعني اليهود عن مجاهد ، وقال الحسن بن عبيد بن الحضر : الحبشي الكاهن ، وقيل : جبر ويسار وعدّاس مولى حويطب بن عبد العزى ، قال الله سبحانه وتعالى ﴿ فَقَدْ جَآءُوا ﴾ يعني ما يلي هذه المقالة ﴿ ظُلْماً وَزُوراً ﴾ بنسبتهم كلام الله سبحانه الى الإفك والافتراء ﴿ وقالوا ﴾ أيضاً ﴿ أَسَاطِيرُ الأولين اكتتبها فَهِيَ تملى عَلَيْهِ ﴾ تُقرأ عليه ﴿ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ .

(224/559)

ثمَّ قال سبحانه وتعالى ردّاً عليهم وتكذيباً لهم ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ الذي يَعْلَمُ السر فِي السماوات والأرض إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً * وَقَالُواْ مَالِ هذا الرسول ﴾ يعنون محمّداً صلى الله عليه

وسلم ﴿ يَأْكُلُ الطعام ﴾ كما نأكل ﴿ وَيَمْشِي فِي الأسواق ﴾ يلتمس المعاش ﴿ لولا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ ﴾ يصدّقه ﴿ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً ﴾ داعياً ﴿ أَوْ يلقى إِلَيْهِ كَنْزٌ ﴾ ينفقه فلا يحتاج الى التصرّف في طلب المعاش . ﴿ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ ﴾ بستان ﴿ يَأْكُلُ مِنْهَا ﴾ هو ، هذه قراءة العامة ، وقرأ حمزة والكسائي وخلف بالنون أي نأكل نحن .

﴿ وَقَالَ الظالمون إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُوراً ﴾ نزلت هذه الآية في قصة ابن أبي أُميّة وقد مرّ ذكرها في بني إسرائيل .

﴿ انظر ﴾ يا محمد ﴿ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ الأمثال فَضَلُّواْ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً ﴾ إلى الهدى ومخرجاً من الضلالة فأخبر الله أنّهم متمسّكون بالجهل والضلال عادلون عن الرشد والصواب وهم مع ذلك كانوا مكلّفين بقبول الحق فثبت أنّ الاستطاعة التي بها الضلال غير الاستطاعة التي يحصل بها الهدى والإيمان .

﴿ تَبَارَكَ الذي إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْراً مِّن ذلك ﴾ أي ممّا قالوا ، عن مجاهد ، وروى عكرمة عن ابن عباس قال : يعني خيراً من المشي في الأسواق والتماس المعاش ، ثمّ بيّن ذلك الخير ما هو فقال سبحانه وتعالى ﴿ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار وَيَجْعَل لَّكَ قُصُوراً ﴾ أي بيوتاً مشيّدة ، وسُمّي قصراً لأنّه قُصر أي حُبس ومُنع من الوصول إليه .

واختلف القرّاء في قوله ﴿ وَيَجْعَل ﴾ فرفع لامه ابن كثير وابن عامر وعاصم برواية أبي بكر والمفضل ، وجزمهُ الآخرون على محلّ الجزاء في : قوله إن شاء جعل .

(أخبرنا) أبو عمرو أحمد بن أبي أحمد بن حمدون النيسابوري قال : أخبرنا عبد الله بن محمد بن يعقوب البخاري قال : حدّثنا محمد بن حميد بن فروة البخاري قال : حدّثنا أبو حذيفة إسحاق بن بشر البخاري قال : حدّثنا جويبر عن الضحاك عن ابن عباس قال : " لما عيّر المشركون رسول الله صلى الله عليه وسلم بالفاقة فقالوا : ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ، حزن النبي صلى الله عليه وسلم لذلك ونزل عليه جبرئيل من عند ربه معزّياً له فقال : السلام عليك يا رسول الله ، ربّ العزة يقرئك السلام ويقول لك : (وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلاّ أنّهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق) ويتّبعون المعاش في الدنيا .

قال : فبينما جبرئيل (عليه السلام) والنبي صلى الله عليه وسلم يتحدّثان إذ ذاب جبرئيل حتى صار مثل الهردة ، قيل : يا رسول الله وما الهردة ؟ قال : " العدسة " فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " يا جبرئيل مالك ذبت حتى صرت مثل الهردة ؟ قال : يا محمد فتح باب من أبواب السماء لم يكن فتح قبل ذلك ، فتحوّل الملك وأنّه إذا فُتح باب من السماء لم يكن فُتح قبل ذلك فتحوّل الملك ، إمّا ان يكون رحمة أو عذاباً وإنّي أخاف أن يعذب قومك

عند تعييرهم إياك بالفاقة ، فأقبل النبي صلى الله عليه وسلم وجبرئيل (عليه السلام) يبكيان إذ عاد جبرئيل فقال : يا محمد أبشر ، هذا رضوان خازن الجنة قد أتاك بالرضى من ربّك ، فأقبل رضوان حتى سلّم ، ثم قال : يا محمد ، ربّ العزة يقرئك السلام ومعه سفط من نور يتلألأ ويقول لك ربّك : هذه مفاتيح خزائن الدنيا مع ما لا ينتقص لك مما عندي في الآخرة مثل جناح بعوضة ، فنظر النبي صلى الله عليه وسلم إلى جبرئيل (عليه السلام) كالمستشير له فضرب جبرئيل بيده الأرض وقال : تواضع لله . فقال : " يا رضوان لا حاجة لي فيها ، الفقر أحبّ اليّ ، وأن أكون عبداً صابراً شكوراً " فقال رضوان : أصبت أصاب الله بك .

(226/559)

وجاء نداء من السماء فرفع جبرئيل رأسه فإذا السموات قد فتحت أبوابها الى العرش ، وأوحى الله سبحانه وتعالى الى جنة عدن أن تدلي غصناً من أغصانها عليه عذق عليه غرفة من زبرجدة خضراء لها سبعون ألف من ياقوتة حمراء ، فقال جبرئيل : يا محمد ارفع بصرك فرفع فرأى منازل الأنبياء وغرفهم وإذا منازله فوق منازل الأنبياء فضلاً له خاصة ومناد ينادي : أرضيت يا محمد ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم " رضيت ، فاجعل ما

اردت أن تعطيني في الدنيا ذخيرة عندك في الشفاعة يوم القيامة " " .

ويروون أنّ هذه الآية أنزلها رضوان (تبارك الذي ان شاء جعل لك خيراً من ذلك جنات تجري من تحتها الأنهار ويجعل لك قصوراً) .

﴿ بَلْ كَذَّبُواْ بالساعة وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بالساعة سَعِيراً * إِذَا رَأَتْهُمْ مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظاً ﴾ أي غلياناً وفوراناً كالغضبان إذا غلا صدره من الغضب ﴿ وَزَفِيرًا ﴾ ومعنى قوله : سمعوا لها تغيّظاً أي صوت التغيّظ من التلهّب والتوقّد ، وقال قطرب : التغيظ لا يُسمع وإنّما المعنى : رأوا لها تغيّظاً وسمعوا لها زفيراً . قال الشاعر :

ورأيت زوجك في الوغى . . . متقلّداً سيفاً ورمحا

أي حاملاً رمحاً .

أخبرني أبو عبد الله بن فنجويه قال : حدّثنا أبو بكر بن خرجة قال : حدّثنا أبو جعفر بن أبي شيبة قال : حدّثني عمي أبو بكر قال : حدّثنا محمد بن يزيد عن الأصبغ بن زيد الورّاق عن خالد بن كثير عن خالد بن دريك عن رجل من أصحاب رسول الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " مَن كذب عليّ متعمّداً فليتبوأ بين عينَي جهنم مقعداً فقال : يا رسول الله وهل لها من عينين ؟ قال : نعم ألم تسمع إلى قول الله سبحانه ﴿ إِذَا رَأَتْهُمْ مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً ﴾ " .

﴿ وَإِذَآ أُلْقُواْ مِنْهَا مَكَاناً ضَيِّقاً ﴾ قال ابن عباس : يضيق عليهم كما يضيق الزجّ في الرمح .

(227/559)

وأخبرني الحسين بن محمد بن الحسين الثقفي قال : حدّثنا الفضل بن الفضل الكندي قال : حدّثنا عبد الرَّحْمن بن أبي حاتم قال : قرئ على يونس بن عبد الأعلى قال : أخبرنا ابن وهب قال : أخبرني نافع عن يحيى بن أبي أسيد يرفع الحديث الى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنّه سئل عن قول الله سبحانه ﴿ وَإِذَآ أُلْقُواْ مِنْهَا مَكَاناً ضَيِّقاً ﴾ ﴿ مُّقَرَّنِينَ ﴾ قال : " والذي نفسي بيده إنّهم يستكرهون في النار كما يستكره الوتد في الحائط ، مقرّنين مصفّدين ، قد قرنت أيديهم إلى أعناقهم في الأغلال " . ومنه قيل للحبل قَرَنٌ ، وقيل : مع الشياطين في السلاسل والأغلال .

﴿ دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُوراً ﴾ ويلاً عن ابن عباس ، هلاكاً عن الضحّاك .

روى حمّاد عن علي بن زيد عن أنس بن مالك أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " أوّل من يُكسى حُلّة من النار إبليس فيضعها على حاجبيه ويسحبها من خلفه ، وذريته من خلفه وهو يقول : يا ثبوره وهم ينادون يا ثبورهم حتى يُصَفّوا على النار فيقال لهم ﴿ لاَّ

تَدْعُواْ اليوم ثُبُوراً وَاحِداً وادعوا ثُبُوراً كَثِيراً (*) قُلْ أذلك ﴾ الذي ذكرت من صفة النار وأهلها ﴿ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الخلد التي وُعِدَ المتقون كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيراً * لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَالِدِينَ كَانَ على رَبِّكَ وَعْداً مَّسْئُولاً ﴾ وذلك أنَّ المؤمنين سألوا ربّهم ذلك في الدنيا حين قالوا ﴿ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا على رُسُلِكَ ﴾ [آل عمران : 194] فقال الله سبحانه كان إعطاء الله المؤمنين جنة الخلد وعداً وعدهم على طاعته إيّاه في الدنيا ومسألتهم إيّاه ذلك . "

وقال بعض أهل العربية : يعني وعداً واجباً وذلك أنّ المسؤول واجب وإن لم يُسئل كالَّذين قال : ونظير ذلك قول : العرب لأُعطينّك ألفاً وعداً مسؤولاً بمعنى أنه واجب لك فتسأله .

(228/559)

وأخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا أبو علي بن حنش المقري قال : حدّثنا أبو القاسم بن الفضل المقري قال : حدّثنا علي بن الحسين قال : حدّثنا جعفر بن مسافر قال : حدّثنا يحيى بن حسان قال : حدّثنا رشد بن عمرو بن الحرث ، عن محمد بن كعب القرظي في قوله سبحانه وتعالى ﴿ كَانَ على رَبِّكَ وَعْداً مَّسْئُولاً ﴾ .

قال : الملائكة تسأل لهم ذلك قولهم ﴿ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ التي وَعَدْتَّهُمْ ﴾ [غافر

: 8] .

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ ﴾ بالياء أبو جعفر وابن كثير ويعقوب وأيوب وأبو عبيد وأبو حاتم وحفص ، والباقون بالنون ﴿ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ ﴾ من الملائكة والإنس والجنّ عن مجاهد ، وقال عكرمة والضحّاك : يعني الأصنام . ﴿ فَيَقُولُ ﴾ بالنون ابن عامر ، غيره : بالياء ، لهؤلاء المعبودين من دون الله ﴿ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلاَءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السبيل (*) قَالُواْ سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ ﴾ أي ما كان ينبغي لنا أن نوالي أعداءك بل أنت وليّنا من دونهم ، وقرأ الحسن وأبو جعفر : أن نُتَّخذ بضم النون وفتح الخاء .

قال أبو عبيد : هذا لا يجوز لأنَّ الله سبحانه ذكر (مِنْ) مرّتين ، ولو كان كما قالوا لقال : أن نتّخذ من دونك أولياء . وقال غيرهُ : (مِنْ) الثاني صِلة .

﴿ ولكن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَآءَهُمْ ﴾ في الدنيا بالصحة والنعمة ﴿ حتى نَسُواْ الذكر ﴾ أي تركوا القرآن فلم يعملوا بما فيه ، وقيل : الرسول ، وقيل : الإسلام ، وقيل : التوحيد ، وقيل : ذكر الله سبحانه وتعالى .

(229/559)

﴿ وَكَانُواْ قَوْماً بُوراً ﴾ أي هلكى قد غلب عليهم الشقاية والخذلان ، وقال الحسن وابن زيد : البور : الذي ليس فيه من الخير شيء ، قال أبو عبيد : وأصله من البوار وهو الكساد والفساد ومنه بوار الأيم وبوار السلعة ، وهو اسم مصدر كالزور يستوي فيه الواحد والاثنان والجمع والمؤنث والمذكر . قال ابن الزبعرى :

يا رسول المليك إنّ لساني . . . راتق ما فتقت إذ أنا بُور

وقيل : هو جمع البائر ، ويقال : أصبحت منازلهم بوراً أي خالية لا شيء فيها ، فيقول الله سبحانه لهم عند تبرّي المعبودين منهم ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ ﴾ أنّهم كانوا آلهة ﴿ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ ﴾ قرأه العامة بالياء يعني الآلهة ، وقرأ حفص بالتاء يعني العابدين ﴿ صَرْفاً وَلاَ نَصْراً ﴾ أي صرف العذاب عنهم ولا نصر أنفسهم .

وقال يونس : الصرف : الحيلة ومنه قول العرب : إنه ليتصرف أي يحتال .

وقال الأصمعي : الصرف : التوبة والعدل : الفدية .

﴿ وَمَن يَظْلِم ﴾ أي يشرك ﴿ مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَاباً كَبِيراً * وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ ﴾ يا محمد ﴿ مِنَ المرسلين إِلاَّ إِنَّهُمْ ﴾ قال أهل المعاني : إلاّ قيل أنّهم ﴿ لَيَأْكُلُونَ الطعام وَيَمْشُونَ فِي الأسواق ﴾ دليله قوله سبحانه

﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ﴾ [فصلت : 43] وقيل : معناه إلاّ من أنّهم

، وهذا جواب لقول المشركين ﴿ مَالِ هذا الرسول يَأْكُلُ الطعام وَيَمْشِي فِي الأسواق ﴾ [الفرقان : 7] .

(230/559)

﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً ﴾ فالمريض فتنة للصحيح ، والمبتلى فتنة للمعافى ، والفقير فتنة للغني ، فيقول السقيم : لو شاء الله لجعلني صحيحاً مثل فلان ، ويقول الفقير : لو شاء الله لجعلني غنيّاً مثل فلان ، وقال ابن عباس : إنّي جعلت بعضكم بلاءً لبعض لتصبروا على ما تسمعون منهم وترون من خلافهم وتتبعوا الهدى بغير أن أُعطيهم عليه الدنيا ، ولو شئت أن أجعل الدنيا مع رُسلي فلا يخالفون لفعلت ، ولكن قدّرت أن أبتلي العباد بكم وأبتليكم بهم .

أخبرنا أبو القاسم عبد الخالق بن علي قال : أخبرنا أبو بكر محمد بن يوسف ببخارى قال : أخبرنا أبو عبد الله محمد بن جمعان قال : حدّثنا محمد بن موسى قال : حدّثنا القاسم بن يحيى عن الحسن بن دينار عن الحسن عن أبي الدرداء أنّه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " ويل للعالم من الجاهل ، ويل للجاهل من العالم ، وويل للمالك من المملوك ، وويل للمملوك من المالك ، وويل للشديد من الضعيف ، وويل للضعيف من

الشديد ، وويل للسلطان من الرعية ، وويل للرعية من السلطان ، بعضهم لبعض فتنة فهو قوله سبحانه ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً ﴾ " .

﴿ أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً ﴾ قال مقاتل : نزلت هذه الآية في أبي جهل والوليد بن عقبة والعاص بن وائل والنضر بن الحرث وذلك أنّهم لما رأوا أبا ذر وابن مسعود وعمار وبلالا وصهيباً وعامر بن فهيرة ومهجع مولى عمر وجبر غلام ابن الحضرمي ودونهم قالوا : أُنسلم فنكون مثل هؤلاء فانزل الله سبحانه يخاطب هؤلاء المؤمنين ﴿ أَتَصْبِرُونَ ﴾ يعني على هذه الحال من الشدّة والفقر ، وكان ربك بصيراً بمن يصبر ويجزع ، وبمن يؤمن وبمن لا يؤمن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 7 صـ 122.128 ﴾

(231/559)

وقال الزمخشرى :

سورة الفرقان

مكية إلا الآيات 68 و69 و70 فمدنية وآياتها 77 [نزلت بعد يس] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الفرقان (25) : الآيات 1 إلى 2]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

تَبارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقانَ عَلى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعالَمِينَ نَذِيراً (1) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً (2)

البركة : كثرة الخير وزيادته . ومنها (تبارك اللّه) وفيه معنيان : تزايد خيره ، وتكاثر . أو تزايد عن كل شيء وتعالى عنه في صفاته وأفعاله . والفرقان : مصدر فرق بين الشيئين إذا فصل بينهما وسمى به القرآن لفصله بين الحق والباطل . أو لأنه لم ينزل جملة واحدة ولكنمفروقا ، مفصولا بين بعضه وبعض في الإنزال «1» . ألا ترى إلى قوله (و قرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا) وقد جاء الفرق بمعناه «2» . قال :

ومشركيّ كافر بالفرق

وعن ابن الزبير رضى اللّه عنه : على عباده ، وهم رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وأمّته ، كما قال (لقد أنزلنا إليكم) ، (قولوا آمنا باللّه وما أنزل إلينا) . والضمير فِي لِيَكُونَ لعبده أو للفرقان .

ويعضد رجوعه إلى الفرقان قراءة ابن الزبير لِلْعالَمِينَ للجنّ والإنس نَذِيراً منذرا أى مخوّفا أو إنذارا ، كالنكير بمعنى الإنكار . ومنه قوله تعالى (فكيف كان عذابى ونذر) ، الَّذِي لَهُ رفع على الإبدال من الذي نزل أو رفع على المدح . أو نصب عليه . فإن قلت :

---

(1) قال محمود : «يجوز أن يراد بوصفه بالفرقان تفريقه بين الحق والباطل ، ويجوز أن يراد

نزوله مفرقا شيئا فشيئا كما قال. وقرآنا فرقناه» قال أحمد: والأظهر هنا هو المعنى الثاني، لأن في أثناء السورة بعد آيات (وقالوا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة) قال اللّه تعالى (كذلك) أي أنزلناه مفرقا كذلك (لنثبت به فؤادك) فيكون وصفه بالفرقان في أول السورة - واللّه أعلم - كالمقدمة والتوطئة لما يأتي بعد.

(2) قوله «وقد جاء الفرق بمعناه» في الصحاح: والفرق أيضا: الفرقان. ونظيره: الخسر والخسران. قال الراجز: ومشركي... الخ. (ع)

(232/559)

كيف جاز الفصل بين البدل والمبدل منه؟ قلت: ما فصل بينهما بشيء، لأنّ المبدل منه صلته نزل. و(ليكون) تعليل له، فكأنّ المبدل منه لم يتمّ إلا به. فإن قلت: في الخلق معنى التقدير، فما معنى قوله وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً كأنه قال: وقدّر كل شيء فقدّره؟ قلت: المعنى أنه أحدث كل شيء إحداثا مراعى فيه التقدير والتسوية، فقدّره وهيأه لما يصلح له، مثاله: أنه خلق الإنسان على هذا الشكل المقدر المسوّى الذي تراه، فقدّره للتكاليف والمصالح المنوطة به في بابي الدين والدنيا، وكذلك كل حيوان وجماد جاء به على الجبلة المستوية المقدّرة بأمثلة الحكمة والتدبير، فقدّره لأمر مّا ومصلحة مطابقا لما

قدر له غير متجاف عنه . أو سمى إحداث اللّه خلقا لأنه لا يحدث شيئا لحكمته إلا على وجه التقدير من غير تفاوت ، فإذا قيل : خلق اللّه كذا فهو بمنزلة قولك : أحدث وأوجد من غير نظر إلى وجه الاشتقاق ، فكأنه قيل : وأوجد كل شيء فقدّره في إيجاده لم يوجده متفاوتا . وقيل ، فجعل له غاية ومنتهى . ومعناه : فقدّره للبقاء إلى أمد معلوم .

[سورة الفرقان (25) : آية 3]

وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلا نَفْعاً وَلا يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلا حَياةً وَلا نُشُوراً (3)

الخلق بمعنى الافتعال ، كما في قوله تعالى (إنما تعبدون من دون اللّه أوثانا وتخلقون إفكا) والمعنى : أنهم آثروا على عبادة اللّه سبحانه عبادة آلهة لا عجز أبين من عجزهم ، لا يقدرون على شيء من أفعال اللّه ولا من أفعال العباد ، حيث لا يفتعلون شيئا وهم يفتعلون ، لأن عبدتهم يصنعونهم بالنحت والتصوير وَلا يَمْلِكُونَ أى : لا يستطيعون لأنفسهم دفع ضرر عنها أو جلب نفع إليها وهم يستطيعون ، وإذا عجزوا عن الافتعال ودفع الضرر وجلب النفع التي يقدر عليها العباد كانوا عن الموت والحياة والنشور التي لا يقدر عليها إلا اللّه أعجز .

[سورة الفرقان (25) : آية 4]

وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذا إِلَّا إِفْكٌ افْتَراهُ وَأَعانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جاؤُ ظُلْماً وَزُوراً

(4)

قَوْمٌ آخَرُونَ قيل : هم اليهود . وقيل : عداس مولى حويطب بن عبد العزى ، ويسار مولى العلاء بن الحضرمي ، وأبو فكيهة الرومي : قال ذلك النضر بن الحرث بن عبد الدار .

«جاء» «وأتى» يستعملان في معنى فعل ، فيعديان تعديته ، وقد يكون على معنى : وردوا ظلما ، كما تقول : جئت المكان . ويجوز أن يحذف الجار ويوصل الفعل . وظلمهم : أن جعلوا العربي يتلقن

(233/559)

من العجمي الرومي كلاما عربيا أعجز بفصاحته جميع فصحاء العرب . والزور : أن بهتوه بنسبة ما هو بريّ منه إليه .

[سورة الفرقان (25) : آية 5]

وَقالُوا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَها فَهِيَ تُمْلى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (5)

أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ ما سطّره المتقدمون من نحو أحاديث رستم وإسفنديار ، جمع : أسطار أو أسطورة كأحدوثة اكْتَتَبَها كتبها لنفسه وأخذها ، كما تقول : استكب الماء واصطبه : إذا سكبه وصبه لنفسه وأخذه . وقرئ : أكتتبها . على البناء للمفعول . والمعنى : اكتتبها

كاتب له . لأنه كان أمّيا لا يكتب بيده ، وذلك من تمام إعجازه ، ثم حذفت اللام فأفضى الفعل إلى الضمير فصار اكتتبها إياه كاتب ، كقوله (واختار موسى قومه) ثم بنى الفعل للضمير الذي هو إياه فانقلب مرفوعا مستترا بعد أن كان بارزا منصوبا ، وبقي ضمير الأساطير على حاله ، فصار (اكتتبها) كما ترى . فإن قلت : كيف قيل : اكتتبها فَهِيَ تُمْلى عَلَيْهِ وإنما يقال : أمليت عليه فهو يكتتبها ؟ قلت : فيه وجهان . أحدهما : أراد اكتتابها أو طلبه فهي تملى عليه . أو كتبت له وهو أمىّ فهي تملى عليه : أى تلقى عليه من كتابه يتحفظها : لأن صورة الإلقاء على الحافظ كصورة الإلقاء على الكاتب . وعن الحسن : أنه قول اللّه سبحانه يكذبهم وإنما يستقيم أن لو فتحت الهمزة للاستفهام الذي في معنى الإنكار . ووجهه أن يكون نحو قوله :

أفرح أن أرزأ الكرام وأن أورث ذودا شصائصا نبلا «1»

وحق الحسن أن يقف على الأولين . بُكْرَةً وَأَصِيلًا أى دائما ، أو في الخفية قبل أن ينتشر الناس ، وحين يأوون إلى مساكنهم .

---

(1)

إن كنت أزننتني بها كذبا جزء فلاقيت بعدها عجلا

أفرح أن أرزأ الكرام وأن أورث ذودا شصائصا نبلا

لحضرمى بن عامر ، يخاطب جزء بن سنان بن مؤلة حين اتهمه بسروره بأخذ دية أخيه

القتيل ، وقيل : لجرير ، وليس بذاك . وجزء – بفتح فسكون – وإن هنا للشرط مجردا عن السك ، أو بمعنى إذ . وأزننتنى : أى تهمتنى بها :

أى بتلك الفعلة الرذيلة كذبا منك يا جزء ، فهو منادى ، فلاقيت أنت بعدها عجلا : دعاء عليه بأن ينال مثلها سريعا ، وينظر هل يفرح أو يحزن ؟ وروى : فلاقيت مثلها عجلا . أفرح ، أى : أأفرح بأن أرزأ الكرام وأصاب فيهم ، فحذفت همزة الاستفهام الإنكاري أو التعجبي على فرض الوقوع لدلالة المقام عليها ، وليصور الكلام بصورة الاخبار والإثبات ، فيظهر للخصم قبح دعواه . وأرزأ : مبنى للمجهول ، وكذلك أورث ، أى : أعطى ذودا : أى قطيعا من الإبل بعد موتهم . والذود : ما بين الثلاثة إلى العشرة ، مؤنث لا واحد له من لفظه ، عبر به عن الدية كلها استقلالا وتحقيرا لها . ولذلك وصفه بشصائصا : جمع شصوص ، وهي الناقة القليلة اللبن . وصرفه للوزن . والنبل – كسبب – : جمع نبيل . ويروى بالضم ، فهو جمع نبيل أيضا ، ككرم وكريم . أو جمع نبلة ، كغرف وغرفة :

أي الصغار ؟ ؟ ؟ أو النجائب فهو من الأضداد ، لكن الأول أوفق بالمقام . ويجوز أن الدية كانت عشرة .

(234/559)

[سورة الفرقان (25) : آية 6]

قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كانَ غَفُوراً رَحِيماً (6)

أى يعلم كل سرّ خفىّ في السموات والأرض. ومن جملته ما تسرونه أنتم من الكيد لرسوله صلى اللّه عليه وسلم مع علمكم أنّ ما تقولونه باطل وزور، وكذلك باطن أمر رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وبراءته مما تبهتونه به، وهو يجازيكم ويجازيه على ما علم منكم وعلم منه. فإن قلت:

كيف طابق قوله إِنَّهُ كانَ غَفُوراً رَحِيماً هذا المعنى؟ قلت: لما كان ما تقدّمه في معنى الوعيد عقبه بما يدل على القدرة عليه، لأنه لا يوصف بالمغفرة والرحمة إلا القادر على العقوبة. أو هو تنبيه على أنهم استوجبوا بمكابرتهم هذه أن يصب عليهم العذاب صبّا، ولكن صرف ذلك عنهم إنه غفور رحيم: يمهل ولا يعاجل.

[سورة الفرقان (25) : الآيات 7 إلى 8]

وَقالُوا مالِ هذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْواقِ لَوْلا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً (7) أَوْ يُلْقى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْها وَقالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلاً مَسْحُوراً (8)

وقعت اللام في المصحف مفصولة عن هذا خارجة عن أوضاع الخط العربي. وخط المصحف سنة لا تغير. وفي هذا استهانة وتصغير لشأنه وتسميته بالرسول سخرية منهم

وطنز «1» ، كأنهم قالوا : ما لهذا الزاعم أنه رسول . ونحوه قول فرعون (إنّ رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون) أى : إنّ صحّ أنه رسول اللّه فما باله حاله مثل حالنا يَأْكُلُ الطَّعامَ كما نأكل ، ويتردد في الأسواق لطلب المعاش كما نتردد ، يعنون أنه كان يجب أن يكون ملكا مستغنيا عن الأكل والتعيش . ثم نزلوا عن اقتراحهم أن يكون ملكا إلى . اقتراح أن يكون إنسانا معه ملك ، حتى يتساندا في الإنذار والتخويف . ثم نزلوا أيضا فقالوا : وإن لم يكن مرفودا بملك ، فليكن مرفودا بكنز يلقى إليه من السماء يستظهر به ولا يحتاج إلى تحصيل المعاش . ثم نزلوا فاقتنعوا بأن يكون رجلا له بستان يأكل منه ويرتزق كما الدهاقين والمياسير . أو يأكلون هم من ذلك البستان فينتفعون به في دنياهم ومعاشهم . وأراد بالظالمين : إياهم بأعيانهم : وضع الظاهر موضع المضمر ليسجل عليهم بالظلم فيما قالوا . وقرئ : فيكون ، بالرفع . أو يكون له جنة ، بالياء ، ونأكل ، بالنون . فإن قلت : ما وجها الرفع والنصب في فيكون ؟ قلت : النصب لأنه جواب «لولا» بمعنى «هلا» وحكمه حكم الاستفهام . والرفع على أنه معطوف على أنزل ، ومحله الرفع . ألا تراك

---

(1) قوله «و طنز» في الصحاح «الطنز» : السخرية . (ع) [. . . . .]

تقول : لولا ينزل بالرفع ، وقد عطف عليه : يلقى ، وتكون مرفوعين ، ولا يجوز النصب فيهما لأنهما في حكم الواقع بعد لولا ، ولا يكون إلا مرفوعا . والقائلون هم كفار قريش النضر بن الحرث ، وعبد اللّه بن أبى أمية ، ونوفل بن خويلد ومن ضامهم مَسْحُوراً سحر فغلب على عقله . أو ذا سحر ، وهو الرئة : عنوا أنه بشر لا ملك .

[سورة الفرقان (25) : آية 9]

انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً (9)

ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثالَ أى : قالوا فيك تلك الأقوال واخترعوا لك تلك الصفات والأحوال النادرة ، من نبوّة مشتركة بين إنسان وملك . وإلقاء كنز عليك من السماء وغير ذلك ، فبقوا متحيرين ضلالا ، لا يجدون قولا يستقرّون عليه . أو فضلوا عن الحق فلا يجدون طريقا إليه .

[سورة الفرقان (25) : آية 10]

تَبارَكَ الَّذِي إِنْ شاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْراً مِنْ ذلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُوراً (10)

تكاثر خير الَّذِي إِنْ شاءَ وهب لك في الدنيا خَيْراً مما قالوا ، وهو أن يعجل لك مثل ما وعدك في الآخرة من الجنات والقصور . وقرئ : ويجعل ، بالرفع عطفا على جعل : لأن الشرط إذا وقع ماضيا ، جاز في جزائه الجزم والرفع ، كقوله :

وإن أتاه خليل يوم مسألة يقول لا غائب مالى ولا حرم «1»

ويجوز في (ويجعل لك) إذا أدغمت: أن تكون اللام في تقدير الجزم والرفع جميعا. وقرئ بالنصب، على أنه جواب الشرط بالواو.

[سورة الفرقان (25): الآيات 11 إلى 14]

بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيراً (11) إِذا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَها تَغَيُّظاً وَزَفِيراً (12) وَإِذا أُلْقُوا مِنْها مَكاناً ضَيِّقاً مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنالِكَ ثُبُوراً (13) لا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُوراً واحِداً وَادْعُوا ثُبُوراً كَثِيراً (14)

بَلْ كَذَّبُوا عطف على ما حكى عنهم. يقول: بل أتوا بأعجب من ذلك كله وهو تكذيبهم

---

(1) تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة 537 فراجعه إن شئت اه مصححه.

بالساعة. ويجوز أن يتصل بما يليه، كأنه قال: بل كذبوا بالساعة، فكيف يلتفتون إلى هذا الجواب، وكيف يصدقون بتعجيل مثل ما وعدك في الآخرة وهم لا يؤمنون بالآخرة. السعير:

النار الشديدة الاستعار. وعن الحسن رضى اللّه عنه: أنه اسم من أسماء جهنم رَأَتْهُمْ من

قولهم : دورهم تترا «1» ، أى : وتتناظر . ومن قوله صلى اللّه عليه وسلم «لا تراءى ناراهما» «2» كأن بعضها يرى بعضها على سبيل المجاز . والمعنى : إذا كانت منهم بمرأى الناظر في البعد سمعوا صوت غليانها . وشبه ذلك بصوت المتغيظ والزافر . ويجوز أن يراد : إذا رأتهم زبانيتها تغيظوا وزفروا غضبا على الكفار وشهوة للانتقام منهم . الكرب مع الضيق ، كما أن الروح مع السعة ، ولذلك وصف اللّه الجنة بأن عرضها السماوات والأرض . وجاء في الأحاديث : أن لكل مؤمن من القصور والجنان كذا وكذا ، ولقد جمع اللّه على أهل النار أنواع التضييق والإرهاق ، حيث ألقاهم في مكان ضيق يتراصون فيه تراصا ، كما روى عن ابن عباس رضى اللّه عنهما في تفسيره أنه يضيق عليهم كما يضيق الزج في الرمح ، وهم مع ذلك الضيق مسلسلون مقرنون في السلاسل :

قرنت أيديهم إلى أعناقهم في الجوامع . وقيل : يقرن مع كل كافر شيطانه في سلسلة وفي أرجلهم الأصفاد . والثبور : الهلاك . ودعاؤه أن يقال : وا ثبوراه ، أى : تعال يا ثبور فهذا حينك وزمانك لا تَدْعُوا أى يقال لهم ذلك : أو هم أحقاء بأن يقال لهم ، وإن لم يكن ثمة قول ومعنى وَادْعُوا ثُبُوراً كَثِيراً أنكم وقعتم فيما ليس ثبوركم فيه واحدا ، إنما هو ثبور كثير ، إما لأن العذاب أنواع وألوان كل نوع منها ثبور لشدته وفظاعته . أو لأنهم كلما نضجت جلودهم بدلوا غيرها ، فلا غاية لهلاكهم

[سورة الفرقان (25) : الآيات 15 إلى 16]

قُلْ أَذِلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيراً (15) لَهُمْ فِيها ما يَشاؤُنَ خالِدِينَ كانَ عَلى رَبِّكَ وَعْداً مَسْؤُلاً (16)

الراجع إلى الموصولين محذوف ، يعنى : وعدها المتقون وما يشاءونه . وإنما قيل : كانت ، لأن ما وعده اللّه وحده فهو في تحققه كأنه قد كان . أو كان مكتوبا في اللوح قبل أن برأهم بأزمنة

---

(1) . قال محمود : «هو من قولهم : دور بنى فلان تترا ، أى على المجاز» قال أحمد : لا حاجة إلى حمله على المجاز فان رؤية جهنم جائزة ، وقدرة اللّه تعالى صالحة ، وقد تظافرت الظواهر على وقوع هذا الجائز ، وعلى أن اللّه تعالى يخلق لها إدراكا حسيا وعقليا . ألا ترى إلى قوله سَمِعُوا لَها تَغَيُّظاً وإلى محاجتها مع الجنة ، وإلى قولها هَلْ مِنْ مَزِيدٍ وإلى اشتكائها إلى ربها فأذن لها في نفسين ، إلى غير ذلك من الظواهر التي لا سبيل إلى تأويلها ، إذ لا محوج إليه . ولو فتح باب التأويل والمجاز في أحوال المعاد ، لتطوح الذي يسلك ذلك إلى وادى الضلالة والتحير إلى فرق الفلاسفة ، فالحق أنا متعبدون بالظاهر ما لم يمنع مانع ، واللّه أعلم .

(2) . تقدم في المائدة .

متطاولة : أن الجنة جزاؤهم ومصيرهم . فإن قلت : ما معنى قوله كانَتْ لَهُمْ جَزاءً وَمَصِيراً ؟

قلت : هو كقوله : نِعْمَ الثَّوابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقاً فمدح الثواب ومكانه ، كما قال : بِئْسَ الشَّرابُ وَساءَتْ مُرْتَفَقاً فذم العقاب ومكانه لأنّ النعيم لا يتم للمتنعم إلا بطيب المكان وسعته وموافقته للمراد والشهوة ، وأن لا تنغص ، وكذلك العقاب يتضاعف بغثاثة الموضع «1» وضيقه وظلمته وجمعه لأسباب الاجتواء والكراهة ، فلذلك ذكر المصير مع ذكر الجزاء . والضمير في كانَ لما يشاءون . والوعد : الموعود ، أى : كان ذلك موعودا واجبا على ربك إنجازه ، حقيقا أن يسئل ويطلب ، لأنه جزاء وأجر مستحق وقيل : قد سأله الناس والملائكة في دعواتهم :

رَبَّنا وَآتِنا ما وَعَدْتَنا عَلى رُسُلِكَ ، رَبَّنا آتِنا فِي الدُّنْيا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً ، رَبَّنا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ .

[سورة الفرقان (25) : الآيات 17 إلى 18]

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَما يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبادِي هؤُلاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ (17) قالُوا سُبْحانَكَ ما كانَ يَنْبَغِي لَنا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِياءَ وَلكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآباءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكانُوا قَوْماً بُوراً (18)

يحشرهم . فيقول . كلاهما بالنون والياء ، وقرئ : يحشرهم ، بكسر الشين وَما يَعْبُدُونَ يريد : المعبودين من الملائكة والمسيح وعزير . وعن الكلبي : الأصنام ينطقها اللّه . ويجوز أن يكون عاما لهم جميعا . فإن قلت : كيف صحّ استعمال ما في العقلاء ؟ قلت : هو موضوع على العموم للعقلاء وغيرهم ، بدليل قولك – إذا رأيت شبحا من بعيد – : ما هو ؟ فإذا قيل لك : إنسان ، قلت حينئذ : من هو ؟ ويدلك قولهم «من» لما يعقل . أو أريد به الوصف ، كأنه قيل : ومعبوديهم .

ألا تراك تقول إذا أردت السؤال عن صفة زيد : ما زيد ؟ تعنى : أطويل أم قصير ؟ أفقيه أم طبيب ؟ فإن قلت : ما فائدة أنتم وهم ؟ وهلا قيل أضللتم عبادي هؤلاء ، أم هم «2» ضلوا السبيل ؟

قلت . ليس السؤال عن الفعل ووجوده ، لأنه لولا وجوده لما توجه هذا العتاب ، وإنما هو عن متوليه ، فلا بد من ذكره وإيلائه حرف الاستفهام ، حتى يعلم أنه المسئول عنه . فإن قلت :

فاللّه سبحانه قد سبق علمه بالمسؤول عنه ، فما فائدة هذا السؤال ؟ قلت : فائدته أن يجيبوا بما

---

(1) . قوله «بغثاثة الموضع» أى فساده ورداءته . والاجتواء : كراهة المقام بالمكان .

أفاده الصحاح. (ع)

(2) . قوله «أم هم ضلوا» لعله أم ضلوا ، كعبارة النسفي . (ع)

(238/559)

أجابوا به ، حتى يبكت عبدتهم بتكذيبهم إياهم ، فيبهتوا «1» وينخذلوا وتزيد حسرتهم ، ويكون ذلك نوعا مما يلحقهم من غضب اللّه وعذابه ، ويغتبط المؤمنون ويفرحوا بحالهم ونجاتهم من فضيحة أولئك ، وليكون حكاية ذلك في القرآن لطفا للمكلفين . وفيه كسر بين لقول من يزعم «2» أن اللّه يضل عباده على الحقيقة «3» ، حيث يقول للمعبودين من دونه : أأنتم أضللتموهم ، أم هم ضلوا بأنفسهم ؟ فيتبرءون من إضلالهم ويستعيذون به أن يكونوا مضلين ، ويقولون : بل أنت تفضلت من غير سابقة على هؤلاء وآبائهم تفضل جواد كريم ، فجعلوا النعمة التي حقها أن تكون

---

(1) . قوله «فيبهتوا» يدهشوا . أو يتحيروا . أفاده الصحاح (ع)

(2) . قوله «لقول من يزعم أن اللّه . . . الخ» يريد أهل السنة القائلين : إضلال اللّه لعباده خلق الضلال في قلوبهم ، خلافا للمعتزلة القائلين : أنه تعالى لا يخلق الشر ولا يريده . (ع)

(3) . قال محمود : «في هذه الآية كسر بين لمن يزعم أن اللّه تعالى يضل عباده حقيقة ،

حيث يقول للمعبودين من دونه : أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء ، أم هم ضلوا بأنفسهم ؟ فيتبرءون منهم ويستعيذون مما نسب إليهم ، ويقولون : بل تفضلك على هؤلاء أوجب أن جعلوا عرض الشكر كفرا ، فإذا برأت الملائكة والرسل أنفسهم من ذلك . فهم للّه أشد تبرئة وتنزيها منه ، ولقد نزهوه حيث أضافوا التفضل بالنعمة إلى اللّه تعالى ، وأسندوا الضلال الذي نشأ عنه إلى الضالين ، فهو شرح للاسناد المجازى في قوله يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ ولو كان مضلا حقيقة لكان الجواب العتيد أن يقولوا : بل أنت أضللتهم» قال أحمد : قد تقدم شرح عقيدة أهل الحق في هذا المعنى ، وأن الباعث لهم على اعتقاد كون الضلال من خلق اللّه تعالى : التزامهم للتوحيد المحض والايمان الصرف ، الذي دل على صحته بعد الأدلة العقلية قوله تعالى اللَّهُ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ والضلال شيء ، فوجب كونه خالقه : هذا من حيث العموم . وأما من حيث الخصوص ، فأمثال قوله تعالى يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ ، والأصل الحقيقة ، وقول موسى عليه السلام إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِها مَنْ تَشاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشاءُ فلو كان الإضلال مستحيلا على اللّه تعالى لما جاز أن يخاطبه الكليم بما لا يجوز ، فإذا أوضح ذلك فالملائكة لم يسئلوا في هذه الاية عن المضل لعبادهم حقيقة ، فيقال لهم : من أضل هؤلاء ، وإنما قيل لهم : أأنتم أضللتموهم ، أم هم ضلوا ؟ فليس الجواب المطابق العتيد أن يقولوا : أنت أضللتهم . ولو كان معتقدهم أن اللّه تعالى هو المضل حقيقة ، لكان قولهم في جواب هذا السؤال : بل أنت أضللتهم مجاوزة لمحل السؤال ومحله ، وإنما كان هذا

الجواب مطابقا لو قيل لهم : من أضل عبادي هؤلاء ؟ فقد وضح أن هذا السؤال لإيجاب عنه بما تخيله الزمخشري ، بتقدير أن يكون معتقدهم أن اللّه تعالى هو الذي أضلهم ، وأن عدو لهم عنه ليس لأنهم لا يعتقدونه ، ولكن لأنه لا يطابق ، وبقي وراء ذلك نظر في أن جوابهم هذا يدل على معتقدهم الموافق لأهل الحق ، لأن أهل الحق يعتقدون أن اللّه تعالى وإن خلق لهم الضلالة إلا أن لهم اختيارا فيها وتميزا لها ، ولم يكونوا عليها مقسورين كما هم مقسورون على أفعال كثيرة يخلقها اللّه فيهم كالحركات الرعشية ونحوها . وقد قدمنا في مواضع : أن كل فعل اختياري له نسبتان : إن نظر إلى كونه مخلوقا فهو منسوب إلى اللّه تعالى ، وإن نظر إلى كونه اختياريا للعبد فهو منسوب إلى العبد . وبذلك قطعت الملائكة في قولهم : بل متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر ، فنسبوا نسيان الذكر إليهم ، أي : الانهماك في الشهوات الذي نشأ عنه النسيان ، لأنهم اختاروه لأنفسهم ، فصدقت نسبته إليهم ، ونسبوا السبب الذي اقتضى نسيانهم وانهماكهم في الشهوات إلى اللّه تعالى : وهو استدراجهم ببسط النعم عليهم ، فيها ضلوا ، فلا تنافي بين معتقد أهل الحق وبين مضمون قول الملائكة حينئذ . بل هما متواطئان على أمر واحد ، واللّه أعلم .

(239/559)

سبب الشكر ، سبب الكفر ونسيان الذكر ، وكان ذلك سبب هلاكهم ، فإذا برأت الملائكة والرسل أنفسهم من نسبة الإضلال الذي هو عمل الشياطين إليهم واستعاذوا منه ، فهم لربهم الغنىّ العدل أشدّ تبرئة وتنزيها منه ، ولقد نزهوه حين أضافوا إليه التفضل بالنعمة والتمتيع بها ، وأسندوا نسيان الذكر والتسبب به للبوار إلى الكفرة . فشرحوا الإضلال المجازى الذي أسنده اللّه تعالى إلى ذاته في قوله يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ ولو كان هو المضل على الحقيقة لكان الجواب العتيد أن يقولوا : بل أنت أضللتهم . والمعنى : أأنتم أوقعتموهم في الضلال عن طريق الحق ؟ أم هم ضلوا عنه بأنفسهم ؟ وضل : مطاوع «أضله» وكان القياس : ضل عن السبيل ، إلا أنهم تركوا الجار كما تركوه في هداه الطريق . والأصل : إلى الطريق ، وللطريق . وقولهم : أضلّ البعير ، في معنى : جعله ضالا ، أى : ضائعا ، لما كان أكثر ذلك بتفريط من صاحبه وقلة احتياط في حفظه ، قيل : أضله ، سواء كان منه فعل أو لم يكن سُبْحانَكَ تعجب منهم ، قد تعجبوا مما قيل لهم لأنهم ملائكة وأنبياء معصومون ، فما أبعدهم عن الإضلال الذي هو مختص بإبليس وحزبه .

أو نطقوا بسبحانك ليدلوا على أنهم المسبحون المتقدّسون الموسومون بذلك ، فكيف يليق بحالهم أن يضلوا عباده . أو قصدوا به تنزيهه عن الأنداد ، وأن يكون له نبىّ أو ملك أو غيرهما ندّا ، ثم قالوا : ما كان يصحّ لنا ولا يستقيم ونحن معصومون أن نتولى أحدا دونك . فكيف يصحّ لنا أن نحمل غيرنا على أن يتولونا دونك . أو ما كان ينبغي لنا أن نكون أمثال

الشياطين في توليهم الكفار كما تولاهم الكفار . قال اللّه تعالى فَقاتِلُوا أَوْلِياءَ الشَّيْطانِ يريد الكفرة وقال وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِياؤُهُمُ الطَّاغُوتُ وقرأ أبو جعفر المدني : نتخذ ، على البناء للمفعول . وهذا الفعل أعنى «اتخذ» يتعدى إلى مفعول واحد ، كقولك : اتخذ وليا ، وإلى مفعولين كقولك اتخذ فلانا وليا . قال اللّه تعالى أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ وقال وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْراهِيمَ خَلِيلًا فالقراءة الأولى من المتعدي إلى واحد وهو مِنْ أَوْلِياءَ والأصل : أن نتخذ أولياء ، فزيدت مِنْ لتأكيد معنى النفي ، والثانية من المتعدي إلى مفعولين . فالأول ما بنى له الفعل . والثاني : مِنْ أَوْلِياءَ . ومن للتبعيض ، أى : لا نتخذ بعض أولياء . وتنكير أَوْلِياءَ من حيث أنهم أولياء مخصوصون وهم الجن والأصنام والذكر : ذكر اللّه والإيمان به . أو القرآن والشرائع . والبور : الهلاك ، يوصف به الواحد والجمع . ويجوز أن يكون جمع بائر ، كعائذ وعوذ .

[سورة الفرقان (25) : آية 19]

فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِما تَقُولُونَ فَما تَسْتَطِيعُونَ صَرْفاً وَلا نَصْراً وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذاباً كَبِيراً (19)

هذه المفاجأة «1» بالاحتجاج والإلزام حسنة رائعة وخاصة إذا انضم إليها الالتفات وحذف القول ونحوها قوله تعالى يا أَهْلَ الْكِتابِ قَدْ جاءَكُمْ رَسُولُنا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا ما جاءَنا مِنْ بَشِيرٍ وَلا نَذِيرٍ فَقَدْ جاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وقول القائل :

قالوا خراسان أقصى ما يراد بنا ثمّ القفول فقد جئنا خراسانا «2»

وقرئ : يقولون ، بالتاء والياء . فمعنى من قرأ بالتاء فقد كذبوكم بقولكم أنهم آلهة . ومعنى من قرأ بالياء : فقد كذبوكم بقولهم سُبْحانَكَ ما كانَ يَنْبَغِي لَنا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِياءَ :

فإن قلت : هل يختلف حكم الباء مع التاء والياء ؟ قلت إي والله ، هي مع التاء كقوله بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ والجار والمجرور بدل من الضمير ، كأنه قيل : فقد كذبوا بما تقولون : وهي مع الياء كقولك : كتبت بالقلم . وقرئ : يستطيعون ، بالتاء والياء أيضا . يعنى . فما تستطيعون أنتم يا كفار صرف العذاب عنكم . وقيل : الصرف : التوبة وقيل : الحيلة ، من قولهم : إنه ليتصرف ، أى . يحتال أو فما يستطيع آلهتكم أن يصرفوا عنكم العذاب . أو أن يحتالوا لكم .

الخطاب على العموم للمكلفين . والعذاب الكبير لاحق بكل من ظلم ، والكافر ظالم ، لقوله إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ والفاسق ظالم . لقوله وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ . وقرئ : يذقه ، بالياء . وفيه ضمير الله . أو ضمير مصدر يظلم .

[سورة الفرقان (25) : آية 20]

وَما أَرْسَلْنا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْواقِ وَجَعَلْنا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكانَ رَبُّكَ بَصِيراً (20)

الجملة بعد «إلا» صفة لموصوف محذوف. والمعنى: وما أرسلنا قبلك أحدا من المرسلين إلا آكلين وماشين. وإنما حذف اكتفاء بالجار والمجرور. أعنى من المرسلين ونحوه قوله عز من قائل: وَما مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقامٌ مَعْلُومٌ على معنى: وما منا أحد. وقرئ: ويمشون، على البناء للمفعول، أى: تمشيهم حوائجهم أو الناس. ولو قرئ: يمشون، لكان أوجه لولا الرواية. وقيل: هو احتجاج على من قال مالِ هذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْواقِ.

---

(1). قوله «هذه المفاجأة» أى: التي في قوله تعالى فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ. (ع)

(2). يقول: قالوا إن هذه البلدة أبعد ما يراد بنا وغاية السفر بنا، ثم يكون القفول أى الرجوع. ويجوز أنه عطف على خراسان. وقوله «فقد جئنا» مرتب على محذوف، أى: إن صدقوا في قولهم فقد جئنا خراسان، فلم نتخلص من السفر. ويجوز أنه عدل إلى الخطاب، أى: فقولوا لهم اقطعوا السفر بنا وارجعوا. فقد جئنا الموعد، لكن ليس ذلك التفاتا.

فِتْنَةً أي محنة وابتلاء . وهذا تصبير لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم على ما قالوه واستبدعوه ، من أكله الطعام ومشيه في الأسواق بعد ما احتج عليهم بسائر الرسل ، يقول : وجرت عادتي وموجب حكمتي على ابتلاء بعضكم أيها الناس ببعض . والمعنى : أنه ابتلى المرسلين بالمرسل إليهم ، وبمناصبتهم لهم العداوة ، وأقاويلهم الخارجة عن حدّ الإنصاف ، وأنواع أذاهم ، وطلب منهم الصبر الجميل ، ونحوه وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذىً كَثِيراً وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ وموقع أَتَصْبِرُونَ بعد ذكر الفتنة موقع أَيُّكُمْ بعد الابتلاء في قوله لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا . بَصِيراً عالما بالصواب فيما يبتلى به وغيره فلا يضيقنّ صدرك ، ولا يستخفنك أقاويلهم فإن في صبرك عليها سعادتك وفوزك في الدارين . وقيل : هو تسلية له عما عيروه به من الفقر ، حين قالوا :

أو يلقى إليه كنز ، أو تكون له جنة . وأنه جعل الأغنياء فتنه للفقراء لينظر : هل يصبرون ؟ وأنها حكمته ومشيئته : يغنى من يشاء ويفقر من يشاء . وقيل : جعلناك فتنة لهم ، لأنك لو كنت غنيا صاحب كنوز وجنان لكان ميلهم إليك وطاعتهم لك للدنيا ، أو ممزوجة بالدنيا

، فإنما بعثناك فقيرا ليكون طاعة من يطيعك خالصة لوجه اللّه من غير طمع دنيوى . وقيل : كان أبو جهل والوليد بن المغيرة والعاصي بن وائل ومن في طبقتهم يقولون : إن أسلمنا وقد أسلم قبلنا عمار وصهيب وبلال وفلان وفلان ترفعوا علينا إدلالا بالسابقة ، فهو افتتان بعضهم ببعض . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشاف حـ 3 صـ 262.272 ﴾

(242/559)

وقال ابن جزى :

﴿ تَبَارَكَ ﴾

من البركة وهو فعل مختص بالله تعالى لم ينطق بالمضارع ﴿ على عَبْدِهِ ﴾ يعني محمدً صلى الله عليه وآله وسلم ، وذلك على وجه التشريف له والاختصاص ﴿ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً ﴾ الضمير لمحمد صلى الله عليه وسلم أو للقرآن ، والأول أظهر وقوله " للعالمين " عموم يشمل الجن والإنس ممن كان في عصره ، ومن يأتي بعده إلى يوم القيامة ، وتضمن صدر هذه الآية إثبات النبوة والتوحيد ، والردّ على من خالف في ذلك ﴿ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً ﴾ الخلق عبارة عن الإيجاد بعد العدم ، والتقدير : عبارة عن إتقان الصنعة ، وتخصيص كل مخلوق بمقداره ، وصفته وزمانه ومكانه ، ومصلحته ، وأجله ، وغير ذلك ﴿ واتخذوا ﴾

الضمير لقريش وغيرهم ممن أشرك بالله تعالى ﴿ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ ﴾ يعنون قوماً من اليهود منهم : عداس ويسار وأبو فكيهة الرومي ﴿ فَقَدْ جَآءُوا ظُلْماً وَزُوراً ﴾ أي ظلموا النبي صلى الله عليه وسلم فما نسبوا إليه وكذبوا في ذلك عليه .

﴿ وقالوا أَسَاطِيرُ الأولين ﴾ أي ما سطره الأولون في كتبهم ، وكان الذي يقول هذه المقالة النضر بن الحارث ﴿ اكتتبها ﴾ أي كتبها له كاتب ، ثم صارت تملي عليه ليحفظها ، وهذا حكاية كلام الكفار ، وقال الحسن : إنها من قول الله على وجه الردّ عليهم ، ولو كان ذلك لقال أكتتبها بفتح الهمزة لمعنى الإنكار ، وقد يجوز حذف الهمزة في مثل هذا ، وينبغي على قول الحسن أن يوقف على أساطير الأولين .

(243/559)

﴿ قُلْ أَنزَلَهُ الذي يَعْلَمُ السر ﴾ ردّ على الكفار في قولهم ويعني بالسر : ما أسرّه الكفار من أقوالهم ، أو يكون ذلك على وجه التنصل والبراءة مما نسبه الكفار إليه من الافتراء ، أي أن الله يعلم سري فهو العالم بأني ما افتريت عليه ، بل هو أنزله عليّ ، فإن قيل : ما مناسبة قوله : ﴿ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾ لما قبله ؟ فالجواب أنه لما ذكر أقوال الكفار : أعقبها بذلك ، لبيان أنه غفور رحيم في كونه لم يعجل عليهم بالعقوبة بل أمهلهم ، وإن أسلموا تاب عليهم

وغفر لهم .

﴿ وَقَالُواْ مَالِ هذا الرسول يَأْكُلُ الطعام ﴾ الآية : قال هذا الكلام قريش طعناً على النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد رد الله عليهم بقوله ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ المرسلين إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطعام وَيَمْشُونَ فِي الأسواق ﴾ [الفرقان : 20] وقولهم ﴿ هذا الرسول ﴾ على وجه آلهتكم كقوله فرعون : ﴿ إِنَّ رَسُولَكُمُ الذي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ ﴾ [الشعراء : 27] أو يعنون الرسول بزعمه ، ثم ذكر ما اقترحوا من الأمور في قولهم : ﴿ لولا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ ﴾ وما بعده ، ثم وصفهم بالظلم ، وقد ذكرنا معنى مسحوراً في [الإسراء : 47] سبحان ﴿ ضَرَبُواْ لَكَ الأمثال ﴾ أي قالوا فيك تلك الأقوال ﴿ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً ﴾ أي لا يقدرون على الوصول إلى الحق لبعدهم عنه وإفراط جهلهم ﴿ خَيْراً مِّن ذلك ﴾ الإشارة إلى ما ذكره الكفار من الكنز والجنة في الدنيا ﴿ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار ﴾ يعني جنات الآخرة وقصورها وما قيل : يعني جنات ، وقصوراً في الدنيا ، ولذلك قال : إن شاء .

(244/559)

﴿ إِذَا رَأَتْهُمْ ﴾ أي إذا رأتهم جهنم وهذه الرؤية يحتمل أن تكون حقيقة أو مجازاً بمعنى : صارت منهم بقدر ما يرى على البعد ﴿ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً ﴾ التغيظ لا يسمع وإنما المسموع أصوات دالة عليه ، ففي لفظه تجوز ، والزفير أول صوت الحمار .

﴿ مَكَاناً ضَيِّقاً ﴾ تضيق عليهم زيادة في عذابهم ﴿ مُّقَرَّنِينَ ﴾ أي مربوط بعضهم إلى بعض ، وروي أن ذلك بسلاسل من النار ﴿ دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُوراً ﴾ الثبور : الويل وقيل : الهلاك ، ومعنى دعائهم ثبورا : أنهم يقولون يا ثبوارة كقول القائل : واحسرتاه وا أسفاه ﴿ لاَّ تَدْعُواْ اليوم ثُبُوراً وَاحِداً ﴾ تقديره : يقال لهم ذلك أو يكون حالهم يقتضي ذلك ، وإن لم يكن ثم قول ، وإنما دعوا ثبوراً كثيراً لأن عذابهم دائم ، فالثبور يتجدد عليهم في كل حين .

(245/559)

﴿ قُلْ أَذلك خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الخلد ﴾ إنما جاز هنا التفضيل بين الجنة والنار ، لأن الكلام سؤال وتوبيخ ، وإنما يمنع التفضيل بين شيئين ، ليس بينهما اشتراك في المعنى إذ كان الكلام خبراً ﴿ وَعْداً مَّسْئُولاً ﴾ أي سأله المؤمنين أو الملائكة في قولهم : وأدخلهم جنات عدن ، وقيل : معناه وعداً واجب الوقوع ، لأنه حتمه ﴿ فَيَقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلاَءِ ﴾ القائل لذلك هو الله عز وجل ، والمخاطب هم المعبودون مع الله على العموم ، وقيل :

الأصنام خاصة ، والأول أرجح لقوله : ﴿ ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴾ [سبأ : 40] وقوله : ﴿ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتخذوني وَأُمِّيَ إِلهين مِن دُونِ الله ﴾ [المائدة : 119] ﴿ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السبيل ﴾ أم هنا معادلة لما قبلها ، والمعنى أن الله يقول يوم القيامة للمعبودين : ﴿ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا ﴾ من تلقاء أنفسهم باختيارهم ولم تضلوهم أنتم ؟ ولأجل ذلك بين هذا المعنى بقوله : ﴿ هُمْ ﴾ ليتحقق إسناد الضلال إليهم ، فإنما سألهم الله هذا السؤال مع علمه بالأمور ليوبخ الكفار الذين عبدوهم .

﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ ﴾ القائلون لهذا هم المعبودون : قالوه على وجه التبري ممن عبدهم كقولهم : أنت ولينا من دونهم ، والمراد بذلك توبيخ الكفار يومئذ ، وإقامة الحجة عليهم ﴿ ولكن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ ﴾ معناه إن إمتاعهم بالنعم في الدنيا كان سبب نسيانهم لذكر الله وعبادته ﴿ قَوْماً بُوراً ﴾ أي هالكين ، وهو من البوار وهو الهلاك ، واختلف هل هو جمع بائر ؟ أو مصدر وصف به ولذلك يقع على الواحد والجماعة .

﴿ فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ ﴾ هذا خطاب خاطب الله به المشركين يوم القيامة أي : قد كذبكم آلهتكم التي عبدتم من دون الله ، وتبرؤوا منكم . وقيل : هو خطاب للمعبودين : أي كذبوكم في هذه المقالة لما عبدوكم في الدنيا ، وقيل : هو خطاب للمسلمين : أي قد كذبكم الكفار فيما تقولونه من التوحيد والشريعة ، وقرىء بما يقولون بالياء من أسفل ، والباء في قوله : ﴿ بِمَا تَقُولُونَ ﴾ على القراءة بالتاء بدل من الضمير في ﴿ كَذَّبُوكُمْ ﴾ ، وعلى القراءة بالياء كقولك : كتبت بالقلم ، أو كذبوكم بقولهم ﴿ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفاً وَلاَ نَصْراً ﴾ قرىء فيما تستطيعون بالتاء فوق ، ويحتمل على هذا أن يكون الخطاب للمشركين أو للمعبودين ؛ والصرف على هذين الوجيهن صرف العذاب عنهم ، أو يكون الخطاب للمسلمين والصرف على هذا رد التكذيب ، وقرىء بالياء وهو مسند إلى المعبودين أو إلى المشركين والصرف صرف العذاب ﴿ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ ﴾ خطاب للكفار وقيل : للمؤمنين وقيل : على العموم .

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ المرسلين ﴾ تقديره : وما أرسلنا رسلاً أو رجالاً قبلك ، وعلى هذا المفعول المحذوف يعود الضمير في قوله : ﴿ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطعام ﴾ ، وهذه الآية ردّ على الكفار في استعبادهم بعث رسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً ﴾ هذا خطاب لجميع الناس لاختلاف أحوالهم ، فالغني فتنة للفقير ،

والصحيح فتنة للمريض ، والرسول فتنة لغيره ممن يحسده ويكفر به ﴿ أَتَصْبِرُونَ ﴾ تقديره لننظر هل تبصرون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التسهيل حـ 3 صـ 74 . 77 ﴾

(247/559)

وقال الخازن :

قوله عزّ وجلّ ﴿ تبارك ﴾

تفاعل من البركة قيل : معناه جاء لكل بركة وخير وقيل معناه تعظيم ﴿ الذي نزل الفرقان ﴾ أي القرآن سماه فرقاناً لأنه فرق بين الحق ، والباطل والحلال والحرام وقيل لأنه نزل مفرقاً في أوقات كثيرة ولهذا قال نزل بالتشديد لتكثير التفريق ﴿ على عبده ﴾ يعني محمداً (صلى الله عليه وسلم) ﴿ ليكن للعالمين ﴾ أي للإنس والجن ﴿ نذيراً ﴾ قيل هو القرآن وقيل النذير هو محمد (صلى الله عليه وسلم) ﴿ الذي له ملك السموات والأرض ﴾ أي هو المتصرف فيهما كيف يشاء ﴿ ولم يتخذ ولداً ﴾ أي هو الفرد في وحدانيته ، وفيه رد على النصارى ﴿ ولم يكن له شريك في الملك ﴾ يعني هو المنفرد بالإلهية ، وفيه رد على الثنوية وعباد الأصنام ﴿ وخلق كل شيء ﴾ مما تطلق عليه صفة المخلوق ﴿ فقدره

تقديراً ﴾ أي سواه هيأه لما يصلح له لا خلل فيه ولا تفاوت ، وقيل : قدر كل شيء تقديراً من الأجل والرزق فجرت المقادير على ما خلق .

(248/559)

قوله تعالى : ﴿ واتخذوا ﴾ يعني عبدة الأوثان ﴿ من دونه آلهة ﴾ يعني الأصنام ﴿ لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ﴾ يعني دفع ضر ولا جر نفع ﴿ ولا يملكون موتاً ﴾ أي إماتة ﴿ ولا حياة ﴾ أي إحياء ﴿ ولا نشوراً ﴾ أي بعثاً بعد الموت ﴿ وقال الذين كفروا ﴾ يعني النصر بن الحارث وأصحابه ﴿ إن هذا ﴾ أي ما هذا القرآن ﴿ إلا إفك ﴾ أي كذب ﴿ افتراه ﴾ أي اختلقه محمد (صلى الله عليه وسلم) ﴿ وأعانه عليه قوم آخرين ﴾ قيل : هم اليهود وقيل عبيد بن الخضر الحبشي الكاهن ، وقيل جبر ويسار وعداس بن عبيد كانوا بمكة من أهل الكتاب ، فزعم المشركون أن محمداً (صلى الله عليه وسلم) يأخذ منهم قال الله تعالى ﴿ فقد جاؤوا ﴾ يعني قائلي هذه المقالة ﴿ ظلماً وزوراً ﴾ أي بظلم وزور ، وهو تسميتهم كلام الله بالإفك والافتراء ﴿ وقالوا أساطير الأولين اكتتبها ﴾ يعني النضر بن الحارث كان يقول : إن هذا القرآن ليس من الله وإنما هو مما سطره الأولون مثل حديث رستم واسفنديار ومعنى اكتتبها انتسخها

محمد (صلى الله عليه وسلم) من جبر ويسار وعداس وطلب أن تكتب له لأنه كان لا يكتب ﴿ فهي تملى عليه ﴾ أي تقرأ عليه ليحفظها لأنه لا يكتب ﴿ بكرة وأصيلاً ﴾ يعني غدوة وعشية قال الله تعالى رداً عليهم ﴿ قل ﴾ يا محمد ﴿ أنزله ﴾ يعني القرآن ﴿ الذي يعلم السر ﴾ أي الغيب ﴿ في السموات والأرض إنه كان غفوراً رحيماً ﴾ أي لولا ذلك لعاجلهم بعذابه ﴿ وقالوا مال هذا الرسول ﴾ يعنون محمداً (صلى الله عليه وسلم) ﴿ يأكل الطعام ﴾ أي كما نأكل نحن ﴿ ويمشي في الأسواق ﴾ أي يلتمس المعاش كما نمشي نحن وإذا كان كذلك فمن أين له الفضل علينا ، ولا يجوز أن يمتاز عنا بالنبوة وكانوا يقولون له لست بملك لأنك بشر مثلنا ، والملك لا يأكل ولا يملك لأن الملك لا يتسوق وأنت تتسوق وتبتذل وما قالوه فاسد لأن أكله الطعام لكونه آدمياً ، ولم يدع أنه ملك ومشيه في الأسواق

(249/559)

لتواضعه وكان ذلك صفته في التوراة ولم يكن سخاباً في الأسواق وليس شيء من ذلك ينافي النبوة ولأنه لم يدع أنه ملك من الملوك ﴿ لولا أنزل إليه ملك ﴾ أي يصدقه ويشهد له ﴿ فيكون معه نذيراً ﴾ أي داعياً ﴿ أو يلقى إليه كنز ﴾ أي ينزل عليه كنز من السماء ينفقه

فلا يحتاج إلى التصرف في طلب المعاش ﴿ أو تكون له جنة ﴾ يعني بستان ﴿ يأكل منها ﴾ أي هو فلا أقل من ذلك إن لم يكن له كنز ﴿ وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً ﴾ يعني مخدوعاً وقيل مصروفاً عن الحق .

﴿ انظر ﴾ يا محمد ﴿ كيف ضربوا لك الأمثال ﴾ أي الأشباه التي لا فائدة لها فقالوا مسحور محتاج ﴿ فضلوا ﴾ أي عن الحق ﴿ فلا يستطيعون سبيلاً ﴾ إلى الهدى ومخرجاً عن الضلالة .

قوله تعالى ﴿ تبارك الذي إن شاء جعل لك خيراً من ذلك ﴾ أي من الذي قالوا : وأفضل من البستان الذي ذكروا وقال ابن عباس يعني خيراً من المشي في الأسواق والتماس المعاش ثم بين ذلك الخير فقال ﴿ جنات تجري من تحتها الأنهار ويجعل لك قصوراً ﴾ أي بيوتاً مشيدة عن أبي أمامة أن النبيّ (صلى الله عليه وسلم) قال " عرض عليَّ ربي ليجعل لي بطحاء مكة ذهباً قلت لا يا رب ولكن أشبع يوماً وأجوع يوماً أو قال ثلاثاً أو نحو هذا ، فإذا جعت تضرعت إليك وذكرتك وإذا شبعت حمدتك وشكرتك " عن عائشة قالت : " قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : لو شئت لسارت معي جبال مكة ذهباً جاءني ملك إن حجزته لتساوي الكعبة فقال يا محمد إن ربك يقرئك السلام ويقول : إن شئت نبياً عبداً وإن شئت نبياً ملكاً فنظرت إلى جبريل فأشار إلي أن ضع نفسك ، فقلت : نبياً عبداً

قالت فكان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بعد ذلك لا يأكل متكئاً يقول : أنا عبد آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد " ذكر هذين الحديثين البغوي بسنده .

(250/559)

قوله تعالى : ﴿ بل كذبوه بالساعة ﴾ أي القيامة ﴿ وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيراً ﴾ أي ناراً مسعرة ﴿ إذا رأتهم من مكان بعيد ﴾ قيل : من مسيرة عام وقيل من مسيرة مائة عام .

فإن قلت : كيف تتصور الرؤية من النار وهو قوله إذا رأتهم .

قلت يجوز أن يخلق الله لها حياة وعقلاً ورؤية وقيل : معناه رأتهم زبانيتها ﴿ سمعوا لها تغيظاً ﴾ أي غلياناً كالغضبان إذا غلى صدره من الغضب ﴿ وزفيراً ﴾ أي صوتاً فإن قلت كيف يسمع التغليظ .

قلت : رأوا وعلموا لها تغيظاً وسمعوا لها زفيراً كما قال الشاعر :

ورأيت زوجك في الوغى . . .

متقلداً سيفاً ورمحاً

أي وحاملاً رمحاً ، وقيل : سمعوا لها صوت التغيظ من التلهب والتوقد ، وقال عبيد بن

عمير : تزفر جهنم يوم القيامة زفرة فلا يبقى ملك مقرب ، ولا نبي مرسل إلا خر لوجهه ﴿ وإذا ألقوا منها مكاناً ضيقاً ﴾ قال ابن عباس تضيق عليه كما يضيق الزج في الرمح ﴿ مقرنين ﴾ أي مصفودين قد قرنت أيديهم إلى أعناقهم في الأغلال ، وقيل : مقرنين مع الشياطين في السلاسل ﴿ دعوا هنالك ثبوراً ﴾ قال ابن عباس : ويلاً وقيل هلاكاً وفي الحديث " إن أول من يكسى حلة من النار إبليس ، فيضعها على حاجبيه ويسحبها من خلفه وذريته من خلفه وهو يقول يا ثبوراه وهم ينادون يا ثبورهم حتى يقفوا على النار فينادي يا ثبوراه وهم ينادون يا ثبورهم فيقال لهم ﴿ لا تدعوا اليوم ثبوراً واحداً وادعوا ثبوراً كثيراً ﴾ "

هكذا ذكره البغوي بغير سند ، وقيل معناه هلاككم أكثر من أن تدعوا مرة واحدة فادعوا أدعية كثيرة .

قوله ﴿ قل أذلك خير ﴾ أي الذي ذكرت منه صفة النار وأهلها ﴿ أم جنة الخلد التي وعد المتقون كانت لهم جزاءً ومصيراً ﴾ أي ثواباً ومرجعاً لهم قال تعالى ﴿ لهم فيها ما يشاؤون ﴾ أي أن جميع المرادات لا تحصل إلا في الجنة ، لا في غيرها .

(251/559)

فإن قلت : قد يشتهي الإنسان شيئاً ، وهو لا يحصل في الجنة كأن يشتهي الولد ونحوه وليس هو في الجنة قلت إنّ الله يزيل ذلك الخاطر عن أهل الجنة ، بل كان واحد من أهل الجنة مشتغل بما هو فيه من اللذات الشاغلة عن الالتفات إلى غيره ﴿ خالدين ﴾ أي في نعيم الجنة ومن تمام النعيم أن يكون دائماً ، إذ لو انقطع لكان مشوباً بضرب من الغم وأنشد في المعنى :

أشد الغم عندي في سرور . . .

تيقن عنه صاحبه انتقالا

﴿ كان على ربك وعداً مسؤولاً ﴾ أي مطلوباً ، وذلك أن المؤمنين سألوا ربهم في الدنيا حين قالوا ﴿ ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة ﴾ وقالوا ﴿ ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ﴾ يقول كان إعطاء الله المؤمنين جنة وعداً ، وعدهم على طاعتهم إياه في الدنيا ومسألتهم إياه ذلك الوعد وقيل الطلبة من الملائكة للمؤمنين وذلك قولهم ﴿ ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ﴾ قوله تعالى ﴿ ويوم نحشر وما يعبدون من دون الله ﴾ يعني من الملائكة والإنس والجن مثل عيسى والعزير ، وقيل يعني الأصنام ثم يخاطبهم ﴿ فيقول أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء أم هم ضلوا السبيل ﴾ أي أخطؤوا الطريق .

﴿ قالوا ﴾ يعني المعبودين ﴿ سبحانك ﴾ نزهوا الله سبحانه وتعالى من أن يكون معه آلهة ﴿ ما ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ﴾ يعني ما كان ينبغي لنا أن نوالي أعداءك ، بل أنت ولينا من دونهم وقيل معناه ، ما كان لنا أن نأمرهم بعبادتنا ونحن نعبدك ونحن عبيدك ﴿ ولكن متعتهم وآباءهم ﴾ أي بطول العمر والصحة والنعمة في الدنيا ﴿ حتى نسوا الذكر ﴾ معناه تركوا المواعظ والإيمان بالقرآن وقيل تركوا ذكرك وغفلوا عنه ﴿ وكانوا قوماً بوراً ﴾ معناه هلكى أي غلب عليهم الشقاء والخذلان ﴿ فقد كذبوكم ﴾ هذا خطاب مع المشركين أي كذبكم المعبودون ﴿ بما تقولون ﴾ يعني أنهم آلهة ﴿ فما يستطيعون ﴾ أي الآلهة ﴿ صرفاً ﴾ أي صرف العذاب عن أنفسهم ﴿ ولا نصراً ﴾ يعني ولا نصر أنفسهم وقيل لا ينصرونكم أيها العابدون بدفع العذاب عنكم ﴿ ومن يظلم منكم ﴾ يعني يشرك ﴿ نذقه عذاباً كبيراً ﴾ .

(253/559)

قوله ﴿ وما أرسلنا قبلك ﴾ أي يا محمد ﴿ من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق ﴾ قال ابن عباس : لما عير المشركون رسول الله (صلى الله عليه وسلم)

وقالوا ﴿ ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ﴾ أنزل الله تعالى على هذه الآية والمعنى أن هذه عادة مستمرة من الله تعالى على رسله فلا وجه لهذا الطعن ﴿ وما أنا إلا رسول ﴾ ﴿ وما كنت بدعاً من الرسل ﴾ وهم كانوا بشراً مثلي ، يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق ﴿ وجعلنا بعضكم لبعض فتنة ﴾ أي بلية قال ابن عباس أي جعلنا بعضكم بلاء بعض ، لتصبروا على ما تسمعون منهم وترون من خلافهم وتتبعوا أنتم الهدى ، قيل : نزلت في ابتلاء الشريف بالوضيع وذلك أن الشريف إذا أراد أن يسلم رأى الوضيع ، قد أسلم قبله فأنف وقال : أسلم بعده فيكون له السابقة والفضل علي فيقيم على كفره ويمتنع من الإسلام فذلك افتتان بعضهم ببعض وقيل : نزلت في أبي جهل والوليد بن عقبة والعاص بن وائل السهمي والنضر بن الحارث وذلك أنهم رأوا أبا ذر وابن مسعود وعمار بن ياسر وبلالاً ، وصهيباً وعامر بن فهيرة وذويهم ، قد أسلموا قبلهم فقالوا : نسلم فنكون مثل هؤلاء وقيل : نزلت في ابتلاء فقراء المسلمين بالمستهزئين من قريش كانوا يقولون : انظروا إلى هؤلاء الذين تبعوا محمداً (صلى الله عليه وسلم) من موالينا وأراذلنا فقال الله تعالى لهؤلاء المؤمنين ﴿ أتصبرون ﴾ أي على هذه الحالة من الفقر والشدة والأذى وقيل إن الغني فتنة الفقير يقول ما لي لم أكل مثله والصحيح فتنة المريض والشريف فتنة الوضيع ﴿ وكان ربك بصيراً ﴾ أي بمن صبر وبمن جزع (ق) عن أبي هريرة يبلغ به النبيّ (صلى الله عليه وسلم)

قال : " إذا نظر أحدكم إلى من فضل عليه بالمال والجسم فلينظر إلى من هو دونه في المال والجسم "

(254/559)

لفظ البخاري ولمسلم " انظروا إلى من هو أسفل منكم ، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم فهو أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 5 صـ 93 . 97 ﴾

(255/559)

وقال النسفى :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ تبارك ﴾ تفاعل من البركة وهي كثرة الخير وزيادته ، ومعنى تبارك الله تزايد خيره وتكاثر أو تزايد عن كل شيء وتعالى عنه في صفاته وأفعاله ، وهي كلمة تعظيم لم تستعمل إلا لله وحده والمستعمل منه الماضي فحسب ﴿ الذى نَزَّلَ الفرقان ﴾ هو مصدر فرق بين

الشيئين إذا فصل بينهما ، وسمي به القرآن لفصله بين الحق والباطل والحلال والحرام ، أو لأنه لم ينزل جملة ولكن مفرقاً مفصولاً بين بعضه وبعض في الإنزال ألا ترى إلى قوله : ﴿ وَقُرْءاناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى الناس على مُكْثٍ ونزلناه تَنْزِيلاً ﴾ [الإسراء : 106] ﴿ على عَبْدِهِ ﴾ محمد عليه الصلاة والسلام ﴿ لِيَكُونَ ﴾ العبد أو الفرقان ﴿ للعالمين ﴾ للجن والإنس وعموم الرسالة من خصائصه عليه الصلاة والسلام ﴿ نَذِيراً ﴾ منذراً أي مخوفاً أو إنذاراً كالنكير بمعنى الإنكار ومنه قوله تعالى ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴾ [القمر : 18] ﴿ الذى ﴾ رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أو على الإبدال من ﴿ الذي نزل ﴾ وجوز الفصل بين البدل والمبدل منه بقوله ﴿ ليكون ﴾ لأن المبدل منه صلته ﴿ نزل ﴾ وليكون تعليل له فكأن المبدل منه لم يتم إلا به أو نصب على المدح ﴿ لَّهُ مُلْكُ السماوات والأرض ﴾ على الخلوص ﴿ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً ﴾ كما زعم اليهود والنصارى في عزير والمسيح عليهما السلام ﴿ وَلَم يَكُنْ لَّهُ شَرِيكٌ فِى الملك ﴾ كما زعمت الثنوية ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ أي أحدث كل شيء وحده لا كما يقوله المجوس والثنوية من النور والظلمة ويزدان واهرمن .

ولا شبهة فيه لمن يقول إن الله شيء ويقول بخلق القرآن ، لأن الفاعل بجميع صفاته لا يكون مفعولاً له على أن لفظ شيء اختلص بما يصح أن يخلق بقرينة وخلق ، وهذا أوضح دليل لنا على المعتزلة في خلق أفعال العباد ﴿ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً ﴾ فهيأه لما يصلح له بلا خلل فيه كما أنه خلق الإنسان على هذا الشكل الذي تراه فقدره للتكاليف والمصالح المنوطة به في الدين والدنيا أو قدره للبقاء إلى أمد معلوم .

﴿ واتخذوا ﴾ الضمير للكافرين لاندراجهم تحت العالمين أو لدلالة ﴿ نذيراً ﴾ عليهم لأنهم المنذرون ﴿ مِن دُونِهِ ءَالِهَةً ﴾ أي الأصنام ﴿ لاَ يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ أي أنهم آثروا على عبادة من هو منفرد بالألوهية والملك والخلق والتقدير عبادة عجزة لا يقدرون على خلق شيء وهم يخلقون ﴿ وَلاَ يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ ضَرّاً وَلاَ نَفْعاً ﴾ ولا يستطيعون لأنفسهم دفع ضرر عنها ولا جلب نفع إليها ﴿ وَلاَ يَمْلِكُونَ مَوْتاً ﴾ إماتة ﴿ ولا حياة ﴾ أي إحياء ﴿ وَلاَ نُشُوراً ﴾ إحياء بعد الموت وجعلها كالعقلاء لزعم عابديها ﴿ وَقَالَ الذين كَفَرُواْ إِنْ هذا ﴾ ما هذا القرآن ﴿ إِلاَّ إِفْكٌ ﴾ كذب ﴿ افتراه ﴾ اختلقه واخترعه محمد من عند نفسه ﴿ وَأَعَانَهُ عليه قَوْمٌ آخَرُونَ ﴾ أي اليهود وعداس ويسار وأبو فكيهة الرومي قاله النضر بن الحارث ﴿ فَقَدْ جَاءوا ظُلْماً وَزُوراً ﴾ هذا إخبار من الله رد للكفرة فيرجع الضمير إلى الكفار وجاء يستعمل في معنى فعل فيعدى تعديتها ، أو حذف الجار وأوصل الفعل أي بظلم وزور .

وظلمهم أن جعلوا العربي يتلقن من العجمي الرومي كلاماً عربياً أعجز بفصاحته جميع فصحاء العرب ، والزور أن بهتوه بنسبة ما هو بريء منه إليه .

(257/559)

﴿ وَقَالُواْ أساطير الأولين ﴾ أي هو أحاديث المتقدمين وما سطروه كرستم وغيره جمع أسطار وأسطورة كأحدوثة ﴿ اكتتبها ﴾ كتبها لنفسه ﴿ فَهِيَ تملى عَلَيْهِ ﴾ أي تلقى عليه من كتابه ﴿ بُكْرَةً ﴾ أول النهار ﴿ وَأَصِيلاً ﴾ آخره فيحفظ ما يملى عليه ثم يتلوه علينا .

﴿ قُلْ ﴾ يا محمد ﴿ أَنزَلَهُ ﴾ أي القرآن ﴿ الذى يَعْلَمُ السر فِى السماوات والأرض ﴾ أي يعلم كل سر خفي في السماوات والأرض ، يعني أن القرآن لما اشتمل على علم الغيوب التي يستحيل عادة أن يعلمها محمد عليه الصلاة والسلام من غير تعليم ، دل ذلك على أنه من عند علام الغيوب ﴿ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾ فيمهلهم ولا يعاجلهم بالعقوبة وإن استوجبوها بمكابرتهم ﴿ وَقَالُواْ مَّالِ هذا الرسول ﴾ وقعت اللام في المصحف مفصولة عن الهاء وخط المصحف سنة لا تغير ، وتسميتهم إياه بالرسول سخرية منهم كأنهم قالوا : أي شيء لهذا الزاعم إنه رسول ﴿ يَأْكُلُ الطعام وَيَمْشِى فِى الأسواق ﴾ حال والعامل فيها

"هذا" ﴿ لَوْلا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ﴾ أي إن صح أنه رسول الله فما باله يأكل الطعام كما نأكل ويتردد في الأسواق لطلب المعاش كما تردد يعنون أنه كان يجب أن يكون ملكاً مستغنياً عن الأكل والتعيش ، ثم نزلوا عن ذلك الاقتراح إلى أن يكون إنساناً معه ملك حتى يتساندا في الإنذار والتخويف ، ثم نزلوا إلى أن يكون مرفوداً بكنز يلقى إليه من السماء يستظهر به ولا يحتاج إلى تحصيل المعاش ، ثم نزلوا إلى أن يكون رجلاً له بستان يأكل هو منه كالمياسير أو نأكل نحن كقراءة علي وحمزة . وحسن عطف المضارع وهو ﴿ يُلْقِى ﴾ و ﴿ تَكُونُ ﴾ على ﴿ أُنزِلَ ﴾ وهو ماض لدخول المضارع وهو ﴿ فَيَكُونُ ﴾ بينهما وانتصب ﴿ فَيَكُونُ ﴾ على القراءة المشهورة لأنه جواب ﴿ لَوْلاَ ﴾ بمعنى "هلا" وحكمه حكم الاستفهام .

(258/559)

وأراد بالظالمين في قوله ﴿ وَقَالَ الظالمون ﴾ إياهم بأعيانهم غير أنه وضع الظاهر موضع المضمر تسجيلاً عليهم بالظلم فيما قالوا وهم كفار قريش ﴿ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُورًا ﴾ سحر فجن أو ذا سحر وهو الرئة عنوا أنه بشر لا ملك

﴿ انظر كَيْفَ ضَرَبُواْ ﴾ بينوا ﴿ لَكَ الأمثال ﴾ الأشباه أي قالوا فيك تلك الأقوال

واخترعوا لك تلك الصفات والأحوال من المفتري والمملي عليه والمسحور ﴿ فَضَلُّواْ ﴾ عن الحق ﴿ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً ﴾ فلا يجدون طريقاً إليه .

﴿ تَبَارَكَ الذى إِن شَاء جَعَلَ لَكَ خَيْراً مِّن ذلك جنات تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار وَيَجْعَل لَّكَ قُصُوراً ﴾ أي تكاثر خير الذي إن شاء وهب لك في الدنيا خيراً مما قالوا ، وهو أن يعجل لك مثل ما وعدك في الآخرة من الجنات والقصور .

و﴿ جنات ﴾ بدل من ﴿ خيرا ﴾ ، ﴿ ويجعل ﴾ بالرفع : مكي وشامي وأبو بكر لأن الشرط إذا وقع ماضياً جاز في جزائه الجزم والرفع ﴿ بَلْ كَذَّبُواْ بالساعة ﴾ عطف على ما حكى عنهم يقول : بل أتوا بأعجب من ذلك كله وهو تكذيبهم بالساعة ، أو متصل بما يليه كأنه قال : بل كذبوا بالساعة فكيف يلتفتون إلى هذا الجواب وكيف يصدقون بتعجيل مثل ما وعدك في الآخرة وهم لا يؤمنون بها ؟ ﴿ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بالساعة سَعِيراً ﴾ وهيأنا للمكذبين بها ناراً شديدة في الاستعار .

﴿ إِذَا رَأَتْهُمْ ﴾ أي النار أي قابلتهم ﴿ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ أي إذا كانت منهم بمرأى الناظرين في البعد ﴿ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً ﴾ أي سمعوا صوت غليانها وشبه ذلك بصوت المتغيظ والزافر ، أو إذا رأتهم زبانيتها تغيظوا وزفروا غضباً على الكفار .

﴿ وإِذَا أُلْقُواْ مِنْهَا ﴾ من النار ﴿ مَكَاناً ضَيِّقاً ﴾ ﴿ ضيقاً ﴾ مكي فإن الكرب مع الضيق كما أن الروح مع السعة ولذا وصفت الجنة بأن عرضها السماوات والأرض .

وعن ابن عباس رضي الله عنها أنه يضيق عليهم كما يضيق الزج في الرمح ﴿ مُقْرِنِينَ ﴾ أي وهم مع ذلك الضيق مسلسلون مقرّنون في السلاسل قرنت أيديهم إلى أعناقهم في الأغلال ، أو يقرن مع كل كافر شيطانه في سلسلة وفي أرجلهم الأصفاد ﴿ دَعَوْاْ هُنَالِكَ ﴾ حينئذ ﴿ ثُبُوراً ﴾ هلاكاً أي قالوا واثبوراه أي تعال يا ثبور فهذا حينك فيقال لهم ﴿ لاَّ تَدْعُواْ اليوم ثُبُوراً واحدا وادعوا ثُبُوراً كَثِيراً ﴾ أي إنكم وقعتم فيما ليس ثبوركم فيه واحداً إنما هو ثبور كثير ﴿ قُلْ أذلك خَيْرٌ ﴾ أي المذكور من صفة النار خير ﴿ أَمْ جَنَّةُ الخلد التى وَعِدَ المتقون ﴾ أي وعدها فالراجع إلى الموصول محذوف ، وإنما قال : ﴿ أذلك خير ﴾ ، ولا خير في النار توبيخاً للكفار ﴿ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاء ﴾ ثواباً ﴿ وَمَصِيراً ﴾ مرجعاً . وإنما قيل ﴿ كانت ﴾ لأن ما وعد الله كأنه كان لتحققه أو كان ذلك مكتوباً في اللوح قبل أن خلقهم ﴿ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءونَ ﴾ أي ما يشاؤونه ﴿ خالدين ﴾ حال من الضمير في ﴿ يشاؤون ﴾ والضمير في ﴿ كان ﴾ ل ﴿ ما يشاؤون ﴾ ﴿ على رَبّكَ وَعْداً ﴾ أي موعوداً ﴿ مَّسْئُولاً ﴾ مطلوباً أو حقيقاً أن يسأل أو قد سأله المؤمنون والملائكة في دعواتهم ﴿ رَبَّنَا وَءاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا على رُسُلِكَ ﴾ [آل عمران : 194] ﴿ رَبَّنَا ءاتِنَا

فِى الدنيا حَسَنَةً وَفِي الآخرة حَسَنَةً ﴾ [البقرة : 201] ﴿ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جنات عَدْنٍ التى وَعَدْتَّهُمْ ﴾

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ ﴾ ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ ﴾ للبعث عند الجمهور وبالياء : مكي ويزيد ويعقوب وحفص .

﴿ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله ﴾ يريد المعبودين من الملائكة والمسيح وعزير .

وعن الكلبي يعني الأصنام ينطقها الله .

(260/559)

وقيل : عام وما يتناول العقلاء وغيرهم لأنه أريد به الوصف كأنه قيل ومعبوديهم ﴿ فَيَقُولُ ﴾ وبالنون شامي ﴿ ءأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَؤُلاَءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السبيل ﴾ والقياس ضلوا عن السبيل إلا أنهم تركوا الجار كما تركوه في هداه الطريق والأصل إلى الطريق أو للطريق . وضل مطاوع أضله والمعنى أأنتم أوقعتموهم في الضلال عن طريق الحق بإدخال الشبه أم هم ضلوا عنه بأنفسهم ؟ وإنما لم يقل "أأضللتم عبادي هؤلاء أم ضلوا السبيل" وزيد "أنتم" و"هم" لأن السؤال ليس عن الفعل ووجوده لأنه لولا وجوده لما توجه هذا العتاب ، وإنما هو عن متوليه فلا بد من ذكره وإيلائه حرف الاستفهام ليعلم أنه المسؤول عنه .

وفائدة سؤالهم مع علمه تعالى بالمسؤول عنه أن يجيبوا بما أجابوا به حتى يبكت عبدتهم بتكذيبهم إياهم فتزيد حسرتهم ﴿ قَالُواْ سبحانك ﴾ تعجب منهم مما قيل لهم وقصدوا به تنزيهه عن الأنداد وأن يكون له نبي أو ملك أو غيرهما نداً .

ثم قالوا ﴿ مَا كَانَ يَنبَغِى لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاء ﴾ أي ما كان يصح لنا ولا يستقيم أن نتولى أحداً دونك فكيف يصح لنا أن نحمل غيرنا على أن يتولونا دونك ؟ ﴿ نتخذ ﴾ يزيد .

و"اتخذ" يتعدى إلى مفعول واحد نحو "اتخذ ولياً" وإلى مفعولين نحو "اتخذ فلاناً ولياً" قال الله تعالى : ﴿ أَمِ اتخذوا اِلهَةً مّنَ الأرض ﴾ [الأنبياء : 21] ﴿ اتخذ الله إبراهيم خَلِيلاً ﴾ [النساء : 125] فالقراءة الأولى لواحد وهو من أولياء والأصل أن تتخذ أولياء وزيدت "من" التأكيد معنى النفي ، والقراءة الثانية في المتعدي إلى المفعولين فالمفعول الأول ما بني له الفعل والثاني من أولياء و"من" للتبعيض أي لا نتخذ بعض أولياء لأن من لا تزاد في المفعول الثاني بل في الأول تقول "ما اتخذت من أحد ولياً" ولا تقول "ما اتخذت أحداً من ولي" ﴿ ولكن مَّتَّعْتَهُمْ وَءابَاءهُمْ ﴾ بالأموال والأولاد .

وطول العمر والسلامة من العذاب ﴿ حتى نَسُواْ الذكر ﴾ أي ذكر الله والإيمان به والقرآن والشرائع ﴿ وَكَانُواْ ﴾ عند الله ﴿ قَوْماً بُوراً ﴾ أي هلكى جمع بائر كعائذ وعوذ ثم يقال للكفار بطريق الخطاب عدولاً عن الغيبة.

﴿ فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ ﴾ وهذه المفاجأة بالاحتجاج والإلزام حسنة رائعة وخاصة إذا انضم إليها الالتفات وحذف القول ونظيرها: ﴿ ياأهل الكتاب قَدْ جَاءكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ على فَتْرَةٍ مِّنَ الرسل ﴾ إلى قوله ﴿ فَقَدْ جَاءكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ﴾ [المائدة: 19] وقول القائل

قالوا خراسان أقصى ما يراد بنا . . .

ثم القفول فقد جئنا خراساناً

﴿ بِمَا تَقُولُونَ ﴾ بقولكم فيهم إنهم آلهة، والباء على هذا كقوله: ﴿ بَلْ كَذَّبُواْ بالحق ﴾ [ق:] والجار والمجرور بدل من الضمير كأنه قيل: فقد كذبوا بما تقولون.

وعن قنبل بالياء ومعناه فقد كذبوكم بقولهم: ﴿ سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ﴾ والباء على هذا كقولك "كتبت بالقلم" ﴿ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفاً وَلاَ نَصْراً ﴾ ﴿ فما يستطيعون ﴾ أي فما يستطيع آلهتكم أن يصرفوا عنكم العذاب أو ينصرونكم.

وبالتاء حفص أي فما تستطيعون أنتم يا كفار صرف العذاب عنكم ولا نصر أنفسكم.

ثم خاطب المكلفين على العموم بقوله ﴿ وَمَن يَظْلِم مّنكُمْ ﴾ أي يشرك لأن الظلم وضع الشيء في غير موضعه ومن جعل المخلوق شريك خالقه فقد ظلم يؤيده قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الشرك لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان : 13] ﴿ نُذِقْهُ عَذَاباً كَبِيراً ﴾ فسر بالخلود في النار وهو يليق بالشرك دون الفاسق إلا على قول المعتزلة والخوارج .

(262/559)

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ المرسلين إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطعام وَيَمْشُونَ فِى الأسواق ﴾ كسرت "إن" لأجل اللام في الخبر والجملة بعد "إلا" صفة لموصوف محذوف ، والمعنى وما أرسلنا قبلك أحداً من المرسلين إلا آكلين وماشين ، وإنما حذف اكتفاء بالجار والمجرور أي من المرسلين ونحوه ﴿ وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴾ [الصافات : 164] أَيُّ وَمَا مِنَّا أَحَدٌ . قِيلَ : هو احتجاج على من قال ﴿ ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ﴾ وتسلية للنبي عليه الصلاة والسلام ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً ﴾ أي محنة وابتلاء ، وهذا تصبير لرسول الله صلى الله عليه وسلم عما عيروه به من الفقر ومشيه في الأسواق يعني أنه جعل الأغنياء فتنة للفقراء فيغني من يشاء ويفقر من يشاء ﴿ أَتَصْبِرُونَ ﴾ على هذه الفتنة فتؤجروا أم لا تصبروا فيزداد غمكم .

وحكي أن بعض الصالحين تبرم بضنك عيشه فخرج ضجراً فرأى خصياً في مواكب ومراكب فخطر بباله شيء فإذا بمن يقرأ هذه الآية فقال : بلى فصبراً ربنا .

أو جعلتك فتنة لهم لأنك لو كنت غنياً صاحب كنوز وجنان لكانت طاعتهم لك للدنيا أو ممزوجة بالدنيا فإنما بعثناك فقيراً لتكون طاعة من يطيعك خالصة لنا ﴿ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً ﴾ عالماً بالصواب فيما يبتلي به أو بمن يصبر ويجزع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير النسفى حـ 3 صـ 157.163 ﴾

(263/559)

وقال البيضاوى :

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ تَبَارَكَ الذي نَزَّلَ الفرقان على عَبْدِهِ ﴾

تكاثر خيره من البركة وهي كثرة الخير ، أو تزايد على كل شيء وتعالى عنه في صفاته وأفعاله ، فإن البركة تتضمن معنى الزيادة ، وترتيبه عن إنزاله ﴿ الفرقان ﴾ لما فيه من كثرة الخير أو لدلالته على تعاليه . وقيل دام من بروك الطير على الماء ومنه البركة لدوام الماء فيها ، وهو لا يتصرف فيه ولا يستعمل إلا لله تعالى و﴿ الفرقان ﴾ مصدر فرق بين الشيئين إذا

فصل بينهما سمي به القرآن لفصله بين الحق والباطل بتقريره أو المحق والمبطل بإعجازه أو لكونه مفصولاً بعضه عن بعض في الإنزال ، وقرىء "على عباده" وهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمته كقوله تعالى : ﴿ وَقَدْ أَنزَلْنَا اليكم آيات ﴾ أو الأنبياء على أن ﴿ الفرقان ﴾ اسم جنس للكتب السماوية . ﴿ لِيَكُونَ ﴾ العبد أو الفرقان . ﴿ للعالمين ﴾ للجن والإنس . ﴿ نَذِيراً ﴾ منذراً أو إنذاراً كالنكير بمعنى الإنكار ، هذه الجملة وإن لم تكن معلومة لكنها لقوة دليلها أجريت مجرى المعلوم وجعلت صلة .

(264/559)

﴿ الذي لَهُ مُلْكُ السموات والأرض ﴾ بدل من الأول أو مدح مرفوع أو منصوب . ﴿ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً ﴾ كزعم النصارى . ﴿ وَلَم يَكُنْ لَّهُ شَرِيكٌ فِي الملك ﴾ كقول الثنوية أثبت له الملك مطلقاً ونفى ما يقوم مقامه وما يقاومه فيه ثم نبه على ما يدل عليه فقال : ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ أحدثه إحداثاً مراعى فيه التقدير حسب إرادته كخلقه الإنسان من مواد مخصوصة وصور وأشكال معينة . ﴿ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً ﴾ فقدره وهيأه لما أراد منه من الخصائص والأفعال ، كتهيئة الإنسان للإدراك والفهم والنظر والتدبير واستنباط الصنائع المتنوعة ومزاولة الأعمال المختلفة إلى غير ذلك ، أو ﴿ فَقَدَّرَهُ ﴾ للبقاء إلى أجل

مسمى . وقد يطلق الخلق لمجرد الإيجاد من غير نظر إلى وجه الاشتقاق فيكون المعنى وأوجد كل شيء فقدره في إيجاده حتى لا يكون متفاوتاً .

﴿ واتخذوا مِن دُونِهِ ءَالِهَةً ﴾ لما تضمن الكلام إثبات التوحيد والنبوة أخذ في الرد على المخالفين فيهما . ﴿ لاَ يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ لأن عبدتهم ينحتونهم ويصورونهم . ﴿ وَلاَ يَمْلِكُونَ ﴾ ولا يستطيعون . ﴿ لأَنفُسِهِمْ ضَرّاً ﴾ دفع ضر . ﴿ وَلاَ نَفْعاً ﴾ ولا جلب نفع . ﴿ وَلاَ يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلاَ حَيَاةً وَلاَ نُشُوراً ﴾ ولا يملكون إماتة أحد وإحياءه أولاً وبعثه ثانياً ومن كان كذلك فبمعزل عن الأُلوهية لعرائه عن لوازمها واتصافه بما ينافيها ، وفيه تنبيه على أن الإله يجب أن يكون قادراً على البعث والجزاء .

﴿ وَقَالَ الذين كَفَرُواْ إِنْ هذا إِلاَّ إِفْكٌ ﴾ كذب مصروف عن وجهه . ﴿ افتراه ﴾ اختلقه . ﴿ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ﴾ أي اليهود فإنهم يلقون إليه أخبار الأمم وهو يعبر عنها بعبارته ، وقيل جبر ويسار وعداس وقد سبق في قوله

﴿ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ﴾ ﴿ فَقَدْ جَاءُو ظُلْماً ﴾ بجعل الكلام المعجز ﴿ إِفك ﴾ مختلقاً متلقفاً من اليهود . ﴿ وَزُوراً ﴾ بنسبة ما هو بريء منه إليه وأتى وجاء يطلقان بمعنى فعل

فيعديان تعديته .

﴿ وَقَالُواْ أساطير الأولين ﴾ ما سطره المتقدمون . ﴿ اكتتبها ﴾ كتبها لنفسه أو استكتبها ، وقرىء على البناء للمفعول لأنه أمي وأصله : اكتتبها كاتب له ، فحذف اللام وأفضى الفعل إلى الضمير فصار اكتتبها إياه كاتب ثم حذف الفاعل وبني الفعل للضمير فاستتر فيه . ﴿ فَهِيَ تملى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ ليحفظها فإنه أمي لا يقدر أن يكرر من الكتاب أو لتكتب .

﴿ قُلْ أَنزَلَهُ الذي يَعْلَمُ السر فِي السموات والأرض ﴾ لأنه أعجزكم عن آخِركم بفصاحته وتضمنه أخباراً عن مغيبات مستقبلة وأشياء مكنونة لا يعلمها إلا عالم الأسرار فكيف تجعلونه ﴿ أساطير الأولين ﴾ . ﴿ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾ فلذلك لا يعجل في عقوبتكم على ما تقولون مع كمال قدرته عليها واستحقاقكم أن يصب عليكم العذاب صباً .

﴿ وَقَالُواْ مَّالِ هذا الرسول ﴾ ما لهذا الذي يزعم الرسالة وفيه استهانة وتهكم . ﴿ يَأْكُلُ الطعام ﴾ كما نأكل . ﴿ وَيَمْشِي فِي الاسواق ﴾ لطلب المعاش كما نمشي ، والمعنى إن صح دعواه فما باله لم يخالف حاله حالنا ، وذلك لعمههم وقصور نظرهم على المحسوسات فإن تميز الرسل عمن عداهم ليس بأمور جسمانية وإنما هو بأحوال نفسانية كما أشار إليه

تعالى بقوله ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَاْ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يوحى إِلَيَّ أَنَّمَا إلهكم إله وَاحِدٌ ﴾ ﴿ لَوْلا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً ﴾ لنعلم صدقه بتصديق الملك .

(266/559)

﴿ أَوْ يلقى إِلَيْهِ كَنْزٌ ﴾ فيستظهر به ويستغني عن تحصيل المعاش . ﴿ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ﴾ هذا على سبيل التنزل أي إن لم يلق إليه كنز فلا أقل من أن يكون له بستان كما للدهاقين والمياسير فيتعيش بريعه ، وقرأ حمزة والكسائي بالنون والضمير للكفار . ﴿ وَقَالَ الظالمون ﴾ وضع ﴿ الظالمون ﴾ موضع ضميرهم تسجيلاً عليهم بالظلم فيما قالوه . ﴿ إِن تَتَّبِعُونَ ﴾ ما تتبعون . ﴿ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُورًا ﴾ سحر فغلب على عقله ، وقيل ذا سحر وهو الرئة أي بشراً لا ملكاً .

﴿ انظر كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ الأمثال ﴾ أي قالوا فيك الأقوال الشاذة واخترعوا لك الأحوال النادرة . ﴿ فَضَلُّواْ ﴾ عن الطريق الموصل إلى معرفة خواص النبي والمميز بينه وبين المتنبي فخبطوا خبط عشواء . ﴿ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً ﴾ إلى القدح في نبوتك أو إلى الرشد والهدى .

﴿ تَبَارَكَ الذى إِن شَاء جَعَلَ لَكَ ﴾ في الدنيا . ﴿ خَيْراً مِّن ذلك ﴾ مما قالوا لكن أخره

إلى الآخرة لأنه خير وأبقى . ﴿ جنات تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار ﴾ بدل من ﴿ خَيْرًا ﴾ . ﴿ ويَجْعَل لَّكَ قُصُوراً ﴾ عطف على محل الجزاء ، وقرأ ابن كثير وابن عامر وأبو بكر بالرفع لأن الشرط إذا كان ماضياً جاز في جزائه الجزم والرفع كقوله :

وَإِنَّ أَتَاهُ خَلِيلٌ يَوْمَ مَسْغَبَةٍ . . . يَقُولُ لاَ غَائِبٌ مَالِي وَلاَ حَرَمُ

ويجوز أن يكون استئنافاً بوعد ما يكون له في الآخرة ، وقرىء بالنصب على أنه جواب بالواو .

(267/559)

﴿ بَلْ كَذَّبُواْ بالساعة ﴾ فقصرت أنظارهم على الحطام الدنيوية وظنوا أن الكرامة إنما هي بالمال فطعنوا فيك لفقرك ، أو فلذلك كذبوك لا لما تمحلوا من المطاعن الفاسدة ، أو فكيف يلتفتون إلى هذا الجواب ويصدقونك بما وعد الله لك في الآخرة ، أو فلا تعجب من تكذيبهم إياك فإنه أعجب منه . ﴿ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بالساعة سَعِيراً ﴾ ناراً شديدة الاستعار ، وقيل هو اسم لجهنم فيكون صرفه باعتبار المكان .

﴿ إِذَا رَأَتْهُمْ ﴾ إذا كانت بمرأى منهم كقوله عليه السلام " لا تتراءى ناراهما " أي لا تتقاربان بحيث تكون إحداهما بمرأى من الأخرى على المجاز والتأنيث لأنه بمعنى النار أو

جهنم . ﴿ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ هو أقصى ما يمكن أن يرى منه . ﴿ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً ﴾ صوت تغيظ ، شبه صوت غليانها بصوت المغتاظ وزفيره وهو صوت يسمع من جوفه ، هذا وإن الحياة لما لم تكن مشروطة عندنا بالبنية أمكن أن يخلق الله فيها حياة فترى وتتغيظ وتزفر . وقيل إن ذلك لزبانيتها فنسب إليها على حذف المضاف .

﴿ وَإِذَا أُلْقُواْ مِنْهَا مَكَاناً ﴾ في مكان ومنها بيان تقدم فصار حالاً . ﴿ ضَيِّقاً ﴾ لزيادة العذاب فإن الكرب مع الضيق والروح مع السعة ولذلك وصف الله الجنة بأن عرضها كعرض السموات والأرض . ﴿ مُقَرَّنِينَ ﴾ قرنت أيديهم إلى أعناقهم بالسلاسل . ﴿ دَعَوْاْ هُنَالِكَ ﴾ في ذلك المكان . ﴿ ثُبُوراً ﴾ هلاكاً أي يتمنون الهلاك وينادونه فيقولون تعال يا ثبوراه فهذا حينك .

﴿ لاَّ تَدْعُواْ اليوم ثُبُوراً واحدا ﴾ أي يقال لهم ذلك . ﴿ وادعوا ثُبُوراً كَثِيراً ﴾ لأن عذابكم أنواع كثيرة كل نوع منها ثبور لشدته ، أو لأنه يتجدد لقوله تعالى : ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بدلناهم جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ العذاب ﴾ أو لأنه لا ينقطع فهو في كل وقت ثبور .

(268/559)

﴿ قُلْ أذلك خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الخلد التي وُعِدَ المتقون ﴾ الإشارة إلى العذاب والاستفهام والتفضيل والترديد للتقريع مع التهكم أو إلى ال ﴿ كَنْزٌ ﴾ أو ال ﴿ جَنَّةُ ﴾ ، والراجع إلى الموصول محذوف وإضافة ال ﴿ جَنَّةُ ﴾ إلى ﴿ الخلد ﴾ للمدح أو للدلالة على خلودها ، أو التمييز عن جنات الدنيا . ﴿ كَانَتْ لَهُمْ ﴾ في علم الله أو اللوح ، أو لأن ما وعده الله تعالى في تحققه كالواقع . ﴿ جَزَاءً ﴾ على أعمالهم بالوعد . ﴿ وَمَصِيراً ﴾ ينقلبون إليه ، ولا يمنع كونها جزاء لهم أن يتفضل بها على غيرهم برضاهم مع جواز أن يراد بالمتقين من يتقي الكفر والتكذيب لأنهم في مقابلتهم .

﴿ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ ﴾ ما يشاؤونه من النعيم ، ولعله تقصر همم كل طائفة على ما يليق برتبته إذ الظاهر أن الناقص لا يدرك شأو الكامل بالتشهي ، وفيه تنبيه على أن كل المرادات لا تحصل إلا في الجنة .

﴿ خالدين ﴾ حال من أحد ضمائرهم . ﴿ كَانَ على ربّكَ وَعْداً مَّسْئُولاً ﴾ الضمير في ﴿ كَانَ ﴾ ل ﴿ مَا يَشَآءُونَ ﴾ والوعد الموعود أي : كان ذلك موعداً حقيقاً بأن يسأل ويطلب ، أو مسؤولاً سأله الناس في دعائهم ﴿ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا على رُسُلِكَ ﴾ أو الملائكة بقولهم ﴿ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جنات عَدْنٍ التي وَعَدْتَّهُمْ ﴾ وما في ﴿ على ﴾ من معنى الوجوب لامتناع الخلف في وعده تعالى ولا يلزم منه الإلجاء إلى الإنجاز ، فإن تعلق الإرادة بالوعود مقدم على الوعد الموجب للإنجاز .

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ ﴾ للجزاء ، وقرىء بكسر الشين وقرأ ابن كثير ويعقوب وحفص بالياء . ﴿ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ ﴾ يعم كل معبود سواه تعالى ، واستعمال ﴿ مَا ﴾ إما لأن وضعه أعم ولذلك يطلق لكل شبح يرى ولا يعرف ، أو لأنه أريد به الوصف كأنه قيل ومعبودهم أو لتغليب الأصنام تحقيراً أو اعتباراً لغلبة عبادها ، أو يخص الملائكة وعزيراً والمسيح بقرينة السؤال والجواب ، أو الأصنام ينطقها الله أو تتكلم بلسان الحال كما قيل في كلام الأيدي والأرجل . ﴿ فَيَقُولُ ﴾ أي للمعبودين وهو على تلوين الخطاب ، وقرأ ابن عامر بالنون . ﴿ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السبيل ﴾ لإخلالهم بالنظر الصحيح وإعراضهم عن المرشد النصيح ، وهو استفهام تقريع وتبكيت للعبدة ، وأصله ﴿ أأضللتم ﴾ أو ﴿ ضَلُّوا ﴾ فغير النظم ليلي حرف الاستفهام المقصود بالسؤال وهو المتولي للفعل دونه لأنه لا شبهه فيه وإلا لما توجه العتاب ، وحذف صلة الضل مبالغة .

﴿ قَالُواْ سبحانك ﴾ تعجباً مما قيل لهم لأنهم إما ملائكة أو أنبياء معصومون ، أو جمادات لا تقدر على شيء أو إشعاراً بأنهم الموسومون بتسبيحه وتوحيده فكيف يليق بهم إضلال عبيده ، أو تنزيهاً لله تعالى عن الأنداد . ﴿ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا ﴾ ما يصح لنا . ﴿ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاء ﴾ للعصمة أو لعدم القدرة فكيف يصح لنا أن ندعو غيرنا أن يتولى أحداً دونك ، وقرىء ﴿ نَّتَّخِذَ ﴾ على البناء للمفعول من اتخذ الذي له مفعولان كقوله تعالى : ﴿ واتخذ الله إبراهيم خَلِيلاً ﴾ ومفعوله الثاني ﴿ مِنْ أَوْلِيَاء ﴾ و ﴿ مِنْ ﴾ للتبعيض وعلى الأول مزيدة لتأكيد النفي . ﴿ ولكن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَاءَهُمْ ﴾ بأنواع النعم فاستغرقوا في الشهوات . ﴿ حتى نَسُواْ الذكر ﴾ حتى غفلوا عن ذكرك أو التذكر لآلائك والتدبر في آياتك ، وهو نسبة للضلال إليهم من حيث إنه بكسبهم وإسناد له إلى ما فعل الله بهم فحملهم عليه ، وهو عين ما ذهبنا إليه فلا ينتهض حجة علينا للمعتزلة . ﴿ وَكَانُواْ ﴾ في قضائك . ﴿ قَوْماً بُوراً ﴾ هالكين مصدر وصف به ولذلك يستوي فيه الواحد والجمع ، أو جمع بائر كعائذ وعوذ .

﴿ فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ ﴾ التفات إلى العبدة بالاحتجاج والإلزام على حذف القول والمعنى فقد كذبكم المعبودون . ﴿ بِمَا تَقُولُونَ ﴾ في قولكم إنهم آلهة أو هؤلاء أضلونا والباء بمعنى في ، أو مع المجرور بدل من الضمير ، وعن ابن كثير بالياء أي : ﴿ كَذَّبُوكُمْ ﴾ بقولهم ﴿ سبحانك مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا ﴾ .

﴿ فَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ أي المعبودون وقرأ حفص بالتاء على خطاب العابدين . ﴿ صَرْفاً ﴾ دفعاً للعذاب عنكم ، وقيل حيلة من قولهم إنه ليتصرف أي يحتال . ﴿ وَلاَ نَصْراً ﴾ يعينكم عليه . ﴿ وَمَن يَظْلِم مّنكُمْ ﴾ أيها المكلفون . ﴿ نُذِقْهُ عَذَاباً كَبِيراً ﴾ هي النار والشرط وإن عم كل من كفر أو فسق لكنه في اقتضاء الجزاء مقيد بعدم المزاحم وفاقاً ، وهو التوبة والإحباط بالطاعة إجماعاً وبالعفو عندنا .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ المرسلين إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطعام وَيَمْشُونَ فِي الأسواق ﴾ أي إلا رسلاً إنهم فحذف الموصوف لدلالة المرسلين عليه وأقيمت الصفة مقامه كقوله تعالى : ﴿ وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴾ ويجوز أن تكون حالاً اكتفى فيها بالضمير وهو جواب لقولهم ﴿ مَّالِ هذا الرسول يَأْكُلُ الطعام وَيَمْشِي فِي الأسواق ﴾ وقرىء ﴿ يَمْشُونَ ﴾ أي تمشيهم حوائجهم أو الناس . ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ ﴾ أيها الناس . ﴿ لِبَعْضٍ فِتْنَةً ﴾ ابتلاء ومن ذلك ابتلاء الفقراء بالأغنياء ، والمرسلين بالمرسل إليهم ومناصبتهم لهم العداوة وإيذائهم لهم ، وهو تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم على ما قالوه بعد نقضه ، وفيه دليل على القضاء والقدر . ﴿ أَتَصْبِرُونَ ﴾ علة للجعل والمعنى ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ

لِبَعْضٍ فِتْنَةً ﴾ لنعلم أيكم يصبر ونظيره قوله تعالى : ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ أو حث على الصبر على ما افتتنوا به . ﴿ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً ﴾ بمن يصبر أو بالصواب فيما يبتلى به وغيره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 4 صـ 205.212 ﴾

(272/559)

" فصل "

قال الإمام نظام الدين النيسابورى :

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا (1) ﴾

التفسير : إنه سبحانه تكلم في هذه السورة أولاً في التوحيد لأنه أقدم وأهم ، ثم في النبوة لأنها الواسطة ، ثم في المعاد وسيختم السورة بصفات العباد المخلصين الموقنين فما أشرف هذه المطالب وما أحسن هذا الترتيب . ومعنى ﴿ تبارك ﴾ كثر خيره وزاد أو تعالى عن أوصاف الممكنات وقد مر في قوله تعالى ﴿ فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ [المؤمنون : 14] وفي وصفه نفسه بتنزيل الفرقان الفارق بين الحق والباطل أو المفرق في الإنزال بعد قوله ﴿ تبارك ﴾ دليل على أن كل البركة والخير إنما هو في القرآن ، وكانت هذه الصفة معلومة بدلائل الإعجاز فذلك صح إيقاعها صلة للذي . والضمير في ﴿ ليكون ﴾ لعبده

أو للفرقان كقوله ﴿ إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ﴾ والعالمون يشمل الخلائق كلهم إلا أن الإجماع دل على خروج الملائكة وما عدا الثقلين فبقي أن يكون مبعوثاً إلى الجن والإنس إلى آخر مدة التكليف . والنذير المنذر أو الإنذار كالنكير . قالت المعتزلة : لو لم يرد الإيمان من الكل لم يكن الرسول نذيراً للكل .

(273/559)

وعورض بنحو قوله ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم ﴾ [الأعراف : 179] والإنذار الموجب للخوف لا ينافي وصفه تعالى بالبركة والخير لأن النظر على السعادات الأخروية التي تحصل بالإنذار على فوات بعض اللذات العاجلة . ثم وصف ذاته بصفاته الأربع أولها ﴿ الذي له ملك السوات والأرض ﴾ وفيه تنبيه على افتقار الكل إليه في الوجود وفي توابعه من البقاء وغيره . الثانية ﴿ ولم يتخذ ولداً ﴾ وفيه رد النصارى واليهود الثالثة ﴿ ولم يكن له شريك في الملك ﴾ وفيه رد على سائر المشركين من الثنوية والوثنية وأرباب الشرك الخفي ايضاً ، ولكنه صرح بهذا الأخير في الصفة الرابعة وهي قوله ﴿ وخلق كل شيء فقدره تقديراً ﴾ قال جار الله : المعنى أنه أحدث كل شيء إحداثاً مراعى فيه التقدير والتسوية والتهيئة لما يصلح له ، أو المراد بالخلق الإيجاد من غير نظر إلى وجه الاشتقاق وهو ما فيه من

معنى التقدير لئلا يلزم التكرار فكأنه قيل : أوجد كل شيء فقدره في إيجاده لم يوجده متفاوتاً ، أو أحدثه فقدره للبقاء إلى أمد معلوم . وعندي أن الكلام محمول على القلب الذي يشجع عليه أمن الإلباس أي قدره في الأزل تقديراً فخلقه في وقته موافقاً لذلك التقدير . والبحث فيه بين المعتزلة والأشاعرة كما مر في قوله ﴿ الله خالق كل شيء ﴾ [الزمر : 62] ثم صرح بتزييف مذاهب عبدة الأوثان قائلاً ﴿ واتخذوا ﴾ الآية .

وحاصله أن إله العالم يجب أن يكون أقدر الأشياء وأشرفها لا أعجزها وأخسها وهو الجماد بل الملائكة والمسيح لأنه لا قدرة لهم على الإيجاد والتصرف في شيء إلا بإذن الله ، فتكون الآية رداً على الكل . وإنما قال في هذه السورة ﴿ من دونه ﴾ لتقدم الذكر مفرداً وفي مريم ويس ﴿ من دون الله ﴾ [يس : 74 ومريم : 48] لأن ما قبلهما بلفظ الجمع تعظيماً فلن يكن بد من التصريح .

وحين فرغ من بيان التوحيد ونفي الأنداد شرع في شبهان منكري النبوة والأجوبة عنها .

(274/559)

فالشبهة الأولى قولهم ﴿ إن هذا إلا إفك افتراه ﴾ أرادوا أنه كذب في نفسه أو أرادوا أنه كذب في غضافته إلى الله تعالى . وقوله ﴿ وأعانه عليه قوم آخرون ﴾ نظير قوله تعالى ﴿

إنما يعلمه بشر لسان الذي ﴾ [النحل : 103] وقد مر ما قيل في سبب نزوله في النحل فأجاب الله تعالى عن شبهتهم بقوله ﴿ فقد جاؤا ظلماً وزوراً ﴾ اي أتوهما فانتصب بوقوع المجيء عليه . وعن الزجاج أنه انتصب بنزع الخافض اي أتوا بالظلم والزور . فالظلم هو أنهم نسبوا هذا الفعل الشنيع وهو الافتراء على الله . إلى من هو عندهم في غاية الأمانة والصدق ، والزور وهو انحرافهم عن جادة العدل والإنصاف ، فلو أنصفوا من أنفسهم لعلموا أن العربي لا يتلقن من العجمي كلاماً عربياً أعجز بفصاحته دهماءهم ، ولو استعان محمد في ذلك بغيره لأمكنهم ايضاً أن يستعينوا بغيرهم .

قال أبو مسلم : الظلم تكذيبهم الرسول والزور كذبهم عليه .

(275/559)

الشبهة الثانية قولهم ﴿ أنه أساطير الأولين ﴾ اي أحاديث سطرها المتقدمون كأخبار الأعاجم ﴿ اكتتبها ﴾ لنفسه كقولك " استكب الماء " أي سكبه لنفسه وأخذه وقد يظن أن في الكلام قلباً لأنه يقال " أمليت عليه فهو يكتتبها " وأجيب بأن المعنى أراد اكتتابها فهي تقرأ عليه أو كتبت له وهو أمي فهي تملى أي تلقى عليه من كتابه يتحفظها ، لأن صورة الإلقاء على الحافظ كصورة الإلقاء على الكاتب . قال الضحاك : ما يملى عليه بكرة يقرأ

عليكم عشية ، وما يملى عليه عشية يقرأ عليكم بكرة ، وقال جار الله ﴿ بكرة وأصيلاً ﴾ أي دائماً أو في الخفية قبل أن ينتشر الناس وحين يأوون إلى مساكنهم . فأجاب عن هذه الشبهة بقوله ﴿ قل أنزله الذي يعلم السر ﴾ الآية . والمعنى أن العالم بكل سر هو الذي يقدر على الإتيان بمثل هذا الكتاب لفصاحة مبانيه وبلاغة معانيه وبراءته من التناقض والاختلاف واشتماله على الغيوب وعلى مصالح العباد في المعاش والمعاد . قال أبو مسلم : أراد أنه يعلم كل سر خفي ومن جملته ما تسرونه أنتم من الكيد والنفاق فهو يجازيكم عليه ، ولأجل هذا الوعيد ختم الآية بذكر المغفرة والرحمة فإنه لا يوصف بهما إلا القادر على العقوبة . وقيل : هو تنبيه على أنهم استحقوا بمكابرتهم العذاب العاجل ولكنه صرفه عنهم برحمته وغفرانه .

(276/559)

الشبهة الثالثة قولهم على سبيل الاستهانة وتصغير الشأن ﴿ ما لهذا ﴾ الزاعم أنه رسول أي ما باله ﴿ يأكل الطعام ﴾ كما نأكل ويتردد في الأسواق لطلب المعاش كما نتردد . زعموا أنه كان يجب أن يكون ملكاً مستغنياً عن الأكل والتعيش ، ثم نزلوا عن هذا المقام فطلبوا أن يكون إنساناً معه ملك يعضده ويساعده في باب الإنذار ، ثم نزلوا فاقترحوا أن

يكون مستظهراً بكنز يلقى إليه من السماء حتى لا يحتاج إلى تحصيل المعاش ، ثم نزلوا فقالوا : لا أقل من أن يكون كواحد ن الدهاقين له بستان ينتفع هو أو ننتفع نحن بذلك على اختلاف القراءتين . وانتصب ﴿ فيكون ﴾ لأنه جواب " لولا " بمعنى " هلا " وحكمه حكم الاستفهام ومحل ﴿ أنزل ﴾ الرفع كما يقول : لولا ينزل ولهذا عطف عليه يلقى ويكون مرفوعين ﴿ وقال الظالمون ﴾ من وضع الظاهر موضع المضمر تسجيلاً عليهم بالظلم فيما قالوا ، وهم كفار قريش النضر بن الحرث وأمثاله . والمسحور المغلوب على عقله ، والأمثال الأقوال النادرة ، والاقتراحات الغريبة المذكورة فبقوا متحيرين لا يجدون قولاً يستقرون عليه ، أو فضلوا عن الحق ولا يجدون طريقاً إليه . وقد مر مثل هذه الآية في أواسط سورة بني إسرائيل .

وحين حكى شبههم ومطاعنهم مدح نفسه بما يلجمهم ويفحمهم وهو قوله ﴿ تبارك ﴾ أي تكاثر خبر ﴿ الذي إن شاء ﴾ وهب لك في الدنيا خيراً مما قالوا : ثم فسر ذلك الخبر بقوله ﴿ جنات ﴾ عن ابن عباس : خيراً من ذلك أي مما عيروك بفقده الجنة الواحدة .

(277/559)

وعنه في رواية عكرمة خيراً من المشي في الأسواق لابتغاء المعاش . وفي قوله ﴿ إن شاء ﴾ دليل على أنه لا حق لأحد من العباد عليه لا في الدنيا ولا في الآخرة وأن حصول الخيرات معلق بمحض مشيئته وعنايته . وقيل : " إن " بمعنى " إذ " أي قد جعلنا لك في الآخرة وبنينا لك قصوراً . والقصر المسكن الرفيع فيحتمل أن يكون لكل جنة قصر وأن تكون القصور مجموعة والجنات مجموعة . وقال مجاهد : إن شاء جعل لك في الآخرة جنات وفي الدنيا قصوراً . عن طاوس عن ابن عباس قال : " بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس وجبرائيل عنده قال جبرائيل : هذا ملك قد نزل من السماء استأذن ربه في زيارتك . فلم يلبث إلا قليلاً حتى جاء الملك وسلم وقال : إن الله يخيرك بين أن يعطيك مفاتيح كل شيء ولم يعطها احداً قبلك ولا يعطيها أحداً بعدك من غير أن ينقصك مما ادخر لك شيئاً . فقال صلى الله عليه وسلم : بل يجمعها لي في الآخرة " فنزلت هذه الآية . وعن النبي صلى الله عليه وسلم : " عرض عليّ جبرائيل عليه السلام بطحاء مكة ذهباً فقلت : بل شبعة وثلاث جوعات " وفي رواية " أشبع يوماً وأجوع ثلاثاً فأحمدك إذا شبعت وأتضرع إليك إذا جعت " قوله ﴿ بل كذبوا بالساعة ﴾ عطف على ما حكى عنهم يقول : بل أتوا بأعجب من ذلك كله وهو تكذيبهم بالساعة فلهذا لا ينتفعون بالدلائل ولا يتأملون فيها إذ لا يرجون ثواباً ولا عقاباً . ويجوز أن يراد ليس ما تعلقوا به شبهة عالية في نفس المسألة بل إنما حملهم على ذلك تكذيبهم بالساعة استثقالاً للاستعداد لها . ﴾

وأعتدنا ﴿ جعلناها عدة ومعدة لهم . وقد يستدل به على أن النار مخلوقة ويحتمل أن يقال : هو كقوله ﴿ ونادى ﴾ [الأعراف : 48] ﴿ وسيق ﴾ [الزمر : 73] قالت الأشاعرة : البنية ليست شرطاً في الحياة وتوابعها فأجروا قوله ﴿ إذا رأتهم ﴾ على ظاهره وقالوا : لا امتناع في كون النار حية رائية مغتاظة على الكفار . والمعتزلة أوّلوا فقالوا : معنى رأتهم ظهرت لهم

(278/559)

في قولهم " دورهم تتراءى وتتناظر " كأن بعضها يرى بعضاً على سبيل المجاز . والمعنى إذا كانت منهم بمرأى الناظر في البعد سمعوا صوت غليانها ، وشبه ذلك بصوت المتغيظ والزافر . وقال الجبائي : ذكر النار واراد خزنتها والمراد إذا رأتهم زبانيتها تغيظوا وزفروا غضباً على الكفار وشهوة للانتقام منهم . قيل : التغيظ عبارة عن شدة الغضب وذلك لا يكون مسموعاً فكيف قال الله سبحانه ﴿ سمعوا لها تغيظ ﴾ وأجيب بأن المراد سماع ما يدل على الغيظ وهو الصوت أي سمعوا لها صوتاً يشبه صوت المتغيظ .

قاله الزجاج وقال قطرب : علموا لها تغيظاً وسمعوا لها زفيراً كما قال الشاعر :

متقلداً سيفاً ورمحاً . . . يروى أن جهنم تزفر زفرة لا يبقى أحد إلا ترعد فرائصه حتى إن إبراهيم صلى الله عليه وسلم يجثو على ركبتيه ويقول : نفسي نفسي .

(279/559)

وحين وصف حال الكفار إذا كانوا بالبعد من جهنم وصف حالهم عندما يلقون فيها . عن ابن عباس أنه يضيق عليهم المكان كما يضيق الزج على الرمح . وسئل النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك فقال : " والذي نفسي بيده إنهم يستكرهون في النار كما يستكره الوتد في الحائط " قال الكلبي : الأسفلون يرفعهم اللهب والأعلون يخفضهم الداخلون فيزدحمون في تلك الأبواب الضيقة . وقال جار الله : الكرب مع الضيق كما أن الروح مع السعة ولذلك وصف الله الجنة بأن عرضها السموات والأرض . وجاء في الأحاديث " إن لكل مؤمن من القصور والجنان كذا وكذا " وقال الصوفية . : المكان الضيق قلب الكافر في صدره كقوله ﴿ يجعل صدره ضيقاً حرجاً ﴾ [الأنعام : 125] ثم إن أهل جهنم مع ما هم فيه يكونون مقرنين في السلاسل والأصفاد وقد مر في آخر سورة إبراهيم . والثبور الهلاك ودعاؤه النداء بواثبوراه اي يقال يا ثبور فهذا أوانك وههنا إضمار اي يقال لهم ﴿ لا تدعوا اليوم ثبوراً واحداً ﴾ إذ هم أحقاء بأن يقال لهم ذلك وإن لم يكن ثمة قول . ومعنى ﴿

وادعوا ثبوراً كبيراً ﴾ أنكم وقعتم فيما ليس ثبوركم فيه واحداً إنما هو ثبور كثير . إما لأن العذاب أنواع وألوان كل نوع منها ثبور لشدته وفظاعته ، أو لأنهم كلما نضجت جلودهم بدلوا غيرها فلا غاية لهلاكهم ، أو لأنهم يجدون بسبب ذلك القول خفة فإن المعذب إذا صاح وبكى وجد بسببه راحة . قال الكبي : نزل هذا كله في أبي جهل والكفار الذين ذكروا تلك الشبهات . ثم وبخهم بقوله ﴿ قل أذلك خير أم جنة الخلد التي وعد المتقون ﴾ أي وعدوها فحذف الرابط للعلم به وليس هذا الاستفهام كقول القائل " السكر أحلى أم الصبر " ولكن الغرض منه التقريع كلما إذا أعطى السيد عبده مالاً فتمرد وأبى واستكبر فضربه ضرباً وجيعاً ويقول على سبيل التوبيخ : هذا أطيب أم ذاك ؟ والإضافة في جنة الخلد للتوضيح والتأكيد لا للتمييز فإن الجنة معلوم أن نيعمها لا ينقطع . قالت الشاعرة : في قوله ﴿

(280/559)

وعد ﴾ دلالة على أن الجنة إنما تستحق بحسب الوعد والفضل لا لأجل العمل . وقالت المعتزلة : في قوله ﴿ المتقون ﴾ إشارة إلى أن الجنة لا تنال إلا بالتقوى ولذلك أكد بقوله على سبيل التخصيص بسبب تقديم الجار ﴿ كانت لهم جزاء ومصيراً ﴾ أجابت الأشاعرة

بأن كونه جزاء ثبت في الأزل ولا عمل هناك . قالت المعتزلة : لا غفران لصاحب الكبيرة لأن الجنة جاءت جزاء للمتقين خاصة فلا يعطى حقهم غيرهم .

أجابت الأشاعرة بأنه لم لا يجوز أن يرضى المتقون بإدخال الله أهل العفو الجنة ؟ قال جار الله : ذكر المصير مع ذكر الجزاء مدحاً للثواب مكانه كقوله ﴿ نعم الثواب وحسنت مرتفقاً ﴾ [الكهف : 31] وفي قوله ﴿ لهم فيها ما يشاؤن ﴾ دلالة على أن حصول المرادات بأسرها لا تكون إلا في الجنة ، وأما في الدنيا فالراحات فيها مخلوطة بالجراحات . والضمير في ﴿ كان ﴾ ﴿ لما يشاؤن ﴾ واستدلت المعتزلة بقوله ﴿ على ربك ﴾ أن ذلك واجب على الله حتى إنه لو لم يفعل استحق الذم . وأجيب بأنه واجب بحكم الوعد لقوله ﴿ وعداً مسؤلاً ﴾ كأن المكلفين سألوا بلسان الحال من حيث تحملوا المشقة الشديدة في طاعته ، أو سألوه حقيقة بقولهم ﴿ ربنا آتنا ما وعدتنا على رسلك ﴾ [آل عمران : 194] أو سألته الملائكة في قولهم ﴿ ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ﴾ [غافر : 8] أو من حقه أن يسأل ويطلب لأنه حق واجب بحكم الاستحقاق أو بحسب الموعد على المؤمنين .

(281/559)

قوله ﴿ يوم نحشرهم ﴾ رجوع إلى قوله ﴿ واتخذوا من دونه آلهة ﴾ وظاهر قوله ﴿ وما يعبدون ﴾ أنها الصنام وظاهر قوله ﴿ أأنتم أضللتم ﴾ أنه من عبد من العقلاء كالملائكة والمسيح فلأجل هذا اختلفوا فحمله قوم ومنهم الكلبي على الأوثان ثم قالوا : لا يبعد أن يخلق الله تعالى فيها الحياة والنور والنطق ، أو أراد أنهم تكلموا بلسان الحال . وقال الأكثرون : إنه عام للأصنام وللمعبودين العقلاء نظيره قوله ﴿ ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون ﴾ [سبأ : 40] ثم قالوا : إن لفظة " ما " قد تستعمل في العقلاء ، أو أريد به الوصف كأنه قيل : ومعبوديهم كما إذا أردت السؤال عن صفة زيد فتقول : " ما زيد " تريد أطويل أم قصير . والسائل الله وحده أو الملائكة بإذنه . وإنما قال أنتم وهم ولم يقل " أأضللتم عبادي هؤلاء أم ضلوا السبيل " ، لأن السؤال وقع عمن تولى فعل الإضلال لا عن نفس الإضلال . وفائدة هذا السؤال من علام الغيوب أن يجيب المعبودين بما أجابوا به حتى يحصل لعبدتهم الإلزام والتوبيخ كما قال لعيسى ﴿ أأنت قلت للناس ﴾ [المائدة : 116] وكان القياس أن يقال : ضلوا عن السبيل إلا أنهم تركوا الجار كما تركوه في هداه الطريق والأصل هداه إلى الطريق أو للطريق . ﴿ قالوا سبحانك ﴾ تعجباً مما قيل لهم لأنهم ملائكة وأنبياء معصومون فما أبعدهم عن الإضلال الذي هو مختص بإبليس وحزبه وأنطقوا ب ﴿ سبحانك ﴾ ليدلوا على أنهم المسبحون المقدسون الموسومون بذلك فكيف يليق بحالهم أن يضلوا عباده ؟ أو قصدوا به تنزيهه عن الأنداد وأن يكون له

ملك أو نبي أو غيرهما نداً ، أو قصدوا تنزيهه من أن يكون مقصوده من هذا السؤال استفاده علم أو إيذاء من كان بريئاً من الجرم بل إنما سألهم تقريعاً للكفار وتوبيخاً لهم .

(282/559)

من قرأ ﴿ أن نتخذ ﴾ بفتح النون فظاهر وهو متعدٍ إلى واحد والأصل أن نتخذ أولياء من دونك فزيدت " من " لتأكيد معنى النفي . ومن قرأ بضم النون فهو متعدٍ إلى اثنين : الأول ضمير نحن ، والثاني من أولياء . ولا تكون " من " زائدة لأنها لا تزاد في المفعول الثاني تقول : ما اتخذت من أحد ولياً ولا تقول ما أتخذت أحداً من ولي ف " من " للتبعيض أي لا نتخذ بعض أولياء . وتنكير أولياء من حيث إنهم أولياء مخصوصون وهم الجن والأصنام ، والمعنى إنا لا نصلح لذلك فكيف ندعوهم إلى عبادتنا . وفي تفسير الآية على القراءة الأولى وجوه : الأول أن المعنى إذ كنا لا نرى أن نتخذ من دونك ولياً فكيف ندعو غيرنا إلى ذلك ؟ الثاني : ما كان يصح لنا أن نكون أمثال الشياطين في توليهم الكفار كما تولاهم الكفار . قال تعالى ﴿ فقاتلوا أولياء الشيطان ﴾ [النساء : 76 ﴾ يريد الكفرة عن أبي مسلم : الثالث تقدير مضاف محذوف أي ما كان لنا أن نتخذ من دون رضاك من أولياء أي لما علمنا أنك لا ترضى بهذا ما فعلنا . أو قالت الملائكة : أنا وهم عبيد ولا ينبغي لعبيدك أن

يدعوا من دون إذنك ولياً . الرابع قالت الأصنام : لا يصح منا أن نكون من العابدين فكيف يمكننا ادّعاء أنا من المعبودين . وفي الآية دلالة على أنه لا تجوز الولاية والعداوة إلا بإذن الله ، والولاية المبنية على ميل النفس وشهوة الطبع مذمومة شرعاً . و ﴿ الذكر ﴾ ذكر الله والإيمان به أو القرآن والشرائع أو ما فيه حسن ذكرهم في الدنيا والآخرة . قالت المعتزلة : في قوله ﴿ ولكن متعتهم ﴾ الخ . دليل بيّن على أن الله عز وجل لا يضل عباده على الحقيقة وإلا كان جواب العبيد أن يقولوا : بل أنت أضللتهم لا أن يقولوا بل أنت تفضلت من غير سابقة على هؤلاء وعلى آبائهم تفضل جواد كريم ، فجعلوا النعمة التي حقها أن تكون سبب الشر سبب الكفر ونسيان الذكر . فالحصال أنهم ضلوا بأنفسهم لا بإضلالنا . وقالت الأشاعرة : بل فيه دلالة على أن الله

(283/559)

تعالى هو المضل حقيقة كأنهم قالوا : إلهنا أنت الذي أعطيتهم جميع مطالبهم في الدنيا حتى استغرقوا في بحر الشهوات وأعرضوا عن التوجه إلى طاعتك والاشتغال بخدمتك فإن هي إلا فتنتك . أما قوله ﴿ وكانوا قوماً بوراً ﴾ فالأكثرون على أن البور جمع بائر من البوار الهلاك كعائذ وعوذ وحائل وحول . وحكى الأخفش أنه اسم جمع يقال " رجل بور " أي

فاسد هالك لا خير فيه " وامرأة بور " و " قوم بور " كما يقال " أنت بشر " و " أنتم بشر " .

قالت المعتزلة : صاروا إلى الهلاك بسبب اختيارهم الضلال . وقالت الأشاعرة : أراد أنهم كانوا في اللوح المحفوظ من جملة الهالكين ولو قيل : إنه فعل بالكافر ما صار معه بحيث لا يمكنه ترك الكفر صح القول بالقدر أيضاً .

(284/559)

قوله ﴿ فقد كذبوكم ﴾ التفات لأجل الإلزام والفاء فيه تدل على شرط مقدر كأنه قال : إن زعمتم أنهم آلهتكم فقد كذبوكم بقولكم إنهم آلهة . أو بقولهم سبحانك ما كان ينبغي لنا على اختلاف قراءتي الخطاب واليغبة . قال جار الله : الباء في الأول كقوله ﴿ بل كذبوا بالحق ﴾ والجار والمجرور بدل من كاف الخطاب كأنه قيل : فقد كذبوا بما تقولون . وفي الثاني كقولك " كتبت بالقلم " . ﴿ فما تستطيعون ﴾ أنتم يا كفار أو فما يستطيع آلهتكم على القراءتين صرف العذاب عنكم . وقيل : الصرف التوبة لأنها تصرف العاصي عن فعله . وقيل : الحيلة من قولهم " إنه ليتصرف " أي يحتال . ثم ذكر وعيد كل ظالم بقوله ﴿ ومن يظلم ﴾ الآية . فاستدلت المعتزلة به على وعيد الفاسق وخلوده وذلك أن الفسق ظلم لقوله ﴿ ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون ﴾ [الحجرات : 11] والإنصاف أنه لا

دلالة في الاية على مطلوبهم لأن " من " ليست من صيغ العموم عند بعضهم ، ولئن سلم فلعل المراد الأكثر أو أقوام بأعيانهم لقوله ﴿ منكم ﴾ ولئن سلم فلعله مشروط بعدم العفو كما أنه مشروط عند المعتزلة بعدم التوبة ، ولو سلم الجميع فإذاقة العذاب لا تدل على الخلود . ثم بين بقوله ﴿ وما أرسلنا ﴾ الآية . أنه لا وجه لقولهم ما لهذا الرسول يأكل الطعام لأن هذه عادة مستمرة من الله في كل رسله . قال الزجاج : الجملة بعد " إلا " صفة لموصوف محذوف والمعنى : وما أرسلنا قبلك أحداً من المرسلين : إلا آكلين وماشين . وإنما حذف لأن في قوله ﴿ من المرسلين ﴾ دليلاً عليه نظيره ﴿ وما منا إلا له مقام معلوم ﴾ [الصافات : 164] أي وما منا أحد . وقال الفراء : المحذوف هو الموصول والتقدير : إلا من انهم . وقال ابن الأنباري : المحذوف هو الواو بعد إلا فتكون الجملة حالاً كقوله ﴿ وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم ﴾ [الحجر : 4] قوله ﴿ وجعلنا بعضكم لبعض فتنة ﴾ قال الكلبي والفراء والزجاج : إن هذا في رؤساء المشركين كأبي جهل وغيره

وفي فقراء الصحابة كأنه إذا رأى الشريف الوضيع وقد اسلم قبله أنف أن يسلم فأقام على كفره لئلا يكون للوضيع السابقة والفضل عليه دليله قوله تعالى ﴿ لو كان خيراً ما سبقونا

إليه ﴾ [الأحقاف : 11] وعن ابن عباس والحسن أنه في أصحاب البلاء والعافية يقول أحدهم : لم لم أجعل مثله في الخلق والخلق والعلم والعقل والرزق والأجل وغير ذلك يؤيده ما روي عن أبي الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم " ويل للعالم من الجاهل وويل للجاهل من العالم وويل للسلطان من الرعية وويل للرعية من السلطان وويل للشديد من الضعيف وللضعيف من الشديد بعضهم لبعض فتنة وقرأ هذا الآية "

(286/559)

وقال آخرون : إنه احتجاج عليهم في اختصاص محمد صلى الله عليه وسلم بالرسالة مع مساواته إياهم في البشرية وصفاتها فابتلى المرسلين بالمرسل إليهم وبمناصبتهم لهم العداوة وأنواع الأذى ، وابتلى المرسل إليهم بالتكليف وبذل النفس والمال وصيرورتهم تابعين خادمين بعد أن كانوا متبوعين مخدومين . قالت الأشاعرة : في هذا الجعل إشارة إلى مذهبنا في القدر .

وقال الجبائي : هذا الجعل بمعنى التعريف كما يقال فيمن بين أن فلاناً لص إنه جعله لص .

قال في الكشاف : موقع ﴿ أتصبرون ﴾ بعد ذكر الفتنة موقع أيكم بعد الابتلاء في قوله ﴿ ليبلوكم أيكم أحسن عملاً ﴾ [الملك : 2] قلت : أراد أن كلاً من الابتلاء والفتنة

يستدعي التمييز فيحسن الاستفهام بعده أي بفتنكم ليظهر أنكم تصبرون على البلاء أم لا ، ولعل الأظهر أن الاستفهام غير متعلق بالفتنة وإنما هو مستأنف للوعيد كقوله ﴿ فهل أنتم منتهون ﴾ [المائدة : 91] ويؤيده قوله ﴿ وكان ربك بصيراً ﴾ عالماً بمن صبر ومن لا يصبر فيجازي كلاً منهم بحسب ذلك . وقيل : في الآية تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم عما عيروه به من الفقر فقد جعل الأغياء فتنة للفقراء . وقيل : جعلناك فتنة لهم حين بعثناك فقيراً لتكون طاعة من يطيعك خالصة لوجه الله ، ولو كنت غنياً صاحب كنز كما اقترحوا لم يظهر الطائع من المخلص . وقالت الصوفية : أتصبرون يا معشر الأنبياء على ما يقولون ويا معشر الأمم عما يقولون والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 5 صـ 220. 228 ﴾

(287/559)

وقال الخطيب الشربينى :

سورة الفرقان

مكية إلا قوله تعالى : ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ﴾ إلى ﴿ رحيماً ﴾ فمدني ، وآياتها سبع وسبعون آية ، وثمانمائة واثنان وسبعون كلمة ، وعدد حروفها ثلاثة آلاف

وسبعمائة وثمانون حرفاً

﴿ بسم الله ﴾ الذي له الحجة البالغة ﴿ الرحمن ﴾ الذي عم الخلق بنعمه ﴿ الرحيم ﴾ الذي وسعت رحمته كل شيء .

﴿ تبارك ﴾ قال الزجاج : تفاعل من البركة وهي كثرة الخير وزيادته ، ومنه تبارك الله ، وفيه معنيان : تزايد خيره وتكاثر ، أو تزايد عن كل شيء وتعالى عنه في صفاته وأفعاله ، وعن ابن عباس كأن معناه جاءنا بكل بركة وخير ، وقال الضحاك : تبارك تعاظم ، ولا يستعمل إلا لله تعالى ولا يتصرف فيه ، ثم وصف ذاته الشريفة بما يدل على ذلك بقوله تعالى : ﴿ الذي نزل الفرقان ﴾ أي : القرآن ، والفرقان مصدر فرق بين الشيئين إذا فصل بينهما ، وسمي به القرآن لفصله بين الحق والباطل ولأنه لم ينزل جملة واحدة ، ولكن مفروقاً مفصولاً بين بعضه وبعض في الإنزال ؛ ألا ترى قوله تعالى : ﴿ وقرآناً فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ﴾ (الإسراء ،)

﴿ على عبده ﴾ أي : محمد صلى الله عليه وسلم وأضافه إلى نفسه إضافة تشريف ، وفي عود ضمير ﴿ ليكون ﴾ ثلاثة أوجه:

أحدها : أنه يعود على الذي نزل أي : ليكون الذي نزل الفرقان نذيراً .

الثاني : أنه يعود على الفرقان أي : ليكون الفرقان نذيراً ، وأضاف الإنذار إليه كما أضاف الهداية إليه في قوله تعالى : ﴿ إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ﴾ (الإسراء ،)

؛ قال ابن عادل : وهو بعيد ؛ لأن المنذر والنذير في صفات الفاعل المخوف ووصف القرآن به مجاز وحمل الكلام على الحقيقة أولى .

(288/559)

الثالث : أنه يعود على عبده أي : ليكون عبده محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ للعالمين نذيراً ﴾ أي : وبشيراً ، وهذا أحسن الوجوه معنىً وصناعة لقربه مما يعود عليه والضمير يعود على أقرب مذكور ، وللعالمين متعلق بنذيراً ، وإنما قدّم لأجل الفواصل ، ونذيراً بمعنى منذر أي : مخوف ويجوز أن يكون مصدراً بمعى الإنذار كالنكير بمعنى الإنكار ومنه قوله تعالى : ﴿ فكيف كان عذابي ونذر ﴾ (القمر ،)

تنبيه : المراد بالعالمين

قال البقاعي : أي : المكلفين كلهم من الجن والإنس والملائكة اه . ولكن في إرساله للملائكة خلاف بين العلماء ، فقد نقل الجلال المحلي في شرحه على "جمع الجوامع" الإجماع على أنه لم يرسل إليهم ، وغيره صرح بأنه أرسل إليهم ، ومن حفظ حجة على من لم يحفظ .

فإن قيل : قوله تعالى : تبارك يدل على كثرة الخير والبركة ، فالمذكور عقبه لا بد وأن يكون مبيناً لكثرة الخير والمنافع ، والإنذار يوجب الغم والخوف فكيف يليق ذكره بهذا الموضع ؟

أجيب : بأن الإنذار يجري مجرى تأديب الوالد كما أنه كلما كانت المبالغة في تأديب الوالد أكثر كان رجوع الخلق إلى الله تعالى أكثر ، وكانت السعادة الأخروية أتم وأكثر ، وهذا كالتنبيه على أنه لا التفات إلى المنافع العاجلة ؛ لأنه تعالى لما وصف نفسه يعطي الخيرات الكثيرة لم يذكر إلا منافع الدين ، ولم يذكر منافع الدنيا البتة ، وقوله تعالى:

﴿ الذي له ملك السموات والأرض ﴾ إشارة إلى احتياج هذه المخلوقات إليه سبحانه وتعالى حال حدوثها ، وأنه تعالى هو المتصرف فيها كيف يشاء ، فلا إنكار أن يرسل رسولاً إلى كل من فيها .

(289/559)

تنبيه : يجوز في الذي الرفع نعتاً للذي الأول أو بياناً أو بدلاً ، أو خبراً لمبتدأ محذوف والنصب على المدح ، وما بعده يدل على أنه من تمام الصلة ، فليس أجنبياً فلا يضر الفصل به بين الموصول الأول والثاني إذا جعلنا الثاني تابعاً له ﴿ ولم يتخذ ولداً ﴾ أي : هو الفرد أبداً ولا يصح أن يكون غيره تعالى معبوداً ووارثاً للملك عنه ، وهذا رد على النصارى ، ﴿ ولم يكن له شريك في الملك ﴾ أي : هو المنفرد بالألوهية ، وإذا عرف العبد ذلك انقطع رجاؤه عن كل من سواه تعالى ولم يشتغل قلبه إلا برحمته وإحسانه ، وفيه ردّ على الوثنية

القائلين بعبادة النجوم والأوثان ، ولما نفى تعالى الشريك ، فكأن قائلاً يقول : ها هنا أقوام يعترفون بنفي الشريك والشركاء والأنداد ومع ذلك يقولون : يخلق أفعال أنفسهم ، فرد الله تعالى عليهم بقوله : ﴿ وخلق كل شيء ﴾ أي : من شأنه أن يخلق ومنه أفعال العباد ، والخلق هنا بمعنى الإحداث أي : أحدث كل شيء إحداثاً مراعى فيه التقدير والتسوية ﴿ فقدره تقديراً ﴾ أي : هيأه لما يصلح له ، مثاله أنه خلق الإنسان على هذا الشكل المقدر الذي تراه ، فقدره للتكاليف والمصالح المنوطة به في بابي الدين والدنيا ، وكذلك كل حيوان وجماد جاء به على الجبلة المستوية المقدرة ، وسمي إحداث الله خلقاً ؛ لأنه لا يحدث شيئاً لحكمة إلا على وجه التقدير من غير تفاوت .

فإذا قيل : خلق الله كذا ، فهو بمنزلة قولك : أحدث وأوجد من غير نظر إلى وجه الاشتقاق ، فكأنه قيل : وأوجد كل شيء فقدره تقديراً في إيجاده ، ولم يوجده متفاوتاً ، ولو حمل خلق كل شيء على معناه الأصلي من التقدير لصار الكلام : وقدر كل شيء فقدره ، فلم يصر له كبير فائدة ، وقيل : فجعل له غاية ومنتهى ومعناه : فقدره للبقاء إلى أمد معلوم ، واختلف في عود الضمير في قوله تعالى:

﴿ واتخذوا من دونه ﴾ أي : الله تعالى أي : غيره ﴿ آلهة ﴾ على ثلاثة أوجه:

أحدها : أنه يعود على الكفار الذين تضمنهم لفظ العالمين .

ثانيها : أنه يعود على من ادعى لله شريكاً وولداً لدلالة قوله تعالى : ﴿ ولم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك ﴾ .

ثالثها : أنه يعود على المنذرين لدلالة نذيراً عليهم ، ولما وصف نفسه سبحانه وتعالى بصفات الجلال والعزة والعلو أردفه بتزييف مذهب من يعبد غيره من وجوه منها : أنها ليست خالقة للأشياء بقوله تعالى : ﴿ لا يخلقون شيئاً ﴾ والإله يجب أن يكون قادراً على الخلق والإيجاد ، ومنها : أنها مخلوقة بقوله تعالى : ﴿ وهم يخلقون ﴾ والمخلوق محتاج والإله يجب أن يكون غنياً ، وغلب العقلاء على غيرهم ؛ لأن الكفار كانوا يعبدون العقلاء كعزير والمسيح والملائكة ، وغيرهم كالكواكب والأصنام التي ينحتونها ويصورونها ، ومنها : أنها لا تملك لأنفسها ضراً ولا نفعاً بقوله تعالى : ﴿ ولا يملكون ﴾ أي : لا يستطيعون ﴿ لأنفسهم ضراً ﴾ أي : دفعه ﴿ ولا نفعاً ﴾ أي : جلبه ومن كان كذلك ، فليس بإله ، ومنها : أنها لا تقدر على موت ولا حياة ولا نشور بقوله تعالى : ﴿ ولا يملكون موتاً ولا حياة ﴾ أي : إماتة لأحد وإحياء لأحد ﴿ ولا نشوراً ﴾ أي : بعثاً للأموات ، فيجب أن يكون المعبود قادراً على إيصال الثواب إلى المطيعين ، والعقاب إلى العصاة ، فمن لا يكون كذلك يجب أن لا يصلح للإلهية .

تنبيه : احتج أهل السنة بقوله تعالى : ﴿ لايخلقون شيئاً ﴾ على أن فعل العبد مخلوق لله

تعالى ؛ لأنه تعالى عاب هؤلاء الكفار من حيث عبدوا ما لا يخلق شيئاً ، وذلك يدل على أن من خلق يستحق أن يعبد ، فلو كان العبد خالقاً لكان معبوداً إلهاً ، ولما تكلم تعالى أولاً على التوحيد ، وثانياً في الرد على عبدة غيره تكلم ، ثالثاً في مسألة النبوة ، وحكى شبه الكفار في إنكار نبوة محمد صلى الله عليه وسلم

الشبهة الأولى : قوله تعالى:

(291/559)

﴿ وقال الذين كفروا ﴾ أي : مظهرو الوصف الذي حملهم على هذا القول ، وهو ستر ما ظهر لهم ولغيرهم كالشمس والاجتهاد في إخفائه ﴿ إن ﴾ أي : ما ﴿ هذا ﴾ أي : القرآن ﴿ إلا إفك ﴾ أي : كذب مصروف عن وجهه ﴿ افتراه ﴾ اختلقه محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ وأعانه عليه ﴾ أي : القرآن ﴿ قوم آخرون ﴾ أي : من غير قومه ، وهم اليهود فإنهم يلقون إليه أخبار الأمم وهو يعبر عنها بعبارته ، وقيل : عداس مولى حويطب بن عبد العزى ويسار مولى العلاء بن الحضرمي ، وأبو فكيهة الرومي كانوا بمكة من أهل الكتاب فزعم المشركون أن محمداً يأخذ منهم فردّ الله تعالى عليهم بقوله تعالى : ﴿ فقد جاؤوا ﴾ أي : قائلوا هذه المقالة ﴿ ظلماً ﴾ وهو جعل الكلام المعجز إفكاً مختلقاً متلقفاً من اليهود ،

وجعلوا العربي يتلقن من العجمي الرومي كلاماً عربياً أعجز بفصاحته جميع فصحاء العرب ﴿ وزوراً ﴾ أي : بهتوه بنسبة ما هو بريء منه إليه ، وقرأ ابن كثير وابن ذكوان وعاصم بإظهار الدال ، والباقون بالإدغام .

تنبيه : جاء وأتى يستعملان في معنى فعل فيعديان تعديته ، وظلماً مفعول به ، وقيل : إنه على إسقاط الخافض أي : جاؤوا بظلم .

الشبهة الثانية : قوله تعالى:

(292/559)

﴿ وقالوا أساطير الأولين ﴾ أي : ما سطره الأولون من أكاذيبهم جمع أسطورة بالضم كأحدوثة ، أو أسطار ﴿ اكتتبها ﴾ أي : تطلب كتابتها له من ذلك القوم وأخذها ، والمعنى أن هذا القرآن ليس من الله تعالى إنما هو مما سطره الأولون الأول كأحاديث رستم واسفنديار استنسخها محمد من أهل الكتاب ﴿ فهي ﴾ أي : فتسبب عن تكلفه ذلك أنها ﴿ تملى عليه ﴾ أي : تقرأ عليه ليحفظها ﴿ بكرة ﴾ قبل أن تنتشر الناس ﴿ وأصيلا ﴾ أي : عشياً حين يأوون إلى مساكنهم ، أو دائماً ليتكلف حفظها بالانتساخ ؛ لأنه أمي لا يقدر أن يكرر من الكتاب ، أو ليكتب وهذا كما ترى لا يقوله من له مسكة في

عقل ، أو مروءة كيف وهو يدعوهم إلى المعارضة ولو بسورة من مثله وفيهم الكتاب والشعراء والبلغاء والخطباء ، وهم أكثر منه مالاً وأعظم أعواناً ولا يقدرون على شيء منه ، فإن قيل : كيف ؟ قيل : اكتتبها فهي تملى عليه ، وإنما يقال : أمليت عليه فهو يكتبها ؟

أجيب : بوجهين : أحدهما : أراد اكتتابها وطلبه ، فهي تملى عليه ، الثاني : أنها كتبت له وهو أمي فهي تملى أي : تلقى عليه من كتاب ليحفظها ؛ لأن صورة الإلقاء على الحافظ كصورة الإلقاء على الكاتب ، وقرأ ﴿ فهي ﴾ قالون وأبو عمرو والكسائي بسكون الهاء ، والباقون بكسرها ، ثم أمره الله تعالى بجوابهم بقوله تعالى:

﴿ قل ﴾ أي : دالاً على بطلان ما قالوه ومهدداً لهم ﴿ أنزله الذي يعلم السر ﴾ أي : الغيب ﴿ في السموات والأرض ﴾ ؛ لأنه أعجزكم عن آخركم بفصاحته وتضمنه أخباراً عن مغيبات مستقبلة وأشياء مكنونة لا يعلمها إلا عالم الأسرار ، فكيف تجعلونه أساطير الأولين مع علمكم أن ما تقولونه باطل وزور ؟ وكذلك باطن رسول الله صلى الله عليه وسلم وبراءته مما يبهتونه ، وهو يجازيكم على ما علم منكم وعلم منه .

فإن قيل : كيف يطابق هذا قوله تعالى : ﴿ إنه كان ﴾ أي : أزلاً وأبداً ﴿ غفوراً رحيماً ﴾ ؟

أجيب : بأنه لما كان ما يقدمه في معنى الوعيد عقبه بما يدل على القدرة عليه ؛ لأنه لا يوصف بالرحمة والمغفرة إلا القادر على العقوبة ، أو هو تنبيه على أنهم استوجبوا بمكابرتهم هذه أن يصب عليهم العذاب صباً ، ولكن صرف ذلك عنهم ؛ لأنه غفور رحيم يمهل ولا يعاجل .

الشبهة الثالثة : قوله تعالى:

﴿ وقالوا ما لهذا الرسول ﴾ أي : ما لهذا الذي يزعم الرسالة ، وفيه استهانة وتهكم وتصغير لشأنه ، وتسميته بالرسول سخرية منه كأنهم قالوا : ما لهذا الزاعم أنه رسول ، ونحوه قول فرعون : ﴿ إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون ﴾ (الشعراء ،) ، أي : إن صح أنه رسول الله فما باله حاله مثل حالنا ﴿ يأكل الطعام ﴾ أي : كما نأكله ﴿ ويمشي ﴾ أي : ويتردد ﴿ في الأسواق ﴾ لطلب المعاش كما نمشي ، فلا يجوز أن يمتاز عنا بالنبوة يعنون : أنه يجب أن يكون ملكاً مستغنياً عن الأكل والشرب والتعيش ، وكذلك كانوا يقولون له : لست أنت بملك ؛ لأنك تأكل الطعام ، والملك لا يأكل ، ولأن الملك لا يتسوق وأنت تتسوق ، وما قالوه فاسد ؛ لأن أكله الطعام لكونه آدمياً ومشيه في الأسواق لتواضعه ، وكان ذلك صفته في التوراة ، ولم يكن صخاباً في الأسواق ، وليس شيء من ذلك ينافي النبوة ، ولأنه لم يدع أنه ملك من الملوك ، ثم نزلوا عن اقتراحهم أن يكون ملكاً إلى اقتراح أن

يكون إنساناً معه ملك حتى يسانده في الإنذار والتخويف ، فقالوا : ﴿ لولا ﴾ أي : هلا ﴿ أنزل إليه ملك ﴾ أي : يصدقه ويشهد له ﴿ فيكون معه نذيراً ﴾ أي : داعياً ، ثم نزلوا أيضاً إلى أنه لم يكن مرفوداً بملك ، فليكن مرفوداً بكنز ، فقالوا :

(294/559)

﴿ أو يلقى إليه كنز ﴾ أي : ينزل عليه كنز من السماء ينفقه فلا يحتاج إلى المشي في الأسواق لطلب المعاش ، ثم نزلوا فاقتنعوا بأن يكون رجلاً له بستان ، فقالوا : ﴿ أو تكون له جنة ﴾ أي : بستان ﴿ يأكل منها ﴾ أي : إن لم يلق إليه كنز فلا أقل أن يكون له بستان كالمياسير فيتعيش بريعه ، وقرأ حمزة والكسائي بالنون أن نأكل نحن منها فيكون له مزية علينا بها ، والباقون بالياء وقوله تعالى : ﴿ وقال الظالمون ﴾ وضع فيه الظاهر موضع المضمر إذ الأصل وقالوا تسجيلاً عليهم بالظلم فيما قالوا ﴿ إن ﴾ أي : ما ﴿ تتبعون إلا رجلاً مسحوراً ﴾ أي : مخدوعاً مغلوباً على عقله ، وقيل : مصروفاً عن الحق ، ولما أنهى تعالى ما ذكر من أقوالهم الناشئة عن ضلالهم التفت سبحانه وتعالى إلى رسوله صلى الله عليه وسلم مسلياً له بقوله تعالى:

﴿ انظر ﴾ أي : يا أفضل الخلق ﴿ كيف ضربوا لك الأمثال ﴾ أي : بالمسحور والمحتاج إلى

ما ينفقه وإلى ملك يقوم معه بالأمر ﴿ فضلوا ﴾ أي : بذلك عن جميع طرق الهدى ﴿ فلا يستطيعون ﴾ أي : في الحال ولا في المآل بسبب الضلال ﴿ سبيلاً ﴾ أي : سلوك سبيل من السبل الموصلة إلى ما يستحق أن يقصد ، بل هم في مجاهل موحشة وفيافي مهلكة ، ولما أثبت أنهم لا علم لهم ولا قدرة ولا يمن ولا بركة أثبت لنفسه سبحانه وتعالى ما يستحق من الكمال الذي يفيض به على من يشاء من عباده ما يشاء بقوله تعالى:

(295/559)

﴿ تبارك ﴾ أي : ثبت ثباتاً مقترناً باليمن والبركة لا ثبات إلا هو ﴿ الذي إن شاء ﴾ فإنه لا مكره له ﴿ جعل لك ﴾ أي : في الدنيا ﴿ خيراً من ذلك ﴾ أي : من الذي قالوه على طريق التهكم من الكنز والبستان ، وقوله تعالى : ﴿ جنات ﴾ بدل من خيراً ، ويجوز أن يكون منصوباً بإضمار أعني ، ثم وصفها بقوله تعالى : ﴿ تجري من تحتها الأنهار ﴾ أي : تكون أرضها عيوناً نابعة أي : في أي موضع أريد منه إجراء نهر جرى ، فهي لا تزال رياً تغني صاحبها عن كل حاجة ولا تحوجة في استمرارها إلى سقي ﴿ ويجعل لك قصوراً ﴾ أيضاً وهي جمع قصر ، وهو المسكن الرفيع ، قال المفسرون : القصور هي البيوت المشيدة ، والعرب تسمي كل بيت مشيد قصراً ، ويحتمل أن يكون لكل جنة قصر ، فيكون مسكناً

ومنتزهاً ، ويجوز أن تكون القصور مجموعة والجنات مجموعة ، وقال مجاهد : إن شاء جعل جنات في الآخرة وقصوراً في الدنيا ، ولم يشأ الله سبحانه وتعالى ما أشار إليه في هذه الآية الشريفة في هذه الدنيا الفانية وأخره إلى الآخرة الباقية ، وقد عرض عليه سبحانه وتعالى ما شاء في ذلك في الدنيا فأباه .

روي أنه عليه الصلاة والسلام قال : "عرض علي ربي ليجعل لي بطحاء مكة ذهباً فقلت : لا يا رب ولكن أشبع يوماً وأجوع يوماً ، أو قال : ثلاثاً أو نحو هذا فإذا جعت تضرعت إليك ، وإذا شبعت حمدتك وشكرتك" ، وعن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "لو شئت لسارت معي جبال مكة ذهباً جاءني ملك فقال : إن ربك يقرأ عليك السلام ويقول لك : إن شئت نبياً عبداً وإن شئت نبياً ملكاً ، فنظرت إلى جبريل عليه السلام فأشار إلي أن ضع نفسك ، فقلت : نبياً عبداً ، قالت : وكان النبي صلى الله عليه وسلم بعد ذلك لا يأكل متكئاً ، ويقول : آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد" .

(296/559)

وعن ابن عباس قال : "بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس وجبريل عليه السلام معه ، فقال جبريل عليه السلام : هذا ملك قد نزل من السماء استأذن ربه في زيارتك ، فلم يلبث إلا قليلاً حتى جاء الملك وسلم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : إن الله يخيرك أن يعطيك مفاتيح كل شيء لم يعطه أحداً قبلك ، ولا يعطيه أحداً بعدك من غير أن ينقصك مما أداك شيئاً ، فقال صلى الله عليه وسلم "بل يجمعها لي في الآخرة" فنزل

﴿ تبارك الذي إن شاء ﴾ الآية ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وشعبة برفع اللام من يجعل ، وفيه وجهان : أحدهما : أنه مستأنف ، والثاني : أنه معطوف على جواب الشرط ؛ لأن الشرط إذا وقع ماضياً جاز في جوابه الجزم والرفع كقوله:

*وإن أتاه خليل يوم مسألة

** يقول لا غائب مالي ولا حرم

والباقون بالجزم ، ويجوز في ﴿ يجعل لك ﴾ إذا أدغمت أن تكون اللام في تقدير الجزم والرفع ، ثم أضرب سبحانه وتعالى عن كلامهم في حق رسوله محمد صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى:

﴿ بل ﴾ أي : لا يظنوا أنهم كذبوا بما جئت به ؛ لأنهم لا يعتقدون فيك كذباً بل ﴿ كذبوا بالساعة ﴾ أي : القيامة ، فقصرت أنظارهم على الحطام الدنيوي ، وظنوا أن الكرامة إنما هي بالمال فلا يرجون ثواباً ولا عقاباً ، فلا يتكلفون النظر والفكر ، ولهذا لا ينتفعون بما يورد

عليهم من الدلائل ﴿ وأعتدنا ﴾ أي : والحال أنا اعتدنا أي : هيأنا بما لنا من العظمة ﴿ لمن كذب ﴾ من هؤلاء وغيرهم ﴿ بالساعة سعيراً ﴾ أي : ناراً شديدة الاتقاد بما أعظموا الحريق في قلوب من كذبوهم من الأنبياء وأتباعهم ، وعن الحسن : أن السعير اسم من أسماء جهنم .

تنبيه : احتج أهل السنة على أن الجنة مخلوقة بقوله تعالى : ﴿ أعدت للمتقين ﴾ (آل عمران ،)

وعلى أن النار وهي دار العقاب مخلوقة بهذه الآية:

(297/559)

﴿ إذا رأتهم من مكان بعيد ﴾ وهو أقصى ما تمكن رؤيتها منه ، وقال الكلبي والسدي : من مسيرة عام ، وقيل : من مسيرة مائة سنة ، روي أنه صلى الله عليه وسلم قال : "من كذب علي متعمداً فليتبوأ بين عيني جهنم مقعداً ، قالوا : وهل لها من عينين ؟ قال : نعم ، ألم تسمع قوله تعالى : إذا رأتهم من مكان بعيد " .

وقال البيضاوي : تبعاً للزمخشري : إذا كانت بمرأى منهم كقوله عليه الصلاة والسلام : لا "تراءي ناراهما " أي لا تتقاربان بحيث تكون إحداهما بمرأى من الأخرى على المجاز .

انتهى ، وهذا تأويل للمعتزلة بناء منهم على أن الرؤية مشروطة بالحياة بخلاف الأشاعرة فإنهم يجوزون رؤيتها حقيقة كتغيظها وزفيرها في قوله تعالى : ﴿ سمعوا لها تغيظاً ﴾ أي : غلياناً كالغضبان إذ غلى صدره من الغضب ﴿ وزفيراً ﴾ أي : صوتاً شديداً إذ لا امتناع من أنها تكون رائية مغتاظة زافرة ، وأشار البيضاوي إلى ذلك بعد ما ذكر بقوله : هذا . وإن الحياة لما لم تكن مشروطة عندنا بالبينة أمكن أن يخلق الله فيها حياة فترى وتتغيظ وتزفر ، وقال الجلال المحلي : وسماع التغيظ رؤيته وعلمه انتهى . قال عبد الله بن عمر : تزفر جهنم يوم القيامة زفرة فلا يبقى ملك مقرب ولا نبي مرسل إلا خر لوجهه ، وقيل : إذا رأتهم زبانيتها تغيظوا وزفروا غضباً عل الكفار للانتقام منهم ، فنسب إليها على حذف مضاف .

(298/559)

﴿ وإذا ألقوا ﴾ أي : طرحوا طرح إهانة ﴿ منها ﴾ أي : النار ﴿ مكاناً ﴾ ثم وصفه تعالى بقوله تعالى : ﴿ ضيقاً ﴾ زيادة في فظاعتها ، قال ابن عباس : يضيق عليهم كما يضيق الزج في الرمح ﴿ مقرنين ﴾ أي : مصفدين زيادة قد قرنت أيديهم إلى أعناقهم من الأغلال ، وقد قيل : الكرب مع الضيق كما أن الروح مع السعة ، ولذلك وصف الله تعالى

الجنة بأن عرضها السموات والأرض ، وجاء في الأحاديث أن لكل مؤمن من القصور والجنان كذا وكذا ، ولقد جمع الله تعالى على أهل النار أنواع الضيق والإرهاق حيث ألقاهم في مكان ضيق يتراصون فيه تراصاً كما مر عن ابن عباس : أنه يضيق عليهم كما يضيق الزج في الرمح ، وهو منقول أيضاً عن ابن عمر ، وسئل النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك فقال : "والذي نفسي بيده إنهم يستكرهون في النار كما يستكره الوتد في الحائط ، وهم مع ذلك الضيق مسلسلون مقرنون في السلاسل قرنت أيديهم إلى أعناقهم ويقرن مع كل كافر شيطانه في سلسلة في أرجلهم" . Y

تنبيه : ﴿ مكاناً ﴾ منصوب على الظرف ، ومنها في محل نصب على الحال من مكاناً ؛ لأنه في الأصل صفة له ، ومقرنين حال من مفعول ﴿ ألقوا ﴾ ، وقرأ ابن كثير ضيقاً بسكون الياء والباقون بكسر الياء مشددة ﴿ دعوا هنالك ﴾ أي : في ذلك المكان البغيض البعيد عن الرفق ﴿ ثبوراً ﴾ قال ابن عباس : ويلاً ، وقال الضحاك : هلاكاً ، فيقولون : واثبوراه هذا حينك وزمانك ؛ لأنه لا منادم لهم غيره ، وليس يحضر أحدً منهم سواه ، قال البغوي : وفي الحديث "إن أول من يكسى حلة من النار إبليس فيضعها على حاجبيه ويسحبها من خلفه ، وذريته من خلفه وهو يقول : يا ثبوراه وهم ينادون : يا ثبورهم حتى يقفوا على النار" فيقال لهم:

﴿ لا تدعوا اليوم ﴾ أي : أيها الكفار ﴿ ثبوراً واحداً ﴾ ؛ لأنكم لا تموتون إذا حلت بكم أسباب العذاب والهلاك ﴿ وادعوا ثبوراً كثيراً ﴾ أي : هلاككم أكثر من أن تدعوا مرة واحدة ، أو ادعوا أدعية كثيرة ، وقال الكلبي : نزل هذا كله في أبي جهل والكفار الذين ذكروا تلك الشبه ، ولما وصف تعالى : العقاب المعدّ للمكذبين بالساعة أتبعه بما يؤكد الحسرة والندامة بقوله تعالى:

قل ﴾ أي : لهؤلاء البعداء البغضاء ﴿ أذلك ﴾ أي : المذكور من الوعيد وصفة النار ﴿ خير أم جنة الخلد ﴾ أي : الإقامة الدائمة ﴿ التي وعد المتقون ﴾ أي : وعدها الله تعالى لهم ، فالراجع إلى الموصوف وهو هاء وعدها محذوف .

فإن قيل : كيف يقال : العذاب خير أم جنة الخلد ، وهل يجوز أن يقول القائل : السكر أحلى أم الصبر ؟

أجيب : بأنه يحسن في معرض التقريع كما إذا أعطى السيد عبده مالاً فتمرد وأبى واستكبر ، فضربه ويقول له : هذا خير أم ذلك ؟ قال أبو مسلم : جنة الخلد هي التي لا ينقطع نعيمها ، والخلد والخلود سواء كالشكر والشكور ، قال تعالى : ﴿ لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً ﴾ (الإنسان ،)

فإن قيل : الجنة اسم لدار الخلد ، فأي فائدة في قوله تعالى : ﴿ جنة الخلد ﴾ ؟

أجيب : بأنّ الإضافة قد تكون للبيتين ، وقد تكون لبيان صفة الكمال كقوله تعالى : ﴿ هو الله الخالق البارئ ﴾ (الحشر ،)

وهذا من هذا البيان أو للتمييز عن جنات الدنيا ، ثم حقق تعالى أمرها تأكيداً للبشارة بقوله : ﴿ كانت لهم جزاء ﴾ أي : ثواباً على أعمالهم بفضل الله تعالى وكرمه ﴿ ومصيراً ﴾ أي : مرجعاً .

فإن قيل : إن الجنة ستصير للمتقين جزاءً ومصيراً لكنها بعد ما صارت كذلك فلم قال تعالى : ﴿ كانت ﴾ ؟

أجيب : من وجهين : الأول : أن ما وعده الله تعالى فهو في تحققه كالواقع ، الثاني : أنه كان مكتوباً في اللوح المحفوظ قبل أن يخلقهم الله تعالى بأزمنة متطاولة أن الجنة جزاؤهم ومصيرهم ، فإن قيل : لم جمع تعالى بين الجزاء والمصير ؟

(300/559)

أجيب : بأن ذلك كقوله تعالى : ﴿ نعم الثواب وحسنت مرتفقاً ﴾ (الكهف ،) ، فمدح الثواب ومكانه ، كما قال تعالى : ﴿ بئس الشراب وساءت مرتفقاً ﴾ (الكهف ،) فذم العذاب ومكانه ؛ لأن النعيم لا يتم للمتنعم إلا بطيب المكان وسعته وموافقته للمراد

والشهوة ، وإلا تنغص ، وكذلك العقاب يتضاعف بغثاثة الموضع وضيقه وظلمته ، فلذلك ذكر المصير مع ذكر الجزاء .

تنبيه : المتقي يشمل من اتقى الكفر وإن لم يتق المعاصي وإن كان غيره أكمل ، ثم ذكر تعالى تنعمهم فيها بعد أن ذكر نعيمهم بقوله تعالى:

﴿ لهم فيها ﴾ أي : الجنة ﴿ ما يشاؤون ﴾ من كل ما تشتهيه أنفسهم كما قال تعالى :

﴿ ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ﴾ (فصلت ،)

﴿ وفيها ما تشتهي الأنفس ﴾ (الزخرف ،)

فإن قيل : أهل الدرجات النازلة إذا شاهدوا الدرجات العالية لابد وأن يريدوها ، فإذا سألوها ربهم فإن أعطاها لهم لم يبق بين الناقص والكامل تفاوت في الدرجة ، وإن لم يعطها لهم قدح ذلك في قوله تعالى : ﴿ لهم فيها ما يشاؤون ﴾ ؟

أجيب : بأن الله تعالى يزيل هذا الخاطر عن قلوب أهل الجنة ويشتغلون بما هم فيه من اللذات عن الالتفات إلى حال غيرهم ، وقوله تعالى : ﴿ خالدين ﴾ منصوب على الحال إما من فاعل يشاؤون ، وإما من فاعل لهم لوقوعه خبراً ، والعائد على ما محذوف أي : لهم فيها الذي يشاؤونه حال كونهم خالدين وقوله تعالى : ﴿ كان على ربك ﴾ أي : وعدهم ما ذكر ﴿ وعداً ﴾ يدل على أن الجنة جعلت لهم بحكم الوعد والتفضل لا بحكم الاستحقاق ، وقوله تعالى : ﴿ مسؤولاً ﴾ أي : مطلوباً ، اختلف في السائل ، فالأكثر على

أن المؤمنين سألوا ربهم في الدنيا حين قالوا : ﴿ ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ﴾ (آل عمران ،)

(301/559)

روي أنه صلى الله عليه وسلم قال : "ما منكم من يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه بها إحدى ثلاث : إما أن يعجل له دعوته ، وإما أن يدخرها له في الآخرة ، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها ، قالوا : إذاً نكثر ؟ قال : الله تعالى أكثر" ، وروي : "أنه يدعى بالمؤمن يوم القيامة حتى يوقفه الله تعالى بين يديه فيقول : عبدي فيقول : نعم يا رب فيقول : إني أمرتك أن تدعوني ووعدتك أن أستجيب لك فهل كنت تدعوني ؟ أما إنك لم تدعني بدعوة إلا استجبت لك أليس دعوتني يوم كذا وكذا لغمٍ نزل بك أن أفرج عنك ففرجت عنك ؟ فيقول : نعم يا رب فيقول : إني عجلتها لك في الدنيا ، ودعوتني يوم كذا وكذا لغمٍ نزل بك أن أفرج عنك فلم تر فرجاً ؟ قال : نعم يا رب فيقول : إني ادّخرت لك بها في الجنة كذا وكذا ، ودعوتني في حاجة أقضيها لك في يوم كذا وكذا فقضيتها ؟ فيقول : نعم يا رب فيقول : إني عجلتها لك في الدنيا ، ودعوتني يوم كذا وكذا في حاجة أقضيها لك فلم تر قضاءها ؟ فيقول : نعم يا رب ، فيقول : إني ادخرت لك بها في الجنة كذا وكذا قال رسول

الله صلى الله عليه وسلم فلا يدع الله دعوة دعا بها عبده المؤمن إلا بين له ، إما أن يكون عجل له في الدنيا وإما أن يكون ادخر له في الآخرة فيقول المؤمن في هذا المقام : يا ليته لم يكن عجل له شيء من دعائه" ، وروي : "لا تعجلوا في الدعاء فإنه لا يهلك مع الدعاء أحد" ، وروي : "ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة" وروي : "يستجاب لأحدكم ما لم يعجل فيقول : دعوت فلم يستجب لي" ، وروي : "لا يزال يستجاب للعبد ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم ما لم يستعجل قيل : يا رسول الله ما الإستعجال قال : يقول : قد دعوت فلم يستجب لي فيستحسر" أي : يمل عند ذلك ويدع الدعاء ، فليدع الإنسان وهو موقن بالإجابة .

(302/559)

وقال محمد بن كعب القرظي : الطلب من الملائكة للمؤمنين سألوا ربهم للمؤمنين بقولهم ﴿ ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ﴾ وقيل : إن المكلفين سألوها بلسان الحال ؛ لأنهم لما تحملوا المشقة الشديدة في طاعة الله كان ذلك قائماً مقام السؤال ، قال المتنبي :

*في النفس حاجات وفيك فطانة

**سكوتي كلام عندها وخطاب

ولما ذكر تعالى حالهم في نفسهم أتبعه ذكر حالهم مع معبوداتهم من دونه بقوله تعالى:

﴿ ويوم ﴾ أي : واذكر لهم يوم ﴿ نحشرهم ﴾ أي : المشركين ، وقرأ ابن كثير وحفص بالياء ، والباقون بالنون ، واختلف في المراد بقوله تعالى : ﴿ وما يعبدون من دون الله ﴾ أي : غيره فقال الأكثرون : من الملائكة والجن والمسيح وعزير وغيرهم ، وقال عكرمة والضحاك والكلبي : من الأصنام ، فقيل لهم : كيف يخاطب الله تعالى الجماد بقوله تعالى : ﴿ فيقول أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء ﴾ أي : أوقعتموهم في الضلال بأمركم إياهم بعبادتكم ﴿ أم هم ضلوا السبيل ﴾ أي : طريق الحق بأنفسهم ، فأجابوا بوجهين:

أحدهما : أنه تعالى يخلق الحياة فيها ويخاطبها .

ثانيهما : أن يكون ذلك بالكلام النفساني لا بالقول اللساني بل بلسان الحال كما ذكره بعضهم في تسبيح الجماد وكلام الأيدي والأرجل ، ويجوز أن يكون السؤال عاماً لهم جميعاً ، فإن قيل : كيف صح استعمال ما في العقلاء ؟

أجيب : على الأول : بأنه أريد به الوصف كأنه قيل : ومعبوديهم ألا تراك تقول إذا أردت السؤال عن صفة زيد : ما زيد تعني أطويل أم قصير ، فقيه أم طبيب ؟ ، وقال تعالى : ﴿ والسماء وما بناها ﴾ (الشمس ،)

﴿ ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ (الكافرون ،) ، وأما على القول الثاني : فواضح ، وأما على القول الثالث : فغلب غير العاقل لغلبة عباده أو تحقيراً ، فإن قيل : ما فائدة هذا السؤال مع أن الله تعالى كان عالماً في الأزل بحال المسؤول عنه ؟

أجيب : بأن هذا سؤال تقريع للمشركين كما قال لعيسى عليه السلام : ﴿ أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله ﴾ (المائدة ،) ، وقرأ ابن عامر فنقول بالنون ، والباقون بالياء ، وقرأ أأنتم نافع وابن كثير بتسهيل الثانية وإدخال ألف بينها وبين همزة الاستفهام ، وورش وابن كثير بتسهيل الثانية ولا ألف بينهما وبين الأولى ولورش وجه آخر وهو إبدال الثانية ألفاً ، وهشام بتسهيل الثانية وتحقيقها مع الإدخال ، والباقون بتحقيقهما ، وقرأ هؤلاء أم هم نافع وابن كثير وأبو عمرو في الوصل بإبدال الهمزة من أم ياء خالصة ، والباقون بتحقيقها .

﴿ قالوا سبحانك ﴾ أي : تنزيهاً لك عما لا يليق بك ، أو تعجباً مما قيل لهم ؛ لأنهم إما ملائكة أو أنبياء معصومون فما أبعدهم عن الضلال الذي هو مختص بإبليس وجنوده ، أو جمادات وهي لا تقدر على شيء ، أو إشعاراً بأنهم الموسومون بتسبيحه وتوحيده ، فكيف يليق بهم إضلال عبيده ؟ ﴿ ما كان ينبغي ﴾ أي : يستقيم ﴿ لنا أن نتخذ ﴾ أي : نتكلف أن نأخذ باختيارنا بغير إرادة منك ﴿ من دونك ﴾ أي : غيرك ﴿ من أولياء ﴾ للعصمة أو لعدم القدرة ، فكيف يستقيم لنا أن نأمر بعبادتنا ؟ فإن قيل : ما فائدة أنتم وهم

، وهلا قيل : أأضللتم عبادي هؤلاء أم ضلوا السبيل ؟

أجيب : بأن السؤال ليس عن الفعل ووجوده ؛ لأنه لولا وجوده ؛ لما توجه هذا العتاب ، وإنما هو عن متوليه فلا بد من ذكره وإيلائه حرف الاستفهام حتى يعلم أنه المسؤول عنه .

(304/559)

تنبيه : من أولياء مفعول أول ، ومن زائدة لتأكيد النفي ، وما قبله المفعول الثاني ، ولما تضمن كلامهم أنا لم نضللهم ولم نحملهم على الضلال حسن الاستدراك بقولهم : ﴿ ولكن متعتهم وآباءهم ﴾ وهو أن ذكروا سببه أي : أنعمت عليهم وعلى آبائهم من قبلهم بأنواع النعم والصحة وطول العمر في الدنيا ، فجعلوا ذلك ذريعة إلى ضلالهم عكس القضية ﴿ حتى نسوا الذكر ﴾ أي : تركوا الإيمان بالقرآن ، وقيل : تركوا ذكرك وغفلوا عنه ﴿ وكانوا ﴾ أي : في علمك بما قضيت عليهم في الأزل ﴿ قوماً بوراً ﴾ أي : هلكى ، وهو مصدر وصف به ، ولذلك يستوي فيه الواحد والجمع ، أو جمع بائر كعائذ وعوذ ، وقوله:

﴿ فقد كذبوكم ﴾ فيه التفات إلى العبدة بالاحتجاج والإلزام على حذف القول ، والمعنى : فقد كذب المعبودون العابدين ﴿ بما ﴾ أي : بسبب ما ﴿ تقولون ﴾ أي : أيها العابدون من أنهم يستحقون العبادة ، وأنهم يشفعون لكم وأنهم أضلوكم ، ولما تسبب عن تخليهم عن

عبدتهم أنه لا نفع في أيديهم ولا ضر قال تعالى : ﴿ فما يستطيعون ﴾ أي : المعبودون ﴿ صرفاً ﴾ أي : لشيء من الأشياء عن أحد من الناس لا أنتم ولا غيركم من عذاب ولا غيره بوجه حيلة ولا شفاعة ولا معاداة ﴿ ولا نصراً ﴾ أي : منعاً لكم من الله تعالى إن أراد بكم سوءاً ، وهذا نحو قوله تعالى : ﴿ لا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا ﴾ (الإسراء ،) ، وقرأ حفص بالتاء على الخطاب ، والباقون بالياء على الغيبة ﴿ ومن يظلم ﴾ أي : بالشرك ﴿ منكم ﴾ أي : أيها المكلفون ﴿ نذقه ﴾ أي بما لنا من العظمة ﴿ عذاباً كبيراً ﴾ أي : شديداً في الدنيا بالقتل أو الأسر أو ضرب الجزية ، وفي الآخرة بنار جهنم ، روى الضحاك عن ابن عباس أنه قال : لما عير المشركون رسول الله صلى الله عليه وسلم بقولهم : ﴿ ما لهذا الرسول ﴾ إلى آخرها أنزل الله تعالى:

(305/559)

﴿ وما أرسلنا قبلك ﴾ أي : يا أشرف الخلق أحداً ﴿ من المرسلين إلا ﴾ وحالهم ﴿ إنهم ليأكلون الطعام ﴾ كما تأكل ويأكل غيرك من الآدمين ﴿ ويمشون في الأسواق ﴾ كما تفعل فهذه عادة مستمرة من الله تعالى في كل رسله وهم يعلمون ذلك بالسماع من أخبارهم ، وهذا تأكيد من الله تعالى ؛ لأنهم لا يكذبونه صلى الله عليه وسلم وقيل : معنى الآية وما

أرسلنا قبلك من المرسلين إلا قد قيل لهم مثل هذا أنهم يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق كما قال تعالى في موضع آخر : ﴿ ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك ﴾ (فصلت ،)

(306/559)

﴿ وجعلنا ﴾ أي بالعطاء والمنع بما لنا من العظمة ﴿ بعضكم ﴾ أي : أيها الناس ﴿ لبعض فتنة ﴾ أى : بلية والمعنى : أنه تعالى ابتلى المرسلين بالمرسل إليهم وبمناصبتهم والعدواة لهم وأقاويلهم الخارجة عن حد الإنصاف ، وجعل الغني فتنة للفقير والصحيح فتنة للمريض والشريف فتنة للوضيع ، يقول الثاني من كل : مالي لا أكون كالأول ؟ وقال ابن عباس : جعلت بعضكم بلاءً لبعض لتصبروا على ما تسمعون منهم وترون من خلافهم فتتبعوا الهدى أم لا ، وقال مقاتل : نزلت هذه الآية في أبي جهل والوليد بن عقبة والعاصي بن وائل والنضر بن الحرث ، وذلك أنهم رأوا أبا ذر وابن مسعود وعماراً وبلالاً وصهيباً وعامر بن فهيرة ومن دونهم قد أسلموا قبلهم ، فقالوا : أنسلم ونكون مثل هؤلاء ؟ وقيل : جعلناك فتنة لهم ؛ لأنك لو كنت غنياً صاحب كنوز وجنات لكان ميلهم إليك وطاعتهم لك للدنيا ، فتكون ممزوجة بالدنيا ، وإنما بعثناك فقيراً لتكون طاعة من يطيعك خالصة لوجه الله من غير طمع دنيوي وقوله تعالى : ﴿ أتصبرون ﴾ أي : على ما تسمعون مما ابتليتم

، به استفهام بمعنى الأمر أي : اصبروا ﴿ وكان ربك ﴾ أي : المحسن إليك إحساناً لم يحسنه إلى أحد سواك لا سيما بجعلك نبياً عبداً ﴿ بصيراً ﴾ أي : بكل شيء فهو عالم بالإنسان قبل الامتحان لم يفده ذلك علماً لم يكن عنده ، ولكن يعلم ذلك شهادة كما يعلم علم الغيب ، ولتقوم عليهم بذلك الحجة فلا يضيقن صدرك ولا تستخفنك أقاويلهم ، فإن صبرك عليها سعادتك وفوزك في الدارين .

روي أنه صلى الله عليه وسلم قال : "إذا نظر أحدكم من فضل عليه في المال والجسم فلينظر إلى من هو دونه في المال والجسم" ، وروي : "انظروا إلى من هو أسفل منكم ، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم حذر أن تزدروا نعمة الله عليكم" . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ السراج المنير حـ 4 صـ 437. 451 ﴾

(307/559)

وقال الشيخ سيد قطب :

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا (1) ﴾

إنه البدء الموحي بموضوع السورة الرئيسي : تنزيل القرآن من عند الله ، وعموم الرسالة إلى البشر جميعا . ووحدانية الله المطلقة ، وتنزيهه عن الولد والشريك ، وملكيته لهذا الكون

كله ، وتدبيره بحكمة وتقدير . . وبعد ذلك كله يشرك المشركون ، ويفتري المفترون ، ويجادل المجادلون ، ويتطاول المتطاولون !

﴿ تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا ﴾ . .

والتبارك تفاعل من البركة ، يوحي بالزيادة فيها والفيض والرفعة جميعا . ولم يذكر لفظ الجلالة واكتفى بالاسم الموصول ﴿ الذي نزل الفرقان ﴾ لإبراز صلته وإظهارها في هذا المقام ، لأن موضوع الجدل في السورة هو صدق الرسالة وتنزيل القرآن .

وسماه الفرقان . بما فيه من فارق بين الحق والباطل ، والهدي والضلال . بل بما فيه من تفرقة بين نهج في الحياة ونهج ، وبين عهد للبشرية وعهد . فالقرآن يرسم منهجا واضحا للحياة كلها في صورتها المستقرة في الضمير ، وصورتها الممثلة في الواقع . منهجا لا يختلط بأي منهج آخر مما عرفته البشرية قبله . ويمثل عهدا جديداً للبشرية في مشاعرها وفي واقعها لا يختلط كذلك بكل ما كان قبله . فهو فرقان بهذا المعنى الواسع الكبير . فرقان ينتهي به عهد الطفولة ويبدأ به عهد الرشد . وينتهي به عهد الخوارق المادية ويبدأ به عهد المعجزات العقلية . وينتهي به عهد الرسالات المحلية الموقوتة ، ويبدأ به عهد الرسالة العامة الشاملة : ﴿ ليكون للعالمين نذيرا ﴾ .

وفي موضع التكريم لرسول الله صلى الله عليه وسلم وفي مقام التعظيم يصفه بالعبودية : ﴿ على عبده ﴾ . . كذلك وصفه في مقام الإسراء والمعراج في سورة الإسراء : ﴿ سبحان

الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ﴾ وكذلك وصفه في مقام دعائه ومناجاته في سورة الجن : ﴿ وأنه لما قام عبد الله يدعوه . . . ﴾

(308/559)

وكذلك يصفه هنا في مقام تنزيل الفرقان عليه كما وصفه في مثل هذا المقام في مطلع سورة الكهف : ﴿ الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً . . ﴾ والوصف بالعبودية في هذه المواضع له دلالته على رفعة هذا المقام ، وأنه أرفع ما يرتفع إليه بشر من بني الإنسان . كما أن فيه تذكيراً خفياً بأن مقام البشرية حين يبلغ مداه لا يزيد على أن يكون مقام العبودية لله . ويبقى مقام الألوهية متفردا بالجلالة ، متجردا من كل شبهة شرك أو مشابهة . ذلك أن مثل مقام الإسراء والمعراج ، أو مقام الدعاء والمناجاة ، أو مقام الوحي والتلقي ، كان مزلة لبعض أتباع الرسل من قبل ، منها نشأت أساطير البنوة لله ، أو الصلة القائمة على غير الألوهية والعبودية . ومن ثم يحرص القرآن على توكيد صفة العبودية في هذا المقام ، بوصفها أعلى أفق يرتفع إليه المختارون من بني الإنسان .

ويرسم الغاية من تنزيل الفرقان على عبده . . . ﴿ ليكون للعالمين نذيراً ﴾ . . . وهذا النص مكي ، وله دلالته على إثبات عالمية هذه الرسالة منذ أيامها الأولى . لا كما يدعي

بعض " المؤرخين " غير المسلمين ، أن الدعوة الإسلامية نشأت محلية ، ثم طمحت بعد اتساع رقعة الفتوح أن تكون عالمية . فهي منذ نشأتها رسالة للعالمين . طبيعتها طبيعة عالمية شاملة ، ووسائلها وسائل إنسانية كاملة ؛ وغايتها نقل هذه البشرية كلها من عهد إلى عهد ، ومن نهج إلى نهج . عن طريق هذا الفرقان الذي نزله الله على عبده ليكون للعالمين نذيراً ، فهي عالمية للعالمين والرسول يواجه في مكة بالتكذيب والمقاومة والجحود . .

تبارك الذي نزل الفرقان على عبده . . . ﴿ الذي له ملك السماوات والأرض . ولم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك وخلق كل شيء فقدره تقديراً ﴾ . .

ومرة أخرى لا يذكر لفظ الجلالة ولكن يذكر الاسم الموصول لإبراز صلته الدالة على صفات يراد توكيدها في هذا المقام :

(309/559)

﴿ الذي له ملك السماوات والأرض ﴾ . . . فله السيطرة المطلقة على السماوات والأرض . سيطرة الملكية والاستعلاء ، وسيطرة التصريف والتدبير ، وسيطرة التبديل والتغيير .

﴿ ولم يتخذ ولداً ﴾ . . . فالتناسل ناموس من النواميس التي خلقها الله لامتداد الحياة ؛

وهو سبحانه باق لا يفنى ، قادر لا يحتاج .

﴿ ولم يكن له شريك في الملك ﴾ . . . وكل ما في السماوات والأرض شاهد على وحدة التصميم ، ووحدة الناموس ، ووحدة التصريف .

﴿ وخلق كل شيء فقدره تقديراً ﴾ . قدر حجمه وشكله . وقدر وظيفته وعمله . وقدر زمانه ومكانه . وقدر تناسقه مع غيره من أفراد هذا الوجود الكبير .

وإن تركيب هذا الكون وتركيب كل شيء فيه ، لما يدعو إلى الدهشة حقا ، وينفي فكرة المصادفة نفيا باتا . ويظهر التقدير الدقيق الذي يعجز البشر عن تتبع مظاهره ، في جانب واحد من جوانب هذا الكون الكبير . وكلما تقدم العلم البشري فكشف عن بعض جوانب التناسق العجيب في قوانين الكون ونسبه ومفرداته اتسع تصور البشر لمعنى ذلك النص القرآني الهائل : ﴿ وخلق كل شيء فقدره تقديراً ﴾ .

.

يقول (أ . كريسي موريسون) رئيس أكاديمية العلوم بنيويورك في كتابه بعنوان : " الإنسان لا يقوم وحده " .

" ومما يدعو إلى الدهشة أن يكون تنظيم الطبيعة على هذا الشكل ، بالغاً هذه الدقة الفائقة . لأنه لو كانت قشرة الأرض أسمك مما هي بمقدار بضعة أقدام ، لامتص ثاني أكسيد الكربون والأوكسجين ، ولما أمكن وجود حياة النبات " .

" ولو كان الهواء أرفع كثيراً مما هو فإن بعض الشهب التي تحترق الآن بالملايين في الهواء الخارجي كانت تضرب جميع أجزاء الكرة الأرضية ، وهي تسير بسرعة تتراوح بين ستة أميال وأربعين ميلا في الثانية . وكان في إمكانها أن تشعل كل شيء قابل للاحتراق . ولو كانت تسير ببطء رصاصة البندقية لارتطمت كلها بالأرض ، ولكانت العاقبة مروعة . أما الإنسان فإن اصطدامه بشهاب ضئيل يسير بسرعة تفوق سرعة الرصاصة تسعين مرة كان يمزقه إربا من مجرد حرارة مروره ! "

" إن الهواء سميك بالقدر اللازم بالضبط لمرور الأشعة ذات التأثير الكيميائي التي يحتاج إليها الزرع ، والتي تقتل الجراثيم وتنتج الفيتامينات ، دون أن تضر بالإنسان ، إلا إذا عرض نفسه لها مدة أطول من اللازم ، وعلى الرغم من الانبعاثات الغازية من الأرض طول الدهور ومعظمها سامّ فإن الهواء باق دون تلويث في الواقع ، ودون تغير في نسبته المتوازنة اللازمة لوجود الإنسان . وعجلة الموازنة العظيمة هي تلك الكتلة الفسيحة من الماء أي المحيط الذي استمدت منه الحياة والغذاء والمطر والمناخ المعتدل ، والنباتات . وأخيراً الإنسان نفسه . . . " .

ويقول في فصل آخر :

" لو كان الأوكسجين بنسبة 50 بالمائة مثلاً أو أكثر في الهواء بدلاً من 21 في المائة فإن جميع المواد القابلة للاحتراق في العالم تصبح عرضة للاشتعال ، لدرجة أن أول شرارة من البرق تصيب شجرة لا بد أن تلهب الغابة حتى لتكاد تنفجر . ولو أن نسبة الأوكسجين في الهواء قد هبطت إلى 10 في المائة أو أقل ، فإن الحياة ربما طابقت نفسها عليها في خلال الدهور . ولكن في هذه الحالة كان القليل من عناصر المدنية التي ألفها الإنسان كالنار مثلا تتوافر له " .

ويقول في فصل ثالث :

(311/559)

" ما أعجب نظام الضوابط والموازنات الذي منع أي حيوان مهما يكن من وحشيته أو ضخامته أو مكره من السيطرة على العالم ، منذ عصر الحيوانات القشرية المتجمدة ! غير أن الإنسان وحده قد قلب هذا التوازن الذي للطبيعة بنقله النباتات والحيوانات من مكان إلى آخر . وسرعان ما لقي جزاءه القاسي على ذلك ، ماثلاً في تطور آفات الحيوان والحشرات والنبات .

" والواقعة الآتية فيها مثل بارز على أهمية تلك الضوابط فيما يتعلق بوجود الإنسان .

فمنذ سنوات عديدة زرع نوع من الصبار في استراليا . كسياج وقائي . ولكن هذا الزرع مضى في سبيله حتى غطى مساحة تقرب من مساحة انجلترا ، وزاحم أهل المدن والقرى ، وأتلف مزارعهم ، وحال دون الزراعة . ولم يجد الأهالي وسيلة تصده عن الانتشار ؛ وصارت أستراليا في خطر من اكتساحها بجيش من الزرع صامت ، يتقدم في سبيله دون عائق ! "

" وطاف علماء الحشرات بنواحي العالم حتى وجدوا أخيراً حشرة لا تعيش إلا على ذلك الصبار ، ولا تتغذى بغيره ، وهي سريعة الانتشار ، وليس لها عدو يعوقها في استراليا . وما لبثت هذه الحشرة حتى تغلبت على الصبار . ثم تراجعت ، ولم يبق منها سوى بقية قليلة للوقاية ، تكفي لصد الصبار عن الانتشار إلى الأبد " .

" وهكذا توافرت الضوابط والموازين ، وكانت دائماً مجدية " .

(312/559)

" ولماذا لم تسيطر بعوضة الملاريا على العالم إلى درجة كان أجدادنا يموتون معها ، أو يكسبون مناعة منها ؟ ومثل ذلك أيضاً يمكن أن يقال عن بعوضة الحمى الصفراء التي

تقدمت شمالاً في أحد الفصول حتى وصلت إلى نيويورك . كذلك البعوض كثير في المنطقة المتجمدة . ولماذا لم تتطور ذبابة " تسي تسي " حتى تستطيع أن تعيش أيضاً في غير مناطقها الحارة ، وتمحو الجنس البشري من الوجود ؟ يكفي أن يذكر الإنسان الطاعون والأوبئة والجراثيم الفاتكة التي لم يكن له وقاء منها حتى الأمس القريب ، وأن يذكر كذلك ما كان له من جهل تام بقواعد الوقاية الصحية ، ليعلم أن بقاء الجنس البشري رغم ذلك يدعو حقاً إلى الدهشة ! . . . "

" إن الحشرات ليست لها رئتان كما للإنسان ؛ ولكنها تتنفس عن طريق أنابيب . وحين تنمو الحشرات وتكبر ، لا تقدر تلك الأنابيب أن تجاريها في نسبة تزايد حجمها . ومن ثم لم توجد قط حشرة أطول من بضع بوصات ، ولم يطل جناح حشرة إلا قليلاً . وبفضل جهاز تكوين الحشرات وطريقة تنفسها لم يكن في الإمكان وجود حشرة ضخمة . وهذا الحد من نمو الحشرات قد كبح جماحها كلها ، ومنعها من السيطرة على العالم . ولولا وجود هذا الضابط الطبيعي لما أمكن وجود الإنسان على ظهر الأرض . وتصور إنساناً فطرياً يلاقي دبوراً يضاهي الأسد في ضخامته ، أو عنكبوتاً في مثل هذا الحجم ! "

" ولم يذكر إلا القليل عن التنظيمات الأخرى المدهشة في فيزيولوجيا الحيوانات ، والتي بدونها ما كان أي حيوان بل كذلك أي نبات يمكن أن يبقى في الوجود . . . الخ " .

وهكذا ينكشف للعلم البشري يوماً بعد يوم ، شيء من تقدير الله العجيب في الخلق ،

وتدبيره الدقيق في الكون ، ويدرك البشر شيئاً من مدلولات قوله في الفرقان الذي نزله على عبده : ﴿ وخلق كل شيء فقدره تقديراً ﴾ .

. .

ومع هذا فإن أولئك المشركين لم يدركوا شيئاً من هذا كله .

(313/559)

﴿ واتخذوا من دونه آلهة ، لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون ؛ ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ؛ ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشوراً ﴾ .

وهكذا يجرد آلهتهم المدعاة من كل خصائص الألوهية فهم ﴿ لا يخلقون شيئاً ﴾ والله خلق كل شيء . ﴿ وهم يخلقون ﴾ . . يخلقهم عبادهم بمعنى يصنعونهم إن كانوا أصناماً وأوثاناً ويخلقهم الله بمعنى يوجدهم إن كانوا ملائكة أو جناً أو بشراً أو شجراً أو حجراً . . ﴿ ولا يملكون لأنفسهم ﴾ فضلاً عن أن يملكوا لعبادهم ﴿ ضراً ولا نفعاً ﴾ والذي لا يملك لنفسه النفع قد يسهل عليه الضر . ولكن حتى هذا لا يملكونه . ومن ثم يقدمه في التعبير بوصفه أيسر شيء كان يملكه أحد لنفسه ! ثم يرتقي إلى الخصائص التي لا يقدر عليها إلا الله : ﴿ ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشوراً ﴾ فلا إماتة حي ، ولا إنشاء

حياة ، ولا إعادتها داخل في مقدورهم . فماذا لهم بعد ذلك من خصائص الألوهية ، وما شبهة أولئك المشركين في اتخاذهم آلهة ؟ !

ألا إنه الانحراف المطلق ، الذي لا يستغرب معه أن يدعوا على الرسول بعد ذلك ما يدعون ، فدعواهم على الله أضخم وأقبح من كل ما يدعون على رسوله . وهل أقبح من ادعاء إنسان على الله وهو خالقه وخالق كل شيء ، ومدبر أمره ومقدر كل شيء . هل أقبح من ادعاء إنسان أن لله شريكاً ؟ " وقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أي الذنب أكبر ؟ قال : أن تجعل لله أنداداً وهو خلقك . . . "

وبعد عرض هذا التطاول على مقام الخالق جل وعلا ، يعرض تطاولهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ويرد عليه عقب عرضه بما يظهر سخفه وكذبه :

﴿ وقال الذين كفروا : إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون . فقد جاءوا ظلماً وزوراً . وقالوا : أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً . قل : أنزله الذي يعلم السر في السماوات والأرض ، إنه كان غفوراً رحيماً ﴾ . . .

(314/559)

وأكذب شيء أن يقول كفار قريش هذه المقالة ، وهم يوقنون في أنفسهم أنها الفرية التي لا تقوم على أساس . فما يمكن أن يخفى على كبرائهم الذين يلقونهم هذا القول أن القرآن الذي يتلوه عليه محمد صلى الله عليه وسلم شيء آخر غير كلام البشر ؛ وهم كانوا يحسون هذا بذوقهم في الكلام ؛ وكانوا لا يملكون أنفسهم من التأثر بالقرآن . ثم هم كانوا يعلمون عن محمد قبل البعثة أنه الصادق الأمين الذي لا يكذب ولا يخون . فكيف به يكذب على الله ، وينسب إليه قولاً لم يقله ؟

ولكنه العناد والخوف على مراكزهم الاجتماعية المستمدة من سيادتهم الدينية ، كان يجنح بهم إلى هذه المناورات يطلقونها في وسط جمهور العرب ، الذين قد لا يميزون بين الكلام ، ولا يعرفون درجته : ﴿ إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون ﴾ . قيل : إنهم عبيد أعاجم ثلاثة أو أكثر ، هم الذين كانوا يعنونهم بهذه المقالة . وهو كلام متهافت تافه لا يقف للجدل . فإن كان بشر يملك أن يفتري مثل هذا القرآن بمعاونة قوم آخرين ، فما يمسكهم هم عن الإتيان بمثله ، مستعينين بأقوام منهم ، ليبطلوا حجة محمد صلى الله عليه وسلم وهو يتحداهم به وهم عاجزون ؟ !

ومن ثم لا يجادلهم هنا ولا يناقشهم في هذا القول المتهافت ؛ إنما يدمغهم بالوصف البارز الثابت :

﴿ فقد جاءوا ظلماً وزوراً ﴾ . . . ظلماً للحق ، ولمحمد ، ولأنفسهم ، وزوراً واضح

الكذب ظاهر البطلان . ثم يمضي في استعراض مقولاتهم عن الرسول – صلى الله عليه وسلم وعن القرآن :

﴿ وقالوا : أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً ﴾ . . .

(315/559)

ذلك لما وجدوا فيه من قصص الأولين التي يسوقها للعبرة والعظة ، وللتربية والتوجيه ، فقالوا عن هذا القصص الصادق : ﴿ أساطير الأولين ﴾ وزعموا أن الرسول صلى الله عليه وسلم طلب أن تكتب له ، لتقرأ عليه في الصباح والمساء إذ كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب ثم يقولها هو بدوره ، وينسبها إلى الله ! وهذا استطراد في دعواهم التي لا تقوم على أساس ، ولا تثبت للمناقشة . وإن سياقة القصص في القرآن بهذا التنسيق في عرضه ؛ وبهذا التناسق بينه وبين الموضوع الذي يساق فيه ، ويستشهد بالقصص عليه ؛ وبهذا التناسب بين أهداف القصص وأهداف السياق في السورة الواحدة . . إن هذا كله ليشهد بالقصد والتدبير العميق اللطيف الذي لا يلحظ في الأساطير المبعثرة التي لا تجمعها فكرة ، ولا يوجهها قصد ، إنما تساق للتسلية وتزجية الفراغ !

وفي قولهم : إنها أساطير الأولين إشارة إلى بعدها في الزمان ؛ فلا يعلمها محمد صلى الله

عليه وسلم إلا أن تملى عليه من حفاظ الأساطير ، الذين ينقلونها جيلاً عن جيل . لذلك يرد عليهم بأن الذي يمليها على محمد أعلم من كل عليم . فهو الذي يعلم الأسرار جميعاً ، ولا يخفى عليه نبأ في الأولين والآخرين : ﴿ قل : أنزله الذي يعلم السر في السماوات والأرض ﴾ . . فأين علم حفاظ الأساطير ورواتها من ذلك العلم الشامل ؟ وأين أساطير الأولين من السر في السماوات والأرض ؟ وأين النقطة الصغيرة من الخضم الذي لا ساحل له ولا قرار ؟

ألا إنهم ليرتكبون الخطيئة الكبيرة ، وهم يدعون على رسوله الله صلى الله عليه وسلم تلك الدعوى المتهافتة ؛ ومن قبل يصرون على الشرك بالله وهو خلقهم . . ولكن باب التوبة مع ذلك مفتوح ، والرجوع عن الإثم ممكن ، والله الذي يعلم السر في السماوات والأرض . ويعلم ما يفترون وما يكيدون ، غفور رحيم : ﴿ إنه كان غفوراً رحيماً ﴾ .

.

(316/559)

ثم يستطرد في عرض مقولاتهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم واعتراضاتهم الجاهلة على بشريته ، واقتراحاتهم المتعنتة على رسالته :

﴿ وقالوا : ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ؟ لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً ! أو يلقى إليه كنز ، أو تكون له جنة يأكل منها . وقال الظالمون : إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً . انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلاً . تبارك الذي إن شاء جعل لك خيراً من ذلك : جنات تجري من تحتها الأنهار ، ويجعل لك قصوراً ﴾ . . .

ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ؟ ما له بشراً يتصرف تصرفات البشر ؟ إنه الاعتراض المكرور الذي رددته البشرية عن كل رسول ! كيف يمكن أن يكون فلان ابن فلان ، المعروف لهم ، المألوف في حياتهم ، الذي يأكل كما يأكلون ، ويعيش كما يعيشون . . كيف يمكن أن يكون رسولاً من عند الله يوحى إليه ؟ كيف يمكن أن يتصل بعالم آخر غير عالم الأرض يتلقى عنه ؟ وهم يرونه واحداً منهم من لحم ودم . وهم لا يوحى إليهم ، ولا يعرفون شيئاً عن ذلك العالم الذي يأتي منه الوحي لواحد منهم ، ولا يتميز في شيء عنهم .

والمسألة من هذا الجانب قد تبدو غريبة مستبعدة . ولكنها من الجانب الآخر تبدو طبيعية مقبولة . . لقد نفخ الله من روحه في هذا الإنسان ؛ وبهذه النفخة الإلهية تميز وصار إنساناً ، واستخلف في الأرض . وهو قاصر العلم ، محدود التجربة ، ضعيف الوسيلة ، وما كان الله ليدعه في هذه الخلافة دون عون منه ، ودون هدي ينير له طريقه . وقد أودعه الاستعداد للاتصال به عن طريق تلك النفخة العلوية التي ميزته . فلا عجب أن يختار الله واحداً من هذا الجنس ؛ صاحب استعداد روحي للتلقي ؛ فيوحي إليه ما

يهدي به إخوانه إلى الطريق كلما غام عليهم الطريق ، وما يقدم به إليهم العون كلما كانوا في حاجة إلى العون .

(317/559)

إنه التكريم الإلهي للإنسان يبدو في هذه الصورة العجيبة من بعض جوانبها ، الطبيعية من البعض الآخر . ولكن الذين لا يدركون قيمة هذا المخلوق ، ولا حقيقة التكريم الذي أراده الله له ، ينكرون أن يتصل بشر بالله عن طريق الوحي ؛ وينكرون أن يكون واحد من هؤلاء البشر رسولاً من عند الله . يرون الملائكة أولى بهذا وأقرب : ﴿ لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً ﴾ . والله قد أسجد الملائكة للإنسان بما أودعه من الخصائص الفائقة ، الناشئة من النفخة العلوية الكريمة .

وإنها الحكمة الإلهية كذلك تبدو في رسالة واحد من البشر إلى البشر . واحد من البشر يحس إحساسهم ، ويتذوق مواجدهم ، ويعاني تجاربهم ، ويدرك آلامهم وآمالهم ، ويعرف نوازعهم وأشواقهم ، ويعلم ضروراتهم وأثقالهم . . ومن ثم يعطف على ضعفهم ونقصهم ، ويرجو في قوتهم واستعلائهم ، ويسير بهم خطوة خطوة ، وهو يفهم ويقدر بواعثهم وتأثراتهم واستجاباتهم ، لأنه في النهاية واحد منهم ، يرتاد بهم الطريق إلى الله ، بوحي من الله وعون

منه على وعثاء الطريق !

وهم من جانبهم يجدون فيه القدوة الممكنة التقليد ، لأنه بشر منهم ، يتسامى بهم رويداً رويداً ؛ ويعيش فيهم بالأخلاق والأعمال والتكاليف التي يبلغهم أن الله قد فرضها عليهم ، وأرادها منهم ؛ فيكون هو بشخصه ترجمة حية للعقيدة التي يحملها إليهم .

وتكون حياته وحركاته وأعماله صفحة معروضة لهم ينقلونها سطراً سطراً ، ويحققونها معنى معنى ، وهم يرونها بينهم ، فتهفو نفوسهم إلى تقليدها ، لأنها ممثلة في إنسان ؛ ولو كان ملكاً ما فكروا في عمله ولا حاولوا أن يقلدوه ؛ لأنهم منذ البدء يشعرون أن طبيعته غير طبيعتهم ، فلا جرم يكون سلوكه غير سلوكهم على غير أمل في محاكاته ، ولا شوق إلى تحقيق صورته !

(318/559)

فهي حكمة الله الذي خلق كل شيء فقدره تقديراً . هي حكمة الله البالغة أن جعل الرسول بشراً ليؤدي دوره على قيادة البشر . والاعتراض على بشرية الرسول جهل بهذه الحكمة . فوق ما فيه من جهل بتكريم الله للإنسان !

وكان من اعتراضاتهم الساذجة الجاهلة أن هذا الرسول يمشي في الأسواق ليكسب

رزقه . فهلا كفاه الله ذلك ، وحباه بالمال الكثير عن غير كد ولا عمل : ﴿ أو يلقى إليه كنز ، أو تكون له جنة يأكل منها ﴾ !

والله لم يرد لرسوله صلى الله عليه وسلم أن يكون له كنز ولا أن تكون له جنة . لأنه أراد أن يكون قدوة كاملة لأمته ؛ ينهض بتكاليف رسالته الضخمة الهائلة ، وهو في الوقت ذاته يسعى لرزقه كما يسعى رجل من أمته . فلا يقولن أحد من أمته يكد لعيشه : لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مكفي الحاجة ، لا يعاني صراع العيش ، ومن ثم فرغ لعقيدته ورسالته ، وتكاليفه ، فلم يعوقه عائق مما أعاني . . فها هو ذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يعمل ليعيش ، ويعمل لرسالته ، فلا أقل من أن ينهض كل أحد من أمته بنصيبه الصغير من تكاليف هذه الرسالة وقدوته أمامه ولقد انهال المال بعد ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم – كي تتم التجربة من جانبها الآخر وتتم القدوة . فلم يدع هذا المال يشغله أو يعطله ، فكان كالريح المرسلة في جوده ، حتى يستعلي على فتنة المال ، ويرخص من قيمته في النفوس ؛ وكي لا يقولن أحد بعد ذلك : إنما نهض محمد صلى الله عليه وسلم برسالته ، لأنه عاش فقيراً لا يشغله من المال شاغل ، فها هو ذا المال يأتيه غزيراً وفيراً ، ولكنه يمضي في دعوته كذلك . شأنه يوم أن كان فقيراً .

وما المال ؟ وما الكنوز ؟ وما الجنان ؟ حين يتصل الإنسان الفاني الضعيف بالله الباقي

القوي ؟ ما هذه الأرض وما فيها ؟ بل ما هذا الكون المخلوق كله ، بعد الاتصال بالله خالق كل شيء ، وواهب الكثير والقليل ؟ ولكن القوم ما كانوا يوم ذلك يدركون !

(319/559)

﴿ وقال الظالمون : إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً ﴾ .

.

وهي كلمة ظالمة فاحشة حكاها عنهم هنا ، وحكاها عنهم كذلك في سورة الإسراء .

ورد عليها هنا وهناك رداً واحداً :

﴿ انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلاً ﴾ . . .

وكلتا السورتين تعالجان موضوعاً متقارباً ، في جو متقارب هنا وهناك . . وقولتهم تلك يقصدون بها الإساءة إلى شخص رسول الله صلى الله عليه وسلم والتنقص منه . إذ يمثلونه برجل سحر عقله ، فهو يقول كلاماً غريباً لا يقوله الطبيعيون من الناس ! ولكنها في الوقت ذاته تشي بشعورهم الداخلي بأن ما يقوله غير طبيعي ، ولا مألوف ، ولا هو من عادة البشر ولا من مستوى البشر . . والرد عليهم يوحي بالتعجيب من أمرهم : ﴿ انظر كيف ضربوا لك الأمثال ﴾ وشبهوك بالمسحورين مرة ، واتهموك بالتزوير مرة ، ومثلوك برواة

الأساطير مرة . . وكله ضلال ، وبعد عن إدراك الحق ﴿ فضلوا ﴾ ضلوا عن كل طريق للحق ، وكل سبيل للهدي ﴿ فلا يستطيعون سبيلاً ﴾ .

وينهي هذا الجدل ببيان تفاهة ما يقترحون وما يتصورون من أعراض الحياة الدنيا ، التي يحسبونها ذات قيمة ، ويرونها أجدر أن يعطيها الله لرسوله إن كان حقاً رسولاً ، من كنز يلقى إليه ، أو جنة يأكل منها . فلو شاء الله لأعطاه أكبر مما يقترحون من هذا المتاع :

﴿ تبارك الذي إن شاء جعل لك خيراً من ذلك : جنات تجري من تحتها الأنهار ، ويجعل لك قصوراً ﴾ .

ولكنه شاء أن يجعل له خيراً من الجنات والقصور . الاتصال بواهب الجنات والقصور . والشعور برعايته وحياطته ، وتوجيهه وتوفيقه . . وتذوق حلاوة ذلك الاتصال ، الذي لا تقاربه نعمة من النعم ، ولا متاع صغر أو عظم . وشتان شتان لو كانوا يدركون أو يتذوقون !

(320/559)

وعند هذا الحد من استعراض مقولاتهم الظالمة عن الله وعلى رسول الله ، يكشف عن مدى آخر من آماد كفرهم وضلالهم . فهم يكذبون بالساعة ، ومن ثم لا يتحرجون من ظلم ولا افتراء ، ولا يخشون يوماً يلقون فيه الله فيحاسبهم على الظلم والافتراء . وهنا يصورهم

في مشهد من مشاهد القيامة يزلزل القلوب الصلدة ويهز المشاعر الخامدة ، ويطلعهم على هول ما ينتظرهم هناك ؛ وعلى حسن ما ينتظر المؤمنين في ذلك الهول العظيم :

﴿ بل كذبوا بالساعة وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيراً ، إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظاً وزفيراً ، وإذا ألقوا منها مكاناً ضيقاً مقرنين دعوا هنالك ثبوراً . لا تدعوا اليوم ثبوراً واحداً وادعوا ثبوراً كثيراً ! ﴾

﴿ قل : أذلك خير أم جنة الخلد التي وعد المتقون لهم جزاءً ومصيراً ، لهم فيها ما يشاءون خالدين ، كان على ربك وعداً مسئولاً ؟ ﴾ . .

بل كذبوا بالساعة . . وبلغوا هذا المدى من الكفر والضلال . هذا المدى الذي يصوره التعبير بعيداً متطاولاً ، يضرب عن كل ما قبله ليبرزه ويجسمه : ﴿ بل كذبوا بالساعة ﴾ .

. ثم يكشف عن الهول الذي ينتظر أصحاب هذه الفعلة الشنيعة . إنها السعير حاضرة مهيأة : ﴿ وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيراً ﴾ . .

والتشخيص ونعني به خلع الحياة وتجسيمها على ما ليس من شأنه الحياة المجسمة من الأشياء والمعاني والحالات النفسية فن في القرآن ، يرتفع بالصور وبالمشاهد التي يعرضها إلى حد الإعجاز ، بما يبث فيها من عنصر الحياة .

ونحن هنا أمام مشهد السعير المتسعرة ، وقد دبت فيها الحياة ! فإذا هي تنظر فترى أولئك المكذبين بالساعة . تراهم من بعيد ! فإذا هي تتغيظ وتزفر فيسمعون زفيرها وتغيظها ؛

وهي تتحرق عليهم ، وتصعد الزفرات غيظاً منهم ؛ وهي تتميز من النقمة ، وهم إليها في الطريق ! . . مشهد رعيب يزلزل الأقدام والقلوب !

(321/559)

ثم ها هم أولاء قد وصلوا . فلم يتركوا لهذه الغول طلقاء . يصارعونها فتصرعهم ، ويتحامونها فتغلبهم . بل ألقوا إليها إلقاء . ألقوا مقرنين ، قد قرنت أيديهم إلى أرجلهم في السلاسل . وألقوا في مكان منها ضيق ، يزيدهم كربة وضيقاً ، ويعجزهم عن التفلت والتململ . . ثم ها هم أولاء يائسون من الخلاص ، مكروبون في السعير . فراحوا يدعون الهلاك أن ينقذهم من هذا البلاء : ﴿ وإذا ألقوا منها مكاناً ضيقاً مقرنين دعوا هنالك ثبوراً ﴾ . . . فالهلاك اليوم أمنية المتمني ، والمنفذ الوحيد للخلاص من هذا الكرب الذي لا يطاق . . ثم ها هم أولاء يسمعون جواب الدعاء . يسمعون تهكماً ساخراً مريراً : ﴿ لا تدعوا اليوم ثبوراً واحداً وادعوا ثبوراً كثيراً ﴾ . فهلاك واحد لا يجدي شيئاً ولا يكفي شيئاً ! .

وفي هذا الموقف المكروب الرعيب يعرض ما أعد للمتقين ، الذين يخشون ربهم ويرجون لقاءه ، ويؤمنون بالساعة . يعرض في أسلوب متهكم كذلك ساخر .

﴿ قل : أذلك خير ؟ أم جنة الخلد التي وعد المتقون كانت لهم جزاءً ومصيراً ؛ لهم فيها ما يشاءون خالدين . كان على ربك وعداً مسؤولاً ؟ "

أذلك الكرب الفظيع خير ؟ أم جنة الخلد التي وعدها الله المتقين ، وخولهم حق سؤاله عنها ، وطلب تحقيق وعده الذي لا يخلف ، ومنحهم أن يطلبوا فيها ما يشاءون ؟ وهل هناك وجه للموازنة ؟ ولكنها السخرية المريرة بالساخرين الذين يتطاولون على الرسول الكريم .

ثم يمضي مستطرداً يعرض مشهداً آخر من مشاهد الساعة التي كذب بها المكذبون .

مشهد أولئك المشركين ، وقد حشروا مع آلهتهم التي كانوا يزعمون ، ووقف الجميع عباداً ومعبودين أمام الديان يسألون ويجيبون !

(322/559)

﴿ ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله ، فيقول : أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء ، أم هم ضلوا السبيل ؟ قالوا : سبحانك ! ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء . ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر ، وكانوا قوماً بوراً . . فقد كذبوكم بما تقولون ، فما تستطيعون صرفاً ولا نصراً . ومن يظلم منكم نذقه عذاباً كبيراً ﴾ . .

وما يعبدون من دون الله قد يكونون هم الأصنام .

وقد يكونون هم الملائكة والجن ، وكل معبود من دون اللّه . وإن اللّه ليعلم . ولكن الاستجواب هكذا في الساحة الكبرى ، وهم محشورون أجمعين ، فيه تشهير وتأنيب ، وهو ذاته عذاب مرهوب ! والجواب هو الإنابة من هؤلاء «الآلهة» ! الإنابة للّه الواحد القهار .

وتنزيهه عن ذلك الافتراء ، والتبرؤ لا من ادعاء الألوهية ، ولكن من مجرد أن يتخذوا لهم أولياء من دون اللّه ، والزراية على أولئك الجاحدين الجهال :

قالُوا سُبْحانَكَ ما كانَ يَنْبَغِي لَنا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِياءَ . وَلكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآباءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ ، وَكانُوا قَوْماً بُوراً» . .

فهذا المتاع الطويل الموروث – على غير معرفة بواهب النعمة ولا توجه ولا شكر – قد ألهاهم وأنساهم ذكر المنعم ، فانتهت قلوبهم إلى الجدب والبوار . كالأرض البور لا حياة فيها ولا زرع ولا ثمار . والبوار الهلاك ، ولكن اللفظ يوحي كذلك بالجدب والخواء . جدب القلوب ، وخواء الحياة .

عندئذ يتوجه إلى أولئك العباد الجهال بالخطاب المخزي المهين :

«فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِما تَقُولُونَ. فَما تَسْتَطِيعُونَ صَرْفاً وَلا نَصْراً» . . لا صرف العذاب ولا الانتصار.

وبينما المشهد في الآخرة يوم الحشر. ينتقل السياق فجأة إلى المكذبين وهم بعد في الأرض:

«وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ: نُذِقْهُ عَذاباً كَبِيراً» . .

ذلك على طريقة القرآن في لمس القلوب في اللحظة التي تتهيأ فيها للاستجابة وهي متأثرة بمثل ذلك المشهد المرهوب! والآن وقد شهدوا وشهد رسول اللّه - صلّى اللّه عليه وسلّم - نهاية الافتراء والتكذيب والاستهزاء. ونهاية الاعتراض على بشرية الرسول وأكله الطعام ومشيه في الأسواق . . الآن يعود إلى الرسول - صلّى اللّه عليه وسلّم - يسليه ويؤسيه، بأنه لم يكن بدعا من الرسل، فكلهم يمشون على سواء:

«وَما أَرْسَلْنا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْواقِ وَجَعَلْنا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً. أَتَصْبِرُونَ؟ وَكانَ رَبُّكَ بَصِيراً» . .

فإذا كان هناك اعتراض فليس هو اعتراضا على شخصه. إنما هو اعتراض على سنة من سنن اللّه. سنة مقدرة مقصودة لها غايتها المرسومة: «وَجَعَلْنا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً».

ليعترض من لا يدركون حكمة اللّه وتدبيره وتقديره . وليصبر من يثق باللّه وحكمته ونصره . ولتمضي الدعوة تغالب وتغلب بوسائل البشر وطرائق البشر .

وليثبت من يثبت على هذا الابتلاء : «أَتَصْبِرُونَ؟» . . «وَكانَ رَبُّكَ بَصِيراً» . بصيرا بالطبائع والقلوب ، والمصائر والغايات . ولهذه الإضافة هنا «وَكانَ رَبُّكَ» إيحاؤها وظلها ونسمتها الرخية على قلب الرسول – صلّى اللّه عليه وسلّم – في مقام التأسية والتسلية والإيواء والتقريب . . واللّه بصير بمداخل القلوب . . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الظلال حـ 5 صـ 2547.2556﴾

(325/559)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الستون بعد الخمسمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/560)

الجزء الستون بعد الخمسمائة

من الآية ﴿ 32 ﴾ من سورة الفرقان

وحتى الآية ﴿ 46 ﴾ من نفس السورة

(4/560)

قوله تعالى ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا (32) وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا (33) الَّذِينَ

يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا (34) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما ذكر سبحانه شكايته من هجرانهم للقرآن ، وقرر عداوتهم له ونصرته عليهم ، أتبع ذلك بما يدل عليه ، فقال عطفاً على ما مضى من الأشباه في الشبه ، وأظهر موضع الإضمار تنبيهاً على الوصف الذي حملهم على هذا القول : ﴿ وقال الذين كفروا ﴾ أي غطوا عدواة وحسداً ما تشهد عقولهم بصحته من أن القرآن كلام لإعجازه لهم متفرقاً ، فضلاً عن كونه مجتمعاً ، وغطوا ما وضح لهم من آثاره الظاهرة الشاهد بوحدانيته ، وغير ذلك من صفاته العلية : ﴿ لولا ﴾ أي هلا .

ولما كانوا لشدة ضعفهم لا يكادون يسمحون بتسمية القرآن تنزيلاً فضلاً عن أن يسندوا إنزاله إلى الله سبحانه وتعالى ، بنوا للمفعول في هذه الشبهة التي أوردها قولهم : ﴿ نُزِّل عليه ﴾ ولما عبروا بصيغة التفعيل المشيرة إلى التدريج والتفريق استجلاباً للسامع لئلا يعرض عنهم ، أشاروا إلى أن ذلك غير مراد فقالوا : ﴿ القرآن ﴾ أي المقتضي اسمه للجمع ؛ ثم صرحوا بالمراد بقولهم : ﴿ جملة ﴾ وأكدوا بقولهم : ﴿ واحدة ﴾ أي من أوله إلى آخره بمرة ، ليتحقق أنه من عند الله ، ويزول عنا ما نتوهمه من أنه هو الذي يرتبه قليلاً قليلاً ، فتعبيرهم بما يدل على التفريق أبلغ في مرادهم ، فإنهم أرغبوا السامع في الإقبال على كلامهم

بتوطينه على ما يقارب مراده ، ثم أزالوا بالتدريج أتم إزالة ، فكان في ذلك من المفاجأة بالروعة والإقناط مما أمّل من المقاربة ما لم يكن في " أنزل " والله أعلم .

(5/560)

ولما كان التقدير : وما له ينزل عليه مفرقاً ، وكان للتفريق فوائد جليلة ، أشار سبحانه إلى عظمتها بقوله معبراً للإشارة إلى ما اشتملت عليه من العظمة بأداة البعد : ﴿كذلك﴾ أي أنزلناه شيئاً فشيئاً على هذا الوجه العظيم الذي أنكروه ﴿لنثبت به فؤادك﴾ بالإغاثة بتردد الرسل بيننا وبينك ، وبتمكينك وتمكين أتباعك من تفهم المعاني ، وتخفيفاً للأحكام ، في تحميلها أهل الإسلام ، بالتدريج على حسب المصالح ، ولتنافي الحكمة في الناسخ والمنسوخ ، لما رتب فيه من المصالح ، وتسهيلاً للحفظ لا سيما والأمة أمية لا تقرأ ولا تكتب ، وتلقيناً للأجوبة في أوقاتها ، وتعظيماً للإعجاز ، لأن ما تحدى بنجم منه فعجز عنه علم أن العجز عن أكثر منه أولى ، فالحاصل أن التفريق أدخل في باب الإعجاز وفي كل حكمة ، فعلم أن هذا الاعتراض فضول ومماراة بما لا طائل تحته من ضيق الفطن ، وقلة الحلية ، وحرج الخطيرة ، دأب المقطوع المبهوت ، لأن المدار الإعجاز ، وأما كونه جملة أو مفرقاً فأمر لا فائدة لهم فيه ، وليست الإشارة محتملة لأن تكون للكتب الماضية ، لأن

نزولها إنما كان منجماً كما بينته في سورة النساء عن نص التوراة المشير إليه نص كتابنا ، لا كما يتوهمه كثير من الناس ، ولا أصل له إلا كذبة من بعض اليهود شبهوا بها على أهل الإسلام فمشت على أكثرهم وشرعوا يتكلفون لها أجوبة ، واليهود الآن معترفون بأن التوراة نزلت في نحو عشرين سنة والله الموفق .

ولما كان إنزله مفرقاً أحسن ، أكده بقوله عطفاً على الفعل الذي تعلق به "كذلك" ﴿ ورتلناه ترتيلاً ﴾ أي فرقناه في الإنزال إليك تفريقاً في نيف وعشرين سنة ؛ وقال البغوي : قال ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ : بيناه بياناً ، والترتيل : التبين في ترسل وتثبت انتهى . وأصله ترتيل الأسنان وهو تفليجها كنور الأقحوان .

(6/560)

ولما كان التقدير : قد بطل ما أتوا به هذا الاعتراض ، عطف عليه قوله : ﴿ ولا يأتونك ﴾ أي المشركون ﴿ بمثل ﴾ أي باعتراض في إبطال أمرك يخيلون به لعقول الضعفاء بما يجتهدون في تنميقه وتحسينه وتدقيقه حتى يصير عندهم في غاية الحسن والرشاقة لفظاً ومعنى ﴿ إلا جئناك ﴾ أي في جوابه ﴿ بالحق ﴾ ومن الألف واللام الدالة على الكمال يُعرَف أن المراد به الثابت الذي لا شيء أثبت منه ، فيرهق ما أتوا به لبطلانه ، ويفتضح بعد ذلك

الستر فضيحة تخجّل القائل والسامع القابل .

ولما كان التقدير في الأصل : بأحق منه ، وإنما عبر بالحق ، لئلا يفهم أن لما يأتون به وجهاً في الحقيقة ، عطف عليه قوله : ﴿ وأحسن ﴾ أي من مثلهم ﴿ تفسيراً ﴾ أي كشفاً لما غطى الفهم من ذلك الذي خيلوا به وادعوا أنهم أوضحوا به وجهاً من وجوه المطاعن ، فجزم أكثر من السامعين بحسنه .

(7/560)

ولما أنتجت هذه الآيات كلها أنهم معاندون لربهم ، وأنهم يريدن بهذه السؤالات أن يضللوا سبيله ، ويحتقروا مكانته ، ويهدروا منزلته ، علم قطعاً أنه يعمر بهم دار الشقاء ، وكان ذلك أدل على أنهم أعمى الناس عن الطرق المحسوسة ، فضلاً عن الأمثال المعلومة ، والتمثيل للمدارك الغامضة ، وأنهم أحقر الناس لأنه لا ينتقص الأفاضل إلا ناقص ، ولا يتكلم الإنسان إلا فيمن هو خير منه ، قال معادلاً لقوله : ﴿ أصحاب الجنة يومئذ خير ﴾ [الفرقان : 24] واصفاً لما تقدم أنه أظهره موضع الإضمار من قوله ﴿ الذين كفروا ﴾ [الفرقان : 32] ﴿ الذين يحشرون ﴾ أي يجمعون قهراً ماشين مقلوبين ﴿ على وجوههم ﴾ أو مسحوبين ﴿ إلى جهنم ﴾ كما أنهم في الدنيا كانوا يعملون ما كأنهم معه لا

يبصرون ولا تصرف لهم في أنفسهم ، تؤزهم الشياطين أزاً ، فإن الآخرة مرآة الدنيا ، مهما عمل هنا رئي هناك ، كما أن الدنيا مزرعة الآخرة ، مهما عمل فيها جنيت ثمرته هناك " روى البخاري عن أنس - رضى الله عنهما - أن رجلاً قال : يا نبي الله ! كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة ؟ قال : " أليس الذي أمشاه على الرجلين في الدنيا قادراً على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة ؟ قال قتادة : يعني الراوي عن أنس : بلى وعزة ربنا " .

ولما وصف المتعنتين في أمر القرآن بهذا الوصف ، استأنف الإخبار بأنهم متصفون بما ألزموا به من أن الإتيان بالقرآن مفرقاً وضع للشيء في غير موضعه فقال : ﴿ أولئك ﴾ أي البعداء البغضاء ﴿ شر ﴾ أي شر خلق ﴿ مكاناً وأضل سبيلاً ﴾ حيث عموا عن طريق الجنة التي لا أجلى منها ولا أوسع ، وسلكوا طريق النار التب لا أضيق منه ولا أوعر ، وعموا عن أن إنزال القرآن نجوماً أولى لما تقدم من اللطائف وغيرها مما لا يحيط به إلا الله تعالى ، " وسبيلاً " تمييز محول عن الفاعل أصله : ضل سبيلهم ، وإسناد الضلال إليه من الإسناد المجازي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 314 . 317 ﴾

(8/560)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ تشقق ﴾ بتخفيف الشين على حذف تاء التفعل وكذلك في سورة " ق " : عاصم وحمزة وعلي وخلف وأبو عمرو . والآخرون بالتشديد للإدغام . ﴿ وننزل ﴾ من الإنزال ﴿ الملائكة ﴾ بالنصب : ابن كثير . الباقون ﴿ وينزل ﴾ ماضياً مجهولاً من التنزيل ﴿ الملائكة ﴾ بالرفع . ﴿ يا ليتني اتخذت ﴾ بفتح ياء المتكلم : ابو عمرو ﴿ قومي اتخذوا ﴾ بفتح الياء : أبو جعفر ونافع وابن كثير وأبو عمرو وسهل ويعقوب . ﴿ وثمود ﴾ بغير تنوين في الحالين : حمزة وسهل ويعقوب وحفص . الآخرون بالتنوين للمشاكلة ، أو بتأويل الحي لا القبيلة ، أو لأنه اسم الأب الأكبر . ﴿ الريح ﴾ على التوحيد : ابن كثير ﴿ بشراً ﴾ مذكور في " الأعراف " . ﴿ ميتاً ﴾ بالتشديد : يزيد ﴿ ونسقيه ﴾ بفتح النون : المفضل والبرجمي الباقون بضمها .

(9/560)

الوقوف : ﴿ ربنا ﴾ ط ﴿ كبيراً ﴾ 5ط ﴿ محجوراً ﴾ 5 ﴿ منثوراً ﴾ 5 ﴿ مقيلاً ﴾ 5 ﴿ تنزيلاً ﴾ 5 ﴿ للرحمن ﴾ ط ﴿ عسيراً ﴾ 5 ﴿ سبيلاً ﴾ 5 ﴿

خليلاً ﴾ 5 ﴿ إذ جاءني ﴾ ط لأن ما بعده من أخبار الله تعالى ظاهراً ، ويحتمل أن يكون من تتمة حكاية كلام الظالم. ﴿ خذولاً ﴾ 5 ﴿ مهجوراً ﴾ 5 ﴿ المجرمين ﴾ 5 ط ﴿ ونصيراً ﴾ 5 ﴿ واحدة ﴾ ج على تقدير فرقنا إنزاله كذلك أي كما ترى لنثبت وإن وصلت وقفت على ﴿ كذلك ﴾ والتقدير جملة واحدة كذلك الكتاب المنزل وهو التوراة ، ثم اضمرت فعلاً أي فرقناه لنثبت . ﴿ ترتيلاً ﴾ 5 ﴿ تفسيراً ﴾ 5 ط لأن ما بعده مبتدأ ﴿ جهنم ﴾ لا لأن ما بعده خبر ﴿ سبيلاً ﴾ 5 ﴿ وزيراً ﴾ 5 ج للآية ولفاء العطف ﴿ بآياتنا ﴾ ط للفاء الفصيحة أي فذهبا وبلغا فعصوهما ﴿ فدمرناهم تدميراً ﴾ 5 ط لأن ﴿ قوم نوح ﴾ منصوب بمحذوف أي وأغرقنا قوم نوح أغرقناهم ﴿ آية ﴾ ط لأن ما بعده مستأنف ﴿ أليما ﴾ ج للآية ولاحتمال عطف ﴿ عاداً ﴾ على الضمير في ﴿ جعلناهم ﴾ واحتمال انتصابه بمحذوف أي وأهلكنا عاداً ﴿ كثيراً ﴾ 5 ﴿ الأمثال ﴾ ز فصلاً بين الأمرين المعظمين مع عطف الجملتين المتفقتين ﴿ تتبيراً ﴾ 5 ﴿ السوء ﴾ ﴿ يرونها ﴾ لا للعطف مع الإضراب . ﴿ نشوراً ﴾ 5 ﴿ هزواً ﴾ ط لحق المحذوف أي يقولون أهذا الذي ﴿ رسولاً ﴾ 5 ﴿ عليها ﴾ ط لانتهاء مقولهم ﴿ سبيلاً ﴾ 5 ﴿ هواه ﴾ ط ﴿ وكيلاً ﴾ 5 لا للعطف ﴿ يعقلون ﴾ 5 ج لابتداء النفي ﴿ سبيلاً ﴾ 5 ﴿ الظل ﴾ ج لانتهاء الاستفهام إلى الشرط مع اتحاد المقصود ﴿ ساكناً ﴾ ج للعدول مع العطف ﴿ دليلاً ﴾ 5 ﴿ يسيراً ﴾ 5 ﴿

نشوراً ﴾ 5 ﴿ رحمته ﴾ ج للعدول ﴿ طهوراً ﴾ 5 ج لتعلق اللام ﴿ كثيراً ﴾ 5 ﴿ ليذكروا ﴾ ز والوصل أولى للفاء ﴿ كفوراً ﴾ 5 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 5 صـ 230. 231 ﴾

(10/560)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ﴾

اعلم أن هذا هو الشبهة الخامسة لمنكري نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وأن أهل مكة قالوا تزعم أنك رسول من عند الله أفلا تأتينا بالقرآن جملة واحدة كما أنزلت التوراة جملة على موسى والإنجيل على عيسى والزبور على داود ، وعن ابن جريج بين أوله وآخره اثنتان أو ثلاث وعشرون سنة وأجاب الله بقوله : ﴿ كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ وبيان هذا الجواب من وجوه : أحدها : أنه عليه السلام لم يكن من أهل القراءة والكتابة فلو نزل عليه ذلك جملة واحدة كان لا يضبطه ولجاز عليه الغلط والسهو ، وإنما نزلت التوراة جملة لأنها مكتوبة يقرؤها موسى وثانيها : أن من كان الكتاب عنده ، فربما اعتمد على الكتاب

وتساهل في الحفظ فالله تعالى ما أعطاه الكتاب دفعة واحدة بل كان ينزل عليه وظيفة ليكون حفظه له أكمل فيكون أبعد له عن المساهلة وقلة التحصيل وثالثها : أنه تعالى لو أنزل الكتاب جملة واحدة على الخلق لنزلت الشرائع بأسرها دفعة واحدة على الخلق فكان يثقل عليهم ذلك ، أما لما نزل مفرقاً منجماً لا جرم نزلت التكاليف قليلاً قليلاً فكان تحملها أسهل ورابعها : أنه إذا شاهد جبريل حالاً بعد حال يقوى قلبه بمشاهدته فكان أقوى على أداء ما حمل ، وعلى الصبر على عوارض النبوة وعلى احتماله أذية قومه وعلى الجهاد وخامسها : أنه لما تم شرط الإعجاز فيه مع كونه منجماً ثبت كونه معجزاً ، فإنه لو كان ذلك في مقدور البشر لوجب أن يأتوا بمثله منجماً مفرقاً وسادسها : كان القرآن ينزل بحسب أسئلتهم والوقائع الواقعة لهم فكانوا يزدادون بصيرة ، لأن بسبب ذلك كان ينضم إلى الفصاحة الإخبار عن الغيوب وسابعها : أن القرآن لما نزل منجماً مفرقاً وهو عليه السلام كان يتحداهم من أول الأمر فكأنه تحداهم بكل واحد من نجوم القرآن فلما عجزوا عنه كان عجزهم عن معارضة الكل أولى فبهذا الطريق ثبت في فؤاده أن القوم عاجزون عن المعارضة لا محالة وثامنها : أن السفارة بين الله تعالى

وبين أنبيائه وتبليغ كلامه إلى الخلق منصب عظيم فيحتمل أن يقال إنه تعالى لو أنزل القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم دفعة واحدة لبطل ذلك المنصب على جبريل عليه السلام فلما أنزله مفرقاً منجماً بقي ذلك المنصب العالي عليه فلأجل ذلك جعله الله سبحانه وتعالى مفرقاً منجماً .

أما قوله : ﴿ كذلك ﴾ ففيه وجهان : الأول : أنه من تمام كلام المشركين أي جملة واحدة كذلك أي كالتوراة والإنجيل ، وعلى هذا لا يحتاج إلى إضمار في الآية وهو أن يقول : أنزلناه مفرقاً لتثبت به فؤادك الثاني : أنه كلام الله تعالى ذكره جواباً لهم أي كذلك أنزلناه مفرقاً فإن قيل : ذلك في ﴿ كذلك ﴾ يجب أن يكون إشارة إلى شيء تقدمه والذي تقدم فهو إنزاله جملة (واحدة) فكيف فسر به كذلك أنزلناه مفرقاً ؟ قلنا لأن قولهم ﴿ لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ جُمْلَةً واحدة ﴾ معناه لم نزل مفرقاً فذلك إشارة إليه .

أما قوله تعالى : ﴿ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ﴾ فمعنى الترتيل في الكلام أن يأتي بعضه على أثر بعض على تؤدة وتمهل وأصل الترتيل في الأسنان وهو تفلجها يقال ثغر رتل وهو ضد المتراص ، ثم إنه سبحانه وتعالى لما بين فساد قولهم بالجواب الواضح قال : ﴿ وَلاَ يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ ﴾ من الجنس الذي تقدم ذكره من الشبهات إلا جئناك بالحق الذي يدفع قولهم ، كما قال تعالى : ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بالحق عَلَى الباطل فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ [الأنبياء : 18] وبين أن الذي يأتي به أحسن تفسيراً لأجل ما فيه من المزية في البيان والظهور ، ولما كان التفسير هو

الكشف عما يدل عليه الكلام وضع موضع معناه ، فقالوا تفسير هذا الكلام كيت وكيت كما قيل معناه كذا وكذا .

أما قوله : ﴿ الذين يُحْشَرُونَ على وُجُوهِهِمْ إلى جَهَنَّمَ ﴾ ففيه مسائل :

المسألة الأولى :

(12/560)

عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يحشر الناس على ثلاثة أصناف صنف على الدواب وصنف على الأقدام وصنف على الوجوه " وعنه عليه السلام : " إن الذي أمشاهم على أرجلهم قادر على أن مشيهم على وجوههم "

المسألة الثانية :

الأقرب أنه صفة للقوم الذين أوردوا هذه الأسئلة على سبيل التعنت ، وإن كان غيرهم من أهل النار يدخل معهم .

المسألة الثالثة :

حمله بعضهم على أنهم يمشون في الآخرة مقلوبين ، وجوههم إلى القرار وأرجلهم إلى فوق ، روي ذلك عن الرسول صلى الله عليه وسلم وقال آخرون المراد أنهم يحشرون ويسحبون

على وجوههم ، وهذا أيضاً مروي عن الرسول عليه الصلاة والسلام وهو أولى ، وقال الصوفية : الذين تعلقت قلوبهم بما سوى الله فإذا ماتوا بقي ذلك التعلق فعبر عن تلك الحالة بأنهم يحشرون على وجوههم إلى جهنم ، ثم بين تعالى أنهم شر مكاناً من أهل الجنة وأضل سبيلاً وطريقاً ، والمقصود منه الزجر عن طريقهم والسؤال عليه كما ذكرناه على قوله : ﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا ﴾ [الفرقان : 24] وقد تقدم الجواب عنه .

واعلم أنه تعالى بعد أن تكلم في التوحيد ونفي الأنداد وإثبات النبوة والجواب عن شبهات المنكرين لها وفي أحوال القيامة شرع في ذكر القصص على السنة المعلومة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 24 صـ 69.70 ﴾

(13/560)

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ﴾

في قائل ذلك من الكفار قولان :

أحدهما : أنهم كفار قريش ، قاله ابن عباس .

الثاني : أنهم اليهود حين رأوا نزول القرآن مفرقاً ، قالوا : هلا أُنزِل عليه جملة واحدة ، كما

أنزلت التوراة على موسى .

﴿ كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ فيه وجهان

: أحدهما : لنشجع به قلبك ، لأنه معجز يدل على صدقك ، وهو معنى قول السدي .

الثاني : معناه كذلك أنزلناه مفرقاً لنثبته في فؤادك .

وفيه وجهان :

أحدهما : لأنه كان أمياً ولم ينزل القرآن عليه مكتوباً ، فكان نزوله مفرقاً أَثبتَ في فؤاده ، وأَعلَقَ بقلبه .

الثاني : لنثبت فؤادك باتصال الوحي ومداومة نزول القرآن ، فلا تصير بانقطاع الوحي مستوحشاً .

﴿ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ﴾ فيه خمسة تأويلات

: أحدها : ورسلناه ترسيلاً ، شيئاً بعد شيء ، قاله ابن عباس .

الثاني : وفرقناه تفريقاً ، قاله إبراهيم .

الثالث : وفصلناه تفصيلاً ، قاله السدي .

الرابع : وفسرناه تفسيراً ، قاله ابن زيد .

الخامس : وبيَّنَاه تبييناً ، قاله قتادة .

روي عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يَا ابْنَ عَبَّاسٍ إِذَا قَرَأْتَ

القُرْآنَ فَرتِّلْهُ تَرْتِيلاً " فقلت وما الترتيل ؟ ، قال : " بَيِّنْهُ تَبْيِيناً وَلاَ تَبْتُرْهُ بَتْرَ الدقلِ ، وَلاَ تهذه هذّ الشّعرِ وَلاَ يَكُونُ هَمَّ أَحدِكُم آخِرَ السُّورَةِ" . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

(14/560)

وقال ابن عطية :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ﴾

روي عن ابن عباس وغيره أن كفار قريش قالوا في بعض معارضتهم لو كان هذا القرآن من عند الله لنزل ﴿ جملة ﴾ كما نزل التوراة والإنجيل وقوله ﴿ كذلك ﴾ يحتمل أن يكون من قول الكفار إشارة إلى التوراة والإنجيل ، ويحتمل أن يكون من الكلام المستأنف وهو أولى ومعناه كما نزل أردناه فالإشارة إلى نزوله متفرقاً وجعل الله تعالى السبب في نزوله متفرقاً تثبيت فؤاد محمد عليه السلام وليحفظه ، وقال مكي والرماني من حيث كان أمياً لا يكتب وليطابق الأسباب المؤقتة فنزل في نيف على عشرين سنة ، وكان غيره من الرسل يكتب فنزل إليه جملة ، وقرأ عبد الله بن مسعود " ليثبت " بالياء ، والترتيل التفريق بين الشيء المتتابع ومنه قولهم ثغر رتل ومنه ترتيل القراءة ، وأراد الله تعالى أن ينزل القرآن في

النوازل والحوادث التي قدرها وقدر نزوله فيها ، ثم أخبر تعالى نبيه أن هؤلاء الكفرة لا يجيئون بمثل يضربونه على جهة المعارضة منهم كتمثيلهم في هذه بالتوراة والإنجيل إلا جاء القرآن ﴿ بالحق ﴾ في ذلك بالجلية ثم هو ﴿ أحسن تفسيراً ﴾ وأفصح بياناً وتفصيلاً ، ثم توعد الكفار بما ينزل بهم يوم القيامة من الحشر على وجوههم إلى النار وذهب الجمهور ، إلى أن هذا المشي على الوجوه حقيقة ، وروي في ذلك من طريق أنس بن مالك حديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له رجل يا رسول الله كيف يقدرون على المشي على وجوههم ، وقال " إن الذي أقدرهم على المشي على أرجلهم قادر أن يمشيهم على وجوههم " ، وقالت فرقة المشي على الوجوه استعارة للذلة المفرطة والهوان والخزي وقوله تعالى : ﴿ شر مكاناً ﴾ القول فيه كالقول في قوله ﴿ خير مستقراً ﴾ [الفرقان : 24] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(15/560)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ لولا نُزِّل عليه القرآنُ جُمْلَةً واحدةً ﴾

أي : كما أُنزلت التوراةُ والإنجيل والزَّبور ، فقال الله عز وجل : ﴿ كذلكَ ﴾ أي : أنزلناه

كذلك متفرّقاً ، لأن معنى ما قالوا : لِمَ نُزِّل عليه متفرّقاً ؟ فقيل : إنما أنزلناه كذلك ﴿ لِنُثَبِّتَ به فؤادكَ ﴾ أي : لنُقَوِّي به قلبَك فتزداد بصيرة ، وذلك أنه كان يأتيه الوحي في كل أمر وحادثة ، فكان أقوى لقلبه وأنور لبصيرته وأبعد لاستيحاشه ، ﴿ ورتَّلْناه ترتيلاً ﴾ أي : أنزلناه على الترتيل ، وهو التمكُّث الذي يُضادُّ العَجَلة .

قوله تعالى : ﴿ ولا يأتونكَ ﴾ يعني المشركين ﴿ بِمَثَل ﴾ يضربونه لك في مخاصمتك وإبطال أمرك ﴿ إلا جئناك بالحقّ ﴾ أي : بالذي هو الحقّ لتَرُدَّ به كيدهم ﴿ وأحسنَ تفسيراً ﴾ من مَثَلهم ؛ والتفسير : البيان والكشف .

قال مقاتل : ثم أخبر بمستقرّهم في الآخرة ، فقال : ﴿ الذين يحشرون على وجوههم ﴾ وذلك أن كفار مكة قالوا : إن محمداً وأصحابه شُرُّ خلق الله ، فنزلت هذه الآية .

قوله تعالى : ﴿ أولئك شَرٌّ مكاناً ﴾ أي : منزلاً ومصيراً ﴿ وأضلُّ سبيلاً ﴾ ديناً وطريقاً من المؤمنين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 6 صـ ﴾

(16/560)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الذين كَفَرُواْ لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ القرآن جُمْلَةً وَاحِدَةً ﴾

اختلف في قائل ذلك على قولين : أحدهما : أنهم كفار قريش ؛ قاله ابن عباس .

الثاني : أنهم اليهود حين رأوا نزول القرآن مفرقاً قالوا : هلا أنزل عليه جملة واحدة كما أنزلت التوراة على موسى والإنجيل على عيسى والزبور (على داود) .

فقال الله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ ﴾ أي فعلنا ﴿ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ نقوي به قلبك فتعيه وتحمله ؛ لأن الكتب المتقدّمة أنزلت على أنبياء يكتبون ويقرؤون ، والقرآن أنزل على نبيّ أميّ ؛ ولأن من القرآن الناسخ والمنسوخ ، ومنه ما هو جواب لمن سأل عن أمور ، ففرقّناه ليكون أوعى للنبيّ صلى الله عليه وسلم ، وأيسر على العامل به ؛ فكان كلما نزل وحي جديد زاده قوّة قلب .

قلت : فإن قيل هلا أنزل القرآن دفعة واحدة وحفظه إذا كان ذلك في قدرته ؟ .

قيل : في قدرة الله أن يعلمه الكتاب والقرآن في لحظة واحدة ، ولكنه لم يفعل ولا معترض عليه في حكمه ، وقد بيّنا وجه الحكمة في ذلك .

وقد قيل : إن قوله ﴿ كَذَلِكَ ﴾ من كلام المشركين ، أي لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك ، أي كالتوراة والإنجيل ، فيتم الوقف على ﴿ كَذَلِكَ ﴾ ثم يبتدىء ﴿ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُوَادَكَ ﴾ .

ويجوز أن يكون الوقف على قوله : ﴿ جُمْلَةً وَاحِدَةً ﴾ ثم يبتدىء ﴿ كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُوَادَكَ ﴾ على معنى أنزلناه عليك كذلك متفرّقا لنثبت به فؤادك .

قال ابن الأنباري : والوجه الأوّل أجود وأحسن ، والقول الثاني قد جاء به التفسير ، حدّثنا محمد بن عثمان الشيبي قال : حدّثنا مِنجاب قال : حدّثنا بشر بن عمارة عن أبي روق عن الضحاك عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ القدر ﴾ [القدر : 1] قال : أنزل القرآن جملة واحدة من عند الله عز وجل في اللوح المحفوظ إلى السفرة الكرام الكاتبين في السماء ، فنجمه السفرة الكرام على جبريل عشرين ليلة ، ونجمه جبريل عليه السلام على محمد عشرين سنة .

قال : فهو قوله : ﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النجوم ﴾ [الواقعة : 75] يعني نجوم القرآن ﴿ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ * إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴾ [الواقعة : 76 77] .

قال : فلما لم ينزل على النبيّ صلى الله عليه وسلم جملة واحدة ، قال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة ؛ فقال الله تبارك وتعالى : ﴿ كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ يا محمد .

﴿ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ﴾ يقول : ورسّلناه ترسيلا ؛ يقول : شيئاً بعد شيء .

﴿ وَلاَ يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالحق وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً ﴾ يقول : لو أنزلنا عليك القرآن جملة واحدة ثم سألوك لم يكن عندك ما تجيب به ، ولكن نمسك عليك فإذا سألوك أجبت .

(18/560)

قال النحاس : وكان ذلك من علامات النبوّة ؛ لأنهم لا يسألون عن شيء إلا أجيبوا عنه ، وهذا لا يكون إلا من نبيّ ، فكان ذلك تثبيتاً لفؤاده وأفئدتهم ، ويدلّ على هذا ﴿ وَلاَ يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالحق وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً ﴾ ولو نزل جملة بما فيه من الفرائض لثقل عليهم ، وعِلم الله عز وجل أن الصلاح في إنزاله متفرقاً ، لأنهم ينبهون به مرة بعد مرة ، ولو نزل جملة واحدة لزال معنى التنبيه وفيه ناسخ ومنسوخ ، فكانوا يتعبدون بالشيء إلى وقتٍ بعينه قد علم الله عز وجل فيه الصلاح ، ثم ينزل النسخ بعد ذلك ؛ فمحال أن ينزل جملة واحِدة : افعلوا كذا ولا تفعلوا .

قال النحاس : والأولى أن يكون التمام ﴿ جُمْلَةً وَاحِدَةً ﴾ لإنه إذا وقف على ﴿ كَذَلِكَ ﴾ صار المعنى كالتوراة والإنجيل والزبور ولم يتقدّم لها ذكر .

قال الضحاك : ﴿ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً ﴾ أي تفصيلاً .

والمعنى : أحسن من مثلهم تفصيلاً ؛ فحذف لعلم السامع .

وقيل : كان المشركون يستمدّون من أهل الكتاب وكان قد غلب على أهل الكتاب التحريف والتبديل ، فكان ما يأتي به النبيّ صلى الله عليه وسلم أحسن تفسيراً مما عندهم ؛ لأنهم كانوا يخلطون الحق بالباطل ، والحق المحض أحسن من حق مختلط بباطل ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلاَ تَلْبِسُواْ الحق بالباطل ﴾ [البقرة : 42] .

وقيل : ﴿ لاَ يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ ﴾ كقولهم في صفة عيسى إنه خلق من غير أب ﴿ إِلاَّ جِئْنَاكَ بالحق ﴾ أي بما فيه نقض حجتهم كآدم إذ خلق من غير أب وأم .

قوله تعالى : ﴿ الذين يُحْشَرُونَ على وُجُوهِهِمْ إلى جَهَنَّمَ ﴾ تقدّم في ﴿ سبحان ﴾ .

﴿ أولئك شَرٌّ مَّكَاناً ﴾ لأنهم في جهنم .

وقال مقاتل : قال الكفار لأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم هو شر الخلق ؛ فنزلت الآية .

﴿ وَأَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ أي ديناً وطريقاً .

(19/560)

ونظم الآية : ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق ، وأنت منصور عليهم بالحجج الواضحة ، وهم محشورون على وجوههم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 13 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

وقالوا أي الكفار على سبيل الاقتراح والاعتراض الدال على نفورهم عن الحق .

قال الزمخشري : ﴿ نزل ﴾ ههنا بمعنى أنزل لا غير كخبر بمعنى أخبر وإلاّ كان متدافعاً انتهى .

وإنما قال أن ﴿ نزل ﴾ بمعنى أنزل لأن نزل عنده أصلها أن تكون للتفريق ، فلو أقره على أصله عنده من الدلالة على التفريق تدافع هو .

وقوله ﴿ جملة واحدة ﴾ وقد قررنا أنا ﴿ نزل ﴾ لا تقتضي التفريق لأن التضعيف فيه عندنا مرادف للهمزة .

وقد بيّنا ذلك في أول آل عمران وقائل ذلك كفار قريش قالوا : لو كان هذا من عند الله لنزل جملة كما نزلت التوراة والإنجيل .

وقيل : قائلو ذلك اليهود وهذا قول لا طائل تحته لأن أمر الاحتجاج به والإعجاز لا يختلف بنزوله جملة واحدة أو مفرقاً بل الإعجاز في نزوله مفرقاً أظهر إذ يطالبون بمعارضة سورة منه ، فلو نزل جملة واحدة وطولبوا بمعارضته مثل ما نزل لكانوا أعجز منهم حين طولبوا

بمعارضة سورة منه فعجزوا والمشار إليه غير مذكور .

فقيل : هو من كلام الكفار وأشاروا إلى التوراة والإنجيل أي تنزيلاً مثل تنزيل تلك الكتب الإلهية جملة واحدة ويبقى ﴿ لنثبت به فؤادك ﴾ تعليلاً لمحذوف أي فرقناه في أوقات ﴿ لنثبت به فؤادك ﴾ .

وقيل : هو مستأنف من كلام الله تعالى لا من كلامهم ، ولما تضمن كلامهم معنى لِمَ أُنْزِلَ مفرقاً أشير بقوله كذلك إلى التفريق أي ﴿ كذلك ﴾ أنزل مفرقاً .

قال الزمخشري : والحكمة فيه أن نقوي بتفريقه فؤادك حتى تعيه وتحفظه لأن المتلقن إنما يقوى قلبه على حفظ العلم شيئاً بعد شيء ، وجزأ عقيب جزء ، ولو ألقي عليه جملة واحدة لكان يعيا في حفظه والرسول عليه السلام فارقت حاله حال داود وموسى وعيسى عليهم السلام حيث كان أمياً لا يكتب وهم كانوا قارئين كاتبين ، فلم يكن له بد من التلقن والتحفظ فأنزل عليه منجماً في عشرين سنة .

(21/560)

وقيل : في ثلاث وعشرين سنة وأيضاً فكان ينزل على حسب الحوادث وجواب السائلين ، ولأن بعضه منسوخ وبعضه ناسخ ، ولا يتأتى ذلك إلاّ فيما أنزل مفرقاً انتهى .

واللام في ﴿ لنثبت به ﴾ لام العلة .

وقال أبو حاتم : هي لام القسم والتقدير والله ليثبتن فحذفت النون وكسرت اللام انتهى .

وهذا قول في غاية الضعف وكان ينحو إلى مذهب الأخفش أن جواب القسم يتلقى بلام كي وجعل منه ولتصغي إليه أفئدة وهو مذهب مرجوح .

وقرأ عبد الله ليثبت بالياء أي ليثبت الله ﴿ ورتلناه ﴾ أي فصلناه .

وقيل : بيناه .

وقيل : فسرناه .

﴿ ولا يأتونك بمثل ﴾ يضربونه على جهة المعارضة منهم كتمثيلهم في هذه بالتوراة والإنجيل الإحاء القرآن بالحق في ذلك ثم هو أوضح بياناً وتفصيلاً .

وقال الزمخشري : ﴿ ولا يأتونك بمثل ﴾ بسؤال عجيب من سؤالاتهم الباطلة كأنه مثل في البطلان إلاّ أتيناك نحن بالجواب الحق الذي لا محيد عنه وبما هو أحسن معنى ومؤدى من سؤالهم .

ولما كان التفسير هو الكشف عما يدل عليه الكلام وضع موضع معناه فقالوا : تفسير هذا الكلام كيت وكيت ، كما قيل معناه كذا أو ﴿ ولا يأتونك ﴾ بحال وصفة عجيبة يقولون هلا كانت هذه صفتك وحالك نحو إن يقرن بك ملك ينذر معك أو يلقى إليك كنز أو تكون لك جنة أو ينزل عليك القرآن جملة إلاّ أعطيناك ما يحق لك في حكمتنا ومشيئتنا أن تعطاه

وما هو أحسن تكشيفاً لما بعثت عليه ودلالة على صحته انتهى .

وقيل : ﴿ ولا يأتونك ﴾ بشبهة في إبطال أمرك إلاّ جئناك بالحق الذي يدحض شبهة أهل الجهل ويبطل كلام أهل الزيغ ، والمفضل عليه محذوف أي ﴿ وأحسن تفسيراً ﴾ من مثلهم ومثلهم قولهم ﴿ لولا أنزل عليه القرآن جملة واحدة ﴾ .

و ﴿ الذين يحشرون ﴾ .

قال الكرماني : متصل بقوله ﴿ أصحاب الجنة يومئذ ﴾ الآية .

قيل : ويجوز أن يكون متصلاً بقوله ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من المجرمين ﴾ انتهى .

(22/560)

والذي يظهر أنهم لما اعترضوا في حديث القرآن وإنزاله مفرقاً كان في ضمن كلامهم أنهم ذوو رشد وخير ، وأنهم على طريق مستقيم ولذلك اعترضوا فأخبر تعالى بحالهم وما يؤول إليه أمرهم في الآخرة بكونهم ﴿ شر مكاناً وأضل سبيلاً ﴾ والظاهر أنه يحشر الكافر على وجهه بأن يسحب على وجهه .

وفي الحديث " إن الذي أمشاهم على أرجلهم قادر أن يمشيهم على وجوههم " وهذا قول الجمهور .

وقيل : هو مجاز للذلة المفرطة والهوان والخزي .

وقيل : هو من قول العرب مر فلان على وجهه إذا لم يدر أين ذهب .

ويقال : مضى على وجهه إذا أسرع متوجهاً لقصده و ﴿ شر ﴾ و ﴿ أضل ﴾ ليسا على بابهما من الدلالة على التفضيل .

وقوله ﴿ شر مكاناً ﴾ أي مستقراً وهو مقابل لقوله ﴿ خير مستقراً ﴾ ويحتمل أن يراد بالمكان المكانة والشرف لا المستقر .

وأعربوا ﴿ الذين ﴾ مبتدأ والجملة من ﴿ أولئك ﴾ في موضع الخبر ويجوز عندي أن يكون ﴿ الذين ﴾ خبر مبتدأ محذوف لما تقدم ذكر الكافرين وما قالوا قال إبعاداً لهم وتسميعاً بما يؤول إليه حالهم هم ﴿ الذين يحشرون ﴾ ثم استأنف إخباراً أخبر عنهم فقال ﴿ أولئك شر مكاناً ﴾ انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(23/560)

وقال أبو السعود :

﴿ وَقَالَ الذين كَفَرُواْ ﴾

حكايةً لاقتراحِهم الخاصِّ بالقُرآن الكريمِ بعد حكايةِ اقتراحِهم في حقِّه عليه الصَّلاةُ

والسَّلامُ والقائلون هم القائلونَ أوّلاً وإيرادُهم بعُنوانِ الكفرِ لذمّهم به والإشعارِ بعلَّةِ الحُكمِ ﴿ لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ القرءان ﴾ التَّنزيلُ هَهُنا مجرَّدٌ عن مَعْنى التَّدريجِ كما في قولِه تعالى : ﴿ يَسْأَلُكَ أَهْلُ الكتاب أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كتابا مّنَ السماء ﴾ ويجوز أنْ يرادَ به الدّلالةُ على كثرةِ المُنزَّلِ في نفسِه أي هلاَّ أُنزل كلُّه ﴿ جُمْلَةً واحدة ﴾ كالكتبِ الثَّلاثةِ . وبُطلان هذه الكلمةِ الحمقاءِ ممَّا لا يكادُ يخفى على أحدٍ فإنَّ الكتبَ المتقدّمةَ لم يكُن شاهدَ صحَّتِها ودليلَ كونِها من عندِ الله تعالى إعجازُها ، وأمَّا القرآنُ الكريمُ فبيّنةُ صحَّتِه وآيةُ كونِه من عند الله تعالى نظمُه المعجزُ الباقي على مرِّ الدّهورِ المتحقّقُ في كلِّ جُزءٍ من أجزائه المقدَّرةِ بمقدارِ أقصرِ السُّورِ حسبما وقع به التَّحدّي ولا ريبَ في أنَّ ما يدور عليه فَلَكُ الإعجاز هو المطابقةُ لما تقتضيه الأحوالُ ومن ضرورة تغيّرِها وتجدُّدها تغيُّر ما يُطابقها حتماً على أنَّ فيه فوائدَ جمَّةً قد أُشير إلى بعضٍ منه بقوله تعالى :

(24/560)

﴿ كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ فإنَّه استئناف واردٌ من جهته تعالى لردِّ مقالتهم الباطلة وبيانِ الحكمة في التَّنزيلِ التَّدريجيِّ . ومحلُّ الكافِ النَّصبُ على أنَّها صفة لمصدرٍ مؤكِّدٍ لمضمرٍ معلَّلٍ بما بعده وذلك إشارة إلى ما يُفهم من كلامِهم أي مثلَ ذلك التَّنزيلِ المُفرَّق الذي

قدحُوا فيه واقترحوا خلافَة نزَّلناه لا تنزيلا مُغايراً له لنقويَ بذلك التَّنزيلِ المفرَّقِ فؤادَك فإنَّ فيه تيسيراً لحفظِ النَّظمِ وفهم المعانِي وضبطِ الأحكامِ والوقوفِ على تفاصيلِ ما رُوعي فيها من الحِكَمِ والمصالحِ المبنيَّةِ المُناسبة عل أنَّها منوطةٌ بأسبابها الدَّاعيةِ إلى شَرعها ابتداءً أو تبديلاً بالنَّسخِ من أحوال المكلَّفينَ وكذلك عامة ما ورد في القرآنِ المجيدِ من الأخبار وغيرِها متعلّقةٌ بأمورٍ حادثةٍ من الأقاويل والأفاعيل ومن قضية تجدُّدِها تجددُ ما يتعلَّقُ بها كالاقتراحاتِ الواقعة من الكَفَرة الدَّاعيةِ إلى حكايتِها وإبطالِها وبيانِ ما يؤول إلي حالُهم في الآخرةِ على أنَّهم في هذا الاقتراح كالباحثِ عن حَتْفِه بظلفِه حيثُ أُمروا بالاتيان بمثل نَوبةٍ من نُوبِ التَّنزيل فظهرَ عجزُهم عن المعارضةِ وضاقتْ عليهم الارضُ بما رَحُبتْ فكيف لو تُحدُّوا بكلّه وقوله تعالى : ﴿ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ﴾ عطفٌ على ذلك المُضمر ، وتنكيرُ ترتيلاً للتَّفخيمِ أي كذلك نزَّلناهُ ورتلناهُ تَرتْيلا بديعاً لا يُقادرُ قَدرُه ومعنى ترتيلِه تفريقُه آيةً بعدَ آيةٍ قالَه النَّخعيُّ والحسنُ وقَتَادةُ .

(25/560)

وقال ابنُ عبَّاسٍ رضي الله عنهمَا : بيَّناهُ بياناً فيه ترتيلٌ وتثبيتٌ وقال السُّدّيُّ فصَّلناهُ تفصيلاً . وقال مجاهُدُ : جعلنا بعضَه في إثر بعضٍ . وقيل هو الأمرُ بترتيلِ قراءتِه بقوله تعالى

: ﴿ وَرَتِّلِ القرءان تَرْتيلاً ﴾ وقيل : قرأناه عليك بلسانِ جبرِيلَ عليه السَّلامُ شيئاً فشيئاً في عشرين أو في ثلاث وعشرين سنة على تُؤَدةٍ وتَمهلٍ .

(26/560)

﴿ وَلاَ يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ ﴾ من الأمثالِ التي من جُملتها ما حُكي من اقتراحاتِهم القبيحةِ الخارجةِ عن دائرةِ العقولِ الجاريةِ لذلك مجرى الأمثالِ أي لا يأتونَك بكلامٍ عجيبٍ هو مَثَلٌ في البُطلان يريدون به القَدْحَ في حقّك وحقِّ القُرآنِ ﴿ إِلاَّ جئناك ﴾ في مُقابلِته ﴿ بالحق ﴾ أي بالجوابِ الحقِّ الثَّابتِ الذي ينْحي عليه بالإبطالِ ويَحسمُ مادَّةَ القِيلِ والقالِ كما مرَّ من الأجوبةِ الحقَّةِ القالعةِ لعروقِ أسئلتِهم الشَّنيعةِ الدَّامغةِ لها بالكُلِّيةِ . وقوله تعالى : ﴿ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً ﴾ عطفٌ على الحقِّ أي جئناك بأحسنَ تفسيراً أو على محلِّ بالحقِّ أي آتيناك الحقَّ وأحسنَ تفسيراً أي بياناً وتفصيلاً على معنى أنَّه في غاية ما يكونُ من الحُسنِ في حدِّ ذاته لا أنَّ ما يأتون به له حَسنٌ في الجملة وهذا أحسنُ منه كما مرَّ . والاستثناءُ مفرَّغٌ محلُّه النَّصبُ على الحاليَّةِ أي لا يأتونك بمَثَلٍ إلا حال إيتائنا إيَّاك الحقَّ الذي لا محيدَ عنه وفيه من الدَّلالةِ على المُسارعةِ إلى إبطالِ ما أتَوا به تثبيت فؤاده عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ما لا يخفى ، وهذا بعبارته ناطقٌ ببطلان جميع الأسئلة وبصحَّةِ جميع الأجوبة وبإشارته منبئٌ عن

بُطلانِ السُّؤالِ الأخيرِ وصحَّةِ جوابِه إذْ لولا أنَّ تنزيلَ القرآنِ على التَّدريجِ لما أمكنَ إبطالُ تلك الاقتراحاتِ الشَّنيعةِ ولما حصل تثبيتُ فؤادِه عليه الصَّلاة والسَّلام من تلك الحيثيَّةِ هذا وقد جُوِّز أن يكون المَثَلُ عبارةً عن الصِّفةِ الغريبةِ التي كانُوا يقترحون كونَه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ عليها من مقارنة الملكِ والاستغناء عن الأكل والشُّربِ وحيازة الكنز والجنَّة ونزول القرآن عليه جملةً واحدةً على معنى لا يأتونك بحال عجيبة يقترحون اتِّصافك بها قائلين هلاَّ كان على هذه الحالة إلا أعطيناك نحنُ من الأحوال الممكنة ما يحقُّ لك في حكمتِنا ومشيئتنا

(27/560)

أنْ تُعطاهُ وما هو أحسنُ تكشيفاً لما بُعثت عليه ودلالةً على صحَّته وهو الذي أنتَ عليه في الذَّاتِ والصِّفاتِ ويأباهُ الاستثناءُ المذكور فإنَّ المتبادر منه أنْ يكون ما أعطاه الله تعالى من الحقِّ مترتباً على ما أتوا به من الأباطيلِ دامغاً لها ولا ريبَ في أنَّ ما آتاه الله تعالى من المَلَكاتِ السَّنيةِ اللاَّئقةِ بالرِّسالة قد أتاه من أوَّلِ الأمر لا بمقابلة ما حُكي عنهم من الاقتراحات لأجلِ دمغها وإبطالِها .

﴿ الذين يُحْشَرُونَ على وُجُوهِهِمْ إلى جَهَنَّمَ ﴾

أي يُحشرون كائنين على وجوهِهم يُسحبون عليها ويُجرُّون إلى جهنَّمَ وقيل : مقلوبين وجوهُهم على قفاهم وأرجلُهم إلى فوقٍ . رُوي عنه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ : "يُحشر النَّاسُ يومَ القيامةِ على ثلاثةِ أثلاثٍ ثلثٌ على الدَّوابِّ ، وثُلثٌ على وجوهِهم ، وثُلثٌ على أقدامِهم ينسِلون نَسلاً " وأما ما قيل : متعلقةً قلوبهم بالسُّفليَّاتِ متوجّهةً وجوهُهم إليها فبعيد لأنَّ هول ذلك اليومِ ليس بحيث يبقى لهم عنده تعلُّقٌ بالسُّفليَّاتِ أو توجُّه إليها في الجملة ومحلُّ الموصول إمَّا النَّصبُ أو الرَّفعُ على الذمِّ أو الرَّفعُ على الابتداء وقوله تعالى : ﴿ أولئك ﴾ بدلٌ منه أو بيانٌ له وقوله تعالى : ﴿ شَرٌّ مَّكَاناً وَأَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ خبر له أو اسم الإشارة مبتدأ ثانٍ وشرٌّ خبرُه والجملة خبرٌ للموصول ووصف السَّبيلِ بالضَّلالِ من باب الإسناد المجازيِّ للمبالغة والمفضل عليه الرَّسولُ عليه الصَّلاة والسَّلام على منهاجِ قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِّن ذلك مَثُوبَةً عِندَ اللهِ مَن لَّعَنَهُ اللهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ ﴾ كأنَّه قيل إنَّ حاملهم على هذه الاقتراحات تحقيرُ مكانِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بتضليل سبيله ولا يعلمون حالَهم ليعلموا أنَّهم شرٌّ مكاناً وأضلُّ سبيلاً وقيل : هو متَّصلٌ بقوله تعالى : ﴿ أصحاب الجنة

يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرّاً وَأَحْسَنُ مَقِيلاً ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 6 صـ ﴾

(29/560)

وقال الآلوسى :

﴿ وَقَالَ الذين كَفَرُواْ ﴾

حكاية لنوع آخر من أباطيلهم ، والمراد بهم المشركون كما صح عن ابن عباس وهم القائلون أولاً ، والتعبير عنهم بعنوان الكفر لذمهم به والاشعار بعلة الحكم ، وقيل : المراد بهم طائفة من اليهود ﴿ لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ القرءان ﴾ أي أنزل عليه كخبر بمعنى أخبر فلا قصد فيه إلى التدريج لمكان ﴿ جُمْلَةً واحدة ﴾ فإه لو قصد ذلك اندافعا إذ يكون المعنى لولا فرق القرآن جملة واحدة والتفريق ينافي الجملية ، وقيل : عبر بذلك للدلالة على كثرة المنزل في نفسه ، ونصب ﴿ جمالة ﴾ على الحال و ﴿ واحدة ﴾ على أنه صفة مؤكدة له أي هلا أنزل القرآن عليه عليه الصلاة والسلام دفعة غير مفرق كما أنزلت التوراة والإنجيل والزبور على ما تدل عليه الأحاديث والآثار حتى كاد يكون إجماعاً كما قال السيوطي ورد على من أنكر ذلك من فضلاء عصر ، فقول ابن الكمال إن التوراة أنزلت منجمة في ثماني عشرة

سنة ويدل عليه نصوص التوراة ولا قاطع بخلافه من الكتاب والسنة ناشيء من نقصان الإطلاع.

وهذا الاعتراض مما لا طائل تحته لأن الإعجاز مما لا يختلف بنزوله جملة أو مفرقاً مع أن للتفويق فوائد ، منها ما ذكره الله تعالى بعد ، وقيل : إن شاهد صحة القرآن إعجازه وذلك ببلاغته وهي بمطابقته لمقتضى الحال في كل جملة منه ولا يتيسر ذلك في نزوله دفعة واحدة فلا يقاس بسائر الكتب فإن شاهد صحتها ليس الإعجاز .

وفيه أن قوله : ولا يتيسر الخ ممنوع فإنه يجوز أن ينزل دفعة واحدة مع رعاية المطابقة المذكورة في كل جملة لما يتجدد من الحوادث الموافقة لها الدالة على أحكامها .

(30/560)

وقد صح أنه نزل كذلك إلى السماء الدنيا فلو لم يكن هذا لزم كونه غير معجز فيها ولا قائل به بل قد يقال إن هذا أقوى في إعجازه والبليغ يفهم من سياق الكلام ما يقتضيه المقام فافهم ﴿ كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ استئناف وارد من جهته تعالى لرد مقالتهم الباطلة وبيان بعض الحكم في تنزيله تدريجاً ، ومحل الكاف نصب على أنها صفة لمصدر مؤكد لمضمر معلل بما بعده ، وجوز نصبها على الحالية ، ﴿ وَذَلِكَ ﴾ إشارة إلى ما يفهم من كلامهم أي تنزيلاً

مثل ذلك التنزيل الذي قدحوا فيه واقترحوا خلافه نزلناه ولا تنزيلاً مغايراً له أو نزلناه مماثلاً لذلك التنزيل لنقوى به فؤادك فإن في تنزيله مفرقاً تيسيراً لحفظ النظم وفهم المعاني وضبط الكلام والوقوف على تفاصيل ما روعي فيه من الحكم والمصالح وتعدد نزول جبريل عليه السلام وتجدد إعجاز الطاعنين فيه في كل جملة مقدار أقصر سورة تنزل منه ، ولذلك فوائد غير ما ذكر أيضاً ، منها معرفة الناسخ المتأخر نزوله من المنسوخ المتقدم نزوله المخالف لحكمه ومنها انضمام القرائن الحالية إلى الدلالات اللفظية فإنه يعين على معرفة البلاغة لأنه بالنظر إلى الحال يتنبه السامع لما يطابقها ويوافقها إلى غير ذلك ، وقيل : قوله تعالى : ﴿ كذلك ﴾ من تمام كلام الكفرة والكاف نصب على الحال من القرآن أو الصفة لمصدر نزل المذكور أو لجملة ، والإشارة إلى تنزيل الكتب المتقدمة ، ولام "لنثبت" لام التعليل والمعلل محذوف نحو ما سمعت أولا أي نزلناه مفرقاً لنثبت الخ ، وقال أبو حاتم : هي لام القسم ، والتقدير والله لتثبتن فحذف النون وكسرت اللام وقد حكى ذلك عنه أبو حيان .

والظاهر أنها عنده كذلك على القولين في ﴿ كذلك ﴾ .

وتعقبه بأنه قول غاية الضعف وكأنه ينحو إلى مذهب الأخفش إن جواب القسم يتلقى بلام كي وجعل منه ﴿ ولتصغى إليه أفئدة ﴾ [الأنعام : 113] الخ وهو مذهب مرجوح .

(31/560)

وقرأ عبد الله "ليثبت" بالياء أي ليثبت الله تعالى .

وقوله تعالى : ﴿ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ﴾ عطف على الفعل المحذوف المعلل بما ذكر ، وتنكير "ترتيلاً" للتفخيم أي كذلك نزلناه ورتلناه ترتيلاً بديعاً لا يقادر قدره ، وترتيله تفريقه آية بعد آية قاله النخعي .

والحسن .

وقتادة .

وقال ابن عباس : بيناه بياناً فيه ترسل ، وقال السدى : فصلناه تفصيلاً ، وقال مجاهد : جعلنا بعضه إثر بعض ، وقيل : هو الأمر بترتيل قراءته بقوله تعالى : ﴿ وَرَتِّلِ القرءان تَرْتِيلاً ﴾ [المزمل : 4] وقيل : قرأناه عليك بلسان جبريل عليه السلام شيئاً فشيئاً في عشرين أو في ثلاث وعشرين سنة على تؤدة وتمهل وهو مأخوذ من قولهم : ثغر مرتل أي مفلج الأسنان غير متلاصقها .

(32/560)

﴿ وَلاَ يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ ﴾ من الأمثال التي من جملتها اقتراحاتهم القبيحة الخارجة عن دائرة العقول الجارية لذلك مجرى الأمثال أي لا يأتونك بكلام عجيب هو مثل في البطلان يريدون به القدح في نبوتك ويظهرونه لك ﴿ إِلاَّ جِئْنَاكَ ﴾ في مقابلته ﴿ بالحق ﴾ أي بالجواب الحق الثابت الذي ينحى عليه بالإبطال ويحس مادة القيل والقال كما مر من الأجوبة الحقة القالعة لعروق أسئلتهم الشنيعة الدامغة لها بالكلية ، وقوله تعالى : ﴿ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً ﴾ عطف على ﴿ الحق ﴾ أي جئناك بأحسن تفسيراً أي بما هو أحسن أو على محل ﴿ بالحق ﴾ أي استحضرنا لك وأنزلنا عليك الحق وأحسن تفسيراً أي كشفا وبيانا على معنى أنه في غاية ما يكون من الحسن في حد ذاته لا أن ما يأتون به له حسن في الجملة وهذا أحسن منه ، وهذا نظير قولهم : الله تعالى أكبر أي لع غاية الكبرياء في حد ذاته وبعضهم قدر مفضلاً عليه فقال : أي وأحسن تفسيراً من مثلهم وحسنه على زعمهم أو هو تهكم ، وتعقب الأول بأنه يفوت عليه معنى التسلية لأن المراد لا يهلك ما اقترحوه من قولهم : ﴿ لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ القرءان جُمْلَةً ﴾ [الفرقان : 32] فإن تنزيله مفرقاً أحسن مما اقترحوه لفوائد شتى وفيه منع ظاهر ، وقيل : المراد بالتفسير المعنى ، والمراد وأحسن معنى لأنه يقال : تفسير كذا كذا أي معناه فهو مصدر بمعنى المفعول لأن المعنى مفسر كدرهم ضرب الأمير ، ورد بأن المفسر اسم مفعول هو الكلام لا المعنى لأنه يقال فسرت الكلام لا معناه .

وقال الطيبي : وضع التفسير موضع المعنى من وضع السبب موضع المسبب لأن التفسير

سبب لظهور المعنى وكشفه ، وقيل عليه : إنه فرق بين المعنى وظهوره فلا يتم التقريب وقد يكتفي بسببيته له في الجملة .

(33/560)

وأياً ما كان فهو نصب على التمييز والاستثناء مفرغ من أعم الأحوال فالجملة في محل النصب على الحالية أي لا يأتونك بمثل في حال من الأحوال أي آلا حال إنزالنا عليك واستحضارنا لك الحق وأحسن تفسيراف ، وجعل ذلك مقارناً لاتيانهم وإن كان بعده للدلالة على المسارعة إلى إبطال ما أتوا به تثبيتاً لفؤاده صلى الله عليه وسلم ، وجوز أن يكون المثل عبارة عن الصفة الغريبة التي كانوا يقترحون كونه عليه الصلاة والسلام عليها من الاستغناء عن الأكل والشرب وحيازة الكنز والجنة ونزول القرآن عليه جملة واحدة على معنى لا يأتوك بحالة عجيبة يقترحون اتصافك بها قائلين هلا كان على هذه الحالة إلا أعطيناك نحن من الأحوال الممكنة ما يحق لك في حكمتنا ومشيئتنا أن تعطاه وما هو أحسن ، وتعقب بأنه يأباه الاستثناء المذكور فإن المتبادر منه أن يكون ما أعطاه الله تعالى من الحق مترتباً على ما أتوا به من الأباطيل دامغاً لها ولا ريب في أن ما أتاه الله تعالى من الملكات السنية الطائفة بالرسالة قد أتاه من أول الأمر لا بمقابلة ما حكى عنهم من

الاقتراحات لأجل دمغها ، وإبطالها .

وأجيب بأن معنى ﴿ إِلاَّ جئناك ﴾ الخ على ذلك إلا أظهرنا فيك ما يكشف عن بطلان ما أتوا به وهو كما ترى فالحق التعويل على الأول .

(34/560)

والمشهور أن الإتيان والمجيء بمعنى لكن عبر أولا بالاتيان ، وثانياً بالمجيء للتفنن وكراهة أن يتحد ما ينسب إليه عز وجل وما ينسب إليهم لفظاً مع كون ما أتوا به في غاية القبح والبطلان وما جاء به سبحانه في غاية الحقية والحسن ، وفرق الراغب بينهما فقال المجيء كالاتيان لكن المجيء أعم لأن الإتيان مجيء بسهولة ، ومنه قيل للسيل المار على وجهه أتى وأتاوى ، والاتيان قد يقال باعتبار القصد وإن لم يكن منه الحصول والمجيء يقال اعتباراً بالحصول ، ولعل في التعبير الإتيان أولاً والمجيء ثانياً على هذا إشارة إلى أن ما يأتون به من الأمثال في نفسه من الأمور التي تتخيل بسهولة ولا تحتاج إلى إعمال فكر بخلاف ما يكون في مقابلته فإنه في نفسه من الأمور العقلية التي صقلها الفكر فلا يجد أحد سبيلاً إلى ردها والطعن فيها أو إلى أن فعلهم لخروجه عن حيز القبول منزل منزلة العدم حتى كأنهم لم يتحقق منهم القصد دون الحصول بخلاف ما كان من قبله عز وجل فتأمل والله تعالى أعلم بأسرار

كتابه .

﴿ الذين يُحْشَرُونَ على وُجُوهِهِمْ إلى جَهَنَّمَ ﴾

أي يحشرون ماشين على وجوههم .

فقد روى الترمذي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " يحشر الناس يوم القيامة ثلاثة أصناف .

صنفاً مشاة .

وصنفاً ركبانا .

(35/560)

وصنفاً على وجوههم قيل يا رسول الله وكيف يمشون على وجوههم ؟ قال إن الذي أمشاهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم أما أنهم يتقون بوجوههم كل حدث وشوك " وهذا يحتمل أن يكون بمس وجوههم وسائر ما في جهتها من صدورهم وبطونهم ونحوها الأرض وأن يكون بنسكهم على رؤسهم ، وجعل وجوههم إلى ما يلي الأرض وارتفاع أقدامهم وسائر أبدانهم ، ولعل الحديث أظهر في الأول ، وقيل : إن الملائكة عليهم السلام تسحبهم وتجرهم على وجوههم إلى جهنم والأمر عليه ظاهر لا غرابة فيه ،

وقيل : الحشر على الوجه مجاز عن الذلة المفرطة والخزي والهوان ، وقيل : هو من قول العرب مر فلان على وجهه إذا لم يدر أين ذهب ، وقيل : الكلام كناية أو استعارة تمثيلية والمراد أنهم يحشرون متعلقة قلوبهم بالسفليات من الدنيا وزخارفها متوجهة وجوههم إليها ، ولعل كون هذه الحال في الحشر باعتبار بقاء آثارها والأفهم هناك في شغل شاغل عن التوجه إلى الدنيا وزخارفها وتعلق قلوبهم بها ، ومحل الموصول قيل إما النصب بتقدير أذم أو أعني أو الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي هم الذين أو على أنه مبتدأ ، وقوله تعالى : ﴿ أولئك ﴾ بدل منه أو بيان له ، وقوله تعالى : ﴿ شَرٌّ مَّكَاناً وَأَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ خبر له أو اسم الإشارة مبتدأ ثان ﴿ وشر ﴾ خبره ، والجملة خبر الموصول ، وقال "صاحب الفرائد" : يمكن أن يكون الموصول بدلاً من الضمير في ﴿ يأتونك ﴾ [الفرقان : 33] و ﴿ أُوْلَئِكَ شَرٌّ مَّكَاناً ﴾ كلام مستأنف ، ولعل الأقرب كون الموصول مبتدأ وما بعده خبره قال الطيبي : وذلك من باب كلام المنصف وإرخاء العنان .

(36/560)

وفصل ﴿ الذين يُحْشَرُونَ ﴾ عما قبله استئنافاً لأن التسلية السابقة حركت منه صلى الله عليه وسلم بأن يسأل فإذا بماذا أجيبهم وما يكون قولي لهم ؟ فقيل قل لهم الذين

يحشرون على وجوههم إلى جهنم الخ يعني مقصودكم من هذا التعنت تحقير مكاني وتضليل سبيلي وما أقول لكم أنتم كذلك بل أقوال الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم شر مكاناً وأضل سبيلاً فانظروا بعين الإنصاف وتفكروا من الذي هو أولى بهذا الوصف منا ومنكم لتعلموا أن مكانكم شر من مكاننا وسبيلكم أضل من سبيلنا .

وعليه قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِيَّاكُمْ لعلى هُدًى أَوْ فِى ضلال مُّبِينٍ ﴾ [سبأ : 24] فالمكان الشرف والمنزلة .

ويجوز أن يراد به الدار والمسكن .

﴿ لَّهُمْ وَأَضَلَّ ﴾ محمولان على التفضيل على طريقة قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرّ مّن ذلك مَثُوبَةً عِندَ الله مَن لَّعَنَهُ الله وَغَضِبَ عَلَيْهِ ﴾ [المائدة : 60] وجعل "صاحب الفرائد " ذلك لإثبات كل الشر لمكانهم وكل الضلال لسبيلهم .

ووصف السبيل بالضلال من باب الإسناد المجازي للمبالغة والآية على ما سمعت متصلة بما قبلها من قوله تعالى : ﴿ وَلاَ يَأْتُونَكَ ﴾ [الفرقان : 33] الخ وقال الكرماني هي متصلة بقوله تعالى ﴿ أصحاب الجنة يومئذ ﴾ [الفرقان : 24] الآية ﴿ قِيلَ ﴾ ويجوز أن تكون متصلة بقوله سبحانه : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلّ نَبِىّ عَدُوّاً مّنَ المجرمين ﴾ [الفرقان : 31] انتهى .

وما ذكر أولاً أبعد مغزى . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 19 صـ ﴾

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا (25) ﴾

قوله ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السماء بالغمام ﴾ وصف سبحانه هاهنا بعض حوادث يوم القيامة ، والتشقق التفتح ، قرأ عاصم والأعمش ويحيى بن وثاب وحمزة والكسائي وأبو عمرو : ﴿ تشقق ﴾ بتخفيف الشين ، وأصله تتشقق ، وقرأ الباقون بتشديد الشين على الإدغام .

واختار القراءة الأولى أبو عبيد ، واختار الثانية أبو حاتم ، ومعنى تشققها بالغمام : أنها تتشقق عن الغمام .

قال أبو علي الفارسي : تشقق السماء ، وعليها غمام كما تقول : ركب الأمير بسلاحه أي : وعليه سلاحه ، وخرج بثيابه أي : وعليه ثيابه .

ووجه ما قاله : أن الباء وعن يتعاقبان كما تقول : رميت بالقوس .

وعن القوس ، وروي أن السماء تتشقق عن سحاب رقيق أبيض ، وقيل : إن السماء تتشقق بالغمام الذي بينها وبين الناس .

والمعنى : أنه يتشقق السحاب بتشقق السماء ، وقيل : إنها تشقق لنزول الملائكة ، كما قال

سبحانه بعد هذا : ﴿ وَنُزِّلَ الملائكة تَنزِيلاً ﴾ وقيل : إن " الباء " في ﴿ بالغمام ﴾ سببية أي : بسبب الغمام ، يعني : بسبب طلوعه منها كأنه الذي تتشقق به السماء ، وقيل : إن الباء متعلقة بمحذوف أي : ملتبسة بالغمام .

قرأ ابن كثير : " وننزل الملائكة " مخففاً ، من الإنزال بنون بعدها نون ساكنة ، وزاي مخففة بكسرة مضارع أنزل ، والملائكة منصوبة على المفعولية .

وقرأ الباقون من السبعة ﴿ ونُزِل ﴾ بضم النون ، وكسر الزاي المشدّدة ماضياً مبنياً للمفعول ، وقرأ ابن مسعود ، وأبو رجاء : " نزل " بالتشديد ماضياً مبنياً للفاعل ، وفاعله الله سبحانه ، وقرأ أبيّ بن كعب .

" أنزل الملائكة " وروي عنه : أنه قرأ : " تنزلت الملائكة " ، وقد قرىء في الشواذ بغير هذه ، وتأكيد هذا الفعل بقوله : ﴿ تَنْزِيلاً ﴾ يدلّ على أن هذا التنزيل على نوع غريب ، ونمط عجيب .

(38/560)

قال أهل العلم : إن هذا تنزيل رضا ورحمة لا تنزيل سخط وعذاب .

﴿ الملك يَوْمَئِذٍ الحق للرحمن ﴾ الملك مبتدأ ، والحق صفة له وللرحمن .

الخبر ، كذا قال الزجاج : أي : الملك الثابت الذي لا يزول للرحمن يومئذٍ ، لأن الملك الذي يزول وينقطع ليس بملك في الحقيقة ، وفائدة التقييد بالظرف أن ثبوت الملك المذكور له سبحانه خاصة في هذا اليوم .

وأما فيما عداه من أيام الدنيا ، فلغيره ملك في الصورة ، وإن لم يكن حقيقياً .

وقيل : إن خبر المبتدأ هو الظرف ، والحق نعت للملك .

والمعنى : الملك الثابت للرحمن خاص في هذا اليوم ﴿ وَكَانَ يَوْماً عَلَى الكافرين عَسِيراً ﴾ أي : وكان هذا اليوم مع كون الملك فيه لله وحده شديداً على الكفار لما يصابون به فيه ، وينالهم من العقاب بعد تحقيق الحساب ، وأمّا على المؤمنين فهو يسير غير عسير ، لما ينالهم فيه من الكرامة والبشرى العظيمة .

﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظالم على يَدَيْهِ ﴾ الظرف منصوب بمحذوف أي : واذكر ، كما انتصب بهذا المحذوف الظرف الأول ، أعني : ﴿ يوم تشقق ﴾ ، ﴿ ويوم يعضّ الظالم على يديه ﴾ ، الظاهر أن العضّ هنا حقيقة ، ولا مانع من ذلك ، ولا موجب لتأويله .

وقيل : هو كناية عن الغيظ والحسرة ، والمراد بالظالم : كلّ ظالم يرد ذلك المكان ، وينزل ذلك المنزل ، ولا ينافيه ورود الآية على سبب خاص ، فالإعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ﴿ يَقُولُ يا ليتنى اتخذت مَعَ الرسول سَبِيلاً ﴾ : ﴿ يقول ﴾ في محل نصب على الحال ، ومقول القول هو : يا ليتني ، إلخ ، والمنادى محذوف أي : يا قوم ﴿ ليتني اتخذت مع

الرسول سبيلاً ﴾ طريقاً ، وهو طريق الحق ، ومشيت فيه حتى أخلص من هذه الأمور المضلة ، والمراد : اتباع النبي صلى الله عليه وسلم فيما جاء به .

﴿ يا ويلتى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاَناً خَلِيلاً ﴾ دعاء على نفسه بالويل والثبور على مخالة الكافر الذي أضله في الدنيا ، وفلان كناية عن الأعلام .

(39/560)

قال النيسابوري : زعم بعض أئمة اللغة أنه لم يثبت استعمال فلان في الفصيح إلاّ حكاية ، لا يقال : جاءني فلان .

ولكن يقال : قال زيد : جاءني فلان ، لأنه اسم اللفظ الذي هو علم الاسم ، وكذلك جاء في كلام الله .

وقيل : فلان كناية عن علم ذكور من يعقل ، وفلانة عن علم إناثهم .

وقيل : كناية عن نكرة من يعقل من الذكور .

وفلانة عمن يعقل من الإناث ، وأما الفلان والفلانة فكناية عن غير العقلاء ، وفل يختص بالنداء إلاّ في ضرورة كقول الشاعر :

في لجة أمسك فلاناً عن فل . . . وقوله :

حدّثاني عن فلان وفل . . . وليس فل مرخماً من فلان خلافاً للفراء .

وزعم أبو حيان أن ابن عصفور وابن مالك وهما في جعل فلان كناية علم من يعقل .

وقرأ الحسن " يا ويلتي " بالياء الصريحة ، وقرأ الدوري بالإمالة .

قال أبو علي : وترك الإمالة أحسن ، لأن أصل هذه اللفظة الياء ، فأبدلت الكسرة فتحة ، والياء التاء فراراً من الياء ، فمن أمال رجع إلى الذي فرّ منه .

﴿ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذكر بَعْدَ إِذْ جَاءِنِى ﴾ أي : والله لقد أضلني هذا الذي اتخذته خليلاً عن القرآن ، أو عن الموعظة ، أو كلمة الشهادة ، أو مجموع ذلك .

بعد إذ جاءني ، وتمكنت منه ، وقدرت عليه ﴿ وَكَانَ الشيطان للإنسان خَذُولاً ﴾

الخذل : ترك الإغاثة ، ومنه خذلان إبليس للمشركين حيث يوالونه ، ثم يتركهم عند استغاثتهم به ، وهذه الجملة مقرّرة لمضمون ما قبلها ، ويحتمل أن تكون من كلام الله تعالى ، أو من تمام كلام الظالم ، وأنه سمى خليله شيطاناً بعد أن جعله مضلاً .

أو أراد بالشيطان : إبليس لكونه الذي حمله على مخاللة المضلين .

﴿ وَقَالَ الرسول يارب إِنَّ قَوْمِي اتخذوا هذا القرءان مَهْجُوراً ﴾ معطوف على ﴿ وَقَالَ الذين لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ﴾ ، والمعنى : إنّ قومي اتخذوا هذا القرآن الذي جئت به إليهم ، وأمرتني بإبلاغه ، وأرسلتني به مهجوراً متروكاً لم يؤمنوا به ، ولا قبلوه بوجه من الوجوه .

وقيل : هو من هجر إذا هذى .

والمعنى : أنهم اتخذوه هجراً ، وهذياناً .

وقيل : معنى مَهْجُوراً : مهجوراً فيه ، ثم حذف الجار ، وهجرهم فيه قولهم : إنه سحر ، وشعر ، وأساطير الأوّلين ، وهذا القول يقوله الرسول صلى الله عليه وسلم يوم القيامة وقيل : إنه حكاية لقوله في الدنيا ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً مِّنَ المجرمين ﴾ هذا تسلية من الله سبحانه لرسوله صلى الله عليه وسلم ، والمعنى : أن الله سبحانه جعل لكلّ نبيّ من الأنبياء الداعين إلى الله عدوًّا يعاديه من مجرمي قومه ، فلا تجزع يا محمد ، فإن هذا دأب الأنبياء قبلك ، واصبر كما صبروا ﴿ وكفى بِرَبِّكَ هَادِياً وَنَصِيراً ﴾ قال المفسرون : الباء زائدة أي : كفى ربك ، وانتصاب ﴿ نصيراً ﴾ و ﴿ هادياً ﴾ على الحال ، أو التمييز أي : يهدي عباده إلى مصالح الدين ، والدنيا ، وينصرهم على الأعداء .

﴿ وَقَالَ الذين كَفَرُواْ لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ القرءان جُمْلَةً واحدة ﴾ هذا من جملة اقتراحاتهم وتعنتاتهم أي : هلا نزّل الله علينا هذا القرآن دفعة واحدة غير منجم .

(41/560)

واختلف في قائل هذه المقالة؛ فقيل: كفار قريش، وقيل: اليهود، قالوا: هلا أتيتنا بالقرآن جملة واحدة كما أنزلت التوراة، والإنجيل، والزبور؟ وهذا زعم باطل، ودعوى داحضة، فإن هذه الكتب نزلت مفرّقة كما نزل القرآن، ولكنهم معاندون، أو جاهلون لا يدرون بكيفية نزول كتب الله سبحانه على أنبيائه، ثم ردّ الله سبحانه عليهم، فقال: ﴿ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ أي: نزلنا القرآن كذلك مفرّقاً، والكاف في محل نصب على أنها نعت مصدر محذوف، وذلك إشارة إلى ما يفهم من كلامهم، أي: مثل ذلك التنزيل المفرّق الذي قدحوا فيه، واقترحوا خلافه؛ نزلناه لنقوّي بهذا التنزيل على هذه الصفة فؤادك، فإن إنزاله مفرّقاً منجماً على حسب الحوادث أقرب إلى حفظك له، وفهمك لمعانيه، وذلك من أعظم أسباب التثبيت، واللام متعلقة بالفعل المحذوف الذي قدّرناه.

وقال أبو حاتم: إن الأخفش قال: إنها جواب قسم محذوف.

قال: وهذا قول مرجوح.

وقرأ عبد الله: "ليثبت" بالتحتية أي: الله سبحانه، وقيل: إن هذه الكلمة أعني: كذلك، هي من تمام كلام المشركين، والمعنى: كذلك أي: كالتوراة والإنجيل والزبور، فيوقف على قوله: ﴿ كذلك ﴾، ثم يبتدأ بقوله: ﴿ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ على معنى: أنزلناه عليك متفرّقاً لهذا الغرض.

قال ابن الأنباري: وهذا أجود وأحسن.

قال النحاس : وكان ذلك أي : إنزال القرآن منجماً من أعلام النبوّة لأنهم لا يسألونه عن شيء إلاّ أجيبوا عنه ، وهذا لا يكون إلاّ من نبيّ ، فكان ذلك تثبيتاً لفؤاده وأفئدتهم .

﴿ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ﴾ هذا معطوف على الفعل المقدّر أي : كذلك نزلناه ورتلناه ترتيلاً ، ومعنى الترتيل : أن يكون آية بعد آية ، قاله النخعي والحسن وقتادة .

وقيل : إن المعنى بيناه تبييناً ، حكى هذا عن ابن عباس .

وقال مجاهد : بعضه في إثر بعض .

وقال السدّي : فصلناه تفصيلاً .

(42/560)

قال ابن الأعرابي : ما أعلم الترتيل إلاّ التحقيق والتبيين .

ثم ذكر سبحانه أنهم محجوجون في كلّ أوان مدفوع قولهم بكل وجه ، وعلى كل حالة ، فقال : ﴿ وَلاَ يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً ﴾ أي : لا يأتيك يا محمد المشركون بمثل من أمثالهم التي من جملتها اقتراحاتهم المتعنتة إلاّ جئناك في مقابلة مثلهم بالجواب الحق الثابت الذي يبطل ما جاءوا به من المثل ويدمغه ويدفعه .

فالمراد بالمثل هنا السؤال والإقتراح ، وبالحق : جوابه الذي يقطع ذريعته ، ويبطل شبهته ،

ويحسم مادّته .

ومعنى ﴿ أَحْسَنُ تَفْسِيراً ﴾ : جئناك بأحسن تفسير ، فأحسن تفسيراً معطوف على الحق ، والاستثناء بقوله : ﴿ إِلاَّ جئناك ﴾ مفرّغ ، والجملة في محل نصب على الحال أي : لا يأتونك بمثل إلاّ في حال إيتائنا إياك ذلك .

ثم أوعد هؤلاء الجهلة ، وذمهم ، فقال : ﴿ الذين يُحْشَرُونَ على وُجُوهِهِمْ إلى جَهَنَّمَ ﴾ أي : يحشرون كائنين على وجوههم ، والموصول مبتدأ ، وخبره : أولئك ، أو هو خبر مبتدأ محذوف أي : هم الذين ، يجوز نصبه على الذمّ .

ومعنى ﴿ يُحْشَرُونَ على وُجُوهِهِمْ ﴾ يسحبون عليها إلى جهنم ﴿ أُوْلَئِكَ شَرٌّ مَّكَاناً ﴾ أي : منزلاً ومصيراً ﴿ وَأَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ ، وأخطأ طريقاً ، وذلك لأنهم قد صاروا في النار .

وقد تقدّم تفسير مثل هذه الآية في سورة سبحان ، وقد قيل : إن هذا متصل بقوله : ﴿ أصحاب الجنة يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرّاً وَأَحْسَنُ مَقِيلاً ﴾ .

(43/560)

وقد أخرج عبد بن حميد وابن أبي الدنيا وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السماء بالغمام وَنُزِّلَ الملائكة تَنزِيلاً ﴾ قال : يجمع الله الخلق يوم القيامة في صعيد واحد : الجنّ والإنس والبهائم والسباع والطير وجميع الخلق ، فتنشقّ السماء الدنيا ، فينزل أهلها ، وهم أكثر ممن في الأرض من الجنّ والإنس وجميع الخلق ، فيحيطون بالجنّ والإنس وجميع الخلق ، فيقول أهل الأرض : أفيكم ربنا ؟ فيقولون : لا ، ثم تنشق السماء الثانية ، وذكر مثل ذلك ، ثم كذلك في كلّ سماء إلى السماء السابعة ، وفي كل سماء أكثر من السماء التي قبلها ، ثم ينزل ربنا في ظلل من الغمام وحوله الكروبيون ، وهم أكثر من أهل السماوات السبع والإنس والجنّ وجميع الخلق ، لهم قرون ككعوب القثاء ، وهم تحت العرش ، لهم زجل بالتسبيح والتهليل والتقديس لله تعالى ، ما بين إخمص قدم أحدهم إلى كعبه مسيرة خمسمائة عام ، ومن ركبته إلى فخذه مسيرة خمسمائة عام ، ومن فخذه إلى ترقوته مسيرة خمسمائة عام ، وما فوق ذلك مسيرة خمسمائة عام .

وإسناده عند ابن جرير هكذا قال : حدّثنا القاسم ، وحدّثنا الحسين ، حدّثني الحجاج بن مبارك بن فضالة عن عليّ بن زيد بن جدعان عن يوسف بن مهران : أنه سمع ابن عباس ، فذكره .

وأخرجه ابن أبي حاتم بإسناد هكذا : قال : حدّثنا محمد بن عمار بن الحارث مأمول ، حدّثنا حماد بن سلمة عن عليّ بن زيد به .

وأخرج ابن مردويه ، وأبو نعيم في الدلائل بسندٍ ، قال السيوطي : صحيح ، من طريق سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : أن أبا معيط كان يجلس مع النبي صلى الله عليه وسلم بمكة لا يؤذيه ، وكان رجلاً حليماً ، وكان بقية قريش إذا جلسوا معه آذوه ، وكان لأبي معيط خليل غائب عنه بالشام ، فقالت قريش : صبأ أبو معيط ، وقدم خليله من الشام ليلاً ، فقال لامرأته : ما فعل محمد مما كان عليه ؟ فقالت : أشدّ ما كان أمراً ، فقال : ما فعل خليلي أبو معيط ؟ فقالت : صبأ ، فبات بليلة سوء ، فلما أصبح أتاه أبو معيط ، فحياه ، فلم يردّ عليه التحية ، فقال : مالك لا تردّ عليّ تحيتي ؟ ، فقال : كيف أردّ عليك تحيتك ، وقد صبوت ؟ قال : أو قد فعلتها قريش ؟ قال نعم ، قال : فما يبريء صدورهم إن أنا فعلته ؟ قال : تأتيه في مجلسه فتبزق في وجهه ، وتشتمه بأخبث ما تعلم من الشتم ، ففعل فلم يردّ رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن مسح وجهه من البزاق ، ثم التفت إليه فقال : " إن وجدتك خارجاً من جبال مكة أضرب عنقك صبراً " ، فلما كان يوم بدر ، وخرج أصحابه أبى أن يخرج ، فقال له أصحابه : أخرج معنا ، قال : وعدني هذا الرجل إن وجدني خارجاً من جبال مكة أن يضرب عنقي صبراً ، فقالوا : لك جمل أحمر لا يدرك

، فلو كانت الهزيمة طرت عليه ، فخرج معهم ، فلما هزم الله المشركين ، وحمل به جمله في جدود من الأرض ، فأخذه رسول الله صلى الله عليه وسلم أسيراً في سبعين من قريش ، وقدم إليه أبو معيط ، فقال : أتقتلني من بين هؤلاء ؟ قال : " نعم بما بزقت في وجهي " ، فأنزل الله في أبي معيط : ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظالم على يَدَيْهِ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَكَانَ الشيطان للإنسان خَذُولاً ﴾ .

وأخرج أبو نعيم هذه القصة من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس ، وذكر : أن خليل أبي معيط ، هو : أبيّ بن خلف .

(45/560)

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس أيضاً في قوله : ﴿ يَوْمٍ يَعَضُّ الظالم على يَدَيْهِ ﴾ قال : أبيّ بن خلف وعقبه بن أبي معيط ، وهما الخليلان في جهنم .

وأخرج ابن مردويه عنه أيضاً في قوله : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً مِّنَ المجرمين ﴾ قال : كان عدوّ النبيّ صلى الله عليه وسلم أبو جهل ، وعدوّ موسى قارون ، وكان قارون ابن عمّ موسى .

وأخرج ابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والضياء في المختارة عن ابن

عباس قال : قال المشركون : لو كان محمد كما يزعم نبياً ، فلم يعذبه ربه ؟ ألا ينزل عليه القرآن جملة واحدة ينزل عليه الآية والآيتين ، والسورة والسورتين ، فأنزل الله على نبيه جواب ما قالوا : ﴿ وَقَالَ الذين كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ القرءان جُمْلَةً واحدة ﴾ إلى ﴿ وَأَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس : ﴿ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ قال : لنشدد به فؤادك ونربط على قلبك ﴿ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ﴾ قال : رسلناه ترسيلاً ، يقول : شيئاً بعد شيء ﴿ وَلاَ يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ ﴾ يقول : لو أنزلنا عليك القرآن جملة واحدة ، ثم سألوك لم يكن عنده ما يجيب ، ولكنا نمسك عليك ، فإذا سألوك أجبت . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 4 صـ ﴾

(46/560)

وقال القاسمي :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ﴾

أي : دفعة واحدة في وقت واحد . وقد بين سبحانه بطلان هذه المماراة والحمقاء بقوله : ﴿ كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ أي : نقوّيه به على القيام بأعباء الرسالة ، والنهوض لنشر

الحق بين قادة الجهالة . فإن ما يتواتر إنزاله لذلك ، أبعث للهمة وأثبت للعزيمة وأنهض للدعوة ، من نزوله مرة واحدة : ﴿ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ﴾ أي : فصلناه تفصيلاً بديعاً ، لا يلحق شأوه ولا يدرك أمده .

قال القاشانيّ : الترتيل هو أن يتخلل بين كل نجم وآخر ، مدّة يمكن فيها ترسخه في قلبه ، وأن يصير ملكة لا حالاً : ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ ﴾ أي : بصفة عجيبة من باطلهم في قدح أو مقترح : ﴿ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ ﴾ أي : الذي يقمع تلك الصفة . كما قال : ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ ﴾ [18] ، ﴿ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً ﴾ أي : بياناً وهداية ، عناية بك وبما أرسلت من أجله ، وخذلاناً لأعداء الحق وخصوم الرشاد .

تنبيه :

يذكر المفسرون هاهنا أن الآية رد على الكفرة في طلبهم نزول القرآن جملة ، كنزول بقية الكتب جملة . ويرون أن القول بنزول بقية الكتب دفعة ، صحيح . فيأخذون لأجله في سرّ مفارقة التنزيل له . والحال أن القول بنزولها دفعة واحدة لا أصل له ، وليس عليه أثارة من علم ، ولا يصححه عقل . فإن تفريق الوحي وتمديد مدته بديهيّ الثبوت . لمقدار مكث النبيّ . إذ ما دام بين ظهراني قومه ، فالوحي يتوارد تنزله ضرورة . ومن راجع التوراة والإنجيل الموجودين ، يتجلى له ذلك واضحاً لا مرية فيه . وعذر القائل به ظنه أن الآية تعريض بنزول غيره كذلك . وما كل كلام معرّض به . وإنما الآية حكاية لاقتراح خاص ،

وتعنت متفنن فيه . والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 12 صـ 443. 444 ﴾

(47/560)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ﴾

عود إلى معاذيرهم وتعلّلاتهم الفاسدة إذ طعنوا في القرآن بأنه نُزّل منجّماً وقالوا : لو كان من عند الله لنَزل كتاباً جملةً واحدة .

وضمير ﴿ وقال ﴾ ظاهر في أنه عائد إلى المشركين ، وهذه جهالة منهم بنسبة كتب الرسل فإنها لم ينزل شيء منها جملةً واحدة وإنما كانت وحياً مفرّقاً ؛ فالتوراة التي أنزلت على موسى عليه السلام في الألواح هي عشر كلمات بمقدار سورة الليل في القرآن ، وما كان الإنجيل إلا أقوالاً ينطق بها عيسى عليه السلام في الملإ ، وكذلك الزبور نَزل قطعاً كثيرة ، فالمشركون نسُوا ذلك أو جهلوا فقالوا : هلاّ نزل القرآن على محمد جملةً واحدة فنعلم أنه رسول الله .

وقيل : إن قائل هذا اليهودُ أو النصارى ، فإن صح ذلك فهو بهتان منهم لأنهم يعلمون أنه لم

تنزل التوراة والإنجيل والزبور إلا مفرقة .

فخوض المفسرين في بيان الفرق بين حالة رسولنا من الأُمية وحالة الرسل الذين أُنزلت عليهم الكتب اشتغال بما لا طائل فيه ، فإن تلك الكتب لم تنزل أسفاراً تامة قط .

و﴿ نُزّل ﴾ هنا مرادف أنزل وليس فيه إيذان بما يدل عليه التفعيل من التكثير كما تقدم في المقدمة الأولى من مقدمات هذا التفسير بقرينة قولهم : ﴿ جملة واحدة ﴾ .

وقد جاء قوله : ﴿ كذلك لنثبت به فؤادك ﴾ ردّاً على طعنهم ، فهو كلام مستأنف فيه ردّ لما أرادوه من قولهم : ﴿ لولا نُزّل عليه القرآن جملةً واحدة ﴾ وعُدل فيه عن خطابهم إلى خطاب الرسول عليه الصلاة والسلام إعلاماً له بحكمة تنزيله مفرّقاً ، وفي ضمنه امتنان على الرسول بما فيه تثبيت قلبه والتيسيرُ عليه .

(48/560)

وقوله : ﴿ كذلك ﴾ جواب عن قولهم : ﴿ لولا نُزّل عليه القرآن جملةً واحدةً ﴾ إشارة إلى الإنزال المفهوم من "لو نُزّل عليه القرآن" وهو حالة إنزال القرآن منجّماً ، أي أنزلناه كذلك الإنزال ، أي المنجّم ، أي كذلك الإنزال الذي جهلوا حكمته ، فاسم الإشارة في محلّ نصب على أنه نائب عن مفعول مطلق جاء بدلاً عن الفعل .

فالتقدير : أنزلناه إنزالاً كذلك الإنزال المنجَّم .

فموقع جملة ﴿ كذلك ﴾ موقع الاستئناف في المحاورة .

واللام في ﴿ لنثبت ﴾ متعلقة بالفعل المقدّر الذي دلّ عليه ﴿ كذَلك ﴾ .

والتثبيت : جعل الشيء ثابتاً .

والثبات : استقرار الشيء في مكانه غير متزلزل قال تعالى : ﴿ كشجرة طيّبة أصلها ثابت ﴾ [إبراهيم : 24] .

ويستعار الثبات لليقين وللاطمئنان بحصول الخير لصاحبه قال تعالى : ﴿ لكان خيراً لهم وأشدّ تثبيتاً ﴾ [النساء : 66] ، وهي استعارات شائعة مبنية على تشبيه حصول الاحتمالات في النفس باضطراب الشيء في المكان تشبيه معقول بمحسوس .

والفؤاد : هنا العقل .

وتثبيته بذلك الإنزال جعله ثابتاً في ألفاظه ومعانيه لا يضطرب فيه .

وجاء في بيان حكمة إنزال القرآن منجّماً بكلمةٍ جامعة وهي ﴿ لنثبت به فؤادك ﴾ لأن تثبيت الفؤاد يقتضي كل مَا به خير للنفس ، فمنه ما قاله الزمخشري : الحكمة في تفريقه أن نُقوي بتفريقه فؤادك حتى تَعِيَه وتحفظه ، لأن المتلقن إنما يقوى قلبه على حفظ العلم يُلقى إليه إذ ألقي إليه شيئاً بعد شيء وجُزءاً عقبَ جزء ، وما قاله أيضاً : "أنه كان ينزل على حسب الدواعي والحوادث وجوابات السائلين" انتهى انتهى . ا هـ ، أي فيكونون أوعى لما

ينزل فيه لأنهم بحاجة إلى علمه ، فيكثر العمل بما فيه وذلك مما يثبّت فؤاد النبي صلى الله عليه وسلم ويشرح صدره .

وما قاله بعد ذلك : "إن تنزيله مفرّقاً وتحدّيهم بأن يأتوا ببعض تلك التفارق كلَّما نزل شيء منها ، أدخلُ في الإعجاز وأنور للحجة من أن ينزل كلّه جملة" أ هـ .

(49/560)

ومنه ما قاله الجدّ الوزير رحمه الله : إن القرآن لو لم ينزل منجّماً على حسب الحوادث لما ظهر في كثير من آياته مطابقتُها لمقتضى الحال ومناسبتها للمقام وذلك من تمام إعجازها .

وقلت : إن نزوله منجّماً أعون لحفَّاظه على فهمه وتدبره .

وقوله : ﴿ ورتلناه ترتيلاً ﴾ عطف على قوله ﴿ كذلك ﴾ ، أي أنزلناه منجّماً ورتَّلناه ، والترتيل يوصف به الكلام إذا كان حسن التأليف بيّن الدلالة .

واتفقت أقوال أئمة اللّغة على أن هذا الترتيل مأخوذ من قولهم : ثَغر مرتَّل ورَتِل ، إذا كانت أسنانه مفلّجة تشبه نَور الأقحوان .

ولم يوردوا شاهداً عليه من كلام العرب .

والترتيل يجوز أن يكون حالة لنزول القرآن ، أي نزّلناه مفرّقاً منسّقاً في ألفاظه ومعانيه غير

متراكم فهو مفرّق في الزمان فإذا كمُل إنزال سورة جاءت آياتها مرتبة متناسبة كأنها أُنزلت جملة واحدة ، ومفرّقٌ في التأليف بأنه مفصّل واضح .

وفي هذا إشارة إلى أن ذلك من دلائل أنه من عند الله لأن شأن كلام الناس إذا فُرّق تأليفه على أزمنة متباعدة أن يعتوره التفكك وعدم تشابه الجمل .

ويجوز أن يراد بـ ﴿ رتّلناه ﴾ أمرنا بترتيله ، أي بقراءته مرتَّلاً ، أي بتمهُّل بأن لا يعجِّل في قراءته بأن تُبيِّن جميع الحروف والحركات بمهل ، وهو المذكور في سورة المزّمّل (4) في قوله تعالى : ﴿ ورتِّل القرآن ترتيلاً ﴾

و ﴿ ترتيلاً ﴾ مصدر منصوب على المفعول المطلق قصد به ما في التنكير من معنى التعظيم فصار المصدر مبيّناً لنوع الترتيل .

وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا (33)

لما استقصَى أكثرَ معاذيرهم وتعلّلاتهم وألقَمهم أحجارَ الردّ إلى لَهَوَاتهم عطف على ذلك فذلكة جامعة تعمّ ما تقدم وما عسى أن يأتوا به من الشكوك والتمويه بأن كل ذلك مدحوض بالحجة الواضحة الكاشفة لتَرّهاتهم .

والمَثَل : المشابه .

وفعل الإتيان مجازٌ في أقوالهم والمحاجّةِ به ، وتنكير (مَثَل) في سياق النفي للتعميم ، أي بكل مَثَل .

والمقصود : مثَل من نوع ما تقدم من أمثالهم المتقدمة ابتداء من قوله (تعالى) : ﴿ وقال الذين كفروا إنْ هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون ﴾ [الفرقان : 4] ، و ﴿ قالوا أساطير الأولين ﴾ [النحل : 24] بقرينة سَوْق هذه الجملة عقب استقصاء شبهتهم ، و ﴿ قالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ﴾ [الفرقان : 7] ﴿ وقال الظالمون إن تَتَّبِعون إلا رجلاً مسحوراً ﴾ [الفرقان : 8] ﴿ وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة ﴾ [الفرقان : 21] ﴿ وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة ﴾ [الفرقان : 32] .

ودل على إرادة هذا المعنى من قوله : ﴿ بمثل ﴾ قوله آنفاً ﴿ انظر كيف ضربوا لك الأمثال ﴾ [الفرقان : 9] عقب قوله : ﴿ وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً ﴾ [الفرقان : 8] .

وتعدية فعل ﴿ يأتونك ﴾ إلى ضمير النبي صلى الله عليه وسلم لإفادة أن إتيانهم بالأمثال يقصدون به أن يفحموه .

والإتيان مستعمل مجازاً في الإظهار .

والمعنى : لا يأتونك بشُبه يشبِّهون به حالاً من أحوالك يبتغون إظهار أن حالك لا يُشبه حال رسول من الله إلا أبطلنا تشبيههم وأريناهم أن حالة الرسالة عن الله لا تلازم ما زعموه سواء كان ما أتوا به تشبيهاً صريحاً بأحوال غير الرسل كقولهم : ﴿ أساطير الأولين اكتتبها ﴾ [الفرقان : 5] وقولهم ﴿ مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ﴾ [الفرقان : 7] ، وقولهم : ﴿ إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً ﴾ [الفرقان : 8] ، أم كان نفي مشابَهة حاله بأحوال الرسل في زعمهم فإن نفي مشابهة الشيء يقتضي إثبات ضده كقولهم : ﴿ لولا أُنزِل علينا الملائكةُ أو نَرى ربَّنا ﴾ [الفرقان : 21] وكذلك قولهم : ﴿ لولا نُزّل عليه القرآن جملة واحدة ﴾ [الفرقان : 32] إذا كانوا قالوه على معنى أنه مخالف لحالِ نزول التوراة والإنجيل .

فهذا نفي تمثيل حال الرسول صلى الله عليه وسلم بحال الرُّسُل الأسبقين في زعمهم .

ويدخل في هذا النوع ما يزعمون أنه تقتضيه النبوءة من المكانة عند الله أن يسأله ، فيجابَ إليه كقولهم : ﴿ لولا أنزل إليه ملَكٌ فيكونَ معه نذيراً أو يلقى إليه كنز أو تكونُ له جنة يأكل منها ﴾ [الفرقان : 7 ، 8] .

وصيغة المضارع في قوله : ﴿ لا يأتونك ﴾ تشمل ما عسى أن يأتوا به من هذا النوع كقولهم : ﴿ أو تُسقِطَ السماءَ كما زعمتَ علينا كِسَفاً ﴾ [الإسراء : 92] .

والاستثناء في قوله : ﴿ إلا جئناك بالحق ﴾ استثناء من أحوال عامة يقتضيها عموم الأمثال لأن عموم الأشخاص يستلزم عموم الأحوال .

وجملة ﴿ جئناك ﴾ حالية كما تقدم في قوله : ﴿ وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليَأكلون الطعام ﴾ [الفرقان : 20] .

وقوله ﴿ جئناك بالحق ﴾ مقابل قوله : ﴿ لا يأتونك بمثل ﴾ وهو مجيء مجازي .

ومقابلة ﴿ جئناك بالحق ﴾ لقوله : ﴿ ولا يأتونك بمثل ﴾ إشارة إلى أن ما يأتون به باطل .

(52/560)

مثال ذلك أن قولهم : ﴿ مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ﴾ [الفرقان : 7] ، أبطله قوله : ﴿ وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق ﴾ [الفرقان : 20] .

والتعبير في جانب ما يؤيده الله من الحُجة بـ ﴿ جِئْنَاك ﴾ دون : أتيناك ، كما عُبر عمّا

يجيئون به بـ ﴿ يأتونك ﴾ إما لمجرد التفنن ، وإما لأن فعل الإتيان إذا استعمل مجازاً كثر فيما يسوء وما يُكره ، كالوعيد والهجاء ، قال شقيق بن شَرِيك الأسدي:

أتاني من أبي أنس وعيدٌ . . .

فَسُلِّ لغيظَةِ الضَّحَّاك جسمي

وقول النابغة:

أتاني أبيت اللعن أنك لُمتَني . . .

وقوله:

فليأتينك قصائد وليَدفعن . . .

جيشاً إليك قوادمُ الأكوار

يريد قصائد الهجاء .

وقول الملائكةِ للُوط ﴿ وآتيناك بالحق ﴾ [الحجر : 64] أي عذاب قومه ، ولذلك قالوا له في المجيء الحقيقي ﴿ بل جئناك بما كانوا فيه يمترون ﴾ وتقدم في سورة الحجر (63) ، وقال الله تعالى : ﴿ أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً ﴾ [يونس : 24] ﴿ أتى أمر الله فلا تستعجلوه ﴾ [النحل : 1] ﴿ فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا ﴾ [الحشر : 2] ، بخلاف فعل المجيء إذا استعمل في مجازه فأكثر ما يستعمل في وصول الخير والوعد والنصر والشيء العظيم ، قال تعالى : ﴿ قد جاءكم بُرهان من ربكم ﴾ [النساء : 174] ﴿

وجاء ربك والملك صفاً صفاً ﴾ [الفجر : 22] ﴿ إذا جاء نصر الله ﴾ [النصر : 1] ، وفي حديث الإسراء : " . . .

مرحَباً به ونعم المجيء جاء " ، ﴿ وقل جاء الحق وزهق الباطل ﴾ [الإسراء : 81] ، وقد يكون متعلق الفعل ذا وجهين باختلاف الاعتبار فيطلق كلا الفعلين نحو ﴿ حتى إذا جاء أمرنا وفَار التنور ﴾ [هود : 40] ، فإن الأمر هنا منظور فيه إلى كونه تأييداً نافعاً لنوح .

والتفسير : البيان والكشف عن المعنى ، وقد تقدم ما يتعلق به مفصّلاً في المقدمة الأولى من مقدمات هذا الكتاب ، والمراد هنا كشف الحجة والدليل .

(53/560)

ومعنى كونه ﴿ أحسَن ﴾ ، أنه أحق في الاستدلال ، فالتفضيل للمبالغة إذ ليس في حجتهم حُسن أو يراد بالحسن ما يبدو من بَهرجة سفسطتهم وشبههم فيجيء الكشف عن الحق أحسن وقعاً في نفوس السامعين من مغالطاتهم ، فيكون التفضيل بهذا الوجه على حقيقته ، فهذه نكتة من دقائق الاستعمال ودقائق التنزيل .

الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا (34)

استئناف ابتدائي لتسلية الرسول صلى الله عليه وسلم ولوعيد المشركين وذمهم .

والموصول واقعٌ موقع الضمير كأنه قيل : هُم يحشرون على وجوههم ، فيكون الضمير عائداً إلى الذين كفروا من قوله : ﴿ وقال الذين كفروا لولا نزّل عليه القرآن جملة واحدة ﴾ [الفرقان : 32] إظهاراً في مقام الإضمار لتحصيل فائدة أن أصحاب الضمير ثبتَ لهم مضمون الصلة ، وليبنى على الصلة موقع اسم الإشارة ، ومقتضى ظاهر النظم أن يقال : ولا يأتونك بِمَثَل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً ، هُم شرّ مكاناً وأضل سبيلاً ، ونحشرهم على وجوههم إلى جهنم ، كما قال في سورة الإسراء (97) ﴿ ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم ﴾ عقب قوله : ﴿ وما منَع الناسَ أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلاّ أن قالوا أبعَث اللَّه بشراً رسولاً ﴾ [الإسراء : 94] ويعلم من السياق بطريق التعريض أن الذين يحشرون على وجوههم هم الذين يأتون بالأمثال تكذيباً للنبيء صلى الله عليه وسلم وإذ كان قصدهم مما يأتون به من الأمثال تنقيص شأن النبي ذكروا بأنهم أهل شر المكان وضلالِ السبيل دون النبي صلى الله عليه وسلم فالموصول مبتدأ واسم الإشارة خبر عنه .

وقد تقدم معنى ﴿ يحشرون على وجوههم ﴾ في سورة الإسراء (97) عند قوله ﴿ ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم .

وتقدم ذكر الحديث في السُّؤَال عن كيفَ يمشون على وجوههم .

وشّر : اسم تفضيل .

(54/560)

وأصله أشرّ وصيغتا التفضيل في قوله شَرّ ، وأضلّ ﴾ مستعملتان للمبالغة في الاتصاف بالشر والضلال كقوله ﴿ قال أنتم شَرّ مكاناً ﴾ [يوسف : 77] في جواب قول إخوة يوسف ﴿ إنْ يسرق فقد سرق أخ له من قبل ﴾ [يوسف : 77] .

وتعريف جزأي الجملة يفيد القصر وهو قصر للمبالغة بتنزيلهم منزلة من انحصر الشر والضلال فيهم .

وروي عن مقاتل أن الكفار قالوا للمسلمين : هم شر الخلق ، فنزلت هذه الآية فيكون القصر قصر قلب ، أي هم شر مكاناً وأضل سبيلاً لا المسلمون ، وصيغتا التفضيل مسلوبتا المفاضلة على كلا الوجهين .

والمكان : المقَر .

والسبيل : الطريق ، مكانهم جهنم ، وطريقهم الطريق الموصل إليها وهو الذي يحشرون فيه على وجوههم .

والإتيان باسم الإشارة عقب ما تقدم للتنبيه على أن المشار إليهم أحرِياء بالمكان الأشرّ والسبيل الأضل ، لأجل ما سَبق من أحوالهم التي منها قولهم ﴿ لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة ﴾ [الفرقان : 32] .

و ﴿ سبيلاً ﴾ تمييز محوَّل عن الفاعل ، فأصله : وضل سبيلُهم .

وإسناد الضلال إلى السبيل في التركيب المحول عنه مجازٌ عقلي لأن السبيل سبب ضلالهم .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 19 صـ ﴾

(55/560)

وقال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ﴾

تقدمت الآيات التي بمعناه في آخر سورة الإسراء في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى الناس على مُكْثٍ ﴾ [الإسراء : 106] الآية ، وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ﴾ أي كذلك الإنزال مفرقاً بحسب الوقائع أنزلناه لا جملة كما اقترحوا ، وقوله : ﴿ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ أي أنزلناه مفرقاً ، لنثبت فؤادك بإنزاله مفرقاً .

قال بعضهم : معناه لنقوي بتفريقه على حفظه ، لأن حفظه شيئاً فشيئاً أسهل من حفظه مرة واحدة ، لو نزل جملة واحدة .

وقال بعضهم : ومما يؤكد ذلك أنه صلوات الله وسلامه عليه أمي لا يقرأ ولا يكتب .

الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا (34)

(56/560)

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أن الكفار يحشرون على وجوههم إلى جهنم يوم القيامة ، وأنهم شر مكاناً ، وأضل سبيلاً . وبين في مواضع أخر أنهم تكب وجوههم في النار ويسحبون على وجوههم فيها ، كقوله تعالى : ﴿ وَمَن جَآءَ بالسيئة فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النار هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [النمل : 90] الآية ، وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النار يَقُولُونَ ياليتنا أَطَعْنَا الله وَأَطَعْنَا الرسولا ﴾ [الأحزاب : 66] الآية وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النار على وُجُوهِهِمْ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴾ [القمر : 48] وبين جل وعلا في سورة بني إسرائيل أنهم يحشرون على وجوههم ، وزاد مع ذلك أنهم يحشرون عمياً وبكماً وصماً ، وذكر في سورة طه أن الكافر يحشر أعمى . قال في سورة بني إسرائيل : ﴿ وَمَن يَهْدِ الله فَهُوَ المهتد وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِ

وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ القيامة على وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُمّاً مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيراً ﴾ [الإسراء : 97] وقال في سورة طه ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ القيامة أعمى قَالَ رَبِّ لِمَ حشرتني أعمى وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً قَالَ كذلك أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وكذلك اليوم تنسى ﴾ [طه : 124126] الآية.

(57/560)

وقد بينا وجه الجمع بين آية بني إسرائيل وآية طه المذكورتين مع الآيات الدالة على أن الكفار يوم القيامة يبصرون ويتكلمون ويسمعون كقوله تعالى : ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ﴾ [مريم : 38] وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ ترى إِذِ المجرمون نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فارجعنا نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ [السجدة : 12] وقوله تعالى : ﴿ وَرَأَى المجرمون النار فظنوا أَنَّهُمْ مُّوَاقِعُوهَا ﴾ [الكهف : 53] في سورة طه في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ القيامة أعمى ﴾ [طه : 124] وكذلك بينا أوجه الجمع بين الآيات المذكورة في كتابنا دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب في الكلام على آية بني إسرائيل المذكورة.

وصيغة التفضيل في قوله : ﴿ أولئك شَرٌّ مَّكَاناً وَأَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ قد قدمنا الكلام في مثلها

في الكلام على قوله : ﴿ أذلك خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الخلد التي وَعِدَ المتقون ﴾ [الفرقان : 15] والمكان محل الكينونة . والظاهر أنه يكون حسياً ، ومعنوياً . فالحسي ظاهر ، والمعنوي كقوله تعالى : ﴿ قالوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَاناً ﴾ [يوسف : 77] الآية ، والسبيل الطريق وتذكر وتؤنث كما تقدم ، ومن تذكير السبيل قوله تعالى : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الذين يَتَكَبَّرُونَ فِي الأرض بِغَيْرِ الحق وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الرشد لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الغي يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ﴾ [الأعراف : 146] ومن تأنيثها قوله تعالى : ﴿ قُلْ هذه سبيلي أَدْعُو إلى الله على بَصِيرَةٍ ﴾ [يوسف : 108] الآية . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ أضواء البيان حـ 6 صـ ﴾

(58/560)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ﴾

هذا أيضاً أحد الأمور التي يتعلقون بها كي لا يؤمنوا ، وكيف يطلبون أن ينزل القرآن جملةً واحدة ، وهم لا يطيقون منه آية واحدة ؟ لكنه الجدل والسفسطة والإفلاس في الحجة ،

فاعتراضهم على نزول القرآن مُنَجّماً .

إذن : لا غضاضة عندهم في القرآن ، وعَيْبه في نظرهم أنه نزل على محمد بالذات ، وأنه ينزل مُنجّماً لا جملة واحدة ، وكان طاقة الإيمان عندهم تناسب نزول القرآن جملة واحدة ! !

ثم يقول سبحانه : كَذَلِكَ ﴾ [الفرقان : 32]؟] يعني : أنزلناه كذلك مُنجّماً حَسْب الأحوال ، والحكمة من ذلك ﴿ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ [الفرقان : 32] لأنك ستتعرض على مدى ثلاث وعشرين سنة لمواقف تزلزل ، فكلما تعرضْتَ لموقف من هذه المواقف نزل القرآن تسليةً لك وتثبيتاً وَصِلةً بالسماء لا تنقطع . ولو نزل القرآن مرة واحدة لكان التثبيت مرة واحدة ، ثم تأتي بقية الأحداث بدون تثبيت ، ولا شكَّ أن الصلة بالسماء تُقوّي المنهج وتُقوّي الإيمان .

كما أن القرآن لو نزل مرة واحدة ، كيف يتسنى لهم أنْ يسألوا عما سألوا عنه مما حكاه القرآن : يسألونك عن كذا ، يسألونك عن كذا . . إلخ . إذن : نزوله مُنجّماً اقتضاء لحكمة الحق سبحانه ليُعدّدَ مواقف تثبيتك ، لتعدد مواقف الإيذاء لك .

ومعنى : ﴿ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ﴾ [الفرقان : 32] أي : أنزلناه مُنجمّاً حَسْب الأحوال ، فكلما نزل نجم تمكنتم من حِفْظه وتكراره في الصلاة .

وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا (33)

المَثَل مثل قولهم : ﴿ لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ القرآن جُمْلَةً وَاحِدَةً ﴾ [الفرقان : 32] أو قولهم : ﴿ لَوْلاَ نُزِّلَ هذا القرآن على رَجُلٍ مِّنَ القريتين عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف : 31] والمثل : الأشياء العجيبة التي طلبوها .

(59/560)

ولو أجابهم الله لما قالوا لأنكروا قولهم وتنصّلوا منه ، كما قال تعالى عن اليهود : ﴿ سَيَقُولُ السفهآء مِنَ الناس مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ التي كَانُواْ عَلَيْهَا ﴾ [البقرة : 142] ومع ذلك قالوا ما حكاه القرآن عنهم . أمَا كان فيهم رجل يتنبه لقوْل القرآن ، فيحذرهم من هذا القول ليُوقِع رسول الله في حرج ، ويُظهر القرآن على أنه كذب ، ويقول كلاماً يخالف الحقيقة ، وعندها ، لهم أنْ يقولوا : لقد قال القرآن كذا وكذا ولم يحدث منا هذا ؟

الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ أُوْلَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا (34)

﴿ الذين ﴾ [الفرقان : 34] إجمال الأشخاص معروفين بذواتهم ، وقفوا من الرسول موقف العداء ، ومنهم مَنْ سبق أن قال : ﴿ ياليتني اتخذت مَعَ الرسول سَبِيلاً * ياويلتى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاَناً خَلِيلاً ﴾ [الفرقان : 2728] .

والحشر : الجمع للحساب ، لكن سيُحشَرون على وجوههم ؛ لذلك لما نزلت هذه الآية

سألوا رسول الله : كيف يمشُون على وجوههم قال صلى الله عليه وسلم : " الذي أمشاهم على أرجلهم ، قادر أن يُمشيهم على وجوههم " .

فالذي يمشي على وجهه كالذي يمشي على بطنه ، ولعله يُجَر جراً ، سواء أكان على وجهه أو على شيء آخر ، ثم إن الإنسان لا ينبغي له أن يسأل عن أمور هي مناط القدرة المطلقة .

والحق تبارك وتعالى يُوضّح هذه المسألة في قوله تعالى : ﴿ والله خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي على بَطْنِهِ وَمِنهُمْ مَّن يَمْشِي على رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي على أَرْبَعٍ يَخْلُقُ الله مَا يَشَآءُ إِنَّ الله على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [النور : 45] .

إذن : المشْي لا ينحصر في الحالات التي نعرفها فقط ، إنما هي طلاقة القدرة التي تفعل ما تشاء .

(60/560)

لكن ، لماذا لم يذكر القرآن أسماء هؤلاء الأشخاص الظالمين المعاندين للإسلام ؟ قالوا : هذا من باب إرخاء العِنَان للخَصْم ، وكلمة (العنان) تأتي بكسر العين وفتحها ، واللغويون يقولون : هي على وزن ما هي بمعناه ، فإنت قصدتَ بها عَنان السماء فهي على وزن

سَحَاب ، وإن أردتَ بها عِنان الفرس ، فهي على وزنِ لِجَام .

وراكب الدابة إنْ أرخى لها العِنان تركها تسير كما تشاء ، كذلك الحق تبارك وتعالى يُرخِي للخصم العِنان ليقول كل ما عنده ، وليأخذه إلى جانبه ، لا بما يكره ، بل بما يحب . وقد علَّم الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم كيف يردُّ عليهم ويجادلهم الجدل الهادىء بالتي هي أحسن . فحين قالوا عنه مفتر ، وعن القرآن مُفترىً ومكذوب ردّ عليهم : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افتراه قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ ﴾ [يونس : 38] .

ثم يترقَّى في جدالهم : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افتراه قُلْ إِنِ افتريته فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَاْ بريء مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴾ [هود : 35] وفي آية أخرى يرد عليهم : ﴿ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لعلى هُدًى أَوْ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ ﴾ [سبأ : 24] .

وهل النبي صلى الله عليه وسلم لا يعرف مَنْ على الهدى ومَنْ على الضلال ؟ لا شكَّ أنه إرخاء العِنان للخصم ، يقول لهم : أنا وأنتم على طَرَفي نقيض : أنا أقول بإله واحد وأنتم تُكذِّبون قولي ، فأنا متناقض معكم في هذه القضية ، والقضية لا بُدَّ أن تأتي على شكل واحد ، فإمَّا أنا على الهدى ، وإمّا أنتم ، وأنا لا أدّعي الحق لنفسي .

إذن : المطلوب أنْ تُعمِلوا عقولكم لتُميِّزوا مَنْ مِنّا على الهدى ومَنْ منّا على الضلال ، وكأن رسول الله يرتضي حكومتهم في هذه المسألة ، وما ترك لهم رسول الله الحكمَ إلا وهو واثق أنهم لو تجردوا من الهوى لعرفوا أن الحق معه ، وأنه على الهدى ، وأنهم على الضلال .

إذن : عندما تكلم القرآن عن كفار قريش الذين تعنتوا في اقتراحاتهم ، وعاندوا وآذوا رسول الله بكل أنواع الإيذاء ، ومع ذلك حينما تكلم عنهم جاء بأسلوب عام فقال : (الذين) ولم يقل هؤلاء ، بل جاء بالقضية العامة ولم يُواجههم بالجزاء مما يدلّ على التلطف في أمر الدعوة ، وهذا نوع من استمالة الخَصْم لنقطع منه شراسة العداء والعناد .

لذلك يخاطب الحق تبارك وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ﴾ [آل عمران : 159] كأنك لم تَلِنْ لهم بطبْعك ؛ لأن عنادهم وأذاهم كان سيُرغم طبْعك على أن تكون قاسياً معهم ولكن رحمة الله شملتْك فَلِنْتَ لهم ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران : 159] .

هذا يعني أن الداعية لا بُدَّ أن يكون رَحْب الصدر ، رَحْب الساحة ، ذلك لأنه يُخرِج أهل الضلال عما أَلِفوه إلى شيء يكرهونه ، فلا تُخرجهم من ذلك بأسلوب يكرهونه ، فتجمع عليهم شدتين ، إنما تلطَّفْ معهم ، كما قال عز وجل لموسى وهارون عندما أمرهما بدعوة فرعون : ﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾ [طه : 44] .

لأن الذي بلغ من عناده أنْ يتكبّر لا على المخلوقين أمثاله ، إنما يتكبّر على الخالق فيدّعي

الألوهية لا بُدَّ أنْ تأتيه بأسلوب ليّن لطيف .

وفي آية أخرى يُعلِّم الحق سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم كيف يجادل المشركين ، فيقول سبحانه : ﴿ قُل لاَّ تُسْأَلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا ﴾ [سبأ : 25] وهل يُتصوَّر الإجرام من رسول الله ؟ ! وفي المقابل : ﴿ وَلاَ نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [سبأ : 25] مع أن منطق الجدل هنا أن يقول : ولا نُسأل عما تُجرِمون ، لكنه نسب الإجرام لنفسه ، ولم يذكره في حَقِّ الآخرين ، فهل هناك تلطُّفٌ وترقيق للقلوب فوق هذا ؟

(62/560)

الحق تبارك وتعالى يعرض لكل هذه المسائل ليثبت أن رسوله صلى الله عليه وسلم كان حريصاً على إيمان قومه ، وأنه لم يدّخِرْ وُسْعاً في سبيل هدايتهم وجَذْبهم إليه ؛ لدرجة أنه حمّل نفسه فوق ما يطلبه الله منه ، حتى قال له ربه : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهَذَا الحديث أَسَفاً ﴾ [الكهف : 6] .

وقال : ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء : 3] .

يعني : مُهلكٌ نفسك من أجل هدايتهم ، وما عليك إلا البلاغ ، ولا يقول له ربه هذا الكلام إلا إذا كان قد عَلِم منه حِرْصاً ورغبة أكيدة في هداية قومه .

ومعنى : ﴿ أولئك شَرٌّ مَّكَاناً وَأَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ [الفرقان : 34] قوله تعالى ﴿ شَرٌّ ﴾ [الفرقان : 34] ولم يقُلْ أشر ؛ لأن معناها : أن الجهة الثانية فيها شر ، وهذا أيضاً من إرخاء العِنان للخصم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(63/560)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ﴾

أخرج ابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه والضياء في المختارة عن ابن عباس قال : قال المشركون : إن كان محمد كما يزعم نبياً فلم يعذ به ربه . ألا ينزل عليه القرآن جملة واحدة ؟ ينزل عليه الآية والآيتين والسورة . فأنزل الله على نبيه جواب ما قالوا ﴿ وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة ﴾ إلى ﴿ وأضل سبيلاً ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن قتادة ﴿ وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة ﴾ يقولون : كما أنزل على موسى ، وعلى عيسى قال الله ﴿ كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلاً ﴾ قال : بيناه تبييناً ﴿ ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن

تفسيراً ﴾ قال : أحسن تفصيلاً .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس في قوله ﴿ كذلك لنثبت به فؤادك ﴾ قال : كان الله ينزل عليه الآية فإذا علمها رسول الله صلى الله عليه وسلم نزلت آية أخرى ليعلمه الكتاب عن ظهر قلبه ويثبت به فؤادك ﴿ ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً ﴾ يقول : أحسن تفصيلاً .

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس في قوله ﴿ كذلك لنثبت ﴾ قال : لنشدد به فؤادك ، ونربط على قلبك ﴿ ورتلناه ترتيلاً ﴾ قال : رسلناه ترسيلاً يقول : شيئاً بعد شيء ﴿ ولا يأتونك بمثل ﴾ يقول : لو أنزلنا عليك القرآن جملة واحدة ثم سألوك ، لم يكن عندك ما تجيب . ولكنا نمسك عليك ، فإذا سألوك أجبت .

(64/560)

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : قالت قريش ما للقرآن لم ينزل على النبي صلى الله عليه وسلم جملة واحدة ؟ قال الله في كتابه ﴿ وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلاً ﴾ قال : قليلاً . قليلاً . . . كما لا يجيئوك بمثل إلا جئناك بما ينقض عليهم ، فأنزلناه عليك تنزيلاً قليلاً قليلاً . كلما جاؤوا بشيء

جئناهم بما هو أحسن منه تفسيراً .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن الحسن في قوله ﴿ ورتلناه ترتيلاً ﴾ قال : كان ينزل عليه الآية . والآيتان . والآيات . . . كان ينزل عليه جواباً لهم . إذا سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن شيء أنزل الله جواباً لهم ، ورداً عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما تكلموا به ، وكان بين أوّله وآخره نحو من عشرين سنة .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن جريج ﴿ كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلاً ﴾ قال : كان ينزل عليه القرآن جواباً لقولهم . ليعلم أن الله هو يجيب القوم عما يقولون ﴿ ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق ﴾ قال : لا يأتيك الكفار إلا جئناك بما ترد به ما جاؤوك به من الأمثال التي جاؤوا بها .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن إبراهيم النخعي ﴿ ورتلناه ترتيلاً ﴾ يقول : أنزل متفرقاً .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي ﴿ ورتلناه ترتيلاً ﴾ قال : فصلناه تفصيلاً .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عطاء في قوله ﴿ وأحسن تفسيراً ﴾ قال : تفصيلاً .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله ﴿ وأحسن تفسيراً ﴾ قال : بياناً .

الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا (34)

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن جريج في قوله ﴿ أولئك شر مكاناً ﴾ يقول : من أهل الجنة ﴿ وأضل سبيلاً ﴾ قال : طريقاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 6 صـ ﴾

(65/560)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله : ﴿ جُمْلَةً ﴾ :

حالٌ من القرآن ، إذ هي في معنى مُجْتمعاً .

قوله : ﴿ كَذَلِكَ ﴾ إمَّا مرفوعةُ المَحَلِّ أي : الأمرُ كذلك . و " لِنُثَبِّتَ " علةٌ لمحذوفٍ أي : لِنُثَبِّتَ فَعَلْنا ذلك . وإمَّا منصوبتُه على الحالِ أي : أنزل مثلَ ذلك ، أو على النعت لمصدر محذوفٍ ، و " لِنُثَبِّتَ " متعلقٌ بذلك الفعلِ المحذوفِ . وقال أبو حاتمٍ : " هي جوابُ قسمٍ " وهذا قولٌ مرجُوْحٌ نحا إليه الأخفش وجَعَلَ منه " ولتصغى " ، وقد تقدَّم في الأنعام .

وقرأ عبد الله " لِيُثَبِّتَ " بالياءِ أي : اللهُ تعالى .

والتَّرْتيل : التفريقُ . ومجيءُ الكلمةِ بعد الأخرى بسكونٍ يسيرٍ دونَ قَطْعِ النَّفَسِ . ومنه ثَغْرٌ رَتْلٌ ومُرَتَّل أي : مُفَلَّجُ الأسنان ، بين أسنانِه فُرَجٌ يسيرةٌ .

قال الزمخشري : " ونُزِّل هنا بمعنى : أُنزِل لا غيرك خَبَّر بمعنى أَخْبر ، وإلاَّ تدافعَا " يعني أنَّ " نَزَّلَ " بالتشديدِ يقتضي بالأصالةِ التنجيمَ والتفريق ، فلو لم يُجْعَلْ بمعنى أنزل الذي لا يقتضي ذلك لتدافعَ مع قولِه " جُمْلَةً " لأنَّ الجملةَ تُنَافي التفريقَ ، وهذا بناءً منه على معتقدِه وهو أنَّ التضعيفَ يَدُلُّ على التفريقِ . وقد نَصَّ على ذلك في مواضعَ من كتابة " الكشاف " .

وتقدَّم ذلك في البقرةِ وأولِ آل عمران وآخرِ الإسراء ، وحكى هناك عن ابنِ عباس ما يُقَوِّي ظاهرُه صحتَه .

قوله : ﴿ إلاَّ جِئْنَاكَ بالحق ﴾ هذا الاستثناءُ مفرَّغٌ . والجملةُ في محلِّ نصبٍ على الحال أي : لا يَأْتُونك بمَثَلٍ إلاَّ في حالِ إتيانِنا إياك كذا . والمعنى : ولا يَأْتُونك بسؤالٍ عجيبٍ إلاَّ جِئْناك بالأمرِ الحقِّ . و " تَفْسيراً " تمييزٌ ، والمفضلُ عليه محذوفٌ أي : تفسيراً مِنْ مِثْلِهم .

(66/560)

قوله : ﴿ الذين يُحْشَرُونَ ﴾ : يجوز رفعُه خبرَ مبتدأ محذوفٍ أي : هم الذين . ويجوزُ نصبُه على الذمِّ ، ويجوز أن يرتفعَ بالابتداءِ ، وخبرُه الجملةُ مِنْ قولِه ﴿ أولئك شَرٌّ مَّكَاناً ﴾ . ويجوز أَنْ يكونَ " أولئك " بدلاً من أو بياناً للموصول ، و " شَرٌّ مكاناً " خبر الموصول .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 481.482 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ﴾

أي إنما أنزلناه متفرقاً لِيسهُل عليك حِفْظُه ؛ فإنه كان أمياً لا يقرا الكتب ، ولأنه لو كان دفعة واحدة لم يتكرر نزول جبريل عليه السلام بالرسالة إليه في كل وقت وكل حين . . . وكثرةُ نزوله كانت أوجبَ لسكون قلبه وكمال رَوْحه ودوام أُنْسه ، فجبريل كان يأتي في كل وقت بما كان يقتضيه ذلك الوقتُ من الكوائن والأمور الحادثة ، وذلك أبلغُ في كونه معجزةً ، وأَبعدُ عن التهمة من أن يكون من جهة غيره ، أو أن يكون بالاستعانة بمن سواه حاصلاً .

وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا (33)

كان الجوابُ لما يوردونه على جهة الاحتجاج لهم مفحماً ، ولفساد ما يقولونه موضحاً ، ولكن الحقَّ – سبحانه – أجرى السُّنّة بأنه لم يزد ذلك للمسلمين إلا شَفَاءً وبصيرةً ولهم إلا عَمَىً وشبهة .

ثم أخبر عن حالهم من مآلهم .

الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا (34)

يحشرون على وجوههم وذلك أمارة لإهانتهم ، وإن في الخبر : " الذين أمْشاهم اليومَ على أقدامهم يُمْشيهم غداً على وجوههم " وهو على ذلك قادر ، وذلك منه غير مستحيل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 635.636 ﴾

(68/560)

قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا (35) فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا (36) وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا (37) وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا (38) وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا (39) وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا (40) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما بين أنهم كذبوه وعادوه ، وأشار بآية الحشر إلى جهنم إلى أنه لا يهلكهم بعامة ، عطف

على عامل " لنثبت " تسلية له وتخويفاً لهم قوله : ﴿ ولقد آتينا ﴾ أي بما لنا من العظمة ﴿ موسى الكتاب ﴾ كما أتيناك ، بينا فيه الشرائع والسنن والأحكام ، وجعلناه هدى ورحمة ، وأنزلناه إليه منجماً في نحو عشرين سنة يقال : إنها ثمان عشرة كما أنزلنا إليك هذا القرآن في نيف وعشرين سنة ، كما بينت ذلك في آخر سورة النساء وغيرها ، على أن أحداً ممن طالع التوراة لا يقدر على إنكار ذلك ، فإنه بيّن من نصوصها .

وزاد في التسلية بذكر الوزير ، لأن الرد للاثنين أبعد ، وفيه إشارة إلى أنه لا ينفع في إيمانهم إرسال ملك كما اقترحوا ليكون معه نذيراً ، فقال : ﴿ وجعلنا ﴾ بما لنا من العظمة ﴿ معه أخاه ﴾ ثم بينه بقوله : ﴿ هارون ﴾ وبين محط الجعل بقوله : ﴿ وزيراً ﴾ أي معيناً في كل أمر بعثناه به ، وهو مع ذلك نبي ، ولا تنافي بين الوزارة والنبوة .

ولما كانت الواو لا ترتب ، فلم يلزم من هذا أن يكون هذا الجعل بعد إنزال الكتاب كما هو الواقع ، رتب عليه قوله : ﴿ فقلنا ﴾ أي بعد جعلنا له وزيراً .

(69/560)

ولما كان المقصود هنا من القصة التسلية والتخويف ، ذكر حاشيتها أولها وآخرها ، وهما إلزام الحجة والتدمير ، فقال : ﴿ اذهبا إلى القوم ﴾ أي الذين فيهم قوة وقدرة على ما يعانونه

وهم القبط ﴿ الذين كذبوا بآياتنا ﴾ أي المرئية والمسموعة من الأنبياء الماضين قبل إتيانكما في علم الشهادة ، والمرئية والمسموعة منكما بعد إتيانكما في علمنا .

فذهبا إليهم فكذبوهما فيما أرياهم وأخبراهم به من الآيات ، لما طبعناهم عليه من الطبع المهيىء لذلك .

ولما كان السياق للإنذار بالفرقان ، طوي أمرهم إلا في عذابهم فقال : ﴿ فدمرناهم ﴾ أي لذلك ﴿ تدميراً ﴾ بإغراقهم أجمعين على يد موسى عليه السلام في البحر ، لم نبق منهم أحداً مع ما أصبناهم به قبل ذلك من المصائب ، مع اجتهاد موسى عليه السلام في إحيائهم بالإيمان ، الموجب لإبقائهم في الدارين ، عكس ما فعلناه بموسى عليه السلام من إنجائه من الهلاك بإلقائه في البحر ، وإبقائه بمن اجتهد في إعدامه ، وجعلنا لكل منهما حظاً من بحره ﴿ هذا ملح أجاج ﴾ هو غطاء جهنم ، ﴿ وهذا عذب فرات ﴾ [الفرقان : 53] عنصره من الجنة ، فليحذر هؤلاء الذين تدعوهم من مثل ذلك إن فعلوا مثل فعل أولئك .

(70/560)

ولما هدد المكذبين ، بإهلاك الأولين ، الذين كانوا أقوى منهم وأكثر ، وقدم قصة موسى عليه السلام لمناسبة الكتاب في نفسه أولاً ؛ وفي تنجيمه ثانياً ، أتبعه أول الأمم ، لأنهم أول ، ولما

في عذابهم من الهول ، ولمناسبة ما بينه وبين عذاب القبط ، فقال : ﴿ وقوم ﴾ أي ودمرنا قوم ﴿ نوح لما كذبوا الرسل ﴾ بتكذيبهم نوحاً ؛ لأن من كذب واحداً من الأنبياء بالفعل فقد كذب الكل بالقوة ، لأن المعجزات هي البرهان على صدقهم ، وهي متساوية الأقدام في كونها خوارق ، لا يقدر على معارضتها ، فالتكذيب بشيء منها تكذيب بالجميع لأنه لا فرق ، ولأنهم كذبوا من مضى من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فيما سمعوه من أخبارهم ، ولأنهم عللوا تكذيبهم بأنه من البشر فلزمهم تكذيب كل رسول من البشر .

ولما كان كأنه قيل : بأيّ شيء دمروا ؟ قال : ﴿ أغرقناهم ﴾ كما أغرقنا آل فرعون بأعظم مما أغرقناهم ﴿ وجعلناهم ﴾ أي قوم نوح في ذلك ﴿ للناس آية ﴾ أي علامة على قدرتنا على ما نريد من إحداث الماء وغيره وإعدامه والتصرف في ذلك بكل ما نشاء ، وإنجاء من نريد بما أهلكنا به عدوه ﴿ وأعتدنا ﴾ أي هيأنا تهيئة قريبة جداً وأحضرنا على وجه ضخم شديد تام التقدير ؛ وكان الأصل : لهم ، ولكنه أظهر تعميماً وتعليقاً للحكم بالوصف فقال : ﴿ للظالمين ﴾ أي كلهم في أيّ زمان كانوا ، لأجل ظلمهم بوضعهم الأشياء في غير مواضعها ﴿ عذاباً أليماً ﴾ لاسيما في الآخرة .

ولما ذكر آخر الأمم المهلكة بعامة وأولها ، وكان إهلاكهما بالماء ، ذكر من بينهما ممن أهلك بغير ذلك ، إظهاراً للقدرة والاختيار ، وطوى خبرهم بغير العذاب لأنه كما مضى في سياق الإنذار فقال : ﴿ وعاداً ﴾ أي ودمرنا عاداً بالريح ﴿ وثمودا ﴾ بالصيحة ﴿ وأصحاب

الرس ﴾ أي البئر التي هي غير مطوية ؛ قال ابن جرير : والرس في كلام العرب كل محفور مثل البئر والقبر ونحو ذلك .

(71/560)

أي دمرناهم بالخسف ﴿ وقروناً بين ذلك ﴾ أي الأمر العظيم المذكور ، وهو بين كل أمتين من هذه الأمم ﴿ كثيراً ﴾ وناهيك بما يقول فيه العلي الكبير : إنه كثير ؛ أسند البغوي في تفسير ﴿ أمة وسطاً ﴾ [البقرة : 143] في البقرة عن أبي سعيد الخدري ـ رضى الله عنه ـ قال : قام فينا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يوماً بعد العصر ، فما ترك شيئاً إلى يوم القيامة إلا ذكره في مقامه ذلك حتى إذا كانت الشمس على رؤوس النخل وأطراف الحيطان قال : " أما إنه لم يبق من الدنيا فيما مضى إلا كما بقي من يومكم هذا ، ألا وإن هذه الأمة توفي سبعين أمة هي آخرها وأكرمها على الله عز وجل " أخرجه الترمذي في الفتن وأحمد والطبراني وابن ماجه في الفتن أيضاً لكن ببعضه وليس عند واحد منهم اللفظ المقصود من السبعين أمة ، وفي بعض ألفاظهم وجعلنا نلتفت إلى الشمس هل بقي منها شيء وهذا يدل على أن الذي كان قد بقي من النهار نحو العشر من العشر ، وهذا يقتضي إذا اعتبرنا ما مضى لهذه الأمة من الزمان أن يكون الماضي من الدنيا من خلق آدم عليه

السلام في يوم الجمعة الذي يلي الستة الأيام التي خلقت فيها السماوات والأرض أكثر من مائة ألف سنة – والله أعلم .

ولما قدم سبحانه أنه يأتي في هذا الكتاب بما هو الحق في جواب أمثالهم ، بين أنه فعل بالجميع نحو من هذا ، فقال تسلية لنبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتأسية وبياناً لتشريفه بالعفو عن أمته : ﴿ وكلاً ﴾ أي من هذه الأمم ﴿ ضربنا ﴾ بما لنا من العظمة ﴿ له الأمثال ﴾ حتى وضح له السبيل ، وقام – من غير شبهة – الدليل ﴿ وكلاً تبرنا تتبيراً ﴾ أي جعلناهم فتاتاً قطعاً بليغة التقطيع ، لا يمكن غيرنا أن يصلها ويعيدها إلى ما كانت عليه قبل التفتيت .

(72/560)

ولما ذكر الإهلاك بالماء وبغيره ، وكان الإهلاك بالماء تارة بالبحر ، وتارة بالإمطار ، وختم بالخسف ، ذكر الخسف الناشىء عن الأمطار ، بحجارة النار ، مع الغمر بالماء ، دلالة على تمام القدرة ، وباهر العظمة ، وتذكيراً بما يرونه كل قليل في سفرهم إلى الأرض المقدسة لمتجرهم ، وافتتح القصة باللام المؤذنة بعظيم الاهتمام ، مقرونة بحرف التحقيق ، إشارة إلى أنهم لعدم الانتفاع بالآيات كالمنكرين للمحسوسات ، وغير الأسلوب تنبيهاً على عظيم

الشأن وهزاً للسامع فقال : ﴿ ولقد أتوا ﴾ أي هؤلاء المكذبون من قومك ، وقال : ﴿ على القرية ﴾ - وإن كانت مدائن سبعاً أو خمساً كما قيل - تحقيراً لشأنها في جنب قدرته سبحانه ، وإهانة لمن يريد عذابه ، ودلالة على جمع الفاحشة لهم حتى كانوا كأنهم شيء واحد كما دل عليه التعبير بمادة " قرا " الدالة على الجمع ﴿ التي أمطرت ﴾ أي وقع إمطارها ممن لا يقدر على الإمطار سواه بالحجارة ، ولذا قال : ﴿ مطر السوء ﴾ وهي قرى قوم لوط ، ثم خسف بها وغمرت بما ليس في الأرض مثله في أنواع الخبث ؛ قال البغوي : كانت خمس قرى فأهلك الله أربعاً منها ونجت واحدة وهي أصغرها ، وكان أهلها لا يعملون العمل الخبيث .

ولما كانوا يمرون عليها في أسفارهم ، وكان من حقهم أن أن يتعظوا بحالهم ، فيرجعوا عن ضلالهم ، تسبب عن ذلك استحقاقهم للإنكار الشديد في قوله : ﴿ أفلم يكونوا ﴾ أي بما في جبلاتهم من الأخلاق العالية ﴿ يرونها ﴾ أي في أسفارهم إلى الشام ليعتبروا بما حل بأهلها من عذاب الله فيتوبوا .

ولما كان التقدير : بل رأوها ، أضرب عنه بقوله : ﴿ بل ﴾ أي لم يكن تكذيبهم بسبب عدم رؤيتها وعدم علمهم بما حل بأهلها ، بل بسبب أنهم ﴿ كانوا ﴾ يكذبون بالقيامة كأنه لهم طبع .

ولما كان عود الإنسان إلى ما كان من صحته محبوباً له ، كان ينبغي لهم لو عقلوا أن يعلقوا رجاءهم بالبعث لأنه لا رجوع إلى الحياة ، فهو كرجوع المريض لا سيما المدنف إلى الصحة ، فلذلك قال معبراً بالرجاء تنبيهاً على هذا : ﴿ لا يرجون نشوراً ﴾ بعد الموت ليخافوا الله عز وجل فيخلصوا له فيجازيهم على ذلك ، لأنه استقر في أنفسهم اعتقادهم التكذيب بالآخرة ، واستمروا عليه قرناً بعد قرن حتى تمكن تمكناً لا ينفع معه الاعتبار إلا لمن شاء الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 317.320 ﴾

(74/560)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا (35) ﴾)

القصة الأولى قصة موسى عليه السلام

اعلم أنه تعالى لما قال : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نبِىّ عَدُوّاً ﴾ [الفرقان : 31] أتبعه بذكر جماعة من الأنبياء وعرفه بما نزل بمن كذب من أممهم فقال : ﴿ وَلَقَدْ ءاتَيْنَا مُوسَى الكتاب

وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هارون وَزِيراً ﴾ والمعنى : لست يا محمد بأول من أرسلناه فكذب ، وآتيناه الآيات فرد ، فقد آتينا موسى التوراة وقوينا عضده بأخيه هرون ومع ذلك فقد رد ، وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

كونه وزيراً لا يمنع من كونه شريكاً له في النبوة ، فلا وجه لقول من قال في قوله : ﴿ فَقُلْنَا اذهبا ﴾ إنه خطاب لموسى عليه السلام وحده بل يجري مجرى قوله : ﴿ اذهبا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طغى ﴾ [طه : 43] فإن قيل إن كونه وزيراً كالمنافي لكونه شريكاً بل يجب أن يقال إنه لما صار شريكاً خرج عن كونه وزيراً ، قلنا لا منافاة بين الصفتين لأنه لا يمتنع أن يشركه في النبوة ويكون وزيراً وظهيراً ومعيناً له .

المسألة الثانية :

قال الزجاج الوزير في اللغة الذي يرجع إليه ويتحصن برأيه والوزر ما يعتصم به ومنه ﴿ كَلاَّ لاَ وَزَرَ ﴾ [القيامة : 11] أي لا منجى ولا ملجأ ، قال القاضي : ولذلك لا يوصف تعالى بأن له وزيراً ولا يقال فيه أيضاً بأنه وزير لأن الالتجاء إليه في المشاورة والرأي على هذا الحد لا يصح .

المسألة الثالثة :

﴿ دمرناهم ﴾ أهلكناهم إهلاكاً فإن قيل : الفاء للتعقيب والإهلاك لم يحصل عقيب

ذهاب موسى وهرون إليهم بل بعد مدة مديدة ، قلنا : التعقيب محمول ههنا على الحكم لا على الوقوع ، وقيل : إنه تعالى أراد اختصار القصة فذكر حاشيتيها أولها وآخرها لأنهما المقصود من القصة بطولها أعني إلزام الحجة ببعثة الرسل واستحقاق التدمير بتكذيبهم .

المسألة الرابعة :

(75/560)

قوله تعالى : ﴿ اذهبا إِلَى القوم الذين كَذَّبُواْ بئاياتنا ﴾ إن حملنا تكذيب الآيات على تكذيب آيات الإلهية فلا إشكال ، وإن حملناه على تكذيب آيات النبوة فاللفظ ، وإن كان للماضي إلا أن المراد هو المستقبل .

﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا (37) ﴾

القصة الثانية قصة نوح عليه السلام

اعلم أنه تعالى إنما قال : ﴿ كَذَّبُواْ الرسل ﴾ إما لأنهم كانوا من البراهمة المنكرين لكل الرسل أو لأنه كان تكذيبهم لواحد منهم تكذيباً للجميع ، لأن تكذيب الواحد منهم لا يمكن إلا بالقدح في المعجز ، وذلك يقتضي تكذيب الكل ، أو لأن المراد بالرسل وإن كان نوحاً عليه

السلام وحده ولكنه كما يقال فلان يركب الأفراس .

أما قوله : ﴿ أغرقناهم ﴾ فقال الكلبي : أمطر الله عليهم السماء أربعين يوماً وأخرج ماء الأرض أيضاً في تلك الأربعين فصارت الأرض بحراً واحداً ﴿ وجعلناهم ﴾ أي وجعلنا إغراقهم أو قصتهم آية ، ﴿ وَأَعْتَدْنَا للظالمين ﴾ أي لكل من سلك سبيلهم في تكذيب الرسل عذاباً أليماً ، ويحتمل أن يكون المراد قوم نوح .

﴿ وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا (38) وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا (39) ﴾

القصة الثالثة قصة عاد وثمود وأصحاب الرس

المسألة الأولى :

عطف ﴿ عَاداً ﴾ على (هم) في ﴿ وجعلناهم ﴾ أو على (الظالمين) لأن المعنى ووعدنا الظالمين .

المسألة الثانية :

قرىء و ﴿ ثَمُودُ ﴾ على تأويل القبيلة ، وأما على المنصرف فعلى تأويل الحي أو لأنه اسم للأب الأكبر .

المسألة الثالثة :

قال أبو عبيدة الرس هو البئر غير المطوية ، قال أبو مسلم : في البلاد موضع يقال له الرس فجائز أن يكون ذلك الوادي سكناً لهم ، والرس عند العرب الدفن ، ويسمى به الحفر يقال رس الميت إذا دفن وغيب في الحفرة ، وفي التفسير أنه البئر ، وأي شيء كان فقد أخبر الله تعالى عن أهل الرس بالهلاك انتهى .

المسألة الرابعة :

(77/560)

ذكر المفسرون في أصحاب الرس وجوهاً : أحدها : كانوا قوماً من عبدة الأصنام أصحاب آبار ومواش ، فبعث الله تعالى إليهم شعيباً عليه السلام فدعاهم إلى الإسلام فتمادوا في طغيانهم وفي إيذائه فبينما هم حول الرس خسف الله بهم وبدارهم وثانيها : الرس قرية بفلج اليمامة قتلوا نبيهم فهلكوا وهم بقية ثمود وثالثها : أصحاب النبي حنظلة بن صفوان كانوا مبتلين بالعنقاء ، وهي أعظم ما يكون من الطير سميت بذلك لطول عنقها وكانت تسكن جبلهم الذي يقال له فتح وهي تنقض على صبيانهم فتخطفهم إن أعوزها الصيد فدعا عليها حنظلة فأصابتها الصاعقة ، ثم إنهم قتلوا حنظلة فأهلكوا ورابعها :

هم أصحاب الأخدود ، والرس هو الأخدود وخامسها : الرس أنطاكية قتلوا فيها حبيباً النجار ، وقيل (كذبوه) ورسوه في بئر أي دسوه فيها وسادسها : عن علي عليه السلام أنهم كانوا قوماً يعبدون شجرة الصنوبر وإنما سموا بأصحاب الرس لأنهم رسوا نبيهم في الأرض وسابعها : أصحاب الرس قوم كانت لهم قرى على شاطىء نهر يقال له الرس من بلاد المشرق فبعث الله تعالى إليهم نبياً من ولد يهودا بن يعقوب فكذبوه فلبث فيهم زمناً فشكى إلى الله تعالى منهم فحفروا بئراً ورسوه فيها وقالوا نرجو أن يرضى عنا إلهنا وكانوا عامة يومهم يسمعون أنين نبيهم يقول : إلهي وسيدي ترى ضيق مكاني وشدة كربي وضعف قلبي وقلة حيلتي فعجل قبض روحي حتى مات ، فأرسل الله تعالى ريحاً عاصفة شديدة الحمرة فصارت الأرض من تحتهم حجر كبريت متوقد وأظلتهم سحابة سوداء فذابت أبدانهم كما يذوب الرصاص وثامنها : روى ابن جرير عن الرسول صلى الله عليه وسلم " أن الله بعث نبياً إلى أهل قرية فلم يؤمن به من أهلها أحد إلا عبد أسود ثم عدوا على الرسول فحفروا له بئراً فألقوه فيها ، ثم أطبقوا عليه حجراً ضخماً ، وكان ذلك العبد يحتطب فيشتري له طعاماً وشراباً ويرفع الصخرة ويدليه إليه فكان ذلك ما شاء الله فاحتطب يوماً فلما أراد أن يحملها

وجد نوماً فاضطجع فضرب الله على أذنه سبع سنين نائماً ، ثم انتبه وتمطى وتحول لشقه الآخر فنام سبع سنين أخرى ، ثم هب فحمل حزمته فظن أنه نام ساعة من نهار فجاء إلى القرية فباع حزمته واشترى طعاماً وشراباً وذهب إلى الحفرة فلم يجد أحداً ، وكان قومه قد استخرجوه وآمنوا به وصدقوه ، وكان ذلك النبي يسألهم عن الأسود ، فيقولون لا ندري حاله حتى قبض الله النبي وقبض ذلك الأسود ، "

فقال عليه السلام : " إن ذلك الأسود لأول من يدخل الجنة " واعلم أن القول ما قاله أبو مسلم وهو أن شيئاً من هذه الروايات غير معلوم بالقرآن ، ولا بخبر قوي الإسناد ، ولكنهم كيف كانوا فقد أخبر الله تعالى عنهم أنهم أهلكوا بسبب كفرهم .

المسألة الخامسة :

قال النخعي : القرن أربعون سنة ، وقال علي عليه السلام : بل سبعون سنة ، وقيل مائة وعشرون .

المسألة السادسة :

قوله بين ذلك أي ﴿ بَيْنَ ذلك ﴾ المذكور وقد يذكر الذاكر أشياء مختلفة ثم يشير إليها بذلك ويحسب الحاسب أعداداً متكاثرة ، ثم يقول فذلك كيت وكيت على معنى فذلك المحسوب أو المعدود .

أما قوله : ﴿ وَكُلاًّ ضَرَبْنَا لَهُ الأمثال ﴾ فالمراد بينا لهم وأزحنا عللهم فلما كذبوا تبرناهم تتبيراً ويحتمل ﴿ وَكُلاًّ ضَرَبْنَا لَهُ الأمثال ﴾ بأن أجبناهم عما أوردوه من الشبه في تكذيب الرسل كما أورده قومك يا محمد ، فلما لم ينجع فيه تبرناهم تتبيراً ، فحذر تعالى بذلك قوم محمد صلى الله عليه وسلم في الاستمرار على تكذيبه لئلا ينزل بهم مثل الذي نزل بالقوم عاجلاً وآجلاً .

المسألة السابعة :

(كلاً) الأول منصوب بما دل عليه ﴿ ضَرَبْنَا لَهُ الأمثال ﴾ وهو أنذرنا أو حذرنا ، والثاني بتبرنا لأنه فارغ له .

المسألة الثامنة :

التتبير التفتيت والتكسير ، ومنه التبر وهو كسارة الذهب والفضة والزجاج .

(79/560)

﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا (40) ﴾

القصة الرابعة قصة لوط عليه السلام

واعلم أنه تعالى أراد بالقرية سدوم من قرى قوم لوط عليه السلام وكانت خمساً أهلك الله تعالى أربعاً بأهلها وبقيت واحدة ، و (مطر السوء) الحجارة يعني أن قريشاً مروا مراراً كثيرة في متاجرهم إلى الشأم على تلك القرية التي أهلكت بالحجارة من السماء ، ﴿ أَفَلَمْ يَكُونُواْ ﴾ في (مرار) مرورهم ينظرون إلى آثار عذاب الله تعالى ونكاله (ويذَّكرون) ﴿ بَلْ كَانُواْ ﴾ قوماً كفرة ﴿ لاَيَرْجُونَ نُشُوراً ﴾ وذكروا في تفسير ﴿ يَرْجُونَ ﴾ وجوها : أحدها : وهو الذي قاله القاضي وهو الأقوى أنه محمول على حقيقة الرجاء لأن الإنسان لا يتحمل متاعب التكاليف ومشاق النظر والاستدلال إلا لرجاء ثواب الآخرة فإذا لم يؤمن بالآخرة لم يرج ثوابها فلا يتحمل تلك المشاق والمتاعب وثانيها : معناه لا يتوقعون نشوراً (وعاقبة) ، فوضع الرجاء موضع التوقع لأنه إنما يتوقع العاقبة من يؤمن ، وثالثها : معناه لا يخافون على اللغة التهامية ، وهو ضعيف والأول هو الحق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 24 صـ 70 ـ 74 ﴾

(80/560)

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ ﴾

فيه أربعة أقاويل

: أحدها : أن الرس المعدن ، قاله أبو عبيدة . الثاني : أنه قرية من قرى اليمامة يقال له الفج

من ثمود ، قاله قتادة .

الثالث : أنه ما بين نجران واليمن إلى حضرموت ، قاله بعض المفسرين .

الرابع : أنه البئر .

وفيها ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنه بئر بأذربيجان ، قاله ابن عباس .

الثاني : أنها البئر التي قتل فيها صاحب ياسين بأنطاكية الشام حكاه النقاش .

الثالث : أن كل بئر إذا حفرت ولم تطو فهي رس قال زهير :

بكرن بكوراً واستحرن بسحرة . . . فهن ووادي الرس كاليد في الفم

وفي أصحاب الرس أربعة أقاويل

: أحدها : أنهم قوم شعيب ، حكاه بعض المفسرين .

الثاني : أنهم قوم رسوا نبيهم في بئر ، قاله عكرمة .

الثالث : أنهم قوم كانوا نزولاً على بئر يعبدون الأوثان ، وكانوا لا يظفرون بأحد يخالف

دينهم إلا قتلوه ورسوه فيها ، وكان الرس بالشام ، قاله الضحاك .

الرابع : أنهم قوم أرسل الله إليهم نبياً فأكلوه وهم أول من عمل نساؤهم السحر ، قاله

الكلبي .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ ﴾ وهي سدوم قرية لوط .

﴿ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ ﴾ الحجارة التي أُمطِرُوا بها ، والذين أتوا عليها قريش .

﴿ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا ﴾ أي يعتبرون بها

. ﴿ بَل كَانُوا لاَ يَرْجُونَ نَشُوراً ﴾ أي لا يخافون بعثاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

(81/560)

وقال ابن عطية :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا (35) ﴾

هذه الآية التي ذكر فيها الأمم هي تمثيل لهم وتوعد أن يحل بهم ما حل بهؤلاء المعذبين ، و ﴿ الكتاب ﴾ التوراة ، والوزير المعين ، وهو من تحمل الوزر أي ثقل الحال أو من الوزر الذي هو ملجأ ، و ﴿ القوم الذين كذبوا ﴾ هم فرعون وملؤه من القبط ، ثم حذف من الكلام كثير دل عليه ما بقي ، وتقدير المحذوف فأديا الرسالة فكذبوهما فدمرناهم . وقرأ علي بن أبي

طالب ومسلمة بن محارب " فدمرانهم " أي كونا سبب ذلك ، قال أبو الفتح ألحق نون التوكيد ألف التثنية كما تقول اضربان زيداً .

(82/560)

قال الفقيه الإمام القاضي : وروي عن علي رضي الله عنه " فدمراهم " ، وحكى عنهم أبو عمرو الداني " فدمِرناهم " بكسر الميم خفيفة ، قال وروي عنه " فدمروا بهم " على الأمر لجماعة وزيادة باء ، والذي فسر أبو الفتح وهم وإنما القراءة " فدمرا بهم " بالباء ، وكذلك المهدوي ، ونصب قوله ﴿ وقومَ نوح ﴾ بفعل مضمر يدل عليه ﴿ أغرقناهم ﴾ ، وقوله ﴿ الرسل ﴾ وهم إنما كذبوا نوحاً فقط معناه أن الأمة التي تكذب نبياً واحداً ففي ضمن ذلك تكذيب جميع الأنبياء فجاءت العبارة بما يتضمنه فعلهم تغليظاً في القول عليهم ، وقوله ﴿ آية ﴾ أي علامة على سطوة الله تعالى بكل كافر بأنبيائه ، وعاد وثمود يصرف ، وجاء ها هنا مصروفاً ، وقرأ ابن مسعود وعمرو بن ميمون والحسن وعيسى " وعاداً " مصروفاً " وثمود " غير مصروف ، واختلف الناس في ﴿ أصحاب الرس ﴾ فقال ابن عباس هم قوم ثمود ، وقال قتادة هم أهل قرية من اليمامة ، يقال لها ﴿ الرس ﴾ والفلج ، وقال مجاهد هم أهل قرية فيها بير عظيمة الخ . . . يقال لها ﴿ الرس ﴾ ، وقال كعب

ومقاتل والسدي ﴿ الرس ﴾ بير بأنطاكية الشام قتل فيها صاحب ياسين ، وقال الكلبي ﴿ أصحاب الرس ﴾ قوم بعث إليهم نبي فأكلوه ، وقال قتادة ﴿ أصحاب الرس ﴾ وأصحاب ليكة قوما ن أرسل إليهما شعيب عليه السلام ، وقاله وهب بن منبه وقال علي رضي الله عنه في كتاب الثعلبي ﴿ أصحاب الرس ﴾ قوم عبدوا شجرة صنوبر يقال لها شاه درخت ، رسوا نبيهم في بير حفروه له في حديث طويل ، و ﴿ الرس ﴾ في اللغة كل محفور من بير أو قبر أو معدن ومنه قول الشاعر [النابغة الجعدي] : [المتقارب]

سبقت إلى فرط بأهل . . . تنابلة يحفرون الرساسا

(83/560)

وروى عكرمة ومحمد بن كعب القرظي عن النبي صلى الله عليه وسلم أن أهل الرس المشار إليهم في هذه الآية قوم أخذوا نبيهم فرسوه في بير وأطبقوا عليه صخرة ، قال فكان عبد أسود قد آمن به يجيء بطعام إلى تلك البير فيعينه الله على تلك الصخرة إلى أن ضرب الله يوماً على أذن ذلك الأسود بالنوم أربع عشرة سنة وأخرج أهل القرية نبيهم فآمنوا به في حديث طويل ، قال الطبري فيمكن أنهم كفروا به بعد ذلك فذكرهم الله في هذه الآية ، وقوله ﴿ وقروناً بين ذلك كثيراً ﴾ إبهام لا يعلم حقيقته إلا الله عز وجل وقد تقدّم شرح

القرن وكم هو ، ومن هذا اللفظ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يروى ، ويروى أن ابن عباس قاله ، "كذب النسابون من فوق عدنان لأن الله تعالى أخبر عن كثير من الخلق والأمم ولم يحد " ، ثم قال تعالى إن كل هؤلاء " ضرب له الأمثال " ، ليهتدي فلم يهتد ، " فتبره " الله أي أهلكه ، والتبار الهلاك ومنه تبر الذهب أي المكسر المفتت ، وكذلك يقال لفتات الرخام والزجاج تبر ، وقال ابن جبير إن أصل الكلمة نبطي ولكن العرب قد استعملته .

﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ ﴾

قال ابن عباس وابن جريج والجماعة الإشارة إلى مدينة قوم لوط وهي سدوم بالشام ، و ﴿ مطر السوء ﴾ حجارة السجيل ، وقرأ أبو السمال " السُّوء " بضم السين المشددة ، ثم وقفهم على إعراضهم وتعرضهم لسخط الله بعد رؤيتهم العبرة من تلك القرية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(84/560)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ اذهبا إِلى القوم الذين كذَّبوا بآياتنا ﴾ .

إِن قيل : إِنما عاينوا الآيات بعد [وجود] الرسالة ، فكيف يقع التكذيب منهم قبل وجود

الآيات ؟

فالجواب : أنهم كانوا مكذِّبين أنبياءَ الله وكُتُبَه المتقدّمة ، ومن كذَّب نبيّاً فقد كذَّب سائر الأنبياء ، ولهذا قال : ﴿ وقومَ نُوحٍ لَمَّا كذَّبوا الرُسُل ﴾ ، وقال الزجاج : يجوز ان يكون المرادَ به نوحٌ وحده ، وقد ذُكر بلفظ الجنس ، كما يقال فلان يركب الدوابّ ، وإن لم يركب إلا دابّة واحدة ؛ وقد شرحنا هذا في [هود : 59] عند قوله : ﴿ وعَصَوا رُسُلَه ﴾ وقد سبق معنى التدمير [الاعراف : 137] .

قوله تعالى : ﴿ وأصحابَ الرَّسِّ ﴾ في الرَّسِّ ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها بئر كانت تسمى الرَّسِّ ، قاله ابن عباس في رواية العوفي .

وقال في رواية عكرمة : هي بئر بأذربيجان .

وزعم ابن السائب أنها بئر دون اليمامة .

وقال السدي : بئر بأنطاكية .

والثاني : أن الرَّسَّ قرية من قرى اليمامة ، قاله قتادة .

والثالث : أنها المَعْدِن ، قاله أبو عبيدة ، وابن قتيبة .

وفي تسميتها بالرَّسِّ قولان .

أحدهما : أنهم رَسُّوا نبيَّهم في البئر ، قاله عكرمة .

قال الزجاج : رَسُّوه ، أي دَسُّوه فيها .

والثاني : أن كل رَكِيَّة لم تطو فهي رَسٌّ ، قاله ابن قتيبة .

واختلفوا في أصحاب الرَّسِّ على خمسة أقوال .

أحدها : أنهم قوم كانوا يعبدون شجرة ، فبعث الله تعالى إليهم نبيّاً من ولد يهوذا بن يعقوب ، فحفروا له بئراً وألقَوه فيها ، فهلكوا ، قاله عليّ عليه السلام .

والثاني : أنهم قوم كان لهم نبيّ يقال له : حنظلة بن صفوان ، فقتلوا نبيَّهم فأهلكهم الله ، قاله سعيد بن جبير .

والثالث : أنهم كانوا أهل بئر ينزلون عليها ، وكانت لهم مواشٍ ، وكانوا يعبدون الأصنام ، فبعث الله إليهم شُعيباً ، فتمادَوا في طغيانهم ، فانهارت البئر ، فخُسف بهم وبمنازلهم ، قاله وهب بن منبه .

(85/560)

والرابع : أنهم الذين قتلوا حبيباً النجار ، قتلوه في بئر لهم ، وهو الذي قال : ﴿ يا قوم اتَّبِعُوا المرسَلين ﴾ [يس : 20] ، قاله السدي .

والخامس : أنهم قوم قتلوا نبيَّهم وأكلوه ، وأولُ من عمل السحر نساؤهم ، قاله ابن السائب .

قوله تعالى : ﴿ وقُرُوناً ﴾ المعنى : وأهلكنا قروناً ﴿ بين ذلكَ كثيراً ﴾ أي : بين عاد

وأصحاب الرَّسِّ ، وقد سبق بيان القَرْن [الانعام : 6] وفي هذه القصص تهديد لقريش .

قوله تعالى : ﴿ وكُلاًّ ضَرَبْنَا له الأمثال ﴾ أي : أعذرنا إليه بالموعظة وإقامة الحجَّة ﴿ وكُلاًّ تَبَّرْنَا ﴾ قال الزجاج : التَّتبير : التدمير ، وكل شيء كسرته وفتّته فقد تبَّرته ، وكُسارته : التِّبر ، ومن هذا قيل لمكسور الزجاج : التِّبر ، وكذلك تِبر الذهب .

قوله تعالى : ﴿ ولقد أَتَواْ ﴾ يعني كفار مكة ﴿ على القرية التي أُمطرت مَطر السّوء ﴾ يعني قرية قوم لوط التي رُميتْ بالحجارة ، ﴿ أفَلم يكونوا يَرَونها ﴾ في أسفارهم فيعتبروا ؟ ! ثم أخبر بالذي جرَّأهم على التكذيب ، فقال : ﴿ بل كانوا لا يَرْجُون نُشوراً ﴾ أي : لا يخافون بعثاً ، هذا قول المفسرين .

وقال الزجاج : الذي عليه أهل اللغة أن الرجاء ليس بمعنى الخوف ، وإنما المعنى : بل كانوا لا يرجون ثواب عمل الخير ، فركبوا المعاصي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 6 صـ ﴾

(86/560)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الكتاب ﴾

يريد التوراة .

﴿ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيراً ﴾ تقدّم في ﴿ طه ﴾ ﴿ فَقُلْنَا اذهبآ ﴾ الخطاب لهما .

وقيل : إنما أمر موسى صلى الله عليه وسلم بالذهاب وحده في المعنى .

وهذا بمنزلة قوله : ﴿ نَسِيَا حُوتَهُمَا ﴾ [الكهف : 61] .

وقوله : ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالمَرْجَانُ ﴾ [الرحمن : 22] وإنما يخرج من أحدهما .

قال النحاس : وهذا مما لا ينبغي أن يجترأ به على كتاب الله تعالى ، وقد قال جل وعز : ﴿ فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يخشى * قَالاَ رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يطغى * قَالَ لاَ تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وأرى فَأْتِيَاهُ فقولا إِنَّا رَسُولاَ رَبِّكَ ﴾ [طه : 45 47]

ونظير هذا : ﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن : 62] .

وقد قال جل ثناؤه : ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا موسى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا ﴾ [المؤمنون : 45] قال القشيري : وقوله في موضع آخر : ﴿ اذهب إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طغى ﴾ [طه : 24] لا ينافي هذا ؛ لأنهما إذا كانا مأمورين فكل واحد مأمور .

ويجوز أن يقال : أمر موسى أولاً ، ثم لما قال : ﴿ واجعل لِّي وَزِيراً مِّنْ أَهْلِي ﴾ [طه : 29] قال : ﴿ اذهبآ إِلَى فِرْعَوْنَ ﴾ [طه : 43] .

﴿ إِلَى القوم الذين كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا ﴾ يريد فرعون وهامان والقبط .

﴿ فَدَمَّرْنَاهُمْ ﴾ في الكلام إضمار ؛ أي فكذبوهما ﴿ فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيراً ﴾ أي

أهلكناهم إهلاكاً .

قوله تعالى : ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ ﴾ في نصب "قوم" أربعة أقوال : العطف على الهاء والميم في ﴿ دمَّرْنَاهُمْ ﴾ .

الثاني : بمعنى اذكر .

الثالث : بإضمار فعل يفسره ما بعده ؛ والتقدير : وأغرقنا قوم نوح أغرقناهم .

الرابع : أنه منصوب ب ﴿ أَغْرَقْنَاهُمْ ﴾ قاله الفراء .

(87/560)

ورده النحاس قال : لأن ﴿ أغرقنا ﴾ ليس مما يتعدّى إلى مفعولين فيعمل في المضمر وفي ﴿ قَوْمَ نُوحٍ ﴾ .

﴿ لَمَّا كَذَّبُواْ الرسل ﴾ ذكر الجنس والمراد نوح وحده ؛ لأنه لم يكن في ذلك الوقت رسول إليهم إلا نوح وحده ؛ فنوح إنما بعث بلا إله إلا الله ، وبالإيمان بما ينزل الله ، فلما كذبوه كان في ذلك تكذيب لكل من بعث بعده بهذه الكلمة .

وقيل : إن من كذب رسولاً فقد كذب جميع الرسل ؛ لأنهم لا يفرق بينهم في الإيمان ، ولأنه ما من نبيّ إلا يصدق سائر أنبياء الله ، فمن كذب منهم نبياً فقد كذب كل من صدّقه من

النبيين.

﴿ أَغْرَقْنَاهُمْ ﴾ أي بالطوفان، على ما تقدّم في ﴿ هود ﴾.

﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً ﴾ أي علامة ظاهرة على قدرتنا ﴿ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ ﴾ أي المشركين من قوم نوح ﴿ عَذَاباً أَلِيماً ﴾ أي في الآخرة.

وقيل: أي هذه سبيلي في كل ظالم.

قوله تعالى: ﴿ وَعَاداً وَثَمُودَاْ وَأَصْحَابَ الرس وَقُرُوناً بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيراً ﴾ كله معطوف على ﴿ قَوْمَ نُوحٍ ﴾ إذا كان ﴿ قوم نوح ﴾ منصوباً على العطف، أو بمعنى اذكر.

ويجوز أن يكون كله منصوباً على أنه معطوف على المضمر في ﴿ دَمَّرْنَاهُمْ ﴾ أو على المضمر في ﴿ جَعَلْنَاهُمْ ﴾ وهو اختيار النحاس؛ لأنه أقرب إليه.

ويجوز أن يكون منصوباً بإضمار فعل؛ أي اذكر عاداً الذين كذبوا هوداً فأهلكهم الله بالريح العقيم، وثموداً كذبوا صالحاً فأهلكوا بالرّجفة.

﴿ وَأَصْحَابَ الرس ﴾ والرسّ في كلام العرب البئر التي تكون غير مطويةٍ، والجمع رسِاس.

قال:

تَنابِلةَ يَحْفِرون الرِّسَاسَا . . .

يعني آبار المعادن.

قال ابن عباس : سألت كعباً عن أصحاب الرّس قال : صاحب ﴿ ياس ﴾ الذي قال : ﴿ يا قوم اتبعوا المرسلين ﴾ [ياس : 20] قتله قومه ورَسُّوه في بئر لهم يقال لها الرّس طرحوه فيها ، وكذا قال مقاتل .

(88/560)

السدي : هم أصحاب قصة ﴿ ياس ﴾ أهل أنطاكية ، والرس بئر بأنطاكية قتلوا فيها حبيباً النجار مؤمن آل ﴿ ياس ﴾ فنسبوا إليها .

وقال عليّ رضي الله عنه : هم قوم كانوا يعبدون شجرة صنوبر فدعا عليهم نبيهم ؛ وكان من ولد يهوذا ، فيبست الشجرة فقتلوه ورَسُّوه في بئر ، فأظلتهم سحابة سوداء فأحرقتهم .

وقال ابن عباس : هم قوم بأذربيجان قتلوا أنبياء فجفت أشجارهم وزروعهم فماتوا جوعاً وعطشاً .

وقال وهب بن منبه : كانوا أهل بئر يقعدون عليها وأصحاب مواشي ، وكانوا يعبدون الأصنام ، فأرسل الله إليهم شعيباً فكذبوه وآذوه ، وتمادوا على كفرهم وطغيانهم ، فبينما هم حول البئر في منازلهم انهارت بهم وبديارهم ؛ خسف الله بهم فهلكوا جميعاً .

وقال قتادة : أصحاب الرّس وأصحاب الأيكة أمتان أرسل الله إليهما شعيباً فكذبوه

فعذبهما الله بعذابين .

قال قتادة : والرّس قرية بفَلْج اليمامة .

وقال عكرمة : هم قوم رَسُّوا نبيهم في بئر حيا .

دليله ما روى محمد بن كعب القرظِيّ عمن حدّثه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " أول الناس يدخل الجنة يوم القيامة عبد أسود وذلك أن الله تعالى بعث نبياً إلى قومه فلم يؤمن به إلا ذلك الأسود فحفر أهل القرية بئراً وألقوا فيه نبيهم حياً وأطبقوا عليه حجراً ضخماً وكان العبد الأسود يحتطب على ظهره ويبيعه ويأتيه بطعامه وشرابه فيعينه الله على رفع تلك الصخرة حتى يدليه إليه فبينما هو يحتطب إذ نام فضرب الله على أذنه سبع سنين نائماً ثم هبّ من نومه فتمطى واتكأ على شقه الآخر فضرب الله على أذنه سبع سنين ثم هبّ فاحتمل حُزمة الحطب فباعها وأتى بطعامه وشرابه إلى البئر فلم يجده وكان قومه قد أراهم الله تعالى آية فاستخرجوه وآمنوا به وصدّقوه ومات ذلك النبي " قال النبي صلى الله عليه وسلم : " إن ذلك العبد الأسود لأَول من يدخل الجنة "

(89/560)

وذكر هذا الخبر المهدوي والثعلبي ، واللفظ للثعلبي ، وقال : هؤلاء آمنوا بنبيهم فلا يجوز أن يكونوا أصحاب الرس ؛ لأن الله تعالى أخبر عن أصحاب الرس أنه دمرهم ، إلا أن يدمروا بأحداث أحدثوها بعد نبيهم .

وقال الكلبِيّ : أصحاب الرس قوم أرسل الله إليهم نبيّاً فأكلوه .

وهم أول من عمل نساؤهم السَّحْق ؛ ذكره الماوردي .

وقيل : هم أصحاب الأخدود الذين حفروا الأخاديد وحرّقوا فيها المؤمنين ، وسيأتي .

وقيل : هم بقايا من قوم ثمود ، وأن الرّس البئر المذكورة في "الحج" في قوله : ﴿ وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ ﴾ [الحج : 45] على ما تقدم .

وفي "الصحاح" : والرس اسم بئر كانت لبقية من ثمود .

وقال جعفر بن محمد عن أبيه : أصحاب الرس قوم كانوا يستحسنون لنسائهم السَّحْق ، وكان نساؤهم كلهم سحاقات .

وروي من حديث أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن من أشراط الساعة أن يكتفي الرجال بالرجال والنساء بالنساء وذلك السَّحْق " وقيل : الرس ماء ونخيل لبني أسد .

وقيل : الثلج المتراكم في الجبال ؛ ذكره القُشَيري .

وما ذكرناه أولاً هو المعروف ، وهو كل حفر احتفِر كالقبر والمعدن والبئر .

قال أبو عبيدة : الرس كل ركيّة لم تطو ؛ وجمعها رِساس .

قال الشاعر :

وهم سائرون إلى أرضهم . . .

فيا ليتهم يَحفرون الرِّساسا

والرّسّ اسم واد في قول زهير :

بَكَرْن بُكُوراً واسْتَحَرْن بسُحْرةٍ . . .

فهنّ لوادي الرَّسِّ كاليدِ للفمِ

ورسست رسًّا : حفرت بئراً .

ورُسَّ الميتُ أي قُبر .

والرّس : الإصلاح بين الناس ، والإفساد أيضاً وقد رسست بينهم ؛ فهو من الأضداد .

وقد قيل في أصحاب الرس غير ما ذكرنا ، ذكره الثعلبي وغيره .

﴿ وَقُرُوناً بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيراً ﴾ أي أمماً لا يعلمهم إلا الله بين قوم نوح وعاد وثمود وأصحاب الرس .

(90/560)

وعن الربيع بن خيثم اشتكى فقيل له : ألا تتداوى فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أمر به ؟ قال : لقد هممت بذلك ثم فكرت فيما بيني وبين نفسي فإذا عاد وثمود وأصحاب الرس وقروناً بين ذلك كثيراً كانوا أكثر وأشد حِرصاً على جمع المال ، فكان فيهم أطباء ، فلا الناعت منهم بِقِي ولا المنعوت ؛ فأبى أن يتداوى فما مكث إلا خمسة أيام حتى مات ، رحمه الله .

قوله تعالى : ﴿ وَكُلاًّ ضَرَبْنَا لَهُ الأمثال ﴾ قال الزجاج .

أي وأنذرنا كلا ضربنا له الأمثال وبينا لهم الحجة ، ولم نضرب لهم الأمثال الباطلة كما يفعله هؤلاء الكفرة .

وقيل : انتصب على تقدير ذكرنا كلا ونحوه ؛ لأن ضرب الأمثال تذكير ووعظ ؛ ذكره المهدويّ .

والمعنى واحد .

﴿ وَكُلاًّ تَبَّرْنَا تَتْبِيراً ﴾ أي أهلكنا بالعذاب .

وتبرت الشيء كسرته .

وقال المؤرّج والأخفش : دمرناهم تدميراً .

تبدل التاء والباء من الدال والميم .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى القرية ﴾ يعني مشركي مكة .

والقرية قرية قوم لوط .

و﴿ مَطَرَ السوء ﴾ الحجارة التي أمطروا بها .

﴿ أَفَلَمْ يَكُونُواْ يَرَوْنَهَا ﴾ أي في أسفارهم ليعتبروا .

قال ابن عباس : كانت قريش في تجارتها إلى الشام تمر بمدائن قوم لوط كما قال الله تعالى : ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴾ [الصافات : 137] وقال : ﴿ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ [الحجر : 79] وقد تقدّم .

﴿ بَل كَانُواْ لاَ يَرْجُونَ نُشُوراً ﴾ أي لا يصدّقون بالبعث .

ويجوز أن يكون معنى ﴿ يَرْجُونَ ﴾ يخافون .

ويجوز أن يكون على بابه ويكون معناه : بل كانوا لا يرجون ثواب الآخرة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 13 صـ ﴾

(91/560)

وقال أبو حيان :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا (35) ﴾

لما تقدم تكذيب قريش والكفار لما جاء به رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ذكر تعالى

ما فيه تسلية للرسول وإرهاب للمكذبين وتذكير لهم أن يصيبهم ما أصاب الأمم السابقة من هلاك الاستئصال لما كذبوا رسلهم ، فناسب أن ذكر أولاً من نزل عليه كتابه جملة واحدة ومع ذلك كفروا وكذبوا به فكذلك هؤلاء لو نزل عليه القرآن دفعة لكذبوا وكفروا كما كذب قوم موسى .

و﴿ الكتاب ﴾ هنا التوراة و﴿ هارون ﴾ بدل أو عطف بيان ، واحتمل أن يكون معه المفعول الثاني لجعلنا .

وأن يكون ﴿ وزيراً ﴾ والوزارة لا تنافي النبوة فقد كان في الزمان الواحد أنبياء يوازر بعضهم بعضاً ، والمذهوب إليهم القبط وفرعون .

وفي الكلام حذف أي فذهبا وأديا الرسالة فكذبوهما ﴿ فدمرناهم ﴾ والتدمير أشد الإهلاك وأصله كسر الشيء على وجه لا يمكن إصلاحه .

وقصة موسى ومن أرسل إليه ذكرت منتهية في غير ما موضع وهنا اختصرت فأوجز بذكر أولها وآخرها لأنه بذلك يلزم الحجة ببعثة الرسل واستحقاق التدمير بتكذيبهم .

وقرأ عليّ والحسن ومسلمة بن محارب : فدمراهم على الأمر لموسى وهارون ، وعن عليّ أيضاً : كذلك إلاّ أنه مؤكد بالنون الشديدة .

وعنه أيضاً فدمرا أمراً لهما بهم بباء الجر ، ومعنى الأمر كوناً سبب تدميرهم .

وانتصب ﴿ وقوم نوح ﴾ على الاشتغال وكان النصب أرجح لتقدم الجمل الفعلية قبل

ذلك ، ويكون ﴿ لما ﴾ في هذا الإعراب ظرفاً على مذهب الفارسي .

وأما إن كانت حرف وجوب لوجوب فالظاهر أن ﴿ أغرقناهم ﴾ جواب لما فلا يفسر ناصباً لقوم فيكون معطوفاً على المفعول في ﴿ فدمرناهم ﴾ أو منصوباً على مضمر تقديره اذكر .

وقد جوز الوجوه الثلاثة الحوفي .

﴿ لما كذبوا الرسل ﴾ كذبوا نوحاً ومن قبله أو جعل تكذيبهم لنوح تكذيباً للجميع ، أو لم يروا بعثه الرسل كالبراهمة والظاهر عطف ﴿ وعاداً ﴾ على و﴿ قوم ﴾ .

(92/560)

وقال أبو إسحاق : يكون معطوفاً على الهاء والميم في ﴿ وجعلناهم للناس آية ﴾ .

قال : ويجوز أن يكون معطوفاً على ﴿ الظالمين ﴾ لأن التأويل وعدنا الظالمين بالعذاب ووعدنا ﴿ عاداً وثموداً ﴾ .

وقرأ عبد الله وعمرو بن ميمون والحسن وعيسى وثمود غير مصروف .

﴿ وأصحاب الرس ﴾ .

قال ابن عباس : هم قوم ثمود ويبعده عطفه على ثمود لأن العطف يقتضي التغاير .

وقال قتادة : أهل قرية من اليمامة يقال لها الرس والفلج .

قيل : قتلوا نبيهم فهلكوا وهم بقية ثمود وقوم صالح .

وقال كعب ومقاتل والسدّي بئر بإنطاكية الشام قتل فيها صاحب ياسين وهو حبيب النجار .

وقيل : قتلوا نبيهم ورسوه في بئر أي دسوه فيه .

وقال وهب والكلبي ﴿ أصحاب الرس ﴾ وأصحاب الأيكة قومان أرسل إليهما شعيب أرسل إلى أصحاب الرس وكانوا قوماً من عبَدة الأصنام وأصحاب آبار ومواش ، فدعاهم إلى الإسلام فتمادوا في طغيانهم وفي إيذائه فبينما هم حول الرس وهي البئر غير المطوية .

وعن أبي عبيدة انهارت بهم فخسف بهم وبدارهم .

وقال عليّ فيما نقله الثعلبي : قوم عبدوا شجرة صنوبر يقال لها شاه درخت رسوا نبيهم في بئر حفروه له في حديث طويل .

وقيل : هم أصحاب النبي (صلى الله عليه وسلم) حنظلة بن صفوان كانوا مبتلين بالعنقاء وهي أعظم ما يكون من الطير ، سميت بذلك لطول عنقها وكانت تسكن جبلهم الذي يقال له فج وهي تنقض على صبيانهم فتخطفهم إن أعوزها الصيد فدعا عليها حنظلة فأصابتها الصاعقة ثم إنهم قتلوا حنظلة فأهلكوا .

وقيل : هم أصحاب الأخدود والرس هو الأخدود .

وقال ابن عباس : الرس بئر أذربيجان .

وقيل : الرس ما بين نجران إلى اليمن ألى حضرموت .

وقيل : قوم بعث الله إليهم أنبياء فقتلوهم ورسوا عظامهم في بئر .

وقيل : قوم بعث إليهم نبيّ فأكلوه .

وقيل : قوم نساؤهم سواحق .

وقيل : الرس ماء ونخل لبني أسد .

(93/560)

وقيل : الرس نهر من بلاد المشرق بعث الله إليهم نبياً من أولاد يهوذا ابن يعقوب فكذبوه فلبث فيهم زماناً فشكا إلى الله منهم فحفروا له بئراً وأرسلوه فيها ، وقالوا : نرجو أن يرضى عنا إلهنا فكانوا عامة يومهم يسمعون أنين نبيهم ، فدعا بتعجيل قبض روحه فمات وأضلتهم سحابة سوداء أذابتهم كما يذوب الرصاص .

وروى عكرمة ومحمد بن كعب القرظي عن النبيّ (صلى الله عليه وسلم) " أن أهل الرس أخذوا نبيهم فرسّوه في بئر وأطبقوا عليه صخرة فكان عبد أسود آمن به يجيء بطعام إلى تلك البئر فيعينه الله على تلك الصخرة فيقلها فيعطيه ما يغذيه به .

ثم يرد الصخرة ، إلى أن ضرب الله يوماً على أذن ذلك الأسود بالنوم أربع عشرة سنة وأخرج أهل القرية نبيهم فآمنوا به " في حديث طويل .

قال الطبري : فيمكن أنهم كفروا بعد ذلك فذكرهم الله في هذه الآية وكثر الاختلاف في أصحاب الرس ، فلو صح ما نقله عكرمة ومحمد بن كعب كان هو القول الذي لا يمكن خلافه وملخص هذه الأقوال أنهم قوم أهلكهم الله بتكذيب من أرسل إليهم .

﴿ وقروناً بين ذلك ﴾ هذا إبهام لا يعلم حقيقة ذلك إلاّ الله ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى أولئك المتقدمي الذكر فلذلك حسن دخول ﴿ بين ﴾ عليه من غير أن يعطف عليه شيء كأنه قيل بين المذكورين وقد يذكر الذاكر أشياء مختلفة .

ثم يشير إليها .

وانتصب ﴿ كلاً ﴾ الأول على الاشتغال أي وأنذرنا كلاً أو حذرنا كلاً والثاني على أنه مفعول بتبرنا لأنه لم يأخذ مفعولاً وهذا من واضح الإعراب .

(94/560)

ومعنى ضرب الأمثال أي بيّن لهم القصص العجيبة من قصص الأولين ووصفنا لهم ما أدى إليه تكذيبهم بأنبيائهم من عذاب الله وتدميره إياهم ليهتدوا بضرب الأمثال فلم يهتدوا

وأبعد من جعل الضمير في ﴿ له ﴾ لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : والمعنى وكل الأمثال ضربنا للرسول وعلى هذا و ﴿ كلاً ﴾ منصوب بضربنا و ﴿ الأمثال ﴾ بدل من ﴿ كلاً ﴾ والضمير في ﴿ ولقد أتوا ﴾ لقريش كانوا يمرون على سدوم من قرى قوم لوط في متاجرهم إلى الشام وكانت قرى خمسة أهلك الله منها أربعاً وبقيت واحدة وهي زغر لم يكن أهلها يعملون ذلك العمل قاله ابن عباس و ﴿ مطر السوء ﴾ الحجارة التي أمطرت عليهم من السماء فهلكوا .

وكان إبراهيم عليه السلام ينادي نصيحة لكم : يا سدوم يوم لكم من الله عز وجل أنها كم أن تتعرضوا للعقوبة من الله ، ومعنى ﴿ أتوا ﴾ مروا فلذلك عداه بعلى .

وأفرد لفظ القرية وإن كانت قرى لأن سدوم هي أم تلك القرى وأعظمها .

وقال مكي : الضمير في ﴿ أتوا ﴾ عائد على الذين اتخذوا القرآن مهجوراً انتهى .

وهم قريش وانتصب ﴿ مطر ﴾ على أنه مفعول ثان لأمطرت على معنى أوليت ، أو على أنه مصدر محذوف الزوائد أي إمطار السوء .

﴿ أفلم يكونوا يرونها ﴾ أن ينظرون إلى ما فيها من العبر والآثار الدالة على ما حل بها من النقم كما قال ﴿ وإنكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل ﴾ وقال ﴿ وإنهما لبإمام مبين ﴾ وهو استفهام معناه التعجب ومع ذلك فلم يعتبروا برؤيتها أن يحل بهم في الدنيا ما حل بأولئك ، بل كانوا كفرة لا يؤمنون بالبعث فلم يتوقعوا عذاب الآخرة وضع الرجاء موضع

التوقع لأنه إنما بتوقع العاقبة من يؤمن ، فمن ثم لم ينظروا ولم يتفكروا ومروا بها كما مرت ركابهم ، أو لا يأملون ﴿ نشوراً ﴾ كما يأمله المؤمنون لطمعهم إلى ثواب أعمالهم أو لا يخافون على اللغة التهامية .

وقرأ زيد بن عليّ مطرت ثلاثي مبنياً للمفعول ومطر متعد .

قال الشاعر :

كمن بواديه بعد المحل ممطور . . .

وقرأ أبو السماك ﴿ مطر السوء ﴾ بضم السين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(95/560)

وقال أبو السعود :

﴿ وَلَقَدْ ءاتَيْنَا موسى الكتاب ﴾

جملةٌ مستأنفةٌ سيقتْ لتأكيد ما مرَّ من التَّسليةِ والوعد بالهداية والنَّصرِ في قوله تعالى : ﴿ وكفى بِربّكَ هَادِياً وَنَصِيراً ﴾ بحكايةِ ما جرى بينَ مَن ذُكر من الأنبياء عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ وبين قومِهم حكايةً إجماليَّةً كافيةً فيما هو المقصود . واللامُ جوابٌ لقسمٍ محذوفٍ

أي وبالله ولقد آتينا مُوسى التَّوراةَ أي أنزلناها عليه بالآخرةِ ﴿ وَجَعَلْنَا مَعَهُ ﴾ الظَّرف متعلّق بجعلنا وقوله تعالى : ﴿ أَخَاهُ ﴾ مفعولٌ أوّلٌ له وقوله تعالى : ﴿ هارون ﴾ بدلٌ من أخاه أو عطفُ بيانٍ له على عكس ما وقع في سورةِ طه وقوله تعالى : ﴿ وَزِيراً ﴾ مفعولٌ ثانٍ له وقد مرَّ ثمَّة معنى الوزير أن جعلناه في أوّلِ الأمر وزيراً له .

(96/560)

﴿ فَقُلْنَا ﴾ لهما حينئذٍ ﴿ اذهبا إِلَى القوم الذين كَذَّبُواْ بآياتنا ﴾ هم فرعونُ وقومه ، والآياتُ هي المعجزات التِّسعُ المفصَّلاتُ الظَّاهرةُ على يَدَيْ موسى عليه السَّلامُ ولم يُوصفِ القومُ لهما عند إرسالِهما إليهم بهذا الوصف ضرورةَ تأخُّرِ تكذيب الآيات عن إظهارِها المتأخّرِ عن ذهابهما المتأخّرِ عن الأمر به بل إنَّما وُصفوا بذلك عند الحكايةِ لرَّسولِ الله صلى الله عليه وسلم بياناً لعلَّة استحقاقِهم لما يُحكى بعده من التَّدميرِ أي فذهبا إليهم فأريا هُم آياتنا كلَّها فكذَّبوها تكذيباً مُستمرّاً ﴿ فدمرناهم ﴾ إثرَ ذلك التَّكذيبِ المستمرِّ ﴿ تَدْمِيرًا ﴾ عجيباً هائلاً لا يُقادرُ قَدرُه ولا يُدرك كُنهُه فاقتصر على حاشيتي القصَّةِ اكتفاءً بما هو المقصودُ وحَملُ قوله تعالى : فدمَّرناهم على معنى فحكمنا بتدميرِهم مع كونِه تعسُّفاً ظاهراً مما لا وجه له إذ لا فائدةَ يُعتدُّ بها في حكاية الحكم بتدميرِهم قد وقع وانقضى

، والتَّعرضُ في مطلع القصَّةِ لإيتاء الكتاب مع أنَّه كان بعد مهلكِ القوم ولم يكن له مدخلٌ في هلاكهم كسائرِ الآيات للإيذانِ من أوَّلِ الأمر ببلوغِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ غايةَ الكمالِ ونيله نهايةَ الآمالِ التي هي إنجاءُ بني إسرائيلَ من ملكة فرعونَ وإرشادُهم إلى طريق الحقّ بما في التَّوراة من الأحكام إذ به يحصُلُ تأكيدُ الوعدِ بالهدايةِ على الوجه الذي مرَّ بيانُه .
وقُرِىء فدمَّرتهم وفدمَّرناهم على التَّأكيد بالنُّون الثَّقيلةِ .

(97/560)

﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ ﴾ منصوبٌ بمضمرٍ يدلُّ عليه قوله تعالى : فدمَّرناهم أي ودمَّرنا قومَ نوحٍ وقيل عطف على مفعول فدمَّرناهم وليس من ضرورة ترتُّب تدميرهم على ما قبله ترتُّبُ تدميرِ هؤلاء عليه لا سيَّما وقد بُيِّن سببُه بقوله تعالى : ﴿ لَّمَّا كَذَّبُواْ الرسل ﴾ أي نوحاً ومن قبله من الرُّسل أو نوحاً وحدَهُ لأنَّ تكذيبَه تكذيبٌ للكُلِّ لاتّفاقِهم على التَّوحيدِ والإسلامِ وقيل هو منصوبٌ بمضمر يفسّره قوله تعالى : ﴿ أغرقناهم ﴾ وإنَّما يتسنَّى ذلك على تقديرِ كونِ كلمة لمَّا ظرفَ زمانٍ وأمَّا على تقدير كونِها حرفَ وجودٍ لوجودٍ فلا لأنَّه حينئذٍ جواب لما لا يفسَّر ما قبله مع أنَّه مخلٌّ بعطف المنصوبات الآتية على قوم نوح لما أنَّ إهلاكَهم ليس بالإغراق فالوجهُ ما تقدَّم وقوله تعالى : أغرقناهم استئنافٌ مبيِّن لكيفيَّةِ تدميرِهم .

﴿ وجعلناهم ﴾ أي جعلنا إغراقَهم أو قصَّتَهم ﴿ لِلنَّاسِ ءايَةً ﴾ أيْ آيةً عظيمةً يعتبرُ بها كلُّ مَن شاهدها أو سمعها وهي مفعول ثانٍ لجعلنا وللنَّاس ظرفٌ لغوٌ له أو متعلِّق بمحذوف وقع حالاً من آيةً إذ لو تأخَّر عنها لكان صفةً لها ﴿ وَأَعْتَدْنَا للظالمين ﴾ أي لهم ، والإظهارُ في موقع الإضمارِ للإيذانِ بتجاوزهم الحدَّ في الكفر والتَّكذيب ﴿ عَذَاباً أَلِيماً ﴾ هو عذاب الآخرة إذْ لا فائدة في الإخبار باعتاد العذابِ الذي قد أُخبر بوقوعه من قبلُ أو لجميع الظَّالمينَ الباقينَ الذين لم يعتبرُوا بمَا جَرى عليهم من العذاب فيدخل في زُمرتهم قُريشٌ دخولاً أوليَّاً ويحتملُ العذابَ الدُّنيويَّ والأُخرويَّ ﴿ وَعَاداً ﴾ عطفٌ على قوم نوح وقيل : على المفعول الأول لجعلناهم وقيل : على محلِّ الظَّالمينَ إذ هو في معنى وعدنا الظالمين وكلاهما بعيدٌ ﴿ وَثَمُودُ ﴾ الكلامُ فيه وفيما بعدَه كما فيما قبلَه . وقُرىء وثموداً على تأويل الحيِّ أو على أنَّه اسمُ الأبِ الأقصى ﴿ وأصحاب الرس ﴾ هم قومٌ يعبدون الأصنامَ فبعثَ الله تعالى إليهم شُعيباً عليه السَّلامُ فكذَّبُوه فبينما هم حَولَ الرَّسِّ وهي البِئرُ التي لم تُطْوَ بعد إذِ انهارتْ فخُسف بهم وبديارِهم . وقيل : الرَّسُّ قرية بفَلْجِ اليمامةِ كان فيها بقايا ثمودَ فبَعث إليهم نبيٌّ فقتلوه فهلكوا . وقيل : هو الأُخدودُ . وقيل : بئرٌ بأنطاكيَّةَ قتلوا فيها حبيباً

النَّجارَ . وقيل : هم أصحابُ حنظلةَ بنِ صفوانَ النبيِّ عليه السَّلامُ ابتلاهم الله تعالى بطيرٍ عظيمٍ كان فيها من كلِّ لون وسمَّوها عنقاءَ لطولِ عُنقِها وكانت تسكنُ جبلَهم الذي يقالُ له فتخ أو دمح فتنقضُّ على صبيانِهم فتخطفُهم إنْ أعوزها الصَّيدُ ولذلك سُمِّيتْ مُغْرِبا فدعا عليها حنظلةُ عليه السَّلامُ فأصابتْها الصَّاعقةُ ثم إنَّهم قتلُوه عليه السَّلامُ فأُهلكوا . وقيل : قومٌ كذَّبُوا رسولَهم فرسُّوه أي دسُّوه

(99/560)

في بئرٍ .

﴿ وَقُرُوناً ﴾ أي أهلَ قرونٍ . قيل : القرنُ أربعونَ سنةً وقيل : سبعونَ وقيل : مائةٌ وقيل : مائةٌ وعشرون ﴿ بَيْنَ ذلك ﴾ أي بين ذلك المذكورِ من الطَّوائفِ والأُمم وقد يذكرُ الذَّاكرُ أشياءَ مختلفةً ثمَّ يشيرُ إليها بذلك ويحسبُ الحاسبُ أعداداً مُتكاثرةً ثمَّ يقولُ فذلك كيتَ وكيتَ على ذلك المذكورِ وذلك المحسوبِ . ﴿ كَثِيراً ﴾ لا يعلم مقدارَها إلاَّ العليمُ الخبيرُ . ولعلَّ الاكتفاءَ في شؤون تلك القرُونِ بهذا البيان الإجماليِّ لما أنَّ كلَّ قرنٍ منها لم يكن في الشُّهرةِ وغرابةِ القصَّةِ بمثابة الأُممِ المذكورةِ .

﴿ وَكُلاًّ ﴾ منصوبٌ بمضمرٍ يدلُّ عليه ما بعده فإنَّ ضربَ المثلِ في معنى التَّذكيرِ

والتَّحذيرِ . والمحذوفُ الذي عُوِّضَ عنه التَّنوينُ عبارةٌ إمَّا عن الأُممِ التي لم يُذكر أسبابُ إهلاكِهم وإمَّا عن الكلِّ . فإنَّ ما حُكي عن قومِ نوحٍ وقومِ فرعونَ تكذيبُهم للآياتِ والرُّسلِ لا عدمُ التَّأثرِ من الأمثالِ المضروبة أي ذكرنا وأنذرنا كلَّ واحدٍ من المذكورين ﴿ ضَرَبْنَا لَهُ الأمثال ﴾ أي بيَّنَّا له القصصَ العجيبةَ الزَّاجرةَ عمَّا هم عليه من الكُفر والمعاصي بواسطةِ الرَّسلِ ﴿ وَكُلاًّ ﴾ أي كلَّ واحدٍ منهم لا بعضَهم دُون بعضٍ ﴿ تَبَّرْنَا تَتْبِيراً ﴾ عجيباً هائلاً لما أنَّهم لم يتأثَّروا بذلك ولم يرفعُوا له رأساً وتمادَوا على ما هُم عليه من الكُفرِ والعُدوانِ . وأصلُ التَّتبيرُ التَّفتيتُ . قال الزَّجَّاجُ : كلُّ شيءٍ كسرتَه وفتَّتَه فقد تبَّرتَه ومنه التِّبرُ لفُتاتِ الذَّهبِ والفِضَّةِ .

(100/560)

﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا ﴾ جملةٌ مستأنفة مسوقة لبيانِ مشاهدتهم لآثارِ هلاكِ بعض الأُمم المتبَّرة وعدمِ اتِّعاظِهم بها . وتصديرُها بالقسم لمزيدِ تقريرِ مضمونِها ، أي وبالله لقد أتى قُريشٌ في متاجرهم إلى الشَّامِ ﴿ عَلَى القرية التى أُمْطِرَتْ ﴾ أي أُهلكت بالحجارة وهي قُرى قومِ لوطٍ وكانت خمسَ قُرى ما نجتْ منها إلاَّ واحدةٌ كان أهلُها لا يعملون العملَ الخبيثَ وأمَّا البواقي فأهلكها الله تعالى بالحجارةِ وهي المرادةُ بقوله تعالى : ﴿ مَطَرَ السوء ﴾

وانتصابُه إمَّا على أنَّه مصدرٌ مؤكّدٌ بحذف الزَّوائد كما قيل في أنبتَه الله تعالى نباتاً حسنَاً أي إمطارَ السَّوءِ ، أو على أنَّه مفعولٌ ثانٍ إذِ المعنى أُعطيت أو وُلّيتْ مطرَ السَّوءِ ﴿ أَفَلَمْ يَكُونُواْ يَرَوْنَهَا ﴾ توبيخ لهم على تركهم التَّذكر عند مُشاهدة ما يُوجبه . والهمزة لإنكار نفي استمرار رؤيتِهم لها وتقريرِ استمرارِها حسب استمرارِ ما يُوجبها من إتيانِهم عليها لا لإنكارِ استمرارِ نفي رؤيتِهم وتقريرِ رؤيتِهم لها في الجُملةِ والفاءُ لعطفِ مدخولِها على مقدَّرٍ يقتضيه المقامُ أي ألم يكونوا ينظرُون إليها فلم يكونُوا يَرونها أو أكانُوا ينظرون إليها فلم يكونُوا يَرونها في مرارِ مرورِهم ليتَّعظِوا بما كانُوا يُشاهدونَهُ من آثارِ العذابِ ، فالمنكر في الأوَّلِ تركُ النَّظرِ وعدمُ الرُّؤيةِ معاً ، وفي الثَّانِي عدمُ الرُّؤيةِ مع تحقُّقِ النَّظرِ الموجبِ لها . وقوله تعالى ﴿ بَلْ كَانُواْ لاَ يَرْجُونَ نُشُوراً ﴾ إما إضرابٌ عمَّا قبلَه من عدمِ رؤيتِهم لآثار ما جَرى على أهلِ القُرى من العقوبةِ وبيانٌ لكون عدم اتّعاظِهم بسبب إنكارِهم لكون ذلك عقوبةً لمعاصيهم لا لعدم رؤيتِهم لآثارِها خلا أنَّه اكتفى عن التَّصريحِ بإنكارِهم ذلك بذكرِ ما يستلزمُه من إنكارهم للجزاءِ الأُخرويِّ الذي هو الغاية من خلق العالمِ ، وقد كُني عن ذلك بعدم رجاءِ النُّشورِ أي

(101/560)

عدم توقُّعهِ كأنَّه قيل : بل كانُوا ينكرون النُّشورَ المستتبع للجزاءِ الأُخرويّ ولا يرَون لنفسٍ من النُّفوسِ نُشوراً أصلاً مع تحقُّقهِ حتماً وشمولِه للنَّاسِ عموماً واطِّرادِه وقوعاً فكيف يعترفُون بالجزاء الدُّنيويّ في حقِّ طائفةٍ خاصَّةً مع عدم الاطِّرادِ والملازمة بينه وبين المعاصي حتَّى يتذكَّروا ويتَّعظوا بما شاهدوه من آثارِ الهلاك وإنَّما يحملونه على الاتّفاقِ . وإمَّا انتقالٌ من التَّوبيخِ بما ذُكر من ترك التَّذكرِ إلى التَّوبيخِ بما هو أعظمُ منه من عدمِ توقُّعِ النُّشورِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 6 صـ ﴾

(102/560)

وقال الآلوسى :

﴿ وَلَقَدْ ءاتَيْنَا موسى الكتاب ﴾ الخ

جملة مستأنفة سيقت لتأكيد ما مر من التسلية والوعد بالهداية والنصر في قوله تعالى : ﴿ وكفى بِرَبِّكَ هَادِياً وَنَصِيراً ﴾ [الفرقان : 31] على ما قدمناه بحكاية ما جرى بين من ذكر من الأنبياء عليهم السلام وبين قومهم حكاية إجمالية كافية فيما هو المقصود .

واللام واقعة في جواب القسم أي وبالله تعالى لقد آتينا موسى التوراة أي أنزلناها عليه بالآخرة ، وقيل : المراد بالكتاب الحكم والنبوة ولا يخفى بعده ﴿ وَجَعَلْنَا مَعَهُ ﴾ الظرف

متعلق بجعلنا ، وقوله تعالى : ﴿ أَخَاهُ ﴾ مفعول أول له وقوله سبحانه : ﴿ هارون ﴾ بدل من ﴿ أَخَاهُ ﴾ أو عطف بيان له وقوله عز وجل : ﴿ وَزِيراً ﴾ مفعول ثان له وتقدم معنى الوزير ولا ينافي هذا قوله تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ [من رحمتنا] أَخَاهُ هارون نَبِيّاً ﴾ [مريم : 53] لأنه وإن كان نبياً فالشريعة لموسى عليه السلام وهو تابع له فيها كما أن الوزير متبع لسلطانه .

﴿ فَقُلْنَا اذهبا إِلَى القوم الذين كَذَّبُواْ بآياتنا ﴾ هم فرعون وقومه والظاهر تعلق بآياتنا ﴿ بذكبوا ﴾ .

والمراد بها دلائل التوحيد المودعة في الأنفس والآفاق أو الآيات التي جاءت بها الرسل الماضية عليهم السلام أو التسع المعلومة .

والتعبير عن التكذيب بصيغة الماضي على الاحتمالين الأولين ظاهر على الأخير قيل . لتنزيل المستقبل لتحققه منزلة الماضي .

وتعقب بأنه لا يناسب المقام .

وقال العلامة أبو السعود : لم يوصف القوم لهما عند إرسالهما إليهم بهذا الوصف ضرورة تأخر تكذيب الآيات التسع عن إظهارها المتأخر عن ذهابهما المتأخر عن الأمر به بل إنما وصفوا بذلك عند الحكاية لرسول الله صلى الله عليه وسلم بياناً لعلة استحقاقهم لما يحكى بعده من التدمير وبحث فيه بما فيه تأمل ، وجوز أن يكون الظرف متعلقاً باذهبنا فمعنى ﴿ لَّمَّا كَذَّبُواْ ﴾ فعلوا التكذيب ﴿ فدمرناهم تَدْمِيراً ﴾ عجيباً هائلاً لا يقادر قدره ولا يدرك كنهه والمراد به أشد الهلاك .

وأصله كسر الشيء على وجه لا يمكن إصلاحه والفاء فصيحة والأصل فقلنا اذهبا إلى القوم فذهبا إليهم ودعواهم إلى الايمان فكذبوهما واستمروا على ذلك فدمرناهم فاقتصر على حاشيتي القصة اكتفاء بما هو المقصود .

وقيل : معنى فدمرناهم فحكمنا بتدميرهم فالتعقيب باعتبار الحكم وليس في الاخبار بذلك كثير فائدة .

وقيل : الفاء لمجرد الترتيب وهو كما ترى .

وعطف ﴿ قُلْنَا ﴾ على ﴿ جَعَلْنَا ﴾ المعطوف على ﴿ آتَيْنَا ﴾ [الفرقان : 35] بالواو التي لا تقتضي ترتيباً على الصحيح فيجوز تقدمه مع ما يعقبه على إيتا الكتاب فلا يرد أن إيتاء الكتاب وهو التوراة بعد هلاك فرعون وقومه فلا يصح الترتيب والتعرض لذلك في مطلع القصة مع أنه لا مدخل له في إهلاك القوم لما أنه بعد للإيذان من أول الأمر ببلوغه

عليه السلام غاية الكمال التي هي إنجاء بني إسرائيل من ملكة فرعون وإرشادهم إلى طريق الحق بما في التوراة من الأحكام إذ به يحصل تأكيد الوعد بالهداية على الوجه الذي ذكر سابقاً .

وقرأ علي كرم الله تعالى وجهه .

والحسن .

ومسلمة بن محارب فدمراهم على الأمر لموسى .

وهرون عليهما السلام .

، وعن علي كرم الله تعالى وجهه أيضاً كذلك إلا أنه مؤكد بالنون الشديدة ، وعنه كرم الله تعالى وجهه ﴿ فدمرا ﴾ أمرا لهما بهم بباء الجر وكأن ذلك من قبيل .

تجرح في عراقيبها نصلي . . .

(104/560)

وحكى في "الكشاف" عنه أيضاً كرم الله تعالى وجهه ﴿ فدمرتهم ﴾ بتاء الضمير ﴿ تَدْمِيراً وَقَوْمَ نُوحٍ ﴾ منصوب بمضمر يدل عليه قوله تعالى : ﴿ فدمرناهم ﴾ أي ودمرنا قوم نوح ، وجوز الحوفي .

وأبو حيان كونه معطوفاً على مفعول فدمرناهم .

ورد بأن تدمير قوم نوح ليس مترتباً على تكذيب فرعون وقومه فلا يصح عطفه عليه .

وأجيب بأن ليس من ضرورة ترتب تدميرهم على ما قبله ترتب تدمير هؤلاء عليه لا سيما وقد بين سببه بقوله تعالى :

﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ ﴾ منصوب بمضمر يدل عليه قوله تعالى : ﴿ فدمرناهم ﴾ [الفرقان : 36] أي ودمرنا قوم نوح ، وجوز الحوفي وأبو حيان كونه معطوفاً على مفعول ﴿ فدمرناهم ﴾ .

ورد بأن تدمير قوم نوح ليس مترتباً على تكذيب فرعون وقومه فلا يصح عطفه عليه .

وأجيب بأنه ليس من ضرورة ترتب تدميرهم على ما قبله ترتب تدمير هؤلاء عليه لا سيما وقد بين سببه بقوله تعالى : ﴿ لَّمَّا كَذَّبُواْ الرُّسُلَ ﴾ أي نوحاً ومن قبله من الرسل عليهم السلام أو نوحاً وحده فإن تكذيبه عليه السلام تكذيب للكل لاتفاقهم على التوحيد أو أنكروا جواز بعثة الرسل مطلقاً ، وتعريف الرسل على الأول عهدي ، ويحتمل أن يكون للاستغراق إذ لم يوجد وقت تكذيبهم غيرهم ، وعلى الثاني استغراقي لكن على طريق المشابهة والادعاء ، وعلى الثالث للجنس أو للاستغراق الحقيقي ، وكأن المجيب أراد أن اعتبار العطف قبل الترتيب فيكون المرتب مجموع المتعاطفين ويكفي فيه ترتب البعض .

وقيل : المقصود من العطف التسوية والتنظير كأنه قيل : دمرناهم كقوم نوح فتكون الضمائر

لهم.

والرسل نوح.

وموسى.

وهرون عليهم السلام ولا يخفى ما فيه.

واختار جمع كون منصوباً باذكر محذوفاً، وقيل: هو منصوب بمضمر يفسر قوله تعالى: ﴿ أغرقناهم ﴾ ويرجحه على الرفع تقدم الجمل الفعلية.

(105/560)

ولا يخفى أنه إنما يتسنى ذلك على مذهب الفارسي من كون لما ظرف زمان وأما إذا كانت حرف وجود لوجود فلا لأن ﴿ أغرقناهم ﴾ حينئذ يكون جواباً لها فلا يفسر ناصباً.

ولعل أولى الأوجه الأول، و﴿ أغرقناهم ﴾ استئناف مبين لكيفية تدميرهم كأنه قيل: كيف كان تدميرهم؟ فقيل: أغرقناهم بالوفان ﴿ وجعلناهم ﴾ أي جعلنا إغراقهم أو قصتهم ﴿ لِلنَّاسِ ءايَةً ﴾ أي آية عظيمة يعتبر بها من شاهدها أو سمعها وهو مفعول ثان لجعلنا و﴿ لِلنَّاسِ ﴾ متعلق به أو متعلق بمحذوف وقع حالاً من ﴿ ءايَةً ﴾ إذ لو تأخر عنها لكان صفة لها ﴿ وَأَعْتَدْنَا للظالمين عَذَاباً أَلِيماً ﴾ أي جعلناه معداً لهم في الآخرة أو

في البرزخ أو فيهما .

والمراد بالظالمين القوم المذكورون ، والإظهار في موقع الإضمار للإيذان بتجاوزهم الحد في الكفر والتكذيب أو جميع الظالمين الذين لم يعتبروا بما جرى عليهم من العذاب فيدخل في زمرتهم قريش دخولاً أولياً .

ويحتمل العذاب الدنيوي وغيره .

﴿ وَعَاداً ﴾ عطف على ﴿ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ [الفرقان : 37] أي ودمرنا عاداً أو واذكر عاداً على ما قيل ، ولا يصح أن يكون عطفاً إذا نصب على الاشتغال لأنهم لم يغرقوا .

وقال أبو إسحاق هو معطوف على هم من ﴿ جعلناهم لِلنَّاسِ ءايَةً ﴾ [الفرقان : 37] ويجوز أن يكون معطوفاً على محل ﴿ الظالمين ﴾ [الفرقان : 37] فإن الكلام بتأويل وعدنا الظالمين اه ولا يخفى بعد الوجهين ﴿ وَثَمُودَاْ ﴾ الكلام فيه وفيما بعده كما فيما قبله .

وقرأ عبد الله .

وعمرو بن ميمون .

والحسن .

وعيسى .

وثمود غير مصروف على تأويل القبيلة ، وروى ذلك عن حمزة .

وعاصم .

والمجهول بالصرف ، ورواه عبد بن حميد عن عاصم على اعتبار الحي أو أنهم سموا بالأب الأكبر ﴿ وأصحاب الرس ﴾ عن ابن عباس هم قوم ثمود .

ويبعده العطف لأنه يقتضي التغاير ، وقال قتادة : هم أهل قرية من اليمامة يقال لها الرس والفلج قيل قتلوا نبيهم فهلكوا وهم بقية ثمود .

(106/560)

وقوم صالح ، وقال كعب .

ومقاتل .

والسدي : أهل بئر يقال له الرس بأنطاكية الشام قتلوا فيها صاحب يس وهو حبيب النجار .

وقيل : هم قوم قتلوا نبيهم ورسوه في بئر أي دسوه فيه ، وقال وهب .

والكلبي : أصحاب الرس وأصحاب الأيكة قومان أرسل إليهما شعيب ، وكان أصحاب الرس قوماً من عبدة الأصنام وأصحاب آباء ومواش فدعاهم إلى الإسلام فتمادوا في طغيانهم وفي إيذائه عليه السلام فبينما هم حول الرس وهي البئر غير المطوية كما روى عن

أبي عبيدة انهارت بهم وبدارهم ، وقال علي كرم الله تعالى وجهه .

فيما نقله الثعلبي : هم قول عبدوا شجرة يقال لها : شاه درخت رسوا نبيهم في بئر حفروه له في حديث طويل ، وقيل : هم أصحاب النبي حنظلة بن صفوان كانوا مبتلين بالعنقاء وهي أعظم ما يكون من الطير وكان فيها من كل لون وسميت عنقاء لطول عنقها وكانت تسكن جبلهم الذي يقال له فتح وتنقض على صبيانهم فتخطفهم إن أعوزها الصيد ولاتيانها بهذا الأمر الغريب سميت مغرباً ، وقلي : لأنها اختطفت عروساً ، وقيل : لغروبها أي غيبتها ، وقيل : لأن وكرها كان عند مغرب الشمس ، ويقال فيها عنقاء مغرب بالتوصيف والإضافة مع ضم الميم وفتحها فدعا عليها حنظلة فأصابتها الصاعقة فهلكت ثم أنهم قتلوا حنظلة فأهلكوا ، وقيل : هم قوم أرسل إليهم نبي فاكلوة ، وقيل : قو نساؤهم سواحق وقيل : قوم بعث إليهم أنبياء فقتلوهم ورسوا عظامهم في بئر ، وقيل : هم أصحاب الأخدود والرس هو الأخدود .

وفي رواية عن ابن عباس أنه بئر أذربيجان .

وقيل : الرس ما بين نجران إلى اليمن إلى حضرموت .

وقيل : هو ماء ونخل لبني أسد .

وقيل : نهر من بلاد المشرق بعث الله تعالى إلى أصحابه نبياً من أولاد يهوذا بن يعقوب فكذبوه فلبث فيهم زماناً فشكا إلى الله تعالى منهم فحفروا له بئراً وأرسلوه فيه وقالوا : نرجو أن ترضى عنا آلهتنا فكانوا عليه يومهم يسمعون أنين نبيهم فدعا بتعجيل قبض روحه فمات وأظلتهم سحابة سوداء أذابتهم كما يذوب الرصاص .

وروى عكرمة .

ومحمد بن كعب القرظي عن النبي صلى الله عليه وسلم أن أصحاب الرس أخذوا نبيهم فرسوه في بئر وأطبقوا عليه صخرة فكان عبد أسود قد آمن به يجيء بطعام إلى البئر فيعينه الله تعالى على تلك الصخرة فيرفعها فيعطيه ما يغذيه به ثم يرد الصخرة على فم البئر إلى أن ضرب الله عالى على أذن ذلك الأسود فناد أربع عشرة سنة .

وأخرج أهل القرية نبيهم فآمنوا به في حديث طويل ذكر فيه أن ذلك الأسود أول من يدخل الجنة .

وهذا إذا صح كان القول الذي لا يمكن خلافه لكن يشكل عليه إيرادهم هنا .

وأجاب عنه الطبري بأنه يمكن أنهم كفروا بعد ذلك فأهلكوا فذكرهم الله تعالى مع من ذكر من المهلكين ، وملخص الأقوال أنهم قوم أهلكهم الله تعالى بتكذيب من أرسل إليهم ﴿ وَقُرُوناً ﴾ أي أهل قرون وتقدم الكلام في القرن ﴿ بَيْنَ ذلك ﴾ أي المذكور من الأمم ،

وللتعدد حسن بين من غير عطف ﴿ كَثِيراً ﴾ يطول الكلام جداً بذكرها ، ولا يبعد أن يكون قد علم رسول الله صلى الله عليه وسلم مقدارها ، وقوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾ [غافر : 78] ليس نصاً في نفي العلم بالمقدار كما لا يخفى .

وفي إرشاد العقل السليم لعل الاكتفاء في شؤون تلك القرون بهذا البيان الإجمالي لما أن كل قرن منها لم يكن في الشهرة وغرابة القصة بمثابة الأمم المذكورة .

﴿ وَكُلاًّ ﴾ منصوب بمضر يدل عليه ما بعده فإن ضرب المثل في معنى التذكير والتحذير .

(108/560)

والمحذوف الذي عوض عنه التنوين عبارة إما عن الأمم التي لم تذكر أسباب إهلاكهم وإما عن الكل فإن ما حكى عن فرعون وقومه وعن قوم نوح عليه السلام تكذيبهم للآيات والرس لا عدم التأثر من الأمثال المضروبة أي ذكرنا وأنذرنا كل واحد من المذكورين ﴿ ضَرَبْنَا لَهُ الامثال ﴾ أي بينا لكل القصص العجيبة الزاجرة عما هم عليه من الكفر والمعاصي بواسطة الرسل عليهم السلام ، وقيل : ضمير له للرسول عليه الصلاة والسلام .

والمعنى وكل الأمثال ضربناه للرسول فيكون ﴿ كَلاًّ ﴾ منصوباً بضربنا ﴿ والأمثال ﴾ بدلاً منه عل أما في "البحر" ، وفيه أنه أبعد من ذهب إلى ذلك ، وعندي أنه مما لا ينبغي أن

يفسر به كلام الله تعالى .

وقوله تعالى : ﴿ سليمان وكُلاًّ ﴾ مفعول مقدم لقوله سبحانه : ﴿ تَبَّرْنَا تَتْبِيراً ﴾ وتقديمه للفاصلة ، وقيل : لإفادة القصر على أن المعنى كلالاً بعضاً ، وتعقب بأن لفظ كل يفيد ذلك ويمكن توجيه ذلك بالعناية ، وأصل التتبير التفتيت ، قال الزجاج : كل شيء كسرته وفتته فقد تبرته ومنه التبر لفتات الذهب والفضة .

والمراد به التمزيق والإهلاك أي أهلكنا كل واحد منهم إهلاكاً عجيباً هائلاً لما أنهم لم يتأثروا بذلك ولم يرفعوا له رأساً وتمادوا على ما هم عليه من الكفر والعدوان .

﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا ﴾ جملة مستأنفة مسوقة لبيان مشاهدة كفار قريش لآثار هلاك بعض الأمم المتبرة وعدم اتعاظهم بها .

وتصديرها بالقسم لتقرير مضمونها اعتناء به .

وأتى مضمن معنى مر لتعديه بعلي ، والمعنى بالله لقد مر قريش في متاجرهم إلى الشام .

(109/560)

﴿ عَلَى القرية التى أُمْطِرَتْ مَطَرَ السوء ﴾ وهي سذوم وهي أعظم قرى قوم لوط سميت باسم قاضيها سذوم بالذال المعجمة على ما صححه الأزهري واعتمده في "الكشف" ،

وفي المثل أجور من سذوم أهلكها الله تعالى بالحجارة وهو المراد بمطر السوء وكذا أهلك سائر قراهم وكانت خمساً إلا قرية واحدة وهي زغر لم يهلكها لأن أهلها لم يعملوا العمل الخبيث كما روى عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما .

وإفراد القرية بالذكر لما أشرنا إليه وانتصب ﴿ مَطَرَ ﴾ على أنه مفعول ثان لأمطرت على معنى أعطيت أو أوليت أو على أنه مصدر مؤكد بحذف الزوائد أي إمطار السوء كما قيل في ﴿ أَنبَتَكُمْ مِّنَ الأَرضِ نَبَاتاً ﴾ [نوح : 17] ، وجوز أبو البقاء أن يكون صفة لمحذوف أي امطاراً مثل مطر السوء وليس بشيء .

وقرأ زيد بن علي مطرت ثلاثياً مبنياً للمفعول ؛ ومطر مما يتعدى بنفسه .

وقرأ أبو السمال ﴿ مَطَرَ السوء ﴾ بضم السين ﴿ أَفَلَمْ يَكُونُواْ يَرَوْنَهَا ﴾ توبيخ علي تركهم التذكر عند مشاهدة ما يوجبه .

والهمزة لإنكار نفي استمرار رؤيتهم لها وتقرير استمرارها حسب استمرار ما يوجبه .

والهمزة لإنكار نفي استمرار رؤيتهم لها وتقرير استمرارها حسب استمرار ما يوجبها من إتيانهم عليها لا لإنكار استمرار نفي رؤيتهم وتقرير رؤيتهم لها ، والفاء لعطف مدخولها على مقدر يقتضيه المقام أي ألم يكونوا ينظرون إليها فلم يكونوا يرونها أو أكانوا ينظرون إليها فلم يكونوا يرونها في مرار مرورهم ليتعظوا بما كانوا يشاهدونه من آثار العذاب .

والمنكر في الأول النظر وعدم الرؤية معاً وفي الثاني عدم الرؤية مع تحقق النظر الموجب لها

عادة كذا في إرشاد العقل السليم .

ولم يقل : أفلم يرونها مع أنه أخصر وأظهر قصداً لإفادة التكرار مع الاستمرار ولم يصرح في أول الآية بنحو ذلك بأن يقال : ولقد كانوا يأتون بدل ولقد أتوا للإشارة إلى أن المرور ولو مرة كاف في العبرة فتأمل .

(110/560)

وقوله تعالى : ﴿ بَلْ كَانُواْ لاَ يَرْجُونَ نُشُوراً ﴾ إما إضراب عما قبله من عدم رؤيتهم لآثار ما جرى على أهل القرى من العقوبة وبيان لكون عدم اتعاظهم بسبب إنكارهم لكون ذلك عقوبة لمعاصيهم لا لعدم رؤيتهم لآثارها خلا أنه اكتفى عن التصريح بإنكارهم ذلك بذكر ما يستلزمه من إنكار الجزاء الأخروي وقد كنى عن ذلك بعدم رجاء النشور ، والمراد بالرجاء التوقع مجازاً كأنه قيل : بل كانوا لا يتوقعون النشور المستتبع للجزاء الأخروي وينكرونه ولا يرون لنفس من النفوس نشوراً أصلاً مع تحققه حتماً وشموله للناس عموماً وإطراده وقوعاً فكيف يعترفون بالجزاء الدنيوي في حق طائفة خاصة مع عدم الإطراد والملازمة بينه وبين المعاصي حتى يتذكروا ويتعظوا بما شاهدوه من آثار الهلاك وإنما يحملونه على الاتفاق ، وإما انتقال من التوبيخ بما ذكر من ترك التذكير إلى التوبيخ بما هو أعظم

منه من عدم رجاء النشور ، وحمل الرجاء على التوقع وعموم النشور أوفق بالمقام .

وقيل : هو على حقيقته أعنى انتظار الخير .

والمراد بالنشور نشور فيه خير كنشور المسلمين .

وجوز أن يكون الرجاء بمعنى الخوف على لغة تهامة ، والمراد بالنشور نشورهم والكل كما ترى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 19 صـ ﴾

(111/560)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا (35) ﴾

لما جرى الوعيد والتسلية بذكر حال المكذبين للرسول عليه الصلاة والسلام عطف على ذلك تمثيلهم بالأمم المكذبين رسلهم ليحصل من ذلك موعظة هؤلاء وزيادة تسلية الرسول والتعريض بوعده بالانتصار له .

وابتدىء بذكر موسى وقومه لأنه أقرب زمناً من الذين ذكروا بعدَه ولأن بقايا شرعه وأمته لم تزل معروفة عند العرب ، فإن صح ما روي أن الذين قالوا : ﴿ لولا نُزل عليه القرآن جملة واحدة ﴾ [الفرقان : 32] اليهود ، فوجه الابتداء بذكر ما أوتي موسى أظهر .

وحرف التحقيق ولام القسم لتأكيد الخبر باعتبار ما يشتمل عليه من الوعيد بتدميرهم .

وأريد بالكتاب الوحي الذي يكتب ويحفظ وذلك من أول ما ابتدىء بوحْيه إليه ، وليس المراد بالكتاب الألواحَ لأن إيتاءه الألواح كان بعد زمن قوله ﴿ اذهبا إلى القوم ﴾ ، فقوله ﴿ فقلنا اذهبا ﴾ مفرع عن إيتاء الكتاب ، فالإيتاء متقدم عليه .

وفي وصف الوحي بالكتاب تعريض بجهالة المشركين القائلين ﴿ لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة ﴾ [الفرقان : 32] ، فإن الكُتُب التي أوتيها الرسل ما كانت إلا وَحياً نزل منجّماً فجمعه الرسل وكتبه أتباعهم .

والتعرض هنا إلى تأييد موسى بهارون تعريض بالرد على المشركين إذ قالوا ﴿ لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً ﴾ [الفرقان : 7] فإن موسى لما اقتضت الحكمة تأييده لم يؤيد بملك ولكنه أيد برسول مثله .

والوزير : المؤازر وهو المعاون المظاهر ، مشتق من الأزْر وهو القوة .

وأصل الأزر : شدّ الظهر بإزارٍ عند الإقبال على عمل ذي تعب ، وقد تقدم في سورة طَه .

وكان هارون رسولاً ثانياً ومُوسى هو الأصل .

والقوم هم قبط مصر قوم فرعون .

و ﴿ الذين كذبوا بآياتنا ﴾ وصف للقوم وليس هو من المقول لموسى وهارون لأن التكذيب حينئذ لمّا يقع منهم ، ولكنه وصف لإفادة قُراء القرآن أن موسى وهارون بلَّغا الرسالة وأظهر الله منهما الآيات فكذب بها قوم فرعون فاستحقوا التدمير تعريضاً بالمشركين في تكذيبهم محمداً صلى الله عليه وسلم وتمهيداً للتفريع بـ ﴿ دمرناهم تدميراً ﴾ الذي هو المقصود من الموعظة والتسلية .

والموصول في قوله : ﴿ الذين كذبوا بآياتنا ﴾ للإيماء إلى علة الخبر عنهم بالتدمير .

وقد حصل بهذا النظم إيجاز عجيب اختصرت به القصة فذكر منها حاشيتاها : أولُها وآخرها لأنهما المقصود بالقصة وهو استحقاق الأمم التدمير بتكذيبهم رسلهم .

والتدمير : الإهلاك ، والهَلاك : دُمور .

وإتباع الفعل بالمفعول المطلق لما في تنكير المصدر من تعظيم التدمير وهو الإغراق في اليَمّ .

وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا (37)

عطف على جملة ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب ﴾ [الفرقان : 35] باعتبار أن المقصود وصف قومه بالتكذيب والإخبار عنهم بالتدمير .

وانتصب ﴿ قوم نوح ﴾ بفعل محذوف يفسره ﴿ أغرقناهم ﴾ على طريقة الاشتغال ،

ولا يضر الفصل بكلمة ﴿ لمّا ﴾ لأنها كالظرف ، وجوابها محذوف دل عليه مفسر الفعل المحذوف ، وفي هذا النظم اهتمام بقوم نوح لأن حالهم هو محل العبرة فقدم ذكرهم ثم أُكّد بضميرهم .

ويجوز أن يكون ﴿ وقوم نوح ﴾ عطفاً على ضمير النصب في قوله ﴿ فدمرناهم ﴾ [الفرقان : 36] أي ودمرنا قوم نوح ، وتكون جملة ﴿ لما كذبوا الرسل أغرقناهم ﴾ مبيّنة لجملة ﴿ دمَّرناهم ﴾ .

والآية : الدليل ، أي جعلناهم دليلاً على مصير الذين يكذبون رسلهم .

وجعلهم آية : هو تواتر خبرهم بالغرق آية .

(113/560)

وجعل قوم نوح مكذِّبين الرسل مع أنهم كذّبوا رسولاً واحداً لأنهم استندوا في تكذيبهم رسولهم إلى إحالة أن يرسل الله بشراً لأنهم قالوا : ﴿ ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضّل عليكم ولو شاء الله لأنزل ملائكة ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين ﴾ [المؤمنون : 24] فكان تكذيبهم مستلزماً تكذيب عموم الرسل ، ولأنهم أول من كذَّب رسولهم ، فكانوا قدوة للمكذبين من بعدهم .

وقصة قوم نوح تقدمت في سورة الأعراف وسورة هود .

وجملة ﴿ وأعتدنا للظالمين عذاباً أليماً ﴾ عطف على ﴿ أغرقناهم ﴾ .

والمعنى : عذبناهم في الدنيا بالغرق وأعتدنا لهم عذاباً أليماً في الآخرة .

ووقع الإظهار في مقام الإضمار فقيل ﴿ للظالمين ﴾ عوضاً عن : أعتدنا لهم ، لإفادة أن عذابهم جزاء على ظلمهم بالشرك وتكذيب الرسول .

وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا (38) وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا (39)

انتصبت الأسماء الأربعة بفعل محذوف دل عليه ﴿ تبرنا ﴾ .

وفي تقديمها تشويق إلى معرفة ما سيخبر به عنها .

ويجوز أن تكون هذه الأسماء منصوبة بالعطف على ضمير النصب من قوله : ﴿ فدمرناهم تدميراً ﴾ [الفرقان : 36] .

وتنوين ﴿ عاداً وثموداً ﴾ مع أن المراد الامتان .

فأما تنوين ﴿ عاداً ﴾ فهو وجه وجيه لأنه اسم عري عن علامة التأنيث وغيرُ زائد على ثلاثة أحرف فحقه الصرف .

وأما صَرْف ﴿ ثموداً ﴾ في قراءة الجمهور فعلى اعتبار اسم الأب ، والأظهر عندي أن تنوينه للمزاوجة مع ﴿ عَاداً ﴾ كما قال تعالى : ﴿ سَلاَسِلاً وأَغْلاَلاً وسعيراً ﴾ [

الإنسان : 4] .

وقرأه حمزة وحفص ويعقوب بغير تنوين على ما يقتضيه ظاهر اسم الأمة من التأنيث المعنوي .

وتقدم ذكر عاد في سورة الأعراف .

وأما ﴿ أصحاب الرسّ ﴾ فقد اختلف المفسرون في تعيينهم واتفقوا على أن الرسّ بئر عظيمة أو حفير كبير .

(114/560)

ولما كان اسماً لنوع من أماكن الأرض أطلقه العرب على أماكن كثيرة في بلاد العرب .

قال زهير:

بكَرْنَ بُكُوراً واستحرْنَ بسَحرة . . .

فهنّ ووادِي الرسّ كاليد للفم

وسمّوا بالرّسّ ما عرفوه من بلاد فارس ، وإضافة ﴿ أصحاب ﴾ إلى ﴿ الرس ﴾ إما لأنهم أصابهم الخسف في رسّ ، وإما لأنهم نازلون على رسّ ، وإما لأنهم احتفروا رسّاً ، كما سمي أصحاب الأخدود الذين خدّوه وأضرموه .

والأكثر على أنه من بلاد اليمامة ويسمى "فَلَجا" .

واختلف في المعنيّ من ﴿ أصحاب الرس ﴾ في هذه الآية فقيل هم قوم من بقايا ثمود .

وقال السهيلي : هم قوم كانوا في عَدن أُرسل إليهم حنظلة بن صفوان رسولاً .

وكانت العنقاء وهي طائر أعظم ما يكون من الطير (سميت العنقاء لطول عنقها) وكانت تسكن في جبل يقال له "فتح" ، وكانت تنقضّ على صبيانهم فتخطفهم إن أعوزها الصيد فدعا عليها حنظلة فأهلكها الله بالصواعق .

وقد عبدوا الأصنام وقتلوا نبيئهم فأهلكهم الله .

قال وهب بن منبه : خسف بهم وبديارهم .

وقيل : هم قوم شعيب .

وقيل : قوم كانوا مع قوم شعيب ، وقال مقاتل والسدّي : الرسّ بئر بأنطاكية ، وأصحاب الرسّ أهل أنطاكية بُعث إليهم حبيب النجّار فقتلوه ورسُّوه في بئر وهو المذكور في سورة يس (20) ﴿ وجاء من أقصا المدينة رجل يسعى قال يا قوم اتبعوا المرسلين ﴾ الآيات .

وقيل : الرس وادٍ في أذربيجان في أرّان يخرج من قاليقَلا ويصب في بحيرة جُرجان ولا أحسب أنه المراد في هذه الآية .

ولعله من تشابه الأسماء يقال : كانت عليه ألف مدينة هلكت بالخسف ، وقيل غير ذلك مما هو أبعد .

والقرون : الأمم فإن القرن يطلق على الأمة ، وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن ﴾ في أول الأنعام (6) .

وفي الحديث : خير القرون قرني ثم الذين يلونهم الحديث .

والإشارة في قوله : بين ذلك ﴾ إلى المذكور من الأمم .

ومعنى ﴿ بين ذلك ﴾ أن أُمَماً تخللت تلك الأقوام ابتداءً من قوم نوح .

(115/560)

وفي هذه الآية إيذان بطولِ مُدَد هذه القرون وكثرتها .

والتنوين في ﴿ كُلاًّ ﴾ تنوين عوض عن المضاف إليه .

والتقدير : وكلَّهم ضربنا له الأمثال وانتصب ﴿ كُلاّ ﴾ الأول بإضمار فعل يدل عليه ﴿ ضربنا له ﴾ تقديره : خاطبنا أو حذَّرنا كُلاًّ وضربنا له الأمثال ، وانتصب ﴿ كُلاًّ ﴾ الثاني بإضمار فعل يدل عليه ﴿ تبرنا ﴾ وكلاهما من قبيل الاشتغال .

والتتبير : التفتيت للأجسام الصلبة كالزجَاج والحديد .

أطلق التتبير على الإهلاك على طريقة الاستعارة تبعيةً في ﴿ تبرنا ﴾ وأصلية في ﴿ تتبيراً ﴾ ، وتقدم في قوله تعالى : ﴿ إن هؤلاء متبّر ما هم فيه ﴾ في سورة الأعراف (

139) ، وقوله : ﴿ وليُتَبِّروا ما علَوْا تتبيراً ﴾ في سورة الإسراء (7) .

وانتصب ﴿ تتبيراً ﴾ على أنه مفعول مطلق مؤكد لعامله لإفادة شدة هذا الإهلاك .

ومعنى ضرب الأمثال : قولها وتبيينها وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً ما ﴾ في سورة البقرة (26) .

والمَثَل : النظير والمشابه ، أي بيّنا لهم الأشباه والنظائر في الخير والشر ليعرضوا حال أنفسهم عليها .

قال تعالى : ﴿ وسَكَنْتُم في مَساكِن الذين ظَلَموا أنفسهم وتبيّن لكم كيف فعَلْنا بهم وضربنا لكم الأمثال ﴾ [إبراهيم : 45] .

وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا (40)

لما كان سَوْق خبر قوم نوح وعاد وثمود وأصحاب الرسّ وما بينهما من القرون مقصوداً لاعتبار قريش بمصائرهم نُقِل نَظْم الكلام هنا إلى إضاعتهم الاعتبار بذلك وبما هو أظهر منه لأنظارهم ، وهو آثار العذاب الذي نَزل بقرية قوم لوط .

واقتران الخبر بلام القسم لإفادة معنى التعجيب من عدم اعتبارهم كما تقدم في قوله : ﴿ لقد استكبروا في أنفسهم ﴾ [الفرقان : 21] .

وكانت قريش يمرّون بديار قوم لوط في أسفارهم للتجارة إلى الشام فكانت ديارهم يمرّ بها طريقهم قال تعالى : ﴿ وإنكم لتمرون عليهم مصبحِين وبالليل أفلا تعقلون ﴾ [الصافات : 137 ، 138] .

وكان طريق تجارتهم من مكة على المدينة ويدخلون أرض فلسطين فيمرّون حذو بحيرة لوط التي على شاطئها بقايا مدينة "سدوم" ومعظمها غمرها الماء .

وتقدم ذكر ذلك عند قوله تعالى : ﴿ وإنهما لبإمامٍ مُبين ﴾ في سورة الحجر (79) .

والإتيان : المجيء .

وتعديته بـ ﴿ على ﴾ لتضمينه معنى : مرّوا ، لأن المقصود من التذكير بمجيء القرية التذكير بمصير أهلها فكأنّ مجيئهم إياها مرور بأهلها ، فضمّن المجيء معنى المرور لأنه يشبه المرور ، فإن المرور يتعلق بالسكان والمجيءَ يتعلق بالمكان فيقال : جئنا خراسان ، ولا يقال : مررنا بخراسان .

وقال تعالى : ﴿ وإنكم لَتَمُرُّون عليهم مُصبِحِين وبالليل أفلا تعقلون ﴾ [الصافات : 137 ، 138] .

ووصف القرية بـ ﴿ التي أمطرت مطر السوء ﴾ لأنها اشتهرت بمضمون الصلة بين العرب وأهل الكتاب .

وهذه القرية هي المسماة "سَدُوم" بفتح السين وتخفيف الدال وكانت لقوم لوط قرى خمس أعظمها "سَدوم" .

وتقدم ذكرها عند قوله تعالى : ﴿ ولوطاً إذ قال لقومه ﴾ في سورة الأعراف (80) .

و ﴿ مطر السوْء ﴾ هو عذاب نزل عليهم من السماء وهو حجارة من كبريت ورماد ، وتسميته مطراً على طريقة التشبيه لأن حقيقة المطر ماء السماء .

والسَّوْء بفتح السين : الضرّ والعذاب ، وأما بضم السين فهو ما يسوء .

والفتح هو الأصل في مصدر ساءه ، وأما السُّوء بالضم فهو اسم مصدر ، فغلب استعمال المصدر في الذي يسوء بضر ، واستعمال اسم المصدر في ضد الإحسان .

وتفرع على تحقيق إتيانهم على القرية مع عدم انتفاعهم به استفهام صوري عن انتفاء رؤيتهم إياها حينما يأتون عليها ، لأنهم لمّا لم يتّعظوا بها كانوا بحال من يُسأل عنهم : هل رأوها ، فكان الاستفهام لإيقاظ العقول للبحث عن حالهم .

(117/560)

وهو استفهام إما مستعمل في الإنكار والتهديد ، وإما مستعمل في الإيقاظ لمعرفة سبب عدم اتعاظهم .

وقوله : ﴿ بل كانوا لا يرجون نشوراً ﴾ يجوز أن يكون ﴿ بل ﴾ للإضراب الانتقالي انتقالاً من وصف تكذيبهم بالنبي صلى الله عليه وسلم وعدم اتعاظهم بما حل بالمكذبين من الأمم إلى ذكر تكذيبهم بالبعث ، فيكون انتهاء الكلام عند قوله : ﴿ أفلم يكونوا يرونها ﴾ وهو الذي يجري على الوجه الأول في الاستفهام .

وعبر عن إنكارهم البعث بعَدم رجائه لأن منكر البعث لا يَرجو منه نفعاً ولا يخشى منه ضراً ، فعبر عن إنكار البعث بأحد شقّي الإنكار تعريضاً بأنهم ليسوا مثل المؤمنين يرجون رحمة الله .

والنشور : مصدر نشر الميت أحْياه ، فنشَر ، أي حيي .

وهو من الألفاظ التي جرت في كلام العرب على معنى التخيّل لأنهم لا يعتقدونه ، ويروى للمُهَلْهِل في قتاله لبني بكر ابن وائل الذين قتلوا أخاه كليباً قولُه:

يا لبَكر انشروا لي كُليباً . . .

يا لبكر أين أينَ الفِرارُ

فإذا صحّت نسبة البيت إليه كان مراده من ذلك تعجيزهم ليتوسل إلى قتالهم .

والمعنى : أنهم كانوا لا يؤمنون بالبعث فلم يكن لهم استعداد للاعتبار ، لأن الاعتبار ينشأ عن المراقبة ومحاسبةِ النفس لطلب النجاة ، وهؤلاء المشركون لما نشأوا على إهمال الاستعدادِ لِمَا بعد الموت قُصرت أفهامهم على هذا العالم العاجل فلم يُعنَوا إلا بأسباب

وسائل العاجلة ، فهم مع زكانتهم في تفرس الذوات والشيات ومراقبة سير النجوم وأنواء المطر والريح ورائحة أتربة منازل الأحياء ، هم مع ذلك كله معرضون بأنظارهم عن توسم الإلهيات وحياة الأنفس ونحو ذلك .

وأصل ذلك الضلالِ كلّه انجرّ لهم من إنكار البعث فلذلك جعل هنا علة لانتفاء اعتبارهم بمصير أمة كذبت رسولها وعصت ربها .

وفي هذا المعنى جاء قوله تعالى : ﴿ إن في ذلك لآيات للمتوسمين ﴾ [الحجر : 75] أي دون مَن لا يتوسمون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 19 صـ ﴾

(118/560)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا (38) ﴾

الأظهر عندي أن قوله : ﴿ وَعَاداً وَثَمُودَاْ ﴾ معطوف على قوله : وقوم نوح الآية ، وأن قوم نوح مفعول به لأغرقنا محذوفة دل عليها قوله بعده : ﴿ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً ﴾ [الفرقان : 37] على حد قوله في الخلاصة :

فالسابق انصبه بفعل أضمرا . . . حتماً موافق لما قد ذكرا

أي أهلكنا قوم نوح بالغرق ، وأهلكنا عاداً وثموداً وأصحاب الرس ، وقروناً بين ذلك كثيراً ، أي وأهلكنا قروناً كثيرة بين ذلك المذكور من قوم نوح ، وعاد ، وثمود .

والأظهر أن القرون الكثير المذكور بعد قوم نوح ، وعاد ، وثمود ، وقبل أصحاب الرسل وقد دلت آية من سورة إبراهيم على أن بعد عاد ، وثمود ، خلقاً كفروا وكذبوا الرسل ، وأنهم لا يعلمهم إلا الله جل وعلا .

وتصريحه بأنهم بعد عاد وثمود ، يوضح ما ذكرنا وذلك في قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الذين مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ والذين مِن بَعْدِهِمْ لاَ يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ الله جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بالبينات فردوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وقالوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ [إبراهيم : 9] .

(119/560)

وقد قدمنا كلام أهل العلم في معنى قوله : ﴿ فردوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ ﴾ [إبراهيم : 9] والإشارة في قوله ﴿ بَيْنَ ذلك ﴾ راجعة إلى عاد ، وثمود ، وأصحاب الرسل : أي بين ذلك المذكور ورجوع الإشارة ، أو الضمير بالإفراد مع رجوعهما إلى متعدد باعتبار المذكور أسلوب عربي معروف ومنه في الإشارة قوله تعالى : ﴿ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ فَارِضٌ وَلاَ

بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذلك ﴾ [البقرة : 68] أي ذلك المذكور من الفارض والبكر ، وقوله تعالى :

﴿ وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً ﴾ [الفرقان : 67] أي بين ذلك المذكور من الإسراف والقتر

وقول عبد الله بن الزبعري السهمي :

إن للخير وللشر مدى . . . وكلا ذلك وجه وقبل

أي وكلا ذلك المذكور من الخير والشر ، ومنه في الضمير قول رؤبة :

فيها خطوط من سواد وبلق . . . كأنه في الجلد توليع البهق

أي كأنه أي ما ذكر من خطوط السواد والبلق ، وقد قدمنا هذا البيت . أما عاد وثمود فقد جاءت قصة كل منهما مفصلة في آيات متعددة ، وأما أصحاب الرس فلم يأت في القرآن تفصيل قصتهم ولا اسم نبيهم ، وللمفسرين فيهم أقوال . كثيرة تركناها لأنها لا دليل على شيء منها .

والرس في لغة العرب البئر التي ليست بمطوية ، وقال الجوهري في صحاحه : إنها البئر المطوية بالحجارة ، ومن إطلاقها على البئر قول الشاعر :

وهم سائرون إلى أرضهم . . . فيا ليتهم يحفرون الرساسا

وقول النابغة الجعدي :

سبقت إلى فرط ناهل . . . تنابلة يحفرون الرساسا

والرساس في البيتين جمع رس ، وهي البئر ، والرس واد في قول زهير في معلقته :

بكرن بكورا استحرن بسحرة . . . فهن لوادي الرس كاليد للفم

وقوله في هذه الآية : ﴿ وَقُرُوناً بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيراً ﴾ . جمع قرن . وهو هنا الجيل من الناس الذين اقترنوا في الوجود في زمان من الأزمنة .

وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا (39)

(120/560)

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة ، أن كلا من الماضين المهلكين من قوم نوح وعاد ، وثمود ، وأصحاب الرس ، والقرون الكثيرة بين ذلك : أنه ضرب لكل منهم الأمثال ليبين لهم الحق بضرب المثل ، لأنه يصير به المعقول كالمحسوس ، وأنه جل وعلا تبر كلا منهم تتبيراً ، أي أهلكهم جميعاً إهلاكاً مستأصلاً ، التتبير الإهلاك والتكسير ومنه قوله تعالى : ﴿ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ تَتْبِيراً ﴾ [الإسراء : 7] وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ هؤلاء مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ ﴾ [الأعراف : 139] أي باطل ، وقوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَزِدِ الظالمين إِلاَّ تَبَاراً ﴾ [نوح : 28] أي هلاكاً ، وهذان الأمران المذكوران في هذه الآية الكريمة ، وهما أنه جل وعلا ضرب لكل منهم الأمثال ، وأنه تبرهم كلهم تتبيراً جاءا مذكورين في غير هذا الموضع .

(121/560)

أما ضربه الأمثال للكفار ، فقد ذكره جل وعلا في غير هذا الموضع كقوله في سورة إبراهيم : ﴿ أَوَلَمْ تكونوا أَقْسَمْتُمْ مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ وَسَكَنتُمْ فِي مساكن الذين ظلموا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمثال ﴾ [إبراهيم : 4445] وأما تتبيره جميع الأمم لتكذيبها رسلها ، فقد جاء موضحاً في آيات كثيرة كقوله تعالى في سورة الأعراف : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلاَّ أَخَذْنَا أَهْلَهَا بالبأسآء والضرآء لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السيئة الحسنة حتى عَفَوْاْ وَّقَالُواْ قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضرآء والسرآء فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ [الأعراف : 9495] وقوله تعالى في سورة سبأ : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾ [سبأ : 34] وقوله تعالى في الزخرف : ﴿ وَكَذَلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ آبَآءَنَا على أُمَّةٍ وَإِنَّا على آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ [الزّخرف : 23] وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضاً وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ ﴾ [المؤمنون : 44] الآية ، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن جميع الأمم كذبوا رسلهم ، وأن الله أهلكهم بسبب ذلك ، وقد بين جل وعلا في آية أخرى أن هذا العموم لم يخرج منه إلا قوم يونس دون غيرهم ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ فَلَوْلاَ كَانَتْ

قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الخزي فِي الحياة الدنيا وَمَتَّعْنَاهُمْ إلى حِينٍ ﴾ [

(122/560)

يونس : 98] .

ويدل على ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿ وَأَرْسَلْنَاهُ إلى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ فَآمَنُواْ فَمَتَّعْنَاهُمْ إلى حِينٍ ﴾ [الصافات : 147148] وما ذكره جل وعلا في هذه الآية الكريمة من أنه ضرب الأمثال لكل منهم ، لم يبين فيه هنا هل ضرب الأمثال أيضاً لهذه الآية الكريمة التي هي آخر الأمم في هذا القرآن ، كما ضربها لغيرهم من الأمم ولكنه تعالى بين في آيات كثيرة أنه ضرب لهذه الأمة الأمثال في هذا القرآن العظيم ، ليتفكروا بسببها ، وبين أنها لا يعقلها إلا أهل العلم ، وأن الله يهدي بها قوماً ، ويضل بها آخرين .

وهذه الآيات الدالة على ذلك كله فمنها قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَسْتَحْيِ أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الذين آمَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الحق مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا الذين كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللهُ بهذا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الفاسقين ﴾ [البقرة : 26] ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هذا القرآن مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾

[الزمر : 27] وقوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الحشر : 21] ، وقوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ العالمون ﴾ [العنكبوت : 43] ، وقوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس ضُرِبَ مَثَلٌ فاستمعوا لَهُ ﴾ [الحج : 73] . والآيات الدالة على ذلك كثيرة معلومة والعلم عند الله تعالى .

وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا (40)

(123/560)

أقسم جل وعلا في هذه الآية ، أن الكفار الذين كذبوا نبينا صلى الله عليه وسلم ، قد أتوا على القرية التي أمطرت مطر السوء ، وهو أن الله أمطر عليها حجارة من سجيل ، وهي سدوم قرية قوم لوط ، وهذان الأمران المذكوران في هذه الآية الكريمة ، وهما أن الله أمطر هذه القرية مطر السوء الذي هو حجارة السجيل ، وأن الكفار أتوا عليها ، ومروا بها جاء موضحاً في آيات أخرى .

أما كون الله أمطر عليها الحجارة المذكورة ، فقد ذكره جل وعلا في آيات كثيرة كقوله تعالى : ﴿ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴾ [الحجر : 74] ، وبين

في سورة الذاريات أن السجيل المذكور نوع من الطين ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ قالوا إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴾ [الذاريات : 3233] ، ولا شك أن هذا الطين وقعه أليم ، شديد مهلك . كقوله تعالى : ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَراً فَسَآءَ مَطَرُ المنذرين ﴾ [الشعراء : 173] ، وقوله تعالى : ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ فَأَخَذَتْهُمُ الصيحة مُشْرِقِينَ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴾ [الحجر : 7274] الآية .

(124/560)

وأما كونهم قد أتوا على تلك القرية المذكورة فقد جاء موضحاً أيضاً في غير هذا الموضع كقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُّصْبِحِينَ وبالليل أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ [الصافات : 137 138] المراد بأنهم مروا على قرية قوم لوط ، أن مرورهم عليها ، ورؤيتهم لها خالية من أهلها ليس فيها داع ، ولا مجيب ، لأن الله أهلك أهلها جميعاً لكفرهم وتكذيبهم رسوله لوطا فيه أكبر واعظ وأعظم زاجر عن تكذيب نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، لئلا ينزل بالذين كذبوه مثل ما نزل بقوم لوط من العذاب والهلاك ، ولذا وبخهم على عدم الاعتبار بما أنزل بها من العذاب كقوله في آية الصافات المذكورة : ﴿ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ ،

وكقوله تعالى : في آية الفرقان هذه : ﴿ أَفَلَمْ يَكُونُواْ يَرَوْنَهَا بَل كَانُواْ لاَ يَرْجُونَ نُشُوراً ﴾ فقوله : أفلم يكونوا يرونها : توبيخ لهم على عدم الاعتبار كقوله في الآية الأخرى : أفلا تعقلون ، ومعلوم أنهم يمرون عليها مصبحين ، وبالليل وأنهم يرونهم ، وكقوله تعالى : ﴿ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴾ [الحجر : 7476] يعني : أن ديار قوم لوط بسبيل مقيم ، أي بطريق مقيم ، يمرون فيه عليها في سفرهم إلى الشام ، وقوله تعالى : ﴿ بَل كَانُواْ لاَ يَرْجُونَ نُشُوراً ﴾ ، أي لا يخافون بعثاً ، ولا جزاء أو لا يرجعون بعثاً وثواباً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 6 صـ ﴾

(125/560)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا (35) ﴾

سبق قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمجرمين ﴾ [الفرقان : 31] فلا بُدَّ أن يكون لكل نبي أعداء ؛ لأنه جاء ليعدل ميزان المكارم الذي تحكم فيه ناس مُستبدون في شراسة ، وأهل فُساد سيُحْرمون من ثمرة هذا الفساد ، فطبيعي أنْ

يقفوا في وجه الدعوة .

لذلك يضرب الحق سبحانه لرسوله صلى الله عليه وسلم بعض الأمثال من موكب الرسالات ، فيقول : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيراً ﴾ [الفرقان : 35] .

كأن الحق سبحانه يقول لرسوله : لقد تعرضتَ لمشقة دعوة أُناس لا يؤمنون بالإله ، أمّا موسى فقد تعرض لدعوة مَن ادعى أنه إله ، إذن : هناك مَنْ تحمل كثيراً من المشقات في سبيل الدعوة ، لدرجة أن موسى عليه السلام رأى نفسه لن يستطيع القيام بهذه المهمة وحده .

فنراه وهو النبي الرسول الذي اختاره الله يقول : ﴿ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَاناً فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءاً يُصَدِّقُنِي ﴾ [القصص : 34] وهذا يعني أن موسى عليه السلام يعلم مدى المشقة ، وحجم المهمة التي سيقوم بها .

فالرسالات السابقة كان الرسول يُبعَث إلى أمته المحدودة في الزمان وفي المكان ، ومع ذلك لاقوا المشقات ، أما أنت يا محمد فقد أُرسلتَ برسالة عامة في الزمان وفي المكان إلى أنْ تقوم الساعة ، فلا بُدَّ أن تكون متاعبك مثل متاعب مَنْ سبقوك جميعاً .

فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا (36)

الخطاب في ﴿ اذهبآ ﴾ [الفرقان : 36] للرسول موسى ، وللوزير هارون وقال : ﴿ إِلَى القوم الذين كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا ﴾ [الفرقان : 36] مع أن فيهم مَنِ ادعى الألوهية استمراراً لإرخاء العِنَان للخَصْم ، فقد كذّب فرعون بأن من آيات الله أن يؤمن بإله واحد .

ثم كانت النهاية ﴿ فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيراً ﴾ [الفرقان : 36] لأنهم وقفوا من موسى وهارون موقفَ العداء ، وقامت بينهما معركة تدخل فيها الحق سبحانه ، ودمرهم تدميراً ، كأن الحق سبحانه يقول لرسوله : اطمئن فإنْ حادوا عن جادة الحق وأَبَوْا أنْ يأتوك طائعين ، فسوف تكون نهايتهم كنهاية هؤلاء . ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُواْ الرسل ﴾

ذكر الحق تبارك وتعالى نوحاً بعد موسى عليهما السلام ؛ لأن كلاً منهما تميَّز في دعوته بشيء ، وتحمَّل كل منهما ألواناً من المشقة ، فموسى واجه مَنِ ادعى الألوهية ، ونوح أخذ سُلْطة زمنية واسعة انتظمتْ كل الموجودين على الأرض في وقته ولا يعني هذا أنه عليه السلام أُرسِل إلى الناس كلهم ، إنما كان قومه هم الموجودون على الأرض في هذا الوقت فقد لَبِثَ فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً .

واقرأ قصته عليه السلام في سورة نوح لتقف على مدى معاناته في دعوة قومه طوال هذه الفترة ، ومع ذلك ما آمن معه إلا قليل ، وكانت الغَلَبة له في النهاية .

وأيضاً لأنه عليه السلام تعرّض لأمر يتعلق بالبنوة ، بُنوّة في المنهج ، وبُنوة في النسب ، فقد

كان ابنه نسباً كافراً ، ولم يتمكن من هدايته ، ولما قال لربه عز وجل ﴿ إِنَّ ابني مِنْ أَهْلِي ﴾ [هود : 45] قال له : ﴿ يا نوح إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾ [هود : 46]

.

فجعل حيثية النفي ﴿ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾ [هود : 46] فالنسب هنا عمل وطاعة ، فكأن البنوة للأنبياء بنوة عمل ، لا بنوة نسب ، فابنك الحق مَنْ سار على منهجك ، وإنْ لم يكُنْ من دمك .

(127/560)

مسألة أخرى نلحظها في الجمع بين موسى ونوح عليهما السلام في مقام تسلية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهما يشتركان في ظاهرة كونية تستحق التأمل والنظر ، فكل مظاهر الكون التي أمامنا لو حققنا في كل مظهر من مظاهرها بعقل وتُؤدَة ويقين لأمكَننا أن نستنبط منها ما يُثري حياتنا ويُترِفها ويُسعدها .

لذلك الحق تبارك وتعالى ينعى على الذين يُعرضون عن النظر في آياته ، فيقول : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن آيَةٍ فِي السماوات والأرض يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ [يوسف : 105] .

وسبق أن قلنا : إن كل المخترعات التي رفَّهتْ حياة الناس وأسعدتهم ، وقلّلت مجهوداتهم

، وقصّرت الوقت عليهم ، كانت نتيجة الملاحظة والتأمل في مظاهر الكون كالذي اخترع العجلة والبخار . . إلخ .

وهنا نلاحظ أن العلاقة بين موسى ونوح عليهما السلام أن الله تعالى يُهلِك ويُنجي بالشيء الواحد ، فالماء الذي نجَّى موسى هو الماء الذي أغرق فرعون ، والماء الذي نجَّى نوحاً هو الماء الذي أغرق الكافرين من قومه . فهذا تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فالله تعالى إنْ أراد الإنجاء يُنجِّي ، وإنْ أراد الإهلاك يُهلِك ، ولو بالشيء الواحد .

ألاَ ترى أن أصحاب موسى حينما رأوا البحر من أمامهم ، وفرعون من خلفهم قالوا : ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ [الشعراء : 61] فهذه حقيقة وقضية كونية مَنْ يملك ردّها ؟ إنما ردها موسى فقال (كَلاَّ) لن نُدرَك ، قالها بملء فيه ، لا ببشريته ، إنما بالربوبية التي يثق في أنها لن تسلمه ،

﴿ قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ [الشعراء : 62] .

(128/560)

وكذلك كانت مسألة نوح عليه السلام ، لكن بطريقة أخرى ، هي السفينة ، وفكرة السفينة لم تكُنْ موجودة قبل نوح عليه السلام ، ألم يصادف واحد شجرة مُلْقاة في الماء تطفو على

سطحه ، ففكّر في ظاهرة الطفو هذه ، وكيف أن الشجرة لم تغطس في الماء ؛ لقد كان النجارون الماهرون يقيسون كثافة الخشب بأن يُلْقوه في الماء ، ثم ينظروا مقدار الغطس منه في الماء ، وعليه يعرفون كثافته .

هذه الظاهرة التي تنبه لها أرشميدس وبنَى عليها نظرية الأجسام الطافية والماء المُزَاح ، وتوصّل من خلالها إلى النقائض ، فبها تطفو الأشياء أو تغوص في الماء ، إنْ زادت الكثافة يثقل الشيء ويغوص في الماء ، وإنْ قلَّتْ الكثافة يطفو .

وتلاحظ ذلك إذا رميتَ قطعة نقود مثلاً ، فإنها تغطس في الماء ، فإنْ طرقتَها حتى جعلتها واسعةَ الرقعة رقيقة ، فإنها تطفو مع أن الكتلة واحدة ، نعم الكتلة واحدة ، لكن الماء المُزَاح في الحالة الثانية أكثر ، فيساعد على طفْوها .

وقد أراد الحق تبارك وتعالى أن يُنبِّه الإنسان إلى هذه الظواهر ، ويهديه إلى صناعة السفن التي تحمله في الماء ؛ لأن ثلاثة أرباع الكرة الأرضية مياه ، وقد جعل الله لك وسائل مواصلات في الربع ، أَلاَ يجعل لك مواصلات في الثلاثة أرباع ، فتأخذ خيرات البحر ، كما أخذت خيرات البَرّ ؟

وتأمل أسلوب القرآن : ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُواْ الرسل ﴾ [الفرقان : 37] ومعلوم أنهم كذَّبوا رسولهم نوحاً لا جميع الرسل ، قالوا : لأن النبوة لا تأتي بمتعارضات ، إنما تأتي بأمور مُتفق عليها ؛ لذلك جعل تكذيبَ رسول واحد كتكذيب جميع الرسل .

ثم ذكر عاقبة ذلك : ﴿ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً ﴾ [الفرقان : 37] وكلمة ﴿ أَغْرَقْنَاهُمْ ﴾ [الفرقان : 37] تعني : أن الذي أغرق المكذبين نَجَّى المؤمنين ، وإغراق المكذبين أو عملية تردُّ على سخريتهم من نوح ، حينما مرُّوا عليه وهو يصنع السفينة : ﴿ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُواْ مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾ [هود : 38] .

ولم يكن الغرق نهاية الجزاء ، إنما هو بدايته ، فهناك العذاب الذي ينتظرهم في الآخرة : ﴿ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَاباً أَلِيماً ﴾ [الفرقان : 37] وهكذا جمع الله عليهم الغرق في الدنيا والحرق في الآخرة .

ثم يضرب الحق تبارك وتعالى لرسوله مثلاً آخر : ﴿ وَعَاداً وَثَمُودَاْ وَأَصْحَابَ الرس ﴾ إنها نماذج من المتاعب التي لاقاها الرسل من أممهم ، كما قال في موضع آخر : ﴿ وإلى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً ﴾ [الأعراف : 65] . ﴿ وإلى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً ﴾ [الاعراف : 73] .

وكانت النهاية أن نصر الله أولياءه ورسله ، ودحر خصومهم والمكذِّبين بهم ، كل ذلك ليقول

لرسوله صلى الله عليه وسلم : يا محمد لست بدعاً من الرسل ، فإنْ وقف منك قومك موقفَ العناد والتكذيب ، فكُنْ على يقين وعلى ثقة من نصر الله لك كما قال :

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا المرسلين * إِنَّهُمْ لَهُمُ المنصورون * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الغالبون ﴾ [الصافات : 171173] .

إنها قضية يطلقها الحق تبارك وتعالى لا للتاريخ فقط ، ولكن لتربية النفس البشرية ، فإنْ أردتَ الغلبة فكُنْ في جند الله وتحت حزبه ، ولن تُهزَم أبداً ، إلا إذا اختلّتْ فيك هذه الجندية ، ولا تنْسَ أن أول شيء في هذه الجندية الطاعة والانضباط ، فإذا هُزِمْتَ في معركة فعليك أن تنظر عن أيٍّ منهما تخليْتَ .

(130/560)

لذلك رأينا في غزوة أحد أن مخالفة الرماة لأمر رسول الله قائد المعركة كانت هي سبب الهزيمة ، وماذا لو انتصروا مع مخالفتهم لأمر الرسول ؟ لو انتصروا لَفهموا أنه ليس من الضروري الطاعة والانقياد لأمر رسول الله . إذن : هذا دليل على وجوب الطاعة ، وألاَّ يخرجوا عن جندية الإيمان أبداً خضوعاً وطاعة ، ولا تقولوا : إن الرسول بيننا فهو يُربيكم ؛ لأنه لن يخلد فيكم .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَصْحَابَ الرس ﴾ [الفرقان : 38] الرسّ : هو البئر أو الحفرة ، وكانت في اليمامة ، ويُسمُّونها الأخدود ، وقد ورد ذكرها في سورة البروج .

وقد قال سبحانه هنا : ﴿ وَقُرُوناً بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيراً ﴾ [الفرقان : 38] لم يُرِد الحق سبحانه أنْ يُعدّد كل الأمم السابقة ، واكتفى بذِكْر نماذج منها ، وفي مواضع أخرى يجمعهم جملةَ ، فيقول تعالى : ﴿ فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّن أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصيحة وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأرض وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا ﴾ [العنكبوت : 40] .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَكُلاًّ ضَرَبْنَا لَهُ الأمثال ﴾

﴿ وَكُلاًّ ﴾ [الفرقان : 39] أي : كُلٌّ من المتقدمين ﴿ ضَرَبْنَا لَهُ الأمثال ﴾ [الفرقان : 39] يَعني : لم أدع رسولاً إلا وجئتُ له بالعبرة برسول قبله ، أقول له : انظر فيمَنْ سبقك كيف كذَّبه قومه ؟ وكيف عاندوه ووقفوا منه هذا الموقف ، ومع ذلك كانت له الغلبة عليهم ؛ ذلك ليأخذ كُلُّ نبي شحنةَ مناعة وطاقة يصمد بها أمام شدائد الدعوة ، فلا يلين ، ولا ييأس ، وليْكُنْ على يقين أن النهاية له وفي صالحه .

﴿ وَكُلاًّ تَبَّرْنَا تَتْبِيراً ﴾ [الفرقان : 39] أي : أهلكنا ودمرنا كل من كذَّب الرسل بأنواع مختلفة ومتعددة من ألوان العذاب ، فعوقب بعضهم بالصيحة أو الخسف أو الإغراق أو بالريح الصرصر العاتية .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى القرية ﴾

هذه المشاهد لم تكن مجرد تاريخ يحكيه القرآن ، إنما مشاهد ومَرَاءٍ رآها كفار مكة في رحلة الصيف يمرون على هذه الديار ، كما قال سبحانه في موضع آخر : ﴿ وَإِنَّكُمْ لَّتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُّصْبِحِينَ * وبالليل أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ [الصافات : 137138] إذن : فهذا التاريخ له واقع يسانده ، وآثار تدل عليه .

والقرية التي أُمطرتْ مطر السَّوْء هي سدوم قرية قوم لوط ﴿ أَفَلَمْ يَكُونُواْ يَرَوْنَهَا ﴾ [الفرقان : 40] ألم يشاهدوها في أسفارهم .

﴿ بَل كَانُواْ لاَ يَرْجُونَ نُشُوراً ﴾ [الفرقان : 40] كلمة (بَلْ) للإضراب ، فهي تنفي ما قبلها ، وتُثبت ما بعدها ، فالمعنى : أنهم مَرُّوا عليها وشاهدوها ، ويَعْرفونها تمام المعرفة ، لكنهم لا يرجُونَ نُشُوراً يعني : لا ينتظرون البعث ، ولا يؤمنون به ، ولا يعترفون بالوقوف بين يدي الله للحساب ، ألم يقولوا : ﴿ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ [المؤمنون : 82] .

وعجيبٌ ألاَّ يؤمنَ هؤلاء بالبعْث والحساب ، وهم أنفسهم كانوا إذا رأَوْا ظالماً وقفوا في وجهه ومنعوه من الظلم ، كما كان في حِلْف الفضول مثلاً ، فيأخذون الظالم ويعاقبونه حتى يرجع عن ظُلْمه ، ثم يردُّون للمظلوم حَقّه ، لكن ألم ينظروا في حال الظالمين الذين مرُّوا في

الدنيا دون عقاب ، ودون قصاص ؟ أليس من العدل أن تكون لهم دَارٌ أخرى يُحاسبون فيها ؟

لذلك كنا نردُّ على الشيوعيين بهذه المسألة ، نقول لهم : لقد عذبتُمْ أعداءكم من الإقطاعيين والرأسماليين ، وأنتقمتُم منهم فما بال الذين سبقوكم ولم تدركوهم ؟ أليس من العدل أنْ تعترفوا بيوم جامع يُحاسب فيه هؤلاء ؟

(132/560)

ولما قال القائل : لن يموت ظلوم حتى ينتقم الله منه ، قالوا له : إن فلاناً الظالم قد مات ، ولم نَرَ فيه شيئاً ، فقال : إن وراء هذه الدار داراً يُجازي فيها المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته .

وبعد أن عرض الحق تبارك وتعالى بعض النماذج من موكب النبوات تسليةً لرسوله صلى الله عليه وسلم يُبيِّن أن الأمر مع هؤلاء الكفار لن يتوقف عند العِنَاد والتعنّت بمطالب سخيفة ، إنما يتعدَّى ذلك إلى محاولة الاستهزاء به والسخرية منه ، فقال سبحانه : ﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُواً ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(133/560)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا (35) ﴾

أخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ وجعلنا معه أخاه هارون وزيراً ﴾ قال : عوناً وعضداً .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ فدمرناهم تدميراً ﴾ قال : أهلكناهم بالعذاب .

وأخرج عبد بن حميد عن عاصم أنه قرأ ﴿ وعاداً وثمودا ﴾ ينوّن ثمود .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال ﴿ الرس ﴾ قرية من ثمود .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : ﴿ الرس ﴾ بئر بأذربيجان .

وأخرج ابن عساكر عن قتادة في قوله ﴿ وأصحاب الرس ﴾ قال : قوم شعيب .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ وأصحاب الرس ﴾ قال : حدثنا أن أصحاب الرس كانوا أهل فلج باليمامة ، وآبار كانوا عليها .

وأخرج الفريابي وابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد قال ﴿ الرس ﴾ بئر كان عليها قوم يقال لهم : أصحاب الرس .

وأخرج الفريابي وابن جرير وابن أبي حاتم عن عكرمة قال : ﴿ أصحاب الرس ﴾ رسوا نبيهم في بئر .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر عن ابن عباس أنه سأل كعباً عن أصحاب الرس قال : صاحب البئر الذي ﴿ قال يا قوم اتبعوا المرسلين ﴾ فرسه قومه في بئر بالحجار .

وأخرج ابن جرير عن الضحاك قال ﴿ الرس ﴾ بئر قتل به صاحب يس .

وأخرج ابن أبي الدنيا في ذم الملاهي والبيهقي وابن عساكر عن جعفر بن محمد بن علي : ان امرأتين سألتاه هل تجد غشيان المرأة المرأة محرماً في كتاب الله ؟ قال : نعم . هن اللواتي كن على عهد تبع ، وهن صواحب الرس وكل نهر وبئر رس . قال : يقطع لهن جلباب من نار ، ودرع من نار ، ونطاق من نار ، وتاج من نار ، وخفان من نار ، ومن فوق ذلك ثوب غليظ جاف جلف منتن من نار ، قال جعفر : علموا هذا نساءكم .

وأخرج ابن أبي الدنيا عن واثلة بن الأسقع رفعه قال : سحاق النساء زنا بينهن .

(134/560)

وأخرج عبد الرزاق في المصنف عن عبد الله بن كعب بن مالك قال : لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم الراكبة والمركوبة .

وأخرج ابن جرير عن قتادة قال : إن أصحاب الأيكة ؛ وأصحاب الرس . كانتا أمتين ، فبعث الله إليهما نبياً واحداً شعيباً وعذبهما الله بعذابين .

وأخرج ابن إسحق وابن جرير عن محمد بن كعب القرظي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن أول الناس يدخل الجنة يوم القيامة العبد الأسود ، وذلك أن الله تعالى بعث نبياً إلى أهل قريته فلم يؤمن به من أهلها أحد إلا ذلك الأسود ، ثم إن أهل القرية عدوا على النبي فحفروا له بئر ، فألقوه فيها ، ثم أطبقوا عليه بحجر ضخم ، فكان ذلك العبد يذهب فيحتطب على ظهره ، ثم يأتي بحطبه فيبيعه ، فيشتري به طعاماً وشراباً ، ثم يأتي به إلى تلك البئر فيرفع تلك الصخرة فيعينه الله عليها ، فيدلي طعامه وشرابه ، ثم يردّها كما كانت كذلك ما شاء الله أن يكون .

ثم إنه ذهب يوماً يحتطب كما كان يصنع فجمع حطبه ، وحزم حزمته وفرغ منها ، فلما أراد أن يحتملها وجد سنة فاضطجع فنام ، فضرب على أذنه سبع سنين نائماً ، ثم إنه هب فتمطى ، فتحوّل لشقه الآخر فاضطجع ، فضرب الله على أذنه سبع سنين أخرى ، ثم إنه هب فاحتمل حزمته ولا يحسب إلا أنه نام ساعة من نهار ، فجاء إلى القرية فباع حزمته ، ثم اشترى طعاماً وشراباً كما كان يصنع ، ثم ذهب إلى الحفرة في موضعها التي كانت فيه ، فالتمسه فلم يجده وقد كان بدا لقومه بداء فاستخرجوه فآمنوا به وصدقوه . وكان النبي

يسألهم عن ذلك الأسود ما فعل ؟ فيقولون له : ما ندري . . . ! حتى قبض ذلك النبي فأهب الله الأسود من نومته بعد ذلك ؛ إن ذلك الأسود لأول من يدخل الجنة " .

(135/560)

وأخرج الحاكم وصححه والبيهقي في الدلائل عن أم سلمة سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول " بعد عدنان بن أدد بن زيد بن البراء ، واعراق الثرى . قالت : ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم أهلك ﴿ عاداً وثمودا وأصحاب الرس وقروناً بين ذلك كثيراً لا يعلمهم إلا الله ﴾ " قالت : واعراق الثرى : اسمعيل وزيد وهميسع وبرانيت .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة ﴿ وقروناً بين ذلك كثيراً ﴾ قال : كان يقال إن القرن سبعون سنة .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن زرارة بن أوفى قال : القرن مائة وعشرون عاماً قال : فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم في قرن كان آخره العام الذي مات فيه يزيد بن معاوية .

وأخرج ابن مردويه من طريق أبي سلمة عن أبي هريرة قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم " كان بين آدم وبين نوح عشرة قرون ، وبين نوح وإبراهيم عشرة قرون " قال أبو سلمة : القرن

مائة سنة .

وأخرج الحاكم وابن مردويه عن عبد الله بن بسر قال : " وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده على رأسي فقال : هذا الغلام يعيش قرناً . فعاش مائة سنة " .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم من طريق محمد بن القاسم الحمصي عن عبد الله بسر المازني قال : " وضع النبي صلى الله عليه وسلم يده على رأسي وقال : سيعيش هذا الغلام قرناً قلت : يا رسول الله كم القرن ؟ قال : مائة سنة . قال محمد بن القاسم : ما زلنا نعد له حتى تمت مائة سنة . ثم مات " .

وأخرج ابن مردويه عن أبي الهيثم بن دهر الأسلمى قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم " القرن خمسون سنة " .

وأخرج ابن مردويه عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " أمتي خمس قرون القرن أربعون سنة " .

وأخرج ابن المنذر عن حماد بن إبراهيم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " القرن أربعون سنة " .

وأخرج ابن جرير عن ابن سيرين قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " القرن أربعون سنة " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن قال " القرن ستون سنة " .

وأخرج الحاكم في الكنى عن ابن عباس قال : " كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا انتهى إلى معد بن عدنان أمسك . ثم يقول : كذب النسابون قال الله تعالى ﴿ وقروناً بين ذلك كثيراً ﴾ " .

﴿ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا (39) ﴾

أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة ﴿ وكلاً ضربنا له الأمثال وكلاً تبرنا تتبيراً ﴾ قال : كل قد أعذر الله إليه وبين له ثم انتقم منه ﴿ ولقد أتوا على القرية التي أمطرت مطر السوء ﴾ قال : قرية لوط ﴿ بل كانوا لا يرجون نشوراً ﴾ قال : بعثا ولا حساباً .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن أبي حاتم عن الحسن في قوله ﴿ وكلاً تبرنا تتبيراً ﴾ قال : تبر الله كلا بالعذاب .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال ﴿ تبرنا ﴾ بالنبطية .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ ولقد أتوا على القرية ﴾ قال : هي سدوم قرية قوم لوط ﴿ التي أمطرت مطر السوء ﴾ قال : الحجارة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عطاء ﴿ ولقد أتوا على القرية ﴾ قال : قرية لوط .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن ﴿ ولقد أتوا على القرية ﴾ قال : هي بين الشام والمدينة .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن جريج في قوله ﴿ لا يرجون نشوراً ﴾ قال : بعثاً وفي قوله ﴿ لولا أن صبرنا عليها ﴾ قال : ثبتنا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 6 صـ ﴾

(137/560)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا (35) ﴾

قوله : ﴿ هَارُونَ ﴾ : بدلٌ أو بيانٌ ، أو منصوبٌ على القطع . و " وزيراً " مفعولٌ ثانٍ ، وقيل : حالٌ ، والمفعولُ الثاني قوله : " معه " .

فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا (36)

قوله : ﴿ فَدَمَّرْنَاهُمْ ﴾ : العامَّةُ على " فَدَمَّرْنا " فعلاً ماضياً معطوفاً على محذوفٍ أي :

فَذَهبا فكذَّبُوهما فدمَّرْناهم . وقرأ عليٌّ كرَّم اللهُ وجهَه " فَدَمِّراهم " أمراً لموسى وهارون . وعنه أيضاً " فَدَمِّرانِّهم " كذلك أيضاً ، ولكنه مؤكَّدٌ بالنونِ الشديدةِ . وعنه أيضاً : " فدَمِّرا بهم " بزيادةِ باءِ الجر بعد فعلِ الأمرِ ، وهي تُشْبِهُ القراءةَ قبلَها في الخَط . ونَقَلَ عنه الزمخشري " فَدَمَّرْتُهم " بتاءِ المتكلِّمِ .

قوله : ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ ﴾ : يجوز أَنْ يكونَ منصوباً ، عطفاً على مَفْعول " دَمَّرْناهم " . ويجوزُ أَنْ يكونَ منصوباً بفعلٍ مضمرٍ يُفَسِّره قولُه " أغْرَقْناهم " . ويُرَجَّح هذا بتقدُّمِ جملةٍ فعليةٍ قبلَه . هذا إذا قُلنا : إنَّ " لَمَّا " ظرفُ زمانٍ ، وأمَّا إذا قُلْنا إنَّها حرفُ وجوبٍ لوجوبٍ فلا يتأتى ذلك ؛ لأنَّ " أَغْرقناهم " حينئذٍ جوابُ " لَمَّا " ، وجوابُها لا يُفَسِّر ، ويجوز أَنْ يكونَ منصوباً بفعلٍ مقدرٍ لا على سبيلِ الاشتغالِ ، أي : اذكرْ قومَ نوحٍ .

قوله : ﴿ وَعَاداً ﴾ : فيه ثلاثةُ أوجهٍ ، أَنْ يكونَ معطوفاً على قومِ نوح ، وأنْ يكونَ معطوفاً على مفعولِ " جَعَلْناهم " ، وأَنْ يكونَ معطوفاً على محلِّ " للظالمين " لأنَّه في قوةِ : وَعَدْنا الظالمين بعذابٍ .

قوله : ﴿ وَأَصْحَابَ الرس ﴾ فيه وجهان ، أحدهما : من عَطْفِ المغايِرِ . وهو الظاهرُ .

والثاني : أنَّه من عطفِ بعضِ الصفاتِ على بعضٍ . والمرادُ بأصحابِ الرّسِّ ثمودُ ؛ لأنَّ الرَّسَّ البِئْرُ التي لم تُطْوَ ، عن أبي عبيد ، وثمودُ أصحابُ آبار . وقيل : الرَّسُ نهرٌ بالمشرق ، ويقال : إنهم أناسٌ عبدةُ أصنامٍ قَتَلوا نبيَّهم ، ورسَوْه في بئرٍ أي : دَسُّوه فيها .

قوله : ﴿ بَيْنَ ذَلِكَ ﴾ " ذلك " إشارةٌ إلى مَنْ تقدَّم ذكرُه ، وهم جماعاتٌ ، فلذلك حَسُنَ " بين " عليه .

قوله : ﴿ وَكُلاًّ ضَرَبْنَا لَهُ الأمثال ﴾ : يجوزُ نصبُه بفعلٍ يفسِّره ما بعده أي : وحَذَّرْنا أو ذَكَّرْنا ، لأنهما في معنى : ضَرَبْنا له الأمثالَ . ويجوزُ أَنْ يكونَ معطوفاً على ما تقدَّم ، و " ضَرَبْنا " بيانٌ لسببِ إهْلاكهم . وأمَّا " كلاً " الثانيةُ فمفعولٌ مقدمٌ .

قوله : ﴿ مَطَرَ السوء ﴾ : فيه ثلاثةُ أوجهٍ ، أحدها : أنه مصدرٌ على حَذْفِ الزوائدِ أي : إمْطار السَّوْء . الثاني : أنه مفعولٌ ثانٍ ؛ إذ المعنى : أعطيتُها وأَوْلَيْتُها مطرَ السَّوْء .

الثالث : أنه نعتُ مصدرٍ محذوفٍ أي : إمطاراً مثلَ مطرِ السَّوْء .

وقرأ : زيد بن علي " مُطِرَت " ثلاثياً مبنياً للمفعولِ و " مَطَرَ " متعدٍ قال :

3485 . . . . . كَمَنْ بِوادِيْه بعد المَحْلِ مَمْطورِ

وقرأ أبو السَّمَّال " مَطَرَ السُّوء " . بضم السين . وقد تقدَّم الكلامُ على السُّوء والسَّوْء في

براءة .

وقوله : ﴿ أَتَوْا عَلَى القرية ﴾ إنما عدى " أتى " ب " على " لأنه ضُمِّنَ معنى " مَرَّ " .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 482. 485 ﴾

(139/560)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا (35) ﴾

قلَمَّا يجري في القرآن لنبينا – صلى الله عليه وسلم – ذِكْرٌ إلا ويذكر الله عُقَيْبَه موسى عليه السلام . وتكررت قصته في القرآن في غير موضع تنبيهاً على علو شأنه ، لأنه كما أن التخصيص بالذكر يدل على شرف المذكور فالتكرير في الذكر يوجب التفصيل في الوصف ؛ لأن القصة الواحدة إذا أعيدت مراتٍ كثيرة كانت في باب البلاغة أتمَّ لا سيما إذا كانت في كل مرة فائدةٌ زائدة .

ثم بيَّن أنه قال لهما : ﴿ فَقُلْنَا اذهبا إِلَى القوم الذين كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيراً ﴾

أي فَذَهبا فَجَحَدَ القومُ فدمرناهم تدميراً أي أهلكناهم إهلاكاً ، وفي ذلك تسليةٌ للنبي –

صلى الله عليه وسلم – فيما كان يقاسيه من قومه من فنون البلاء ، ووَعْدٌ له بالجميل في أنه سَيُهْلك أعداءَه كُلَّهم .

وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا (37)

أَحْلَلْنا بهم العقوبة كما أحللنا بأمثالهم ، وعاملناهم بمثل معاملتنا لقرنائهم . ثم عَقَّبَ هذه الآيات بذكر عادٍ وثمود وأصحاب الرَّسِّ ، ومَنْ ذكرهم على الجملة من غير تفصيل ، وما أهلك به قوم لوطٍ حيث عملوا الخبائث . . . كل ذلك تطييباً لقلبه صلى الله عليه وسلم ، وتسكيناً لِسرِّه ، وإعلاماً وتعريفاً بأنه سيهلك مَنْ يُعاديه ، ويدمّر مَنْ يناويه ، وقد فَعَلَ من ذلك الكثير في حال حياته ، والباقي بعد مُضِيِّه – عليه السلام – من الدنيا وذهابه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 636. 637 ﴾

(140/560)

قوله تعالى ﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا (41) إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا (42) أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا (43) أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ

يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا (44) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما أثبت تكذيبهم بالآخرة ، عطف عليه تحقيقاً قوله ، مبيناً أنهم لم يقتصروا على التكذيب بالممكن المحبوب حتى ضموا إليه الاستهزاء بمن لا يمكن أصلاً في العادة أن يكون موضعاً للهزء : ﴿ وإذا رأوك ﴾ أي مع ما يعلمون من صدق حديثك وكرم أفعالك لو لم تأتهم بمعجزة ، فكيف وقد أتيتهم بما بهر العقول ﴿ إن ﴾ أي ما ﴿ يتخذونك إلا هزواً ﴾ عبر بالمصدر إشارة إلى مبالغتهم في الاستهزاء مع شدة بعده ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن ذلك ، يقولون محتقرين : ﴿ أهذا ﴾ وتهكموا مع الإنكار في قولهم ﴿ الذي بعث الله ﴾ أي المستجمع لنعوت العظمة ﴿ رسولاً ﴾ فإخراجهم الكلام في معرض التسليم والإقرار – وهو في غاية الجحود – بالغ الذروة من الاستهزاء ، فصار المراد عندهم أن هذا الذي ادعاه من الرسالة مما لا يجوز أن يعتقد .

ثم استأنفوا معجبين من أنفسهم ، مخيلين غيرهم من الالتفات إلى ما يأتي به من المعجزات ، قائلين : ﴿ إن ﴾ أي إنه ﴿ كاد ﴾ وعرّف بأن " إن " مخففة لا نافية باللام فقال : ﴿ ليضلنا ﴾ أي بما يأتي به من هذه الخوارق التي لا يقدر غيره على مثلها ، واجتهاده في إظهار النصح ﴿ عن آلهتنا ﴾ هذه التي سبق إلى عبادتها من هو أفضل منا رأياً وأكثر

للأمور تجربة .

ولما كانت هذه العبارة مفهمة لمقاربة الصرف عن الأصنام ، نفوه بقولهم : ﴿ لولا أن صبرنا ﴾ بما لنا من الاجتماع والتعاضد ﴿ عليها ﴾ أي على التمسك بعبادتها .

ولما لزم قولهم هذا أن الأصنام تغني عنهم ، نفاه مهدداً مؤكداً التهديد لفظاعة فعلهم بقوله ، عطفاً على ما تقديره : فسوف يرون - أو من يرى منهم - أكثرهم قد رجع عن اعتقاد أن هذه الأصنام آلهة : ﴿ وسوف يعلمون ﴾ أي في حال لا ينفعهم فيه العمل وإن طالت مدة الإمهال والتمكين ﴿ حين يرون العذاب ﴾ أي في الدنيا والآخرة ﴿ من أضل سبيلاً ﴾ هم أوالدعي لهم إلى ترك الأصنام الذي ادعوا إضلاله بقولهم ﴿ ليضلنا ﴾ .

(141/560)

ولما أخبره تعالى بحقيقة حالهم ، في ابتدائهم ومآلهم ، وكان ذلك مما يحزنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ لشدة حرصه على رجوعهم ، ولزوم ما ينفعهم واجتناب ما يضرهم ، سلاه بقوله معجباً من حالهم : ﴿ أرأيت من اتخذ ﴾ أي كلف نفسه أن أخذ ﴿ إلهه هواه ﴾ أي أنهم حقروا الإله بإنزاله إلى رتبة الهوى فهم لا يعبدون إلا الهوى ، وهو ميل الشهوة ورمي النفس إلى الشيء ، لا شبهة لهم أصلاً في عبادة الأصنام يرجعون عنها إذا جلت ، فهم لا ينفكون

عن عبادتها ما دام هواهم موجوداً ، فلا يقدر على كفهم عن ذلك إلا القادر على صرف تلك الأهواء ، وهو الله وحده وهذا كما تقول : فلان اتخذ سميره كتابه ، أي أنه قصر نفسه على مسامرة الكتاب فلا يسامر غير الكتاب ، وقد يشاركه في مسامرة الكتاب غيره ، ولو قلت : اتخذ كتابه سميره ، لانعكس الحال فكان المعنى أنه أنه قصر نفسه على مطالعة السمير ولم ينظر في كتاب في وقت السمر وقد يشاركه غيره في السمير ، أو قصر السمير على الكتاب والكتاب على السمير كما قصر الطين على الخزفية في قولك : اتخذت الطين خزفاً ، فالمعنى أن هذا المذموم قصر نفسه على تأله الهوى فلا صلاح له ولا رشاد وقد يتأله الهوى غيره ، ولو قيل : من اتخذ هواه إلهه ، لكان المعنى أنه قصر هواه على الإله فلا غيّ له ، لأن هواه تابع لأمر الإله ، وقد يشاركه في تأله الإله غيره ؛ قال أبو حيان : والمعنى أنه لم يتخذ إلهاً إلا هواه – انتهى .

(142/560)

فلو عكس لقيل : لم يتخذ هوى إلا إلهه ، وهو إذا فعل ذلك فقد سلب نفسه الهوى فلم يعمل به إلا فيما وافق أمر إلهه ومما يوضح لك انعكاس المعنى بالتقديم والتأخير أنك لو قلت : فلان اتخذ عبده أباه ، لكان معناه أنه عظم العبد ، ولو قيل : إنه اتخذ أباه عبده ، لكان

معناه أنه أهان الأب ، وسواء في ذلك إتيانك به هكذا على وزان ما في القرآن أو نكرت أحدهما ، فإنك لا تجد ذوقك فيه يختلف في أنه إذا قدم الحقير شرفه ، وإذا قدم الشريف حقره ، وكذا لو قلت : إتخذ إصطبله مسجداً أو صديقه أباً أو عكست ، ولو كان التقديم بمجرد العناية من غير اختلاف في الدلالة قدم في الجاثية الهوى ، فإن السياق والسباق له ، وحاصل المعنى أنه اضمحل وصف الإله ، ولم يبق إلا الهوى ، فلو قدم الهوى لكان المعنى أنه زال وغلبت عليه صفة الإله ، ولم يكن ينظر إلا إليه ، ولا حكم إلا له ، كما في الطين بالنسبة إلى الخزف سواء – والله أعلم .

ولما كان لا يقدر على صرف الهوى إلا الله ، تسبب عن شدة حرصه على هداهم قوله : ﴿ أفأنت تكون ﴾ ولما كان مراده ـ صلى الله عليه وسلم ـ حرصاً عليهم ورحمة لهم ردهم عن الغي ولا بد ، عبر بأداة الاستعلاء في قوله : ﴿ عليه وكيلاً ﴾ أي من قبل الله بحيث يلزمك أن ترده عن هواه إلى ما أمر به الله قسراً ، لست بوكيل ، ولكنك رسول ، ليس عليك إلا البلاغ ، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات .

ولما انتفى الرد عن الهوى قسراً بالوكالة ، نفى الرد طوعاً بتقبيح الضلالة ، فذكر المانع منه بقوله معادلاً لما قبله ، منكراً حسبانه ، لا كونه هو الحاسب ، أو أنكر كونه هو الحاسب ، مع ما له من العقل الرزين ، والرأي الرصين ، ويكون ﴿ تحسب ﴾ معطوفاً على " تكون " : ﴿ أم تحسب أن أكثرهم ﴾ أي هؤلاء المدعوين ﴿ يسمعون ﴾ أي سماع من ينزجر ولو

كان غير عاقل كالبهائم ﴿ أو يعقلون ﴾ ما يرون ولو لم يكن لهم سمع حتى يطمع في رجوعهم باختيارهم من غير قسر .

(143/560)

ولما كان هذا الاستفهام مفيداً للنفي ، أثبت ما أفهمه بقوله : ﴿ إن ﴾ أي ما ﴿ هم إلا كالأنعام ﴾ أي في عدم العقل لعدم الانتفاع به ﴿ بل هم أضل ﴾ أي منها ﴿ سبيلاً ﴾ لأنهم لا ينزجرون بما يسمعون وهي تنزجر ، ولا يشكرون للمحسن وهو وليهم ، لا يجانبون المسيء وهو عدوهم ، ولا يرغبون في الثواب ، ولا يخافون العقاب ، وذلك لأنا حجبنا شموس عقولهم بظلال الجبال الشامخة من ضلالهم ، ولو آمنوا لانقشعت تلك الحجب ، وأضاءت أنوار الإيمان ، فأبصروا غرائب المعاني ، وتبدت لهم خفايا الأسرار ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم ﴾ [يونس : 9] فكما أن الإنسان – وإن كان بصيراً – لا يميز بين المحسوسات ما لم يشرق عليها نور الشمس ، فكذلك الإنسان – وإن كان عاقلاً ذا بصيرة – لا تدرك بصيرته المعاني المعلومات على ما هي عليه ما لم يشرق عليها نور الإيمان ، لأن البصيرة عين الروح كما أن البصر عين الجسد ؛ ولما كان من المعلوم أنهم يسمعون ويعقلون وأن المنفي إنما هو انتفاعهم بذلك ، كان موضع

عجب من صرفهم عن ذلك ، فعبقه سبحانه بتصرفه في الأمور الحسية مثالاً للأمور المعنوية ، ولأن عمله في الباطن ينيره إذا شاء بشمس المعارف كعمله في الظاهر سواء ، دليلاً على سلبهم النفع بما أعطاهموه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 320 . 323 ﴾

(144/560)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا (41) ﴾

اعلم أنه سبحانه لما بين مبالغة المشركين في إنكار نبوته وفي إيراد الشبهات في ذلك ، بين بعد ذلك أنهم إدا رأوا الرسول اتخذوه هزواً فلم يقتصروا على ترك الإيمان به بل زادوا عليه بالاستهزاء والاستحقار ، ويقول بعضهم لبعض ﴿ أهذا الذى بَعَثَ الله رَسُولاً ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

قال صاحب "الكشاف" (إنْ) الأولى نافية والثانية مخففة من الثقيلة ، واللام هي الفارقة بينهما .

المسألة الثانية :

جواب (إذا) هو ما أضمر من القول يعني وإذا رأوك مستهزئين قالوا أبعث الله هذا رسولاً ، وقوله : ﴿ إِن يَتَّخِذُونَكَ ﴾ جملة اعترضت بين (إذا) وجوابها .

المسألة الثالثة :

اتخذوه هزواً في معنى استهزؤا به والأصل اتخذوه موضع هزء أو مهزوءاً به .

المسألة الرابعة :

اعلم أن الله تعالى أخبر عن المشركين أنهم متى رأوا الرسول أتوا بنوعين من الأفعال أحدهما أنهم يستهزئون به ، وفسر ذلك الاستهزاء بقوله : ﴿ أهذا الذى بَعَثَ الله رَسُولاً ﴾ وذلك جهل عظيم لأن الاستهزاء إما أن يقع بصورته أو بصفته .

أما الأول فباطل لأنه عليه الصلاة والسلام كان أحسن منهم صورة وخلقة ، وبتقدير أنه لم يكن كذلك ، لكنه عليه السلام ما كان يدعي التمييز عنهم بالصورة بل بالحجة .

وأما الثاني فباطل لأنه عليه السلام ادعى التميز عنهم في ظهور المعجز عليه دونهم ، وأنهم ما قدروا على القدح في حجته ودلالته ، ففي الحقيقة هم الذين يستحقون أن يهزأ بهم ، ثم إنهم لوقاحتهم قلبوا القضية واستهزؤا بالرسول عليه السلام ، وذلك يدل على أنه ليس للمبطل في كل الأوقات إلا السفاهة والوقاحة .

وثانيهما أنهم كانوا يقولون فيه : ﴿ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلاَ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ﴾ وذلك يدل على أمور : الأول : أنهم سموا ذلك إضلالاً ، وذلك يدل على أنهم كانوا مبالغين في تعظيم آلهتهم وفي استعظام صنيعه صلى الله عليه وسلم في صرفهم عنه ، وذلك يدل على أنهم كانوا يعتقدون أن هذا هو الحق ، فمن هذا الوجه يبطل قول أصحاب المعارف في أنه لا يكفر إلا من يعرف الدلائل لأنهم جهلوه ، ثم نسبهم الله تعالى إلى الكفر واضلال ، وقولهم : ﴿ لَوْلاَ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ﴾ يدل أيضاً على ذلك الثاني : يدل هذا القول منهم على جد الرسول عليه السلام واجتهاده في صرفهم عن عبادة الأوثان ، ولولا ذلك لما قالوا : ﴿ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلاَ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ﴾ وهكذا كان عليه السلام فإنه في أول الأمر بالغ في إيراد الدلائل والجواب عن الشبهات وتحمل ما كانوا يفعلونه من أنواع السفاهة وسوء الأدب الثالث : أن هذا يدل على اعتراف القوم بأنهم لم يعترضوا ألبتة على دلائل الرسول صلى الله عليه وسلم وما عارضوها إلا بمحض الجحود والتقليد لأن قولهم : ﴿ لَوْلاَ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ﴾ إشارة إلى الجحود والتقليد ، ولو ذكروا اعتراضاً على دلائل الرسول عليه السلام لكان ذكر ذلك أولى من ذكر مجرد الجحود والإصرار الذي هو دأب الجهال ، وذلك يدل على أن القوم كانوا مقهورين تحت حجته عليه السلام ، وأنه ما كان في أيديهم إلا مجرد الوقاحة الرابع : الآية تدل على أن القوم صاروا في ظهور حجته عليه السلام عليهم كالمجانين

لأنهم استهزؤا به أولاً ، ثم وصفوه بأنه كاد يضلنا عن آلهتنا لولا أن قابلناه بالجحود والإصرار ، فهذا الكلام الأخير يدل على أن القوم سلموا له قوة الحجة وكمال العقل والكلام الأول وهو السخرية والاستهزاء لا يليق إلا بالجاهل العاجز ، فالقوم لما جمعوا بين هذين الكلامين دل ذلك على أنهم كانوا

(146/560)

كالمتحيرين في أمره ، فتارة بالوقاحة يستهزئون منه ، وتارة يصفونه بما لا يليق إلا بالعالم الكامل ، ثم إنه سبحانه لما حكى عنهم هذا الكلام زيف طريقتهم في ذلك من ثلاثة أوجه أولها : قوله : ﴿ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ العذاب مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ لأنهم لما وصفوه بالإضلال في قولهم : ﴿ إِن كَانَ ﴾ بين تعالى أنه سيظهر لهم من المضل ومن الضال عند مشاهدة العذاب الذي لا مخلص لهم منه فهو وعيد شديد لهم على التعامي والإعراض عن الاستدلال والنظر وثانيها : قوله تعالى : ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ اتخذ إلهه هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً ﴾ والمعنى أنه سبحانه بين أن بلوغ هؤلاء في جهالتهم وإعراضهم عن الدلائل إنما كان لاستيلاء التقليد عليهم وأنهم اتخذوا أهواءهم آلهة ، فكل ما دعاهم الهوى إليه انقادوا له ، سواء منع الدليل منه أو لم يمنع ، ثم ههنا أبحاث :

الأول : قوله : ﴿ أَرَأَيْتَ ﴾ كلمة تصلح للإعلام والسؤال ، وههنا هي تعجيب من جهل من هذا وصفه ونعته .

الثاني : قوله : ﴿ اتخذ إلهه هَوَاهُ ﴾ معناه اتخذ إلهه ما يهواه أو إلهاً يهواه ، وقيل هو مقلوب ومعناه اتخذ هواه إلهه وهذا ضعيف ، لأن قوله : ﴿ اتخذ إلهه هَوَاهُ ﴾ يفيد الحصر ، أي لم يتخذ لنفسه إلهاً إلا هواه ، وهذا المعنى لا يحصل عند القلب .

قال ابن عباس : الهوى إله يعبد ، وقال سعيد بن جبير : كان الرجل من المشركين يعبد الصنم فإذا رأى أحسن منه رماه واتخذ الآخر وعبده .

الثالث : قوله : ﴿ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً ﴾ أي حافظاً تحفظه من اتباع هواه أي لست كذلك .

(147/560)

الرابع : نظير هذه الآية قوله تعالى : ﴿ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ ﴾ [الغاشية : 22] وقوله : ﴿ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ ﴾ [ق : 45] وقوله : ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدين ﴾ [البقرة : 256] قال الكلبي : نسختها آية القتال وثالثها : قوله : ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ﴾ أم ههنا منقطعة ، معناه بل تحسب ، وذلك يدل على أن هذه المذمة أشد من

التي تقدمتها حتى حقت بالإضراب عنها إليها ، وهي كونهم مسلوبي الأسماع والعقول ، لأنهم لشدة عنادهم لا يصغون إلى الكلام ، وإذا سمعوه لا يتفكرون فيه ، فكأنه ليس لهم عقل ولا سمع ألبتة ، فعند ذلك شبههم بالأنعام في عدم انتفاعهم بالكلام وعدم إقدامهم على التدبر والتفكر وإقبالهم على اللذات الحاضرة الحسية وإعراضهم عن طلب السعادات الباقية العقلية وها هنا سؤالات :

السؤال الأول : لم قال : ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ ﴾ فحكم بذلك على الأكثر دون الكل ؟ والجواب : لأنه كان فيهم من يعرف الله تعالى ويعقل الحق ، إلا أنه ترك الإسلام لمجرد حب الرياسة لا للجهل .

السؤال الثاني : لم جعلوا أضل من الأنعام ؟ الجواب : من وجوه : أحدها : أن الأنعام تنقاد لأربابها وللذي يعلفها ويتعهدها وتميز بين من يحسن إليها وبين من يسيء إليها ، وتطلب ما ينفعها وتجتنب ما يضرها ، وهؤلاء لا ينقادون لربهم ولا يميزون بين إحسانه إليهم وبين إساءة الشيطان إليهم الذين هو عدو لهم ، ولا يطلبون الثواب الذي هو أعظم المنافع ، ولا يحترزون من العقاب الذي هو أعظم المضار وثانيها : أن قلوب الأنعام كما أنها تكون خالية عن العلم فهي خالية عن الجهل الذي هو اعتقاد المعتقد على خلاف ما هو عليه مع التصميم .

وأما هؤلاء فقلوبهم كما خلت عن العلم فقد اتصفت بالجهل فإنهم لا يعلمون ولا يعلمون أنهم لا يعلمون ، بل هم مصرون على أنهم يعلمون وثالثها : أن عدم علم الأنعام لا يضر بأحد أما جهل هؤلاء فإنه منشأ للضرر العظيم ، لأنهم يصدون الناس عن سبيل الله ويبغونها عوجاً ورابعها : أن الأنعام لا تعرف شيئاً ولكنهم عاجزون عن الطلب وأما هؤلاء الجهال فإنهم ليسوا عاجزين عن الطلب ، والمحروم عن طلب المراتب العالية إذا عجز عنه لا يكون في استحقاق الذم كالقادر عليه التارك له لسوء اختياره وخامسها : أن البهائم لا تستحق عقاباً على عدم العلم ، أما هؤلاء فإنهم يستحقون عليه أعظم العقاب وسادسها : أن البهائم تسبح الله تعالى على مذهب بعض الناس على ما قال ﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ [الأسراء : 44] وقال : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِى السموات ﴾ [الحج : 18] إلى قوله : ﴿ والدواب ﴾ [الحج : 18] وقال : ﴿ والطير صافات كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاَتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ﴾ [النور : 41] وإذا كان كذلك فضلال الكفار أشد وأعظم من ضلال هذه الأنعام .

السؤال الثالث : أنه سبحانه لما نفى عنهم السمع والعقل ، فكيف ذمهم على الإعراض عن الدين وكيف بعث الرسول إليهم فإن من شرط التكليف العقل ؟ الجواب : ليس المراد أنهم

لا يعقلون بل إنهم لا ينتفعون بذلك العقل ، فهو كقول الرجل لغيره إذا لم يفهم إنما أنت أعمى وأصم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 24 صـ 74 . 76 ﴾

(149/560)

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ ﴾

فيه ثلاثة أقاويل

: أحدها : أنهم قوم كان الرجل منهم يعبد حجراً يستحسنه ، فإذا رأى أحسن منه عبده وترك الأول ، قاله ابن عباس .

الثاني : أنه الحارث بن قيس كان إذا هوى شيئاً عبده ، حكاه النقاش .

الثالث : أنه الذي يتبع هواه في كل ما دعا إليه ، قاله الحسن ، وقتادة .

﴿ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً ﴾ فيه أربعة أوجه

: أحدها : يعني ناصراً ، قاله قتادة .

الثاني : حفيظاً ، قاله يحيى بن سلام .

الثالث : كفيلاً قاله الكلبي .

الرابع : مسيطراً ، قاله السّدي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

(150/560)

وقال ابن عطية :

ثم حكم عليهم أنهم إذا رأوا محمداً صلى الله عليه وسلم استهزؤوا به واستحقروه وأبعدوا أن يبعثه الله رسولاً ، فقالوا على جهة الاستهزاء ﴿ أهذا الذي بعث الله رسولاً ﴾ وفي ﴿ بعث ﴾ ضمير يعود على الذي حذف اختصاراً وحسن ذلك في الصلة ، ثم أنس النبي صلى الله عليه وسلم عن كفرهم بقوله ﴿ أرأيت من اتخذ إلهه هواه ﴾ الآية ، والمعنى لا تتأسف عليهم ودعهم لرأيهم ولا تحسب أنهم على ما يجب من التحصيل والعقل بل هم كالأنعام في الجهل بالمنافع وقلة التحسس للعواقب ، ثم حكم بأنهم ﴿ أضل سبيلاً ﴾ من حيث لهم الفهم وتركوه ، و ﴿ الأنعام ﴾ لا سبيل لهم إلى فهم المصالح ، ومن حيث جهالة هؤلاء وضلالتهم في أمر أخطر من الأمر الذي فيه جهالة الأنعام ، وقوله ﴿ اتخذ إلهه هواه ﴾ معناه جعل هواه مطاعاً فصار كالإله والهوى قائد إلى كل فساد لأن النفس أمارة بالسوء وإنما الصلاح إذ ائتمرت للعقل ، وقال ابن عباس الهوى الإله يعبد من دون الله ذكره

الثعلبي ، وقيل الإشارة بقوله ﴿ إلهه هواه ﴾ إلى ما كانوا عليه من أنهم كانوا يعبدون حجراً فإذا وجدوا أحسن منه طرحوا الأول وعبدوا الثاني الذي وقع هواهم عليه ، قال أبو حاتم وروي عن رجل من أهل المدينه قال ابن جني هو الأعرج ﴿ إلهه هواه ﴾ والمعنى اتخذ شمساً يستضيء بها هواه إذا الشمس يقال لها إلهة وتصرف ولا تصرف ، و" الوكيل " القائم على الأمر الناهض به . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(151/560)

فائدة

قال الإمام السبكى :

قَوْله تَعَالَى ﴿ أَرَأَيْت مَنْ اتَّخَذَ إلَهَهُ هَوَاهُ ﴾ سَمِعْت شَيْخَنَا أَبَا الْحَسَنِ عَلَاءَ الدِّينِ الْبَاجِيَّ رَحِمَهُ اللَّهُ مِنْ نَحْوِ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَقُولُ : لِمَ لَا قِيلَ اتَّخَذَ هَوَاهُ إلَهَهُ ؟ وَمَا زِلْت مُفَكِّرًا فِي الْجَوَابِ حَتَّى تَلَوْت الْآنَ مَا قَبْلَهَا ، وَهُوَ قَوْلُهُ ﴿ وَإِذَا رَأَوْك ﴾ إلَى قَوْلِهِ ﴿ إنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا ﴾ فَعَلِمْت أَنَّ الْمُرَادَ الْإِلَهُ الْمَعْبُودُ الْبَاطِلُ الَّذِي عَكَفُوا عَلَيْهِ وَصَبَرُوا وَأَشْفَقُوا مِنْ الْخُرُوجِ عَنْهُ فَجَعَلُوهُ هَوَاهُمْ . انْتَهَى . انتهى . ا هـ ﴿ فتاوى السبكى حـ 1 صـ 71 ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وإذا رأوكَ إن يتَّخذونكَ ﴾

أي : ما يتخذونك ﴿ إلا هُزُواً ﴾ أي : مهزوءاً به .

ثم ذكر ما يقولون من الاستهزاء ﴿ أهذا الذي بَعَثَ اللّهُ رسولاً إن كاد ليُضِلُّنَا عن آلهتنا ﴾

أي : ليصرفنا عن عبادة آلهتنا ﴿ لولا أن صَبَرْنَا عليها ﴾ أي : على عبادتها ؛ قال الله تعالى : ﴿ وسوف يعلمون حين يَرَوْن العذابَ ﴾ في الآخرة ﴿ مَنْ أَضَلُّ ﴾ أي : مَنْ أَخطأُ طريقاً عن الهدى ، أهم ، أم المؤمنون .

ثم عجَّب نبيَّه من جهلهم حين عبدوا ما دعاهم إليه الهوى ، فقال : ﴿ أرأيتَ من اتخذ إلهه هواه ﴾ قال ابن عباس : كان أحدهم يعبد الحجر ، فإذا رأى ما هو أحسن منه رمى به وعبد الآخَر .

وقال قتادة : هو الكافر لا يهوى شيئاً إلا ركبه .

وقال ابن قتيبة : المعنى : يتَّبع هواه ويدع الحقَّ ، فهو له كالإله .

قوله تعالى : ﴿ أفأنتَ تكونُ عليه وكيلاً ﴾ أي : حفيظا يحفظه من اتِّباع هواه .

وزعم الكلبي أن هذه الآية منسوخة بآية القتال .

قوله تعالى : ﴿ أم تَحْسَبُ أنَّ أكثرهم يَسمعون ﴾ يعني أهل مكة ؛ والمراد : يسمعون سماع طالب الإفهام ﴿ أو يعقلون ﴾ ما يعاينون من الحُجج والأعلام ﴿ إن هم إلاّ كالأنعام ﴾ وفي وجه تشبيههم بالأنعام قولان .

أحدهما : أن الأنعام تسمع الصوت ولا تفقه القول .

والثاني : أنه ليس لها همٌّ إلا المأكل والمشرب .

قوله تعالى : ﴿ بل هم أَضَلُّ سبيلاً ﴾ لأن البهائم تهتدي لمراعيها وتنقاد لأربابها وتُقبل على المحسِن إليها ، وهم على خلاف ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 6 صـ ﴾

(153/560)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُواً ﴾

جواب ﴿ إذا ﴾ ﴿ إِنْ يَتَّخذُونَكَ ﴾ لأن معناه يتخذونك .

وقيل : الجواب محذوف وهو قالوا أو يقولون : ﴿ أَهَذَا الَّذِي ﴾ وقوله : ﴿ إِنْ يَتَّخذُونك إِلاَّ هُزُواً ﴾ كلام معترض .

ونزلت في أبي جهل كان يقول للنبيّ صلى الله عليه وسلم مستهزئاً : ﴿ أهذا الذي بَعَثَ الله رَسُولاً ﴾ والعائد محذوف ، أي بعثه الله .

﴿ رَسُولاً ﴾ نصب على الحال والتقدير : أهذا الذي بعثه الله مرسلاً .

﴿ أَهذَا ﴾ رفع بالابتداء و ﴿ الَّذِي ﴾ خبره .

﴿ رَسُولاً ﴾ نصب على الحال .

و ﴿ بَعَثَ ﴾ في صلة ﴿ الَّذِي ﴾ واسم الله عز وجل رفع ب ﴿ بَعثَ ﴾ .

ويجوز أن يكون مصدراً ؛ لأن معنى ﴿ بَعَث ﴾ أرسل ويكون معنى ﴿ رَسُولاً ﴾ رسالة على هذا .

والألف للاستفهام على معنى التقرير والاحتقار .

﴿ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا ﴾ أي قالوا قد كاد أن يصرفنا .

﴿ عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلاَ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ﴾ أي حبسنا أنفسنا على عبادتها .

قال الله تعالى : ﴿ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ العذاب مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ يريد من أضل ديناً أهم أم محمد ، وقد رأوه في يوم بدر .

قوله تعالى : ﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتخذ إلهه هَوَاهُ ﴾ عَجَّب نبيه صلى الله عليه وسلم من إضمارهم على الشرك وإصرارهم عليه مع إقرارهم بأنه خالقهم ورازقهم ، ثم يعمد إلى حجر يعبده من غير حجة .

قال الكلبي وغيره : كانت العرب إذا هوِي الرجل منهم شيئاً عبده من دون الله ، فإذا رأى أحسن منه ترك الأوّل وعَبَد الأحسن ؛ فعلى هذا يعني : أرأيت مِن اتخذ إلهه بهواه ؛ فحذف الجار .

وقال ابن عباس : الهوى إله يعبد من دون الله ، ثم تلا هذه الآية .

قال الشاعر :

لعمر أبيها لو تبدّت لناسك . . .

قد اعتزل الدنيا بإحدى المناسِك

لَصلَّى لها قبل الصلاة لربه . . .

ولا ارتد في الدنيا بأعمال فاتك

(154/560)

وقيل : ﴿ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ ﴾ أي أطاع هواه .

وعن الحسن لا يهوى شيئاً إلا اتبعه ، والمعنى واحد .

﴿ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً ﴾ أي حفيظاً وكفيلاً حتى تردّه إلى الإيمان وتخرجه من هذا الفساد .

أي ليست الهداية والضلالة موكولتين إلى مشيئتك ، وإنما عليك التبليغ .

وهذا رد على القدرية .

ثم قيل : إنها منسوخة بآية القتال .

وقيل : لم تنسخ ؛ لأن الآية تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ﴾ ولم يقل أنهم لأن منهم من قد علم أنه يؤمن .

وذمّهم جل وعز بهذا .

﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ ﴾ سماع قبول أو يفكرون فيما تقول فيعقلونه ؛ أي هم بمنزلة من لا يعقل ولا يسمع .

وقيل : المعنى أنهم لمّا لم ينتفعوا بما يسمعون فكأنهم لم يسمعوا ؛ والمراد أهل مكة .

وقيل : ﴿ أَمْ ﴾ بمعنى بل في مثل هذا الموضع .

﴿ إِنْ هُمْ إِلاَّ كالأنعام ﴾ أي في الأكل والشرب لا يفكرون في الآخرة .

﴿ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ إذ لا حساب ولا عقاب على الأنعام .

وقال مقاتل : البهائم تعرف ربها وتهتدي إلى مراعيها وتنقاد لأربابها التي تعقلها ، وهؤلاء لا ينقادون ولا يعرفون ربهم الذي خلقهم ورزقهم .

وقيل : لأن البهائم إن لم تعقل صحة التوحيد والنبوّة لم تعتقد بطلان ذلك أيضاً . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 13 صـ ﴾

(155/560)

وقال أبو حيان :

﴿ وإذا رأوك أن يتخذونك إلاّ هزوا ﴾

لم يقتصر المشركون على إنكار نبوة الرسول عليه الصلاة والسلام وترك الإيمان به ، بل زادوا على ذلك بالاستهزاء والاحتقار .

حتى يقول بعضهم لبعض ﴿ أهذا الذي بعث الله رسولاً ﴾ و ﴿ أن ﴾ نافية جواب ﴿ إذا ﴾ وانفردت ﴿ إذا ﴾ بأنه إذا كان جوابها منفياً بما أو بلا لا تدخله الفاء بخلاف أدوات الشرط غيرها فلا بد من الفاء مع ما ومع لا إذا ارتفع المضارع ، فلو وقعت إن النافية في جواب غير إذا فلا بد من الفاء كما النافية ومعنى ﴿ هزؤاً ﴾ موضع هزء أو مهزواً به ﴿ أهذا ﴾ قبله قول محذوف أي يقولون وقال : جواب ﴿ إذا ﴾ ما أضمر من القول أي ﴿ وإذا رأوك ﴾ قالوا ﴿ أهذا الذي بعث الله رسولاً ﴾ و ﴿ أن يتخذونك ﴾ جملة اعتراضية بين ﴿ إذا ﴾ وجوابها .

قيل : ونزلت في أبي جهل كان إذا رأى الرسول عليه الصلاة والسلام قال : ﴿ أهذا الذي بعث الله رسولاً ﴾ ؟ وأخبر بلفظ الجمع تعظيماً لقبح صنعه أو لكون جماعة معه قالوا ذلك : والظاهر أن قائل ذلك جماعة كثيرة وهذا الاستفهام استصغار واحتقار منهم أخرجوه بقولهم بعث الله رسولاً في معرض التسليم والإقرار وهم على غاية الجحود والإنكار سخرية واستهزاء ، ولو لم يستهزئوا لقالوا هذا زعم أو ادعى أنه مبعوث من عند الله رسولاً .

وقولهم ﴿ إن كاد ليضلنا ﴾ دليل على فرط مجاهدة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في دعوتهم ، وبذله قصارى الوسع والطاقة في استعطافهم مع عرض الآيات والمعجزات حتى شارفوا بزعمهم أن يتركوا دينهم إلى دين الإسلام لولا فرط لجاجهم واستمساكهم بعبادة آلهتهم .

و ﴿ لولا ﴾ في مثل هذا الكلام جار من حيث المعنى لا من حيث اللفظ مجرى التقييد للحكم المطلق قاله الزمخشري .

(156/560)

وقال أبو عبد الله الرازي : الاستهزاء إما بالصورة فكان أحسن منهم خلقة أو بالصفة فلا يمكن لأن الصفة التي تميز بها عنهم ظهور المعجز عليه دونهم ، وما قدروا على القدح في حجته ففي الحقيقة هم الذين يستحقون أن يهزأ بهم ثم لوقاحتهم قلبوا القصة واستهزؤوا بالرسول عليه الصلاة والسلام انتهى .

قيل : وتدل الآية على أنهم صاروا في ظهور حجته عليه الصلاة والسلام عليهم كالمجانين استهزؤوا به أولاً ثم إنهم وصفوه بأنه ﴿ كاد ليضلنا ﴾ عن مذهبنا ﴿ لولا ﴾ أنا قابلناه بالجمود والإصرار فهذا يدل على أنهم سلموا له قوة الحجة وكمال العقل ، فكونهم جمعوا بين الاستهزاء وبين هذه الكيد ودة دل على أنهم كانوا كالمتحيرين في أمره تارة يستهزئون منه وتارة يصفونه بما لا يليق إلاّ بالعالم الكامل .

﴿ وسوف يعلمون ﴾ وعيد ودلالة على أنهم لا يفوتونه وإن طالت مدة الإمهال فلا بد للوعيد أن يلحقهم فلا يغرنهم التأخير ، ولما قالوا ﴿ إن كاد ليضلنا ﴾ جاء قوله ﴿ من أضل سبيلاً ﴾ أي سيظهر لهم من المضل ومن الضال بمشاهدة العذاب الذي لا مخلص لهم منه .

والظاهر أن من استفهامية وأضل خبره والجملة في موضع مفعول ﴿ يعلمون ﴾ إن كانت متعدية إلى واحد أو في موضع مفعولين إن كانت تعدت إلى اثنين ، ويجوز أن تكون ﴿ من ﴾ موصولة مفعولة بيعلمون و ﴿ أضل ﴾ خبر مبتدأ محذوف أي هو أضل ، وصار

حذف هذا المضمر للاستطالة التي حصلت في قول العرب ما أنا بالذي قائل لك سواء .

﴿ أرأيت من اتخذ إلهه هواه ﴾ هذا يأس عن إيمانهم وإشارة إليه عليه السلام أن لا يتأسف عليهم ، وإعلام أنهم في الجهل بالمنافع وقلة النظر في العواقب مثل البهائم ثم ذكر أنهم ﴿ أضل سبيلاً ﴾ من الأنعام من حيث لهم فهم وتركوا استعماله فيما يخلصهم من عذاب الله .

والأنعام لا سبيل لها إلى فهم المصالح .

(157/560)

و ﴿ أرأيت ﴾ استفهام تعجب من جهل من هذه الحالة و ﴿ إلهه ﴾ المفعول الأول لاتخذ ، و ﴿ هواه ﴾ الثاني أي أقام مقام الإله الذي يعبده هواه فهو جار على ما يكون في ﴿ هواه ﴾ والمعنى أنه لم يتخذ إلهاً إلا هواه وادعاء القلب ليس بجيد إذ يقدره من اتخذ هواه إلهه والبيت من ضرائر الشعر ونادر الكلام فينزه كلام الله عنه كان الرجل يعبد الصنم فإذا رأى أحسن منه رماه وأخذ الأحسن .

قيل : نزلت في الحارث بن قيس السهمي ، كان إذا هوى شيئاً عبده ، والهوى ميل القلب إلى الشيء أفأنت تجبره على ترك هواه ، أو أفأنت تحفظه من عظيم جهله .

وقرأ بعض أهل المدينة من اتخذ آلهةً منونة على الجمع ، وفيه تقديم جعل هواه أنواعاً أسماء لأجناس مختلفة فجعل كل جنس من هواه إلهاً آخر .

وقرأ ابن هرمز : إلاهة على وزن فعالة وفيه أيضاً تقديم أي هواه إلاهة بمعنى معبود لأنها بمعنى المألوهة .

فالهاء فيها للمبالغة فلذلك صرفت .

وقيل : بل الإلاهة الشمس ويقال لها أُلاهة بضم الهمزة وهي غير مصروفة للعلمية والتأنيث لكنها لما كانت مما يدخلها لام المعرفة في بعض اللغات صارت بمنزلة ما كان فيه اللام ثم نزعت فلذلك صرفت وصارت بمنزلة النعوت فتنكرت قاله صاحب اللوامح .

ومفعول ﴿ أرأيت ﴾ الأول هو ﴿ من ﴾ والجملة الاستفهامية في موضع المفعول الثاني .

وتقدم الكلام في ﴿ أرأيت ﴾ في أوائل الأنعام ومعنى ﴿ وكيلاً ﴾ أي هل تستطيع أن تدعو إلى الهدى فتتوكل عليه وتجبره على الإسلام .

(158/560)

و ﴿ أم ﴾ منقطعة تتقدّر ببل والهمزة على المذهب الصحيح كأنه قال : بل أتحسب كان هذه المذمّة أشد من التي تقدمتها حتى حفت بالإضراب عنها إليها وهو كونها مسلوبي

الأسماع والعقول لأنهم لا يلقون إلى استماع الحق أذناً إلى تدبره عقلاً ، ومشبهين بالأنعام التي هي مثل في الغفلة والضلالة ، ونفى ذلك عن أكثرهم لأن فيهم من سبقت له السعادة فأسلم ، وجعلوا أضل من الأنعام لأنها تنقاد لأربابها وتعرف من يحسن إليها ممن يسيء إليها وتطلب منفعتها وتتجنب مضرّتها وتهتدي إلى مراعيها ومشاربها ، وهم لا ينقادون لربهم ولا يعرفون إحسانه إليهم ولا يرغبون في الثواب الذي هو أعظم المنافع ولا يتقون العقاب الذي هو أشد المضار ولا يهتدون للحق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(159/560)

وقال أبو السعود :

﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُواً ﴾

أي ما يتَّخذونك إلا مهزُوءاً به على معنى قصرِ معاملتِهم معه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ على اتّخاذِهم إيَّاهُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ هُزؤاً لا على معنى قصرِ اتّخاذِهم على كونِه هُزؤاً كما هو المتبادرُ من ظاهر العبارةِ كأنَّه قيل : ما يفعلون بك إلا اتّخاذَك هزواً وقد مرَّ تحقيقُه في قولِه تعالى : ﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يوحى إِلَيَّ ﴾ من سورة الأنعام وقوله تعالى : ﴿ أهذا الذى بَعَثَ الله رَسُولاً ﴾ محكيٌّ بعد قول مضمر هو حالٌ من فاعلِ يتَّخذونك أي يستهزئون بك

قائلينَ أهذا الذي الخ والإشارةُ للاستحقارِ وإبراز بعث الله رسولاً في معرض التَّسليمِ بجعله صلةً للموصول الذي هو صفتُه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مع كونِهم في غاية التّكيرِ لبعثه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بطريقِ التَّهكُّمِ والاستهزاءِ وإلاَّ لقالُوا أبعثَ الله هذا رسولاً أو أهذا يزعمُ أنَّه بعثه الله رسولاً .

(160/560)

﴿ إِن كَادَ ﴾ إنْ مخففةٌ مِن إنَّ . وضميرُ الشَّأنِ محذوفٌ أيْ إنَّه كادَ . ﴿ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءالِهَتِنَا ﴾ أي ليصرفنا عن عبادتِها صرفاً كلّيّاً بحيث يُبعدنا عنها لا عن عبادتِها فقط ، والعدولُ إلى الإضلال لغاية ضلالِهم بادّعاء أنَّ عبادتَها طريقٌ سويٌّ . ﴿ لَوْلاَ أَن صَبْرَنَا عَلَيْهَا ﴾ ثبّتْنا عليها واستمسكنَا بعبادتِها . ولولا في أمثال هذا الكلامِ تجري مجرى التَّقييدِ للحكم المطلقِ من حيثُ المعنى كما أشار إليه في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ﴾ الخ وهذا اعترافٌ منهم بأنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ قد بلغ من الاجتهادِ في الدَّعوةِ إلى الحقّ وإظهارِ المعجزاتِ وإقامةِ الحججِ والبيّناتِ إلى حيثُ شارفُوا أنْ يتركُوا دينَهم لولا فرطُ لجَاجِهم وغايةُ عنادِهم . يُروى أنَّه من قولِ أبي جهلٍ ﴿ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ جوابٌ من جهته تعالى لآخرِ كلامِهم وردٌّ لما ينبىءُ عنه من نسبته عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ إلى الضَّلالِ في

ضمن الإضلال أي سوف يعلمونَ ألبتةَ وإنْ تراخى ﴿ حِينَ يَرَوْنَ العذاب ﴾ الذي يستوجبُه كفرُهم وعنادُهم ﴿ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ وفيه ما لا يخفى من الوعيدِ والتَّنبيهِ على أنَّه تعالى لا يُهملهم وإنْ أمهلهم .

(161/560)

﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ اتخذ إلهه هَوَاهُ ﴾ تعجيبٌ لرسول الله صلى الله عليه وسلم من شناعةِ حالِهم بعد حكاية قبائحِهم من الأقوالِ والأفعالِ وبيانِ ما لهم من المصيرِ والمآلِ وتنبيهٌ على أنَّ ذلك من الغرابةِ بحيث يجبُ أنْ يرى ويتعجَّبَ منه . وإلهَ مفعول ثانٍ لاتَّخذ قُدِّم على الأوَّلِ للاعتناء به لأنَّه الذي يدورُ عليه أمرُ التَّعجيب . ومَن توهَّم أنهما على التَّرتيبِ بناء على تساويهما في التَّعريفِ فقد زلَّ منه أنَّ المفعولَ الثَّاني في هذا الباب هو المتلبّسُ بالحالة الحادِثة أي أرأيتَ مَن جعلَ هواهُ إلهاً لنفسهِ من غير أنْ يلاحظه وبنى عليه أمرَ دينه مُعرِضاً عن استماع الحجَّةِ الباهرة والبُرهان النيِّرِ بالكلِّيةِ على معنى انظُر إليه وتعجَّب منه . وقولُه تعالى : ﴿ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً ﴾ إنكارٌ واستبعادٌ لكونه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ حفيظاً عليه يزجرُه عمَّا هو عليه من الضَّلالِ ويُرشده إلى الحقِّ طوعاً أو كَرهاً . والفاءُ

لترتيب الإنكارِ على ما قبله من الحالةِ المُوجبةِ له كأنَّه قيل أبعد ما شاهدت غلوَّه في طاعة الهوى وعتوَّه عن اتباع الهُدى تقسره على الإيمان شاء أو أَبى .

(162/560)

وقوله تعالى : ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ﴾ إضرابٌ وانتقال عن الإنكار المذكُور إلى إنكارِ حُسبانِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لهم ممَّن يسمعُ أو يعقل حسبما ينبىءُ عنه جِدُّه عليه الصَّلاةُ والسلام في الدَّعوةِ واهتمامُه بالإرشاد والتَّذكيرِ لكن لا على أنَّه لا يقعُ كالأوَّلِ بل على أنَّه لا ينبغي أنْ يقعَ أي بل أتحسب أنَّ أكثرهم يسمعون ما تتلُو عليهم من الآيات حقَّ السَّماعِ أو يعقلون ما في تضاعيفها من المواعظ الزَّاجرةِ عن القبائح الدَّاعيةِ إلى المحاسن فتعتنِي بشأنِهم وتطمعُ في إيمانهم . وضميرُ أكثرَهم لمَن ، وجمعُه باعتبارِ معناهَا كما أنَّ الإفرادَ في الضَّمائرِ الأُولَ باعتبار لفظِها ، وضميرُ الفعلينِ لأكثرَ لاَ لِمَا أُضيف هُو إليهِ . وقولُه تعالى :

(163/560)

﴿ إِنْ هُمْ إِلاَّ كالأنعام ﴾ الخ جملةٌ مستأنفة مسوقة لتقرير النّكيرِ وتأكيدِه وحسم مادة الحُسبانِ بالمرّةِ أي ما هم في عدم الانتفاعِ بما يقرعُ آذانَهم من قوارع الآياتِ وانتفاء التّدبرِ فيما يشاهدونَهُ من الدّلائلِ والمُعجزاتِ إلا كالبهائمِ التي هي مثلٌ في الغفلةِ وعَلَمٌ في الضَّلالةِ ﴿ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾ منها ﴿ سَبِيلاً ﴾ لما أنها تنقادُ لصاحبها الذي يعلِفها ويتعهدُّها وتعرف مَن يُحسِن إليها ممَّن يُسيء إليها وتطلبُ ما ينفعها وتجتنبُ ما يضرُّها وتهتدي لمراعيها ومشاربها وتأوِي إلى معاطِنها ، وهؤلاءِ لا ينقادونَ لربّهم وخالقِهم ورازقِهم ولا يعرفون إحسانَهُ إليهم من إساءةِ الشَّيطانِ الذي هو أعدى عدوّهم ولا يطلبون الثَّوابَ الذي هو أعظمُ المنافع ولا يتَّقون العقابَ الذي هو أشدُّ المضارّ والمهالك ولا يهتدون للحقّ الذي هو المشرب الهنيُّ والمورد العذبُ الرَّويُّ لأنَّها إنْ لم تعتقِد حقّاً مستتبِعاً لاكتساب الخيرِ لم تعتقد باطلاً مستوجباً لاقترافِ الشَّرّ بخلاف هؤلاء حيث مهّدوا قواعدَ الباطلِ وفرّعُوا عليها أحكامُ الشُّرورِ ، ولأنَّ أحكامَ جهالتِها وضلالتها مقصورةٌ على أنفسها لا تتعدّى إلى أحدٍ وجهالةُ هؤلاء مؤدّيةٌ إلى ثوران الفتنةِ والفسادِ وصدّ النَّاسِ عن سَنَنِ السَّدادِ وهيجان الهَرْجِ والمَرْجِ فيما بين العباد ولأنَّها غيرُ معطلةٍ لقوّةٍ من القُوى المُودَعة بل صارفة لها إلى ما خُلقت هي له فلا تقصيرَ من قبلها في طلبِ الكمالِ ، وأمَّا هؤلاءِ فهم مُعطّلون لقواهم العقلية مضيّعون للفطرةِ الأصليةِ التي فُطر النَّاسُ عليها مستحقُّون بذلك أعظم العقابِ وأشدَّ النّكالِ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 6 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ ﴾

أي ما يتخذونك ﴿ إِلاَّ هُزُواً ﴾ على معنى ما يفعلون به إلا اتخاذك هزواً أي موضع هزو أو مهزواً به فهزوا إما مصدر بمعنى المفعول مبالغة أو هو بتقدير مضاف وجملة ﴿ إِن يَتَّخِذُونَكَ ﴾ جواب إذا ، وهي كما قال أبو حيان .

وغيره تنفرد بوقوع جوابها المنفي بأن ولا وما بدون فاء بخلاف غيرها من أدوات الشرط .

وقوله تعالى : ﴿ أهذا الذى بَعَثَ الله رَسُولاً ﴾ مقول قول مضمر أي يقول أهذا الخ .

والجملة في موضع الحال من فاعل يتخذونك أو مستأنفة في جواب ماذا يقولون ؟

وجوز أن تكون الجواب .

وجملة ﴿ إِن يَتَّخِذُونَكَ ﴾ معترضة ، وقائل ذلك أبو جهل ومن معه ، وروى أن الآية نزلت فيه ، والإشارة للاستحقار كما في يا عجباً لابن عمر وهذا ، وعائد الموصول محذوف أي بعثه و ﴿ رَسُولاً ﴾ حال منه وهو بمعنى مرسل .

وجوز أبو البقاء أن يكون مصدراً حذف منه المضاف أي ذا رسول أي رسالة وهو تكلف

مستغنى عنه ، وإخراج بعث الله تعالى إياه صلى الله عليه وسلم رسولاً بجعله صلة وهم على غاية الانكار تهكم واستهزاء وإلا لقالوا : أبعث الله هذا رسولاً .

وقيل : إن ذلك بتقدير أهذا الذي بعث الله رسولاً في زعمه ، وما تقدم أوفق بحال أولئك الكفرة مع سلامته من التقدير .

﴿ إِن كَادَ ﴾ إن مخففة من إن واسمها عند بعض ضمير الشأن محذوف أي إنه كاد ﴿ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا ﴾ أي ليصرفنا عن عبادتها صرفاً كلياً بحيث يبعدنا عنها لا عن عبادتها فقط ، والعدول إلى الإضلال لغاية ضلالهم بادعاء أن عبادتها طريق سوي .

(165/560)

﴿ لَوْلاَ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ﴾ ثبتنا عليها واستمكنا بعبادتها ، و﴿ لَوْلاَ ﴾ في أمثال هذا الكلام يجري مجرى التقييد للحكم المطلق من حيث المعنى دون اللفظ ، وهذا اعتراف منهم بأنه صلى الله عليه وسلم قد بلغ من الاجتهاد في الدعوة إلى التوحيد وإظهار المعجزات وإقامة الحجج والبيانات ما شارفوا به أن يتركوا دينهم لولا فرط لجاجهم وغاية عنادهم ، ولا ينافي هذا استحقارهم واستهزائهم السابق لأن هذا من وجه وذاك من وجه آخر زعموه سبباً لذلك قاتلهم الله تعالى .

وقيل : إن كلامهم قد تناقض لاضرابهم وتحيرهم فإن الاستفهام السابق دال على الاستحقار وهذا دال على قوة حجته وكمال عقله صلى الله عليه وسلم ففيما حكاه سبحانه عنهم تحميق لهم وتجهيل لاستهزائهم بما استعظموه .

وقيل عليه : إنه ليس بصريح في اعترافهم بما ذكر بل الظاهر أنه أخرج في معرض التسليم تهكماً كما في قولهم ﴿ بعث الله رسولاً ﴾ [الفرقان : 41] وفيه منع ظاهر والتناقض مندفع كما لا يخفى .

﴿ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ العذاب ﴾ الذي يستوجبه كفرهم وعنادهم ﴿ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ أي يعلمون جواب هذا على أن ﴿ مِنْ ﴾ استفهامية تبتدأ و ﴿ أَضَلَّ ﴾ خبرها والجملة في موضع مفعولي ﴿ يَعْلَمُونَ ﴾ إن كانت تعدت إلى مفعولين أو في موضع مفعول واحد إن كانت متعدية إلى واحد أو يعلمون الذي هو أضل على أن من موصولة مفعول ﴿ يَعْلَمُونَ ﴾ وأضل خبر مبتدأ محذوف والجملة صلة الموصول .

(166/560)

وحذف صدر الصلة وهو العائد لطولها بالتمييز ، وكان أولئك الكفرة لما جعلوا دعوته صلى الله عليه وسلم إلى التوحيد إضلالاً حيث قالوا ﴿ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا ﴾ الخ

والمضل لغيره لا بد أن يكون ضالاً في نفسه جيء بهذه الجملة رداً عليهم ببيان أنه عليه الصلاة والسلام هاد لا مضل على أبلغ وجه فإنها تدل على نفي الضلال عنه صلى الله عليه وسلم لأن المراد أنهم يعلمون أنهم في غاية الضلال لا هو ونفي اللازم يقتضي في ملزومه فيلزمه أن يكون عليه الصلاة والسلام هادياً لا مضلاً ، وفي تقييد العلم بوقت رؤية العذاب وعيد لهم وتنبيه على أنه تعالى لا يهملهم وإن أمهلهم .

﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ اتخذ إلهه هَوَاهُ ﴾ تعجيب لرسول الله صلى الله عليه وسلم من شناعة حالهم بعد حكاية قبائحهم من الأقوال والأفعال والتنبيه على ما لهم من المصير والمال وتنبيه على أن ذلك من الغرابة بحيث يجب أن يرى ويتعجب منه ، والظاهر أن رأى بصرية و ﴿ مِنْ ﴾ مفعولها وهي اسم موصول والجملة بعدها صلة ، و ﴿ اتخذ ﴾ متعدية لمفعولين أولهما ﴿ هَوَاهُ ﴾ وثانيهما ﴿ إلهه ﴾ وقدم على الأول للاعتناء به من حيث أنه الذي يدور عليه أمر التعجيب لا من حيث أن الإله يستحق التعظيم والتقديم كما قيل أي أرأيت الذي جعل هواه إلهاً لنفسه بأن أطاعه وبنى عليه أمر دينه معرضاً عن استماع الحجة الباهرة وملاحظة البرهان النير بالكلية على معنى انظر إليه وتعجب منه ، وقال ابن المنير في تقديم المفعول الثاني هنا نكتة حسنة وهي إفادة الحصر فإن الكلام قبل دخول ﴿ أَرَأَيْتَ واتخذ ﴾ الأصل فيه هواه إلهه على أن هواه مبتدأ خبره إلهه فإذا قيل إلهه هواه كان

من تقديم الخبر على المبتدأ وهو يفيد الحصر فيكون معنى الآية حينئذ أرأيت من لم يتخذ معبوده إلا هواه وذلك أبلغ في ذمه وتوبيخه .

(167/560)

وقال "صاحب الفرائد" : تقدمي المفعول الثاني يمكن حيث يمكن تقديم الخبر على المبتدأ والمعرفتان إذا وقعتا مبتدأ وخبراً فالمقدم هو المبتدأ فمن جعل ما هنا نظير قولك : علمت منطلقاً زيداً فقد غفل عن هذا ، ويمكن أن يقال : المتقدم ههنا يشعر بالثبات بخلاف المتأخر فتقدم ﴿ إلهه ﴾ يشعر بأنه لا بد من إله فهو كقولك اتخذ ابنه غلامه فإنه يشعر بأن له ابناً ولا يشعر بأن له غلاماً فهذا فائدة تقديم إلهه على هواه .

وتعقب ذلك الطيبي فقال : لا يشك في أن مرتبة المبتدأ التقديم وأن المعرفتين أيهما قدم كان المبتدأ لكن صاحب المعاني لا يقطع نظره عن أصل المعنى فإذا قيل : زيد الأسد فالأسد هو المشبه به أصالة ومرتبته التأخير عن المشبه بلا نزاع فإذا جعلته مبتدأ في قولك : الأسد زيد فقد أزلته مقره الأصلي للمبالغة ، وما نعني بالمقدم إلا المزال عن مكانه لا القاء فيه فالمشبه به ههنا الإله والمشبه الهوى لأنهم نزلوا أهواءهم في المتابعة منزلة الإلهفقدم المشبه به الأصلي وأوقع مشبهاً ليؤذن بأن الهوى في باب استحقاق العبادة عندهم أقوى من الإله

عز وجل كقوله تعالى : ﴿ قَالُوا إِنَّمَا البيع مِثْلُ الربا ﴾ [البقرة : 275] ولمح "صاحب المفتاح" إلى هذا المعنى في كتابه .

وأما المثال الذي أورده "صاحب الفرائد" فمعنى قوله : اتخذ ابنه غلامه جعل ابنه كالغلام يخدمه في مهنة أهله وقوله : اتخذ غلامه ابنه جعل غلامه كابنه مكرماً مدللاًه ، وأنت تعلم ما في قوله : إن المعرفتين أيهما قدم كان المبتدأ فإن الحق أن الأمر دائر مع القرينة والقرينة هنا قائمة على أن ﴿ إلهه ﴾ الخبر وهي عقلية لأن المعنى على ذلك فلا حاجة إلى جعل ذلك من التقديم المعنوي ، وقال شيخ الإسلام : من توهم أنهما على الترتيب بناء على تساويهما في التعريف فقد زل عنه أن المفعول الثاني في هذا الباب هو الملتبس بالحالة الحادثة ؛ وفي ذلك رد على أبي حيان حيث أوجب كونهما على الترتيب .

(168/560)

ونقل عن بعض المدنيين أنه قرأ ﴿ ءالِهَةً ﴾ منونة على الجمع وجعل ذلك على التقديم والتأخير ، والمعنى جعل كل جنس من هواه إلهاً ، وذكر أيضاً أن ابن هرمز قرأ ﴿ ءالِهَةً ﴾ على وزن فعالة وهو أيضاً من التقديم والتأخير أي جعل هواه الهة بمعنى مألوهة أي معبودة والهاء للمبالغة فلذلك صرفت ، وقيل : بل الإلاهة الشمس ويقال ألاهة بضم الهمزة وهي

غير مصروفة للعلمية والتأنيث لكنها لما كانت مما يدخلها لام التعريف في بعض اللغات صارت بمنزلة ما كان فيه اللام ثم نزعت فلذلك صرفت وصارت كالمنكر بعد التعريف قاله "صاحب اللوامح" وهو كما ترى.

والآية نزلت على ما قيل في الحرب بن قيس السهمي كان كلما هوى حجراً عبده، وأخرج ابن أبي حاتم.

وابن مردويه عن ابن عباس أنه قال: كان الرجل يعبد الحجر الأبيض زماناً من الدهر في الجاهلية فإذا وجد أحسن منه رمى به وعبد الآخر فأنزل الله تعالى ﴿ أَرَأَيْتَ ﴾ لخ.

وزعم بعضهم لهذا ونحوه أن هواه بمعنى مهويه وليس بلازم كما لا يخفى.

وأخرج ابن المنذر.

وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال في الآية كلما هوى شيئاً ركبه وكلما اشتهى شيئاً أتاه لا يحجزه عن ذلك ورع ولا تقوى فالآية شاملة لمن عبد غير الله تعالى حسب هواه ولمن أطاع الهوى في سائر المعاصي وهو الذي يقتضيه كلام الحسن، فقد أخرج عنه عبد بن حميد أنه قيل له: أفي أهل القبلة شرك؟ فقال: نعم المنافق مشرك إن المشرك يسجد للشمس والقمر من دون الله تعالى وإن المنافق عبد هواه ثم تلا هذه الآية، والمنافق عند الحسن مرتكب المعاصي كما ذكره غير واحد من الأجلة.

وقد أخرج الطبراني.

وأبو نعيم في "الحلية" عن أبي أمامة رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما تحت ظل السماء من إله يعبد من دون الله تعالى أعظم عند الله عز وجل من هوى يتبع " ولا يكاد يسلم على هذا من عموم الآية إلا من اتبع ما اختاره الله تعالى لعباده وشرعه سبحانه لهم في كل ما يأتي ويذر ، وعليه يدخل الكافر فيما ذكر دخولاً أولياً ﴿ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً ﴾ استئناف مسوق لاستبعاد كونه صلى الله عليه وسلم حفيظاً على هذا المتخذ يزجره عما هو عليه من الضلال ويرشده إلى الحق طوعاً أو كرهاً وإنكار له ، والفاء لترتيب الإنكار على ما قبله من الحالة الموجبة له كأنه قيل : أبعد ما شاهدت غلوه في طاعة الهوى تعسره على الانقياد إلى الهدى شاء أو أبى ، وجوز أن تكون وأي علمية وهذه الجملة في موضع المفعول الثاني وليس بذاك .

﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ﴾

إضراب وانتقال عن الإنكار المذكور إلى إمكار حسبانه صلى الله عليه وسلم إياهم ممن يسمع أو يعقل حسبما ينبىء عنه جده عليه الصلاة والسلام في الدعوة واهتمامه بالإرشاد والتذكير على معنى أنه لا ينبغي أن يقع أي بل أتحسب أن أكثرهم يسمعون حق السماع ما

تتلو عليهم من الآيات القرآنية أو يعقلون ما أظهر لهم من الآيات الآفاقية والأنفسية فتعتني في شأنهم وتطمع في إيمانهم ، ولما كان الدليل السمعي أهم نظراً للمقام من الدليل العقلي قيل : يسمعون أو يعقلون ما في تضاعيفها من المواعظ الزاجرة عن اقبائح الداعية إلى المحاسن فتجتهد في دعوتهم وتهتم بإرشادهم وتذكيرهم ولعل ما قلناه أولى فتدبر .

(170/560)

وأياً ما كان فضمير ﴿ أَكْثَرُهُمْ ﴾ لمن باعتبار معناه وضمير ﴿ عَلَيْهِ ﴾ [الفرقان : 43] له أيضاً باعتبار لفظه واختير الجمع هنا لمناسبة إضافة الأكثر لهم وأفرد فيما قبله لجعلهم في اتفاقهم على الهوى كشيء واحد ، وقيل : ضمير ﴿ أَكْثَرُهُمْ ﴾ للكفار لا لمن لأن قوله : ﴿ تَعَالَى ﴾ عليه يأباه وليس بشيء ، وضميرا الفعلين للأكثر لا لما أضيف إليه ، وتخصيص الأكثر لأن منهم من سبقت له العناية الأزلية بالإيمان بعد الاتخاذ المذكور ، ومنهم من سمع أو عقل لكنه كابر استكباراً وخوفاً على الرياسة ، وقوله تعالى : ﴿ إِنْ هُمْ إِلاَّ كالأنعام ﴾ الخ جملة مستأنفة لتكرير النكير وتأكيده وحسم مادة الحسبان بالمرة والضمير للأكثر أو لمن ، واكتفى عن ذكر الأكثر بما قبله أي ما هم في عدم الانتفاع بما يقرع آذانهم من قوارع الآيات وانتفاء التدبر بما يشاهدونه من الدلائل البينات إلا كالبهائم التي هي مثل في

الغفلة وعلم في الضلالة ﴿ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾ منها ﴿ سَبِيلاً ﴾ لما أنها تنقاد لصاحبها الذي يتعهدها وتعرف من يحسن إليها ومن يسيء إليها وتطلب ما ينفعها وتجتنب ما يضرها وتهتدي لمراعيها ومشاربها وتأوي إلى معاطنها ومرابضها ، وهؤلاء لا ينقادون لربهم سبحانه وخالقهم ورازقهم ولا يعرفون إحسانه تعالى إليهم من إساءة الشيطان المزين لهم اتباع الشهوات الذي هو عدو مبين ولا يطلبون الثواب الذي هو أعظم المنافع ولا يتقون العقاب الذي هو أشد المضار والمهالك ولا يهتدون للحق الذي هو المشرع الهني والمورد العذب الروي ، ولأنها إن لم تعتقد حقاً مستتبعاً لاكتساب الخير لم تعتقد باطلاً مستوجباً لاقتراف الشر بخلاف هؤلاء حيث مهدوا قواعد الباطل وفرعوا عليها أحكام الشرور ولأن أحكام جهالتها وضلالتها مقصورة على أنفسها لا تتعدى إلى أحد وجهالة هؤلاء مؤدية إلى ثوران الفتنة والفساد وصد الناس عن سنن السداد وهيجان الهرج والمرج فيما بين العباد ولأنها غير

(171/560)

معطلة لقوة من القوى المودعة فيها بل صارفة لها إلى ما خلقت له فلا تقصير من قبلها في طلب الكمال وأما هؤلاء فهم معطلون لقواهم العقلية مضيعون للفطرة الأصلية التي فطر

الناس عليها .

واستدل بالآية على أن البهائم لا تعلم ربها عز وجل ، ومن ذهب إلى أنها تعلمه سبحانه وتسبحه كما هو مذهب الصوفية .

وجماعة من الناس قال : إن هذا خارج مخرج الظاهر ، وقيل : المراد إن هم إلا كالأنعام في عدم الانتفاع بالآيات القرآنية والدلائل الأنفسية والآفاقية فإن الأنعام كذلك والعلم بالله تعالى الحاصل لها ليس استدلالياً بل هو فطري ، وكونهم أضل سبيلاً من الأنعام من حيث أنها رزقت علماً بربها تعالى فهي تسبحه عز وجل به وهؤلاء لم يرزقوا ذلك فهم في غاية الضلالة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 19 صـ ﴾

(172/560)

فائدة

قال ابن عجيبة :

الإشارة : تعظيم الرسول صلى الله عليه وسلم وإجلاله وتوقيره من أعظم ما يُقرب إلى الله ، ويوصل إلى رضوان الله ، ويدخل العبد على مولاه ؛ لأنه باب الله الأعظم ، والواسطة الكبرى بين الله وبين عباده فمن عظَّمه صلى الله عليه وسلم وبجّله وخدمه أتم الخدمة ،

أدخله الحضرة ، على التوقير والتعظيم والهيبة والإجلال . ومن حاد عن متابعتة فقد أتى البيت من غير بابه ؛ كمن دخل حضرة الملك بالتسور ، فيستحق القتل والطرد والبُعد . وإدخاله على الله : دلالته على من يعرفه بالله ، وقد يوصله بلا واسطة ، لكنه نادر . ومن أهمل هذا الجانب واستصغره طرده الله وأبعده ، وانسحب عليه قوله : ﴿ وإذا رأوكَ إن يتخذونك إلا هزوا ﴾ وكا ممن اتخذ إلهه هواه ، وكان كالبهائم ، أو أضل ؛ لأن من اتبع الواسطة كان هواه تابعاً لما جاء من عند الله ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : « لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يكُون هَواه تَبعاً لما جئتُ به » وبالله التوفيق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المديد حـ 4 صـ 104 ﴾

(173/560)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا (35) ﴾

اللام في قوله : ﴿ وَلَقَدْ ءاتَيْنَا موسى الكتاب ﴾ جواب قسم محذوف ، أي : والله لقد آتينا موسى التوراة ، ذكر سبحانه طرفاً من قصص الأولين تسلية له صلى الله عليه وسلم بأن تكذيب قوم أنبياء الله لهم عادة للمشركين بالله ، وليس ذلك بخاص بمحمد صلى الله

عليه وسلم ، و ﴿ هارون ﴾ عطف بيان ويجوز : أن ينصب على القطع ، و ﴿ وَزِيراً ﴾ المفعول الثاني .

وقيل : حال ، والمفعول الثاني معه ، والأوّل أولى .

قال الزجاج : الوزير في اللغة الذي يرجع إليه ، ويعمل برأيه ، والوزر ما يعتصم به ، ومنه : ﴿ كَلاَّ لاَ وَزَرَ ﴾ [القيامة : 11] .

وقد تقدّم تفسير الوزير في طه ، والوزارة لا تنافي النبوة ، فقد كان يبعث في الزمن الواحد أنبياء ، ويؤمرون بأن يوازر بعضهم بعضاً .

وقد كان هارون في أوّل الأمر وزيراً لموسى ، ولاشتراكهما في النبوّة قيل لهما : ﴿ اذهبا إِلَى القوم الذين كَذَّبُواْ بئاياتنا ﴾ ، وهم فرعون وقومه ، والآيات هي التسع التي تقدم ذكرها ، وإن لم يكونوا قد كذبوا بها عند أمر الله لموسى وهارون بالذهاب بل كان التكذيب بعد ذلك ، لكن هذا الماضي بمعنى المستقبل على عادة إخبار الله أي : اذهبا إلى القوم الذين يكذبون بآياتنا .

وقيل : إنما وصفوا بالتكذيب عند الحكاية لرسول الله صلى الله عليه وسلم بياناً لعلة استحقاقهم للعذاب .

وقيل : يجوز أن يراد إلى القوم الذين آل حالهم إلى أن كذبوا .

وقيل : إن المراد بوصفهم بالتكذيب عند الإرسال : أنهم كانوا مكذبين للآيات الإلهية ،

وليس المراد آيات الرسالة .

قال القشيري : وقوله تعالى في موضع آخر : ﴿ اذهب إلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طغى ﴾ [طه : 24] لا ينافي هذا لأنهما إذا كانا مأمورين ، فكل واحد مأمور .

(174/560)

ويمكن أن يقال : إن تخصيص موسى بالخطاب في بعض المواطن لكونه الأصل في الرسالة ، والجمع بينهما في الخطاب لكونهما مرسلين جميعاً ﴿ فدمرناهم تَدْمِيراً ﴾ في الكلام حذف أي : فذهبا إليهم ، فكذبوهما ، فدمرناهم أي : أهلكناهم إثر ذلك التكذيب إهلاكاً عظيماً .

وقيل : إن المراد بالتدمير هنا الحكم به ، لأنه لم يحصل عقب بعث موسى وهارون إليهم ، بل بعده بمدّة .

﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُواْ الرسل أغرقناهم ﴾ في نصب ﴿ قوم ﴾ أقوال : العطف على الهاء ، والميم في دمرناهم ، أو النصب بفعل محذوف أي : اذكر ، أو بفعل مضمر يفسره ما بعده ، وهو أغرقناهم أي : أغرقنا قوم نوح أغرقناهم .

وقال الفراء : هو منصوب بأغرقناهم المذكور بعده من دون تقدير مضمر يفسره ما بعده .

وردّه النحاس : بأن أغرقنا لا يتعدّى إلى مفعولين حتى يعمل في الضمير المتصل به ، وفي قوم نوح ، ومعنى ﴿ لَّمَّا كَذَّبُواْ الرسل ﴾ : أنهم كذبوا نوحاً ، وكذبوا من قبله من رسل الله .

وقال الزجاج : من كذّب نبياً فقد كذّب جميع الأنبياء ، وكان إغراقهم بالطوفان كما تقدّم في هود ﴿ وجعلناهم لِلنَّاسِ ءَايَةً ﴾ أي : جعلنا إغراقهم ، أو قصتهم للناس آية أي : عبرة لكل الناس على العموم يتعظ بها كل مشاهد لها ، وسامع لخبرها ﴿ وَأَعْتَدْنَا للظالمين ﴾ المراد بالظالمين : قوم نوح على الخصوص .

ويجوز أن يكون المراد كل من سلك مسلكهم في التكذيب والعذاب الأليم : هو عذاب الآخرة ، وانتصاب ﴿ عَاداً ﴾ بالعطف على قوم نوح ، وقيل : على محل الظالمين ، وقيل : على مفعول جعلناهم ﴿ وَثَمُود ﴾ معطوف على عاداً ، وقصة عاد وثمود قد ذكرت فيما سبق ﴿ وأصحاب الرس ﴾ الرسّ في كلام العرب : البئر التي تكون غير مطوية ، والجمع رساس كذا قال أبو عبيدة ، ومنه قول الشاعر :

وهم سائرون إلى أرضهم . . . تنابلة يحفرون الرّساسا

قال السدّي : هي بئر بأنطاكية قتلوا فيها حبيباً النجار ، فنسبوا إليها ، وهو صاحب يس الذي قال : ﴿ يَاقَوْمِ اتبعوا المرسلين ﴾ [ياس : 20] وكذا قال مقاتل ، وعكرمة ، وغيرهما .

وقيل : هم قوم بأذربيجان قتلوا أنبياءهم ، فجفت أشجارهم وزروعهم ، فماتوا جوعاً وعطشاً .

وقيل : كانوا يعبدون الشجر ، وقيل : كانوا يعبدون الأصنام ، فأرسل الله إليهم شعيباً ، فكذبوه وآذوه .

وقيل : هم قوم أرسل الله إليهم نبياً ، فأكلوه ، وقيل : هم أصحاب الأخدود .

وقيل : إن الرسّ هي البئر المعطلة التي تقدّم ذكرها ، وأصحابها : أهلها .

وقال في الصحاح : والرسّ : اسم بئر كانت لبقية ثمود ، وقيل : الرسّ ماء ونخل لبني أسد ، وقيل : الثلج المتراكم في الجبال .

والرسّ : اسم واد ، ومنه قول زهير :

بكرن بكوراً واستحرن بسحرة . . . فهنّ لوادي الرسّ كاليد للفم

والرسّ أيضاً : الإصلاح بين الناس ، والإفساد بينهم ، فهو : من الأضداد .

وقيل : هم أصحاب حنظلة بن صفوان ، وهم الذين ابتلاهم الله بالطائر المعروف بالعنقاء ﴿ وَقُرُوناً بَيْنَ ذلك كَثِيراً ﴾ معطوف على ما قبله ، والقرون جمع قرن أي : أهل قرون ،

والقرن مائة سنة ، وقيل : مائة وعشرون .

وقيل : القرن أربعون سنة ، والإشارة بقوله : ﴿ بَيْنَ ذلك ﴾ إلى ما تقدّم ذكره من الأمم .

وقد يذكر الذاكر أشياء مختلفة ثم يشير إليها بذلك .

﴿ وَكُلاًّ ضَرَبْنَا لَهُ الأمثال ﴾ قال الزجاج : أي : وأنذرنا كلا ضربنا لهم الأمثال ، وبينا لهم الحجة ، ولم نضرب لهم الأمثال الباطلة كما يفعله هؤلاء الكفرة ، فجعله منصوباً بفعل مضمر يفسره ما بعده ، لأن حذرنا ، وذكرنا ، وأنذرنا في معنى : ضربنا ، ويجوز أن يكون معطوفاً على ما قبله ، والتنوين عوض عن المضاف إليه المحذوف ، وهو الأمم أي : كل الأمم ضربنا لهم الأمثال أما ﴿ كَلاَّ ﴾ الأخرى : فهي منصوبة بالفعل الذي بعدها ، والتتبير : الإهلاك بالعذاب .

(176/560)

قال الزجاج : كل شيء كسرته وفتتّه فقد تبرته .

وقال المؤرج ، والأخفش : معنى ﴿ تَبَّرْنَا تَتْبِيراً ﴾ : دمرنا تدميراً ، أبدلت التاء والباء من الدال والميم ﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى القرية التى أُمْطِرَتْ مَطَرَ السوء ﴾ هذه جملة مستأنفة مبينة لمشاهدتهم لآثار هلاك بعض الأمم .

والمعنى : ولقد أتوا أي : مشركو مكة على قرية قوم لوط التي أمطرت مطر السوء ، وهو الحجارة أي : هلكت بالحجارة التي أمطروا بها ، وانتصاب مطر على المصدرية ، أو على أنه مفعول ثانٍ : إذ المعنى : أعطيتها ، وأوليتها مطر السوء ، أو على أنه نعت مصدر محذوف أي : إمطاراً مثل مطر السوء ، وقرأ أبو السموأل " السوء " بضم السين ، وقد تقدّم تفسير السوء في براءة ﴿ أَفَلَمْ يَكُونُواْ يَرَوْنَهَا ﴾ الاستفهام للتقريع والتوبيخ ؛ أي : يرون القرية المذكورة عند سفرهم إلى الشام للتجارة ، فإنهم يمرّون بها ، والفاء للعطف على مقدّر أي : لم يكونوا ينظرون إليها ، فلم يكونوا يرونها ﴿ بَلْ كَانُواْ لاَ يَرْجُونَ نُشُوراً ﴾ أضرب سبحانه عما سبق من عدم رؤيتهم لتلك الآثار إلى عدم رجاء البعث منهم المستلزم لعدم رجائهم للجزاء ، ويجوز أن يكون معنى يرجون : يخافون .

﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُواً ﴾ أي : ما يتخذونك إلاّ هزؤاً أي : مهزوءاً بك ، قصر معاملتهم له على اتخاذهم إياه هزواً ، فجواب "إذا" هو ﴿ إِن يَتَّخِذُونَكَ ﴾ وقيل : الجواب محذوف ، وهو قالوا : أهذا الذي ، وعلى هذا ، فتكون جملة ﴿ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ ﴾ معترضة ، والأوّل أولى .

(177/560)

وتكون جملة : ﴿ أهذا الذى بَعَثَ الله رَسُولاً ﴾ في محل نصب على الحال بتقدير القول : أي : قائلين أهذا ؟ إلخ ، وفي اسم الإشارة دلالة على استحقارهم له ، وتهكمهم به ، والعائد محذوف أي : بعثه الله ، وانتصاب ﴿ رسولاً ﴾ على الحال أي : مرسلاً ، واسم الإشارة مبتدأ ، وخبره الموصول ، وصلته ﴿ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا ﴾ أي : قالوا : إن كاد هذا الرسول ليضلّنا : ليصرفنا عن آلهتنا ، فنترك عبادتها ، وإن هنا هي المخففة ، وضمير الشأن محذوف أي : إنه كاد أن يصرفنا عنها ﴿ لَوْلاَ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ﴾ أي : حبسنا أنفسنا على عبادتها ، ثم إنه سبحانه أجاب عليهم ، فقال ﴿ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ العذاب مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ أي : حين يرون عذاب يوم القيامة الذي يستحقونه ويستوجبونه بسبب كفرهم من هو أضلّ سبيلا أي : أبعد طريقاً عن الحق والهدى ، أهم أم المؤمنون ؟

ثم بين لهم سبحانه أنه لا تمسك لهم فيما ذهبوا إليه سوى التقليد واتباع الهوى ، فقال معجباً لرسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ اتخذ إلهه هَوَاهُ ﴾ قدّم المفعول الثاني للعناية كما تقول : علمت منطلقاً زيداً أي : أطاع هواه طاعة كطاعة الإله أي : انظر إليه يا محمد ، وتعجب منه .

قال الحسن : معنى الآية : لا يهوى شيئاً إلاّ اتبعه ﴿ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً ﴾ الاستفهام للإنكار والاستبعاد أي : أفأنت تكون عليه حفيظاً وكفيلاً حتى تردّه إلى الإيمان ، وتخرجه

من الكفر ، ولست تقدر على ذلك ولا تطيقه ، فليست الهداية والضلالة موكولتين إلى مشيئتك ، وإنما عليك البلاغ .

وقد قيل : إن هذه الآية منسوخة بآية القتال .

(178/560)

ثم انتقل سبحانه من الإنكار الأول إلى إنكار آخر ، فقال : ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ﴾ أي : أتحسب أن أكثرهم يسمعون ما تتلو عليهم من آيات القرآن ، ومن المواعظ ؟ أو يعقلون معاني ذلك ، ويفهمونه حتى تعتني بشأنهم ، وتطمع في إيمانهم ، وليسوا كذلك ، بل هم بمنزلة من لا يسمع ولا يعقل .

ثم بين سبحانه حالهم ، وقطع مادّة الطمع فيهم ، فقال : ﴿ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالأَنعام ﴾ أي : ما هم في الانتفاع بما يسمعونه إلاّ كالبهائم التي هي مسلوبة الفهم والعقل فلا تطمع فيهم ، فإن فائدة السمع والعقل مفقودة ، وإن كانوا يسمعون ما يقال لهم ويعقلون ما يتلى عليهم ، ولكنهم لما لم ينتفعوا بذلك كانوا كالفاقد له .

ثم أضرب سبحانه عن الحكم عليهم بأنهم كالأنعام إلى ما هو فوق ذلك ، فقال : ﴿ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ أي : أضل من الأنعام طريقاً .

قال مقاتل : البهائم تعرف ربها ، وتهتدي إلى مراعيها ، وتنقاد لأربابها ، وهؤلاء لا ينقادون ، ولا يعرفون ربهم الذي خلقهم ورزقهم .

وقيل : إنما كانوا أضلّ من الأنعام ، لأنه لا حساب عليها ، ولا عقاب لها ، وقيل : إنما كانوا أضلّ ؛ لأن البهائم إذا لم تعقل صحة التوحيد والنبوة لم تعتقد بطلان ذلك ، بخلاف هؤلاء فإنهم اعتقدوا البطلان عناداً ومكابرة وتعصباً وغمطاً للحق .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : ﴿ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هارون وَزِيراً ﴾ قال : عوناً وعضداً .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ فدمرناهم تَدْمِيراً ﴾ قال : أهلكناهم بالعذاب .

وأخرج ابن جرير عنه قال : الرسّ قرية من ثمود .

(179/560)

وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً قال : الرسّ بئر بأذربيجان ، وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن المنذر عن ابن عباس : أنه سأل كعباً عن أصحاب الرسّ قال : صاحب يس الذي قال : ﴿ قَالَ يَا قَوْم اتبعوا المرسلين ﴾ [يس : 20] فرسه قومه في بئر بالأحجار .

وأخرج ابن إسحاق وابن جرير عن محمد بن كعب القرظي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن أوّل الناس يدخل الجنة يوم القيامة العبد الأسود ، وذلك أن الله بعث نبياً إلى أهل قرية فلم يؤمن به من أهلها أحد إلاّ ذلك الأسود ، ثم إن أهل القرية غدوا على النبي ، فحفروا له بئراً ، فألقوه فيها ، ثم أطبقوا عليه بحجر ضخم ، فكان ذلك العبد يذهب فيحتطب على ظهره ، ثم يأتي بحطبه فيبيعه فيشتري به طعاماً وشراباً ، ثم يأتي به إلى تلك البئر ، فيرفع تلك الصخرة فيعينه الله عليها ، فيدلي طعامه وشرابه ، ثم يردّها كما كانت ، فكان كذلك ما شاء الله أن يكون ، ثم إنه ذهب يوماً يحتطب كما كان يصنع ، فجمع حطبه وحزم حزمته ، وفرغ منها ، فلما أراد أن يحملها وجد سنة ، فاضطجع فنام ، فضرب على أذنه سبع سنين نائماً ، ثم إنه ذهب فتمطى ، فتحوّل لشقه الآخر فاضطجع ، فضرب الله على أذنه سبع سنين أخرى ، ثم إنه ذهب فاحتمل حزمته ولا يحسب إلاّ أنه نام ساعة من نهار ، فجاء إلى القرية ، فباع حزمته ، ثم اشترى طعاماً ، وشراباً كما كان يصنع ، ثم ذهب إلى الحفرة في موضعها الذي كانت فيه ، فالتمسه ، فلم يجده ، وقد كان بدا لقومه فيه بدّ فاستخرجوه فآمنوا به وصدقوه ، وكان النبي يسألهم عن ذلك الأسود ما فعل ؟ فيقولون : ما ندري حتى قبض ذلك النبي ، فأهب الله الأسود من نومته بعد ذلك ، إن ذلك الأسود لأوّل من يدخل الجنة "

قال ابن كثير في تفسيره بعد إخراجه : وفيه غرابة ونكارة ، ولعل فيه إدراجاً .

انتهى .

الحديث أيضاً مرسل .

(180/560)

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن زرارة بن أوفى قال : القرن مائة وعشرون عاماً .

وأخرج هؤلاء عن قتادة قال : القرن سبعون سنة ، وأخرج ابن مردويه عن أبي سلمة قال : القرن مائة سنة .

وقد روي مرفوعاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم : أنه قال : " القرن مائة سنة " ، وقال : " القرن خمسون سنة " ، وقال : " القرن أربعون سنة " وما أظنه يصح شيء من ذلك ، وقد سمى الجماعة من الناس قرناً كما في الحديث الصحيح : " خير القرون قرني " وأخرج الحاكم في الكنى عن ابن عباس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا انتهى إلى معدّ ابن عدنان أمسك ، ثم يقول : "كذب النسابون " قال الله : ﴿ وَقُرُوناً بَيْنَ ذلك كَثِيراً ﴾ .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس : ﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى القرية ﴾ قال : هي سدوم قرية لوط

﴿ التى أُمْطِرَتْ مَطَرَ السوء ﴾ قال : الحجارة .

وأخرج ابن أبي حاتم ، وابن مردويه عن ابن عباس في قوله : ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ اتخذ إلهه هَوَاهُ ﴾ قال : كان الرجل يعبد الحجر الأبيض زماناً من الدهر في الجاهلية ، فإذا وجد حجراً أحسن منه رمى به وعبد الآخر ، فأنزل الله الآية .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم في الآية قال : ذلك الكافر لا يهوى شيئاً إلاّ اتبعه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 4 صـ ﴾

(181/560)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا (41) ﴾

كان ما تقدمت حكايته من صنوف أذاهُم الرسولَ عليه الصلاة والسلام أقوالاً في مغيبه ، فعُطف عليها في هذه الآية أذى خاص وهو الأذى حين يرونه .

وهذا صنف من الأذى تبعثهم إليه مشاهدة الرسول في غير زيّ الكبراء والمترَفين لا يجرّ المطارف ولا يركب النجائب ولا يمشي مرحاً ولا ينظر خُيلاء ويجالس الصالحين ويُعرض عن المشركين ، ويرفق بالضعفاء ويواصل الفقراء ، وأولئك يستخفون بالخُلق الحسن ، لما

غلب على آرائهم من أفَن ، لذلك لم يخل حاله عندهم من الاستهزاء به إذا رَأوه بأن حاله ليست حال من يختاره الله لرسالته دونَهم ، ولا هو أهل لقيادتهم وسياستهم .

وهذا الكلام صدر من أبي جهل وأهل ناديه .

و﴿ إذا ﴾ ظرف زمان مضمَّن معنى الشرط فلذلك يجعل متعلَّقه جواباً له .

فجملة ﴿ إن يتخذونك إلا هزؤاً ﴾ جوابُ ﴿ إذا ﴾ .

والهُزُؤ بضمتين : مصدر هزأ به .

وتقدم في قوله : (تعالى) ﴿ قالوا أتَتّخِذُنا هُزوءاً ﴾ في سورة البقرة (67) .

والوصف للمبالغة في استهزائهم به حتى كأنه نفس الهُزؤ لأنهم محَّضوه لذلك ، وإسناد ﴿ يتخذونك ﴾ إلى ضمير الجمع للدلالة على أن جماعاتهم يستهزئون به إذا رأوه وهم في مجالسهم ومنتدياتهم .

وصيغة الحصر للتشنيع عليهم بأنهم انحصر اتخاذُهم إياه في الاستهزاء به يلازمونه ويدْأبون عليه ولا يخلطون معه شيئاً من تذكر أقواله ودعوته ، فالاستثناء من عموم الأحوال المنفية ، أي لا يتخذونك في حالة إلا في حالة الاستهزاء .

وجملة ﴿ أهذا الذي بعث الله رسولاً ﴾ بيان لجملة ﴿ إن يتخذونك إلا هزؤاً ﴾ لأن الاستهزاء من قبيل القول فكان بيانه بما هو من أقوالهم ومجاذَبتهم الأحاديث بينهم .

والاستفهام إنكار لأن يكون بعثَه الله رسولاً .

واسم الإشارة مستعمل في الاستصغار كما علمت في أول تفسير هذه الآية .

(182/560)

والمعنى : إنكار أن يكون المشار إليه رسولاً لأن في الإشارة إليه ما يكفي للقطع بانتفاء أنه رسول الله في زعمهم ، وقد تقدم قريب من هذه الجملة في قوله تعالى : ﴿ وإذا رآك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هُزؤاً أهذا الذي يذكر آلهتكم ﴾ في سورة الأنبياء (36) ، سوى أن الاستفهام هنالك تعجبي فانظره .

أما قولهم إن كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها ﴾ فالمقصود منه تفاخرهم بتصلبهم في دينهم وأنهم كادوا أن يتبعوا دعوة الرسول بما يلقيه إليهم من الإقناع والإلحاح فكان تأثر أسماعِهم بأقواله يُوشك بهم أن يرفضوا عبادة الأصنام لولا أنهم تريَّثوا ، فكان في الريث أن أفاقوا من غِشاوة أقواله وخلابة استدلاله واستبصروا مرآة فانجلى لهم أنه لا يستأهل أن يكون مبعوثاً من عند الله ، فقد جمعوا من كلامهم بين تزييف حجته وتنويه ثباتهم في مقام يَستفز غير الراسخين في الكفر .

وهذا الكلام مشوب بفَسادِ الوضع ومؤلف على طرائق الدهماء إذ يتكلمون كما يشتهون

ويستبلهون السامعين .

ومن خلابة المغالطة إسنادهم مقاربة الإضلال إلى الرسول دون أنفسهم ترفعاً على أن يكونوا قاربوا الضلال عن آلهتهم مع أن مقاربته إضلالَهم تستلزم اقترابهم من الضلال .

و﴿ إنْ ﴾ مخفَّفَة من (إنّ) المشددة ، والأكثر في الكلام إهمالها ، أي ترك عملها نصبَ الاسم ورفعَ الخبر ، والجملة التي تليها يلزم أن تكون مفتتحة بفعل من أخوات كان أو من أخوات ظنّ وهذا من غرائب الاستعمال .

ولو ذهبنا إلى أن اسمها ضمير شأن وأن الجملة التي بعدها خبر عن ضمير الشأن كما ذهبوا إليه في (أنّ) المفتوحة الهمزة إذا خففت لما كان ذلك بعيداً .

وفي كلام صاحب "الكشاف" ما يشهد له في تفسير قوله تعالى : ﴿ وإن كانوا من قبلُ لفي ضلال مبين ﴾ في سورة آل عمران (164) ، والجملة بعدها مستأنفة ، واللاّم في قوله لَيُضِلّنا ﴾ هي الفارقة بين (إنْ) المحققة وبين (إنْ) النافية .

(183/560)

والصبر : الاستمرار على ما يشق عمله على النفس .

ويعدّى فعله بحرف (على) لما يقتضيه من التمكن من الشيء المستمر عليه .

و﴿ لولا ﴾ حرف امتناع لوجود ، أي امتناع وقوع جوابها لأجل وجود شرطها فتقتضي جواباً لشرطها ، والجواب هنا محذوف لدلالة ما قبل ﴿ لولا ﴾ عليه ، وهو ﴿ إن كاد ليضلنا ﴾ .

وفائدة نسج الكلام على هذا المنوال دون أن يؤتى بأداة الشرط ابتداء متلوة بجوابها قصد العناية بالخبر ابتداء بأنه حاصل ثم يؤتى بالشرط بعده تقييداً لإطلاق الخبر فالصناعة النحوية تعتبر المقدَّم دليلَ الجواب ، والجواب محذوفاً لأن نظر النحوي لإقامة أصل التركيب ، فأما أهل البلاغة فيعتبرون ذلك للاهتمام وتقييد الخبر بعد إطلاقه ، ولذا قال في "الكشاف" : " ﴿ لولا ﴾ في مثل هذا الكلام جار مجرى التقييد للحكم المطلق من حيث المعنى لا من حيث الصنعة" فهذا شأن الشروط الواقعة بعد كلام مقصود لذاته كقوله تعالى : ﴿ لا تتخذوا عدوّي وعدوّكم أولياء ﴾ إلى قوله : ﴿ إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي ﴾ [الممتحنة : 1] فإن قوله : ﴿ إن كنتم ﴾ قيد في المعنى للنهي عن موالاة أعداءِ الله .

وتأخير الشرط ليَظهر أنه قيد للفعل الذي هو دليل الجواب .

قال في "الكشاف" : ﴿ إن كنتم خرجتم ﴾ متعلق بـ ﴿ لا تتخذوا ﴾ يعني : لا تتولوا أعدائي إن كنتم أوليائي .

وقولُ النحويين في مثله هو شرط جوابه محذوف لدلالة ما قبله عليه" أ هـ .

وكذلك ما قدم فيه على الشرط ما حقه أن يكون جواباً للشرط تقديماً لقصد الاهتمام بالجواب كقوله تعالى : ﴿ قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين ﴾ [آل عمران : 93].

هذا جواب قولهم ﴿ إن كاد لَيُضِلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها ﴾ المتضمن أنهم على هدى في دينهم ، وكان الجواب بقطع مُجادلتهم وإحالتهم على حين رؤيتهم العذاب ينزل بهم ، فتضمن ذلك وعيداً بعذاب .

(184/560)

والأظهر أن المراد عذاب السيف النازل بهم يوم بدر ، وممن رآه أبو جهل سيّد أهل الوادي ، وزعيم القالة في ذلك النادي .

ولما كان الجواب بالإعراض عن المحاجّة ارتكب فيه أسلوب التهكم بجعل ما ينكشف عنه المستقبل هو معرفة من هو أشد ضلالاً من الفريقين على طريقة المجاراة وإرخاء العنان للمخطىءِ إلى أن يقف على خطئه وقد قال أبو جهل يوم بدر وهو مثخَّن بالجراح في حالة النزع لما قال له عبد الله بن مسعود : أنتَ أبو جهل ؟ فقال : "وهَل أعمد من رجل قتله قومه" .

و﴿ مَن ﴾ الاستفهامية أوجبت تعليق فعل ﴿ يعلمون ﴾ عن العمل .

أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا (43)

استئناف خوطب به الرسول صلى الله عليه وسلم فيما يخطر بنفسه من الحزن على تكرر إعراضهم عن دعوته إذ كان حريصاً على هداهم والإلحاح في دعوتهم ، فأعلمه بأن مثلهم لا يرجى اهتداؤه لأنهم جعلوا هواهم إلههم ، فالخطابُ للرسول صلى الله عليه وسلم

وفعل ﴿ اتخذ ﴾ يتعدى إلى مفعولين وهو من أفعال التصيير الملحقة بأفعال الظن في العمل ، وهو إلى باب كَسا وأعطى أقرب منه إلى باب ظنّ ، فإن ﴿ اتخذ ﴾ معناه صيّر شيئاً إلى حالة غير ما كان عليه أو إلى صورة أخرى .

والأصل فيه أن مفعوله الأول هو الذي أدخل عليه التغيير إلى حال المفعول الثاني فكان الحق أن لا يقدم مفعوله الثاني على مفعوله الأول إلا إذا لم يكن في الكلام لبس يلتبس فيه المعنى فلا يدري أي المفعولين وقع تغييره إلى مدلول المفعول الآخر ، أو كان المعنى الحاصل من التقديم مساوياً للمعنى الحاصل من الترتيب في كونه مراداً للمتكلم .

(185/560)

فقوله تعالى : ﴿ أرأيت من اتخذ إلهه هواه ﴾ إذا أجري على الترتيب كان معناه جعل إلهه الشيء الذي يهوى عبادته ، أي ما يُحب أن يكون إلهاً له ، أي لمجرد الشهوة لا لأن إلهه مستحق للإلهية ، فالمعنى : من اتخذ رباً له محبوبه فإن الذين عبدوا الأصنام كانت شهوتهم في أن يعبدوها وليست لهم حجة على استحقاقها العبادة .

فإطلاق ﴿ إلهه ﴾ على هذا الوجه إطلاق حقيقي .

وهذا يناسب قوله قبله ﴿ إن كاد لَيُضِلُّنا عن آلهتنا ﴾ [الفرقان : 42] ، ومعناه منقول عن سعيد بن جبير .

واختاره ابن عرفة في "تفسيره" وجزم بأنه الصواب دون غيره وليس جزمه بذلك بوجيه وقد بحث معه بعض طلبته .

وإذا أجري على اعتبار تقديم المفعول الثاني كان المعنى : من اتخذ هواه قُدوة له في أعماله لا يأتي عملاً إلا إذا كان وفاقاً لشهوته فكأنَّ هواهُ إلهه .

وعلى هذا يكون معنى ﴿ إلهه ﴾ شبيهاً بإلهه في إطاعته على طريقة التشبيه البليغ .

وهذا المعنى أشمل في الذم لأنه يشمل عبادتهم الأصنام ويشمل غير ذلك من المنكرات والفواحش من أفعالهم .

ونحا إليه ابن عباس ، وإلى هذا المعنى ذهب صاحب "الكشاف" وابن عطية .

وكلا المعنيين ينبغي أن يكون محملاً للآية .

واعلم أنه إن كان مجموع جملتي ﴿ أرأيتَ من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلاً ﴾ كلاماً واحداً متصلاً ثانيه بأوله اتصال المفعول بعامله ، تعين فعل "رأيت" لأن يكون فعلاً قلبياً بمعنى العلم وكان الاستفهام الذي في الجملة الأولى بقوله : ﴿ أرأيت ﴾ إنكارياً كالثاني في قوله : ﴿ أفأنت تكون عليه وكيلاً ﴾ وكان مجموع الجملتين كلاماً على طريقة الإجمال ثم التفصيل .

والمعنى : أرأيتَك تكون وكيلاً على من اتخذ إلهه هواه ، وتكون الفاء في قوله ﴿ أفأنت ﴾ فاء الجواب للموصول لمعاملته معاملة الشرط ، وهمزة الاستفهام الثانية تأكيد للاستفهام الأول كقوله

(186/560)

﴿ أئذا كنا عظاماً ورفاتاً إنَّا لمبعوثون ﴾ [الإسراء : 49] على قراءة إعادة همزة الاستفهام ، وتكون جملة ﴿ أفأنت تكون عليه وكيلاً ﴾ عوضاً عن المفعول الثاني لفعل ﴿ أرأيت ﴾ ، والفعل معلق عن العمل فيه بسبب الاستفهام على نحو قوله تعالى : ﴿ أفمن حَقّ عليه كلمةُ العذاب أفأنت تُنقذ من في النار ﴾ [الزمر : 19] وعليه لا يوقف على قوله ﴿ هواه ﴾ بل يوصل الكلام .

وهذا النظم هو الذي مشى عليه كلام "الكشاف" .

وإن كانت كل جملة من الجملتين مستقلةً عن الأخرى في نظْم الكلام كان الاستفهام الذي في الجملة الأولى مستعملاً في التعجيب من حال الذين اتخذوا إلههم هواهم تعجيباً مشوباً بالإنكار ، وكانت الفاء في الجملة الثانية للتفريع على ذلك التعجيب والإنكار ، وكان الاستفهام الذي في الجملة الثانية من قوله ﴿ أفأنت تكون عليه وكيلاً ﴾ إنكارياً بمعنى : إنك لا تستطيع قلعه عن ضلاله كما أشار إليه قوله قبله ﴿ من أضل سبيلاً ﴾ [الفرقان : 42] .

و﴿ مَن ﴾ صادقة على الجمع المتحدث عنه في قوله ﴿ وسوف يعلمون حين يَرون العذاب ﴾ [الفرقان : 42] وروعي في ضمائر الصلة لفظ ﴿ مَن ﴾ فأُفردت الضمائر .

والمعنى : من اتخذوا هواهم إلهاً لهم أو من اتخذوا آلهة لأجل هواهم .

و"إله" جنس يصدق بعدة آلهة إن أريد معنى اتخذوا آلهة لأجل هواهم .

وتقديم المسند إليه على الخبر الفعلي في قوله ﴿ أنت تكون عليه وكيلاً ﴾ للتقوِّي إشارة إلى إنكار ما حَمَّل الرسول عليه الصلاة والسلام نفسه من الحرص والحزن في طلب إقلاعهم عن الهوى كقوله تعالى : ﴿ أفأنت تُكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ﴾ [يونس : 99] .

والمعنى : تكون وكيلاً عليه في حال إيمانه بحيث لا تفارق إعادة دعوته إلى الإيمان حتى

تلجئه إليه .

أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا (44)

(187/560)

انتقال عن التأييس من اهتدائهم لغلبة الهوى على عقولهم إلى التحذير من أن يظن بهم إدراك الدلائل والحجج ، وهذا توجيه ثان للإعراض عن مجادلتهم التي أنبأ عنها قوله تعالى : ﴿ وسوف يعلمون حين يَرَوْن العذاب مَن أضلّ سبيلاً ﴾ [الفرقان : 42] ، ف ﴿ أم ﴾ منقطعة للإضراب الانتقالي من إنكار إلى إنكار وهي مؤذنة باستفهام عطفته على الاستفهام الذي قبلها .

والتقدير : أم أتحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون .

والمراد من نفي ﴿ أن أكثرهم يسمعون ﴾ نفي أثر السماع وهو فهم الحق لأن ما يلقيه إليهم الرسول صلى الله عليه وسلم لا يَرتاب فيه إلا من هو كالذي لم يسمعه .

وهذا كقوله تعالى ﴿ ولا تُسمع الصُّمَّ الدعاء إذا ولَّوْا مدبرين ﴾ [النمل : 80] .

وعطف ﴿ أو يعقلون ﴾ على ﴿ يسمعون ﴾ لنفي أن يكونوا يعقلون الدلائل غير المقالية وهي دلائل الكائنات قال تعالى : ﴿ قل انظروا ماذا في السموات والأرض وما تغني الآيات

والنذر عن قوم لا يؤمنون ﴾ [يونس : 101] .

وإنما نُفي فهم الأدلة السمعية والعقلية عن أكثرهم دون جميعهم ، لأن هذا حال دهمائهم ومقلِّديهم ، وفيهم معشر عقلاء يفهمون ويستدلون بالكائنات ولكنهم غلب عليهم حبّ الرئاسة وأَنِفوا من أن يعودوا أتباعاً للنبيء صلى الله عليه وسلم ومساوين للمؤمنين من ضعفاء قريش وعبيدهم مِثل عمار ، وبلال .

وجملة ﴿ إن هم إلا كالأنعام ﴾ مستأنفة استئنافاً بيانياً لأن ما تقدم من إنكار أنهم يسمعون يثير في نفس السامعين سؤالاً عن نفي فهمهم لما يسمعون مع سلامة حواس السمع منهم ، فكان تشبيههم بالأنعام تبييناً للجمع بين حصول اختراق أصوات الدعوة آذانهم مع عدم انتفاعهم بها لعدم تهيئهم للاهتمام بها ، فالغرض من التشبيه التقريب والإمكان كقول أبي الطيب:

فإن تَفُق الأنام وأنت منهم . . .

فإن المسك بعض دم الغزال

وضمائر الجمع عائدة إلى أكثرهم باعتبار معنى لفظه كما عاد عليه ضمير ﴿ يسمعون ﴾ .

وانتُقل في صفة حالهم إلى ما هو أشدّ من حال الأنعام بأنهم أضلّ سبيلاً من الأنعام .

وضَلال السبيل عدم الاهتداء للمقصود لأن الأنعام تفقه بعض ما تسمعه من أصوات الزجر ونحوها من رُعاتها وسائقيها وهؤلاء لا يفقهون شيئاً من أصوات مرشدهم وسائسهم وهو الرسول عليه الصلاة والسلام .

وهذا كقوله تعالى ﴿ فهي كالحجارة أو أشدّ قسوة وإن من الحجارة لَمَا يتفجر منه الأنهار ﴾ [البقرة : 74] الآية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 19 صـ ﴾

(189/560)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا (43) ﴾

قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية : أرأيت من اتخذ إلهه هواه : أي مهما استحسن من شيء ورآه حسناً في هوى نفسه كان دينه ، ومذهبه إلى أن قال : قال ابن عباس : "كان الرجل في الجاهلية يعبد الحجر الأبيض زماناً ، فإذا رأى غيره أحسن منه عبد الثاني وترك الأول" . اه منه .

وذكر صاحب الدر المنثور : أن ابن أبي حاتم وابن مردويه أخرجا عن ابن عباس " أن عبادة الكافر للحجر الثاني مكان الأول : هي سبب نزول هذه الآية " ، ثم قال صاحب الدر المثنور : وأخرج ابن مردويه عن أبي رجاء العطاردي ، قال : كانوا في الجاهلية يأكلون الدم بالعلهز ويعبدون الحجر ، فإذا وجدوا ما هو أحسن منه ، رموا به وعبدوا الآخر ، فإذا فقدوا الآخر أمروا منادياً فنادى : أيها الناس إن إلهكم قد ضل فالتمسوه ، فأنزل الله هذه الآية : ﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتخذ إلهه هَوَاهُ ﴾ ، وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتخذ إلهه هَوَاهُ ﴾ قال : " ذلك الكافر اتخذ دينه بغير هدى من الله ولا برهان " .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، عن الحسن : ﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتخذ إلهه هَوَاهُ ﴾ . قال : لا يهوى شيئاً إلا تبعه .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن قتادة : ﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتخذ إلهه هَوَاهُ ﴾ قال : كل ما هوى شيئاً ركبه ، وكل ما اشتهى أتاه لا يحجزه عن ذلك ورع ، ولا تقوى .

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن أنه قيل له أيّ أهل القبلة شرك ؟ قال . نعم المنافق مشرك ، إن المشرك يسجد للشمس والقمر من دون الله ، وإن المنافق عبد هواه ثم تلا هذه الآية الكريمة : ﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتخذ إلهه هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً ﴾ .

وأخرج الطبرانين عن أبي أمامة ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما تحت ظل السماء من إله يعبد من دون الله أعظم عند الله من هوى متبع " انتهى محل الغرض من كلام صاحب الدر المنثور .

وإيضاح أقوال العلماء المذكورة في هذه الآية : أن الواجب الذي يلزم العمل به ، هو أن يكون جميع أفعال المكلف مطابقة لما أمره به معبوده جل وعلا ، فإذا كانت جميع أفعاله تابعة لما يهواه ، فقد صرف جميع ما يستحقه عليه خالقه من العبادة والطاعة إلى هواه ، وإذن فكونه اتخذ إلهه هواه في غاية الوضوح .

وإذا علمت هذا المعنى الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة ، فاعلم أن الله جل وعلا بينه في غير هذا الموضع في قوله : ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتخذ إلهه هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ الله على عِلْمٍ وَخَتَمَ على سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ على بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ الله أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الجاثية : 23] الآية ، وقوله تعالى : ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سواء عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً فَإِنَّ الله يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ فَلاَ تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ الله عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ [فاطر : 8] الآية .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً ﴾ : استفهام إنكار فيه معنى النفي .

والمعنى : أن من أضله الله فاتخذ الهه هواه ، لا تكون أنت عليه وكيلاً أي حفيظاً تهديه ، وتصرف عنه الضلال الذي قدره الله عليه ، لأن الهدى بيد الله وحده لا بيدك ، والذي عليك إنما هو البلاغ ، وقد بلغت .

(191/560)

وهذا المعنى الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة ، جاء موضحاً في آيات كثيرة كقوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ولكن الله يَهْدِي مَن يَشَآءُ ﴾ [القصص : 56] الآية ، وقوله تعالى : ﴿ إِن تَحْرِصْ على هُدَاهُمْ فَإِنَّ الله لاَ يَهْدِي مَن يُضِلُّ ﴾ [النحل : 37] الآية . وقوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ العذاب أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي النار ﴾ [الزمر : 19] ، وقوله تعالى : ﴿ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ الناس حتى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ الله ﴾ [يونس : 99100] الآية ، وقوله تعالى في آية الجاثية المذكورة آنفاً أيضاً ﴿ فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ الله ﴾ [الجاثية : 23] الآية ، والآيات بمثل ذلك كثيرة ، والعلم عند الله تعالى .

أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا (44)

أم في هذه الآية الكريمة هي المنقطعة وأشهر معانيها أنها جامعة بين معنى بل الإضرابية ،

واستفهام الإنكار معاً ، والإضراب المدلول عليه بها هنا إضراب انتقالي :

والمعنى : بل أتحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون : أي لا تعتقد ذلك ولا تظنه ، فإنهم لا يسمعون الحق ولا يعقلونه : أي لا يدركونه بعقولهم إن هم إلا كأنعام أي ما هم إلا كالأنعام ، التي هي الإبل والبقر والغنم في عدم سماع الحق ، وإدراكه ، بل هم أضل من الأنعام : أي أبعد عن فهم الحق ، وإدراكه .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ قال الزمخشري : فإن قلت : كيف جعلوا أضل من الأنعام ؟

(192/560)

قلت : لأن الأنعام تنقاد لأربابها التي تعلفها وتتعهدها ، وتعرف من يحسن إليها ممن يسيء إليها ، وتطلب ما ينفعها ، وتجتنب ما يضرها ، وتهتدي لمراعيها ومشاربها ، وهؤلاء لا ينقادون لربهم ولا يعرفون إحسانه إليهم من إساءة الشيطان الذي هو عدوهم ، ولا يطلبون الثواب الذي هو أعظم المنافع ولا يتقون العقاب الذي هو أشد المضار والمهالك ، ولا يهتدون للحق الذي هو المشرع الهني والعذب الروي . اه . منه .

وإذا علمت ما دلت عليه هذه الآية الكريمة ، فاعلم أن الله بينه في غير هذا الموضع كقوله

تعالى في سورة الأعراف : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الجن والإنس لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَآ أولئك كالأنعام بَلْ هُمْ أَضَلُّ أولئك هُمُ الغافلون ﴾ [الأعراف : 179] ، وقوله تعالى في البقرة : ﴿ وَمَثَلُ الذين كَفَرُواْ كَمَثَلِ الذي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَآءً وَنِدَآءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة : 171] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 6 صـ ﴾

(193/560)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا (41) ﴾

(إِنْ) نافية بمعنى : ما يتخذونك إلا هُزُواً ، ثم ذكر صيغة الاستهزاء : ﴿ أهذا الذي بَعَثَ الله رَسُولاً ﴾ [الفرقان : 41] وفي موضع آخر قالوا : ﴿ أهذا الذي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ ﴾ [الأنبياء : 36] كأنه صلى الله عليه وسلم دون هذه المنزلة ، وما دام الرسول في نظرهم دون هذه المنزلة فإنهم يريدون شخصاً على مستوى المنزلة ، كما قالوا : ﴿ لَوْلاَ نُزِّلَ هذا القرآن على رَجُلٍ مِّنَ القريتين عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف : 31] .

ومعنى هذا أنهم مؤمنون بضرورة وجود إله ورسول ومنهج ، وكل اعتراضهم أن تكون

الرسالة في محمد بالذات .

ثم تناقضون مع أنفسهم ، فيقولون : ﴿ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا ﴾

فكيف تستهزئون به وترَوْنه دون مستوى الرسالة ، ثم تقولون إنه كاد أنْ يُضلكم عن آلهتكم يعني : قَرُبَ أنْ يُضلّكم عن آلهتكم ، مع ما أنتم عليه من التعنّت والعناد ؟ هذا دليل وشهادة لرسول الله أنه قويٌّ وأنه على مستوى الرسالة ، وأنه لم يدخر وُسْعاً في دعوتكم ، حتى كاد أنْ يصرفكم عن آلهتكم .

والدليل على أنهم كانوا يخافون من تأثير رسول الله عليهم قولهم لأتباعهم إذا رأوهم يستمعون للقرآن : ﴿ لاَ تَسْمَعُواْ لِهذا القرآن والغوا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ [فصلت : 26]

إذن : يريدون أنْ يُشوّشوا على القرآن لما يعلمون من تأثيره في النفوس ، وهم أمة فصاحة وبلاغة ، فإنْ سمعوا القرآن فلا بُدَّ أن يُؤثّر في قلوبهم ويجذبهم إليه .

(194/560)

ألا ترى قصة إسلام عمر رضي الله عنه وكيف كان قبل الإسلام شديداً جباراً ؟ فلما تهيأت له الفرصة فاستمع للقرآن وصادف منه ملَكةً سليمة وفطرة نقية ، حيث أعاده حادث ضَرْبه لأخته وشَجِّه لها ، أعاده إلى سلامة الفطرة والطوّية ، فلما سمع منها القرآن

وصادف منه قلباً نقياً وفطرة سليمة تأثر به ، فأسرع إلى رسول الله يعلن إسلامه .

إذن : فقولكم : ﴿ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا ﴾ [الفرقان : 42] دليل على أنه كُفْء للمهمة التي بعث بها ، وهذا يناقض قولكم سخريةً منه واستهزاءً : ﴿ أهذا الذي بَعَثَ الله رَسُولاً ﴾ [الفرقان : 41] .

وقولهم : ﴿ لَوْلاَ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ﴾ [الفرقان : 42] يدل على أنه صلى الله عليه وسلم فعل معهم أفعالاً اقتضتْ منهم أنْ يصبروا على الضلال ﴿ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ العذاب مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ [الفرقان : 42] سيعرفون ذلك ، لكن بعد فوات الأوان ، وبعد ألاَّ تنفعهم هذه المعرفة .

أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا (43)

الحق تبارك وتعالى يضع لرسوله صلى الله عليه وسلم قضية ، هي أن الدين إنما جاء ليعصم الناس من أهواء الناس ، فلكُلِّ نفس بشرية هَوىً ، وكل إنسان يعجبه هواه ، وما دام الأمر كذلك فلن ينقاد لغيره ؛ لأن غيره أيضاً له هوىً ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿ وَلَوِ اتبع الحق أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ السماوات والأرض ﴾ [المؤمنون : 71] .

لكن ، لماذا تختلف الأهواء ؟ قالوا : لأن طبيعة الحياة تتطلب أن تكون الأهواءُ مختلفةً ؛ لأن مجالات الحياة متعددة ، فهذا هواه في كذا ، وهذا هواه في كذا . فترى الصَّديقَيْن يلازم أحدهما الآخر ، ويشاركه طعامه وشرابه ، فلا يفرقهما شيء ، فإذا ما ذهبا لشراء شيء ما تباينتْ أهواؤهما ، كما أن هوىً مختلفاً يخدم هوىً مختلفاً ، فالذين اختلفوا مثلاً في تصميم الأشياء يخدمون اختلاف الأذواق والأهواء ، لذلك يقولون : خلاف هو عَيْن الوفاق ، ووفاق هو عَيْن الخلاف .

وقد ضربنا لذلك مثلاً بسيطاً : هَبْ أنك دخلتَ مطعماً ، وأنت تفضل مثلاً ورك الدجاجة وغيرك كذلك يفضله ، وصادف أن في المطعم (وركاً) واحداً ، فلا شكَّ أنكما ستختلفان عليه . إذن : اتفقتما في الأول لتختلفا في الآخر ، لكن إن اختلفتْ رغباتكما ، فسوف ينتج عن هذا الاختلاف اتفاقٌ في النهاية ، فأنت ستأخذ الورك ، وغيرك سيأخذ الصدر ، فهذا إذن خلاف يؤدي إلى وفاق ، ووفاق يؤدي إلى خلاف .

هنا يقول الحق سبحانه : ﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتخذ إلهه هَوَاهُ ﴾ [الفرقان : 43] الهَوَى . أن تكون هناك قضية ظاهرٌ فيها وَجْه الحق ، إلا أنك تميلُ عنه وأنت تعرفه ، لا أنك تجهله . لذلك يقول العلماء : آفةُ الرأْي الهوى . فالرأي قد يكون صائباً ، لكن يميل به الهوى حيث يريد الإنسان ، وقلنا : لا أدلّ على ذلك من أن الرجل منهم كان يسير فيجد حجراً أجمل من حَجره الذي يعبده ، فيَلْقي الإله الذي يعبده ليأخذ هذا الذي هو أجمل منه فيتخذه إلهاً ،

إذن : هواه في جمال الحجر غلب أنه إله .

وقد وقف المستشرقون عند قوله تعالى في حَقِّ النبي صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الهوى ﴾ [النجم : 3] .

يقولون : كيف يحكم الله بأن رسوله لم ينطق عن الهوى ، وقد عدَّل له بعض ما نطق به ، مثل قوله تعالى : ﴿ يا أَيُّهَا النبي لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ الله لَكَ ﴾ [التحريم : 1] .

(196/560)

وقال تعالى : ﴿ عَفَا الله عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حتى يَتَبَيَّنَ لَكَ ﴾ [التوبة : 43] .

ولا بُدَّ أن نُحدِّد مفهوم الهوى أولاً : أنت مدرك أن لديه قضيتين : الحق واضح في إحداهما ، إلا أن هواه يميل إلى غير الحق . إنه صلى الله عليه وسلم نطق لأنه لم تكن هناك قضية واقعة ، وهو يعرف وجه الحق فيها ، فهو إذن لم يَسِرْ على الهوى ، إنما على ما انتهى إليه اجتهاده .

ألاَ ترى قوله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم في مسألة تبنِّيه لزيد بن حارثة ﴿ ادعوهم لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ الله ﴾ [الأحزاب : 5] فمعنى أن نسبته لأبيه أقسط أن رسول الله لم يكُنْ جائراً ، فما فعله قِسْط ، لكن فِعْل الله أقسط منه .

فالحق تبارك وتعالى لم يُخطِّىء رسوله صلى الله عليه وسلم ، وسمّى فِعْله عدلاً ، وهو

عَدْل بشرى يناسب ما كان من تمسُّك زيد برسول الله ، وتفضيله له على أهله ، فلم يجد رسول الله أفضلَ من أنْ يتبنَّاه مكافأةً له .

ثم يقول سبحانه : ﴿ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً ﴾ [الفرقان : 43] وكيلاً يتولَّى توجيهه ، ليترك هواه ويتبع الحق ، كما قال سبحانه في موضع آخر : ﴿ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾ [الغاشية : 22] وقال : ﴿ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ الناس حتى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس : 99] وقال : ﴿ إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ البلاغ ﴾ [الشورى : 48] .

فالذي اتبع هواه حتى جعله إلهاً له لا يمكن أنْ تحمله على أنْ يعدل عن هواه ؛ لأن الأهواء مختلفة ، فالبعض يريد أنْ يتمتع بجهد غيره ، فيضع يده في جيوب الآخرين ليسرقهم ، لكن أيسرُّه أن يفعل الناسُ معه مثلَ فِعْله معهم ؟ إذن : هوى صادمَ هوى ، فأيُّهما يغلب ؟ يغلب مَنْ يحكم بلا هوى ، لا لك ولا عليك ، وقضية الحق في ذاتها لا توجد إلا من الله تعالى .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ ﴾

(197/560)

﴿ يَسْمَعُونَ ﴾ [الفرقان : 44] أي : سماع تعقُّل وتدبُّر ، فلو سَمعُوا وعَقِلوا ما وصلتْ بهم المسائل إلى هذا الحدِّ ﴿ إِنْ هُمْ إِلاَّ كالأنعام ﴾ [الفرقان : 44] مع أن الأنعام مُسخَّرة

وتُؤدِّي مهمتها ولم تمتنع عن شيء خُلِقَتْ له ، فقد شبَّههم الله بالأنعام ؛ لأن الأنعام لا يُطلب منها أن تسمع الهداية لأنها مُسخَّرة ، والذي يُطلب منه السماع والهداية هو المخيّر بين أن يفعل أو لا يفعل .

كأن الحق سبحانه يقول : أتظن أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ؟ وكلمة ﴿ أَكْثَرَهُمْ ﴾ [الفرقان : 44] تدل على أن بعضهم يسمع ويعقل ، وهذا من قانون الاحتمال ، فكثير من كفار قريش ناصبوا رسول الله العداء ، وانتهى الأمر بهم إلى أَنْ أسلموا وحَسُن إسلامهم ، إذن : كان فيهم مَنْ يسمع ، ومَنْ يفكر ويعقل ؛ لذلك قال : ﴿ أَكْثَرَهُمْ ﴾ [الفرقان : 44] ليحمي هذا الحكم ، وليحتاط لما سيقع من إيمان هؤلاء البعض ، هذا دِقَّة في تحرِّي الحقيقة .

وسبق أنْ ذكرنا ما كان من أسف المؤمنين حين يفوتهم قَتْل أحد صناديد الكفر في المعركة ، فكانوا يألمون لذلك أشدَّ الألم ، وهم لا يدرون أن حكمة الله كانت تدخرهم للإيمان فيما بعد ، ومنهم خالد ابن الوليد الذي أصبح بعد ذلك سيف الله المسلول .

والأنعام قُلْنا : لا دخلَ لها في مسألة الهداية أو الضلال ؛ لأنها مُسخَّرة لا اختيارَ لها ؛ لذلك ضرب الله بها المثل لليهود : ﴿ كَمَثَلِ الحمار يَحْمِلُ أَسْفَاراً ﴾ [الجمعة : 5] فالحمار مهمته أنْ يحمل فحسب ، أمّا أنت أيها اليهودي فمهمتك أن تحمل وتطبق ، الحمار لا يطبق ؛ لأنه لم يُطلب منه ذلك ، مع أن الحيوان يعرف صاحبه ويعرف طعامه ومكان شرابه ،

ويعرف طريقه ومكان مبيته ، حتى أن أحدهم مات على ظهر جواده ، فسار به الجواد إلى بيته .

(198/560)

إذن : فالأنعام تفهم وتعقل في حدود المهمة التي خلقها الله لها ، ولا تُقصِّر في مهمتها ، أما المهمة الدينية فتعلمها في باطن الأمر ، لكن لا يُطلَب منها شيء الآن ، لأنها انتهتْ من هذه المسألة أولاً ، كما قال سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمانة عَلَى السماوات والأرض والجبال فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإنسان إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً ﴾ [الأحزاب : 72] ؟

فاختاروا أن يكونوا مُسيَّرين بالغريزة محكومين بها ، إذن : فلهم اختيار ، لكن نفّذوا اختيارهم جملةً واحدة من أول الأمر .

خُذْ مثلاً الهدهد وهو من المملوكات التي سخّرها الله لسليمان عليه السلام يقول له : ﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾ [النمل : 22] أيُّ ديمقراطية هذه التي تمتَّع بها الهدهد مع سليمان . ؟ ! إذن : فحتى الحيوانات تعرف هذه القضية ، وإنْ لم يُطلَب منها شيء ، والحيوانات لا يمكن أنْ تفعل شيئاً إلا إذا كان منوطاً بغرائزها وفي

مقدورها .

وسبق أنْ ضربنا مثلاً بالحمار إذا أردتَ منه أن يقفز فوق جدول ماء فإنه ينظر إليه ، فإنْ كان في مقدوره قفزَ ، وإنْ كان فوق مقدوره تراجَع ، ولا يمكن أنْ يُقدِم مهما ضربته ؛ لأنه علم بغريزته أنه فوق إمكاناته ، أما الإنسان فقد يُقدِم على مثل هذا دون حساب للإمكانات ، فيُوقع نفسه فيما لا تُحمد عقباه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(199/560)

فائدة

قال ابن القيم :

قوله تعالى ﴿ أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا ﴾

فشبه أكثر الناس بالأنعام والجامع بين النوعين التساوي في عدم قبول الهدى والانقياد له وجعل الأكثرين أضل سبيلا من الأنعام لأن البهيمة يهديها سائقها فتهتدي وتتبع الطريق فلا تحيد عنها يمينا ولا شمالا والأكثرون يدعوهم الرسل ويهدونهم السبيل فلا يستجيبون ولا

يهتدون ولا يفرقون بين ما يضرهم وبين ما ينفعهم والأنعام تفرق بين ما يضرها من النبات والطريق فتتجنبه وما ينفعها فتؤثره والله تعالى لم يخلق للأنعام قلوبا تعقل بها ولا ألسنة تنطق بها وأعطى ذلك لهؤلاء ثم لم ينتفعوا بما جعل لهم من العقول والقلوب والألسنة والأسماع والأبصار فهم أضل من البهائم فإن من لا يهتدي إلى الرشد وإلى الطريق مع الدليل إليه أضل وأسوأ حالا ممن لا يهتدي حيث لا دليل معه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أعلام الموقعين حـ 1 صـ 159 ﴾

(200/560)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا (43) ﴾

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس في قوله ﴿ أرأيت من اتخذ إلهه هواه ﴾ قال : كان الرجل يعبد الحجر الأبيض زماناً من الدهر في الجاهلية ، فإذا وجد حجراً أحسن منه رمى به وعبد الآخر ، فأنزل الله الآية .

وأخرج ابن مردويه عن أبي رجاء العطاردي قال : كانوا في الجاهلية يأكلون الدم بالعلهز

ويعبدون الحجر ، فإذا وجدوا ما هو أحسن منه رموا به وعبدوا الآخر ، فإذا فقدوا الآخر أمروا منادياً فنادى : أيها الناس إن إلهكم قد ضل فالتمسوه . فانزل الله هذه الآية ﴿ أرأيت من اتخذ إلهه هواه ﴾ .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ أرأيت من اتخذ إلهه هواه ﴾ قال : ذاك الكافر اتخذ دينه بغير هدى من الله ولا برهان .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم عن الحسن ﴿ أرأيت من اتخذ إلهه هواه ﴾ قال : لا يهوى شيئاً إلا تبعه .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن قتادة ﴿ أرأيت من اتخذ إلهه هواه ﴾ قال : كلما هوى شيئاً ركبه ، وكلما اشتهى شيئاً أتاه . لا يحجزه عن ذلك ورع ولا تقوى .

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن أنه قيل له : في أهل القبلة شرك ؟ فقال : نعم . المنافق مشرك ، إن المشرك يسجد للشمس والقمر من دون الله ، وإن المنافق عند هواه . ثم تلا هذه الآية ﴿ أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلاً ﴾ .

وأخرج الطبراني عن أبي امامة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " ما تحت ظل السماء من إله يعبد من دون الله أعظم عند الله من هوى متبع " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ أم تحسب أن أكثرهم يسمعون ﴾ قال : مثل الذين كفروا كمثل البعير والحمار والشاة . إن قلت لبعضهم كل لم يعلم ما تقول غير أنه يسمع صوتك . كذلك الكافر إن أمرته بخير ، أو نهيته عن شر ، أو وعظته لم يعقل ما تقول غير أنه يسمع صوتك .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل في قوله ﴿ بل هم أضل سبيلاً ﴾ قال : أخطأ السبيل .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 6 صـ ﴾

(202/560)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله : ﴿ إِن يَتَّخِذُونَكَ ﴾ :

" إنْ " نافيةٌ و " هُزُواً " مفعولٌ ثانٍ ، ويحتمل أَنْ يكونَ التقديرُ : موضعَ هُزْء ، وأَنْ يكونَ مَهْزُوّاً بك . وهذه الجملةُ المنفيةُ تحتمل وجهين ، أحدهما : أنها جوابُ الشرطية . واختصَّت " إذا " بأنَّ جوابها متى كان منفياً ب " ما " أو " إنْ " أو " لا " ، لا يَحْتاج إلى

الفاءِ ، بخلافِ غيرِها مِنْ أدواتِ الشرط . فعلى هذا يكون قولُه : " أهذا الذي " في محلِّ نصبٍ بالقولِ المضمرِ . وذلك القولُ المضمرُ في محلِّ نصبٍ على الحالِ أي : إنْ يَتَّخذونك قائلين ذلك . والثاني : أنَّها جملةٌ معترضةٌ بين " إذا " وجوابِها ، وجوابُها : هو ذلك القولُ المضمرُ المَحْكيُّ به " أهذا الذي " والتقديرُ : وإذا رَأَوْك قالوا : أهذا الذي بعثَ ، فاعترض بجملة النفي . ومفعولُ " بَعَثَ " محذوفٌ هو عائدُ الموصولِ أي : بَعَثَه . و " رسولاً " على بابِه من كونِه صفةً فينتصبُ على الحالِ . وقيل هو مصدرٌ / بمعنى رِسالة فيكونُ على حَذْفِ مضافٍ أي : ذا رسولٍ ، بمعنى : ذا رسالة ، أو يُجْعَلُ نفسَ المصدرِ مبالغةً ، أو بمعنى مُرْسَل . وهو تكلُّف .

قوله : ﴿ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا ﴾ : قد تقدَّم نظيرُه في " سبحان " .

قوله : ﴿ لَوْلاَ أَن صَبَرْنَا ﴾ جوابُها محذوفٌ أي : لضَلَلْنا عن آلهتِنا ، قال الزمخشري : " ولولا في مثلِ هذا الكلامِ جارٍ من حيث المعنى لا من حيث الصنعةُ مَجْرى التقييدِ للحكمِ المطلقِ " .

(203/560)

قوله : ﴿ مَنْ أَضَلُّ ﴾ جملةُ الاستفهامِ معلّقةٌ لـ "يَعْلمون" ، فهي سادّةٌ مَسَدَّ مفعولَيْها إنْ كانَتْ على بابِها ، ومَسَدَّ واحدٍ إنْ كانَتْ بمعنى عَرَفَ . ويجوزُ في "مَنْ" أَنْ تكنَ موصولةً . و "أَضَلُّ" خبرُ مبتدأ مضمرٍ ، هو العائدُ على "مَنْ" تقديرُه : مَنْ هو أضلُّ . وإنما حُذِفَ للاستطالةِ بالتمييزِ كقولِهم : "ما أنا بالذي قائلٌ لك سوءاً" ، وهذا ظاهرٌ إن كانَتْ متعديةً لواحد ، وإنْ كانَتْ متعديةً لاثنين فتحتاجُ إلى تقديرِ ثانٍ ولا حاجةَ إليه .

قوله : ﴿ مَنِ اتخذ إلهه هَوَاهُ ﴾ مفعولا الاتّخاذِ مِنْ غيرِ تقديمٍ ولا تأخيرٍ لاستوائِهما في التعريفِ ، وقال الزمخشري : "فإن قلتَ : لِمَ أَخَّر "هواه" والأصلُ قولُك : اتَّخذ الهوى إلهاً" ؟ قلت : ما هو إلاَّ تقديمُ المفعولِ الثاني على الأولِ للعنايةِ به ، كما تقولُ "عَلِمْتُ منطلقاً زيداً" لفضلِ عنايتِك بالمنطلقِ" . قال الشيخ : "وادّعاءُ القلبِ يعني التقديمَ ليس بجيدٍ لأَنَّه من ضرائرِ الأشعارِ" . قلت : قد تقدَّم فيه ثلاثةُ مذاهبَ . على أنَّ هذا ليس من القلبِ المذكورِ في شيء ، إنما هو تقديمٌ وتأخيرٌ فقط .

وقرأ ابن هرمز "إلاهَةً هواه" على وزنِ فِعالة . والإَهة بمعنى : المألوه ، والهاءُ للمبالغةِ كعلاَّمَة ونسَّابة . وإلاهَةً مفعولٌ ثانٍ قُدِّم لكونِه نكرةً ، ولذلك صُرِفَ . وقيل : الإَهَةً هي الشمسُ . ورُدَّ هذا : بأَنَّه كان ينبغي أن يمتنعَ من الصرفِ للعلميةِ والتأنيث . وأُجيب بأنها تدخُل عليها أل كثيراً فلمَّا نُزِعَتْ منها صارَتْ نكرةً جاريةً مجرى الأوصافِ . ويُقال : أُلاهَة بضمِّ الهمزةِ أيضاً اسماً للشمس .

(204/560)

وقرأ بعضُ المدنيين "آلهةً هواه" جمع إلَه ، وهو أيضاً مفعولٌ مقدَّمٌ ، وجُمِع باعتبارِ الأنواعِ ، فقد كان الرجلُ يعبُدُ آلهةً شتى . ومفعولُ "أرأيتَ" الأولِ "مَنْ" ، والثاني : الجملةُ الاستفهاميةُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الدر المصون حـ 8 صـ 485.487﴾

(205/560)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا (41) ﴾

كانت تكون له سلوة لو ذكر حالته وشكا إليه قصته ، فإذا أخبر اللَّهُ وقصَّ عليه ما كان يلاقيه كان أَوْجَبَ للسَّلْوَةِ وأقربَ من الأُنْس ، وغايةُ سلوةِ أربابِ المحن أن يذكروا لأحبائهم ما لقوا في أيام امتحانهم كما قال قائلُهم :

يودُّ بأن يمشي سقيماً لعَلَّها . . . إذا سمعت منه بشكوى تراسله

ويهتزُّ للمعروفِ في طَلَبِ العلَى . . . لتُذْكَرَ يوماً عند سلمى شمائلُه

وأخبر أنهم كانوا ينظرون إليه – عليه السلام بعين الازدراءِ ولا تصغيرِ لشأنه ؛ لأنهم كانوا لا يعرفون قَدْرَه ، قال تعالى : ﴿ وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف : 198] .

أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا (43)

كانوا يعبدون من الأصنام ما يَهْوَوْن ؛ يستبدلون صنماً بصنم ، وكانوا يَجْرُون على مقتضى ما يقع لهم . والمؤمنُ بِحُكْمِ اللَّهِ لا بحكم نفسه ، وبهذا يتضح الفرقان بين رجل وبين رجل . والذي يعيش على ما يقع له فعابِدُ هواه ، وملتحِقٌ بالذين ذكرهم الحقُّ بالسوءِ في هذه الآية .

أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا (44)

كالأنعام التي ليس لها هَمٌّ إلاَّ في أَكْلَةٍ وشَرْبَة ، ومَنْ استجلب حظوظ نَفْسِه فكالبهائم . وإنَّ الله – سبحانه – خَلَقَ الملائكةَ وعلى العقلِ جَبَلَهم ، والبهائمَ وعلى الهوى فَطَرَهم ، وبنى آدم وركّبَ فيهم الأمْرَيْن ؛ فَمَنْ غَلَبَ هواه عَقْلَه فهو شرٌّ من البهائم ، ومَنْ غَلَبَ عَقْلُه هواه فهو خيرٌ من الملائكة . . . كذلك قال المشايخ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 637.638 ﴾

فصل

قال الشيخ سيد قطب فى الآيات السابقة :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا (21) ﴾

يبدأ هذا الشوط من السورة بما يشبه بدء الشوط الأول ، ويسير سيرته في تقديم ما يتطاول به المشركون على ربهم ، وما يتفوهون به من اعتراضات واقتراحات ، مقدمة لما يتطاولون به على رسول الله صلى الله عليه وسلم في مقام تسليته وتعزيته . غير أن السياق هنا يعجل بعرض ما ينتظرهم من عذاب الآخرة عقاباً على ذلك التطاول ، في سلسلة متصلة من مشاهد القيامة ، رداً على قولهم : ﴿ لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا ﴾ . . ثم يعرض اعتراضاتهم على تنزيل القرآن منجماً ، ويعقب ببيان الحكمة من تنزيله متتابعاً ، ويطمئن رسول الله صلى الله عليه وسلم على عون الله له كلما تحدوه في جدل : ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً . . ويعرض عليه وعليهم مصارع المكذبين قبلهم ، ويوجه نظرهم إلى مصرع قوم لوط ، وهم يمرون على قريته المدمرة ، مستنكراً ألا يحرك قلوبهم منظرها وهم يمرون عليها . . كل أولئك مقدمة لعرض استهزائهم بشخصه صلى الله عليه

وسلم وتطاولهم على مقامه ، وما يكاد يعرض هذا حتى يعقب عليه تعقيباً قوياً ، يحقرهم فيه ويحتقرهم : ﴿ إِن هم إلا كالأنعام ، بل هم أضل سبيلاً ﴾ . .

(207/560)

﴿ وقال الذين لا يرجون لقاءنا : لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا ! لقد استكبروا في أنفسهم ، وعتوا عتواً كبيراً . يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ، ويقولون : حجراً محجوراً . وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً . أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلاً . ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلاً . الملك يومئذ الحق للرحمن وكان يوماً على الكافرين عسيراً . ويوم يعض الظالم على يديه ، يقول : يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً . يا ويلتا ! ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً . لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني ، وكان الشيطان للإنسان خذولاً ﴾ . .

إن المشركين لا يرجون لقاء الله ، أي لا ينتظرون هذا اللقاء ، ولا يحسبون حسابه ، ولا يقيمون حياتهم وتصرفاتهم على أساسه . ومن ثم لا تستشعر قلوبهم وقار الله وهيبته وجلاله ، فتنطلق ألسنتهم بكلمات وتصورات لا تصدر عن قلب يرجو لقاء الله .

﴿ وقال اللذين لا يرجون لقاءنا : لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا ! ﴾ . .

فقد كانوا يستبعدون أن يكون الرسول بشراً ؛ وكانوا يطلبون ، لكي يؤمنوا بالعقيدة التي يدعوهم إليها ، أن تنزل عليهم الملائكة تشهد بها ، أو أن يروا الله سبحانه وتعالى فيصدقوا . . وهو تطاول على مقام الله سبحانه . تطاول الجاهل المستهتر الذي لا يحس جلال الله في نفسه ، ولا يقدر الله حق قدره . فمن هم حتى يتطاولوا هذا التطاول ؟ من هم إلى جوار الله العظيم الجبار المتكبر ؟ من هم وهم في ملك الله وخلقه كالذرة التائهة الصغيرة ، إلا أن يربطوا أنفسهم بالله عن طريق الإيمان فيستمدوا منه قيمتهم .

. ومن ثم يرد عليهم في نفس الآية قبل أن تنتهي ، يكشف عن منبع هذا التطاول :

﴿ لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتواً كبيراً ﴾ . .

(208/560)

لقد عظم شأنهم في نظر أنفسهم ، فاستكبروا واطغوا طغياناً كبيراً . لقد تضخم شعورهم بأنفسهم حتى شغلهم عن تقدير القيم الحقيقية ووزنها وزناً صحيحاً . لقد عادوا ما يحسون إلا أنفسهم وقد كبرت في أعينهم وتضخمت وعظمت ، حتى ليحسبونهم شيئاً عظيماً في هذا الكون يستحق أن يظهر لهم الله جل جلاله ليؤمنوا ويصدقوا !

ثم يسخر منهم بصدق وحق ، إذ يطلعهم على الهول الذي ينتظرهم يوم يرون الملائكة ورؤية

الملائكة هي أقل الطلبين تطاولاً فإنهم لا يرون الملائكة إلا في يوم عصيب هائل ، ينتظرهم فيه العذاب الذي لا طاقة لهم به ، ولا نجاة لهم منه . ذلك هو يوم الحساب والعقاب :

﴿ يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين . ويقولون : حجراً محجوراً . وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً ﴾ . .

يوم يتحقق اقتراحهم الذي اقترحوه : ﴿ يوم يرون الملائكة ﴾ يومئذ لا يبشر المجرمون ولكن يعذبون . فيالها من استجابة لما يقولون ! يومئذ يقولون : ﴿ حجراً محجوراً ﴾ أي حراماً محرماً . وهي جملة اتقاء للشر وللأعداء كانوا يقولونها استبعاداً لأعدائهم وتحرزاً من أذاهم . وهي تجري في ذلك اليوم على ألسنتهم بحكم العادة من الذهول حين يفاجأون . ولكن أين هم اليوم مما كانوا يقولون ! إن الدعاء لا يعصمهم ولا يمنعهم :

﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً ﴾ . .

هكذا في لحظة . والخيال يتبع حركة القدوم المجسمة المتخيلة على طريقة القرآن في التجسيم والتخييل وعملية الإثارة للأعمال ، والتذرية في الهواء ، فإذا كل ما عملوا في الدنيا من عمل صالح هباء . ذلك أنه لم يقم على الإيمان ، الذي يصل القلب بالله ، والذي يجعل العمل الصالح منهجاً مرسوماً وأصلاً قاصداً ، لا خبط عشواء ، ولا نزوة طارئة ، ولا حركة مبتورة لا قصد لها ولا غاية . فلا قيمة لعمل مفرد لا يتصل بمنهج ، ولا فائدة لحركة مفردة ليست حلقة من سلسلة ذات هدف معلوم .

إن وجود الإنسان وحياته وعمله في نظرة الإسلام موصولة كلها بأصل هذا الكون ، وبالناموس الذي يحكمه ، والذي يصله كله بالله . بما فيه الإنسان وما يصدر عنه من نشاط . فإذا انفصل الإنسان بحياته عن المحور الرئيسي الذي يربطه ويربط الكون ، فإنه يصبح لقي ضائعاً لا وزن له ولا قيمة ، ولا تقدير لعمله ولا حساب . بل لا وجود لهذا العمل ولا بقاء .

والإيمان هو الذي يصل الإنسان بربه ؛ فيجعل لعمله قيمة ووزناً ، ويجعل له مكانه في حساب هذا الكون وبنائه .

وهكذا تعدم أعمال أولئك المشركين . تعدم إعداماً يصوره التعبير القرآني تلك الصورة الحسية المتخيلة :

﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً ﴾ .

.

وهنا يلتفت إلى الجانب الآخر فإذا المؤمنون أصحاب الجنة ليتم التقابل في المشهد :

﴿ أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلاً ﴾ . .

فهم مستقرون مستروحون ناعمون في الظلال . والاستقرار هنا يقابل خفة الهباء المنثور . والاطمئنان يقابل الفزع الذي يطلق الاستعاذة في ذهول .

ولقد كان الكفار يقترحون أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة . وربما كان ذلك تأثراً بالأساطير الإسرائيلية التي كانت تصور الإله يتراءى لهم في سحابة أو عمود من النار . فهنا يعود ليرسم مشهداً آخر يوم يتحقق اقتراحهم بنزول الملائكة إليهم :

﴿ ويوم تشقق السماء بالغمام ، ونزل الملائكة تنزيلاً . الملك يومئذ الحق للرحمن . وكان يوماً على الكافرين عسيراً ﴾ .

(210/560)

وهذه الآية وكثير غيرها في القرآن يقرر أن أحداثاً فلكية ضخمة ستتم في ذلك اليوم . وكلها تشير إلى اختلال كامل في النظام الذي يربط أجزاء هذا الكون المنظور وأفلاكه ونجومه وكواكبه . وإلى انقلاب في أوضاعه وأشكاله وارتباطاته ، تكون به نهاية هذا العالم . وهو انقلاب لا يقتصر على الأرض ، إنما يشمل النجوم والكواكب والأفلاك . ولا بأس من استعراض مظاهر هذا الانقلاب كما جاءت في سور متعددة . ﴿ إذا الشمس كورت وإذا النجوم انكدرت . وإذا الجبال سيرت . . . وإذا البحار سجرت ﴾ ﴿ إذا السماء

انفطرت . وإذا الكواكب انتثرت . وإذا البحار فجرت . وإذا القبور بعثرت ﴾ ﴿ إذا السماء انشقت . وأذنت لربها وحقت . وإذا الأرض مدت . وألقت ما فيها وتخلت . وأذنت لربها وحقت ﴾ ﴿ فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان ﴾ ﴿ إذا رجت الأرض رجا . وبست الجبال بسا . فكانت هباء منبثاً ﴾ ﴿ فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة . وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة . فيومئذ وقعت الواقعة ؛ وانشقت السماء فهي يومئذ واهية ﴾ ﴿ يوم تكون السماء كالمهل ، وتكون الجبال كالعهن ﴾ ﴿ إذا زلزلت الأرض زلزالها . وأخرجت الأرض أثقالها ﴾ ﴿ يوم يكون الناس كالفراش المبثوث . وتكون الجبال كالعهن المنفوش ﴾ ﴿ فارتقبت يوم تأتي السماء بدخان مبين ، يغشى الناس هذا عذاب أليم ﴾ ﴿ يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيباً مهيلاً ﴾ ﴿ السماء منفطر به ﴾ ﴿ إذا دكت الأرض دكاً ﴾ ﴿ فإذا برق البصر ، وخسف القمر ، وجمع الشمس والقمر ﴾ ﴿ فإذا النجوم طمست ، وإذا السماء فرجت ، وإذا الجبال نسفت ﴾ ﴿ ويسألونك عن الجبال فقل : ينسفها ربي نسفاً ، فيذرها قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً ﴾ ﴿ وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب ﴾ ﴿ ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة ﴾ ﴿ يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات ﴾ ﴿ يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب ﴾ فهذه الآيات كلها تنبئ بأن نهاية عالمنا هذا ستكون نهاية مروعة ،

ترج فيها الأرض وتدك ، وتنسف فيها الجبال ، وتتفجر فيها البحار إما بامتلائها من أثر الاضطراب ؛ وإما بتفجر ذراتها واستحالتها ناراً . كذلك تطمس فيها النجوم وتنكدر ، وتشقق فيها السماء وتنفطر ، وتتحطم فيها الكواكب وتنتثر ، وتختل المسافات فيجمع الشمس والقمر ، وتبدو السماء مرة كالدخان ومرة متلهبة حمراء .

. إلى آخر هذا الهول الكوني الرعيب .

وفي هذه السورة الفرقان يخوف الله المشركين بتشقق السماء بالغمام . وقد يكون هو السحب المتراكمة من أبخرة تلك الانفجارات المروعة . وتنزل الملائكة يومئذ على الكافرين كما كانوا يقترحون ، لا لتصديق الرسول صلى الله عليه وسلم ولكن ليتولوا عذابهم بأمر ربهم ﴿ وكان يوماً على الكافرين عسيراً ﴾ بما فيه من هول ، وبما فيه من عذاب . . فما لهم يقترحون نزول الملائكة وهم لا ينزلون إلا في مثل ذلك اليوم العسير ؟

ثم يعرض مشهداً من مشاهد ذلك اليوم ، يصور ندم الظالمين الضالين . يعرضه عرضاً طويلاً مديداً ، يخيل للسامع أنه لن ينتهي ولن يبرح . مشهد الظالم يعض على يديه من الندم والأسف والأسى :

﴿ ويوم يعض الظالم على يديه : يقول : يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً . يا ويلتا ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً . لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني وكان الشيطان للإنسان خذولاً ﴾ . .

ويصمت كل شيء من حوله ؛ ويروح يمد في صوته المتحسر ، ونبراته الأسيفة ؛ والإيقاع الممدود يزيد الموقف طولاً ويزيد أثره عمقاً . حتى ليكاد القارىء للآيات والسامع يشاركان في الندم والأسف والأسى !

﴿ ويوم يعض الظالم على يديه ﴾ . . فلا تكفيه يد واحدة يعض عليها . إنما هو يداول بين هذه وتلك ، أو يجمع بينهما لشدة ما يعانيه من الندم اللاذع المتمثل في عضه على اليدين . وهي حركة معهودة يرمز بها إلى حالة نفسية فيجسمها تجسيماً .

(212/560)

﴿ يقول : يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً ﴾ . . فسلكت طريقه ، لم أفارقه ، ولم أضل عنه . . الرسول الذي كان ينكر رسالته ويستبعد أن يبعثه الله رسولاً !

﴿ يا ويلتا ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً ﴾ . . فلاناً بهذا التجهيل ليشمل كل صاحب سوء يصد عن سبيل الرسول ويضل عن ذكر الله . . ﴿ لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني

﴾ . . لقد كان شيطاناً يضل ، أو كان عوناً للشيطان ﴿ وكان الشيطان للإنسان خذولاً ﴾ يقوده إلى مواقف الخذلان ، ويخذله عند الجد ، وفي مواقف الهول والكرب . .

وهكذا راح القرآن يهز قلوبهم هزاً بهذه المشاهد المزلزلة ، التي تجسم لهم مصيرهم المخيف ، وتريهم إياه واقعاً مشهوداً ، وهم بعد في هذه الأرض ، يكذبون بلقاء الله ، ويتطاولون على مقامه دون توقير ، ويقترحون الاقتراحات المستهترة والهول المرعب ينتظرهم هناك والندم الفاجع بعد فوات الأوان .

وبعد هذه الجولة في اليوم العسير يعود بهم إلى الأرض يستعرض موقفهم مع الرسول صلى الله عليه وسلم واعتراضاتهم على طريقة تنزيل القرآن . ثم ينهي هذه الجولة بمشهدهم كذلك يوم الحشر والنشور :

﴿ وقال الرسول يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً . وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من المجرمين ، وكفى بربك هادياً ونصيراً . وقال الذين كفروا : لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة .

كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلاً . ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً . الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم أولئك شر مكاناً وأضل سبيلاً ﴾ .

لقد هجروا القرآن الذي نزله الله على عبده لينذرهم . ويبصرهم . هجروه فلم يفتحوا له أسماعهم إذ كانوا يتقون أن يجتذبهم فلا يملكون لقلوبهم عنه رداً . وهجروه فلم يتدبروه

ليدركوا الحق من خلاله ، ويجدوا الهدي على نوره . وهجروه فلم يجعلوه دستور حياتهم ، وقد جاء ليكون منهاج حياة يقودها إلى أقوم طريق :

﴿ وقال الرسول : يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً ﴾ . .

(213/560)

وإن ربه ليعلم ؛ ولكنه دعاء البث والإنابة ، يشهد به ربه على أنه لم يأل جهداً ، ولكن قومه لم يستمعوا لهذا القرآن ولم يتدبروه .

فيسليه ربه ويعزيه . فتلك هي السنة الجارية قبله في جميع الرسالات . فلكل نبي أعداء يهجرون الهدى الذي يجيئهم به ، ويصدون عن سبيل الله . ولكن الله يهدي رسله إلى طريق النصر على أعدائهم المجرمين :

﴿ وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من المجرمين . وكفى بربك هادياً ونصيراً ﴾ . .

ولله الحكمة البالغة . فإن بروز المجرمين لحرب الأنبياء والدعوات يقوي عودها ؛ ويطبعها بطابع الجد الذي يناسب طبيعتها . وكفاح أصحاب الدعوات للمجرمين الذي يتصدون لها مهما كلفهم من مشقة وكلف الدعوات من تعويق هو الذي يميز الدعوات الحقة من الدعاوى الزائفة ؛ وهو الذي يمحص القائمين عليها ، ويطرد الزائفين منهم ؛ فلا يبقى

بجوارها إلا العناصر المؤمنة القوية المتجردة ، التي لا تبتغي مغانم قريبة . ولا تريد إلا الدعوة خالصة ، تبتغي بها وجه الله تعالى .

(214/560)

ولو كانت الدعوات سهلة ميسورة ، تسلك طرقاً ممهدة مفروشة بالأزهار ، ولا يبرز لها في الطريق خصوم ومعارضون ، ولا يتعرض لها المكذبون والمعاندون ، لسهل على كل إنسان أن يكون صاحب دعوة ، ولاختلطت دعوات الحق ودعاوى الباطل ، ووقعت البلبلة والفتنة . ولكن بروز الخصوم والأعداء للدعوات ، هو الذي يجعل الكفاح لانتصارها حتماً مقضياً ، ويجعل الآلام والتضحيات لها وقوداً . فلا يكافح ويناضل ، ويحتمل الآلام والتضحيات إلا أصحاب دعوة الحق الجادون المؤمنون ، الذين يؤثرون دعوتهم على الراحة والمتاع ، وأعراض الحياة الدنيا . بل على الحياة نفسها حين تقتضيهم دعوتهم أن يستشهدوا في سبيلها . ولا يثبت على الكفاح المرير إلا أصلبهم عوداً ، وأشدهم إيماناً ، وأكثرهم تطلعاً إلى ما عند الله واستهانة بما عند الناس . . عندئذ تتميز دعوة الحق من دعاوى الباطل . وعندئذ تمحص الصفوف فيتميز الأقوياء من الضعفاء . وعندئذ تمضي دعوة الحق في طريقها برجالها الذين ثبتوا عليها ، واجتازوا امتحانها وبلاءها . أولئك هم

الأمناء عليها الذين يحتملون تكاليف النصر وتبعاته . وقد نالوا هذا النصر بثمنه الغالي ، وأدوا ضريبته صادقين مؤثرين . وقد علمتهم التجارب والابتلاءات كيف يسيرون بدعوتهم بين الأشواك والصخور . وقد حفزت الشدائد والمخاوف كل طاقاتهم ومقدراتهم ، فنما رصيدهم من القوة وذخيرتهم من المعرفة .

فيكون هذا كله رصيداً للدعوة التي يحملون رايتها على السراء والضراء .

(215/560)

والذي يقع غالباً أن كثرة الناس تقف متفرجة على الصراع بين المجرمين وأصحاب الدعوات ؛ حتى إذا تضخم رصيد التضحيات والآلام في صف أصحاب الدعوات ، وهم ثابتون على دعوتهم ، ماضون في طريقهم ، قالت الكثرة المتفرجة أو شعرت أنه لا يمسك أصحاب الدعوة على دعوتهم على الرغم من التضحيات والآلام ، إلا أن في هذه الدعوة ما هو أغلى مما يضحون به وأثمن . . وعندئذ تتقدم الكثرة المتفرجة لترى ما هو هذا العنصر الغالي الثمين الذي يرجح كل أعراض الحياة ، ويرجح الحياة ذاتها عند أصحاب الدعوة .

وعندئذ يدخل المتفرجون أفواجاً في هذه العقيدة بعد طول التفرج بالصراع !

من أجل هذا كله جعل الله لكل نبي عدواً من المجرمين ؛ وجعل المجرمين يقفون في وجه دعوة

الحق ، وحملة الدعوة يكافحون المجرمين ، فيصيبهم ما يصيبهم وهم ماضون في الطريق ، والنهاية مقدرة من قبل ، ومعروفة لا يخطئها الواثقون بالله . إنها الهداية إلى الحق ، والانتهاء إلى النصر : ﴿ وكفى بربك هادياً ونصيراً ﴾ .

(216/560)

وبروز المجرمين في طريق الأنبياء أمر طبيعي . فدعوة الحق إنما تجيء في أوانها لعلاج فساد واقع في الجماعة أو في البشرية . فساد في القلوب ، وفساد في النظم ، وفساد في الأوضاع . ووراء هذا الفساد يكمن المجرمون ، الذين ينشئون الفساد من ناحية ، ويستغلونه من ناحية . والذين تتفق مشاربهم مع هذا الفساد ، وتتنفس شهواتهم في جوه الوبيء . والذين يجدون فيه سنداً للقيم الزائفة التي يستندون هم في وجودهم إليها . . فطبيعي إذن أن يبرزوا للأنبياء وللدعوات دفاعاً عن وجودهم ، واستبقاء للجو الذي يملكون أن يتنفسوا فيه . وبعض الحشرات يختنق برائحة الأزهار العبقة ، ولا يستطيع الحياة إلا في المقاذر ، وبعض الديدان يموت في الماء الطاهر الجاري ، ولا يستطيع الحياة إلا في المستنقع الآسن . وكذلك المجرمون . . فطبيعي إذن أن يكونوا أعداء لدعوة الحق ، يستميتون في كفاحها . وطبيعي أن تنتصر دعوة الحق في النهاية ، لأنها تسير مع خط الحياة ، وتتجه إلى الأفق

الكريم الوضيء الذي تتصل فيه بالله ، والذي تبلغ عنده الكمال المقدر لها كما أراد الله . .

﴿ وكفى بربك هادياً ونصيراً ﴾ . .

ثم يمضي في استعراض مقولات المجرمين الذين يقفون في وجه دعوة القرآن ، والرد عليها :

﴿ وقال الذين كفروا : لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة . كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلاً ﴾ . .

ولقد جاء هذا القرآن ليربي أمة ، وينشئ مجتمعاً ، ويقيم نظاماً . والتربية تحتاج إلى زمن وإلى تأثر وانفعال بالكلمة ، وإلى حركة تترجم التأثر والانفعال إلى واقع . والنفس البشرية لا تتحول تحولاً كاملاً شاملاً بين يوم وليلة بقراءة كتاب كامل شامل للمنهج الجديد . إنما تتأثر يوماً بعد يوم بطرف من هذا المنهج ؛ وتتدرج في مراقيه رويداً رويدا ، وتعتاد على حمل تكاليفه شيئاً فشيئاً ، فلا تجفل منه كما تجفل لو قدم لها ضخماً ثقيلاً عسيراً .

(217/560)

وهي تنمو في كل يوم بالوجبة المغذية فتصبح في اليوم التالي أكثر استعداداً للانتفاع بالوجبة الثالثة ، وأشد قابلية لها والتذاذاً بها .

ولقد جاء القرآن بمنهاج كامل شامل للحياة كلها . وجاء في الوقت ذاته بمنهاج للتربية يوافق

الفطرة البشرية عن علم بها من خالقها . فجاء لذلك منجماً وفق الحاجات الحية للجماعة المسلمة ، وهي في طريق نشأتها ونموها . ووفق استعدادها الذي ينمو يوماً بعد يوم في ظل المنهج التربوي الإلهي الدقيق . جاء ليكون منهج تربية ومنهاج حياة لا ليكون كتاب ثقافة يقرأ لمجرد اللذة أو لمجرد المعرفة . جاء لينفذ حرفاً حرفاً وكلمة كلمة ، وتكليفاً تكليفاً .

جاء لتكون آياته هي " الأوامر اليومية " التي يتلقاها المسلمون في حينها ليعملوا بها فور تلقيها ، كما يتلقى الجندي في ثكنته أو في الميدان " الأمر اليومي " مع التأثر والفهم والرغبة في التنفيذ ؛ ومع الانطباع والتكيف وفق ما يتلقاه . .

من أجل هذا كله نزل القرآن مفصلاً . يبين أول ما يبين عن منهجه لقلب الرسول صلى الله عليه وسلم ويثبته على طريقه ؛ ويتتابع على مراحل الطريق رتلاً بعد رتل ، وجزءاً بعد جزء :

﴿ كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلاً ﴾ . .

والترتيل هنا هو التتابع والتوالي وفق حكمة الله وعلمه بحاجات تلك القلوب واستعدادها للتلقي . .

ولقد حقق القرآن بمنهجه ذاك خوارق في تكييف تلك النفوس التي تلقته مرتلاً متتابعاً ، وتأثرت به يوماً يوماً ، وانطبعت به أثراً أثراً . فلما غفل المسلمون عن هذا المنهج ، واتخذوا القرآن كتاب متاع للثقافة ، وكتاب تعبد للتلاوة ، فحسب ، لا منهج تربية للانطباع

والتكيف ومنهج حياة للعمل والتنفيذ . لم ينتفعوا من القرآن بشيء ، لأنهم خرجوا عن منهجه الذي رسمه العليم الخبير . .

ويمضي في تثبيت الرسول صلى الله عليه وسلم وتطمينه على إمداده بالحجة البالغة كلما فتحوا له باباً من الجدل ، وكلما اقترحوا عليه اقتراحاً ، أو اعترضوا عليه اعتراضاً :

(218/560)

﴿ ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً ﴾ . .

وإنهم ليجادلون بالباطل ، والله يرد عليهم باطلهم بالحق الذي يدمغه . والحق هو الغاية التي يريد القرآن تقريرها ، وليس مجرد الانتصار في الجدل ، ولا الغلب في المحاجة . إنما هو الحق القوي بنفسه ، الواضح الذي لا يلتبس به الباطل .

والله سبحانه يعد رسوله صلى الله عليه وسلم بالعون في كل جدل يقوم بينه وبين قومه . فهو على الحق ، والله يمده بالحق الذي يعفى على الباطل . فأنى يقف جدلهم لحجة الله البالغة ؟ وأنى يقف باطلهم للحق الدامغ الذي يتنزل من عند الله ؟

وتنتهي هذه الجولة بمشهد هم يحشرون على وجوههم يوم القيامة ، جزاء تأبيهم على الحق ، وانقلاب مقاييسهم ومنطقهم في جدلهم العقيم :

﴿ الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم .

أولئك شر مكاناً وأضل سبيلاً ﴾ . .

ومشهد الحشر على الوجوه فيه من الإهانة والتحقير والانقلاب ، ما يقابل التعالي والاستكبار ، والإعراض عن الحق . وهو يضع هذا المشهد أمام الرسول صلى الله عليه وسلم تعزية له عما يلقاه منهم . ويضعه أمامهم تحذيراً لهم مما ينتظرهم . وهو مشهد مجرد عرضه يذل كبرياءهم ويزلزل عنادهم ، ويهز كيانهم . وقد كانت هذه الإنذارات تهزهم هزاً ، ولكنهم يتحاملون على أنفسهم ويظلون معاندين .

ثم يجول بهم جولة في مصارع المكذبين من السابقين :

﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب ، وجعلنا معه أخاه هارون وزيراً ؛ فقلنا : اذهبا إلى القوم الذين كذبوا بآياتنا ، فدمرناهم تدميراً . وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم وجعلناهم للناس آية وأعتدنا للظالمين عذاباً أليماً . وعاد وثمود وأصحاب الرس ، وقروناً بين ذلك كثيراً . وكلا ضربنا له الأمثال ، وكلا تبرنا تتبيراً . ولقد أتوا على القرية التي أمطرت مطر السوء ؛ أفلم يكونوا يرونها ؟ بل كانوا لا يرجون نشوراً ﴾ . .

إنها أمثلة مختصرة سريعة ترسم مصائر المكذبين :

فهذا موسى يؤتى الكتاب ويرسل معه أخوه هارون وزيراً ومعيناً . ويؤمر بمواجهة ﴿ القوم الذين كذبوا بآياتنا ﴾ ذلك أن فرعون وملأه كانوا مكذبين بآيات الله حتى قبل إرسال موسى وهارون إليهم ، فآيات الله قائمة دائمة ، والرسل إنما يذكرون بها الغافلين . . وقبل أن تتم الآية الثانية في السياق يرسم مصيرهم في عنف وإجمال ﴿ فدمرناهم تدميراً ﴾ . وهؤلاء قوم نوح : ﴿ لما كذبوا الرسل أغرقناهم ﴾ . . وهم كذبوا نوحاً وحده . ولكن نوحاً إنما جاءهم بالعقيدة الواحدة التي أرسل بها الرسل جميعاً . فلما كذبوه كانوا قد كذبوا الرسل جميعاً . ﴿ وجعلناهم للناس آية ﴾ فإن آية الطوفان لا تنسى على الدهر ، وكل من نظر فيها اعتبر إن كان له قلب يتدبر ﴿ وأعتدنا للظالمين عذاباً أليماً ﴾ فهو حاضر لا يحتاج إلى إعداد . ويظهر لفظ الظالمين بدل الضمير لإثبات هذا الوصف لهم وبيان سبب العذاب . وهؤلاء عاد وثمود وأصحاب الرس والقرون الكثيرة بين ذلك . كلهم لاقوا ذات المصير بعد أن ضربت لهم الأمثال ، فلم يتدبروا القول ، ولم يتقوا البوار والدمار . .

وهذه الأمثلة كلها من قوم موسى ونوح ، وعاد وثمود وأصحاب الرس والقرون الكثيرة بين ذلك ، ومن القرية التي أمطرت مطر السوء وهي قرية لوط كلها تسير سيرة واحدة وتنتهي نهاية واحدة ﴿ وكلا ضربنا له الأمثال ﴾ للعظة والاعتبار ﴿ وكلا تبرنا تتبيراً ﴾ وكانت عاقبة التكذيب هي التحطيم والتفتيت والدمار . والسياق يستعرض هذه الأمثلة

ذلك الاستعراض السريع لعرض هذه المصارع المؤثرة . وينهيها بمصرع قوم لوط وهم يمرون عليه في سدوم في رحلة الصيف إلى الشام . وقد أهلكها الله بمطر بركاني من الأبخرة والحجارة فدمرها تدميراً . ويقرر في نهايته أن قلوبهم لا تعتبر ولا تتأثر لأنهم لا ينتظرون البعث ، ولا يرجون لقاء الله .

فذلك سبب قساوة تلك القلوب . وانطماسها . ومن هذا المعين تنبع تصرفاتهم واعتراضاتهم وسخرياتهم من القرآن ومن الرسول .

(220/560)

وبعد هذا الاستعراض السريع يجيء ذكر استهزائهم برسول الله صلى الله عليه وسلم وقد سبقه تطاولهم على ربهم ، واعتراضهم على طريقة تنزيل القرآن . وسبقه كذلك مشاهدهم المفجعة في يوم الحشر ، ومصارع المكذبين أمثالهم في هذه الأرض . . كل أولئك تطييباً لقلب الرسول صلى الله عليه وسلم قبل ذكر استهزائهم به وتوقحهم عليها . ثم يعقب عليه بتهديدهم وتحقيرهم وتنزيلهم إلى أحط من درك الحيوان .

﴿ وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزواً . أهذا الذي بعث الله رسولاً ؟ إن كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها ؛ وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلاً . أرأيت من

اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلاً ؟ أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ؟ إن هم إلا كالأنعام ، بل هم أضل سبيلاً ﴾ .

ولقد كان محمد صلى الله عليه وسلم ملء السمع والبصر بين قومه قبل بعثته . فقد كان عندهم ذا مكانة من بيته وهو من ذروة بني هاشم وهم ذروة قريش . وكان عندهم ذا مكانة من خلقه وهو الملقب بينهم بالأمين . ولقد ارتضوا حكومته بينهم في وضع الحجر الأسود قبل البعثة بزمن طويل . ويوم دعاهم على الصفا فسألهم أيصدقونه لو أخبرهم أن خيلاً بسفح هذا الجبل قالوا : نعم أنت عندنا غير متهم .

ولكنهم بعد البعثة وبعد أن جاءهم بهذا القرآن العظيم راحوا يهزأون به ويقولون : ﴿ أهذا الذي بعث الله رسولاً ؟ ﴾ وهي قولة ساخرة مستنكرة . . أكان ذلك عن اقتناع منهم بأن شخصه الكريم يستحق منهم هذه السخرية ، وأن ما جاءهم به يستحق منهم هذا الاستهزاء ؟ كلا . إنما كانت تلك خطة مدبرة من كبراء قريش للتصغير من أثر شخصيته العظيمة ومن أثر هذا القرآن الذي لا يقاوم . وكانت وسيلة من وسائل مقاومة الدعوة الجديدة التي تهددهم في مراكزهم الاجتماعية وأوضاعهم الاقتصادية ، وتجردهم من الأوهام والخرافات الاعتقادية التي تقوم عليها تلك المراكز وهذه الأوضاع .

ولقد كانوا يعقدون المؤتمرات لتدبير المؤامرات المحبوكة ، ويتفقون فيها على مثل هذه الوسيلة وهم يعلمون كذبهم فيها عن يقين :

روى ابن إسحاق أن الوليد بن المغيرة اجتمع إليه نفر من قريش وكان ذا سن فيهم وقد حضر الموسم موسم الحج فقال لهم : يا معشر قريش : إنه قد حضر هذا الموسم ، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه ، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا ، فأجمعوا فيه رأياً واحداً ، ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضاً ، ويرد قولكم بعضه بعضاً . قالوا : فأنت يا أبا عبد شمس ، فقل وأقم لنا رأيا نقول به . قال : بل أنتم فقولوا أسمع . قالوا : نقول كاهن . قال : لا والله ما هو بكاهن .

لقد رأينا الكهان فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه . قالوا : فنقول : إنه مجنون قال : ما هو بمجنون ، لقد رأينا الجنون وعرفناه ، فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته . قالوا : فنقول شاعر . قال : ما هو بشاعر ، لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه ، فما هو بالشعر . قالوا : فنقول ساحر . قال : ما هو بساحر ، لقد رأينا السحار وسحرهم ، فما هو بنفثهم ولا عقدهم . قالوا : فما تقول يا أبا عبد شمس ؟ قال : والله إن لقوله طلاوة ، وإن أصله لعذق ، وإن فرعه لجناة وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عرف أنه باطل ، وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا : ساحر جاء بقول هو سحر يفرق بين المرء

وأبيه ، وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجه ، وبين المرء وعشيرته . . فتفرقوا عنه بذلك . فجعلوا يجلسون بسبل الناس حين قدموا الموسم ، لا يمر بهم أحد إلا حذروه إياه ، وذكروا لهم أمره .

(222/560)

فهذا مثل من الكيد والتدبير يشي بحيرة القوم في المؤامرات ضد رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعرفتهم بحقيقته في الوقت ذاته . فما كان اتخاذهم إياه هزواً ، وقولهم ساخرين : ﴿ أهذا الذي بعث الله رسولاً ؟ ﴾ بصورة الاستغراب والاستنكار والزراية إلا طرفاً من تلك المؤامرات المدبرة لا ينبعث عن حقيقة شعورية في نفوسهم ، إنما يتخذ وسيلة للحط من قدره في أعين الجماهير ، التي يحرص سادة قريش على استبقائها تحت وصايتهم الدينية ، استبقاء للمراكز الاجتماعية والأوضاع الاقتصادية التي يتمتعون بها في ظل تلك الوصاية ! شأن قريش في هذا شأن أعداء دعوات الحق ودعاتها في كل زمان وفي كل مكان .

وبينما كانوا يظهرون الهزء والاستخفاف كانت أقوالهم ذاتها تشي بمقدار ما في نفوسهم من شخصه ومن حجته ومن القرآن الذي جاء به ، فيقولون :

﴿ إن كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها ﴾ . .

فلقد زلزل قلوبهم إذن باعترافهم حتى كادوا يتركون آلهتهم وعبادتهم على شدة حرصهم على استبقاء ديانتهم وما وراءها من مراكز ومغانم لولا أنهم قاوموا تأثرهم به وصبروا على آلهتهم ! والصبر لا يكون إلا على المقاومة العنيفة للجاذبية العنيفة . وهم يسمون الهداية إضلالاً لسوء تقديرهم للحقائق وتقويمهم للقيم . ولكنهم لا يملكون إخفاء الزلزلة التي أصابت قلوبهم من دعوة محمد صلى الله عليه وسلم وشخصيته والقرآن الذي معه حتى وهم يتظاهرون بالاستخفاف بشخصه ودعوته ، إصراراً وعناداً . ومن ثم يعاجلهم بالتهديد المجمل الرهيب :

﴿ وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلاً ﴾ . .

فيعلمون إن كان ما جاءهم به هو الهدى أو أنه هو الضلال . ولكن حين لا ينفع العلم ، حين يرون العذاب . سواء أكان ذلك في الدنيا كما ذاقوا يوم بدر ، أم كان في الآخرة كما يذوقون يوم الحساب .

ويلتفت بالخطاب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يعزيه عن عنادهم وجموحهم واستهزائهم ، فهو لم يقصر في الدعوة ، ولم يقصر في الحجة ، ولم يستحق ما لاقوه به من التطاول ، إنما العلة فيهم أنفسهم . 2567 ﴾

(224/560)

فهم يجعلون من هواهم إلها يعبدونه ، ولا يرجعون إلى حجة أو برهان . وماذا يملك الرسول لمن يتخذ إلهه هواه :

«أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ . أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ؟» . .

وهو تعبير عجيب يرسم نموذجا عميقا لحالة نفسية بارزة ، حين تنفلت النفس من كل المعايير الثابتة والمقاييس المعلومة ، والموازين المضبوطة ، وتخضع لهواها ، وتحكم شهواتها وتتعبد ذاتها ، فلا تخضع لميزان ، ولا تعترف بحد ، ولا تقتنع بمنطق ، متى اعترض هواها الطاغي الذي جعلت منه إلها يعبد ويطاع .

والله – سبحانه – يخاطب عبده في رفق ومودة وإيناس في أمر هذا النموذج من الناس : «أَرَأَيْتَ ؟» ويرسم له هذه الصورة الناطقة المعبرة عن ذلك النموذج الذي لا جدوى من المنطق معه ، ولا وزن للحجة ، ولا قيمة للحقيقة ليطيب خاطره من مرارة الإخفاق في

هدايته . فهو غير قابل للهدى ، وغير صالح لأن يتوكل الرسول بأمره ، ولا أن يحفل بشأنه :

«أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ؟» . .

ثم يخطو خطوة أخرى في تحقير هؤلاء الذين يتعبدون هواهم ، ويحكمون شهواتهم ، ويتنكرون للحجة والحقيقة ، تعبدا لذواتهم وهواها وشهواتها . يخطو خطوة أخرى فيسويهم بالأنعام التي لا تسمع ولا تعقل .

ثم يخطو الخطوة الأخيرة فيدحرجهم من مكانة الأنعام إلى درك أسفل وأحط :

«أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ؟ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعامِ . بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا» .

(225/560)

وفي التعبير تحرز وإنصاف ، إذ يذكر «أَكْثَرَهُمْ» ولا يعمم ، لأن قلة منهم كانت تجنح إلى الهدى ، أو تقف عند الحقيقة تتدبرها . فأما الكثرة التي تتخذ من الهوى إلها مطاعا ، والتي تتجاهل الدلائل وهي تطرق الأسماع والعقول ، فهي كالأنعام . وما يفرق الإنسان من البهيمة إلا الاستعداد للتدبر والإدراك ، والتكيف وفق ما يتدبر ويدرك من الحقائق عن بصيرة وقصد وإرادة واقتناع ، ووقوف عند الحجة والاقتناع . بل إن الإنسان حين يتجرد من خصائصه هذه ليكون أحط من البهيمة ، لأن البهيمة تهتدى بما أودعها اللّه من

استعداد ، فتؤدي وظائفها أداء كاملا صحيحا . بينما يهمل الإنسان ما أودعه اللّه من خصائص ، ولا ينتفع بها كما تنتفع البهيمة :

«إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا» . .

وهكذا يعقب على استهزائهم برسول اللّه - صلّى اللّه عليه وسلّم - ذلك التعقيب الذي يخرج المستهزئين من اطار الآدمية في عنف واحتقار ومهانة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 5 صـ 2556. 2567 ﴾

(226/560)

قوله تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا (45) ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا (46) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما بين جمود المعترضين على دلائل الصانع ، وتناهي جهلهم ، وفساد طريقتهم ، وكان المراد من العبد في تعرف ذلك أن ينظر في أفعال سيده بعين الحقيقة نظراً تفنى لديه الأغيار ، فلا يرى إلا الفاعل المختار ، خاطب رأس المخلصين الناظرين هذا النظر ، حثاً لأهل وده

على مثل ذلك ، فقال ذاكراً لأنواع من الدلائل الدالة على وجود الصانع ، وإحاطة علمه ، وشمول قدرته ، مشيراً إلى أن الناظر في هذا الدليل – لوضوحه في الدلالة على الخالق – كالناظر إلى الخالق ، معبراً بوصف الإحسان تشويقاً إلى إدامة النظر إليه والإقبال عليه : ﴿ ألم تر ﴾ وأشار إلى عظم المقام وعلو الرتبة بحرف الغاية مع أقرب الخلق منزلة وأعلاهم مقاماً فقال : ﴿ إلى ربك ﴾ أي المحسن إليك ، والأصل : إلى فعله ؛ وأشار إلى زيادة التعجب من أمره بجعله في معرض الاستفهام فقال : ﴿ كيف مد الظل ﴾ وهو ظلمة ما منع ملاقاة نور الشمس ، قال أبو عبيد : وهو ما تنسخه الشمس وهو بالغداة ، والفيء ما نسخ الشمس وهو بعد الزوال .

والظل هنا الليل لأنه ظل الأرض الممدود على قريب من نصف وجهها مدة تحجب نور الشمس بما قابل قرصها من الأرض حتى امتد بساطه ، وضرب فسطاطه ، كما حجب ظل ضلالهم أنوار عقولهم ، وغفلة طباعهم نفوذ أسماعهم ﴿ ولو شاء لجعله ﴾ أي الظل ﴿ ساكناً ﴾ بإدامة الليل لا تذهبه الشمس كما في الجنة لقوله ﴿ وظل ممدود ﴾ [الواقعة : 30] وإن كان بينهما فرق ، ولكنه لم يشأ ذلك بل جعله متحركاً بسوق الشمس له .

ولما كان إيجاد النهار بعد إعدامه ، وتبيين الظل به غبّ إبهامه ، أمراً عظيماً ، وإن كان قد هان بكثرة الإلف ، أشار بأداة التراخي ومقام العظمة فقال : ﴿ ثم جعلنا ﴾ أي بعظمتنا ﴿ الشمس عليه دليلاً ﴾ أي يدور معها حيثما دارت ، فلولا هي ما ظهر أن لشيء ظلاً ،

ولولا النور ما عرف الظلام ، والأشياء تعرف بأضدادها .

ولما كانت إزالته شيئاً فشيئاً بعد مدة كذلك من العظمة بمكان .

(227/560)

قال منبهاً على فضل مدخول " ثم " وترتبه متصاعداً في درج الفضل ، فما هنا أفضل مما قبله ، وما قبله أجلّ مما تقدمه ، تشبيهاً لتباعد ما بين المراتب الثلاث في الفضل بتباعد ما بين الحوادث في الوقت : ﴿ ثم قبضناه ﴾ أي الظل ، والقبض : جمع المنبسط ﴿ إلينا ﴾ أي إلى الجهة التي نريدها ، لا يقدر أحد غيرنا أن يحوله إلى جهة غيرها ؛ قال الرازي رحمه الله في اللوامع : وهذه الإضافة لأن غاية قصر الظل عند غاية تعالي الشمس ، والعلو موضع الملائكة وجهة السماء التي فيها أرزاق العباد ، ومنها نزول الغيث والغياث ، وإليها ترتفع أيدي الراغبين ، وتشخص أبصار الخائفين – انتهى .

﴿ قبضاً يسيراً ﴾ أي هو – مع كونه في القلة بحيث يعسر إدراكه حق الإدراك – سهل علينا ، ولم نزل ننقصه شيئاً فشيئاً حتى اضمحل كله ، أو إلا يسيراً ، ثم مددناه أيضاً بسير الشمس وحجبها ببساط الأرض قليلاً قليلاً ، أولاً فأولاً بالجبال والأبنية والأشجار ، ثم بالروابي والآكام والظراب وما دون ذلك ، حتى تكامل كما كان ، وفي تقديره هكذا من

المنافع ما لا يحصى ، ولو قبض لتعطلت أكثر منافع الناس بالظل والشمس جميعاً ، فالحاصل أنه يجعل بواطنهم مظلمة بحجبها عن أنوار المعارف فيصيرون كالماشي في الظلام ، ويكون نفوذهم في الأمور الدنيوية كالماشي بالليل في طرق قد عرفها ودربها بالتكرار ، وحديث علي - رضى الله عنه - في الروح الذي مضى عند " والطبيات للطيبين " في النور شاهد حسي لهذا المر المعنوي - والله الموفق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 324.323 ﴾

(228/560)

فصل

قال الفخر :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ ﴾

اعلم أنه تعالى لما بين جهل المعرضين عن دلائل الله تعالى وفساد طريقهم في ذلك ذكر بعده أنواعاً من الدلائل الدالة على وجود الصانع .

النوع الأول : الاستدلال بحال الظل في زيادته ونقصانه وتغيره من حال إلى حال ، وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

قوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ فيه وجهان : أحدهما : أنه من رؤية العين والثاني : أنه من رؤية القلب يعني العلم ، فإن حملناه على رؤية العين فالمعنى أم تر إلى الظل كيف مده ربك وإن كان تخريج لفظه على عادة العرب أفصح وإن حملناه على العلم وهو اختيار الزجاج ، فالمعنى ألم تعلم وهذا أولى وذلك أن الظل إذا جعلناه من المبصرات فتأثير قدرة الله تعالى في تمديده غير مرئي بالاتفاق ، ولكنه معلوم من حيث إن كل متغير جائز فله مؤثر فحمل هذا اللفظ على رؤية القلب أولى من هذا الوجه .

المسألة الثانية :

المخاطب بهذا الخطاب وإن كان هو الرسول عليه السلام بحسب ظاهر اللفظ ولكن الخطاب عام في المعنى ، لأن المقصود من الآية بيان نعم الله تعالى بالظل ، وجميع المكلفين مشتركون في أنه يجب تنبههم لهذه النعمة وتمكنهم من الاستدلال بها على وجود الصانع .

المسألة الثالثة :

الناس أكثروا في تأويل هذه الآية والكلام الملخص يرجع إلى وجهين :

الأول : أن الظل هو الأمر المتوسط بين الضوء الخالص وبين الظلمة الخالصة وهو ما بين ظهور الفجر إلى طلوع الشمس ، وكذا الكيفيات الحاصلة داخل السقف وأفنية الجدران وهذه الحالة أطيب الأحوال لأن الظلمة الخالصة يكرهها الطبع وينفر عنها الحس ، وأما الضوء الخالص وهو الكيفية الفائضة من الشمس فهي لقوتها تبهر الحس البصري وتفيد السخونة القوية وهي مؤذية ، فإذن أطيب الأحوال هو الظل ولذلك وصف الجنة به فقال : ﴿ وَظِلّ مَّمْدُودٍ ﴾ [الواقعة : 30] وإذا ثبت هذا فنقول إنه سبحانه بين أنه من النعم العظيمة والمنافع الجليلة ، ثم إن الناظر إلى الجسم الملون وقت الظل كأنه لا يشاهد شيئاً سوى الجسم وسوى اللون ، ونقول الظل ليس أمراً ثالثاً ، ولا يعرف به إلا إذا طلعت الشمس ووقع ضوؤها على الجسم زال ذلك الظل فلولا الشمس ووقوع ضوئها على الأجرام لما عرف أن للظل وجوداً وماهية لأن الأشياء إنما تعرف بأضدادها ، فلولا الشمس لما عرف الظل ، ولولا الظلمة لما عرف النور ، فكأنه سبحانه وتعالى لما طلع الشمس على الأرض وزال الظل ، فحينئذ ظهر للعقول أن الظل كيفية زائدة على الجسم واللون ، فلهذا قال سبحانه ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَا الشمس عَلَيْهِ دَلِيلاً ﴾ أي خلقنا الظل أولاً بما فيه من المنافع واللذات ثم إنا هدينا العقول إلى معرفة وجوده بأن أطلعنا الشمس فكانت الشمس دليلاً على وجود هذه النعمة ، ثم قبضناه أي أزلنا الظل لا دفعة بل يسيراً يسيراً فإن كلما ازداد ارتفاع الشمس ازداد نقصان الظل في جانب المغرب ، ولما كان الحركات المكانية لا توجد دفعة بل يسيراً يسيراً

فكذا زوال الإظلال لا يكون دفعة بل يسيراً يسيراً ، ولأن قبض الظل لو حصل دفعة لاختلت المصالح ، ولكن قبضها يسيراً يسيراً يفيد معه أنواع مصالح العالم ، والمراد بالقبض الإزالة والإعدام هذا أحد التأويلين .

(230/560)

التأويل الثاني : وهو أنه سبحانه وتعالى لما خلق الأرض والسماء وخلق الكواكب والشمس والقمر وقع الظل على الأرض ، ثم إنه سبحانه خلق الشمس دليلاً عليه وذلك لأن بحسب حركات الأضواء تتحرك الأظلال فإنهما متعاقبان متلازمان لا واسطة بينهما فبمقدار ما يزداد أحدهما ينقص الآخر ، وكما أن المهتدي يهتدي بالهادي والدليل ويلازمه ، فكذا الأظلال كأنها مهتدية وملازمة للأضواء فلهذا جعل الشمس دليلاً عليها .

وأما قوله : ﴿ ثُمَّ قبضناه إِلَيْنَا قَبْضاً يَسِيراً ﴾ فأما أن يكون المراد منه انتهاء الأظلال يسيراً يسيراً إلى غاية نقصاناتها ، فسمى إزالة الأظلال قبضاً لها أو يكون المراد من قبضها يسيراً قبضها عند قيام الساعة ، وذلك بقبض أسبابها وهي الأجرام التي تلقي الأظلال وقوله : ﴿ يَسِيراً ﴾ هو كقوله : ﴿ ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴾ [ق : 44] فهذا هو التأويل الملخص .

المسألة الرابعة :

وجه الاستدلال به على وجود الصانع المحسن أن حصول الظل أمر نافع للأحياء والعقلاء ، وأما حصول الضوء الخالص ، أو الظلمة الخالصة ، فهو ليس من باب المنافع ، فحصول ذلك الظل ، إما أن يكون من الواجبات أو من الجائزات ، والأول باطل وإلا لما تطرق التغير إليه ، لأن الواجب لا يتغير فوجب أن يكون من الجائزات ، فلا بد له في وجوده بعد العدم ، وعدمه بعد الوجود ، من صانع قادر مدبر محسن يقدره بالوجه النافع ، وما ذاك إلا من يقدر على تحريك الأجرام العلوية وتدبير الأجسام الفلكية وترتيبها على الوصف الأحسن والترتيب الأكمل ، وما هو إلا الله سبحانه وتعالى .

(231/560)

فإن قيل : الظل عبارة عن عدم الضوء عما شأنه أن يضيء ، فكيف استدل بالأمر العدمي على ذاته ، وكيف عده من النعم ؟ قلنا : الظل ليس عدماً محضاً ، بل هو أضواء مخلوطة بظلم ، والتحقيق أن الظل عبارة عن الضوء الثاني وهو أمر وجودي ، وفي تحقيقه وبسطه كلام دقيق يرجع فيه إلى كتبنا العقلية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 24 صـ 78.77 ﴾

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ ﴾

أي بسطه على الأرض وفيه وجهان :

أحدهما : أن الظل الليل لأنه ظل الأرض يقبل بغروب الشمس ويدبر بطلوعها .

الثاني : أنه ظل النهار بما حجب من شعاع الشمس .

وفي الفرق بين الظل والفيء وجهان :

أحدهما : أن الظل ما قبل طلوع الشمس والفيء ما بعد طلوعها .

الثاني : أن الظل ما قبل الزوال والفيء ما بعده .

﴿ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا ﴾ يعني الظل ، وفيه وجهان

: أحدهما : أنه قبض الظل بطلوع الشمس .

الثاني : بغروبها .

﴿ قَبْضاً يَسِيراً ﴾ فيه ثلاثة أوجه

: أحدها : سريعاً ، قاله ابن عباس .

الثاني : سهلاً ، قاله أبو مالك .

الثالث : خفياً ، قاله مجاهد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

(233/560)

وقال ابن عطية :

﴿ ألم تر ﴾ معناه انتبه ، والرؤية ها هنا رؤية القلب ، وأدغم عيسى بن عمر ﴿ ربك كيف ﴾ ، قال أبو حاتم والبيان أحسن ، و ﴿ مد الظل ﴾ بإطلاق هو بين أول الإسفار إلى بزوغ الشمس ومن بعد مغيبها مدة يسيرة فإن في هذين الوقتين على الأرض كلها ظل ممدود على أنها نهار ، وفي سائر أوقات النهار ظلال متقطعة والمد والقبض مطرد فيها وهو عندي المراد في الآية والله أعلم ، وفي الظل الممدود ما ذكر الله في هواء الجنة لأنها لما كانت لا شمس فيها كان ظلها ممدوداً أبداً .

وتظاهرت أقوال المفسرين على أن ﴿ مد الظل ﴾ هو من الفجر إلى طلوع الشمس وهذا معترض بأن ذلك في غير نهار بل في بقايا الليل لا يقال له ظل ، وقوله تعالى : ﴿ ولو شاء لجعله ساكناً ﴾ أي ثابتاً غير متحرك ولا منسوخ ، لكنه جعل ﴿ الشمس ﴾ ونسخها إياه وطردها له من موضع إلى موضع ﴿ دليلاً ﴾ عليه مبيناً لوجوده ولوجه العبرة فيه ،

حكى الطبري أنه لولا الشمس لم يعلم أن الظل شيء إذ الأشياء إنما تعرف بأضدادها وقوله ﴿ قبضاً يسيراً ﴾ يحتمل أن يريد لطيفاً أي بعد شيء لا في مرة واحدة ولا بعنف ، قال مجاهد ، ويحتمل أن يريد معجلاً وهذا قول ابن عباس ويحتمل أن يريد سهلاً قريب المتناول . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(234/560)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ ﴾

أي : إِلى فِعْل ربِّك .

وقال الزجاج : معناه ألم تعلم ، فهو من رؤية القلب ، ويجوز أن يكون من رؤية العين ؛ فالمعنى : ألم تر إِلى الظِّلِّ كيف مَدَّه ربُّك ؟ والظِّلُّ من وقت طلوع الفجر إِلى وقت طلوع الشمس ﴿ ولو شاء لجعله ساكناً ﴾ أي : ثابتاً دائماً لا يزول ﴿ ثم جعلنا الشمس عليه دليلاً ﴾ فالشمس دليل على الظل ، فلولا الشمس ما عُرف أنه شيء ، كما أنه لولا النُّور ما عُرفت الظُّلمة ، فكل الأشياء تُعرف بأضدادها .

قوله تعالى : ﴿ ثم قَبَضْناه إِلينا ﴾ يعني : الظل ﴿ قَبْضاً يَسِيراً ﴾ وفيه قولان .

أحدهما : سريعاً ، قاله ابن عباس .

والثاني : خفيّاً ، قاله مجاهد .

وفي وقت قبض الظل قولان .

أحدهما : عند طلوع الشمس يُقبض الظِّل وتُجمع أجزاؤه المنبسطة بتسليط الشمس عليه حتى تنسخَه شيئاً فشيئاً .

والثاني : عند غروب الشمس تُقبض أجزاء الظِّل بعد غروبها ، ويخلّف كل جزء منه جزءاً من الظلام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 6 صـ ﴾

(235/560)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظل ﴾

يجوز أن تكون هذه الرؤية من رؤية العين ، ويجوز أن تكون من العلم .

وقال الحسن وقتادة وغيرهما : مدّ الظل من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس .

وقيل : هو من غيوبة الشمس إلى طلوعها .

والأوّل أصح ؛ والدليل على ذلك أنه ليس من ساعة أطيب من تلك الساعة ؛ فإن فيها يجد

المريض راحة والمسافر وكل ذي علة : وفيها ترد نفوس الأموات والأرواح منهم إلى الأجساد ، وتطيب نفوس الأحياء فيها .

وهذه الصفة مفقودة بعد المغرب .

وقال أبو العالية : نهار الجنة هكذا ؛ وأشار إلى ساعة المصلين صلاة الفجر .

أبو عبيدة : الظل بالغداة والفيء بالعشي ؛ لأنه يرجع بعد زوال الشمس ؛ سمي فيئاً لأنه فاء من المشرق إلى جانب المغرب .

قال الشاعر ، وهو حميد بن ثور يصف سرحة وكنى بها عن امرأة :

فلا الظِّلُّ من بَرْدِ الضُّحَا تَسْتَطيعُهُ . . .

ولا الْفَيْءُ من بَرْدِ العشِيّ تَذُوقُ

وقال ابن السّكيت : الظل ما نسخته الشمس والفيء ما نسخ الشمس .

وحكى أبو عبيدة عن رؤبة قال : كل ما كانت عليه الشمس فزالت عنه فهو فيء وظل ، وما لم تكن عليه الشمس فهو ظلّ .

﴿ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُ سَاكِناً ﴾ أي دائماً مستقراً لا تنسخه الشمس .

ابن عباس : يريد إلى يوم القيامة ، وقيل : المعنى لو شاء لمنع الشمس الطلوع .

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَا الشمس عَلَيْهِ دَلِيلاً ﴾ أي جعلنا الشمس بنسخها الظلّ عند مجيئها دالة على أن الظلّ شيء ومعنى ؛ لأن الأشياء تعرف بأضدادها ولولا الشمس ما عرف الظل ،

ولولا النور ما عرفت الظلمة .

فالدليل فعيل بمعنى الفاعل .

وقيل : بمعنى المفعول كالقتيل والدهين والخضيب .

أي دللنا الشمس على الظل حتى ذهبت به ؛ أي أتبعناها إياه .

فالشمس دليل أي حجة وبرهان ، وهو الذي يكشف المشكل ويوضحه .

ولم يؤنث الدليل وهو صفة الشمس لأنه في معنى الاسم ؛ كما يقال : الشمس برهان والشمس حق .

(236/560)

﴿ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ ﴾ يريد ذلك الظل الممدود .

﴿ إِلَيْنَا قَبْضاً يَسِيراً ﴾ أي يسيراً قبضه علينا .

وكل أمرِ ربنا عليه يسير .

فالظل مكثه في هذا الجو بمقدار طلوع الفجر إلى طلوع الشمس ، فإذا طلعت الشمس صار الظل مقبوضا ، وخلفه في هذا الجو شعاع الشمس فأشرق على الأرض وعلى الأشياء إلى وقت غروبها ، فإذا غربت فليس هناك ظل ، إنما ذلك بقية نور النهار .

وقال قوم : قبضه بغروب الشمس ؛ لأنها ما لم تغرب فالظل فيه بقية ، وإنما يتم زواله بمجيء الليل ودخول الظلمة عليه .

وقيل : إن هذا القبض وقع بالشمس ؛ لأنها إذا طلعت أخذ الظل في الذهاب شيئاً فشيئاً ؛ قاله أبو مالك وإبراهيم التيميّ .

وقيل : ﴿ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ ﴾ أي قبضنا ضياء الشمس بالفيء ﴿ قَبْضاً يَسِيراً ﴾ .

وقيل : ﴿ يَسِيراً ﴾ أي سريعاً ، قاله الضحاك .

قتادة : خفيا ؛ أي إذا غابت الشمس قبض الظل قبضاً خفياً ؛ كلما قُبض جزءٌ منه جُعل مكانه جزءٌ من الظلمة ، وليس يزول دفعة واحدة .

فهذا معنى قول قتادة ؛ وهو قول مجاهد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 13 صـ ﴾

(237/560)

وقال أبو حيان :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ ﴾

لما بيّن تعالى جهل المعترضين على دلائل الصانع وفساد طريقتهم ذكر أنواعاً من الدلائل

الواضحة التي تدل على قدرته التامة لعلهم يتدبرونها ويؤمنون بمن هذه قدرته وتصرفه في عالمه ، فبدأ بحال الظل في زيادته ونقصانه وتغيره من حال إلى حال وأن ذلك جار على مشيئته .

وتقدم الكلام على ﴿ ألم تر ﴾ في البقرة في قصة الذي حاجّ إبراهيم .

والمعنى ﴿ ألم تر إلى ﴾ صنع ﴿ ربك ﴾ وقدرته .

و ﴿ كيف ﴾ سؤال عن حال في موضع نصب بمد .

والجملة في موضع متعلق ﴿ ألم تر ﴾ لأن ﴿ تر ﴾ معلقة والجملة الاستفهامية التي هي معلق عنها فعل القلب ليس باقي على حقيقة الاستفهام .

فالمعنى ألم تر إلى مدّ ربك الظل .

وقال الجمهور : ﴿ الظل ﴾ هنا من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس مثل ظل الجنة ظل ممدود لا شمس فيه ولا ظلمة .

واعترض بأنه في غير النهار بل في بقايا الليل ولا يسمى ظلاً .

وقيل : ﴿ الظل ﴾ الليل لا ظل الأرض وهو يغمر الدنيا كلها .

وقيل : من غيبوبة الشمس إلى طلوعها وهذا هو القول الذي قبله ولكن أورده كذا .

وقيل : ظلال الأشياء كلها كقوله ﴿ أو لم يروا إلى ما خلق الله من شيء يتفيؤ ظلاله ﴾

وقال أبو عبيدة : ﴿ الظل ﴾ بالغداة والفيء بالعشي .

وقال ابن السكيت : ﴿ الظل ﴾ ما نسخته الشمس والفيء ما نسخ الشمس .

وقيل : ما لم تكن عليه الشمس ظل وما كانت عليه فزالت فيء .

﴿ ولو شاء لجعله ساكناً ﴾ قال ابن عباس وقتادة وابن زيد : كظل الجنة الذي لا شمس تذهبه .

وقال مجاهد : لا تصيبه ولا تزول .

وقال الحسن : ﴿ لو شاء ﴾ لتركه ظلاً كما هو .

(238/560)

وقيل : لأدامه أبداً بمنع طلوع الشمس بعد غيبوبتها ، فلما طلعت الشمس دلت على زوال الظل وبدا فيه النقصان فبطلوع الشمس يبدو النقصان في الظل ، وبغروبها تبدو الزيادة في الظل فبالشمس استدل أهل الأرض على الظل وزيادته ونقصه ، وكلما علت الشمس نقص الظل ، وكلما دنت للغروب زاد وهو قوله ﴿ ثم قبضناه إلينا قبضاً يسيراً ﴾ يعني في وقت علو الشمس بالنهار ينقص الظل نقصاناً يسيراً بعد يسير وكذلك زيادته بعد نصف النهار يزيد يسيراً بعد يسير حتى يعم الأرض .

كلها فأما زوال الظل كله فإنما يكون في البلدان المتوسطة في وقت .

وقال الزمخشري : ومعنى ﴿ مد الظل ﴾ أن جعله يمتد وينبسط فينتفع به الناس .

﴿ ولو شاء لجعله ساكناً ﴾ أي لاصقاً بأصل كل مظل من جبل وبناء وشجر وغير منبسط فلم ينتفع به أحد ، سمي انبساط الظل وامتداده تحركاً منه وعدم ذلك سكوناً ومعنى كون الشمس دليلاً أن الناس يستدلون بالشمس وبأحوالها في مسيرها على أحوال الظل من كونه ثابتاً في مكان وزائلاً ومتسعاً ومتقلصاً فيبنون حاجتهم إلى الظل واستغناءهم عنه على حسب ذلك .

وقبضه إليه أن ينسخه بظل الشمس ﴿ يسيراً ﴾ أي على مهل وفي هذا القبض اليسير شيئاً بعد شيء من المنافع ما لا يعد ولا يحصى ، ولو قبض دفعة لتعطلت أكثر مرافق الناس بالظل والشمس جميعاً فإن قلت : ثم في هذين الموضعين كيف موقعها ؟ قلت : موقعها البيان تفاضل الأمور الثلاثة كأن الثاني أعظم من الأول ، والثالث أعظم من الثاني تشبيهاً لتباعد ما بينهما في الفضل بتباعد ما بين الحوادث في الوقت .

ووجه آخر وهو أنه بنى الظل حين بنى السماء كالقبة المضروبة ودحا الأرض تحتها فألقت القبة ظلها على الأرض لعدم النير .

(239/560)

﴿ ولو شاء الله لجعله ساكناً ﴾ مستقراً على تلك الحالة ثم خلق الشمس وجعله على ذلك الظل سلطها عليه وجعلها دليلاً متبوعاً لهم كما يتبع الدليل في الطريق فهو يزيد بها وينقص ويمتد ويقلص ، ثم نسخه بها قبضه قبضاً سهلاً يسيراً غير عسير ، ويحتمل أن يريد قبضه عند قيام الساعة بقبض أسبابه وهي الأجرام التي تلقي الظل فيكون قد ذكر إعدامه بإعدام أسبابه ، كما ذكر إنشاءه بإنشاء أسبابه وقوله ﴿ قبضناه إلينا ﴾ يدل عليه وكذلك قوله ﴿ يسيراً ﴾ كما قال ﴿ ذلك حشر علينا يسير ﴾ انتهى وقوله : سمى انبساط الظل وامتداده تحركاً منه لم يسم الله ذلك إنما قال كيف مد الظل وقوله : ويحتمل أن يريد قبضه عند قيامه الساعة فهذا يبعد احتماله لأنه إنما ذكر آثار صنعته وقدرته لتشاهد ثم قال ﴿ مد الظل ﴾ وعطف عليه ماضياً مثله فيبعد أن يكون التقدير ثم قبضه عند قيام الساعة مع ظهور كونه ماضياً مستداماً أمثاله .

وقال ابن عطية : ﴿ ولو شاء لجعله ساكناً ﴾ أي ثابتاً غير متحرك ولا منسوخ ، لكنه جعل الشمس ونسخها إياه بطردها له من موضع إلى موضع دليلاً عليه مبيناً لوجوده ولوجه العبرة فيه .

وحكى الطبري : أنه لولا الشمس لم يعلم أن الظل شيء إذ الأشياء إنما تعرف بأضدادها .

وقال ابن عباس : ﴿ يسيراً ﴾ معجلاً .

وقال مجاهد لطيفاً أي شيئاً بعد شيء ، ويحتمل أن يريد سهلاً قريب التناول .

وقال أبو عبد الله الرازي : أكثر الناس في تأويل هذه الآية ويرفع الكلام فيها إلى وجهين .

(240/560)

الأول : أن الظل لا ضوء خالص ولا ظلمة خالصة ، وهو ما بين طلوع الفجر وطلوع الشمس وكذلك الكيفيات الحاصلة داخل السقف وأبنية الجدارات ، وهي أطيب الأحوال لأن الظلمة الخالصة يكرهها الطبع وينفر عنها الحس والضوء الخالص يحير الحس البصري ويحدث السخونة القوية وهي مؤذية ، ولهذا قيل في الجنة ﴿ وظل ممدود ﴾ والناظر إلى الجسم الملون كأنه يشاهد بالظل شيئاً سوى الجسم وسوى اللون والظل ليس أمراً ثالثاً ولا معرفة به إلاّ إذا طلعت الشمس ووقع ضوءها على الجسم ثم مال عرف للظل وجود وماهية ، ولولاها ما عرف لأن الأشياء تدرك بأضدادها ، فظهر للعقل أن الظل كيفية زائدة على الجسم واللون ولذلك قال ﴿ ثم جعلنا الشمس عليه دليلاً ﴾ أي جعلنا الظل أولاً بما فيه من المنافع واللذات ، ثم هدينا العقول إلى معرفة وجوده بأن أطلعنا الشمس فكانت دليلاً على وجود الظل .

﴿ ثم قبضناه ﴾ أي أزلناه لا دفعة بل ﴿ يسيراً ﴾ يسيراً كلما ازداد ارتفاع الشمس

ازداد نقصان الظل من جانب المغرب ، ولما كانت الحركات المكانية لا توجد دفعة بل يسيراً يسيراً كان زوال الأظلال كذلك .

والثاني : أنه لما خلق السماء والأرض وقع السماء على الأرض فجعل الشمس دليلاً لأنه بحسب حركات الأضواء تتحرك الأظلال فهما متعاقبان متلازمان لا واسطة بينهما ، فبمقدار ما يزداد أحدهما ينقص الآخر ، فكما أن المهتدي يقتدي بالهادي والدليل ويلازمه فكذلك الأظلال ملازمة للأضواء ، ولذلك جعل الشمس دليلاً عليه انتهى .

ملخصاً وهو مأخوذ من كلام الزمخشري ، ومحسن بعض تحسين .

والآية في غاية الظهور ولا تحتاج إلى هذا التكثير .

وقال أيضاً : ﴿ الظل ﴾ ليس عدماً محضاً بل هو أضواء مخلوطة بظلام ، فهو أمر وجودي وفي تحقيقه دقيق يرجع فيه إلى الكتب العقلية انتهى .

والآية في غاية الوضوح ولا تحتاج إلى هذا التكثير وقد تركت أشياء من كلام المفسرين مما لا تمس إليه الحاجة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(241/560)

وقال أبو السعود :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ ﴾

بيانٌ لبعضِ دلائل التَّوحيدِ إثرَ بيانِ جهالةِ المُعرضينِ عنها وضلالتهم . والخطابُ لرسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، والهمزةُ للتَّقريرِ . والتَّعرضُ لعُنوان الرُّبُوبيّةِ مع الإضافة إلى ضميره عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لتشريفه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ وللإيذانِ بأنَّ ما يعقُبه من آثارِ ربوبيَّتِه ورحمتِه تعالى أي ألم تنظُر إلى بديعِ صُنعه تعالى ﴿ كَيْفَ مَدَّ الظل ﴾ أي كيف أنشأ ظلَّ أيَّ مُظَلٍ كان من جبلٍ أو بناءٍ أو شجرةٍ عند ابتداء طلوع الشَّمسِ ممتداً لا أنَّه تعالى مدَّهَ بعد أنْ لم يكن كذلك كما بعدَ نصفِ النهار إلى غروبها فإنَّ ذلك مع خُلوِّه عن التَّصريح بكون نفسه بإنشائه تعالى وإحداثِه يأباهُ سياقُ النَّظمِ الكريمِ . وأما ما قيل من أنَّ المرادَ بالظِّل ما بين طُلوعِ الفجرِ وطُلوع الشَّمسِ وأنه أطيبُ الأوقاتِ فإنَّ الظُّلمةَ الخالصةَ تنفِرُ عنها الطِّباعُ وشعاع الشمس يسخِّنُ الجوَّ ويبهر البصرَ ولذلك وَصَفَ به الجَّنةَ في قوله تعالى : ﴿ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴾ فغيرُ سديد إذ لا ريب في أنَّ المرادَ تنبيهُ النَّاسِ على عظيم قُدرة الله عزَّ وجلَّ وبالغِ حكمتِه فيما يشاهدونَه فلا بدَّ أنْ يُرادُ بالظلِّ ما يتعارفونه من حالةٍ مخصوصةٍ يشاهدونها في موضعٍ يحول بينه وبين الشَّمسِ جسمٌ كثيفٌ مخالفةً لما في جوانبه من مواقعِ ضحِّ الشَّمسِ وما ذُكر وإن كانَ في الحقيقةِ ظلاً للأفق الشرقيِّ لكنَّهم لا يعدونه ظلاً ولا يصفونه بأوصافِه المعهودةِ ولعلَّ توجيه الرُّؤية إليه سبحانه وتعالى مع أنَّ المرادَ تقريرُ رؤيته

عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لكيفيَّةِ مدِّ الظِّلِّ للتنبيهِ على أنَّ نظرَه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ غيرُ مقصورٍ على ما يُطالعه من الآثارِ والصَّنائعِ بل مطمح أنظارِه معرفةُ شؤون الصَّانعِ المجيدِ .

وقوله تعالى :

(242/560)

﴿ وَلَوْ شَاء لَجَعَلَهُ سَاكِناً ﴾ جملةٌ اعترضتْ بين المعطوفين للتَّنبيه من أول الأمرِ على أنَّه لا مدخل فيما ذكر من المدِّ للأسباب العاديَّةِ وإنَّما المؤثر فيها المشيئةُ والقدرةُ ، ومفعولُ المشيئةِ محذوفٌ على القاعدة المستمرَّة من وقوعها شرطاً وكونِ مفعولها مضمونَ الجزاء أي ولو شاء سكونَه لجعله ساكناً أي ثابتاً على حالِه من الطُّولِ والامتدادِ وإنما عُبّر عن ذلك بالسُّكونِ لما أنَّ مقابلَه الذي هو تغيُّر حاله حسب تغيُّرِ الأوضاعِ بينَ المظلِّ وبين الشَّمسِ يُرَى رأيَ العينِ حركة وانتقالاً وحاصلُه أنه لا يعتريه اختلافُ حالٍ بأن لا تنسخه الشَّمسُ ، وأمَّا التَّعليلُ بأنْ يجعل الشَّمسَ مقيمةً على وضع واحد فمداره الغفُول عمَّا سِيق له النَّظمُ الكريم ونطقَ به صريحاً من بيان كمال قُدرته القاهرة وحِكمته الباهرة بنسبة جميعِ الأمور الحادثة إليه تعالى بالذَّاتِ وإسقاط الأسباب العاديَّةِ عن رُتبة السَّببيَّةِ والتَّاثيرِ بالكُلِّيةِ وقصرِها على مجرَّدِ الدِّلالةِ على وجود المسبَّبات لا بذكر قُدرته تعالى على بعض الخوارق

كإقامةِ الشَّمسِ في مُقام واحدٍ على أنَّها أعظمُ من إبقاء الظلِّ على حالِه في الدّلالةِ على ما ذُكر من كمال القُدرةِ والحكمة لكونِه من فُروعها ومُستتبعاتها فهي أَوْلَى وأحقُّ بالإيراد في معرضِ البيانِ .

وقولُه تعالى :

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَا الشمس عَلَيْهِ دَلِيلاً ﴾ عطفٌ على مدَّ داخلٌ في حُكمه أي جعلناها علامةً يستدلُّ بأحوالها المتغيّرة على أحوالِه من غير أنْ يكونَ بينهما سببيّة وتأثيرٌ قطعاً حسبما نطقَ به الشَّرطيةُ المعترضة . والالتفاتُ إلى نون العظمةِ لما في الجعلِ المذكورِ العاري عن التَّأثيرِ مع ما يشاهد بين الشَّمسِ والظلِّ من الدَّورانِ المُطَّردِ المنبىءِ عن السَّببيّةِ من مزيد دلالة على عظمِ القُدرةِ ودقة الحكمةِ ، وهو السرُّ في إيراد كلمة التَّراخي .

(243/560)

وقولُه تعالى : ﴿ ثُمَّ قبضناه ﴾ عطف على مدَّ داخل في حكمه وثمَّ للتَّراخي الزَّماني لما أنَّ في بيان كون القبضِ والمدِّ مرتَّبينِ دائرينِ على قطبِ مصالحِ المخلوقاتِ مزيدَ دلالةِ على الحكمة الرَّبانيَّةِ ، ويجوز أنْ تكونَ للتَّراخي الرُّتبي أي أزلناه بعد ما أنشأناهُ ممتدّاً ومحوناه بمحض قُدرتنا ومشيئتنا عند إيقاعِ شعاعِ الشَّمس موقعَه من غيرِ أنْ يكونَ له تأثيرٌ في ذلك

أصلاً ، وإنَّما عبَّر عنه بالقبضِ المُنبىءِ عن جمعِ المنبسطِ وطيّه لمَا أنَّه قد عبَّر عن إحداثِه بالمدّ الذي هو البسطُ طولاً وقوله تعالى : ﴿ إِلَيْنَا ﴾ للتَّنصيصِ على كونِ مرجعِه تعالى كما أنَّ حدوثَه منه عزَّ وجلَّ ﴿ قَبْضاً يَسِيراً ﴾ أي على مهل قليلاً قليلاً حسب ارتفاعِ دليله على وتيرة معيَّنةٍ مطَّردةٍ مستتبعة لمصالحِ المخلوقاتِ ومرافقها ، وقيل إنَّ الله تعالى حين بنى السَّماءَ كالقُبَّةِ المضروبة ودَحَا الأرضَ تحتها ألقتِ القُبَّةُ ظلَّها على الأرضِ لعدمِ النيّرِ وذلك مدُّه تعالى إيَّاه ولو شاء لجعله ساكناً مستقرّاً على تلك الحالةِ ثم خلق الشَّمسَ وجعلها على ذلك الظلِّ أي سلَّطها عليه ونصَبها دليلاً متبوعاً له كما يتبعُ الدَّليل في الطَّريقِ فهو يزيدُ بها وينقصُ ويمتدُّ ويقلصُ ثم نسخه بها فقبضه قبضاً سهلاً يسيراً غيرَ عسيرٍ أو قبضاً سهلاً عند قيام السَّاعةِ بقبضِ أسبابِه وهي الأجرامُ التي تلقي الظلَّ فيكون قد ذُكر إعدامُه بإعدامِ أسبابِه كما ذُكر إنشاؤه بإنشائِها ووصفه باليسرِ على طريقةِ قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴾ وصيغة الماضي للدّلالةِ على تحقيقِ الوقوع . انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 6 صـ ﴾

(244/560)

وقال الآلوسى :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظل ﴾ الخ

بيان لبعض دلائل التوحيد إثر بيان جهالة المعرضين عنها وضلالهم ، والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم والهمزة للتقرير والرؤية بصرية لأنها التي تتعدى بإلى ، وفي الكلام مضاف مقدر حذف وأقيم المضاف إليه مقامه أي ألم تنظر إلى صنع ربك لأنه ليس المقصود رؤية ذات الله عز وجل ، وكون إلى اسماً واحداً الآلاء وهي النعم بعيداً جداً ، وجوز أن تكون علمية وليس هناك مضاف مقدر وتعديتها بإلى لتضمين معنى الانتهاء أي ألم ينته علمك إلى أن ربك كيف مد الظل والأول أولى .

(245/560)

وذكر بعض الأجلة أنه يحتمل أن يكون حق التعبير ألم تر إلى الظل كيف مده ربك فعدل عنه إلى ما في "النظم الجليل" إشعاراً بأن المعقول المفهوم من هذا الكلام لوضوح برهانه وهو دلالة حدوثه وتصرفه على الوجه النافع بأسباب ممكنة على أن ذلك فعل الصانع الحكيم كالمشاهد المرئي فكيف بالمحسوس منه ، وقال الفاضل الطيبي : لو قيل ألم تر إلى الظل كيف مده ربك كان الانتقال من الأثر إلى المؤثر والذي عليه التلاوة كان عكسه والمقام يقتضيه لأن

الكلام في تقريع القوم وتجهيلهم في اتخاذهم الهوى إلها مع وضوح هذه الدلائل ولذلك جعل ما يدل على ذاته تعالى مقدماً على أفعاله في سائر آياته ﴿ وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الليل ﴾ [الفرقان : 47] ﴿ وَهُوَ الذى أَرْسَلَ الرياح ﴾ [الفرقان : 48] ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا ﴾ [الفرقان : 51] وروى السلمي في الحقائق عن بعضهم مخاطبة العام ﴿ أَفَلاَ يَنظُرُونَ إِلَى الإبل كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ [الغاشية : 17] ومخاطبة الخاص ﴿ أَلَمْ تَرَ إلى رَبّكَ ﴾ انتهى ، وفي الأرشاد لعل توجيه الرؤية إليه سبحانه مع أن المراد تقرير رؤيته عليه الصلاة والسلام لكيفية مد الظل للتنبيه على أن نظره عليه الصلاة والسلام غير مقصور على ما يطالعه من الآثار والصنائع بل مطمح أنظاره صلى الله عليه وسلم معرفة شؤون الصانع المجيد جل جلاله ولعل هذا هو سر ما روي عن السلمي ، وقيل : إن التعبير المذكور للإشعار بأن المقصود العلم بالرب علماً يشبه الرؤية ، ونقل الطبرسي عن الزجاج أنه فسر الرؤية بالعلم .

(246/560)

وذكر أن الكلام من باب القلب ، والتقدير ألم تر إلى الظل كيف مده ربك ولا حاجة إلى ذلك ، والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره عليه الصلاة والسلام لتشريفه صلى الله عليه وسلم وللإيذان بأن ما يعقبه من آثار ربوبيته تعالى ورحمته جل وعلا ، ﴿ وَكَيْفَ ﴾

منصوب بمد على الحالية وهي معلقة لترإن لم تكن الجملة مستأنفة ، وفي "البحر" أن الجملة الاستفهامية التي يتعلق عنها فعل القلب ليس باقية على حقيقة الاستفهام وفيه بحث ، وذكر بعض الأفاضل أن كيف للاستفهام وقد تجرد عن الاستفهام وتكون بمعنى الحال نحو أنظر إلى كيف تصنع ، وقد جوزه الدماميني في هذه الآية على أنه بدل اشتمال من المجرور وهو بعيد انتهى ، ولا يخفى أنه يستغني على ذلك عن اعتبار المضاف لكنه لا يعادل البعد .

والمراد بالظل على ما رواه جماعة عن ابن عباس .

ومجاهد وقتادة .

والحسن .

وأيوب بن موسى .

وإبراهيم التيمي والضحاك .

وأبي مالك الغفاري .

وأبي العالية .

وسعيد بن جبير ما بين طلوع الفجر وطلوع الشمس وذلك أطيب الأوقات فإن الظلمة الخالصة تنفر عنها الطباع وتسد النظر وشعاع الشمس يسخن الجو ويبهر البصر ، ومن هنا كان ظل الجنة مدوداً كما قال سبحانه : ﴿ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴾ [الواقعة : 30] .

وقيل : المراد به ما يكون من مقابلة كثيف كجبل أو بناء أو شجر للشمس عند ابتداء

طلوعها ، ومد الظل من باب ضيق فم القربة ، فالمعنى ألم تنظر إلى صنع ربك كيف أنشأ ظلاً أي مظلاً كان عند ابتداء طلوع الشمس ممتداً إلى ما شاء الله عز وجل واختاره شيخ الإسلام .

(247/560)

وتعقب ما تقدم بقوله : غير سديد إذ لا ريب في أن المراد تنبيه الناس على عظيم قدرة الله عز وجل وبالغ حكمته سبحانه فيما يشاهدونه فلا بد أن يراد بالظل ما يتعارفونه من حالة مخصوصة يشاهدونها في موضع يحول بينه وبين الشمس جسم مخالفة لما في جوانبه من مواقع ضح الشمس ، وما ذكر وإن كان في الحقيقة ظلاً للأفق الشرقي لكنهم لا يعدونه ظلاً ولا يصفونه بأوصافه المعهودة اه وفيه منع ظاهر ، وهو أظهر على ما ذكره أبو حيان في الاعتراض على ذلك من أنه لا يسمى ظلاً فقد قال الراغب وكفى به حجة في اللغة الظل ضد الضح وهو أعم من الفيء فإنه يقال : ظل الليل وظل الجنة ويقال لكل موضع لم تصل إليه الشمس ظل ولا يقال الفيء إلا لما زال عنه الشمس انتهى ، وظاهر قوله تعالى : ﴿ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴾ [الواقعة : 30] في وصف الجنة يقتضي أنهم يعدون مثل ما ذكر ظلاً .

وقيل : هو ما كان من غروب الشمس إلى طلوعها وحكي ذلك عن الجبائي .

والبلخي .

وقيل : هو ما كان يوم خلق الله تعالى السماء وجعلها كالقبة ودحا الأرض من تحتها فألقت ظلها عليها وليس بشيء ، وإن فسر ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ بألم تعلم لما في تطبيق ما يأتي من تتمة الآية عليه من التكلف وارتكاب خلاف الظاهر ، وربما يفوت عليه المقصود الذي سيق له النظم الكريم ، وربما يختلج في بعض الأذهان جواز أن يراد به ما يشمل جميع ما يصدق عليه أنه ظل فيشمل ظل الليل وما بين الفجر وطلوع الشمس وظل الأشياء الكثيفة المقابلة للشمس كالجبال وغيرها فإذا شرع في تطبيق الآية على ذلك عدل عنه كما لا يخفى ، وللصوفية في ذلك كلام طويل سنذكر إن شاء الله تعالى شيئاً منه ، وجمهور المفسرين على الأول ، والقول الثاني أسلم من القال والقيل .

(248/560)

وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِناً ﴾ جملة اعتراضية بين المتعاطفين للتنبيه من أول الأمر على أنه لا مدخل للأسباب العادية من قرب الشمس إلى الأفق الشرقي على الأول أو قيام الشاخص الكثيف على الثاني ، وإنما المؤثر فيه حقيقة المشيئة والقدرة ، ومفعول المشيئة محذوف وهو مضمون الجزاء كما هو القاعدة المستمرة في أمثال هذا التركيب أي

ولو شاء جعله ساكناً لجعله ساكناً أي ثابتاً على حاله ظلاً أبداً كما فعل عز وجل في ظل الجنة أو لجعله ثابتاً على حاله من الطول والامتداد وذلك بأن لا يجعل سبحانه للشمس على نسخه سبيلاً بأن يطلعها ولا يدعها تنسخه أو بأن لا يدعها تغيره باختلاف أوضاعها بعد طلوعها ، وقيل : بأن يجعلها بعد الطلوع مقيمة على وضع واحد وليس بذاك ، وإنما عبر عن ذلك بالسكون قيل : لما أن مقابله الذي هو زواله لما كان تدريجياً كان أشبه شيء بالحركة ، وقيل : لما أن مقابله الذي هو تغير حاله حسب تغير الأوضاع بين الظل وبين الشمس يرى رأي العين حركة وانتقالاً .

وأفاد الزمخشري أنه قوبل مد الظل الذي هو انبساطه وامتداده بقوله تعالى : ﴿ سَاكِناً ﴾ والسكون إنما يقابل الحركة فيكون قد أطلق ﴿ مَدَّ الظل ﴾ على الحركة مجازاً من باب تسمية الشيء باسم ملابسه أو سببه كما قرره الطيبي وذكر أنه عدل عن حرك إلى مد مع أنه أظهر من مد في تناوله الانبساط والامتداد ليدمج فيه معنى الانتفاع المقصود بالذات وهو معرفة أوقات الصلوات فإن اعتبار الظل فيها بالامتداد دون الانبساط وتمم معنى الإدماج بقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ قبضناه إِلَيْنَا قَبْضاً يَسِيراً ﴾ [الفرقان : 46] أي بالتدرج والمهل لمعرفة الساعات والأوقات وفيه لمحة من معنى قوله تعالى : ﴿ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الاهلة قُلْ هِىَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ ﴾ [البقرة : 189] اه .

ولا يبعد أن يقال : إن التعبير بمد لما أن الظل المذكور ظل الأفق الشرقي ، وقد اعتبر المشرق والمغرب طرفي جهتي الأرض طولاً والشمال والجنوب طرفي جهتيها عرضاً أو لأن ظهوره في الأرض وطول المعمور منها الذي يسكنه من يشاهد الظل أكثر من عرض المعمور منها إذ الأول كما هو المشهور نصف دور أعني مائة وثمانين درجة ، والثاني دون ذلك على جميع الأقوال فيه فيكون الظل بالنظر إلى الرائين في المعمور من الأرض ممتداً ما بين جهتي شرقيه وغربيه أكثر مما بين جهتي شماليه وجنوبيه ، وربما يقال : إن ذلك لما أن مبدأ الظل الفجر الأول وضوؤه يرى مستطيلاً ممتداً كذنب السرحان ويلتزم القول بأنه لا يذهب بالكلية وإن ضعف بل يبقى حتى يمده ضوء الفجر الثاني فيرى منبسطاً والله تعالى أعلم ، وقوله سبحانه : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَا الشمس عَلَيْهِ دَلِيلاً ﴾ عطف على ﴿ مَدَّ ﴾ داخل في حكمه أي ثم جعلنا طلوع الشمس دليلاً على ظهوره للحس فإن الناظر إلى الجسم الملون حال قيام الظل عليه لا يظهر له شيء سوى الجسم ولونه ثم إذا طلعت الشمس ووقع ضوؤها على الجسم ظهر له أن الظل كيفية زائدة على الجسم ولونه .

والضد يظهر حاله الضد . . .

قاله الرازي .

والطبري .

وغيرهما ، وقيل : أي ثم جعلناها دليلاً على وجوده أي علة له لأن وجوده بحركة الشمس إلى الأفق وقربها منه عادة ولا يخفى ما فيه أو ثم جعلناها علامة يستدل بأحوالها المتغيرة على أحواله من غير أن يكون بينهما سببية وتأثير قطعاً حسبما نطق به الشرطية المعترضة ، ومن الغريب الذي لا ينبغي أن يخرج عليه كلام الله تعالى المجيد أن على بمعنى مع أي ثم جعلنا الشمس مع الظل دليلاً على وحدانيتنا على معنى جعلنا الظل دليلاً وجعلنا الشمس دليلاً على وحدانيتنا .

(250/560)

والالتفات إلى نون العظمة للإيذان بعظم قدر هذا الجعل لما يستتبعه من المصالح التي لا تحصى أو لما في الجعل المذكور العاري عن التأثير مع ما يشاهد بين الظل والشمس من الدوران المطرد المنبىء عن السببية من مزيد الدلالة على عظم القدرة ودقة الحكمة ، وثم إما للتراخي الرتبي ويعلم وجهه مما ذكر ، وإما للتراخي الزماني كما هو حقيقة معناها بناءً على طول الزمان بين ابتداء الفجر وطلوع الشمس

﴿ ثُمَّ قبضناه إِلَيْنَا قَبْضاً يَسِيراً ﴾

عطف على ﴿ مَدَّ ﴾ [الفرقان : 45] داخل في حكمه أيضاً أي ثم أزلناه بعد ما

أنشأناه ممتداً عند إيقاع شعاع الشمس موقعه أو بإيقاعه كذلك ومحوناه على مهل قليلاً قليلاً حسب سير الشمس ، وهذا ظاهر على القول بأن المراد بالظل ظل الشاخص من جبل ونحوه ، وأما على القول بأن المراد به ما بين الطلوعين فلأنه إذا عم لا يزول دفعة واحدة بطلوع الشمس في أفق لكريوة الأرض واختلاف الآفاق فقد تطلع في أفق ويزول ما عند أهله من الظل وهي غير طالعة في أفق آخر وأهله في طرف من ذلك الظل ومتى ارتفعت عن الأفق الأول حتى بانت من أفقهم زال ما عندهم من الظل فزوال الظل بعد عمومه تدريجي كذا قيل .

وقيل لا حاجة إلى ذلك فإن زواله تدريجي نظراً إلى أفق واحد أيضاً بناءً على أنه يبقى منه بعد طلوع الشمس ما لم يقع على موقعه شعاعها لمانع جبل ونحوه ويزول ذلك تدريجاً حسب حركة الشمس ووقوع شعاعها على ما لم يقع عليه ابتداء طلوعها ، وكأن التعبير عن تلك الإزالة بالقبض وهو كما قال الطبرسي : جمع الأجزاء المنبسطة لما أنه قد عبر عن الأحداث بالمد .

(251/560)

وقوله سبحانه : ﴿ إِلَيْنَا ﴾ للتنصيص على كون مرجع الظل إليه عز وجل لا يشاركه حقيقة أحد في إزالته كما أن حدوثه منه سبحانه لا يشاركه حقيقة فيه أحد ، وثم يحتمل أن تكون للتراخي الزماني وأن تكون للتراخي الرتبي نحو ما مر ، ومن فسر الظل بما كان يوم خلق الله تعالى السماء كالقبة ودحا الأرض من تحتها فألقت ظلها عليها جعل معنى ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَا ﴾ [الفرقان : 45] الخ ثم خلقنا الشمس وجعلناها مسلطة على ذلك الظل وجعلناها دليلاً متبوعاً له كما يتبع الدليل في الطريق فهو يزيد وينقص ويمتد ويقلص ثم قبضناه قبضاً سهلاً لا عسر فيه .

ويحتمل أن يكون قبضه عند قيام الساعة بقرينة إلينا وكذا ﴿ يَسِيراً ﴾ وذلك بقبض أسبابه وهي الأجرام التي تلقي الظل فيكون قد ذكر إعدامه بإعدام أسبابه كما ذكر إنشاءه بإنشاء أسبابه ، والتعبير بالماضي لتحققه ولمناسبة ما ذكر معه ، وثم للتراخي الزماني وفيه ما فيه كما أشرنا إليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 19 صـ ﴾

(252/560)

وقال ابن عاشور :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ ﴾

استئناف ابتدائي فيه انتقال من إثبات صدق الرسول صلى الله عليه وسلم وإثبات أن القرآن من عند الله أنزله على رسوله ، وصفات الرسل وما تخلل ذلك من الوعيد وهو من هذا الاعتبار متصل بقوله : ﴿ وقال الذين كفروا لولا نُزِّل عليه القرآن جملة واحدة ﴾ [الفرقان : 32] الآية .

وفيه انتقال إلى الاستدلال على بطلان شركهم وإثبات الوحدانية لله وهو من هذه الجهة متصل بقوله في أول السورة ﴿ واتخَذَوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئاً ﴾ [الفرقان : 3] الآية .

وتوجيه الخطاب إلى النبي صلى الله عليه وسلم يقتضي أن الكلام متصل بنظيره من قوله تعالى : ﴿ قل أنزله الذي يعلم السرّ في السموات والأرض ﴾ [الفرقان : 6] .

وما عطف عليه ﴿ قل أذلك خير ﴾ [الفرقان : 15] ﴿ وما أرسلنا قبلَك من المرسلين ﴾ [الفرقان : 20] ﴿ وكفى بربك هادياً ﴾ [الفرقان : 31] فكلها مخاطبات للنبيء صلى الله عليه وسلم وقد جُعل مَدُّ الظل وقبْضُه تمثيلاً لحكمة التدريج في التكوينات الإلهية والعدول بها عن الطَفْرَة في الإيجاد ليكون هذا التمثيل بمنزلة كبرَى القياسسِ للتدليل على أن تنزيل القرآن منجَّماً جارٍ على حكمة التدرج لأنه أمكن في حصول المقصود ، وذلك ما دل عليه قوله سابقاً ﴿ كذلك لنُثَبِّت به فؤادك ﴾ [الفرقان : 32] .

فكان في قوله : ﴿ ألم تر إلى ربك كيف مدّ الظّل . . .

﴾ الآية زيادةٌ في التعليل على ما في قوله ﴿ كذلك لِنُثبّت به فؤادك ﴾ [الفرقان : 32] .

ويستتبع هذا إيماءً إلى تمثيل نزول القرآن بظهور شمس في المواضع التي كانت مظلَّلة إذ قال تعالى : ﴿ ثم جعلنا الشمس عليه دليلاً ﴾ فإن حال الناس في الضلالة قبل نزول القرآن تشبَّه بحال امتداد ظلمة الظل ، وصار ما كان مظلّلاً ضاحياً بالشمس وكان زوال ذلك الظل تدريجاً حتى ينعدم الفيء .

(253/560)

فنظم الآية بما اشتمل عليه من التمثيل أفاد تمثيل هيئة تنزيل القرآن منجَّماً بهيئة مدّ الظل مدرّجاً ولو شاء لجعله ساكناً .

وكان نظْمُها بجمله على حقيقة تركيبه مفيداً العبرة بمد الظل وقبضِه في إثبات دقائق قدرة الله تعالى ، وهذان المُفادان من قبيل استعمال اللفظ في حقيقته ومجازه الذي ذكرناه في المقدمة التاسعة .

وكان نظم الكلام بمعنى ما فيه من الاستعارة التصريحية من تشبيه الهداية بنور الشمس ، وتقلّص ضلال الكفر بانقباض الظل بعد أن كان مديداً قبل طلوع الشمس .

وبهذه النكتة عُطف قوله ﴿ ثم قبضناه إلينا قبضاً يسيراً ﴾ إلى قوله ﴿ وجعل النهار نشوراً ﴾ [الفرقان : 47] .

والاستفهام تقريري فهو صالح لطبقات السامعين : مِن غافل يُسأل عن غفلته ليُقِرَّ بها تحريضاً على النظر ، ومِن جَاحد يُنكَر عليه إهماله النظر ، ومن موفق يُحَثّ على زيادة النظر .

والرؤية بصرية ، وقد ضمن الفعل معنى النظر فعدّي إلى المرْئي بحرف (إلى) .

والمدّ : بسط الشيء المنقبض المتداخل يقال : مد الحبل ومد يده ، ويطلق المد على الزيادة في الشيء وهو استعارة شائعة ، وهو هنا الزيادة في مقدار الظل .

ثم إذا كان المقصود بفعل الرؤية حالةً من أحوال الذات تصحّ رؤيتها فلك تعدية الفعل إلى الحالة كقوله تعالى : ﴿ ألم ترَ كيفَ فعَل ربّك بأصحاب الفيل ﴾ [الفيل : 1] ﴿ ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقاً ﴾ [نوح : 15] ، وصحّ تعديته إلى اسم الذات مقيّدة بالحالة المقصودة بحال أو ظرف أو صلة نحو ﴿ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ﴾ [الغاشية : 17] ﴿ ألم تر إلى الذي حاجّ إبراهيم في ربه ﴾ [البقرة : 258] ﴿ ألم تر إلى الملأ من بني إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبيء لهم ابعث لنا ملكاً ﴾ [البقرة : 246] .

والفرق بين التعديتين أن الأولى يقصد منها العناية بالحالة لا بصاحبها ، فالمقصود من آية سورة الفيل : الامتنان على أهل مكة بما حلّ بالذين انتهكوا حرمتَها من الاستئصال ، والمقصود من آية سورة الغاشية العبرة بكيفية خلقه الإبلِ لما تشتمل عليه من عجيب المنافع ، وكذلك الآيتان الأخِيرتان .

وإذ قد كان المقام هنا مقام إثبات الوحدانية والإلهية الحقّ لله تعالى ، أوثرَ تعلق فعل الرؤية باسم الذات ابتداء ثم مجيء الحال بعد ذلك مجيئاً كمجيء بدل الاشتمال بعد ذكر المبدَل منه .

وأما قوله في سورة نوح (15) ﴿ ألم تَروا كيف خلق الله ﴾ دون أن يقال : ألم تروا ربّكم كيف خلق ، لأن قومه كانوا متصلبين في الكفر وكان قد جادلهم في الله غيرَ مرة فعَلِم أنه إن ابتدأهم بالدعوة إلى النظر في الوحدانية جعلوا أصابعهم في آذانهم فلم يسمعوا إليه فبادأهم باستدعاء النظر إلى كيفية الخلق .

وعلى كل فإن ﴿ كيف ﴾ هنا مجردة عن الاستفهام وهي اسم دال على الكيفية فهي في محلّ بدل الاشتمال من ﴿ ربك ﴾ ، والتقدير : ألم ترَ إلى ربك إلى هيئة مده الظل .

وقد تقدم ذكر خروج (كيف) عن الاستفهام عند قوله تعالى : ﴿ هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء ﴾ في سورة آل عمران (6) ، فإنه لا يخلو النهار من وجود الظل .

وفي وجود الظل دقائقُ من أحوالِ النظام الشمسي فإن الظل مقدار محدد من الظلمة يحصل من حيلولة جسم بين شعاع الشمس وبين المكان الذي يقع عليه الشعاعُ فينطبع على المكان مقدار من الظل مقدَّر بمقدار كيفية الجسم الحائل بين الشعاع وبين موقع الشعاع على حسب اتجاه ذلك الجسم الحائل من جهته الدقيقة أو الضخمة ، ويكون امتداد تلك الظلمة المكيَّفية بكيفية ذلك الجسم متفاوتاً على حسب تفاوت بُعد اتجاه الأشعة من موقعها ومن الجسم الحائل ومختلفاً باستواء المكان وتحدُّبه ، فذلك التفاوت في مقادير ظل الشيء الواحد هو المعبر عنه بالمَدّ في هذه الآية لأنه كلما زاد مقدار الظلمة المكيّفية لكيفية الحائل زاد امتداد الظل .

فتلك كلها دلائل كثيرة من دقائق التكوين الإلهي والقدرة العظيمة .

وقد أفاد هذا المعنى كاملاً فعل مَدّ ﴿ .

وهذا الامتداد يكثر على حسب مقابلة الأشعة للحائل فكلّما اتجهت الأشعة إلى الجسم من أخفض جهةٍ كان الظل أوسع ، وإذا اتجهت إليه مرتفعةً عنه تقلّص ظلّه رويداً رويداً إلى أن تصير الأشعة مُسامتة أعلى الجسم ساقطة عليه فيزول ظِله تماماً أو يكاد يزول ، وهذا

معنى قوله تعالى : ﴿ ولو شاء لجعله ساكناً ﴾ أي غير متزايد لأنه لما كان مدّ الظل يشبه صورة التحرك أطلق على انتفاء الامتدادِ اسم السكون بأن يلازم مقداراً واحداً لا ينقص ولا يزيد ، أي لو شاء الله لجعل الأرض ثابتة في سَمت واحد تُجاه أشعة الشمس فلا يختلف مقدار ظل الأجسام التي على الأرض وتلزم ظلالُها حالة واحدة فتنعدم فوائد عظيمة .

ودلت مقابلة قوله : ﴿ مد الظل ﴾ بقوله ﴿ لجعله ساكناً ﴾ على حالة مطوية من الكلام ، وهي حالة عموم الظل جميع وجه الأرض ، أي حالة الظلمة الأصلية التي سبقت اتجاه أشعة الشمس إلى وجه الأرض كما أشار إليه قول التوراة "وكانت الأرض خالية ، وعلى وجه القمر ظلمة" ثم قال "وقال الله ليكن نور فكان نور . . .

(256/560)

" وفصل الله بين النور والظلمة (إصحاح واحد من سفر الخروج) ، فاستدلال القرآن بالظل أجدى من الاستدلال بالظلمة لأن الظلمة عدم لا يكاد يحصل الشعور بجمالها بخلاف الظل فهو جامع بين الظلمة والنور فكلا دلالتيه واضحة .

وجملة ﴿ ولو شاء لجعله ساكناً ﴾ معترضة للتذكير بأن في الظل منّة .

وقوله : ﴿ ثم جعلنا الشمس عليه دليلاً ﴾ عطف على جملة ﴿ مد الظل ﴾ وأفادت

﴿ ثُمّ ﴾ أن مدلول المعطوف بها متراخ في الرتبة عن مدلول المعطوف عليه شأن ﴿ ثُم ﴾ إذا عطفت الجملة .

ومعنى تراخي الرتبة أنها أبعد اعتباراً ، أي أنها أرفع في التأثير أو في الوجود فإن وجود الشمس هو علة وجود الظّل للأجسام التي على الأرض والسبب أرفع رتبة من المسبّب ، أي أن الله مد الظل بأن جعل الشمس دليلاً على مقادير امتداده .

ولم يفصح المفسرون عن معنى هذه الجملة إفصاحاً شافياً .

والالتفات من الغيبة إلى التكلم في قوله : ﴿ ثم جعلنا ﴾ لأن ضمير المتكلم أدخل في الامتنان من ضمير الغائب فهو مشعر بأن هذا الجعل نعمة وهي نعمة النور الذي به تمييز أحوال المرئيات وعليه فقوله (تعالى) : ﴿ ثم جعلنا الشمس عليه دليلاً ﴾ ارتقاء في المنّة .

والدليل : المرشد إلى الطريق والهادي إليه ، فجُعل امتداد الظل لاختلاف مقاديره كامتداد الطريق وعلامات مقادير مثلَ صُوى الطريق ، وجعلت الشمس من حيث كانت سبباً في ظهور مقادير الظل كالهادي إلى مَراحلَ ، بطريقة التشبيه البليغ ، فكما أن الهادي يخبر السائر أين ينزل من الطريق ، كذلك الشمس بتسببها في مقادير امتداد الظل تعرّف المستدل بالظل بأوقات أعماله ليشرع فيها .

وتعدية ﴿ دليلاً ﴾ بحرف (على) تفيد أن دلالة الشمس على الظل هنا دلالة تنبيه على

شيء قد يخفى كقول الشاعر:

"إلا عليّ دليل" . . .

وشمل هذا حالتي المد والقبض.

(257/560)

وجملة ﴿ ثم قبضناه إلينا ﴾ إلخ عطف على جملة ﴿ مد الظل ﴾ ، أو على جملة ﴿ جعلنا الشمس عليه دليلاً ﴾ لأن قبض الظل من آثار جعل الشمس دليلاً على الظل.

و﴿ ثم ﴾ الثانية مثل الأولى مفيدة التراخي الرتبي ، لأن مضمون جملة ﴿ قبضناه إلينا قبضاً يسيراً ﴾ أهم في الاعتبار بمضمونها من مضمون ﴿ جعلنا الشمس عليه دليلاً ﴾ إذ في قبض الظل دلالة من دلالة الشمس هي عكس دلالتها على امتداده فكانت أعجب إذ هي عملٌ ضدٌّ للعمل الأول ، وصدور الضدين من السبب الواحد أعجب من صدور أحدهما السابق في الذكر.

والقبض : ضد المدّ فهو مستعمل في معنى النقص ، أي نقصنا امتداده ، والقبض هنا استعارة للنقص.

وتعديته بقوله : ﴿ إلينا ﴾ تخييل ، شُبِّه الظل بحبل أو ثوب طواه صاحبه بعد أن بسطه

على طريقة المكنية ، وحرف (إلى) ومجروره تخييل .

وموقع وصف القبض بيسير هنا أنه أريد أن هذا القبض يحصل ببطء دون طفرة ، فإن في التريث تسهيلاً لقبضه لأن العمل المجزّأ أيسر على النفوس من المجتمع غالباً ، فأطلق اليسر وأريد به لازم معناه عرفاً ، وهو التدريج ببطء ، على طريقة الكناية ، ليكون صالحاً لمعنى آخر سنتعرض إليه في آخر كلامنا .

وتعدية القبض بـ ﴿ إلينا ﴾ لأنه ضد المدّ الذي أسند إلى الله في قوله : ﴿ مد الظل ﴾ .

وقد علم من معنى ﴿ قبضناه ﴾ أن هذا القبض واقع بعد المد فهو متأخر عنه .

وفي مَدِّ الظل وقبضِه نعمةُ معرفة أوقات النهار للصلوات وأعمال الناس ، ونعمةُ التناوب في انتفاع الجماعات والأقطار بفوائد شعاع الشمس وفوائد الفيء بحيث إن الفريق الذي كان تحت الأشعة يتبرد بحلول الظلّ ، والفريق الذي كان في الظل ينتفع بانقباضه .

هذا محل العبرة والمنّة اللتين تتناولهما عقول النّاس على اختلاف مداركهم .

(258/560)

ووراء ذلك عبرة علمية كبرى توضحها قواعد النظام الشمسي وحركةُ الأرض حول الشمس وظهورُ الظلمة والضياء ، فليس الظل إلا أثر الظلمة فإن الظلمة هي أصل كيفيات

الأكوان ثم انبثق النور بالشمس ونشأ عن تداول الظلمة والنور نظام الليل والنهار وعن ذلك نظام الفصول وخطوط الطول والعرض للكرة الأرضية وبها عرفت مناطق الحرارة والبرودة .

ومن وراء ذلك إشارة إلى أصل المخلوقات كيف طرأ عليها الإيجاد بعد أن كانت عدماً ، وكيف يمتد وجودها في طور نمائها ، ثم كيف تعود إلى العدم تدريجاً في طور انحطاطها إلى أن تصير إلى العدم ، فذلك مما يشير إليه ﴿ ثم قبضناه إلينا قبضاً يسيراً ﴾ فيكون قد حصل من التذكير بأحوال الظلّ في هذه الآية مع المنّة والدلالة على نظام القدرة تقريب لحالة إيجاد الناس وأحوال الشباب وتقدم السن ، وأنهم عقب ذلك صائرون إلى ربّهم يوم البعث مصيراً لا إحالة فيه ولا بعد ، كما يزعمون ، فلما صار قبض الظل مثلاً لمصير الناس إلى الله بالبعث وُصف القبض بيسير تلميحاً إلى قوله : ﴿ ذلك حَشْر علينا يسير ﴾ [ق : 44] .

وفي هذا التمثيل إشارة إلى أن الحياة في الدنيا كظل يمتد وينقبض وما هو إلا ظل .

فهذان المَحملان في الآية من معجزات القرآن العلمية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير جـ 19 صـ ﴾

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ ﴾

الحق سبحانه وتعالى وهو خالق الآيات في الكون يُنبِّه إليها الخَلْق ، وكان من المفروض ممَّن يرى الآيات أنْ يتنبه إليها دون أنْ يُنبه ، فإذا رأى عجيبة من عجائب الكون تأملها ، وسبق أنْ ضربنا لذلك مثلاً بمَنِ انقطعت به السُّبل في صحراء شاسعة ، ليس بها أنيس ولا حياة ، وقد بلغ به الجهد حتى نام ، فلما استيقظ وجد مائدة عليها أطايب الطعام أو الشراب ، بالله قبل أنْ تمتدَّ يده إلى الطعام ، أليس من المفروض أنْ يفكر في هذا الطعام ، مَنْ أتى به ؟ وأعدَّه على هذه الصورة ؟

إذن : في الكون آياتٌ كان يجب أنْ تشدَّ انتباهك لتبحث فيها وفي آثار وجودها وكلها آيات عالية عنّا وفوق إمكاناتنا : الشمس والقمر ، الهواء والمطر . . إلخ . ومع ذلك لم يتركك الله ؛ لأن تتنبه أنت ، بل نبَّهك ولفتَك وجذب انتباهك لهذه ولهذه .

وهنا ، الحق تبارك وتعالى يعرض الآيات والكونيات التي يراها الإنسان برتابة كل يوم ، يراها الفيلسوف كما يراها راعي الشاة ، يراها الكبير كما يراها الصغير كل يوم على نظام واحد ، لا يكاد يلتفت إليها .

يقول سبحانه : ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ [الفرقان : 45] أي : ألم تعلم ، أو ألم تنظر إلى صَنْعة ربك

﴿ كَيْفَ مَدَّ الظل وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُ سَاكِناً ثُمَّ جَعَلْنَا الشمس عَلَيْهِ دَلِيلاً ﴾ [الفرقان : 45] نعم نرى الظل ، فما هو ؟ الظل أنْ يَحْجب شيء كثيف على الأرض مثل جبل أو بناء أو شجرة أو نحوه ضوءَ الشمس ، فتظهر منطقة الظل في المكان المُشْمِس ، فالمسألة إذن متعلقة بالشمس ، وبالأرض التي نعيش عليها .

(260/560)

وقد علمنا أن الأرض كرة تواجه الشمس ، فالجهة المواجهة منها للشمس تكون مُضَاءة ، والأخرى تكون ظلاماً لا نقول ظلاً ، فما الفرق بين الظلِّ والظلام ؟ قالوا : إذا كان الحاجبُ لضوء الشمس من نفس الأرض فهي ظُلْمة ، وإنْ كان الحاجب شيئاً على الأرض فهو ظل .

والظل نراه في كل وقت ، وقد ورد في عدة مواضع من كتاب الله ، فقال سبحانه : ﴿ إِنَّ المتقين فِي ظِلاَلٍ وَعُيُونٍ ﴾ [المرسلات : 41] .

وقال : ﴿ لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلاًّ ظَلِيلاً ﴾ [النساء : 57] وقال : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ إلى مَا خَلَقَ الله مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلاَلُهُ ﴾ [النحل : 48] .

ينبهنا ربنا تبارك وتعالى إلى مهمة أخرى من مهام الظل ، وهي أنه يحمينا من وَخْزة الشمس

وحرارتها ، ويرتقي الإنسان في استخدام الظل فيجعله كما قال تعالى ﴿ ظِلاًّ ظَلِيلاً ﴾ [النساء : 57] أي : أن الظل نفسه مُظلَّل ، فيجعلون الخيمة مثلاً لها سقفان منفصلان حتى لا يتأثر داخلُ الخيمة بالحرارة خارجها .

لذلك تجد ظل الشجرة ألطفَ من ظِلِّ الحائط مثلاً أو المظلة ؛ لأن أوراق الشجرة يُظلِّل بعضها بعضاً ، فالظل يأتيك من مُظلل آخر ، فتشعر تحت ظل الشجرة وكأنك في (تكييف) ؛ لأن الأوراق تَحجب عنك حرارة الشمس ، في حين تسمح بمرور الهواء ، كما قال الشاعر في وصف دوحة :

يصدُّ الشمسَ أَنَّي وَاجَهَتْنَا . . . فَيحْجُبُها وَيَأْذَنُ لِلنَسِيمِ

وقال تعالى : ﴿ وَإِذ نَتَقْنَا الجبل فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ ﴾ [الأعراف : 171] .

وحين تتأمل هذه الظاهرة ساعة طلوع الشمس ترى الشيء الكثيف الذي يحجب ضوء الشمس يطول ظِلُّه إلى نهاية الأفق ، ثم يأخذ في القِصر كلما ارتفعتْ الشمس إلى أنْ يصير في زوال ، ثم ينعكس الظل مع ميل الشمس ناحية الغرب فيطول إلى نهاية الأفق .

(261/560)

والحق تبارك وتعالى يريد منا أن نلاحظ هذه الظاهرة ، وأنْ نتأملها ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظل ﴾ [الفرقان : 45] أي : ساعة طلوع الشمس ﴿ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُ سَاكِناً ﴾ [الفرقان : 45] لأن مشيئة الله تستطيع أن تخلق الشيء ونقيضه ، فإنْ شاءَ مَدَّ الظل ، وإنْ شاء أمسكه .

لكنه يتغير : ينقص في أول النهار ، ويزيد في آخره وكل ما يقبل الزيادة يقبل النقص ، والنقص أو الزيادة حركة ، وللحركة نوعان : حركة قَفْزية كحركة عقرب الدقائق في الساعة ، فهو يتحرك بحركة قفزية ، وهي أنْ يمرَّ على المتحرك وقت ساكن ثم يتحرك ، إنما أتدرك ذلك في حركة عقرب الساعات ؟ لا ؛ لأنه يسير بحركة انسيابية ، بحيث توزع أجزاء الحركة على أجزاء الزمن .

ومثَّلْنا هذه الحركة بنمو الطفل الصغير الذي لا تدرك حركة نموه حالَ نظرك له منذ ولادته ، إنما إنْ غبْتَ عنه فترة أمكنك أنْ تلاحظ أنه يكبر ويتغير شكله ؛ لأن نموه مُوزَّع على فترات الزمن ، لا يكبر هكذا مرة واحدة ، فهي مجموعات كِبَر تجمعتْ في أوقات متعددة ، وليس لديك المقياس الدقيق الذي تلاحظ به كبر الطفل في فترة قصيرة .

وإذا كنا نستطيع إجراء هذه الحركة في الساعات مثلاً ، فالحق تبارك وتعالى يُحدِثها في حركة الظل وينسبها لعظمها إلى نفسه تعالى ؛ لأن الظل لا يسير بحركة ميكانيكية كالتي تراها في الساعة إنما يسير بقدرة الله .

والحق سبحانه يلفتنا إلى هذه الظاهرة ، لا لأنها مجرد ظاهرة كونية نراها وتعجب منها ، إنما لأننا سنستغلها وننتفع بها في أشياء كثيرة .

(262/560)

فقدماء المصريين أقاموا المسلات ليضبطوا بها الزمن عن طريق الظل ، وصنع العرب المسلمون المزْولة لضبط الوقت مع حركة الشمس ، ونرى الفلاح البسيط الآن ينظر إلى ظل شيء ويقول لك : الساعة الآن كذا ؛ لأنه تعودَّ أن يقيس الوقت بالظل ، مع أن مثل هذا التقدير يكون غير دقيق ؛ لأن للشمس مطالعَ متعددة على مرِّ أيام العام ؛ لذلك في أحد معابد الفراعنة معبد به 365 طاقة ، تدخل الشمس كل يوم واحدة منها .

إذن : أفادنا الظل في المسلات والمزاول ، ومنها انتقل المسلمون إلى عمل الساعات ، وأولها الساعة الدقاقة التي كانت تعمل بالماء ، وقد أهدوْا شارلمان ملك فرنسا واحدة منها فقال : إن فيها شيطاناً ، هكذا كان المسلمون الأوائل .

وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَا الشمس عَلَيْهِ دَلِيلاً ﴾ [الفرقان : 45] أي : أن الضوء هو الذي يدل على الظلِّ .

ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضاً يَسِيرًا (46)

الحق تبارك وتعالى يُبيِّن الحركة البطيئة للظل فيقول : ﴿ قَبْضاً يَسِيراً ﴾ [الفرقان : 46] لا تدركه أنت أبداً ؛ لأن في كل لحظة من لحظات الزمن حركة فلا يخلو الوقت مهما قَلَّ من الحركة ، لكن ليس لديك المقياس الذي تدرك به بُطْءَ هذه الحركة .

وقوله : ﴿ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا ﴾ [الفرقان : 46] دليل على أن المسألة ليست ميكانيكاً ، إنما هي بقيومية الله تعالى ؛ لذلك فكأن الحق سبحانه يقول : يا عبادي ناموا مِلْءَ جفونكم ، فربُّكم قيُّوم على مصالحكم لا ينام .

وأهل المعرفة يستنبطون من ظاهرة الظل أسراراً ، فيروْنَ أن ظِلَّ الأشياء الشاهقة المتعالية يخضع لله تعالى ، ويسجد على الأرض ، رغم أنه متعالٍ شامخ ، كما جاء في قوله سبحانه : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السماوات والأرض طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلالُهُم بالغدو والآصال ﴾ [الرعد : 15] .

(263/560)

وقال سبحانه : ﴿ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاَتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ﴾ [النور : 41] فللظل حركة بطيئة لا يعلمها إلا الله ؛ لأنك لا تدرك مدى صِغَرها ؛ لذلك قُلْنا في الهباء : إنه نهاية ما يمكن أن يكون من التفتيت المنظور . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

فائدة

قال ابن القيم :

قوله تعالى ﴿ ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا ثم جعلنا الشمس عليه دليلا ثم قبضناه إلينا قبضا يسيرا ﴾

فأخبر تعالى أنه بسط الظل ومده وأنه جعله متحركا تبعا لحركة الشمس ولو شاء لجعله ساكنا لا يتحرك إما بسكون المظهر له والدليل عليه وإما بسبب آخر ثم أخبر أنه قبضه بعد بسطه قبضا يسيرا وهو شيء بعد شيء لم يقبضه جملة فهذا من أعظم آياته الدالة على عظيم قدرته وكمال حكمته فندب الرب سبحانه عباده إلى رؤية صنعته وقدرته وحكمته في هذا الفرد من مخلوقاته ولو شاء لجعله لاصقا بأصل ما هو ظل له من جبل وبناء وشجر وغيره فلم ينتفع به أحد

فإن كان الانتفاع به تابعا لمده وبسطه وتحوله من مكان إلى مكان ففي مده وبسطه ثم قبضه شيئًا فشيئًا من المصالح والمنافع مالا يخفى ولا يحصى فلو كان ساكنا دائما أو قبض دفعة واحدة لتعطلت مرافق العالم ومصالحه به وبالشمس فمد الظل وقبضه شيئًا فشيئًا لازم

لحركة الشمس على ما قدرت عليه من مصالح العالم وفي دلالة الشمس على الظلال ما تعرف به أوقات الصلوات وما مضى من اليوم وما بقي منه وفي تحركه وانتقاله ما يرد به ما أصابه من حر الشمس وينفع الحيوانات والشجر والنبات فهو من آيات الله الدالة عليه

وفي الآية وجه آخر وهو أنه سبحانه مد الظل حين بنى السماء كالقبة المضروبة ودحى الأرض تحتها فألقت القبة ظلها عليها فلو شاء سبحانه لجعله ساكنا مستقرا في تلك الحال ثم خلق الشمس ونصبها دليلا على ذلك الظل فهو يتبعها في حركتها يزيد بها وينقص ويمتد ويتقلص فهو تابع لها تبعية المدلول لدليله

وفيها وجه آخر وهو أن يكون المراد قبضه عند قيام الساعة بقبض أسبابه وهي الأجرام التي تلقي الظلال فيكون قد ذكر إعدامه بإعدام أسبابه كما ذكر إنشاءه بإنشاء أسبابه

(265/560)

وقوله تعالى قبضناه إلينا كأنه يشعر بذلك وقوله قبضا يسيرا يشبه قوله ذلك حشر علينا يسير وقوله قبضناه بصيغة الماضي لا ينافي ذلك كقوله أتى أمر الله والوجه في الآية هو الأول وهذان الوجهان إن أراد من ذكرهما دلالة الآية عليهما إشارة وإيماء فقريب وإن أراد أن ذلك هو المراد من لفظها فبعيد لأنه سبحانه جعل ذلك آية ودلالة عليه للناظر فيه كما في

سائر آياته التي يدعو عباده إلى النظر فيها فلا بد أن يكون ذلك أمرا مشهودا تقوم به الدلالة وتحصل به التبصرة

وأبعد من هذا ما تعلق به صاحب المنازل في باب القبض بقبض الظل كما أشار إليه في خطبة كتابه حيث يقول الذي مد ظل التكوين على الخليقة مدا طويلا ثم جعل شمس التمكين لصفوته عليه دليلا ثم قبض ظل التفرقة عنهم إليه قبضا يسيرا فاستعار للتكوين لفظ الظل إعلاما بأن المكونات بمنزلة الظلال في عدم استقلالها بأنفسها إذ لا يتحرك الظل إلا بحركة صاحبه وقوله مدا طويلا إشارة إلى أنه سبحانه لا يزال يخلق شيئًا بعد شيء خلقا لا يتناهى لسعة قدرته ووجوب أبديته

ثم إن حقيقة الظل هي عدم الشمس في بقعة ماء لسائر سترها فإنما تتعين تلك الحقيقة بالشمس فكذلك المكون إنما تتعين حقيقته بالمكون له سبحانه وتعالى وشمس التمكين هي التوحيد الجامع لقلوب صفوته عن التفرق في شعاب ظل التكوين ثم قبض ظل التفرقة عنهم إليه قبضا يسيرا أي أخذ ظل التفرقة عنهم أخذا سهلا

فالشيخ أحال باستشهاده بالآية في الباب المذكور على ما تقدم له في الخطبة

ووجه الإشارة بالآية يعلم من قوله ثم قبضناه إلينا والقبض في هذا الباب لم يرد به قبض الإضافة ولهذا قال الشيخ

القبض في هذا الباب أسم يشار به إلى مقام الضنائن الذين ادخرهم الحق اصطناعا لنفسه

فالقبض نوعان قبض في الأحوال وقبض في الحقائق فالقبض في الأحوال أمر يطرق القلب يمنعه عن الانبساط والفرح وهو نوعان أيضا

(266/560)

أحدهما ما يعرف سببه مثل تذكر ذنب أو تفريط أو بعد أو جفوة أو حدوث ما هو نحو ذلك

والثاني ما لا يعرف سببه بل يهجم على القلب هجوما لا يقدر على التخلص منه وهذا هو القبض المشار إليه على ألسنة القوم وضده البسط فالقبض والبسط عندهم حالتان للقلب لا يكاد ينفك عنهما

وقال أبو القاسم الجنيد في معنى القبض والبسط معنى الخوف والرجاء فالرجاء يبسط إلى الطاعة والخوف يقبض عن المعصية

فكلهم تكلم في القبض والبسط على هذا المنهج حتى جعلوه أقساما قبض تأديب وقبض تهذيب وقبض جمع وقبض تفريق ولهذا يمتنع صاحبه إذا تمكن منه من الأكل والشرب والكلام وفعل الأوراد والانبساط إلى الأهل وغيرهم

فقبض التأديب يكون عقوبة على غفلة أو خاطر سوء أو فكرة رديئة

وقبض التهذيب يكون إعدادا لبسط عظيم شأنه يأتي بعده فيكون القبض قبله كالتنبيه عليه والمقدمة له كما كان الغت والغط مقدمة بين يدي الوحي وإعدادا لوروده وهكذا الشدة مقدمة بين يدي الفرج والبلاء مقدمة بين يدي العافية والخوف الشديد مقدمة بين يدي الأمن وقد جرت سنة الله سبحانه أن هذه الأمور النافعة المحبوبة إنما يدخل إليها من أبواب أضدادها

وأما قبض الجمع فهو ما يحصل للقلب حال جمعيته على الله من انقباضه عن العلم وما فيه فلا يبقى فيه فضل ولا سعة لغير من اجتمع قلبه عليه وفي هذه الحال من أراد من صاحبه ما يعهده منه من المؤانسة والمذاكرة فقد ظلمه

وأما قبض التفرقة فهو القبض الذي يحصل من تفرق قلبه عن الله وتشتته عنه في الشعاب والأودية فأقل عقوبته ما يجده من القبض الذي يتمنى معه الموت

(267/560)

وأما القبض الذي أشار إليه صاحب المنازل فهو شيء وراء هذا كله فإنه جعله من قسم الحقائق وذلك القبض الذي تقدم ذكره من قسم البدايات ولهذا قال القبض في هذا الباب اسم يشار به إلى مقام الضنائن ومن هنا حسن استشهاده بإشارة الآية لأنه تعالى أخبر عن

قبض الظل إليه والقبض في هذا الباب يتضمن قبض القلب عن غيره إليه وجمعيته بعد التفرقة عليه والضنائن جمع ضنينة وهي الخاصة يضن بها صاحبها أي يبخل ببذلها ويصطفيها لنفسه ولهذا قال الذين ادخرهم الحق اصطناعا لنفسه .

(268/560)

فالقبض نوعان قبض في الأحوال وقبض في الحقائق فالقبض في الأحوال أمر يطرق القلب يمنعه عن الانبساط والفرح وهو نوعان أيضا أحدهما ما يعرف سببه مثل تذكر ذنب أو تفريط أو بعد أو جفوة أو حدوث ما هو نحو ذلك والثاني مالا يعرف سببه بل يهجم على القلب هجوما لا يقدر على التخلص منه وهذا هو القبض المشار إليه على ألسنة القوم وضده البسط فالقبض والبسط عندهم حالتان للقلب لا يكاد ينفك عنهما وقال أبو القاسم الجنيد في معنى القبض والبسط معنى الخوف والرجاء فالرجاء يبسط إلى الطاعة والخوف يقبض عن المعصية فكلهم تكلم في القبض والبسط على هذا المنهج حتى جعلوه أقساما قبض تأديب وقبض تهذيب وقبض جمع وقبض تفريق ولهذا يمتنع صاحبه إذا تمكن منه من الأكل والشرب والكلام وفعل الأوراد والانبساط إلى الأهل وغيرهم فقبض التأديب يكون عقوبة على غفلة أو خاطر سوء أو فكرة رديئة وقبض التهذيب يكون إعدادا لبسط

عظيم شأنه يأتي بعده فيكون القبض قبله كالتنبيه عليه والمقدمة له كما كان الغت والغط مقدمة بين يدي الوحي وإعدادا لوروده وهكذا الشدة مقدمة بين يدي الفرج والبلاء مقدمة بين يدي العافية والخوف الشديد مقدمة بين يدي الأمن وقد جرت سنة الله سبحانه أن هذه الأمور النافعة المحبوبة إنما يدخل إليها من أبواب أضدادها .

(269/560)

وأما قبض الجمع فهو ما يحصل للقلب حال جمعيته على الله من انقباضه عن العلم وما فيه فلا يبقى فيه فضل ولا سعة لغير من اجتمع قلبه عليه وفي هذه الحال من أراد من صاحبه ما يعهده منه من المؤانسة والمذاكرة فقد ظلمه وأما قبض التفرقة فهو القبض الذي يحصل من تفرق قلبه عن الله وتشتته عنه في الشعاب والأودية فأقل عقوبته ما يجده من القبض الذي يتمنى معه الموت وأما القبض الذي أشار إليه صاحب المنازل فهو شيء وراء هذا كله فإنه جعله من قسم الحقائق وذلك القبض الذي تقدم ذكره من قسم البدايات ولهذا قال القبض في هذا الباب اسم يشار به إلى مقام الضنائن ومن هنا حسن استشهاده بإشارة الآية لأنه تعالى أخبر عن قبض الظل إليه والقبض في هذا الباب يتضمن قبض القلب عن غيره إليه وجمعيته بعد التفرقة عليه والضنائن جمع ضنينة وهي الخاصة يضن بها صاحبها أي يبخل

ببذلها ويصطفيها لنفسه ولهذا قال الذين ادخرهم الحق اصطناعا لنفسه والادخار افتعال من الذخر وهو ما يعده المرء لحوائجه ومصالحه والاصطناع بمعنى الاصطفاء قال تعالى لموسى ﴿ وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴾ والاصطناع في الأصل اتخاذ الصنيعة وهي الخير تسديه إلى غيرك قال الشاعر

وإذا اصطنعت صنيعة فاقصد بها . . . وجه الذي يولي الصنائع أودع

قال ابن عباس اصطنعتك لوحيي ورسالتي وقال الكلبي اخترتك بالرسالة لنفسي لكي تحبني وتقوم بأمري وقيل اخترتك بالإحسان إليك لإقامة حجتي فتكلم عبادي عني قال أبو إسحاق اخترتك بالإحسان إليك لإقامة حجتي وجعلتك بيني وبين خلقي حتى صرت في الخطاب والتبليغ عني بالمنزلة التي أكون أنا بها لو خاطبتهم .

(270/560)

وقيل مثل حاله بحال من يراه بعض الملوك لجوامع خصال فيه وخصائص أهلا لكرامته وتقريبه فلا يكون أحد أقرب منه منزلة إليه ولا ألطف محلا فيصطنعه بالكرامة والأثرة ويستخلصه لنفسه بحيث يسمع به ويبصر به ويطلع على سره والمقصود أن الرب سبحانه حال بين هؤلاء الضنائن وبين التعلق بالخلق وصرف قلوبهم وهممهم وعزائمهم إليه قال وهم

على ثلاث فرق فرقة قبضهم إليه قبض التوقي فضن بهم عن أعين العالمين هذا الحرف في التوقي بالقاف من الوقاية وليس من الوفاة أي سترهم عن أعين الناس وقاية لهم وصيانة عن ملابستهم فغيبهم عن أعين الناس فلم يطلعهم عليهم وهؤلاء هم أهل الانقطاع والعزلة عن الناس وقت فساد الزمان ولعلهم الذين قال فيهم النبي صلى اله عليه وسلم " يوشك أن يكون خير مال المرء غنما يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر " وقوله "ورجل معتزل في شعب من الشعاب يعبد ربه ويدع الناس من شره" وهذه الحال تحمد في بعض الأماكن والأوقات دون بعضها وإلا فالمؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم أفضل من هؤلاء فالعزلة في وقت تجب فيه ووقت تستحب فيه ووقت تباح فيه ووقت تكره فيه وقت تحرم فيه ويجوز أن يكون قبض التوفي بالفاء أجسادهم وقلوبهم من بين العالمين وهم في الدنيا لكن لما لم يخالطوا الناس كانوا بمنزلة من قد توفي وفارق الدنيا قال وفرقة قبضهم بسترهم في لباس التلبيس وأسبل عليهم أكلة الرسوم فأخفاهم عن عيون العالم .

(271/560)

هذه الفرقة هم مع الناس مخالطون والناس يرون ظواهرهم وقد ستر الله حقائقهم وأحوالهم عن رؤية الخلق لها فحالهم ملتبس على الناس لا يعرفونه فإذا رأوا منهم ما يرون من أبناء

الدنيا من الأكل والشرب واللباس والنكاح وطلاقة الوجه وحسن العشرة قالوا هؤلاء من أبناء الدنيا وإذا رأوا ذلك الجد والهمم والصبر والصدق وحلاوة المعرفة والإيمان والذكر وشاهدوا منهم أمورا ليست من أمور أبناء الدنيا قالوا هؤلاء من أبناء الآخرة فالتبس حالهم عليهم وهم مستورون عن الناس بأسبابهم وصنائعهم ولباسهم لم يجعلوا لطلبهم وإرادتهم إشارة تشير إليهم اعرفوني فهؤلاء يكونون مع الناس والمحجوبون لا يعرفونهم ولا يرفعون بهم رءوسا وهم من سادات أولياء الله صانهم الله عن معرفة الناس كرامة لهم لئلا يفتتنوا بهم وإهانة للجهال بهم فلا ينتفعون بهم وهذه الفرقة بينها وبين الأولى من الفضل ما لا يعلمه إلا الله فهم بين الناس بأبدانهم وبين الرفيق الأعلى بقلوبهم فإذا فارقوا هذا العالم انتقلت أرواحهم إلى تلك الحضرة فإن روح كل عبد تنتقل بعد مفارقة البدن إلى حضرة من كان يألفهم ويحبهم فإن المرء مع من أحبه قوله وأسبل عليهم أكلة الرسوم أي أجرى عليهم أحكام الخلق يأكلون كما يأكلون ويشربون كما يشربون ويسكنون حيث يسكنون ويمشون معهم في الأسواق ويعانون معهم الأسباب وهم في واد والناس في واد فمشاركتهم إياهم في ذلك هي التي سترتهم عن معرفتهم وعن إدراك حقائقهم فهم تحت ستور المشاركة ووراء هاتيك الستور محجب . . . بالحسن كل العز تحت لوائه

لو أبصرت عيناك بعض جماله . . . لبذلت منك الروح في إرضائه

ما طابت الدنيا بغير حديثه . . . كلا ولا الأخرى بدون لقائه

يا خاسرا هانت عليه نفسه . . . إذ باعها بالغبن من أعدائه

لو كنت تعلم قدر ما قد بعته . . . لفسخت ذاك البيع قبل وفائه

أو كنت كفوا للرشاد وللهدى . . . أبصرت لكن لست من أكفائه

قوله وفرقة قبضهم منهم إليه فصافاهم مصافاة سر فضن بهم عليهم هذه الفرقة إنما كانت أعلى من الفرقتين المتقدمتين لأن الحق سبحانه قد سترهم عن نفوسهم لكمال ما أطلعهم عليه وشغلهم به عنهم فهم في أعلى الأحوال والمقامات ولا التفات لهم إليها فهؤلاء قلوبهم معه سبحانه لا مع سواه فلم يكونوا من السوى ولا السوى منهم بل هم مع السوى بالمجاورة والامتحان لا بالمساكنة والألفة قلوبهم عامرة بالأسرار وأرواحهم تحن إليه حنين الطيور إلى الأوكار قد سترهم وليهم وحبيبهم عنهم وأخذهم إليه منهم قوله فصافاهم مصافاة سر أي جعل مواجيدهم في أسرارهم وقلوبهم للطف إدراكهم فلم تظهر عليهم في ظواهرهم لقوة الاستعداد قوله فضن بهم عليهم أي أخذهم عن رسومهم فأفناهم عنهم وأبقاهم به وقد علمت من هذا أن القبض المشار إليه في هذا الباب ليس هو القبض الذي يشير إليه القوم في

البدايات والسلوك والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مدارج السالكين حـ 3 صـ 293 .

299 ﴾

(273/560)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا (45) ﴾

قوله : ﴿ كَيْفَ ﴾ : منصوبةٌ ب " مَدَّ " وهي مُعَلِّقَةٌ ل " تَرَ " فهي في موضعِ نصبٍ وقد تقدَّم القولُ في " ألم تَرَ " .

قوله : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَا ﴾ قال الزمخشري : " فإنْ قلتَ : " ثم " في هذين الموضعين كيف موقعُها ؟ قلت : موقعُها لبيانِ تَفاضُلِ الأمورِ الثلاثةِ ، كأنَّ الثاني أعظمُ من الأولِ ، والثالثَ أعظمُ منهما تشبيهاً ؛ لتباعُدِ ما بينها في الفَضْلِ بتباعُدِ ما بينها في الوقتِ " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 487 ﴾

(274/560)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ﴾

قيل نَزَلَ الرسول – صلى الله عليه وسلم – في بعض أسفاره وقت القيلولة في ظل شجرة وكانوا خَلْقاً كثيراً فَمَدَّ اللَّهُ ظِلَّ تلك الشجرة حتى وسع جميعَهم وكانوا كثيرين ، فأنزل الله هذه الآية ، وكان ذلك من جملة معجزاته عليه السلام .

وقيل إن الله في ابتداء النهار قبل طلوع الشمس يجعل الأرضَ كلَّها ظلاً ، ثم إذا طلعت الشمسُ وانبسط على وجه الأرض شعاعُها فكلُّ شخصٍ يُبْسَطُ له ظِلٌّ ، ولا يُصيب ذلك الموضعَ شعاعُ الشمس ، ثم يتناقص إلى وقت الزوال ، ثم يأخذ في الزيادة وقت الزوال .

وذلك من أماراتِ قدرة الله تعالى ؛ لأنه أجرى العادة بخلق الظلِّ والضوء والفيء .

قوله : ﴿ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُ سَاكِناً ﴾ : أي دائماً : ﴿ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضاً يَسِيراً ﴾ ؛ أي حال ارتفاعِ الشمسِ ونُقصانِ الظِّلِّ .

ويقال : ألم تر إلى ربك كيف مدَّ ظل العناية على أحوال أوليائه ؛ فقومٌ هم في ظل الحماية ، وآخرون في ظل الرعاية ، وآخرون في ظل العناية ، والفقراء في ظل الكفاية ، والأغنياء في ظل الراحة من الشكاية .

ظلٌ هو ظل العصمة ، وظل هو ظل الرحمة ؛ فالعصمة للأنبياء عليهم السلام ثم للأولياء ، والرحمة للمؤمنين ، ثم في الدنيا لكافة الخلائق أجمعين . ويقال قوله للنبي صلى الله عليه وسلم : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ ﴾ ثم قوله ﴿ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ ﴾ ستراً لما كان كاشفه به أولاً ، إجراءً للسُّنَّةِ في إخفاء الحال عن الرقيب . قال لموسى عليه السلام : ﴿ لَن تَرَانِى ﴾ [الأعراف : 143] وقال لنبينا عليه السلام : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ ﴾ وشتان ما هما !

(275/560)

ويقال أحيا قلبه بقوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ ﴾ إلى أن قال : ﴿ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ ﴾ فجعل استقلاله بقوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ ﴾ إلى أن سمع ذكر الظل . ويقا أحياه بقوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ ﴾ ثم أفناه بقوله : ﴿ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ ﴾ وكذا سُنَّتُه مع عباده ؛ يُرَدِّدُهم بين إفناءٍ وإبقاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 638.639 ﴾

(276/560)

كلام نفيس للإمام ابن القيم فى باب الحياة

قال عليه الرحمة :

فصل قال صاحب المنازل باب الحياة

قال الله تعالى ﴿ أَوَمَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ ﴾ استشهاده بهذه الآية في هذا الباب ظاهر جدا فإن المراد بها من كان ميت القلب بعدم روح العلم والهدى والإيمان فأحياه الرب تعالى بروح أخرى غير الروح التي أحيا بها بدنه وهي روح معرفته وتوحيده ومحبته وعبادته وحده لا شريك له إذ لا حياة للروح إلا بذلك وإلا فهي في جملة الأموات ولهذا وصف الله تعالى من عدم ذلك بالموت فقال ﴿ أَوَمَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ ﴾ وقال تعالى ﴿ إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ ﴾ وسمى وحيه روحا لما يحصل به من حياة القلوب والأرواح فقال تعالى ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ فأخبر أنه روح تحصل به الحياة وأنه نور تحصل به الإضاءة وقال تعالى ﴿ يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴾ وقال تعالى ﴿ رَفِيعُ الدَّرَجَات .

(277/560)

ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴾ فالوحي حياة الروح كما أن الروح حياة البدن ولهذا من فقد هذه الروح فقد فقد الحياة النافعة في الدنيا والآخرة أما في الدنيا فحياته حياة البهائم وله المعيشة الضنك وأما في الآخرة فله جهنم لا يموت فيها ولا يحيا وقد جعل الله الحياة الطيبة لأهل معرفته ومحبته وعبادته فقال تعالى ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ وقد فسرت الحياة الطيبة بالقناعة والرضى والرزق الحسن وغير ذلك والصواب أنها حياة القلب ونعيمه وبهجته وسروره بالإيمان ومعرفة الله ومحبته والإنابة إليه والتوكل عليه فإنه لا حياة أطيب من حياة صاحبها ولا نعيم فوق نعيمه إلا نعيم الجنة كما كان بعض العارفين يقول إنه لتمر بي أوقات أقول فيها إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب وقال غيره إنه ليمر بالقلب أوقات يرقص فيها طربا وإذا كانت حياة القلب حياة طيبة تبعته حياة الجوارح فإنه ملكها ولهذا جعل الله المعيشة الضنك لمن أعرض عن ذكره وهي عكس الحياة الطيبة وهذه الحياة الطيبة تكون في الدور الثلاث أعني دار الدنيا ودار البرزخ ودار القرار والمعيشة الضنك أيضا تكون في الدور الثلاث فالأبرار في النعيم هنا وهنالك والفجار في الجحيم هنا وهنالك قال الله تعالى ﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْراً لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ ﴾ وقال

تعالى ﴿ وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعاً حَسَناً إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ﴾ فذكر الله سبحانه وتعالى ومحبته وطاعته والإقبال

(278/560)

عليه ضامن لأطيب الحياة في الدنيا والآخرة والإعراض عنه والغفلة ومعصيته كفيل بالحياة المنغصة والمعيشة الضنك في الدنيا والآخرة .

فصل قال صاحب المنازل الحياة في هذا الباب يشار بها إلى ثلاثة .

اشياء الحياة الأولى حياة العلم من موت الجهل ولها ثلاثة أنفاس نفس الخوف ونفس الرجاء ونفس المحبة قوله الحياة في هذا الباب يريد الحياة الخاصة التي يتكلم عليها القوم دون الحياة العامة المشتركة بين الحيوان كله بل بين الحيوان والنبات وللحياة مراتب ونحن نشير إليها المرتبة الأولى حياة الأرض بالنبات قال تعالى ﴿ وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ وقال في الماء ﴿ أَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴾ وقال ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُوراً لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً ﴾ وجعل هذه الحياة دليلا على الحياة يوم المعاد وهذه حياة حقيقة في هذه المرتبة مستعملة في في كل لغة جارية على ألسن الخاصة والعامة قال الشاعر يمدح عبد المطلب

بشيبة الحمد أحيا الله بلدتنا . . . لما فقدنا الحيا وأجلوز المطر

وهذا أكثر من أن نذكر شواهده المرتبة الثانية حياة النمو والاغتذاء وهذه الحياة مشتركة بين النبات والحيوان الذي يعيش بالغذاء قال الله تعالى ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾ وقد اختلف الفقهاء في الشعور هل تحلها الحياة على قولين والصواب أنها تحلها حياة النمو والغذاء دون الحسن والحركة ولهذا لا تنجس بالموت إذ لو أوجب لها فراق النمو والاغتذاء النجاسة لنجس الزرع والشجر لمفارقته هذه الحياة له ولهذا كان الجمهور على أن الشعور لا تنجس بالموت .

(279/560)

المرتبة الثالثة حياة الحيوان المغتذي بقدر زائد على نموه واغتذائه وهي إحساسه وحركته ولهذا يألم بورود الكيفيات المؤلمة عليه وبتفرق الاتصال ونحو ذلك وهذه الحياة فوق حياة النبات وهذه الحياة تقوى وتضعف في الحيوان الواحد بحسب أحواله فحياته بعد الولادة أكمل منها وهو جنين في بطن أمه وحياته وهو صحيح معافى أكمل منها وهو سقيم عليل فنفس هذه الحياة تتفاوت تفاوتا عظيما في محالها فحياة الحية أكمل من حياة البعوضة ومن قال غير هذا فقد كابر الحس والعقل المرتبة الرابعة حياة الحيوان الذي لا يغتذي بالطعام

والشراب كحياة الملائكة وحياة الأرواح بعد مفارقتها لأبدانها فإن حياتها أكمل من حياة الحيوان المغتذي ولهذا لا يلحقها كلال ولا فتور ولا نوم ولا إعياء قال تعالى ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ﴾ وكذلك الأرواح إذا تخلصت من هذه الأبدان وتجردت صار لها حياة أخرى أكمل من هذه إن كانت سعيدة وإن كانت شقية كانت عمله ناصبة في العذاب

المرتبة الخامسة الحياة التي أشار إليها المصنف وهي حياة العلم من موت الجهل فإن الجهل موت لأصحابه كما قيل

وفي الجهل قبل الموت موت لأهله . . . وأجسامهم قبل القبور قبور

وأرواحهم في وحشة من جسومهم . . . فليس لهم حتى النشور نشور

فإن الجاهل ميت القلب والروح وإن كان حي البدن فجسده قبر يمشي به على وجه الأرض قال الله تعالى ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ وقال تعالى ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيّاً وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ وقال تعالى ﴿إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ﴾ وقال تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾

وشبههم في موت قلوبهم بأهل القبور فإنهم قد ماتت أرواحهم وصارت أجسامهم قبورا لها فكما أنه لا يسمع أصحاب القبور كذلك لا يسمع هؤلاء وإذا كانت الحياة هي الحس والحركة وملزومهما فهذه القلوب لما لم تحس بالعلم والإيمان ولم تتحرك له كانت ميتة حقيقة وليس هذا تشبيها لموتها بموت البدن بل ذلك موت القلب والروح وقد ذكر الإمام أحمد في كتاب الزهد من كلام لقمان أنه قال لابنه يا بني جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك فإن الله يحيي القلوب بنور الحكمة كما يحيي الأرض بوابل القطر وقال معاذ بن جبل تعلموا العلم فإن تعلمه لله خشية وطلبه عبادة ومذاكرته تسبيح والبحث عنه جهاد وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة وبذله لأهله قربة لأنه معالم الحلال والحرام ومنار سبل أهل الجنة وهو الأنيس في الوحشة والصاحب في الغربة والمحدث في الخلوة والدليل على السراء والضراء والسلاح على الأعداء والزين عند الأخلاء يرفع الله به أقواما فيجعلهم في الخير قادة وأئمة تقتص آثارهم ويقتدي بأفعالهم وينتهى إلى رأيهم ترغب الملائكة في خلتهم وبأجنحتها تمسحهم يستغفر لهم كل رطب ويابس وحيتان البحر وهوامه وسباع البر وأنعامه لأن العلم حياة القلوب من الجهل ومصابيح الأبصار من الظلم يبلغ العبد بالعلم منازل الأخيار والدرجات العلى في الدنيا والآخرة التفكر فيه يعدل الصيام.

ومدارسته تعدل القيام به توصل الأرحام وبه يعرف الحلال من الحرام وهو إمام العمل والعمل تابع له يلهمه السعداء ويحرمه الأشقياء رواه الطبراني وابن عبد البر وغيرهما وقد روي

مرفوعا إلى النبي صلى اله عليه وسلم والوقف أصح والمقصود قوله لأن العلم حياة القلوب من الجهل فالقلب ميت وحياته بالعلم والإيمان .

فصل المرتبة السادسة حياة الإرادة والهمة وضعف الإرادة والطلب من .

(281/560)

ضعف حياة القلب وكلما كان القلب أتم حياة كانت همته أعلى وإرادته ومحبته أقوى فإن الإرادة والمحبة تتبع الشعور بالمراد المحبوب وسلامة القلب من الآفة التي تحول بينه وبين طلبه وإرادته فضعف الطلب وفتور الهمة إما من نقصان الشعور والإحساس وإما من وجود الآفة المضعفة للحياة فقوة الشعور وقوة الإرادة دليل على قوة الحياة وضعفهما دليل على ضعفها وكما أن علو الهمة وصدق الإرادة والطلب من كمال الحياة فهو سبب إلى حصول أكمل الحياة وأطيبها فإن الحياة الطيبة إنما تنال بالهمة العالية والمحبة الصادقة والإرادة الخالصة فعلى قدر ذلك تكون الحياة الطيبة وأخس الناس حياة أخسهم همة وأضعفهم محبة وطلبا وحياة البهائم خير من حياته كما قيل

نهارك يا مغرور سهو وغفلة . . . وليلك نوم والردى لك لازم

وتكدح فيما سوف تنكر غبه . . . كذلك في الدنيا تعيش البهائم

تسر بما يفنى وتفرح بالمنى . . . كما غر باللذات في النوم حالم

والمقصود أن حياة القلب بالعلم والإرادة والهمة والناس إذا شاهدوا ذلك من الرجل قالوا هو حي القلب وحياة القلب بدوام الذكر وترك الذنوب كما قال عبد الله بن المبارك رحمه الله .

رأيت الذنوب تميت القلوب . . . وقد يورث الذل إدمانها

وترك الذنوب حياة القلوب . . . وخير لنفسك عصيانها

وهل أفسد الدين إلا الملو . . . ك وأحبار سوء ورهبانها

وباعوا النفوس ولم يربحوا . . . ولم يغل في البيع أثمانها

فقد رتع القوم في جيفة . . . يبين لذي اللب خسرانها

(282/560)

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يقول من واظب على يا حي يا قيوم لا إله إلا أنت كل يوم بين سنة الفجر وصلاة الفجر أربعين مرة أحيى الله بها قلبه وكما أن الله سبحانه جعل حياة البدن بالطعام والشراب فحياة القلب بدوام الذكر والإنابة إلى الله وترك الذنوب والغفلة الجاثمة على القلب والتعلق بالرذائل والشهوات المنقطعة عن قريب يضعف هذه

الحياة ولا يزال الضعف يتوالى عليه حتى يموت وعلامة موته أنه لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا كما قال عبد الله بن مسعود أتدرون من ميت القلب الذي قيل فيه

ليس من مات فاستراح بميت . . . إنما الميت ميت الأحياء

قالوا ومن هو قال الذي لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا والرجل هو الذي يخاف موت قلبه لا موت بدنه إذ أكثر هؤلاء الخلق يخافون موت أبدانهم ولا يبالون بموت قلوبهم ولا يعرفون من الحياة إلا الحياة الطبيعية وذلك من موت القلب والروح فإن هذه الحياة الطبيعية شبيهة بالظل الزائل والنبات السريع الجفاف والمنام الذي يخيل كأنه حقيقة فإذا استيقظ عرف أنه كان خيالا كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لو أن الحياة الدنيا من أولها إلى آخرها أوتيها رجل واحد ثم جاءه الموت لكان بمنزلة من رأى في منامه ما يسره ثم استيقظ فإذا ليس في يده شيء وقد قيل إن الموت موتان موت إرادي وموت طبيعي فمن أمات نفسه موتا إراديا .

(283/560)

كان موته الطبيعي حياة له ومعنى هذا أن الموت الإرادي هو قمع الشهوات المردية وإخماد نيرانها المحرقة وتسكين هوائجها المتلفة فحينئذ يتفرغ القلب والروح للتفكر فيما فيه كمال

العبد ومعرفته والاشتغال به ويرى حينئذ أن إيثار الظل الزائل عن قريب على العيش اللذيذ الدائم أخسر الخسران فأما إذا كانت الشهوات وافدة واللذات مؤثرة والعوائد غالبة والطبيعة حاكمة فالقلب حينئذ إما أن يكون أسيرا ذليلا أو مهزوما مخرجا عن وطنه ومستقره الذي لا قرار له إلا فيه أو قتيلا ميتا وما لجرح به إيلام وأحسن أحواله أن يكون في حرب يدال له فيها مرة ويدال عليه مرة فإذا مات العبد موته الطبيعي كانت بعده حياة روحه بتلك العلوم النافعة والأعمال الصالحة والأحوال الفاضلة التي حصلت له بإماتة نفسه فتكون حياته ههنا على حسب موته الإرادي في هذه الدار وهذا موضع لا يفهمه إلا ألباء الناس وعقلاؤهم ولا يعمل بمقتضاه إلا أهل الهمم العلية والنفوس الزكية الأبية .

فصل المرتبة السابعة من مراتب الحياة حياة الأخلاق والصفات .

المحمودة التي هي حياة راسخة للموصوف بها فهو لا يتكلف الترقي في درجات الكمال ولا يشق عليه لاقتضاء أخلاقه وصفاته لذلك بحيث لو فارقه ذلك لفارق ما هو من طبيعته وسجيته فحياة من قد طبع على الحياء والعفة والجود والسخاء والمروءة والصدق والوفاء ونحوها أتم من حياة من يقهر نفسه ويغالب طبعه حتى يكون كذلك فإن هذا بمنزلة من تعارضه أسباب الداء وهو يعالجها ويقهرها بأضدادها وذلك بمنزلة من قد عوفي من ذلك .

وكلما كانت هذه الأخلاق في صاحبها أكمل كانت حياته أقوى وأتم ولهذا كان خلق الحياء مشتقا من الحياة اسما وحقيقة فأكمل الناس حياة أكملهم حياء ونقصان حياء المرء من نقصان حياته فإن الروح إذا ماتت لم تحس بما يؤلمها من القبائح فلا تستحي منها فإذا كانت صحيحة الحياة أحست بذلك فاستحيت منه وكذلك سائر الأخلاق الفاضلة والصفات الممدوحة تابعة لقوة الحياة وضدها من نقصان الحياة ولهذا كانت حياة الشجاع أكمل من حياة الجبان وحياة السخي أكمل من حياة البخيل وحياة الفطن الذكي أكمل من حياة الفدم البليد ولهذا لما كان الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أكمل الناس حياة حتى إن قوة حياتهم تمنع الأرض أن تبلى أجسامهم كانوا أكمل الناس في هذه الأخلاق ثم الأمثل فالأمثل من أتباعهم فانظر الآن إلى حياة حلاف مهين هماز مشاء بنميم مناع للخير معتد أثيم عتل بعد ذلك زنيم وحياة جواد شجاع بر عادل عفيف محسن تجد الأول ميتا بالنسبة إلى الثاني ولله در القائل

وما للمرء خير في حياة . . . إذ ما عد من سقط المتاع

فصل المرتبة الثامنة من مراتب الحياة حياة الفرح والسرور وقرة .

العين بالله وهذه الحياة إنما تكون بعد الظفر بالمطلوب الذي تقر به عين طالبه فلا حياة نافعة له بدونه وحول هذه الحياة يدندن الناس كلهم وكلهم قد أخطأ طريقها وسلك طرقا لا

تفضي إليها بل تقطعه عنها إلا أقل القليل فدار طلب الكل حول هذه الحياة وحرمها أكثرهم وسبب حرمانهم إياها ضعف العقل والتمييز والبصيرة وضعف الهمة والإرادة فإن مادتها بصيرة وقادة وهمة نقادة والبصيرة كالبصر تكون عمى وعورا وعمشا .

(285/560)

ورمدا وتامة النور والضياء وهذه الآفات قد تكون لها بالخلقة في الأصل وقد تحدث فيها بالعوارض الكسبية والمقصود أن هذه المرتبة من مراتب الحياة هي أعلى مراتبها ولكن كيف يصل إليها من عقله مسبي في بلاد الشهوات وأمله موقوف على اجتناء اللذات وسيرته جارية على أسوأ العادات ودينه مستهلك بالمعاصي والمخالفات وهمته واقفة مع السفليات وعقيدته غير متلقاة من مشكاة النبوات فهو في الشهوات منغمس وفي الشبهات منتكس وعن الناصح معرض وعلى المرشد معترض وعن السراء نائم وقلبه في كل واد هائم فلو أنه تجرد من نفسه ورغب عن مشاركة أبناء جنسه وخرج من ضيق الجهل إلى فضاء العلم ومن سجن الهوى إلى ساحة الهدى ومن نجاسة النفس إلى طهارة القدس لرأى الإلف الذي نشأ بنشأته وزاد بزيادته وقوى بقوته وشرف عند نفسه وأبناء جنسه بحصوله وسد قذى في عين بصيرته وشجا في حلق إيمانه ومرضا مترامیا إلى هلاكه فإن قلت قد

أشرت إلى حياة غير معهودة بين أموات الأحياء فهل يمكنك وصف طريقها لأصل إلى شيء من أذواقها فقد بان لي أن ما نحن فيه من الحياة حياة بهيمية ربما زادت علينا فيها البهائم بخلوها عن المنكرات والمنغصات وسلامة العاقبة قلت لعمر الله إن اشتياقك إلى هذه الحياة وطلب علمها ومعرفتها لدليل على حياتك وأنك لست من جملة الأموات فأول طريقها أن تعرف الله وتهتدي إليه طريقا يوصلك إليه ويحرق ظلمات الطبع بأشعة البصيرة فيقوم بقلبه شاهد من شواهد الآخرة فينجذب .

(286/560)

إليها بكليته ويزهد في التعلقات الفانية ويدأب في تصحيح التوبة والقيام بالمأمورات الظاهرة والباطنة وترك المنهيات الظاهرة والباطنة ثم يقوم حارسا على قلبه فلا يسامحه بخطرة يكرهها الله ولا بخطرة فضول لا تنفعه فيصفو بذلك قلبه عن حديث النفس ووسواسها فيفدى من أسرها ويصير طليقا فحينئذ يخلو قلبه بذكر ربه ومحبته والإنابة إليه ويخرج من بين بيوت طبعه ونفسه إلى فضاء الخلوة بربه وذكره كما قيل وأخرج من بين البيوت لعلني % أحدث عنك النفس في السر خاليا فحينئذ يجتمع قلبه وخواطره وحديث نفسه على إرادة ربه وطلبه والشوق إليه فإذا صدق في ذلك رزق محبة الرسول واستولت روحانيته

على قلبه فجعله إمامه ومعلمه وأستاذه وشيخه وقدوته كما جعله الله نبيه ورسوله وهاديا إليه فيطالع سيرته ومبادئ أمره وكيفية نزول الوحي عليه ويعرف صفاته وأخلاقه وآدابه في حركاته وسكونه ويقظته ومنامه وعبادته ومعاشرته لأهله وأصحابه حتى يصير كأنه معه من بعض أصحابه فإذا رسخ قلبه في ذلك فتح عليه بفهم الوحي المنزل عليه من ربه بحيث لو قرأ السورة شاهد قلبه ما أنزلت فيه وما أريد بها وحظه المختص به منها من الصفات والأخلاق والأفعال المذمومة فيجتهد في التخلص منها كما يجتهد في الشفاء من المرض المخوف وشاهد حظه من الصفات والأفعال الممدوحة فيجتهد في تكميلها وإتمامها فإذا تمكن من ذلك انفتح في قلبه عين أخرى يشاهد بها صفات الرب جل جلاله حتى تصير لقلبه بمنزلة المرئي لعينه فيشهد علو الرب سبحانه فوق خلقه واستواءه على عرشه ونزول الأمر من عنده بتدبير مملكته وتكليمه .

(287/560)

بالوحي وتكليمه لعبده جبريل به وإرساله إلى من يشاء بما يشاء وصعود الأمور إليه وعرضها عليه فيشاهد قلبه ربا قاهرا فوق عباده آمرا ناهيا باعثا لرسله منزلا لكتبه معبودا مطاعا لا شريك له ولا مثيل ولا عدل له ليس لأحد معه من الأمر شيء بل الأمر كله

له فيشهد ربه سبحانه قائما بالملك والتدبير فلا حركة ولا سكون ولا نفع ولا ضر ولا عطاء ولا منع ولا قبض ولا بسط إلا بقدرته وتدبيره فيشهد قيام الكون كله به وقيامه سبحانه بنفسه فهو القائم بنفسه المقيم لكل ما سواه فإذا رسخ قلبه في ذلك شهد الصفة المصححة لجميع صفات الكمال وهي الحياة التي كمالها يستلزم كمال السمع والبصر والقدرة والإرادة والكلام وسائر صفات الكمال وصفة القيومية الصحيحة المصححة لجميع الأفعال فالحي القيوم من له كل صفة كمال وهو الفعال لما يريد فإذا رسخ قلبه في ذلك فتح له مشهد القرب والمعية فيشهده سبحانه معه غير غائب عنه قريبا غير بعيد مع كونه فوق سماواته على عرشه بائنا من خلقه قائما بالصنع والتدبير والخلق والأمر فيحصل له مع التعظيم والإجلال الأنس بهذه الصفة فيأنس به بعد أن كان مستوحشا ويقوى به بعد أن كان ضعيفا ويفرح به بعد أن كان حزينا ويجد بعد أن كان فاقدا فحينئذ يجد طعم قوله ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها ولئن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه فأطيب الحياة على الإطلاق حياة هذا العبد فإنه محب محبوب متقرب إلى ربه وربه قريب منه قد صار له حبيبه لفرط استيلائه على قلبه ولهجه بذكره وعكوف همته على مرضاته بمنزلة سمعه وبصره ويده ورجله وهذه .

آلات إدراكه وعمله وسعيه فإن سمع سمع بحبيبه وإن أبصر أبصر به وإن بطش بطش به وإن مشى مشى به فإن صعب عليك فهم هذا المعنى وكون المحب الكامل المحبة يسمع ويبصر ويبطش ويمشي بمحبوبه وذاته غائبة عنه فأضرب عنه صفحا وخل هذا الشأن لأهله خل الهوى لأناس يعرفون به . . . قد كابدوا الحب حتى لان أصبعه

فإن السالك إلى ربه لا تزال همته عاكفة على أمرين استفراغ القلب في صدق الحب وبذل الجهد في امتثال الأمر فلا يزال كذلك حتى يبدو على سره شواهد معرفته وآثار صفاته وأسمائه ولكن يتوارى عنه ذلك أحيانا ويبدو أحيانا يبدو من عين الجود ويتوارى بحكم الفترة والفترات أمر لازم للعبد فكل عامل له شرة ولكل شرة فترة فأعلاها فترة الوحي وهي للأنبياء وفترة الحال الخاص للعارفين وفترة الهمة للمريدين وفترة العمل للعابدين وفي هذه الفترات أنواع من الحكمة والرحمة والتعرفات الإلهية وتعريف قدر النعمة وتجديد الشوق إليها ومحض التواجد إليها وغير ذلك ولا تزال تلك الشواهد تتكرر وتتزايد حتى تستقر وينصبغ بها قلبه وتصير الفترة غير قاطعة له بل تكون نعمة عليه وراحة له وترويحا وتنفيسا عنه فهمة المحب إذا تعلقت روحه بحبيبه عاكفا على مزيد محبته وأسباب قوتها فهو يعمل على هذا ثم يترقى منه إلى طلب محبة حبيبه له فيعمل على حصول ذلك ولا يعدم الطلب الأول ولا يفارقه ألبتة بل يندرج في هذا الطلب الثاني فتتعلق همته بالأمرين جميعا فإنه إنما

يحصل له منزلة كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به بهذا الأمر الثاني وهو كونه محبوبا لحبيبه كما قال في الحديث" فإذا أحببته كنت سمعه وبصره "الخ فهو يتقرب إلى ربه حفظا لمحبته له واستدعاء لمحبة ربه له .

(289/560)

فحينئذ يشد مئزر الجد في طلب محبة حبيبه له بأنواع التقرب إليه فقلبه للمحبة والانابة والتوكل والخوف والرجاء ولسانه للذكر وتلاوة كلام حبيبه وجوارحه للطاعات فهو لا يفتر عن التقرب من حبيبه وهذا هو السير المفضي إلى هذه الغاية التي لا تنال إلا به ولا يتوصل إليها إلا من هذا الباب وهذه الطريق وحينئذ تجمع له في سيره جميع متفرقات السلوك من الحضور والهيبة والمراقبة ونفي الخواطر وتخلية الباطن فإن المحب يشرع أولا في التقربات بالأعمال الظاهرة وهي ظاهر التقرب ثم يترقى من ذلك إلى حال التقرب وهو الانجذاب إلى حبيبه بكليته بروحه وقلبه وعقله وبدنه ثم يترقى من ذلك إلى حال الإحسان فيعبد الله كأنه يراه فيتقرب إليه حينئذ من باطنه بأعمال القلوب من المحبة والإنابة والتعظيم والإجلال والخشية فينبعث حينئذ من باطنه الجود ببذل الروح والجود في محبة حبيبه بلا تكلف فيجود بروحه ونفسه وأنفاسه وإرادته وأعماله لحبيبه حالا لا تكلفا فإذا وجد المحب

ذلك فقد ظفر بحال التقرب وسره وباطنه وإن لم يجده فهو يتقرب بلسانه وبدنه وظاهره فقط فليدم على ذلك وليتكلف التقرب بالإذكار والأعمال على الدوام فعساه أن يحظى بحال القرب ووراء هذا القرب الباطن أمر آخر أيضا وهو شيء لا يعبر عنه بأحسن من عبارة أقرب الخلق إلى الله عن هذا المعنى حيث يقول حاكيا عن ربه تبارك وتعالى من تقرب مني شبرا تقربت منه ذراعا ومن تقرب مني ذراعا تقربت منه باعا" ومن أتاني يمشي أتيته هرولة" فيجد هذا المحب في باطنه ذوق معنى هذا الحديث ذوقا حقيقيا فذكر من مراتب القرب ثلاثة ونبه بها على ما دونها وما فوقها فذكر تقرب العبد إليه بالبر وتقربه سبحانه إلى العبد ذراعا فإذا ذاق العبد حقيقة هذا التقرب انتقل منه إلى تقرب الذراع فيجد ذوق تقرب الرب إليه باعا فإذا .

(290/560)

ذاق حلاوة هذا القرب الثاني أسرع المشي حينئذ إلى ربه فيذوق حلاوة إتيانه إليه هرولة وههنا منتهى الحديث منبها على أنه إذا هرول عبده إليه كان قرب حبيبه منه فوق هرولة العبد إليه فإما أن يكون قد أمسك عن ذلك لعظيم شاهد الجزاء أو لأنه يدخل في الجزاء الذي لم تسمع به أذن ولم يخطر على قلب بشر أو إحالة له على المراتب المتقدمة فكأنه قيل

له وقس على هذا فعلى قدر ما تبذل منك متقربا إلى ربك يتقرب إليك بأكثر منه وعلى هذا فلازم هذا التقرب المذكور في مراتبه أي من تقرب إلى حبيبه بروحه وجميع قواه وإرادته وأقواله وأعماله تقرب الرب منه سبحانه بنفسه في مقابلة تقرب عبده إليه وليس القرب في هذه المراتب كلها قرب مسافة حسية ولا مماسة بل هو قرب حقيقي والرب تعالى فوق سماواته على عرشه والعبد في الأرض وهذا الموضع هو سر السلوك وحقيقة العبودية وهو معنى الوصول الذي يدندن حوله القوم وملاك هذا الأمر هو قصد التقرب أولا ثم التقرب ثانيا ثم حال القرب ثالثا وهو الانبعاث بالكلية إلى الحبيب وحقيقة هذا الانبعاث أن تفنى بمراده عن هواك وبما منه عن حظك بل يصير ذلك هو مجموع حظك ومرادك وقد عرفت أن من تقرب إلى حبيبه بشيء من الأشياء جوزي على ذلك بقرب هو أضعافه وعرفت أن أعلى أنواع التقرب تقرب العبد بجملته بظاهره وباطنه وبوجوده إلى حبيبه فمن فعل ذلك فقد تقرب بكله ولم تبق منه بقية لغير حبيبه كما قيل

لا كان من لسواك فيه بقية . . . يجد السبيل بها إليه العذل

وإذا كان المتقرب إليه بالأعمال يعطي أضعاف أضعاف ما تقرب به فما .

(291/560)

الظن بمن أعطي حال التقرب وذوقه ووجده فما الظن بمن تقرب إليه بروحه وجميع إرادته وهمته وأقواله وأعماله وعلى هذا فكما جاد لحبيبه بنفسه فإنه أهل أن يجاد عليه بأن يكون ربه سبحانه هو حظه ونصيبه عوضا عن كل شيء جزاءا وفاقا فإن الجزاء من جنس العمل وشواهد هذا كثيرة منها قوله تعالى ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ ففرق بين الجزائين كما ترى وجعل جزاء المتوكل عليه كونه سبحانه حسبه وكافيه ومنها أن الشهيد لما بذل حياته لله أعاضه الله سبحانه حياة أكمل منها عنده في محل قربه وكرامته ومنها أن من بذل لله شيئا أعاضه الله خيرا منه ومنها قوله تعالى ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ ﴾ ومنها قوله في الحديث القدسي " من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملإ خير منه" ومنها قوله" من تقرب مني شبرا تقربت منه ذراعا " الحديث فالعبد لا يزال رابحا على ربه أفضل مما قدم له وهذا المتقرب بقلبه وروحه وعمله يفتح عليه ربه بحياة لا تشبه ما الناس فيه من أنواع الحياة بل حياة من ليس كذلك بالنسبة إلى حياته كحياة الجنين في بطن أمه بالنسبة إلى حياة أهل الدنيا ولذتهم فيها بل أعظم من ذلك فهذا نموذج من بيان شرف هذه الحياة وفضلها وإن كان علم هذا يوجب لصاحبه حياة طيبة فكيف إن انصبغ القلب به وصار حالا ملازما لذاته فالله المستعان .

فهذه الحياة هي حياة الدنيا ونعيمها في الحقيقة فمن فقدها فقده لحياته الطبيعية أولى به هذي حياة الفتى فإن فقدت . . . ففقده للحياة أليق به

(292/560)

فلا عيش إلا عيش المحبين الذين قرت أعينهم بحبيبهم وسكنت نفوسهم إليه واطمأنت قلوبهم به واستأنسوا بقربه وتنعموا بحبه ففي القلب فاقة لا يسدها إلا محبة الله والإقبال عليه والإنابة إليه ولا يلم شعثه بغير ذلك ألبتة ومن لم يظفر بذلك فحياته كلها هموم وغموم وآلام وحسرات فإنه إن كان ذا همة عالية تقطعت نفسه على الدنيا حسرات فإن همته لا ترضى فيها بالدون وإن كان مهينا خسيسا فعيشه كعيش أخس الحيوانات فلا تقر العيون إلا بمحبة الحبيب الأول

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى . . . ما الحب إلا للحبيب الأول

كم منزل في الأرض يألفه الفتى . . . وحنينه أبدا لأول منزل

فصل المرتبة التاسعة من مراتب الحياة حياة الأرواح بعد مفارقتها .

الأبدان وخلاصها من هذا السجن وضيقه فإن من روائه فضاء وروحا وريحانا وراحة نسبة هذه الدار إليه كنسبة بطن الأم إلى هذه الدار أو أدنى من ذلك قال بعض العارفين

لتكن مبادرتك إلى الخروج من الدنيا كمبادرتك إلى الخروج من السجن الضيق إلى أحبتك والاجتماع بهم في البساتين المونقة قال الله تعالى في هذه الحياة ﴿ فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴾ ويكفي في طيب هذه الحياة مرافقة الرفيق الأعلى ومفارقة الرفيق المؤذي المنكد الذي تنغص رؤيته ومشاهدته الحياة فضلا عن مخالطته وعشرته إلى الرفيق الأعلى الذين أنعم الله عليهم من النبي صلى اله عليه وسلمين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا في جوار الرب الرحمن الرحيم .

قد قلت إذ مدحوا الحياة فأسرفوا . . . في الموت ألف فضيلة لا تعرف

منها أمان لقائه بلقائه . . . وفراق كل معاشر لا ينصف

ولو لم يكن في الموت من الخير إلا أنه باب الدخول إلى هذه الحياة وجسر يعبر منه إليها لكفي به تحفة المؤمن

جزى الله عنا الموت خيرا فإنه . . . أبر بنا من كل بر وألطف

يعجل تخليص النفوس من الأذى . . . ويدني إلى الدار التي هي أشرف

(293/560)

فالاجتهاد في هذا العمر القصير والمدة القليلة والسعي والكدح وتحمل الأثقال والتعب والمشقة إنما هو لهذه الحياة والعلوم والأعمال وسيلة إليها وهي يقضه وما قبلها من الحياة نوم وهي عين وما قبلها أثر وهي حياة جامعة بين فقد المكروه وحصول المحبوب في مقام الأنس وحضرة القدس حيث لا يتعذر مطلوب ولا يفقد محبوب حيث الطمأنينة والراحة والبهجة والسرور حيث لا عبارة للعبد عن حقيقة كنهها لأنها في بلد لا عهد لنا به ولا إلف بيننا وبين ساكنه فالنفس لإلفها لهذا السجن الضيق النكد زمانا طويلا تكره الانتقال منه إلى ذلك البلد وتستوحش إذا استشعرت مفارقته وحصول العلم بهذه الحياة إنما وصل إلينا بخبر إلهي على يد أكمل الخلق وأعلمهم وأنصحهم فقامت شواهدها في قلوب أهل الإيمان حتى صارت لهم بمنزلة العيان ففرت نفوسهم من هذا الظل الزائل والخيال المضمحل والعيش الفاني المشوب بالتنغيص وأنواع الغصص رغبة في هذه الحياة وشوقا إلى ذلك الملكوت ووجدا بهذا السرور وطربا على هذا الحد واشتياقا لهذا النسيم الوارد من محل النعيم المقيم ولعمر الله إن من سافر إلى بلد العدل والخصب والأمن والسرور صبر في طريقه على كل مشقة وإعواز وجدب وفارق المتخلفين أحوج ما كان إليهم وأجاب المنادي إذا نادى به حي على الفلاح وبذل نفس في الوصول بذل .

المحب بالرضى والسماح وواصل السير بالغدو والرواح فحمد عند الوصول مسراه وإنما يحمد المسافر السري عند الصباح عند الصباح يحمد القوم السري % وفي الممات يحمد القوم اللقا وما هذا والله بالصعب ولا بالشديد مع هذا العمر القصير الذي هو بالنسبة إلى تلك الدار كساعة من نهار ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ ﴾ ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ﴾ ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴾ ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ ﴾ ﴿ قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلاً لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ فلو أن أحدنا يجر على وجهه يتقي به الشوك والحجارة إلى هذه الحياة لم يكن ذلك كثيرا ولا غبنا في جنب ما يوقاه فواحسرتاه على بصيرة شاهدت هاتين الحياتين على ما هما عليه وعلى همة تؤثر الأدنى على الأعلى وما ذاك إلا بتوفيق من أزمة الأمور بيديه ومنه ابتداء كل شيء وانتهاؤه إليه أقعد نفوس من غلبت عليهم الشقاوة عن السفر إلى هذه الدار وجذب قلوب من سبقت لهم منه الحسنى وأقامهم في الطريق وسهل عليهم ركوب الأخطار فأضاع أولئك مراحل أعمارهم مع المتخلفين وقطع هؤلاء مراحل أعمارهم مع السائرين وعقدت الغبرة وثار العجاج فتوارى عنه السائرون والمتخلفون وسينجلي عن قريب فيفوز العاملون ويخسر المبطلون ومن

طيب هذه الحياة ولذتها قال النبي صلى اله عليه وسلم ما من نفس تموت لها عند الله خير يسرها أن ترجع إلى الدنيا وأن لها الدنيا وما فيها إلا الشهيد فإنه يتمنى الرجوع إلى الدنيا لما يرى من كرامة الله له يعني ليقتل

(295/560)

فيه مرة أخرى وسمع بعض العارفين منشدا ينشد .

إنما العيش في بهيمية الل . . . ذة لا ما يقوله الفلسفي حكم

كأس المنون أن يتساوى . . . في حساها البليد والألمعي

ويصير الغبي تحت ثرى الأر . . . ض كما صار تحتها اللوذعي

فسل الأرض عنهما إن أزال الش . . . ك والشبهة السؤال الجلي

فقال قاتله الله ما أشد معاندته للدين والعقل هذا نفس عدو الفطرة والشريعة والعقل والإيمان والحكمة يا مسكين أمن أجل أن الموت تساوى فيه الصالح والطالح والعالم والجاهل وصاروا جميعا تحت أطباق الثرى أيجب أن يتساووا في العاقبة أما تساوى قوم سافروا من بلد إلى بلد في الطريق فلما بلغوا القصد نزل كل واحد في مكان كان معد له وتلقى بغير ما تلقى به رفيقه في الطريق أما لكل قوم دار فأجلس كل واحد منهم حيث يليق به وقوبل هذا

بشيء وهذا بضده أما قدم على الملك من جاءه بما يحبه فأكرمه عليه ومن جاءه بما يسخطه فعاقبه عليه أما قدم ركب المدينة فنزل بعضهم في قصورها وبساتينها وأماكنها الفاضلة ونزل قوم على قوارع الطريق بين الكلاب أما قدم اثنان من بطن الأم الواحدة فصار هذا إلى الملك وهذا إلى الأسر والعناء وقولك سل الأرض عنهما أما إنا قد سألناها فأخبرتنا أنها قد ضمت أجسادهم وجثثهم وأوصالهم لا كفرهم وإيمانهم ولا أنسابهم وأحسابهم ولا حلمهم وسفههم ولا طاعتهم وجثثهم ومعصيتهم ولا يقينهم وشكهم ولا توحيدهم.

(296/560)

وشركهم ولا جورهم وعدلهم ولا علمهم وجهلهم فأخبرتنا عن هذه الجثث البالية والأبدان المتلاشية والأوصال المتمزقة وقالت هذا خبر ما عندي وأما خبر تلك الأرواح وما صارت إليه فسلوا عنها كتب رب العالمين ورسله الصادقين وخلفاءهم الوارثين سلوا القرآن فعنده الخبر اليقين وسلوا من جاء به فهو بذلك أعرف العارفين وسلوا العلم والإيمان فهما الشاهدان المقبولان وسلوا العقول والفطر فعندها حقيقة الخبر ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ

سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ تعالى الله أحكم الحاكمين عن هذا الظن والحسبان الذي لا يليق إلا بأجهل الجاهلين ثم قال الناظر في هذا الباب رجلان رجل ينظر إلى الأشياء ورجل ينظر في الأشياء فالأول يحار فيها فإن صورها وأشكالها وتخاطيطها تستفرغ ذهنه وحسه وتبدد فكره وقلبه فنظره إليها بعين حسه لا يفيده منها ثمرة الاعتبار ولا زبدة الاختبار لأنه لما فقد الاعتبار أولا فإنه فقد الاختيار ثانيا وأما الناظر في الأشياء فإن نظره يبعثه على العبور من صورها إلى حقائقها والمراد بها وما اقتضى وجودها من الحكمة البالغة والعلم التام فيفيده هذا النظر تمييز مراتبها ومعرفة نافعها من ضارها وصحيحها من سقيمها وباقيها من فانيها وقشرها من لبها ويميز بين الوسيلة والغاية وبين وسيلة الشيء ووسيلة ضده فيعرف حينئذ أن الدينا قشر والآخرة لبه وأن الدنيا محل الزرع والآخرة وقت الحصاد وأن الدنيا معبر وممر والآخرة دار مستقر وإذا عرف أن الدنيا طريق وممر كان حريا بتهيئه الزاد لقراره ويعلم.

(297/560)

حينئذ أنه لم ينشأ في هذه الدار للاستيطان والخلود ولكن للجواز إلى مكان آخر هو المنزل والمتبوأ وأن الإنسان دعي إلى ذلك بكل شريعة وعلى لسان كل نبي وبكل إشارة ودليل

ونصب له على ذلك علم وضرب لأجله كل مثل ونبه عليه بنشأته الأولى ومبادئه وسائر أحواله وأحوال طعامه وشرابه وأرضه وسمائه بحيث أزيلت عنه الشبهة وأوضحت له المحجة وأقيمت عليه الحجة وأعذر إليه غاية الإعذار وأمهل أتم الإمهال فاستبان لذي العقل الصحيح والفطرة السليمة أن الظعن عن هذا المكان ضروري والانتقال عنه حق لا مرية فيه وأن له محلا آخر له قد أنشئ ولأجله قد خلق وله هيئ فمصيره إليه وقدومه بلا ريب عليه وأن داره هذه منزل عبور لا منزل قرار وبالجملة من نظر في الموجودات ولم يقنع بمجرد النظر إليها وحدها وجدها دالة على أن وراء هذه الحياة حياة أخرى أكمل منها وأن هذه الحياة بالنسبة إليها كالمنام بالنسبة إلى اليقظة وكالظل بالنسبة إلى الشخص وسمعها كلها تنادي بما نادى به ربها وخالقها وفاطرها ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ وتنادى بلسان الحال بما نادى به ربها بصريح المقال ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً﴾ وقال تعالى ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ

كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ وقال تعالى ﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ . وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ ثم ندبهم إلى المسابقة إلى الدار الآخرة الباقية التي لا زوال لها فقال ﴿ سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾

وسمع بعض العارفين منشدا ينشد عن بعض الزنادقة عند موته وهو محمد ابن زكريا الرازي المتطبب

لعمري ما أدري وقد اذن البلى . . . بعاجل ترحالي إلى أين ترحالي

وأين محل الروح بعد خروجه . . . عن الهيكل المنحل والجسد البالي

(299/560)

فقال وما علينا من جهله إذا لم يدر أين ترحاله ولكننا ندري إلى أين ترحالنا وترحاله أما ترحاله فإلى دار الأشقياء ومحل المنكرين لقدرة الله وحكمته والمكذبين بما اتفقت عليه

كلمة المرسلين عن ربهم ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ ﴿ وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ لَ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُؤُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ وأما ترحالنا أيها المسلمون المصدقون بلقاء ربهم وكتبه ورسله فإلى نعيم دائم وخلود متصل ومقام كريم وجنة عرضها السموات والأرض في جوار رب العالمين وأرحم الراحمين وأقدر القادرين وأحكم الحاكمين الذي له الخلق والأمر وبيده النفع والضر الأول بالحق الموجود بالضرورة المعروف بالفطرة الذي أقرت به العقول ودلت عليه كل الموجودات وشهدت بوحدانيته وربوبيته جميع المخلوقات وأقرت بها الفطر المشهود وجوده وقيوميته بكل حركة وسكون بكل ما كان وما هو كائن وما سيكون الذي خلق السماوات والأرض.

(300/560)

وأنزل من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة من أنواع النباتات وبث به في الأرض جميع الحيوانات ﴿ أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَاراً وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَاراً وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ

بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً ﴾ الذي يجيب المضطر إذا دعاه ويغيث الملهوف إذا ناداه ويكشف السوء ويفرج الكربات ويقيل العثرات الذي يهدي خلقه في ظلمات البر والبحر ويرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته فيحيي الأرض بوابل القطر الذي يبدأ الخلق ثم يعيده ويرزق من في السماوات والأرض من خلقه وعبيده الذي يملك السمع والأبصار والأفئدة ويخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ويدبر الأمر الذي بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه الذي له ملك السموات والأرض ولم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك وخلق كل شيء فقدره تقديرا المستعان به على كل نائبة وفادحة والمعهود منه كل بر وكرامة الذي عنت له الوجوه وخشعت له الأصوات وسبحت بحمده الأرض والسموات وجميع الموجودات الذي لا تسكن الأرواح إلا بحبه ولا تطمئن القلوب إلا بذكره ولا تزكو العقول إلا بمعرفته ولا يدرك النجاح إلا بتوفيقه ولا تحيا القلوب إلا بنسيم لطفه وقربه ولا يقع أمر إلا بإذنه ولا يهتدي ضال إلا بهدايته ولا يستقيم ذو أود إلا بتقويمه ولا يفهم أحد إلا بتفهيمه ولا يتخلص من مكروه إلا برحمته ولا يحفظ شيء إلا بكلاءته ولا يفتتح أمر إلا باسمه ولا يتم إلا بحمده ولا يدرك مأمول إلا بتيسيره ولا تنال سعادة إلا بطاعته ولا حياة إلا بذكره ومحبته ومعرفته ولا طابت الجنة إلا بسماع خطابه ورؤيته الذي وسع كل شيء رحمة وعلما وأوسع كل مخلوق فضلا وبرا فهو الإله الحق والرب الحق والملك الحق والمنفرد بالكمال المطلق من كل الوجوه المبرأ عن النقائص والعيوب من كل الوجوه لا يبلغ المثنون وإن .

استوعبوا جميع الأوقات بكل أنواع الثناء ثناء عليه بل ثناؤه أعظم من ذلك فهو كما أثنى على نفسه هذا الجار وأما الدار فلا تعلم نفس حسنها وبهاءها وسعتها ونعيمها وبهجتها وروحها وراحتها فيها مالا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر فيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين فهي الجامعة لجميع أنواع الأفراح والمسرات الخالية من جميع المنكدات والمنغصات ريحانة تهتز وقصر مشيد وزوجة حسناء وفاكهة نضيجة فترحالنا أيها الصادقون المصدقون إلى هذه الدار بإذن ربنا وتوفيقه وإحسانه وترحال الكاذبين المكذبين إلى الدار التي أعدت لمن كفر بالله ولقائه وكتبه ورسله ولن يجمع الله بين الموحدين له الطالبين لمرضاته الساعين في طاعته الدائبين في خدمته المجاهدين في سبيله وبين الملحدين الساعين في مساخطه الدائبين في معصيته المستفرغين جهدهم في أهوائهم وشهواتهم في دار واحدة إلا على سبيل الجواز والعبور كما جمع بينهما في هذه الدنيا ويجمع بينهم في موقف القيامة فحاشاه من هذا الظن السيء الذي لا يليق بكماله وحكمته .

فصل وفي هذه المرتبة تعلم حياة الشهداء وأنهم عند ربهم يرزقون .

وأنها أكمل من حياتهم في هذه الدنيا وأتم وأطيب وإن كانت أجسادهم متلاشية ولحومهم

متمزقة وأوصالهم متفرقة وعظامهم نخرة فليس العمل على الطلل وإنما الشأن في الساكن

قال الله تعالى ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ وقال تعالى ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ وإذا كان الشهداء إنما نالوا هذه .

الحياة بمتابعة الرسل وعلى أيديهم فما الظن بحياة الرسل في البرزخ ولقد أحسن القائل ما شاء

فالعيش نوم والمنية يقظة . . . والمرء بينهما خيال ساري فللرسل

(302/560)

والشهداء والصديقين من هذه الحياة التي هي يقظة من نوم الدنيا أكملها وأتمها وعلى قدر حياة العبد في هذا العالم يكون شوقه إلى هذه الحياة وسعيه وحرصه على الظفر بها والله المستعان .

فصل المرتبة العاشرة من مراتب الحياة الحياة الدائمة الباقية بعد .

طي هذا العالم وذهاب الدنيا وأهلها في دار الحيوان وهي الحياة التي شمر اليها المشمرون وسابق إليها المتسابقون ونافس فيها المتنافسون وهي التي أجرينا الكلام إليها ونادت

الكتب السماوية ورسل الله جميعهم عليها وهي التي يقول من فاته الاستعداد لها ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ﴾ وهي التي قال الله عز وجل فيها ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ والحياة المتقدمة كالنوم بالنسبة إليها وكل ما تقدم من وصف السير ومنازله وأحوال السائرين وعبوديتهم الظاهرة والباطنة فوسيلة إلى هذه الحياة إنما الحياة الدنيا بالنسبة إليها كما قال النبي صلى اله عليه وسلم "ما الدنيا في الآخرة إلا كما يدخل أحدكم أصبعه في اليم فلينظر بم ترجع " وكما قيل تنفست الآخرة فكانت الدنيا نفسا من أنفاسها فأصاب أهل .

(303/560)

السعادة نفس نعيمها فهم على هذا النفس يعملون وأصاب أهل الشقاوة نفس عذابها فهم على ذلك النفس يعملون وإذا كانت حياة أهل الإيمان والعمل الصالح في هذه الدار حياة طيبة فما الظن بحياتهم في البرزخ وقد تخلصوا من سجن الدنيا وضيقها فما الظن بحياتهم في دار النعيم المقيم الذي لا يزول وهم يرون وجه ربهم تبارك وتعالى بكرة وعشيا ويسمعون

خطابه فإن قلت ما سبب تخلف النفس عن طلب هذه الحياة التي لا خطر لها وما الذي زهدها فيها وما سبب رغبتها في الحياة الفانية المضمحلة التي هي كالخيال والمنام أفساد في تصورها وشعورها أم تكذيب بتلك الحياة أم لآفة في العقل وعمي هناك أم إيثار للحاضر المشهود بالعيان على الغائب المعلوم بالإيمان قيل بل ذلك لمجموع أمور مركبة من ذلك كله وأقوى الأسباب في ذلك ضعف الإيمان فإن الإيمان هو روح الأعمال وهو الباعث عليها والآمر بأحسنها والناهي عن أقبحها وعلى قدر قوة الإيمان يكون أمره ونهيه لصاحبه وائتمار صاحبه وانتهاؤه قال الله تعالى ﴿ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ وبالجملة فإذا قوي الإيمان قوي الشوق إلى هذه الحياة واشتد طلب صاحبه لها السبب الثاني جثوم الغفلة على القلب فإن الغفلة نوم القلب ولهذا تجد كثيرا من الإيقاظ في الحس نياما في الواقع فتحسبهم أيقاظا وهو رقود ضد حال من يكون يقظان القلب وهو نائم فإن القلب إذا قويت فيه الحياة لا ينام إذا نام البدن وكمال هذه الحياة كان لنبينا ولمن أحيا الله قلبه بمحبته واتباع رسالته على بصيرة من ذلك بحسب نصيبه منهما فالغفلة واليقظة يكونان في الحس والعقل والقلب فمستيقظ القلب وغافله .

(304/560)

كسمتيقظ البدن ونائمه وكما أن يقظة الحس على نوعين فكذلك يقظة القلب على نوعين فالنوع الأول من يقظة الحس أن صاحبها ينفذ في الأمور الحسية ويتوغل فيها بكسبه وفطانته واحتياله وحسن تأتيه والنوع الثاني أن يقبل على نفسه وقلبه وذاته فيعتنى بتحصيل كماله فيلحظ عوالي الأمور وسفاسفها فيؤثر الأعلى على الأدنى ويقدم خير الخيرين بتفويت أدناهما ويرتكب أخف الشرين خشية حصول أقواهما ويتحلى بمكارم الأخلاق ومعالي الشيم فيكون ظاهره جميلا وباطنه أجمل من ظاهره وسريرته خيرا من علانيته فيزاحم أصحاب المعالي عليها كما يتزاحم أهل الدينار والدرهم عليهما فبهذه اليقظة يستعد للنوعين الآخرين منهما أحدهما يقظه تبعثه على اقتباس الحياة الدائمة الباقية التي لا خطر لها من هذه الحياة الزائلة الفانية التي لا قيمة لها فإن قلت مثل لي كيف تقتبس الحياة الدائمة من الحياة الفانية وكيف يكون هذا فإني لا أفهمه قلت وهذا أيضا من نوم القلب بل من موته وهل تقتبس الحياة الدائمة إلا من هذه الحياة الزائلة وأنت قد تشعل سراجك من سراج آخر قد أشفى على الانطفاء فيتقد الثاني ويضيء غاية الإضاءة ويتصل ضوءه وينطفئ الأول والمقتبس لحياته الدائمة من حياته المنقطعة إنما ينتقل من دار منقطعة إلى دار باقية وقد توسط الموت بين الدارين فهو قنطرة لا يعبر إلى تلك الدار إلا عليها وباب لا يدخل إليها إلا منه فهما حياتان في دارين بينهما موت وكما أن نور تلك الدار

مقتبس من نور هذه الدار فحياتها كذلك مقتبسة من حياتها فعلى قدر نور الإيمان في هذه الدار يكون نور العبد في تلك الدار وعلى قدر حياته في هذه الدار تكون حياته هناك .

(305/560)

نعم هذا النور والحياة الذي يقتبس منه ذلك النور والحياة لا ينقطع بل يضيء للعبد في البرزخ وفي موقف القيامة وعلى الصراط فلا يفارقه إلى دار الحيوان يطفأ نور الشمس وهذا النور لا يطفأ وتبطل الحياة المحسوسة وهذه الحياة لا تبطل هذا أحد نوعي يقظة القلب النوع الثاني يقظة تبعث على حياة لا تدركها العبارة ولا ينالها التوهم ولا يطابق فيها اللفظ لمعناه ألبتة والذي يشار به إليها حياة المحب مع حبيبه الذي لا قوام لقلبه وروحه وحياته إلا به ولا غنى له عنه طرفة عين ولا قرة لعينه ولا طمأنينة لقلبه ولا سكون لروحه إلا به فهو أحوج إليه من سمعه وبصره وقوته بل ومن حياته فإن حياته بدونه عذاب وآلام وهموم وأحزان فحياته موقوفة على قربه وحبه ومصاحبته وعذاب حجابه عنه أعظم من العذاب الآخر كما أن نعيم القلب والروح بإزالة ذلك الحجاب أعظم من النعيم بالأكل والشرب والتمتع بالحور العين فهكذا عذاب الحجاب أعظم من عذاب الجحيم ولهذا جمع الله سبحانه لأوليائه بين النعيمين في قوله ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ فالحسنى الجنة والزيادة

رؤية وجهه الكريم في جنات عدن وجمع لأعدائه بين العذابين في قوله ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ﴾ والمقصود أن الغفلة هي نوم القلب عن طلب هذه الحياة وهي حجاب عليه فإن كشف هذا الحجاب بالذكر وإلا تكاثف حتى يصير حجاب بطالة ولعب واشتغال بما لا يفيد فإن بادر إلى كشفه وإلا تكاثف حتى يصير حجاب معاص وذنوب صغار تبعده عن الله فإن بادر إلى كشفه وإلا تكاثف حتى يصير حجاب كبائر توجب مقت الرب تعالى له وغضبه ولعنته فإن بادر إلى كشفه وإلا تكاف حتى صار حجاب بدع عملية يعذب العامل فيها نفسه ولا تجدي عليه شيئا فإن بادر إلى كشفه وإلا تكاثف حتى صار حجاب بدع.

(306/560)

قولية اعتقادية تتضمن الكذب على الله ورسوله والتكذيب بالحق الذي جاء به الرسول فإن بادر إلى كشفه وإلا تكاثف حتى صار حجاب شك وتكذيب يقدح في اصول الإيمان الخمسة وهي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله ولقائه فلغلظ حجابه وكثافته وظلمته وسواده لا يرى حقائق الإيمان ويتمكن منه الشيطان يعده ويمنيه والنفس الأمارة بالسوء تهوى وتشتهي وسلطان الطبع قد ظفر بسلطان الإيمان فأسره وسجنه إن لم يهلكه وتولى

تدبير المملكة واستخدام جنود الشهوات وأقطعها العوائد التي جرى عليها العمل وأغلق باب اليقظة وأقام عليه بواب الغفلة وقال إياك أن تؤتى من قبلك واتخذ حجابا من الهوى وقال إياك أن تمكن أحدا يدخل علي إلا معك فأمر هذه المملكة قد صار إليك وإلى البواب فيا بواب الغفلة ويا حاجب الهوى ليلزم كل منكما ثغره فإن أخليتما فسد أمر مملكتنا وعادت الدولة لغيرنا وسامنا سلطان الإيمان شر الخزي والهوان ولا نفرح بهذه المدينة أبدا فلا إله إلا الله إذا اجتمعت على القلب هذه العساكر مع رقة الإيمان وقلة الأعوان والإعراض عن ذكر الرحمن والانخراط في سلك أبناء الزمان وطول الأمل المفسد للإنسان أن أكثر العاجل الحاضر على الغائب الموعود به بعد طي هذه الأكوان فالله المستعان وعليه التكلان فهذا فصل مختصر نافع في ذكر الحياة وأنواعها والتشويق في أشرفها وأطيبها فمن صادف من قلبه حياة انتفع به وإلا فخود تزف إلى ضرير مقعد فلنرجع إلى شرح كلام صاحب المنازل قال ولها ثلاثة أنفاس نفس الخوف ونفس الرجاء ونفس المحبة لما كان كل حيوان متنفسا فإن النفس موجب الحياة وعلامتها كانت أنفاس الحياة المشار إليها ثلاثة أنفاس نفس الخوف ومصدره مطالعة الوعيد .

(307/560)

وما أعد الله لمن آثر الدنيا على الآخرة والمخلوق على الخالق والهوى على الهدى والغي على الرشاد ونفس الرجاء ومصدره مطالعة الوعد وحسن الظن بالرب تعالى وما الله أعد لمن آثر الله ورسوله والدار الآخرة وحكم الهدى على الهوى والوحي على الآراء والسنة على البدعة وما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه على عوائد الخلق ونفس بالمحبة مصدره مطالعة الأسماء والصفات ومشاهدة النعماء والآلاء فإذا ذكر ذنوبه تنفس بالخوف وإذا ذكر رحمة ربه وسعة مغفرته وعفوه تنفس بالرجاء وإذا ذكر جماله وجلاله وكماله وإحسانه وإنعامه تنفس بالحب فليزن العبد إيمانه بهذه الأنفاس الثلاثة ليعلم ما معه من الإيمان فإن القلوب مفطورة على حب الجمال والاجمال والله سبحانه جميل بل له الجمال التام الكامل من جميع الوجوه جمال الذات وجمال الصفات وجمال الأفعال وجمال الأسماء وإذا جمع جمال المخلوقات كله على شخص واحد ثم كانت جميعها على جمال ذلك الشخص ثم نسب هذا الجمال إلى جمال الرب تبارك وتعالى كان أقل من نسبة سراج ضعيف إلى عين الشمس فالنفس الصادر عن هذه الملاحظة والمطالعة اشرف أنفاس العبد على الاطلاق فأين نفس المشتاق المحب الصادق إلى نفس الخائف الراجي ولكن لا يحصل له هذا النفس إلا بتحصيل ذينك النفسين فإن أحدهما ثمرة تركه للمخالفات والثاني ثمرة فعله للطاعات فمن هذين النفسين يصل إلى النفس الثالث .

فصل قال الحياة الثانية حياة الجمع من موت التفرقة ولها ثلاثة .

أنفاس نفس الاضطرار ونفس الافتقار ونفس الافتخار .

(308/560)

ومراده إن شاء الله بالجمع في هذه الدرجة جمع القلب على الله وجمع الخواطر والعزوم في التوجه إليه سبحانه لا الجمع الذي هو حضرة الوجود لأنه قد ذكر حياة هذا الجمع في الدرجة الثالثة وسماها حياة الوجود وإنما كان جمع القلب على الله والخواطر على السير إليه حياة حقيقية لأن القلب لا سعادة له ولا فلاح ولا نعيم ولا فوز ولا لذة ولا قرة عين إلا بأن يكون الله وحده هو غاية طلبه ونهاية قصده ووجهه الأعلى هو كل بغيته فالتفرقة المتضمنة للإعراض عن التوجه إليه واجتماع القلب عليه هي مرضه إن لم يمت منها قال ولهذه الحياة ثلاثة أنفاس نفس الاضطرار وذلك لانقطاع أمله مما سوى الله فيضطر حينئذ بقلبه وروحه ونفسه وبدنه إلى ربه ضرورة تامة بحيث يجد في كل منبت شعرة منه فاقة تامة إلى ربه ومعبوده فهذا النفس نفس مضطر إلى ما لا غنى له عنه طرفة عين وضرورته إليه من جهة كونه ربه وخالقه وفاطره وناصره وحافظه ومعينه ورازقه وهاديه ومعافيه والقائم بجميع مصالحه ومن جهة كونه معبوده وإلهه وحبيبه الذي لا تكمل حياته ولا تنفع إلا

بأن يكون هو وحده أحب شيء إليه واشوق شيء إليه وهذا الاضطرار هو اضطرار ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ والاضطرار الأول اضطرار ﴿ إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ولعمر الله إن نفس الافتقار هو هذا النفس أو من نوعه ولكن الشيخ جعلهما نفسين فجعل نفس الاضطرار بداية ونفس الافتقار توسط ونفس الافتخار نهاية وكأن نفس الاضطرار يقطع الخلق من قلبه ونفس الافتقار يعلق قلبه بربه والتحقيق أنه نفس واحد ممتد أوله انقطاع وآخره اتصال وأما نفس الافتخار فهو نتيجة هذين النفسين لأنهما إذا صحا للعبد حصل له القرب من ربه والأنس به والفرح به وبالخلع التي خلعها ربه على قلبه .

(309/560)

وروحه مما لا يقوم لبعضه ممالك الدنيا بحذافيرها فحينئذ يتنفس نفسا آخر يجد به من التفريح والترويح والراحة والانشراح ما يشبه من بعض الوجوه بنفس من جعل في عنقه حبل ليخنق به حتى يموت ثم كشف عنه وقد حبس نفسه فتنفس نفس من أعيدت عليه حياته وتخلص من أسباب الموت فإن قلت ما للعبد والافتخار وأين العبودية من نفس الافتخار قلت لا يريد بذلك أن العبد يفتخر بذلك ويختال على بني جنسه بل هو فرح وسرور لا يمكن دفعه عن نفسه بما فتح عليه ربه ومنحه إياه وخصه به وأولى ما فرح به العبد فضل ربه عليه

فإنه تعالى يحب أن يرى أثر نعمته على عبده ويحب الفرح بذلك لأنه من الشكر ومن لا يفرح بنعمة المنعم لا يعد شكورا فهو افتخار بما هو محض منة الله ونعمته على عبده لا افتخار بما من العبد فهذا هو الذي ينافي العبودية لا ذاك وهنا سر لطيف وهو أن هذا النفس يفخر على أنفاسه التي ليست كذلك كما تفخر الحياة على الموت والعلم على الجهل والسمع على الصمم والبصر على العمى فيكون الافتخار للنفس على النفس لا للمتنفس على الناس والله أعلم.

فصل قال الحياة الثالثة حياة الوجود وهي حياة بالحق ولها ثلاثة.

أنفاس نفس الهيبة وهو يميت الاعتدال ونفس الوجود وهو يمنع الانفصال ونفس الانفراد وهو يورث الاتصال وليس وراء ذلك ملحظ للنظارة ولا طاقة للاشارة هذه المرتبة من الحياة هي حياة الواجد وهي أكمل من النوعين اللذين قبلها ووجود العبد لربه هو الذي أشار إليه في الحديث الإلهي بقوله" فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها فبي يسمع وبي يبصر وبي يبطش وبي يمشي".

(310/560)

والمشار إليه في قوله: "ابن آدم اطلبني تجدني فإن وجدتني وجدت كل شيء وإن فتك فاتك كل شيء" وسيأتي في باب الوجود من مزيدا لهذا إن شاء الله تعالى وإنما كانت حياة الوجود أكمل الحياة لشرفها وكمالها بموجدها وهو الحق سبحانه وتعالى فمن حبي بوجوده فقد فاز بأعلى أنواع الحياة فان قلت يصعب علي فهم معنى الحياة بوجوده قلت لأجل الحجاب الذي ضرب بينك وبين هذه الحياة فافهم الحياة بوجود الفناء وبوجود المالك القادر إذا كان معك وناصرك دون مجرد وجوده ولا معرفة بينك وبينه ألبتة فحقيقة الحياة هي الحياة بالرب تعالى لا الحياة بالنفس والفناء وأسباب العيش وقد تفسر حياة الوجود بشهود القيومية حيث لا يرى شيئا من الأشياء إلا وهو بالله وهو الذي أقامه وبحال هذا الشهود وهو أن لا يلتفت بقلبه إلى شيء سوى الله ولا يخافه ولا يرجوه بل قد قصر خوفه ورجاءه وتوكله وإنابته على الحي القيوم قيوم الوجود وقيمه وقيامه ومقيمه وحده فمتى حصل له هذا الشهود وهذا الحال فقد حصلت له حياة الوجود فتارة يتنفس بالهيبة وهي سطوة نور الصفات وذلك عند أول ما يسطع نور الوجود فيقع القلب في هيبة تستغرق حسه عن الالتفات إلى شيء من عوالم النفس وذلك هو الاعتلال الذي يميته النفس الثاني وهو قوله ونفس يميت الاعتلال فتموت منه علل أعماله وآثار حظوظه وشهود إنيته قوله ونفس الوجود يريد به وجود العبد بربه فيتنفس بهذا الوجود كما يسمع به ويبصر به

ويبطش به ويمشي به ولا تصغ إلى غير هذا فتزل قدم بعد ثبوتها قوله وهو يمنع الانفصال الانفصال عند القوم انقطاع القلب عن الرب .

(311/560)

وبقاؤه بنفسه وطبيعته والاتصال هو بقاؤه بربه وفناؤه عن أحكام نفسه وطبعه وهواه وقد يراد بالاتصال الفناء في شهود القيومية وبالانفصال الغيبة عن هذا الشهود وأما الملحد فيفسر الاتصال والانفصال بالاتصال الذاتي والانفصال الذاتي وهذا محال أيضا فإنه لم يزل متصلا به بل لم يزل إياه عنده فالأول يتعلق بالإرادة والهمة وهو أعلى الأنواع والثاني يتعلق بالشهود والشعور وهو دونه وهو عند الشيخ أعلى لأنه إنما يكون في وادي الفناء والثالث للملاحدة القائلين بوحدة الوجود قوله ونفس الانفراد وهو يورث الاتصال نفس الانفراد هو المصحوب بشهود الفردانية وهي تفرد الرب سبحانه بالربوبية والإلهية والتدبير والقيومية فلا يثبت لسواه قسطا في الربوبية ولا يجعل لسواه حظا في الإلهية ولا في القيومية بل يفرده بذلك في شهوده كما أفرده به في علمه ثم يفرده به في الحال التي أوجبها له الشهود فيكون الله سبحانه فردا في علم العبد ومعرفته فردا في شهوده فردا في حاله في شهوده وهذا النفس يورثه الاتصال بربه بحيث لا يبقى له مراد غيره ولا إرادة غير مراده الديني الذي يحبه ويرضاه

فيستفرغ حبه قلبه وتستفرغ مرضاته سعيه وليس وراء ذلك مقام يلحظه النظارة لا بالقلب ولا بالروح فإن كمال هذا الاتصال والشغل بالحق سبحانه قد استفرغ المقامات واستوعب الإشارات والله المستعان.

باب القبض

فصل قال صاحب المنازل باب القبض

قال الله تعالى ﴿ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضاً يَسِيراً ﴾ قلت قد أبعد في تعلقه بإشارة لآية إلى القبض الذي يريده ولا تدل عليه

(312/560)

الآية بوجه ما وإنما يشارك القبض المترجم عليه في اللفظ فقط فإن القبض في الآية هو قبض الظل وهو تقلصه بعد امتداده قال الله تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِناً ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضاً يَسِيراً ﴾ فأخبر تعالى أنه بسط الظل ومده وأنه جعله متحركا تبعا لحركة الشمس ولو شاء لجعله ساكنا لا يتحرك إما بسكون المظهر له والدليل عليه وإما بسبب آخر ثم أخبر أنه قبضه بعد بسطه قبضا يسيرا وهو شيء بعد شيء لم يقبضه جملة فهذا من أعظم آياته الدالة على عظيم قدرته وكمال

حكمته فندب الرب سبحانه عباده إلى رؤية صنعته وقدرته وحكمته في هذا الفرد من مخلوقاته ولو شاء لجعله لاصقا بأصل ما هو ظل له من جبل وبناء وشجر وغيره فلم ينتفع به أحد فإن كان الانتفاع به تابعا لمده وبسطه وتحوله من مكان إلى مكان ففي مده وبسطه ثم قبضه شيئًا فشيئًا من المصالح والمنافع مالا يخفى ولا يحصى فلو كان ساكنا دائما أو قبض دفعة واحدة لتعطلت مرافق العالم ومصالحه به وبالشمس فمد الظل وقبضه شيئًا فشيئًا لازم لحركة الشمس على ما قدرت عليه من مصالح العالم وفي دلالة الشمس على الظلال ما تعرف به أوقات الصلوات وما مضى من اليوم وما بقي منه وفي تحركه وانتقاله ما يرد به ما أصابه من حر الشمس وينفع الحيوانات والشجر والنبات فهو من آيات الله الدالة عليه وفي الآية وجه آخر وهو أنه سبحانه مد الظل حين بنى السماء كالقبة المضروبة ودحى الأرض تحتها فألقت القبة ظلها عليها فلو شاء سبحانه لجعله ساكنا مستقرا في تلك الحال ثم خلق الشمس ونصبها دليلا على ذلك الظل فهو يتبعها في حركتها يزيد بها وينقص ويمتد ويتقلص فهو تابع لها تبعية المدلول لدليله وفيها وجه آخر وهو أن يكون المراد قبضه عند قيام الساعة بقبض أسبابه .

(313/560)

وهي الأجرام التي تلقي الظلال فيكون قد ذكر إعدامه بإعدام أسبابه كما ذكر إنشاءه بإنشاء أسبابه وقوله تعالى ﴿ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا ﴾ كأنه يشعر بذلك وقوله ﴿ قَبْضاً يَسِيراً ﴾ يشبه قوله ﴿ ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴾ وقوله ﴿ قَبَضْنَاهُ ﴾ بصيغة الماضي لا ينافي ذلك كقوله ﴿ أَتَى أَمْرُ اللَّه ﴾ والوجه في الآية هو الأول وهذان الوجهان إن أراد من ذكرهما دلالة الآية عليهما إشارة وإيماء فقريب وإن أراد أن ذلك هو المراد من لفظها فبعيد لأنه سبحانه جعل ذلك آية ودلالة عليه للناظر فيه كما في سائر آياته التي يدعو عباده إلى النظر فيها فلا بد أن يكون ذلك أمرا مشهودا تقوم به الدلالة وتحصل به التبصرة وأبعد من هذا ما تعلق به صاحب المنازل في باب القبض بقبض الظل كما أشار إليه في خطبة كتابه حيث يقول الذي مد ظل التكوين على الخليقة مدا طويلا ثم جعل شمس التمكين لصفوته عليه دليلا ثم قبض ظل التفرقة عنهم إليه قبضا يسيرا فاستعار للتكوين لفظ الظل إعلاما بأن المكونات بمنزلة الظلال في عدم استقلالها بأنفسها إذ لا يتحرك الظل إلا بحركة صاحبه وقوله مدا طويلا إشارة إلى أنه سبحانه لا يزال يخلق شيئا بعد شيء خلقا لا يتناهى لسعة قدرته ووجوب أبديته ثم إن حقيقة الظل هي عدم الشمس في بقعة ماء لسائر سترها فإنما تتعين تلك الحقيقة بالشمس فكذلك المكون إنما تتعين حقيقته بالمكون له سبحانه وتعالى وشمس التمكين هي التوحيد الجامع لقلوب صفوته عن التفرق في شعاب ظل التكوين ثم قبض ظل

التفرقة عنهم إليه قبضا يسيرا أي أخذ ظل التفرقة عنهم أخذا سهلا فالشيخ أحال باستشهاده بالآية في الباب المذكور على ما تقدم له في الخطبة .

(314/560)

ووجه الإشارة بالآية يعلم من قوله ﴿ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا ﴾ والقبض في هذا الباب لم يرد به قبض الإضافة ولهذا قال الشيخ القبض في هذا الباب أسم يشار به إلى مقام الضنائن الذين ادخرهم الحق اصطناعا لنفسه فالقبض نوعان قبض في الأحوال وقبض في الحقائق فالقبض في الأحوال أمر يطرق القلب يمنعه عن الانبساط والفرح وهو نوعان أيضا أحدهما ما يعرف سببه مثل تذكر ذنب أو تفريط أو بعد أو جفوة أو حدوث ما هو نحو ذلك والثاني ما لا يعرف سببه بل يهجم على القلب هجوما لا يقدر على التخلص منه وهذا هو القبض المشار إليه على ألسنة القوم وضده البسط فالقبض والبسط عندهم حالتان للقلب لا يكاد ينفك عنهما وقال أبو القاسم الجنيد في معنى القبض والبسط معنى الخوف والرجاء فالرجاء يبسط إلى الطاعة والخوف يقبض عن المعصية فكلهم تكلم في القبض والبسط على هذا المنهج حتى جعلوه أقساما قبض تأديب وقبض تهذيب وقبض جمع وقبض تفريق ولهذا يمتنع صاحبه إذا تمكن منه من الأكل والشرب والكلام وفعل الأوراد والانبساط إلى

الأهل وغيرهم فقبض التأديب يكون عقوبة على غفلة أو خاطر سوء أو فكرة رديئة وقبض التهذيب يكون إعدادا لبسط عظيم شأنه يأتي بعده فيكون القبض قبله كالتنبيه عليه والمقدمة له كما كان الغت والغط مقدمة بين يدي الوحي وإعدادا لوروده وهكذا الشدة مقدمة بين يدي الفرج والبلاء مقدمة بين يدي العافية والخوف الشديد مقدمة بين يدي الأمن وقد جرت سنة الله سبحانه أن هذه الأمور النافعة المحبوبة إنما يدخل إليها من أبواب أضدادها .

(315/560)

وأما قبض الجمع فهو ما يحصل للقلب حال جمعيته على الله من انقباضه عن العلم وما فيه فلا يبقى فيه فضل ولا سعة لغير من اجتمع قلبه عليه وفي هذه الحال من أراد من صاحبه ما يعهده منه من المؤانسة والمذاكرة فقد ظلمه وأما قبض التفرقة فهو القبض الذي يحصل من تفرق قلبه عن الله وتشتته عنه في الشعاب والأودية فأقل عقوبته ما يجده من القبض الذي يتمنى معه الموت وأما القبض الذي أشار إليه صاحب المنازل فهو شيء وراء هذا كله فإنه جعله من قسم الحقائق وذلك القبض الذي تقدم ذكره من قسم البدايات ولهذا قال القبض في هذا الباب اسم يشار به إلى مقام الضنائن ومن هنا حسن استشهاده بإشارة الآية لأنه

تعالى أخبر عن قبض الظل إليه والقبض في هذا الباب يتضمن قبض القلب عن غيره إليه وجمعيته بعد التفرقة عليه والضنائن جمع ضنينة وهي الخاصة يضن بها صاحبها أي يبخل ببذلها ويصطفيها لنفسه ولهذا قال الذين ادخرهم الحق اصطناعا لنفسه والادخار افتعال من الذخر وهو ما يعده المرء لحوائجه ومصالحه والاصطناع بمعنى الاصطفاء قال تعالى لموسى ﴿ وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴾ والاصطناع في الأصل اتخاذ الصنيعة وهي الخير تسديه إلى غيرك قال الشاعر

وإذا اصطنعت صنيعة فاقصد بها . . . وجه الذي يولي الصنائع أودع

قال ابن عباس اصطنعتك لوحيي ورسالتي وقال الكلبي اخترتك بالرسالة لنفسي لكي تحبني وتقوم بأمري وقيل اخترتك بالإحسان إليك لإقامة حجتي فتكلم عبادي عني قال أبو إسحاق اخترتك بالإحسان إليك لإقامة حجتي وجعلتك بيني وبين خلقي حتى صرت في الخطاب والتبليغ عني بالمنزلة التي أكون أنا بها لو خاطبتهم .

(316/560)

وقيل مثل حاله بحال من يراه بعض الملوك لجوامع خصال فيه وخصائص أهلا لكرامته وتقريبه فلا يكون أحد أقرب منه منزلة إليه ولا ألطف محلا فيصطنعه بالكرامة والأثرة

ويستخلصه لنفسه بحيث يسمع به ويبصر به ويطلع على سره والمقصود أن الرب سبحانه حال بين هؤلاء الضنائن وبين التعلق بالخلق وصرف قلوبهم وهممهم وعزائمهم إليه قال وهم على ثلاث فرق فرقة قبضهم إليه قبض التوقي فضن بهم عن أعين العالمين هذا الحرف في التوقي بالقاف من الوقاية وليس من الوفاة أي سترهم عن أعين الناس وقاية لهم وصيانة عن ملابستهم فغيبهم عن أعين الناس فلم يطلعهم عليهم وهؤلاء هم أهل الانقطاع والعزلة عن الناس وقت فساد الزمان ولعلهم الذين قال فيهم النبي صلى اله عليه وسلم " يوشك أن يكون خير مال المرء غنما يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر " وقوله "ورجل معتزل في شعب من الشعاب يعبد ربه ويدع الناس من شره" وهذه الحال تحمد في بعض الأماكن والأوقات دون بعضها وإلا فالمؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم أفضل من هؤلاء فالعزلة في وقت تجب فيه ووقت تستحب فيه ووقت تباح فيه ووقت تكره فيه وقت تحرم فيه ويجوز أن يكون قبض التوفي بالفاء أجسادهم وقلوبهم من بين العالمين وهم في الدنيا لكن لما لم يخالطوا الناس كانوا بمنزلة من قد توفي وفارق الدنيا قال وفرقة قبضهم بسترهم في لباس التلبيس وأسبل عليهم أكلة الرسوم فأخفاهم عن عيون العالم.

(317/560)

هذه الفرقة هم مع الناس مخالطون والناس يرون ظواهرهم وقد ستر الله حقائقهم وأحوالهم عن رؤية الخلق لها فحالهم ملتبس على الناس لا يعرفونه فإذا رأوا منهم ما يرون من أبناء الدنيا من الأكل والشرب واللباس والنكاح وطلاقة الوجه وحسن العشرة قالوا هؤلاء من أبناء الدنيا وإذا رأوا ذلك الجد والهمم والصبر والصدق وحلاوة المعرفة والإيمان والذكر وشاهدوا منهم أمورا ليست من أمور أبناء الدنيا قالوا هؤلاء من أبناء الآخرة فالتبس حالهم عليهم وهم مستورون عن الناس بأسبابهم وصنائعهم ولباسهم لم يجعلوا لطلبهم وإرادتهم إشارة تشير إليهم اعرفوني فهؤلاء يكونون مع الناس والمحجوبون لا يعرفونهم ولا يرفعون بهم رءوسا وهم من سادات أولياء الله صانهم الله عن معرفة الناس كرامة لهم لئلا يفتتنوا بهم وإهانة للجهال بهم فلا ينتفعون بهم وهذه الفرقة بينها وبين الأولى من الفضل ما لا يعلمه إلا الله فهم بين الناس بأبدانهم وبين الرفيق الأعلى بقلوبهم فإذا فارقوا هذا العالم انتقلت أرواحهم إلى تلك الحضرة فإن روح كل عبد تنتقل بعد مفارقة البدن إلى حضرة من كان يألفهم ويحبهم فإن المرء مع من أحبه قوله وأسبل عليهم أكلة الرسوم أي أجرى عليهم أحكام الخلق يأكلون كما يأكلون ويشربون كما يشربون ويسكنون حيث يسكنون ويمشون معهم في الأسواق ويعانون معهم الأسباب وهم في واد والناس في واد فمشاركتهم إياهم في ذلك هي التي سترتهم عن معرفتهم وعن إدراك حقائقهم فهم تحت ستور المشاركة ووراء هاتيك الستور محجب . . . بالحسن كل العز تحت لوائه

لو أبصرت عيناك بعض جماله . . . لبذلت منك الروح في إرضائه

ما طابت الدنيا بغير حديثه . . . كلا ولا الأخرى بدون لقائه

يا خاسرا هانت عليه نفسه . . . إذ باعها بالغبن من أعدائه

لو كنت تعلم قدر ما قد بعته . . . لفسخت ذاك البيع قبل وفائه

أو كنت كفوا للرشاد وللهدى . . . أبصرت لكن لست من أكفائه

(318/560)

قوله وفرقة قبضهم منهم إليه فصافاهم مصافاة سر فضن بهم عليهم هذه الفرقة إنما كانت أعلى من الفرقتين المتقدمتين لأن الحق سبحانه قد سترهم عن نفوسهم لكمال ما أطلعهم عليه وشغلهم به عنهم فهم في أعلى الأحوال والمقامات ولا التفات لهم إليها فهؤلاء قلوبهم معه سبحانه لا مع سواه فلم يكونوا من السوى ولا السوى منهم بل هم مع السوى بالمجاورة والامتحان لا بالمساكنة والألفة قلوبهم عامرة بالأسرار وأرواحهم تحن إليه حنين الطيور إلى الأوكار قد سترهم وليهم وحبيبهم عنهم وأخذهم إليه منهم قوله فصافاهم مصافاة سر أي جعل مواجيدهم في أسرارهم وقلوبهم للطف إدراكهم فلم تظهر عليهم في ظواهرهم لقوة الاستعداد قوله فضن بهم عليهم أي أخذهم عن رسومهم فأفناهم عنهم وأبقاهم به وقد

علمت من هذا أن القبض المشار إليه في هذا الباب ليس هو القبض الذي يشير إليه القوم في البدايات والسلوك والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مدارج السالكين حـ 3 صـ 258 . 299 ﴾

(319/560)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الحادى والستون بعد الخمسمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/561)

الجزء الحادى والستون بعد الخمسمائة

من الآية ﴿ 47 ﴾ من سورة الفرقان

وحتى الآية ﴿ 52 ﴾ من نفس السورة

(4/561)

قوله تعالى ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا (47) وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا (48) لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا (49) وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا (50) وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا (51) فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا (52) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما تضمنت هذه الآية الليل النهار ، قال مصرحاً بهما دليلاً على الحق ، وإظهاراً للنعمة على الخلق : ﴿ وهو ﴾ أي ربك وحده ﴿ الذي جعل ﴾ ولما كان ما مضى في الظل أمراً دقيقاً فخص به أهله ، وكان أمر الليل والنهار ظاهراً لكل أحد ، عم فقال : ﴿ لكم الليل ﴾ أي الذي تكامل به مد الظل ﴿ لباساً ﴾ أي ساتراً للأشياء عن الأبصار كما يستر اللباس ﴿ والنوم سباتاً ﴾ أي نوماً وسكوناً وراحة ، عبارة عن كونه موتاً أصغر طاوياً لما كان من الإحساس ، قطعاً عما كان من الشعور والتقلب ، دليلاً لأهل البصائر على الموت ؛ قال البغوي وغيره : وأصل السبت القطع .

وفي جعله سبحانه كذلك من الفوائد الدينية والدنيوية ما لا يعد ، وكذا قوله : ﴿ وجعل النهار نشوراً ﴾ أي حياة وحركة وتقلباً بما أوجد فيه من اليقظة المذكرة بالبعث ، المهيئة للتقلب ، برد ما أعدمه النوم من جميع الحواس ؛ يحكى أن لقمان قال لابنه : كما تنام فتوقظ فكذلك تموت فتنشر .

فالآية من الاحتباك : ذكر السبات أولاً دليلاً على الحركة ثانياً ، والنشور ثانياً دليلاً على الطيّ والسكون أولاً .

(5/561)

ولما دل على عظمته بتصرفه في المعاني بالإيجاد والإعدام ، وختمه بالإماتة والإحياء بأسباب قريبة ، أتبعه التصرف في الأعيان بمثل ذلك ، دالاًّ على الإماتة والإحياء بأسباب بعيدة ، وبدأه بما هو قريب للطافته من المعاني ، وفيه النشر الذي ختم به ما قبله ، فقال : ﴿ وهو ﴾ أي وحده ﴿ الذي أرسل الرياح ﴾ فقراءة ابن كثير بالإفراد لإرادة الجنس ، وقراءة غيره بالجمع أدل على الاختيار بكونها تارة صباً وأخرى دبوراً ، ومرة شمالاً وكرة جنوباً وغير ذلك ﴿ بشراً ﴾ أي تبعث بأرواحها السحاب ، كما نشر بالنهار أرواح الأشباح ﴿ بين يدي رحمته ﴾ لعباده بالمطر .

ولما كان السحاب قريباً من الريح في اللطافة ، والماء قريباً منهما ومسبباً عما تحمله الريح من السحاب ، أتبعهما به ، ولما كان في إنزاله من الدلالة على العظمة بإيجاده هنالك وإمساكه ثم إنزاله في الوقت المراد والمكان المختار على حسب الحاجة ما لا يخفى ، غير الأسلوب مظهراً للعظمة فقال : ﴿ وأنزلنا من السماء ﴾ أي حيث لا ممسك للماء فيه غيره سبحانه ﴿ ماء ﴾ ثم أبدل منه بياناً للنعمة به فقال : ﴿ طهوراً ﴾ أي طاهراً في نفسه مطهراً لغيره ، اسم آلة كالسحور والسنون لما يتسحر به ويستن به ، ونقل أبو حيان عن سيبويه أنه مصدر لتطهّر المضاعف جرى على غير فعله .

وأما جعله مبالغة لطاهر فلا يفيد غير أنه بليغ الطهارة في نفسه لأن فعله قاصر .

ولما كانت هذه الأفعال دالة على البعث لكن بنوع خفاء ، أتبعها ثمرة هذا الفعل دليلاً واضحاً على ذلك ، فقال معبراً بالإحياء لذلك ، معللاً للطهور المراد به البعد عن جميع ما يدنسه من ملوحة أو مرارة أو كبرتة ونحو ذلك مما يمنع كمال الانتفاع به : ﴿ لنحيي به ﴾ أي بالماء .

ولما كان المقصود بإحياء الأرض بالنبات إحياء البلاد لإحياء أهلها قال : ﴿ بلدة ﴾ ولو كان ملحاً أو مراً أو مكبرتاً لم تكن فيه قوة الإحياء .

(6/561)

ولما كره أن يفهم تخصيص البلاد ، أجري الوصف باعتبار الموضع ليعم كل مكان فقال : ﴿ ميتاً ﴾ أي بما نحدث فيه من النبات بعد أن كان قد صار هشيماً ثم تراباً ، ليكون ذلك آية بينة على قدرتنا على بعث الموتى بعد كونهم تراباً .

ولما كان في مقام العظمة ، بإظهار القدرة ، زاد على كونه آية على البعث بإظهار النبات الذي هو منفعة للرعي منفعة أخرى عظيمة الجدوى في الحفظ من الموت بالشرب كما كانت آية الإحياء حافظة بالأكل فقال : ﴿ ونسقيه ﴾ أي الماء وهو من أسقاه – مزيد سقاه ، وهما لغتان .

قال ابن القطاع : سقيتك شراباً وأسقيتك ، والله تعالى عباده وارضه كذلك .

﴿مما خلقنا ﴾ أي بعظمتنا .

ولما كانت النعمة في إنزال الماء على الأنعام وأهل البوادي ونحوهم أكثر ، لأن الطير والوحش تبعد في الطلب فلا تعدم ما تشرب ، خصها فقال : ﴿أنعاماً ﴾ وقدم النبات لأن به حياة الأنعام ، والأنعام لأن بها كمال حياة الإنسان ، فإذا وجد ما يكفيها من السقي تجزّأ هو بأيسر شيء ، وأتبع ذلك قوله : ﴿ وأناسيّ كثيراً ﴾ أي بحفظنا له في الغدران لأهل البوادي الذين يبعدون عن الأنهار والعيون وغيرهم ممن أردنا ، لأنه تعالى لا يسقي جميع الناس على حد سواء ، ولكن يصيب بالمطر من يشاء ، ويصرفه عمن يشاء ، ويسقي بعض الناس من غير ذلك ، ولذا نكر المذكورات – كما روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال : ما من عام بأمطر من عام ، ولكن الله قسم ذلك بين عباده على ما يشاء – وتلا هذه الآية .

وقال البغوي : وذكر ابن إسحاق وابن جريج ومقاتل وبلغوا به ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ يرفعه قال : ليس من سنة بأمطر من أخرى ، ولكن الله قسم الأرزاق ، فجعلها في السماء الدنيا في هذا القطر ، ينزل منه كل سنة بكيل معلوم ووزن معلوم ، فإذا عمل قوم بالمعاصي حول الله ذلك إلى غيرهم ، وإذا عصوا جميعاً صرف الله تعالى ذلك إلى الفيافي والبحار – انتهى .

وكان السر في ذلك أنه كان من حقهم أن يطهروا ظواهرهم وبواطنهم ، ويطهروا غيرهم ليناسبوا حاله في الطهورية ، فلما تدنسوا بالقاذورات تسببوا في صرفه عنهم .

ولما ذكر سبحانه أن من ثمرة إنزال القرآن نجوماً إحياء القلوب التي هي أرواح الأرواح ، وأتبعه ما لاءمه ، إلى أن ختم بما جعله سبباً لحياة الأشباح ، فكان موضعاً لتوقع العود إلى ما هو حياة الأرواح ، قال عاطفاً على متعلق ﴿كذلك لنثبت﴾ [الفرقان : 32] منبهاً على فائدة أخرى لتنجيمه أيضاً : ﴿ولقد صرفناه﴾ أي وجهنا القرآن .

كما قال ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ إنه المراد ههنا ، ويؤيده ما بعده – وجوهاً من البيان ، وطرقناه طرقاً تعيي أرباب اللسان ، في معان كثيرة جداً ﴿بينهم﴾ في كل قطر عند كل قوم ﴿ليذكروا﴾ بالآيات المسموعة ما ركزنا في فطرهم من الأدلة العقلية والمؤيدة بالآيات المرئية ولو على أدنى وجوه التذكر المنجية لهم – بما أشار إليه الإدغام .

ولما كان القرآن قائداً ولا بد لمن أنصف إلى الإيمان ، دل على أن المتخلف عنه إنما هو معاند بقوله : ﴿فأبى﴾ أي لم يرد ﴿أكثر الناس﴾ أي بعنادهم ﴿إلا كفوراً﴾ مصدر كفر مبالغاً فيه .

ولما كان تعنتهم بأن ينزل عليه ملك فيكون معه نذيراً ، ربما أثار في النفس طلب إجابتهم إلى مقترحهم حرصاً على هدايتهم ، فأوماً أولاً إلى أنه لا فائدة في ذلك بأن مؤازرة هارون لموسى عليهما السلام لم تغن عن القبط شيئاً ، وثانياً بأن المدار في وجوب التصديق للنذير الإتيان بما يعجز ، وكان ذلك موجوداً في آيات القرآن ، المصرفة في كل زمان ومكان بكل بيان ، فكانت كل آية منه قائمة مقام نذير ، قال مشيراً إلى أنه إنما ترك ذلك لحكم يعلمها : ﴿ ولو شئنا لبعثنا ﴾ أي بما لنا من العظمة ونفوذ الكلمة ﴿ في كل قرية نذيراً ﴾ أي من البشر أو الملائكة أو غيرهم من عبادنا ، كما قسمنا المطر لأن الملك - كما قدمنا أول السورة - كله لنا ، ليس لنا شريك يمنع من ذلك بما له من الحق ، ولا ولد يمنع بما له من الدلة ، ولكنا لم نفعل لما في آيات القرآن من الكفاية في ذلك ، ولما في انفرادك بالدعوة من الشرف لك - وغير ذلك من الحكمة ﴿ فلا تطع الكافرين ﴾ فيما قصدوا من التفتير عن الدعاء به ، بما يبدونه من المقترحات أو يظهرون لك من المداهنة ، أو من القلق من صادع الإنذار ، ويخيلون أنك لو أقللت منه رجوا أن يوافقوك ﴿ وجاهدهم ﴾ أي بالدعاء ﴿ به ﴾ أي القرآن الذي تقدم التحديث عنه في ﴿ ولقد صرفناه ﴾ [الفرقان : 5] بإبلاغ آياته مبشرة

كانت أو منذرة ، والاحتجاج بيراهينه ﴿ جهاداً كبيراً ﴾ جامعاً لكل المجاهدات الظاهرة والباطنة ، لأن في ذلك إقبال كثير من الناس إليك واجتماعهم عليك ، فيتقوى أمرك ، ويعظم خطبك ، وتضعف شوكتهم ، وتنكسر سورتهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 324. 327 ﴾

(9/561)

فصل

قال الفخر :

النوع الثاني : قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الليل لِبَاساً والنوم سُبَاتاً وَجَعَلَ النهار نُشُوراً ﴾ اعلم أنه تعالى شبه الليل من حيث إنه يستر الكل ويغطي باللباس الساتر للبدن ، ونبه على ما لنا فيه من النفع بقوله : ﴿ والنوم سُبَاتاً ﴾ والسبات هو الراحة وجعل النوم سباتاً لأنه سبب للراحة قال أبو مسلم : السبات الراحة ومنه يوم السبت لما جرت به العادة من الاستراحة فيه ، ويقال للعليل إذا استراح من تعب العلة مسبوت ، وقال صاحب "الكشاف" السبات الموت والمسبوت الميت لأنه مقطوع الحياة قال : وهذا كقوله : ﴿ وَهُوَ الذى يتوفاكم بالليل ﴾ [الأنعام : 60] وإنما قلنا إن تفسيره بالموت أولى من تفسيره

بالراحة ، لأن النشور في مقابلته يأباه ، قال أبو مسلم : ﴿ وجعل النهار نشوراً ﴾ هو بمعنى الانتشار والحركة كما سمى تعالى نوم الإنسان وفاة ، فقال : ﴿ اللهُ يَتَوَفَّى الانفس حِينَ مِوْتِهَا ﴾ [الزمر : 42] والتي لم تمت في منامها كذلك وفق بين القيام من النوم والقيام من الموت في التسمية بالنشور ، وهذه الآية مع دلالتها على قدرة الخالق فيها إظهار لنعمه على خلقه ، لأن الاحتجاب بستر الليل كم فيه لكثير من الناس من فوائد دينية ودنيوية ، والنوم واليقظة شبههما بالموت والحياة ، وعن لقمان أنه قال لابنه : كما تنام فتوقظ ، كذلك تموت فتنشر .

النوع الثالث : قوله : ﴿ وَهُوَ الذى أَرْسَلَ الرياح بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْهِ رَحْمَتِهِ ﴾ وقد تقدم تفسيره في سورة الأعراف ، ثم فيه مسائل :

المسألة الأولى :

(10/561)

قرىء (الريح) و (الرياح) ، قال الزجاج : وفي (نشراً) خمسة أوجه بفتح النون وبضمها وبضم النون والشين وبالباء الموحدة مع ألف والمؤنث وبشراً بالتنوين ، قال أبو مسلم في قرأ (بشراً) أراد جمع بشير مثل قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ ءاياته أَن يُرْسِلَ الرياح مبشرات ﴾ [الروم :

46] وأما بالنون فهو في معنى قوله : ﴿ والناشرات نَشْراً ﴾ [المرسلات : 3] وهي الرياح ، والرحمة الغيث والماء والمطر .

المسألة الثانية :

قوله : ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السماء مَاء طَهُوراً ﴾ نص في أنه تعالى ينزل الماء من السماء ، لا من السحاب .

وقول من يقول السحاب سماء ضعيف لأن ذاك بحسب الاشتقاق ، وأما بحسب وضع اللغة فالسماء اسم لهذا السقف المعلوم فصرفه عنه ترك للظاهر .

المسألة الثالثة :

اختلفوا في أن الطهور ما هو ؟ قال كثير من العلماء الطهور ما يتطهر به كالفطور ما يفطر به ، والسحور ما يتسحر به وهو مروي أيضاً عن ثعلب ، وأنكر صاحب "الكشاف" ذلك ، وقال ليس فعول من التفعيل في شيء والطهور على وجهين في العربية : صفة واسم غير صفة فالصفة قولك : ماء طهور كقولك طاهر ، والاسم قولك طهور لما يتطهر به كالوضوء والوقود لما يتوضأ به ويوقد به النار .

حجة القول الأول قوله عليه السلام : " التراب طهور المسلم ولو لم يجد الماء عشر حجج " ولو كان معنى الطهور الطاهر لكان معناه التراب طاهر للمسلم وحينئذ لا ينتظم الكلام ، وكذا قوله عليه السلام : " طهور إناء أحدكم إذا ولغ الكلب فيه أن يغسله سبعاً " ولو كان

الطهور الطاهر لكان معناه طاهر إناء أحدكم وحينئذ لا ينتظم الكلام ، ولأنه تعالى قال : ﴿ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّن السماء مَاء لِّيُطَهِّرَكُمْ بِهِ ﴾ [الأنفال : 11] فبين أن المقصود من الماء إنما هو التطهر به فوجب أن يكون المراد من كونه طهوراً أنه هو المطهر به لأنه تعالى ذكره في معرض الإنعام ، فوجب حمله على الوصف الأكمل ولا شك أن المطهر أكمل من الطاهر .

(11/561)

المسألة الرابعة :

اعلم أن الله تعالى ذكر من منافع الماء أمرين : أحدهما : ما يتعلق بالنبات والثاني : ما يتعلق بالحيوان ، أما أمر النبات فقوله : ﴿ لِّنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتاً ﴾ وفيه سؤالات :

السؤال الأول : لم قال ﴿ لِّنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً ﴾ ميتاً ولم يقل ميتة ؟ الجواب : لأن البلدة في معنى البلد في قوله : ﴿ فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ ﴾ [فاطر : 9] .

السؤال الثاني : ما المراد من حياة البلد وموتها ؟ الجواب : الناس يسمون ما لا عمارة فيه من الأرض مواتاً ، وسقيها المقتضي لعمارتها إحياء لها .

السؤال الثالث : أن جماعة الطبائعيين (1) وكذا الكعبي من المعتزلة قالوا إن بطبع الأرض والماء وتأثير الشمس فيهما يحصل النبات وتمسكوا بقوله تعالى : ﴿ لِّنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتاً ﴾

فإن الباء في (به) تقتضي أن للماء تأثيراً في ذلك الجواب : الظاهر وإن دل عليه لكن المتكلمون تركوه لقيام الدلالة على فساد الطبع وأما أمر الحيوان فقوله سبحانه : ﴿ وَنُسْقِيَهِ مِمَّا خَلَقْنَا أنعاما وَأَنَاسِيّ كَثِيراً ﴾ وفيه سؤالات :

السؤال الأول : لم خص الإنسان والأنعام ههنا بالذكر دون الطير والوحش مع انتفاع الكل بالماء ؟ الجواب : لأن الطير والوحش تبعد في طلب الماء فلا يعوزها الشرب بخلاف الأنعام لأنها قنية الأناسي وعامة منافعهم متعلقة بها فكأن الإنعام عليهم بسقي أنعامهم كالإنعام عليهم بسقيهم .

---

(1) هكذا في الأصل وهو مخالف للقياس فإن النسبة لا تكون إلا للمفرد فالأولى أن يقول (جماعة الطبيعيين) نسبة للطبيعة ، وقد خطأ العلماء ذلك أيضا فقالوا : الصواب النسبة للطبع وللطبيعة . وحينئذ يكون الصواب أن يقال (جماعة الطبيعيين) وقد سبق المصنف إلى هذا أبو عثمان بن جني إمام أهل العربية فسمى كتابه بالتصريف الملوكي خروجا على القياس المقتضي كون التسمية التصريف الملكي فلعله من خطأ النساخ . [. . . . .]

السؤال الثاني : ما معنى تنكير الأنعام والأناسي ووصفهما بالكثرة ؟ الجواب : معناه أن أكثر الناس يجتمعون في البلاد القريبة من الأودية والأنهار (ومنافع) المياه فهم في غنية (في شرب المياه عن المطر) ، وكثير منهم نازلون في البوادي فلا يجدون المياه للشرب إلا عند نزول المطر وذلك قوله : ﴿ لِّنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتاً ﴾ يريد بعض بلاد هؤلاء المتباعدين عن مظان الماء ويحتمل في (كثير) أن يرجع إلى قوله : ﴿ وَنُسْقِيَهِ ﴾ لأن الحي يحتاج إلى الماء حالاً بعد حال وهو مخالف للنبات الذي يكفيه من الماء قدر معين ، حتى لو زيد عليه بعد ذلك لكان إلى الضرر أقرب ، والحيوان يحتاج إليه حالاً بعد حال ما دام حياً .

السؤال الثالث : لم قدم إحياء الأرض وسقي الأنعام على سقي الأناسي الجواب : لأن حياة الأناسي بحياة أرضهم وحياة أنعامهم ، فقدم ما هو سبب حياتهم ومعيشتهم على سقيهم لأنهم إذا ظفروا بما يكون سقيا لأرضهم ومواشيهم فقد ظفروا أيضاً بسقياهم وأيضاً فقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ صرفناه بَيْنَهُمْ ﴾ [الفرقان : 50] يعني صرف المطر كل سنة إلى جانب آخر ، وإذا كان كذلك فلا يسقي الكل منه بل يسقي كل سنة أناسي كثيراً منه .

السؤال الرابع : ما الأناسي ؟ الجواب : قال الفراء والزجاج : الإنسي والأناسي كالكرسي والكراسي ، ولم يقل كثيرين لأنه قد جاء فعيل مفرداً ويراد به الكثرة كقوله :

﴿ وَقُرُوناً بَيْنَ ذلك كَثِيراً ﴾ [الفرقان : 38] ﴿ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً ﴾ [النساء : 69] .

واعلم أن الفقهاء قد استنبطوا أحكام المياه من قوله تعالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السماء مَاء طَهُوراً ﴾ ونحن نشير إلى معاقد تلك المسائل فنقول ههنا نظران : أحدهما : أن الماء مطهر والثاني : أن غير الماء هل هو مطهر أم لا ؟ النظر الأول : أن نقول الماء إما أن لا يتغير أو يتغير القسم الأول وهو الذي لا يتغير فهو طاهر في ذاته مطهر لغيره ، إلا الماء المستعمل فإنه عند الشافعي طاهر وليس بمطهر ، وقال مالك والثوري يجوز الوضوء به ، وقال أبو حنيفة في رواية أبي يوسف إنه نجس فههنا مسائل :

المسألة الأولى :

في بيان أنه ليس بمطهر ، ودليلنا قوله عليه السلام : " لا يغتسل أحدكم في الماء الدائم وهو جنب " ولو بقي الماء كما كان طاهراً مطهراً لما كان للمنع منه معنى ، ومن وجه القياس أن الصحابة كانوا يتوضؤون في الأسفار وما كانوا يجمعون تلك المياه مع علمهم باحتياجهم بعد ذلك إلى الماء ، ولو كان ذلك الماء مطهراً لحملوه ليوم الحاجة ، واحتج مالك بالآية والخبر والقياس .

أما الآية فمن وجهين : الأول : قوله تعالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السماء مَاء طَهُوراً ﴾ وقوله :

﴿ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّن السماء مَاء لِّيُطَهِّرَكُمْ بِهِ ﴾ [الأنفال : 11] فدلت الآية على حصول وصف المطهرية للماء ، والأصل في الثابت بقاؤه ، فوجب الحكم ببقاء هذه الصفة للماء بعد صيرورته مستعملاً ، وأيضاً قوله : ﴿ طَهُوراً ﴾ يقتضي جواز التطهر به مرة بعد أخرى والثاني : أنه أمر بالغسل مطلقاً في قوله : ﴿ فاغسلوا ﴾ [المائدة : 6] واستعمال كل المائعات غسل ، لأنه لا معنى للغسل إلا إمرار الماء على العضو ، قال الشاعر :

(14/561)

فياحسنها إذ يغسل الدمع كحلها . . فمن اغتسل بالماء المستعمل فقد أتى بالغسل ، فوجب أن يكون مجزئاً له لأنه أتى بما أمر به فوجب أن يخرج عن العهدة وأما السنة فما روي أنه عليه السلام " توضأ فمسح رأسه بفضل ما في يده " وعنه عليه السلام : " أنه توضأ فأخذ من بلل لحيته فمسح به رأسه " وعن ابن عباس أنه عليه السلام : " اغتسل فرأى لمعة في جسده لم يصبها الماء ، فأخذ شعرة عليها بلل فأمرها على تلك اللمعة " وأما القياس فإنه ماء طاهر لقي جسداً طاهراً فأشبه ما إذا لقي حجارة أو حديداً ، وكذا الماء المستعمل في الكرة الرابعة والمستعمل في التبرد والتنظيف ، ولأنه لا خلاف أنه إذا وضع الماء على أعلى وجهه وسقط به فرض ذلك الموضع ، ثم نزل ذلك الماء بعينه إلى بقية الوجه فإنه يجزيه

مع أن ذلك الماء صار مستعملاً في أعلى الوجه .

المسألة الثانية :

الدليل على أن الماء المستعمل طاهر قوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السماء مَاء طَهُوراً ﴾ ومن السنة أنه عليه السلام : أخذ من بلل لحيته ومسح به رأسه ، وقال : " خلق الماء طهوراً لا ينجسه شيء إلا ما غير طعمه أو ريحه أو لونه " وقال الشافعي : إنه عليه السلام توضأ ولا شك أنه أصابه ما تساقط منه ، ولم ينقل أنه غير ثوبه ولا أنه غسله ، ولا أحد من المسلمين فعل ذلك ، فثبت أنهم أجمعوا على أنه ليس بنجس ، ولأنه ماء طاهر لقي جسماً طاهراً فأشبه ما إذا لاقى حجارة .

المسألة الثالثة :

الماء المستعمل إما أن يكون مستعملاً في أعضاء الوضوء أو في غسل الثياب ، أما المستعمل في أعضاء الوضوء فإما أن يكون مستعملاً فيما كان فرضاً وعبادة ، أو فيما كان فرضاً ولا يكون عبادة ، أو فيما كان عبادة ولا يكون فرضاً ، أو فيما لا يكون فرضاً ولا عبادة .

أما القسم الأول : وهو المستعمل فيما كان فرضاً وعبادة فهو غير مطهر باتفاق أصحاب الشافعي .

وأما القسم الثاني : فهو كالماء الذي استعملته الذمية التي تحت الزوج المسلم ، أي في غسل حيضها ليحل للزوج غشيانها .

وأما القسم الثالث : فهو كالماء المستعمل في الكرة الثانية والثالثة ، والماء المستعمل في تجديد الوضوء ، والماء المستعمل في الأغسال المسنونة ، فلأصحاب الشافعي في هذين القسمين وجهان : وأما القسم الرابع : فهو كالماء المستعمل في الكرة الرابعة ، وفي التبرد والتنظف ، فذاك باتفاق أصحاب الشافعي غير مستعمل ، وهو طاهر مطهر ، أما الماء المستعمل في غسل الثياب ، فإذا غسل ثوباً من نجاسة وطهر بغسلة واحدة ، يستحب أن يغسله ثلاثاً فالمنفصل في الكرة الثانية والثالثة مطهر على الأصح القسم الثاني : الماء الذي يتغير فنقول الماء إذا تغير ، فإما أن يتغير بنفسه أو بغيره ، أما الأول فكالمتغير بطول المكث فيجوز الوضوء به ، لأنه عليه السلام كان يتوضأ من بئر (قضاعة) (1) ، وكان ماؤها كأنه نقاعة الحناء ، وأما المتغير بسبب غيره فذلك الغير إما أن لا يكون متصلاً به أو يكون متصلاً به .

أما الذي لا يكون متصلاً به فهو كما لو وقع بقرب الماء جيفة فصار الماء منتناً بسببها فهو أيضاً مطهر ، وأما إذا تغير بسبب شيء متصل به فذلك المتصل إما أن يكون طاهراً أو نجساً القسم الأول : إذا كان طاهراً فهو إما أن لا يخالطه أو يخالطه ، فإن لم يخالطه فهو

كالماء المتغير بسبب وقوع الدهن والطيب والعود والعنبر والكافور الصلب فيه وهذا أيضاً مطهر كما لو كان بقرب الماء جيفة ، ولأن الطهورية ثبتت بقوله : ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السماء مَاء طَهُوراً ﴾ والأصل في الثابت بقاؤه ، وأما المتغير بسبب شيء يخالطه ، فذلك المخالط إما أن لا يمكن صون الماء عنه أو يمكن ، أما الذي لا يمكن فكالمتغير بالتراب والحمأة والأوراق التي تقع فيه والطحلب الذي يتولد فيه ، وهذا أيضاً مطهر ، لأن الطهورية ثبتت بالآية والاحتراز عن ذلك عسير ، فيكون مرفوعاً لقوله :

---

(1) المعروف أنه من بئر بضاعة وهي بئر معروفة بالمدينة كان يطرح فيها خرق الحيض ولحوم الكلاب والمنتن .

(16/561)

﴿ مَّا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى الدين مِنْ حَرَجٍ ﴾ [الحج : 78] وكذا لو جرى الماء في طريقه على معدن زرنيخ أو نورة أو كحل أو وقع شيء منها فيه أو نبع من معادنها ، أما إذا تغير الماء بسبب مخالطة ما يستغني الماء عن جنسه نظر إن كان التغير قليلاً ، بحيث لا يضاف الماء إليه بأن وقع فيه زعفران فاصفر قليلاً ، أو دقيق فابيض قليلاً ، جاز الوضوء به على الصحيح من المذهب ، لأنه لم يسلبه إطلاق اسم الماء ، وأما إن كان التغير كثيراً فإن

استحدث اسماً جديداً كالمرقة لم يجز الوضوء به بالاتفاق ، وإن لم يستحدث اسماً جديدا فعند الشافعي لا يجوز الوضوء به ، وعند أبي حنيفة يجوز .

حجة الشافعي من وجوه : أحدها : أنه عليه السلام توضأ ثم قال : " هذا وضوء لا يقبل الله الصلاة إلا به " فذلك الوضوء إن كان واقعاً بالماء المتغير وجب أن لا يجوز إلا به ، وبالاتفاق ليس الأمر كذلك ، فثبت أنه كان بماء غير متغير وهو المطلوب وثانيها : أنه إذا اختلط ماء الورد بالماء ثم توضأ الإنسان به ، فيحتمل أن بعض الأعضاء قد انغسل بماء الورد دون الماء ، وإذا كان كذلك فقد وقع الشك في حصول الوضوء وكان تيقن الحدث قائماً ، والشك لا يعارض اليقين فوجب أن يبقى على الحدث ، بخلاف ما إذا كان قليلاً لا يظهر أثره فإنه صار كالمعدوم ، أما إذا ظهر أثره علمنا أنه باق فيتوجه ما ذكرناه وثالثها : أن الوضوء تعبد لا يعقل معناه ، فإنه لو توضأ بماء الورد لا يصح وضوؤه ولو توضأ بالماء الكدر المتعفن صح وضوؤه .

وما لا يعقل معناه وجب الاقتصار فيه على مورد النص وترك القياس .

(17/561)

حجة أبي حنيفة وجوه : أحدها : قوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السماء مَاء طَهُوراً ﴾ دلت الآية على كون الماء مطهراً والأصل في الثابت بقاؤه ، فوجب بقاء هذه الصفة بعد التغير بالمخالطة وثانيها : قوله تعالى : ﴿ فاغسلوا ﴾ [المائدة : 6] أمر بمطلق الغسل وقد أتى به فوجب أن يخرج عن العهدة وقد بينا تقرير هذا الوجه فيما تقدم وثالثها : قوله تعالى : ﴿ فَلَمْ تَجِدُواْ مَاء فَتَيَمَّمُواْ ﴾ [النساء : 43] علق جواز التيمم بعدم وجدان الماء وواجد هذا الماء المتغير واجد للماء لأن الماء المتغير ماء مع صفة التغير ، والموصوف موجود حال وجود الصفة ، فوجب أن لا يجوز له التيمم ورابعها : قوله عليه السلام في البحر : " هو الطهور ماؤه " ظاهره يقتضي جواز الطهارة به وإن خالطه غيره ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم أطلق ذلك وخامسها : أنه عليه السلام أباح الوضوء بسؤر الهرة وسؤر الحائض وإن خالطه شيء من لعابهما وسادسها : لا خلاف في الوضوء بماء المدر والسيول مع تغير لونه بمخالطة الطين وما يكون في الصحارى من الحشيش والنبات ، ومن أجل مخالطة ذلك له يرى تارة متغيراً إلى السواد وأخرى إلى الحمرة والصفرة فصار ذلك أصلاً في جميع ما خالط الماء إذا لم يغلب عليه فيسلبه اسم الماء القسم الثاني : إذا كان المخالط للماء شيئاً نجساً فمن الناس من زعم أن الماء لا ينجس ما لم يتغير بالنجاسة سواء كان قليلاً أو كثيراً وهو قول الحسن البصري والنخعي ومالك وداود ، وإليه مال الشيخ الغزالي في كتاب "الإحياء" ، وقال أبو بكر الرازي مذهب أصحابنا أن كل ما تيقنا فيه جزأ

من النجاسة أو غلب على الظن ذلك لم يجز استعماله ولا يختلف على هذا الحد ماء البحر وماء البئر والغدير والراكد والجاري ، لأن ماء البحر لو وقعت فيه نجاسة لم يجز استعمال الماء الذي فيه النجاسة وكذلك الماء الجاري ، وأما اعتبار أصحابنا للغدير الذي إذا حرك أحد طرفيه لم يتحرك الطرف الآخر ،

(18/561)

فإنما هو كلام في جهة تغليب الظن في بلوغ النجاسة الواقعة في أحد طرفيه إلى الطرف الآخر ، وليس هو كلامنا في أن بعض المياه الذي فيه النجاسة قد يجوز استعمالها ، وبعضها لا يجوز استعماله هذا كله كلام أبي بكر وأقول : من الناس من فرق بين القليل والكثير فعن عبد الله بن عمر :

" إذا كان الماء أربعين قلة لم ينجسه شيء " وعن ابن عباس رضي الله عنهما : " الحوض لا يغتسل فيه جنب إلا أن يكون فيه أربعون غرباً " وهو قول محمد بن كعب القرظي ، وقال مسروق وابن سيرين : إذا كان الماء كثيراً لا ينجسه شيء ، وقال سعيد بن جبير : الماء الراكد لا ينجسه شيء إذا كان قدر ثلاث قلال وقال الشافعي : إذا كان الماء قلتين بقلال هجر لم ينجسه إلا ما غير طعمه أو ريحه أو لونه ، وإن كان أقل ينجس لظهور النجاسة فيه .

واعلم أنه يمكن التمسك لنصرة قول مالك بوجوه : أحدها : قوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السماء مَاء طَهُوراً ﴾ ترك العمل به في الماء الذي تغير لونه أو طعمه أو ريحه لظهور النجاسة فيه فيبقى فيما عداه على الأصل وثانيها : قوله عليه السلام : " خلق الله الماء طهوراً لا ينجسه شيء إلا ما غير طعمه أو لونه أو ريحه " وهو نص في الباب وثالثها : قوله تعالى : ﴿ فاغسلوا وُجُوهَكُمْ ﴾ [المائدة : 6] المتوضىء بهذا الماء قد غسل وجهه فيكون آتياً بما أمر به فيخرج عن العهدة ورابعها : أن من شأن كل مختلطين كان أحدهما غالباً على الآخر أن يتكيف المغلوب بكيفية الغالب فالقطرة من الخل لو وقعت في الماء الكثير بطلت صفة الخلية عنها واتصفت بصفة الماء ، وكون أحدهما غالباً على الآخر إنما يعرف بغلبة الخواص والآثار المحسوسة وهي الطعم أو اللون أو الريح ، فلا جرم مهما ظهر طعم النجاسة أو لونها أو ريحها كانت النجاسة غالبة على الماء وكان الماء مستهلكاً فيها ، فلا جرم يغلب حكم النجاسة فإذا لم يظهر شيء من ذلك كان الغالب هو الماء وكانت النجاسة مستهلكة فيه فيغلب حكم الطهارة وخامسها : ما روي عن عمر (أنه) توضأ من جرة نصرانية ، مع أن نجاسة أواني النصارى معلومة بظن قريب من العلم ، وذلك يدل على أن عمر لم يعول إلا

على عدم التغير وسادسها : أن تقدير الماء بمقدار معلوم ولو كان معتبراً كالقلتين عند الشافعي وعشر في عشر عند أبي حنيفة رضي الله عنه لكان أولى المواضع بالطهارة مكة والمدينة لأنه لا تكثر المياه هناك لا الجارية وإلا الراكدة الكثيرة ومن أول عصر الرسول صلى الله عليه وسلم إلى آخر عصر الصحابة لم ينقل أنهم خاضوا في تقدير المياه بالمقادير المعينة ، ولا أنهم سألوا عن كيفية حفظ المياه عن النجاسات وكانت أواني مياههم يتعاطاها الصبيان والإماء الذين لا يحترزون عن النجاسات وسابعها : إصغاء رسول الله صلى الله عليه وسلم الإناء للهرة وعدم

(20/561)

منعهم الهرة من شرب الماء من أوانيهم بعد أن كانوا يرون أنه تأكل الفأرة ولم يكن في بلادهم حياض تلغ السنانير فيها وكانت لا تنزل إلى الآبار وثامنها : أن الشافعي نص على أن غسالة النجاسات طاهرة إذا لم تتغير ونجسة إذا تغيرت ، وأي فرق بين أن يلاقي الماء النجاسة بالورود عليها أو بورودها عليه ؟ وأي معنى لقول القائل إن قوة الورود تدفع النجاسة مع أن قوة الورود لم تمنع المخالطة وتاسعها : أنهم كانوا يستنجون على أطراف المياه الجارية القليلة ، ولا خلاف أن مذهب الشافعي إذا وقع بول في ماء جار ولم يتغير أنه يجوز الوضوء به وإن

كان قليلاً ، وأي فرق بين الجاري والراكد ؟ وليت شعري الحوالة على عدم التغير أولى أو على قوة الماء بسبب الجريان ؟ وعاشرها : إذا وقع بول في قلتين ثم فرقتا فكل كوز يؤخذ منه فهو ظاهر على قول الشافعي ومعلوم أن البول منتشر فيه وهو قليل ، فأن فرق بينه إذا وقع ذلك القليل في ذلك القدر من الماء ابتداء ، وبينه إذا وصل إليه عند اتصال غيره به ؟ وحادي عشرها : أن الحمامات لم تزل في الأعصار الخالية يتوضأ فيها المتقشفون ويغمسون الأيدي والأواني في ذلك القليل من الماء من تلك الحياض مع علمهم بأن الأيدي الطاهرة والنجسة كانت تتوارد عليها ولو كان التقدير بالقلتين معتبراً لاشتهر ذلك ولبلغ ذلك إلى حد التواتر ، لأن الأمر الذي تشتد حاجة الجمهور إليه يجب بلوغ نقله إلى حد التواتر لما لم يكن كذلك علمنا أنه غير معتبر وثاني عشرها : أنا لو حكمنا بنجاسة الماء فلا يمكننا أن نحكم بنجاسة الماء إن كان في غاية الكثرة مثل ماء الأودية العظيمة والغدران الكبار ، فإن ذلك بالإجماع باطل ، فلا بد من التقدير بمقدار معين ، وقد نقلنا عن الناس تقديرات مختلفة فليس بعضها أولى من بعض فوجب التعارض والتساقط ، أما تقدير أبي حنيفة بعشر في عشر فمعلوم أنه مجرد تحكم ، وأما تقدير الشافعي بالقلتين بناء على قوله عليه السلام :

(21/561)

" إذا بلغ الماء قلتين لم يحمل خبثاً " فضعيف أيضاً لأن الشافعي لما روى هذا الخبر ، قال أخبرني رجل فيكون الراوي مجهولاً ، ويكون الحديث مرسلاً وهو عنده ليس بحجة ، وأيضاً زعم كثير من المحدثين أنه موقوف على ابن عمر رضي الله عنه ، سلمنا صحة الرواية لكنه إحالة مجهول على مجهول لأن القلة غير معلومة فإنها تصلح للكوز والجرة ولكل ما نقل باليد ، وهو أيضاً اسم لهامة الرجل ولقلة الجبل ، سلمنا كون القلة معلومة لكن في متن الخبر اضطراب فإنه روي " إذا بلغ الماء قلتين " ، وروي " إذا بلغ قلة " ، وروي " أربعين قلة " ، وروي " إذا بلغ قلتين أو ثلاثاً " ، وروي " إذا بلغ كوزين " سلمنا صحة المتن ولكنه متروك الظاهر لأن قوله " لم يحمل خبثاً " لا يمكن إجراؤه على ظاهره ، فإن الخبث إذا ورد عليه فقد حمله ، سلمنا إمكان إجرائه على ظاهره لكن الخبث على قسمين خبث شرعي وخبث حقيقي ، والاسم إذا دار بين المسمى اللغوي والمسمى الشرعي ، كان حمله على المسمى اللغوي أولى ، لأن الاسم حقيقة في المسمى اللغوي مجاز في المسمى الشرعي ، دفعاً للاشتراك والنقل ، وإذا كان كذلك وجب حمله عليه ، والمسمى اللغوي للخبث المستقذر بالطبع قال عليه السلام : " ما استخبثته العرب فهو حرام " إذا ثبت هذا فنقول : معنى قوله " لم يحمل خبثاً " أي لا يصير مستقذراً طبعاً ، ونحن نقول بموجبه لكن لم قلت إنه لا ينجس شرعاً ، سلمنا أن المراد من الخبث النجاسة الشرعية لكن قوله "لم يحمل خبثاً" أي يضعف عن حمله ومعنى الضعف تأثره به ، فيكون هذا دليلاً على صيرورته نجساً لا على بقائه

طاهراً .

لا يقال : الجواب عن هذه الأسئلة أن يقال إن الشافعي وإن لم يذكر اسم الراوي في بعض المواضع فقد ذكره في سائر المواضع فخرج عن كونه مرسلاً ، ولأن سائر المحدثين قد عينوا اسم الراوي .

(22/561)

قوله إنه موقوف على ابن عمر ، قلنا لا نسلم فإن يحيى بن معين قال إنه جيد الإسناد فقيل له إن ابن علية وقفه على ابن عمر ، فقال إن كان ابن علية وقفه فحماد بن سلمة رفعه وقوله القلة مجهولة قلنا لا نسلم لأن ابن جريج قال في روايته "بقلال هجر" .

ثم قال : وقد شاهدت قلال هجر فكانت القلة تسع قربتين أو قربتين وشيئاً .

قوله في متنه اضطراب قلنا لا نسلم لأنا وأنتم توافقنا على أن سائر المقادير غير معتبرة فيبقى ما ذكرناه معتبراً .

قوله إنه متروك الظاهر قلنا إذا حملناه على الخبث الشرعي اندفع ذلك ، وذلك أولى لأن حمل كلام الشرع على الفائدة الشرعية أولى من حمله على المعنى العقلي ، لا سيما وفي حمله على المعنى العقلي يلزم التعطيل ، قوله المراد أنه يضعف عن حمله قلنا صح في بعض

الروايات أنه قال : " إذا كان الماء قلتين لم ينجس " ، ولأنه عليه السلام جعل القلتين شرطاً لهذا الحكم ، والمعلق على الشرط عدم عند عدم الشرط وعلى ما ذكروه لا يبقى للقلتين فائدة لأنا نقول : لا شك أن هذا الخبر بتقدير الصحة يقتضي تخصيص عموم قوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السماء مَاء طَهُوراً ﴾ وعموم قوله : ﴿ ولكن يُرِيدُ لِيُطَهّرَكُمْ ﴾ [المائدة : 6] وعموم قوله : ﴿ فاغسلوا وُجُوهَكُمْ ﴾ [المائدة : 6] وعموم قوله صلى الله عليه وسلم : " خلق الماء طهوراً لا ينجسه شيء " وهذا المتخصص لا بد وأن يكون بعيداً عن الاحتمال والاشتباه وقلال هجر مجهولة وقول ابن جريج القلة تسع قربتين أو قربتين وشيئاً ليس بحجة ، لأن القلة كما أنها مجهولة فكذا القربة مجهولة فإنها قد تكون كبيرة ، وقد تكون صغيرة ، ولأن الروايات أيضاً مختلفة فتارة قال " إذا بلغ الماء قلتين " ، وتارة " أربعين قلة " ، وتارة كرين فإذا تدافعت وتعارضت لم يجز تخصيص عموم الكتاب والسنة الظاهرة البعيدة عن الاحتمال بمثل هذا الخبر .

(23/561)

هذا تمام الكلام في نصرة قول مالك ، واحتج من حكم بنجاسة الماء الذي تقع النجاسة فيه بوجوه : أولها : قوله تعالى : ﴿ وَيُحَرّمُ عَلَيْهِمُ الخبئث ﴾ [الأعراف : 157]

والنجاسات من الخبائث ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الميتة والدم ﴾ [النحل : 115] ، وقال في الخمر : ﴿ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشيطان فاجتنبوه ﴾ [المائدة : 90] ومر عليه السلام بقبرين فقال : " إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير إن أحدهما كان لا يستبرىء من البول والآخر كان يمشي بالنميمة " فحرم الله هذه الأشياء تحريماً مطلقاً ، ولم يفرق بين حال انفرادها واختلاطها بالماء ، فوجب تحريم استعمال كل ما يبقى فيه جزء من النجاسة أكثر ما في الباب أن الدلائل الدالة على كون الماء مطهراً تقتضي جواز الطهارة به ، ولكن تلك الدلائل مبيحة والدلائل التي ذكرناها حاظرة والمبيح والحاظر إذا اجتمعا فالغلبة للحاظر ، ألا ترى أن الجارية بين رجلين لو كان لأحدهما منها مائة جزء وللآخر جزء واحد ، أن جهة الحظر فيها أولى من جهة الإباحة ، وأنه غير جائز لواحد منهما وطؤها فكذا ههنا وثانيها : قوله عليه السلام :

" لا يبولن أحدكم في الماء الدائم ثم يغتسل فيه من الجنابة " ذكره على الإطلاق من غير فرق بين القليل والكثير وثالثها : قوله عليه السلام : " إذا استيقظ أحدكم من منامه فليغسل يده ثلاثاً قبل أن يدخلها الإناء فإنه لا يدري أين باتت يده " فأمر بغسل اليد احتياطاً من نجاسة قد أصابته من موضع الاستنجاء ، ومعلوم أن مثلها إذا أدخلت الماء لم تغيره ولولا أنها تفسده ما كان للأمر بالاحتياط منها معنى ورابعها : قوله عليه السلام : " إذا بلغ الماء قلتين لم يحمل خبثاً " يدل بمفهومه على أنه إذا لم يبلغ قلتين وجب أن يحمل الخبث .

أجاب مالك عن الوجه الأول فقال لا نزاع في أنه يحرم استعمال النجاسة ولكن الجزء القليل من النجاسة المائعة إذا وقع في الماء لم يظهر فيه لونه ولا طعمه ولا رائحته ، فلم قلتم إن تلك النجاسة بقيت ، ولم لا يجوز أن يقال إنها انقلبت عن صفتها ؟ وتقريره ما قدمناه .

وأما قوله عليه السلام : " لا يبولن أحدكم في الماء الدائم " فلم قلتم إن هذا النهي ليس إلا لما ذكرتموه ، بل لعل النهي إنما كان لأنه ربما شربه إنسان وذلك مما ينفر طبعه عنه ، وليس الكلام في نفرة الطبع ، وأما قوله : " إذا استيقظ أحدكم من منامه فليغسل يده ثلاثاً " فقد أجمعنا على أن هذا الأمر استحباب ، فالمرتب عليه كيف يكون أمر إيجاب ثم بتقدير أن يكون أمر إيجاب ، فلم قلتم إنه لم يوجه ذلك الإيجاب إلا لما ذكرتموه ؟ وأما قوله عليه السلام : " إذا بلغ الماء قلتين " فقد سبق الكلام عليه ، ثم بعد النزول عن كل ما قلناه فهو تمسك بالمفهوم والنصوص التي ذكرناها منطوقة والمنطوق راجح على المفهوم ، والله أعلم .

النظر الثاني : في أن غير الماء هل هو طهور أم لا ؟ فقال الأصم والأوزاعي يجوز الوضوء بجميع المائعات ، وقال أبو حنيفة يجوز الوضوء بنبيذ التمر في السفر ، وقال أيضاً تجوز إزالة النجاسة بجميع المائعات التي تزيل أعيان النجاسات ، وقال الشافعي رضي الله عنه الطهورية مختصة بالماء على الإطلاق ودليله في صورة الحدث قوله تعالى : ﴿ فَلَمْ تَجِدُواْ مَاء فَتَيَمَّمُواْ ﴾ [النساء : 43] أوجب التيمم عند عدم الماء ، ولو جاز الوضوء بالخل أو نبيذ التمر لما وجب التيمم عند عدم الماء ، وأما في صورة الخبث ، فلأن الخل لو أفاد طهارة الخبث لكان طهوراً لأنه لا معنى للطهور إلا المطهر ولو كان طهوراً لوجب أن يجوز به طهارة الحدث لقوله عليه السلام : " لا يقبل الله صلاة أحدكم حتى يضع الطهور مواضعه " وكلمة (حتى) لانتهاء الغاية فوجب انتهاء عدم القبول عند استعمال الطهور وانتهاء عدم القبول يكون بحصول القبول ، فلو كان الخل طهوراً لحصل باستعماله قبول الصلاة ، وحيث لم يحصل علمنا أن الطهورية في الخبث أيضاً مختصة بالماء .

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا (50) ﴾

المسألة الأولى :

اعلم أنهم اختلفوا في أن الهاء في قوله : ﴿ وَلَقَدْ صرفناه ﴾ إلى أي شيء يرجع وذكروا فيه ثلاثة أوجه : أحدها : وهو الذي عليه الجمهور أنه يرجع إلى المطر ، ثم من هؤلاء من قال معنى (صرفناه) أنا أجريناه في الأنهار حتى انتفعوا بالشرب وبالزراعات وأنواع المعاش به ، وقال آخرون معناه أنه سبحانه ينزله في مكان دون مكان وفي عام دون عام ، ثم في العام الثاني يقع بخلاف ما وقع في العام الأول ، قال ابن عباس ما عام بأكثر مطراً من عام ، ولكن الله يصرفه في الأرض ، ثم قرأ هذه الآية ، وروى ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " ما من عام بأمطر من عام ، ولكن إذا عمل قوم بالمعاصي حول الله ذلك إلى غيرهم ، فإذا عصوا جميعاً صرف الله ذلك إلى الفيافي " وثانيها : وهو قول أبي مسلم : أن قوله : ﴿ صرفناه ﴾ راجع إلى المطر والرياح والسحاب والأظلال وسائر ما ذكر الله تعالى من الأدلة وثالثها : ﴿ وَلَقَدْ صرفناه ﴾ أي هذا القول بين الناس في القرآن وسائر الكتب والصحف التي أنزلت على رسل وهو ذكر إنشاء السحاب وإنزال القطر ليتفكروا ويستدلوا به على الصانع ، والوجه الأول أقرب لأنه أقرب المذكورات إلى الضمير .

المسألة الثانية :

قال الجبائي قوله تعالى : ﴿ لِّيَذَّكَّرُواْ ﴾ يدل على أنه تعالى مريد من الكل أن يتذكروا ويشكروا ولو أراد منهم أن يكفروا ويعرضوا لما صح ذلك ، وذلك يبطل قول من قال إن الله تعالى مريد للكفر ممن يكفر ، قال ودل قوله : ﴿ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ على قدرتهم على فعل هذا التذكر إذ لو لم يقدروا لما جاز أن يقال أبوا أن يفعلوه كما لا يقال في الزَّمن أبى أن يسعى ، وقال الكعبي قوله : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُواْ ﴾ حجة على من زعم أن القرآن وبال على الكافرين وأنه لم يرد بإنزاله أن يؤمنوا لأن قوله : ﴿ لِّيَذَّكَّرُواْ ﴾ عام في الكل ، وقوله : ﴿ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ ﴾ يقتضي أن يكون هذا الأكثر داخلاً في ذلك العام لأنه لا يجوز أن يقال أنزلناه على قريش ليؤمنوا ، فأبى أكثر بني تميم إلا كفوراً .

واعلم أن الكلام عليه قد تقدم مراراً .

المسألة الثالثة :

قوله : ﴿ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ المراد كفران النعمة وجحودها من حيث لا يتفكرون فيها ولا يستدلون بها على وجود الصانع وقدرته وإحسانه ، وقيل المراد من الكفور هو الكفر وذلك الكفر إنما حصل لأنهم يقولون مطرنا بنوء كذا لأن من جحد كون النعم صادرة من المنعم ، وأضاف شيئاً من هذه النعمة إلى الأفلاك والكواكب فقد كفر ، واعلم أن التحقيق أن من جعل الأفلاك والكواكب مستقلة باقتضاء هذه الأشياء فلا شك في كفره ، وأما من قال الصانع تعالى جبلها على خواص وصفات تقتضي هذه الحوادث ،

فلعله لا يبلغ خطؤه إلى حد الكفر .

المسألة الرابعة :

قالوا الآية دلت على أن خلاف معلوم الله مقدور له لأن كلمة لو دلت على أنه تعالى ما شاء أن يبعث في كل قرية نذيراً ، ثم إنه تعالى أخبر عن كونه قادراً على ذلك فدل ذلك على أن خلاف معلوم الله مقدور له .

(28/561)

أما قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيراً ﴾ فالأقوى أن المراد من ذلك تعظيم النبي صلى الله عليه وسلم وذلك لوجوه : أحدها : كأنه تعالى بين له أنه مع القدرة على بعثة رسول ونذير في كل قرية خصه بالرسالة وفضله بها على الكل ولذلك أتبعه بقوله : ﴿ فَلاَ تُطِعِ الكافرين ﴾ أي لا توافقهم وثانيها : المراد ولو شئنا لخففنا عنك أعباء الرسالة إلى كل العالمين ولبعثنا في كل قرية نذيراً ولكنا قصرنا الأمر عليك وأجللناك وفضلناك على سائر الرسل ، فقابل هذا الإجلال بالتشدد في الدين وثالثها : أن الآية تقتضي مزج اللطف بالعنف لأنها تدل على القدرة على أن يبعث في كل قرية نذيراً مثل محمد ، وأنه لا حاجة بالحضرة الإلهية إلى محمد ألبتة ، وقوله : ﴿ وَلَوْ ﴾ يدل على أنه سبحانه لا يفعل ذلك ،

فبالنظر إلى الأول يحصل التأديب ، وبالنظر إلى الثاني يحصل الإعزاز .

أما قوله : ﴿ فَلاَ تُطِعِ الكافرين ﴾ فالمراد نهيه عن طاعتهم ، ودلت هذه الآية على أن النهي عن الشيء لا يقتضي كون المنهي عنه مشتغلاً به .

وأما قوله : ﴿ وجاهدهم بِهِ جِهَاداً كَبِيراً ﴾ فقال بعضهم : المراد بذل الجهد في الأداء ، والدعاء وقال بعضهم : المراد القتال ، وقال آخرون : كلاهما ، والأقرب الأول لأن السورة مكية ، والأمر بالقتال ورد بعد الهجرة بزمان وإنما قال : ﴿ جِهَاداً كَبِيراً ﴾ لأنه لو بعث في كل قرية نذيراً لوجب على كل نذير مجاهدة قريته ، فاجتمعت على رسول الله تلك المجاهدات وكثر جهاده من أجل ذلك وعظم فقال له : ﴿ وجاهدهم ﴾ بسبب كونك نذير كافة القرى ﴿ جِهَاداً كَبِيراً ﴾ جامعاً لكل مجاهدة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 24 صـ 78 . 87 ﴾

(29/561)

وقال الجصاص :

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنْ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴾

الطَّهُورُ عَلَى وَجْهِ الْمُبَالَغَةِ فِي الْوَصْفِ لَهُ بِالطَّهَارَةِ وَتَطْهِيرِ غَيْرِهِ ، فَهُوَ طَاهِرٌ مُطَهِّرٌ ، كَمَا

يُقَالُ : رَجُلٌ ضَرُوبٌ وَقَتُولٌ أَيْ يَضْرِبُ وَيَقْتُلُ وَهُوَ مُبَالَغَةٌ فِي الْوَصْفِ لَهُ بِذَلِكَ .

وَالْوَضُوءُ يُسَمَّى طَهُورًا ؛ لِأَنَّهُ يُطَهِّرُ مِنْ الْحَدَثِ الْمَانِعِ مِنْ الصَّلَاةِ ، وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ لَا يَقْبَلُ اللَّهُ صَلَاةً بِغَيْرِ طَهُورٍ ﴾ أَيْ بِمَا يُطَهِّرُ ، وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ جُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا ﴾ فَسَمَّاهُ طَهُورًا مِنْ حَيْثُ اسْتَبَاحَ بِهِ الصَّلَاةَ وَقَامَ مَقَامَ الْمَاءِ فِيهِ ، وَقَدْ اُخْتُلِفَ فِي حُكْمِ الْمَاءِ عَلَى ثَلَاثَةِ أَنْحَاءٍ : أَحَدُهَا : إذَا خَالَطَ الْمَاءَ غَيْرُهُ مِنْ الْأَشْيَاءِ ، الطَّاهِرَةِ .

وَالثَّانِي : إذَا خَالَطَهُ نَجَاسَةٌ .

(30/561)

وَالثَّالِثُ : الْمَاءُ الْمُسْتَعْمَلُ ؛ فَقَالَ أَصْحَابُنَا : (إذَا لَمْ تُخَالِطْهُ نَجَاسَةٌ وَلَمْ يَغْلِبْ عَلَيْهِ غَيْرُهُ حَتَّى يُزِيلَ عَنْهُ اسْمَ الْمَاءِ لِأَجْلِ الْغَلَبَةِ وَلَمْ يُسْتَعْمَلْ لِطَهَارَةِ الْبَدَنِ فَالْوُضُوءُ بِهِ جَائِزٌ فَإِنْ غَلَبَ عَلَيْهِ غَيْرُهُ حَتَّى يُزِيلَ عَنْهُ اسْمَ الْمَاءِ مِثْلُ الْمَرَقِ وَمَاءِ الْبَاقِلَاءِ وَالْخَلِّ وَنَحْوِهِ ، فَإِنَّ الْوُضُوءَ بِهِ غَيْرُ جَائِزٍ ، وَمَا طُبِخَ بِالْمَاءِ لِيَكُونَ أَنْقَى لَهُ نَحْوُ الْأُشْنَانِ وَالصَّابُونِ فَالْوُضُوءُ بِهِ جَائِزٌ إلَّا أَنْ يَكُونَ مِثْلَ السَّوِيقِ الْمَخْلُوطِ فَلَا يُجْزِي ، وَكَذَلِكَ إنْ وَقَعَ فِيهِ زَعْفَرَانٌ أَوْ شَيْءٌ مِمَّا يُصْبَغُ بِصَبْغِهِ وَغَيَّرَ لَوْنَهُ فَالْوُضُوءُ بِهِ جَائِزٌ لِأَجْلِ غَلَبَةِ الْمَاءِ) .

وَقَالَ مَالِكٌ ، (لَا يَتَوَضَّأُ بِالْمَاءِ الَّذِي يُبَلُّ فِيهِ الْخُبْزُ) .

وَقَالَ الْحَسَنُ بْنُ صَالِحٍ : (إذَا تَوَضَّأَ بزردج أَوْ نشاسبتج أَوْ بِخَلٍّ أَجْزَأَهُ ، وَكَذَلِكَ كُلُّ شَيْءٍ غَيَّرَ لَوْنَهُ) .

وَقَالَ الشَّافِعِيُّ : (إذَا بَلَّ فِيهِ خُبْزًا وَغَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا لَا يَقَعُ عَلَيْهِ اسْمُ مَاءٍ مُطْلَقٍ حَتَّى يُضَافَ إلَى مَا خَالَطَهُ وَخَرَجَ مِنْهُ فَلَا يَجُوزُ التَّطَهُّرُ بِهِ وَكَذَلِكَ الْمَاءُ الَّذِي غَلَبَ عَلَيْهِ الزَّعْفَرَانُ أَوْ الْأُشْنَانُ) ؛ وَكَثِيرٌ مِنْ أَصْحَابِهِ يَشْرُطُ فِيهِ أَنْ يَكُونَ بَعْضُ الْغُسْلِ بِغَيْرِ الْمَاءِ .

(31/561)

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : الْأَصْلُ فِيهِ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إلَى الْمَرَافِقِ ﴾ إلَى قَوْلِهِ : ﴿ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً ﴾ فِيهِ الدَّلَالَةُ مِنْ وَجْهَيْنِ عَلَى قَوْلِنَا : أَحَدُهُمَا : أَنَّ قَوْلَهُ : ﴿ فَاغْسِلُوا ﴾ عُمُومٌ فِي سَائِرِ الْمَائِعَاتِ بِجَوَازِ إطْلَاقِ اسْمِ الْغُسْلِ فِيهَا .

وَالثَّانِي : قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً ﴾ وَلَا يَمْتَنِعُ أَحَدٌ مِنْ إطْلَاقِ الْقَوْلِ بِأَنَّ هَذَا فِيهِ مَاءٌ وَإِنْ خَالَطَهُ غَيْرُهُ ، وَإِنَّمَا أَبَاحَ اللَّهُ تَعَالَى التَّيَمُّمَ عِنْدَ عَدَمِ كُلِّ جُزْءٍ مِنْ مَاءٍ ؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ " مَاءٌ " اسْمٌ مَنْكُورٌ يَتَنَاوَلُ كُلَّ جُزْءٍ مِنْهُ ؛ وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ فِي الْبَحْرِ :

هُوَ الطَّهُورُ مَاؤُهُ الْحِلُّ مَيْتَتُهُ ﴾ ، وَظَاهِرُهُ يَقْتَضِي جَوَازَ الطَّهَارَةِ بِهِ وَإِنْ خَالَطَهُ غَيْرُهُ لِإِطْلَاقِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَلِكَ فِيهِ ، وَأَبَاحَ الْوُضُوءَ بِسُؤْرِ الْهِرَّةِ وَسُؤْرِ الْحَائِضِ وَإِنْ خَالَطَهُمَا شَيْءٌ مِنْ لُعَابِهِمَا وَأَيْضًا لَا خِلَافَ فِي جَوَازِ الْوُضُوءِ بِمَاءِ الْمُدِّ وَالسَّيْلِ مَعَ تَغَيُّرِ لَوْنِهِ بِمُخَالَطَةِ الطِّينِ لَهُ وَمَا يَكُونُ فِي الصَّحَارَى مِنْ الْحَشِيشِ وَالنَّبَاتِ ، وَمِنْ أَجْلِ مُخَالَطَةِ ذَلِكَ لَهُ يُرَى مُتَغَيِّرًا إلَى السَّوَادِ تَارَةً وَإِلَى الْحُمْرَةِ وَالصُّفْرَةِ أُخْرَى ، فَصَارَ ذَلِكَ أَصْلًا فِي جَمِيعِ مَا خَالَطَهُ الْمَاءُ إذَا لَمْ يَغْلِبْ عَلَيْهِ فَيَسْلُبُهُ اسْمَ الْمَاءِ .

(32/561)

فَإِنْ قِيلَ : إذَا كَانَ الْمَاءُ الْمُنْفَرِدُ عَنْ غَيْرِهِ لَوْ اسْتَعْمَلَهُ لِلطَّهَارَةِ وَلَمْ يَكْفِهِ ثُمَّ اخْتَلَطَ بِهِ غَيْرُهُ فَكَفَاهُ بِالَّذِي خَالَطَهُ نَحْوِ مَاءِ الْوَرْدِ وَالزَّعْفَرَانِ فَقَدْ حَصَلَ بَعْضُ وُضُوئِهِ بِمَا لَا تَجُوزُ الطَّهَارَةُ بِهِ مِمَّا لَوْ أَفْرَدَهُ لَمْ يَطْهُرْ ، فَلَا فَرْقَ بَيْنَ اخْتِلَاطِهِ بِالْمَاءِ وَبَيْنَ إفْرَادِهِ بِالْغُسْلِ .

قِيلَ لَهُ : هَذَا غَلَطٌ مِنْ وُجُوهٍ : أَحَدُهَا : أَنَّ مَا خَالَطَهُ مِنْ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ الطَّاهِرَةِ الَّتِي يَجُوزُ اسْتِعْمَالُهَا لِغَيْرِ الطَّهَارَةِ إذَا كَانَ قَلِيلًا سَقَطَ حُكْمُهُ وَكَانَ الْحُكْمُ لِمَا غَلَبَ ، أَلَا تَرَى أَنَّ اللَّبَنَ الَّذِي خَالَطَهُ مَاءٌ يَسِيرٌ لَا يَزُولُ عَنْهُ اسْمُ اللَّبَنِ وَأَنَّ مَنْ شَرِبَ مِنْ جُبٍّ قَدْ وَقَعَتْ فِيهِ قَطْرَةٌ

مِنْ خَمْرٍ لَا يُقَالُ لَهُ : شَارِبُ خَمْرٍ ، وَلَمْ يَجِبْ عَلَيْهِ الْحَدُّ ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ الْجُزْءَ قَدْ صَارَ مُسْتَهْلَكًا فِيهِ فَسَقَطَ حُكْمُهُ ؟ كَذَلِكَ الْمَاءُ إذَا كَانَ هُوَ الْغَالِبُ وَالْجُزْءُ الَّذِي خَالَطَهُ إذَا كَانَ يَسِيرًا سَقَطَ حُكْمُهُ .

(33/561)

وَمِنْ جِهَةٍ أُخْرَى أَنَّهُ إنْ كَانَتْ الْعِلَّةُ مَا ذَكَرْت فَيَنْبَغِي أَنْ يَجُوزَ إذَا كَانَ الْمَاءُ الَّذِي اسْتَعْمَلَهُ لَوْ انْفَرَدَ عَمَّا خَالَطَهُ كَانَ كَافِيًا لِطَهَارَتِهِ ؛ إذْ لَا فَرْقَ بَيْنَ انْفِرَادِ الْمَاءِ فِي الِاسْتِعْمَالِ وَبَيْنَ اخْتِلَاطِهِ بِمَا لَا يُوجِبُ تَنْجِيسَهُ ، فَإِذَا كَانَ لَوْ اسْتَعْمَلَ الْمَاءَ مُنْفَرِدًا عَمَّا خَالَطَهُ مِنْ اللَّبَنِ وَمَاءِ الْوَلَدِ وَنَحْوِهِ وَكَانَ طَهُورًا ، وَجَبَ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ حُكْمُهُ إذَا خَالَطَهُ غَيْرُهُ ؛ لِأَنَّ مُخَالَطَةَ غَيْرِهِ لَهُ لَا تُخْرِجُهُ مِنْ أَنْ يَكُونَ مُسْتَعْمِلًا لِلْمَاءِ الْمَفْرُوضِ بِهِ الطَّهَارَةُ ؛ فَهَذَا الَّذِي ذَكَرْته يَدُلُّ عَلَى بُطْلَانِ قَوْلِك وَهَدْمِ أَصْلِك .

وَأَيْضًا فَيَنْبَغِي أَنْ تُجِيزَهُ ؛ إذْ أَكْثَرُ غَسْلِ أَعْضَائِهِ بِذَلِكَ الْمَاءِ ؛ لِأَنَّهُ قَدْ اسْتَعْمَلَ مِنْ الْمَاءِ فِي أَعْضَاءِ الْوُضُوءِ مَا لَوْ انْفَرَدَ بِنَفْسِهِ كَانَ كَافِيًا .

فَإِنْ قِيلَ : قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنْ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴾ فَجَعَلَ الْمَاءَ الْمُنْزَلَ مِنْ

السَّمَاءِ طَهُورًا .

فَإِذَا خَالَطَهُ غَيْرُهُ فَلَيْسَ هُوَ الْمُنْزَلُ مِنْ السَّمَاءِ بِعَيْنِهِ فَلَا يَكُونُ طَهُورًا ، قِيلَ لَهُ :

(34/561)

مُخَالَطَةُ غَيْرِهِ لَهُ لَا تُخْرِجُهُ مِنْ أَنْ يَكُونَ الْمَاءُ هُوَ الْمُنَزَّلُ مِنْ السَّمَاءِ أَلَا تَرَى أَنَّ اخْتِلَاطَ الطِّينِ بِمَاءِ السَّيْلِ لَمْ يُخْرِجْهُ مِنْ أَنْ يَكُونَ الْمَاءُ الَّذِي فِيهِ هُوَ الْمُنَزَّلُ بِعَيْنِهِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ وَقْتَ نُزُولِهِ مِنْ السَّمَاءِ مُخَالِطًا لِلطِّينِ ؟ وَكَذَلِكَ مَاءُ الْبَحْرِ لَمْ يَنْزِلْ مِنْ السَّمَاءِ عَلَى هَذِهِ الْهَيْئَةِ وَالْوُضُوءُ بِهِ جَائِزٌ ؛ لِأَنَّ الْغَالِبَ عَلَيْهِ هُوَ الْمَاءُ الْمُنْزَلُ مِنْ السَّمَاءِ ، فَهُوَ إذًا مَعَ اخْتِلَاطِ غَيْرِهِ بِهِ مُتَطَهِّرٌ بِالْمَاءِ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللَّهُ مِنْ السَّمَاءِ وَسَمَّاهُ طَهُورًا .

فَإِنْ قِيلَ : فَيَجِبُ عَلَى هَذَا جَوَازُ الْوُضُوءِ بِالْمَاءِ الَّذِي خَالَطَتْهُ نَجَاسَةٌ يَسِيرَةٌ ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يُخْرِجْ بِمُخَالَطَتِهِ النَّجَاسَةَ إيَّاهُ مِنْ أَنْ يَكُونَ هَذَا الْمَاءُ هُوَ الْمُنْزَلُ مِنْ السَّمَاءِ .

(35/561)

قِيلَ لَهُ : الْمَاءُ الْمُخَالِطُ لِلنَّجَاسَةِ هُوَ بَاقٍ بِحَالِهِ لَمْ يَصِرْ نَجِسَ الْعَيْنِ ، فَلَوْ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ إلَّا مُخَالَطَةُ غَيْرِهِ لَهُ لَمَا مَنَعْنَا الْوُضُوءَ بِهِ وَلَكِنَّا مَنَعْنَا الطَّهَارَةَ بِهِ مَعَ كَوْنِهِ مَاءً مُنْزَلًا مِنْ السَّمَاءِ مِنْ قِبَلِ أَنَّهُ لَا نَصِلُ إلَى اسْتِعْمَالِهِ إلَّا بِاسْتِعْمَالِ جُزْءٍ مِنْ النَّجَاسَةِ ، وَاسْتِعْمَالُ النَّجَاسَةِ مَحْظُورٌ ، فَإِنَّمَا مَنَعْنَا اسْتِعْمَالَ النَّجَاسَةِ وَلَيْسَ بِمَحْظُورٍ عَلَيْنَا اسْتِعْمَالُ الْأَشْيَاءِ الطَّاهِرَةِ وَإِنْ خَالَطَتْ الْمَاءَ ، فَإِذَا حَصَلَ مَعَهُ اسْتِعْمَالُ الْمَاءِ لِلطَّهَارَةِ جَازَ ، كَمَنْ تَوَضَّأَ بِمَاءِ الْقَرَاحِ ثُمَّ مَسَحَ وَجْهَهُ بِمَاءِ الْوَرْدِ أَوْ بِمَاءِ الزَّعْفَرَانِ فَلَا يُبْطِلُ ذَلِكَ طَهَارَتَهُ .

وَقَدْ أَجَازَ الشَّافِعِيُّ الْوُضُوءَ بِمَا أُلْقِيَ فِيهِ كَافُورٌ أَوْ عَنْبَرٌ وَهُوَ يُوجَدُ مِنْهُ رِيحُهُ وَبِمَا خَالَطَهُ وَرْدٌ يَسِيرٌ ، وَإِنْ وَقَعَ مِثْلُهُ مِنْ النَّجَاسَةِ فِي أَقَلَّ مِنْ قُلَّتَيْنِ لَمْ يَجُزْ اسْتِعْمَالُهُ فَلَيْسَ قِيَاسُ النَّجَاسَةِ قِيَاسَ الْأَشْيَاءِ الطَّاهِرَةِ إذَا خَالَطَتْ الْمَاءَ .

فَإِنْ قِيلَ : يَلْزَمُك

أَنْ تُجِيزَ الْوُضُوءَ بِالْمَاءِ الَّذِي يُخَالِطُهُ مَا يَغْلِبُ عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ الْأَشْيَاءِ الطَّاهِرَةِ إذَا كَانَ الْمَاءُ لَوْ انْفَرَدَ كَفَاهُ لِوُضُوئِهِ ؛ لِأَنَّهُ لَوْ انْفَرَدَ جَازَ وَلِأَنَّهُ هُوَ الْمُنْزَلُ مِنْ السَّمَاءِ فِي حَالِ الْمُخَالَطَةِ وَإِنْ غَلَبَ عَلَيْهِ غَيْرُهُ حَتَّى سَلَبَهُ إطْلَاقَ اسْمِ الْمَاءِ .

(36/561)

قِيل لَهُ : لَا يَجِبُ ذَلِكَ مِنْ قِبَلِ أَنَّ غَلَبَةَ غَيْرِهِ عَلَيْهِ يَنْقُلُهُ إلَى حُكْمِهِ وَيَسْقُطُ حُكْمُ الْقَلِيلِ مَعَهُ ، بِدَلَالَةِ أَنَّ قَطْرَةً مِنْ خَمْرٍ لَوْ وَقَعَتْ فِي جُبِّ مَاءٍ فَشَرِبَ مِنْهُ إنْسَانٌ لَمْ يُقَلْ : إنَّهُ شَارِبُ خَمْرٍ وَلَا يَجِبُ عَلَيْهِ الْحَدُّ ، وَلَوْ أَنَّ خَمْرًا صُبَّ فِيهِ مَاءٌ فَمُزِجَتْ بِهِ فَكَانَ الْخَمْرُ هُوَ الْغَالِبُ لَأَطْلَقَ النَّاسُ عَلَيْهِ أَنَّهُ شَارِبُ خَمْرٍ وَكَانَ حُكْمُهُ فِي وُجُوبِ الْحَدِّ عَلَيْهِ حُكْمَ شَارِبِهَا صِرْفًا غَيْرَ مَمْزُوجَةٍ .

وَأَمَّا مَاءُ الْوَرْدِ وَمَاءُ الزَّعْفَرَانِ وَعُصَارَةُ الرَّيْحَانِ وَالشَّجَرِ فَلَمْ يُمْنَعْ الْوُضُوءُ بِهِ مِنْ أَجْلِ مُخَالَطَةِ غَيْرِهِ وَلَكِنْ ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ بِالْمَاءِ الْمَفْرُوضِ بِهِ الطَّهَارَةُ وَلَا يَتَنَاوَلُهُ الِاسْمُ إلَّا بِتَقْيِيدٍ ، كَمَا سَمَّى اللَّهُ تَعَالَى الْمَنِيَّ مَاءً بِقَوْلِهِ : ﴿ أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ﴾ وَقَالَ : ﴿ وَاَللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ ﴾ وَلَيْسَ هُوَ مِنْ الْمَاءِ الْمَفْرُوضِ بِهِ الطَّهَارَةُ فِي شَيْءٍ .

وَأَمَّا مَذْهَبُ الْحَسَنِ بْنِ صَالِحٍ فِي إجَازَتِهِ الْوُضُوءَ بِالْخَلِّ وَنَحْوِهِ ، فَإِنَّهُ يَلْزَمُهُ إجَازَتُهُ بِالْمَرَقِ وَبِعَصِيرِ الْعِنَبِ لَوْ خَالَطَهُ شَيْءٌ يَسِيرٌ مِنْ مَاءٍ ، وَلَوْ جَازَ ذَلِكَ لَجَازَ الْوُضُوءُ بِسَائِرِ الْمَائِعَاتِ مِنْ الْأَدْهَانِ وَغَيْرِهَا ، وَهَذَا خِلَافُ الْإِجْمَاعِ ، وَلَوْ جَازَ ذَلِكَ لَجَازَ التَّيَمُّمُ بِالدَّقِيقِ وَالْأُشْنَانِ قِيَاسًا عَلَى التُّرَابِ

(37/561)

فَصْلٌ وَأَمَّا الْمَاءُ الَّذِي خَالَطَتْهُ نَجَاسَةٌ فَإِنَّ مَذْهَبَ أَصْحَابِنَا فِيهِ أَنَّ كُلَّ مَا تَيَقَّنَّا فِيهِ جُزْءًا مِنْ النَّجَاسَةِ أَوْ غَلَبَ فِي الظَّنِّ ذَلِكَ لَمْ يَجُزْ اسْتِعْمَالُهُ ، وَلَا يَخْتَلِفُ عَلَى هَذَا الْحَدِّ مَاءُ الْبَحْرِ وَمَاءُ الْبِئْرِ وَالْغَدِيرِ وَالْمَاءُ الرَّاكِدُ وَالْجَارِي ؛ لِأَنَّ مَاءَ الْبَحْرِ لَوْ وَقَعَتْ فِيهِ نَجَاسَةٌ لَمْ يَجُزْ اسْتِعْمَالُ الْمَاءِ الَّذِي فِيهِ النَّجَاسَةُ ، وَكَذَلِكَ الْمَاءُ الْجَارِي .

وَأَمَّا اعْتِبَارُ أَصْحَابِنَا لِلْغَدِيرِ الَّذِي إذَا حُرِّكَ أَحَدُ طَرَفَيْهِ لَمْ يَتَحَرَّكْ الطَّرَفُ الْآخَرُ ، فَإِنَّمَا هُوَ كَلَامٌ فِي جِهَةِ تَغْلِيبِ الظَّنِّ فِي بُلُوغِ النَّجَاسَةِ الْوَاقِعَةِ فِي أَحَدِ طَرَفَيْهِ إلَى الطَّرَفِ الْآخَرِ ، وَلَيْسَ هَذَا كَلَامًا فِي أَنَّ بَعْضَ الْمِيَاهِ الَّذِي فِيهِ النَّجَاسَةُ قَدْ يَجُوزُ اسْتِعْمَالُهُ وَبَعْضَهَا لَا يَجُوزُ اسْتِعْمَالُهُ ؛ وَلِذَلِكَ قَالُوا : لَا يَجُوزُ اسْتِعْمَالُ الْمَاءِ الَّذِي فِي النَّاحِيَةِ الَّتِي فِيهَا النَّجَاسَةُ .

وَقَدْ اخْتَلَفَ السَّلَفُ وَفُقَهَاءُ الْأَمْصَارِ فِي الْمَاءِ الَّذِي حَلَّتْهُ نَجَاسَةٌ ، فَرُوِيَ عَنْ حُذَيْفَةَ أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ غَدِيرٍ يُطْرَحُ فِيهِ الْمَيْتَةُ وَالْحَيْضُ فَقَالَ : (تَوَضَّئُوا فَإِنَّ الْمَاءَ لَا يَخْبُثُ) .

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي الْجُنُبِ يَدْخُلُ الْحَمَّامَ : (إنَّ الْمَاءَ لَا يُجْنِبُ) .

وَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ رِوَايَةً فِي الْمَاءِ تَرِدُهُ السِّبَاعُ وَالْكِلَابُ فَقَالَ : (الْمَاءُ لَا يَتَنَجَّسُ) .

وَقَالَ ابْنُ الْمُسَيِّبِ : (أَنْزَلَ اللَّهُ الْمَاءَ طَهُورًا لَا يُنَجِّسُهُ شَيْءٌ) .

(38/561)

وَقَالَ الْحَسَنُ وَالزُّهْرِيُّ فِي الْبَوْلِ فِي الْمَاءِ : (لَا يُنَجِّسُ مَا لَمْ يُغَيِّرْهُ بِرِيحٍ أَوْ لَوْنٍ أَوْ طَعْمٍ) .

وَقَالَ عَطَاءٌ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَابْنُ أَبِي لَيْلَى : (الْمَاءُ لَا يُنَجِّسُهُ شَيْءٌ) ، وَكَذَلِكَ رُوِيَ عَنْ الْقَاسِمِ وَسَالِمٍ وَأَبِي الْعَالِيَةِ ، وَهُوَ قَوْلُ رَبِيعَةَ .

وَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ رِوَايَةً : (لَا يُخْبِثُ أَرْبَعِينَ دَلْوًا شَيْءٌ) ، وَهُوَ قَوْلُ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ فِي رِوَايَةٍ .

وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ : (إذَا كَانَ الْمَاءُ أَرْبَعِينَ قُلَّةً لَمْ يُنَجِّسْهُ شَيْءٌ) .

وَرُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ : (الْحَوْضُ لَا يَغْتَسِلُ فِيهِ جُنُبٌ إلَّا أَنْ يَكُونَ فِيهِ أَرْبَعُونَ غَرْبًا) ، وَهُوَ قَوْلُ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ الْقُرَظِيِّ .

وَقَالَ مَسْرُوقٌ وَالنَّخَعِيُّ وَابْنُ سِيرِينَ : (إذَا كَانَ الْمَاءُ كُرًّا لَمْ يُنَجِّسْهُ شَيْءٌ) .

وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ : (الْمَاءُ الرَّاكِدُ لَا يُنَجِّسُهُ شَيْءٌ إذَا كَانَ قَدْرَ ثَلَاثِ قِلَالٍ) .

وَقَالَ مُجَاهِدٌ : (إذَا كَانَ الْمَاءُ قُلَّتَيْنِ لَمْ يُنَجِّسْهُ شَيْءٌ) .

وَقَالَ عُبَيْدُ بْنُ عُمَيْرٍ : (لَوْ أَنَّ قَطْرَةً مِنْ مُسْكِرٍ قُطِرَتْ فِي قِرْبَةٍ مِنْ الْمَاءِ لَحُرِّمَ ذَلِكَ الْمَاءُ عَلَى أَهْلِهِ) .

وَقَالَ مَالِكٌ وَالْأَوْزَاعِيِّ : (لَا يَفْسُدُ الْمَاءُ بِالنَّجَاسَةِ إلَّا أَنْ يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ أَوْ رِيحُهُ)

وَقَدْ ذُكِرَ عَنْ مَالِكٍ مَسَائِلُ فِي مَوْتِ الدَّجَاجَةِ فِي الْبِئْرِ : (أَنَّهَا تُنْزَفُ إِلَّا أَنْ تَغْلِبَهُمْ ، وَيُعِيدُ الصَّلَاةَ مَنْ تَوَضَّأَ بِهِ مَا دَامَ فِي الْوَقْتِ) وَهَذَا عِنْدَهُ اسْتِحْبَابٌ ، وَكَذَلِكَ يَقُولُ أَصْحَابُهُ : إِنَّ كُلَّ مَوْضِعٍ يَقُولُ فِيهِ مَالِكٌ : إِنَّهُ يُعِيدُ فِي الْوَقْتِ هُوَ اسْتِحْبَابٌ لَيْسَ بِإِيجَابٍ .

وَقَالَ فِي الْحَوْضِ إِذَا اغْتَسَلَ فِيهِ جُنُبٌ : (أَفْسَدَهُ) ، وَهَذَا أَيْضًا عِنْدَهُ اسْتِحْبَابٌ لِتَرْكِ اسْتِعْمَالِهِ ، وَإِنْ تَوَضَّأَ بِهِ أَجْزَأَهُ .

وَكَرِهَ اللَّيْثُ لِلْجُنُبِ أَنْ يَغْتَسِلَ فِي الْبِئْرِ .

وَقَالَ الْحَسَنُ بْنُ صَالِحٍ : (لَا بَأْسَ أَنْ يَغْتَسِلَ الْجُنُبُ فِي الْمَاءِ الرَّاكِدِ الْكَثِيرِ الْقَائِمِ فِي النَّهْرِ وَالسَّبْخَةِ) وَكَرِهَ الْوُضُوءَ بِالْمَاءِ بِالْفَلَاةِ إِذَا كَانَ أَقَلَّ مِنْ قَدْرِ الْكُرِّ ؛ وَرُوِيَ نَحْوُهُ عَنْ عَلْقَمَةَ وَابْنِ سِيرِينَ ؛ وَالْكُرُّ عِنْدَهُمْ ثَلَاثَةُ آلَافِ رِطْلٍ وَمِائَتَا رِطْلٍ .

وَقَالَ الشَّافِعِيُّ : (إِذَا كَانَ الْمَاءُ قُلَّتَيْنِ بِقِلَالِ هَجَرَ لَمْ يُنَجِّسْهُ إِلَّا مَا غَيَّرَ طَعْمَهُ أَوْ لَوْنَهُ ، وَإِنْ كَانَ أَقَلَّ يَتَنَجَّسُ بِوُقُوعِ النَّجَاسَةِ الْيَسِيرَةِ) .

وَالَّذِي يُحْتَجُّ بِهِ لِقَوْلِ أَصْحَابِنَا قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ ﴾ وَالنَّجَاسَاتُ لَا مَحَالَةَ مِنْ الْخَبَائِثِ ، وَقَالَ : ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ ﴾ وَقَالَ فِي الْخَمْرِ ﴿ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ ﴾ .

﴿ وَمَرَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِقَبْرَيْنِ فَقَالَ : إنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ ، أَمَّا أَحَدُهُمَا كَانَ لَا يَسْتَبْرِئُ مِنْ الْبَوْلِ وَالْآخَرُ كَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ ﴾ ، فَحَرَّمَ اللَّهُ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ تَحْرِيمًا مُبْهَمًا وَلَمْ يُفَرِّقْ بَيْنَ حَالِ انْفِرَادِهَا وَاخْتِلَاطِهَا بِالْمَاءِ ، فَوَجَبَ تَحْرِيمُ اسْتِعْمَالِ كُلِّ مَا تَيَقَّنَّا فِيهِ جُزْءًا مِنْ النَّجَاسَةِ ، وَيَكُونُ جِهَةُ الْحَظْرِ مِنْ طَرِيقِ النَّجَاسَةِ أَوْلَى مِنْ جِهَةِ الْإِبَاحَةِ مِنْ طَرِيقِ الْمَاءِ الْمُبَاحِ فِي الْأَصْلِ ؛ لِأَنَّهُ مَتَى اجْتَمَعَ فِي شَيْءٍ جِهَةُ الْحَظْرِ وَجِهَةُ الْإِبَاحَةِ فَجِهَةُ الْحَظْرِ أَوْلَى ، أَلَا تَرَى أَنَّ الْجَارِيَةَ بَيْنَ رَجُلَيْنِ لَوْ كَانَ لِأَحَدِهِمَا فِيهَا مِائَةُ جُزْءٍ وَلِلْآخَرِ جُزْءٌ وَاحِدٌ أَنَّ جِهَةَ الْحَظْرِ فِيهَا أَوْلَى مِنْ جِهَةِ الْإِبَاحَةِ وَأَنَّهُ غَيْرُ جَائِزٍ لِوَاحِدٍ مِنْهُمَا وَطْؤُهَا ؟ فَإِنْ قِيلَ : لِمَ غُلِّبَتْ جِهَةُ الْحَظْرِ فِي النَّجَاسَةِ عَلَى جِهَةِ الْإِيجَابِ فِي اسْتِعْمَالِ الْمَاءِ الَّذِي قَدْ حَلَّتْهُ نَجَاسَةٌ إذَا لَمْ تَجِدْ مَاءً غَيْرَهُ ؟ وَمَعْلُومٌ أَنَّ اسْتِعْمَالَهُ فِي هَذِهِ الْحَالِ وَاجِبٌ إذَا لَزِمَهُ فَرْضُ أَدَاءِ الصَّلَاةِ ، وَإِنَّمَا اجْتَمَعَ هَهُنَا جِهَةُ الْحَظْرِ وَجِهَةُ الْإِيجَابِ .

قِيلَ لَهُ : قَوْلُك : إنَّهُ قَدْ اجْتَمَعَ فِيهِ جِهَةُ الْحَظْرِ وَجِهَةُ الْإِيجَابِ خَطَأٌ ؛ لِأَنَّهُ إنَّمَا يَجِبُ اسْتِعْمَالُ الْمَاءِ الَّذِي لَا نَجَاسَةَ فِيهِ ، فَأَمَّا مَا فِيهِ نَجَاسَةٌ فَلَمْ يَلْزَمْهُ اسْتِعْمَالُهُ .

فَإِنْ قِيلَ : إنَّمَا يَلْزَمُهُ اجْتِنَابُ النَّجَاسَةِ إذَا كَانَتْ مُتَجَرِّدَةً بِنَفْسِهَا ، فَأَمَّا إذَا كَانَتْ مُخَالِطَةً لِلْمَاءِ فَلَيْسَ عَلَيْهِ اجْتِنَابُهَا .

قِيلَ لَهُ : عُمُومُ مَا ذَكَرْنَا مِنْ الْآيِ وَالسُّنَنِ قَاضٍ بِلُزُومِ اجْتِنَابِهَا فِي حَالَةِ الِانْفِرَادِ وَالِاخْتِلَاطِ ، وَمَنْ ادَّعَى تَخْصِيصَ شَيْءٍ مِنْهُ لَمْ يَجُزْ لَهُ ذَلِكَ إلَّا بِدَلَالَةٍ .

وَأَيْضًا فَإِذَا كَانَ وَاجِدًا لِمَاءٍ غَيْرِهِ لَمْ تُخَالِطْهُ نَجَاسَةٌ فَلَيْسَ بِوَاجِبٍ عَلَيْهِ اسْتِعْمَالُ الْمَاءِ الَّذِي فِيهِ النَّجَاسَةُ ، وَأَكْثَرُ مَا فِيهِ عِنْدَ مُخَالِفِنَا جَوَازُ اسْتِعْمَالِهِ عَلَى وَجْهِ الْإِبَاحَةِ ، وَمَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ لُزُومِ اجْتِنَابِ النَّجَاسَةِ يُوجِبُ الْحَظْرَ ، وَالْإِبَاحَةُ وَالْحَظْرُ مَتَى اجْتَمَعَا فَالْحُكْمُ لِلْحَظْرِ عَلَى مَا بَيَّنَّا ، وَإِذَا صَحَّ ذَلِكَ وَكَانَ وَاجِدًا لِمَاءٍ غَيْرِهِ وَجَبَ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ حُكْمُهُ إذَا لَمْ يَجِدْ غَيْرَهُ لِوَجْهَيْنِ : أَحَدُهُمَا : لُزُومُ اسْتِعْمَالِ الْآيِ الْحَاظِرَةِ لِاسْتِعْمَالِ النَّجَاسَاتِ ، فَثَبَتَ بِذَلِكَ أَنَّ الْحَظْرَ قَدْ تَنَاوَلَهَا فِي حَالِ اخْتِلَاطِهَا بِهِ كَهُوَ فِي حَالِ انْفِرَادِهَا .

وَالثَّانِي : أَنَّ أَحَدًا لَمْ يُفَرِّقْ بَيْنَ حَالِ وُجُودِ مَاءٍ غَيْرِهِ وَبَيْنَهُ إذَا لَمْ يَجِدْ غَيْرَهُ ، فَإِذَا صَحَّ لَهَا ذَلِكَ فِي حَالِ وُجُودِ مَاءٍ غَيْرِهِ كَانَتْ الْحَالُ الْأُخْرَى مِثْلَهُ لِاتِّفَاقِ

الْجَمِيعِ عَلَى امْتِنَاعِ الْفَصْلِ بَيْنَهُمَا وَوَجْهٌ آخَرُ يُوجِبُ أَنْ يَكُونَ لُزُومُ اجْتِنَابِ النَّجَاسَةِ أَوْلَى مِنْ وُجُوبِ اسْتِعْمَالِ الْمَاءِ الَّذِي هِيَ فِيهِ ، لِعُمُومِ قَوْلِهِ : ﴿ فَاغْسِلُوا ﴾ إذَا لَمْ يَجِدْ مَاءً غَيْرَهُ ؛ وَهُوَ أَنَّ تَحْرِيمَ اسْتِعْمَالِ النَّجَاسَةِ مُتَعَلِّقٌ بِعَيْنِهَا ، أَلَا تَرَى أَنَّهُ مَا مِنْ نَجَاسَةٍ إلَّا وَعَلَيْنَا اجْتِنَابُهَا وَتَرْكُ اسْتِعْمَالِهَا إذَا كَانَتْ مُنْفَرِدَةً ، وَالْمَاءُ الَّذِي لَا نَجِدُ غَيْرَهُ لَمْ يَتَعَيَّنْ فِيهِ لُزُومُ الِاسْتِعْمَالِ ؟ أَلَا تَرَى أَنَّهُ لَوْ أَعْطَاهُ إنْسَانٌ مَاءً غَيْرَهُ أَوْ غَصَبَهُ فَتَوَضَّأَ بِهِ كَانَتْ طَهَارَتُهُ صَحِيحَةً ؟ فَلَمَّا لَمْ يَتَعَيَّنْ فَرْضُ طَهَارَتِهِ بِذَلِكَ وَتَعَيَّنَ عَلَيْهِ حَظْرُ اسْتِعْمَالِ النَّجَاسَةِ صَارَ لِلُزُومِ اجْتِنَابِ النَّجَاسَةِ مَزِيَّةٌ عَلَى وُجُوبِ اسْتِعْمَالِ الْمَاءِ الَّذِي لَا يَجِدُ غَيْرَهُ إذَا كَانَتْ فِيهِ نَجَاسَةٌ ، فَوَجَبَ أَنْ يَكُونَ الْعُمُومُ الْمُوجِبُ لِاجْتِنَابِهَا أَوْلَى .

وَأَيْضًا لَا نَعْلَمُ خِلَافًا بَيْنَ الْفُقَهَاءِ فِي سَائِرِ الْمَائِعَاتِ إذَا خَالَطَهُ الْيَسِيرُ مِنْ النَّجَاسَاتِ ، كَاللَّبَنِ وَالْأَدْهَانِ وَالْخَلِّ وَنَحْوِهِ ، وَإِنَّ حُكْمَ الْيَسِيرِ فِي ذَلِكَ كَحُكْمِ الْكَثِيرِ وَأَنَّهُ مَحْظُورٌ عَلَيْهِ أَكْلُ ذَلِكَ وَشُرْبُهُ ، وَالدَّلَالَةُ مِنْ هَذَا الْأَصْلِ عَلَى مَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ وَجْهَيْنِ : أَحَدُهُمَا : لُزُومُ اجْتِنَابِ النَّجَاسَاتِ بِالْعُمُومِ الَّذِي قَدَّمْنَا فِي حَالَيِّ الْمُخَالَطَةِ وَالِانْفِرَادِ .

(43/561)

وَالْآخَرُ : أَنَّ حُكْمَ الْحَظْرِ وَهُوَ النَّجَاسَةُ كَانَ أَغْلَبَ فِي حُكْمِ الْإِبَاحَةِ وَهُوَ الَّذِي خَالَطَهُ مِنْ الْأَشْيَاءِ الطَّاهِرَةِ ، وَلَا فَرْقَ فِي ذَلِكَ بَيْنَ أَنْ يَكُونَ الَّذِي خَالَطَهُ مِنْ ذَلِكَ مَاءٌ أَوْ غَيْرُهُ ، ؛ إذْ كَانَ عُمُومُ الْآيِ وَالسُّنَنِ شَامِلَةً لَهُ ، وَإِذَا كَانَ الْمَعْنَى وُجُودَ النَّجَاسَةِ فِيهِ حُظِرَ اسْتِعْمَالُهُ .

وَيَدُلُّ عَلَى صِحَّةِ قَوْلِنَا مِنْ جِهَةِ السُّنَّةِ قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ لَا يَبُولَنَّ أَحَدُكُمْ فِي الْمَاءِ الدَّائِمِ ثُمَّ يَغْتَسِلُ فِيهِ مِنْ جَنَابَةٍ وَفِي لَفْظٍ آخَرَ : وَلَا يَغْتَسِلُ فِيهِ مِنْ جَنَابَةٍ ﴾ وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْبَوْلَ الْقَلِيلَ فِي الْمَاءِ الْكَثِيرِ لَا يُغَيِّرُ طَعْمَهُ وَلَا لَوْنَهُ وَلَا رَائِحَتَهُ ، وَمَنَعَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْهُ .

فَإِنْ قِيلَ : إنَّمَا مَنَعَ الْبَوْلَ الْقَلِيلَ ؛ لِأَنَّهُ لَوْ أُبِيحَ لِكُلِّ أَحَدٍ لَكَثُرَ حَتَّى يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ أَوْ لَوْنُهُ أَوْ رَائِحَتُهُ فَيَفْسُدُ .

قِيلَ لَهُ : ظَاهِرُ نَهْيِهِ يَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ الْقَلِيلُ مَنْهِيًّا عَنْهُ لِنَفْسِهِ لَا لِغَيْرِهِ ، وَفِي حَمْلِهِ عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ بِمَنْهِيٍّ عَنْهُ لِنَفْسِهِ وَأَنَّهُ إنَّمَا مُنِعَ لِئَلَّا يُفْسِدَ لِغَيْرِهِ إثْبَاتُ مَعْنًى غَيْرِ مَذْكُورٍ فِي اللَّفْظِ وَلَا دَلَالَةَ عَلَيْهِ وَإِسْقَاطُ حُكْمِ الْمَذْكُورِ فِي نَفْسِهِ .

(44/561)

وَعَلَى أَنَّهُ مَتَى حُمِلَ عَلَى ذَلِكَ زَالَتْ فَائِدَتُهُ وَسَقَطَ حُكْمُهُ لَعَلِمْنَا بِأَنَّ مَا غَيَّرَ مِنْ النَّجَاسَاتِ طَعْمَ الْمَاءِ أَوْ لَوْنَهُ أَوْ رَائِحَتَهُ مَحْظُورٌ اسْتِعْمَالُهُ بِغَيْرِ هَذَا الْخَبَرِ مِنْ النُّصُوصِ وَالْإِجْمَاعِ ، فَيُؤَدِّي ذَلِكَ إلَى إسْقَاطِ حُكْمِهِ رَأْسًا ؛ وَقَدْ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ لَا يَبُولَنَّ أَحَدُكُمْ فِي الْمَاءِ الدَّائِمِ ثُمَّ يَغْتَسِلُ فِيهِ مِنْ جَنَابَةٍ ﴾ فَمَنَعَ الْبَائِلَ الِاغْتِسَالَ فِيهِ بَعْدَ الْبَوْلِ قَبْلَ أَنْ يَصِيرَ إلَى حَالِ التَّغَيُّرِ .

وَيَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ إذَا اسْتَيْقَظَ أَحَدُكُمْ مِنْ مَنَامِهِ فَلْيَغْسِلْ يَدَيْهِ ثَلَاثًا قَبْلَ أَنْ يُدْخِلَهَا الْإِنَاءَ فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي أَيْنَ بَاتَتْ يَدُهُ ﴾ فَأَمَرَ بِغَسْلِ الْيَدِ احْتِيَاطًا مِنْ نَجَاسَةٍ أَصَابَتْهُ مِنْ مَوْضِعِ الِاسْتِنْجَاءِ ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ مِثْلَهَا إذَا حَلَّتْ الْمَاءَ لَمْ يُغَيِّرْهُ ، وَلَوْلَا أَنَّهَا تُفْسِدُهُ لَمَا كَانَ لِلْأَمْرِ بِالِاحْتِيَاطِ مِنْهَا مَعْنًى ، وَحَكَمَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِنَجَاسَةِ وُلُوغِ الْكَلْبِ بِقَوْلِهِ ﴿ طَهُورُ إنَاءِ أَحَدِكُمْ إذَا وَلَغَ فِيهِ الْكَلْبُ أَنْ يَغْسِلَ سَبْعًا ﴾ وَهُوَ لَا يُغَيِّرُهُ .

(45/561)

فَإِنْ قِيلَ : قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ ﴾ إلَى قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً ﴾ وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا جُنُبًا إلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا ﴾ يَدُلُّ مِنْ وَجْهَيْنِ عَلَى جَوَازِ اسْتِعْمَالِهِ وَإِنْ كَانَتْ فِيهِ نَجَاسَةٌ : أَحَدُهُمَا : عُمُومُ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ حَتَّى تَغْتَسِلُوا ﴾ أَنَّ

ذَلِكَ يَقْتَضِي جَوَازَهُ بِمَاءٍ حَلَّتْهُ النَّجَاسَةُ وَبِمَا لَمْ تَحِلَّهُ وَالْوَجْهُ الْآخَرُ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً ﴾ وَلَا يَمْتَنِعُ أَحَدٌ مِنْ إطْلَاقِ الْقَوْلِ بِأَنَّ هَذَا مَاءٌ إذَا كَانَتْ فِيهِ نَجَاسَةٌ يَسِيرَةٌ لَمْ تُغَيِّرْهُ ؛ وَهَذَا يُعَارِضُ مَا اسْتَدْلَلْتُمْ بِهِ مِنْ عُمُومِ الْآيِ وَالْأَخْبَارِ فِي حَظْرِ اسْتِعْمَالِهِ مَاءً خَالَطَتْهُ نَجَاسَةٌ قِيلَ لَهُ : لَوْ تَعَارَضَ العمومان لَكَانَ مَا ذَكَرْنَا أَوْلَى مِنْ تَضَمُّنِهِ مِنْ الْحَظْرِ ، وَالْإِبَاحَةُ وَالْحَظْرُ مَتَى اجْتَمَعَا كَانَ الْحُكْمُ لِلْحَظْرِ .

وَعَلَى أَنَّ مَا ذَكَرْنَا مِنْ حَظْرِ اسْتِعْمَالِ النَّجَاسَةِ قَاضٍ عَلَى مَا ذَكَرْت مِنْ الْعُمُومِ ، فَوَجَبَ أَنْ يَكُونَ الْغُسْلُ مَأْمُورًا بِمَاءٍ لَا نَجَاسَةَ فِيهِ .

أَلَا تَرَى أَنَّهُ إذَا غَيَّرَتْهُ كَانَ مَحْظُورًا وَعُمُومُ إيجَابِ الْحَظْرِ مُسْتَعْمَلٌ فِيهِ دُونَ عُمُومِ الْأَمْرِ بِالْغُسْلِ ؟ وَكَمَا قَضَى حَظْرَهُ لِاسْتِعْمَالِ النَّجَاسَاتِ عَلَى قَوْلِهِ : ﴿ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ ﴾ فَإِنْ كَانَ مَا حَلَّهُ مِنْهَا يَسِيرًا كَذَلِكَ وَاجِبٌ أَنْ يُقْضَى عَلَى قَوْله تَعَالَى : ﴿ فَاغْسِلُوا ﴾ وَقَوْلِهِ : ﴿ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً ﴾ .

(46/561)

وَاحْتَجَّ مَنْ أَبَاحَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنْ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴾ وَقَوْلِهِ : ﴿ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ ﴾ وَقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ هُوَ الطَّهُورُ مَاؤُهُ

وَالْحِلُّ مَيْتَتُهُ ﴾ وَصْفُهُ إيَّاهُ بِالتَّطْهِيرِ يَقْتَضِي تَطْهِيرَ مَا لَاقَاهُ .

فَيُقَالُ لَهُ : مَعْنَى قَوْلِهِ : " طَهُورًا " يَعْتَوِرُهُ مَعْنَيَانِ : أَحَدُهُمَا

: رَفْعُ الْحَدَثِ وَإِبَاحَةُ الصَّلَاةِ بِهِ .

وَالْآخَرُ إزَالَةُ الْإِنْجَاسِ .

فَأَمَّا نَجَاسَةٌ مَوْجُودَةٌ فِيهِ لَمْ تُزِلْهَا عَنْ نَفْسِهِ فَكَيْفَ يَكُونُ مُطَهِّرًا لَهَا وَعَلَى هَذَا الْقَوْلِ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ مَعْنَى قَوْلِهِ : (طَهُورًا) أَنَّهُ يَجْعَلُ النَّجَاسَةَ غَيْرَ نَجَاسَةٍ ، وَهَذَا مُحَالٌ ؛ لِأَنَّ مَا حَلَّهُ مِنْ أَجْزَاءِ الدَّمِ وَالْخَمْرِ وَسَائِرِ الْخَبَائِثِ لَا يَخْرُجُ مِنْ أَنْ يَكُونَ إنْجَاسًا ، كَمَا أَنَّهَا إذَا ظَهَرَتْ فِيهِ لَمْ يَخْرُجْ مِنْ أَنْ يَكُونَ أَعْيَانُهَا نَجِسَةً وَلَمْ يَكُنْ لِمُجَاوَرَةِ الْمَاءِ إيَّاهَا حُكْمٌ فِي تَطْهِيرِهَا .

فَإِنْ قِيلَ : إذَا كَانَ الْمَاءُ غَالِبًا فَلَمْ يَظْهَرْ فِيهِ فَالْحُكْمُ لِلْمَاءِ ، كَمَا لَوْ وَقَعَتْ فِيهِ قَطْرَةٌ مِنْ لَبَنٍ أَوْ غَيْرِهِ مِنْ الْمَائِعَاتِ لَمْ يَزُلْ عَنْهُ حُكْمُ الْمَاءِ لِوُجُودِ الْغَلَبَةِ ، وَلِأَنَّ تِلْكَ الْأَجْزَاءَ مَغْمُورَةٌ مُسْتَهْلَكَةٌ ، فَحُكْمُ النَّجَاسَةِ إذَا حَلَّتْ الْمَاءَ حُكْمُ سَائِرِ الْمَائِعَاتِ إذَا خَالَطَتْهُ .

(47/561)

قِيلَ لَهُ : هَذَا خَطَأٌ ؛ لِأَنَّ الْمَائِعَاتِ كُلَّهَا لَا يَخْتَلِفُ حُكْمُهَا فِيمَا تُخَالِطُهَا مِنْ الْأَشْيَاءِ الطَّاهِرَةِ وَأَنَّ الْحُكْمَ لِلْغَالِبِ مِنْهَا دُونَ الْمُسْتَهْلَكَاتِ الْمَغْمُورَةِ مِمَّا خَالَطَهَا ، وَقَدْ اتَّفَقْنَا

عَلَى أَنَّ مُخَالَطَةَ النَّجَاسَةِ الْيَسِيرَةِ لِسَائِرِ الْمَائِعَاتِ غَيْرِ الْمَاءِ تُفْسِدُهَا وَلَمْ يَكُنْ لِلْغَلَبَةِ مَعَهَا حُكْمٌ بَلْ كَانَ الْحُكْمُ لَهَا دُونَ الْغَالِبِ عَلَيْهَا مِنْ غَيْرِهَا ، فَكَذَلِكَ الْمَاءُ ، فَإِنْ كَانَ الْمَاءُ إنَّمَا يَكُونُ مُطَهِّرًا لِلنَّجَاسَةِ لِمُجَاوَرَتِهِ لَهَا فَوَاجِبٌ أَنْ يُطَهِّرَهَا بِالْمُجَاوَرَةِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ غَامِرًا لَهَا ، وَإِنْ كَانَ إنَّمَا يَصِيرُ مُطَهِّرًا لَهَا مِنْ أَجْلِ غُمُورِهِ لَهَا وَغَلَبَتِهِ عَلَيْهَا فَقَدْ يَكُونُ سَائِرُ الْمَائِعَاتِ إذَا خَالَطَتْهَا نَجَاسَةٌ غَامِرَةٌ لَهَا وَغَالِبَةٌ عَلَيْهَا وَكَانَ الْحُكْمُ مَعَ ذَلِكَ لِلنَّجَاسَةِ دُونَ مَا غَمَرَهَا .

وَيَدُلُّ عَلَى صِحَّةِ قَوْلِنَا مَا اتَّفَقُوا عَلَيْهِ مِنْ تَحْرِيمِ

اسْتِعْمَالِهِ عِنْدَ ظُهُورِ النَّجَاسَةِ فِيهِ ، فَالْمَعْنَى أَنَّهُ لَا نَصِلُ إلَى اسْتِعْمَالِهِ إلَّا بِاسْتِعْمَالِ جُزْءٍ مِنْ النَّجَاسَةِ وَأَيْضًا الْعِلْمُ بِوُجُودِ النَّجَاسَةِ فِيهِ كَمُشَاهَدَتِنَا لَهَا ، كَمَا أَنَّ عِلْمَنَا بِوُجُودِهَا فِي سَائِرِ الْمَائِعَاتِ كَمُشَاهَدَتِنَا لَهَا بِظُهُورِهَا وَكَالنَّجَاسَةِ فِي الثَّوْبِ وَالْبَدَنِ الْعِلْمُ بِوُجُودِهَا كَمُشَاهَدَتِهَا .

(48/561)

وَاحْتَجَّ مَنْ خَالَفَ فِي ذَلِكَ بِحَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ سُئِلَ عَنْ بِئْرِ بُضَاعَةَ وَهِيَ بِئْرٌ تُطْرَحُ فِيهِ عُذْرَةُ النَّاسِ وَمَحَائِضُ النِّسَاءِ وَلُحُومُ الْكِلَابِ ، فَقَالَ : إنَّ الْمَاءَ طَهُورٌ لَا يُنَجِّسُهُ شَيْءٌ ﴾ ، وَبِحَدِيثِ أَبِي بُصْرَةَ عَنْ جَابِرٍ وَأَبِي سَعِيدٍ

الْخُدْرِيّ قَالَا : كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي سَفَرٍ ، فَانْتَهَيْنَا إلَى غَدِيرٍ فِيهِ جِيفَةٌ ، فَكَفَفْنَا وَكَفَّ النَّاسُ حَتَّى أَتَى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَخْبَرْنَاهُ فَقَالَ : ﴿ اسْتَقُوا فَإِنَّ الْمَاءَ لَا يُنَجِّسُهُ شَيْءٌ ﴾ فَاسْتَقَيْنَا وَارْتَوَيْنَا ؛ وَبِمَا رُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ الْمَاءُ طَهُورٌ لَا يُنَجِّسُهُ شَيْءٌ ﴾ .

وَالْجَوَابُ عَنْ ذَلِكَ أَنَّهُ قَدْ حُكِيَ عَنْ الْوَاقِدِيِّ أَنَّ بِئْرَ بُضَاعَةَ كَانَتْ طَرِيقًا لِلْمَاءِ إلَى الْبَسَاتِينِ ؛ فَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ كَانَ جَارِيًا حَامِلًا لِمَا يَقَعُ فِيهِ مِنْ الْأَنْجَاسِ وَيَنْقُلُهُ ؛ وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ سُئِلَ عَنْهَا بَعْدَمَا نُظِّفَتْ مِنْ الْأَخْبَاثِ ، فَأَخْبَرَ بِطَهَارَتِهَا بَعْدَ النَّزْحِ .

وَأَمَّا قِصَّةُ الْغَدِيرِ فَجَائِزٌ أَنْ تَكُونَ الْجِيفَةُ كَانَتْ فِي جَانِبٍ مِنْهُ ، فَأَبَاحَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْوُضُوءَ مِنْ الْجَانِبِ الْآخَرِ ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى صِحَّةِ قَوْلِ أَصْحَابِنَا فِي اعْتِبَارِ الْغَدِيرِ وَأَمَّا حَدِيثُ ابْنِ عَبَّاسٍ فَإِنَّ أَصْلَهُ مَا رَوَاهُ سِمَاكٌ عَنْ عِكْرِمَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : ﴿ اغْتَسَلَ بَعْضُ أَزْوَاجِ

(49/561)

النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي جَفْنَةٍ ، فَجَاءَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِيَتَوَضَّأَ مِنْهَا أَوْ يَغْتَسِلَ ، فَقَالَتْ لَهُ : إنِّي كُنْت جُنُبًا ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إنَّ الْمَاءَ لَا

يُجْنِبُ ﴾ وَالْمُرَادُ أَنَّ إدْخَالَ الْجُنُبِ يَدَهُ فِيهِ لَا يُنَجِّسُهُ ، فَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ الرَّاوِي سَمِعَ ذَلِكَ فَنَقَلَ الْمَعْنَى عِنْدَهُ دُونَ اللَّفْظِ .

وَيَدُلُّ عَلَى أَنَّ مَعْنَاهُ مَا وَصَفْنَا أَنَّ مِنْ مَذْهَبِ ابْنِ عَبَّاسٍ الْحُكْمَ بِتَنْجِيسِ الْمَاءِ بِوُقُوعِ النَّجَاسَةِ فِيهِ وَإِنْ لَمْ تُغَيِّرْهُ .

وَقَدْ رَوَى عَطَاءٌ وَابْنُ سِيرِينَ أَنَّ زِنْجِيًّا مَاتَ فِي بِئْرِ زَمْزَمَ ، فَأَمَرَ ابْنُ عَبَّاسٍ بِنَزْحِهَا .

وَرَوَى حَمَّادٌ عَنْ إبْرَاهِيمَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : (إنَّمَا يُنَجِّسُ الْحَوْضَ أَنْ تَقَعَ فِيهِ فَتَغْتَسِلُ وَأَنْتَ جُنُبٌ ، فَأَمَّا إذَا أَخَذْت بِيَدِك تَغْتَسِلُ فَلَا بَأْسَ) .

وَلَوْ صَحَّ أَيْضًا هَذَا اللَّفْظُ احْتَمَلَ أَنْ يَكُونَ فِي قِصَّةِ بِئْرِ بُضَاعَةَ ، فَحُذِفَ ذِكْرُ السَّبَبِ وَنُقِلَ لَفْظُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

(50/561)

وَأَيْضًا فَإِنَّ قَوْلَهُ : ﴿ الْمَاءُ طَهُورٌ لَا يُنَجِّسُهُ شَيْءٌ ﴾ لَا دَلَالَةَ فِيهِ عَلَى جَوَازِ اسْتِعْمَالِهِ ، وَإِنَّمَا كَلَامُنَا فِي جَوَازِ اسْتِعْمَالِهِ بَعْدَ حُلُولِ النَّجَاسَةِ فِيهِ ، فَلَيْسَ يَجُوزُ الِاعْتِرَاضُ بِهِ عَلَى مَوْضِعِ الْخِلَافِ ؛ لِأَنَّا نَقُولُ : إنَّ الْمَاءَ طَهُورٌ لَا يُنَجِّسُهُ شَيْءٌ ، وَمَعَ ذَلِكَ لَا يَجُوزُ اسْتِعْمَالُهُ إذَا حَلَّتْهُ نَجَاسَةٌ ، وَلَمْ يَقُلْ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إنَّ الْمَاءَ إذَا وَقَعَتْ فِيهِ نَجَاسَةٌ

فَاسْتَعْمَلُوهُ حَتَّى تَحْتَجَّ بِهِ لِقَوْلِك .

فَإِنْ قِيلَ : هَذَا الَّذِي ذَكَرْت يُؤَدِّي إلَى إبْطَالِ فَائِدَتِهِ .

قِيلَ لَهُ : قَدْ سَقَطَ اسْتِدْلَالُك بِالظَّاهِرِ إذًا وَصِرْت إلَى أَنْ تَسْتَدِلَّ بِغَيْرِهِ ، وَهُوَ أَنَّ حَمْلَهُ عَلَى غَيْرِ مَذْهَبِك تَخْلِيَةٌ مِنْ الْفَائِدَةِ ، وَنَحْنُ نُبَيِّنُ أَنَّ فِيهِ ضُرُوبًا مِنْ الْفَوَائِدِ غَيْرَ مَا

(51/561)

ادَّعَيْت مِنْ جَوَازِ اسْتِعْمَالِهِ بَعْدَ حُلُولِ النَّجَاسَةِ فِيهِ ، فَنَقُولُ : إنَّهُ أَفَادَ أَنَّ الْمَاءَ لَا يُنَجَّسُ بِمُجَاوَرَتِهِ لِلنَّجَاسَةِ وَلَا يَصِيرُ فِي حُكْمِ أَعْيَانِ النَّجَاسَاتِ ، وَاسْتَفَدْنَا بِهِ أَنَّ الثَّوْبَ وَالْبَدَنَ إذَا أَصَابَتْهُمَا نَجَاسَةٌ فَأُزِيلَتْ بِمُوَالَاةِ صَبِّ الْمَاءِ عَلَيْهَا أَنَّ الْبَاقِيَ مِنْ الْمَاءِ الَّذِي فِي الثَّوْبِ لَيْسَ هُوَ فِي حُكْمِ الْمَاءِ الَّذِي جَاوَرَهُ عَيْنُ النَّجَاسَةِ فَيَلْحَقُهُ حُكْمُهَا ؛ لِأَنَّهُ إنَّمَا جَاوَرَ مَا لَيْسَ يُنَجِّسُ فِي نَفْسِهِ ، وَإِنَّمَا يَلْحَقُهُ حُكْمُ النَّجَاسَةِ بِمُجَاوَرَتِهِ لَهَا ؛ وَلَوْلَا قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَكَانَ جَائِزًا أَنْ يَظُنَّ ظَانٌّ أَنَّ الْمَاءَ الْمُجَاوِرَ لِلنَّجَاسَةِ قَدْ صَارَ فِي حُكْمِ عَيْنِ النَّجَاسَةِ فَيُنَجِّسُ مَا جَاوَرَهُ ، فَلَا يَخْتَلِفُ حِينَئِذٍ حُكْمُ الْمَاءِ الثَّانِي وَالثَّالِثِ إلَى الْعَاشِرِ وَأَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ فِي كَوْنِ جَمِيعِهِ نَجِسًا ، فَأَبْطَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَذَا الظَّنَّ وَأَفَادَ أَنَّ الْمَاءَ الَّذِي لَحِقَهُ حُكْمُ النَّجَاسَةِ مِنْ جِهَةِ الْمُجَاوَرَةِ لَا يَكُونُ فِي مَعْنَى أَعْيَانِ النَّجَاسَاتِ

، وَأَفَادَنَا أَيْضًا أَنَّ الْبِئْرَ إذَا مَاتَتْ فِيهِ فَأْرَةٌ فَأُخْرِجَتْ أَنَّ حُكْمَ النَّجَاسَةِ إنَّمَا لَحِقَ مَا جَاوَرَ الْفَأْرَةَ دُونَ مَا جَاوَرَ هَذَا الْمَاءَ وَأَنَّ الْفَأْرَةَ لَمْ تَجْعَلْهُ بِمَنْزِلَةِ أَعْيَانِ النَّجَاسَاتِ ؛ فَلِذَلِكَ حَكَمْنَا بِتَطْهِيرِ بَعْضِ مَا بِهَا .

(52/561)

فَإِنْ قِيلَ : لَوْ كَانَ الْأَمْرُ عَلَى مَا ذَكَرْت لَمْ يَكُنْ لِقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ الْمَاءُ طَهُورٌ لَا يُنَجِّسُهُ شَيْءٌ إلَّا مَا غَيَّرَ طَعْمَهُ أَوْ لَوْنَهُ ﴾ مَعْنًى ؛ لِأَنَّ الْمَاءَ الْمُجَاوِرَ لِلنَّجَاسَةِ لَيْسَ بِنَجِسٍ فِي نَفْسِهِ مَعَ ظُهُورِ النَّجَاسَةِ فِيهِ .

قِيلَ لَهُ : هَذَا أَيْضًا مَعْنًى صَحِيحٌ غَيْرُ مَا ادَّعَيْت وَاسْتَفَدْنَا بِهِ فَائِدَةً أُخْرَى غَيْرَ مَا اسْتَفَدْنَاهُ بِالْخَبَرِ الَّذِي اقْتَصَرَ فِيهِ عَلَى قَوْلِهِ : ﴿ الْمَاءُ طَهُورٌ لَا يُنَجِّسُهُ شَيْءٌ ﴾ عَارِيًّا مِنْ ذِكْرِ الِاسْتِثْنَاءِ وَذَلِكَ لِأَنَّهُ إخْبَارٌ عَنْ حَالِ غَلَبَةِ النَّجَاسَةِ وَسُقُوطِ حُكْمِ الْمَاءِ مَعَهَا فَيَصِيرُ الْجَمِيعُ فِي حُكْمِ أَعْيَانِ النَّجَاسَاتِ ، وَأَفَادَ بِذَلِكَ أَنَّ الْحُكْمَ لِلْغَالِبِ ، كَمَا تَقُولُ فِي الْمَاءِ إذَا مَازَجَهُ اللَّبَنُ أَوْ الْخَلُّ : إنَّ الْحُكْمَ لِلْأَغْلَبِ ؛ وَقَدْ تَكَلَّمْنَا فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ وَفِي مَسْأَلَةِ الْقُلَّتَيْنِ فِي مَوَاضِعَ فَأَغْنَى عَنْ إعَادَتِهِ هَهُنَا .

فَصْلٌ وَأَمَّا الْمَاءُ الْمُسْتَعْمَلُ فَإِنَّ أَصْحَابَنَا وَالشَّافِعِيَّ لَا يُجِيزُونَ الْوُضُوءَ بِهِ عَلَى اخْتِلَافٍ

مِنْهُمْ فِي الْمَاءِ الْمُسْتَعْمَلِ مَا هُوَ .

وَقَالَ مَالِكٌ وَالثَّوْرِيُّ : (يَجُوزُ الْوُضُوءُ بِهِ) عَلَى كَرَاهَةٍ مِنْ مَالِكٍ لَهُ .

(53/561)

وَالدَّلِيلُ عَلَى صِحَّةِ الْقَوْلِ الْأَوَّلِ مَا رَوَى أَبُو عَوَانَةَ عَنْ دَاوُد بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْأَوْدِيِّ عَنْ حُمَيْدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنْ رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ نَهَانَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَغْتَسِلَ الرَّجُلُ بِفَضْلِ وَضُوءِ الْمَرْأَةِ وَتَغْتَسِلَ الْمَرْأَةُ بِفَضْلِ وَضُوءِ الرَّجُلِ وَلْيَفْتَرِقَا ﴾ .

وَفَضْلُ الطَّهُورِ يَتَنَاوَلُ شَيْئَيْنِ : مَا يَسِيلُ مِنْ أَعْضَاءِ الْمُغْتَسِلِ ، وَالْآخَرُ مَا يَبْقَى فِي الْإِنَاءِ بَعْدَ الْغُسْلِ ؛ وَعُمُومُهُ يَنْتَظِمُهَا فَاقْتَضَى ذَلِكَ النَّهْيَ عَنْ الْوُضُوءِ بِالْمَاءِ الْمُسْتَعْمَلِ ؛ لِأَنَّهُ فَضْلُ طَهُورٍ ؛ وَأَيْضًا قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ لَا يَبُولَنَّ أَحَدُكُمْ فِي الْمَاءِ الدَّائِمِ وَلَا يَغْتَسِلْ فِيهِ مِنْ جَنَابَةٍ ﴾ .

وَرَوَى بُكَيْرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْأَشَجِّ عَنْ أَبِي السَّائِبِ مَوْلَى هِشَامِ بْنِ زَهْرَةَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ لَا يَغْتَسِلْ أَحَدُكُمْ فِي الْمَاءِ الدَّائِمِ وَهُوَ جُنُبٌ ﴾ .

وَيَدُلُّ عَلَيْهِ مَا رُوِيَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ إنَّ اللَّهَ

كَرِهَ لَكُمْ غُسَالَةَ أَيْدِي النَّاسِ ﴾ .

وَعَنْ عُمَرَ أَنَّهُ قَالَ لِأَسْلَمَ حِينَ أَكَلَ مِنْ تَمْرِ الصَّدَقَةِ (أَرَأَيْت لَوْ تَوَضَّأَ إنْسَانٌ بِمَاءٍ أَكُنْت شَارِبَهُ ؟) فَدَلَّ تَشْبِيهُ الصَّدَقَةِ حِينَ حَرَّمَهَا عَلَيْهِمْ بِغُسَالَةِ أَيْدِي النَّاسِ أَنَّ غُسَالَةَ أَيْدِي النَّاسِ لَا يَجُوزُ اسْتِعْمَالُهَا .

(54/561)

وَمِنْ جِهَةِ النَّظَرِ أَنَّ الْمَاءَ إذَا أُزِيلَ بِهِ الْحَدَثُ مُشْبِهٌ لِلْمَاءِ الَّذِي أُزِيلَ بِهِ النَّجَاسَةُ مِنْ حَيْثُ اسْتِبَاحَ

الصَّلَاةِ بِهِمَا فَلَمَّا لَمْ تَجُزْ الطَّهَارَةُ بِالْمَاءِ الَّذِي أُزِيلَ بِهِ النَّجَاسَةُ كَذَلِكَ مَا أُزِيلَ بِهِ الْحَدَثُ .

وَمِنْ جِهَةٍ أُخْرَى وَهِيَ أَنَّ الِاسْتِعْمَالَ قَدْ أَكْسَبَهُ إضَافَةً سَلَبَهُ بِهَا إطْلَاقَ الِاسْمِ ، فَصَارَ بِمَنْزِلَةِ الْمَاءِ الَّذِي امْتَنَعَ فِيهِ إطْلَاقُ اسْمِ الْمَاءِ بِمُخَالَطَةِ غَيْرِهِ لَهُ ، وَالْمُسْتَعْمَلُ أَوْلَى بِذَلِكَ مِنْ جِهَةِ مَا تَعَلَّقَ بِهِ مِنْ الْحُكْمِ فِي زَوَالِ الْحَدَثِ أَوْ حُصُولِ قُرْبَةٍ .

فَإِنْ قِيلَ : فَلَوْ اسْتَعْمَلَهُ لِلتَّبَرُّدِ لَمْ يَمْنَعْ ذَلِكَ جَوَازَ اسْتِعْمَالِهِ لِلطَّهَارَةِ ، كَذَلِكَ إذَا اسْتَعْمَلَهُ لِلطَّهَارَةِ .

قِيلَ لَهُ : اسْتِعْمَالُهُ لِلتَّبَرُّدِ لَمْ يَمْنَعْ إطْلَاقَ الِاسْمِ فِيهِ ؛ إذْ لَمْ يَتَعَلَّقْ بِهِ حُكْمٌ ، فَهُوَ كَاسْتِعْمَالِهِ فِي

غَسْلِ ثَوْبٍ طَاهِرٍ .

وَاحْتَجَّ مَنْ أَجَازَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنْ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴾ وَقَوْلِهِ ﴿ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ ﴾ قَالَ : فَذَلِكَ يَقْتَضِي جَوَازَ الْوُضُوءِ بِهِ مِنْ وَجْهَيْنِ :

أَحَدُهُمَا : أَنَّهُ لَمَّا لَمْ يَكُنْ نَجِسًا وَلَمْ تُجَاوِرْهُ نَجَاسَةٌ وَجَبَ بَقَاؤُهُ عَلَى الْحَالِ الْأُولَى .

وَالثَّانِي : أَنَّ قَوْلَهُ : ﴿ طَهُورًا ﴾ يَقْتَضِي جَوَازَ التَّطْهِيرِ بِهِ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى .

(55/561)

فَيُقَالُ لَهُ : إنَّ بَقَاءَهُ عَلَى الْحَالَةِ الْأُولَى بَعْدَ الطَّهَارَةِ هُوَ مَوْضِعُ الْخِلَافِ ، وَمَا ذَكَرْت مِنْ الْعُمُومِ فَإِنَّمَا هُوَ فِيمَا لَمْ يُسْتَعْمَلْ فَيَبْقَى عَلَى إطْلَاقِهِ ، فَأَمَّا مَا يَتَنَاوَلُهُ الِاسْمُ مُقَيَّدًا فَلَمْ يَتَنَاوَلْهُ الْعُمُومُ .

وَأَمَّا قَوْلُك : (إنَّ كَوْنَهُ طَهُورًا يَقْتَضِي جَوَازَ الطَّهَارَةِ بِهِ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى) فَلَيْسَ كَذَلِكَ ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ إنَّمَا يُذْكَرُ عَلَى جِهَةِ الْمُبَالَغَةِ فِي الْوَصْفِ لَهُ بِالطَّهَارَةِ أَوْ التَّطْهِيرِ وَلَا دَلَالَةَ فِيهِ عَلَى التَّكْرَارِ ، كَمَا يُقَالُ : " رَجُلٌ ضَرُوبٌ بِالسَّيْفِ " وَيُرَادُ الْمُبَالَغَةُ فِي الْوَصْفِ بِالضَّرْبِ وَلَيْسَ الْمُقْتَضَى فِيهِ تَكْرَارَ الْفِعْلِ ،

وَيُقَالُ : " رَجُلٌ أَكُولٌ " إذَا كَانَ يَأْكُلُ كَثِيرًا وَإِنْ كَانَ كُلُّهُ فِي مَجْلِسٍ وَاحِدٍ وَلَا يُرَادُ بِهِ تَكْرَارُ

الْأَكْلِ ؛ وَقَدْ بَيَّنَّا ذَلِكَ فِي مَوَاضِعَ أَيْضًا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(56/561)

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ﴾ .

يَعْنِي سَتْرًا لِلْخَلْقِ ، يَقُومُ مَقَامَ اللِّبَاسِ فِي سَتْرِ الْبَدَنِ ، وَيُرْبِي عَلَيْهِ بِعُمُومِهِ وَسَعَتِهِ .

وَقَدْ ظَنَّ بَعْضُ الْغَفَلَةِ أَنَّ مَنْ صَلَّى عُرْيَانًا فِي الظَّلَامِ أَنَّهُ يُجْزِئُهُ ؛ لِأَنَّ اللَّيْلَ لِبَاسٌ ، وَهَذَا يُوجِبُ أَنْ يُصَلِّيَ عُرْيَانًا فِي بَيْتِهِ إذَا أَغْلَقَ عَلَيْهِ بَابَهُ .

وَالسِّتْرُ فِي الصَّلَاةِ عِبَادَةٌ تَخْتَصُّ بِهَا ، لَيْسَتْ لِأَجْلِ نَظَرِ النَّاسِ ، وَلَا حَاجَةَ إلَى الْإِطْنَابِ فِي هَذَا .

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنْ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴾ .

فِيهَا اثْنَتَا عَشْرَةَ مَسْأَلَةً :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : قَدْ بَيَّنَّا قَوْلَهُ : ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنْ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ فِي سُورَةِ الْمُؤْمِنِينَ ، فَلَا وَجْهَ

لِإعَادَتِهِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : قَوْلُهُ ﴿ مَاءً طَهُورًا ﴾ فَوَصَفَ الْمَاءَ بِأَنَّهُ طَهُورٌ .

وَاخْتَلَفَ النَّاسُ فِي مَعْنَى وَصْفِهِ بِأَنَّهُ طَهُورٌ عَلَى قَوْلَيْنِ : أَحَدُهُمَا : أَنَّهُ بِمَعْنَى مُطَهِّرٌ لِغَيْرِهِ ؟ وَبِهِ قَالَ مَالِكٌ وَالشَّافِعِيُّ ، وَخَلْقٌ كَثِيرٌ سِوَاهُمَا .

وَالثَّانِي : أَنَّهُ بِمَعْنَى طَاهِرٍ ، وَبِهِ قَالَ أَبُو حَنِيفَةَ ، وَتَعَلَّقَ فِي ذَلِكَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴾ يَعْنِي طَاهِرًا ، إذَا لَا تَكْلِيفَ فِي الْجَنَّةِ .

(57/561)

وَقَالَ الشَّاعِرُ : خَلِيلَيَّ هَلْ فِي نَظْرَةٍ بَعْدَ تَوْبَةٍ أُدَاوِي بِهَا قَلْبِي عَلَيَّ فُجُورُ إلَى رَجَحِ الْأَكْفَالِ هِيفٍ خُصُورُهَا عِذَابِ الثَّنَايَا رِيقُهُنَّ طَهُورُ فَوَصَفَ الرِّيقَ بِأَنَّهُ طَاهِرٌ ، وَلَيْسَ بِمَعْنَى أَنَّهُ يُطَهِّرُ .

وَتَقُولُ الْعَرَبُ : رَجُلٌ نَئُومٌ ، وَلَيْسَ ذَلِكَ بِمَعْنَى أَنَّهُ مُنِيمٌ لِغَيْرِهِ ، وَإِنَّمَا يَرْجِعُ ذَلِكَ إلَى فِعْلِ نَفْسِهِ ، وَدَلِيلُنَا قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنْ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴾ .

وَقَالَ : ﴿ لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ ﴾ ، فَبَيَّنَ أَنَّ وَصْفَ ﴿ طَهُورًا ﴾ يُفِيدُ التَّطْهِيرَ .

وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ جُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا ﴾ .

وَأَرَادُوا مُطَهِّرَةً بِالتَّيَمُّمِ ، وَلَمْ يُرِدْ طَاهِرَةً بِهِ ، وَإِنْ كَانَتْ قَبْلَ ذَلِكَ طَاهِرَةً .

وَقَالَ فِي مَاءِ الْبَحْرِ : ﴿ هُوَ الطَّهُورُ مَاؤُهُ ﴾ ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ مَعْنَى الطَّهُورِ الْمُطَهِّرَ لَمَا كَانَ جَوَابًا لِسُؤَالِهِمْ .

وَأَجْمَعَتْ الْأُمَّةُ لُغَةً وَشَرِيعَةً عَلَى أَنَّ وَصْفَ " طَهُورٍ " مُخْتَصٌّ بِالْمَاءِ ، وَلَا يَتَعَدَّى إلَى سَائِرِ الْمَائِعَاتِ ، وَهِيَ

طَاهِرَةٌ ، فَكَانَ اقْتِصَارُهُمْ بِذَلِكَ عَلَى الْمَاءِ أَدَلَّ دَلِيلٍ عَلَى أَنَّ الطَّهُورَ هُوَ الْمُطَهِّرُ .

فَأَمَّا تَعَلُّقُهُمْ بِوَصْفِ اللَّهِ لِشَرَابِ الْجَنَّةِ بِأَنَّهُ طَهُورٌ ، وَالْجَنَّةُ لَا تَكْلِيفَ فِيهَا ، فَلَا حُجَّةَ لَهُمْ فِيهَا ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَرَادَ بِذَلِكَ الْمُبَالَغَةَ فِي الصِّفَةِ ، وَضَرَبَ الْمَثَلَ بِالْمُبَالَغَةِ فِي الدُّنْيَا ، وَهُوَ التَّطْهِيرُ .

(58/561)

وَقَدْ قَالَ عُلَمَاؤُنَا : إنَّ وَصْفَ شَرَابِ الْجَنَّةِ بِأَنَّهُ طَهُورٌ يُفِيدُ التَّطْهِيرَ عَنْ أَوْضَارِ الذُّنُوبِ ، وَعَنْ خَسَائِسِ الصِّفَاتِ ، كَالْغِلِّ وَالْحَسَدِ ، فَإِذَا شَرِبُوا هَذَا الشَّرَابَ طَهَّرَهُمْ اللَّهُ بِهِ مِنْ رَحْضِ الذُّنُوبِ ، وَأَوْضَارِ الِاعْتِقَادَاتِ الذَّمِيمَةِ ، فَجَاءُوا اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ، وَدَخَلُوا الْجَنَّةَ

بِصِفَةِ التَّسْلِيمِ .

وَقِيلَ لَهُمْ حِينَئِذٍ : ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴾ ، كَمَا حَكَمَ فِي الدُّنْيَا بِزَوَالِ حُكْمِ الْحَدَثِ بِجَرَيَانِ الْمَاءِ عَلَى الْأَعْضَاءِ ، وَهَذِهِ حِكْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا ، وَتِلْكَ حِكْمَتُهُ وَرَحْمَتُهُ فِي الْأُخْرَى .

وَأَمَّا قَوْلُ الشَّاعِرِ : رِيقُهُنَّ طَهُورُ فَوَصَفَ الرِّيقَ بِأَنَّهُ طَهُورٌ ، وَهُوَ لَا يُطَهِّرُ ، فَإِنَّمَا قَصَدَ بِذَلِكَ الْمُبَالَغَةَ فِي وَصْفِ الرِّيقِ بِالطَّهُورِيَّةِ ، أَرَادَ أَنَّهُ لِعُذُوبَتِهِ ، وَتَعَلُّقِهِ بِالْقُلُوبِ ، وَطِيبِهِ فِي النُّفُوسِ ، وَسُكُونِ غَلِيلِ الْحُبِّ بِرَشْفِهِ ، كَأَنَّهُ الْمَاءُ الطَّهُورُ .

وَبِالْجُمْلَةِ فَإِنَّ الْأَحْكَامَ الشَّرْعِيَّةَ لَا تَثْبُتُ بِالْمَجَازَاتِ الشِّعْرِيَّةِ ، فَإِنَّ الشُّعَرَاءَ يَتَجَاوَزُونَ فِي الِاسْتِغْرَاقِ حَدَّ الصِّدْقِ إِلَى الْكَذِبِ ، وَيَسْتَرْسِلُونَ فِي الْقَوْلِ حَتَّى يُخْرِجَهُمْ ذَلِكَ إِلَى الْبِدْعَةِ وَالْمَعْصِيَةِ ، وَرُبَّمَا وَقَعُوا فِي الْكُفْرِ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ، أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِ بَعْضِهِمْ : لَوْ لَمْ تُلَامِسْ صَفْحَةُ الْأَرْضِ رِجْلَهَا لَمَا كُنْتُ أَدْرِي عِلَّةً لِلتَّيَمُّمِ وَهَذَا كُفْرٌ صُرَاحٌ نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْهُ .

قَالَ الْفَقِيهُ الْقَاضِي أَبُو بَكْرٍ رَحِمَهُ

(59/561)

اللَّهُ : هَذَا مُنْتَهَى لُبَابِ كَلَامِ الْعُلَمَاءِ ، وَهُوَ بَالِغٌ فِي فَنِّهِ ، إلَّا أَنِّي تَأَمَّلْتُهُ مِنْ طَرِيقِ الْعَرَبِيَّةِ فَوَجَدْتُ فِيهَا مَطْلَعًا شَرِيفًا ، وَهُوَ أَنَّ بِنَاءَ " فَعُولٍ " لِلْمُبَالَغَةِ ، إلَّا أَنَّ الْمُبَالَغَةَ قَدْ تَكُونُ فِي الْفِعْلِ الْمُتَعَدِّي كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ : ضَرُوبٌ بِنَصْلِ السَّيْفِ سُوقَ سِمَانِهَا وَقَدْ تَكُونُ فِي الْفِعْلِ الْقَاصِرِ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ : نَؤُمُ الضُّحَى لَمْ تَنْتَطِقْ عَنْ تَفَضُّلٍ فَوَصَفَهُ الْأَوَّلُ بِالْمُبَالَغَةِ فِي الضَّرْبِ ، وَهُوَ فِعْلٌ يَتَعَدَّى ، وَوَصَفَهَا الثَّانِي بِالْمُبَالَغَةِ فِي النَّوْمِ ، وَهُوَ فِعْلٌ لَا يَتَعَدَّى ، وَإِنَّمَا تُؤْخَذُ طَهُورِيَّةُ الْمَاءِ لِغَيْرِهِ مِنْ الْحُسْنِ نَظَافَةً ، وَمِنْ الشَّرْعِ طَهَارَةً ، كَقَوْلِهِ : ﴿ لَا يَقْبَلُ اللَّهُ صَلَاةً بِغَيْرِ طَهُورٍ ﴾ .

وَقَدْ يَأْتِي بِنَاءُ " فَعُولٍ " لِوَجْهٍ آخَرَ ، لَيْسَ مِنْ هَذَا كُلِّهِ ، وَهُوَ الْعِبَارَةُ بِهِ عَنْ آلَةِ الْفِعْلِ لَا عَنْ الْفِعْلِ ، كَقَوْلِنَا : وَقُودٌ وَسَحُورٌ بِفَتْحِ الْفَاءِ " فَإِنَّهُ عِبَارَةٌ عَنْ الْحَطَبِ وَعَنْ الطَّعَامِ الْمُتَسَحَّرِ بِهِ ، وَكَذَلِكَ وَصْفُ الْمَاءِ بِأَنَّهُ طَهُورٌ يَكُونُ بِفَتْحِ الطَّاءِ أَيْضًا خَبَرًا عَنْ الْآلَةِ الَّتِي يُتَطَهَّرُ بِهَا .

(60/561)

فَإِذْ ضَمَمْتَ الْفَاءَ فِي الْوُقُودِ وَالسُّحُورِ وَالطُّهُورِ عَادَ إلَى الْفِعْلِ ، وَكَانَ خَبَرًا عَنْهُ ، فَثَبَتَ بِهَذَا أَنَّ اسْمَ الْفَعُولِ بِفَتْحِ الْفَاءِ يَكُونُ بِنَاءً لِلْمُبَالَغَةِ ، وَيَكُونُ خَبَرًا عَنْ الْآلَةِ ، وَهَذَا الَّذِي خَطَرَ بِبَالِ الْحَنَفِيَّةِ ، وَلَكِنْ قَصُرَتْ أَشْدَاقُهَا عَنْ لَوْكِهِ ، وَبَعْدَ هَذَا يَقِفُ الْبَيَانُ بِهِ عَنْ

الْمُبَالَغَةِ ، أَوْ عَنْ الْآلَةِ عَلَى الدَّلِيلِ ، مِثَالُهُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنْ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴾ .

وَقَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ جُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا ﴾ .

وَيُحْتَمَلُ الْعِبَارَةُ بِهِ عَنْ الْآلَةِ ، فَلَا حُجَّةَ فِيهِ لِعُلَمَائِنَا .

لَكِنْ يَبْقَى قَوْلُهُ ﴿ لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ ﴾ نَصًّا فِي أَنَّ فِعْلَهُ مُتَعَدٍّ إلَى غَيْرِهِ .

وَهَذِهِ الْمَسْأَلَةُ إنَّمَا أَوْجَبَ الْخِلَافَ فِيهَا مَا صَارَ إلَيْهِ الْحَنَفِيَّةُ وَالشَّافِعِيَّةُ ، وَهِيَ : الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : حِينَ قَالُوا : إنَّ الْمَاءَ الْمُسْتَعْمَلَ فِي رَفْعِ الْحَدَثِ لَا يَجُوزُ الْوُضُوءُ بِهِ مَرَّةً أُخْرَى ؛ لِأَنَّ الْمَنْعَ الَّذِي كَانَ فِي الْأَعْضَاءِ انْتَقَلَ إلَى الْمَاءِ .

وَقَالَ عُلَمَاؤُنَا حِينَئِذٍ : إنَّ وَصْفَ الْمَاءِ بِأَنَّهُ طَهُورٌ يَقْتَضِي التَّكْرَارَ عَلَى رَسْمِ بِنَاءِ الْمُبَالَغَةِ ، وَهَذَا مِمَّا لَا يُحْتَاجُ إلَيْهِ ، حَسْبَمَا بَيَّنَّاهُ فِي مَسَائِلِ الْخِلَافِ .

(61/561)

وَإِنَّمَا تَنْبَنِي مَسْأَلَةُ الْمَاءِ الْمُسْتَعْمَلِ عَلَى أَصْلٍ آخَرَ ، وَهُوَ أَنَّ الْآلَةَ إذَا أُدِّيَ بِهَا فَرْضٌ ، هَلْ يُؤَدَّى بِهَا فَرْضٌ آخَرُ أَمْ لَا ؟ فَمَنَعَ ذَلِكَ الْمُخَالِفُ قِيَاسًا عَلَى الرَّقَبَةِ ، إنَّهُ إذَا أُدِّيَ بِهَا فَرْضُ عِتْقٍ لَمْ يَصْلُحْ أَنْ يَتَكَرَّرَ فِي أَدَاءِ فَرْضٍ آخَرَ ، وَهَذَا بَاطِلٌ مِنْ الْقَوْلِ ، فَإِنَّ الْعِتْقَ إذَا أُتِيَ عَلَى

الرِّقِّ أَتْلَفَهُ ، فَلَا يَبْقَى مَحَلٌّ لِأَدَاءِ الْفَرْضِ بِعِتْقٍ آخَرَ .

وَنَظِيرُهُ مِنْ الْمَاءِ مَا تَلِفَ عَلَى الْأَعْضَاءِ ، فَإِنَّهُ لَا يَصِحُّ أَنْ يُؤَدَّى بِهِ فَرْضٌ آخَرُ لِتَلَفِ عَيْنِهِ حِسًّا ، كَمَا تَلِفَ الرِّقُّ فِي الرَّقَبَةِ بِالْعِتْقِ الْأَوَّلِ حُكْمًا ، وَهَذَا نَفِيسٌ فَتَأَمَّلُوهُ .

وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ جَابِرٍ قَالَ ﴿ : دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَنَا مَرِيضٌ لَا أَعْقِلُ ، فَتَوَضَّأَ فَصَبَّ عَلَيَّ مِنْ وُضُوئِهِ ، فَأَفَقْت ﴾ .

وَذَكَرَ الْحَدِيثَ .

وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمَاءَ الْفَاضِلَ عَنْ الْوُضُوءِ وَالْجَنَابَةِ طَاهِرٌ ، لَا عَلَى طَهَارَةِ الْمَاءِ الْمُسْتَعْمَلِ ، كَمَا تَوَهَّمَهُ عُلَمَاؤُنَا ، وَهَذَا خَطَأٌ فَاحِشٌ فَتَأَمَّلُوهُ .

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ : لَمَّا قَالَ اللَّهُ : ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنْ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴾ وَكَانَ الْمَاءُ مَعْلُومًا بِصِفَةِ طَعْمِهِ وَرِيحِهِ وَلَوْنِهِ .

قَالَ عُلَمَاؤُنَا رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ : إذَا كَانَ بِهَذِهِ الصِّفَةِ فَلَا خِلَافَ فِي طَهُورِيَّتِهِ ، فَإِذَا انْتَقَلَ عَنْ هَذِهِ الصِّفَاتِ إلَى غَيْرِهِ بِتَغَيُّرِ وَصْفٍ مِنْ هَذِهِ الْأَوْصَافِ الثَّلَاثَةِ خَرَجَ عَنْ طَرِيقِ السُّنَّةِ وَصْفُ الطَّهُورِيَّةِ .

(62/561)

وَالْمُخَالِطُ لِلْمَاءِ عَلَى ثَلَاثَةِ أَضْرُبٍ : ضَرْبٌ يُوَافِقُهُ فِي صِفَتَيْهِ جَمِيعًا : وَهِيَ الطَّهَارَةُ وَالتَّطْهِيرُ ، فَإِذَا خَالَطَهُ فَغَيْرُهُ لَمْ يَسْلُبْهُ وَصْفًا مِنْهُمَا ، لِمُوَافَقَتِهِ لَهُ فِيهِمَا ، وَهُوَ التُّرَابُ .

وَالضَّرْبُ الثَّانِي يُوَافِقُ الْمَاءَ فِي إِحْدَى صِفَتَيْهِ ، وَهِيَ الطَّهَارَةُ ، وَلَا يُوَافِقُهُ فِي صِفَتِهِ الْأُخْرَى ، وَهِيَ التَّطْهِيرُ ، فَإِذَا خَالَطَهُ فَغَيْرُهُ سَلَبَهُ مَا خَالَفَهُ فِيهِ ، وَهُوَ التَّطْهِيرُ ، دُونَ مَا وَافَقَهُ ، وَهِيَ الطَّهَارَةُ ، كَمَاءِ الْوَرْدِ وَسَائِرِ الطِّهَارَاتِ .

وَالضَّرْبُ الثَّالِثُ مُخَالَفَتُهُ فِي الصِّفَتَيْنِ جَمِيعًا : وَهِيَ الطَّهَارَةُ وَالتَّطْهِيرُ ، فَإِذَا خَالَطَهُ فَغَيْرُهُ سَلَبَهُ الصِّفَتَيْنِ جَمِيعًا ، لِمُخَالَفَتِهِ لَهُ فِيهِمَا ، وَهُوَ النَّجَسُ .

وَقَدْ مَهَّدْنَا ذَلِكَ فِي مَسَائِلِ الْخِلَافِ وَكُتُبِ الْفُرُوعِ .

وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ : إِذَا وَقَعَتْ نَجَاسَةٌ فِي مَاءٍ أَفْسَدَتْهُ كُلَّهُ ، كَثِيرًا كَانَ أَوْ قَلِيلًا ، إِذَا تَحَقَّقَتْ عُمُومُ النَّجَاسَةِ فِيهِ .

وَوَجْهُ تَحَقُّقِهَا عِنْدَهُ أَنْ تَقَعَ مَثَلًا نُقْطَةُ بَوْلٍ فِي بِرْكَةِ مَاءٍ ، فَإِنْ كَانَتْ الْبِرْكَةُ يَتَحَرَّكُ طَرَفَاهَا بِتَحْرِيكِ أَحَدِهِمَا فَالْكُلُّ نَجِسٌ ، وَإِنْ كَانَتْ حَرَكَةُ أَحَدِ الطَّرَفَيْنِ لَا تُحَرِّكُ الْآخَرَ لَمْ يُنَجَّسْ وَالْمِصْرِيُّونَ ، كَابْنِ الْقَاسِمِ وَغَيْرِهِ ، يَقُولُونَ : إِنَّ قَلِيلَ الْمَاءِ يُنَجِّسُهُ قَلِيلُ النَّجَاسَةِ .

وَفِي الْمَجْمُوعَةِ نَحْوُهُ مِنْ مَذْهَبِ أَبِي حَنِيفَةَ .

وَقَالَ الشَّافِعِيُّ بِحَدِيثِ الْقُلَّتَيْنِ ، وَرَوَاهُ عَنْ الْوَلِيدِ بْنِ كَثِيرٍ ، حُسْنَ ظَنٍّ بِهِ ، وَهُوَ مَطْعُونٌ فِيهِ .

(63/561)

وَالْحَدِيثُ ضَعِيفٌ .

وَقَدْ رَامَ الدَّارَقُطْنِيُّ عَلَى إمَامَتِهِ أَنْ يُصَحِّحَ حَدِيثَ الْقُلَّتَيْنِ فَلَمْ يَسْتَطِعْ ، وَاغْتَصَّ بِجُرَيْعَةِ الذَّقَنِ فِيهَا ، فَلَا تَعْوِيلَ عَلَيْهِ ، حَسْبَمَا مَهَّدْنَاهُ فِي مَسَائِلِ الْخِلَافِ .

كَمَا تَعَلَّقَ عُلَمَاؤُنَا أَيْضًا فِي مَذْهَبِهِمْ بِحَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ فِي بِئْرِ بُضَاعَةَ الَّذِي رَوَاهُ النَّسَائِيّ وَالتِّرْمِذِيُّ وَأَبُو دَاوُد وَغَيْرُهُمْ : ﴿ سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ بِئْرِ بُضَاعَةَ وَمَا يُطْرَحُ فِيهَا مِنْ الْجِيَفِ وَالنَّتِنِ ، وَمَا يُنْجِي النَّاسُ ، فَقَالَ : الْمَاءُ طَهُورٌ لَا يُنَجِّسُهُ شَيْءٌ إلَّا مَا غَيَّرَ لَوْنَهُ أَوْ طَعْمَهُ أَوْ رِيحَهُ ﴾ .

وَهَذَا أَيْضًا حَدِيثٌ ضَعِيفٌ لَا قَدَمَ لَهُ فِي الصِّحَّةِ ، فَلَا تَعْوِيلَ عَلَيْهِ .

(64/561)

وَقَدْ فَاوَضْت الطُّوسِيَّ الْأَكْبَرَ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ مِرَارًا ، فَقَالَ : إنَّ أَخْلَصَ الْمَذَاهِبِ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ مَذْهَبُ مَالِكٍ ، فَإِنَّ الْمَاءَ طَهُورٌ مَا لَمْ يَتَغَيَّرْ أَحَدُ أَوْصَافِهِ ، إذْ لَا حَدِيثَ فِي

الْبَابِ يُعَوَّلُ عَلَيْهِ ، وَإِنَّمَا الْمُعَوَّلُ عَلَى ظَاهِرِ الْقُرْآنِ ، وَهُوَ قَوْلُهُ : ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنْ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴾ ، وَهُوَ مَا دَامَ بِصِفَاتِهِ ، فَإِذَا تَغَيَّرَ عَنْ شَيْءٍ مِنْهَا خَرَجَ عَنْ الِاسْمِ بِخُرُوجِهِ عَنْ الصِّفَةِ " وَلِذَلِكَ لَمَّا لَمْ يَجِدْ الْبُخَارِيُّ إمَامُ الْحَدِيثِ وَالْفِقْهِ فِي الْبَابِ خَبَرًا صَحِيحًا يُعَوَّلُ عَلَيْهِ قَالَ : " بَابُ إذَا تَغَيَّرَ وَصْفُ الْمَاءِ " وَأَدْخَلَ الْحَدِيثَ الصَّحِيحَ : ﴿ مَا مِنْ أَحَدٍ يُكْلَمُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَاَللَّهُ أَعْلَمُ بِمَنْ يُكْلَمُ فِي سَبِيلِهِ ، إلَّا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَجُرْحُهُ يَثْعَبُ دَمًا ، اللَّوْنُ لَوْنُ الدَّمِ ، وَالرِّيحُ رِيحُ الْمِسْكِ ﴾ .

فَأَخْبَرَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ الدَّمَ بِحَالِهِ ، وَعَلَيْهِ رَائِحَةُ الْمِسْكِ ، وَلَمْ تُخْرِجْهُ الرَّائِحَةُ عَنْ صِفَةِ الدَّمَوِيَّةِ .

وَلِذَلِكَ قَالَ عُلَمَاؤُنَا : إذَا

تَغَيَّرَ الْمَاءُ بِرِيحِ جِيفَةٍ عَلَى طَرَفَيْهِ وَسَاحِلِهِ لَمْ يَمْنَعْ ذَلِكَ مِنْ الْوُضُوءِ بِهِ ، وَلَوْ تَغَيَّرَ بِهَا وَقَدْ وَقَعَتْ فِيهِ لَكَانَ ذَلِكَ تَنْجِيسَهُ لَهُ لِلْمُخَالَطَةِ ، وَالْأُولَى مُجَاوَرَةٌ لَا تَعْوِيلَ عَلَيْهَا .

(65/561)

الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ : ثُمَّ تَرَكَّبَ عَلَى هَذَا مَسْأَلَةٌ بَدِيعَةٌ ، وَهِيَ الْمَاءُ إذَا تَغَيَّرَ بِقَرَارِهِ كَزِرْنِيخٍ أَوْ جِيرٍ يَجْرِي عَلَيْهِ ، أَوْ تَغَيَّرَ بِطُحْلُبٍ أَوْ بِوَرَقِ شَجَرٍ يَنْبُتُ عَلَيْهِ لَا يُمْكِنُ الِاحْتِرَازُ مِنْهُ ،

فَاتَّفَقَ الْعُلَمَاءُ عَلَى أَنَّ ذَلِكَ لَا يَمْنَعُ مِنْ الْوُضُوءِ بِهِ ، لِعَدَمِ الِاحْتِرَازِ مِنْهُ .

وَقَدْ رَوَى ابْنُ وَهْبٍ عَنْ مَالِكٍ أَنَّ غَيْرَهُ أَوْلَى مِنْهُ يَعْنِي إذَا وَجَدَهُ ، فَإِذَا لَمْ يَجِدْ سِوَاهُ اسْتَعْمَلَهُ ؛ لِأَنَّ مَا يُغْلَبُ عَلَيْهِ الْمَرْءُ فِي بَابِ التَّكْلِيفِ ، وَلَا يُمْكِنُهُ التَّوَقِّي مِنْهُ ، فَإِنَّهُ سَاقِطُ الِاعْتِبَارِ شَرْعًا .

وَلِذَلِكَ لَمَّا كَانَ الْعَبْدُ لَا يَسْتَطِيعُ النُّزُوعَ عَنْ صَغَائِرِ الذُّنُوبِ ، وَلَا يُمْكِنُ بَشَرًا الِاحْتِرَازُ مِنْهَا لَمْ تُؤَثِّرْ فِي عَدَالَتِهِ ، وَلَمَّا كَانَتْ الْكَبَائِرُ يُمْكِنُ التَّوَقِّي مِنْهَا وَالِاحْتِرَازُ عَنْهَا قَدَحَتْ فِي الْعَدَالَةِ وَالْأَمَانَةِ ، وَكَذَلِكَ الْعَمَلُ الْكَثِيرُ فِي الصَّلَاةِ لَمَّا كَانَ الِاحْتِرَازُ مِنْهُ مُمْكِنًا بَطَلَتْ الصَّلَاةُ بِهِ ، وَلَمَّا كَانَ الْعَمَلُ الْيَسِيرُ لَا يُمْكِنُ الِاحْتِرَازُ مِنْهُ كَالِالْتِفَاتِ بِالرَّأْسِ وَحْدَهُ وَالْمُرَاوَحَةِ بَيْنَ الْأَقْدَامِ ، وَتَحْرِيكِ الْأَجْفَانِ ، وَتَقْلِيبِ الْيَدِ ، لَمْ يُؤَثِّرْ ذَلِكَ فِي الصَّلَاةِ .

وَهَذِهِ قَاعِدَةُ الشَّرِيعَةِ فِي بَابِ التَّكْلِيفِ كُلِّهِ ، فَعَلَيْهِ خَرَجَ تَغَيُّرُ الْمَاءِ بِمَا يَغْلِبُ عَلَيْهِ عَنْ تَغَيُّرِهِ بِمَا لَا يَغْلِبُ عَلَيْهِ .

(66/561)

الْمَسْأَلَةُ السَّادِسَةُ : لَمَّا وَصَفَ اللَّهُ الْمَاءَ بِأَنَّهُ طَهُورٌ ، وَامْتَنَّ بِإِنْزَالِهِ مِنْ السَّمَاءِ لِيُطَهِّرَنَا بِهِ دَلَّ عَلَى اخْتِصَاصِهِ بِذَلِكَ ، وَكَذَلِكَ قَالَ لِأَسْمَاءَ بِنْتِ الصِّدِّيقِ فِي دَمِ الْحَيْضِ يُصِيبُ الثَّوْبَ :

﴿ حُتِّيهِ ثُمَّ اقْرُصِيهِ ، ثُمَّ اغْسِلِيهِ بِالْمَاءِ ﴾ ، فَلِذَلِكَ لَمْ يَلْحَقْ غَيْرُ الْمَاءِ بِالْمَاءِ لِوَجْهَيْنِ :

أَحَدُهُمَا : مَا فِي ذَلِكَ مِنْ إِبْطَالِ فَائِدَةِ الِامْتِنَانِ .

وَالثَّانِي : لِأَنَّ غَيْرَ الْمَاءِ لَيْسَ بِمُطَهِّرٍ ، بِدَلِيلِ أَنَّهُ لَا يَرْفَعُ الْحَدَثَ وَالْجَنَابَةَ ، فَلَا يُزِيلُ النَّجَسَ .

وَقَالَ بَعْضُ عُلَمَائِنَا ، وَأَهْلُ الْعِرَاقِ : إِنَّ كُلَّ مَائِعٍ طَاهِرٍ يُزِيلُ النَّجَاسَةَ ، وَهَذَا غَلَطٌ ؛ لِأَنَّ مَا لَا يَدْفَعُ النَّجَاسَةَ عَنْ نَفْسِهِ فَكَيْفَ يَدْفَعُهَا عَنْ غَيْرِهِ .

وَقَدْ رَوَى ابْنُ نَافِعٍ عَنْ مَالِكٍ أَنَّ النَّجَاسَةَ الْقَلِيلَةَ إِذَا وَقَعَتْ فِي الزَّيْتِ الْكَثِيرِ لَمْ يُنَجَّسْ إِذَا لَمْ يَتَغَيَّرْ .

وَهَذِهِ رِوَايَةٌ ضَعِيفَةٌ لَا يُلْتَفَتُ إِلَيْهَا " لِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الصَّحِيحِ ﴿ سُئِلَ عَنْ فَأْرَةٍ سَقَطَتْ فِي سَمْنٍ ، فَقَالَ : إِنْ كَانَ جَامِدًا فَأَلْقُوهَا وَمَا حَوْلَهَا وَكُلُوهُ ﴾ .

وَفِي رِوَايَةٍ : ﴿ وَإِنْ كَانَ مَائِعًا فَأَرِيقُوهُ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنْ كَانَ جَامِدًا فَأَلْقُوهَا وَمَا حَوْلَهَا ﴾ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهَا تُفْسِدُ الْمَائِعَ ؛ لِأَنَّهُ عُمُومٌ سُئِلَ عَنْهُ ، فَخَصَّ أَحَدَ صِنْفَيْهِ بِالْجَوَازِ ، وَبَقِيَ الْآخَرُ عَلَى الْمَنْعِ .

وَلَيْسَ هَذَا بِدَلِيلِ الْخِطَابِ ، حَسْبَمَا بَيَّنَّاهُ فِي أُصُولِ الْفِقْهِ .

(67/561)

وَهَذِهِ نُكْتَةٌ بَدِيعَةٌ تَفْهَمُونَهَا ، فَهِيَ خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ كِتَابٍ ، وَلَيْسَتْ النَّجَاسَةُ مَعْنًى مَحْسُوسًا ، حَتَّى يُقَالَ : كُلَّمَا أَزَالَهَا فَقَدْ قَامَ بِهِ الْفَرْضُ ، وَإِنَّمَا النَّجَاسَةُ حُكْمٌ شَرْعِيٌّ عَيَّنَ لَهُ صَاحِبُ الشَّرِيعَةِ الْمَاءَ ، فَلَا يَلْحَقُ بِهِ غَيْرُهُ ، إذْ لَيْسَ فِي مَعْنَاهُ ، وَلِأَنَّهُ لَوْ لَحِقَ بِهِ لَأَسْقَطَهُ ، وَالْفَرْعُ إذَا عَادَ إلْحَاقُهُ بِالْأَصْلِ

بِالْإِسْقَاطِ سَقَطَ فِي نَفْسِهِ .

وَقَدْ كَانَ تَاجُ السُّنَّةِ ذُو الْعِزِّ بْنُ الْمُرْتَضَى الدَّبُوسِيُّ يُسَمِّيهِ فَرْخَ زِنَا .

الْمَسْأَلَةُ السَّابِعَةُ : تَوَهَّمَ قَوْمٌ أَنَّ الْمَاءَ إذَا فَضَلَتْ لِلْجُنُبِ مِنْهُ فَضْلَةٌ أَنَّهُ لَا يَتَوَضَّأُ بِهَا ، وَهَذَا مَذْهَبٌ بَاطِلٌ ، فَقَدْ ثَبَتَ عَنْ ﴿ مَيْمُونَةَ أَنَّهَا قَالَتْ : أَجْنَبْت أَنَا وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَاغْتَسَلْت مِنْ جَفْنَةٍ ، وَفَضَلَتْ فَضْلَةٌ ، فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِيَغْتَسِلَ مِنْهَا .

فَقُلْت : إنِّي قَدْ اغْتَسَلْت مِنْهُ .

فَقَالَ : إنَّ الْمَاءَ لَيْسَ عَلَيْهِ نَجَاسَةٌ ﴾ أَوْ : ﴿ إنَّ الْمَاءَ لَا يُجْنِبُ ﴾ .

وَقَدْ رُوِيَ هَذَا الْحَدِيثُ مِنْ طُرُقٍ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّامِنَةُ : إذَا كَانَ الْمَاءُ طَاهِرًا مُطَهِّرًا عَلَى أَصْلِهِ فَوَلَغَ فِيهِ كَلْبٌ فَسَدَ عِنْدَ جُمْهُورِ فُقَهَاءِ الْأَمْصَارِ ، لِقَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ إذَا وَلَغَ الْكَلْبُ فِي إنَاءِ أَحَدِكُمْ

فَاغْسِلُوهُ سَبْعَ مَرَّاتٍ وَعَفِّرُوهُ الثَّامِنَةَ بِالتُّرَابِ ﴾ .

وَقَدْ قَالَ مَالِكٌ : وَقَدْ جَاءَ هَذَا الْحَدِيثُ ، وَلَا أَدْرِي مَا حَقِيقَتُهُ .

(68/561)

وَقَدْ بَيَّنَّا فِي مَسَائِلِ الْخِلَافِ حَقِيقَتَهُ ، وَأَنَّ الْإِنَاءَ يُغْسَلُ عِبَادَةً ، لَا لِنَجَاسَةٍ بِدَلِيلَيْنِ :

أَحَدُهُمَا : أَنَّ الْغَسْلَ مَعْدُودٌ بِسَبْعٍ .

الثَّانِي : أَنَّهُ جَعَلَ لِلتُّرَابِ فِيهَا مَدْخَلًا ، وَلَوْ كَانَ لِنَجَاسَةٍ لَمَا كَانَ لِلتُّرَابِ فِيهَا مَدْخَلٌ ، كَالْبَوْلِ ، عَكْسُهُ الْوُضُوءُ لَمَّا كَانَ عِبَادَةً دَخَلَ التُّرَابُ مَعَ الْمَاءِ .

وَرَأَى مَالِكٌ طَرْحَ الْمَاءِ تَقَذُّرًا لَا تَنَجُّسًا ، أَوْ حَسْمًا لِمَادَّةِ الْخِلَافِ ؛ أَوْ لِأَنَّهُ حَيَوَانٌ يَأْكُلُ الْأَقْذَارَ ، وَلَا يُحْتَاجُ إلَيْهِ ، فَيَكُونُ مِنْ الطَّوَّافِينَ أَوْ الطَّوَّافَاتِ ، وَقَدْ اسْتَوْفَيْنَا الْقَوْلَ عَلَيْهِ فِي الْفِقْهِ .

الْمَسْأَلَةُ التَّاسِعَةُ : إذَا وَلَغَتْ السِّبَاعُ فِي الْمَاءِ : كُلُّ حَيَوَانٍ عِنْدَ مَالِكٍ طَاهِرُ الْعَيْنِ حَتَّى الْخِنْزِيرِ ، كَمَا بَيَّنَّاهُ فِي مَسَائِلِ الْخِلَافِ ، وَلَكِنْ تَحَرَّرَ مِنْ مَذْهَبِ مَالِكٍ أَنَّ أَسْآرَ السِّبَاعِ مَكْرُوهَةٌ ، لِمَا بَيَّنَّاهُ فِي مَسْأَلَةِ الْكَلْبِ ، مِنْ أَنَّهَا تُصِيبُ النَّجَاسَاتِ ، وَلَيْسَتْ مِنْ الطَّوَّافِينَ وَلَا مِنْ الطَّوَّافَاتِ .

وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ : أَسْآرُ السِّبَاعِ نَجِسَةٌ .

وَقَدْ رُوِيَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ حِيَاضٍ تَكُونُ بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ تَرِدُهَا السِّبَاعُ وَفِي رِوَايَةٍ : وَالْكِلَابُ فَقَالَ : لَهَا مَا حَمَلَتْ فِي بُطُونِهَا ، وَلَنَا مَا بَقِيَ غَيْرَ شَرَابٍ وَطَهُورٍ ﴾ .

(69/561)

وَفِي الْمُوَطَّأِ أَنَّ عُمَرَ وَعَمْرًا وَقَفَا عَلَى حَوْضٍ ، فَقَالَ عَمْرٌو : يَا صَاحِبَ الْحَوْضِ ، هَلْ تَرِدُ حَوْضَكَ السِّبَاعُ ؟ فَقَالَ لَهُ عُمَرُ : يَا صَاحِبَ الْحَوْضِ ، لَا تُخْبِرْنَا ، فَإِنَّا نَرِدُ عَلَى السِّبَاعِ ، وَتَرِدُ عَلَيْنَا .

وَهَذَا ؛ لِأَنَّ الْمَاءَ كَانَ كَثِيرًا ، وَلَوْ كَانَ قَلِيلًا لَكَانَ لِلْمَسْأَلَةِ حُكْمٌ قَدَّمْنَاهُ قَبْلُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ .

وَقَدْ رُوِيَ عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ أَنَّ امْرَأَةً دَخَلَتْ عَلَيْهِ مَعَ نِسْوَةٍ ، فَقَالَ : لَوْ أَنِّي سَقَيْتُكُنَّ مِنْ بِئْرِ بُضَاعَةَ لَكَرِهْتُنَّ ذَلِكَ .

وَقَدْ وَاَللَّهِ سَقَيْت مِنْهَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِيَدَيَّ .

وَهَذَا أَيْضًا ؛ لِأَنَّ مَاءَهَا كَانَ كَثِيرًا لَا يُؤَثِّرُ فِيهِ مَحَائِضُ النِّسَاءِ ، وَعَذِرَاتُ النَّاسِ ، وَلُحُومُ الْكِلَابِ .

وَقَدْ قَالَ أَبُو دَاوُد : سَمِعْت قُتَيْبَةَ بْنَ سَعِيدٍ قَالَ : سَأَلْت قَيِّمَ بِئْرِ بُضَاعَةَ عَنْ عُمْقِهَا ، قُلْت : مَا أَكْثَرُ مَا يَكُونُ الْمَاءُ فِيهَا ؟ قَالَ : إلَى الْعَانَةِ .

قُلْت : فَإِذَا نَقَصَ مَاؤُهَا ؟ قَالَ : إلَى الْعَوْرَةِ قَالَ أَبُو دَاوُد : فَقَدَّرْتهَا بِرِدَائِي مَدَدْتُهُ عَلَيْهَا ثُمَّ ذَرَعْتُهُ فَإِذَا عَرْضُهَا سِتَّةُ أَذْرُعٍ .

وَسَأَلْت الَّذِي فَتَحَ لِي بَابَ الْبُسْتَانِ فَأَدْخَلَنِي إلَيْهَا : هَلْ غُيِّرَ بِنَاؤُهَا عَمَّا كَانَتْ عَلَيْهِ ؟ فَقَالَ : لَا .

قَالَ أَبُو دَاوُد : وَرَأَيْت مَاءَهَا مُتَغَيِّرَ اللَّوْنِ جِدًّا .

قَالَ الْفَقِيهُ الْقَاضِي أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : تَغَيَّرَ مَاؤُهَا ؛ لِأَنَّهَا فِي وَسَطِ السَّبَخَةِ ، فَمَاؤُهَا يَكُونُ قَرَارَهَا .

(70/561)

وَبُضَاعَةُ دُورُ بَنِي سَاعِدَةَ ، وَلَهَا يَقُولُ أَبُو أُسَيْدَ مَالِكُ بْنُ رَبِيعَةَ السَّاعِدِيُّ : نَحْنُ حَمَيْنَا عَنْ بُضَاعَةَ كُلِّهَا وَنَحْنُ بَنَيْنَا مَعْرِضًا هُوَ مُشْرِفُ فَأَصْبَحَ مَعْمُورًا طَوِيلًا قَذَالُهُ وَتَخْرَبُ آطَامٌ بِهَا وَتَقَصَّفُ

الْمَسْأَلَةُ الْعَاشِرَةُ : مِنْ أُصُولِ الشَّرِيعَةِ فِي أَحْكَامِ الْمِيَاهِ أَنَّ وُرُودَ النَّجَاسَةِ عَلَى الْمَاءِ لَيْسَ

كَوُرُودِ الْمَاءِ عَلَى النَّجَاسَةِ ، لِقَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ : ﴿ إِذَا اسْتَيْقَظَ أَحَدُكُمْ مِنْ نَوْمِهِ فَلَا يَغْمِسْ يَدَهُ فِي الْإِنَاءِ حَتَّى يَغْسِلَهَا ثَلَاثًا ، فَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَا يَدْرِي أَيْنَ بَاتَتْ يَدُهُ ﴾ .

فَمَنَعَ مِنْ وُرُودِ الْيَدِ عَلَى الْمَاءِ ، وَأَمَرَ بِإِيرَادِ الْمَاءِ عَلَيْهَا ، وَهَذَا أَصْلٌ بَدِيعٌ فِي الْبَابِ ، وَلَوْلَا وُرُودُهُ عَلَى النَّجَاسَةِ قَلِيلًا كَانَ أَوْ كَثِيرًا لَمَا طَهُرَتْ .

وَقَدْ ثَبَتَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ فِي بَوْلِ الْأَعْرَابِيِّ فِي الْمَسْجِدِ : ﴿ صُبُّوا عَلَيْهِ ذَنُوبًا مِنْ مَاءٍ ﴾ .

رُوِيَ ﴿ أَنَّ أَعْرَابِيًّا دَخَلَ الْمَسْجِدَ وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَالِسٌ ، فَبَايَعَهُ وَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ ، ثُمَّ لَمْ يَلْبَثْ أَنْ قَامَ فَفَشَجَ يَعْنِي فَرَّجَ بَيْنَ رِجْلَيْهِ ، فَبَالَ فِي الْمَسْجِدِ ، فَعَجَّلَ النَّاسُ إلَيْهِ ؟ فَقَالَ لَهُمْ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : لَا تُزْرِمُوهُ ثُمَّ دَعَا بِهِ ، فَقَالَ أَلَسْت بِرَجُلٍ مُسْلِمٍ ؟ قَالَ : بَلَى .

(71/561)

قَالَ : فَمَا حَمَلَك عَلَى أَنْ بُلْت فِي مَسْجِدِنَا ؟ قَالَ : وَالَّذِي بَعَثَك بِالْحَقِّ مَا ظَنَنْت إلَّا أَنَّهُ صَعِيدٌ مِنْ الصُّعُدَاتِ ، فَبُلْت فِيهِ ، فَأَمَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِذَنُوبٍ مِنْ مَاءٍ فَصُبَّ

عَلَى بَوْلِهِ ﴾ .

وَرَوَى مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ بْنِ خُزَيْمَةَ فِي صَحِيحِهِ وَغَيْرِهِ ﴿ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمَرَ بِحَفْرِ مَوْضِعِ بَوْلِهِ ، وَطَرْحِهِ خَارِجَ الْمَسْجِدِ ﴾ .

الْمَسْأَلَةُ الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ : رَأَى جَمَاعَةٌ مِنْ الْعُلَمَاءِ أَنَّ الدَّلْوَ يَكْفِي لِبَوْلِ الرَّجُلِ فِي إزَالَةِ عَيْنِهِ وَطَهَارَةِ مَوْضِعِهِ ، وَلَيْسَ لِذَلِكَ حَدٌّ ؛ لِأَنَّ الدَّلْوَ غَيْرُ مُقَدَّرٍ ، وَمَا لَمْ يَكُنْ مُقَدَّرًا لَا يَتَعَلَّقُ بِهِ حُكْمٌ .

أَلَا تَرَى أَنَّ الشَّافِعِيَّ تَعَلَّقَ بِحَدِيثِ الْقُلَّتَيْنِ ، وَجَعَلَهُ تَقْدِيرًا ، وَخَفِيَ عَلَيْهِ أَنَّ الْحَدِيثَ لَيْسَ بِصَحِيحٍ ، بِدَلِيلِ أَنَّ الْحَدِيثَ بِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَّقَ عَلَيْهِ الْحُكْمَ ، وَهُوَ مَجْهُولٌ سَاقِطٌ ، إذْ لَوْ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَّقَ عَلَيْهِ الْحُكْمَ لَعَلَّقَهُ عَلَى مَعْلُومٍ ، كَمَا عُلِمَ الصَّاعُ وَالْوَسْقُ ، حَتَّى كَانَ الْحُكْمُ الْمُعَلَّقُ عَلَيْهِ شَرْعًا ، الْمُقَدَّرُ بِهِ صَحِيحًا .

وَإِنَّمَا الْمُعَوَّلُ فِي إزَالَةِ النَّجَاسَةِ عَلَى الِاجْتِهَادِ فِي صَبِّ الْمَاءِ ، حَتَّى يَغْلِبَ عَلَى الظَّنِّ أَنَّهَا زَالَتْ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ : لَمَّا قَالَ اللَّهُ : ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنْ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴾ تَوَقَّفَ جَمَاعَةٌ فِي مَاءِ الْبَحْرِ ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ بِمُنَزَّلٍ مِنْ السَّمَاءِ ، حَتَّى رَوَوْا عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ وَابْنِ عَمْرٍو مَعًا أَنَّهُ لَا يُتَوَضَّأُ بِهِ ؛ لِأَنَّهُ مَاءُ نَارٍ ، وَلِأَنَّهُ طَبَقُ جَهَنَّمَ .

وَلَكِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيَّنَ حُكْمَهُ حِينَ قَالَ لِمَنْ سَأَلَهُ عَنْ جَوَازِ الْوُضُوءِ بِهِ : ﴿ هُوَ الطَّهُورُ مَاؤُهُ الْحِلُّ مَيْتَتُهُ ﴾ .

وَهَذَا أَصَحُّ مِمَّا يُنْسَبُ إلَى أَبِي هُرَيْرَةَ ، وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ أَنَّهُمَا قَالَا : لَا يُتَوَضَّأُ بِمَاءِ الْبَحْرِ ؛ لِأَنَّ الْمَاءَ عَلَى نَارٍ ، وَالنَّارَ عَلَى مَاءٍ ، وَالْمَاءَ عَلَى نَارٍ حَتَّى عَدَّ سَبْعَةَ أَبْحُرٍ ، وَسَبْعَةَ أَنْوَارٍ .

وَأَبُو هُرَيْرَةَ هُوَ رَاوِي حَدِيثِ : ﴿ هُوَ الطَّهُورُ مَاؤُهُ الْحِلُّ مَيْتَتُهُ ﴾ .

وَقَدْ رَوَى عَمْرُو بْنُ دِينَارٍ عَنْ أَبِي الطُّفَيْلِ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ قَالَ فِي الْبَحْرِ : " هُوَ الطَّهُورُ مَاؤُهُ الْحِلُّ مَيْتَتُهُ " .

وَقَدْ رُوِيَ أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ سُئِلَ عَنْ الْوُضُوءِ بِمَاءِ الْبَحْرِ ، فَقَالَ : إنَّمَا هُمَا بَحْرَانِ ، فَلَا يَضُرُّك بِأَيِّهِمَا بَدَأْت .

وَقَدْ رَوَى مَالِكٌ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ عَنْ سَعِيدٍ الْجَارِمِيِّ قَالَ : سَأَلْت ابْنَ عُمَرَ وَعَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرٍو عَنْ الْحِيتَانِ يَقْتُلُ بَعْضُهَا بَعْضًا ، وَعَنْ مَاءِ الْبَحْرِ ، فَلَمْ يَرَيَا بِذَلِكَ بَأْسًا . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 3 صـ ﴾

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ . . . جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاساً ﴾

يعني غطاءً لأن يَسْتُرُ كمَا يستر اللباس .

﴿ وَالنَّوْمَ سُبَاتاً ﴾ فيه وجهان

: أحدهما : لأنه مسبوت فيه ، والنائم لا يعقل كالميت ، حكاه النقاش .

الثاني : يعني راحة لقطع العمل ومنه سمي يوم السبت ، لأنه يوم راحة لقطع العمل ، حكاه ابن عيسى .

﴿ وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُوراً ﴾ فيه وجهان

: أحدهما : لانتشار الروح باليقظة فيه مأخوذ من النشر والبعث .

الثاني : لانتشار الناس في معايشهم ، قاله مجاهد ، وقتادة .

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ ﴾

قال أبي بن كعب كل شيء في القرآن من الرياح فهو رحمة ، وكل شيء في القرآن من الريح فهو عذاب .

وقيل : لأن الرياح جمع وهي الجنوب والشمال والصبا لأنها لواقح ، والعذاب ريح واحدة وهي الدبور لأنها لا تلقح .

﴿ بُشْراً ﴾ قرئت بالنون وبالباء فمن قرأ بالنون ففيه وجهان

: أحدهما : أنه نشر السحاب حتى يمطر .

الثاني : حياة لخلقه كحياتهم بالنشور .

ومن قرأ ﴿ بُشْراً ﴾ بالباء ففيه وجهان :

أحدهما لأنها بشرى بالمطر .

الثاني : لأن الناس يستبشرون بها .

﴿ بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ﴾ يعني المطر لأنه رحمة من الله لخلقه ، وتأوله بعض أصحاب الخواطر يرسل رياح الندم بين يدي التوبة .

﴿ وَأَنزَلْنَا السَّمَآءِ مَآءً طَهُوراً ﴾ فيه تأويلان

: أحدهما : طاهراً ، قاله أبو حنيفة ولذلك جوز إزالة النجاسات بالمائعات الطاهرات .

الثاني : مطهراً ، قاله الشافعي ولذلك لم يجوز إزالة النجاسة بمائع سوى الماء .

﴿ لِّنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتاً ﴾ وهي التي لا عمارة فيها ولا زرع ، وإحياؤها يكون بنبات زرعها وشجرها ، فكما أن الماء يطهر الأبدان من الأحداث والأنجاس ، كذلك الماء يطهر الأرض من القحط والجدب .

﴿ وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَاماً وَأَنَاسِيَّ كَثِيراً ﴾ فجمع بالماء حياة النبات والحيوان وفي الأناسي وجهان :

(74/561)

أحدهما : أنه جمع إنسي .

الثاني : جمع إنسان .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أنه الفرقان المذكور في أول السورة .

الثاني : أراد الماء الذي أنزله طهوراً .

وفيه وجهان :

أحدهما : يعني قسمنا المطر فلا يدوم على مكان ، فيهلك ولا ينقطع عن مكان ، فيهلك ، وهو معنى قول قتادة .

الثاني : أنه يصرفه في كل عام من مكان إلى مكان ، قال ابن عباس ليس عام بأمطر من عام ، ولكن الله يصرفه بين عباده .

﴿ لِيَذَّكَّرُوا ﴾ يحتمل وجهين

: أحدهما : ليتذكروا النعمة بنزوله .

الثاني : ليتذكروا النعمة بانقطاعه .

﴿ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً ﴾ قال عكرمة : هو قولهم مطرنا بالأنواء . روى الربيع بن صبيح قال : أمطر الناس على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة فلما أصبح قال النبي صلى الله عليه وسلم : " أَصْبَحَ النَّاسُ فِيهَا بَيْنَ رَجُلَيْنِ شَاكِرٍ وَكَافِرٍ ، فَأَمَّا الشَّاكِرُ فَيَحْمِدُ اللَّهَ عَلَى سُقْيَاهُ وَغِيَاثِهِ وَأَمَّا الكَافِرُ فَيَقُولُ مطرنَا بِنَوءِ كَذَا وَكَذَا " .

قوله تعالى : ﴿ فَلاَ تُطِعِ الْكَافِرِينَ ﴾

يعني إلى ما يدعونك إليه : إما من تعظيم آلهتهم ، وإما من موادعتهم .

﴿ وَجَاهِدْهُم بِهِ ﴾ فيه وجهان

: أحدهما : بالقرآن .

الثاني : بالإسلام .

﴿ جِهَاداً كَبِيراً ﴾ فيه وجهان

: أحدهما : بالسيف .

الثاني : بالغلظة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

قال الطبري ووصف ﴿ الليل ﴾ باللباس تشبيهاً من حيث يستر الأشياء ويغشاها ، و" السبات " ضرب من الإغماء يعتري اليقظان مرضاً ، فشبه النائم به ، والسبت الإقامة في المكان فكأن السبات سكون ما وثبوت عليه ، و" النشور " في هذا الموضع الإحياء شبه اليقظة به ليتطابق الإحياء مع الإماتة والتوفي اللذين يتضمنهما النوم والسبات ويحتمل أن يريد ب " النشور " وقت انتشار وتفرق لطلب المعايش وابتغاء فضل الله ، وقوله ﴿ النهار نشوراً ﴾ وما قبله من باب ليل نائم ونهار صائم .

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ﴾

قرأت فرقة " الرياح " ، وقرأت فرقة " الريح " على الجنس ، فهي بمعنى الرياح وقد نسبنا القراءة في سورة الأعراف وقراءة الجمع أوجه لأن عرف الريح متى وردت في القرآن مفردة فإنما هي للعذاب ، ومتى كانت للمطر والرحمة فإنما هي رياح ، لأن ريح المطر تتشعب وتتداءب وتتفرق وتأتي لينة من ها هنا وها هنا ، وشيئاً إثر شيء ، وريح العذاب خرجت لا تتداءب وإنما تأتي جسداً واحداً ، ألا ترى أنها تحطم ما تجد وتهدمه ، قال الرماني جمعت رياح الرحمة لأنها ثلاثة لواقح الجنوب والصبا والشمال وأفردت ريح العذاب لأنها واحدة لا تلقح وهي الدبور .

قال القاضي أبو محمد : يرد على هذا قول النبي صلى الله عليه وسلم إذا هبت الريح اللهم اجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحاً ، واختلف القراء في " النشر " ، في النون والباء وغير ذلك اختلافاً قد ذكرناه في سورة الأعراف ، و﴿ نشراً ﴾ معناه منتشرة متفرقة و" الطهور " بناء مبالغة في طاهر وهذه المبالغة اقتضته في ماء السماء وفي كل ما هو منه وبسبيله أن يكون طاهراً مطهراً وفيما كثرت فيه التغاير ، كماء الورد وعصير العنب أن يكون طاهراً ولا مطهراً ، ووصف " البلدة " ب " الميت " لأنه جعله كالمصدر الذي يوصف به المذكر والمؤنث وجاز ذلك من حيث البلدة بمعنى البلد ، وقرأ طلحة بن مصرف " لننشىء به بلدة ونُسقيه " بضم النون وهي قراءة الجمهور ومعناه نجعله لهم سقياً ، هذا قول بعض اللغويين في أسقى قالوا وسقى معناه للشفة ، وقال الجمهور سقى وأسقى بمعنى واحد وينشد على ذلك بيت لبيد : [الوافر]

سقى قومي بني نجد وأسقى . . . نميراً والقبائل من هلال

وقرأ أبو عمرو " ونَسقيه " بفتح النون وهي قراءة ابن مسعود وابن أبي عبلة وأبي حيوة ، ورويت عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، ﴿ وأناسيُّ ﴾ ، قيل هو جمع إنسان والياء المشددة بدل من النون في الواحد قاله سيبويه ، وقال المبرد هو جمع إنسي وكان القياس أن يكون أناسية كما قالوا في مهلبي ومهالبة ، وحكى الطبري عن بعض اللغويين في جمع إنسان إناسين بالنون كسرحان وبستان ، وقرأ يحيى بن الحارث " أناسي " بتخفيف الياء ، والضمير في ﴿ صرفناه ﴾ قال ابن عباس ومجاهد هو عائد على الماء المنزل من السماء ، المعنى أن الله تعالى جعل إنزال الماء تذكرة بأن يصرفه عن بعض المواضع إلى بعض المواضع وهذا كله في كل عام بمقدار واحد ، وقاله ابن مسعود ، وقوله على هذا التأويل ﴿ فأبى أكثر الناس إلا كفوراً ﴾ أي في قولهم بالأنواء والكواكب قاله عكرمة ، وقيل ﴿ كفوراً ﴾ على الإطلاق لما تركوا التذكر ، وقال ابن عباس الضمير في ﴿ صرفناه ﴾ للقرآن وإن كان لم يتقدم له ذكر لوضوح الأمر ويعضد ذلك قوله بعد ذلك ، ﴿ وجاهدهم به ﴾ ، وعلى التأويل الأول الضمير في ﴿ به ﴾ يراد به القرآن على نحو ما ذكرناه ، وقال ابن زيد يراد به الإسلام ، وقرأ عكرمة " صرَفنا " بتخفيف الراء ، وقرأ حمزة والكسائي والكوفيون " ليذْكروا " بسكون الذال ، وقرأ الباقون " ليذكّروا " بشد الذال والكاف ، وفي قوله ﴿ ولو شئنا ﴾ الآية اقتضاب يدل عليه ما ذكر تقديره ولكنا أفردناك بالنذارة وحملناك ﴿ فلا تطع الكافرين ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وهو الذي جعل لكم الليل لِبَاساً ﴾

أي : ساتراً بظلمته ، لأن ظلمته تغشى الأشخاص وتَشتمل عليها اشتمال اللباس على لابسه ﴿ والنَّومَ سُبَاتاً ﴾ قال ابن قتيبة : أي : راحة ، ومنه يوم السبت ، لأن الخلق اجتمع يوم الجمعة ، وكان الفراغ منه في يوم السبت ، فقيل لبني إِسرائيل : استريحوا في هذا اليوم ولا تعملوا فيه شيئاً ، فسمِي يوم السبت ، أي : يوم الراحة ، وأصل السبت : التَّمدُّد ، ومن تمدَّد استراح .

وقال ابن الأنباري : أصل السبت : القَطْع ؛ فالمعنى : وجعلنا النوم قَطْعاً لأعمالكم .

قوله تعالى : ﴿ وجَعَلَ النَّهارَ نُشوراً ﴾ فيه قولان .

أحدهما : تنتشرون فيه لابتغاء الرزق ، قاله ابن عباس .

والثاني : تُنشَر الرُّوح باليقظة كما تنشر بالبعث ، حكاه الماوردي .

قوله تعالى : ﴿ وهو الذي أرسل الرِّياح ﴾ قد شرحناه في [الأعراف : 57] إِلى قوله : ﴿ وأنزلْنا من السماء ماءً طَهُوراً ﴾ يعني : المطر .

قال الأزهري : الطَّهُور في اللغة : الطاهر المُطهِّر .

والطَّهور ما يُتَطَهَّر به ، كالوَضوء الذي يُتَوضَّأُ به ، والفَطُور الذي يُفْطَر عليه .

قوله تعالى : ﴿ لِنُحْيِيَ به بلدةً مَيْتاً ﴾ وقرأ أبو المتوكل ، وأبو الجوزاء ، وأبو جعفر : ﴿ مَيِّتاً ﴾ بالتشديد .

قال الزجاج : لفظ البلدة مؤنَّث ، وإنما قيل : ﴿ ميتاً ﴾ لأن معنى البلدة والبلد سواء .

وقال غيره : إنما قال : ﴿ ميتاً ﴾ ، لأنه أراد بالبلدة المكان .

وقد سبق معنى صفة البلدة بالموت [الأعراف : 57] ومعنى ﴿ ونُسْقِيَهُ ﴾ [الحجر : 24] .

وقرأ أبو مجلز ، وأبو رجاء ، والضحاك ، والأعمش ، وابن أبي عبلة : ﴿ ونَسْقِيَهُ ﴾ بفتح النون .

فأما الأناسيُّ ، فقال الزجاج : هو جمع إِنسيّ ، مثل كرسيّ وكراسي ؛ ويجوز أن يكون جمع إِنسان ، وتكون الباء بدلاً من النون ، الأصل : أناسين مثل سَراحين .

(79/561)

وقرأ أبو مجلز ، والضحاك ، وأبو العالية ، وعاصم الجحدري ﴿ وأناسيَ ﴾ بتخفيف الياء .

قوله تعالى : ﴿ ولقد صرَّفْناه ﴾ يعني المطر ﴿ بينهم ﴾ مرة لهذه البلدة ، ومرة لهذه ﴿ لِيَذَّكَّروا ﴾ أي : ليتفكَّروا في نِعَم الله عليهم فيحمدوه .

وقرأ حمزة ، والكسائي : ﴿ لِيَذْكُروا ﴾ خفيفة الذال .

قال أبو علي : يَذَّكَّر في معنى يتذكَّر ، ﴿ فأبى أكثرُ الناس إلا كُفُوراً ﴾ وهم الذين يقولون : مُطِرنا بنوء كذا وكذا ، كفروا بنعمة الله .

﴿ ولو شئنا لَبَعَثْنا في كل قرية نذيراً ﴾ المعنى : إنّا بعثناك إلى جميع القُرى لِعِظَم كرامتك ، ﴿ فلا تُطِعِ الكافرين ﴾ ، وذلك أن كفار مكة دَعَوه إلى دين آبائهم ، ﴿ وجاهِدهم به ﴾ أي بالقرآن ﴿ جهاداً كبيراً ﴾ أي : تامّاً شديداً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 6 صـ ﴾

(80/561)

وقال القرطبى :

﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا (47) ﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيلَ لِبَاساً ﴾ يعني ستراً للخلق يقوم مقام اللباس في ستر البدن .

قال الطبري : وصف الليل باللباس تشبيهاً من حيث يستر الأشياء ويغشاها .

الثانية : قال ابن العربيّ : ظن بعض الغُفْلَة أن من صلّى عرياناً في الظلام أنه يجزئه ؛ لأن الليل لباس .

وهذا يوجب أن يصلّي في بيته عرياناً إذا أغلق عليه بابه .

والستر في (الصلاة) عبادة تختص بها ليست لأجل نظر الناس .

ولا حاجة إلى الإطناب في هذا .

الثالثة : قوله تعالى : ﴿ والنوم سُبَاتاً ﴾ أي راحة لأبدانكم بانقطاعكم عن الأشغال .

وأصل السبات من التمدد .

يقال : سبتت المرأة شعرها أي نقضته وأرسلته .

ورجل مسبوت أي ممدود الخلقة .

وقيل : للنوم سبات لأنه بالتمدد يكون ، وفي التمدد معنى الراحة .

وقيل : السبت القطع ؛ فالنوم انقطاع عن الاشتغال ؛ ومنه سَبَتَ اليهودُ لانقطاعهم عن الأعمال فيه .

وقيل : السبت الإقامة في المكان ؛ فكأن السبات سكون مّا وثبوت عليه ؛ فالنوم سُبَاتٌ على معنى أنه سكون عن الاضطراب والحركة .

وقال الخليل : السبات نوم ثقيل ؛ أي جعلنا نومكم ثقيلاً ليكمل الإجمام والراحة .

الرابعة : قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَ النهار نُشُوراً ﴾ من الانتشار للمعاش ؛ أي النهار سبب الإحياء للانتشار .

شبه اليقظة فيه بتطابق الإحياء مع الإماتة .

وكان عليه السلام إذا أصبح قال : "الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور" .

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الذي أَرْسَلَ الرياح نُشُراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ﴾ تقدم في "الأعراف" مستوفى .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السمآء مَآءً طَهُوراً ﴾ .

فيه خمس عشرة مسألة :

(81/561)

الأولى : قوله تعالى : ﴿ مَآءً طَهُوراً ﴾ يتطهر به ؛ كما يقال : وضوء للماء الذي يتوضأ به .

وكل طهور طاهر وليس كل طاهر طهوراً .

فالطَّهور (بفتح الطاء) الاسم .

وكذلك الوضوء والوقود .

وبالضم المصدر ، وهذا هو المعروف في اللغة ؛ قاله ابن الأنباريّ .

فبيّن أن الماء المنزل من السماء طاهر في نفسه مطهِّر لغيره ؛ فإن الطهور بناء مبالغة في طاهر ، وهذه المبالغة اقتضت أن يكون طاهراً مطهراً .

وإلى هذا ذهب الجمهور .

وقيل : إن ﴿ طَهُوراً ﴾ بمعنى طاهر ؛ وهو قول أبي حنيفة ؛ وتعلق بقوله تعالى : ﴿ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً ﴾ [الإنسان : 21] يعني طاهراً .

وبقول الشاعر :

خليليّ هل في نظرة بعد توبة . . .

أداوي بها قلبي عليّ فُجورُ

إلى رُجَّحِ الأكفالِ غِيدٍ من الظِّبا . . .

عِذاب الثنايا رِيقُهنَّ طَهُورُ

فوصف الريق بأنه طهور وليس بمطهر .

وتقول العرب : رجل نؤوم وليس ذلك بمعنى أنه منيم لغيره ، وإنما يرجع ذلك إلى فعل نفسه .

ولقد أجاب علماؤنا عن هذا فقالوا : وصف شراب الجنة بأنه طهور يفيد التطهير عن

أوضار الذنوب وعن خسائس الصفات كالغِل والحَسَد ، فإذا شربوا هذا الشراب يطهرهم الله من رحض الذنوب وأوضار الاعتقادات الذميمة ، فجاؤوا الله بقلب سليم ، ودخلوا الجنة بصفات التسليم ، وقيل لهم حينئذٍ : ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فادخلوها خَالِدِينَ ﴾ [الزمر : 73] .

ولما كان حكمه في الدنيا بزوال حكم الحدث بجريان الماء على الأعضاء كانت تلك حكمته ورحمته في الآخرة .

وأما قول الشاعر :

. . .

رِيقُهُن طَهُورُ . . .

(82/561)

فإنه قصد بذلك المبالغة في وصف الريق بالطهورية لعذوبته وتعلقه بالقلوب ، وطيبه في النفوس ، وسكون غليل المحب برشفه حتى كأنه الماء الطهور ، وبالجملة فإن الأحكام الشرعية لا تثبت بالمجازاة الشعرية ؛ فإن الشعراء يتجاوزون في الاستغراق حدّ الصدق إلى الكذب ، ويسترسلون في القول حتى يخرجهم ذلك إلى البدعة والمعصية ، وربما وقعوا

في الكفر من حيث لا يشعرون .

ألا ترى إلى قول بعضهم :

ولو لم تُلامِسْ صفحةُ الأرضِ رجلَها . . .

لما كنتُ أدري عِلَّةً للتيمم

وهذا كفر صراح ، نعوذ بالله منه .

قال القاضي أبو بكر بن العربي : هذا منتهى لباب كلام العلماء ، وهو بالغ في فنّه ؛ إلا أني تأملت من طريق العربية فوجدت فيه مطلعاً مشرقاً ، وهو أن بناء فعول للمبالغة ، إلا أن المبالغة قد تكون في الفعل المتعدّي كما قال الشاعر :

ضَروبٌ بنصل السيفِ سُوقَ سِمانها . . .

وقد تكون في الفعل القاصر كما قال الشاعر :

نؤوم الضُّحا لم تَنْتَطِقْ عن تَفَضُّلِ . . .

وإنما تؤخذ طهورية الماء لغيره من الحسن نظافة ومن الشرع طهارة ؛ كقوله عليه السلام : " لا يقبل الله صلاة بغير طهور " وأجمعت الأمة لغة وشريعة على أن وصف طهور يختص بالماء فلا يتعدى إلى سائر المائعات وهي طاهرة ؛ فكان اقتصارهم بذلك على الماء أدّل دليل على أن الطهور هو المطهر ، وقد يأتي فعول لوجه آخر ليس من هذا كله وهو العبارة به عن الآلة للفعل لا عن الفعل كقولنا : وَقُود وسَحُور بفتح الفاء ، فإنها عبارة عن الحطب والطعم

المتسحر به ؛ فوصف الماء بأنه طهور (بفتح الطاء) أيضاً يكون خبراً عن الآلة التي يتطهر بها .

فإذا ضمت الفاء في الوقود والسحور والطهور عاد إلى الفعل وكان خبراً عنه .

(83/561)

فثبت بهذا أن اسم الفعول (بفتح الفاء) يكون بناء للمبالغة ويكون خبراً عن الآلة ، وهو الذي خطر ببال الحنفية ، ولكن قصرت أشداقها عن لَوْكِه ، وبعد هذا يقف البيان عن المبالغة وعن الآلة على الدليل بقوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السمآء مَآءً طَهُوراً ﴾ .

وقوله عليه السلام : "جعلت لي الأرض مسجداً وطَهوراً" يحتمل المبالغة ويحتمل العبارة به عن الآلة ؛ فلا حجة فيه لعلمائنا ، لكن يبقى قوله : ﴿ لِّيُطَهِّرَكُمْ بِهِ ﴾ [الأنفال : 11] نص في أن فعله يتعدى إلى غيره .

الثانية : المياه المنزلة من السماء والمودعة في الأرض طاهرة مطهرة على اختلاف ألوانها وطعومها وأرياحها حتى يخالطها غيرها ، والمخالط للماء على ثلاثة أضرب : ضرب يوافقه في صفتيه جميعاً ، فإذا خالطه فغيّره لم يسلبه وصفاً منهما لموافقته لهما وهو التراب .

والضرب الثاني يوافقه في إحدى صفتيه وهي الطهارة ، فإذا خالطه فغيّره سلبه ما خالفه

فيه وهو التطهير ؛ كماء الورد وسائر الطاهرات .

والضرب الثالث يخالفه في الصفتين جميعاً ، فإذا خالطه فغيره سلبه الصفتين جميعاً لمخالفته له فيهما وهو النجس .

الثالثة : ذهب المصريون من أصحاب مالك إلى أن قليل الماء يفسده قليل النجاسة ، وأن الكثير لا يفسده إلا ما غيّر لونه أو طعمه أو ريحه من المحرمات .

ولم يحدّوا بين القليل والكثير حدّاً يوقف عنده ، إلا أن ابن القاسم روى عن مالك في الجُنُب يغتسل في حوض من الحياض التي تسقى فيها الدواب ولم يكن غسل ما به من الأذى أنه قد أفسد الماء ؛ وهو مذهب ابن القاسم وأشهب وابن عبد الحكم ومن اتبعهم من المصريين .

إلا ابن وهب فإنه يقول في الماء بقول المدنيين من أصحاب مالك .

وقولهم : ما حكاه أبو مصعب عنهم وعنه : أن الماء لا تفسده النجاسة الحالّة فيه قليلاً كان أو كثيراً إلا أن تظهر فيه النجاسة وتغيّر منه طعماً أو ريحاً أو لوناً .

وذكر أحمد بن المعدّل أن هذا قول مالك بن أنس في الماء .

(84/561)

وإلى هذا ذهب إسماعيل بن إسحاق ومحمد بن بكير وأبو الفرج الأبهرِي وسائر المنتحلين لمذهب مالك من البغداديين ؛ وهو قول الأوزاعي والليث بن سعد والحسن بن صالح وداود بن عليّ .

وهو مذهب أهل البصرة ، وهو الصحيح في النظر وجيد الأثر .

وقال أبو حنيفة : إذا وقعت نجاسة في الماء أفسدته كثيراً كان أو قليلاً إذا تحققت عموم النجاسة فيه .

ووجه تحققها عنده أن تقع مثلاً نقطة بول في بركة ، فإن كانت البركة يتحرك طرفاها بتحرك أحدهما فالكل نجس ، وإن كانت حركة أحد الطرفين لا تحرك الآخر لم ينجس .

وفي المجموعة نحو مذهب أبي حنيفة .

وقال الشافعي : بحديث القلتين ، وهو حديث مطعون فيه ؛ اختلف في إسناده ومتنه ؛ أخرجه أبو داود والترمذي وخاصة الدّارَقُطْنِي ، فإنه صدّر به كتابه وجمع طرقه .

قال ابن العربي : وقد رام الدّارَقُطْنِي على إمامته أن يصحح حديث القلتين فلم يقدر .

وقال أبو عمر بن عبد البر : وأما ما ذهب إليه الشافعي من حديث القلتين فمذهب ضعيف من جهة النظر ، غير ثابت في الأثر ؛ لأنه قد تكلم فيه جماعة من أهل العلم بالنقل ، ولأن القلتين لا يوقف على حقيقة مبلغهما في أثر ثابت ولا إجماع ، فلو كان ذلك حدّاً لازماً لوجب على العلماء البحث عنه ليقفوا على حدّ ما حدّه النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه

من أصل دينهم وفرضهم ، ولو كان ذلك كذلك ما ضيعوه ، فلقد بحثوا عما هو أدون من ذلك وألطف .

قلت : وفيما ذكر ابن المنذر في القلتين من الخلاف يدلّ على عدم التوقيف فيهما والتحديد .

وفي سنن الدَّارَقُطْنِي عن حماد بن زيد عن عاصم بن المنذر قال : القِلال الخوابي العظام .

وعاصم هذا هو أحد رواة حديث القلتين .

ويظهر من قول الدَّارَقُطْنِي أنها مثل قِلال هَجَر ؛ لسياقه حديث الإسراء عن أنس بن مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " لما رفعت إلى سِدرة المنتهى في السماء السابعة نبقها مثل قِلال هَجَر وورقها مثل آذان الفيلة " وذكر الحديث .

(85/561)

قال ابن العربي : وتعلق علماؤنا بحديث أبي سعيد الخدري : في بئر بُضاعة ، رواه النسائيّ والترمذي وأبو داود وغيرهم .

وهو أيضاً حديث ضعيف لا قدم له في الصحة فلا تعويل عليه .

وقد فاوضت الطوسي الأكبر في هذه المسألة فقال : إن أخلص المذاهب في هذه المسألة

مذهب مالك ، فإن الماء طهور ما لم يتغير أحد أوصافه ؛ إذ لا حديث في الباب يعوّل عليه ، وإنما المعوّل على ظاهر القرآن وهو قوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السمآء مَآءً طَهُوراً ﴾ وهو ماء بصفاته ، فإذا تغيّر عن شيء منها خرج عن الاسم لخروجه عن الصفة ، ولذلك لما لم يجد البخاري إمام الحديث والفقه في الباب خبراً يعوّل عليه قال : (باب إذا تغير وصف الماء) وأدخل الحديث الصحيح : " ما من أحد يُكلَم في سبيل الله والله أعلم بمن يُكلَم في سبيله إلا جاء يوم القيامة وجرحه يَثْعَب دماً اللون لون الدم والريح ريح المسك " فأخبر صلى الله عليه وسلم أن الدم بحاله وعليه رائحة المسك ، ولم تخرجه الرائحة عن صفة الدموية .

ولذلك قال علماؤنا : إذا تغير الماء بريح جيفة على طرفه وساحله لم يمنع ذلك الوضوء منه .

ولو تغير بها وقد وضعت فيه لكان ذلك تنجيساً له للمخالطة والأولى مجاورة لا تعويل عليها .

قلت : وقد استدلّ به أيضاً على نقيض ذلك ، وهو أن تغير الرائحة يخرجه عن أصله .

ووجه هذا الاستدلال أن الدم لما استحالت رائحته إلى رائحة المسك خرج عن كونه مستخبثاً نجساً ، وأنه صار مسكاً ؛ وإن المسك بعض دم الغزال .

فكذلك الماء إذا تغيرت رائحته .

وإلى هذا التأويل ذهب الجمهور في الماء .

وإلى الأول ذهب عبد الملك .

قال أبو عمر : جعلوا الحكم للرائحة دون اللون ، فكان الحكم لها فاستدلوا عليها في زعمهم بهذا الحديث .

(86/561)

وهذا لا يفهم منه معنى تسكن إليه النفس ، ولا في الدم معنى الماء فيقاس عليه ، ولا يشتغل بمثل هذا الفقهاء ، وليس من شأن أهل العلم اللغز به وإشكاله ؛ وإنما شأنهم إيضاحه وبيانه ، ولذلك أخذ الميثاق عليهم ليبيّنُنه للناس ولا يكتمونه ، والماء لا يخلو تغيّره بنجاسة أو بغير نجاسة ، فإِن كان بنجاسة وتغير فقد أجمع العلماء على أنه غير طاهر ولا مطهر ، وكذلك أجمعوا أنه إذا تغير بغير نجاسة أنه طاهر على أصله .

وقال الجمهور : إنه غير مطهر إلا أن يكون تغيره من تربة وحمأة .

وما أجمعوا عليه فهو الحق الذي لا إشكال فيه ، ولا التباس معه .

الرابعة : الماء المتغير بقراره كزرنيخ أو جير يجري عليه ، أو تغير بطحلب أو ورق شجر ينبت عليه لا يمكن الاحتراز عنه فاتفق العلماء أن ذلك لا يمنع من الوضوء به ، لعدم

الاحتراز منه والانفكاك عنه ؛ وقد روى ابن وهب عن مالك أن غيره أولى منه .

الخامسة : قال علماؤنا رحمة الله عليهم : ويكره سؤر النصرانيّ وسائر الكفار والمدمن الخمر ، وما أكل الجيف ؛ كالكلاب وغيرها .

ومن توضأ بسؤرهم فلا شيء عليه حتى يستيقن النجاسة .

قال البخاريّ : وتوضأ عمر رضي الله عنه من بيت نصرانية .

ذكر سفيان بن عيينة قال : حدّثونا عن زيد بن أسلم عن أبيه قال : لما كنا بالشأم أتيت عمر بن الخطاب بماء فتوضأ منه فقال : من أين جئت بهذا الماء ؟ ما رأيت ماء عذباً ولا ماء سماء أطيب منه .

قال قلت : جئت به من بيت هذه العجوز النصرانية ؛ فلما توضأ أتاها فقال : أيتها العجوز أسلِمي تسلمِي ، بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم بالحق .

قال : فكشفت عن رأسها ؛ فإذا مثل الثَّغامة ، فقالت : عجوز كبيرة ، وإنما أموت الآنا

فقال عمر رضي الله عنه : اللهم اشهد .

خرّجه الدَّارَقُطْنِيّ ، حدّثنا الحسين بن إسماعيل قال : حدّثنا أحمد بن إبراهيم البُوشَنْجِي قال : حدّثنا سفيان .

.

فذكره .

ورواه أيضاً عن الحسين بن إسماعيل قال حدّثنا خلاد بن أسلم حدّثنا سفيان عن زيد بن أسلم عن أبيه أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه توضأ من بيت نصرانية أتاها فقال : أيتها العجوز أسلمي . . .

؛ وذكر الحديث بمثل ما تقدّم .

السادسة : فأما الكلب إذا ولغ في الماء فقال مالك : يغسل الإناء سبعاً ولا يتوضأ منه وهو طاهر .

وقال الثورِيّ : يتوضأ بذلك الماء ويتيمم معه .

وهو قول عبد الملك بن عبد العزيز ومحمد بن مسلمة .

وقال أبو حنيفة : الكلب نجس ، ويغسل الإناء منه لأنه نجس .

وبه قال الشافعيّ وأحمد وإسحاق .

وقد كان مالك يفرق بين ما يجوز اتخاذه من الكلاب وبين ما لا يجوز اتخاذه منها في غسل الإناء من ولوغه .

وتحصيل مذهبه أنه طاهر عنده ، لا ينجس ولوغه شيئاً ولغ فيه طعاماً ولا غيره ؛ إلا أنه

استحب هراقة ما ولغ فيه من الماء ليسارة مؤنته .

وكلب البادية والحاضرة سواء .

ويغسل الإناء منه على كل حال سبعاً تعبداً .

هذا ما استقر عليه مذهبه عند المناظرين من أصحابه .

ذكر ابن وهب قال : حدّثنا عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه عن عطاء عن أبي هريرة قال : " سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الحياض التي تكون فيما بين مكة والمدينة ، فقيل له : إن الكلاب والسباع ترد عليها .

فقال : "لها ما أخذت في بطونها ولنا ما بقي شراب وطهور" " أخرجه الدَّارَقُطْنِيّ .

وهذا نص في طهارة الكلاب وطهارة ما تلغ فيه .

وفي البخاريّ عن ابن عمر أن الكلاب كانت تقبل وتدبر في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يرشُّون شيئاً من ذلك .

وقال عمر بحضرة الصحابة لصاحب الحوض الذي سأله عمرو بن العاص : هل ترد حوضك السباع .

فقال عمر : يا صاحب الحوض ، لا تخبرنا فإنا نرد على السباع وترد علينا .

أخرجه مالك والدَّارَقُطْنِيّ .

ولم يفرّق بين السباع ، والكلب من جملتها ، ولا حجة للمخالف في الأمر بإراقة ما ولغ فيه وأن ذلك للنجاسة ، وإنما أمر بإراقته لأن النفس تعافه لا لنجاسة ؛ لأن التنزه من الأقذار مندوب إليه ، أو تغليظاً عليهم لأنهم نهوا عن اقتنائها كما قاله ابن عمر والحسن ؛ فلما لم ينتهوا عن ذلك غلظ عليهم في الماء لقلته عندهم في البادية ، حتى يشتد عليهم فيمتنعوا من اقتنائها .

وأما الأمر بغسل الإناء فعبادة لا لنجاسته كما ذكرناه بدليلين : أحدهما : أن الغسل قد دخله العدد .

الثاني : أنه قد جعل للتراب فيه مدخل لقوله عليه السلام : "وعفِّروه الثامنة بالتراب" .

ولو كان للنجاسة لما كان للعدد ولا للتراب فيه مدخل كالبول .

وقد جعل صلى الله عليه وسلم الهرّ وما ولغ فيه طاهراً .

والهرّ سبُعٌ لا خلاف في ذلك ؛ لأنه يفترس ويأكل الميتة ؛ فكذلك الكلب وما كان مثله من السباع ؛ لأنه إذا جاء نَصٌّ في أحدهما كان نصّاً في الآخر .

وهذا من أقوى أنواع القياس .

هذا لو لم يكن هناك دليل ؛ وقد ذكرنا النص على طهارته فسقط قول المخالف .

والحمد لله .

السابعة : ما مات في الماء مما لا دم له فلا يضرّ الماء إن لم يغيّر ريحه ؛ فإن أنتن لم يتوضأ به .

وكذلك ما كان له دم سائل من دواب الماء كالحوت والضفدع لم يفسد ذلك الماء موته فيه ؛ إلا أن تتغير رائحته ، فإن تغيرت رائحته وأنتن لم يجز التطهر به ولا الوضوء منه ، وليس بنجس عند مالك .

وأما ما له نفس سائلة فمات في الماء ونزح مكانه ولم يغير لونه ولا طعمه ولا ريحه فهو طاهر مطهر سواء كان الماء قليلاً أو كثيراً عند المدنيين .

واستحب بعضهم أن ينزح من ذلك الماء دلاء لتطيب النفس به ، ولا يحدّون في ذلك حدّاً لا يتعدّى .

ويكرهون استعمال ذلك الماء قبل نزح الدلاء ، فإن استعمله أحد في غسل أو وضوء جاز إذا كانت حاله ما وصفنا .

(89/561)

وقد كان بعض أصحاب مالك يرى لمن توضأ بهذا الماء وإن لم يتغير أن يتيمم ، فيجمع بين الطهارتين احتياطاً ، فإن لم يفعل وصلّى بذلك الماء أجزأه .

وروى الدّارَقُطْنِيّ عن محمد بن سِيرين أن زِنجِياً وقع في زمزم يعني فمات فأمر به ابن عباس

رضي الله عنه فأخرج فأمر بها أن تنزح .

قال : فغلبتهم عين جاءتهم من الركن فأمر بها فدُسمت بالقُباطِيّ والمطارف حتى نزحوها ، فلما نزحوها انفجرت عليهم .

وأخرجه عن أبي الطفيل أن غلاماً وقع في بئر زمزم فنزحت .

وهذا يحتمل أن يكون الماء تغير ، والله أعلم .

وروى شعبة عن مغيرة عن إبراهيم أنه كان يقول : كل نفس سائلة لا يتوضأ منها ، ولكن رخص في الخنفساء والعقرب والجراد والجُدْجُد إذا وقعن في الرِّكاء فلا بأس به .

قال شعبة : وأظنه قد ذكر الوزغة .

أخرجه الدَّارَقُطْنِيّ ، حدّثنا الحسين بن إسماعيل قال حدّثنا محمد بن الوليد قال حدّثنا محمد بن جعفر قال حدّثنا شعبة . . .

؛ فذكره .

الثامنة : ذهب الجمهور من الصحابة وفقهاء الأمصار وسائر التابعين بالحجاز والعراق أن ما ولغ فيه الهر من الماء طاهر ، وأنه لا بأس بالوضوء بسؤره ؛ لحديث أبي قتادة ، أخرجه مالك وغيره .

وقد روي عن أبي هريرة فيه خلاف .

وروي عن عطاء بن أبي رباح وسعيد بن المسيّب ومحمد بن سِيرين أنهم أمروا بإراقة ماء

ولغ فيه الهر وغسل الإناء منه .

واختلف في ذلك عن الحسن .

ويحتمل أن يكون الحسن رأى في فمه نجاسة ليصح مخرج الروايتين عنه .

قال الترمذيّ لما ذكر حديث مالك : "وفي الباب عن عائشة وأبي هريرة ، هذا حديث حسن صحيح ، وهو قول أكثر أهل العلم من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم والتابعين ومن بعدهم ؛ مثلِ الشافعيّ وأحمد وإسحاق ، لم يروا بسؤر الهرّة بأساً .

وهذا أحسن شيء في الباب ، وقد جوَّد مالك هذا الحديث عن إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة ، ولم يأتي به أحد أتمّ من مالك" .

(90/561)

قال الحافظ أبو عمر : الحجة عند التنازع والاختلاف سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد صح من حديث أبي قتادة أنه أصغى لها الإناء حتى شربت .

الحديث .

وعليه اعتماد الفقهاء في كل مصر إلا أبا حنيفة ومن قال بقوله ؛ فإنه كان يكره سؤره .

وقال : إن توضأ به أحد أجزأه ، ولا أعلم حجة لمن كره الوضوء بسؤر الهرّة أحسن من أنه لم

يبلغه حديث أبي قتادة ، وبلغه حديث أبي هريرة في الكلب فقاس الهرّ عليه ، وقد فرقت السنة بينهما في باب التعبد في غسل الإناء ، ومن حجَّتْه السنة خاصمته ، وما خالفها مطرح.

وبالله التوفيق .

ومِن حجتهم أيضاً ما رواه قرّة بن خالد عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " طهور الإناء إذا ولغ فيه الهر أن يغسل مرة أو مرتين " شك قرة .

وهذا الحديث لم يرفعه إلا قرة بن خالد ، وقرة ثقة ثبت .

قلت : هذا الحديث أخرجه الدَّارَقُطْنِيّ ، ومتنه : " طهور الإناء إذا ولغ فيه الكلب أن يغسل سبع مرات الأولى بالتراب والهر مرة أو مرتين " قرة شك .

قال أبو بكر : كذا رواه أبو عاصم مرفوعاً ، ورواه غيره عن قرة (ولوغ الكلب) مرفوعاً و (ولوغ الهر) موقوفاً .

وروى أبو صالح عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يغسل الإناء من الهر كما يغسل من الكلب " قال الدَّارَقُطْنِيّ : لا يثبت هذا مرفوعاً والمحفوظ من قول أبي هريرة واختلف عنه .

وذكر معمر وابن جريج عن ابن طاوس عن أبيه أنه كان يجعل الهر مثل الكلب .

وعن مجاهد أنه قال في الإناء يلغ فيه السنور قال : اغسله سبع مرات .

قاله الدَّارَقُطْنِيّ .

التاسعة : الماء المستعمل طاهر إذا كانت أعضاء المتوضىء به طاهرة ؛ إلا أن مالكاً وجماعة من الفقهاء الجِلّة كانوا يكرهون الوضوء به .

وقال مالك : لا خير فيه ، ولا أحِب لأحد أن يتوضأ به ، فإن فعل وصلّى لم أر عليه إعادة الصلاة ويتوضأ لما يستقبل .

(91/561)

وقال أبو حنيفة والشافعيّ وأصحابهما : لا يجوز استعماله في رفع الحدث ، ومن توضأ به أعاد ؛ لأنه ليس بماء مطلق ، ويتيمّم واجده لأنه ليس بواجد ماء .

وقال بقولهم في ذلك أصبغ بن الفرج ، وهو قول الأوزاعيّ .

واحتجوا بحديث الصُّنابِحيّ خرجه مالك وحديث عمرو بن عنبسة أخرجه مسلم ، وغير ذلك من الآثار .

وقالوا : الماء إذا توضىء به خرجت الخطايا معه ؛ فوجب التنزه عنه لأنه ماء الذنوب .

قال أبو عمر : وهذا عندي لا وجه له ؛ لأن الذنوب لا تنجس الماء لأنها لا أشخاص لها ولا أجسام تمازج الماء فتفسده ، وإنما معنى قوله : "خرجت الخطايا مع الماء" إعلام منه بأن

الوضوء للصلاة عمل يكفر الله به السيئات عن عباده المؤمنين رحمة منه بهم وتفضلاً عليهم .

وقال أبو ثور وداود مثل قول مالك ، وأن الوضوء بالماء المستعمل جائز ؛ لأنه ماء طاهر لا ينضاف إليه شيء وهو ماء مطلق .

واحتجوا بإجماع الأمة على طهارته إذا لم يكن في أعضاء المتوضىء نجاسة .

وإلى هذا ذهب أبو عبد الله المَرْوَزِيّ محمد بن نصر .

وروي عن عليّ بن أبي طالب وابن عمر وأبي أُمامة وعطاء بن أبي رَبَاح والحسن البصري والنَّخَعِيّ ومكحول والزهريّ أنهم قالوا فيمن نسي مسح رأسه فوجد في لحيته بللاً : إنه يجزئه أن يمسح بذلك البلل رأسه ؛ فهؤلاء كلهم أجازوا الوضوء بالماء المستعمل .

روى عبد السلام بن صالح حدّثنا إسحاق بن سُوِيد عن العلاء بن زياد عن رجل من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم مرضى : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج عليهم ذات يوم وقد اغتسل وقد بقيت لمعة من جسده ولم يصبها الماء ، فقلنا : يا رسول الله ، هذه لمعة لم يصبها الماء ؛ فكان له شعر وارد ، فقال بشعره هكذا على المكان فبَلَّه .

أخرجه الدَّارَقُطْنِيّ ، وقال : عبد السلام بن صالح هذا بصريّ وليس بقويّ ، وغيره من الثقات يرويه عن إسحاق عن العلاء مرسلاً ، وهو الصواب .

قلت : الراوي الثقة عن إسحاق بن سُويد العدوي عن العلاء بن زياد العدوي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم اغتسل . . .

؛ الحديث فيما ذكره هشيم .

قال ابن العربي : "مسألة الماء المستعمل إنما تنبني على أصل آخر ، وهو أن الآلة إذا أدّى بها فرض هل يؤدي بها فرض آخر أم لا ؛ فمنع ذلك المخالف قياساً على الرقبة إذا أدّى بها فرض عتق لم يصلح أن يتكرر في أداء فرض آخر ؛ وهذا باطل من القول ، فإن العتق إذا أتى على الرق أتلفه فلا يبقى محل لأداء الفرض بعتق آخر .

ونظيره من الماء ما تلف على الأعضاء فإنه لا يصح أن يؤدّي به فرض آخر لتلف عينه حِسّاً كما تلف الرق في الرقبة بالعتق حكماً ، وهذا نفيس فتأملوه" .

العاشرة : لم يفرق مالك وأصحابه بين الماء تقع فيه النجاسة وبين النجاسة يرد عليها الماء ، راكداً كان الماء أو غير راكد ؛ لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الماء لا ينجسه شيء إلا ما غلب عليه فغيّر طعمه أو لونه أو ريحه " وفرقت الشافعية فقالوا : إذا وردت النجاسة على الماء تنجس ؛ واختاره ابن العربي .

وقال : من أصول الشريعة في أحكام المياه أن ورود النجاسة على الماء ليس كورود الماء على النجاسة ؛ لقول النبي صلى الله عليه وسلم :

" إذا استيقظ أحدكم من نومه فلا يغمس يده في الإناء حتى يغسلها ثلاثاً فإن أحدكم لا يدري أين باتت يده " فمنع من ورود اليد على الماء وأمر بإيراد الماء عليها ، وهذا أصل بديع في الباب ، ولولا وروده على النجاسة قليلاً كان أو كثيراً لما طهرت .

(93/561)

وقد ثبت " عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال في بول الأعرابي في المسجد : "صبّوا عليه ذَنُوباً من ماء" " قال شيخنا أبو العباس : واستدلّوا أيضاً بحديث القلتين ، فقالوا : إذا كان الماء دون القلتين فحلته نجاسة تنجس وإن لم تغيّره ، وإن ورد ذلك القدر فأَقبل على النجاسة فأذهب عينها بقي الماء على طهارته وأزال النجاسة وهذه مناقضة ، إذ المخالطة قد حصلت في الصورتين ، وتفريقهم بورود الماء على النجاسة وورودها عليه فرق صوريّ ليس فيه من الفقه شيء ، فليس الباب باب التعبدات بل من باب عقلية المعاني ، فإنه من باب إزالة النجاسة وأحكامها .

ثم هذا كله منهم يرده قوله عليه الصلاة والسلام : " الماء طهور لا ينجسه شيء إلا ما غير لونه أو طعمه أو ريحه " .

قلت : هذا الحديث أخرجه الدّارَقُطْنِيّ عن رِشدِين بن سعد أبي الحجاج عن معاوية بن

صالح عن راشد بن سعد عن أبي أمامة الباهلي وعن ثوبان عن النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وليس فيه ذكر اللون .

وقال : لم يرفعه غير رشدين بن سعد عن معاوية بن صالح وليس بالقوي ، وأحسن منه في الاستدلال ما رواه أبو أسامة عن الوليد بن كثير عن محمد بن كعب عن عبيد الله بن عبد الله بن رافع بن خدِيج عن أبي سعيد الخدري قال قيل : يا رسول الله ، أنتوضأ من بئر بُضاعة ، وهي بئر تلقى فيها الحيض ولحوم الكلاب والنتن ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الماء طهور لا ينجسه شيء " أخرجه أبو داود والترمذي والدَّارَقُطْنِيّ كلهم بهذا الإسناد .

وقال أبو عيسى : هذا حديث حسن ، وقد جوّد أبو أسامة هذا الحديث ولم يرو أحد حديث أبي سعيد في بئر بُضاعة أحسن مما روى أبو أسامة .

فهذا الحديث نص في ورود النجاسة على الماء ، وقد حكم صلى الله عليه وسلم بطهارته وطهوره .

قال أبو داود : سمعت قتيبة بن سعيد قال : سألت قيِّم بئر بضاعة عن عمقها ؛ قلت : أكثر ما يكون الماء فيها ؟ قال : إلى العانة .

قلت : فإذا نقص ؟ قال : دون العورة .

قال أبو داود : وقدّرت بئر بُضاعة بردائي مددته عليها ثم ذرعته فإذا عرضها ستة أذرع ، وسألت الذي فتح لي باب البستان فأدخلني إليه : هل غيّر بناؤها عما كانت عليه ؟ فقال لا .

ورأيت فيها ماء متغير اللون .

فكان هذا دليلاً لنا على ما ذكرناه ، غير أن ابن العربي قال : إنها في وسط السَّبَخة ، فماؤها يكون متغيّراً من قرارها ؛ والله أعلم .

الحادية عشرة : الماء الطاهر المطهر الذي يجوز به الوضوء وغسل النجاسات هو الماء القراح الصافي من ماء السماء والأنهار والبحار والعيون والآبار ، وما عرفه الناس ماء مطلقاً غير مضاف إلى شيء خالطه كما خلقه الله عز وجل صافياً ولا يضره لون أرضه على ما بيناه .

وخالف في هذه الجملة أبو حنيفة وعبد الله بن عمرو وعبد الله بن عمر فأما أبو حنيفة فأجاز الوضوء بالنبيذ في السفر ، وجوز إزالة النجاسة بكل مائع طاهر .

فأما بالدهن والمرق فعنه رواية أنه لا يجوز إزالتها به .

إلا أن أصحابه يقولون : إذا زالت النجاسة به جاز .

وكذلك عنده النار والشمس ؛ حتى أن جلد الميتة إذا جفّ في الشمس طهر من غير دباغ .

وكذلك النجاسة على الأرض إذا جفت بالشمس فإنه يطهر ذلك الموضع ، بحيث تجوز الصلاة عليه ، ولكن لا يجوز التيمم بذلك التراب .

قال ابن العربي : لما وصف الله سبحانه الماء بأنه طهور وامتن بإنزاله من السماء ليطهرنا به دلّ على اختصاصه بذلك ؛ وكذلك " قال عليه الصلاة والسلام لأسماء بنت الصدّيق حين سألته عن دم الحيض يصيب الثوب : "حُتِّيه ثم اقرِصيه ثم اغسليه بالماء" " فلذلك لم يلحق غير الماء بالماء لما في ذلك من إبطال الامتنان ، وليست النجاسة معنى محسوساً حتى يقال كل ما أزالها فقد قام به الغرض ، وإنما النجاسة حكم شرعي عين له صاحب الشرع الماء فلا يلحق به غيره إذ ليس في معناه ، ولأنه لو لحق به لأسقطه ، والفرع إذا عاد إلحاقه بالأصل في إسقاطه سقط في نفسه .

(95/561)

وقد كان تاج السنة ذو العزابا المرتضى الدبوسي يسميه فرخ زنى .

قلت : وأما ما استُدِلّ به على استعمال النبيذ فأحاديث واهية ، ضعاف لا يقوم شيء

منها على ساق ؛ ذكرها الدَّارَقُطْنِيّ وضعفها ونصّ عليها .

وكذلك ضعف ما روي عن ابن عباس موقوفاً : "النبيذ وضوء لمن لم يجد الماء" .

في طريقه ابن محرز متروك الحديث .

وكذلك ما روي عن علي أنه قال : لا بأس بالوضوء بالنبيذ .

الحجاج وأبو ليلى ضعيفان .

وضعف حديث ابن مسعود وقال : تفرّد به ابن لهيعة وهو ضعيف الحديث .

وذكر عن علقمة بن قيس قال قلت لعبد الله بن مسعود : أشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أحد منكم ليلة أتاه داعي الجن ؟ فقال : لا .

قلت : هذا إسناد صحيح لا يختلف في عدالة رواته .

وأخرج الترمذي حديث " ابن مسعود قال : سألني النبي صلى الله عليه وسلم : "ما في إدواتك" فقلت : نبيذ .

فقال : "تمرة طيبة وماء طهور" قال : فتوضأ منه "

قال أبو عيسى : وإنما روي هذا الحديث عن أبي زيد عن عبد الله عن النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وأبو زيد رجل مجهول عند أهل الحديث لا نعرف له رواية غير هذا الحديث ، وقد رأى بعض أهل العلم الوضوء بالنبيذ ؛ منهم سفيان وغيره ، وقال بعض أهل العلم : لا يتوضأ بالنبيذ ، وهو قول الشافعي وأحمد وإسحاق ، وقال إسحاق : إن ابتلي رجل بهذا

فتوضأ بالنبيذ وتيَمَّم أحب إلي .

قال أبو عيسى : وقول من يقول لا يتوضأ بالنبيذ أقرب إلى الكتاب والسنة وأشبه ؛ لأن الله تعالى قال : ﴿ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيداً طَيِّباً ﴾ [النساء : 43] .

وهذه المسألة مطولة في كتب الخلاف ؛ وعمدتهم التمسك بلفظ الماء حسبما تقدم في "المائدة" بيانه والله أعلم .

(96/561)

الثانية عشرة : لما قال الله تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السمآء مَآءً طَهُوراً ﴾ وقال : ﴿ لِّيُطَهِّرَكُمْ بِهِ ﴾ [الأنفال : 11] توقف جماعة في ماء البحر ؛ لأنه ليس بمنزل من السماء ؛ حتى رووا عن عبد الله ابن عمر وابن عمرو معاً أنه لا يتوضأ به ؛ لأنه نار ولأنه طبق جهنم .

ولكن النبيّ صلى الله عليه وسلم بيّن حكمه حين قال لمن سأله : " هو الطهور ماؤه الحِلّ ميتته " أخرجه مالك .

وقال فيه أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .

وهو قول أكثر الفقهاء من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم ، منهم أبو بكر وعمر وابن عباس ، لم يروا بأساً بماء البحر ، وقد كره بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم

الوضوء بماء البحر ؛ منهم ابن عمر وعبد الله بن عمرو ، وقال عبد الله بن عمرو : هو نار .

قال أبو عمر ؛ وقد سئل أبو عيسى الترمذي عن حديث مالك هذا عن صفوان بن سُلَيم فقال : هو عندي حديث صحيح .

قال أبو عيسى فقلت للبخاري : هشيم يقول فيه ابن أبي بَرْزة .

فقال : وَهِم فيه ، إنما هو المغيرة بن أبي بُرْدة .

قال أبو عمر : لا أدري ما هذا من البخاري رحمه الله ، ولو كان صحيحاً لأخرجه في مصنفه الصحيح عنده ، ولم يفعل لأنه لا يعول في الصحيح إلا على الإسناد .

وهذا الحديث لا يحتج أهل الحديث بمثل إسناده ، وهو عندي صحيح لأن العلماء تلقوه بالقبول له والعمل به ، ولا يخالف في جملته أحد من الفقهاء ، وإنما الخلاف بينهم في بعض معانيه .

وقد أجمع جمهور من العلماء وجماعة أئمة الفتوى بالأمصار من الفقهاء : أن البحر طهور ماؤه ، وأن الوضوء به جائز ؛ إلا ما روي عن عبد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الله بن عمرو بن العاص أنهما كرها الوضوء بماء البحر ، ولم يتابعهما أحد من فقهاء الأمصار على ذلك ولا عرج عليه ، ولا التفت إليه لحديث هذا الباب .

وهذا يدلّك على اشتهار الحديث عندهم ، وعملهم به وقبولهم له ، وهو أولى عندهم من الإسناد الظاهر الصحة لمعنى ترده الأصول .

وبالله التوفيق .

قال أبو عمر : وصفوان بن سُلَيم مولى حميد بن عبد الرحمن بن عوف الزهري ، من عُبّاد أهل المدينة وأتقاهم لله ، ناسكاً ، كثير الصدقة بما وجد من قليل وكثير ، كثير العمل ، خائفاً لله ، يكنى أبا عبد الله ، سكن المدينة لم ينتقل عنها ، ومات بها سنة اثنتين وثلاثين ومائة .

ذكر عبد الله بن أحمد بن حنبل قال : سمعت أبي يسأل عن صفوان بن سُلَيم فقال : ثقة من خيار عباد الله وفضلاء المسلمين .

وأما سعيد بن سلمة فلم يرو عنه فيما علمت إلا صفوان والله أعلم ومن كانت هذه حاله فهو مجهول لا تقوم به حجة عند جميعهم .

وأما المغيرة بن أبي بُرْدة فقيل عنه إنه غير معروف في حملة العلم كسعيد بن سلمة .

وقيل : ليس بمجهول .

قال أبو عمر : المغيرة بن أبي بردة وجدت ذكره في مغازي موسى بن نصير بالمغرب ، وكان موسى يستعمله على الخيل ، وفتح الله له في بلاد البربر فتوحات في البر والبحر .

وروى الدَّارَقُطْنِيّ من غير طريق مالك عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من لم يطهره ماء البحر فلا طهره الله " قال إسناد حسن .

الثالثة عشرة : قال ابن العربي : توهّم قوم أن الماء إذا فضلت للجنب منه فضلة لا يتوضأ به ، وهو مذهب باطل ، فقد ثبت عن ميمونة أنها قالت : أجنبت أنا ورسول الله صلى الله عليه وسلم واغتسلت من جَفْنة وفضلت فضلة ، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ليغتسل منه فقلت : إني قد اغتسلت منه .

فقال : " إن الماء ليس عليه نجاسة أو إن الماء لا يُجْنِب " قال أبو عمر : وردت آثار في هذا الباب مرفوعة في النهي عن أن يتوضأ الرجل بفضل المرأة .

وزاد بعضهم في بعضها : ولكن ليغترفا جميعاً .

فقالت طائفة : لا يجوز أن يغترف الرجل مع المرأة في إناء واحد ؛ لأن كل واحد منهما متوضىء بفضل صاحبه .

وقال آخرون : إنما كره من ذلك أن تنفرد المرأة بالإناء ثم يتوضأ الرجل بعدها بفضلها .

وكل واحد منهم روى بما ذهب إليه أثراً .

(98/561)

والذي ذهب إليه الجمهور من العلماء وجماعة فقهاء الأمصار أنه لا بأس أن يتوضأ الرجل بفضل المرأة وتتوضأ المرأة من فضله ، انفردت المرأة بالإناء أو لم تنفرد .

وفي مثل هذا آثار كثيرة صحاح .

والذي نذهب إليه أن الماء لا ينجسه شيء إلا ما ظهر فيه من النجاسات أو غلب عليه منها ؛ فلا وجه للاشتغال بما لا يصح من الآثار والأقوال .

والله المستعان .

روى الترمذيّ عن ابن عباس قال : حدثتني ميمونة قالت : كنت أغتسل أنا ورسول الله صلى الله عليه وسلم من إناء واحد من الجنابة .

قال هذا حديث حسن صحيح .

وروى البخاريّ عن عائشة قالت : كنت اغتسل أنا والنبيّ صلى الله عليه وسلم من إناء واحد يقال له الفَرَق .

وفي "صحيح مسلم" عن ابن عباس : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يغتسل بفضل ميمونة .

وروى الترمذي عن ابن عباس قال : اغتسل بعض أزواج النبي صلى الله عليه وسلم في جَفْنة فأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتوضأ منه فقالت : يا رسول الله ، إني كنت جنباً .

قال : " إن الماء لا يُجْنِب " قال : هذا حديث حسن صحيح ، وهو قول سفيان الثوريّ ومالك والشافعي .

وروى الدَّارَقُطْنِيّ عن عمرة عن عائشة رضي الله عنها قالت : كنت أتوضأ أنا والنبيّ صلى الله عليه وسلم من إناء واحد وقد أصابت الهرة منه قبل ذلك .

قال : هذا حديث حسن صحيح .

وروي أيضاً عن رجل من بني غِفار قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن فضل طهور المرأة .

وفي الباب عن عبد الله بن سَرْجِس ، وكره بعض الفقهاء فضل طهور المرأة ، وهو قول أحمد وإسحاق .

الرابعة عشرة : روى الدَّارَقُطْنِيّ عن زيد بن أسلم مولى عمر بن الخطاب أن عمر بن الخطاب كان يسخن له الماء في قُمْقُمَة ويغتسل به .

قال : وهذا إسناد صحيح .

وروي " عن عائشة قالت : دخل عليّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد سخَّنت ماء في الشمس .

فقال : "لا تفعلي يا حميراء فإنه يورث البرص" " رواه خالد بن إسماعيل المخزومي عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة ، وهو متروك .

ورواه عمرو بن محمد الأعشم عن فليح عن الزهريّ عن عروة عن عائشة .

وهو منكر الحديث ، ولم يروه غيره عن فليح ، ولا يصح عن الزهري ؛ قاله الدّارَقُطْنِيّ .

الخامسة عشرة : كل إناء طاهر فجائز الوضوء منه إلا إناء الذهب والفضة ؛ لنهي رسول الله صلى الله عليه وسلم عن اتخاذهما .

وذلك والله أعلم للتشبُّه بالأعاجم والجبابرة لا لنجاسة فيهما .

ومن توضأ فيهما أجزأه وضوءه وكان عاصياً باستعمالهما .

وقد قيل : لا يجزىء الوضوء في أحدهما .

والأوّل أكثر ؛ قاله أبو عمر .

وكل جلد ذُكِّي فجائز استعماله للوضوء وغير ذلك .

وكان مالك يكره الوضوء في إناء جلد الميتة بعد الدباغ ؛ على اختلاف من قوله .

وقد تقدّم في "النحل" .

قوله تعالى : ﴿ لِّنُحْيِيَ بِهِ ﴾ أي بالمطر .

﴿ بَلْدَةً مَّيْتاً ﴾ بالجدوبة والمحل وعدم النبات .

قال كعب : المطر روح الأرض يحييها الله به .

وقال : ﴿ ميتاً ﴾ ولم يقل ميتة لأن معنى البلدة والبلد واحد ؛ قاله الزجاج .

وقيل : أراد بالبلد المكان .

﴿ وَنُسْقِيَهِ ﴾ قراءة العامة بضم النون .

وقرأ عمر بن الخطاب وعاصم والأعمش فيما روى المفضّل عنهما ﴿ نَسْقِيَهُ ﴾ (بفتح) النون .

﴿ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَاماً وَأَنَاسِيّ كَثِيراً ﴾ أي بشراً كثيراً وأناسيّ واحده إنسي نحو جمع الْقُرْقُور قَرَاقير وقَرَاقِر في قول الأخفش والمبرد وأحد قولي الفراء ؛ وله قول آخر وهو أن يكون واحده إنساناً ثم تبدل من النون ياء ؛ فتقول : أناسي ، والأصل أناسين ، مثل سِرحان وسراحين ، وبستان وبساتين ؛ فجعلوا الياء عوضاً من النون ، وعلى هذا يجوز سراحي وبساتي ، لا فرق بينهما .

قال الفراء : ويجوز ﴿ أَنَاسِي ﴾ بتخفيف الياء التي فيما بين لام الفعل وعينه ؛ مثل قراقير وقراقر .

(100/561)

وقال ﴿ كَثِيراً ﴾ ولم يقل كثيرين ؛ لأن فعيلاً قد يراد به الكثرة ؛ نحو ﴿ وَحَسُنَ أولئك رَفِيقاً ﴾ [النساء : 69] .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ ﴾ يعني القرآن ، وقد جرى ذكره في أوّل السورة : قوله تعالى : ﴿ تَبَارَكَ الذي نَزَّلَ الفرقان ﴾ .

وقوله : ﴿ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذكر بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي ﴾ [الفرقان : 29] وقوله : ﴿ اتخذوا هذا القرآن مَهْجُوراً ﴾ [الفرقان : 30] .

﴿ لِيَذَّكَّرُواْ فأبى أَكْثَرُ الناس إِلاَّ كُفُوراً ﴾ أي جحوداً له وتكذيباً به .

وقيل : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ ﴾ هو المطر .

روي عن ابن عباس وابن مسعود : وأنه ليس عام بأكثر مطراً من عام ولكن الله يصرِّفه حيث يشاء ، فما زيد لبعض نقص من غيرهم .

فهذا معنى التصريف .

وقيل : ﴿ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ ﴾ وابلاً وطَشّاً وطَلاّ ورِهاما الجوهري : الرهام الأمطار اللينة ورَذَاذاً .

وقيل : تصريفه تنويع الانتفاع به في الشرب والسقي والزراعات به والطهارات وسقي البساتين والغسل وشبهه .

﴿ لِيَذَّكَّرُواْ فأبى أَكْثَرُ الناس إِلاَّ كُفُوراً ﴾ قال عكرمة : هو قولهم في الأنواء : مطرنا بنوء

كذا .

قال النحاس : ولا نعلم بين أهل التفسير اختلافاً أن الكفر هاهنا قولهم مطرنا بنوء كذا وكذا ؛ وأن نظيره فعل النجم كذا ، وأن كل من نسب إليه فعلاً فهو كافر .

(101/561)

وروى الربيع بن صبيح قال : مُطِر الناس على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة ، فلما أصبح قال النبي صلى الله عليه وسلم : " أصبح الناس فيها رجلين شاكر وكافر فأما الشاكر فيحمد الله تعالى على سقياه وغياثه وأما الكافر فيقول مُطِرنا بنوء كذا وكذا " وروي من حديث ابن مسعود عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " ما من سنة بأمطر من أخرى ولكن إذا عمل قوم بالمعاصي صرف الله ذلك إلى غيرهم فإذا عصوا جميعاً صرف الله ذلك إلى الفيافي والبحار " وقيل : التصريف راجع إلى الريح ، وقد مضى في "البقرة" بيانه .

وقرأ حمزة والكسائي : "لِيَذْكُرُوا" مخففة الذال من الذكر .

الباقون مثقلاً من التذَكُّر ؛ أي ليذّكروا نعم الله ويعلموا أن من أنعم بها لا يجوز الإشراك به ؛ فالتذكر قريب من الذكر غير أن التذكر يطلق فيما بعد عن القلب فيحتاج إلى تكلف في

التذكر .

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيراً ﴾ أي رسولاً ينذرهم كما قسمنا المطر ليخف عليك أعباء النبوّة ، ولكنا لم نفعل بل جعلناك نذيراً للكل لترتفع درجتك فاشكر نعمة الله عليك .

﴿ فَلاَ تُطِعِ الكافرين ﴾ أي فيما يدعونك إليه من اتباع آلهتهم .

﴿ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ ﴾ قال ابن عباس بالقرآن .

ابن زيد : بالإسلام .

وقيل : بالسيف ؛ وهذا فيه بعدٌ ؛ لأن السورة مكية نزلت قبل الأمر بالقتال .

﴿ جِهَاداً كَبِيراً ﴾ لا يخالطه فتور . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 13 صـ ﴾

(102/561)

وقال أبو حيان :

﴿ جعل الليل لباساً ﴾

تشبيهاً بالثوب الذي يغطي البدن ويستره من حيث الليل يستر الأشياء .

والسبات : ضرب من الإغماء يعتري اليقظان مرضاً فشبه النوم به ، والسبت الإقامة في

المكان فكان السبات سكوناً تاماً والنشور هنا الإحياء شبه اليقظة به ليتطابق الإحياء مع الإماتة اللذين يتضمنهما النوم والسبات انتهى .

ومن كلام ابن عطية وقال غيره : السبات الراحة جعل ﴿ النوم سباتاً ﴾ أي سبب راحة .

وقال الزمخشري : السبات الموت وهو كقوله ﴿ وهو الذي يتوفاكم بالليل ﴾ فإن قلت : هلا فسرته بالراحة ؟ قلت : النشور في مقابلته يأباه انتهى .

ولا يأباه إلاّ لو تعين تفسير النشور بالحياة .

وقال أبو مسلم ﴿ نشوراً ﴾ هو بمعنى الانتشار والحركة .

وقال ابن عطية : ويحتمل أن يريد بالنشور وقت انتشار وتفرق لطلب المعاش وابتغاء فضل الله .

و﴿ النهار نشوراً ﴾ وما قبله من باب ليل نائم ونهار صائم ، وهذه الآية مع دلالتها على قدرة الخالق فيها إظهار لنعمته على خلقه ، لأن الاحتجاب بستر الليل كم فيه لكثير من الناس فوائد دينية ودنيوية .

وقال الشاعر :

وكم لظلام الليل عندي من يد . . .

تخبر أن المانوية تكذب

والنوم واليقظة وشبههما بالموت والحياة أي عبرة فيهما لمن اعتبر .

وعن لقمان أنه قال لابنه : يا بني كما تنام فتوقظ فكذلك تموت فتنشر .

وتقدم الخلاف في قراءة الريح بالإفراد والجمع في البقرة .

قال ابن عطية : وقراءة الجمع أوجه لأن عرف الريح متى وردت في القرآن مفردة فإنما هي للعذاب ، ومتى كانت للمطر والرحمة فإنما هي رياح لأن ريح المطر تتشعب وتتداءب وتتفرّق وتأتي لينة ومن ههنا وههنا وشيئاً اثر شيء ، وريح العذاب خرجت لا تتداءب وإنما تأتي جسداً واحداً .

ألا ترى أنها تحطم ما تجد وتهدمه .

قال الرماني : جمعت رياح الرحمة لأنها ثلاثة لواقح : الجنوب ، والصبا ، والشمال .

وأفردت ريح العذاب لأنها واحدة لا تلقح وهي الدبور .

(103/561)

قال أي ابن عطية : يرد هذا قول النبيّ (صلى الله عليه وسلم) : إذا هبت الريح : " اللهم اجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحاً " انتهى .

ولا يسوغ أن يقال : هذه القراءة أوجه لأنه كلاً من القراءتين متواتر والألف واللام في الريح

للجنس فتعم ، وما ذكر من أن قول الرماني يرده الحديث فلا يظهر لأنه يجوز أن يريد بقوله عليه السلام : " رياحاً " الثلاثة اللواقح وبقوله " ولا تجعلها ريحاً " الدبور .

فيكون ما قاله الرماني مطابقاً للحديث على هذا المفهوم .

وتقدم الخلاف في قراءة ﴿ نشراً ﴾ وفي مدلوله في الأعراف ﴿ بين يدي رحمته ﴾ استعارة حسنة أي قدام المطر لأنه يجيء معلماً به .

والطهور فعول إما للمبالغة كنؤوم فهو معدول عن طاهر ، وإما أن يكون اسماً لما يتطهر به كالسحور والفطور ، وإما مصدر لتطهر جاء على غير المصدر حكاه سيبويه .

والظاهر في قوله ﴿ ماء طهوراً ﴾ أن يكون للمبالغة في طهارته وجهة المبالغة كونه لم يشبه شيء بخلاف ما نبع من الأرض ونحوه فإنه تشوبه أجزاء أرضية من مقره أو ممره أو مما يطرح فيه ، ويجوز أن يوصف بالاسم وبالمصدر .

وقال ثعلب : هو ما كان طاهراً في نفسه مطهراً لغيره ، فإن كان ما قاله شرحاً لمبالغته في الطهارة كان سديداً ويعضده ﴿ وينزل عليكم من السماء ماءً ليطهركم به ﴾ وإلاّ ففعول لا يكون بمعنى مفعل ، ومن استعمال طهور للمبالغة قوله تعالى ﴿ وسقاهم ربهم شراباً طهوراً ﴾ وقال الشاعر :

إلى رحج الأكفال غيد من الظبا . . .

عذاب الثنايا ريقهنّ طهور

وقرأ عيسى وأبو جعفر ﴿ ميّتاً ﴾ بالتشديد ووصف بلده بصفة المذكر لأن البلدة تكون في معنى البلد في قوله ﴿ فسقناه إلى بلد ميت ﴾ ورجح الجمهور التخفيف لأنه يماثل فعلاً من المصادر ، فكما وصف المذكر والمؤنث بالمصدر فكذلك بما أشبهه بخلاف المشدد فإنه يماثل فاعلاً من حيث قبوله للتاء إلاّ فيما خص المؤنث نحو طامث .

(104/561)

وقرأ عبد الله وأبو حيوة وابن أبي عبلة والأعمش وعاصم وأبو عمرو في رواية عنهما ﴿ ونَسقيه ﴾ بفتح النون ورويت عن عمر بن الخطاب .

وقرأ يحيى بن الحارث الذماري ﴿ وأناسي ﴾ بتخفيف الياء .

ورويت عن الكسائي ﴿ وأناسي ﴾ جمع إنسان في مذهب سيبويه .

وجمع أنسي في مذهب الفراء والمبرد والزجاج ، والقياس أناسيه كما قالوا في مهلبي مهالبة .

وحكي أناسين في جمع إنسان كسرحان وسراحين ، ووصف الماء بالطهارة وعلل إنزاله بالإحياء والسقي لأنه لما كان الأناسي من جملة ما أنزل له الماء وصف بالطهور وإكراماً له وتتميماً للنعمة عليه ، والتعليل يقتضي أن الطهارة شرط في صحة ذلك كما تقول : حملني الأمير على فرس جواد لأصيد عليه الوحش .

وقدم إحياء الأرض وسقي الأنعام على سقي الأناسي لأن حياتهم بحياة أرضهم وحياة أنعامهم ، فقدم ما هو السبب في ذلك ولأنهم إذا وجدوا ما يسقي أرضهم ومواشيهم وجدوا سقياهم .

ونكر الأنعام والأناسي ووصفا بالكثرة لأن كثيراً منهم لا يعيشهم إلا ما أنزل الله من المطر ، وكذلك ﴿ لنحيي به بلدة ميتاً ﴾ يريد بعض بلاد هؤلاء المتباعدين عن مظانّ الماء بخلاف سكان المدن فإنهم قريبون من الأودية والأنهار والعيون فهم غنيون غالباً عن سقي ماء المطر ، وخص الأنعام من بين ما خلق من الحيوان الشارب لأن الطيور والوحش تبعد في طلب الماء فلا يعوزها الشرب بخلاف الأنعام فإنها قنية الأناسي ومنافعهم متعلقة بها فكان الإنعام عليهم بسقي أنعامهم كالإنعام بسقيهم .

والضمير في ﴿ صرفناه ﴾ عائد على الماء المنزل من السماء ، أي جعلنا إنزال الماء تذكرة بأن يصرفه عن بعض المواضع إلى بعض وهو في كل عام بمقدار واحد قاله الجمهور منهم ابن مسعود وابن عباس ومجاهد ، فعلى هذا التأويل ﴿ إلا كفوراً ﴾ هو قولهم بالأنواء والكواكب قاله عكرمة .

وقيل ﴿ كفوراً ﴾ على الإطلاق لما تركوا التذكر .

(105/561)

وقال ابن عباس أيضاً : عائد على القرآن وإن لم يتقدم له ذكر لوضوح الأمر ويعضده ﴿ وجاهدهم به ﴾ لتوافق الضمائر ، وعلى أنه للمطر يكون به للقرآن .

وقال أبو مسلم : راجع إلى المطر والرياح والسحاب وسائر ما ذكر فيه من الأدلة .

وقال الزمخشري : صرفنا هذا القول بين الناس في القرآن وفي سائر الكتب والصحف التي أنزلت على الرسل ، وهو ذكر إنشاء السحاب وإنزال المطر ليتفكروا ويعتبروا ويعرفوا حق النعمة فيه ويشكروا ، فأبى أكثرهم إلا كفران النعمة وجحودها وقلة الأكتراث بها .

وقيل : صرّفنا المطر بينهم في البلدان المختلفة والأوقات المتغايرة وعلى الصفات المتفاوتة من وابل وطل وجود ورذاذ وديمة ورهام فأبوا إلا الكفور .

وأن يقولوا مطرنا بنوء كذا ولا يذكروا رحمته وصنعته .

وعن ابن عباس : ما من عام أقل مطراً من عام ، ولكن الله قسم ذلك بين عباده على ما يشاء وتلا هذه الآية .

ويروى أن الملائكة يعرفون عدد المطر ومقداره في كل عام لأنه لا يختلف ، ولكن يختلف في البلاد وينتزع من ههنا جواب في تنكير البلدة والأنعام والأناسي كأنه قال : ليحيي به بعض البلاد الميتة ، ونسقيه بعض الأنعام والأناسي وذلك البعض كثير انتهى .

وقرأ عكرمة ﴿ صرَفناه ﴾ بتخفيف الراء .

﴿ ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيراً ﴾ لما علم تعالى ما كابده الرسول من أذى قومه أعلمه أنه تعالى لو أراد لبعث في كل قرية نذيراً فيخفف عنك الأمر ولكنه أعظم أجرك وأجلك إذ جعل إنذارك عاماً للناس كلهم ، وخصك بذلك ليكثر ثوابك لأنه على كثرة المجاهدة يكون الثواب ، وليجمع لك حسنات من آمن بك إذ أنت مؤسسها .

﴿ فلا تطع الكافرين ﴾ يعني كفار قريش فإنهم كانوا استمعوا إليه ورغبوا أن يرجع إلى دين آبائهم ويملكونه عليهم ويجمعون له مالاً عظيماً فنهاه تعالى عن طاعتهم حتى يظهر لهم أنه لا رغبة له في شيء من ذلك ، لكن رغبته في الدعاء إلى الله والإيمان به .

(106/561)

﴿ وجاهدهم به ﴾ أي القرآن أو بالإسلام أو بالسيف أو بترك طاعتهم و﴿ جهاداً ﴾ مصدر وصف بكبيراً لأنه يلزمه عليه السلام مجاهدة جميع العالم فهو جهاد كبير . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(107/561)

وقال أبو السعود :

﴿ وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الليل لِبَاساً ﴾

بيانٌ لبعض بدائعِ آثارِ قُدرته تعالى وحكمتِه وروائعِ أحكامِ رحمتِه ونعمتِه الفائضةِ على الخلق . وتلوينُ الخطابِ لتوفيةِ مقامِ الامتنانِ حقَّه . واللامُ متعلّقةٌ بجعلَ وتقديمُها على مفعولَيْه للاعتناءِ ببيانِ كونِ ما يعقبه من منافعِهم . وفي تعقيبِ بيانِ أحوالِ الظلِّ بيانَ أحكامِ اللَّيلِ الذي هُو ظلُّ الأرضِ من لُطف المسلكِ ما لا مزيدَ عليه ، أي هو الذي جعلَ لكُم اللَّيلَ كاللّباسِ يسترُكم بظلامِه كما يسترُكم اللِّباسُ ﴿ والنوم سُبَاتاً ﴾ أي وجعلَ النَّومَ الذي يقعُ في اللَّيلِ غالباً قطعاً عن الأفاعيل المختصَّة بحال اليقظةِ عبَّر عنه بالسُّباتِ الذي هو الموتُ لما بينها من المُشابهةِ التَّامةِ في انقطاعِ أحكامِ الحياةِ وعليه قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الذى يتوفاكم بالليل ﴾ وقوله تعالى : ﴿ اللهُ يَتَوَفَّى الانفس حِينَ مَوْتِهَا والتى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ﴾ ﴿ وَجَعَلَ النهار نُشُوراً ﴾ أي زمانَ بعثٍ من ذلك السُّباتِ كبعثِ الموتى على حذفِ المضافِ وإقامةِ المضافِ إليه مُقامَه أو نفسُ البعثِ على طريق المبالغة وفيه إشارةٌ إلى أنَّ النَّومَ واليقظةَ أنموذجٌ للموتِ والنُّشورِ . وعن لُقمانَ عليه السَّلامُ : يا بُنيَّ كما تنامُ فتوقظُ كذلك تموتُ وتنشرُ .

(108/561)

﴿ وَهُوَ الذى أَرْسَلَ الرياح ﴾ وقُرِىء بالتَّوحيدِ على أنَّ المرادَ هو الجنسُ ﴿ بَشَرًا ﴾ تخفيفُ بُشُرٍ جمع بَشُورٍ أي مُبشّرِينَ . وقُرِىء بُشْرى . وقُرِىء نُشْراً بالنُّونِ جمعُ نَشُورٍ أي ناشرات للسَّحابِ وقُرِىء بالتَّخفيفِ وبفتحِ النُّونِ أيضاً على أنَّه مصدرٌ وُصف به مبالغةً . وقولُه تعالى : ﴿ بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ ﴾ استعارةٌ بديعةٌ أي قُدامَ المطرِ . والالتفاتُ إلى نونِ العظمةِ في قوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السماء مَاء طَهُوراً ﴾ لإبرازِ كمالِ العنايةِ بالإنزالِ لأنَّه نتيجةُ ما ذُكر من إرسالِ الرِّياحِ أي أنزلنا بعظمتِنا بما رتَّبنا من إرسالِ الرِّياحِ من جهةِ الفوقِ ماءً بليغاً في الطَّهارةِ ، وما قيل إنَّه ما يكون طاهراً في نفسه ومطهراً لغيرِه فهو شرحٌ لبلاغته في الطَّهارةِ كما ينبىء عنه قوله تعالى : ﴿ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّن السماء مَاء لِّيُطَهِّرَكُمْ بِهِ ﴾ فإنَّ الطَّهورَ في العربيةِ إمَّا صفةٌ كما تقول ماء طهور أو اسمٌ كما في قوله عليه الصَّلاةُ والسلامُ " التُّرابُ طهورُ المؤمنِ " وقد جاء معنى الطَّهارةِ كما في قولك تطهرتُ طَهوراً حسناً كقولك وَضُوءاً حسناً ومنه قوله عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ : " لا صلاةَ إلا بطَهور " ووصف الماءِ به إشعارٌ بتمام النِّعمةِ فيه وتتميم للنِّعمةِ فيما بعده فإنَّ الماءَ الطَّهورَ أهنأُ وأنفعُ ممَّا خالطه ما يزيل طهوريَّتَه وتنبيه على أنَّ ظواهرهم لما كانت ممَّا ينبغي أنْ يطهروها فبواطنُهم أحقُّ بذلك وأولى .

﴿ لِّنُحْيِيَ بِهِ ﴾ أي بما أنزلنا من الماءِ الطَّهورِ ﴿ بَلْدَةً مَّيْتاً ﴾ بإنبات النَّباتِ ، والتَّذكيرُ لأنَّ البلدة بمعنى البلد ولأنَّه غير جارٍ على الفعل كسائر أبنية المبالغةِ فأُجريَ مُجرى الجامدِ ، والمرادُ به القطعةُ من الأرضِ عامرةً كانت أو غامرةً . ﴿ وَنُسْقِيَهِ ﴾ أي ذلك الماءُ الطَّهورُ عند جريانه في الأوديةِ أو اجتماعه في الحياضِ والمنافعِ أو الآبارِ ﴿ مِمَّا خَلَقْنَا أنعاما وَأَنَاسِيَّ كَثِيراً ﴾ أي أهلَ البَوادي الذي يعيشون بالحَيَا ولذلك نكَّر الأنعامَ والأَناسيَّ ، وتخصيصهم بالذكر لأنَّ أهل القرى والأمصار يقيمون بقُرب الأنهار ، والمنابعُ فيهم وبما لهم من الأنعام غنيةٌ عن سُقيا السَّماءِ ، وسائرُ الحيوانات تبعدُ في طلب الماء فلا يُعوزُها الشُّربُ غالباً من أنَّ مساق الآيات الكريمة كما هو للدّلالة على عِظمِ القُدرة فهو لتعدُّدِ أنواع النّعمةِ ، والأنعامُ حيث كانت قُنيةً للإنسان وعامة منافعهم ومعايشهم مَنوطةٌ بها قُدِّمَ سقيُها على سقيهم كما قُدِّم عليها إحياءُ الأرضِ فإنَّه سببٌ لحياتِها وتعيُّشِها . وقُرِئ نُسقيه وأَسْقَى وسَقَى لغتان وقيل : أسقاهُ جعل له سُقيا وأَناسيَّ جمع إنسيَ أو إنسانٍ كظَرابيّ في ظِربَاء على أنَّ أصله أناسينَ فقُلبت نونُه ياءً وقُرِئ أَناسيْ بالتَّخفيفِ بحذف ياءِ أفاعيل كأناعمَ في أناعيمَ .

(110/561)

﴿ ولقد صرفناه ﴾ أي وبالله لقد كررنا هذا القول الذي هو ذكر إنشاء السحاب وإنزال القطر لما مر من الغايات الجميلة في القرآن وغيره من الكتب السماوية ﴿ بينهم ﴾ أي بين الناس من المتقدمين والمتأخرين ﴿ ليذكروا ﴾ ليتفكروا ويعرفوا بذلك كمال قدرته تعالى وواسع رحمته في ذلك ويقوموا بشكر نعمته حق قيام وقيل الضمير للمطر وتصريفه بينهم إنزاله في بعض البلاد دون غيرها أو في بعض الأوقات دون بعض أو جعله تارة وابلا وأخرى طلا وحينا ديمه ووقتا رهمة والأول هو الأظهر ﴿ فأبى أكثر الناس ﴾ ممن سلف وخلف ﴿ إلا كفورا ﴾ أي لم يفعل إلا كفران النعمة وقلة الاكتراث لها أو وإلا جحودها بأن يقولوا مطرنا بنوء كذا ولا يذكر وصنع الله تعالى ورحمته ومن لا يرى الأمطار إلا من الأنواء فهو كافر بخلاف من يرى أن الكل يخلق الله تعالى والأنواء أمارات لجعله تعالى

(111/561)

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيراً ﴾ نبيّاً يُنذرُ أهلَها فيخفف عليك أعباءَ النبوةِ لكن لم نشأْ ذلك فلم نفعلْه بل قصرنا الأمرَ عليك حسبما ينطقُ به قوله تعالى : ﴿ لِيَكُونَ للعالمين نَذِيراً ﴾ إجلالاً لك وتعظيماً وتفضيلاً لك على سائر الرُّسلِ ﴿ فَلاَ تُطِعِ الكافرين ﴾ أي فقابل ذلك بالثَّباتِ والاجتهاد في الدَّعوةِ وإظهار الحقِّ والتَّشددِ معهم كأنَّه نهيٌ لرسولِ الله صلى الله عليه وسلم عن المُداراة معهم والتَّلطفِ في الدَّعوةِ لما أنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ كان يودُّ أنْ يدخلُوا في الإسلام ويجتهدُ في ذلك بتأليفِ قلوبهم أشدَّ الاجتهاد ﴿ وجاهدهم بِهِ ﴾ أي بالقُرآن بتلاوةِ ما في تضاعيفِه من القوارعِ والزَّواجرِ والمَواعظِ وتذكير أحوال الأممِ المكذِّبةِ ﴿ جِهَاداً كَبِيراً ﴾ فإنَّ دعوةَ كلِّ العالمينَ على الوجهِ المذكورِ جهادٌ كبيرٌ لا يُقادرُ قدرُه كمًّا وكيفاً وقيل : الضَّميرُ المجرورُ لِتركِ الطَّاعةِ المفهوم من النَّهي عن الطَّاعةِ وأنتَ خبيرٌ بأنَّ مجرَّد تركِ الطَّاعةِ يتحقَّقُ بلا دعوةٍ أصلاً وليس فيه شائبةُ الجهادِ فضلاً عن الجهاد الكبيرِ اللهمَّ إلاَّ أنْ تجعلَ الباء للملابسةِ ليكون المعنى وجاهِدْهم بما ذُكر من أحكامِ القُرآن الكريم ملابَساً بتركِ طاعتِهم كأنَّه قيل : فجاهدْهم بالشِّدَّةِ والعُنفِ لا بالمُلاءمةِ والمُداراةِ كما في قوله تعالى : ﴿ يا أيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عَلَيْهِمْ ﴾ وقد جُعل الضَّميرُ لما دلَّ عليه قولُه تعالى : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيراً ﴾ من كونه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ نذيرَ كافَّةِ القُرى لأنَّه لو بُعث في كلِّ قرية نذيراً لوجبَ على كلِّ نذير مجاهدةُ

قريته فاجتمعتْ على رسولِ الله صلى الله عليه وسلم تلك المجاهداتُ كلُّها فكبُر من أجلِ ذلك جهادُه وعظُم فقيل له عليه الصَّلاةُ

(112/561)

والسَّلامُ وجاهدْهم بسببِ كونِك نذيرَ كافَّةِ القُرى جهاداً كبيراً جامعاً لكلِّ مُجاهدةٍ . وأنت خبيرٌ بأنَّ بيانَ سببِ كِبَرِ المُجاهدةِ بحسب الكميَّةِ ليس فيه مزيدُ فائدةٍ فإنَّه بيِّنٌ بنفسِه وإنَّما اللائقُ بالمقامِ بيانُ سببِ كبرِها وعظمِها في الكيفيَّةِ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير أبى السعود حـ 6 صـ ﴾

(113/561)

وقال الآلوسى :

﴿ وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الليل لِبَاساً ﴾

بيان لبعض بدائع آثار قدرته عز وجل وروائع أحكام رحمته ونعمته الفائضة على الخلق ، وتلوين الخطاب لتوفية مقام الامتنان حقه ، واللام متعلقة بجعل وتقديمها على مفعوليه

للاعتناء ببيان كون ما بعد من منافعهم ، وفي تعقيب بيان أحوال الظل ببيان أحكام الليل الذي هو ظل الأرض من لطف المسلك ما لا مزيد عليه أي وهو الذي جعل لنفعكم الليل كاللباس يستركم بظلامه كما يستركم اللباس ﴿ وَ ﴾ جعل ﴿ النَّوْمَ ﴾ الذي يقع فيه غالباً بسبب استيلاء الأبخرة على القوى عادة ، وقيل : بشم نسيم يهب من تحت العرش ولا يكاد يصح .

﴿ نَوْمَكُمْ سُبَاتاً ﴾ راحة للأبدان بقطع الأفاعيل التي تكون حال اليقظة ، وأصل السبت القطع ، وقيل : يوم السبت لما جرت العادة من الاستراحة فيه على ما قيل ، وقيل : لأن الله تعالى لم يخلق فيه شيئاً ، ويقال للعليل إذا استراح من تعب العلة : مسبوت ، وإلى هذا ذهب أبو مسلم .

وقال أبو حيان : السبات ضرب من الإغماء يعتري اليقظان مرضاً فشبه النوم به ، والسبت الإقامة في المكان فكان النوم سكوناً ما ﴿ وَجَعَلَ النهار نُشُوراً ﴾ أي ذا نشور ينتشر فيه الناس لطلب المعاش فهو كقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا النهار مَعَاشاً ﴾ [النبأ : 11] وفي جعله نفس النشور مبالغة ، وقيل : نشوراً بمعنى ناشراً على الإسناد المجازي ، وجوز أن يراد بالسبات الموت لما فيه من قطع الإحساس أو الحياة ، وعبر عن النوم به لما بينهما من المشابهة التامة في انقطاع أحكام الحياة ، وعليه قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الذى يتوفاكم بالليل ﴾ [الأنعام : 60] وقوله سبحانه : ﴿ الله يَتَوَفَّى الأنفس حِينَ مِوْتِهَا والتى

لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ﴾ [الزمر : 42] وبالنشور البعث أي وجعل النهار زمان بعث من ذلك الثبات أو نفس البعث على سبيل المبالغة .

(114/561)

وأبى الزمخشري الراحة في تفسير السبات وقال : إنه يأباه النشور في مقابلته إباء العيوف الورد وهو مرنق ، وكأن ذلك لأن النشور في القرآن لا يكاد يوجد بمعنى الانتشار والحركة لطلب المعاش ، وعلل في "الكشف" إباء الزمخشري بذلك وبأن الآيات السابقة واللاحقة مع ما فيها من التذكير بالنعمة والقدرة أدمج فيها الدلالة على الإعادة فكذلك ينبغي أن لا يفرق بين هذه وبين أترابها .

وكأنه جعل جعل الليل لباساً والنوم فيه سباتاً بمجموعه مقابل جعل النهار نشوراً ولهذا كرر جعل فيه لما في النشور من معنى الظهور الحركة الناصبة أو معنى الظهور والبعث ولم يسلك في آية سورة النبأ هذا المسلك لما لا يخفى .

﴿ وَهُوَ الذى أَرْسَلَ الرياح ﴾

وقرأ ابن كثير بالتوحيد على إرادة الجنس بأل أو الاستغراق فهو في معنى الجمع موافقة لقراءة الجمهور ، وقال ابن عطية : قراءة الجمع أوجه لأن الريح متى وردت في القرآن مفردة

فهي للعذاب ومتى كانت للمطر والرحمة جاءت مجموعة لأن ريح المطر تتشعب وتتذأب وتتفرق وتأتي لينة من ههنا وههنا وشيئاً إثر شيء وريح العذاب تأتي جسداً واحداً لا تتذأب إلا ترى أنها تحطم ما تجد وتهدمه .

وقال الرماني : جمعت رياح الرحمة لأنها ثلاثة لواقح الجنوب .

والصبا .

والدبور وأفردت ريح العذاب لأنها واحدة لا تلقح وهي الدبور ، وفي قوله صلى الله عليه وسلم إذا هبت الريح : اللهم اجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحاً إشارة إلى ما ذكر ، وأنت تعلم أن في كلام ابن عطية غفولاً عن التأويل الذي تتوافق به القراءتان ، وقد ذكر في "البحر" أنه لا يسوغ أن يقال في تلك القراءة أنها أوجه من القراءة الأخرى مع أن كلاً منهما متواتر ، وأل في الريح للجنس فتعم ، وما ذكر في التفرقة بين المفرد والمجموع أكثري أو عند عدم القرينة أو في المنكر كما جاء في الحديث ، وسيأتي إن شاء الله تعالى في سورة الروم ما يتعلق بهذا المبحث .

(115/561)

﴿ بَشَرًا ﴾ تخفيف بشراً بضمتين جمع بشور بمعنى مبشر أي أرسل الرياح مبشرات ، وقرىء ﴿ نَشْراً ﴾ بالنون والتخفيف جمع نشور كرسول ورسل ، و ﴿ نَشْراً ﴾ بضم النون والشين وهو جمع لذلك أيضاً أي أرسلها ناشرات للسحاب من النشر بمعنى البعث لأنها تجمعه كأنها تحييه لا من النشر بمعنى التفريق لأنه غير مناسب إلا أن يراد به السوق مجازاً ، و ﴿ نَشْراً ﴾ بفتح النون وسكون الشين على أنه مصدر وصف به مبالغة ، وجوز أن يكون مفعولاً مطلقاً لأرسل لأنه بمعنى نشر والكل متواتر .

وروي عن ابن السميقع أنه قرأ ﴿ بُشْرىً ﴾ بألف التأنيث ﴿ بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ ﴾ أي قدام المطر وقد استعيرت الرحمة له ورشحت الاستعارة أحسن ترشيح ، وجوز أن يكون في الكلام استعارة تمثيلية و ﴿ بَشَرًا ﴾ من تتمة الاستعارة داخل في جملتها ، والالتفات إلى نون العظمة في قوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السماء ﴾ لإبراز كمال العناية لإنزال لأنه نتيجة ما ذكر من إرسال الرياح أي أنزلناه بعظمتنا بما رتبنا من إرسال الرياح من جهة العلو التي ليست مظنة الماء أو من السحاب أو من الجرم المعلوم ، وقد تقدم تفصيل الكلام في ذلك ﴿ مَاء ﴾ الظاهر أنه نعت الماء ، وعليه قيل معناه بليغ الطهارة زائدها ، ووجه في "البحر" المبالغة بأنها راجعة إلى الكيفية باعتبار أنه لم يشبه شيء آخر مما في مقره أو ممره أو ما يطرح فيه كمياه الأرض ، وفسره ثعلب بما كان طاهراً في نفسه مطهراً لغيره .

وتعقبه الزمخشري بأنه إن كان ما قاله شرحاً لبلاغته في الطهارة كان سديداً وإلا فليس

فعول من التفعيل في شيء ، وقال غيره : إن أخذ التطهير فيه يأباه لزوم الطهارة والمبالغة في اللازم لا توجب التعدي .

(116/561)

وأجاب صاحب الكشف بأنه لما لم تكن الطهارة في نفسها قابلة للزيادة رجعت المبالغة فيها إلى انضمام معنى التطهير إليها لا أن اللازم صار متعدياً ، وتعقبه المولى الدواني بأن فيه تأملاً من حيث أن انضمام معنى التطهير لما كان مستفاداً من المبالغة بمعونة عدم قبول الزيادة كانت المبالغة في الجملة سبباً للتعدي ، ثم قال : ويمكن التفصي بأن المعنى اللازم باق بحاله ، والمبالغة أوجبت انضمام المتعدي إليه لا تعدية ذلك اللازم وبينهما فرقان ، وذكر بعض الأجلة أن إفادة المبالغة تعلق الفعل بالغير مما لا يساعده لغة ولا عرف وأين هذا التعلق في قول جرير :

إلى رجح الأكفال غيد من الظبا . . .

عذاب الثنايا ريقهن طهور

ومثله قوله تعالى : ﴿ وسقاهم رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً ﴾ [الإنسان : 21] ومن هذا وأمثاله اختار بعضهم كون المبالغة راجعة إلى الكيفية على ما سمعت عن "البحر" ، وقال بعض

المحققين : إن ﴿ طَهُوراً ﴾ هنا اسم لما يتطهر به كما في قوله صلى الله عليه وسلم : " التراب طهور المؤمن " وفعول كما قال الأزهري في كتاب الزاهر يكون اسم آلة لما يفعل به الشيء كغسول ووضوء وفطور وسحور إلى غير ذلك كما يكون صفة بمعنى فاعل كأكول أو مفعول كصبوب بمعنى مصبوب واسم جنس كذنوب ومصدراً وهو نادر كقبول فيفيد التطهير للغير وضعاً ، ويمكن حمل ما روي عن ثعلب على هذا ، واعتبار كونه طاهراً في نفسه لأن كونه مطهراً للغير فرع ذلك ، وجعل على هذا بدلاً من ماء أو عطف بيان له لا نعتاً فيكون التركيب نحو أرسلت إليك ماء وضوءاً .

وأنت تعلم أن المتبادر فيما نحن فيه كونه نعتاً فإن أمكن ذلك على هذا الوجه بنوع تأويل كان أبعد عن القيل والقال ، وحكى سيبويه أن طهوراً جاء مصدر التطهر في قولهم : تطهرت طهوراً حسناً ، وذكر أن منه قوله عليه الصلاة والسلام : " لا صلاة إلا بطهور " وحمل ما في الآية على ذلك مما لا ينبغي .

(117/561)

وأياً ما كان ففي توصيف الماء به إعظام للمنة كما لا يخفى .

﴿ لِّنُحْيِيَ بِهِ ﴾ أي بما أنزلنا من الماء الطهور ﴿ بَلْدَةً مَّيْتاً ﴾ ليس فيها نبات وذلك

بإنبات النبات به ؛ والمراد بالبلدة الأرض كما في قوله :

أنيخت فألقت بلدة فوق بلدة . . .

قليل بها الأصوات إلا بغامها

وجوز أن يراد بها معناها المعروف وتنكيرها للتنويع ، وتذكير صفتها لأنها بمعنى البلد أو لأن ﴿ مَيْتًا ﴾ من أمثلة المبالغة التي لا تشبه المضارع في الحركات والسكنات وهو يدل على الثبوت فأجري مجرى الجوامد ، ولام ﴿ لِّنُحْيِيَ ﴾ متعلق بأنزلنا وتعلقه بطهوراً ليس بشيء .

وقرأ عيسى .

وأبو جعفر ﴿ مَيْتًا ﴾ بالتشديد ، قال أبو حيان : ورجح الجمهور التخفيف لأنه يماثل فعلاً من المصادر فكما وصف المذكر والمؤنث بالمصدر فكذلك بما أشبهه بخلاف المشدد فإنه يماثل فاعلاً من حيث قبوله للتاء إلا فيما خص المؤنث نحو طامث .

﴿ وَنُسْقِيَهِ ﴾ أي ذلك الماء الطهور وعند جريانه في الأودية أو اجتماعه في الحياض والمناقع والآباء ﴿ مِمَّا خَلَقْنَا أنعاما وَأَنَاسِيَّ كَثِيراً ﴾ أي أهل البوادي الذي يعيشون بالحياء ، ولذلك نكر الأنعام والأناسي فالتنكير للتنويع .

وتخصيص هذا النوع بالذكر لأن أهل القرى والأمصار يقيمون بقرب الأنهار والمنابع فيهم وبما لهم من الأنعام غنية عن سقي السماء وسائر الحيوانات تبعد في طلب الماء فلا يعوزها الشرب غالباً ، ومساق الآيات الكريمة كما هو للدلالة على عظم القدرة كذلك هو لتعداد أنواع النعمة فالأنعام حيث كانت قنية للإنسان وعامة منافعهم ومعايشهم منوطة بها قدم سقيها على سقيهم كما قدم عليها أحياء الأرض فإنه سبب لحياتها وتعيشها فالتقديم من قبيل تقديم الأسباب على المسببات ، وجوز أن يكون تقديم ما ذكر على سقي الأناسي لأنهم إذا ظفروا بما يكون سقي أرضهم ومواشيهم لم يعدموا سقياهم ، وحاصله أنه من باب تقديم ما هو الأهم والأصل في باب الامتنان ، وذكر سقي الأناسي على هذا إرداف وتتميم للاستيعاب ، ومن تبعيضية أو بيانية و ﴿ كَثِيراً ﴾ صفة للمتعاطفين لا على البدل .

وقرأ عبد الله .

وأبو حيوة .

وابن أبي عبلة .

والأعمش .

وعاصم .

وأبو عمرو في رواية عنهما ﴿ وَنُسْقِيَهِ ﴾ بفتح النون ورويت عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه وأسقى وسقى لغتان ، وقيل : أسقاه بمعنى جعل السقيا له وهيأها ، و ﴿ أناسي ﴾ جمع إنسان عند سيبويه وأصله أناسين فقلبت نونه ياء وأدغمت فيما قبلها .

وذهب الفراء .

والمبرد .

والزجاج إلى أنه جمع إنسي ، قال في "البحر" : والقياس أناسية كما قالوا في مهلبى مهالبة . وفي "الدر المصون" أن فعالى إنما يكون جمعاً لما فيه ياء مشددة إذا لم يكن للنسب ككرسي وكراسي وما فيه ياء النسب يجمع على أفاعلة كأزرقي وأزارقة وكون ياء إنسي ليست للنسب بعيد فحقه أن يجمع على أناسية ، وقال في التسهيل : أنه أكثري ، وعليه لا يرد ما ذكر .

(119/561)

﴿ وَلَقَدْ صرفناه ﴾ الضمير للماء المنزل من السماء كالضميرين السابقين ، وتصريفه تحويل أحواله وأوقاته وإنزاله على أنحاء مختلفة أي وبالله تعالى لقد صرفنا المطر ﴿ بَيْنَهُمْ ﴾ أي بين الناس في البلدان المختلفة والأوقات المتغايرة والصفات المتفاوتة من وابل وطل

وغيرهما ﴿ لِّيَذَّكَّرُواْ ﴾ أي ليعتبروا بذلك ﴿ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ أي لم يفعل إلا كفران النعمة وإنكارها رأساً بإضافتها لغيره عز وجل بأن يقول : مطرنا بنوء كذا معتقداً أن النجوم فاعلة لذلك ومؤثرة بذواتها فيه ، وهذا الاعتقاد والعياذ بالله تعالى كفر ، وفي "الكشاف" وغيره أن من اعتقد أن الله عز وجل خالق الأمطار وقد نصب الأنوار دلائل وأمارات عليها وأراد بقوله مطرنا بنوء كذا مطرنا في وقت سقوط النجم الفلاني في المغرب مع الفجر لا يكفر ، وظاهره أنه لا يأثم أيضاً ، وقال الإمام : من جعل الأفلاك والكواكب مستقلة باقتضاء هذه الأشياء فلا شك في كفره وأما من قال : إنه سبحانه جبلها على خواص وصفات تقتضي هذه الحوادث فلعله لا يبلغ خطؤه إلى حد الكفر .

وسيأتي إن شاء الله تعالى منا في هذه المسألة كلام أرجو من الله تعالى أن تستحسنه ذوو الأفهام ويتقوى به كلام الإمام ، ورجوع ضمير ﴿ أَنزَلْنَا ﴾ [الفرقان : 48] إلى الماء المنزل مروى عن ابن عباس .

وابن مسعود .

ومجاهد .

وعكرمة .

وأخرج جماعة عن الأول وصححه الحاكم أنه قال : ما من عام بأقل مطراً من عام ولكن الله تعالى يصرفه حيث يشاء ثم قرأ هذه الآية .

وأخرج الخرائطي في مكارم الأخلاق عن الثاني مثله ، ويفهم من ذلك حمل التصريف على التقسيم ، وقال بعضهم : هو راجع إلى القول المفهوم من السياق وهو ما ذكر فيه إنشاء السحاب وإنزال القطر لما ذكر من الغايات الجليلة وتصريفه تكريره وذكره على وجوه ولغات مختلفة ، والمعنى ولقد كررنا هذا القول وذكرناه على أنحاء مختلفة في القرآن وغيره من الكتب السماوية بين الناس من المتقدمين والمتأخرين ليتفكروا ويعرفوا بذلك كمال قدرته تعالى وواسع رحمته عز وجل في ذلك فأبى أكثرهم ممن سلف وخلف إلا كفران النعمة وقلة الاكتراث بها أو إنكارها رأساً بإضافتها لغيره تعالى شأنه ، واختار هذا القول الزمخشري ، وقال أبو السعود : هو الأظهر ، وأخرج ابن المنذر .

وابن أبي حاتم عن عطاء الخراساني أنه عائد على القرآن ألا ترى قوله تعالى بعد : ﴿ وجاهدهم بِهِ ﴾ [الفرقان : 52] وحكاه في "البحر" عن ابن عباس أيضاً والمشهور عنه ما تقدم ، ولعل المراد ما ذكر فيه من الأدلة على كمال قدرته تعالى وواسع رحمته عز وجل أو نحو ذلك فتأمل ، وأما ما قيل إنه عائد على الريح فليس بشيء .

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيراً ﴾ نبياً ينذر أهلها فتخف عليك أعباء النبوة لكن لم

نشأ ذلك وقصرنا الأمر عليك إجلالاً لك وتعظيماً .

﴿ فَلاَ تُطِعِ الكافرين ﴾ فيما يريدونك عليه وهو تهييج له صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين .

﴿ وجاهدهم بِهِ ﴾ أي بالقرآن كما أخرج ابن جرير .

(121/561)

وابن المنذر عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما وذلك بتلاوة ما فيه من البراهين والقوارع والزواجر والمواعظ وتذكير أحوال الأمم المكذبة ﴿ جِهَاداً كَبِيراً ﴾ فإن دعوة كل العالمين على الوجه المذكور جهاد كبير لا يقادر قدره كماً وكيفاً ، وترتيب ما ذكر على ما قبله حسبما تقتضيه الفاء باعتبار أن قصر الرسالة عليه عليه الصلاة والسلام نعمة جليلة ينبغي شكرها وما ذكر نوع من الشكر فكأنه قيل : بعثناك نذيراً لجميع القرى وفضلناك وعظمناك ولم نبعث في كل قرية نذيراً فقابل ذلك بالثبات والاجتهاد في الدعوة وإظهار الحق ، وفي "الكشف" لبيان النظم الكريم أنه لما ذكر ما يدل على حرصه صلى الله عليه وسلم على طلب هداهم وتمارضهم في ذلك في قوله سبحانه : ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ اتخذ إلهه هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً ﴾ [الفرقان : 43] وذنب بدلائل القدرة والنعمة والرحمة دلالة

على أنهم لا ينفع فيهم الاحتشاد وأنهم يغمطون مثل هذه النعم ويغفلون عن عظمة موجدها سبحانه وجعلوا كالأنعام وأضل وختم بأنه ليس لهم مراد إلا كفور نعمته تعالى ، قيل : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا ﴾ [الفرقان : 51] على معنى أنا عظمناك بهذا الأمر لتستقل بأعبائه وتحوز ما ادخر لك من جنس جزائه فعليك بالمجاهدة والمصابرة ولا عليك من تلقيهم الدعوة بالإباء والمشاجرة وبولغ فيه فجعل حرصه صلى الله عليه وسلم على إيمان هؤلاء المطبوع على قلوبهم طاعة لهم ، وقيل : فلا تطعهم .

(122/561)

ومدار السورة على ما ذكره الطيبي على كونه صلى الله عليه وسلم مبعوثاً على الناس كافة ينذرهم ما بين أيديهم وما خلفهم ولهذا جعل براعة استهلالها ﴿ تَبَارَكَ الذى نَزَّلَ الفرقان على عَبْدِهِ لِيَكُونَ للعالمين نَذِيراً ﴾ [الفرقان : 1] والآية على ما سمعت متعلقة بقوله تعالى : ﴿ أَرَأَيْتَ ﴾ [الفرقان : 43] إلى آخر الآيات ، وفيها من التنويه بشأنه عليه الصلاة والسلام ما فيها وليست مسوقة للتأديب كما وهم .

وقيل : هي متعلقة بما عندها على معنى ولو شئنا لقسمنا النذير بينهم ، كما قسمنا المطر بينهم ولكنا نفعل ما هو الأنفع لهم في دينهم ودنياهم فبعثناك إليهم كافة فلا تطع الخ ، وفيه من

الدلالة على قصور النظر ما فيه .

هذا وجوز أن يكون ضمير ﴿ بِهِ ﴾ عائداً على ترك طاعتهم المفهوم من النهي ولعل الباء حينئذ للملابسة والمعنى وجاهدهم بما ذكر من أحكام القرآن الكريم ملابساً ترك طاعتهم كأنه قيل : وجاهدهم بالشدة والعنف لا بالملائمة والمداراة كما في قوله تعالى : ﴿ يا أيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عَلَيْهِمْ ﴾ [التحريم : 9] وإلا ورد عليه أن مجرد ترك الطاعة يتحقق بلا دعوة أصلاً وليس فيه شائمة الجهاد فضلاً عن الجهاد الكبير ، وجوز أيضاً أن يكون لما دل عليه قوله عز وجل :

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيراً ﴾ [الفرقان : 51] من كونه صلى الله عليه وسلم نذير كافة القرى لأنه لو بعث في كل قرية نذيراً لوجب على كل نذير مجاهدة قريته فاجتمعت على رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك المجاهدات كلها فكبر من أجل ذلك جهاده وعظم فقيل له عليه الصلاة والسلام : وجاهدهم بسبب كونك نذير كافة القرى جهاداً كبيراً جامعاً لكل مجاهدة .

وتعقب بأن بيان سبب كبر المجاهدة بحسب الكمية ليس فيه مزيد فائدة فإنه بين بنفسه وإنما اللائق بالمقام بيان سبب كبرها وعظمها في الكيفية ، وجوز أبو حيان أن يكون الضمير للسيف .

وأنت تعلم أن السورة مكية ولم يشرع في مكة الجهاد بالسيف ، ومع هذا لا يخفى ما فيه ، ويستدل بالآية على الوجه المأثور على عظم جهاد العلماء لأعداء الدين بما يوردون عليهم من الأدلة وأوفرهم حظاً المجاهدون بالقرآن منهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 19 صـ ﴾

(124/561)

وقال القاسمى :

﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاساً ﴾

أي : ساتراً كاللباس : ﴿ وَالنَّوْمَ سُبَاتاً ﴾ أي : راحة للأبدان تستعيض به ما خسرته من قواها : ﴿ وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُوراً ﴾ أي : زمان انتشار لطلب المعاش .

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْراً ﴾ أي : ناشرات للسحاب وفي قراءة بشراً بضم الموحدة بدل النون وسكون الشين ، أي : مبشرات : ﴿ بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ﴾ أي : قدام المطر . وهي استعارة بديعة . استعيرت الرحمة للمطر ثم رشحت . كقوله : ﴿ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ ﴾ [التوبة : 21] ، وجعلها بين يديه تتمة لها . لأن البشير يتقدم المبشر به .

ويجوز أن تكون تمثيلية . وبشراً من تتمة الاستعارة ، داخل في جملتها . ومن قرأ نشراً كان تجريداً لها . لأن النشر يناسب السحاب : ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُوراً ﴾ أي : مطهراً ، لقوله : ﴿ لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ ﴾ [الأنفال : 11] . وهذه الآية أصل في الطهارة بالماء . قال القاضي : وتوصيف الماء به إشعار بالنعمة فيه ، وتتميم للمنة فيما بعده . فإن الماء الطهور أهنأ وأنفع مما خالطه ما يزيل طهوريته . وتنبيه على أن ظواهرهم لما كانت مما ينبغي أن يطهروها ، فبواطنهم بذلك أولى : ﴿ لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً ﴾ أي : بإنبات النبات : ﴿ وَنُسْقِيَهُ ﴾ أي : ذلك الماء : ﴿ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَاماً وَأَنَاسِيَّ كَثِيراً ﴾ قال الكرخي : خص الأنعام بالذكر ، لأنها ذخيرتنا ومدار معاش أكثر أهل المدر . ولذلك قدم سقيها على سقيهم ، كما قدم عليها إحياء الأرض . فإنها سبب لحياتها وتعيشها ، فقدم ما هو سبب حياتهم ومعاشهم .

(125/561)

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ ﴾ أي : كررنا هذا القول الذي هو ذكر إنشاء السحاب وإنزال القطر : ﴿ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا ﴾ أي : ليتفكروا ويعتبروا ويعرفوا حق النعمة فيه ويشكروا : ﴿ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً ﴾ أي : كفران النعمة وجحودها : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ

نَذِيراً ﴾ أي : نبياً ينذر أهله فيخف عليك أعباء النبوة . لكن لم نشأ ذلك ، فلم نفعله . بل قصرنا الأمر عليك حسبما ينطق به قوله تعالى : ﴿ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً ﴾ [1] ، إجلالاً لك وتعظيماً ، وتفضيلاً لك على سائر الرسل .

وقال المهايمي : أي : لكن لم نشأ . لأنه يقتضي تفرق الأمم ، وتكثر الاختلافات . فجعلنا الواحد نذيراً للكل ليطيعوه أو يقاتلهم . والكفار يريدون أن يطيعهم الرسل أو يتركوهم على ما هم عليه : ﴿ فَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ ﴾ أي : فقابل ذلك بالثبات والاجتهاد في الدعوة وإظهار الحق والتشدد والتصبر . ولا تطعهم فيما يريدونك عليه . وأراد بهذا النهي ، تهييجه وتهييج المؤمنين ، وتحريكهم . أي : إثارة غيرته وغيرتهم . وإلا فإطاعته لهم غير متصورة .

وقال أبو السعود : كأنه نهي له ، عليه الصلاة والسلام ، عن المداراة معهم ، والتلطف معهم . أي : لأن في ذلك إضعافاً للحق وتغشية عليه . وطول أمد في سريانه . ولذا قال : ﴿ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ ﴾ أي : بالقرآن وما نزل إليك من الحق : ﴿ جِهَاداً كَبِيراً ﴾ أي : لا يخالطه فتور ، بأن تلزمهم بالحجج والآيات ، وتدعوهم إلى النظر في سائر الآنات ، لتتزلزل عقائدهم ، وتسمج في أعينهم عوائدهم . وهذه الآية من أصرح الأدلة في وجوب مجادلة المبطلين ، ودعوتهم إلى الحق بقوة ، والتفنن في محاجتهم بأفانين الأدلة . فإن الحق يتضح بالأدلة . كما

أن الشهور تشتهر بالأهلّة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 12 صـ 448 .

449 ﴾

(126/561)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا (47) ﴾

مناسبة الانتقال من الاستدلال باعتبار أحوال الظلّ والضَّحاء إلى الاعتبار بأحوال اللّيل والنهار ظاهرة ، فالليل يشبه الظِلّ في أنه ظلمة تعقب نور الشمس .

ومورد الاستدلال المقصد المستفاد من تعريف جُزَأي الجملة وهو قصر إفراد ، أي لا يشركه غيره في جعل الليل والنهار .

أما كون الجعل المذكور بخلق الله فهم يُقرون به ؛ ولكنهم لما جعلوا له شركاء على الإجمال أُبطلت شركتهم بقصر التصرف في الأزمان على الله تعالى لأنه إذا بطل تصرفهم في بعض الموجودات اختلت حقيقة الإلهية عنهم إذ الإلهية لا تقبل التجزئة .

و﴿ لكم ﴾ متعلق بـ ﴿ جعل ﴾ أي من جملة ما خُلق له الليل أنه يكون لباساً لكم .

وهذا لا يقتضي أن الليل خُلق لذلك فقط لأن الليل عَوْد الظلمة إلى جانب من الكرة

الأرضية المحتجب عن شعاع الشمس باستداراته فتحصُل من ذلك فوائد جمة منها ما في قوله تعالى بعد هذا ﴿ وهو الذي جعل الليل والنهار خِلْفَة لمن أراد أن يذكّر . . . ﴾ [الفرقان : 62] إلخ .

وقد رجع أسلوب الكلام من المتكلم إلى الغيبة على طريقة الإلتفات .

و ﴿ لباساً ﴾ مشبه به على طريقة التشبيه البليغ ، أي ساتراً لكم يسْتر بعضَكم عن بعض .

وفي هذا الستر مِنَن كثيرة لقضاء الحوائج التي يجب إخفاؤها .

وتقديم الاعتبار بحالة ستر الليل على الاعتبار بحالة النوم لرعي مناسبة الليل بالظل كما تقدم ، بخلاف قوله : ﴿ وخلقناكم أزواجاً وجعلنا نومكم سباتاً وجعلنا الليل لباساً ﴾ في سورة النبأ (108) ، فإن نعمة النوم أهم من نعمة الستر ، ولأن المناسبة بين نعمة خلق الأزواج وبين النوم أشد .

(127/561)

وقد جمعت الآية استدلالاً وامتناناً فهي دليل على عظم قدرة الخالق ، وهي أيضاً تذكير بنعمة ، فإن في اختلاف الليل والنهار آيات جمّةً لما يدل عليه حصول الظلمة من دِقة نظام

دوران الأرض حول الشمس ومن دقة نظام خلق الشمس ، ولِما يتوقف عليه وجود النهار من تغير دوران الأرض ومن فوائد نور الشمس ، ثم ما في خلال ذلك من نظام النوم المناسب للظلمة حين ترتخي أعصاب الناس فيحصل لهم بالنوم تجدد نشاطهم ، ومن الاستعانة على التستر بظلمة الليل ومن نظام النهار من تجدد النشاط وانبعاث الناس للعمل وسآمتهم من الدعة ، مع ما هو ملائم لذلك من النور الذي به إبصار ما يقصده العاملون .

والسبات له معان متعددة في اللغة ناشئة عن التوسع في مادة السبت وهو القطع .

وأنسب المعاني بمقام الامتنان هو معنى الراحة وإن كان في كلا المعنيين اعتبار بدقيق صنع الله تعالى .

وفسر الزمخشري السبات بالموت على طريقة التشبيه البليغ ناظراً في ذلك إلى مقابلته بقوله : ﴿ وجعل النهار نشوراً ﴾ .

وإعادة فعل ﴿ جعل ﴾ في قوله : ﴿ وجعل النهار نشوراً ﴾ دون أن يعاد في قوله ﴿ والنوم سباتاً ﴾ مشعرة بأنه تنبيه إلى أنه جعلٌ مخالف لجَعْل الليل لباساً .

وذلك أنه أخبر عنه بقوله ﴿ نشوراً ﴾ ، والنشور : بعث الأموات ، وهو إدماج للتذكير بالبعث وتعريض بالاستدلال على من أحالوه ، بتقريبه بالهبوب في النهار .

وفي هذا المعنى قول النبي صلى الله عليه وسلم إذا أصبح " الحمد لله الذي أحيانا بعد إذ أماتنا وإليه النشور "

والنشور : الحياة بعد الموت ، وتقدم قريباً عند قوله تعالى : ﴿ بل كانوا لا يرجون نشوراً ﴾ [الفرقان : 40] .

وهو هنا يحتمل معنيين أن يكون مراداً به البروز والانتشار فيكون ضد اللباس في قوله : ﴿ وهو الذي جعل لكم الليل لباساً ﴾ فيكون الإخبار به عن النهار حقيقياً ، والمنّة في أن النهار ينتشر فيه الناس لحوائجهم واكتسابهم .

(128/561)

ويحتمل أن يكون مراداً به بعث الأجساد بعد موتها فيكون الإخبار على طريقة التشبيه البليغ .

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ﴾

استدلال على الانفراد بالخلق وامتنان بتكوين الرياح والأسحِبة والمطر .

ومناسبة الانتقال من حيث ما في الاستدلال الذي قبله من ذكر حال النشور والامتنان به فانتقل إلى ما في الرّياح من النشور بذكر وصفها بأنها نُشرٌ على قراءة الجمهور ، أو لكونها كذلك في الواقع على قراءة عاصم .

ومردود الاستدلال قصر إرسال الرياح وما عطف عليه على الله تعالى إبطالاً لادعاء

الشركاء له في الإلهية بنفي الشركة في التصرف في هذه الكائنات وذلك ما لا ينكره المشركون كما تقدم مثله في قوله : ﴿ وهو الذي جعل لكم الليل لباساً ﴾ [الفرقان : 47] إلخ .

.

وأطلق على تكوين الرياح فعل ﴿ أرسل ﴾ الذي هو حقيقة في بعث شيء وتوجيهه ، لأن حركة الرياح تشبه السير .

وقد شاع استعمال الإرسال في إطلاق العنان لخيل السباق .

وهذا استدلال بدقيق صنع الله في تكوين الرياح ، فالعامة يعتبرون بما هو داخل تحت مشاهدتهم من ذلك ، والخاصة يدركون كيفية حدوث الرياح وهبوبها واختلافها ، وذلك ناشىء عن التقاء حرارة جانب من الجو ببرودة جانب آخر .

ثم إن الرياح بهبوبها حارة مرة وباردة أخرى تكوّن الأسحبة وتؤذن بالمطر فلذلك وصفت بأنها نُشُر بين يدي المطر .

قرأ الجمهور ﴿ أَرسل الرياح ﴾ بصيغة الجمع وقرأ ابن كثير ﴿ الريح ﴾ بصيغة الإفراد على معنى الجنس .

والقراءتان متحدتان في المعنى ، ولكن غلب جمع الريح في ريح الخير وإفرادُ الريح في ريح العذاب قاله ابن عطية .

وتقدم قوله تعالى ﴿ وتصريف الرياح ﴾ في سورة البقرة (164) .

وقرأ الجمهور نُشُراً ﴾ بنون في أوله وبضمتين جمع نَشُور كرسول ورُسل .

وقرأ ابن عامر بضم فسكون على تخفيف الحركة .

(129/561)

وقرأ حمزة والكسائي وخلف بفتح النون وسكون الشين على أنه من الوصف بالمصدر ، وكلها من النشر وهو البسط كما ينشر الثوب المطوي لأن الرياح تنشر السحاب .

وقرأ عاصم بباء موحدة وسكون الشين جمع بَشُور من التبشير لأنها تبشر بالمطر .

وتقدم قوله ﴿ وهو الذي يرسل الرياح نشراً بين يدي رحمته ﴾ في سورة الأعراف (57) .

والإلتفات من الغيبة إلى التكلم في قوله ﴿ وأنزلنا لنحيي ونسقيه ولقد صرفناه ﴾ للداعي الذي قدمناه في قوله آنفاً ﴿ ثم جعلنا الشمس عليه دليلاً ثم قبضناه إلينا ﴾ [الفرقان : 45 ، 46] .

والمراد بـ ﴿ رحمته ﴾ المطر لأنه رحمة للناس والحيوان بما يُنْبِته من الشجر والمرعى .

وجملة ﴿ وأنزلنا من السماء ماء طهوراً ﴾ عطف على جملة ﴿ أرسل الرياح ﴾ إلخ ،

فهي داخلة في حيز القصر ، أي وهو الذي أنزل من السماء ماء طهوراً .

وضمير ﴿ أنزلنا ﴾ التفات من الغيبة إلى التكلم لأن التكلم أليق بمقام الامتنان .

وتقدم معنى إنزال الماء من السماء عند قوله : ﴿ أو كصيّب من السماء ﴾ في سورة البقرة (19) .

والطَّهور بفتح الطاء من أمثلة المبالغة في الوصف بالمصدر كما يقال : رجل صَبور .

وماء المطر بالغ منتهى الطهارة إذ لم يختلط به شيء يكدره أو يقذره وهو في علم الكيمياء أنقى المياه لخلوه عن جميع الجراثيم فهو الصافي حقاً .

(130/561)

والمعنى : أن الماء النازل من السماء هو بالغ نهاية الطهارة في جنسه من المياه ووصف الماء بالطهور يقتضي أنه مُطهّر لغيره إذ العدول عن صيغة فاعل إلى صيغة فَعول لزيادة معنى في الوصف ، فاقتضاؤه في هذه الآية أنه مطهّر لغيره اقتضاء التزامي ليكون مستكملاً وصف الطهارة القاصرة والمتعدية ، فيكون ذكر هذا الوصف إدماجاً لمنة في أثناء المنن المقصودة ، ويكون كقوله تعالى : ﴿ وينزل عليكم من السماء ماء لِيُطَهّركم به ﴾ [الأنفال : 11] وصف الطهارة الذاتية وتطهيره ، فيكون هذا الوصف إدماجاً ولولا ذلك لكان الأحقّ

بمقام الامتنان وصف الماء بالصفاء أو نحو ذلك .

والبلدة : الأرض .

ووصفها بالحياة والموت مجازان للري والجفاف لأن ري الأرض ينشأ عنه النبات وهو يشبه الحي ، وجفاف الأرض يجفّ به النبات فيشبه الميّت .

ولماء المطر خاصية الإحياء لكل أرض لأنه لخلّوه من الجراثيم ومن بعض الأجزاء المعدنية والترابية التي تشتمل عليها مياه العيون ومياه الأنهار والأودية كان صالحاً بكل أرض وبكل نبات على اختلاف طباع الأرضين والمنابت .

والبلدة : البلد .

والبلد يذكر ويؤنث مثل كثير من أسماء أجناس البقاع كما قالوا : دار ودَارة .

: ووصفت البلدة بميت ، وهو وصف مذكر لتأويل ﴿ بلدة ﴾ بمعنى مكان لقصد التخفيف .

وقال في "الكشاف" ما معناه : إنه لما دل على المبالغة في الاتصاف بالموت ولم يكن جارياً على أمثلة المبالغة نزّل منزلة الاسم الجامد (أي فلم يغير) .

وأحسن من هذا أنه أريد به اسم الميت ، ووصف البلدة به وصف على معنى التشبيه البليغ .

وفي قوله ﴿ لنحي به بلدة ميتاً ﴾ إيماء إلى تقريب إمكان البعث .

و﴿ نُسقيه ﴾ بضم النون مضارع أسقى مثل الذي بفتح النون فقيل هما لغتان يقال : أسقى وسَقى .

قال تعالى : ﴿ قالتا لا نَسقي ﴾ [القصص : 23] بفتح النون .

وقيل : سقى : أعطى الشراب ، وأسقى : هيَّأ الماء للشرب .

(131/561)

وهذا القول أسدّ لأن الفروق بين معاني الألفاظ من محاسن اللغة فيكون المعنى هيَّأناه لشرب الأنعام والأناسي فكل من احتاج للشرب شرب منه سواء من شرب ومن لم يشرب .

و﴿ أنعاماً ﴾ مفعول ثان ل ﴿ نسقيه ﴾ .

وقوله : ﴿ مما خلقنا ﴾ حال من ﴿ أنعاماً وأناسي ﴾ .

و(مِن) تبعيضية .

و(مَا) موصولة ، أي بعض ما خلقناه ، والموصول للإيماء إلى علة الخبر ، أي نسقيهم لأنهم مخلوقات .

ففائدة هذا الحال الإشارة إلى رحمة الله بها لأنها خلقه .

وفيه إشارة إلى أن أنواعاً أخرى من الخلائق تُسقى بماء السماء ، ولكن الاقتصار على ذكر

الأنعام والأناسي لأنهما موقع المنة ، فالأنعام بها صلاح حال البَادين بألبانها وأصوافها وأشعارها ولُحومها ، وهي تشرب من مياه المطر من الأحواض والغدران .

والأناسيّ : جمع إنسيّ ، وهو مرادف إنسان .

فالياء فيه ليست للنسب .

وجُمع على فَعالِيّ مثل كُرسي وكَراسِي .

ولو كانت ياؤه نَسب لَجُمع على أَناسِيَةٍ كما قالوا : صيرفي وصيارفة .

ووصف الأناسيّ بـ ﴿ كثيراً ﴾ لأن بعض الأناسيّ لا يشربون من ماء السماء وهم الذين يشربون من مياه الأنهار كالنيل والفرات ، والآبار والصهاريج ، ولذلك وصف العرب بأنهم بنو ماء السماء .

فالمنة أخص بهم ، قال زيادة الحارثي:

ونحن بنو ماء السماء فلا نرى . . .

لأنفسنا من دون مملكةٍ قصراً

وفي أحاديث ذكر هاجر زوج إبراهيم عليه السلام قال أبو هريرة " فتلك أمّكم يا بني ماءِ السماء " يعني العرب .

وماء المطر لنقاوته التي ذكرناها صالح بأمعاء كل الناس وكل الأنعام دون بعض مياه العيون والأنهار .

ووصف أناسي وهو جمع بكثير وهو مفرد لأن فعيلاً قد يراد به المتعدد مثل رفيق وكذلك قليل قال تعالى : ﴿ واذكروا إذ كنتم قليلاً ﴾ [الأعراف : 86] .

وتقديم ذكر الأنعام على الأناسيّ اقتضاه نسج الكلام على طريقة الأحكام في تعقيبه بقوله : ﴿ ولقد صرفناه بينهم ليذكروا ﴾ ، ولو قدم ذكر ﴿ أناسيَّ ﴾ لتفكك النظم .

(132/561)

ولم يقدم ذكر الناس في قوله تعالى : ﴿ متاعاً لكم ولأنعامكم ﴾ في سورة النازعات (33) لانتفاء الداعي للتقديم فجاء على أصل الترتيب .

وضمير صرفناه ﴾ عائد إلى ﴿ ماء طهوراً ﴾ .

والتصريف : التغيير .

والمراد هنا تغيير أحوال الماء ، أي مقاديره ومواقعه .

وتوكيد الجملة بلام القسم و (قد) لتحقيق التعليل لأن تصرف المطر محقق لا يحتاج إلى التأكيد وإنما الشيء الذي لم يكن لهم علم به هو أن من حكمة تصريفه بين الناس أن يذكُروا نعمة الله تعالى عليهم مع نزوله عليهم وفي حالة إمساكه عنهم ، لأن كثيراً من الناس لا يقدُر قدرَ النعمة إلا عند فقدها فيعلموا أن الله هو الربّ الواحد المختار في خلق الأسباب

والمسببات وقد كانوا لا يتدبرون حكمة الخالق ويسندون الآثار إلى مؤثرات وهمية أو صورية .

ولما كان التذكر شاملاً لشكر المنعم عليهم بإصابة المطر ولتفطن المحرومين إلى سبب حرمانهم إياه لعلهم يستغفرون ، جيء في التعليل بفعل ﴿ ليذكروا ﴾ ليكون علة لحالتي التصريف بينهم .

وقوله : ﴿ فأبى أكثر الناس إلا كفوراً ﴾ تركيب جرى بمادّته وهيئته مجرى المَثَل في الإخبار عن تصميم المخبر عنه على ما بعد حرف الاستثناء ، وذلك يقتضي وجود الصارف عن المستثنى ، أي فصمموا على الكفور لا يرجعون عنه لأن الاستثناء من عموم أشياء مبهمة جعلت كلها مما تعلق به الإباء كأنّ الآيين قد عرضت عليهم من الناس أو من خواطرهم أمورٌ وراجعوا فلم يقبلوا منها إلا الكُفور ، وإن لم يكن هنالك عَرض ولا إباء ، ومنه قوله تعالى في سورة براءة : (32) ﴿ ويأبى الله إلاّ أن يُتمّ نورَه ﴾ ؛ ألاَ ترى أن ذلك استعمل هنا في مقام معارضة المشركين للتوحيد وفي سورة براءة في مقام معارضة أهل الكتاب للإسلام .

وشدّةُ الفريقين في كفرهم معلومة مكشوفة ولم يُستعمل في قوله تعالى في سورة الصّفّ : (8) :

﴿ يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ﴾

والكُفور : مصدر بمعنى الكفر .

(133/561)

وتقدم نظيره في سورة الإسراء ، أي أبوا إلاّ الإشراك بالله وعدم التذكر .

وقرأ الجمهور ﴿ ليذّكّروا ﴾ بتشديد الذال وتشديد الكاف مدغمة فيها التاءُ وأصله ليتذكروا .

وقرأ حمزة والكسائي وخلف بسكون الذال وتخفيف الكاف مضمومة ، أي ليذْكُروا ما هم عنه غافلون .

ويؤخذ من الآية أن الماء المنزّل من السماء لا يختلف مقداره وإنما تختلف مقادير توزيعه على مواقع القَطر ، فعن ابن عباس : ما عامٌ أقل مطراً من عام ولكن الله قسم ذلك بين عباده على ما شاء .

وتلا هذه الآية .

وذكر القرطبي عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " ما من سنة بأمطرَ من أخرى ولكن إذا عمل قوم المعاصي صَرف الله ذلك إلى غيرهم فإذا عصوا جميعاً

صرف الله ذلك إلى الفيافي والبحار " أهـ .

فحصل من هذا أن المقدار الذي تفضل الله به من المطر على هذه الأرض لا تختلف كميته وإنما يختلف توزيعه .

وهذه حقيقة قررها علماء حوادث الجو في القرن الحاضر ، فهو من معجزات القرآن العلمية الراجعة إلى الجهة الثالثة من المقدمة العاشرة لهذا التفسير .

وجوز فريق أن يكون ضمير ﴿ صرفناه ﴾ عائداً إلى غير مذكور معلوم في المقام مرادٍ به القرآن ؛ قالوا لأنه المقصود في هذه السورة فإنها افتتحت بذكره ، وتكرر في قوله : ﴿ إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً ﴾ [الفرقان : 30] .

وأصل هذا التأويل مروي عن عطاء ، ولقوله بعده ﴿ وجاهدهم به جهاداً كبيراً ﴾ [الفرقان : 52] .

وقيل الضمير عائد إلى الكلام المذكور ، أي ولقد صرفنا هذا الكلام وكررناه على ألسنة الرسل ليذّكروا .

وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا (51)

جُملة اعتراض بين ذكر دلائل تفرد الله بالخَلق وذكر منّته على الخَلق .

ومناسبة موقع هذه الجملة وتفريعِها بموقع الآية التي قبلها خفيَّة .

وقال ابن عطية في قوله ﴿ ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيراً ﴾ : اقتضاب يدل عليه ما ذكر .

(134/561)

تقديره : ولكنّا أفردناك بالنذارة وحمّلناك ﴿ فلا تطع الكافرين ﴾ أ هـ .

فإن كان عنى بقوله : اقتضابٌ ، معنى الاقتضاب الاصطلاحي بين علماء الأدب والبيان ، وهو عدم مراعاة المناسبة بين الكلام المنتقَل منه والكلام المنتقَل إليه ، كان عدولاً عن التزام تطلب المناسبة بين هذه الآية والآية التي قبلها ، وليس الخلوّ عن المناسبة بِدْع فقد قال صاحب "تلخيص المفتاح" "وقد يُنقل منه (أي مما شبّب به الكلام) إلى ما لا يلائمه (أي لا يناسب المنتقل منه) ويسمى الاقتضابَ وهو مذهب العرب ومن يليهم من المُخَضْرمين" الخ .

وإذا كان ابن عطية عنى بالاقتضاب معنى القطع (أي الحذف من الكلام) أي إيجاز الحذف كما يشعر به قوله "يدل عليه ما ذُكر تقديره إلخ" ، كأن لم يعرج على اتصال هذه الآية بالتي قبلها .

وفي "الكشاف" : "ولو شئنا لخففنا عنك أعباء نِذارة جميع القرى ولبعثنا في كل قرية نبيئاً

يُنذرها ، وإنما قصرْنا الأمر عليك وعظَّمناك على سائر الرسل (أي بعموم الدعوة) فقابِل ذلك بالتصبر" أ هـ .

وقد قال الطِّيبي : "ومدار السورة على كونه صلى الله عليه وسلم مبعوثاً إلى الناس كافة ولذلك افتتحت بما يُثبت عموم رسالة محمد صلى الله عليه وسلم إلى جميع الناس بقوله تعالى : ﴿ لِيكونَ للعالمين نذيراً ﴾ [الفرقان : 1] .

وليس في كلام "الكشاف" والطيبي إلاّ بيانُ مناسبة الآيةِ لمهمّ أغراض السورة دون بيان مناسبتها للتي قبلها .

(135/561)

والذي أختاره أن هذه الآية متصلة بقوله تعالى : ﴿ وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملةً واحدة ﴾ [الفرقان : 32] الآية ، فبعد أن بيّن إبطال طعنهم فقال : ﴿ كذلك لِنُثَبِّتَ به فؤادك ﴾ [الفرقان : 32] انتقل إلى تنظير القرآن بالكتاب الذي أوتيه موسى عليه السلام وكيف استأصل الله من كذبوه ، ثم استطرد بذكر أمم كذبوا رسلهم ، ثم انتقل إلى استهزاء المشركين بالنبي صلى الله عليه وسلم وأشار إلى تحَرج النبي صلى الله عليه وسلم من إعراض قومه عن دعوته بقوله : ﴿ أرأيت مَن اتخذ إلهَهُ هواه أفأنت تكون عليه

وكيلاً ﴾ [الفرقان : 43] .

وتسلسل الكلام بضرب المَثَل بمَدّ الظل وقبضِه ، وبحال اللّيل والنّهار ، وبإرسال الرياح ، أمارة على رحمة غيثه الذي تحيا به الموات حتى انتهى إلى قوله : ﴿ ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيراً ﴾ ويؤيد ما ذكرنا اشتمال التفريع على ضمير القرآن في قوله ﴿ وجاهدهم به ﴾ .

ومما يزيد هذه الآية اتصالاً بقوله تعالى : ﴿ وقال الذين كفروا لولا نزّل عليه القرآن جملة واحدة ﴾ [الفرقان : 32] أن في بعث نذير إلى كل قرية ما هو أشدّ من تنزيل القرآن مُجَزَّأً ؛ فلو بعَث الله في كل قرية نذيراً لقال الذين كفروا : لولا أرسل رسولٌ واحد إلى الناس جميعاً فإن مطاعنهم لا تقف عند حد كما قال تعالى:

﴿ ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فُصّلت آياتُه أأعجمي وعَربي ﴾ في سورة حم فصلت (44) .

وتفريع فلا تطع الكافرين ﴾ على جملة ﴿ ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيراً ﴾ لأنها تتضمن أنه مرسل إلى المشركين من أهل مكة وهم يطلبون منه الكف عن دعوتهم وعن تنقُّص أصنامهم .

والنهي مستعمل في التحذير والتذكير ، وفعل ﴿ تطع ﴾ في سياق النهي يفيد عموم التحذير من أدنى طاعة .

والطاعة : عمل المرء بما يُطلب منه ، أي فلا تَهِن في الدعوة رعياً لرغبتهم أن تلين لهم .

وبعد أن حذره من الوهن في الدعوة أمره بالحرص والمبالغة فيها .

(136/561)

وعبر عن ذلك بالجهاد وهو الاسم الجامع لمنتهى الطاقة .

وصيغة المفاعلة فيه ليفيد مقابلة مجهودهم بمجهوده فلا يهن ولا يضعف ولذلك وصف بالجهاد الكبير ، أي الجامع لكل مجاهدة .

وضمير ﴿ به ﴾ عائد إلى غير مذكور : فإما أن يعود إلى القرآن لأنه مفهوم من مقام النِّذارة ، وإما أن يعود إلى المفهوم من "لا تطع" وهو الثبات على دعوَته بأن يعصيهم ، فإن النهي عن الشيء أمرٌ بضده كما دل عليه قول أبي حيّة النميري:

فقُلن لها سِرّاً فديناكِ لا يرحْ . . .

صحيحاً وإنْ لم تقتِليه فألمم

فقابل قوله : "لا يرح صحيحاً" بقوله : "وإن لم تقتليه فألمم" كأنه قال : فديناك فاقتليه .

والمعنى : قاومهم بصبرك .

وكِبر الجهاد تكريره والعزم فيه وشدّة ما يلقاه في ذلك من المشقة .

وهذا كقول النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه عند قفوله من بعض غزواته " رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر " قالوا : "وما الجهاد الأكبر" ؟ قال : " مُجاهدة العبد هَواه " رواه البيهقي بسند ضعيف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 19 صـ ﴾

(137/561)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا (47) ﴾

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أنه هو الذي جعل لخلقه الليل لباساً ، والنوم سباتاً ، وجعل لهم النهار نشوراً ، أما جعله لهم الليل لباساً ، فالظاهر أنه لما جعل الليل يغطي جميع من في الأرض بظلامه ، صار لباساً لهم ، يسترهم كما يستر اللباس عورة صاحبه ، وربما انتفعوا بلباس الليل كهروب الأسير المسلم من الكفار في ظلام الليل ، واستتاره به حتى ينجو منهم ، ونحو ذلك من الفوائد التي تحصل بسبب لباس الليل كما قال أبو الطيب المتنبي :

وكم لظلام الليل عندي من يد . . . تخبر أن المانوية تكذب

وقال ردى الأعداء تسري إليهم . . . وزارك فيه ذو الدلال المحجب

وأما جعله لهم النوم سباتاً فأكثر المفسرين على أن المراد بالسبات : الراحة من تعب

العمل بالنهار ، لأن النوم يقطع العمل النهاري ، فينقطع به التعبن وتحصل الاستراحة ، كما هو معروف .

وقال الجوهري في صحاحه : السبات النوم وأصله الراحة ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً ﴾ [النبأ : 9] وقال الزمخشري في الكشاف : والسبات : الموت ، والمسبوت : الميت ، لأنه مقطوع الحياة وهذا ، كقوله : ﴿ وَهُوَ الذي يَتَوَفَّاكُم بالليل ﴾ [الأنعام : 60] .

فإن قلت : هل لا فسرته بالراحة ؟

قلت : النشور في مقابلته يأباه إباء العيوف الورد ، وهو مرنق اه محل الغرض منه .

(138/561)

وإيضاح كلامه : أن النشور هو الحياة بعد الموت كما تقدم إيضاحه ، وعليه فقوله : ﴿ وَجَعَلَ النهار نُشُوراً ﴾ أي حياة بعد الموت ، وعليه فالموت هو المعبر عنه بالسبات في قوله : ﴿ والنوم سُبَاتاً ﴾ وإطلاق الموت على النوم معروف في القرآن العظيم كقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الذي يَتَوَفَّاكُم بالليل وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بالنهار ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيه ﴾ [الأنعام : 60] وقوله : ﴿ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيه ﴾ فيه دليل على ما ذكره الزمخشري ، لأن كلا من البعث والنشور ،

يطلق على الحياة بعد الموت ، وكقوله تعالى : ﴿ اللهُ يَتَوَفَّى الأنفس حِينَ مِوْتِهَا والتي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ التي قضى عَلَيْهَا الموت ويُرْسِلُ الأخرى إلى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [الزّمر : 42] ، وقال الجوهري في صحاحه : والمسبوت الميت والمغشى عليه . اه .

والذين قالوا : إن السبات في الآية الراحة بسبب النوم من تعب العمل بالنهار ، قالوا : إن معنى قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَ النهار نُشُوراً ﴾ أنهم ينشرون فيه لمعايشهم ، ومكاسبهم ، وأسبابهم ، والظاهر أن هذا التفسير فيه حذف مضاف ، أو هو من النعت بالمصدر ، وهذا التفسير يدل عليه قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا النهار مَعَاشاً ﴾ [النبأ : 11] وقوله تعالى في القصص : ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ الليل والنهار لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ ﴾ [القصص : 73] أي لتسكنوا في الليل ، ولتبتغوا من فضله بالنهار في السعي للمعاش .

(139/561)

وإذا علمت هذا فاعلم أن ما دلت عليه هذه الآية الكريمة جاء موضحاً في مواضع أخر كقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً وَجَعَلْنَا الليل لِبَاساً وَجَعَلْنَا النهار مَعَاشاً ﴾ [النبأ : 911] وقوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ الله عَلَيْكُمُ الليل سَرْمَداً إِلى يَوْمِ القيامة مَنْ إله غَيْرُ الله يَأْتِيكُمْ بِضِيَآءٍ أَفَلاَ تَسْمَعُون قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ الله عَلَيْكُمُ النهار سَرْمَداً إِلى يَوْمِ

القيامة مَنْ إله غَيْرُ الله يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفلاَ تُبْصِرُونَ وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ الليل والنهار لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

[القصص: 7173].

وقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا الليل والنهار آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ آيَةَ الليل وَجَعَلْنَآ آيَةَ النهار مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السنين والحساب ﴾ [الإسراء: 12] الآية.

وقد أوضحنا هذا في الكلام على هذه الآية.

وكقوله تعالى: ﴿ والليل إِذَا يغشى والنهار إِذَا تجلى ﴾ [الليل: 12] وقوله تعالى: ﴿ والنهار إِذَا جَلاَّهَا والليل إِذَا يَغْشَاهَا ﴾ [الشمس: 34] إلى غير ذلك من الآيات.

وفي الآيات المذكورة بيان أن الليل والنهار آيتان من آياته ونعمتان من نعمته جل وعلا.

قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الذي أَرْسَلَ الرياح بُشْرَى بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ﴾

(140/561)

قد قدمنا الآية الموضحة له في سورة الأعراف في الكلام على قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الذي يُرْسِلُ الرياح بُشْرًى بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حتى إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ المآء فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثمرات كذلك نُخْرِجُ الموتى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: 57

] على قراءة من قرأ بشراً بالباء .

وآية الأعراف وآية الفرقان المذكورتان تدلان على أن المطر رحمة من الله لخلقه .

وقد بين ذلك في مواضع أخر كقوله تعالى : ﴿ فانظر إلى آثَارِ رَحْمَةِ الله كَيْفَ يُحْيِي الأرض بَعْدَ مَوْتِهَآ ﴾ [الرّوم : 50] وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الذي يُنَزِّلُ الغيث مِن بَعْدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ ﴾ [الشورى : 28] الآية .

وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا (50)

التحقيق أن الضمير في قوله : ولقد صرفناه ، راجع إلى ماء المطر المذكور في قوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السمآء مَآءً طَهُوراً ﴾ [الفرقان : 48] كما روي عن ابن عباس وابن مسعود ، وعكرمة ، ومجاهد ، وقتادة ، وغير واحد ، خلافاً لمن قال : إن الضمير المذكور راجع إلى القرآن كما روي عن عطاء الخراساني وصدر به القرطبي ، وصدر الزمخشري بما يقرب منه .

وإذا علمت أن التحقيق أن الضمير في : صرفناه ، عائد إلى ماء المطر .

(141/561)

فأعلم أن المعنى : ولقد صرفنا ماء المطر بين الناس فأنزلنا مطراً كثيراً في بعض السنين على بعض البلاد ، ومنعنا المطر في بعض السنين عن بعض البلاد ، فيكثر الخصب في بعضها ، والجدب في بعضها الآخر . وقوله : ليذكروا أي صرفناه بينهم ، لأجل أن يتذكروا : أي يتذكر الذين أخصبت أرضهم لكثرة المطر ، نعمة الله عليهم ، فيشكروا له ، ويتذكروا الذين أجدبت أرضهم ما نزل بهم من البلاء ، فيبادروا بالتوبة إلى الله جل وعلا ، ليرحمهم ويسقيهم . وقوله : ﴿ فأبى أَكْثَرُ الناس إِلاَّ كُفُوراً ﴾ أي كفراً لنعمة من أنزل عليهم المطر ، وذلك بقولهم : مطرنا بنوء كذا .

وهذا المعنى دلت عليه هذه الآية الكريمة أشار له جل وعلا في سورة الواقعة في قوله تعالى : ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ [الواقعة : 82] فقوله : رزقكم : أي المطر ، كما قال تعالى : ﴿ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السمآء رِزْقاً ﴾ [غافر : 13] وقوله : ﴿ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ أي بقولكم : مطرنا بنوء كذا ، ويزيد هذا إيضاحاً الحديث الثابت في صحيح مسلم ، وقد قدمناه بسنده ومتنه مستوفى ، وهو أنه صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه يوماً على أثر سماء أصابتهم من الليل : " أتدرون ماذا قال ربكم ؟ " قالوا : الله ورسوله أعلم . قال قال : " أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر ، فأما من قال : مطرنا بفضل الله ورحمته فذاك مؤمن بي كافر بالكوكب . وأما من قال مطرنا بنوء كذا وكذا فذاك كافر بي مؤمن بالكوكب " .

وقد قدمنا أن قوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ فأبى أَكْثَرُ الناس إِلاَّ كُفُوراً ﴾ يدخل فيه من قال مطرنا بنوء كذا . ومن قال مطرنا بالبخار ، يعني أن البحر يتصاعد منه بخار الماء ، ثم يتجمع ثم ينزل على الأرض بمقتضى الطبيعة لا بفعل فاعل ، وأن المطر منه كما تقدم إيضاحه فسبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً .

(142/561)

وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا (51) فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا (52)

المعنى : لو شئنا لخففنا عنك أعباء الرسالة ، وبعثنا في كل قرية نذيراً يتولى مشقة إنذارها عنك : أي ولكننا اصطفيناك ، وخصصناك بعموم الرسالة لجميع الناس ، تعظيماً لشأنك ، ورفعاً من منزلتك ، فقابل ذلك بالاجتهاد والتشدد التام في إبلاغ الرسالة ولا تطع الكافرين الآية .

وما دلت عليه هذه الآية الكريمة من اصطفائه صلى الله عليه وسلم بالرسالة لجميع الناس ، جاء موضحاً ، في آيات كثيرة كقوله تعالى : ﴿ قُلْ يا أيها الناس إِنِّي رَسُولُ الله إِلَيْكُمْ جَمِيعاً ﴾ [الأعراف : 158] وقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَآفَّةً لِّلنَّاسِ ﴾ [سبأ

: 28] وقوله : ﴿ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هذا القرآن لأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَن بَلَغَ ﴾ [الأنعام : 19] .

وقوله : ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأحزاب فالنار مَوْعِدُهُ ﴾ [هود : 17] الآية .

وقد قدمنا إيضاح هذا في أول هذه السورة الكريمة في الكلام على قوله تعالى : ﴿ تَبَارَكَ الذي نَزَّلَ الفرقان على عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً ﴾ [الفرقان : 1] وقوله : ﴿ فَلاَ تُطِعِ الكافرين ﴾ ذكره أيضاً في غير هذا الموضع . كقوله تعالى : ﴿ فَلاَ تُطِعِ الكافرين والمنافقين ﴾ [الأحزاب : 48] الآية . قوله : ﴿ وَلاَ تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً ﴾ [الإنسان : 24] وقوله : ﴿ وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا واتبع هَوَاهُ ﴾ [الكهف : 28] الآية وقوله تعالى : ﴿ وَلاَ تُطِعْ كُلَّ حَلاَّفٍ مَّهِينٍ ﴾ [القلم : 10] .

وقوله في هذه الآية الكريمة : وجاهدهم به : أي بالقرآن كما روي عن ابن عباس .

(143/561)

والجهاد الكبير المذكور في هذه الآية هو المصحوب بالغلظة عليهم ، كما قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ قَاتِلُواْ الذين يَلُونَكُمْ مِّنَ الكفار وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً ﴾ [التوبة : 123] الآية . وقال تعالى : ﴿ يا أيها النبي جَاهِدِ الكفار والمنافقين واغلظ عَلَيْهِمْ ﴾ [التوبة : 73] وقوله تعالى : ﴿ فَلاَ تُطِعِ الكافرين ﴾ ، من المعلوم أنه صلى الله عليه وسلم ، لا

يطيع الكافرين ولكنه يأمر ، وينهى ليشرع لأمته على لسانه كما أوضحناه في سورة بني إسرائيل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أضواء البيان حـ 6 صـ ﴾

(144/561)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا (47) ﴾

﴿ الليل ﴾ [الفرقان : 47] يعني : الظُلْمة لا الظل ، فالظلمة هي التي منعتْ النور ، وإياك أن تظن أن الظلمة ضد النور ، وتحاول أنت أن تنسخ الظلمة بنور من عندك ، وهذه آفة الحضارة الآن أنْ جعلتَ الليل نهاراً .

وقد تنبه العلماء أخيراً إلى مدى ضرر الأشعة على صحة الإنسان ، لذلك جاء في الحديث الشريف : " أطفئوا المصابيح إذا رقدتم " فالشعاع له عمل وقت حركتك ، لكن ساعة نومك وراحتك ليس له مهمة ، بل هو ضار في هذا الوقت .

والحق تبارك وتعالى يمتنُّ علينا بالليل والنهار ، فيقول : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ اليل سَرْمَداً إِلى يَوْمِ القيامة مَنْ إله غَيْرُ الله يَأْتِيكُمْ بِضِيَآءٍ أَفَلاَ تَسْمَعُونَ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ الله عَلَيْكُمُ النهار سَرْمَداً إِلى يَوْمِ القيامة مَنْ إله غَيْرُ الله يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلاَ

تُبْصِرُونَ ﴾ [القصص : 7172] .

إذن : فلليل مهمة ، وللنهار مهمة يُوضِّحها هنا الحق سبحانه بقوله : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاساً ﴾ [الفرقان : 47] أي : ساتراً ، كما أن اللباس يستر الجسم ، والنوم ردع ذاتي يقهر الكائن الحي ، وليس ردعاً اختيارياً .

لذلك تلاحظ أنك إنْ أردت أنْ تنامَ في غير وقت النوم تتعب وترهق ، أمّا إنْ أتاك النوم فتسكن وتهدأ ، ومن هنا قالوا : النوم ضيف ثقيل إنْ طلبته أَعْنَتكَ ، وإنْ طلبك أراحك .

(145/561)

لذلك ساعة يطلبك النوم تنام مِلْء جفونك ، ولو على الحصى يغلبك النوم فتنام ، وكأن النوم يقول لك : اهمد واسترح ، فلم تَعُدْ صالحاً للحركة ، أما مَنْ غالب هذه الطبيعة فأخذ مثلاً حبوباً تساعده على السهر ، فإنْ سهر ليلة نام بعدها ليلتين ، كما أن الذي يغالب النوم تأتي حركته مضطربة غير متوازنة .

فعليك إذن أن تخضع لهذه الطبيعة التي خلقك الله عليها وتستسلم للنوم إنْ ألَحَّ عليك ، ولا تكابر لتقوم في الصباح نشيطاً وتستأنف حركة حياتك قوياً صالحاً للعمل وللعطاء .

وللصوفية في النوم مَلْحظ دقيق يُبْنَى على أن الكون كله غير المختار مُسبِّح لربه ، كما قاله

تعالى : ﴿ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاَتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ﴾ [النور : 41] وعليه ، فذرات الكافر في ذاتها مؤمنة ، يؤلمها ويغيظها أن صاحبها عَاصٍ أو كافر فتطيعه ، وهي كارهة لفعله بدليل أنها ستشهد عليه يوم القيامة ، فإنْ كانت مُسخِّرة لمراداته في الدنيا فإنها ستتحرر من هذه الإرادة في الآخرة .

فاللسان مُسخَّر لصاحبه ، إنْ شاء نطق به الشهادتين ، وإنْ شاء نطق به كلمة الكفر ؛ لأنه مقهور لإرادته ، أما في القيامة فلا إرادة إلا للحق تبارك وتعالى .

وفي النوم ترتاح هذه الجوارح وهذه الذرات من سيئات صاحبها ومن ذنوبه ، تستريح من نكده وإكراهه لها على معصية الله . فالنوم رَدْع طاقيّ ، فلم يَعُد الإنسان صالحاً للحركة ، ولا للتعايش السالم مع جوارحه ، لقد كثُرتْ ذنوبه ومعاصيه حتى ضاقتْ بها الجوارح ، فيأتي النوم ليريحها .

وهذه الظاهرة نشاهدها مثلاً في موسم الحج ، يقول لك الحاج : يكفيني أنْ أنامَ في اليوم ساعة أو ساعتين لماذا ؟ لأن السيئات في هذا المكان قليلة ، فجوارحك في راحة وانسجام معك فلا تحملك على النوم ، أمّا العاصي فلا يكفيه أن ينام عشرة ساعات ؛ لأن جوارحه وأعضاءه مُتْعَبة متضايقة من أفعاله .

وهذه نُفسِّر بها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت تنام عيناه ولا ينام قلبه ذلك لأن جوارحه صلى الله عليه وسلم تصحبه خير صُحْبة ، فهي في طاعة دائمة مستمرة ، فكيف تحمله على أنْ ينام ؟

والخالق عز وجل يعامل الناس على المعنى العام ، فالنفوس دائماً ميَّالة للشر جانحة للسوء ؛ لذلك تتعب الطاقة وتتعب الجوارح ، وكأن الله تعالى يريد إحداث هُدْنة للتعايش بينك وبين جوارحك ، نَمْ لتصبح نشيطاً .

ومعنى ﴿ والنوم سُبَاتاً ﴾ [الفرقان : 47] السّبْت أي : القطْع . فمعنى ﴿ سُبَاتاً ﴾ [الفرقان : 47] يعني : قاطعاً للحركة ، لا انقطاعاً نهائياً ، إنما انقطاعاً مُسْتأنفاً لحركة أفضل ، وبدن أقوى وأصحّ ، فالذي يقضي ليله ساهراً يقوم من نومه مُتْعباً مُضطرباً ، على خلاف مَنْ جعل وقت النوم للنوم ؛ لأن الخالق عز وجل جعل نومك بالليل على قَدْر ما تتحرك بالنهار ، فإنْ أردتَ حركة مُتزنة نشيطة وقوية فنَمْ على مقدار هذه الحركة .

وقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَ النهار نُشُوراً ﴾ [الفرقان : 47] النشور مثل الشُّكور : ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ الله لاَ نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلاَ شُكُوراً ﴾ [الإنسان : 9] أي : شكر ، وكذلك النشور أي نشر ، والنشر يعني الانطلاق في الأرض بالحركة ، كما في قوله تعالى : ﴿ فانتشروا فِي الأرض وابتغوا مِن فَضْلِ الله ﴾ [الجمعة : 10] .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَهُوَ الذي أَرْسَلَ الرياح ﴾

قلنا : إن الرياح إذا جاءت هكذا بصيغة الجمع دلَّتْ على الخير ، وإنْ جاءتْ مفردة فهي آتية بالشر ، وإذا نظرتَ إلى الجبال العالية وإلى ناطحات السحاب تقول : ما الذي يقيم هذه المباني العالية ، فلا تميل ؟ الذي يسمكها هو الهواء الذي يحيط بها من كل ناحية ، ولو فرَّغْتَ الهواء من أحد نواحيها تنهار فوراً .

(147/561)

إذن : فالريح من هنا ، ومن هنا ، ومن هنا ، فهي رياح متعددة تُصلِح ولا تُفسِد ، وتُحدِث هذا التوازن الذي نراه في الكون ، أمّا الريح التي تأتي من ناحية واحدة فهي مدمرة مهلكة ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾ [الحاقة : 6] .

وقال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ بَلْ هُوَ مَا استعجلتم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [الأحقاف : 24] .

ومعنى ﴿ بُشْراً ﴾ [الفرقان : 48] بسكون الشين ، مع أنها في الأصل بُشُراً مثل رُسُل ، فلما خُفِّفَتْ صارت بُشْراً ، والبُشْرى هي الإخبار بما يسرُّ قبل زمنه ، فلا تقول يبشر إلا في الخير ، وكان العربي ساعة تمر عليه الرياح يعرف كم بينه وبين المطر ، فيحكم على مجيء

المطر بحركة الرياح الطرية التي تداعب خدّه .

وقوله سبحانه : ﴿ بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ﴾ [الفرقان : 48] يقال : بين يديك يعني : أمامك . والمراد هنا المطر الذي يسبق رحمة الله .

ثم قول تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السمآء مَآءً طَهُوراً ﴾ [الفرقان : 48] السماء لها معنى لُغوي ، ومعنى شرعي . فهي لغةً : كل ما علاك ، وشرعاً : هي هذه السماء العالية والتي تتكون من سبع سموات ، لكن أينزل المطر من السماء أم من جهة السماء ؟

المطر ينزل من الغمام من جهة السماء ، والغمام أصله من الأرض نتيجة عملية البخر الذي يتجمع في طبقات الجو ، كما قال سبحانه :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُزْجِي سَحَاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَاماً فَتَرَى الودق يَخْرُجُ مِنْ خِلاَلِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السمآء مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ ﴾ [النور : 43] .

إذن : فرحمة الله هي الماء الذي خلق الله منه كلّ شيء حيٍّ .

(148/561)

وقوله تعالى : ﴿ مَآءً طَهُوراً ﴾ [الفرقان : 48] الطَّهُور : الماء الطاهر في ذاته ، المطهِّر لغيره ، فالماء الذي تتوضأ به طاهر ومطهر ، أما بعد أنْ تتوضأ به فهو طاهر في ذاته غير

مُطهِّر لغيره ، وماء السماء طاهر ومُطهر ؛ لأنه مُصفّى مُقطّر ، والماء المقطر أنقى ماء .

بالإضافة إلى أن الماء قِوَام الحياة ، منه نشرب ونسقي الزرع والحيوان والطير ، فالماء يعطيك الحياة ويعطيك الطهارة .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ لِّنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتاً وَنُسْقِيَهُ ﴾

قوله تعالى : ﴿ بَلْدَةً مَّيْتاً ﴾ [الفرقان : 49] أي : أرض بلدة مَيْت ، وفرْق بين ميْت وميِّت : الميْت هو الذي مات بالفعل ، والميِّت هو الذِّي يؤول أمره إلى الموت ، وإنْ كان ما يزال على قيد الحياة ، ومن ذلك قوله تعالى مخاطباً نبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ [الزمر : 30] .

والأرض الميْتة هي الجرداء الخالية من النبات ، فإذا نزل عليها الماء أحياها بالنبات ، كما في قوله سبحانه : ﴿ وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا المَآءَ اهتزت وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ [الحج : 5] .

وقوله تعالى : ﴿ وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَاماً وَأَنَاسِيَّ كَثِيراً ﴾ [الفرقان : 49] يُقال سقاه وأسقاه : أسقاه : أعدَّ له ما يستقى منه ، وإنْ لم يشرب الآن ، لكن سقاه يعني : ناوله ما يشربه ، ومن ذلك قوله سبحانه : ﴿ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً ﴾ [الإنسان : 21] .

أمّا في المطر فيقول سبحانه : ﴿ فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ ﴾ [الحجر : 22] أي : أعددناه لِسُقْياكم إنْ أردتم السُّقْيا .

ومعنى ﴿ وَأَنَاسِيَّ ﴾ [الفرقان : 49] جمع إنسان ، وأصلها أناسين ، وخُفِّفَتْ إلى أناسيّ .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ ﴾

(149/561)

التصريف : التحويل والتغيير ، والمعنى حَوّلناه من هنا إلى هنا ، ومع كل هذه العبر والآيات ﴿ فأبى أَكْثَرُ الناس إِلاَّ كُفُوراً ﴾ [الفرقان : 50] فالكافرون بآيات الله كثير لا يلتفتون إلى آيات الله ، حتى بعد أنْ تقدَّم العلم وتقدَّمتْ الحضارة الإنسانية ، ووقف الناس على كثير من الآيات .

فالحق تبارك وتعالى يُصرِّف المطر إلى بلاد بغزارة ، فإنْ شاء أصابها الجفاف والجدب حتى تموت مزروعاتهم وحيواناتهم . إذنْ : ليست المسألة بيئة باردة أو كثيرة الأمطار ، إنما المسألة مرادات خالق ، ومرادات حق .

وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا (51)

يريد الحق تبارك وتعالى أن يمتنّ على رسوله صلى الله عليه وسلم مِنَّةَ ، فيقول له : المسألة ليست قلةَ رسل عندنا حتى نرسل رسولاً للناس كافة وللزمن كله ، ونحن نستطيع أن

نُخفِّف عنك ونبعث في كل قرية رسولاً يُخفِّف عنك عبء الرسالة ، لكنّا نريد لك أنْ تنال شرف الجهاد وشرف المكافحة ، فجمعناها كلها لك إلى أنْ تقوم الساعة .

ونستفيد من هذه المسألة أن الحق سبحانه وتعالى حين يَهَبُ الطاقات لا يعنى هذا أن الطاقة هي التي تحكم قدرته في الأمر أن يبعث في كل قرية رسولاً ، إنما يقدر أن يرسل رسولاً ويعطيه طاقة تتحمل هذا كله .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ فَلاَ تُطِعِ الكافرين وَجَاهِدْهُمْ ﴾

أي : ما دُمْنا قد جمعنا لك كل القرى ، وحمّلناك الرسالة العامَة في كل الزمان وفي كل المكان ، فعليك أن تقف الموقف المناسب لهذه المهمة ﴿ فَلاَ تُطِعِ الكافرين ﴾ [الفرقان : 52] إنْ لوَّحُوا لك بالملك أو بالمال أو بالجاه والشرف ، واعلم أن ما أعده الله لك وما ادخره لك فوق هذا كله .

وحين يقول سبحانه لرسول صلى الله عليه وسلم ﴿ فَلاَ تُطِعِ الكافرين ﴾ [الفرقان : 52] فإنه يعذره أمامهم ، فالرسول ينفذ أوامر الله .

(150/561)

وَنَهْي الرسول عن طاعة الكافرين لا يعني أنه صلى الله عليه وسلم يطيعهم ، فهذه كقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ آمِنُواْ ﴾ [النساء : 136] فكيف يطلب الإيمان مِمَّنْ ناداهم بالإيمان ؟ إنه تحصيل حاصل . قالوا المعنى : أنت آمنتَ قبل أن أقول لك هذه الكلمة ، وأقولها لك الآن لتُواصل إيماناً جديداً بالإيمان الأول ، وإياك أنْ ينحلّ عنك الإيمان . إذن : إذا طُلِب الموجود فالمراد استدامة الوجود .

وقوله تعالى : ﴿ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ ﴾ [الفرقان : 52] أي : بما جاءك من القرآن ﴿ جِهَاداً كَبِيراً ﴾ [الفرقان : 52] واعلم أنك غالب بأمر الله عليهم ، ولا تقُلْ : إن هناك تيارَ إشراك وكفر وإيمان ، وسوف أعطيك مثلاً كونياً في أهم شيء في حياتك ، وهو الماء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(151/561)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا (45) ﴾

أخرج سعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ﴾ قال : بعد الفجر قبل أن تطلع الشمس .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ ألم تر إلى ربك كيف مد الظل . . . ﴾ الآية . قال : ألم تر إنك إذا صليت الفجر كان ما بين مطلع الشمس إلى مغربها ظلاً ؟ ثم بعث الله عليه الشمس دليلاً فقبض الله الظل .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿ ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ﴾ قال : ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس ﴿ ولو شاء لجعله ساكناً ﴾ قال : دائماً ﴿ ثم جعلنا الشمس عليه دليلاً ﴾ يقول : طلوع الشمس ﴿ ثم قبضناه إلينا قبضاً يسيراً ﴾ قال : سريعاً .

وأخرج الفريابي وابن أبي شيبه وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد ﴿ ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ﴾ قال : ظل الغداة قبل طلوع الشمس ﴿ ولو شاء لجعله ساكناً ﴾ قال : لا تصيبه الشمس ولا يزول ﴿ ثم جعلنا الشمس عليه دليلاً ﴾ قال : تحويه ﴿ ثم قبضناه إلينا ﴾ فاحوينا الشمس إياه ﴿ قبضاً يسيراً ﴾ قال : خفيفاً .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن الحسن ﴿ ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ﴾ قال : مده من المشرق إلى المغرب فيما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس ﴿ ولو شاء لجعله

ساكناً ﴾ قال : تركه كما هو ظلاً ممدوداً ما بين المشرق والمغرب .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أيوب بن موسى ﴿ ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ﴾ قال : الأرض كلها ظل . ما بين صلاة الغداة إلى طلوع الشمس ﴿ ثم قبضناه إلينا قبضاً يسيراً ﴾ قال : قليلاً قليلاً .

(152/561)

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن إبراهيم التيمي والضحاك وأبي مالك الغفاري في قوله ﴿ كيف مد الظل ﴾ قالوا : الظل : ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس ﴿ ثم جعلنا الشمس عليه دليلاً ﴾ قالوا : على الظل ﴿ ثم قبضناه إلينا قبضاً يسيراً ﴾ يعني ما تقبض الشمس من الظل .

وأخرج عبد بن حميد عن أبي العالية ﴿ كيف مد الظل ﴾ قال : من حين يطلع الفجر إلى حين تطلع الشمس .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي ﴿ جعلنا الشمس عليه دليلاً ﴾ قال : يتبعه فيقبضه حيث كان .

وأما قوله تعالى : ﴿ وجعل النهار نشوراً ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الربيع بن أنس قال : إن النهار اثنتا عشرة ساعة ، فأول الساعة ما بين طلوع الفجر إلى أن ترى شعاع الشمس ، ثم الساعة الثانية إذا رأيت شعاع الشمس إلى أن يضيء الاشراق . عند ذلك لم يبق من قرونها شيء ، وصفا لونها ، فإذا كانت بقدر ما تريك عينك قيد رحمين فذلك أول الضحى ، وذلك أول ساعة من ساعات الضحى ، ثم من بعد ذلك الضحى ساعتين ، ثم الساعة السادسة حين نصف النهار .

فإذا زالت الشمس عن نصف النهار فتلك ساعة صلاة الظهر ، وهي التي قال الله ﴿ أقم الصلاة لدلوك الشمس ﴾ ثم من بعد ذلك العشي ساعتين ، ثم الساعة العاشرة ميقات صلاة العصر وهي الآصال ، ثم من بعد ذلك ساعتين إلى الليل .

وأخرج الفريابي وابن أبي شيبه وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله ﴿ وجعل النهار نشوراً ﴾ ﴿ وجعل النهار نشورا ﴾ قال : ينشر فيه .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن قتادة ﴿ وجعل النهار نشوراً ﴾ قال : لمعايشهم وحوائجهم وتصرفهم .

وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا (48)

أخرج عبد بن حميد عن عطاء أنه قرأ ﴿ وهو الذي أرسل الرياح ﴾ على الجمع بشراً بالباء ، ورفع الباء بنون فيهما خفيفة .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد عن مسروق أنه قرأ ﴿ الرياح نشراً ﴾ بالنون ، ونصب النون منونة ومخففة .

وأخرج عبد بن حميد عن سعيد بن المسيب في قوله ﴿ وأنزلنا من السماء ماء طهوراً ﴾ قال : لا ينجسه شيء .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم والدارقطني عن سعيد بن المسيب قال : أنزل الله الماء طهوراً لا ينجسه شيء .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : الماء لا ينجسه شيء . يطهر ولا يطهره شيء فإن الله قال ﴿ وأنزلنا من السماء ماء طهوراً ﴾ .

وأخرج الشافعي وأحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة والدارقطني والحاكم والبيهقي عن أبي سعيد الخدري قال : " قيل يا رسول الله انتوضأ من بئر بضاعة ؟ وهي بئر يلقى فيها الحيض ، ولحوم الكلاب ، والنتن . فقال : إن الماء طهور لا ينجسه شيء " .

وأخرج عبد الرزاق في المصنف عن القاسم بن أبي بزة قال : سأل رجل عبد الله بن الزبير عن طين المطر قال : سألتني عن طهورين جميعاً قال الله تعالى ﴿ وأنزلنا من السماء ماء طهوراً ﴾ وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً " .

وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا (50)

أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عكرمة في قوله ﴿ ولقد صرفناه بينهم ﴾ يعني المطر تسقى هذه الأرض وتمنع هذه ﴿ ليذكروا فأبى أكثر الناس إلا كفوراً ﴾ قال عكرمة : قال ابن عباس : قولهم مطرنا بالانواء . فأنزل الله في الواقعة ﴿ وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون ﴾ [الواقعة : 82] .

وأخرج سنيد وابن جرير وابن المنذر عن ابن جريج عن مجاهد ﴿ ولقد صرفنا بينهم ﴾ قال : المطر . ينزله في الأرض ولا ينزله في أخرى ﴿ فأبى الناس إلا كفوراً ﴾ قولهم مطرنا بنوء كذا وبنوء كذا .

(154/561)

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة ﴿ ولقد صرفناه بينهم ليذكروا ﴾ قال : إن الله قسم هذا الرزق بين عباده ، وصرفه بينهم . قال : وذكر لنا أن ابن عباس كان يقول : ما كان عام قط أقل مطراً من عام ، ولكن الله يصرفه بين عباده . قال قتادة : فترزقه الأرض وتحرمه الأخرى .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه والبيهقي في سننه عن ابن عباس قال : ما من عام بأقل مطراً من عام ، ولكن الله يصرفه حيث يشاء .

ثم قرأ هذه الآية ﴿ ولقد صرفناه بينهم ليذكروا ﴾ الآية .

وأخرج الخرائطي في مكارم الأخلاق عن ابن مسعود . مثله .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عمر مولى غفرة قال : كان جبريل في موضع الجنائز فقال له النبي صلى الله عليه وسلم " يا جبريل إني أحب أن أعلم أمر السحاب . فقال جبريل : هذا ملك السحاب فسأله فقال : تأتينا صكاك مختتمة اسقوا بلاد كذا وكذا قطرة " .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن عطاء الخراساني في قوله ﴿ ولقد صرفناه بينهم ﴾ قال : القرآن . ألا ترى إلى قوله ﴿ ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيراً ﴾ ؟

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس في قوله ﴿ وجاهدهم به ﴾ قال : بالقرآن .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن زيد في قوله ﴿ وجاهدهم به جهاداً كبيراً ﴾ قال : هو قوله ﴿ واغلظ عليهم ﴾ [التوبة : 73] والله تعالى أعلم . انتهى انتهى . اهـ

﴿ الدر المنثور حـ 6 صـ ﴾

(155/561)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله : ﴿ لِّنُحْيِيَ بِهِ ﴾ :

فيه وجهان أظهرُهما : أنَّه متعلقٌ بالإنزالَ . والثاني : وهو ضعيفٌ أنَّه متعلقٌ ب " طَهور " .

وقال الزمخشري : " فإنْ قلتَ : إنزالُ الماءِ موصوفاً بالطهارة ، وتعليلُه بالإحياءِ والسَّقْيِ يُؤْذِنُ بأنَّ الطهارةَ شرطٌ في صحةِ ذلك كما تقول : " حَمَلني الأميرُ على فَرَس جوادٍ لأَصِيْدَ عليه الوحشَ " ، قلت : لَمَّا كان سَقْيُ الأناسيِّ مِنْ جملة ما أُنْزِل له الماءُ وُصِفَ بالطهارة إكراماً لهم وتَتْميماً للمِنَّةِ عليهم " .

و" طَهُور " يجوز أَنْ يكونَ صفةَ مبالغةٍ منقولاً من طاهر كقوله تعالى : ﴿ شَرَاباً طَهُوراً ﴾ [الإنسان : 21] ، وقال :

3486 إلى رُجَّحِ الأَكْفالِ غِيْدٍ من الصِّبا . . . عِذابِ الثَّنايا رِيْقُهُنَّ طَهُوْرُ

وأَنْ يكونَ اسمَ ما يُتَطَهَّرُ به كالسَّحُور ، وأَنْ يكونَ مصدراً كالقَبول والوَلُوع . ووصفُ " بَلْدةً " ب " مَيْت " وهي صفةٌ للمذكورِ لأنها بمعنى البلد .

قوله : ﴿ وَنُسْقِيَهِ ﴾ العامَّةُ على ضمِّ النونِ . وقرأ أبو عمرو وعاصم في روايةٍ عنهما وأبو حيوة وابنُ أبي عبلة بفتحها . وقد تقدم أنه قُرِىء بذلك في النحل والمؤمنين . وتقدم كلامُ الناسِ عليهما .

قوله : ﴿ مِمَّا خَلَقْنَآ ﴾ يجوز أن تَتَعلَّقَ ب " نُسْقيه " ، وهي لابتداء الغاية . ويجوز أن تَتَعلَّق بمحذوفٍ على أنَّها حالٌ مِنْ " أنعاماً " . ونُكِّرَتِ الأنعام والأناسيّ : قال الزمخشري :

" لأنَّ عليَّةَ الناسِ وجُلَّهم مُنيخون بالأودية والأنهارِ ، فبهم غُنْيَةٌ عن سقْي الماء ، وأعقابُهم وهم كثيرٌ منهم لا يُعَيِّشهم إلاَّ ما يُنْزِلُ اللهُ مِنْ رحمتِه وسُقْيا سمائِه " .

(156/561)

قوله : ﴿ وَأَنَاسِيَّ ﴾ فيه وجهان ، أحدهما : وهو مذهبُ سيبويه أنَّه جمعُ إنسان . والأصلُ : إنسان وأَناسين ، فَأُبْدِلَتِ النونُ ياءً وأُدْغم فيها الياءُ قبلَها ، ونحوَ ظِرْبانٍ وظَرابِيّ . والثاني : وهو قولُ الفراء والمبرد والزجَّاج أنه جمع إنْسِيّ . وفيه نظرٌ لأنَّ فَعالِيّ إنما يكونُ جمعاً لِما فيه ياءٌ مشددةٌ لا تدلُّ على نَسَبٍ نحو : كُرْسِيّ وكَرَاسيّ . / فلو أُريد ب كرسيّ النسبُ لم يَجُزْ جمعُه على كراسيّ . ويَبْعُدُ أَنْ يُقالَ : إن الياءَ في إنْسِي ليست للنسبِ وكان حقُّه أَنْ يُجْمَعَ على أَناسِية نحو : مَهالبة في المُهَلَّبي وأَزارِقة في الأَزْرقي .

وقرأ يحيى بن الحارث الذِّماري والكسائي في رواية " وأناسِيَ " بتخفيف الياء . قال الزمخشري : " بحذفِ ياءِ أفاعيل كقولك : أناعِم في أناعِيم " . وقال : " فإنْ قلت لِمَ قَدَّمَ إحياءَ الأرضِ وسَقْيَ الأنعامِ على سَقْي الأناسي . قلت : لأن حياةَ الأناسيِّ بحياةِ أرضِهم وحياةِ أنعامهم ، فقدَّم ما هو سببُ حياتِهم ، ولأنَّهم إذا ظَفِروا بسُقْيا أرضِهم وسَقْيِ أنعامِهم لم يَعْدِموا سُقْياهم " .

قوله : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ ﴾ : يجوز أَنْ تعودَ الهاءُ على القرآن ، وأن تعودَ على الماءِ أي : صَرَّفنا نُزولَه مِنْ وابِلٍ وَطلٍّ وجَوْدٍ ورَذاذ وغيرِ ذلك . وقرأ عكرمة " صَرَفْناه " بتخفيف الراء .

قوله : ﴿ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ ﴾ : أي بالقرآن ، أو بتركِ الطاعةِ المدلولِ عليها بقولِه ﴿ فَلاَ تُطِعِ ﴾ ، أو بما دَلَّ عليه ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيراً ﴾ مِنْ كونِه نذيرَ كافةِ القُرى أو بالسيف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 487.490 ﴾

(157/561)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الَّيْلَ لِبَاساً وَالنَّوْمَ سُبَاتاً وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُوراً ﴾ جعل الليلَ وقتاً لسكون قومٍ ووقتاً لأنزعاج آخرين ؛ فأربابُ الغفلة يسكنون في ليلهم ، والمحبون يسهرون في ليلهم إنْ كانوا في رَوْحِ الوصال ، فلا يأخذهم النومُ لكمال أُنْسِهم ، وإن كانوا في ألم الفراق فلا يأخذهم النوم لكمال قلقهم ، فالسّهرُ للأحباب صِفَةٌ : إمَّا لكمال السرور أو لهجوم الهموم . ويقال جعل النومَ للأحباب وقتَ التجلّي بما لا سبيلَ إليه في

اليقظة ، فإذا رَأَوْا ربَّهم في المنام يؤثِرون النومَ على السَّهر ، قال قائلهم :

وإني لأَستغفي وما بي نَعْسَةٌ . . . لعلَّ خيالاً منك يلقى خياليا

وقال قائلهم :

رأيتُ سرورَ قلبي في منامي . . . فأحببتُ التَّنعُّسَ والمناما

ويقال النوم لأهلِ الغفلة عقوبةٌ ولأهل الاجتهادِ رحمةٌ ؛ فإن الحقَّ – سبحانه – يُدْخِلُ عليهم النوم ضرورةً رحمةً منه بنفوسهم ليستريحوا من كَدِّ المجاهدة .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَهُوَ الَّذِى أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴾ .

يُرْسِلُ رياحَ الكَرَم فتهب على قلوب ذوي الحاجات فتزعجها إلى طلب مبارِّه ، ويرسل رياحَ الولاية فتهب على قلوب الخواص فتطهرها من جميع الإرادات فتُكْفَى بالله لله ، ويرسِلُ رياحَ الخوفِ على قلوبِ العُصَاةِ فتحملهم على النَّدَمِ ، وتطهرها من الإصرار فترجع إلى التوبة ، ويرسل رياح الاشتياق على قلوب الأحباب ، فتزعجها عن المساكنات ، وتطهرها عن كل شيء إلا عن اللواعج فلا يستقِرُّ إلا بالكشف والتجلِّي .

ويقال إذا تَنَسَّمَ القلبُ نسيمَ القُرْبِ هَامَ في ملكوت الجلال ، وامتحى عن كل مرسوم ومعهود .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَآءِ مَآءً طَهُوراً لِّنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتاً وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَاماً وَأَنَاسِيَّ كَثِيراً وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً ﴾ .

أنزل من السماء ماء المطرِ فأحيا به الغياضَ والرياضَ ، وأنبت به الأزهار والأنوار ، وأنزل من السماء ماء الرحمةِ فغَسَلَ العصاةُ ما تلطخوا به من الأوضار ، وما تدنَّسوا به من الأوزار .

و﴿ الطَّهُور ﴾ هو الطاهرُ المُطَهِّرُ ، وماءُ الحياء يُطهِرُ قلوبَ العارفين عن الجنوح إلى المساكنات وما يتداخلها في بعض الأحيان من الغفلات . وماء الرعاية يُحْيِي به قلوبَ المشتاقين بما يتداركها من أنوار التجلّي حتى يزول عنها عَطَشُ الاشتياق ويحصل فيها من سكينة الاستقلال ، ويحيي به نفوساً ميتةً باتباع الشهوات فيردها إلى القيام بالعبادات .

وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا (51)

إنَّ الله – سبحانه – خصَّ نبينا صلى الله عليه وسلم بأن فضَّله على الكافة ، وأرسله إلى الجملة ، وبألا يُنْسَخَ شَرْعُه إلى الأبد . وبهذه الآية أدَّبه بأدقِّ إشارة ، حيث قال : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيراً ﴾ وهذا كما قال : ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِى أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ﴾ [الإسراء : 86] .

وَقَصْدُ الحقِّ أن يكون خواصُّ عباده أبداً معصومين عن شواهدهم .

وفي القصة أن موسى عليه السلام تَبَرَّمَ وقتاً بكثرة ما كان يُسْأل ، فأوحى الله في ليلة واحدة إلى ألف نبي من بني إسرائيل فأصبحوا رُسلاً ، وتفرَّقَ الناسُ عن موسى عليه السلام إليهم عليهم السلام ، فضاق قلبُ موسى وقال : يا رب ، إني لا أطيق ذلك ! فقبض اللهُ أرواحهم في ذلك اليوم .

فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا (52)

(159/561)

أي كُنْ قائماً بحقِّنا من غير أن يكون منك جنوحٌ إلى غيرنا أو مبالاةٌ بِمَنْ سوانا ، فإنَّا نَعْصِمُكَ بكلِّ وجهٍ ، ولا نرفع عنك ظِلَّ عنايتنا بحالٍ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿لطائف الإشارات حـ 2 صـ 639. 641﴾

(160/561)

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

قوله عز وجل : ﴿ وَقَالَ الذين لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا ﴾

يعني : لا يخافون البعث بعد الموت .

ويقال : لا يرجون الجنة والمغفرة ، وهم كفار أهل مكة ﴿ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْنَا الملئكة ﴾ يعني : هلا أنزل علينا الملائكة ، فيخبروننا بأنك رسول الله إلينا ﴿ أَوْ نرى رَبَّنَا ﴾ فيخبرنا بأنك مرسل .

قال الله تعالى : ﴿ لَقَدِ استكبروا فِى أَنفُسِهِمْ ﴾ يعني : تعظموا في أنفسهم ، وأعرضوا عن الإيمان .

ويقال : لقد استكبروا في أنفسهم ، يعني : وضعوا لأنفسهم قدراً ومنزلة ، حيث أرادوا لأنفسهم الرسل من الملائكة عليهم السلام ورؤية الرب عز وجل : ﴿ وَعَتَوْا عُتُوّاً كَبِيراً ﴾ يعني : أبوا إباءً كثيراً .

ويقال اجترؤوا على الله اجتراء كثيراً .

وقال أهل اللغة : العاتي الذي لا ينفعه الوعظ والنصيحة ، ثم أخبر متى يرون الملائكة فقال عز وجل : ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ الملئكة ﴾ يعني : يوم القيامة ﴿ لاَ بشرى يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ يعني : للمشركين ، وتكون البشارة للمؤمنين .

ثم قال : ﴿ وَيَقُولُونَ حِجْراً مَّحْجُوراً ﴾ يعني : تقول لهم الملائكة : حراماً محرماً ، أي تكون لهم البشرى يومئذ بما يبشر به المتقون ، وإنما قيل للحرام حجر ، لأنه حجر عليه .

وقال مجاهد : تقول الملائكة حراماً محرماً أن يدخلوا الجنة .

وقال الحسن وقتادة ، وهي كلمة كانت العرب تقولها .

كان الرجل إذا نزلت به الشدة قال : حجراً محجوراً ، أي : حراماً محرماً .

ويقال : إن قريشاً كانوا إذا استقبلهم أحد كانوا يقولون له : حاجورا حاجورا ، حتى يعرف أنهم من الحرم ، فلا يضرونهم ، وأخبر أنهم كانوا يقولون ذلك ، ولا ينفعهم .

ويقال : إن المشركين في الشهر الحرام إذا استقبلهم أحد يقولون : حجراً محجوراً ، ويريدون أن يذكروه أنه في الشهر الحرام ، وذلك القول لا ينفعهم يوم القيامة .

(161/561)

وقرأ الحسن حجراً بضم الحاء ، وقراءة العامة بكسر الحاء ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ ﴾ قال الكلبي : يعني عمدنا إلى ما عملوا من عمل لغير الله تعالى .

ويقال : قصدنا إلى ما عملوا من عمل ، ومعناه نظرنا في أعمالهم ، ولم نجد فيها خيراً ، فأبطلناها ، ولم نجعل لها ثواباً ، فذلك قوله تعالى : ﴿ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَّنثُوراً ﴾ قال الضحاك : هو الغبار ما لا يستطاع جمعه ، ولا أخذه بيد .

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : الهباء المنثور الذي تراه في شعاع الشمس في

الكوة ، وهذا قول عكرمة والكلبي .

وقال قتادة : هو ما ذرت الريح من حطام الشجر .

ويقال : الغبار الذي يسطع من حوافر الدواب .

ثم قال عز وجل : ﴿ أصحاب الجنة يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرّاً ﴾ يعني : أفضل منزلاً ﴿ وَأَحْسَنُ مَقِيلاً ﴾ يعني : مرجعاً ومجلساً .

وروي عن الأعمش عن إبراهيم في قوله : خير مستقراً ، وأحسن مقيلاً يعني ، قال : كانوا يرون أنه يفرغ من حساب الناس إلى مقدار نصف النهار فيقيل هؤلاء في الجنة ، وهؤلاء في النار .

وروي عن ابن مسعود وابن عباس أنهما قالا : لا ينتصف النهار من ذلك اليوم ، حتى يقيل أهل الجنة في الجنة ، وأهل النار في النار ، عنيا بذلك يوم القيامة ، ولأن مقدار ذلك اليوم خمسون ألف سنة ، وإنما أراد بتلك القيلولة القرار لا النوم ، لأنه لا يكون في الجنة نوم ، ولا في النار نوم قوله عز وجل : ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السماء ﴾ .

قرأ ابن كثير ونافع وابن عامر تشقَّق بتشديد الشين ، لأن أصله يتشقق ، فأدغم إحدى التاءين في الشين .

وقرأ الباقون بالتخفيف ، وهذا مثل الاختلاق في قوله تسألون فقال : ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السماء بالغمام ﴾ يعني : الغمام والغمام هو شيء مثل السحاب الأبيض فوق سبع

سموات .

كما روي في الخبر أن دعوة المظلوم ترفع فوق الغمام ، يعني : تشقق السماء ، وتظهر بالغمام ﴿ وَنُزِّلَ الملائكة تَنزِيلاً ﴾ .

(162/561)

قرأ ابن كثير وننزل الملائكة بنونين ونصب الهاء ، ومعناه : أن الله تعالى يقول : ﴿ نُنَزِّلُ الملائكة ﴾ وقرأ الباقون ونزل على ما فعل ما لم يسم فاعله ، معناه : أن الله تعالى ينزل ملائكة السموات .

وروي في الخبر أنه تشقق سماء الدنيا فينزل ملائكة سماء الدنيا ، بمثَلَيْ من في الأرض من الجن والإنس .

ويقول لهم : الخلائق أفيكم ربنا ؟ يعني : هل جاء أمر ربنا بالحساب ؟ فيقول : لا ، وسوف يأتي ، ثم تنزل ملائكة السماء الثانية بمثلي من في الأرض من الملائكة ، والإنس والجن ، ثم تنزل ملائكة كل سماء على هذا التضعيف حتى تنزل ملائكة سبع سموات ، فيظهر بالغمام ، وهو كالسحاب الأبيض فوق سبع سموات ، ثم ينزل بالأمر بالحساب ، فذلك قوله : ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السماء بالغمام وَنُزِّلَ الملائكة تَنزِيلاً ﴾ ويقال : الغمام الذي قال في سورة البقرة :

﴿ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الغمام والملائكة ﴾ ثم قال عز وجل : ﴿ الملك يَوْمَئِذٍ الحق للرحمن ﴾ وفي الآية تقديم ، ومعناه : الملك يومئذ الحق للرحمن الحق صفة الملك ، والمعنى : الملك الذي هو الملك حقاً ملك الرحمن ، لأنه لا يدعي الملك يومئذ أحد .

ويقال : الحق يومئذ الملك الخالص .

ويقال : يعني : الملك الصدق .

ثم قال تعالى : ﴿ وَكَانَ يَوْماً عَلَى الكافرين عَسِيراً ﴾ يعني : شديداً .

وفي الآية دليل أن ذلك اليوم يكون على المؤمنين يسيراً ، وهذا كما قال في آية أخرى : ﴿ عَلَى الكافرين غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾ [المدثر : 10] .

(163/561)

قوله عز وجل : ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظالم على يَدَيْهِ ﴾ يعني : عقبة بن أبي معيط ، وذلك أن عقبة كان لا يقدم من سفر إلا صنع طعاماً ، وكان يدعو إلى الطعام من أهل مكة من أحب وأراد ، وكان يكثر مجالسة النبي صلى الله عليه وسلم ، ويعجبه حديثه ، فقدم ذات يوم من سفره ، وصنع طعاماً ، ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى طعامه ، فأتاه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما قدم الطعام إليه ، فأبى أن يأكل ، وقال : ما أنا بالذي آكل من

طعامك ، حتى تشهد أن لا إله إلا الله ، وأني رسول الله ، وكان عندهم من العار أن يخرج أحدهم ، قبل أن يأكل من الطعام شيئاً ، فألح عليه أن يأكل ، فلم يأكل ، فشهد بذلك عقبة ، فأكل النبي صلى الله عليه وسلم من طعامه ، وكان أبيُّ بن خلف الجمحي غائباً ، وكان خليله ، فلما قدم أخبر ذلك ، فأتاه فقال : صبوت يا عقبة .

فقال : لا والله ما صبوت ، ولكن دخل علي رجل ، فأبى أن يأكل من طعامي ، إلا أن أشهد له ، فاستحييت أن يخرج من بيتي قبل أن يطعم ، فشهدت فطعم .

فقال له : ما أنا بالذي أرضى عنك أبداً حتى تأتيه ، فتبزق في وجهه ، وتشتمه وتكذبه ، ففعل ذلك .

فنزلت هذه الآية : ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظالم ﴾ يعني : عقبة على يديه يعني : على أنامله .

وروي عن أنس بن مالك أنه قال : يعض عقبة بن أبي معيط على يديه يوم القيامة ، يأكل لحم يديه حتى يبلغ العضد من الندامة ، وهو ﴿ يَقُولُ يا ليتنى لَيْتَنِى اتخذت مَعَ الرسول سَبِيلاً ﴾ يعني : اتخذت طريق الهدى ، وكنت معه على الإسلام قوله عز وجل : ﴿ سَبِيلاً يا ويلتى لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلاَناً خَلِيلاً ﴾ يعني : أبيَّ بن خلف .

(164/561)

وقال إنما قال فلاناً ، ولم يذكر اسمه لحقارته ﴿ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ الذكر ﴾ أي عن الإيمان ﴿ بَعْدَ إِذْ جَاءِنِى ﴾ أي حين جاءني ويقال : إنه لم يذكر اسمه ، لأنه دخل في جميع الظالمين ، لأن مَنْ صَنَعَ مِثْلَ هَذَا الصَّنِيع يكون جزاؤه هذا ، وقتل عقبة يوم بدر صبراً ، وقتل أبيُّ بن خلف يوم أحد ويقال ﴿ لَمْ أَتَّخِذْ فُلاَناً خَلِيلاً ﴾ ، يعني : الشيطان بدليل قوله عز وجل : ﴿ وَكَانَ الشيطان للإنسان خَذُولاً ﴾ يعني : يتبرأ منه يوم القيامة ، ونزل فيه : ﴿ الاخلاء يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ المتقين ﴾ [الزخرف : 67] ثم قال عز وجل : ﴿ وَقَالَ الرسول يا رب رَبِّ إِنَّ قَوْمِى اتخذوا هذا القرءان مَهْجُوراً ﴾ يعني : متروكاً لا يؤمنون به ، ولا يعملون بما فيه .

وقال القتبي : يعني : جعلوه كالهذيان .

ويقال : فلان يهجر في منامه ، أي يهذي .

وقال مجاهد : يهجرون منه بالقول ، يعني : يقولون فيه بالقبيح ، فبين الشكاية من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الرب عز وجل ، ثم إن الله عز وجل عزاه ، وأخبره أن الرسل من قبله كانوا يتأذون بقومهم ، فذلك قوله عز وجل : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىّ عَدُوّاً مّنَ المجرمين ﴾ يعني : من المشركين ، فيهجرون الكتاب .

ثم قال : ﴿ وكفى بِرَبِّكَ هَادِياً وَنَصِيراً ﴾ يعني : هادياً إلى دينه من كان أهلاً لذلك .

ويقال : وكفى بربك حافظاً على الدين ونصيراً ، أي مانعاً .

ويقال : وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً ، يعني : فرعوناً كما جعلنا أبا جهل فرعونك ، ويقال : سلطنا على كل نبي متكبراً ليتكبر عليه ، ويكذبه ويؤذيه .

(165/561)

وروي في الخبر لو أن مؤمناً ارتقى على ذروة جبل ، فقيض الله تعالى إليه منافقاً يؤذيه ، فيؤجر عليه ﴿ وكفى بِرَبِّكَ هَادِياً ﴾ يعني : اكتف بربك واصبر على أذاهم ، صار هادياً ونصيراً ، نصباً على الحال ، أي : وكفى بربك في حال الهداية ، والنصرة نصيراً ويقال : الباء زائدة للصلة .

ومعناه : كفى بربك هادياً إلى دينه ونصيراً .

قوله ﴿ وَقَالَ الذين كَفَرُواْ لَوْلاَ ﴾ يعني : هلا ﴿ نُزِّلَ عَلَيْهِ القرءان جُمْلَةً واحدة ﴾ كما أنزلت التوراة على موسى ، والإنجيل على عيسى عليهما السلام ويقول الله تعالى : ﴿ كذلك ﴾ يعني : هكذا أنزلناه متفرقاً ﴿ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ يعني : ليحفظ ويقوى به قلبك ، ونفرحك دخل قلبه الغم نزلت عليه آية وآيتان ، فيفرح بها .

ويقال : لنثبت به فؤادك يعني : ليكون قبوله على المسلمين أسهل ، لأنه لو أنزلت الأحكام والشرائع كلها جملة واحدة ، شق على المسلمين قبولها ، كما شق على بني إسرائيل .

ويقال : أنزلناه هكذا لنرسخ القرآن في قلبك ، لكي تحفظ الآية والآيتين .

ويقال : كذلك أنزلناه لتحكم عند كل حادثة ، وعند كل واقعة لتقوي به قلبك في ذلك ﴿ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ﴾ يعني : بيناه تبييناً .

ويقال : شيء رتل ورتيل إذا كان مبيناً .

وقال مجاهد : ورتلناه ترتيلاً ، أي : بعضه على أثر بعض .

(166/561)

وروى عكرمة عن ابن عباس قال : أنزل القرآن جملة واحدة إلى سماء الدنيا ، ثم أنزل بعد ذلك جبريل عليه السلام به في عشرين سنة ، وهو قوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ﴾ ﴿ وَقُرْءاناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى الناس على مُكْثٍ ونزلناه تَنْزِيلاً ﴾ [الإسراء : 106] ﴿ وَلاَ يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بالحق ﴾ يعني : لا يخاصمونك بمثل مثل قوله : ﴿ وَقَالَ الذين كَفَرُواْ لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ القرءان جُمْلَةً واحدة كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ﴾ [الفرقان : 32] ثم قال : ﴿ إِلاَّ جِئْنَاكَ بالحق ﴾ يعني : أنزلنا عليك جبريل بالقرآن ، فتخاصمهم به ﴿ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً ﴾ يعني : وأحسن بياناً لترد به خصومهم .

ويقال : معناه ولا يأتونك بحجة ، إلا بينا لك في القرآن ما فيه نقض لحجتهم ، وأحسن تفسيراً ، أي جواباً لهم ويقال : ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بما هو أحسن من مثلهم .

ويقال : كل نبي ، إذا قال له قومه قولاً ، كان هو الذي يرد عليهم وأما النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا قالوا له شيئاً ، فالله تعالى هو الذي يرد عليهم ، ثم أخبرهم بمستقرهم في الآخرة فقال عز وجل : ﴿ الذين يُحْشَرُونَ على وُجُوهِهِمْ ﴾ يعني : يسحبون على وجوههم ﴿ إلى جَهَنَّمَ أُوْلَئِكَ شَرٌّ مَّكَاناً ﴾ يعني : منزلاً في النار وضيقاً في الدنيا ﴿ وَأَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ يعني : أخطأ طريقاً ، وذلك أن كفار مكة قالوا : ما كان محمد وأصحابه أولى بهذا الأمر منا ، والله إنهم لشر خلق الله ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ الذين يُحْشَرُونَ على وُجُوهِهِمْ ﴾ .

(167/561)

وروي في الخبر أن الناس يحشرون يوم القيامة على ثلاثة أصناف فصنف على النجائب ، وصنف على أرجلهم ، وصنف على وجوههم ، فقيل : يا رسول الله كيف يحشرون على وجوههم ؟ فقال : إن الذي أمشاهم على أقدامهم ، فهو قادر على أن يمشيهم على وجوههم ، فذلك قوله : ﴿ أُوْلَئِكَ شَرٌّ مَّكَاناً ﴾ .

قوله عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ ءاتَيْنَا موسى الكتاب ﴾ يعني : أعطينا موسى التوراة ﴿ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هارون وَزِيراً ﴾ أي معيناً ﴿ فَقُلْنَا اذهبا إِلَى القوم ﴾ يعني : به موسى ، كقوله عز وجل في سورة طه : ﴿ اذهب أَنتَ وَأَخُوكَ بآياتى وَلاَ تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴾ [طه : 42] خاطب موسى خاصة إلى القوم ﴿ الذين كَذَّبُواْ بآياتنا ﴾ يعني : فرعون وقومه كذبوا بآياتنا ، أي بتوحيدنا وديننا .

وقال الكلبي : يعني كذبوا بآياتنا التسع .

وقال بعضهم : هذا التفسير خطأ ، لأن الآيات التسع أعطاها الله تعالى موسى بعد ذهابه إليه ، وقد قيل : معناه اذهبا إلى القوم ، وهذا الخطاب لموسى عليه السلام .

ثم قال الله تعالى للنبي صلى الله عليه وسلم : ﴿ الذين كَذَّبُواْ بآياتنا ﴾ يعني : بالعلامات التي خلق الله تعالى في الدنيا .

ويقال : بآياتنا ، يعني : بالرسل ، وبكتب الأنبياء عليهم السلام الذين قبل موسى ، ثم قال : ﴿ فدمرناهم تَدْمِيراً ﴾ يعني : كذبوهما فأهلكناهم إهلاكاً .

ويقال : في الآية تقديم قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءاتَيْنَا موسى الكتاب ﴾ يعني : كتاباً قبل التوراة .

قوله عز وجل ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ ﴾ يعني : واذكر قوم نوح عليه السلام ﴿ لَّمَّا كَذَّبُواْ الرسل ﴾ يعني : نوحاً وحده كما قال : ﴿ يا أيها الرسل كُلُواْ مِنَ الطيبات واعملوا صالحا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ [المؤمنون : 51] ولم يكن إلا واحد وقت هذا الخطاب ، فيجوز أن يذكر الجماعة ، ويراد به الواحد كما يذكر الواحد ، ويراد به الجماعة كقوله : ﴿ والعصر ﴾ [العصر : 1] وإنما أراد به الناس ، ألا ترى أنه استثنى منه جماعة .

ويقال : إن نوحاً كان يدعو قومه إلى الإيمان به ، وبالأنبياء الذين بعده ، فلما كذبوه فقد كذبوا جميع الرسل ، فلهذا قال : ﴿ لَّمَّا كَذَّبُواْ الرسل ﴾ ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُواْ ﴾ يعني : عبرة لمن بعدهم ﴿ وَأَعْتَدْنَا للظالمين عَذَاباً أَلِيماً ﴾ أي : وجيعاً ، ثم قال عز وجل : ﴿ وَعَاداً وَثَمُودَ وأصحاب الرس ﴾ يعني : واذكر عاداً وثمود وأصحاب الرس ، وهم قوم قد نزلوا عند بئر ، كانت تسمى : الرس ، فكذبوا رسلهم ، فأهلكهم الله تعالى ، ويقال : إنما سُمُّوا أصحاب الرس ، لأنهم قتلوا نبيهم ورسولهم في بئر لهم ، وقال مقاتل : يعني : البئر التي كان فيها أصحاب ياسين بأنطاكية التي بالشام ﴿ وَقُرُوناً بَيْنَ ذلك كَثِيراً ﴾ يعني : أهلكنا أمماً بين قوم نوح وعاد ، وبين عاد وثمود إلى أصحاب الرس كثيراً ﴿ وَكُلاًّ ضَرَبْنَا لَهُ الامثال ﴾ يعني : بينا لهم العذاب أنه نازل بهم في الدنيا ﴿ وَكُلاًّ تَبَّرْنَا تَتْبِيراً ﴾ أي : دمرناهم بالعذاب تدميراً ، يقال : تبره إذا أهلكه .

ثم قال عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى القرية ﴾ يعني : أهل مكة مروا على القرية ﴿ التى أُمْطِرَتْ مَطَرَ السوء ﴾ يعني : قريات لوط أمطرنا عليهم الحجارة قوله : ﴿ أَفَلَمْ يَكُونُواْ يَرَوْنَهَا ﴾ يعني : أفلم يبصرونها ، فيعتبروا بها ﴿ بَلْ كَانُواْ لاَ يَرْجُونَ نُشُوراً ﴾ يعني : بل كانوا لا يخافون البعث .

(169/561)

ويقال : لا يرجون ثواب الآخرة ، وإنما جاز أن يعبر به عنهما ، لأن في الرجاء طرفاً من الخوف ، لأن كل من يرجو شيئاً ، فإنه يخاف ، وربما يدرك ، وربما لا يدرك ، قوله عز وجل : ﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ ﴾ يعني : أهل مكة ﴿ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُواً ﴾ يعني : ما يقولون لك إلا سخرية فيما بينهم ويقولون : ﴿ أهذا الذى بَعَثَ الله رَسُولاً ﴾ يعني : إلينا ، وهو قول أبي جهل ، حين قال لأبي سفيان بن حرب : أهذا نبي بني عبد مناف ﴿ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا ﴾ يعني : أراد أن يصرفنا ﴿ عَنْ ءَالِهَتِنَا ﴾ يعني : عن عبادة آلهتنا ﴿ لَوْلاَ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ﴾ يعني : ثبتنا على عبادتها لأدخلنا في دينه حكى قولهم ثم بين مصيرهم فقال : ﴿ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ العذاب ﴾ يعني : يوم القيامة ﴿ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ يعني : أخطأ طريقاً يعني : تبين لهم أن الذي قلت لهم كان حقاً ، قوله عز وجل : ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ

اتخذ إلهه هَوَاهُ ﴾ يعني : اتخذ هوى نفسه إلهاً ، يعني : يعمل بكل ما يدعوه إليه هواه .

ويقال : إنهم كانوا يعبدون حجراً ، فإذا رأوا حجراً أحسن منه تركوا الأول ، وعبدوا الثاني ﴿ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً ﴾ يعني : أتريد أن تكون بيدك المشيئة في الهدى والضلالة ، ويقال : معناه أفأنت تكون عليه وكيلاً ، يعني : أتريد أن تكون رباً لهم ، فتجزيهم بأعمالهم ، يعني : لست كذلك ، فأنذرهم ، فإنما أنت منذر ثم قال عز وجل : ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ ﴾ يعني : أتظن أنهم يريدون الهدى أو ﴿ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ﴾ الهدى ﴿ إِنْ هُمْ ﴾ يعني : ما هم ﴿ إِلاَّ كالانعام ﴾ في الأكل والشرب ، ولا يتفكرون في أمر الآخرة ، ﴿ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ يعني : أخطأ طريقاً من البهائم ، لأن البهائم ليسوا بمأمورين ، ولا بمنهيين .

وقال مقاتل : البهائم تعرف ربها ، وتذكره وكفار مكة لا يعرفون ربهم ، فيوحدونه .

(170/561)

قوله عز وجل : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظل ﴾ قال بعضهم : فيه تقديم ، ومعناه : ألم تر إلى الظل كيف مده ربك .

وقال بعضهم : فيه مضمر .

ومعناه : ألم تر إلى صنع ربك كيف مد الظل ؟ يعني : بسط الظل بعد انفجار الصبح إلى طلوع الشمس ﴿ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِناً ﴾ يعني : دائماً كما هو لا شمس معه ، كما يكون في الجنة ظل ممدود ، ويقال : تلك الساعة تشبه ساعات الجنة إلا أن الجنة أنور ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَا الشمس عَلَيْهِ دَلِيلاً ﴾ حيث ما تكون الشمس يظهر الظل .

وقال القتبي : إنما يكون دليلاً ، لأنه لو لم تكن الشمس لم يعرف الظل ، لأن الأشياء تعرف بأضدادها ﴿ ثُمَّ قبضناه إِلَيْنَا قَبْضاً يَسِيراً ﴾ يعني : الظل بعد غروب الشمس ، وذلك أن الشمس إذا غابت عاد الظل ، وذلك وقت قبضه ، لأن ظل الشمس بعد غروب الشمس لا يذهب كله جملة ، وإنما يقبض الله ذلك الظلّ قبضاً خفياً شيئاً فشيئاً ، دلَّ الله تعالى بهذا الوصف على قدرته ، ولطفه في معاقبته بين الظل والشمس لمنافع الناس ، ولمصالح عباده ، وبلاده .

ويقال : ثم قبضناه ، أي : قبضناه سهلاً .

ويقال : يسيراً عند طلوع الشمس ، ثم قبضناه يسيراً .

يعني : هيناً سهلاً .

ويقال : يسيراً يعني : خفياً ، فلا يدري أحد أين يصير ، وكيف يصير ؟ ويقال : ثم قبضناه ، يعني .

ورفعناه رفعاً خفيفاً .

ويقال قوله : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَا الشمس عَلَيْهِ دَلِيلاً ﴾ أي : على الأوقات في النهار ليعرف زوال الشمس وأوقات الصلاة .

قوله عز وجل : ﴿ وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الليل لِبَاساً ﴾ يعني : سكناً لتسكنوا فيه .

ويقال : لباساً ستراً يستر جميع الأشياء ﴿ والنوم سُبَاتاً ﴾ يعني : راحة للخلق ليستريحوا فيه بالنوم ﴿ وَجَعَلَ النهار نُشُوراً ﴾ أي : للنشور ينتشرون فيه لابتغاء الرزق .

(171/561)

ثم قال عز وجل : ﴿ وَهُوَ الذى أَرْسَلَ الرياح بَشَرًا ﴾ يعني : تنشر السحاب ، والاختلاف في القراءات كما ذكرنا في سورة الأعراف ﴿ بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ ﴾ يعني : قدام المطر ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السماء مَاء طَهُوراً ﴾ يعني : مطهراً يطهر به الأشياء ، ولا يطهر بشيء ﴿ لِّنُحْيِىَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتاً ﴾ يعني : أرضاً لا نبات فيها ، فينبت بالمطر ﴿ وَنُسْقِيَهِ ﴾ يعني : نسقي بالمطر ﴿ مِمَّا خَلَقْنَا أنعاما وَأَنَاسِىَّ كَثِيراً ﴾ وهو جماعة الإنس يعني : نسقي به الناس والدواب لفظ البلدة مؤنث ، إلا أن معنى البلدة والبلد واحد ، فانصرف إلى المعنى ، ولو قال : ميتة ، لجاز إلا أنه لم يقرأ .

ثم قال عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ صرفناه بَيْنَهُمْ ﴾ يعني : قسمناه بين الخلق .

ويقال : نصرفه من بلد إلى بلد مرة بهذا البلد ، ومرة ببلد آخر .

كما روي عن ابن مسعود أنه قال : ما من عام بأمطر من عام ، ولكن الله تعالى يصرفه في الأرض ثم قرأ هذه الآية .

كما روي عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال " مَا مِنْ سَنَةٍ بِأَمْطَرَ مِنْ أُخْرَى ، ولكن إذَا عَمِلَ قَوْمٌ بِالمَعَاصِي حَوَّلَ الله ذلك إلَى غَيْرِهِمْ فَإِذَا عَصَوْا جَمِيعاً ، صَرَفَ الله ذلك إلَى الفَيَافِي وَالبِحَارِ " .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما : ما من عام بأكثر من عام ، ولكنه يصرفه حيث يشاء ، فذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ صرفناه بَيْنَهُمْ ﴾ ﴿ لِّيَذَّكَّرُواْ ﴾ يعني : ليتعظوا في صنعه ، فيعتبروا في توحيد الله تعالى ، فيوحدوه .

وقرأ حمزة والكسائي ﴿ لِّيَذْكُرُواْ ﴾ بالتخفيف ، وضم الكاف .

وقرأ الباقون بالتشديد والنصب .

(172/561)

ثم قال : ﴿ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُورًا ﴾ يعني : كفراناً في النعمة ، وهو قولهم : مطرنا بنوء كذا ، ويقال : إلا جحوداً وثباتاً على الكفر قوله عز وجل : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ

نَّذِيراً ﴾ قال مقاتل : ولو شئنا لبعثنا في زمانك في كل قرية رسولاً ، ولكن بعثناك إلى القرى كلها رسولاً اختصصناك بها ﴿ فَلاَ تُطِعِ الكافرين ﴾ وذلك حين دعوه إلى ملة آبائه ﴿ وجاهدهم بِهِ ﴾ أي بالقرآن ﴿ جِهَاداً كَبِيراً ﴾ يعني : شديداً . انتهى انتهى . اهـ

﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ 533. 541 ﴾

(173/561)

وقال الثعلبى :

﴿ وَقَالَ الذين لاَ يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْنَا الملائكة ﴾

فتخبرنا أنَّ محمداً صادق محقّ ﴿ أَوْ نرى رَبَّنَا ﴾ فيخبرنا بذلك نظيرها قوله سبحانه ﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ ﴾ [الإسراء : 90] الى قوله ﴿ والملائكة قَبِيلاً ﴾ [الإسراء : 92] .

قال الله تعالى ﴿ لَقَدِ استكبروا فِي أَنفُسِهِمْ ﴾ بهذه المقالة ﴿ وَعَتَوْا عُتُوّاً كَبِيراً ﴾ قال مقاتل : غلوّاً في القول ، والعتو : أشدّ الكفر وأفحش الظلم .

﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ الملائكة ﴾ عند الموت وفي القيامة ﴿ لاَ بشرى يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ للكافرين ﴿ وَيَقُولُونَ ﴾ يعني الملائكة للمجرمين ﴿ حِجْراً مَّحْجُوراً ﴾ أي حراماً محرماً عليكم

البشرى بخير ، وقيل : حرام عليكم الجنة ، وقال بعضهم : هذا قول الكفار للملائكة ، قال ابن جريج : كانت العرب إذا نزلت بهم شديدة أو رأوا ما يكرهون قالوا : حجراً محجوراً ، فقالوا حين عاينوا الملائكة هذا ، وقال مجاهد : يعني عوذاً معاذاً ، يستعيذون من الملائكة .

﴿ وَقَدِمْنَآ ﴾ وعمدنا ﴿ إِلَى مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَآءً مَّنثُوراً ﴾ باطلاً لا ثواب له لأنّهم لم يعملوه لله سبحانه وإنّما عملوه للشيطان ، واختلف المفسّرون في الهباء فقال بعضهم : هو الذي يرى في الكوى من شعاع الشمس كالغبار ولا يُمسّ بالأيدي ولا يُرى في الظلّ ، وهو قول الحسن وعكرمة ومجاهد .

وقال قتادة وسعيد بن جبير : هو ما تسفيه الرياح وتذريه من التراب وحطام الشجر ، وهي رواية عطاء الخراساني عن ابن عباس ، وقال ابن زيد : هو الغبار ، والوالبي عن ابن عباس : هو الماء المهراق ، مقاتل : ما يسطع من حوافر الدواب ، والمنثور : المتفرق .

(174/561)

﴿ أَصْحَابُ الجنة يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرّاً ﴾ من هؤلاء المشركين المتكبرين المفتخرين بأموالهم ﴿ وَأَحْسَنُ مَقِيلاً ﴾ موضع قائلة وهذا على التقدير ، قال المفسرون : يعني أنّ

أهل الجنة لا يمر بهم في الآخرة إلاّ قدر ميقات النهار من أوّله إلى وقت القائلة حتى يسكنوا مساكنهم في الجنة .

قال ابن مسعود : لا ينتصف النهار يوم القيامة حتى يقيل هؤلاء في الجنة وهؤلاء في النار وقرأ : ثم ان مقيلهم لاَلى الجحيم ، هكذا كان يقرأها ، وقال ابن عباس في هذه الآية : الحساب من ذلك اليوم في أوّله ، وقال القوم حين قالوا في منازلهم في الجنة .

وروى ابن وهب عن عمرو بن الحرث أنّ سعيداً الصوّاف أو الصراف حدّثه أنّه بلغه أن يوم القيامة يقصر على المؤمنين حتى يكون كما بين العصر إلى غروب الشمس وأنّهم ليقيلون في رياض الجنة حتى يفرغ من الناس ، وقرأ هذه الآية .

﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السماء بالغمام ﴾ قرأ أبو عمر وأهل الكوفة بتخفيف الشين على الحذف والتخفيف ههنا وفي سورة ق ، وقرأ الآخرون بالتشديد فيهما على معنى تنشق السماء بالغمام أي عن الغمام ، والباء وعن يتعاقبان كما يقال : رميت عن القوس وبالقوس بمعنى واحد .

وقال المفسّرون : وهو غمام أبيض رقيق مثل الضبابة ولم يكن لبني إسرائيل في تيههم ، وهو الذي قال الله سبحانه وتعالى ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الغمام والملائكة ﴾ .

﴿ وَنُزِّلَ الملائكة تَنزِيلاً ﴾ هكذا قراءة العامة ، وقرأ ابن كثير ونُنزل بنونين الملائكة نصبٌ

﴿ الملك يَوْمَئِذٍ الحق للرحمن ﴾ خالصاً وبطلت ممالك غيره ﴿ وَكَانَ يَوْماً عَلَى الكافرين عَسِيراً ﴾ صعباً شديداً نظيرها قوله سبحانه ﴿ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ * عَلَى الكافرين غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾ [المدثر : 9-10] والخطاب يدلّ على أنّه على المؤمنين يسير .

(175/561)

وفي الحديث : إنّه ليهوّن يوم القيامة على المؤمن حتى يكون أخفّ عليه من صلاة مكتوبة صلاّها في دار الدنيا .

﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظالم على يَدَيْهِ ﴾ الآية . نزلت في عقبة بن أبي معيط وأُبي بن خلف وكانا متحابّين وذلك " أنّ عقبة كان لا يقدم من سفر إلاّ صنع طعاماً فدعا إليه أشراف قومه وكان يكثر مجالسة النبي صلى الله عليه وسلم فقدم من سفره ذات يوم فصنع طعاماً فدعا الناس ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم الى طعامه ، فلمّا قرّب الطعام ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما أنا بآكل من طعامك حتى تشهد أن لا إله إلاّ الله وأني رسول الله" فقال عقبة : أشهد أن لا إله إلاّ الله وأنَّ محمداً رسول الله ، فأكل رسول الله صلى الله عليه وسلم من طعامه وكان أُبيّ بن خلف غائباً ، فلمّا أُخبر بالقصة قال : صبأت يا عقبة : قال : لا والله ما أصبأت ولكن دخل عليّ رجل فأبى أن يطعم من طعامي

ألاّ أن أشهد له فاستحييت أن يخرج من بيتي ولم يطعم ، فشهدت له فطعم .

فقال أُبَيّ : ما أنا بالذي أرضى منك أبداً إلاّ أن تأتيه فتبزق في وجهه وتطأ عنقه ، ففعل ذلك عقبة وأخذ رحم دابّة فألقاها بين كتفيه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ألقاك خارجاً من مكّة إلاّ علوت رأسك بالسيف " . فقُتل عقبة يوم بدر صبراً ، وأما أُبيّ بن خلف فقتله النبي صلى الله عليه وسلم بيده يوم أُحد في المنابزة ، وأنزل الله فيهما هذه الآية .

وقال الضحّاك : لمّا بزق عقبة في وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم عاد بزاقه في وجهه وانشعب شعبتين فأحرق خدّيه ، فكان أثر ذلك فيه حتّى الموت .

(176/561)

وروى عطاء الخراساني عن ابن عباس قال : كان أُبي بن خلف يحضر النبي صلى الله عليه وسلم ويجالسه ويسمع إلى كلامه من غير أن يؤمن له فزجره عقبة بن أبي معيط عن ذلك ، فنزلت هذه الآية ، وقال الشعبي : كان عقبة بن أبي معيط خليلاً لأُميّة بن خلف فأسلم عقبة فقال أُميّة : وجهي من وجهك حرام إن بايعت محمداً ، فكفر وارتدّ لرضا أُميّة فأنزل الله سبحانه ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظالم على يَدَيْهِ ﴾ يعني الكافر عقبة بن أبي معيط لأجل طاعة

خليله الذي صَدَّهُ عن سبيل ربّه ﴿ يَقُولُ يالَيتني ﴾ وفتح تاءه أبو عمرو ﴿ اتخذت مَعَ الرسول ﴾ محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ سَبِيلاً * ياويلتى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاَناً خَلِيلاً ﴾ يعني أُبي بن خلف الجمحي ﴿ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذكر ﴾ يعني القرآن والرسول ﴿ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي وَكَانَ الشيطان ﴾ وهو كلّ متمرّد عات من الجانّ ، وكلّ من صدَّ عن سبيل الله وأُطيع في معصيته فهو شيطان ﴿ لِلإِنْسَانِ خَذُولاً ﴾ عند نزول البلاء والعذاب به .

وحكم هذه الآيات عامّ في كلّ متحابّين اجتمعا على معصية الله ، لذلك قال بعض العلماء :

أنشدنيه أبو القاسم الحسن بن محمد بن جعفر قال : أنشدني أبو محمد عبد الله بن أحمد بن الصديق قال : أنشدنا أبو وائلة عبد الرحمن بن الحسين :

تجنّبْ قرين السوء واصرم حباله . . . فإن لم تجد عنه محيصاً فداره

وأحبب حبيب الصدق واحذر مراءه . . . تنل منه صفو الودّ ما لم تماره

وفي الشيب ما ينهى الحليم عن الصبا . . . إذا اشتعلت نيرانه في عذاره

وأنشدني أبو القاسم الحبيبي قال : أنشدني أبو بكر محمد بن عبد الله الحامدي :

اصحبْ خيار الناس حيث لقيتهم . . . خير الصحابة من يكون عفيفاً

والناس مثل دراهم ميزّتها . . . فوجدت فيها فضّة وزيوفا

وأخبرنا أبو القاسم الحسن بن محمد بن جعفر المفسّر قال : حدّثنا أبو سعيد عبد الرَّحْمن ابن محمد بن حسكا قال : حدّثنا عبد الله بن محمد بن عبد العزيز قال : حدّثنا محمد بن عبد الملك بن أبي الشوارب قال : حدّثنا عبد الواحد بن زياد قال : حدّثنا عاصم عن أبي كبشة قال : سمعت أبا موسى يقول على المنبر : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " مثل الجليس الصالح مثل العطار إنْ لم ينلك يعبقُ بك من ريحه ، ومثل الجليس السوء مثل القين إنْ لم يحرق ثيابك يعبق بك من ريحه " .

وحدّثنا أبو القاسم بن حبيب لفظاً سنة ثمان وثمانين وثلاثمائة قال : أخبرنا أبو حاتم محمد ابن حيان بن أحمد قال : أخبرنا محمد بن أبي علي الخلادي قال : حدّثنا عبد الله بن الصقر السكري قال : حدّثنا وهب بن محمد النباتي قال : سمعت الحرث بن وجيه يقول : سمعت مالك ابن دينار يقول : إنك إن تنقل الحجارة مع الأبرار خير من أن تأكل الخبيص مع الفجّار .

﴿ وَقَالَ الرسول ﴾ يعني ويقول الرسول في ذلك اليوم ﴿ يا رب إِنَّ قَوْمِي اتخذوا هذا القرآن مَهْجُوراً ﴾ أي قالوا فيه غير الحق فزعموا أنّه سحر وشعر وسمر من الهجر ، وهو القول السيّىء ، عن النخعي ومجاهد .

وقال الآخرون : هو من الهجران أي أعرضوا عنه وتركوه فلم يؤمنوا به ولم يعملوا بما فيه .

أخبرنا أبو الطيب الربيع بن محمد الحاتمي وأبو نصر محمد بن علي بن الفضل الخزاعي قالا :

حدّثنا أبو الحسن علي بن محمد بن عقبة الشيباني قال : حدّثنا أبو القاسم الخضر بن أبان القرشي قال : حدّثنا أبو هدية إبراهيم بن هدية قال : حدّثنا أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" مَن تعلّم القرآن وعلّمه وعلّق مصحفاً لم يتعاهده ولم ينظر فيه جاء يوم القيامة متعلّقاً به يقول : يا ربّ العالمين عبدك هذا اتخذني مهجوراً اقض بيني وبينه " .

(178/561)

﴿ وَكَذَلِكَ ﴾ أي وكما جعلنا لك يا محمد أعداء ومن مشركي قومك كذلك ﴿ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً مِّنَ المجرمين ﴾ أي من مشركي قومه ، فاصبر لأمري كما صبروا فإني هاد بك وناصرك على من ناواك .

﴿ وكفى بِرَبِّكَ هَادِياً وَنَصِيراً ﴾ على الحال والتمييز ﴿ وَقَالَ الذين كَفَرُواْ لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ ﴾ على محمد ﴿ القرآن جُمْلَةً وَاحِدَةً ﴾ كما أُنزلت التوراة على موسى ، والزبور على داود ، والإنجيل على عيسى جملة واحدة قال الله سبحانه ﴿ كَذَلِكَ ﴾ فعلنا ﴿ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ لنقوّي بها قلبك فتعيه وتحفظه ، فإنّ الكتب نزلت على أنبياء يكتبون ويقرؤون ، والقرآن أُنزل على نبيّ أُمّي ولأنّ من القرآن الناسخ والمنسوخ ، ومنه ما هو جواب

لمن سأل عن أُمور ، ففرّقناه ليكون أوعى لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأيسر على العالِم به .

﴿ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ﴾ قال ابن عباس : ورسّلناه ترسيلاً ، وقال النخعي والحسن : فرّقناه تفريقاً آية بعد آية وشيئاً بعد شيء ، وكان بين أوله وآخره نحو ثلاث وعشرين سنة ، وقال ابن زيد : وفسّرناه تفسيراً ، والترتيل : التبيين في ترسّل وتثبّت .

﴿ وَلاَ يَأْتُونَكَ ﴾ يا محمد يعني هؤلاء المشركين ﴿ بِمَثَلٍ ﴾ في إبطال أمرك ﴿ إِلاَّ جِئْنَاكَ بالحق ﴾ أي بما تردّ به ما جاؤوا به من المثل وتبطله . ﴿ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً ﴾ بياناً وتفصيلاً ، ثمَّ وصف حال المشركين وبيّن حالهم يوم القيامة فقال ﴿ الذين ﴾ يعني هم الذين ﴿ يُحْشَرُونَ على وُجُوهِهِمْ ﴾ فيساقون ويجرّون ﴿ إلى جَهَنَّمَ أولئك شَرٌّ مَّكَاناً وَأَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ .

(179/561)

أخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا ابن خرجة قال : حدّثنا الحضرمي قال : حدّثنا عثمان قال : حدّثنا بشر بن المفضل عن علي بن يزيد عن أوس بن أوس عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يُحشر الناس يوم القيامة على ثلاثة أثلاث : ثلث على

الدوابّ ، وثلث على وجوههم ، وثلث على أقدامهم ينسلون نسلا " .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الكتاب وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيراً ﴾ أي معيناً وظهيراً ﴿ فَقُلْنَا اذهبا إِلَى القوم الذين كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا ﴾ يعني القبط ، وفي الآية متروك استغنى عنه بدلالة الكلام عليه تقديرها : فكذّبوهما .

﴿ فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيراً ﴾ فأهلكناهم إهلاكاً ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُواْ الرسل أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ للنَّاسِ آيَةً ﴾ عبرة ﴿ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ ﴾ في الآخرة ﴿ عَذَاباً أَلِيماً ﴾ سوى ما حلّ بهم من عاجل العذاب .

﴿ وَعَاداً وَثَمُودَاْ وَأَصْحَابَ الرس ﴾ اختلفوا فيهم ، فقال ابن عباس : كانوا أصحاب آبار ، وقال وهب بن منبه : كانوا أهل بئر قعوداً عليها وأصحاب مواشي ، وكانوا يعبدون الأصنام فوجّه الله إليهم شعيباً يدعوهم الى الإسلام فأتاهم ودعاهم ، فتمادوا في طغيانهم وفي أذى شعيب فحذّرهم الله عقابه ، فبينا هم حول البئر في منازلهم انهارت البئر فانخسفت بهم وبديارهم ورباعهم فهلكوا جميعاً .

قتادة : الرس : قرية بفلج اليمامة قتلوا نبيّهم فأهلكهم الله ، وقال بعضهم : هم بقية هود قوم صالح ، وهم أصحاب البئر التي ذكرها الله سبحانه في قوله تعالى ﴿ وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴾ .

قال سعيد بن جبير وابن الكلبي والخليل : كان لهم نبيّ يقال له حنظلة بن صفوان ، وكان بأرضهم جبل يقال له فتح ، مصعده في السماء ميل ، وكانت العنقاء تنتابه وهي أعظم ما تكون من الطير وفيها من كل لون ، وسمّوها العنقاء لطول عنقها ، وكانت تكون في ذلك الجبل تنقضّ على الطير أكلها ، فجاعت ذات يوم فأعوزتها الطير فانقضّت على صبي فذهبت ، فسُمّيت عنقاء مغرب لأنها تغرب بما تأخذه وتذهب به ، ثم إنّها انقضّت على جارية حين ترعرعت فأخذتها فضمّتها إلى جناحين لها صغيرين سوى الجناحين الكبيرين ، فطارت بها فشكوا الى نبيّهم فقال : اللهم خذها واقطع نسلها ، فأصابتها صاعقة فاحترقت فلم ير لها أثر ، فضربتها العرب في أشعارهم ، ثم إنهم قتلوا نبيّهم فأهلكهم الله .

وقال كعب ومقاتل والسدي : هم أصحاب يس ، والرسّ بئر بأنطاكية قتلوا فيها حبيباً النّجار ، فنسبوا لها وهم الرسّ ، ذكرهم الله سبحانه في سورة يس ، وقيل : هم أصحاب الأُخدود والرسّ هو الأُخدود الذي حفروه ، وقال عكرمة : هم قوم رسّوا نبيهم في بئر ، دليله ما روى محمد بن إسحاق عن محمد بن كعب القرظي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنَّ أول الناس يدخل الجنة يوم القيامة لعبد أسود وذلك أن الله سبحانه بعث نبيّاً إلى أهل قرية فلم يؤمن به من أهلها أحد إلاّ ذلك الأسود ، ثمّ إنّ أهل القرية عدوا على ذلك النبي فحفروا له بئراً فألقوه فيها ، ثم أُطبق عليه بحجر ضخم ، وكان ذلك العبد

الأسود يذهب فيحتطب على ظهره ، ثم يأتي بحطبه فيبيعه فيشري به طعاماً وشراباً ، ثم يأتي به إلى تلك البئر فيرفع تلك الصخرة يعينه الله عليها فيدلي إليه طعامه وشرابه ثم يردّها كما كانت .

(181/561)

قال : وكان كذلك ما شاء الله أن يكون ثم إنّه ذهب يوماً يحتطب كما كان يصنع فجمع حطبه وحزم حزمته وفرغ منها ، فلمّا أراد أن يحتملها وجد سِنة فاضطجع فنام فضرب اللّه على أُذنه سبع سنين ، ثم إنه هبّ فتمطّى فتحوّل لشقّه الآخر فاضطجع ، فضرب الله على أُذنه سبع سنين أُخرى ، ثم إنّه هبّ فاحتمل حزمته ولا يحسَبُ إلاّ أنه نام ساعة من نهار ، فجاء الى القرية فباع حزمته ، ثم اشترى طعاماً وشراباً كما كان يصنع ، ثم ذهب الى الحفرة في موضعها التي كانت فيه فالتمسه فلم يجده وقد كان بدا لقومه فيه بداء فاستخرجوه فآمنوا به وصدّقوه .

قال : وكان النبي يسألهم عن ذلك الأسود ما فعل ؟ فيقولون له : ماندري ، حتى قبض الله ذلك النبي فأهب الله الاسود من نومته بعد ذلك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إنّ ذلك الاسود لأول من يدخل الجنة " .

قلت : قد ذكر في هذا الحديث انهم آمنوا بنبيهم واستخرجوه من حفرته فلا ينبغي ان يكونوا المعنيين بقوله ﴿ وَأَصْحَابَ الرس ﴾ لأن الله سبحانه وتعالى أخبر عن أصحاب الرسّ أنهم دمّرهم تدميراً إلاّ أن يكونوا دُمروا بأحداث أحدثوها بعد نبيهم الذي استخرجوه من الحفرة وامنوا به فيكون ذلك وجهاً .

وقد ذُكر عن أمير المؤمنين علي رضي الله عنه في قصة أصحاب الرس ما يصدّق قول عكرمة وتفسيره ، وهو ما روى علي بن الحسين زين العابدين عن أبيه عن علي بن أبي طالب أنَّ رجلا من أشراف بني تميم يقال له عمرو أتاه فقال : يا أمير المؤمنين أخبرني عن أصحاب الرسّ في أيّ عصر كانوا ؟ وأين كانت منازلهم ؟ ومن كان ملكهم ؟ وهل بعث الله سبحانه إليهم رسولاً ؟ وبماذا أُهلكوا ؟ فإنّي أجد في كتاب الله سبحانه ذكرهم ولا أجد خبرهم ، فقال له علي رضي الله عنه : لقد سألت عن حديث ما سألني عنه أحد قبلك ولا يحدّثك به أحد بعدي .

(182/561)

وكان من قصتهم يا أخا تميم أنهم كانوا قوماً يعبدون شجرة صنوبر يقال لها شاه درخت ، كان يافث بن نوح غرسها على شفير عين يقال لها دوشاب كانت أُنبتت لنوح عليه السلام

بعد الطوفان ، وإنّما سُمّوا أصحاب الرسّ لأنهم رسّوا نبيهم في الأرض وذلك قبل سليمان بن داود ، وكان له إثنتا عشرة قرية على شاطئ نهر يقال له الرس من بلاد المشرق ، وبهم سمّي ذلك النهر ، ولم يكن يومئذ في الأرض أغزر منه ولا أعذب ، ولا قرى أكثر سكاناً ولا أعمر منها ، وكانت ، أعظم مداينهم اسفندماه وهي التي ينزلها ملكهم ، وكان يسمّى نركوز بن عانور بن ناوش بن سارن ابن نمرود بن كنعار ، وبها العين والصنوبرة وقد غرسوا في كل قرية منها حبة من طلع تلك الصنوبرة فنبتت الحبّة وصارت شجرة عظيمة ، وحرموا ماء العين والأنهار فلا يشربون منها هم ولا أنعامهم ، ومن فعل ذلك قتلوه ، ويقولون : هي حياة آلهتنا فلا ينبغي لأحد أن يقطف من حباتها ، ويشربون هم وأنعامهم من نهر الرس الذي عليه قراهم ، وقد جعلوا في كل شهر من السنة في كل قرية عيداً تجتمع إليه أهلها ويضربون على الشجرة التي بها كلّة من حرير فيها أنواع الصور ، ثم يأتون بشياه وبقر فيذبحونها قرباناً للشجرة ويشعلون فيها النيران بالحطب ، فإذا سطع دخان تلك الذبائح وقتاره في الهواء ، وحال بينهم وبين النظر الى السماء ، خرّوا للشجرة سجّداً يبكون ويتضرعون إليها أن ترضى عنهم .

(183/561)

وكان الشيطان يجيىء فيحرّك أغصانها ويصيح من ساقها صياح الصبي : إني قد رضيت عنكم عبادي فطيبوا نفساً وقرّوا عيناً ، فيرفعون عند ذلك رؤوسهم ويشربون الخمر ويضربون بالمعازف فيكونون على ذلك يومهم وليلتهم ، ثم ينصرفون حتى إذا كان عيد قريتهم العظمى اجتمع إليه صغيرهم وكبيرهم فضربوا عند الصنوبرة والعين سرادقاً ، ويقرّبون لها الذبائح أضعاف ما قرّبوا للشجرة التي في قراهم ، فيجيء إبليس عند ذلك فيحرّك الصنوبرة تحريكاً شديداً ويتكلم من جوفها كلاماً جهورياً يعدهم ويمنيهم بأكثر مما وعد بهم الشياطين كلّها ، فيرفعون رؤوسهم من السجود وبهم من الفرح والنشاط ما لا يفيقون من الشرب والعزف ، فيكونون على ذلك اثنا عشر يوماً ولياليها بعدد أعيادهم سائر السنة ثم ينصرفون .

فلمّا طال كفرهم بالله سبحانه وعبادتهم غيره بعث الله سبحانه إليهم نبياً من بني إسرائيل من ولد يهودا بن يعقوب فلبث فيهم زماناً طويلاً يدعوهم الى عبادة الله سبحانه وتعالى ومعرفة ربوبيته فلا يتبعونه ، فلمّا رأى شدّة تماديهم في الغي والضلال ، وتركهم قبول ما دعاهم إليه من الرشد الصلاح وحضر عند قريتهم العظمى قال : يا ربّ إنّ عبادك أبوا إلاّ أن يكذّبوني ويكفروا بك وغدوا يعبدون شجرة لا تنفع ولا تضر ، فأيبسْ شجرهم اجمع وأرِهم قدرتك وسلطانك ، فأصبح القوم وقد يبس شجرهم كلّه ، فهالهم ذلك وقطعوا بها

وصاروا فرقتين : فرقة قالت سحر آلهتكم هذا الرجل الذي زعم أنه رسول ربّ السماء والأرض إليكم ليصرف وجوهكم عن آلهتكم إلى إلهه .

(184/561)

وفرقة قالت : لا بل غضبت آلهتكم حين رأت هذا الرجل يعيبها ويقع فيه ويدعوكم الى عبادة غيرها ، فحجبت حسنها وبهاءها لكي تضبوا لها فينتصروا منه ، فأجمع رأيهم على قتله فاتخذوا أنابيب طوالاً من رصاص واسعة الأفواه ، ثم أرسلوها في قرار العين إلى أعلى الماء واحدة فوق الأخرى مثل البرابخ ، ونزحوا ما فيها من الماء ثم حفروا في قرارها بئراً ضيقة المدخل عميقة ، وأرسلوا فيها نبيّهم وألقموا فاها صخرة عظيمة ثم أخرجوا الأنابيب من الماء وقالوا : نرجو الآن أن ترضى عنّا آلهتنا إذ رأت أنّا قد قتلنا من كان يقع فيها ويصد عن عبادتها ودفنّاه تحت كبيرها يتشفى منه فيعود لها نورها ونضرتها كما كان ، فبقوا عامة يومهم يسمعون أنين نبيّهم عليه السلام وهو يقول : سيّدي قد ترى ضيق مكاني وشدّة كربي فارحم ضعف ركني وقلة حيلتي ، وعجّل قبض روحي ولا تؤخّر إجابة دعوتي حتى مات عليه السلام .

فقال الله تعالى لجبرئيل : إنّ عبادي هؤلاء غرّهم حلمي وآمنوا مكري وعبدوا غيري وقتلوا

رسولي ، وأنا المنتقم ممّن عصاني ولم يخش عقابي ، وإنّي حلفت لأجعلنهم عبرة ونكالا للعالمين ، فلم يرعهم وهم في عيدهم إلاّ ريح عاصف شديدة الحمرة قد عروا عنها وتحيروا فيها ، وانضم بعضهم إلى بعض ثم صارت الأرض من تحتهم حجر كبريت تتوقد وأظلّتهم سحابة سوداء فألقت عليهم كالقبّة حمراء تلتهب فذابت أبدانهم كما يذوب الرصاص في النار نعوّذ بالله من غضبه ودرك نقمته .

(185/561)

وقال بعض أهل العلم بأخبار الماضين وسير المتقدمين : بلغني أنّه كان رسّان : أمّا احَدَهُمَا فكان أهله أهل بدو وعمود وأصحاب مواشي فبعث الله إليهم رسولاً فقتلوه ، ثم بعث إليهم رسولا آخر وعضده بولي فقُتل الرسول وجاهدهم الولي حتى أفحمهم وكانوا يقولون إلهنا في البحر وكانوا على شفيره ، وأنّه كان يخرج إليهم من البحر شيطان في كل شهر خرجة فيذبحون عنده ويجعلونه عيداً فقال لهم الولي : أرأيتكم إن خرج إلهكم الذي تعبدونه فدعوته فأجابني وأمرته فأطاعني أتجيبونني الى ما دعوتكم إليه ؟ قالوا : بلى فأعطوه عهودهم ومواثيقهم على ذلك فانتظروا حتى خرج ذلك الشيطان على صورة حوت راكباً أربعة أحوات وله عنق مستعلية ، وعلى رأسه مثل التاج ، فلمّا نظروا إليه

خرّوا سجّدا وخرج الولي إليه فقال : ائتني طوعاً أو كرهاً باسم الله الكريم فنزل عند ذلك عن أحواته فقال له الولي : ائتني عليهن لئلاّ يكون من القوم في أمره شك ، فأتى الحوت وأتين به حتى أفضن الى البر يجرّونه ويجرّهم ، فكذبوه بعد ذلك فأرسل الله عليهم ريحاً فقذفهم في البحر وقذف في البحر مواشيهم وما كانوا يملكون من ذهب وفضة وآنية ، فأتى الولي الصالح الى البحر حتى أخذ الذهب والفضة والأواني فقسمها على أصحابه بالسويّة ، وانقطع نسل هؤلاء القوم . وأما الآخر فهم قوم كان لهم نهر يدعى الرسّ ينسبون إليه فكان فيهم أنبياء كثيرة قل يوم يقوم فيهم نبيّ إلاّ قتل ، وذلك النهر بمنقطع أذربيجان بينهما وبين أرمينية فإذا قطعته مدبراً ذاهباً دخلت في حدّ أرمينية ، وإذا قطعته مقبلاً دخلت حدّ أذربيجان وكان من حولهم من أهل أرمينية يعبدون الأوثان ومن قدّامهم من أهل أذربيجان يعبدون النيران ، وهم كانوا يعبدون الحواري العذارى فإذا تمّت لأحداهن ثلاثون سنة قتلوها واستبدلوا غيرها .

(186/561)

وكان عرض نهرهم ثلاث فراسخ وكان يرتفع في كل يوم وليلة حتى بلغ أنصاف الجبال التي حوله ، وكان لا ينصب في بر ولا بحر ، إذا خرج من حدّهم يقف ويدور ثم يرجع ، إليهم فبعث الله سبحانه إليهم ثلاثين نبيّاً في شهر واحد فقتلوهم جميعاً ، فبعث اللّه إليهم نبيّاً وأيّده بنصره وبعث معه وليّاً فجاهدهم في الله حقّ جهاده ونابذوه على سواء ، فبعث الله ميكائيل وكان ذلك في أوان وقوع الحَب في الزرع وكانوا إذ ذاك أحوج ما كانوا إلى الماء ففجر نهرهم في البحر ، فانصبّ ما في أسفله وأتى عيونها من فوق فسدّها .

وبعث الله أعوانه من الملائكة خمسمائة ألف ففرّقوا ما بقي في وسط النهر ، ثم أمر الله سبحانه جبرئيل ، فنزل فلم يدع في أرضهم عيناً لا ماء ولا نهر إلاّ أيبسه بإذن الله تعالى ، وأمر ملك الموت فانطلق إلى المواشي فأماتها ربضة واحدة ، وأمر الرياح الأربع الجنوب والشمال والصبا والديور فقصمت ما كان لهم من متاع ، وألقى الله عليهم السبات ثم خفقت الرياح الأربع بما كان من ذلك المتاع أجمع ، فنهبته في رؤوس الجبال وبطون الأودية .

فأما ما كان من حليّ أو تبر أو آنية فإن الله سبحانه أمر الأرض فابتلعته فأصبحوا ولا ماشية عندهم ولا مال يعودون إليه ولا ماء يشربونه ، وأصبحت زروعهم يابسة فآمن بالله عند ذلك قليل منهم وهداهم الله سبحانه إلى غار في جبل له طريق الى خلفه ، فنجوا وكانوا أحد وعشرين رجلاً وأربع نسوة وصبيّين ، وكان عدّة الباقين من الرجال والنساء والذراري ستمائة ألف فماتوا عطشاً وجوعاً ، ولم يبق منهم باقية ، ثم عاد القوم المؤمنون

الى منازلهم فوجدوها قد صار أعلاها أسفلها فدعوا الله عند ذلك مخلصين أن يجيئهم بزرع وماشية وماء ويجعله قليلاً لئلاّ يطغوا ، فأجابهم الله سبحانه الى ذلك لما علم من صدقهم ، وأطلق لهم نهرهم وزادهم على ما سألوا .

(187/561)

فقام أُولئك بطاعة الله ظاهرة وباطنة حتى مضى أولئك القوم وحدث من نسلهم بعدهم قوم أطاعوا الله في الظاهر ونافقوا في الباطن فأملى الله لهم ، ثم كثرت معاصيهم فبعث الله سبحانه عليهم عدوّهم فأسرع فيهم القتل فبقيت شرذمة منهم ، فسلّط الله عليهم الطاعون فلم يُبقِ منهم أحداً ، وبقي نهرهم ومنازلهم مائتي عام لا يسكنها أحد .

ثم أتى الله سبحانه بقرن بعد ذلك فنزلوها فكانوا صالحين سنين ثم أحدثوا بعد ذلك فاحشة جعل الرجل يدعو ابنته وأخته وزوجته فينيكها جاره وصديقه وأخوه يلتمس بذلك البر والصلة ، ثم ارتفعوا من ذلك الى نوع آخر استغنى الرجل بالرجل وتركوا النساء حتى شبقن فجاءتهن شيطانة في صورة امرأة وهي الدلهاث بنت إبليس وهي أُخت الشيطان ، كانا في بيضة واحدة فشبهت الى النساء ركوب بعضها الى بعض وعلّمتهن كيف يصنعن ، فأصل ركوب النساء بعضهن بعضاً من الدلهاث ، فسلّط الله سبحانه على ذلك

القرن صاعقة من أول الليل وخسفاً في آخر الليل وصيحةً مع الشمس ، فلم يبق منهم باقية وبادت مساكنهم .

ويشهد بصحّة بعض هذه القصة ما أخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا أبو الطيب بن حفصويه قال : حدّثنا عبد الله بن جامع قال : حدّثنا عثمان بن خرزاذ قال : حدّثنا سلمان بن عبد الرَّحْمن قال : حدّثنا الحكم بن يعلى بن عطاء قال : حدّثنا معاوية بن عمار الدهنى عن جعفر بن محمد عن أبيه في قوله ﴿ وَأَصْحَابَ الرس ﴾ قال : السحاقات .

وأخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا عبد الله بن يوسف بن أحمد بن مالك قال : حدّثنا الحسن بن إسماعيل الدينوري قال : حدّثنا أحمد بن يحيى بن مالك السوسي قال : حدّثنا نصر بن حماد قال : حدّثنا عمر بن عبد الرَّحْمن عن مكحول عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من أشراط الساعة أن يستكفي الرجال بالرجال والنساء بالنساء وذلك السحق " .

(188/561)

والرسّ في كلام العرب : كل محفور مثل البئر والمعدن والقبر ونحوها وجمعهُ رساس ، قال الشاعر :

سبقت إلى فرط بأهل تنابلة . . . يحفرون الرساسا

وقال أبو عبيد : الرسّ : كلّ ركية لم تطو بالحجارة والآجر والخشب .

﴿ وَقُرُوناً بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيراً * وَكُلاًّ ضَرَبْنَا لَهُ الأمثال ﴾ في إقامة الحجّة فلم نهلكهم إلاّ بعد الإعذار والإنذار ﴿ وَكُلاًّ تَبَّرْنَا تَتْبِيراً ﴾ أهلكنا إهلاكاً ، وقال المؤرخ : قال الأخفش : كسّرنا تكسيراً .

﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى القرية التي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السوء ﴾ يعني الحجارة وهي قرية قوم لوط وكانت خمس قرى فأهلك الله سبحانه أربعاً وبقيت الخامسة ، واسمها صغر وكان أهلها لا يعملون ذلك العمل الخبيث .

﴿ أَفَلَمْ يَكُونُواْ يَرَوْنَهَا ﴾ إذا مرّوا بها في أسفارهم فيعتبرون ويتذكروا . قال الله سبحانه ﴿ بَل كَانُواْ لاَ يَرْجُونَ ﴾ يخافون ﴿ نُشُوراً ﴾ بعثاً ﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُواً ﴾ نزلت في أبي جهل كان اذا مرَّ بأصحابه على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال مستهزئاً ﴿ أهذا الذي بَعَثَ الله رَسُولاً * إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا ﴾ قد كاد يصدّنا عن عبادتها ﴿ لَوْلاَ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ﴾ لصرفنا عنها ﴿ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ العذاب مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ وهذا وعيدٌ لهم ﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتخذ إلهه هَوَاهُ ﴾ وذلك أنّ الرجل من

المشركين كان يعبد الحجر أو الصنم ، فإن راى أحسن منه رمى به وأخذ الآخر فعبده ، قال ابن عباس : الهوى إله يعبد من دون الله .

(189/561)

﴿ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً ﴾ حفيظاً من الخروج إلى هذا الفساد ، نسختها آية الجهاد ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ ﴾ ما يقول : سماع طالب للإفهام ﴿ أَوْ يَعْقِلُونَ ﴾ ما يعاينون من الحجج والأعلام ﴿ إِنْ هُمْ ﴾ ما هم ﴿ إِلاَّ كالأنعام بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ لأنّ البهائم تهتدي لمراعيها ومشاربها وتنقاد لأربابها التي تعلفها وتعهدها ، وهؤلاء الكفار لا يعرفون طريق الحق ولا يطيعون ربّهم الذي خلقهم ورزقهم .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظل ﴾ معناه ألم تر إلى مدّ ربك الظل ، وهو ما بين طلوع الفجر الى طلوع الشمس وإنّما جعله ممدوداً لأنه لا شمس معه ، كما قال في ظل الجنة (وظل ممدود) إذ لم يكن معه شمس ، ﴿ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُ سَاكِناً ﴾ دائماً ثابتاً لا يزول ولا تذهبه الشمس .

قال أبو عبيد : الظلّ ما نسخته الشمس وهو بالغداة والفيىء ما نسخ الشمس وهو بعد الزوال ، سُمّي فيئاً لأنه من جانب المشرق الى جانب المغرب ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَا الشمس عَلَيْهِ

﴿ أي على الظل ﴿ دَلِيلاً ﴾ ومعنى دلالتها عليه أنه لو لم تكن الشمس لما عُرف الظل إذ الاشياء تعرف بأضدادها ، والظل يتبع الشمس في طوله وقصره كما يتبع السائر الدليل ، فإذا ارتفعت الشمس قصر الظل وان انحطّت طال ﴿ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ ﴾ يعني الظل ﴿ إِلَيْنَا قَبْضاً يَسِيراً ﴾ بالشمس التي يأتي بها فتنسخه ، ومعنى قوله يسيراً أي خفيفاً سريعاً ، والقبض : جمع الأجزاء المنبسطة ، وأراد ههنا النقل اللطيف .

(190/561)

﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الليل لِبَاساً ﴾ أي ستراً تستترون وتسكنون فيه ﴿ والنوم سُبَاتاً ﴾ راحة لأبدانكم وقطعاً لعملكم ، وأصل السبت القطع ومنه يوم السبت والنّعال السبتية ﴿ وَجَعَلَ النهار نُشُوراً ﴾ أي يقظة وحياة تُنشرون فيه وتنتشرون لأشغالكم ﴿ وَهُوَ الذي أَرْسَلَ الرياح بُشْرَى بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنزَلْنَا مِنَ السمآء مَآءً طَهُوراً ﴾ وهو الطاهر في نفسه المطهّر لغيره ﴿ لِّنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتاً ﴾ ولم يقل ميتة لأنّه رجع به الى المكان والموضع ، قال كعب : المطر روح الأرض ﴿ وَنُسْقِيَهُ ﴾ قرأه العامة بضم النون ، وروى المفضل والبرجمي عن عاصم بفتح النون وهي قراءة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ﴿ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَاماً وَأَنَاسِيَّ كَثِيراً ﴾ والأناسي جمع الإنسان ، وأصله أناسين مثل بستان

وبساتين فجعل الباء عوضاً من النون ، وإن قيل : هو أيضاً مذهب صحيح كما يجمع القرقور قراقير وقراقر .

أخبرني الحسن بن محمد الفنجوي قال : حدّثنا مخلد بن جعفر الباقرحي ، حدّثنا الحسن ابن علوي ، حدّثنا إسحاق بن عيسى قال : حدّثنا إسحاق بن بشر قال : حدّثنا ابن إسحاق وابن جريج ومقاتل كلّهم قالوا وبلّغوا به ابن مسعود : إن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " ليس من سنة بأَمطر من أُخرى ولكنّ الله قسّم هذه الأَرزاق فجعلها في السماء الدنيا في هذا القطر ، ينزل منه كلّ سنة بكيل معلوم ووزن معلوم ، ولكن إذا عمل قوم بالمعاصي حوّل الله ذلك إلى غيرهم فإذا عصوا جميعاً صرف الله ذلك الى الفيافي والبحار " .

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ ﴾ يعني المطر ﴿ بَيْنَهُمْ ﴾ عاماً بعد عام وفي بلدة دون بلدة ، وقيل : صرفناه بينهم وابلا وطشّاً ورهاماً ورذاذاً ، وقيل : التصريف راجع الى الريح .

(191/561)

﴿ لِيَذَّكَّرُواْ فأبى أَكْثَرُ الناس إِلاَّ كُفُوراً ﴾ أي جحوداً ، وقيل : هو قولهم مطر كذا وكذا ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيراً ﴾ رسولاً ولقسّمنا النذير بينهم كما قسّمنا المطر ،

فحينئذ يخفّ عليك أعباء النبوّة ، ولكنّا حمّلناك ثقل نذارة جميع القرى لتستوجب بصبرك عليه ما أعتدنا لك من الكرامة والهيبة والدرجة الرفيعة .

﴿ فَلاَ تُطِعِ الكافرين ﴾ فيما يدعونك إليه من عبادة آلهتهم ومقاربتهم ومداهنتهم ﴿ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ ﴾ أي بالقرآن ﴿ جِهَاداً كَبِيراً ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 7 صـ 129.140 ﴾

(192/561)

وقال الزمخشرى :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقاءَنَا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلاَئِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا ﴾

أى لا يأملون لقاءنا بالخير لأنهم كفرة . أو لا يخافون لقاءنا بالشر . والرجاء في لغة تهامة : الخوف ، وبه فسر قوله تعالى لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقاراً جعلت الصيرورة إلى دار جزائه بمنزلة لقائه لو كان ملقيا . اقترحوا من الآيات أن ينزل اللّه عليهم الملائكة فتخبرهم بأن محمدا صادق حتى يصدقوه . أو يروا اللّه جهرة فيأمرهم بتصديقه واتباعه . ولا يخلو : إما أن يكونوا عالمين بأن اللّه لا يرسل الملائكة إلى غير الأنبياء ، وأن اللّه لا يصح أن يرى «1» . وإنما علقوا إيمانهم بما لا يكون . وإما أن لا يكونوا عالمين بذلك وإنما أرادوا التعنت باقتراح آيات

سوى الآيات التي نزلت وقامت بها الحجة عليهم ، كما فعل قوم موسى حين قالوا : لن نؤمن لك حتى نرى اللّه جهرة . فإن قلت : ما معنى فِي أَنْفُسِهِمْ ؟ قلت : معناه أنهم أضمروا الاستكبار عن الحق وهو الكفر والعناد

---

(1) . قوله «لا يصح أن يرى ، هذا مذهب المعتزلة ، وعند أهل السنة : يصح أن يرى . (ع)

(193/561)

في قلوبهم واعتقدوه . كما قال إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ ما هُمْ بِبالِغِيهِ . وَعَتَوْا وتجاوزوا الحدّ في الظلم . يقال : عتا علينا فلان . وقد وصف العتوّ بالكبير ، فبالغ في إفراطه يعنى أنهم لم يخسروا على هذا القول العظيم ، إلا لأنهم بلغوا غاية الاستكبار وأقصى العنوّ ، واللام جواب قسم محذوف . وهذه الجملة في حسن استئنافها غاية . وفي أسلوبها قول القائل :

وجارة جسّاس أبأنا بنابها كليبا غلت ناب كليب بواؤها «1»

وفي فحوى هذا الفعل دليل على التعجب من غير لفظ التعجب . ألا ترى أن المعنى : ما أشدّ استكبارهم ، وما أكبر عتوّهم ، وما أغلى نابا بواؤها كليب .

[سورة الفرقان (25) : آية 22]

يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلائِكَةَ لا بُشْرى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْراً مَحْجُوراً (22)

يَوْمَ يَرَوْنَ منصوب بأحد شيئين : إما بما دل عليه لا بُشْرى أى : يوم يرون الملائكة يمنعون البشرى أو يعدمونها . ويومئذ للتكرير . وإما بإضمار «اذكر» أى : اذكر يوم يرون الملائكة ثم قال لا بُشْرى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ . وقوله «للمجرمين» إما ظاهر في موضع ضمير ، وإما لأنه عام ، فقد تناولهم بعمومه حِجْراً مَحْجُوراً ذكره سيبويه في باب المصادر غير المتصرفة المنصوبة بأفعال متروك إظهارها نحو : معاذ اللّه ، «2» وقعدك اللّه ، وعمرك اللّه . وهذه كلمة كانوا يتكلمون بها عند لقاء عدوّ موتور أو هجوم نازلة ، أو نحو ذلك : يضعونها موضع الاستعاذة . قال سيبويه : ويقول الرجل للرجل : أتفعل كذا وكذا ،

---

(1) . لرجل من بنى بكر : قبيلة جساس ، يفتخر على بنى تغلب : قبيلة كليب بن ربيعة أخى مهلهل وخال امرئ القيس . وجارة جساس : هي خالته البسوس . أبأنا – بالهمز – : أى قابلنا وساوينا كليبا ، بنابها : أى بناقتها المسنة ، فقتلناه فيها ، ثم قال تعجبا واستعظاما : غلت ، أى : ارتفعت وعظمت ناقة مسنة مهزولة بواؤها كليب المشهور . وبواء كسواء وزنا ومعنى ، أى : كفؤها ومساويها كليب بن ربيعة الشجاع المعروف . ومن خبرها أن البسوس أتت مع رجل من جرم تزور أختها هيلة أم جساس بن مرة فخرجت ناقة الجرمي ترعى مع إبل بنى بكر في أرض تغلب لما كان بينهما من المصاهرة والمودة ،

فأنكر كليب الناقة وظنها أجنبية ، فرماها بسهم فأصاب ضرعها فرجعت تشخب دما ، وبركت بفناء جساس ، فرأتها البسوس فصاحت : واذلاه ، واغربتاه ! فقال جساس : اهدئى ، واللّه لأعقرن فيها فحلا هو أعز على أهله منها ، فظن كليب أنه يعنى فحلا عنده اسمه عليان ، فقال : دون عليان خرط القتاد ، لكن جساسا كان يعنى نفس كليب ، فترقبه يوما ورماه برمحه فصرعه ، وتبعه عمرو بن الحرث ، فلما رآه كليب قال له : اسقني يا عمرو . فقال : تركت الماء وراءك وأجهز عليه ، فضرب به المثل المشهور : المستجير بعمرو عند كربته كالمستجير من الرمضاء بالنار

واشتعلت الحرب بين بكر وتغلب نحو ثلاثين سنة ، وضرب المثل السائر : سد كليب في الناقة .

(2) . قوله «و قعدك اللّه» في الصحاح : وقولهم : قعيدك لا آتيك ، وقعيدك اللّه لا آتيك ، وقعدك اللّه لا آتيك :

يمين العرب ، وهي مصادر استعملت منصوبة بفعل مضمر . والمعنى : بصاحبك الذي هو صاحب كل نجوى ، كما يقال : نشدتك اللّه . (ع)

(194/561)

فيقول : حجرا ، وهي من حجره إذا منعه ، لأنّ المستعيذ طالب من اللّه أن يمنع المكروه فلا يلحقه فكان المعنى : أسأل اللّه أن يمنع ذلك منعا ويحجره حجرا . ومجيئه على فعل أو فعل في قراءة الحسن ، تصرف فيه لاختصاصه بموضع واحد ، كما كان قعدك وعمرك كذلك ، وأنشدت لبعض الرّجاز :

قالت وفيها حيدة وذعر عوذ بربىّ منكم وحجر «1»

فإن قلت : فإذ قد ثبت أنه من باب المصادر ، فما معنى وصفه بمحجور ؟ قلت : جاءت هذه الصفة لتأكيد معنى الحجر ، كما قالوا . ذيل ذائل ، والذيل : الهوان . وموت مائت . والمعنى في الآية : أنهم يطلبون نزول الملائكة ويقترحونه ، وهم إذا رأوهم عند الموت أو يوم القيامة كرهوا لقاءهم وفزعوا منهم ، لأنهم لا يلقونهم إلا بما يكرهون ، وقالوا عند رؤيتهم ما كانوا يقولونه عند لقاء العدوّ الموتور «2» وشدة النازلة . وقيل : هو من قول الملائكة ومعناه : حراما محرما عليكم الغفران والجنة والبشرى ، أى : جعل اللّه ذلك حراما عليكم .

[سورة الفرقان (25) : آية 23]

وَقَدِمْنا إِلى ما عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْناهُ هَباءً مَنْثُوراً (23)

ليس ها هنا قدوم ولا ما يشبه القدوم ، ولكن مثلت حال هؤلاء وأعمالهم التي عملوها في كفرهم من صلة رحم ، وإغاثة ملهوف ، وقرى ضيف ، ومنّ على أسير ، وغير ذلك من

مكارمهم ومحاسنهم بحال قوم خالفوا سلطانهم واستعصوا عليه ، فقدم إلى أشيائهم ، وقصد إلى ما تحت أيديهم فأفسدها ومزقها كل ممزق ، ولم يترك لها أثرا ولا عثيرا «3» والهباء : ما يخرج من الكوّة مع ضوء الشمس شبيه بالغبار . وفي أمثالهم : أقل من الهباء مَنْثُوراً صفة للهباء ، شبهه بالهباء في قلته وحقارته عنده ، وأنه لا ينتفع به ، ثم بالمنثور منه ، لأنك تراه منتظما مع الضوء ، فإذا حركته الريح رأيته قد تناثر وذهب كل مذهب . ونحوه قوله كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ لم يكف أن شبههم بالعصف حتى جعله مؤوفا بالأكال «4» ولا أن شبه عملهم بالهباء حتى جعله متناثرا .

أو مفعول ثالث لجعلناه أى فجعلناه جامعا لحقارة الهباء والتناثر ، كقوله كُونُوا قِرَدَةً خاسِئِينَ أى جامعين للمسح والخسء . ولام الهباء واو ، بدليل الهبوة .

[سورة الفرقان (25) : آية 24]

أَصْحابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلاً (24)

---

(1) . الحيدة : الصدود ، وذعره ذعرا : فزعه . والذعر - بالضم - : اسم مصدر ، وكذلك العوذ بمعنى التعوذ والالتجاء ، وكذلك الحجر بمعنى الامتناع والتحصن ، والمبتدأ محذوف ، أى : قالت أمرى تعوذ منكم وتحصن بربي ، والحال أنها صادة فزعة ، وهذا يقال على لسانهم عند لقاء المكروه . [. . . . .]

(2) . قوله «الموتور» في الصحاح : الذي قتل له قتيل فلم يدرك بدمه . (ع)

(3) . قوله «لم يترك لها أثرا ولا عثيرا» في الصحاح «العثير» بتسكين الثاء : الغبار . (ع)

(4) . قوله «بالأكال» هو بالضم : الحكة . (ع)

(195/561)

المستقرّ : المكان الذي يكونون فيه في أكثر أوقاتهم مستقرّين يتجالسون ويتحادثون .

والمقيل : المكان الذي يأوون إليه للاسترواح إلى أزواجهم والتمتع بمغازلتهنّ وملامستهنّ ، كما أنّ المترفين في الدنيا يعيشون على ذلك الترتيب . وروى أنه يفرغ من الحساب في نصف ذلك اليوم ، فيقيل أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار . وفي معناه قوله تعالى إِنَّ أَصْحابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فاكِهُونَ هُمْ وَأَزْواجُهُمْ فِي ظِلالٍ عَلَى الْأَرائِكِ مُتَّكِؤُنَ قيل في تفسير الشغل : افتضاض الأبكار ، ولا نوم في الجنة . وإنما سمى مكان دعتهم واسترواحهم إلى الحور مقيلا على طريق التشبيه . وفي لفظ الأحسن : رمز إلى ما يتزين به مقيلهم . من حسن الوجوه وملاحة الصور ، إلى غير ذلك من التحاسين والزين .

[سورة الفرقان (25) : آية 25]

وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّماءُ بِالْغَمامِ وَنُزِّلَ الْمَلائِكَةُ تَنْزِيلاً (25)

وقرئ تَشَقَّقُ والأصل : تتشقق ، فحذف بعضهم التاء ، وغيره أدغمها . ولما كان انشقاق

السماء بسبب طلوع الغمام منها ، جعل الغمام كأنه الذي تشقق به السماء ، كما تقول : شق السنام بالشفرة وانشق بها . ونظيره قوله تعالى السَّماءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ . فإن قلت : أى فرق بين قولك : انشقت الأرض بالنبات ، وانشقت عن النبات ؟ قلت : معنى انشقت به : أنّ اللّه شقها بطلوعه فانشقت به . ومعنى انشقت عنه : أنّ التربة ارتفعت عنه عند طلوعه . والمعنى : أن السماء تنفتح بغمام يخرج منها ، وفي الغمام الملائكة ينزلون وفي أيديهم صحائف أعمال العباد . وروى تنشق سماء سماء ، وتنزل الملائكة إلى الأرض . وقيل : هو غمام أبيض رقيق ، مثل الضبابة ، ولم يكن إلا لبنى إسرائيل في تيههم . وفي معناه قوله تعالى هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمامِ وَالْمَلائِكَةُ . وقرئ : وننزل الملائكة ، وتنزل الملائكة ، ونزل الملائكة ، ونزلت الملائكة ، وأنزل الملائكة ، ونزل الملائكة ، ونزل الملائكة : على حذف النون الذي هو فاء الفعل من ننزل : قراءة أهل مكة .

[سورة الفرقان (25) : آية 26]

الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمنِ وَكانَ يَوْماً عَلَى الْكافِرِينَ عَسِيراً (26)

الحق : الثابت : لأنّ كل ملك يزول يومئذ ويبطل ، ولا يبقى إلا ملكه .

[سورة الفرقان (25) : الآيات 27 إلى 29]

وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلى يَدَيْهِ يَقُولُ يا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً (27) يا وَيْلَتى لَيْتَنِي لَمْ

أَتَّخِذْ فُلاناً خَلِيلاً (28) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جاءَنِي وَكانَ الشَّيْطانُ لِلْإِنْسانِ خَذُولاً (29)

(196/561)

عض اليدين والأنامل ، والسقوط في اليد ، وأكل البنان ، وحرق الأسنان والأرم «1» ، وقرعها : كنايات عن الغيظ والحسرة ، لأنها من روادفها ، فيذكر الرادفة ويدل بها على المردوف ، فيرتفع الكلام به في طبقة الفصاحة ، ويجد السامع عنده في نفسه من الروعة والاستحسان ما لا يجده عند لفظ المكنى عنه . وقيل : نزلت في عقبة بن أبى معيط بن أمية بن عبد شمس ، وكان يكثر مجالسة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم . وقيل اتخذ ضيافة فدعا إليها رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، فأبى أن يأكل من طعامه حتى ينطق بالشهادتين ، ففعل وكان أبى بن خلف صديقه فعاتبه وقال : صبأت يا عقبة ؟ قال : لا ، ولكن آلى أن لا يأكل من طعامى وهو في بيتي ، فاستحييت منه فشهدت له والشهادة ليست في نفسي ، فقال : وجهى من وجهك حرام إن لقيت محمدا فلم تطأ قفاه وتبزق في وجهه وتلطم عينه ، فوجده ساجدا في دار الندوة ففعل ذلك . فقال النبي صلى اللّه عليه وسلم : لا ألقاك خارجا من مكة إلا علوت رأسك بالسيف ، فقتل يوم بدر : أمر عليا رضى اللّه

عنه بقتله . وقيل : قتله عاصم بن ثابت بن أفلح الأنصارى وقال : يا محمد ، إلى من السبية «2» قال : إلى النار . وطعن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أبيا بأحد ، فرجع إلى مكة فمات «3» . واللام في الظَّالِمُ يجوز أن تكون للعهد ، يراد به عقبة خاصة . ويجوز أن تكون للجنس فيتناول عقبة وغيره . تمنى أن لو صحب الرسول وسلك معه طريقا واحدا وهو طريق الحق ولم يتشعب به طرق الضلالة والهوى . أو أراد أنى كنت ضالا لم يكن لي سبيل قط ، فليتني حصلت بنفسي في صحبة الرسول سبيلا . وقرئ : يا ويلتى بالياء ، وهو الأصل ، لأن الرجل ينادى ويلته وهي هلكته ، يقول لها : تعالى فهذا أوانك . وإنما قلبت الياء ألفا كما في : صحارى ، ومدارى . فلان : كناية عن الأعلام ، كما أن الهن كناية عن الأجناس فإن أريد بالظالم عقبة ، فالمعنى : ليتني لم أتخذ أبيا خليلا ، فكنى عن اسمه . وإن أريد به الجنس ،

---

(1) . قوله «و حرق الأسنان والأرم» في الصحاح : حرقت الشيء حرقا : بروته وحككت بعضه ببعض . ومنه قولهم : حرقت نابه ، أى سحقه حتى سمع له صريف . وفلان يحرق عليك الأرم غيظا . وفيه أيضا : أرم على الشيء أى : عض عليه وأرمه أيضا ، أى : أكله ، والأرم : الأضراس ، كأنه جمع آرم ، يقال : فلان يحرق عليك الأرم ، إذا تغيظ فحك أضراسه بعضها ببعض . (ع)

(2) . قوله «و قال يا محمد إلى من السبية» في الصحاح «السبية» : المرأة تسبى . (ع)

(3) . أخرجه أبو نعيم في الدلائل من طريق محمد بن مروان عن الكلبي عن أبى صالح عن ابن عباس فذكره مطولا لكن إلى قوله «فأسر عقبة يوم بدر فقتل صبرا . ولم يقتل من الأسارى يوم بدر غيره . قتله ثابت بن أبى الأفلح» وروى الطبري من طريق مجاهد في قوله تعالى . وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلى يَدَيْهِ قال «دعا عقبة بن أبى معيط النبي صلى اللّه عليه وسلم إلى طعام صنعه إلى قوله فشهدت له ، والشهادة ليست في نفسي» ومن طريق مقسم نحوه ، مختصرا قال فقتل عقبة يوم بدر صبرا» وأما أبى بن خلف فقتله النبي صلى اللّه عليه وسلم بيده يوم أحد في القتال وهما اللذان أنزل اللّه تعالى فيهما وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلى يَدَيْهِ وذكره الثعلبي ثم الواحدي من غير سند .

(197/561)

فكل من اتخذ من المضلين خليلا كان لخليله اسم علم لا محالة ، فجعله كناية عنه عَنِ الذِّكْرِ عن ذكر اللّه ، أو القرآن ، أو موعظة الرسول . ويجوز أن يريد نطقه بشهادة الحق ، وعزمه على الإسلام . والشيطان : إشارة إلى خليله ، سماه شيطانا لأنه أضله كما يضل الشيطان ، ثم خذله ولم ينفعه في العاقبة . أو أراد إبليس ، وأنه هو الذي حمله على مخالة المضل ومخالفة الرسول ، ثم خذله . أو أراد الجنس ، وكل من تشيطن من الجنّ والإنس . ويحتمل

أن يكون وَكانَ الشَّيْطانُ حكاية كلام الظالم، وأن يكون كلام اللّه. اتخذت: يقرأ على الإدغام والإظهار، والإدغام أكثر.

[سورة الفرقان (25): آية 30]

وَقالَ الرَّسُولُ يا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً (30)

الرسول: محمد صلى اللّه عليه وسلم وقومه قريش، حكى اللّه عنه شكواه قومه إليه. وفي هذه الحكاية تعظيم للشكاية وتخويف لقومه لأن الأنبياء كانوا إذا التجئوا إليه وشكوا إليه قومهم: حلّ بهم العذاب ولم ينظروا.

[سورة الفرقان (25): آية 31]

وَكَذلِكَ جَعَلْنا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفى بِرَبِّكَ هادِياً وَنَصِيراً (31)

ثم أقبل عليه مسليا ومواسيا وواعدا النصرة عليهم، فقال وَكَذلِكَ كان كل نبىّ قبلك مبتلى بعداوة قومه، وكفاك بى هاديا إلى طريق قهرهم والانتصار منهم، وناصرا لك عليهم.

مهجورا: تركوه وصدّوا عنه وعن الإيمان به. وعن النبي صلى اللّه عليه وسلم: من تعلم القرآن وعلمه وعلق مصحفا لم يتعاهده ولم ينظر فيه، جاء يوم القيامة متعلقا به يقول: يا رب العالمين، عبدك هذا اتخذني مهجورا، اقض بيني وبينه «1». وقيل: هو من هجر، إذا هذى، أى: جعلوه مهجورا فيه، فحذف الجار وهو على وجهين، أحدهما: زعمهم

أنه هذيان وباطل وأساطير الأوّلين. والثاني: أنهم كانوا إذا سمعوه هجروا فيه، كقوله تعالى لا تَسْمَعُوا لِهذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ ويجوز أن يكون المهجور بمعنى الهجر، كالمجلود والمعقول. والمعنى: اتخذوه هجرا.

والعدوّ: يجوز أن يكون واحدا وجمعا. كقوله فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي وقيل المعنى: وقال الرسول يوم القيامة.

[سورة الفرقان (25): الآيات 32 إلى 34]

وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً واحِدَةً كَذلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤادَكَ وَرَتَّلْناهُ تَرْتِيلاً (32) وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْناكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً (33) الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلى وُجُوهِهِمْ إِلى جَهَنَّمَ أُوْلئِكَ شَرٌّ مَكاناً وَأَضَلُّ سَبِيلاً (34)

---

(1). أخرجه الثعلبي من طريق أبى هدية عن أنس وأبو هدية كذاب.

(198/561)

نُزِّلَ هاهنا بمعنى أنزل لا غير، كخبر بمعنى أخبر، وإلا كان متدفعا. وهذا أيضا من اعتراضاتهم واقتراحاتهم الدالة على شرادهم عن الحق وتجافيهم عن اتباعه. قالوا: هلا أنزل عليه دفعة واحدة في وقت واحد كما أنزلت الكتب الثلاثة، وماله أنزل على

التفاريق . والقائلون :

قريش . وقيل : اليهود . وهذا فضول من القول ومماراة بما لا طائل تحته ، لأنّ أمر الإعجاز والاحتجاج به لا يختلف بنزوله جملة واحدة أو مفرّقا . وقوله كَذلِكَ جواب لهم ، أى : كذلك أنزل مفرّقا . والحكمة فيه : أن نقوّى بتفريقه فؤادك حتى تعيه وتحفظه ، لأنّ المتلقن إنما يقوى قلبه على حفظ العلم شيئا بعد شيء ، وجزأ عقيب جزء . ولو ألقى عليه جملة واحدة لبعل به وتعيا «1» بحفظه ، والرسول صلى اللّه عليه وسلم فارقت حاله حال موسى وداود وعيسى عليهم السلام ، حيث كان أميا لا يقرأ ولا يكتب وهم كانوا قارئين كاتبين ، فلم يكن له بدّ من التلقن والتحفظ ، فأنزل عليه منجما في عشرين سنة . وقيل : في ثلاث وعشرين . وأيضا : فكان ينزل على حسب الحوادث وجوابات السائلين ، ولأنّ بعضه منسوخ وبعضه ناسخ ، ولا يتأتى ذلك إلا فيما أنزل مفرّقا . فإن قلت : ذلك في كذلك يجب أن يكون إشارة إلى شيء تقدّمه ، والذي تقدّم هو إنزاله جملة واحدة ، فكيف فسرته بكذلك أنزلناه مفرّقا ؟ قلت : لأنّ قولهم :

لو لا أنزل عليه جملة : معناه : لم أنزل مفرّقا ؟ والدليل على فساد هذا الاعتراض : أنهم عجزوا عن أن يأتوا بنجم واحد من نجومه ، وتحدّوا بسورة واحدة من أصغر السور ، فأبرزوا صفحة عجزهم وسجلوا به على أنفسهم حين لاذوا بالمناصبة وفزعوا إلى المحاربة ، ثم قالوا : هلا نزل جملة واحدة ، كأنهم قدروا على تفاريقه حتى يقدروا على جملته

وَرَتَّلْناهُ معطوف على الفعل الذي تعلق به كذلك ، كأنه قال : كذلك فرقناه ورتلناه . ومعنى ترتيله : أن قدره آية بعد آية ، ووقفة عقيب وقفة . ويجوز أن يكون المعنى : وأمرنا بترتيل قراءته ، وذلك قوله وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا أى اقرأه بترسل وتثبت . ومنه حديث عائشة رضى اللّه عنها في صفة قراءته صلى اللّه عليه وسلم «لا كسردكم هذا ، لو أراد السامع أن يعدّ حروفه يعدّها» «2» وأصله : الترتيل في الأسنان :

---

(1) . قوله «لبعل به وتعيا بحفظه» في الصحاح : بعل الرجل - بالكسر - : أى دهش : وفيه أيضا : عييت بأمرى ، إذا لم تهتد لوجهه . وأعيا عليه الأمر وتعيا وتعايا ، بمعنى اه فتدبر . (ع)

(2) . أخرجه البخاري . من رواية عروة . قال «جلس أبو هريرة رضى اللّه عنه إلى حجرة عائشة رضى اللّه عنها فقال إن النبي صلى اللّه عليه وسلم إنما كان يحدث الحديث لو عده العاد لأحصاه» ولمسلم «لم يكن يسرد الحديث كسردكم» وزاد الترمذي والنسائي ولكن كان يتكلم بكلام فصل يحفظه من جلس اليه» وسيأتى في المزمل .

وهو تفليجها . يقال : ثغر رتل ومرتل ، ويشبه بنور الأقحوان في تفليجه . وقيل : هو أن نزله مع كونه متفرقا على تمكث وتمهل في مدة متباعدة وهي عشرون سنة ، ولم يفرقه في مدة متقاربة وَلَا يَأْتُونَكَ بسؤال عجيب من سؤالاتهم الباطلة - كأنه مثل في البطلان - إلا أتيناك نحن بالجواب الحق الذي لا محيد عنه وبما هو أحسن معنى ، ومؤدّى من سؤالهم . ولما كان التفسير هو التكشيف عما يدل عليه الكلام ، وضع موضع معناه فقالوا : تفسير هذا الكلام كيت وكيت ، كما قيل : معناه كذا وكذا . أو لا يأتونك بحال وصفة عجيبة يقولون : هلا كانت هذه صفتك وحالك ، نحو : أن يقرن بك ملك ينذر معك ، أو يلقى إليك كنز ، أو تكون لك جنة ، أو ينزل عليك القرآن جملة ، إلا أعطيناك نحن من الأحوال ما يحق لك في حكمتنا ومشيئتنا أن تعطاه ، وما هو أحسن تكشيفا لما بعثت عليه ودلالة على صحته ، يعنى : أن تنزيله مفرقا وتحدّيهم بأن يأتوا ببعض تلك التفاريق كلما تزل شيء منها : أدخل في الإعجاز وأنور للحجة من أن ينزل كله جملة ويقال لهم جيئوا بمثل هذا الكتاب في فصاحته مع بعد ما بين طرفيه ، كأنه قيل لهم : إن حاملكم على هذه السؤالات أنكم تضللون سبيله وتحتقرون مكانه ومنزلته . ولو نظرتم بعين الإنصاف وأنتم من المسحوبين على وجوههم إلى جهنم ، لعلمتم أن مكانكم شر من مكانه وسبيلكم أضل من سبيله . وفي طريقته قوله هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ . . . الآية ويجوز أن يراد بالمكان : الشرف والمنزلة ، وأن يراد الدار والمسكن ، كقوله أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَاماً

وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ووصف السبيل بالضلال من الإسناد المجازى وعن النبي صلى اللّه عليه وسلم : يحشر الناس يوم القيامة على ثلاثة أثلاث : ثلث على الدواب وثلث على وجوههم ، وثلث على أقدامهم ينسلون نسلا «1» .

[سورة الفرقان (25) : الآيات 35 إلى 36]

وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ وَجَعَلْنا مَعَهُ أَخاهُ هارُونَ وَزِيراً (35) فَقُلْنَا اذْهَبا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا فَدَمَّرْناهُمْ تَدْمِيراً (36)

---

(1) . أخرجه البيهقي من طريق مسدد عن بشر بن المفضل عن على بن زيد عن أوس بن أبى أوس . عن أبى هريرة مرفوعا بهذا . وأصله في الترمذي والبزار وأحمد وإسحاق وابن أبى شيبة من هذا الوجه لكن قال عن أوس ابن خالد وعند الحاكم من رواية أبى الطفيل عن حذيفة بن أسيد عن أبى ذر حدثني الصادق المصدوق «أن الناس يحشرون ثلاثة أفواج . فوجا طاعمين لا بسين راكبين . وفوجا يمشون ويسعون . وفوجا تسحبهم الملائكة على وجوههم إلى النار» وفي الترمذي والنسائي من رواية معاوية بن جبلة حدثنا بهز بن حكيم رفعه «إنكم محشورون إلى اللّه ركبانا ورجالا وتمرون على وجوهكم» .

الوزارة : لا تنافى النبوّة ، فقد كان يبعث في الزمن الواحد أنبياء ويؤمرون بأن يوازر بعضهم بعضا . والمعنى : فذهبا إليهم فكذبوهما فدمرناهم ، كقوله اضْرِبْ بِعَصاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ أى فضرب فانفلق . أراد اختصار القصة فذكر حاشيتيها أوّلها وآخرها ، لأنهما المقصود من القصة بطولها أعنى : إلزام الحجة ببعثة الرسل واستحقاق التدمير بتكذيبهم . وعن علىّ رضى اللّه عنه فدمّرتهم . وعنه : فدمّراهم . وقرئ فدمّرانّهم ، على التأكيد بالنون الثقيلة .

[سورة الفرقان (25) : آية 37]

وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْناهُمْ وَجَعَلْناهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنا لِلظَّالِمِينَ عَذاباً أَلِيماً (37)

كأنهم كذبوا نوحا ومن قبله من الرسل صريحا . أو كان تكذيبهم لواحد منهم تكذيب للجميع أو لم يروا بعثة الرسل أصلا كالبراهمة وَجَعَلْناهُمْ وجعلنا إغراقهم أو قصتهم لِلظَّالِمِينَ إمّا أن يعنى بهم قوم نوح ، وأصله : وأعتدنا لهم ، إلا أنه قصد تظليمهم فأظهر . وإمّا أن يتناولهم بعمومه .

[سورة الفرقان (25) : الآيات 38 إلى 39]

وَعاداً وَثَمُودَ وَأَصْحابَ الرَّسِّ وَقُرُوناً بَيْنَ ذلِكَ كَثِيراً (38) وَكُلاًّ ضَرَبْنا لَهُ الْأَمْثالَ وَكُلاًّ تَبَّرْنا تَتْبِيراً (39)

عطف عادا على «هم» في جعلناهم أو على الظالمين ، لأنّ المعنى : ووعدنا الظالمين .

وقرئ :

وثمود ، على تأويله القبلة . وأما المنصرف فعلى تأويل الحىّ أو لأنه اسم الأب الأكبر . قيل في أصحاب الرس : كانوا قوما من عبدة الأصنام أصحاب آبار ومواش ، فبعث اللّه إليهم شعيبا فدعاهم إلى الإسلام . فتمادوا في طغيانهم وفي إيذائه . فبيناهم حول الرس وهو البئر غير المطوية . عن أبى عبيدة : انهارت بهم فخسف بهم وبديارهم . وقيل : الرس قرية بفلج اليمامة ، قتلوا نبيهم فهلكوا ، وهم بقية ثمود قوم صالح . وقيل : هم أصحاب النبي حنظلة بن صفوان ، كانوا مبتلين بالعنقاء وهي أعظم ما يكون من الطير ، سميت لطول عنقها ، وكانت تسكن جبلهم الذي يقال له فتح ، وهي تنقض على صبيانهم فتخطفهم ، إن أعوزها الصيد . فدعا عليها حنظلة فأصابتها الصاعقة ، ثم إنهم قتلوا حنظلة فأهلكوا : وقيل : هم أصحاب الأخدود ، والرس : هو الأخدود .

وقيل الرس بأنطاكية قتلوا فيها حبيبا النجار . وقيل : كذبوا نبيهم ورسوه في بئر ، أى : دسوه فيها بَيْنَ ذِلكَ أى بين ذلك المذكور ، وقد يذكر الذاكر أشياء مختلفة ثم يشير إليها بذلك ، ويحسب الحاسب أعدادا متكاثرة ثم يقول : فذلك كيت وكيت على معنى : فذلك المحسوب أو المعدود ضَرَبْنا لَهُ الْأَمْثالَ بينا له القصص العجيبة من قصص الأوّلين ، ووصفنا لهم ما أجروا

إليه من تكذيب الأنبياء وجرى عليهم من عذاب اللّه وتدميره. والتتبير: التفتيت والتكسير.

ومنه: التبر، وهو كسار الذهب والفضة والزجاج. وكُلًّا الأوّل منصوب بما دل عليه ضَرَبْنا لَهُ الْأَمْثالَ وهو: أنذرنا. أو: حذرنا. والثاني بتبرنا، لأنه فارغ له.

[سورة الفرقان (25): آية 40]

وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَها بَلْ كانُوا لا يَرْجُونَ نُشُوراً (40)

أراد بالقرية «سدوم» من قرى قوم لوط، وكانت خمسا: أهلك اللّه تعالى أربعا بأهلها وبقيت واحدة. ومطر السوء: الحجارة، يعنى أن قريشا مرّوا مرارا كثيرة في متاجرهم إلى الشام على تلك القرية التي أهلكت بالحجارة من السماء أَفَلَمْ يَكُونُوا في مرار مرورهم ينظرون إلى آثار عذاب اللّه ونكاله ويذكرون بَلْ كانُوا قوما كفرة بالبعث لا يتوقعون نُشُوراً وعاقبة، فوضع الرجاء موضع التوقع، لأنه إنما يتوقع العاقبة من يؤمن فمن ثم لم ينظروا ولم يذكروا، ومرّوا بها كما مرّت ركابهم. أو لا يأملون نشورا كما يأمله المؤمنون لطمعهم في

الوصول إلى ثواب أعمالهم . أو لا يخافون ، على اللغة التهامية .

[سورة الفرقان (25) : الآيات 41 إلى 42]

وَإِذا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُواً أَهذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً (41) إِنْ كادَ لَيُضِلُّنا عَنْ آلِهَتِنا لَوْلا أَنْ صَبَرْنا عَلَيْها وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً (42)

إِنْ الأولى نافية ، والثانية مخففة من الثقيلة . واللام هي الفارقة بينهما . واتخذه هزوا : في معنى استهزأ به ، والأصل : اتخذه موضع هزؤ ، أو مهزوءا به أَهذَا محكي بعد القول المضمر .

وهذا استصغار ، وبَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا وإخراجه في معرض التسليم والإقرار ، وهم على غاية الجحود والإنكار سخرية واستهزاء ، ولو لم يستهزءوا لقالوا : أهذا الذي زعم أو ادّعى أنه مبعوث من عند اللّه رسولا . وقولهم إِنْ كادَ لَيُضِلُّنا دليل على فرط مجاهدة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم في دعوتهم ، وبذله قصارى الوسع والطاقة في استعطافهم ، مع عرض الآيات والمعجزات عليهم حتى شارفوا بزعمهم أن يتركوا دينهم إلى دين الإسلام ، لولا فرط لجاجهم واستمساكهم بعبادة آلهتهم ، ولَوْلا في مثل هذا الكلام جار من حيث المعنى - لا من حيث الصنعة - مجرى التقييد للحكم المطلق وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ وعيد ودلالة على أنهم لا يفوتونه وإن طالت مدّة الإمهال ، ولا بدّ للوعيد أن يلحقهم فلا يغرّنهم التأخير . وقوله مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا كالجواب

عن قولهم إِنْ كادَ لَيُضِلُّنا لأنه نسبة لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم إلى الضلال من حيث لا يضلّ غيره إلا من هو ضال في نفسه . ويروى أنه من قول أبى جهل لعنه اللّه .

[سورة الفرقان (25) : آية 43]

أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلٰهَهُ هَواهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً (43)

من كان في طاعة الهوى في دينه يتبعه في كل ما يأتى ويذر لا يتبصر دليلا ولا يصغى إلى برهان . فهو عابد هواه وجاعله إلهه ، فيقول لرسوله هذا الذي لا يرى معبودا إلا هواه كيف تستطيع أن تدعوه إلى الهدى أفتتوكل عليه وتجبره على الإسلام وتقول لا بدّ أن تسلم شئت أو أبيت - ولا إكراه في الدين ؟ وهذا كقوله وَما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ ، لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ ويروى أنّ الرجل منهم كان يعبد الحجر ، فإذا رأى أحسن منه رمى به وأخذ آخر . ومنهم الحرث بن قيس السهمي .

[سورة الفرقان (25) : آية 44]

أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً (44)

أم هذه منقطعة ، معناه ، بل أتحسب كأن هذه المذمة أشدّ من التي تقدّمتها حتى حقت

بالإضراب عنها إليها وهي كونهم مسلوبي الأسماع والعقول ، لأنهم لا يلقون إلى استماع الحق أذنا ولا إلى تدبره عقلا ، ومشبهين بالأنعام التي هي مثل في الغفلة والضلال ، ثم أرجح ضلالة منها . فإن قلت لم أخر هواه والأصل قولك : اتخذ الهوى إلها ؟ قلت : ما هو إلا تقديم المفعول الثاني على الأوّل للعناية ، كما تقول : علمت منطلقا زيدا : لفضل عنايتك بالمنطلق «1» . فإن قلت : ما معنى ذكر الأكثر ؟ قلت : كان فيهم من لم يصدّه عن الإسلام إلا داء واحد : وهو حب الرياسة ، وكفى به داء عضالا . فإن قلت : كيف جعلوا أضل من الإنعام ؟ قلت : لأن الأنعام تنقاد لأربابها التي تعلفها وتتعهدها ، وتعرف من يحسن إليها ممن يسيء إليها ، وتطلب ما ينفعها وتجتنب ما يضرها «و تهتدى لمراعيها ومشاربها . وهؤلاء لا ينقادون لربهم ، ولا يعرفون إحسانه إليهم من إساءة الشيطان الذي هو عدوّهم ، ولا يطلبون الثواب الذي هو أعظم المنافع ، ولا يتقون العقاب الذي هو أشدّ المضارّ والمهالك ، ولا يهتدون للحق الذي هو المشرع الهنىّ والعذب الروى .

[سورة الفرقان (25) : الآيات 45 إلى 46]

أَلَمْ تَرَ إِلى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شاءَ لَجَعَلَهُ ساكِناً ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً (45)
ثُمَّ قَبَضْناهُ إِلَيْنا قَبْضاً يَسِيراً (46)

---

(1) . قال محمود : «إن قلت لم قدم إلهه وهو المفعول الثاني ، وأجاب بأنه قدم عناية به كقولك ظننت منطلقا زيدا إذا كانت عنايتك بالمنطلق» قال أحمد : وفيه نكتة حسنة

وهي إفادة الحصر ، فان الكلام قبل دخول أرأيت مبتدأ وخبر : المبتدأ هواه ، والخبر إلهه . وتقديم الخبز كما علمت يفيد الحصر ، فكأنه قال : أرأيت من لم يتخذ معبوده إلا هواه ، فهو أبلغ في ذمه وتوبيخه ، والله أعلم .

(203/561)

أَلَمْ تَرَ إِلى رَبِّكَ ألم ننظر إلى صنع ربك وقدرته ، ومعنى مدّ الظل : أن جعله يمتدّ وينبسط فينتفع به الناس وَلَوْ شاءَ لَجَعَلَهُ ساكِناً أى لاصقا بأصل كل مظل من جبل وبناء وشجرة ، غير منبسط فلم ينتفع به أحد : سمى انبساط الظل وامتداده تحركا منه وعدم ذلك سكونا . ومعنى كون الشمس دليلا : أنّ الناس يستدلون بالشمس وبأحوالها في مسيرها على أحوال الظل ، من كونه ثابتا في مكان زائلا «1» ومتسعا ومتقلصا ، فيبنون حاجتهم إلى الظل واستغناءهم عنه على حسب ذلك . وقبضه إليه : أنه ينسخه بضح الشمس «2» يَسِيراً أى على مهل . وفي هذا القبض اليسير شيئا بعد شيء من المنافع ما لا يعدّ ولا يحصر ، ولو قبض دفعة واحدة لتعطلت أكثر مرافق الناس بالظل والشمس جميعا . فإن قلت : ثم في هذين الموضعين كيف موقعها ؟ قلت : موقعها لبيان تفاضل الأمور الثلاثة : كان الثاني أعظم من الأوّل ، والثالث أعظم منهما ، تشبيها لتباعد ما بينهما في الفضل

بتباعد ما بين الحوادث في الوقت . ووجه آخر : وهو أنه مدّ الظل حين بنى السماء كالقبة المضروبة ، ودحا الأرض تحتها فألقت القبة ظلها على الأرض فينانا ما في أديمه جوب «3» لعدم النير ، ولو شاء لجعله ساكنا مستقرّا على تلك الحالة ، ثم خلق الشمس وجعلها على ذلك الظل ، أى : سلطها عليه ونصبها دليلا متبوعا له كما يتبع الدليل في الطريق ، فهو يزيد بها وينقص ، ويمتدّ ويتقلص ، ثم نسخه بها فقبضه قبضا سهلا يسيرا غير عسير . ويحتمل أن يريد : قبضه عند قيام الساعة بقبض أسبابه وهي الأجرام التي تبقى الظل فيكون قد ذكر إعدامه بإعدام أسبابه ، كما ذكر إنشاءه بإنشاء أسبابه ، وقوله : قبضناه إلينا : يدل عليه ، وكذلك قوله يسيرا ، كما قال ذِلكَ حَشْرٌ عَلَيْنا يَسِيرٌ

[سورة الفرقان (25) : آية 47]

وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِباساً وَالنَّوْمَ سُباتاً وَجَعَلَ النَّهارَ نُشُوراً (47)

شبه ما يستر من ظلام الليل باللباس الساتر . والسبات : الموت . والمسبوت : الميت ، لأنه مقطوع الحياة ، وهذا كقوله وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ . فإن قلت : هلا فسرته بالراحة ؟ قلت : النشور في مقابلته يأباه إباء العيوف الورد وهو مرنق «4» . وهذه الاية مع دلالتها على

---

(1) . قوله «زائلا» لعله زائلا عن آخر . (ع)

(2) . قوله «أنه ينسخه بضح الشمس» في الصحاح : ضحضح السراب وتضحضح ، إذا

ترقرق. والضح:

الشمس. وفي الحديث «لا يقعدن أحدكم بين الضح والظل» فانه مقعد الشيطان. (ع)

(3). قوله «ظلها على الأرض فينانا ما في أديمه جوب» في الصحاح «الفينان» الطويل، وفيه «الأدم» جمع الأديم، مثل: أفيق وأفق، وربما سمى وجه الأرض أديما. وفيه: جاب يجوب جوبا، إذا خرق وقطع، فتدبر. (ع) [.....]

(4). قوله «يأباه إباء العيوف الورد وهو مرنق» في الصحاح «العيوف» من الإبل: الذي يشم الماء فيدعه وهو عطشان. وفيه: رنقته ترنيقا: كدرته. (ع)

(204/561)

قدرة الخالق فيها إظهار لنعمته على خلقه، لأنّ الاحتجاب بستر الليل، كم فيه لكثير من الناس من فوائد دينية ودنيوية، والنوم واليقظة وشبههما بالموت والحياة، أى عبرة فيها لمن اعتبر.

وعن لقمان أنه قال لابنه: يا بنى، كما تنام فتوقظ، كذلك تموت فتنشر.

[سورة الفرقان (25): آية 48]

وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّياحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً طَهُوراً (48)

قرئ : الريح . والرياح نشرا : إحياء . ونشرا : جمع نشور ، وهي المحيية . ونشرا : تخفيف نشر ، وبشرا تخفيف بشر : جمع بشور وبشرى . وَبَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ استعارة مليحة ، أى : قدام المطر طَهُوراً بليغا في طهارته . وعن أحمد بن يحيى هو ما كان طاهرا في نفسه مطهرا لغيره ، فإن كان ما قاله شرحا لبلاغته في الطهارة كان سديدا . ويعضده قوله تعالى وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّماءِ ماءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وإلا فليس «فعول» من التفعيل في شيء . والطهور على وجهين في العربية : صفة ، واسم غير صفة ، فالصفة قولك : ماء طهور ، كقولك : طاهر ، والاسم قولك لما يتطهر به : طهور ، كالوضوء والوقود ، لما يتوضأ به وتوقد به النار . وقولهم : تطهرت طهورا حسنا ، كقولك :

وضوءا حسنا ، ذكره سيبويه . ومنه قوله صلى اللّه عليه وسلم ، لا صلاة إلا بطهور «1» أى طهارة . فإن قلت : ما الذي يزيل عن الماء اسم الطهور ؟ قلت : تيقن مخالطة النجاسة أو غلبتها على الظنّ ، تغير أحد أوصافه الثلاثة أو لم يتغير . أو استعماله في البدن لأداء عبادة عند أبى حنيفة وعند مالك بن أنس رضى اللّه عنهما : ما لم يتغير أحد أوصافه فهو طهور . فإن قلت :

فما تقول في قوله صلى اللّه عليه وسلم حين سئل عن بئر بضاعة فقال : «الماء طهور لا ينجسه شيء إلا ما غير لونه أو طعمه أو ريحه «2» » ؟ قلت : قال الواقدي : كان بئر بضاعة طريقا للماء إلى البساتين .

[سورة الفرقان (25) : آية 49]

لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنا أَنْعاماً وَأَناسِيَّ كَثِيراً (49)

وإنما قال مَيْتاً لأنّ البلدة في معنى البلد في قوله : فَسُقْناهُ إِلى بَلَدٍ مَيِّتٍ ، وأنه غير جار

---

(1) . أخرجه الترمذي عن ابن عمر رضى اللّه عنهما «لا تقبل صلاة إلا بطهور» وأصله في مسلم والطبراني من طريق عيسى بن صبرة عن أبيه عن جده «لا صلاة إلا بوضوء» وفي الباب عن جماعة من الصحابة . قلت : استوفيت طرقه في أول شرحي على الترمذي ولم يذكر المخرج منها إلا شيئا يسيرا

(2) . لم أجده هكذا . بل هو ملفق من حديثين فالأول أخرجه أصحاب السنن من حديث رافع بن خديج . قال يا رسول اللّه . أنتوضأ من بضاعة وهي بئر يلقى فيها الجيف ولحوم الكلاب والنتن فقال : الماء طهور لا ينجسه شيء إلا ما غلب على لونه أو طعمه أو ريحه . وقد استوفيت طرقها في تخريج أحاديث الرافعي .

(205/561)

على الفعل كفعول ومفعال ومفعيل . وقرئ : نسقيه بالفتح . وسقى ، وأسقى : لغتان . وقيل :

أسقاه : جعل له سقيا . الأناسى : جمع إنسى أو إنسان . ونحوه ظرابى في ظربان ، على قلب النون ياء ، والأصل : أناسين وظرابين . وقرئ بالتخفيف بحذف ياء أفاعيل ، كقولك :

أناعم ، في : أناعيم . فإن قلت : إنزال الماء موصوفا بالطهارة وتعليله بالإحياء والسقي يؤذن بأن الطهارة شرط في صحة ذلك ، كما تقول : حملني الأمير على فرس جواد لأصيد عليه الوحش . قلت :

لما كان سقى الأناسى من جملة ما أنزل له الماء ، وصفه بالطهور إكراما لهم ، وتتميما للمنة عليهم ، وبيانا أن من حقهم حين أراد اللّه لهم الطهارة وأرادهم عليها أن يؤثروها في بواطنهم ثم في ظواهرهم ، وأن يربئوا بأنفسهم عن مخالطة القاذورات كلها كما ربأ بهم ربهم . فإن قلت : لم خص الأنعام من بين ما خلق من الحيوان الشارب ؟ قلت : لأن الطير والوحش تبعد في طلب الماء فلا يعوزها الشرب ، بخلاف الأنعام : ولأنها قنية الأناسى ، وعامة منافعهم متعلقة بها ، فكان الإنعام عليهم بسقى أنعامهم كالإنعام بسقيهم . فإن قلت : فما معنى تنكير الأنعام والأناسى ووصفها بالكثرة ؟ قلت : معنى ذلك أن عليه الناس وجلهم منيخون بالقرب من الأودية والأنهار ومنابع الماء ، فبهم غنية عن سقى السماء ، وأعقابهم – وهم كثير منهم – لا يعيشهم إلا ما ينزل اللّه من رحمته وسقيا سمائه ، وكذلك قوله لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً يريد بعض بلاد هؤلاء المتبعدين من مظان الماء . فإن قلت : لم قدم إحياء

الأرض وسقى الأنعام على سقى الأناسى ؟ قلت : لأنّ حياة الأناسىّ بحياة أرضهم وحياة أنعامهم ، فقدم ما هو سبب حياتهم وتعيشهم على سقيهم ، ولأنهم إذا ظفروا بما يكون سقيا أرضهم ومواشيهم ، لم يعدموا سقياهم .

[سورة الفرقان (25) : آية 50]

وَلَقَدْ صَرَّفْناهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً (50)

يريد : ولقد صرفنا هذا القول بين الناس في القرآن وفي سائر الكتب والصحف التي أنزلت على الرسل عليهم السلام - وهو ذكر إنشاء السحاب وإنزال القطر - ليفكروا ويعتبروا ، ويعرفوا حق النعمة فيه ويشكروا فَأَبى أكثرهم إلا كفران النعمة وجحودها وقلة الاكتراث لها . وقيل : صرفنا المطر بينهم في البلدان المختلفة والأوقات المتغايرة ، وعلى الصفات المتفاوتة من وابل وطل ، وجود ورذاذ ، وديمة ورهام «1» فأبوا إلا الكفور وأن يقولوا : مطرنا بنوء كذا ، ولا يذكروا صنع اللّه ورحمته . وعن ابن عباس رضى اللّه عنهما : ما من عام أقل مطرا من عام ، ولكن اللّه قسم ذلك بين عباده على ما شاء ، وتلا هذه الآية «2» . وروى

---

(1) . قوله «ورذاذ وديمة ورهام» الرذاذ : مطر ضعيف . والرهام . جمع رهمة وهي المطرة الضعيفة الدائمة ، كذا في الصحاح . (ع)

(2) . أخرجه الحاكم والطبري من رواية الحسن بن مسلم عن سعيد بن جبير عن ابن

عباس . قال : «ما من عام أمطر من عام . ولكن اللّه يصرفه . . . الخ» وفي الباب عن ابن مسعود أخرجه العقيلي من رواية على بن حميد عن شعبة ، أخرجه العقيلي من رواية على بن حميد عن شعبة عن أبى إسحاق عن أبى الأحوص عنه وقال : لا يتابع على رفعه . ثم أخرجه موقوفا من رواية عمر بن مرزوق عن شعبة وقال : هذا أولى ، وأورده ابن مردويه من وجه آخر عن ابن مسعود مرفوعا .

(206/561)

أن الملائكة يعرفون عدد المطر ومقداره في كل عام ، لأنه لا يختلف ولكن تختلف فيه البلاد .

وينتزع من ها هنا جواب في تنكير البلدة والأنعام والأناسى ، كأنه قال : لنحيي به بعض البلاد الميتة ، ونسقيه بعض الأنعام والأناسى ، وذلك البعض كثير . فإن قلت : هل يكفر من ينسب الأمطار إلى الأنواء ؟ قلت : إن كان لا يراها إلا من الأنواء ويجحد أن تكون هي والأنواء من خلق اللّه : فهو كافر . وإن كان يرى أن اللّه خالقها وقد نصب الأنواء دلائل وأمارات عليها : لم يكفر .

[سورة الفرقان (25) : الآيات 51 إلى 52]

وَلَوْ شِئْنا لَبَعَثْنا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيراً (51) فَلا تُطِعِ الْكافِرِينَ وَجاهِدْهُمْ بِهِ جِهاداً كَبِيراً (52)

يقول لرسوله صلى اللّه عليه وسلم وَلَوْ شِئْنا لخففنا عنك أعباء نذارة جميع القرى. وَلَبَعَثْنا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نبيا ينذرها. وإنما قصرنا الأمر عليك وعظمناك به، وأجللناك وفضلناك على سائر الرسل، فقابل ذلك بالتشدد والتصبر فَلا تُطِعِ الْكافِرِينَ فيما يريدونك عليه، وإنما أراد بهذا تهييجه وتهييج المؤمنين وتحريكهم. والضمير للقرآن أو لترك الطاعة الذي يدل عليه: فَلا تُطِعِ والمراد: أن الكفار يجدون ويجتهدون في توهين أمرك، فقابلهم من جدك واجتهادك وعضك على نواجذك بما تغلبهم به وتعلوهم، وجعله جهادا كبيرا لما يحتمل فيه من المشاق العظام. ويجوز أن يرجع الضمير في بِهِ إلى ما دل عليه: وَلَوْ شِئْنا لَبَعَثْنا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيراً من كونه نذير كافة القرى، لأنه لو بعث في كل قرية نذيرا لوجبت على كل نذير مجاهدة قريته، فاجتمعت على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم تلك المجاهدات كلها، فكبر جهاده من أجل ذلك وعظم، فقال له وَجاهِدْهُمْ بسبب كونك نذير كافة القرى جِهاداً كَبِيراً جامعا لكل مجاهدة. انتهى انتهى. اهـ ﴿الكشاف حـ 3 صـ 272.286﴾

(207/561)

وقال ابن جزى :

﴿ لاَ يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ﴾

قيل : معناه لا يخافون ، والصحيح أنه على بابه لأن لقاء الله يرجى ويخاف ﴿ لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْنَا الملائكة أَوْ نرى رَبَّنَا ﴾ اقترح الكفار نزول الملائكة أو رؤية الله ، وحينئذ يؤمنون فرد الله عليهم بقوله : ﴿ لَقَدِ استكبروا ﴾ الآية : أي طلبوا ما لا ينبغي لهم أن يطلبوه ، وقوله : ﴿ فِي أَنفُسِهِمْ ﴾ كما تقول : فلان عظيم في نفسه ، أي عند نفسه أو بمعنى أنهم أضمروا الكفر في أنفسهم .

﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ الملائكة لاَ بشرى يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ لما طلبوا رؤية الملائكة ، أخبر الله أنهم لا بشرى لهم يوم يرونهم ، فالعامل في يوم معنى لا بشرى ، ويومئذ بدل ﴿ وَيَقُولُونَ حِجْراً مَّحْجُوراً ﴾ الضمير في يقولون إن كان للملائكة ، فالمعنى أنهم يقولون للمجرمين حجراً محجوراً ، أي حرام عليكم الجنة أو البشرى ، وإن كان الضمير للمجرمين ، فالمعنى أنهم يقولون حجراً بمعنى عوذاً . لأن العرب كانت تتعوّذ بهذه الكلمة مما تكره ، وانتصابه بفعل متروك إظهاره نحو معاذ الله .

﴿ وَقَدِمْنَآ إلى مَا عَمِلُواْ ﴾ أي قصدنا إلى أفعالهم فلفظ القدوم مجاز ، وقيل : هو قدوم الملائكة أسنده الله إلى نفسه لأنه عن أمره ﴿ فَجَعَلْنَاهُ هَبَآءً مَّنثُوراً ﴾ عبارة عن عدم

قبول ما عملوا من الحسنات كإطعام المساكين وصلة الأرحام وغير ذلك ، وأنها لا تنفعهم لأن الإيمان شرط في قبول الأعمال ، والهباء هي الأجرام الدقيقة من الغبار التي لا تظهر إلا حين تدخل الشمس على موضع ضيق كالكوة ، والمنثور المتفرّق .

(208/561)

﴿ خَيْرٌ مُّسْتَقَرّاً ﴾ جاء هنا التفضيل بين الجنة والنار ، لأن هذا مستقرّ وهذا مستقرّ ﴿ وَأَحْسَنُ مَقِيلاً ﴾ هو مِفعل من النوم في القائلة وإن كانت الجنة لا نوم فيها ، ولكن جاء على ما تتعارفه العرب من الاستراحة وقت القائلة في الأمكنة الباردة ، وقيل : إن حساب الخلق يكمل في وقت ارتفاع النهار ، فيقيل أهل الجنة في الجنة ، وأهل النار في النار .

﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السمآء بالغمام ﴾ هو يوم القيامة وانشقاق السماء : انفطارها ومعنى بالغمام أي يخرج منها الغمام ، وهو السحاب الرقيق الأبيض ، وحينئذ تنزل الملائكة إلى الأرض .

﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظالم على يَدَيْهِ ﴾ عض اليدين كناية عن الندم والحسرة ، والظالم هنا عقبة بن أبي معيط ، وقيل : كل ظالم والظلم هنا الكفر ﴿ مَعَ الرسول ﴾ هو محمد صلى الله عليه وسلم ، أو اسم جنس على العموم ﴿ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاَناً خَلِيلاً ﴾ روي أن عقبة

جنح إلى الإسلام فنهاه أبيّ بن خلف فهو فلان ، وقيل : إن عقبة نهى أبيّ بن خلف عن الإسلام ، فالظالم على هذا أبيّ وفلان عقبة ، وإن كان الظالم على العموم ففلاناً على العموم أي خليل كل كافر ﴿ وَكَانَ الشيطانِ للإِنْسَانِ خَذُولاً ﴾ يحتمل أن يكون هذا من قول الظالم ، أو ابتداء إخبار من قول الله تعالى ، ويحتمل أن يريد الشيطان إبليس أو الخليل المذكور ﴿ وَقَالَ الرسول ﴾ قيل : إن هذا حكاية قوله صلى الله عليه وسلم في الدنيا ، وقيل : في الآخرة ﴿ مَهْجُوراً ﴾ من الهجر بمعنى البعد والترك وقيل : من الهجر بضم الهاء ، أي قالوا فيه الهجر حين قالوا : إنه شعر وسحر والأول أظهر .

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً ﴾ العدو هنا جمع ، والمراد تسلية النبي صلى الله عليه وسلم بالتأسي بغيره من الأنبياء ﴿ وكفى بِرَبِّكَ هَادِياً وَنَصِيراً ﴾ وعد لمحمد صلى الله عليه وسلم بالهدى والنصرى .

(209/561)

﴿ وَقَالَ الذين كَفَرُواْ لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ القرآن جُمْلَةً وَاحِدَةً ﴾ هذا من اعتراضات قريش ، لأنهم قالوا لو كان القرآن من عند الله لنزل جملة واحدة كما نزلت التوراة والإنجيل ﴿ كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ هذا جواب لهم تقديره : أنزلناه كذلك مفرقاً لنثبت به فؤاد محمد صلى

الله عليه وسلم لحفظه : ولو نزل جملة واحدة لتعذر عليه حفظه لأنه أمي لا يقرأ ، فحفظ المفرق عليه أسهل ، وأيضاً فإنه نزل بأسباب مختلفة تقتضي أن ينزل كل جزء منه عند حدوث سببه ، وأيضاً من ناسخ ومنسوخ ، ولا يتأتى ذلك فيما ينزل جملة واحدة ﴿ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ﴾ أي فرقناه تفريقاً فإنه نزل بطول عشرين سنة . وهذا الفعل معطوف على الفعل المقدر ، الذي يتعلق به ﴿ كَذَلِكَ ﴾ وبه يتعلق ﴿ لِنُثَبِّتَ ﴾ ﴿ وَلاَ يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ ﴾ الآية معناه لا يوردون عليك سؤالاً أو اعتراضاً ، إلا أتيناك في جوابه بالحق ، والتفسير الحسن الذي يذهب اعتراضهم ويبطل شبهتهم .

﴿ الذين يُحْشَرُونَ على وُجُوهِهِمْ ﴾ يعني الكفار ، وحشرهم على وجوههم حقيقة لأنه جاء في الحديث ؛ " قيل يا رسول الله : كيف يحشر الكافر على وجهه : قال أليس الذي أمشاه في الدنيا على رجليه قادراً على أن يمشيه في الآخرة على وجهه " ﴿ شَرٌّ مَّكَاناً ﴾ يحتمل أن يريد بالمكان المنزلة والشرف أو الدار والمسكن في الآخرة .

﴿ وَزِيراً ﴾ معيناً ﴿ إِلَى القوم ﴾ يعني فرعون وقومه ، وفي الكلام حذف تقديره : فذهبا إليهم فكذبوهما فدمرناهم .

(210/561)

﴿ كَذَّبُواْ الرسل ﴾ تأويله كما ذكر في قوله في هود ﴿ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُ ﴾ [هود : 59] ﴿ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ ﴾ يحتمل أن يريد بالظالمين من تقدم ووضع هذا الاسم الظاهر موضع المضمر لقصد وصفهم بالظلم ، أو يريد الظالمين على العموم ﴿ وَأَصْحَابَ الرس ﴾ معنى الرس في اللغة : البئر ، واختلف في أصحاب الرس : فقيل هم من بقية ثمود وقيل : من أهل اليمامة ، وقيل : من أهل أنطاكية ، وهم أصحاب يس ، واختلف في قصتهم فقيل بعث الله إليهم نبياً فرموه في بئر فأهلكهم الله ، وقيل : كانوا حول بئر لهم فانهارت بهم فهلكوا ﴿ وَقُرُوناً بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيراً ﴾ يقتضي التكثير والإبهام ، والإشارة بذلك إلى المذكور وقبل من الأمم .

﴿ ضَرَبْنَا لَهُ الأمثال ﴾ أي بيناً له ﴿ تَبَّرْنَا ﴾ أي أهلكنا ﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى القرية ﴾ الضمير في أتوا لقريش وغيرهم من الكفار ، والقرية قرية قوم لوط ، ومطر السوء الحجارة ثم سألهم على رؤيتهم لها ؛ لأنها في طريقهم إلى الشام ، ثم أخبر أن سبب عدم اعتبارهم بها كفرهم بالنشور . و ﴿ يَرْجُونَ ﴾ كقوله : ﴿ يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ﴾ [الفرقان : 21] ، وقد ذكر ﴿ أهذا الذي ﴾ حكاية قولهم على وجه الاستهزاء ، فالجملة في موضع مفعول لقول محذوف يدل عليه هذا ، وقوله ﴿ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا ﴾ استئناف جملة أخرى وتم كلامهم ، واستأنف كلام الله تعالى في قوله ﴿ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ الآية على وجه التهديد لهم ﴿ اتخذ إلهه هَوَاهُ ﴾ أي أطاع هواه حتى صار كأنه له إله ﴿ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾ لأن الأنعام ليس

لها عقول ، وهؤلاء لهم عقول ضيعوها ، ولأن الأنعام تطلب ما ينفعها وتجتنب ما يضرها ، وهؤلاء يتركون أنفع الأشياء وهو الثواب ، ولا يخافون أضرّ الأشياء وهو العقاب .

(211/561)

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلى رَبِّكَ ﴾ أي إلى صنع ربك وقدرته ﴿ مَدَّ الظل ﴾ قيل : مدّة من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس لأن الظل حينئذ على الأرض كلها ، واعترضه ابن عطية لأن ذلك الوقت من الليل ، ولا يقال ظل بالليل ، واختار أن مدّ الظل من الإسفار إلى طلوع الشمس وبعد مغيبها بيسير ، وقيل : معنى مد الظل ؛ أي جعله يمتدّ وينبسط ﴿ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُ سَاكِناً ﴾ أي ثابتاً غير زائل لكنه جعله يزول بالشمس ، وقيل : معنى ساكن غير منبسط على الأرض ، بل يلتصق بأصل الحائط والشجرة ونحوها ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَا الشمس عَلَيْهِ دَلِيلاً ﴾ قيل : معناه أن الناس يستدلون بالشمس وبأحوالها ، في سيرها على الظل متى يتسع ومتى ينقبض ، ومتى يزول عن مكان إلى آخر ، فيبنون على ذلك انتفاعهم به وجلوسهم فيه ، وقيل : معناه لولا الشمس لم يعرف أن الظل شيء ، لأن الأشياء لم تعرف إلا بأضدادها . ﴿ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضاً يَسِيراً ﴾ قبضه نسخه وأزالته بالشمس ؛ ومعنى يسيراً شيئاً بعد شيء لا دفعة واحدة ، فإن قيل : ما معنى ثم في هذه المواضع الثلاثة ؟ فالجواب أنه

يحتمل أن تكون للترتيب في الزمان أي جعل الله هذه الأحوال حالاً بعد حال ، أو تكون لبيان التفاضل بين هذه الأحوال الثلاثة : وأن الثاني أعظم من الأول ، والثالث أعظم من الثاني .

﴿ الليل لِبَاساً ﴾ شبَّه ظلام الليل باللباس ، لأنه يستر كل شيء كاللباس ﴿ والنوم سُبَاتاً ﴾ قيل : راحة وقيل موتاً لقوله : ﴿ يَتَوَفَّى الأنفس حِينَ مَوْتِهَا والتي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ﴾ [الزمر : 42] ويدل عليه مقابلته بالنشور ﴿ الرياح بُشْرَى ﴾ ذكر في [الأعراف : 57] ﴿ مَآءً طَهُوراً ﴾ مبالغة في طاهر وقيل : معناه مطهر للناس في الوضوء وغيره . وبهذا المعنى يقول الفقهاء : ماء طهوراً ، أي مطهراً ، وكل مطهر طاهر ، وليس كل طاهر مطهر ﴿ وَأَنَاسِيَّ ﴾ قيل : جمع إنسي ، وقيل جمع إنسان ، والأول أصح .

(212/561)

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ ﴾ الضمير للقرآن ، وقيل : للمطر وهو بعيد ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيراً ﴾ أي لو شئنا لخففنا عنك أثقال الرسالة ببعث جماعة من الرسل ، ولكنا خصصناك بها كرامة لك فاصبر ﴿ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ ﴾ الضمير للقرآن أو لما دل عليه الكلام المتقدم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التسهيل حـ 3 صـ 77 ـ 80 ﴾

وقال الخازن :

قوله تعالى ﴿ وقال الذين لا يرجون لقاءنا ﴾

أي يخافون البعث والرجاء ، بمعنى الخوف لغة تهامة ﴿ لولا أنزل علينا الملائكة ﴾ فتخبرنا أن محمداً صادق ﴿ أو نرى ربنا ﴾ فيخبرنا بذلك ﴿ لقد استكبروا ﴾ أي تعظموا ﴿ في أنفسهم ﴾ بهذه المقالة ﴿ وعتوا عتواً كبيراً ﴾ أي طغوا وقيل عتواً في القول وهو أشد الكفر والفحش وعتوهم ، طلبهم رؤية الله حتى يؤمنوا به .

قوله تعالى ﴿ يوم يرون الملائكة ﴾ أي عند الموت وقيل يوم القيامة ﴿ لا بشرى يومئذٍ للمجرمين ﴾ وذلك أن الملائكة يبشرون المؤمنين ، يوم القيامة ويقولون للكفار : لا بشرى لكم وقيل : لا بشارة لهم بالجنة كما بشر المؤمن ﴿ ويقولون حجراً محجوراً ﴾ قال ابن عباس تقول الملائكة حراماً محرماً أن يدخل الجنة ، إلا من قال لا إله الله محمد رسول الله ، وقيل : إذا خرج الكفار من قبورهم تقول لهم الملائكة حراماً محرماً عليكم أن تكون لكم البشرى وقيل هذا قول : الكفار للملائكة وذلك أن العرب كانت إذا نزلت بهم شدة ورأوا ما يكرهون قالوا حجراً محجوراً فهم يقولون ذلك إذا عاينوا الملائكة .

قوله ﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل ﴾ يعني من أعمال البر التي عملوها في حال الكفر ﴿ فجعلناه هباء منثوراً ﴾ أي باطلاً لا ثواب له لأنهم لم يعملوه لله ومنه الحديث الصحيح "كل عمل ليس عليه أمرنا ، فهو رد " والهباء هو ما يرى في الكوة كالغبار ، إذا وقعت الشمس فيها فلا يمس بالأيدي ، ولا يرى في الظل والمنثور المفرق قال ابن عباس هو ما تسفيه الرياح ، وتذريه من التراب كحطام الشجر وقيل هو ما يسطع من حوافر الدواب عند السير من الغبار .

(214/561)

قوله تعالى : ﴿ أصحاب الجنة يومئذٍ ﴾ أي يوم القيامة ﴿ خير مستقراً ﴾ أي من هؤلاء المشركين المستكبرين ﴿ وأحسن مقيلاً ﴾ أي موضع القائلة ، وذلك أن أهل الجنة لا يمر بهم يوم القيامة إلا قدر من أول النهار إلى وقت القائلة حتى يسكنوا مساكنهم في الجنة قال ابن مسعود لا يتنصف النهار يوم القيامة حتى يقبل أهل الجنة في الجنة ، وأهل النار في النار والقيلولة الاستراحة نصف النهار وإن لم يكن مع ذلك نوم لأن الله تعالى قال ﴿ وأحسن مقيلاً ﴾ والجنة لا نوم فيها قال ابن عباس الحساب في ذلك اليوم في أوله ، ويروى أن يوم القيامة يقصر على المؤمنين حتى يكون ، كما بين العصر إلى غروب الشمس .

قوله تعالى ﴿ يوم تشقق السماء بالغمام ﴾ أي عن تشقق الغمام وهو غمام أبيض مثل الضبابة ، ولم يكن إلا لبني إسرائيل في تيههم ﴿ ونزل الملائكة تنزيلاً ﴾ قال ابن عباس تشقق السماء الدنيا فينزل أهلها ، وهم أكثر ممن في الأرض من الإنس والجن ثم تتشقق السماء الثانية فينزل أهلها وهم أكثر ممن في السماء الدنيا ومن الجن والإنس ثم كذلك حتى تتشق السماء السابعة وأهل كل سماء يزيدون على أهل السماء التي تليها ثم تنزل الكروبيون ثم حملة العرش ﴿ الملك يومئذٍ الحق للرحمن ﴾ أي الملك الذي هو الملك حقاً ملك الرحمن يوم القيامة ، قال ابن عباس : يريد أن يوم القيامة لا ملك يقضي غيره ﴿ وكان يوماً على الكافرين عسيراً ﴾ أي شديد وفيه دليل على أنه لا يكون على المؤمنين عسيراً وجاء في الحديث " أنه يهون يوم القيامة على المؤمن حتى يكون عليه أخف من صلاة مكتوبة صلاها في الدنيا " .

(215/561)

قوله تعالى ﴿ ويوم يعض الظالم على يديه ﴾ أراد بالظالم عقبة بن أبي معيط ، وذلك أنه كان لا يقدم من سفر ، إلا صنع طعاماً ودعا إليه أشراف قومه وكان يكثر مجالسة النبيّ (صلى الله عليه وسلم) " فقدم ذات يوم من سفر ، فصنع طعاماً ودعا الناس إليه ودعا رسول الله

(صلى الله عليه وسلم) فلما قرب الطعام ، قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : ما أنا بآكل طعامك حتى تشهد أن لا إله إلا الله ، وإني رسول الله فقال عقبة : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله .

فأكل رسول الله صلى الله علي وسلم من طعامه .

وكان عقبة صديقاً لأبيّ بن خلف ، فلما أخبر أبيّ بن خلف ، قال له : يا عقبة صبأت ، قال لا والله ما صبأت ولكن دخل علي رجل فأبى أن يأكل طعامي إلا أن أشهد له ، فاستحييت أن يخرج من بيتي ، ولم يطعم فشهدت له فطعم ، فقال : ما أنا بالذي أرضى عنك أبداً إلا أن تأتيه فتبزق في وجهه ، ففعل ذلك عقبة فقال ، لا أراك خارجاً من مكة إلا علوت رأسك بالسيف ، فقتل عقبة يوم بدر صبراً وأما أبيّ بن خلف فقتله النبيّ (صلى الله عليه وسلم) بيده يوم أُحد "

(216/561)

، وقيل لما بزق عقبة في وجه النبيّ (صلى الله عليه وسلم) عاد بزاقه في وجهه ، فاحترق خداه فكان أثر ذلك في وجهه ، حتى قتل وقيل كان عقبة بن أبي معيط خليل أمية بن خلف ، فأسلم عقبة فقال له أمية : وجهي من وجهك حرام إن تابعت محمداً فكفر وارتد

، فأنزل الله فيه ﴿ ويوم يعض الظالم ﴾ يعني عقبة بن أبي معيط بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، على يديه ، أي ندماً وأسفاً على ما فرط في جنب الله ، وأوبق نفسه بالمعصية والكفر لطاعة خليله الذي صده عن سبيل ربه ، قال عطاء : يأكل يديه حتى مرفقيه ثم ينبتان ، ثم يأكلهما هكذا كلما نبتت يده أكلها على ما فعل ، تحسراً وندامة ﴿ يقول يا ليتني اتخذت ﴾ أي في الدنيا ﴿ مع الرسول سبيلاً ﴾ أي ليتني اتبعت محمداً (صلى الله عليه وسلم) واتخذت معه طريقاً إلى الهداية ﴿ يا ويلتى ﴾ دعا على نفسه بالويل ﴿ ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً ﴾ قيل يعني أبي بن خلف ﴿ لقد أضلني عن الذكر ﴾ أي عن الإيمان والقرآن ﴿ بعد إذ جاءني ﴾ يعني الذكر مع الرسول صلّى الله عليه وسلّم ﴿ وكان الشيطان ﴾ وهو كل متمرد عات صد عن سبيل الله من الجن والإنس ﴿ للإنسان خذولاً ﴾ أي كثير الخذلان يتركه ويتبرأ منه عند نزول البلاء والعذاب به وحكم الآية عام في كل خليلين ، ومتحابين اجتمعا على معصية الله (ق) عن أبي موسى الأشعري عن النبيّ (صلى الله عليه وسلم) قال " مثل الجليس الصالح وجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير فحامل المسك أما أن يحذيك ، وإما أن تبتاع منه وإما أن تجد منه ريحاً طيباً ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك ، وإما أن تجد منه ريحاً خبيثة " عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : " المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل " أخرجه أبو داود والترمذي .

ولهما عن أبي سعيد الخدري قال : قال الرسول صلّى الله عليه وسلّم " لا تصاحب إلا مؤمناً ولا يأكل طعامك إلا تقي " .

(217/561)

قوله : ﴿ وقال الرسول ﴾ يعني ويقول الرسول في ذلك اليوم ﴿ يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً ﴾ أي متروكاً وأعرضوا عنه ، ولم يؤمنوا به ولم يعملوا بما فيه وقيل جعلوه بمنزلة الهجر وهو السيىء من القول فزعموا أنه سحر وشعر ، والمعنى أن محمداً صلّي الله عليه وسلّم ، يشكو قومه إلى الله يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً ، فعزاه الله تعالى فقال ﴿ وكذلك جعلنا ﴾ أي وكما جعلت لك أعداء من مشركي مكة ، وهم قومك كذلك جعلنا ﴿ لكل نبي عدواً من المجرمين ﴾ أي المشركين و المعنى لا يكبرن عليك ذلك فإن الأنبياء قبلك قد لقوا هذا من قومهم ، فصبروا فاصبر أنت كما صبروا فإني ناصرك ، وهاديك وهو قوله تعالى ﴿ وكفى بربك هادياً ونصيراً ﴾ قوله تعالى ﴿ وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة ﴾ أي كما أنزلت التوراة على موسى والإنجيل على عيسى والزبور على داود صلوات الله عليهم أجمعين قال الله ﴿ كذلك ﴾ فعلنا ذلك ﴿ لنثبت به فؤادك ﴾ أي أنزلناه مفرقاً لنقوي به قلبك ، فتعيه وتحفظه فإن

الكتب المتقدمة نزلت على أنبياء ، يكتبون ويقرؤون وأنزلنا القرآن على نبي أمي لا يكتب ولا يقرأ ولأن من القرآن الناسخ والمنسوخ ، ومنه ما هو جواب لمن سأل عن أمور تحدث في أوقات مختلفة ففرقناه ليكون أوعى لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، وأيسر على العامل به ﴿ ورتلناه ترتيلاً ﴾ .

(218/561)

قال ابن عباس : وبيناه بياناً والترتيل التبيين في ترسل وتثبت وقيل فرقناه تفريقاً آية بعد آية ﴿ ولا يأتونك ﴾ يعني يا محمد هؤلاء المشركون ﴿ بمثل ﴾ يعني يضربونه لك في إبطال أمرك ﴿ إلا جئناك بالحق ﴾ أي بما ترد به ما جاؤوا به من ما يوردون المثل ، وتبطله فسمي ما يوردون من الشبه مثلاً ، وسمي ما يدفع به الشبه حقاً ﴿ وأحسن تفسيراً ﴾ يعني أحسن بياناً وتفصيلاً ثم ذكر ما لهؤلاء المشركين فقال تعالى ﴿ الذين ﴾ يعني هم الذين ﴿ يحشرون ﴾ أي يساقون ويجرون ﴿ على وجوههم إلى جهنم أولئك شر مكاناً ﴾ يعني منزلاً ومصيراً ﴿ وأضل سبيلاً ﴾ أي أخطأ طريقاً .

قوله تعالى ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلنا معه أخاه هارون وزيراً ﴾ أي معيناً وظهيراً ﴿ فقلنا اذهبا إلى القوم الذين كذبوا بآياتنا ﴾ يعني القبط ﴿ فدمرناهم ﴾ فيه

إضمار أي فكذبوهما فدمرناهم ﴿ تدميراً ﴾ يعني أهلكناهم إهلاكاً ﴿ وقوم نوح لما كذبوا الرسل ﴾ يعني رسولهم ومن كذب رسولاً واحداً فقد كذب جميع الرسل فلذلك ذكره بلفظ الجمع ﴿ أغرقناهم وجعلناهم للناس أية ﴾ أي عبرة لمن بعدهم ﴿ وأعتدنا للظالمين ﴾ في الآخرة ﴿ عذاباً أليماً ﴾ يعني سيرى ما حل بهم من عاجل العذاب في الدنيا ﴿ وعاداً وثمود ﴾ أي أهكلنا عاداً وثمود ﴿ وأصحاب الرس ﴾ قال وهب بن منبه كان أهل بئر الرس نزولاً عليها ، وكانوا أصحاب مواش يعبدون الأصنام فبعث الله إليهم شعيباً يدعوهم إلى الإسلام فتمادوا في طغيانهم وآذوا شعيباً فبينما هم حول البئر في منازلهم ، انهارت البئر وخسف بهم وبديارهم ورباعهم وقيل : الرس بئر بفلج اليمامة قتلوا نبيهم فأهلكهم الله .

(219/561)

وقال سعيد بن جبير : كان لهم نبي يقال له حنظلة بن صفوان فقتلوه فأهلكهم الله وقيل الرس بأنطاكية قتلوا فيها حبيباً النجار هم الذين ذكرهم الله في سورة " يس " وقيل هم أصحاب الأخدود والرس الأخدود ﴿ وقروناً بين ذلك كثيراً ﴾ أي وأهلكنا قروناً كثيراً بين عاد وثمود وأصحاب الرس ﴿ وكلاً ضربنا له الأمثال ﴾ أي الأشباه في إقامة الحجة

عليهم فلم نهلكهم إلا بعد الإنذار ﴿ وكلاً تبرنا تتبيراً ﴾ أي أهلكناهم إهلاكاً قوله تعالى ﴿ ولقد أتوا على القرية التي أمطرت مطر السوء ﴾ يعني الحجارة وهي قريات قوم لوط ، وهي خمس قرى أهلك الله منها أربعاً ونجت واحدة .

وهي أصغرها وكان أهلها لا يعملون العمل الخبيث ﴿ أفلم يكونوا يرونها ﴾ يعني إذا مروا بها في أسفارهم فيعتبروا ويتعظوا لأن مدائن قوم لوط كانت على طريقهم في ممرهم إلى الشام ﴿ بل كانوا لا يرجون نشوراً ﴾ يعني لا يخافون بعثاً .

(220/561)

قوله تعالى : ﴿ وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزواً ﴾ نزلت في أبي جهل كان إذا مر مع أصحابه قال مستهزئاً ﴿ أهذا الذي بعث الله رسولاً إن كان ليضلنا ﴾ يعني قد قارب أن يضلنا ﴿ عن ﴾ عبادة ﴿ آلهتنا لولا أن صبرنا عليها ﴾ يعني على عبادتها والمعنى لو لم نصبر عليها لصرفنا عنها ﴿ وسوف يعلمون حين يرون العذاب ﴾ أي في الآخرة عياناً ﴿ من أضل سبيلاً ﴾ أي أخطأ طريقاً ﴿ أرأيت من اتخذ إلهه هواه ﴾ وذلك أن الرجل من المشركين كان يعبد حجراً ، فإذا رأى حجراً أحسن منه رماه وأخذ الأحسن منه وعبده وقال ابن عباس : أرأيت من ترك عبادة الله خالقها ثم هوى حجراً فعبده ما حاله عندي

وقيل الهوى إله يعبد ﴿ أفأنت تكون عليه وكيلاً ﴾ أي حافظاً تحفظه من اتباع الهوى وعبادة ما يهواه من دون الله والمعنى لست كذلك وقال الكلبي نسختها آية القتال ﴿ أم تحسب أن أكثرهم يسمعون ﴾ أي ما تقول سماع طالب الإفهام ﴿ أو يعقلون ﴾ يعني ما يعاينون من الحجج والأعلام وهذه المذمة أعظم من التي تقدمت ، لأنهم لشدة عنادهم لا يسمعون القول وإذا سمعوه لا يتفكرون فيه ، فكأنهم لا سمع لهم ولا عقل البتة فعند ذلك شبههم بالأنعام فقال تعالى ﴿ إن هم ﴾ أي ما هم إلا كالأنعام أي في عدم انتفاعهم بالكلام وعدم إقدامهم على التدبر والتفكير ثم قال تعالى ﴿ بل هم أضل سبيلاً ﴾ لأن البهائم تهتدي لمراعيها ومشاربها وتنقاد لأربابها الذي يتعاهدونها ، وهؤلاء الكفار لا يعرفون طريق الحق ولا يطيعون ربهم الذي خلقهم ورزقهم لأن الأنعام تسجد وتسبح والكفار لا يفعلون ذلك .

(221/561)

قوله تعال ﴿ ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ﴾ هو ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس جعله ممدوداً ، لأنه ظل لا شمس معه ﴿ ولو شاء لجعله ساكناً ﴾ يعني دائماً ثابتاً لا يزول ولا تذهبه الشمس ﴿ ثم جعلنا الشمس عليه دليلاً ﴾ معنى دلالتها عليه أنه لو لم تكن

الشمس لما عرف الظل ، ولولا النور لما عرفت الظلمة ، والأشياء تعرف بضدها ﴿ ثم قبضناه ﴾ يعني الظل ﴿ إلينا قبضاً يسيراً ﴾ يعني بالشمس التي تأتي عليه والمعنى أن الظل يعم جميع الأرض قبل طلوع الشمس فإذا طلعت الشمس قبض الله الظل جزأ فجزأ قبضاً خفيفاً ﴿ وهو الذي جعل لكم الليل لباساً ﴾ يعني ستراً تسترون به والمعنى أن الظلمة الليل تغشى كل شيء كاللباس ، الذي يشتمل على لابسه ﴿ والنوم سباتاً ﴾ يعني راحة لأبدانكم وقطعاً لأعمالكم ﴿ وجعل النهار نشوراً ﴾ يعني يقظة وزماناً تنتشرون فيه لابتغاء رزقكم وطلب الاشتغال ﴿ وهو الذي أرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته ﴾ يعني المطر ﴿ وأنزلنا من السماء ماء طهوراً ﴾ الطهور هو الطاهر في نفسه المطهر لغيره فهو اسم لما يتطهر به بدليل ما روي عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال في البحر " هو الطهور ماؤه الحل ميتته " أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي .

(222/561)

وأراد به المطهر والماء المطر لأنه يطهر الإنسان من الحدث والنجاسة فثبت أن التطهير مختص بالماء وذهب أصحاب الرأي إلى أن الطهور وهو الطاهر حتى جوزوا إزالة النجاسة بالمائعات الطاهرة مثل الخل والريق ونحوها ، ولو جاز إزالة النجاسة بها لجاز

إزالة الحدث بها وذهب بعضهم إلى أن الطهور ما تكرر منه التطهير ، وهو قول مالك حتى جوز الوضوء بالماء إذا توضىء به مرة ، وإن وقع في الماء شيء غير طعمه أو لونه أو ريحه هل تزول طهوريته نظر إن كان الواقع شيئاً لا يمكن صون الماء عنها كالطين والتراب وأوراق الأشجار فتجوز الطهارة به كما لو تغير بطول المكث في قراره ، وكذلك لو وقع فيه ما لا يختلط كالدهن يصب فيه فيتروح الماء برائحته تجوز الطهارة به لأن تغيره للمجاورة لا للمخالطة وإن كان شيئاً يمكن صون الماء عنه ، ومخالطته كالخل والزعفران ونحوهما تزل طهوريته فلا يجوز الوضوء به وإن لم يتغير أحد أوصافه نظر إن كان الواقع شيئاً طاهراً لا يزيل طهوريته يجوز الوضوء به سواء كان الماء قليلاً أو كثيراً ، وإن كان الواقع شيئاً نجساً نظر فيه فإن كان الماء ، أقل من قلتين نجس الماء وإن كان قدر قلتين فأكهر فهو طاهر يجوز الوضوء به والقلتان خمسمائة رطل بالبغدادي يدل عليه ما روي عن ابن عمر عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنه سئل عن الماء يكون في الفلاة ، ترده السباع والذئاب فقال : " إذا كان الماء قلتين لم يحمل الخبث " أخرجه أبو داود والترمذي .

(223/561)

وهذا قول الشافعي وأحمد وإسحاق وجماعة من أهل الحديث ، أن الماء إذا بلغ هذا الحد لا ينجس بوقوع النجاسة فيه ما لم يتغير أحد أوصافه ، وذهب جماعة إلى أن الماء القليل لا ينجس بوقوع النجاسة فيه ما لم يتغير طعمه أو لونه أو ريحه ، وهذا قول الحسن وعطاء والنخعي والزهري واحتجوا بما روي عن أبي سعيد الخدري قال : " قيل يا رسول الله إنه يستقى لك من بئر بضاعة ويلقى فيها لحوم الكلام وخرق الحيض وعذر النساء ، فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إن الماء طهور لا ينجسه شيء " وفي رواية قال " قلت يا رسول الله أيتوضأ من بئر بضاعة ، وهي بئر تطرح فيها خرق الحيض ولحوم الكلام والنتن فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) الماء طهور لا ينجسه شيء "

(224/561)

وقوله تعالى : ﴿ لنحيي به ﴾ أي بالمطر ﴿ بلدة ميتاً ﴾ قيل : أراد به موضع البلدة ﴿ ونسقيه مما خلقنا ﴾ أي نسقي من ذلك الماء ﴿ أنعاماً وأناسيّ كثيراً ﴾ أي بشراً كثيراً والأناسي جمع إنسي وقي لجمع إنسان قوله ﴿ ولقد صرفناه بينهم ﴾ يعني المطر مرة ببلدة ومرة ببلدة أخرى وقال ابن عباس ما عام بأمطر من عام ولكن الله يصرفه في الأرض وقرأ هذه الآية وهذا كما روي مرفوعاً " ما من ساعة من ليل ولا نهار إلا والسماء تمطر فيها

يصرفه الله حيث يشاء " وروي عن ابن مسعود يرفعه ، قال : ليس من سنة بأمطر من سنة أخرى ولكن الله عزّ وجلّ قسم هذه الأرزاق فجعلها في هذه السماء الدنيا في هذا القطر ينزل منه كل سنة بكيل معلوم ، ووزن معلوم وإذا عمل قوم بالمعاصي حول الله ذلك إلى غيرهم وإذا عصوا جميعاً صرف الله ذلك المطر إلى الفيافي والبحار ، وقيل : المراد من تصريف المطر تصريفه وابلاً وطشاً ورذاذاً ونحوها وقيل التصريف راجع إلى الريح ﴿ ليذكروا ﴾ أي ليتذكروا ويتفكروا في قدرة الله تعالى ﴿ فأبى أكثر الناس إلى كفوراً ﴾ أي جحوداً في كفرهم هو أنهم إذا مطروا قالوا أمطرنا بنوء كذا (ق) عن زيد بن خالد الجهني أنه قال : صلّى بنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) صلاة الصبح بالحديبية في أثر سماء من الليل ، فلما انصرف أقبل على الناس فقال " هل تدرون ماذا قال ربكم قالوا الله ورسوله أعلم قال أصبح عن عبادي مؤمن بي وكافر فأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي وكافر بالكواكب وأما من قال مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بن مؤمن بالكواكب " .

(225/561)

قوله تعالى : ﴿ ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيراً ﴾ أي رسولاً ينذرهم ولكن بعثناك إلى القرى كلها وحملناك ثقل النذارة لتستوجب بصبرك ما أعددنا لك من الكرامة والدرجة الرفيعة ﴿ فلا تطع الكافرين ﴾ فيما يدعونك إليه من موافقتهم ومداهنتهم ﴿ وجاهدهم به ﴾ أي بالقرآن ﴿ جهاداً كبيراً ﴾ أي شديداً . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الخازن حـ 5 صـ 97.105 ﴾

(226/561)

وقال النسفى :

﴿ وَقَالَ الذين لاَ يَرْجُونَ ﴾

لا يأملون ﴿ لِقَاءنَا ﴾ بالخير لأنهم كفرة لا يؤمنون بالبعث أو لا يخافون عقابنا إما لأن الراجي قلق فيما يرجوه كالخائف ، أو لأن الرجاء في لغة تهامة الخوف ﴿ لَوْلاَ ﴾ هلا ﴿ أُنزِلَ عَلَيْنَا الملئكة ﴾ رسلاً دون البشر أو شهوداً على نبوته ودعوى رسالته ﴿ أَوْ نرى رَبَّنَا ﴾ جهرة فيخبرنا برسالته واتباعه ﴿ لَقَدِ استكبروا فِى أَنفُسِهِمْ ﴾ أي أضمروا الاستكبار عن الحق وهو الكفر والعناد في قلوبهم ﴿ وَعَتَوْ ﴾ وتجاوزوا الحد في الظلم ﴿ عُتُوّاً كَبِيراً ﴾ وصف العتو بالكبر فبالغ في إفراطه أي أنهم لم يجسروا على هذا القول

العظيم إلا أنهم بلغوا غاية الاستكبار وأقصى العتو .

واللام في ﴿ لقد ﴾ جواب قسم محذوف

﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ الملئكة ﴾ أي يوم الموت أو يوم البعث و ﴿ يَوْمَ ﴾ منصوب بما دل عليه ﴿ لاَ بشرى ﴾ أي يوم يرون الملائكة يمنعون البشرى .

وقوله ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ مؤكد ل ﴿ يوم يرون ﴾ أو بإضمار اذكر أي اذكر يوم يرون الملائكة ، ثم أخبر فقال : لا بشرى بالجنة يومئذ ولا ينتصب ب ﴿ يرون ﴾ لأن المضاف إليه لا يعمل في المضاف ، ولا ب ﴿ بشرى ﴾ لأنها مصدر والمصدر لا يعمل فيما قبله ولأن المنفي بلا لا يعمل فيما قبل "لا" ﴿ لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ ظاهر في موضع ضمير أو عام يتناولهم بعمومه وهم الذين اجترموا الذنوب والمراد الكافرون لأن مطلق الأسماء يتناول أكمل المسميات ﴿ وَيَقُولُونَ ﴾ أي الملائكة ﴿ حِجْراً مَّحْجُوراً ﴾ حراماً محرماً عليكم البشرى أي جعل الله ذلك حراماً عليكم إنما البشرى للمؤمنين .

والحجر مصدر والكسر والفتح لغتان وقريء بهما وهو من حجره إذا منعه ، وهو من المصادر المنصوبة بأفعال متروك إظهارها ، و ﴿ مَّحْجُوراً ﴾ لتأكيد معنى الحجر كما قالوا "موت مائت" .

﴿ وَقَدِمْنَا إلى مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَّنثُوراً ﴾ هو صفة ولا قدوم هنا ولكن مثلت حال هؤلاء وأعمالهم التي عملوها في كفرهم من صلة رحم وإغاثة ملهوف وقرى ضيف ونحو ذلك بحال من خالف سلطانه وعصاه فقدم إلى أشيائه وقصد إلى ما تحت يديه فأفسدها ومزقها كل ممزق ولم يترك لها أثراً .

والهباء ما يخرج به من الكوة مع ضوء الشمس شبيهاً بالغبار ، والمنثور المفرق وهو استعارة عن جعله بحيث لا يقبل الاجتماع ولا يقع به الانتفاع .

ثم بين فضل أهل الجنة على أهل النار فقال :

﴿ أصحاب الجنة يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرّاً ﴾ تمييز والمستقر المكان الذي يكونون فيه في أكثر أوقاتهم يتجالسون ويتحادثون ﴿ وَأَحْسَنُ مَقِيلاً ﴾ مكاناً يأوون إليه للاسترواح إلى أزواجهم ، ولا نوم في الجنة ولكنه سمي مكان استراحتهم إلى الحور مقيلاً على طريق التشبيه .

وروي أنه يفرغ من الحساب في نصف ذلك اليوم فيقيل أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار ، وفي لفظ الأحسن تهكم بهم

﴿ وَيَوْمَ ﴾ واذكر يوم ﴿ تَشَقَّقُ السماء ﴾ والأصل تتشقق فحذف التاء كوفي وأبو عمرو وغيرهم أدغمها في الشين ﴿ بالغمام ﴾ لما كان انشقاق السماء بسبب طلوع الغمام

منها جعل الغمام كأنه الذي تشقق به السماء كما تقول "شققت السنام بالشفرة فانشق بها" ﴿ وَنُزِّلَ الملائكة تَنزِيلاً ﴾ ﴿ وننزل الملائكة ﴾ مكي ، ﴿ وتنزيلاً ﴾ على هذا مصدر من غير لفظ الفعل .

والمعنى أن السماء تنفتح بغمام أبيض يخرج منها وفي الغمام الملائكة ينزلون وفي أيديهم صحائف أعمال العباد ﴿ الملك ﴾ مبتدأ ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ ظرفه ﴿ الحق ﴾ نعته ومعناه الثابت لأن كل ملك يزول يومئذ فلا يبقى إلا ملكه ﴿ للرحمن ﴾ خبره ﴿ وكَانَ ﴾ ذلك اليوم ﴿ يَوْماً عَلَى الكافرين عَسِيراً ﴾ شديداً .

(228/561)

يقال عسر عليه فهو عسير وعسر ويفهم منه يسره على المؤمنين ففي الحديث " يهون يوم القيامة على المؤمنين حتى يكون عليهم أخف من صلاة مكتوبة صلوها في الدنيا " ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظالم على يَدَيْهِ ﴾ عض اليدين كناية عن الغيظ والحسرة لأنه من روادفها فتذكر الرادفة ويدل بها على المردوف فيرتفع الكلام به في طبقة الفصاحة ، ويجد السامع عنده في نفسه من الروعة ما لا يجده عند لفظ المكنّى عنه ، واللام في ﴿ الظالم ﴾ للعهد وأريد به عقبة لما تبين أو للجنس فيتناول عقبة وغيره من الكفار ﴿ يَقُولُ يا ليتنى اتخذت ﴾ في

الدنيا ﴿ مَعَ الرسول ﴾ محمد عليه الصلاة والسلام ﴿ سَبِيلاً ﴾ طريقاً إلى النجاة والجنة وهو الإيمان ﴿ يا ويلتى ﴾ وقرىء ﴿ يا ويلتي ﴾ بالياء وهو الأصل لأن الرجل ينادي ويلته وهي هلكته يقول لها تعالي فهذا أوانك .

وإنما قلبت الياء ألفاً كما في "صحارى" و"مدارى" ﴿ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلاَناً خَلِيلاً ﴾ فلان كناية عن الأعلام فإن أريد بالظالم عقبة لما رُوي أنه اتخذ ضيافة فدعا إليها رسول الله عليه الصلاة والسلام فأبى أن يأكل من طعامه حتى ينطق بالشهادتين ففعل فقال له أبيّ بن خلف وهو خليله : وجهي من وجهك حرام إلا أن ترجع فارتد .

فالمعنى يا ليتني لم أتخذ أبياً خليلاً ، فكنى عن اسمه .

وإن أريد به الجنس فكل من اتخذ من المضلين خليلاً كان لخليله اسم علم لا محالة فجعل كناية عنه .

وقيل : هو كناية عن الشيطان

﴿ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ الذكر ﴾ أي عن ذكر الله أو القرآن أو الإيمان ﴿ بَعْدَ إِذْ جَاءِنِى ﴾ من الله ﴿ وَكَانَ الشيطان ﴾ أي خليله سماه شيطاناً لأنه أضله كما يضله الشيطان ، أو إبليس لأنه الذي حمله على مخالة المضل ومخالفة الرسول ﴿ للإنسان ﴾ المطيع له ﴿ خَذُولاً ﴾ هو مبالغة من الخذلان أي من عادة الشيطان ترك من يواليه وهذا حكاية كلام الله أو كلام الظالم .

﴿ وَقَالَ الرسول ﴾ أي محمد عليه الصلاة والسلام في الدنيا ﴿ يارب إِنَّ قَوْمِى ﴾ قريشاً ﴿ اتخذوا هذا القرءان مَهْجُوراً ﴾ متروكاً أي تركوه ولم يؤمنوا به من الهجران وهو مفعول ثان ل ﴿ اتخذوا ﴾ في هذا تعظيم للشكاية وتخويف لقومه لأن الأنبياء إذا شكوا إليه قومهم حل بهم العذاب ولم ينظروا .

ثم أقبل عليه مسلياً ووعده النصرة عليهم فقال ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىّ عَدُوّاً مّنَ المجرمين وكفى بِرَبّكَ هَادِياً وَنَصِيراً ﴾ أي كذلك كان كل نبي قبلك مبتلى بعداوة قومه وكفاك بي هادياً إلى طريق قهرهم والانتصار منهم ، وناصراً لك عليهم .

والعدو يجوز أن يكون واحداً وجمعاً والباء زائدة أي وكفى ربك هادياً وهو تمييز

﴿ وَقَالَ الذين كَفَرُواْ ﴾ أي قريش أو اليهود ﴿ لَوْلاَ نُزّلَ عَلَيْهِ القرءان جُمْلَةً ﴾ حال من القرآن أي مجتمعاً ﴿ واحدة ﴾ يعني هلا أنزل عليه دفعة واحدة في وقت واحد كما أنزلت الكتب الثلاثة ، وماله أنزل على التفاريق ؟ وهو فضول من القول ومماراة بما لا طائل تحته ، لأن أمر الإعجاز والاحتجاج به لا يختلف بنزوله جملة واحدة أو متفرقاً .

و ﴿ نزّل ﴾ هنا بمعنى أنزل وإلا لكان متدافعاً بدليل ﴿ جملة واحدة ﴾ وهذا اعتراض فاسد لأنهم تحدوا بالإتيان بسورة واحدة من أصغر السور فأبرزوا صفحة عجزهم حتى لاذوا بالمناصبة وفزعوا إلى المحاربة وبذلوا المهج وما مالوا إلى الحجج ﴿ كذلك ﴾ جواب لهم أي كذلك أنزل مفرقاً في عشرين سنة أو في ثلاث وعشرين و"ذلك" في ﴿ كذلك ﴾ إشارة إلى مدلول قوله ﴿ لولا نزل عليه القرآن جملة ﴾ لأن معناه لم أنزل عليك القرآن مفرقاً فأعلم أن ذلك ﴿ لِنُثَبِّتَ بِهِ ﴾ بتفريقه ﴿ فُؤَادَكَ ﴾ حتى تعيه وتحفظه لأن المتلقن إنما يقوى قلبه على حفظ العلم شيئاً بعد شيء وجزأ عقيب جزء ولو ألقي عليه جملة واحدة لعجز عن حفظه ، أو لنثبت به فؤادك عن الضجر بتواتر الوصول وتتابع الرسول لأن قلب المحب يسكن بتواصل كتب المحبوب ﴿ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ﴾ معطوف على الفعل الذي تعلق به ﴿ كذلك ﴾ كأنه قال : كذلك فرقناه ورتلناه أي قدرناه آية بعد آية ووقفة بعد وقفة ، أو أمرنا بترتيل قراءته وذلك قوله تعالى : ﴿ وَرَتِّلِ القرءان تَرْتِيلاً ﴾ [المزمل : 4] أي اقرأه بترسل وتثبت أو بيناه تبييناً ، والترتيل التبيين في ترسل وتثبت .

﴿ وَلاَ يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ ﴾ بسؤال عجيب من سؤالاتهم الباطلة كأنه مثل في البطلان ﴿ إِلاَّ جِئْنَاكَ بالحق ﴾ إلا أتيناك بالجواب الحق الذي لا محيد عنه ﴿ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً ﴾ وبما هو أحسن معنى ومؤدى من مثلهم أي من سؤالهم .

وإنما حذف من مثلهم لأن في الكلام دليلاً عليه كما لو قلت "رأيت زيداً وعمراً وإن عمراً أحسن وجهاً" كان فيه دليل على أنك تريد من زيد .

ولما كان التفسير هو التكشيف عما يدل عليه الكلام وضع موضع معناه فقالوا : تفسير هذا الكلام كيت وكيت كما قيل : معناه كذا وكذا .

(231/561)

أو لا يأتونك بحال وصفة عجيبة يقولون هلا أنزل عليك القرآن جملة إلا أعطيناك من الأحوال ما يحق لك في حكمتنا أن تعطاه وما هو أحسن تكشيفاً لما بعثت عليه ودلالة على صحته يعني أن تنزيله مفرقاً وتحديثهم بأن يأتوا ببعض تلك التفاريق كلما نزل شيء منها ، أدخل في الإعجاز من أن ينزل كله جملة .

﴿ الذين يُحْشَرُونَ على وُجُوهِهِمْ إلى جَهَنَّمَ أُوْلَئِكَ شَرٌّ ﴾ ﴿ الذين ﴾ مبتدأ و ﴿ أولئك ﴾ مبتدأ ثان و ﴿ شر ﴾ خبر ﴿ أولئك ﴾ و ﴿ أولئك ﴾ مع ﴿ شر ﴾ خبر ﴿ الذين ﴾ أو التقدير : هم الذين أو أعني الذين و ﴿ أولئك ﴾ مستأنف ﴿ مَكَاناً ﴾ أي مكانة ومنزلة أو مسكناً ومنزلاً ﴿ وَأَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ أي وأخطأ طريقاً ، وهو من الإسناد المجازي .

والمعنى إن حاملكم على هذه السؤالات أنكم تضلون سبيله وتحتقرون مكانه ومنزلته ، ولو نظرتم بعين الإنصاف وأنتم من المسحوبين على وجوههم إلى جهنم لعلمتم أن مكانكم شر من مكانه وسبيلكم أضل من سبيله ، وفي طريقته قوله ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرّ مّن ذلك مَثُوبَةً عِندَ الله مَن لَّعَنَهُ الله وَغَضِبَ عَلَيْهِ ﴾ [المائدة : 60] الآية .

(232/561)

وعن النبي صلى الله عليه وسلم " يحشر الناس يوم القيامة على ثلاثة أصناف : صنف على الدواب وصنف على أرجلهم وصنف على وجوههم " قيل : يا رسول الله ، كيف يمشون على وجوههم ؟ فقال عليه الصلاة والسلام " الذي أمشاكم على أقداكم يمشيهم على وجوههم " ﴿ وَلَقَدْ ءاتَيْنَا موسى الكتاب ﴾ التوراة كما آتيناك القرآن ﴿ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هارون ﴾ بدل أو عطف بيان ﴿ وَزِيراً ﴾ هو في اللغة من يرجع إليه من الوزر وهو الملجأ ، والوزارة لا تنافي النبوة فقد كان يبعث في الزمن الواحد أنبياء ويؤمرون بأن يوازر بعضهم بعضاً ﴿ فَقُلْنَا اذهبا إِلَى القوم الذين كَذَّبُواْ بآياتنا ﴾ إلى فرعون وقومه وتقديره فذهبا إليهم وأنذرا فكذبوهما ﴿ فدمرناهم تَدْمِيراً ﴾ التدمير الإهلاك بأمر

عجيب أراد اختصار القصة فذكر أولها وآخرها لأنهما المقصود من القصة أعني إلزام الحجة ببعثة الرسل واستحقاق التدمير بتكذيبهم

(233/561)

﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ ﴾ أي ودمرنا قوم نوح ﴿ لَّمَّا كَذَّبُواْ الرسل ﴾ يعني نوحاً وإدريس وشيثاً أو كان تكذيبهم لواحد منهم تكذيباً للجميع ﴿ أغرقناهم ﴾ بالطوفان ﴿ وجعلناهم ﴾ وجعلنا إغراقهم أو قصتهم ﴿ لِلنَّاسِ ءايَةً ﴾ عبرة يعتبرون بها ﴿ وَأَعْتَدْنَا ﴾ وهيأنا ﴿ للظالمين ﴾ لقوم نوح وأصله وأعتدنا لهم إلا أنه أراد تظليمهم فأظهر ، أو هو عام لكل من ظلم ظلم شرك وبتنا ولهم بعمومه ﴿ عَذَاباً أَلِيماً ﴾ أي النار ﴿ وَعَاداً ﴾ دمرنا عاداً ﴿ وَثَمُودَ ﴾ حمزة وحفص على تأويل القبيلة وغيرهما ، وثموداً على تأويل الحي أو لأنه اسم الأب الأكبر ﴿ وأصحاب الرس ﴾ هم قوم شعيب كانوا يعبدون الأصنام فكذبوا شعيباً فبيناهم حول الرس وهي البئر غير مطوية انهارت بهم فخسف بهم وبديارهم ، وقيل : الرس قرية قتلوا نبيهم فهلكوا ، أو هم أصحاب الأخدود والرس الأخدود ﴿ وَقُرُوناً ﴾ وأهلكنا أمماً ﴿ بَيْنَ ذلك ﴾ المذكور ﴿ كَثِيراً ﴾ لا يعلمها إلا الله أرسل إليهم فكذبوهم فأهلكوا ﴿ وَكُلاًّ ضَرَبْنَا لَهُ الأمثال ﴾ بينا له القصص العجيبة من قصص

الأولين ﴿ وَكُلاًّ تَبَّرْنَا تَتْبِيراً ﴾ أي أهلكنا إهلاكاً ، ﴿ وَكُلاًّ ﴾ الأول منصوب بما دل عليه ﴿ ضَرَبْنَا لَهُ الأمثال ﴾ وهو أنذرنا أو حذرنا والثاني ب ﴿ تبرنا ﴾ لأنه فارغ له .

(234/561)

﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا ﴾ يعني أهل مكة ﴿ عَلَى القرية ﴾ سدوم وهي أعظم قرى قوم لوط وكانت خمساً أهلك الله أربعاً مع أهلها وبقيت واحدة ﴿ التى أُمْطِرَتْ مَطَرَ السوء ﴾ أي أمطر الله عليها الحجارة يعني أن قريشاً مروا مراراً كثيرة في متاجرهم إلى الشام على تلك القرية التي أهلكت بالحجارة من السماء ، ﴿ ومطر السوء ﴾ مفعول ثان والأصل أمطرت القرية مطراً ، أو مصدر محذوف الزوائد أي إمطار السوء ﴿ أَفَلَمْ يَكُونُواْ يَرَوْنَهَا ﴾ أما شاهدوا ذلك بأبصارهم عند سفرهم الشام فيتفكروا فيؤمنوا ﴿ بَلْ كَانُواْ لاَ يَرْجُونَ نُشُوراً ﴾ بل كانوا قوماً كفرة بالبعث لا يخافون بعثاً فلا يؤمنون ، أو لا يأملون نشوراً كما يأمله المؤمنون لطمعهم في الوصول إلى ثواب أعمالهم

﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ ﴾ إن نافية ﴿ إِلاَّ هُزُواً ﴾ اتخذه هزواً في معنى استهزاء أي قائلين أي أهذا الذي ﴿ بَعَثَ الله رَسُولاً ﴾ والمحذوف حال والعائد إلى ﴿ الذين ﴾ محذوف أي بعثه .

﴿ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلاَ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ﴾ "أن" مخففة من الثقيلة واللام فارقة وهو دليل على فرط مجاهدة رسول الله صلى الله عليه وسلم في دعوتهم وعرض المعجزات عليهم حتى شارفوا بزعمهم أن يتركوا دينهم إلى دين الإسلام لولا فرط لجاجهم واستمساكهم بعبادة آلهتهم ﴿ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ العذاب ﴾ هو وعيد ودلالة على أنهم لا يفوتونه وإن طالت مدة الإمهال ﴿ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ هو كالجواب عن قولهم ﴿ إن كاد ليضلنا ﴾ لأنه نسبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الضلال إذ لا يضل غيره إلا من هو ضال في نفسه.

﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ اتخذ إلهه هَوَاهُ ﴾ أي من أطاع هواه فيما يأتي ويذر فهو عابد هواه وجاعله إلهه فيقول الله تعالى لرسوله: هذا الذي لا يرى معبوداً إلا هواه كيف تستطيع أن تدعوه إلى الهدى.

(235/561)

يروى أن الواحد من أهل الجاهلية كان يعبد الحجر فإذا مر بحجر أحسن منه ترك الأوّل وعبد الثاني.

وعن الحسن: هو في كل متبعٍ هواه ﴿ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً ﴾ أي حفيظاً تحفظه من

متابعة هواه وعبادة ما يهواه ، أفأنت تكون عليه موكلاً فتصرفه عن الهوى إلى الهدى ، عرفه أن إليه التبليغ فقط

﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كالأنعام بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ "أم" منقطعة معناه بل أتحسب كأن هذه المذمة أشد من التي تقدمتها حتى حقت بالإضراب عنها إليها وهي كونها مسلوبي الأسماع والعقول ، لأنهم لا يلقون إلى استماع الحق أذناً ولا إلى تدبره عقلاً ، ومشبهين بالأنعام التي هي مثل في الغفلة والضلالة فقد ركبهم الشيطان بالاستذلال لتركهم الاستدلال ، ثم هم أرجح ضلالة منها لأن الأنعام تسبح ربها وتسجد له وتطيع من يعلفها وتعرف من يحسن إليها ممن يسيء إليها ، وتطلب ما ينفعها وتجتنب ما يضرها وتهتدي لمراعيها ومشاربها ، وهؤلاء لا ينقادون لربهم ولا يعرفون إحسانه إليهم من إساءة الشيطان الذي هو عدوهم ، ولا يطلبون الثواب الذي هو أعظم المنافع ، ولا يتقون العقاب الذي هو أشد المضار والمهالك ، ولا يهتدون للحق الذي هو المشرع الهني والعذب الروي ، وقالوا : للملائكة .

روح وعقل ، وللبهائم نفس وهوى ، والآدمي مجمع الكل ابتلاء .

فإن غلبته النفس والهوى فضلته الأنعام ، وإن غلبته الروح والعقل فضل الملائكة الكرام .

وإنما ذكر الأكثر لأن فيهم من لم يصده عن الإسلام إلا حب الرياسة وكفى به داء عضالاً ولأن فيهم من آمن .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ ﴾ ألم تنظر إلى صنع ربك وقدرته ﴿ كَيْفَ مَدَّ الظل ﴾ أي بسطه فعم الأرض وذلك من حين طلوع الفجر إلى وقت طلوع الشمس في قول الجمهور لأنه ظل ممدود لا شمس معه ولا ظلمة ، وهو كما قال في ظل الجنة ﴿ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴾ [الواقعة : 30] إذ لا شمس معه ولا ظلمة ﴿ وَلَوْ شَاء لَجَعَلَهُ سَاكِناً ﴾ أي دائماً لا يزول ولا تذهبه الشمس ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَا الشمس عَلَيْهِ ﴾ على الظل ﴿ دَلِيلاً ﴾ لأنه بالشمس يعرف الظل ولولا الشمس لما عرف الظل فالأشياء تعرف بأضدادها ﴿ ثُمَّ قبضناه ﴾ أي أخذنا ذلك الظل الممدود ﴿ إِلَيْنَا ﴾ إلى حيث أردنا ﴿ قَبْضاً يَسِيراً ﴾ سهلاً غير عسير أو قليلاً قليلاً أي جزءًا فجزءا بالشمس التي تأتي عليه .

وجاء ب "ثم" لتفاضل ما بين الأمور فكأن الثاني أعظم من الأول ، والثالث أعظم من الثاني ، شبه تباعد ما بينهما في الفضل بتباعد ما بين الحوادث في الوقت

﴿ وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الليل لِبَاساً ﴾ جعل الظلام الساتر كاللباس ﴿ والنوم سُبَاتاً ﴾ راحة لأبدانكم وقطعاً لأعمالكم ، والسبت القطع والنائم مسبوت لأنه انقطع عمله وحركته .

وقيل : السبات الموت والمسبوت الميت لأنه مقطوع الحياة وهو كقوله تعالى ﴿ وَهُوَ الذى يتوفاكم بالليل ﴾ [الأنعام : 60] ويعضده ذكر النشور في مقابلته ﴿ وَجَعَلَ النهار نُشُوراً ﴾ إذ النشور انبعاث من النوم كنشور الميت أن ينشر فيه الخلق للمعاش .

وهذه الآية مع دلالتها على قدرة الخالق فيها إظهار لنعمته على خلقه لأن في الاحتجاب بستر الليل فوائد دينية ودنيوية ، وفي النوم واليقظة المشبهين بالموت والحياة عبرة لمن اعتبر .

وقال لقمان لابنه : كما تنام فتوقظ كذلك تموت فتنشر .

(237/561)

﴿ وَهُوَ الذى أَرْسَلَ الرياح ﴾ ﴿ الريح ﴾ مكي والمراد به الجنس ﴿ بُشْرًا ﴾ تخفيف بشر جمع بشور ﴿ بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ ﴾ أي قدام المطر لأنه ريح ثم سحاب ثم مطر وهذه استعارة مليحة ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السماء مَاء ﴾ مطراً ﴿ طَهُوراً ﴾ بليغاً في طهارته .

والطهور صفة كقولك "ماء طهور" أي طاهر ، واسم كقولك لما يتطهر به طهور كالوضوء والوقود لما يتوضأ به وتوقد به النار ، ومصدر بمعنى التطهر كقولك تطهرت طهوراً حسناً ومنه قوله عليه الصلاة والسلام " لا صلاة إلا بطهور " أي بطهارة .

وما حكي عن ثعلب هو ما كان طاهراً في نفسه مطهراً لغيره وهو مذهب الشافعي رحمه

الله تعالى إن كان هذا بيان زيادة الطهارة فحسن ويعضده قوله تعالى ﴿ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّن السماء مَاء لِّيُطَهِّرَكُمْ بِهِ ﴾ [الأنفال : 11] وإلا فليس فعول من التفعيل في شيء ، وقياسه على ما هو مشتق من الأفعال المتعدية كقطوع ومنوع غير سديد لأن بناء الفعول للمبالغة ، فإن كان الفعل متعدياً فالفعول متعد وإن كان لازماً فلازم

﴿ لِّنُحْيِيَ بِهِ ﴾ بالمطر ﴿ بَلْدَةً مَّيْتاً ﴾ ذكّر ﴿ ميتاً ﴾ على إرادة البلد أو المكان ﴿ وَنُسْقِيَهِ مِمَّا خَلَقْنَا أنعاما وَأَنَاسِيَّ كَثِيراً ﴾ أي ونسقي الماء البهائم والناس .

و ﴿ مما خلقنا ﴾ حال من ﴿ أنعاماً وأناسي ﴾ أي أنعاماً وأناسي .

مما خلقنا .

وسقى أو أسقى لغتان .

وقرأ المفضل والبرجمي ﴿ ونسقيه ﴾ والأناسي جمع إنسي على القياس ككرسي وكراسي ، أو إنسان وأصله أناسين كسرحان وسراحين فأبدلت النون ياء وأدغمت .

(238/561)

وقدم إحياء الأرض على سقي الأنعام والأناسي لأن حياتها سبب لحياتهما ، وتخصيص الأنعام من الحيوان الشارب لأن عامة منافع الأناسي متعلقة بها فكأن الإنعام عليها بسقي

الإنعام كالأنعام بسقيهم ، وتنكير الأنعام والأناسي ووصفها بالكثرة لأن أكثر الناس منيخون بالقرب من الأودية والأنهار فيهم غنية عن سقي السماء وأعقابهم وبقاياهم كثير يعيشون بما ينزل الله من رحمته ، وتنكير البلدة لأنه يريد بعض بلاد هؤلاء المتبعدين عن مظان الماء .

ولما سقي الأناسي من جملة ما أنزل له الماء وصفه بالطهور إكراماً لهم ، وبيان أن من حقهم أن يؤثروا الطهارة في بواطنهم وظواهرهم لأن الطهورية شرط الإحياء .

﴿ وَلَقَدْ صرفناه بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُواْ ﴾ ﴿ ليذكروا ﴾ حمزة وعلي يريد ولقد صرفنا هذا القول بين الناس في القرآن وفي سائر الكتب المنزلة على الرسل ، وهو ذكر إنشاء السحاب وإنزال القطر ليتفكروا ويعتبروا ويعرفوا حق النعمة فيه فيشكروا ﴿ فأبى أَكْثَرُ الناس إِلاَّ كُفُورًا ﴾ فأبى أكثرهم إلا كفران النعمة وجحودها وقلة الاكتراث لها .

أو صرفنا المطر بينهم في البلدان المختلفة والأوقات المتغايرة وعلى الصفات المتفاوتة من وابل وطل وجود ورذاذ وديمة ، فأبوا إلا الكفور وأن يقولوا مطرنا بنوء كذا ولا يذكروا صنع الله تعالى ورحمته .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما : ما من عام أقل مطراً من عام ولكن الله يصرفه حيث يشاء وقرأ الآية .

وروي أن الملائكة يعرفون عدد المطر ومقداره في كل عام لأنه لا يختلف ولكن يختلف فيه البلاد ، وينتزع من هنا جواب في تنكير البلدة والأنعام والأناسي .

ومن نسب الأمطار إلى الأنواء وجحد أن تكون هي والأنواء من خلق الله تعالى كفر ، وإن رأى أن الله تعالى خالقها وقد نصب الأنواء أمارات ودلالات عليها لم يكفر

(239/561)

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيراً فَلاَ تُطِعِ الكافرين ﴾ أي لو شئنا لخففنا عنك أعباء نذارة جميع القرى ، ولبعثنا في كل قرية نبياً ينذرها ، ولكن شئنا أن تجمع لك فضائل جميع المرسلين بالرسالة إلى كافة العالمين فقصرنا الأمر عليك وعظمناك به فتكون وحدك ككلهم ، ولذا خوطب بالجمع ﴿ يا أيها الرسل ﴾ فقابل ذلك بالشكر والصبر والتشدد ، فلا تطع الكافرين فيما يدعونك إليه من موافقتهم ومداهنتهم ، وكما آثرتك على جميع الأنبياء فآثر رضائي على جميع الأهواء ، وأريد بهذا تهييجه وتهييج المؤمنين وتحريكهم ﴿ وجاهدهم بِهِ ﴾ أي بالله يعني بعونه وتوفيقه أو بالقرآن أي جادلهم به وقرعهم بالعجز عنه ﴿ جِهَاداً كَبِيراً ﴾ عظيماً موقعه عند الله لما يحتمل فيه من المشاق ، ويجوز أن يرجع الضمير في ﴿ به ﴾ إلى ما دل عليه ﴿ ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيراً ﴾ من كونه نذير كافة القرى لأنه لو بعث في كل قرية نذيراً لوجب على كل نذير مجاهدة قريته فاجتمعت على رسول الله تلك المجاهدات فكبر جهاده من أجل ذلك وعظم فقال له : وجاهدهم بسبب كونك نذير كافة

القرى جهاداً كبيراً جامعاً لكل مجاهدة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير النسفى حـ 3 صـ 171.163 ﴾

(240/561)

وقال البيضاوى :

﴿ وَقَالَ الذين لاَ يَرْجُونَ ﴾

لا يأملون . ﴿ لِقَاءَنَا ﴾ بالخير لكفرهم بالبعث ، أولا يخافون ﴿ لِقَاءنَا ﴾ بالشر على لغة تهامة ، وأصل اللقاء الوصول إلى الشيء ومنه الرؤية فإنه وصول إلى المرئي ، والمراد به الوصول إلى جزائه ويمكن أن يراد به الرؤية على الأول . ﴿ لَوْلاَ ﴾ هلا . ﴿ أُنزِلَ عَلَيْنَا الملائكة ﴾ فتخبرنا بصدق محمد صلى الله عليه وسلم ، وقيل فيكونوا رسلاً إلينا . ﴿ أَوْ نرى رَبَّنَا ﴾ فيأمرنا بتصديقه واتباعه . ﴿ لَقَدِ استكبروا فِي أَنفُسِهِمْ ﴾ أي في شأنها حتى أرادوا لها ما يتفق لأفراد من الأنبياء الذين هم أكمل خلق الله في أكمل أوقاتها وما هو أعظم من ذلك . ﴿ وَعَتَوْا ﴾ وتجاوزوا الحد في الظلم . ﴿ عُتُوّاً كَبِيراً ﴾ بالغاً أقصى مراتبه حيث عاينوا المعجزات القاهرة فأعرضوا عنها ، واقترحوا لأنفسهم الخبيثة ما سدت دونه مطامح النفوس القدسية ، واللام جواب قسم محذوف وفي الاستئناف بالجملة

حسن وإشعار بالتعجب من استكبارهم وعتوهم كقوله :

وَجَارَةُ جَسَّاسٍ أَبَأْنَا بِنَابِهَا . . . كُلَيْباً عَلَتْ نَابٌ كُلَيْبٍ بِوَاؤُهَا

(241/561)

﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ الملائكة ﴾ ملائكة الموت أو العذاب ، و﴿ يَوْمَ ﴾ نصب باذكر أو بما دل عليه . ﴿ لاَ بشرى يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ فإنه بمعنى يمنعون البشرى أو يعدمونها ، و﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ تكرير أو خبر و﴿ لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ تبيين أو خبر ثان أو ظرف لما يتعلق به اللام ، أو ل ﴿ بُشْرَىً ﴾ إن قدرت منونة غير مبنية مع ﴿ لا ﴾ فإنها لا تعمل ، ولل ﴿ مُّجْرِمِينَ ﴾ إما عام يتناول حكمه حكمهم من طريق البرهان ولا يلزم عن نفي البشرى لعامة المجرمين حينئذ نفي البشرى بالعفو والشفاعة في وقت آخر ، وإما خاص وضع موضع ضميرهم تسجيلاً على جرمهم وإشعاراً بما هو المانع للبشرى والموجب لما يقابلها . ﴿ وَيَقُولُونَ حِجْراً مَّحْجُوراً ﴾ عطف على المدلول أي ويقول الكفرة حينئذ ، هذه الكلمة استعاذة وطلباً من الله تعالى أن يمنع لقاءهم وهي مما كانوا يقولون عند لقاء عدو أو هجوم مكروه ، أو تقولها الملائكة بمعنى حراماً عليكم الجنة أو البشرى . وقرىء ﴿ حجْراً ﴾ بالضم وأصله الفتح غير أنه لما اختص بموضع مخصوص غير كقعدك وعمرك ولذلك لا

يتصرف فيه ولا يظهر ناصبه ، ووصفه بمحجوراً للتأكيد كقولهم : موت مائت .

﴿ وَقَدِمْنَا إلى مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُوراً ﴾ أي وعمدنا إلى ما عملوا في كفرهم من المكارم كقرى الضيف وصلة الرحم وإغاثة الملهوف فأحبطناه لفقد ما هو شرط اعتباره ، وهو تشبيه حالهم وأعمالهم بحال قوم استعصوا على سلطانهم فقدم إلى أشيائهم فمزقها وأبطلها ولم يبق لها أثراً ، وال ﴿ هَبَاء ﴾ غبار يرى في شعاع يطلع من الكوة من الهبوة وهي الغبار ، و ﴿ مَّنثُوراً ﴾ صفته شبه عملهم المحبط بالهباء في حقارته وعدم نفعه ثم بالمنثور منه في انتشاره بحيث لا يمكن نظمه أو تفرقه نحو أغراضهم التي كانوا يتوجهون به نحوها ، أو مفعول ثالث من حيث إنه كالخبر بعد الخبر كقوله تعالى :

(242/561)

﴿ كُونُواْ قِرَدَةً خاسئين ﴾ ﴿ أصحاب الجنة يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرّاً ﴾ مكاناً يستقر فيه أكثر الأوقات للتجالس والتحادث . ﴿ وَأَحْسَنُ مَقِيلاً ﴾ مكاناً يؤوى إليه للاسترواح بالأزواج والتمتع بهن تجوزاً له من مكان القيلولة على التشبيه ، أو لأنه لا يخلو من ذلك غالباً إذ لا نوم في الجنة وفي أحسن رمز إلى ما يتميز به مقيلهم من حسن الصور وغيره من التحاسين ، ويحتمل أن يراد بأحدهما المصدر أو الزمان إشارة إلى أن مكانهم وزمانهم

أطيب ما يتخيل من الأمكنة والأزمنة ، والتفضيل إما لإرادة الزيادة مطلقاً أو بالإضافة إلى ما للمترفين في الدنيا . روي أنه يفرغ من الحساب في نصف ذلك اليوم فيقيل أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار .

﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السماء ﴾ أصله تتشقق فحذفت التاء ، وأدغمها ابن كثير ونافع وابن عامر ويعقوب . ﴿ بالغمام ﴾ بسبب طلوع الغمام منها وهو الغمام المذكور في قوله ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ الله فِي ظُلَلٍ مِّنَ الغمام والملائكة ﴾ ﴿ وَنُزِّلَ الملائكة تَنزِيلاً ﴾ في ذلك الغمام بصحائف أعمال العباد ، وقرأ ابن كثير "وننزل" وقرىء و"نزلت" "وأنزل" ﴿ وَنُزِّلَ الملائكة ﴾ بحذف نون الكلمة .

﴿ الملك يَوْمَئِذٍ الحق للرحمن ﴾ الثابت له لأن كل ملك يبطل يومئذ ولا يبقى إلا ملكه فهو الخبر و﴿ للرحمن ﴾ صلته ، أو تبيين و﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ مفعول ﴿ الملك ﴾ لا ﴿ الحق ﴾ لأنه متأخر أو صفته والخبر ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ أو ﴿ للرحمن ﴾ . ﴿ وَكَانَ يَوْماً عَلَى الكافرين عَسِيراً ﴾ شديداً .

(243/561)

﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظالم على يَدَيْهِ ﴾ من فرط الحسرة ، وعض اليدين وأكل البنان وحرق الأسنان ونحوها كنايات عن الغيظ والحسرة لأنها من روادفهما ، والمراد ب ﴿ الظالم ﴾ الجنس . وقيل عقبة بن أبي معيط كان يكثر مجالسة النبي صلى الله عليه وسلم ، فدعاه إلى ضيافته فأبى أن يأكل من طعامه حتى ينطق بالشهادتين ففعل ، وكان أبي بن خلف صديقه فعاتبه وقال صبأت فقال : لا ، ولكن آلى أن لا يأكل من طعامي وهو في بيتي فاستحيت منه فشهدت له ، فقال لا أرضى منك إلا أن تأتيه فتطأ قفاه وتبزق في وجهه ، فوجده ساجداً في دار الندوة ففعل ذلك ، فقال عليه الصلاة والسلام : " لا ألقاك خارجاً من مكة إلا علوت رأسك بالسيف ، فأسر يوم بدر " فأمر علياً فقتله وطعن أبياً بأُحُدْ في المبارزة فرجع إلى مكة ومات . ﴿ يَقُولُ يا ليتني اتخذت مَعَ الرسول سَبِيلاً ﴾ طريقاً إلى النجاة أو طريقاً واحداً وهو طريق الحق ولم تتشعب بي طرق الضلالة .

﴿ يَا وَيْلَتَى ﴾ وقرىء بالياء على الأصل . ﴿ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاَناً خَلِيلاً ﴾ يعني من أضله وفلان كناية عن الأعلام كما أن هنا كناية عن الأجناس .

﴿ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذكر ﴾ عن ذكر الله أو كتابه أو موعظة الرسول ، أو كلمة الشهادة . ﴿ بَعْدَ إِذْ جَاءِنِي ﴾ وتمكنت منه . ﴿ وَكَانَ الشيطان ﴾ يعني الخليل المضل أو إبليس لأنه حمله على مخالته ومخالفة الرسول ، أو كل من تشيطن من جن وإنس . ﴿ للإنسان خَذُولاً ﴾ يواليه حتى يؤديه إلى الهلاك ثم يتركه ولا ينفعه ، فعول من الخذلان .

﴿ وَقَالَ الرسول ﴾ محمد يومئذ أو في الدنيا بثاً إلى الله تعالى . ﴿ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي ﴾ قريشاً . ﴿ اتخذوا هذا القرءان مَهْجُوراً ﴾ بأن تركوه وصدوا عنه ، وعنه عليه الصلاة والسلام " من تعلم القرآن وعلق مصحفه ولم يتعاهده ولم ينظر فيه جاء يوم القيامة متعلقاً به يقول : يا رب عبدك هذا اتخذني مهجوراً اقض بيني وبينه " أو هجروا ولغوا فيه إذا سمعوه أو زعموا أنه هجر وأساطير الأولين ، فيكون أصله ﴿ مَهْجُوراً ﴾ فيه فحذف الجار ويجوز أن يكون بمعنى الهجر كالمجلود والمعقول ، وفيه تخويف لقومه فإن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إذا شكوا إلى الله تعالى قومهم عجل لهم العذاب .

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً مِّنَ المجرمين ﴾ كما جعلناه لك فاصبر كما صبروا ، وفيه دليل على أنه خالق الشر ، والعدو يحتمل الواحد والجمع . ﴿ وكفى بِرَبِّكَ هَادِياً ﴾ إلى طريق قهرهم . ﴿ وَنَصِيراً ﴾ لك عليهم .

﴿ وَقَالَ الذين كَفَرُواْ لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ القرءان ﴾ أي أنزل عليه كخبر بمعنى أخبر لئلا يناقض قوله : ﴿ جُمْلَةً واحدة ﴾ دفعة واحدة كالكتب الثلاثة ، وهو اعتراض لا طائل تحته لأن الإعجاز لا يختلف بنزوله جملة أو مفرقاً مع أن للتفريق فوائد منها ما أشار إليه بقوله : ﴿ كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ أي كذلك أنزلناه مفرقاً فتقوى بتفريقه فؤادك على حفظه وفهمه ، لأن حاله يخالف حال موسى وداود وعيسى حيث كان عليه الصلاة والسلام أمياً وكانوا يكتبون ، فلو ألقي عليه جملة لعيل بحفظه ، ولعله لم يستتب له فإن التلقف لا يتأتى إلا شيئاً فشيئاً ، ولأن نزوله بحسب الوقائع يوجب مزيد بصيرة وغوص في المعنى ، ولأنه إذا نزل منجماً وهو يتحدى بكل نجم فيعجزون عن معارضته زاد ذلك قوة قلبه ، ولأنه إذا نزل به جبريل حالاً بعد حال يثبت به فؤاده ومنها معرفة الناسخ والمنسوخ ومنها انضمام القرائن الحالية إلى الدلالات اللفظية ، فإنه يعين على البلاغة ، وكذلك صفة مصدر محذوف والإشارة إلى إنزاله مفرقاً فإنه مدلول عليه بقوله ﴿ لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ القرءان جُمْلَةً واحدة ﴾ ويحتمل أن يكون من تمام كلام الكفرة ولذلك وقف عليه فيكون حالاً والإشارة إلى الكتب السابقة ، واللام على الوجهين متعلق بمحذوف . ﴿ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ﴾ وقرأناه عليك شيئاً بعد شيء على تؤدة وتمهل في عشرين سنة أو ثلاث وعشرين وأصل الترتيل في الأسنان وهو تفليجها .

﴿ وَلاَ يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ ﴾ سؤال عجيب كأنه مثل في البطلان يريدون به القدح في نبوتك . ﴿

إِلاَّ جئناك بالحق ﴾ الدامغ له في جوابه . ﴿ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً ﴾ وبما هو أحسن بياناً أو معنى من سؤالهم ، أو ﴿ لا يَأْتُونَكَ ﴾ بحال عجيبة يقولون هلا كانت هذه حاله إلا أعطيناك من الأحوال ما يحق لك في حكمتنا وما هو أحسن كشفاً لما بعثت له .

(246/561)

﴿ الذين يُحْشَرُونَ على وُجُوهِهِمْ إلى جَهَنَّمَ ﴾ أي مقلوبين أو مسحوبين عليها ، أو متعلقة قلوبهم بالسفليات متوجهة وجوههم إليها . وعنه عليه الصلاة والسلام " يحشر الناس يوم القيامة على ثلاثة أصناف ، صنف على الدواب وصنف على الأقدام وصنف على الوجوه " وهو ذم منصوب أو مرفوع أو مبتدأ خبره . ﴿ أولئك شَرٌّ مَّكَاناً وَأَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ والمفضل عليه هو الرسول صلى الله عليه وسلم على طريقة قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرّ مّن ذلك مَثُوبَةً عِندَ الله مَن لَّعَنَهُ الله وَغَضِبَ عَلَيْهِ ﴾ كأنه قيل إن حاملهم على هذه الأسئلة تحقير مكانه وتضليل سبيله ولا يعلمون حالهم ليعلموا أنهم شر مكاناً وأضل سبيلاً ، وقيل إنه متصل بقوله ﴿ أصحاب الجنة يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرّاً ﴾ ووصف السبيل بالضلال من الإسناد المجازي للمبالغة .

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الكتاب وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هارون وَزِيراً ﴾ يوازره في الدعوة

وإعلاء الكلمة ولا ينافي ذلك مشاركته في النبوة ، لأن المتشاركين في الأمر متوازرون عليه .

﴿ فَقُلْنَا اذهبا إِلَى القوم الذين كَذَّبُواْ ﴾ يعني فرعون وقومه . ﴿ بآياتنا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيراً ﴾ أي فذهبا إليهم فكذبوهما فدمرناهم ، فاقتصر على حاشيتي القصة اكتفاء بما هو المقصود منها وهو إلزام الحجة ببعثة الرسل واستحقاق التدمير بتكذيبهم والتعقيب باعتبار الحكم لا الوقوع ، وقرىء "فدمرتهم" "فدمراهم فدمرانهم" على التأكيد بالنون الثقيلة .

(247/561)

﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُواْ الرسل ﴾ كذبوا نوحاً ومن قبله ، أو نوحاً وحده ولكن تكذيب واحد من الرسل كتكذيب الكل أو بعثة الرسل مطلقاً كالبراهمة . ﴿ أغرقناهم ﴾ بالطوفان . ﴿ وجعلناهم ﴾ وجعلنا إغراقهم أو قصتهم . ﴿ لِلنَّاسِ ءَايَةً ﴾ عبرة . ﴿ وَأَعْتَدْنَا للظالمين عَذَاباً أَلِيماً ﴾ يحتمل التعميم والتخصيص فيكون وضعاً للظاهر موضع المضمر تظليماً لهم .

﴿ وَعَاداً وَثَمُودَ ﴾ عطف على هم في ﴿ جعلناهم ﴾ أو على "الظالمين" لأن المعنى ووعدنا الظالمين ، وقرأ حمزة وحفص "وثمود" على تأويل القبيلة . ﴿ وأصحاب الرس ﴾

قوم كانوا يعبدون الأصنام فبعث الله تعالى إليهم شعيباً فكذبوه ، فبينما هم حول الرس وهي البئر الغير المطوية فانهارت فخسف بهم وبديارهم . وقيل ﴿ الرس ﴾ قرية بفلج اليمامة كان فيها بقايا ثمود فبعث إليهم نبي فقتلوه فهلكوا . وقيل الأخدود وقيل بئر بأنطاكية قتلوا فيها حبيباً النجار ، وقيل هم أصحاب حنظلة بن صفوان النبي ابتلاهم الله تعالى بطير عظيم كان فيها من كل لون ، وسموها عنقاء لطول عنقها وكانت تسكن جبلهم الذي يقال له فتخ أو دمخ وتنقض على صبيانهم فتخطفهم إذا أعوزها الصيد ، ولذلك سميت مغرباً فدعا عليها حنظلة فأصابتها الصاعقة ثم أنهم قتلوه فأهلكوا . وقيل هم قوم كذبوا نبيهم ورسوه أي دسوه في بئر . ﴿ وَقُرُوناً ﴾ وأهل أعصار قيل القرن أربعون سنة وقيل سبعون وقيل مائة وعشرون . ﴿ بَيْنَ ذلك ﴾ إشارة إلى ما ذكر . ﴿ كَثِيراً ﴾ لا يعلمها إلا الله .

﴿ وَكُلاًّ ضَرَبْنَا لَهُ الأمثال ﴾ بينا له القصص العجيبة من قصص الأولين إنذاراً وإعذاراً فلما أصروا أهلكوا كما قال : ﴿ وَكُلاًّ تَبَّرْنَا تَتْبِيراً ﴾ فتتناه تفتيتاً ومنه التبر لفتات الذهب والفضة ، ﴿ وَكُلاًّ ﴾ الأول منصوب بما دل عليه ﴿ ضَرَبْنَا ﴾ كأنذرنا والثاني ب ﴿ تَبَّرْنَا ﴾ لأنه فارغ .

﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا ﴾ يعني قريشاً مروا مراراً في متاجرهم إلى الشام. ﴿ عَلَى القرية التي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السوء ﴾ يعني سدوم عظمى قرى قوم لوط أمطرت عليها الحجارة. ﴿ أَفَلَمْ يَكُونُواْ يَرَوْنَهَا ﴾ في مرار مرورهم فيتعظوا بما يرون فيها من آثار عذاب الله. ﴿ بَلْ كَانُواْ لاَ يَرْجُونَ نُشُوراً ﴾ بل كانوا كفرة لا يتوقعون نشوراً ولا عاقبة فلذلك لم ينظروا ولم يتعظوا فمروا بها كما مرت ركابهم، أو لا يأملون نشوراً كما يأمله المؤمنون طمعاً في الثواب، أو لا يخافونه على اللغة التهامية.

﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُواً ﴾ ما يتخذونك إلا موضع هزء أو مهزوءاً به. ﴿ أَهذا الذي بَعَثَ الله رَسُولاً ﴾ محكي بعد قول مضمر والإشارة للاستحقار، وإخراج بعث الله رسولاً في معرض التسليم يجعله صلة وهم على غاية الإنكار واستهزاء ولولاه لقالوا أهذا الذي زعم أنه بعثه الله رسولاً.

﴿ إِن ﴾ إنه. ﴿ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا ﴾ ليصرفنا عن عبادتها بفرط اجتهاده في الدعاء إلى التوحيد وكثرة ما يوردها مما يسبق إلى الذهن بأنها حجج ومعجزات. ﴿ لَوْلاَ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ﴾ ثبتنا عليها واستمسكنا بعبادتها و﴿ لَوْلاَ ﴾ في مثله تقيد الحكم المطلق من حيث المعنى دون اللفظ. ﴿ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ العذاب مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ كالجواب لقولهم ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيُضِلُّنَا ﴾ فإنه يفيد نفي ما يلزمه ويكون

الموجب له ، وفيه وعيد ودلالة على أنه لا يهملهم وإن أمهلهم .

﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ اتخذ إلهه هَوَاهُ ﴾ بأن أطاعه وبنى عليه دينه لا يسمع حجة ولا يبصر دليلاً ، وإنما قدم المفعول الثاني للعناية به . ﴿ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً ﴾ حفيظاً تمنعه عن الشرك والمعاصي وحاله هذا فالاستفهام الأول للتقرير والتعجيب والثاني للإنكار .

(249/561)

﴿ أَمْ تَحْسَبُ ﴾ بل أتحسب . ﴿ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ﴾ فتجدي لهم الآيات أو الحجج فتهتم بشأنهم وتطمع في إيمانهم ، وهو أشد مذمة مما قبله حتى حق بالإضراب عنه إليه ، وتخصيص الأكثر لأنه كان منهم من آمن ومنهم من عقل الحق وكابر استكباراً وخوفاً على الرئاسة . ﴿ إِنْ هُمْ إِلاَّ كالأنعام ﴾ في عدم انتفاعهم بقرع الآيات آذانهم وعدم تدبرهم فيما شاهدوا من الدلائل والمعجزات . ﴿ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ من الأنعام لأنها تنقاد لمن يتعهدها وتميز من يحسن إليها ممن يسيء إليها ، وتطلب ما ينفعها وتتجنب ما يضرها وهؤلاء لا ينقادون لربهم ولا يعرفون إحسانه من إساءة الشيطان ، ولا يطلبون الثواب الذي هو أعظم المنافع ولا يتقون العقاب الذي هو أشد المضار ، ولأنها إن لم تعتقد حقاً ولم تكتسب خيراً لم تعتقد باطلاً ولم تكتسب شراً ، بخلاف هؤلاء ولأن جهالتها لا

تضر بأحد وجهالة هؤلاء تؤدي إلى هيج الفتن وصد الناس عن الحق ، ولأنها غير متمكنة من طلب الكمال فلا تقصير منها ولا ذم وهؤلاء مقصرون ومستحقون أعظم العقاب على تقصيرهم .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ ﴾ ألم تنظر إلى صنعه . ﴿ كَيْفَ مَدَّ الظل ﴾ كيف بسطه أو ألم تنظر إلى الظل كيف مده ربك ، فغير النظم إشعاراً بأنه المعقول من هذا الكلام لوضوح برهانه وهو دلالة حدوثه وتصرفه على الوجه النافع بأسباب ممكنة على أن ذلك فعل الصانع الحكيم كالمشاهد المرئي فكيف بالمحسوس منه ، أو ألم ينته علمك إلى أن ربك كيف مد الظل وهو فيما بين طلوع الفجر والشمس وهو أطيب الأحوال ، فإن الظلمة الخالصة تنفر الطبع وتسد النظر وشعاع الشمس : يسخن الجو ويبهر البصر ، ولذلك وصف به الجنة فقال

(250/561)

﴿ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴾ ﴿ وَلَوْ شَاء لَجَعَلَهُ سَاكِناً ﴾ ثابتاً من السكنى أو غير متقلص من السكون بأن يجعل الشمس مقيمة على وضع واحد . ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَا الشمس عَلَيْهِ دَلِيلاً ﴾ فإنه لا يظهر للحس حتى تطلع فيقع ضوؤها على بعض الأجرام ، أو لا يوجد ولا

يتفاوت إلا بسبب حركتها .

﴿ ثُمَّ قبضناه إِلَيْنَا ﴾ أي أزلناه بإيقاع الشمس موقعه لما عبر عن أحداثه بالمد بمعنى التسيير عبر عن إزالته بالقبض إلى نفسه الذي هو في معنى الكف . ﴿ قَبْضاً يَسِيراً ﴾ قليلاً قليلاً حسبما ترتفع الشمس لينتظم بذلك مصالح الكون ويتحصل به ما لا يحصى من منافع الخلق ، و﴿ ثُمَّ ﴾ في الموضعين لتفاضل الأمور أو لتفاضل مبادىء أوقات ظهورها ، وقيل ﴿ مَدَّ الظل ﴾ لما بنى السماء بلا نير ، ودحا الأرض تحتها فألقت عليها ظلها ولو شاء لجعله ثابتاً على تلك الحالة ، ثم خلق الشمس عليه دليلاً ، أي مسلطاً عليه مستتبعاً إياه كما يستتبع الدليل المدلول ، أو دليل الطريق من يهديه فإنه يتفاوت بحركتها ويتحول بتحولها ، ﴿ ثُمَّ قبضناه إِلَيْنَا قَبْضاً يَسِيراً ﴾ شيئاً فشيئاً إلى أن تنتهي غاية نقصانه ، أو ﴿ قَبْضاً ﴾ سهلاً عند قيام الساعة بقبض أسبابه من الأجرام المظلة والمظل عليها .

﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اليل لِبَاساً ﴾ شبه ظلامه باللباس في ستره . ﴿ والنوم سُبَاتاً ﴾ راحة للأبدان بقطع المشاغل ، وأصل السبت القطع أو موتاً كقوله : ﴿ وَهُوَ الذي يتوفاكم بالليل ﴾ لأنه قطع الحياة ومنه المسبوت للميت . ﴿ وَجَعَلَ النهار نُشُوراً ﴾ ذا نشور أي انتشار ينتشر فيه الناس للمعاش ، أو بعث من النوم بعث الأموات فيكون إشارة إلى أن النوم واليقظة أنموذج للموت والنشور . وعن لقمان عليه السلام يا بني كما تنام فتوقظ كذلك تموت فتنشر .

﴿ وَهُوَ الذي أَرْسَلَ الرياح ﴾ وقرأ ابن كثير على التوحيد إرادة للجنس . ﴿ نشرًا ﴾ ناشرات للحساب جمع نشور ، وقرأ ابن عامر بالسكون على التخفيف وحمزة والكسائي به وبفتح النون على أنه مصدر وصف به وعاصم ﴿ بُشْرًا ﴾ تخفيف بشر جمع بشور بمعنى مبشر ﴿ بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ﴾ يعني قدام المطر . ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السماء مَاءً طَهُوراً ﴾ مطهراً لقوله ﴿ لِّيُطَهِّرَكُمْ بِهِ ﴾ . وهو اسم لما يتطهر به كالوضوء والوقود لما يتوضأ به ويوقد به . قال عليه الصلاة والسلام " التراب طهور المؤمن " " طهور إناء أحدكم إذا ولغ الكلب فيه أن يغسل سبعاً إحداهن بالتراب " وقيل بليغاً في الطهارة وفعول وإن غلب في المعنيين لكنه قد جاء للمفعول كالضبوث وللمصدر كالقبول وللاسم كالذنوب ، وتوصيف الماء به إشعاراً بالنعمة فيه وتتميم للمنة فيما بعده فإن الماء الطهور أهنأ وأنفع مما خالطه ما يزيل طهوريته ، وتنبيه على أن ظواهرهم لما كانت مما ينبغي أن يطهروها فبواطنهم بذلك أولى .

﴿ لِّنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتاً ﴾ بالنبات وتذكير ﴿ مَيْتاً ﴾ لأن البلدة في معنى البلد ، ولأنه غير جار على الفعل كسائر أبنية المبالغة فأجرى مجرى الجامد . ﴿ وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أنعاما وَأَنَاسِيَّ كَثِيراً ﴾ يعني أهل البوادي الذين يعيشون بالحيا ولذلك نكر الأنعام والأناسي ، وتخصيصهم لأن أهل المدن والقرى يقيمون بقرب الأنهار ، والمنافع فيهم وبما حولهم من الأنعام غنية عن سقيا السماء وسائر الحيوانات تبعد في طلب الماء فلا يعوزها الشرب غالباً مع أن مساق هذه الآيات كما هو للدلالة على عظم القدرة ، فهو لتعداد أنواع النعمة والأنعام قنية الإنسان وعامة منافعهم وعلية معايشهم منوطة بها ، ولذلك قدم سقيها على سقيهم كما قدم عليها إحياء الأرض فإنه سبب لحياتها وتعيشها ، وقرىء ﴿ نسقيه ﴾ بالفتح وسقى وأسقى لغتان ، وقيل أسقاه جعل له سقياً ﴿ وَأَنَاسِيَّ ﴾ بحذف ياء وهو جمع إنسي أو إنسان كظرابي في ظربان على أن أصله أناسين فقلبت النون ياء .

﴿ وَلَقَدْ صرفناه بَيْنَهُمْ ﴾ صرفنا هذا القول بين الناس في القرآن وسائر الكتب ، أو المطر بينهم في البلدان المختلفة والأوقات المتغايرة وعلى الصفات المتفاوتة من وابل وطل وغيرهما ، وعن ابن عباس رضي الله عنه : "ما عام أمطر من عام ولكن الله قسم ذلك بين عباده على ما شاء وتلا هذه الآية" أو في الأنهار والمنافع .

﴿ لِّيَذَّكَّرُواْ ﴾ ليتفكروا ويعرفوا كمال القدرة وحق النعمة في ذلك ويقوموا بشكره ، أو

ليعتبروا بالصرف عنهم وإليهم . ﴿ فأبى أَكْثَرُ الناس إِلاَّ كُفُورًا ﴾ إلا كفران النعمة وقلة الاكتراث لها ، أو جحودها بأن يقولوا مطرنا بنوء كذا ، ومن لا يرى الأمطار إلا من الأنواء كان كافراً بخلاف من يرى أنها من خلق الله ، والأنواء وسائط وأمارات بجعله تعالى .

(253/561)

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيراً ﴾ نبياً ينذر أهلها فيخف عليك أعباء النبوة لكن قَصَرْنَا الأمر عليك إجلالاً لك وتعظيماً لشأنك وتفضيلاً لك على سائر الرسل ، فَقَابِل ذلك بالثبات والاجتهاد في الدعوة وإظهار الحق .

﴿ فَلاَ تُطِعِ الكافرين ﴾ فيما يريدونك عليه ، وهو تهييج له عليه الصلاة والسلام وللمؤمنين . ﴿ وجاهدهم بِهِ ﴾ بالقرآن أو بترك طاعتهم الذي يدل عليه فلا تطع ، والمعنى أنهم يجتهدون في إبطال حقك فقابلهم بالاجتهاد في مخالفتهم وإزاحة باطلهم . ﴿ جِهَاداً كَبِيراً ﴾ لأن مجاهدة السفهاء بالحجج أكبر من مجاهدة الأعداء بالسيف ، أو لأن مخالفتهم ومعاداتهم فيما بين أظهرهم مع عتوهم وظهورهم ، أو لأنه جهاد مع كل الكفرة لأنه مبعوث إلى كافة القرى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 4 صـ 212 .

224 ﴾

" فصل "

قال الإمام نظام الدين النيسابوري :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا (21) ﴾

التفسير : هذه شبهة رابعة لمنكري النبوة وإنهم في قول الكلبي أبو جهل والوليد وأضرابهما ، وتقريرها أن الحكيم لا بد أن يختار في مقصده طريقاً يكون أسهل إفضاء إليه ، ولا شك أن إنزال الملائكة ليشهدوا على صدق محمد أعون على المطلوب ، فلو كان محمد صادقاً لكان مؤيداً بإنزال الملائكة الشاهدين بصدقه .

قال الفراء : معنى ﴿ لا يرجون ﴾ لا يخافون ، والرجاء في لغة تهامة الخوف ، وقال غيره : الرجاء على أصله وهو الأمل إلا أن الخوف يلزمه في هذه الصورة فإن من لا يرجو الجزاء

والمعاد لا يخاف العقاب أيضاً . واللقاء الوصول لا بمعنى المكان والجهة فإنه تعالى منزه عن ذلك بل بمعنى الرؤية عند الأشاعرة ، أو على إرادة الجزاء والسحاب عند المعتزلة ، وقد مر في أوائل البقرة في قوله ﴿ الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم إليه راجعون ﴾ [البقرة : 46] ولعل تفسيره بلقاء الجزاء أنسب في هذا المقام لئلا يناقض قوله : ﴿ أو نرى ربنا ﴾ أي جهرة وعياناً فيأمرنا بتصديقه واتباعه اللهم إلا أن يراد : إن الذين لا يرجون رؤيتنا في الآخرة اقترحوا رؤيتنا في الدنيا . قال جار الله : لا يخلو إما أن يكونوا عالمين بأن الله عز وجل لا يرسل الملائكة إلى غير الأنبياء وإنه تعالى لا يصح أن يرى وإنما علقوا إيمانهم بما لا يكون ، وإما أن يكونوا عالمين بذلك وإنما أرادوا التعنت باقتراح آيات سوى الآيات التي نزلت وقامت بها الحجة عليهم كما فعل قوم موسى حين قالوا ﴿ لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ﴾ [البقرة : 55] . ثم إنه سبحانه أجاب عن شبهتهم بقوله : ﴿ لقد استكبروا في أنفسهم ﴾ أي أضمروا الاستكبار عن الحق وهو الكفر والعناد في قلوبهم واعتقدوه . ثم نسبهم إلى الإفراط في الظلم بقوله ﴿ وعتواً ﴾ ثم وصف العتوّ بالكبر . قال جار الله : اللام جواب قسم محذوف وهذه الجملة في حسن استئنافها غاية وفيها معنى التعجب كأنه قال : ما أشد استكبارهم وما أكبر عتوّهم ! وقال في التفسير الكبير : تحرير هذا الجواب من وجوه أحدها : أن القرآن لما ظهر كونه معجزاً فقد تمت دلالة نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم فبعد ذلك لا يكون اقتراح أمثال هذه الآيات إلا محض الاستكبار والاستنكار .

وثانيها أن نزول الملائكة لو حصل لكان ايضاً من جملة المعجزات ، ولا يدل على الصدق لخصوص كونه بنزول الملك

(256/561)

بل لعموم كونه معجزاً فيكون قبول ذلك وردّ الآخر ترجيحاً لأحد المثلين من غير مرجح .

وثالثها أنهم بتقدير رؤية الرب وتصديقه لرسوله لا يستفيدون علماً أزيد من تصديق المعجزات ، لا فرق بين أن يقول النبي اللهم إن كنت صادقاً فأحي هذا الميت فيحييه ، وبين أن يقول إن كنت صادقاً فصدّقني فتعيين أحد الطرفين محض العناد . ورابعها أن العبد ليس له أن يعترض على فعل مولاه إما بحكم المالكية عند الأشعري أو بحكم المصلحة عند المعتزلي . وخامسها أن السائل الملح المعاند الذي لا يرضى بما ينعم عليه مذموم وإظهار المعجز من جملة الأيادي الجسيمة فرد إحداها واقتراح الأخرى ليس من الأدب في شيء .

وسادسها لعل المراد أني لو علمت بأنهم ليسوا مستكبرين عاتين لأعطيتهم مطلوبهم لكني علمت إنهم إنما سألوا لأجل المكابرة والعناد فلا جرم لا أعطيهم .

وسابعا لعلهم عرفوا من أهل الكتاب أن الله تعالى لا يرى في الدنيا وأنه لا ينزل الملائكة على عوام الخلق ، ثم إنهم علقوا إيمانهم على ذلك فهم مستكبرون ساخرون . واستدلت

الأشاعرة بقوله : ﴿ لا يرجون لقاءنا ﴾ على أن رؤية الله مرجوّة . واستدلت المعتزلة بقوله ﴿ لقد استكبروا ﴾ ﴿ وعتواً ﴾ أن اقتراح الرؤية مستنكر ولا يخفى ضعف الاستدلالين : وانتصب ﴿ يوم يرون ﴾ بإضمار " اذكر " فيكون ﴿ لا بشرى ﴾ مستأنفاً أو بما دل عليه ﴿ لا بشرى ﴾ أي يوم يرون الملائكة يمنعون البشرى بالجنة وبرؤية الحق . ﴿ يومئذ ﴾ للتكرير وقوله ﴿ للمجرمين ﴾ ظاهر في موضع الضمير أو عام فيتناول هؤلاء لعمومه ، ولأجل هذا العموم استدلت المعتزلة به على القطع بوعيد كل مجرم وإن كان من أهل القبلة ، وحمل الأشاعرة الجرم على الكفر .

(257/561)

أما قوله : ﴿ حجراً محجوراً ﴾ فإنها كلمة يتلفظ بها عند لقاء عدوّ أو هجوم نازلة ، يضعونها موضع الاستعاذة يقول الرجل للرجل : تفعل كذا ؟ فيقول : حجراً . وقد ذكره سيبويه في باب المصادر التي ترك إظهار فعلها نحو " معاذ الله وعمرك الله ومعناه منعاً " اي اسال الله أن يمنع ذلك منعاً كما أن المستعيذ طالب من الله عز وجل أن يمنع المكروه . ووصفه بالمحجور للتأكيد كما يقال " شعر شاعر وجد جده " . والأكثرون على أن القائلين هم الكفار إذا رأوا الملائكة عند الموت أو يوم القيامة كرهوا لقاءهم وفزعوا منهم لأنهم لا

يلقونهم إلا بما يكرهون فيقولون ما كانوا يقولونه عند نزول كل شدّة . وقيل : هم الملائكة ومعناه حراماً محرّماً أي جعل الله الجنة والغفران أو البشرى حراماً عليكم . يروى أن الكفار إذا خرجوا من قبورهم قالت الحفظة لهم : حجراً محجوراً . وقال الكلبي : الملائكة على أبواب الجنة يبشرون المؤمنين بالجنة ويقولون للمشركين : حجراً محجوراً . وقال عطية : إذا كان يوم القيامة تأتي الملائكة المؤمنين بالبشرى فإذا رأى الكفار ذلك قالوا لهم : بشرونا فيقولون : حجراً محجوراً . ثم أخبر عن وعيد آخر لهم وذلك أنهم كانوا يعملون أعمالاً لها صورة الخير من صلة رحم وإغاثة ملهوف وقرى ضيف وأمثالها مع عدم ابتنائها على أساس الإيمان ، فمثلت حالهم بحال قوم خالفوا سلطانهم واستعصوا عليه فقدم إلى اشيائهم وقصد إلى ما تحت أيديهم فافسدها بحيث لم يترك منها أثراً وإلا فلا قدوم ولا ما يشبه القدوم ، ولتنزهه سبحانه عن الجسمية وصفاتها . قال أهل المعاني : القادم إلى لاشيء قاصد له فالقصد هو المؤثر في القدوم فأطلق اسم المسبب على السبب مجازاً . وقيل : أراد قدوم الملائكة بأمره إلا موضع الحساب في الآخرة . والهباء ما يخرج من الكوة مع ضوء الشمس شبيه بالغبار . وقال مقاتل : إنه الغبار الذي يسطع من حوافر الدواب وفي أمثالهم أقل من الهباء شبه عملهم بالهباء في قلته

وحقارته .

(259/561)

وأكد المعنى بوصف الهباء بالتناثر لأنك تراه منتظماً مع الضوء حتى إذا حركته الريح تناثر وذهب كل مذهب . والمراد : جعلناه جامعاً لحقارة الهباء والتناثر ولام الهباء واو بدليل الهبوة بمعناه . ثم ميز حال الأبرار عن حال الفجار بقوله : ﴿ اصحاب الجنة يومئذ خير ﴾ ووجه صحة التفضيل ما بين في قوله : ﴿ قل أذلك خير أم جنة الخلد ﴾ أو التفاوت بين المنزلتين إنما يرجع إلى الموضع والموضع من حيث إنه موضع لا شر فيه ، أو هو على سبيل الفرض اي لو كان لهم مستقر كان مستقر أهل الجنة خيراً منه . والسمتقر مكان الاستقرار والمقيل المكان الذي يأوون إليه للاسترواح إلى أزواجهم والاستمتاع بمغالتهنّ وملامستهنّ كحال المترفين في الدنيا ، ولا نوم في الجنة وإنما سمى مكان دعتهم واسترواحهم إلى الحور مقيلاً على طريق التشبيه ، وفي اختيار لفظ الأحسن دون أن يقول " خير مقيلاً " رمزاً إلى التحسنات الحاصلة في مقيلهم من حسن الوجوه وملاحة الصور وغير ذلك . قال ابن مسعود : لا ينتصف النهار من يوم القيامة حتى يقيل أهل الجنة في الجنة وأهل النار في

النار . وعن سعيد بن جبير : إن الله تعالى إذا أخذ في فصل القضاء قضى بينهم كقدر ما بين صلاة الغداة إلى نصف النهار فيقيل أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار . وقال مقاتل : يخفف الحساب على أهل الجنة حتى يكون بمقدار نصف يوم من ايام الدنيا ثم يقولون من يومهم ذلك في الجنة . وحاصل الاية أن أصحاب الجنة من المكان في أطيب مكان ومن الزمان في أحسن زمان . ثم أراد أن يصف أهوال يوم القيامة فقال ﴿ ويوم تشقق ﴾ أي واذكر يوم تتفتح السماء بسبب غمام يخرج منها وفي الغمام الملائكة فينزلون وفي أيديهم صحائف أعمال العباد : قال الفراء : الباء بمعنى " عن " لأن السماء لا تتشقق بالغمام بل عن الغمام كما يقال : انشقت الأرض عن النبات أي ارتفع التراب عنه عند طلوعه ، وقال القاضي : لا يمتنع أن يجعل الله تعالى الغمام بحيث يشقق

(260/561)

السماء باعتماده عليها . عن مقاتل : تشقق سماء الدنيا فينزل أهلها وكذلك تتشقق سماء سماء ، ثم ينزل الكروبيون وحملة العرش ، ثم ينزل الرب تعالى . قال العلماء : هذا نزول الحكم والقضاء لا نزول الذات . وأما نزول الملائكة مع كثرتهم وصغر حجم الأرض بالقياس إلى السماء فقالوا : لا يبعد أن يوسع الله الأرض عرضاً وطولاً بحيث تسع كل

هؤلاء . ومن المفسرين من قال : الملئكة يكونون في الغمام وهو سترة بين السماء والأرض ، والله تعالى فوق أهل القيامة . وروى الضحاك عن ابن عباس قال : تتشقق كل سماء وينزل سكانها فيحيطون بالعالم ويصبرون سبع صفوف حول العالم .

والظاهر أن اللام في الغمام لجنس . ومنهم من قال : هي للعهد والمعهود قوله : ﴿ هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام ﴾ وقيل : هو غمام أبيض رقيق مثل الضبابة كما كان لبني إسرائيل في التيه .

(261/561)

ومعنى ﴿ تنزيلاً ﴾ توكيد للنزول ودلالة على إسراعهم فيه . قال الزجاج ﴿ الحق ﴾ صفة الملك اي الملك الثابت الذي لا يزول ﴿ للرحمن ﴾ يومئذ ونظيره ﴿ مالك يوم الدين ﴾ [الفاتحة : 4] ويجوز أن يكون يومئذ تكريراً لقوله ﴿ ويوم تشقق ﴾ وإعرابهما واحد . والفائدة في تخصيص ذلك اليوم أن يعلم أنه لا مالك فيه سواه لا بالصورة ولا في الحقيقة فيخضع له الملوك وتعنو له الوجوه وتذل رقاب الجبابرة . قالت الأشاعرة : ههنا لو وجب على الله يومئذ الثواب لاستحق الذم بتركه وكان خائفاً أن لا يفعل فلم يكن له الملك على الإطلاق . وأيضاً لو كان العبد مالكاً للثواب لم يكن الله تعالى مالكاً مطلقاً بل يكون

عبداً ضعيفاً لا يقدر على أن لا يؤدي ما عليه من العوض ، أو فقيراً محتاجاً إلى أن يدفع الذم عن نفسه بأداء ما عليه ؟ وكان ذلك اليوم يوماً عسيراً على الكافرين لا على المؤمنين .

واللام في ﴿ الظالم ﴾ ظاهر الاستغراق والشمول أو للجنس . وعن ابن عباس أنه للعهد وذلك أن الآية نزلت في عقبة بن أبي معيط وكان يكثر مجالسة الرسول صلى الله عليه وسلم فاتخذ ضيافة ودعا إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فأبى أن يأكل من طعامه حتى يأتي بالشهادتين ففعل ، وكان أُبي بن خلف صديقه فعاتبه وقال : صبأت يا عقبة ؟ قال : لا ولكن أبى أن يأكل من طعامي وهو في بيتي فاستحييت منه فشهدت له ، والشهادة ليست في نفسي . فقال : وجهي من وجهك حرام إن لقيت محمداً فلم تطأ قفاه لو تبزق في وجهه . فوجده ساجداً في دار الندوة ففعل ذلك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا ألقاك خارجاً من مكة إلا علوت رأسك بالسيف فقتل يوم بدر أمر علياً رضي الله عنه بقتله . وفي روايات الشيعة أن الظالم هو رجل بعينه وأن المسلمين غيروا اسمه وكتموه وجعلوا فلاناً بدلاً من اسمه وذكروا فاضلين من الصحابة وفيه بعد ، لأن تغيير القرآن كفر .

والعض على اليدين كناية عن الغيظ والسحرة لأنه من لوازم الغيظ والتحسر

غالباً ونظيره " سقط في يده وأكل من بنانه " وأمثال ذلك . وقال الضحاك : يأكل يديه إلى المرفق ثم تنبت فلا يزال كذلك كلما أكلها نبتت . قال جار الله : تمنى أن لو صحب الرسول وسلك معه طريقاً واحداً وهو طريق الحق ولم تتشعب به طرق الضلالة والهوى ، أو اراد أني كنت ضالاً لم يكن لي سبيل قط فليتني حصلت لنفسي في صحبة الرسول سبيلاً . وفلان كناية عن الإعلام كما أن الهن كناية عن الأجناس ، فإن أريد بالظالم عقبة فالمعنى ليتني لم اتخذ أُبياً خليلاً فكنى عن اسمه ، وإن أريد به الجنس فكل من اتخذ من المضلين خليلاً كان لخليله اسم علم فجعله كناية عن . قلت : زعم بعض أئمة اللغة أنه لم يثبت استعمال فلان في الفصيح إلا حكاية . لا يقال : جاءني فلان ولكن يقال : قال زيد جاءني فلان . لأنه اسم اللفظ الذي هو علم لا اسم مدلول العلم ولذلك جاء في كلام الله تعالى : ﴿ يقول يا ليتني ﴾ الخ . والذكر ذكر الله والقرآن أو موعظة الرسول أو نطقه بشهادة الحق وعزمه على الإسلام والشيطان إشارة إلى خليله الذي أضله كما يضله الشيطان ، ثم خذله ولم ينفعه في العاقبة . أو إشارة إلى إبليس وأنه هو الذي حمله على أن صار خليلاً لذلك المضل وخالف الرسول صلى الله عليه وسلم ثم خذله ، أو أراد الجنس فيدخل فيه كل من تشيطن من الجن والإنس .

(263/561)

ثم إن الكفار لما أكثروا من الاعتراضات الفاسدة ووجوه التعنت ضاق صدر الرسول صلى الله عليه وسلم وشكاهم إلى الله عز وجل وقال ﴿ يا رب إن قومي ﴾ يعني قريشاً ﴿ اتخذوا هذا القرآن مهجوراً ﴾ أي تركوه وصدّوا عنه وعن الإيمان به . وعن ابي مسلم أن المراد : وقال الرسول صلى الله عليه وسلم يوم القيامة . روي عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم " من تعلم القرآن وعلمه وعلق مصحفاً لم يتعاهده ولم ينظر فيه جاء يوم القيامة متعلقاً به يقول يا رب العالمين عبدك هذا اتخذني مهجوراً اقض بيني وبينه " وقيل : هو من هجر إذا هذى . والجار محذوف أي جعلوه مهجوراً فيه . وعلى هذا فله معنيان : أحدهما أنهم زعموا أنه كلام لا فائدة فيه . والثاني أنهم كانوا إذا سمعوه لغوا فيه . وجوز الكشاف أن يكون المهجور مصدراً بمعنى الهجر كالميسور والمجلود أي اتخذوه هجراً .

سؤال : هذا النداء بمنزلة قول نوح ﴿ رب إني دعوت قومي ليلاً ونهاراً فلم يزدهم دعائي إلا فراراً ﴾ [نوح : 5] فكيف صارت شكاية نوح سبباً لحلول العذاب بأمته ولم تصر شكاية نبينا صلى الله عليه وسلم سبباً لذلك ؟ الجواب أن الكلام بالتمام ، وكان من تمام كلام نوح ﴿ رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً ﴾ [نوح : 26] ولم يكن كلام رسولنا إلا مجرد الشكاية ولم يقتض الدعاء عليهم وذلك من غاية شفقته على الأمة وإن بلغ إيذاؤهم إياه الغاية " ما أوذي نبي مثل ما أوذيت " هذا مع أنه سبحانه سلاه وعزاه وأمره

بالصبر على أذاهم حين قال ﴿ وكذلك جعلنا ﴾ بين ذلك أن له أسوة بسائر الأنبياء فليصبر على ما يلقاه من قومه كما صبروا ، وتمام البحث فيه قد سلف في الأنعام في قوله

(264/561)

﴿ وكذلك جعلنا لكل نبيّ عدواً شياطين الإنس والجن ﴾ [الأنعام : 112] ﴿ وكفى بربك هادياً ونصيراً ﴾ إلى مصالح الدين والدنيا أو إلى طريق قهرهم والانتصار منهم ونصيراً لك على أعدائك . ثم حكى عنهم شبهة خامسة وهي قولهم : هلا نزل عليه القرآن حال كونه جملة واحدة أي مجتمعاً . ومعنى التنزيل ههنا التعدية فقط لقرينة قوله ﴿ جملة ﴾ خلاف ما تقرر في أكثر المواضع من إرادة التكثير المفيد للتدريج كما مر في قوله ﴿ نزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل ﴾ [آل عمران : 3] والقائلون قريش أو اليهود فأجاب الله تعالى عن شبهتهم بقوله ﴿ لنثبت ﴾ الخ . وتقريره من وجوه أحدها : أن محمداً صلى الله عليه وسلم لم يكن قارئاً كاتباً بخلاف موسى وداود وعيسى فلم يكن له بد من التلقن والتحفظ فأنزله الله عليه منجماً في عشرين سنة . وعن ابن جريج : في ثلاث وعشرين ليكون أقرب إلى الضبط وأبعد عن النسيان والسهو . وثانيها أن الاعتماد على الحفظ أقرب إلى التحصيل من الاعتماد على الكتابة والحفظ لا بد فيه من

التدرج . وثالثها إن نزول الشرائع متدرجة أسهل على المكلف منها دفعة . ورابعها أن نزول جبريل ساعة فساعة مما يقوي قلبه ويعينه على تحمل أعباء النبوّة والرسالة . وخامسها أن نزوله مفرّقاً يوجب وقوع التحدي على أبعاض القرآن وأجزائه ونزوله جملة يقتضي وقوع التحدي على مجموعة ، ولا ريب في أن الأول أدخل في الإعجاز . وسادسها أن نزوله بحسب الوقائع والحوادث أوفق في باب التكاليف والاستبصار وأدل على الأخبار عن الحوادث في أوقاتها . وسابعها أن في تجديد منصب السفارة في كل حين مزيد شرف لجبريل .

(265/561)

وللترتيل معانٍ منها : أنه قدره آية بعد آية وفدعة عقيب دفعة . ومنها التأني في القراءة ومعنى ﴿ ورتلناه ﴾ أمرنا بترتيل قراءته ومنه حديث عائشة في قراءته : لا يسرد كسردكم . هذا لو اراد السامع أن يعدّ حروفها لعدها وهو مأخوذ من ترتيل الأسنان أي تفليحها . يقال : ثغر مرتل ويشبه بنور الأقحوان في تفليجه . ومنها أنه نزله في مدد متباعدة الأطراف جملتها عشرون سنة ولم يفرقه في مدد متقاربة . ثم ذكر أنهم محجوبون في كل أوان بقوله : ﴿ ولا يأتونك بمثل ﴾ اي بسؤال عجيب من اسئلتهم الباطلة الذي كأنه مثل في

البطلان إلا ونحن نأتي بالجواب الحق الذي لا محيد عنه وبما هو أحسن معنى ومؤدى من سؤالهم . قال جار الله : لما كان التفسير هو التكشيف عما يدل عليه الكلام وضع موضع معناه فقالوا : تفسير الكلام كيت وكيت كما قيل : معناه كذا وكذا . ووجه آخر وهو أن يراد ﴿ ولا يأتونك ﴾ بحال وصفة عجيبة يقولون هلا كانت صفته وحاله أن ينزل معه ملك أو يلقى إليه كنز أو ينزل عليه القرآن جملة إلا أعطيناك نحن ما يحق لك في حكمتنا ومشيئتنا وما هو أحسن بياناً لما بعثت به ، ومن جملة ذلك تنزيل القرآن مفرقاً منجماً فإن ذلك أدخل في الإعجاز كما مر ، ثم أوعد هؤلاء الجهلة بأنهم شر مكاناً من أهل الجنة والبحث عنه نظير ما مر في صفة أهل الجنة خير مستقراً .

(266/561)

قال جار الله : كأنه قيل لهم : إن الذي يحملكم على هذه الأسئلة هو أنكم تضللون سبيله صلى الله عليه وسلم وتحتقرون مكانه ومنزلته ، ولو نظرتم بعين الإنصاف وأنتم من المسحوبين على وجوهكم إلى جهنم لعلمتم أن مكانكم شر من مكانه وسبيلكم أضل من سبيله . عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم " يحشر الناس يوم القيامة على ثلاثة أثلاث : ثلث على الدواب وثلث على وجوهم وثلث على اقدامهم ينسلون نسلاً " ثم ذكر

طرفاً من قصص الأولين على عادة افتنانه في الكلام تنشيطاً للأذهان وتسلية لنبيه كأنه قال : لست يا محمد بأول من ارسلناه فكذب وآتيناه الآيات فردّ بل آتينا موسى التوراة وقويناه بأخيه ومع ذلك كذب ورد . ومعنى الوزير تقدم في " طه " . والوزارة لا تنافي النبوة فقد كان يبعث في الزمن الواحد أنبياء ويؤمرون بأن يوازر بعضهم بعضاً . ولاشتراكهما في النبوة قيل لهما ﴿ اذهبا إلى القوم الذين كذبوا بآياتنا ﴾ إن حملناه على تكذيب آيات الإلهية فظاهر ، وإن حملناه على تكذيب آيات النبوة فاللفظ ماضٍ والمعنى على الاستقبال على عادة إخبار الله تعالى . ويجوز أن يراد إلى القوم الذين آل حالهم إلى أن كذبوا فدمرناهم ، وعلى هذا فلا حذف . والتدمير الإهلاك ﴿ وقوم نوح لما كذبوا الرسل ﴾ بأن كذبوه وكذبوا من قبله من الرسل صريحاً كأنهم لم يروا بعثة الرسل اصلاً كالبراهمة ، أو لأن تكذيب واحد من الرسل كتكذيب كلهم ﴿ أغرقناهم وجعلناهم ﴾ أي إغراقهم وقصتهم ﴿ للناس آية ﴾ محل اعتبار ﴿ وأعتدنا للظالمين ﴾ وهم قوم نوح أو لكل من سلك سبيلهم في التكذيب . وقصة عاد وثمود مذكورة مراراً ، وأما الرس فعن أبي عبيدة أنه البئر غير المطوية ، والقوم كانوا من عبدة الأصنام اصحاب آبار ومواش ، بعث الله عز وجل إليهم شعيباً فدعاهم إلى الإسلام فأبوا ، فبيناهم حول الرس انهارت بهم فخسف بهم وبديارهم . وقيل : الرس قرية بفلج اليمامة قتلوا نبيهم فهلكوا وهم بقية ثمود . وقيل : هم

اصحاب النبي حنظلة بن صفوان ابتلاهم الله بالعنقاء وهي أعظم ما يكون من الطير سميت بذلك لطول عنقها ، وكانت تسكن جبلهم وتنقض على صبيانهم فتخطفهم إن أعوزها الصيد فدعا عليها حنظلة فأصابتها الصاعقة . ثم إنهم قتلوا حنظلة فأهلكوا . وقيل : هم اصحاب الأخدود والرس عند العرب الدفن يقال : رس الميت : إذا دفن وغيب في الحفيرة . وقيل : الرس بأنطاكية قتلوا فيها حبيباً النجار وستجيء القصة في سورة يس .

(268/561)

وعن علي رضي الله عنه أنهم قوم يعبدون شجرة الصنوبر رسوا نبيهم في الأرض . وقيل : هم قوم كانت لهم قرى على شاطئ نهر يقال له الرس من بلاد المشرق ، فبعث الله تعالى إليهم نبياً من ولد يهوذا بن يعقوب فكذبوه فلبث فيهم زماناً ثم حفروا بئراً فرسوه فيها قوالوا : نرجو أن يرضى عنا إلهنا ، وكان عامة قومهم يسمعون أنين نبيهم يقول : إلهي وسيدي ترى ضيق مكاني وشدة كربي وضعف قلبي فعجل قبض روحي حتى مات ، فأرسل الله تعالى ريحاً عاصفة شديدة الحمرة وصارت الأرض من تحتهم حجر كبريت متوقداً وأظلتهم

سحابة سوداء فذابت ابدانهم كما يذوب الرصاص . " وروى ابن جرير بإسناده إلى لنبي صلى الله عليه وسلم : إن الله بعث نبياً إلى أهل قرية فلم يؤمن به من أهلها إلا عبد أسود ، ثم عدوا على الرسول فحفروا له بئراً فألقوه فيها ثم أطبقوا عليه حجراً ضخماً ، فكان ذلك العبد يحتطب فيشتري له طعاماً وشرابا ويرفع الصخرة ويدليه إليه وكان كذلك ما شاء الله فاحتطب يوماً فلما اراد أن يحملها وجد نوماً فاضطجع فضرب الله على آذانه سبع سنين . ثم انتبه وتمطى وتحول لشقه الآخر فنام سبع سنين ، ثم هب فاحتمل حزمته وظن أنه نام ساعة من نهار فجاء إلى القرية فباع حزمته فاشترى طعاماً وشراباً وذهب إلى الحفرة فلم يجد أحداً ، وكان قومه استخرجوه فآمنوا به وصدقوه وذلك النبي يسألهم عن الأسود فيقولون : لا ندري حاله حتى قبض الله تعالى النبي وقبض ذلك الأسود فقال صلى الله عليه وسلم : إن ذلك الأسود أول من يدخل الجنة " قلت هذه الرواية إن صحت فلا مدخل لها في المقصود فإِن المقام يقتضي أن يكون قوماً كذبوا نبيهم فأهلكوا لأجل ذلك .

(269/561)

أما قوله ﴿ وقروناً بين ذلك ﴾ فالمشار إليه ما ذكر من الأمم وقد يذكر الذاكر أشياء مختلفة ثم يشير إليها بذلك ومثله قوله الحاسب " فذلك كذا " أي فما ذكر من الأعداد

مجموعها كذا ﴿ وكلاً ﴾ من الأمم والقرون ﴿ ضربنا له الأمثال ﴾ بينا له القصص العجيبة ليعتبروا ويتعظوا ﴿ وكلاً تبرنا ﴾ أهلكنا أشنع الإهلاك حين لم ينجع فيهم ضرب المثل . والتتبير التفتيت والتكسير . و ﴿ كلاً ﴾ الأول منصوب بما دل عليه ضربنا له الأمثال وهو انذرنا أو حذرنا ﴿ كلاً ﴾ الثاني منصوب ﴿ بتبرنا ﴾ لأنه ليس بمشتغل عنه بضميره . والضمير في ﴿ ولقد أتوا ﴾ لقريش ، والقرية سدوم من قرى قوم لوط وكانت خمساً ، ومطر السوء الحجارة . ﴿ افلم يكونوا ﴾ في مرات مرورهم على تلك القرية في متاجرهم إلى الشام ﴿ يرونها بل كانوا ﴾ قوماً كفروا بالبعث لا يتوقعون نشوراً وعاقبة فمن ثم لم ينظروا إلى آثار عذاب الله نظر عبرة وادكار . ﴿ و ﴾ من جملة كفرهم وعنادهم أنهم ﴿ إذا رأوك يتخذونك إلا ﴾ محل هزؤ .

(270/561)

ثم فسر ذلك الاستهزاء بأنهم يقولون مشيرين إليه على سبيل الاستحقار . هذا الذي بعثه الله حال كونه رسولاً بزعمه . ويجوز أن يكون تسميته رسولاً استهزاء آخر من حيث إنه تسليم وإقرار في معرض الجحود والإنكار . وفي هذا جهل عظيم لأنهم إن استحقروا صورته فإنه أحسنهم خلقاً وأعدلهم مزاجاً مع أنه لم يكن يدعي التميز بالصورة ، وإن

استهزؤا بالمعنى فبه قد وقع التحدي بظهور المعجز عليه وقامت الحجة عليهم فهم أحق بالاستهزاء منه حين اصروا على الباطل بعد وضوح البرهان على الحق ، ولقد شهد عليهم بمضمون هذا التقرير ابن أخت خالتهم إذ قالوا ﴿ إن كاد ﴾ هي مخففة من الثقيلة واللام في ﴿ ليضلنا ﴾ هي الفارقة كأنهم سلموا أنه لقوة العقل وسطوع الحجة شارف أن يغلبهم على دينهم ويقلبهم عن طريقتهم لولا فرط لجاجهم وصبرهم على عبادة آلهتهم . أطلقوا المقاربة أوّلاً ثم قيدوها بلولا الامتناعية ثانياً ، وفيه أنه صلى الله عليه وسلم بذل قصارى مجهوده في دعوتهم حتى شارفوا على الإيمان بزعمهم . وحين وصفوه بالإضلال والمضل لا بد ان يكون ضالاً في نفسه فكأنهم وصفوه بالضلال فلا جرم أوعدهم الله على ذلك بقوله ﴿ وسوف يعلمون ﴾ إلى آخر الآية . وإنما يرون العذاب عند كشف الغطاء عن بصر البصيرة . ثم بين إنه لا تمسك لهم فيما ذهبوا إليه سوى التقليد واتباع هوى النفس فقال معجباً لرسوله : ﴿ أرأيت من اتخذ إلهة هواه ﴾ قدم المفعول الثاني للعناية كما تقول : علمت منطلقاً زيداً . ثم نفى أن يكون هو حافظاً عليهم كقوله : ﴿ وما أنت عليهم بوكيل ﴾ [الأنعام : 107] ﴿ لست عليهم بمصيطر ﴾ [الغاشية : 22] قال الكلبي : نسختها آية القتال . عن سعيد بن جبير : كان الرجل يعبد الحجر فإذا رأى أحسن منه رمى به وأخذ آخر . ثم أضرب عن ذمهم باتخاذ الهوى إلهاً إلى نوع آخر أشنع في الظاهر

قائلاً : ﴿ أم يحسب ﴾ وهي منقطعة ومعناه " بل " أيحسب وخص أكثرهم بالذكر إما لصون الكلام عن المنع على عادة

(271/561)

الفصحاء العقلاء ، وإما لأن منهم من كان يعرف الحق إلا أن حب الرياسة يحمله على الخلاف . وإنما نفى عنهم السماع والعقل لانتفاء فائدتهما وأثرهما . وباقي الآية تفسيرها مذكور في آخر الأعراف في قوله ﴿ أولئك كالأنعام بل هم أضل ﴾ [الأعراف : 179] قال جار الله : جعلوا أضل من الأنعام لأنها تنقاد لأربابها التي تعلفها وترعف المحسن من المسيء وتجذب المنافع وتجتنب المضارّ وتهتدي للمراعي والمشارب ، وهؤلاء لا ينقادون لربهم ولا يعرفون إحسانه من إساءة الشيطان ، ولا يطلبون أعظم المنافع وهو الثواب ، ولا يتقون أشد المضارّ وهو العقاب ، ولا يهتدون للحق الذي هو المرتع الهنيّ والشمرب الرويّ ، قلت : ويحسن أيضاً ان يذكر في وجه التفضيل أن جهل الأنعام بسيط غير مضر وجهل هؤلاء مركب مضر . ومنهم من قال : إن الأنعام تسبح لله تعالى بخلاف الكفار .

(272/561)

ثم ذكر طرفا من دلائل التوحيد مع ما فيها من عظيم الأنعام فأولها الاستدلال من أحوال الظل والرؤية إما بمعنى البصر فالمراد : ألم تر إلى صنع ربك أو الم تر إلى الظل كيف مده ربك . وإما بمعنى العلم وهو ظاهر وذلك أن الظل متغير ولكل متغير موجد وصانع . والخطاب لكل من له أهلية النظر والاستدلال . وللكلام في تفسير الآية مجال إلا أن ملخص الأقوال فيه اثنان : الأول أن الظل أمر متوسط بين الضوء الخالص والظلمة الخالصة كالكيفيات الحاصلة داخل السقوف الكاملة وأفنية الجدران وهو أعدل الأحوال ، لأن الظلمة الخالصة يكرهها الطبع وينفر عنها الحس والضوء الكامل لقوّته يبهر الحس البصري ويؤذي بالتسخين ، ولذلك وصف الجنة به في قوله : ﴿ وظل ممدود ﴾ [الواقعة : 30] ثم إن الناظر في الظل إلى الجسم الملون كأنه لا يشاهد شيئاً سوى الجسم واللون ، فإذا طلعت الشمس ووقع ضوءها على الجسم زال ظلمه فيظهر للعقول أنه كيفية زائدة على ما شاهده أوّلاً . فمعنى الآية : ألم تر إلى عجيب صنع ربك ﴿ كيف مدّ الظل ﴾ أي جعله ممتداً منبسطاً على الأجسام . ﴿ ولو شاء لجعله ساكناً ﴾ لاصقاً بكل مظل . ﴿ ثم جعلنا الشمس ﴾ على وجوده ﴿ دليلاً ﴾ فلولا الشمس ووقوع ضوئها على الأجرام لما عرف أن للظل وجوداً ، لأن الأشياء إنما تعرف بأضدادها : ﴿ ثم قبضناه ﴾ اي أزلنا الظل لا دفعه بل يسيراً يسيراً فإنه كلما ازداد ارتفاع الشمس ازداد نقصان الإظلال في

جانب المغرب شيئاً بعد شيء ، وفي القبض على هذا الوجه منافع جمة . الثاني أنه سبحانه لما خلق السماء والأرض ألقت السماء ظلها على الأرض ممدوداً منبسطاً ، ولو شاء لجعله ساكناً مستقراً على تلك الحالة ، ثم خلق الشمس وجعلها دليلاً على ذلك الظل ، لأن الظل يتبعها كما يتبع الدليل في الطريق من حيث إنه يزيد بها وينقص ويمتد ويتقلص ، ثم لقبض الظل معنيان : أحدهما : انتهاء الإظلال إلى غاية مّا من النقصان بالتدريج ، وثانيهما قبضه عند

(273/561)

قيام الساعة بقبض أسبابه وهي الأجرام النيرة . وقوله ﴿ إلينا ﴾ يؤكد هذا المعنى الثاني فيكون قوله ﴿ يسيراً ﴾ كما قال ﴿ ذلك حشر علينا يسير ﴾ [ق : 44] الاستدلال الثاني من أحوال الليل والنهار شبه ما يستر من ظلام الليل باللباس الساتر ، والسبات الراحة قاله أبومسلم . وذلك أن النوم سبب الراحة ومنه يوم السبت لما جرت به العادة من الاستراحة فيه عند طائفة ، وعلى هذا فالنشور بمعنى الانتشار والحركة . قال جار الله : السبات الموت والمسبوت الميت لأنه مقطوع الحياة ، وعلى هذا فالنشور بمعنى البعث وتكون الآية نظير قوله : ﴿ وهو الذي يتوفاكم بالليل ﴾ [الأنعام : 60] عن لقمان أنه قال

لابنه : يا بني كما تنام فتوقظ كذلك تموت فتنشر . الاستدلال الثالث قوله ﴿ وهو الذي أرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته ﴾ أي قدام المطر وقد مر تفسيره في " الأعراف " وأنه لم قال ههنا ﴿ أرسل ﴾ بلفظ الماضي وهناك ﴿ يرسل ﴾ أما قوله ﴿ وأنزلنا من السماء ماء طهوراً ﴾ فهو علم بين الفقهاء في الاستدلال به على طهارة الماء في نفسه وعلى مطهريته لغيره حتى فسر الطهور بعضهم - ومنهم أحمد بن يحيى - بأنه الذي يكون طاهراً في نفسه مطهراً لغيره .

(274/561)

واعتراض عليهم صاحب الكشاف بأن الذي قالوه إن كان شرحاً لبلاغته في الطهارة كان سديداً وإلا فليس " فعول " من " التفعيل " في شيء وأقول : إن الزمخشري سلم ان الطهور في العربية على وجهين : صفة كقولك " ماء طهور " اي طاهر ، واسم غير صفة ومعناه ما يتطهر به كالوضوء والوقود بفتح الواو فيهما لما يتوضأ به وتوقد به النار ، وعلى هذا فالنزاع مدفوع لأن الماء مما يتطهر به هو كونه مطهراً لغيره فكأنه سبحانه قال : وأنزلنا من السماء ماء هو آلة للطهارة ويلزمه أن يكون طاهراً في نفسه . ومما يؤكد هذا التفسير أنه تعالى ذكره في

معرض الأنعام فوجب حمله على الوصف الأكمل ، ولا يخفى أن المطهر أكمل من الطاهر نظيره ﴿ وينزل عليكم ماء من السماء ماء ليطهركم به ﴾ [الأنفال : 11] .

(275/561)

ولا ضير أن نذكر بعض أحكام المياه المستنبطة من الآية فنقول : ههنا نظران : الأول أن عين الماء هو طهور أم لا ؟ مذهب الأصم والأوزاعي أنه يجوز الوضوء بجميع المائعات ، وقال أبو حنيفة : يجوز الوضوء بنبيذ التمر في السفر وتجوز إزالة النجاسة بجميع المائعات المزيلة لأعيان النجاسات . وقال الشافعي وغيره من الأئمة : إن الطهورية مختصة بالماء لما مر في أول المائدة من إيجاب التيمم عند عدم الماء ولو شارك الماء مائع آخر لما أمر بالتيمم إلا بعد إعوازه أيضاً ودليله في الخبث قوله صلى الله عليه وسلم " ثم اغسليه بالماء " النظر الثاني في الماء وفيه بحثان : الأول في الماء المستعمل وإنه طاهر عند الشافعي وليس بمطهر في قوله الجديد . أما الأول فلإطلاق الآية ﴿ وأنزلنا من السماء ماء طهوراً ﴾ والصل بقاؤه وللحديث " خلق الماء طهوراً " ولأن السلف كانوا لا يحترزون عن تقاطر ماء الوضوء على ثيابهم وابدانهم ، ولأنه ماء طاهر لقي جسماً طاهراً فأشبه ما إذا لاقى حجارة . وأما الثاني فلقوله صلى الله عليه وسلم " لا يغتسل أحدكم في الماء الدائم وهو جنب " ولو بقي

الماء كما كان طاهراً مطهراً لما كان للمنع منه معنى ، وكانت الصحابة لا يعتنون بحفظه ليستعملوه ثانياً ولو كان طهوراً لحفظوا ما يغنيهم عن التيمم . وقال مالك والسدي : إنه طاهر مطهر لإطلاق الآية والحديث ، والأصل بقاء صفته على ما كان عليه . وروي أنه صلى الله عليه وسلم توضأ فمسح رأسه بفضل ما في يده .

(276/561)

وعن ابن عباس أنه صلى الله عليه وسلم اغتسل فرأى لمعة في جسده لم يصبها الماء فأخذ شعرة عليها بلل فأمرها على تلك اللمعة ، ولقياس ما انفصل من العضو على ما لم ينفصل منه . وقال أبو حنيفة : إنه نجس قياساً للنجاسة الحكمية على النجاسة الحقيقية . والمراد باستعمال الماء في المسألة تأدى عبادة الطهارة به أو انتقال المنع إليه فيه وجهان لأصحاب الشافعي ، ويتفرع عليه أن المستعمل في الكرة الثانية والثالثة وفي تجديد الوضوء والأغسال المسنونة ليس بطهور على الأول طهور على الثاني . والماء المستعمل في الحدث لا يجوز استعماله في الخبث على الأصح لأنه مائع لا يرفع الحدث فلا يزيل الخبث كسائر المائعات . البحث الثاني الماء المتغير إن تغير بنفسه لطول المكث جاز الوضوء به لأنه صلى الله عليه وسلم كان يتوضأ من بئر بضاعة ، وكان ماؤها كأنه نقاعة الحناء . وإن تغير بغيره ولم يتصل

به كما لو وقع بقرب الماء جيفة فأنتن الماء فهو أيضاً مطهر ، وإن اتصل به وكان طاهراً ولم يخالطه كما لو تغير بدهن أو عود أو كافور صلب فهو أيضاً مطهر ، وإن خالطه فإن لم يمكن صون الماء عنه كالمتغير بالتراب والحمأة والورق المتناثر والطحلب فلا بأس بذلك دفعاً للحرج ، وكذا لو جرى الماء في طريقه على معدن زرنيخ أو نورة أو كحل وإن أمكن بأن يكون الماء مستغنياً عن جنس ذلك الخليط فإن كان التغير قليلا بحيث لا يضاف الماء إليه أو لا يستحدث اسما جديدا جاز التوضوء به وإلا فلا خلافاً لأبي حنيفة . حجة الشافعي أنه صلى الله عليه وسلم توضأ ثم قال : هذا وضوء لا يقبل الله الصلاة إلا به ، فذلك الوضوء إن كان بالماء المتغير وجب أن لا يجوز إلا به وليس كذلك بالاتفاق بماء غير متغير وهو المطلوب . ولقائل أن يقول : إن هذا إشارة إلى كيفية الوضوء لا إلى كيفية الماء ، والمراد أنه تعالى لا يقبل الصلاة بما دون ذلك ، وأما الكمال فلا كلام فيه . قال : وأيضاً إذا اختلط ماء الولد بالماء

(277/561)

فتوضأ الإنسان به يحتمل أن ينغسل بعض الأعضاء بما الورد لا بالماء فيكون الحدث يقيناً والطهر مشكوكاً فيه والشك لا يرفع اليقين ، وهذا بخلاف ما إذا كان قليلاً لا يظهر اثره فإنه

كالمعدوم . وأيضاً الوضوء تعبد لا يعقل معناه ولهذا لو توضأ بماء الورد لم يصح وضوءه ، ولو توضأ بالماء الكدر والمتعفن صح وضوءه وما لا يعقل معناه وجب الاعتماد فيه على مورد النص . حجة أبي حنيفة إطلاق الآية وقوله : ﴿ فاغسلوا وجوهكم ﴾ [المائدة : 6] وقوله ﴿ فلم تجدوا ماء ﴾ [النساء : 43] وهذا الشخص غسل ووجد الماء ولأنه صلى الله عليه وسلم أباح الوضوء بسؤر الهرة وسؤر الحائض وإن خالطهما شيء من لعابهما ، ولأنه لا خلاف في جواز الوضوء بماء السيول وإن تغير لونها إلى ألوان ما تمر عليها في الصحاري من الحشائش وغيرها .

هذا كله إذا كان الخليط طاهراً ، فإن كان نجساً فمذهب الحسن البصري والنخعي ومالك وداود وإليه الغزالي في الإحياء أن الماء لا ينجس ما لم يتغير بالنجاسة ، سواء كان الماء كثيراً أو قليلاً . ومذهب أبي حنيفة أن الماء ينجس باستعماله في البدن لأداء عبادة . وتيقن مخالطة النجاسة أو غلبتها على الظن سواء تغير أحد أوصافه الثلاثة أو لم يتغير . قال أبو بكر الرازي : ولا يختلف على هذا الحد ماء البحر وماء البئر والغدير والراكد والجاري لأن ماء البحر لو وقعت فيه نجاسة لم يجز استعمال الماء الذي فيه النجاسة وكذلك الماء الجاري . قال : وأما اعتبار أصحابنا للغدير الذي إذا حرك أحد طرفيه لم يتحرك الطرف الآخر فإنما هو كلام في وجه يغلب على الظن عدم بلوغ النجاسة الواقعة في

أحد طرفيه إلى الطرف الآخر ، وليس كلاماً في أن بعض المياه الذي فيه النجاسة قد يجوز استعماله وبعضها لا يجوز استعماله .

(278/561)

ومن الناس من فرق بين القليل والكثير ثم اختلفوا في حد الكثير : فعن عبد الله بن عمر : إذا كان الماء اربعين قلة لم ينجسه شيء وقال سعيد بن جبير : الماء الراكد لا ينجسه شيء إذا كان قدر ثلاث قلال . وقال الشافعي : إذا كان الماء قلتين بقلال هجر لم ينجسه إلا ما غير طعمه أو ريحه أو لونه . وقد ينصر من المذاهب قول مالك لوجوه منها : قوله ﴿ وأنزلنا من السماء ماء طهوراً ﴾ ترك العمل به في الماء الذي تغير لونه أو طعمه أو ريحه لظهور النجاسة فيه ، ولقوله " خلق الماء طهوراً لا ينجسه شيء إلا ما غير لونه أو طعمه أو ريحه " فبقي ما عداه على الأصل . ومنها قوله تعالى : ﴿ فاغسلوا ﴾ والمتوضئ بهذا الماء قد غسل أعضاءه ولا سيما إذ 1 كانت النجاسة مستهلكة فيه لا يظهر عليه آثارهما وخواصها من الطعم أو اللون أو الريح . ومنها أن عمر توضأ من جرة نصرانية مع أن نجاسة أوانيهم غالبة على الظن ، فدل ذلك على أنه لم يعول إلا على عدم التغير . ومنها أن تقدير الماء بمقدار معلوم لو كان معتبراً كالقلتين عند الشافعي وعشر في عشر عند ابي حنيفة ،

لكان أولى المواضع بذلك مكة والمدينة لأنه لا تكثر المياه هنالك لا الجارية ولا الراكدة ، ولم ينقل أ ، هم خاضوا في تقدير المياه ولا أنهم سألوا عن كيفية حفظها ، وكانت أوانيهم يتعاطاها الصبيان والإماء الذين لا يحترزون عن النجاسات ، وكانوا لا يمنعون الهرة من شرب الماء وقد اصغى لها الإناء رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن كانوا يرون أنها تأكل الفأرة ، ولم يكن في بلادهم حياض تكرع السنانير فيها .

(279/561)

ومنها أن الشافعي نص على أن غسالة النجاسة طاهرة إذا لم تتغير بنجس ، واي فرق بين أن يلاقي الماء النجاسة بالورود عليها أو بورودها عليه ، وأي معنى لقول القائل : إن قوة الورود تدفع النجاسة مع أن قوة الورود لم يتمنع المخالطة ؟ ومنها أنهم كانوا يستنجون على أطراف المياه الجارية القليلة . وقال الشافعي : إذا وقع بول في ماء جارٍ ولم يتغير جاز الوضوء به . وايّ فرق بين الجاري والراكد ؟ والتعويل على قوة الماء بسبب الجريان ليس أولى من التعويل على عدم التغير . ومنها أنه لو وقعت نجاسة في قلتين فكل كوز يؤخذ منه فهو طاهر عنده ، ومعلوم أن البول ينتشر فيه وهو قليل فأي فرق بينه إذا وقع ذلك البول في ذلك القدر من الماء ابتداء وبينه إذا وصل غليه عند اتصال غيره به ؟ . ومنها أن

الحمامات لم تزل في الأعصار الخالية يتوضأ منها المتقشفون مع علمهم بأن اليدي والأواني الطاهرة والنجسة كانت تتوارد عليها ، ولو كان التقدير بالقلتين وغير ذلك معتبراً لاشتهر وتواتر . ومنها أن النصوص في التقدير متخالفة ؛ أما تقدير أبي حنيفة بالعشر في العشر فمجرد تحكم ، وأما تقدير الشافعي بالقلتين بناء على قوله صلى الله عليه وسلم " إذا بلغ الماء قلتين لم يحمل خبثاً " فضعيف . لأن راوية مجهول ، فإن الشافعي لما روى هذا الخبر قال : أخبرني رجل . فيكون الحديث مرسلاً والمرسل عنده ليس بحجة . سلمناه ولكن القلة مجهولة فإنها تصلح للكوز وللجرة ولكل ما يقل باليد وهي أيضاً اسم لهامة الرجل ولقلة الجبل . سلمنا لكن في متن الخبر اضطراب ، فقد روي " إذا بلغ الماء قلتين " وروي " إذا بلغ قلة " وروي " أربعين " " وإذا بلغ كرين " سلمنا صحة المتن لكنه متروك الظاهر لأن قوله " لم يحمل خبثاً " لا يمكن إجراؤه على ظاهره ، فإن الخبث إذا ورد عليه فقد حمله . سلمنا إجاءه على الظاهر لكن الخبث لغوي وشرعي وحمله على اللغوي لكونه حقيقة أولى ، فمعنى الحديث أن لا يصير مستقذراً طبعاً .

(280/561)

ونحن نقول : بموجبه لكن لم قلتم : إنه لا ينجس شرعاً ؟ سلمنا أن المراد هو الخبث الشرعي لكن لم لا يجوز أن يكون معنى قوله " لم يحمل خبثاً " أنه يضعف عن حمله أي يتأثر به ؟ أجاب بعض الشافعية عن هذه المنوع بأن كثيراً من المحدثين عينوا اسم الراوي في حديث القلتين ، فإن يحيى بن معين قال : إنه جيد الإسناد . فقيل له : إن ابن علية وقفه على ابن عمر . فقال : إن كان ابن علية وقفه فحماد بن سلمة رفعه . وقوله " القلة مجهولة " غير مسلم لأن ابن جريج قال في روايته : بقلال هجر .

(281/561)

ثم قال : وقد شاهدت قلال هجر وكانت القلة تسع قربتين وشيئاً . وإذا كانت هذه الرواية معتبرة فقط لم يكن في متن الحديث اضطراب ، وحمل الخبث على الشرعي أولى لأن المسألة شرعية وتفسير عدم حمل الخبث بالتأثر تعسف لأنه صح في بعض الروايات " إذا كان الماء قلتين لم ينجس " ولأنه لا يبقى لذكر القلتين حينئذ فائدة لأن ما دون القلتين ايضاً بتلك المثابة ، وزيف بأنه بعد التصحيح يوجب تخصيص عموم الكتاب والسنة الظاهرة البعيدة عن الاحتمال بمثل هذا الخبر المجمل . حجة من حكم بنجاسة الماء الذي خالطه نجاسة كيف كانت قوله تعالى : ﴿ ويحرم عليهم الخبائث ﴾ [الأعراف : 157] وقوله ﴿ إنما حرم

عليكم الميتة والدم ﴾ [النحل : 115] وقال في الخمر ﴿ رجس من عمل الشيطان ﴾ [المائدة : 90] حرم هذه الشياء مطلقاً ولم يفرق بين حال انفرادها وحال اختلاطها بالماء ، فوجب تحريم استعمال كل ماء تيقنا فيه جزءاً من النجاسة . وأيضاً الدلائل التي ذكرتموها مبيحة ودلائلنا حاظرة والحاظر غالب على المبيح بدليل أن الجارية المشتركة لا يحل لواحد منهما وطؤها وأيضاً قال صلى الله عليه وسلم " لا يبولن أحدكم في الماء الدائم ثم يغتسل فيه من جنابة " أطلق من غير فرق بين القليل والكثير . أجاب مالك أنه لا نزاع في تحريم استعمال النجاسات ، لكن الكلام في أنه متى ما لم يتغير فليس للنجاسة أثر لأنها انقلبت عن صفتها فكأنها معدومة والنهي عن البول في الماء لتنفر الطبع أو للتنزيه لا للتحريم .

(282/561)

واعلم أنه سبحانه بين في سورة الأنفال أن من غاية إنزال الماء من السماء تطهير المكلفين به حين قال : ﴿ وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ﴾ [الأنفال : 11] ففي وصفه ههنا بكونه طهوراً إشارة إلى ذلك . ثم رتب على الإنزال غايتين أخريين . أولاهما تتعلق بالنبات ، والثانية بالحيوان الأعجم فالناطق . وفي هذا الترتيب تنبيه على أن الكائنات

تبتدئ في الرجوع من الأخس إلى الأشرف ، وفيه أن الغرض من الكل هو نوع الإنسان مع أن حياة الأناسي بحياة أرضهم وأنعامهم . قال ﴿ ميتاً ﴾ مع قوله ﴿ بلدة ﴾ بالتأنيث لأن " فيعلاً " غير جارٍ على الفعل فكأنه اسم جامد وصف به ، أو بتأويل البلد والمكان .

والأناسيّ جمع أنسي أو جمع إنسان على أن اصله أناسين فقلبت النون ياء . و " فعيل " قد يستوي فيه الواحد والجمع فلهذا لم يقل وأناسي كثيرين ومثله ﴿ وقروناً بين ذلك كثيراً ﴾ .

اسئلة أوردها جار الله مع أجوبتها : الأول : أن إنزال الماء موصوفاً بالطهارة وتعليله بالإحياء ولاسقي يؤذن بأن الطهارة شرط في صحة الإحياء والسقي كما تقول : حملني الأمير على فرس جواد لأصيد به الوحش . الجواب لما كان سقي الأناسي من جملة ما أنزل له الماء وصفه بالطهور إكراماً لهم وتتميماً للمنة عليهم وغشارة إلى أن من حق استعمال الماء في الباطن والظاهر أن يكون طاهراً غير مخالط لشيء من القاذورات .

(283/561)

قلت : قد قررنا فائدة هذا الوصف بوجه آخر آنفاً . السؤال الثاني : لم خص الأنعام من بين ما خلق من الحيوان المنتفع بالماء ؟ الجواب لأن الطير والوحش تبعد في طلب لاماء فلا يعوزها الشرب بخلاف الأنعام ، ولأنها قنية الإنسان وعامة منافعه متعلقة بها فسقيها إنعام

عليه . الثالث : ما معنى تنكير الأنعام والأناسي ووصفهم بالكثرة ؟ الجواب لأن بعض الأنعام والأناسي الذين هم بقرب الأودية والأنهار العظام لا يحتاجون إلى ماء السماء احتياجاً بيناً ، ولمثل هذا نكر البلدة في قوله ﴿ بلدة ميتاً ﴾ قوله سبحانه ﴿ ولقد صرفناه ﴾ الأكثرون على أن الضمير عائد إلى ما ذكر من الدلائل أي كررنا أحوال الإظلال وذكر إنشاء السحاب وإنزال المطر في القرآن وفي سائر الكتب السماوية ليتفكروا ويعتبروا ويعرفوا حق النعمة فيه ويشكروا ، فأبى أكثرهم إلا كفران النعمة وجحودها . وقال آخرون : إنه يرجع إلى أقرب المذكورات وهو المطر أي صرفنا المطر بينهم في البلدان المختلفة والأوقات المتغايرة وعلى الصفات المتباينة من وابل وطل وغير ذلك فأبوا إلا كفوراً وأن يقولوا : مطرنا بنوء كذا استقلالاً . فإن جعلوا الأنواء كالوسائط والأمارات فلا بأس . والنوء سقوط نجم من المنازل الثمانية والعشرين للقمر في المغرب مع الفجر وطلوع رقيبه وهو نجم آخر في المشرق يقابله من ساعته في كل ليلة إلى ثلاثة عشر يوماً وهو أكثر ، أو إلى أربعة عشر وهو أقل . والعرب تضيف الأمطار والحر والبرد إلى الساقط منها أو إلى الطالع . فإذا مضت مدة النوء ولم يحدث شيء من مطر وغيره يقال : خوى نجم كذا أي سقط ولم يكن عنده اثر علوي ؟ عن ابن عباس : ما من عام أقل مطراً من عام ولكن الله عز وجل قسم ذلك بين عباده على ما يشاء وتلا هذه الآية . ويؤيد هذا التفسير تنكير البلدة

والأنعام والأناسي . قال الجبائي : في قوله ﴿ ليذكروا ﴾ دليل على أنه تعالى أراد من الكل التذكر والإيمان . وفي قوله ﴿ فأبى أكثر الناس ﴾ دلالة

(284/561)

على أن المكلف له قدرة على الفعل والترك إذ لا يقال للزمن مثلاً إنه أن يسعى . وقال الكعبي : الضمير في ﴿ بينهم ﴾ لكل الناس فيكون الأكثر داخلا في ذلك العام إذ لا يجوز أن يقال : أنزلناه على قريش ليؤمنوا فأبى أكثر بني تميم إلا كفوراً . وعند هذا يظهر أنه أراد من جميع المكلفين أن يؤمنوا ويعتبروا ومعارضة الأشاعرة معلومة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 5 صـ 231.246 ﴾

(285/561)

وقال الخطيب الشربينى :

الشبهة الرابعة : لمنكري نبوة محمد صلى الله عليه وسلم قوله تعالى :

﴿ وقال الذين لا يرجون لقاءنا ﴾

أي : لا يخافون البعث ، قال الفراء : الرجاء بمعنى الخوف لغة تهامة ، ومنه قوله تعالى :

﴿ ما لكم لا ترجون لله وقاراً ﴾ (نوح ،)

أي : لا تخافون لله عظمة ﴿ لولا ﴾ أي : هلا ولم لا ﴿ أنزل ﴾ أي : على أي وجه كان من أي منزل كان ﴿ علينا الملائكة ﴾ كما نزلت عليه فيما يزعم وكانوا رسلاً إلينا ، أو فتخبرنا بصدقه ﴿ أو نرى ربنا ﴾ بما له علينا من الإحسان ، وبما لنا نحن من العظمة بالقوة بالأموال وغيرها ، فيأمرنا بما يريد من غير حاجة إلى واسطة ؛ قال الله ردّاً عليهم : ﴿ لقد استكبروا ﴾ أي : تعظموا ﴿ في ﴾ شأن ﴿ أنفسهم ﴾ أي : أظهروا الاستكبار عن الحق ، وهو الكفر والعناد في قلوبهم واعتقدوه كما قال تعالى : ﴿ إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه ﴾ (غافر ،)

﴿ وعتوا ﴾ أي : تجاوزوا الحد في الظلم ﴿ عتواً كبيراً ﴾ أي : بالغاً أقصى مراتبه حيث عاينوا المعجزات الظاهرة ، فأعرضوا عنها واقترحوا لأنفسهم الخبيثة ما سدت دونه مطامح النفوس القدسية ، واللام جواب قسم محذوف ، وفي فحوى هذا الفعل دليل على التعجب من غير لفظ تعجب ، ألا ترى أن المعنى ما أشد استكبارهم وما أكبر عتوهم ؟

ثم بين تعالى لهم حالهم عند بعض ما طلبوا بقوله تعالى:

﴿ يوم يرون الملائكة ﴾ أي : يوم القيامة ، وقال ابن عباس : عند الموت ﴿ لا بشرى ﴾ أي

: من البشر أصلاً ﴿ يومئذٍ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ للمجرمين ﴾ أي : الكافرين إما ظاهر في موضع ضمير ، وإما ؛ لأنه عام فقد تناولهم بعمومه بخلاف المؤمنين فلهم البشرى بالجنة .

(286/561)

تنبيه : في نصب يوم أوجه : أحدها : أنه منصوب بإضمار فعل يدل عليه قوله تعالى : ﴿ لا بشرى ﴾ أي : يمنعون البشرى يوم يرون ، الثاني : باذكر فيكون مفعولاً به . الثالث : يبعذبون مقدراً ولا يجوز أن يعمل فيه نفس البشرى لوجهين : أحدهما : أنها مصدر والمصدر لا يعمل فيما قبله ، والثاني : أنها منفية بلا ، وما بعد لا لا يعمل فيما قبلها . وقوله : ﴿ ويقولون ﴾ أي : في ذلك الوقت ﴿ حجراً محجوراً ﴾ عطف على المدلول ويقول الكفرة لهم حينئذٍ : هذه الكلمة استعاذة وطلباً من الله تعالى أن يمنع لقاء الملائكة عنهم مع أنهم كانوا يطلبون نزول الملائكة ويقترحونه وهم إذا رأوهم عند الموت أو يوم القيامة كرهوا لقاءهم وفزعوا منهم ؛ لأنهم لا يلقونهم إلا بما يكرهون ، وقالوا عند رؤيتهم ما كانوا يقولونه عند لقاء العدو والشدة النازلة أو نحو ذلك : حجراً محجوراً يضعونها موضع الاستعاذة ، فهم يقولون ذلك إذا عاينوا الملائكة . قال سيبويه : يقول الرجل للرجل : تفعل كذا وكذا فيقول : حجراً ، وهي من حجره إذا منعه ؛ لأن المستعيذ طالب من الله أن يمنع المكروه

عنه فلا يلحقه ، وكأن المعنى : أسأل الله أن يمنع ذلك منعاً ويحجره حجراً ، وقال ابن عباس : تقول الملائكة : حراماً محرماً أن يدخل الجنة إلا من قال : لا إله إلا الله ، وقيل : إذا خرج الكفار من قبورهم تقول الملائكة لهم : حرام محرم عليكم أن تكون لكم البشرى ، ولما كان المريد لإبطال شيء لشدة كراهته له لا يقنع في إبطاله بغيره بل يأتيه بنفسه فيبطله ، عبر تعالى بقوله:

(287/561)

﴿ وقدمنا ﴾ أي : وعمدنا بما لنا من العظمة والقدرة الباهرة في ذلك اليوم الذي يرون فيه الملائكة سواء كان في الدنيا أم في الآخرة ﴿ إلى ما عملوا من عمل ﴾ أي : من مكارم الأخلاق من الجود وصلة الرحم وإغاثة الملهوف ونحو ذلك ﴿ فجعلناه ﴾ لكونه لم يؤسس على الإيمان ، وإنما هو للهوى والشيطان ﴿ هباءً ﴾ وهو ما يرى في شعاع الشمس الداخل من كوّة مما يشبه الغبار ﴿ منثوراً ﴾ أي : مفرقاً أي : مثله في عدم النفع إذ لا ثواب فيه لعدم شرطه ويجازون عليه في الدنيا ، فتكون النار مستقرهم ومقيلهم ، ولهذا بين حال أضدادهم وهم المؤمنون بقوله تعالى:

﴿ أصحاب الجنة يومئذٍ ﴾ أي : يوم إذ يرون الملائكة ﴿ خير مستقراً ﴾ من الكفار

﴿ وأحسن مقيلاً ﴾ منهم ، والمستقر المكان الذي يكونون فيه في أكثر أوقاتهم مستقرين يتجالسون ويتحادثون ، والمقيل : المكان الذي يأوون إليه للاسترواح إلى أزواجهم والتمتع بمغازلتهن وملامستهن كما أن المترفين في الدنيا يعيشون على ذلك الترتيب ، روي : أنه يفرغ من الحساب في نصف ذلك اليوم ، فيقيل أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار ؛ قال ابن مسعود : لا ينتصف النهار يوم القيامة حتى يقيل أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار ، وقال ابن عباس في هذه الآية : الحساب في ذلك اليوم في أوله ، وقال : يوم القيامة يقصر على المؤمنين حتى يكون قدر ما بين العصر إلى غروب الشمس .

تنبيه : في أفعل قولان : أحدهما : أنها على بابها من التفضيل ، والمعنى : أن المؤمنين خير في الآخرة مستقراً من مستقر الكفار ، وأحسن مقيلاً من مقيلهم ولو فرض أن يكون لهم ذلك أو على أنهم خير في الآخرة منهم في الدنيا .

والثاني : أن يكون لمجرد الوصف من غير مفاضلة ومن ذلك المعنى قوله تعالى : ﴿ إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون هم وأزواجهم في ظلال على الأرائك متكئون ﴾ (يس ،)

(288/561)

ذكروا في تفسير الشغل افتضاض الأبكار ، وإنما سمي مكان دعتهم واستراحهم الحور مقيلاً مع أنه لا نوم في الجنة على طريق التشبيه . ثم عطف تعالى على قوله تعالى يوم يرون قوله تعالى:

﴿ ويوم تشقق السماء ﴾ أي : كل سماء ﴿ بالغمام ﴾ أي : كما تشقق الأرض بالنبات فيخرج من خلال شقوقها ، وهو غيم أبيض رقيق مثل الضبابة ولم يكن إلا لبني إسرائيل في تيههم .

تنبيه : في هذه الباء ثلاثة أوجه : أحدها : أنها سببية ، أي : بسبب الغمام يعني سبب طلوعه منها ، ونحوه ﴿ السماء منفطر به ﴾ (المزمل ،)

كأنه الذي تتشقق به السماء ، الثاني : أنها للحال أي : ملتبسة بالغمام ، الثالث : أنها بمعنى عن أي : عن الغمام كقوله تعالى : ﴿ يوم تشقق الأرض عنهم سراعاً ﴾ (ق ،)

والباء وعن يتعاقبان تقول : رميت عن القوس ، وبالقوس ، وقرأ أبو عمرو والكوفيون بتخفيف الشين ، والباقون بتشديدها ، ثم أشار تعالى إلى جهل من طلب نزول الملائكة دفعة واحدة بقوله تعالى : ﴿ ونزل الملائكة ﴾ أي : بالتدريج بأمر حتم لا يمكنهم التخلف عنه بأمر من الأمور وغيره من الذين طلبوا أن يروهم في حال واحد ﴿ تنزيلاً ﴾ أي في أيديهم صحائف الأعمال ؛ قال ابن عباس : تتشقق السماء الدنيا ، فينزل أهلها ، وهم أكثر ممن في الأرض من الجن والإنس ، ثم تتشقق السماء الثانية فينزل أهلها ، وهم أكثر من

أهل سماء الدنيا وأهل الأرض جناً وإنساً ، ثم كذلك حتى تتشقق السماء السابعة ، وأهل كل سماء يدورون على السماء التي قبلها ، ثم تنزل الكروبيون ثم حملة العرش .

(289/561)

فإن قيل : ثبت أن نسبة الأرض إلى سماء الدنيا كحلقة في فلاة ، فكيف تسع الأرض هؤلاء ؟ أجاب بعض المفسرين : بأن الملائكة تكون في الغمام والغمام يكون مقر الملائكة ، ويجوز أن الله تعالى يوسع الأرض حتى تسع الجميع ، وقرأ ابن كثير بنونين الأولى مضمومة والثانية ساكنة وتخفيف الزاي ورفع اللام ، ونصب الملائكة ، والباقون بنون واحدة والزاي مشددة ونصب اللام ورفع الملائكة ، ثم بين تعالى أن ذلك اليوم لا يقضي فيه غيره بقوله تعالى:

﴿ الملك يومئذٍ ﴾ أي : إذ تشقق السماء بالغمام ، ثم وصف الملك بقوله تعالى :

﴿ الحق ﴾ أي : الثابت ثباتاً لا يمكن زواله ، ثم أخبر عنه بقوله تعالى : ﴿ للرحمن ﴾ أي : العام الرحمة في الدارين ، ومن عموم رحمته وحقية ملكه أن يسر قلوب أهل وده بتعذيب أهل عداوته الذين عادوهم فيه لتضييعهم الحق باتباع الباطل ، ولولا اتصافه بالرحمة لم يدخل أحد الجنة ، فإن قيل : مثل هذا الملك لم يكن قط إلا للرحمن ، فما الفائدة في قوله

تعالى : ﴿ يومئذٍ ﴾ ؟

أجيب : بأن في ذلك اليوم لا مالك له سواه لا في الصورة ولا في المعنى ، فتخضع له الملوك وتعنو له الوجوه ، وتذل له الجبابرة بخلاف سائر الأيام ﴿ وكان ﴾ أي : ذلك اليوم الذي تظهر فيه الملائكة الذي طلب الكفار رؤيتهم له ﴿ يوماً على الكافرين عسيراً ﴾ أي : شديد العسر والاستعار .

تنبيه : هذا الخطاب يدل على أنه لا يكون على المؤمنين عسيرا جاء في الحديث "أنه يهون يوم القيامة على المؤمن حتى يكون عليه أخف من صلاة مكتوبة صلاها في الدنيا" وقوله تعالى:

(290/561)

﴿ ويوم يعض الظالم ﴾ أي : المشرك لفرط تأسفه لما يرى فيه من الأهوال ، معمول لمحذوف أو معطوف على يوم تشقق ، وأل في الظالم تحتمل العهد والجنس لكن قال ابن عباس : أراد بالظالم عقبة بن أبي معيط بن أمية بن عبد شمس كان لا يقدم من سفر إلا صنع طعاماً ودعا إليه جهراً جيرانه وأشراف قومه ، وكان يكثر مجالسة النبي صلى الله عليه وسلم ويعجبه حديثه ، فقدم ذات يوم من سفر فصنع طعاماً ودعا الناس ودعا النبي صلى الله عليه وسلم

فلما قرب الطعام قال النبي صلى الله عليه وسلم "ما أنا بآكل طعامك حتى تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله" ، فقال عقبة : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله ، فأكل صلى الله عليه وسلم من طعامه ، وكان عقبة صديقاً لأبي بن خلف ، فلما أتى أبيّ بن خلف قال له : يا عقبة صبأت ؟ فقال : لا والله ما صبأت ، ولكن دخل علي رجل فأبى أن يأكل طعامي إلا أن أشهد له ، فاستحيت أن يخرج من بيتي ولم يطعم ، فشهدت له فطعم ، والشهادة ليست في نفسي ، فقال : ما أنا بالذي أرضى منك أبداً إلا أن تأتيه وتبصق في وجهه وتطأ قفاه وتلطم وجهه وعينه ، فوجده ساجداً في دار الندوة ففعل ذلك عقبة ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم "لا ألقاك خارجاً من مكة إلا علوت رأسك بالسيف" فقتل عقبة يوم بدر صبراً أمر علياً رضي الله عنه فقتله ، وقيل : قتله عاصم بن ثابت بن أفلح الأنصاري ، وأما أبي بن خلف فقتله النبي صلى الله عليه وسلم بيده يوم أحد طعنه في المبارزة فرجع إلى مكة ومات .

(291/561)

قال الضحاك : لما بصق عقبة في وجه النبي صلى الله عليه وسلم عاد بصاقه في وجهه فاحترق خداه ، فكان أثر ذلك فيه حتى مات ، وقال الشعبي : كان عقبة خليل أمية ،

فأسلم عقبة فقال أمية : وجهي من وجهك حرام إن بايعت محمداً ، فكفر وارتد ، فأنزل الله تعالى : ﴿ ويوم يعض الظالم ﴾ أي : عقبة ﴿ على يديه ﴾ قال الضحاك : يأكل يديه إلى المرفق ، ثم تنبت ولا يزال هكذا كلما أكلها نبتت ، وقال المحققون : هذه اللفظة للتحسر والغم يقال : عض أنامله وعض على يديه وهو لا يشعر حال كونه مع هذا الفعل ﴿ يقول ﴾ : أي : يجدد في كل لحظة قوله : ﴿ يا ليتني اتخذت ﴾ أي : أرغمت نفسي وكلفتها أن آخذ في الدنيا ﴿ مع الرسول ﴾ أي : محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ سبيلاً ﴾ أي : طريقاً إلى الهدى ، ولما تأسف على مجانبة الرسول ندم على مصادقة غيره بقوله:

﴿ يا ويلتي ﴾ أي : يا هلاكي الذي ليس لي منادم غيره ؛ لأنه ليس يحضرني سواه ﴿ ليتني لم أتخذ فلاناً ﴾ أي : أبياً ﴿ خليلاً ﴾ أي : صديقاً أوافقه في أعماله لما علمت من سوء عاقبتها ، فكنى عن اسمه وإن أريد به الجنس ، فكل من اتخذ من المضلين خليلاً كان لخليله اسم علم عليه لا محالة فجعله كناية عنه ، وقرأ أبو عمرو بفتح الياء ، والباقون بالسكون ، وأظهر الدال عند التاء ابن كثير وحفص ، وأدغمها الباقون ثم استأنف قوله : الذي يتوقع كل سامع أن يقوله:

﴿ لقد ﴾ أي : والله لقد ﴿ أضلني عن الذكر ﴾ أي : عمى علي طريق القرآن الذي لا ذكر في الحقيقة غيره وصرفني عنه ، والجملة في موضع العلة لما قبلها ﴿ بعد إذ جاءني ﴾ ولم يكن لي منه مانع يردني عن الإيمان به ، وقرأ نافع وابن ذكوان وعاصم بإظهار الذال ،

والباقون بالإدغام وقوله تعالى : ﴿ وكان الشيطان ﴾ إشارة إلى خليله سماه شيطاناً ؛ لأنه أضله كما يضل الشيطان ، أو إلى كل من كان سبباً للضلال من عتاة الجن والإنس ﴿ للإنسان خذولاً ﴾ أي:

(292/561)

شديد الخذلان يورده ثم يسلمه إلى أكره ما يكون لا ينصره ولو أراد ما استطاع بل هو في شر من ذلك ؛ لأن عليه إثمه في نفسه ، ومثل إثم من أضله .

تنبيه : حكم هذه الآية عام في كل خليلين ومتحابين اجتمعا على معصية الله تعالى قال صلى الله عليه وسلم "مثل الجليس الصالح وجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير ، فحامل المسك إما أن يحذيك وإما أن تبتاع منه ، وإما أن تجد ريحاً طيبة ، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك وإما أن تجد ريحاً خبيثة" وقال صلى الله عليه وسلم "المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل" وقال صلى الله عليه وسلم "لا تصاحب إلا مؤمناً ، ولا يأكل طعامك إلا تقي" ، ولما ذكر تعالى أقوال الكفار ذكر قول رسوله محمد صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى:

﴿ وقال الرسول يا رب ﴾ أي : أيها المحسن إليّ بأنواع الإحسان وعبر بأداة البعد هضماً

لنفسه ، ومبالغة في التضرع ﴿ إن قومي ﴾ أي : قريشاً الذين لهم قوة ومنعة ﴿ اتخذوا هذا القرآن ﴾ أي : المقتضي للإجماع عليه والمبادرة إليه ﴿ مهجوراً ﴾ أي : متروكاً بعيداً لم يؤمنوا به ولم يقبلوه ، وأعرضوا عن استماعه .

تنبيه : أشار بصيغة الافتعال إلى أنهم عالجوا أنفسهم في تركه علاجاً كثيراً لما يرون من حسن نظمه ويذوقون من لذيذ معانيه ورائق أساليبه ، ولطيف عجائبه وبديع غرائبه ، وأكثر المفسرين على أن هذا القول وقع من النبي صلى الله عليه وسلم وقال أبو مسلم : بل المراد أنه يقوله في الآخرة كقوله تعالى : ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد ﴾ (النساء ،)

الآية ، والأول أولى ؛ لأن قوله تعالى:

(293/561)

﴿ وكذلك ﴾ أي : كما جعلنا لك عدواً من مشركي قومك ﴿ جعلنا لكل نبي ﴾ من الأنبياء قبلك رفعة لدرجاتهم ﴿ عدواً من المجرمين ﴾ أي : من المشركين تسلية له صلى الله عليه وسلم كأنه تعالى يقول له : فاصبر كما صبروا ، ولا يكون ذلك إلا إذا وقع القول منه ﴿ وكفى بربك ﴾ أي : المحسن إليك ﴿ هادياً ﴾ أي : يهدي بك من قضى بسعادته

﴿ ونصيراً ﴾ أي : ينصرك على من حكم بشقاوته .

تنبيه : احتج أهل السنة بهذه الآية على أنه تعالى خلق الخير والشر ؛ لأن قوله تعالى : ﴿ لكل نبي عدواً ﴾ يدل على أن تلك العداوة من جعل الله تعالى وتلك العداوة كفر ، فإن قيل : قوله تعالى : ﴿ يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً ﴾ كقول نوح عليه السلام : ﴿ رب إني دعوت قومي ليلاً ونهاراً فلم يزدهم دعائي إلا فراراً ﴾ (نوح : ،)

فكما أن المقصود من هذا إنزال العذاب ، فكذلك ما هنا فكيف يليق هذا بمن وصفه الله تعالى بالرحمة في قوله تعالى : ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ (الأنبياء ،)

؟

أجيب : بأن نوحاً عليه السلام لما ذكر ذلك دعا عليهم ، وأما النبي صلى الله عليه وسلم لما ذكر هذا لم يدع عليهم ، بل انتظر فلما قال تعالى : ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً ﴾ كان ذلك كالأمر له بالصبر على ذلك وترك الدعاء عليهم فافترقا .

الشبهة الخامسة : لمنكري النبوة ما حكاه الله تعالى عنهم بقوله تعالى:

﴿ وقال الذين كفروا ﴾ أي : الذين غطوا عداوة وحسداً ما تشهد عقولهم بصحته من أن القرآن كلام الله تعالى لإعجازه لهم مفرقاً فضلاً عن كونه مجتمعاً ﴿ لولا ﴾ أي : هلا ﴿ نزل عليه القرآن ﴾ أي : أنزل كخير بمعنى أخير ؛ لئلا يناقض قولهم ﴿ جملة ﴾ وأكدوا بقولهم ﴿ واحدة ﴾ أي : من أوله إلى آخره كما أنزلت التوراة على موسى والإنجيل على عيسى والزبور على داود لتحقق أنه من عند الله تعالى ، ويزول عنا ما نتوهمه من أنه الذي يرتبه قليلاً قليلاً ، وهذا الاعتراض في غاية السقوط ؛ لأن الإعجاز لا يتخلف بنزوله جملة أو متفرقاً مع أن للتفريق فوائد منها :

ما أشار إليه بقوله تعالى : ﴿ كذلك ﴾ أي : أنزلناه شيئاً فشيئاً على هذا الوجه العظيم الذي أنكروه ﴿ لنثبت ﴾ أي : نقوي ﴿ به فؤادك ﴾ أي : قلبك فتعيه وتحفظه ؛ لأن المتلقن إنما يقوى قلبه على حفظ العلم شيئاً فشيئاً وجزءاً عقب جزء ، ولو ألقي عليه جملة واحدة لتعيا بحفظه والرسول صلى الله عليه وسلم فارقت حاله حال داود وموسى عليهم السلام وعيسى حيث كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، وهم كانوا قارئين كاتبين ، فلم يكن له بد من التلقن والتحفظ ، فأنزله الله عليه منجماً في عشرين سنة ، وقيل : في ثلاث وعشرين سنة ، وأيضاً فكان ينزل على حسب الحوادث وجوابات السائلين ؛ ولأن بعضه منسوخ وبعضه ناسخ ، ولا يتأتى ذلك إلا فيما أنزل مفرقاً .

فإن قيل : ذا في كذلك يجب أن يكون إشارة إلى شيء تقدمه ، والذي تقدم هو إنزاله جملة ، فكيف فسر كذلك بأنزلناه مفرقاً ؟

(295/561)

أجيب : بأن الإشارة إلى الإنزال مفرقاً لا إلى جملة ، والدليل على فساد هذ الاعتراض أيضاً أنهم عجزوا عن أن يأتوا بنجم واحد من نجومه ، وتحدوا بسورة واحدة من أقصر السور فأبرزوا صفحة عجزهم وسجلوا به على أنفسهم حين لاذوا بالمناصبة وفزعوا إلى المجاذبة ، ثم قالوا : هلا نزل جملة واحدة ؟ كأنهم قدروا على تفاريقه حتى يقدروا على جملته ، وقوله تعالى : ﴿ ورتلناه ترتيلاً ﴾ معطوف على الفعل الذي تعلق به كذلك كأنه قال تعالى : كذلك فرقناه ورتلناه ترتيلاً ، ومعنى ترتيله قال ابن عباس : بيناه بياناً ، والترتيل التبيين في تؤدة وتثبت ، وقال السدي : فصلناه تفصيلاً ، وقال مجاهد : بعضه في إثر بعض ، وقال الحسن : تفريقاً آية بعد آية ووقعة عقب وقعة ، ويجوز أن يكون المعنى : وأمرنا بترتيل قراءته ، وذلك قوله تعالى : ﴿ ورتل القرآن ترتيلاً ﴾ (المزمل ،)

أي : اقرأه بترتل وتثبت .

ومنه حديث عائشة رضي الله تعالى عنها في صفة قراءته : لا كسردكم هذا لو أراد

السامع أن يعد حروفه لعدها ، وقيل : هو أن ننزله مع كونه متفرقاً على تمكث وتمهل في مدة متباعدة ، وهي عشرون سنة ، ولم نفرقه في مدة متقاربة ، ولما كان التقدير قد بطل ما أتوا به من هذا الاعتراض عطف عليه .

(296/561)

﴿ ولا يأتونك ﴾ أي : يا أشرف الخلق أي : المشركون ﴿ بمثل ﴾ أي : باعتراض في إبطال أمرك يخيلون به لعقول الضعفاء يجتهدون في تنميقه وتحسينه وتدقيقه حتى يصير عندهم في غاية الحسن والرشاقة لفظاً ومعنى ﴿ إلا جئناك ﴾ في جوابه ﴿ بالحق ﴾ أي : الذي لا محيد عنه ، فيزهق ما أتوا به لبطلانه ، فسمى ما يوردون من الشبه مثلاً ، وسمى ما يدفع به الشبه حقاً ﴿ وأحسن ﴾ أي : من مثلهم ﴿ تفسيراً ﴾ أي : بياناً وتفصيلاً ، ولما كان التفسير هو التكشيف عما يدل عليه الكلام وضع موضع معناه ، فقالوا : تفسير هذا الكلام كيت وكيت كما قيل : معناه كذا وكذا ، أو لا يأتونك بحال وصفة عجيبة يقولون : هلا كانت هذه صفتك وحالك ؟ نحو أن يقرن بك ملك ينذر معك أو يلقي إليك كنز ، أو تكون لك جنة ، أو ينزل عليك القرآن جملة واحدة إلا أعطيناك نحن من الأحوال ما يحق لك

في حكمتنا ومشيئتنا أن تعطاه وما هو أحسن تكشيفاً لما بعثت عليه ودلالة على صحته ، ثم بين تعالى : حال هؤلاء المعاندين في الآخرة بقوله تعالى:

(297/561)

﴿ الذين ﴾ أي : هم الذين ﴿ يحشرون ﴾ أي : يجمعون قهراً ماشين مقلوبين ﴿ على وجوههم ﴾ مسحوبين ﴿ إلى جهنم ﴾ أي : كما أنهم لم ينظروا في الدنيا بعين الإنصاف فإن الآخرة مرآة الدنيا مهما عمل هنا رآه هناك كما أن الدنيا مزرعة الآخرة مهما عمل فيها جنى ثمره هناك . روى البخاري أن رجلاً قال : "يا نبي الله كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة ؟ قال : الذي أمشاه على الرجلين في الدنيا قادر أن يمشيه على وجهه يوم القيامة" ، وروى البيهقي : "يحشر الناس يوم القيامة على ثلاثة أصناف : صنف على الدواب ، وصنف على الوجوه ، وصنف على الأقدام" ، ولما وصف الله تعالى المتعنتين في أمر القرآن بهذا الوصف استأنف الإخبار عنهم بقوله تعالى : ﴿ أولئك ﴾ أي : البعداء البغضاء ﴿ شر ﴾ أي : شر الخلق ﴿ مكاناً ﴾ هو جهنم ﴿ وأضل سبيلاً ﴾ أي : أخطأ طريقاً من غيرهم وهو كفرهم ، ولما قال تعالى ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبي عدوّاً من المجرمين ﴾ ، وذكر ذلك في معرض التسلية له صلى الله عليه وسلم ذكر قصص جماعة من

الأنبياء ، وعرفه تكذيب أممهم زيادة في تسليته ، القصة الأولى : قصة موسى عليه السلام المذكورة في قوله تعالى:

﴿ ولقد آتينا ﴾ أي : بما لنا من العظمة ﴿ موسى الكتاب ﴾ أي : التوراة ﴿ وجعلنا معه أخاه هارون وزيراً ﴾ أي : معيناً ، فإن قيل : كونه وزيراً كالمنافي لكونه شريكاً له في النبوّة والرسالة ؟

أجيب : بأنه لا منافاة بين النبوّة والرسالة والوزارة قد كان يبعث في الزمن الواحد أنبياء متعددون ، ويؤمرون بأن يؤازر بعضهم بعضاً .

تنبيه : هارون بدل أو بيان أو منصوب على القطع ووزيراً مفعول ثان ، وقيل : حال والمفعول الثاني معه ويدل على رسالة هارون عليه السلام قوله تعالى:

(298/561)

﴿ فقلنا اذهبا إلى القوم ﴾ أي : الذين فيهم قوة وقدرة على ما يعانونه وهم القبط فرعون وقومه ﴿ الذين كذبوا بآياتنا ﴾ فذهبا إليهم بالرسالة فكذبوهما ﴿ فدمرناهم تدميراً ﴾ أي : أهلكناهم إهلاكاً أي : فأنت يا محمد لست أوّل من كذب من الرسل فلك أسوة بمن قبلك ، فإن قيل : الفاء للتعقيب والإهلاك لم يحصل عقب بعثة موسى وهارون إليهم بل

بعده بمدة مديدة ؟

أجيب : بأن فاء التعقيب محمولة هنا على الحكم بإهلاكهم لا على الوقوع أو على أنه على إرادة اختصار القصة فاقتصر على حاشيتيها أي : أولها وآخرها لأنهما المقصودان من القصة بطولها أعني إلزام الحجة ببعثة الرسل واستحقاق التدمير بتكذيبهم .

تنبيه : قوله تعالى : كذبوا بآياتنا إن حملنا تكذيب الآيات على الآيات الإلهية فهو ظاهر ، وإن حملناه على تكذيب آيات النبوّة فاللفظ ، وإن كان للماضي فالمراد به المستقبل ، القصة الثانية : قصة نوح عليه السلام المذكورة في قوله تعالى:

(299/561)

﴿ وقوم ﴾ أي : ودمرنا قوم ﴿ نوح لما كذبوا الرسل ﴾ كأنهم كذبوا نوحاً ومن قبله من الرسل صريحاً أو كان تكذيبهم لواحد منهم تكذيباً للجميع بالقوة ، لأن المعجزات هي البرهان على صدقهم وهي متساوية الأقدام في كونها خوارق لا يقدر على معارضتها فالتكذيب بشيء منها تكذيب للجميع أولم يروا بعثة الرسل أصلاً كالبراهمة وهم قوم يمنعون بعثة الرسل نسبوا إلى رجل يقال له برهام قد مهد لهم ذلك وقرره في عقولهم ، ولأنهم عللوا تكذيبهم بأنه من البشر فلزمهم تكذيب كل رسول من البشر ، ثم بين تعالى تدميرهم

بقوله تعالى : ﴿ أغرقناهم ﴾ قال الكلبي : أمطرنا عليهم السماء أربعين يوماً ، وأخرج ماء الأرض أيضاً في تلك الأربعين ، فصارت الأرض بحراً واحداً ﴿ وجعلناهم ﴾ أي : قوم نوح في ذلك ﴿ للناس آية ﴾ أي : لمن بعدهم عبرة ليعتبر كل من سلك طريقهم ﴿ وأعتدنا ﴾ أي : هيأنا في الآخرة ﴿ للظالمين ﴾ أي : للكافرين ، وكان الأصل لهم ولكنه تعالى أظهر تعميماً وتعليقاً للحكم بالوصف ﴿ عذاباً أليماً ﴾ أي : مؤلماً سوى ما يحل بهم في الدنيا .

القصة الثالثة : قصة هود عليه السلام المذكورة في قوله تعالى:

﴿ وعاداً ﴾ أي : ودمرنا عاداً قوم هود بالريح . القصة الرابعة : قصة صالح عليه السلام المذكورة في قوله : ﴿ وثموداً ﴾ أي : ودمرنا ثموداً قوم صالح بالصيحة . القصة الخامسة المذكورة في قوله تعالى : ﴿ وأصحاب الرس ﴾ أي : البئر التي هي غير مطوية أي : مبنية قال ابن جرير : والرس في كلام العرب كل محفور مثل البئر والقبر أي : ودمرناهم بالخسف .

(300/561)

واختلف في نبيهم ، فقيل : شعيب وقيل غيره ، كانوا قعوداً حولها فانهارت بهم وبمنازلهم فهلكوا جميعاً ، وقال الكلبي : الرس بئر بفلج اليمامة قتلوا نبيهم فأهلكهم الله تعالى وفلج بفتح الفاء واللام والجيم قرية عظيمة بناحية اليمن من مساكن عاد وبسكون اللام وادٍ

قريب من البصرة ، وقيل : الرس الأخدود ، وقيل : بئر بأنطاكية قتلوا فيها حبيباً النجار ، وقيل : أصحاب حنظلة بن صفوان كانوا مبتلين بالعنقاء وهي أعظم ما يكون من الطير سميت بذلك لطول عنقها ، وكانت تسكن جبلهم الذي يقال له : تخ ، قيل : هو بتاء فوقية ، فخاء معجمة أو مهملة ، وبياء تحتية وجيم وهي تنقض على صبيانهم فتخطفهم إن أعوزها الصيد فدعا عليها حنظلة فأصابتها الصاعقة ، ثم إنهم قتلوا حنظلة فأهلكوا .

﴿ وقروناً ﴾ أي : ودمرنا قروناً ﴿ بين ذلك ﴾ أي : الأمر العظيم المذكور وهو بين كل أمتين من هذه الأمم وقد يذكر الذاكر أشياء مختلفة ، ثم يشير إليها بذلك ويحسب الحاسب أعداداً متكاثرة ثم يقول : فذلك كيت وكيت على معنى فذلك المحسوب أو المعدود ، ثم قال الله تعالى : ﴿ كثيراً ﴾ وناهيك بما يقول فيه سبحانه وتعالى أنه كثير وأسند البغوي في تفسير أمة وسطاً في البقرة عن أبي سعيد الخدري قال : "قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً بعد صلاة العصر فما ترك شيئاً إلى يوم القيامة إلا ذكره في مقامه ذلك حتى إذا كانت الشمس على رؤوس النخل وأطراف الحيطان قال : إنه لم يبق من الدنيا فيما مضى إلا كما بقي من يومكم هذا ألا وإن هذه الأمة توفي سبعين أمة هي آخرها وأكرمها على الله عز وجل" ، ثم إنه تعالى قال تسلية لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم وتأسية وبياناً لشريعته بالعفو عن أمته:

﴿ وكلاً ﴾ أي : من هذه الأمم ﴿ ضربنا ﴾ أي : بما لنا من العظمة ﴿ له الأمثال ﴾ حتى وضح له السبيل وقام من غير شبهة الدليل ﴿ وكلاً تبرنا تتبيراً ﴾ أي : أهلكنا إهلاكاً ، وقال الأخفش : كسرنا تكسيراً ، وقال الزجاج : كل شيء كسرته وفتته فقد تبرته .

﴿ ولقد أتوا ﴾ أي : هؤلاء المكذبون من قومك ﴿ على القرية التي أمطرت ﴾ أي : وقع إمطارها ممن لا يقدر على الإمطار سواه بالحجارة ولذا قال تعالى : ﴿ مطر السوء ﴾ مصدر ساء وهي قرى قوم لوط ، قال البغوي : كانت خمس قرى ، فأهلك الله تعالى أربعاً منها لعملهم الفاحشة ، وبختنصر واحدة منهم وهي صغر وكان أهلها لا يعملون العمل الخبيث فإن قيل : لم عبر تعالى بالقرية وهي قرى ؟

أجيب : بأنه تعالى قال ذلك تحقيراً لشأنها في جنب قدرته تعالى وإهانة لمن يريد عذابه . ولانهماكهم على الفاحشة جميعهم حتى كانوا كأنهم شيء واحد وقوله تعالى: ﴿ أفلم يكونوا يرونها بل كانوا لا يرجون ﴾ أي : لا يخافون ﴿ نشوراً ﴾ أي : بعثاً بعد الموت ؛ لأنه استقر في أنفسهم اعتقادهم التكذيب بالآخرة واستمروا عليه قرناً بعد قرن حتى تمكن منهم ذلك تمكيناً لا ينفع معه الاعتبار إلا من شاء الله .

﴿ وإذا رأوك ﴾ أي : مع ما يعلمون من صدق حديثك وكرم أفعالك ولو لم تأتهم بمعجزة فكيف وقد أتيتهم بما بهر العقول ﴿ إن ﴾ أي : ما ﴿ يتخذونك إلا هزواً ﴾ أي : مهزوء

بك وعبر تعالى بالمصدر إشارة إلى مبالغتهم في الاستهزاء مع شدة بعده صلى الله عليه وسلم عن ذلك يقولون : ﴿ أهذا الذي بعث الله رسولاً ﴾ أي : في دعواه محتقرين له أن تأتيه الرسالة ، وقولهم .

(302/561)

﴿ إنْ ﴾ مخففة من الثقيلة أي : إنه ﴿ كاد ليضلنا ﴾ أي : يصرفنا ﴿ عن آلهتنا ﴾ أي : عن عبادتها بفرط اجتهاده في الدعاء إلى التوحيد وكثرة ما يورد مما سبق إلى الذهن أنها حجج ومعجزات ﴿ لولا أن صبرنا ﴾ أي : بما لنا من الاجتماع والتعاضد ﴿ عليها ﴾ أي : على التمسك بعبادتها قال الله تعالى : ﴿ وسوف يعلمون ﴾ أي : في حال لا ينفعهم فيه العمل ولا العلم وإن طالت مدة الإمهال في التمكين ﴿ حين يرون العذاب ﴾ عياناً في الآخرة ﴿ من أضل سبيلاً ﴾ أي : أخطأ طريقاً أهم أم المؤمنون ، ولما كان صلى الله عليه وسلم حريصاً على رجوعهم ولزوم ما ينفعهم واجتناب ما يضرهم سلاه تعالى بقوله تعالى متعجباً من حالهم:

﴿ أرأيت ﴾ أي : أخبرني ﴿ من اتخذ إلهه هواه ﴾ أي : أطاعه وبنى عليه دينه ، لا سمع حجة ولا نظر دليلاً فإن قيل : لم أخر هواه والأصل قولك : اتخذ الهوى إلهاً ؟

أجيب : بأنه ما هو إلا تقديم المفعول الثاني على الأول للعناية كما تقول : علمت منطلقاً زايداً لفضل عنايتك بالمنطلق ، ولما كان لا يقدر على صرف الهوى إلا الله تعالى تسبب عن شدة حرصه على هداهم قوله تعالى : ﴿ أفأنت تكون عليه وكيلاً ﴾ أي : حافظاً تحفظه من اتباع هواه لا قدرة لك على ذلك .

﴿ أم تحسب أن أكثرهم ﴾ أي : هؤلاء المدعوّين ﴿ يسمعون ﴾ أي : سماع من ينزجر ولو كان غير عاقل كالبهائم ﴿ أو يعقلون ﴾ أي : كالبهائم ما يرون ، وإن لم يكن لهم سمع حتى تطمع في رجوعهم باختيارهم من غير قسر فإن قيل : إنه تعالى لما نفى عنهم السمع والعقل فكيف ذمهم على الإعراض عن الدين وكيف بعث إليهم الرسول ، فإن من شرط التكليف العقل ؟

أجيب : بأنه ليس المراد أنهم لا يعقلون شيئاً بل المراد أنهم لم ينتفعوا بذلك العقل ، فهو كقول الرجل لغيره إذا لم يفهم : إنما أنت أعمى وأصم فإن قيل : لم خص الأكثر بذلك دون الكل ؟

أجيب : بأنه كان منهم من آمن ، ومنهم من عقل الحق فكابر استكباراً وخوفاً على الرياسة .

(303/561)

ولما كان هذا الاستفهام مفيداً للنفي استأنف ما أفهمه بقوله تعالى : ﴿ إن ﴾ أي : ما ﴿ هم إلا كالأنعام ﴾ أي : في عدم انتفاعهم بقرع الآيات آذانهم وعدم تدبرهم فيما شاهدوا من الدلائل والمعجزات ﴿ بل هم أضل ﴾ أي : منها ﴿ سبيلاً ﴾ لأنها تنقاد لمن يتعهدها ، وتميز من يحسن إليها ممن يسيء إليها ، وتطلب ما ينفعها وتجتنب ما يضرها وتهتدي لمراعيها ومشاربها ، وهؤلاء لا ينقادون لربهم ولا يعرفون إحسانه إليهم من إساءة الشيطان الذي هو عدوهم ، ولا يطلبون الثواب الذي هو أعظم المنافع ولا يتقون العقاب الذي هو أشد المضار والمهالك ، ولا يهتدون للحق الذي هو المشرع الهني والعذب الروي ، ولما بين تعالى جهل المعرضين عن دلائل التوحيد وبين فساد طريقهم ذكر أنواعاً من الدلائل على وجود الصانع أولها : الاستدلال بالنظر إلى حال الظل مخاطباً رأس المخلصين الناظرين هذا النظر حثاً لأهل وده على مثل ذلك بقوله تعالى:

﴿ ألم ترَ ﴾ أي : تنظر ﴿ إلى ربك ﴾ أي : إلى صنعه وقدرته ﴿ كيف مد الظل ﴾ وهو ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس بجعله ممدوداً ؛ لأنه ظل لا شمس معه ، كما قال تعالى في ظل الجنة : ﴿ وظل ممدود ﴾ (الواقعة ،)

(304/561)

إذ لم يكن معه شمس وإن كان بينهما فرق وهو الليل لأن ظل الأرض الممدود على قريب من نصف وجهها مدة تحجب نور الشمس عما قابل قرصها من الأرض حتى امتد بساطه وضرب فسطاطه كما حجب ظل ضلالهم أنوار عقولهم وغفلة طباعهم نفوذ أسماعهم ﴿ ولو شاء لجعله ﴾ أي : الظل ﴿ ساكناً ﴾ أي : دائماً ثابتاً لا يزول ولا تذهبه الشمس لاصقاً بأصل كل مظل من جبل وبناء وشجر غير منبسط فلم ينتفع به أحد ، سمى انبساط الظل وامتداده تحركاً منه وعدم ذلك سكوناً لكنه تعالى لم يشأ بل جعله متحركاً كما يسوق الشمس له ، وقال أبو عبيدة : الظل ما نسخته الشمس وهو بالغداة ، والفيء ما نسخ الشمس وهو بعد الزوال سمي فيئاً ؛ لأنه فاء من جانب المشرق إلى جانب المغرب ﴿ ثم جعلنا الشمس عليه ﴾ أي : الظل ﴿ دليلاً ﴾ أي : أن الناس يستدلون بالشمس وأحوالها في مسيرها على أحوال الظل من كونه ثابتاً في مكان أو زائلاً ومتسعاً أو متقلصاً فلو لم تكن الشمس لما عرف الظل ولولا النور لما عرفت الظلمة ، والأشياء تعرف بأضدادها .

﴿ ثم قبضناه ﴾ أي : الظل ﴿ إلينا ﴾ أي : إلى الجهة التي أردنا لا يقدر أحد غيرنا أن يحوله إلى جهة غيرها ، والقبض جمع المنبسط من الشيء ومعناه أن الظل يعم جميع الأرض قبل طلوع الشمس ، فإذا طلعت قبض الله الظل ﴿ قبضاً يسيراً ﴾ أي : على مهل ، وفي هذا القبض اليسير شيئاً بعد شيء من المنافع ما لم يعد ولا يحصى ، ولو قبض دفعة واحدة

لتعطلت أكثر مرافق الناس بالظل والشمس جميعاً ، وقيل : المراد من قبضها يسيراً قبضها عند قيام الساعة ، وذلك بقبض أسبابها وهي الأجرام التي تلقي الظلال ، وقوله تعالى : يسيراً كقوله تعالى : ﴿ حشر علينا يسير ﴾ (ق ،)

فإن قيل : ثم في هذين الموضعين كيف موقعها ؟

(305/561)

أجيب : بأن موقعها بيان تفاضل الأمور الثلاثة كان الثاني أعظم من الأول والثالث أعظم منهما تشبيهاً لتباعد ما بينهما في الفضل بتباعد ما بين الحوادث في الوقت ، ولما تضمنت هذه الآية الليل والنهار وهو النوع الثاني قال تعالى مصرحاً بهما :

﴿ وهو ﴾ أي : ربك المحسن إليك وحده ﴿ الذي جعل ﴾ دليلاً على الحق وإظهاراً للنعمة على الخلق ﴿ لكم الليل ﴾ أي : الذي تكامل به مد الظل ﴿ لباساً ﴾ أي : ساتراً للأشياء ، شبه ظلامه باللباس في ستره ﴿ والنوم سباتاً ﴾ أي : راحة للأبدان بقطع المشاغل ، وهو عبارة عن كونه موتاً أصغر طاوياً لما كان من الإحساس قاطعاً لما كان من الشعور والتقلب فيه دلائل لأهل البصائر ، قال البغوي وغيره : وأصل السبت القطع ، وفي جعله تعالى لذلك من الفوائد الدينية والدنيوية ما لا يعد ولا يحصى ، وكذا في قوله تعالى :

﴿ وجعل ﴾ أي : وحده ﴿ النهار نشوراً ﴾ أي : منشوراً فيه لابتغاء الرزق وغيره ، وفي ذلك إشارة إلى أن النوم واليقظة أنموذجان للموت والنشور . يحكى أن لقمان قال لابنه : يا بني كما تنام فتوقظ كذلك تموت فتنشر ، ثم ذكر النوع الثالث بقوله تعالى:

(306/561)

﴿ وهو ﴾ أي : وحده ﴿ الذي أرسل الرياح ﴾ وقرأه ابن كثير بالإفراد لإرادة الجنس وقرأه الباقون بالجمع لكونها تارة صبا وتارة دبوراً وتارة شمالاً وتارة جنوباً وغير ذلك ، ويسن الدعاء عند هبوب الريح ويكره سبها لخبر "الريح من روح الله تأتي بالرحمة وتأتي بالعذاب فإذا رأيتموها فلا تسبوها واسألوا الله خيرها ، واستعيذوا بالله من شرها" رواه أبو داود وغيره بإسناد حسن ، وقوله تعالى : ﴿ نشراً ﴾ قرأه نافع وابن كثير وأبو عمرو بضم النون والشين أي : ناشرات للسحاب ، وقرأه ابن عامر بضم النون وسكون الشين على التخفيف ، وقرأه عاصم بالباء الموحدة مضمومة وسكون الشين جمع بشور بمعنى مبشر ، وقرأه حمزة والكسائي بفتح النون وسكون الشين على أنه مصدر وصف به ﴿ بين يدي رحمته ﴾ أي : قدام المطر ، ولما كان الماء مسبباً عما تحمله الريح من السحاب أتبعه به بقوله تعالى : ﴿ وأنزلنا ﴾ أي : بما لنا من العظمة ﴿ من السماء ﴾ أي : من السحاب أو

الجرم المعهود ﴿ ماء ﴾ ثم أبدل منه بياناً للنعمة به ، فقال تعالى : ﴿ طهوراً ﴾ أي : طاهراً في نفسه مطهراً لغيره كما قال تعالى في آية أخرى : ﴿ ليطهركم به ﴾ ، فهو اسم لما يتطهر به كالوضوء لما يتوضأ به ، وكالسحور اسم لما يتسحر به والفطور اسم لما يفطر به . قال صلى الله عليه وسلم في البحر : "هو الطهور ماؤه الحل ميتته" أراد به المطهر فالماء المطهر ؛ لأنه يطهر الإنسان من الحدث والخبث .

(307/561)

وذهب بعض الأئمة إلى أن الطهور هو الطاهر حتى جوّز إزالة النجاسة بالمائعات الطاهرة مثل الخل ، وردّ بأنه لو جاز إزالة النجاسة بها لجاز إزالة الحدث بها ، وذهب بعض منهم إلى أن الطهور ما يتكرر به التطهير ، كالصبور اسم لمن يتكرر منه الصبر ، والشكور اسم لمن يتكرر منه الشكر ، حتى جوّز الوضوء بالماء الذي يتوضأ به مرة بعد مرة وردَّ بأن فعولاً يأتي اسماً للآلة كسحور لما يتسحر به كما مر فيجوز أن يكون طهور كذلك ، ولو سلم اقتضاؤه التكرر فالمراد جمعاً بين الأدلة فإن الصحابة رضي الله عنهم لم يجمعوا الماء في أسفارهم القليلة الماء ، بل عدلوا عنه إلى التيمم ثبوت ذلك لجنس الماء أو في المحل الذي كان يمر عليه فإنه يطهر كل جزء منه .

﴿ لنحيي به ﴾ أي : بالماء ﴿ بلدة ميتاً ﴾ أي : بالنبات وذكر ميتاً باعتبار المكان ﴿ ونسقيه ﴾ أي : بالماء وهو من أسقاه مزيد سقاه وهما لغتان قال ابن القطاع : سقيتك شراباً وأسقيتك ، والله تعالى أسقى عباده وأرضه ﴿ مما خلقنا أنعاماً ﴾ أي : إبلاً وبقراً وغنماً ﴿ وأناسي كثيراً ﴾ جمع إنسان وأصله أناسين فأبدلت النون ياء وأدغمت فيها الياء أو جمع أنسي وقدم تعالى النبات ؛ لأن به حياة الأنعام ، والأنعام على الإنسان ؛ لأن بها كمال حياته فإن قيل : لما خص الأنعام من بين ما خلق من الحيوان ؟

أجيب : بأن الطير والوحش تبعد في طلب الماء فلا يعوزها الشرب بخلاف الأنعام ولأنها قنية الأناسي وعامة منافعهم متعلقة بها ، فكان الإنعام عليهم بسقي أنعامهم كالإنعام بسقيهم .

فإن قيل : لما نكر الأنعام والأناسي ووصفها بالكثرة ؟

أجيب : بأن جل الناس منيخون بالقرب من الأودية والأنهار ومنابع الماء فبهم غنية عن سقي السماء وأعقابهم ، وهم كثير منهم لا يعيشون إلا بما ينزل الله من رحمته وسقيا سمائه ، وكذلك قوله تعالى : ﴿ لنحيي به بلدة ميتاً ﴾ (الفرقان ،)

يريد به بعض بلاد هؤلاء المتبعدين عن مظان الماء ، واختلف في عود الهاء في قوله تعالى:

﴿ ولقد صرفناه بينهم ﴾ على ثلاثة أوجه : أولها : قال الجمهور : إنها ترجع إلى المطر أي : صرفنا نزول الماء من وابل وطل وغير ذلك مرة ببلد ومرة ببلدة أخرى ، قال ابن عباس : ما عام بأمطر من عام آخر ، ولكن الله تعالى يصرفه في الأرض ، وقرأ هذه الآية وهذا كما روي مرفوعاً "ما من ساعة من ليل أو نهار إلا والسماء تمطر فيها فيصرفه الله تعالى حيث يشاء" ، وروي عن ابن مسعود يرفعه قال : "ليس من سنة بأمطر من أخرى ولكن الله تعالى قسم هذه الأرزاق فجعلها في السماء في هذا القطر ينزل منه كل سنة بكيل معلوم ووزن معلوم ، وإذا عمل قوم بالمعاصي حول الله ذلك إلى غيرهم ، فإذا عصوا جميعاً صرف الله ذلك إلى الفيافي والبحار" ، وروي أن الملائكة يعرفون عدد المطر مقداره في كل عام لأنه لا يختلف ولكن تختلف فيه البلاد ، ثانيها : قال أبو مسلم : الضمير راجع إلى المطر والسحاب والظلال ، وسائر ما ذكره الله من الأدلة ، ثالثها : صرفنا هذا القول بين الناس في القرآن وفي سائر الكتب والصحف التي أنزلت على الرسل عليهم الصلاة والسلام ، وهو ذكر إنشاء السحاب وإنزال المطر ﴿ ليذكروا ﴾ أي : ليتفكروا ويعملوا كمال القدرة وحق النعمة ، ويقوموا بشكره .

تنبيه : أصل يذكروا يتذكروا أدغمت التاء في الذال وقرأ حمزة والكسائي بسكون الذال ورفع الكاف مخففة ، والباقون بفتح الذال والكاف مشددتين ﴿ فأبى ﴾ أي : لم يرد ﴿ أكثر الناس ﴾ أي : بعبادتهم ﴿ إلا كفوراً ﴾ أي : جحوداً للنعمة وقلة الاكتراث بها وكفرانهم هو أنهم إذا مطروا قالوا : مطرنا بنوء كذا وهو بفتح النون وهمزة آخره وقت النجم الفلاني على عادة العرب في إضافة المطر إلى الأنواء فيكره أن يقول ذلك لإيهامه أن النوء فاعل المطر حقيقة ، فإن اعتقد أنه الفاعل له حقيقة كفر ، روى زيد بن خالد الجهني قال : "صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الصبح بالحديبية في أثر سماء كانت من الليل فلما انصرف أقبل على الناس فقال : هل تدرون ماذا قال ربكم الليلة ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم قال : قال أصبح من عبادي من هو مؤمن بي وكافر بي ، فأما من قال : مطرنا بنوء كذا وكذا فذاك كافر بي مؤمن بالكواكب ، وأما من قال : مطرنا بفضل الله ورحمته فذاك مؤمن بي وكافر بالكواكب" ، وأفاد تعليق الحكم بالباء أنه لو قال : مطرنا في نوء كذا لم يكره ، ونقل الشافعي عن بعض الصحابة أنه كان يقول عند المطر : مطرنا بنوء الفتح ، ثم يقرأ : ﴿ ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ﴾ (فاطر ،)

﴿ ولو شئنا لبعثنا ﴾ أي : بما لنا من العظمة ونفوذ الكلمة ﴿ في كل قرية نذيراً ﴾ أي :

رسولاً ينذرهم من البشر أو الملائكة أو غيرهم كما قسمنا المطر عليها وإنما قصرنا الأمر عليك وعظمناك به ، وأجللناك وفضلناك على سائر الرسل .

(310/561)

﴿ فلا تطع الكافرين ﴾ فيما قصدوا من التنفير عن الدعاء بما يبدونه من المقترحات أو يظهرون لك من المداهنة أو من القلق من صادع الإنذار ويخيلون لك أنك لو أقللت منه رجوا أن يوافقوك وقابل ذلك بالتشدد والتصبر ﴿ وجاهدهم ﴾ أي : بالدعاء ﴿ به ﴾ أي : القرآن الذي تقدم التحدث عنه في قوله تعالى : ولقد صرفناه ، أو بترك طاعتهم المدلول عليه بقوله تعالى : فلا تطع أو بالسيف والأقرب الأول ؛ لأن السورة مكية ، والأمر بالقتال ورد بعد الهجرة بزمان ﴿ جهاداً كبيراً ﴾ أي : جامعاً لكل المجاهدات الظاهرة والباطنة ؛ لأن في ذلك إقبال كثير من الناس إليك واجتماعهم عليك ، فيقوى أمرك ويعظم خطبك وتضعف شوكتهم وتنكسر سورتهم ، فإن مجاهدة السفهاء بالحجج أكبر من مجاهدة الأعداء بالسيف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ السراج المنير حـ 4 صـ 452 . 468 ﴾

(311/561)

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال العلامة نظام الدين النيسابورى :

التأويل : ﴿ ويوم تشقق السماء ﴾ سماء القلب من غمام البشرية وهو يوم سعادة الطالبين الصادقين ، ونزل ملائكة الصفات الروحانية ﴿ الملك ﴾ الحقيقي ﴿ يومئذ ﴾ ﴿ للرحمن ﴾ إذ لم يبق غيره ورجع إليه وذلك مقام الوحدة والفناء في الله والبقاء به : ﴿ وكان يوماً على الكافرين عسيراً ﴾ إذ لم يبق من صفات النفوس الكافرة وحظوظها أثر ولا عين : ﴿ ويوم يعض الظالم ﴾ نفسه وهو المشرك شركاً ظاهراً أو خفياً ﴿ على يديه ﴾ والآية حكمها عام في كل متحابين اجتمعا على معصية الله تعالى .

(312/561)

وعن مالك بن دينار : إنك إن تنقل الحجارة مع الأبرار خير من أن تأكل كل الخبيص مع الفجار . ﴿ لنثبت به فؤادك ﴾ بأن نخلق قلبك بقلب القرآن وكان بذر التوحيد أوقع في قلب النبي صلى الله عليه وسلم في سر ﴿ ألم نشرح لك صدرك ﴾ [الشرح : 1] وكان يتربى بما أنزل عليه بل على قلبه منجماً ، فلما أورق كان ورقه ﴿ الرحمن علم القرآن ﴾ [

الرحمن : 1] فلما أزهر كان زهره ﴿ فأوحى إلى عبده ما أوحى ﴾ [النجم : 10] فلما أثمر كانت ثمرته ﴿ فاعلم أنه لا إله إلا الله ﴾ [محمد : 19] ﴿ يحشرون على وجوههم ﴾ لأن توجههم إلى أسفل سافلي الطبيعة فيحشرون منكوسين إلى جهنم البعد عن الحضرة ﴿ الم تر إلى ربك ﴾ فيه أن نبينا صلى الله عليه وسلم رآه وقد قال لموسى ﴿ لن تراني ﴾ [الأعراف : 143] وذلك البقاء أنانيته ﴿ كيف مدّ الظل ﴾ عالم الأجسام ﴿ ولو شاء لجعله ساكناً ﴾ في كتم العدم ﴿ ثم جعلنا ﴾ شمس عالم الأرواح على وجود ذلك الظل دليلاً بأن كانت محركة لها إلى غاياتها المخلوقة هي لأجلها ، فعرف من ذلك أنه لولا الأرواح لم تخلق الأجساد ولم تتكون بالأجسام . وفي قوله : ﴿ ثم قبضناه إلينا ﴾ إشارة إلى أن كل مركب فإنه سيحل إلى بسائطه إذا حصل على كماله الأخير . وبوجه آخر الظل ما سوى نور الأنوار يستدل به على صانعه الذي هو شمس عالم الوجود وهذا شأن الذاهبين من غيره إليه . وفي قوله ﴿ ثم جعلنا ﴾ إشارة إلى مرتبة أعلى من ذلك وهي الاستدلال به على غيره كقوله : ﴿ أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد ﴾ [فصلت : 53] وهذه مرتبة الصديقين . وقوله ﴿ ثم قبضناه ﴾ كقوله ﴿ كل شيء هالك ﴾ [القصص : 88] ﴿ ألا إلى الله تصير الأمور ﴾ وبوجه آخر الظل هو حجاب الذهول والغفلة والشمس شمس التجلي المعروفة من افق العناية عند صباح الهداية : ﴿

ولو شاء لجعله ﴿ دائماً لا يزول وإنما يستدل على الذهول بالعرفان . وفي قوله : ﴿ ثم قبضناه ﴾ إشارة إلى أن الكشف التام يحصل بالتدريج عند

(313/561)

انقضاء مدة التكليف . ثم بين حكمة الإظلال بقوله : ﴿ وهو الذي جعل لكم ﴾ ليلة البشرية ﴿ لباساً ﴾ كيلا تحترقوا بدوام شمس تجلي الربوبية ، وجعل ليوم الغفلة راحة بعد سطوة التجلي ، وجعل نهار العرفان نشوراً أي حياة بنور الربوبية ﴿ وهو الذي أرسل ﴾ رياح الإشراق على قلوب الأحباب فتزعجها من المساكنات عند الستر فلا تستقر إلا بالكشف والتجلي ﴿ وأنزلنا ﴾ من سماء الكرم ﴿ ماء ﴾ حياة العرفان الذي يطهر قلوب المشتاقين عن الجنوح إلى المساكنات وما يتداخلها في بعض الأوقات من الغفلات ﴿ لنحيي به بلدة ﴾ القلوب اليمتة عن نور الله بنور الله ﴿ ونسقيه ﴾ من جملة مخلوقاتنا من هو على طبع الأنعام لغلبة الصفات الحيوانية عليه فيسقي زرع إيمانه بماء الرحمة والذكر كما قال صلى الله عليه وسلم " لا إله إلا الله تنبت الإيمان في القلب كما ينبت الماء البقلة " ونسقيه من الأنس من سكن إلى رياض الأنس يفطمه به عن مراضع الإنسانية إلى المشارب الروحانية ، ويطهره عن وصمة الملاحظات ويذيقه طع المكاشفات . ﴿ ولقد صرفنا ﴾

الذي هو ماء حياة القلوب بينهم ﴿ ليذكروا ﴾ به أيام جوار الحق وأوطانهم الحقيقية ﴿ فأبى أكثر ﴾ الناسين تلك المعاهدة والمشاهدة ﴿ إلا كفوراً ﴾ بنعمة القرآن وما عرفوا قدرها والله المستعان وإليه المآب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 5 صـ 247 . 248 ﴾

(314/561)

من الإعجاز العلمى فى القرآن

للدكتور زغلول النجار

بحث بعنوان :

من أسرار القرآن

الإشارات الكونية في القرآن الكريم ومغزي دلالتها العلمية

(50) . . . وأنزلنا من السماء ماء طهورا

بقلم الدكتور : زغلول النجار

هذا النص القرآني المعجز جاء في مطلع الثلث الأخير من سورة الفرقان , وهي سورة مكية , وآياتها سبع وسبعون , وقد سميت بهذا الاسم لاستهلالها بتعظيم الله وتمجيده , الذي

أنزل القرآن الكريم علي خاتم أنبيائه ورسله , ليكون للعالمين نذيرا , وفارقا بين الحق والباطل في أمور الدين بركائزه الأساسية : العقيدة , والعبادة , والأخلاق , والمعاملات , وهي من القضايا التي لايمكن للإنسان ـ مهما أوتي من أسباب الذكاء والفطنة ـ أن يضع لنفسه فيها ضوابط صحيحة .

وبما أن القران الكريم هو آخر الرسالات السماوية , وأتمها , وأكملها , فقد تعهد ربنا (تبارك وتعالي) بحفظه حفظا كاملا : كلمة كلمة , وحرفا حرفا , بنفس لغة الوحي : في صفائه الرباني , وإشراقاته النورانية , وصدق انبائه في كل ماجاء به , ليبقي إلي قيام الساعة فارقا بين الحق والباطل , وبين الإيمان والكفر , ومن هنا كانت تسمية هذه السورة الكريمة . . . . . ! !

ويدور المحور الرئيسي لسورة الفرقان حول قضية العقيدة , ومن ركائزها التوحيد الخالص لله الخالق , والإيمان به , وبملائكته , وكتبه ورسله , وباليوم الآخر .

وتؤكد السورة الكريمة أن لله ملك السماوات والأرض , وأنه (تعالي) لم يتخذ ولدا , ولم يكن له شريك في الملك , وأنه (سبحانه) خلق كل شيء فقدره تقديرا , بحكمته , ووفق إرادته ; وعلي الرغم من وضوح تلك الحقيقة , فإن كثيرا من الخلق المكلف قد اتخذ من دونه آلهة . . . لايخلقون شيئا وهم يخلقون , ولايملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا , ولايملكون موتا ولا حياة ولانشورا وتنعي سورة الفرقان

علي هؤلاء الكافرين ـ قدامي ومعاصرين ـ تشككهم في نبوة رسول الله (صلي الله عليه وسلم) , وفي الكتاب الذي أنزل إليه , وتكذيبهم بالآخرة , وتطاولهم علي الله ورسوله , بطلب الخوارق من المعجزات حتي يؤمنوا , من مثل طلب إنزال الملائكة , أو رؤية الله جهرة . , أو إلقاء كنز من السماء لرسول الله (صلي الله عليه وسلم) , أو أن تكون له جنة يأكل منها , وعلي الرغم من أنه لم يحقق لهم شيئًا من ذلك فقد اتهموه (شرفه الله) بالسحر , وبترديد أساطير الأولين , وتأمره السورة الكريمة بمقابلة تلك الدعاوي الباطلة بترديد قول الحق (تبارك وتعالي) : قل أنزله الذي يعلم السر في السماوات والأرض إنه كان غفورا رحيما (الفرقان :6) .

وتعرض سورة الفرقان لبعض مشاهد الآخرة من صور العذاب الذي يلقاه الكافرون المكذبون بالدين , وصور النعيم الذي يلقاه عباد الله المتقون , وشتان ما بين الحالين . . . ! !

ومن قبيل التخفيف علي رسول الله (صلي الله عليه وسلم) تقرر السورة الكريمة أن جميع من سبقوه من الأنبياء والمرسلين كان لهم أعداء من المجرمين الكافرين بالله ورسالاته . . . ,

وتكرر استنكار تطاول الكافرين علي الله ورسوله باعتراضهم علي تنزل القرآن الكريم منجما , وكان كل من الكتب السابقة قد أنزل جملة واحدة .

وعرضت سورة الفرقان لقصص عدد من الأمم السابقة , ولتفاعل كل من تلك الأمم مع من أرسلوا إليهم من أنبياء الله , وعما كان لذلك التفاعل من عقاب أو ثواب , وذلك من أمثال قوم موسي وهارون , وقوم نوح , وأقوام عاد وثمود , وأصحاب الرس , وقوم لوط (علي نبينا وعليه السلام) , وأقوام بين هؤلاء جميعا علي مر القرون الكثيرة , وتؤكد سورة الفرقان اتخاذ الكافرين لأهوائهم أربابا من دون الله لعدم استماعهم إلي كلمة الحق , أو محاولة تدبرها بعقولهم , وبذلك ينحطون بأنفسهم إلي ما دون مستويات الأنعام . . . ! !

فيتطاولون علي الله (

(316/561)

تعالي) بانكار وجوده . . . . ! ! , وتأمر السورة رسول الله (صلي الله عليه وسلم) . . وبالتالي تأمر كل من تبعه من المؤمنين إلي يوم الدين - بضرورة مخالفة الكافرين , وجهادهم بالقرآن الكريم جهادا كبيرا ; وتؤكد له أنه ما أرسل إلا مبشرا ونذيرا للناس كافة , كما تأمره بضرورة التوكل علي الله (الحي الذي لايموت) والتسبيح بحمده لأنه (تعالي) هو الخبير

بذنوب عباده .

وتنتهي سورة الفرقان إلي استعراض عدد من صفات عباد الرحمن في مقابلة رائعة بين صفات أهل الحق وصفات أهل الباطل , ودعوة من الله لعباده بضرورة التحلي بمكارم الأخلاق حتي يستحق العبد التكريم بنسبته إلي الله فيكون من عباد الرحمن .

وتؤكد السورة الكريمة جزاء هذه الطائفة من خلق الله الصالحين بالخلود في جنات النعيم , في حفاوة وتكريم بالغين من الله وملائكته ; وتنتهي سورة الفرقان بتأكيد هوان البشرية علي الله , لولا وجود تلك الطائفة من عباده الصالحين الذين يعرفون مدلول الألوهية الحقة فيجأرون إلي الله (تعالي) بالدعاء مخبتين . . . ! !

أما المكذبون , الكافرون , المتطاولون علي الله ورسوله , فكان لزاما علي الله (سبحانه وتعالي) أن يجزيهم بسوء أعمالهم ما يستحقون .

هذا , وقد استشهدت سورة الفرقان علي صدق ماجاء بها من بيان بعدد كبير من الآيات الكونية التي منها مايلي :

(1) أن ملك السماوات والأرض لله الواحد الأحد , الذي لم يتخذ ولدا , ولم يكن له شريك في الملك .

(2) أن الله (تعالي) خلق كل شيء فقدره تقديرا .

(3) أن تشقق السماء بالغمام من علامات انهيار النظام الكوني في الآخرة .

(4) أن مد الظل وقبضه من الأدلة العلمية علي دوران الأرض حول محورها أمام الشمس ; وأتبعت الآيات ذلك بتخصيص الليل للراحة والنوم والسكن , وتخصيص النهار لليقظة والجري وراء المعايش .

(5) أن الله (تعالي) هو الذي يرسل الرياح بشرا بين يدي

(317/561)

رحمته , وأنه (سبحانه وتعالي) هو الذي ينزل من السحاب (السماء) ماء طهورا , ليحيي به أرضا ميتة , ويسقيه مما خلق أنعاما وأناسي كثيرا .

(6) أن الله (تعالي) هو الذي . . . . مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج وجعل بينهما برزخا وحجرا محجورا .

(7) أن الله (تعالي هو الذي . . . خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا . . . .

(8) أن الله تعالي هو الذي . . . . خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام . . . .

(9) أن الله تعالي هو الذي . . . جعل في السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا ; وفي ذلك تفريق علمي دقيق بين الضوء المنبثق من مصدره , والنور الناتج عن انعكاسه من فوق سطح مظلم .

(10) أن الله (تعالي) هو الذي . . . جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا ; وفي ذلك إشارة ضمنية رقيقة إلي دوران الأرض حول محورها أمام الشمس .

وكل قضية من هذه القضايا تحتاج إلي مناقشة موضوعية خاصة بها , ولذلك فسوف يقتصر الحديث هنا علي النقطة الخامسة فقط من هذه النقاط العشر , وهي قضية إرسال الرياح مبشرات بين يدي رحمة الله , وإنزاله الماء الطهور من السماء ; وقد سبق لنا مناقشة قضية إرسال وتصريف السحاب بإرادة الله وعلمه وحكمته , ولا أري داعيا لإعادة ذلك هنا , وعليه فسوف أقصر الحديث في هذا المقال علي إنزال الماء الطهور من السماء , وقبل الولوج في ذلك لابد من استعراض سريع لأقوال عدد من المفسرين السابقين في شرح هذه الآية الكريمة قبل التعرض لشرح دلالاتها العلمية .

من أقوال المفسرين

في تفسير قوله (تعالي) :

وهو الذي أرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته وأنزلنا من السماء ماء طهورا (الفرقان :48)

ذكر ابن كثير (يرحمه الله) مانصه : . . . وهذا أيضا من قدرته التامة وسلطانه العظيم , وهو أنه (تعالي) يرسل الرياح مبشرات , أي : بمجيء السحاب بعدها , والرياح أنواع : فمنها مايثير السحاب , ومنها مايحمله , ومنها مايسوقه , ومنها مايكون بين يدي السحاب مبشرا , ومنها ما يلقح السحاب فيمطر , ولهذا قال (تعالي) : وأنزلنا من السماء ماء طهورا . . . .

وذكر صاحبا تفسير الجلالين (رحمهما الله) مانصه :(وهو الذي أرسل الرياح) . . . (نشرا بين يدي رحمته) متفرقة قدام المطر , وفي قراءة بسكون الشين تخفيفا , وفي أخري بسكونها وفتح النون مصدر , وفي أخري بشرا بسكونها وضم الموحدة بدل النون أي : مبشرات , ومفرد الأولي (نشور) ك (رسول) , والأخيرة (بشير) ك (قدير) , و (أنزلنا من السماء ماء طهورا مطهرا .

وذكر صاحب الظلال (رحمه الله رحمة واسعة) مانصه : والحياة علي هذه الأرض كلها تعيش علي ماء المطر , إما مباشرة , وإما بما ينشئه من جداول وأنهار علي سطح الأرض , ومن ينابيع وعيون وآبار من المياه الجوفية المتسربة إلي باطن الأرض منه , ولكن الذين يعيشون مباشرة علي المطر هم الذين يدركون رحمة الله الممثلة فيه إدراكا صحيحا كاملا , وهم يتطلعون إليه شاعرين بأن حياتهم كلها متوقفة عليه , وهم يترقبون الرياح التي يعرفونها تسوق السحب , ويستبشرون بها , ويحسون فيها رحمة الله . إن كانوا ممن شرح الله

صدورهم للإيمان - .

والتعبير يبرز معني الطهارة والتطهير :(وأنزلنا من السماءماء طهورا) وهو بصدد ما بالماء من حياة .

وذكر صاحب صفوة البيان لمعاني القرآن (رحمه الله) مانصه :(بشرا) مبشرات بالغيث .

وذكر أصحاب المنتخب في تفسير القرآن الكريم ما نصه :

وهو الذي

سخر الرياح فتسوق السحب وتبشر الناس بالمطر الذي هو رحمة منه لهم , ولقد أنزلنا من السماء ماء طاهرا مطهرا مزيلا للأنجاس والأوساخ . . . .

(319/561)

وجاء في تعليق الخبراء العلميين بالهامش مايلي : وأنزلنا من السماء ماء طهورا : في هذه الآية الكريمة يمن الله (تعالي) علي البشر بإنزال الماء طاهرا إليهم من السماء , وتتضمن الآية الإشارة إلي أن ماء المطر عند بدء تكونه يكون في أعلي درجات النقاء , وعلي الرغم من أن حمله بعد ذلك مما في الجو من أجسام وذرات فإنه يكون في أعلي درجات الطهارة .

وذكر صاحب صفوة التفاسير (جزاه الله خيرا) ما نصه :(وهو الذي أرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته) أي : أرسل الرياح مبشرة بنزول الغيث والمطر , وأنزلنا من السماء ماء طهورا , أي : أنزلنا من السحاب الذي ساقته الرياح ماء طاهرا مطهرا تشربون وتتطهرون به , قال القرطبي : وصيغة (طهور) بناء مبالغة في (طاهر) فاقتضي أن يكون طاهرا مطهرا .

مدلول الآية الكريمة في ضوء العلوم المكتسبة

أولا : سبق القرآن الكريم بالإشارة إلي أصل ماء الأرض :

في الوقت الذي تضاربت فيه آراء العلماء حول أصل ماء الأرض جاء القرآن الكريم مؤكدا أن الله (تعالي) قد أخرج كل ماء الأرض من داخلها , ودوره بين الأرض والسماء في عملية مستمرة دائمة من أجل تطهيره وإنزاله ماء طهورا علي هيئة المطر والبرد ليجري علي سطح الأرض في أشكال وهيئات متعددة , تلعب أدوارا مهمة في تشكيل سطح الأرض , وشق الفجاج والسبل فيه , وتفتيت صخوره , وتكوين تربته , وتركيز ثرواته , وتوفير قدر من الرطوبة في كل من التربة والأجزاء السفلي من الغلاف الغازي للأرض .

وفي ذلك يقول الحق (تبارك وتعالي) :

(1) والأرض بعد ذلك دحاها آخرج منها ماءها ومرعاها (النازعات :31,30) .

(2) أفرأيتم الماء الذي تشربون . * أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون * لو نشاء

جعلناه

أجاجا فلولا تشكرون (الواقعة :68.70) .

(320/561)

---

(3) وهو الذي يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته حتي إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتي لعلكم تذكرون (الأعراف :57) .

(4) وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين (الحجر :22)

(5) الله الذي يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفا فتري الودق يخرج من خلاله فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون (الروم :48)

(6) ألم تر أن الله يزجي سحابا ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما فتري الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار (النور :43)

(7) والله الذي أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه إلي بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور (فاطر :9)

(8) إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث . . . . . *(لقمان :34)

(9) وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا

(النبأ :14) .

(10) وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه في الأرض وإنا علي ذهاب به لقادرون . . . (المؤمنون :18)

(11)(ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع في الأرض . . . . . (الزمر :21)

ثانيا : تضارب آراء العلماء حول أصل ماء الأرض :

تضاربت آراء العلماء حول أصل الماء علي سطح الأرض تضاربا كبيرا , ولم يحاول أحدهم ربط ذلك بماء المطر علي الرغم من وضوح ذلك . ففي الحضارة اليونانية القديمة اقترح أفلاطون (428ـ348 ق . م .) وجود خزانات جوفية هائلة علي هيئة عدد من الممرات والقنوات تحت سطح الأرض تقوم بتغذية جميع أشكال الماء علي سطح الأرض من جداول وأنهار , وبحيرات وبحار ومحيطات وغيرها , وتخيل أن هذا الخزان المائي الهائل ليس له قاع إذ يتخلل الأرض كلها , وأن الماء يمور فيه بصفة مستمرة .

أما

أرسطو (385 ـ 322 ق . م) فقد رفض هذه الفكرة علي أساس أن مثل هذا الخزان لابد أن يكون أكبر من حجم الأرض لكي يتمكن من الإبقاء علي جميع الأنهار متدفقة , ونادي بأن هواء باردا في داخل الأرض يتحول إلي الماء كما يتحول الهواء البارد حول الأرض , واقترح أن تضاريس الأرض العالية تعمل عمل قطع الإسفنج الهائلة حيث تتشبع بهذا الماء المتكون في داخل الأرض من تكثف الهواء الجوفي البارد , وأنها تقطر هذا الماء فتغذي به الأنهار والجداول والينابيع .

كذلك نادي فيزوفيوس في القرن الأول الميلادي (وهو من مفكري الحضارة الرومانية) بأن الأودية بين الجبال أكثر حظا من الجبال في غزارة ماء المطر , وأن الثلج يبقي فوق الأرض لفترة أطول في المناطق المكسوة بالغابات الكثيفة , وأنه عند انصهاره يتحول إلي ماء فيتخلل فتحات الأرض , ويصل في النهاية إلي أسافل الجبال التي تسيل منها الجداول وتتدفق .

وظل العديد من العلماء حتي آواخر القرن السابع عشر الميلادي مقتنعين بفكرة الكهوف الكبيرة في داخل الأرض كمصدر رئيسي لماء الأنهار , أو أن الماء المتجمع تحت سطح الأرض يأتي من البحر , وقد لخص هذه الآراء الخاطئة عالم أوروبي باسم أثناسيوس كيرثر

(1602-1680 م) مفترضا أن البحر مرتبط بجبال جوفاء تتدفق منها الأنهار والجداول . ولم يستطع أحد من علماء الغرب ومفكريه تصور إمكانية أن تكون زخات المطر المتفرقة علي مدار السنة كافية لابقاء الأنهار وغيرها من مجاري الماء متدفقة به علي مرور الزمن . علي الرغم من أن فرنسيا باسم برنارد باليسي (1510 م -1590 م) كان قد أعلن أن الأنهار والينابيع لايمكن أن يكون لها مصدر غير ماء المطر , وأشار إلي أن الماء تبخره حرارة الشمس , وتحمل الرياح الجافة التي تضرب الأرض هذا البخار فتتشكل السحب التي تتحرك في كل الاتجاهات كالبشائر التي يرسلها الله , وعندما تدفع الرياح تلك الأبخرة يسقط الماء فوق

(322/561)

أجزاء من الأرض , وعندما يشاء الله تذوب تلك السحب التي ليست سوي كتلة من الماء , وتتحول إلي مطر يسقط علي الأرض , وعندما يواصل هذ الماء نزوله من خلال شقوق الأرض ويستمر في النزول حتي يجد منطقة مغلفة بالص

خور الكثيفة فيستقر عندها علي هيئة مخزون فوق هذا القاع الذي يتدفق منه الماء عندما يجد فتحة توصله إلي سطح الأرض علي هيئة ينابيع أو جداول أو أنهار .

وواضح أن باليسي هذا قد نقل هذا الكلام عن ترجمات معاني القرآن الكريم التي كانت قد توافرت للأوروبيين في زمانه , أو عن بعض كتابات المسلمين التي قام الأوروبيون بترجمتها في بدء عصر النهضة الأوروبية إلي كل من اللاتينية واليونانية بعد نهبها من المكتبات الإسلامية في كل من الاندلس وإيطاليا وصقلية , أو خلال الحروب الصليبية , وذلك لوضوح النبرة الإسلامية في كتابته .

ثالثا : أهمية الماء للحياة علي الأرض :

كوكب الأرض هو أغني كواكب المجموعة الشمسية بالماء الذي تقدر كميته علي سطح ذلك الكوكب بنحو 1,4 بليون كيلومتر مكعب , ويتوزع أغلب هذا الماء (97,22%) في البحار والمحيطات , ويتجمد أغلب الباقي (في حدود 2,15%) علي هيئة سمك هائل من الجليد فوق قطبي الأرض , وعلي قمم الجبال , وما بقي بعد ذلك ونسبته لاتكاد تتعدي (0,63%) من مجموع ماء الأرض يتوزع بين الماء المختزن تحت سطح الأرض (وتبلغ نسبته (0,613%) , والمخزون في البحيرات الداخلية , والجاري في الأنهار والجداول , والمتمثل في رطوبة كل من التربة والجو (ونسبته في حدود 0.027%) .

ويغطي ماء الأرض حاليا نحو (71%) من مساحة سطحها المقدرة بنحو (510 ملايين كيلومتر مربع) , بينما تشغل اليابسة حوالي (29%) من تلك المساحة فقط , والصراع بين اليابسة والماء كان – ولايزال – من سنن الله في الأرض .

والماء سائل شفاف , وهو في نقائه لا لون له , ولا رائحة , ولا طعم , ويتركب جزيء الماء من ذرتين من

(323/561)

ذرات غاز الهيدروجين , وذرة واحدة من ذرات غاز الأوكسجين , وترتبط هذه الذرات الثلاث مع بعضها البعض برابطتين تساهميتين تشكلان فيما بينهما زاوية قدرها (105 من الدرجات) , وقد جعل ذلك لجزيء الماء قطبين كهربيين يحمل أحدهما شحنتين موجبتين , ويحمل الآخر شحنة سالبة مكافئة , وهذه الخاصية وفرت للماء – بإرادة خالقه – من الصفات الطبيعية والكيميائية ما جعل منه أقوي مذيب معروف , وبالتالي جعله من أهم ضرورات الحياة , فأجساد الكائنات الحية يغلب علي تركيبها الماء الذي تتراوح نسبته في جسم الانسان بين (71%) في الانسان البالغ و (93%) في الجنين ذي الأشهر المعدودة .

هذا بالاضافة إلي أن جميع الأنشطة الحيوية من مثل الأيض والتمثيل الضوئي لايمكن أن تتم في غيبة الماء في أجساد كل من النبات والحيوان والإنسان .

فالنبات علي سبيل المثال يأخذ غذاءه من التربة عن طريق مابها من عناصر ومركبات

ذائبة في الماء , وهذه العصارة الغذائية يمتصها النبات بواسطة شعيراته الجذرية , فترتفع في الأوعية الخشبية للنبات بقدرة خاصة أعطاها الله (تعالي) للماء تعرف باسم الخاصية الشعرية , تعين العصارة الغذائية علي الارتفاع إلي أعلي في داخل النبتة حتي تصل إلي قمتها مهما كان ارتفاعها , وخاصية ثانية تعرف باسم التوتر السطحي تعين الماء علي التماسك في أسطح أفقية فلا ينهار منها بسهولة .

وبعد الاستفادة بالقدر اللازم من الماء , يطلق النبات الزائد عن حاجته إلي الجو بالبخر بعدد من العمليات الحيوية التي أهمها النتح . وبالمثل فإن كلا من الإنسان والحيوان يأخذ القدر اللازم له من الماء عن طريق الطعام والشراب , ويطرد الزائد عن حاجته بواسطة عدد من العمليات الحيوية التي أهمها التنفس , العرق , الدموع , الإخراج , وغيرها .

رابعا : دورة الماء حول الأرض :

تبخر أشعة الشمس كما هائلا من ماء الأرض فيرتفع علي هيئة بخار يعلق بأجزاء

من الغلاف الغازي للأرض , ثم يتكثف في أجزاء منها علي هيئة قطيرات دقيقة من الماء مكونا السحب باذن الله .

ويقدر مايرتفع من الأرض إلي غلافها الغازي سنويا بنحو (380,000 كيلومترا مكعبا) من الماء , يتبخر أغلبه من أسطح البحار والمحيطات (320,000 كيلومترا مكعبا) , ويرتفع الباقي من اليابسة (60,000 كيلومترا مكعبا) .

ويعود كل مايتبخر من ماء الأرض إليها ثانية (380,000 كيلومترا مكعبا في السنة) ينزل منه بتقدير الله (284,000 كم 3) فوق البحار والمحيطات ,(96.,000 كم 3) فوق اليابسة , وفي عودته إلي الأرض يصرفه ربنا (تبارك وتعالي) حسب مشيئته وعلمه , ومن نماذج هذا التصريف الإلهي البديع أن الفرق بين البخر من أسطح البحار والمحيطات والمطر فوقها (ناقص 36,000 كم 3) هو نفسه الفرق بين الإمطار علي اليابسة والبخر الصاعد منها (زائد 36,000 كم 3) والزائد علي اليابسة يفيض إلي البحار والمحيطات للمحافظة علي مستوي منسوب الماء فيها في كل فترة زمنية محددة .

هذه الدورة المائية المعجزة حول الأرض استمرت منذ أن أخرج الله (تعالي) ماء الأرض من داخلها إلي اليوم الراهن وإلي أن يرث الله الأرض ومن عليها , وبهذه الدورة يتحرك الماء من الغلاف المائي للأرض إلي غلافها الهوائي ليتطهر مما يتجمع فيه من ملوثات ومواد ذائبة فيه وعالقة به , وتمتد هذه الدورة من نحو الكيلومتر تحت سطح الأرض إلي ارتفاع يقدر بنحو خمسة عشر كيلومترا فوق مستوي سطح البحر .

وبخار الماء عادة لايكاد يري إلا إذا تعرض لعمليات التكثف علي هيئة قطيرات دقيقة من

الماء تظل عالقة بأجزاء من الغلاف الغازي للأرض علي هيئة الندي أو الضباب بالقرب من سطح الأرض , وعلي هيئة السحب المختلفة في نطاق التغيرات المناخية المحيطة بالأرض , وقد تصل تلك السحب إلي الأجزاء السفلي من نطاق التطبق الذي يعلوه .

وقد تتحول قطرات الماء في هذه المستويات

(325/561)

العليا إلي كل من البرد والثلج , أو تنمو إلي أحجام تمكنها من النزول إلي الأرض مطرا حسب مشيئة الله وتقديره .

وعند نزول المطر إلي الأرض قد يتدفق فوق سطحها علي هيئة السيول الجارفة التي قد تؤدي إلي دمار شامل في المناطق الصحراوية , وإلي فيضانات مغرقة بالأنهار والجداول .

كذلك يتسلل قدر من ماء المطر إلي التربة , أو يصل إلي طبقات صخرية عالية المسامية والنفاذية فيتحرك رأسيا بالجاذبية الأرضية إلي أسفل حتي يصل إلي مخزون الماء تحت سطح الأرض فيعمل علي تجديد عذوبته , وتعويض مايفيض أو يضخ منه .

وهذه الدورة المائية المعجزة يتم بواسطتها تطهير الماء , وتلطيف جو الأرض , وتوفير نسبة معينة من الرطوبة , في كل من غلافها الغازي وتربتها فتسمح للكائنات الحية بما تحتاجه منها

.

وبواسطة هذه الدورة المائية تتم تسوية سطح الأرض , وشق الفجاج والسبل فيه , ويتم تفتيت الصخور , وتكوين كل من التربة والصخور الرسوبية , وخزن قدر من ماء المطر فيها وفي غيرها من صخور قشرة الأرض , وتركيز عدد من الخامات الاقتصادية .

ماء السماء ماء طهور

إن دورة الماء حول الأرض لها فوائد كثيرة من أبرزها تطهير هذا الماء من عوالقه وشوائبه المختلفة , فحينما ينزل ماء المطر علي الأرض ويجري علي سطحها فانه يحمل معه من نفاياتها كما كبيرا إلي أحواض البحار والمحيطات في عملية تنظيف وتطهير مستمرة لسطح الأرض , وغسل لأدرانها المختلفة , والماء في جريانه علي سطح الأرض يذيب كل مايمكن اذابته من مكوناتها من مختلف العناصر والمركبات , كما يحمل ملايين الاطنان من العوالق غير المذابة والتي تترسب علي طول مجاري الانهار والأودية ودالاتها وفوق قيعان البحار والمحيطات والبحيرات وغيرها من التجمعات المائية , وفي هذه الأوساط المائية يحيا ويموت بلايين الكائنات الحية ولذلك يتعفن الماء غير الجاري في التجمعات المائية المحدودة بسرعة كبيرة وبدرجات أقل

في البحار الواسعة والمحيطات , ويزيد من تلوث هذه الأوساط المائية مايدفع إليها من مخلفات المصانع والمنازل .

وحينما تبخر أشعة الشمس هذا الماء فإنه يتطهر مما فيه من الملوثات , ويصعد إلي الطبقات الدنيا من الغلاف الغازي علي هيئة بخار ماء نقي طاهر من كل ماكان فيه من أدران وأوساخ وأملاح .

وهذه هي عملية التطهير الرئيسية لماء الأرض , ولذلك فان أنقي صورة للماء الطبيعي هي ماء المطر , علي الرغم من أنه عند نزوله من السماء قد يذيب نسبة ضئيلة من مكونات الغلاف الغازي للأرض كما قد يحمل معه نسبة لاتكاد تدرك من ذرات بعض الأملاح اللازمة لصحة الإنسان وغيره من الكائنات الحية , وذلك لأن الماء الصافي تماما قد يكون ضارا بجسم الانسان , ولايفسد ماء السماء إلا الملوثات التي قد يطلقها الإنسان , وذلك من مثل أكاسيد الكبريت التي تسبب نزول مايسمي بالأمطار الحمضية أو إطلاق بعض الغبار المشع كالذي ينتج من التجارب النووية أو من التسرب من المنشآت القائمة علي مثل هذا النشاط كالمفاعلات النووية من مثل ماحدث في كل من مفاعل تشرنوبل النووي في الاتحاد السوفيتي السابق (ابريل 1986 م) والذي أدي إلي سقوط أمطار مليئة بالاشعاع عبر كل من أوروبا والمشرق العربي وأثر علي كل من الإنسان والحيوان والنبات في المنطقة ,

ومفاعل جزيرة الأميال الثلاثة (ThreeMilesIsland) , ومفاعلات شمال اسكتلندا قبل وبعد ذلك التاريخ .

والرسوبيات الملحية التي تقدر بملايين الأطنان بين مختلف التتابعات الصخرية المكونة لقشرة الأرض هي من بقايا عملية تطهير ماء الأرض بتبخيره ثم تكثيفه في الغلاف الغازي للأرض بطريقة مستمرة , ونسب الملوحة المتباينة في كل مياه الأرض المالحة والمتزايدة بمرور الزمن هي من نواتج عملية التبخير تلك وهي مستمرة ما بقيت الأرض حتي لا يفسد ماؤها بتراكم الأملاح والنفايات وافرازات الكائنات الحية المختلفة وتكدس بقاياها بعد

موتها , وتحلل تلك البقايا وتعفنها . وعلي ذلك فالمصدر الرئيسي للماء النقي علي سطح الأرض هو ماء المطر .

وحتي الماء المخزون تحت سطح الأرض فان ملوحته تزداد باستمرار مع الزمن لإذابته من أملاح الصخور المختزن فيها أو لتبخره , وتركيز نسبة ما به من أملاح مذابة , ولا تتجدد عذوبة هذا الماء ونسبة الأوكسجين فيه إلا بما يصل إليه من ماء المطر .

من هذا الاستعراض يتضح بجلاء أن القرآن الكريم قد وصف في عدد من آياته حقيقة

اخراج كل ماء الأرض – علي كثرته – من داخل الأرض , وهي حقيقة لم يدركها الانسان إلا في العقود المتأخرة من القرن العشرين , كما وصف دورة الماء حول الأرض بدقة علمية فائقة وأثبت أن مختلف صور الماء علي سطح الأرض ناتج من هذه الدورة المائية التي يطهر بها ربنا (تبارك وتعالي) هذا السائل المهم والذي يعتبر ضرورة من ضرورات الحياة بطريقة مستمرة عن طريق تبخيره إلي الغلاف الغازي المحيط بالأرض ثم تكثيفه منه وانزاله ماء طهورا بتقدير من الله (تعالي) وحسب مشيئته وارادته .

وهذه حقائق لم تصل إلي علم الانسان إلا بعد نزول القرآن الكريم بأكثر من عشرة قرون علي الأقل , ولم تثبت علميا إلا في خلال القرون الثلاثة الماضية , وحتي وصولها في هذا التاريخ إلي علم الانسان يعتقد أن مصدره كان القرآن الكريم , وأحاديث خاتم الأنبياء والمرسلين (صلي الله عليه وسلم) التي نقلت إلي الحضارة الغربية عبر عمليات الترجمة من التراث الإسلامي في كل من بلاد الأندلس , وصقلية , وإيطاليا , وبلاد الشام في أثناء الحروب الصليبية .

وفي ذلك من الاثباتات المادية القاطعة بأن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق وأن سيدنا محمد (صلي الله عليه وسلم) كان موصولا بالوحي , ومعلما من قبل خالق السماوات والأرض , علي الرغم من كفر الكافرين , ومحاجة المعاندين , وادعاءات المبطلين , فالحمد لله الذي انزل القرآن (انزله

(328/561)

بعلمه) , وتعهد بحفظه فحفظه بنصه ومعناه ومعجزاته , وبلغة وحيه في صفائه الرباني واشراقاته النورانية التي لاينكرها إلا جاحد , وصلي الله وسلم وبارك علي سيدنا محمد وعلي آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلي يوم الدين والحمد لله رب العالمين أولا وآخرا وقبل وبعد كل شيء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الإشارات الكونية في القرآن الكريم ومغزي دلالتها العلمية .

بقلم الدكتور : زغلول النجار ﴾ .

(329/561)

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى الجهد بالفتح والضم)

وهو الطَّاقة والمَشَقَّة .

وقيل بالفتح : المشقَّة ، وبالضمّ الْوُسْع .

وقيل : الجهد : ما يَجْهَد الإنسان .

قوله تعالى ﴿ لاَ يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ ﴾ ﴿ وَأَقْسَمُواْ بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ﴾ أَى حَلفوا واجتهدوا فى الحلفِ أَن يأْتوا به على أَبلغ ما فى وُسْعهم .

والاجتهاد : أَخْذ النَّفس ببذل الطَّاقة ، وتحمّل المشقَّة فى العبادة .

يقال جَهَدت رأْيى واجتهدت : أَتعبته بالفكر .

والجهاد والمجاهدة : استفراغ الوُسْع فى مدافعة العدُوّ .

قال صلَّى الله عليه وسلَّم "المجاهِد مَن جاهد نفسه فى طاعة الله" وكان إِذا رجع من الغَزْو يقول : "رجعنا من الجهاد الأَصغر إِلى الجهاد الأَكبر" وقال "أَفضل الجهادِ النَّفس" وقال للنّساءِ "لكنَّ أَفضل الجهاد : حجّ مبرور" وسأَله رجل عن الخروج إِلى الغَزْو فقال "أَوالدِاك فى الأَحياءِ ؟ قال : بلى .

قال : ففيهما فجاهِدْ" .

قال الشاعر :

*يا من يجاهد غازيا أَعداءَ دين الله * يرجو أَن يعان ويُنْصرا *

*هلاَّ غشِيت النفس غزواً إِنها * أَعدى عدوّك كى تفوز وتظفرا *

*مهما عنَيت جهادها وعنادها * فلقد تعاطيت الجاهد الأَكبرا *

وقال آخر فى الجهد ومعنييه :

*تعاليت عن قدر المدائح صاعداً * فسيّان عفو القول عندك والجَهْد *

*وإنى لأَدرى أَنَ وصفك زائد * على منطقى لكن على الواصف الجُهْد *

*وإنّ قليل القول يكثر وَقْعُه * إذا عُرِفت فيه الموالاة والودّ *

وورد فى القرآن على معان :

الأَول : مجاهدة الكفَّار والمنافقين بالبرهان والحجّة ﴿ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ ﴾

﴿ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيراً ﴾ .

الثانى : جهاد أَهل الضَّلالة بالسّيف والقتال ﴿ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ ﴾

﴿ هَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ .

(330/561)

الثالث : مجاهدة مع النفس ﴿ وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ ﴾ .

الرابع : مجاهدة مع الشيطان بالمخالفة طمعاً فى الهداية

﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ .

الخامس : جهاد مع القلب لنيل الوصْل والقُرب ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ

اجْتَبَاكُمْ﴾ .

والحقّ أَن يقال : المجاهدة ثلاثة أَضرب : مجاهدة العدوّ الظَّاهر ، ومجاهدة الشيطان ، ومجاهدة النَّفْس .

ويدخل الأَضرب الثلاثة فى ﴿ وَجَاهِدُوا فى اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ ﴾ وفى الحديث : "جاهدوا أَهواءَكم كما تجاهدون أَعداءَكم" والمجاهدة تكون باليد واللِّسان .

قال صلَّى الله عليه وسلَّم : "جاهدوا الكفَّار بأَيديكم وأَلسنتكم" . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 2 صـ 401.403 ﴾

(331/561)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثانى والستون بعد الخمسمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/562)

الجزء الثانى والستون بعد الخمسمائة

من الآية ﴿ 53 ﴾ من سورة الفرقان

وحتى الآية ﴿ 60 ﴾ من نفس السورة

(4/562)

قوله تعالى ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا (53) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ

رَبُّكَ قَدِيرًا (54) وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا (55) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما ذكر تصريف الفرقان ، ونشره في جميع البلدان ، بعد إثارة الرياح ونشر السحاب ، وخلط الماء بالتراب ، لجمع النبات وتفريقه ، أتبعه – تذكيراً بالنعمة ، وتحذيراً من إحلال النقمة – الحجز بين أنواع الماء الذي لا أعظم امتزاجاً منه ، وجمع كل نوع منها على حدته ، ومنعه من أن يختلط بالآخر مع اختلاط الكل بالتراب المتصل بعضه ببعض ، فقال عائداً إلى أسلوب الغيبة تذكيراً بالإحسان بالعطف على ضمير " الرب " في آية الظل : ﴿ وهو ﴾ أي وحده ﴿ الذي مرج البحرين ﴾ أي الماءين الكثيرين الواسعين بأن جعلهما مضطربين كما تشاهدونه من شأن الماء ؛ وقال الرازي : خلى بينهما كأنه أرسلهما في مجاريهما كما ترسل الخيل في المرج ، وأصل المرج يدل على ذهاب ومجيء واضطراب والتباس .

(5/562)

ولما كان الاضطراب موجباً للاختلاط ، وكانت " ال " دائرة بين العهد والجنس ، تشوف السامع إلى السؤال عن ذلك ، فأجيب بأن المراد جنس الماء الحلو والملح ، لأن البحر في الأصل الماء الكثير ، وبأنه سبحانه منعهما من الاختلاط ، مع الموجب له في العادة ، بقدرته الباهرة ، وعظمته القاهرة ، فقال : ﴿ هذا عذب ﴾ أي حلو سائغ ﴿ فرات ﴾ أي شديد العذوبة بالغ الغاية فيها حتى يضرب إلى الحلاوة ، لا فرق بين ما كان منه على وجه الأرض وما كان في بطنها ﴿ وهذا ملح ﴾ شديد الملوحة ﴿ أجاج ﴾ أي مر محرق بملوحته ومرارته ، لا يصلح لسقي ولا شرب ، ولعله أشار بأداة القرب في الموضعين تنبيهاً على وجود الموضعين ، مع شدة المقاربة ، لا يلتبس أحدهما بالآخر حتى أنه إذا حفر على شاطىء البحر الملح بالقرب منه جداً خرج الماء عذباً جداً ﴿ وجعل ﴾ أي الله سبحانه ﴿ بينهما برزخاً ﴾ أي حاجزاً من قدرته مانعاً من اختلاطهما .

ولما كانا يلتقيان ولا يختلطان ، كان كل منهما بالاختلاط في صورة الباغي على الآخر ، فأتم سبحانه تقرير النعمة في منعهما الاختلاط بالكلمة التي جرت عادتهم بقولها عند التعوذ ، تشبيهاً لكل منهما بالمتعوذ ، ليكون الكلام – مع أنه خبر – محتملاً للتعوذ ، فيكون من أحسن الاستعارات وأشهدها على البلاغة فقال : ﴿ وحجراً ﴾ أي منعاً ﴿ محجوراً ﴾ أي ممنوعاً من أن يقبل رفعاً ، كل هذا التأكيد إشارة إلى جلالة هذه الآية وإن

كانت قد صارت لشدة الإلف بها معرضاً عنها إلى الغاية ، لتعرف بها قدرته ، وتشكر نعمته .

(6/562)

ولما ذكر تعالى قدرته في منع الماء من الاختلاط ، أتبعه القدرة على خلطه ، لئلا يظن أنه ممتنع ، تقريراً للفعل بالاختيار ، وإبطالاً للقول بالطبائع ، فقال معبراً بالضمير كما تقدمه حثاً على استحضار الأفعال والصفات التي تقدمت ، لتعرف الحيثية التي كرر الضمير لأجلها : ﴿ وهو ﴾ أي وحده ﴿ الذي خلق من الماء ﴾ بخلطه مع الطين ﴿ بشراً ﴾ كما تشاهدونه يخلق منه نباتاً وشجراً وورقاً وثمراً ﴿ فجعله ﴾ أي بعد ذلك بالتطوير في أطوار الخلقة ، والتدوير في أدوار التربية ﴿ نسباً ﴾ أي ذكراً ينسب إليه ﴿ وصهراً ﴾ أي أنثى يصاهر - أي يخالط بها إلى الذكر ، فقسم هذا الماء بعد التطوير إلى ذكر وأنثى كما جعل ذلك الماء قسمين : عذبا وملحاً ، وخلط ماء الذكر بماء الأنثى متى أراد فصور منه آدمياً ، ومنعه من ذلك إذا أراد ، كما أنه ميز بين العذب والملح ويخلط بينهما إذا أراد بعلمه الشامل وقدرته التامة ﴿ وكان ربك ﴾ أي المحسن إليك بإرسالك وإنزال هذا الذكر إليك ﴿ قديراً ﴾ على كل شيء قدرته على ما ذكر من إبداع هذه الأمور المتباعدة من مادة

واحدة فهو يوفق من يشاء فيجعله عذب المذاق ، سهل الأخلاق ، ويخذل من يشاء فيجعله مرير الأخلاق كثير الشقاق ، أو ملتبس الأخلاق ، عريقاً في النفاق ، فارغب إلى هذا الرب الشامل القدرة ، التام العلم .

ولما أثبت له بهذه الأدلة القدرة على كل شيء ، قال معجباً منهم في موضع الحال من " ربك " عوداً إلى تهجين سيرتهم في عبادة غيره ، معبراً بالمضارع ، إشارة إلى أنهم لو فعلوا ذلك مرة لكان في غاية العجب ، فكيف وهو على سبيل التجديد والاستمرار ؟ ومصوراً لحالهم زيادة في تبشيعها : ﴿ ويعبدون ﴾ أي الكفرة ﴿ من دون ﴾ أي ممن يعلمون أنه في الرتبة دون ﴿ الله ﴾ المستجمع لصفات العظمة ، بحيث إنه لا ضر ولا نفع إلا وهو بيده .

(7/562)

ولما كان هذا السياق لتعداد نعمه سبحانه ، وكان الحامل للإنسان على الإذعان رجاء الإحسان ، أو خوف الهوان ، وكان رجاء الإحسان مقبلاً به إلى المحسن في السر والإعلان ، قدم النفع فقال : ﴿ ما لا ينفعهم ﴾ أي بوجه .

ولما كان الخوف إنما يوجب الإقبال ظاهراً فقط ، أتبعه قوله : ﴿ ولا يضرهم ﴾ أي أصلاً في إزالة نعمة من نعم الله عنهم ، فلا أسخف عقلاً ممن يترك من بيده كل نفع وضر وهو يتقلب

في نعمه ، في يقظته ونومه ، وأمسه ويومه ، ويقبل على من لا نفع بيده ولا ضر أصلاً ؛ وأظهر في موضع الضمير بياناً للوصف الحامل على ما لا يفعله عاقل ، وأفرد تحقيراً لهم فقال :

﴿ وكان الكافر ﴾ مع علمه بضعفه وعجزه .

ولما كان الكافر لا يمكن أن يصافي مسلماً ما دام كافراً ، وكانت مصافاته لغيره حاصلة إما بالفعل أو بالقوة ، عدت مصارمته لغيره عدماً ، فكانت مصارمته خاصة بأولياء الله ، وكان ذلك أشد لذمه ، دل عليه بتقديم الجار فقال : ﴿ على ربه ﴾ أي المحسن إليه لا غيره ﴿ ظهيراً ﴾ معيناً لشياطين الإنس والجن على أولياء الله ، والتعبير ب " على " دال على أنه وإن كان مهيناً في نفسه حقيراً فاعل فعل العالي على الشيء القوي الغليظ الغالب له ، المعين عليه ، من قولهم : ظهر الأرض لما علا منها وغلظ ، وأمر ظاهر لك ، أي غالب ، والظاهر : القوي والمعين ، وذلك لأنه يجعل لما يعبده من الأوثان نصيباً مما تفرد الله بخلقه ، ثم يجعل لها أيضاً بعض ما كان سماه لله ، ويعاند أولياء الله من الأنبياء وغيرهم ، وينصب لهم المكايد والحروب ، ويؤذيهم بالقول والفعل ، مع علمه بأن الله معهم لما يشاهدونه من خرقه لهم العوائد ، فكان هذا فعل من لا يعبأ بالشيء ﴿ لقد استكبروا في أنفسهم وعتو عتواً كبيراً ﴾ [الفرقان : 21] ﴿ أن لا تعلوا على الله ﴾ [الدخان : 19] وهو في الحقيقة تهكم بالكفار ، لأنهم يفعلون ما يلزم عليه هذا اللازم الذي لا يدور في خلد عاقل . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 327 . 330 ﴾

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ ملح ﴾ بفتح الميم وكسر اللام كحذر أو لأنه مقصور مالح وكذلك في " فاطر " : قتيبة ﴿ يأمرنا ﴾ على الغيبة : حمزة وعلي ﴿ سرجاً ﴾ بضمتين : حمزة وعلي وخلف . ﴿ أن يذكر ﴾ من الذكر : حمزة وخلف . ﴿ يقتروا ﴾ بضم التاء : حمزة وعلي وخلف وعاصم سوى المفضل ، وبضم الياء وكسر التاء من الإقتار : أبو جعفر ونافع وابن عامر والمفضل . الباقون بفتح الياء وكسر التاء . ﴿ يضاعف ﴾ ﴿ ويخلد ﴾ بالرفع فيهما من المضاعفة ومن الخلود : أبو بكر وحماد مثله ، ولكن يخلد مجهولاً من الإخلاد : المفضل ﴿ يضعف ﴾ بالتشديد والرفع ﴿ ويخلد ﴾ بالرفع من الخلود : ابن عامر مثله ولكن بالجزم فيهما : ابن كثير ويعقوب وزيد . الآخرون كالأول ولكن بالجزم فيهما . ﴿ فيهي ﴾ بإشباع الكسرة : ابن كثير وحفص : ﴿ يبدل ﴾ من الإبدال : البرجمي ﴿ وذريتنا ﴾ على التوحيد : أبو عمرو وعلي وخلف وعاصم والمفضل : ﴿ ويلقون ﴾ بفتح الياء وسكون اللام وتخفيف القاف من اللقاء : حمزة وعلي وخلف

وعاصم سوى حفص والمفضل . الباقون بضم الياء وفتح اللام وتشديد القاف من باب التفعيل .

(9/562)

الوقوف : ﴿ نذيراً ﴾ 5 والوصل أولى للفاء ﴿ كبيراً ﴾ 5 أجاجر ج لعطف الجملتين المتفقتين مع العارض ﴿ محجوراً ﴾ 5 ﴿ وصهراً ﴾ 5 ﴿ قديراً ﴾ 5 ﴿ ولا يضرهم ﴾ ط ﴿ ظهيراً ﴾ 5 ﴿ نذيراً ﴾ 5 ﴿ سبيلاً ﴾ 5 ﴿ بحمده ﴾ ط ﴿ خبيراً ﴾ 5 ج لأن الذي يصلح صفة للحي والوقف على العرش على تقدير هو الرحمن إذ لا وقف عليه ايضاً بناء على أن ﴿ الرحمن ﴾ بدل من المستتر في ﴿ استوى ﴾ ويصلح أن يكون ﴿ الذي ﴾ مبتدأ ﴿ والرحمن ﴾ خبره ﴿ خبيراً ﴾ 5 ﴿ وما الرحمن ﴾ 5 قد قيل : ولا وجه له لأن الكل مقول قالوا ﴿ نفوراً ﴾ 5 سجدة ﴿ منيراً ﴾ 5 ﴿ شكوراً ﴾ 5 ﴿ سلاماً ﴾ 5 ﴿ وقياماً ﴾ 5 ﴿ جهنم ﴾ ق قد قيل : والوصل أولى لاتحاد القائل ﴿ غراماً ﴾ 5 كذلك ﴿ ومقاماً ﴾ 5 ﴿ قواماً ﴾ 5 ﴿ ولا يزنون ﴾ ج للشرط مع واو العطف ﴿ أثاماً ﴾ 5 لمن قرأ ﴿ يضاعف ﴾ بالرفع على الاستئناف دون الجزم على إبدال الجملة من الجملة لتقارب معنييهما ﴿ مهاناً ﴾ 5 لا

وقد يوقف على جعل إلا بمعنى " لكن " والوصل أولى لأن " لكن " تقتضي الوصل أيضاً ﴿ حسنات ﴾ ط ﴿ رحيماً ﴾ 5 ﴿ متاباً ﴾ 5 ﴿ الزور ﴾ 5 لا ﴿ كراماً ﴾ 5 ﴿ عمياناً ﴾ 5 ﴿ إماماً ﴾ 5 ﴿ وسلاماً ﴾ 5 لا لاتصال الحال ﴿ فيها ﴾ ط ﴿ ومقاماً ﴾ 5 ﴿ دعاؤكم ﴾ ج لاختلاف الجملتين ﴿ لزاماً ﴾ 5 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 5 صـ 249 . 250 ﴾

(10/562)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾

اعلم أن هذا هو النوع الرابع من دلائل التوحيد وقوله : ﴿ مَرَجَ البحرين ﴾ أي خلاهما وأرسلهما يقال : مرجت الدابة إذا خليتها ترعى ، وأصل المرج الإرسال والخلط ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فَهُمْ فِى أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴾ [ق : 5] سمى الماءين الكبيرين الواسعين بحرين . قال ابن عباس : مرج البحرين ، أي أرسلهما في مجاريهما كما ترسل الخيل في المرج وهما يلتقيان ، وقوله : ﴿ هذا عَذَبٌ فُرَاتٌ ﴾ والمقصود من الفرات البليغ في العذوبة حتى (

يصير) إلى الحلاوة ، والأجاج نقيضه ، وأنه سبحانه بقدرته يفصل بينهما ويمنعهما التمازج ، وجعل من عظيم اقتداره برزخاً حائلاً من قدرته ، وههنا سؤالات :

السؤال الأول : ما معنى قوله : ﴿ وَحِجْراً مَّحْجُوراً ﴾ ؟ الجواب : هي الكلمة التي يقولها المتعوذ وقد فسرناها ، وهي ههنا واقعة على سبيل المجاز ، كأن كل واحد من البحرين يتعوذ من صاحبه ويقول له حجراً محجوراً ، كما قال : ﴿ لاَّ يَبْغِيَانِ ﴾ [الرحمن : 20] أي لا يبغي أحدهما على صاحبه بالممازجة فانتفاء البغي (ثمة) كالتعوذ ، وههنا جعل كل واحد منهما في صورة الباغي على صاحبه ، فهو يتعوذ منه وهي من أحسن الاستعارات .

(11/562)

السؤال الثاني : لا وجود للبحر العذب ، فكيف ذكره الله تعالى ههنا ؟ لا يقال : هذا مدفوع من وجهين : الأول : أن المراد منه الأودية العظام كالنيل وجيحون الثاني : لعله جعل في البحار موضعاً يكون أحد جانبيه عذباً والآخر ملحاً ، لأنا نقول : أما الأول فضعيف لأن هذه الأودية ليس فيها ملح ، والبحار ليس فيها ماء عذب ، فلم يحصل ألبتة موضع التعجب وأما الثاني فضعيف ، لأن موضع الاستدلال لا بد وأن يكون معلوماً ، فأما بمحض

التجويز فلا يحسن الاستدلال ، لأنا نقول المراد من البحر العذب هذه الأودية ، ومن الأجاج البحار الكبار ، وجعل بينهما برزخاً ، أي حائلاً من الأرض ، ووجه الاستدلال ههنا بين ، لأن العذوبة والملوحة إن كانت بسبب طبيعة الأرض أو الماء ، فلا بد من الاستواء ، وإن لم يكن كذلك فلا بد من قادر حكيم يخص كل واحد من الأجسام بصفة خاصة معينة .

﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا (54) ﴾

واعلم أن هذا هو النوع الخامس من دلائل التوحيد وفيه بحثان :

الأول : ذكروا في هذا الماء قولين : أحدهما : أنه الماء الذي خلق منه أصول الحيوان ، وهو الذي عناه بقوله : ﴿ والله خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مّن مَّاء ﴾ [النور : 45] والثاني : أن المراد النطفة لقوله : ﴿ خُلِقَ مِن مَّاء دَافِقٍ ﴾ [الطارق : 6] ، ﴿ مّن مَّاء مَّهِينٍ ﴾ [المرسلات : 20] .

البحث الثاني : المعنى أنه تعالى قسم البشر قسمين ذوي نسب ، أي ذكوراً ينسب إليهم ، فيقال فلان بن فلان ، وفلانة بنت فلان ، وذوات صهر ، أي إناثاً (يصاهرن) ونحوه ، قوله تعالى : ﴿ فَجَعَلَ مِنْهُ الزوجين الذكر والأنثى ﴾ [القيامة : 39] ، ﴿ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيراً ﴾ حيث خلق من النطفة الواحدة نوعين من البشر الذكر والأنثى .

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا (55) ﴾

واعلم أنه تعالى لما شرح دلائل التوحيد عاد إلى تهجين سيرتهم في عبادة الأوثان ، وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

قيل المراد بالكافر أبو جهل لأن الآية نزلت فيه ، والأولى حمله على العموم ، لأن خصوص السبب لا يقدح في عموم اللفظ ، ولأنه أوفق بظاهر قوله : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ ﴾ .

المسألة الثانية :

ذكروا في الظهير وجوهاً : أحدها : أن الظهير بمعنى المظاهر ، كالعوين بمعنى المعاون ، وفعيل بمعنى مفاعل غير (غريب) ، والمعنى أن الكافر يظاهر الشيطان على ربه بالعداوة .

فإن قيل كيف يصح في الكافر أن يكون معاوناً للشيطان على ربه بالعداوة ؟ قلنا إنه تعالى ذكر نفسه وأراد رسوله كقوله : ﴿ إِنَّ الذين يُؤْذُونَ اللهَ ﴾ [الأحزاب : 57] وثانيها : يجوز أن يريد بالظهير الجماعة ، كقوله : ﴿ وَالْمَلَئِكَةُ بَعْدَ ذلك ظَهِيرٌ ﴾ [التحريم : 4] كما جاء الصديق والخليط ، وعلى هذا التفسير يكون المراد بالكافر الجنس ، وأن بعضهم مظاهر لبعض على إطفاء نور (دين) الله تعالى ، قال تعالى : ﴿ وإخوانهم يَمُدُّونَهُمْ فِى

الغى ﴾ [الأعراف : 202] ، وثالثها : قال أبو مسلم الأصفهاني : الظهير من قولهم : ظهر فلان بحاجتي إذا نبذها وراء ظهره ، وهو من قوله تعالى : ﴿ واتخذتموه وَرَاءكُمْ ظِهْرِيّاً ﴾ [هود : 92] ويقال فيمن يستهين بالشيء : نبذه وراء ظهره ، وقياس العربية أن يقال مظهور ، أي مستخف به متروك وراء الظهر ، فقيل فيه ظهير في معنى مظهور ، ومعناه هين على الله أن يكفر الكافر وهو تعالى مستهين بكفره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 24 صـ 87.89 ﴾

(13/562)

وقال الجصاص :

وقَوْله تَعَالَى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنْ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا ﴾ يَجُوزُ أَنْ يُرِيدَ بِهِ الْمَاءَ الَّذِي خَلَقَ مِنْهُ أَصْلَ الْحَيَوَانِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾ وَقَوْلُهُ : ﴿ وَاَللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ ﴾ وَيَجُوزُ أَنْ يُرِيدَ بِهِ النُّطْفَةَ الَّتِي خَلَقَ مِنْهَا وَلَدَ آدَمَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا ﴾ قَالَ طَاوُسٌ : " الرَّضَاعَةُ مِنْ الصِّهْرِ " وَقَالَ الضَّحَّاكُ رِوَايَةً : (النَّسَبُ الرَّضَاعُ وَالصِّهْرُ الْخُتُونَةُ) وَقَالَ الْفَرَّاءُ : (النَّسَبُ الَّذِي لَا يَحِلُّ نِكَاحُهُ

وَالصِّهْرُ النَّسَبُ الَّذِي يَحِلُّ نِكَاحُهُ كَبَنَاتِ الْعَمِّ) .

وَقِيلَ : (إنَّ النَّسَبَ مَا رَجَعَ إلَى وِلَادَةٍ قَرِيبَةٍ وَالصِّهْرَ خَلْطَةٌ تُشْبِهُ الْقَرَابَةَ) .

وَقَالَ الضَّحَّاكُ : " النَّسَبُ سَبْعَةُ أَصْنَافٍ " ذَكَرُوا فِي قَوْلِهِ : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ ﴾ إلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ ﴾ وَالصِّهْرُ خَمْسَةُ أَصْنَافٍ ذَكَرُوا فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَأُمَّهَاتُكُمْ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ ﴾ إلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمْ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ ﴾ .

(14/562)

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : وَالْمُتَعَارَفُ فِي الْأَصْهَارِ أَنَّهُمْ كُلُّ ذِي رَحِمٍ مَحْرَمٍ مِنْ نِسَاءِ مَنْ أُضِيفَ إلَيْهِ ذَلِكَ ؛ وَلِذَلِكَ قَالَ أَصْحَابُنَا فِيمَنْ أَوْصَى لِأَصْهَارِ فُلَانٍ أَنَّهُ لِكُلِّ ذِي رَحِمٍ مَحْرَمٍ لِنِسَاءِ فُلَانٍ ، وَهُوَ الْمُتَعَارَفُ مِنْ مَفْهُومِ كَلَامِ النَّاسِ ، قَالَ : وَالْأَخْتَانُ أَزْوَاجُ الْبَنَاتِ وَكُلُّ ذَاتِ مَحْرَمٍ مِنْ الْمُضَافِ إلَيْهِ الْخَتْنِ ، وَكُلُّ ذِي رَحِمٍ مَحْرَمٍ مِنْ الْأَزْوَاجِ أَيْضًا ؛ وَقَدْ يُسْتَعْمَلُ الصِّهْرُ فِي مَوْضِعِ الْخَتْنِ فَيُسَمُّونَ الْخَتْنَ صِهْرًا ، قَالَ الشَّاعِرُ : سَمَّيْتُهَا إذْ وُلِدَتْ تَمُوتُ وَالْقَبْرُ صِهْرٌ ضَامِنٌ زَمِيتُ فَأَقَامَ الصِّهْرَ مَقَامَ الْخَتْنِ ، وَهُوَ مَحْمُولٌ عَلَى الْمُتَعَارَفِ مِنْ ذَلِكَ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(15/562)

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنْ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّك قَدِيرًا ﴾ .

فِيهَا مَسْأَلَتَانِ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : فِي النَّسَبِ : وَهُوَ عِبَارَةٌ عَنْ مَزْجِ الْمَاءِ بَيْنَ الذَّكَرِ وَالْأُنْثَى عَلَى وَجْهِ الشَّرْعِ .

فَإِنْ كَانَ بِمَعْصِيَةٍ كَانَ خَلْقًا مُطْلَقًا ، وَلَمْ يَكُنْ نَسَبًا مُحَقَّقًا ، وَلِذَلِكَ لَمْ يَدْخُلْ تَحْتَ قَوْلِ : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ ﴾ بِنْتُهُ مِنْ الزِّنَا ؛ لِأَنَّهَا لَيْسَتْ بِبِنْتٍ فِي أَصَحِّ الْقَوْلَيْنِ لِعُلَمَائِنَا ، وَأَصَحُّ الْقَوْلَيْنِ فِي الدِّينِ قَدْ بَيَّنَّاهُ فِي مَسَائِلِ الْخِلَافِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : قَوْلُهُ : ﴿ وَصِهْرًا ﴾ أَمَّا النَّسَبُ فَهُوَ مَا بَيْنَ الْوَطْأَيْنِ مَوْجُودًا ، وَأَمَّا الصِّهْرُ فَهُوَ مَا بَيْنَ وَشَائِجِ الْوَاطِئَيْنِ مَعًا ، الرَّجُلِ وَالْمَرْأَةِ ، وَهُمْ الْأَحْمَاءُ وَالْأَخْتَانُ .

وَالصِّهْرُ يَجْمَعُهُمَا لَفْظًا وَاشْتِقَاقًا ، وَإِذَا لَمْ يَكُنْ نَسَبٌ شَرْعًا فَلَا صِهْرَ شَرْعًا ، فَلَا يُحَرِّمُ الزِّنَا بِبِنْتٍ أُمًّا ، وَلَا بِأُمٍّ بِنْتًا ، وَمَا يُحَرِّمُ مِنْ الْحَلَالِ لَا يُحَرِّمُ مِنْ الْحَرَامِ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ امْتَنَّ بِالنَّسَبِ وَالصِّهْرِ عَلَى عِبَادِهِ ، وَرَفَعَ قَدْرَهُمَا ، وَعَلَّقَ الْأَحْكَامَ فِي الْحِلِّ وَالْحُرْمَةِ عَلَيْهِمَا ، فَلَا يَلْحَقُ الْبَاطِلُ بِهِمَا وَلَا يُسَاوِيهِمَا .

(16/562)

وَقَدْ رُوِيَ عَنْ مَالِكٍ أَنَّ الزِّنَا يُحَرِّمُ الْمُصَاهَرَةَ ، وَهَذَا كِتَابُهُ الْمُوَطَّأُ الَّذِي كَتَبَهُ بِخَطِّهِ ، وَأَمْلَاهُ عَلَى طَلَبَتِهِ ، وَقَرَأَهُ مِنْ صَبْوَتِهِ إلَى مَشْيَخَتِهِ لَمْ يُغَيِّرْ فِيهِ ذَلِكَ ، وَلَا قَالَ فِيهِ قَوْلًا آخَرَ .

وَاكْتُبُوا عَنِّي هَكَذَا .

وَابْنُ الْقَاسِمِ الَّذِي يُحَرِّمُ الْمُصَاهَرَةَ بِالزِّنَا قُرِئَ ضِدُّ ذَلِكَ عَلَيْهِ فِي الْمُوَطَّأِ ، فَلَا يُتْرَكُ الظَّاهِرُ لِلْبَاطِنِ ، وَلَا الْقَوْلُ الْمَرْوِيُّ مِنْ أَلْفٍ لِلْمَرْوِيِّ مِنْ وَاحِدٍ ، وَآحَادٍ ، وَقَدْ قَرَّرْنَا ذَلِكَ فِي مَسَائِلِ الْخِلَافِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 3 صـ ﴾

(17/562)

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ ﴾

فيه وجهان :

أحدهما : هو إرسال أحدهما إلى الآخر ، قاله الضحاك .

الثاني : هو تخليتها ، حكاه النقاش وقال الأخفش مأخوذ من مَرَجْتَ الشيء إذا خليته ، وَمَرَجَ الوالي الناس إذا تركهم ، وأمرجت الدابّة إذا خليتها ترعى ، ومنه قول العجاج .

" رَعى بها مَرْج ربيع ممرجاً " . . . وفي البحرين ثلاثة أقاويل

: أحدها : بحر السماء وبحر الأرض ، وهو قول سعيد ، ومجاهد .

الثاني : بحر فارس والروم ، وهو قول الحسن .

الثالث : بحر العذب وبحر المالح . ﴿ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾ قال عطاء

: الفرات : العذب ، وقيل هو أعذب العذب .

وفي الأجاج : ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنه المالح ، وهو قول عطاء ، وقيل : هو أملح المالح .

الثاني : أنه المر ، وهو قول قتادة .

والثالث : أنه الحار المؤجج ، مأخوذ من تأجج النار ، وهو قول ابن بحر .

﴿ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً ﴾ فيه ثلاثة أقويل

: أحدها : حاجز من البر ، وهو قول الحسن ، ومجاهد .

الثاني : أن البرزخ : التخوم ، وهو قول قتادة .

والثالث : أنه الأجل ما بين الدنيا والآخرة ، وهو قول الضحاك .

﴿ وَحِجْراً مَّحْجُوراً ﴾ أي مانعاً لا يختلط العذب بالمالح ، ومنه قول الشاعر :

فَرُبّ في سُرادقٍ محجورِ . . . سرت إليه من أعالي السور

محجور أي ممنوع

. وتأول بعض المتعمقين في غوامض المعاني أن مرج البحرين قلوب الأبرار مضيئة بالبر ، وهو العذب ، وقلوب الفجار مظلمة بالفجور وهو الملح الأجاج ، وهو بعيد .

قوله عز وجل : ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَراً ﴾ يعني من النطفة إنساناً .

﴿ فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهْراً ﴾ فالنسب مِن تناسُب كل والد وولد ، وكل شيء أضفته إلى شيء عرفته به فهو مناسِبُهُ .

وفي الصهر وجهان :

أحدهما : أنه الرضاع وهو قول طاووس .

(18/562)

الثاني : أنه المناكح وهو معنى قول قتادة ، وقال الكلبي : النسب من لا يحل نكاحه من القرابة ، والصهر من يحل نكاحه من القرابة وغير القرابة .

وأصل الصهر الاختلاط ، فسميت المناكح صهراً لاختلاط الناس بها ، ومنه قوله تعالى : ﴿ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِم ﴾ [الحج : 20] وقيل إن أصل الصهر الملاصقة .

قوله عز وجل : ﴿ . . . وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيراً ﴾

فيه وجهان

: أحدهما : عوناً ، مأخوذ من المظاهر وهي المعونة ، ومعنى قوله ﴿ عَلَى رَبِّهِ ﴾ أي على أولياء ربه .

الثاني : هيناً ، مأخوذ من قولهم ظهر فلان بحاجتي إذا تركها واستهان بها قال تعالى : ﴿ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيّاً ﴾ [هود : 92] أي هيناً ، ومنه قول الفرزدق :

تميم بن زيد لا تكونن حاجتي . . . بظهرٍ فلا يعيا عَلَيّ جوابها

قيل إنها نزلت في أبي جهل انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

(19/562)

وقال ابن عطية :

﴿ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ ﴾

(20/562)

اضطرب الناس في تفسير هذه الآية فقال ابن عباس أراد بحر السحاب والبحر الذي في الأرض ، ورتبت ألفاظ الآية على ذلك ، وقال مجاهد البحر العذب هو مياه الأنهار الواقعة في البحر " الأجاج " وقوعها فيه هو مرجها . قال و" البرزخ " و" الحجر " هو حاجز في علم الله لا يراه البشر ، وقاله الزجاج ، وقالت فرقة معنى ﴿ مرج ﴾ أدام أحدهما في الآخر ، وقال ابن عباس خلى أحدهما على الآخر ونحو هذا من الأقوال التي تتداعى مع بعض ألفاظ الآية ، والذي أقول به في الآية إن المقصد بها التنبيه على قدرة الله تعالى وإتقان خلقه للأشياء في أن بث في الأرض مياهاً عذبة كثيرة من أنها وعيون وآبار ، وجعلها خلال الأجاج وجعل الأجاج خلالها ، فتلقى البحر قد اكتنفته المياه العذبة في ضفتيه ، وتلقى الماء العذب في الجزائر ونحوها قد اكتنفه الماء الأجاج فبثها هكذا في الأرض هو خلطها ، وهو قوله ﴿ مرج ﴾ ومنه مريج أي مختلط مشتبك ، ومنه مرجت عهودهم في الحديث المشهور ، و" البحران " يريد بهما جميع الماء العذب وجميع الماء الأجاج ، كأنه قال مرج نوعي الماء والبرزخ الحجر هو ما بين ﴿ البحرين ﴾ من الأرض واليبس ، قاله الحسن ، ومنه القدرة التي تمسكها مع قرب ما بينهما في بعض المواضع . وبكسر الحاء قرأ الناس كلهم هنا والحسن بضم الحاء في سائر القرآن ، و" الفرات " الصافي اللذيذ المطعم ، و" البرزخ " الحاجز بين الشيئين ، وقرأ الجمهور " هذا ملح " وقرأ طلحة بن مصرف " هذا مَلِح " بكسر اللام وفتح الميم ، قال أبو حاتم هذا منكر فقي القراءة ، قال ابن جني أراد مالحاً وحذف

الألف كبرد وبرد ، و" الأجاج " أبلغ ما يكون من الملوحة ، وقوله تعالى : ﴿ وهو الذي خلق من الماء ﴾ الآية ، هو تعديد النعمة على الناس في إيجادهم بعد العدم ، والتنبيه على العبرة في ذلك وتعديد النعمة في التواشج الذي جعل بينهم من النسب والصهر ، وقوله ﴿ من الماء ﴾ إما أن يريد أصل الخلقة في أن كل حي

(21/562)

مخلوق من الماء ، وإما أن يريد نطف الرجال وكل ذلك قالته فرقة ، والأول أفصح وأبين ، و" النسب والصهر " معنيان يعمان كل قربى تكون بين كل آدميين ، ف " النسب " هو أن يجتمع إنسان مع آخر في أب أو في أم قرب ذلك أو بعد ، و" الصهر " تواشج المناكحة ، فقرابة الزوجة هم الأختان ، وقرابة الزوج ثم الأحماء والأصهار يقع عاماً لذلك كله ، وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه " النسب " ما لا يحل نكاحه " والصهر " ما يحل نكاحه وقال الضحاك " الصهر " قرابة الرضاع .

قال القاضي أبو محمد : وذلك عندي وهم أوجبه أن ابن عباس قال حرم من النسب سبع ومن الصهر خمس ، وفي رواية أخرى من الصهر سبع يريد قول الله تعالى : ﴿ حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت ﴾ [

النساء : 23] ، فهذا هو من النسب . ثم يريد ب " الصهر " قوله تعالى : ﴿ وأمهاتكم التي أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة وأمهات نسائكم وربائبكم التي في حجوركم من نسائكم التي دخلتم بهن فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم وأن تجمعوا بين الأختين ﴾ [النساء : 23] ، ثم ذكر المحصنات ، ومجمل هذا أن ابن عباس أراد حرم من الصهر مع ما ذكر معه فقصد مما ذكر إلى عظمه وهو الصهر لأن الرضاع صهر وإنما الرضاع عديل النسب يحرم منه ما يحرم من النسب بحكم الحديث المأثور فيه ، ومن روى وحرم من الصهر خمس أسقط من الآية الجمع بين الأختين والمحصنات وهن ذواتي الأزواج ، وحكى الزهراوي قولاً أن " النسب " من جهة البنين " والصهر " من جهة البنات .

(22/562)

قال الفقيه الإمام القاضي : وهذا حسن وهو في درج ما قدمته ، وقال ابن سيرين نزلت هذه الآية في النبي صلى الله عليه وسلم وعلي لأنه جمعه معه نسب وصهر فاجتماعهما وكادة حرمة إلى يوم القيامة . وقوله ﴿ وكان ربك قديراً ﴾ هي ﴿ كان ﴾ التي للدوام قبل وبعد لا أنها تعطي مضياً فقط ، ثم ذكر تعالى خطأهم في عبادته أصناماً لا تملك لهم ضراً

ولا نفعاً وقوله ﴿ وكان الكافر على ربه ظهيراً ﴾ فيه تأويلان : أحدهما أن " الظهير " المعين فتكون الآية بمعنى توبيخهم على ذلك من أن الكفار يعينون على ربهم غيرهم من الكفرة والشيطان بأن يطيعوه ويظاهروه ، وهذا هو تأويل مجاهد والحسن وابن زيد ، والثاني ذكره الطبري أن يكون " الظهير " فعيلاً ، من قولك ظهرت الشيء إذا طرحته وراء ظهرك واتخذته ظهرياً ، فيكون معنى الآية على هذا التأويل احتقار الكفرة ، و ﴿ الكافر ﴾ في هذه الآية اسم الجنس وقال ابن عباس بل هو معين أراد به أبا جهل بن هشام .

قال الفقيه الإمام القاضي : ويشبه أن أبا جهل سبب الآية ولكن اللفظ عام للجنس كله .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(23/562)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وهو الذي مَرَجَ البَحرين ﴾

قال الزجاج : أي : خلَّى بينهما ؛ تقول : مرجتُ الدابَّة وأمرجتُها : إذا خلَّيتَها ترعى ، ومنه الحديث : "مَرِجَتْ عهودُهم وأماناتهم" أي : اختلطت .

قال المفسرون : والمعنى أنه أرسلهما في مجاريهما ، فما يلتقيان ، ولا يختلط المِلح بالعذب ،

ولا العذب بالمَلِح ، وهو قوله : ﴿ هذا ﴾ يعني : أحد البحرين ﴿ عَذْبٌ ﴾ أي : طيّب ؛ يقال : عَذُبَ الماءُ يَعْذُبُ عُذوبةً ، فهو عَذْبٌ .

قال الزجاج : والفُرات صفة للعَذْب ، وهو أشد الماء عُذوبة ، والأُجَاج صفة للملح ، وهو : المُرُّ الشديد المرارة .

وقال ابن قتيبة : هو أشد الماء ملوحة ، وقيل : هو الذي يُخالطه مرارةٌ ، ويقال : ماءٌ مِلح ، ولا يقال : مالح ، والبرزخ : الحاجز .

وفي هذا الحاجز قولان .

أحدهما : أنه مانع من قدرة الله تعالى ، قاله الأكثرون .

قال الزجاج : فهما في مرأى العين مختلطان ، وفي قدرة الله منفصلان لا يختلط أحدهما بالآخر .

قال أبو سليمان الدمشقي : ورأيت عند عَبَّادان من سواد البصرة الماءَ العذب يَنحدر في دجلة نحو البحر ، ويأتي المَدُّ من البحر ، فيلتقيان ، فلا يختلط أحد الماءين بالآخر ، يُرى ماء البحر إلى الخُضرة الشديدة ، وماء دجلة إلى الحُمرة الخفيفة ، فيأتي المستقي فيغرف من ماء دجلة عذباً لا يخالطه شيء ، وإلى جانبه ماء البحر في مكان واحد .

والثاني : أن الحاجز : الأرض واليَبَس ، وهو قول الحسن ؛ والأول أصح .

قوله تعالى : ﴿ وحِجْراً محجوراً ﴾ قال الفراء : أي : حراماً محرَّماً أن يغلب أحدهما

صاحبه .

قوله تعالى : ﴿ وهو الذي خَلَقَ من الماء بَشَراً ﴾ أي : من النُّطفة بَشَراً ، أي : إنساناً ﴿ فجعله نَسَباً وصِهْراً ﴾ أي : ذا نسب وصِهْر .

قال علي عليه السلام : النَّسَب : ما لا يحل نكاحه ، والصِّهر : ما يَحِلُّ نكاحه .

(24/562)

وقال الضحاك : النسب سبع ، وهو قوله : ﴿ حُرِّمت عليكم أمهاتُكم . . . ﴾ [النساء : 23] إلى قوله : ﴿ وبناتُ الأُخت ﴾ [النساء : 23] ، والصِّهر خمس ، وهو قوله : ﴿ وأُمهاتُكم اللاَّتي أرضعنكم . . . ﴾ [النساء : 23] إلى قوله : ﴿ مِنْ أصلابكم ﴾ [النساء : 23] .

وقال طاووس : الرَّضاعة من الصِّهر .

وقال ابن قتيبة : ﴿ نَسَباً ﴾ أي : قرابة النَّسَب ، ﴿ وصِهراً ﴾ أي : قرابة النكاح .

وكل شيء من قِبَل الزوج ، مثل الأب والأخ ، فهم الأحماء ، واحدهم حَماً ، مثل : قَفاً ، وحَمُو مثل أَبو ، وحَمْءٌ مهموز ساكن الميم ، وحَمٌ مثل أَبٍ .

وحَمَاة المرأة : أُمُّ زوجها ، لا لغة فيها غير هذه وكلّ شيء من قِبَل المرأة ، فهم الأَخْتان .

والصِّهر يجمع ذلك كلّه .

وحكى ابن فارس عن الخليل ، أنه قال : لا يقال لأهل بيت الرجل إلا أَختان ، ولأهل بيت المرأة إلا أصهار .

ومن العرب يجعلهم أصهاراً كلّهم .

والصَّهْر : إذابة الشيء .

وذكر الماوردي أن المَناكح سمّيتْ صِهْراً ، لاختلاط الناس بها كما يختلط الشيء إذا صُهِر .

قوله تعالى : ﴿ وكان الكافر على ربّه ظهيراً ﴾ فيه أربعة أقوال .

أحدها : مُعيناً للشيطان على ربّه ، لأن عبادته للأصنام معاونة للشيطان .

والثاني : مُعيناً للمشركين على أن لا يوحّدوا الله تعالى .

والثالث : مُعِيناً على أولياء ربّه .

والرابع : وكان الكافر على ربّه هيّناً ذليلاً ، من قولك : ظَهَرتُ بفلان : إذا جعلتَه وراء ظهرك ولم تلتفت إليه .

قالوا : والمراد بالكافر هاهنا أبو جهل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 6 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الذي مَرَجَ البحرين ﴾

عاد الكلام إلى ذكر النعم .

و ﴿ مَرَجَ ﴾ خَلَّى وخلط وأرسل .

قال مجاهد : أرسلهما وأفاض أحدهما في الآخر .

قال ابن عرفة : ﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ ﴾ أي خلطهما فهما يلتقيان ؛ يقال : مرجته إذا خلطته .

ومَرِج الدينُ والأمر اختلط واضطرب ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴾ [ق : 5] .

ومنه " قوله عليه الصلاة والسلام لعبد الله بن عمرو بن العاصي : "إذا رأيتَ الناس مَرِجت عهودهم وخفّت أماناتهم وكانوا هكذا وهكذا" وشبك بين أصابعه فقلت له : كيف أصنع عند ذلك ، جعلني الله فداك ! قال : "الزم بيتك واملِك عليك لسانك وخذ بما تعرِف ودع ما تنكر وعليك بخاصة أمر نفسك ودع عنك أمر العامة" " خرجه النسائي وأبو داود وغيرهما .

وقال الأزهريّ : ﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ ﴾ خلّى بينهما ؛ يقال : مَرَجتُ الدابة إذا خليتها ترعى .

وقال ثعلب : المرج الإجراء ؛ فقوله : ﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ ﴾ أي أجراهما .

وقال الأخفش : يقول قوم أمرج البحرين مثل مرج فعل وأفعل بمعنًى .

﴿ هذا عَذْبٌ فُرَاتٌ ﴾ أي حلو شديد العذوبة .

﴿ وهذا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾ أي فيه ملوحة ومرارة .

وروي (عن) طلحة أنه قرأ : "وَهَذَا مَلِحٌ" بفتح الميم وكسر اللام .

﴿ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً ﴾ أي حاجزاً من قدرته لا يغلب أحدهما على صاحبه ؛ كما قال في سورة الرحمن ﴿ مَرَجَ البحرين يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَّ يَبْغِيَانِ ﴾ [الرحمن : 19 20] .

﴿ وَحِجْراً مَّحْجُوراً ﴾ أي ستراً مستوراً يمنع أحدهما من الاختلاط بالآخر .

فالبرزخ الحاجز ، والحجر المانع .

وقال الحسن : يعني بحر فارس وبحر الروم .

وقال ابن عباس وابن جبير : يعني بحر السماء وبحر الأرض .

قال ابن عباس : يلتقيان في كل عام وبينهما برزخ قضاء من قضائه .

﴿ وَحِجْراً مَّحْجُوراً ﴾ حراماً محرّماً أن يعذب هذا الملح بالعذب ، أو يملح هذا العذب بالملح .

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا (54)

فيه مسألتان :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الذي خَلَقَ مِنَ المآء بَشَراً ﴾ أي خلق من النطفة إنساناً .

﴿ فَجَعَلَهُ ﴾ أي جعل الإنسان ﴿ نَسَباً وصِهْراً ﴾ .

وقيل : ﴿ مِنَ الْمَاءِ ﴾ إشارة إلى أصل الخلقة في أن كلّ حيّ مخلوق من الماء .

وفي هذه الآية تعديد النعمة على الناس في إيجادهم بعد العدم ، والتنبيه على العبرة في ذلك .

الثانية : قوله تعالى : ﴿ فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهْراً ﴾ النسب والصهر معنيان يعمان كل قربى تكون بين آدميين .

قال ابن العربي : النسب عبارة عن خلط الماء بين الذكر والأنثى على وجه الشرع ؛ فإن كان بمعصية كان خلقاً مطلقاً ولم يكن نسباً محققاً ، ولذلك لم يدخل تحت قوله : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ ﴾ [النساء : 23] بنتُه من الزنى ؛ لأنها ليست ببنت له في أصح القولين لعلمائنا وأصح القولين في الدين ؛ وإذا لم يكن نسب شرعاً فلا صهر شرعاً فلا يحرّم الزنى بنتَ أمّ ولا أمّ بنت ، وما يحرّم من الحلال لا يحرّم من الحرام ؛ لأن الله امتنّ بالنسب والصهر على عباده ورفع قدرهما ، وعلّق الأحكام في الحل والحرمة عليهما فلا يلحق

الباطل بهما ولا يساويهما .

قلت : اختلف الفقهاء في نكاح الرجل ابنته من زنى أو أخته أو بنت ابنه من زنى ؛ فحرّم ذلك قوم منهم ابن القاسم ، وهو قول أبي حنيفة وأصحابه ، وأجاز ذلك آخرون منهم عبد الملك بن الماجشون ، وهو قول الشافعيّ ، وقد مضى هذا في "النساء" مجوّداً .

قال الفراء : النسب الذي لا يحلّ نكاحه .

وقاله الزجاج ، وهو قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

واشتقاق الصّهر من صهرت الشيء إذا خلطته ؛ فكل واحد من الصهرين قد خالط صاحبه ، فسمّيت المناكح صهراً لاختلاط الناس بها .

(27/562)

وقيل : الصهر قرابة النكاح ؛ فقرابة الزوجة هم الأختان ، وقرابة الزوج هم الأحْماء .

والأصهار يقع عاماً لذلك كله ؛ قاله الأصمعيّ .

وقال ابن الأعرابي : الأخْتَان أبو المرأة وأخوها وعمها كما قال الأصمعيّ والصهر زوج ابنة الرجل وأخوه وأبوه وعمه .

وقال محمد بن الحسن في رواية أبي سليمان الجوزجاني : أختان الرجل أزواج بناته وأخواته

وعماته وخالاته ، وكل ذات محرم منه ، وأصهاره كل ذي رحم محرم من زوجته .

قال النحاس : الأولى في هذا أن يكون القول في الأصهار ما قال الأصمعي ، وأن يكون من قبلهما جميعاً .

يقال : صهرت الشيء أي خلطته ؛ فكل واحد منهما قد خلط صاحبه .

والأولى في الأختان ما قال محمد بن الحسن لجهتين : إحداهما الحديث المرفوع ، روى محمد بن إسحاق عن يزيد بن عبد الله بن قُسَيط عن محمد بن أسامة بن زيد عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أما أنت يا عليّ فختني وأبو ولدي وأنت مني وأنا منك " فهذا على أن زوج البنت خَتَن .

والجهة الأخرى أن اشتقاق الختن من ختنه إذا قطعه ؛ وكأن الزوج قد انقطع عن أهله ، وقطع زوجته عن أهلها .

وقال الضحاك : الصهر قرابة الرضاع .

قال ابن عطية : وذلك عندي وَهْمٌ أوجبه أن ابن عباس قال : حرم من النسب سبع ، ومن الصهر خمس .

وفي رواية أخرى من الصهر سبع ؛ يريد قوله عز وجل : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالاتُكُمْ وَبَنَاتُ الأَخِ وَبَنَاتُ الأُخْتِ ﴾ [النساء : 23]

فهذا هو النسب .

ثم يريد بالصهر قوله تعالى : ﴿ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللاَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ ﴾ [النساء : 23] إلى قوله : ﴿ وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ الأخْتَيْنِ ﴾ [النساء : 23] .

ثم ذكر المحصنات .

(28/562)

ومحمل هذا أن ابن عباس أراد حرم من الصهر ما ذكر معه ، فقد أشار بما ذكر إلى عظمه وهو الصهر ، لا أن الرضاع صهر ، وإنما الرضاع عديل النسب يحرم منه ما يحرم من النسب بحكم الحديث المأثور فيه .

ومن روى : وحرم من الصهر خمس أسقط من الآيتين الجمع بين الأختين والمحصنات ؛ وهنّ ذوات الأزواج .

قلت : فابن عطية جعل الرضاع مع ما تقدّم نسباً ، وهو قول الزجاج .

قال أبو إسحاق : النسب الذي ليس بصهر من قوله جل ثناؤه : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ ﴾ [النساء : 23] إلى قوله : ﴿ وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ الأخْتَيْنِ ﴾ [النساء : 23] والصهر من له التزويج .

قال ابن عطية : وحكى الزهراوي قولاً أن النسب من جهة البنين والصهر من جهة البنات .

قلت : وذكر هذا القول النحاس ، وقال : لأن المصاهرة من جهتين تكون .

وقال ابن سيرين : نزلت هذه الآية في النبيّ صلى الله عليه وسلم وعليّ رضي الله عنه ؛ لأنه جمعه معه نسب وصهر .

قال ابن عطية : فاجتماعهما وكادة حرمة إلى يوم القيامة .

﴿ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيراً ﴾ على خلق ما يريده .

قوله تعالى : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لاَ يَنفَعُهُمْ وَلاَ يَضُرُّهُمْ ﴾

لما عدد النعم وبيّن كمال قدرته عجب من المشركين في إشراكهم به من لا يقدر على نفع ولا ضر ؛ أي إن الله هو الذي خلق ما ذكره ، ثم هؤلاء لجهلهم يعبدون من دونه أمواتاً جمادات لا تنفع ولا تضر .

﴿ وَكَانَ الكافر على رَبِّهِ ظَهِيراً ﴾ روي عن ابن عباس ﴿ الْكَافِرُ ﴾ هنا أبو جهل ؛ وشرحه أنه يستظهر بعبادة الأوثان على أوليائه .

وقال عكرمة : ﴿ الْكَافِرُ ﴾ إبليس ، ظهر على عداوة ربه .

وقال مُطَرِّف : ﴿ الْكَافِرُ ﴾ هنا الشيطان .

وقال الحسن : ﴿ ظَهِيراً ﴾ أي معيناً للشيطان على المعاصي .

وقيل : المعنى ؛ وكان الكافر على ربه هيناً ذليلاً لا قدر له ولا وزن عنده ؛ من قول العرب : ظهرت به أي جعلته خلف ظهرك ولم تلتفت إليه .

ومنه قوله تعالى : ﴿ واتخذتموه وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيّاً ﴾ [هود : 92] أي هيناً .

ومنه قول الفرزدق :

تميمَ بنَ قيسٍ لا تكوننّ حاجتي . . .

بِظَهْرٍ فلا يعيا عليّ جوابُها

هذا معنى قول أبي عبيدة .

وظهير بمعنى مظهور .

أي كفر الكافرين هين على الله تعالى ، والله مستهين به لأن كفره لا يضره .

وقيل : وكان الكافر على ربه الذي يعبده وهو الصنم قوياً غالباً يعمل به ما يشاء ؛ لأن الجماد لا قدرة له على دفع ضر ونفع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 13 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ وَهُوَ الذى مَرَجَ البحرين ﴾

و﴿ مرج ﴾ خلط بينهما أو أفاض أحدهما في الآخر أو أجراهما أقوال ، والظاهر أنه يراد بالبحرين الماء الكثير العذب والماء الكثير الملح .

وقيل : بحران معينان .

فقيل : بحر فارس ، وبحر الروم .

وقيل : بحر السماء وبحر الأرض يلتقيان في كل عام قاله ابن عباس .

وقال مجاهد : مياه الأنهار الواقعة في البحر الأجاج وهذا قريب من القول الأول .

قال ابن عطية : والمقصد بالآية التنبيه على قدرة الله وإتقان خلقه للأشياء في أن بث في الأرض مياهاً عذبة كثيرة من الأنهار والعيون والآبار وجعلها خلال الأجاج ، وجعل الأجاج خلالها فترى البحر قد اكتنفته المياه العذبة في ضفتيه ويلقى الماء البحر في الجزائر ونحوها قد اكتنفه الماء الأجاج ، والبرزخ والحجر ما حجز بينهما من الأرض والسد قاله الحسن .

ويتمشى هذا على قول من قال أن ﴿ مرج ﴾ بمعنى أجرى .

وقيل : البرزخ البلاد والقفار فلا يختلفان إلاّ بزوال الحاجز يوم القيامة .

قال الأكثرون : الحاجز مانع من قدرة الله .

قال الزجاج : فهما مختلطان في مرائي العين منفصلان بقدرة الله ، وسواد البصرة ينحدر الماء العذب منه في دجلة نحو البحر ، ويأتي المد من البحر فيلتقيان من غير اختلاط فماء البحر إلى الخضرة الشديدة ، وماء دجلة إلى الحمرة ، فالمستقي يغرف من ماء دجلة عندنا لا يخالطه شيء ونيل مصر في فيضه يشق البحر المالح شقاً بحيث يبقى نهراً جارياً أحمر في وسط المالح ليستقي الناس منه ، وترى المياه قطعاً في وسط البحر المالح فيقولون : هذا ماء ثلج فيسقون منه من وسط البحر .

وقرأ طلحة وقتيبة عن الكسائي ﴿ ملح ﴾ بفتح الميم وكسر اللام وكذا في فاطر .

قال أبو حاتم وهذا منكر في القراءة .

وقال أبو الفتح أراد مالحاً وحذف الألف كما حذفت من برد أي بارد .

وقال أبو الفضل الرازي في كتاب اللوامح : هي لغة شاذة قليلة .

(31/562)

وقيل : أراد مالح فقصره بحذف الألف فالمالح جائز في صفة الماء لأن الماء يوجد في الضفيان بأن يكون مملوحاً من جهة غيره ، ومالحاً لغيره وإن كان من صفته أن يقال : ماء ملح موصوف بالمصدر أي ماء ذو ملح ، فالوصف بذلك مثل حلف ونضو من الصفات .

قال الزمخشري : فإن قلت : ﴿ حجراً محجوراً ﴾ ما معناه ؟ قلت : هي الكلمة التي يقولها المتعوذ وقد فسرناها وهي ههنا واقعة على سبيل المجاز ، كان كل واحد من البحرين متعوذ من صاحبه ويقول له ﴿ حجراً محجوراً ﴾ كما قال ﴿ لا يبغيان ﴾ أي لا يبغي أحدهما على صاحبه بالممازجة ، فانتفاء البغي ثم كالتعوذ ههنا جعل كل واحد منهما في صورة الباغي على صاحبه فهو يتعوذ منه وهي من أحسن الاستعارات وأشهدها على البلاغة انتهى .

والظاهر أن ﴿ حجراً محجوراً ﴾ معطوف على ﴿ برزخاً ﴾ عطف المفعول على المفعول وكذا أعربه الحوفي ، وعلى ما ذكره الزمخشري يكون ذلك على إضمار القول المجازي أي ، ويقولان أي كل واحد منهما لصاحبه ﴿ حجراً محجوراً ﴾ .

والظاهر عموم البشر وهم بنو آدم والبشر ينطلق على الواحد والجمع .

وقيل : المراد بالنسب آدم وبالصهر حواء .

وقيل : النسب البنون والصهر البنات و ﴿ من الماء ﴾ إما النطفة ، وإما أنه أصل خلقة كل حي ، والنسب والصهر يعمان كل قربى بين آدميين ، فالنسب أن يجتمع مع آخر في أب وأم قرب ذلك أو بعد ، والصهر هو نواشج المناكحة .

وقال عليّ بن أبي طالب النسب ما لا يحل نكاحه والصهر قرابة الرضاع .

وعن طاوس : الرضاعة من الصهر .

وعن عليّ : الصهر ما يحل نكاحه والنسب ما لا يحل نكاحه .

وقال الضحاك : الصهر قرابة الرضاع .

وقال ابن سيرين : نزلت في النبيّ (صلى الله عليه وسلم) وعليّ لأنه جمعه معه نسب وصهر .

قال ابن عطية : فاجتماعهما وكادة حرمة إلى يوم القيامة .

﴿ وكان ربك قديراً ﴾ حيث خلق من النطفة الواحدة بشراً نوعين ذكراً وأنثى .

(32/562)

ولما ذكر دلائل قدرته وما امتن به على عباده من غرائب مصنوعاته ثبت بذلك أنه المستحق للعبادة لنفعه وضره بين فساد عقول المشركين حيث يعبدون الأصنام .

والظاهر أن ﴿ الكافر ﴾ اسم جنس فيعم .

وقيل : هو أبو جهل والآية نزلت فيه .

وقال عكرمة ﴿ الكافر ﴾ هنا إبليس والظهير والمظاهر كالمعين والمعاون قاله مجاهد والحسن وابن زيد ، وفعيل بمعنى مفاعل كثير والمعنى أن ﴿ الكافر ﴾ يعاون الشيطان على ربه بالعداوة والشريك .

وقيل : معناه وكان الذي يفعل هذا الفعل وهو عبادة ما لا ينفع ولا يضر على ربه هيناً مهيناً من قولهم : ظهرت به إذا خلفته خلف ظهرك لا يلتفت إليه ، وهذا نحو قوله ﴿ أولئك لا خلاق لهم ﴾ الآية قاله الطبري .

وقيل : ﴿ على ربه ﴾ أي معيناً على أولياء الله .

وقيل : معيناً للمشركين على أن لا يوحد الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(33/562)

وقال أبو السعود :

﴿ وَهُوَ الذى مَرَجَ البحرين ﴾

أي خلاّهما متجاورينِ مُتلاصقين بحيثُ لا يتمازجانِ ، من مَرَجَ دابّتَه إذا خلاّها ﴿ هذا عَذْبٌ فُرَاتٌ ﴾ قامعٌ للعطشِ لغايةِ عذوبتِه ﴿ وهذا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾ بليغُ المُلوحةِ . وقُرِىء مَلْحٌ فلعلّه تخفيفُ مالحٍ كبَرْدٍ في باردٍ ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً ﴾ حاجزاً غيرَ مرئيَ من قُدرتِه كما في قولِه تعالى : ﴿ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ ﴿ وَحِجْراً مَّحْجُوراً ﴾ وتنافراً مُفرِطاً كأنّ كلاًّ منهما يتعوّذُ من الآخرِ بتلك المقالةِ وقيل : حَدّاً محدُوداً وذلك كدجلةَ

تدخلُ البحرَ وتشقُّه وتجري في خلالِه فراسخَ لا يتغيَّرُ طعمُها ، وقيل : المرادُ بالبحرِ العذبِ النَّهرُ العظيمُ وبالمالحِ البحرُ الكبيرُ وبالبرزخِ ما بينهما من الأرضِ فيكونُ أثرُ القُدرةِ في الفصلِ واختلافِ الصِّفةِ ، مع أنَّ مُقتضى طبيعةِ كلِّ عُنصرٍ التَّضامُّ والتَّلاصقُ والتَّشابهُ في الكيفيَّةِ .

﴿ وَهُوَ الذى خَلَقَ مِنَ الماء بَشَراً ﴾

هو الماءُ الذي خمَّر به طينةَ آدمَ عليه السَّلامُ أو جعله جُزءاً من مادَّةِ البشرِ ليجتمعَ ويسلسَ ويستعدَّ لقبولِ الأشكالِ والهيئاتِ بسهولةٍ أو هو النُّطفةُ ﴿ فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهْراً ﴾ أي قسمه قسمينِ ذوَيْ نسبٍ أي ذكوراً يُنتسبُ إليهم وذواتِ صهرٍ أي أناثاً يُصاهرُ بهنَّ كقولِه تعالى : ﴿ فَجَعَلَ مِنْهُ الزوجين الذكر والانثى ﴾ ﴿ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيراً ﴾ مبالغاً في القُدرةِ حيث قدرَ على أنْ يخلقَ من مادَّةٍ واحدةٍ بشراً ذا أعضاءٍ مختلفةٍ وطباعٍ مُتباعدةٍ وجعله قسمينِ مُتقابلينِ وربَّما يخلق من نُطفةٍ واحدةٍ توأمين ذكراً وأُنثى .

(34/562)

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله ﴾ الذي شأنُه ما ذُكر ﴿ مَا لاَ يَنفَعُهُمْ وَلاَ يَضُرُّهُمْ ﴾ أي ما ليس من شأنِه النَّفعُ والضُّرُّ أصلاً وهو الأصنامُ أو كلُّ ما يُعبدُ من دُونه تعالى إذْ ما من مخلوقٍ

يستقلُّ بالنَّفع والضُّرِّ ﴿ وَكَانَ الكافر على ربِّهِ ﴾ الذي ذُكرتْ آثارُ ربوبيَّتِهِ ﴿ ظَهِيرًا ﴾ يُظاهر الشَّيطانَ بالعداوةِ والشركِ . والمرادُ بالكافر الجنسُ أو أبو جهلٍ وقيل : هيّناً مهيناً لا اعتدادَ به عندَه تعالى من قولِهم ظهرتَ به إذا نبذتَه خلفَ ظهرِك فيكون كقولِه تعالى : ﴿ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللهُ وَلاَ يَنظُرُ إِلَيْهِمْ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 6 صـ ﴾

(35/562)

وقال الآلوسى :

﴿ وَهُوَ الذى مَرَجَ البحرين ﴾

أي أرسلهما في مجاريهما كما يرسل الخيل في المرج كما روى عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ، ويقال في هذا أمرج أيضاً على ما قيل إلا أن مرج لغة الحجاز وأمرج لغة نجد .

وأصل المرج كما قال الراغب : الخلط ، ويقال : مرج أمرهم أي اختلط ، وسمي المرعى مرجاً لاختلاط النبات فيه ، والمراد بالبحرين الماء الكثير العذب والماء الكير الملح من غير تخصيص ببحرين معينين ، وهذا رجوع إلى ما تقدم من ذكر الأدلة ، وقوله تعالى : ﴿ هذا عَذْبٌ فُرَاتٌ ﴾ الخ أي شديد العذوبة ووزنه فعال من فرته وهو مقلوب من رفته إذا كسره لأنه يكسر سورة العطش ويقمعها ، وقيل ؛ هو البارد كما في "مجمع البيان" إما استئناف أو

حال بتقدير القول أي يقال فيهما هذا عذب فرات ﴿ وهذا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾ وقيل : هي حال من غير تقدير قول على معنى مرج البحرين مختلفين عذوبة شديدة وملوحة كذلك ، واسم الإشارة غني غناء الضمير ، والإجاج شديد الملوحة كما أشرنا إليه أطلق عليه لأن شربه يزيد أجيج العطش ، وقال الراغب : هو شديد الملوحة والحرارة من أجيج النار انتهى ، وقيل : هو المر وحكاه الطبرسي عن قتادة ، وقيل الحار فهو يقابل الفرات عند من فسره بالبارد .

وقرأ طلحة بن مصرف .

وقتيبة عن الكسائي ﴿ مِلْحٌ ﴾ بفتح الميم وكسر اللام هنا وكذا في فاطر ، قال أبو حاتم : وهذا منكر في القراءة ، وقال أبو الفتح : أراد مالحاً فخفف بحذف الألف كما قيل برد في بارد في قوله :

أصبح قلبي صردا . . .

لا يشتهي أن يردا إلا عرادا عردا وصلينا بردا وعكنا ملتبدا

(36/562)

وقيل : مخفف مليح لأنه ورد بمعنى مالح ، وقال أبو الفضل الرازي في "كتاب اللوامح" : هي لغة شاذة قليلة فليس مخففاً من شيء ، نعم هو كملح في قراءة الجمهور بمعنى مالح ، والأفصح أن يقال في وصف الماء : ماء ملح دون ماء مالح وإن كان صحيحاً كما نقل الأزهري ذلك عن الكسائي ، وقد اعترف أيضا بصحته ثعلب ، وقال الخفاجي : الصحيح أنه مسموع من العرب كما أثبته أهل اللغة وأنشدوا لإثباته شواهد كثيرة وعليه فمن خطأ الإمام أبا حنيفة رضي الله تعالى عنه بقوله : ماء مالك فقد أخطأ جاهلاً بقدر هذا الإمام ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً ﴾ أي حاجزاً وهو لفظ عربي ، وقيل : أصله بزره فعرب ، والمراد بهذا الحاجز كما أخرج عبد بن حميد .

وابن جرير .

(37/562)

وابن أبي حاتم عن الحسن ما يحول بينهما من الأرض كالأرض الحائلة بين دجلة ويقال لها بحر لعظمها ولشيوع إطلاق البحر على النهر العظيم صار حقيقة فيه أيضاً فلا إشكال في التثنية ، وإن أبيت صيرورته حقيقة فاعتبار التغليب يرفع الإشكال وبين البحر الكبير ، والمراد حيلولتها في مجارهيا وإلا فهي تنتهي إلى البحر وكذا سائر الأنهار العظام ، ودلالة هذا الجعل

على كمال قدرته عز وجل كونه على خلاف مقتضى الطبيعة فإن مقتضى طبيعة الماء أن يكون متضام الأجزاء مجتمعاً غامراً للأرض محيطاً بها من جميع جهاتها إحاطة الهواء به ومقتضى طبيعة الأرض أن تكون متضامة الأجزاء أيضاً لا غور فيها ولا نجد مغمورة بالماء واقعة في جوفه كمركز الدائرة كما قرر ذل الفلاسفة وذكروا في سبب انكشاف ما انكشف من الأرض ووقوع الأغوار والانجاد فيها ما لا يخلو عن قيل وقال ، و﴿ بَيْنَهُمَا ﴾ ظرف الجعل ، ويجوز أن يكون حالاً من ﴿ بَرْزَخاً ﴾ ، والظاهر أن تنوين ﴿ بَرْزَخاً ﴾ للتعظيم أي وجعل بينهما برزخاً عظيماً حيث إنه على كثرة مرور الدهور لا يتخلله ماء أحد البحرين حتى يصل إلى الآخر فيغير طعمه ﴿ وَحِجْراً مَّحْجُوراً ﴾ أي وتنافراً مفرطاً كأن كلاً منهما يتعوذ من الآخر بتلك المقالة ، والمراد لزوم كل منهما لصفته من العذوبة والملوحة فلا ينقلب البحر العذب ملحاً في مكانه ولا البحر الملح عذباً في مكانه وذلك من كمال ذرته تعالى وبالغ حكمته عز وجل فإن العذوبة والملوحة ليستا بسبب طبيعة الأرض ولا بسبب طبيعة الماء وإلا لكان الكل عذباً أو الكل ملحاً ، وذكر في حكمة جعل البحر الكبير ملحاً أن لا نتن بطول المكث وتقادم الدهور ؛ قيل : وهو السر في جعل دمع العين ملحاً ، وفيه حكم أخرى الله تعالى أعلم بها .

والظاهر إن ﴿ حِجْراً ﴾ عطف على ﴿ بَرْزَخاً ﴾ أي وجعل بينهما هذه الكلمة ، والمراد بذلك ما سمعت آنفاً وهو من أبلغ الكلام وأعذبه ، وقيل : هو منصوب بقول مقدر أي ويقولان حجراً محجوراً ، وعن الحسن أن المراد من الحجر ما حجر بينهما من الأرض وتقدم تفسيره البرزخ بنحو ذلك ، وكان الجمع بينهما حينئذ لزيادة المبالغة في أمر الحاجز وما قدمنا أولى وأبعد مغزى ، وقيل : المراد بالبرزخ حاجز من قدرته عز وجل غير مرئي وبقوله سبحانه : ﴿ حِجْراً مَّحْجُوراً ﴾ التميز التام وعدم الاختلاط ، وأصله كلام يقوله المستعيد لما يخافه كما تقدم تفصيله ، وحاصل معنى الآية أنه تعالى هو الذي جعل البحرين مختلطين في مرأى العين ومنفصلين في التحقيق بقدرته عز وجل أكمل انفصال بحيث لا يختلط العذب بالملح ولا الملح بالعذب ولا يتغير طعم كل منهما بالآخر أصلاً .

(39/562)

وحكى هذا عن الأكثرين وفيه أنه خلاف المحسوس فإن الأنهار العظيمة كدجلة وما ينضم إليها والنيل وغيرها مما يشاهده الناس إذا اتصلت في البحر تغير طعم غير قليل منها في جهة المتصل وكذا يتغير طعم غير قليل من البحر في جهة المتصل أيضاً ويختلف التغير قلة وكثرة

باختلاف الورود لاختلاف أسبابه من الهواء وغيره قوة وضعفاً كما أخبر به مبلغ التواتر ولم يخبر أحد أنه شاهد في الأرض بحرين أحدهما عذب والآخر ملح ، وقد اتصل أحدهما بالآخر من غير تغير لطعم شيء منهما أصلاً ، ولا مساغ عند من له أدنى ذوق لجعل الآية في بحرين في الأرض كذلك لكنهما لم يشاهدهما أحد كما لا يخفى ، ولا أرى وجهاً لتفسير الآية بما ذكر والتزام هذا ونحوه من التكلفات الباردة مع ظهور الوجه الذي لا كدورة فيه عند المنصف إلا تسبب طعن الكفرة في القرآن العظيم وسوء الظن بالمسلمين ؛ وقيل : المراد بالبرزخ الواسطة أي وجعل بين البحر العذب الشديد العذوبة والبحر الملح الشديد الملوحة ماء متوسطاً ليس بالشديد العذوبة ولا بالشديد الملوحة وهو قطعة من العذب الفرات عند موضع التلاقي مازجها شيء من الملح الأجاج فكسر سورة عذوبتها وقطعة من الملح الأجاج عند موضع التلاقي أيضاً مازجها شيء من العذب الفرات فكسر سورة ملوحتها ويكون التنافر البليغ بينهما المفهوم من قوله سبحانه : ﴿ وَحِجْراً مَّحْجُوراً ﴾ فيما عدا ذلك وهو ما لم يتأثر بصاحبه منهما ، بل بقي على صفته من العذوبة الشديدة والملوحة الشديدة وهو كما ترى ، وحكى في "البحر" أن المبارد بالبحرين بحران معينان هما بحر الروم وبحر فارس .

(40/562)

وذكره في "الدر المنثور" عن الحسن برواية ابن أبي حاتم وهو من العجب العجاب لأن كلا هذين البحرين ملح أجاج فكيف يصح إرادتهما هنا مع قوله تعالى : ﴿ هذا عَذْبٌ فُرَاتٌ وهذا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾ نعم قد يصح فيما سيأتي إن شاء الله تعالى من آية سورة الرحمن أعني قوله سبحانه : ﴿ مَرَجَ البحرين يَلْتَقِيَانِ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَّ يَبْغِيَانِ ﴾ [الرحمن : 19 ، 20] لعدم ذكر ما يمنعه هناك ، وما روى عن الحسن إن صح فلعله في ذلك الآية ، ووهم السيوطي في روايته في الكلام على هذه الآية ، وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير أن البحرين هما بحر السماء وبحر الأرض وذكر مثله في البحر عن ابن عباس وأنهما يلتقيان كل عام ، وهذا شيء أنا لا أقول به في الآية ولا أعتقد صحة روايته عمن سمعت وإن كان مناسبة الآية عليه لما تقدم من قوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السماء مَاء طَهُوراً ﴾ [الفرقان : 48] على القول بأن المطر من بحر في السماء أتم ودلالتها على كمال قدرته تعالى أظهر ؛ وأما أنت فبالخيار والله تعالى ولي التوفيق .

﴿ وَهُوَ الذى خَلَقَ مِنَ الماء بَشَراً ﴾

هو الماء الذي خمر به طينة آدم عليه السلام وجعله جزءاً من مادة البشر لتجتمع وتسلس وتستعد لقبول الإشكال والهيئات ، فالمراد بالماء الماء المعروف وتعريفه للجنس والمراد بالبشر آدم عليه السلام وتنوينه للتعظيم أو جنس البشر الصادق عليه عليه السلام وعلى

ذريته ، ومن ابتدائية ، ويجوز أن يراد بالماء النطفة وحينئذ يتعين حمل البشر على أولاد آدم عليه السلام .

(41/562)

﴿ فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهْراً ﴾ أي قسمه قسمين ذوي نسب أي ذكوراً ينسب إليهم وذوات صهر أي إناثاً يصاهر بهن فهو كقوله تعالى : ﴿ فَجَعَلَ مِنْهُ الزوجين الذكر والانثى ﴾ [القيامة : 39] فالواو للتقسيم والكلام على تقدير مضاف حذف ليدل على المبالغة ظاهراً وعدل عن ذكر وأنثى ليؤذن بالانشعاب نصاً ، وهذ الجعل والتقسيم مما لا خفاء فيه على تقدير أن يراد بالبشر الجنس ، وأما على تقدير أن يراد به آدم عليه السلام فقيل : هو باعتبار الجنس وفي الكلام ما هو من قبيل الاستخدام نظير ما في قولك : عندي درهم ونصفه ، وقيل : لا حاجة إلى اعتبار ذلك والكلام من باب الحذف والإيصال ، أي جعل منه وقد جيء به على الأصل في نظير هذه الآية وهو ما سمعته آنفاً ، وقيل : معنى جعل آدم نسباً وصهراً خلق حواء منه وإبقاؤه على ما كان عليه من الذكورة .

وتعقيب جعل الجنس قسمين خلق آدم أو الجنس باعتبار خلقه أو جعل قسمين من آدم خلقه عليه السلام كما تؤذن به الفاء ظاهر ، وربما يتوهم أن الضمير المنصوب في جعله

عائد على الماء والفاء مثلها في قوله تعالى : ﴿ وَنَادَى نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ ﴾ [هود : 45] الخ وقوله تعالى : ﴿ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أهلكناها فَجَاءهَا بَأْسُنَا بياتا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴾ [الأعراف : 4] وليس بشي .

وعن علي كرم الله تعالى وجهه أن النسب ما لا يحل نكاحه والصهر ما يحل نكاحه ، وفي رواية أخرى عنه رضي الله تعالى عنه النسب ما لا يحل نكاحه والصهر قرابة الرضاع ، وتفسير الصهر بذلك مروى عن الضحاك أيضاً .

﴿ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيراً ﴾ مبالغاً في القدرة حيث قدر على أن يخلق من مادة واحدة بشراً ذا أعضاء مختلفة وطباع متباعدة ، وجعله قسمين متقابلين ﴿ وَكَانَ ﴾ في مثل هذا الموضع للاستمرار .

وإذا قلنا بأن الجملة الإسمية نفسها تفيد ذلك أيضاً أفاد الكلام استمراراً على استمرار .

(42/562)

وربما أشعر ذلك بأن القدرة البالغة من مقتضيات ذاته جل وعلا .

ومن العجب ما زعمه بعض من يدعي التفرد بالتحقيق ممن صحبناه من علماء العصر رحمة الله تعالى عليه إن ﴿ كَانَ ﴾ في مثله للاستمرار فيما لم يزل والجملة الاسمية

للاستمرار فيما لا يزال فيفيد جمعهما استمرار ثبوت الخبر للمتبدأ أزلاً وأبداً ، ويعلم منه مبلغ الرجل في العلم .

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله ﴾ الذي شأنه تعالى شأنه ما ذكر ﴿ مَا لاَ يَنفَعُهُمْ ﴾ إن عبدون ﴿ وَلاَ يَضُرُّهُمْ ﴾ إن لم يعبدوه ، والمراد بذلك الأصنام أو كل ما عبد من دون الله عز وجل وما من مخلوق يستقل بالنفع والضر ﴿ وَكَانَ الكافر على رَبِّهِ ﴾ الذي ذكرت آثار ربوبيته جل وعلا ﴿ ظَهِيرًا ﴾ أي مظاهراً كما قال الحسن .

ومجاهد .

وابن زيد ، وفعيل بمعنى مفاعل كثير ومنه نديم وجليس ، والمظاهرة المعاونة أي يعاون الشيطان على ربه سبحانه بالعداوة والشرك ، والمراد بالكافر الجنس فهو إظهار في مقام الإضمار لنعي كفرهم عليهم .

وقيل : هو أبو جهل والآية نزلت فيه ، وقال عكرمة : هو إبليس عليه اللعنة ، والمراد يعالون المشركين على ربه عز وجل بأن يغريهم على معصيته والشرك به عز وجل ، وقيل : المراد يعاون على أولياء الله تعالى .

وجوز أن يكون هذا مراداً على سائر الاحتمالات في الكافر .

وقيل : المراد بظهيراً مهيناً من قولهم : ظهرت به إذا نبذته خلف ظهرك أي كان من يعبد من دون الله تعالى ما لا ينفعه ولا يضره مهيناً على ربه عز وجل لا خلاق له عنده سبحانه قاله

الطبري ، ففعيل بمعنى مفعول ، والمعروف أن ﴿ ظَهِيرًا ﴾ بمعنى معين لا بمعنى مظهور به .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 19 صـ ﴾

(43/562)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا (45) ﴾

لما فرغ سبحانه من ذكر جهالة الجاهلين وضلالتهم أتبعه بذكر طرف من دلائل التوحيد مع ما فيها من عظيم الإنعام ، فأوّلها الاستدلال بأحوال الظل ، فقال : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظل ﴾ هذه الرؤية إما بصرية ، والمراد بها : ألم تبصر إلى صنع ربك ، أو ألم تبصر إلى الظل كيف مدّه ربك ؟ وإما قلبية بمعنى : العلم ، فإن الظل متغير ، وكل متغير حادث ، ولكل حادث موجد .

قال الزجاج ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ ألم تعلم ، وهذا من رؤية القلب .

قال : وهذا الكلام على القلب ، والتقدير : ألم تر إلى الظلّ كيف مدّه ربك ؟ يعني : الظل من وقت الإسفار إلى طلوع الشمس ، وهو ظل لا شمس معه ، وبه قال الحسن وقتادة .

وقيل : هو من غيبوبة الشمس إلى طلوعها .

قال أبو عبيدة : الظل بالغداة ، والفيء بالعشي ، لأنه يرجع بعد زوال الشمس ، سمي فيئاً لأنه فاء من المشرق إلى جانب المغرب .

قال حميد بن ثور يصف سرحة ، وكنى بها عن امرأة :

فلا الظلّ من برد الضحى تستطيعه . . . ولا الفيء من برد العشي تذوق

وقال ابن السكيت : الظل : ما نسخته الشمس ، والفيء : ما نسخ الشمس .

وحكى أبو عبيدة عن رؤبة قال : كل ما كانت عليه الشمس ، فزالت عنه ، فهو فيء وظلّ ، وما لم تكن عليه الشمس ، فهو ظلّ .

انتهى .

(44/562)

وحقيقة الظلّ : أنه أمر متوسط بين الضوء الخالص والظلمة الخالصة ، وهذا التوسط هو أعدل من الطرفين ، لأن الظلمة الخالصة يكرهها الطبع ، وينفر عنها الحسّ ، والضوء الكامل لقوّته يبهر الحسّ البصري ، ويؤذي بالتسخين ، ولذلك وصفت الجنة به بقوله : ﴿ وَظِلّ مَّمْدُودٍ ﴾ [الواقعة : 30] ، وجملة : ﴿ وَلَوْ شَاء لَجَعَلَهُ سَاكِناً ﴾ معترضة بين

المعطوف والمعطوف عليه أي : لو شاء الله سبحانه سكونه لجعله ساكناً ثابتاً دائماً مستقراً لا تنسخه الشمس .

وقيل : المعنى : لو شاء لمنع الشمس الطلوع ، والأول أولى .

والتعبير بالسكون عن الإقامة ، والاستقرار سائغ ، ومنه قولهم : سكن فلان بلد كذا : إذا أقام به ، واستقرّ فيه .

وقوله : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَا الشمس عَلَيْهِ دَلِيلاً ﴾ معطوف على قوله : ﴿ مَدَّ الظل ﴾ داخل في حكمه أي : جعلناها علامة يستدل بها بأحوالها على أحواله ، وذلك لأن الظل يتبعها كما يتبع الدليل في الطريق من جهة أنه يزيد بها وينقص ، ويمتد ويتقلص .

وقوله ﴿ ثُمَّ قبضناه ﴾ معطوف أيضاً على مَدَّ داخل في حكمه .

والمعنى : ثم قبضنا ذلك الظلّ المدود ، ومحوناه عند إيقاع شعاع الشمس موقعه بالتدريج حتى انتهى ذلك الإظلال إلى العدم والإضمحلال .

وقيل : المراد في الآية قبضه عند قيام الساعة بقبض أسبابه ، وهي الأجرام النيرة .

والأوّل أولى .

والمعنى : أن الظلّ يبقى في هذا الجوّ من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس ، فإذا طلعت الشمس صار الظل مقبوضاً ، وخلفه في هذا الجوّ شعاع الشمس ، فأشرقت على الأرض ، وعلى الأشياء إلى وقت غروبها ، فإذا غربت ، فليس هناك ظلّ ، إنما فيه بقية نور النهار

وقال قوم : قبضه بغروب الشمس ، لأنها إذا لم تغرب ، فالظلّ فيه بقية ، وإنما يتمّ زواله بمجيء الليل ، ودخول الظلمة عليه .

(45/562)

وقيل : المعنى : ثم قبضنا ضياء الشمس بالفيء ﴿ قَبْضاً يَسِيراً ﴾ ومعنى ﴿ إِلَيْنَا ﴾ : أن مرجعه إليه سبحانه كما أن حدوثه منه قبضاً يسيراً أي : على تدريج قليلاً قليلاً بقدر ارتفاع الشمس ، وقيل : يسيراً سريعاً ، وقيل : المعنى يسيراً علينا أي : يسيراً قبضه علينا ليس بعسير .

﴿ وَهُوَ الَّذي جَعَلَ لَكُمُ اليل لِبَاساً ﴾ شبه سبحانه ما يستر من ظلام الليل باللباس الساتر .

قال ابن جرير : وصف الليل باللباس تشبيهاً من حيث أنه يستر الأشياء ، ويغشاها ، واللام متعلقة بجعل ﴿ والنوم سُبَاتاً ﴾ أي : وجعل النوم سباتاً أي : راحة لكم ، لأنكم تنقطعون عن الاشتغال ، وأصل السبات : التمدد ، يقال : سبتت المرأة شعرها أي : نقضته وأرسلته ، ورجل مسبوت أي : ممدود الخلقة .

وقيل : للنوم سبات ، لأنه بالتمدد يكون ، وفي التمدد معنى الراحة .

وقيل : السبت القطع ، فالنوم انقطاع عن الاشتغال ، ومنه سبت اليهود لانقطاعهم عن الاشتغال .

قال الزجاج : السبات النوم ، وهو أن ينقطع عن الحركة ، والروح في بدنه أي : جعلنا نومكم راحة لكم .

وقال الخليل : السبات نوم ثقيل أي : جعلنا نومكم ثقيلاً ليكمل الإجمام والراحة ﴿ وَجَعَلَ النهار نُشُوراً ﴾ أي : زمان بعث من ذلك السبات ، شبه اليقظة بالحياة كما شبه النوم بالسبات الشبيه بالممات .

وقال في الكشاف : إن السبات الموت ، واستدل على ذلك بكون النشور في مقابلته .

﴿ وَهُوَ الذي أَرْسَلَ الرياح بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ﴾ قرىء : " الريح " ، وقرىء : " بشراً " بالباء الموحدة ، وبالنون .

وقد تقدم تفسير هذه الآية مستوفى في الأعراف ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السماء مَاء طَهُوراً ﴾ أي : يتطهر به كما يقال : وضوء للماء الذي يتوضأ به .

قال الأزهري : الطهور في اللغة الطاهر المطهر ، والطهور ما يتطهر به .

(46/562)

قال ابن الأنباري : الطهور بفتح الطاء الاسم ، وكذلك الوضوء ، والوقود ، وبالضم المصدر ، هذا هو المعروف في اللغة ؛ وقد ذهب الجمهور إلى أن الطهور هو الطاهر المطهر ، ويؤيد ذلك كونه بناء مبالغة .

وروي عن أبي حنيفة أنه قال : الطهور هو الطاهر ، واستدل لذلك بقوله تعالى : ﴿ وسقاهم رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً ﴾ [الإنسان : 21] يعني : طاهراً ، ومنه قول الشاعر :

خليليّ هل في نظرة بعد توبة . . . أداوي بها قلبي عليّ فجور

إلى رجح الأكفال غيد من الظبي . . . عذاب الثنايا ريقهنّ طهور

فوصف الريق بأنه طهور ، وليس بمطهر ، ورجح القول الأوّل ثعلب ، وهو راجح لما تقدّم من حكاية الأزهري لذلك عن أهل اللغة .

وأما وصف الشاعر للريق بأنه طهور ، فهو على طريق المبالغة ، وعلى كل حال ، فقد ورد الشرع بأن الماء طاهر في نفسه مطهر لغيره ، قال الله تعالى :

﴿ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّن السماء مَاء لِّيُطَهِّرَكُمْ بِهِ ﴾ [الأنفال : 11] وقال النبي صلى الله عليه وسلم : " خلق الماء طهوراً " ثم ذكر سبحانه علة الإنزال ، فقال : ﴿ لِّنُحْيِيَ بِهِ ﴾ أي : بالماء المنزل من السماء ﴿ بَلْدَةً مَّيْتاً ﴾ وصف البلدة ب ﴿ ميتاً ﴾ ، وهي صفة للمذكر ؛ لأنها بمعنى البلد .

وقال الزجاج : أراد بالبلد : المكان ، والمراد بالإحياء هنا : إخراج النبات من المكان الذي

لا نبات فيه ﴿ وَنُسْقِيَهِ مِمَّا خَلَقْنَا أنعاما وَأَنَاسِيَّ كَثِيراً ﴾ أي : نسقي ذلك الماء ، قرأ أبو عمرو وعاصم في رواية عنهما ، وأبو حيان وابن أبي عبلة بفتح النون من : " نسقيه " وقرأ الباقون بضمها ، و"من" في : ﴿ مِمَّا خَلَقْنَا ﴾ للإبتداء ، وهي متعلقة ب ﴿ نسقيه ﴾ ، ويجوز أن تتعلق بمحذوف على أنه حال ، والأنعام قد تقدّم الكلام عليها ، والأناسيّ جمع إنسان على ما ذهب إليه سيبويه .

(47/562)

وقال الفراء والمبرّد والزجاج : إنه جمع إنسيّ ، وللفراء قول آخر : إنه جمع إنسان ، والأصل : أناسين مثل سرحان وسراحين وبستان وبساتين ، فجعلوا الباء عوضاً من النون .

﴿ وَلَقَدْ صرفناه بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُواْ ﴾ ضمير ﴿ صرفناه ﴾ ذهب الجمهور إلى أنه راجع إلى ما ذكر من الدلائل أي : كرّرنا أحوال الإظلال ، وذكر إنشاء السحاب ، وإنزال المطر في القرآن ، وفي سائر الكتب السماوية ، ليتفكروا ويعتبروا ﴿ فأبى أَكْثَرُ ﴾ هم إلاّ كفران النعمة وجحدها .

وقال آخرون : إنه يرجع إلى أقرب المذكورات وهو المطر أي : صرفنا المطر بينهم في البلدان المختلفة ، فنزيد منه في بعض البلدان ، وننقص في بعض آخر منها ، وقيل : الضمير راجع

إلى القرآن ، وقد جرى ذكره في أوّل السورة حيث قال : ﴿ تَبَارَكَ الذي نَزَّلَ الفرقان على عَبْدِهِ ﴾ [الفرقان : 1] ، وقوله : ﴿ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذكر بَعْدَ إِذْ جَاءِنِي ﴾ [الفرقان : 29] ، وقوله : ﴿ اتخذوا هذا القرءان مَهْجُوراً ﴾ [الفرقان : 30] والمعنى : ولقد كرّرنا هذا القرآن بإنزال آياته بين الناس ؛ ليذكروا به ، ويعتبروا بما فيه ، فأبى أكثرهم ﴿ إِلاَّ كُفُورًا ﴾ به ، وقيل : هو راجع إلى الريح ، وعلى رجوع الضمير إلى المطر ؛ فقد اختلف في معناه ، فقيل : ما ذكرناه .

وقيل : صرفناه بينهم وابلاً وطشاً وطلاً ورذاذاً ، وقيل : تصريفه تنويع الانتفاع به في الشرب ، والسقي والزراعات به والطهارات .

قال عكرمة : إن المراد بقوله ﴿ فأبى أَكْثَرُ الناس إِلاَّ كُفُورًا ﴾ هو قولهم : في الأنواء مطرنا بنوء كذا .

قال النحاس : ولا نعلم بين أهل التفسير اختلافاً أن الكفر هنا قولهم : مطرنا بنوء كذا .

وقرأ عكرمة " صرفناه " مخففاً ، وقرأ الباقون بالتثقيل .

وقرأ حمزة ، والكسائي : " ليذكروا " مخففة الذال من الذكر ، وقرأ الباقون بالتثقيل من التذكر .

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيراً ﴾ أي : رسولاً ينذرهم كما قسمنا المطر بينهم ، ولكنا لم نفعل ذلك بل جعلنا نذيراً واحداً ، وهو أنت يا محمد ، فقابل ذلك بشكر النعمة ﴿ فَلاَ تُطِعِ الكافرين ﴾ فيما يدعونك إليه من اتباع آلهتهم ، بل اجتهد في الدعوة ، واثبت فيها ، والضمير في قوله : ﴿ وجاهدهم بِهِ جِهَاداً كَبِيراً ﴾ راجع إلى القرآن أي : جاهدهم بالقرآن ، واتل عليهم ما فيه من القوارع والزواجر والأوامر والنواهي .

وقيل : الضمير يرجع إلى الإسلام ، وقيل : بالسيف ، والأوّل أولى .

وهذه السورة مكية ، والأمر بالقتال إنما كان بعد الهجرة .

وقيل : الضمير راجع إلى ترك الطاعة المفهوم من قوله : ﴿ فَلاَ تُطِعِ الكافرين ﴾ .

وقيل : الضمير يرجع إلى ما دل عليه قوله : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيراً ﴾ ؛ لأنه سبحانه لو بعث في كل قرية نذيراً لم يكن على كل نذير إلا مجاهدة القرية التي أرسل إليها ، وحين اقتصر على نذير واحد لكل القرى ، وهو محمد ، فلا جرم اجتمع عليه كل المجاهدات ، فكبر جهاده وعظم ، وصار جامعاً لكل مجاهدة ، ولا يخفى ما في هذين الوجهين من البعد .

ثم ذكر سبحانه دليلاً رابعاً على التوحيد ، فقال : ﴿ وَهُوَ الذى مَرَجَ البحرين ﴾ مرج : خلّى ، وخلط ، وأرسل ، يقال : مرجت الدابة ، وأمرجتها : إذا أرسلتها في المرعى ،

وخليتها تذهب حيث تشاء .

قال مجاهد : أرسلهما ، وأفاض أحدهما إلى الآخر .

وقال ابن عرفة : خلطهما ، فهما يلتقيان ، يقال : مرجته : إذا خلطته ، ومرج الدين والأمر : اختلط واضطرب ، ومنه قوله : ﴿ فِى أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴾ [ق : 5] وقال الأزهري : ﴿ مَرَجَ البحرين ﴾ خلى بينهما ، يقال : مرجت الدابة : إذا خليتها ترعى .

وقال ثعلب : المرج الإجراء ، فقوله : ﴿ مَرَجَ البحرين ﴾ أي : أجراهما .

(49/562)

قال الأخفش : ويقول قوم : أمرج البحرين مثل مرج ، فعل وأفعل بمعنى : ﴿ هذا عَذْبٌ فُرَاتٌ ﴾ الفرات : البليغ العذوبة ، وهذه الجملة مستأنفة جواب سؤال مقدّر ، كأنه قيل : كيف مرجهما ؟ فقيل : هذا عذب ، وهذا ملح ، ويجوز أن يكون في محل نصب على الحال .

قيل : سمى الماء الحلو فراتاً ، لأنه يفرت العطش أي : يقطعه ، ويكسره ﴿ وهذا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾ أي : بليغ الملوحة ، هذا معنى الأجاج .

وقيل : الأجاج البليغ في الحرارة ، وقيل : البليغ في المرارة ، وقرأ طلحة " ملح " بفتح الميم ،

وكسر اللام ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً وَحِجْراً مَّحْجُوراً ﴾ البرزخ: الحاجز، والحائل الذي جعله الله بينهما من قدرته يفصل بينهما، ويمنعهما التمازج، ومعنى ﴿ حِجْراً مَّحْجُوراً ﴾: ستراً مستوراً يمنع أحدهما من الاختلاط بالآخر، فالبرزخ الحاجز، والحجز: المانع.

وقيل: معنى ﴿ حِجْراً مَّحْجُوراً ﴾: هو ما تقدّم من أنها كلمة يقولها المتعوّذ، كأن كل واحد من البحرين يتعوّذ من صاحبه، ويقول له هذا القول، وقيل: حدًّا محدوداً.

وقيل: المراد من البحر العذب: الأنهار العظام كالنيل والفرات وجيحون، ومن البحر الأجاج: البحار المشهورة، والبرزخ بينهما الحائل من الأرض.

وقيل: معنى ﴿ حِجْراً مَّحْجُوراً ﴾: حراماً محرماً أن يعذب هذا المالح بالعذب، أو يملح هذا العذب بالمالح، ومثل هذه الآية قوله سبحانه في سورة الرحمن:

﴿ مَرَجَ البحرين يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَّ يَبْغِيَانِ ﴾ [الرحمن: 19، 20].

(50/562)

ثم ذكر سبحانه حالة من أحوال خلق الإنسان والماء، فقال: ﴿ وَهُوَ الذي خَلَقَ مِنَ الماء بَشَراً فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهْراً ﴾، والمراد بالماء هنا: ماء النطفة أي: خلق من ماء النطفة إنساناً، فجعله نسباً وصهراً، وقيل: المراد بالماء: الماء المطلق الذي يراد في قوله: ﴿

وَجَعَلْنَا مِنَ الماء كُلَّ شَيْءٍ حَيّ ﴾ [الأنبياء : 30] ، والمراد بالنسب : هو الذي لا يحلّ نكاحه .

قال الفراء ، والزجاج : واشتقاق الصهر من صهرت الشيء : إذا خلطته ، وسميت المناكح صهراً لاختلاط الناس بها .

وقيل : الصهر : قرابة النكاح ؛ فقرابة الزوجة هم الأختان ، وقرابة الزوج هم الأحماء ، والأصهار تعمهما ، قاله الأصمعي .

قال الواحدي : قال المفسرون : النسب سبعة أصناف من القرابة يجمعها قوله : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أمهاتكم ﴾ إلى قوله : ﴿ وأمهاتِ نِسَائِكُمْ ﴾ [النساء : 23] ومن هنا إلى قوله : ﴿ وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ الأختين ﴾ [النساء : 23] تحريم بالصهر ، وهو الخلطة التي تشبه القرابة ، حرم الله سبعة أصناف من النسب ، وسبعة من جهة الصهر ، قد اشتملت الآية المذكورة على ستة منها ، والسابعة قوله : ﴿ وَلاَ تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَاؤُكُمْ مِّنَ النساء ﴾ [النساء : 22] ، وقد جعل ابن عطية ، والزجاج ، وغيرهما الرضاع من جملة النسب ، ويؤيده قوله : " يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب " ﴿ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيراً ﴾ أي : بليغ القدرة عظيمها ، ومن جملة قدرته الباهرة خلق الإنسان ، وتقسيمه إلى القسمين المذكورين .

وقد أخرج سعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ

إلى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظل ﴾ قال : بعد الفجر قبل أن تطلع الشمس .

وأخرج ابن أبي حاتم عنه بلفظ : أَلَمْ تَرَ أنك إذا صليت الفجر كان بين مطلع الشمس إلى مغربها ظلاً ، ثم بعث الله عليه الشمس دليلاً ، فقبض الظلّ .

(51/562)

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه أيضاً في الآية قال : مدّ الظلّ ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس ﴿ وَلَوْ شَاء لَجَعَلَهُ سَاكِناً ﴾ قال : دائماً ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَا الشمس عَلَيْهِ دَلِيلاً ﴾ يقول : طلوع الشمس ﴿ ثُمَّ قبضناه إِلَيْنَا قَبْضاً يَسِيراً ﴾ قال : سريعاً .

وأخرج أهل السنن ، وأحمد ، وغيرهم من حديث أبي سعيد قال : قيل : يا رسول الله أنتوضأ من بئر بضاعة ؟ وهي : بئر يلقى فيها الحيض ولحوم الكلاب والنتن ، فقال : " إن الماء طهور لا ينجسه شيء " وفي إسناد هذا الحديث كلام طويل قد استوفيناه في شرحنا على المنتقى .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه ، والبيهقي في سننه عن ابن عباس قال : ما من عام بأقلّ مطراً من عام ، ولكن الله يصرفه حيث يشاء ، ثم قرأ هذه الآية : ﴿ وَلَقَدْ صرفناه بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُواْ ﴾ الآية .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ وجاهدهم بِهِ ﴾ قال : بالقرآن .

وأخرج ابن جرير عنه : ﴿ هُوَ الذي مَرَجَ البحرين ﴾ يعني : خلط أحدهما على الآخر ، فليس يفسد العذب المالح ، وليس يفسد المالح العذب .

وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله : ﴿ وَحِجْراً مَّحْجُوراً ﴾ يقول : حجر أحدهما عن الآخر بأمره وقضائه .

وأخرج عبد بن حميد عن عبد الله بن المغيرة قال : سئل عمر بن الخطاب عن ﴿ نَسَباً وَصِهْراً ﴾ ، فقال : ما أراكم إلا وقد عرفتم النسب ، وأما الصهر : فالأختان والصحابة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 4 صـ ﴾

(52/562)

وقال القاسمى :

﴿ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ ﴾

أرسلهما متجاورين متلاصقين ، بحيث لا يتمازجان : ﴿ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ ﴾ أي : شديد العذوبة قامع للظمأ : ﴿ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾ أي : بليغ الملوحة : ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا

بَرْزَخاً ﴾ أي : حاجزاً لا يختلط أحدهما بالآخر : ﴿ وَحِجْراً مَحْجُوراً ﴾ أي : منعاً من وصول أثر أحدهما إلى الآخر ، وامتزاجه به ، حتى بعد دخول أحدهما في الآخر مسافة .

لطيفة :

(53/562)

تلطف هنا المهايميّ في تأويل الآية ، بمعنى يصلها بالآية قبلها ، في أسلوب غريب . قال رحمه الله في قوله تعالى : ﴿ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيراً ﴾ : يؤثر في بواطنهم فيكون : ﴿ كَبِيراً ﴾ يفوق ما يؤثر في الظواهر وإن زعموا أنه كيف يجاهد بالدلائل من يورد شبهات تجاورها ؟ قيل : غاية أمرها أن يكونا كالبحرين المختلفين المتجاورين . وقد رفع الله الالتباس بينهما بعد ما جاور بينهما وهما محسوسان ، فكيف لا يرفع الالتباس بين البحرين المعقولين إذ : ﴿ هُوَ الَّذِي مَرَجَ ﴾ أي : جاور : ﴿ الْبَحْرَيْنِ ﴾ اللذين بينهما غاية الخلاف إذ : ﴿ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ ﴾ أي : قاطع للعطش وهو مثل بحر الدلائل المفيدة للذوق ، القاطعة عطش الطلب : ﴿ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾ أي : مبالغ في الملوحة . وهو مثل بحر الشبهات الموجبة للنفرة جدّاً لأهل الذوق وأما لأهل النظر فقد : ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً ﴾ أي :

مانعاً من الخلط . وهو النظر في مواد المقدمات وصورها ليعلم بذلك صحة الدلائل وأما فساد الشبهات فيعلم بالاعتراضات التي لا جواب عنها ، كما أنه جعل بينهما : ﴿ حِجْراً ﴾ أي : منعاً من وصول أثر أحدهما إلى الآخر : ﴿ مَحْجُوراً ﴾ أي : ممنوعاً أن يمنع .

وإن زعموا أن كل فرقة ترى ممسكاته تفيده الذوق وتقطع عنه الطلب ويتنفر عن متمسكات صاحبه أشد من التنفر عن الملح الأجاج ، قيل : ليس هذا بالنظر إلى نفس الدلائل ، بل بواسطة التعصب من جهة الآباء والمشايخ والأصحاب . وقد أوجد الله لإزالة العذر عنه مثالاً ، في قوله :

﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَراً ﴾

(54/562)

أي : كما أخرج من المقدمات نتائج العلوم : ﴿ فَجَعَلَهُ ﴾ أي : البشر : ﴿ نَسَباً ﴾ أي : أصلاً أو فرعاً أو حاشية لقوم : ﴿ وَصِهْراً ﴾ أي : لآخرين يتعصب من أجل نسبه وصهره ، فيعتقد باطلهم حقّاً . كذلك أهل الشغب يتعصبون لآبائهم ومشايخهم : ﴿ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيراً ﴾ أي : وهو وإن صعب إزالته ، فإن ربك الذي أمرك بالجهاد الكبير , قدير على إزالته . كما قدر في النسب والصهر . فلا يبالي المؤمنون لهما . انتهى كلام

المهايميّ رحمه الله .

وهو منزع في باب الإشارة غريب ، أثرناه عنه للطافته . وأما معنى الآية في عظيم اقتداره سبحانه ، حيث خلق البشر وقسمهم من نطفة واحدة قسمين ذوي نسب ، أي : ذكوراً ينسب إليهم ، فيقال : فلان بين فلان وفلانة بنت فلان . وذوات صهر أي : إناثاً يصاهر بهن ، فظاهر . ونظيره قوله تعالى : ﴿ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى ﴾ [القيامة : 39] .

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنْفَعُهُمْ وَلا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيراً ﴾ أي : معيناً للشيطان على عصيان ربه . والمراد بالكافر الجنس ، فهو إظهار في مقام الإضمار ، لنفي كفرهم عليهم ، ولرعاية الفواصل الكريمة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 12 صـ 449 . 451 ﴾

(55/562)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ ﴾

عود إلى الاستدلال على تفرده تعالى بالخلق .

جمعت هذه الآية استدلالاً وتمثيلاً وتثبيتاً ووعداً ؛ فصريحُها استدلال على شيء عظيم من آثار القدرة الإلهية وهو التقاء الأنهار والأبحر كما سيأتي ، وفي ضمنها تمثيل لحال دعوة الإسلام في مكة يومئذ واختلاط المؤمنين مع المشركين بحال تجاوز البحرين : أحدهما عذب فرات والآخر ملح أُجاج .

وتمثيلُ الإيمان بالعذْب الفرات والشرك بالمِلْح الأُجاج ، وأن الله تعالى كما جعل بين البحرين برزخاً يحفظ العَذْب من أن يكدره الأُجاج ، كذلك حجز بين المسلمين والمشركين فلا يستطيع المشركون أن يدسّوا كفرهم بين المسلمين .

وفي هذا تثبيت للمسلمين بأن الله يحجز عنهم ضر المشركين لقوله : ﴿ لن يضروكم إلا أذى ﴾ [آل عمران : 111] .

وفي ذلك تعريض كنائي بأن الله ناصر لهذا الدين من أن يكدره الشرك .

ولأجل ما فيها من التمثيل والتثبيت والوعد كان لموقعها عَقِب جملة ﴿ فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهاداً كبيراً ﴾ [الفرقان : 52] أكملُ حسن .

وهي معطوفة على جملة ﴿ وهو الذي أرسل الرياح نشراً بين يدي رحمته ﴾ [الفرقان : 48] .

ومناسبة وقوعها عقب التي قبلها أن كلتيهما استدلال بآثار القدرة في تكوين المياه المختلفة .

ومفاد القصر هنا نظير ما تقدم في الآيتين السابقتين .

والمرج : الخلط .

واستعير هنا لشدة المجاورة ، والقرينة قوله : ﴿ وجعل بينهما برزخاً وحجراً محجوراً ﴾ .

والبحر : الماء المستبحر ، أي الكثير العظيم .

والعذب : الحلو .

والفرات : شديد الحلاوة .

والمِلح بكسر الميم وصف به بمعنى المالح ، ولا يقال في الفصيح إلا مِلح وأما مَالح فقليل .

وأريد هنا ملتقى ماء نهرَي الفرات والدجلة مع ماء بَحر خليج العجم .

والبرزخ : الحائل بين شيئين .

(56/562)

والمراد بالبرزخ تشبيه ما في تركيب الماء الملح مما يدفع تخلل الماء العذْب فيه بحيث لا يختلط أحدهما بالآخر ويبقى كلاهما حافظاً لطعمه عند المصبّ .

و﴿ حِجْرا ﴾ مصدر منصوب على المفعولية به لأنه معطوف على مفعول ﴿ جعل ﴾ .

وليس هنا مستعملاً في التعوذ كالذي تقدم آنفاً في قوله تعالى ﴿ ويقولون حِجْراً محجوراً ﴾ [الفرقان : 22] .

و﴿ محجوراً ﴾ وصف ل ﴿ حجراً ﴾ مشتق من مادته للدلالة على تمكن المعنى المشتق منه كما قالوا : ليل أَلْيَل .

وقد تقدم في هذه السورة .

ووقع في "الكشاف" تكلف بجعل ﴿ حجراً محجوراً ﴾ هنا بمعنى التعوّذ كالذي في قوله ﴿ ويقولون حجراً محجوراً ﴾ [الفرقان : 22] ولا داعي إلى ذلك لأن ما ذكروه من استعمال ﴿ حجراً محجوراً ﴾ في التعوذ لا يقتضي أنه لا يستعمل إلا كذلك .

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا (54)

مناسبة موقع هذا الاستدلال بعد ما قبله أنه استدلال بدقيق آثار القدرة في تكوين المياه وجعلها سبب حياة مختلفة الأشكال والأوضاع .

ومن أعظمها دقائق الماء الذي خلق منه أشرف الأنواع التي على الأرض وهو نطفة الإنسان بأنها سبب تكوين النسل للبشر فإنه يكون أول أمره ماء ثم يتخلّق منه البشر العظيم ، فالتنوين في قوله ﴿ بشراً ﴾ للتعظيم .

والقصر المستفاد من تعريف الجزءين قصر إفراد لإبطال دعوى شركة الأصنام لله في الإلهية .

والبشر : الإنسان .

وقد تقدم في قوله تعالى : ﴿ فتمثّل لها بشراً سويًّا ﴾ في سورة مريم (17) .

والضمير المنصوب في ﴿ فجعله ﴾ عائد إلى البشر ، أي فجعل البشر الذي خلقه من الماء نسباً وصهراً ، أي قَسَّم الله البشر قسمين : نسبٍ ، وصهرٍ .

فالواو للتقسيم بمعنى (أو) والواو أجود من (أو) في التقسيم .

و ﴿ نسباً وصهراً ﴾ مصدران سمي بهما صنفان من القرابة على تقدير : ذا نسب وصهر وشاع ذلك في الكلام .

(57/562)

والنسب لا يخلو من أُبوّة وبُنوّة وأُخُوة لأولئك وبنوةٍ لتلك الأُخوة .

وأما الصهر فهو : اسم لما بين المرء وبين قرابة زوجه وأقاربه من العلاقة ، ويسمى أيضاً مصاهرة لأنه يكون من جهتين ، وهو آصرة اعتبارية تتقوم بالإضافة إلى ما تضاف إليه ، فصهر الرجل قرابة امرأته ، وصهر المرأة قرابة زوجها ، ولذلك يقال : صاهر فلان فلاناً إذا تزوج من قرابته ولو قرابةً بعيدة كقرابة القبيلة .

وهذا لا يخلو عنه البشر المتزوج وغير المتزوج .

ويطلق الصهر على مع له من الآخر علاقة المصاهرة من إطلاق المصدر في موضع الوصف فالأكثر حينئذ أن يخص بقريب زوج الرجل ، وأما قريب زوج المرأة فهو خَتَن لها أو حَمٌ . ولا يخلو أحد عن آصرة صهر ولو بعيداً .

وقد أشار إلى ما في هذا الخلق العجيب من دقائق نظام إيجاد طبيعي واجتماعي بقوله : ﴿ وكان ربك قديراً ﴾ ، أي عظيم القدرة إذْ أوجد من هذا الماء خَلْقاً عظيماً صاحب عقل وتفكير فاختص باتصال أواصر النسب وأواصر الصهر ، وكان ذلك أصل نظام الاجتماع البشري لتكوين القبائل والشعوب وتعاونهم مما جاء بهذه الحضارة المرتقية مع العصور والأقطار قال تعالى : ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ﴾ [الحجرات : 13] .

وفي تركيب ﴿ وكان ربك قديراً ﴾ من دقيق الإيذان بأن قدرته راسخة واجبة له مُتصف بها في الأزل بما اقتضاه فعل ﴿ كَان ﴾ ، وما في صيغة "قدير" من الدلالة على قوة القدرة المقتضية تمام الإرادة والعلم .

وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا (55)

الواو للحال ، وهذا مستعمل في التعجيب من استمرارهم في الشرك ، أُعقب ذكر ما نفع الله به الناس من إلطافه بهم في تصاريف الكائنات إذ جعل لهم الليل والنهار ، وخلق لهم الماء فأنبت به الزرع وسقى به الناس والأنعام ، مع ما قارنه من دلائل القدرة بذكر عبادتهم ما لا ينفع الناس عَوْداً إلى حكاية شيء من أحوال مشركي مكة .

ونفي الضرّ بعد نفي النفع للتنبيه على انتفاء شبهة عَبَدة الأصنام في شركهم لأن موجب العبادة إما رجاء النفع وإما اتقاء ضر المعبود وكلاهما منتف عن الأصنام بالمشاهَدة .

والتعبير بالفعل المضارع للدلالة على تجدد عبادتهم الأصنام وعدم إجداء الدلائل المقلعة عنها في جانبهم .

وجملة ﴿ وكان الكافر على ربه ظهيراً ﴾ تذييل لما قبله ، فاللام في تعريف ﴿ الكافر ﴾ للاستغراق ، أي كل كافر على ربّه ظهير .

وجعل الخبر عن الكافر خبراً ل ﴿ كان ﴾ للدلالة على أن اتصافه بالخبر أمر متقرر معتاد من كل كافر .

والظهير : المظاهر ، أي المعين ، وتقدم في قوله تعالى : ﴿ ولو كان بعضُهم لبعض ظهيراً ﴾ في سورة الإسراء (88) وهو فعيل بمعنى مُفاعل ، أي مظاهر مثل حكيم بمعنى مُحكم ، وعَوين بمعنى معاون .

وقول عمر بن معد يكرب:

أمن ريحانة الداعي السّميع . . .

أي المُسمع .

قال في "الكشاف" : "ومجيء فعيل بمعنى مُفاعل غير عزيز" .

وهو مشتق من : ظاهر عليه ، إذا أعان من يُغالبه على غلَبه ، وأصله الأصيل مشتق من اسم جامد وهو اسم الظهر من الإنسان أو الدابة لأن المُعاون أحداً على غلب غيره كأنه يحمل الغالب على المغلوب كما يَحمل على ظهر الحامل ، جعل المشرك في إشراكه مع وضوح دلالة عدم استئهال الأصنام للإلهية كأنه ينصر الأصنام على ربه الحق .

وفي ذكر الربّ تعريض بأن الكافر عاقّ لمولاه .

(59/562)

وعن أبي عبيدة : ظَهير بمعنى مَظهور ، أي كُفر الكافر هَيّن على الله ، يعني أي فعيلاً فيه بمعنى مفعول ، أي مظهور عليه وعلى هذا يكون ﴿ على ﴾ متعلقاً بفعل ﴿ كان ﴾ أي كان على الله هيّناً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 19 صـ ﴾

(60/562)

وقال الشيخ الشنقيطي :

﴿ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ ﴾

اعلم أن لفظة : مرج تطلق في اللغة إطلاقين .

الأول : مرج بمعنى أرسل وخلى . من قولهم : مرج دابته إذا أرسلها إلى المرج ، وهو الموضع الذي ترعى فيه الدواب ، كما قال حسان بن ثابت رضي الله عنه :

وكانت لا يزال بها أنيس . . . خلال مروجها نعم وشاء

وعلى هذا فالمعنى : أرسل البحرين وخلاهما لا يختلط أحدهما بالآخر .

والإطلاق الثاني مرج بمعنى : خلط ، ومنه قوله تعالى : ﴿ يا أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴾ [ق : 5] أي مختلط ، فعلى القول الأول : فالمراد بالبحرين الماء العذب في جميع الدنيا ، والماء الملح في جميعها .

وقوله : ﴿ هذا عَذْبٌ فُرَاتٌ ﴾ يعني به ماء الآبار ، والأنهار والعيون في أقطار الدنيا .

وقوله : ﴿ وهذا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾ أي البحر الملح ، كالبحر المحيط ، وغيره من البحار التي هي ملح أجاج ، وعلى هذا التفسير فلا إشكال .

وأما على القول الثاني بأن مرج بمعنى خلط ، فالمعنى : أنه يوجد في بعض المواضع اختلاط الماء الملح والماء العذب في مجرى واحد ، ولا يختلط أحدهما بالآخر ، بل يكون بينهما

حاجز من قدرة الله تعالى ، وهذا محقق الوجود في بعض البلاد ، ومن المواضع التي هو واقع فيها المحل الذي يختلط فيه نهر السنغال بالمحيط الأطلسي بجنب مدينة سانلويس ، وقد زرت مدينة سانلويس عام ست وستين وثلاثمائة وألف هجرية ، واغتسلت مرة في نهر السنغال ، ومرة في المحيط ، ولم آت محل اختلاطهما ، ولكن أخبرني بعض المرافقين الثقاة أنه جاء إلى محل اختلاطهما ، وأنه جالس يغرف بإحدى يديه عذباً فراتاً ، وبالأخرى ملحاً أجاجاً ، والجمع في مجرى واحد ، لا يختلط أحدهما بالآخر . فسبحانه جل وعلا ما أعظمه ، وما أكمل قدرته .

(61/562)

وهذا الذي ذكره جل وعلا في هذه الآية جاء موضحاً في غير هذا الموضع كقوله تعالى في سورة فاطر : ﴿ وَمَا يَسْتَوِي البحران هذا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُ وهذا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾ [فاطر : 12] وقوله تعالى : ﴿ مَرَجَ البحرين يَلْتَقِيَانِ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَّ يَبْغِيَانِ ﴾ [الرحمن : 1920] أي لا يبغي أحدهما على الآخر فيمتزج به ، وهذا البرزخ الفاصل بين البحرين المذكور في سورة الفرقان ، وسورة الرحمن قد بين الله تعالى في سورة النمل أنه حاجز حجز به بينهما ، وذلك في قوله جل وعلا : ﴿ أَمَّن جَعَلَ الأرض قَرَاراً وَجَعَلَ خِلاَلَهَآ أَنْهَاراً

وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ البحرين حَاجِزاً أإله مَّعَ الله بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [النمل : 16] وهذا الحاجز هو اليبس من الأرض ، الفاصل بين الماء العذب ، والماء الملح على التفسير الأول .

وأما على التفسير الثاني فهو حاجز من قدرة الله غير مرئي للبشر ، وأكد شدة حجزه بينهما بقوله هنا : ﴿ وَحِجْراً مَّحْجُوراً ﴾ ، والظاهر أن قوله هنا : حجراً أي منعاً ، حراماً قدرياً وأن محجوراً توكيد له أي منعاً شديداً للاختلاط بينهما ، وقوله : ﴿ هذا عَذْبٌ ﴾ صفة مشبهة من قولهم : عذب الماء بالضم فهو عذب . وقوله فرات صفة مشبهة أيضاً ، من فرت الماء بالضم ، فهو فرات ، إذا كان شديد العذوبة . وقوله : وهذا ملح ، صفة مشبهة أيضاً من قولهم : ملح الماء بالضم والفتح فهو ملح .

قال الجوهري في صحاحه : ولا يقال مالح إلا في لغة ردية ا ه .

وقد أجاز ذلك بعضهم واستدل له بقول القائل :

ولو تفلت في البحر والبحر مالح . . . لأصبح ماء البحر من ريقها عذبا

وقوله : أجاج : صفة مشبهة أيضاً من قولهم : أج الماء يؤج أجوجاً فهو أجاج : أي ملح مر ، فالوصف بكونه أجاجاً يدل على زيادة المرارة على كونه ملحاً ، والعلم عند الله تعالى .

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا (54)

قال الزمخشري في الكشاف في تفسير هذه الآية الكريمة : فقسم البشر قسمين ، ذوي نسب أي ذكوراً ينسب إليهم فيقال : فلان بن فلان وفلانة بنت فلانة ، وذوات صهر أي إناثاً يصاهر بهن كقوله : ﴿ فَجَعَلَ مِنْهُ الزوجين الذكر والأنثى ﴾ [القيامة : 39] ، ﴿ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيراً ﴾ حيث خلق من النطفة الواحدة بشراً نوعين ذكر وأنثى . انتهى منه .

هذا التفسير الذي فسر به الآية يدل له ما استدل عليه به وهو قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يمنى ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فسوى فَجَعَلَ مِنْهُ الزوجين الذكر والأنثى ﴾ [القيامة : 3739] وهو دليل على أن آية الفرقان هذه بينتها آية القيامة المذكورة ، وفي هذه الآية الكريمة أقوال أخر غير ما ذكره الزمخشري .

منها : ما ذكر ابن كثير قال : فجعله نسباً وصهراً ، فهو في ابتداء أمره ولد نسيب ثم يتزوج فيصهر صهراً ، وانظر بقية الأقوال في الآية في تفسير القرطبي والدر المنثور للسيوطي .

مسألة

استنبط بعض العلماء من هذه الآية الكريمة : أن بنت الرجل من الزنى ، لا يحرم عليه نكاحها . قال ابن العربي المالكي في هذه الآية : والنسب عبارة عن خلط الماء بين الذكر والأنثى ، على وجه الشرع ، فإن كان بمعصية كان خلقاً مطلقاً ، ولم يكن نسباً محققاً ،

ولذلك لم يدخل تحت قوله : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ ﴾ [النساء : 23] بنته من الزنى ، لأنها ليست . ببنت له في أصح القولين لعلمائنا ، وما يحرم من الحلال ، لا يحرم من الحرام ، لأن الله امتن بالنسب ، والصهر على عباده ورفع قدرهما ، وعلق الأحكام في الحل والحرمة عليهما ، فلا يلحق الباطل بهما ، ولا يساويهما انتهى منه . بواسطة نقل القرطبي عنه .

(63/562)

وقال القرطبي : اختلف الفقهاء في نكاح الرجل ابنته من زنى ، أو أخته أو بنت ابنه من زنى : فحرم ذلك قوم منهم ابن القاسم وهو قول أبي حنيفة ، وأصحابه ، وأجاز ذلك آخرون منهم : عبد الملك بن الماجشون ، وهو قول الشافعي ، وقد مضى في النساء مجوداً . انتهى منه .

قال مقيدة عفا الله عنه وغفر له : الخلاف في هذه المسألة مشهور معروف ، وأرجح القولين دليلاً فيما يظهر أن الزنى لا يحرم به حلال ، فبنته من الزنى ليست بيناً له شرعاً ، وقد أجمع أهل العلم أنها لا تدخل في قوله تعالى : ﴿ يُوصِيكُمُ اللهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ ﴾ [النساء : 11] فالإجماع على أنها ترث ، ولا تدخل في آيات المواريث ، دليل صريح

على أنها أجنبية منه ، وليست بنتاً شرعاً ، ولكن الذي يظهر لنا أنه لا ينبغي له أن يتزوجها بحال . وذلك لأمرين :

الأول : أن كونها مخلوقة من مائة ، يجعلها شبيهة شبهاً صورياً بابنته شرعاً وهذا الشبه القوي بينهما ينبغي أن يزعه عن تزويجها .

الأمر الثاني : أنه لا ينبغي له أن يتلذذ بشيء سبب وجوده معصيته لخالقه جل وعلا ، فالندم على فعل الذنب الذي هو ركن من أركان التوبة ، لا يلائم التلذذ بما هو ناشئ عن نفس الذنب ، وما ذكره عن الشافعي من أنه يقول : إن البنت من الزنى لا تحرم ، هو مراد الزمخشري بقوله :

وإن شافعياً قلت قالوا بأنني . . . أبيح نكاح البنت والبنت تحرم

تنبيه

اعلم أنما ذكره صاحب الدر المنثور عن قتادة مما يقتضي أنه استنبط من قوله تعالى في هذه الآية : ﴿ فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهْراً ﴾ أن الصهر كالنسب في التحريم ، وأن كل واحد منهما تحرم منهما تحرم به سبع نساء ، لم يظهر لي وجهه ، ومما يزيده عدم ظهور ضعف دلالة الاقتران عند أهل الأصول ، كما تقدم إيضاحه مراراً ، والعلم عند الله تعالى .

وقوله تعالى : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لاَ يَنفَعُهُمْ وَلاَ يَضُرُّهُمْ ﴾

تقدم إيضاحه في سورة الحج وغيرها .

قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ الكافر على رَبِّهِ ظَهِيراً ﴾ .

الظهير في اللغة : المعين ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَالْمَلاَئِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴾ [التحريم : 4] وقوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ [القصص : 17] .

ومعنى قوله في هذه الآية الكريمة : ﴿ وَكَانَ الكافر على رَبِّهِ ظَهِيراً ﴾ على أظهر الأقوال ، وكان الكافر معيناً للشيطان ، وحزبه من الكفرة على عداوة الله ورسله ، فالكافر من حزب الشيطان يقاتل في سبيله أولياء الله الذين يقاتلون في سبيل الله ، فالكافر يعين الشيطان وحزبه في سعيهم ، لأن تكون كلمة الله ليست في العليا ، وهذا المعنى دلت عليه آيات من كتاب الله كقوله تعالى : ﴿ الذين آمَنُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الله والذين كَفَرُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطاغوت فقاتلوا أَوْلِيَاءَ الشيطان ﴾ [النساء : 76] الآية ، ومعلوم أن الذي يقاتل في سبيل الطاغوت ، المقاتلين في سبيل الله ، أنه على ربه ظهير .

(65/562)

وقوله تعالى : ﴿ واتخذوا مِن دُونِ اللهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ لاَ يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴾ [يس : 7475] على قول من قال : إن الجند المحضرون هم الكفار ، يقاتلون عن آلهتهم ويدافعون عنها ، ومن قاتل عن الأصنام مدافعاً عن عبادتها ، فهو على ربه ظهير ، وكونه ظهيراً على ربه أي معيناً للشيطان ، وحزبه على عداوة الله ورسله ، ككونه عدواً له المذكور في قوله تعالى : ﴿ مَن كَانَ عَدُوّاً لِّلَّهِ وملائكته وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة : 98] وقوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ اللهِ إِلَى النار فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ [فصلت : 19] ومعلوم بالضرورة أن جميع الخلق لو تعاونوا على عداوة الله لا يمكن أن يضروه بشيء وإنما يضرون بذلك أنفسهم : ﴿ يا أيها الناس أَنتُمُ الفقرآء إِلَى اللهِ واللهُ هُوَ الغني الحميد ﴾ [فاطر : 15] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 6 صـ ﴾

(66/562)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ ﴾

تأتي هذه الآية استمراراً لذكْر بعض آيات الله في الكون التي تلفت نظر المكابرين المعاندين

لرسول الله ، وسبق أنْ ذكر سبحانه : الظل والليل والرياح . . الخ إذن : كلما ذكر عنادهم يأتي بآية كونية ليلفتهم إلى أنهم غفلوا عن آيات الله ، وجدالهم مع رسول الله يدل على أنهم لم يلتفتوا إلى شيء من هذا ؛ لذلك ذكر آية كونية من آيات الله المرئية للجميع ومكررة ، وعليها الدليل القائم إلى يوم القيامة ، فقال تعالى : ﴿ وَهُوَ الذي مَرَجَ البحرين ﴾ [الفرقان : 53]

.

المَرْجح : المرعى المباح ، أو الكلأ العام الذي يسوم فيه الراعي ماشيته تمرح كيف تشاء . فمعنى ﴿ مَرَجَ البحرين ﴾ [الفرقان : 53] أي : جعل العَذْب والمالح يسيران ، كُلٌّ كما يشاء ، لذلك تجد البحار والمحيطات المالحة التي تمثل ثلاثة أرباع اليابسة ليس لها شكل هندسي منتظم ، بل تجده تعاريج والتواءات ، وانظر مثلاً إلى خليج المكسيك أو خليج العقبة ، وكأن الماء يسير على (هواه) ودون نظام ، فلا يشكل مستطيلاً أو مربعاً أو دائرة

.

وكذلك الأنهار التي تولدتْ من الأمطار على أعلى الجبال ، فتراها حين تتجمع وتسير تسير كما تشاء ، ملتوية ومُتعرِّجة ؛ لأن الماء يشقُّ مجراه في الأماكن السلهة ، فإنْ صادفته عقبة بسيطة ينحرف هنا أو هناك ، ليكمل مساره ، وانظر إلى التواء النيل مثلاً عند (قنا) .

إذن : الماء عَذْبٌ أو مالح يسير على هواه ، وليست المسألة (ميكانيكا) ، وليست منتظمة كالتي يشقُّها الإنسان ، فتأتي مستقيمة .

ونلحظ هذه الظاهرة مثلاً حينما يقضي الإنسان حاجته في الخلاء ، فينزل البول يشقّ له مجرىً في المكان الذي لا يعوقه ، فإنْ صادفته حصاة مثلاً انحرف عنها كأنه يختار مساره على هواه .

والبحر يقال عادة للمالح وللعذب على سبيل التغليب ، كما نقول الشمسان للشمس والقمر .

(67/562)

ومرْج البحرين آية كونية تدل على قدرة الله ، فالماء مع ما عُرف عنه من خاصية الاستطراق يعني : يسير إلى المناطق المنخفضة ، يسير المالح والعذب معاً دون أن يختلط أحدهما بالآخر ، ولو اختلطا لَفَسدا جميعاً ؛ لأن العَذْب إنْ خالطه المالح أصبح غيْرَ صالح للشرب ، وإنْ خالط المالح العذب فسد المالح ، وقد خلقه الله على درجة معينة من الملوحة بحيث تُصلحه فلا يفسد ، وتحفظه أن يكون آسناً .

فالماء العذب حين تحصره في المكان يأسن ويتغير ، أمّا البحر فقد أعدَّه الله ليكون مخزن الماء في الكون ومصدر البَخْر الذي تتكون منه الأنهار ؛ لذلك حفظه ، وجعل بينه وبين الماء العذب تعايشاً سِلْمياً ، لا يبغي أحدهما على الآخر رغم تجاورهما .

وقوله تعالى : ﴿ هذا عَذْبٌ فُرَاتٌ ﴾ [الفرقان : 53] أي : مُفرِط في العذوبة مستساغ ، ومن هذه الكلمة سَمَّوْا نهر الفرات لعذوبة مائه ، فليس المراد بالفرات أن الماء كماء نهر الفرات ؛ لأن الكلمة وُضِعت أولاً ، ثم سُمِّيَ بها النهر ، ذلك لأن القرآن هو كلام الله الأزلي .

﴿ وهذا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾ [الفرقان : 53] أي : شديد الملوحة ، ومع ذلك تعيش فيه الأسماك والحيوانات المائية ، وتتغذى عليه كما تتغذى على الماء العَذْب ، كما قال سبحانه : ﴿ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ [فاطر : 12] .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً ﴾ [الفرقان : 53] البرزخ : شيء بين شيئين ، وأصل كلمة برزخ : اليابسة التي تفصل بين ماءين ، فإن كان الماء بين يابستين فهو خليج .

(68/562)

﴿ وَحِجْراً مَّحْجُوراً ﴾ [الفرقان : 53] الحِجْر : هو المانع الذي يمنع العَذْب والمالح أنْ يختلطا ، والحِجْر نفسه محجور ، مبالغة في المنع من اختلاط الماءيْن ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ القرآن جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخرة حِجَاباً مَّسْتُوراً ﴾ [الإسراء : 45] .

ومثل قوله تعالى : ﴿ ظِلاًّ ظَلِيلاً ﴾ [النساء : 57] .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَهُوَ الذي خَلَقَ مِنَ المآء ﴾

وفي آية عامة عن الماء ، قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ المآء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾ [الأنبياء : 30] يعني : كل شيء فيه حياة فهو من الماء ، لا أن الماء داخل في كل شيء ، فالمعنى : ﴿ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾ [الأنبياء : 30] أي : كل شيء موصوف بأنه حي ، فالماء إذن دليل الحياة ؛ لذلك إذا أراد العلماء أن يقضوا على الميكروبات أو الفيروسات جعلوا لها دواءً يفصل عنها المائية فتموت .

والإنسان الذي كرَّمه الله تعالى وجعله أعلى الأجناس ، خلقه الله من الماء ، ﴿ وَهُوَ الذي خَلَقَ مِنَ المآء بَشَراً ﴾ [الفرقان : 54] وفي موضع آخر قال سبحانه : ﴿ فَلْيَنظُرِ الإنسان مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصلب والترآئب ﴾ [الطارق : 57] وهو ماء له خصوصية ، وهو المنيُّ الذي قال الله فيه : ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يمنى * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فسوى ﴾ [القيامة : 3738] .

والبشر أي : الإنس ﴿ فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهْراً ﴾ [الفرقان : 54] فمن الماء خلق الله البشر ، وهم قسمان : ذكور وإناث ، فكلمة (نَسَباً) تعني : الذكورة (وَصِهْراً) تعني : الأنوثة ؛ لأن النسب يعني انتقال الأدنى من الأعلى بذكورة ، فيظل الإنسان فلان بن فلان بن فلان . . الخ .

فالنسب يأتي من ناحية الذكورة ، أما الأنوثة فلا يأتي نسب ، إنما مصاهرة ، حينما يتزوج رجل ابنتي ، أو أتزوج ابنته ، يُسمُّونه صِهْرا .

لذلك قال الشاعر :

وَإِنما أُمَّهَاتُ القَوْمِ أَوْعِية . . . مُسْتحدثَات وِللأَحْسَابِ آبَاءُ

فمن عظمة الخالق عز وجل أن خلق من الماء هذيْن الشيئين ، كما قال في موضع آخر : ﴿ فَجَعَلَ مِنْهُ الزوجين الذكر والأنثى ﴾ [القيامة : 39] ، وقد توصَّل العلماء مُؤخّراً إلى أن بويضة الأنثى لا دَخْلَ لها في نوع الجنين ، وما هي إلا حاضنة للميكروب الذَّكَري الآتي من منيّ الرجل .

وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يمنى * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فسوى * فَجَعَلَ مِنْهُ الزوجين الذكر والأنثى ﴾ [القيامة : 3739] .

فالذكر والأنثى كلاهما من المنيّ ، والذي يُطلق عليه العلماء الآن (الإكس ، والإكس واي) فالحيوان المنويّ يخرج من الرجل ، منه ما هو خاص بالذكورة ، ومنه ما هو خاص بالأنوثة ، ثم تتم عملية انتخاب للأقوى الذي يستطيع تلقيح البويضة .

وهذه الظاهرة واضحة في النحل ، حيث تضع الملكة البيض ، ولا يُخصِّبها إلا الأقوى من الذكور ، لذلك تطير المِلكة على ارتفاعات عالية ، لماذا ؟ لتنتخب الأقوى من الذكور .

كذلك الميكروب ينزل من الرجل ، والأقوى منه هو الذي يستطيع أن يسبق إلى بويضة المرأة ، فإنْ سبق الخاص بالذكورة كان ذكراً ، وإنْ سبق الخاص بالأنوثة كان أنثى ، والحق سبحانه قال : ﴿ الذي خَلَقَ فسوى * والذي قَدَّرَ فهدى ﴾ [الأعلى : 23] .

وبهذه الآية الكونية في خَلْق الإنسان نرد على الذين يحلو لهم أن يقولوا : إن الإنسان خُلِق صُدْفة ، فإذا كان الإنسان ذكراً وأنثى بينهما مواصفات مشتركة وأجهزة ومُقوِّمات واحدة ، إلا أن الذكَر يختلف في الجهاز التناسلي وكذلك الأنثى ، فهل يُردّ هذا الى الصدفة ؟

(70/562)

ومعلوم أن الصُّدْفة من أعدائها الاتفاق ، فإذا جاء الذكّر صدفة ، وجاءت الأنثى كذلك صدفة ، فهل من الصدفة أن يلتقيا على طريقة خاصة ، فيثمر هذا اللقاء أيضاً ذكورة وأنوثة ؟ ! إذن : المسألة ليست مصادفةً ، إنما هي غاية مقصودة للخالق عز وجل .

ثم يقول سبحانه في ختام الآية ﴿ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيراً ﴾ [الفرقان : 54] وذكر سبحانه القدرة هنا ؛ لأن هذه مسألة دقيقة لا تحدث إلا بقدرة الله تعالى .

وقد فَطِن العرب حتى قبل نزول القرآن إلى هذه العملية بالفطرة ، فهذه زوجة أبي حمزة تعاتبه ؛ لأنه تركها وتزوج من أخرى ، لأنها لم تَلِدْ له ذَكَراً ، فتقول :

مَا لأَبِي حَمْزَةَ لاَ يَأْتِينَا . . . غَضْبانَ أَلاَّ نَلِدَ البَنِينَا

تَاللهِ ما ذَلكَ في أَيْدينا . . . فَنَحْنُ كَالأَرْضِ لِغَارِسِينَا

نُعطِي لَهُمْ مِثْلَ الذي أُعْطِينَا . . . وهذه المسألة التي فَطِن إليها العربي القديم لم يعرفها العلم إلا في القرن العشرين .

وبعد هذه الآية الكونية يعود سبحانه وتعالى إلى خطابهم مرة أخرى لعل قلوبهم ترقّ ، فالحق تبارك وتعالى يتعهدهم مرة بالنُّصح ، ومرة بإظهار آياته تعالى في الكون .

وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا (55)

يعني : أيليق بهم بعد أنْ أوضحنا لهم كلَّ هذه الآيات أنْ يلتفتوا إلى غير الله ، ويقصدوه بالعبادة ؟

وقوله تعالى : ﴿ مَا لاَ يَنفَعُهُمْ وَلاَ يَضُرُّهُمْ ﴾ [الفرقان : 55] البعض يرى أن هذه الآلهة نعم لا تنفع لكنها تضر ، نقول لهم : هي لا تنفع ، ولا تضر ، أمَّا الذي يضر فهو الإله الحق الذي انصرفوا عنه إلى عبادة غيره ، والمعنى هنا : ﴿ مَا لاَ يَنفَعُهُمْ ﴾ [الفرقان : 55] إنْ عبدوه ﴿ وَلاَ يَضُرُّهُمْ ﴾ [الفرقان : 55] إنْ كفروا به وتركوه .

والقرآن يُسمّي فعلهم من هذه الآلهة عبادة ، وهم أنفسهم يقولون : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى اللهِ زُلْفَى ﴾ [الزمر : 3] .

إذن : أثبتوا لهم عبادة ، والعبادة طاعة العابد للمعبود فيما يأمر به ، وفيما ينهي عنه ، فما الذي أمرتْهم به الأصنام ؟ وما الذي نهتْهم عنه ؟ فكلمة عبادة هنا خطأ ، وهم ما عبدوا هذه الآلهة إلا لأنها لا أوامر لها ولا التزام معها ، فتديّنهم تديّن (فنطزية) .

وما أسهل أن تعبد إلهاً لا يأمرك ولا ينهاك ، والذي يكرهونه في التديُّن الحقيقي أنه التزام وتكليف : افعل كذا ، ولا تفعل كذا .

لذلك ترى المسرفين على أنفسهم من خَلْق الله يتمنى كلٌّ منهم أن يكون هذا الدين كذباً ، لماذا ؟ ليسيروا على هواهم ، ويعملوا ما يحلو لهم . كذلك رأينا الدجالين الذين ادَّعَوْا النبوة بداية من مسيلمة وسجاح ، كيف كانوا يجذبون الناسَ إليهم ؟ كانوا يجذبونهم بتخفيف الأوامر وتبسيط الدين ، ولما شقَّتْ الزكاة على البعض أسقطوها من حسابهم ، وأعفَوْا الناس منها . . إلخ .

ولكل زمان دجالون يناسبون العصر الذي يعيشون فيه ، وفي عصرنا الحاضر دجالون يُخفِّفون عنك الدين ويُطوِّعونه لأهواء الناس ورغباتهم ، فلا مانع عندهم من الاختلاط ، ولا بأس في أن ترتدي المرأة من اللباس ما تشاء . . إلى آخر هذه المسائل .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَكَانَ الكافر على رَبِّهِ ظَهِيراً ﴾ [الفرقان : 55] .

الظهير : هو المعين : كما ورد في قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاَهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلاَئِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴾ [التحريم : 4] .

(72/562)

وكانوا في الماضي يحملون الأحمال على الظّهْر قبل اختراع آلات الحمل ، وحتى الآن نرى (الشيالين) يحملون الأثقال على ظهروهم ، ويخيطون لهم (ظهرية) يرتدونها على ظهورهم ؛ لتحميهم ساعة حَمْل الأثقال ، وإذا أراد أحدهم معاونة الآخر يقول له : أعطني ظهرك ، فكان الظهر إذن بهذا المعنى .

والظهر أيضاً يقتضي العلو ، ومنه قوله تعالى عن السد الذي بناه ذو القرنين : ﴿ فَمَا اسطاعوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا استطاعوا لَهُ نَقْباً ﴾ [الكهف : 97] يعني : ما استطاعوا اعتلاءه .

لكن ، كيف يكون الكافر ظهرياً على الله ؟ قالوا : لأنه يفعل المعصية ، ويتخذ أُسْوة فيها يُقلده الناس ، ولو كان طائعاً لكان أُسْوة خير ونموذجَ صلاحٍ ، فالكافر أسوة شر ، وأسوة فساد ، وهو شيطان الإنس الذي يوازي شيطان الجن الذي عصى ربه ، ورفض السجود

لآدم .

وتوعَّد ذريته حين قال : ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الحجر : 39] .

وكلٌّ من شياطين الجن وشياطين الإنس يستعين بالنفس فيُسلِّطها على صاحبها حتى تُوقعه ، فالإنسان حينما يستمع لنداء الشيطان ، سواء شيطان الإنس أو شيطان الجن ويطيعه بعمل المخالفة ، فإنه يُعينه على الله ، والمعنى الصحيح : على معصية الله .

كما أن الظهير يُطلق على مَنْ جعلْتَه وراء ظهرك ، لا تأبه به ، ولا تلتفت إليه ، ومنه قول العرب : (لا تجعلنَّ حاجتي منك بظهر) يعني : اجعلها أمام عينيك لا تطوِها وراء ظهرك .

إذن : فكِلاَ المعنيين جائز : ظهيراً أي : مُعِيناً ، كأن الحق تبارك وتعالى يقول لنبيه صلى الله عليه وسلم : اعلم يا محمد أن الكافر ظهير على الله ، فقِفْ بالمرصاد ، وجاهده ما استطعتَ ، فكأنه تعالى يُحمِّس رسوله ليقف هذا الموقف ، ويُشجِّعه ليكون من عدوه على حَذَر وعلى يقظة .

أو : ظهيراً لا يُؤبه له ، وهذا طمأنه لرسول الله ، فالكافر هَيِّن على الله ، فلا يهمك كيدهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(73/562)

فائدة

قال ابن القيم :

قوله تعالى ﴿ وكان الكافر على ربه ظهيرا ﴾

هذا من ألطف خطاب القرآن وأشرف معانيه وان المؤمن دائما مع الله علي نفسه وهواه وشيطانه وعدو ربه وهذا معنى كونه من حزب الله وجنده وأوليائه فهو مع الله علي عدوه الداخل فيه والخارج عنه يحاربهم ويعاديهم ويغضبهم له سبحانه كما يكون خواص الملك معه علي حرب اعدائه والبعيدون منه فارغوالكافر مع شيطانه ونفسه وهواه علي ربه وعبارات السلف علي هذه تدور ذكر بن أبي حاتم عن عطاء بن دينار عن سعيد بن جبير قال عونا للشيطان علي ربه بالعداوة والشرك وقال ليث عن مجاهد قال يظاهر الشيطان علي معصية الله يعينه عليها وقال زيد بن أسلم ظهيرا أي مواليا والمعني أنه يوالي عدوه علي معصيته والشرك به فيكون مع عدوه معينا له علي مساخط ربه

فالمعية الخاصة لتي للمؤمن مع ربه وإله قد صارت لهذا الكافر والفاجر مع الشيطان ومع نفسه وهواه وقربانه ولهذا صدر الآية بقوله ويعبدون من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم وهذه العبادة هي الموالاة والمحبة والرضا بمعبوديهم المتضمنة لمعيتهم الخاصة فظاهروا

أعداء الله على معاداته ومخالفته ومساخطه بخلاف وليه سبحانه فانه معه علي نفسه وشيطانه وهواه وهذا المعنى من كنوز القرآن لمن فهمه وعقله وبالله التوفيق

(74/562)

قوله تعالى والذين اذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا قال مقاتل اذا وعظوا بالقرآن لم يقعوا عليه صما لم يسمعوه وعميانا لم يبصروه ولكنهم سمعوا وأبصروا وأيقنوا به وقال ابن عباس لم يكونوا عليها صما وعميانا بل كانوا خائفين خاشعين وقال الكلبي يخرون عليها سمعا وبصرا وقال الفراء اذا تلي عليهم القرآن لم يقعدوا على حالهم الأولي كأنهم لم يسمعوه فذلك الخرور وسمعت العرب تقول قعد يشتمنى كقولك قام يشتمنى واقبل يشتمنى والمعني على ما ذكر لم يصيروا عندها صما وعميانا وقال الزجاج المعني اذا تليت عليهم خروا سجدا وبكيا سامعين مبصرين كما أمروا به وقال ابن قتيبة أي لم يتغافلوا عنها كانهم صم لم يسمعوها وعمى لم يروها قلت ههنا أمران ذكر الخرور وتسليط النفي عليه وهل هو خرور القلب أو خرور البدن

للسجود وهل لمعنى لم كن خرورهم عن صمم وعمه فلهم عليها خرورا بالقلب خضوعا أو بالبدن سجودا أو ليس هناك خرور وعبر به عن القعود

أصول المعاصي كلها كبارها وصغارها ثلاثة تعلق القلب بغير الله وطاعة القوة الغضبية والقوة الشهوانية وهي الشرك والظلم والفواحش فغاية التعلق بغير الله شرك وان يدعى معه اله آخر وغاية طاعة القوة الغضبية القتل وغاية القوة الشهوانية الزنا ولهذا جمع الله سبحانه بين الثلاثة في قوله والذين لا يدعون مع الله الها آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله الا بالحق ولا يزنون وهذه الثلاثة يدعو بعضها الى بعض فالشرك يدعو الى الظلم والفواحش كما ان الاخلاص والتوحيد يصرفهما عن صاحبه قال تعالى

(75/562)

كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين فالسوء العشق والفحشاء الزنا وكذلك الظلم يدعو الى الشرك والفاحشة فان الشرك اظلم لظلم كما أن أعدل العدل التوحيد فالعدل قرين التوحيد والظلم قرين الشرك ولهذا يجمع سبحانه بينهما أما الاول ففي قوله شهد اللهأنه لا اله الا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط وأما الثاني فكقوله تعالى ان الشرك لظلم عظيم والفاحشة تدعو الى الشرك والظلم ولا سيما اذا قويت ارادتها ولم تحصل الا بنوع من الظلم بالظلم والاستعانة بالسحر والشيطان وقد جمع سبحانه بين الزنا والشرك في قوله

الزاني لا ينكح الا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها الا زان أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين فهذه الثلاثة يجر بعضها الى بعض ويامر بعضها ببعض ولهذا كلما كان القلب أضعف توحيدا وأعظم شركا كان أكثر فاحشة واعظم تعلقا بالصور وعشقا لها ونظير هذا قوله تعالى وما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون والذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش واذا ما غضبوا هم يغفرون فاخبر أن ما عنده خير لمن آمن به وتوكل عليه وهذا هو التوحيد ثم قال والذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش فهذا اجتناب داعي القوة الشهوانية ثم قال واذا ما غضبوا هم يغفرون فهذا مخالفة القوة الغضبية فجمع بين التوحيد والعفة والعدل التي هي جماع الخير كله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الفوائد صـ 79 . 83 ﴾

(76/562)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾

أخرج ابن جرير عن ابن عباس ﴿ وهو الذي مرج البحرين ﴾ الآية . يعني خلع أحدهما

على الآخر فليس يفسد العذب المالح ، وليس يفسد المالح العذب .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله ﴿ وهو الذي مرج البحرين ﴾ قال : أفاض أحدهما في الآخر .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن في قوله ﴿ مرج البحرين ﴾ قال : بحر في السماء وبحر في الأرض .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عطاء في قوله ﴿ فرات ﴾ قال : العذب . وفي قوله ﴿ أجاج ﴾ قال : الاجاج : المالح .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ وهذا ملح أجاج ﴾ قال : المر .

وأخرج عبد الرزاق في المصنف عن ابن عباس قال : هما بحران ، فتوضأ بأيهما شئت . ثم تلا هذه الآية ﴿ هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن الحسن في قوله ﴿ وجعل بينهما برزخاً ﴾ قال : هو اليبس .

وأخرج الفريابي وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله ﴿ برزخاً ﴾ قال : هو اليبس .

وأخرج الفريابي وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله ﴿ وجعل بينهما برزخاً ﴾ قال :

محبساً لا يختلط البحر العذب بالبحر الملح .

وأخرج عبد الرزاق وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ وجعل بينهما برزخاً ﴾ قال : التخوم .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق ابن جريج عن مجاهد في قوله ﴿ وجعل بينهما برزخاً ﴾ قال : حاجزاً لا يختلط العذب بالملح ، ولا يختلط بحر الروم وفارس . وبحر الروم ملح قال ابن جريج : فلم أجد بحراً عذباً إلا الأنهار العذاب . فإن دجلة تقع في البحر فلا تمور فيه ، يجعل فيه بينهما مثل الخيط الأبيض ، فإذا رجعت لم يرجع في طريقها من البحر شيء . والنيل زعموا ينصب في البحر .

(77/562)

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر عن الكلبي في قوله ﴿ وجعل بينهما برزخاً ﴾ قال : حاجزاً .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ وحجراً محجوراً ﴾ يقول : حجر أحدهما عن الآخر بأمره وقضائه .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ وحجراً محجوراً ﴾ قال : إن الله

حجر الملح عن العذب والعذب عن الملح أن يختلط بلطفه وقدرته .

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا (54)

أخرج عبد بن حميد عن عبد الله بن المغيرة قال : سئل عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن نسب وصهر فقال : ما أراكم إلا قد عرفتم النسب . فأما الصهر : فالاختان ، والصحابة .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن الضحاك في قوله ﴿ فجعله نسباً وصهراً ﴾ قال : النسب الرضاع ، والصهر الختونة .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة ﴿ فجعله نسباً وصهراً ﴾ قال : ذكر الله الصهر مع النسب وحرم أربع عشرة امرأة : سبعاً من النسب ، وسبعاً من الصهر . فاستوى تحريم الله في النسب والصهر .

وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا (55)

أخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس في قوله ﴿ وكان الكافر على ربه ظهيراً ﴾ يعني أبا الحكم : الذي سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا جهل بن هشام .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الشعبي في قوله ﴿ وكان الكافر على ربه ﴾ قال : أبو جهل .

وأخرج ابن المنذر عن عطية في قوله ﴿ وكان الكافر على ربه ظهيراً ﴾ قال : هو أبو جهل .

وأخرج ابن أبي شيبة وسعيد بن منصور والفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر

وابن أبي حاتم عن مجاهد ﴿ وكان الكافر على ربه ظهيراً ﴾ قال : معيناً للشيطان على معاصي الله .

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن والضحاك . مثله .

(78/562)

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير ﴿ وكان الكافر على ربه ظهيراً ﴾ قال : عوناً للشيطان على ربه بالعداوة والشرك .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة ﴿ وكان الكافر على ربه ظهيراً ﴾ قال : معيناً للشيطان على عداوة ربه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 6 صـ ﴾

(79/562)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله : ﴿ مَرَجَ البحرين ﴾ :

في مَرَجَ قولان ، أحدهما : بمعنى : خَلَطَ ومَرَجَ ، ومنه مَرَجَ الأمرُ أي : اختلط قاله ابن عرفة . وقيل : مَرَجَ : أجرى . وأَمْرَجَ لغةٌ فيه . قيل : مَرَجَ لغةُ الحجاز ، وأَمْرَجَ لغةُ نجدٍ . وفي كلامِ بعضِ الفصحاء : "بَحْران أحدُهما بالآخرِ ممروجٌ ، وماءُ العذب منهما بالأُجاج ممروج" .

قوله : ﴿ هذا عَذْبٌ فُرَاتٌ وهذا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾ هذه الجملةُ لا محلَّ لها لأنها مستأنفةٌ ، جوابٌ لسؤالٍ مقدرٍ . كأنَّ قائلاً قال : كيف مرْجُهما ؟ فقيل : هذا عَذْبٌ وهذا مِلْحٌ . ويجوز على ضَعْفٍ أن تكونَ حاليةً . والفُراتُ المبالِغُ في الحلاوةِ . والتاءُ فيه أصليةٌ لأُمُ الكلمةُ . ووزنُه فُعال ، وبعضُ العربِ يقفُ عليها هاءً . وهذا كما تقدَّم لنا في التابوت . ويُقال : سُمِّي الماءُ الحُلْوُ فُراتاً ؛ لأنه يَفْرُتُ العطشَ أي : يَشُقُّه ويَقْطَعُه . والأُجاج : المبالِغُ في المُلوحة . وقيل : في الحرارةِ . وقيل : في المَرارة ، وهذا من أحسنِ المقابلةِ ، وحيث قال تعالى عَذْبٌ فُراتٌ ومِلْحٌ أُجاجٌ . وأنشدْتُ لبعضهم :

3487 فلا واللهِ لا أَنْفَكُّ أَبْكي . . . إلى أَنْ نَلْتَقِي شُعْثاً عُراتا

أَألحى إنْ نَزَحْتُ أُجاجَ عَيْني . . . على جَدَثٍ حوى العَذْبَ الفُراتَا

ما أحسنَ ما كنى عن دَمْعِه بالأجاج ، وعن المبكيِّ عليه بالعذب الفُراتِ ، وكان سببَ إنشادِي هذين البيتين أنَّ بعضَهم لحَّن قائلَهما في قولِه " عُراتا " : كيف يَقِفُ على تاءِ التأنيث المنونة بالألفِ ؟ فقلت : إنها لغةٌ مستفيضةٌ يَجْعلون التاءَ كغيرِها فيُبْدلون تنوينَها بعد الفتحِ

ألفاً . حَكَوْا عنهم . أكْلتُ تَمْرَتا ، نحو : أكْلتُ زَيْتا .

وقرأ طلحة وقتيبة عن الكسائي " مَلِحٌ " بفتح الميم وكسرِ اللام ، وكذا في سورة فاطر ، وهو مقصورٌ مِنْ مالح ، كقولهم : بَرِد في بارد قال :

(80/562)

3488 وصِلّيانا بَرِدا . . . وماء مالح لغةٌ شاذةٌ . وقال أبو حاتم : " وهذه قراءةٌ مُنْكَرَةٌ "

.

قوله : ﴿ وَحِجْراً مَّحْجُوراً ﴾ : الظاهرُ عطفُه على " بَرْزَخاً " . وقال الزمخشري : " فإنْ قلتَ : حِجراً مَحْجُوراً ما معناه ؟ قلت : هي الكلمةُ التي يَقُولُها المتعوّذُ ، وقد فَسَّرناها ، وهي هنا واقعةٌ على سبيلِ المجازِ . كأنّ كلَّ واحدٍ من البحرَيْن يقول لصاحبه : حِجْراً مَحْجُوراً ، وهي من أحسنِ الاستعاراتِ " ، فعلى ما قاله يكونُ منصوباً بقولٍ مضمرٍ .

قوله : ﴿ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً ﴾ يجوز أَنْ يكونَ الظرفُ متعلّقاً بالجَعْل ، وأَنْ يتعلَّق بمحذوفٍ على أَنَّه حالٌ مِنْ " بَرْزَخاً " ، والأول أظهرُ .

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا (54)

قوله : ﴿ مِنَ المآء ﴾ : يجوز أَنْ يتعلَّقَ بخَلَقَ ، وأَنْ يتعلَّقَ بمحذوفٍ حالاً مِنْ " ماء " و " مِنْ

" للابتداء أو للتبعيض . والصِّهْرُ : قال الخليل : " لا يُقال لأهلِ بيتِ المرأةِ إلاَّ " أَصْهار " ، ولا لأهلِ بيتِ الرَّجل إلاَّ " أَخْتان " . قال : " ومن العربِ مَنْ يُطلق الأصهارَ على الجميع " . وهذا هو الغالب .

وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا (55)

قوله : ﴿ على ربِّهِ ﴾ : يجوز أَنْ يتعلَّقَ ب " ظَهيراً " وهو الظاهر ، وأَنْ يتعلَّقَ بمحذوفٍ على أنه خبرُ "كان" و " ظهيراً " حالٌ . والظَّهير : المُعاوِن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 490.492 ﴾

(81/562)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا (53) ﴾

البحر المِلْح لا عذوبة فيه ، والعَذْبُ لا ملوحة فيه ، وهما في الجوهرية واحد ، ولكنه سبحانه – بقدرته – غَايَر بينهما في الصفة ، كذلك خَلَقَ القلوبَ ؛ بعضُها مَعْدِنُ اليقين

والعرفانِ ، وبعضُها مَحَلُّ الشكِّ والكفران .

ويقال أثبت في قلوب المؤمنين الخوف والرجاء ، فلا الخوف يغلب الرجاء ولا الرجاء يغلب الخوف .

ويقال خَلَقَ القلوبَ على وصفين : قلبَ المؤمن مضيئاً مشرقاً وقلبَ الكافر أسود مظلماً ، هذا بنور الإيمان مُزَيَّن ، وهذا بظلمة الجحود مُعَلَّم .

ويقال قلوبُ العوام في أسْرِ المطالب ورغائب الحظوظ ، وقلوبُ الخواصِّ مُعْتَقَةٌ عن المطالب ، مُجَرَّدَةٌ عن رِقِّ الحظوظ .

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا (54)

الخَلْقُ متشاكلون في أصل الخِلْقة ، متماثلون في الجوهرية ، متباينون في الصفة ، مختلفون في الصورة ؛ فنفوسُ الأعداء مطاياهم تسوقهم إلى النار ، ونفوس المؤمنين مطاياهم تحملهم إلى الجنة . والخَلْقُ بَشَرٌ . ولكن ليس كلُّ بَشَرٍ كبشر ؛ واحدٌ عدوٌّ لا يسعى إلا من مخالفته ، ولا يعيش إلا بنصيبه وحظِّه ، ولا يحتمل الرياضة ولا يرتقي عن حدِّ الوقاحة والخساسة ، وواحدٌ وليٌّ لا يَفْتُرُ عن طاعته ، ولا يَنْزِل عن هِمَّتِه ، فهو في سماء تعززه بمعبوده .

وبينهما للناس مناهل ومشارب ؛ فواحِدٌ يكون .

وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا (55)

يكتفي بالمنحوتِ من الخشب ، والمصنوعِ من الصَّخْرِ ، والمُتَّخَذِ من النحاس ، وكلُّها جمادات لا تعقل ولا تسمع ، ولا تضر ولاَ تنفع .

(82/562)

أما المؤمنُ فإنَّ من صفاته أنّه لا يلتفت إلى العرش – وإن علا ، ولا ينقاد بقلبه لمخلوقٍ – وإن اتصف بمناقب لا تُحْصَى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 641.

﴿642

(83/562)

من الإعجاز في البحار في القرآن والسنة

أبحاث قيمة بقلم المهندس عبد الدائم الكحيل

زبد البحر

إنها ظاهرة جميلة وقد تكون غريبة لمن يراها للمرة الأولى، فزبد البحر قد يتحول إلى كمية ضخمة من الرغوة يمكن أن تمتد لعشرات الكيلو مترات، لنتأمل هذه الصور . . .

هذه صورة لزبد البحر، وهي ظاهرة معقدة تحدث في جميع البحار نتيجة امتزاج شديد لما تحمله مياه البحر من شوائب ومواد عضوية وأملاح ونباتات ميتة وأسماك متعفنة . . . مما يؤدي لتشكل رغوة خفيفة جداً، ولكنها تمتد أحياناً لمسافة خمسين كيلو متراً .

ويفسر العلماء هذه الظاهرة بأنها تشبه وضع كمية من الحليب في الخلاط وخلطه بسرعة فتتشكل رغوة، لا تلبث أن تتبدد في الهواء . وكلما كانت حركة الأمواج أعنف، كانت كمية الزبد أكبر وأخفّ .

ومن الحقائق العلمية حول هذا الزبد ما يلي:

1- إن الزبد لا يتشكل إلا في حالة الحركة السريعة التي تحدث نتيجة إعصار أو نتيجة السيول العنيفة . وتتشكل دائماً على سطح الماء في الأعلى .

2- إن وزن هذه الرغوة أو الزبد خفيف جداً ويتطاير في الهواء مثل البخار .

3- إن كمية صغيرة من الماء تكفي لتشكيل كمية كبيرة من الزبد ، أي أن الزبد ليس له قيمة أو وزن أو فائدة !

هذه الظاهرة تناولها القرآن الكريم في آية عظيمة يقول فيها تبارك وتعالى: (أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا

يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ) [الرعد: 17] . ولو تأملنا هذه الآية وجدناها تتطابق مع الحقائق العلمية:

(84/562)

1- إن الزبد يتشكل نتيجة سيلان الماء عبر الوديان بحركة سريعة وعنيفة، ومن المعلوم للجميع الآثار المدمرة للسيول، وبالتالي فإن الآية تصف لنا طريقة تشكل الزبد كنتيجة لحركة الماء السريعة: (فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا) ، وانظروا معي إلى كلمة (رَابِيًا) والتي جاءت من فعل ربى يربو أي كُبر، وبالفعل يقول العلماء إن الزبد هو عبارة عن رغوة مليئة بالهواء، وتكفي كمية قليلة من الماء لإنتاج كمية كبيرة من الزبد .

2- تشير الآية إلى قانون فيزيائي معروف لدى علماء الفيزياء، وهو قانون الكثافة، حيث نجد المادة الأثقل تغوص إلى الأسفل بفعل الجاذبية الأرضية، أما المادة الأخف فترتفع إلى الأعلى . ويمكن تسريع هذه العملية باستخدام الحرارة . لذلك تقوم المعامل بصهر الحديد الخام لتنقيته من الشوائب، فبعد رفع درجة الحرارة إلى حد معين تبدأ الشوائب الموجودة مع الحديد بالتحرك للأعلى وتشكل رغوة (أو زبد) يتم تصريفه من فتحات خاصة . أما الحديد الصافي فيتجمع في الأسفل . وهذه الخاصية تنطبق على جميع المواد في الطبيعة .

وقد أشار القرآن إلى هذه العملية بقوله تعالى: (وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ)، ولو قمنا بمقارنة لدراسة تشكل الرغوة الناتجة عن البحار أو السيول، ودرسنا الرغوة المتشكلة في مصانع الحديد الخام (الفرن العالي) فإننا نجد العمليات الفيزيائية ذاتها تحدث في كلتا الحالتين! وهذا وصف دقيق للقرآن لا يمكن أن يكون قد صدر من إنسان أمي لم يختبر البحار والسيول ولا طرق صناعة الحديد أو الذهب!

(85/562)

3- في قوله تعالى: (فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً)، لو تأملنا طريقة ذهاب الزبد نجد العلماء يقولون إنه بمجرد أن تهب عليه نسمات من الهواء فإن الزبد يذهب ويتطاير ويجفّ، لأنه أساساً عبارة عن رغوة خفيفة أو فقاعات هواء! أي أن التعبير القرآني دقيق علمياً.

زبد البحر والذنوب

استخدم النبي الأعظم صلى الله عليه وسلم تشبيهاً دقيقاً علمياً عندما شبَّه الذنوب الكثيرة بالزبد، وذلك عندما قال: (من قال "سبحان الله وبحمده" مئة مرة حُطّت عنه خطاياه ولو كانت مثل زبد البحر)! وهناك أحاديث كثيرة استخدم النبي فيها هذا التشبيه من أجل التعبير عن كثرة الذنوب وكيفية إلغائها، وقد استخدم النبي هذا التشبيه

ليرسل لنا رسالة وهي أن الذنوب العظيمة مهما كُبرت وكثُرت، فإن ذكر الله والأعمال الصالحة تزيل هذه الذنوب بسهولة كما يزول زبد البحر بسهولة ! .

(86/562)

اكتشاف مذهل العلماء يكتشفون الأمواج العميقة

هذا عنوان بحث جديد بقلم علماء غير مسلمين يعترفون بأنها المرة الأولى التي يشاهدون فيها الأمواج العميقة في المحيط الهادئ، وهذا ما تحدث عنه القرآن، لنقرأ . . . .

آية عظيمة كلما تذكرتها أتذكر عظمة الخالق سبحانه وتعالى يقول فيها : (أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ) [النور: 40] . يشبّه الله أعمال الكفار برجل يعيش في أعماق المحيط حيث تتغشاه الأمواج العميقة من فوقه ثم هناك طبقة ثانية من الأمواج على سطح الماء وفوق هذا الموج سحاب كثيف يحجب ضوء الشمس، فهو يعيش في ظلمات بعضها فوق بعض .

في هذه الآية العظيمة حقيقة علمية لم تنكشف يقيناً للعلماء إلا في نهاية عام 2007 وذلك من خلال اكتشافهم لأمواج عميقة في المحيط لأول مرة تختلف عن الأمواج السطحية على سطح الماء، أي أن هناك موج عميق وموج سطحي، وهو ما عبرت عنه الآية بقوله: (مَوْجٌ

مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ) . وقبل سرد الاكتشاف العلمي لابد من التنبيه لما يقوم به بعض الملحدين من تشكيك في صحة هذه المعجزات الواضحة .

فقد حاولت الرد كثيراً على الملحدين الذين ينكرون إعجاز القرآن في الحديث عن الأمواج العميقة، ولكن في كل مرة كانوا يخترعون كذبة جديدة، فمرة يقولون إن العلماء اكتشفوا تيارات في أعماق المحيطات وهذه تختلف عن الأمواج، فالقرآن يتحدث عن (موج Wave) والعلماء يتحدثون عن "تيار" Current ، ويقولون إنه من المستحيل أن توجد أمواج حقيقية في الأعماق كالتي تحدث عنها القرآن، وهذا يعني أن القرآن أخطأ في هذا التعبير: (مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ) ويكفي أن نجد خطأ واحداً في القرآن لنثبت أنه ليس من عند الله لأن الله لا يُخطئ !

(87/562)

هذا قولهم بأفواههم، وكما قال تعالى: (كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ) [البقرة: 118] . والملحد يا إخوتي يراوغ ويلف ويدور وهو يدرك في قرارة نفسه أن القرآن هو الحق، ولكن الكِبر يمنعه من الإيمان به، وهذا ما أخبرنا به القرآن: (وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ)

[النمل: 14].

فتارة يقولون إنكم تخرجون عن التفسير المألوف للقرآن بما تقدمونه من إعجاز مزعوم، وتارة يقولون: إن الحقائق العلمية التي تعتمدون عليها غير صحيحة، وعندما نواجههم بالدليل القوي على أن القرآن تحدث عن هذه الحقيقة العلمية بوضوح كامل يتهربون من المواجهة ويقولون: إنها مصادفة!!!

ولذلك أقدم هذا الاكتشاف العلمي الصريح الذي يرد على هؤلاء، وسوف نستخدم ما جاء في المقال الأصلي حرفياً وباللغة الإنكليزية ليكون كلامنا موثقاً ولا يحتمل التأويل، وندعوهم لإعادة النظر ليكونوا منصفين وعادلين، فلن ينفعهم استكبارهم ولن يجدوا مهرباً من الله إلا إليه. ونحن نريد لهم الخير والهداية والنجاة من عذاب يوم عظيم: (يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ) [الشعراء: 88-89].

اكتشاف علمي جديد

نشرت جريدة تيلي غراف في 2007/12/13 مقالاً بعنوان:

Deep ocean waves discovered by scientists

"العلماء يكتشفون الأمواج العميقة في المحيط"

وجاء في هذا الخبر أن اكتشاف هذه الأمواج العميقة في المحيط قد سببت مفاجأة للعلماء لأنهم لم يتوقعوا أن يشاهدوا أمواجاً تشبه تلك التي نعرفها في أعماق المحيط، لنقرأ:

British scientists have discovered waves that flow

deep in the Pacific Ocean

علماء بريطانيون اكتشفوا أمواجاً تتدفق في أعماق المحيط الهادئ!

(88/562)

They were known to occur on or near the ocean's surface but the scientists were surprised to find them in the deep ocean.

لقد علموا أن مثل هذه الأمواج يمكن أن تشاهد على أو قرب سطح المحيط، ولكن العلماء كانوا مندهشين لأنهم وجدوا هذه الأمواج في المحيط العميق.

Prof Karen Heywood, an oceanographer at the University of East Anglia (UEA) and co-author of the research, said: "We were both surprised and delighted. We expected to find something at about 50m because satellite imagery indicated it was there but we were really excited when we got a result at 1,500 metres. It opens up the possibility that there may be more waves even deeper

down ."

لقد جاء على لسان البرفسورة Karen Heywood من جامعة UEA ومؤلفة مشاركة في هذا البحث:

لقد كنا مندهشين وفرحين ! لقد كنا نتوقع وجود شيء ما على عمق 50 متراً كما أشارت إلى ذلك الصور القادمة من الأقمار الاصطناعية، ولكن الذي أثارنا حقيقة أن نجد هذه الأمواج على عمق 1500 متراً، وهذا يفتح باب الاحتمالات على أن هناك أمواجاً على أعماق أكبر .

Dr Adrian Matthews, a meteorologist in UEA's School of Environmental Sciences and lead author of the new research, said: " Everyone thought that there would be nothing to see below about 200m .

يقول الدكتور Adrian Matthews أحد علماء الجامعة المذكورة والذي يقود هذا البحث: كل واحد منا ظن أنه لا يمكن رؤية أي أمواج تحت عمق 200 متر .

ويؤكد العلماء أن هذا الاكتشاف يحدث للمرة الأولى في نهاية العام 2007 وأنه سيشكل قفزة في دراسة المحيطات والبيئة بشكل عام، ويحاول العلماء حشد جهودهم للتعرف على المزيد من هذه الأمواج الغريبة .

لقد استخدموا في هذا الاكتشاف الأقمار الاصطناعية والغواصات والمختبرات العائمة، وقد أظهرت الصور وجود أمواج عميقة ولكن المفاجأة أنهم لم يتوقعوا أن تكون عميقة لهذا الحد، أليس هذا ما حدثنا عنه القرآن بقوله تعالى: (بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ)، بحر لجي: أي بحر عميق. مصدر الصورة: وكالة ناسا NASA

لنتأمل الآن قول الحق تبارك وتعالى: (أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ) [النور: 40]. فقد تحدثت الآية بدقة عن أمواج في بحر عميق، وهذا ما كشفه العلماء أخيراً.

وهنا نود أن نقول لأولئك الملحدين: كيف جاء ذكر هذه الأمواج في كتاب أنزل قبل أربعة عشر قرناً؟ وهل كانت هذه الحقيقة معروفة في ذلك الوقت؟ إن علماء الغرب يعترفون بأن أول مرة يرون هذه الأمواج كانت في العام 2007، فمن الذي أخبر النبي الأعظم بهذه الحقيقة اليقينية؟ وما الذي يدعو هذا النبي الكريم صلى الله عليه وسلم للحديث عن حقيقة علمية معقدة كهذه؟ وكيف علم أن من يعيش في البحر اللجي العميق سوف يغشاه الموج العميق ويكون في ظلام دامس؟؟؟

ونقول أيضاً لمن يعتقد أن الإعجاز العلمي هو تحميل للآيات غير ما تحتمل: ماذا يمكن أن نسمي حديث القرآن عن هذه الأمواج العميقة، هل نسميه إعجازاً أم مصادفة؟ الله تبارك وتعالى يتحدث عن موج والعلماء يكتشفون هذه الأمواج Waves والله يتحدث عن (بحر لجي) أي عميق والعلماء يتحدثون عن المحيط العميق Deep ocean إذاً أين هذا التحميل لمعاني الآية؟

(90/562)

إن كل صاحب عقل لابد أن يرى في هذه الآية معجزة شديدة الوضوح، بل لو كان في اللغة كلمة أكبر من "إعجاز" لاستخدمتها للتعبير عن عظمة وروعة هذا الكتاب العظيم.

نسأل الله تعالى أن يجعل هذه المعجزة نوراً لكل مؤمن وحجة على كل ملحد ينكر هذا القرآن، ونقول كما قال تعالى: (وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ) [غافر: 81].

بقلم عبد الدائم الكحيل

(91/562)

معجزة نبوية جديدة السماء تمطر ليل نهار

في عصر الاستهزاء بالنبي الأعظم لابد أن ننصر هذا النبي الرحيم بأن نتأمل المعجزات العلمية التي جاء بها لتكون في هذا العصر دليلاً على صدق هذه الرسالة وأن محمداً رسول الله . . . . .

ما أكثر الأحاديث التي نطق بها سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم لتكون معجزات تشهد على نبوّته في هذا العصر . ومن هذه الأحاديث حديث عجيب لا يمكن لأحد أن يتنبأ به لو لم يكن رسولاً من عند الله تعالى، ولكن قبل عرض هذا الحديث لنقف على بعض الحقائق العلمية .

كيف كان الناس ينظرون إلى ظاهرة نزول المطر

في القرن السابع الميلادي كان المنجمون هم وكالات الأرصاد الموثوقة بالنسبة لمعظم الناس، وقد كانوا يظنون أن المطر ينزل بسبب وجود النجوم في وضعية محددة فيما يسمونه بالأبراج . وبعضهم كان ينظر للمطر على أنه رزق تتفضل به الآلهة على الناس ! وعندما جاء الحبيب الأعظم ألغى هذه المعتقدات وأسس في عقول الناس التفكير العلمي، وأخبرهم بأن المطر والبرق والرعد والشمس والقمر والكسوف وغيرها ما هي إلا آيات كونية تسير بأمر خالقها عز وجل .

في الحضارة الإغريقية كان الناس يعتقدون أن المطر هو غضب الآلهة ! وأن الآلهة عندما

تغضب أو تنزعج منهم ترسل عليهم المطر ! ! وهكذا كانت الأساطير تنتشر في كل أنحاء أوربا .

تمثال كان يمثل إله المطر قديماً ، حيث كان معظم الناس يعتقدون أن المطر ناتج عن إله يغضب فيقذف الناس بالماء ، وهذا المعتقد كان حقيقة علمية ذات يوم !

كيف ينظر العلماء اليوم إلى المطر

يؤكد جميع علماء الدنيا أن ظاهرة المطر منظمة ومعقدة وإن تشكل حبة المطر يعتمد على قوانين فيزيائية محكمة . ولكن الشيء الجديد الذي كشفته الصور الملتقطة بالأقمار الاصطناعية للأرض، أن المطر ينزل بشكل دائم في مناطق متفرقة من الكرة الأرضية .

(92/562)

فعندما نتأمل الكرة الأرضية من جوانبها نلاحظ أنها مغطاة بالغيوم في معظم أجزائها ، ويقول العلماء في كل ثانية هناك مئة ومضة برق تحدث في العالم، والبرق مرتبط بنزول المطر غالباً ، ولذلك فإن الحقيقة العلمية الثابتة أن المطر ينزل باستمرار في أمكنة مختلفة من الأرض .

هذه صورة الأرض كما نراها من الخارج، نلاحظ بأن الغيوم تغطي أجزاء كبيرة من الغلاف

الجوي، ويؤكد العلماء أن السماء تمطر في كل لحظة ليلاً ونهاراً، فلا يتوقف المطر أبداً خلال السنة، ولكن هذه الأمطار تنزل في مناطق متفرقة وتتوزع بنظام يشهد على عظمة وإبداع الخالق عز وجل.

فأجزاء الكرة الأرضية تتبادل الفصول الأربعة، فعندما يكون النصف الشمالي من الأرض في فصل الصيف، يكون النصف الجنوبي يمر في شتاء وأمطار، والعكس صحيح، أي أنه لا توجد ساعة من الليل أو النهار إلا والسماء تمطر، وتذهب معظم الأمطار في البحار، هذه حقيقة علمية.

ماذا يقول النبي عن ظاهرة المطر

كلما أبحرتُ في أقوال الحبيب الأعظم عليه الصلاة والسلام وجدتُ معجزات لا تنقضي وعجائب لا تنتهي، قال عليه الصلاة والسلام: (ما من ساعة من ليل ولا نهار إلا السماء تمطر فيها يصرفه الله حيث يشاء) [رواه الحاكم]. إن هذا الحديث يؤكد على حقيقة علمية وهي أن المطر ينزل بشكل دائم طيلة الليل والنهار، وهذا ما نراه يقيناً اليوم بالأقمار الاصطناعية.

ماذا يقول المفسرون عن هذه الظاهرة

يقول تبارك وتعالى: (وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً

طَهُورًا (48) لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا (49) وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا) [الفرقان: 48-50] .

(93/562)

جاء في تفسير البغوي: قوله عز وجل: (وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ) يعني: المطر، مرة ببلدة ومرة ببلد آخر . قال ابن عباس: (ما من عام بأمطر من عام ولكن الله يصرفه في الأرض) وقرأ هذه الآية . وهذا كما روي مرفوعًا : (ما من ساعة من ليل ولا نهار إلا السماء تمطر فيها يصرفه الله حيث يشاء) [رواه الحاكم] .

وذكر ابن إسحاق وابن جريج ومقاتل وبلغوا به وابن مسعود يرفعه قال: (ليس من سنة بأمطر من أخرى، ولكن الله قسم هذه الأرزاق، فجعلها في السماء الدنيا ، في هذا القطر ينزل منه كل سنة بكيل معلوم ووزن معلوم، وإذا عمل قوم بالمعاصي حول الله ذلك إلى غيرهم، فإذا عصوا جميعًا صرف الله ذلك إلى الفيافي والبحار) [رواه الحاكم] .

كان النبي صلى الله عليه وسلم يعيش في بيئة صحراوية، ولم يكن لديه أقمار اصطناعية ولا نشرات أرصاد جوية ولا أجهزة تصوير، ولم يكن هناك أي وسيلة للتنبؤ بأن الأمطار مستمرة ليلاً نهاراً ، فلو كان يتكلم من تلقاء نفسه لأقرّ قومه على معتقداتهم ليحظى

بتأييدهم، ولكنه لم يأت بكلمة واحدة من عنده، ولذلك نتساءل: من الذي أخبره بحقيقة علمية لم تنكشف إلا بعد مئات السنين، وما الذي يدعوه للحديث عن مثل هذه الحقيقة؟ ألا ترون معي بأن النبي قد أخبر بهذه الحقيقة لتكون ردّاً بليغاً على الذين يستهزئون بخير إنسان عرفته البشرية؟

وجه الإعجاز

1- تناول الحديث الشريف حقيقة علمية لم تكن معروفة في زمن النبي عليه الصلاة والسلام، وهذا يثبت صدق النبي الأعظم وأنه لا ينطق عن الهوى. فقد أوجز في كلمات قليلة وبليغة حقيقة علمية كبيرة عندما قال: (ما من ساعة من ليل ولا نهار إلا السماء تمطر فيها يصرفه الله حيث يشاء)، تأملوا معي كيف يفهم هذا الخطاب كل الناس من الأعرابي البسيط إلى العالم المتخصص!

(94/562)

2- تحدث النبي عن مسألة مهمة وهي حقيقة تصريف ماء المطر بقوله: (يصرفه الله حيث يشاء) والعجيب أن هناك مراجع علمية عن أنظمة تصريف الماء على الأرض من خلال ما يسمى بدورة الماء. ويؤكد العلماء أن هناك معدلات شبه ثابتة سنوياً لهطول كميات

المطر، ولتوزع هذا الماء على الأرض على شكل أنهار ومياه جوفية وبحيرات مالحة وعذبة وغير ذلك.

3- العجيب أن أحداً لم ينكر على النبي قوله هذا، على الرغم من وجود المعارضين له بكثرة في حياته وبعد موته! لأنهم ببساطة وهم يعيشون في صحراء ربما لا تمطر السماء لسنوات، يمكن أن يقولوا له: كيف ذلك ونحن لا نرى المطر إلا قليلاً! وهذا من الإعجاز أيضاً.

4- من إعجاز هذا الحديث أن الله حفظه لنا طوال 1400 سنة من التحريف، وعلى الرغم من أنه يخالف الحقائق السائدة لمئات السنين إلا أن المسلمين حافظوا على هذا الحديث وصدقوا نبيهم، وهذا يثبت أن محمداً صلى الله عليه وسلم هو رسول من عند الله.

5- سؤال لا نجد له تفسيراً عند أي ملحد ممن ينكرون نبوة الحبيب الأعظم صلى الله عليه وسلم: ما الذي يدعو النبي إلى الحديث في حقيقة علمية لم تكن معروفة ولن تقدم له شيئاً!! بل إنكم أيها الملحدون تقولون إن النبي كان يريد الشهرة ولذلك أَلَّف القرآن، ونقول: لماذا ذكر هذا النبي الرحيم الكثير من الحقائق العلمية ولم يذكر أشياء تخصه مثلاً لو كان يريد المجد والسلطة!!

نسألك يا الله أن تهدينا لما اختُلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط

مستقيم .

بقلم عبد الدائم الكحيل

(95/562)

أهمية الجبال في نزول الأمطار

ربط القرآن بين الجبال وبين الماء الذي نشربه، وقد اتضح أخيراً وجود علاقة أساسية بين نزول المطر وبين الجبال العالية، لنقرأ . . . . .

قبل أربعة عشر قرناً كان الإنسان ينظر إلى الغيوم والمطر كظاهرة غريبة ترتبط بالآلهة، فكان الناس يلجؤون إلى الطقوس والتوسل بالآلهة لتنزِل عليهم المطر من السماء، وكان الناس في أوربا ينظرون إلى المطر أنه رزق تسوقه الآلهة لهم !

ولكن عندما جاء الإسلام أنار لنا الطريق وصحح هذه الأفكار والأساطير الخاطئة، وتحدث عن المطر كظاهرة علمية بحتة، ولكن الله تعلى الذي خلق الكون وخلق كل شيء هو الذي قدَر ووضع القوانين الخاصة بنزول المطر، فقال في آيتين عظيمتين مؤكداً وجود قوانين دقيقة تحكم هذه الظاهرة وعبر عن ذلك بكلمة (قدر) أي قانون إلهي وسنة كونية:

(وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ) [المؤمنون:

18] . وقال أيضاً : (وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ) [الزخرف: 11] .

وهذا يعني أن القرآن أول كتاب يضع أساساً علمياً لظاهرة نزول المطر، ويبعد الخرافات والأساطير عن عقول الناس . ولكن هناك أمر مهم اكتشفه العلماء وهو دور الجبال في تشكل الغيوم ونزول المطر، فالجبال تشكل جزءاً مهماً من البيئة الأرضية لها دور في الكثير من الظواهر وقد يكون أهمها الغيوم والأمطار .

إن النبي عليه الصلاة والسلام لم يكن يعيش في بيئة كهذه، بل كان يعيش في بيئة صحراوية، وفي هذه البيئة الصحراوية لا يمكن للإنسان أن يتنبأ بوجود علاقة بين الجبال وبين الماء أو المطر، وهذا دليل على أن كل كلمة جاء بها النبي عليه الصلاة والسلام هي من عند الله تعالى .

(96/562)

فعندما تسوق الرياح ذرات الماء المتصاعدة من البحار تساهم الجبال في رفعها وتوجيهها للأعلى، تماماً مثل سباق التزلق على الجليد حيث نلاحظ أن المتزلق يحاول السير على الجليد حتى يصل إلى مرتفع فيصعد على هذا المرتفع فتزداد سرعته ويقفز في الهواء ويرتفع

لمسافة كبيرة، ومن دون هذا المرتفع لا يمكن له أن يرتفع في الهواء .

دائماً هناك علاقة بين الجبال والغيوم، فنرى أن قمم الجبال تكون مغطاة بالغيوم معظم أيام السنة، وذلك بسبب تصميم الجبال الذي يعمل كمصد للهواء ينزلق على سطحه ويساهم الشكل الانسيابي للجبل في تسريع تيارات الهواء المحملة ببخار الماء، ويساهم في تبريدها وتشكل الغيوم .

وهنا تتجلى حقيقة علمية كشفت عنها البحوث الحديثة، فالجبال لها دور مهم في تشكل الغيوم ونزول المطر . حتى إن أعذب المياه وأنقاها نجدها في تلك الجبال الشامخة . فقد رصد العلماء حركة الرياح وهي تحمل ذرات بخار الماء من سطح البحر . هذه التيارات الهوائية تبدأ بالحركة الأفقية حتى تصطدم بالجبال وهذا يؤدي إلى تغيير مسار الرياح باتجاه الأعلى، لذلك نجد أن قمم الجبال العالية تتجمع الغيوم حولها وتغطيها الثلوج طيلة أيام السنة تقريباً .

إذن كلما كان الجبل أكثر شموخاً وارتفاعاً أدى ذلك لتجمع كمية أكبر من الغيوم ثم نزول المطر أو الثلج ثم ذوبان هذا الثلج وتسرُّبه عبر طبقات الجبل ومسامه حتى تتفجر الينابيع شديدة العذوبة .

نلاحظ أن الينابيع غالباً ما تتشكل بالقرب من الجبال، ويؤكد العلماء أن الماء الذي ينبع من قرب الجبل يكون نقياً ومستساغ المذاق، وهذا ما حدثنا عنه القرآن في قوله تعالى:

(وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاء فُرَاتاً) [المرسلات: 27] . والفرات أي المستساغ المذاق .

(97/562)

إن مياه الينابيع هذه والتي جاءت من الجبال العالية خضعت لعمليات تصفية متعددة .

وكما نعلم من محطات معالجة المياه: كلما مرَّت المياه عبر مراحل تصفية (فلترة) أكثر كلما كان الماء أنقى . وفي حالة الجبال التي ترتفع عدة كيلومترات، تعمل هذه الجبال كأفضل جهاز لتنقية المياه على الإطلاق .

لولا الجبال لم نتمكن من شرب قطرة ماء ! قد يكون هذا الكلام غريباً ولكن الحقيقة أن للجبال دور مهم في المناخ حيث تلعب دوراً أساسياً في تشكل الغيوم، والغيوم طبعاً مسؤولة عن هطول المطر، ثم إن الجبال تساهم في تشكل الثلوج، ومن ثم وبعد ذوبان هذه الثلوج تساهم الجبال بفعل تصميمها الداخلي (طبقات الصخور) في تنقية هذا الماء المذاب .

ويؤكد العلماء أنه لا يمكن للإنسان مهما بلغ من التقدم العلمي أن يقلِّد هذه العمليات التي تتم عبر الجبال . وهنا يأتي القرآن ليتحدث عن تنقية المياه ودور الجبال العالية في ذلك، يقول

تعالى: (وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاء فُرَاتاً) [المرسلات: 27] .

ففي هذه الآية الكريمة ربط المولى جل جلاله بين الرواسي الشامخات وهي الجبال العالية وبين الماء الفرات وهو شديد العذوبة . وهنا لا بُدَّ من وقفة: من كان يعلم في ذلك الزمان الدور المهم للجبال في إنزال المطر وتنقية المياه ؟

هناك علاقة أخرى بين نسبة ارتفاع الجبل وبين كمية الماء الهاطل أو المتدفق من الجبل، فكلما كان الجبل أعلى كانت كمية الماء أكبر بل وأكثر نقاوة وكان مذاقها أطيب، ولذلك فقد ربط القرآن بين الرواسي الشامخات وهي الجبال العالية فقال (رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ)، وبين الماء الفرات وهو الماء المستساغ المذاق والطيب الطعم، يقول تعالى: (مَاء فُرَاتاً) !

وهكذا لو تتبعنا آيات القرآن كلها لم نجد أي اختلاف أو تناقض، بل جميع نصوص القرآن جاءت محكمة ومتفقة مع معطيات العلم الحديث، أليس هذا دليلاً ملموساً على أن القرآن كتاب الله تعالى ؟

وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا . . .

بقلم عبد الدائم الكحيل

معجزة تشكل الغيوم ونزول المطر

ينبغي علينا دائماً أن نتذكر نعم الله علينا ، وأن نتفكر في هذه المخلوقات التي سخرها الله لنا ، وإن الذي يتأمل عالم الغيوم يرى أشياء عجيبة تزيد المؤمن إيماناً . . . . . .

يعترف علماء وكالة ناسا أنه بالرغم من التطور التقني الهائل إلا أن المعرفة البشرية بالغيوم وأسرار تشكلها لا زالت متواضعة، ولا زال العلماء يجهلون الكثير . ولكن العصر الحديث شهد تطوراً لافتاً في دراسة الغيوم وتشكلها وتجمعها ، ألا وهو استخدام الأقمار الاصطناعية التي تتيح لنا دراسة الغيوم من أعلى !

إن التطابق العجيب بين ما هو مقرر في كتاب الله وبين العلم الحديث، إن دل على شيء فإنما يدل على وحدانية الخالق عز وجل، فهو مُنَزِّل القرآن وهو خالق الكون بما فيه من أسرار وعجائب . ولو كان هذا القرآن من عند غير الله لوجدناه مناقضاً للعلم الحديث مثله مثل بقية الكتب القديمة . ولكننا عندما نرى التوافق والتطابق بين العلم والقرآن فهذا يعني أنه كتاب مكن عند الله القائل: (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً) [النساء: 82] . فلم يترك القرآن شيئاً إلا وتحدث عنه، فهو الكتاب الذي أنزله الله تبياناً لكل شيء ، قال تعالى: (وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ) [النحل: 89] .

وفي بحثنا هذا سوف نرى التطابق الكامل والمذهل بين ما جاء في كتاب الله، وبين الكلام الذي يطلقه الغرب اليوم حول أسرار الغيوم، حتى إننا نرى الكلمة القرآنية ذاتها ترد على ألسنة علماء الغرب وهم من غير المسلمين !

(99/562)

إنها الغيوم ! حاول الناس معرفة أسرارها منذ آلاف السنين، ونُسجت حولها الأساطير وكانت بعض الشعوب تدعي أن للغيوم آلهة ! فكانوا يسجدون لها ويخافون منها ، ويطلبون منها أن ترزقهم، ولذلك جاء القرآن ليصحح هذه المعتقدات وليخبرنا بأن تشكل الغيوم ونزول المطر هو ظاهرة طبيعية، الله تعالى هو من يتحكم بها بالكامل !

لقد تطورت وسائل القياس كثيراً ، وأصبح العلماء يستخدمون الأقمار الاصطناعية في دراسة الغيوم، فبعد تطور علم الأرصاد وتطور أجهزة قياس الحرارة والضغط والكثافة والرطوبة، أصبح بالإمكان إجراء دراسات دقيقة على الغيوم لمعرفة أسرار المطر . ومن الحقائق المهمة اكتشاف الغيوم الركامية . فقد تبين أن الغيوم تبدأ على شكل ذرات من البخار تتكثف وتتجمع بفعل الشحنات الكهربائية والغبار الموجود في الهواء ثم تشكل غيوماً صغيرة .

هذه الغيوم تتراكم فوق بعضها حتى تصبح كالجبال ! والعجيب أن القرآن الكريم تحدث بدقة تامة عن مراحل تشكل السُّحُب . يقول تعالى: (ألم تر أن الله يزجي سحاباً ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاماً) [النور: 43] . وعندما قاس العلماء ارتفاع هذه الغيوم تبيّن أنها تمتد في الجو آلاف الأمتار، تماماً بنفس ارتفاع الجبال، فسبحان الله !

إن رحلة تشكل الغيوم تبدأ بدفع ذرات بخار الماء من البحار باتجاه الأعلى بواسطة الرياح. ثم يتم التأليف بين هذه الذرات من البخار لتشكل غيوماً . ثم تتراكم هذه الغيوم فوق بعضها حتى تصبح جاهزة لإنزال الماء منها ، يتابع البيان الإلهي: (فترى الودْقَ يخرج من خلاله) والودق هو المطر الذي يخرج من خلال هذه السُّحُبْ .

(100/562)

صورة للغيوم الركامية ملتقطة بواسطة القمر الصناعي من الفضاء ، ويقول العلماء إن هذه الغيوم ترتفع مثل الأبراج بحدود 20 كيلو متر، وهي أشبه بالجبال ! حيث نلاحظ القاعدة العريضة والقمة في الأعلى تماماً مثل الجبل، ونؤكد أنه لا يمكن لأحد من البشر أن يصف الجبال بالغيوم إلا إذا كان يراها من الأعلى، ولذلك سماها القرآن بالجبال، وهذا دليل على أن الذي أنزل القرآن يرى هذه الغيوم من أعلى !

ثم يأتي تصوير شكل هذه السُّحُب على أنها جبال، يقول تعالى: (وَيُنَزِّلُ من السماء من جبالٍ فيها من بَرَدٍ) فالبَرَد الذي نراه هو في الحقيقة من الغيوم العظيمة كالجبال ولا يمكن أن ينْزل البرد من غيوم صغيرة. لذلك نجد أن البيان الإلهي دقيق جداً، فجاء الحديث عن البَرَد وقبله حديث عن جبال من الغيوم للدلالة على أن البَرَد لا يتشكل إلى في حالةٍ خاصة من حالات تشكل الغيوم وهي الغيوم على شكل الجبال (الركام) والباردة جداً.

هذه صورة لسلسلة من الغيوم التُقطت من خارج الأرض، وتبدو هذه الغيوم أشبه بسلسلة جبال، ولذلك فإن العلماء اليوم يشبهون الغيوم الركامية بالجبال، لأنها ترتفع لعدة كيلو مترات ولها قاعدة عريضة مثل قاعدة الجبل وقمة مثل قمة الجبل.

تصنف الغيوم حسب ارتفاعها:

1- الغيوم العالية من 6 إلى 8 كيلو متر.

2- الغيوم المتوسطة من 2 إلى 6 كيلو متر.

3- الغيوم المنخفضة وهي أقل من 2 كيلو متر.

وتعتبر الغيوم الركامية العالية من أهم أنواع الغيوم لأنها تعطينا الأمطار الغزيرة ولا يتشكل البرد إلا في الغيوم العالية وكذلك البرق والرعد.

من حديث القرآن في علم المياه أنه حدد أوزان السحب التي تغطي معظم أجزاء الكرة الأرضية، إن أوزان هذه السُّحُب تبلغ آلاف البلايين من الأطنان ! وإذا علمنا أن مساحة أسطح البحار التي تغطي ثلثي الأرض تقريباً تبلغ أكثر من (340) مليون كيلو متر مربع، فتخيل معي حجم التبخر الحاصل على مدار العام من أسطح بحار الأرض، وكم هو هائل وزن الغيوم المبسوطة في السماء .

إن الأوزان الثقيلة للغيوم لم يتم تقديرها إلا مؤخراً بعد معرفة أسرار السحاب، ولكن كتاب الله تعالى يتحدث عن هذه الغيوم الثقيلة وإنشائها بقول الحق تعالى: (هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ) [الرعد : 12] . وتأمل معي كيف ربط القرآن بين البرق والسحاب والثقال، ونحن نعلم اليوم بأن أثقل الغيوم وأكثفها هي تلك التي يرافقها البرق !

هنالك دور مهم للرياح وهو إثارة السحاب، لأن تجميع قطرات الماء حول ذرات الغبار هو مرحلة أولى، وهنالك مرحلة ثانية، وهي إثارة هذه القطرات لتشكل الغيوم بواسطة الحقول الكهربائية . وهذه العملية لم يتم كشفها إلا في السنوات القليلة الماضية، إن الحقول الكهربائية تتشكل بشكل أساسي بواسطة الرياح التي تدفع بذرات الماء وذرات البخار وبسبب الاحتكاك بين هذه الذرات وتلك تنشأ الشحنات الكهربية الموجبة والسالبة .

تتشكل الغيوم نتيجة وهج الشمس الذي يقوم بتبخير ماء البحر وصعوده بفعل تيارات الهواء القوية، أي أن هناك علاقة بين المطر النازل والسراج الوهاج الذي هو الشمس، وهذا ما أشار إليه القرآن في آية عظيمة، يقول تعالى: (وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا * وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا) [النبأ: 13-14].

(102/562)

إن نوعية الشحنات هذه تتحكم في شكل الغيوم وانبساطها في السماء، وكل هذه العمليات تجري وفق قوانين رياضية دقيقة ومُحكمة وشديدة التنظيم. بعدما أُثيرت ذرات بخار الماء واجتمعت تشكل قِطَعاً من الغيوم ضخمة أو (كِسَفاً من الغيوم)، وعندها تكتمل العملية وتبدأ المياه بالنُّزول من خلال هذه الغيوم. ويؤكد العلماء اليوم في اكتشاف جديد أن الظروف الكونية المحيطة بالأرض تؤثر على تشكل الغيوم وعلى حالة الطقس بشكل عام. فالرياح الشمسية وما تبثه من جسيمات مشحونة كهربائياً تساهم في تغيير المجالات الكهرطيسية المحيطة بذرات بخار الماء والمتصاعدة للأعلى، ويقول العلماء هناك عمليات تآلف وانسجام دقيقة جداً تحدث قبيل تشكل الغيوم، ولولا هذه العمليات الكهربائية لم يكن للغيوم أن تتشكل. وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم في عبارة رائعة عندما قال تعالى:

(ثم يؤلف بينه) أي أن الله تعالى يهيء الظروف والشروط البيئية المناسبة لالتقاء واجتماع ذرات بخار الماء لتشكل قطع الغيوم.

صورة لغيوم ركامية يبلغ ارتفاعها عن سطح البحر 8-12 كيلو متر، وتصل سرعة الرياح التي ساهمت في تشكيل هذه الغيوم إلى 290 كيلو متر في الساعة. تمتد هذه الغيوم لمئات الكيلومترات فوق المحيط. ويقول العلماء لولا وجود الحقول الكهرطيسية وتوافق هذه الحقول مع بعضها وتآلفها، ما أمكن لهذه الغيوم أن تتشكل وتجتمع. وهذا ما أشار إليه القرآن بقوله تعالى: (ألم تر أن الله يزجي سحاباً ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاماً)، أي يجعل هذه القطع من الغيوم تتقارب من بعضها وتتجاذب تبعاً للشحنة الكهربائية التي تحملها، فتجد الموجب ينجذب للسالب، فسبحان الله!

(103/562)

إن الشيء العجيب أن القرآن يتحدث عن هذه العمليات الدقيقة بشكل مذهل، يقول عز وجل: (اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفاً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ) [الروم: 48].

وتأمل معي المراحل التي حددتها الآية الكريمة:

1. إرسالُ الرياح: لترفع ذرات الماء من البحار إلى الجوّ.

2. إثارة السحاب: من خلال تلقيحه وتجميعه.

3. بسطُ السحاب: من خلال الحقول الكهربائية.

4. جعلُه كِسَفاً: أي قطعاً ضخمة وثقيلة.

5. نزول الودْق: وهو المطر الغزير.

أليست هذه المراحل مطابقة لأحدث الأبحاث العلمية عن آلية نزول المطر؟ يقول تعالى في آية أخرى: (وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ) [فاطر: 9].

صورة للغيوم من فوق سطح الأرض، وتظهر بأشكال هندسية رائعة، إن علماء الأرصاد يعجبون من القوى التي تتحكم بهذه الغيوم، وتسوقها لتشكل هذه المجموعات وهذه اللوحات الرائعة. وأكثر عجب هؤلاء العلماء من هذه القطع من الغيوم التي يسمونها (خلايا) والعجيب أن القرآن حدثنا عن ذلك وسمى هذه الغيوم (كِسَفًا) أي قطعاً متوضعة بانتظام، فقال: (اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا) [الروم: 48].

لنتأمل الآن ما تقوله الموسوعات الغربية عن تعريف الغيوم وأنواعها ومهامها ، وهي تلخص ما وصلت إليه المعرفة في القرن الحادي والعشرين [10]:

(104/562)

إن أهم أنواع الغيوم هي تلك الغيوم التي تتشكل عمودياً على شكل طبقات بعضها فوق بعض وتدعى الغيوم الركامية، وهذه الغيوم تكون ثقيلة جداً ، ولها شكل يشبه الجبال أو الأبراج، وهذه الغيوم مسؤولة عن الأمطار الغزيرة والبرق والبرد .

وهنا يعجب المرء من هذا الوصف، صدقوني عندما قرأت هذه المقالة على أحد المواقع الغربية ظننتُ بأني أقرأ تفسيراً للقرآن، لأن الكلام ذاته موجود في كتاب الله تعالى قبل أربعة عشر قرناً : يقول تعالى: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ) [النور: 43] .

للجبال دور مهم في تشكل الغيوم ونزول المطر، وفي تجميع الماء في الوديان أسفل الجبال، وقد ربط البيان الإلهي بين الجبال الشامخات وبين الماء الفرات العذب الذي نشربه، قال تعالى: (وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا) [المرسلات: 27] .

والآن لنتأمل هذه المراحل من جديد ونرى التطابق الكامل بين العلم والقرآن:

1- يقول العلماء: إن أول خطوة في تشكل الغيوم هي الرياح! إن الرياح لها دور كبير في تشكل الغيوم وهذا ما أكده القرآن بقوله: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا) .

2- ويؤكدون أن الخطوة الثانية هي التوافق والانسجام والتآلف بين الحقول الكهربائية لذرات بخار الماء ولقطع الغيوم، وهذا ما عبر عنه القرآن بقول الحق تبارك وتعالى: (ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ) .

3- هم يسمون هذه الغيوم "ركاماً" cumulus والقرآن ذكر هذا الاسم: (ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا) .

(105/562)

4- بعد القياسات وجدوا أنها ثقيلة وتزن ملايين الأطنان، ويقولون إنها ذات كتلة هائلة heavy masses وهذا ما قرره القرآن، يقول تعالى: (وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ) .

5- وجدوا أن الغيوم الركامية تعطي الأمطار الغزيرة، وهذا ما أشار إليه القرآن بكلمة (الودق) وهو المطر الغزير، وهو ما يعبر عنه العلماء بمصطلح showers of rain يقول تعالى: (فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ) .

6- بعدما صوروا هذه الغيوم بالأقمار الاصطناعية وجدوا أنها تشبه الجبال، فاستخدموا هذا التشبيه الدقيق في القرن الحادي والعشرين، ويقولون في موسوعاتهم بالحرف الواحد whose summits rise in the form of mountains أي أن قمم هذه الغيوم تشبه الجبال، ولكن القرآن سبقهم غليه يقول تعالى: (وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ) .

7- بعد أن اخترقوا هذه الغيوم الركامية وجدوا أن البرد لا يتشكل إلا فيها، لأن تشكل البرد يحتاج لعاصفة بردية hailstorms وهذه العاصفة لا يمكنها أن تهب إلا في الغيوم التي على شكل جبال، وهذا ما حدثنا به القرآن: (بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ) .

8- وجدوا أيضاً أن هذه الغيوم هي البيئة المناسبة لتشكل العواصف الرعدية thunderstorms التي يحدث فيها البرق، وهذا ما أخبر به القرآن صراحة بقوله تعالى: (يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ) .

(106/562)

إذا نظرنا من حولنا ، ألا نجد النظام يشمل كل شيء في خلق الله تعالى ؟ وفي الصور التي تلتقطها الأقمار الاصطناعية لكوكب الأرض ألا نلاحظ توزيعاً محدداً للرياح على سطح الأرض ؟ أيضاً في القرآن حديث عن التصريف أو التوزيع الدقيق لخارطة الرياح، يقول عز وجل: (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاء فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخِّرِ بَيْنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) [البقرة: 164] . وتأمل معي كيف ربط البيان الإلهي بين توزع الرياح وتصريفها ، وبين السحاب، وذلك للدلالة على دور الرياح في تشكل السحاب . فسبحان الذي حدثنا عن هذه العلوم قبل أن يكتشفها العلماء بقرون طويلة !

وهنا يتعجب المؤمن من روعة البيان القرآني ودقة وصفه لحقائق الأمور، وهنا تتجلى حكمة الله البالغة في إبقاء المؤمن في حالة تأمل لعظمة خلق الله تعالى ليدرك عظمة الخالق، وليزداد إيماناً وخشوعاً لهذا الإله الكريم وليبقى في حالة تفكر وتدبر لكلام الله تعالى ويردّد هذا الدعاء لله تعالى: (الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ) [آل عمران: 191] .

بقلم عبد الدائم الكحيل

عندما يلتقي النهر العذب بالبحر المالح

سوف نعيش مع آية عظيمة من آيات الله تبارك وتعالى تتجلى هذه الآية في عالم البحار والأنهار . يقول تبارك وتعالى: (وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً وَحِجْراً مَحْجُوراً) [الفرقان: 53] . . . . . .

إنها آية عظيمة حدثنا فيها الله تبارك وتعالى عن حقيقة علمية موجودة بين النهر والبحر، في المنطقة التي تسمى منطقة المصب (أي مصب النهر في البحر) إنها منطقة حساسة جداً ومهمة جداً، ولم يدرك أهميتها العلماء إلا حديثاً، في السنوات القليلة الماضية .

فقد قام علماء من الولايات المتحدة الأمريكية ببحثٍ حديثٍ جداً قبل أشهر قليلة في دراسة هذه المنطقة، أي المنطقة التي يصب فيها النهر العذب في البحر المالح، وقد نزلوا بأجهزتهم إلى أعمق نقطة في منطقة المصب، وطبعاً جميع الأنهار كما نعلم تصب في البحار، فكل نهر له منبع ينبع من منطقة معينة ثم يسير ثم ينتهي عند البحر حيث يصبّ هذا الماء العذب ويخترق الماء المالح لعدة كيلو مترات ويقذف مياهه في البحر المالح .

والظاهرة التي حدثنا عنها القرآن أنه على الرغم من تدفق الأنهار العذبة إلى البحار المالحة

لا يحدث أي طغيان لهذا على ذاك، أي أن البحر المالح على الرغم من ضخامته لا يمكن أن يطغى على النهر أو يجعل ماءه مالحاً .

وطبعاً هذه الحقائق لم تكن معلومة زمن نزول القرآن، بل استرعت انتباه العلماء حديثاً، بعد ما حدث التلوث الكبير في البيئة وحدث التلوث في الأنهار أيضاً، كانت منطقة المصب هذه هي صمام الأمان لهذه المياه العذبة التي سخرها الله تبارك وتعالى لنا .

(108/562)

عندما قام العلماء بحساب كميات الماء الموجودة على سطح الأرض وجدوا أن هذه المياه 97.5 بالمائة منها مياه مالحة، واثنان ونصف في المائة هي مياه عذبة، وثلثي المياه العذبة يتركز في المناطق الجليدية، في القطبين الشمالي والجنوبي، أي 69 بالمائة من المياه العذبة موجودة على شكل مياه متجمدة، والثلث الباقي هو مياه جوفية ومياه موجودة في التربة، ورطوبة محمولة في الجو والغيوم وغير ذلك، ولا يوجد أنهار وبحيرات إلا أقل من ثلاثة بالألف من المياه العذبة، أي أن كل ما نراه من أنهار وبحيرات وينابيع جميعها لا تشكل إلا أقل من ثلاثة بالألف من المياه العذبة، والمياه العذبة لا تشكل إلا اثنان ونصف بالمائة من مجموع المياه على ظهر هذا الكوكب .

وفي رحلة بحث العلماء عن مصادرَ للمياه العذبة، كان لا بد من دراسة التلوث في الأنهار، التلوث الكبير الذي أحدثته مخلفات التكنولوجيا الحديثة. وكانت المنطقة المهمة جداً والحساسة جداً هي منطقة المصب بين النهر والبحر، فقام هؤلاء العلماء بدراسة هذه المنطقة دراسة دقيقة، وخرجوا بعدد من النتائج وربما نُذهب إذا علمنا أن الله تبارك وتعالى قد جمع كل هذه النتائج في آية واحدة، وذلك عندما قال: (وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً وَحِجْراً مَحْجُوراً) .

فالنتيجة الأولى التي وصل إليها هؤلاء العلماء: أن هذه المنطقة يحدث فيها تمازج مستمر للماء العذب مع الماء المالح، وهذا يعني أن الله تبارك وتعالى عندما قال (وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ) أي خلق البحرين (البحر العذب والبحر المالح) وهنا لا بد أن نتعرف لماذا قال الله تبارك وتعالى (مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ) ولم يقل (مرج النهر والبحر) .

(109/562)

فعندما درس العلماء هذه المنطقة أي منطقة المصب وجدوا أن هنالك تمازجاً واختلاطاً مستمراً للماء العذب مع الماء المالح، ووجد العلماء أيضاً أن هنالك اختلافات كبيرة في درجات الحرارة وفي نسبة الملوحة وفي كثافة الماء، في هذه المنطقة بالذات .

ونلاحظ هذه الاختلافات من خلال المنحنيات البيانية التي رسمها هؤلاء الباحثون فقد درسوا درجة الحرارة في منطقة المصب ووجدوا أن هنالك اختلافاً وفوارق كبيرة بين الليل والنهار ومن فصل لآخر . ووجدوا أن هنالك اختلافات في ملوحة هذه المنطقة بسبب اختلاط الماء العذب مع الماء المالح .

والشيء الجديد الذي وجده هؤلاء العلماء لأول مرة: أن طبيعة الجريان أي جريان الماء العذب داخل الماء المالح هو جريان مضطرب وليس مستقراً ، والجريان المستقر يكون جرياناً صفائحياً لا توجد فيه اضطرابات، بينما الجريان المضطرب للماء يعني وجود دوامات وهنالك اختلافات في سرعة الجريان من نقطة لأخرى .

نستطيع أن نلخص بحث هؤلاء العلماء في ثلاثة نقاط أساسية:

أن منطقة المصب يتم فيها مزج دائم للماء المالح مع الماء العذب .

ويتم فيها اضطراب في الجريان .

وهنالك اختلافات كثيرة في الكثافة والملوحة والحرارة .

وعندما رجعت إلى قواميس اللغة لأبحث عن كلمة مرج (وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ) وجدت أن هذه الكلمة تتضمن المعاني الثلاثة التي وجدها العلماء حديثاً . فمن معنى كلمة مرج (أي خلط ومزج) . وهنالك معنى آخر (المرج هو الاختلاف أيضاً) . والمعنى الثالث (المرج هو: الاضطراب) .

لذلك قال تعالى عن أولئك المشككين الذين هم في اضطراب من أمرهم (فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ) [ق: 5] أي مضطرب لا يستقر، أي أن كلامهم عن القرآن وتشكيكهم برسالة الإسلام أشبه بإنسان مضطرب لا يستقر ولا يستقيم (فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ) أي أمر مضطرب.

(110/562)

وهنا يعجب الإنسان المؤمن من دقة هذا التصوير الإلهي أن الله تبارك وتعالى اختار كلمة واحدة ليصف بها العمليات الفيزيائية الدقيقة التي تحدث في هذه المنطقة، ولذلك عندما قال: (وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ) في كلمة مرج قمة الدقة العلمية.

ولكن السؤال لماذا قال: (الْبَحْرَيْنِ) ولم يقل (النهر والبحر) كما قلنا منذ قليل؟

عندما درس العلماء البحار وجدوا أن الأنهار ليست هي المصدر الوحيد للمياه العذبة هنالك في قاع المحيطات وتحت قاع المحيطات خزانات ضخمة للمياه العذبة تتدفق باستمرار من قاع المحيطات، وهذه الخزانات الضخمة يبلغ حجمها أضعاف ما يضخه النهر في البحر.

ف كل نبع في قاع المحيط يضخ كميات من المياه العذبة أضعاف ما يضخه ذلك النهر.

وهنا ندرك لماذا قال الله تبارك وتعالى: (وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ) لأن هنالك بحراً عذباً

وخفياً لا نراه بأعيننا ولكنه موجود، وهذه المياه العذبة التي تتدفق من قاع المحيطات أحياناً تصل إلى سطح الماء، تسير آلاف الأمتار حتى تصل إلى سطح الماء، وتظهر لنا الأقمار الاصطناعية التي قامت بتصوير هذه المحيطات والخلجان بالأشعة تحت الحمراء تظهر وجود هذه الينابيع التي تمتزج بشكل دائم مع المياه المالحة.

إذا دققنا في هذه الصور نلاحظ أن ماء النبع العذب نجد أنه يتلون في الصورة طبعاً بلون آخر، يدل على أن هذه المنطقة تحوي مياه عذبة باردة، تكون عادة باردة. وهنا نجد الله تبارك وتعالى دقيق في تعابيره عندما قال (وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ) أي أن هنالك بحراً عذباً غير الأنهار التي نهراها، هنالك بحراً عذباً في قاع المحيطات، وهنالك بحراً مالحاً. (هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ) وهذه الكلمات الرائعة توقفت عندها طويلاً، وقلت لماذا قال الله تبارك وتعالى (هذا عذب فرات)، لم يقل عذب فقط، ولماذا قال (هذا ملح أجاج)، ولم يقل ملح؟

(111/562)

وهنا سوف نكتشف معجزة في هذه الكلمات الأربعة: عذب – فرات – ملح – أجاج فمياه الأنهار ليست عذبة مائة بالمائة، إنما تحوي نسبة ضئيلة من الأملاح والمعادن وبعض

المركبات الكيميائية . ومياه البحار أيضاً فيها ملوحة زائدة، فعني في كل متر مكعب من مياه البحر هنالك بحدود 35 كيلو غرام من الملح،هنالك ملوحة زائدة في هذه البحار لذلك قال الله تعالى: (وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ) .

عن المياه العذبة لم يقل (هذا عذب) فقط، إنما قال (فُرَاتٌ) وكلمة (فرات) في اللغة أي: المستساغ المذاق، لو كانت مياه النهر عذبة مائة بالمائة ليس لها طعم، وليس لها أي شيء يستساغ، ولكن عندما تمتزج مع هذه الأملاح والمعادن إلى آخره فإنها تكسبها هذا الطعم المستساغ الذي نُحس به أثناء شربنا لهذه المياه العذبة .

عندما قال تبارك وتعالى (هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ) إنما تعامل القرآن مع قضية المياه بدقة علمية كبيرة، فعلماء المياه اليوم يصنفون المياه حسب درجة الشوائب التي فيها ، أو الأملاح التي تحتويها ، فالماء المقطر هو ماء عذب مائة بالمائة، والماء الفرات هو ماء الأنهار يحوي نسبة ضئيلة جداً من الأملاح لا نحس بها ولكنها موجودة، والله تبارك وتعالى عبر عن ذلك بكلمة فرات (هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ) . أما المياه الخاصة بمياه البحار: هذه المياه تحتوي كميات زائدة من الملح، لم يكن أحد يعرف ذلك الأمر ولكن القرآن وصف لنا بأن ماء البحر هو (مِلْحٌ أُجَاجٌ) .

ولو تابعنا تدبر الآية الكريمة يقول تبارك وتعالى:

1- (وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً) جعل بين البحر المالح والنهر العذب برزخاً: أي مسافة فاصلة يمتزج فيها هذين البحرين ولا يطغى أحدهما على الآخر، هذه المنطقة هي المنطقة الحساسة جداً التي سماها العلماء منطقة المصب. ولم يكن أحد يعلم شيئاً عن هذه المنطقة، يعني حتى كلمة (المصب) أو (منطقة المصب) تحديداً هذا مصطلح علمي حديث لم يكن موجوداً زمن النبي عليه الصلاة والسلام، ولم يكن أحد يعلم شيئاً عن وجود برزخ أو منطقة فاصلة.

وبالفعل ثبت أن هذه المنطقة الفاصلة بين البحر المالح والنهر العذب، هذه المنطقة لها خصائص ولها ميزات ولها صفات تختلف عن كلا البحرين (العذب والمالح).

2- (وَحِجْراً مَحْجُوراً) أي أن هنالك حجر أشبه بالجدار الذي يحجز ماء النهر عن ماء البحر، كأن هنالك منطقة محصنة وحجراً محجوراً أي حصناً منيعاً لا يسمح لأحد البحرين أن يطغى على الآخر، وهذا ما وجده العلماء حديثاً، ولم يتسرب الخلل إلى هذه المنطقة إلا عندما لوث الإنسان الأنهار ولوث البحار فاختل التوازن في هذه المنطقة.

اليوم يعمل العلماء على إعادة التوازن لمنطقة (المصب) بسبب حساسيتها وأهميتها البيئية، وهذا ما أخبرنا به القرآن عندما قال: (وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً وَحِجْراً مَحْجُوراً) يعني انتبه أيها الإنسان إلى أهمية

هذه المنطقة، لا تلوثها لأن الله تبارك وتعالى جعلها منطقة توازن حساسة جداً، وهي تشكل مصدراً لك ولغيرك من المخلوقات التي تعيش في هذه المنطقة.

والآن نتساءل عن الهدف من وراء ذكر هذه الحقيقة العلمية في القرآن الكريم؟

(113/562)

لماذا حدثنا الله تبارك وتعالى عن برزخ، وعن ماء فرات، وماء أجاج وحجر محجور وامتزاج واختلاط واضطراب لماذا؟ إذا تدبرنا سورة الفرقان حيث وردت هذه الآية، نلاحظ أن الله تبارك وتعالى أحياناً يخبرنا عن الهدف من الحقيقة العلمية قبل ذكر الحقيقة، فقبل هذه الآية ماذا يقول تبارك وتعالى بعدما عدد آيات كثيرة عن البحار وعن المياه وعن الرياح وغير ذلك آيات كونية ذكرنا بنعمه عز وجل قال: (فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا) [الفرقان: 52] هذه الآية ماذا تعني؟

تعني أن كل مؤمن مطلوب منه أن يجاهد في سبيل الله ولكن بما يتناسب مع العصر الذي يعيش فيه، فالقرآن الكريم ذكر الجهاد في كثير من مواضعه ولكن المرة الوحيدة التي ذكر فيها الجهاد الكبير كانت في هذه الآية.

يقول تعالى: (فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ) أي بالقرآن (جِهَادًا كَبِيرًا)، (وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ

الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا)

[الفرقان: 53] كأن الله تبارك وتعالى يريد أن يوصل لنا رسالة من خلال هذه الحقيقة الكونية، أنه سيأتي زمن يكون فيه الجهاد الكبير هو الجهاد بالعلم، الجهاد بحقائق القرآن، إذ أننا عندما نُخاطَب يقول الله تعالى لنا (وَجَاهِدْهُمْ بِهِ) أي بالقرآن جهاداً كبيراً، كيف نجاهد غير المؤمنين بالقرآن؟ من خلال تعريفهم على حقائق القرآن.

وبما أننا نعيش عصر العلم وعصر التقنيات العلمية وعصر الاكتشافات العلمية فكانت أفضل وسيلة لدعوة غير المسلمين إلى الإسلام هي لغة الحقائق العلمية التي أودعها الله في هذا الكتاب لأن الله تبارك وتعالى عندما حدثنا عن هذه الحقيقة إنما حدثنا لهدف وهو أن تكون هذه الحقيقة سلاح بأيدينا نحن المسلمين لدعوة غير المسلمين إلى طريق الله تبارك وتعالى.

بقلم عبد الدائم الكحيل

(114/562)

الماء الطهور

هناك حديث نبوي معجز يؤكد فيه النبي الأعظم صلى الله عليه وسلم أن الماء طهور لا

ينجسه شيء، هل هناك حقائق علمية حول هذا الموضوع؟ . . . .

قال صلى الله عليه وسلم: (إن الماء طهور لا ينجسّه شيء) [حديث حسن رواه الترمذي والنسائي] . قال تبارك وتعالى: (وأنزلنا من السماء ماء طَهوراً) [الفرقان: 48] . ويقول أيضاً: (وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ) [الحجر: 22] .

يقول الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى: (وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ) أي وما أنتم له بحافظين، بل نحن ننَزّله ونحفظه عليكم ونجعله معيناً وينابيع في الأرض، ولو شاء تعالى لأغاره وذهب به .

وسبحان الله ! العلماء اليوم يؤكدون أن تخزين المياه تحت الأرض ينقي هذا الماء ويعقمه ويحفظه لنا سليماً لنشربه، والقرآن يذكرنا بهذه النعمة نعمة تخزين الماء في الأرض ويخبرنا أن الله هو من يخزّن هذا الماء وليس نحن، فهل نشكر نعمة الله تعالى ؟

إنها نعمة عظيمة من نعم الخالق عز وجل أن جعل تحت الأرض خزانات ضخمة من الماء العذب النقي، فما هو الجديد في هذا الموضوع؟ لقد حاول العلماء منذ أكثر من قرن استخدام وسائل عديدة لتنقية المياه، فالمياه الموجودة على سطح الأرض تكون عادة ملوثة بالكائنات الدقيقة التي تسبب مختلف أنواع الأمراض للإنسان . فابتكروا محطات تنقية المياه، ووحدات تحلية مياه البحر والفلاتر بأنواعها وابتكروا أساليب كثيرة لتنقية الماء .

ولكن قد تعجب عزيزي القارئ من أحدث أسلوب لتنقية المياه مهما كانت درجة تلوثها ،

وهو أن نضع المياه الملوثة ونخزنها تحت سطح الأرض ! فقد ابتكر هذه الطريقة الدكتور سايمون توز طريقة سهلة ورخيصة لتنقية المياه الملوثة وذلك من خلال تخزينها في الطبقات الجوفية تحت سطح الأرض وذلك لعدة شهور .

(115/562)

ويقول إن هذه الطريقة كفيلة بأن تقتل جميع أنواع الكائنات الدقيقة الضارة والتي تشكل خطراً على الإنسان . مثل شلل الأطفال وأمراض الإسهال وغير ذلك من الأمراض الفيروسية الخطيرة .

تعتبر هذه الطريقة إحدى أنواع التنقية الطبيعية geopurification وقد أودع الله في الأرض خصائص رائعة حيث تمتص الأرض من المياه كل أنواع الجراثيم والفيروسات والزيوت والمواد الدهنية والأوساخ وغير ذلك من الملوثات .

وقد احتار العلماء في سر هذه التنقية العجيبة، حيث يقول الدكتور سايمون:

" We know the pollution goes, but we don't know how"

نحن نعلم أن التلوث يزول، ولكن لا نعلم كيف !

ولكن القرآن الكريم وهو كتاب العجائب (ولا تنقضي عجائبه) حدثنا عن نعمة عظيمة من نعم الله علينا حيث تحدث عن تخزين المياه تحت سطح الأرض وأن الله هو الذي أودع في الأرض خصائص التخزين والتنقية وجعل الماء قابلاً للشرب والسقاية . يقول تعالى: (وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ) [الحجر: 22] .

وقد طرح أحد العلماء حديثاً سؤالاً: إذا كان الماء يطهر كل شيء، فكيف يمكن أن نطهر الماء من الأوساخ التي تعلق به ؟ وبعد بحث طويل وجد في التراب مواد معقمة تقتل الجراثيم العالقة في الماء، وبالتالي فإن الله تعالى قد سخر هذه المواد التي يسميها العلماء "مضادات حيوية" وأودعها في التراب الذي خُلقنا منه وسنعود إليه، لتكون وسيلة رائعة ومجانية في تنقية الماء الذي نشربه . يقول تعالى: (وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) [الجاثية: 13] .

(116/562)

ويقول العلماء لولا هذه الخصائص التي يتميز بها تراب الأرض لفسد هذا الماء، ولم تعد الأرض مستودعاً صالحاً لتخزين المياه ولما أمكن لنا أن نشرب هذه المياه أبداً ! أليس هذا

ما أكده القرآن بقول الحق تبارك وتعالى: (فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ) ؟ ؟ ؟

صورة بالمجهر لحبيبات التراب، وتظهر فيها الفراغات التي أودعها الله ليكون التراب قابلاً لتخزين الماء، كما أودع الله في التراب مواد مطهرة تقتل الجراثيم والملوثات العالقة بالماء، من الذي أودع في تراب الأرض هذه القدرة التخزينية الرائعة ؟ إنه الله القائل: (وما أنتم له بخازنين) !

بقلم عبد الدائم الكحيل

(117/562)

بركان هائل في قاع المحيط

ما أكثر الاكتشافات العلمية التي تحدث عنها القرآن، وفيما يلي اكتشاف جديد يؤكد أن قاع المحيط مشتعل . . .

اكتشف العلماء منذ أيام قليلة ثورة بركانية ضخمة جداً في قاع المحيط الهادئ، ويقولون إن هذا البركان نتج عن صدع طويل يقع على عمق 2500 متر تحت سطح البحر . وكان هنالك ما يشبه الانفجار العظيم حيث صعدت الحمم المنصهرة وتراكمت وشكلت غيمة ملتهبة ترتفع عن قاع المحيط 250 متراً، وتحمّي وتسخن الماء بشكل كبير [1] .

صورة تمثل بعض الصدوع في قاع المحيط الهادئ والتي تتدفق منها الصخور الملتهبة فتشعل الماء، وتشكل غيوماً من الحمم المنصهرة، المصدر The National Science Foundation.

ويؤكد العلماء أن مثل هذه الانفجارات تتكرر باستمرار وتدوم لفترة طويلة، حتى إن الذي يراقب هذه البراكين والثورات البركانية يحس وكأنه أمام بحر مشتعل لا ينطفئ.

أخي القارئ! عندما يقرأ أحدنا أخباراً علمية كهذه يتذكر على الفور حديث القرآن عن التسجير لماء البحر، يقول تعالى: (والبحر المسجور) [الطور: 6]، أي المشتعل والمسخّن. ومن القاموس المحيط تقول العرب: سجر التنور أي أحماه، وبكلمة أخرى رفع درجة حرارته. ومن هنا ندرك أن الله أقسم بهذا البحر المشتعل لحكمة عظيمة، وهي: كما تدركون أيها العلماء حقيقة هذا البحر وهذا الاشتعال، يجب عليكم أن تدركوا حقيقة هذا القرآن الذي حدثكم عن هذه الاكتشافات، لذلك يقول تعالى في أواخر هذه السورة عن القرآن: (أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ * فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ) [الطور: 33-34].

ولا بد أن نتساءل: هل القرآن كتاب علم وحقائق علمية أم هو كتاب أساطير وخرافات كما يدعي بعض المشككين؟؟

بقلم عبد الدائم الكحيل

آيات الله في البحار

نعيش مع بعض الحقائق اللطيفة حول علم البحار القرآني، وهذا البحث من باب التذكرة، فذكّر إن الذكرى تنفع المؤمنين . . .

يقول تعالى: (وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً وَحِجْراً مَّحْجُوراً) [الفرقان:53] .

منذ 1400 سنة لم يكن أحد على وجه الأرض يعلم شيئاً عن الحاجز بين النهر والبحر . وقد قام حديثا علماء بدراسة المنطقة حيث يصبّ النهر العذب في البحر المالح . وكانت النتيجة أن هذه المنطقة لها خصائص مختلفة كلياً عن الخصائص الموجودة في أيّ من ماء النهر أو ماء البحر .

حتى إننا نجد أحدث الأبحاث العلمية تؤكد أن منطقة المصبّ يحدث فيها مزج مضطرب، وسبحان الله العظيم يأتي البيان الإلهي ليعبر عن هذه الحقيقة العلمية الدقيقة بكلمة واحدة وهي (مَرَجَ) !

وهذا النوع من الحواجز تحدث عنه القرآن، يقول تعالى: (وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا

عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً وَحِجْراً مَّحْجُوراً) [الفرقان:53] .

لقد نشأ علم حديث اسمه ميكانيك السوائل يبحث في القوانين التي وضعها الله تعالى لتحكم أي سائل في الكون . ومن أهم السوائل بالنسبة لنا هو الماء الذي جعل الله منه كل شيء حي فقال: (وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ) [الأنبياء:30] . ومن أهم القوانين التي تحكم هذا الماء قانون التوتر السطحي الذي بواسطته تحافظ كل قطرة ماء على شكلها و وجودها .

(119/562)

ولولا هذا القانون لتبخر الماء ولم يتماسك أبداً . وبواسطة هذا القانون الذي يشد جزئيات الماء إلى بعضها البعض تبقى البحار متماسكة أيضاً . لأن قوة التوتر السطحي هذه وهي القوة التي تشد جزيئات الماء تتغير مع كثافة الماء ودرجة حرارته ونسبة الملوحة فيه وغير ذلك من العوامل . فتجد أن النهر العذب له خصائص تختلف تماماً عن البحر المالح، وبالتالي هنالك اختلاف كبير بين قوة التوتر السطحي للماء العذب وتلك الخاصة بالماء المالح . هذه القوى تلتقي عند التقاء مصب النهر مع البحر . فتعمل كل قوة ضد الأخرى !

فتجد أن منطقة البرزخ أو منطقة الالتقاء للنهر مع البحر هي منطقة تدافع وتجاذب وحركة

واضطراب وهذا ما عبَّر القرآن عنه بكلمة واحدة وهي (مَرَجَ) . يقول عز وجل: (وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً وَحِجْراً مَّحْجُوراً) [الفرقان:53] .

وتأمل معي كلمة (حِجْراً مَّحْجُوراً) في الآية كيف تعبر عن جدار منيع وقوي وهذا ما نجده فعلاً، فهذه القوى الناشئة بين النهر والبحر في منطقة البرزخ هي جدار لا يمكن اختراقه .

ومن علم ميكانيك السوائل نعلم بأن أي جدار يتم بناؤه يقوم على أساس دراسة القوى التي ستقع على هذا الجدار . لذلك نجد أن التعبير القرآني عن الحاجز بين النهر والبحر بأنه (حِجْر) تعبير دقيق من الناحية العلمية .

كما أن هنالك فارقاً في قوى الضغط التي يسببها النهر على البحر والقوة المعاكسة التي يسببها البحر على النهر، وتكون النتيجة أن هنالك منطقة متوسطة هي البرزخ وعلى جانبيه ضغوط مختلفة يتحملها وكأنه جدار محصَّن وقوي . لذلك قال تعالى في آية أخرى: (أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَاراً وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَاراً وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) [النمل:61] .

إن الغوص في الماء ومعرفة أسرار البحار كان من رغبات الإنسان منذ وجوده على الأرض . ولكن الإنسان في الحالة الطبيعية لا يمكنه الغوص لأكثر من أمتار معدودة وذلك بسبب الضغط الكبير المتولد من وزن الماء فوقه .

وعندما اخترع الإنسان الغواصة تمكن من الوصول لأعماق كبيرة تقدر بمئات الأمتار أو آلاف الأمتار . وعندها تم اكتشاف عالم قائم بذاته في أعماق المحيطات، ولعل الشيء الملفت للانتباه هو اكتشاف أمواج عميقة أشدّ عنفاً من الأمواج التي على سطح البحر . فكما نرى أمواجاً متلاطمة على سطح البحر، أيضاً هنالك أمواج في عمق البحر . هذه الأمواج تحدث عنها القرآن في قول الحق تبارك وتعالى: (أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ) [النور:40] . ونلاحظ كيف تتحدث الآية بوضوح عن البحر العميق الذي تغشاه الأمواج ثم من فوقه أمواج أخرى .

وهنا ندرك دقة القرآن حتى في تشبيهاته، فالله تعالى يقول لنا بأن الكافر بربه والذي ضلَّ عن سبيل الهدى مثله كمثل رجل يعيش تحت هذه الأمواج العميقة، قمة الظلام والضيق، فالله تعالى يشبه الضلال بهذه الظلمات ويتحدث عن أمواج في عمق البحر (اللجي هو العميق) . إن هذا النوع من المعرفة لا يمتلكه حتى أدباء عصرنا هذا، فكيف بالنبي الأمي

الذي جاء في عصر عبادة الحجارة والأوثان، في ذلك العصر لم يكن هنالك إلا الأساطير. بينما القرآن نجده يحاكي كل العصور فهو كتاب الله عزّ وجلّ.

(121/562)

إن الذي ينظر إلى الكرة الأرضية من الفضاء الخارجي يشاهد البحار تغطيها السحب بشكل كبير. وهذا ما تظهره صور الأقمار الاصطناعية. هذه السحب الكثيفة تحجب جزءاً كبيراً من نور الشمس ويبقى جزء صغير ليخترق أمواج البحر السطحية وبعد ألف متر تقريباً ينعدم الضوء تماماً عند مستوى الأمواج العميقة. لذلك يقول تعالى: (ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ)، فالأمواج تساهم في حجب قسم كبير من الأشعة الضوئية أيضاً. فيكون لدينا ظلام في قاع البحر، ومن فوقه طبقة من الأمواج الداخلية التي تضيف طبقة ثانية من الظلام، ثم يأتي الماء الموجود فوق هذه الأمواج والذي يضيف طبقة ثالثة من الظلام، ثم تأتي الأمواج على سطح البحر والتي تضيف طبقة رابعة من الظلام ثم تأتي طبقة الغلاف الجوي فوق سطح البحر لتشكل طبقة خامسة من الظلام ثم السحاب والغيوم الركامية التي تشكل طبقة سادسة وهكذا (ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ)، فهل يمكن لإنسان يعيش تحت هذه الظلمات أن يرى يده؟ كذلك الذي ضل عن سبيل الله ونسي لقاءه أَنَّى له

أن يرى نور الإيمان !

إذا كان الإنسان قبل مجيء القرن العشرين لا يستطيع الغوص في الماء إلا لعدد من الأمتار، كيف علم رسول الله محمد صلى الله عليه وسلّم بهذه الأمواج في أعماق البحار ؟ هل درس رسول الله عليه الصلاة والسلام قوانين انكسار الضوء، وكيف يفقد الضوء جزءاً من طاقته عندما يخترق الماء أو الأمواج؟

إن الضوء الذي يخترق ماء البحر على عمق مائة متر لا يبقى منه إلا أقل من واحد بالمئة على مثل هذا العمق، فكيف على أعماق آلاف الأمتار ؟

إن الأمواج العمقية في البحر لم يتم كشفها إلا منذ أقل من مائة سنة، ولم يتم دراستها وتصويرها إلا منذ سنوات قليلة فقط .

إن الإنسان لا يمكنه الغوص إلى هذه الأعماق إلا باستخدام غواصة ذات جدران شديدة الصلابة والتحمل لتتحمل الضغط الكبير جداً الذي تسببه طبقة الماء فوقها .

(122/562)

إذن الحياة مستحيلة تحت هذه الأعماق، فكيف تحدث القرآن عن إنسان يعيش على هذا العمق الكبير من الماء ؟

إنها معجزة جديدة، فالقرآن يتحدث عن زمن سيخترع الإنسان فيه الغواصة وسينْزل إلى أعماق البحر وسوف يتحقق قول الحق تعالى: (إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا)، وهذا ما يحدث فعلاً مع الغواصين في غواصاتهم حيث تنعدم الرؤيا بشكل شبه كامل عند عمق البحر

إذن في هذه الآية الكريمة عدة إعجازات: الحديث عن الظلمات في أعماق البحار. الحديث عن الأمواج العمقية في البحر. والحديث عن تحقق هذه الآية في المستقبل وقد تحققت فعلاً باختراع الغواصات.

نعيد كتابة النص القرآني ونترك للقارئ التفكر والتأمل في عظمة آيات الله تعالى: (وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاء حَتَّى إِذَا جَاءهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ) [النور: 39-40].

ومن الكشوفات المهمة في علم البحار أن هنالك مسافة تفصل بين أي بحرين، فلا يطغى هذا على ذاك أو العكس.

عندما يلتقي البحران عند مضيق ما يحافظ كل بحرٍ على خصائصه. فعلى سبيل المثال يلتقي البحر الأحمر مع المحيط الهندي في منطقة تسمى مضيق باب المندب. هذه المنطقة

نجد لها خصائص متوسطة بين البحرين .

فالبحر الأحمر له كثافة ودرجة حرارة ولزوجة تختلف عن المحيط الهندي، والأسماك التي تعيش هنا غير التي تعيش هناك . هذه المنطقة الفاصلة تسمى بالحاجز أو البرزخ.

(123/562)

هذا البرزخ يشبه الجدار المتين الذي يفصل بين البحرين، وهو يسمح لماء هذا البحر بالمرور عبره لذلك البحر ولكن بعد أن يغير خصائصه بما يتناسب مع البحر الثاني . وبالتالي رغم اختلاط البحرين وامتزاجهما يبقى كل منهما مستقلاً عن الآخر في مواصفاته .

هذا البرزخ الذي لم تتم رؤيته إلا بواسطة الأقمار الاصطناعية في نهاية القرن العشرين تحدث عنه القرآن قبل أربعة عشر قرناً . لنستمع إلى قول الله تعالى: (مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ) [الرحمن:19-20] .

إن هذا البرزخ يوجد أيضاً بين البحر المالح والنهر العذب عند التقائهما . فنجد أن الأنهار العذبة تصب في البحار المالحة، ورغم ضخامة البحر المالح لا يطغى على النهر العذب ولا يختلط به أبداً .

ويمكن رؤية المنطقة التي تفصل بين الماء العذب والماء المالح بالأقمار الاصطناعية وهي

تمتد عادة لعدة كيلومترات .

القشرة الأرضية ليست متصلة تماماً بل تتركب من مجموعة من الألواح . هذا ما كشفت عنه الأبحاث الجيولوجية حديثاً .

حركة الألواح هذه تؤدي إلى تصادمات مستمرة فيما بينها ينتج عنها تصدع للقشور الأرضية . وهذا ما تحدث عنه القرآن بقوله تعالى: (والأرض ذات لصدع) [الطارق:12] .

هذه التصدعات تكثر في قاع البحار والمحيطات وينتج عنها انطلاق كميات من الحمم المنصهرة من باطن الأرض على شكل براكين . فالنيران تشتعل في قاع البحر بشكل دائم وعلى الرغم من حجم الماء الكبير فوقها لا يستطيع إخمادها .

لقد تحدث القرآن الكريم منذ أربعة عشر قرناً عن هذه الحقيقة العلمية بقوله تعالى: (وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ) [الطور:6] . وكلمة (سَجَرَ) في اللغة تعني أشعل وأحرق، ولم يكن أحد على وجه الأرض يتخيل هذا الأمر .

ولكن الرسول الكريم صلى الله عليه وسلّم الذي لا ينطق عن الهوى إنما بلغنا القرآن كما أنزله عليه ربه دون زيادة ولا نقصان، لم يستغرب هذه الحقيقة بل هو مؤمن بكل ما أوحي إليه.

فقد بلغنا قول الله تعالى (وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ) وكلمة (الْمَسْجُورِ) تفيد الاستمرار. فالبحر لا يزال منذ ملايين السنين يشتعل قاعه بنار تصل حرارتها لآلاف الدرجات المئوية وعلى الرغم من ذلك لا يتبخر الماء ولا تنطفئ النيران!

بقلم عبد الدائم الكحيل

(125/562)

الطاقة الهائلة بين الماء العذب والماء المالح

ذُكر البرزخ بين البحر العذب والبحر المالح في القرآن، وقد تبين وجود طاقة هائلة بين هذين البحرين، وهذا يؤكد أهمية الإشارات القرآنية...

يقول تعالى: (وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) [النحل: 14]. في هذه الآية حديث عن أهمية البحار وتسخيرها للإنسان مجاناً، وكأن الله تعالى يريد أن ينبهنا إلى

الفوائد العظيمة الموجودة في البحار في قوله (وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ) .

ومن الظواهر التي بدأ الإنسان بملاحظتها اختلاط الماء العذب بالماء المالح عند مناطق المصبات للأنهار في البحار . وقد ظن الإنسان أن العملية هي مجرد اختلاط لا فائدة منه، ولكن القرآن قبل 1400 سنة ذكر هذا التمازج والاختلاط بين البحرين أي النهر العذب والبحر المالح كنعمة من نعم الله، وآية من آياته ينبغي علينا التفكر فيها .

وبالفعل فإن القرآن لم يذكر شيئاً إلا وكانت هنالك فوائد عديدة منه، ومن هذه الفوائد وأغربها أن العلماء اليوم اكتشفوا وجود كميات كبيرة من الطاقة تتحرر أثناء عملية اختلاط الماء العذب في الماء المالح، ولذلك فكروا في الاستفادة من توليد الكهرباء في هذه المنطقة .

تحلية مياه البحر

إن الطريقة المتاحة اليوم لتحلية ماء البحر تعتمد على هذه الظاهرة، أي ظاهرة اختلاط الماء العذب بالماء المالح، والتي سخرها لنا الله تعالى لنتمكن من خلالها من تنقية وتحلية ماء البحار، وهذه نعمة عظيمة تستحق أن يذكرها القرآن الكريم: (وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) [النمل: 61] .

إن عملية تحلية مياه البحر تتم اليوم بطريقة تحلية مياه البحر، من خلال وضع ماء البحر في وحدات خاصة وضغطه بضغوط عالية وجعل هذا الماء المضغوط يمر عبر غشاء نفوذ للماء فقط، أي أنه يسمح بمرور جزيئات الماء العذب الصغيرة نسبياً، ولا يسمح بمرور جزيئات الملح التي هي أكبر بكثير من جزيئات الماء . ويسمي العلماء هذه الطريقة بالتناضح العكسي [1] Reverse Osmosis . واليوم تعتبر هذه الطريقة أساسية في تحلية مياه البحر، حيث إن معظم الدول التي تحلّي ماء البحر تعتمد هذه الطريقة .

شكل يوضح طريقة لتحلية مياه البحر المالحة، حيث يتم ضغط ماء البحر وإجبارها على المرور من خلال غشاء يسمح للماء فقط بالنفاذ منه، ولا يسمح لجزيئات الملح بذلك .

الطاقة بين البحرين

لقد اكتشف العلماء بعد دراسة المنطقة الفاصلة بين النهر والبحر عند منطقة المصب أن ماء النهر العذب عندما يختلط ويمتزج مع ماء البحر المالح فإن كميات كبيرة من الطاقة تنطلق في هذه المنطقة . إن سبب تحرر هذه الطاقة هو الفارق الكبير في درجة الملوحة بين الماء العذب والماء المالح، وهذا الفرق في الكثافة يؤدي إلى اندفاع الماء العذب بشدة داخل الماء المالح [2] .

ولذلك فإن هذا الضغط الكبير المتولد في المنطقة الفاصلة بين الماء العذب والماء المالح، يشكل جداراً منيعاً من القِوى التي لا تسمح إلا لجزء من ماء النهر بالعبور إلى البحر، هذا الجدار هو ما سماه القرآن بالحاجز. ولولا هذا الحاجز المنيع لجفّت جميع الأنهار بسبب تدفقها في البحار وعدم وجود ما يمنعها من التدفق بغزارة.

(127/562)

وعاء يحوي على الطرف الأيمن ماء عذباً وعلى الجانب الأيسر ماء مالحاً، وبينهما غشاء يسمح لجزيئات الماء بالمرور ويحجز جزيئات الملح، ونلاحظ تولد قوى ضغط كبيرة على الماء المالح بسبب الاختلاف الكبير في درجة الملوحة بين الجانبين. نرى في الشكل كيف يمر الماء العذب باتجاه الماء المالح، وهذا يولد ضغطاً على الماء المالح، مما يؤدي إلى ارتفاع مستوى سطح هذا الماء. ولو عكسنا العملية فإننا نرى العملية العكسية، أي عندما نضغط الماء المالح فإنه يضطر للمرور عبر الغشاء الذي يسمح للماء العذب بالمرور خلاله، ويحتجز الملح، وبالتالي هذا هو مبدأ تحلية ماء البحر.

يبحث العلماء اليوم في هذا الحاجز ويؤكدون بأن العمليات الفيزيائية والكيميائية التي تحدث في منطقة البرزخ التي تفصل بين النهر والبحر في منطقة المصب، تعتبر معقدة للغاية

وصعبة الفهم [3] .

ولكي نفهم شدة هذه القوى المتحررة عندما يلتقي النهر بالبحر [4] ، يجب أن نعرف مقدار الملوحة في كل منهما . فكل متر مكعب من ماء البحر يحوي 35 كيلو غرام من الملح، بينما المتر المكعب من ماء النهر يحوي أقل من نصف كيلو غرام من الملح .

ولذلك فإن المنطقة التي تفصل بين البحر المالح والنهر العذب وتسمى منطقة المصب estuary وهذه المنطقة تمتد لعدة كيلو مترات ولها خصائص تختلف عن خصائص البحر أو النهر .

توليد الكهرباء من الماء

ولكي نفهم عملية الاستفادة من مزج الماء العذب بالماء المالح لتوليد الطاقة الكهربائية، نلجأ إلى الطريقة المعاكسة لتحلية ماء البحر . ففي عملية التحلية نقوم بضغط ماء البحر لإخراج الماء العذب منه، أي أننا نبذل طاقة كهربائية لذلك، بينما في هذه الطريقة نجعل الماء العذب يدخل إلى ماء البحر وبالتالي ستتولد الطاقة في هذه الحالة، أي هي عملية عكسية .

إن طاقة الضغط التي يولدها جريان الماء العذب داخل الماء المالح يمكن أن يتم تحويلها إلى حركة دورانية تقوم بتدوير مولدة كهربائية، وبالتالي يتم إنتاج الطاقة الكهربائية بهذه الطريقة.

فقد وجد العلماء أننا إذا وضعنا الماء العذب على جانب والماء المالح على الجانب الآخر وفصلنا بينهما بغشاء يسمح فقط بمرور الماء العذب إلى داخل الماء المالح، فإن الضغط في الماء المالح سيتضاعف بمقدار 26 ضعفاً [5].

ويقوم العلماء اليوم بدراسة إمكانية الاستفادة من هذه الظاهرة الطبيعية، وذلك بوضع وحدات لتوليد الكهرباء عند منطقة المصب إما تحت سطح الماء، أو تحت الأرض.

طبعاً هؤلاء العلماء يعتقدون بأن قوانين الطبيعة هي التي تحكم هذه الظاهرة العجيبة، ولذلك جاء القرآن قبل أربعة عشر قرناً ليؤكد أن الله تعالى هو من خلق هذه الظاهرة وهو من سخرها لنا، وسبحان الله، نجد من لا يؤمن بوجود خالق لهذه الظاهرة.

يجري اليوم بعض الباحثين العديد من التجارب والتي تعتمد كما نرى في هذه الصورة على مزج الماء العذب بالماء المالح، بهدف استغلال الطاقة المجانية المتحررة أثناء عملية المزج، وهذه الطاقة تنتج بتقدير إلهي، ولكن علماء الغرب يردون هذه الظاهرة إلى الطبيعة، أما القرآن فيؤكد أن الله تعالى هو خالق هذه الظاهرة وهي نعمة من نعمه سبحانه وتعالى:

(وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا

مَحْجُورًا) [الفرقان: 53] فسبحان الله !

يسمي العلماء هذه الطريقة في الاستفادة من مزج الماء المالح بالماء العذب بـ Pressure Retarded Osmosis أو اختصاراً (PRO) . وهي طريقة مستوحاة من الظاهرة الطبيعية، أي ظاهرة الحاجز بين البحرين والتي تحدث عنها القرآن بوضوح قبل أن يكتشفها العلماء .

(129/562)

التقاء النهر العذب مع البحر المالح، والعلماء اليوم يحاولون الاستفادة من منطقة المصب حيث يصب النهر في البحر، لأن هذه المنطقة تتولد فيها قوى هائلة . ويمكن الاستفادة من هذه القوى وتحويلها ضمن وحدات خاصة إلى طاقة كهربائية تعتبر آمنة ونظيفة . ويمكن أن تتوضع هذه الوحدات تحت الأرض لتحويل قوة الضغط المتولدة عند التقاء النهر بالبحر إلى طاقة كهربائية، طبعاً هذه الأفكار لا تزال قيد الدراسة والتجربة . وبهذه الطريقة يمكن تحويل نصف طاقة الضغط إلى كهرباء عملياً .

إشارات قرآنية

هنالك نص قرآني يربط بين البحار والأنهار في إشارة إلى إمكانية الاستفادة من هذه النعم

التي سخرها الله لنا، يقول تعالى: (وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ) [إبراهيم: 32]. وانظر معي إلى كلمة (سَخَّرَ) والتي تكررت مرتين في هذه الآية للتأكيد على أننا إذا بحثنا فسوف نجد فوائد مجانية لا تُحصى في الأنهار والبحار.

هنالك الكثير من الأبحاث العلمية الجديدة التي يحاول أصحابها الاستفادة من طاقة أمواج البحر، وطاقة المد والجزر في البحر، وكذلك الطاقة الحرارية في أعماق المحيطات، وغير ذلك كثير. ويؤكدون أن البحر يحوي طاقة هائلة ومجانية ونظيفة.

في المنطقة حيث يصب النهر بالبحر تتحرر طاقة هائلة نتيجة اختلاط الماء العذب بالماء المالح، ونتذكر قوله تعالى (وهو الذي مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج)، إنها آية تذكرنا بنعم الله علينا وأنه هو من خلط البحرين، فلا بد أن يكون هنالك فائدة من هذه العملية، وهذا ما يحاوله العلماء اليوم.

(130/562)

ولذلك نجد البيان الإلهي يؤكد على تسخير البحر لنا لنستفيد منه، وربما نستغرب إذا علمنا أن من بين معاني كلمة (سَخَّرَ): قدّم خدمات مجانية من دون مقابل، أو كما يقول علماء اللغة: سخّره: ذلّله وكلّفه عملاً بلا أجرة [1]! هذا ما يتحدث عنه علماء اليوم

عندما يؤكدون أن الطاقة الكهربائية التي يمكن الحصول عليها من البحار والأنهار هي طاقة مجانية لا تكلفنا أي شيء، وكأن هذه البحار مخلوقات مطيعة ذلّلها الله لنا وجعلها تخدمنا دون أن تأخذ شيئاً، ولذلك نجد أن البيان الإلهي يؤكد أن هذه النعم لا تُحصى فهل نشكر الله تعالى القائل: (وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ) [إبراهيم: 34].

في قوله تعالى (وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ)، وقوله تعالى (وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ) إشارة إلى وجود منافع كثيرة ومجانية في الأنهار وفي البحار، وما رأيناه في هذا البحث من محاولات للاستفادة من التقاء الأنهار بالبحار، ما هو إلا تطبيق عملي لهذه الآية، حيث يعترف العلماء بوضوح أن البحار والأنهار تحتوي على مصدر غير محدود للطاقة المجانية.

فهل نتذكر نعمة الله علينا ونشكره على هذه النعم ونسبحه؟ يقول تعالى: (أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) [النمل: 61].

بقلم عبد الدائم الكحيل

(131/562)

طاقة أمواج البحر

في كل كلمة من كلمات القرآن معجزة مبهرة ! وفي هذه المقالة يدور بحثنا حول كلمة (سخّر) والتي تعني قدّم عملاً مجانياً بدون أجر، وهذا ما كشفه العلماء من طاقة هائلة في البحر، وقد سبقهم القرآن في إشارة رائعة إلى ذلك . . .

في كتاب الله تعالى إشارات رائعة إلى كثير من الاكتشافات ولكن بشرط أن نحسن التدبر والتفكر في كلام الله عز وجل، فقد سخَّر الله لنا الكثير من الأشياء من حولنا لتقدم لنا خدمات مجانية دون مقابل، مثل الشمس التي تقدم الحرارة والضوء وحديثاً تم الاستفادة من الشمس في توليد الطاقة الكهربائية .

كذلك فقد سخر الله لنا البحر لنبتغي من فضله، وقد تبيّن وجود كميات لا نهائية من الطاقة المجانية في هذا البحر، وسوف يدور حديثنا حول ما كشفه العلماء حديثاً عن استفادة من أمواج البحر السطحية والداخلية في توليد الكهرباء .

من أين تأتي الأمواج

عندما ننظر إلى الكرة الأرضية من الخارج نلاحظ أن هنالك تغيرات في الضغط والكثافة من نقطة لأخرى على سطح الأرض . وهذا ينتج بسبب اختلاف درجات الحرارة، وهذه الاختلافات تؤدي إلى تولد الرياح. وهذا يؤدي إلى حركة الماء على سطح البحار وتشكل الأمواج، والتي تتحرك باتجاه الشاطئ، وميزة هذه الأمواج أنها تحمل كميات من الطاقة

الحركية وتحتفظ بها طيلة رحلتها من وسط البحر وحتى الشاطئ .

طاقة الأمواج السطحية

يستفيد اليوم علماء الطاقة من أمواج البحر ، ويصنعون معدات خاصة تمكنهم من وضعها على سطح الماء حيث تقوم الأمواج برفعها وخفضها باستمرار . وهذا يؤدي إلى توليد حركة ميكانيكية يمكن تحويلها إلى طاقة كهربائية تُنقل عبر أسلاك للاستفادة منها [1][i] .

إن أول من خطرت بباله فكرة الاستفادة من الأمواج هو رجل فرنسي يدعى Monsieur Girard حيث حاول مع ابنه عام 1799 الاستفادة من حركة الأمواج في إمداد الطاحونة والمضخة بالطاقة .

وحدة لتوليد الكهرباء تعوم فوق أحد المحيطات، وبسبب تحريك الأمواج لهذه الوحدة فإن هذه الحركة الميكانيكية يمكن تحويلها إلى طاقة كهربائية يستفاد منها .

طاقة الأمواج الداخلية

يتم الاستفادة اليوم في بريطانيا من التيارات تحت سطح البحر والناتجة عن أمواج المدّ .

ويعتبر هذا المصدر للطاقة المتجددة من المصادر النظيفة والآمنة . وتستخدم التقنية مراوح أو توربينات تثبت تحت سطح البحر وتدور بسبب تيارات المد ، وبالتالي تتحول فيها الطاقة الميكانيكية التي تولدها الأمواج إلى طاقة كهربائية يمكن الاستفادة منها .

فكرة جديدة لإنشاء مراوح أو توربينات تعمل على توليد الطاقة الكهربائية والاستفادة من التيارات تحت سطح البحر[2][i] .

ويعتقد العلماء بأن هذا المصدر أفضل من طاقة الرياح، بسبب انتظام الأمواج وإمكانية دراستها بشكل جيد وتوقع حجمها وطاقتها ، مما يتيح تصميماً أفضل للتوربينات المولدة للطاقة الكهربائية[3][i] .

إن قطر المروحة هو 20 متراً ، وتثبت على مسافة تحت سطح الماء بـ 30 متراً . وقد بلغ استهلاك الطاقة الكهربائية بالوسائل المختلفة في بريطانيا عام 2001:

الطاقة الكهربائية من مصادر متجددة نسبة 2 بالمئة . أما الطاقة الكهربائية من الفحم فقد بلغت نسبة 33 % والطاقة الكهربائية من الغاز الطبيعي 37 % والطاقة الكهربائية النووية 22 % .

إن المدّ الذي يمارسه القمر على ماء البحر هو نعمة مجانية من الله تعالى القائل: (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ * وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ) [إبراهيم: 32-34].

إنها آيات عظيمة تذكرنا بنعمة الله علينا، وما نعمة المد والجزر إلا عطاء من الله لعباده ليشكروه على ما وهبهم من دون تعب أو جهد. وكذلك يقول تعالى: (اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) [الجاثية: 12]. في هذه الآية الكريمة تتلمس رحمة الله بعباده أن سخر لهم هذا البحر، وكلمة (سخّر) في اللغة تعني: ذلّل وكلّف عملاً بلا أجرة، أي مجاناً[4][i].

يحاول العلماء اليوم الاستفادة من الطاقة الكبيرة والمجانية والتي سخرها الله في أمواج البحر[5][i]، يقول تعالى: (وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) [النحل: 14].

مستقبل هذا المصدر الجديد

1- تعتبر هذه الطاقة آمنة وليس لها أية مخاطر.

2- طاقة أمواج البحر أكبر بكثير من طاقة الرياح.

3- طاقة أمواج البحر ثابتة على مدار 24 ساعة وطيلة أيام السنة تقريباً، بينما طاقة الشمس يستفاد منها أثناء النهار، وطاقة الرياح يستفاد منها في فترات متقطعة.

(134/562)

4- الكهرباء الناتجة عن طاقة الأمواج أكثر ثباتاً[6][i] .

والسؤال: أليست هذه نعمة من نعم الله تعالى علينا، أليس عمل الأمواج المستمر هو خدمة مجانية يقدمها البحر الذي قال الله عنه: (اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ) ؟

تعتمد الطاقة التي تحملها الموجة على طولها وارتفاعها وسرعتها وكثافة الماء الذي تحمله. وهذا يتعلق بسرعة الرياح ودرجات الحرارة فوق سطح الماء.

يقول الباحثون اليوم: إن موجة طولها ارتفاعها 15 متراً وزمنها 15 ثانية، سوف تحمل طاقة تقدر ب 1700 كيلو واط لكل متر مربع من جبهتها[7][i] . وأن طاقة الأمواج أكبر بكثير من طاقة المد والجزر.

الطاقة الناتجة من اختلاف درجات الحرارة

لقد هيّأ الله البحر بشكل عجيب! فدرجة الحرارة على سطحه تكون مرتفعة نسبياً

بسبب أشعة الشمس، بينما تكون الحرارة في أعماقه منخفضة، هذا الفارق في الحرارة يمكن الاستفادة منه لتوليد الطاقة الكهربائية.

لقد استفاد من هذه الظاهرة المهندس الفرنسي George Claude حيث صنع وحدة لتوليد الكهرباء استطاعتها 22 كيلو واط وذلك عام 1929 بالاستفادة من فارق درجات الحرارة بين سطح البحر وبين عمق محدد[8][i].

ويخبرنا الباحثون أن هذه التقنية لا تزال بدائية ومكلفة جداً، ولذلك هي غير مستخدمة اليوم بشكل عملي. إلا أن الأبحاث مستمرة في هذا المجال ويمكن إحراز تقدم في السنوات القادمة.

تعتبر الطاقة المتوافرة في البحر والمحملة على أمواجه من أفضل أنواع الطاقة الطبيعية، فهي آمنة ونظيفة ولا تنضب وليست مهددة بالنفاذ مثل البترول مثلاً، بالإضافة إلى أن هذه الطاقة هي هبة مجانية من الله تعالى سخرها لنا، فهل نشكر الله على نعمه؟

طاقة تيارات المحيط

إذا ما نزلنا تحت سطح البحر وبدأنا نغوص شيئاً فشيئاً، فإننا نرى عالماً يعجّ بالحركة والأمواج والتيارات، وهنالك تيارات حتى في أعمق نقطة من البحر! وهذا ما دعى العلماء لمحاولة الاستفادة من هذه الأمواج[9][i].

وتتم الاستفادة من هذه الطاقة المجانية والنظيفة من خلال وحدات تتوضع تحت سطح البحر، وهي عبارة عن توربينات توضع على أعماق مختلفة تحت سطح البحر، وتدور بسبب التيارات المتولدة تحت سطح الماء . وتتميز هذه التوربينات بصغر حجمها مقارنة بالتوربينات الهوائية، وذلك بسبب أن كثافة الماء أكبر ب 835 مرة من كثافة الهواء .

وهنا لا بد من الإشارة إلى أن القرآن سبق العلماء للحديث عن التيارات العميقة في البحار، وسمّاها بالأمواج فقال: (أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ) [النور: 40] . فالبحر اللجي هو العميق، وفيه موج داخلي من فوقه موج على السطح من فوقه سحاب .

الطاقة الزرقاء

وهي الطاقة المتولدة في مصب النهر في البحر، حيث تتدفق كميات كبيرة من المياه العذبة في مياه البحر المالحة، ويمكن الاستفادة من هذه الطاقة في توليد الكهرباء[10][i]، وهذه نعمة من نعم الله علينا القائل: (وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ) [إبراهيم:32] .

وفي هذه الآية الكريمة نرى إشارة قرآنية إلى تسخير الله تعالى للبحر لنبتغي من فضله، يقول تعالى: (اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) [الجاثية: 12] . وهنا نلاحظ أن الله تعالى قد جعل البحر مسخّراً لنا

لنستفيد منه، وكما رأينا كيف يحاول العلماء اليوم الاستفادة من طاقة أمواج البحر وطاقة حرارة البحر وطاقة الأمواج والتيارات الداخلية للبحر في توليد الطاقة الكهربائية أيضاً[11][i].

ولا نملك إلا أن نقول: (سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ * وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ) [الزخرف: 13-14].

بقلم عبد الدائم الكحيل

(136/562)

أسرار البرزخ المائي بين الماء العذب والماء المالح

نعيش مع أحدث الاكتشافات العلمية حول المنطقة التي يلتقي فيها النهر العذب مع البحر المالح، وكيف يتطابق العلم الحديث مع ما جاء به القرآن قبل أربعة عشر قرناً، لنقرأ . . . يقول تعالى: (وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا) [الفرقان: 53]. تحدثت هذه الآية عن نعمة من نعم الله تعالى علينا، وهي أن جعل بين النهر العذب والبحر المالح برزخاً منيعاً يمنع طغيان أحدهما على الآخر ويحافظ على التوازن المائي على كوكب الأرض، ولذلك قال: (وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا

بَرْزَخًا) . ونلاحظ من هذه الآية أن البحر يمكن أن يكون عذباً فراتاً ويمكن أن يكون ملحاً أجاجاً . وفي هذه الآية إشارة أيضاً إلى وجود حاجز منيع وقوي سمّاه القرآن (البرزخ) . إن الذي يتأمل هذه الآية يدرك أن الله تعالى يتحدث عن معجزة عظيمة وآية كبرى، وهي امتزاج الماء العذب بالماء المالح عبر حاجز منيع وحِجرٍ محكم . وكأن الله تعالى يعطينا إشارة إلى أهمية هذه المنطقة، أي منطقة مصبّات الأنهار في البحار، وهذا ما سنراه الآن علمياً .

ما هو الحِجْر ؟

يقول الفيروز آبادي في معجم القاموس المحيط: "الحَجْرُ: المَنْعُ، ونشأَ في حِجْره أي: في حِفظِه"[1][i] . ونستطيع أن نستنتج أن هنالك حاجزاً منيعاً ومحفوظاً برعاية الله تعالى، أو أن هنالك منطقة من الماء محاطة بحواجز كأنها حجرة مغلقة، ويقول ابن كثير في تفسيره لهذه الآية: "وهو الذي مرج البحرين: أي خلق الماءين، الحلو والملح . فالحلو كالأنهار والعيون والآبار، وهذا هو البحر الحلو . وجعل بينهما برزخاً: أي حاجزاً، وحِجراً محجوراً: أي مانعاً من أن يصل أحدهما إلى الآخر[2][ii]" . ولكن ماذا عن العلم الحديث وماذا يقول في ذلك ؟

أهمية البرزخ المائي

البرزخ المائي هو منطقة تقع على مصبات الأنهار عندما يلتقي النهر مع البحر، أي عندما يلتقي الماء العذب بالماء المالح، وهي منطقة تعتبر مغلقة ومحاطة بحاجز مائي أو من اليابسة. يسميها العلماء اليوم estuary وتحظى هذه المناطق باهتمام كبير من قبل العلماء، لأن امتزاج الماء العذب بالمالح هي ظاهرة فريدة ورائعة حقاً[3][iii].

إن الذي يزور منطقة المصب هذه أو التي يسميها القرآن بمنطقة الحاجز أو البرزخ يلاحظ الاختلافات الكبيرة في هذه البيئة والفروقات في كثافة المياه ودرجة ملوحتها ودرجة حرارتها من لحظة لأخرى ومن فصل لآخر[4][iv]، أي أن هنالك عملية مزج وخلط وتداخل مستمر للماء العذب والماء المالح.

وربما نعجب إذا علمنا أن كلمة (مَرَجَ) الواردة في قوله تعالى: (وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ) تعبر تعبيراً دقيقاً عن العمليات التي تتم في هذه المنطقة والتي رصدها العلماء حديثاً.

ففي القاموس المحيط نجد معنى كلمة (مَرَجَ): خَلَطَ، وأمر مَرِيج: مختلط، والمَرجُ: الاختلاط والاضطراب[5][v]. وفي تفسير ابن كثير: "المريج: المختلف المضطرب الملتبس المنكر خلاله، كقوله تعالى (إنكم لفي قول مختلف) [الذاريات: 8]"[6][vi].

والعجيب جداً أن ما يحدث فعلاً في منطقة المصب يشمل جميع هذه المعاني، أي أن الكلمة القرآنية تعبّر تعبيراً دقيقاً عن حقيقة ما يحدث، كيف لا تعبر عن الحقيقة وهي منزّلة من

خالق هذا المصب سبحانه وتعالى ؟

أقسام منطقة المصب

يقسّم العلماء اليوم منطقة المصب إلى ثلاثة أقسام:

1- منطقة الماء العذب من جهة النهر .

2- منطقة الماء المالح من جهة البحر .

3- منطقة الحاجز بين النهر والبحر، وهي ما يسميه القرآن بالبرزخ.

(138/562)

ويمكن أن يمتد تأثير المياه العذبة على المياه المالحة لمئات الكيلو مترات في البحر . وبالرغم من وجود الكثير من مصبات الأنهار في العالم، إلا أنه لا يوجد برزخ يشبه الآخر ! فكل برزخ يتميز بخصائص محددة عن غيره تتبع الاختلاف في درجة الملوحة، والاختلاف في درجة الحرارة، وهذا يتبع درجة ملوحة ماء البحر، وطول النهر، وغير ذلك من العوامل مثل درجة الحموضة PH وكمية العوالق في ماء النهر وسرعة تدفق ماء النهر . . .[7][vii] .

صورة بالقمر الاصطناعي التابع لوكالة ناسا لمصب "ريو دي لابلاتا" في الأرجنتين، وتظهر

منطقة البرزخ واضحة مميزة بخصائصها وألوانها [8][viii] .

المنطقة المحجورة

في منطقة المصب، حيث يلتقي النهر مع البحر، هذه المنطقة تتميز بوجود اختلاف كبير في درجة الملوحة ودرجات الحرارة، وعلى الرغم من ذلك هنالك كائنات ونباتات وحيوانات تأقلمت وتعيش في هذه المنطقة .

إن الكائنات التي تعيش في الماء المالح لا تستطيع الحياة في الماء العذب، لأن خلايا جسدها تحوي تركيزاً محدداً من الملح وبمجرد إلقائها في الماء العذب سوف تموت بسبب دخول الماء العذب إلى جسمها بكميات كبيرة .

الكائنات التي تعيش في الماء العذب أيضاً لا يمكنها أن تعيش في الماء المالح للسبب ذاته، أما الكائنات التي تعيش في المنطقة الفاصلة بين النهر والبحر أي منطقة البرزخ فهي أيضاً لا يمكنها أن تعيش خارج هذه المنطقة لأنها تأقلمت معها ، وبالتالي يقوم اليوم العلماء بدراسة منطقة المصب كمنطقة مستقلة لها طبيعتها وقوانينها وكائناتها .

وهذا يدل على أن منطقة المصب هي منطقة محجورة ولها استقلاليتها ومحفوظة أيضاً برعاية الله تعالى، وهي منطقة مغلقة تشبه الحجرة المغلقة، ومن هنا يمكن أن نفهم بعمق أكبر معنى قوله تعالى (وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا) .

هنالك كائنات عديدة تعيش في منطقة المصب بين النهر والبحر، وقد زوّدها الله تعالى بأجهزة تستطيع التأقلم مع الاختلافات الكبيرة في درجات الحرارة والملوحة في هذه المنطقة. وهذه أسماك تأقلمت مع الاختلاف المستمر في درجة الملوحة والحرارة، وهذه الكائنات لا تستطيع العيش إلا في هذه المنطقة، وكأن منطقة البرزخ هذه محجورة ومحفوظة وتمنع دخول أي كائنات أخرى إليها .

اختلاط واضطراب واختلاف

من عظمة البيان القرآني أنه يعطينا التعبير العلمي الدقيق والمختصر في أقل عدد من الكلمات، فكلمة (مَرَجَ) تتضمن العديد من المعاني أهمها :

1- الخلط: يقول العلماء إن هنالك خلطاً ومزجاً مستمراً للماء المالح بالماء العذب، وهذا الخلط لا يتوقف أبداً، إذ أن سطح الماء يرتفع وينخفض باستمرار وبنظام محكم، ويبقى كل ماء منفصل عن الآخر بمنطقة محددة بينهما هي ما سمّاه القرآن بالبرزخ، هذا البرزخ قد يمتد لعدة كيلو مترات. ومن معاني كلمة (مرج): خلط، كما رأينا .

نرى في هذا الشكل نهر الفرايزر الذي ينبع من كولومبيا ويصب في مياه المحيط المالحة. ونرى

كيف تتشكل الجبهة المالحة والتي تعتبر بمثابة حاجز محكم تمر من خلاله المياه العذبة إلى المياه المالحة . ونرى أيضاً كيف يطفو الماء العذب على سطح الماء المالح، وعندما درس العلماء جريان الماء في هذه المنطقة وجدوه جريانا مضطرباً ، مع العلم أن الذي ينظر إلى الماء يظنه ساكناً ، وهذا يتوافق تماماً مع قوله تعالى (مرج البحرين) ، والمرج هو الاضطراب، فسبحان الذي يعلم السرّ وأخفى !

(140/562)

2- الاضطراب: إذا نظرنا إلى منطقة المصب نلاحظ أن الجريان مستقر، وأنها منطقة هادئة غالباً . ولكن التجارب الجديدة في منطقة البرزخ المائي بين النهر العذب والبحر المالح أشارت إلى أن الجريان هو جريان مضطرب، وهذه معلومات دقيقة لم يصل إليها العلماء إلا حديثاً جداً[9][i] . وهذا هو أحد معاني كلمة (مرج) .

<"x0000_i1033_"=border=0 v:shapes

باحثون يقومون بأخذ عينات من ماء ورواسب منطقة البرزخ بين النهر والبحر (منطقة المصب) ، لقد وجد هؤلاء العلماء أن هنالك مزجاً مستمراً للماء المالح بالماء العذب، كما وجدوا اختلافات كبيرة في نسبة الملوحة والحرارة والكثافة من منطقة لأخرى ومن وقت

لآخر، ووجدوا أيضاً أن الجريان تحت سطح الماء مضطرب، مع العلم أنه يظهر للعين وكأنه مستقر، إذن وجدوا ثلاث حقائق في هذه المنطقة وهي: اضطراب الجريان، واختلاط الماء باستمرار، واختلاف خصائص الماء، وهذه المعاني الثلاثة تجمعها كلمة واحدة هي (مَرَجَ)، فسبحان الله!

3- الاختلاف: هنالك اختلاف في درجات الحرارة والملوحة تبعاً لليل والنهار، المنحني الأسود المتعرج يمثل المدّ والجزر، أي يمثل ارتفاع مستوى سطح الماء وانخفاضه بين الليل والنهار، يمثل الخط الأحمر اختلاف درجة الحرارة بين الليل والنهار، أما الخط الأزرق فيمثل اختلاف درجة الملوحة بين الليل والنهار. طبعاً عندما يرتفع مستوى سطح البحر فإن درجة ملوحة الماء تزداد في منطقة البرزخ، بينما عندما يكون البحر في حالة الجزر، فإن كمية الماء العذب المتدفقة من النهر تزداد، وبالتالي تنخفض ملوحة الماء في منطقة المصب.

(141/562)

وتجدر الإشارة إلى أن الاختلاف في درجة الملوحة يتبع الليل والنهار والشهر والفصل ودرجة الحرارة وحركة المد والجزر. وربما نتذكر قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ

وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ) [آل عمران: 190] . ففي هذه الآية الكريمة إشارة إلى الاختلافات والتغيرات الكثيرة التي نشاهدها خلال الليل والنهار، ومنها الاختلافات في الحرارة والملوحة في منطقة البرزخ. وتتضمن كلمة (مرج) هذا المعنى.

منحني بياني يمثل الاختلاف في درجات الحرارة والملوحة، وذلك في خليج Narragansett حيث يختلط الماء العذب بالماء المالح. الخط الأحمر يمثل الاختلاف في درجة حرارة الماء، أما الخط الأزرق فيمثل الاختلاف في درجة ملوحة الماء، ونلاحظ أن درجة حرارة الماء تراوح بين 3 درجات تقريباً و 6 درجات مئوية تبعاً لليل والنهر وذلك خلال الشتاء (شهر مارس/آذار) . أما درجة الملوحة فتنخفض إلى 10 أجزاء بالألف، وتصل حتى 30 جزءاً بالألف. طبعاً الخط الأسود يمثل المد والجزر، أي يمثل ارتفاع مستوى سطح الماء وتغيره خلال الليل والنهار[10][i] .

حساسية البرزخ المائي

إن الذي يتأمل التعبير القرآني (برزخ)، يلاحظ أن هنالك مسافة تفصل بين النهر العذب والبحر المالح، وهذه المنطقة حساسة جداً، فالبرزخ هو الحاجز بين الشيئين[11][i] .

وقد ثُبت علمياً أن هذا البرزخ المائي حساس جداً ويجب العناية به، فهو آية من آيات الله ونعمة ينبغي أن نحافظ عليها، ولكن ما الذي حدث؟

لقد كان الناس وحتى السنوات القليلة الماضية يجهلون طبيعة وأهمية وحساسية هذا

البرزخ، ولكن اكتشفوا ذلك بعدما تلوث عدد كبير من مصبات الأنهار في الدول المتقدمة صناعياً، مثل الولايات المتحدة الأمريكية.

(142/562)

فقد وجد العلماء أن منطقة المصبات تحوي ترسبات في قاعها تتراكم خلال السنوات الماضية، وكل طبقة تعبر عن سنة، وتعطي فكرة واضحة عن البيئة السائدة في ذلك الوقت، وعن نوعية الملوثات التي كان يتم إلقاؤها في هذه المنطقة، أي أن منطقة البرزخ لها ذاكرة ممتازة[12][i] !

واليوم تُصرف بلايين الدولارات على تنظيف مصبات الأنهار في الولايات المتحدة الأمريكية. ويقول الباحثون إنهم كانوا يجهلون التأثير السيئ للنفايات الصناعية والملوثات على هذه المناطق الحساسة بيئياً، ولو أن هؤلاء العلماء علموا بأهمية هذه المناطق لكانوا أكثر حفاظاً عليها.

تعتبر منطقة مصبات الأنهار في البحار من أجمل المناطق وأكثرها غنى وقد نشأت كثير من الحضارات حولها، ومنطقة المصب تكون عادة محاطة بالغابات والنباتات المنوعة من أطرافها الثلاثة ومفتوحة على البحر حيث يختلط الماء العذب بالماء المالح. إن منطقة

المصبات لها خصائص وميزات رائعة، فكل شيء في هذه البيئة المميزة يختلف عما يحيط بها ، فهي بيئة محفوظة ومحجورة وممنوعة من أي كائنات حية أخرى غير الكائنات التي تعودت على العيش فيها ، ولها خصائص فيزيائية وكيميائية أيضاً تتميز بها عن غيرها من المناطق .

مياه عذبة في قاع البحر !

لقد اكتشف العلماء وجود ينابيع عذبة تتدفق داخل المحيطات والبحار مصدرها المياه الجوفية المختزنة في طبقات الأرض . ويمكن القول بأن عملية امتزاج الماء المالح بالماء العذب لا تقتصر على الأنهار بل هنالك مياه مخزنة تحت الأرض أيضاً تتدفق وتمتزج بمياه البحر ، ويحدث اختلاط واضطراب واختلاف في درجات الملوحة والحرارة، وبالتالي فإن التعبير القرآني (مرج البحرين) ينطبق على هذه الحالة .

(143/562)

وتبلغ كمية الماء العذب المختزن تحت الأرض كمياه جوفية 23.4 مليون كيلو متر مكعب، بينما تبلغ كمية الماء الموجودة في جميع الأنهار في العالم 2.12 ألف كيلو متر مكعب فقط، ويبلغ حجم الماء في البحيرات العذبة 91 ألف كيلو متر مكعب، ويمكن

القول بأن حجم الماء المختزن تحت سطح الأرض أكبر من حجم الماء في الأنهار بـ 250 ضعفاً[13][i] .

رسم يوضح دورة امتزاج الماء العذب بالماء المالح، فالأنهار والينابيع والمياه الجوفية تشارك في هذه العملية مع ماء البحر، ولذلك نجد البيان الإلهي يعبر تعبيراً دقيقاً (مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج)، وفي تفسير ابن كثير كما رأينا فإن البحر العذب هو الأنهار والآبار أو المياه الجوفية والينابيع، وجميع هذه المياه تمتزج وتختلط بماء البحر، فانظر إلى دقة كلام الله تعالى[14][i] !

صورة بالأشعة تحت الحمراء تظهر تدفق المياه العذبة من قاع خليج Waquoit في سبتمبر 2002، والدوائر السوداء التي تحيط بالمناطق الصفراء اللامعة هي المناطق التي تتدفق فيها المياه العذبة من القاع الرملي وتختلط مع مياه الخليج الدافئة[.[15][i WHOI)) .

وجه الإعجاز

1- في قوله تعالى (مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ) حديث عن العمليات الفيزيائية التي تحصل فعلاً في منطقة الالتقاء بين النهر والبحر، وهي عمليات خلط مستمر وذهاب وإياب للماء، وهذا هو تماماً ما تعنيه هذه الكلمة .

2- نلاحظ أن الله تعالى قال: (مرج البحرين) ولم يقل (مرج النهر والبحر)، لأن عملية المرج

تتم مع الأنهار ومع المياه العذبة المختزنة في الأرض، والتي تتدفق من قاع المحيطات، وهذه المياه هي بحر أيضاً، ولكنه بحر عذب لا نراه، ولكن الله يراه وقد حدثنا عنه قبل علماء أمريكا بقرون كثيرة!

(144/562)

3- إن كلمة (مرج) هي الكلمة الدقيقة للتعبير عن طبيعة ما يجري في منطقة اختلاط الماء العذب بالماء المالح، بينما نجد العلماء يستخدمون عدة كلمات للتعبير عن هذه الظاهرة مثل (خلط، تمازج، حركة، اضطراب، اختلاف . . .)، وجميع هذه المعاني تحققها الكلمة القرآنية، فسبحان من أنزل هذه الكلمة!

4- في قوله تعالى (وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا) حديث عن وجود برزخ، وهو منطقة تفصل بين ماء النهر وماء البحر، وهذه المنطقة أو هذا البرزخ هو ما يسميه العلماء بمنطقة المصب أو Estuary . طبعاً هذه المنطقة تتشكل بسبب القوانين التي أودعها الله في الماء، وتسمى بقوانين ميكانيك السوائل، أي أن القرآن قد قرر حقيقة علمية قبل أن يكتشفها العلماء بقرون طويلة، وهذا سبق قرآني في علم المياه.

5- في قوله تعالى (وَحِجْرًا مَحْجُورًا)، إشارة إلى أن هذه المنطقة مميزة وذات خصائص

محددة تختلف عما يحيط بها من بحر أو نهر، وفيها كائنات محددة تختلف أيضاً عن كائنات البحر وكائنات النهر، وهذه المنطقة لا تسمح للماء المالح أن يطغى على الماء العذب، ولذلك فهي كالحجرة المنيعة والمغلقة، وهذا ما يقوله العلماء اليوم.

6- في قوله تعالى: (هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ) حديث عن الاختلاف الكبير في درجة الملوحة بين ماء النهر وماء البحر، وهذا ما نراه فعلاً، فماء النهر يكاد يخلو من الملح إلا بنسبة ضئيلة جداً، بينما نجد أن المتر المكعب من ماء البحر يحوي 35 كيلو غرام من الملح! ولو أن القرآن وصف ماء النهر بالعذب فقط لكان هنالك خطأ علمي، إذ أن ماء النهر ليس عذباً مئة بالمئة، إنما هنالك بعض الأملاح والمعادن والمواد الأخرى التي تعطي هذا الماء طعماً مستساغاً، ولذلك قال تعالى (عَذْبٌ فُرَاتٌ).

(145/562)

الأمر ذاته ينطبق على ماء البحر، فلم يقل القرآن (وهذا ملح)، ولو قال ذلك لكان هنالك خطأ علمي أيضاً، لأن جميع المياه في الأرض تحوي شيئاً من الأملاح بنسبة أو بأخرى.

ولذلك قال (وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ) كإشارة إلى الملوحة الزائدة، وهذا التعبير دقيق من الناحية العلمية.

7- تعتبر منطقة المصبات من أكثر المناطق حساسية وذات أهمية بيئية كبيرة، وهي لذلك تستحق الذكر كنعمة من نعم الله علينا ، حتى إن الكثير من الحضارات ازدهرت في مناطق المصبات، مثل دلتا النيل، والمنطقة بين نهر دجلة والفرات، ونهر التايمز في مدينة لندن، ونهر هيدسون في مدينة نيويورك[16][i] . وإن القرآن عندما يتحدث عن هذه المنطقة إنما يؤكد أهميتها وتميزها ، مع العلم أن هذه المعلومات لم تكن متوافرة لإنسان يعيش في صحراء لا أنهار فيها ولا بحار، ومن غير الممكن لبشر أن يتحدث عن هذه المناطق بدقة مذهلة لو لم يكن رسولاً من عند الله تعالى !

فيا ليت علماء الغرب يقرأون القرآن ويتدبّرونه، ليستفيدوا من هذه الحقائق في الوصول إلى معرفة الله تعالى والإيمان به . ويا ليتنا نطور أنفسنا من الناحية العلمية ونسبقهم لهذه الاكتشافات !

سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا

بقلم المهندس عبد الدائم الكحيل

(146/562)

معجزة التألق الحيوي

ما أكثر النعم التي من بها الله على مخلوقاته، حتى تلك المخلوقات في أعماق المحيط، لم ينسها الله من فضله فقد ساق لها رزقها، لنقرأ ونسبح الله تعالى . . . . . .

عندما ذهب سيدنا موسى إلى فرعون ليدعوه إلى الإيمان بالله قال له فرعون: ومن هو الله ؟ فقال موسى عليه السلام: (رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى) [طه: 50] . لقد كانت هذه الكلمات تكفي لإثبات صدق موسى عليه السلام ولكن فرعون لم يفقه كلام الله عز وجل . هذه الكلمات تحوي معجزة عظيمة . ففي كل يوم تصدر الأبحاث العلمية وتكشف أشياء جديدة تثبت أن المخلوقات لا يمكنها أن تطور أجهزتها للتأقلم مع البيئة، بل هنالك برنامج دقيق في داخلها يتحكم بكل حركة من حركاتها .

ومن الأشياء العجيبة التي رأيتها تلك المخلوقات التي تعيش على عمق آلاف الأمتار تحت مياه المحيطات والبحار، وقد زوّدها الله تعالى بأجهزة تستطيع من خلالها أن تصدر الأشعة الضوئية ! على عمق أكثر من 8000 متر تعيش سمكة لم يعرف عنها الإنسان شيئاً إلا منذ سنوات قليلة .

هذه السمكة خلقها الله بشكل عجيب . فهي تختلف عن باقي الكائنات بأن في جسمها تجري تفاعلات كيميائية تؤدي لإطلاق كميات من النور . وبالرغم من أن ضغط الماء على هذا العمق يكون بحدود 800 ضعفاً للضغط الجوي على سطح البحر ! وهذا يعني بأن

كل سنتمتر مربع من جسم السمكة يوجد عليه ضغط مقداره 800 كيلو غرام ! ! !

والسؤال: كيف تتحمل هذه السمكة الضعيفة كل تلك الضغوط ؟ ومن الذي هيّأها لتعيش على هذا العمق وبالرغم من الظلمات التي تحيط بها ، فإن الله لم ينسها أبداً بل سخر لها رزقها وطعامها وحتى هداها إلى طريقها !

(147/562)

فهي لا تستخدم أجهزة الإنارة ولا ترتدي اللباس الواقي من الضغط العالي، ولا يوجد لديها مكيفات لتجنبها برودة الماء ، كل ما لديها دماغ بسيط ، قد أودع الله فيه البرامج التي لا تتعطل ولا تختل وليس هنالك فيروسات تهددها ، إنها هداية الله تعالى الذي قدّر فهدى !

وتحدث هذه الإنارة الحيوية نتيجة تفاعلات داخل خلايا السمكة، عندما تتحد ذرات من مواد معينة بمشاركة ذرات من الأكسجين والكالسيوم، وتتحرك بنتيجتها الإلكترونات من مدار داخلي إلى مدار خارجي في الذرة وبالتالي تطلق الفوتونات الضوئية .

وتوجد في أعماق المحيطات أسماك مضيئة ! هذه الأسماك تعيش على أعماق كبيرة تحت سطح البحر ، وبالرغم من الضغط العالي للماء وبرودته، فقد سخر الله لها نظاماً متطوراً للإنارة تعجز عن تقليده أحدث وسائل القرن الواحد والعشرين ! لم ينس الله من فضله هذه

المخلوقات وهي غير عاقلة، فكيف ينسى إنساناً يقول (لا إله إلا الله) ! ! !

قد تعجب عزيزي القارئ عندما تعلم بأن القرآن قد أشار إشارة خفيفة ولطيفة إلى هذه المخلوقات التي جعل الله لها نوراً بتقديره وكرمه ورحمته . فقد تحدث القرآن عن الظلمات في البحر اللجي فقال: (أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا) [النور: 40] .

وبالرغم من هذه الظلمات والتي تشبه أعمال الكافر الذي يحارب الله ورسوله، إلا أن الله قد أنار الطريق للمخلوقات التي تعيش تحت الماء وفي ظلام البحار، بل وقال: (وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ) [النور: 40] .

(148/562)

وكأن الله تعالى يريد أن ينبهنا إلى أنه قد جعل لبعض مخلوقاته نوراً ، ولكن هل هنالك أجمل من نور القرآن ومن نزر كلام الله تبارك وتعالى ؟ وهل نتدبر كلام الله تعالى ونتأمل ما فيه من معجزات ؟ إذا كان فرعون قد رفض نداء الحق، فل نقبله نحن ؟ ولكن الكلام لا يكفي، بل يجب أن نستجيب لنداء الله في تدبر القرآن وأن نعطيه أفضل أوقاتنا ولا نجعله على هامش أعمالنا .

وتأمل عزيزي القارئ كيف أن الحديث عن أعماق البحر ارتبط بالحديث عن ظلمات البحر، وكذلك ارتبط بالحديث عن النور الذي يجعله الله لمن يشاء من خلقه، وعطاء الله تعالى لا يقتصر على البشر بل رحمته وسعت كل شيء من خلقه.

وصدق الله تعالى عندما قال على لسان نبيه موسى عليه السلام: (قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى) [طه: 50]. فتبارك الله خالق كل شيء، ونرجو من الله تعالى أن يهدينا ويجعل لنا نوراً نمشي به في ظلمات هذا الزمن.

اللهم نوّر قلوبنا بنور القرآن الكريم

سمكة الأعماق

بقلم عبد الدائم الكحيل

(149/562)

وما أنتم له بخازنين

ما أكثر الاكتشافات العلمية التي ينبهر بها علماء الغرب، ولكن سرعان ما نجد إشارة واضحة لها في كتاب الله تعالى، ومن ذلك أحدث تقنية يقترحها العلماء لتنقية المياه من

خلال تخزينه تحت الأرض، لنقرأ . . .

يوجد عدد لا نهائي للطرق التي يمكن أن تسلكها قطرة واحدة من ماء المطر . ولذلك فإن القطرة التي تسقط عليك اليوم ، قد تكون هي ذاتها التي سقطت على رؤوس أجدادك قبل مئات السنين !

إن هذا النظام الدقيق الذي قدّره الله تعالى لدورة الماء على سطح الأرض جعل العلماء يحسبون ويدرسون طرقاً جديدة لتنقية الماء وجعله صالحاً للشرب، وقد تكون المفاجأة أن ما وجدوه في القرن الحادي والعشرين قد تحدث عنه القرآن في القرن السابع ! !

الماء المخزون

هنالك كميات ضخمة جداً من المياه المخزنة تحتنا ولا نكاد نحسّ بها ، فالدراسات الحديثة تخبرنا أنه يوجد على الأقل: 23.4 مليون كيلو متر مكعب مياه جوفية Groundwater .

ومع أن هذه الكميات ضخمة إلا أنها لا تشكل إلا جزءاً ضئيلاً من الماء الموجود على الأرض . فالدراسات تشير إلى وجود أكثر من 1385 مليون كيلو متر مكعب من المياه بمختلف أشكالها ، فالمياه الجوفية تشكل فقط 0.017 ٪ من الماء على الأرض، أي أن المياه المخزنة في الأرض على شكل مياه جوفية تشكل أقل من سبعة عشر جزءاً من مئة ألف جزء من الماء على الأرض .

تقنية جديدة

يقوم العلماء اليوم بمحاولات لتخزين الماء الملوث تحت الأرض بهدف تنقيته وجعله صالحاً للشرب . إن تخزين الماء تحت الأرض لعدة شهور يؤدي لقتل الجراثيم والفيروسات الموجودة في الماء .

ويقول الدكتور Dr Simon Toze : «إن الأبحاث تشير إلى أن المياه الملوثة بشدة يمكن أن تُنقّى بسهولة من خلال ضخها تحت الأرض وتركها لمدة كافية»

(150/562)

ويؤكد هذا العالم أن الناس لم يفهموا أهمية تخزين المياه إلا في مطلع القرن الحادي والعشرين . فقد تبين أن التنقية الطبيعية geopurification يمكن أن تزيل الكثير من المواد والشوائب العالقة في المياه مثل الزيوت وبعض المواد الكيميائية وكثير من أنواع البكتريا والكائنات الضارة .

إشارة قرآنية رائعة

إذن نستطيع أن نستنتج أن أفضل وأرخص طريقة لتنقية الماء تنقية كاملة هي بتخزينه تحت الأرض، وبخاصة فإن هذه الطريقة تقضي على أعتى أنواع الجراثيم وأخطرها قضاءً تاماً ،

ولذلك فمن نعم الله علينا أنه أودع في طبقات الأرض خصائص تجعلها تحتضن ماء المطر وتختزنه لفترات طويلة تصل إلى مئات السنين .

يقول سبحانه وتعالى واصفاً نعمته على عباده ومذكّرهم بفضله وكرمه عليهم: (فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ) [الحجر: 22] . والسؤال: من الذي جعل هذا الماء يُحتجز تحت سطح الأرض ولا يتسرب إلى باطنها ؟ ومَن الذي يعلم بوجود خزانات ضخمة للماء العذب تحت سطح الأرض ؟

ولو تأملنا في الآية الكريمة نلاحظ ورود كلمتين (فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ) و(بِخَازِنِينَ) نجد أن البيان الإلهي قد ربط بين تخزين الماء وبين كونه قابلاً للشرب والسقاية، وكأن في هذا الربط إشارة إلى أهمية تخزين الماء تحت سطح الأرض لجعله صالحاً للشرب !

وأخيراً يمكن القول:

إن تخزين الماء تحت الأرض اصطناعياً له تكاليف ويحتاج لمضخات وتجهيزات معقدة، ولكن الله تعالى من فضله لم يكلّفنا أي شيء، فقد جعل تراب الأرض وبعض صخوره ذات مسامات ينفذ منها الماء إلى الأسفل، ولكن تحت ذلك جعل الله طبقة من الصخور لا تسمح بمرور قطرة واحدة من الماء، فسبحان الله القائل: (وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ) .

بقلم عبد الدائم الكحيل

مصادر المياه

آيات كثيرة في هذا الكون من حولنا تنطق بالحق وتشهد على صدق كتاب الله تعالى، ومنها أن العلماء اكتشفوا مصادر المياه في العصر الحديث، وجاءت آيات القرآن متفقة مع العلم الحديث، لنقرأ . . .

لقد ظل الإنسان يتساءل عبر العصور عن مصدر المياه التي يشربها ، ولكن الإجابة عن هذا التساؤل استغرقت زمناً طويلاً . ونحن اليوم نعيش عصراً يقول العلماء إن الأيام المقبلة ستكون الحروب فيها من أجل المياه !

والسبب في ذلك قلة الماء وأن الماء العذب الصالح للشرب يتناقص باستمرار بسبب تلوث البيئة . ولذلك نرى أن هؤلاء العلماء يبحثون عن مصادر جديدة للمياه . وفي هذه المقالة سوف نرى بأن القرآن العظيم قد تحدث عن مصدر المياه الموجودة على الأرض، وتحدث كذلك عن المصدر المستقبلي للمياه .

هنالك ملاحظة في علم الصخور وهي أن بعض أنواع الصخور تسمح للماء بالنفاد منها أكثر من غيرها . ومن الأشياء العجيبة التي قرأتها أن صخور الغرانيت وعلى الرغم من صلابتها وتماسكها وعدم وجود فراغات فيها ، إلا أنها تسمح للماء بالمرور عبرها من مسامات صغيرة جداً .

إن هذه الميزة تجعل من الماء النازل من السماء يُختزن في الأرض بعد مروره عبر مسامات هذه الصخور، ولولا هذه الميزة التي أودعها الله في صخور الأرض لما أمكن للماء أن يتسرب إلى أعماق كبيرة تحت سطح الأرض.

هل يمكن للحياة أن تستمر من دون الماء؟

والعجيب أن القرآن قد تحدث عن هذا الأمر بدقة مذهلة مشيراً إلى مصدر المياه هذه: (وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ) [المؤمنون: 18]. وهذه الآية تؤكد أن الماء الموجود في الأرض مثل المياه الجوفية مصدره ماء المطر، وهذا ما ثُبت علمياً!

(152/562)

وهنالك آية أخرى تشير إلى تخزين الماء تحت سطح الأرض في قوله تعالى: (وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ) [الحجر: 22]. فقد كان الاعتقاد السابق أن ماء الينابيع يتشكل في باطن الأرض أو أنه موجود منذ الأزل، ولم يكن لدى أحد من الناس فكرة عن الطريقة التي يُختزن بها هذا الماء، ولكن القرآن العظيم أنبأنا بهذه الحقيقة وأكد لنا أن ماء المطر هو ذاته يتم تخزينه في الأرض بقدرة الله ويتم تنقيته في

طبقات الصخور والتراب ليصبح قابلاً للسقاية ولذلك قال: (فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ) ولولا رحمة الله وأنه سخر القوانين الفيزيائية المختلفة لما مكث الماء في الأرض ولزالت الحياة من على ظهرها !

يؤكد العلماء اليوم أن مصادر المياه هي الأرض ذاتها ، وهذا ما أشار إليه القرآن بقول الحق تبارك وتعالى: (وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا * أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا) [النازعات: 30-31] . وهناك الكثير من الإشارات القرآنية إلى أصل الماء على هذا الكوكب، وجميع الآيات جاءت متفقة مع العلم الحديث، وهذا برهان مادي على صدق كتاب الله تعالى .

ولكن الشيء العجيب حقاً أن التراب والذي يعتبر مليئاً بالفراغات لا يسمح للماء بالمرور خلاله بسبب خاصية أودعها الله فيه هي أن التراب له القدرة على الامتزاج بالماء والاهتزاز بعد نزول الماء عليه . ولولا هذه الميزة وهي احتضان التراب للماء واختزانه له، لم يستطع النبات أن ينمو . وهذا ما أشار القرآن إليه بقوله تعالى: (وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ) [الحج: 5] . وسبحان الله الذي تحدث في كتابه عن كل شيء !

حتى إن القرآن قد حدثنا عن مصدر ينابيع الأرض بقوله تعالى: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ) [الزمر: 21] . فهذه الآية تؤكد أن مصدر الينابيع هو ماء المطر حيث كان الاعتقاد في الماضي لدى بعض الشعوب هو أن هذه الينابيع تستمد ماءها من ماء البحر ! ! !

ولكن العلماء اليوم يبحثون عن مصدر جديد للماء في المستقبل، ويؤكدون أن أفضل مصدر موجود في الجبال العالية حيث إنها تختزن كميات ضخمة من الماء . والعجيب أن القرآن قد تحدث عن ذلك بقوله تعالى: (وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا) [المرسلات: 27] .

إنها آيات محكمة تدل على صدق هذا القرآن وتوافقه مع الحقائق العلمية، وليس كما يدعي المشككون أنه كتاب عادي تمت صياغته بثقافة عصره، فلو كانت دعواهم صحيحة لرأينا فيه الأساطير والخرافات، ولكننا نراه دائماً يتفق مع العلم، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن مصدر هذا القرآن هو الوحي الإلهي، تأملوا معي هذا التحدي الإلهي: (وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ

الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ * وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ) [يونس: 37-40] .

معجزة نبوية جديدة: السماء تمطر ليل نهار

معجزة تشكل الغيوم ونزول المطر

وما أنتم له بخازنين

نشوء البحار

بقلم عبد الدائم الكحيل

(154/562)

تنقية المياه

كيف تتم عملية تنقية الماء في الطبيعة ؟ وهل كشف العلماء حقائق جديدة عن ذلك، وكيف أشار القرآن الكريم إلى هذه العملية بكل دقة ووضوح ؟ لنقرأ ونسبح الله تعالى . . .

في آية من آيات الله تتجلى حقيقة علمية كشفت عنها البحوث الحديثة . فلم يعد خافياً على أحد الدور المهم للجبال في تشكل الغيوم ونزول المطر . حتى إن أعذب المياه وأنقاها

نجدها في تلك الجبال الشامخة .

لقد رصد العلماء حركة تيارات الرياح وهي تحمل ذرات بخار الماء من سطح البحر . وهذه التيارات الهوائية تبدأ بالحركة الأفقية حتى تصطدم بالجبال، وهذا يؤدي إلى تغيير مسار الرياح باتجاه الأعلى، لذلك نجد أن قمم الجبال العالية تتجمع الغيوم حولها وتغطيها الثلوج طيلة أيام السنة تقريباً .

إذن كلما كان الجبل أكثر شموخاً وارتفاعاً أدى ذلك لتجمع كمية أكبر من الغيوم ثم نزول المطر أو الثلج، ثم ذوبان هذا الثلج وتسرُّبه عبر طبقات الجبل ومسامه حتى تتفجر الينابيع شديدة العذوبة . ولذلك نجد أن معظم الجبال الشامخة يوجد في قربها أنهار وينابيع ومياه عذبة .

إن مياه الينابيع هذه والتي جاءت من الجبال العالية خضعت لعمليات تصفية متعددة . وكما نعلم من محطات معالجة المياه: كلما مرَّت المياه عبر مراحل تصفية (فلترة) أكثر كلما كان الماء أنقى . وفي حالة الجبال التي ترتفع عدة كيلومترات، تعمل هذه الجبال كأفضل جهاز لتنقية المياه على الإطلاق . ولا يمكن للإنسان مهما بلغ من التقدم العلمي أن يقلِّد هذه العمليات التي تتم عبر الجبال .

وهنا يأتي القرآن الكريم ليتحدث بكل دقة عن علاقة الجبال بالمياه العذبة ويتحدث أيضاً

عن تنقية المياه ودور الجبال العالية في ذلك، يقول تعالى: (وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاء فُرَاتاً) [المرسلات: 27].

(155/562)

ففي هذه الآية الكريمة ربط المولى جل جلاله بين الرواسي الشامخات وهي الجبال العالية، وبين الماء الفرات وهو شديد العذوبة. وكأن الله تعالى يريد أن يعلمنا من خلال هذه الآية الكريمة أسلوب تنقية المياه، فنحن نعلم اليوم أن العلماء يستخدمون طبقات متنوعة الكثافة والسماكة هذه الطبقات تحتوي على مسامات ذات أقطار ميكرو مترية دقيقة جداً، ويتم تمرير الماء من خلالها فتعلق الرواسب والشوائب والكائنات الدقيقة فيها.

يؤكد العلماء دور الجبال المهم في تنقية الماء الذي نشربه، بل إنهم وجدوا أفضل طريقة لتنقية الماء أن يضعوه تحت الأرض لعدة أشهر، كما كشفوا الدور المهم الجبال في نزول المطر وتشكل السحاب، وكل ذلك أشار إليه القرآن في آيات رائعة تدل على عظمة هذا الكتاب وصدق كل كلمة فيه.

كما أن الماء النازل من السماء والعابر للصخور الموجودة في الجبال يمتزج ببعض المعادن والأملاح الموجودة في تلك الصخور ويكتسب الطعم المستساغ وهذا ما عبر عنه البيان

الإلهي بكلمة (فراتاً) أي مستساغ المذاق، ولولا وجود الجبال والصخور وانحلال هذه المواد في الماء لم يكن للماء أي طعم يذكر. حتى إن الجبال تساهم في تنقية الماء مما علق به من فيروسات ومواد ملوثة أثناء نزوله في الجو.

نلاحظ أن المياه العذبة توجد غالباً بالقرب من الجبال العالية وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم في قوله تعالى: (وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاء فُرَاتاً).

وهكذا تتم عملية التنقية ببساطة، ولكن هل يمكن للإنسان أن يصنع محطات تنقية المياه وتكون أحجامها مثل الجبال؟ إن هذا الأمر مستحيل تقنياً، ولذلك أراد الله تعالى أن يرينا محطات التنقية الإلهية في الجبال الشامخات، فهل نتذكر ضعفنا أمام عظمة الخالق سبحانه وتعالى؟

(156/562)

وهنا لا بُدَّ من وقفة: من كان يعلم في ذلك الزمان الدور المهم للجبال في إنزال المطر؟ ومن كان يعلم بعلاقة الجبال العالية بالماء العذب الفرات؟ إنه الله تبارك وتعالى الذي يعلم أسرار السماوات والأرض والقائل: (قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا) [الفرقان: 6].

أهمية الجبال في نزول الأمطار

عندما يلتقي النهر العذب بالبحر المالح

اكتشاف مذهل: العلماء يكتشفون الأمواج العميقة

القرآن يتحدث عن الماء المقطر

بقلم عبد الدائم الكحيل

(157/562)

اهتزاز الأرض بالماء

وهذه حقيقة علمية لم تكن معلومة زمن نزول القرآن، ولكن الله تعالى حدثنا عنها بكلمات بليغة ووجيزة تشهد على إعجاز هذا الكتاب الكريم، لنقرأ . . . .

إن الذي يتأمل في مخلوقات الله وخصوصاً النباتات التي تمدُّنا بالغذاء يتعجب كيف نشأت كل هذه النباتات وممَّ نشأت . ويعجب أكثر عندما يعلم بأن المادة الأساسية لجميع نباتات الأرض هي الماء .

فعندما ينْزل المطر على الأرض يختلط مع التراب وتنشأ قوى تدافع وتجاذب بين ذرات الماء وذرات التراب، وينتج عن ذلك ازدياد في حجم التراب .

إذن قوى التجاذب والتدافع تتسبب باهتزاز ذرات التراب وزيادة حجمها . وهذه حقيقة علمية نراها اليوم واضحة جلية . ولكن زمن نزول القرآن لم يكن أحد يعلم شيئاً عن هذا الأمر، إلا أن القرآن كتاب العجائب يحدثنا بدقة عن هذه المراحل بالتسلسل العلمي، يقول تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ) [الحج: 5] .

(158/562)

وانظر إلى التعبير الدقيق في كلمة (هَامِدَةً)، فالأرض الجافة لا تتوقف فيها الحركة نهائياً بل هنالك حركة لذرات التراب ولكنها هامدة أي ضعيفة جداً . فإذا ما نزل عليها الماء ، وهذا يحدث أولاً ثم تبدأ جزيئات التراب بالاهتزاز، وهذا يحدث ثانياً، وبعد ذلك يختزن التراب كميات هائلة من الماء في داخله لفترة طويلة مما يؤمن الغذاء باستمرار لهذه النباتات . لقد أودع الله تعالى خاصية التمدد واختزان الماء في جزيئات التراب ولولا هذه الصفة لم

تستمر الحياة أبداً . فقد اكتشف العلماء أن التراب يتميز بتخزينه كميات ضخمة من الماء يمكن أن تبقى لسنوات طويلة .

كما أن الآية الكريمة تحدثت بدقة علمية تامة عن مراحل الإنبات، فالرحلة تبدأ بإنزال الماء على هذه الأرض حيث يمتزج هذا الماء بذرات التراب، لتبدأ هذه الذرات بالاهتزاز المستمر مما ينتج عنه زيادة في حجم التراب وتمدده .

وبعد ذلك تبدأ الحبوب الموجودة في التراب بامتصاص هذا الماء وتبدأ بالتمدد أيضاً والنموّ وتبدأ عملية الإنبات ومن عظمة القرآن أنه لخَّص كل هذه المراحل بثلاث كلمات فقط: (اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ) .

من رحمة الله بنا أنه أودع خصائص مهمة في تراب الأرض وهي قدرته على اختزان الماء وأن ذراته تهتز لدى اختلاطها بماء السماء، وبالتالي فإن ذلك يساعد النبات على النمو، كذلك هناك خاصية مهمة جداً وهي قدرة التراب على اختزان الحبوب والحفاظ عليها دون أن تفسد وذلك لسنوات طويلة، وبمجرد نزول الماء تنمو هذه الحبوب وتخرج لنا النبات، ولولا ذلك لتحولت الأرض إلى صحراء جافة وانعدمت الحياة على ظهرها ، فالحمد لله على هذه النعم الغزيرة .

إن وجود مثل هذه الحقيقة العلمية في كتاب أنزل قبل أربعة عشر قرناً يدل على صدق هذا الكتاب، وأن الذي أنزل هذا الكتاب يعلم السر وأخفى، ولذلك يمكن القول إن تعابير القرآن دقيقة جداً من الناحية العلمية واللغوية، وهذا يشهد بإعجاز هذا الكتاب العظيم الذي قال الله عنه: (وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ) [فصلت: 41-42].

مصادر المياه

وما أنتم له بخازنين

الماء الفرات والماء الأجاج

بقلم عبد الدائم الكحيل

(160/562)

المطر والرياح

للرياح دور مهم في نزول المطر وتشكل السحاب، هذه الحقيقة الكونية لم تُكتشف إلا حديثاً، ولكن القرآن الكريم ذكرها قبل أربعة عشر قرناً، لنقرأ . . .

لقد قام علماء الأرصاد بتجارب طويلة حول آلية تشكل الغيوم وكيف ينْزل المطر . وبعد وضع عدة نظريات علمية حول هذا الموضوع تم إثبات دور الرياح في عملية تشكل السحاب . فالرياح تحمل بخار الماء من سطح البحار والمحيطات إلى طبقات الجوّ العليا ، ولكن ذرات الماء هذه تحتاج لتجميع وتكثيف حتى تتشكل الغيوم .

وهنا يأتي تلقيح الرياح للسحاب، ولكن كيف تحدث هذه العملية ؟ إن الرياح تحمل دائماً معها ذرات الغبار والملح الناعمة، وهذه الذرات عندما تصعد إلى الجوّ ولارتفاع عدة كيلومترات حيث درجة الحرارة منخفضة جداً ، تتجمع حولها ذرات الماء لتشكل قطرات وبالنتيجة تتشكل الغيوم الثقيلة التي تزن آلاف الأطنان ! !

اكتشف العلماء أن السحب المعلقة في السماء تزن ملايين الأطنان، فهي ثقيلة جداً ، وعلى الرغم من ذلك تبقى معلقة بفضل الله وبرحمته، فقد سخر القوانين الفيزيائية مثل قانون الكثافة وقانون الجاذبية ولولا ذلك لتبددت هذه الغيوم وتوقفت الحياة على ظهر هذا الكوكب، فالحمد الله الذي سخر لنا كل شيء لخدمتنا ، إنه رب رحيم لطيف بعباده .

لقد وضع الله تعالى برحمته قوانين فيزيائية تحكم حركة الماء وذوبانه وتبخره، ولو أن قانوناً واحداً اختل قليلاً لذهبت المياه جميعها من الأرض وانعدمت الحياة . فسبحان الله القائل: (وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ) ألا يستحق هذا الإله الرحيم أن نؤمن به ونسجد له شكراً على نعمه ؟

والعجيب أن القرآن قد تحدث عن دور الرياح في تلقيح الغيوم، يقول عز وجل: (وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ) [الحجر: 22] . في هذه الآية معجزات علمية ففي كلمة (أَرْسَلْنَا) دقة علمية فنحن نعلم بأن عملية الإرسال تكون منظَّمة، وهذا ما نجده في خرائط توزع الرياح الملتقطة بالأقمار الإصطناعية . ثم إن هذه الرياح هي لواقح للغيوم، وبسببها ينْزل المطر من السماء، ثم إن هذا الماء الهاطل هو نقي غير ملوث وصالح للشرب، وأخيراً هذا الماء يُختزن في طبقات الأرض وقد يمضي على تخزينه ملايين السنين، إذن في باطن الأرض خزانات ضخمة للمياه .

وباختصار في آية واحدة حقائق علمية متعددة: إرسال الرياح، تلقيح السحاب، إنزال الماء من السماء، صلاحية هذا الماء للشرب، تخزين هذا الماء . والسؤال: هل هذه الحقائق المحكمة والبليغة والدقيقة من صنع البشر ؟

ولو اختل شرط واحد من شروط تكون السحاب مثل أن تكون تيارات الرياح ضعيفة وغير قادرة على حمل الكميات الضخمة من الماء للأعلى، فإن هذا سيؤدي إلى قلة الأمطار الهاطلة وبالتالي قلة المياه العذبة على الأرض وزيادة المياه المالحة وبالتالي فساد

الحياة.

إن هذه الحقيقة الكونية لم يكن لأحد علم بها زمن نزول القرآن، فلم يكن أحد يعلم شيئاً عن تشكل الغيوم، أو عن دور الرياح أو عن أهمية تلقيح الرياح للغيوم، ولكن العلم الحديث كشف لنا هذه الحقائق، وجاء ذكرها في كتاب الله جلية واضحة لتشهد على صدق هذا الكتاب وصدق رسالة الإسلام.

معجزة تشكل الغيوم ونزول المطر

معجزة نبوية جديدة: السماء تمطر ليل نهار

أهمية الجبال في نزول الأمطار

بقلم عبد الدائم الكحيل

(162/562)

الماء الفرات والماء الأجاج

القرآن الكريم يميز بين الماء الفرات والماء الأجاج والماء الطهور، وبالتالي يمكن القول هناك معجزة قرآنية في علم تصنيف المياه، لنقرأ ونتأمل . . . .

في هذا المقال سوف نرى بأن القرآن قد فرّق وميّز بين أنواع المياه بدقة فائقة، وصنفها بما

يتناسب مع درجة نقاوتها . فالقرآن يسمي الماء العذب الذي نشربه من الأنهار والآبار بالماء الفرات ويسمي ماء البحر الذي يحتوي على نسبة عالية من الملوحة بالماء الأجاج، وقد ثُبت علمياً الفوارق الكبيرة بين هذه الأنواع، وهذا ما سنعيش معه الآن من خلال الفقرات الآتية . ونود أن نشير إلى أن قطرة الماء الواحدة تحوي خمسة آلاف مليون جزيء ماء ! ! ! فكم تحوي بحار الدنيا ؟

الماء الفرات

ولكن هنالك صفة جديدة لهذا الماء يحدثنا عنها العلماء وهي أنه ماء يستطيع أن يجدد الخلايا في الجسم بشكل أكبر من الماء العادي . أما علماء الطاقة فيؤكدون أن ماء المطر يمتلك كمية أكبر من الطاقة، وهذا ما ينعكس إيجابياً على الحالة النفسية للإنسان .

لقد سمّى الله تعالى ماء الأنهار والماء المختزن تحت الأرض والذي نشربه بالماء الفرات، أي المستساغ الطعم، بينما سمّى ماء البحر بالأجاج للدلالة على ملوحته الزائدة، وسمى ماء المطر بالماء الطهور، وبذلك يكون القرآن أول كتاب يعطينا تصنيفاً علمياً للمياه .

(163/562)

يقول تعالى: (وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا) [المرسلات: 27] . فالماء الذي نشربه من الأنهار والينابيع والآبار ماء عذب ومستساغ المذاق لأنه يحوي كمية من المعادن مثل الحديد الذي يجعل طعم الماء حلواً . وهذا يناسبه كلمة (فُراتاً) ، و(الماء الفرات) في اللغة هو الماء المستساغ المذاق كما في المعاجم اللغوية . بينما الماء النازل من السماء هو ماء مقطر يمتلك خصائص التعقيم والتطهير وليس له طعم ! لذلك وصفه البيان الإلهي بكلمة (طَهوراً) .

يقول تعالى: (وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا) [الفرقان: 48] .

فالماء عندما ينزل من السماء يكون طهوراً ثم يمتزج بالمعادن والأملاح في الأرض ليصبح فراتاً . وحتى عندما يتحدث القرآن عن مياه الأنهار نجده يستخدم كلمة (فراتاً) ولا يستخدم كلمة (طَهوراً) لأن ماء النهر العذب يحتوي على كثير من المعادن المحلولة فيه، يقول تعالى: (وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ) [فاطر: 12] .

الماء الأجاج

لقد استوقفني قوله تعالى: (وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ) [فاطر:12] . وتساءلتُ: لماذا أعطى الله تعالى لكل نوع من هذين النوعين صفتين: (عَذْبٌ فُرَاتٌ) – (مِلْحٌ أُجَاجٌ) . فنحن نعلم بأن ماء النهر (عذب) ، فلماذا أضاف الله صفة ثانية وهي (فرات) ؟ وكذلك ماء البحر (ملح) فلماذا أضاف الله له

صفة ثانية وهي (أجاج) ؟ وفي الوقت نفسه وصف الله تعالى ماء المطر بصفة واحدة فقط وهي (طهوراً) ، فهل هنالك تكرار في القرآن أم إعجاز ؟

لقد وجدتُ بأن علماء المياه عندما يتعاملون مع الماء لا يكتفون بإطلاق صفة العذوبة أو الملوحة على الماء . فكل المياه التي نراها على الأرض سواء في الأنهار أو البحيرات أو مياه الآبار جميعها تحوي أملاحاً بنسبة لا نكاد نشعر بها ، ولكنها لا تغيب عن الله تعالى وهو خالقها !

(164/562)

لذلك جاء البيان الإلهي بصفة ثانية وهي (فرات) أي مستساغ المذاق بسبب انحلال بعض المعادن والغازات فيه والتي تعطي الماء طعمه المعروف . وبالمقابل نجد أن صفة (ملح) لا تكفي لوصف ماء البحر بشكل دقيق فأتبعها الله تعالى بصفة ثانية وهي (أجاج) أي زائد عن الحد ، وهذه الكلمة من فعل (تأجّج) أي زاد وبالغ كما في معاجم اللغة العربية . ولكن هل تكفي صفة واحدة وهي (طهوراً) لوصف ماء المطر ؟ نعم لأن ماء المطر كما رأينا هو ماء نقي ومقطر ولا طعم له أو رائحة، ولذلك تكفيه صفة واحدة .

ماء البحر هو الماء الأجاج، وفي اللغة الفعل (أجَجَ) يعني زاد عن الحدّ ، وهذا ما نجده في

مياه البحر التي تحتوي على درجة ملوحة زائدة . وصف الله تعالى ماء البحر بأنه (ملح أجاج) ، لأن كلمة (ملح) لوحدها لا تكفي ، فالمياه العذبة تحوي على نسبة من الملوحة ، ولكننا لا نحس بها !

وجه الإعجاز

ويتجلى وجه الإعجاز في أن القرآن يستخدم كلمة (طَهوراً) مع الماء النازل من السماء لأنه ماء نقيّ ، وهو ما يسميه العلماء بالماء المقطر ويعدّونه مادة مطهرة . بينما كلمة (فراتاً) لا يستخدمها الله تعالى مع ماء السماء أبداً ، بل مع الماء الذي نشربه . لأن ماء الأنهار ليس نقياً مئة بالمئة ، بل هنالك بعض الأملاح والمعادن المنحلة فيه والتي تعطيه طعماً مستساغاً .

ولو تأملنا حديث القرآن عن ماء البحر نجد كلمة (أجاج) للدلالة على الملوحة الزائدة فيه . والقرآن لا يكتفي بإطلاق صفة الملوحة على ماء البحر ، أي لم يقل ربنا سبحانه (وهذا ملح) بل قال : (وهذا ملح أجاج) . لأننا من الناحية العلمية إذا قلنا إن هذا الماء يحوي أملاحاً فإن هذا لا يعني شيئاً لأن كل المياه على الأرض فيها أملاح بنسبة أو أخرى ، ولذلك يجب أن نحدد نسبة الملوحة فيه ، وهذا ما فعله القرآن .

فسبحان الذي أحكم آيات كتابه وكلماته وكل حرف من حروفه ! والسؤال الذي نودّ أن نوجهه لأولئك المشككين بإعجاز القرآن: لو كان القرآن من تأليف بشر هل استطاع التمييز بين هذه الكلمات في ذلك العصر ؟ ؟ إذن نستطيع القول بأن القرآن تحدث عن مواصفات وخصائص الماء قبل أن يكتشفها علماء الفيزياء بقرون طويلة . أي أن القرآن هو أول كتاب يفرّق بين أنواع المياه، أليس هذا دليلاً مادياً على أن القرآن صادر من الله تبارك وتعالى ؟ ؟

بقلم عبد الدائم الكحيل

(166/562)

نشوء البحار

سؤال طالما شغل تفكير العلماء ، وهو كيف تشكلت البحار ، ومن أين جاءت هذه الكميات الضخمة من الماء ؟ . . . .

لعل من أهم النظريات العلمية التي تفسر نشوء الماء وتكونه وهي النظرية الأكثر قبولاً من الناحية العلمية والعملية وتتلخص في أن الأرض في بداية خلقها كانت تقذف بالحمم المنصهرة من داخلها ، هذه الحمم عندما تنطلق في الغلاف الجوي فإنها تصدر ملايين

الأطنان من بخار الماء الساخن الذي يرتفع في الجو حتى يلامس طبقات الجوّ العليا ليتبرد ويتكثف ويهطل على شكل أمطار غزيرة .

إذن الماء الذي على الأرض نشأ أساساً من باطن الأرض، أي أن الله تعالى قد أخرج ماء الأرض منها ، وهنا يتجلى البيان الإلهي ليخبرنا بحقيقة هذا الأمر في قول الحق تعالى: (والأرض بعد ذلك دحاها * أخرج منها ماءها ومرعاها * والجبال أرساها * متاعاً لكم ولأنعامكم) [النازعات:30-33] .

وتأمل معي تسلسل الأحداث الكونية في هذه الآيات، ففي البداية كانت الأرض جرماً ملتهباً انفصل عن الشمس وبدأ بالدوران حولها ، إن دوران الأرض وابتعادها عن الشمس ودحيها حتى أخذت شكلها الكروي هو ما حدثنا عنه القرآن في قوله تعالى: (والأرض بعد ذلك دحاها) وفي هذه الآية دليل على كروية الأرض أيضاً ، فكلمة (دحى) جاءت من الاستدارة وتحديداً استدارة البيضة . وأثناء عملية التبريد والدوران للأرض بدأ بخار الماء ينطلق من الحمم المنصهرة المقذوفة من باطن الأرض وهذا ما تحدث عنه القرآن بـ (أخرج منها ماءها ومرعاها) .

فالماء خرج من الأرض أثناء رحلة تبريدها وفي هذه المرحلة بدأت بدايات الحياة على ظهر الأرض من خلال إخراج النباتات التي ستكون مراعي للحيوانات . ولكن الجبال لم تكن قد تشكلت فهي في بداية تشكلها ، فتشكل الجبال استغرق آلاف الملايين من السنين !

وعندما بدأت الأرض بالتبرد بدأت القشرة الأرضية بالتشكل وبدأت هذه القشرة بالحركة لأنها تقوم أساساً على حمم منصهرة (آلاف الدرجات من الحرارة) ! ونتج عن حركة أجزاء القشرة الأرضية اصطدام أجزاء هذه القشرة بعضها ببعض وبروز الجبال ولكن هذه الجبال لها جذور تمتد لآلاف الأمتار في القشرة الأرضية تثبت هذه القشرة وتوازن الأرض خلالها دورانها فهي كالمرساة للسفينة . وهنا نجد قول الله تعالى: (والجبال أرساها * متاعاً لكم ولأنعامكم) [النازعات: 32-33] .

يقول العلماء إن الماء نزل من السماء أصلاً ثم سكن في الأرض ثم تشكلت البحار والمحيطات، وبالتالي فإن الله يتحدث عن إنزال الماء م السماء ويتحدث عن إخراج الماء من الأرض وكلتا الحقيقتين يتحدث عنهما العلماء اليوم .

والسؤال: ماذا يحدث لو كان ملح البحر قادراً على التبخر مثله مثل ماء البحر ؟ إن الله تعالى قد وضع قانون الجاذبية، وعلى أساسه تستمر الحياة على الأرض . فالملح أثقل بكثير من الماء ولذلك لا يستطيع الصعود في الهواء، بينما الماء يستطيع ذلك لأن كثافة بخار الماء أقل من كثافة الهواء .

وهذا يعني أن ذرات البخار سوف تصعد للأعلى، تماماً مثل قطعة الخشب عندما تطفو على سطح الماء، لأن كثافة الخشب أقل من كثافة الماء . وهذا ما يدفع الخشب للصعود لأعلى الماء ولو حاولنا إنزاله للأسفل فإنه سيصعد إلى الأعلى، وهذا ما يسميه العلماء بدافعة أرخميدس .

إن هذا القانون المتعلق بكثافة المواد يضمن تبخر الماء وبقاء الملح في البحار، وبالتالي يضمن نزول الماء النقي من السماء . وهنا تتجلى رحمة الله بعباده عندما يقول: (أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ * أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ * لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ) [الواقعة: 68-70] .

(168/562)

إذن الإعجاز العلمي لكتاب الله لا يقتصر على سرد الحقائق العلمية بل يشمل تسلسل هذه الحقائق فعلياً . ولا نجد أي تناقض بين معطيات العلم الحديث اليقينية وبين كلام الله تعالى، وهذا دليل مادي على أن خالق الكون هو نفسه مُنَزِّل القرآن .

بقلم عبد الدائم الكحيل

(169/562)

التوازن البيئي

فيما يلي بعض الحقائق في علم التوازن البيئي وكيف أخبر بذلك القرآن الكريم في آيات رائعة تشهد على إعجازه في عصرنا هذا، لنقرأ . . . . . .

في الأيام الأخيرة كثُر الاهتمام بشؤون البيئة، وأدرك العلماء أهمية التوازن البيئي وأثره على حياة الكائنات من نبات وحيوان وإنسان، وبشكل خاص بعد الكميات الضخمة من الملوثات والتي أفرزتها حضارة القرن العشرين .

فقبل عدة عقود لم يكن هنالك تلوث يُذكر، ولكن في السنوات الماضية زاد عدد المصانع في العالم وزاد عدد وسائل النقل وهذه تنتج كميات ضخمة من المواد الملوثة والتي تسبب أمراضاً خطيرة أهمها السرطان .

هذا التلوث أثر بشكل كبير على الكائنات المائية كالأسماك، وكذلك على الحيوانات وكذلك على النباتات . ولكن من فضل الله تعالى ورحمته بخلقه أنه أودع في هذه النباتات وسائل لتنقية الهواء من المواد السامة .

فكما نعلم تستهلك النباتات لصنع غذائها وثمارها غاز الكربون من الهواء، وتجري في داخلها عملية تسمى بالتركيب الضوئي تركب من خلالها المادة الخضراء والتي يركب منها النبات الحبّ والثمار .

بنتيجة هذه العملية يطلق النبات الأكسجين الذي يستفيد منه الإنسان في عملية التنفُّس .

والعجيب أن كمية النباتات على وجه الأرض مناسبة لحجم الغلاف الجوي .

هنالك توازن دقيق بين ما يأخذه الإنسان وبين ما يطلقه النبات من الأكسجين . وتوازن آخر بين ما يطلقه الإنسان من غاز الكربون وبين ما يأحذه النبات من هذا الغاز . وسبحان الله ! هذا التوازن الدقيق تحدث عنه القرآن في عصرٍ لم يكن هنالك أي علم عن توازن البيئة .

يقول تعالى: (وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ) [الحجر: 19] .

(170/562)

وانظر معي إلى دقة ألفاظ القرآن وتعابيره العلمية، وهذا يدل على أن هنالك ميزاناً لنسب النباتات على الأرض، ونسبة ما تمتصه من الكربون ونسبة ما تطلقه من الأكسجين . وهذه النسب قاسها العلماء حديثاً بكل دقة . وعلى سبيل المثال فإن نسبة الأكسجين في الغلاف الجوي هي (21) بالمئة تقريباً . ولو زادت هذه النسبة لاحترقت الأرض مع أول شرارة، ولو نقصت هذه النسبة قليلاً لماتت الكائنات اختناقاً !

أما نسبة غاز الكربون في الغلاف الجوي فهي أقل من (1) بالمئة . ولو زادت هذه النسبة

لتسمَّمَ البشر وماتوا جميعاً، ولو نقصت لماتت النباتات وتوقفت الحياة. لذلك هنالك توازن دقيق في هذه النباتات وهذا ما تحدث عنه القرآن: ولكن عندما ندخل إلى كل خلية من خلايا أي نبات أخضر على وجه الأرض، ماذا نشاهد؟ إننا نشاهد تركيباً مستمراً للمادة الخضراء. ومن هذه المادة تخرج الحبوب والثمار وهنا نجد للقرآن العظيم حديثاً أيضاً عن هذه العمليات الدقيقة: (وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبّاً مُّتَرَاكِباً وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُواْ إِلِى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) [الأنعام: 99]. فقد أكد القرآن أن تشكل المادة الخضراء يتم أولاً ثم يتم إخراج الثمار والحبوب منها. وهذا ما أثبتته الأبحاث الحديثة.

(171/562)

إن كل قطرة ماء تتدفق في هذه الأرض تشهد على قدرة صانعها عز وجل، إنه الله الذي خلق كل شيء بتوازن دقيق، ولو اختل هذا التوازن لاختلت الحياة. وربما نعيش اليوم بداية اختلال هذا التوازن بعدما لوّث الإنسان الأرض وأصبحنا نسمع بما يسمى بالاحتباس الحراري، نسأل الله تعالى أن ينجينا من شر هذه التغيرات المناخية، وأن يختم

لنا على خير .

ونتساءل: هل قام محمد صلى الله عليه وسلم وهو النبي الأمي بدراسة تركيب النبات وفحصه بالمجاهر الإلكترونية ؟ وما الذي يدعو هذا الرسول الكريم للدخول في هذه القضايا العلمية التخصصية الدقيقة ؟ إن المصدر الذي تلقى منه رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه العلوم هو الله تعالى الذي خاطب البشر جميعاً وأكد لهم أنه هو الذي علَّمه هذا العلم .

إن القرآن تحدث عن علم النبات في العديد من آياته، ويكفي أن نعلم بأن القرآن هو أول كتاب قرر وجود الأزواج في عالم النبات قبل العلم الحديث بقرون طويلة . يقول سبحانه وتعالى: (سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ) [يس: 36] . وقال أيضاً : (وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ) [الزخرف:12] .

وأقول للملحدين: هل يمكن لإنسان أمي يعيش في صحراء في القرن السابع الميلادي أن يأتي بكلام بليغ ومنظم ويتطابق مئة بالمئة مع الحقائق العلمية ؟

بقلم عبد الدائم الكحيل

القرآن يتحدث عن النظام المقدر للماء

نعيش مع بعض الآيات القرآنية التي تتحدث عن علم المياه، وكيف تأتي الحقائق العلمية لتشهد على صدق هذا الكتاب العظيم، لنقرأ ونتأمل . . . .

بدأت رغبتي بالتعمق في علم السوائل والمياه منذ سنوات الدراسة الجامعية الأولى، فكنتُ أقف طويلاً أفكر في التعقيد الكبير الذي يرافق هذه الدراسة . فالقوانين الرياضية والفيزيائية التي تحكم حركة السوائل استغرق العلماء زمناً طويلاً لاكتشافها ، ولا يزال الغموض يخيم على الكثير من التساؤلات المتعلقة بعلم المياه .

درستُ الكثير من النظريات العلمية والحقائق المائية في مراجع الغرب الذي تفوّق علينا بشكل كبير في هذا المجال . ولم أكن أتصور أنني سأجد هذه الحقائق جليَّة واضحة في كتاب أنزل قبل مئات السنين ! كُنتُ أقرأ لعلماء بدأوا رحلة أبحاثهم في بداية القرن العشرين عندما توفرت لديهم وسائل البحث العلمي والتحليل المخبري وكانوا يمضون عشرات السنين في مختبراتهم للخروج بتفسير أو نتيجة أو بحث علمي، أو للعثور على حقيقة مائية واحدة .

إن اكتشاف القوانين التي تحكم حركة السوائل شكَّل قفزة كبيرة في تطور فهمنا للماء من حولنا . فالذي يتأمل هذه القوانين لا يملك إلا أن يقول سبحان المبدع العظيم القائل: (صُنْعَ

اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ) [النمل: 88] .

هذه القوانين الفيزيائية أودعها الله تعالى في الماء لتكون دليلاً على دقّة صنعه ولتكون آية تشهد على قدرته عزّ وجلّ . وتتجلّى عَظَمَة هذه القوانين عندما نعلم بأن الله تبارك وتعالى قد حدثنا عنها في كتابه بمنتهى الكمال والوضوح!

(173/562)

في ظل المعرفة الحديثة لقوانين السوائل وبشكل خاص الماء نرى اليوم العلماء يؤكدون أن كل الماء الذي نراه على الأرض يدور دورة منضبطة ومقدّرة ومحسوبة . وهنالك قوانين فيزيائية تحكم حركة كل قطرة ماء خلال دورتها منذ نزولها من السماء وحتى تصل إلينا . وأن كل المراحل التي تمر فيها قطرة الماء ليست عشوائية بل تسير بنظام محكم .

لو تأملنا كل قطرة ماء في هذه الأرض، نرى نظاماً محكماً يشهد على بديع صنع الخالق تبارك وتعالى، ونرى قوانين فيزيائية ثابتة تدل على منظم حكيم عليم، وهذا ما أخبر به القرآن: (وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ * عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ) [الرعد: 8-9] .

وهنا أيضاً تتجلى معجزة قرآنية في الحديث عن هذا الأمر في قوله تعالى: (وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ) [الزخرف: 11] . وتأمل معي كيف ربط البيان الإلهي بين نزول الماء

من السماء وبين كلمة (بقدر) أي بنظام محسوب ومقدّر .

إن قطرة الماء الواحدة تحوي خمسة آلاف مليون جزيئة ماء ! ! وهذا العدد الضخم قد نظمه الله بنظام محكم ومقدر ومحسوب ولا يحيد عنه أبداً ، ولذلك قال تعالى: (وأنزلنا من السماء ماء بقدر) ، أي بنظام وتقدير وحساب . وهذا ما يخبرنا به العلماء اليوم من خلال أبحاثهم التي اكتشفوا فيها أن النظام المائي على سطح الأرض شديد التعقيد والإحكام، وله قوانين ثابتة يقوم عليها .

لقد ورد ذكر الماء في القرآن في عشرات المواضع، ولا نبالغ إذا قلنا إنه في كل آية من هذه الآيات معجزة !

1 – تحدث القرآن عن الخزانات المائية الضخمة الموجودة تحت سطح الأرض والتي تزيد كميتها عن المياه العذبة في الأنهار، وذلك من خلال قوله تعالى: (وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ) فهذه العبارة تتضمن إشارة إلى عمليات تخزين المياه في الأرض، وهذا الأمر لم يكن معروفاً زمن نزول القرآن .

2- تحدث القرآن عن المدة الزمنية الكبيرة التي يمكث فيها الماء في الأرض دون أن يفسد أو يختلط ويتفاعل مع صخور الأرض، وذلك في قوله تعالى: (فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ) ففي هذه العبارة إشارة إلى أن الماء يسكن في الأرض ويقيم فترة طويلة من الزمن على الرغم من وجود الأحياء الدقيقة والفطريات والأملاح والمعادن والمواد الملوثة تحت سطح الأرض، إلا أن الماء يبقى نقياً وماكثاً لا يذهب، أليس الله تبارك وتعالى هو من أودع القوانين اللازمة لبقاء الماء بهذا الشكل؟

3- القرآن تحدث عن دور الجبال في تنقية المياه، وهذا الأمر لم يكن لأحد علم به من قبل، وكلما كانت الجبال أعلى كان الماء أنقى، ولذلك قال تعالى: (وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا) [المرسلات: 27]. ويعتبر الباحثون اليوم الجبال كأهم مصدر للماء العذب في القرن الحادي والعشرين.

4- تحدث القرآن عن العمليات المنظمة والمقدرة التي تحكم نزول الماء ودورته في قوله تعالى: (وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ) أي بنظام مقدّر ومضبوط ومحسوب.

وأخيراً عزيزي القارئ ألست معي في أن القرآن قد تحدث عن كل شيء وفصّله وبيّنه لنا؟ يقول تعالى: (وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ) [النحل: 89].

بقلم عبد الدائم الكحيل

الحاجز بين البحرين

لقد أكد القرآن على وجود اختلافات واضحة بين بحار الدنيا ، ووجود حواجز مائية بينها وعدم طغيان هذه البحار على بعضها على الرغم من اختلاطها ، وهذا ما تحدث عنه القرآن، لنقرأ . . . . .

كلنا يعلم وحتى المنكرون لكلام الله تعالى أن الرسول الأعظم عليه الصلاة والسلام لم يركب البحر ولا مرة واحدة في حياته، فهل يُعقل أن يصف لنا بدقة وجود برزخ وحاجز يفصل بين البحار المختلفة، لو لم يكن رسولاً من عند الله تعالى ؟

لقد تحدث القرآن عن الحاجز بين البحرين، يقول تعالى: (مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ) [الرحمن: 19-20] . إنه حديث عن بحرين مالحين والدليل على ذلك أن الآية التالية التي تصف هذين البحرين هي: (يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ) [الرحمن: 22]، وكما نعلم المرجان لا يعيش إلا في البحار المالحة .

وقد ثبت علمياً أن بحار العالم تختلف من حيث تركيب مياهها ، فلكل بحر خصائص فيزيائية تختلف عن البحر الذي بجانبه من حيث درجة الحرارة والملوحة والكثافة وغير

ذلك، حتى نوعية الكائنات الحية في هذا البحر تختلف عن تلك التي تعيش في البحر الآخر .

بل أثبت العلم بشكل قاطع أنه لا توجد قطرة ماء في العالم تشبه القطرة الأخرى تماماً ، الاختلافات دائمة، وهذه صفة وضعها الله تعالى في مخلوقاته ليتفرد بالوحدانية هو سبحانه وتعالى .

وقد التقطت الأقمار الاصطناعية حديثاً صوراً لجميع البحار على الكرة الأرضية، وبيَّنت وجود حواجز مائية بين هذه البحار . هذه الحواجز تشكل جدراناً منيعة من القوى الميكانيكية تفصل بين البحار فلا يطغى هذا على ذلك .

(176/562)

تظهر الصور الملتقطة بالأقمار الاصطناعية تمايزاً واضحاً بين بحار الدنيا ، فلكل بحر خصائص وميزات يختلف فيها عن غيره، فمثلاً نوعية المياه في البحر الأبيض المتوسط تختلف عن مياه المحيط الأطلسي، ونوعية الأسماك تختلف، ودرجة الحرارة والملوحة والكثافة والأمواج وغير ذلك، سبحان الله على الرغم من هذا الاختلاف وعلى الرغم من مرور ملايين السنين لا يطغى هذا البحر على ذاك، فسبحان الله !

ونتساءل: من كان يعلم بوجود مثل هذه الحواجز بين البحار ؟ إنها معجزة تستحق التبصر والتفكر في آيات المولى سبحانه وتعالى علنا نزداد إيماناً بعظمة هذا الخالق الكريم .

بقلم عبد الدائم الكحيل

(177/562)

البحر المسجور

إنها حقائق تشهد على عظمة منزل القرآن تبارك وتعالى، حدثنا عن بحر محمّى، بل وأقسم به، وجاء العلماء ليصوروا هذا المشهد الرائع في أعماق المحيط . . . . . .

تمتد التصدعات الأرضية لتشمل قاع البحار والمحيطات، ففي قاع البحار هنالك تصدعات للقشرة الأرضية وشقوق يتدفق من خلالها السائل المنصهر من باطن الأرض .

وقد اكتشف العلم الحديث هذه الشقوق حيث تتدفق الحمم المنصهرة في الماء لمئات الأمتار، والمنظر يوحي بأن البحر يحترق ! هذه الحقيقة حدثنا عنها القرآن عندما أقسَم الله تعالى بالبحر المسجور أي المشتعل، يقول عز وجل: (والبحر المسجور) [الطور: 6] .

إن القرآن لو كان صناعة بشرية لامتزج بثقافة عصره، فمنذ أربعة عشر قرناً لم يكن لدى إنسان من الحقائق إلاَّ الأساطير والخرافات البعيدة عن الواقع، وإن خلوّ القرآن من أيٍّ من

هذه الأساطير يمثل برهاناً مؤكداً على أنه كتاب ربِّ العالمين، أنزله بقدرته وبعلمه .

ولكن قد يتساءل المرء عن سرّ وجود هذه الصدوع . ولماذا جعل الله الأرض متصدعة في معظم أجزائها ؟ إن الجواب عن ذلك بسيط ، فلولا هذه الصدوع، ولو كانت القشرة الأرضية كتلة واحدة لا شقوق فيها ، لانحبس الضغط تحتها بفعل الحرارة والحركة وأدَّى ذلك إلى تحطم هذه القشرة وانعدمت الحياة .

لذلك يمكن القول إن هذه الصدوع هي بمثابة فتحات تتنفس منها الأرض، وتخرج شيئاً من ثقلها وحرارتها وضغطها للخارج . بتعبير آخر هي صمام الأمان الذي يحفظ استقرار الأرض وتوازنها .

إن حقيقة البحر المشتعل أو (البحر المسجور) أصبحت يقيناً ثابتاً . فنحن نستطيع اليوم مشاهدة الحمم المنصهرة في قاع المحيطات وهي تتدفق وتُلهب مياه المحيط ثم تتجمَّد وتشكل سلاسل من الجبال قد يبرز بعضها إلى سطح البحر مشكلاً جزراً بركانية . هذه الحقيقة العلمية لم يكن لأحد علم بها أثناء نزول القرآن ولا بعده بقرون طويلة، فكيف جاء العلم إلى القرآن ومن الذي أتى به في ذلك الزمان ؟

(178/562)

إنه الله تعالى الذي يعلم السرَّ وأخفى والذي حدثنا عن اشتعال البحار ويحدثنا عن مستقبل هذه البحار عندما يزداد اشتعالها: (وإذا البحار سجّرت) [التكوير: 6]، ثم يأتي يوم لتنفجر هذه البحار، يقول تعالى: (وإذا البحار فجّرت) [الانفطار: 3].

وهنا نكتشف شيئاً جديداً في أسلوب القرآن أنه يستعين بالحقائق العلمية لإثبات الحقائق المستقبلية، فكما أن البحار نراها اليوم تشتعل بنسبة قليلة، سوف يأتي ذلك اليوم عندما تشتعل جميعها ثم تنفجر، وهذا دليل علمي على يوم القيامة.

والآن مع بعض الصور التي تشهد على قدرة الخالق عز وجل، لنتأمل ونسبح الله تعالى: كيف تختلط النار بالماء وعلى الرغم من ذلك لا تطفئ الماء النار ولا تبخر النار الماء، بل يبقى التوازن، فسبحان الله!

حمم منصهرة تتدفق في قاع المحيط، وتظهر كيف تحمي ماء البحر، فهو بحر مسجور كما وصفه الله تعالى.

صورة حقيقية للبحر المسجور الذي أقسم الله به، ولم يكتشف العلماء حقيقته إلا بعد أربعة عشر قرناً، وهذا المشهد يؤكد صحة ما جاء في القرآن بعكس ما يدعيه الملحدون من أن القرآن من تأليف محمد صلى الله عليه وسلم.

بعد تراكم الحمم المنصهرة تتشكل الجزر البركانية، ويؤكد العلماء إن جميع بحار الدنيا يوجد في قاعها شقوق تتدفق منها الحجارة المنصهرة، وأن هذه الظاهرة من الظواهر الكونية

المرعبة، ولذلك أقسم الله بها أن عذابه سيقع: (وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ (6) إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ (7) مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ) [الطور: 6-8].

وأخيراً لنقرأ النص كاملاً: (وَالطُّورِ (1) وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ (2) فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ (3) وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ (4) وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ (5) وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ (6) إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ (7) مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ) [الطور: 1-8].

بقلم عبد الدائم الكحيل

(179/562)

القرآن يتحدث عن الماء المقطر

القرآن الكريم هو أول كتاب يفرّق بين أنواع المياه ويصنفها تصنيفاً علمياً، وفي هذه المقالة نكتشف كيف تحدث القرآن عن ماء المطر وسمّاه بالماء الطهور، وقد ثبت علمياً أن ماء المطر مطهر ومعقم وخالٍ من أي شوائب . . . . .

يقول سبحانه وتعالى في محكم الذكر: (وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا) [الفرقان: 48]. فقد تأملتُ هذه الآية طويلاً ووجدتها تتحدث بدقة عن مواصفات ما يسميه العلماء بالماء المقطر. فقد اكتشف العلماء أن الماء الذي

نشربه يحتوي على الكثير من المواد والأحياء . فكأس الماء الذي نظنه نقياً فيه ملايين الأحياء الدقيقة مثل البكتريا والفيروسات، وفيه مواد معدنية مثل الحديد والنحاس والألمنيوم والصوديوم والمغنزيوم والكالسيوم، وفيه أيضاً مواد عضوية مثل الكربون والتراب وغير ذلك . . . وكل هذا موجود فيما نسميه ماء نقياً !

لقد اكتشف العلماء أيضاً أن هذا الماء يمكن تنقيته بتسخينه حتى درجة الغليان أي 100 درجة مئوية، ثم جمع البخار وتكثيفه وتبريده، والحصول على الماء المقطر الذي يكون نقياً لدرجة كبيرة . ويقولون أيضاً إن أفضل أنواع الماء المقطر هو ماء المطر، ولكن قبل سقوطه على الأرض وتلوثه بالملوثات الموجودة في الهواء .

لقد أفرزت حضارة هذا العصر الكثير من التلوث، حتى إن سقوط المطر ينظف الجو لأن ماء المطر وهو ماء مقطَّر يتميز بشراهته لامتصاص المواد، فيمتص من الجو غاز الكبريت وغيره من المواد والمعادن مثل الرصاص السام، وهكذا يكون طعم ماء المطر حامضياً . مع العلم أنه في الماضي كان ماء المطر نقياً لأن الجو لم يكن قد تلوث .

(180/562)

عندما ينزل ماء المطر على الأرض يتسرب عبر التربة وبين الصخور ويسلك مسارات معقدة جداً، وخلال رحلته يمتزج ببعض المعادن والأملاح الموجودة في الصخور، ويأخذ طعماً قلوياً شيئاً ما . ولذلك نجد أن طعم الماء المقطر غير مستساغ لأنه عديم الطعم، بينما طعم ماء الينابيع يكون مستساغاً .

يصرح العلماء اليوم أن ماء المطر هو ماء مقطر، هذا الماء النقي له خصائص مطهرة وهو مزيل ممتاز للأوساخ ويستطيع تطهير وتعقيم أي شيء . وقد صدق الله تعالى عندما سمّى الماء النازل من السماء بالماء الطهور، وهي تسمية دقيقة من الناحية العلمية: (وأنزلنا من السماء ماء طَهوراً) .

مواصفات ماء المطر

والآن سوف نعدّد بعض خصائص الماء النازل من السماء وهو ماء المطر . يعتبر ماء المطر ماء مقطراً مئة بالمئة فهو ناتج عن تبخر الماء من البحار وتكثفه على شكل غيوم ثم ينزل مطراً . لذلك هو ماء نقي تماماً . ماء المطر يستطيع نزع الأوساخ من على جلد الإنسان أكثر من الماء العادي، لذلك يعتبر هذا الماء مادة معقمة ومطهرة تستخدم في الطب . وهو خالٍ من الفيروسات والبكتريا، وهو أيضاً ماء يمتلك خاصية امتصاص المعادن والغازات والغبار وأي مادة تصادفه بنسبة كبيرة، لذلك هو مادة مطهرة للجوّ أيضاً .

وبعد معرفتنا لهذه الصفات نجد أنها تجتمع في كلمة واحدة هي التي عبر بها القرآن عن

حقيقة ماء المطر في قوله تعالى: (وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا) [الفرقان: 48] . فكلمة (طَهَرَ) في اللغة تعني إزالة الأوساخ والنجاسات والتنزه عنها كما في القاموس المحيط .

(181/562)

وليس غريباً أن نجد القرآن يحدثنا عن هذه الخصائص بشكل واضح في قوله تعالى: (وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ) [الأنفال: 11] . هذه الآية تتحدث عن ماء المطر من خلال قوله تعالى: (مِنَ السَّمَاءِ مَاءً) وتحدثنا عن خاصية التطهير الموجودة في هذا الماء في قوله عز وجل: (لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ) وتحدثنا عن خاصية الطاقة التي يمتلكها هذا الماء وتؤثر على الإنسان في إعطائه الدفع والقوة لتثبت قدماه عند لقاء العدو، أي الحديث هنا عن الطاقة التي يستطيع الإنسان بواسطتها المواجهة أكثر، وذلك في قوله تعالى: (وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ) .

هنالك شيء آخر وهو أن القرآن أول كتاب تحدث عن خاصية التطهير الموجودة في ماء المطر أو الماء المقطر، وهذه الصفة كما قلنا لم تُستخدم في القرآن إلا مع ماء السماء . بينما نجد كتب البشر لا تفرق بين الماء العذب والماء الطهور والماء الفرات، بينما القرآن ميز بينها ووضع كل كلمة في مكانها الدقيق .

وأمام هذه الحقائق نسأل أولئك الملحدين الذين يدعون أنهم يفكرون بشكل منطقي، وأنهم ليسوا بحاجة لفكرة "الله" (تعالى الله عن ذلك) ونقول لهم: من أين جاء تعبير (طهوراً) أثناء الحديث عن ماء المطر، ولم يأت هذا التعبير مع ماء النهر أو البحر مثلاً؟ بل من الذي أحكم هذه القوانين الفيزيائية التي تحكم حركة الغيوم ونزول المطر؟ ونجيبكم: إنه الله القائل: (قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ) [الرعد: 16].

بقلم عبد الدائم الكحيل

الأمواج العميقة

هنالك العديد من الآيات التي تناولت علم البحار وتحدثت عن أشياء لا يمكن لبشر أن يعلمها في ذلك الزمن، ومن هذه الآيات حديث القرآن عن الأمواج العميقة في البحار . لنقرأ هذه المقالة الشيقة حول حديث القرآن الكريم عن الأمواج الداخلية في المحيطات . . . . . ما أكثر المشككين بكتاب الله تعالى وكلام رسوله عليه الصلاة والسلام، وما أكثر الملحدين الذين يطرحون دعواهم الواهية منذ أول آية نزلت على النبي الكريم، وحتى عصرنا هذا . واليوم نشهد الكثير من المحاولات الهادفة إلى إقناع بعض ضعاف القلوب بأن القرآن العظيم هو كلام محمد صلى الله عليه وسلم، وأنه لا يحوي أي حقائق علمية في علم البحار ! ! هؤلاء يعترفون بألسنتهم بأن الرسول الكريم عليه صلوات الله وسلامه لم يركب البحر ولا مرة في حياته، ولم يكن لديه أي خبرة بأمور البحار والمحيطات . حتى إنهم يعترفون أيضاً بأن الزمن الذي عاش فيه رسول الله وهو القرن السابع الميلادي لم يكن لأحد علم بأعماق البحار .

القرآن يتحدث عن أعماق البحار

إننا نرى القرآن يتحدث كثيراً عن البحار وأسرارها ! وهنالك العديد من الآيات التي تناولت علم البحار وتحدثت عن أشياء لا يمكن لبشر أن يعلمها في ذلك الزمن، ومن هذه الآيات حديث القرآن عن الأمواج العميقة في البحار .

يقول تعالى: (أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ) [النور: 40] . والبحر اللجي هو البحر العميق كما في التفاسير . إذن الآية تتحدث عن موج تحت البحر ومن فوقه موج على السطح، فهل كشف علماء البحار حقائق تثبت صدق هذا الكلام ؟ ؟

(184/562)

ولكن بعض الملحدين لم تقنعهم هذه الآية بحجة أن الآية تتحدث عن أشياء عامة، ولا تتناول اكتشاف العلماء . ويقولون إن التسمية الدقيقة لما وجده العلماء في أعماق المحيطات هي التيارات المائية العميقة وليس الأمواج العميقة كما يقول القرآن ! !

جولة في عالم البحار

فلذلك فقد ذهبتُ في جولة إلى عالم المكتشفات في أسرار البحار، ومن على مواقع علماء الغرب الذين لا يعترفون بالقرآن، ولكن الملحدين يعترفون بهم ! والذي أذهلني أن العلماء اليوم يفكرون بالاستفادة من التيارات الداخلية التي تنشأ تحت سطح البحار من أجل توليد الطاقة الكهربائية ! !

بل إن علماء الغرب يصنّفون التيارات البحرية إلى تيارات سطحية وهي ما نسميه بأمواج

البحر، وتيارات عميقة تحت سطح البحر، وهي ما سماه القرآن بالموج. والسؤال: أليس هذا هو بالضبط ما تتحدث عنه الآية الكريمة في قوله تعالى: (مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ) ؟ ؟

أليست الأمواج التي تحدث عنها القرآن قبل أربعة عشر قرناً هي ذاتها التي يحاول علماء القرن الحادي والعشرين الاستفادة من طاقتها ؟

لقد ذهب العلماء في أبحاثهم أبعد من ذلك فدرسوا أسباب هذه التيارات ومنشأها، ووجدوا بأن ماء المحيط العميق يتجدد كل 1000 إلى 2000 سنة، وهذه التيارات ما هي إلا الآلية التي يتم بواسطتها تجديد المياه، ولولا ذلك لفسدت بحار الدنيا وانقرضت الحياة على الأرض، فتأمل رحمة الله بعباده ؟

وهنالك سبب آخر لتولد هذه التيارات العميقة جداً هو ذوبان الجبال الجليدية وتدفق المياه العذبة إلى قاع المحيط، وهذا يسبب موجات من التيارات المائية التي تنتقل لتشكل دورة محيطية عميقة، تسير المياه فيها من الجبال الجليدية إلى قاع المحيط ثم ترتفع إلى أعلى السطح وتتبخر وتشكل الغيوم التي بدورها تتحول إلى ثلوج تتساقط على قمم الجبال الجليدية وتذوب من جديد وهكذا .

الكلمة القرآنية أدق من مصطلحات البشر

نحن نعلم بأن التيارات الهوائية أي الرياح سببها الاختلاف في درجات الحرارة، ونشاهد أيضاً أمواج المدّ والجزر على سطح البحار وسببها الاختلاف في الجاذبية التي يمارسها القمر بين الليل والنهار، ونعلم بأن الأمواج السطحية على سطح مياه البحر تسببها تيارات الرياح. ولكن ماذا عن الأمواج العميقة في البحار والمحيطات ؟

رسم يوضح التيارات العميقة داخل المحيط والتي تتواجد حتى في قاع المحيط على عمق عدة كيلو مترات ! ويبين كذلك مختلف العوامل التي تسبب هذه التيارات القوية مثل الحرارة وذوبان الجليد . وهذا ما يسميه العلماء بدورة المحيط العميقة . هذه التيارات العميقة تحدث على عمق 4 كيلو متر يحت سطح البحر كما نلاحظ في الشكل . وهذا العمق لا يمكن الوصول إليه إلا بوسائل متطورة جداً .

إن سبب هذه التيارات المائية في أعماق المحيط هو الاختلاف في درجات الحرارة بين المياه العميقة وبين المياه السطحية، والاختلاف في درجة الملوحة أيضاً أي الاختلاف في الكثافة من نقطة لأخرى داخل البحر . هذه الاختلافات تسبب تيارات مائية مستمرة الحركة، هذه التيارات تنتقل عبر مياه المحيط على شكل أمواج ! !

وهذا يعني أن التسمية القرآنية دقيقة جداً من الناحية العلمية، لأننا نرى يقيناً أن أي اضطراب يحدث في الماء سوف ينتشر عبر جزيئات الماء على شكل أمواج، سواء على

سطح الماء أو في داخله، وهذا معلوم لمن درس هندسة ميكانيك السوائل ! وفي هذا ردّ على منتقدي القرآن والقائلين بأن التيارات المائية العميقة تختلف عن الأمواج العميقة، لأنه في حقيقة الأمر التيار المائي هو نفسه الموجة المائية .

(186/562)

بل إن كلمة (موجة) أدق من الناحية العلمية من كلمة (تيار) ! لأن التيار يصف الحالة العامة، بينما الموجة تعبر عن حقيقة ما يحدث، وتعبر كذلك عن شكل هذا التيار والصورة التي ينتقل بها من نقطة لأخرى ! ! فالتيار المائي هو عبارة عن حركة لجزيئات الماء تنتقل من نقطة لأخرى على شكل أمواج بسرعة محددة، وهذه الأمواج قد تسبب مشاكل للغواصات بل وقد تسبب غرقها .

يبين هذا الرسم بوضوح كامل أن هنالك تيارات سطحية دافئة على سطح مياه المحيط، وتيارات عميقة باردة في أعماق المحيطات والبحار، أليس هذا هو بالضبط ما حدثنا عنه القرآن بدقة تامة في قوله تعالى: (مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ) ؟ ؟

التشبيه القرآني

لنكتب النص القرآني كاملاً ونتأمل التشبيه القرآني الرائع لأعمال أولئك الملحدين الذين لا

همّ لهم إلا انتقاد كتاب الله تعالى: (وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ * أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ) [النور: 39-40].

لقد شبّه القرآن أعمال الكفار بالسراب، ونحن نعلم بأن ظاهرة السراب عبارة عن لا شيء ! ثم شبَّه هذه الأعمال بالظلمات التي في أعماق البحار، ونعلم أن الظلام عبارة عن لا شيء أيضاً . وهكذا أعمال الكافر لا يعطيه الله أي أجر عليها لأنه لم يعملها لله تعالى بل عمل للشيطان فكيف يأخذ أجراً من الرحمن عز وجل ؟ ؟

(187/562)

إذن التشبيه القرآني دقيق جداً من الناحية العلمية، لأن الظلام الموجود في أعماق البحر شبه كامل، ولكن ماذا يعني أن يصف الله تعالى حالة إنسان كهذا يعيش في ظلمات وأعماق البحار الباردة عندما يخرج يده فلا يراها ؟

إشارة إلى عصر الغواصات

إن القرآن العظيم لا يتحدث إلا عن حقائق يقينية واقعة، وبما أن الله تبارك وتعالى قد وصف لنا حالة من يعيش تحت أمواج البحر العميقة، وحاله هي: (إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا) . وتعهد بأنه سيرينا آياته رؤية حقيقية ليتبين لكل مشكك بالقرآن أن القرآن حق: (سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ) [فصلت: 53] .

وهذا يعني أنه لا بدّ سيأتي زمن يتأكد فيه الملحد من صدق هذه الآية ويدرك هذه الحقائق إدراكاً يقينياً، وكيف يتأكد يقيناً من صدق هذه الحقيقة العلمية إذا لم ينزل لأعماق البحر ويرى الظلمات ويرى الأمواج أيضاً ؟

وتأمل معي الأسلوب الراقي جداً الذي يتعامل فيه القرآن مع أعدائه . فهم ينكرون كلام الله ويشككون بصدق رسوله ورسالته، وهو سبحانه وتعالى يصف لهم أعمالهم الواهية ويعطيهم تشبيهاً علمياً دقيقاً لها ! وكأن الله عز وجل يقول لهم انظروا إلى أعمالكم الخاطئة لن توصلكم إلى شيء ! فهي كالسراب الذي لن يوصل من يتبعه إلى شيء، وهي كإنسان يعيش تحت بحر عميق يعاني ظلمة البحر وظلمة الماء البارد، ويعاني الضغوط الهائلة التي يمارسها عليه الماء، فكيف ستكون حياته ؟

إن هذه الحياة بلا شك تشبه الاضطرابات التي تسببها التيارات العميقة في أعماق المحيط، فإذا أدركتَ أيها الملحد حجم هذه الاضطرابات، فلا بد أنك ستدرك أن أعمالك مضطربة أيضاً، وليست على شيء ولن توصلك إلا إلى الله تعالى ليوفيك حسابك: (وَاللَّهُ

سَرِيعُ الْحِسَابِ) .

سؤال لكل ملحد !

(188/562)

وهنا السؤال لكل من يشكّ أو يحاول التشكيك بهذا القرآن وإعجازه العلمي: لو كانت هذه الآية من تأليف محمد صلى الله عليه وسلم، فكيف استطاع هذا النبي الكريم وهو أميّ لا يقرأ ولا يكتب ولم يركب البحر، بل ولم يكن أحد في زمنه يعلم شيئاً عن أعماق البحار، كيف استطاع الحديث عن الأمواج العميقة بهذه الدقة العلمية ؟ وكيف عرف بالظلمات تحتها ؟ ؟

إن هذا السؤال له إجابة واحدة فقط وهي أن الله تعالى الذي خلق البحار وخلق الأمواج هو من أنزل القرآن وهو مَن قال هذه الآية، وهو من حفظها من التحريف، وقال: (وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ) [النحل: 89] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الإعجاز في البحار في القرآن والسنة / بقلم المهندس : عبد الدائم الكحيل ﴾

(189/562)

قوله تعالى ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (56) قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا (57) وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا (58) الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا (59) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا (60) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان التقدير تسلية له ـ صلى الله عليه وسلم ـ : فالزم ما نأمرك به ولا يزد همُّك بردهم عما هم فيه ، فإنا ما أرسلناك عليهم وكيلاً ، عطف عليه قوله : ﴿ وما أرسلناك ﴾ أي بما لنا من العظمة .

ولما كان سياق السورة للإنذار ، لما ذكر فيها من سوء مقالهم ، وقبح أفعالهم ، حسن التعبير في البشارة بما يدل على كثرة الفعل ، ويفهم كثرة المفعول ، بشارة بكثرة المطيع ، وفي النذارة بما يقتضي أن يكون صفة لازمة فقال : ﴿ إلا مبشراً ﴾ أي لكل من يؤمن ﴿ ونذيراً ﴾ لكل من يعصي .

ولما وقع جوابهم عن قولهم ﴿ لولا أنزل إليه ملك ﴾ [الفرقان : 7] وكان قد بقي قولهم ﴿ أو يلقى إليه كنز ﴾ [الفرقان : 8] أشير إلى مزيد الاهتمام بجوابه بإبرازه في صورة الجواب لمن كأنه قال : ماذا يقال لهم إذا تظاهروا وطعنوا في الرسالة بما تقدم وغيره ؟ فقال : ﴿ قل ﴾ أي لهم يا أكرم الخلق حقيقة ، وأعد لهم طريقة محتجاً عليهم بإزالة ما يكون موضعاً للتهمة : ﴿ ما أسألكم عليه ﴾ أي على الإبلاغ بالبشارة والنذارة ﴿ من أجر ﴾ لتتهموني أني أدعوكم لأجله ، أو تقولوا : لولا ألقي إليه كنز ليغنيني به عن ذلك ، فكأنه يقول : الاقتصار عن التوسع في المال إنما يكره لمن يسأل الناس ، وليس هذا من شيمي قبل النبوة فكيف بما بعدها ؟ فلا غرض لي حينئذ إلا نفعكم .

ثم أكد هذا المعنى بقوله ، مستثنياً لأن الاستثناء معيار العموم : ﴿ إلا من ﴾ أي إلا أجر من ﴿ شاء أن يتخذ ﴾ أي يكلف نفسه ويخالف هواه ويجعل له ﴿ إلى ربه سبيلاً ﴾ فإنه إذا اهتدى بهداية ربه كان لي مثل أجره ، لا نفع لي من جهتكم إلا هذا ، فإن سيتم هذا أجراً فهو مطلوبي ، ولا مرية في أنه لا ينقص أحداً شيئاً من دنياه ، فلا ضرر على أحد في طي الدنيا عني ، فأفاد هذا فائدتين : إحداهما أنه لا طمع له أصلاً في شيء ينقصهم ،

والثانية إظهار الشفقة البالغة بأنه يعتد بمنفعتهم الموصلة لهم إلى ربهم ثواباً لنفسه .

ولما كان المقصود ردهم عن عنادهم ، وكان ذلك في غاية الصعوبة ، وكان هذا الكلام لا يرد متعنتيهم – وهم الأغلب – الذين تخشى غائلتهم ، عطف على " قل " قوله :

﴿ وتوكل ﴾ أي أظهر العجز والضعف واستسلم واعتمد في أمرك كله ، ولا سيما في مواجهتهم بالإنذار ، وفي ردهم عن عنادهم .

(191/562)

ولما كان الوكيل يحمل عن الموكل ثقل ما أظهر له عجزه فيه ويقوم بأعبائه حتى يصير كمن يحمل عن آخر عيناً محسوسة لا يصير له عليه شيء منها أصلاً ، عبر بحرف الاستعلاء تمثيلاً لذلك فقال : ﴿ على الحي ﴾ ولا يصح التوكل عليه إلا بلزوم طاعته والإعراض عما سواها .

ولما كان الأحياء من الخلق يموتون ، بين أن حياته ليست كحياة غيره فقال : ﴿ الذي لا يموت ﴾ أي فلا ضياع لمن توكل عليه أصلاً ، بل هو المتولي لمصالحه في حياته وبعد مماته ، ولا تلتفت إلى ما سواه بوجه فإنه هالك ﴿ وسبح بحمده ﴾ أي نزهه عن كل نقص مثبتاً له كل كمال .

ولما كان المسلى ربما وقع في فكره أن من سلاه إما غير قادر على نصره ، أو غير عالم بذنوب خصمه ، وكان السياق للشكاية من إعراض المبلغين عن القرآن ، وما يتبع ذلك من الأذى ، أشار بالعطف على غير مذكور إلى أن التقدير : فكفى به لك نصيراً ، وعطف عليه : ﴿ وكفى ﴾ وعين الفاعل وحققه بإدخال الجار عليه فقال : ﴿ به بذنوب عباده ﴾ أي وكل ما سواهم عباده ﴿ خبيراً ﴾ لا يخفى عليه شيء منها وإن دق ، ثم وصفه بما يقتضي أنه مع ما له من عظيم القدرة بالملك والاختراع - متصف بالأناة وشمول العلم وحسن التدبير ليتأسى به المتوكل عليه فقال : ﴿ الذي خلق السماوات والأرض ﴾ أي على عظمهما ﴿ وما بينهما ﴾ من الفضاء والعناصر والعباد وأعمالهم من الذنوب وغيرها ﴿ ألا يعلم من خلق ﴾ [الملك : 14] وقوله : ﴿ في ستة أيام ﴾ تعجيب للغبي الجاهل ، تدريب للفطن العالم في الحلم والأناة والصبر على عباد الله في دعوتهم إلى الله ، وتذكير بما له من عظيم القدرة وما يلزمها من شمول العلم ، والمراد مقدار ستة من أيامنا ، فإن الأيام ما حدثت إلا بعد خلق الشمس ، والإقرار بأن تخصيص هذا العدد لداعي حكمة عظيمة ، وكذا جميع أفعاله وإن كنا لا ندرك ذلك ، هو الإيمان ، وجعل الله الجمعة عيداً للمسلمين لأن الخلق اجتمع فيه بخلق آدم عليه السلام فيه في آخر ساعة .

(192/562)

ولما كان تدبير هذا الملك أمراً باهراً ، أشار إليه بأداة التراخي فقال : ﴿ ثم استوى على العرش ﴾ أي شرع في تدبير لهذا الملك الذي اخترعه وأوجده ، وهم وذنوبهم من جملته كما يفعل الملوك في ممالكهم ، لا غفلة عنده عن شيء أصلاً ، ولا تحدث فيه ذرة من ذات أو معنى إلا بخلق جديد منه سبحانه ، رداً على من يقول من اليهود وغيرهم : إن ذلك إنما هو بما دبر في الأزل من الأسباب ، وأنه الآن لا فعل له .

ولما كان المعصى إذا علم بعصيان من يعصيه وهو قادر عليه لم يمهله ، أشار إلى أنه على غير ذلك ، حاضاً على الرفق ، بقوله : ﴿ الرحمن ﴾ أي الذي سبقت رحمته غضبه ، وهو يحسن إلى من يكفره ، فضلاً عن غيره ، فأجدر عباده بالتخلق بهذا الخلق رسله ، و الحاصل أنه أبدع هذا الكون وأخذ في تدبيره بعموم الرحمة في إحسانه لمن يسمعه يسبّه بالنسبة له إلى الولد ، ويكذبه في أنه يعيده كما بدأه ، وهو سبحانه قادر على الانتقام منه بخلاف ملوك الدنيا فإنهم لا يرحمون من يعصيهم مع عجزهم .

ولما كان العلم لازماً للملك ، سبب عن ذلك قوله على طريق التجريد : ﴿ فاسأل به ﴾ أي بسبب سؤالك إياه ﴿ خبيراً ﴾ عن هذه الأمور وكل أمر تريده ليخبرك بحقيقة أمره ابتداء وحالاً ومآلاً ، فلا يضيق صدرك بسبب هؤلاء المدعوين ، فإنه ما أرسلك إليهم إلا وهو عالم بهم ، فسيعلي كعبك عليهم ، ويحسن لك العاقبة .

ولما ذكر إحسانه إليهم ، وإنعامه عليهم ، ذكر ما أبدوه من كفرهم في موضع شكرهم فقال : ﴿ وإذا قيل لهم ﴾ أي هؤلاء الذين يتقلبون في نعمه ، ويغذوهم بفضله وكرمه ، من أيّ قائل كان : ﴿ اسجدوا ﴾ أي اخضعوا بالصلاة وغيرها ﴿ للرحمن ﴾ الذي لا نعمة لكم إلا منه ﴿ قالوا ﴾ قول عال متكبر كما تقدم في معنى ﴿ ظهيراً ﴾ : ﴿ وما الرحمن ﴾ متجاهلين عن معرفته فضلاً عن كفر نعمته معبرين بأداة ما لا يعقل ، وقال ابن العربي : إنهم إما عبروا بذلك إشارة إلى جهلهم الصفة ، دون الموصوف .

(193/562)

ثم عجبوا من أمره بذلك منكرين عليه ، بقولهم : ﴿ أنسجد لما تأمرنا ﴾ فعبروا عنه بعد التجاهل في أمره والإنكار على الداعي إليه أيضاً بأداة ما لا يعقل ﴿ وزادهم ﴾ هذا الأمر الواضح المقتضي للإقبال والسكون شكراً للنعم وطمعاً في الزيادة ﴿ نفوراً ﴾ لما عندهم من الحرارة الشيطانية التي تؤزهم أزاً ، فلا نفرة توازي هذه النفرة ، ولا ذم أبلغ منه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 330 ـ 332 ﴾

(194/562)

فصل

قال الفخر :

أما قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشّرًا وَنَذِيرًا ﴾

فتعلق ذلك بما تقدم ، هو أن الكفار يطلبون العون على الله تعالى وعلى رسوله ، والله تعالى بعث رسوله لنفعهم ، لأنه بعثه ليبشرهم على الطاعة ، وينذرهم على المعصية ، فيستحقوا الثواب ويحترزوا عن العقاب ، فلا جهل أعظم من جهل من استفرغ جهده في إيذاء شخص استفرغ جهده في إصلاح مهماته ديناً ودنيا ، ولا يسألهم على ذلك ألبتة أجراً .

أما قوله : ﴿ إِلاَّ مَن شَاء ﴾ فذكروا فيه وجوهاً متقاربة أحدها : لا يسألهم على الأداء والدعاء أجراً إلا أن يشاءوا أن يتقربوا بالإنفاق في الجهاد وغيره ، فيتخذوا به سبيلاً إلى رحمة ربهم ونيل ثوابه وثانيها : قال القاضي : معناه لا أسألكم عليه أجراً لنفسي وأسألكم أن تطلبوا الأجر لأنفسكم باتخاذ السبيل إلى ربكم وثالثها : قال صاحب "الكشاف" : مثال قوله : ﴿ إِلاَّ مَن شَاء ﴾ والمراد إلا فعل من شاء ، واستثناؤه عن الأجر قول ذي شفقة عليك قد سعى لك في تحصيل مال ما أطلب منك ثواباً على ما سعيت ، إلا أن تحفظ هذا المال ولا تضيعه ، فليس حفظك المال لنفسك من جنس الثواب ، ولكن صوره

هو بصورة الثواب وسماه باسمه فأفاد فائدتين إحداهما قلع شبهة الطمع في الثواب من أصله كأنه يقول لك إن كان حفظك لمالك ثواباً ، فإني أطلب الثواب ، والثانية إظهار الشفقة البالغة ، وأن حفظك لمالك يجري مجرى الثواب العظيم الذي توصله إلي ، ومعنى اتخاذهم إلى الله سبيلاً ، تقربهم إليه وطلبهم عنده الزلفى بالإيمان والطاعة ، وقيل المراد التقرب بالصدقة والنفقة في سبيل الله .

(195/562)

أما قوله : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الحى الذى لاَ يَمُوتُ ﴾ فالمعنى أنه سبحانه لما بين أن الكفار متظاهرون على إيذائه ، فأمره بأن لا يطلب منهم أجراً ألبتة ، أمره بأن يتوكل عليه في دفع جميع المضار ، وفي جلب جميع المنافع ، وإنما قال : ﴿ عَلَى الحى الذى لاَ يَمُوتُ ﴾ لأن من توكل على الحي الذي يموت ، فإذا مات المتوكل عليه صار المتوكل ضائعاً ، أما هو سبحانه وتعالى فإنه حي لا يموت فلا يضيع المتوكل عليه ألبتة .

أما قوله : ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ ﴾ فمنهم من حمله على نفس التسبيح بالقول ، ومنهم من حمله على الصلاة ، ومنهم من حمله على التنزيه لله تعالى عما لا يليق به في توحيده وعدله وهذا هو الظاهر ثم قال : ﴿ وكفى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً ﴾ وهذه كلمة يراد بها المبالغة يقال :

كفى بالعلم جمالاً ، وكفى بالأدب مالاً وهو بمعنى حسبك ، أي لا تحتاج معه إلى غيره لأنه خبير بأحوالهم قادر على مكافأتهم وذلك وعيد شديد ، كأنه قال إن أقدمتم على مخالفة أمره كفاكم علمه في مجازاتكم بما تستحقون من العقوبة .

﴿ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾

اعلم أنه سبحانه لما أمر الرسول بأن يتوكل عليه وصف نفسه بأمور : أولها : بأنه حي لا يموت وهو قوله : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الحى الذى لاَيَمُوتُ ﴾ [الفرقان : 58] وثانيها : أنه عالم بجميع المعلومات وهو قوله : ﴿ وكفى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً ﴾ [الفرقان : 58] وثالثها : أنه قادر على كل الممكنات وهو المراد من قوله : ﴿ الذى خَلَقَ السموات والأرض ﴾ فقوله : ﴿ الذى خَلَقَ ﴾ متصل بقوله : ﴿ الحى الذى لاَيَمُوتُ ﴾ لأنه سبحانه لما كان هو الخالق للسموات والأرضين ولكل ما بينهما ثبت أنه هو القادر على جميع وجوه المنافع ودفع المضار ، وأن النعم كلها من جهته فحينئذ لا يجوز التوكل إلا عليه .

وفي الآية سؤالات :

السؤال الأول : الأيام عبارة عن حركات الشمس في السموات فقبل السموات لا أيام ، فكيف قال الله خلقها في ستة أيام ؟ الجواب : يعني في مدة مقدارها هذه المدة لا يقال الشيء الذي يتقدر بمقدار محدود ويقبل الزيادة والنقصان والتجزئة لا يكون عدماً محضاً ، بل لا بد وأن يكون موجوداً فيلزم من وجوده وجود مدة قبل وجود العالم وذلك يقتضي قدم الزمان ، لأنا نقول هذا معارض بنفس الزمان ، لأن المدة المتوهمة المحتملة لعشرة أيام لا تحتمل خمسة أيام ، والمدة المتوهمة التي تحتمل خمسة أيام لا تحتمل عشرة أيام ، فيلزم أن يكون للمدة مدة أخرى ، فلما لم يلزم هذا لم يلزم ما قلتموه وعلى هذا نقول لعل الله سبحانه خلق المدة أولاً ثم السموات والأرض فيها بمقدار ستة أيام ، ومن الناس من قال في ستة أيام من أيام الآخرة وكل يوم ألف سنة وهو بعيد لأن التعريف لا بد وأن يكون بأمر معلوم لا بأمر مجهول .

السؤال الثاني : لم قدر الخلق والإيجاد بهذا التقدير ؟ الجواب : أما على قولنا فالمشيئة والقدرة كافية في التخصيص ، قالت المعتزلة بل لا بد من داعي حكمة وهو أن تخصيص خلق العالم بهذا المقدار أصلح للمكلفين وهذا بعيد لوجهين : أحدهما : أن حصول تلك الحكمة ، إما أن يكون واجباً لذاته أو جائزاً فإن كان واجباً وجب أن لا يتغير فيكون حاصلاً في كل الأزمنة ، فلا يصلح أن يكون سبباً لتخصيص زمان معين وإن كان جائزاً افتقر حصول تلك الحكمة في ذلك الوقت إلى مخصص آخر ويلزم التسلسل والثاني : أن التفاوت بين كل واحد مما لا يصل إليه خاطر المكلف وعقله ، فحصول ذلك التفاوت لما لم

يكن مشعوراً به كيف يقدح في حصول المصالح .

واعلم أنه يجب على المكلف سواء كان على قولنا أو على قول المعتزلة أن يقطع الطمع عن أمثال هذه الأسئلة ، فإنه بحر لا ساحل له .

(197/562)

من ذلك تقدير الملائكة الذين هم أصحاب النار بتسعة عشر وحملة العرش بالثمانية وشهور السنة باثني عشر والسموات السبع وكذا الأرض وكذا القول في عدد الصلوات ومقادير النصب في الزكوات وكذا مقادير الحدود والكفارات فالإقرار بأن كل ما قاله الله تعالى حق هو الدين ، وترك البحث عن هذه الأشياء هو الواجب وقد نص عليه تعالى في قوله :

﴿ وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيماناً ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلاً ﴾ [المدثر : 31] ثم قال : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ ﴾ [المدثر : 31] وهذا هو الجواب أيضاً في أنه لم يخلقها في لحظة وهو قادر على ذلك وعن سعيد بن جبير أنه إنما خلقها في ستة أيام وهو يقدر على أن

يخلقها في لحظة تعليماً لخلقه الرفق والتثبت ، قيل تم خلقها يوم الجمعة فجعلها الله تعالى عيداً للمسلمين .

السؤال الثالث : ما معنى قوله : ﴿ ثُمَّ استوى عَلَى العرش ﴾ ؟ ولا يجوز حمله على الاستيلاء والقدرة ، لأن الاستيلاء والقدرة في أوصاف الله لم تزل ولا يصح دخول (ثم) فيه والجواب : الاستقرار غير جائز ، لأنه يقتضي التغير الذي هو دليل الحدوث ، ويقتضي التركيب والبعضية وكل ذلك على الله محال بل المراد ثم خلق العرش ورفعه وهو مستول كقوله تعالى : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حتى نَعْلَمَ ﴾ [محمد : 31] فإن المراد حتى يجاهد المجاهدون ونحن بهم عالمون ، فإن قيل فعلى هذا التفسير يلزم أن يكون خلق العرش بعد خلق السموات وليس كذلك لقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الماء ﴾ [هود : 7] قلنا : كلمة (ثم) ما دخلت على خلق العرش ، بل على رفعه على السموات .

(198/562)

السؤال الرابع : كيف إعراب قوله : ﴿ الرحمن فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً ﴾ ؟ الجواب : ﴿ الذى خَلَقَ ﴾ مبتدأ و ﴿ الرحمن ﴾ خبره ، أو هو صفة للحي ، والرحمن خبر مبتدأ محذوف ولهذا أجاز الزجاج وغيره أن يكون الوقف على قوله ﴿ عَلَى العرش ﴾ ثم يبتدىء

بالرحمن أي هو الرحمن الذي لا ينبغي السجود والتعظيم إلا له ، ويجوز أن يكون الرحمن مبتدأ وخبره قوله : ﴿ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً ﴾ .

السؤال الخامس : ما معنى قوله : ﴿ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً ﴾ ؟ الجواب : ذكروا فيه وجوهاً أحدها : قال الكلبي معناه فاسأل خبيراً به وقوله : ﴿ بِهِ ﴾ يعود إلى ما ذكرنا من خلق السماء والأرض والاستواء على العرش والباء من صلة الخبير وذلك الخبير هو الله عز وجل لأنه لا دليل في العقل على كيفية خلق الله السموات والأرض فلا يعلمها أحد إلا الله تعالى وعن ابن عباس أن ذلك الخبير هو جبريل عليه السلام وإنما قدم لرؤوس الآي وحسن النظم وثانيها : قال الزجاج قوله : ﴿ بِهِ ﴾ معناه عنه والمعنى فاسأل عنه خبيراً ، وهو قول الأخفش ، ونظيره قوله :

﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴾ [المعارج : 1] وقال علقمة بن عبدة :

فإن تسألوني بالنساء فإنني . . بصير بأدواء النساء طبيب

وثالثها : قال ابن جرير الباء في قوله : ﴿ بِهِ ﴾ صلة والمعنى فسله خبيراً ، وخبيراً نصب على الحال ورابعها : أن قوله ﴿ بِهِ ﴾ يجري مجرى القسم كقوله : ﴿ واتقوا الله الذى تَسَاءلُونَ بِهِ ﴾ [النساء : 1] .

أما قوله : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسجدوا للرحمن قَالُواْ وَمَا الرحمن ﴾ فهو خبر عن قوم قالوا هذا القول .

ويحتمل أنهم جهلوا الله تعالى ، ويحتمل أنهم إن عرفوه لكنهم جحدوه ، ويحتمل أنهم وإن اعترفوا به لكنهم جهلوا أن هذا الاسم من أسماء الله تعالى وكثير من المفسرين على هذا القول الأخير قالوا الرحمن اسم من أسماء الله مذكور في الكتب المتقدمة ، والعرب ما عرفوه قال مقاتل : إن أبا جهل قال إن الذي يقوله محمد شعر ، فقال عليه السلام الشعر غير هذا إن هذا إلا كلام الرحمن فقال أبو جهل بخ بخ لعمري والله إنه لكلام الرحمن الذي باليمامة هو يعلمك فقال عليه السلام : " الرحمن الذي هو إله السماء ومن عنده يأتيني الوحي " فقال يا آل غالب من يعذرني من محمد يزعم أن الله واحد ، وهو يقول الله يعلمني والرحمن ، ألستم تعلمون أنهما إلهان ثم قال ربكم الله الذي خلق هذه الأشياء ، أما الرحمن فهو مسيلمة . قال القاضي والأقرب أن المراد إنكارهم لله لا للاسم ، لأن هذه اللفظة عربية ، وهم كانوا يعلمون أنها تفيد المبالغة في الإنعام ، ثم إن قلنا بأنهم كانوا منكرين لله كان قولهم : ﴿ وَمَا الرحمن ﴾ سؤال طالب عن الحقيقة ، وهو يجري مجرى قول فرعون ﴿ وَمَا رَبُّ العالمين ﴾ [الشعراء : 23] وإن قلنا بأنهم كانوا مقرين بالله لكنهم جهلوا كونه تعالى مسمى بهذا الاسم كان قولهم ﴿ وَمَا الرحمن ﴾ سؤالاً عن الاسم .

أما قوله : ﴿ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا ﴾ فالمعنى للذي تأمرنا بسجوده على قوله أمرتك بالخير ، أو لأمرك لنا ، وقرىء ﴿ يأمرنا ﴾ بالياء كأن بعضهم قال لبعض أنسجد لما يأمرنا محمد أو يأمرنا المسمى بالرحمن ولا نعرف ما هو ، وزادهم أمره نفوراً ، ومن حقه أن يكون باعثاً على الفعل والقبول .

قال الضحاك : فسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي عثمان بن مظعون وعمرو بن عنبسة ، ولما رآهم المشركون يسجدون تباعدوا في ناحية المسجد مستهزئين .

فهذا هو المراد من قوله : ﴿ وَزَادَهُمْ نُفُوراً ﴾ أي فزادهم سجودهم نفوراً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 24 صـ 89.92 ﴾

(200/562)

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا ﴾ .

فِيهَا ثَلَاثُ مَسَائِلَ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : فِي التَّوَكُّلِ : وَهُوَ تَفَعُّلٌ مِنْ الْوَكَالَةِ ، أَيْ اتَّخِذْهُ وَكِيلًا .

وَقَدْ بَيَّنَّاهُ فِي كِتَابِ الْأَمَدِ ، وَهُوَ إظْهَارُ الْعَجْزِ وَالِاعْتِمَادِ عَلَى الْغَيْرِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : أَصْلُ هَذَا عِلْمُ الْعَبْدِ بِأَنَّ الْمَخْلُوقَاتِ كُلَّهَا مِنْ اللَّهِ ، لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ عَلَى الْإِيجَادِ سِوَاهُ ، فَإِنْ كَانَ لَهُ مُرَادٌ ، وَعَلِمَ أَنَّهُ بِيَدِ الَّذِي لَا يَكُونُ إلَّا مَا أَرَادَ ، جَعَلَ لَهُ أَصْلَ التَّوَكُّلِ ، وَهَذَا فَرْضُ عَيْنٍ ، وَبِهِ يَصِحُّ الْإِيمَانُ الَّذِي هُوَ شَرْطُ التَّوَكُّلِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : يَتَرَكَّبُ عَلَى هَذَا مِنْ سُكُونِ الْقَلْبِ ، وَزَوَالِ الِانْزِعَاجِ وَالِاضْطِرَابِ ، أَحْوَالٌ تَلْحَقُ بِالتَّوَكُّلِ فِي كَمَالِهِ ، وَلِهَذِهِ الْأَحْوَالِ أَقْسَامٌ ، وَلِكُلِّ قِسْمٍ اسْمٌ : الْحَالَةُ الْأُولَى : أَنْ يَكْتَفِيَ بِمَا فِي يَدِهِ ، لَا يَطْلُبُ الزِّيَادَةَ عَلَيْهِ ، وَاسْمُهُ الْقَنَاعَةُ .

الْحَالَةُ الثَّانِيَةُ : أَنْ يَكْتَسِبَ زِيَادَةً عَلَى مَا فِي يَدِهِ ، وَلَا يَنْفِي ذَلِكَ التَّوَكُّلَ عِنْدَنَا .

قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ لَوْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ ، كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ ، تَغْدُو خِمَاصًا ، وَتَرُوحُ بِطَانًا ﴾ .

(201/562)

فَإِنْ قِيلَ : هَذَا حُجَّةٌ عَلَيْك ؛ لِأَنَّ الطَّيْرَ لَا تَزِيدُ عَلَى مَا فِي الْيَدِ وَلَا تَدَّخِرُ لِغَدٍ .

قُلْنَا : إنَّمَا الِاحْتِجَاجُ بِالْغُدُوِّ ، وَالرَّوَاحُ الِاعْتِمَالُ فِي الطَّلَبِ .

فَإِنْ قِيلَ : أَرَادَ بِقَوْلِهِ : تَغْدُو فِي الطَّاعَةِ ، بِدَلِيلِ قَوْلِهِ : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَك بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُك رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُك وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى ﴾ .

قُلْنَا : إنَّمَا أَرَادَ بِالْغُدُوِّ الِاغْتِدَاءَ فِي طَلَبِ الرِّزْقِ ،

فَأَمَّا الْإِقْبَالُ عَلَى الْعِبَادَةِ وَهِيَ الْحَالَةُ الثَّالِثَةُ ، وَهُوَ أَنْ يُقْبِلَ عَلَى الْعِبَادَةِ وَيَتْرُكَ طَلَبَ الْعَادَةِ فَإِنَّ اللَّهَ يَفْتَحُ لَهُ .

وَعَلَى هَذَا كَانَ أَهْلُ الصُّفَّةِ ، وَهَذَا حَالَةٌ لَا يَقْدِرُ عَلَيْهَا أَكْثَرُ الْخَلْقِ ، وَبَعْدَ هَذَا مَقَامَاتٌ فِي التَّفْوِيضِ وَالِاسْتِسْلَامِ ، وَقَدْ بَيَّنَّاهَا فِي كِتَابِ أَنْوَارِ الْفَجْرِ ، وَاَللَّهُ الْمُوَفِّقُ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 3 صـ ﴾

(202/562)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴾

فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : أن العرب لم تكن تعرف الرحمن في أسماء الله تعالى : وكان مأخوذاً من الكتاب فلما دعوا إلى السجود لله تعالى بهذا الاسم سألوا عنه مسألة الجاهل به فقالوا ﴿ وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا ﴾ .

الثاني : أن مسيلمة الكذاب كان يسمى الرحمن ، فلما سمعوا هذا الاسم في القرآن حسبوه مسيلمة ، فأنكروا ما دعوا إليه من السجود له .

والثالث : أن هذا قول قوم كانوا يجحدون التوحيد ولا يقرون بالله تعالى ، فلما أمروا أن يسجدوا للرحمن ازدادوا نفوراً مع هواهم بما دعوا إليه من الإيمان ، وإلا فالعرب المعترفون بالله الذين يعبدون الأصنام لتقربهم إلى الله زلفى كانوا يعرفون الرحمن في أسمائه وأنه اسم مسمى من الرحمة يدل على المبالغة في الوصف ، وهذا قول ابن بحر . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

(203/562)

وقال ابن عطية :

قوله تعالى ﴿ وما أرسلناك ﴾ الآية تسلية لمحمد صلى الله عليه وسلم أي لا تهتم بهم ولا

تذهب نفسك حسرات حرصاً عليهم فإنما أنت رسول تبشر المؤمنين بالجنة وتنذر الكفرة النار ولست بمطلوب بإيمانهم أجمعين ، ثم أمره تعالى بأن يحتج عليهم مزيلاً لوجوه التهم بقوله ﴿ ما أسألكم عليه من أجر ﴾ أي لا أطلب مالاً ولا نفعاً يختص بي ، وقوله ﴿ إلا من شاء ﴾ الظاهر فيه أنه استثناء منقطع ، والمعنى مسؤولي ومطلوبي من شاء أن يهتدي ويؤمن ويتخذ إلى رحمة ربه طريق نجاة ، قال الطبري المعنى لا أسألكم أجراً إلا إنفاق المال في سبيل الله فهو المسؤول وهو السبيل إلى الرب .

قال الفقيه الإمام القاضي : فالاستثناء على هذا كالمتصل ، وكأنه قال إلا أجر من شاء والتأويل الأول أظهر .

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ ﴾

المعنى قل لهم يا محمد هذه المقالة التي لا ظن يتطرق إليك معها ولا تهتم بهم وبشّر وأنذر ﴿ وتوكل عليٍ ﴾ المتكفل بنصرك وعضدك في كل أمرك ، ثم وصف تعالى نفسه الصفة التي تقتضي التوكل في قوله ﴿ الحي الذي لا يموت ﴾ إذ هذا المعنى يختص بالله تعالى دون كل ما لدينا مما يقع عليه اسم حي ، وقوله ﴿ وسبح بحمده ﴾ قل سبحان الله وبحمده أي تنزيهه واجب وبحمده أقول .

قال القاضي أبو محمد : وقال رسول صلى الله عليه وسلم " من قال في كل يوم سبحان الله وبحمده مائة مرة غفرة ذنوبه ولو كانت مثل زبد البحر " ، فهذا معنى ﴿ وسبح بحمده ﴾

وهي إحدى الكلمتين الخفيفتين على اللسان ، الحديث ، وقوله ﴿ وكفى به ﴾ توعد وإزالة كل عن محمد صلى الله عليه وسلم في همه بهم ، وقوله ﴿ وما بينهما ﴾ مع جمعه ﴿ السماوات ﴾ قبل سائغ من حيث عادل لفظ ﴿ الأرض ﴾ لفظ ﴿ السماوات ﴾ ونحوه قول عمرو بن شييم : [الوافر]

ألم يحزنك أن جبال قيس . . . وتغلب قد تباينتا انقطاعا

من حيث عادلت جبالاً جبالاً ، ومنه قول الآخر : [الكامل]

(204/562)

إن المنية والحتوف كلاهما . . . يوفي المخارم يرقبان سواد

وقوله ﴿ في ستة أيام ﴾ اختلفت الرواية في اليوم الذي ابتدأ الله فيه الخلق ، فأكثر الروايات على يوم الأحد ، وفي مسلم وفي كتاب الدلائل يوم السبت ، وبين بكون ذلك ﴿ في ستة أيام ﴾ وضع الإناءة والتمهل في الأمور لأن قدرته تقضي أنه يخلقها في طرفة عين لو شاء لا إله إلا هو ، وقد تقدّم القول في الاستواء ، وقوله ﴿ الرحمن ﴾ يحتمل أن يكون رفعه بإضمار مبتدأ أي هو ﴿ الرحمن ﴾ ويحتمل أن يكون بدلاً من الضمير في قوله ﴿ استوى ﴾ وقرأ زيد بن علي بن الحسين " الرحمنِ " بالخفض ، وقوله ﴿ فاسأل به خبيراً ﴾ فيه تأويلان :

أحدهما ﴿ فاسأل ﴾ عنه و﴿ خبيراً ﴾ على هذا منصوب إما بوقوع السؤال عليه والمعنى ، اسأل جبريل والعلماء وأهل الكتب المنزلة ، والثاني أن يكون المعنى كما تقول لو لقيت فلاناً لقيت به البحر كرماً أي لقيت منه والمعنى فاسأل الله عن كل أمر ، و﴿ خبيراً ﴾ على هذا منصوب إما بوقوع السؤال وإما على الحال المؤكدة كما قال ﴿ وهو الحق مصدقاً ﴾ [البقرة : 91] ، وليست هذه بحال منتقلة إذ الصفة العلية لا تتغير ، ولما ذكر في هذه الآية ﴿ الرحمن ﴾ كانت قريش لا تعرف هذا في أسماء الله ، وكان مسيلمة كذاب اليمامة تسمى ب " الرحمن " فغالطت قريش بذلك وقالت إن محمداً يأمر بعبادة " الرحمن " اليمامة فنزل قوله تعالى : ﴿ وإذا قيل لهم ﴾ الآية ، وقولهم ﴿ وما الرحمن ﴾ استفهام عن مجهول عندهم ف ﴿ ما ﴾ على بابها المشهور ، وقرأ جمهور القراء " تأمرنا " بالتاء أي أنت يا محمد ، وقرأ حمزة والكسائي والأسود بن يزيد وابن مسعود " يأمرنا " بالياء من تحت إما على إرادة محمد والكناية عنه بالغيبة ، وإما على إرادة رحمان اليمامة ، وقوله : ﴿ وزادهم نفوراً ﴾ أي أضلهم هذا اللفظ ضلالاً لا يختص به حاشى ما تقدم منهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(205/562)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ ما أسألُكم عليه ﴾

أي : على القرآن وتبليغ الوحي ﴿ من أَجْر ﴾ وهذا توكيد لصِدْقه ، لأنه لو سأَلهم شيئاً من أموالهم لاتَّهموه ، ﴿ إلا من شاء ﴾ معناه : لكن من شاء ﴿ أن يَتَّخذ إلى ربِّه سبيلاً ﴾ بانفاق ماله في مرضاته ، فعَل ذلك ، فكأنه قال : لا أسألكم لنفسي .

وقد سبق تفسير الكلمات التي تلي هذه [آل عمران : 159 ، البقرة : 30 ، الأعراف : 54] إلى قوله : ﴿ فاسأل به خبيراً ﴾ ، و"به" بمعنى : "عنه" ، قال [عَلْقَمة بن عَبَدة] :

فانْ تَسْأَلُونِي بالنِّساء فانَّني . . .

بَصِيرٌ بأَدْوَاءِ النِّسَاءِ طَبِيبُ

وفي هاء "به" ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها ترجع إلى الله عز وجل .

والثاني : إلى اسمه الرحمن ، لأنهم قالوا : لا نعرف الرَّحمن .

والثالث : إلى ما ذكر مِنْ خَلْق السموات والأرض وغير ذلك .

وفي "الخبير" أربعة أقوال .

أحدها : أنه جبريل ، قاله ابن عباس .

والثاني : أنه الله عز وجل ، والمعنى : سلني فأنا الخبير ، قاله مجاهد .

والثالث : [أنه] القرآن ، قاله شمر .

والرابع : مُسْلِمة أهل الكتاب ، قاله أبو سليمان ، وهذا يخرِّج على قولهم : لا نعرف الرَّحمن ، فقيل : سَلُوا مُسَلِمة أهل الكتاب ، فإن الله تعالى خاطب موسى في التوراة باسمه الرحمن ، فعلى هذا ، الخطابُ للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد سواه .

قوله تعالى : ﴿ وإذا قيل لهم ﴾ يعني كفار مكة ﴿ اسجُدوا للرَّحمن قالوا وما الرحمن ﴾ قال المفسرون : إنهم قالوا : لا نعرف الرَّحمن إلا رحمن اليمامة ، فأنكروا أن يكون من أسماء الله تعالى ، ﴿ أَنسْجُدُ لِمَا تأمُرُنا ﴾ وقرأ حمزة ، والكسائي : ﴿ يأمُرُنا ﴾ بالياء ، أي : لِمَا يأمرنا به محمد ، وهذا استفهام إنكار ، ومعناه : لا نسجد للرَّحمن الذي تأمرنا بالسجود له ، ﴿ وزادهم ﴾ ذِكر الرحمن ﴿ نُفوراً ﴾ أي : تباعداً من الإيمان . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ زاد المسير حـ 6 صـ ﴾

(206/562)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّراً وَنَذِيراً ﴾

يريد بالجنة مبشراً ونذيراً من النار ؛ وما أرسلناك وكيلاً ولا مسيطراً .

﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ يريد على ما جئتكم به من القرآن والوحي .

و﴿ مِن ﴾ للتأكيد .

﴿ إِلاَّ مَن شَآءَ ﴾ لكن من شاء ؛ فهو استثناء منقطع ، والمعنى : لكن من شاء ﴿ أَن يَتَّخِذَ إِلى رَبِّهِ سَبِيلاً ﴾ بإنفاقه من ماله في سبيل الله فلينفق .

ويجوز أن يكون متصلاً ويقدّر حذف المضاف ؛ التقدير : إلا أجر ﴿ مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلى رَبِّهِ سَبِيلاً ﴾ باتباع ديني حتى ينال كرامة الدنيا والآخرة .

قوله تعالى : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الحي الذي لاَ يَمُوتُ ﴾ تقدم معنى التوكل في "آل عمران" وهذه السورة وأنه اعتماد القلب على الله تعالى في كل الأمور ، وأن الأسباب وسائط أمر بها من غير اعتماد عليها .

﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ ﴾ أي نزّه الله تعالى عما يصفه هؤلاء الكفار به من الشركاء .

والتسبيح التنزيه ، وقد تقدم .

وقيل : ﴿ وَسَبِّحْ ﴾ أي صلّ له ؛ وتسمى الصلاة تسبيحاً .

﴿ وكفى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً ﴾ أي عليماً فيجازيهم بها .

قوله تعالى : ﴿ الذي خَلَقَ السماوات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ استوى عَلَى العرش ﴾ تقدم في الأعراف .

و﴿ الَّذِي ﴾ في موضع خفض نعتاً للحيّ .

وقال : ﴿ بَيْنَهُمَا ﴾ ولم يقل بينهن ؛ لأنه أراد الصنفين والنوعين والشيئين ؛ كقول القُطَامِيّ :

ألم يحزنك أن حبال قيس . . .

وتغلب قد تباينتا انقطاعاً

أراد وحبال تغلب فثنّى ، والحبال جمع ؛ لأنه أراد الشيئين والنوعين .

﴿ الرحمن فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً ﴾ قال الزجاج : المعنى فاسأل عنه .

وقد حكى هذا جماعة من أهل اللغة أن الباء تكون بمعنى عن ؛ كما قال تعالى : ﴿ سَأَلَ سَآئِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴾ [المعارج : 1] وقال الشاعر :

(207/562)

هَلاَّ سألتِ الخيل يا بنة مالك . . .

إن كنت جاهلة بما لم تعلمي

وقال (عَلْقَمة بن عَبدة) :

فإن تسألوني بالنساء فإنني . . .

خبيرٌ بأدواء النساءِ طبيبُ

أي عن النساء وعما لم تعلمي .

وأنكره عليّ بن سليمان وقال : أهل النظر ينكرون أن تكون الباء بمعنى عن ؛ لأن في هذا إفساداً لمعاني قول العرب : لو لقيت فلاناً للقيك به الأسد ؛ أي للقيك بلقائك إياه الأسد . المعنى فاسأل بسؤالك إياه خبيراً .

وكذلك قال ابن جبير : الخبير هو الله تعالى .

ف ﴿ خَبِيراً ﴾ نصب على المفعول به بالسؤال .

قلت : قول الزجاج يخرّج على وجه حسن ، وهو أن يكون الخبير غير الله ؛ أي فاسأل عنه خبيراً ، أي عالماً به ، أي بصفاته وأسمائه .

وقيل : المعنى فاسأل له خبيراً ، فهو نصب على الحال من الهاء المضمرة .

قال المهدويّ : ولا يحسن حالاً إذ لا يخلو أن تكون الحال من السائل أو المسؤول ، ولا يصح كونها حالاً من الفاعل ؛ لأن الخبير لا يحتاج أن يسأل غيره .

ولا يكون من المفعول ؛ لأنّ المسؤول عنه وهو الرحمن خبير أبداً ، والحال في أغلب الأمر يتغير وينتقل ؛ إلا أن يحمل على أنها حال مؤكدة ؛ مثل : ﴿ وَهُوَ الحق مُصَدّقاً ﴾ [البقرة : 91] فيجوز .

وأما ﴿ الرَّحْمَنُ ﴾ ففي رفعه ثلاثة أوجه : يكون بدلاً من المضمر الذي في ﴿ اسْتَوَى ﴾ .

ويجوز أن يكون مرفوعاً بمعنى هو الرحمن .

ويجوز أن يكون مرفوعاً بالابتداء وخبره ﴿ فَاسْئَلْ بِهِ خَبِيراً ﴾ .

ويجوز الخفض بمعنى وتوكل على الحيّ الذي لا يموت الرحمنِ ؛ يكون نعتاً .

ويجوز النصب على المدح.

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسجدوا للرحمن ﴾ أي لله تعالى .

﴿ قَالُواْ وَمَا الرحمن ﴾ على جهة الإنكار والتعجب ، أي ما نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة ، يعنون مسيلمة الكذاب .

وزعم القاضي أبو بكر ابن العربيّ أنهم إنما جهلوا الصفة لا الموصوف ، واستدلّ على ذلك بقوله : ﴿ وَمَا الرَّحْمنُ ﴾ ولم يقولوا ومن الرحمن .

(208/562)

قال ابن الحصار : وكأنه رحمه الله لم يقرأ الآية الأخرى ﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بالرحمن ﴾ [الرعد : 30] .

﴿ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا ﴾ هذه قراءة المدنيين والبصريين ؛ أي لما تأمرنا أنت يا محمد .

واختاره أبو عبيد وأبو حاتم .

وقرأ الأعمش وحمزة والكسائيّ : ﴿ يأْمُرُنَا ﴾ بالياء .

يعنون الرحمن ؛ كذا تأوّله أبو عبيد ، قال : ولو أقرّوا بأنّ الرحمن أمرهم ما كانوا كفاراً .

فقال النحاس : وليس يجب أن يتأوّل عن الكوفيين في قراءتهم هذا التأويل البعيد ، ولكن الأولى أن يكون التأويل لهم ﴿ أَنَسْجُدُ لِمَا يَأْمُرُنَا ﴾ النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ فتصح القراءة على هذا ، وإن كانت الأولى أبين وأقرب تناولاً .

﴿ وَزَادَهُمْ نُفُوراً ﴾ أي زادهم قول القائل لهم اسجدوا للرحمن نفوراً عن الدّين .

وكان سفيان الثوريّ يقول في هذه الآية : إلهي زادني لك خضوعاً ما زاد عداك نفوراً .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 13 صـ ﴾

(209/562)

وقال أبو حيان :

﴿ وما أرسلناك إلاّ مبشراً ونذيراً ﴾

سلّي نبيه بذلك أي لا تهتم بهم ولا تذهب نفسك عليهم حسرات ، وإنما أنت رسول تبشر المؤمنين بالجنة وتنذر الكفرة بالنار ، ولست بمطلوب بإيمانهم أجمعين .

ثم أمره تعالى أن يحتج عليهم مزيلاً لوجوه التهم بقوله ﴿ قل لا أسألكم عليه من أجر ﴾ أي لا أطلب مالاً ولا نفعاً يختص بي .

والضمير في ﴿ عليه ﴾ عائد على التبشير والإنذار ، أو على القرآن ، أو على إبلاغ الرسالة أقوال .

والظاهر في ﴿ إلاّ من شاء ﴾ أنه استثناء منقطع وقاله الجمهور .

فعلى هذا قيل بعباده ﴿ لكن من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً ﴾ فليفعل .

وقيل : لكن من أنفق في سبيل الله ومجاهدة أعدائه فهو مسؤولي .

وقيل : هو متصل على حذف مضاف تقديره : إلاّ أجر من اتخذ إلى ربه سبيلاً أي إلاّ أجر من آمن أي الأجر الحاصل لي على دعائه إلى الإيمان وقبوله ، لأنه تعالى يأجرني على ذلك .

وقيل : إلاّ أجر من آمن من يعني بالأجرة الإنفاق في سبيل الله أي لا أسألكم أجراً إلاّ الإنفاق في سبيل الله ، فجعل الإنفاق أجراً .

ولما أخبر أنه فطم نفسه عن سؤالهم شيئاً أمره تعالى تفويض أمره إليه وثقته به واعتماده عليه فهو المتكفل بنصره وإظهار دينه .

ووصف تعالى نفسه بالصفة التي تقتضي التوكل في قوله ﴿ الحي الذي لا يموت ﴾ لأن هذا المعنى يختص به تعالى دون كل حي كما قال ﴿ كل شيء هالك إلاّ وجهه ﴾ وقرأ بعض السلف هذه الآية فقال : لا يصح لذي عقل أن يثق بعدها بمخلوق ، ثم أمره بتنزيهه وتمجيده مقروناً بالثناء عليه لأن التنزيه محله اعتقاد القلب والمدح محله اللسان الموافق للأعتقاد .

وفي الحديث : " من قال سبحان الله وبحمده مائة مرة غفرت ذنوبه ولو كانت مثل زبد

البحر .

وهي الكلمتان الخفيفتان على اللسان الثقيلتان في الميزان " .

﴿ وكفى به بذنوب عباده خبيراً ﴾ أراد أنه ليس إليه من أمور عباده شيء آمنوا أم كفروا ، وأنه خبير بأحوالهم كاف في جزاء أعمالهم .

(210/562)

وفي هذه الجملة تسلية للرسول ووعيد للكافر .

وفي بعض الأخبار كفى بك ظَفراً أن يكون عدوك عاصياً وهي كلمة يراد بها المبالغة تقول : كفى بالعلم جمالاً .

وكفى بالأدب مالاً ، أي حسبك لا تحتاج معه إلى غيره لأنه خبير بأحوالهم قادر على مكافأتهم .

ولما أمره بالتوكل والتسبيح وذكر صفة الحياة الدائمة ذكر ما دل على القدرة التامة وهو إيجاد هذا العالم .

وتقدم الكلام في نظير هذا الكلام واحتمل ﴿ الذي ﴾ أن يكون صفة للحي الذي لا يموت .

ويتعين على قراءة زيد بن عليّ ﴿ الرحمن ﴾ بالجر وأما على قراءة الجمهور ﴿ الرحمن ﴾ بالرفع فإنه يحتمل أن يكون ﴿ الذي ﴾ صفة للحي و ﴿ الرحمن ﴾ خبر مبتدأ محذوف.

ويحتمل أن يكون ﴿ الذي ﴾ مبتدأ و ﴿ الرحمن ﴾ خبره.

وأن يكون ﴿ الذي ﴾ خبر مبتدأ محذوف، و ﴿ الرحمن ﴾ صفة له.

أو يكون ﴿ الذي ﴾ منصوباً على إضمار أعني ويجوز على مذهب الأخفش أن يكون ﴿ الرحمن ﴾ مبتدأ.

و ﴿ فاسأل ﴾ خبره تخريجه على حد قول الشاعر:

وقائلة خولان فانكح فتاتهم . . .

وجوزوا أيضاً في ﴿ الرحمن ﴾ أن يكون بدلاً من الضمير المستكن في ﴿ استوى ﴾.

والظاهر تعلق به بقوله ﴿ فاسال ﴾ وبقاء الباء غير مضمنة معنى عن.

و ﴿ خبيراً ﴾ من صفات الله كما تقول: لقيت بزيد أسداً ولقيت بزيد البحر، تريد أنه هو الأسد شجاعة، والبحر كرماً.

والمعنى أنه تعالى اللطيف العالم الخبير والمعنى ﴿ فاسأل ﴾ الله الخبير بالأشياء العالم بحقائقها.

وقال ابن عطية: و ﴿ خبيراً ﴾ على هذا منصوب إما بوقوع السؤال، وإما على الحال

المؤكدة .

كما قال ﴿ وهو الحق مصدقاً ﴾ وليست هذه الحال منتقلة إذا الصفة العلية لا تتغير

انتهى .

وبني هذا الإعراب على أنه كما تقول : لو لقيت فلاناً للقيت به البحر كرماً أي لقيت منه .

(211/562)

والمعنى ﴿ فاسأل الله ﴾ عن كل أمر وكونه منصوباً على الحال المؤكدة على هذا التقدير لا يصح إنما يصح أن يكون مفعولاً به ، ويجوز أن تكون الباء بمعنى عن ، أي ﴿ فاسأل ﴾ عنه ﴿ خبيراً ﴾ كما قال الشاعر :

فإن تسألوني بالنساء فإنني . . .

بصير بأدواء النساء طبيب

وهو قول الأخفش والزجاج .

ويكون ﴿ خبيراً ﴾ ليس من صفات الله هنا ، كأنه قيل : اسأل عن الرحمن الخبراء جبريل والعلماء وأهل الكتب المنزلة ، وإن جعلت ﴿ به ﴾ متعلقاً بخبيراً كان المعنى ﴿ فاسأل ﴾ عن الله الخبراء به .

وقال الكلبي معناه ﴿ فاسأل ﴾ خبيراً به و﴿ به ﴾ يعود إلى ما ذكر من خلق السموات والأرض والاستواء على العرش ، وذلك الخبير هو الله تعالى لأنه لا دليل في العقل على كيفية خلق ذلك فلا يعلمها إلاّ الله .

وعن ابن عباس : الخبير جبريل وقدم لرؤوس الآي .

وقال الزمخشري : الباء في ﴿ به ﴾ صلة سل كقوله ﴿ سأل سائل بعذاب ﴾ كما يكون عن صلته في نحو ﴿ ثم لتسألن يومئذ عن النعيم ﴾ أو صلة ﴿ خبيراً ﴾ به فتجعل ﴿ خبيراً ﴾ مفعولاً أي ، فسل عنه رجلاً عارفاً يخبرك برحمته ، أو فسل رجلاً خبيراً به وبرحمته ، أو فسل بسؤاله خبيراً .

كقولك ، رأيت به أسداً أي رأيت برؤيته ، والمعنى إن سألته وجدته خبيراً بجعله حالاً عن به تريد فسل عنه عالماً بكل شيء .

وقيل : ﴿ الرحمن ﴾ اسم من أسماء الله مذكور في الكتب المتقدمة ولم يكونوا يعرفونه .

فقيل : فسل بهذا الاسم من يخبرك من أهل الكتاب حتى يعرف من ينكره ومن ثم كانوا يقولون : ما نعرف الرحمن إلاّ الذي في اليمامة يعنون مسيلمة ، وكان يقال له رحمن اليمامة انتهى .

﴿ وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن ﴾ وكانت قريش لا تعرف هذا في أسماء الله غالطت قريش بذلك فقالت : إن محمداً يأمرنا بعبادة رحمن اليمامة نزلت ﴿ وإذا قيل لهم ﴾ و﴿ ما ﴾ سؤال عن المجهول ، فيجوز أن يكون سؤالاً عن المسمى به لأنهم ما كانوا يعرفونه بهذا الاسم ، ويجوز أن يكون سؤالاً عن معناه لأنه لم يكن مستعملاً في كلامهم كما يستعمل الرحيم والرحوم والراحم ، أو لأنهم أنكروا إطلاقه على الله قاله الزمخشري .

والذي يظهر أنهم لما قيل لهم ﴿ اسجدوا للرحمن ﴾ فذكرت الصفة المقتضية للمبالغة في الرحمة والكلمة عربية لا ينكر وضعها ، أظهروا التجاهل بهذه الصفة التي لله مغالطة منهم ووقاحة فقالوا : ﴿ وما الرحمن ﴾ وهم عارفون به وبصفته الرحمانية ، وهذا كما قال فروعون

﴿ وما رب العالمين ﴾ حين قال له موسى : ﴿ إني رسول من رب العالمين ﴾ على سبيل المناكرة وهو عالم برب العالمين .

كما قال موسى ﴿ لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلاّ رب السموات والأرض بصائر ﴾ فكذلك كفار قريش استفهموا عن ﴿ الرحمن ﴾ استفهام من يجهله وهم عالمون به ، فعلى قول من قال : لم يكونوا يعرفون ﴿ الرحمن ﴾ إلاّ مسيلمة وعلى قول من قال : من لا يعرفون الرحمن إلاّ مسيلمة .

فالمعنى أنسجد لمسيلمة وعلى قول من قال : لا يعرفون ﴿ الرحمن ﴾ بالكلية فالمعنى ﴿ أنسجد لما تأمرنا ﴾ من غير علم ببيانه .

والقائل ﴿ اسجدوا ﴾ الرسول أو الله على لسان رسوله .

وقرأ ابن مسعود والأسود بن يزيد وحمزة والكسائي يأمر بالياء من تحت أي يأمرنا محمد ، والكناية عنه أو المسمى ﴿ الرحمن ﴾ ولا نعرفه .

وقرأ باقي السبعة بالتاء خطاباً للرسول .

ومفعول ﴿ تأمرنا ﴾ الثاني محذوف لدلالة الكلام عليه تقديره يأمرنا سجوده نحو قولهم : أمرتك الخير .

﴿ وزادهم ﴾ أي هذا القول وهو الأمر بالسجود للرحمن ﴿ زادهم ﴾ ضلالاً يختص به مع ضلالهم السابق ، وكان حقه أن يكون باعثاً على فعلي السجود والقبول .

(213/562)

وقال الضحاك : سجد أبو بكر وعمر وعثمان وعليّ وعثمان بن مظعون وعمرو ابن غلسة ، فرآهم المشركون فأخذوا في ناحية المسجد يستهزئون ، فهذا المراد بقوله ﴿ وزادهم نفوراً ﴾ ومعنى ﴿ نفوراً ﴾ فراراً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّرًا ﴾

للمؤمنين ﴿ وَنَذِيرًا ﴾ للكافرين ﴿ قُلْ ﴾ لهم ﴿ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ أي على تبليغِ الرِّسالةِ الذي ينبىءُ عنه الإرسالُ ﴿ مِنْ أَجْرٍ ﴾ من جهتكم ﴿ إِلاَّ مَن شَاء أَن يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً ﴾ أي إلاَّ فعلَ من يُريد أنْ يتقرَّبَ إليه تعالى ويطلبَ الزُّلْفى عندَه بالإيمانِ والطَّاعةِ حسبَما أدعُوهم إليهما فصوَّرَ ذلك بصورةِ الأجرِ من حيثُ إنَّه مقصودُ الإتيانِ به واستثنى منه قلعاً كلِّياً لشائبةِ الطَّمعِ وإظهاراً لغايةِ الشَّفقةِ عليهم حيثُ جعلَ ذلك مع كونِ نفعِه عائداً إليه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ وقيل الاستثناءُ منقطعٌ أي لكن منَ شاء أنْ يتَّخذَ إلى ربِّه سبيلاً فليفعلْ .

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الحى الذى لاَ يَمُوتُ ﴾ في الاستكفاءِ عن شرورِهم والإغناءِ عن أجورِهم فإنَّه الحقيقُ بأنْ يُتوكَّل عليه دون الأحياء الذين من شأنِهم الموتُ فإنَّهم إذا ماتُوا ضاعَ مَن توكَّل عليهم . ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ ﴾ ونزِّهه عن صفاتِ النُّقصانِ مُثنياً عليه بنعوتِ الكمالِ

طالباً لمزيدِ الإنعامِ بالشُّكرِ على سوابغِه ﴿ وكفى بِهِ بذُنُوبِ عِبَادِهِ ﴾ ما ظهرَ منها وما بطنَ ﴿ خَبِيراً ﴾ أي مُطَّلِعاً عليها بحيثُ لا يخفى عليه شيءٌ منها فيجزيهم جزاءً وفيًّا .

(215/562)

﴿ الذى خَلَقَ السموات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ استوى عَلَى العرش ﴾ قد سلفَ تفسيرُه . ومحلُّ الموصولِ الجرُّ على أنَّه صفةٌ أُخرى للحيِّ وصف بالصِّفةِ الفعلية بعد وصفِهِ بالأبديَّةِ التي هي من الصِّفاتِ الذَّاتيةِ ، والإشارةُ إلى اتِّصافه بالعلمِ الشَّاملِ لتقريرِ وجوبِ التَّوكلِ عليه تعالى وتأكيده فإنَّ من أنشأَ هذه الأجرامَ العظامَ على هذا النمطِ الفائقِ والنَّسقِ الرَّائقِ بتدبيرٍ متينٍ وترتيبٍ رصينٍ في أوقاتٍ معيَّنة مع كمال قُدرتِه على إبداعها دفعةً لحكمٍ جليلةٍ وغاياتٍ جميلةٍ لا تقف على تفاصيلِها العقولُ أُحقُّ مَن يُتوكَّل عليه وأَولى من يُفوَّضُ الأمرُ إليه ﴿ الرحمن ﴾ مرفوعٌ على المدحِ أي هو الرحمنُ وهو في الحقيقةِ وصفٌ آخرُ للحيِّ كما قُرِئ بالجرِّ مفيد لزيادة تأكيد ما ذُكر من وجوب التَّوكلِ عليه تعالى وإنْ لم يتْبعه في الإعرابِ لما تقرَّر من أنَّ المنصوبَ والمرفوعَ مَدحاً وإنْ خرجَا عن التَّبعيةِ لما قبلهما صورةً حيثُ لم يتبعاهُ في الإعرابِ وبذلك سُمِّيا قطعاً لكنَّهما تابعان له حقيقةً ، أَلاَ يُرى كيفَ التزمُوا حذفَ الفعلِ والمبتدأ في النَّصبِ والرَّفعِ رَوْماً لتصويرِ كلٍّ منهما بصورةِ متعلَّق

من متعلَّقات ما قبلَه وتنبيهاً على شدَّةِ الاتِّصالِ بينهما وقد مرَّ تمامُ التَّحقيق في تفسير قولِه عزَّ وجلَّ :

(216/562)

﴿ الذين يُؤْمِنُونَ بالغيب ﴾ الآيةَ وقيل : الموصولُ مبتدأٌ والرَّحمنُ خبرُه وقيل : الرَّحمنُ بدلٌ من المستكنِّ في استوى ﴿ فَاسْأَلْ بِهِ ﴾ أي بتفاصيلِ ما ذُكر إجمالاً من الخَلْقِ والاستواءِ لا بنفسِهما فقط إذْ بعد بيانِهما لا يبقى إلى السُّؤالِ حاجةٌ ولا في تعديتِه بالباءِ فائدةٌ فإنَّها مبنيَّةٌ على تضمينِه معنى الاعتناءِ المستدعِي لكون المسؤولِ أمراً خطيراً مهتمًّا بشأنِه غيرَ حاصلٍ للسَّائلِ . وظاهرٌ أنَّ نفسَ الخلقِ والاستواءِ بعد الذِّكرِ ليس كذلكَ . وما قيل من أنَّ التَّقديرَ : إنْ شككتَ فيه فاسألْ به خَبيراً على أنَّ الخطابَ له عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ والمرادَ غيرُه بمعزلٍ من السَّدادِ ، بل التَّقديرُ : إنْ شئتَ تحقيقَ ما ذُكر أو تفصيلَ ما ذُكر فاسألْ معنيًّا بِهِ ﴿ خَبِيراً ﴾ عظيمَ الشَّأنِ محيطاً بظواهرِ الأمورِ وبواطِنها وهو الله سبحانَه يُطلعك على جليَّةِ الأمرِ . وقيل : فاسألْ به مَن وجدَهُ في الكتبِ المتقدِّمةِ ليصدُقكَ فيه فلا حاجةَ حينئذٍ إلى ما ذكرنا . وقيل : الضَّميرُ للرَّحمنِ ، والمعنى إنْ أنكرُوا إطلاقَه على الله تعالى فاسألْ عنه مَن يُخبرك من أهلِ الكتابِ ليعرفُوا مجيءَ ما يُرادفه في كتبِهم ، وعلى هَذا

يجوز أنْ يكونَ الرَّحمنُ مُبتدأً وما بعدهُ خَبَراً . وقُرِىء فَسَلْ .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسجدوا للرحمن قَالُواْ وَمَا الرحمن ﴾

قالُوه لما أنَّهم ما كانُوا يُطلقونَهُ على الله تعالى ، أو لأنَّهم ظنُّوا أنَّ المرادَ به غيرُه تعالى ولذلك قالُوا ﴿ أَنسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا ﴾ أي للذي تأمرُنا بسجودِه أو لأمرِك إيَّانا من غيرِ أنْ نعرفَ أنَّ المسجودَ ماذا . وقيل : لأنَّه كانَ مُعرَّباً لم يسمعُوه . وقُرِىء يأْمُرنا بياءِ الغَيبةِ على أنَّه قولُ بعضِهم لبعضٍ ﴿ وَزَادَهُمْ ﴾ أي الأمرُ بسجودِ الرَّحمنِ ﴿ نُفُورًا ﴾ عن الإيمانِ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 6 صـ ﴾

(217/562)

وقال الآلوسى :

﴿ وَمَا أرسلناك ﴾ في حال من الأحوال ﴿ إِلا ﴾ حال كونك ﴿ مُبَشّرًا ﴾ للمؤمنين ﴿ وَنَذِيرًا ﴾ أي ومنذراً مبالغاً في الإنذار للكافرين ، ولتخصيص الأنذار بهم وكون الكلام فيهم والاشعار بغاية إصرارهم على ما هم فيه من الضلال اقتصر على صيغة المبالغة فيه ، وقيل : المبالغة باعتبار كثرة المنذرين فإن الكفرة في كل وقت أكثر من المؤمنين .

وبعضهم اعتبر كثرتهم بإدخال العصاة من المؤمنين فيهم أي ونذيراً للعاصين مؤمنين كانوا أو

كافرين والمقام يقتضي التخصيص بالكافرين كما لا يخفى ، والمراد ما أرسلناك إلا مبشراً للمؤمنين ونذيراً للكافرين فلا تحزن على عدم إيمانهم .

﴿ قُلْ ﴾ لهم دافعاً عن نفسك تهمة الانتفاع بإيمانهم ﴿ مَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ أي على تبليغ الرسالة الذي ينبىء عنه الإرسال أو على المذكور من التبشير والإنذار ، وقيل : على القرآن ﴿ مِنْ أَجْرٍ ﴾ أي أجر ما من جهتكم ﴿ إِلاَّ مَن شَاء أَن يَتَّخِذَ إِلى رَبِّهِ ﴾ أي إلى رحمته ورضوانه ﴿ سَبِيلاً ﴾ أي طريقاً ، والاستثناء عند الجمهور منقطع أي لكن ما شاء أن يتخذ إلى ربه سبحانه سبيلاً أي بالانفاق القائم مقام الأجر كالصدقة والنفقة في سبيل الله تعالى ليناسب الاستدراك فليفعل ، وذهب البعض إلى أنه متصل ، وفي الكلام مضاف مقدر أي الأفعل من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً بالايمان والطاعة حسبما أدعو إليهما ، وهو مبني على الادعاء وتصوير ذلك بصورة الأجر من حيث أنه مقصود الإتيان به ، وهذا كالاستثناء في قوله :

ولا عيب فيهم غير أن نزيلهم . . .

يعاب بنسيان الأحبة والوطن

(218/562)

وفي ذلك قلع كلي لشائبة الطمع وإظهار لغاية الشفقة عليهم حيث جعل ذلك مع كونه نفعه عائداً إليهم عائداً إليه صلى الله عليه وسلم ، وقيل : المعنى ما أسألكم عليه أجراً إلا أجر من آمن أي إلا الأجر الحاصل لي من إيمانه فإن الدال على الخير كفاعله وحينئذ لا يحتاج إلى الادعاء والتصوير السابق ، والأولى ما فيه قلع شائبة الطمع بالكلية .

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الحى الذى لاَ يَمُوتُ ﴾

في الإغناء عن أجورهم والاستكفاء عن شرورهم ، وكأن العدول عن وتوكل على الله إلى ما في النظم الجليل ليفيد بفحواه أو بترتب الحكم فيه على وصف مناسب عدم صحة التوكل على غير المتصف بما ذكر من الحياة والبقاء ، أما عدم صحة التوكل على من لم يتصف بالحياة كالأصنام فظاهر وأما عدم صحته على من لم يتصف بالبقاء بأن كان ممن يموت فلأنه عاجز ضعيف فالمتوكل عليه أشبه شيء بضعيف عاد بقرملة ، وقيل : لأنه إذا مات ضاع من توكل عليه .

وأخرج ابن أبي الدنيا في التوكل .

والبيهقي في "شعب الإيمان" عن عقبة بن أبي ثبيت قال : مكتوب في التوراة لا توكل على ابن آدم فإن ابن آدم ليس له قوام ، ولكن توكل على الحي الذي لا يموت .

وقرأ بعض السلف هذه الآية فقال : لا يصح لذي عقل أن يثق بعدها بمخلوق ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ ﴾ أي ونزهه سبحانه ملتبساً بالثناء عليه تعالى بصفات الكمال طالباً لمزيد الأنعام

بالشكر على سوابقه عز وجل فالباء للملابسة ، والجار والمجرور في موضع الحال ، وقدم التنزيه لأنه تخلية وهي أهم من التحلية ، وفي الحديث : " من قال سبحان الله وبحمد غفرت ذنوبه ولو كانت مثل زبد البحر " ﴿ وكفى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ ﴾ ما ظهر منها وما بطن كما يؤذن به الجمع المضاف فإنه من صيغ العموم أو قوله تعالى : ﴿ خَبِيراً ﴾ لأن الخبرة معرفة بواطن الأمور كما ذكره الراغب ومن علم البواطن علم الظواهر بالطريق الأولى فيدل على ذلك مطابقة والتزاماً .

(219/562)

والظاهر أن ﴿ بِذُنُوبِ ﴾ متعلق بخبيراً وهو حال أو تمييز .

وباء ﴿ بِهِ ﴾ زائدة في فاعل ﴿ كفى ﴾ ، وجوز أن يكون ﴿ بِذُنُوبِ ﴾ صلة كفى ، والجملة مسوقة لتسليته صلى الله عليه وسلم ووعيد الكفار أي أنه عز وجل مطلع على ذنوب عباده بحيث لا يخفى عليه شيء منها فيجازيهم عليها ولا عليك إن آمنوا أو كفروا .

﴿ الذى خَلَقَ السموات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ استوى عَلَى العرش ﴾

قد سلف تفسيره .

ومحل الموصول الجر على أنه صفة أخرى للحي ، ووصف سبحانه بالصفة الفعلية بعد

وصفه جل وعلا بالأبدية التي هي من الصفات الذاتية والإشارة إلى اتصافه تعالى بالعلم الشامل لتقرير وجوب التوكل عليه جل جلاله وتأكيده فإن من أنشأ هذه الأجرام العظام على هذا النمط الفائق والنسق الرائق بتدبير متين وترتيب رصين في أوقات معينة مع كمال قدرته سبحانه على إبداعها دفعة بحكم جليلة وغايات جميلة لا تقف على تفاصيلها العقول أحق من يتوكل عليه وأولى من يفوض الأمر إليه .

وقوله تعالى : ﴿ الرحمن ﴾ مرفوع على المدح أي هو الرحمن وهو في الحقيقة وصف آخر للحي كما في قراءة زيد بن عبد الرحمن بالجر مفيد لزيادة تأكيد ما ذكر من وجوب التوكل عليه جل شأنه وإن لم يتبعه في الأعراب لما تقرر من أن المنصوب والمرفوع مدحاً وإن خرجا عن التبعية لما قبلهما صورة حيث لم يتبعاه في الأعراب وبذلك سميا قطعاً لكنهما تابعان له حقيقة ، ألا ترى كيف التزموا حذف الفعل والمبتدأ روما لتصوير كل منهما بصورة متعلق من متعلقات ما قبله وتنبياً على شدة الاتصال بينهما وإنما قطعوا للافتنان الموجب لإيقاظ السامع وتحريكه إلى الجد في الإصغار .

(220/562)

وجوز أن يكون الموصول في محل نصب على الاختصاص وأن يكون في محل رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف صفة له أو مبتدأ و ﴿ الرحمن ﴾ خبره ، وجوز أن يكون ﴿ الرحمن ﴾ بدلاً من المستكن في ﴿ استوى ﴾ ويجوز على مذهب الأخفش أن يكون ﴿ الرحمن ﴾ مبتدأ ، وقوله تعالى : ﴿ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً ﴾ خبره على حد تخريجه قول الشاعر :

وقائلة خولان فانكح فتاتهم . . .

وهو بعيد ، والظاهر أن هذه جملة منقطعة عما قبلها إعراباً ، والفاء فصيحة والجار والمجرور صلة اسأل .

والسؤال كما يعدى بعن لتضمنه معنى التفتيش يعدي بالباء لتضمنه معنى الاعتناء .

وعليه قول علقمة بن عبيدة :

فإن تسألوني بالنساء فإنني . . .

خبير بادواء النساء طبيب

فلا حاجة إلى جعلها بمعنى عن كما فعل الأخفش .

والزجاج .

والضمير راجع إلى ما ذكر إجمالاً من الخلق والاستواء .

والمعنى إن شئت تحقيق ما ذكر أو تفصيل ما ذكر فاسأل معتنياً به خبيراً عظيم الشأن محيطاً بظواهر الأمور وبواطنها وهو الله عز وجل يطلعك على جلية الأمر .

والمسؤول في الحقيقة تفاصيل ما ذكر لا نفسه إذ بعد بيانه لا يبقى إلى السؤال حاجة ولا في تعديته بالباء المبنية على تضمينه معنى الاعتناء المستدعى لكون المسؤول أمراً خطيراً مهتماً بشأنه غير حاصل للسائل فائدة فإن نفس الخلق والاستواء بعد الذكر ليس كذلك كما لا يخفى .

وكون التقدير إن شككت فهي فاسأل به خبيراً على أن الخطاب له صلى الله عليه وسلم والمراد غيره عليه الصلاة والسلام بمعزل عن السداد ، وقيل : ﴿ بِهِ ﴾ صلة ﴿ خَبِيراً ﴾ قدم لرؤس الآي .

وجوز أن يكون الكلام من باب التجريد نحو رأيت به أسداً أي رأيت برؤيته أسداً فكأنه قيل هنا فاسأل بسؤاله خبيراً ، والمعنى إن سألته وجدته خبيراً ، والباء عليه ليست صلة فإنها باء التجريد وهي على ما ذهب إليه الزمخشري سببية والخبر عليه هو الله تعالى أيضاً .

وقد ذكر هذا الوجه السجاوندي .

(221/562)

واختاره "صاحب الكشف" قال : وهو أوجه ليكون كالتتميم لقوله تعالى : ﴿ الذى خَلَقَ ﴾ الخ فإنه لإثبات القدرة مدمجاً فيه العلم ، وكون ضمير به راجعاً إلى ما ذكر من الخلق والاستواء ، والخبير في الآية هو الله تعالى مروي عن الكلبي .

وروى تفسير الخبير ﴿ بِهِ ﴾ تعالى عن ابن جريج أيضاً .

وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما الخبير هو جبريل عليه السلام ، وقيل : هو من وجد ذلك في الكتب القديمة المنزلة من عنده تعالى أي فاسأل بما ذكر من الخلق والاستواء من علم به من أهل الكتب ليصدقك ، وقيل : إذا أريد بالخبير من ذكر فضمير ﴿ بِهِ ﴾ للرحمن ، والمعنى إن أنكروا إطلاق الرحمن عليه تعالى فاسأل به من يخبرك من أهل الكتاب ليعرفوا مجيء ما يرادفه في كتبهم .

وفيه أنه لا يناسب ما قبله ولأن فيه عود الضمير للفظ ﴿ الرحمن ﴾ دون معناه وهو خلاف الظاهر ولأنه كان الظاهر حينئذ أن يؤخر عن قوله تعالى : ﴿ مَا الرحمن ﴾ .

وقيل : الخبير محمد صلى الله عليه وسلم وضمير ﴿ بِهِ ﴾ للرحمن ؛ والمراد فاسأل بصفاته والخطاب لغيره صلى الله عليه وسلم ممن لم يعلم ذلك وليس بشيء كما لا يخفى ، وقيل : ضمير ﴿ بِهِ ﴾ للرحمن ، والمراد فاسأل برحمته وتفاصيلها عارفاً يخبرك بها أو المراد فاسأل برحمته حال كونه عالماً بكل شيء على أن ﴿ خَبِيراً ﴾ حال من الهاء لا مفعول اسأل كما في الأوجه السابقة .

وجوز أبو البقاء أن يكون ﴿ خَبِيراً ﴾ حالاً من ﴿ الرحمن ﴾ إذا رفع باستوى .

وقال : يضعف أن يكون حالاً من فاعل اسأل لأن الخبير لا يسأل إلا على جهة التوكيد مثل ﴿ وَهُوَ الحق مُصَدّقًا ﴾ والوجه الأقرب الأولى في الآية من بين الأوجه المذكورة لا يخفى ، وقرىء ﴿ فسل ﴾ .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسجدوا للرحمن ﴾

القائل رسول الله صلى الله عليه وسلم أو الله عز وجل على لسان رسوله عليه الصلاة والسلام .

ولا يخفى موقع هذا الاسم الشريف هنا .

(222/562)

وفيه كما قال الخفاجي : معنى أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد ﴿ قَالُواْ ﴾ على سبيل التجاهل والوقاحة ﴿ وَمَا الرحمن ﴾ كما قال فرعون ﴿ وما رب العالمين ﴾ [الشعراء : 23] حين قال له موسى عليه السلام ﴿ إني رسول من رَّبّ العالمين ﴾ [الأعراف : 104] وهو عز وجل كما يؤذن بذلك قول موسى عليه السلام له : ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاء إِلاَّ رَبُّ السموات والأرض بَصَائِرَ ﴾ [الإسراء : 102] ، والسؤال

يحتمل أن يكون عن المسمى ووقع بما دون من لأنه مجهول بزعمهم فهو كما يقال للشبح المرئي ما هو فإذا عرف أنه من ذوي العلم قيل من هو ، ويحتمل أن يكون عن معنى الاسم ووقوعه بما حينئذ ظاهر .

وقيل : سألوا عن ذلك لأنهم ما كانوا يطلقونه على الله تعالى كما يطلقون الرحيم والرحوم والراحم عليه تعالى أو لأنهم ظنوا أن المراد به غيره عز وجل فقد شاع فيما بينهم تسمية مسيلمة برحمن اليمامة فظنوا أنه المراد بحمل التعريف على العهد .

وقيل : لأنه كان عبرانياً وأصله رخمان بالخاء المعجمة فعرب ولم يسمعوه .

والأظهر عندي أن ذلك عن تجاهل وأن السؤال عن المسمى ولذا قالوا : ﴿ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا ﴾ أي للذي تأمرنا بالسجود له من غير أن نعرفه .

فما موصولة والعائد محذوف .

وأصل الجملة المشتملة عليه ما أشرنا إليه .

ثم صار تأمرنا بسجوده ثم تأمرنا سجوده كأمرتك الخير ثم تأمرناه بحذف المضاف ثم تأمرنا .

واعتبار الحذف تدريجاً مذهب أبي الحسن .

ومذهب سيبويه أنه حذف كل ذلك من غير تدريج ، ويحتمل أن تكون ما نكرة موصوفة وأمر العائد على ما سمعت .

ويجوز أن تكون مصدرية واللام تعليلية والمسجود له محذوف أو متروك أي أنسجد له لأجل أمرك إيانا أو أنسجد لأجل أمرك إيانا .

وقرأ ابن مسعود .

والأسود بن زيد .

وحمزة .

(223/562)

والكسائي ﴿ يأمرنا ﴾ بالياء من تحت على أن الضمير للنبي صلى الله عليه وسلم وهذا القول قول بعضهم لبعض ﴿ تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ ﴾ أي الأمر بالسجود للرحمن .

والإسناد مجازي .

والجملة معطوفة على ﴿ قَالُواْ ﴾ أي قالوا ذلك وزادهم ﴿ نُفُورًا ﴾ عن الايمان وفي اللباب أن فاعل ﴿ زَادَهُمْ ﴾ ضمير السجود لما روى أنه صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله تعالى عنهم سجدوا فتباعدوا عنهم مستهزئين ، وعليه فليست معطوفة على جواب إذا بل على مجموع الشرط والجواب كما قيل : وفي لا يستقدمون من قوله تعالى : ﴿

فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [الأعراف : 34] والأول أولى وأظهر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 19 صـ ﴾

(224/562)

وقال القاسمى :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّراً وَنَذِيراً قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾

أي : على تبليغ الرسالة المفهوم من : ﴿ أَرْسَلْنَاكَ ﴾ : ﴿ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً ﴾ أي : يتقرب إليه بالإيمان والطاعة . أي : إلى رحمته أو جنابه . فاتخاذ السبيل ، مراد به لازم معناه . لأن من سلك طريق شيء ، قرب إليه ، بل وصل .

قال الزمخشريّ : مثال : ﴿ إِلَّا مَنْ شَاءَ ﴾ والمراد : إلّا فعل من شاء . واستثنائه عن . الأجر قول ذي شفقة عليك ، قد سعى لك في تحصيل مالٍ : ما أطلب منك ثواباً على ما سعيت ، إلا أن تحفظ هذا المال ولا تضيعه . فليس حفظك المال لنفسك من جنس الثواب . ولكن صورّه هو بصورة الثواب وسماه باسمه ، فأفاد فائدتين : إحداهما : قلع شبهة الطمع في الثواب من أصله . كأنه يقول لك : إن كان حفظك لمالك ثواباً ، فإني أطلب الثواب .

والثانية : إظهار الشفقة البالغة ، وأنك إن حفظت مالك اعتدّ بحفظك ثواباً ورضي به ، كما يرضى المثاب بالثواب .

ولعمري إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان مع المبعوث إليهم بهذا الصدد وفوقه .

انتهى .

والاستثناء على هذا متصل ادعاء .

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ ﴾

أي : في دفع شرهم ومكرهم : ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً ﴾ أي : عليماً لا يعزب عنه منها شيء ، فيجزيهم عليها .

(225/562)

﴿ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ أي : من أيامه تعالى ، أو أيام الخلق ، قولان للسلف : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ أي : علا فوقه علوّاً يليق بجلاله المقدس . وتقدم تفسيره : ﴿ الرَّحْمَنُ ﴾ مرفوع على المدح . أي : هو الرحمن ، وهو في الحقيقة وصف آخر للحيّ ، كما قرئ بالجرّ . وقيل : الموصول مبتدأ والرحمن خبره . وقيل : الرحمن بدل من المستكن في : ﴿ اسْتَوَى ﴾ وقوله تعالى : ﴿ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً ﴾ فيه

أوجه : منها الباء في به صلة اسأل ومنها أنها صلة خبيراً وخبيراً مفعول اسأل أي : فسل عنه رجلاً عارفاً يخبرك برحمته . أو فسل رجلاً خبيراً به وبرحمته . وعليه ففائدة سؤاله هو تصدقه وتأييده .

قال الشهاب : ويصح تنازعهما – أي : اسأل وخبيراً – في الباء . وفيه حينئذ نوع من البديع غريب يسمى المتجاذب . وهو كون لفظ واحد بين جملتين يصح جعله من الأولى والثانية . وقد ذكره السعد في أواخر " شرح المفتاح " وهذا مما غفل عنه أصحاب البديعيات . انتهى . ومنها أن الباء للتجريد . كقولك رأيت به أسداً . أي : برؤيته . أي : اسأل بسؤاله خبيراً والمعنى : إن سألته وجدته خبيراً .

قال في " الكشف " : وهو أوجه ، ليكون كالتتميم لقوله : ﴿ الَّذِي خَلَقَ ﴾ ، الخ فإنه لإثبات القدرة ، مدمجاً فيه العلم .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ ﴾ أي : من المسمى به ؟ لأنهم ما كانوا يعرفونه تعالى بهذا الاسم ولا يطلقونه عليه . أو الاستفهام للتعجب والاستغراب ، تفنناً في الإباء . أي : وما هذه الأسماء والأعلام التي تصدعنا بها ، وتقرع آذاننا بالإذعان لها ﴿ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ ﴾ أي : الأمر بالسجود ، المراد به الإذعان بالإيمان : ﴿ نُفُوراً ﴾ أي : استكباراً عن الإيمان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 12 صـ 453.451 ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (56) ﴾

لما أفضى الكلامُ بأفانين انتقالاته إلى التعجيب من استمرارهم على أن يعبدوا ما لا يضرهم ولا ينفعهم أُعقب بما يومىء إلى استمرارهم على تكذيبهم محمداً صلى الله عليه وسلم في دعوى الرسالة بنسبة ما بلغه إليهم إلى الإفك ، وأنه أساطير الأولين ، وأنه سِحر ، فأبطلت دعاويهم كلها بوصف النبي بأنه مرسل من الله ، وقصره على صفتي التبشير والنذارة .

وهذا الكلام الوارد في الردّ عليهم جامع بين إبطال إنكارهم لرسالته وبين تأنيس الرسول عليه الصلاة والسلام بأنه ليس بمضلّ ولكنه مُبشّر ونذير .

وفيه تعريض بأن لا يحزن لتكذيبهم إياه .

ثم أمره بأن يخاطبهم بأنه غير طامع من دعوتهم في أن يعتز باتِّباعهم إياه حتى يحسبوا أنهم إن أعرضوا عنه فقد بلغوا من النكاية به أملهم ، بل ما عليه إلا التبليغ بالتبشير والنذارة لفائدتهم لا يريد منهم الجزاء على عمله ذلك .

والأجر : العوض على العمل ولو بعمل آخر يقصد به الجزاء .

والاستثناء تأكيد لنفي أن يكون يسألهم أجراً لأنه استثناء من أحوال عامة محذوف ما يدل عليها لقصد التعميم ، والاستثناء معيار العموم فلذلك كثر في كلام العرب أن يجعل تأكيد الفعلِ في صورة الاستثناء ، ويسمى تأكيد المدح بما يشبه الذم ، وبعبارة أتقن تأكيدَ الشيء بما يشبه ضده وهو مرتبتان : منه ما هو تأكيد محض وهو ما كان المستثنى فيه منقطعاً عن المستثنى منه أصلاً كقول النابغة:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم . . .

بهن فلول من قراع الكتائب

(227/562)

فإن فلول سيوفهم ليس من جنس العيب فيهم بحال ؛ ومنه مرتبة ما هو تأكيد في الجملة وهو ما المستثنى فيه ليس من جنس المستثنى منه لكنه قريب منه بالمشابهة لم يطلق عليه اسم المشبه به بما تضمنه الاستثناء كما في قوله : ﴿ قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى ﴾ [الشورى : 23] ، ألا ترى أنه نفى أن يكون يسألهم أجراً على الإطلاق في قوله تعالى ﴿ قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين ﴾ [ص : 86] .

فقوله تعالى : ﴿ إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً ﴾ من قبيل المرتبة الثانية لأن الكلام

على حذف مضاف يناسب أجراً إذ التقدير : إلا عمل من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً ، وذلك هو اتباع دين الإسلام .

ولما كان هذا إجابة لدعوة الرسول صلى الله عليه وسلم أشبه الأجر على تلك الدعوة فكان نظير قوله ﴿ قل لا أسألكم عليه أجراً إلاّ المودة في القربى ﴾ [الشورى : 23] .

وقد يسمون مثل هذا الاستثناءِ الاستثناء المنقطع ويقدرونه كالاستدراك .

والسبيل : الطريق .

واتخاذ السبيل تقدم آنفاً في قوله : ﴿ يا ليتني اتخذتُ مع الرسول سبيلاً ﴾ [الفرقان : 27] .

وجعل السبيل هنا إلى الله لأنه وسيلة إلى إجابته فيما دعاهم إليه وهذا كقوله تعالى : ﴿ فمن شاء اتخذ إلى ربه مآباً ﴾ [النبأ : 39] .

وذكر وصف الرب دون الاسم العلَم للإشارة إلى استحقاقه السير إليه لأن العبد محقوق بأن يرجع إلى ربه وإلاّ كان آبقاً .

وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا (58)

عطف على جملة ﴿ قل ما أسألكم عليه من أجر ﴾ [الفرقان : 57] أي قل لهم ذلك وتوكل على الله في دعوتك إلى الدين فهو الذي يجازيك على ذلك ويجازيهم .

والتوكل : الاعتماد وإسلام الأمور إلى المتوكل عليه وهو الوكيل ، أي المتولّي مهمّات غيره ، وقد تقدم في قوله تعالى : ﴿ فإذا عزمتَ فتوكَّل على الله ﴾ في آل عمران (159) .

(228/562)

و ﴿ الحي الذي لا يموت ﴾ هو الله تعالى .

وعدل عن اسم الجلالة إلى هذين الوصفين لما يؤذن به من تعليل الأمر بالتوكل عليه لأنه الدائم فيفيد ذلك معنى حصْر التوكل في الكون عليه ، فالتعريف في ﴿ الحي ﴾ للكامل ، أي الكامل حياته لأنها واجبة باقية مستمرة وحياة غيره معرضة للزوال بالموت ومعرضة لاختلال أثرها بالذهول كالنوم ونحوه فإنه من جنس الموت ، فالتوكل على غيره معرض للاختلال وللانخرام .

وفي ذكر الوصفين تعريض بالمشركين إذ ناطوا آمالهم بالأصنام وهي أموات غير أحياء .

وفي الآية إشارة إلى أن المرء الكامل لا يثق إلا بالله لأن التوكل على الأحياء المعرضين للموت وإن كان قد يفيد أحياناً لكنه لا يدوم .

وأما أمره بالتسبيح فهو تنزيه الله عما لا يليق به وأول ذلك الشركة في الإلهية ، أي إذا أهمّك أمر إعراض المشركين عن دعوة الإسلام فعليك نفسك فنزه الله .

والباء في ﴿ بحمده ﴾ للمصاحبة ، أي سبحه تسبيحاً مصاحباً للثناء عليه بما هو أهله .

فقد جمع له في هذا الأمر التخلية والتحلية مقدّماً التخلية لأن شأن الإصلاح أن يبدأ بإزالة النقص .

وأمْر النبي صلى الله عليه وسلم يشمل الأمة ما لم يكن دليل على الخصوصية .

وجملة ﴿ وكفى به بذنوب عباده خبيراً ﴾ اعتراض في آخر الكلام ، فيفيد معنى التذييل لما فيه من الدلالة على عموم علمه تعالى بذنوب الخلق ، ومن ذلك أحوال المشركين الذين هم غرض الكلام .

ففي (ذنوب عباده) عُمومان : عمومُ ذنوبهم كلّها لإفادة الجمع المضاف عمومَ إفراد المضاف ، وعمومُ الناس لإضافة (عباد) إلى ضمير الجلالة ، أي جميعِ عباده ، مع ما في صيغة (خبير) من شدة العلم وهو يستلزم العموم فكان كعموم ثالث .

والكفاية : الإجزاء ، وفي فعل ﴿ كفى ﴾ إفادة أنه لا يحتاج إلى غيره وهو مستعمل في الأمر بالاكتفاء بتفويض الأمر إليه .

والباء لتأكيد إسناد الفعل إلى الفاعل .

وقد كثر دخول باء التأكيد بعدَ فعل الكفاية على فاعله أو مفعوله ، وتقدم في قوله تعالى :

﴿ كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً ﴾ في سورة الإسراء (14) .

و﴿ خبيراً ﴾ حال من ضمير ﴿ به ﴾ أي كفى به من حيث الخبرة .

والعلمُ بالذنوب كناية عن لازمه وهو أنه يجازيهم على ذنوبهم ، والشرك جامع الذنوب .

وفي الكلام أيضاً تعريض بتسلية الرسول صلى الله عليه وسلم على ما يلاقيه من أذاهم .

الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا (59)

أجريت هذه الصلة وصفاً ثانياً ل ﴿ الحي الذي لا يموت ﴾ [الفرقان : 58] لاقتضائها سعة العلم وسعة القدرة وعظيم المجد ، فصاحبها حقيق بأن يُتوكل عليه ويفوض أمر الجزاء إليه .

وهذا تخلّص إلى العود إلى الاستدلال على تصرف الله تعالى بالخلق .

وتقدم الكلام على خلق السماوات والأرض في ستة أيام في سورة البقرة ، وعلى الاستواء في سورة الأعراف .

و﴿ الرحمان ﴾ خبر مبتدأ محذوف ، أي هو الرحمان .

وهذا من حذف المسند إليه الغالب في الاستعمال عندما تتقدم أخبار أو أوصاف

لصاحبها ، ثم يُراد الإخبار عنه بما هو إفصاح عن وصف جامع لما مضى أو أهم في الغرض مما تقدمه ، فإن وصف الرحمن أهم في الغرض المسوق له الكلام وهو الأمر بالتوكل عليه فإنه وصف يقتضي أنه يدبر أمور من توكل عليه بقوي الإسعاف .

وفرع على وصفه بـ ﴿ الرحمان ﴾ قوله ﴿ فسئل به خبيراً ﴾ للدلالة على أن في رحمته من العظمة والشمول ما لا تفي فيه العبارة فيعدل عن زيادة التوصيف إلى الحوالة على عليم بتصاريف رحمته مُجرب لها مُتلقّ أحاديثها ممن عَلِمها وجرّبها .

وتنكير ﴿ خبيراً ﴾ للدلالة على العُموم ، فلا يظن خبيراً معيناً ، لأن النكرة إذا تعلق بها فعل الأمر اقتضت عموماً بدليل أيّ خبير سألته أعلمك .

(230/562)

وهذا يجري مجرى المثل ولعله من مبتكرات القرآن نظير قول العرب : "على الخبير سقطتَ" يقولها العارف بالشيء إذا سُئِل عنه .

والمَثلان وإن تساويا في عدد الحروف المنطوق بها فالمثَل القرآني أفصحُ لسلامته من ثقل تلاقي القاف والطاء والتاء في (سقطت) .

وهو أيضاً أشرف لسلامته من معنى السقوط ، وهو أبلغ معنى لما فيه من عموم كل خبير ،

بخلاف قولهم : على الخبير سقطتَ ، لأنها إنما يقولها الواحد المعيَّن .

وقريب من معنى ﴿ فسئل به خبيراً ﴾ قول النابغة:

هلا سألت بني ذبيان ما حسبي . . .

إذا الدخان تغشى الأشمط البرما

إلى قوله:

يخبرك ذو عرضهم عني وعالمهم . . .

وليس جاهلُ شيء مثلَ مَن علما

والباء في ﴿ به ﴾ بمعنى (عن) أي فاسأل عنه كقول علقمة:

فإن تسألُوني بالنساء فإنني . . .

خبير بأدواء النساء طبيب

ويجوز أن تكون الباء متعلقة بـ ﴿ خبيراً ﴾ وتقديم المجرور للرعي على الفاصلة وللاهتمام ، فله سببان .

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا (60)

لما جرى وصف الله تعالى بالرحمان مع صفات أخر استطرد ذكر كُفر المشركين بهذا الوصف .

وقد علمت عند الكلام على البسملة في أول هذا التفسير أن وصف الله تعالى باسم (

الرحمان) هو من وضع القرآن ولم يكن معهوداً للعرب ، وأما قول شاعر اليمامة في مدح مُسيلمة:

سموْتَ بالمجد يا بن الأكرمين أباً . . .

وأنت غيث الورى لا زلت رحمانا

فذلك بعد ظهور الإسلام في مدة الردة ، ولذلك لما سمعوه من القرآن أنكروه قصداً بالتورّك على النبي صلى الله عليه وسلم وليس ذلك عن جهل بمدلول هذا الوصف ولا بكونه جارياً على مقاييس لغتهم ولا أنه إذا وصف الله به فهو رب واحد وأن التعدد في الأسماء ؛ فكانوا يقولون : انظروا إلى هذا الصابىء ينهانا أن ندعو إلهين وهو يدعو الله ويدعو الرحمن .

(231/562)

وفي ذلك نزل قوله تعالى : ﴿ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمان أيّاً مَّا تدعوا فله الأسماء الحسنى ﴾ وقد تقدم في آخر سورة الإسراء (110) وهذه الآية تشير إلى آية سورة الإسراء .

والخبر هنا مستعمل كناية في التعجيب من عِنادهم وبهتانهم ، وليس المقصود إفادة

الإخبار عنهم بذلك لأنه أمر معلوم من شأنهم .

والسجود الذي أمروا به سجود الاعتراف له بالوحدانية وهو شعار الإسلام ، ولم يكن السجود من عبادتهم وإنما كانوا يطوفون بالأصنام ، وأما سجود الصلاة التي هي من قواعد الإسلام فليس مراداً هنا إذ لم يكونوا ممن يؤمر بالصلاة ولا فائدة في تكليفهم بها قبل أن يُسلِموا .

ويدل لذلك حديث معاذ بن جبل حين أرسله النبيءُ صلى الله عليه وسلم إلى اليمن فأمره أن يدعوهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، ثم قال : فإن هم أطاعوا لِذلك فأعلِمْهم أن الله افترض عليهم خمسَ صلوات في اليوم والليلة الخ .

ومسألة تكليف الكفار بفروع الشريعة لا طائل تحتها .

وواو العطف في قولهم ﴿ وما الرحمن ﴾ لعطفهم الكلام الذي صدر منهم على الكلام الذي وُجه إليهم في أمرهم بالسجود للرحمان ، على طريقة دخول العطف بين كلامي متكلمين كما في قوله تعالى : ﴿ قال إني جاعلُك للناس إماماً قال ومِن ذرّيتي ﴾ [البقرة : 124] .

و﴿ ما ﴾ من قوله ﴿ وما الرحمن ﴾ استفهامية .

والاستفهام مستعمل في الاستغراب ، يعنون تجاهل هذا الاسم ، ولذلك استفهموا عنه بما دون (مَن) باعتبار السؤال عن معنى هذا الاسم .

والاستفهام في ﴿ أنسجد لما تأمرنا ﴾ إنكار وامتناع ، أي لا نسجد لشيء تأمرنا بالسجود له على أن ﴿ ما ﴾ نكرة موصوفة ، أو لا نسجد للذي تأمرنا بالسجود له إن كانت ﴿ ما ﴾ موصولة ، وحُذف العائد من الصفة أو الصلة مع ما اتصل هو به لدلالة ما سبق عليه ، ومقصدهم من ذلك إباء السجود لله لأن السجود الذي أمروا به سجود لله بنيّة انفراد الله به دون غيره ، وهم لا يجيبون إلى ذلك كما قال الله تعالى:

﴿ وقد كانوا يُدعون إلى السجود وهم سالمون ﴾ [القلم : 43] ، أي فيأبَون ، وقال : ﴿ وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون ﴾ [المرسلات : 48] .

ويدل على ذلك قوله ﴿ وزادهم نفوراً ﴾ فالنفور من السجود سابق قبل سماع اسم الرحمن .

وقرأ الجمهور ﴿ تأمرنا ﴾ بتاء الخطاب .

وقرأه حمزة والكسائي بياء الغيبة على أن قولهم ذلك يقولونه بينهم ولا يشافِهون به النبي صلى الله عليه وسلم

والضمير المستتر في ﴿ زادهم ﴾ عائد إلى القول المأخوذ من ﴿ وإذا قيل لهم ﴾ .

والنفور : الفرار من الشيء .

وأطلق هنا على لازمه وهو البعد .

وإسناد زيادة لنفور إلى القول لأنه سبب تلك الزيادة فهم كانوا أصحاب نفور من سجود لله فلما أمروا بالسجود للرحمان زادوا بُعداً من الإيمان ، وهذا كقوله في سورة نوح (6) ﴿ فلم يَزِدْهم دُعائي إلا فراراً ﴾

وهذا موضع سجدة من سجود القرآن بالاتفاق .

ووجه السجود هنا إظهار مخالفة المشركين إذ أبوا السجود للرحمان ، فلما حكي إباؤهم من السجود للرحمان في معرض التعجيب من شأنهم عُزز ذلك بالعمل بخلافهم فسجد النبي هنا مخالفاً لهم مخالفة بالفعل مبالغة في مخالفته لهم بعد أن أبطل كفرهم بقوله : ﴿ وتوكل على الحي الذي لا يموت ﴾ [الفرقان : 58] الآيات الثلاث .

وسنّ الرسول عليه السلام السجود في هذا المَوضع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 19 صـ ﴾

(233/562)

وقال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ الذي خَلَقَ السماوات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾

قد قدمنا الآية التي فيها تفصيل ذلك في سورة الأعراف في الكلام على قوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ الله الذي خَلَقَ السماوات والأرض فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ [الأعراف : 54] .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ استوى عَلَى العرش الرحمن فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً ﴾ .

قد قدمنا إيضاحه بالآيات القرآنية في سورة الأعراف ، في الكلام على قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ استوى عَلَى العرش ﴾ الآية .

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا (60)

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أن الكفار إذا قيل لهم : اسجدوا للرحمن أي قال لهم ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمون ، تجاهلوا الرحمن ، وقالوا : وما الرحمن ، وأنكروا السجود له تعالى ، وزادهم ذلك نفوراً عن الإيمان والسجود للرحمن ، وما ذكره هنا من أنهم أمروا بالسجود له وحده جل وعلا جاء مذكوراً في غير هذا الموضع كقوله تعالى : ﴿ لاَ تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلاَ لِلْقَمَرِ واسجدوا لِلَّهِ الذي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [فصلت : 37 :] .

وقوله تعالى : ﴿ فاسجدوا لِلَّهِ واعبدوا ﴾ [النجم : 62] وقد وبخهم تعالى على عدم امتثال ذلك في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قُرِىءَ عَلَيْهِمُ القرآن لاَ يَسْجُدُونَ ﴾ [الإنشقاق : 21

] . وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لاَ يَرْكَعُونَ ﴾ [المرسلات : 48] وتجاهلهم للرحمن هنا أجابهم عنه تعالى بقوله : ﴿ الرحمن عَلَّمَ القرآن خَلَقَ الإنسان عَلَّمَهُ البيان ﴾ [الرحمن : 14] .

(234/562)

وقوله تعالى : ﴿ قُلِ ادعوا اللهَ أَوِ ادعوا الرحمن أَيّاً مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ الأسمآء الحسنى ﴾ [الإسراء : 110] . وقد قدمنا طرفاً من هذا في الكلام على هذه الآية ؛ وقد قدمنا أيضاً أنهم يعلمون أن الرحمن هو الله ، وأن تجاهلهم له تجاهل عارف ، وأدلة ذلك . وقوله هنا : وزادهم نفوراً ، جاء معناه في غير هذا الموضع كقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هذا القرآنِ لِيَذَّكَّرُواْ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ نُفُوراً ﴾ [الإسراء : 41] .

وقوله تعالى : ﴿ بَل لَّجُّواْ فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴾ [الملك : 21] إلى غير ذلك من الآيات . انتهى انتهى . اهـ ﴿ أضواء البيان حـ 6 صـ ﴾

(235/562)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (56) ﴾

صحيح أن الله تعالى قال لرسوله صلى الله عليه وسلم : ﴿ يا أَيُّهَا النبي جَاهِدِ الكفار والمنافقين واغلظ عَلَيْهِمْ ﴾ [التوبة : 73] لكن لا يعني هذا أن يهلك رسول الله نفسه في دعوتهم ، ويألم أشد الألم لعدم إيمانهم ؛ لأن مهمة الرسول البلاغ ، وقد أسف رسول الله لحال قومه حتى خاطبه ربه بقوله : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ على آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بهذا الحديث أَسَفاً ﴾ [الكهف : 6] .

وما أمره الله بجهاد الكفار والمنافقين إلا ليحفزه ، فلا يترك جُهْداً إلا بذله معهم ، وإلاّ فأنت عندي مُبشِّر ومُنذِر ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّراً ﴾ [الفرقان : 56] أي : بالخير قبل أوانه ليتلفت الناس إلى وسائله ﴿ وَنَذِيراً ﴾ [الفرقان : 56] أي : بالشر قبل أوانه ليحذره الناس ، ويجتنبوا أسبابه ووسائله .

ثم يوجه رب العزة نبيه ورسوله صلى الله عليه وسلم : ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ في آية أخرى : يقول تعالى : ﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْراً فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴾ [الطور : 40] .

يعني : غير قادرين على دَفْع الثمن ؛ لأنهم بخلاء وعندهم كزازة ؟ أو لا يريدون أنْ يُخرِجوا من جيوبهم شيئاً تنتفع أنت به ؟ مع أنك لم تسألهم أجراً ، فهل يعني ذلك أن النبي كان من المفروض أن يسألهم أجراً ؟

قالوا : نعم ؛ لأنه إذا قدَّم إنسانٌ لإنسان شيئاً نافعاً ، فعليه أن يدفع له أجراً بمقتضى التبادل والمعاوضة ، وكأنه صلى الله عليه وسلم يقول لهم : لقد قدَّمتُ إليكم جميلاً يفترض أن لي عليه أجراً ، لكني لا أريد منكم أجراً ، والمسألة من عندي تفضُّل .

(236/562)

وما هو الأجر ؟ الأجر : جُعْلٌ يقابل عملاً ، والثمن : جعل يقابل تملُّكاً ، وقيمة هذا الجُعْل تختلف باختلاف مشقة العمل ، وطُول زمنه ، ومهارة العامل فيما يقتضيه العمل ومخاطر ما يقتضيه العمل .

فكل مسألة من هذه ترفع من قيمة الأجر ، فحين تسافر مثلاً تحتاج إلى (شيَّال) يحمل لك الحقائب ، فتعطيه الأجر الذي يتناسب ومجهوده ، فإن استأجرت سيارة وسِرْتَ بها مسافة فلا بُدَّ أن الأجر سيزيد ؛ لأنه أخَذ مجهوداً ووقتاً أكثر ، فإن احتجتَ مثلاً سباكاً ليصلح لك شيئاً فسوف ترى ما في هذا العمل من المشقة ، ولا تبخل عليه بأكثر من سابقيه .

وربما كان العمل في نظرك بسيطاً لا يستغرق وقتاً ، لكنه يحتاج إلى مهارة . هذه المهارة ليست وليدة اللحظة ، ولكنها مجهود ونتيجة عوامل من التعلُّم والخبرة حتى وصل صاحبها

إلى هذه المهارة .

فالمهندس مثلاً الذي يُصمِّم لك منزلك في ساعة أو ساعتين ، ومع ذلك يطلب مبلغاً كبيراً ، لماذا ؟ لأنه لا يتقاضى أجراً على هذا الوقت ، إنما على سنواتٍ طويلة من الدراسة والجهود والتحصيل ، حتى وصل إلى هذه المهارة .

إذن : كل أجر يُقدَّر بما يقابله من عمل ، ويتناسب مع ما يقتضيه العمل من وقت ومجهود ومشقة ومخاطرة ومهارة . . ألخ .

وإذا كان الأمر كذلك فانظروا إلى عمل الرسول وإلى مدى إفادتكم من رسالته ، انظروا إلى المنهج الذي جاءكم به ، وكيف أنه يريحكم مع أنفسكم ، ويريحكم مع المجتمع ، ويريحكم مع ربكم عز وجل ، ويريحكم من شرور أنفسكم ، ومن شرور الناس جميعاً .

إذن : للرسول عمل كبير ومجهود عظيم ، لو قدَّرْتَ له أجراً لكان كذلك عظيماً . إن الإنسان إذا أَجَّر مثلاً حارساً يحرسه بالليل ، كم يدفع له ؟ فالنبي يأتيك بمنهج يحرسك ويحميك في نفسك وفي مالك وفي عِرْضك وفي كل ما تملك ، ولا يحميك من فئة معينة إنما يحميك من الناس أجمعين .

(237/562)

بل إن حماية منهج الله لك لا تقتصر على الدنيا ، إنما تتعدَّى إلى الآخرة ، فتحميك فيها حماية ممتدة لا نهايةَ لها ، فإنْ قدَّرْت لهذه الحماية أجراً ، فكم يكون ؟

إنما أنا أقول لك : لا أريد أجراً ، لا كراهيةً في الأجر ، بل لأنك أنت أيها الإنسان لا تستطيع تقدير هذا العمل أو تقييم الأجر عليه ، أمَّا الذي يُقدِّر ذلك فهو ربِّي الذي بعثني ، وأنت أيها العبد مهما قدَّمْتَ لي من أجر على ذلك فهو قليل .

وحكينا قصة الرجل الطيب الذي قابلناه في الجزائر ، يقف على الطريق يُلوِّح لسيارة تحمله ، فوقفنا وفتحنا له الباب ليركب معنا ، وقبل أن يركب قال : بكَمْ ؟ يعني : الأجرة . فقال له صاحبي : لله ، فقال الرجل : إذن فهي غالية جداً . هذا هو المعنى في قوله تعالى : ﴿ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللهِ ﴾ [هود : 29] .

وفي موضع آخر يقول سبحانه : ﴿ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ المسلمين ﴾ [يونس : 72] فما العلاقة بين الأجر وبين ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ المسلمين ﴾ [يونس : 72] ؟

كأن المسلم ينبغي عليه أن يعمل العمل ، لا لمن يعمل له ، ولكن يعمله لله ليأخذ عليه الأجر الذي يناسب هذا العمل من يده تعالى ، إنما إنْ أخذه من صاحبه فهو كالذي " فعل ليقال وقد قيل " وانتهتْ المسألة ، وربما حتى لا يُشكر على عمله .

لذلك وردتْ هذه العبارة على ألسنة كل الرسل : ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ [

الشعراء : 109] وليس هناك آية طلب فيها الأجر الظاهر إلا هذه الآية التي نحن بصددها : ﴿ قُلْ مَآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلاَّ مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلى رَبِّهِ سَبِيلاً ﴾ [الفرقان : 57] .

وقوله تعالى : ﴿ إِلاَّ المودة فِي القربى ﴾ [الشورى : 23] .

(238/562)

ومعنى : ﴿ إِلاَّ مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلى رَبِّهِ سَبِيلاً ﴾ [الفرقان : 57] أي : سبيلاً للمثوبة ، وسبيلاً للأجر من جهاد في سبيل الله ، أو صدقة على الفقراء . . إلخ .

وقوله : ﴿ إِلاَّ مَن شَآءَ ﴾ [الفرقان : 57] تدل على التخيير في دَفْع الأجر ، فالرسول لا يأخذ إلا طواعية ، والأجر : ﴿ أَن يَتَّخِذَ إِلى رَبِّهِ سَبِيلاً ﴾ [الفرقان : 57] من الجهاد والعمل الصالح ، فكأن أجر الرسول العمل للغير ، لتأخذ أنت الأجر من الله ، فالرسول لا يأخذ شيئاً لنفسه .

ونلحظ في آيات الأَجْر أنها جاءت مرة ﴿ أَجْراً ﴾ [الأنعام : 90] ومرة ﴿ مِنْ أَجْرٍ ﴾ [الفرقان : 57] والبعض يرى أن (من) هنا زائدة ، وهذا لا يُقال في كلام الله ، عَيْب أن نتهم كلام الله بأن فيه زيادة ، فكلُّ حرف فيه له معناه .

وسبق أن ضربنا لِمنْ هذه مثلاً بقولنا : ما عندي مال ، وما عندي من مال . فالأولى نفَتْ أنْ يكون عندك مالٌ يُعتدُّ به ، لكن قد يكون عندك القليل منه ، أما القول الثاني فيعني نَفْي المال مطلقاً بدايةً مِمَّا يقال له مال ، إذن : فأيهما أبلغ في النفي ؟ فمِنْ هنا تفيد العموم .

لذلك يقول تعالى : ﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجاً فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ﴾ [المؤمنون : 72] لماذا ؟ لأنه سيعطيك ويُكافئك على قَدْره هو ، وبما يناسب جُودَه تعالى وكرمه الذي لا ينفد ، أما الإنسان فسيعطيك على قَدْره وفي حدود إمكاناته المحدودة .

مَلْحظ آخر في هذه المسألة في سورة الشعراء ، وهي أحفَلُ السُّور بذِكْر مسألة الأجر ، حيث تعرَّضَتْ لموكب الرسل ، فذكرت ثمانية هم : موسى وهارون وإبراهيم ونوح وهود وصالح ولوط وشعيب .

تلحظ أن كل هؤلاء الرسل قالوا : ﴿ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ على رَبِّ العالمين ﴾ [الشعراء : 109] عدا إبراهيم وموسى عليهما السلام لم يقولا هذه الكلمة ، لماذا ؟

قالوا : لأنك حين تطلب أجراً على عمل قمتَ به لا يكون هناك ما يُوجب عليك أنْ تعمل له مجاناً ، فأنت لا تتقاضى أجراً إنْ عملتَ مثلاً مجاملةً لصديق ، وكذلك إبراهيم عليه السلام

أول ما دعا إلى الإيمان دعا عمه آزر ، ومثل هذا لا يطلب منه أجراً ، وموسى عليه السلام أول ما دعا دعا فرعون الذي احتضنه وربَّاه في بيته ، ولو طلب منه أجراً لقال له : أيّ أجر وقد ربَّيتك وو . . إلخ .

الآية الأخرى في الاستثناء هي قوله تعالى : ﴿ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ المودة فِي القربى ﴾ [الشورى : 23] فكأن المودة في القربى أجر لرسول الله صلى الله عليه وسلم على رسالته ، لكن أيُّ قُرْبى : قُرْبى النبي أم قُرْباكم ؟

لا شكَّ أن النبي الذي يجعل حُبَّ القريب للقريب ورعايته له هو أجره ، يعني بالقُرْبى قُرْبى المسلمين جميعاً ، كما قال عنه ربُّه عَزَّ وجَلَّ : ﴿ النبي أولى بالمؤمنين مِنْ أَنْفُسِهِمْ ﴾ [الأحزاب : 6] .

وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا (58)

الحق تبارك وتعالى يُطمئن رسوله صلى الله عليه وسلم يا محمد لا تهتم بكثرة الكفار ومكرهم بك وتعاونهم مع شياطين الإنس والجن ؛ لأن هؤلاء سيتساقطون ويموتون ، إما بأيديكم ، أو بعذاب من عند الله ، وعلى فَرْض أنهم عاشوا فلن تغلب قوتهم وحِيلُهم قوة الله تعالى ومكره ، وإنْ توكلوا على أصنام لا تضر ولا تنفعَ ، فتوكل أنت على الله : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الحي الذي لاَ يَمُوتُ ﴾ [الفرقان : 58] .

والعاقل لا يتوكل إلا عل مَنْ يثق به ويضمن معانوته ، وأنه سيوافقك في كل ما تريد ، لكن ما جدوى أنْ تتوكل على أحد ليقضي لك مصلحة ، وفي الصباح تسمع خبر موته ؟

(240/562)

وكأن الحق تبارك وتعالى يريد أن ينصّح خَلْقه : إنْ أردتَ أنْ تتوكل فتوكل على مَنْ ينفعك ولا يتركك ، على مَنْ يظل على العهد معك لا يتخلى عنك ، على مَنْ لا يُعجزه شيء في الأرض ولا في السماء . هذه هي الفِطْنة .

لكن ما جدوى أن تتوكل على مَنْ ليس فيه حياة ؟ وعلى فرض أن فيه حياةً دائمة فلا تضمن ألا يتغير قلبه عليك ؟

﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ ﴾ [الفرقان : 58] سبِّح يعني : نزِّه ، والتنزيه تضعه في إطار ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [الشورى : 11] فلله وجود ، ولك وجود ، لكن وجوده تعالى ليس كوجودك ، ولله صفة ولك نفس الصفة ، لكن صفته تعالى ليست كصفتك ، ولله تعالى فعل ، ولك فعل ، لكن فعله تعالى ليس كفعلك .

إذن : نزَّه الله في ذاته ، وفي صفاته ، وفي أفعاله عن مشابهة الخَلْق ، وما دام الحق سبحانه مُنزَّهاً في ذاته ، وفي صفاته ، وفي أفعاله ، فأنت تتوكّل على إله لا تطرأ عليه عوامل التغيير

أبداً .

وهذا التنزيه لله تعالى ، وهذه العظمة والكبرياء له سبحانه في صالحك أنت أيها الإنسان ، من صالحك ألاَّ يوجد لله شبيه ، لا في وجوده ، ولا في بقائه ، ولا في تصرُّفه ، من صالحك أن يعرف كل إنسان أن هناك مَنْ هو أعلى منه ، وأن الخَلْق جميعاً محكومون بقانون الله ، فهذا يضمن لك أن تعيش معهم آمناً ، إذن : من الخير لنا أن يكون الإله ليس كمثله شيء ، وأن يكون سبحانه عالياً فوق كل شيء .

ويجب عليك حين تُنزه الله تعالى ألاَّ تُنزِّهه تنزيهاً مُجرّداً ، إنما تنزيهاً مقرونا بالحمد ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ ﴾ [الفرقان : 58] فتحمده على أنه واحد لا شريك له ، ولا مثيل له ، وليس كمثله شيء ، ففي ظل هذه العقيدة لا يستطيع القويُّ أن يطغى على الضعيف ، ولا الغني على الفقير . . إلخ .

(241/562)

ثم يقول سبحانه : ﴿ وكفى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً ﴾ [الفرقان : 58] نقول : كفاك فلان . يعني : لا تحتاج لغيره . كقولنا : حَسْبُك الله يعني : كافيك عن الاحتياج لغيره ؛ لأنه يعطيك كُلَّ ما تحتاج إليه ، ويمنع عنك الشر ، وإنْ كنت تظنه خيراً لك .

وكأن الحق تبارك وتعالى يقيم لك (كنترولاً) يضبط حياتك ويضمن لك السلامة ، لذلك حين تدعو الله فلا يستجيب لك ، لا تظن أن الله تعالى موظفٌ عندك ، لا بُدَّ أن يُجيبك لما تريد ، إنما هو ربك ومتولٍّ أمرَك ، فيختار لك ما يصلح لك ، ويُقدِّم لك الجميل وإن كنت تراه غير ذلك .

وقد ضربنا لهذه المسألة مثلاً بالأم التي تكثِر الدعاء على ولدها ، فكيف بها إذا استجابَ الله لها ؟ إذن : من رحمة الله بها أنْ يردَّ دعاءها ، ويمنع إجابتها ، فمنع الإجابة هنا إجابة .

﴿ وكفى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً ﴾ [الفرقان : 58] المعنى : إذا توكلتَ على الحيِّ الذي لا يموت ، فآثار هذا التوكل أنْ يحميك من ذنوب العباد ، فهو وحده الذي يعلم ذنوبهم ، ويعلم حتى ما يدور في أنفسهم .

ألم يقُل الحق لرسوله صلى الله عليه وسلم : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الذين نُهُواْ عَنِ النجوى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بالإثم والعدوان وَمَعْصِيَتِ الرسول وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ الله وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلاَ يُعَذِّبُنَا الله بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ المصير ﴾ [المجادلة : 8] .

فما زال القَوْلُ في أنفسهم لم يخرج ، ومع ذلك أخبره الله به ، وكأن الحق سبحانه يُطمئن رسوله : مهما تآمروا عليك ، ومهما دبّروا لك ، ومهما تكاتف ضدك جنودُ الإنس والجن ،

فاطمئِنْ لأن ربك عليم بالذنوب التي قد لا تدركها أنت ، ولا حيلة عندك لردّها ، فيكفيك أن يعلم اللهُ ذنوبَ أعدائك .

(242/562)

﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ واللهُ خَيْرُ الماكرين ﴾ [الأنفال : 30] .

والخبير : الذي يعلم خبايا الأمور ، حتى في مسائل الدنيا الهامة تقول : نستدعي لها الخبير ؛ لأن المختص العادي لا يقدر عليها .

وفي موضع آخر يقول تعالى : ﴿ أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللطيف الخبير ﴾ [الملك : 14]

.

ثم ينقلنا الحق تبارك وتعالى إلى آية كونية ، تنضاف إلى الآيات السابقة ، والهدف من ذكر المزيد من الآيات الكونية أنه لعلَّها تصادف رقَّة قلبٍ واستمالة مواجيد ، فتعطف الخَلْق إلى الخالق ، وتُلفِت الأنظار إليه سبحانه .

الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا (59)

البعض يظن أن خَلْق السموات والأرض شيء سهل ، وأعظم منه خَلْق الإنسان ، لكن

الحق تبارك وتعالى يقول : ﴿ لَخَلْقُ السماوات والأرض أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ الناس ﴾ [غافر : 57] .

فالإنسان يخلقه الله ، وقد يموت بعد يوم ، أو بعد مائة عام ، وقد تصيبه في حياته الأمراض ، أمّا السموات والأرض ، فقد خلقها الله تعالى بهندسة دقيقة ، وقوانين لا تختلف ولا تختل مع ما يمرُّ عليها من أزمنة ، وكأن الحق سبحانه يقول للإنسان : إن السموات والأرض هذه خلْقتي وصَنْعتي ، لو تدبرتَ فيها وتأملتَها لوجدتَها أعظم من خَلْقك أنت .

وقوله تعالى : ﴿ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ [الفرقان : 59] سبق أن تكلَّمنا في هذه المسألة وقلنا : إن جمهرة آيات القرآن تدل على أن الخَلْق تمَّ في مدة ستة أيام إلا سورة واحدة تُشعِر آياتها أن الخلق في ثمانية أيام ، وهي سورة فصلت .

(243/562)

حيث يقول فيها الحق سبحانه وتعالى : ﴿ قُلْ أَإِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بالذي خَلَقَ الأرض فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ذَلِكَ رَبُّ العالمين * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ * ثُمَّ استوى إِلَى السمآء وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائتيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ * فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ

وأوحى فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السماء الدنيا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ذَلِكَ تَقْدِيرُ العزيز العليم ﴾ [فصلت : 912] .

وجملة هذه ثمانية أيام ، وكل مُجْمل يخضع للتفصيل إلا تفصيل العدد فيرجع للمجمل ، كيف ؟

الحق سبحانه يتكلم هنا عن خَلْق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ، ثم تكلَّم عن خَلْق الأرض في يومين ، وجعل فيها رواسي من فوقها ، وبارك فيها وقدَّر فيها أقواتها في أربعة أيام ، فالأربعة الأيام هذه تكملة لخَلْق الأرض فهي تكملة لليومين ، كأنه قال في تتمة أربعة أيام ، فالأرض في يومين والباقي أكمل الأربعة . كما تقول : سِرْتُ إلى طنطا في ساعة ، وإلى الأسكندرية في ساعتين أي يدخل فيهما الساعة الأولى إلى طنطا ، فاليومان من الأربعة الأيام .

لكن ، كيف نُقدِّر هذا اليوم ؟ الله يخاطبنا باليوم الذي نعرفه ونعرف مدلوله ، فالمعنى : في ستة أيام من أيامكم التي تعرفونها . وإلاَّ لو كان المراد يوماً لا نعرفه نحن ، فسيكون لا معنى له ؛ لأننا لا نفهمه .

ولقائل أن يقول : كيف يستغرق الخَلْق كل هذه المدة والحق تبارك وتعالى يخلق بكُنْ ، وكن لا تحتاج وقتاً ؟ قالوا : فَرْق بين عملية الخَلْق وما يحتاجه المخلوق في ذاته .

فأنت مثلاً ، إنْ أردتَ أنْ تصنع كوباً من الزبادي تحضر اللبن مثلاً وتضع عليه خميرة الزبادي المعروفة المأخوذة من زبادي دسم سبق صُنْعه ، وتضعه في درجة حرارة معينة ، بعد هذه العملية تكون قد صنعت الزبادي فعلاً ، لكن هل يمكنك أن تأكل منه فَوْر الانتهاء من صناعته ؟ لا ، بل لا بُدَّ أن تتركه عدة ساعات لتتفاعل عناصره ، فهل تقول : أنا صنعت الزبادي في عدة ساعات مثلاً ؟

كذلك ، حين تذهب إلى (الترزي) لتفصيل ثَوْب مثلاً يقول لك : موعدنا بعد شهر ، فهل تستغرق خياطة الثوب شهراً ؟ لا ، إنما مدته عنده شهر .

فالحق تبارك وتعالى يفعل ويخلق دون معالجة ، وبالتالي دون زمن ؛ لأنه سبحانه يقول للشيء : كُنْ فيكون .

وقوله : سبحانه : ﴿ ثُمَّ اسْتوى عَلَى العرش ﴾ [الفرقان : 59] سبق أن تكلمنا في هذه المسألة : فاستوى تعني : صعد وارتفع وعلا وجلس ، ونحن نُنزِّه الله تعلى عن استواء يشابه استواء خَلْقه .

والاستواء هنا رمزية لتمام الأمر بما نعرفه في عادة الملوك في الجلوس على كرسي العرش ، حين يتم لهم الأمر ويستتبّ .

و﴿ الرحمن ﴾ [الفرقان : 59] دليل على أن مسألة الخَلْق كلها تدور في إطار الرحمانية

﴿ فَسْئَلْ بِهِ خَبِيراً ﴾ [الفرقان : 59] لأنه سبحانه خلق السموات والأرض وخلقنا ، ومع ذلك لا نعرف : كيف تم هذا الخَلْق ؟ ولن نستطيع أن نقف على تفصيل هذا الخَلْق ، إلا إذا أطعلنَا الخالق عليه ، وإلاَّ فهذا أمر لم نشاهده ، فكيف نخوض فيه ، كمن يقول : إن الأرض كانت قطعةَ من الشمس ، ثم انفصلتْ عنها مع دوران الشمس . . إلخ هذه الأقوال .

لذلك الحق تبارك وتعالى يُحذِّرنا من سماع مثل هذه النظريات ، لأن مسألة الخَلْق لا تخضع للعلم التجريبي أَبداً ، فيقول سبحانه : ﴿ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السماوات والأرض وَلاَ خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ المضلين عَضُداً ﴾ [الكهف : 51] .

(245/562)

إذن : سيوجد في الكون مُضلون يقولون للناس مثل هذه الأقوال في الخَلْق ويدَّعُون بها أنهم علماء يعرفون ما لا يعرفه الناس ، فاحذروهم فما شاهدوا عملية الخَلْق ، وما كانوا مساعدين لله تعالى ، فيطلعوا على تفاصيل الخَلْق .

لذلك تقوم هذه الأقوال في خَلْق الإنسان وخَلْق السماء والأرض دليلاً على صِدْق هذه الآية ، فما موقف هذه الآية إذن إذا لم تقل هذه الأقوال ؟

ومثال ذلك الذين يحلو لهم التعصب للقرآن الكريم ضد الحديث النبوي يقول لك أحدهم : حدّثني عن القرآن ، سبحان الله ، أتتعصّب للقرآن ضد الرسول الذي بلَّغك القرآن ، وما عرفتَ القرآن إلا من طريقه ؟ يعني (الواد ربَّانيّ) لا يعترف إلا بالقرآن . ونقول لمثل هذا الذي يهاجم الحديث النبوي : أنت صليتَ المغرب ثلاث ركعات ، فأين هذا من القرآن ؟ لذلك يقول النبي صلى الله عليه وسلم : "يُوشك الرجل يتكىء على أريكته يُحدَّث بحديثي فيقول : بيني وبينكم كتاب الله ، فما وجدنا فيه حلالاً استحللناه ، وما كان حراماً حرَّمْناه ، وإن ما حرّم رسول الله كما حرّم الله " .

لماذا ؟ لأنِّي أقول لكم من باطن قَوْل الله تعالى : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرسول فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فانتهوا ﴾

[الحشر : 7] .

بالله ، لو لم يُوجَد الآن مَنْ يقول بهذا القول ، فماذا سيكون موقف هذا الحديث ؟ وكيف لنا أن نفهمه ؟ لقد فضحهم هذا الحديث ، وأبان ما عندهم من غباء ، فقد كان بإمكانهم بعد أنْ عرفوا حديث رسول الله أنْ يُمسِكوا عن التعصب للقرآن ضد الحديث النبوي ، فيكون الحديث ساعتها غير ذي معنى لكن هيهات .

نعود إلى موضوعنا ، ونحن بصدد الكلام عن خَلْق السموات وخَلْق الأرض ، واستواء الحق تبارك وتعالى على العرش ، وهاتان المسألتان لا تسأل فيهما إلا الله ﴿ فَسْئَلْ بِهِ

خَبِيراً ﴾ [الفرقان : 59] لأنه وحده الذي يعلم خبايا الأمور ، وهذه أمور لم يطّلع عليها أحد فيخبرك بها .

(246/562)

وكلمة : (سأل) الإنسان لا يسأل عن شيء إلا إذا كان يجهله ، والسؤال له مراحل : فقد تجهل الشيء ولا تهتم به ، ولا تريد أن تعرفه ، فأنت واحد من ضمن الذين لا يعرفون ، وقد تجهل الشيء لكن تهتم به ، فتسأل عنه لاهتمامك به ، فمرَّة تقول : اسأل به . ومرة تقول : اسأل عنه .

والمعنى : اسأل اهتماماً به ، أي : بسبب اهتمامك به اسأل عنه خبيراً ليعطيك ويخبرك بما تريد ، فهو وحده الذي يعرف خبايا الأمور ودقائقها ، وعنده خبر خَلْق السموات وخَلْق الأرض ، ويعلم مسألة الاستواء على العرش ؛ لذلك إنْ سألتَ عن هاتين المسألتين ، فلا تسأل إلا خبيراً .

والذين قالوا في قوله تعالى : ﴿ فَسْئَلْ بِهِ خَبِيراً ﴾ [الفرقان : 59] أي : ممَّنْ يعلم الكلام عن الله من أهل الكتاب نقول : لا بأسَ ؛ لأنه سيؤول إلى الله تعالى في النهاية .

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا (60)

نلحظ أن الحق تبارك وتعالى حينما ذكر الصفة الملزمة لأنْ تخضع له سبحانه لم يَقُلْ مثلاً : اسجدوا لله ، إنما ﴿ اسجدوا للرحمن ﴾ [الفرقان : 60] وأتى بالصفة التي تُعدِّي رحمانيته إليك ، فكان من الواجب أنْ تطيع ، وأن تخضع له . كما قُلْنا سابقاً : اجعل طاعتك لمن لا تستغني عنه ، واجعل خضوعك لمن لا تخرج عن مُلْكه .

﴿ قَالُواْ وَمَا الرحمن ﴾ [الفرقان : 60] كأنهم لا يعرفون هذه الكلمة ، إنهم لا يعرفون إلا رحمن اليمامة .

(247/562)

وقولهم : ﴿ أَنسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا ﴾ [الفرقان : 60] دليل على أن الامتناع عن السجود ليس للذات المسجود لها ، بل لمن أمر بالسجود ، كما سبق وأنْ قالوا : ﴿ لَوْلاَ نُزِّلَ هذا القرآن على رَجُلٍ مِّنَ القريتين عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف : 31] فكأنهم إنْ أمرهم الله بالسجود لسجدوا ، لكن كيف يأتي الأمر من الرسول خاصة ؟ وما مَيْزته عليهم حتى يأمرهم ؛ لذلك قال بعدها : ﴿ وَزَادَهُمْ نُفُوراً ﴾ [الفرقان : 60] والنفور : الانفكاك عن الشيء بكُرْه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(248/562)

فائدة

قال التستري :

قوله : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الحي الذي لاَ يَمُوتُ ﴾ [58]

سئل ابن سالم عن التوكل والكسب بأيهما تعبد الخلق ؟ قال : التوكل حال الرسول صلى الله عليه وسلم ، والكسب سنته .

وإنما استنّ الكسب لهم لضعفهم حين أسقطوا عن درجة التوكل الذي هو حاله ، فلم يسقطهم عن درجة طلب المعاش بالكسب الذي هو سنته ، ولولا ذلك لهلكوا .

قال سهل : من طعن في الكسب فقد طعن في السنة ، ومن طعن في التوكل فقد طعن في الإيمان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير التستري صـ 114 ﴾

(249/562)

" فصل "

قال السيوطي :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (56) ﴾

أخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً ﴾ قال : مبشراً بالجنة ، ونذيراً من النار . وفي قوله ﴿ إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً ﴾ قال : بطاعته .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ قل ما أسألكم عليه من أجر ﴾ قال : قل لهم يا محمد لا أسألكم على ما أدعوكم إليه من أجر يقول : عرض من عرض الدنيا .

وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا (58)

وأخرج ابن أبي الدنيا في التوكل والبيهقي في شعب الإيمان عن عتبة بن أبي ثبيت قال : مكتوب في التوراة لا تتوكل على ابن آدم فإن ابن آدم ليس له قوام ، ولكن توكل على الحي الذي لا يموت .

الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا (59)

أخرج الفريابي وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله ﴿ فاسأل به خبيراً ﴾ قال : ما أخبرتك من شيء فهو ما أخبرتك به .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم عن شمر بن عطية في قوله ﴿ الرحمن فاسأل به خبيراً ﴾ قال : هذا القرآن خبير به .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عطاء في قوله ﴿ وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن

﴿ قال : قالوا ما نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة . فأنزل الله ﴿ وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم ﴾ [البقرة : 163] .

وأخرج ابن أبي حاتم عن حسين الجحفي في قوله ﴿ قالوا وما الرحمن ﴾ قال : جوابها ﴿ الرحمن علم القرآن ﴾ [الرحمن : 1-2] .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد عن إبراهيم قال : قرأ الأسود ﴿ أنسجد لما تأمرنا ﴾ فسجد فيها قال : وقرأها يحيى ﴿ أنسجد لما تأمرنا ﴾ .

(250/562)

وأخرج عبد بن حميد عن سليمان قال : قرأ إبراهيم في الفرقان ﴿ أنسجد لما يأمرنا ﴾ بالياء . وقرأ سليمان كذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 6 صـ ﴾

(251/562)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا (57) ﴾

قوله: ﴿ إِلَّا مَن شَآءَ ﴾: فيه وجهان، أحدُهما: هو منقطعٌ أي: لكنْ مَنْ شاءَ أَنْ يتَّخِذَ إلى ربه سبيلاً فَلْيَفْعَلْ. والثاني: أنه متصلٌ على حَذْفِ مضافٍ يعني: إلاَّ أجرَ مَنْ، أي: الأجر الحاصل على دعائِه إلى الإيمانِ وقَبولِه؛ لأنَّه تعالى يَأْجُرُني على ذلك. كذا حكاه الشيخ. وفيه نظرٌ؛ لأنَّه لم يُسْنِدِ السؤالَ المنفيَّ في الظاهر إلى اللهِ تعالى، إنما أسندَه إلى المخاطبين. فكيف يَصِحُّ هذا التقديرُ؟

قوله: ﴿ الذي خَلَقَ السماوات ﴾:

يجوزُ فيه على قراءةِ العامَّةِ في "الرحمنُ" بالرفع أوجهٌ، أحدُها: أن يكونَ مبتدأ و "الرحمنُ" خبره، وأَنْ يكونَ خبرَ مبتدأ مقدرٍ أي: هو الذي خَلَقَ، وأَنْ يكونَ منصوباً بإضمارِ فعلٍ، وأَنْ يكونَ صفةً للحيِّ الذي لا يموت أو بدلاً/ أو بياناً. وأمَّا على قراءةِ زيدِ بن علي "الرحمنِ" بالجرِّ فيتعيَّن أَنْ يكونَ "الذي خلق" صفةً للحيِّ فقط؛ لئلا يُفْصَلَ بين النعتِ ومنعوتِه بأجنبيّ.

قوله: ﴿ الرحمن ﴾ مَنْ قرأ بالرفعِ ففيه أوجهٌ، أحدُها: أنه خبرُ "الذي خَلَق" وقد تقدَّم. أو يكونُ خبرَ مبتدأ مضمرٍ أي: هو الرحمنُ، أو يكونُ بدلاً من الضمير في "استوى" أو يكونُ مبتدأ، وخبرُه الجملةُ مِنْ قولِه ﴿ فَسْئَلْ بِهِ ﴾ على رأيِ الأخفش. كقوله:

3489 وقائلةٍ خَوْلانُ فانكِحْ فتاتَهُمْ . . . . . .

. . . . .

أو يكونُ صفةً للذي خلق ، إذا قلنا : إنه مرفوعٌ . وأمَّا على قراءةِ زيدٍ فيتعيَّن أُن يكونَ نعتاً

.

(252/562)

قوله : " به " في الباء قولان : أحدهما : هي على بابِها ، وهي متعلقةٌ بالسؤالِ . والمرادُ بالخبير اللهُ تعالى ، ويكونُ مِنَ التجريدِ ، كقولك : لقيت به أَسَداً . والمعنى : فاسألِ اللهَ الخبيرَ بالأشياء . قال الزمخشري : " أو فاسْأَلْ بسؤالِه خبيراً ، كقولك : رأيتُ به أسداً أي : برؤيتِه " انتهى . ويجوز أَنْ تكونَ الباءُ صلةً " خبيراً " و " خبيراً " مفعول " اسْأَلْ " على هذا ، أو منصوبٌ على الحالِ المؤكّدة . واستضعفه أبو البقاء . قال " ويَضْعُفُ أَنْ يكونَ خبيراً حالاً مِنْ فاعل " اسأَلْ " لأنَّ الخبيرَ لا يُسْأل إلاَّ على جهةِ التوكيد كقوله : ﴿ وَهُوَ الحق مُصَدّقاً ﴾ [البقرة : 91] ثم قال : " ويجوز أَنْ يكونَ حالاً من " الرحمن " إذا رَفَعْتَه باستوى . والثاني : أن تكونَ الباءُ بمعنى " عن " : إمَّا مطلقاً ، وإمَّا مع السؤالِ خاصةً كهذه الآيةِ الكريمةِ وكقولِ الشاعر :

3490 فإنْ تَسْأَلُوني بالنّساءِ . . . . . .

. . . . . .

البيت . والضميرُ في " عنه " للهِ تعالى و " خبيراً " من صفاتِ المَلَكِ وهو جبريلُ عليه السلام . ويجوز على هذا أعني كونَ " خبيراً " من صفاتِ جبريل أَنْ تكونَ الباءُ على بابِها ، وهي متعلقةٌ ب " خبيراً " كما تقدَّم أي : فاسْأَلِ الخُبَراء به .

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا (60)

(253/562)

قوله : ﴿ لِمَا تَأْمُرُنَا ﴾ : قرأ الأخَوان " يأْمُرُنا " بياءِ الغَيْبة يعني محمد صلَّى الله عليه وسلَّم . والباقون بالخطاب يعني : لِما تأمرنا أنت يا محمد . و " ما " يجوزُ أَنْ تكونَ بمعنى الذي . والعائدُ محذوفٌ ؛ لأنه متصلٌ ؛ لأنَّ " أَمَرَ " يَتَعَدَّى إلى الثاني بإسقاطِ الحرفِ . ولا حاجةَ إلى التدريجِ الذي ذكره أبو البقاء : وهو أنَّ الأصلَ : لِما تَأْمُرنا بالسُّجودِ له ، ثم بسجودِه ، ثم تَأْمُرناه ، ثم تأْمُرنا . كذا قَدَّره ، ثم قال : هذا على مذهبِ أبي الحسن ، وأَمَّا على مذهبِ سيبويهِ فَحَذْفُ ذلك مِنْ غيرِ تَدْرِيج " . قلت : وهذا ليس مذهبَ سيبويه . ويجوزُ أَنْ تكونَ موصوفةً ، والكلامُ في عائِدها موصوفةً كهي موصولةً . ويجوز أَنْ تكونَ مصدريةً ، وتكونَ اللامُ للعلةِ أي : أَنسجُدُ مِنْ أجلِ أَمْرِكَ ، وعلى هذا يكونُ المسجودُ له محذوفاً . أي

: أَنَسْجُدُ للرحمنِ لما تَأْمُرُنا . وعلى هذا لا تكونُ " ما " واقعةً على العالِم . وفي الوجهين الأوَّلَيْن يُحْتمل ذلك ، وهو المتبادَرُ للفَهْمِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 495.492 ﴾

(254/562)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (56) ﴾

رسولاً مِنَّا ، مأموراً بالإنذار والتبشير ، واقفاً حيث وقفناك على نعت التبليغ ، غيرَ طالب منهم أجراً ، وغير طامع في أن تجد منهم حظّاً .

قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا (57)

﴿ إلاَّ ﴾ أداة استثناء منقطع ؛ إذ ابتغاؤهم السبيل إلى ربِّهم ليس بأجرٍ يأخذه منهم ، فهو لِمَنْ أقْبَلَ بشيرٌ ، ولِمَنْ أعرض نذير .

قوله جل ذكره : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ ﴾ .

التوكلُ تفويضُ الأمور إلى الله وحقُّه وأصْلُهُ عِلْمُ العبدِ بأنَّ الحادثاتِ كلّها حاصِلةٌ من الله

تعالى ، وأنه لا يقدر أحدٌ على الإيجاد غيرُه .

فإذا عَرَفَ هذا فهو فيما يحتاج إليه – إذا عَلِمَ أن مرادَهُ لا يرتفع إلا مِنْ قِبَلِ الله – حصل له أصل التوكل . وهذا القَدْرُ فَرْضٌ ، وهو من شرائط الإيمان ، فإن الله تعالى يقول : ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة : 23] وما زاد على هذا القَدْرِ – وهو سكون القلب وزوال الانزعاج والاضطرار – فهي أحوال تلحق بالتوكل على وجه كماله .

فإن تقرَّرَ هذا فالناس في الاكتفاء والسكون على أقسام ، ولكلِّ درجةٍ من هذه الأقسام اسم : إمَّا من حيث الاشتقاق ، أو من حيث الاصطلاح .

فأول رتبة فيه أن يكتفي بما فيه يده ، ولا يطلب زيادة عليه ، ويستريح قلبه من طلب الزيادة . . وتسمى هذه الحالة القناعة ، وفيها يقف صاحبها حيث وقف ، ويقنع بالحاصل له فلا يستزيد ثم اكتفاءُ كلِّ أحدٍ يختلف في القلة والكثرة ، وراحة قلوب هؤلاء في التخلص من الْحِرصِ وإرادة الزيادة .

(255/562)

ثم بعد هذا سكونُ القلب في حالة عَدَمِ وجود الأسباب ، فيكون مجرداً عن الشيء ، ويكون في إرادته متوكلاً على الله . وهؤلاء متباينون في الرتبة ، فواحد يكتفي بوعده لأنه

صَدَقَه في ضمانه ، فيسكن – عند فقد الأسباب – بقلبه ثقةً منه بوعد ربه . . ويسمى هذا توكلاً ، ويقال على هذا : إن التوكل سكون القلب بضمان الربِّ ، أو سكون الجاش في طلب المعاش ، أو الاكتفاء بوعده عند عدم نَقْدِه ، أو الاكتفاء بالوعد عند فقد النقد .

وألطف من هذا أن يكتفي بِعِلْمِ أنه يعلم حاله فيشتغل بما أمره الله ؛ ويعمل على طاعته ؛ ولا يراعي إنجاز ما وَعَدَهَ ؛ بَلِ يكِلُ أمرَه إلى الله . . وهذا هو التسليم .

وفوق هذا التفويض ، وهو أنْ يَكِلَ أمرَه إلى الله . ولا يقترح على مولاه بحالٍ ، ولا يختار ؛ ويستوي عند وجودُ الأسباب وعَدَمُها ؛ فيشتغل بأداء ما ألزمه الله ؛ ولا يفكر في حال نَفْسِه ؛ ويعلم أنه مملوكٌ لمولاه ؛ والسيّدُ أوْلَى بعَبْدِهِ من العبد بنفسه .

فإذا ارتقى عن هذه الحالة وَجَدَ راحةً في المَنْع ؛ واستعذب ما يستقبله من الرَّدِّ . . . وتلك هي مرتبة الرضا ؛ ويصلح له في هذه الحالة من فوائد الرضا ولطائفه ما لا يحصل لِمَنْ دونَه من الحلاوة في وجود المقصود .

وبعد هذا الموافقة ؛ وهي ألا يجد الراحة في المَنْعِ ، بل يجد بَدَلَ هذا عند نسيم القربِ زوائد الأُنْس بنسيان كلِّ أرَبٍ ، ونيسان وجود سبب أو عدو وجود سبب ؛ فكما أنَ حلاوة الطاعة تتصاغر عند بَرْدِ الرضا – وأصحاب الرضا يعدون ذلك حجاباً – فكذلك أهل الأُنْسِ بالله .

بنسيانِ كلِّ فَقْدٍ ووَجْدٍ ، وبالتغافل عن أحوالهم في الوجود والعدم يعدون النزول إلى استلذاذ المنع ، والاستقلال بلطائف نقصاناً في الحال .

(256/562)

ثم بعد هذا استيلاءُ سلطان الحقيقة فيؤخذ العبد عن جملته بالكلية ، والعبارة عن هذه الحالة أنه يحدث الخمود والاستهلاك والوجود والاصطلام والفناء . . وأمثال هذا ، وذلك هو عين التوحيد ، فعند ذلك لا أُنْسَ ولا هيبة ، ولا لذة ولا راحة ، ولا وحشة ولا آفة .

هذا بيان ترتيبهم (1) فأمّا دون ذلك فالخبر عن أحوال المتوكلين – على تباين شِرْبِهم . – يختلف على حسب اختلاف على حسب اختلاف محالِّهم .

فيقال شرط التوكل أن يكون كالطفل في المهد ؛ لا شيء مِنْ قِبَلِه إلا أن يرضعه مَنْ هو في حضانته .

ويقال التوكل زوال الاستشراف ، وسقوط الطمع ، وفراغ القلب من تعب الانتظار .

ويقال التوكل السكون عند مجاري الأقدار على اختلافها .

ويقال إذا وثق القلب بجريان القسمة لا يضره الكسب ، ولا يقدح في توكله .

ويقال عوام المتوكلين إذا أُعْطُوا شكروا ، وإذا مُنعُوا صبروا . وخواصُّهم إذا أَعْطُوا آثروا ،

وإذا مُنِعُوا شكروا .

ويقال الحقُّ يجود على الأولياء – إذا توكلوا – بتيسير السبب من حيث يُحْتَسَبُ ولا يُحْتَسَبُ ، ويجود على الأصفياء بسقوط الأرب . . . وإذا لم يكن الأرَبُ فمتى يكون الطلب ؟

ويقال التوكل في الأسباب الدنيوية إلى حدّ ، فأمّا التوكل على الله في إصلاحه – سبحانه – أمورَ آخرةِ العبد فهذا أشدُّ غموضاً ، وأكثرُ خفاءً . فالواجبُ في الأسباب الدنيوية أن يكون السكونُ عن طلبها غالباً ، والحركةُ تكون ضرورةً . فأمّا في أمور الآخرة وما يتعلَّقُ بالطاعةِ فالواجبُ البِدارُ والجِدُّ والانكماشُ ، والخروجُ عن أوطان الكسل والجنوح إلى الفشل .

---

(1) هذا الترتيب الذي ذكره القشيري على جانب كبير من الأهمية لأنه أولا يكشف عن التدرج في مراتب التوكل واحدة بعد الأخرى ، والدقائق النفسية المرتبطة بكل منها ، كما أنه يكشف عن مرحلة الانتقال من المقامات – التي هى جهود – إلى الأحوال التي هى من عين الجود . وواضح أن (الرضا) يحمل فى طياته طبيعة هذه المرحلة الانتقالية ، وقد عالج القشيري هذه الظاهرة فى رسالته ص 97 .

والذي يتَّصِفُ بالتواني في العبادات ، ويتباطؤ في تلافي ما ضيَّعَه من أرضاء الخصوم والقيام بحقِّ الواجبات ، ثم يعتقد في نفسه أنه متوكِّلٌ على الله وأنه – سبحانه – يغفو عنه فهو مُتَّهَمٌ معلولُ الحالِ ، ممكورٌ مُسْتَدْرَجٌ ، بل يجب أن يبذل جهده ، ويستفرغ وسعه . ثم بعد ذلك لا يعتمد على طاعته ، ولا يستنِدُ إلى سكونه وحركته ، ويتبرأُ بِسِرِّه من حَوْلِهِ وقوَّته . ثم يكون حَسَنَ الظنِّ بربِّه ، ومع حُسْنِ ظنه بربه لا ينبغي أن يخلوَ من مخافته ، اللهم إلا أن يَغْلِبَ على قلبه ما يشغله في الحال من كشوفات الحقائق عن الفكرة في العواقب ؛ فإن ذلك – إذا حَصَلَ – فالوقتُ غالِبٌ ، وهو أحد ما قيل في معاني قولهم : الوقت سيف .

قوله جل ذكره : ﴿ الَّذِى خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ ﴾ .

انتظم به الكونُ – والعرشُ من جملة الكون – ولم يتجمَّل الحقُّ – سبحانه – بشيءٍ من إظهار بَرِيَّتِهِ ؛ فعلوُّه على العرش بقهره وقدرته ، واستواؤه بفعلٍ خص به العرش بتسوية أجزائه وصورته .

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا (60)

أقبل الحقُّ – سبحانه – بلطفه وبفضله على أقوام فلذلك وجدوه ، وأعرض عن آخرين بتكبره وتعزُّزِه فلذلك جحدوه ؛ فَطَرَهُم على سِمَةِ البُعْدِ ، وعَجَنَ طينتهم بماء الشقاوة

والصدِّ ؛ فلما أظهرهم ألبسهم صدار الجهل والجحد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 643. 647 ﴾

(258/562)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

ويُسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثالث والستون بعد الخمسمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/563)

الجزء الثالث والستون بعد الخمسمائة

من الآية ﴿ 61 ﴾ من سورة الفرقان

وحتى الآية ﴿ 67 ﴾ من نفس السورة

(4/563)

قوله تعالى ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا (61) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا (62) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما ذكر حال النذير الذي ابتدأ به السورة في دعائه إلى الرحمن الذي لو لم يدع إلى عبادته إلا رحمانيته لكفى ، فكيف بكل جمال وجلال ، فأنكروه ، اقتضى الحال أن يوصل به إثباته بإثبات ما هم عالمون به من آثار رحمانيته ، ففصل ما أجمل بعد ذكر حال النذير ، ثم من

الملك ، مصدراً له بوصف الحق الذي جعله مطلع السورة راداً لما تضمن إنكارهم من نفيه فقال : ﴿ تبارك ﴾ أي ثبت ثباتاً لا نظير له ﴿ الذي جعل في السماء ﴾ التي قدم أنه اخترعها ﴿ بروجاً ﴾ وهي اثنا عشر برجاً ، هي للكواكب السيارة كالمنازل لأهلها ، سميت بذلك لظهورها ، وبنى عليها أمر الأرض ، دبر بها فصولها ، وأحكم بها معايش أهلها .

ولما كانت البروج على ما تعهد لا تصلح إلا بالنور ، ذكره معبراً بلفظ السراج فقال : ﴿ وجعل فيها ﴾ أي البروج ﴿ سراجاً ﴾ أي شمساً ، وقرأ حمزة والكسائي بصيغة الجمع للتنبيه على عظمته في ذلك بحيث إنه أعظم من ألوف ألوف من السرج ، فهو قائم مقام الوصف كما قال في الذي بعده : ﴿ وقمراً منيراً ﴾ أتم – بتنقلهما فيها وبغير ذلك من أحوالهما – التدبير ، أي أن العلم بوجوبه لا شك فيه ، فكيف يشك عاقل في وجوده أو في رحمانيته بهذا العالم العظيم المتقن الصنع الظاهر فيه أمر الرحمانية .

ولما ذكر الآيتين ، ذكر ما هما آيتاه فقال : ﴿ وهو الذي جعل الليل ﴾ أي الذي آيته القمر ﴿ والنهار ﴾ الذي آيته الشمس ﴿ خلفة ﴾ أي ذوي حالة معروفة في الاختلاف ، فيأتي هذا خلف ذاك ، بضد ما له من الأوصاف ، ويقوم مقامه في كثير من المرادات ، والأشياء المقدرات ، ويعلم قد التسامح فيها ، ومن فاته شيء من هذا قضاه في ذاك ؛ قال ابن جرير : والعرب تقول : خلف هذا من كذا خلفة ، وذلك إذا جاء شيء مكان شيء ذهب

قبله .

وفي القاموس أن الخلف والخلفة – بالكسر : المختلف .

فعلى هذا يكون التقدير : جعلهما مختلفين في النور والظلام ، والحر والبرد ، غير ذلك من الأحكام .

وقال الرازي في اللوامع : يقال : الأمر بينهم خلفة ، أي نوبة ، كل واحد يخلف صاحبه ، والقوم خلفة ، أي مختلفون .

ولما كان الذي لا ينتفع بالشيء كالعادم لذلك الشيء ، خص الجعل بالمجتني للثمرة فقال : ﴿ لمن أراد أن يذكر ﴾ أي يحصل له تذكر ولو على أدنى الوجوه – بما دل عليه الإدغام في قراءة الجماهة بفتح الذال والكاف مشددتين ، لما يدله عليه عقله من أن التغير على هذه الهيئة العظيمة لا يكون بدون مغير قادر عظيم القدرة مختار ، فيؤديه تذكره إلى الإيمان إن كان كفوراً ، وقراءة حمزة بالتخفيف من الذكر تشير إلى أن ما يدلان عليه من تمام القدرة وشمول العلم الدال قطعاً على الوحدانية على غاية من الظهور ، لا يحتاج إلى فكر ، بل تحصل بأدنى التفات ﴿ أو أراد شكوراً ﴾ أي شكراً بليغاً عظيماً لنعم الله لتحمله إرادته تلك على الشكر إن كان مؤمناً ، بسبب ما أنعم به ربه من الإتيان بكل منهما بعد هجوم الآخر لاجتناء ثمراته ، ولو جعل أحدهما دائماً لفاتت مصالح الآخرة ، ولحصلت السآمة به ، والملل منه ، والتواني في الأمور المقدرة بالأوقات ، الكسل وفتر العزم الذي إنما يثيره

لتداركها دخول وقت آخر ، وغير ذلك من الأمور التي أحكمها العلي الكبير . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 332.334 ﴾

(5/563)

فصل

قال الفخر :

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا (61) ﴾

اعلم أنه سبحانه لما حكى عن الكفار مزيد النفرة عن السجود ذكر ما لو تفكروا فيه لعرفوا وجوب السجود والعباد للرحمن فقال : ﴿ تَبَارَكَ الذى جَعَلَ فِى السماء بُرُوجاً ﴾ أما تبارك فقد تقدم القول فيه ، وأما البروج فهي منازل السيارات وهي مشهورة سميت بالبروج التي هي القصور العالية لأنها لهذه الكواكب كالمنازل لسكانها ، واشتقاق البروج من التبرج لظهوره ، وفيه قول آخر عن ابن عباس رضي الله عنهما أن البروج هي الكواكب العظام والأول أولى لقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا ﴾ أي في البروج فإن قيل : لم لا يجوز أن يكون قوله ﴿ فِيهَا ﴾ راجعاً إلى السماء دون البروج ؟ قلنا لأن البروج أقرب فعود الضمير إليها أولى . والسراج الشمس لقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَ الشمس سِرَاجاً ﴾ [نوح : 16] وقرىء

﴿ سرجاً ﴾ وهي الشمس والكواكب الكبار فيها وقرأ الحسن والأعمش ﴿ وَقَمَراً مُّنِيراً ﴾ وهي جمع ليلة قمراء كأنه قيل وذا قمراً منيراً ، لأن الليالي تكون قمراء بالقمر فأضافه إليها ، ولا يبعد أن يكون القمر بمعنى القمر كالرشد والرشد والعرب والعرب .

وأما الخلفة ففيها قولان : الأول : أنها عبارة عن كون الشيئين بحيث أحدهما يخلف الآخر ويأتي خلفه ، يقال بفلان خلفة واختلاف ، إذا اختلف كثيراً إلى متبرزه ، والمعنى جعلهما ذوي خلفة أي ذوي عقبة يعقب هذا ذاك وذاك هذا .

(6/563)

قال ابن عباس رضي الله عنهما جعل كل واحد منهما يخلف صاحبه فيما يحتاج أن يعمل فيه فمن فرط في عمل في أحدهما قضاه في الآخر ، قال أنس بن مالك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر بن الخطاب وقد فاتته قراءة القرآن بالليل : " يا ابن الخطاب لقد أنزل الله فيك آية وتلا : ﴿ وَهُوَ الذى جَعَلَ الليل والنهار خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ ﴾ ما فاتك من النوافل بالليل فاقضه في نهارك ، وما فاتك من النهار فاقضه في ليلك " القول الثاني : وهو قول مجاهد وقتادة والكسائي يقال لكل شيئين اختلفا هما خلفان فقوله ﴿ خِلْفَةً ﴾ أي مختلفين وهذا أسود وهذا أبيض وهذا طويل وهذا قصير ، والقول الأول أقرب .

أما قوله تعالى : ﴿ أَن يَذَّكَّرَ ﴾ فقراءة العامة بالتشديد وقراءة حمزة بالتخفيف وعن أبي بن كعب (يتذكر) ، والمعنى لينظر الناظر في اختلافهما فيعلم أنه لا بد في انتقالهما من حال إلى حال (وتغيرهما) من ناقل ومغير وقوله : ﴿ أَن يَذَّكَّرَ ﴾ راجع إلى كل ما تقدم من النعم ، بين تعالى أن الذين قالوا وما الرحمن لو تفكروا في هذه النعم وتذكروها لاستدلوا بذلك على عظيم قدرته ، ولشكر الشاكرين على النعمة فيهما من السكون بالليل والتصرف بالنهار كما قال تعالى : ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ الليل والنهار لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ ﴾ [القصص : 73] أو ليكونا وقتين للمتذكرين والشاكرين ، من فاته في أحدهما ورد من العبادة قام به في الآخر ، والشكور مصدر شكر يشكر شكوراً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 24 صـ 92. 93 ﴾

(7/563)

وقال الجصاص :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً ﴾ الْآيَةَ .

رَوَى شِمْرُ بْنُ عَطِيَّةَ عَنْ ابْنِ سَلَمَةَ قَالَ : جَاءَ رَجُلٌ إلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ فَقَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَاتَتْنِي الصَّلَاةُ ؟ فَقَالَ : (أَبْدِلْ مَا فَاتَك مِنْ لَيْلِك فِي نَهَارِك فَإِنَّ اللَّهَ جَعَلَ اللَّيْلَ

وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا) .

وَرَوَى يُونُسُ عَنْ ابْنِ شِهَابٍ عَنْ السَّائِبِ بْنِ يَزِيدَ وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُتْبَةَ أَنَّهُمَا أَخْبَرَا عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدٍ الْقَارِي قَالَ : سَمِعْت عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ يَقُولُ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ مَنْ نَامَ عَنْ جُزْئِهِ أَوْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ فَقَرَأَهُ فِيمَا بَيْنَ صَلَاةِ الْفَجْرِ إلَى صَلَاةِ الظُّهْرِ كُتِبَ لَهُ كَأَنَّمَا قَرَأَهُ مِنْ اللَّيْلِ ﴾ .

وَقَالَ الْحَسَنُ : ﴿ جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً ﴾ (جَعَلَ أَحَدَهُمَا خِلْفَةً لِلْآخَرِ إنْ فَاتَ مِنْ النَّهَارِ شَيْءٌ أَدْرَكَهُ بِاللَّيْلِ وَكَذَلِكَ لَوْ فَاتَ مِنْ اللَّيْلِ) .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : هَذَا فِي نَحْوِ قَوْلِهِ : ﴿ وَأَقِمْ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴾ وَقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ مَنْ نَامَ عَلَى صَلَاةٍ أَوْ نَسِيَهَا لِيُصَلِّهَا إذَا ذَكَرَهَا فَإِنَّ ذَلِكَ وَقْتُهَا ﴾ .

وَقَدْ رُوِيَ عَنْ مُجَاهِدٍ فِي قَوْلِهِ : ﴿ خِلْفَةً ﴾ أَحَدُهُمَا أَسْوَدُ وَالْآخَرُ أَبْيَضُ .

وَقِيلَ : يَذْهَبُ أَحَدُهُمَا وَيَجِيءُ الْآخَرُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(8/563)

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ .

فِيهَا ثَلَاثُ مَسَائِلَ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : فِي تَفْسِيرِ الْخِلْفَةِ : وَفِيهَا ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ : الْأَوَّلُ : أَنَّهُ جَعَلَ أَحَدَهُمَا مُخَالِفًا لِلْآخَرِ ، يَتَضَادَّانِ ، وَيَتَعَارَضَانِ وَضْعًا وَوَقْتًا ، وَبِذَلِكَ نُمَيِّزُ .

الثَّانِي : أَنَّهُ إذَا مَضَى وَاحِدٌ جَاءَ آخَرُ ، وَمِنْهُ قَوْلُ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ : بِهَا الْعِيسُ وَالْآرَامُ يَمْشِينَ خِلْفَةً وَأَطْلَاؤُهَا يَنْهَضْنَ مِنْ كُلِّ مَجْثَمِ الثَّالِثُ : مَعْنَى خِلْفَةٍ : مَا فَاتَ فِي هَذَا خَلَفَهُ فِي هَذَا .

فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ : ﴿ مَا مِنْ امْرِئٍ تَكُونُ لَهُ صَلَاةٌ بِلَيْلٍ ، فَغَلَبَهُ عَلَيْهَا نَوْمٌ ، فَيُصَلِّي مَا بَيْنَ طُلُوعِ الشَّمْسِ إلَى صَلَاةِ الظُّهْرِ إلَّا كَتَبَ اللَّهُ لَهُ أَجْرَ صَلَاتِهِ ، وَكَانَ نَوْمُهُ صَدَقَةً عَلَيْهِ ﴾ .

سَمِعْت ذَا الشَّهِيدَ الْأَكْبَرَ يَقُولُ : إنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْعَبْدَ حَيًّا ، وَبِذَلِكَ كَمَالُهُ ، وَسَلَّطَ عَلَيْهِ آفَةَ النَّوْمِ ، وَضَرُورَةَ الْحَدَثِ ، وَنُقْصَانَ الْخِلْقَةِ ، إذْ الْكَمَالُ لِلْأَوَّلِ الْخَالِقِ ، فَمَا أَمْكَنَ الرَّجُلَ مِنْ دَفْعِ النَّوْمِ بِقِلَّةِ الْأَكْلِ وَالسَّهَرِ فِي الطَّاعَةِ فَلْيَفْعَلْ .

وَمِنْ الْغَبْنِ الْعَظِيمِ أَنْ يَعِيشَ الرَّجُلُ سِتِّينَ سَنَةً يَنَامُ لَيْلَهَا ، فَيَذْهَبُ النِّصْفُ مِنْ عُمْرِهِ لَغْوًا ، وَيَنَامُ نَحْوَ سُدُسِ النَّهَارِ رَاحَةً ، فَيَذْهَبُ ثُلُثَاهُ ، وَيَبْقَى لَهُ مِنْ الْعُمْرِ عِشْرُونَ سَنَةً .

(9/563)

وَمِنْ الْجَهَالَةِ وَالسَّفَاهَةِ أَنْ يُتْلِفَ الرَّجُلُ ثُلُثَيْ عُمْرِهِ فِي لَذَّةٍ فَانِيَةٍ ، وَلَا يُتْلِفُ عُمْرَهُ بِسَهَرِهِ فِي لَذَّةٍ بَاقِيَةٍ عِنْدَ الْغَنِيِّ الْوَفِيِّ الَّذِي لَيْسَ بِعَدِيمٍ وَلَا ظَلُومٍ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ : فَيَعْمَلُ وَيَشْكُرُ قَدْرَ النِّعْمَةِ فِي دَلَالَةِ التَّضَادِّ عَلَى الَّذِي لَا ضِدَّ لَهُ ، وَفِي دَلَالَةِ الْمُعَاقَبَةِ عَلَى الَّذِي يُعْدَمُ فَيَعْقُبُهُ غَيْرُهُ ، وَعَلَى الْفُسْحَةِ فِي قَضَاءِ الْفَائِتِ مِنْ الْعَمَلِ لِتَحْصِيلِ الْمَوْعُودِ مِنْ الثَّوَابِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ إنَّ الْأَشْيَاءَ لَا تَتَفَاضَلُ بِأَنْفُسِهَا ، فَإِنَّ الْجَوَاهِرَ وَالْأَعْرَاضَ مِنْ حَيْثُ الْوُجُودِ مُتَمَاثِلَةٌ ، وَإِنَّمَا يَقَعُ التَّفَاضُلُ بِالصِّفَاتِ .

وَقَدْ اُخْتُلِفَ أَيُّ الْوَقْتَيْنِ أَفْضَلُ ، اللَّيْلُ أَمْ النَّهَارُ ؟ وَقَدْ بَيَّنَّا فِي كِتَابِ أَنْوَارِ الْفَجْرِ فَضِيلَةَ النَّهَارِ عَلَيْهِ ، وَفِي الصَّوْمِ غُنْيَةً فِي الدَّلَالَةِ .

وَاَللَّهُ أَعْلَمُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 3 صـ ﴾

(10/563)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَآءِ بُرُوجاً ﴾

فيها أربعة أوجه

: أحدها : أنها النجوم العظام ، وهو قول أبي صالح .

الثاني : أنها قصور في السماء فيها الحرس ، وهو قول عطية العوفي .

الثالث : أنها مواضع الكواكب .

والرابع : أنها منازل الشمس ، وقرىء بُرجاً ، قرأ بذلك قتادة ، وتأوله النجم .

﴿ وَقَمَراً مُّنِيراً ﴾ يعني مضيئاً ، ولذا جعل الشمس سراجاً والقمر منيراً ، لأنه لما اقترن بضياء الشمس وهَّج حرّها جعلها لأجل الحرارة سراجاً ، ولما كان ذلك في القمر معدوماً جعله نوراً .

﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً ﴾ فيه ثلاثة تأويلات : أحدها : أنه جعل ما فات من عمل أحدهما خلفة يقضي في الآخر ، قاله عمر ابن الخطاب والحسن .

الثاني : أنه جعل كل واحد منهما مخالفاً لصاحبه فجعل أحدهما أبيض والآخر أسود ، قاله مجاهد .

الثالث : أن كل واحد منهما يخلف صاحبه إذا مضى هذا جاء هذا ، قاله ابن زيد ومنه قول زهير :

بها العين والآرام يمشين خلفة . . . وأطلاؤها ينهضن من كل مجثم

﴿ لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ ﴾ أي يصلي بالنهار صلاة الليل ويصلي بالليل صلاة النهار .

﴿ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً ﴾ هو النافلة بعد الفريضة ، وقيل نزلت هذه الآية في عمر بن الخطاب رضي الله عنه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

(11/563)

وقال ابن عطية :

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا ﴾

لما جعلت قريش سؤالها عن الله تعالى وعن اسمه هو الرحمن سؤالاً عن مجهول نزلت هذه الآية مصرحة بصفاته التي تعرف به وتوجب الإقرار بربوبيته ، و" البروج " هي التي علمتها العرب بالتجربة وكل أمة مصحرة وهي المشهورة عند اللغويين وأهل تعديل الأوقات وكل برج منها على منزلتين وثلث من منازل القمر التي ذكرها الله تعالى في قوله ﴿ والقمر قدرناه منازل ﴾ [يس : 39] والعرب تسمي البناء المرتفع المستغني بنفسه برجاً تشبيهاً ببروج السماء . ومنه قوله تعالى : ﴿ ولو كنتم في بروج مشيّدة ﴾ [النساء : 78] . وقال الأخطل : [البسيط]

كأنها برج روميّ يشيدُه . . . لزبجص وآجور وأحجار

وقال بعض الناس في هذه الآية التي نحن فيها " البروج " القصور في الجنة ، وقال الأعمش : كان أصحاب عبد الله يقرؤونها " في السماء قصوراً " ، وقيل " البروج " الكواكب العظام حكاه الثعلبي عن أبي صالح ، وهذا نحو ما بيناه إلا أنه غير ملخص ، وأما القول بأنها قصور في الجنة فقول يحط غرض الآية في التنبيه على أشياء مدركات تقوم بها الحجة على كل منكر لله أو جاهل به . وقرأ الجمهور " سراجاً " وهي الشمس ، وقرأ حمزة الكسائي وعبد الله بن مسعود وعلقمة والأعمش " سرجاً " وهو اسم جميع الأنوار ، ثم خص القمر بالذكر تشريفاً ، وقرأ النخعي وابن وثاب والأعمش أيضاً " سرْجاً " بسكون الراء ، قال أبو حاتم روى عصمة عن الحسن " وقُمُراً " بضم القاف ساكنة الميم ولا أدري ما أراد أن يكون عنى جمعاً كثمر وثمر وقال أبو عمرو وهي قراءة الأعمش والنخعي ، وقوله ﴿ خلفة ﴾ أي هذا يخلف هذا ، وهذا يخلف هذا ، ومن هذا المعنى قول زهير : [الطويل]

بها العين والأرآم يمشين خلفة . . . وأطلاؤها ينهضن من كل مجثم

ومن هذا قول الآخر يصف امرأة تنتقل من منزل في الشتاء إلى منزل في الصيف دأباً [يزيد بن معاوية] : [المديد]

ولها بالماطرون إذا . . . أكل النمل الذي جمعا

خلفة حتى إذا ارتبعت . . . سكنت من جلق بيعا

في بيوت وسط دسكرة . . . حولها الزيتون قد ينعا

وقال مجاهد ﴿ خلفة ﴾ من الخلاف ، هذا أبيض وهذا أسود ، وما قدمناه أقوى ، وقال مجاهد وغيره من النظار ﴿ لمن أراد أن يذكر ﴾ أي يعتبر بالمصنوعات ويشكر الله على نعمه عليه في العقل والفهم والفكر ، وقال عمرو بن الخطاب والحسن وابن عباس معناه ﴿ لمن أراد أن يذكر ﴾ ما فاته من الخير والصلاة ونحوه في أحدهما فيستدركه في الذي يليه ، وقرأ حمزة وحده " يذْكُر " بسكون الذال وضم الكاف ، وهي قراءة ابن وثاب وطلحة والنخعي ، وقرأ الباقون " يذّكر " بشد الذال ، وفي مصحف أبي بن كعب " يتذكر " بزيادة تاء ، ثم قال تعالى ﴿ لمن أرد أن يذكر أو أراد شكوراً ﴾ جاء بصفة عباده الذين هم أهل التذكر والشكور . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(13/563)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ تبارك الذي جعل في السماء بُروجاً وجعل فيها سِراجاً ﴾ قد شرحناه في [الحجر : 16] .

والمراد بالسراج : الشمس .

وقرأ حمزة ، والكسائي : ﴿ سُرُجاً ﴾ بضم السين والراء وإسقاط الألف .

قال الزجاج : أراد : الشمس والكواكب العظام ؛ ويجوز ﴿ سُرْجاً ﴾ بتسكين الراء ، مثل رُسْل ورُسُل .

قال الماوردي : لما اقترن بضوء الشمس وهج حَرِّها ، جعلها لأجل الحرارة سراجاً ، ولمّا عدم ذلك في القمر جعله نوراً .

قوله تعالى : ﴿ وهو الذي جعل الليل والنهار خِلْفَةً ﴾ فيه قولان .

أحدهما : أن كل واحد منهما يخالف الآخر في اللون ، فهذا أبيض ، وهذا أسود ، روى هذا المعنى الضحاك عن ابن عباس ، وابن أبي نجيح عن مجاهد ، وبه قال قتادة .

والثاني : أن كل واحد منهما يَخْلُفُ صاحبه ، رواه عمرو بن قيس الملائي عن مجاهد ، وبه قال ابن زيد وأهل اللغة ، وأنشدوا قول زهير :

بِهَا العِينُ والآرَامُ يَمْشِينَ خِلْفَةً . . .

وأَطْلاؤُها يَنْهَضْنَ مِنْ كُلِّ مَجْثَمِ

أي : إذا ذهبت طائفة جاءت طائفة .

قوله تعالى : ﴿ لِمَن أراد أن يَذَّكَّر ﴾ أي : يتَّعظ ويعتبر باختلافهما .

وقرأ حمزة : ﴿ يَذْكُرَ ﴾ خفيفة الذال مضمومة الكاف ، وهي في معنى : يتذكَّر ، ﴿ أو أراد ﴾ شُكْر الله تعالى فيهما . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 6 صـ ﴾

(14/563)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ تَبَارَكَ الذي جَعَلَ فِي السمآء بُرُوجاً ﴾

أي منازل ؛ وقد تقدّم ذكرها .

﴿ وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجاً ﴾ قال ابن عباس : يعني الشمس ؛ نظيره : ﴿ وَجَعَلَ الشمس سِرَاجاً ﴾ [نوح : 16] .

وقراءة العامة : ﴿ سِرَاجاً ﴾ بالتوحيد .

وقرأ حمزة والكسائيّ : "سُرُجاً" يريدون النجوم العظام الوقادة .

والقراءة الأولى عند أبي عبيد أولى ؛ لأنه تأوّل أن السُّرُج النجوم ، وأن البروج النجوم ؛ فيجيء المعنى نجوماً ونجوماً .

النحاس : ولكن التأويل لهم أن أبان بن تغلِب قال : السرج النجوم الدراريّ .

الثعلبي : كالزهرة والمشترِي وزحل والسماكين ونحوها .

﴿ وَقَمَراً مُّنِيراً ﴾ ينير الأرض إذا طلع .

وروى عِصمة عن الأعمش ﴿ وَقُمْرا ﴾ بضم القاف وإسكان الميم .

وهذه قراءة شاذة ، ولو لم يكن فيها إلا أن أحمد بن حنبل وهو إمام المسلمين في وقته قال : لا تكتبوا ما يحكيه عِصمة الذي يروي القراءات ، وقد أولع أبو حاتم السجستاني بذكر ما يرويه عِصمة هذا .

وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا (62)

فيه أربع مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ خِلْفَةً ﴾ قال أبو عبيدة : الخِلفة كل شيء بعد شيء .

وكل واحد من الليل والنهار يخلف صاحبه .

ويقال للمبطون : أصابته خِلفة ؛ أي قيام وقعود يخلف هذا ذاك .

ومنه خلفة النبات ، وهو ورق يخرج بعد الورق الأوّل في الصيف .

ومن هذا المعنى قول زهير بن أبي سُلْمى :

بها العِينُ والآرامُ يَمْشِينَ خِلْفةً . . .

وأَطْلاَؤهَا يَنْهضنَ من كُلِّ مَجثَمِ

الرئم ولد الظبي وجمعه آرام ؛ يقول : إذا ذهب فوج جاء فوج .

ومنه قول الآخر يصف امرأة تنتقل من منزل في الشتاء إلى منزل في الصيف دأباً :

ولها بالماطرونِ إذا . . .

أَكلَ النملُ الذي جَمعَا

خِلْفةً حتى إذا ارتبعتْ . . .

سَكَنتْ مِنْ جلّقٍ بيَعَا

في بيوت وَسْطَ دَسْكَرةٍ . . .

(15/563)

حولَها الزيتونُ قد يَنَعَا

قال مجاهد : ﴿ خِلْفَةً ﴾ من الخلاف ؛ هذا أبيض وهذا أسود ؛ والأوّل أقوى .

وقيل : يتعاقبان في الضياء والظلام والزيادة والنقصان .

وقيل : هو من باب حذف المضاف ؛ أي جعل الليل والنهار ذوي خِلفة ، أي اختلاف .

﴿ لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ ﴾ أي يتذكر ، فيعلم أن الله لم يجعله كذلك عبثاً فيعتبر في مصنوعات الله ، ويشكر الله تعالى على نعمه عليه في العقل والفكر والفهم .

وقال عمر بن الخطاب وابن عباس والحسن : معناه من فاته شيء من الخير بالليل أدركه بالنهار ، ومن فاته بالنهار أدركه بالليل .

وفي الصحيح : " ما من امرىء تكون له صلاة بالليل فغلبه عليها نوم فيصلّي ما بين طلوع الشمس إلى صلاة الظهر إلا كتب الله له أجر صلاته وكان نومه عليه صدقة " وروى مسلم عن عمر بن الخطاب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من نام عن حزبه أو عن شيء منه فقرأه فيما بين صلاة الفجر وصلاة الظهر كتب له كأنما قرأه من الليل " .

الثانية : قال ابن العربيّ : سمعت ذا الشهيد الأكبر يقول : إن الله تعالى خلق العبد حياً عالماً ، وبذلك كماله ، وسلّط عليه آفة النوم وضرورة الحدث ونقصان الخِلقة ؛ إذ الكمال للأوّل الخالق ؛ فما أمكن الرجل من دفع النوم بقلة الأكل والسهر في طاعة الله فليفعل .

ومن الغبن العظيم أن يعيش الرجل ستين سنة ينام ليلها فيذهب النصف من عمره لغواً ، وينام سدس النهار راحة فيذهب ثلثاه ويبقى له من العمر عشرون سنة ، ومن الجهالة والسفاهة أن يتلف الرجل ثلثي عمرِه في لذة فانية ، ولا يتلف عمره بسهر في لذة باقية عند الغنيّ الوفيّ الذي ليس بعديم ولا ظلوم .

الثالثة : الأشياء لا تتفاضل بأنفسها ؛ فإن الجواهر والأعراض من حيث الوجود متماثلة ، وإنما يقع التفاضل بالصفات .

وقد اختلف أيّ الوقتين أفضل ، الليل أو النهار .

وفي الصوم غنية في الدلالة ، والله أعلم ؛ قاله ابن العربي .

(16/563)

قلت : والليل عظيم قدره ؛ أمر نبيّه عليه الصلاة والسلام بقيامه فقال : ﴿ وَمِنَ الليل فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ ﴾ [الإسراء : 79] ، وقال : ﴿ قُمِ الليل ﴾ [المزمل : 2] على ما يأتي بيانه .

ومدح المؤمنين على قيامه فقال : ﴿ تتجافى جُنُوبُهُمْ عَنِ المضاجع ﴾ [السجدة : 16] .

وقال عليه الصلاة والسلام : " والصدقة تطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النار وصلاة الرجل في جوف الليل وفيه ساعة يستجاب فيها الدعاء وفيه ينزل الرب تبارك وتعالى " حسبما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى .

الرابعة : قرأ حمزة وحده : ﴿ يَذْكُرَ ﴾ بسكون الذال وضم الكاف .

وهي قراءة ابن وثّاب وطلحة والنَّخَعيّ .

وفي مصحف أبيّ ﴿ يَتذَكَّر ﴾ بزيادة تاء .

وقرأ الباقون : ﴿ يَذَّكَّر ﴾ بتشديد الكاف .

ويَذْكُرَ ويَذَّكَّر بمعنى واحد .

وقيل : معنى ﴿ يَذْكُرَ ﴾ بالتخفيف أي يذكر ما نسيه في أحد الوقتين في الوقت الثاني ، أو ليذكر تنزيه الله وتسبيحه فيها .

﴿ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً ﴾ يقال : شكر يشكر شكراً وشكوراً ، مثل كفر يكفر كفراً وكفوراً .

وهذا الشكور على أنهما جعلهما قواماً لمعاشهم .

وكأنهم لما قالوا : ﴿ وَمَا الرَّحْمَنُ ﴾ قالوا : هو الذي يقدر على هذه الأشياء . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 13 صـ ﴾

(17/563)

وقال أبو حيان :

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا ﴾

لما جعلت قريش سؤالها عن اسمه الذي هو الرحمن سؤالاً عن مجهول نزلت هذه الآية مصرحة بصفاته التي تعرف به وتوجب الإقرار بألوهيته .

ومناسبتها لما قبلها أنه تعالى لما ذكر أنه خلق السموات والأرض وما بينهما ، ووصف نفسه

بالرحمن ، وسألوا هم فيه عما وضع في السماء من النيرات وما صرف من حال الليل والنهار لبادروا بالسجود والعبادة للرحمن ، ثم نبههم على ما لهم به اعتناء تام من رصد الكواكب وأحوالها ووضع أسماء لها .

والظاهر أن المراد بالبروج المعروفة عند العرب وهي منازل الكواكب السيارة وهي الحمل ، والثور ، والجوزاء ، والسرطان ، والأسد ، والسنبلة ، والميزان ، والعقرب ، والقوس ، والجدي ، والدلو ، والحوت .

سميت بذلك لشبهها بما شبهت به .

وسميت بالبروج التي هي القصور العالية لأنها لهذه الكواكب كالمنازل لسكانها واشتقاق البرج من التبرج لظهوره .

وقيل : البروج هنا القصور في الجنة .

قال الأعمش .

وكان أصحاب عبد الله يقرؤونها ﴿ في السماء ﴾ قصوراً .

وقال أبو صالح : البروج هنا الكواكب العظام .

قال ابن عطية : والقول بأنها قصور في الجنة تحط من غرض الآية في التنبيه على أشياء مدركات تقوم بها الحجة على كل منكر لله أو جاهل .

والضمير في ﴿ فيها ﴾ الظاهر أنه عائد على ﴿ السماء ﴾ .

وقيل : على البروج ، فالمعنى وجعل في جملتها ﴿ سراجاً ﴾ .

وقرأ الجمهور ﴿ سراجاً ﴾ على الإفراد وهو الشمس .

وقرأ عبد الله وعلقمة والأعمش والأخوان سُرُجاً بالجمع مضموم الراء وهو يجمع الأنوار ، فيكون خص القمر بالذكر تشريفاً .

وقرأ الأعمش أيضاً والنخعي وابن وثاب كذلك بسكون الراء .

وقرأ الحسن والأعمش والنخعي وعصمة عن عاصم ﴿ وقُمراً ﴾ بضم القاء وسكون الميم فالظاهر أنه لغة في القمر كالرشد والرشد والعرب والعرب .

(18/563)

وقيل : جمع قمراء أي ليلة قمراء كأنه قال : وذا قمر منير لأن الليلة تكون قمراء بالقمر ، فأضافه إليها ونظيره في بقاء حكم المضاف بعد سقوطه وقيام المضاف إليه مقامه قول حسان :

بردى يصفق بالرحيق السلسل . . .

يريد ماء بردى .

فمنيراً وصف لذلك المحذوف كما قال يصفق بالياء من تحت ، ولو لم يراع المضاف لقال :

تصفق بالتاء وقال ﴿ منيراً ﴾ أي مضيئاً ولم يجعله ﴿ سراجاً ﴾ كالشمس لأنه لا توقد له .

وانتصب ﴿ خلفة ﴾ على الحال .

فقيل : هو مصدر خلف خلفة .

وقيل : هو اسم هيئة كالركبة ووقع حالاً اسم الهيئة في قولهم : مررت بماء قعدة رجل ، وهي الحالة التي يخلف عليها الليل والنهار كل واحد منهما الآخر .

والمعنى جعلهما ذوي خلفة أي ذوي عقبة يعقب هذا ذاك وذاك هذا ، ويقال الليل والنهار يختلفان كما يقال يعتقبان ومنه قوله ﴿ واختلاف الليل والنهار ﴾ ويقال : بفلان خلفة واختلاف إذا اختلف كثيراً إلى متبرزه ومن هذا المعنى قول زهير :

بها العيس والآرام يمشين خلفة . . .

وقول الآخر

يصف امرأة تنتقل من منزل في الشتاء إلى منزل في الصيف دأباً :

ولها بالما طرون إذا . . .

أكل النمل الذي جمعا

خلفة حتى إذا ارتفعت . . .

سكنت من جلق بيعا

في بيوت وسط دسكرة . . .

حولها الزيتون قد ينعا

وقيل ﴿ خلفة ﴾ في الزيادة والنقصان .

وقال مجاهد وقتادة والكسائي : هذا أسود وهذا أبيض وهذا طويل وهذا قصير .

﴿ لمن أراد أن يذكر ﴾ .

قال عمر وابن عباس والحسن : معناه ﴿ لمن أراد أن يذكر ﴾ ما فاته من الخير والصلاة ونحوه في أحدهما فيستدركه في الذي يليه .

وقال مجاهد وغيره : أي يعتبر بالمصنوعات ويشكر الله تعالى على نعمه عليه في العقل والفكر والفهم .

وقال الزمخشري : وعن أُبي بن كعب يتذكر والمعنى .

(19/563)

لينظر في اختلافهما الناظر فيعلم أن لا بد لانتقالهما من حال إلى حال وتغيرهما من نافل ومغير ، ويستدل بذلك على عظم قدرته ويشكر الشاكر على النعمة من السكون بالليل والتصرف بالنهار كما قال تعالى : ﴿ ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه

ولتبتغوا من فضله ﴾ وليكونا وقتين للمتذكر والشاكر من فاته في أحدهما ورده من العبادة أتى به في الآخر .

وقرأ النخعي وابن وثاب وزيد بن عليّ وطلحة وحمزة تذكر مضارع ذكر خفيفاً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(20/563)

وقال أبو السعود :

﴿ تَبَارَكَ الذى جَعَلَ فِى السماء بُرُوجاً ﴾

هي البروجُ الاثنا عشرَ ، سُمِّيتْ به ، وهي القُصور العالية لأنَّها للكواكبِ السَّيارةِ كالمنازلِ الرَّفيعةِ لسُكَّانِها . واشتقاقُه من البُرجِ لظهورِه ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجاً ﴾ هي الشَّمسُ لقولِه تَعالَى وجعل الشَّمسَ سراجاً . وقُرِىء سُرُجاً وهي الشَّمسُ والكواكبُ الكبارُ ﴿ وَقَمَراً مُّنِيراً ﴾ مُضيئاً باللَّيل وقُرِىء قُمْراً أي ذات قمرٍ وهي جمعُ قَمراءَ ولما أنَّ اللَّيالِيَ بالقمرِ تكونُ قمراءَ أُضيف إليها ثمَّ حُذفَ وأُجريَ حكمُه على المضافِ إليهِ القائمِ مقامَهُ كما في قولِ حسَّانَ رضي الله عنْهُ

بردى يُصفَّقُ بالرَّحيقِ السَّلسلِ . . . أي ماءُ بَردى ويُحتمل أنَّ يكونَ بمعنى القمرِ كالرَّشدِ

والرُّشدِ والعَرَبِ والعُرْبِ .

﴿ وَهُوَ الذى جَعَلَ الليل والنهار خِلْفَةً ﴾

أي ذَوَي خلفةٍ يخلفُ كلٌّ منهما الآخرَ بأنْ يقومَ مقامَه فيما ينبغي أنْ يَعملَ فيه أو بأنْ يَعتِقبا كقولِه تعالى : ﴿ واختلاف الليل والنهار ﴾ وهي اسمٌ للحالةِ من خلفَ كالرِّكبةِ والجلسةِ من رَكِبَ وجَلَس . ﴿ لّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ ﴾ أي يتذكَّر آلاءَ الله عزَّ وجلَّ ويتفكَّر في بدائعِ صُنعِه فيعلم أنَّه لا بُدَّ لها من صانعٍ حكيمٍ واجبِ الذَّاتِ رحيمٍ للعبادِ ﴿ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً ﴾ أي أنْ يشكرَ الله تعالى على ما فيهما من النِّعمِ أو ليكونا وقتينِ للذَّاكرينَ مَن فاتَهُ وِرْدُه في أحدِهما تداركه في الآخرةِ . وقُرِىء أنْ يذكُرَ من ذَكَرَ بمعنى تذكَّر . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير أبى السعود حـ 6 صـ ﴾

(21/563)

وقال الآلوسى :

﴿ تَبَارَكَ الذى جَعَلَ فِى السماء بُرُوجاً ﴾

الظاهر أنها البروج الإثنا عشر المعروفة .

وأخرج ذلك الخطيب في كتاب النجوم عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ، وهي في

الأصل القصور العالية وأطلقت عليها على طريق التشبيه لكونها للكواكب كالمنازل الرفيعة لساكنيها ثم شاع فصار حقيقة فيها ، وعن الزجاج أن البرج كل مرتفع فلا حاجة إلى التشبيه أو النقل .

واشتقاقه من التبرج بمعنى الظهور ، والذي يقتضيه مشرب أهل الحديث أنها في السماء الدنيا ولا مانع منه عقلاً لا سيما إذا قلنا بعظم ثخنها بحيث يسع الكواكب وما تقتضيه على ما ذكره أهل الهيئة وهي عندهم أقسام الفلك الأعظم المسمى على ما قيل بالعرش ولم يرد فيما أعلم إطلاق السماء عليه وإن كان صحيحاً لغة سميت بأسماء صور من الثوابت في الفلك الثامن وقعت في محاذاتها وقت اعتبار القسمة وتلك الصور متحركة بالحركة البطيئة كسائر الثواب ، وقد قارب في هذه الأزمان أن تخرج كل صورة عما حاذته أولاً وابتداؤها عندهم من نقطة الاعتدال الربيعي وهي نقطة معينة من معدل النهار لا تتحرك بحركة الفلك الثامن ملاقية لنقطة أخرى من منقطة البروج تتحرك بحركته وإذا لم يتحرك مبدأ البروج بتلك الحركة لم يتحرك ما عداها ، وقد جعل الله تعالى ثلاثة منها ربيعية وهي الحمل .

والثور .

والجوزاء وتسمى التوأمين أيضاً ، وثلاثة صيفية وهي السرطان .

والأسد والسنبلة وتسمى العذراء أيضاً وهذه الستة شمالية .

وثلاثة خريفية وهي الميزان .

والعقرب .

والقوس ويسمى الرامي أيضاً ، وثلاثة شتوية وهي الجدي .

والدلو .

ويسمى الدالي وساكب الماء أيضاً .

والحوت تسمى السمكتين وهذه الستة جنوبية ، ولحلو الشمس في كل من الأثني عشر يختلف الزمان حرارة وبرودة الليل والنهار طولاً وقصراً وبذلك يظهر بحكم جري العادة في عالم الكون والفساد آثار جليلة من نضج الثمار وإدراك الزروع ونحو ذلك مما لا يخفى ، ولعل ذلك هو وجه البركة في جعلها .

(22/563)

وأما ما يزعمه أهل الأحكام من الآثار إذا كان شيء منها طالعاً وقت الولادة أو شروع في عمل من الأعمال أو وقت حلول الشمس نقطة الحمل الذي هو مبدأ السنة الشمسية في المشهور فهو محض ظن ورجم بالغيب وسيأتي إن شاء الله تعالى الكلام في ذلك مفصلاً ، ولهم في تقسيمها إلى مذكر ومؤنث وليلي ونهاري وحار وبارد وسعد ونحس إلى غير ذلك

كلام طويل ولعلنا نذكر شيئاً منه بعد أن شاء الله تعالى ، ومن أراده مستوفى فليرجع إلى كتبهم ، ثم الظاهر أن البروج المجعولة مما لا دخل للاعتبار فيها ، والمذكور في كلام أهل الهيئة أنها حاصلة من اعتبار فرض ست دوائر معلومة قاطعة للعالم فيكون للاعتبار دخل فيها وإن لم تكن في ذلك كأنياب الأغوال لوجود مبدأ الانتزاع فيها فإن كان الأمر على هذا الطرز عند أهل الشرع بأن يعتبر تقسيم ما هي فيه إلى اثنتي عشرة قطعة وتسمى كل قطعة برجا فالظاهر أن المراد بجعله تعالى إياها جعل ما يتم به ذلك الاعتبار ويتحقق به أمر التفاوت والاختلاف بين تلك البروج ، وفيه من الخير الكثير ما فيه ، وقيل : إن في الآية إيماء إلى أن اعتبار التقسيم كان عن وحي ، والمشهور أن من اعتبر ذلك أولاً هرمس وهو على ما قيل ادريس عليه السلام فتأمل .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة أن البروج قصور على أبواب السماء فيها الحرس ، وقيل : هي القصور في الجنة ، قال الأعمش : وكان أصحاب عبد الله يقرؤون في السماء قصوراً ، وتعقب بأنه يأباه السياق لأن الآية قد سيقت للتنبيه على ما يقوم به الحجة على الكفرة الذين لا يسجدون للرحمن جل شأنه وبيان أنه المستحق للسجود ببيان آثار قدرته سبحانه وكماله جل جلاله ، والظاهر أن يكون ذلك بذكر أمور مدركة معلومة لهم وتلك القصور ليست كذلك ، وأخرج ابن جرير .

وابن المنذر عن مجاهد أنها النجوم ، وروي ذلك عن قتادة أيضاً ، وعن أبي صالح تقييدها بالكبار وأطلق عليها ذلك لعظمها وظهورها لا سيما التي من أول المراتب الثلاثة للقدر الأول من الأقدار الستة .

وأنت تعلم أنه لم يعهد إطلاق البروج على النجوم فالأولى أن يراد بها المعنى الأول المروى عن ابن عباس الذي هو أظهر من الشمس ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا ﴾ أي في السماء ، وقيل : في البروج ﴿ سِرَاجاً ﴾ هي الشمس كقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَ الشمس سِرَاجاً ﴾ [نوح : 16]

وقرأ عبد الله .

وعلقمة .

والأعمش .

والأخوان ﴿ سِرَاجاً ﴾ بالجمع مضموم الراء ، وقرأ الأعمش أيضاً .

والنخعي .

وابن وثاب كذلك إلا أنهم سكنوا الراء وهو على ما قيل من قبيل : ﴿ إِنَّ إبراهيم كَانَ أُمَّةً ﴾ [النحل : 120] لأن الشمس لعظمها وكمال إضاءتها لأنها سرج كثيرة أو الجمع باعتبار الأيام والمطالع ، وقد جمعت لهذين الأمرين في قول الشاعر :

لمعان برق أو شعاع شموس . . .

وعلى هذا القول تتحد القراءتان ، وقال بعض الأجلة : الجمع على ظاهره ، والمراد به الشمس والكواكب الكبار ، ومنهم من فسره بالكواكب الكبار ، واعترض على الأول بأنه يلزم تخصيص القمر بالذكر في قوله تعالى : ﴿ وَقَمَراً مُّنِيراً ﴾ بعد دخوله في السرج ، والمناسب تخصيص الشمس لكمال مزيتها على ما سواها .

ورد بأنه بعد تسليم دخوله في السرج خص بالذكر لأن سنيهم قمرية ولذا يقدم الليل على النهار وتعتبر الليلة لليوم الذي بعدها فهم أكثر عناية به مع أنه على ما ذكره يلزمه ترك ذكر الشمس وهي أحق بالذكر من غيرها والاعتذار عنه بأنها لشهرتها كأنها مذكورة ولذا لم تنظم مع غيرها في قرن لا يجدي .

والقمر معروف ويطلق عليه بعد الليلة الثالثة إلى آخر الشهر ، قيل : وسمي بذلك لأنه يقمر ضوء الكواكب ، وفي الصحاح لبياضه .

وفي وصفه ما يشعر بالاعتناء به .

(24/563)

وعلى الفرق المشهور بين الضوء والنور يكون في وصفه بمنيراً دون مضيئاً إشارة إلى أن ما يشاهد فيه مستفاد من غيره وهو الشمس بل قال غير واحد : إن نور جميع الكواكب

مستفاد منها وإن لم يظهر اختلاف تشكلاته بالقرب والبعد منها كما في نور القمر .

وقرأ الحسن .

والأعمش .

والنخعي .

وعصمة عن عاصم ﴿ وَقَمَراً ﴾ بضم القاف وسكون الميم ؛ واستظهر أبو حيان أنها لغة في القمر كالرشد والرشد والعرب والعرب ، وقيل : هو جمع قمراء وهي الليلة المنيرة بالقمر والكلام على حذف مضاف أي وذا قمر أي صاحب ليال قمر ، والمراد بهذا الصاحب القمر نفسه ويكون قوله سبحانه : ﴿ مُّنِيراً ﴾ صفة لذلك المضاف المحذوف لأن المحذوف قد يعتبر بعد حذفه كما في قول حسان رضي الله تعالى عنه :

بردى يصفق بالرحيق السلسل . . .

فإنه يريد ماء بردى ولذا قال يصفق بالياء من تحت ولو لم يراع المضاف لقال تصفق بالتاء .

﴿ وَهُوَ الذى جَعَلَ الليل والنهار خِلْفَةً ﴾

أي ذوي خلفة يخلف كل منهما الآخر بأن يقوم مقامه فيما ينبغي أن يعمل فيه .

وروي هذا عن ابن عباس .

والحسن .

وسعيد بن جبير .

وقيل : بأن يعقبه ويجيء بعده وهو اسم للحالة من خلف كالركبة والجلسة من ركب وجلس .

ونصبه على أنه مفعول ثان لجعل أو حال إن كان بمعنى خلق .

وجعله بعضهم بمعنى اختلافاً والمراد الاختراف في الزيادة والنقصان كما قيل أو في الوساد والبياض كما روي عن مجاهد أو فيما يعم ذلك وغيره كما هو محتمل ؛ وفي البحر يقال : بفلان خلفة واختلاف إذا اختلف كثيراً إلى متبرزه .

ومن هذا المعنى قول زهير :

بها العين والآرام يمشين خلفة . . .

واطلاؤها ينهضن من كل مجثم

وقول الآخر يصف امرأة تنتقل من منزل في الشتاء إلى منزل في الصيف دأباً :

ولها بالماطرون إذا . . .

أكل النمل الذي جمعا

خلفة حتى إذا ارتفعت . . .

سكنت من جلق بيعا

في بيوت وسط دسكرة . . .

حولها الزيتون قد نبعا

انتهى وجوز عليه أن يكون المراد يذهب كل منهما ويجيء كثيراً .

(25/563)

واعتبار المضاف المقدر على حاله وكذا فيما قبله .

وفي القاموس الخلف والخلفة بالكسر المختلف .

وعليه لا حاجة إلى تقدير المضاف .

والمعنى جعلهما مختلفين والإفراد لكونه مصدراً في الأصل ﴿ لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ ﴾ أي ليكونا وقتين للمتذكر من فاته ورده من العبادة في أحدهما تداركه في الآخر ، وروي هذا عن جماعة من السلف ، وروي الطيالسي .

وابن أبي حاتم أن عمر رضي الله تعالى عنه أطال صلاة الضحى فقيل له .

صنعت شيئاً لم تكن تصنعه قال : إنه بقي على من وردى شيء فأحببت أن أتمه أو قال : أقضيه وتلا هذه الآية .

وكأن التذكر مجاز عن أداء ما فات وهو مما يتوقف الأداء عليه ، وفي الكلام تقدير كما أشير إليه .

ويجوز أن يكون تقدير معنى لا إعراب ﴿ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً ﴾ أن يشكر الله تعالى بأداء نوع من العبادة لم يكن ورداً له .

وفي مجمع البيان المعنى لمن أراد النافلة بعد أداء الفريضة ، ويجوز أن يكون المعنى لمن أراد أن يتذكر ويتفكر في بدائع صنع الله تعالى فيعلم أنه لا بد لما ذكر من صانع حكيم واجب الذات ذي رحمة على العباد أو أراد أن يشكر الله سبحانه على ما فيهما من النعم وهو وجه حسن يكاد لا يلتفت لغيره لو لم يكن مأثوراً ، والظاهر أن اللام على هذا صلة ﴿ جَعَلَ ﴾ ولما كان ظهور فائدة ذلك لمن أراد التذكر أو أراد الشكر اقتصر عليه ، وجوز أن تكون للتعليل و ﴿ أَوْ ﴾ للتنويع على معنى الاشتمال على هذين المعنيين أو للتخيير على معنى الاستقلال بكل ولا منع من الاجتماع .

وفائدة هذا الأسلوب إفادة الاستقلال ولو ذكر الواو بدلها لتوهم المعية ، ولعل في التعبير أولاً بأن والفعل دون المصدر الصريح كما في الشق الثاني مع أنه أخصر إيماء إلى الاعتناء بأمر التذكر فتذكر .

وقرأ أبي بن كعب ﴿ إِن يَتَذَكَّرُ ﴾ وهو أصل ليذكر فابدل التاء ذالا وأدغم .

وقرأ النخعي .

وابن وثاب .

وزيد بن علي .

وطلحة.

وحمزة ﴿ أَن يَذَّكَّرَ ﴾ مضارع ذكر الثلاثي بمعنى تذكر. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 19 صـ ﴾

(26/563)

وقال ابن عاشور:

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا ﴾

استئناف ابتدائي جعل تمهيداً لقوله ﴿ وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هَوْناً ﴾ [الفرقان: 63] الآيات التي هي محصول الدعامة الثالثة من الدعائم الثلاث التي أقيم عليها بناء هذه السورة، وافتتحت كل دعامة منها بـ ﴿ تبارك الذي... ﴾ إلخ كما تقدم في صدر السورة.

وافتتح ذلك بإنشاء الثناء على الله بالبركة والخير لما جعله للخلق من المنافع.

وتقدم ﴿ تبارك ﴾ أول السورة (1) وفي قوله ﴿ تبارك الله رب العالمين ﴾ في الأعراف (54).

والبروج: منازل مرور الشمس فيما يرى الراصدون.

وقد تقدم الكلام عليها عند قوله تعالى : ﴿ ولقد جعلنا في السماء بروجاً ﴾ في أول سورة الحجر (16) .

والامتنان بها لأن الناس يُوقّتون بها أزمانهم .

وقرأ الجمهور سراجاً ﴾ بصيغة المفرد .

والسراج : الشمس كقوله : ﴿ وجعل الشمس سراجاً ﴾ في سورة نوح (16) .

ومناسبة ذلك لما يرد بعده من قوله : ﴿ وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة . . . ﴾ [الفرقان : 62] .

وقرأ حمزة والكسائي ﴿ سُرُجاً ﴾ بضم السين والراء جمع سراج فيشمل مع الشمس النجوم ، فيكون امتناناً بحسن منظرها للناس كقوله ﴿ ولقد زيّنّا السماء الدنيا بمصابيح ﴾ [الملك : 5] .

والامتنان بمحاسن المخلوقات وارد في القرآن قال تعالى : ﴿ ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون ﴾ [النحل : 6] .

والكلام جار على التشبيه البليغ لأن حقيقة السراج : المصباح الزاهر الضياء .

والمقصود : أنه جعل الشمس مزيلة للظلمة كالسراج ، أو خلق النجوم كالسراج في التلألؤ وحسن المنظر .

ودلالة خلق البروج وخلق الشمس والقمر على عظيم القدرة دلالة بينة للعاقل ، وكذلك

دلالته على دقيق الصنع ونظامه بحيث لا يختل ولا يختلف حتى تسنى للناس رصد أحوالها وإناطة حسابهم بها .

(27/563)

وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا (62)

الاستدلال هذا بما في الليل والنّهار من اختلاف الحال بين ظلمة ونور ، وبرد وحر ، مما يكون بعضه أليق ببعض الناس من بعض ببعض آخر ، وهذا مخالف للاستدلال الذي في قوله ﴿ وهو الذي جعل لكم الليل لباساً والنوم سباتاً وجعل النهار نشوراً ﴾ [الفرقان : 47] ، فهذه دلالة أخرى ونعمة أخرى والحِكَم في المخلوقات كثيرة .

والقصر هنا قصر حقيقي وليس إضافياً فلذلك لا يراد به الرد على المشركين بخلاف صيغ القصر السابقة من قوله ﴿ وهو الذي جعل لكم الليل لباساً إلى قوله وكان ربك قديراً ﴾ [الفرقان : 47 54] .

والخِلفة بكسر الخاء وسكون اللام : اسم لما يَخلف غيره في بعض ما يصلح له .

صيغ هذا الاسم على زنة فِعْلة لأنه في الأصل ذو خلفة ، أي صاحب حالة خلف فيها غيره ثم شاع استعماله فصار اسماً ، قال زهير:

بها العين والآرام يَمشِينَ خِلفَةً . . .

وأطلاؤها ينهَضْن من كل مُجْثَم

أي يمشي سرب ويخلفه سرب آخر ثم يتعاقب هكذا .

فالمعنى : جعل الليل خلفة والنهارَ خلفة : أي كلَّ واحد منهما خِلفة عن الآخر ، أي فيما يعمل فيها من التدبر في أدلة العقيدة والتعبد والتذكر .

واللام في ﴿ لمن أراد أن يذكر ﴾ لام التعليل وهي متعلقة بـ ﴿ جعل ﴾ ، فأفاد ذلك أن هذا الجعل نافع من أراد أن يذّكر أو أراد شُكوراً .

والتذكر : تفعّل من الذِكر ، أي تكلف الذكر .

والذكر جاء في القرآن بمعنى التأمل في أدلة الدين ، وجاء بمعنى : تذكر فائت أو منسي ، ويجمع المعنيين استظهار ما احتجب عن الفكر .

والشكور : بضم الشين مصدر مرادف الشكر ، والشكر : عرفانُ إحسان المحسن .

والمراد به هنا العبادة لأنها شكر لله تعالى .

(28/563)

فتفيد الآية معنى : لينظرَ في اختلافهما المتفكر فيعلم أن لا بدّ لانتقالهما من حال إلى حال مؤثر حكيم فيستدل بذلك على توحيد الخالق ويعلم أنه عظيم القدرة فيوقن بأنه لا يستحق غيره الإلهية ، وليشكر الشاكر على ما في اختلاف الليل والنهار من نعم عظيمة منها ما ذكر في قوله تعالى : ﴿ وهو الذي جعل لكم الليل لباساً والنوم سباتاً وجعل النهار نشوراً ﴾ [الفرقان : 47] فيكثر الشاكرون على اختلاف أحوالهم ومناسباتهم ، وتفيد معنى : ليتداركَ الناسِي ما فاته في الليل بسبب غلبة النوم أو التعب فيقضيَه في النهار أو ما شغله عنه شواغل العمل في النهار فيقضيه بالليل عند التفرغ فلا يرزؤه ذلك ثواب أعماله .

روي أن عمر بن الخطاب أطال صلاة الضحى يوماً فقيل له : صنعت شيئاً لم تكن تصنعه ؟ فقال : إنه بَقي عليَّ من وردي شيء فأحببت أن أقضيه وتلا قوله تعالى : ﴿ وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة ﴾ الآية .

ولمن أراد أن يتقرب إلى الله شكراً له بصلاة أو صيام فيكون الليل أسعد ببعض ذلك والنهار أسعد ببعض ، فهذا مفاد عظيم في إيجاز بديع .

وجيء في جانب المتذكرين بقوله ﴿ أن يذكر ﴾ لدلالة المضارع على التجدد .

واقتصر في جانب الشاكرين على المصدر بقوله ﴿ أو أراد شكوراً ﴾ لأن الشكر يحصل دفعة .

ولأجل الاختلاف بين النظمين أعيد فعل ﴿ أراد ﴾ إذ لا يلتئم عطف ﴿ شكوراً ﴾

على ﴿ أن يذكر ﴾ .

وقرأ الجمهور ﴿ أن يذَّكر ﴾ بتشديد الذال مفتوحة ، وأصله : يتذكر فأدغمت التاء في الذال لتقاربهما .

وقرأ حمزة وخلف ﴿ أن يَذْكُر ﴾ بسكون الذال وضم الكاف وهو بمعنى المشدّد إلاّ أن المشدّد أشدّ عملاً ، وكلا العملين يستدركان في الليل والنهار . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 19 صـ ﴾

(29/563)

وقال الشيخ الشنقيطي :

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا ﴾

قد قدمنا كلام أهل العلم في معنى تبارك في أول هذه السورة الكريمة .

والبروج في اللغة : القصور العالية ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾ [النساء : 78] .

واختلف العلماء في المراد بالبروج في الآية ، فقال بعضهم : هي الكواكب العظام . قال ابن كثير : وهو قول مجاهد ، وسعيد بن جبير ، وأبي صالح والحسن ، وقتادة ، ثم قال : وقيل

هي قصور في السماء للحرس . ويروى هذا عن علي ، وابن عباس ، ومحمد بن كعب ، وإبراهيم النخعي ، وسليمان بن مهران الأعمش ، وهو رواية عن أبي صالح أيضاً ، والقول الأول أظهر اللهم إلا أن تكون الكواكب العظام ، هي قصور للحرس فيجتمع القولان ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السمآء الدنيا بِمَصَابِيحَ ﴾ [تبارك : 5] اه . محل الغرض من كلام ابن كثير .

وقال الزمخشري في الكشاف : البروج منازل الكوابك السبعة السيارة الحمل ، والثور ، والجوزاء ، والسرطان ، والأسد والسنبلة ، والميزان ، والعقرب ، والقوس والجدي ، والدلو والحوت ، سميت البروج التي هي القصور العالية ، لأنها لهذه الكواكب كالمنازل لسكانها ، واشتقاق البرج من التبرج لظهوره . اه منه .

(30/563)

وما ذكره جل وعلا هنا من أنه جعل في السماء بروجاً وجعل فيها سراجاً وهو الشمس ، وقمراً منيراً ، بينه في غير هذا الموضع كقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السماء بُرُوجاً وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴾ [الحجر : 16] وقوله تعالى : ﴿ والسمآء ذَاتِ البروج ﴾ [البروج : 1] وقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا سِرَاجاً وَهَّاجاً ﴾ [النبأ : 13] وقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ

تَرَوْاْ كَيْفَ خَلَقَ اللهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً وَجَعَلَ القمر فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشمس سِرَاجاً ﴾ [نوح : 1516] وقرأ هذا الحرف عامة السبعة غير حمزة والكسائي : وجعل فيها سراجاً بكسر السين وفتح الراء بعدها ألف على الإفراد ، وقرأه حمزة والكسائي : سرجاً بضم السين ، والراء جمع سراج ، فعلى قراءة الجمهور بإفراد السراج فالمراد به الشمس ، بدليل قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَ الشمس سِرَاجاً ﴾ وعلى قراءة حمزة والكسائي بالجمع . فالمراد بالسرج الشمس ، والكوكب العظام .

وقد قدمنا في سورة الحجر أن ظاهر القرآن أن القمر في السماء المبنية لا السماء التي هي مطلق ما علاك ، لأن الله بين في سورة الحجر ، أن السماء التي جعل فيها البروج هي المحفوظة ، والمحفوظة هي المبنية في قوله تعالى : ﴿ والسمآء بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ [الذاريات : 47] وقوله : ﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِدَاداً ﴾ [النبأ : 12] وليست مطلق ما علاك ، والبيان المذكور في سورة الحجر في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السماء بُرُوجاً وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴾ [الحجر : 1617] الآية . فآية الحجر هذه دالة على أن ذات البروج هي المبنية ، المحفوظة لا مطلق ما علاك .

وإذا علمت ذلك فاعلم أنه جل وعلا في آية الفرقان هذه ، بين أن القمر في السماء التي جعل فيها البروج ، لأنه قال هنا : ﴿ تَبَارَكَ الذي جَعَلَ فِي السمآء بُرُوجاً وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجاً وَقَمَراً مُّنِيراً ﴾ وذلك دليل على أنها ليست مطلق ما علاك ، وهذا الظاهر لا ينبغي للمسلم العدول عنه إلا بدليل يجب الرجوع إليه ، مما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم .

فإن قيل : يوجد في كلام بعض السلف ، أن القمر في فضاء بعيد من السماء ، وأن علم الهيئة دل على ذلك ، وأن الإرصاد الحديثة بينت ذلك .

قلنا : ترك النظر في علم الهيئة عمل بهدي القرآن العظيم ، لأن الصحابة رضي الله عنهم لما تاقت نفوسهم إلى تعلم هيئة القمر منه صلى الله عليه وسلم ، وقالوا له يا نبي الله : ما بال الهلال يبدو دقيقاً ثم لم ينزل يكبر حتى يستدير بدراً ؟ نزل القرآن بالجواب بما فيه فائدة للبشر وترك ما لا فائدة فيه ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأهلة قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ والحج ﴾ [البقرة : 189] وهذا الباب الذي أرشد القرآن العظيم إلى سده لما فتحه الكفرة كانت نتيجة فتحه الكفر ، والإلحاد وتكذيب الله ورسوله من غير فائدة دنيوية ، الذي أرشد الله إليه في كتابه هو النظر في غرائب صنعه ، وعجائبه في السماوات والأرض ليستدل بذلك على كمال قدرته تعالى ، واستحقاقه للعبادة وحده ، وهذا المقصد الأساسي لم يحصل للناظرين في الهيئة من الكفار .

وعلى كل حال فلا يجوز لأحد ترك ظاهر القرآن العظيم إلا لدليل مقنع يجب الرجوع إليه كما هو معلوم في محله .

ولا شك أن الذين يحاولون الصعود إلى القمر بآلاتهم ويزعمون أنهم نزلوا على سطحه سينتهي أمرهم إلى ظهور حقارتهم ، وضعفهم ، وعجزهم ، وذلهم أمام قدرة خالق السماوات والأرض جل وعلا .

(32/563)

وقد قدمنا في سورة الحجر أن ذلك يدل عليه قوله تعالى : ﴿ أَمْ لَهُم مُّلْكُ السماوات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُواْ فِى الأسباب جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الأحزاب ﴾ [ص : 1011] .

فإن قيل : الآيات التي استدللت بها على أن القمر في السماء المحفوظة فيها احتمال على أسلوب عربي معروف ، يقتضي عدم دلالتها على ما ذكرت ، وهو عود الضمير إلى اللفظ وحده دون المعنى .

وإيضاحه أن يقال في قوله : ﴿ جَعَلَ فِي السمآء بُرُوجاً ﴾ هي السماء المحفوظة ، ولكن الضمير في قوله : ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجاً وَقَمَراً مُّنِيراً ﴾ راجع إلى مطلق لفظ السماء

الصادق بمطلق ما علاك في اللغة ، وهذا أسلوب عربي معروف وهو المعبر عنه عند علماء العربية بمسألة : عندي درهم ونصفه أي نصف درهم آخر ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلاَ يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ ﴾ [فاطر : 11] أي ولا ينقص من عمر معمر آخر .

قلنا : نعم هذا محتمل ، ولكنه لم يقم عليه عندنا دليل يجب الرجوع إليه ، والعدول عن ظاهر القرآن العظيم لا يجوز إلا لدليل يجب الرجوع إليه ، وظاهر القرآن أولى بالاتباع والتصديق من أقوال الكفرة ، ومقلديهم والعلم عند الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 6 صـ ﴾

(33/563)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا ﴾

يعود السياق مرة أخرى لذِكْر آية كونية ؛ لأن الحق تبارك وتعالى يراوح بين آية تطلب منهم شيئاً ، وأخرى تلفتهم إلى قدرة الله وعظمته ، وهذا يدل على مدى تعنتهم ولجاجتهم وعنادهم ، وحرص الحق سبحانه وتعالى على لَفْتهم إليه ، والأَخْذ بأيديهم إلى ساحته

تعالى .

ولو شاء سبحانه لَسرَد الآيات الكونية مرة واحدة ، وآيات التكذيب مرة واحدة ، ولكن يُزاوج سبحانه وتعالى بين هذه وهذه لتكون العبرة أنفذ إلى قلوب المؤمنين .

قلنا : ﴿ تَبَارَكَ ﴾ [الفرقان : 61] يعني : تنزّه ، وعَلاّ قدره ، وعَظُم خيره وبركته .

والبروج : جمع بُرْج ، وهو الحصن الحصين العالي الذي لا يقتحمه أحد ، والآن يُطلقونها على المباني العالية يقولون : برج المعادي ، برج النيل . . الخ ، ومنه قوله تعالى : ﴿ والسمآء ذَاتِ البروج ﴾ [البروج : 1] .

وقوله سبحانة : ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ الموت وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾ [النساء : 78] .

والبروج : منازل في السماء يحسب الناسُ بها الأوقات ، ويربطون بينها وبين الحظوظ ، فترى الواحد منهم أول ما يفتح جريدة الصباح ينظر في باب " حظك اليوم " ، وقد دلَّتْ الآيات على أن هذه البروج جعلها الله لتُسهِّل على الناس أمور الحساب .

كما قال سبحانه : ﴿ الشمس والقمر بِحُسْبَانٍ ﴾ [الرحمن : 5] .

وقال تعالى : ﴿ والشمس والقمر حُسْبَاناً ﴾ [الأنعام : 96] .

يعني : بها تُحسب المواقيت ، فالشمس تعطيك المواقيت اليومية والليلية ، والقمر يدلُّك على أول كل شهر ؛ لأنه يظهر على جِرْم معين ، وكيفية مخصوصة تُوضّح لك أول الشهر

ومنتصفه وآخره ، ثم تعطيك الشمس بالظل حساب جزيئات الزمن .

ومعلوم أن في السماء اثنيْ عَشَر بُرْجاً جمعها الناظم في قوله :

حَمَلَ الثَّوْرُ جَوْزَةَ السَّرَطَانِ . . . وَرَعَى اللَيْثُ سُنْبُلَ الميزَانِ

(34/563)

عَقْرب القَوْس جَدْي دَلْو . . . وحُوت مَا عَرفنَا من أُمَّة السُّرْيَانِ

فهي : الحملَ ، والثور ، والجوزاء ، والسرطان ، والأسد ، والسنبلة ، والميزان ، والعقرب ، والقوس ، والجدي ، والدلو ، والحوت . فأوّلها الحَمل ، وآخرها الحوت ، وكلُّ بُرْج يبدأ من يوم 21 في الشهر وينتهي يوم 20 .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجاً وَقَمَراً مُّنِيراً ﴾ [الفرقان : 61] السراج هو المصباح الذي نشعله ليعطي حرارة وضوءاً ذاتياً ، والمراد هنا الشمس ؛ لأن ضوءها ذاتيٌّ منها ، وكذلك حرارتها ، على خلاف القمر الذي يضيء بواسطة الأشعة المنعكسة على سطحه ، فإضاءته غير ذاتية ؛ لذلك يقولون عن ضوء القمر : الضوء الحليم ؛ لأنه ضوء بلا حرارة .

والعجيب أن سطح القمر كما وجدوه حجارة ، ولما أخذوا منه حجراً ليُجروا عليه

بحوثهم فهل قَلَّ ضوء القمر ؟ لا لأن دائرته الكاملة هي التي تعكس إلينا ضوء الشمس وحين تأخذ منه حجراً يعكس لك ما تحته أشعة الشمس .

وفي موضع آخر ، يوضح الحق سبحانه هذه المسألة ، فيقول تعالى : ﴿ هُوَ الذي جَعَلَ الشمس ضِيَآءً والقمر نُوراً ﴾ [يونس : 5] فالضياء هو الذي يأتي من الكوكب ذاتياً ، والنور هو انعكاس الضوء على جسم آخر ، فهو غير ذاتي .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَهُوَ الذي جَعَلَ الليل والنهار ﴾

عرفنا أن الليل : غياب الشمس عن نصف الكرة الأرضية ، والنهار مواجهة الشمس للنصف الآخر ، والليل والنهار متعاقبان ﴿ خِلْفَةً ﴾ الفرقان : 62] يأتي الليل ثم يعقبه النهار ، كل منهما خَلْف الآخر ، وهذه المسألة واضحة لنا الآن ، لكن كيف كانت البداية عندما خلق الله تعالى الخَلْق الأول ، فساعتها ، هل كانت الشمس مواجهة للأرض أم غائبة عنها ؟

(35/563)

إنْ كان الحق سبحانه خلق الشمس مواجهةً للأرض ، فالنهار هو الأول ، ثم تغيب الشمس ، ويأتي الليل ليخلف النهار ، أما النهار فلم يُسبق بليْل . وكذلك كانت الشمس عند الخَلْق

غير مواجهة للأرض ، فالليل هو الأول ، ولا يسبقه نهار ، وفي كلتا الحالتين يكون أحدهما ليس خلْفة للآخر ، ونحن نريد أن تصدُقَ الآية على كليْهما .

إذن : لا بد أنهما خِلْفة منذ الخَلْق الأول ؛ ذلك لأن الأرض كما عرفنا ولم يَعُدْ لدينا شك في هذه المسألة كروية ، والحق تبارك وتعالى حينما خلق الشمس والقمر الخَلق الأول كان المواجه منها للشمس نهاراً ، والمواجهة منها للقمر ليلاً ، ثم تدور حركة الكون ، فيخلف أحدهما الآخر منذ البداية .

وهذه النظرية لا تستقيم إلا إذا قُلْنا بكروية الأرض ، وهذه يؤيدها قوله تعالى : ﴿ وَلاَ الليل سَابِقُ النهار ﴾ [يس : 40] .

والمعنى أيضاً : ولا النهار سابق الليل ، لكن ذكر الليلَ ؛ لأنهم كانوا يعتقدون أن الليل خُلِق أولاً ، لماذا ؟ لأن الزمن عندهم يثبت بليله ، كما يحدث مثلاً في الصوم ، فهل تصوم أولاً في النهار ثم ترى الهلال بالليل ؟ إنما ترى الهلال بالليل أولاً ، فكأن رمضان يبدأ يومه بليله .

وما دام الأمر كذلك فالليل سابقُ النهار عندهم ، وهذه قضية يعتقدونها ومُسلَّمة عندهم ، وجاء القرآن وخاطبهم على أساس هذا الاعتقاد : أنتم تعتقدون أن الليلَ سابقُ النهار يعني : النهار لا يسبق الليل ، نعم لكن : اعلموا أيضاً أن الليل لا يسبق النهار . إذن : المحصلة : لا الليلُ سابقُ النهار ، ولا النهار سابق الليل .

ولو قلنا بأن الأرض مسطوحة لَمَا استقام لنا هذا القول .

لكن أيّ ليل ؟ وأيّ نهار ؟ نهاري أنا ، أم نهار المقابل لي ؟ وكل واحد على مليون من الثانية يولد نهار ويبدأ ليل ؛ لأن الشمس حين تغيب عني تشرق على آخرين ، والظهر عندي يوافقه عصر أو مغرب أو عشاء عند آخرين .

(36/563)

إذن : كل الزمن فيه الزمن ، وهذا الاختلاف في المواقيت يعني أن نغمة الأذان (الله أكبر) شائعة في كل الزمن ، فالله معبود بكل وقت وفي كل زمن ، فأنت تقول : الله أكبر وغيرك يقول : أشهد أن لا إله إلا الله . . وهكذا .

وإنْ كان الحق تبارك وتعالى خلق الليل للسُّبات وللراحة ، والنهار للسعي والعمل ، فهذه الجمهرة العامة لكنها قضية غير ثابتة ، حيث يوجد من مصالح الناس ما يتعارض وهذه المسألة ، فمن الناس مَنْ تقتضي طبيعة عمله أن يعمل بالليل كالخبازين والحراس والممرضين

.

. إلخ .

فهؤلاء يُسمح لهم بالعمل بالليل والراحة بالنهار ، ولو لم يكُنْ لهؤلاء منفذ لقلنا : إن هذا الكلام متناقض مع كونيات الخَلْق ؛ لذلك يقول سبحانه وتعالى في آية أخرى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ

مَنَامُكُم بالليل والنهار ﴾ [الروم : 23] فتراعي هذه الآية ظروف هؤلاء الذين يضطرون للعمل ليلاً ، وللراحة نهاراً .

وقوله تعالى : ﴿ لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً ﴾ [الفرقان : 62] يعني : يا مَنْ شغله نهار عمله عن ذكر ربه انتهِزْ فرصة الليل ، ويا مَنْ شغله نوم الليل عن ذِكْر ربه انتهز فرضة النهار ، وذلك كقول النبي صلى الله عليه وسلم : " إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل " .

فمَن فاته شيء في ليله فليتداركه في نهاره ، ومَنْ فاته شيء في نهاره فليتداركه في ليله ، وإذا كان الله تعالى يبسط يده بالليل ويبسط يده بالنهار ، وهما مستمران ، فمعنى ذلك أن يده تعالى مبسوطة دائماً .

ومعنى ﴿ يَذَّكَّرَ ﴾ [الفرقان : 62] يتمعنّ ويتأمل في آيات الله ، في الليل وفي النهار ، كأنه يريد أن يصطاد لله نعماً يشكره عليها ، على خلاف الغافل الذي لا يلتفت إلى شيء من هذا ، فمن فضل الله علينا أن يُنبِّهنا إلى هذه النعم ، ويلفت نظرنا إليها ؛ لأننا أهل غفلة .

وقوله : ﴿ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً ﴾ [الفرقان : 62] أي : شكراً ، فهي صغية مبالغة في الشكر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(37/563)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا (61) ﴾

أخرج الخطيب في كتاب النجوم عن ابن عباس في قوله ﴿ تبارك الذي جعل في السماء بروجاً ﴾ قال : هي هذه الاثنا عشر برجاً . أولها الحمل ، ثم الثور ، ثم الجوزاء ، ثم السرطان ، ثم الأسد ، ثم السنبلة ، ثم الميزان ، ثم العقرب ، ثم القوس ، ثم الجدي ، ثم الدلو ، ثم الحوت .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة ﴿ تبارك الذي جعل في السماء بروجاً ﴾ قال : قصوراً على أبواب السماء فيها الحرس .

وأخرج هناد وعبد بن حميد وابن جرير عن يحيى بن رافع ﴿ جعل في السماء بروجاً ﴾ قال : قصوراً في السماء .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن عطية ﴿ جعل في السماء بروجاً ﴾ قال : القصور . ثم تأوّل هذه الآية ﴿ ولو كنتم في بروج مشيدة ﴾ [النساء : 78] .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير عن قتادة في قوله ﴿ جعل في السماء بروجاً ﴾ قال : البروج النجوم .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن مجاهد في قوله ﴿ جعل في السماء بروجاً ﴾ قال : النجوم .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن أبي صالح ﴿ جعل في السماء بروجاً ﴾ قال : النجوم الكبار .

وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة ﴿ تبارك الذي جعل في السماء بروجاً ﴾ قال : هي النجوم . وقال عكرمة : إن أهل السماء يرون نور مساجد الدنيا كما يرون أهل الدنيا نجوم السماء .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة ﴿ وجعل فيها سراجاً ﴾ قال : هي الشمس .

وأخرج عبد بن حميد عن عاصم أنه قرأ ﴿ وجعل فيها سراجاً ﴾ بكسر السين على معنى الواحد .

وأخرج سعيد بن منصور عن الحسن : أنه كان يقرأ ﴿ سراجاً ﴾ .

وأخرج سعيد بن منصور عن ابراهيم النخعي : أنه كان يقرأ ﴿ وجعل فيها سرجاً وقمراً منيراً ﴾ .

وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا (62)

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة ﴾ قال : أبيض وأسود .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله ﴿ جعل الليل والنهار خلفة ﴾ قال : هذا يخلف هذا ، وهذا يخلف هذا ﴿ لمن أراد أن يذكر ﴾ قال : يذكر نعمة ربه عليه فيهما ﴿ أو أراد شكوراً ﴾ قال : شكور نعمة ربه عليه فيهما .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد ﴿ جعل الليل والنهار خلفة ﴾ قال : يختلفان . هذا أسود وهذا أبيض ، وإن المؤمن قد ينسى بالليل ويذكر بالنهار ، وينسى بالنهار ويذكر بالليل .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿ جعل الليل والنهار خلفة ﴾ يقول : من فاته شيء من الليل أن يعمله أدركه بالنهار ، ومن فاته شيء من النهار أن يعمله أدركه بالليل .

وأخرج الطيالسي وابن أبي حاتم عن الحسن : أن عمر أطال صلاة الضحى فقيل له : صنعت اليوم شيئاً لم تكن تصنعه فقال : إنه بقي عليَّ من وردي شيء وأحببت أن أتمه . أو قال اقضيه . وتلا هذه الآية ﴿ وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة ﴾ الآية .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير ﴿ جعل الليل والنهار خلفة ﴾ يقول : جعل الليل خلفاً من النهار ، والنهار خلفاً من الليل ، لمن فرط في عمل أن يقضيه .

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن ﴿ جعل الليل والنهار خلفة ﴾ قال : إن لم يستطع عمل الليل عمله بالنهار ، وإن لم يستطع عمل النهار عمله بالليل . فهذا خلفة لهذا .

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن في قوله ﴿ جعل الليل والنهار خلفة ﴾ قال : من عجز بالليل كان له في أول النهار مستعتب ، ومن عجز بالنهار كان له في الليل مستعتب .

(39/563)

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة ؛ أن سلمان جاءه رجل فقال : لا أستطيع قيام الليل قال : إن كنت لا تستطيع قيام الليل فلا تعجز بالنهار قال قتادة : ذكر لنا أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال " والذي نفس محمد بيده أن في كل ليلة ساعة ؛ لا يوافقها رجل مسلم يصلي فيها ، يسأل الله فيها خيراً إلا أعطاه إياه " قال قتادة : فأروا الله من أعمالكم خيراً في هذا الليل والنهار ، فإنهما مطيتان تحملان الناس إلى آجالهم ، تقربان كل بعيد ، وتبليان كل جديد ، وتجيئان بكل موعود ، إلى يوم القيامة .

وأخرج عبد بن حميد عن عاصم أنه قرأ " لمن أراد أن يذكر " مشددة .

وأخرج سعيد بن منصور عن إبراهيم النخعي أنه كان يقرأ " لمن أراد أن يذكر " . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 6 صـ ﴾

(40/563)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله : ﴿ سِرَاجاً ﴾ :

قرأ الجمهورُ بالإفراد ، والمرادُ به الشمسُ ، ويؤيِّده ذِكْرُ القمرِ بعدَه . والأخَوان " سُرُجاً " بضمتين جمعاً ، نحو حُمُر في حِمار . وجُمِعَ باعتبارِ الكواكبِ النيِّرات . وإنما ذُكِرَ القمرُ تَشْريفاً له كقولِه : ﴿ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ ﴾ [البقرة : 98] بعد انتظامِهما في الملائكةِ . وقرأ الأعمش والنخعي وابن وثاب كذلك ، إلاَّ أنه بسكونِ الراءِ تخفيفاً . والحسن والأعمش والنخعي وعاصم في روايةِ عصمة و " قُمْراً " بضمةٍ وسكونٍ ، وهو جمع قَمْراء كحُمْر في حَمْراء . والمعنى : وذا ليالٍ قُمْرٍ منيرا ، فحذف المضافُ ، وأُقيم المضافُ إليه مُقامه ، ثم التفتَ إلى المضاف بعد حَذْفِه فوصفَه ب " منيرا " . ولو لم يَعْتَبِرْه لقال : منيرةً ، ونظيرُ مراعاتِه بعد حذفِه قولُ حسان :

3491 يَسْقُون مَنْ وَرَدَ البَرِيْصَ عليهمِ . . . بردى يُصَفَّقُ بالرَّحيقِ السَّلْسَلِ

الأصل : ماء بَرَدَى ، فحَذَفَه ثمَّ راعاه في قولِه : "يُصَفِّقُ" بالياءِ مِنْ تحتُ ، ولو لم يكنْ ذلك لقالَ "تُصَفِّقُ" بالتاء مِنْ فوقُ . على أنَّ بيتَ حَسَّان يَحْتمل أن يكون كقولِه :

3492 . . . . . ولا أرضَ أَبْقَلَ

إبْقالها

مع أنَّ ابنَ كيسان يُجيزه سَعَةً .

وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا (62)

قوله : ﴿ خِلْفَةً ﴾ : فيه وجهان ، أحدهما : أنه مفعولٌ ثانٍ . والثاني : أنه حالٌ بحَسَبِ القَوْلَيْن في "جَعَل" . وخِلْفَة يجوز أن يكونَ مصدراً مِنْ خَلَفَه يَخْلُفه ، إذا جاء مكانَه ، وأَنْ يكونَ اسمَ هيئةٍ كالرِّكْبَةِ ، وأَنْ يكونَ من الاختلافِ كقولِه :

3493 ولها بالماطِرُوْنَ إذا . . . أكلِ النملُ الذي جَمَعا

(41/563)

خِلْفَةً حتى إذا ارتَبَعَتْ . . . سَكَنَتْ مِنْ جِلَّقٍ بيعاً

في بيوتٍ وَسْطَ دَسْكَرةٍ . . . حَوْلَها الزيتونُ قد يَنَعا

ومثلُه قول زهير :

3494 بها العِيْنُ والآرام يَمْشِيْنَ خِلْفَةً . . . . . .

. . . . . .

وأَفْرَدَ " خِلْفَةً " قال أبو البقاء : " لأنَّ المعنى : يَخْلُفُ/ أحدُهما الآخرَ ، فلا يتحقَّق هذا إلاَّ منهما " انتهى .

والشُّكور : بالضم مصدرٌ بمعنى الشُكر ، وبالفتحِ صفةُ مبالغةٍ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 495. 497 ﴾

(42/563)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا (61) ﴾

زَيَّنَ السماء الدنيا بمصابيح ، وخلَق فيها البروجَ ، وبَثَّ فيها الكواكب ، وصان عن الفطورِ والتشويش أقطارَها ومناكبَها ، وأدار بقدرته أفلاكها ، وأدام على ما أراد إمساكها .

وكما أثبت في السماء بروجاً أثبت في سماء قلوب أوليائه وأصفيائه بروجاً ؛ فبروجُ السماء

معدودة وبروج القلب مشهودة .

وبروجُ السماء بيوتُ شمسها وقمرها ونجومها ، وبروجُ القلب مطالعُ أنوارها ومشارِقُ شموسها ونجومها . وتلك النجوم هي نجوم القلوب كالعقل والفهم والبصيرة والعلم ، وقمرُ القلوبِ المعرفةُ .

قمرُ السماء له نقصان ومحاق ، وفي بعض الأحايين هو بَدْرٌ بوصف الكمال ، وقمر المعرفة أبداً له إشراق وليس له نقصان أو محاق ، ولذا قال قائلهم :

دع الأقمارَ تخبو أو تنير . . . لها بَدْرٌ تذلُّ له البدور

فأمّا شمسُ القلوب فهي التوحيد ، وشمسُ السماءِ تغرب ولكن شمسَ القلوب لا تغيب ولا تغرب ، وفي معناه قالوا :

إن شمسَ النهارِ تغرب بالليل . . . وشمسُ القلوب ليست تغيب

ويصحُّ أن يقال إن شمس النهار تغرب بالليل ، وشمس القلوب سلطانُها في الضوء والطلوع بالليل أتمُّ .

وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا (62)

الأوقاتُ متجانِسةٌ ، وتفضيلُها بعضها على بعضٍ على معنى أنَّ الطاعة في البعض أفضل والثوابُ عليها أكثر . والليلُ خلفَ النهار والنهارُ خلفَ الليلِ ، فَمَنْ وقع له في طاعة الليل خَلَلٌ فإذا حضر بالنهار فذلك وجود جُبْرانه ، وإن حصل في طاعة النهار خللٌ فإذا حضر

بالليل ففي ذلك إتمامٌ لنقصانه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 647 . 648 ﴾

(43/563)

فصل

قال الشيخ سيد قطب فى الآيات السابقة :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا (45) ﴾

في هذا الشوط يدع مقولات المشركين وجدالهم مع الرسول صلى الله عليه وسلم ليبدأ جولة في مشاهد الكون ومجاليه ، يوجه إليها قلب الرسول ويصل بها مشاعره . وهذا الاتصال كاف وحده ليدفع خاطره عن مضايقات المشركين الصغيرة ؛ ويفتح قلبه على تلك الآفاق الوسيعة التي يتضاءل معها كيد الكائدين وعداوة المجرمين . .

والقرآن يوجه القلوب والعقول دائماً إلى مشاهد هذا الكون ؛ ويربط بينهما وبين العقول والقلوب . ويوقظ المشاعر لاستقبالها بحس جديد متفتح ، يتلقى الأصداء والأضواء ، وينفعل بها ويستجيب ، ويسير في هذا الكون ليلتقط الآيات المبثوثة في تضاعيفه ، المنثورة

في أرجائه ، المعروضة في صفحاته ، ويرى فيها يد الصانع المدبر ، ويستشعر آثار هذه اليد في كل ما تقع عليه عينه ، وكل ما يلمسه حسه ، وكل ما يلتقطه سمعه ؛ ويتخذ من هذا كله مادة للتدبر والتفكر ، والاتصال بالله ، عن طريق الاتصال بما صنعت يداه .

وحين يعيش الإنسان في هذا الكون مفتوح العين والقلب ، مستيقظ الحس والروح ، موصول الفكر والخاطر ؛ فإن حياته ترتفع عن ملابسات الأرض الصغيرة ، وشعوره بالحياة يتسامى ويتضاعف معاً . وهو يحس في كل لحظة أن آفاق الكون أفسح كثيراً من رقعة هذه الأرض ؛ وأن كل ما يشهده صادر عن إرادة واحدة ، مرتبط بناموس واحد ، متجه إلى خالق واحد ؛ وإن هو إلا واحد من هذه المخلوقات الكثيرة المتصلة بالله ؛ ويد الله في كل ما حوله ، وكل ما تقع عليه عينه ، وكل ما تلمسه يداه .

(44/563)

إن شعوراً من التقوى ، وشعوراً من الأنس ، وشعوراً من الثقة لتمتزج في حسه ، وتفيض على روحه ، وتعمر عالمه ، فتطبعه بطابع خاص من الشفافية والمودة والطمأنينة في رحلته على هذا الكوكب حتى يلقى الله . وهو يقضي هذه الرحلة كلها في مهرجان من صنع الله وعلى مائدة من يد الصانع المدبر الجميل التنسيق .

وفي هذا الدرس يتنقل السياق من مشهد الظل اللطيف ، ويد الله تمده ثم تقبضه في يسر ولطف . إلى مشهد الليل وما فيه من نوم وسبات ، والنهار وما فيه من حركة وانبعاث . إلى مشهد الرياح تبشر بالرحمة ثم يعقبها الماء المحيي للموات . إلى مشهد البحرين الفرات والأجاج وبينهما برزخ يمنعهما ويحجز بينهما فلا يختلطان . ومن ماء السماء إلى ماء النطفة ، وإذا هو بشر يصرف الحياة . إلى مشهد خلق السماوات والأرض في ستة أيام . إلى مشهد البروج في السماء وما فيها من سراج مضيء وقمر منير . إلى مشهد الليل والنهار يتعاقبان على مدار الزمان .

وفي خلال هذه المشاهد الموحية يوقظ القلب وينبه العقل إلى تدبر صنع الله فيها ؛ ويذكر بقدرته وتدبيره ؛ ويعجب معه إشراك المشركين ، وعبادتهم مالا ينفعهم ولا يضرهم ، وجهلهم بربهم وتطاولهم عليه ، وتظاهرهم على الكفر والجحود والنكران .

فإذا هو تصرف عجيب مريب في وسط هذا الحشد المعروض من آيات الله ، ومشاهد الكون الذي خلقه الله .

فلنعش نحن لحظات في ذلك المهرجان الذي يدعونا الخالق البارىء المصور إليه في طول الحياة .

﴿ ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكناً ثم جعلنا الشمس عليه دليلاً ثم قبضناه إلينا قبضاً يسيراً ﴾ . .

إن مشهد الظل الوريف اللطيف ليوحي إلى النفس المجهودة المكدودة بالراحة والسكن والأمان . وكأنما هو اليد الآسية الرحيمة تنسم على الروح والبدن ، وتمسح على القرح والألم ، وتهدهد القلب المتعب المكدود . . أفهذا الذي يريده الله سبحانه وهو يوجه قلب عبده إلى الظل بعد ما ناله من استهزاء ولأواء ؟ وهو يمسح على قلبه المتعب في هذه المعركة الشاقة ، وهو في مكة يواجه الكفر والكبر والمكر والعناد ، في قلة من المؤمنين وكثرة من المشركين ؛ ولم يؤذن له بعد في مقابلة الاعتداء بمثله وفي رد الأذى والتهجم والاستهزاء ؟ ! إن هذا القرآن الذي كان يتنزل على قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم كان هو البلسم المريح ، والظل الظليل ، والروح المحيي في هجير الكفر والجحود والعصيان . وإن الظل وبخاصة في هجير الصحراء المحرق لهو المشهد الذي يتناسق مع روح السورة كلها وما فيها من أنداء وظلال .

والتعبير يرسم مشهد الظل ويد الله الخفية التدبير تمده في رفق ، وتقبضه في لطف : ﴿ ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ؟ ﴾ . . ﴿ ثم قبضناه إلينا قبضاً يسيراً ﴾ . .

والظل هو ما تلقيه الأجرام من الظلمة الخفيفة حين تحجب أشعة الشمس في النهار . وهو

يتحرك مع حركة الأرض في مواجهة الشمس ، فتتغير أوضاعه وامتداداته وأشكاله ؛ والشمس تدل عليه بضوئها وحرارتها ، وتميز مساحته وامتداده وارتداده . ومتابعة خطوات الظل في مده وانقباضه يشيع في النفس نداوة وراحة كما يثير فيها يقظة لطيفة شفيفة ، وهي تتتبع صنع البارئ اللطيف القدير . . وإن مشهد الظلال والشمس مائلة للمغيب ، وهي تطول وتطول ، وتمتد وتمتد . ثم في لحظة . لحظة واحدة ينظر الإنسان فلا يجدها جميعاً . لقد اختفى قرص الشمس وتوارت معه الظلال . أين تراها ذهبت ؟ لقد قبضتها اليد الخفية التي مدتها . لقد انطوت كلها في الظل الغامر الطامي . ظل الليل والظلام !

(46/563)

إنها يد القدرة القوية اللطيفة . التي يغفل البشر عن تتبع آثارها في الكون من حولهم وهي تعمل دائبة لا يدركها الكلال .

﴿ ولو شاء لجعله ساكناً ﴾ . . فبناء الكون المنظور على هذا النسق ، وتنسيق المجموعة الشمسية هذا التنسيق هو الذي جعل الظل متحركاً هذه الحركة اللطيفة . ولو اختلف ذلك النسق أقل اختلاف لاختلفت آثاره في الظل الذي نراه . لو كانت الأرض ثابتة

لسكن الظل فوقها لا يمتد ولا يقبض . ولو كانت سرعتها أبطأ أو أسرع مما هي عليه لكان الظل في امتداده وقبضه أبطأ أو أسرع .

فتنسيق الكون المنظور على ناموسه هذا هو الذي يسمح بظاهرة الظل ، ويمنحها خواصها التي نراها .

وهذا التوجيه إلى تلك الظاهرة التي نراها كل يوم ، ونمر بها غافلين ، هو طرف من منهج القرآن في استحياء الكون دائماً في ضمائرنا ، وفي إحياء شعورنا بالكون من حولنا ، وفي تحريك خوامد إحساسنا التي افقدها طول الألفة إيقاع المشاهد الكونية العجيبة . وطرف من ربط العقول والقلوب بهذا الكون الهائل العجيب .

ومن مشهد الظل إلى مشهد الليل الساتر ، والنوم الساكن ، والنهار وما فيه من حركة ونشور :

﴿ وهو الذي جعل لكم الليل لباساً ، والنوم سباتاً ، وجعل النهار نشوراً ﴾ . .

والليل يستر الأشياء والأحياء فتبدو هذه الدنيا وكأنها تلبس الليل وتتشح بظلامه فهو لباس . وفي الليل تنقطع الحركة ويسكن الدبيب وينام الناس وكثير من الحيوان والطيور والهوام . والنوم انقطاع عن الحس والوعي والشعور . فهو سبات . ثم يتنفس الصبح وتنبعث الحركة ، وتدب الحياة في النهار . فهو نشور من ذلك الموت الصغير ، الذي يتداول الحياة على هذه الأرض مع البعث والنشور مرة في كل دورة من دورات الأرض الدائبة التي لا

يصيبها الكلال . وهي تمر بالبشر وهم غافلون عما فيها من دلالة على تدبير الله ، الذي لا يغفل لحظة ولا ينام .

ثم ظاهرة الرياح المبشرة بالمطر وما يبثه من حياء :

(47/563)

﴿ وهو الذي أرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته ، وأنزلنا من السماء ماء طهوراً ، لنحيي به بلدة ميتاً ، ونسقيه مما خلقنا أنعاماً وأناسي كثيراً ﴾ . .

والحياة على هذه الأرض كلها تعيش على ماء المطر إما مباشرة ، وإما بما ينشئه من جداول وأنهار على سطح الأرض . ومن ينابيع وعيون وآبار من المياه الجوفية المتسربة إلى باطن الأرض منه ، ولكن الذين يعيشون مباشرة على المطر هم الذين يدركون رحمة الله الممثلة فيه إدراكاً صحيحاً كاملاً . وهم يتطلعون إليه شاعرين بأن حياتهم كلها متوقفة عليه ، وهم يترقبون الرياح التي يعرفونها تسوق السحب ، ويستبشرون بها ؛ ويحسون فيها رحمة الله إن كانوا ممن شرح الله صدورهم للإيمان .

والتعبير يبرز معنى الطهارة والتطهير : ﴿ وأنزلنا من السماء ماء طهوراً ﴾ وهو بصدد ما في الماء من حياة . ﴿ لنحيي به بلدة ميتاً ، ونسقيه مما خلقنا أنعاماً وأناسي كثيراً ﴾

فيلقي على الحياة ظلاً خاصاً . ظل الطهارة . فالله سبحانه أراد الحياة طاهرة نقية وهو يغسل وجه الأرض بالماء الطهور الذي ينشئ الحياة في الموات ويسقي الأناسي والأنعام .

وعند هذا المقطع من استعراض المشاهد الكونية يلتفت إلى القرآن النازل من السماء كذلك لتطهير القلوب والأرواح ؛ وكيف يستبشرون بالماء المحيي للأجسام ولا يستبشرون بالقرآن المحيي للأرواح :

﴿ ولقد صرفناه بينهم ليذكروا ، فأبى أكثر الناس إلا كفوراً ، ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيراً . فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهاداً كبيراً ﴾ .

.

(48/563)

﴿ ولقد صرفناه بينهم ليذكروا ﴾ . . فعرضناه عليهم في صور شتى ، وأساليب متعددة ، ولفتات متنوعة ؛ وخاطبنا به مشاعرهم ومداركهم ، وأرواحهم وأذهانهم ؛ ودخلنا عليهم به من كل باب من أبواب نفوسهم ، وبكل وسيلة تستجيش ضمائرهم . . ﴿ ليذكروا ﴾ . . فما يحتاج الأمر إلى أكثر من التذكر . والحقيقة التي يحاول القرآن ردهم إليها مركوزة في فطرتهم ، أنساهم إياها الهوى الذي اتخذوا منه إلهاً . . ﴿ فأبى أكثر الناس إلا

كفوراً ﴾ .

ومهمة الرسول صلى الله عليه وسلم إذن ضخمة شاقة ؛ وهو يواجه البشرية كلها وأكثرها أضله الهوى ، وأبى إلا الكفر ودلائل الإيمان حاضرة . .

﴿ ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيراً ﴾ . .

فتوزع المشقة ، وتخف المهمة . ولكن الله اختار لها عبداً واحداً ، هو خاتم الرسل ؛ وكلفه إنذار القرى جميعاً ، لتتوحد الرسالة الأخيرة ، فلا تتفرق على ألسنة الرسل في القرى المتفرقة ، وأعطاه القرآن ليجاهدهم به :

﴿ فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهاداً كبيراً ﴾ . .

وإن في هذا القرآن من القوة والسلطان ، والتأثير العميق ، والجاذبية التي لا تقاوم ، ما كان يهز قلوبهم هزاً ، ويزلزل أرواحهم زلزالاً شديداً ؛ فيغالبون أثره بكل وسيلة فلا يستطيعون إلى ذلك سبيلاً .

ولقد كان كبراء قريش يقولون للجماهير : ﴿ لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون ﴾ وكانت هذه المقالة تدل على الذعر الذي تضطرب به نفوسهم ونفوس أتباعهم من تأثير هذا القرآن ؛ وهم يرون هؤلاء الأتباع كأنما يسحرون بين عشية وضحاها من تأثير الآية والآيتين ، والسورة والسورتين ، يتلوهما محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم فتنقاد إليه النفوس ، وتهوى إليه الأفئدة .

ولم يقل رؤساء قريش لأتباعهم وأشياعهم هذه المقالة ، وهم في نجوة من تأثير هذا القرآن . فلولا أنهم أحسوا في أعماقهم هزة روعتهم ما أمروا هذا الأمر ، وما أشاعوا في قومهم بهذا التحذير ، الذي هو أدل من كل قول على عمق التأثير !

(49/563)

قال ابن إسحاق : حدثني محمد بن مسلم بن شهاب الزهري أنه حُدِّث : أن أبا سفيان بن حرب ، وأبا جهل ابن هشام ، والأخنس بن شريق بن عمر بن وهب الثقفي حليف بني زهرة . . خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلي من الليل في بيته . فأخذ كل رجل منهم مجلساً يستمع فيه ، وكل لا يعلم بمكان صاحبه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق ، فتلاوموا ، وقال بعضهم لبعض : لا تعودوا ، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئاً ! ثم انصرفوا . حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة ! ثم انصرفوا . حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض : لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعود ! فتعاهدوا

على ذلك ، ثم تفرقوا .

" فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه . ثم خرج حتى أتى أبا سفيان في بيته ، فقال : أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد . فقال : يا أبا ثعلبة ، والله لقد سمعت أشياء أعرفها ، وأعرف ما يراد بها ؛ وسمعت أشياء ما عرفت معناها ، ولا ما يراد بها . قال الأخنس : وأنا والذي حلفت به .

قال : ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل ، فدخل عليه بيته ، فقال : يا أبا الحكم ، ما رأيك فيما سمعت من محمد ؟ فقال : ماذا سمعت ؟ ! تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف . أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تجاثينا على الركب ، وكنا كفرسي رهان ، قالوا : منا نبي يأتيه الوحي من السماء . فمتى ندرك مثل هذه ؟ والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه ! !

قال : فقام عنه الأخنس وتركه " .

(50/563)

فهكذا كانوا يغالبون أنفسهم أن تهفو إلى هذا القرآن فتغلبهم ، لولا أن يتعاهدوا وهم يحسون ما يتهدد زعامتهم ، لو اطلع عليهم الناس ، وهم مأخوذون شبه مسحورين !

وإن في القرآن من الحق الفطري البسيط ، لما يصل القلب مباشرة بالنبع الأصيل ، فيصعب أن يقف لهذا النبع الفوار ، وأن يصد عنه تدفق التيار . وأن فيه من مشاهد القيامة ، ومن القصص ، ومن مشاهد الكون الناطقة ، ومن مصارع الغابرين ، ومن قوة التشخيص والتمثيل ، لما يهز القلوب هزاً لا تملك معه قراراً . وإن السورة الواحدة لتهز الكيان الإنساني في بعض الأحيان ، وتأخذ على النفس أقطارها ما لا يأخذه جيش ذو عدة وعتاد ! ! فلا عجب مع ذلك أن يأمر الله نبيه أن لا يطيع الكافرين ، وألا يتزحزح عن دعوته وأن يجاهدهم بهذا القرآن . فإنما يجاهدهم بقوة لا يقف لها كيان البشر ، ولا يثبت لها جدال أو محال .

وبعد هذه اللفتة يعود إلى مشاهد الكون ، فيعقب على مشهد الرياح المبشرة والماء الطهور ، بمشهد البحار العذبة والملحة وما بينهما من حجاز :

﴿ وهو الذي مرج البحرين هذا عذب فرات ، وهذا ملح أجاج ؛ وجعل بينهما برزخاً ، وحجراً محجوراً ﴾ . .

وهو الذي ترك البحرين ، الفرات العذب والملح المر ، يجريان ويلتقيان ، فلا يختلطان ولا يمتزجان ؛ إنما يكون بينهما برزخ وحاجز من طبيعتهما التي فطرها الله . فمجاري الأنهار غالباً أعلى من سطح البحر ، ومن ثم فالنهر العذب هو الذي يصب في البحر الملح ، ولا يقع العكس إلا شذوذاً . وبهذا التقدير الدقيق لا يطغى البحر وهو أضخم وأغزر على النهر

الذي منه الحياة للناس والأنعام والنبات . ولا يكون هذا التقدير مصادفة عابرة وهو يطرد هذا الاطراد . إنما يتم بإرادة الخالق الذي أنشأ هذا الكون لغاية تحققها نواميسه في دقة وإحكام .

(51/563)

وقد روعي في نواميس هذا الكون ألا تطغى مياه المحيطات الملحة لا على الأنهار ولا على اليابسة حتى في حالات المد والجزر التي تحدث من جاذبية القمر للماء الذي على سطح الأرض ، ويرتفع بها الماء ارتفاعاً عظيماً .

يقول صاحب كتاب : الإنسان لا يقوم وحده (العلم يدعو إلى الإيمان) :

" يبعد القمر عنا مسافة مائتين وأربعين ألفاً من الأميال ، ويذكرنا المد الذي يحدث مرتين تذكيراً لطيفاً بوجود القمر . والمد الذي يحدث بالمحيط قد يرتفع إلى ستين قدماً في بعض الأماكن . بل إن قشرة الأرض تنحني مرتين نحو الخارج مسافة عدة بوصات بسبب جاذبية القمر . ويبدو لنا كل شيء منتظماً لدرجة أننا لا ندرك القوة الهائلة التي ترفع مساحة المحيط كلها عدة أقدام ، وتنحني قشرة الأرض التي تبدو لنا صلبة للغاية " .

" والمريخ له قمر . قمر صغير . لا يبعد عنه سوى ستة آلاف من الأميال . ولو كان قمرنا

يبعد عنا خمسين ألف ميل مثلاً ، بدلاً من المسافة الشاسعة التي يبعد بها عنا فعلاً ، فإن المد كان يبلغ من القوة بحيث أن جميع الأراضي التي تحت منسوب الماء كانت تغمر مرتين في اليوم بماء متدفق يزيح بقوته الجبال نفسها . وفي هذه الحالة ربما كانت لا توجد الآن قارة قد ارتفعت من الأعماق بالسرعة اللازمة ، وكانت الكرة الأرضية تتحطم من هذا الاضطراب ، وكان المد الذي هو في الهواء يُحدث أعاصير كل يوم " .

" وإذا فرضنا أن القارات قد اكتسحت ، فإن معدل عمق الماء فوق الكرة الأرضية كلها يكون نحو ميل ونصف . وعندئذ ما كانت الحياة لتوجد إلا في أعماق المحيط السحيقة على وجه الاحتمال ؟ " .

ولكن اليد التي تدبر هذا الكون مرجت البحرين وجعلت بينهما برزخاً وحاجزاً من طبيعتهما ومن طبيعة هذا الكون المتناسق الذي تجري مقاديره بيد الصانع المدبر الحكيم ، هذا الجري المقدر المنسق المرسوم .

ومن ماء السماء وماء البحر والنهر إلى ماء النطفة الذي تنشأ منه الحياة البشرية المباشرة :

﴿ وهو الذي خلق من الماء بشراً ، فجعله نسباً وصهراً ، وكان ربك قديراً ﴾ . .

فمن هذا الماء يتخلق الجنين : ذكراً فهو نسب ، وأنثى فهو صهر ، بما أنها موضع للصهر .

وهذه الحياة البشرية الناشئة من هذا الماء أعجب وأضخم من تلك الحياة الناشئة من ماء السماء . فمن خلية واحدة (من عشرات الألوف الكامنة في نقطة واحدة من ماء الرجل) تتحد ببويضة المرأة في الرحم ، ينشأ ذلك الخلق المعقد المركب . . الإنسان . . أعجب الكائنات الحية على الإطلاق !

ومن الخلايا المتشابهة والبويضات المتشابهة ينشأ ذكور وإناث بطريقة عجيبة ، لا يدرك البشر سرها ، ولا يستطيع علم البشر ضبطها أو تعليلها . فما من خلية من آلاف الخلايا يمكن أن تلحظ فيها مميزات معروفة هي التي تؤهلها لأن تنتج ذكراً أو أنثى ، وما من بويضة كذلك لوحظ فيها مثل هذه الميزات .

. ومع ذلك تصير هذه إلى أن تكون رجلاً ، وهذه إلى أن تكون امرأة ، في نهاية المطاف !

﴿ وكان ربك قديراً ﴾ . . وها هي ذي القدرة تكشف عن طرف منها في هذا العجب العجاب !

ولو راح الإنسان يدقق في هذا الماء الذي يخلق منه الإنسان ، لأدركه الدوار وهو يبحث عن خصائص الإنسان الكاملة الكامنة في الأجسام الدقيقة البالغة الدقة ، التي تحمل عناصر الوراثة للجنس كله ، وللأبوين وأسرتيهما القريبتين ، لتنقلها إلى الجنين الذكر والجنين

الأنثى كل منهما بحسب ما ترسم له يد القدرة من خلق واتجاه في طريق الحياة .

وهذه لمحات من كتاب : " الإنسان لا يقوم وحده " عن خصائص الوراثة الكامنة في تلك الذريرات الصغيرة :

(53/563)

" كل خلية ذكراً أو أنثى . تحتوي على كروموزومات وجينات (وحدات الوراثة) والكروموزومة تكون النوية (نواة صغيرة) المعتمة التي تحتوي الجينة . والجينات هي العامل الرئيسي الحاسم فيما يكون عليه كل كائن حي أو إنسان . والسيتوبلازم هي تلك التركيبات الكيماوية العجيبة التي تحيط بالاثنتين . وتبلغ الجينات (وحدات الوراثة) من الدقة أنها وهي المسؤولة عن المخلوقات البشرية جميعاً ، التي على سطح الأرض من حيث خصائصها الفردية وأحوالها النفسية وألوانها وأجناسها لو جمعت كلها ووضعت في مكان واحد ، لكان حجمها أقل من حجم " الكستبان " ! "

" وهذه الجينات الميكروسكوبية البالغة الدقة هي المفاتيح المطلقة لخواص جميع البشر والحيوانات والنباتات . " والكستبان " الذي يسع الصفات الفردية لبليونين من البشر هو بلا ريب مكان صغير الحجم . ومع ذلك فإن هذه هي الحقيقة التي لا جدال فيها " .

" وإن الجنين وهو يخلص في تطوره التدريجي من النطفة (البروتوبلازم) إلى الشبه الجنسي ، إنما يقص تاريخاً مسجلاً ، قد حفظ وعبر عنه بالتنظيم الذري في الجينات والسيتوبلازم " .

. . . " لقد رأينا أن الجينات متفق على كونها تنظيمات أصغر من الميكروسكوبية للذرات ، في خلايا الوراثة بجميع الكائنات الحية . وهي تحفظ التصميم ، وسجل السلف ، والخواص التي لكل شيء حي . وهي تتحكم تفصيلاً في الجذر والجذع والورق والزهر والثمر لكل نبات . تماماً كما تقرر الشكل ، والقشر ، والشعر ، والأجنحة لكل حيوان بما فيه الإنسان " .

وبهذا القدر نكتفي من عجائب الحياة ، التي أودعتها إياها القدرة الخالقة المدبرة . ﴿ وكان ربك قديراً ﴾ . .

(54/563)

وفي مثل هذا الجو . جو الخلق والتقدير . وأمام تلك الحياة الناشئة من ماء السماء وماء النطفة . المزودة بتلك الخصائص ، التي تجعل من خلية ذكراً بمميزاته كلها ووراثاته ، وتجعل من خلية أنثى بمميزاتها كذلك ووراثاتها . . في مثل هذا الجو تبدو عبادة غير الله شيئاً

مستغرباً مستنكراً تشمئز منه الفطرة .

. وهنا يعرض عباداتهم من دون الله .

﴿ ويعبدون من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم . وكان الكافر على ربه ظهيراً ﴾ . .

﴿ وكان الكافر على ربه ظهيراً ﴾ . . كل كافر ومشركو مكة من ضمنهم ! إنما هو حرب على ربه الذي خلقه وسواه . فكيف ذلك ، وهو صغير ضئيل لا يبلغ أن يكون حرباً ولا ضداً على الله ؟ إنه حرب على دينه . وحرب على منهجه الذي أراده للحياة . إنما يريد التعبير أن يفظع جريمته ويبشعها ، فيصوره حرباً على ربه ومولاه !

فهو يحارب ربه حين يحارب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورسالته ، فلا على الرسول منه ، فإنما الحرب مع الله ، وهو به كفيل . ثم يطمئن الله عبده ، ويخفف العبء عن عاتقه ، ويشعره أنه حين يؤدي واجبه في التبشير والإنذار ، وجهاد الكفار بما معه من قرآن فلا عليه من عداء المجرمين له ولا عناد الكافرين . والله يتولى عنه المعركة مع أعدائه الذين إنما يعادون الله . فليتوكل على ربه . والله أعلم بذنوب عباده !

﴿ وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً . قل : ما أسألكم عليه من أجر إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً . وتوكل على الحي الذي لا يموت وسبح بحمده ، وكفى به بذنوب عباده خبيراً ﴾ . .

وبهذا يحدد واجب الرسول صلى الله عليه وسلم وهو التبشير والإنذار . ولم يكن بعد مأموراً بقتال المشركين وهو في مكة لضمان حرية التبشير والإنذار كما أمر به بعد ذلك في المدينة . وذلك لحكمة يعلمها الله . نحدس منها أنه كان في هذه الفترة يعد الرجال الذين ترتكز إليهم هذه العقيدة الجديدة ، وتعيش في نفوسهم ، وتترجم في حياتهم ، وتتمثل في سلوكهم ، لكي يكونوا نواة المجتمع المسلم الذي يحكمه الإسلام ويهيمن عليه . ولكي لا يدخل في خصومات وثارات دموية تصد قريشاً عن الإسلام ، وتغلق قلوبهم دونه ؛ والله يقدر أنهم سيدخلون فيه بعضهم قبل الهجرة وسائرهم بعد الفتح ، ويكون منهم نواة صلبة للعقيدة الخالدة بإذن الله .

على أن لب الرسالة بقي في المدينة كما كان في مكة هو التبشير والإنذار . إنما جعل القتال لإزالة الموانع المادية دون حرية الدعوة ، ولحماية المؤمنين حتى لا تكون فتنة ؛ فالنص صادق في مكة وفي المدينة على السواء :

﴿ وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً ﴾ . .

﴿ قل : ما أسألكم عليه من أجر إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً ﴾ . .

فليس للرسول صلى الله عليه وسلم من مطمع في أجر ولا عرض من أعراض الحياة الدنيا يناله ممن يهتدون إلى الإسلام . ليست هناك إتاوة . ولا نذر ولا قربان يقدمه المسلم . وهو

يدخل في الجماعة المسلمة بكلمات ينطق بها لسانه ويعتقد بها قلبه . وهذه ميزة الإسلام . ميزته أن ليس هناك كاهن يتقاضى ثمن كهانته ، ولا وسيط يقبض ثمن وساطته ؛ ليس هنالك " رسم دخول " ولا ثمن لتناول سر ولا بركة ولا استقبال ! هذه هي بساطة هذا الدين وبراءته من كل ما يحول بين القلب والإيمان ؛ ومن كل ما يقف بين العبد وربه من وسطاء وكهان .

(56/563)

. ليس هنالك سوى أجر واحد للرسول صلى الله عليه وسلم هو اهتداء المهتدي إلى الله وتقربه إلى ربه بما يراه ! ﴿ إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً ﴾ . . هذا وحده هو أجره . . يرضي قلبه الطاهر ويستريح وجدانه النبيل أن يرى عبداً من عباد الله قد اهتدى إلى ربه ، فهو يبتغي رضاه ، ويتحرى طريقه ، ويتجه إلى مولاه .

﴿ وتوكل على الحي الذي لا يموت وسبح بحمده ﴾ . .

وكل ما عدا الله ميت ، لأنه صائر إلى موت ، فلا يبقى إلا الحي الذي لا يموت . والتوكل على ميت ، تفارقه الحياة يوماً طال عمره أم قصر ، هو ارتكان إلى ركن ينهار ، وإلى ظل يزول . إنما التوكل على الحي الدائم الذي لا يزول . . ﴿ وسبح بحمده ﴾ ولا يحمد إلا الله المنعم

الوهاب . . ودع أمر الكفار الذين لا ينفعهم التبشير والإنذار إلى الحي الذي لا يموت فهو يعلم ذنوبهم ولا يخفى عليه منها شيء : ﴿ وكفى به بذنوب عباده خبيراً ﴾ .

وفي معرض الخبرة المطلقة والقدرة على الجزاء يذكر خلق الله للسماوات والأرض ، واستعلاءه على العرش :

﴿ الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش ، الرحمن ، فاسأل به خبيراً ﴾ . .

وأيام الله التي خلق فيها السماوات والأرض غير أيامنا الأرضية قطعاً . فإنما أيامنا هذه ظل للنظام الشمسي ، ومقياس لدورة فلكية وجدت بعد خلق السماوات والأرض . وهي مقيسة بقدر دورة الأرض حول نفسها أمام الشمس . والخلق لا يقتضي إلا توجه الإرادة الإلهية المرموز له بلفظة : "كن " فتتم الكينونة " فيكون " . ولعل هذه الأيام الستة من أيام الله التي لا يعلم مقدارها إلا هو إنما تمت فيها أطوار متباعدة في السماوات والأرض حتى انتهت إلى وضعها الحالي . أما الاستواء على العرش فهو معنى الاستعلاء والسيطرة ولفظ ﴿ ثم ﴾ لا يدل على الترتيب الزمني إنما يدل على بعد الرتبة . رتبة الاستواء والاستعلاء .

(57/563)

ومع الاستعلاء والسيطرة الرحمة الكبيرة الدائمة : ﴿ الرحمن ﴾ . . ومع الرحمة الخبرة : ﴿ فاسأل به خبيراً ﴾ الخبرة المطلقة التي لا يخفى عليها شيء . فإذا سألت الله ، فإنما تسأل خبيراً ، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء .

ومع هذا فإن أولئك المتبجحين المتطاولين ، يقابلون الدعوة إلى عبادة الرحمن باستخفاف واستنكار :

﴿ وإذا قيل لهم : اسجدوا للرحمن : قالوا : وما الرحمن ؟ أنسجد لما تأمرنا ؟ وزادهم نفوراً ﴾ !

وهي صورة كريهة من صور الاستهتار والتطاول ؛ تذكر هنا للتهوين من وقع تطاولهم على الرسول صلى الله عليه وسلم فهم لا يوقرون ربهم ، فيتحدثون بهذه اللهجة عن ذاته العلية ، فهل يستغرب من هؤلاء أن يقولوا عن الرسول ما قالوا ؟ وهم ينفرون من اسم الله الكريم ، ويزعمون أنهم لا يعرفون اسم ﴿ الرحمن ﴾ ويسألون عنه بما ، زيادة في الاستهتار .

«قالُوا : وَمَا الرَّحْمنُ ؟» . ولقد بلغ من تطاولهم واستخفافهم أن يقولوا : ما نعرف الرحمن إلا ذاك باليمامة . يعنون به مسيلمة الكذاب !

ويرد على تطاولهم هذا بتمجيد اللّه سبحانه وتكبيره والتحدث ببركته وعظمته ، وعظمة خلقه ، وآياته المذكرة به في هذا الخلق العظيم .

«تَبارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّماءِ بُرُوجاً . وَجَعَلَ فِيها سِراجاً ، وَقَمَراً مُنِيراً . وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرادَ أَنْ يَذَّكَّرَ ، أَوْ أَرادَ شُكُوراً» . .

والبروج – على الأرجح – منازل الكواكب السيارة ومداراتها الفلكية الهائلة . والفخامة هنا تقابل في الحس ذلك الاستخفاف في قولة المشركين : «وَمَا الرَّحْمنُ ؟» فهذا شيء من خلقه ضخم هائل عظيم في الحس وفي الحقيقة وفي هذه البروج تنزل الشمس ويسميها «سِراجاً» لما تبعث به من ضوء إلى أرضنا وغيرها .

وفيها القمر المنير الذي يبعث بنوره الهادئ اللطيف .

ويعرض كذلك مشهد الليل والنهار وتعاقبهما . وهما آيتان مكرورتان ينساهما الناس ، وفيهما الكفاية :

«لِمَنْ أَرادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرادَ شُكُوراً» . ولولا أن جعلهما كذلك يتعاوران الناس ، ويخلف أحدهما أخاه ، ما أمكنت الحياة على ظهر هذا الكوكب لإنسان ولا لحيوان ولا لنبات . بل لو أن طولهما تغير لتعذرت كذلك الحياة .

جاء في كتاب : «الإنسان لا يقوم وحده» (العلم يدعو إلى الإيمان) .

«تدور الكرة الأرضية حول محورها مرة في كل أربع وعشرين ساعة ، أو بمعدل نحو ألف ميل في الساعة .

والآن افرض أنها تدور بمعدل مائة فقط في الساعة . ولم لا ؟ عندئذ يكون ليلنا ونهارنا أطول مما هما الآن عشر مرات . وفي هذه الحالة قد تحرق شمس الصيف الحارة نباتاتنا في كل نهار . وفي الليل يتجمد كل نبت في الأرض !» فتبارك الذي خلق السماوات والأرض ، وخلق كل شيء فقدره تقديرا . وتبارك الذي جعل في السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا . «وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا» . . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 5 صـ 2567 . 2576 ﴾

(59/563)

قوله تعالى ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا (63) وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (64) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (65) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (66) وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا (67) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما ذكر عباده الذين خذلهم بتسليط الشيطان عليهم فصاروا حزب الشيطان ، ولم

يصفهم إلى اسم من أسمائه ، إيذاناً بإهانتهم لهوائهم عنده ، وهم الذين صرح بهم قوله أول السورة ﴿ نذيراً ﴾ وختم بالتذكر والشكر إشارة إلى عباده الذين أخلصهم لنفسه ، وأشار إليهم سابقاً بتخصيص الوصف بالفرقان ، فأتبع ذلك ذكرهم ، فقال عاطفاً على جملة الكلام في قوله ﴿ وإذا قيل لهم ﴾ لكنه رفعهم بالابتداء تشريفاً لهم : ﴿ وعباد ﴾ ويجوز أن يقال ولعله أحسن : أنه سبحانه لما وصف الكفار في هذه السورة بما وصفهم به من الفظاظة والغلظة على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وعداوتهم له ، ومظاهرتهم على خالقهم ، ونحو ذلك من جلافتهم ، وختم بالتذكر والشكر ، وكان التقدير : فعباد الشيطان لا يتذكرون ولا يشكرون ، لما لهم من القسوة ، عطف على هذا المقدر أضدادهم ، واصفاً لهم بأضداد أوصافهم ، مبشراً لهم بضد جزائهم ، فقال : ﴿ وعباد الرحمن ﴾ فأضافهم إليه رفعة لهم وإن كان كل الخلق عباده ، وأضافهم إلى صفة وصف الرحمة الأبلغ الذي أنكره أولئك تبشيراً لهم ؛ ثم وصفهم بضد ما وصف به المتكبرين عن السجود ، إشارة إلى أنهم تخلقوا من هذه الصفة التي أضيفوا إليها بأمر كبير ، فقال : ﴿ الذين يمشون ﴾ وقال : ﴿ على الأرض ﴾ تذكيراً بما هم منه وما يصيرون إليه ، وحثاً على السعي في معالي الأخلاق للترقي عنه ، وعبر عن حالهم بالمصدر مبالغة في اتصافهم بمدلوله حتى كانوا إياه ، فقال : ﴿ هوناً ﴾ أي ذوي هون ، أي لين ورفق وسكينة ووقار وإخبات وتواضع ، لا يؤذون أحداً ولا يفخرون ، رحمة لأنفسهم وغيرهم ، غير متابعين ما هم فيه من

الحرارة الشيطانية ، فبرؤوا من حظوظ الشيطان ، لأن من كان من الأرض وإليها يعود لا يليق به إلا ذلك ، والأحسن أن يجعل هذا خبر " العباد " ، ويكون

﴿ أولئك يجزون الغرفة ﴾ [الفرقان : 75] استئنافاً متشوفاً إليه تشوف المستنتج إلى النتيجة .

(60/563)

ولما ذكر ما أثمره العلم من الفعل في أنفسهم ، أتبعه ما أنتجه الحلم من القول لغيرهم فقال :

﴿ وإذا ﴾ دون " إن " لقضاء العادة بتحقق مدخولها ، ولم يقل : والذين كبقية المعطوفات ، لأن الخصلتين كشيء واحد من حيث رجوعهما إلى التواضع ﴿ خاطبهم ﴾ خطاباً ما ، بجهل أو غيره وفي وقت ما ﴿ الجاهلون ﴾ أي الذين يفعلون ما يخالف العلم والحكمة

﴿ قالوا سلاماً ﴾ أي ما فيه سلامة من كل سوء ، وليس المراد التحية – نقل ذلك سيبويه عن أبي الخطاب ، قال : لأن الآية فيما زعم مكية ، ولم يؤمر المسلمون يومئذ أن يسلموا على المشركين ، ولكنه على قولك : تسليماً لا خير بيننا وبينكم ولا شراً – انتهى .

فلا حاجة إلى ادعاء نسخها بآية القتال ولا غيرها ، لأن الإغضاء عن السفهاء وترك المقابلة مستحسن في الأدب والمروءة والشريعة ، وأسلم للعرض والورع ، وكأنه أطلق

الخطاب إعلاماً بأن أكثر قول الجاهل الجهل .

ولما ذكر ما بينهم وبين الخلق من القول والفعل ، وكان الغالب على ذلك أن يكون جلوة نهاراً ، ذكر ما بينهم وبين خالقهم من ذلك خلوة ليلاً ، وذكر هذه المعطوفات التي هي صفات بالواو ، تنبيهاً على أن كل واحدة منها تستقل بالقصد لعظم خطرها ، وكبر أثرها ، فقال : ﴿ والذين يبيتون ﴾ من البيتوتة : أن يدركك الليل نمت أو لم تنم ، وهي خلاف الظلول ؛ وأفاد الاختصاص بتقديم ﴿ لربهم ﴾ أي المحسن إليهم برحمانيته ، يحيون الليل رحمة لأنفسهم ، وشكراً لفضله .

ولما كان السجود أشد أركان الصلاة تقريباً إلى الله ، لكونه أنهى الخضوع مع أنه الذي أباه الجاهلون ، قدمه لذلك ويعلم بادىء بدء أن القيام في الصلاة فقال : ﴿ سجداً ﴾ وأتبعه ما هو تلوه في المشقة تحقيقاً لأن السجود على حقيقته فيتمحص الفعلان للصلاة ، فقال : ﴿ وقياماً ﴾ أي ولم يفعلوا فعل الجاهلين من التكبر عن السجود ، بل كانوا – كما قال الحسن رحمه الله : نهارهم في خشوع ، وليلهم في خضوع .

(61/563)

ولما ذكر تهذيبهم لأنفسهم للخلق والخالق ، أشار إلى أنه لا إعجاب عندهم ، بل هم وجلون ، وأن الحامل لهم على ذلك الإيمان بالآخرة التي كذب بها الجاهلون ﴿ يؤتون ما أتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون ﴾ [المؤمنون : 60] وقدموا الدعاء بالنجاة اهتماماً بدرء المفسدة ، وإشعاراً بأنهم مستحقون لذلك وإن اجتهدوا ، لتقصيرهم عن أن يقدروه سبحانه حق قدره فقال : ﴿ والذين يقولون ربنا ﴾ أي أيها المحسن إلينا ﴿ اصرف عنا عذاب جهنم ﴾ الذي أحاط بنا لاستحقاقنا إياه إلا أن يتداركنا عفوك ورحمتك ، بما توفقنا له من لقاء من يؤذينا بطلاقة الوجه ، لا بالتجهم ، ثم علل سؤالهم بقولهم : ﴿ إن عذابها كان ﴾ أي كوناً جبلت عليه ﴿ غراماً ﴾ أي هلاكاً وخسراناً ملحاً محيط بمن تعلق به مذلاً له ، دائماً بمن غرى به ، لازماً له لا ينفك عنه ونحن كنا نسير على من آذانا .

ولما ثبت لها هذا الوصف ، أنتج قوله : ﴿ إنها ساءت ﴾ أي تناهت هي في كل ما يحصل منه سوء ، وهي في معنى بئست في جميع المذام ﴿ مستقراً ﴾ أي من جهة موضع استقرار ﴿ ومقاماً ﴾ أي موضع إقامة .

ولما ذكر أفعالهم وأقوالهم فيما بينهم وبين الخلق وقدمه ، والخالق وأخره ، لأن وجوبه يكون بعد ذلك ، ذكر أحوالهم في أموالهم ، نظراً إلى قول الكفرة ﴿ أو يلقى إليه كنز ﴾ [الفرقان : 8] وهداية إلى طريق الغنى لأنه ما عال من اقتصد ، فقال : ﴿ والذين إذا أنفقوا ﴾ أي للخلق أو الخالق في واجب أو مستحب ﴿ لم يسرفوا ﴾ أي يجاوزوا الحد في النفقة بالتبذير

، فيضيعوا الأموال في غير حقها فيكونوا إخوان الشياطين الذين هم من النار ففعلهم فعلها ﴿ ولم يقتروا ﴾ أي يضيقوا فيضيعوا الحقوق ؛ ثم بين العدل بقوله : ﴿ وكان ﴾ أي إنفاقهم ﴿ بين ذلك ﴾ أي الفعل الذي يجب إبعاده .

ولما علم أن ما بين الطرفين المذمومين يكون عدلاً ، صرح به في قوله : ﴿ قواماً ﴾ أي عدلاً سواء بين الخلقين المذمومين : الإفراط والتفريط ، تخلقاً بصفة قوله تعالى ﴿ ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ولكن نزل بقدر ما يشاء ﴾ [الشورى : 27] وهذه صفة أصحاب محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ورضي عنهم – كانوا لا يأكلون طعاماً للتنعم واللذة ولا يلبسون ثوباً للجمال والزينة ، بل كانوا يأكلون ما يسد الجوعة ، ويعين على العبادة ، ويلبسون ما يستر العورة ، ويكنّ من الحر والقر ، قال عمر ـ رضى الله عنه ـ : كفى سرفاً أن لا يشتهي الرجل شيئاً إلا اشتراه فأكله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 334 ـ 336 ﴾

(62/563)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا ﴾

اعلم أن قوله : ﴿ وَعِبَادُ الرحمن ﴾ مبتدأ خبره في آخر السورة كأنه قيل وعباد الرحمن الذين هذه صفاتهم أولئك يجزون الغرفة ، ويجوز أن يكون خبره ﴿ الذين يَمْشُونَ ﴾ ، واعلم أنه سبحانه خص اسم العبودية بالمشتغلين بالعبودية ، فدل ذلك على أن هذه الصفة من أشرف صفات المخلوقات ، وقرىء ﴿ وَعِبَادُ الرحمن ﴾ واعلم أنه سبحانه وصفهم بتسعة أنواع من الصفات :

الصفة الأولى : قوله : ﴿ الذين يَمْشُونَ على الأرض هَوْناً ﴾ وهذا وصف سيرتهم بالنهار وقرىء ﴿ يَمْشُونَ ﴾ ﴿ هَوْناً ﴾ حال أو صفة للمشي بمعنى هينين أو بمعنى مشياً هيناً ، إلا أن في وضع المصدر موضع الصفة مبالغة ، والهون الرفق واللين ومنه الحديث " أحبب حبيبك هوناً ما " وقوله : " المؤمنون هينون لينون " والمعنى أن مشيهم يكون في لين وسكينة ووقار وتواضع ، ولا يضربون بأقدامهم (ولا يخفقون بنعالهم) أشراً وبطراً ، ولا يتبخترون لأجل الخيلاء كما قال : ﴿ وَلَا تَمْشِ فِى الأرض مَرَحًا ﴾ [الإسراء : 37] وعن زيد بن أسلم التمست تفسير ﴿ هَوْناً ﴾ فلم أجد ، فرأيت في النوم فقيل لي هم الذين لا يريدون الفساد في الأرض ، وعن ابن زيد لا يتكبرون ولا يتجبرون ولا يريدون علواً في الأرض .

الصفة الثانية : قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجاهلون قَالُواْ سَلاَماً ﴾ معناه لا نجاهلكم ولا خير بيننا ولا شر أي نسلم منكم تسليماً ، فأقيم السلام مقام التسليم ، ثم يحتمل أن يكون مرادهم طلب السلامة والسكوت ، ويحتمل أن يكون المراد التنبيه على سوء طريقتهم لكي يمتنعوا ، ويحتمل أن يكون مرادهم العدول عن طريق المعاملة ، ويحتمل أن يكون المراد إظهار الحلم في مقابلة الجهل ، قال الأصم : ﴿ قَالُواْ سَلاَماً ﴾ أي سلام توديع لا تحية ، كقول إبراهيم لأبيه : ﴿ سلام عَلَيْكَ ﴾ [مريم : 47] ثم قال الكلبي وأبو العالية نسختها آية القتال ولا حاجة إلى ذلك لأن الإغضاء عن السفهاء وترك المقابلة مستحسن في العقل والشرع وسبب لسلامة العرض والورع .

الصفة الثالثة : قوله : ﴿ وَالَّذِينَ يِبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وقياما ﴾ واعلم أنه تعالى لما ذكر سيرتهم في النهار من وجهين : أحدهما : ترك الإيذاء ، وهو المراد من قوله : ﴿ يَمْشُونَ على الأرض هَوْناً ﴾ والآخر تحمل التأذي ، وهو المراد من قوله : ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجاهلون قَالُواْ سَلاَماً ﴾ فكأنه شرح سيرتهم مع الخلق في النهار ، فبين في هذه الآيات سيرتهم في الليالي عند الاشتغال بخدمة الخالق وهو كقوله : ﴿ تتجافى جُنُوبُهُمْ عَنِ المضاجع ﴾ [السجدة : 16] ثم قال الزجاج : كل من أدركه الليل قيل بات وإن لم ينم كما يقال بات فلان قلقاً ، ومعنى ﴿ يِبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ ﴾ أن يكونوا في لياليهم مصلين ، ثم اختلفوا فقال بعضهم : من

قرأ شيئاً من القرآن في صلاة وإن قل ، فقد بات ساجداً وقائماً ، وقيل ركعتين بعد المغرب وأربعاً بعد العشاء الأخيرة ، والأولى أنه وصف لهم بإحياء الليل أو أكثره يقال فلان يظل صائماً ويبيت قائماً ، قال الحسن يبيتون لله على أقدامهم ويفرشون له وجوههم تجري دموعهم على خدودهم خوفاً من ربهم .

(64/563)

الصفة الرابعة : قوله : ﴿ والذين يَقُولُونَ رَبَّنَا اصرف عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما يقولون في سجودهم وقيامهم هذا القول ، وقال الحسن خشعوا بالنهار وتعبوا بالليل فرقاً من عذاب جهنم ، وقوله : ﴿ غَرَاماً ﴾ أي هلاكاً وخسراناً ملحاً لازماً ، ومنه الغريم لإلحاحه وإلزامه ، ويقال فلان مغرم بالنساء إذا كان مولعاً بهن ، وسأل نافع بن الأزرق ابن عباس عن الغرام فقال هو الموجع ، وعن محمد بن كعب في ﴿ غَرَاماً ﴾ أنه سأل الكفار ثمن نعمه فما أدوها إليه فأغرمهم فأدخلهم النار ، واعلم أنه تعالى وصفهم بإحياء الليل ساجدين وقائمين ، ثم عقبه بذكر دعوتهم هذه إيذاناً بأنهم مع اجتهادهم خائفون مبتهلون إلى الله في صرف العذاب عنهم كقوله : ﴿ والذين يُؤْتُونَ مَا ءاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾ [المؤمنون : 60] .

أما قوله تعالى : ﴿ إِنَّهَا سَاءتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً ﴾ فقوله : ﴿ سَاءتْ ﴾ في حكم بئست وفيها ضمير مبهم تفسيره (مستقراً) ، والمخصوص بالذم محذوف معناه ساءت مستقراً ومقاماً هي (وهذا الضمير هو الذي ربط الجملة باسم إن وجعلها خبراً ، لها ، ويجوز أن يكون ساءت بمعنى أحزنت ، وفيها ضمير اسم إن) ومستقراً حال أو تمييز ، فإن قيل دلت الآية على أنهم سألوا الله تعالى أن يصرف عنهم عذاب جهنم لعلتين : إحداهما أن عذابها كان غراماً ، وثانيهما : أنها ساءت مستقراً ومقاماً ، فما الفرق بين الوجهين ؟ وأيضاً فما الفرق بين المستقر والمقام ؟ قلنا المتكلمون ذكروا أن عقاب الكافر يجب أن يكون مضرة خالصة عن شوائب النفع دائمة ، فقوله : ﴿ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً ﴾ إشارة إلى كونه مضرة خالصة عن شوائب النفع ، وقوله : ﴿ إِنَّهَا سَاءتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً ﴾ إشارة إلى كونها دائمة ، ولا شك في المغايرة ، أما الفرق بين المستقر والمقام فيحتمل أن يكون المستقر للعصاة من أهل الإيمان فإنهم يستقرون في النار ولا يقيمون فيها ، وأما الإقامة فللكفار ، واعلم أن قوله : ﴿ إِنَّهَا سَاءتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً ﴾ يمكن أن يكون من كلام الله تعالى ويمكن أن يكون حكاية لقولهم .

الصفة الخامسة : قوله : ﴿ والذين إِذَا أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً ﴾ قرىء ﴿ يَقْتُرُواْ ﴾ بكسر التاء وضمها ويقتروا بضم الياء وتخفيف القاف وكسر التاء وأيضاً بضم الباء وفتح القاف وكسر التاء وتشديدها وكلها لغات .

والقتر والإقتار والتقتير التضييق الذي هو نقيض الإسراف ، والإسراف مجاوزة الحد في النفقة .

وذكر المفسرون في الإسراف والتقتير وجوهاً : أحدها : وهو الأقوى أنه تعالى وصفهم بالقصد الذي هو بين الغلو والتقصير وبمثله أمر رسوله صلى الله عليه وسلم بقوله :

(66/563)

﴿ وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ البسط ﴾ [الإسراء : 29] وعن وهيب بن الورد قال لعالم : ما البناء الذي لا سرف فيه ؟ قال : ما سترك عن الشمس وأكنك من المطر ، فقال له فما الطعام الذي لا سرف فيه ؟ قال ما سد الجوعة ، فقال له في اللباس ، قال ما ستر عورتك ووقاك من البرد ، وروي أن رجلاً صنع طعاماً في إملاك فأرسل إلى الرسول عليه السلام فقال : " حق فأجيبوا " ثم صنع الثانية فأرسل إليه فقال : " حق فمن شاء فليجب وإلا فليقعد " ثم صنع الثالثة فأرسل إليه فقال : " رياء ولا خير فيه

" وثانيها : وهو قول ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك أن الإسراف الإنفاق في معصية الله تعالى ، والإقتار منع حق الله تعالى ، قال مجاهد : لو أنفق رجل مثل أبي قبيس ذهباً في طاعة الله تعالى لم يكن سرفاً ولو أنفق صاعاً في معصية الله تعالى كان سرفاً ، وقال الحسن لم ينفقوا في معاصي الله ولم يمسكوا عما ينبغي ، وذلك قد يكون في الإمساك عن حق الله ، وهو أقبح التقتير ، وقد يكون عما لا يجب ، ولكن يكون مندوباً مثل الرجل الغني الكثير المال إذا منع الفقراء من أقاربه وثالثها : المراد بالسرف مجاوزة الحد في التنعم والتوسع في الدنيا ، وإن كان من حلال ، فإن ذلك مكروه لأنه يؤدي إلى الخيلاء ، والإقتار هو التضييق فالأكل فوق الشبع بحيث يمنع النفس عن العبادة سرف وإن أكل بقدر الحاجة فذاك إقتار ، وهذه الصفة صفة أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم كانوا لا يأكلون طعاماً للتنعم واللذة ، ولا يلبسون ثوباً للجمال والزينة ، ولكن كانوا يأكلون ما يسد جوعهم ويعينهم على عبادة ربهم ، ويلبسون ما يستر عوراتهم ويصونهم من الحر والبرد ، وههنا مسألتان :

المسألة الأولى :

القوام قال ثعلب : القوام بالفتح العدل والاستقامة ، وبالكسر ما يدوم عليه الأمر ويستقر ، قال صاحب "الكشاف" : القوام العدل بين الشيئين لاستقامة الطرفين واعتدالهما ، ونظير القوام من الاستقامة السواء من الاستواء ، وقرىء ﴿ قِوَاماً ﴾ بالكسر وهو ما يقام به الشيء ، يقال أنت قوامنا ، يعني ما يقام به الحاجة لا يفضل عنه ولا ينقص .

المسألة الثانية :

المنصوبان أعني ﴿ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً ﴾ جائز أن يكونا خبرين معاً ، وأن يجعل بين ذلك لغواً وقواماً مستقراً ، وأن يكون الظرف خبراً وقواماً حالاً مؤكدة ، قال الفراء : وإن شئت جعلت ﴿ بَيْنَ ذلك ﴾ اسم كان ، كما تقول كان دون هذا كافياً ، تريد أقل من ذلك ، فيكون معنى ﴿ بَيْنَ ذلك ﴾ ، أي كان الوسط من ذلك قواماً ، أي عدلاً ، وهذا التأويل ضعيف ، لأن القوام هو الوسط فيصير التأويل ، وكان الوسط وسطاً وهذا لغو . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 24 صـ 93.96 ﴾

(68/563)

وقال الجصاص :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا ﴾

رَوَى ابْنُ أَبِي نَجِيحٍ عَنْ مُجَاهِدٍ : ﴿ هَوْنًا ﴾ قَالَ : (بِالْوَقَارِ وَالسَّكِينَةِ) ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمْ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴾ قَالَ : (سِدَادًا) .

وَعَنْ الْحَسَنِ أَيْضًا : ﴿ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ (حُلَمَاءُ لَا يَجْهَلُونَ عَلَى أَحَدٍ ، وَإِنْ جُهِلَ عَلَيْهِمْ ، حَلَمُوا قَدْ بَرَاهُمْ الْخَوْفُ كَأَنَّهُمْ الْقِدَاحُ ، هَذَا نَهَارُهُمْ يَنْتَشِرُونَ بِهِ فِي النَّاسِ) ﴿ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴾ قَالَ : (هَذَا لَيْلُهُمْ إذَا دَخَلَ يُرَاوِحُونَ بَيْنَ أَطْرَافِهِمْ فَهُمْ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ رَبِّهِمْ) .

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ : ﴿ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ قَالَ : (بِالتَّوَاضُعِ لَا يَتَكَبَّرُونَ) .

وَقَوْله تَعَالَى : ﴿ وَالَّذِينَ إذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا ﴾ رَوَى ابْنُ أَبِي نَجِيحٍ عَنْ مُجَاهِدٍ : ﴿ وَالَّذِينَ إذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا ﴾ قَالَ : (مَنْ أَنْفَقَ دِرْهَمًا فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ فَهُوَ مُسْرِفٌ) ﴿ وَلَمْ يَقْتُرُوا ﴾ (الْبُخْلُ ، مَنْعُ حَقِّ اللَّهِ) ﴿ وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾ قَالَ : (الْقَصْدُ وَالْإِنْفَاقُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ) .

وَقَالَ ابْنُ سِيرِينَ : (السَّرَفُ إنْفَاقُهُ فِي غَيْرِ حَقٍّ) .

(69/563)

وقَوْله تعَالَى : ﴿ إنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾

قِيلَ : (لَازِمًا مُلِحًّا دَائِمًا) ، وَمِنْهُ الْغَرِيمُ لِمُلَازَمَتِهِ وَإِلْحَاحِهِ ، وَإِنَّهُ لَمُغْرَمٌ بِالنِّسَاءِ أَيْ مُلَازِمٌ لَهُنَّ لَا يَصْبِرُ عَنْهُنَّ ؛ وَقَالَ الْأَعْشَى : إنْ يُعَاقِبْ يَكُنْ غَرَامًا وَإِنْ يُعْطِ جَزِيلًا فَإِنَّهُ لَا يُبَالِي وَقَالَ بِشْرُ بْنُ أَبِي خَازِمٍ : يَوْمَ النِّسَارِ وَيَوْمَ الْجِفَارِ كَانَا عَذَابًا وَكَانَا غَرَامَا قَالَ لَنَا أَبُو عُمَرَ غُلَامُ ثَعْلَبٍ : أَصْلُ الْغُرْمِ اللُّزُومُ فِي اللُّغَةِ ؛ وَذَكَرَ نَحْوًا مِمَّا قَدَّمْنَا .

وَيُسَمَّى الدَّيْنُ غُرْمًا وَمَغْرَمًا ؛ لِأَنَّهُ يَقْتَضِي اللُّزُومَ وَالْمُطَالَبَةَ ، فَيُقَالُ لِلطَّالِبِ الْغَرِيمُ ؛ لِأَنَّ لَهُ اللُّزُومَ وَلِلْمَطْلُوبِ غَرِيمٌ ؛ لِأَنَّهُ يَثْبُتُ عَلَيْهِ اللُّزُومُ ؛ وَعَلَى هَذَا قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ لَا يُغْلِقُ الرَّهْنُ لِصَاحِبِهِ غُنْمُهُ وَعَلَيْهِ غُرْمُهُ ﴾ يَعْنِي دَيْنَهُ الَّذِي هُوَ مَرْهُونٌ بِهِ .

وَزَعَمَ الشَّافِعِيُّ أَنَّ الْغُرْمَ الْهَلَاكُ ؛ قَالَ أَبُو عُمَرَ : وَهَذَا خَطَأٌ فِي اللُّغَةِ .

وَرُوِيَ عَنْ الْحَسَنِ أَنَّهُ قَالَ : (لَيْسَ غَرِيمٌ إلَّا مُفَارِقًا غَرِيمَهُ غَيْرَ جَهَنَّمَ فَإِنَّهَا لَا تُفَارِقُ غَرِيمَهَا) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾ . بتصرف يسير .

(70/563)

وقال ابن العربى :

قَوْله تعَالَى : ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمْ الْجَاهِلُونَ

قَالُوا سَلَامًا ﴾ .

فِيهَا ثَلَاثُ مَسَائِلَ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : قَوْلُهُ : ﴿ هَوْنًا ﴾ الْهَوْنُ : هُوَ الرِّفْقُ وَالسُّكُونُ ، وَذَلِكَ يَكُونُ بِالْعِلْمِ وَالْحِلْمِ وَالتَّوَاضُعِ ، لَا بِالْمَرَحِ وَالْكِبْرِ ، وَالرِّيَاءِ وَالْمَكْرِ ، وَفِي مَعْنَاهُ قُلْت : تَوَاضَعْت فِي الْعَلْيَاءِ وَالْأَصْلُ كَابِرٌ وَحُزْت نِصَابَ السَّبْقِ بِالْهَوْنِ فِي الْأَمْرِ سُكُونٌ فَلَا خُبْثَ السَّرِيرَةِ أَصْلُهُ وَجُلُّ سُكُونِ النَّاسِ مِنْ عِظَمِ الْمَكْرِ وَقَدْ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ أَيُّهَا النَّاسُ ، عَلَيْكُمْ بِالسَّكِينَةِ ، فَإِنَّ الْبِرَّ لَيْسَ فِي الْإِيضَاعِ ﴾ .

وَكَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ يُسْرِعُ جِبِلَّةً لَا تَكَلُّفًا .

وَالْقَصْدُ وَالتُّؤَدَةُ وَحُسْنُ الصَّمْتِ مِنْ أَخْلَاقِ النُّبُوَّةِ .

وَقَدْ بَيَّنَّاهُ فِي قَبَسِ الْمُوَطَّأِ .

وَقَدْ قِيلَ : مَعْنَاهُ يَمْشُونَ رِفْقًا مِنْ ضَعْفِ الْبَدَنِ ، قَدْ بَرَاهُمْ الْخَوْفُ ، وَأَنْحَلَتْهُمْ الْخَشْيَةُ ، حَتَّى صَارُوا كَأَنَّهُمْ الْفِرَاخُ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : قَوْله تَعَالَى ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمْ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴾ اُخْتُلِفَ فِي الْجَاهِلِينَ عَلَى قَوْلَيْنِ : أَحَدُهُمَا : أَنَّهُمْ الْكُفَّارُ .

الثَّانِي : أَنَّهُمْ السُّفَهَاءُ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ سَلَامًا ﴾ فِيهِ وَجْهَانِ : أَحَدُهُمَا : أَنَّهُ بِمَعْنَى حَسَنٍ

وَسَدَادٍ .

الثَّانِي : أَنَّهُ قَوْلُ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ .

(71/563)

قَالَ سِيبَوَيْهِ : لَمْ يُؤْمَرْ الْمُسْلِمُونَ يَوْمَئِذٍ أَنْ يُسَلِّمُوا عَلَى الْمُشْرِكِينَ ، وَلَكِنَّهُ عَلَى مَعْنَى قَوْلِهِمْ : [تَسَلَّمْنَا مِنْكُمْ] وَلَا خَيْرَ بَيْنَنَا وَلَا شَرَّ .

قَالَ الْفَقِيهُ الْقَاضِي أَبُو بَكْرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ : وَلَا نُهُوا عَنْ ذَلِكَ ، بَلْ أُمِرُوا بِالصَّفْحِ وَالْهَجْرِ الْجَمِيلِ ، وَقَدْ كَانَ مَنْ سَلَفَ مِنْ الْأُمَمِ فِي دِينِهِمْ التَّسْلِيمُ عَلَى جَمِيعِ الْأُمَمِ .

وَفِي الإسرائليات : إنَّ عِيسَى مَرَّ بِهِ خِنْزِيرٌ فَقَالَ لَهُ : اذْهَبْ بِسَلَامٍ حِينَ لَمْ يَقُلْ وَهُوَ لَا يَعْقِلُ السَّلَامُ .

فَأَمَّا الْكُفَّارُ فَكَانُوا يَفْعَلُونَهُ وَتَلِينُ جَوَانِبُهُمْ بِهِ ؟ وَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقِفُ عَلَى أَنْدِيَتِهِمْ وَيُحَيِّيهِمْ وَيُدَانِيهِمْ وَلَا يُدَاهِنُهُمْ .

فَيُحْتَمَلُ قَوْلُهُ : ﴿ قَالُوا سَلَامًا ﴾ الْمَصْدَرَ ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِهِ التَّحِيَّةَ .

وَقَدْ بَيَّنَّا ذَلِكَ كُلَّهُ فِي سُورَةِ هُودٍ .

وَقَدْ اتَّفَقَ النَّاسُ عَلَى أَنَّ السَّفِيهَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ إذَا جَفَاكَ يَجُوزُ أَنْ تَقُولَ لَهُ سَلَامٌ عَلَيْك .

وَهَلْ وُضِعَ السَّلَامُ فِي أَحَدِ الْقَوْلَيْنِ إلَّا عَلَى مَعْنَى السَّلَامَةِ وَالتَّوَادِّ ؟ كَأَنَّهُ يَقُولُ لَهُ : سَلِمْت مِنِّي ، فَأَسْلَمُ مِنْك .

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَالَّذِينَ إذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾ .

فِيهَا ثَلَاثُ مَسَائِلَ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ : ﴿ لَمْ يُسْرِفُوا ﴾ فِيهِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ : الْأَوَّلُ : لَمْ يُنْفِقُوا فِي مَعْصِيَةٍ قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ .

الثَّانِي : لَمْ يُنْفِقُوا كَثِيرًا قَالَهُ إبْرَاهِيمُ .

(72/563)

الثَّالِثُ : لَمْ يَتَمَتَّعُوا لِلنَّعِيمِ ، إذَا أَكَلُوا لِلْقُوَّةِ عَلَى الطَّاعَةِ ، وَلَبِسُوا لِلسُّتْرَةِ الْوَاجِبَةِ ، وَهُمْ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَهُ يَزِيدُ بْنُ أَبِي حَبِيبٍ .

وَقَدْ بَيَّنَّاهُ فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ .

وَهَذِهِ الْأَقْوَالُ الثَّلَاثَةُ صِحَاحٌ ، فَالنَّفَقَةُ فِي الْمَعْصِيَةِ حَرَامٌ ، فَالْأَكْلُ وَاللُّبْسُ لِلَّذَّةِ جَائِزٌ ، وَلِلتَّقْوَى وَالسَّتْرِ أَفْضَلُ ، فَمَدَحَ اللَّهُ مَنْ أَتَى الْأَفْضَلَ ، وَإِنْ كَانَ مَا تَحْتَهُ مُبَاحًا .

وَإِذَا أَكْثَرَ رُبَّمَا افْتَقَرَ ، فَالتَّمَسُّكُ بِبَعْضِ الْمَالِ أَوْلَى ، كَمَا قَالَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

لِأَبِي لُبَابَةَ وَلِكَعْبٍ ، كَمَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَلَمْ يَقْتُرُوا ﴾ فِيهِ قَوْلَانِ : الْأَوَّلُ : لَمْ يَمْنَعُوا وَاجِبًا .

الثَّانِي : لَمْ يَمْنَعُوا عَنْ طَاعَةٍ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ قَوَامًا ﴾ يَعْنِي عَدْلًا ؛ وَهُوَ أَنْ يُنْفِقَ الْوَاجِبَ ، وَيَتَّسِعَ فِي الْحَلَالِ فِي غَيْرِ دَوَامٍ عَلَى اسْتِيفَاءِ اللَّذَّاتِ فِي كُلِّ وَقْتٍ مِنْ كُلِّ طَرِيقٍ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 3 صـ ﴾

(73/563)

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً ﴾

فيه أربعة أقاويل :

أحدها : علماء وكلماء ، قاله ابن عباس .

الثاني : أعفاء أتقياء ، قاله الضحاك .

الثالث : بالسكينة والوقار ، قاله مجاهد .

الرابع : متواضعين لا يتكبرون ، قاله ابن زيد .

﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمْ الْجَاهِلُونَ قَالُواْ سَلاَماً ﴾ الجاهلون فيهم قولان

: أحدهما : أنهم الكفار .

الثاني : السفهاء .

﴿ قَالُواْ سَلاَماً ﴾ فيه ثلاثة أوجه

: أحدها : قالوا سداداً ، قاله مجاهد لأنه قول سليم .

الثاني : قالوا وعليك السلام ، قاله الضحاك .

الثالث : أنه طلب المسالمة ، قاله ابن بحر .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً ﴾ فيه أربعة أوجه :

أحدها : لازماً ، قاله ابن عيسى ، ومنه الغريم لملازمته وأنشد الأعشى :

إن يعاقب يكن غَراماً وإن يع . . . طر جزيلاً فإنه لا يبالي

الثاني : شديداً ، قاله ابن شجرة ، ومنه سميت شدة المحنة غراماً قال بشر بن أبي خازم :

ويوم الجفار ويوم النسا . . . ر ، كانا عذاباً ، وكان غراما

الثالث : ثقيلاً ، قاله قطرب ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴾ [القلم : 46] .

الرابع : أنهم أغرموا بالنعيم في الدنيا عذاب النار ، قال محمد بن كعب : إن الله سأل الكفار عن فأغرمهم فأدخلهم جهنم .

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ ﴾ فيه أربعة أوجه :

أحدها : لم ينفقوا في معصية الله ، والإسراف النفقة في المعاصي ، قاله ابن عباس .

الثاني : لم ينفقوا كثيراً فيقول الناس قد أسرفوا ، قاله إبراهيم .

الثالث : لا يأكلون طعاماً يريدون به نعيماً ولا يلبسون ثوباً يريدون به جمالاً ، قاله يزيد بن أبي حبيب ، قال : هؤلاء أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كانت قلوبهم على قلب رجل واحد .

الرابع : لم ينفقوا نفقة في غير حقها فإن النفقة في غير حقها إسراف ، قاله ابن سيرين .

(74/563)

﴿ وَلَمْ يَقْتُرُواْ ﴾ فيه أربعة أوجه

: أحدها : لم يمنعوا حقوق الله فإن منع حقوق الله إقتار ، قاله ابن عباس .

الثاني : لا يعريهم ولا يجيعهم ، قاله إبراهيم .

الثالث : لم يمسكوا عن طاعة الله ، قاله ابن زيد .

الرابع : لم يقصروا في الحق ، قاله الأعمش .

روى معاذ بن جبل قال : لما نزلت هذه الآية سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن

النفقة في الإسراف والإقتار ما هو ، فقال : من منع من حق فقد قتر ، ومن أعطى في غير حق فقد أسرف .

﴿ وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾ فيه ثلاثة أوجه

: أحدها : يعني عدلاً ، قاله الأعمش .

الثاني : أن القوام : أن يخرجوا في الله شطر أموالهم ، قاله وهب .

الثالث : أن القوام : أن ينفق في طاعة الله ويكف عن محارم الله .

ويحتمل رابعاً : أن القوام ما لم يمسك فيه عزيز ولم يقدم فيه على خطر ، والفرق بين القَوام بالفتح والقِوام بالكسر ، ما قاله ثعلب : أنه بالفتح الاستقامة والعدل ، وبالكسر ما يدوم عليه الأمر ويستقر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

(75/563)

وقال ابن عطية :

﴿ وَعِبَادُ الرحمن ﴾

و" العباد " والعبيد بمعنى إلا أن العباد يستعمل في مواضع التنويه ، وسمي قوم من عبد القيس العباد لأن كسرى ملكهم دون العرب ، وقيل لأنهم تألهوا مع نصارى الحيرة فصاروا

عبد الله وإليهم ينسب عدي بن زيد العبادي ، وقرأ الحسن بن أبي الحسن " وعبد الرحمن " ، ذكره الثعلبي ، وقوله ﴿ الذين يمشون على الأرض ﴾ عبارة عن عيشهم ومدة حياتهم وتصرفاتهم نذكر من ذلك العظم لا سيما وفي الانتقال في الأرض هي معاشرة الناس وخلطتهم ثم قال ، ﴿ هوناً ﴾ ، بمعنى أمره كله هون أي لين ، قال مجاهد ، بالحلم والوقار ، وقال ابن عباس بالطاعة والعفاف والتواضع ، وقال الحسن حلماً إن جهل عليهم لم يجهلوا ، وذهبت فرقة إلى أن ﴿ هوناً ﴾ مرتبط بقوله ﴿ يمشون على الأرض ﴾ أي المشي هو هون ، ويشبه أن يتأول هذا على أن تكون أخلاق ذلك الماشي ﴿ هوناً ﴾ مناسبة لمشيه فيرجع القول إلى نحو ما بيّناه وأما أن يكون المراد صفة المشي وحده فباطل لأنه رب ماش ﴿ هوناً ﴾ رويداً وهو ذئيب أطلس .

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتكفا في مشيه كأنما يمشي في صبب وهو عليه السلام الصدر في هذه الآية . وقوله صلى الله عليه وسلم " من مشى منكم في طمع فليمش رويداً " إنما أراد في عقد نفسه ولم يرد المشي وحده ، ألا ترى أن المبطلين المتحيلين بالدين تمسكوا بصورة المشي فقط حتى قال فيهم الشاعر ذماً لهم [أبي جعفر المنصور] : [مجزوء الرمل]

كلهم يمشي رويدا . . . كلهم يطلب صيدا

وقال الزهري سرعة المشي تذهب ببهاء الوجه .

قال القاضي أبو محمد : يريد الإسراع الحثيث لأنه يخل بالوقار والخير في التوسط وقال زيد بن أسلم كنت أسأل عن تفسير قوله ﴿ الذين يمشون على الأرض هوناً ﴾ فما وجدت في ذلك شفاء ، فرأيت في النوم من جاءني فقال هم الذين لا يريدون أن يفسدوا في الأرض .

(76/563)

قال الفقيه الإمام القاضي : فهذا تفسير في الخلق ، و ﴿ هوناً ﴾ معناه رفقاً وقصداً ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم " أحب حبيبك هوناً ما " الحديث وقوله ﴿ وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً ﴾ . اختلف في تأويل ذلك ، فقالت فرقة ينبغي للمخاطب أن يقول للجاهل سلاماً بهذا اللفظ أي سلمنا سلاماً وتسليماً ونحو هذا ، فيكون العامل فيه فعلاً من لفظه على طريقة النحويين ، والذي أقول إن ﴿ قالوا ﴾ هو العامل في ﴿ سلاماً ﴾ لأن المعنى ﴿ قالوا ﴾ هذا اللفظ ، وقال مجاهد معنى ﴿ سلاماً ﴾ قولاً سديداً ، أي يقول للجاهل كلاماً يدفعه به برفق ولين ف ﴿ قالوا ﴾ على هذا التأويل عامل في قوله ﴿ سلاماً ﴾ على طريقة النحويين وذلك أنه بمعنى قولاً ، وهذه الآية كانت قبل آية السيف فنسخ منها ما يختص الكفرة وبقي أدبها في المسلمين إلى يوم القيامة ، وذكر سيبويه النسخ في هذه الآية في كتابه وما تكلم على نسخ سواه ، ورجح به أن المراد السلامة لا التسليم لأن

المؤمنين لم يؤمروا قط بالتسليم على الكفار والآية مكية فنسختها آية السيف .

قال الفقيه الإمام القاضي : ورأيت في بعض التواريخ أن إبراهيم بن المهدي كان من المائلين على علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال يوماً بمحضر المأمون وعنده جماعة : كنت أرى علياً في النوم فكنت أقول له من أنت ؟ فكان يقول علي بن أبي طالب ، فكنت أجيء معه إلى قنطرة فيذهب فيتقدمني في عبورها ، فكنت أقول له إنما تدّعي هذا الأمر بإمرة ونحن أحق به منك ، فما رأيت له في الجواب بلاغة كما يذكر عنه ، فقال المأمون وبماذا جاوبك قال : فكان يقول لي سلاماً سلاماً ، قال الراوي وكان إبراهيم بن المهدي لا يحفظ الآية أو ذهبت عنه في ذلك الوقت فنبه المأمون على الآية من حضره وقال هو والله يا عمي علي بن أبي طالب وقد جاوبك بأبلغ جواب فحزن إبراهيم واستحيا وكانت رؤياه لا محالة صحيحة .

(77/563)

﴿ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (64) ﴾

هذه آية فيها تحريض على القيام بالليل للصلاة ، قال الحسن لما فرغ من وصف نهارهم وصف في هذه ليلهم ، وقال بعض الناس من صلى العشاء الآخر وشفع وأوتر فهو داخل في

هذه الآية .

قال الفقيه الإمام القاضي : إلا أنه دخول غير مستوفى ، وقرأ أبو البرهسم " سجوداً وقياماً " . ومدحهم تعالى بدعائه في صرف ﴿ عذاب جهنم ﴾ من حيث ذلك دليل على صحة عقدهم وإيمانهم ومن حيث أعمالهم بحسبه ، و ﴿ غراماً ﴾ معناه ملازماً ، وقيل مجحفاً ومنه غرام الحب ومنه المغرم ومنه قول الأعشى : [الخفيف]

إن يعاقب يكن غراماً وإن يع . . . ط جزيلاً فإنه لا يبالي

وقول بشر أبي حازم : [المتقارب]

ويوم النسار ويوم الجفار . . . كانا عناء وكانا غراما

وقرأ جمهور الناس " مُقاماً " بضم الميم من الإقامة ، ومنه قول الشاعر : " حيوا المقام وحيوا ساكن الدار " ، وقرأ فرقة " مَقاماً " بفتح الميم من قام يقوم فجنهم ضد مقام كريم والأول أفصح وأشهر .

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا (67) ﴾

اختلف المفسرون في هذه الآية في الإنفاق ، فعبارة أكثرهم أن الذي لا يسرف هو المنفق في الطاعة ، وإن أسرف ، والمسرف هو المنفق في المعصية وإن قل إنفاقه ، وأن المقتر هو الذي يمنع حقاً عليه ، وهذا قول ابن عباس ومجاهد وابن زيد ، وقال عون بن عبد الله بن عتبة " الإسراف " أن تنفق مال غيرك . ونحو هذه الأقوال التي هي غير مرتبطة بلفظ الآية ، وخلط الطاعة والمعصية بالإسراف والتقتير فيه نظر ، والوجه أن يقال أن النفقة في المعصية أمر قد حظرت الشريعة قليله وكثيره ، وكذلك التعدي على مال الغير ، وهؤلاء الموصوفون منزهون عن ذلك ، وإنما التأديب بهذه الآية هو في نفقة الطاعات وفي المباحات ، فأدب الشرع فيها أن لا يفرط الإنسان حتى يضيع حقاً آخر أو عيالاً ونحو هذا وأن لا يضيق أيضاً ويقتر حتى يجيع العيال ويفرط في الشح ، والحسن في ذلك هو القوام ، أي المعتدل ، والقوام في كل واحد بحسب عياله وحاله وخفة ظهره وصبره وجلده على الكسب أو ضد هذه الخصال ، وخير الأمور أوسطها ، ولهذا ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر يتصدق بجميع ماله لأن ذلك وسط بنسبة جلده وصبره في الدين ومنع غيره من ذلك ، ونعم ما قال إبراهيم النخعي وهو الذي لا يجيع ولا يعري ولا ينفق نفقة يقول الناس قد أسرف ، وقال يزيد بن حبيب هم الذين لا يلبسون الثياب للجمال ولا يأكلون طعاماً للذة ، وقال عبد الملك بن مروان لعمر بن عبد العزيز حين زوجه ابنته فاطمة : ما نفقتك ؟ فقال له عمر الحسنة بين السيئتين ، ثم تلا الآية ، وقال عمر بن الخطاب كفى بالمرء سرفاً ألا يشتهي شيئاً

إلا اشتراه فأكله ، وقرأ نافع وابن عامر وأبو بكر عن عاصم "يُقتِروا " بضم الياء وكسر التاء ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ومجاهد وحفص عن عاصم "يَقتِروا " بفتح الياء وكسر التاء ، وقرأ حمزة والكسائي بفتح الياء وضم الياء ، وهي قراءة الحسن والأعمش وطلحة وعاصم بخلاف ، وقرأ أبو عبد الرحمن بضم الياء

(79/563)

وفتح التاء ، وقرأ أبو عمرو " والناس قَواماً " بفتح القاف ، أي معتدلاً ، وقرأ حسان بن عبد الرحمن بكسر القاف أي مبلغاً وسداداً وملاك حال ، و﴿ قواماً ﴾ خبر ﴿ كان ﴾ واسمها مقدر أي الإنفاق ، وجوز الفراء أن يكون اسمها قوله ﴿ بين ذلك ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(80/563)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وعبادُ الرَّحمن الذين يَمْشُون ﴾

وقرأ عليّ ، وأبو عبد الرحمن السلمي ، وابن السميفع : ﴿ يُمَشَّون ﴾ برفع الياء وفتح الميم والشين وبالتشديد .

وقال ابن قتيبة : إنما نسبهم إليه لاصطفائه إياهم ، كقوله : ﴿ ناقةُ الله ﴾ [الأعراف : 73] ، ومعنى ﴿ هَوْناً ﴾ : مشياً رويداً .

ومنه يقال : أَحْبِبْ حبيبك هَوْناً ما .

وقال مجاهد : يمشون بالوقار والسكينة .

﴿ وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً ﴾ أي : سَداداً .

وقال الحسن : لا يجهلون على أحد ، وإن جهل عليهم حَلُموا .

وقال مقاتل بن حيّان : ﴿ قالوا سلاماً ﴾ أي : قولاً يسْلَمون فيه من الإثم .

وهذه الآية محكمة عند الأكثرين .

وزعم قوم : أن المراد بها أنهم يقولون للكفار : ليس بيننا وبينكم غير السلام ، ثم نُسخت بآية السيف .

قوله تعالى : ﴿ والذين يَبيتون لربِّهم ﴾ قال الزجاج : كل من أدركه الليل فقد بات ، نام أو لم ينم ؛ يقال : بات فلان قلِقاً ، إنما المبيت إدراك الليل .

قوله تعالى : ﴿ كان غراماً ﴾ فيه خمسة أقوال متقارب معانيها .

أحدها : دائماً ، رواه أبو سعيد الخدري ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

والثاني : موجعاً ، رواه الضحاك عن ابن عباس .

والثالث : مُلِحّاً ، قاله ابن السائب ؛ وقال ابن جريج : لا يفارق .

والرابع : هلاكاً ، قاله أبو عبيدة .

والخامس : أن الغرام في اللغة : أشدُّ العذاب ، قال الشاعر :

وَيَوْمَ النِّسار وَيَوْمَ الجِفا . . .

رِكانَا عذاباً وكانَا غَرَاماً

قاله الزجاج .

قوله تعالى : ﴿ ساءت مُسْتَقَرّاً ﴾ أي : بئس موضع الاستقرار وموضع الإِقامة هي .

قوله تعالى : ﴿ والذين إِذا أنفقوا لم يُسْرِفوا ولم يقتروا ﴾ وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو : ﴿ يَقْتِروا ﴾ مفتوحة الياء مكسورة التاء .

وقرأ عاصم ، وحمزة ، والكسائي : ﴿ يَقْتُروا ﴾ بفتح الياء وضم التاء .

وقرأ نافع ، وابن عامر : ﴿ يُقْتِروا ﴾ بضم الياء وكسر التاء .

وفي معنى الكلام قولان .

أحدهما : أن الإِسراف : مجاوزة الحدّ في النفقة ، والإِقتار : التقصير عمّا لا بُدَّ منه ، ويدل على هذا قولُ عمر بن الخطاب : كفى بالمرء سَرَفاً أن يأكل كلَّ ما اشتهى .

والثاني : [أنَّ] الإِسراف : الإِنفاق في معصية الله وإِن قَلَّ ، والإِقتار : منع حق الله تعالى ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، وابن جريج في آخرين .

قوله تعالى : ﴿ وكان ﴾ يعني الإِنفاق ﴿ بين ذلك ﴾ أي : بين الإِسراف والإِقتار ﴿ قَوَاماً ﴾ أي : عَدْلاً ؛ قال ثعلب : القَوام ، بفتح القاف : الاستقامة والعَدْل ، وبكسرها : ما يدوم عليه الأمر ويستقرّ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 6 صـ ﴾

(82/563)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَعِبَادُ الرحمن الذين يَمْشُونَ على الأرض هَوْناً ﴾

لما ذكر جهالات المشركين وطعنهم في القرآن والنبوة ذكر عباده المؤمنين أيضاً وذكر صفاتهم ، وأضافهم إلى عبوديته تشريفاً لهم ، كما قال : ﴿ سُبْحَانَ الذي أسرى بِعَبْدِهِ ﴾ [الإسراء : 1] وقد تقدّم .

فمن أطاع الله وعبده وشغل سمعه وبصره ولسانه وقلبه بما أمره فهو الذي يستحق اسم العبودية ، ومن كان بعكس هذا شمله قوله تعالى : ﴿ أولئك كالأنعام بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾ [الأعراف : 179] يعني في عدم الاعتبار ؛ كما تقدّم في "الأعراف" .

وكأنه قال : وعباد الرحمن هم الذين يمشون على الأرض ، فحذف هم ؛ كقولك : زيد الأمير ، أي زيد هو الأمير .

ف ﴿ الَّذِينَ ﴾ خبر مبتدأ محذوف ؛ قاله الأخفش .

وقيل : الخبر قوله في آخر السورة : ﴿ أولئك يُجْزَوْنَ الغرفة بِمَا صَبَرُواْ ﴾ وما بين المبتدأ والخبر أوصاف لهم وما تعلق بها ؛ قاله الزجاج .

قال : ويجوز أن يكون الخبر ﴿ الذين يَمْشُونَ على الأرض ﴾ .

و ﴿ يَمْشُونَ ﴾ عبارة عن عيشهم ومدة حياتهم وتصرفاتهم ، فذكر من ذلك العظم ، لا سيما وفي ذلك الانتقال في الأرض ؛ وهو معاشرة الناس وخلطتهم .

قوله تعالى : ﴿ هَوْناً ﴾ الهون مصدر الهيّن وهو من السكينة والوقار .

وفي "التفسير" : يمشون على الأرض حلماء متواضعين ، يمشون في اقتصاد .

والقصد والتؤدة وحسن السَّمْت من أخلاق النبوة .

وقال صلى الله عليه وسلم : " أيها الناس عليكم بالسكينة فإن البر ليس في الإيضاع "

وروي في صفته صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا زال زال تقلعاً ، ويخطو تكفؤاً ، ويمشي

هوناً ، ذرِيع المِشية إذا مشى كأنما ينحط من صَبَب .

التقلع ، رفع الرجل بقوّة والتكفؤ : الميل إلى سنن المشي وقصده .

والهون الرفق والوقار .

والذريع الواسع الخطا ؛ أي أن مشيه كان يرفع فيه رجله بسرعة ويمد خطوه ؛ خلاف مِشية المختال ، ويقصد سمته ؛ وكل ذلك برفق وتثبت بدون عجلة .

(83/563)

كما قال : كأنما ينحط من صَبَب ؛ قاله القاضي عِياض .

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يسرع جِبلة لا تكلفاً .

قال الزهريّ : سرعة المشي تذهب بهاء الوجه .

قال ابن عطية : يريد الإسراع الحثيث لأنه يخل بالوقار ؛ والخير في التوسط .

وقال زيد بن أسلم : كنت أسأل عن تفسير قوله تعالى : ﴿ الذين يَمْشُونَ على الأرض هَوْناً ﴾ فما وجدت من ذلك شفاء ، فرأيت في المنام من جاءني فقال لي : هم الذين لا يريدون أن يفسدوا في الأرض .

قال القُشَيريّ : وقيل لا يمشون لإفساد ومعصية ، بل في طاعة الله والأمورِ المباحة من غير

هوك .

وقد قال الله تعالى : ﴿ وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ [لقمان : 18] .

وقال ابن عباس : بالطاعة والمعروف والتواضع .

الحسن ؛ حلماء إن جهل عليهم لم يجهلوا .

وقيل : لا يتكبرون على الناس .

قلت : وهذه كلها معانٍ متقاربة ، ويجمعها العلم بالله والخوف منه ، والمعرفة بأحكامه والخشية من عذابه وعقابه ؛ جعلنا الله منهم بفضله ومنّه .

وذهبت فرقة إلى أن ﴿ هَوْناً ﴾ مرتبط بقوله : ﴿ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ ﴾ أن المشي هو هون .

قال ابن عطية : ويشبه أن يتأول هذا على أن تكون أخلاق ذلك الماشي هوناً مناسبة لمشيه ، فيرجع القول إلى نحو ما بيناه .

وأما أن يكون المراد صفة المشي وحده فباطل ؛ لأنه رب ماش هوناً رويداً وهو ذئب أطلس .

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتكفأ في مشيه كأنما ينحط في صبب .

وهو عليه الصلاة والسلام الصدر في هذه الأمة .

وقوله عليه الصلاة والسلام : " من مشى منكم في طمع فليمش رويداً " إنما أراد في عقد نفسه ، ولم يرد المشي وحده .

ألا ترى أن المبطلين المتحلين بالدّين تمسكوا بصورة المشي فقط ؛ حتى قال فيهم الشاعر ذمًّا لهم :

كلُّهم يمشِي رُوَيْد . . .

كلُّهم يَطْلُبُ صَيْد

قلت : وفي عكسه أنشد ابن العربيّ لنفسه :

تواضعتُ في العلياء والأصل كابر . . .

(84/563)

وحزتُ قصابَ السبق بالهَوْن في الأمر

سكونٌ فلا خبث السريرة أصله . . .

وجلّ سكون الناس من عظم الكبر

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قَالُواْ سَلاَماً ﴾ قال النحاس : ليس ﴿ سَلاَماً ﴾ من التسليم إنما هو من التسلُّم ؛ تقول العرب : سلاماً ، أي تَسلُّما منك ، أي براءة منك .

منصوب على أحد أمرين : يجوز أن يكون منصوباً ب ﴿ قَالُوا ﴾ ، ويجوز أن يكون مصدراً ؛ وهذا قول سيبويه .

قال ابن عطية : والذي أقوله : أن ﴿ قَالُوا ﴾ هو العامل في ﴿ سَلاَماً ﴾ لأن المعنى قالوا هذا اللفظ .

وقال مجاهد : معنى ﴿ سَلاَماً ﴾ سَدَاداً .

أي يقول للجاهل كلاماً يدفعه به برفق ولين .

ف ﴿ قَالُوا ﴾ على هذا التأويل عامل في قوله : ﴿ سَلاَماً ﴾ على طريقة النحويين ؛ وذلك أنه بمعنى قولاً .

وقالت فرقة : ينبغي للمخاطب أن يقول للجاهل سلاماً ؛ بهذا اللفظ .

أي سلمنا سلاماً أو تسليماً ، ونحو هذا ؛ فيكون العامل فيه فعلاً من لفظه على طريقة النحويين .

مسألة : هذه الآية كانت قبل آية السيف ، نسخ منها ما يخص الكفرة وبقي أدبها في المسلمين إلى يوم القيامة .

وذكر سيبويه النسخ في هذه الآية في كتابه ، وما تكلم فيه على نسخ سواه ؛ رجح به أن المراد السلامة لا التسليم ؛ لأن المؤمنين لم يؤمروا قط بالسلام على الكفرة .

والآية مكية فنسختها آية السيف .

قال النحاس : ولا نعلم لسيبويه كلاماً في معنى الناسخ والمنسوخ إلا في هذه الآية .

قال سيبويه : لم يؤمر المسلمون يومئذٍ أن يسلّموا على المشركين لكنه على معنى قوله : تَسَلُّماً منكم ، ولا خير ولا شر بيننا وبينكم .

المبرد : كان ينبغي أن يقال : لم يؤمر المسلمون يومئذٍ بحربهم ثم أُمِروا بحربهم .

محمد بن يزيد : أخطأ سيبويه في هذا وأساء العبارة .

(85/563)

ابن العربيّ : لم يؤمر المسلمون يومئذٍ أن يسلّموا على المشركين ولا نُهوا عن ذلك ، بل أمروا بالصفح والهجر الجميل ، وقد كان عليه الصلاة والسلام يقف على أنديتهم ويحييهم ويدانيهم ، ولا يداهنهم .

وقد اتفق الناس على أن السفيه من المؤمنين إذا جفاك يجوز أن تقول له سلام عليك .

قلت : هذا القول أشبه بدلائل السنة .

وقد بيّنا في سورة "مريم" اختلاف العلماء في جواز التسليم على الكفار ، فلا حاجة إلى دعوى النسخ ؛ والله أعلم .

وقد ذكر النضر بن شميل قال حدثني الخليل قال : أتيت أبا ربيعة الأعرابيّ وكان من أعلم

من رأيت ، فإذا هو على سطح ، فلما سلمنا ردّ علينا السلام وقال لنا : استووا .

وبقينا متحيرين ولم ندر ما قال .

فقال لنا أعرابيّ إلى جنبه : أمركم أن ترتفعوا .

قال الخليل : هو من قول الله عز وجل : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ ﴾ [فصلت : 11] فصعدنا إليه فقال : هل لكم في خبز فطير ، ولبن هجير ، وماء نمير ؟ فقلنا : الساعة فارقناه .

فقال سلاماً .

فلم ندر ما قال .

قال فقال الأعرابيّ : إنه سألكم متاركة لا خير فيها ولا شر .

فقال الخليل : هو من قول الله عز وجل : ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُواْ سَلاَماً ﴾ .

قال ابن عطية : ورأيت في بعض التواريخ أن إبراهيم بن المهديّ وكان من المائلين على عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال يوماً بحضرة المأمون وعنده جماعة : كنت أرى عليّ بن أبي طالب في النوم فكنت أقول له من أنت ؟ فكان يقول : عليّ بن أبي طالب .

فكنت أجيء معه إلى قنطرة فيذهب فيتقدمني في عبورها .

فكنت أقول : إنما تدعي هذا الأمر بامرأة ونحن أحق به منك .

فما رأيت له في الجواب بلاغة كما يذكر عنه .

قال المأمون : وبماذا جاوبك ؟ قال : فكان يقول لي سلاماً .

قال الراوي : فكأن إبراهيم بن المهديّ لا يحفظ الآية أو ذهبت عنه في ذلك الوقت .

(86/563)

فنبه المأمون على الآية من حضره وقال : هو والله يا عم عليّ بن أبي طالب ، وقد جاوبك بأبلغ جواب ، فخزي إبراهيم واستحيا .

وكانت رؤيا لا محالة صحيحة .

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَاماً ﴾

قال الزجاج : بات الرجل يبيت إذا أدركه الليل ، نام أو لم ينم .

قال زهير :

فبتنا قياماً عند رأس جوادِنا . . .

يزاولنا عن نفسه ونزاوله

وأنشدوا في صفة الأولياء :

امنع جفونك أن تذوق مناماً . . .

واذرِ الدموع على الخدود سِجاما

واعلم بأنك ميت ومحاسَبٌ . . .

يا من على سخط الجليل أقاما

لله قوم أخلصوا في حبّه . . .

فرضِي بهم واختصهم خدّاما

قوم إذا جنّ الظلام عليهم . . .

باتوا هنالك سُجَّدا وقِياما

خمص البطون من التعفف ضمّرا . . .

لا يعرفون سوى الحلال طعاما

وقال ابن عباس : من صلّى ركعتين أو أكثر بعد العشاء فقد بات لله ساجداً وقائماً .

وقال الكلبيّ : من أقام ركعتين بعد المغرب وأربعاً بعد العشاء فقد بات ساجداً وقائماً .

قوله تعالى : ﴿ والذين يَقُولُونَ رَبَّنَا اصرف عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ﴾

أي هم مع طاعتهم مشفقون خائفون وجِلون من عذاب الله .

ابن عباس : يقولون ذلك في سجودهم وقيامهم .

﴿ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً ﴾ أي لازماً دائماً غير مفارق .

ومنه سمي الغريم لملازمته .

ويقال : فلان مغرم بكذا أي لازم له مولع به .

وهذا معناه في كلام العرب فيما ذكر ابن الأعرابيّ وابن عرفة وغيرهما .

وقال الأعشى :

إن يعاقِب يكن غراماً وإن يع . . .

طِ جزيلاً فإنه لا يبالي

وقال الحسن : قد علموا أن كل غريم يفارق غريمه إلا غريم جهنم .

وقال الزجاج : الغرام أشد العذاب .

وقال ابن زيد : الغرام الشر .

وقال أبو عبيدة : الهلاك .

والمعنى واحد .

وقال محمد بن كعب : طالبهم الله تعالى بثمن النعيم في الدنيا فلم يأتوا به ، فأغرمهم ثمنها بإدخالهم النار .

(87/563)

﴿ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً ﴾ أي بئس المستقر وبئس المقام .

أي إنهم يقولون ذلك عن علم ، وإذا قالوه عن علم كانوا أعرف بعظم قدر ما يطلبون ،

فيكون ذلك أقرب إلى النجح .

قوله تعالى : ﴿ والذين إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ ﴾

اختلف المفسرون في تأويل هذه الآية .

فقال النحاس : ومن أحسن ما قيل في معناه أن من أنفق في غير طاعة الله فهو الإسراف ، ومن أمسك عن طاعة الله عز وجل فهو الإقتار ، ومن أنفق في طاعة الله تعالى فهو القَوام .

وقال ابن عباس : من أنفق مائة ألف في حق فليس بسرف ، ومن أنفق درهماً في غير حقه فهو سرف ، ومن منع من حق عليه فقد قتر .

وقاله مجاهد وابن زيد وغيرهما .

وقال عون بن عبد الله : الإسراف أن تنفق مال غيرك .

قال ابن عطية : وهذا ونحوه غير مرتبط بالآية ، والوجه أن يقال .

إن النفقة في معصيةٍ أمر قد حظرت الشريعة قليله وكثيره وكذلك التعدي على مال الغير ، وهؤلاء الموصوفون منزهون عن ذلك ، وإنما التأديب في هذه الآية هو في نفقة الطاعات في المباحات ، فأدب الشرع فيها ألا يفرط الإنسان حتى يضيع حقاً آخر أو عيالاً ونحو هذا ، وألا يضيق أيضاً ويقتر حتى يجيع العيال ويفرِط في الشح ، والحسن في ذلك هو القوام ، أي العدل ، والقوام في كل واحد بحسب عياله وحاله ، وخفة ظهره وصبره وجلده على الكسب ، أو ضد هذه الخصال ، وخير الأمور أوساطها ؛ ولهذا ترك رسول الله صلى الله

عليه وسلم أبا بكر الصديق أن يتصدق بجميع ماله ، لأن ذلك وسط بنسبة جلده وصبره في الدِّين ، ومنع غيره من ذلك .

ونعم ما قال إبراهيم النَّخَعيّ : هو الذي لا يجيع ولا يعرى ولا ينفق نفقة يقول الناس قد أسرف .

وقال يزيد بن أبي حبيب : هم الذين لا يلبسون الثياب لجمال ، ولا يأكلون طعاماً للذة .

(88/563)

وقال يزيد أيضاً في هذه الآية : أولئك أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم كانوا لا يأكلون طعاماً للتنعم واللذة ، ولا يلبسون ثياباً للجمال ، ولكن كانوا يريدون من الطعام ما يسدّ عنهم الجوع ويقوّيهم على عبادة ربهم ، ومن اللباس ما يستر عوراتهم ويكنهم من الحرّ والبرد .

وقال عبد الملك بن مروان لعمر بن عبد العزيز حين زوّجه ابنته فاطمة : ما نفقتك ؟ فقال له عمر : الحسنة بين سيئتين ، ثم تلا هذه الآية .

وقال عمر بن الخطاب : كفى بالمرء سرفاً ألا يشتهي شيئاً إلا اشتراه فأكله .

وفي سنن ابن ماجه عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن من

السرف أن تأكل كل ما اشتهيت " وقال أبو عبيدة : لم يزيدوا على المعروف ولم يبخلوا .

كقوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ البسط ﴾ [الإسراء : 29] وقال الشاعر :

ولا تغلُ في شيءٍ من الأمر واقتَصِد . . .

كلاَ طَرَفَيْ قصدِ الأمورِ ذميمُ

وقال آخر :

إذا المرءُ أعطى نفسَه كلَّ ما اشتَهتْ . . .

ولم يَنْهها تاقت إلى كل باطل

وساقت إليه الإثم والعار بالذي . . .

دعته إليه من حلاوةِ عاجلِ

وقال عمر لابنه عاصم : يا بنيّ ، كل في نصف بطنك ؛ ولا تطرح ثوباً حتى تستخلقه ، ولا تكن من قوم يجعلون ما رزقهم الله في بطونهم وعلى ظهورهم .

ولحاتم طيّ :

إذا أنت قد أعطيت بطنك سؤله . . .

وفرجك نالا منتهى الذم أجمعا

﴿ وَلَمْ يَقْتُرُواْ ﴾ قرأ حمزة والكسائيّ والأعمش وعاصم ويحيى بن وثاب على اختلاف

عنهما ﴿ يَقْتُرُوا ﴾ بفتح الياء وضم التاء ، وهي قراءة حسنة ؛ من قتر يقترو .

وهذا القياس في اللازم ، مثل قعد يقعد .

وقرأ أبو عمرو بن العلاء وابن كثير بفتح الياء وكسر التاء ، وهي لغة معروفة حسنة .

وقرأ أهل المدينة وابن عامر وأبو بكر عن عاصم بضم الياء وكسر التاء .

قال الثعلبي : كلها لغات صحيحة .

(89/563)

النحاس : وتعجب أبو حاتم من قراءة أهل المدينة هذه ؛ لأن أهل المدينة عنده لا يقع في قراءتهم الشاذ ، وإنما يقال : أقتر يقتر إذا افتقر ، كما قال عز وجل : ﴿ وَعَلَى المقتر قَدْرُهُ ﴾ [البقرة : 236] وتأوّل أبو حاتم لهم أن المسرف يفتقر سريعاً .

وهذا تأويل بعيد ، ولكن التأويل لهم أن أبا عمر الجَرْميّ حكى عن الأصمعيّ أنه يقال للإنسان إذا ضيّق : قتر يقتر ويقتر ، وأقتر يُقتِر .

فعلى هذا تصح القراءة ، وإن كان فتح الياء أصح وأقرب تناولا ، وأشهر وأعرف .

وقرأ أبو عمرو والناس ﴿ قَوَاماً ﴾ بفتح القاف ؛ يعني عدلاً .

وقرأ حسّان بن عبد الرحمن : ﴿ قِوَاماً ﴾ بكسر القاف ؛ أي مبلغاً وسداداً ومِلاك

حال .

والقِوام بكسر القاف : ما يدوم عليه الأمر ويستقر .

وهما لغتان بمعنًى .

و﴿ قَوَاماً ﴾ خبر كان ، واسمها مقدر فيها ؛ أي كان الإنفاق بين الإسراف والقتر قواماً ؛

قاله الفراء .

وله قول آخر يجعل ﴿ بَيْن ﴾ اسم كان وينصبها ؛ لأن هذه الألفاظ كثير استعمالها

فتركت على حالها في موضع الرفع .

قال النحاس : ما أدري ما وجه هذا ؛ لأن "بينا" إذا كانت في موضع رفع رفعت ؛ كما يقال

: يَنُ عينيه أحمرُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 13 صـ ﴾

(90/563)

وقال أبو حيان :

ولما تقدم ذكر الكفار وذمهم جاء ﴿ لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً ﴾

ذكر أحوال المؤمنين المتذكرين الشاكرين فقال : ﴿ وعباد الرحمن ﴾ وهذه إضافة

تشريف وتفضل ، وهو جمع عبد .

وقال ابن بحر : جمع عابد كصاحب وصحاب ، وتاجر وتجار ، وراجل ورجال ، أي الذين يعبدونه حق عبادته .

والظاهر أن ﴿ وعباد ﴾ مبتدأ و ﴿ الذين يمشون ﴾ الخبر .

وقيل : أولئك الخبر و ﴿ الذين ﴾ صفة ، وقوم من عبد القيس يسمون العباد لأن كسرى ملكهم دون العرب .

وقيل : لأنهم تألهوا مع نصارى الحيرة فصاروا عباد الله .

وقرأ اليماني : وعباد جمع عابد كضارب وضراب .

وقرأ الحسن : وعُبَدُ بضم العين والباء .

وقرأ السلمي واليماني ﴿ يُمشّون ﴾ مبنياً للمفعول مشدداً .

والهون : الرفق واللين .

وانتصب ﴿ هوناً ﴾ على أنه نعت لمصدر محذوف أي مشياً هوناً أو على الحال ، أي يشمون هينين في تؤدة وسكينة وحسن سمت لا يضربون بأقدامهم ولا يخفقون بنعالهم أشراً وبطراً ، ولذلك كره بعض العلماء الركوب في الأسواق .

وقال مجاهد : بالحلم والوقار .

وقال ابن عباس : بالطاعة والعفاف والتواضع .

وقال الحسن : حلماء إن جهل عليهم لم يجهلوا .

وقال ابن عطية ﴿ هوناً ﴾ عبارة عن عيشهم ومدة حياتهم وتصرفاتهم ، فذكر من ذلك المعظم لا سيما وفي الانتقال في الأرض هي معاشرة الناس وخلطتهم ثم قال ﴿ هوناً ﴾ بمعنى أمره هون أي ليس بخشن ، وذهبت فرقة إلى أن ﴿ هوناً ﴾ مرتبط بقوله ﴿ يمشون على الأرض ﴾ أي إن المشي هو الهون ، ويشبه أن يتأول هذا على أن يكون أخلاق ذلك الماشي ﴿ هوناً ﴾ مناسبة لمشيه فيرجع القول إلى نحو ما بينّا ، وأما أن يكون المراد صفة المشي وحده فباطل ، لأن رب ماش ﴿ هوناً ﴾ رويداً وهو ذنب أطلس .

وقد كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يتكفأ في مشيه كأنما يمشي في صبب .

(91/563)

وهو عليه السلام الصدر في هذه الآية وقوله عليه السلام : " من مشى منكم في طمع فليمش رويداً " أراد في عمر نفسه ولم يرد المشي وحده ألا ترى أن المبطلين المتحلين بالدين تمسكوا بصورة المشي فقط حتى قال فيهم الشاعر :

كلهم يمشي رويدا . . .

كلهم يطلب صيدا

وقال الزهري : سرعة المشي تذهب ببهاء الوجه ، يريد الإسراع الخفيف لأنه يخل بالوقار

والخير في التوسط .

وقال زيد بن أسلم : أنه رأى في النوم من فسر له ﴿ الذين يمشون على الأرض هوناً ﴾ بأنهم الذين لا يريدون أن يفسدوا في الأرض .

وقال عياض بن موسى : كان عليه السلام يرفع في مشيه رجليه بسرعة وعَدْوِ خطوة خلاف مشية المختال ، ويقصد سمته وكل ذلك برفق وتثبت دون عجلة كما قال : " إنما ينحط من صبب " وكان عمر يسرع جبلة لا تكلفاً .

﴿ وإذا خاطبهم الجاهلون ﴾ أي مما لا يسوغ الخطاب به ﴿ قالوا سلاماً ﴾ أي سلام توديع لا تحية كقول إبراهيم عليه السلام لأبيه ﴿ سلام عليك ﴾ قاله الأصم .

وقال مجاهد : قولاً سديداً فهو منصوب بقالوا .

وقيل : هو على إضمار فعل تقديره سلمنا ﴿ سلاماً ﴾ فهو جزء من متعلق الجملة المحكية .

قال ابن عطية : والذي أقوله أن ﴿ قالوا ﴾ هو العامل في ﴿ سلاماً ﴾ لأن المعنى قالوا هذا اللفظ .

وقال الزمخشري : تسلماً منكم فأقيم السلام مقام التسليم .

وقيل : قالوا سداداً من القول يسلمون فيه من الأذى والإثم والمراد بالجهل السفه وقلة الأدب وسوء الرغبة من قوله :

ألا لا يجهلن أحد علينا . . .

فنجهل فوق جهل الجاهلينا

انتهى .

وقال الكلبي : وأبو العالية نسختها آية القتال .

وقال ابن عطية : وهذه الآية كانت قبل آية السيف فنسخ منها ما يخص الكفرة وبقي حكمها في المسلمين إلى يوم القيامة ، وذكره سيبويه في هذه الآية في كتابه وما تكلم على نسخ سواه .

ورجح به أنه المراد السلامة لا التسليم لأن المؤمنين لم يؤمروا قط بالسلام على الكفرة ، والآية مكية فنسختها آية السيف .

(92/563)

وفي التاريخ ما معناه أن إبراهيم بن المهدي كان منحرفاً عن عليّ بن أبي طالب فرآه في النوم قد تقدمه إلى عبور قنطرة ، فقال له : إنما تَدَّعي هذا الأمر بامرأة ونحن أحق به منك ، وكان حكى ذلك للمأمون قال : فما رأيت له بلاغة في الجواب كما يذكر عنه فقال له المأمون : فما أجابك به ؟ قال : كان يقول لي سلاماً سلاماً ، فنبهه المأمون على هذه الآية وقال : يا

عم قد أجابك بأبلغ جواب .

فخزي إبراهيم واستحيا ، وكان إبراهيم لم يحفظ الآية أو ذهب عنه حالة الحكاية .

والبيتوتة هو أن يدرك الليل نمت أو لم تنم ، وهو خلاف الظلول وبجيلة وأزد السراة يقولون : بيات وسائر العرب يقولون : يبيت ، ولما ذكر حالهم بالنهار بأنهم يتصرفون أحسن تصرف ذكر حالهم بالليل والظاهر أنه يعنى إحياء الليل بالصلاة أو أكثره .

وقيل : من قرأ شيئاً من القرآن بالليل في صلاة فقد بات ساجداً وقائماً .

وقيل : هما الركعتان بعد المغرب ، والركعتان بعد العشاء .

وقيل : من شفع وأوتر بعد أن صلى العشاء فقد دخل في هذه الآية .

وفي هذه الآية حض على قيام الليل في الصلاة .

وقدم السجود وإن كان متأخراً في الفعل لأجل الفواصل ، ولفضل السجود فإنها حالة أقرب ما يكون العبد فيها من الله .

وقرأ أبو البرهثيم : سجوداً على وزن قعوداً .

ومدحهم تعالى بدعائه أن يصرف عنهم عذاب جهنم وفيه تحقيق إيمانهم بالبعث والجزاء .

قال ابن عباس : ﴿ غراماً ﴾ فظيعاً وجيعاً .

وقال الخدري : لازماً ملحّاً دائماً .

قال الحسن : كل غريم يفارق غريمه إلاّ غريم جهنّم .

وقال السدّي : شديداً .

وأنشدوا على أن ﴿ غراماً ﴾ لازماً قوله الشاعر وهو بشر بن أبي حاتم :

ويوم اليسار ويوم الجفار . . .

كانا عذاباً وكانا غراماً

وقال الأعشى :

إن يعاقب يكن غراماً . . .

وإن يعط جزيلاً فإنه لا يبالي

وصفهم بإحياء الليل ساجدين ثم عقبه بذكر دعائهم هذا إيذاناً بأنهم مع اجتهادهم خائفون يبتهلون إلى الله في صرف العذاب عنهم .

(93/563)

و ﴿ ساءت ﴾ احتمل أن يكون بمعنى بئست .

والمخصوص بالذم محذوف وفي ﴿ ساءت ﴾ ضمير مبهم ويتعين أن يكون ﴿ مستقراً ومقاماً ﴾ تمييز .

والتقدير ﴿ ساءت مستقراً ومقاماً ﴾ هي وهذا المخصوص بالذم هو رابط الجملة

الواقعة خبراً لأن .

ويجوز أن يكون ﴿ ساءت ﴾ بمعن أحزنت فيكون المفعول محذوفاً أي ساءتهم .

والفاعل ضمير جهنم وجاز في ﴿ مستقراً ومقاماً ﴾ أن يكونا تمييزين وأن يكونا حالين قد عطف أحدهما على الآخر .

والظاهر أن التعليلين غير مترادفين ذكر أولاً لزوم عذابها ، وثانياً مساءة مكانها وهما متغايران وإن كان يلزم من لزوم العذاب في مكان دم ذلك المكان .

وقيل : هما مترادفان ، والظاهر أنه من كلام الداعين وحكاية لقولهم .

وقيل : هو من كلام الله ، ويظهر أن قوله ﴿ ومقاماً ﴾ معطوف على سبيل التوكيد لأن الاستقرار والإقامة كأنهما مترادفان .

وقيل : المستقر للعصاة من أهل الإيمان فإنهم يستقرون فيها ولا يقيمون ، والإقامة للكفار .

وقرأت فرقة ﴿ ومَقاماً ﴾ بفتح الميم أي مكان قيام ، والجمهور بالضم أي مكان إقامة .

﴿ لم يسرفوا ﴾ ولم يقتروا .

قال أبو عبد الرحمن الجيلي : الإنفاق في غير طاعة إسراف ، والإمساك عن طاعة إقتار .

وقال معناه ابن عباس ومجاهد وابن زيد .

وسمع رجل رجلاً يقول : لا خير في الإسراف فقال : لا إسراف في الخير .

وقال عون بن عبد الله بن عتبة : الإسراف أن تنفق مال غيرك .

وقال النخعي : هو الذي لا يجيع ولا يُعَرِّي ولا ينفق نفقة يقول : الناس قد أسرف .

وقال يزيد بن أبي حبيب : هم الذين لا يلبسون الثياب للجمال ولا يأكلون طعاماً للّذة وقال عبد الملك بن مروان لعمر بن عبد العزيز حين زوجه ابنته فاطمة : ما نفقتك ؟ قال له عمر : الحسنة بين السيئتين .

ثم تلا الآية .

والإسراف مجاوزة الحد في النفقة والقتر التضييق الذي هو نقيض الإسراف .

(94/563)

وعن أنس في سنن ابن ماجة قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " إن من السرف أن تأكل ما اشتهيته " وقال الشاعر :

ولا تغل في شيء من الأمر واقتصد . . .

كلا طرفي قصد الأمور ذميم

وقال آخر

إذا المرء أعطى نفسه كلما اشتهت . . .

ولم ينهها تاقت إلى كل باطل

وساقت إليه الإثم والعار بالذي . . .

دعته إليه من حلاوة عاجل

وقال حاتم

إذا أنت قد أعطيت بطنك سؤله . . .

وفرج نالا منتهى الذم أجمعا

وقرأ الحسن وطلحة والأعمش وحمزة والكسائي وعاصم : يقترون بفتح الياء وضم التاء ومجاهد وابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء وكسر التاء ونافع ، وابن عامر بضم الياء وكسر التاء مشددة وكلها لغات في التضييق .

وأنكر أبو حاتم لغة أقتر رباعياً هنا .

وقال أقتر إذا افتقر .

ومنه ﴿ وعلى المقتر قدره ﴾ وغاب عنه ما حكاه الأصمعي وغيره : من اقتر بمعنى ضيق ، والقوام الاعتدال بين الحالتين .

وقرأ حسان بن عبد الرحمن ﴿ قواماً ﴾ بالكسر .

فقيل : هما لغتان بمعنى واحد .

وقيل : بالكسر ما يقام به الشيء يقال : أنت قوامنا بمعنى ما تقام به الحاجة لا يفضل عنها ولا ينقص .

وقيل : ﴿ قواماً ﴾ بالكسر مبلغاً وسداداً وملاك حال ، و﴿ وبين ذلك ﴾ و﴿ قواماً ﴾ يصح أن يكونا خبرين عند من يجيز تعداد خبر ﴿ كان ﴾ وأن يكون ﴿ بين ﴾ هو الخبر و﴿ قواماً ﴾ حال مؤكدة ، وأن يكون ﴿ قواماً ﴾ خبراً و﴿ بين ذلك ﴾ إما معمول لكان على مذهب من يرى أن كان الناقصة تعمل في الظرف ، وأن يكون حالاً من ﴿ قواماً ﴾ لأنه لو تأخر لكان صفة ، وأجاز الفراء أن يكون ﴿ بين ذلك ﴾ اسم ﴿ كان ﴾ وبُني لإضافته إلى مبني كقوله ﴿ ومن خزي يومئذ ﴾ في قراءة من فتح الميم و﴿ قواماً ﴾ الخبر .

قال الزمخشري : وهو من جهة الإعراب لا بأس به ، ولكن المعنى ليس بقوي لأن ما بين الإسراف والتقتير قوام لا محالة فليس في الخبر الذي هو معتمد الفائدة فائدة انتهى .

وصفهم تعالى بالقصد الذي هو بين الغلو والتقصير ، وبمثله خوطب الرسول (صلى الله عليه وسلم) بقوله ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة ﴾ الآية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(95/563)

وقال الثعالبى :

وقوله : ﴿ الذين يَمْشُونَ ﴾ .

خبر مبتدإ ، والمعنى : وعباده حَقٌّ عباده هم الذين يمشون .

وقوله : ﴿ يَمْشُونَ عَلَى الأرض ﴾ عبارة عن عيشهم ومُدَّةِ حياتهم وتَصَرُّفَاتِهم ، و ﴿ هَوناً ﴾ بمعنى أَنَّ أمرهم كله هَيِّنٌ ، أي : لَيِّنٌ حسن ؛ قال مجاهد : بالحلم والوقار .

وقال ابن عباس بالطاعة والعَفَاف والتواضع ، وقال الحسن : حُلَمَاءُ ، إنْ جُهِلَ عليهم لم يجهلوا .

قال الثعلبيُّ : قال الحسن : يمشون حلماء علماء مثلَ الأنبياء ، لا يؤذون الذَّرَّ في سكونٍ وتواضع وخشوع ، وهو ضدُّ المُخْتَالُ الفخور الذي يختال في مشيه ، اه .

قال عياض في صفة نَبِيِّنا محمد صلى الله عليه وسلم : يخطو تكفُّؤاً ، ويمشي هوناً ، كأَنَّما ينحطُّ من صبب ، انتهى من «الشفا» .

قال أبو حيان : ﴿ هَوناً ﴾ : نعت لمصدر محذوف ، أي : مشياً هوناً ، أول حال ، أي : هَيِّنِينَ ، انتهى ، وروى الترمذيُّ عن ابن مسعود أَنَّ النبي صلى الله عليه وسلم قال : " أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِمَنْ يَحْرُمُ عَلَى النَّارِ أَوْ بِمَنْ تَحْرُمُ عَلَيْهِ النَّارُ ؟ على كُلِّ قَرِيبٍ ، هَيِّنٍ ، سَهْلٍ " ، قال أَبو عيسى : هذا حديث حسن ، انتهى .

﴿ وَإِذا خَاطَبَهُمُ الجاهلون قَالُوا سلاما ﴾ العامل في ﴿ سلاماً ﴾ ﴿ قالوا ﴾ ،

والمعنى : قالوا هذا اللفظ ، وقال مجاهد : معنى ﴿ سلاماً ﴾ : قولاً سداداً ، أي : يقول للجاهل كلاماً يدفعه به برفقٍ ولينٍ ، وهذه الآية كانت قبل آية السيف فَنُسِخَ منها ما يَخُصُّ الكَفَرَةَ ، وَبَقِيَ أَدبها في المسلمين إلى يوم القيامة ، قال صاحب «الحكم الفارقية» : إذا نازعك إنسان فلا تجبه ؛ فإنَّ الكلمة الأولى أُنْثَى واجباتُها فحلها ، فإنْ أمسكت عنها بترتها وقطعت نسلها ، وإنْ أجبتها ألقحتها ، فكم من نسل مذمومٍ يتولد بينهما في ساعة واحدة ، انتهى .

(96/563)

﴿ والذين يبيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وقياما ﴾ هذه آية فيها تحريض على قيام الليل بالصلاة ، قال الحسن : لما فرغ من وصف نهارهم ، وَصَفَ في هذه ليلهم ، و ﴿ غَرَاماً ﴾ : معناه : ملازماً ثقيلاً ، و ﴿ مُقَاماً ﴾ : من الإقامة ، وعن أنس بن مالك قال : قال رسولَ اللّهِ صلى الله عليه وسلم ، " مَنْ سَأَلَ اللَّهَ الجنة ثَلاَثَ مَرَّاتٍ ، قَالتِ الجَنَّةُ : اللَّهُمَّ ، أَدْخِلْهُ الجَنَّةَ ، وَمَن استجار مِنَ النَّارِ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ ، قَالتِ النَّارُ : اللَّهُمْ أَجِرْهُ مِنَ النَّار " رواه أبو داود ، والنسائي وابن ماجه ، وابن حِبَّانَ في «صحيحه» بلفظ واحد ، ورواه الحاكم في «المستدرك» ، وقال : صحيح الإسناد ، انتهى من «السلاح» .

وقوله سبحانه : ﴿ والذين إِذَا أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ . . . ﴾ الآية : عبارة أكثر المفسرين أَنَّ الذي لا يُسْرِفُ هو المُنْفِقُ في الطاعة وإنْ أفرط ، والمُسْرِفَ هو المُنْفِقُ في المعصية وإنْ قَلَّ إنفاقهُ ، وإنَّ الْمُقتِرَ هو الذي يمنع حَقّاً عليه ؛ وهذا قول ابن عباس وغيره ، والوجه أَنْ يقال : إنَّ النفقة في المعصية أمر قد حَظَرَتِ الشريعةُ قليلَه وكثيره ، وهؤلاءِ الموصوفون مُنَزَّهُونَ عن ذلك ، وإنَّما التأديب بهذه الآية هو في نفقة الطاعات والمُبَاحَاتِ ، فأدب الشريعة فيها إلاَّ يفرط الإنسانِ حتى يُضَيِّعَ حَقّاً آخر أو عيالاً ونحوَ هذا ، أَلاَّ يُضَيِّقَ أَيضاً ويقتر حتى يجيع العيالَ ويفرط في الشُّحِّ ، والحَسَنُ في ذلك هو القوام ، أي : المعتدل ، والقوام في كل واحد بحسب عياله وحاله ، وخير الأمور أوساطها ؛ ولهذا ترك النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم أبا بكْرٍ الصِّدِّيقَ يَتَصَدَّقُ بِجَمِيعِ مَالِهِ ؛ لأَنَّ ذلك وَسَطٌ بنسبة جَلَدِهِ وَصَبْرِهِ في الدِّينِ ، ومنع غيره من ذلك .

وقال عبد الملك بن مروان لعمرَ بن عبد العزيز حين زَوَّجَه ابنته فاطمة : مَا نَفَقَتُكَ ؟ فقال له عمر : الحَسَنَةُ بَيْنَ السَّيِّئَتَيْنِ ، ثم تلا الآية ، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه كفى بالمرء

سَرَفاً أَلاَّ يشتهيَ شيئاً إلاَّ اشتراه فأَكَلَهُ . و ﴿ قَوَاماً ﴾ : خبر ﴿ كَانَ ﴾ واسمها مُقَدَّرٌ ، أي : الإنفاق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الجواهر الحسان حـ 3 صـ ﴾

(98/563)

وقال أبو السعود :

﴿ وَعِبَادُ الرحمن ﴾

كلامٌ مستأنف مسوقٌ لبيانِ أوصافِ خلَّصِ عبادِ الرَّحمنِ وأحوالِهم الدَّنيويةِ والأُخرويَّةِ بعد بيان حال النَّافرين عن عبادتِه والسُّجودِ له . والإضافةُ للتَّشريفِ وهو مبتدأٌ خبرُه ما بعدَهُ من الموصولِ وما عُطف عليه ، وقيلَ : هو ما في آخرِ السُّورةِ الكريمةِ من الجُملةِ المصدَّرةِ باسمِ الإشارةِ . وقُرِىء عبادُ الرَّحمنِ أي عبادُه المقبُولونَ ﴿ الذين يَمْشُونَ على الأرض هَوْناً ﴾ أي بسكينةٍ وتواضعٍ . وهَوْناً مصدرٌ وُصف به . ونصبُه إمَّا على أنَّه حال من فاعلِ يمشُون أو على أنَّه نعتٌ لمصدرِه أي يمشُون هيِّنين ليِّني الجانبِ من غيرِ فظاظةٍ أو مشياً هيِّنا . وقولُه تعالى : ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجاهلون ﴾ أي السُّفهاءُ كما في قولِ من قال

أَلاَ لاَ يَجْهَلَنْ أَحَدٌ عَلَينا . . . فَنَجْهَل فوقَ جهلِ الجَاهِلِيْنا

﴿ قَالُواْ سَلاَماً ﴾ بيانٌ لحالِهم في المُعاملة مع غيرِهم إثرَ بيانِ حالِهم في أنفسِهم أي إذا

خاطبُوهم بالسُّوءِ قالوا تسليماً منكمُ ومتاركةً لا خيرَ بيننا وبينَكمُ ولا شرَّ . وقيل : سَداداً من القولِ يسلمُون به من الأذيَّةِ والإثمِ ، وليسَ فيه تعرُّضٌ لمعاملتِهم مع الكَفَرةِ حتَّى يُقالَ نسختها آيةُ القتالِ كما نُقل عن أبي العاليةِ .

وقولُه تعالى ﴿ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وقياما ﴾ بيانٌ لحالِهم في معاملتِهم مع ربِّهم أي يكونون ساجدين لربِّهم وقائمين أي يُحيون اللَّيل كُلاًّ أو بعضاً بالصَّلاةِ . وقيل : من قرأ شيئاً من القُرآنِ في صلاةٍ وإنْ قلَّ فقد باتَ ساجداً وقائماً . وقيل هُما الرَّكعتانِ بعد المغربِ والرَّكعتانِ بعد العشاءِ . وتقديمُ السُّجودِ على القيامِ لرعايةِ الفواصلِ .

(99/563)

﴿ والذين يَقُولُونَ ﴾ أي في أعقابِ صلواتِهم أو في عامَّةِ أوقاتِهم ﴿ رَبَّنَا اصرف عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً ﴾ أي شراً دائماً وهلاكاً لازماً وفيه مزيدُ مدحٍ لهم ببيانِ أنَّهم مع حُسنِ معاملتِهم مع الخلقِ واجتهادِهم في عبادةِ الحقِّ يخافُون العذابَ ويبتهلون إلى الله تعالى في صرفِه عنهم غيرَ محتفلين بأعمالِهم كقوله تعالى : ﴿ والذين يُؤْتُونَ مَا ءاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ راجعون ﴾

﴿ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً ﴾

تعليلٌ لاستدعائِهم المذكورِ بسوءِ حالِها في نفسها إثرَ تعليلِهِ بسوء حالِ عذابِها ، وقد جُوِّز أن يكون تعليلاً للأُولى وليس بذاك . وساءتْ في حكم بئستُ وفيها ضميرٌ مبهمٌ يفسّره مستقرّاً . والمخصوصُ بالذمّ محذوفٌ معناه ساءتْ مستقرّاً ومقاماً هَي وهذا الضَّميرُ هو الذي ربطَ الجملة باسمِ إنَّ وجعلَها خبراً لها . قيلَ : ويجوزُ أنْ يكونَ ساءتْ بمعنى أحزنتْ وفيها ضميرُ اسم إنَّ . ومستقرّاً حالٌ أو تمييزٌ وهو بعيدٌ خالٍ عَما في الأولِ من المبالغةِ في بيانِ سوءِ حالِها وكذا جعل التعليلينِ من جهتِه تعالى .

(100/563)

﴿ والذين إِذَا أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ ﴾ لم يجاوزُوا حدَّ الكرمِ ﴿ وَلَمْ يَقْتُرُواْ ﴾ ولم يضيّقُوا تضييقَ الشَّحيحِ وقيل : الإسرافُ هو الانفاقُ في المعاصِي والقترُ منعُ الواجباتِ والقُربِ . وقُرِىء بكسرِ التَّاءِ مع فتحِ الياءِ وبكسرِها مخفَّفةً ومشدَّدةً مع ضمّ الياءِ ﴿ وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ ﴾ أي بين ما ذُكر من الإسرافِ والقَترِ ﴿ قَوَاماً ﴾ وسطاً وعدلاً سُمّي به لاستقامةِ الطَّرفينِ كما سُمّيَ به سواءً لاستوائِهما وقُرِىء بالكسرِ وهو ما يُقام به الحاجةُ لا يفضلُ عنها ولا ينقصُ وهو خبرٌ ثانٍ أو حالٌ مؤكّدة أو هو الخبرُ وبين ذلك لغوٌ وقد جُوِّز أنْ يكونَ اسمَ

كانَ على أنَّه مبنيٌّ لأضافتِه إلى غيرِ متمكّنٍ ولا يَخْفى ضعفُه فإنَّه بمعنى القوام فيكون كالإخبارِ بشيءٍ عن نفسِه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 6 صـ ﴾

(101/563)

وقال الآلوسى :

﴿ وَعِبَادُ الرحمن ﴾

كلام مستأنف لبيان أوصاف خاص عباد الله تعالى وأحوالهم الدنيوية والأخروية بعد بيان حال النافرين عن عبادته سبحانه والسجود له عز وجل وإضافتهم إلى الرحمن دوي غيره من أسمائه تعالى وضمائره عز وجل لتخصيصهم برحمته أو لتفضيلهم على من عداهم لكونهم مرحومين منعماً عليهم كما يفهم من فحوى الإضافة إلى مشتق .

وفي ذلك أيضاً تعريض بمن قالوا : ﴿ وما الرحمن ﴾ [الفرقان : 60] والأكثرون أن عباداً هنا جمع عبد ، وقال ابن بحر : جمع عابد كصاحب وصحاب وراجل ورجال ويوافقه قراءة اليماني ﴿ عِبَادِ ﴾ بضم العين وتشديد الباء فإنه جمع عابد بالإجماع وهو على هذا من العبادة وهي أن يفعل ما يرضاه الرب وعلى الأول من العبودية وهي أن يرضى ما يفعله الرب ، وقال الراغب : العبودية إظهار التذلل والعبادة أبلغ منها لأنها غاية التذلل .

وفرق بعضهم بينهما بأن العبادة فعل المأمورات وترك المنهيات رجاء الثواب والنجاة من العقاب بذلك والعبودية فعل المأمورات وترك المنهيات لا لما ذكر بل لمجرد إحسان الله تعالى عليه .

قيل : وفوق ذلك العبودة وهو فعل وترك ما ذكر لمجرد أمره سبحانه ونهيه عز وجل واستحقاقه سبحانه الذاتي لأن يعظم ويطاع ، وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ ﴾ [الكوثر : 2] وقرأ الحسن ﴿ وَعَبَدَ ﴾ بضم العين والباء .

وهو كما قال الأخفش جمع عبد كسقف وسقف .

وأنشد :

أنسب العبد إلى آبائه . . .

اسود الجلدة من قوم عبد

وهو على كل حال مبتدأ وفي خبره قولان .

الأول أنه ما في آخر السورة الكريمة من الجملة المصدرة باسم الإشارة ، والثاني وهو الأقرب أنه قوله تعالى : ﴿ الذين يَمْشُونَ على الأرض هَوْناً ﴾ والهون مصدر بمعنى اللين والرفق .

(102/563)

ونصبه إما على أنه نعت لمصدر محذوف أي مشيا هونا أو على أنه حال من ضمير ﴿ يَمْشُونَ ﴾ والمراد يمشون هينين في تؤدة وسكينة ووقار وحسن سمت لا يضربون بأقدامهم ولا يخفقون بنعالهم أشراً وبطراً ، وروي نحو هذا عن ابن عباس .

ومجاهد .

وعكرمة .

والفصيل بن عياض .

وغيرهم ، وعن الإمام أبي عبد الله رضي الله تعالى عنه أن الهون مشى الرجل بسجيته التي جبل عليها لا يتكلف ولا يتبختر .

شوأخرج الآمدي في "شرح ديوان الأعشى" بسنده عن عمر رضي الله تعالى عنه أنه رأى غلاماً يتبختر في مشيته فقال له : إن البخترة مشية تكره إلا في سبيل الله تعالى .

وقد مدح الله تعالى أقواماً بقوله سبحانه : ﴿ وَعِبَادُ الرحمن الذين يَمْشُونَ على الأرض هَوْناً ﴾ فاقصد في مشيتك .

وقيل : المشي الهون مقابل السريع وهو مذموم .

فقد أخرج أبو نعيم في الحلية عن أبي هريرة .

وابن النجار عن ابن عباس قالا : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

" سرعة المشي تذهب بهاء المؤمن "

وأخرج ابن أبي حاتم عن ميمون بن مهران إن ﴿ هَوْناً ﴾ بمعنى حلماء بالسريانية فيكون حالاً لا غير .

والظاهر أنه عربي بمعنى اللين والرفق .

وفسره الراغب بتذلل الإنسان في نفسه لما لا يلحق به غضاضة وهو الممدوح .

ومنه الحديث " المؤمن هين لين " والظاهر بقاء المشي على حقيقته وأن المراد مدحهم بالسكينة والوقار فيه من غير تعميم .

نعم يلزم من كونهم يمشون كذلك أنهم هينون لينون في سائر أمورهم بحكم العادة على ما قيل .

واختار ابن عطية أن المراد مدحهم بعدم الخشونة والفظاظة في سائر أمورهم وتصرفاتهم .

والمراد أنهم يعيشون بين الناس هينين في كل أمورهم .

وذكر المشي لما أنه انتقال في الأرض وهو يستدعي معاشرة الناس ومخالطتهم واللين مطلوب فيها غاية الطلب .

ثم قال : وأما أن يكون المراد مدحهم بالمشي وحده هوناً فباطل فكم ماش هوناً رويداً وهو ذنب أطلس .

وقد كان صلى الله عليه وسلم يتكفا في مشيه كإنما يمشي في صبب وهو عليه الصلاة والسلام الصدر في هذه الآية .

وفيه بحث من وجهين فلا تغفل .

وقرأ اليماني .

والسلمي ﴿ يَمْشُونَ ﴾ مبنياً للمفعول مشدداً ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجاهلون ﴾ أي السفهاء وقليلو الأدب كما في قوله :

ألا لا يجهلن أحد علينا . . .

فنجهل فوق جهل الجاهلينا

﴿ قَالُواْ سَلاَماً ﴾ بيان لحالهم في المعاملة مع غيرهم إثر بيان حالهم في أنفسهم أو بيان لحسن معاملتهم .

وتحقيق للينهم عند تحقق ما يقتضي خلاف ذلك إذا خلى الإنسان وطبعه أي إذا خاطبوهم بالسوء قالوا تسلماً منكم ومتاركة لا خير بيننا وبينكم ولا شر .

فسلاماً مصدر أقيم مقام التسليم وهو مصدر مؤكد لفعله المضمر .

والتقدير نتسلم تسلماً منكم .

والجملة مقول القول .

وإلى هذا ذهب سيبويه في الكتاب ومنع أن يراد السلام المعروف بأن الآية مكية والسلام في النساء وهي مدنية ولم يؤمر المسلمون بمكة أن يسلموا على المشركين .

وقال الأصم : هو سلام توديع لا تحية كقول إبراهيم عليه السلام لأبيه ﴿ سلام عَلَيْكَ ﴾ [مريم : 47] ولا يخفى أنه راجع إلى المتاركة وهو كثير في كلام العرب .

وقال مجاهد : المراد قالوا قولاً سديداً .

وتعقب بأن هذا تفسير غير سديد لأن المراد ههنا يقولون هذه اللفظة لا أنه يقولون قولاً ذا سداد بدليل قوله تعالى : ﴿ سلام عَلَيْكُمُ لا نبتغي الجاهلين ﴾ [القصص : 55] .

ورده صاحب الكشف بأن تلك الآية لا تخالف هذا التفسير فإن قولهم .

سلام عليكم من سداد القول أيضاً كيف والظاهر أن خصوص اللفظ غير مقصود بل هو أو ما يؤدي مؤداه أيضاً من كل قول يدل على المتاركة مع الخلو عن الإثم واللغو وهو حسن لا غبار عليه .

(104/563)

وفي بعض التواريخ كما في البحر أن إبراهيم بن المهدي كان منحرفاً عن علي كرم الله تعالى وجهه فرآه في النوم قد تقدم إلى عبور قنطرة فقال له : إنما تدعى هذا الأمر بامرأة ونحن أحق

به منك فحكى ذلك على المأمون ثم قال : ما رأيت له بلاغة في الجواب كما يذكر عنه فقال له المأمون : فما أجابك به قال : كان يقول لي : سلاماً سلاماً فقال المأمون : يا عم قد أجابك بابلغ جواب ونبهه على هذه الآية فخزي إبراهيم واستحي عليه من الله تعالى ما يستحق ، والظاهر أن المراد مدحهم بالأغضاء عن السفهاء وترك مقابلتهم في الكلام ولا تعرض في الآية لمعاملتهم مع الكفرة فلا تنافي آية القتال ليدعي نسخها بها لأنها مكية وتلك مدنية .

ونقل عن أبي العالية واختاره ابن عطية أنها نسخت بالنظر إلى الكفرة بآية القتال .

﴿ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وقياما ﴾ بيان لحالهم في معاملتهم مع ربهم .

وكان الحسن إذا قرأ ما تقدم يقول : هذا وصف نهارهم وإذا قرأ هذه قال : هذا وصف ليلهم والبيتوتة أن يدركك الليل نمت أو لم تنم و﴿ رَبِّهِمْ ﴾ متعلق بما بعده .

وقدم للفاصلة والتخصيص .

والقيام جمع قائم أو مصدر أجرى مجراه أي يبيتون ساجدين وقائمين لربهم سبحانه أي يحيون الليل كلا أو بعضا بالصلاة ، وقيل : من قرأ شيئاً من القرآن بالليل في صلاة فقد بات ساجداً وقائماً ، وقيل : أريد بذلك فعل الركعتين بعد المغرب والركعتين بعد العشاء ، وقيل : من شفع وأوتر بعد أن صلى العشاء فقد دخل في عموم الآية .

وبالجملة في الآية حض على قيام الليل في الصلاة .

وقدم السجود على القيام ولم يعكس وإن كان متأخراً في الفعل لأجل الفواصل ولأنه أقرب ما يكون العبد فيه من ربه سبحانه وآباء المستكبرين عنه في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ ﴾ [الفرقان : 60] الآية .

وقرأ أبو البرهسم ﴿ سجوداً ﴾ على وزن قعوداً وهو أوفق بقياماً .

(105/563)

﴿ والذين يَقُولُونَ ﴾ في أعقاب صلواتهم أو غي عامة أوقاتهم ﴿ رَبَّنَا اصرف عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً ﴾ أي لازماً كما أخرجه الطستي عن ابن عباس وأنشد رضي الله تعالى عنه في ذلك قول بشر بن أبي حاتم :

ويوم النسار ويوم الجفار . . .

كانا عذاباً وكانا غراماً

ومثله قول الأعشى :

ان يعاقب يكن غراماً وان يع . . .

ط جزيلاً فإنه لا يبالي

وهذا اللزوم إما للكفار أو المراد به الامتداد كما في لزوم الغريم .

وفي رواية أخرى عنه تفسيره بالفظيم الشديد ذ .

وفسره بعضهم بالمهلك ، وفي حكاية قولهم هذا مزيد مدح لهم ببيان أنهم مع حسن معاملتهم مع الخلق واجتهادهم في عبادة الحق يخافون العذاب ويبتهلون إلى ربهم عز وجل في صرفه عنهم غير محتفلين بأعمالهم كقوله تعالى : ﴿ والذين يُؤْتُونَ مَا ءاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إلى ربِّهِمْ راجعون ﴾ [المؤمنون : 60] وفي ذلك تحقيق إيمانهم بالبعث والجزاء ، والظاهر أن قوله تعالى : ﴿ إِنَّ عَذَابَهَا ﴾ الخ من كلام الداعين وهو تعليل لاستدعائهم المذكور بسوء حال عذابها .

وكذا قوله تعالى :

﴿ إِنَّهَا سَاءتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً ﴾ وهو تعليل لذلك بسوء حالها في نفسها .

وترك العطف للإشارة إلى أن كلا منهما مستقل بالعلية ، وقيل : تعليل لما علل به أولا وضعفه ابن هشام في التذكرة بأنه لا مناسبة بين كون الشيء غراماً وكونه ساء مستقرا . وأجيب بأنه بملاحظة اللزوم والمقام فإن المقام من شأنه اللزوم ، وقيل : كلتا الجملتين من كلامه تعالى ابتداء علل بهما القول على نحو ما تقدم أو علل ذلك بأولاهما وعللت الأولى بالثانية ، وجوز كون احداهما مقولة والأخرى ابتدائية والكل كما ترى .

و ﴿ سَاءتْ ﴾ في حكم بئست والمخصوص بالذم محذوف تقديره هي وهو الرابط لهذه الجملة بما هي خبر عنه إن لم يكن ضمير القصة .

و﴿ مُّسْتَقِرٌّ ﴾ تمييز وفيها ضمير مبهم عائد على ﴿ مُسْتَقِرّاً ﴾ مفسر به وأنت لتؤويل المستقر بجنهم أو مطابقة للمخصوص .

ألا ترى إلى ذي الرمة كيف أنث الزورق على تأويل السفينة حيث كان المخصوص مؤنثاً في قوله :

أو حرة عيطل ثبجاء مجفرة . . .

دعائم الزور نعمت زورق البلد

قيل : ويجوز أن تكون ﴿ سَاءتْ ﴾ بمعنى أحزنت فهي فعل متصرف متعد وفاعله ضمير جهنم ومفهوله محذوف أي أحزونت أهلها وأصحابها و﴿ مُسْتَقِرّاً ﴾ تمييز أو حال وهو مصدر بمعنى الفاعل أو اسم مكان وليس بذاك .

والظاهر أن ﴿ مُسْتَقِرّاً ﴾ ومقاماً كقوله :

وألفى قولها كذبا ومينا . . .

وحسنه كون المقام يستدعي التطويل أو كونه فاصلة .

وقيل : المستقر للعصاة والمقام للكفرة وإن في الموضعين للاعتناء بشأن الخبر .

وقرأت فرقة ﴿ وَمُقَاماً ﴾ بفتح الميم أي مكان قيام .

﴿ والذين إِذَا أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ ﴾

أي لم يتجاوزوا حد الكرم ﴿ وَلَمْ يَقْتُرُواْ ﴾ أي ولم يضيقوا تضييق الشحيح ، وقال أبو عبد الرحمن الحبلى : الإسراف هو الإنفاق في المعاصي والقتر الإمسام عن طاعة ، وروي نحو ذلك عن ابن عباس .

ومجاهد .

وابن زيد ، وقال عون بن عبد الله بن عتبة : الإسراف أن تنفق مال غيرك .

وقرأ الحسن .

وطلحة .

والأعمش .

وحمزة .

والكسائي .

وعاصم ﴿ يَقْتُرُواْ ﴾ بفتح الياء وضم التاء .

ومجاهد .

وابن كثير .

وأبو عمرو بفتح الياء وكسر التاء .

ونافع .

وابن عامر بضم الياء وكسر التاء .

وقرأ العلاء ابن سبابة واليزيدي بضم الياء وفتح القاف وكسر التاء مشددة وكلها لغات في التضييق .

وأنكر أبو حاتم لغة أقتر رباعيا هنا وقال : إنما يقال أقتر إذا افتقر ومنه ﴿ وَعَلَى المقتر قَدْرُهُ ﴾ [البقرة : 236] وغاب عنه ما حكاه الأصمعي .

(107/563)

وغيره من أقتر بمعنى ضيق ﴿ وَكَانَ ﴾ انفاقهم ﴿ بَيْنَ ذلك ﴾ المذكور من الاسراف والقتر ﴿ قَوَاماً ﴾ وسطا روعدلاً سمى به لاستقامة الطرفين وتعادلهما كأن كلا منهما يقاوم الآخر كما سمي سواء لاستوائهما .

وقرأ حسان ﴿ قِوَاماً ﴾ بكسر القاف ، فقيل : هما لغتان بمعنى واحد وقيل : هو بالكسر ما يقام به الشيء ، والمراد به هنا ما يقام به الحاجة لا يفضل عنها ولا ينقص .

وهو خبر ثان لكان مؤكد للأول وهو ﴿ بَيْنَ ذلك ﴾ أو هو الخبر و﴿ بَيْنَ ذلك ﴾ إما معمول لكان على مذهب من يرى أن كان الناقصة تعمل في الظرف وإما حال من ﴿ قَوَاماً

﴿ لأنه لو تأخر لكان صفة ، وجوز أن يكون ظرفاً لغواً متعلقاً به أو ﴿ بَيْنَ ذلك ﴾ هو الخبر و﴿ قَوَاماً ﴾ حال مؤكدة ، وأجاز الفراء أن يكون "بين ذلك" اسم كان وبنى لاضافته إلى مبني كقوله تعالى : ﴿ وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ ﴾ [هود : 66] في قراءة من فتح الميم .

ومنه قول الشاعر :

لم يمنع الشرب منها غير أن نطقت . . .

حمامة في غصون ذات أوقال

وتعقبه الزمخشري بأنه من جهة الإعراب لا بأس له ولكن المعنى ليس بقوي لأن ما بين الإسراف والتقتير قوام لا محالة فليس في الخبر الذي هو معتمد الفائدة فائدة .

وحاصله أن الكلام عليه من باب كان الذاهب جاريته صاحبها وهو غير مفيد .

ولا يخفى أنه غير وارد على قراءة "قواماً" بالكسر على القول الثاني فيه وعلى غير ذلك متجه .

وما قيل من أنه من باب شعري شعري والمعنى كان قواماً معتبراً مقبولاً غير مقبول لأنه مع بعده إنما ورد فيما اتحد لفظه وما نحن فيه ليس كذلك .

وكذا ما قيل : إن "بين ذلك" أعم من القوام بمعنى العدل الذي يكون نسبة كل واحد من طرفيه إليه على السواء فإن ما بين الاقتار والإسراف لا يلزم أن يكون قواماً بهذا المعنى إذ يجوز أن يكون دون الإسراف بقليل وفق الاقتار بقليل فإنه تكلف أيضاً إذ ما بينهما شامل لحاق الوسط وما عداه الكوسط من غير فرق ومثله لا يستعمل في المخاطبات لا لغازه ، وقيل : لأنه بعد تسليم جواز الأخلار عن الأعم بالأخص يبعد أن يكون مدحهم بمراعاة حاق الوسط مع ما فيه من الحرج الذي نفي عن الإسلام .

وفيه أنه لا شك في جواز الأخبار عن الأعم بالأخص نحو الذي جاءني زيد والقائل لم يرد إلحاق الحقيقي بل التقريبي كما يدل عليه قوله بقليل ولا حرج في مثله فتأمل .

ولعل الأخبار عن إنفاقهم بما ذكر بعد قوله تعالى : ﴿ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا ﴾ المستلزم لكون إنفاقهم كذلك للتنصيص على أن فعلهم من خير الأمور فقد شاع خير الأمور أوساطه ، والظاهر أن المراد بالإنفاق ما يعم إنفاقهم على أنفسهم وإنفاقهم على غيرها والقوام في كل ذلك خير ، وقد أخرج أحمد .

والطبراني .

عن أبي الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم : " من فقه الرجل رفقه في معيشته "

وأخرج ابن ماجه في سننه عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " أن من

السرف أن تأكل كل ما اشتهيت " وحكى عن عبد الملك بن مروان أنه قال لعمر بن عبد العزيز عليه الرحمة حين زوجه ابنته فاطمة ما نفقتك فقال له عمر : الحسنة بين السيئتين ثم تلا الآية .

وقد مدح الشعراء التوسط في الأمور والاقتصاد في المعيشة قديماً وحديثاً ، ومن ذلك قوله :

ولا تغل في شيء من الأمر واقتصد . . .

كلا طرفي قصد الأمور ذميم

وقول حاتم :

إذا أنت قد أعطيت بطنك سؤله . . .

وفرجك نالا منتهى الذم أجمعا

وقول الآخر :

إذا المرء أعطى نفسه كل ما اشتهت . . .

ولم ينهها تاقت إلى كل باطل

وساقت إليه الأثم والعار بالذي . . .

دعته إليه من حلاوة عاجل

إلى غير ذلك . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 19 صـ ﴾

وقال الشوكاني في الآيات السابقة :

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا (55) ﴾

لما ذكر سبحانه دلائل التوحيد عاد إلى ذكر قبائح الكفار ، وفضائح سيرتهم ، فقال ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لاَ يَنفَعُهُمْ ﴾ إن عبدوه ﴿ وَلاَ يَضُرُّهُمْ ﴾ إن تركوه ﴿ وَكَانَ الكافر على رَبِّهِ ظَهِيراً ﴾ الظهير المظاهر أي : المعاون على ربه بالشرك والعداوة ، والمظاهرة على الربّ هي المظاهرة على رسوله ، أو على دينه .

قال الزجاج : لأنه يتابع الشيطان ، ويعاونه على معصية الله ، لأن عبادتهم للأصنام معاونة للشيطان .

وقال أبو عبيدة : المعنى : وكان الكافر على ربه هيناً ذليلاً ، من قول العرب ظهرت به أي : جعلته خلف ظهرك لم تلتفت إليه ، ومنه قوله : ﴿ واتخذتموه وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيّاً ﴾ [هود : 92] أي : هيناً ، ومنه أيضاً قول الفرزدق :

تميم بن بدر لا تكوننّ حاجتي . . . بظهر فلا يعيا عليّ جوابها

وقيل : إن المعنى : وكان الكافر على ربه الذي يعبده ، وهو الصنم قوياً غالباً يعمل به ما

يشاء ، لأن الجماد لا قدرة له على دفع ونفع ، ويجوز أن يكون الظهير جمعاً كقوله : ﴿ وَالْمَلاَئِكَةُ بَعْدَ ذلك ظَهِيرٌ ﴾ [التحريم : 4] ، والمعنى : أن بعض الكفرة مظاهر لبعض على رسول الله ، أو على دين ، والمراد بالكافر هنا الجنس ، ولا ينافيه كون سبب النزول هو كافر معين كما قيل : إنه أبو جهل .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ أي : مبشراً للمؤمنين بالجنة ، ومنذراً للكافرين بالنار .

(110/563)

﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ أي : قل لهم يا محمد : ما أسألكم على القرآن من أجر ، أو على تبليغ الرسالة المدلول عليه بالإرسال ، والاستثناء في قوله : ﴿ إِلاَّ مَن شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً ﴾ منقطع أي : لكن من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً فليفعل ، وقيل : هو متصل .

والمعنى : إلاّ من شاء أن يتقرّب إليه سبحانه بالطاعة ، وصور ذلك بصورة الأجر من حيث أنه مقصود الحصول .

ولما بين سبحانه أن الكفار متظاهرون على رسول الله ، وأمره أن لا يطلب منهم أجراً ألبتة

، أمره أن يتوكل عليه في دفع المضارّ ، وجلب المنافع ، فقال : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الحي الذي لاَ يَمُوتُ ﴾ وخصّ صفة الحياة إشارة إلى أن الحيّ هو الذي يوثق به في المصالح ، ولا حياة على الدوام إلاّ لله سبحانه دون الأحياء المنقطعة حياتهم ، فإنهم إذا ماتوا ضاع من يتوكل عليهم ، والتوكل : اعتماد العبد على الله في كلّ الأمور ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ ﴾ أي : نزّهه عن صفات النقصان ، وقيل : معنى ﴿ سبح ﴾ : صلّ ، والصلاة تسمى تسبيحاً ﴿ وكفى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً ﴾ أي : حسبك ، وهذه كلمة يراد بها المبالغة كقولك : كفى بالله رباً ، والخبير : المطلع على الأمور بحيث لا يخفى عليه منها شيء ، ثم زاد في المبالغة ، فقال : ﴿ الذى خَلَقَ السموات والارض وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ استوى عَلَى العرش ﴾ قد تقدّم تفسير هذا في الأعراف ، والموصول في محل جرّ على أنه صفة للحيّ ، وقال : ﴿ بينهما ﴾ ، ولم يقل : بينهنّ ؛ لأنه أراد النوعين ، كما قال القطامي :

ألم يحزنك أن جبال قيس . . . وتغلب قد تباتتا انقطاعاً

(111/563)

فإن قيل : يلزم أن يكون خلق العرش بعد خلق السماوات ، والأرض كما تفيده ثم ، فيقال : إن كلمة ثم لم تدخل على خلق العرش بل على رفعه على السموات ، والأرض ، والرحمن

مرفوع على أنه خبر مبتدأ محذوف ، وهو صفة أخرى للحيّ ، وقد قرأه الجمهور بالرفع ، وقيل : يجوز أن يكون بدلاً من الضمير في ﴿ استوى ﴾ ، أو يكون مبتدأ وخبره الجملة أي : فاسأل على رأي الأخفش ، كما في قول الشاعر :

وقائلة خولان فانكح فتاتهم . . . وقرأ زيد بن علي : " الرحمن " بالجرّ على أنه نعت للحيّ ، أو للموصول ﴿ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً ﴾ الضمير في به يعود إلى ما ذكر من خلق السماوات والأرض ، والاستواء على العرش .

والمعنى : فاسأل بتفاصيل ما ذكر إجمالاً من هذه الأمور .

وقال الزجاج والأخفش : الباء بمعنى عن أي : فاسأل عنه ، كقوله ﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴾ [المعارج : 1] وقول عنترة بن شداد :

هلا سألت الخيل يا ابنة مالك . . . إن كنت جاهلة بما لم تعلم

وقال علقمة بن عبده :

فإن تسألوني بالنساء فإنني . . . خبير بأدواء النساء طبيب

والمراد بالخبير : الله سبحانه ؛ لأنه لا يعلم تفاصيل تلك المخلوقات إلاّ هو ، ومن هذا قول العرب : لو لقيت فلاناً للقيك به الأسد أي : للقيك بلقائك إياه الأسد ، فخبيراً منتصب على المفعولية ، أو على الحال المؤكدة ، واستضعف الحالية أبو البقاء ، فقال : يضعف أن يكون ﴿ خبيراً ﴾ حالاً من فاعل اسأل ، لأن الخبير لا يسأل إلاّ على جهة التوكيد ، كقوله

: ﴿ وَهُوَ الحق مُصَدّقاً ﴾ [البقرة : 91] قال : ويجوز أن يكون حالاً من الرحمن إذا رفعته باستوى .

وقال ابن جرير : يجوز أن تكون الباء في به زائدة .

والمعنى : فاسأله حال كونه خبيراً .

وقيل : قوله : " به " يجري مجرى القسم كقوله : ﴿ واتقوا الله الذي تَسَاءلُونَ بِهِ ﴾ [النساء : 1] ، والوجه الأوّل أقرب هذه الوجوه .

(112/563)

ثم أخبر سبحانه عنهم بأنهم جهلوا معنى الرحمن فقال : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسجدوا للرحمن قَالُواْ وَمَا الرحمن ﴾ قال المفسرون : إنهم قالوا ما نعرف الرحمن إلاّ رحمن اليمامة ، يعنون مسيلمة .

قال الزجاج : الرحمن : اسم من أسماء الله ، فلما سمعوه أنكروا ، فقالوا : وما الرحمن ﴿ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا ﴾ ، والاستفهام للإنكار أي : لا نسجد للرحمن الذي تأمرنا بالسجود له ، ومن قرأ بالتحتية ، فالمعنى : أنسجد لما يأمرنا محمد بالسجود له .

وقد قرأ المدنيون ، والبصريون : ﴿ لِمَا تَأْمُرُنَا ﴾ بالفوقية ، واختار هذه القراءة أبو عبيد

وأبو حاتم ، وقرأ الأعمش وحمزة والكسائي بالتحتية .

قال أبو عبيد : يعنون الرحمن .

قال النحاس : وليس يجب أن يتأوّل على الكوفيين في قراءتهم هذا التأويل البعيد ، ولكن الأولى : أن يكون التأويل لهم اسجدوا لما يأمرنا النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فتصح القراءة على هذا ، وإن كانت الأولى أبين .

﴿ وَزَادَهُمْ نُفُوراً ﴾ أي : زادهم الأمر بالسجود نفوراً عن الدين ، وبعداً عنه ، وقيل : زادهم ذكر الرحمن تباعداً من الإيمان ، كذا قال مقاتل ، والأوّل أولى .

ثم ذكر سبحانه ما لو تفكروا فيه لعرفوا وجوب السجود للرحمن ، فقال : ﴿ تَبَارَكَ الذي جَعَلَ فِي السماء بُرُوجاً ﴾ المراد بالبروج بروج النجوم أي : منازلها الإثنا عشر ، وقيل : هي النجوم الكبار ، والأوّل أولى .

وسميت بروجاً ، وهي القصور العالية ؛ لأنها للكواكب كالمنازل الرفيعة لمن يسكنها ، واشتقاق البرج من التبرج ، وهو الظهور .

﴿ وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجاً ﴾ أي : شمساً ، ومثله قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَ الشمس سِرَاجاً ﴾ [نوح : 16] قرأ الجمهور : ﴿ سراجاً ﴾ بالإفراد .

وقرأ حمزة ، والكسائي ﴿ سرجاً ﴾ بالجمع أي : النجوم العظام الوقادة ، ورجح القراءة الأولى أبو عبيد .

قال الزجاج : في تأويل قراءة حمزة والكسائي أراد الشمس والكواكب ﴿ وَقَمَراً مُّنِيراً ﴾ أي : ينير الأرض إذا طلع ، وقرأ الأعمش " قمراً " بضم القاف ، وإسكان الميم ، وهي قراءة ضعيفة شاذة .

﴿ وَهُوَ الذي جَعَلَ اليل والنهار خِلْفَةً ﴾ قال أبو عبيدة : الخلفة : كلّ شيء بعد شيء : الليل خلفة للنهار ، والنهار خلفة لليل ، لأن أحدهما يخلف الآخر ، ويأتي بعده ؛ ومنه خلفة النبات ، وهو : ورق يخرج بعد الورق الأول في الصيف ، ومنه قول زهير بن أبي سلمى :

بها العين والآرام يمشين خلفة . . . وأطلاؤها ينهضن من كلّ مجثم

قال الفراء في تفسير الآية : يقول : يذهب هذا ، ويجيء هذا ، وقال مجاهد : خلفة من الخلاف ، هذا أبيض ، وهذا أسود .

وقيل : يتعاقبان في الضياء والظلام ، والزيادة والنقصان .

وقيل : هو من باب حذف المضاف أي : جعل الليل ، والنهار ذوي خلفة أي : اختلاف ﴿ لّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ ﴾ قرأ حمزة مخففاً ، وقرأ الجمهور بالتشديد ، فالقراءة الأولى من الذكر

لله ، والقراءة الثانية من التذكر له .

وقرأ أبيّ بن كعب : " يتذكر " ، ومعنى الآية : أن المتذكر المعتبر إذا نظر في اختلاف الليل والنهار علم أنه لا بدّ في انتقالهما من حال إلى حال من ناقل ﴿ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً ﴾ أي : أراد أن يشكر الله على ما أودعه في الليل والنهار من النعم العظيمة ، والألطاف الكثيرة .

قال الفراء : ويذكر ويتذكر يأتيان بمعنى واحد .

قال الله تعالى : ﴿ واذكروا مَا فِيهِ ﴾ [الأعراف : 171] ، وفي حرف عبد الله " ويذكروا ما فيه " .

﴿ وَعِبَادُ الرحمن الذين يَمْشُونَ على الأرض هَوْناً ﴾ هذا كلام مستأنف مسوق لبيان صالحي عباد الله سبحانه ، و ﴿ عباد الرحمن ﴾ مبتدأ وخبره الموصول مع صلته ، والهون مصدر ، وهو السكينة والوقار .

وقد ذهب جماعة من المفسرين إلى أن الهون متعلق ب ﴿ يمشون ﴾ أي : يمشون على الأرض مشياً هوناً .

(114/563)

قال ابن عطية : ويشبه أن يتأوّل هذا على أن تكون أخلاق ذلك الماشي هوناً مناسبة لمشيه ، وأما أن يكون المراد صفة المشيء وحده ، فباطل ، لأنه ربّ ماش هوناً رويداً ، وهو ذئب أطلس ، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتكفأ في مشيه كأنما يمشي في صيب .

﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجاهلون قَالُواْ سَلاَماً ﴾ ذكر سبحانه أنهم يتحملون ما يرد عليهم من أذى أهل الجهل والسفه ، فلا يجهلون مع من يجهل ، ولا يسافهون أهل السفه .

قال النحاس : ليس هذا السلام من التسليم إنما هو من التسلم ، تقول العرب : سلاماً أي : تسلماً منك أي : براءة منك ، منصوب على أحد أمرين : إما على أنه مصدر لفعل محذوف أي : قالوا : سلمنا سلاماً ، وهذا على قول سيبويه ، أو على أنه مفعول به أي : قالوا : هذا اللفظ ، ورجحه ابن عطية .

وقال مجاهد : معنى ﴿ سلاماً ﴾ : سداداً ، أي : يقول للجاهل كلاماً يدفعه به برفق ولين .

قال سيبويه : لم يؤمر المسلمون يومئذٍ أن يسلموا على المشركين لكنه على قوله تسليماً منكم ، ولا خير ، ولا شرّ بيننا وبينكم .

قال المبرد : كان ينبغي أن يقال : لم يؤمر المسلمون يومئذٍ بحربهم ، ثم أمروا بحربهم .

وقال محمد بن يزيد : أخطأ سيبويه في هذا وأساء العبارة .

قال النحاس : ولا نعلم لسيبويه كلاماً في معنى الناسخ ، والمنسوخ إلاّ في هذه الآية ، لأنه قال في آخر كلامه : فنسختها آية السيف .

وأقول : هكذا يكون كلام الرجل إذا تكلم في غير علمه ، ومشى في غير طريقته ، ولم يؤمر المسلمون بالسلام على المشركين ، ولا نهوا عنه .

بل أمروا بالصفح ، والهجر الجميل ، فلا حاجة إلى دعوى النسخ .

قال النضر بن شميل : حدّثني الخليل قال : أتيت أبا ربيعة الأعرابي ، وكان من أعلم من رأيت .

فإذا هو على سطح ، فسلمنا ، فردّ علينا السلام ، وقال لنا : استووا ، فبقينا متحيرين ، ولم ندر ما قال ، فقال لنا أعرابيّ إلى جنبه : أمركم أن ترتفعوا .

(115/563)

قال الخليل : هو من قول الله : ﴿ ثُمَّ استوى إِلَى السماء ﴾ [البقرة : 29] قال : فصعدنا إليه ، فقال : هل لكم في خبز فطير ، ولبن هجير ؟ فقلنا : الساعة فارقناه ، فقال : سلاماً ، فلم ندر ما قال ، فقال الأعرابيّ : إنه سالمكم متاركة لا خير فيها ولا شرّ .

قال الخليل : هو من قول الله ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجاهلون قَالُواْ سَلاَماً ﴾ .

﴿ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وقياما ﴾ البيتوتة : هي أن يدركك الليل نمت أو لم تنم .

قال الزجاج : من أدركه الليل ، فقد بات ، نام أو لم ينم ، كما يقال : بات فلان قلقاً ، والمعنى يبيتون لربهم سجداً على وجوههم ، وقياماً على أقدامهم ، ومنه قول امرىء القيس :

فبتنا قياماً عند رأس جوادنا . . . يزاولنا عن نفسه ونزاوله

﴿ والذين يَقُولُونَ رَبَّنَا اصرف عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً ﴾ أي : هم مع طاعتهم مشفقون وجلون خائفون من عذابه ، والغرام : اللازم الدائم ، ومنه سمي الغريم لملازمته ، ويقال : فلان مغرم بكذا أي : ملازم له مولع به ، هذا معناه في كلام العرب ، كما ذكره ابن الأعرابي وابن عرفة وغيرهما ، ومنه قول الأعشى :

إن يعاقب يكن غراما . . . وإن يعط جزيلاً فإنه لا يبالي

وقال الزجاج : الغرام أشدّ العذاب .

وقال أبو عبيدة : هو الهلاك .

وقال ابن زيد : الشرّ ، وجملة : ﴿ إِنَّهَا سَاءتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً ﴾ تعليل لما قبلها ، والمخصوص محذوف : أي : هي ، وانتصاب ﴿ مستقرًّا ﴾ على الحال ، أو التمييز ، وكذا ﴿ مقاماً ﴾ ، قيل : هما مترادفان ، وإنما عطف أحدهما على الآخر لاختلاف لفظيهما ، وقيل : بل هما مختلفان معنى : فالمستقرّ للعصاة ، فإنهم يخرجون ، والمقام للكفار

، فإنهم يخلدون ، وساءت من أفعال الذم كبئست ، ويجوز أن يكون هذا من كلام الله سبحانه ، ويجوز أن يكون حكاية لكلامهم .

(116/563)

ثم وصفهم سبحانه بالتوسط في الإنفاق ، فقال : ﴿ والذين إِذَا أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ ﴾ قرأ حمزة والكسائي والأعمش وعاصم ويحيى بن وثاب : ﴿ يقتروا ﴾ بفتح التحتية ، وضم الفوقية ، من قتر يقتر ، كقعد يقعد ، وقرأ أبو عمرو وابن كثير بفتح التحتية ، وكسر التاء الفوقية ، وهي لغة معروفة حسنة ، وقرأ أهل المدينة وابن عامر وأبو بكر عن عاصم بضم التحتية وكسر الفوقية .

قال أبو عبيدة : يقال : قتر الرجل على عياله يقتر ، ويقتر قتراً ، وأقتر يقتر إقتاراً ، ومعنى الجميع : التضييق في الإنفاق .

قال النحاس : ومن أحسن ما قيل في معنى الآية : أن من أنفق في غير طاعة الله ، فهو الإسراف ، ومن أمسك عن طاعة الله ، فهو الإقتار ، ومن أنفق في طاعة الله ، فهو القوام .

وقال إبراهيم النخعي : هو الذي لا يجيع ولا يعرى ، ولا ينفق نفقة ، يقول الناس قد أسرف .

وقال يزيد بن أبي حبيب : أولئك أصحاب محمد كانوا لا يأكلون طعاماً للتنعم واللذة ولا

يلبسون ثوباً للجمال ، ولكن كانوا يريدون من الطعام ما يسدّ عنهم الجوع ، ويقوّيهم على عبادة الله ، ومن اللباس ما يستر عوراتهم ، ويقيهم الحرّ والبرد .

وقال أبو عبيدة : لم يزيدوا على المعروف ، ولم يبخلوا كقوله : ﴿ وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ البسط ﴾ [الإسراء : 29] قرأ حسان بن عبد الرحمن : " وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً " بكسر القاف ، وقرأ الباقون بفتحها ، فقيل : هما بمعنى ، وقيل : القوام بالكسر : ما يدوم عليه الشيء ويستقرّ ، وبالفتح : العدل ، والإستقامة ، قاله ثعلب .

وقيل : بالفتح : العدل بين الشيئين ، وبالكسر : ما يقام به الشيء لا يفضل عنه ولا ينقص .

وقيل : بالكسر : السداد والمبلغ ، واسم كان مقدّر فيها أي : كان إنفاقهم بين ذلك قواماً ، وخبرها ﴿ قواماً ﴾ ، قاله الفراء .

(117/563)

وروي عن الفراء قول آخر ، وهو أن اسم كان ﴿ بين ذلك ﴾ ، وتبنى بين على الفتح ؛ لأنها من الظروف المفتوحة .

وقال النحاس : ما أدري ما وجه هذا ، لأن بين إذا كانت في موضع رفع رفعت .

وقد أخرج ابن جرير ، وابن مردويه عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَكَانَ الكافر على رَبِّهِ

ظَهِيراً ﴾ يعني : أبا الحكم الذي سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا جهل بن هشام .

وأخرج ابن أبي حاتم عنه في قوله : ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ قال : قل لهم يا محمد : لا أسألكم على ما أدعوكم إليه من أجر ، يقول : عرض من عرض الدنيا .

وأخرج الخطيب في كتاب النجوم عنه أيضاً في قوله : ﴿ تَبَارَكَ الذى جَعَلَ فِى السماء بُرُوجاً ﴾ قال : هي هذه الإثنا عشر برجاً أولها : الحمل ، ثم الثور ، ثم الجوزاء ، ثم السرطان ، ثم الأسد ، ثم السنبلة ، ثم الميزان ، ثم العقرب ، ثم القوس ، ثم الجدي ، ثم الدلو ، ثم الحوت .

وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً : ﴿ وَهُوَ الذي جَعَلَ اليل والنهار خِلْفَةً ﴾ قال : أبيض وأسود .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه أيضاً يقول : من فاته شيء من الليل أن يعمله أدركه بالنهار ، ومن النهار أدركه بالليل .

وأخرج الطيالسي وابن أبي حاتم عن الحسن : أن عمر أطال صلاة الضحى ، فقيل له : صنعت اليوم شيئاً لم تكن تصنعه ، فقال : إنه بقي عليّ من وردى شيء ، فأحببت أن أتمه ، أو قال : أقضيه ، وتلا هذه الآية : ﴿ وَهُوَ الذى جَعَلَ اليل والنهار خِلْفَةً ﴾ الآية .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَعِبَادُ الرحمن ﴾ قال : هم : المؤمنون ﴿ الذين يَمْشُونَ على الأرض هَوْناً ﴾ قال :

بالطاعة والعفاف والتواضع .

وأخرج ابن أبي حاتم عنه قال : ﴿ هَوْناً ﴾ : علماً وحلماً .

(118/563)

وأخرج عبد بن حميد عن أبي سعيد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله : ﴿ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً ﴾ قال : " الدائم " .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ والذين إِذَا أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ ﴾ قال : هم المؤمنون لا يسرفون فينفقوا في معصية الله ، ولا يقترون فيمنعوا حقوق الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 4 صـ ﴾

(119/563)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ ﴾

عطف جملة على جملة ، فالجملة المعطوفة هي ﴿ عباد الرحمن ﴾ إلخ ، فهو مبتدأ وخبره

﴿ الذين يمشون على الأرض هوناً ﴾ إلخ .

وقيل : الخبر ﴿ أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ﴾ [الفرقان : 75] .

والجملةُ المعطوف عليها جملة ﴿ وهو الذي جعل الليل والنهار خِلفة ﴾ [الفرقان : 62] إلخ .

فبمناسبة ذكر من أراد أن يذَّكَّر تُخلّص إلى خصال المؤمنين أتباع النبي صلى الله عليه وسلم حتى تستكمل السورة أغراض التنويه بالقرآن ومن جاء به ومن اتبعوه كما أشرنا إليه في الإلمام بأهم أغراضها في طالعة تفسيرها .

وهذا من أبدع التخلص إذْ كان مفاجئاً للسامع مطمِعاً أنه استطراد عارض كسوابقه حتى يُفاجئه ما يؤذن بالختام وهو ﴿ قل ما يَعْبَؤا بكم ربّي ﴾ [الفرقان : 77] الآية .

والمراد بـ ﴿ عباد الرحمن ﴾ بادىء ذي بدء أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فالصلات الثمان التي وصفوا بها في هذه الآية حكاية لأوصافهم التي اختصوا بها .

وإذ قد أُجريت عليهم تلك الصفات في مقام الثناء والوعد بجزاء الجنة عُلم أن من اتصف بتلك الصفات موعود بمثل ذلك الجزاءِ وقد شرفهم الله بأن جعل عنوانهم عبادَه ، واختار لهم من الإضافة إلى اسمه اسمَ الرحمن لوقوع ذكرهم بعد ذكر الفريق الذين قيل لهم : ﴿ اسجُدوا للرحمان .

قالوا : وما الرحمن ﴾ [الفرقان : 60] .

فإذا جعل المراد من ﴿ عباد الرحمن ﴾ أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كان الخبرُ في قوله ﴿ الذين يمشون على الأرض هوناً ﴾ إلى آخر المعطوفات وكان قوله الآتي ﴿ أولئك يُجْزَوْن الغرفة بما صبروا ﴾ [الفرقان : 75] استئنافاً لبيان كونهم أحرياء بما بعد اسم الإشارة .

وإذا كان المراد من ﴿ عباد الرحمن ﴾ جميع المؤمنين المتصفين بمضمون تلك الصلات كانت تلك الموصولات وصلاتها نعوتاً ل ﴿ عباد الرحمن ﴾ وكان الخبر اسمَ الإشارة في قوله ﴿ أولئك يُجْزَوْنَ الغرفة ﴾ [الفرقان : 75] إلخ .

(120/563)

وفي الإطناب بصفاتهم الطيبة تعريض بأن الذين أبوا السجود للرحمان وزادهم نفوراً هم على الضد من تلك المحامد ، تعريضاً تشعر به إضافةُ ﴿ عباد ﴾ إلى ﴿ الرحمن ﴾ .

واعلم أن هذه الصلات التي أجريت على ﴿ عباد الرحمن ﴾ جاءت على أربعة أقسام:

قسم هو من التحلّي بالكمالات الدينية وهي التي ابتدىء بها من قوله تعالى ﴿ الذين يمشون على الأرض هوناً ﴾ إلى قوله ﴿ سلاماً ﴾ [الفرقان : 75] .

وقسم هو من التخلّي عن ضلالات أهل الشرك وهو الذي من قوله : ﴿ والذين لا يَدْعُون

مع الله إلهاً آخر ﴾ [الفرقان : 68] .

وقسم هو من الاستقامة على شرائع الإسلام وهو قوله : ﴿ والذين يَبِيتُون لربهم سُجَّداً وقياماً ﴾ [الفرقان : 64] ، وقولُه ﴿ والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ﴾ [الفرقان : 67] الآية ، وقوله : ﴿ ولا يقتلون النفس ﴾ إلى قوله ﴿ لا يشهدون الزور ﴾ [الفرقان : 68 72] إلخ .

وقسم من تطلب الزيادة من صلاح الحال في هذه الحياة وهو قوله : ﴿ والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا إلى قوله : ﴿ للمتقين إماماً ﴾ [الفرقان : 74] .

وظاهر قوله ﴿ يمشون على الأرض هوناً ﴾ أنه مدح لِمشيةٍ بالأرْجُل وهو الذي حمل عليه جمهورُ المفسرين .

وجوز الزجاج أن يكون قوله ﴿ يمشون ﴾ عبارة عن تصرفاتهم في معاشرة الناس فعُبّر عن ذلك بالانتقال في الأرض وتبعه ابن عطية وهذا الذي ذكره مأخوذ مما روي عن زيد ابن أسلم كما سيأتي .

فعلى الوجه الأول يكون تقييدُ المشي بأنه على الأرض ليكون في وصفه بالهَوْن ما يقتضي أنهم يمشون كذلك اختياراً وليس ذلك عند المشي في الصعدات أو على الجنادل .

والهَوْن : اللين والرفق .

ووقع هنا صفة لمصدر المشي محذوف تقديره (مَشْياً) فهو منصوب على النيابة عن

المفعول المطلق .

والمشي الهَوْن : هو الذي ليس فيه ضرب بالأقدام وخفقُ النعال فهو مخالف لمشْي المتجبرين المعجَبين بنفوسهم وقوتهم .

(121/563)

وهذا الهَوْن ناشىء عن التواضع لله تعالى والتخلُّق بآداب النفس العالية وزوال بطر أهل الجاهلية فكانت هذه المشية من خلال الذين آمنوا على الضد من مشي أهل الجاهلية .

وعن عمر بن الخطاب أنه رأى غلاماً يتبختر في مِشيته فقال له "إن البخترة مِشية تُكْره إلا في سبيل الله" .

وقد مدح الله تعالى أقواماً بقوله سبحانه ﴿ وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً ﴾ فاقْصِدْ في مِشيتِك ، وحكى الله تعالى عن لقمان قولَه لابنه ﴿ ولا تَمْشِ في الأرض مرَحاً ﴾ [الإسراء : 37] .

والتخلّق بهذا الخلق مظهر من مظاهر التخلق بالرحمة المناسب لعباد الرحمان لأن الرحمة ضد الشدة ، فالهوْن يناسب ماهيتَها وفيه سلامة من صدم المارين .

وعن زيد بن أسلم قال : كنت أسأل عن تفسير قوله تعالى : ﴿ الذين يمشون على الأرض

هوناً ﴾ فما وجدت في ذلك شفاء فرأيت في المنام من جاءني فقال لي : "هُم الذين لا يريدون أن يفسدوا في الأرض" .

فهذا رأي لزيد بن أسلم أُلهمه يجعل معنى ﴿ يمشون على الأرض ﴾ أنه استعارة للعمل في الأرض كقوله تعالى ﴿ وإذا تولّى سعى في الأرض لِيُفْسِد فيها ﴾ [البقرة : 205] وأن الهوْن مستعار لفعل الخير لأنه هون على الناس كما يسمى بالمعروف .

وقُرن وصفهم بالتواضع في سمتهم وهو المشي على الأرض هوْناً بوصف آخر يناسب التواضع وكراهيةَ التطاول وهو متاركة الذين يجهلون عليهم في الخطاب بالأذى والشتم وهؤلاء الجاهلون يومئذ هم المشركون إذ كانوا يتعرضون للمسلمين بالأذى والشتم فعلمهم الله متاركة السفهاء ، فالجهل هنا ضد الحلم ، وذلك أشهر إطلاقاته عند العرب قبل الإسلام وذلك معلوم في كثير من الشعر والنثر .

وانتصب ﴿ سلاماً ﴾ على المفعولية المطلقة .

وذكرهم بصفة الجاهلين دون غيرها مما هو أشد مذمّةً مثل الكافرين لأن هذا الوصف يُشعر بأن الخطاب الصادر منهم خطاب الجهالة والجفوة .

(122/563)

و (السلام) يجوز أن يكون مصدراً بمعنى السلامة ، أي لا خير بيننا ولا شرّ فنحن مُسلمون منكم .

ويجوز أن يكون مراداً به لفظ التحية فيكون مستعملاً في لازمه وهو المتاركة لأن أصل استعمال لفظ السلام في التحيةِ أنه يؤذن بالتأمين ، أي عدم لإهاجة ، والتأمين : أول ما يلقى به المرء من يريد إكرامَه ، فتكون الآية في معنى قوله

﴿ وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلامٌ عليكم لا نبتغي الجاهلين ﴾ [القصص : 55] .

قال ابن عطية : وأريت في بعض التواريخ أن إبراهيم بن المهدي وكان من المائلين على علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال يوماً بحضرة المأمون وعنده جماعة : كنت أرى علي بن أبي طالب في النوم فكنت أقول له : من أنت ؟ فكان يقول : عليٌّ بن أبي طالب ، فكنت أجيء معه إلى قنطرة فيذهب فيتقدمني في عُبورها فكنت أقول : إنما تَدَّعي هذا الأمر بامرأةٍ ونحن أحق به منك ، فما رأيت له في الجواب بلاغةً كما يُذكر عنه ، قال المأمون : وبماذا جاوبك ؟ قال : فكان يقول لي : سَلاماً .

قال الراوي : فكأنَّ إبراهيم بن المهدي لا يحفظ الآية أو ذهبتْ عنه في ذلك الوقت ، فنبه المأمونُ على الآية من حضره وقال : هو والله يا عمّ عليّ بن أبي طالب وقد جاوبك بأبلغ جواب ، فخُزي إبراهيم واستحيا .

ولأجل المناسبة بين الصيغتين عطفت هذه على الصلة الأولى .

ولم يكرر اسم الموصول كما كرر في الصفات بعدها .

وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (64)

عطف صفة أخرى على صفتيهم السابقتين على حدّ قول الشاعر :

إلى المِلك القرم وابن الهمام . . .

وليث الكتيبة في المُزدحم

وإعادة الموصول لتأكيد أنهم يُعرفون بهذه الصلة ، والظاهر أن هذه الموصولات وصلاتها كلها أخبار أو أوصاف لعباد الرحمان .

(123/563)

روي عن الحسن البصري أنه كان إذا قرأ ﴿ الذين يمشون على الأرض هَوْناً ﴾ [الفرقان : 63] قال : هذا وصف نهارهم ، ثم إذا قرأ ﴿ والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً ﴾ قال : هذا وصف ليلهم .

والقِيام : جمع قَائم كالصِحاب ، والسجود والقيام ركنا الصلاة ، فالمعنى : يبيتون يصلّون ، فوقع إطناب في التعبير عن الصلاة بركنيها تنويهاً بكليهما .

وتقديم ﴿ سجداً ﴾ على ﴿ قياماً ﴾ للرعي على الفاصلة مع الإشارة إلى الاهتمام بالسجود وهو ما بيّنه النبي صلى الله عليه وسلم بقوله : " أقرب ما يكونُ العبد من ربه وهو ساجد " وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيري التهجد كما أثنى الله عليهم بذلك بقوله ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾ [السجدة : 16] .

وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (65) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (66)

دعاؤهم هذا أمارة على شدة مخافتهم الذنوب فهم يسعون في مرضاة ربّهم لينجوا من العذاب ، فالمراد بصرف العذاب : إنجاؤهم منه بتيسير العمل الصالح وتوفيره واجتناب السيئات .

وجملة ﴿ إن عذابها كان غراماً ﴾ يجوز أن تكون حكاية من كلام القائلين .

ويجوز أن تكون من كلام الله تعالى معترضة بين اسمي الموصول ، وعلى كل فهي تعليل لسؤال صرف عذابها عنهم .

والغرام : الهلاك المُلِحّ الدائِم ، وغلب إطلاقه على الشر المستمر .

وجملة ﴿ إنها ساءت مستقراً ومقاماً ﴾ يجوز أن تكون حكاية لكلام القائلين فتكون تعليلاً ثانياً مؤكّداً لتعليلهم الأول ، وأن تكون من جانب الله تعالى دون التي قبلها فتكون تأييداً لتعليل القائلين .

وأن تكون من كلام الله مع التي قبلها فتكون تكريراً للاعتراض .

والمستقَرّ : مكان الاستقرار .

والاستقرار : قوة القرار .

(124/563)

والمقام : اسم مكان الإقامة ، أي ساءت موضعاً لمن يستقر فيها بدون إقامة مثل عصاة أهل الأديان ولمن يقيم فيها من المكذبين للرسل المبعوثين إليهم .

وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا (67)

أفاد قوله ﴿ إذا أنفقوا ﴾ أن الإنفاق من خصالهم فكأنه قال : والذين ينفقون وإذا أنفقوا إلخ .

وأريد بالإنفاق هنا الإنفاق غير الواجب وذلك إنفاق المرء على أهل بيته وأصحابه لأن الإنفاق الواجب لا يذمّ الإسراف فيه ، والإنفاق الحرام لا يُحمد مطلقاً بَلْهَ أن يذم الإقتار فيه على أن في قوله ﴿ إذا أنفقوا ﴾ إشعاراً بأنهم اختاروا أن ينفقوا ولم يكن واجباً عليهم .

والإسراف : تجاوز الحد الذي يقتضيه الإنفاق بحسب حال المنفق وحال المنفَق عليه .

وتقدم معنى الإسراف في قوله تعالى : ﴿ ولا تأكلوها إسرافاً ﴾ في سورة النساء (6) ،

وقوله : ﴿ ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين ﴾ في سورة الأنعام (141) .

والإقتار عكسه ، وكان أهل الجاهلية يسرفون في النفقة في اللذات ويُغْلُون السباء في الخمر ويتممون الأيسار في الميسر .

وأقوالهم في ذلك كثيرة في أشعارهم وهي في معلّقة طرفة وفي معلقة لبيد وفي ميمية النابغة ، ويفتخرون بإتلاف المال ليتحدث العظماء عنهم بذلك ، قال الشاعر مادحاً :

مفيد ومتلاف إذا ما أتيتُه . . .

تهلَّل واهتز اهتزاز المهند

وقرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر ولا يُقتِروا ﴾ بضم التحتية وكسر الفوقية من الإقْتار وهو مرادف التقتير .

وقرأه ابن كثير وأبو عَمرو ويعقوب بفتح التحتية وكسر الفوقية من قتر من باب ضَرَب وهو لغة .

وقرأ عاصم وحمزة والكسائي وخلف بفتح التحتية وضم الفوقية من فعل قتر من باب نصَر .

والإقتار والقَتْر : الإجحاف والنقص مما تسعه الثروة ويقتضيه حال المنفَق عليه .

وكان أهل الجاهلية يُقتِرون على المساكين والضعفاء لأنهم لا يسمعون ثناء العظماء في ذلك .

وقد تقدم ذلك عند قوله : ﴿ كُتب عليكم إذا حضر أحدكم الموتُ إن ترك خيراً الوصية للوالدَيْن ﴾ [البقرة : 180] .

والإشارة في قوله : ﴿ بين ذلك ﴾ إلى ما تقدم بتأويل المذكور ، أي الإسراف والإقتار .

والقَوام بفتح القاف : العدل والقصد بين الطرفين .

والمعنى : أنهم يضعون النفقات مواضعها الصالحة كما أمرهم الله فيدوم إنفاقهم وقد رغب الإسلام في العمل الذي يدوم عليه صاحبه ، وليسير نظام الجماعة على كفاية دون تعريضه للتعطيل فإن الإسراف من شأنه استنفاد المال فلا يدوم الإنفاق ، وأما الإقتار فمن شأنه إمساكُ المال فيُحرم من يستأهله .

وقوله : ﴿ بين ذلك ﴾ خبرُ ﴿ كَان ﴾ و ﴿ قَواماً ﴾ حال موكِّدة لمعنى ﴿ بين ذلك ﴾ .

وفيها إشعار بمدح ما بين ذلك بأنه الصواب الذي لا عِوَج فيه .

ويجوز أن يكون ﴿ قَواما ﴾ خبر ﴿ كان ﴾ و ﴿ بين ذلك ﴾ ظرفا متعلقاً به .

وقد جرت الآية على مراعاة الأحوال الغالبة في إنفاق الناس .

قال القرطبي : والقَوام في كل واحد بحسب عياله وحاله ولهذا ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر الصديق يتصدق بجميع ماله ومنع غيره من ذلك . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 19 صـ ﴾

(126/563)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا ﴾

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الأرض مَرَحاً إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأرض وَلَن تَبْلُغَ الجبال طُولاً ﴾ [الإسراء : 37] .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قَالُواْ سَلاَماً ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة مريم في الكلام على قوله تعالى : ﴿ قَالَ سَلاَمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيّاً ﴾ [مريم : 47] الآية .

وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (64)

ما ذكره جل وعلا في هذه الآية الكريمة ، من أن عباده الصالحين ، يبيتون لربهم سجداً وقياماً ، يعبدون الله ، ويصلون له بينه في غير هذا الموضع كقوله تعالى : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ

آنَآءَ الليل سَاجِداً وَقَآئِماً يَحْذَرُ الآخرة وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِ ﴾ [الزمر : 9] وقوله تعالى : ﴿ تتجافى جُنُوبُهُمْ عَنِ المضاجع يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً ﴾ [السجدة : 16] وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ كَانُواْ قَلِيلاً مِّنَ الليل مَا يَهْجَعُونَ وبالأسحار هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الذاريات : 1618] . وقوله تعالى : ﴿ يبيتُونَ ﴾ قال الزجاج : بات الرجل يبيت : إذا أدركه الليل ، نام أو لم ينم ، قال زهير :

فبتنا قياماً عند رأس جوادنا . . . يزاولنا عن نفسه ونزاوله

انتهى بواسطة نقل القرطبي .

وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (65)

الأظهر أن معنى قوله : كان غراماً : أي كان لازماً دائماً غير مفارق ، ومنه سمي الغريم لملازمته ، ويقال : فلان مغرم بكذا أي لازم له ، مولع به .

(127/563)

وهذا المعنى دلت عليه آيات من كتاب الله كقوله تعالى : ﴿ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ النار وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ [المائدة : 37] و [التوبة : 68] . وقوله : ﴿ لاَ يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴾ [الزخرف : 75] . وقوله : ﴿ قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي

لَوْلاَ دُعَآؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَاماً ﴾ [الفرقان : 77] وقوله تعالى : ﴿ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَاباً ﴾ [النبأ : 30] . وقوله : ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا لاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ العذاب وَلاَ هُمْ يُنْظَرُونَ ﴾ [البقرة : 162] و [آل عمران : 88] وقوله : ﴿ وَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِّنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴾ [فاطر : 36] . وقوله تعالى : ﴿ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيراً ﴾ [الإسراء : 97] . وقوله : ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ العذاب إِنَّ الله كَانَ عَزِيزاً حَكِيماً ﴾ [النساء : 56] إلى غير ذلك من الآيات .

وقال الزجاج : الغرام أشد العذاب . وقال ابن زيد : الغرام الشر . وقال أبو عبيدة : الهلاك . قاله القرطبي . وقول الأعشى :

إن يعاقب يكن غراماً وإن يعط . . . جزيلاً فإنه لا يبال

يعني يكن عذابه دائماً لازماً . وكذلك قول بشر بن أبي حازم :

ويوم النسار ويوم الجفا . . . ركانا عذاباً وكان غراما

وذلك هو الأظهر أيضاً في قول الآخر :

وما أكلة إن نلتها بغنيمة . . . ولا جوعة إن جعتها بغرام

وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا (67)

قرأ هذا الحرف نافع وابن عامر : ولم يقتروا بضم الياء المثناة التحتية وكسر التاء مضارع أقتر الرباعي ، وقرأه ابن كثير وأبو عمرو : ولم يقتروا بفتح المثناة التحتية ، وكسر المثناة الفوقية مضارع قتر الثلاثي كضرب ، وقرأه عاصم وحمزة ، والكسائي ، ولم يقتروا بفتح المثناة التحتية ، وضم المثناة الفوقية مضارع قتر الثلاثي كنصر ، والإقتار على قراءة نافع وابن عامر ، والقتر على قراءة الباقين معناهما واحد ن وهو التضييق المخل بسد الخلة اللازم ، والإسراف في قوله تعالى : لم يسرفوا ، مجاوزة الحد في النفقة .

واعلم أن أظهر الأقوال في هذه الآية الكريمة ، أن الله مدح عباده الصالحين بتوسطهم في إنفاقهم ، فلا يجاوزون الحد بالإسراف في الإنفاق ، ولا يقترون أي لا يضيقون فيبخلون بإنفاق القدر اللازم .

وقال بعض أهل العلم : الإسراف في الآية : الإنفاق في الحرام والباطل ، والاقتار منع الحق الواجب ، وهذا المعنى وإن كان حقاً فالأظهر في الآية هو القول الأول .

قال ابن كثير رحمه الله ﴿ والذين إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ ﴾ الآية : أي ليسوا مبذرين في إنفاقهم ، فيصرفوا فوق الحاجة ، ولا بخلاء على أهليهم ، فيقصروا في حقهم فلا يكفوهم بل عدلاً خياراً ، وخير الأمور أوسطها ، لا هذا ، ولا هذا . انتهى محل الغرض منه .

وقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً ﴾ أي بين ذلك المذكور من الإسراف والقتر . قواماً : أي عدلاً وسطاً سالماً من عيب الإسراف والقتر .

(129/563)

وأظهر أوجه الإعراب عندي في الآية هو ما ذكره القرطبي ، قال : وقواماً خبر كان واسمها مقدر فيها أي كان الإنفاق بين الإسراف والقتر قواماً ، ثم قال قاله الفراء ، وباقي أوجه الإعراب في الآية ليس بوجيه عندي كقول من قال : إن لفظة بين هي اسم كان ، وأنها لم ترفع لبنائها بسبب إضافتها إلى مبني ، وقول من قال : إن بين هي خبر كان ، وقواماً حال مؤكدة له ومن قال إنهما خبران كل ذلك ليس بوجيه عندي ، والأظهر الأول . والظاهر أن التوسط في الإنفاق الذي مدحهم به شامل لإنفاقهم على أهليهم ، وإنفاقهم المال في أوجه الخير .

وهذا المعنى الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة جاء موضحاً في غير هذا الموضع ، فمن ذلك أن الله أوصى نبيه صلى الله عليه وسلم بالعمل بمقتضاه في قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ البسط ﴾ [الإسراء : 29] الآية ، ﴿ وَآتِ ذَا القربى حَقَّهُ والمسكين وابن السبيل وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيراً ﴾ [الإسراء : 26] الآية ، وقوله تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ العفو ﴾ [البقرة : 219] الآية . على أصح

التفسيرين .

وقد أوضحنا الآيات الدالة على هذا المعنى في أول سورة البقرة في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ [البقرة : 3] .

مسألة

هذه الآية الكريمة التي هي قوله تعالى : ﴿ والذين إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ ﴾ الآية والآيات التي ذكرناها معها ، قد بينت أحد ركني ما يسمى الآن بالاقتصاد .

وإيضاح ذلك أنه لا خلاف بين العقلاء أن جميع مسائل الاقتصاد على كثرتها واختلاف أنواعها راجعة بالتقسيم الأول إلى أصلين لا ثالث لهما .

(130/563)

والثاني منهما : صرفه من مصارفه ، وبه تعلم أن الاقتصاد عمل مزدوج ، ولا فائدة في واحد من الأصلين المذكورين إلا بوجود الآخر ، فلو كان الإنسان أحسن الناس نظراً في أوجه اكتساب المال إلا أنه أخرق جاهل بأوجه صرفه ، فإن جميع ما حصل من المال يضيع عليه بدون فائدة ، وكذلك إذا كان الإنسان أحسن الناس نظراً في صرف المال في مصارفه المنتجة إلا أنه أخرق جاهل بأوجه اكتسابه . فإنه لا ينفعه حسن نظره في الصرف مع أنه لم

يقدر على تحصيل شيء يصرفه . والآيات المذكورة أرشدت الناس ونبهتهم على الاقتصاد في الصرف .

وإذا علمت أن مسائل الاقتصاد كلها راجعة إلى الأصلين المذكورين ، وأن الآيات المذكورة دلت على أحدهما فاعلم أن الآخر منهما هو اكتساب المال أرشدت إليه آيات أخر دلت على فتح الله الأبواب إلى اكتساب المال بالأوجه اللائقة ، كالتجارات ، وغيرها كقوله تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [البقرة : 198] ، وقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصلاة فانتشروا فِي الأرض وابتغوا مِن فَضْلِ الله ﴾ [الجمعة : 10] ، وقوله تعالى : ﴿ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُمْ مرضى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأرض يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ الله ﴾ [المزمل : 20] ، والمراد بفضل الله في الآيات المذكورة ربح التجارة ، وكقوله تعالى : ﴿ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنْكُمْ ﴾ [النساء : 29] ، وقد قدمنا في سورة الكهف في الكلام على قوله تعالى : ﴿ فابعثوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هذه إلى المدينة ﴾ [الكهف : 19] الآية . أنواع الشركات ، وأسماءها ، وبينا ما يجوز عند الأئمة الأربعة وأوضحنا ما اتفقوا على منعه ، وما اتفقوا على جوازه ، وما اختلفوا فيه ، وبه تعلم كثرة الطرق التي فتحها الله لاكتساب المال بالأوجه الشرعية اللائقة .

(131/563)

وإذا علمت مما ذكرنا أن جميع مسائل الاقتصاد راجعة إلى أصلين هما اكتساب المال وصرفه في مصارفه. فاعلم أن كل واحد من هذين الأصلين، لا بد له من أمرين ضروريين له:

الأول منهما: معرفة حكم الله فيه، لأن الله جل وعلا لم يبح اكتساب المال بجميع الطرق التي يكتسب بها المال، بل أباح بعض الطرق، وحرم بعضها كما قال تعالى: ﴿ وَأَحَلَّ اللهُ البيع وَحَرَّمَ الربا ﴾ [البقرة: 275]، ولم يبح الله جل وعلا، وصرف المال في كل شيء بل أباح بعض الصرف وحرم بعضه، كما قال تعالى: ﴿ مَّثَلُ الذين يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ ﴾ [البقرة: 261] الآية. وقال تعالى في الصرف الحرام: ﴿ إِنَّ الذين كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ اللهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ﴾ [الأنفال: 36] الآيتن فمعرفة حكم الله في اكتساب المال وفي صرفه في مصارفه أمر ضروري لا بد منه، لأن من لم يعلم ذلك قد يكتسب المال من وجه حرام، والمال الكمتسب من وجه حرام، لا خير فيه البتة، وقد يصرف المال في وجه حرام، وصرفه في ذلك حسرة على صاحبه.

الأمر الثاني: هو معرفة الطريق الكفيلة باكتساب المال، فقد يعلم الإنسان مثلاً أن التجارة في النوع الفلاني مباحة شرعاً، ولكنه لا يعلم أوجه التصرف بالمصلحة الكفيلة بتحصيل

المالن من ذلك الوجه الشرعي ، وكم من متصرف يريد الربح ، فيعود عليه تصرفه بالخسران ، لعدم معرفته بالأوجه التي يحصل بها الربح . وكذلك قد يعلم الإنسان أن الصرف في الشيء الفلاني مباح ، وفيه مصلحة ، ولكنه لا يهتدي إلى معرفة الصرف المذكور ، كما هو مشاهد في المشاريع الكثيرة النفع إن صرف فيها المال بالحكمة والمصلحة ، فإن جواز الصرف فيها معلوم ، وإيقاع الصرف على وجه المصلحة ، لا يعلمه كل الناس .

(132/563)

وبهذا تعلم أن أصول الاقتصاد الكبار أربعة :

الأول : معرفة حكم الله في الوجه الذي يكتسب به المال ، واجتناب الاكتساب به ، إن كان محرماً شرعاً :

الثاني : حسن النظر في اكتساب المال بعد معرفة ما يبيحه خالق السماوات والأرض ، وما لا يبيحه .

الثالث : معرفة حكم الله في الأوجه التي يصرف فيها المال ، واجتناب المحرم منها .

الرابع : حسن النظر في أوجه الصرف ، واجتناب ما لا يفيد منها ، فكل من بنى اقتصاده على هذه الأسس الأربعة كان اقتصاده كفيلاً بمصلحته ، وكان مرضياً لله جل وعلا ، ومن

أخل بواحد من هذه الأسس الأربعة كان بخلاف ذلك ، لأن من جمع المال بالطرق التي لا يبيحها الله جل وعلا فلا خير في ماله ، ولا بركة كما قال تعالى : ﴿ يَمْحَقُ اللهُ الربا وَيُرْبِي الصدقات ﴾ [البقرة : 276] وقال تعالى : ﴿ قُل لاَّ يَسْتَوِي الخبيث والطيب وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الخبيث ﴾ [المائدة : 100] الآية .

وقد تكلمنا على مسائل الربا في آية الربا في سورة البقرة وتكلمنا على أنواع الشركات وأسمائها ، وبينا ما يجوز منها وما لا يجوز في سورة الكهف في الكلام على قوله تعالى : ﴿ فابعثوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هذه إلى المدينة ﴾ [الكهف : 19] الآية .

(133/563)

ولا شك أنه يلزم المسلمين في أقطار الدنيا التعاون على اقتصاد يجيزه خالق السماوات والأرض ، على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم ، ويكون كفيلاً بمعرفة طرق تحصيل المال بالأوجه الشرعية ، وصرفه في مصارفه المنتجة الجائزة شرعاً لأن الاقتصاد الموجود الآن في أقطار الدنيا لا يبيحه الشرع الكريم ، لأن الذين نظموا طرقه ليسوا بمسلمين ، فمعاملات البنوك والشركات لا تجد شيئاً منها يجوز شرعاً ، لأنها إما مشتملة على زيادات ربوية ، أو على غرر ، لا تجوز معه المعاملات كأنواع التأمين المتعارفة عند الشركات

اليوم في اقطار الدنيا ، فإنك لا تكاد تجد شيئاً منها سالماً من الغرر ، وتحريم بيع الغرر ثابت عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ومن المعلوم أن من يدعي إباحة أنواع التأمين المعروفة عند الشركات ، من المعاصرين أنه مخطئ في ذلك ، ولأنه لا دليل معه بل الأدلة الصحيحة على خلاف ما يقول ، والعلم عند الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أضواء البيان حـ 6 صـ ﴾

(134/563)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا ﴾

يعطينا الحق تبارك وتعالى صورة للعبودية الحقة ، ونموذجاً للذين اتبعوا المنهج ، كأنه سبحانه وتعالى يقول لنا : دَعْكُم من الذين أعرضوا عن منهج الله وكذَّبوا رسوله ، وانظروا إلى أوصاف عبادي الذين أمنوا بي ، ونفَّذوا أحكامي ، وصدَّقوا رسولي .

نقول : عباد وعبيد . والتحقيق أن (عبيد) جمع لعبد ، وأن (عباد) جمع لعابد مثل : رجال جمع راجل : ﴿ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً ﴾ [الحج : 27] إذن : عبيد غير عِبَاد .

وسبق أن تحدثنا عن الفَرْق بين العبيد والعباد ، فكلنا عبيد لله تعالى : المؤمن والكافر ،

والطائع والعاصي ، فما دام يطرأ عليه في حياته ما لا يستطيع أنْ يدفعه مع أنه يكرهه فهو مقهور ، فالعبد الكافر الذي تمرَّد على الإيمان بالله ، وتمرَّد على تصديق الرسول ، وتمرد على أحكام الله فلم يعمل بها .

فهل بعد أن أَلِفَ التمرد يستطيع أن يتمرد على المرض إنْ أصابه ؟ أو يستطيع التمرد على الموت إنْ حلّ بساحته ؟ إذن : فأنت عبد رغماً عنك ، وكلنا عبيد فيما نحن مقهورون عليه ، ثم لنا بعد ذلك مساحة من الاختيار .

أما المؤمن فقد خرج عن اختياره الذي منحه الله في أن يؤمن أو يكفر ، وتنازل عنه لمراد ربه ، فاستحق أن يكون من عباد الله ﴿ وَعِبَادُ الرحمن ﴾ [الفرقان : 63] فنحن وإنْ كنا عبيداً فنحن سادة ؛ لأننا عبيد الرحمن ؛ لذلك كانت حيثية تكريم الله لرسوله صلى الله عليه وسلم في الإسراء هي عبوديته لله تعالى ، حيث قال : ﴿ سُبْحَانَ الذي أسرى بِعَبْدِهِ ﴾ [الإسراء : 1] ، فالعبودية هي علة الارتقاء .

فلما أخلص رسول الله العبودية لله نال هذا القُرْب الذي لم يسبقه إليه بشر .

(135/563)

لذلك وصف الملائكة بأنهم ﴿ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴾ [الأنبياء : 26] وباستقراء الآيات لم نجد سوى آية واحدة تخالف في ظاهر الأمر هذا المعنى الذي قلْناه في معنى العباد ، وهي قوله تعالى في الكلام عن الآخرة : ﴿ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلاَءِ ﴾ [الفرقان : 17] . فقال للضالين (عبادي) وهي لا تُقال إلا للطائعين ، لماذا ؟ قالوا : لأن في القيامة لا اختيارَ لأحد ، فالجميع في القيامة عباد ، حيث انتفى الاختيار الذي يُميِّزهم .

والعلماء يقولون : إن العباد تُؤخَذ منها العبادية ، وأن العبيد تُؤخَذ منها العبودية : العبادية في العباد أن يطيع العابد أمر الله ، وينتهي عن نواهيه طمعاً في ثوابه في الآخرة ، وخوفاً من عقابه فيها ، إذن : جاءت العبادية لأخذ ثواب الآخرة وتجنّب عقابها .

أما العبودية فلا تنظر إلى الآخرة ، إنما إلى أن الله تعالى تقدّم بإحسانه على عبيده إيجاداً من عدم ، وإمداداً من عُدْمٍ ، وتربية وتسخيراً للكون ، فالله يستحق بما قدّم من إحسان أن يُطاع بصرف النظر عن الجزاء في الآخرة ثواباً أو عقاباً .

أما العبودة فهي : ألاَّ ينظر العبد إلى ما قدَّم من إحسان ، ولا ما أخّر من ثواب وعقاب ، وإنما ينظر إلى أن جلال الله يستحق أنْ يطُاع ، وإنْ لم يسبق له الإحسان ، وإنْ لم يأتِ بعد ذلك ثواب وعقاب .

وإن كانت العبودية مكروهة في البشر كما قال أحد الساسة : متى استعبدتم الناس ، وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟ ذلك لأن العبودية للبشر يأخذ السيد خيْر عبده ، أما العبودية لله

تعالى فِعزٌّ وشرف ، حيث يأخذ العبد خَيْر سيده ، فهي عبودية سيادة ، لا عبودية قهر .

فحين تؤمن بالله يعطيك الله الزمام : يقول لك : إنْ أردت أنْ أذكرك فاذكرني ، وفي الحديث القدسي : " مَنْ ذكرني في نفسه ذكرتُه في نفسي ، ومَنْ ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم " .

(136/563)

وإنْ كان سبحانه وتعالى يستدعيك إلى خَمْس صلوات في اليوم والليلة ، فما ذلك إلا لتأنسَ بربك ، لكن أنت حر تأتيه في أيِّ وقت تشاء من غير موعد ، وأنت تستطيع أن تحدد بَدْءَ المقابلة ونهايتها وموضوعها . . إلخ ، فزمام الأمر في يدك .

وقد تعلم سيدنا رسول الله خُلق الله ، فكان إذا وضع يده في يد أحد الصحابة يُسلِّم عليه لا ينزع يده منه حتى يكون هو الذي ينزع يده من يد رسول الله ، وهذا أدب من أدب الحق تبارك وتعالى إذن : فالعبودية لله تعالى عبودية لرحمن ، لا عبودية لجبار .

وأول ما نلحظ في هذه الآية أنه تعالى أضاف العباد إلى الرحمن ، حتى لا نظن أن العبودية لله ذِلَّة ، وأن القرآن كلام رب وُضِع بميزان ، ثم يذكر سبحانه وتعالى صفات هؤلاء العباد ، صفاتهم في ذواتهم ، وصفاتهم مع مجتمعهم ، وصفاتهم مع ربهم ، وصفاتهم في الارتقاء

بالمجتمع إلى الطُّهر والنقاء .

أما في ذواتهم ، فالإنسان له حالتان هما محلُّ الاهتمام : إما قاعد ، وإما سائر ، ونُخرِج حالة النوم لأنه وقت سكون ، أما حال القعود فالحركة محدودة في ذاته ، والمهم حال الحركة والمشي ، وهذا هو الحال الذي ينبغي الالتفات إليه .

لذلك يوضح لنا ربنا عز وجل كيف نمشي فيقول : ﴿ وَعِبَادُ الرحمن الذين يَمْشُونَ على الأرض هَوْناً ﴾ [الفرقان : 63] .

يعني : برفق وفي سكينة ، وبلين دون اختيال ، أو تكبُّر ، أو غطرسة ، لماذا ؟ لأن المشي هو الذي سيُعرِّضك لمقابلة مجتمعات متعددة ، وهذا الأدب الرباني في المشي يُحدِث في المجتمع استطراقاً إنسانياً يُسويِّ بين الجميع .

وفي موضع آخر يقول تعالى في هذه المسألة : ﴿ وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلاَ تَمْشِ فِي الأرض مَرَحاً ﴾ [لقمان : 18] ﴿ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأرض وَلَن تَبْلُغَ الجبال طُولاً ﴾ [الإسراء : 37] .

(137/563)

وتصعير الخدّ أنْ تُميله كِبْراً وبَطَراً وأصله (الصعر) مرض في البعير يصيب عنقه فيسير مائلاً ، ومَنْ أراد أن يسير مُتكبّراً مختالاً فليتكبر بشيء ذاتي فيه ، وهل لديك شيء ذاتي تستطيع أن تضمنه لنفسك أو تحتفظ به ؟

إنْ كنتَ غنياً فقد تفتقر ، وإنْ كنتَ قوياً صحيحاً قد يصيبك المرض فيُقعدك ، وإنْ كنتَ عزيزاً اليوم فقد تذلّ غداً .

إذن : فكل دواعي التكبُّر ليست ذاتية عندك ، إنما هي موهوبة من الله ، فعلامَ التكبُّر إذن ؟ !

لذلك يقولون في المثل (اللي يخرز يخرز على وركه) إنما يخرز على وركِ غيره ؟ ! وأصل هذا المثل أن صانع السروج كان يأتي بالصبي الذي يعمل تحت يده ، ويجعله يمدّ رِجله ، ويضع السرج على وركه ، ثم يأخذ في خياطته ، فرآه أحدهم فرَقَّ قلبه للصبي فقال للرجل : إنه ضعيف لا يتحمل هذا ، فإنْ أردتَ فاجعله على وركك أنت . كذلك الحال هنا ، مَنْ أراد أن يتكبّر فليتكبّر بشيء ذاتي فيه ، لا بشيء موهوب له .

والمتكبِّر شخص ضُرِب الحجاب على قلبه ، فلم يلتفت إلى ربه الأعلى ، ويرى أنه أفضل من خَلْق الله جميعاً ، ولو استحضر كبرياء ربه لاستحى أن يتكبر على خَلْق الله ، فتكبُّره دليل على غفلته عن هذه المسألة .

لذلك يقول الناظم :

فَدَعْ كُلَّ طاغِيةٍ للزمَان . . . فَإِنَّ الزمَانَ يُقيم الصَّعَرْ

يعني : سيرَى من الزمان ما يُقوِّم اعوجاجه ، ويُرغِم أنفه .

ومعنى ﴿ مَرَحاً ﴾ [لقمان : 18] المرح : الفرح ببطر . والبطر : أنْ تأخذ النعمة وتنسى المنعم ، وتتنعّم بها ، وتعصى مَنْ وهبك إياها ، إذن : المنهيّ عنه الفرح المصاحب للبطر ، وإنكار فضل المنعم ، أما الفرح المصاحب للشكر فمحمود ، كما قال تعالى : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ ﴾ [يونس : 58] .

وفي موضع آخر يُعلِّمنا أدب المشي ، فيقول : ﴿ واقصد فِي مَشْيِكَ واغضض مِن صَوْتِكَ ﴾ [لقمان : 19] .

(138/563)

وقالوا : إن المراد بالمشي الهَوْن ، هو الذي يسير فيه الإنسان على سجيته دون افتعال للعظمة أو الكِبْر ، لكن دون انكسار وذِلّة ، وسيدنا عمر رضي الله عنه حينما رأى رجلاً يسير متماوتاً ضربه ، ونهاه عن الانكسار والتماوت في المشية ، وهكذا فمِشْية المؤمن وَسَط ، لا متكبر ولا متماوت متهالك .

ثم تتحدث الآية بعد ذلك عن صفات عباد الرحمن وعلاقاتهم . بالناس : ﴿ وَإِذَا

خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قَالُواْ سَلاَماً ﴾ [الفرقان : 63] والجاهل : هو السَّفيه الذي لا يزن الكلام ، ولا يضع الكلمة في موضعها ، ولا يدرك مقاييس الأمور ، لا في الخَلْق ولا في الأدب .

وسبق أن فرَّقْنا بين الجاهل والأميّ : الأميّ هو خالي الذهن ، ليس عنده معلومة يؤمن بها ، وهذا من السهل إقناعه بالصواب . أما الجاهل فعنده معلومة مخالفة للواقع ؛ لذلك يأخذ منك مجهوداً في إقناعه ؛ لأنه يحتاج أولاً لأن تُخرِج من ذهنه الخطأ ، ثم تُدخِل في قلبه الصواب .

والمعنى : إذا خاطبك الجاهل ، فحذار أن تكون مثله في الردّ عليه فتَسْفَه عليه كما سَفِهَ عليك ، بل قرِّعه بأدب وقُلْ ﴿ سَلاَماً ﴾ [الفرقان : 63] لتُشعِره بالفرق بينكما .

والحق تبارك وتعالى يُوضِّح في آية أخرى ثمرة هذا الأدب ، فيقول : ﴿ ادفع بالتي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الذي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ [فصلت : 34]

وما أجملَ ما قاله الإمام الشافعي في هذا المعنى :

إذَا نَطَقَ السَّفِيهُ فَلا تُجِبْهُ . . . فَخَيْرٌ مِنْ إجَابتِهِ السُّكُوتُ

فإنْ كَلَّمتَه فرجتَ عَنْه . . . وَإنْ خلَّيْته كَمَداً يَمُوتُ

فإن اشتد السفيه سفاهة ، وطغى عليك وتجبر ، فلا بُدَّ لك من رَدّ العدوان بمثله ؛ لأنك حَلُمتَ عليه ، فلم يتواضع لك ، وظنَّ حلْمك ضعفاً ، وهنا عليك أن تُريه الفرق بين

الضعف وكرم الخُلق ، كالشاعر الذي قال :

صَفَحْنَا عَنْ بني ذُهْل . . . وَقُلْنَا القَوْمُ إخوَانُ

(139/563)

عَسَى الأيامُ أنْ يُرْ . . . جِعْنَ قَوْماً كالذي كَانُوا

فَلما صرَّح الشَّر فَأَمْ . . . سَى وَهْو عُريانُ

ولم يَبقَ سوَى العُدْوا . . . نِ دِنَّاهُمْ كما دَانُوا

مشَيْنا مَشْيَة اللَيْثِ . . . غَدا والليثُ غَضْبانُ

بضَرْب فيه توهينٌ . . . وتخضيعٌ وإقرانُ

وطَعْن كفم الزِّق . . . غَدا والزِّق ملآنُ

وفي الشرِّ نجاةٌ حي . . . نَ لاَ يُنجيك إحْسَانُ

وبعْضُ الحِلْم عِنْد الجهْ . . . لِ للذِّلّةِ إذْعَانُ

وللإمام علي كرَّم الله وجهه :

إذَا كُنْتَ مُحتاجاً إلى الحِلْم إنّني . . . إلى الجَهْلِ في بَعْضِ الأحَايين أَحْوَجُ

ولِي فَرسٌ للحِلْم بالحِلْم مُلجَمٌ . . . وَلِي فَرَسٌ للجَهْلِ بالجَهْلِ مُسْرَجُ

فَمَنْ رَامَ تَقْوِيمِي فَإِنِّي مُقَوَّمٌ . . . وَمَنْ رَامَ تَعْوِيجِي فَإِنِّي مُعَوِّجُ

ومعنى : ﴿ قَالُواْ سَلاَماً ﴾ [الفرقان : 63] قالوا : المراد هنا سلام المتاركة ، لا سلام الأمان الذي نقوله في التحية (السلام عليكم) فحين تتعرَّض لمن يؤذيك بالقول ، ويتعدى عليك باللسان تقول له سلام يعني : سلام المتاركة .

وبعض العلماء يرى أن كلمة ﴿ قَالُواْ سَلاَماً ﴾ [الفرقان : 63] هنا تعني المعنيين : سلام المتاركة ، وسلام التحية والأمان ، فحين تحلُم على السَّفيه فلا تُجَاريهِ تقول له : لو تماديتُ معك سأوذيك ، وأفعل بك كذا وكذا ، فأنت بذلك خرجتَ من سلام المتاركة إلى سلام التحية والأمان .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ اللغو أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ لاَ نَبْتَغِي الجاهلين ﴾ [القصص : 55] .

ألم يقُلْ إبراهيم عليه السلام لعمه آزر لما أصرَّ على كُفْره : ﴿ سَلاَمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ ربي ﴾ [مريم : 47] .

والمعنى : لو وقفتُ أمامك لربما اعتديتُ عليك ، وتفاقمتْ بيننا المشكلة .

وبعد أن تناولتْ الآيات حال عباد الرحمن في ذواتهم ، وحالهم مع الناس ، تتحدث الآن عن حالهم مع ربهم .

وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (64)

والبيتوتة تكون بالليل ، حين يأوي الإنسان إلى بيته بعد عناء اليوم وسَعْيه ، وبعد أن تقلَّب في ألوان شتَّى من نِعَم الله عليه ، فحين يأوي إلى مبيته يتذكر نِعَم الله التي تجلَّتْ عليه في ذلك اليوم ، وهي نِعَم ليست ذاتية فيه ، إنما موهوبة له من الله ؛ لذلك يتوجّه إليه سبحانه بالشكر عليها ، فيبيت لله ساجداً وقائماً .

كما قال سبحانه : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَآءَ الليل سَاجِداً وَقَآئِماً يَحْذَرُ الآخرة وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِ ﴾ [الزمر : 9] .

وقال سبحانه : ﴿ كَانُواْ قَلِيلاً مِّن الليل مَا يَهْجَعُونَ * وبالأسحار هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الذاريات : 1718] .

لكن ، أيطلبُ اللهُ تعالى منَّا ألاَّ نهجعَ بالليل ، وقد قال في آية أخرى : ﴿ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً ﴾ [النبأ : 9] .

قالوا : ليس المراد قيام الليل كله ، إنما جزء منه حين تجد عندك النشاط للعبادة ، كما قال الحق سبحانه وتعالى في خطاب النبي صلى الله عليه وسلم :

﴿ قُمِ الليل إِلاَّ قَلِيلاً * نِّصْفَهُ أَوِ انقص مِنْهُ قَلِيلاً * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ القرآن تَرْتِيلاً ﴾ [

المزمل : 24] .

حتى قال ابن عباس : مَنْ صلّى بعد العشاء ركعتين فأكثر كان كَمَنْ بَاتَ لله ساجداً وقائماً ، فربُّك يريد منك أن تذكره قبل تنام ، وأن تتأمل نِعَمه عليك فتشكره عليها .

وذكر سبحانه حالتي السجود والقيام ﴿ سُجَّداً وَقِيَاماً ﴾ [الفرقان : 64] لأن بعض الناس يصعُب عليهم أنْ يسجدوا ، وآخرين يسهل عليهم السجود ، ويعصب عليهم القيام ، فذكَر الله سبحانه الحالتين ليعدل فيهما .

وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (65)

(141/563)

هذا القول يناسب عباد الرحمن الذين يفعلون الخيرات ، طمعاً في الثواب ، وخوفاً من العقاب ، فهم الذين يقولون ﴿ رَبَّنَا اصرف عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً ﴾ [الفرقان : 65] كلمة (غرام) نقولها بمعنى الحب والهُيَام والعشق ، ومعناها : اللزوم ، أي لازم لهم لا ينفك عنهم في النار أبداً ؛ لأن العاقبة إما جنة أبداً ، أو نار أبداً .

فمعنى ﴿ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً ﴾ [الفرقان : 65] أي : لازماً دائماً ، ليس مرة واحدة وتنتهي المسألة .

ومنه كلمة (الغريم) ، وهو الذي يلازم المدين ليأخذ منه دَيْنه .

وكلمة ﴿ رَبَّنَا اصرف عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ﴾ [الفرقان : 65] كأنهم متصورون أن جهنم ستسعى إليهم ، وأن بينها وبينهم لدداً ، بدليل أنها ستقول : ﴿ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾ [ق : 30] .

ثم تذكر الآيات سبب هذه المقوله : ﴿ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً ﴾

ساء الشيء أي : قَبُحَ ، وضده حَسُن ، لذلك قال تعالى عن الجنة في مقابل هذه الآية : ﴿ حَسُنَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً ﴾ [الفرقان : 76] وهكذا السوء يلازمه القُبْح ، والحُسْن يلازمه الحُسْن .

وقال : ﴿ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً ﴾ [الفرقان : 66] حتى لا يظنوا أن النار فترة وتنتهي ، ثم يخرجون منها ، فهي مستقرهم الدائم ، ومُقامهم الذي لا يفارقونه .

أو أن الحق سبحانه وتعالى أراد بهذا نوعين من الناس : مؤمن أسرف في بعض السيئات ولم يتُبْ ، أو لم يتقبل الله منه توبته ، فهو في النار لحين ، والمستقر هنا بمعنى المكان المؤقت ، أما المقام فهو الطويل .

إذن : النار ساءتْ مستقراً لمن أسرف على نفسه ولم يتُبْ ، أو لم يتقبل الله توبته ، إنما ليست إقامة دائمة ، والمقام يكون للخالدين فيها أبداً .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ والذين إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ ﴾

الإسراف : تبديد ما تملك فيها عنه غَنَاء ، فلا نقول (مسرف) مثلاً للذي يأكل ليحفظ حياته ؛ لذلك يقول سيدنا عمر رضي الله عنه لولده عاصم : كُلْ نصف بطنك ، ولا تطرح ثوباً إلا إذا استخلقْتَه ، ولا تجعل كل رزقك في بطنك وعلى جسدك .

والإسراف أن تنفق في غير حِلٍّ ، فلا سرف في حِلٍّ ، حتى إنْ أسرف الإنسان في شيء من الترف المباح ، فإنه يؤدي لنفسه بعض الكماليات ، في حين يؤدي للمجتمع أشياء ضرورية ، فالذي لا يرتدي الثوب إلا (مكْوياً) كان بإمكانه أن يرتديه دون كَيٍّ ، فكَيُّ الثوب في حقه نوع من الترف ، لكنه ضرورة بالنسبة (للمكوجي) حيث يسَّر له أكل العيش .

والذي يستقل سيارة أجرة وهو قادر على السير ، أو يجلس على (القهوة) كل يوم ليمسح حذاءه وهو قادر على أن يمسحه بنفسه ، هذه كلها ألوان من الترف بالنسبة لك ، لكنها ضرورة لغيرك ، فلا يُسمَّى هذا إسرافاً .

وقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً ﴾ [الفرقان : 67] أي : بين الإسراف والتقتير ﴿ قَوَاماً ﴾ [الفرقان : 67] يعني : وسطاً أي : أن الإنفاق وسط بين طرفين ، وقوام الشيء : ما به يقوم ، والحياة كلها تقوم على عملية التوسُّط بين الإسراف والتقتير .

وأذكر ونحن تلاميذ كانوا يُعلِّموننا نظرية الروافع ، وكيف نُوسِّط مركزاً على عصا من الخشب ، بحيث يتساوى الذراعان ، ويكونان سواء ، لا تميل إحداهما بالأخرى ، وإذا أرادتْ إحداهما أن تميل قاومتْها الأخرى ، كأنها تقول لها : نحن هنا . فإذا ما علقتَ ثِقَلاً بأحد الذراعين لزمك أن تطيل الأخرى لتقاوم هذا الثقل .

(143/563)

ويروي أن عبد الملك بن مروان لما أراد أن يُزوِّج ابنته فاطمة من عمر بن عبد العزيز اختبره بهذا السؤال ليعرف ميزانه في الحياة : يا عمر ، ما نفقتك ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، نفقتي حسنة بين سيئتين ، ثم تلا هذه الآية : ﴿ والذين إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً ﴾ [الفرقان : 67] .

فعلم الخليفة أن زوج ابنته يسير سَيْراً يضمن له ولزوجته مُقوّمات الحياة ، ويضمن كذلك المقومات العليا للنفس وللمجتمع .

وسبق أن ذكرنا أن الإنسان الذي ينفق كل دَخْله لا يستطيع أن يرتقي بحياته وحياة أولاده ؛ لأنه أسرف في الإنفاق ، ولم يدخر شيئاً ليبني مثلاً بيتاً ، أو يشتري سيارة . . الخ .

ومصيبة المجتمع أعظم في حال التقتير ، فمصلحة المجتمع أنْ تُنفق ، وأن تدخر ، كما قال

سبحانه : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ ﴾ [الإسراء : 29] .

وهكذا جعل الله لنا ميزاناً بين الإسراف والتقتير ؛ ذلك لأن المال قِوَام الحياة ، والذي يُقتِّر يُقتِّر على نفسه وعلى الناس ، فليست له مطلوبات يشتريها ، ويشارك بها في حركة الحياة ، وينتفع بها غيره ، فهذه السلع وهذه الصناعات وهؤلاء العمال ، وأهل الحِرَف من أين يرتزقون إذن وليس هناك استهلاك ورواج لسلعهم ؟ لا شَكَّ أن التقتير يُحدِث كساداً ، ويُحدِث بطالة ، وهما من أشد الأمراض فتكاً بالمجتمع .

ولو نظرتَ إلى رغيف العيش ، وهو أبسط ضروريات الحياة ، كم وراءه من عمال وصُنَّاع وزُرَّاع ومهندسين ومطاحن ومخازن ومصانع وأفران ، وهَبْ أنك أحجمت مثلاً عنه ، ماذا يحدث ؟

إذن : ربك يريدك أن تنفق شيئاً ، وتدخر شيئاً يتيح لك تحقيق ارتقاءات حياتك وطموحاتها ؛ لذلك خُتِمَتْ الآية السابقة بقوله تعالى : ﴿ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَّحْسُوراً ﴾ [الإسراء : 29] .

(144/563)

ملومَ النفس لما بددتَ من أموال لم ينتفع بها عيالك ، ومحسوراً حينما ترى غيرك ارتقى في حياته وأنت لم تفعل شيئاً . إذن : فالإنسان ملومٌ إنْ أسرف ، محسورٌ إنْ قتّر ، والقوام في التوسُّط بين الأمرين ، وبالحسنة بين السيئتين ، كما قال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ، ولذلك قالوا : خير الأمور الوسط . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(145/563)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا (63) ﴾

أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ وعباد الرحمن ﴾ قال : هم المؤمنون ﴿ الذين يمشون على الأرض هوناً ﴾ قال : بالطاعة والعفاف والتواضع .

وأخرج ابن حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ يمشون على الأرض هوناً ﴾ قال : علماء حكماء .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن الضحاك في قوله ﴿ هوناً ﴾ قال : بالسريانية .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي عمران الجوني في قوله ﴿ هوناً ﴾ قال : حلماء بالسريانية .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ميمون بن مهران في قوله ﴿ هوناً ﴾ قال : حلماء بالسريانية .

وأخرج عبد الرزاق والفريابي وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في شعب الإيمان عن مجاهد في قوله ﴿ وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً ﴾ قال : بالوقار والسكينة ﴿ وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً ﴾ قال : سداداً من القول .

وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة . مثله .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم في قوله ﴿ يمشون على الأرض هوناً ﴾ قال : لا يشتدون .

وأخرج أبو نعيم في الحلية عن أبي هريرة وابن النجار عن ابن عباس قالا : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " سرعة المشي تذهب بهاء المؤمن " .

وأخرج الخرائطي في مكارم الأخلاق عن الفضيل بن عياض في قوله ﴿ الذين يمشون على الأرض هوناً ﴾ قال : بالسكينة والوقار ﴿ وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً ﴾ قال : إن جهل عليه حلم ، وإن أسيء إليه أحسن ، وإن حرم أعطى ، وإن قطع وصل .

وأخرج الآمدي في شرح ديوان الأعشى بسنده عن عمر بن الخطاب : أنه رأى غلاماً يتبختر في مشيته فقال : إن البخترة مشية تكره إلا في سبيل الله ، وقد مدح الله أقواماً فقال ﴿ وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً ﴾ فاقصد في مشيتك .

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ الذين يمشون على الأرض هوناً ﴾ قال : تواضعاً لله لعظمته ﴿ وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً ﴾ قال : كانوا لا يجهلون على أهل الجهل .

وأخرج أبو نعيم في الحلية عن محمد بن علي الباقر قال : سلاح اللئام قبيح الكلام .

وأخرج أحمد عن النعمان بن مقرن المزني : أن رجلاً سب رجلاً عند النبي صلى الله عليه وسلم ، فجعل الرجل المسبوب يقول : عليك السلام فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " اما أن ملكاً بينكما يذب عنك كلما شتمك هذا قال له : بل أنت . وأنت أحق به ، وإذا قلت له : عليك السلام قال : لا . بل لك أنت أحق به " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير ﴿ وإذا خاطبهم الجاهلون ﴾ قال : السفهاء ﴿ قالوا سلاماً ﴾ يعني ردوا معروفاً ﴿ والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً ﴾ يعني يصلون بالليل .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والبيهقي في شعب الإيمان عن الحسن ﴿

يمشون على الأرض هوناً ﴾ قال : يمشون حلماء متواضعين لا يجهلون على أحد ، وإن جهل عليهم جاهل لم يجهلوا . هذا نهارهم إذا انتشروا في الناس ﴿ والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً ﴾ قال : هذا ليلهم إذا خلوا بينهم وبين ربهم .

(147/563)

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن قال : كان يقال : ابن آدم عف عن محارم الله تكن عابداً ، وارض بما قسم الله لك تكن غنياً ، وأحسن مجاورة من جاورك من الناس تكن مسلماً ، وصاحب الناس بالذي تحب أن يصاحبوك به تكن عدلاً ، وإياك وكثرة الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلب . إنه قد كان بين أقوام يجمعون كثيراً ، ويبنون شديداً ، ويأملون بعيداً ، فأين هم ؟ أصبح جمعهم بوراً ، وأصبح عملهم غروراً ، وأصبحت مساكنهم قبوراً .

ابن آدم إنك مرتهن بعملك ، وأنت على أجلك معروض على ربك ، فخذ مما في يديك لما بين يديك عند الموت يأتيك من الخير . يا ابن آدم طأ الأرض بقدمك فإنها عن قليل قبرك ، إنك لم تزل في هدم عمرك منذ سقطت من بطن أمك .

يا ابن آدم خالط الناس وزايلهم : خالطهم ببدنك ، وزايلهم بقلبك وعملك .

يا ابن آدم أتحب أن تذكر بحسناتك وتكره أن تذكر بسيئاتك ، وتبغض على الظن وتقيم

على اليقين . وكان يقال : أن المؤمنين لما جاءتهم هذه الدعوة من الله صدقوا بها وافضاء بعينها خشعت لذلك قلوبهم ، وأبدانهم ، وأبصارهم ، كنت والله إذا رأيتهم قوماً كأنهم رأي عين . والله ما كانوا بأهل جدل وباطل ، ولكن جاءهم من الله أمر فصدقوا به ، فنعتهم الله في القرآن أحسن نعت فقال ﴿ وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً ﴾ قال : الحسن (والهون) في كلام العرب : اللين والسكينة والوقار ﴿ وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً ﴾ قال : حلماء لا يجهلون ، وإن جهل عليهم حلموا . يصاحبون عباد الله نهارهم مما تسمعون .

(148/563)

ثم ذكر ليلهم خير ليل قال ﴿ والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً ﴾ ينتصبون لله على أقدامهم ، ويفترشون وجوههم سجداً لربهم ، تجري دموعهم على خدودهم خوفاً من ربهم . قال الحسن : لأمر مّا سهر ليلهم ، ولأمر ما خشع نهارهم ﴿ والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراماً ﴾ قال : كل شيء يصيب ابن آدم لم يدم عليه فليس بغرام ، إنما الغرام اللازم له ما دامت السموات والأرض ، قال : صدق القوم . والله الذي لا إله إلا هو فعلوا ولم يتمنوا . فاياكم وهذه الأماني يرحمكم الله ! فإن الله لم يعط

عبد بالمنية خيراً في الدنيا والآخرة قط . وكان يقول : يا لها من موعظة لو وافقت من القلوب حياة !

وأخرج عبد بن حميد عن أبي سعيد الخدري

" عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله ﴿ إن عذابها كان غراماً ﴾ قال : الدائم " .

وأخرج الطستي عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق قال له : أخبرني عن قوله ﴿ إن عذابها كان غراماً ﴾ قال : ملازماً شديداً كلزوم الغريم الغريم قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم . أما سمعت قول بشر بن أبي حازم ؟

ويوم النسار ويوم الجفار . . . كانا عذاباً وكانا غراماً

وأخرج ابن الأنباري عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق قال له : أخبرني عن قوله ﴿ كان غراماً ﴾ ما الغرام ؟ قال : المولع . قال فيه الشاعر :

وما أكلة إن نلتها بغنيمة . . . ولا جوعة إن جعتها بغرام

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن الحسن في قوله ﴿ إن عذابها كان غراماً ﴾ قال : قد علموا أن كل غريم يفارق غريمه إلا غريم جهنم .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا ﴾ قال : هم المؤمنون . لا يسرفون فيقعوا في معصية

الله ، ولا يقترون فيمنعون حقوق الله .

وأخرج عبد بن حميد عن عاصم أنه قرأ (ولم يقتروا) بنصب الياء ورفع التاء .

(149/563)

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة في قوله ﴿ والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا ﴾ قال : الاسراف النفقة في معصية الله ، والاقتار الامساك عن حق الله قال : وإن الله قد فاء لكم فيئة فانتهوا إلى فيئة الله . قال في المنفق ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً ﴾ [الأحزاب : 70] قال : قولوا صدقاً عدلاً . وقال للمؤمنين ﴿ قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ﴾ [النور : 30] عما لا يحل لهم . وقال في الاستماع ﴿ الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ﴾ [الزمر : 18] وأحسنه طاعة الله .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن شهاب في قوله ﴿ لم يسرفوا ولم يقتروا ﴾ قال لا ينفقه في باطل ولا يمنعه من حق .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن يزيد بن أبي حبيب ﴿ والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا ﴾ قال : أولئك أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا لا يأكلون طعاماً يريدون به نعيماً ، ولا يلبسون ثوباً يريدون به جمالاً ، كانت قلوبهم على قلب واحد .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الأعمش في قوله ﴿ بين ذلك قواماً ﴾ قال : عدلاً .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن عمر مولى غفرة قال ﴿ القوام ﴾ أن لا تنفق من غير حق ، ولا تمسك من حق هو عليك .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن وهب بن منبه ﴿ وكان بين ذلك قواماً ﴾ قال : الشطر من أموالهم .

وأخرج ابن جرير عن يزيد بن مرة الجعفي قال : العلم خير من العمل ، والحسنة بين السيئتين . يعني إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وخير الأمور أوساطها .

وأخرج عبد الرزاق عن الحسن في قوله ﴿ لم يسرفوا ولم يقتروا ﴾ أن عمر بن الخطاب قال : كفى سرفاً أن الرجل لا يشتهي شيئاً إلا اشتراه فأكله .

وأخرج أحمد عن أبي الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " من فقه الرجل رفقه في معيشته " . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 6 صـ ﴾

(150/563)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله: ﴿ وَعِبَادُ الرحمن ﴾ :

رفعٌ بالابتداءِ . وفي خبره وجهان، أحدهما : الجملةُ الأخيرةُ في آخرِ السورة : ﴿ أولئك يُجْزَوْنَ ﴾ [الآية : 75] وبه بَدَأ الزمخشريُّ . "والذين يَمْشُون" وما بعده صفاتٌ للمبتدأ . والثاني : أنَّ الخبرَ "يَمْشُوْن" . العامَّةُ على "عباد" . واليماني "عُبَّاد" بضمِّ العين، وشدِّ الباءِ جمع عابد . والحسن "عُبُد" بضمتين .

والعامَّةُ "يَمْشُوْن" بالتخفيفِ مبنياً للفاعل . واليماني والسُلميُّ بالتشديد مبنياً للمفعول .

قوله: ﴿ هَوْناً ﴾ : إمَّا نعتُ مصدرٍ أي : مَشْياً هَوْناً، وإمَّا حالٌ أي : هَيِّنِيْن . والهَوْن : اللِّيْنُ والرِّفْقُ .

قوله: ﴿ سَلاَماً ﴾ : يجوز أن ينتصبَ على المصدرِ بفعلٍ مقدرٍ أي : نُسَلِّم سَلاماً، أو نُسَلِّمُ تَسْليماً منكم لا نُجاهِلكم، فأُقيم السِّلام مُقامَ التسليمِ . ويجوز أَنْ ينتصِبَ على المفعول به أي : قالُوا هذا اللفظَ . قال الزمخشري : أي قالوا سَداداً مِنَ القولِ يَسْلَمُوْن فيه من الأذى . والمرادُ سَلامُهم من السَّفَهِ كقوله :

3495 ألا لا يَجْهَلَنْ أحدٌ علينا . . . فنجهلَ فوقَ جَهْلِ الجاهِلينا

ورَجَّح سيبويه أنَّ المرادَ بالسَّلام السَّلامةُ لا التسليمُ ؛ لأنَّ المؤمنين لم يُؤْمَروا قَطُّ بالتسليم على الكفرة، وإنما أُمِروا بالمُسالَمَةِ، ثم نُسِخَ ذلك، ولم يَذْكُرْ سيبويهِ في كتابِه نَسْخاً إلاَّ في

هذه الآيةِ .

وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (64)

(151/563)

قوله : ﴿ سُجَّداً ﴾ : خبرُ "يَبِيْتُون" ويَضْعُفُ أَنْ تكونَ تامةَ . أي : دَخَلوا في البَيات . و "سُجَّداً" حال . و "لربِّهم" متعلقٌ بسُجَّداً وقَدَّمَ السجودَ على القيام ، وإن كان بعدَه في الفعلِ لاتفاق الفواصل . وسُجَّداً جمعُ ساجِد كضُرَّب في ضارِب . وقرأ أبو البرهسم "سُجوداً" بزنة قُعُود . و "يَبِيْتُ" هي اللغةُ الفاشيةُ ، وأَزْدُ السَّراة وبُجَيْلَة يقولون : يَباتُ وهي لغةُ العوامِّ اليوم .

وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (65)

قوله : ﴿ غَرَاماً ﴾ : أي : لازِماً دائماً . وعن الحسن : كلُّ غَريمٍ يفارِقُ غَريمه إلاَّ غريمَ جهنَّمَ . وأنشدُوا قولَ بشر بن أبي خازم :

3496 ويومُ النِّسَارِ ويومُ الجِفا . . . رِ كانا عَذاباً وكانا غَراما

وقال الأعشى :

3497 إن يُعاقِبْ يكُنْ غَراماً وإنْ يُع . . . طِ جَزِيلاً فإنَّه لا يُبالي

ف " غراماً " بمعنى لازم .

إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (66)

(152/563)

قوله : ﴿ سَآءَتْ ﴾ : يجوزُ أَنْ تكونَ بمعنى أَخْزَنَتْ فتكونَ متصرفةً ، ناصبةً المفعولَ به ، وهو هنا محذوفٌ أي : إنها أي : جهنَم أَحْزَنَتْ أصحابَها وداخليها . ومُسْتقراً : يجوزُ أن يكونَ تمييزاً ، وأَنْ يكونَ حالاً . ويجوز أَنْ تكونَ " ساءَتْ " بمعنى بِئْسَتْ فتعطى حكمَها . ويكونُ المخصوصُ محذوفاً . وفي ساءَتْ ضميرٌ مبهمٌ . و " مُسْتَقَراً " يتعيَّنُ أَنْ يكونَ تمييزاً أي : ساءَتْ هي . ف " هي " مخصوصٌ . وهو الرابطُ بين هذه الجملةِ وبين ما وَقَعَتْ خبراً عنه ، وهو " إنَّها " ، وكذا قَدَّره الشيخ . وقال أبو البقاء : " ومُسْتَقَرًّا تمييزٌ . وساءَتْ بمعنى بِئْسَ " . فإن قيلَ : يَلْزَمُ من هذا إشكالٌ ، وذلك أنه يَلْزَمُ تأنيثُ فعلِ الفاعلِ المذكَّرِ مِنْ غيرِ مُسَوِّغٍ لذلك ، فإنَّ الفاعلَ في " ساءَتْ " على هذا يكون ضميراً عائداً على ما بعدَه ، وهو " مُسْتقراً ومُقاماً " ، وهما مذكَّران فمِنْ أين جاء التأنيثُ ؟ والجوابُ : أن المستقرَّ عبارةٌ عن جهنَّمَ فلذلك جاز تأنيثُ فِعْلِه . ومثلُه قولُه :

3498 أَوْ حُرَّةٌ عَيْطَلٌ ثَبْجاءُ مُجْفَرَةٌ . . . دعائمُ الزَّوْرِ نعْمَتْ زَوْرَقُ البلدِ

ومُسْتقراً ومُقاماً : قيل : مُترادفان ، وعُطِفَ أحدُهما على الآخر لاختلافِ لَفْظَيْهما .

وقيل : بل هما مختلفا المعنى ، فالمستقرُّ : للعُصاةِ فإنهم يَخْرُجون . والمُقام : للكفَّارِ فإنَّهم يَخْلُدون .

وقرأت فرقةُ " مَقاماً " بفتح الميم أي : مكانَ قيامٍ . وقراءةُ العامَّةِ هي المطابِقَةُ للمعنى أي : مكانَ إقامةٍ وثُوِيّ وقوله : ﴿ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرّاً ﴾ يُحتمل أَنْ يكونَ مِنْ كلامِهم ، فتكونَ منصوبةً المحلِّ بالقول ، وأَنْ تكونَ مِنْ كلامِ اللهَ تعالى .

وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا (67)

(153/563)

قوله : ﴿ وَلَمْ يَقْتُرُواْ ﴾ : قرأ الكوفيون بفتح الياء وضم التاء وابن كثير وأبو عمرو بالفتحِ والكسرِ . ونافع وابن عامر بالضم والكسر مِنْ أَقْتَرَ . وعليه ﴿ وَعَلَى المقتر قَدَرُهُ ﴾ [البقرة : 236] . وأنكر أبو حاتم/ " أقتر " وقال : " لا يُناسِب هنا فإنَّ أَقْتَرَ بمعنى افتقر ، ومنه ﴿ وَعَلَى المقتر قَدَرُهُ ﴾ . ورُدَّ عليه : بأن الأصمعيَّ وغيرَه حَكَوْا أَقْتَرَ بمعنى ضَيَّق .

وقرأ العلاء بن سيابة واليزيدي بضم الياء وفتح القاف وكسرِ التاء المشددةِ في قَتَّر بمعنى

ضَيِّق .

قوله : ﴿ وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً ﴾ في اسم كان وجهان ، أشهرهما : أنه ضميرٌ يعودُ على الإِنفاقِ المفهومِ مِنْ قوله : " أَنْفَقُوا " أي : وكان إنفاقُهم مُسْتوياً قَصْداً لا إسرافاً ولا تَقْتيراً . وفي خبرِها وجهان . أحدُهما : هو قَواماً و " بينَ ذلك " : إمَّا معمولٌ له ، وإمَّا ل " كان " عند مَنْ يرى إعمالَها في الظرف ، وإمَّا لمحذوفٍ على أنه حالٌ مِنْ " قَواما " . ويجوزُ أَنْ يكونَ " بين ذلك قواماً " خبرَيْن ل " كان " عند مَنْ يرى ذلك ، وهم الجمهور خلافاً لابن دُرُسْتَوَيْه . الثاني : أن الخبرَ " بين ذلك " و " قَواماً " حالٌ مؤكدةٌ .

والثاني : من الوجهين الأَوَّلين : أَنْ يكونَ اسمُها " بين ذلك " وبُني لإضافتِه إلى غيرِ متمكِّنٍ ، و " قواماً " خبرُها . قاله الفراء . قال الزمخشري : " وهو من جهةِ الإعراب لا بأسَ به ، ولكنه من جهةِ المعنى ليس بقويٍ ، لأنَّ ما بينَ الإِسْرافِ والتَّقْتيرِ قَوامٌ لا مَحالةَ ، فليس في الخبر الذي هو معتمدُ الفائدةِ فائدةٌ " . قلت : هو يُشْبِهُ قولَك " كان سيدُ الجارية مالكَها " .

وقرأ حسان بن عبد الرحمن " قِواما " بالكسرِ فقيل : هما بمعنىً . وقيل : بالكسرِ اسمُ ما يُقام به الشيءُ . وقيل : بمعنى سَداداً ومِلاكاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 502.497 ﴾

فصل فى منزلة التواضع

قال ابن القيم :

فصل ومن منازل إياك نعبد وإياك نستعين منزلة التواضع

قال الله تعالى: ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ [الفرقان: 63] أي سكينة ووقارا متواضعين غير أشرين ولا مرحين ولا متكبرين قال الحسن: علماء حلماء وقال محمد بن الحنفية: أصحاب وقار وعفة لا يسفهون وإن سفه عليهم حلموا والهون بالفتح في اللغة: الرفق واللين و الهون بالضم: الهوان فالمفتوح منه: صفة أهل الإيمان والمضموم صفة أهل الكفران وجزاؤهم من الله النيران وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [المائدة: 54] لما كان الذل منهم ذل رحمة وعطف وشفقة وإخبات عداه بأداة على تضمينا لمعاني هذه الأفعال فإنه لم يرد به ذل الهوان الذي صاحبه ذليل وإنما هو ذل اللين والانقياد الذي صاحبه ذلول فالمؤمن ذلول كما في الحديث: "المؤمن كالجمل الذلول والمنافق والفاسق ذليل وأربعة يعشقهم الذل أشد العشق: الكذاب والنمام والبخيل والجبار" وقوله: ﴿ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ هو من عزة القوة والمنعة والغلبة قال عطاء رضي الله عنه: للمؤمنين كالوالد لولده وعلى الكافرين كالسبع على فريسته

كما قال في الآية الأخرى: ﴿ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ [الفتح: 29] وهذا عكس حال من قيل فيهم:

كبر علينا وجبنا عن عدوكم . . . لبئست الخلتان الكبر والجبن

وفي صحيح مسلم من حديث عياض بن حمار رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله أوحى إلي: أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ولا يبغي أحد على أحد"

(155/563)

وفي صحيح مسلم عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر" وفي الصحيحين مرفوعا: "ألا أخبركم بأهل النار كل عتل جواظ مستكبر"

وفي حديث احتجاج الجنة والنار: أن النار قالت: مالي لا يدخلني إلا الجبارون والمتكبرون وقالت الجنة: مالي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم وهو في الصحيح وفي صحيح مسلم عن أبي سعيد وعن أبي هريرة رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يقول الله عز وجل: العزة إزاري والكبرياء ردائي فمن نازعني عذبته"

وفي جامع الترمذي مرفوعا عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه: "لا يزال الرجل يذهب بنفسه حتى يكتب في ديوان الجبارين فيصيبه ما أصابهم" وكان النبي صلى الله عليه وسلم يمر على الصبيان فيسلم عليهم وكانت الأمة تأخذ بيده فتنطلق به حيث شاءت وكان إذا أكل لعق أصابعه الثلاث وكان يكون في بيته في خدمة أهله ولم يكن ينتقم لنفسه قط وكان يخصف نعله ويرقع ثوبه ويحلب الشاة لأهله ويعلف البعير ويأكل مع الخادم ويجالس المساكين ويمشي مع الأرملة واليتيم

في حاجتهما ويبدأ من لقيه بالسلام ويجيب دعوة من دعاه ولو إلى أيسر شيء وكان هين المؤنة لين الخلق كريم الطبع جميل المعاشرة طلق الوجه بساما متواضعا من غير ذلة جوادا من غير سرف رقيق القلب رحيما بكل مسلم خافض الجناح للمؤمنين لين الجانب لهم وقال: ألا أخبركم بمن يحرم على النار أو تحرم عليه النار تحرم على كل قريب هين لين سهل رواه الترمذي وقال: حديث حسن وقال: لو دعيت إلى ذراع أو كراع لأجبت ولو أهدي إلي ذراع أو كراع لقبلت رواه البخاري وكان يعوض المريض ويشهد الجنازة ويركب الحمار ويجيب دعوة العبد وكان يوم قريظة على حمار مخطوم بحبل من ليف عليه إكاف من ليف

فصل سئل الفضيل بن عياض عن التواضع فقال: يخضع للحق وينقاد له

ويقبله ممن قاله وقيل: التواضع أن لا ترى لنفسك قيمة فمن رأى لنفسه قيمة فليس له في التواضع نصيب وهذا مذهب الفضيل وغيره وقال الجنيد بن محمد: هو خفض الجناح ولين الجانب وقال أبو يزيد البسطامي: هو أن لا يرى لنفسه مقاما ولا حالا ولا يرى في الخلق شرا منه وقال ابن عطاء: هو قبول الحق ممن كان والعز في التواضع فمن طلبه في الكبر فهو كتطلب الماء من النار

(157/563)

وقال إبراهيم بن شيبان: الشرف في التواضع والعز في التقوي والحرية في القناعة ويذكر عن سفيان الثوري رحمه الله أنه قال: أعز الخلق خمسة أنفس: عالم زاهد وفقيه صوفي وغني متواضع وفقير شاكر وشريف سني وقال عروة بن الزبير رضي الله عنهما: رأيت عمر بن الخطاب رضي الله عنه على عاتقه قربة ماء فقلت: يا أمير المؤمنين لا ينبغي لك هذا فقال: لما أتاني الوفود سامعين مطيعين دخلت نفسي نخوة فأردت أن أكسرها وولي أبو هريرة رضي الله عنه إمارة مرة فكان يحمل حزمة الحطب على ظهره يقول طرقوا للأمير وركب زيد بن ثابت مرة فدنا ابن عباس ليأخذ بركابه فقال: مه يا ابن عم رسول الله صلى الله

عليه وسلم فقال: هكذا أمرنا أن نفعل بكبرائنا فقال: أرني يدك فأخرجها إليه فقبلها فقال: هكذا أمرنا نفعل بأهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وقسم عمر بن الخطاب رضي الله عنه بين الصحابة رضي الله عنهم حللا فبعث إلى معاذ حلة مثمنة فباعها واشترى بثمنها ستة أعبد وأعتقهم فبلغ ذلك عمر فبعث إليه بعد ذلك حلة دونها فعاتبه معاذ فقال عمر: لأنك بعت الأولى فقال معاذ وما عليك ادفع لي نصيبي وقد حلفت لأضربن بها رأسك فقال عمر رضي الله عنه: رأسي بين يديك وقد يرفق الشاب بالشيخ ومر الحسن بن علي صبيان معهم كسر خبز فاستضافوه فنزل فأكل معهم ثم حملهم إلى منزله فأطعمهم وكساهم وقال: اليد لهم لأنهم لا يجدون شيئا غير ما أطعموني ونحن نجد أكثر منه ويذكر أن أبا ذر رضي الله عنه عير بلالا رضي الله عنه بسواده ثم ندم فألقى بنفسه فحلف: لا رفعت رأسي حتى يطأ بلال خدي بقدمه فلم يرفع رأسه حتى فعل بلال

(158/563)

وقال رجاء بن حيوة قومت ثياب عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه وهو يخطب باثني عشر درهما وكانت قباء وعمامة وقميصا وسراويل ورداء وخفين وقلنسوة ورأى محمد بن واسع ابنا له يمشي مشية منكرة فقال: تدري بكم شريت أمك بثلاثمائة درهم وأبوك لا

كثر الله في المسلمين مثله أنا وأنت تمشي هذه المشية وقال حمدون القصار: التواضع أن لا ترى لأحد إلى نفسك حاجة لا في الدين ولا في الدنيا وقال إبراهيم بن أدهم: ما سررت في إسلامي إلا ثلاث مرات: كنت في سفينة وفيها رجل مضحاك كان يقول: كنا في بلاد الترك فأخذ العلج هكذا وكان يأخذ بشعر رأسي ويهزني لأنه لم يكن فى تلك السفينة أحد أحقر مني والأخرى: كنت عليلا في مسجد فدخل المؤذن وقال: اخرج فلم أطق فأخذ برجلي وجرني إلى خارج والأخرى: كنت بالشام وعلي فرو فنظرت فيه فلم أميز بين شعره وبين القمل لكثرته فسرني ذلك وفي رواية: كنت يوما جالسا فجاء إنسان فبال علي وقال بعضهم: رأيت في الطواف رجلا بين يديه شاكرية يمنعون الناس لأجله عن الطواف ثم رأيته بعد ذلك بمدة على جسر بغداد يسأل شيئا فتعجبت منه فقال لي: إني تكبرت في موضع يتواضع الناس فيه فابتلاني الله بالذل في موضع يترفع الناس فيه وبلغ عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: أن ابنا له اشترى خاتما بألف درهم فكتب إليه عمر: بلغني أنك اشتريت فصا بألف درهم فإذا أتاك كتابي فبع

الخاتم وأشبع به ألف بطن واتخذ خاتما بدرهمين واجعل فصه حديدا صينيا واكتب عليه: رحم الله امرءا عرف قدر نفسه والله اعلم

فصل أول ذنب عصى الله به أبو الثقلين: الكبر والحرص فكان الكبر

ذنب إبليس اللعين فآل أمره إلى ما آل إليه وذنب آدم على نبينا وعليه السلام: كان من الحرص والشهوة فكان عاقبته التوبة والهداية وذنب إبليس حمله على الاحتجاج بالقدر والإصرار وذنب آدم أوجب له إضافته إلى نفسه والاعتراف به والاستغفار فأهل الكبر والإصرار والاحتجاج بالأقدار: مع شيخهم وقائدهم إلى النار إبليس وأهل الشهوة: المستغفرون التائبون المعترفون بالذنوب الذين لا يحتجون عليها بالقدر: مع أبيهم آدم في الجنة وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يقول: التكبر شر من الشرك فإن المتكبر يتكبر عن عبادة الله تعالى والمشرك يعبد الله وغيره قلت: ولذلك جعل الله النار دار المتكبرين كما قال الله تعالى في سورة الزمر وفي سورة غافر: ﴿ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ [غافر: 76] ، [الزمر: 72] وفي سورة النحل: ﴿ فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ [النحل: 29] وفي سورة تنزيل: ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ [الزمر: 60] وأخبر أن أهل الكبر والتجبر هم الذين طبع الله على قلوبهم فقال تعالى: ﴿ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ [غافر: 35] وقال: لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر رواه مسلم وقال: الكبر بطر الحق وغمص الناس وقال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ﴾ [النساء: 8] تنبيها على أنه لا يغفر الكبر الذي هو أعظم من الشرك وكما أن من تواضع لله

رفعه فكذلك من تكبر عن الانقياد للحق أذله الله ووضعه وصغره وحقره ومن تكبر عن الانقياد للحق ولو جاءه على يد صغير أو من يبغضه أو يعاديه فإنما تكبره على الله فإن الله هو الحق وكلامه حق ودينه حق والحق صفته ومنه وله فإذا رده العبد وتكبر عن قبوله: فإنما رد على الله وتكبر عليه والله أعلم

(160/563)

فصل قال صاحب المنازل: التواضع: أن يتواضع العبد لصولة الحق

يعني: أن يتلقى سلطان الحق بالخضوع له والذل والانقياد والدخول تحت رقه بحيث يكون الحق متصرفا فيه تصرف المالك في مملوكه فبهذا يحصل للعبد خلق التواضع ولهذا فسر النبي صلى الله عليه وسلم الكبر بضده فقال: الكبر بطر الحق وغمص الناس فبطر الحق: رده وجحده والدفع في صدره كدفع الصائل و غمص الناس احتقارهم وازدراؤهم ومتى احتقرهم وازدراهم: دفع حقوقهم وجحدها واستهان بها ولما كان لصاحب الحق مقال وصولة: كانت النفوس المتكبرة لا تقر له بالصولة على تلك الصولة التي فيها ولا سيما النفوس المبطلة فتصول على صولة الحق بكبرها وباطلها فكان حقيقة التواضع: خضوع العبد لصولة الحق وانقياده لها فلا يقابلها بصولته عليها قال: وهو على ثلاث درجات

الدرجة الأولى: التواضع للدين وهو أن لا يعارض بمعقول منقولا ولا يتهم للدين دليلا ولا يرى إلى الخلاف سبيلا

(161/563)

التواضع للدين هو الانقياد لما جاء به الرسول والاستسلام له والإذعان وذلك بثلاثة أشياء الأول: أن لا يعارض شيئا مما جاء به بشيء من المعارضات الأربعة السارية في العالم المسماة: بالمعقول والقياس والذوق والسياسة فالأولى: للمنحرفين أهل الكبر من المتكلمين الذين عارضوا نصوص الوحي بمعقولاتهم الفاسدة وقالوا: إذا تعارض العقل والنقل: قدمنا العقل وعزلنا النقل إما عزل تفويض وإما عزل تأويل والثاني: للمتكبرين من المنتسبين إلى الفقه قالوا: إذا تعارض القياس والرأي والنصوص: قدمنا القياس على النص ولم نلتفت إليه والثالث: للمتكبرين المنحرفين من المنتسبين إلى التصوف والزهد فإذا تعارض عندهم الذوق والأمر قدموا الذوق والحال ولم يعبأوا بالأمر والرابع: للمتكبرين المنحرفين من الولاة والأمراء الجائرين إذا تعارضت عندهم الشريعة والسياسة قدموا السياسة ولم يلتفتوا إلى حكم الشريعة فهؤلاء الأربعة: هم أهل الكبر والتواضع: التخلص من ذلك كله الثاني: أن لا يتهم دليلا من أدلة الدين بحيث يظنه فاسد الدلالة أو ناقص الدلالة أو قاصرها أو أن غيره

كان أولى منه ومتى عرض له شيء من ذلك فليتهم فهمه وليعلم أن الآفة منه والبلية فيه كما قيل:

وكم من عائب قولا صحيحا . . . وآفته من الفهم السقيم

ولكن تأخذ الأذهان منه . . . على قدر القرائح والفهوم

وهكذا الواقع في الواقع حقيقة: أنه ما اتهم أحد دليلا للدين إلا وكان المتهم هو الفاسد الذهن المأفون في عقله وذهنه فالآفة من الذهن العليل لا في نفس الدليل وإذا رأيت من أدلة الدين ما يشكل عليك وينبو فهمك عنه فاعلم أنه

(162/563)

لعظمته وشرفه استعصى عليك وأن تحته كنزا من كنوز العلم ولم تؤت مفتاحه بعد هذا في حق نفسك وأما بالنسبة إلى غيرك: فاتهم آراء الرجال على نصوص الوحي وليكن ردها أيسر شيء عليك للنصوص فما لم تفعل ذلك فلست على شيء ولو ولو وهذا لا خلاف فيه بين العلماء قال الشافعي قدس الله روحه: أجمع المسلمون على أن من استبانت له سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم: لم يحل له أن يدعها لقول أحد الثالث: أن لا يجد إلى خلاف النص سبيلا ألبتة لا بباطنه ولا بلسانه ولا بفعله ولا بحاله بل إذا أحس بشيء من

الخلاف: فهو كخلاف المقدم على الزنا وشرب الخمر وقتل النفس بل هذا الخلاف أعظم عند الله من ذلك وهو داع إلى النفاق وهو الذي خافه الكبار والأئمة على نفوسهم واعلم أن المخالف للنص لقول متبوعه وشيخه ومقلده أو لرأيه ومعقوله وذوقه وسياسته إن كان عند الله معذورا ولا والله ما هو بمعذور فالمخالف لقوله لنصوص الوحي أولى بالعذر عند الله ورسوله وملائكته والمؤمنين من عباده

فواعجبا إذا اتسع بطلان المخالفين للنصوص لعذر من خالفها تقليدا أو تأويلا أو لغير ذلك فكيف ضاق عن عذر من خالف أقوالهم وأقوال شيوخهم لأجل موافقة النصوص وكيف نصبوا له الحبائل وبغوه الغوائل ورموه بالعظائم وجعلوه أسوأ حالا من أرباب الجرائم فرموه بدائهم وانسلوا منه لواذا وقذفوه بمصابهم وجعلوا تعظيم المتبوعين ملاذا لهم ومعاذا والله أعلم

فصل قال: ولا يصح ذلك إلا بأن يعلم: أن النجاة في البصيرة

(163/563)

والاستقامة بعد الثقة وأن البينة وراء الحجة يقول: إن ما ذكرناه من التواضع للدين بهذه الأمور الثلاثة: الأولى: علمه أن النجاة من الشقاء والضلال: إنما هي في البصيرة فمن لا

بصيرة له: فهو من أهل الضلال في الدنيا والشقاء في الآخرة والبصيرة نور يجعله الله في عين القلب يفرق به العبد بين الحق والباطل ونسبته إلى القلب: كنسبة ضوء العين إلى العين وهذه البصيرة وهبية وكسبية فمن أدار النظر في أعلام الحق وأدلته وتجرد لله من هواه: استنارت بصيرته ورزق فرقانا يفرق به بين الحق والباطل الثاني: أن يعلم أن الاستقامة إنما تكون بعد الثقة أي لا يتصور حصول الاستقامة في القول والعمل والحال إلا بعد الثقة بصحة ما معه من العلم وأنه مقتبس من مشكاة النبوة ومن لم يكن كذلك فلا ثقة له ولا استقامة الثالث: أن يعلم أن البينة وراء الحجة و البينة مراده بها: استبانة الحق وظهوره وهذا إنما يكون بعد الحجة إذا قامت استبان الحق وظهر واتضح وفيه معنى آخر وهو: أن العبد إذا قبل حجة الله بمحض الإيمان والتسليم والانقياد: كان هذا القبول هو سبب تبينها وظهورها وانكشافها لقلبه فلا يصبر على بينة ربه إلا بعد قبول حجته وفيه معنى آخر أيضا: أنه لا يتبين له عيب عمله من صحته إلا بعد العلم الذي هو حجة الله على العبد فإذا عرف الحجة اتضح له بها ما كان مشكلا عليه من علومه وما كان معيبا من أعماله وفيه معنى آخر أيضا: وهو أن يكون وراء بمعنى أمام والمعنى: أن

الحجة إنما تحصل للعبد بعد تبينها فإذا لم تتبين له لم تكن له حجة يعني فلا يقنع من الحجة بمجرد حصولها بلا تبين فإن التبين أمام الحجة والله أعلم

فصل قال: الدرجة الثانية: أن ترضى بما رضي الحق به لنفسه عبدا

من المسلمين أخا وأن لا ترد على عدوك حقا وأن تقبل من المعتذر معاذيره يقول: إذا كان الله قد رضي أخاك المسلم لنفسه عبدا أفلا ترضى أنت به أخا فعدم رضاك به أخا وقد رضيه سيدك الذي أنت عبده عبدا لنفسه عين الكبر وأي قبيح أقبح من تكبر العبد على عبد مثله لا يرضى بأخوته وسيده راض بعبوديته فيجيء من هذا: أن المتكبر غير راض بعبودية سيده إذ عبوديته توجب رضاه بأخوة عبده وهذا شأن عبيد الملوك فإنهم يرون بعضهم خشداشية بعض ومن ترفع منهم عن ذلك: لم يكن من عبيد أستاذهم قوله: وأن لا ترد على عدوك حقا أي لا تصح لك درجة التواضع حتى تقبل الحق ممن تحب وممن تبغض فتقبله من عدوك كما تقبله من وليك وإذا لم ترد عليه حقه فكيف تمنعه حقا له قبلك بل حقيقة التواضع أنه إذا جاءك قبلته منه وإذا كان له عليك حق أديته إليه فلا تمنعك عداوته من قبول حقه ولا من إيتائه إياه وأما قبولك من المعتذر معاذيره فمعناه: أن من أساء إليك ثم جاء يعتذر من إساءته فإن التواضع يوجب عليك قبول معذرته حقا كانت أو باطلا وتكل سريرته إلى الله تعالى كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنافقين الذين تخلفوا عنه في الغزو فلما قدم جاءوا يعتذرون إليه فقبل أعذارهم ووكل سرائرهم إلى الله تعالى

وعلامة الكرم والتواضع: أنك إذا رأيت الخلل في عذره لا توقفه عليه

ولا تحاجه وقل يمكن أن يكون الأمر كما تقول ولو قضى شيء لكان والمقدور لا مدفع له

ونحو ذلك

فصل قال: الدرجة الثالثة: أن تتضع للحق فتنزل عن رأيك وعوائدك

(165/563)

في الخدمة ورؤية حقك في الصحبة وعن رسمك في المشاهدة بقول: التواضع بأن تخدم الحق سبحانه وتعبده بما أمرك به على مقتضى أمره لا على ما تراه من رأيك ولا يكون الباعث لك داعي العادة كما هو باعث من لا بصيرة له غير أنه اعتاد أمرا فجرى عليه ولو اعتاد ضده لكان كذلك وحاصله: أنه لا يكون باعثه على العبودية مجرد رأي وموافقة هوى ومحبة ولا عادة بل الباعث مجرد الأمر والرأي والمحبة والهوى والعوائد: منفذة تابعة لا أنها مطاعة باعثة وهذه نكتة لا يتنبه لها إلا أهل البصائر وأما نزوله عن رؤية حقه في الصحبة فمعناه: أن لا يرى لنفسه حقا على الله لأجل عمله فإن صحبته مع الله بالعبودية والفقر المحض والذل والانكسار فمتى رأى لنفسه عليه حقا فسدت الصحبة وصارت معلولة وخيف منها المقت ولا ينافي هذا ما أحقه سبحانه على نفسه من إثابة عابديه وإكرامهم فإن ذلك

حق أحقه على نفسه بمحض كرمه وبره وجوده وإحسانه لا باستحقاق العبيد وأنهم أوجبوه عليه بأعمالهم فعليك بالفرقان في هذا الموضع الذي هو مفترق الطرق والناس فيه ثلاث فرق فرقة رأت أن العبد أقل وأعجز من أن يوجب على ربه حقا فقالت: لا يجب على الله شيء ألبتة وأنكرت وجوب ما أوجب على نفسه وفرقة رأت أنه سبحانه أوجب على نفسه أمورا لعبده فظنت أن العبد

(166/563)

أوجبها عليه بأعماله وأن أعماله كانت سببا لهذا الإيجاب والفرقتان غالطتان والفرقة الثالثة: أهل الهدى والصواب قالت: لا يستوجب العبد على الله بسعيه نجاة ولا فلاحا ولا يدخل أحدا عمله الجنة أبدا ولا ينجيه من النار والله تعالى بفضله وكرمه ومحض جوده وإحسانه أكد إحسانه وجوده وبره بأن أوجب لعبده عليه سبحانه حقا بمقتضى الوعد فإن وعد الكريم إيجاب ولو ب عسى ولعل ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنهما: عسى: من الله واجب ووعد اللئيم خلف ولو اقترن به العهد والحلف والمقصود: أن عدم رؤية العبد لنفسه حقا على الله لا ينافي ما أوجبه الله على نفسه وجعله حقا لعبده قال النبي صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل رضي الله عنه: "يا معاذ أتدري ما حق الله على العباد

قال: الله ورسوله أعلم قال: حقه عليهم أن يعبدوه لا يشركوا به شيئا يا معاذ أتدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك قلت: الله ورسوله أعلم قال: حقهم عليه: أن لا يعذبهم بالنار" فالرب سبحانه ما لأحد عليه حق ولا يضيع لديه سعي كما قيل:

ما للعباد عليه حق واجب . . . كلا ولا سعي لديه ضائع

إن عذبوا فبعد له أو نعموا . . . فبفضله وهو الكريم الواسع

وأما قوله: وتنزل عن رسمك في المشاهدة أي من جملة التواضع للحق: فناؤك عن نفسك فإن رسمه هي نفسه والنزول عنها: فناؤه عنها حين شهوده الحضرة وهذا النزول يصح أن يقال كسبي باعتبار وإن كان عند القوم غير كسبي لأنه يحصل عند التجلي والتجلي نور والنور يقهر الظلمة ويبطلها والرسم عند القوم ظلمة فهي تنفر من النور بالذات فصار النزول عن الرسم حين التجلي ذاتيا ووجه كونه كسبيا: أنه نتيجة المقامات الكسبية ونتيجة الكسبي كسبي

وثمرته وإن حصلت ضرورة بالذات: لم يمتنع أن يطلق عليها كونها كسبية باعتبار السبب والله أعلم. انتهى انتهى. اهـ ﴿مدارج السالكين حـ 2 صـ 327. 340﴾

(167/563)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا (63) ﴾

الذين استوجبوا رحمة الرحمن هم الذين وفِّقُوا للطاعات ، فبرحمتِه وصلوا إلى التوفيق للطاعة . وعِبادُ الرحمن الذين يستحقون غداً رحمته هم القائمون برحمته ؛ فبرحمته وصلوا إلى طاعته . . . هكذا بيان الحقيقة ، وبطاعتهم وصلوا إلى جَنَّتِه . . . هكذا لسان الشريعة .

ومعنى ﴿ هَوْناً ﴾ متواضعين متخاشعين .

ويقال شرْطُ التواضع وحَدُّه ألا يستَحْسِنَ شيئاً من أحواله ، حتى قالوا : إذا نَظَرَ إلى رِجْلِه لا يستحسن شِسْعَ نَعْلِهِ ، وعلى هذا القياس لا يُساكِنُ أعماله ، ولا يلاحظ أحواله .

قوله : ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَمَاً ﴾ : قيل سداد المنطق ؛ ويقال مَنْ خاطَبَهم بالقَدْح فهم يجاوبونه بالمدح له .

ويقال إذا خاطبهم الجاهلون بأحوالهم ، والطاعنون فيهم ، العائبون لهم قابلوا ذلك بالرِّفق ، وحُسْنِ الخُلقِ ، والقولِ الحَسَنِ والكلام الطيب .

ويقال يخبرون مَنْ جفاهم أنهم في أمانٍ من المجافاة .

وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (64)

يبيتون لربهم ساجدين ، ويصبحون واجدين ؛ فَوَجْدُ صباحهم ثمراتُ سجودِ أرواحهم ، كذا في الخبر : " مَنْ كَثُرَتْ صلاتُه بالليل حَسُنَ وجهه بالنهار " أي عَظُم ماءُ وجهه عند الله ، وأحسنُ الأشياء ظاهِرٌ بالسجود مُحَسَّنٌ وباطنٌ بالوجود مُزَيَّنٌ .

ويقال متصفين بالسجود قياماً بآداب الوجود .

وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (65) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (66)

يجتهدون غاية الاجتهاد ، ويستفرغون نهاية الوسع ، وعند السؤال ينزلون منزلة العصاة ، ويقفون موقف أهل الاعتذار ، ويخاطبون بلسان التَنَصُّل كما قيل :

(168/563)

وما رُمْتُ الدخولَ عليه حتى . . . حَلَلْتُ محلة العبد الذليل .

وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا (67)

الإسرافُ أن تنفق في الهوى وفي نصيب النّفْس ، فأمّا ما كان لله فليس فيه إسراف ، والإقتارُ ما كان ادخاراً عن الله . فأمّا التضييقُ على النَّفْس منعاً لها عن اتباع الشهوات

ولتتعودَ الاجتراء باليسير فليس بالاقتار المذموم. انتهى انتهى. اهـ ﴿لطائف الإشارات حـ2 صـ648.650﴾

(169/563)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب: الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

ويُسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الرابع والستون بعد الخمسمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/564)

الجزء الرابع والستون بعد الخمسمائة

من الآية ﴿ 68 ﴾ من سورة الفرقان

وحتى الآية ﴿ 77 ﴾ آخر السورة الكريمة

(4/564)

قوله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (68) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (69) إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (70) وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا (71) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما ذكر ما تحلوا به من أصول الطاعات ، بما لهم من العدل والإحسان بالأفعال والأقوال ،

في الأبدان والأموال ، أتبعه ما تخلوا عنه من أمهات المعاصي التي هي الفحشاء والمنكر ، فقال : ﴿ والذين لا يدعون ﴾ رحمة لأنفسهم واستعمالاً للعدل ﴿ مع الله ﴾ أي الذي اختص بصفات الكمال ﴿ إلهاً ﴾ وكلمة " مع " وإن أفهمت أنه غير ، لكن لما كانوا يتعنتون حتى أنهم يتعرضون بتعديد الأسماء كما مر في آخر سبحان والحجر ، قال تعالى قطعاً لتعنتهم : ﴿ آخر ﴾ أي دعاء جلياً بالعبادة له ، ولا خفياً بالرياء ، فيكونوا كمن أرسلت عليهم الشياطين فأزتهم أزاً .

(5/564)

ولا نفى عنهم ما يوجب قتل أنفسهم بخسارتهم إياها ، أتبعه قتل غيرهم فقال : ﴿ ولا يقتلون ﴾ أي بما تدعو إليه الحدة ﴿ النفس ﴾ أي رحمة للخلق وطاعة للخالق .

ولما كان من الأنفس ما لا حرمة له ، بين المراد بقوله : ﴿ التي حرم الله ﴾ أي قتلها ، أي منع منعاً عظيماً الملك الأعلى – الذي لا كفوء له – من قتلها ﴿ إلا بالحق ﴾ أي بأن تعمل ما يبيح قتلها .

ولما ذكر القتل الجلي ، أتبعه الخفي بتضييع نسب الولد ، فقال : ﴿ ولا يزنون ﴾ أي رحمة لما قد يحدث من ولد ، إبقاء على نسبه ، ورحمة للمزني بها ولأقاربها أن تنهتك حرماتهم ، مع

رحمته لنفسه ، على أن الزنى جارّ أيضاً إلى القتل والفتن ، وفيه التسبب لإيجاد نفس بالباطل كما أن القتل تسبب إلى إعدامها بذلك ، وقد روي في الصحيح

" عن عبد الله بن مسعود ـ رضى الله عنه ـ أنه سأل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : أي الذنب أعظم – وفي رواية : أكبر – عند الله ؟ قال : أن تدعو لله نداً هون خلقك ، قال : ثم أيّ ؟ قال : أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك ، قال : ثم أيّ ؟ قال : أن تزني بحليلة جارك ، فأنزل الله تصديق ذلك ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ﴾ [الفرقان : 68] الآية "

وقد استشكل تصديق الآية للخبر من حيث إن الذي فيه قتل خاص وزنى خاص ، والتقييد بكونه أكبر ، والذي فيها مطلق القتل والزنى من غير تعرض لعظم ، ولا إشكال لأنها نطقت بتعظيم ذلك من سبعة أوجه : الأول : الاعتراض بين المبتدأ الذي هو " وعباد " وما عطف عليه ، والخبر الذي هو ﴿ أولئك يجزون ﴾ [الفرقان : 75] على أحد الرأيين بذكر جزاء هذه الأشياء الثلاثة خاصة ، وذلك دال على مزيد الاهتمام الدال على الإعظام .

الثاني : الإشارة بأداة البعد – في قوله : ﴿ ومن يفعل ذلك ﴾ أي الفعل العظيم القبح – مع قرب المذكورات ، فدل على أن البعد في رتبها .

الثالث : التعبير باللقى مع المصدر المزيد الدال على زيادة المعنى في قوله : ﴿ يلق أثاماً ﴾ دون يأثم أو يلق إثماً أو جزاء إثمه .

الرابع : التقييد بالمضاعفة في قوله مستأنفاً : ﴿ يضاعف ﴾ أي بأسهل أمر ﴿ له العذاب ﴾ جزاء ما أتبع نفسه هواها بما فيه من الحرارة الشيطانية – هذا في قراءة ابن عامر وأبي بكر عن عاصم بالرفع وهو بدل " يلق " في قراءة الجماعة ، لأنهما تؤولان إلى معنى واحد ، ومضاعفة العذاب – والله أعلم – إتيان بعضه في أثر بعض بلا انقطاع كما كان يضاعف سيئته كذلك ، وقراءة ابن كثير وأبي جعفر وابن عامر ويعقوب بالتشديد تفيد مطلق التعظيم للتضعيف ، وقراءة الباقين بالمفاعلة تقتضيه بالنسبة إلى من يباري آخر فيه فهو أبلغ .

الخامس : التهويل بقوله : ﴿ يوم القيامة ﴾ الذي هو أهول من غيره بما لا يقايس .

السادس : الإخبار بالخلود الذي هو أول درجاته أن يكون مكثاً طويلاً ، فقال عاطفاً في القراءتين على يضاعف : ﴿ ويخلد فيه ﴾ .

(7/564)

السابع : التصريح بقوله : ﴿ مهاناً ﴾ ولعله للاحتراز عما يجوز من أن بعض عصاة هذه الأمة – الذين يريد الله تعذيبهم – يعلمون أنهم ينجون ويدخلون الجنة ، فتكون إقامتهم – مع العلم بالمآل – ليست على وجه الإهانة ، فلما عظم الأمر من هذه الأوجه ، علم أن كلاًّ من هذه الذنوب كبير ، وإذا كان الأعم كبيراً ، كان الأخص المذكور أعظم من مطلق الأعم ، لأنه زاد عليه بما صار به خاصاً ، فثبت بهذا أنها كبائر ، وأن قتل الولد والزنى بحليلة الجار أكبر لما ذكر ، فوضح وجه تصديق الآية للخبر ، ولا يقال : إن الإشارة ترجع إلى المجموع ، فالتهويل خاص بمن ارتكب مجموع هذه الذنوب لأنا نقول : السياق يأباه ، لأن تكرار " لا " أفاد – كما حققه الرضي – ورود النفي على وقوع الخصال الثلاث حال الاجتماع والانفراد ، فالمعنى : لا يوقعون شيئاً منها ، فكان معنى ﴿ ومن يفعل ذلك ﴾ : ومن يفعل شيئاً من ذلك – ليرد الإثبات على ما ورد عليه النفي ، فيحصل التناسب ، وأما عدم منافاة الآية للترتيب فمن وجهين : الأول أن الأصل في التقديم الاهتمام بما سبقت له الآية ، وهو التنفير المفيد للتغليظ ، فيكون كل واحد منها أعلى مما بعده .

الثاني أن الواو لا تنافيه ، وقد وقعت الأفعال مرتبة في الذكر كما رتبت في الحديث ب " ثم " فيكون مراداً بها الترتيب – والله الهادي .

ولما أتم سبحانه تهديد الفجار ، على هذه الأوزار ، أتبعه ترغيب الأبرار ، في الإقبال على الله العزيز الغفار ، فقال : ﴿ إلا من تاب ﴾ أي رجع إلى الله عن شيء مما كان فيه من هذه

النقائص ﴿ وآمن ﴾ أي أوجد الأساس الذي لا يثبت عمل بدون وهو الإيمان ، أو أكد وجوده ﴿ وعمل ﴾ .

(8/564)

ولما كان الرجوع عنه أغلظ ، أكد فقال : ﴿ عملاً صالحاً ﴾ أي مؤسساً على أساس الإيمان ؛ ثم زاد في الترغيب بالإتيان بالفاء ربطاً للجزاء بالشرط دليلاً على أنه سببه فقال : ﴿ فأولئك ﴾ أي العالو المنزلة ﴿ يبدل الله ﴾ وذكر الاسم الأعظم تعظيماً للأمر وإشارة إلى أنه سبحانه لا منازع له ﴿ سيئاتهم حسنات ﴾ أي بندمهم على تلك السيئات ، لكونها ما كانت حسنات فيكتب لهم ثوابها بعزمهم الصادق على فعلها لو استقبلوا من أمرهم ما استدبروا ، بحيث إذا رأى أحدهم تبديل سيئاته بالحسنات تمنى لو كانت سيئاته أكثر ! وورد أن بعضهم يقول : رب ! إن لي سيئات ما رأيتها – رواه مسلم في أواخر الإيمان من صحيحه عن أبي ذر ـ رضى الله عنه ـ رفعه .

ولما كان هذا أمراً لم تجر العادة بمثله ، أخبر أنه صفته تعالى أزلاً وأبداً ، فقال مكرراً للاسم الأعظم لئلا يقيد غفرانه شيء مما مضى : ﴿ وكان الله ﴾ أي الذي له الجلال والإكرام على الإطلاع ﴿ غفوراً ﴾ أي ستوراً لذنوب كل من تاب بهذا الشرط ﴿ رحيماً ﴾ له بأن

يعامله بالإكرام كما يعامل المرحوم فيعطيه مكان كل سيئة حسنة ؛ روى البخاري عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أن هذه الآية نزلت في أهل الشرك ، لما نزل صدرها قال أهل مكة : فقد عدلنا بالله ، وقتلنا النفس التي حرم الله ، وأتينا الفواحش ، فأنزل الله ﴿ إلا من تاب ﴾ [الفرقان : 7] - إلى - ﴿ رحيماً ﴾ [الفرقان : 7] ؛ وروي عنه أيضاً أنه قال : هذه مكية نسختها آية مدنية التي في سورة النساء .

أي على تقدير كونها عامة في المشرك وغيره ؛ وروي عنه أنه قال في آية النساء : نزلت في آخر ما نزل ، ولم ينسخها شيء .

(9/564)

وقد تقدم في سورة النساء الجواب عن هذا ، وكذا ما رواه البخاري عنه في التفسير : إن ناساً من أهل الشرك كانوا قد قتلوا وأكثروا وزنوا وأكثروا ، فأتوا محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقالوا : إن الذي تقول وتدعو إليه لحسن لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة ، فنزل ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ﴾ [الفرقان : 68] ونزل ﴿ يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ﴾ [الزمر : 53] .

ولما أشعرت الفاء بالتسبيب ، ودل تأكيد الفعل بالمصدر على الاحتياج إلى عمل كثير ربما جل عن طوق البشر ، وأشار إلى التطريق له بالوصفين العظيمين ، أتبع ذلك بيان الطريق إليه بما أجرى من العادة فقال : ﴿ ومن تاب ﴾ أي عن المعصية كفراً كانت أو ما دونه ﴿ وعمل ﴾ تصديقاً لادعائه التوبة .

ولما كان في سياق الترغيب ، أعراه من التأكيد فقال : ﴿ صالحاً ﴾ ولو كان كل من نيته وعمله ضعيفاً ؛ ورغب سبحانه في ذلك بقوله معلماً أنه يصل إلى الله : ﴿ فإنه يتوب ﴾ أي يرجع واصلاً ﴿ إلى الله ﴾ أي الذي له صفات الكمال ، فهو يقبل التوبة عن عباده ، ويعفو عن السيئات ﴿ متاباً ﴾ أي رجوعاً عظيماً جداً بأن يرغبه الله في الأعمال الصالحة ، فلا يزال كل يوم في زيادة في نيته وعمله ، فيخف ما كان عليه ثقيلاً ، ويتيسر له ما كان عسيراً ، ويسهل عليه ما كان صعباً ، كما تقدم في ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم ﴾ [يونس : 9] ولا يزال كذلك حتى يحبه فيكون سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، بأن يوفقه للخير ، فلا يسمع إلا ما يرضيه ، وهكذا ، ومن أجراه على ظاهره فعليه لعنة الله ، لمخالفته إجماع المسلمين .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 336 . 340 ﴾

(10/564)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾

الصفة السادسة

اعلم أنه سبحانه وتعالى ذكر أن من صفة عباد الرحمن الاحتراز عن الشرك والقتل والزنا ، ثم ذكر بعد ذلك حكم من يفعل هذه الأشياء من العقاب ، ثم استثنى من جملتهم التائب ، وههنا سؤالات :

السؤال الأول : أنه تعالى قبل ذكر هذه الصفة نزه عباد الرحمن عن الأمور الخفيفة ، فكيف يليق بعد ذلك أن يطهرهم عن الأمور العظيمة مثل الشرك والقتل والزنا ، أليس أنه لو كان الترتيب بالعكس منه كان أولى ؟ الجواب : أن الموصوف بتلك الصفات السالفة قد يكون متمسكاً بالشرك تديناً ومقدماً على قتل الموءودة تديناً وعلى الزنا تديناً ، فبين تعالى أن المرء لا يصير بتلك الخصال وحدها من عباد الرحمن ، حتى يضاف إلى ذلك كونه مجانباً لهذه الكبائر ، وأجاب الحسن رحمه الله من وجه آخر فقال : المقصود من ذلك التنبيه على الفرق بين سيرة المسلمين وسيرة الكفار ، كأنه قال : وعباد الرحمن هم الذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر وأنت تدعون ﴿ وَلَا يَقْتُلُونَ النفس التى حَرَّمَ الله إِلاَّ بالحق ﴾ وأنتم تقتلون

الموءودة ، ﴿ وَلاَ يَزْنُونَ ﴾ وأنتم تزنون .

السؤال الثاني : ما معنى قوله : ﴿ وَلاَ يَقْتُلُونَ النفس التى حَرَّمَ الله إِلاَّ بالحق ﴾ ومعلوم أنه من يحل قتله لا يدخل في النفس المحرمة فكيف يصح هذا الاستثناء ؟ الجواب : المقتضى لحرمة القتل قائم أبداً ، وجواز القتل إنما ثبت بالمعارض فقوله : ﴿ حَرَّمَ الله ﴾ إشارة إلى المقتضى وقوله ﴿ إِلاَّ بالحق ﴾ إشارة إلى المعارض .

السؤال الثالث : بأي سبب يحل القتل ؟ الجواب : بالردة وبالزنا بعد الإحصان ، وبالقتل قوداً على ما في الحديث ، وقيل وبالمحاربة وبالبينة ، وإن لم يكن لما شهدت به حقيقة .

(11/564)

السؤال الرابع : منهم من فسر قوله : ﴿ وَلاَ يَقْتُلُونَ النفس التى حَرَّمَ الله إِلاَّ بالحق ﴾ بالردة فهل يصح ذلك ؟ الجواب : لفظ القتل عام فيتناول الكل .

وعن ابن مسعود " قلت يا رسول الله أي الذنب أعظم ؟ قال أن تجعل لله نداً وهو خلقك ، قلت ثم أي ؟ قال أن تقتل ولدك خشية أن يأكل معك ، قلت ثم أي ؟ قال أن تزني بحليلة جارك " فأنزل الله تصديقه .

السؤال الخامس : ما الأثام ؟ الجواب : فيه وجوه : أحدها : أن الأثام جزاء الإثم ، بوزن

الوبال والنكال وثانيها : وهو قول أبي مسلم : أن الأثام والإثم واحد ، والمراد ههنا جزاء الأثام فأطلق اسم الشيء على جزائه وثالثها : قال الحسن : الأثام اسم من أسماء جهنم وقال مجاهد : ﴿ أَثَاماً ﴾ واد في جهنم ، (وقرأ ابن مسعود ﴿ أَثَاماً ﴾ أي شديداً ، يقال يوم ذو أثام لليوم العصيب) .

أما قوله : ﴿ يضاعف لَهُ العذاب يَوْمَ القيامة وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً ﴾ ففيه مسائل :

المسألة الأولى :

﴿ يضاعف ﴾ بدل من ﴿ يَلْقَ ﴾ لأنهما في معنى واحد ، وقرىء (يضعف) و (نضعف له العذاب) بالنون ونصب العذاب ، وقرىء بالرفع على الاستئناف أو على الحال ، وكذلك (يخلد) (وقرىء) (ويخلد) على البناء للمفعول مخففاً ومثقلاً من الإخلاد والتخليد ، وقرىء (وتخلد) بالتاء على الالتفات .

المسألة الثانية :

سبب تضعيف العذاب أن المشرك إذا ارتكب المعاصي مع الشرك عذب على الشرك وعلى المعاصي جميعاً ، فتضاعف العقوبة لمضاعفة المعاقب عليه ، وهذا يدل على أن الكفار مخاطبون بفروع الشرائع .

المسألة الثالثة :

قال القاضي : بين الله تعالى أن المضاعفة والزيادة يكون حالهما في الدوام كحال الأصل ، فقوله : ﴿ وَيَخْلُدْ فِيهِ ﴾ أي ويخلد في ذلك التضعيف ، ثم إن ذلك التضعيف إنما حصل بسبب العقاب على المعاصي ، فوجب أن يكون عقاب هذه المعاصي في حق الكافر دائماً ، وإذا كان كذلك وجب أن يكون في حق المؤمن كذلك ، لأن حاله فيما يستحق به لا يتغير سواء فعل مع غيره أو منفرداً والجواب : لم لا يجوز أن يكون للإتيان بالشيء مع غيره أثر في مزيد القبح ، ألا ترى أن الشيئين قد يكون كل واحد منهما في نفسه حسناً وإن كان الجمع بينهما قبيحاً ، وقد يكون كل واحد منهما قبيحاً ، ويكون الجمع بينهما أقبح ، فكذا ههنا .

المسألة الرابعة :

قوله : ﴿ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً ﴾ إشارة إلى ما ثبت أن العقاب هو المضرة الخالصة المقرونة بالإذلال والإهانة ، كما أن الثواب هو المنفعة الخالصة المقرونة بالتعظيم .

أما قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ مَن تَابَ وَءامَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صالحا فَأُوْلَئِكَ يُبَدّلُ الله سَيّئَاتِهِمْ حسنات وَكَانَ الله غَفُوراً رَّحِيماً ﴾ ففيه مسائل :

المسألة الأولى :

دلت الآية على أن التوبة مقبولة ، والاستثناء لا يدل على ذلك لأنه أثبت أنه يضاعف له العذاب ضعفين ، فيكفي لصحة هذا الاستثناء أن لا يضاعف للتائب العذاب ضعفين ،

وإنما الدال عليه قوله : ﴿ فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حسنات ﴾ .

المسألة الثانية :

نقل عن ابن عباس أنه قال : توبة القاتل غير مقبولة ، وزعم أن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى : ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُّتَعَمِّداً ﴾ [النساء : 93] وقالوا نزلت الغليظة بعد اللينة بمدة يسيرة ، وعن الضحاك ومقاتل بثمان سنين ، وقد تقدم الكلام في ذلك في سورة النساء .

المسألة الثالثة :

(13/564)

فإن قيل : العمل الصالح يدخل فيه التوبة والإيمان ، فكان ذكرهما قبل ذكر العمل الصالح حشواً ، قلنا : أفردهما بالذكر لعلو شأنهما ، ولما كان لا بد معهما من سائر الأعمال لا جرم ذكر عقيبهما العمل الصالح .

المسألة الرابعة :

اختلفوا في المراد بقوله : ﴿ فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حسنات ﴾ على وجوه : أحدها : قول ابن عباس والحسن ومجاهد وقتادة : إن التبديل إنما يكون في الدنيا ، فيبدل الله تعالى قبائح أعمالهم في الشرك بمحاسن الأعمال في الإسلام فيبدلهم بالشرك إيماناً ، وبقتل

المؤمنين قتل المشركين ، وبالزنا عفة وإحصاناً ، فكأنه تعالى يبشرهم بأنه يوفقهم لهذه الأعمال الصالحة فيستوجبوا بها الثواب وثانيها : قال الزجاج : السيئة بعينها لا تصير حسنة ، ولكن التأويل أن السيئة تمحى بالتوبة وتكتب الحسنة مع التوبة والكافر يحبط الله عمله ويثبت عليه السيئات .

وثالثها : قال قوم : إن الله تعالى يمحو السيئة عن العبد ويثبت له بدلها الحسنة بحكم هذه الآية ، وهذا قول سعيد بن المسيب ومكحول ، ويحتجون بما روى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :

" ليتمنين أقوام أنهم أكثروا من السيئات ، قيل من هم يا رسول الله ؟ قال الذين يبدل الله سيئاتهم حسنات " وعلى هذا التبديل في الآخرة ورابعها : قال القفال والقاضي : أنه تعالى يبدل العقاب بالثواب فذكرهما وأراد ما يستحق بهما ، وإذا حمل على ذلك كانت الإضافة إلى الله حقيقة لأن الإثابة لا تكون إلا من الله تعالى .

أما قوله تعالى : ﴿ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴾ ففيه سؤالان :

السؤال الأول : ما فائدة هذا التكرير ؟ الجواب : من وجهين : الأول : أن هذا ليس بتكرير لأن الأول لما كان في تلك الخصال بين تعالى أن جميع الذنوب بمنزلتها في صحة التوبة منها الثاني : أن التوبة الأولى رجوع عن الشرك والمعاصي ، والتوبة الثانية رجوع إلى الله تعالى للجزاء والمكافأة كقوله تعالى : ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴾ [الرعد : 30] أي مرجعي .

السؤال الثاني : هل تكون التوبة إلا إلى الله تعالى فما فائدة قوله : ﴿ فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى الله مَتَاباً ﴾ ؟ الجواب : من وجوه : الأول : ما تقدم من أن التوبة الأولى الرجوع عن المعصية والثانية الرجوع إلى حكم الله تعالى وثوابه الثاني : معناه أن من تاب إلى الله فقد أتى بتوبة مرضية لله مكفرة للذنوب محصلة للثواب العظيم الثالث : قوله : ﴿ وَمَن تَابَ ﴾ يرجع إلى الماضي فإنه سبحانه ذكر أن من أتى بهذه التوبة في الماضي على سبيل الإخلاص فقد وعده بأنه سيوفقه للتوبة في المستقبل ، وهذا من أعظم البشارات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 24 صـ 96 . 98 ﴾

(15/564)

وقال الجصاص :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إلَهًا آخَرَ ﴾ الْآيَةَ .

رَوَى الْأَعْمَشُ عَنْ أَبِي وَائِلٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ : ﴿ جَاءَ رَجُلٌ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ الذَّنْبِ أَكْبَرُ ؟ قَالَ : أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَك قَالَ : ثُمَّ أَيٌّ ؟ قَالَ : أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَك خَشْيَةَ أَنْ يَطْعَمَ مَعَك ، قَالَ : ثُمَّ أَيٌّ ؟ قَالَ : أَنْ تُزَانِيَ بِحَلِيلَةِ جَارِك ؛ قَالَ : فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَصْدِيقَ ذَلِكَ فِي كِتَابِهِ : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إلَهًا آخَرَ ﴾ إلَى قَوْلِهِ : ﴿ أَثَامًا ﴾ ﴾ . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(16/564)

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ ﴾

يعني لا يجعلون لله تعالى شريكاً ، ولا يجعلون بينهم وبينه في العبادة وسيطاً .

﴿ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ ﴾ يعني حرم قتلها ، وهي نفس المؤمن والمعاهد . ﴿ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ والحق المستباح به قتلها ، ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إِلَّا بِإِحْدَى ثَلَاثٍ : كُفْرٍ بَعْدَ إِيمَانٍ ، أَوْ زِنًى بَعْدَ إِحْصَانٍ ، أَوْ

قَتْل نَفْسٍ بغَيْرِ نَفْسٍ

" . ﴿ وَلاَ يَزْنُونَ ﴾ والزنى إتيان النساء المحرمات في قبل أو دبر ، واللواط زنى في أحد القولين وهو في القول الثاني موجب لقتل الفاعل والمفعول به ،

وفي إتيان البهائم ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنه كالزنى في الفرق بين البكر والثيب .

الثاني : أنه يوجب قتل البهيمة ومن أتاها للخبر المأثور فيه .

الثالث : أنه يوجب التعزير . فجمع في هذه الآية بين ثلاث من الكبائر الشرك وقتل النفس والزنى ، روى عمرو بن شرحبيل عن ابن مسعود قال : قلت : يا رسول الله (أو قال غيري) : أي ذنب أعظم عند الله ؟ قال : " أَن تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدّاً وَهُوَ خَلَقَكَ " قال : ثم أي ؟ قال : " أَن تَقْتُلَ وَلَدَكَ خِيفَةَ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ " قال : ثم أيّ . ؟ قال : " أَنْ تُزَانِي حَلِيلَةَ جَارِكَ " قال فأنزل الله ذلك .

﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ﴾ يعني هذه الثلاثة أو بعضها

. ﴿ يَلْقَ أَثَاماً ﴾ فيه ثلاثة أوجه

: أحدها : أن الأثام العقوبة قاله بلعام بن قيس :

جزى اللَّه ابن عروة حيث أمسى . . . عقوقاً والعقوق له أثام

الثاني : أن الأثام اسم واد في جهنم ، قاله ابن عمر ، وقتادة ، ومنه قول الشاعر :

لقيت المهالك في حربنا . . . وبعد المهالك تلقى أثاما

الثالث : الجزاء ، قاله السدي ، وقال الشاعر :

(17/564)

وإن مقامنا ندعو عليكم . . . بأبطح ذي المجاز له أثامُ

﴿ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيامَةِ ﴾ فيه ثلاثة أوجه

: أحدها : أن المضاعفة عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ، قاله قتادة .

الثاني : أنها الجمع بين عقوبات الكبائر المجتمعة .

الثالث : أنها استدامة العذاب بالخلود .

﴿ وَيَخْلُدْ فِيهِ ﴾ أي يخلد في العذاب بالشرك

. ﴿ مُهَاناً ﴾ بالعقوبة

. ﴿ إِلاَّ مَن تَابَ ﴾ يعني من الزنى

. ﴿ وَءَامَنَ ﴾ يعني من الشرك

. ﴿ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً ﴾ يعني بعد السيئات

. ﴿ فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ﴾ فيه ثلاثة أقاويل

: أحدها : في الدنيا يبدلهم بالشرك إيماناً ، وبالزنى إحصاناً وبذكر الله بعد نسيانه ، وبطاعته بعد عصيانه ، وهذا معنى قول الحسن ، وقتادة .

الثاني : أنه في الآخرة فيمن غلبت حسناته على سيئاته فيبدل الله السيئات حسنات ، قاله أبو هريرة .

الثالث : أنه يبدل الله عقاب سيئاته إذا تاب منها بثواب حسناته إذا انتقل إليها ، قاله ابن بحر .

﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً ﴾ لما تقدم قبل التوبة

. ﴿ رَحِيماً ﴾ لما بعدها

. وحكى الكلبي أن وحشياً وهو عبد عتبة بن غزوان كتب بعد وقعة أحد وقَتْلِ حمزة إلى النبي صلى الله عليه وسلم : هل من توبة ؟ فإن الله أنزل بمكة إياسي من كل خير ﴿ وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً ءَاخَرَ ﴾ الآية وإن وحشياً قد فعل هذا كله ، وقد زنى وأشرك وقتل النفس التي حرم الله ، فأنزل الله ﴿ إِلاَّ مَن تَابَ ﴾ أي من الزنى وآمن بعد الشرك وعمل صالحاً بعد السيئات ، فكتب بها رسول الله صلى الله عليه وسلم إليه فقال وحشي : هذا شرط شديد ولعلي لا أبقى بعد التوبة حتى أعمل صالحاً ، فكتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم : هل من شيء أوسع من هذا ؟ فأنزل الله

﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء : 48 ، 116] ، فكتب بها رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى وحشي . فأرسل وحشي إلى النبي صلى الله عليه وسلم : إني لأخاف أن لا أكون في مشيئة الله ، فأنزل الله في وحشي وأصحابه ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً ﴾ [الزمر : 53] الآية . فبعث بها رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى وحشي إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأسلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

(19/564)

وقال ابن عطية :

وقوله تعالى : ﴿ والذين لا يدعون ﴾ الآية

إخراج لعباده المؤمنين من صفات الكفرة في عبادتهم الأوثان وقتلهم النفس بوأد البنات وغير ذلك من الظلم والاغتيال والغارات وبالزنا الذي كان عندهم مباحاً ، وفي نحو هذه الآية قال عبد الله بن مسعود : قلت يوماً يا رسول الله أي الذنب أعظم ؟ قال : " أن تجعل لله نداً وهو خلقك ، قلت ثم أي ؟ قال أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك ،

قلت ثم أي ؟ قال أن تزاني حليلة جارك " ، ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية .

قال الفقيه الإمام القاضي : والقتل والزنا يدخل في هذه الآية العصاة من المؤمنين ولهم من الوعيد بقدر ذلك ، " والحق " الذي تقتل به النفس هو قتل النفس والكفر بعد الإيمان ، و" الزنا " بعد الإحصان والكفر الذي لم يتقدمه إيمان في الحربيين ، و" الأثام " في كلام العرب العقاب وبه فسر ابن زيد وقتادة هذه الآية ومنه قول الشاعر : [الوافر]

جزى الله ابن عروة حيث أمسى . . . عقوقاً والعقوق له أثام

أي جزاء وعقوبة ، وقال عكرمة وعبد الله بن عمرو ومجاهد إن ﴿ أثاماً ﴾ واد في جهنم هذا اسمه وقد جعله الله عقاباً للكفرة ، وقرأ نافع وابن عامر وحمزة والكسائي " يضاعفْ ويخلدْ " جزماً ، وقرأ ابن كثير وأبو جعفر والحسن " يضعّفْ " بشد العين وطرح الألف وبالجزم في " يضعَفْ ويخلدْ " ، وقرأ طلحة بن سليمان " نضعِّف " بضم النون وكسر العين المشددة " العذابَ " نصب " ويخلد " جزم وهي قراءة أبي جعفر وشيبة ، وقرأ عاصم في رواية أبي بكر " يضاعفُ ويخلدُ " بالرفع فيهما ، وقرأ طلحة بن سلمان " وتخلد " بالتاء على معنى مخاطبة الكافر بذلك ، وروي عن أبي عمرو " ويُخلَّد " بضم الياء من تحت وفتح اللام قال أبو علي وهي غلط من جهة الرواية " ويضاعفْ " بالجزم بدل من ﴿ يلق ﴾ قال سيبويه مضاعفة العذاب هي الأثام قال الشاعر :

" متى تأتنا تلمم بنا في ديارنا " . . . البيت وقوله ﴿ إلا من تاب ﴾ الآية لا خلاف بين العلماء أن الاستثناء عامل في الكافر والزاني واختلفوا في القاتل من المسلمين ، فقال جمهور العلماء له التوبة وجعلت هذه الفرقة قاعدتها قوله تعالى : ﴿ ويغفر ما دون ذلك ﴾ [النساء : 48] فجعل القاتل في المشيئة كسائر التائبين من الذنوب ، ويتأولون الخلود الذي في آية القتل في سورة النساء بمعنى الدوام إلى مدة كخلد الدول ونحوه ، وروى أبو هريرة في أن التوبة لمن قتل حديثاً عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وقيل إن هذه الآية نزلت في وحشي قاتل حمزة ، وقاله سعيد بن جبير ، وقال ابن عباس وغيره لا توبة للقاتل ، قال ابن عباس وهذه الآية إنما أريد بالتوبة فيها المشركون وذلك أنها لما نزلت ﴿ إلا من تاب ﴾ الآية ، ونزلت ﴿ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ﴾ [الزمر : 53] ، فما رأينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فرح فرحه بها وبسورة الفتح ، وقال غير ابن عباس ممن قال بأن لا توبة للقاتل إن هذه الآية منسوخة بآية سورة النساء قاله زيد بن ثابت ، ورواه أيضاً سعيد بن جبير عن ابن عباس ، وقال أبو الجوزاء صحبت ابن عباس ثلاث عشرة سنة فما شيء من القرآن إلا سألته عنه فما سمعته يقول إن الله تعالى يقول

لذنب لا أغفره وقوله تعالى : ﴿ يبدل الله سيئاتهم حسنات ﴾ .

معناه يجعل أعمالهم بدل معاصيهم الأول طاعة فيكون ذلك سبباً لرحمة الله إياهم قاله ابن عباس وابن جبير وابن زيد والحسن ، ورد على من قال هو في يوم القيامة ، وقد ورد حديث في كتاب مسلم من طريق أبي يقتضي أن الله تعالى يبدل يوم القيامة لمن يريد المغفرة من الموحدين بدل سيئات حسنات ، وذكره الترمذي والطبري وهذا تأويل ابن المسيب في هذه الآية .

قال القاضي أبو محمد : وهو معنى كرم العفو ، وقرأ ابن أبي عبلة " يبْدِل " بسكون الباء وتخفيف الدال .

(21/564)

﴿ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا (71) ﴾

أكد بهذه الألفاظ أمر التوبة والمعنى ﴿ ومن تاب ﴾ فإنه قد تمسك بأمر وثيق وهكذا ، كما تقول لمن تستحسن قوله في أمره لقد قلت يا فلان قولاً ، فكذلك الآية معناها مدح المتاب كأنه قال فإنه يجد باباً للفرج والمغفرة عظيماً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ والذين لا يَدْعُون مع الله إلهاً آخر ﴾

في سبب نزولها ثلاثة أقوال .

أحدها : ما رواه البخاري ومسلم من حديث ابن مسعود ، " قال : سألتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم أيُّ الذَّنب أعظم ؟ قال : "أن تَجْعَلَ لله نِدّاً وهو خَلَقَكَ" ، قلتُ : ثم أيّ ؟ قال : "أن تَقْتُلَ وَلَدَكَ مخافة أن يَطْعَمَ معك" ، قلت : ثم أيّ ؟ قال : "أن تُزانيَ حليلة جارك" " ، فأنزل الله تعالى تصديقها ﴿ والذين لا يَدْعُون مع الله إلهاً آخر . . . ﴾ الآية .

والثاني : أن ناساً من أهل الشرك قَتلوا فأكثروا وزنَوا فأكثروا ، ثم أتَوا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : إن الذي تقولُ وتدعو إليه لَحَسَنٌ ، لو تُخبرنا أن لِمَا عَمِلنا كفارة ، فنزلت هذه الآية ، إلى قوله : ﴿ غفوراً رحيماً ﴾ ، أخرجه مسلم من حديث سعيد بن جبير عن ابن عباس .

والثالث : " أن وحشيّاً أتى النبيَّ صلى الله عليه وسلم فقال : يا محمد أتيتك مستجيراً

فأجِرني حتَى أسمع كلام الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قد كنت أُحِبُّ أن أراك على غير جوار ، فأما إذا أتيتَني مستجيراً فأنت في جواري حتى تَسمع كلام الله ، قال : فإِنّي أشركت بالله وقتلتُ النَّفْس التي حرَّم الله وزنيتُ ، فهل يقبل الله مني توبة ؟ فصمت رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزلت هذه الآية ، فتلاها عليه ، فقال : أرى شرطاً ، فلعلِّي لا أعمل صالحاً ، أنا في جوارك حتى أسمع كلام الله ، فنزلت ﴿ إن الله لا يَغْفِرُ أن يُشْرَكَ به ويَغْفِرُ ما دون ذلك لمن شاء ﴾ [النساء : 48] ، فدعاه فتلاها عليه ، فقال : ولعلِّي ممن لا يشاء [الله] ، أنا في جوارك حتى أسمع كلام الله ، فنزلت ﴿ يا عباديَ الذين أَسْرَفوا على أنفُسهم لا تَقْنَطوا من رحمة الله . . .

(23/564)

﴾ الآية [الزُّمَر : 53] ، فقال : نعم ، الآن لا أرى شرطاً ، فأسلم " ، رواه عطاء عن ابن عباس ؛ وهذا وحشيّ هو قاتل حمزة ؛ وفي هذا الحديث المذكور عنه نظر ، وهو بعيد الصحّة ، والمحفوظ في إِسلامه غير هذا ، وأنه قَدِم مع رسل الطائف فأسلم من غير اشتراط .

وقوله ﴿ يَدْعُون ﴾ معناه : يَعْبُدون .

وقد سبق بيان قتل النفس بالحق في [الأنعام : 151] .

قوله تعالى : ﴿ يَلْقَ أَثَاماً ﴾ وقرأ سعيد بن جبير ، وأبو المتوكل : ﴿ يُلَقَّ ﴾ برفع الياء وفتح اللام وتشديد القاف مفتوحة .

قال ابن عباس : يَلْقَ جزاءً .

وقال مجاهد ، وعكرمة : وهو وادٍ في جهنم .

وقال ابن قتيبة : يَلْقَ عقوبة ، وأنشد :

[جَزَى اللّهُ ابنَ عُرْوَةَ حيْثُ أَمْسَى . . .

عُقُوقاً] والعُقُوق لَهُ أثام

قال الزجاج : وقوله : ﴿ يَلْقَ أَثاماً ﴾ جزماً على الجزاء .

قال أبو عمرو الشيباني : يقال : قد لقيَ أثام ذلك ، أي : جزاء ذلك ، وسيبويه والخليل يذهبان إلى أن معناه : يلقى جزاء الأثام ، قال سيبويه : وإنما جزم ﴿ يُضَاعَفْ له العذابُ ﴾ لأن مضاعفة العذاب لُقِيُّ الآثام ، فلذلك جزمت ، كما قال الشاعر :

مَتَى تَأْتِنَا تُلْمِمْ بنا في دِيارِنا . . .

تَجِدْ حَطَباً جزْلاً ونارا تَأَجَّجَا

لأن الإتيان هو الإلمام ، فجزم "تُلْمِمْ" لانه بمعنى "تأتي .

وقرأ الحسن : ﴿ يُضَعَّفْ ﴾ ، وهو جيّد بالغ ؛ تقول : ضاعفتُ الشيءَ وضَعَّفْتُه .

وقرأ عاصم : ﴿ يُضَاعَفُ ﴾ بالرفع على تفسير ﴿ يَلْقَ أثاماً ﴾ كأنّ قائلاً قال : ما لُقيُّ الأثام ؟ فقيل : يُضاعَف للآثم العذاب .

وقرأ أبو المتوكل ، وقتادة ، وأبو حيوة : ﴿ يُضْعَف ﴾ برفع الياء وسكون الضاد وفتح العين خفيفة من غير ألف .

وقرأ أبو حصين الأسدي ، والعمري عن أبي جعفر مثله ، إلا أن العين مكسورة ، و ﴿ العذابَ ﴾ بالنصب .

(24/564)

قوله تعالى : ﴿ ويَخْلُدْ ﴾ وقرأ أبو حيوة ، وقتادة ، والأعمش : ﴿ ويُخْلَد ﴾ برفع الياء وسكون الخاء وفتح اللام مخففة .

وقرأ عاصم الجحدري ، وابن يعمر ، وأبو المتوكل مثله ، إلا أنهم شدّدوا اللام .

فصل

ولعلماء الناسخ والمنسوخ في هذه الآية قولان .

أحدهما : أنها منسوخة ، وفي ناسخها ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه قوله تعالى : ﴿ ومن يَقْتُلْ مؤمِناً متعمّداً فجزاؤه جهنَّمُ ﴾ [النساء 93] ،

قاله ابن عباس .

وكان يقول : هذه مكية ، والتي في "النساء" مدنية .

والثاني : أنها نسخت بقوله : ﴿ إِن الله لا يَغْفِرُ أن يُشْرَكَ به ويغفر ما دون ذلك . . . ﴾ الآية [النساء : 48] .

والثالث : أن الأولى نُسخت بالثانية ، وهي قوله : ﴿ إِلا من تاب ﴾ .

والقول الثاني : أنها محكمة ؛ والخلود إنما كان لانضمام الشرك إلى القتل والزنا .

وفساد القول الأول ظاهر ، لأن القتل لا يوجب تخليداً عند الأكثرين ؛ وقد بيَّنَّاه في سورة [النساء : 93] ، والشِّرك لا يُغْفَر إذا مات المشرك عليه ، والاستثناء ليس بنسخ .

قوله تعالى : ﴿ إِلا من تاب ﴾ قال ابن عباس : قرأنا على عهد رسول الله سنتين : ﴿ والذين لا يَدْعُون مع الله إلهاً آخر ﴾ ثم نزلت ﴿ إِلا من تاب ﴾ فما رأيتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فرح بشيء فرحه بها ، وب ﴿ إِنّا فتحنا لكَ فتحاً مبيناً ﴾ [الفتح 1] .

قوله تعالى : ﴿ فأولئك يُبَدِلُ الله سيِّئاتهم حسنات ﴾ اختلفوا في كيفية هذا التبديل وفي زمان كونه ، فقال ابن عباس : يبدِّل الله شركهم إيماناً ، وقتلهم إمساكاً ، وزناهم إحصاناً ؛ وهذا يدل : على أنه يكون في الدنيا ، وممن ذهب إلى هذا المعنى سعيد بن جبير ، ومجاهد ، وقتادة ، والضحاك ، وابن زيد .

والثاني : أن هذا يكون في الآخرة ، قاله سلمان رضي الله عنه ، وسعيد بن المسيّب ، وعليّ بن الحسين .

(25/564)

وقال عمرو بن ميمون : يبدّل الله سيئات المؤمن إذا غفرها له حسنات ، حتى إن العبد يتمنَّى أن تكون سيئاته أكثر مما هي .

وعن الحسن كالقولين .

وروي عن الحسن أنه قال : وَدَّ قومٌ يوم القيامة أنهم كانوا في الدنيا استكثروا من الذُّنوب ؛ فقيل : من هم ؟ قال : هم الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿ فأولئك يبدل الله سيآتهم حسنات ﴾ ، ويؤكِّد هذا القولَ حديثُ أبي ذرّ عن النبي صلى الله عليه وسلم : " يؤتى بالرجل يوم القيامة ، فيقال : اعرضوا عليه صِغار ذنوبه ، فتُعْرَض عليه صِغار ذنوبه وتنحّى عنه كبارها ، فيقال : عملتَ يوم كذا ، كذا وكذا ، وهو مُقِرّ لا يُنْكِر ، وهو مُشْفِق من الكبار ، فيقال : أعطوه مكان كل سيئة عملها حسنة " أخرجه مسلم في "صحيحه" .

قوله تعالى : ﴿ ومن تاب ﴾ ظاهر هذه التوبة أنها عن الذنوب المذكورة .

وقال ابن عباس : يعني : ممن لم يَقْتُل ولم يزن ، ﴿ وعمل صالحاً ﴾ فانّي قد قدَّمتُهم

وفضَّلتُهم على من قاتل نبيّي واستحلَّ محارمي .

قوله تعالى : ﴿ فانه يتوب إلى الله مَتاباً ﴾ قال ابن الأنباري : معناه : من أراد التوبة وقصد حقيقتها ، فينبغي له أن يُريد اللّهَ بها ولا يخلط بها ما يُفسدها ؛ وهذا كما يقول الرجل : من تجر فانه يتّجر في البزّ ، ومن ناظر فانه يناظر في النحو ، أي : من أراد ذلك ، فينبغي أن يقصد هذا الفن ؛ قال : ويجوز أن يكون معنى [هذه] الآية : ومن تاب وعمل صالحاً . فإن ثوابه وجزاءه يعظُمان له عند ربّه ، الذي أراد بتوبته ، فلما كان قوله : ﴿ فإنه يتوب إلى الله متاباً ﴾ يؤدّي عن هذا المعنى ، كفى منه ، وهذا كما يقول الرجل للرجل : إذا تكلَّمتَ فاعلم أنك تكلِّم الوزير ، أي : تكلِّم من يَعرف كلامك ويجازيك ، ومثله قوله تعالى : ﴿ إن كان كَبُر عليكم مَقامي وتذكيري بآيات الله فعلى الله توكَّلْتُ ﴾ [يونس : 71] ، أي : فاني أتوكَّل على من ينصرني ولا يُسلِمني .

وقال قوم : معنى الآية : فانه يرجع إلى الله مرجعاً يقبله منه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 6 صـ ﴾

(26/564)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ والذين لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إلها آخَرَ ﴾

إخراج لعباده المؤمنين من صفات الكفرة في عبادتهم الأوثان ، وقتلهم النفس بوَأْدِ البنات ؛ وغير ذلك من الظلم والاغتيال ، والغارات ، ومن الزنى الذي كان عندهم مباحاً .

وقال من صرف هذه الآية عن ظاهرها من أهل المعاني : لا يليق بمن أضافهم الرحمن إليه إضافة الاختصاص ، وذكرهم ووصفهم من صفات المعرفة والتشريف وقوع هذه الأمور القبيحة منهم حتى يمدحوا بنفيها عنهم لأنهم أعلى وأشرف ، فقال : معناها لا يدعون الهوى إلهاً ، ولا يذلون أنفسهم بالمعاصي فيكون قتلاً لها .

ومعنى ﴿ إلاَّ بالحق ﴾ أي إلا بسكين الصبر وسيف المجاهدة فلا ينظرون إلى نساء ليست لهم بمحرم بشهوة فيكون سفاحاً ؛ بل بالضرورة فيكون كالنكاح .

قال شيخنا أبو العباس : وهذا كلام رائق غير أنه عند السبر مائق .

وهي نبعة باطنية ونزعة باطلية .

وإنما صح تشريف عباد الله باختصاص الإضافة بعد أن تحلّوا بتلك الصفات الحميدة وتخلّوا عن نقائض ذلك من الأوصاف الذميمة ، فبدأ في صدر هذه الآيات بصفات التحلي تشريفاً لهم ، ثم أعقبها بصفات التخلي تبعيداً لها ؛ والله أعلم .

قلت : ومما يدلّ على بطلان ما ادعاه هذا القائل من أن تلك الأمور ليست على ظاهرها ما

روى مسلم من حديث " عبد الله بن مسعود قال : قلت : يا رسول الله ، أيّ الذنب أكبر عند الله ؟ قال : "أن تدعو لله نداً وهو خلقك" قال : ثم أي ؟ قال : "أن تقتل ولدك مخافة أن يطعمَ معك" قال : ثم أيّ ؟ قال : "أن تزاني حليلة جارك" فأنزل الله تعالى تصديقها : ﴿ والذين لاَ يَدْعُونَ مَعَ الله إلها آخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النفس التي حَرَّمَ الله إِلاَّ بالحق وَلاَ يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذلك يَلْقَ أَثَاماً ﴾ " والأثام في كلام العرب العقاب ، وبه قرأ ابن زيد وقتادة هذه الآية .

ومنه قول الشاعر :

جَزى الله ابن عُروة حيث أَمسى . . .

عُقوقاً والعُقوقُ له أثامُ

(27/564)

أي جزاء وعقوبة .

وقال عبد الله بن عمرو وعكرمة ومجاهد : إن ﴿ أَثَاماً ﴾ وادٍ في جهنم جعله الله عقاباً للكفرة .

قال الشاعر :

لقيت المهالك في حربنا . . .

وبعد المهالك تلقى أثاما

وقال السدّي : جبل فيها .

قال :

وكان مُقامُنا ندعو عليهم . . .

بأبطَح ذي المجاز له أثامُ

وفي "صحيح مسلم" أيضاً عن ابن عباس : أن ناساً من أهل الشرك قتلوا فأكثروا وزنوا فأكثروا ؛ فأتوا محمداً صلى الله عليه وسلم فقالوا : إن الذي تقول وتدعو إليه لحسن ، لو يخبرنا بأن لما عملنا كفارة ، فنزلت : ﴿ والذين لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إلها آخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النفس التي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بالحق وَلاَ يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذلك يَلْقَ أَثَاماً ﴾ .

ونزل : ﴿ ياعبادي الذين أَسْرَفُواْ على أَنفُسِهِمْ ﴾ [الزمر : 53] الآية .

وقد قيل : إن هذه الآية ، ﴿ ياعبادي الذين أَسْرَفُواْ ﴾ [الزمر : 53] نزلت في وحشِي قاتل حمزة ؛ قاله سعيد بن جبير وابن عباس ، وسيأتي في "الزمر" بيانه .

قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ بالحق ﴾ أي بما يحق أن تقتل به النفوس من كفر بعد إيمان أو زنى بعد إحصان ؛ على ما تقدم بيانه في "الأنعام" .

﴿ وَلاَ يَزْنُونَ ﴾ فيستحلون الفروج بغير نكاح ولا مِلك يمين .

ودلّت هذه الآية على أنه ليس بعد الكفر أعظم من قتل النفس بغير الحق ثم الزنى ؛ ولهذا

ثبت في حد الزنا القتل لمن كان محصناً أو أقصى الجلد لمن كان غير محصن .

قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذلك يَلْقَ أَثَاماً .

يُضَاعَفْ لَهُ العذاب ﴾ قرأ نافع وابن عامر وحمزة والكسائي "يُضَاعَفْ .

وَيَخْلُدْ" جزماً .

وقرأ ابن كثير : "يُضَعَّفْ" بشد العين وطرح الألف ؛ وبالجزم في "يُضَعَّفْ .

وَيَخْلُد" .

وقرأ طلحة بن سليمان "نُضَعِّفْ" بضم النون وكسر العين المشدّدة .

"الْعَذَابَ" نصب "وَيَخْلُدْ" جزم ، وهي قراءة أبي جعفر وشيبة .

وقرأ عاصم في رواية أبي بكر : "يُضَاعَفُ .

(28/564)

وَيُخْلَدُ" بالرفع فيهما على العطف والاستئناف .

وقرأ طلحة بن سليمان : "وَتَخْلُدْ" بالتاء على معنى مخاطبة الكافر .

وروي عن أبي عمرو "وَيُخْلَدْ" بضم الياء من تحت وفتح اللام .

قال أبو علي : وهي غلط من جهة الرواية .

و"يُضَاعَفْ" بالجزم بدل من "يَلْق" الذي هو جزاء الشرط.

قال سيبويه: مضاعفة العذاب لُقيِّ الأثام.

قال الشاعر:

مَتَى تَأْتنا تُلْمِمْ بنا في دِيارنا . . .

تَجدْ حَطَباً جَزْلاً ونارا تَأَجَّجَا

وقال آخر:

إنّ عليّ اللَّه أَنْ تُبايِعَا . . .

تُؤْخَذَ كَرْهاً أو تَجِيءَ طائعَا

وأما الرفع ففيه قولان: أحدهما أن تقطعه مما قبله.

والآخر أن يكون محمولاً على المعنى؛ كأن قائلاً قال: ما لُقيّ الأثام؟ فقيل له: يضاعف له العذاب.

و﴿ مُهَاناً ﴾ معناه ذليلاً خاسئاً مُبعداً مطروداً.

قوله تعالى: ﴿ إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً ﴾

لا خلاف بين العلماء أن الاستثناء عامل في الكافر والزاني.

واختلفوا في القاتل من المسلمين على ما تقدم بيانه في "النساء" ومضى في "المائدة" القول في جواز التراخي في الاستثناء في اليمين، وهو مذهب ابن عباس مستدلاً بهذه الآية.

قوله تعالى : ﴿ فأولئك يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ﴾ قال النحاس : من أحسن ما قيل فيه أنه يكتب موضع كافرٍ مؤمن ، وموضع عاصٍ مطيع .

وقال مجاهد والضحاك : أن يبدلهم الله من الشرك الإيمان وروي نحوه عن الحسن .

قال الحسن : قوم يقولون التبديل في الآخرة ، وليس كذلك ، إنما التبديل في الدنيا ؛ يبدلهم الله إيماناً من الشرك ، وإخلاصاً من الشك ، وإحصاناً من الفجور .

وقال الزجاج : ليس بجعل مكان السيئة الحسنة .

ولكن بجعل مكان السيئة التوبة ، والحسنة مع التوبة .

وروى أبو ذرٍّ عن النبي صلى الله عليه وسلم : " أن السيئات تبدّل بحسنات " وروي معناه عن سلمان الفارسي وسعيد بن جبير وغيرهما .

(29/564)

وقال أبو هريرة : ذلك في الآخرة فيمن غلبت حسناته على سيئاته ، فيبدل الله السيئات حسنات .

وفي الخبر : " لَيتمنَّين أقوام أنهم أكثروا من السيئات" فقيل : ومن هم ؟ قال : "الذين يبدل الله سيئاتهم حسنات" " رواه أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم ؛ ذكره الثعلبي

والقُشيري .

وقيل : التبديل عبارة عن الغفران ؛ أي يغفر الله لهم تلك السيئات لا أن يبدّلها حسنات .

قلت : فلا يبعد في كرم الله تعالى إذا صحت توبة العبد أن يضع مكان كل سيئة حسنة ؛ وقد قال صلى الله عليه وسلم لمعاذ : " أتبِع السيئةَ الحسنةَ تمحها وخالِق الناس بخلق حسن " وفي "صحيح مسلم" عن أبي ذر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " "إني لأعلم آخر أهل الجنة دخولاً الجنة وآخرَ أهل النار خروجاً منها رجلٌ يؤتى به يوم القيامة فيقال اعرِضوا عليه صغار ذنوبه وارفعوا عنه كبارها فتعرض عليه صغار ذنوبه فيقال عمِلت يوم كذا وكذا كذا وكذا وعملت يوم كذا وكذا كذا وكذا فيقول نعم لا يستطيع أن ينكر وهو مشفِق في كبار ذنوبه أن تعرض عليه فيقال له فإن لك مكان كل سيئةٍ حسنة فيقول يا رب قد عملت أشياء لا أراها ها هنا" فلقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ضحك حتى بدت نواجذه .

وقال أبو طَويل : يا رسول الله ، أرأيت رجلاً عمل الذنوب كلها ولم يترك منها شيئاً ، وهو في ذلك لم يترك حاجّة ولا داجّة إلا اقتطعها فهل له من توبة ؟ قال : "هل أسلمت" قال : أنا أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أنك عبد الله ورسوله .

قال : "نعم .

تفعل الخيرات وتترك السيئات يجعلهن الله كلهن خيرات" .

قال : وغدراتي وفجراتي يا نبيّ الله قال : "نعم" .

قال : الله أكبر ! فما زال يكررها حتى توارى " ذكره الثعلبي .

قال مبشر بن عبيد ، وكان عالماً بالنحو والعربية : الحاجّة التي تقطع على الحاج إذا توجهوا والداجة التي تقطع عليهم إذا قفلوا .

﴿ وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾ .

(30/564)

قوله تعالى : ﴿ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللهِ مَتَاباً ﴾

لا يقال : من قام فإنه يقوم ؛ فكيف قال من تاب فإنه يتوب ؟ فقال ابن عباس : المعنى من آمن من أهل مكة وهاجر ولم يكن قتل وزنى بل عمل صالحاً وأدّى الفرائض فإنه يتوب إلى الله متاباً ؛ أي فإني قدّمتهم وفضلتهم على من قاتل النبيّ صلى الله عليه وسلم واستحل المحارم .

وقال القَفّال : يحتمل أن تكون الآية الأولى فيمن تاب من المشركين ، ولهذا قال : ﴿ إِلاَّ مَنْ تَابَ وَآمَنَ ﴾ ثم عطف عليه من تاب من المسلمين وأتبع توبته عملاً صالحاً فله حكم التائبين أيضاً .

وقيل : أي من تاب بلسانه ولم يحقق ذلك بفعله ، فليست تلك التوبة نافعة ؛ بل من تاب وعمل صالحاً فحقق توبته بالأعمال الصالحة فهو الذي تاب إلى الله متاباً ؛ أي تاب حق التوبة وهي النصوح ، ولذا أكد بالمصدر .

ف ﴿ متابا ﴾ مصدر معناه التأكيد ، كقوله : ﴿ وَكَلَّمَ اللهُ موسى تَكْلِيماً ﴾ [النساء : 164] أي فإنه يتوب إلى الله حقاً فيقبل الله توبته حقاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 13 صـ ﴾

(31/564)

وقال ابن كثير :

﴿ وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلا بِالْحَقِّ ﴾ .

قال الإمام أحمد : حدثنا أبو معاوية ، حدثنا الأعمش ، عن شَقيق ، عن عبد الله – هو ابن مسعود – قال : سُئل رسول الله صلى الله عليه وسلم أي : الذنب أكبر ؟ قال : "أن تَجعل لله ندًا وهو خلقك" . قال : ثم أي ؟ قال : "أن تقتل ولدك خشية أن يَطْعم معك" . قال : ثم أي ؟ قال : "أن تزاني

(32/564)

حليلة جارك" . قال عبد الله : وأنزل الله تصديق ذلك : ﴿ وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلا بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴾ .

وهكذا رواه النسائي عن هَنَّاد بن السري ، عن أبي معاوية ، به (1) .

وقد أخرجه البخاري ومسلم ، من حديث الأعمش ومنصور - زاد البخاري : وواصل - ثلاثتهم عن أبي وائل ، شقيق بن سلمة ، عن أبي مَيْسَرة عمرو بن شرحبيل ، عن ابن مسعود ، به (2) ، فالله أعلم ، ولفظهما عن ابن مسعود قال : قلت : يا رسول الله ، أي الذنب أعظم ؟ الحديث .

طريق غريب : وقال ابن جرير : حدثنا أحمد بن إسحاق الأهوازي ، حدثنا عامر بن مُدْرِك ، حدثنا السري - يعني ابن إسماعيل - حدثنا الشعبي ، عن مسروق قال : قال عبد الله : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم فاتبعته ، فجلس على نَشَز من الأرض ، وقعدت أسفل منه ، ووجهي حيال ركبتيه ، واغتنمت خلوته وقلت : بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، أي الذنوب أكبر ؟ قال : "أن تدعو لله ندًا وهو خلقك" . قلت : ثم مه ؟ قال : "أن تقتل ولدك كراهية أن يطعم معك" . قلت : ثم مه ؟ قال : "أن تزاني حليلة جارك" . ثم قرأ : ﴿ وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ﴾ . [إلى آخر] الآية (3) .

وقال النسائي : حدثنا قتيبة بن سعيد ، حدثنا جرير ، عن منصور ، عن هلال بن يَسَاف ،

عن سلمة بن قيس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع : "ألا إنما هي أربع - فما أنا بأشح عليهن مني منذ سمعتهن من رسول الله صلى الله عليه وسلم - : لا تشركوا بالله شيئًا ، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ، ولا تزنوا ، ولا تسرقوا" (4) .

---

(1) المسند (380/1) والنسائي في السنن الكبرى برقم (11368) .

(2) صحيح البخاري برقم (6811) وصحيح مسلم برقم (68) .

(3) صحيح البخاري برقم (6811) وصحيح مسلم برقم (68) .

(4) النسائي في السنن الكبرى رقم (11373) .

(33/564)

وقال الإمام أحمد : حدثنا علي بن المديني ، رحمه الله ، حدثنا محمد بن فضيل بن غَزْوان ، حدثنا محمد بن سعد (10) الأنصاري ، سمعت أبا طيبة الكَلاعي ، سمعت المقداد بن الأسود ، رضي الله عنه ، يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه : "ما تقولون في الزنى" ؟ قالوا : حَرّمه الله ورسوله ، فهو حَرَام إلى يوم القيامة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه : "لأن يزني الرجل بعشر نسوة أيسر عليه من أن يزني بامرأة جاره" . قال : "ما تقولون في السرقة" ؟ قالوا : حرمها الله ورسوله ، فهي حرام . قال :

"لأن يسرق الرجل من عشرة أبيات أيسر عليه من أن يسرق من جاره" (1) .

وقال أبو بكر بن أبي الدنيا : حدثنا عمار بن نصر ، حدثنا بَقيَّة ، عن أبي بكر بن أبي مريم ، عن الهيثم بن مالك الطائي عن النبي صلى الله عليه وسلم : قال : "ما من ذنب بعد الشرك أعظم عند الله من نُطفة وضعها رجل في رَحِم لا يحل له" (2) .

---

(1) المسند (8/6) وقال الهيثمي في المجمع (168/8) "رجاله ثقات" .

(2) الورع لابن أبي الدنيا برقم (137) "وهو مرسل ، وفي إسناده بقية وهو مدلس وابن أبي مريم ضعيف" أ . هـ مستفادا من كلام المحقق الفاضل محمد الحمود .

(34/564)

وقال ابن جُرَيج : أخبرني يعلى ، عن سعيد بن جبير أنه سمعه يحدث عن ابن عباس : أن ناسا من أهل الشرك قتلوا فأكثروا ، وزنوا فأكثروا ، ثم أتوا محمدًا صلى الله عليه وسلم فقالوا : إن الذي تقول وتدعو إليه لحسن ، لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة ، فنزلت : ﴿ وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلا بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ ﴾ ، ونزلت : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا [إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ] ﴾ [الزمر : 53] .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا ابن أبي عمر ، حدثنا سفيان ، عن عمرو ، عن أبي فَاخِتة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجل : "إن الله ينهاك أن تعبد المخلوق وتدع الخالق ، وينهاك أن تقتل ولدك وتغذو كلبك ، وينهاك أن تزني بحليلة جارك" . قال سفيان : وهو قوله : ﴿ وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلا بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ ﴾ (1) .

وقوله : ﴿ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴾ . روي عن عبد الله بن عمرو أنه قال : ﴿ أَثَامًا ﴾ واد في جهنم .

وقال عكرمة : ﴿ يَلْقَ أَثَامًا ﴾ أودية في جهنم يعذب فيها الزناة . وكذا رُوي عن سعيد بن جبير ، ومجاهد .

وقال قتادة : ﴿ يَلْقَ أَثَامًا ﴾ نكالا كنا نحدث أنه واد في جهنم .

وقد ذكر لنا أن لقمان كان يقول : يا بني ، إياك والزنى ، فإن أوله مخافة ، وآخره ندامة .

وقد ورد في الحديث الذي رواه ابن جرير وغيره ، عن أبي أمامة الباهلي – موقوفا ومرفوعا – أن "غيا" و"أثاما" بئران في قعر جهنم (2) أجارنا الله منها بمنه وكرمه .

وقال السدي : ﴿ يَلْقَ أَثَامًا ﴾ : جزاء .

---

(1) ذكره السيوطي في الدر المنثور (277/6) وعزاه لابن أبي حاتم . ووقع فيه : "عن أبي قتادة" فإن كان كذلك فهو موصول ، وإن كان كما هو مثبت هنا فهو مرسل ، ولم يتبين لي

الصواب منهما ، والله أعلم .

(2) تفسير الطبري (29/19) .

(35/564)

وهذا أشبه بظاهر الآية ؛ ولهذا فسره بما بعده مبدلا منه ، وهو قوله : ﴿ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ أي : يكرر عليه ويغلظ ، ﴿ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴾ أي : حقيرا ذليلا .

وقوله : ﴿ إِلا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ [عَمَلا] صَالِحًا ﴾ أي : جزاؤه على ما فعل من هذه الصفات القبيحة ما ذكر ﴿ إِلا مَنْ تَابَ ﴾ في الدنيا إلى الله من جميع ذلك ، فإن الله يتوب عليه .

وفي ذلك دلالة على صحة توبة القاتل ، ولا تعارض بين هذه وبين آية النساء : ﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ [النساء : 93] فإن هذه

(36/564)

وإن كانت مدنية إلا أنها مطلقة ، فتحمل على من لم يتب ، لأن هذه مقيدة بالتوبة ، ثم قد قال [الله] تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ [النساء : 48 ، 116] .

وقد ثبتت السنة الصحيحة ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بصحة توبة القاتل ، كما ذكر مقررا من قصة الذي قتل مائة رجل ثم تاب ، وقبل منه ، وغير ذلك من الأحاديث .

وقوله : ﴿ فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ : في معنى قوله : ﴿ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ﴾ قولان :

أحدهما : أنهم بدلوا مكان عمل السيئات بعمل الحسنات . قال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ﴾ قال : هم المؤمنون ، كانوا من قبل إيمانهم على السيئات ، فرغب الله بهم عن ذلك فحوّلهم إلى الحسنات ، فأبدلهم مكان السيئات الحسنات .

وروى مجاهد ، عن ابن عباس أنه كان ينشد عند هذه الآية :

بُدِّلْنَ بَعْدَ حَرِّهِ خَرِيفا وَبَعْدَ طُولِ النَّفَسِ الوَجِيفَا (1)

يعني : تغيرت تلك الأحوال إلى غيرها .

وقال عطاء بن أبي رباح : هذا في الدنيا ، يكون الرجل على هيئة قبيحة ، ثم يبدله الله بها

خيرا .

وقال سعيد بن جبير : أبدلهم بعبادة الأوثان عبادة الله ، وأبدلهم بقتال المسلمين قتالا مع المسلمين للمشركين ، وأبدلهم بنكاح المشركات نكاح المؤمنات .

وقال الحسن البصري : أبدلهم الله بالعمل السيئ العمل الصالح ، وأبدلهم بالشرك إخلاصا ، وأبدلهم بالفجور إحصانا وبالكفر إسلاما .

وهذا قول أبي العالية ، وقتادة ، وجماعة آخرين .

---

(1) البيت في تفسير الطبري (30/19) .

(37/564)

والقول الثاني : أن تلك السيئات الماضية تنقلب بنفس التوبة النصوح حسنات ، وما ذاك إلا أنه كلما تذكر ما مضى ندم واسترجع واستغفر ، فينقلب الذنب طاعة بهذا الاعتبار . فيوم القيامة وإن وجده مكتوبا عليه لكنه لا يضره وينقلب حسنة في صحيفته ، كما ثبتت السنة بذلك ، وصحت به الآثار المروية عن السلف ، رحمهم الله تعالى - وهذا سياق الحديث - قال الإمام أحمد :

حدثنا أبو معاوية ، حدثنا الأعمش ، عن المعرور بن سُوَيْد ، عن أبي ذر ، رضي الله عنه ،

قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إني لأعرف آخر أهل النار خروجا من النار ، وآخر أهل الجنة دخولا إلى الجنة : يؤتى برجل فيقول : نَحّوا كبار ذنوبه وسلوه عن صغارها ، قال : فيقال له : عملت يوم كذا وكذا كذا ، وعملت يوم كذا وكذا كذا ؟ فيقول : نعم - لا يستطيع أن ينكر من ذلك شيئا -

(38/564)

فيقال : فإن لك بكل سيئة حسنة . فيقول : يا رب ، عملت أشياء لا أراها هاهنا" . قال : فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه . وانفرد به مسلم (1) .

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني : حدثنا هاشم بن يزيد ، حدثنا محمد بن إسماعيل ، حدثني أبي ، حدثني ضَمْضَم بن زرعة ، عن شُرَيْح بن عبيد عن أبي مالك الأشعري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إذا نام ابن آدم قال الملك للشيطان : أعطني صحيفتك . فيعطيه إياها ، فما وجد في صحيفته من حسنة محا بها عشر سيئات من صحيفة الشيطان ، وكتبهن حسنات ، فإذا أراد أن ينام أحدكم فليكبر ثلاثًا وثلاثين تكبيرة ، ويحمد أربعا وثلاثين تحميدة ، ويسبح ثلاثًا وثلاثين تسبيحة ، فتلك مائة" (2) .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا أبو سلمة وعارم قالا حدثنا ثابت - يعني : ابن

يزيد أبو زيد – حدثنا عاصم ، عن أبي عثمان ، عن سلمان قال : يعطى رجل يوم القيامة صحيفته فيقرأ أعلاها ، فإذا سيئاته ، فإذا كاد يسوء ظنه نظر في أسفلها فإذا حسناته ، ثم ينظر في أعلاها فإذا هي قد بدلت حسنات .

وقال أيضا : حدثنا أبي ، حدثنا هشام بن عمار ، حدثنا سليمان بن موسى الزهري أبو داود ، حدثنا أبو العَنْبَس ، عن أبيه ، عن أبي هريرة قال : ليأتين الله عز وجل بأناس يوم القيامة رأوا أنهم قد استكثروا من السيئات ، قيل : مَنْ هم يا أبا هريرة ؟ قال : الذين يبدل الله سيئاتهم حسنات .

---

(1) المسند (170/5) وصحيح مسلم برقم (190) .

(2) المعجم الكبير للطبراني (296/3) قال الهيثمي في المجمع (121/10) "فيه محمد بن إسماعيل بن عياش وهو ضعيف" ولم يثبت سماعه عن أبيه أيضا .

(39/564)

وقال أيضا : حدثنا أبي ، حدثنا عبد الله بن أبي زياد ، حدثنا سَيَّار ، حدثنا جعفر ، حدثنا أبو حمزة ، عن أبي الضيف – وكان من أصحاب معاذ بن جبل – قال : يدخل أهل الجنة الجنة على أربعة أصناف : المتقين ، ثم الشاكرين ، ثم الخائفين ، ثم أصحاب اليمين .

قلت : لِمَ سموا أصحاب اليمين ؟ قال : لأنهم عملوا الحسنات والسيئات ، فأعطوا كتبهم بأيمانهم ، فقرؤوا سيئاتهم حرفا حرفا – قالوا : يا ربنا ، هذه سيئاتنا ، فأين حسناتنا ؟ . فعند ذلك محا الله السيئات وجعلها حسنات ، فعند ذلك قالوا : (هاؤم اقرؤوا كتابيه) ، فهم أكثر أهل الجنة .

وقال علي بن الحسين زين العابدين : ﴿ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ﴾ قال : في الآخرة .

وقال مكحول : يغفرها لهم فيجعلها حسنات : [رواهما ابن أبي حاتم ، وروى ابن جرير ، عن سعيد بن المسيب مثله] .

قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا محمد بن الوزير الدمشقي ، حدثنا الوليد بن مسلم ،

(40/564)

حدثنا أبو جابر ، أنه سمع مكحولا يحدث قال : جاء شيخ كبير هرم قد سقط حاجباه على عينيه ، فقال : يا رسول الله ، رجل غدر وفجر ، ولم يدع حاجة ولا داجة إلا اقتطعها بيمينه ، لو قسمت خطيئته بين أهل الأرض لأوبقتهم ، فهل له من توبة ؟ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أسلمتَ ؟" قال : أما أنا فأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك

له ، وأن محمدًا عبده ورسوله . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "فإن الله غافر لك ما كنت كذلك ، ومبدل سيئاتك حسنات" . فقال : يا رسول الله ، وغَدَراتي وفَجَراتي ؟ فقال : "وغَدرَاتك وفَجَراتك" . فَوَلّى الرجل يهلل ويكبر (1) .

وروى الطبراني من حديث أبي المغيرة ، عن صفوان بن عَمْرو ، عن عبد الرحمن بن جبير ، عن أبي فَرْوَةَ – شَطْب – أنه أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أرأيت رجلا عمل الذنوب كلها ، ولم يترك حاجة ولا داجة ، فهل له من توبة ؟ فقال : "أسلمتَ ؟" فقال : نعم ، قال : "فافعل الخيرات ، واترك السيئات ، فيجعلها الله لك خيرات كلها" . قال : وغَدرَاتي وفَجَراتي ؟ قال : "نعم" . قال فما زال يكبر حتى توارى (2) .

ورواه الطبراني من طريق أبي فَروة الرهاوي ، عن ياسين الزيات ، عن أبي سلمة الحِمْصي ، عن يحيى بن جابر ، عن سلمة بن نفيل مرفوعًا (3) .

---

(1) وقد وصله الإمام أحمد في مسنده (384/4) من طريق نوح بن قيس عن أشعث بن جابر الحداني عن مكحول عن عمرو بن عبسة به مرفوعا باختصار في أوله وآخره ، وقال الهيثمي في المجمع (32/1) : "رجاله موثقون إلا أنه من رواية مكحول عن عمرو بن عبسة ، فلا أدري أسمع منه أم لا" .

(2) المعجم الكبير للطبراني (314/7) ورواه الخطيب في تاريخ بغداد (352/3) من طريق أبي القاسم البغوي عن محمد بن هارون الحربي عن أبي المغيرة به . وقال أبو القاسم

البغوي : "روى هذا الحديث غير محمد بن هارون عن أبي المغيرة عن صفوان عن عبد الرحمن بن جبير : أن رجلا أتى النبي صلى الله عليه وسلم طويلا شطب الممدود ، وأحسب أن محمد بن هارون صحف فيه ، والصواب ما قال غيره" .

(3) المعجم الكبير للطبراني (53/7) وقال الهيثمي في المجمع (31/1) : "في إسناده ياسين الزيات يروي الموضوعات" .

(41/564)

وقال أيضًا : حدثنا أبو زُرْعة ، حدثنا إبراهيم بن المنذر ، حدثنا عيسى بن شعيب بن ثوبان ، عن فُلَيْح الشماس ، عن عبيد بن أبي عبيد عن أبي هريرة ، رضي الله عنه ، قال : جاءتني امرأة فقالت : هل لي من توبة ؟ إني زنيت وولدت وقتلته . فقلت لا ولا نَعمت العين ولا كرامة . فقامت وهي تدعو بالحسرة . ثم صليت مع النبي صلى الله عليه وسلم الصبح ، فقصصت عليه ما قالت المرأة وما قلت لها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " بئسما قلت ! أما كنت تقرأ هذه الآية : ﴿ وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ﴾ إلى قوله : ﴿ إِلا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ فقرأتها عليها . فخرَّت ساجدة وقالت : الحمد لله الذي جعل

لي مخرجًا .

هذا حديث غريب من هذا الوجه ، وفي رجاله مَنْ لا يُعرف والله أعلم . وقد رواه ابن جرير من

(42/564)

حديث إبراهيم بن المنذر الحزَامي بسنده بنحوه ، وعنده : فخرجت تدعو بالحسرة وتقول : يا حسرتا ! أخلق هذا الحسن للنار ؟ وعنده أنه لما رجع من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تَطَلَّبها في جميع دور المدينة فلم يجدها ، فلما كان من الليلة المقبلة جاءته ، فأخبرها بما قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فخرت ساجدة ، وقالت : الحمد لله الذي جعل لي مخرجًا وتوبة مما عملت . وأعتقت جارية كانت معها وابنتها ، وتابت إلى الله عز وجل (1)

ثم قال تعالى مخبرًا عن عموم رحمته بعباده وأنه من تاب إليه منهم تاب عليه من أي ذنب كان ، جليل أو حقير ، كبير أو صغير : فقال ﴿ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴾ أي : فإن الله يقبل توبته ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ [النساء : 110] ، وقال ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ

التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ [التوبة : 104] ، وقال ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [الزمر : 53] ، أي : لمن تاب إليه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير ابن كثير حـ 6 صـ 124.130 ﴾

---

(1) تفسير الطبري (27/19) ورواه ابن مردويه كما في الدر المنثور (279/6) وقال السيوطي : "إسناده ضعيف" .

(43/564)

وقال أبو حيان :

﴿ والذين لا يدعون ﴾ الآية

سأل ابن مسعود رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أي الذنب أعظم ؟ فقال : " أن تجعل لله نداً وهو خلقك " قال : ثم أي ؟ قال : " أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك " قال : ثم أي ؟ قال :

" أن تزاني حليلة جارك " فأنزل الله تصديقها ﴿ والذين لا يدعون ﴾ الآية .

وقيل : أتى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) مشركون قد قتلوا فأكثروا وزنوا فأكثروا ،

فقالوا : إن الذين تقول وتدعو إليه لحسن ، أو تخبرنا أن لما علمنا كفارة فنزلت إلى ﴿ غفوراً رحيماً ﴾ .

وقيل : نزولها قصة وحشي في إسلامه في حديث طويل .

قال الزمخشري : نفي هذه التقبيحات العظام عن الموصوفين بتلك الخلال العظيمة في الدين للتعريض بما كان عليه أعداء المؤمنين من قريش وغيرهم ، كأنه قيل : والذين برأهم الله وطهرهم مما أنتم عليه .

وقال ابن عطية : إخراج لعباده المؤمنين من صفات الكفرة في عبادتهم الأوثان وقتلهم النفس بوأد البنات وغير ذلك من الظلم والاغتيال والغارات وبالزنا الذي كان عندهم مباحاً انتهى .

وتقدم تفسير نظير ﴿ ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلاّ بالحق ﴾ في سورة الأنعام .

وقرىء ﴿ يُلق ﴾ بضم الياء وفتح اللام والقاف مشددة وابن مسعود وأبو رجاء يلقى بألف ، كان نوى حذف الضمة المقدرة على الألف فأقر الألف .

والآثام في اللغة العقاب وهو جزاء الإثم .

قال الشاعر :

جزى الله ابن عروة حيث أمسى . . .

عقوق والعقوق له آثام

أي حد وعقوبة وبه فسره قتادة وابن زيد .

وقال عبد الله بن عمرو ومجاهد وعكرمة وابن جبير : آثام واد في جهنم هذا اسمه جعله الله عقاباً للكفرة .

وقال أبو مسلم : الآثام الإثم ، ومعناه ﴿ يلق ﴾ جزاء آثام ، فأطلق اسم الشيء على جزائه .

وقال الحسن : الآثام اسم من أسماء جهنم .

وقيل : بئر فيها .

وقيل : جبل .

وقرأ ابن مسعود : يلق أياماً جمع يوم يعني شدائد .

يقال : يوم ذو أيام لليوم العصيب .

(44/564)

وذلك في قوله ﴿ ومن يفعل ذلك ﴾ يظهر أنه إشارة إلى المجموع من دعاء إله وقتل النفس بغير حق والزنا ، فيكون التضعيف مرتباً على مجموع هذه المعاصي ، ولا يلزم ذلك التضعيف على كل واحد منها .

ولا شك أن عذاب الكفار يتفاوت بحسب جرائمهم .

وقرأ نافع وابن عامر وحمزة والكسائي ﴿ يُضاعف له العذاب ﴾ مبنياً للمفعول وبألف ﴿ ويخلد ﴾ مبنياً للفاعل .

والحسن وأبو جعفر وابن كثير كذلك إلاّ أنهم شددوا العين وطرحوا الألف .

وقرأ أبو جعفر أيضاً وشيبة وطلحة بن سليمان نضعف بالنون مضمومة وكسر العين مشددة ﴿ العذاب ﴾ نصب .

وطلحة بن مصرف ﴿ يضاعف ﴾ بالياء مبنياً للفاعل ﴿ العذاب ﴾ نصب .

وقرأ طلحة بن سليمان وتخلد بتاء الخطاب على الالتفات مرفوعاً أي وتخلد أيها الكافر .

وقرأ أبو حيوة ﴿ ويُخلد ﴾ مبنياً للمفعول مشدد اللام مجزوماً .

ورويت عن أبي عمرو وعنه كذلك مخففاً .

وقرأ أبو بكر عن عاصم ﴿ يضاعف ﴾ ﴿ ويخلد ﴾ بالرفع عنهما وكذا ابن عامر والمفضل عن عاصم ﴿ يضاعف ﴾ ﴿ ويخلد ﴾ مبنياً للمفعول مرفوعاً مخففاً .

والأعمش بضم الياء مبنياً للمفعول مرفوعاً مخففاً .

والأعمش بضم الياء مبنياً للمفعول مشدداً مرفوعاً فالرفع على الاستئناف أو الحال والجزم على البدل من ﴿ يلق ﴾ .

كما قال الشاعر :

متى تأتنا تلمم بنا في ديارنا . . .

تجد حطباً جزلاً وناراً تأججاً

والضمير في ﴿ فيه ﴾ عائد على العذاب ، والظاهر أن توبة المسلم القاتل النفس بغير حق مقبولة خلافاً لابن عباس ، وتقدم ذلك في النساء وتبديل سيئاتهم حسنات هو جعل أعمالهم بدل معاصيهم الأول طاعة ويكون ذلك سبب رحمة الله إياهم قاله ابن عباس . وابن جبير والحسن ومجاهد وقتادة وابن زيد وردوا على من قال هو في يوم القيامة . وقال الزجاج : السيئة بعينها لا تصير حسنة ، ولكن السيئة تُمْحَى بالتوبة وتكتب الحسنة مع التوبة ، والكافر يحبط عملة وتثبت عليه السيئات .

(45/564)

وتأول ابن مسيب ومكحول أن ذلك يوم القيامة وهو بمعنى كرم العفو .

وفي كتاب مسلم إن الله يبدل يوم القيامة لمن يريد المغفرة له من الموحدين بدل سيئات حسنات .

وقالا تُمحى السيئة ويثبت بدلها حسنة .

وقال القفال والقاضي : يبدل العقاب بالثواب فذكرهما وأراد ما يستحق بهما .

﴿ إلاّ من تاب ﴾ استثناء متصل من الجنس ، ولا يظهر لأن المستثنى منه محكوم عليه بأنه ﴿ يضاعف له العذاب ﴾ فيصير التقدير ﴿ إلاّ من تاب وعمل عملاً صالحاً ﴾ فلا يضاعف له العذاب .

ولا يلزم من انتفاء التضعيف انتفاء العذاب غير المضعف فالأولى عندي أن يكون استثناء منقطعاً أي لكن من تاب وآمن عمل صالحاً ﴿ فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات ﴾ وإذا كان كذلك فلا يلقى عذاباً ألبتة و ﴿ سيئاتهم ﴾ هو المفعول الثاني ، وهو أصله أن يكون مقيداً بحرف الجر أي بسيئاتهم .

و ﴿ حسنات ﴾ هو المفعول الأول وهو المصرح كما قال تعالى ﴿ وبدلناهم بجنتيهم جنتين ﴾ وقال الشاعر :

تضحك مني أخت ذات النحيين . . .

أبدلك الله بلون لونين

سواد وجه وبياض عينين . . .

الظاهر أن ﴿ ومن تاب ﴾ أي أنشأ التوبة فإنه يتوب إلى الله أي يرجع إلى ثوابه وإحسانه .

قال ابن عطية ﴿ ومن تاب ﴾ فإنه قد تمسك بأمر وثيق .

كما تقول لمن يستحسن قوله في أمر : لقد قلت يا فلان قولاً فكذلك الآية معناها مدح المتاب ، كأنه قال : فإنه يجد الفرج والمغفرة عظيماً .

وقال الزمخشري : ومن يترك المعاصي ويندم عليها ويدخل في العمل الصالح فإن بذلك تائب إلى الله الذي يعرف حق التائبين ، ويفعل بهم ما يستوجبون ، والله يحب التوّابين ويحب المتطهرين .

وقيل : من عزم على التوبة فإنه يتوب إلى الله فليبادر إليها ويتوجه بها إلى الله .

وقيل ﴿ من تاب ﴾ من ذنوبه فإنه يتوب إلى من يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات .

وقيل : ﴿ ومن تاب ﴾ استقام على التوبة فإنه يتوب إلى الله أي فهو التائب حقاً عند الله .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(46/564)

وقال أبو السعود :

﴿ والذين لاَ يَدْعُونَ مَعَ الله إلها ءاخَرَ ﴾

شروعٌ في بيان اجتنابِهم عن المعاصي بعد بيانِ إتيانِهم بالطَّاعات . وذكرُ نفيِ الإسرافِ والقَتْرِ لتحقيقِ معنى الاقتصادِ والتَّصريحُ بوصفِهم بنفيِ الإشراكِ مع ظهورِ إيمانِهم لإظهارِ كمالِ الاعتناء بالتَّوحيدِ والإخلاصِ وتهويلِ أمرِ القتلِ والزِّنا بنظمِهما في سلكِه وللتَّعريضِ بما كانَ عليه الكَفَرةُ من قُريشٍ وغيرِهم أي لا يعبدونَ معه تعالى إلهاً آخرَ .

﴿ وَلاَ يَقْتُلُونَ النفس التى حَرَّمَ الله ﴾ أي حرَّمها بمعنى حرَّم قتلَها فحُذف المضافُ وأُقيم المضافُ إليهِ مقامَه مبالغةً في التَّحريمِ ﴿ إلاَّ بالحق ﴾ أي لا يقتلونَها بسببٍ من الأسبابِ إلا بسببِ الحقِّ المزيلِ لحُرمتِها وعصمتِها أو لا يقتلون قتلاً ما إلا قتلاً ملتبساً بالحقِّ أو لا يقتلونها في حالٍ من الأحوال إلا حالَ كونِهم ملتبسين بالحقِّ ﴿ وَلاَ يَزْنُونَ ﴾ أي الذين لا يفعلُون شيئاً من هذه العظائمِ القبيحةِ التي جمعهنَّ الكفرةُ حيث كانُوا مع إشراكِهم به سبحانه مداومين على قتلِ النُّفوسِ المحرَّمةِ التي من جُملتها الموءودةُ مكبِّين على الزِّنا لا يرعُوون عنه أصلاً ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذلك ﴾ أي ما ذُكر كما هو دأبُ الكَفرةِ المذكُورين ﴿ يَلْقَ ﴾ في الآخرةِ.

وقُرىء يلقَّى وقرىء يلقَّ بالتَّشديدِ مجزوماً ﴿ أَثَاماً ﴾ وهو جزاءُ الإثمِ كالوبال والنَّكال وزناً ومعنى. وقيل: هو الإثم أبي يلقَ جزاءُ الإثم والتَّنوينُ على التَّقديرين للتفخيم. وقُرىء أيَّاماً أي شدائدَ يقال يومٌ ذُو أيَّام لليومِ الصَّعبِ.

﴿ يضاعف لَهُ العذاب يَوْمَ القيامة ﴾ بدلٌ من يلقَ لاتِّحادِهما في المعنى كقوله

متى تأتِنا تُلممْ بنا في ديارِنا . . . تجدْ حَطَباً جَزْلاً ونارا تأجَّجاً

(47/564)

وقُرِىء بالرَّفع على الاستئنافِ أو على الحالِيَّةِ وكذا ما عُطف عليه وقرىء يُضعَّف ونُضعِّف له العذابَ بالنُّون ونصبِ العذاب ﴿ وَيَخْلُدْ فِيهِ ﴾ أي في ذلكَ العذابِ المضاعفِ ﴿ مُهَاناً ﴾ ذليلاً مستحقراً جامعاً للعذاب الجُسمانيِّ والرُّوحانيِّ وقرىء يُخلَد ويُخلَّد مبنياً للمفعول من الإخلاد والتَّخليدِ . وقُرِىء تخلُد بالتاء على الالتفات المنبىءِ عن شدَّةِ الغضبِ ومضاعفةِ العذابِ لانضمامِ المعاصي إلى الكفر كما يفصح عنه قولُه تعالى ﴿ إِلاَّ مَن تَابَ وَءامَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صالحا ﴾ وذكر الموصوفِ مع جريانِ الصَّالحِ والصَّالحاتِ مَجرى الاسم للاعتناء به والتَّنصيص على مغايرتِه للأعمال السَّابقةِ ﴿ فَأُوْلَئِكَ ﴾ إشارةٌ إلى الموصولِ والجمعُ باعتبارِ معناه كما أنَّ الإفرادَ في الأفعالِ الثَّلاثة باعتبار لفظةِ أي أولئك الموصُوفون بالتَّوبةِ والإيمانِ والعملِ الصَّالحِ ﴿ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حسنات ﴾ بأنْ يمحوَ سوابقَ معاصِيهم بالتَّوبةِ ويثبت مكانَها لواحقَ طاعتِهم أو يبدلَ بملكة المعصيةِ ودواعيها في النَّفسِ ملكةَ الطَّاعةِ بأنْ يُزيلَ الأُولى ويأتيَ بالثَّانيةِ وقيل : بأنْ يُوفقَه لأضدادِ ما سلفَ منه أو بأنْ يُثبت له بدلَ كلِّ عقابٍ ثواباً وقيل : يبدلهم بالشّركِ إيماناً وبقتل المسلمينَ قتلَ المشركين وبالزِّنا عفَّةً وإحصاناً ﴿ وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾ اعتراضٌ تذييليٌّ مقررٌ لما قبله من المحوِ والإثبات .

﴿ وَمَن تَابَ ﴾ أي عن المعاصي بتركها بالكليّة والنّدم عليها ﴿ وَعَمِلَ صالحا ﴾ يتلافى به ما فَرَطَ منه أو خرج عن المعاصي ودخل في الطّاعات ﴿ فَإِنَّهُ ﴾ بما فعل ﴿ يَتُوبُ إِلَى الله ﴾ أي يرجعُ إليه تعالى : ﴿ مَتَاباً ﴾ أي متاباً عظيمَ الشّأن مرضيّاً عنده تعالى ماحياً للعقاب محصّلاً للثّواب أو يتوب متاباً إلى الله تعالى الذي يحبُّ التّوابينَ ويحسن إليهم أو فإنّه يرجعُ إليه تعالى أو إلى ثوابه مرجعاً حسناً وهذا تعميمٌ بعد تخصيصٍ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 6 صـ ﴾

(49/564)

وقال الآلوسى :

﴿ والذين لاَ يَدْعُونَ مَعَ الله إلها ءاخَرَ ﴾

أي لا يشركون به غيره سبحانه .

﴿ وَلاَ يَقْتُلُونَ النفس التى حَرَّمَ الله ﴾ أي حرمها الله تعالى بمعنى قتلها لأن التحريم إنما يتعلق بالأفعال دون الذوات فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه مبالغة في التحريم ﴿ إِلاَّ بالحق ﴾ متعلق بلا يقتلون والاستثناء مفرغ من أعم الأسباب أي لا يقتلونها بسبب

من اللأسباب إلا بسبب الحق المزيل لحرمتها وعصمتها كالزنا بعد الأحصان والكفر بعد الإيمان ، وجوز أن يكون صفة لمصدر محذوف أي لا يقتلونها نوعاً من القتل إلا قتلاً ملتبساً بالحق وأن يكون حالاً أي لا يقتلونها في حال من الأحوال إلا حال كونهم ملتبسين بالحق .

وقيل : يجوز أن يكون متعلقاً بالقتل المحذوف والاستثناء أيضاً من أعم الأسباب أي لا يقتلون النفس التي حرم الله تعالى قتلها بسبب من الأسباب إلا بسبب الحق .

ويكون الاستثناء مفرغاً في الإثبات لاستقامة المعنى بإرادة العموم أو لكون حرم نفياً معنى .

ولا يخفى ما فيه من التكلف ﴿ وَلَا يَزْنُونَ ﴾ ولا يطؤن فرجاً محرماً عليهم ، والمراد من نفي هذه القبائح العظيمة التعريض بما كان عليه أعداؤهم من قريش وغيرهم وإلا فلا حاجة إليه بعد وصفهم بالصفات السابقة من حسن المعاملة وإحياء الليل بالصلاة ومزيد خوفهم من الله تعالى لظهور استدعائها نفي ما ذكر عنهم .

ومنه يعلم حل ما قيل الظاهر عكس هذا الترتيب وتقديم التخلية على التحلية فكأنه قيل : والذين طهرهم الله تعالى وبرأهم سبحانه مما أنتم عليه من الإشراك وقتل النفس المحرمة كالموؤدة والزنا .

وقيل : إن التصريح بنفي الإشراك مع ظهور إيمانهم لهذا أو لإظهار كمال الاعتناء

والإخلاص وتهويل أمر القتل والزنا بنظمهما في سلكه ، وقد صح من رواية البخاري .

ومسلم .

(50/564)

والترمذي عن ابن مسعود قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم أي الذنب أكبر ؟

قال : أن تجعل لله تعالى ندا وهو خلقك قلت : ثم أي ؟ قال : أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك قلت : ثم أي ؟ قال : أن تزاني حليلة جارك فأنزل الله تعالى تصديق ذلك ﴿ والذين لاَ يَدْعُونَ مَعَ الله إلها ءاخَرَ ﴾ الآية .

وأخرج الشيخان .

وأبو داود .

والنسائي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ان ناساً من أهل الشرك قد قتلوا فاكثروا ثم أتوا محمداً صلى الله عليه وسلم فقالوا : إن الذي تقول وتدعو إليه لحسن لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة فنزلت ﴿ والذين لاَ يَدْعُونَ مَعَ الله إلها ءاخَرَ ﴾ الآية ونزلت ﴿ قُلْ يا أهل عِبَادِى الذين أَسْرَفُواْ على أَنفُسِهِمْ ﴾ [الزمر : 53] الآية .

وقد ذكر الإمام الرازي أن ذكر هذا بعد ما تقدم لأن الموصوف بتلك الصفات قد يرتكب

هذه الأمور تدينا فبين سبحانه أن المكلف لا يصير بتلك الخلال وحدها من عباد الرحمن حتى ينضاف إلى ذلك وكنه مجانباً لهذه الكبائر وهو كما ترى ، وجوز أن يقال في وجه تقديم التحلية على التخلية كون الأوصاف المذكورة في التحلية أوفق بالعبودية التي جعلت عنوان الموضوع لظهور دلالتها على ترك الأنانية ومزيد الانقياد والخوف والاقتصاد في التصرف بما أذن المولى بالتصرف فيه .

ولا يأبى ههذا قصد التعريض بما ذكر في التخلية .

ويؤيد هذا القصد التعقيب بقوله عز وجل : ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذلك يَلْقَ أَثَاماً ﴾ أي ومن يفعل ما ذكر يلق في الآخرة عقاباً لا يقادر قدره .

وتفسير الأثام بالعقاب مروى عن قتادة .

وابن زيد ونقله أبو حيان عن أهل اللغة وأنشد قوله :

جزى الله ابن عورة حيث أمسى . . .

عقوقا والعقوق له أثام

وأخرج ابن الأنبارى عن ابن عباس أنه فسره لنافع بن الأزرق بالجزاء وأنشد قول عامر بن الطفيل :

وروينا الأسنة من صداه . . .

ولاقت حمير منا أثاماً

والفرق يسير : وقال أبو مسلم .

(51/564)

الأثام الاثم والكلام عليه على تقدير مضاف أي جزاء أثام أو هو مجاز من ذكر السبب وأرادة المسبب ، وقال الحسن : هو اسم من أسماء جهنم ، وقيل : اسم بئر فيها ، وقيل : اسم جبل .

وروي جماعة عن عبد الله بن عمر .

ومجاهد أنه واد في جهنم ، وقال مجاهد : فيه قيح ودم .

وأخرج ابن المبارك في الزهد عن شفى الأصبحى أن فيه حيات وعقارب في فقار إحداهن مقدار سبعين قلة من سم والعقرب منهن مثل البغلة الموكفة ، وعن عكرمة اسم لاودية في جهنم فيها الزناة .

وقرىء "يلق" بضم الياء وفتح اللام والقاف مشددة .

وقرأ ابن مسعود .

وأبو رجاء "يلقي" بألف كأنه نوى حذف الضمة المثدرة على الألف فأقرب الألف .

وقرأ أبو مسعود أيضاً ﴿ أَيَّامًا ﴾ جمع يوم يعني شدائد ، واستعمال الأيام بهذا المعنى شائع ومنه يوم ذو أيام وأيام العرب لوقائعهم ومقاتلتهم .

﴿ يضاعف لَهُ العذاب يَوْمَ القيامة ﴾ بدل من ﴿ يلق ﴾ [الفرقان : 68] بدل كل من كل أو بدل اشتمال .

وجاء الإبدال من المجزوم بالشرط في قوله :

متى تأتنا تلمم بنا في ديارنا . . .

تجد حطباً جزلاً وناراً تأججاً

﴿ وَيَخْلُدْ فِيهِ ﴾ أي في ذلك العذاب المضاعف ﴿ مُهَاناً ﴾ ذليلاً مستحقر فيجتمع له العذاب الجسماني والروحاني .

وقرأ الحسن .

وأبو جعفر .

وابن كثير ﴿ يضاعف ﴾ بالياء والبناء للمفعول وطرح الألف والتضعيف .

وقرأ شيبة .

وطلحة بن سليمان .

وأبو جعفر أيضاً ﴿ نضعف ﴾ بالنون مضمومة وكسر العين مضعفة و ﴿ يَرَوْنَ العذاب ﴾ بالنصب ، وطلحة بن مصرف "يضاعف" مبنياً للفاعل و ﴿ العذاب ﴾ بالنصب .

وقرأ طلحة بن سليمان ﴿ وتخلد ﴾ بتاء الخطاب على الالتفات المنبى عن شدة الغضب مرفوعاً .

وقرأ أبو حيوة ﴿ وتخلد ﴾ مبنياً للمفعول مشدد اللام مجزوماً .

ورويت عن أبي عمرو .

وعنه كذلك مخففاً .

وقرأ أبو بكر عن عاصم ﴿ يضاعف وَيَخْلُدْ ﴾ بالرفع فيهما ، وكذا ابن عامر : والمفضل عن عاصم ﴿ يضاعف وَيَخْلُدْ ﴾ مبنياً للمفعول مرفوعاً مخففاً .

(52/564)

والأعمش بضم الياء مبنياً للمفعول مشدداً مرفوعاً وقد عرفت وجه الجزم ، وأما الرفع فوجهه الاستئناف ، ويجوز جعل الجملة حالاً من فاعل ﴿ يَلْقَ ﴾ [الفرقان : 68] ، والمعنى يلق أثاماً مضاعفاً له العذاب ، ومضاعفته مع قوله تعالى : ﴿ وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ [الشورى : 40] وقوله سبحانه : ﴿ وَمَن جَاء بالسيئة فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا ﴾ [الأنعام : 160] قيل لانضمام المعصية إلى الكفر ، ويدل عليه قوله تعالى .

﴿ إِلاَّ مَن تَابَ وَءامَنَ وَعَمِلَ ﴾

فإن استثناء المؤمن يدل على اعتبار الكفر في المستثنى منه .

وأورد عليه أن تكرر لا النافية يفيد نفي كل من تلك الأفعال بمعنى لا يوقعون شيئاً منها فيكون ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذلك ﴾ [الفرقان : 68] بمعنى ومن يفعل شيئاً من ذلك ليتحد مورد الإثبات والنفي فلا دلالة على الانضمام ، والمستثنى من جمع بين ما ذكر من الإيمان والتوبة والعمل الصالح فيكون المستثنى منه غير جامع لها ، فلعل الجواب أن المضاعفة بالنسبة إلى عذاب ما دون المذكورات .

وتعقب بأن الجواب المذكور لا بعد فيه وإن لم يذكر ما دونها إلا أن الإيراد ليس بشيء لأن الكلام تعريض للكفرة ومن يفعل شيئاً من ذلك منهم فقد ضم معصيته إلى كفره ولو لم يلاحظ ذلك على ما اختاره لزم أن من ارتكب كبيرة يكون مخلداً ولا يخفى فساده عندنا ، وما ذكر من اتحاد مورد الإثبات والنفي ليس بلازم .

(53/564)

ثم إن في الكلام قرينة على أن المستثنى منه من جمع بين أضدادها كما علمت ولذا جمع بين الإيمان والعمل الصالح مع أن العمل مشروط بالإيمان فذكره للإشارة إلى انتفائه عن المستثنى منه ولذا قدم التوبة عليه ، ويحتمل أن تقديمها لأنها تخلية ، وقال بعضهم : ليس المراد

بالمضاعفة المذكورة ضم قدرين متساويين من العذاب كل منهما بقدر ما تقتضيه المعصية بل المراد لازم ذلك وهو الشدة فكأنه قيل : ومن يفعل ذلك يعذب عذاباً شديداً ويكون ذلك العذاب الشديد جزاء كل من تلك الأفعال ومما ثلاً له ، والقرينة على المجاز قوله تعالى : ﴿ وَمَن جَاء بالسيئة فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا ﴾ [الأنعام : 160] ونحوه ، ويراد من الخلود المكث الطويل الصادق بالخلود الأبدي وغيره ، ويكون لمن أشرك باعتبار فرده الأول ، ولمن ارتكب إحدى الكبيرتين الأخيرتين باعتبار فرده الآخر وهو كما ترى ، ومثله ما قيل من أن المضاعفة لحفظ ما تقتضيه المعصية فإن الأمر الشديد إذا دام هان .

هذا والظاهر أن الاستثناء متصل على ما هو الأصل فيه ، وقال أبو حيان : الأولى عندي أن يكون منقطعاً أي لكن من تاب الخ لأن المستثنى منه على تقدير الاتصال محكوم عليه بأنه يضاعف له العذاب فيصير التقدير إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فلا يضاعف له العذاب ، ولا يلزم من انتفاء التضعيف لقاء العذاب غير المضعف ، وفيه إن قوله تعالى الآتي : ﴿ فَأُوْلَئِكَ ﴾ الخ احتراس لدفع توهم ثبوت أصل العذاب بإفادة أنهم لا يلقونه أصلاً على أكمل وجه ، وقيل أيضاً في ترجيح الانقطاع : إن الاتصال مع قطع النظر عن إيهامه ثبوت أصل العذاب بل وعن إيهامه الخلود غير مهان يوهم أن مضاعفة العمل الصالح شرط لنفي الخلود مع أنه ليس كذلك .

ثم أية ضرورة تدعو إلى أن يرتكب ما فيه إيهام ثم يتشبث بأذيال الاحتراس ، على أن الظاهر أن يجعل من مبتدأ والجملة المقرونة بالفاء خبره وقرنت بذلك لوقوعها خبراً عن الموصول كما في قولك : الذي يأتيني فله درهم ، وأنا أميل لما مال إليه أبو حيان لمجموع ما ذكر ، وذكر الموصوف في قوله سبحانه : ﴿ وَعَمِلَ عَمَلاً صالحا ﴾ مع جريان الصالح والصالحات مجرى الاسم للاعتناء به والتنصيص على مغايرته للأعمال السابقة .

﴿ فَأُوْلَئِكَ ﴾ إشارة إلى الموصول ، والجمع باعتبار معناه كما أن الإفراد في الأفعال الثلاثة باعتبار لفظه أي فأولئك الموصوفون بالتوبة والإيمان والعمل الصالح .

﴿ يُبَدّلُ اللهُ ﴾ في الدنيا ﴿ سَيّئَاتِهِمْ حسنات ﴾ بأن يمحو سوابق معاصيهم بالتوبة ويثبت مكانها لواحق طاعاتهم كما يشير إلى ذلك كلام كثير من السلف ، وقيل : المراد بالسيئات والحسنات ملكتهما لأنفسهما أي يبدل عز وجل بملكة السيئات ودواعيها في النفس ملكة الحسنات بأن يزيل الأولى ويأتي بالثانية ، وقيل : هذا التبديل في الآخرة ، والمراد بالسيئات والحسنات العقاب والثواب مجازاً من باب إطلاق السبب وإرادة المسبب ، والمعنى يعفو جل وعلا عن عقابهم ويتفضل سبحانه عليهم بدله بالثواب ، وإلى هذا ذهب القفال .

والقاضي ، وعن سعيد بن المسيب .

وعمرو بن ميمون .

ومكحول أن ذلك بأن تمحي السيئات نفسها يوم القيامة من صحيفة أعمالهم ويكتب بدلها الحسنات ، واحتجوا بالحديث الذي رواه مسلم في "الصحيح" عن أبي ذر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " يؤتى بالرجل يوم القيامة فيقال : اعرضوا عليه صغار ذنوبه وينحي عنه كبارها فيقال : عملت يوم كذا وكذا كذا وكذا وهو يقر لا ينكر وهو مشفق من الكبائر فيقال : أعطوه مكان كل سيئة عملها حسنة فيقول : إن لي ذنوباً لم أرها هنا قال : ولقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ضحك حتى بدت نواجذه " ، ونحو هذا ما أخرجه ابن أبي حاتم .

(55/564)

وابن مردويه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله عليه الصلاة والسلام " ليأتين ناس يوم القيامة ودوا أنهم استكثروا من السيئات قيل : من هم ؟ قال صلى الله عليه وسلم الذين يبدل الله تعالى سيئاتهم حسنات " ويسمى هذا التبديل كرم العفو ، وكأنه لذلك قال أبو نواس :

تعض ندامة كفيك مما . . .

تركت مخافة الذنب السرورا

ولعل المراد إنه تغفر سيئاته ويعطى بدل كل سيئة ما يصلح أن يكون ثواب حسنة تفضلاً منه عز وجل وتكرماً لا أنه يكتب له أفعال حسنات لم يفعلها ويثاب عليها ، وفي كلام أبي العالية ما هو ظاهر في إنكار تمني الاستكثار من السيآت ، فقد أخرج عبد بن حميد عنه أنه قيل له : إن أناساً يزعمون أنهم يتمنون أن يستكثروا من الذنوب فقال : ولم ذلك ؟ فقيل : يتأولون هذه الآية ﴿ فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حسنات ﴾ وكان أبو العالية إذا أخبر بما لا يعلم قال : آمنت بما أنزل الله تعالى من كتابه فقال ذلك ثم تلا هذه الآية ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا ﴾ [آل عمران : 30] وكأنه ظن أن ما تلاه مناف لما زعموه من التمني ، ويمكن أن يقال : إن ما دلت عليه تلك الآية يكون قبل الوقوف على التبديل والله تعالى أعلم .

﴿ وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾ اعتراض تذييلي مقرر لمضمون ما قبله .

(56/564)

﴿ وَمَن تَابَ ﴾ أي عن المعاصي التي فعلها بتركها بالكلية والندم عليها ﴿ وَعَمِلَ صالحا ﴾ يتلافى به ما فرط منه أو ومن خرج عن جنس المعاصي وإن لم يفعله ودخل في

الطاعات ﴿ فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللهِ ﴾ أي يرجع إليه سبحانه بذلك ﴿ مَتَاباً ﴾ أي رجوعاً عظيم الشأن مرضياً عنده تعالى ما حيا للعقاب محصلاً للثواب أو فإنه يتوب إلى الله تعالى ذي اللطف الواسع الذي يحب التائبين ويصطنع إليهم أو فإنه يرجع إلى الله تعالى أو إلى ثوابه سبحانه مرجعاً حسناً ، وأياً ما كان فالشرط والجزاء متغايران ، وهذا لبيان حال من تاب من جميع المعاصي وما تقدم لبيان من تاب من أمهاتها فهو تعميم بعد تخصيص . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 19 صـ ﴾

(57/564)

وقال القاسمى :

﴿ وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ ﴾

أي : لا يشركون بعبادة ربهم أحداً ، فالدعاء بمعنى العبادة : ﴿ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ ﴾ أي : حرمها بمعنى حرّم قتلها . ومنه الوأد وغيره : ﴿ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ أي : المزيل لحرمتها وعصمتها : ﴿ وَلاَ يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ﴾ أي : ما ذكر من هذه القبائح العظام : ﴿ يَلْقَ أَثَاماً ﴾ أي : يجد في الآخرة جزاء إثمه : ﴿ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً ﴾ أي : ذليلاً محتقراً جامعاً لعذابي الجسم والروح : ﴿ إِلَّا مَنْ

تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً ﴾ أي : لمن تاب وآمن وعمل صالحاً .

قال الحافظ ابن كثير : وفي ذلك دلالة على صحة توبة القاتل . ولا تعارض بين هذه وآية النساء : ﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً ﴾ [النساء : 93] الآية ، فإن هذه ، وإن كانت مدنية ، إلا أنها مطلقة . فتحمل على من لم يتب . لأن هذه مقيدة بالتوبة . ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ﴾ [النساء : 48 و 116] الآية ، وقد ثبتت السنة الصحيحة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بصحة توبة القاتل . كما ذكر مقرراً من قصة الذي قتل مائة رجل ثم تاب فقبل الله توبته ، وغير ذلك من الأحاديث . ثم قال : وفي معنى قوله تعالى : ﴿ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ﴾ قولان :

أحدهما : أنهم بدلوا مكان عمل السيئات بعمل الحسنات . قال عليّ بن أبي طلحة عن ابن عباس ، في هذه الآية : هم المؤمنون . كانوا من قبل إيمانهم على السيئات ، فرغب الله بهم عن السيئات . فحولهم إلى الحسنات ، فأبدلهم مكان السيئات الحسنات . وكذا قال سعيد بن جبير : أبدلهم الله بعبادة الأوثان عبادة الرحمن ، وأبدلهم بقتال المسلمين قتال

المشركين . وأبدلهم بنكاح المشركات نكاح المؤمنات . وكذا قال الحسن : أبدلهم بالعمل السيء العمل الصالح ، وأبدلهم بالشرك إخلاصاً ، وبالفجور إحصاناً ، وبالكفر [في المطبوع : بالفكر] إسلاماً .

القول الثاني : إن تلك السيئات الماضية تنقلب بنفس التوبة النصوح ، حسنات . وما ذاك إلا أنه كلما تذكر ما مضى ، ندم واسترجع واستغفر . فينقلب الذنب طاعة بهذا الاعتبار . انتهى .

ولابن القيم رحمه الله تعالى في " طريق الهجرتين " في هذا المقام بسط حسن وتناظر متقن ، لا بأس بإيراده ، لعظم فائدته .

قال رحمه الله بعد شرحه لحديث فرح الله بتوبة عبده ما مثاله : وها هنا مسألة ، هذا الموضع أخص المواقع ببيانها . وهي أن التائب إذا تاب إلى الله توبة نصوحاً ، فهل تمحى تلك السيئات وتذهب ، لا له ولا عليه ، أو إذا محيت أثبت له مكان كل سيئة حسنة ؟ هذا مما اختلف الناس فيه ، من المفسرين وغيرهم ، قديماً وحديثاً . فقال الزجاج : ليس يجعل مكان السيئة الحسنة لكن يجعل مكان السيئة التوبة ، والحسنة مع التوبة . قال ابن عطية : يجعل أعمالهم ، بدل معاصيهم الأولى طاعة . فيكون ذلك سبباً لرحمة الله إياهم ، قاله ابن عباس وابن جبير وابن زيد والحسن . ورد على من قال هو في يوم القيامة . قال : وقد ورد حديث في كتاب مسلم من طريق أبي ذر يقتضي أن الله سبحانه يوم القيامة ،

يجعل لمن يريد المغفرة له من الموحدين ، بدل سيئاته حسنات . وذكره الترمذيّ والطبريّ .

وهذا تأويل سعيد بن المسيب في هذه الآية .

(59/564)

قال ابن عطية : وهو معنى كرم العفو . انتهى .

وسيأتي ذكر الحديث والكلام عليه .

وقال الثعلبيّ : قال ابن عباس وابن جريج والضحاك وابن زيد : ﴿ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ﴾ يبدلهم الله تقبيح أعمالهم في الشرك ، محاسن الأعمال في الإسلام . فيبدلهم بالشرك وبقتل المؤمنين ، قتل المشركين . وبالزنى ، عفة وإحصاناً .

وقال آخرون : يعني يبدل الله سيئاتهم التي عملوها في حال إسلامهم ، حسنات يوم القيامة وأصل القولين ، أن هذا التبديل هل هو في الدنيا أو يوم القيامة ؟ فمن قال إنه في الدنيا ، قال : هو تبديل الأعمال القبيحة والإرادات الفاسدة بأضدادها . وهي حسنات ، وهذا تبديل حقيقة . والذين نصروا هذا القول احتجوا بأن السيئة تنقلب حسنة ، بل غايتها أن تمحى وتكفر ويذهب أثرها ، فأما أن تنقلب حسنة فلا . فإنها لم تكن طاعة ، وإنما كانت بغيضة مكروهة للرب ، فكيف تنقلب محبوبة مرضية ؟

قالوا : وأيضاً فالذي دل عليه القرآن إنما هو تكفير السيئات ومغفرة الذنوب ، كقوله : ﴿ رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا ﴾ [آل عِمْرَان : 193] ، وقوله : ﴿ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ ﴾ [الشورى : 25] ، وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً ﴾ [الزمر : 53] ، والقرآن مملوء من ذلك وفي الصحيح من حديث قتادة عن صفوان بن مُحْرِز قال : قال رجل لابن عمر : كيف سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في النجوى ؟ قال : سمعته يقول : < يدنى المؤمن يوم القيامة من ربه حتى يضع عليه كنفه ، فيقرره بذنوبه فيقول : هل تعرف ؟ فيقول : رب ! أعرف قال : فإني قد سترتها عليك في الدنيا ، وأنا أغفرها لك اليوم . فيعطى صحيفة حسناته > .

وأما الكفار والمنافقون فينادى بهم على رؤوس الأشهاد : هؤلاء الذين كذبوا على الله عز وجل .

(60/564)

فهذا الحديث المتفق عليه ، والذي تضمن العناية بهذا العبد ، إنما فيه ستر ذنوبه عليه في الدنيا ومغفرتها له يوم القيامة . ولم يقل له : وأعطيتك بكل سيئة منها حسنة . فدل على أن غاية السيئات مغفرتها وتجاوز الله عنها .

وقد قال الله في حق الصادقين : ﴿ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الزمر : 35] ، فهؤلاء خيار الخلق . وقد أخبر عنهم أنه يكفر عنهم سيئات أعمالهم ويجزيهم بأحسن ما يعملون . وأحسن ما عملوا إنما هو الحسنات لا السيئات ، فدل على أن الجزاء بالحسنى إنما يكون على الحسنات وحدها . وأما السيئات ، أن تلغى ويبطل أثرها . قالوا : وأيضاً ، فلوا انقلبت السيئات أنفسها حسنات في حق التائب ، لكان أحسن حالاً من الذي لم يرتكب منها شيئاً . وأكثر حسنات منه ، لأنه إذا أساء شاركه في حسناته التي فعلها وامتاز عنه بتلك السيئات ، ثم انقلبت له حسنات ترجح عليه . وكيف يكون صاحب السيئات أرجح من لا سيئة له ؟ قالوا : وأيضاً فكما أن العبد ، إذا فعل حسنات ثم أتى بما يحبطها ، فإنها لا تنقلب سيئات يعاقب عليها ، بل يبطل أثرها ويكون لا له ولا عليه ، وتكون عقوبته عدم ترتب ثوابه عليها . فهكذا من فعل سيئات ثم تاب منها ، فإنها لا تنقلب حسنات فإن قلتم : وهكذا التائب يكون ثوابه عدم ترتب العقوبة على سيئاته ، لم ننازعكم في هذا . وليس هذا معنى الحسنة فإن الحسنة تقتضي ثواباً وجودياً . واحتجت الطائفة الأخرى التي قالت : هو تبديل

السيئة بالحسنة حقيقة يوم القيامة ، بأن قالت : حقيقة التبديل إثبات الحسنة مكان السيئة . وهذا إنما يكون في السيئة المحققة . وهي التي قد فعلت ووقعت . فإذا بدلت حسنة كان معناه أنها محيت وأثبت مكانها حسنة . قالوا : ولهذا قال تعالى : ﴿ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ﴾ فأضاف السيئات إليهم ، لكونهم باشروها واكتسبوها . ونكر الحسنات ولم يضفها إليهم ، لأنها من غير صنعهم وكسبهم ، بل هي مجرد فضل الله وكرمه قالوا : وأيضاً ، فالتبديل في الآية إنما هو فعل الله لا فعلهم فإنه أخبر أنه هو يبدل سيئاتهم حسنات ، ولو كان المراد ما ذكرتم لأضاف

(62/564)

التبديل إليهم . فإنهم هم الذين يبدلون سيئاتهم حسنات والأعمال إنما تضاف إلى فاعلها وكاسبها ، كما قال تعالى : ﴿ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ ﴾ [البقرة : 59] ، وأما ما كان من غير الفاعل ، فإنه يجعله من تبديله هو ، كما قال تعالى : ﴿ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ﴾ [سبأ : 16] ، فلما أخبر سبحانه أنه هو الذي يبدل سيئاتهم حسنات ، دل على أنه شيء فعله هو سبحانه بسيئاتهم ، لا أنهم فعلوه من تلقاء أنفسهم . وإن كان سببه منهم وهو التوبة والإيمان والعمل الصالح .

قالوا : ويدل عليه ما رواه مسلم في صحيحه عن أبي ذر : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : < إني لأعلم آخر أهل جنة دخولاً الجنة . وآخر أهل النار خروجاً منها . رجل يؤتى به يوم القيامة فيقال : اعرضوا عليه صغار ذنوبه وارفعوا عنه كبارها . فتعرض عليه صغار ذنوبه . فيقال : عملت يوم كذا وكذا ، كذا وكذا . وعملت يوم كذا وكذا ، كذا وكذا فيقول : نعم . لا يستطيع أن ينكر ، وهو مشفق من كبار ذنوبه أن تعرض عليه فيقال له : فإن لك مكان كل سيئة حسنة > قالوا : وهؤلاء هم الأبدال في الحقيقة . فإنهم إنما سموا أبدالاً لأنهم بدلوا أعمالهم السيئة ، بالأعمال الحسنة ، فبدل الله سيئاتهم التي عملوا حسنات .

قالوا : وأيضاً فالجزاء من جنس العمل . فكما بدلوا هم أعمالهم السيئة بالحسنة ، بدلها الله من صحف الحفظة ، حسنات جزاء وفاقاً .

قالت الطائفة الأولى : كيف يمكنكم الاحتجاج بحديث أبي ذر ، على صحة قولكم ، وهو صريح في أن هذا الذي قد بدلت سيئاته حسنات ، قد عذب عليها في النار ، حتى كان آخر أهلها خروجاً منها فهذا قد عوقب على سيئاته . فزال أثرها بالعقوبة . فبدل مكان كل سيئة منها حسنة . وهذا حكم غير ما نحن فيه . فإن الكلام في التائب من السيئات ، لا فيمن مات مصرّاً عليها غير تائب . فأين أحدهما من الآخر ؟

قالوا : وأما ما ذكرتم من أن التبديل هو إثبات الحسنة مكان السيئة ، فحق . وكذلك نقول : إن الحسنة المفعولة صارت في مكان السيئة ، التي لولا الحسنة لحلت محلها .

قالوا : وأما احتجاجكم بإضافة السيئات إليهم ، وذلك يقتضي أن تكون هي السيئات الواقعة وتنكير الحسنات وهو يقتضي أن تكون حسنات من فضل الله ، فهو حق بلا ريب . ولكن من أين يبقى أن يكون فضل الله بها ، مقارناً لكسبهم إياها بفضله ؟ .

قالوا : وأما قولكم إن التبديل مضاف إلى الله لا إليهم ، وذلك يقتضي أنه هو الذي بدلها من الصحف ، لأنهم هم الذين بدلوا الأعمال بأضدادها ، فهذا لا دليل لكم . فإن الله خالق أفعال العباد . فهو المبدل للسيئات حسنات خلقاً وتكويناً ، وهم المبدلون لها فعلاً وكسباً .

قالوا : وأما احتجاجكم بأن الجزاء من جنس العمل ، فكما بدلوا سيئات أعمالهم بحسناتهم أبدلها الله كذلك في صحف الأعمال . فهذا حق ، وبه نقول ، وإنه بدلت السيئات التي كانت مهيأة ومعدة أن تحل في الصحف ، بحسنات جعلت موضعها . فهذا منتهى إقدام الطائفتين ، ومحط نظر الفريقين . وإليك أيها المنصف الحكم بينهما . فقد أدلى كل منهما بحجته ، وأقام بينته . والحق لا يعدوهما ولا يتجاوزهما . فأرشد الله من أعان على هدى ، فنال به درجة الداعين إلى الله ، القائمين ببيان حججه ودينه . أو عذر

طالباً منفرداً في طريق مطلبه ، قد انقطع رجاؤه من رفيق في الطريق . فغاية أمنيته أن يخلي بينه وبين سيره ، وألا يقطع عليه طريقه . فمن رفع له مثل هذا العلم ولم يشمر إليه ، فقد رضي بالدون . وحصل على صفقة المغبون . ومن شمر إليه ورام ألا يعارضه معارض ، ولا يتصدى له ممانع ، فقد منى نفسه المحال ، وإن صبر على لأوائها وشدتها ، فهو والله الفوز المبين ، والحظ الجزيل وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

(64/564)

فالصواب ، إن شاء الله في هذه المسألة ، أن يقال : لا ريب أن الذنب نفسه لا ينقلب حسنة . والحسنة إنما هي أمر وجوديّ يقتضي ثواباً ولهذا كان تارك المنهيات إنما يثاب على كف نفسه وحبسها عن موافقة المنهيّ . وذلك الكف والحبس أمر وجوديّ وهو متعلق الثواب . وأما من لم يخطر بباله الذنب أصلاً ، ولم يحدث به نفسه ، فهذا كيف يثاب على تركه ؟ ولو أثيب مثل هذا على ترك هذا الذنب ، لكان مثاباً على ترك ذنوب العالم التي لا تخطر بباله وذلك أضعاف حسناته بما لا يحصى فإن الترك مستصحب معه ، والمتروك لا ينحصر ولا ينضبط ، فهل يثاب على ذلك كله ؟ وهذا مما لا يتوهم . وإذا كانت الحسنة لا بد أن تكون أمراً وجودياً ، فالتائب من الذنوب التي عملها ، قد قارن كل ذنب منها ، ندماً عليه ،

وكف نفسه عنه ، وعزم على ترك معاودته . وهذه حسنات بلا ريب . وقد محت التوبة أثر الذنب ، وخلفه هذا الندم والعزم ، وهو حسنة ، قد بدلت تلك السيئة حسنة . وهذا معنى قول بعض المفسرين : يجعل مكان السيئة التوبة والحسنة مع التوبة . فإذا كانت كل سيئة من سيئاته قد تاب منها ، فتوبته منها حسنة حلت مكانها . فهذا معنى التبديل . لا أن السيئة نفسها تنقلب حسنة .

وقال بعض المفسرين في هذه الآية : يعطيهم بالندم على كل سيئة أساءوها حسنة . وعلى هذا ، فقد زال بحمد الله الإشكال . واتضح الصواب . وظهر أن كل واحدة من الطائفتين ما خرجت عن موجب العلم والحجة .

(65/564)

وأما حديث أبي ذر ، وإن كان التبديل فيه حق المصرّ الذي عذب على سيئاته ، فهو يدل بطريق الأولى على حصول التبديل للتائب المقلع النادم على سيئاته . فإن الذنوب التي عذب عليها المصرّ ، لما أزال أثرها بالعقوبة ، بقيت كأن لم تكن ، فأعطاه الله مكان كل سيئة منها حسنة ، لأن ما حصل له يوم القيامة من الندم المفرط عليها ، مع العقوبة ، لا يقتضي زوال أثره وتبديلها حسنات . فزوال أثرها بالتوبة النصوح ، أعظم من زوال أثرها

بالعقوبة . فإذا بدلت بعد زوالها بالعقوبة ، حسنات ، فلأنْ تبدل بعد زوالها بالتوبة حسنات ، أولى وأحرى . وتأثير التوبة في هذا المحو والتبديل أقوى من تأثير العقوبة . لأن التوبة فعل اختياريّ أتى به العبد طوعاً ومحبة لله وفرقاً منه ، وأما العقوبة ، فالتكفير بها من جنس التفكير بالمصائب التي تصيبه بغير اختياره ، بل يفعل الله . ولا ريب أن تأثير الأفعال الاختيارية التي يحبها الله ويرضاها في محو الذنوب ، أعظم من تأثير المصائب التي تناله بغير اختياره .

انتهى كلامه رحمه الله . وقوله تعالى :

﴿ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَاباً ﴾ أي : ومن يترك المعاصي ويندم عليها ويدخل في العمل الصالح ، فإنه بذلك تائب إلى الله متاباً مرضياً عنده ، مكفراً للخطايا ، محصلاً للثواب . قرره الزمخشري .

والآية صريحة في أن العمل الصالح والمثابرة عليه قولاً وفعلاً ، شرط في صحة التوبة وقبولها وأنه لا اعتداد بها بدون العمل الصالح . فليتفطن لمعنى هذا الآية من يتوهم أن التوبة استغفار بلسان ، أو تخشع بأركان ، ولا عمل صالح له يرضي الرحمن . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ محاسن التأويل حـ 12 صـ 455. 461 ﴾

(66/564)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ ﴾

هذا قسم آخر من صفات عباد الرحمان ، وهو قسم التخلّي عن المفاسد التي كانت ملازمة لقومهم من المشركين ؛ فتنزه عباد الرحمن عنها بسبب إيمانهم ، وذكر هنا تنزههم عن الشرك وقتل النفس والزنا ، وهذه القبائح الثلاث كانت غالبة على المشركين .

ووَصْفُ النفس بـ ﴿ التي حرم الله ﴾ بيانٌ لحُرمة النفس التي تقررت من عهد آدم فيما حكى الله من محاورة ولدَيْ آدم بقوله ﴿ قال لأقتلنّك ﴾ [المائدة : 27] الآيات ، فتقرر تحريم قتل النفس من أقدم أزمان البشر ولم يجهله أحد من ذرية آدم ، فذلك معنى وصف النفس بالموصول في قوله ﴿ التي حرم الله ﴾ .

وكان قتل النفس متفشياً في العرب بالعداوات ، والغارات ، وبالوأْد في كثير من القبائل بناتهم ، وبالقتل لفرط الغَيرة ، كما قال امرؤ القيس:

تجاوزتُ أحراساً إليها ومعشراً . . .

عليَّ حراصاً لو يُسِرُّون مقتلي

وقال عنترة:

عُلّقْتُها عَرضاً وأقتُلُ قومها . . .

زعماً لعمرُ أبيك ليس بمزعم

وقوله ﴿ إلا بالحق ﴾ المراد به يومئذ : قتل قاتل أحدهم ، وهو تهيئة لمشروعية الجهاد عقب مدة نزول هذه السورة .

ولم يكن بيد المسلمين يومئذ سلطان لإقامة القصاص والحدود .

ومضى الكلام على الزنا في سورة سبحان .

وقد جُمع التخلّي عن هذه الجرائم الثلاث في صلة موصول واحد ولم يكرر اسم الموصول كما كرّر في ذكر خصال تحلّيهم ، للإشارة إلى أنهم لما أقلعوا عن الشرك ولم يَدْعُوا مع الله إلهاً آخر فقد أقلعوا عن أشد القبائح لصوقاً بالشرك وذلك قتل النفس والزِنا .

فجعل ذلك شَبيهَ خصلةٍ واحدة ، وجُعل في صلة موصول واحد .

(67/564)

وقد يكون تكرير ﴿ لا ﴾ مجزئاً عن إعادة اسم الموصول وكافياً في الدلالة على أن كل خصلة من هذه الخصال موجبة لمضاعفة العذاب ، ويؤيدّه ما في "صحيح مسلم" من حديث عبد الله بن مسعود قال : قلت يا رسول الله أيُّ الذنب أكبر ؟ قال : " أن تدعوَ لله نِدّاً وهو خَلَقَك .

قلتُ : ثم أيٌّ ؟ قال : أن تقتل ولدك خِيفةَ أن يطْعَم معَك .

قلت : ثم أيّ : قال : أن تُزانيَ حليلةَ جارك " فأنزل الله تعالى تصديقها ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلها آخراً ﴾ إلى ﴿ أثاماً ﴾ ، وفي رواية ابن عطية ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية .

وقد علمت أن هذه الآيات الثلاث إلى قوله ﴿ غفوراً رحيماً ﴾ [الفرقان : 68 70] قيل نزلت بالمدينة .

والإشارة بـ ﴿ ذلك ﴾ إلى ما ذكر من الكبائر على تأويله بالمذكور ، كما تقدم في نظيره آنفاً .

والمتبادر من الإشارة أنها إلى المجموع ، أي من يفعل مجموع الثلاث .

ويُعلم أن جزاء من يفعل بعضها ويترك بعضاً عدا الإشراك دون جزاء من يفعل جميعها ، وأنَّ البعض أيضاً مراتب ، وليس المراد من يفعل كل واحدة مما ذكر يلقَ آثاماً لأن لِقِيَّ الآثام بُيّن هنا بمضاعفة العذاب والخلودِ فيه .

وقد نهضتْ أدلةٌ متظافرة من الكتاب والسنة على أن ما عدا الكفر من المعاصي لا يوجب الخلود ، مما يقتضي تأويلَ ظواهر الآية .

ويجوز أن تكون مضاعفة العذاب مستعملة في معنى قوته ، أي يعذب عذاباً شديداً وليست لتكرير عذاب مقدر .

والآثام بفتح الهمزة جزاء الإثم على زنة الوَبال والنَكال ، وهو أشد من الإثم ، أي يجازى على ذلك سُوءاً لأنها آثام .

وجملة : ﴿ يضاعف له العذاب ﴾ بدل اشتمال من ﴿ يلق أثاماً ﴾ ، وإبدال الفعل من الفعل إبدال جملة فإن كان في الجملة فعل قابل للإعراب ظهر إعراب المحل في ذلك الفعل لأنه عِماد الجملة .

وجُعل الجزاء مضاعفة العذاب والخلود .

(68/564)

فأما مضاعفة العذاب فهي أن يعذّب على كل جُرم مما ذكر عذاباً مناسباً ولا يكتفَى بالعذاب الأكبر عن أكبر الجرائم وهو الشرك ، تنبيهاً على أن الشرك لا ينجي صاحبه من تبعة ما يقترفه من الجرائم والمفاسد ، وذلك لأن دعوة الإسلام للناس جاءت بالإقلاع عن الشرك وعن المفاسد كلها .

وهذا معنى قول من قال من العلماء بأن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة يَعنون خطاب المؤاخذة على ما نُهوا عن ارتكابه ، وليس المراد أنهم يُطلب منهم العمل إذ لا تقبل منهم الصالحات بدون الإيمان ، ولذلك رام بعض أهل الأصول تخصيص الخلاف بخطاب

التكليف لا الاتلاف والجنايات وخطاب الوضع كله .

وأما الخلود في العذاب فقد اقتضاه الإشراك .

وقوله : ﴿ مهاناً ﴾ حال قصد منها تشنيع حالهم في الآخرة ، أي يعذّب ويُهان إهانة زائدة على إهانة التعذيب بأن يشتم ويحقر .

وقرأ الجمهور : ﴿ يضاعفْ ﴾ بألف بعد الضاد وبجزم الفعل .

وقرأه ابن كثير وابن عامر وأبو جعفر ويعقُوب ﴿ يضعَّف ﴾ بتشديد العين وبالجزم .

وقرأه ابن عامر وأبو بكر عن عاصم ﴿ يضاعفُ ﴾ بألف بعد الضاد وبرفع الفعل على أنه استئناف بياني .

إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (70)

الاستثناء من العموم الذي أفادته ﴿ مَن ﴾ الشرطية في قوله : ﴿ ومَن يفعل ذلك ﴾ [الفرقان : 68] .

والتقدير : إلاّ مَن تاب فلا يضاعف له العذاب ولا يخلد فيه ، وهذا تطمين لنفوس فريق من المؤمنين الذين قد كانوا تلبسوا بخصال أهل الشرك ثم تابوا عنها بسبب توبتهم من الشرك ، وإلا فليس في دعوتهم مع الله إلهاً آخر بعد العنوان عنهم بأنهم عباد الرحمن ثناءٌ زائد .

وفي "صحيح مسلم" : عن ابن عباس "أن ناساً من أهل الشرك قَتلوا فأكثروا وزنَوا فأكثروا ، فأتوا محمداً صلى الله عليه وسلم فقالوا : إن الذي تقول وتدعو إليه لَحسن لو تخبرنا أن لما عملنا كفارةً فنزلت : ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ﴾ [الفرقان : 68] الآية ، والمعنى : أنه يعفى عنه من عذاب الذنوب التي تاب منها ، ولا يخطر بالبال أنه يعذب عذاباً غير مضاعف وغيرَ مخلَّد فيه ، لأن ذلك ليس من مجاري الاستعمال العربي بل الأصل في ارتفاع الشيء المقيَّد أن يقصد منه رفعه بأسره لا رفع قيوده ، إلاّ بقرينة .

والتوبة : الإقلاع عن الذنب ، والندمُ على ما فرط ، والعزم على أن لا يعود إلى الذنب ، وإذْ كان فيما سَبق ذكرُ الشرك فالتوبة هنا التلبس بالإيمان ، والإيمان بعد الكفر يوجب عدم المؤاخدة كما اقترفه المشرك في مدة شركه كما في الحديث " الإسلام يجُبّ ما قبله " ، ولذلك فعطف ﴿ وآمن ﴾ على ﴿ من تاب ﴾ للتنويه بالإيمان ، وليبنى عليه قوله : ﴿ وعمل عملاً صالحاً ﴾ وهو شرائع الإسلام تحريضاً على الصالحات وإيماء إلى أنها لا يعتد بها إلا مع الإيمان كما قال تعالى في سورة البلد (17) ﴿ ثم كان من الذين آمنوا ﴾ ، وقال في عكسه ﴿ والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ﴾ [النور : 39] .

وقتل النفس الواقع في مدة الشرك يجبُّه إيمان القاتل لأجل مزية الإيمان ، والإسلام يجُبّ ما

قبله بلا خلاف ، وإنما الخلاف الواقع بين السلف في صحة توبة القاتل إنما هو في المؤمن القاتل مؤمناً متعمداً .

ولما كان مما تشمله هذه الآية لأن سياقها في الثناء على المؤمنين فقد دلت الآية على أن التوبة تمحو آثام كل ذنب من هذه الذنوب المعدودة ومنها قتل النفس بدون حقّ وهو المعروف من عمومات الكتاب والسنة .

وقد تقدم ذلك مفصلاً في سورة النساء (93) عند قوله تعالى : ﴿ ومَن يقتُل مؤمناً متعمّداً ﴾ الآية .

(70/564)

وفُرع على الاستثناء الذين تابوا وآمنوا وعملوا عَملاً صالحاً أنهم يبدل الله سيئاتهم حسنات ، وهو كلام مسوق لبيان فضل التوبة المذكورة التي هي الإيمان بعد الشرك لأن من تاب ﴿ مستثنى مِن ﴿ مَنْ يَفْعَلْ ذلك ﴾ [الفرقان : 68] فتعيّن أن السيئات المضافة إليهم هي السيئات المعروفة ، أي التي تقدم ذكرها ، الواقعةُ منهم في زمن شركهم .

والتبديل : جعل شيء بَدَلاً عن شيء آخر ، وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ ثم بَدَّلْنا مكان السيئة الحسنة ﴾ في سورة الأعراف (95) ، أي يجعل الله لهم حسنات كثيرة عوضاً

عن تلك السيئات التي اقترفوها قبل التوبة وهذا التبديل جاء مجملاً وهو تبديل يكون له أثر في الآخرة بأن يعوضهم عن جزاء السيئات ثوابَ حسنات أضدادِ تلك السيئات ، وهذا لفضل الإيمان بالنسبة للشرك ولفضل التوبة بالنسبة للآثام الصادرة من المسلمين .

وبه يظهر موقع اسم الإشارة في قوله : فأولئك ﴾ المفيد التنبيه على أنهم أحرياء بما أخبر عنهم به بعد اسم الإشارة لأجل ما ذكر من الأوصاف قبل اسم الإشارة ، أي فأولئك التائبون المُؤمنون العاملون الصالحات في الإيمان يبدّل الله عقاب سيئاتهم التي اقترفوها من الشرك والقتل والزنا بثواب .

ولم تتعرض الآية لمقدار الثواب وهو موكول إلى فضل الله ، ولذلك عُقب هذا بقوله : ﴿ وكان الله غفوراً رحيماً ﴾ المقتضي أنه عظيم المغفرة .

وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا (71)

إذا وقع الإخبار عن شيء أو توصيفٌ له أو حالةٌ منه بمرادف لما سبق مثله في المعنى دون زيادة تعيَّن أن يكون الخبر الثاني مستعملاً في شيء من لوازم معنى الإخبار يبيّنه المقام ، كقول أبي الطَّمحان لقَيْني:

وإني من القوم الذين هُمُ هُمُ . . .

وقول أبي النجم:

أنا أبو النجم وشعري شعري . . .

وقول النبي صلى الله عليه وسلم " من رآني في المنام فقد رآني " فقوله تعالى هنا : ﴿ ومن تاب وعمل صالحاً فإنه يتوب إلى الله متاباً ﴾ وقع الإخبار عن التائب بأنه تائب إذ المتاب مصدر ميمي بمعنى التوبة فيتعيّن أن يُصرف إلى معنى مفيد ، فيجوز أن يكون المقصود هو قوله : ﴿ إلى الله ﴾ فيكون كناية عن عظيم ثوابه .

ويجوز أن يكون المقصود ما في المضارع من الدلالة على التجدد ، أي فإنه يستمر على توبته ولا يرتد على عَقبيه فيكون وعداً من الله تعالى أن يُثبّته على القول الثابت إذا كان قد تاب وأيّد توبته بالعمل الصالح .

ويجوز أن يكون المقصود ما للمفعول المطلق من معنى التأكيد ، أي من تاب وعمل صالحاً فإن توبته هي التوبة الكاملة الخالصة لله على حد قول النبي صلى الله عليه وسلم " إنما الأعمال بالنيّات وإنما لكل امرىء ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأةٍ يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه " فيكون كقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا توبُوا إلى الله توبة نصوحاً ﴾ [التحريم : 8] .

وذكر المفسرون احتمالات أخرى بعيدة .

والتوكيد بـ (إنّ) على التقادير كلها لتحقيق مضمون الخبر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 19 صـ ﴾

(72/564)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ﴾

وهنا قد يسأل سائل : أبعد كل هذه الصفات لعباد الرحمن ننفي عنهم هذه الصفة ﴿ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إلها آخَرَ ﴾ [الفرقان : 68] وهم مَا اتصفوا بالصفات السابقة إلا لأنهم مؤمنون بالإله الواحد سبحانه ؟ قالوا : هذه المسألة عقيدة وأساس لا بُدَّ للقرآن أن يكررها ، ويهتم بالتأكيد عليها .

ومعنى : ﴿ لاَيَدْعُونَ مَعَ اللهِ إلها آخَرَ ﴾ [الفرقان : 68] أي : لا يدعون أصحاب الأسباب لمسبِّباتهم ، وهذا هو الشرك الخفيّ . ومنه قولهم : توكلتُ على الله وعليك . فنقول له ، انتبه ليس عليَّ شيء ، الأمر كله على الله . فقُلْ : توكلت على الله . وإنْ أردتَ فقُلْ : ثُمَّ عليك .

ونسمع آخر يقول للأمر الهام : هذا عليَّ ، والباقي على الله ، فجعل الأصل المهم لنفسه ،

وأسند الباقي لله ، أيليق هذا والمسألة كلها أصلها وفروعها على الله ؟

إذن : يمكن أن تكون هذه الآية للمفتونين في الأسباب الذين ينتظرون منها العطاء ، وينسْونَ المسبِّب سبحانه ، وهذا هو الشرك الخفي .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَلاَ يَقْتُلُونَ النفس التي حَرَّمَ الله إِلاَّ بالحق ﴾ [الفرقان : 68] سبق أنْ تحدثنا عن الفرق بين الموت والقتل ، وقلنا : إن كليهما تذهب به الحياة ، لكن في الموت تذهب الحياة أولاً ، ثم تُنقض البنية بعد ذلك ، أما في حالة القتل فتُنقض البنية أولاً ، ثم يتبعها خروج الروح . فالموت إذن بيد الله عز وجل ، أما القتل فقد يكون بيد البشر .

وهنا نَهْى صريح عن هذه الجريمة ؛ لأنه " ملعون مَنْ يهدم بنيان الله " ويقضي على الحياة التي وهبها الله تعالى لعباده .

وقوله تعالى : ﴿ إِلاَّ بالحق ﴾ [الفرقان : 68] أي : حق يبيح القتل كرَجْم الزاني حتى الموت ، وكالقصاص من القاتل ، وكقَتْل المرتد عن دينه ، فإنْ قتلْنا هؤلاء فقتلُهم بناء على حَقٍّ استوجب قتلهم .

(73/564)

فإن قال قائل : فأين حرية الدين إذن ؟ نقول : أنت حر في أن تؤمن أو لا تؤمن ، لكن اعلم أولاً أنك إنْ ارتددتَ عن إيمانك قتلناك ، فإياك أنْ تدخل في ديننا إلا بعد اقتناع تام حتى لا تُعرِّض نفسك لهذه العاقبة .

وهذا الشرط يمثِّل عقبة وحاجزاً أمام مَنْ أراد الإيمان ويجعله يُفكّر ملياً قبل أن ينطق بكلمة الإيمان ويحتاط لنفسه ، إذن : فربُّكَ عز وجل يُنبِّهك أولاً ، ويشترط عليك ، وليس لأحد بعد ذلك أن يقول : أين حرية الدين ؟

وقوله تعالى : ﴿ وَلاَ يَزْنُونَ ﴾ [الفرقان : 68] تحدثنا عن هذه المسألة في أول سورة النور وقلنا : إن الإنسان الذي كرَّمه الله وجعله خليفة له في أرضه أراد له الطُّهْر والكرامة ، وإنْ يسكن الدنيا على مقتضى قانون الله ، فلا يُدخِل في عنصر الخلافة شيئاً يخالف هذا القانون ؛ لأن الله تعالى يريد أن يبنى المجتمع المؤمن على الطُّهْر ويبنيه على عناية المربِّي بالمربَّى .

لذلك تجد الرجل يعتني بولده مطْعماً ومشرباً وملبساً ويفديه بنفسه ، لماذا ؟ لأنه ولده من صُلْبه ومحسوب عليه ، أمّا إنْ شكَّ في نسب ولده إليه فإنه يُهمله ، وربما فكّر في الخلاص منه ، وإنْ رُبِّي مثل هذا رُبِّيَ لقيطاً لا أصلَ له ، وهذا لا يصلح لخلافة الله في أرضه ، ولا لأن يحمل هذا الشرف .

وهذا يدل على أن الفطرة السليمة تأبى أنْ يوجد في كون الله شخص غير منسوب لأبيه

الحق ، من هنا نهى الإسلام عن الزنا ، وجعل من صفات عباد الرحمن أنهم لا يزنون .

﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً ﴾ [الفرقان : 68] أثاماً مثل : نكالاً وَزْناً ومعنىً ، والآثام : عقوبة الإثم والجزاء عليه .

يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (69)

كيف نفهم مضاعفة العذاب في هذه الآية مع قوله تعالى في آية أخرى : ﴿ وَجَزَآءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ [الشورى : 40] .

(74/564)

ويقول سبحانه : ﴿ مَن جَآءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَآءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴾ [الأنعام : 160] .

الحقيقة لا يُوجد تناقض بين آيات القرآن الكريم ، فالذي يرتكب هذه الفِعْلة يكون اسْوة في المجتمع تُجرّىء الغير على ارتكاب هذه الجريمة ؛ لذلك عليه وزْرة كفاعل أولاً ، وعليه وِزْر مَن اقتدى به .

كما جاء في قوله تعالى حكايةً عن الكفارين : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَآ آبَآءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ [الزخرف : 23] إذن : فوجود الآباء كقدوة للشر يزيد من شرّ

الأبناء ، فكأنهم شركاء فيه .

لذلك يقول الله تعالى في موضع آخر : ﴿ لِيَحْمِلُواْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ القيامة وَمِنْ أَوْزَارِ الذين يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [النحل : 25] .

وقال : ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ [العنكبوت : 13] .

فالوِزْر الأول لضلالهم في ذاته ، والوِزْر الآخر ؛ لأنهم أضلّوا غيرهم ، هذا هو المراد بمضاعفة العذاب .

وقوله تعالى : ﴿ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً ﴾ [الفرقان : 69] معنى (مُهَاناً) : حينما وصف القرآن العذاب وصفه مرةً بأنه أليم ، ومرةً عظيم ، ومرة مُهين . فالذي ينظر إلى إيلام الجوارح يقول : هذا عذاب أليم ؛ لأنه يُؤلم كل جارحة فيه ، فالعذاب أمر حِسيّ ، أما الإهانة فأمر معنوي ، ومن الناس مَنْ تؤلمه كلمة تنال من كرامته ، ومنهم مَنْ يُضرب فلا يؤثر فيه .

والخالق عز وجل خلق الناس وعلم أزلاً أنهم أبناء أغيار ، ليس معصوماً منهم إلا الرسل ، إذن : فالسيئة مُحْتملة منهم .

(75/564)

ومن تمام رحمته تعالى بربوبيته أنْ فتح باب التوبة لعباده ، لمن أسرف منهم على نفسه في شيء ؛ لأن صاحب السيئة إنْ يئس من المغفرة استشرى خطره وزاد فساده ، لكن إنْ فتحتَ له باب التوبة والمغفرة عاد إلى الجادة ، واستقام على الطاعة ، وفي هذا رحمة بالمجتمع كله .

يقول تعالى : ﴿ إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً ﴾

فربُّكم كريم ورحيم ، إنْ تُبتْم تاب عليكم وقَبِلكم ، فإنْ قدَّمْتُم العمل الصالح واشتدّ ندمكم على ما فات منكم من معصية يُبدِّل سيئاتكم حسنات .

وللتوبة أمران : مشروعيتها من اللهِ أولاً ، وقبولها من صاحبها ثانياً ، فتشريعها فَضْل ، وقبولها فَضْل آخر ؛ لذلك يقول سبحانه : ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ﴾ [التوبة : 118]

والمعنى : تاب عليهم بأنْ شرَّع لهم التوبة حتى لا يستحُوا من الرجوع إلى الله .

وقوله تعالى : ﴿ إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً ﴾ [الفرقان : 70] تاب وآمن لمن عمل معصية تُخرجه عن الإيمان ، فالعاصي لم يقارف المعصية إلا في غفلة عن إيمانه ، كما جاء في الحديث الشريف : " لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن " .

ولو استحضر العاصي جلالَ ربه ما عصاه ، ولتضخمتْ عنده المعصية فانصرف عنها ، وما دام قد غاب عنه إيمانه فلا بُدَّ له من تجديده ، ثم بعد ذلك يُوظِّف هذا الإيمان في العمل

الصالح .

﴿ إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً ﴾ [الفرقان : 70] فالجزاء ﴿ فأولئك يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ﴾ [الفرقان : 70] وليس المراد أن السيئة تُبدَّل فتصير حسنة مباشرة ، إنما يرفع العبد السيئة ويحل محلها التوبة ، وبعد التوبة يضع الله له الحسنة .

وقد أطمعتْ رحمة الله ومغفرته بعض الناس ، حتى قال الشاعر :

مَوْلاَيَ إِنِّي قَدْ عصيتُكَ عَامِداً . . . لأراكَ أجملَ ما تكُون غَفُوراً

(76/564)

وَلَقَدْ جنيْتُ مِنَ الذُّنوبِ كِبَارَهَا . . . ضَنّاً بعفْوِكَ أنْ يكُونَ صَغِيراً .

حتى وصل الحال ببعضهم أنْ يستكثر من السيئة طمعاً في أن تُبدَّل حسنات ، لكن مَنْ يضمن له أن يعيش إلى أنْ يتوب ، أو أنه إنْ تاب قَبِل الله منه ؟

والعلة النفسية التي تكلَّم عنها العلماء في هذه المسألة أن الذي ابتعد عن المعصية فلم يقع في شراكها لم يدرك لذة الشهوة ، فلا تَأْتِي على باله ، أمّا مَنْ خاض فيها ، وذاق لذتها ، وأسرف فيها على نفسه فيعاني كثيراً حينما يحجز نفسه وينأى به عن معصية الله ، فهذه المعاناة هي التي جعلتْ له هذه المنزلة .

وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا (71)

معنى ﴿ يَتُوبُ إِلَى اللهِ مَتَاباً ﴾ [الفرقان : 71] يعني : توبة نصوحاً ، لا عودة بعدها إلى المعصية ، لا يرجع في توبته كالمستهزيء بربه ، يقول : أفعل كذا ثم أتوب ، وكلمة ﴿ مَتَاباً ﴾ [الفرقان : 71] تعني : العزم ساعة أَنْ يتوبَ ألاَّ يعود ، والخطر في أن يُقدِم العبد على الذنب لوجود التوبة ، فقد يُقبض في حال المعصية ، وقبل أنْ يُمكنه التوبة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(77/564)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ﴾

أخرج الفريابي وأحمد وعبد بن حميد والبخاري ومسلم والترمذي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن مسعود قال : " سئل النبي صلى الله عليه وسلم أي الذنب أكبر ؟ قال " أن تجعل لله نداً وهو خلقك قلت : ثم أي ؟ قال أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك قلت : ثم أي ؟ قال : أن تزاني حليلة جارك " "

فأنزل الله تصديق ذلك ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ﴾ .

وأخرج البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وابن مردويه والبيهقي من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس : أن ناساً من أهل الشرك قد قتلوا فأكثروا ، وزنوا ثم أتوا محمداً صلى الله عليه وسلم فقالوا : إن الذي تقول وتدعو إليه لَحَسَنٌ لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة ؛ فنزل ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر . . . ﴾ ونزلت ﴿ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم . . . ﴾ [الزمر : 53] .

وأخرج البخاري وابن المنذر من طريق القاسم بن أبي بزة أنه سأل سعيد بن جبير هل لمن قتل مؤمناً متعمداً من توبة ؟ فقرأت عليه ﴿ ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ﴾ فقال سعيد : قرأتها على ابن عباس كما قرأتها عليَّ فقال : هذه مكية نسختها آية مدنية التي في سورة النساء .

(78/564)

وأخرج ابن المبارك عن شفي الأصبحي قال : إن في جهنم جبلاً يدعى : صعوداً . يطلع فيه الكافر أربعين خريفاً قبل أن يرقاه ، وإن في جهنم قصراً يقال له : هوى . يرمى الكافر من

أعلاه فيهوي أربعين خريفاً قبل أن يبلغ أصله . قال تعالى ﴿ ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى ﴾ [طه : 81] وأن في جهنم وادياً يدعى : أثاماً . فيه حيات وعقارب في فقار احداهن مقدار سبعين قلة من السم ، والعقرب منهن مثل البغلة الموكفة ، وإن في جهنم وادياً يدعى : غياً . يسيل قيحاً ودماً .

وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قال " سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم أي الأعمال أفضل ؟ قال : الصلوات لمواقيتهن . قلت : ثم أي ؟ قال : بر الوالدين قلت : ثم أي ؟ قال : ثم الجهاد في سبيل الله ، ولو استزدته لزادني . وسألته أي الذنب أعظم عند الله ؟ قال : الشرك بالله قلت : ثم أي ؟ قال : أن تقتل ولدك أن يطعم معك " فما لبثنا إلا يسيراً حتى أنزل الله ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ﴾ .

وأخرج ابن مردويه عن عون بن عبد الله قال : سألت الأسود بن يزيد هل كان ابن مسعود يفضل عملاً على عمل ؟ قال : نعم .

سألت ابن مسعود قال : سألتني عما سألت عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت " يا رسول الله أي الأعمال أحبها إلى الله وأقربها من الله ؟ قال : الصلاة لوقتها قلت : ثم ماذا على اثر ذلك ؟ قال : ثم بر الوالدين قلت : ثم ماذا على أثر ذلك ؟ قال : الجهاد في سبيل الله ، ولو استزدته لزادني قلت : فأي الأعمال أبغضها إلى الله وأبعدها من الله ؟ قال : أن تجعل

لله نداً وهو خلقك ، وأن تقتل ولدك أن يأكل معك ، وإن تزاني حليلة جارك ، ثم قرأ ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر . . ﴾ " .

(79/564)

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي قتادة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجل " إن الله ينهاك أن تعبد المخلوق وتذر الخالق ، وينهاك أن تقتل ولدك وتغدو كلبك ، وينهاك أن تزني بحليلة جارك " .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عبد الله بن عمر في قوله ﴿ يلق أثاماً ﴾ قال : واد في جهنم .

وأخرج الفريابي وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد ﴿ يلق أثاماً ﴾ قال : واد في جهنم من قيح ودم .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن عكرمة قال : ﴿ أثام ﴾ أودية في جهنم فيها الزناة .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة ﴿ يلق أثاماً ﴾ قال : نكالاً . وكنا نحدث أنه واد في جهنم ، وذكر لنا أن لقمان كان يقول : يا بني إياك والزنا فإن أوّله مخافة ، وآخره ندامة .

وأخرج ابن المبارك في الزهد عن شفي الأصبحي قال : إن في جهنم وادياً يدعى : أثاماً . فيه حيات وعقارب في فقار إحداهن مقدار سبعين قلة من السم ، والعقرب منهن مثل البغلة الموكفة .

وأخرج ابن الأنباري عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق قال له : أخبرني عن قوله ﴿ يلق أثاماً ﴾ ما الأثام ؟ قال : الجزاء قال فيه عامر بن الطفيل :

وروّينا الأسنة من صداء . . . ولاقت حمير منا أثاما

وأخرج الطبراني بسند ضعيف عن ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ (ومن يفعل ذلك يلق أثاماً) .

وأخرج عبد بن حميد عن عاصم أنه قرأ " يضاعف " بالرفع " له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه " بنصب الياء ورفع اللام .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير ﴿ ويخلد فيه ﴾ يعني في العذاب ﴿ مهاناً ﴾ يعني يهان فيه .

(80/564)

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : لما نزلت ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ﴾ اشتد ذلك على المسلمين فقالوا : ما منا أحد إلا أشرك ، وقتل ، وزنى ، فأنزل الله ﴿ يا عبادي الذين أسرفوا . . . ﴾ [الزمر : 53] . يقول لهؤلاء الذين أصابوا هذا في الشرك ، ثم نزلت بعده ﴿ إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات ﴾ فأبدلهم الله بالكفر الإِسلام ، وبالمعصية الطاعة ، وبالانكار المعرفة ، وبالجهالة العلم .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن سعيد بن جبير قال : نزلت آية من تبارك بالمدينة في شأن قاتل حمزة وحشي وأصحابه كانوا يقولون : انا لنعرف الإِسلام وفضله فكيف لنا بالتوبة وقد عبدنا الأوثان ، وقتلنا أصحاب محمد ، وشربنا الخمور ، ونكحنا المشركات ؟ ! فأنزل الله فيهم ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر . . ﴾ الآية . ثم أنزلت توبتهم ﴿ إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات ﴾ فأبدلهم الله بقتال المسلمين قتال المشركين ، ونكاح المشركات نكاح المؤمنات ، وبعبادة الأوثان عبادة الله .

وأخرج عبد بن حميد عن عامر أنه سئل عن هذه الآية ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ﴾ . قال : هؤلاء كانوا في الجاهلية فأشركوا ، وقتلوا وزنوا . فقالوا : لن يغفر الله لنا . فأنزل الله ﴿ إلا من تاب ﴾ . قال : كانت التوبة والإِيمان والعمل الصالح ، وكان الشرك والقتل والزنا . كانت ثلاث مكان ثلاث .

وأخرج ابن المنذر والطبراني وابن مردويه عن ابن عباس قال : قرأنا على عهد النبي صلى الله عليه وسلم سنين ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرّم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاماً ﴾ ثم نزلت ﴿ إلا من تاب وآمن ﴾ فما رأيت النبي صلى الله عليه وسلم فرح بشيء قط فرحه بها ، وفرحه بأنا ﴿ فتحنا لك فتحاً مبيناً ﴾ [الفتح : 1] .

(81/564)

وأخرج عبد بن حميد عن أبي مالك قال : لما نزلت ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ﴾ قال بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم : كنا أشركنا في الجاهلية ، وقتلنا ، فنزلت ﴿ إلا من تاب ﴾ .

وأخرج أبو داود في تاريخه عن ابن عباس ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاماً ﴾ ثم استثنى ﴿ إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات ﴾ .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه بسند ضعيف عن أبي هريرة قال : " صليت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم العتمة ثم انصرفت ، فاذا امرأة عند بابي فقالت :

جئتك أسألك عن عمل عملته هل ترى لي منه توبة ؟ قلت : وما هو ؟ قالت : زنيت وولد لي وقتلته قلت : لا . . ولا كرامة . فقامت وهي تقول : واحسرتاه . . ! أيخلق هذا الجسد للنار ؟ فلما صليت مع النبي صلى الله عليه وسلم الصبح من تلك الليلة قصصت عليه أمر المرأة قال : ما قلت لها ؟ قلت لا . . ولا كرامة قال : بئس ما قلت . أما كنت تقرأ هذه الآية ! ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ﴾ إلى قوله ﴿ إلا من تاب ﴾ الآية . قال أبو هريرة : فخرجت فما بقيت دار بالمدينة ولا خطة إلا وقفت عليها فقلت : إن كان فيكم المرأة التي جاءت أبا هريرة فلتأت ولتبشر . فلما انصرفت من العشي إذا هي عند بابي فقلت : ابشري إني ذكرت للنبي صلى الله عليه وسلم ما قلت لي ، وما قلت لك فقال : بئس ما قلت أما كنت تقرأ هذه الآية ! وقرأتها عليها فخرجت ساجدة وقالت : أحمد الله الذين جعل لي توبة ومخرجاً ، أشهد أن هذه الجارية لجارية معها وابن لها حران لوجه الله ، وإني قد تبت مما عملت " .

(82/564)

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات ﴾ قال : هم المؤمنون ؛ كانوا من قبل إيمانهم على السيئات ، فرغب الله

بهم عن ذلك ، فحولهم إلى الحسنات ، فأبدلهم مكان السيئات الحسنات .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة في قوله ﴿ إلا من تاب ﴾ قال : من ذنبه ﴿ وآمن ﴾ قال : بربه . ﴿ وعمل صالحاً ﴾ قال : فيما بينه وبين ربه ﴿ فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات ﴾ قال : إنما التبديل طاعة الله بعد عصيانه ، وذكر الله بعد نسيانه ، والخير تعمله بعد الشر .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن الحسن ﴿ فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات ﴾ قال : التبديل في الدنيا يبدل الله بالعمل السيء العمل الصالح ، وبالشرك اخلاصاً ، وبالفجور عفافاً ، ونحو ذلك .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد عن مجاهد ﴿ يبدل الله سيئاتهم حسنات ﴾ قال : الإيمان بعد الشرك .

وأخرج عبد بن حميد عن مكحول ﴿ يبدل الله سيئاتهم حسنات ﴾ قال : إذا تابوا جعل الله ما عملوا من سيئاتهم حسنات .

وأخرج عبد بن حميد عن علي بن الحسين ﴿ يبدل الله سيئاتهم حسنات ﴾ قال : في الآخرة وقال الحسن : في الدنيا .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن أبي عثمان النهدي قال : إن المؤمن يعطى كتابه في ستر من الله فيقرأ سيئاته ، فإذا قرأ تغير لها لونه حتى يمر بحسناته فيقرأها فيرجع إليه لونه ،

ثم ينظر فإذا سيئاته قد بُدِّلَتْ حسنات فعند ذلك يقول ﴿ هاؤم اقرأوا كتابيه ﴾ [الحاقة : 19] .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن سلمان قال : يعطى رجل يوم القيامة صحيفة فيقرأ أعلاها فإذا سيئاته ، فإذا كاد يسوء ظنه نظر في أسفلها فإذا حسناته ، ثم ينظر في أعلاها فإذا هي قد بدلت حسنات .

(83/564)

وأخرج أحمد وهناد ومسلم والترمذي وابن جرير والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي ذر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " يؤتى بالرجل يوم القيامة فيقال اعرضوا عليه صغار ذنوبه ، فيعرض عليه صغارها وينحى عنه كبارها فيقال : عملت يوم كذا وكذا ؛ كذا وكذا وهو مقر ليس ينكر ، وهو مُشْفِقٌ من الكبار أن تجيء فيقال : اعطوه مكان كل سيئة عملها حسنة " .

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " ليأتين ناس يوم القيامة ودوا أنهم استكثروا من السيئات قيل : ومن هم يا رسول الله ؟ قال : الذين بدل الله سيئاتهم حسنات " .

وأخرج عبد بن حميد عن عمرو بن ميمون ﴿ فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات ﴾ قال : حتى يتمنى العبد أن سيئاته كانت أكثر مما هي .

وأخرج عبد بن حميد عن أبي العالية أنه قيل له : إن أناساً يزعمون أنهم يتمنون أن يستكثروا من الذنوب قال : ولم ذاك ؟ قال : يتأوّلون هذه الآية ﴿ يبدل الله سيئاتهم حسنات ﴾ فقال أبو العالية : وكان إذا أخبر بما لا يعلم قال : آمنت بما أنزل الله من كتاب . ثم تلا هذه الآية ﴿ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مكحول قال : " جاء شيخ كبير فقال : يا رسول الله رجل غدر وفجر فلم يدع حاجة ولا داجة إلا اقتطعها بيمينه ، ولو قسمت خطيئته بين أهل الأرض لأوبقتهم . فهل له من توبة ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أسلمت . . ؟ قال : نعم . قال : فإن الله غافر لك ، ومبدل سيئاتك حسنات قال : يا رسول الله وغدارتي . . . وفجراتي . . قال : وغدراتك وفجراتك " .

(84/564)

وأخرج الطبراني عن سلمة بن كهيل قال : " جاء شاب فقال : يا رسول الله أرأيت من لم يدع سيئة إلا عملها ، ولا خطيئة إلا ركبها ، ولا أشرف له سهم فما فوقه إلا اقتطعه بيمينه ، ومن لو قسمت خطاياه على أهل المدينة لغمرتهم ؟ فقال النبي : صلى الله عليه وسلم أأسلمت . . . ؟ قال : أما أنا فاشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله قال : اذهب فقد بدل الله سيئاتك حسنات قال : يا رسول الله وغدارتي . . وفجراتي . . قال : وغدراتك وفجراتك ثلاثاً " فولى الشاب وهو يقول : الله أكبر .

وأخرج البغوي وابن قانع والطبراني عن أبي طويل شطب الممدود أنه أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أرأيت رجلاً عمل الذنوب كلها ؟ فذكر نحوه .

وأخرج ابن مردويه عن أبي موسى قال : التبديل يوم القيامة إذا وقف العبد بين يدي الله والكتاب بين يديه ينظر في السيئات والحسنات فيقول : قد غفرت لك ويسجد بين يديه فيقول : قد بدلت فيسجد فيقول : قد بدلت فيسجد فيقول الخلائق : طوبى لهذا العبد الذي لم يعمل سيئة قط .

وأخرج الطبراني عن أبي مالك الأشعري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إذا نام ابن آدم قال الملك للشيطان : اعطني صحيفتك فيعطيه إياها ، فما وجد في صحيفته من حسنة محا بها عشر سيئات من صحيفة الشيطان وكتبهن حسنات ، فإذا أراد أحدكم أن ينام فليكبر ثلاثاً وثلاثين تكبيرة ، ويحمد أربعاً وثلاثين تحميدة ، ويسبح ثلاثاً

وثلاثين تسبيحة ، فتلك مائة " .

وأخرج ابن عساكر عن سعيد بن عبد العزيز عن مكحول في قوله ﴿ يبدل الله سيئاتهم حسنات ﴾ قال : يجعل مكان السيئات الحسنات قال : فرأيت مكحولاً غضب حتى جعل يرتعد . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 6 صـ ﴾

(85/564)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾

قوله : ﴿ إلاَّ بالحق ﴾ : يَجُوزُ أَنْ تتعلَّقَ الباءُ بنفسِ "يَقْتُلون " أي : لا يَقْتُلونها بسببٍ من الأسبابِ إلاَّ بسببِ الحق ، وأَنْ تتعلَّقَ بمحذوفٍ على أنها صفةٌ للمصدرِ أي : قَتْلاً ملتبساً بالحقِّ ، أو على أنها حالٌ أي : إلاَّ مُلْتَبِسين بالحقِّ .

قوله : " ذلك " إشارةٌ إلى جميعِ ما تقدَّم لأنه بمعنى : ما ذُكِر ، فلذلك وُحِّدَ . والعامَّةُ على " يَلْقَ " مجزوماً على جزاءِ الشرط بحذفِ الألِف . وعبد الله وأبو رجاء " يلقى " بإثباتها كقوله : ﴿ فَلاَ تنسى ﴾ [الأعلى : 6] على أحدِ القولين ، وكقراءةِ : ﴿ لاَّ تَخَفْ دَرَكاً

وَلاَ تخشى ﴾ [طه : 77] في أحدِ القولين أيضاً ، وذلك بأَنْ نُقَدِّرَ علامةَ الجزمِ حَذْفَ الضمة المقدِرة .

وقرأ بعضُهم "يُلَقَّ" بضمِّ الياءِ وفتحِ اللامِ وتشديدِ القاف مِنْ لَقَّاه كذا . والأَثام مفعولٌ على قراءةِ الجمهورِ ، ومفعولٌ ثانٍ على قراءةِ هؤلاء . والأَثام : العقوبةُ . قال الشاعر :

3499 جزى اللهُ ابنَ عُرْوَةَ حيث أمسى . . . عَقوقاً والعُقوقُ له أَثامُ

أي : عقوبةٌ . وقيل : هو الإِثمُ نفسُه . والمعنى : يَلْقَ جزاءَ إثمٍ ، فأطلقَ اسمَ الشيءِ على جزائِه . وقال الحسن : " الأَثامُ اسمٌ مِنْ أسماءِ جهنَّم . وقيل : بئرٌ فيها . وقيل : وادٍ .

وعبد الله " أَيَّاماً " جمعُ " يوم " يعنى شدائدَ ، والعرب تُعَبِّر عن ذلك بالأيام .

قوله : ﴿ يُضَاعَفْ ﴾ :

قرأ ابن عامر وأبو بكر برفع "يُضاعَفُ" و "يَخْلُدُ" على أحدِ وجهين : إمَّا الحال ، وإمَّا على الاستئنافِ . والباقون بالجزمِ فيهما ، بدلاً من الجزاء بدلَ اشتمال . ومثلُه قولُه :

(86/564)

3500 متى تأتِنا تُلْمِمْ بنا في ديارِنا . . . تَجِدْ حَطَباً جَزْلاً ونارا تَأَجَّجا

فأبدلَ من الشرطِ كما أبدل هنا مِنَ الجزاءِ . وابنُ كثيرٍ وابنُ عامرٍ على ما تقدَّم لهما في

البقرةِ من القَصْر والتضعيفِ في العين ، ولم يذكرِ الشيخُ ابنَ عامرٍ مع ابنِ كثير ، وذكرَه مع الجماعة في قراءتهم .

وقرأ أبو جعفر وشيبة " نُضَعِّفْ " بالنون مضمومة وتشديدِ العين ، " العذابَ " نصباً على المفعول به . وطلحة " يُضاعِف " مبنياً للفاعل أي اللَّهُ ، " العذابَ " نصباً . وطلحة بن سليمان و " تَخْلُدْ " بتاءِ الخطابِ على الالتفاتِ . وأبو حيوةَ " ويُخَلِّد " مشدداً مبنياً للمفعولِ . ورُوِي عن أبي عمرو كذلك ، إلاَّ أنه بالتخفيف .

قوله : ﴿ مُهَاناً ﴾ حالٌ . وهو اسمُ مفعولٍ . مِنْ أَهانه يُهِيْنُه أي : أذلَّه وأَذاقه الهوان .

قوله : ﴿ إِلاَّ مَن تَابَ ﴾ :

فيه وجهان ، أحدُهما : وهو الذي لم يَعْرف الناسُ غيرَه أنَّه استثناءٌ متصلٌ لأنَّه من الجنسِ . الثاني : أنه منقطع . قال الشيخ : " ولا يَظْهَرْ يعني الاتصال لأنَّ المستثنى منه مَحْكومٌ عليه بأنَّه يُضاعَفُ له العذابُ ، فيصيرُ التقديرُ : إلاَّ مَنْ تابَ وآمَنَ وعَمِلَ صالحاً فلا يُضاعَفُ له . ولا يَلزَمُ من انتفاءِ التضعيفِ انتفاءُ العذابِ غيرِ المضعَّفِ ، فالأولى عندي أَنْ يكونَ استثناءً منقطعاً أي : لكن مَنْ/ تابَ وآمنَ وعَمِل عملاً صالحاً فأولئك يُبَدِّل اللهُ سيئاتِهم حسناتٍ . وإذا كان كذلك فلا يَلْقَى عذاباً البتةَ " . قلت : والظاهرُ قولُ الجمهورِ . وأمَّا ما قاله فلا يَلْزَمُ ؛ إذ المقصودُ الإخبارُ بأنَّ مَنْ فعل كذا فإنه يَحُلُّ به ما ذَكَرَ ، إلاَّ أَنْ يتوبَ . وأمَّا إصابةُ أصلِ العذابِ وعدمُها فلا تَعرُّضَ في الآية له .

(87/564)

قوله : ﴿ سَيِّئَاتِهِمْ ﴾ هو المفعولُ الثاني للتبديلِ ، وهو المقيَّدُ بحرفِ الجر ، وإنما حُذِفَ لفهم المعنى وحَسَنات هو الأولُ المُسَرَّح وهو المأخوذُ ، والمجرورُ بالباءِ هو المتروكُ . وقد صَرَّح بهذا في قولِه تعالى : ﴿ بَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ﴾ [سبأ : 16] . وقال الراجز :

3501 تَضْحَكُ مِنّي أختُ ذاتِ النِّحْيَيْنْ . . . أَبْدلكِ اللهُ بلونٍ لَوْنَيْنْ

سوادَ وجهٍ وبياضَ عَيْنَيْنْ . . . وقد تقدم تحقيقُ هذا في البقرةِ عند قولِه : ﴿ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللهِ ﴾ [البقرة : 211] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 502. 505 ﴾

(88/564)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله جل ذكره : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَآخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا

بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ﴾ .

﴿ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾ : في الظاهر عبادة الأصنام المعمولة من الأحجار ، المنحوتة من الأشجار .

وكما تتصف بهذا النفوسُ والأبشارُ فكذلك توَهَّمُ المبارِّ ولامضارِّ من الأغيار شِرْكٌ .

﴿ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ ﴾ من النفوس المُحَرَّم قَتْلُها على العبد نَفْسه المسكينةُ ، قال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ﴾ [النساء : 29] وقَتْلُ النّفس من غير حقٍّ تمكينُك لها من اتباع ما فيه هلاكُها في الآخرة ؛ فإنَّ العبدَ إذا لم يُنْهَ مأمورُ .

ثم دليل الخطاب أن تقتلها بالحقِّ ، وذلك بذَبْحِها بسكين المخالفات ، فما فَلاحُكَ إلا بقتل نَفْسِكَ التي بين جنبيك .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴾ .

يضاعَفُ لهم العذابُ يومَ القيامة بجسرات الفرقة وزفرات الحرقة . وآخرونَ يضاعف لهم العذابُ اليومَ بتراكم الخذلان ووشك الهجران ودوام الحرمان . بل مَنْ كان مضاعَفَ العذاب في عقباه فهو الذي يكون مضاعَفَ العذاب في دنياه ؛ جاء في الخبر : " مَن كان بحالةٍ لقي الله بها " .

إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (70)

إلا من تاب من الذنب في الحال ؛ وآمن في المآل .

ويقال : ﴿ وَءَامَنَ ﴾ أن نجاته بفضل الله لا بتوبته ، ﴿ وَعَمِلَ صَالِحاً ﴾ لا ينقض توبتُهُ .

ويقال إن نقَضَ توبته عَمِلَ صالحاً أي جَدَّدَ توبتَه ؛ ﴿ فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ﴾ ويخلق لهم التوفيق بدلاً من الخذلان .

ويقال يبدل الله سيئاتهم حسنات فيغفر لهم ويثيبهم على توبتهم .

(89/564)

ويقال يمحو ذِلَّة زَلاَّتِهم ، ويثبت بَدَلَها الخيرات والحسنات ، وفي معناه أنشدوا :

ولما رضوا بالعفو عن ذي زلةٍ . . . حتى أنالوا كفَّه وأفادوا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 650 . 651 ﴾

(90/564)

فائدة

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ – رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى – :

فَصْلٌ :

أَكْبَرُ الْكَبَائِرِ ثَلَاثٌ : الْكُفْرُ ثُمَّ قَتْلُ النَّفْسِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ثُمَّ الزِّنَا كَمَا رَتَّبَهَا اللَّهُ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ﴾ وَفِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ : ﴿ قُلْت يَا رَسُولَ اللَّهِ : أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ ؟ قَالَ : أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَك قُلْت : ثُمَّ أَيٌّ ؟ قَالَ : ثُمَّ أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَك خَشْيَةَ أَنْ يَطْعَمَ مَعَك . قُلْت : ثُمَّ أَيٌّ ؟ قَالَ : أَنْ تُزَانِيَ بِحَلِيلَةِ جَارِك ﴾ .

وَلِهَذَا التَّرْتِيبِ وَجْهٌ مَعْقُولٌ وَهُوَ أَنَّ قُوَى الْإِنْسَانِ ثَلَاثٌ :

قُوَّةُ الْعَقْلِ وَقُوَّةُ الْغَضَبِ وَقُوَّةُ الشَّهْوَةِ . فَأَعْلَاهَا الْقُوَّةُ الْعَقْلِيَّةُ - الَّتِي يَخْتَصُّ بِهَا الْإِنْسَانُ دُونَ سَائِرِ الدَّوَابِّ وَتَشْرَكُهُ فِيهَا الْمَلَائِكَةُ كَمَا قَالَ أَبُو بَكْرٍ عَبْدُ الْعَزِيزِ مِنْ أَصْحَابِنَا وَغَيْرُهُ : خُلِقَ لِلْمَلَائِكَةِ عُقُولٌ بِلَا شَهْوَةٍ ،

(91/564)

وَخُلِقَ لِلْبَهَائِمِ شَهْوَةٌ بِلَا عَقْلٍ وَخُلِقَ لِلْإِنْسَانِ عَقْلٌ وَشَهْوَةٌ فَمَنْ غَلَبَ عَقْلُهُ شَهْوَتَهُ فَهُوَ خَيْرٌ مِنْ الْمَلَائِكَةِ وَمَنْ غَلَبَتْ شَهْوَتُهُ عَقْلَهُ فَالْبَهَائِمُ خَيْرٌ مِنْهُ . ثُمَّ الْقُوَّةُ الْغَضَبِيَّةُ الَّتِي فِيهَا دَفْعُ الْمَضَرَّةِ ثُمَّ الْقُوَّةُ الشهوية الَّتِي فِيهَا جَلْبُ الْمَنْفَعَةِ . وَمِنْ الطبائعيين مَنْ يَقُولُ : الْقُوَّةُ الْغَضَبِيَّةُ

هِيَ الْحَيَوَانِيَّةُ ؛ لِاخْتِصَاصِ الْحَيَوَانِ بِهَا دُونَ النَّبَاتِ . وَالْقُوَّةُ الشهوية هِيَ النَّبَاتِيَّةُ لِاشْتِرَاكِ الْحَيَوَانِ وَالنَّبَاتِ فِيهَا . وَاخْتِصَاصُ النَّبَاتِ بِهَا دُونَ الْجَمَادِ . لَكِنْ يُقَالُ : إنْ أَرَادَ أَنَّ نَفْسَ الشَّهْوَةِ مُشْتَرَكَةٌ بَيْنَ النَّبَاتِ وَالْحَيَوَانِ فَلَيْسَ كَذَلِكَ فَإِنَّ النَّبَاتَ لَيْسَ فِيهِ حَنِينٌ وَلَا حَرَكَةٌ إرَادِيَّةٌ وَلَا شَهْوَةٌ وَلَا غَضَبٌ . وَإِنْ أَرَادَ نَفْسَ النُّمُوِّ وَالِاغْتِذَاءِ فَهَذَا تَابِعٌ لِلشَّهْوَةِ وَمُوجِبُهَا . وَلَهُ نَظِيرٌ فِي الْغَضَبِ . وَهُوَ أَنَّ مُوجِبَ الْغَضَبِ وَتَابِعَهُ هُوَ الدَّفْعُ وَالْمَنْعُ وَهَذَا مَعْنًى مَوْجُودٌ فِي سَائِرِ الْأَجْسَامِ الصُّلْبَةِ الْقَوِيَّةِ فَذَاتُ الشَّهْوَةِ وَالْغَضَبِ مُخْتَصٌّ بِالْحَيِّ . وَأَمَّا مُوجِبُهُمَا مِنْ الِاعْتِدَاءِ وَالدَّفْعِ فَمُشْتَرَكٌ بَيْنَهُمَا وَبَيْنَ النَّبَاتِ الْقَوِيِّ فَقُوَّةُ الدَّفْعِ وَالْمَنْعِ مَوْجُودٌ فِي النَّبَاتِ الصُّلْبِ الْقَوِيِّ دُونَ اللَّيِّنِ الرَّطْبِ فَتَكُونُ قُوَّةُ الدَّفْعِ مُخْتَصَّةً بِبَعْضِ النَّبَاتِ ؛ لَكِنَّهُ مَوْجُودٌ فِي سَائِرِ الْأَجْسَامِ الصُّلْبَةِ فَبَيْنَ الشَّهْوَةِ وَالْغَضَبِ عُمُومٌ وَخُصُوصٌ .

(92/564)

وَسَبَبُ ذَلِكَ : أَنَّ قُوَى الْأَفْعَالِ فِي النَّفْسِ إمَّا جَذْبٌ وَإِمَّا دَفْعٌ فَالْقُوَّةُ الْجَاذِبَةُ الْجَالِبَةُ لِلْمُلَائِمِ هِيَ الشَّهْوَةُ وَجِنْسُهَا : مِنْ الْمَحَبَّةِ وَالْإِرَادَةِ وَنَحْوِ ذَلِكَ وَالْقُوَّةُ الدَّافِعَةُ الْمَانِعَةُ لِلْمُنَافِي هِيَ الْغَضَبُ وَجِنْسُهَا : مِنْ الْبُغْضِ وَالْكَرَاهَةِ وَهَذِهِ الْقُوَّةُ بِاعْتِبَارِ الْقَدْرِ الْمُشْتَرَكِ بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَالْبَهَائِمِ هِيَ مُطْلَقُ الشَّهْوَةِ وَالْغَضَبِ وَبِاعْتِبَارِ مَا يَخْتَصُّ بِهِ الْإِنْسَانُ الْعَقْلُ وَالْإِيمَانُ وَالْقُوَى

الرُّوحَانِيَّةُ الْمُعْتَرِضَةُ . فَالْكُفْرُ مُتَعَلِّقٌ بِالْقُوَّةِ الْعَقْلِيَّةِ النَّاطِقَةِ الْإِيمَانِيَّةِ ؛ وَلِهَذَا لَا يُوصَفُ بِهِ مَنْ لَا تَمْيِيزَ لَهُ وَالْقَتْلُ نَاشِئٌ عَنْ الْقُوَّةِ الْغَضَبِيَّةِ وَعُدْوَانٍ فِيهَا . وَالزِّنَا عَنْ الْقُوَّةِ الشَّهْوَانِيَّةِ . فَالْكُفْرُ اعْتِدَاءٌ وَفَسَادٌ فِي الْقُوَّةِ الْعَقْلِيَّةِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَقَتْلُ النَّفْسِ اعْتِدَاءٌ وَفَسَادٌ فِي الْقُوَّةِ الْغَضَبِيَّةِ وَالزِّنَا اعْتِدَاءٌ وَفَسَادٌ فِي الْقُوَّةِ الشَّهْوَانِيَّةِ . وَمِنْ وَجْهٍ آخَرَ ظَاهِرٍ : أَنَّ الْخَلْقَ خَلَقَهُمْ اللَّهُ لِعِبَادَتِهِ وَقِوَامُ الشَّخْصِ بِجَسَدِهِ وَقِوَامُ النَّوْعِ بِالنِّكَاحِ وَالنَّسْلِ فَالْكُفْرُ فَسَادُ الْمَقْصُودِ الَّذِي لَهُ خُلِقُوا وَقَتْلُ النَّفْسِ فَسَادُ النُّفُوسِ الْمَوْجُودَةِ وَالزِّنَا فَسَادٌ فِي الْمُنْتَظَرِ مِنْ النَّوْعِ . فَذَاكَ إفْسَادُ الْمَوْجُودِ وَذَاكَ إفْسَادٌ لِمَا لَمْ يُوجَدْ بِمَنْزِلَةِ مَنْ أَفْسَدَ مَالًا مَوْجُودًا أَوْ مَنَعَ الْمُنْعَقِدَ أَنْ يُوجَدَ وَإِعْدَامُ الْمَوْجُودِ أَعْظَمُ فَسَادًا ؛ فَلِهَذَا كَانَ التَّرْتِيبُ كَذَلِكَ

(93/564)

. وَمِنْ

وَجْهٍ ثَالِثٍ أَنَّ الْكُفْرَ فَسَادُ الْقَلْبِ وَالرُّوحِ الَّذِي هُوَ مَلِكُ الْجَسَدِ وَالْقَتْلُ إفْسَادٌ لِلْجَسَدِ الْحَامِلِ لَهُ وَإِتْلَافُ الْمَوْجُودِ . وَأَمَّا الزِّنَا فَهُوَ فَسَادٌ فِي صِفَةِ الْوُجُودِ لَا فِي أَصْلِهِ لَكِنَّ هَذَا يَخْتَصُّ بِالزِّنَا وَمِنْ هُنَا يَتَبَيَّنُ أَنَّ اللِّوَاطَ أَعْظَمُ فَسَادًا مِنْ الزِّنَا .

فَصْلٌ :

وَبِاعْتِبَارِ الْقُوَى الثَّلَاثِ انْقَسَمَتْ الْأُمَمُ الَّتِي أَفْضَلُ الْجِنْسِ الْإِنْسَانِيِّ ؛ وَهُمْ الْعَرَبُ وَالرُّومُ وَالْفُرْسُ . فَإِنَّ هَذِهِ الْأُمَمَ هِيَ الَّتِي ظَهَرَتْ فِيهَا الْفَضَائِلُ الْإِنْسَانِيَّةُ وَهُمْ سُكَّانُ وَسَطِ الْأَرْضِ طُولًا وَعَرْضًا فَأَمَّا مَنْ سِوَاهُمْ كَالسُّودَانِ وَالتُّرْكِ وَنَحْوِهِمْ فَتَبَعٌ . فَغَلَبَ عَلَى الْعَرَبِ الْقُوَّةُ الْعَقْلِيَّةُ النُّطْقِيَّةُ وَاشْتُقَّ اسْمُهَا مِنْ وَصْفِهَا فَقِيلَ لَهُمْ : عَرَبٌ : مِنْ الْإِعْرَابِ وَهُوَ الْبَيَانُ وَالْإِظْهَارُ وَذَلِكَ خَاصَّةُ الْقُوَّةِ الْمَنْطِقِيَّةِ .

(94/564)

وَغَلَبَ عَلَى الرُّومِ الْقُوَّةُ الشهوية مِنْ الطَّعَامِ وَالنِّكَاحِ وَنَحْوِهِمَا وَاشْتُقَّ اسْمُهَا مِنْ ذَلِكَ فَقِيلَ لَهُمْ الرُّومُ فَإِنَّهُ يُقَالُ : رُمْت هَذَا أَرُومُهُ إذَا طَلَبْته وَاشْتَهَيْته . وَغَلَبَ عَلَى الْفُرْسِ الْقُوَّةُ الْغَضَبِيَّةُ مِنْ الدَّفْعِ وَالْمَنْعِ وَالِاسْتِعْلَاءِ وَالرِّيَاسَةِ وَاشْتُقَّ اسْمُهَا مِنْ ذَلِكَ فَقِيلَ فُرْسٌ كَمَا يُقَالُ فَرَسَهُ يَفْرِسُهُ إذَا قَهَرَهُ وَغَلَبَهُ . وَلِهَذَا تُوجَدُ هَذِهِ الصِّفَاتُ الثَّلَاثُ غَالِبَةً عَلَى الْأُمَمِ الثَّلَاثِ حَاضِرَتِهَا وَبَادِيَتِهَا ؛ وَلِهَذَا كَانَتْ الْعَرَبُ أَفْضَلَ الْأُمَمِ وَتَلِيهَا الْفُرْسُ لِأَنَّ الْقُوَّةَ الدفعية أَرْفَعُ وَتَلِيهَا الرُّومُ .

فَصْلٌ :

وَبِاعْتِبَارِ هَذِهِ الْقُوَى كَانَتْ الْفَضَائِلُ ثَلَاثًا : فَضِيلَةُ الْعَقْلِ وَالْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ : الَّتِي هِيَ كَمَالُ

الْقُوَّةِ الْمَنْطِقِيَّةِ وَفَضِيلَةُ الشَّجَاعَةِ الَّتِي هِيَ كَمَالُ الْقُوَّةِ الْغَضَبِيَّةِ وَكَمَالُ الشَّجَاعَةِ هُوَ الْحِلْمُ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرْعَةِ وَإِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ ﴾ وَالْحِلْمُ وَالْكَرَمُ مَلْزُوزَانِ فِي قَرْنٍ كَمَا أَنَّ كَمَالَ الْقُوَّةِ الشهوية الْعِفَّةُ فَإِذَا كَانَ الْكَرِيمُ عَفِيفًا وَالسَّخِيُّ حَلِيمًا اعْتَدَلَ الْأَمْرُ . وَفَضِيلَةُ السَّخَاءِ وَالْجُودِ الَّتِي هِيَ كَمَالُ الْقُوَّةِ الطَّلَبِيَّةِ الحبية فَإِنَّ السَّخَاءَ يَصْدُرُ عَنْ اللِّينِ وَالسُّهُولَةِ وَرُطُوبَةِ الْخُلُقِ كَمَا تَصْدُرُ الشَّجَاعَةُ عَنْ

(95/564)

الْقُوَّةِ وَالصُّعُوبَةِ وَيُبْسِ الْخُلُقِ فَالْقُوَّةُ الْغَضَبِيَّةُ هِيَ قُوَّةُ النَّصْرِ وَالْقُوَّةُ الشهوية قُوَّةُ الرِّزْقِ وَهُمَا الْمَذْكُورَانِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴾ وَالرِّزْقُ وَالنَّصْرُ مُقْتَرِنَانِ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَكَلَامِ النَّاسِ كَثِيرًا . وَأَمَّا الْفَضِيلَةُ الرَّابِعَةُ الَّتِي يُقَالُ لَهَا الْعَدَالَةُ فَهِيَ صِفَةٌ مُنْتَظِمَةٌ لِلثَّلَاثِ وَهُوَ الِاعْتِدَالُ فِيهَا وَهَذِهِ الثَّلَاثُ الْأَخِيرَاتُ هِيَ الْأَخْلَاقُ الْعَمَلِيَّةُ كَمَا جَاءَ مِنْ ﴿ حَدِيثِ سَعْدٍ لَمَّا قَالَ فِيهِ الْعَبْسِيُّ : إنَّهُ لَا يَقْسِمُ بِالسَّوِيَّةِ وَلَا يَعْدِلُ فِي الْقَضِيَّةِ وَلَا يَخْرُجُ فِي السَّرِيَّةِ ﴾ .

فَصْلٌ :

وَبِاعْتِبَارِ الْقُوَى الثَّلَاثِ كَانَتْ الْأُمَمُ الثَّلَاثُ : الْمُسْلِمُونَ وَالْيَهُودُ وَالنَّصَارَى فَإِنَّ الْمُسْلِمِينَ فِيهِمْ الْعَقْلُ وَالْعِلْمُ وَالِاعْتِدَالُ فِي الْأُمُورِ فَإِنَّ مُعْجِزَةَ نَبِيِّهِمْ هِيَ عِلْمُ اللَّهِ وَكَلَامُهُ ؛ وَهُمْ الْأُمَّةُ الْوَسَطُ . وَأَمَّا الْيَهُودُ فَأُضْعِفَتْ الْقُوَّةُ الشهوية فِيهِمْ حَتَّى حَرُمَ عَلَيْهِمْ مِنْ الْمَطَاعِمِ وَالْمَلَابِسِ مَا لَمْ يُحَرَّمْ عَلَى غَيْرِهِمْ وَأُمِرُوا مِنْ الشِّدَّةِ وَالْقُوَّةِ بِمَا أُمِرُوا بِهِ وَمَعَاصِيهِمْ غَالِبُهَا مِنْ بَابِ الْقَسْوَةِ وَالشِّدَّةِ لَا مِنْ بَابِ الشَّهْوَةِ

(96/564)

وَالنَّصَارَى أُضْعِفَتْ فِيهِمْ الْقُوَّةُ الْغَضَبِيَّةُ فَنُهُوا عَنْ الِانْتِقَامِ وَالِانْتِصَارِ وَلَمْ تَضْعُفْ فِيهِمْ الْقُوَّةُ الشهوية فَلَمْ يُحَرَّمْ عَلَيْهِمْ مِنْ الْمَطَاعِمِ مَا حُرِّمَ عَلَى مَنْ قَبْلَهُمْ بَلْ أُحِلَّ لَهُمْ بَعْضُ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْهِمْ وَظَهَرَ فِيهِمْ مِنْ الْأَكْلِ وَالشُّرْبِ وَالشَّهَوَاتِ مَا لَمْ يَظْهَرْ فِي الْيَهُودِ وَفِيهِمْ مِنْ الرِّقَّةِ وَالرَّأْفَةِ وَالرَّحْمَةِ مَا لَيْسَ فِي الْيَهُودِ فَغَالِبُ مَعَاصِيهِمْ مِنْ بَابِ الشَّهَوَاتِ لَا مِنْ بَابِ الْغَضَبِ وَغَالِبُ طَاعَاتِهِمْ مِنْ بَابِ النَّصْرِ لَا مِنْ بَابِ الرِّزْقِ . وَلَمَّا كَانَ فِي الصُّوفِيَّةِ وَالْفُقَهَاءِ عيسوية مَشْرُوعَةً أَوْ مُنْحَرِفَةً كَانَ فِيهِمْ مِنْ الشَّهَوَاتِ وَوَقَعَ فِيهِمْ مِنْ الْمَيْلِ إلَى النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ وَالْأَصْوَاتِ الْمُطْرِبَةِ مَا يُذَمُّونَ بِهِ وَلَمَّا كَانَ فِي الْفُقَهَاءِ موسوية مَشْرُوعَةً أَوْ مُنْحَرِفَةً كَانَ فِيهِمْ مِنْ الْغَضَبِ وَوَقَعَ فِيهِمْ مِنْ الْقَسْوَةِ وَالْكِبْرِ وَنَحْوِ ذَلِكَ مَا يُذَمُّونَ بِهِ .

فَصْلٌ :

جِنْسُ الْقُوَّةِ الشهوية الْحُبُّ ، وَجِنْسُ الْقُوَّةِ الْغَضَبِيَّةِ الْبُغْضُ وَالْغَضَبُ وَالْبُغْضُ مُتَّفِقَانِ فِي الِاشْتِقَاقِ الْأَكْبَرِ وَلِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ أَوْثَقُ عُرَى الْإِيمَانِ الْحُبُّ فِي اللَّهِ وَالْبُغْضُ فِي اللَّهِ ﴾ فَإِنَّ هَاتَيْنِ الْقُوَّتَيْنِ هُمَّا الْأَصْلُ وَقَالَ : ﴿ مَنْ أَحَبَّ لِلَّهِ وَأَبْغَضَ لِلَّهِ

(97/564)

وَأَعْطَى لِلَّهِ وَمَنَعَ لِلَّهِ فَقَدْ اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ ﴾ فَالْحُبُّ وَالْبُغْضُ هُمَا الْأَصْلُ وَالْعَطَاءُ عَنْ الْحُبِّ وَهُوَ السَّخَاءُ وَالْمَنْعُ عَنْ الْبُغْضِ وَهُوَ الشَّحَاحَةُ . فَأَمَّا الْغَضَبُ فَقَدْ يُقَالُ : هُوَ خُصُوصٌ فِي الْبُغْضِ وَهُوَ الشِّدَّةُ الَّتِي تَقُومُ فِي النَّفْسِ الَّتِي يَقْتَرِنُ بِهَا غَلَيَانُ دَمِ الْقَلْبِ لِطَلَبِ الِانْتِقَامِ وَهَذَا هُوَ الْغَضَبُ الْخَاصُّ وَلِهَذَا تَعْدِلُ طَائِفَةٌ مِنْ الْمُتَكَلِّمِينَ عَنْ مُقَابَلَةِ الشَّهْوَةِ بِالْغَضَبِ إلَى مُقَابَلَتِهَا بِالنَّفْرَةِ وَمَنْ قَابَلَ الشَّهْوَةَ بِالْغَضَبِ فَيَجِبُ أَنْ لَا يُرِيدَ الْغَضَبَ الْخَاصَّ فَإِنَّ نِسْبَةَ هَذَا إلَى النَّفْرَةِ نِسْبَةُ الطَّمَعِ إلَى الشَّهْوَةِ فَأَمَّا الْغَضَبُ الْعَامُّ فَهُوَ الْقُوَّةُ الدَّافِعَةُ الْبَغْضِيَةُ الْمُقَابِلَةُ لِلْقُوَّةِ الْجَاذِبَةِ الحبية .

فَصْلٌ :

فِعْلُ الْمَأْمُورِ بِهِ صَادِرٌ عَنْ الْقُوَّةِ الْإِرَادِيَّةِ الحبية الشهوية وَتَرْكُ الْمَنْهِيِّ عَنْهُ صَادِرٌ عَنْ الْقُوَّةِ

الكَرَاهِيَّةِ الْبُغْضِيَّةِ الْغَضَبِيَّةِ النفرية وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ صَادِرٌ عَنْ الْمَحَبَّةِ وَالْإِرَادَةِ وَالنَّهْيُ عَنْ الْمُنْكَرِ صَادِرٌ عَنْ الْبُغْضِ وَالْكَرَاهَةِ كَذَلِكَ التَّرْغِيبُ فِي الْمَعْرُوفِ وَالتَّرْهِيبُ عَنْ الْمُنْكَرِ وَالْحَضُّ عَلَى هَذَا وَالزَّجْرُ عَنْ هَذَا وَلِهَذَا لَا تَكُفُّ النُّفُوسُ عَنْ الظُّلْمِ إلَّا بِالْقُوَّةِ الْغَضَبِيَّةِ الدفعية وَبِذَلِكَ يَقُومُ الْعَدْلُ وَالْقِسْطُ فِي الْحُكْمِ وَالْقِسْمِ

(98/564)

وَغَيْرِ ذَلِكَ كَمَا أَنَّ الْإِحْسَانَ يَقُومُ بِالْقُوَّةِ الْجَذْبِيَّةِ الشهوية فَإِنَّ اندِفَاعَ الْمَكْرُوهِ بِدُونِ حُصُولِ الْمَحْبُوبِ عَدَمٌ ؛ إذْ لَا مَحْبُوبَ وَلَا مَكْرُوهَ وَحُصُولُ الْمَحْبُوبِ وَالْمَكْرُوهِ وُجُودٌ فَاسِدٌ إذْ قَدْ حَصَلَا مَعًا وَهُمَا مُتَقَابِلَانِ فِي التَّرْجِيحِ فَرُبَّمَا يَخْتَارُ بَعْضَ النُّفُوسِ هَذَا وَيَخْتَارُ بَعْضُهَا هَذَا وَهَذَا عِنْدَ التَّكَافُؤِ وَأَمَّا الْمَكْرُوهُ الْيَسِيرُ مَعَ الْمَحْبُوبِ الْكَثِيرِ فَيَتَرَجَّحُ فِيهِ الْوُجُودُ كَمَا أَنَّ الْمَكْرُوهَ الْكَثِيرَ مَعَ الْمَحْبُوبِ الْيَسِيرِ يَتَرَجَّحُ فِيهِ الْعَدَمُ . لَكِنْ لَمَّا كَانَ الْمُقْتَضِي لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْ الْمَحْبُوبِ وَالْمَكْرُوهِ الَّذِي هُوَ الْخَيْرُ وَالشَّرُّ مَوْجُودًا ؛ وَبِتَقْدِيرِ وُجُودِهِمَا يَحْصُلُ النَّصْرُ كَالرِّزْقِ مَعَ الْخَوْفِ صَارَ يَعْظُمُ فِي الشَّرْعِ وَالطَّبْعِ دَفْعُ الْمَكْرُوهِ . أَمَّا فِي الشَّرْعِ فَبِالتَّقْوَى فَإِنَّ اسْمَهَا فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَالْإِجْمَاعِ عَظِيمٌ وَالْعَاقِبَةُ لِأَهْلِهَا وَالثَّوَابُ لَهُمْ . وَأَمَّا فِي الطَّبْعِ فَتَعْظِيمُ النُّفُوسِ لِمَنْ نَصْرُهُمْ بِدَفْعِ الضَّرَرِ عَنْهُمْ مِنْ عَدُوٍّ أَوْ غَيْرِهِ فَإِنَّ أَهْلَ الرِّزْقِ مُعَظَّمُونَ

لِأَهْلِ النَّصْرِ أَكْثَرُ مِنْ تَعْظِيمِ أَهْلِ النَّصْرِ لِأَهْلِ الرِّزْقِ وَذَاكَ - وَاَللَّهُ أَعْلَمُ - لِأَنَّ النَّصْرَ بِلَا رِزْقٍ يَنْفَعُ فَإِنَّ الْأَسْبَابَ الْجَالِبَةَ لِلرِّزْقِ مَوْجُودَةٌ تَعْمَلُ عَمَلَهَا وَأَمَّا الرِّزْقُ بِلَا نَصْرٍ فَلَا يَنْفَعُ فَإِنَّ الْأَسْبَابَ النَّاصِرَةَ تَابِعَةٌ وَفِي هَذَا نَظَرٌ فَقَدْ يُقَالُ : هُمَا مُتَقَابِلَانِ فَإِنَّ أَهْلَ النَّصْرِ يُحِبُّونَ أَهْلَ الرِّزْقِ

(99/564)

أَكْثَرَ مِمَّا يُحِبُّ أَهْلُ الرِّزْقِ لِأَهْلِ النَّصْرِ فَإِنَّ الرِّزْقَ مَحْبُوبٌ وَالنَّصْرَ مُعَظَّمٌ .

(100/564)

وَقَدْ يُقَالُ : بَلْ النَّصْرُ أَعْظَمُ كَمَا تَقَدَّمَ فَإِنَّ انْدِفَاعَ الْمَكْرُوهِ مَحْبُوبٌ أَيْضًا وَهُوَ لَا يَحْصُلُ إلَّا بِقُوَّةِ الدَّفْعِ الَّتِي هِيَ أَقْوَى مِنْ قُوَّةِ الْجَذْبِ فَاخْتَصَّ النَّاصِرَ بِالتَّعْظِيمِ لِدَفْعِهِ الْمُعَارِضَ وَأَمَّا الرَّازِقُ فَلَا مُعَارِضَ لَهُ بَلْ لَهُ مُوَافِقٌ فَالنَّاصِرُ مَحْبُوبٌ مُعَظَّمٌ . وَقَدْ يُقَابَلُ هَذَا بِأَنْ يُقَالَ : وَفَوَاتُ الْمَحْبُوبِ مَكْرُوهٌ أَيْضًا وَالْمَحْبُوبُ لَا يَحْصُلُ إلَّا بِقُوَّةِ الْجَذْبِ وَلَا نُسَلِّمُ أَنَّ قُوَّةَ الدَّفْعِ أَقْوَى ؛ بَلْ قَدْ يَكُونُ الْجَذْبُ أَقْوَى ؛ بَلْ الْجَذْبُ فِي الْأَصْلِ أَقْوَى ؛ لِأَنَّ الْمَقْصُودَ بِالْقَصْدِ

الْأَوَّلِ وَالدَّفْعِ خَادِمٌ تَابِعٌ لَهُ وَكَمَا أَنَّ الدَّافِعَ دَفْعُ الْمُعَارِضِ فَالْجَاذِبُ حصل الْمُقْتَضِي وَتَرْجِيحُ الْمَانِعِ عَلَى الْمُقْتَضِي غَيْرُ حَقٍّ ؛ بَلْ الْمُقْتَضِي أَقْوَى بِالْقَوْلِ الْمُطْلَقِ فَإِنَّهُ لَا بُدَّ مِنْهُ فِي الْوُجُودِ . وَأَمَّا الْمَانِعُ فَإِنَّمَا يَحْتَاجُ إلَيْهِ عِنْدَ ثُبُوتِ الْمُعَارِضِ وَقَدْ لَا يَكُونُ مُعَارِضٌ فَالْمُقْتَضِي وَالْمَحَبَّةُ هُوَ الْأَصْلُ وَالْعُمْدَةُ فِي الْحَقِّ الْمَوْجُودِ وَالْحَقِّ الْمَقْصُودِ وَأَمَّا الْمَانِعُ وَالْبِغْضَةُ فَهُوَ الْفَرْعُ وَالتَّابِعُ . وَلِهَذَا كَتَبَ اللَّهُ فِي الْكِتَابِ الْمَوْضُوعِ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ : ﴿ إنَّ رَحْمَتِي تَغْلِبُ غَضَبِي ﴾ . وَلِهَذَا كَانَ الْخَيْرُ فِي أَسْمَاءِ اللَّهِ وَصِفَاتِهِ وَأَمَّا الشَّرُّ فَفِي الْأَفْعَالِ كَقَوْلِهِ : ﴿ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ ﴿ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴾ وَقَوْلُهُ : ﴿ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ

(101/564)

اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

(102/564)

يَبْقَى أَنْ يُقَالَ : فَلَمْ عَظُمَتْ التَّقْوَى ؟ فَيُقَالُ : إنَّهَا هِيَ تَحْفَظُ الْفِطْرَةَ وَتَمْنَعُ فَسَادَهَا وَاحْتَاجَ الْعَبْدُ إلَى رِعَايَتِهَا لِأَنَّ الْمَحَبَّةَ الْفِطْرِيَّةَ لَا تَحْتَاجُ إلَى مُحَرِّكٍ ؛ وَلِهَذَا كَانَ أَعْظَمُ مَا دَعَتْ إلَيْهِ الرُّسُلُ الْإِخْلَاصَ وَالنَّهْيَ عَنْ الْإِشْرَاكِ لِأَنَّ الْإِقْرَارَ الْفِطْرِيَّ حَاصِلٌ لِوُجُودِ مُقْتَضِيهِ وَإِنَّمَا يَحْتَاجُ إلَى إخْلَاصِهِ وَدَفْعِ الشِّرْكِ عَنْهُ ؛ وَلِهَذَا كَانَتْ حَاجَةُ النَّاسِ إلَى السِّيَاسَةِ الدَّافِعَةِ لِظُلْمِ بَعْضِهِمْ عَنْ بَعْضٍ وَالْجَالِبَةِ لِمَنْفَعَةِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا كَمَا أَوْجَبَ اللَّهُ الزَّكَاةَ النَّافِعَةَ وَحَرَّمَ الرِّبَا الضَّارَّ وَأَصْلُ الدِّينِ هُوَ عِبَادَةُ اللَّهِ : الَّذِي أَصْلُهُ الْحُبُّ وَالْإِنَابَةُ وَالْإِعْرَاضُ عَمَّا سِوَاهُ وَهُوَ الْفِطْرَةُ الَّتِي فَطَرَ عَلَيْهَا النَّاسَ . وَهَذِهِ الْمَحَبَّةُ الَّتِي هِيَ أَصْلُ الدِّينِ : انْحَرَفَ فِيهَا فَرِيقٌ مِنْ مُنْحَرِفَةِ الموسوية مِنْ الْفُقَهَاءِ وَالْمُتَكَلِّمِينَ حَتَّى أَنْكَرُوهَا وَزَعَمُوا أَنَّ مَحَبَّةَ اللَّهِ لَيْسَتْ إلَّا إرَادَةُ عِبَادَتِهِ ثُمَّ كَثِيرٌ مِنْهُمْ تَارِكُونَ لِلْعَمَلِ بِمَا أُمِرُوا بِهِ فَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَيَنْسَوْنَ أَنْفُسَهُمْ وَهَذَا فَاشٍ فِيهِمْ وَهُوَ عَدَمُ الْمَحَبَّةِ وَالْعَمَلِ وَفَرِيقٌ مِنْ مُنْحَرِفَةِ العيسوية مِنْ الصُّوفِيَّةِ والمتعبدين خَلَطُوهَا بِمَحَبَّةِ مَا يَكْرَهُهُ وَأَنْكَرُوا الْبُغْضَ وَالْكَرَاهِيَةَ فَلَمْ يُنْكِرُوا شَيْئًا وَلَمْ يُكَرِّهُوهُ أَوْ قَصَّرُوا فِي الْكَرَاهَةِ وَالْإِنْكَارِ وَأَدْخَلُوا فِيهَا الصُّوَرَ وَالْأَصْوَاتَ وَمَحَبَّةَ الْأَنْدَادِ . وَلِهَذَا كَانَ لغواة

(103/564)

الْأَوَّلِينَ وَصْفُ الْغَضَبِ وَاللَّعْنَةِ النَّاشِئُ عَنْ

الْبُغْضِ لِأَنَّ فِيهِمْ الْبُغْضَ دُونَ الْحُبِّ وَكَانَ لِضَلَالِ الْآخَرِينَ وَصْفُ الضَّلَالِ وَالْغُلُوِّ لِأَنَّ فِيهِمْ

مُحِبَّةً لِغَيْرِ مَعْبُودٍ صَحِيحٍ فَفِيهِمْ طَلَبٌ وَإِرَادَةٌ وَمَحَبَّةٌ وَلَكِنْ لَا إلَى مَطْلُوبٍ صَحِيحٍ وَلَا مُرَادٍ

صَحِيحٍ وَلَا مَحْبُوبٍ صَحِيحٍ بَلْ قَدْ خَلَطُوا وَغَلَوْا وَأَشْرَكُوهُ فَفِيهِمْ مَحَبَّةُ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ وَهُوَ

وُجُودُ الْمَحْبُوبِ وَالْمَكْرُوهِ كَمَا فِي الْآخَرِينَ بُغْضُ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ وَهُوَ دَفْعُ الْمَحْبُوبِ

وَالْمَكْرُوهِ وَاَللَّهُ سُبْحَانَهُ يَهْدِينَا صِرَاطَهُ الْمُسْتَقِيمَ . فَيُحْمَدُ مِنْ هَؤُلَاءِ مَحَبَّةُ الْحَقِّ

وَالِاعْتِرَافُ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ بُغْضُ الْبَاطِلِ وَإِنْكَارُهُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مجموع الفتاوى حـ

15صـ 428.439 ﴾

(104/564)

قوله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا (72) وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا

بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا (73) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا

وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا (74) أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ

فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا (75) خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (76) قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ

رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا (77) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما وصف عباده سبحانه بأنهم تحلوا بأصول الفضائل ، وتخلوا عن أمهات الرذائل ، ورغب التوبة ، لأن الإنسان لعجزه لا ينفك عن النقص ، وكان قد مدحهم بعد الأولى من صفاتهم بالحلم عن الجهل مدحهم قبل الأخرى من أمداحهم وعقب تركهم الزنى بالإعراض أصلاً عن اللغو الذي هو أعظم مقدمات الزنى فقال : ﴿ والذين لا يشهدون ﴾ أي يحضرون انحرافاً مع الهوى كما تفعل النار التي الشيطان منها ﴿ الزور ﴾ أي القول المنحرف عن الصدق كذباً كان أو مقارباً له فضلاً عن أن يتفوهوا به ويقروا عليه ؛ قال ابن جرير : وأصل الزور تحسين الشيء ووصفه بخلاف صفته حتى يخيل إلى من يسمعه أو يراه أنه بخلاف ما هو به فهو تمويه الباطل بما يوهم أنه حق ، والشرك قد يدخل في ذلك لأنه محسن لأهله حتى ظنوا أنه حق وهو باطل ، ويدخل فيه الغنا لأنه أيضاً مما يحسن بترجيع الصوت حتى يستحلي سامعه سماعه ، والكذب أيضاً يدخل فيه بتحسين صاحبه إياه حتى يظن أنه حق .

وعطف عليه ما هو أعم منه فقال : ﴿ وإذا مروا باللغو ﴾ أي الذي ينبغي أن يطرح ويبطل سواء كان من وادي الكذب أو العبث الذي لا يجدي ؛ قال ابن جرير : وهو في كلام العرب كل كلام أو فعل باطل لا حقيقة له ولا أصل ، أو ما يستقبح .

﴿ مروا كراماً ﴾ أي آمرين بالمعروف ، ناهين عن المنكر ، إن تعلق بهم أمر أو نهي ، بإشارة أو عبارة ، على حسب ما يرونه نافعاً ، أو معرضين إن كان لا يصلح شيء من ذلك لإثارة مفسدة أعظم من ذلك أو نحوه ، رحمة لأنفسهم وغيرهم ، وأما حضورهم لذلك وسكوتهم فلا ، لأن النظارة إلى كل ما لم تسوغه الشريعة هم شركاء فاعليه في الإثم لأن حضورهم ونظرهم دليل الرضا به ، وسبب لوجوده والزيادة فيه .

ولما ذكر وصفهم الذي فاقوا به ، أشار إلى وصف الجهلة الذي سفلوا به ، فقال : ﴿ والذين إذا ذكروا ﴾ أي ذكرهم غيرهم كائناً من كان ، لأنهم يعرفون الحق بنفسه لا بقائله ﴿ بآيات ربهم ﴾ أي الذي وفقهم لتذكر إحسانه إليهم في حسن تربيته لهم بالاعتبار بالآيات المرئية والمسموعة ﴿ لم يخروا ﴾ أي لم يفعلوا فعل الساقطين المستعلين ﴿ عليها ﴾ الساترين لها ؛ ثم زاد في بيان إعراضهم وصدهم عنها فقال منبهاً على أن المنفي القيد لا المقيد ، وهو الخرور ، بل هو موجود غير منفي بصفة السمع والبصر : ﴿ صماً وعمياناً ﴾ أي كما يفعل المنافقون والكفار في الإقبال عليها سماعاً واعتباراً ، والإعراض عنها تغطية لما عرفوا من حقيتها ، وستراً لما رأوا من نورها ، فعل من لا يسمع ولا يبصر كما تقدم عن أبي جهل وأبي

سفيان والأخنس بن شريق ، وذلك وصف لعباد الرحمن بفعل ضد هذا ، أي أنهم يسقطون عند سماعها ويبكون عليها ، سقوط سامع منتفع بسمعه ، بصير منتفع ببصره وبصيرته ، سجداً يبكون كما تقدم في أول أوصافهم وإن لم يبلغوا أعلى الدرجات البصيرة - بما أشارت إليه المبالغة بزيادة النون جمع العمى .

ولما ذكر هذه الخصلة المثمرة لما يلي الخلصة الأولى ، ختم بما ينتج الصفة الأولى .

(106/564)

فقال مؤذناً بأن إمامة الدين ينبغي أن تطلب ويرغب فيها : ﴿ والذين يقولون ﴾ علماً منهم بعد اتصافهم بجميع ما مضى أنهم أهل للإمامة : ﴿ ربنا هب لنا من أزواجنا ﴾ اللاتي قرنتها بنا كما فعلت لنبيك ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فمدحت زوجته في كلامك القديم ، وجعلت مدحها يتلى على تعاقب الأزمان والسنين ﴿ وذرياتنا قرة ﴾ ولما كان المتقون - الذين يفعلون الطاعة ويسرون بها - قليلاً في جنب العاصين ، أتى بجمع القلة ونكر فقال : ﴿ أعين ﴾ أي من الأعمال أو من العمال يأتمون بنا ، لأن الأقربين أولى بالمعروف ، ولا شيء أسر للمؤمن ولا أقر لعينه من أن يرى حبيبه يطيع الله ، فما طلبوا إلا أن يطاع الله فتقر أعينهم ، ف " من " إما تكون مثلها في : رأيت منك أسداً ، وإما أن تكون على بابها ، وتكون القرة

هي الأعمال ، أي هب لنا منهم أعمالاً صالحة فجعلوا أعمال من يعز عليهم هبة لهم ، وأصل القرة البرد لأن العرب تتأذى بالحر وتستروح إلى البرد ، فجعل ذلك كناية عن السرور ﴿ واجعلنا ﴾ أي إيانا وإياهم ﴿ للمتقين ﴾ أي عامة من الأقارب والأجانب .

ولما كان المطلوب من المسلمين الاجتماع في الطاعة حتى تكون الكلمة في المتابعة واحدة ، أشاروا إلى ذلك بتوحيد الإمام وإن كان المراد الجنس ، فقالوا : ﴿ إماماً ﴾ أي فنكون علماء مخبتين متواضعين كما هو شأن إمامة التقوى في إفادة التواضع والسكينة ، لنحوز الأجر العظيم ، إذ الإنسان له أجره وأجر من اهتدى به فعمل بعمله

" من سن سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة " وعكسه .

ولما وصف سبحانه عباده المؤمنين بضد أوصاف الكافرين من الرفق والسكينة ، والتواضع والحلم والطمأنينة والشكر لربهم والرغبة إليه والرهبة منه .

وقال الرازي : فوصف مشيهم خطابهم وانتصابهم له ودعاءهم ونفقاتهم ونزاهتهم وتيقظهم وانتباههم وصدقهم ومحبتهم ونصحهم .

(107/564)

تشوف السامع إلى ما لهم عنده بعد المعرفة بما للكافرين ، فابتدأ الخبر عن ذلك بتعظيم شأنهم فقال : ﴿ أولئك ﴾ أي العالو الرتبة ، العظيمو المنزلة .

ولما كان المقصود إنما هو الجزاء ، بني للمفعول قوله : ﴿ يجزون ﴾ أي فضلاً من الله على ما وفقهم له من هذه الأعمال الزاكية ، والأحوال الصافية ﴿ الغرفة ﴾ أي التي هي لعلوها واتساعها وطيبها لا غرفة غيرها ، لأنها منتهى الطلب ، وغاية الأرب ، لا يبغون عنها حولاً ، ولا يريدون بها بدلاً ، وهي كل بناء عال مرتفع ، والظاهر أن المراد بها الجنس .

ولما كانت الغُرَب في غابة التعب لمنافاتها لشهوات النفس وهواها وطبع البدن ، رغب فيها بأن جعلها سبباً لهذا الجزاء فقال : ﴿ بما صبروا ﴾ أي أوقعوا الصبر على أمر ربهم ومرارة غربتهم بين الجاهلين في أفعالهم وأقوالهم وأحوالهم ، وغير ذلك من معاني جلالهم .

ولما كان المنزل لا يطيب إلا بالكرامة والسلامة ، قال : ﴿ ويلقون ﴾ أي يجعلهم الله لاقين بأيسر أمر ؛ وهلى قراءة حمزة والكسائي وأبي بكر عن عاصم بالتخفيف والبناء للفاعل والأمر واضح ﴿ فيها تحية ﴾ أي دعاء بالحياة من بعضهم لبعض ، ومن الملائكة الذين لا يرد دعاؤهم ، ولا يمترى في إخبارهم ، لأنهم عن الله ينطقون ، وذلك على وجه الإكرام والإعظام مكان ما أهانهم عباد الشيطان ﴿ وسلاماً ﴾ أي من الله ومن الملائكة وغيرهم ، وسلامة من كل آفة مكان ما أصابوهم بالمصائب .

ولما كان هذا ناطقاً بدوام حياتهم سالمين بصريحه ، وبعظيم شرفهم بلازمه ، دل على أنهم

لا يبرحون عنه بقوله : ﴿ خالدين فيها ﴾ أي الغرفة مكان ما أزعجوهم من ديارهم حتى هاجروا ؛ ودل على علو أمرها ، وعظيم قدرها ، بإبراز مدحها في مظهر التعجب فقال : ﴿ حسنت ﴾ أي ما أحسنها ﴿ مستقراً ﴾ أي موضع استقرار ﴿ ومقاماً ﴾ أي موضع إقامة .

(108/564)

ولما ثبت أمر الرحمانية ، فظهر أمر الرحمن وما عليه عباده من الدعاء الذي هو الخضوع والإخلاص ، وختم أوصافهم الحسنة بالدعاء حقيقة الدال على الإخلاص في الخضوع ، وذكر حسن جزائهم وكريم منقلبهم ، أمر النذير أن يقول لعباد الشيطان الذين تكبروا عن السجود للرحمن ، وعن الاعتراف والإيمان ، ليرجعوا عن العصيان ، ويزداد المؤمنون في الطاعات والإيمان : إن ربه لا يعتد بمن لا يدعوه ، فمن ترك دعاءه فليرتقب العذاب الدائم ، فقال : ﴿ قل ما يعبأ ﴾ أي يعتد ويبالي ويجعلكم ممن يسد به في موضع التعبئة الآن – على أن " ما " نافية ﴿ بكم ﴾ أي أيها الكافرون ﴿ ربي ﴾ أي المحسن إليّ وإليكم برحمانيته ، المخصص لي بالإحسان برحيميته ، وإنما خصه بالإضافة لاعترافه دونهم ﴿ لولا دعاؤكم ﴾ أي نداؤكم له في وقت شدائدكم الذي أنتم تبادرون إليه فيه خضوعاً له به

لينجيكم ، فإذا فعلتم ذلك أنقذكم مما أنتم فيه ، معاملة لكم معاملة من يبالي بالإنسان ويعتد به ويراعيه ، ولولا دعاؤه إياكم لتعبدوه رحمة لكم لتزكوا أنفسكم وتصفّوا أعمالكم ولا تكونوا حطباً للنار ﴿ فقد كذبتم ﴾ أي فتسبب عن ذلك لسوء طباعكم ضد ما كان ينبغي لكم من الشكر والخير بأن عقبتم بالإنجاء وحققتم وقرنتم التكذيب بالرحمن بعد رحمتكم بالبيان مع ضعفكم وعجزكم ، وتركتم ذلك الدعاء له وعبدتم الأوثان ، وادعيتم له الولد وغيره من البهتان ، أو ما يعتد بكم شيئاً من الاعتداد لولا دعاؤكم إياه وقت الشدائد ، فهو يعتد بكم لأجله نوع اعتداد ، وهو المدة التي ضربها لكم في الدنيا لا غيرها ، بسبب أنكم قد كذبتم ، أو ما يصنع بكم لولا دعاؤه إياكم إلى طاعته ، لأنكم قد كذبتم ، فكنتم شراً من البهائم ، فدعاكم فتسبب عن دعائه إياكم أنكم فاجأتم الداعي بالتكذيب ، والحاصل أنه ليس فيكم الآن ما يصلح أن يعتد بكم لأجله إلا الدعاء ، لأنكم مكذبون ، وإنما قلت : " الآن " لأن " ما " لا تدخل إلا على مضارع بمعنى الحال ، عكس " لا

" ﴿ فسوف ﴾ أي فتسبب عن تكذيبكم أنه يجازيكم على ذلك ، ولكنه مع قوته وقدرته واختياره لا يعاجلكم ، بل ﴿ يكون ﴾ جزاء هذا التكذيب عند انقضاء ما ضربه لكم

من الآجال ، وكل بعيد عندكم قريب عنده ، وكل آتٍ قريب ، فتهيؤوا واعتدوا لذلك اليوم ﴿ لزاماً ﴾ أي لازماً لكم لزوماً عظيماً لا انفكاك له عنكم بحال ، وهذا تنبيه على ضعفهم وعجزهم ، وذلهم وقهرهم ، لأن الملزوم لا يكون إلا كذلك ، فأسرهم يوم بدر من أفراد هذا التهديد ، فقد انطبق آخر السورة على أولها بالإنذار بالفرقان ، لمن أنكر حقيقة الرحمن - والله ولي التوفيق بالإيمان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 340 . 343 ﴾

(110/564)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا (72) ﴾

الصفة السابعة

فيه مسائل :

المسألة الأولى :

الزور يحتمل إقامة الشهادة الباطلة ، ويكون المعنى أنهم لا يشهدون شهادة الزور فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه ويحتمل حضور مواضع الكذب كقوله تعالى :

﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حتى يَخُوضُواْ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِ ﴾ [الأنعام : 68] ويحتمل حضور كل موضع يجري فيه ما لا ينبغي ويدخل فيه أعياد المشركين ومجامع الفساق ، لأن من خالط أهل الشر ونظر إلى أفعالهم وحضر مجامعهم فقد شاركهم في تلك المعصية ، لأن الحضور والنظر دليل الرضا به ، بل هو سبب لوجوده والزيادة فيه ، لأن الذي حملهم على فعله استحسان النظارة ورغبتهم في النظر إليه ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما المراد مجالس الزور التي يقولون فيها الزور على الله تعالى وعلى رسوله ، وقال محمد بن الحنفية الزور الغناء ، واعلم أن كل هذه الوجوه محتملة ولكن استعماله في الكذب أكثر .

المسألة الثانية :

الأصح أن اللغو كل ما يجب أن يلغى ويترك ، ومنهم من فسر اللغو بكل ما ليس بطاعة ، وهو ضعيف لأن المباحات لا تعد لغواً فقوله : ﴿ وَإِذَا مَرُّواْ بِاللَّغْوِ ﴾ أي بأهل اللغو .

المسألة الثالثة :

(111/564)

لا شبهة في أن قوله : ﴿ مَرُّواْ كِراماً ﴾ معناه أنهم يكرمون أنفسهم عن مثل حال اللغو وإكرامهم لها لا يكون إلا بالإعراض وبالإنكار وبترك المعاونة والمساعدة ، ويدخل فيه

الشرك واللغو في القرآن وشتم الرسول ، والخوض فيما لا ينبغي وأصل الكلمة من قولهم ناقة كريمة إذا كانت تعرض عند الحلب تكرماً ، كأنها لا تبالي بما يحلب منها للغزارة ، فاستعير ذلك للصفح عن الذنب ، وقال الليث يقال تكرم فلان عما يشينه إذا تنزه وأكرم نفسه عنه ونظير هذه الآية قوله : ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ اللغو أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَا أعمالنا وَلَكُمْ أعمالكم سلام عَلَيْكُمْ لاَ نَبْتَغِى الجاهلين ﴾ [القصص : 55] وعن الحسن لم تسفههم المعاصي وقيل إذا سمعوا من الكفار الشتم والأذى أعرضوا ، وقيل إذا ذكر النكاح كنوا عنه .

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا (73) ﴾

الصفة الثامنة

قال صاحب "الكشاف" قوله : ﴿ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمّاً وَعُمْيَاناً ﴾ ليس بنفي للخرور ، وإنما هو إثبات له ونفي للصمم والعمى كما يقال لا يلقاني زيد مسلماً ، هو نفي للسلام لا للقاء ، والمعنى أنهم إذا ذكروا بها أكبوا عليها حرصاً على استماعها ، وأقبلوا على المذكر بها ، وهم في إكبابهم عليها سامعون بآذان واعية ، مبصرون بعيون راعية ، لا كالذين يذكرون بها فتراهم مكبين عليها مقبلين على من يذكر بها مظهرين الحرص الشديد على استماعها وهم كالصم والعميان حيث لا (يفهمونها ولا يبصرون) ما فيها كالمنافقين .

﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا (74) ﴾

الصفة التاسعة

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

قرأ نافع وابن كثير وابن عامر وحفص عن عاصم ﴿ ذرياتنا ﴾ بألف الجمع وحذفها الباقون على التوحيد والذرية تكون واحداً وجمعاً .

(112/564)

المسألة الثانية :

أنه لا شبهة أن المراد أن يكون قرة أعين لهم في الدين لا في الأمور الدنيوية من المال والجمال ثم ذكروا فيه وجهان : أحدهما : أنهم سألوا أزواجاً وذرية في الدنيا يشاركونهم فأحبوا أن يكونوا معهم في التمسك بطاعة الله فيقوى طمعهم في أن يحصلوا معهم في الجنة فيتكامل سرورهم في الدنيا بهذا الطمع وفي الآخرة عند حصول الثواب والثاني : أنهم سألوا أن يلحق الله أزواجهم وذريتهم بهم في الجنة ليتم سرورهم بهم .

المسألة الثالثة :

فإن قيل : (من) في قوله : ﴿ لَنَا مِنْ أزواجنا ﴾ ما هي ؟ قلنا : يحتمل أن تكون بيانية كأنه

قيل : هب لنا قرة أعين ثم بينت القرة وفسرت بقوله : ﴿ مِنْ أزواجنا ﴾ وهو من قولهم : رأيت منك أسداً أي أنت أسد ، وأن تكون ابتدائية على معنى هب لنا من جهتهم ما تقر به عيوننا من طاعة وصلاح ، فإن قيل لم قال ﴿ قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ فنكر وقلل ؟ قلنا أما التنكير فلأجل تنكير القرة لأن المضاف لا سبيل إلى تنكيره إلا بتنكير المضاف إليه كأنه قال : هب لنا منهم سروراً وفرحاً وإنما قال (أعين) دون عيون لأنه أراد أعين المتقين وهي قليلة بالإضافة إلى عيون غيرهم ، قال تعالى : ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشكور ﴾ [سبأ : 13] .

المسألة الرابعة :

قال الزجاج أقر الله عينك أي صادف فؤادك ما يحبه ، وقال المفضل في قرة العين ثلاثة أقوال : أحدها : برد دمعتها وهي التي تكون مع الضحك والسرور ودمعة الحزن حارة والثاني : نومها لأنه يكون مع ذهاب الحزن والوجع والثالث : حضور الرضا .

المسألة الخامسة :

(113/564)

قوله : ﴿ واجعلنا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً ﴾ الأقرب أنهم سألوا الله تعالى أن يبلغهم في الطاعة المبلغ الذي يشار إليهم ويقتدى بهم ، قال بعضهم في الآية ما يدل على أن الرياسة في الدين يجب أن

تطلب ويرغب فيها قال الخليل عليه الصلاة والسلام : ﴿ واجعل لّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الأخرين ﴾ [الشعراء : 84] وقيل نزلت هذه الآيات في العشرة المبشرين بالجنة .

المسألة السادسة :

احتج أصحابنا بهذه الآية على أن فعل العبد مخلوق لله تعالى ، قالوا لأن الإمامة في الدين لا تكون إلا بالعلم والعمل ، فدل على أن العلم والعمل إنما يكون بجعل الله تعالى وخلقه ، وقال القاضي المراد من السؤال الألطاف التي إذا كثرت صاروا مختارين لهذه الأشياء فيصيرون أئمة والجواب : أن تلك الألطاف مفعولة لا محالة فيكون سؤالها عبثاً .

المسألة السابعة :

قال الفراء : قال (إماماً) ، ولم يقل أئمة كما قال للاثنين ﴿ إِنّي رَسُولُ رَبّ العالمين ﴾ [الزخرف : 46] ويجوز أن يكون المعنى اجعل كل واحد منا إماماً كما قال : ﴿ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ﴾ [غافر : 67] وقال الأخفش : الإمام جمع واحده آم كصائم وصيام .

وقال القفال وعندي أن الإمام إذا ذهب به مذهب الاسم وحد كأنه قيل اجعلنا حجة للمتقين ، ومثله البينة يقال هؤلاء بينة فلان .

واعلم أنه سبحانه وتعالى لما عدد صفات المتقين المخلصين بين بعد ذلك أنواع إحسانه إليهم وهي مجموعة في أمرين المنافع والتعظيم .

﴿ أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا (75) ﴾

أما المنافع : فهي قوله :

والمراد أولئك يجزون الغرفات والدليل عليه قوله : ﴿ وَهُمْ فِى الغرفات ءامِنُونَ ﴾ [سبأ : 37] وقال : ﴿ لَهُمْ غُرَفٌ مّن فَوْقِهَا غُرَفٌ ﴾ [الزمر : 20] والغرفة في اللغة العلية وكل بناء عال فهو غرفة والمراد به الدرجات العالية .

(114/564)

وقال المفسرون الغرفة اسم الجنة ، فالمعنى يجزون الجنة وهي جنات كثيرة ، وقرأ بعضهم : (أولئك يجزون في الغرفة) وقوله : ﴿ بِمَا صَبَرُواْ ﴾ فيه بحثان :

البحث الأول : احتج بالآية من ذهب إلى أن الجنة بالاستحقاق فقال الباء في قوله : ﴿ بِمَا صَبَرُواْ ﴾ تدل على ذلك ولو كان حصولها بالوعد لما صدق ذلك .

البحث الثاني : ذكر الصبر ولم يذكر المصبور عنه ، ليعم كل نوع فيدخل فيه صبرهم على مشاق التفكر والاستدلال في معرفة الله تعالى ، وعلى مشاق الطاعات ، وعلى مشاق ترك الشهوات وعلى مشاق أذى المشركين وعلى مشاق الجهاد والفقر ورياضة النفس فلا وجه لقول من يقول المراد الصبر على الفقر خاصة ، لأن هذه الصفات إذا حصلت مع الغنى استحق من يختص بها الجنة كما يستحقه بالفقر .

وثانيهما التعظيم : وهو قوله تعالى :

﴿ ويلقون فيها تحية وسلاماً ﴾ :

قرىء ﴿يُلْقُون﴾ كقوله : ﴿ ولقاهم نَضْرَةً وَسُرُوراً ﴾ [الإنسان : 11] و ﴿يُلْقُون﴾ كقوله : ﴿يَلْقَ أَثَاماً ﴾ [الفرقان : 68] ، والتحية الدعاء بالتعمير والسلام الدعاء بالسلامة ، فيرجع حاصل التحية إلى كون نعيم الجنة باقياً غير منقطع ، ويرجع السلام إلى كون ذلك النعيم خالصاً عن شوائب الضرر ، ثم هذه التحية والسلام يمكن أن يكون من الله تعالى لقوله : ﴿ سَلاَمٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾ [يس : 58] ويمكن أن يكون من الملائكة لقوله : ﴿ والملائكة يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِّن كُلِّ بَابٍ * سلام عَلَيْكُمُ ﴾ [الرعد : 23 ، 24] ويمكن أن يكون من بعضهم على بعض .

أما قوله :

﴿ خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (76) ﴾

(115/564)

فالمراد أنه سبحانه لما وعد بالمنافع أولاً وبالتعظيم ثانياً ، بين أن من صفتهما الدوام وهو المراد من قوله : ﴿ خالدين فِيهَا ﴾ ومن صفتهما الخلوص أيضاً وهو المراد من قوله :

﴿ حَسُنَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً ﴾ وهذا في مقابلة قوله : ﴿ سَاءتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً ﴾ أي ما أسوأ ذلك وما أحسن هذا .

أما قوله :

﴿ قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا (77) ﴾

فاعلم أنه سبحانه لما شرح صفات المتقين ، وشرح حال ثوابهم أمر رسوله أن يقول : ﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّى لَوْلاَ دُعَاؤُكُمْ ﴾ فدل بذلك على أنه تعالى غني عن عبادتهم ، وأنه تعالى إنما كلفهم لينتفعوا بطاعتهم وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

قال الخليل ما أعبأ بفلان أي ما أصنع به كأنه (يستقله) ويستحقره ، وقال أبو عبيدة ما أعبأ به أي وجوده وعدمه عندي سواء ، وقال الزجاج معناه أي لا وزن لكم عند ربكم ، والعبء في اللغة الثقل ، وقال أبو عمرو بن العلاء ما يبالي بكم ربي .

المسألة الثانية :

في ﴿ مَا ﴾ قولان أحدهما أنها متضمنة لمعنى الاستفهام وهي في محل النصب وهي عبارة عن المصدر ، كأنه قيل وأي عبء يعبأ بكم لولا دعاؤكم ، والثاني أن تكون ما نافية .

المسألة الثالثة :

ذكروا في قوله : ﴿ لَوْلاَ دُعَاؤُكُمْ ﴾ وجهين : أحدهما : لولا دعاؤه إياكم إلى الدين والطاعة والدعاء على هذا مصدر مضاف إلى المفعول وثانيهما : أن الدعاء مضاف إلى الفاعل وعلى هذا التقدير ذكروا فيه وجوهاً : أحدها : لولا دعاؤكم لولا إيمانكم وثانيها : لولا عبادتكم وثالثها : لولا دعاؤكم إياه في الشدائد كقوله : ﴿ فَإِذَا رَكِبُواْ فِى الفلك دَعَوُاْ الله ﴾ [العنكبوت : 65] ورابعها : دعاؤكم يعني لولا شكركم له على إحسانه لقوله : ﴿ مَّا يَفْعَلُ الله بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ ﴾ [النساء : 147] وخامسها : ما خلقتكم وبي إليكم حاجة إلا أن تسألوني فأعطيكم وتستغفروني فأغفر لكم .

أما قوله : ﴿ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ ﴾ فالمعنى أني إذا أعلمتكم أن حكمي أني لا أعتد بعبادي إلا لعبادتهم فقد خالفتم بتكذيبكم حكمي فسوف يلزمكم أثر تكذيبكم وهو عقاب الآخرة ، ونظيره أن يقول الملك لمن استعصى عليه : إن من عادتي أن أحسن إلى من يطيعني ، وقد عصيت فسوف ترى ما أحل بك بسبب عصيانك .

فإن قيل إلى من يتوجه هذا الخطاب ؟ قلنا إلى الناس على الإطلاق ، ومنهم (مؤمنون) عابدون ومكذبون عاصون ، فخوطبوا بما وجد في جنسهم من العبادة والتكذيب ، وقرىء (فقد كذب الكافرون) (فسوف) يكون العذاب لزاماً ، وقرىء ﴿ لِزَاماً ﴾ بالفتح بمعنى اللزوم كالثبات والثبوت ، والوجه أن ترك اسم كان غير منطوق به بعد ما علم

أنه مما توعد به لأجل الإبهام ويتناول ما لا يحيط به الوصف ، ثم قيل هذا العذاب في الآخرة ، وقيل كان يوم بدر وهو قول مجاهد رحمه الله ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 24 صـ 98.102 ﴾

(117/564)

وقال الجصاص :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ ﴾ .

عَنْ أَبِي حَنِيفَةَ : (الزُّورُ الْغِنَاءُ) .

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ ﴾ قَالَ : (يَشْتَرِي الْمُغَنِّيَةَ) .

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ مِثْلُهُ .

وَعَنْ مُجَاهِدٍ قَالَ : ﴿ وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ ﴾ قَالَ : (الْغِنَاءُ وَكُلُّ لَعِبٍ وَلَهْوٍ) .

وَرَوَى ابْنُ أَبِي لَيْلَى عَنْ عَطَاءٍ عَنْ جَابِرٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ نُهِيت عَنْ صَوْتَيْنِ أَحْمَقَيْنِ فَاجِرَيْنِ صَوْتٍ عِنْدَ مُصِيبَةٍ خَمْشِ وُجُوهٍ وَشَقِّ جُيُوبٍ وَرَنَّةِ

شَيْطَانٍ .

وَصَوْتٍ عِنْدَ نَغْمَةِ لَهْوٍ وَلَعِبٍ وَمَزَامِيرِ شَيْطَانٍ ﴾ وَرَوَى عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ زَحْرٍ عَنْ بَكْرِ بْنِ سَوَادَةَ عَنْ قَيْسِ بْنِ سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ إنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَيَّ الْخَمْرَ وَالْكُوبَةَ وَالْغِنَاءَ .

﴾ قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَنَفِيَّةِ أَيْضًا فِي قَوْلِهِ : ﴿ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ ﴾ (أَنْ لَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَك بِهِ عِلْمٌ إنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا) .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : يَحْتَمِلُ أَنْ يُرِيدَ بِهِ الْغِنَاءَ عَلَى مَا تَأَوَّلُوهُ عَلَيْهِ ، وَيَحْتَمِلُ أَيْضًا الْقَوْلَ بِمَا لَا عِلْمَ لِلْقَائِلِ بِهِ ؛ وَهُوَ عَلَى الْأَمْرَيْنِ لِعُمُومِ اللَّفْظِ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴾ قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَمُجَاهِدٌ : (إذَا أُوذُوا مَرُّوا كِرَامًا صَفَحُوا) .

(118/564)

وَرَوَى أَبُو مَخْزُومٍ عَنْ سِنَانٍ : ﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴾ قَالَ : (إذَا مَرُّوا بِالرَّفَثِ كَنَوْا) .

وَقَالَ الْحَسَنُ : (اللَّغْوُ كُلُّ الْمَعَاصِي) .

قَالَ السُّدِّيُّ : هِيَ مَكِّيَّةٌ .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : يَعْنِي أَنَّهُ قَبْلَ الْأَمْرِ بِقِتَالِ الْمُشْرِكِينَ .

قَوْله تَعَالَى : ﴿ قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ قَالَ الْحَسَنُ : (قُرَّةُ الْأَعْيُنِ فِي الدُّنْيَا وَهُوَ أَنْ يَرَى الْعَبْدُ مِنْ زَوْجَتِهِ وَمِنْ أَخِيهِ طَاعَةَ اللَّهِ تَعَالَى) وَقَالَ : (وَاَللَّهِ مَا شَيْءٌ أَقَرُّ لِعَيْنِ الْمُسْلِمِ مِنْ أَنْ يَرَى وَلَدَهُ أَوْ وَالِدَهُ أَوْ وَلَدَ وَلَدِهِ أَوْ أَخَاهُ أَوْ حَمِيمًا مُطِيعًا لِلَّهِ تَعَالَى) .

وَعَنْ سَلَمَةَ بْنِ كُهَيْلٍ : (أَقَرَّ بِهِمْ عَيْنًا أَنْ يُطِيعُوك) .

وَرَوَى أَبُو أُسَامَةَ عَنْ الْأَحْوَصِ بْنِ حَكِيمٍ عَنْ أَبِي الزاهرية عَنْ جُبَيْرِ بْنِ نُفَيْرٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ مَنْ رُزِقَ إيمَانًا وَحُسْنَ خُلُقٍ فَذَاكَ إمَامُ الْمُتَّقِينَ ﴾ .

وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَالْحَسَنُ : ﴿ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إمَامًا ﴾ (نَأْتَمُّ بِمَنْ قَبْلَنَا حَتَّى يَأْتَمَّ بِنَا مَنْ بَعْدَنَا) .

وَقَوْله تَعَالَى : ﴿ قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ : مَا يَصْنَعُ بِكُمْ رَبِّي وَهُوَ لَا يَحْتَاجُ إلَيْكُمْ لَوْلَا دُعَاؤُهُ إيَّاكُمْ إلَى طَاعَتِهِ لِتَنْتَفِعُوا أَنْتُمْ بِذَلِكَ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾ . بتصرف يسير .

(119/564)

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴾ .

فِيهَا ثَلَاثُ مَسَائِلَ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : قَوْلُهُ : ﴿ يَشْهَدُونَ الزُّورَ ﴾ فِيهِ سِتَّةُ أَقْوَالٍ : الْأَوَّلُ : الشِّرْكُ .

الثَّانِي : الْكَذِبُ .

الثَّالِثُ : أَعْيَادُ أَهْلِ الذِّمَّةِ .

الرَّابِعُ : الْغِنَاءُ .

الْخَامِسُ : لَعِبٌ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ يُسَمَّى بِالزُّورِ ؛ قَالَ عِكْرِمَةُ .

السَّادِسُ : أَنَّهُ الْمَجْلِسُ الَّذِي يُشْتَمُ بِهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : أَمَّا الْقَوْلُ بِأَنَّهُ مَجْلِسٌ يُشْتَمُ فِيهِ النَّبِيُّ فَهُوَ الْقَوْلُ الْأَوَّلُ أَنَّهُ الشِّرْكُ ؛ لِأَنَّ شَتْمَ النَّبِيِّ شِرْكٌ ، وَالْجُلُوسُ مَعَ مَنْ يَشْتُمُهُ مِنْ غَيْرِ تَغْيِيرٍ وَلَا قَتْلٍ لَهُ شِرْكٌ .

وَأَمَّا الْقَوْلُ بِأَنَّهُ الْكَذِبُ فَهُوَ الصَّحِيحُ ؛ لِأَنَّ كُلَّ ذَلِكَ إِلَى الْكَذِبِ يَرْجِعُ .

وَأَمَّا مَنْ قَالَ : إِنَّهُ أَعْيَادُ أَهْلِ الذِّمَّةِ فَإِنَّ فِصْحَ النَّصَارَى وَسَبْتَ الْيَهُودِ يُذْكَرُ فِيهِ الْكُفْرُ ؛ فَمُشَاهَدَتُهُ كُفْرٌ ، إِلَّا لِمَا يَقْتَضِي ذَلِكَ مِنْ الْمَعَانِي الدِّينِيَّةِ ، أَوْ عَلَى جَهْلٍ مِنْ الْمُشَاهِدِ لَهُ .

وَأَمَّا الْقَوْلُ بِأَنَّهُ الْغِنَاءُ فَلَيْسَ يَنْتَهِي إِلَى هَذَا الْحَدِّ ؛ وَقَدْ بَيَّنَّا أَمْرَهُ فِيمَا تَقَدَّمَ ، وَقُلْنَا : إِنَّ مِنْهُ مُبَاحًا وَمِنْهُ مَحْظُورًا .

وَأَمَّا مَنْ قَالَ : إنَّهُ لَعِبٌ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَإِنَّمَا يَحْرُمُ ذَلِكَ إذَا كَانَ فِيهِ قِمَارٌ أَوْ جَهَالَةٌ أَوْ أَمْرٌ يَعُودُ إلَى الْكُفْرِ .

(120/564)

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : قَوْلُهُ : ﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴾ قَدْ بَيَّنَّا اللَّغْوَ ، وَأَنَّهُ مَا لَا فَائِدَةَ فِيهِ مِنْ قَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ ؛ فَإِنْ كَانَتْ فِيهِ مَضَرَّةٌ فِي دِينٍ أَوْ دُنْيَا فَقَدْ تَأَكَّدَ أَمْرُهُ فِي التَّحْرِيمِ ؛ وَذَلِكَ بِحَسْبِ تِلْكَ الْمَضَرَّةِ فِي اعْتِقَادٍ أَوْ فِعْلٍ ، وَيَتَرَكَّبُ اللَّغْوُ عَلَى الزُّورِ ؛ وَلَكِنْ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ لَهُ مَعْنًى زَائِدٌ هَاهُنَا ؛ لِأَنَّهُ قَالَ : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ ﴾ فَهَذَا مُحَرَّمٌ بِلَا كَلَامٍ .

ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ ﴾ يَعْنِي الَّذِي لَا فَائِدَةَ فِيهِ تَكَرَّمُوا عَنْهُ ، حَتَّى قَالَ قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ التَّفْسِيرِ : إنَّهُ ذِكْرُ الرَّفَثِ ، وَيَكُونُ لَغْوًا مُجَرَّدًا إذَا كَانَ فِي الْحَلَالِ ، وَيَكُونُ زُورًا مُحَرَّمًا إذَا كَانَ فِي الْحَرَامِ ، وَإِنْ احْتَاجَ أَحَدٌ إلَى ذِكْرِ الْفَرْجِ أَوْ النِّكَاحِ لِأَمْرٍ يَتَعَلَّقُ بِالدِّينِ جَازَ ذَلِكَ ، كَمَا رُوِيَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِلَّذِي اعْتَرَفَ عِنْدَهُ بِالزِّنَا : ﴿ نِكْتَهَا ﴾ ؟ لَا تَكْنِي ، لِلْحَاجَةِ إلَى ذَلِكَ فِي تَقْدِيرِ الْفِعْلِ الَّذِي يَتَعَلَّقُ بِهِ الْحَدُّ .

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَالَّذِينَ إذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ .

فِيهَا ثَلَاثُ مَسَائِلَ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : قَالَ عُلَمَاؤُنَا : يَعْنِي الَّذِينَ إذَا قَرَءُوا الْقُرْآنَ قَرَءُوهُ بِقُلُوبِهِمْ قِرَاءَةَ فَهْمٍ وَتَثَبُّتٍ ، وَلَمْ يَنْثُرُوهُ نَثْرَ الدَّقَلِ ؛ فَإِنَّ الْمُرُورَ عَلَيْهِ بِغَيْرِ فَهْمٍ وَلَا تَثَبُّتٍ صَمَمٌ وَعَمًى عَنْ مُعَايَنَةِ وَعِيدِهِ وَوَعْدِهِ ، حَتَّى قَالَ بَعْضُهُمْ : إنَّ مَنْ سَمِعَ رَجُلًا وَهُوَ يُصَلِّي يَقْرَأُ سَجْدَةً فَسَجَدَ ، وَهِيَ : الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : فَلْيَسْجُدْ مَعَهُ ؛ لِأَنَّهُ سَمِعَ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ، وَهَذَا لَا يَلْزَمُ إلَّا لِلْقَارِئِ وَحْدَهُ ، وَأَمَّا غَيْرُهُ فَلَا يَلْزَمُهُ ذَلِكَ إلَّا فِي مَسْأَلَةٍ وَاحِدَةٍ ، وَهِيَ : الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : ذَكَرَهَا مَالِكٌ ، وَهُوَ أَنَّ الرَّجُلَ إذَا تَلَا الْقُرْآنَ ، وَقَرَأَ السَّجْدَةَ ؛ فَإِنْ كَانَ الَّذِي جَلَسَ مَعَهُ جَلَسَ إلَيْهِ لِيَسْمَعَهُ فَلْيَسْجُدْ مَعَهُ ، وَإِنْ لَمْ يَلْتَزِمْ السَّمَاعَ مَعَهُ فَلَا سُجُودَ عَلَيْهِ .

وَعَلَى هَذَا يَخْرُجُ إذَا كَانَ فِي صَلَاةٍ فَقَرَأَ السَّجْدَةَ أَنَّهُ لَا يَسْجُدُ الَّذِي لَا يُصَلِّي مَعَهُ .

وَهَذَا أَبْعَدُ مِنْهُ .

وَقِيلَ : مَعْنَى الْآيَةِ فِي الَّذِينَ لَا يَعْتَبِرُونَ اعْتِبَارَ الْإِيمَانِ ، وَلَا يُصَدِّقُونَ بِالْقُرْآنِ ، وَالْكُلُّ مُحْتَمَلٌ أَنْ يُرَادَ بِهِ ، إلَّا أَنَّهُ تَخْتَلِفُ أَحْوَالُهُمْ بِحَسْبِ اخْتِلَافِ اعْتِقَادِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ . وَاَللَّهُ أَعْلَمُ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ

إِمَامًا ﴾ .

فِيهَا مَسْأَلَتَانِ :

(122/564)

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : قَوْلُهُ : ﴿ قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ مَعْنَاهُ أَنَّ النُّفُوسَ تَتَمَنَّى ، وَالْعُيُونَ تَمْتَدُّ إِلَى مَا تَرَى مِنْ الْأَزْوَاجِ وَالذُّرِّيَّةِ ، حَتَّى إِذَا كَانَتْ عِنْدَهُ زَوْجَةٌ اجْتَمَعَتْ لَهُ فِيهَا أَمَانِيُّهُ مِنْ جَمَالٍ وَعِفَّةٍ وَنَظَرٍ وَحَوْطَةٍ ، أَوْ كَانَتْ عِنْدَهُ ذُرِّيَّتُهُ مُحَافِظِينَ عَلَى الطَّاعَةِ ، مُعَاوِنِينَ لَهُ عَلَى وَظَائِفِ الدِّينِ وَالدُّنْيَا ، لَمْ يَلْتَفِتْ إِلَى زَوْجِ أَحَدٍ ، وَلَا إِلَى وَلَدِهِ ، فَتَسْكُنُ عَيْنُهُ عَنْ الْمُلَاحَظَةِ ، وَتَزُولُ نَفْسُهُ عَنْ التَّعَلُّقِ بِغَيْرِهَا ؛ فَذَلِكَ حِينَ قُرَّةِ الْعَيْنِ وَسُكُونِ النَّفْسِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : قَوْلُهُ ﴿ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ مَعْنَاهُ قُدْوَةٌ .

كَانَ ابْنُ عُمَرَ يَقُولُ فِي دُعَائِهِ : " اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مِنْ أَئِمَّةِ الْمُتَّقِينَ " .

وَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ : " إِنَّكُمْ أَيُّهَا الرَّهْطُ أَئِمَّةٌ يُقْتَدَى بِكُمْ " .

وَذَلِكَ ؛ لِأَنَّهُمْ اقْتَدُوا بِمَنْ قَبْلَهُمْ فَاقْتَدَى بِهِمْ مَنْ بَعْدَهُمْ .

وَكَانَ الْأُسْتَاذُ أَبُو الْقَاسِمِ الْقُشَيْرِيُّ شَيْخُ الصُّوفِيَّةِ يَقُولُ : الْإِمَامَةُ بِالدُّعَاءِ ، لَا بِالدَّعْوَى يَعْنِي

بِتَوْفِيقِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَيْسِيرِهِ وَهِبَتِهِ ، لَا بِمَا يَدَّعِيهِ كُلُّ أَحَدٍ لِنَفْسِهِ ، وَيَرَى فِيهَا مَا لَيْسَ لَهُ وِلَايَةٌ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 3 صـ ﴾

(123/564)

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ ﴾

فيه سبعة تأويلات

: أحدها : أنه الشرك بالله ، قاله الضحاك ، وابن زيد .

الثاني : أنه أعياد أهل الذمة وشبهه ، قال ابن سيرين هو الشعانين .

الثالث : أنه الغناء ، قاله مجاهد .

الرابع : مجالس الخنا ، قاله عمرو بن قيس .

الخامس : أنه لعب كان في الجاهلية ، قاله عكرمة .

السادس : أنه الكذب ، قاله ابن جريج ، وقتادة .

السابع : أنه مجلس كان يشتم فيه النبي صلى الله عليه وسلم ، قاله خالد بن كثير .

ويحتمل ثامناً : أنه العهود على المعاصي .

﴿ وَإِذَا مَرُّواْ بِاللَّغوِ مَرُّواْ كِرَاماً ﴾ فيه خمسة تأويلات

: أحدها : أنه ما كان يفعله المشركون من أذية المسلمين في أنفسهم وأعراضهم فيعرضوا عنهم وعن أذاهم ، قاله مجاهد .

الثاني : أنهم إذا ذكروا النكاح كَنّوا عنه ، حكاه العوّام .

الثالث : أنهم إذا ذكروا الفروج كَنّوا عنها ، قاله محمد بن علي الباقر رحمه الله .

الرابع : أنهم إذا مروا بإفك المشركين ينكروه ، قاله ابن زيد .

الخامس : أن اللغو هنا المعاصي كلها ، ومرهم بها كراماً إعراضهم عنها ، قاله الحسن .

ويحتمل سادساً : وإذا مروا بالهزل عدلوا عنه إلى الجد .

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : بوعده ووعيده .

الثاني : بأمره ونهيه .

﴿ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمّاً وَعُمْيَاناً ﴾ يعني سمعوا الوعظ فلم يصموا عنه وأبصروا الرشد فلم يعموا عنه بخلاف من أصمه الشرك عن الوعظ وأعماه الضلال عن الرشد .

وفي قوله : ﴿ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا ﴾ وجهان :

أحدهما : لم يقيموا ، قاله الأخفش .

الثاني : لم يتغافلوا ، قاله ابن قتيبة .

قوله تعالى : ﴿ . . . رَبَّنَا لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أجعل أزواجنا وذرياتنا قرة أعين ، قاله الكلبي .

(124/564)

الثاني : ارزقنا من أزواجنا ومن ذرياتنا أعواناً ﴿ قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ أي أهل طاعة تقر به أعيننا في الدنيا بالصلاح ، وفي الآخرة بالجنة .

وفي قرة العين وجهان :

أحدهما : أن تصادف ما يرضيهما فتقر على النظر إليه دون غيره .

الثاني : أن القرّ البرد فيكون معناه برّد الله دمعها ، لأن دمعة السرور باردة .

ودمعة [الحزن] حارة ، وضد قرة العين سخنة العين ، قاله الأصمعي .

﴿ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً ﴾ فيه خمسة أوجه

: أحدها : أمثالا ، قاله عكرمة .

الثاني : رضاً ، قاله جعفر الصادق .

الثالث : قادة إلى الخير ، قاله قتادة .

الرابع : أئمة هدى يُهْتدى بنا ، قاله ابن عباس .

الخامس : نأتم بمن قبلنا حتى يأتم بنا من بعدنا ، قاله مجاهد .

وفي الآية دليل عل أن طلب الرياسة في الدين ندب .

قوله تعالى : ﴿ أُوْلَئِكَ يُجْزَوُنَ الْغُرْفَةَ ﴾

فيها وجهان

: أحدهما : أن الغرفة الجنة ، قاله الضحاك .

الثاني : أنها أعلى منازل الجنة وأفضلها كما أن الغرفة أعلى منازل الدنيا ، حكاه ابن شجرة .

﴿ بِمَا صَبَرُواْ ﴾ فيه وجهان

: أحدهما : بما صبروا عن الشهوات ، قاله الضحاك .

الثاني : بما صبروا على طاعة الله .

﴿ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً ﴾ فيه وجهان

: أحدهما : يعني بقاء دائماً .

الثاني : ملكاً عظيماً .

﴿ وَسَلاَماً ﴾ فيه وجهان

: أحدهما : أنها جماع السلامة الخير .

الثاني : هو أن يحيي بعضهم بعضاً بالسلام ، قاله الكلبي .

ولأصحاب الخواطر في التحية والسلام وجهان :

أحدهما : التحية على الروح والسلام على الجسد .

الثاني : أن التحية على العقل والسلام على النفس .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : ما يصنع ، قاله مجاهد ، وابن زيد .

الثاني : ما يبالي ، قاله أبو عمرو بن العلاء .

﴿ لَوْلاَ دُعاؤُكُمْ ﴾ فيه وجهان

: أحدهما : لولا عبادتكم وإيمانكم به ، والدعاء العبادة .

(125/564)

الثاني : لولا دعاؤه لكم إلى الطاعة ، قاله مجاهد .

ويحتمل ثالثاً : لولا دعاؤكم له إذا مسكم الضر وأصابكم السوء رغبة إليه وخضوعاً إليه .

﴿ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ ﴾ فيه وجهان

: أحدهما : كذبتم برسلي .

الثاني : قصرتم عن طاعتي مأخوذ من قولهم قد كذب في الحرب إذا قصّر .

﴿ لِزَاماً ﴾ فيه أربعة أوجه

: أحدها : أنه عذاب الدنيا وهو القتل يوم بدر ، قاله ابن مسعود وأُبي .

الثاني : عذاب الآخرة في القيامة ، قاله قتادة .

الثالث : أنه الموت ، قاله محمد بن كعب ، ومنه قول الشاعر :

يولي عند حاجتها البشير . . . ولم أجزع من الموت اللزام

الرابع : هو لزوم الحجة في الآخرة على تكذيبهم في الدنيا ، قاله الضحاك ، وأظهر الأوجه أن يكون اللزام الجزاء للزومه ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

(126/564)

وقال ابن عطية :

﴿ والذين لاَ يَشْهَدُونَ الزُّورَ ﴾

ثم استمرت الآيات في وصف عباد الله المؤمنين بأن نفى عنهم شهادة الزور ، و ﴿ يشهدون ﴾ في هذا الموضع ظاهر معناها يشاهدون ويحضرون ، و ﴿ الزور ﴾ كل باطل زور وزخرف فأعظمه الشرك وبه فسر الضحاك وابن زيد ، ومنه الغناء ، وبه فسر مجاهد ، ومنه الكذب ، وبه فسر ابن جريج ، وقال علي بن أبي طالب ومحمد بن علي المعنى لا

يشهدون بالزور فهو من الشهادة لا من المشاهدة والزور الكذب .

قال الفقيه الإمام القاضي : والشاهد بالزور حاضره ومؤديه جرأة ، فالمعنى الأول أعم لكن المعنى الثاني أغرق في المعاصي وأنكى ، و" اللغو "كل سقط من فعل أو قول يدخل فيه الغناء واللهو وغير ذلك ، ويدخل في ذلك سفه المشركين وأذاهم للمؤمنين وذكر النساء وغير ذلك من المنكر ، و﴿ كراماً ﴾ معناه معرضين مستحين يتجافون عن ذلك ويصبرون على الأذى فيه ، وروي أن عبد الله بن مسعود سمع غناء فأسرع في مشيه وذهب فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لقد أصبح ابن أم عبد كريماً ، وقرأ الأية .

قال الفقيه الإمام القاضي : وأما إذا مر المسلم بمنكر فكرمه أن يغير ، وحدود التغيير معروفة وقوله تعالى : ﴿ والذين إذا ذكروا بآيات ربهم ﴾ ذكروا بالقرآن آخرتهم ومعادهم وقوله : ﴿ لم يخروا عليها صماً وعمياناً ﴾ يحتمل تأويلين : أحدهما أن يكون المعنى لم يكن خرورهم بهذه الصفة بل يكون سجداً وبكياً ، وهذا كما تقول لم يخرج زيد للحرب جزعاً أي إنما خرج جريئاً مقدماً . وكأن الذي يخر أصم وأعمى هو المنافق ، أو الشاك ، والتأويل الثاني ذهب إليه الطبري وهو أن يخروا صماً وعمياناً هي صفة للكافر وهي عبارة عن إعراضهم وجهدهم في ذلك . وقرن ذلك بقوله قعد فلان يشتمني وقام فلان يبكي وأنت لم تقصد الإخبار بقعود ولا قيام وإنما هي توطئات في الكلام والعبارة .

قال الفقيه الإمام القاضي : وكان المستمع للذكر قائم القناة قويم الأمر فإذا أعرض وضل كان ذلك خروراً وهو السقوط على غير نظام ولا ترتيب وإن كان قد شبه به الذي يخر ساجداً ، ولكن أصله أنه على غير ترتيب ، ثم مدح المؤمنين حال الدعاء إليه في أن يقر العيون بالأهل والذرية ، و" قرة العين " يحتمل أن تكون من القرار ، ويحتمل أن تكون من القر ، وهو الأشهر لأن دمع السرور بارد ودمع الحزن سخن ، فمن هذا يقال أقر الله عينك وأسخن الله عين العدو ، و" قرة العين " في الأزواج والذرية أن يراهم الإنسان مطيعين لله تعالى قاله ابن عباس والحسن وحضرمي ، وبين المقداد بن الأسود الوجه من ذلك بأنه كان في أول الإسلام يهتدي الأب والابن كافر والزوج والزوجة كافرة فكانت قرت عيونهم في إيمانهم أحبابهم ، وقرأ ابن كثير ونافع وابن عامر والحسن " ذرياتنا " ، وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي وطلحة وعيسى " ذريتنا " بالإفراد .

وقوله تعالى : ﴿ للمتقين إماماً ﴾ قيل هو جمع ، آم مثل قائم وقيام وقيل هو مفرد اسم جنس أي اجعلنا يأتم بنا المتقون ، وهذا لا يكون إلا أن يكون الداعي متقياً قدوة وهذا هو قصد الداعي ، قال إبراهيم النخعي لم يطلبوا الرياسة بل أن يكونوا قدوة في الدين وهذا

حسن أن يطلب ويسعى له .

﴿ أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا (75) ﴾

قرأ أبي كعب " يجازون " بألف ، و﴿ الغرفة ﴾ من منازل الجنة وهي الغرفة فوق الغرف وهو اسم الجنة كما قال : [الهزج]

ولولا الحبة السمراء . . . لم نحلل بواديكم

(128/564)

وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو " ويُلَقّون " بضم الياء وفتح اللام وشد القاف وهي قراءة أبي جعفر وشيبة والحسن ، وقرأ حمزة والكسائي وابن عامر وعاصم وطلحة ومحمد اليماني ورويت عن النبي صلى الله عليه وسلم " ويلْقون " بفتح الياء وسكون اللام وتخفيف القاف ، واختلف عن عاصم وقوله ﴿ حسنت مستقراً ومقاماً ﴾ معادل لقوله في جهنم ﴿ ساءت ﴾ وقوله : ﴿ قل ما يعبؤوا بكم ﴾ الآية أمر لمحمد صلى الله عليه وسلم أن يخاطب بذلك ، و﴿ ما ﴾ تحتمل النفي وتحتمل التقرير والكلام في نفسه يحتمل تأويلات أحدها أن تكون الآية إلى قوله ﴿ لولا دعاؤكم ﴾ خطاباً لجميع الناس فكأنه قال لقريش منهم أي ما يبالي الله بكم ولا ينظر إليكم لولا عبادتكم إياه أن لو كانت إذ ذلك الذي يعبأ

بالبشر من أجله . قال تعالى : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ [الذاريات : 56] . وقال النقاش وغيره المعنى لولا استغاثتكم إليه في الشدائد ونحو ذلك فذلك هو عرف الناس المرعي فيهم ، وقرأ ابن الزبير وغيره " فقد كذب الكافرون " وهذا يؤيد أن الخطاب بما يعبأ هو لجميع الناس ، ثم يقول لقريش فأنتم قد كذبتم ولم تعبدوه فسوف يكون العذاب والتكذيب الذي هو سبب العذاب لزاماً ، والثاني أن يكون الخطاب بالآيتين لقريش خاصة أي ﴿ ما يعبأ بكم ربي لولا دعاؤكم ﴾ الأصنام آلهة دونه فإن ذلك يوجب تعذيبكم ، والثالثة وهو قول مجاهد أي ما يعبأ ربكم بكم لولا أن دعاكم إلى شرعه فوقع منكم الكفر والإعراض .

(129/564)

قال القاضي أبو محمد : والمصدر في هذا التأويل مضاف إلى المفعول وفي الأولين مضاف إلى الفاعل و﴿ يعبأ ﴾ مشتق من العبء ، وهو الثقل الذي يعبأ ويرتب كما يعبأ الجيش ، وقرأ ابن الزبير " وقد كذبت الكافرون فسوف " ، قال ابن جني قرأ ابن الزبير وابن عباس الخ . . . " فقد كذب الكافرون " ، قال الزهراوي وهي قراءة ابن مسعود قال وهي على التفسير وأكثر الناس على أن " اللزام " المشار إليه في هذا الموضع هو يوم بدر وهو قول أبي

بن كعب وابن مسعود ، والمعنى فسوف يكون جزاء التكذيب ، وقالت فرقة هو تعوذ بعذاب الآخرة ، وقال ابن مسعود اللزام التكذيب نفسه أي لا تعطون توبة ذكره الزهراوي ، وقال ابن عباس أيضاً " اللزام " الموت وهذا نحو القول ببدر وإن أراد به متأول الموت المعتاد في الناس عرفاً فهو ضعيف ، وقرأ جمهور الناس " لِزاماً " بكسر اللام من لوزم وأنشد أبو عبيدة لصخر الغي : [الوافر]

فإمّا ينجوا من حتف أرض . . . فقد لقيا حتوفهما لزاما

وقرأ أبو السمال " لَزاماً " لفتح اللام من لزم والله المعين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(130/564)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ والذين لا يَشْهَدون الزُّور ﴾

فيه ثمانية أقوال .

أحدها : أنه الصَّنم ؛ روى الضحاك عن ابن عباس ان الزُّور صنم كان للمشركين .

والثاني : أنه الغِناء ، قاله محمد بن الحنفية ، ومكحول ؛ وروى ليث عن مجاهد قال : لا

يسمعون الغناء .

والثالث : الشِّرك ، قاله الضحاك ، وأبو مالك .

والرابع : لعب كان لهم في الجاهلية ، قاله عكرمة .

والخامس : الكذب ، قاله قتادة ، وابن جريج .

والسادس : شهادة الزور ، قاله عليّ بن أبي طلحة .

والسابع : أعياد المشركين ، قاله الربيع بن أنس .

والثامن : مجالس الخنا ، قاله عمرو بن قيس .

وفي المراد باللغو هاهنا خمسة أقوال .

أحدها : المعاصي ، قاله الحسن .

والثاني : أذى المشركين إِياهم ، قاله مجاهد .

والثالث : الباطل ، قاله قتادة .

والرابع : الشِّرك ، قاله الضحاك .

والخامس : إِذا ذكروا النكاح كنوا عنه ، قاله مجاهد .

وقال محمد بن علي : إِذا ذكروا الفروج كنوا عنها .

قوله تعالى : ﴿ مَرُّوا كِرَاماً ﴾ فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : مَرُّوا حُلَماء ، قاله ابن السائب .

والثاني : مَرُّوا مُعْرِضِين عنه ، قاله مقاتل .

والثالث : أن المعنى : إذا مَرُّوا باللغو جاوزوه ، قاله الفراء .

قوله تعالى : ﴿ والذين إذا ذُكّروا ﴾ أي : وُعِظوا ﴿ بآيات ربّهم ﴾ وهي القرآن ﴿ لم يَخِرُّوا عليها صُمّاً وعُمْيَاناً ﴾ قال ابن قتيبة : لم يتغافلوا عنها كأنهم صُمٌّ لم يسمعوها ، عميٌ لم يَرَوها .

وقال غيره من أهل اللغة : لم يثبتوا على حالتهم الأولى كأنهم لم يسمعوا ولم يَرَوا ، وإن لم يكونوا خَرُّوا حقيقة ؛ تقول العرب : شتمت فلاناً ، فقام يبكي ، وقعد يندب ، وأقبل يعتذر ، وظلَّ يتحيَّر ، وإن لم يكن قام ولا قعد .

قوله تعالى : ﴿ هَبْ لنا مِنْ أزواجنا وذُرِّيَّاتِنَا ﴾ قرأ ابن كثير ، ونافع ، وابن عامر ، وحفص عن عاصم : ﴿ وذُرِّيَّاتِنَا ﴾ على الجمع .

(131/564)

وقرأ أبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي ، وأبو بكر ، [وحفص] عن عاصم : ﴿ وذُرِّيَّتِنَا ﴾ على التوحيد ، ﴿ قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ وقرأ ابن مسعود ، وأبو حيوة : ﴿ قُرَّاتَ أَعْيُنٍ ﴾ يعنون : من يعمل بطاعتك فتقرّ به أعيننا في الدنيا والآخرة .

وسئل الحسن عن قوله : ﴿ قُرَّةَ أعين ﴾ في الدنيا ، أم في الآخرة ؟ قال : لا ، بل في الدنيا ، وأيُّ شيء أقَرُّ لعين المؤمن من أن يرى زوجته وولده يُطيعون الله ، والله ما طلب القوم إلا أن يُطاع الله فتَقَرّ أعينهم .

قال الفراء : إنما قال : ﴿ قُرَّةَ ﴾ لأنها فعل ، والفعل لا يكاد يُجمع ، ألا ترى إلى قوله : ﴿ وادعُوا ثُبوراً كثيراً ﴾ [الفرقان : 44] فلم يجمعه ؛ والقُرَّة مصدر ، تقول : قَرَّت عينه قُرَّة ، ولو قيل : قُرَّة عين أو قُرَّات أعين كان صواباً .

وقال غيره : أصل القُرَّة من البَرْد ، لأن العرب تتأذى بالحَرِّ ، وتستروح إلى البَرْد .

قوله تعالى : ﴿ واجْعَلْنا للمُتَّقِين إماماً ﴾ فيه قولان .

أحدهما : اجعلنا أئمة يُقتدى بنا ، قاله ابن عباس .

وقال غيره : هذا من الواحد الذي يراد به الجمع ، كقوله : ﴿ إنَّا رسولُ ربِّ العالَمِين ﴾ [الشعراء : 16] ، وقوله : ﴿ فانَّهم عَدُوٌّ لي ﴾ [الشعراء : 77] .

والثاني : اجعلنا مؤتَمّين بالمُتَّقِين مقتدين بهم ، قاله مجاهد ؛ فعلى هذا يكون الكلام من المقلوب ، فيكون المعنى : واجعل المُتَّقِين لنا إماماً .

قوله تعالى : ﴿ أولئك يُجْزَوْنَ الغُرْفَةَ ﴾

قال ابن عباس : يعني الجنة .

وقال غيره : الغرفة : كل بناءٍ عالٍ مرتفع ، والمراد غرف الجنة ، وهي من الزَّبَرجد والدُّرّ

والياقوت ، ﴿ بما صَبَروا ﴾ على دينهم وعلى أذى المشركين .

قوله تعالى : ﴿ ويُلَقَّوْنَ فيها ﴾ قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وحفص عن عاصم : ﴿ ويُلَقَّوْنَ ﴾ بضم الياء وفتح اللام وتشديد القاف .

(132/564)

وقرأ ابن عامر ، وحمزة ، والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم : ﴿ ويَلْقَوْنَ ﴾ بفتح الياء وسكون اللام وتخفيف القاف ، ﴿ تحيَّةً وسلاماً ﴾ قال ابن عباس : يُحيِّي بعضُهم بعضاً بالسلام ، ويرسل إليهم الرَّبُّ عز وجل بالسلام .

وقال مقاتل : ﴿ تحيةً ﴾ يعني السلام ، ﴿ وسلاماً ﴾ أي سلَّم الله لهم أمرهم وتجاوز عنهم .

قوله تعالى : ﴿ قل ما يَعْبَأُ بكم ربِّي ﴾

فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : ما يصنع بكم ! قاله ابن عباس .

والثاني : أيّ وزن يكون لكم عنده ؛ تقول : ما عبأتُ بفلان ، أي : ما كان له عندي وزن ولا قَدْر ، قاله الزجاج .

والثالث : ما يعبأ بعذابكم ، قاله ابن قتيبة .

وفي قوله : ﴿ لولا دُعاؤكم ﴾ أربعة أقوال .

أحدها : لولا إيمانكم ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس .

والثاني : لولا عبادتكم ، رواه الضحاك عن ابن عباس .

والثالث : لولا دعاؤه إيّاكم لتعبُدوه ، قاله مجاهد ؛ والمراد نفع الخَلْق ، لأن الله تعالى غير محتاج .

والرابع : لولا توحيدكم ، حكاه الزجاج .

وعلى قول الأكثرين ليس في الآية إضمار ؛ وقال ابن قتيبة : فيها إضمار تقديره : ما يعبأ بعذابكم لولا ما تَدْعونه من الشريك والولد ، ويوضح ذلك [قوله] : ﴿ فسوف يكون لزَاماً ﴾ يعني : العذاب ، ومثله قول الشاعر :

مَنْ شَاءَ دَلَّى النَّفْسَ فِي هُوَّةٍ . . .

ضَنْكٍ ولكِنْ مَنْ لَهُ بالمَضِيقْ

أي : بالخروج من المضيق .

وهل هذا خطاب للمؤمنين ، أو للكفار ؟ فيه قولان .

فأما قوله تعالى : ﴿ فقد كذَّبْتُم ﴾ فهو خطاب لأهل مكة حين كذَّبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ﴿ فسوف يكون ﴾ يعني : تكذيبكم ﴿ لزَاماً ﴾ أي : عذاباً لازماً [لكم]

؛ وفيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه قتلهم يوم بدر ، فقُتلوا يومئذ ، واتصل بهم عذاب الآخرة لازماً لهم ، وهذا مذهب ابن مسعود ، وأُبيّ بن كعب ، ومجاهد في آخرين .

والثاني : أنه الموت ، قاله ابن عباس .

والثالث : أن اللِّزام : القتال ، قاله ابن زيد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 6 صـ ﴾

(133/564)

وقال القرطبى :

﴿ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا (72) ﴾

فيه مسألتان :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ والذين لاَ يَشْهَدُونَ الزُّورَ ﴾ أي لا يحضرون الكذب والباطل ولا يشاهدونه .

والزور كل باطل زُوِّر وزُخرِف ، وأعظمه الشرك وتعظيم الأنداد .

وبه فسر الضحاك وابن زيد وابن عباس .

وفي رواية عن ابن عباس أنه أعياد المشركين .

عِكرمة : لعبٌ كان في الجاهلية يسمى بالزور .

مجاهد : الغناء ؛ وقاله محمد بن الحنفية أيضاً .

ابن جُريج : الكذب ؛ وروي عن مجاهد .

وقال عليّ بن أبي طلحة ومحمد بن عليّ : المعنى لا يشهدون بالزور ، من الشهادة لا من المشاهدة .

قال ابن العربي : أما القول بأنه الكذب فصحيح ، لأن كل ذلك إلى الكذب يرجع ، وأما من قال إنه لعِبٌ كان في الجاهلية فإنه يحرم ذلك إذا كان فيه قمار أو جهالة ، أو أمر يعود إلى الكفر ، وأما القول بأنه الغناء فليس ينتهي إلى هذا الحد .

قلت : من الغناء ما ينتهي سماعه إلى التحريم ، وذلك كالأشعار التي توصف فيها الصور المستحسنات والخمر وغير ذلك مما يحرك الطباع ويخرجها عن الاعتدال ، أو يثير كامناً من حب اللهو ؛ مثل قول بعضهم :

ذهبيّ اللون تحسب من . . .

وجنتيه النار تُقتدَحُ

خوّفوني من فضيحته . . .

ليته وافى وأفتضِحُ

لا سيما إذا اقترن بذلك شبّابات وطارات مثل ما يفعل اليوم في هذه الأزمان ، على ما بيناه

في غير هذا الموضع .

وأما من قال إنه شهادة الزور ؛ وهي :

الثانية : فكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يجلد شاهد الزور أربعين جلدة ، ويسخّم وجهه ، ويحلق رأسه ، ويطوف به في السوق .

وقال أكثر أهل العلم : ولا تقبل له شهادة أبداً وإن تاب وحسنت حاله فأمره إلى الله .

وقد قيل : إنه إذا كان غير مبرَّز فحسنت حاله قبلت شهادته حسبما تقدّم بيانه في سورة "الحج" فتأمله هناك .

(134/564)

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَرُّواْ بِاللَّغْوِ مَرُّواْ كِراماً ﴾ قد تقدّم الكلام في اللغو ، وهو كل سقط من قول أو فعل ؛ فيدخل فيه الغناء واللهو وغير ذلك مما قاربه ، ويدخل فيه سفه المشركين وأذاهم المؤمنين وذكر النساء وغير ذلك من المنكر .

وقال مجاهد : إذا أوذوا صفحوا .

وروي عنه : إذا ذكر النكاح كنّوا عنه .

وقال الحسن : اللغو المعاصي كلها .

وهذا جامع .

و﴿ كِرَاماً ﴾ معناه معرضين منكرين لا يرضَونه ، ولا يمالؤون عليه ، ولا يجالسون أهله .

أي مروا مرّ الكرام الذين لا يدخلون في الباطل .

يقال : تكرم فلان عما يشينه ، أي تنزّه وأكرم نفسه عنه .

وروي " أن عبد الله بن مسعود سمع غناء فأسرع وذهب ، فبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : "لقد أصبح ابن أمّ عبدٍ كريماً" " وقيل : من المرور باللغو كريماً أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر .

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا (73) ﴾

فيه مسألتان :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ ﴾ أي إذا قرىء عليهم القرآن ذكروا آخرتهم ومعادهم ولم يتغافلوا حتى يكونوا بمنزلة من لا يسمع .

وقال : ﴿ لَمْ يَخِرُّواْ ﴾ وليس ثَمَّ خرور ؛ كما يقال : قعد يبكي وإن كان غير قاعد ؛ قاله الطبريّ واختاره ؛ قال ابن عطية : وهو أن يخروا صمًّا وعمياناً هي صفة الكفار ، وهي عبارة عن إعراضهم ؛ وقرن ذلك بقولك : قعد فلان يشتمني وقام فلان يبكي وأنت لم تقصد الإخبار بقعود ولا قيام ، وإنما هي توطئات في الكلام والعبارة .

قال ابن عطية : فكأن المستمع للذكر قائم القناة قويم الأمر ، فإذا أعرض وضلّ كان ذلك

خروراً ، وهو السقوط على غير نظام وترتيب ؛ وإن كان قد شبّه به الذي يخر ساجداً لكن أصله على غير ترتيب .

وقيل : أي إذا تليت عليهم آيات الله وجلت قلوبهم فخرّوا سجداً وبكياً ، ولم يخرّوا عليها صماً وعمياناً .

(135/564)

وقال الفراء : أي لم يقعدوا على حالهم الأول كأن لم يسمعوا .

الثانية : قال بعضهم : إن من سمع رجلاً يقرأ سجدة يسجد معه ؛ لأنه قد سمع آيات الله تتلى عليه .

قال ابن العربيّ : وهذا لا يلزم إلا القارىء وحده ، وأما غيره فلا يلزمه ذلك إلا في مسألة واحدة ؛ وهو أن الرجل إذا تلا القرآن وقرأ السجدة فإن كان الذي جلس معه جلس يسمعه فليسجد معه ، وإن لم يلتزم السماع فلا سجود عليه .

وقد مضى هذا في "الأعراف" .

قوله تعالى : ﴿ والذين يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾

قال الضحاك : أي مطيعين لك .

وفيه جواز الدعاء بالولد وقد تقدّم .

والذرّية تكون واحداً وجمعاً .

فكونها للواحد قوله : ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ﴾ [آل عمران : 38] ﴿ فَهَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ وَلِيّاً ﴾ [مريم : 5] وكونها للجمع ﴿ ذُرِّيَّةً ضِعَافاً ﴾ [النساء : 9]

وقد مضى في "البقرة" اشتقاقها مستوفى .

وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر والحسن : ﴿ وَذُرِّيَّاتِنَا ﴾ وقرأ أبو عمر وحمزة والكسائيّ وطلحة وعيسى : ﴿ وذريتنا ﴾ بالإفراد .

﴿ قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ نصب على المفعول ، أي قرّة أعين لنا .

وهذا نحو قوله عليه الصلاة والسلام لأنس : "اللهم أكثر ماله وولده وبارك له فيه" وقد تقدّم بيانه في "آل عمران" و"مريم" .

وذلك أن الإنسان إذا بورك له في ماله وولده قرّت عينه بأهله وعياله ، حتى إذا كانت عنده زوجة اجتمعت له فيها أمانيه من جمال وعفة ونظر وحوطة أو كانت عنده ذرّية محافظون على الطاعة ، معاونون له على وظائف الدّين والدنيا ، لم يلتفت إلى زوج أحد ولا إلى ولده ، فتسكن عينه عن الملاحظة ، ولا تمتد عينه إلى ما ترى ؛ فذلك حين قرّة العين ، وسكون النفس .

ووحّد ﴿ قُرّة ﴾ لأنه مصدر ؛ تقول : قرّت عينك قُرّة .

وقُرّة العين يحتمل أن تكون من القرار ، ويحتمل أن تكون من القُرّ وهو الأشهر .

(136/564)

والقُرّ البرد ؛ لأن العرب تتأذى بالحر وتستريح إلى البرد .

وأيضاً فإن دمع السرور بارد ، ودمع الحزن سخن ، فمن هذا يقال : أقرّ الله عينك ، وأسخن الله عين العدو .

وقال الشاعر :

فكم سَخِنتْ بالأمس عينٌ قريرةٌ . . .

وقَرّت عيونٌ دمعُها اليومَ ساكبُ

قوله تعالى : ﴿ واجعلنا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً ﴾ أي قدوة يقتدى بنا في الخير ، وهذا لا يكون إلا أن يكون الداعي متقياً قدوة ؛ وهذا هو قصد الداعي .

وفي "الموطأ" : "إنكم أيها الرهط أئمة يقتدى بكم" فكان ابن عمر يقول في دعائه : اللهم اجعلنا من أئمة المتقين .

وقال : ﴿ إِماماً ﴾ ولم يقل أئمة على الجمع ؛ لأن الإمام مصدر .

يقال : أمّ القوم فلان إماماً ؛ مثل الصيام والقيام .

وقال بعضهم : أراد أئمة ، كما يقول القائل أميرنا هؤلاء ، يعني أمراءنا .

وقال الشاعر :

يا عاذلاتي لا تَزِدْنَ مَلامَتِي . . .

إنّ العواذل لَسْنَ لِي بأميرِ

أي أمراء .

وكان القشيري أبو القاسم شيخ الصوفية يقول : الإمامة بالدعاء لا بالدعوى ، يعني بتوفيق الله وتيسيره ومنته لا بما يدّعيه كل أحد لنفسه .

وقال إبراهيم النَّخعيّ : لم يطلبوا الرياسة بل بأن يكونوا قدوة في الدّين .

وقال ابن عباس : اجعلنا أئمة هدى ، كما قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ﴾ [السجدة : 24] وقال مكحول : اجعلنا أئمة في التقوى يقتدي بنا المتقون .

وقيل : هذا من المقلوب ؛ مجازه : واجعل المتقين لنا إماماً ؛ وقاله مجاهد .

والقول الأوّل أظهر وإليه يرجع قول ابن عباس ومكحول ، ويكون فيه دليل على أن طلب الرياسة في الدين ندب .

وإمام واحد يدلّ على جمع ؛ لأنه مصدر كالقيام .

قال الأخفش : الإمام جمع آمّ من أمّ يؤمّ جمع على فِعال ، نحو صاحب وصِحاب ، وقائم وقِيام .

(137/564)

قوله تعالى : ﴿ أولئك يُجْزَوْنَ الغرفة بِمَا صَبَرُواْ ﴾ ﴿ أُولَئِكَ ﴾ خبر ﴿ وعِبَادُ الرَّحْمَنِ ﴾ في قول الزجاج على ما تقدّم ، وهو أحسن ما قيل فيه .

وما تخلل بين المبتدأ وخبره أوصافهم من التحلي والتخلي ؛ وهي إحدى عشرة : التواضع ، والحلم ، والتهجد ، والخوف ، وترك الإسراف والإقتار ، والنزاهة عن الشرك ، والزنى والقتل ، والتوبة وتجنب الكذب ، والعفو عن المسيء ، وقبول المواعظ ، والابتهال إلى الله .

و ﴿ الْغُرْفَة ﴾ الدرجة الرفيعة وهي أعلى منازل الجنة وأفضلها كما أن الغرفة أعلى مساكن الدنيا .

حكاه ابن شجرة .

وقال الضحاك : الغرفة الجنة .

﴿ بِمَا صَبَرُوا ﴾ أي بصبرهم على أمر ربهم ، وطاعة نبيهم عليه أفضل الصلاة والسلام .

وقال محمد بن علي بن الحسين : ﴿ بِمَا صَبَرُوا ﴾ على الفقر والفاقة في الدنيا .

وقال الضحاك : ﴿ بِمَا صَبَرُوا ﴾ عن الشهوات .

﴿ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴾ قرأ أبو بكر والمفضل والأعمش ويحيى وحمزة والكسائي وخلف : ﴿ وَيَلْقَوْنَ ﴾ مخففة ، واختاره الفراء ؛ قال لأن العرب تقول : فلان يُتلقّى بالسلام وبالتحية وبالخير (بالتاء) ، وقلما يقولون فلان يُلقّى السلامة .

وقرأ الباقون : ﴿ وَيُلَقَّوْنَ ﴾ واختاره أبو عبيد وأبو حاتم ؛ لقوله تعالى : ﴿ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴾ [الإنسان : 11] .

قال أبو جعفر النحاس : وما ذهب إليه الفراء واختاره غلط ؛ لأنه يزعم أنها لو كانت ﴿ يُلَقَّوْنَ ﴾ كانت في العربية بتحية وسلام ، وقال كما يقال : فلان يُتلقّى بالسلام وبالخير ؛ فمن عجيب ما في هذا الباب أنه قال يتلقى والآية ﴿ يُلَقَّوْنَ ﴾ والفرق بينهما بيّن : لأنه يقال فلان يتلقى بالخير ولا يجوز حذف (الباء) ، فكيف يشبه هذا ذاك ! وأعجب من هذا أن في القرآن ﴿ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴾ [الإنسان : 11] ولا يجوز أن يقرأ بغيره .

وهذا يبيّن أن الأولى على خلاف ما قال .

(138/564)

والتحية من الله والسلام من الملائكة .

وقيل : التحية البقاء الدائم والملك العظيم ؛ والأظهر أنهما بمعنى واحد ، وأنهما من قبل الله تعالى ؛ دليله قوله تعالى : ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلاَمٌ ﴾ [الأحزاب : 44] وسيأتي .

﴿ خَالِدِينَ ﴾ نصب على الحال ﴿ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلاَ دُعَآؤُكُمْ ﴾ هذه آية مشكلة تعلقت بها الملحدة .

يقال : ما عبأت بفلان أي ما باليت به ؛ أي ما كان له عندي وزن ولا قدر .

وأصل يعبأ من العِبء وهو الثقل .

وقول الشاعر :

كأن بصدره وبجانبيه . . .

عَبِيراً باتَ يَعْبَؤُهُ عَرُوسُ

أي يجعل بعضه على بعض .

فالعبء الحمل الثقيل ، والجمع أعباء .

والعبء المصدر .

وما استفهامية ؛ ظهر في أثناء كلام الزجاج ، وصرح به الفراء .

وليس يبعد أن تكون نافية ؛ لأنك إذا حكمت بأنها استفهام فهو نفي خرج مخرج الاستفهام ؛ كما قال تعالى : ﴿ هَلْ جَزَآءُ الإحسانِ إِلاَّ الإحسان ﴾ [الرحمن : 60] قال ابن

الشجري : وحقيقة القول عندي أن موضع ﴿ ما ﴾ نصب ؛ والتقدير : أيّ عِبء يعبأ بكم ؛ أي أيّ مبالاة يبالي ربي بكم لولا دعاؤكم ؛ أي لولا دعاؤه إياكم لتعبدوه ، فالمصدر الذي هو الدعاء على هذا القول مضاف إلى مفعوله ؛ وهو اختيار الفراء .

وفاعله محذوف وجواب لولا محذوف كما حذف في قوله : ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الجبال ﴾ [الرعد : 31] تقديره : لم يعبأ بكم .

ودليل هذا القول قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجن والإنس إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : 56] فالخطاب لجميع الناس ؛ فكأنه قال لقريش منهم : أي ما يبال الله بكم لولا عبادتكم إياه أن لو كانت ؛ وذلك الذي يعبأ بالبشر من أجله .

ويؤيد هذا قراءة ابن الزبير وغيره .

(139/564)

﴿ فَقَدْ كَذَّبَ الْكَافِرُونَ ﴾ فالخطاب بما يعبأ لجميع الناس ، ثم يقول لقريش : فأنتم قد كذبتم ولم تعبدوه فسوف يكون التكذيب هو سبب العذاب لزاماً .

وقال النقاش وغيره : المعنى ؛ لولا استغاثتكم إليه في الشدائد ونحو ذلك .

بيانه : ﴿ فَإِذَا رَكِبُواْ فِي الفلك دَعَوُاْ الله مُخْلِصِينَ ﴾ [العنكبوت : 65] ونحو هذا .

وقيل : ﴿ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ ﴾ أي بمغفرة ذنوبكم ولا هو عنده عظيم ﴿ لَوْلاَ دُعَاؤُكُمْ ﴾ معه الآلهة والشركاء .

بيانه : ﴿ مَّا يَفْعَلُ اللهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُم ﴾ [النساء : 147] ؛ قاله الضحاك .

وقال الوليد بن أبي الوليد : بلغني فيها أي ما خلقتكم ولي حاجة إليكم إلا تسألوني فأغفر لكم وأعطيكم .

وروى وهب بن مُنبّه أنه كان في التوراة : "يا ابن آدم وعزتي ما خلقتك لأربح عليك إنما خلقتك لتربَح عليّ فاتخذني بدلاً من كل شيء فأنا خير لك من كل شيء" .

قال ابن جِنّي : قرأ ابن الزبير وابن عباس : ﴿ فَقَدْ كَذَّبَ الْكَافِرُونَ ﴾ .

قال الزهراوي والنحاس : هي قراءة ابن مسعود وهي على التفسير ؛ للتاء والميم في ﴿ كَذَّبْتُمْ ﴾ .

وذهب القتبي والفارسي إلى أن الدعاء مضاف إلى الفاعل والمفعول محذوف ، الأصل لولا دعاؤكم آلهة من دونه ؛ وجواب ﴿ لَوْلاَ ﴾ محذوف تقديره في هذا الوجه : لم يعذبكم .

ونظير قوله : لولا دعاؤكم آلهة قوله : ﴿ إِنَّ الذين تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ﴾ [الأعراف : 194] .

﴿ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ ﴾ أي كذبتم بما دعِيتم إليه ؛ هذا على القول الأول ؛ وكذبتم بتوحيد الله

على الثاني .

﴿ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَاماً ﴾ أي يكون تكذيبكم ملازماً لكم .

والمعنى : فسوف يكون جزاء التكذيب كما قال : ﴿ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِراً ﴾ [الكهف : 49] أي جزاء ما عملوا وقوله : ﴿ فَذُوقُواْ العذاب بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ [الأنفال : 35] أي جزاء ما كنتم تكفرون .

(140/564)

وحسن إضمار التكذيب لتقدّم ذكر فعله ؛ لأنك إذا ذكرت الفعل دلّ بلفظه على مصدره ، كما قال : ﴿ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الكتاب لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ ﴾ [آل عمران : 110] أي لكان الإيمان .

وقوله : ﴿ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾ أي يرضى الشكر .

ومثله كثير .

وجمهور المفسرين على أن المراد باللزام هنا ما نزل بهم يوم بَدْر ، وهو قول عبد الله بن مسعود وأبيّ بن كعب وأبي مالك ومجاهد ومقاتل وغيرهم .

وفي "صحيح مسلم" عن عبد الله : وقد مضت البطشة والدخان واللزام .

وسيأتي مبيناً في سورة "الدخان" إن شاء الله تعالى .

وقالت فرقة : هو توعد بعذاب الآخرة .

وعن ابن مسعود أيضاً : اللزام التكذيب نفسه ؛ أي لا يعطون التوبة منه ؛ ذكره الزهراوي ؛

فدخل في هذا يوم بَدْر وغيره من العذاب الذي يُلزَمونه .

وقال أبو عبيدة : لزاماً فيصلاً (أي) فسوف يكون فيصلا بينكم وبين المؤمنين .

والجمهور من القراء على كسر اللام ؛ وأنشد أبو عبيدة لصخر :

فإما يَنْجُوَا من خَسْفِ أرضٍ . . .

فقد لَقِيا حُتُوفَهما لِزاما

ولزاما وملازمة واحد .

وقال الطبري : ﴿ لِزَاماً ﴾ يعني عذاباً دائماً لازماً ، وهلاكاً مفنياً يلحق بعضكم ببعض ؛

كقول أبي ذؤيب :

ففاجأه بعاديةٍ لزامٍ . . .

كما يَتَفَجَّرُ الحوضُ اللَّقِيفُ

يعني باللزام الذي يتبع بعضه بعضاً ، وباللقيف المتساقط الحجارة المتهدم .

النحاس : وحكى أبو حاتم عن أبي زيد قال : سمعت قَعْنَبا أبا السَّمَّال يقرأ : ﴿ لَزَاما ﴾

بفتح اللام .

قال أبو جعفر : يكون مصدر لزِم والكسر أولى ، يكون مثل قِتال ومقاتلة ، كما أجمعوا على الكسر في قوله عز وجل : ﴿ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَاماً وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾ [طه : 129] .

(141/564)

قال غيره : اللِّزام بالكسر مصدر لازمِ لزاماً مثل خاصم خصاماً ، واللَّزام بالفتح مصدر لَزِم مثل سَلِم سلاماً أي سلامة ؛ فاللَّزام بالفتح اللّزوم ، واللِّزام الملازمة ، والمصدر في القراءتين وقع موقع اسم الفاعل ، فاللزام وقع موقع ملازم ، واللَّزام وقع موقع لازِم .

كما قال تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْراً ﴾ [الملك : 30] أي غائراً .

قال النحاس : وللفراء قول في اسم يكون ؛ قال : يكون مجهولاً وهذا غلط ؛ لأن المجهول لا يكون خبره إلا جملة ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيِصْبِرْ ﴾ [يوسف : 90] وكما حكى النحويون كان زيد منطلق ويكون المبتدأ وخبره خبر المجهول ، والتقدير : كان الحديث ، فأما أن يقال كان منطلقاً ، ويكون في كان مجهول فلا يجوز عند أحد علمناه .

وبالله التوفيق وهو المستعان والحمد لله رب العالمين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 13 صـ ﴾

وقال ابن كثير :

﴿ وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا (72) ﴾

وهذه أيضا من صفات عباد الرحمن ، أنهم : ﴿ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ ﴾ قيل : هو الشرك وعبادة الأصنام . وقيل : الكذب ، والفسق ، واللغو ، والباطل .

وقال محمد بن الحنفية : [هو] اللهو والغناء .

وقال أبو العالية ، وطاوس ، ومحمد بن سيرين ، والضحاك ، والربيع بن أنس ، وغيرهم : هي أعياد المشركين .

وقال عمرو بن قيس : هي مجالس السوء والخنا .

وقال مالك ، عن الزهري : [شرب الخمر] لا يحضرونه ولا يرغبون فيه ، كما جاء في الحديث : "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يجلس على مائدة يدار عليها الخمر" (1) .

وقيل : المراد بقوله تعالى : ﴿ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ ﴾ أي : شهادة الزور ، وهي الكذب متعمدا على غيره ،

---

(1) رواه الترمذي في السنن برقم (2801) من طريق ليث بن أبي سليم عن طاوس عن

جابر به مرفوعا ، وقال الترمذي : "هذا حديث حسن غريب لا نعرفه من حديث طاوس عن جابر إلا من هذا الوجه" ثم نقل كلام العلماء في تضعيف ليث بن أبي سليم .

(143/564)

كما [ثبت] في الصحيحين عن أبي بَكْرَة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ألا أنبئكم بأكْبر الكبائر" ثلاثا ، قلنا : بلى ، يا رسول الله ، قال : "الشرك بالله ، وعقوق الوالدين" . وكان متكئًا فجلس ، فقال : "ألا وقول الزور ، ألا وشهادة الزور [ألا وقول الزور وشهادة الزور] . فما زال يكررها ، حتى قلنا : ليته سكت (1) .

والأظهر من السياق أن المراد : لا يشهدون الزور ، أي : لا يحضرونه ؛ ولهذا قال : ﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴾ أي : لا يحضرون الزور ، وإذا اتفق مرورهم به مرُّوا ، ولم يتدنسوا منه بشيء ؛ ولهذا قال : ﴿ مَرُّوا كِرَامًا ﴾ .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشَجّ ، حدثنا أبو الحسين العجلي ، عن محمد بن مسلم ، أخبرني إبراهيم بن مَيْسَرة ، أن ابن مسعود مر بلهو معرضًا فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "لقد أصبح ابن مسعود ، وأمسى كريمًا" .

وحدثنا الحسن بن محمد بن سلمة النحوي ، حدثنا حبان ، أنا عبد الله ، أنا محمد بن

مسلم ، أخبرني ابن ميسرة قال : بلغني أن ابن مسعود مر بلهو معرضا فلم يقف ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لقد أصبح ابن مسعود وأمسى كريما " . ثم تلا إبراهيم بن ميسرة : ﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴾ (2) .

---

(1) صحيح البخاري برقم (2654) وصحيح مسلم برقم (87) .

(2) ورواه ابن عساكر كما في المختصر لابن منظور (55/14) من طريق إبراهيم بن ميسرة به .

(144/564)

وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ [و] هذه من صفات المؤمنين ﴿ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأنفال : 2] ، بخلاف الكافر ، فإنه إذا سمع كلام الله لا يؤثر فيه ولا يُقْصر عما كان عليه ، بل يبقى مستمرا على كفره وطغيانه وجهله وضلاله ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ . وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ ﴾ [التوبة : 124 - 125] .

فقوله : ﴿ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ أي : بخلاف الكافر الذي ذكر بآيات ربه ، فاستمر على حاله ، كأن لم يسمعها أصم أعمى .

قال مجاهد : قوله : ﴿ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ لم يسمعوا : ولم يبصروا ، ولم يفقهوا شيئًا .

وقال الحسن البصري : كم من رجل يقرؤها ويخر عليها أصم أعمى .

(145/564)

وقال قتادة : قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ يقول : لم يصموا عن الحق ولم يعموا فيه ، فهم – والله – قوم عقلوا عن الله وانتفعوا بما سمعوا من كتابه .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أسيد بن عاصم ، حدثنا عبد الله بن حُمْران ، حدثنا ابن عَوْن قال : سألت الشعبي قلت : الرجل يرى القوم سجودا ولم يسمع ما سجدوا ، أيسجد معهم ؟ قال : فتلا هذه الآية : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ يعني : أنه لا يسجد معهم لأنه لم يتدبر آية السجدة فلا ينبغي للمؤمن أن يكون إمعة ، بل يكون على بصيرة من أمره ، ويقين واضح بَيِّن .

وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ يعني : الذين يسألون الله أن يخرج من أصلابهم وذرياتهم من يطيعه ويعبده وحده لا شريك له .

قال ابن عباس : يعنون من يعمل بالطاعة ، فتقرُّ به أعينهم في الدنيا والآخرة .

وقال عكرمة : لم يريدوا بذلك صباحة ولا جمالا ولكن أرادوا أن يكونوا مطيعين .

وقال الحسن البصري – وسئل عن هذه الآية – فقال : أن يُري الله العبد المسلم من زوجته ، ومن أخيه ، ومن حميمه طاعة الله . لا والله ما شيء أقر لعين المسلم من أن يرى ولدا ، أو ولد ولد ، أو أخا ، أو حميما مطيعا لله عز وجل .

وقال ابن جُرَيْج في قوله : ﴿ هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ قال : يعبدونك ويحسنون عبادتك ، ولا يجرون علينا الجرائر .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : يعني : يسألون الله لأزواجهم وذرياتهم أن يهديهم للإسلام .

(146/564)

وقال الإمام أحمد : حدثنا يَعْمَر بن بشر حدثنا عبد الله بن المبارك ، أخبرنا صفوان بن عمرو ، حدثني عبد الرحمن بن جبير بن نفير ، عن أبيه قال : جلسنا إلى المقداد بن الأسود

يومًا ، فمر به رجل فقال : طوبى لهاتين العينين اللتين رأتا رسول الله صلى الله عليه وسلم ! لوددنا أنا رأينا ما رأيت ، وشهدنا ما شهدت . فاستغضب ، فجعلت أعجبُ ، ما قال إلا خيرًا ! ثم أقبل إليه فقال : ما يحمل الرجل على أن يتمنى مَحْضَرًا غيبه الله عنه ، لا يدري لو شهده كيف كان يكون فيه ؟ والله لقد حضر رسول الله صلى الله عليه وسلم أقوام أكَبَّهم الله على مناخرهم في جهنم ، لم يجيبوه ولم يصدقوه ، أو لا تحمدون الله إذ أخرجكم لا تعرفون إلا ربكم مصدقين لما جاء به نبيكم ، قد كُفيتم البلاء بغيركم ؟ لقد بعث الله النبي صلى الله عليه وسلم على أشد حال بعث عليها نبيًا من الأنبياء في فترة من جاهلية ، ما يرون أن دينا أفضل من عبادة الأوثان . فجاء بفُرقان فَرَقَ به بين الحق والباطل ، وفَرَقَ بين الوالد وولده ، حتى إن كان الرجل ليرى والده وولده ، أو أخاه كافرًا ، وقد فتح الله قُفْل قلبه للإيمان ، يعلم أنه إن هلك دخل

(147/564)

النار ، فلا تقر عينه وهو يعلم أن حبيبه في النار ، وإنها التي قال الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ . وهذا إسناد صحيح ، ولم يخرجوه (1) .

وقوله : ﴿ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ قال ابن عباس ، والحسن ، وقتادة ، والسدي ، والربيع بن أنس : أئمة يقتدى بنا في الخير .

وقال غيرهم : هداة مهتدين [ودعاة] إلى الخير ، فأحبوا أن تكون عبادتهم متصلة بعبادة أولادهم وذرياتهم وأن يكون هداهم متعديًا إلى غيرهم بالنفع ، وذلك أكثر ثوابًا ، وأحسن مآبًا ؛ ولهذا ورد في صحيح مسلم ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : ولد صالح يدعو له ، أو علم ينتفع به من بعده ، أو صدقة جارية" (2) .

﴿ أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا (75) خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (76) قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا (77) ﴾ .

لما ذكر تعالى من أوصاف عباده المؤمنين ما ذكر من [هذه] الصفات الجميلة ، والأفعال والأقوال الجليلة – قال بعد ذلك كله : ﴿ أُوْلَئِك ﴾ أي : المتصفون بهذه ﴿ يُجْزَوْن ﴾ أي : يوم القيامة ﴿ الْغُرْفَةَ ﴾ وهي الجنة .

قال أبو جعفر الباقر ، وسعيد بن جبير ، والضحاك ، والسُّدِّيّ : سميت بذلك لارتفاعها .

﴿ بِمَا صَبَرُوا ﴾ أي : على القيام بذلك ﴿ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا ﴾ أي : في الجنة ﴿ تَحِيَّةً وَسَلاَمًا ﴾ أي : يُبْتَدرُون فيها بالتحية والإكرام ، ويلقون [فيها] التوقير والاحترام ، فلهم

السلام وعليهم السلام ، فإن الملائكة يدخلون عليهم من كل باب ، سلام عليكم بما صبرتم ، فنعم عقبى الدار .

---

(1) المسند (2/6) .

(7) صحيح مسلم برقم (1631) .

(148/564)

وقوله : ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أي : مقيمين ، لا يظعنون ولا يَحُولون ولا يموتون ، ولا يزولون عنها ولا يبغون عنها حولا كما قال تعالى : ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ [هود : 108] .

وقوله ﴿ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ أي : حسنت منظرا وطابت مَقيلا ومنزلا .

(149/564)

ثم قال تعالى : ﴿ قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي ﴾ أي : لا يبالي ولا يكترث بكم إذا لم تعبدوه ؛ فإنه إنما خلق الخلق ليعبدوه ويوحدوه ويسبحوه بكرة وأصيلا .

وقال مجاهد ، وعمرو بن شعيب : ﴿ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي ﴾ يقول : ما يفعل بكم ربي .

وقال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلا دُعَاؤُكُمْ ﴾ يقول : لولا إيمانكم ، وأخبر الله الكفار أنه لا حاجة له بهم إذ لم يخلقهم مؤمنين ، ولو كان له بهم حاجة لحبب إليهم الإيمان كما حببه إلى المؤمنين .

وقوله : ﴿ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ ﴾ أي : أيها الكافرون ﴿ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴾ أي : فسوف يكون تكذيبكم لزامًا لكم ، يعني : مقتضيا لهلاككم وعذابكم ودماركم في الدنيا والآخرة ، ويدخل في ذلك يوم بدر ، كما فسره بذلك عبد الله بن مسعود ، وأبي بن كعب ، ومحمد بن كعب القرظي ، ومجاهد ، والضحاك ، وقتادة ، والسدي ، وغيرهم .

وقال الحسن البصري : ﴿ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴾ يعني : يوم القيامة . ولا منافاة بينهما . والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن كثير حـ 6 صـ 130 . 134 ﴾

(150/564)

وقال أبو حيان :

﴿ والذين لا يشهدون الزور ﴾

عاد إلى ذكر أوصاف ﴿ عباد الرحمن ﴾ والظاهر أن المعنى لا يشهدون بالزور أو شهادة

الزور ، قاله عليّ والباقر فهو من الشهادة .

وقيل : المعنى لا يحضرون من المشاهدة والزور الشرك والصنم أو الكذب أو آلة الغناء أو أعياد النصارى .

أو لعبة كانت في الجاهلية أو النوح أو مجالس يعاب فيها الصالحون ، أقوال .

فالشرك قاله الضحاك وابن زيد ، والغناء قاله مجاهد ، والكذب قاله ابن جريج .

وفي الكشاف عن قتادة مجالس الباطل .

وعن ابن الحنفية : اللهو والغناء .

وعن مجاهد : أعياد المشركين و ﴿ اللغو ﴾ كل ما ينبغي أن يُلغى ويُطرح .

والمعنى ﴿ وإذا مروا ﴾ بأهل اللغو ﴿ مروا ﴾ معرضين عنهم مكرمين أنفسهم عن التوقف عليهم .

والخوض معهم لقوله ﴿ وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه ﴾ انتهى .

﴿ بآيات ربهم ﴾ هي القرآن .

﴿ لم يخروا عليها صماً وعمياناً ﴾ النفي متوجه إلى القيد الذي هو صم وعميان لا للخرور الداخل عليه ، وهذا الأكثر في لسان العرب أن النفي يتسلط على القيد ، والمعنى أنهم إذا ذكروا بها أَكَبّوا عليها حرصاً على استماعها ، وأقبلوا على المذكر بها بآذان واعية وأعين راعية ، بخلاف غيرهم من المنافقين وأشباههم ، فإنهم إذا ذكروا بها كانوا

مكبين عليها مقبلين على من يذكر بها في ظاهر الأمر ، وكانوا ﴿ صماً وعمياناً ﴾ حيث لا يعونها ولا يتبصرون ما فيها .

قال ابن عطية : بل يكون خرورهم سجّداً وبكياً كما تقول : لم يخرج زيد إلى الحرب جزعاً أي إنما خرج جريئاً معدماً ، وكان المسمع المذكر قائم القناة قويم الأمر فإذا أعرض كان ذلك خروراً وهو السقوط على غير نظام وترتيب ، وإن كان قد أشبه الذي يَخّر ساجداً لكن أصله أنه على غير ترتيب انتهى .

وقال السدّي ﴿ لم يخروا ﴾ ﴿ صماً وعمياناً ﴾ هي صفة للكفار ، وهي عبارة عن إعراضهم وجهدهم في ذلك .

(151/564)

وقرن ذلك بقولك : قعد فلان يتمنى ، وقام فلان يبكي ، وأنت لم تقصد الإخبار بقعود ولا قيام وإنما هي توطئات في الكلام والعبارة .

﴿ قرة أعين ﴾ كناية عن السرور والفرح ، وهو مأخوذ من القر وهو البرد .

يقال : دمع السرور بارد ، ودمع الحزن سخن ، ويقال : أقر الله عينك ، وأسخن الله عين العدو .

وقال أبو تمام :

فأما عيون العاشقين فأسخنت . . .

وأما عيون الشامتين فقرت

وقيل : مأخوذ من القرار أي يقر النظر به ولا ينظر إلى غيره .

وقال أبو عمرو : وقرة العين النوم أي آمناً لأن الأمن لا يأتي مع الخوف حكاه القفال ، وقرة العين فيمن ذكروا رؤيتهم مطيعين لله قاله ابن عباس والحسن وحضرمي كانوا في أول الإسلام يهتدي الأب والابن كافر والزوج والزوجة كافرة ، وكانت قرة عيونهم في إيمان أحبابهم .

وقال ابن عباس : قرة عين الولدان تراه يكتب الفقه والظاهر أنهم دعوا بذلك ليجابوا في الدنيا فيسروا بهم .

وقيل : سألوا أن يلحق الله بهم أولئك في الجنة ليتم لهم سرورهم انتهى .

ويتضمن هذا القول الأول الذي هو في الدنيا لأن ذلك نتيجة إيمانهم في الدنيا .

ومن الظاهر أنها لابتداء الغاية أي ﴿ هب لنا ﴾ من جهتهم ما تقربه عيوننا من طاعة وصلاح ، وجوز أن تكون للبيان قاله الزمخشري قال : كأنه قيل ﴿ هب لنا ﴾ ﴿ قرة أعين ﴾ ثم بينت القرة وفسرت بقوله ﴿ من أزواجنا وذريتنا ﴾ ومعناه أن يجعلهم الله لهم قرة أعين من قولك : رأيت منك أسداً أي أنت أسد انتهى .

وتقدم لنا أن ﴿ من ﴾ التي لبيان الجنس لا بد أن تتقدم المبين .

ثم يأتي بمن البيانية وهذا على مذهب من أثبت أنها تكون لبيان الجنس .

والصحيح أن هذا المعنى ليس بثابت لمن .

وقرأ ابن عامر والحرميان وحفص وذرياتنا على الجمع وباقي السبعة وطلحة على الإفراد .

وقرأ عبد الله وأبو الدرداء وأبو هريرة قرات على الجمع ، والجمهور على الإفراد .

(152/564)

ونكرت القرة لتنكير الأعين كأنه قال هب لنا منهم سروراً وفرحاً وجاء ﴿ أعين ﴾ بصيغة جمع القلة دون عيون الذي هو صيغة جمع الكثرة لأنه أريد أعين المتقين وهي قليلة بالإضافة إلى عيون غيرهم قاله الزمخشري .

وليس بجيد لأن أعين تنطلق على العشرة فما دونه من الجمع ، والمتقون ليست أعينهم عشرة بل هي عيون كثيرة جداً وإن كانت عيونهم قليلة بالنسبة إلي عيون غيرهم فهي من الكثرة بحيث تفوت العد .

وأفرد ﴿ إماماً ﴾ إما اكتفاء بالواحد عن الجمع ، وحسنه كونه فاصلة ويدل على الجنس

ولا لبس ، وأما لأن المعنى واجعل كل واحد ﴿ إماماً ﴾ وإما أن يكون جمع آمّ كحال وحلال ، وإما لاتحادهم واتفاق كلمتهم قالوا : واجعلنا إماماً واحداً دعوا الله أن يكونوا قدوة في الدين ولم يطلبوا الرئاسة قاله النخعي .

وقيل : في الآية ما يدل على أن الرئاسة في الدين يجب أن تطلب .

ونزلت في العشرة المبشَّرين بالجنة .

﴿ أولئك ﴾ إشارة إلى الموصوفين بهذه الصفات العشرة .

و ﴿ الغرفة ﴾ اسم معرف بأل فيعم أي الغرف كما جاء ﴿ وهم في الغرفات آمنون ﴾ وهي العلالي .

قال ابن عباس : وهي بيوت من زبرجد ودر وياقوت .

وقيل ﴿ الغرفة ﴾ من أسماء الجنة .

وقيل : السماء السابعة غرفة .

وقيل : هي أعلى منازل الجنة .

وقيل : المراد العلو في الدرجات والباء في ﴿ بما صبروا ﴾ للسبب .

وقيل : للبدل أي بدل صبرهم كما قال :

فليت لي بهم قوماً إذا ركبوا . . .

أي فليت لي بدلهم قوماً ولم يذكر متعلق الصبر مخصصاً ليعم جميع متعلقاته .

وقرأ الحسن وشيبة وأبو جعفر والحرميان وأبو عمرو وأبو بكر ﴿ ويُلَقّون ﴾ بضم الياء وفتح اللام والقاف مشددة .

وقرأ طلحة ومحمد اليماني وباقي السبعة بفتح الياء وسكون اللام وتخفيف القاف .

والتحية دعاء بالتعمير والسلام دعاء بالسلامة ، أي تحييهم الملائكة أو يحيي بعضهم بعضاً .

وقيل : يحيون بالتحف جمع لهم بينهم المنافع والتعظيم .

(153/564)

﴿ حسنت مستقراً ومقاماً ﴾ معادل لقوله في جهنم ﴿ ساءت مستقراً ومقاماً ﴾ .

ولما وصف عباده العباد وعدد ما لهم من صالح الأعمال أمر رسوله (صلى الله عليه وسلم) أن يصرح للناس بأن لا اكتراث لهم عند ربهم إنما هو العبادة والدعاء في قوله ﴿ لولا دعاؤكم ﴾ هو العبادة والظاهر أن ﴿ ما ﴾ نفي أي ليس ﴿ يعبأ بكم ربي لولا دعاؤكم ﴾ ويجوز أن تكون استفهامية فيها معنى النفي أي ، أي عبء يعبأ بكم ، و ﴿ دعاؤكم ﴾ مصدر أضيف إلى الفاعل أي لولا عبادتكم إياه أي لولا دعاؤكم وتضرعكم إليه أو ما يعبأ بتعذيبكم لولا دعاؤكم الأصنام آلهة .

وقيل : أضيف إلى المفعول أي لولا دعاؤه إياكم إلى طاعته .

والذي يظهر أن قوله ﴿ قل ما يعبأ بكم ﴾ خطاب لكفار قريش القائلين نسجد لما تأمرنا أي لا يحفل بكم ربي لولا تضرعكم إليه واستغاثتكم إياه في الشدائد .

﴿ فقد كذبتم ﴾ بما جاء به الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، فتستحقون العقاب ﴿ فسوف يكون ﴾ العقاب وهو ما أنتجه تكذيبكم ونفس لهم في حلوله بلفظة ﴿ فسوف يكون لزاماً ﴾ أي لازماً لهم لا ينفكون منه .

وقرأ عبد الله وابن عباس وابن الزبير : فقد كذب الكافرون وهو محمول على أنه تفسير لا قرآن ، والأكثرون على أن اللزام هنا هو يوم بدر وهو قول ابن مسعود وأُبَيّ .

وقيل : عذاب الآخرة .

وقيل : الموت ولا يحمل على الموت المعتاد بل القتل ببدر .

وقيل : التقدير ﴿ فسوف يكون ﴾ هو أي العذاب وقد صرح به من قرأ ﴿ فسوف يكون ﴾ العذاب ﴿ لزاماً ﴾ والوجه أن يترك اسم كان غير منطوق به بعد ما علم أنه مما توعد به لأجل الإبهام وتناول ما لا يكتنهه الوصف .

وعن ابن عباس ﴿ فسوف يكون ﴾ هو أي التكذيب ﴿ لزاماً ﴾ أي لازماً لكم لا تعطون توبة ذكره الزهراوي .

قال الزمخشري : والخطاب إلى الناس على الإطلاق ومنهم مؤمنون عابدون ومكذبون عاصون ، فخوطبوا بما وجد في جنسهم من العبادة والتكذيب ﴿ فقد كذبتم ﴾ يقول إذا أعلمتكم أن حكمي أني لا أعتد إلاّ بعبادتهم ، فقد خالفتم بتكذيبكم حكمي فسوف يلزمكم أثر تكذيبكم حتى يكبكم في النار .

ونظيره في الكلام أن يقول الملك لمن عصى عليه : إن من عادتي أن أحسن إلى من يطيعني ويتبع أمري ، فقد عصيت فسوف ترى ما أحل بك بسبب عصيانك .

وقرأ ابن جريج : فسوف تكون بتاء التأنيث أي فسوف تكون العاقبة ، وقرأ الجمهور ﴿ لزاماً ﴾ بكسر اللام .

وقرأ المنهال وأبان بن ثعلب وأبو السمال بفتحها مصدر يقول لزم لزوماً ولزاماً ، مثل ثبت ثبوتاً وثباتاً .

وأنشد أبو عبيدة عليّ كسر اللام لصخر الغي :

فإما ينج من حتف أرض . . .

فقد لقيا حتوفهما لزاماً

ونقل ابن خالويه عن أبي السمال أنه قرأ لزام على وزن حذام جعله مصدراً معدولاً عن اللزمة كفجار معدول عن الفجرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(155/564)

وقال الثعالبى :

ثم استمرت الآيات في صفة عباد اللّه المؤمنين بأَنْ نَفَى عنهم شهادة الزور ، و ﴿ يَشْهَدُونَ ﴾ في هذا الموضع ظاهر ، معناها : يُشَاهِدُون ويَحْضُرُون ، والزور : كل باطل زُوِّرَ ، وأعظمه الشرك ، وبه فسر الضَّحَّاكُ ، ومنه الغِنَاءُ ، وبه فَسَّرَ مجاهد ، وقال عليٌّ وغيره : معناه لا يشهدون بالزور ، فهي من الشهادة لا من المشاهدة ، والمعنى الأوَّلُ أعَمُّ . واللغو : كل سَقَطٍ من فعل أو قول ، وقال الثعلبيُّ : اللغو كل ما ينبغي أنْ يطرح ويُلْغَى ، انتهى . و ﴿ كِرَاماً ﴾ معناه : معرضين مستحيين ، يتجافون عن ذلك ، ويصبرون على الأذى فيه . قال *ع* : وإذا مَرَّ المسلم بمنكر فَكَرَمُهُ أنْ يُغَيِّرَهُ ، وحدود التغير معروفة .

(156/564)

وقوله تعالى : ﴿ والذين إِذَا ذُكِّرُواْ بئايات رَبِّهِمْ ﴾ يريدُ : ذُكِّرُوا بالقرآن أمر آخرتهم ومعادهم .

وقوله : ﴿ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمّاً وَعُمْيَاناً ﴾ يحتمل تأويلين : أحدهما : أنْ يكون المعنى : لم يكن خُرُورُهم بهذه الصفة ؛ بل يكونوا سُجّداً وبُكِيّاً ، وهذا كما تقول : لم يخرج زيد إلى الحرب جزعاً ، أي : إنما خرج جريئاً مِقْداماً ، وكأنَّ الذي يَخِرُّ أَصَمَّ أعمى هو المنافق أو الشَّاكُّ ، والتأويل الثاني : ذهب إليه الطبريُّ وهو أنَّ يخروا صماً وعمياناً هي صفة للكفار ، وهي عبارة عن إعراضهم .

وقال الفَرَّاءُ : ﴿ لَمْ يَخِرُّواْ ﴾ ، أي : لم يقيموا ، وهو نحو تأويل الطبري ، انتهى . وقال ابن العربيّ في «أحكامه» : قوله تعالى : ﴿ والذين إِذَا ذُكِّرُواْ بآيات رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمّاً وَعُمْيَاناً ﴾ .

قال علماؤنا : يعني الذين إذا قرأوا القرآن قرأوه بقلوبهم قراءةَ فهم وَتَثْبِيتٍ ، ولم يَنْثِرُوه الدَّقَلِ ، فإنَّ المرور عليه بغير فهم ولا تثبيت صَمَمٌ وعَمًى ، انتهى . وقُرَّةُ العين : من القر وهذا هو الأشهر ؛ لأَنَّ دمعَ السرور بارد ، ودَمْعَ الحُزْنِ سُخْنٌ ؛ فلهذا يقال : أَقَرَّ اللّه عينك ، وأسخن اللّه عين العَدُوِّ ، وقرة العين في الأزواج والذُّرِّيَّةِ أَنْ يراهم الإنسان مطيعين للَّه تعالى ؛ قاله ابن عباس والحسن وغيرهما ، وبَيَّن المقداد بن الأسود الوجه من ذلك بأَنَّه كان في أوَّلِ الإسلام يهتدي الأبُ ، والابن كافِرٌ ، والزوجُ والزوجة كافرة ، فكانت قرة أعينهم في إيمان أحبابهم .

﴿ واجعلنا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً ﴾ أي : اجعلنا يَأْتَمُّ بنا المتقون ، وذلك بأن يكون الداعي متقيا

قدوة وهذا هو قصد الداعي ، قال النخعي لم يطلبوا الرياسة ، بل أنْ يكونوا قدوة في الدين ، وهذا حَسَنٌ أَنْ يُطْلَبَ وَيُسْعَى له .

(157/564)

قال الثعلبي : قال ابن عباس : المعنى : واجعلنا أئمة هدى ، انتهى ، وهو حسن ، لأَنَّهُم طلبوا أن يجعلهم أهلاً لذلك . والغرفة من منازل الجنة وهي الغرف فوق الغرف ، وهي اسم جنس ؛ كما قال : [من الهزج]

وَلَوْلاَ الْحَبَّةُ السَّمْرَا . . . ءُ لَمْ نَحْلُلْ بِوَادِيكُم

* ت * : وأخرج أبو القاسم ، زاهر بن طاهر بن محمد بن الشحامي عن أنس بن مالك قال : قال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم : " إِنَّ فِي الجَنَّةِ لَغُرَفاً لَيْسَ لَهَا مَعَالِيقُ مِنْ فَوْقِهَا وَلاَ عِمَادٌ مِنْ تَحْتِهَا ، قِيلَ : يَا رَسُولَ اللّه ، وَكَيْفَ يَدْخُلُهَا أَهْلُهَا ؟ قال : يَدْخُلُونَهَا أَشْبَاهَ الطَّيْرِ ، قيل : هِيَ يَا رَسُولَ اللّهِ لِمَنْ ؟ قال : هِيَ لأَهْلِ الأَسْقَامِ وَالأَوْجَاعِ وَالْبَلْوَى " انتهى من «التذكرة» . وقرأ حمزة وغيره : «يَلْقَوْنَ» بفتح الياء وسكون اللام وتخفيف القاف .

(158/564)

وقوله تعالى : ﴿ قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ ﴾ الآية ، ما نافية وتحتمل التقرير ، ثم الآية تحتمل أنْ تكون خطاباً لجميع الناس ، فكأنه قال لقريش منهم : ما يبالي اللّه بكم ، ولا ينظر إليكم لولا عبادتكم إيَّاه ، أَنْ لو كانت إذ ذلك الذي يعبأ بالبشر من أجله ؛ قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجن والإنس إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : 56] .

وقال النقاش وغيره : المعنى : لولا استغاثتكم إليه في الشدائد ، وقرأ ابن الزبير وغيره : «فَقَدْ كَذَّبَ الْكَافِرُونَ» وهذا يؤيِّد أَنَّ الخطاب بما يعبأ هو لجميع الناس ، ثم يقول لقريش : فأنتم قد كذبتم ، ولم تعبدوه فسوف يكون العذاب أو التكذيب الذي هو سبب العذاب لزاماً ، ويحتمل أنْ يكون الخطابُ بالآيتين لقريش خاصة وقال الداوديُّ : وعن ابن عُيَيْنَةَ : ﴿ لَوْلاَ دُعَآؤُكُمْ ﴾ معناه : لولا دعاؤكم إيَّاهُ لتيطعوه ، انتهى ، قال ابن العربي في «أحكامه» : زعم بعض الأدباء أنَّ ﴿ لَوْلاَ دُعَآؤُكُمْ ﴾ معناه : لولا سؤالُكم إياه وطلبُكم منه ، ورأى أنَّه مصدر أُضِيفَ إلى فاعل ، وليس كما زعم ؛ وإنما هو مصدر أضيف إلى مفعول ، والمعنى : قل يا محمد للكفار : لولا دعاؤكم ببعثة الرسول إليكم وتبين الأدلة لكم فقد كذبتم ؛ فسوف يكون لزاماً ؛ ذكر هذا عند قوله تعالى : ﴿ لاَ تَجْعَلُواْ دُعَاءَ الرسول بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً ﴾ [النور : 63]

في آخر سورة النور ، انتهى .

* ت * والحق أنَّ الآية محتملة لجميع ما تقدم ، ومَنِ ادَّعى التخصيص فعليه بالدليل ، والله أعلم .

ويعبأ : مشتق من العِبْءِ وهو الثِّقَلُ الذي يُعَبَّأُ ويرتب كما يعبأ الجيش .

قال الثعلبيُّ : قال أبو عُبَيْدَةَ : يقالُ : ما عَبَأْتُ به شيئاً ، أي : لم أَعُدَّه شيئاً فوجوده وعدمه سواء ، انتهى .

(159/564)

وقال العراقي : ﴿ مَا يَعْبَأُ ﴾ أي : ما يبالي ، انتهى . وأكثر الناس على أن اللزام المشار إليه هو يوم بدر ، وقالت فرقة : هو توعد بعذاب الآخرة ، وقال ابن عباس : اللزام الموت ، وقال البخاريُّ : ﴿ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَاماً ﴾ أي : هلكةً ، انتهى . هـ ﴿ الجواهر الحسان حـ 3 صـ ﴾

(160/564)

أ

(161/564)

وقال أبو السعود :

﴿ والذين لاَ يَشْهَدُونَ الزُّورَ ﴾

لا يُقيمون الشَّهادةَ الكاذبةَ أو لا يحضُرون محاضرَ الكذبِ فإنَّ مشاهدةَ الباطل مشاركةٌ فيه

﴿ وَإِذَا مَرُّواْ ﴾ على طريقِ الاتفاقِ ﴿ باللغو ﴾ أي ما يجبُ أنْ يُلغى ويُطرحَ مَّما لا خيرَ فيه ﴿ مَرُّواْ كِراماً ﴾ معرضين عنه مكرِمين أنفسَهم عن الوقوف عليه والخوض فيه ومن ذلك الإغضاءُ عن الفواحش والصَّفحُ عن الذُّنوب والكنايةُ عمَّا يُستهجنُ التَّصريحُ به .

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِآيات رَبِّهِمْ ﴾

المنطويةِ على المواعظ والأحكامِ ﴿ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمّاً وَعُمْيَاناً ﴾ أي أكبُّوا عليها سامعين بآذانٍ واعيةٍ مجتلين لها بعيون راعية وإنما عبَّر عن ذلك بنفي الضِّدِّ تعريضاً بما يفعله الكفرةُ والمنافقون وقيل الضَّميرُ لمعاصي المدلولِ عليها باللغو .

(162/564)

﴿ والذين يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أزواجنا وذرياتنا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ بتوفيقهم للطَّاعةِ وحيازة الفضائلِ فإنَّ المؤمنَ إذا ساعده أهلُه في طاعةِ الله عزَّ وجلَّ وشاركوه فيها يُسرُّ بهم قلبُه وتقرُّ بهم عينُه لما يشاهدُه من مشايعتهم له في مناهجِ الدِّينِ وتوقُّعِ لحوقِهم به في الجنَّة حسبما وعد بقوله تعالى : ﴿ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ ومِن ابتدائيةٌ أو بيانيةٌ وقرىء وذريتنا . وتنكيرُ الأعينِ لإرادة تنكيرِ القُرَّة تعظيماً . وتقليلُها لأنَّ المرادَ أعينُ المتَّقين ولا ريبَ في قلَّتِها نظراً إلى غيرِها ﴿ واجعلنا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً ﴾ أي اجعلنا بحيثُ يقتدون بنا في إقامة مراسم الدِّين بإفاضة العلم والتَّوفيقِ للعمل . وتوحيدُه للدّلالة على الجنس وعدم الالتباس كقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ﴾ أو لأنَّ المرادَ واجعلْ كلَّ واحدٍ مّنا إماماً أو لأنَّهم كنفس واحدةٍ لاتّحاد طريقتهم واتّفاق كلمتِهم كذا قالُوا . وأنت خبيرٌ بأن مدارَ الكلِّ صدورُ هذا الدُّعاء إما عن الكلِّ بطريق المعيَّةِ وأنَّه محالٌ لاستحالة اجتماعِهم في عصرٍ واحدٍ فما ظنُّك باجتماعهم في مجلسٍ واحدٍ واتّفاقِهم على كلمةٍ واحدةَ وإما عن كلِّ واحدٍ بطريق تشريك غيره في استدعاءِ الإمامةِ وأنَّه ليس بثابتٍ جزْماً بل الظَّاهرُ صدورُه عنهم بطريقِ الانفرادِ وأنَّ عبارةَ كلِّ واحدٍ منهم عند الدُّعاء واجعلني للمتَّقين إماماً خلا أنه حُكيت عباراتُ الكلِّ بصيغة المتكلِّم مع الغيرِ للقصدِ إلى الإنجاز على طريقة قوله تعالى : ﴿ يا أَيُّهَا الرسل كُلُواْ مِنَ الطيبات واعملوا صالحا ﴾ وأُبقي إماماً على حاله ، وقيل : الإمام جمع آمّ بمعنى

قاصد كصيام جمع صائم ومعناه قاصدين لهم مُقتدين بهم . وإعادةُ الموصولِ في المواقع السَّبعةِ مع كفايةِ ذكرِ الصِّلات بطريقِ العطفِ على صلةِ الموصولِ الأولِ للإيذانِ بأنَّ

(163/564)

كلَّ واحدٍ مما ذُكر في حيِّزِ صلةِ الموصولاتِ المذكورة وصفٌ جليلٌ على حيالِه شأنٌ خُطيرٌ حقيقٌ بأنْ يُفردَ له موصوفٌ مستقلٌّ ولا يجعل شيءٌ من ذلكَ تتمة لغيرِه وتوسيط العاطفِ بين الموصولاتِ لتنزيلِ الاختلافِ العنوانيِّ منزلةَ الاختلاف الذاتيِّ كما في قوله

إلى الملكِ القَرمِ وابنِ الهُمَام . . . وَلَيْثِ الكَتَائبِ في المُزْدَحمْ

﴿ أولئك ﴾ إشارةٌ إلى المتَّصفين بما فُصِّل في حيِّزِ صلة الموصُولات الثمَّانيةِ من حيثُ اتّصافُهم به . وفيه دلالةٌ على أنَّهم متميّزون بذلك أكمل تميُّزٍ منتظِمون بسببه في سلك الأمورِ المُشاهَدة ، وما فيه من معنى البُعد للإيذان ببُعدِ منزلتهم في الفضلِ . وهو مبتدأٌ خبرُه قولُه تعالى : ﴿ يُجْزَوْنَ الغرفة ﴾ والجملة مستأنفةٌ لا محلَّ لها من الإعراب مبيّنةٌ لما لهم في الآخرةِ من السَّعادةِ الأبديَّةِ إثرَ بيانِ ما لهمُ في الدُّنيا من الأعمال السَّنيةِ . والغُرفة الدَّرجةُ العاليةُ من المنازل وكلُّ بناءٍ مرتفعٍ عالٍ أي يُثابون أعلى منازل الجنَّةِ وهي اسمُ جنسٍ أُريد به الجمع كقولِه تعالى : ﴿ وَهُمْ فِى الغرفات ءامِنُونَ ﴾ وقيل : هي اسمٌ من أسماء الجنَّةِ ﴾

بِمَا صَبَرُواْ ﴾ أي بصبرِهم على المشاقِّ من مضض الطَّاعاتِ ورفض الشَّهواتِ وتحمُّلِ المجاهدات ﴿ ويُلَقَّوْنَ فِيهَا ﴾ من جهةِ الملائكةِ ﴿ تَحِيَّةً وسلاما ﴾ أي يحييهم الملائكةُ ويدعُون لهم بطول الحياة والسَّلامةِ من الآفاتِ ، أو يُعطون التَّبقيةَ والتَّخليدَ مع السَّلامةِ من كلِّ آفةٍ ، وقيل : يُحيِّي بعضُهم بعضاً ويُسلِّم عليه . وقُرِىء يلقَون من لَقِي .

﴿ خالدين فِيهَا ﴾ لا يموتُون ولا يُخرجون ﴿ حَسُنَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً ﴾ الكلام فيه كالذي مرَّ في مقابلة .

(164/564)

﴿ قُلْ ﴾ أُمر رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بأنْ يبيِّن للنَّاسِ أنَّ الفائزينَ بتلك النَّعماءِ الجليلةِ التي يتنافسُ فيها المتنافسون إنَّما نالُوها بما عُدِّدَ من محاسنِهم ولوها لم يُعتدَّ بهم أصلاً أي قُل لهم كافَّةً مشافِهاً لهم بما صدرَ عن جنسهم من خيرٍ وشرَ ﴿ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّى لَوْلاَ دُعَاؤُكُمْ ﴾ أيْ أيُّ عبءٍ يُعبأُ بكم وأيُّ اعتدادٍ يُعتدُّ بكم لولا عبادتُكم له تعالى حسبما مرَّ تفصيلُه فإنَّ ما خُلق له الإنسانُ معرفتُه تعالى وطاعتُه وإلاَّ فهو وسائرُ البهائمِ سواءٌ . وقال الزَّجَّاجُ : معناه أيُّ وزنٍ يكون لكم عنده ، وقيل معناه ما يصنع بكم ربي لولا دعاؤه إيَّاكم إلى الإسلامِ وقيل : ما يصنعُ بعذابِكم لولا دعاؤكم معه آلهةً ويجوز أنْ تكونَ ما نافيةً ، وقوله

تعالى : ﴿ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ ﴾ بيانٌ لحال الكَفَرةِ من المخاطَبين كما أنَّ ما قبله بيانٌ لحال المُؤمنين منُهم أي فقد كذَّبتُم بما أخبرتُكم به وخالفتمُوه أيُّها الكَفَرةُ ولم تعملوا عملَ أولئك المذكورينَ وقيل : فقد قصَّرتمُ في العبادة من قولهم كذَب القتالُ إذا لم يُبالغ فيه . وقُرِىء فقد كذبَ الكافرون أي الكافرون منكُم لعمومِ الخطابِ للفريقينِ وفائدتُه الإيذانُ بأنَّ مناطَ فوزِ أحدِهما وخسرانِ الآخر مع الاتّحاد الجنسيّ المصحّحِ للاشتراكِ في الفوزِ ليس إلا اختلافُهما في الأعمال ﴿ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَاماً ﴾ أي يكون جزاءُ التكذيبِ أو أثرُه لازماً يحيقُ بكم لا محالةَ حتَّى يُكبكم في النَّارِ كما تُعربُ عنه الفاءُ الدَّالَّةُ على لزومِ ما بعدها لما قبلَها ، وإنَّما أُضمر من غير ذكرٍ للإيذان بغاية ظهوره وتهويل أمره وللتنبيه على أنه مَّما لا يُكتنهه البيانُ وقيل : يكون العذابُ لزاماً . وعن مجاهدٍ رحمه الله : هو القتلُ يومَ بدرٍ وأنه لُوزم بين القَتْلى وقُرِىء لَزاماً بالفتح بمعنى اللُّزومِ كالثَّباتِ والثُّبوتِ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير أبى السعود حـ 6 صـ ﴾

(165/564)

وقال الآلوسى :

﴿ والذين لاَ يَشْهَدُونَ الزُّورَ ﴾

أي لا يقيمون الشهادة الكاذبة كما روي عن علي كرم الله تعالى وجهه .

والباقر رضي الله تعالى عنه فهو من الشهادة ، و﴿ الزور ﴾ منصوب على المصدر أو بنزع الخافض أي شهادة الزور أو بالزور ، ويفهم من كلام قتادة أن الشهادة هنا بمعنى يعم ما هو المعروف منها ، أخرج عبد بن حميد .

وابن أبي حاتم عنه أنه قال : أي لا يساعدون أهل الباطل على باطلهم ولا يؤملونهم فيه .

وأخرج جماعة عن مجاهد أن المراد بالزور الغناء ، وروي نحوه عن محمد بن الحنفية رضي الله تعالى عنه ، وضم الحسن إليه النياحة ، وعن قتادة أنه الكذب ، وعن عكرمة أنه لعب كان في الجاهلية ، وعن ابن عباس أنه صنم كانوا يلعبون حوله سبعة أيام ، وفي رواية أخرى عنه أنه عيد المشركين وروي ذلك عن الضحاك ، وعن هذا أنه الشرك فيشهدون على هذه الأقوال من الشهود بمعنى الحضور ، و﴿ الزور ﴾ مفعول به بتقدير مضاف أي محال الزور ؛ وجوز أن يراد بالزور ما يعم كل شيء باطل مائل عن جهة الحق من الشرك والكذب والغناء والنياحة ونحوها فكأنه قيل : لا يشهدون مجالس الباطل لما في ذلك من الإشعار بالرضا به ، وأيضاً من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه ﴿ وَإِذَا مَرُّواْ ﴾ على طريق الاتفاق ﴿ باللغو ﴾ بما ينبغي أن يلغى ويطرح مما لا خير فيه ﴿ مَرُّواْ كِراماً ﴾ أي مكرمين أنفسهم عن الوقوف عليه والخوض فيه معرضين عنه .

وفسر الحسن اللغو كما أخرج عنه ابن أبي حاتم بالمعاصي ، وأخرج هو .

وابن عساكر عن إبراهيم بن ميسرة قال : بلغني أن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه مرَّ بلهو معرضاً ولم يقف فقال النبي صلى الله عليه وسلم لقد أصبح ابن مسعود وأمسى كريماً ثم تلا إبراهيم ﴿ وَإِذَا مَرُّواْ بِاللَّغْوِ مَرُّواْ كِراماً ﴾ .

(166/564)

وقيل : المراد باللغو الكلام الباطل المؤذي لهم أو ما يعمه والفعل المؤذي وبالكرم العفو والصفح عمن آذاهم ، وإليه يشير ما أخرجه جماعة عن مجاهد أنه قال في الآية : إذا أوذوا صفحوا وجعل الكلام على هذا بتقدير مضاف أي إذا مروا بأهل اللغو أعرضوا عنهم كما قيل :

ولقد أمر على اللئيم يسبني . . .

فمضيت ثمت قلت لا يعنيني

ولا يخفى أنه ليس بلازم ، وقيل : اللغو القول المستهجن ، والمراد بمرورهم عليه إتيانهم على ذكره وبكرمهم الكف عنه والعدول إلى الكناية ، وإليه يومىء ما أخرجه جماعة عن مجاهد أيضاً أنه قال : فيها كانوا إذا أتوا على ذكر النكاح كنوا عنه ، وعمم بعضهم وجعل ما ذكر من باب التمثيل ، وجوز أن يراد باللغو الزور بالمعنى العام أعني الأمر الباطل عبر عنه تارة

بالزور لميله عن جهة الحق وتارة باللغو لأنه من شأنه أن يلغى ويطرح ، ففي الكلام وضع المظهر موضع المضمر ، والمعنى والذين لا يحضرون الباطل وإذا مروا به على طريق الاتفاق أعرضوا عنه .

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ ﴾

القرآنية المنطوية على المواعظ والأحكام ﴿ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمّاً وَعُمْيَاناً ﴾ أي أكبوا عليها سامعين بآذان واعية مبصرين بعيون راعية فالنفي متوجه إلى القيد على ما هو الأكثر في "لسان العرب" ، وفي التعبير بما ذكر دون أكبوا عليها سامعين مبصرين ونحوه تعريض لما عليه الكفرة والمنافقون إذا ذكروا بآيات ربهم ، والخرور السقوط على غير نظام وترتيب ، وفي التعبير به مبالغة في تأثير التذكير بهم ، وقيل : ضمير عليها للمعاصي المدلول عليها باللغو ، والمعنى إذا ذكروا بآيات ربهم المتضمنة للنهي عن المعاصي والتخويف لمرتكبها لم يفعلوها ولم يكونوا كمن لا يسمع ولا يبصر وهو كما ترى .

﴿ والذين يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزواجنا وذرياتنا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾

بتوفيقهم للطاعة كما روي عن ابن عباس .

والحسن .

وعكرمة .

ومجاهد فإن المؤمن الصادق إذا رأى أهله قد شاركوه في الطاعة قرت بهم عينه وسر قلبه وتوقع نفعهم له في الدنيا حياً وميتاً ولحوقهم به في الأخرى ، وذكر أنه كان في أول الإسلام يهتدي الأب والابن كافر والزوج والزوجة كافرة فلا يطيب عيش ذلك المهتدي فكان يدعو بما ذكر ، وعن ابن ابن عباس قرة عين الوالد بولده أن يراه يكتب الفقه ، ومن ابتدائية متعلقة بهب أي هب لنا من جهتهم .

وجوز أن تكون بيانية كأنه قيل : هب لنا قرة أعين ثم بينت القرة وفسرت بقوله سبحانه : ﴿ مِنْ أزواجنا وذرياتنا ﴾ وهذا مبني على مجيء من للبيان وجواز تقدم المبين على المبين ، وقرة العين كناية عن السرور والفرح وهو مأخوذ من القر وهو البرد لأن دمعة السرور باردة ولذا يقال في ضده : أسخن الله تعالى عينه ، وعليه قول أبي تمام :

فأما عيون العاشقين فأسخنت . . .

وأما عيون الشامتين فقرت

وقيل : هو مأخوذ من القرار لأن ما يسر يقر النظر به ولا ينظر إلى غيره ، وقيل : في الضد أسخن الله تعالى عينه على معنى جعله خائفاً مترقباً ما يحزنه ينظر يميناً وشمالاً وأماماً ووراءً لا يدري من أين يأتيه ذلك بحيث تسخن عينه لمزيد الحركة التي تورث السخونة ، وفيه تكلف ، وقيل : ﴿ أَعْيُنٍ ﴾ بالتنكير مع أن المراد بها أعين القائلين وهي معينة لقصد

تنكير المضاف للتعظيم وهو لا يكون بدون تنكير المضاف إليه ، وجمع القلة على ما قال الزمخشري لأن أعين المتقين قليلة بالإضافة إلى عيون غيرهم .

وتعقبه أبو حيان .

(168/564)

وابن المنير بأن المتقين وإن كانوا قليلاً بالإضافة إلى غيرهم إلا أنهم في أنفسهم على كثرة من العدد والمعتبر في إطلاق جمع القلة أن يكون المجموع قليلاً في نفسه لا بالإضافة إلى غيره ، وأجيب بأن المراد أنه استعمل الجمع المذكور في معنى القلة مجرداً عن العدد بقرينة كثرة القائلين وعيونهم ، واستظهر ابن المنير أن ذلك لأن المحكي كلام كل واحد من المتقين فكأنه قيل : يقول كل واحد منهم هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين فتدبر وتأمل في وجه اختيار هذا الجمع في غير هذا الموضع مما لا يتأتى فيه ما ذكروه ههنا .

وأنا أظن أنه اختير الأعين جمعاً للعين الباصرة والعيون جمعاً للعين الجارية في جميع القرن الكريم ويخطر لي في وجه ذلك شيء لا أظنه وجيهاً ولعلك تفوز بما يغنيك عن ذكره والله تعالى ولي التوفيق .

وقرأ طلحة .

وأبو عمرو .

وأهل الكوفة غير حفص ﴿ وذرياتنا ﴾ على الافراد .

وقرأ عبد الله .

وأبو الدرداء .

وأبو هريرة ﴿ قَرَأْتَ ﴾ على الجمع ﴿ واجعلنا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً ﴾ أي اجعلنا بحيث يقتدون بنا في إقامة مراسم الدين بإفاضة العلم والتوفيق للعمل ، وإمام يستعمل مفرداً وجمعاً كهجان والمراد به هنا الجمع ليطابق المفعول الأول لجعل ، واختير على أئمة لأنه أوفق بالفواصل السابقة واللاحقة ، وقيل : هو مفرد وأفرد مع لزوم المطابقة لأنه اسم جنس فيجوز إطلاقه على معنى الجمع مجازاً بتجريده من قيد الوحدة أو لأنه في الأصل مصدر وهو لكونه موضوعاً للماهية شامل للقليل والكثير وضعاً فإذا نقل لغيره قد يراعى أصله أو لأن المراد واجعل كل واحد منا أو لأنهم كنفس واحدة لاتحاد طريقتهم واتفاق كلمتهم .

(169/564)

وفي إرشاد العقل السليم بعد نقل ما ذكر أن مدار التوجيه على أن هذا الدعاء صدر عن الكل على طريق المعية وهو غير واقع أو عن كل واحد وهو غير ثابت ، فالظاهر أنه صدر

عن كل واحد قول واجعلني للمتقين إماماً فعبر عنهم للإيجاز بصيغة الجمع وأبقى ﴿ إِمَاماً ﴾ على حاله .

وتعقب بأن فيه تكلفاً وتعسفاً مع مخالفته للعربية وأنه ليس مداره على ذلك بل أنهم شركوا في الحكاية في لفظ واحد لاتحاد ما صدر عنهم مع أنه يجوز اختيار الثاني لأن التشريك في الدعاء أدعى للإجابة فاعرف ولا تغفل .

وروي عن مجاهد أن إماماً جمع آم بمعنى قاصد كصيام جمع صائم ، والمعنى اجعلنا قاصدين للمتقين مقتدين بهم ، وما ذكر أولاً أقرب كما لا يخفى وليس في ذلك كما قال النخعي : طلب للرياسة بل مجرد كونهم قدوة في الدين وعلماء عاملين ، وقيل : في الآية ما يدل على أن الرياسة في الدين مما ينبغي أن يطلب ، وإعادة الموصول في المواقع السبعة مع كفاية ذكر الصلات بطريق العطف على صلة الموصول الأول للإيذان بأن كل واحد مما ذكر في حيز صلة الموصولات المذكورة وصف جليل على حياله له شأن خطير حقيق بأن يفرد له موصوف مستقل ولا يجعل شيء من ذلك تتمة لغيره ، وتوسيط العاطف بين الموصولات لتنزيل الاختلاف العنواني منزلة الاختلاف الذاتي كما عرفته فيما سبق غير مرة .

﴿ أولئك ﴾ إشارة إلى المتصفين بما فصل في حيز الصلات من حيث اتصافهم به ؛ وفيه دلالة على أنهم متميزون منتظمون بسببه في سلك الأمور المشاهدة ، وما فيه من معنى البعد للإيذان ببعد منزلتهم في الفضل ، وهو مبتدأ خبره جملة قوله تعالى : ﴿ يُجْزَوْنَ الغرفة

﴿ والجملة على الأقرب استئناف لا محل لها من الإعراب مبينة لما لهم في الآخرة من السعادة الأبدية إثر بيان ما لهم في الدنيا من الأعمال السنية ، و ﴿ الغرفة ﴾ الدرجة العالية من المنازل وكل بناء مرتفع عال ، وقد فسرت هنا على ما روي عن ابن عباس ببيوت من زبرجد ودر وياقوت .

(170/564)

وأخرج الحكيم الترمذي في "نوادر الأصول" عن سهل بن سعد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه : " قال فيها بيوت من ياقوتة حمراء أو زبرجدة خضراء أو درة بيضاء ليس فيها فصم ولا وصم " ، وقيل : أعلى منازل الجنة ، ولا يأباه الخبر لجواز أن تكون الغرف الموصوفة فيه هناك ، وروي عن الضحاك أنها الجنة ، وقيل : السماء السابعة ، وعلى تفسيرها بجمع ، ويؤيده قوله تعالى : ﴿ وَهُمْ فِى الغرفات ءامِنُونَ ﴾ [سبأ : 37] وقرىء فيه في الغرفة يكون المراد بها الجنس وهو يطلق على الجمع كما سمعت آنفاً ، وإيثار الجمع هنالك على ما قال الطيبي لأنها رتبت على الإيمان والعمل الصالح ولا خفاء في تفاوت الناس فيهما وعلى ذلك تتفاوت الأجزية ، وههنا رتب على مجموع الأوصاف الكاملة فلذا جىء بالواحد دلالة على أن الغرف لا تتفاوت ﴿ بِمَا صَبَرُواْ ﴾ أي بسبب صبرهم على

أن الباء للسببية وما مصدرية ، وقيل : هي للبدل كما في قوله :

فليت لي بهم قوماً إذا ركبوا . . .

شنوا الاغارة فرساناً وركبانا

أي بدل صبرهم ولم يذكر متعلق الصبر ليعم ما سلف من عبادتهم فعلاً وتركاً وغيره من أنواع العبادة والكل مدمج فيه فإنه إما عن المعاصي وإما على الطاعات وإما على الله تبارك وتعالى وهو أعلى منهما ويعلم من ذلك وجه إيثار ﴿ صَبَرُواْ ﴾ على فعلوا ﴿ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وسلاما ﴾ أي تحييهم الملائكة عليهم السلام ويدعون لهم بطول الحياة والسلامة عن الآفات أو يحيي بعضهم بعضاً ويدعو له بذلك ، والمراد من الدعاء به التكريم وإلقاء السرور والمؤانسة وإلا فهو متحقق لهم ويعطون التبقية والتخليد مع السلامة من كل آفة فليس هناك دعاء أصلاف .

وقرأ طلحة .

ومحمد اليماني .

وأهل الكوفة غير حفص ﴿ يُلْقُون ﴾ بفتح الياء وسكون اللام وتخفيف القاف .

﴿ خالدين فِيهَا ﴾ لا يموتون ولا يخرجون ، وهو حال من ضمير ﴿ يُجْزَوْنَ ﴾ [الفرقان : 75] أو من ضمير ﴿ يُلْقُون ﴾ [الفرقان : 75] .

﴿ حَسُنَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً ﴾ مقابل ﴿ سَاءتْ مُسْتَقَرّاً ﴾ [الفرقان : 66] معنى ومثله إعراباً فتذكر ولا تغفل .

﴿ قُلْ ﴾ أمر لرسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يبين للناس أن الفائزين بتلك النعماء الجليلة التي يتنافس فيها المتنافسون إنما نالوها بما عدد من محاسنهم ولولاها لم يعتد بهم أصلاً أي قل للناس مشافها لهم بما صدر عن جنسهم من خير وشر ﴿ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّى ﴾ أي أي عبء يعبأ بكم وأي اعتداد يعتد بكم ﴿ لَوْلاَ دُعَاؤُكُمْ ﴾ أي عبادتكم له عز وجل حسبما مر تفصيله ، فإن ما خلق له الإنسان معرفة الله تعالى وطاعته جل وعلا وإلا فهو والبهائم سواء فما متضمنة لمعنى الاستفهام وهي في محل النصب وهي عبارة عن المصدر ، وأصل العبء الثقل وحقيقة قولهم : ما عبأت به ما اعتددت له من فوادح همي ومما يكون عبأ على كما يقول : ما اكترثت له أي ما أعددت له من كوارثي ومما يهمني .

وقال الزجاج : معناه أي وزن يكون لكم عنده تعالى لولا عبادتكم ، ويجوز أن تكون ما نافية أي ليس يعبأ ، وأياً ما كان فجواب لولا محذوف لدلالة ما قبله عليه أي لولا دعاؤكم لما اعتد بكم ، وهذا بيان لحال المؤمنين من المخاطبين .

وقوله سبحانه : ﴿ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ ﴾ بيان لحال الكفرة منهم ، والمعنى إذا أعلمتكم أن حكمي أني لا أعتد بعبادي إلا لعبادتهم فقد خالفتم حكمي ولم تعملوا عمل أولئك

المذكورين ، فالفاء مثلها في قوله : فقد جئنا خراساناً والتكذيب مستعار للمخالفة ، وقيل : المراد فقد قصرتم في العبادة على أنه من قولهم : كذب القتال إذا لم يبالغ فيه ، والأول أولى وإن قيل : إن المراد من التقصير في العبادة تركها .

وقرأ عبد الله .

وابن عباس .

(172/564)

وابن الزبير ﴿ فَقَدْ كَذَّبَ الكافرون ﴾ وهو على معنى كذب الكافرون منكم لعموم الخطاب للفريقين على ما أشرنا إليه وهو الذي اختاره الزمخشري واستحسنه صاحب الكشف ، واختار غير واحد أنه خطاب لكفرة قريش ، والمعنى عليه عند بعض ما يعبأ بكم لولا عبادتكم له سبحانه أي لولا إرادته تعالى التشريعية لعبادتكم له تعالى لما عبأ بكم ولا خلقكم ، وفيه معنى من قوله تعالى : ﴿ مَا خَلَقْتَ الجن والإنس إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : 56] وقيل : المعنى ما يعبأ بكم لولا دعاؤه سبحانه إياكم إلى التوحيد على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم أي لولا إرادة ذلك .

وقيل : المعنى ما يبالي سبحانه بمغفرتكم لولا دعاؤكم معه آلهة أو ما يفعل بعذابكم لولا

شرككم كما قال تعالى : ﴿ مَّا يَفْعَلُ اللهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ ﴾ [النساء : 147] ، وقيل : المعنى ما يعبأ بعذابكم لولا دعاؤكم إياه تعالى وتضرعكم إليه في الشدائد كما قال تعالى : ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللهَ ﴾ [العنكبوت : 65] وقال سبحانه : ﴿ فأخذناهم بالبأساء والضراء لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴾ [الأنعام : 42] ، وقيل : المعنى ما خلقكم سبحانه وله إليكم حاجة إلا أن تسألوه فيعطيكم وتستغفروه فيغفر لكم ، وروي هذا عن الوليد بن الوليد رضي الله تعالى عنه .

وأنت تعلم أن ما آثره الزمخشري لا ينافي كون الخطاب لقريش من حيث المعنى فقد خصص بهم في قوله تعالى : ﴿ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ ﴾ .

﴿ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَاماً ﴾ أي جزاء التكذيب أو أثره لازماً يحيق بكم حتى يكبكم في النار كما يعرب عنه الفاء الدالة على لزوم ما بعدها لما قبلها فضمير ﴿ يَكُونَ ﴾ لمصدر الفعل المتقدم بتقدير مضاف أو على التجوز ، وإنما لم يصرح بذلك للإيذان بغاية ظهوره وتهويل أمره وللتنبيه على أنه مما لا يكتنهه البيان .

(173/564)

وقيل : الضمير للعذاب ، وقد صرح به من قرأ ﴿ يَكُونَ العذابِ لِزَاماً ﴾ ، وصح عن ابن مسعود أن اللزام قتل يوم بدر ، وروي عن أبي .

ومجاهد .

وقتادة .

وأبي مالك ولعل إطلاقه على ذلك لأنه لوزم فيه بين القتلى ﴿ لِزَاماً ﴾ .

وقرأ ابن جريج تكون بتاء التأنيث على معنى تكون العاقبة ، وقرأ المنهال ، وأبان بن ثعلب .

وأبو السمال ﴿ لِزَاماً ﴾ بفتح اللام مصدر لزم يقال : لزم لزوماً ولزاماً كثبت ثبوتاً وثباتاً ، ونقل ابن خالويه عن أبي السمال ﴿ لِزَاماً ﴾ على وزن حذام جعله مصدراً معدولاً عن اللزمة كفجار المعدول عن الفجرة والله تعالى أعلم هذا . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 19 صـ ﴾

(174/564)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ

يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (68) ﴾

قوله ﴿ والذين لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إلها ءَاخَرَ ﴾ : لما فرغ من ذكر إتيانهم بالطاعات شرع في بيان اجتنابهم للمعاصي ، فقال : والذي لا يدعون مع الله سبحانه رباً من الأرباب .

والمعنى : لا يشركون به شيئاً ، بل يوحدونه ، ويخلصون له العبادة والدعوة ﴿ وَلاَ يَقْتُلُونَ النفس التى حَرَّمَ الله ﴾ أي : حرّم قتلها ﴿ إِلاَّ بالحق ﴾ أي : يحقّ أن تقتل به النفوس من كفر بعد إيمان ، أو زنا بعد إحصان ، أو قتل نفس بغير نفس ﴿ وَلاَ يَزْنُونَ ﴾ أي : يستحلون الفروج المحرّمة بغير نكاح ، ولا ملك يمين ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذلك ﴾ أي : شيئاً مما ذكر ﴿ يَلْقَ ﴾ في الآخرة ﴿ أَثَاماً ﴾ ، والأثام في كلام العرب : العقاب .

قال الفراء : آثمه الله يؤثمه أثاماً وآثاماً ، أي : جازاه جزاء الإثم .

وقال عكرمة ، ومجاهد : إن أثاماً وادٍ في جهنم جعله الله عقاباً للكفرة .

وقال السديّ : جبل فيها .

وقرىء " يلق " بضم الياء ، وتشديد القاف .

قال أبو مسلم : والأثام والإثم واحد ، والمراد هنا جزاء الآثام ، فأطلق اسم الشيء على جزائه .

وقرأ الحسن " يلق أياماً " جمع يوم يعني : شدائد ، والعرب تعبر عن ذلك بالأيام ، وما أظنّ هذه القراءة تصح عنه :

﴿ يضاعف لَهُ العذاب ﴾ : قرأ نافع وابن عامر وحمزة والكسائي : " يضاعف ، ويخلد " بالجزم ، وقرأ ابن كثير " يضعف " بتشديد العين وطرح الألف والجزم ، وقرأ طلحة بن سليمان : " نضعف " بضم النون ، وكسر العين المشدّدة والجزم ، وهي : قراءة أبي جعفر وشيبة .

وقرأ عاصم في رواية أبي بكر بالرفع في الفعلين على الإستئناف .

وقرأ طلحة بن سليمان : " وتخلد " بالفوقية خطاباً للكافر .

(175/564)

وروي عن أبي عمرو أنه قرأ " ويخلد " بضم الياء التحتية ، وفتح اللام .

قال أبو عليّ الفارسي : وهي غلط من جهة الرواية ، ووجه الجزم في يضاعف : أنه بدل من يلق لاتحادهما في المعنى ، ومثله قول الشاعر :

إن على الله أن تبايعا . . . تؤخذ كرهاً أو تجيء طائعاً

والضمير في قوله : ﴿ وَيَخْلُدْ فِيهِ ﴾ راجع إلى العذاب المضاعف ، أي : يخلد في العذاب المضاعف ﴿ مُهَاناً ﴾ ذليلاً حقيراً .

﴿ إِلاَّ مَن تَابَ وَءامَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صالحا ﴾ قيل : هو استثناء متصل ، وقيل : منقطع .

قال أبو حيان : لا يظهر الاتصال ؛ لأن المستثنى منه محكوم عليه بأنه يضاعف له العذاب ، فيصير التقدير : إلاّ من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً ، فلا يضاعف له العذاب ، ولا يلزم من انتفاء التضعيف انتفاء العذاب غير المضعف .

قال : والأولى عندي : أن تكون منقطعاً أي : لكن من تاب .

قال القرطبي : لا خلاف بين العلماء أن الاستثناء عام في الكافر والزاني .

واختلفوا في القاتل من المسلمين .

وقد تقدّم بيانه في النساء والمائدة ، والإشارة بقوله : ﴿ فأولئك يُبَدّلُ الله سَيّئَاتِهِمْ حسنات ﴾ إلى المذكورين سابقاً ، ومعنى : تبديل السيئات حسنات : أنه يمحو عنهم المعاصي ، ويثبت لهم مكانها طاعات .

قال النحاس : من أحسن ما قيل في ذلك : أنه يكتب موضع كافر مؤمن ، وموضع عاص مطيع .

قال الحسن : قوم يقولون التبديل في الآخرة ، وليس كذلك إنما التبديل في الدنيا يبدل الله لهم إيماناً مكان الشرك ، وإخلاصاً من الشك ، وإحصاناً من الفجور .

قال الزجاج : ليس يجعل مكان السيئة الحسنة ، ولكن يجعل مكان السيئة التوبة ، والحسنة مع التوبة .

وقيل : إن السيئات تبدّل بحسنات ، وبه قال جماعة من الصحابة ، ومن بعدهم .

وقيل : التبديل عبارة عن الغفران أي : يغفر الله لهم تلك السيئات ، لا أن يبدلها حسنات .

(176/564)

وقيل : المراد بالتبديل : أن يوفقه لأضداد ما سلف منه ﴿ وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾

هذه الجملة مقرّرة لما قبلها من التبديل .

﴿ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صالحا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى الله مَتَاباً ﴾ أي : من تاب عما اقترف ، وعمل عملاً صالحاً بعد ذلك ، فإنه يتوب بذلك إلى الله متاباً أي : يرجع إليه رجوعاً صحيحاً قوياً .

قال القفال : يحتمل أن تكون الآية الأولى فيمن تاب من المشركين ، ولهذا قال ﴿ إِلاَّ مَن تَابَ وَءَامَنَ ﴾ ، ثم عطف عليه من تاب من المسلمين ، وأتبع توبته عملاً صالحاً ، فله حكم التائبين أيضاً .

وقيل : أي : من تاب بلسانه ، ولم يحقق التوبة بفعله ، فليست تلك التوبة نافعة ، بل من تاب وعمل صالحاً ، فحقق توبته بالأعمال الصالحة ، فهو الذي تاب إلى الله متاباً أي : تاب حقّ التوبة ، وهي النصوح ، ولذلك أكد بالمصدر ، ومعنى الآية : من أراد التوبة ، وعزم عليها ،

فليتب إلى الله ، فالخبر في معنى الأمر كذا قيل لئلا يتحد الشرط والجزاء ، فإنه لا يقال : من تاب ، فإنه يتوب .

ثم وصف سبحانه هؤلاء التائبين العاملين للصالحات ، فقال : ﴿ والذين لاَ يَشْهَدُونَ الزُّورَ ﴾ أي : لا يشهدون الشهادة الكاذبة ، أو لا يحضرون الزور ، والزور : هو الكذب والباطل ولا يشاهدونه ، وإلى الثاني ذهب جمهور المفسرين .

قال الزجاج : الزور في اللغة الكذب ، ولا كذب فوق الشرك بالله .

قال الواحدي : أكثر المفسرين على أن الزور ها هنا بمعنى الشرك .

والحاصل أن ﴿ يشهدون ﴾ إن كان من الشهادة ففي الكلام مضاف محذوف أي : لا يشهدون شهادة الزور ، وإن كان من الشهود والحضور كما ذهب إليه الجمهور ، فقد اختلفوا في معناه ، فقال قتادة : لا يساعدون أهل الباطل على باطلهم ، وقال محمد بن الحنفية : لا يحضرون اللهو والغناء ، وقال ابن جريج : الكذب .

(177/564)

وروي عن مجاهد أيضاً ، والأولى عدم التخصيص بنوع من أنواع الزور ، بل المراد الذين لا يحضرون ما يصدق عليه اسم الزور كائناً ما كان ﴿ وَإِذَا مَرُّواْ بِاللَّغْوِ مَرُّواْ كِراماً ﴾ أي :

معرضين عنه غير ملتفتين إليه ، واللغو : كل ساقط من قول أو فعل .

قال الحسن : اللغو : المعاصي كلها ، وقيل : المراد : مرّوا بذوي اللغو ، يقال : فلان يكرم عما يشينه أي : يتنزّه ، ويكرم نفسه عن الدخول في اللغو ، والاختلاط بأهله .

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ ﴾ أي : بالقرآن ، أو بما فيه موعظة وعبرة ﴿ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمّاً وَعُمْيَاناً ﴾ أي : لم يقعوا عليها حال كونهم صماً وعمياناً ، ولكنهم أكبوا عليها سامعين مبصرين ، وانتفعوا بها .

قال ابن قتيبة : المعنى : لم يتغافلوا عنها ، كأنهم صمّ لم يسمعوها ، وعمي لم يبصروها .

قال ابن جرير : ليس ثم خرور ، بل كما يقال : قعد يبكي ، وإن كان غير قاعد .

قال ابن عطية : كأن المستمع للذكر قائم ، فإذا أعرض عنه كان ذلك خروراً ، وهو السقوط على غير نظام .

قيل : المعنى : إذا تليت عليهم آيات الله وجلت قلوبهم ، فخروا سجداً وبكياً ، ولم يخرّوا عليها صماً وعمياناً .

قال الفراء : أي : لم يقعدوا على حالهم الأول كأن لم يسمعوا .

قال في الكشاف : ليس بنفي للخرور ، وإنما هو إثبات له ، ونفي للصمم والعمى ، وأراد أن النفي متوجه إلى القيد لا إلى المقيد .

﴿ والذين يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أزواجنا وذرياتنا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ من ابتدائية ، أو بيانية .

قرأ نافع وابن كثير وابن عباس والحسن : ﴿ وذرّياتنا ﴾ بالجمع ، وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي وطلحة وعيسى : " وذرّيتنا " بالإفراد ، والذرّية تقع على الجمع ، كما في قوله : ﴿ ذُرِّيَّةً ضعافا ﴾ [النساء : 9] ، وتقع على الفرد كما في قوله : ﴿ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ﴾ [آل عمران : 38] ، وانتصاب ﴿ قرّة أعين ﴾ على المفعولية ، يقال : قرّت عينه قرة .

قال الزجاج : يقال : أقرّ الله عينك أي : صادف فؤادك ما يحبه ، وقال المفضل : في قرّة العين ثلاثة أقوال : أحدها برد دمعها ، لأنه دليل السرور والضحك ، كما أن حرّه دليل الحزن والغمّ .

والثاني : نومها ، لأنه يكون مع فراغ الخاطر ، وذهاب الحزن ، والثالث : حصول الرضا ﴿ واجعلنا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً ﴾ أي : قدوة يقتدى بنا في الخير ، وإنما قال : ﴿ إماماً ﴾ ، ولم يقل : أئمة ، لأنه أريد به الجنس ، كقوله : ﴿ ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ﴾ [الحج : 5] قال الفراء : قال : ﴿ إماماً ﴾ ، ولم يقل أئمة ؛ كما قال للاثنين : ﴿ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ العالمين ﴾ [الشعراء : 16] يعني : أنه من الواحد الذي أريد به الجمع .

وقال الأخفش : الإمام جمع أمّ من أمّ يأمّ ، جمع على فعال ، نحو صاحب وصحاب ، وقائم

وقيام .

وقيل : إن إماماً مصدر ، يقال : أمّ فلان فلاناً إماماً ، مثل الصيام والقيام .

وقيل : أرادوا : اجعل كل واحد منا إماماً ، وقيل : أرادوا : اجعلنا إماماً واحداً لاتحاد كلمتنا ، وقيل : إنه من الكلام المقلوب ، وأن المعنى : واجعل المتقين لنا إماماً ، وبه قال مجاهد .

وقيل : إن هذا الدعاء صادر عنهم بطريق الانفراد ، وأن عبارة كل واحد منهم عند الدعاء : واجعلني للمتقين إماماً ، ولكنها حكيت عبارات الكل بصيغة المتكلم مع الغير لقصد الإيجاز كقوله :

﴿ يا أَيُّهَا الرسل كُلُواْ مِنَ الطيبات واعملوا صالحا ﴾ [المؤمنون : 51] ، وفي هذا إبقاء ﴿ إماماً ﴾ على حاله ، ومثل ما في الآية قول الشاعر :

(179/564)

يا عاذلاتي لا تزدن ملامتي . . . إن العواذل ليس لي بأمين

أي : أمناء .

قال القفال : وعندي أن الإمام إذا ذهب به مذهب الاسم وحد كأنه قيل : اجعلنا حجة

للمتقين ، ومثله البينة : يقال : هؤلاء بينة فلان .

قال النيسابوري : قيل : في الآية دلالة على أن الرياسة الدينية مما يجب أن تطلب ، ويرغب فيها ، والأقرب : أنهم سألوا الله أن يبلغهم في الطاعة المبلغ الذي يشار إليهم ويقتدى بهم ، والإشارة بقوله : ﴿ أولئك يُجْزَوْنَ الغرفة بِمَا صَبَرُواْ ﴾ إلى المتصفين بتلك الصفات ، وهو مبتدأ وخبره ما بعده ، والجمل مستأنفة .

وقيل : إن ﴿ أولئك ﴾ وما بعده خبر لقوله : ﴿ وَعِبَادُ الرحمن ﴾ كذا قال الزجاج ، والغرفة : الدرجة الرفيعة ، وهي أعلى منازل الجنة وأفضلها ، وهي في الأصل لكلّ بناء مرتفع ، والجمع غرف .

وقال الضحاك : الغرفة الجنة ، والباء في ﴿ بِمَا صَبَرُواْ ﴾ سببية ، وما مصدرية أي : يجزون الغرفة بسبب صبرهم على مشاق التكليف ﴿ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وسلاما ﴾ قرأ أبو بكر والمفضل والأعمش ويحيى بن وثاب وحمزة والكسائي وخلف : " يلقون " بفتح الياء وسكون اللام وتخفيف القاف ، واختار هذه القراءة الفراء ، قال : لأن العرب تقول : فلان يلقي بالسلام والتحية والخير ، وقلّ ما يقولون : يلقى .

وقرأ الباقون بضم الياء وفتح اللام وتشديد القاف ، واختار هذه القراءة أبو عبيد وأبو حاتم لقوله : ﴿ ولقاهم نَضْرَةً وَسُرُوراً ﴾ [الإنسان : 11] ، والمعنى : أنه يحيي بعضهم بعضاً ، ويرسل إليهم الربّ سبحانه بالسلام ، قيل : التحية البقاء الدائم والملك العظيم ،

وقيل : هي بمعنى السلام ، وقيل : إن الملائكة تحييهم وتسلم عليهم ، والظاهر : أن هذه التحية والسلام هي من الله سبحانه لهم ، ومن ذلك قوله سبحانه : ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سلام ﴾ [الأحزاب : 44] ، وقيل : معنى التحية : الدعاء لهم بطول الحياة .

(180/564)

ومعنى السلام : الدعاء لهم بالسلامة من الآفات ، وانتصاب ﴿ خالدين فِيهَا ﴾ على الحال أي : مقيمين فيها من غير موت ﴿ حَسُنَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً ﴾ أي : حسنت الغرفة مستقرًّا يستقرّون فيه ، ومقاماً يقيمون به ، وهذا في مقابل ما تقدّم من قوله : ﴿ سَاءتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً ﴾ .

﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلاَ دُعَاؤُكُمْ ﴾ بيّن سبحانه أنه غنيّ عن طاعة الكلّ ، وإنما كلفهم لينتفعوا بالتكليف ، يقال : ما عبأت بفلان : أيّ : ما باليت به ، ولا له عندي قدر ، وأصل يعبأ من العبء ، وهو الثقل .

قال الخليل : ما أعبأ بفلان أي : ما أصنع به كأنه يستقله ويستحقره ، ويدّعي أن وجوده وعدمه سواء ، وكذا قال أبو عبيدة .

قال الزجاج : ﴿ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي ﴾ يريد : أيّ وزن يكون لكم عنده ؟ والعبء : الثقل ،

وما استفهامية ، أو نافية ، وصرح الفراء : بأنها استفهامية .

قال ابن الشجري : وحقيقة القول عندي : أن موضع "ما" نصب ، والتقدير : أي عبء يعبأ بكم ؟ أي : أيّ مبالاة يبالي بكم ؟ ﴿ لَوْلاَ دُعَاؤُكُمْ ﴾ : أي : لولا دعاؤكم إياه ، لتعبدوه ، وعلى هذا ، فالمصدر الذي هو الدعاء مضاف إلى مفعوله ، وهو اختيار الفراء ، وفاعله محذوف ، وجواب لولا محذوف : تقديره : لولا دعاؤكم لم يعبأ بكم ، ويؤيد هذا قوله :

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجن والإنس إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : 56] ، والخطاب لجميع الناس ، ثم خصّ الكفار منهم ، فقال : ﴿ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ ﴾ .

وقرأ ابن الزبير " فقد كذب الكافرون " ، وفي هذه القراءة دليل بين على أن الخطاب لجميع الناس .

وقيل : إن المصدر مضاف إلى الفاعل أي : لولا استغاثتكم إليه في الشدائد .

وقيل : المعنى : ما يعبأ بكم أي : بمغفرة ذنوبكم لولا دعاؤكم الآلهة معه .

وحكى ابن جني : أن ابن عباس قرأ كقراءة ابن الزبير .

(181/564)

وحكى الزهراوي ، والنحاس : أن ابن مسعود قرأ كقراءتهما ، وممن قال : بأن الدعاء مضاف إلى الفاعل القتيبي ، والفارسي قالا : والأصل لولا دعاؤكم آلهة من دونه ، وجواب لولا محذوف تقديره على هذا الوجه : لولا دعاؤكم لم يعذبكم ، ويكون معنى ﴿ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ ﴾ على الوجه الأوّل : فقد كذبتم بما دعيتم إليه ، وعلى الوجه الثاني : فقد كذبتم بالتوحيد .

ثم قال سبحانه : ﴿ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَاماً ﴾ أي : فسوف يكون جزاء التكذيب لازماً لكم ، وجمهور المفسرين على أن المراد باللزام هنا : ما لزم المشركين يوم بدر ، وقالت طائفة : هو عذاب الآخرة .

قال أبو عبيدة : لزاماً : فيصلاً ، أي : فسوف يكون فيصلاً بينكم وبين المؤمنين .

قال الزجاج : فسوف يكون تكذيبكم لزاماً يلزمكم ، فلا تعطون التوبة ، وجمهور القراء على كسر اللام من لزاماً ، وأنشد أبو عبيدة لصخر :

فإما ينجو من خسف أرض . . . فقد لقيا حتوفهما لزاما

قال ابن جرير : ﴿ لزاماً ﴾ : عذاباً دائماً ، وهلاكاً مفنياً يلحق بعضكم ببعض ، كقول أبي ذؤيب :

ففأجأه بعادية لزام . . . كما يتفجر الحوض اللفيف

يعني : باللزام الذي يتبع بعضه بعضاً ، وباللفيف : المتساقط من الحجارة المنهدمة .

وحكى أبو حاتم عن أبي زيد قال : سمعت أبا السماك يقرأ : " لزاماً " بفتح اللام .

قال أبو جعفر : يكون مصدر لزم ، والكسر أولى .

وقد أخرج البخاري ، ومسلم ، وغيرهما عن ابن مسعود قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أيّ الذنب أكبر ؟ قال : " أن تجعل لله نداً وهو خلقك " قلت : ثم أيّ ؟ قال : " أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك " ، قلت : ثم أيّ ؟ قال : " أن تزاني حليلة جارك " ، فأنزل الله تصديق ذلك : ﴿ والذين لاَ يَدْعُونَ مَعَ الله إلها ءَاخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النفس التي حَرَّمَ الله إِلاَّ بالحق وَلاَ يَزْنُونَ ﴾ .

(182/564)

وأخرجا ، وغيرهما أيضاً عن ابن عباس : أن ناساً من أهل الشرك قد قتلوا فأكثروا ، وزنوا فأكثروا ، ثم أتوا محمداً صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : إن الذي تقول ، وتدعو إليه لحسن لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة ، فنزلت ﴿ والذين لاَ يَدْعُونَ ﴾ الآية ، ونزلت ﴿ قُلْ يا عِبَادِى الذين أَسْرَفُواْ على أَنفُسِهِمْ ﴾ [الزمر : 53] الآية .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عبد الله بن عمرو في قوله : ﴿ يَلْقَ أَثَاماً ﴾ قال : وادٍ في جهنم .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : لما نزلت : ﴿ والذين لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إلها ءَاخَرَ ﴾ الآية .

اشتدّ ذلك على المسلمين ، فقالوا : ما منا أحد إلاّ أشرك وقتل وزنى ، فأنزل الله : ﴿ ياعبادى الذين أَسْرَفُواْ على أَنفُسِهِمْ ﴾ الآية [الزمر : 53] ، يقول لهؤلاء الذين أصابوا هذا في الشرك ، ثم نزلت هذه الآية : ﴿ إِلاَّ مَن تَابَ وَءامَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صالحا فأولئك يُبَدّلُ الله سَيّئَاتِهِمْ حسنات ﴾ فأبدلهم الله بالكفر الإسلام ، وبالمعصية الطاعة ، وبالإنكار المعرفة ، وبالجهالة العلم .

وأخرج ابن المنذر والطبراني وابن مردويه عن ابن عباس قال : قرأناها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم سنين : ﴿ والذين لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إلها ءَاخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النفس التي حَرَّمَ الله إِلاَّ بالحق وَلاَ يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذلك يَلْقَ أَثَاما ﴾ ، ثم نزلت : ﴿ إِلاَّ مَن تَابَ وَءامَنَ ﴾ ، فما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فرح بشيء قط فرحه بها ، وفرحه ب ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً ﴾ [الفتح : 1] ، وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه في قوله : ﴿ فأولئك يُبَدّلُ الله سَيّئَاتِهِمْ حسنات ﴾ قال : هم المؤمنون كانوا من قبل إيمانهم على السيئات ، فرغب الله بهم عن ذلك ، فحوّلهم إلى الحسنات ، فأبدلهم مكان السيئات الحسنات .

وأخرج أحمد وهناد والترمذي وابن جرير والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي ذرّ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يؤتى بالرجل يوم القيامة ، فيقال : اعرضوا عليه صغار ذنوبه ، فيعرض عليه صغارها ، وينحى عنه كبارها ، فيقال : عملت يوم كذا كذا ، وهو يقرّ ، ليس ينكر ، وهو مشفق من الكبائر أن تجيء ، فيقال : أعطوه بكل سيئة عملها حسنة " والأحاديث في تكفير السيئات ، وتبديلها بالحسنات كثيرة .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله ﴿ والذين لاَ يَشْهَدُونَ الزُّورَ ﴾ قال : إن الزور كان صنماً بالمدينة يلعبون حوله كل سبعة أيام ، وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا مرّوا به مرّوا كراماً لا ينظرون إليه .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس : ﴿ والذين يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أزواجنا وذرياتنا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ قال : يعنون : من يعمل بالطاعة ، فتقرّ به أعيننا في الدنيا والآخرة ﴿ واجعلنا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً ﴾ قال : أئمة هدى يهتدى بنا ، ولا تجعلنا أئمة ضلالة ، لأنه قال لأهل السعادة : ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ﴾ [الأنبياء : 73] ، ولأهل الشقاوة : ﴿ وجعلناهم أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النار ﴾ [القصص : 41] .

وأخرج الحكيم الترمذي عن سهل بن سعد عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله : ﴿ أولئك يُجْزَوْنَ الغرفة ﴾ قال :

" الغرفة من ياقوتة حمراء ، أو زبرجدة خضراء ، أو درّة بيضاء ليس فيها فصم ولا وصم "

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلاَ دُعَاؤُكُمْ ﴾ يقول : لولا إيمانكم ، فأخبر الله أنه لا حاجة له بهم إذ لم يخلقهم مؤمنين ، ولو كانت له بهم حاجة لحبب إليهم الإيمان كما حببه إلى المؤمنين ﴿ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَاماً ﴾ قال : موتاً .

(184/564)

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن الأنباري عنه : أنه كان يقرأ " فَقَدْ كَذَّبَ الكافرون * فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَاماً " .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن الزبير أنه قرأها كذلك .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن مردويه [عن ابن مسعود] في قوله : ﴿ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَاماً ﴾ قال : القتل يوم بدر ، وفي الصحيحين عنه قال : " خمس قد مضين : الدخان والقمر واللزوم والبطشة واللزام " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 4 صـ ﴾

(185/564)

وقال صاحب روح البيان :

﴿ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ ﴾

من الشهادة وهي الإخبار بصحة الشيء عن مشاهدة وعيان .

والزور الكذب وأصله تمويه الباطل بما يوهم أنه حق .

وقال الراغب : الأزور المائل الزور أي الصدر وقيل للكذب زور لكونه مائلاً عن جهته وانتصابه على المصدرية والأصل لا يشهدون شهادة الزور بإضافة العام إلى الخاص فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه .

والمعنى لا يقيمون الشهادة الكاذبة .

واختلف الأئمة في عقوبة شاهد الزور .

فقال أبو حنيفة رحمه الله : لا يعزر بل يوقف في قومه ويقال لهم : إنه شاهد زور .

وقال الثلاثة : يعزر ويوقف في قومه ويعرفون أنه شاهد زور .

وقال مالك : يشهر في الجوامع والأسواق والمجامع .

وقال أحمد : يطاف به في المواضع التي يشتهر فيها فيقال : إنا وجدنا هذا شاهد زور فاجتنبوه .

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه يجلد شاهد الزور أربعين جلدة ويسخم وجهه

ويطوف في الأسواق كما في "كشف الأسرار" .

قال ابن عطاء رحمه الله : هي شهادة اللسان من غير مشاهدة القلب ويجوز أن يكون يشهدون من الشهود وهو الحضور وانتصاب الزور على المفعول به والأصل لا يشهدون مجالس الزور فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه .

والمعنى لا يحضرون محاضر الكذب ومجالس الفحش فإن مشاهدة الباطل مشاركة فيه من حيث أنها دليل الرضى به كما إذا جالس شارب الخمر بغير ضرورة فإنه شريك في الإثم .

وأما الملامية وهم الذين لا يظهرون خيراً ولا يضمرون شراً لانفراد قلوبهم مع الله يمشون في الأسواق ويتكلمون مع الناس بكلام العامة ويحضرون بعض مواضع الشرور لمشاهدة القضاء والقدر حتى يوافقوا الناس في الشر فهم في الحقيقة عباد الرحمن وهم المرادون بقوله عليه السلام : "أوليائي تحت قبابي لا يعرفهم غيري" :

(186/564)

قال في "ترجمة الفتوحات" : رجل اشترى يوم النيروز شيئاً لم يشتره في غير ذلك اليوم إن أراد به تعظيم ذلك اليوم كما عظمه الكفرة يكون كفراً وإن فعل ذلك لأجل الشرب والتنعم يوم

النيروز لا يكون كفراً انتهى والمراد نيروز النصارى لا نيروز العجم كما هو الظاهر من كلامه .

وقال بعضهم : يدخل في مجلس الزور اللعب واللهو والكذب والنوح والغناء بالباطل .

روي : عن محمد بن المنكدر قال : بلغني أن الله تعالى يقول يوم القيامة : أين الذين كانوا ينزهون أنفسهم وأسماعهم عن اللهو ومزامير الشيطان ؟ أدخلوهم رياض المسك ثم يقول للملائكة : أسمعوا عبادي تحميدي وثنائي وتمجيدي وأخبروهم أن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون كذا في "كشف الأسرار" .

ومن سنن الصوم أن يصوم الصائم لسانه عن الكذب والغيبة وفضول الكلام والسب والنميمة والمزاح والمدح والغناء والشعر والمراد بالغناء التغني بالباطل وهو الذي يحرك من القلب ما هو مراد الشيطان من الشهوة ومحبة المخلوقين وأما ما يحرك الشوق إلى الله فمن التغني بالحق كما في "الإحياء" .

واختلف في القراءة بالألحان فكرهها مالك والجمهور لخروجها عما جاء القرآن له من الخشوع والتفهم ولذا قال في "قاضي خان" : لا ينبغي أن يقدم في التراويح "الخوشخوان" بل يقدم "الدرستخوان" فإن الإمام إذا كان حسن الصوت يشغل عن الخشوع والتدبير والتفكر انتهى .

وأباحها أبو حنيفة وجماعة من السلف للأحاديث لأن ذلك سبب للرقة وإثارة الخشية كما في "فتح القريب" .

(187/564)

قال في "أصول الحديث" : إذا جلس الشيخ من أهل الحديث مجلس التحديث يفتتح بعد قراءة قارىء حسن الصوت شيئاً من القرآن انتهى وإنما استحب تحسين الصوت بالقراءة وتزيينها ما لم يخرج عن حد القراءة بالتمطيط فإن أفرط زاد حرفاً أو أخفى حرفاً فهو حرام كما في "أبكار الأفكار" .

ورأى عليه السلام ليلة المعراج ملكاً لم ير قبله مثله وكان إذا سبح اهتز العرش لحسن صوته وكان بين يديه صندوقان عظيمان من نور فيهما براءة الصائمين من عذاب النار وتفصيله في "مجالس النفائس" لحضرة الهدائي قدس سره .

وقال سهل قدس سره : المراد بالزور مجالس المبتدعين .

قال أبو عثمان قدس سره : مجالس المدعين وكذا كل مشهد ليس لك فيه زيادة في دينك بل تنزل وفساد ﴿ وَإِذَا مَرُّوا ﴾ على طريق الاتفاق ﴿ بِاللَّغْوِ ﴾ أي ما يجب أن يلغى ويطرح مما لا خير فيه .

وقال في "فتح الرحمن" : يشمل المعاصي كلها وكل سقط من فعل أو قول .

وقال الراغب : اللغو من الكلام ما لا يعتد به هو يعد ذلاقة روية وفكر فيجرى مجرى اللغا وهو صوت العصافير ونحوها من الطيور .

﴿ مَرُّوا ﴾ حال كونهم ﴿ كِرَامًا ﴾ جمع كريم يقال : تكرم فلان عما يشينه إذا تنزه وأكرم نفسه عنه .

قال الراغب : الكرم إذا وصف الله به فهو اسم لإحسانه وإنعامه المتظاهر وإذا وصف به الإنسان فهو اسم للأخلاق والأفعال المحمودة التي تظهر منه ولا يقال : هو كريم حتى يظهر ذلك منه .

والمعنى معرضين عنه مكرمين أنفسهم عن الوقوف عليه والخوض فيه ومن ذلك الإغضاء عن الفواحش والصفح عن الذنوب والكناية عما يستهجن الصريح به .

(188/564)

قال في "كشف الأسرار" : قيل : إذا أرادوا ذكر النكاح وذكر الفروج كنوا عنه فالكرم ههنا هو الكناية والتعريض وقوله عز وجل : ﴿ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ﴾ (المائدة : 75) كناية عن البول والخلاء وقد كنى الله عز وجل في القرآن عن الجماع بلفظ الغشيان والنكاح والسر

والإتيان والإفضاء واللمس والمس والدخول والمباشرة والمقاربة في قوله : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ ﴾ (البقرة : 222) والطمث في قوله : ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ ﴾ (الرحمن : 56) وهذا باب واسع في العربية .

قال الإمام الغزالي : أما حد الفحش وحقيقته فهو التعبير عن الأمور المستقبحة بالعبارات الصريحة وأكثر ذلك يجري في ألفاظ الوقاع وما يتعلق به وأهل الصلاح يتحاشون من التعرض لها بل يكنون عنها ويدلون عليها بالرموز ويذكر ما يقاربها ويتعلق بها مثلاً يكنون عن الجماع بالمس والدخول والصحبة وعن التبول بقضاء الحاجة وأيضاً لا يقولون : قالت زوجتك كذا بل يقال : قيل في الحجرة أو قيل من وراء الستر أو قالت أم الأولاد كذا وأيضاً يقال لمن به عيب يستحيي منه كالبرحة والقرع والبواسير العارض الذي يشكوه وما يجري مجراه وبالجملة كل ما يخفى ويستحى منه فلا ينبغي أن يذكر ألفاظه الصريحة فإنه فحش والفاحش يحشر يوم القيامة في صورة الكلب .

(189/564)

والمراد أن الصدق أولى وإن لزم الضرر على نفس القائل وأما جواز الكذب فإنما هو لتخليص الغير ودفع الفتنة بين الناس وهو المراد من قوله : (دروغ مصلحت آميز به

ازراست فتنه انكيز) نسأل الله تعالى أن يجعلنا من الصادقين المخلصين بل من الصديقين المخلصين ويحشرنا مع الكرماء الحلماء والعلماء الأدباء إنه الموفق للأقوال الحسنة والأفعال المستحسنة .

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا ﴾ وعصوا .

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ﴾ المشتملة على المواعظ والأحكام ﴿ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا ﴾ خرّ سقط سقوطاً يسمع منه خرير والخرير يقال لصوت الماء والريح وغير ذلك مما يسقط من علو ﴿ صُمًّا ﴾ جمع أصم وهو فاقد حاسة السمع وبه يشبه من لا يصغي إلى الحق ولا يقبله .

﴿ وَعُمْيَانًا ﴾ جمع أعمى وهو فاقد حاسة البصر .

والمعنى لم يقفوا على الآيات حال كونهم صماً لم يسمعوا لها وعمياً لم يبصروها بل أكبوا عليها سامعين بآذان واعية مبصرين بعيون راعية وانتفعوا بها .

وإنما عبر عن المعنى المذكور بنفي الضد تعريضاً لما يفعله الكفرة والمنافقون فالمراد من النفي نفي الصمم والعمى دون الخرور وإن دخلت الأداة عليه ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا ﴾ وهو أمر من وهب يهب وهباً وهبة .

(190/564)

والهبة أن تجعل ملكك لغيرك بغير عوض ويوصف الله بالواهب والوهاب بمعنى أنه يعطي كلاً على قدر استحقاقه .

﴿ مِنْ أَزْوَاجِنَا ﴾ وهو جمع زوج يقال لكل ما يقترن بآخر مماثلاً له أو مضاداً زوج وأما زوجة فلغة رديئة كما في "المفردات" .

﴿ وَذُرِّيَّاتِنَا ﴾ وهو جمع ذرية أصلها صغار الأولاد ثم صار عرفاً في الكبار أيضاً .

قال في "القاموس" : ذرأ الشيء كثره ومنه الذرية مثلثة لنسل الثقلين .

﴿ قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ أي بتوفيقهم للطاعة وحيازة الفضائل فإن المؤمن إذا ساعده أهله في طاعة الله يسر بهم قلبه وتقربهم عينه لما يرى من مساعدتهم له في الدين وتوقع لحوقهم به في الجنة حسبما وعد بقوله : ﴿ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ (الطور : 21) فالمراد بالقرور المسؤول تفضيلهم بالفضائل الدينية لا بالمال والجاه والجمال ونحوها .

وقرة منصوب على أنه مفعول هب وهي إما من القرار ومعناه أن يصادف قلبه من يرضاه فتقر عينه عن النظر إلى غيره ولا تطمح إلى ما فوقه وإما من القر بالضم وهو البرد والعرب تتأذى من الحر وتستريح إلى البرد فقرور العين على هذا يكون كناية عن الفرح والسرور فإن دمع العين عند السرور بارد وعند الحزن حار .

ومن إما ابتدائية على معنى هب لنا من جهتهم ما تقرّ به عيوننا من طاعة وصلاح ، أو بيانية على أنها حال كأنه قيل : هب لنا قرة أعين ثم فسرت القرة وبينت بقوله : ﴿ مِنْ

أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا ﴾ ومعناه أن يجعلهم الله لهم قرة أعين وهو من قولهم رأيت منك أسداً أي أنت أسد قال بعضهم :

نعم الإله على العباد كثيرة

وأجلهن نجابة الأولاد

(191/564)

﴿ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾

الإمام المؤتم به إنساناً كان يقتدى بقوله وفعله أو كتاباً أو غير ذلك محقاً كان أو مبطلاً كما في "المفردات" أي : اجعلنا بحيث يقتدي بنا أهل التقوى في إقامة مراسم الدين بإفاضة العلم والتوفيق للعمل .

وفي "الإرشاد" : والظاهر صدوره عنهم بطريق الانفراد وإن عبارة كل واحد منهم عند الدعاء واجعلني للمتقين إماماً ما خلا أنه حكيت عبارات الكل بصيغة المتكلم مع الغير للقصد إلى الإيجاز على طريقة قوله تعالى : يا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ (المؤمنون : 51) وأبقى إماماً على حاله ولم يقل أئمة وإعادة الموصول في المواضع السبعة مع كفاية ذكر الصلاة بطريق العطف على صلة الموصول الأول للإيذان بأن كل واحد مما ذكر في حيز صلة

الموصولات المذكورة وصف جليل على حدته له شأن خطير حقيق بأن يفرد له موصوف مستقل ولا يجعل شيء من ذلك تتمة لذلك وتوسط العاطف بين الصفة والموصوف لتنزيل الاختلاف العنواني منزلة الاختلاف الذاتي .

(192/564)

قال القفال وجماعة من المفسرين : هذه الآية دليل على أن طلب الرياسة في الدين واجب .

وعن عروة : أنه كان يدعو بأن يجعله الله ممن يحمل عنه العلم فاستجيب دعاؤه .

وأما الرياسة في الدنيا : فالسنة أن لا يتقلد الرجل شيئاً من القضاء والإمارة والفتوى والعرافة بانقياد قلب وارتضائه إلا أن يكره عليه بالوعيد الشديد وقد كان لم يقبلها الأوائل فكيف الأواخر .

يقول الفقير : إن قلت : قول الشيخ أبي مدين قدس سره آخر ما يخرج من رؤوس الصديقين حب الجاه قد يفسر فيه الخروج بالظهور فما معناه ؟ قلت : إن الصديقين لما استكملوا مرتبة الاسم الباطن أحبوا أن يظهروا بمرتبة الاسم الظاهر ليكون لهم حصة من كمالات الأسماء الإلهية كلها وهذا المعنى لا يقتضي التقلد المعروف كأبناء الدنيا بل يكفي أن تنتظم بهم مصالح الدنيا بأي وجه كان ، ولقد شاهدت من هذا أن شيخي الأجل الأكمل قدس

سره رأى في بعض مكاشفاته أنه سيصير سلطاناً فلم يمض إلا قليل حتى استولى البغاة على القسطنطينية وحاصروا السلطان ومن يليه فلم تندفع الفتنة العامة إلا بتدبير حضرة الشيخ حيث دبر تدبيراً بليغاً كوشف عنه فاستأصل الله البغاة وأعتق السلطان والمؤمنين جميعاً فمثل هذا هو الظهور بالاسم الظاهر وتمامه في كتابنا المسمى بتام الفيض هذا .

(193/564)

﴿ أولئك ﴾ المتصفون بما فصل في حيز صلة الموصولات الثمانية من حيث اتصافهم به والمستجمون لهذه الخصال وهو مبتدأ خبره قوله تعالى : ﴿ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ ﴾ الجزاء الغناء والكفاية والجزاء ما فيه الكفاية من المقابلة إن خيراً فخير وإن شراً فشر .

والغرف رفع الشيء أو تناوله يقال غرفت الماء والمرق والغرفة الدرجة العالية من المنازل لكل بناء مرتفع عال أي يثابون أعلى منازل الجنة وهي اسم جنس أريد به الجمع كقوله تعالى : ﴿ وَهُمْ فِى الْغُرُفَاتِ ءَامِنُونَ ﴾ (سبأ : 37)

﴿ بِمَا صَبَرُوا ﴾ ما مصدرية ولم يقيد الصبر بالمتعلق بل أطلق ليشيع في كل مصبور عليه .

والمعنى بصبرهم على المشاق من مضض الطاعات ورفض الشهوات وتحمل المجاهدات ومن ذلك الوصم قال عليه السلام : "الصوم نصف الصبر والصبر نصف الإيمان" أي :

فيكون الصوم ربع الإيمان وهو أي الصوم قهر لعدو الله فإن وسيلة الشيطان الشهوات وإنما تقوى الشهوات بالأكل والشرب

ولذلك قال عليه السلام : "إن الشيطان ليجري من ابن آدم مجرى الدم فضيقوا مجاريه بالجوع" .

وفي الحديث : "إن في الجنة لغرفاً مبنية في الهواء لا علاقة من فوقها ولا عماد لها من تحتها لا يأتيها أهلها إلا شبه الطير لا ينالها إلا أهل البلاء" أي : الصابرون منهم .

وفي "التأويلات النجمية" : ﴿ أولئك يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ ﴾ من مقام العندية في مقعد صدق عند مليك مقتدر ﴿ بِمَا صَبَرُوا ﴾ .

في البداية على أداء الأوامر وترك النواهي وفي الوسط على تبديل الأخلاق الذميمة بالأخلاق الحميدة وفي النهاية على إفناء الوجود الإنساني في الوجود الرباني انتهى .

(194/564)

والصبر ترك الشكوى من ألم البلوى لغير الله لا إلى الله .

قال بعض الكبار : من أدب العارف بالله تعالى إذا أصابه ألم أن يرجع إلى الله تعالى بالشكوى رجوع أيوب عليه السلام أدباً مع الله وإظهاراً للعجز حتى لا يقاوم القهر الإلهي كما يفعله

أهل الجهل بالله ويظنون أنهم أهل تسليم وتفويض وعدم اعتراف فجمعوا بين جهالتين

﴿ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا ﴾ أي في الغرفة من جهة الملائكة ﴿ تَحِيَّةً ﴾ يعدى إلى المفعول الثاني بالباء وبنفسه كما في "تاج المصادر" يقال : لقيته كذا وبكذا إذا استقبلته به كما في "المفردات" .

والمعنى يستقبلون فيها بالتحية ﴿ وَسَلَامًا ﴾ أي : وبالسلام تحييهم الملائكة ويدعون لهم بطول الحياة والسلامة من الآفات فإن التحية هي الدعاء بالتعمير والسلام هو الدعاء بالسلامة .

قال في "المفردات" : التحية أن يقال : حياك الله أي جعل لك حياة وذلك إخبار ثم يجعل دعاء ويقال حيّا فلان فلاناً تحية إذا قال له ذلك وأصل التحية من الحياة ثم جعل كل دعاء تحية لكون جميعه غير خارج عن حصول حياة أو سبب حياة إما لدنيا وإما لآخرة ومنه التحيات والسلام والسلامة التعري عن الآفات الظاهرة والباطنة وليست السلامة الحقيقية إلا في الجنة لأن فيها بقاء بلا فناء وغنى بلا فقر وعزا بلا ذل وصحة بلا سقم .

قال بعضهم : الفرق أن السلام سلامة العارفين في الوصال عن الفرقة والتحية روح تجلي حياة الحق الأزلي على أرواحهم وأشباحهم فيحيون حياة أبدية .

وقال بعضهم : ويلقون فيها تحية يحيون بها بحياة الله وسلاماً يسلمون به من الاستهلاك الكلي كما استحفظ إبراهيم عليه السلام من آفة البرد بالسلام بقوله تعالى :

﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ حال من فاعل يجزون أي حال كونهم لا يموتون ولا يخرجون من الغرفة .

(195/564)

﴿ حَسُنَتْ ﴾ الغرفة ﴿ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ من جهة كونها موضع قرار وإقامة وهو مقابل ساءت مستقراً معنى ومثله إعراباً .

فعلى العاقل أن يتهيأ لمثل هذه الغرفة العالية الحسنة بما سبق من الأعمال الفاضلة المستحسنة ولا يقع في مجرد الأماني والآمال فإن الأمنية كالموت بلا أشكال .

ومن طلب العلى جد في الأيام والليالي

(196/564)

قال بعض الكبار : من أراد أن يعرف بعض محبة الحق أو محبته له فلينظر إلى حاله الذي هو عليه من اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلّم وأصحابه والأئمة المجتهدين بعده فإن وجد نفسه على هداهم وأخلاقهم من الزهد والورع وقيام الليل على الدوام وفعل جميع المأمورات الشرعية وترك جميع المنهيات حتى صار يفرح بالبلايا والمحن وضيق العيش وينشرح لتحويل الدنيا ومناصبها وشهواتها عنه فليعلم أن الله يحبه وإلا فليحكم بأن الله

يبغضه والإنسان على نفسه بصيرة .

وفي الإكثار من النوافل توطئة لمحبة الله تعالى قال عليه السلام حاكياً عن الله تعالى : "ما تقرب المتقربون إليّ بمثل أداء ما فرضت عليهم ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه" ومن آثار محبته تعالى لعبده المطيع له إعطاء الغرفة العالية له في الجنة لعلو قدره ومنزلته عنده وإذا وقع التجلي الإلهي يكونون جلوساً على مراتبهم فالأنبياء على المنابر والأولياء على الأسرة والعلماء بالله على الكراسي والمؤمنون المقلدون في توحيدهم على مراتب وذلك الجلوس كله يكون في جنة عدن عند الكثيب الأبيض وأما من كان موحداً من طريق النظر في الأدلة فيكون جالساً على الأرض وإنما نزل هذا عن الرتبة التي للمقلد في التوحيد لأنه تطرقه الشبه من تعارض الأدلة والمقالات في الله وصفاته فمن كان تقليده للشارع جزماً فهو أوثق إيماناً ممن يأخذ توحيده من النظر في الأدلة ويؤولها .

(197/564)

واعلم أن الله تعالى إنما ذكر الغرفة في الحقيقة لأجل الطامعين الراغبين فيها وأما خواص عباده فليس لهم طمع في شيء سوى الله تعالى فلهم فوق الغرفة ونعيمها نعيم آخر تشير إليه التحية والسلام على تقدير أن يكونا من الله تعالى إذ لا يلتذ العاشق بشيء فوق ما يلتذ

بمطالعة جمال معشوقه وسماع كلامه وخطابه حكي أنه كان لبعضهم جار نصراني فقال له : أسلم على أن أضمن لك الجنة فقال النصراني : الجنة مخلوقة لا خطر لها ثم ذكر له الحور والقصور فقال : أريد أفضل من هذا .

فقال : أسلم على أن أضمن لك رؤية الله تعالى فقال : الآن وجدت ليس شيء أفضل من رؤية الله فأسلم ثم مات فرآه في المنام على مركب في الجنة فقال له : أنت فلان قال : نعم قال : ما فعل الله بك قال : لما خرج روحي ذهب به إلى العرش فقال الله تعالى : آمنت بي شوقاً إلى لقائي فلك الرضى والبقاء .

﴿ قُلْ ﴾ يا محمد للناس كافة ﴿ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّى لَوْلا دُعَآؤُكُمْ ﴾ هذا بيان لحال المؤمنين منهم وما استفهامية محلها النصب على المصدر أو نافية وما يعبأ ما يبالي ولا يعتد كما في "القاموس" ما أعبأ بفلان ما أبالي وجواب لولا محذوف لدلالة ما قبله عليه ودعاؤكم مبتدأ خبره موجود أو واقع وهو مصدر مضاف إلى الفاعل بمعنى العبادة كما في قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَاهًا ءَاخَرَ ﴾ (الفرقان : 68) ونظائره والمعنى على الاستفهامية أي عبء واعتبار يعتبركم ربي ويبالي ويعتني بشأنكم لولا عبادتكم وطاعتكم له تعالى فإن شرف الإنسان وكرامته بالمعرفة والطاعة وإلا فهو وسائر الحيوانات سواء .

(198/564)

وقال الزجاج: أي وزن ومقدار يكون لكم عند الله تعالى لولا عبادتكم له تعالى وذلك أن أصل العبء بالكسر والفتح بمعنى الثقل والحمل من أي شيء كان فمعنى ما أعبأ به في الحقيقة ما أرى له وزناً وقدراً وإليه جنح الإمام الراغب في الآية هذا

وفي الآية معان أخر والأظهر عند المحققين ما ذكرناه.

﴿ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ ﴾ بيان لحال الكفرة من الناس أي فقد كذبتم أيها الكفرة بما أخبرتكم به حيث خالفتموه وخرجتم عن أن يكون لكم عن الله اعتناء بشأنكم واعتبار أو وزن ومقدار ﴿ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴾ مصدر كالقتال أقيم مقام الفاعل كما يقام العدل في مقام العادل أي يكون جزاء التكذيب أو أثره وهو الأفعال المتفرعة عليه لازماً يحيق بكم لا محالة حتى يكبكم في النار أي يصرعكم على وجوهكم كما يعرب عنه الفاء الدالة على لزوم ما بعدها لما قبلها وإنما أضمر من غير ذكر للإيذان بغاية ظهوره وتهويل أمره للتنبيه على أنه مما لا يكتنهه الوصف والبيان.

وعن بعضهم أن المراد بالجزاء جزاء الدنيا وهو ما وقع يوم بدر قتل منهم وأسر سبعون ثم اتصل به عذاب الآخرة لازماً لهم.

واعلم أن الكفار أبطلوا الاستعداد الفطري وأفسدوا القوى بالإهمال فكان حالهم كحال النوى فإنه محال أن ينبت منه الإنسان تفاحاً فأصل الخلق والقوة لا يتغير ألبتة ولكن كما أن في النوى إمكان أن يخرج ما في قوته إلى الوجود وهو النخل بالتفقد والتربية وأن يفسد بالإهمال والترك ، فكذا في الإنسان إمكان إصلاح القوة وإفسادها ولولا ذلك لبطل فائدة المواعظ والوصايا والوعد والوعيد والأمر والنهي ولا يجوز العقل أن يقال للعبد لم فعلت ولم تركت وكيف يكون هذا في الإنسان ممتنعاً وقد وجدناه في بعض البهائم ممكناً فالوحشي قد ينتقل بالعادة إلى التأنس والجامح إلى السلاسة فالتوحيد والتصديق والطاعة أمر ممكن من الإنسان بإزالة الشرك والتكذيب والعصيان وقد خلق لأجلها كما قال ابن عباس رضي الله عنهما في الآية : قل ما يعبأ بخلقكم ربي لولا عبادتكم وطاعتكم إياه .

يعني أنه خلقكم لعبادته كما قال : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالانسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (الذاريات : 56) فالحكمة الإلهية والمصلحة الربانية من الخلق هي الطاعة وأفعال الله تعالى وإن لم تكن معللة بالأغراض عند الأشاعرة لكنها مستتبعة لغايات جليلة .

قال الإمام الراغب : الإنسان في هذه الدار الدنيا كما قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه : الناس سفر والدار دار ممرّ لا دار مقر وبطن أمه مبدأ سفره والآخرة مقصده وزمان حياته مقدار مسافته وسنوه منازله وشهوره فراسخه وأيامه أمياله

وأنفاسه خطاه ويسار به سير السفينة براكبها كما قال الشاعر .

رأيت أخا الدنيا وإن كان ثاوياً

أخا سفر يسري به وهو لا يدري

(200/564)

وقد دعى إلى دار السلام لكن لما كان الطريق إليها مشكلة مظلمة جعل الله لنا من العقل الذي ركبه فينا وكتبه التي أنزلها علينا نوراً هادياً ومن عبادته التي كتبها علينا وأمرنا بها حصناً واقياً فمن قال هذه الطاعات جعلها الله عذاباً علينا من غير تأويل كفر فإن أوّل مراده بالتعب لا يكفر ولو قال : لو لم يفرض الله تعالى كان خيراً لنا بلا تأويل كفر لأن الخير فيما اختاره الله إلا أن يؤول ويريد بالخير الأهون والأسهل نسأل الله أن يسهلها علينا في الباطن والظاهر والأول والآخر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح البيان حـ 6 صـ 320 .

﴿ 331

(201/564)

وقال القاسمي :

﴿ وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ ﴾

أي : لا يحضرون الباطل . يقال : شهد كذا أي : حضره . فالزور : مفعول به بتقدير مضاف أي : محالّه . ويشهدون من الشهادة . فالزور منصوب على المصدر أو بنزع الخافض أي : شهادة الزور أو بالزور . وقد أشار الزمخشريّ للوجهين بقوله : يحتمل أنهم ينفرون عن محاضر الكذابين ومجالس الخطّائين ، فلا يحضرونها ولا يقربونها ، تنزهاً عن مخالطة الشر وأهله وصيانة لدينهم عما يثلمه . لأن مشاهدة الباطل شركة فيه . ولذلك قيل في النظارة إلى كل ما لم تسوغه الشريعة هم شركاء فاعلية في الإثم لأن حضورهم ونظرهم دليل الرضا به ، وسبب وجوده ، والزيادة فيه لأن الذي سلط على فعله هو استحسان النظارة ، ورغبتهم في النظر إليه . ويحتمل أنهم لا يشهدون شهادة الزور . انتهى وهي الكذب متعمداً على غيره .

(202/564)

قال المبرد في " الكامل " : ويروى عن ابن عباس في هذه الآية : ﴿ وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ ﴾ قال : أعياد المشركين . وقال ابن مسعود : الزور الغناء . فقيل لابن عباس : أو ما هذا

في الشهادة بالزور ؟ فقال : لا ، إنما آية شهادة الزور : ﴿ وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ﴾ [الإسراء : 36] ، ﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً ﴾ أي : اتفق مرورهم بأهل اللغو ، وهو كل ما ينبغي ويطرح ، مرّوا معرضين عنهم ، مكرمين أنفسهم عن الخوض معهم كقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴾ [القصص : 55] ، ويدخل في ذلك الإغضاء عن الفواحش ، والصفح عن الذنوب ، والكناية عما يستهجن التصريح به وذلك لأن كراماً : جمع كريم بمعنى مكرم لنفسه وغيره بالصفح ونحوه : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ ﴾ أي وعظوا بها وخوّفوا : ﴿ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمّاً وَعُمْيَاناً ﴾ أي : بل أكبوا عليها سامعين بآذان واعية ، مجتلين لها بعيون راعية . وإنما عبر بنفي الضد ، تعريضاً لما يفعله الكفرة والمنافقون من شدة الإعراض والإباء والنفرة ، المستعار لها الخرور على تلك الحالة استعارة بديعة . لما فيهم من إسقاطهم من الإنسانية إلى البهيمية ، بل إلى أدنى منها ، لأنها تسمع وتبصر ، وقد نفينا عنهم .

وفي التنزيل الكريم من توصيف المؤمنين بوجل قلوبهم لذكره تعالى ، وزيادة إيمانهم إذا تلي عليهم الذكر الحكيم ، آيات عديدة . ولذا قال قتادة فيهم : هم قوم عقلوا عن الله ، وانتفعوا بما سمعوا من كتابه ويرحم الله الحسن البصريّ ، فقد قال : كم من رجل يقرؤها ، ويخر عليها أصم أعمى .

﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾

أي : أولاداً وحفدة ، تقر بهم العيون وتسر بمكانهم الأنفس ، لحيازتهم الفضائل واتصافهم بأحسن الشمائل . وقرة العين إما من القر وهو البرد . لأن دمعة السرور باردة ، لذا قيل في ضده : أسخن الله عينه أو من القرار لعدم النظر لغيره ، وجوز في من أن تكون ببيانه وعليه قول كثير من أن فيه الدعاء بصلاح الزوجات . وقوله تعالى : ﴿ واجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً ﴾ أي : أئمة . اكتفى بالواحد لدلالته على الجنس ، مع رعاية الفواصل . أي : يقتدى بنا في الخير . أو هداة دعاة إلى الخير . فإن ذلك أكثر ثوابا وأحسن مآبا . قال في " الإكليل " : في الآية طلب الإمام في الخير . وفي " العجائب " للكرمانيّ : قال القفال وغيره من المفسرين : في الآية دليل على أن طلب الرياسة في الدين واجب . انتهى .

وكذا قال الزمخشريّ ، عن بعضهم : إن فيه ما يدل على أن الرياسة في الدين ، يجب أن تطلب ويرغب فيها . وقوله تعالى :

﴿ أُولَئِكَ ﴾ إشارة إلى المتصفين بما ذكر . خبر لعباد الرحمن أو مبتدأ خبره : ﴿ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا ﴾ أي : على مشاق المجاهدات في الدعوة إلى الخيرات ، والدأب على

الخيرات ، واجتناب المحظورات . والغرفة الدرجة العليا من المنازل في الجنة : ﴿ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلاماً ﴾ أي : تحييهم الملائكة وتسلم عليهم . أو يحيّي بعضهم بعضا ويسلم عليه . والقصد أنهم يلقون فيها التوقير والاحترام ، فلهم السلام وعليهم السلام : ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً ﴾ لسلامة أهلها عن الآفات ، وخلودهم أبد الآباد .

﴿ قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلا دُعَاؤُكُمْ ﴾ أي : لا يبالي بكم ولا يبقيكم إلا إذا عبدتموه وآمنتم به وحده . فالدعاء بمعنى العبادة ، كما مّر .

(204/564)

ثم أشار إلى أنه كيف يمكن العبء بهم ، أو يتصور ، وقد وجد منهم ما ينافيه ، بقوله تعالى : ﴿ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ ﴾ أي : بما جاءكم من الحق . أي : وقد تلي عليكم سنة من كذب وأصرّ : ﴿ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَاماً ﴾ اللزام : مصدر مؤول باسم الفاعل أتى به للمبالغة . أي : فسوف يكون هذا النبأ أو الذكر الحكيم ، أو الأمر الجليل ، أمر الرسالة ، لازماً وثابتاً . يفتح من الحق رتاجاً . وتدخل الناس في دين الله أفواجاً . ولقد صدق الله وعده . ونصر

عبده وأعز جنده . هز الأحزاب وحده . نسأله تعالى خير ما عنده . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ محاسن التأويل حـ 12 صـ 461.464 ﴾

(205/564)

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب فى الآيات السابقة :

قوله تعالى : « تَبارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّماءِ بُرُوجاً وَجَعَلَ فِيها سِراجاً وَقَمَراً مُنِيراً » .

هو عرض لبعض آثار رحمة الرحمن في خلقه ، وأنه سبحانه ، « جَعَلَ فِي السَّماءِ بُرُوجاً وَجَعَلَ فِيها سِراجاً وَقَمَراً مُنِيراً » . . أفليس ذلك من آثار رحمة اللّه ؟ وكيف كانت تكون الحياة على هذه الأرض ، ولا شمس ولا قمر ؟

وقوله تعالى : « تَبارَكَ » أي تمجد ، وتقدّس ، وكثرت آلاؤه ونعمه . .

(206/564)

فهو ـ سبحانه ـ يمجّد ذاته ، وإن لم يمجده الضالون المجرمون من خلقه وهو سبحانه جدير بأن يحمد ويمجّد من عباده الذين أسبغ عليهم نعمه ظاهرة ، وباطنة والبروج : هى مدارات

الكواكب ، ومنازلها . .

والسراج : هى الشمس . .

والقمر المنير : هو القمر ، الذي يستمد نوره من الشمس . . وقد وصف بأنه منير ، ولم يوصف بأنه مضىء ، لأن النور خلاف الضوء . . فالنور لا حرارة فيه ، على خلاف الضوء ، والنور ليس ذاتيا ، وإنما هو متولد من وقوع الضوء على الأجسام . . وقد أشرنا إلى ذلك في سورة يونس ، عند تفسير قوله تعالى :

« هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِياءً وَالْقَمَرَ نُوراً » (الآية : 5) .

قوله تعالى : « وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرادَ شُكُوراً » .

ومن آثار رحمة اللّه ، أنه جعل الزمن على هذه الأرض خلفة بين الليل والنهار ، حيث يخلف أحدهما الآخر ، ويحلّ محلّه . .

وفي هذا آية لمن أراد أن يتذكر ، ويتعظ ، إذا لم يكن قد وجد في آيات اللّه المبثوثة في الكون طريقا إلى التذكر والاعتبار ، أما من وجد التذكر والاعتبار في غير هذه الآية ، فإنها تزيده تذكرا واعتبارا ، كما تزيده شكرا وحمدا ، لآلاء اللّه . ونعمائه . .

قوله تعالى : « وَعِبادُ الرَّحْمنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً وَإِذا خاطَبَهُمُ الْجاهِلُونَ قالُوا سَلاماً » تعرض هذه الآية والآيات التي بعدها ، الصفات الكريمة التي يتصف بها أولئك الذين استحقوا أن يضافوا إلى اللّه سبحانه ، وأن يحسبوا في عباده ، أما غيرهم ممن لا

يتحلّون بهذه الصفات ، فإنهم ليسوا أهلا لهذا المقام ولا موضعا لهذا الشرف العظيم . .

وأن هؤلاء الذين قيل لهم اسجدوا للرحمن فأنكروا هذا ، وقالوا : وما الرحمن ؟ . هؤلاء ليسوا من عباد الرحمن ، ولن يكونوا من عباده ، ما داموا على حالهم تلك . .

(207/564)

[عباد الرحمن . . من هم ؟] أما عباد الرحمن الذين يستحقون هذا الشرف العظيم ، فهم هؤلاء الذين جاءت تلك الآيات ، تكشف عن صفاتهم التي يتحّلون بها ، والتي تؤهلهم لهذا المقام الكريم . .

وهذه الصفات التي يتحلّى بها عباد الرحمن ، هى أنهم :

. « يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً . . وَإِذا خاطَبَهُمُ الْجاهِلُونَ قالُوا سَلاماً » .

والمشي الهيّن على الأرض ، هو دليل على التواضع ، ولين الجانب ، وسماحة الخلق . .

بخلاف المشي الذي يضرب وجه الأرض ، تيها وفخرا ، وقد نهى اللّه تعالى عنه في قوله : « وَلا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً . . إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبالَ طُولًا » (37 : الإسراء) .

. « وَإِذا خاطَبَهُمُ الْجاهِلُونَ قالُوا سَلاماً » . . أي أن عباد الرحمن لا يلقون فحش القول

وهجره ، بفحش ، وهجر مثله . . فإذا رماهم السفهاء بالكلمة الخبيثة أعرضوا عنهم ، وقالوا : « سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجاهِلِينَ » (55 : القصص) .

وليس هذا المشي الهيّن ، أو الإمساك عن الفحش من القول ، هو عن ضعف وذلّة ، وإنما هو عن قوة نفس ، ومتانة خلق ، وكرم طبيعة . . وكلّ إناء ينضح بما فيه . . وكل شجرة لا تعطى إلا من ثمرها . . فالشجرة الطيبة .

تعطى ثمرا طيبا ، والشجرة الخبيثة لا تعطى إلا ثمرا خبيثا . .

. « وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِياماً » .

(208/564)

أي ومن صفات عباد الرحمن أن قلوبهم لا تخلو من ذكر اللّه أبدا ، وأنهم يقضون نهارهم في كفاح وعمل ، فإذا جهّم الليل أقبلوا على ربّهم بالعبادة والذكر ، راكعين ساجدين . .

والليل هو أنسب الأوقات للعبادة ، ومناجاة اللّه سبحانه وتعالى ، حيث تسكن النفوس ، وتجتمع الخواطر ، وتهدأ القلوب ، فيجد الإنسان منطلقه في عالم الروح ، وقد انزاحت من طريقه السدود التي يقيمها ضجيج الحياة ، ولغط الأحياء أثناء النهار . . وقد نوه القرآن الكريم في أكثر من موضع بشأن العبادة في أوقات الليل ، وما للعابدين عند اللّه في تلك

الأوقات ، من رضا ورضوان ، فيقول سبحانه للنبى الكريم . « وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كانَ مَشْهُوداً وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نافِلَةً لَكَ عَسى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقاماً مَحْمُوداً » (78 ـ 79 : الإسراء) . ويقول له سبحانه : « يا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ . قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً . إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً . إِنَّ ناشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً وَأَقْوَمُ قِيلاً » .

(1 ـ 6 : المزمل) ويقول سبحانه في وصف المتقين من عباده ، وما أعدّ لهم من جزاء عظيم : « إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ آخِذِينَ ما آتاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كانُوا قَبْلَ ذلِكَ مُحْسِنِينَ كانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ ما يَهْجَعُونَ وَبِالْأَسْحارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ » (15 ـ 18 : الذاريات) .

وفي قوله تعالى : « لِرَبِّهِمْ » ـ إشارة إلى أنهم يقصرون عملهم كله بالليل على ذكر اللّه ، لا يذكرون إلا اللّه جلّ وعلا ، لا يشغلهم شيء عن ذكره . .

فاللام هنا للاختصاص .

(209/564)

ـ « وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذابَها كانَ غَراماً » إِنَّها ساءَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقاماً » أي أن عباد الرحمن هؤلاء ، إنما يعبدون ربّهم ، وهم من عذاب ربّهم

مشفقون . . إن عذاب ربّهم غير مأمون . . فهم مع طمع ورجاء في رحمته ، وخشية وخوف من بأسه وعقابه . . هكذا حال المؤمنين باللّه ، لا يأس من روح اللّه ، ولا أمن من بأسه وعذابه . .

وقوله تعالى : « إِنَّها ساءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقاماً » أي أنها ـ نعوذ باللّه منها ـ لا يلقى أهلها إلا السوء والوبال ، فهى أشأم وأسوأ مكان . . فكيف إذا كان هذا المكان مستقرا ومقاما لا يتحول عنه أهله ؟ إن أهله أشقى خلق اللّه ، وأنكدهم حظّا ، وأشأمهم مصيرا . .

ـ « وَالَّذِينَ إِذا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكانَ بَيْنَ ذلِكَ قَواماً » .

وهذه صفة أخرى من صفات عباد الرحمن . . إنهم يلزمون الطريق الوسط فى حياتهم ، وفي كل شان من شئونهم ، فلا إفراط ، ولا تفريط ، فإن خير الأمور أوساطها . . وأكثر ما يتجلّى هذا المبدأ في إنفاق المال ، حيث هو عملية مستمرة ، يقوم بها الإنسان مرات كل يوم ، سواء أكان غنيا أم فقيرا . .

كلّ ينفق حسب ما معه من مال . .

والإسراف ، هو مجاوزة الحدّ في زيادة المطلوب في النفقة والتقتير ، هو الإمساك دون الحدّ المطلوب . .

وقوله تعالى : « وَكانَ بَيْنَ ذلِكَ قَواماً » أي وكان إنفاقهم وسطا ، وقواما ، بين الإسراف ،

والتقتير . .

ـ « وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ ، »

(210/564)

« إِلَّا بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ . . وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً يُضاعَفْ لَهُ الْعَذابُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهاناً إِلَّا مَنْ تابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صالِحاً فَأُولئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئاتِهِمْ حَسَناتٍ وَكانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً وَمَنْ تابَ وَعَمِلَ صالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتاباً » .

ومن صفات عباد الرحمن أيضا ، أنهم لا يشركون باللّه شيئا ، ولا يدعون معه إلها آخر ، بل عبادتهم خالصة للّه ، ودعاؤهم متجه إليه وحده . . وأنهم لا يقتلون النفس التي حرّم اللّه إلا قصاصا ، وأنهم يحصنون فروجهم فلا يأتون الفاحشة . . فإن من يفعل شيئا من هذه الكبائر ، لن يكون في عباد اللّه هؤلاء للكرمين ، بل إنه سينزل منازل المجرمين ، أصحاب النار . .

وقوله تعالى : « يَلْقَ أَثَاماً » أي أن من يفعل هذه الآثام يلق أثاما مثلها ، فهذه الآثام منكرات ، والعذاب الذي يساق إلى فاعلها ، ويلقاه ، هو عذاب منكر شديد . .

وقوله تعالى : « يُضاعَفْ لَهُ الْعَذابُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهاناً » بيان لما يلقى مرتكبو هذه

المنكرات الغليظة من العذاب ، والهوان يوم القيامة . .

فهم أكثر الناس عذابا يومئذ ، لأن جرائمهم الثلاث تلك ، من أعظم الجرائم . .

وهي الشرك بالله ، وقتل النفس التي حرم الله ، والزنا . . فإذا عذب غيرهم من المعذبين بألوان من العذاب ، فإن ما يلقاه هؤلاء ، أضعاف ما يلقاه المعذبون من أهل النار غيرهم . .

وقوله تعالى : « وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهاناً » الخلد والخلود ، هو اللصوق بالأرض في ذلة ومهانة . .

والضمير فى « فِيهِ » يعود إلى العذاب الذي لا يخرج منه ، بل يعيش فيه ، مستكينا ، ضارعا ، ذليلا ، مهينا . .

(211/564)

وقوله تعالى : « إِلَّا مَنْ تابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صالِحاً فَأُولئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئاتِهِمْ حَسَناتٍ ، وَكانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً » .

ـ هو استثناء من عموم الضمير الواقع فاعلا في قوله تعالى : « يَلْقَ أَثاماً » أي ويستثنى من الوقوع في هذا العذاب ، من تاب من هؤلاء المرتكبين لتلك الآثام من آثامه ، ورجع إلى الله ، مؤمنا به غير مشرك ، مستقيما على ما أمر به ، من عدل وإحسان . . فلا يقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، ولا يزنى . . فمن اجتنب هذه الكبائر ، فإنه لن يلقى هذا المصير ، بل

يخرج من زمرة هؤلاء المجرمين ، ويأخذ طريقه مع عباد اللّه المكرمين . .

وقوله تعالى : « فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ » . إشارة إلى أن هؤلاء التائبين الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، قد قبلهم اللّه في عباده ، وأنه سيبدل سيئاتهم تلك حسنات ، فإنه سبحانه كريم يعفو عن طالبى عفوه ومغفرته ، رحيم بعباده ، يرحم ضعفهم ، وما غلبتهم عليه أهواؤهم ، إذا هم رجعوا إليه تائبين ، مؤمنين ، مصلحين . ما أفسدوا . . واللّه سبحانه وتعالى يقول : « إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ » (114 : هود) ولهذا قدم سبحانه التوبة . فقال سبحانه : « إِلَّا مَنْ تابَ » أي عقد النية ، وعزم على التوبة ، ثم أتبعها بقوله تعالى : « وَآمَنَ » أي وقرن النية بالتوبة بالإيمان باللّه ، وبكتبه ورسله ، واليوم الآخر ، فإن التوبة من غير إيمان باللّه ، لا متوجّه إليها ، ولا محصل لها . .

ثم جاء قوله تعالى : « وَعَمِلَ عَمَلًا صالِحاً » شرطا ثالثا لقبول التوبة ، وتصحيح الإيمان ، وهو العمل الصالح . . فالإيمان بلا عمل ، زرع بلا ثمر . .

(212/564)

وقوله تعالى : « وَمَنْ تابَ وَعَمِلَ صالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتاباً » . . لم يجىء هنا ذكر للإيمان مع التوبة ، لأنه ذكر في الآية السابقة ، ولأن التوبة لا تكون إلا من مؤمن . . وذكر

الإيمان في الآية السابقة للإلفات إليه ، والتنويه

به ، وبأنه لا تقبل توبة إلا إذا زكاها الإيمان بالله . .

وقوله تعالى : « فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَاباً » . أي يتوب توبة ، فمتابا توكيد ، وفي هذا إشارة إلى أن الذين ارتكبوا هذه المنكرات ، قد بعدوا عن الله ، وشردوا عن الطريق إليه ، وأنهم حين عدلوا عن طريقهم ، وأخذوا الطريق إلى الله . قد رجعوا إلى الله رجوعا حقّا ، وأصبحوا في عباده المؤمنين المكرمين ، غير منظور إلى شيء من حياتهم الماضية ، التي كانوا عليها قبل أن يتوبوا . . إنهم بعد التوبة والعمل الصالح ، قد ولدوا ميلادا جديدا ، ذهب به كل ما كان عليهم من أدران وأوزار . . فتوبتهم حينئذ توبة مثمرة ثمرا طيبا ، لأنها أثمرت هذه الأعمال الصالحة التي أتوا بها بعد توبتهم تلك . .

. « وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِراماً » . .

وصفة أخرى من صفات عباد الرحمن . .

إنهم لا يشهدون الزور ، أي لا يحضرون مجالس الفحش ، والهجر ، ولا يستمعون لمقالات الكذب والبهتان . . وإنهم إذا وقع لهم في طريقهم مشهد من مشاهد العبث واللهو ، لم يقفوا عنده ، ولم يلقوا بآذانهم ، أو أبصارهم إليه ، بل مرّوا به وهم كرام مترفعون بإيمانهم ، وبمروءاتهم ، عن أن يشاركوا في هذا الباطل من قريب أو بعيد ! . « وَالَّذِينَ إِذا ذُكِّرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْها صُمًّا وَعُمْياناً » . .

وصفة سادسة من صفات عباد الرحمن ، وهي أنهم يحيون مع آيات اللّه حياة عاقلة واعية ، ويعايشونها معايشة ودودا طيبة . . فإذا قرءوا ، وسمعوا آيات اللّه تتلى عليهم ، أعطوها عقولهم وقلوبهم ، وفقهوا ما تتسع له عقولهم وقلوبهم من نورها ، وهديها . .

وهذا غير ما يلقى به الغافلون والجاهلون آيات اللّه ، حيث يخرون بين يديها كما يخر عابد الوثن على وثنه ، من غير أن يكون معه نظر أو رأى ، فيما هو عاكف عليه . .

فآيات اللّه لا تسمع الصم ، ولا تهدى العمى ، وإنما تهدى من نظر إليها بعقله ، وأعطاها وجدانه ومشاعره ، وعندئذ يؤذن له بأن يجنى من ثمارها ، ويقطف من زهرها ، وينشق من طيبها . .

ومن هنا ، كان واجبا على المسلم أن يطلب العلم ، والمعرفة ، حتى يأخذ حظه من النظر في آيات اللّه ، وحتى ينتفع بهديها ، ويستضىء بنورها . . وإلا فإنه أشبه بالأعمى الذي يستوى عنده طلوع الشمس ومغيبها . . واللّه سبحانه وتعالى يقول :

« وَتِلْكَ الْأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ وَما يَعْقِلُها إِلَّا الْعالِمُونَ » (43 : العنكبوت) .

ويقول سبحانه : « إِنَّما يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ » (28 فاطر) إذ لا خشية للّه إلا عن علم بجلاله ، وعظمته ، وعلمه ، وقدرته . . ولا علم إلا مع أهل العلم ! . « وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنا هَبْ لَنا مِنْ أَزْواجِنا وَذُرِّيَّاتِنا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنا لِلْمُتَّقِينَ إِماماً أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِما صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيها تَحِيَّةً وَسَلاماً خالِدِينَ فِيها حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقاماً » .

وصفة سابعة من صفات عباد اللّه الرحمن . .

(214/564)

إنهم أهل صلاح وتقوى ، ومن تمام صلاحهم وتقواهم أن يكون أزواجهم وأولادهم - وهم بعض منهم - على حال من الصلاح والتقوى ، أقرب إليهم ، وأشبه بهم ، حتى يأتلف جمعهم ، وتتوحد مشاعرهم ، ولا يقع في محيطهم ما يثير شقاقا ، أو يبعث ألما وحسرة ، لخلاف زوجة ، وضلال ولد . . فإن هذا من شأنه أن يجور على صلة المؤمن بربه ويشغله كثيرا أو قليلا عن ذكره . . ومن هنا كان من دعاء المؤمنين : « رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلى والِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صالِحاً تَرْضاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي » (15 : الأحقاف) .

وكان مما امتن به اللّه سبحانه وتعالى على بنى كريم من أنبيائه ، هو زكريا عليه السلام - أن

وهب له الولد الصالح ، وأن أصلح له زوجه ، كما يقول سبحانه :

« فَاسْتَجَبْنا لَهُ . . وَوَهَبْنا لَهُ يَحْيى ، وَأَصْلَحْنا لَهُ زَوْجَهُ » (90 : الأنبياء) « وقرة الأعين » ما تقرّ به ، وتطمئن . . وذلك لا يكون إلا عن هدوء النفس ، واطمئنان القلب ، وراحة الضمير . . الأمر الذي يجعل العين تنظر إلى الحياة نظرا هادئا مطمئنا . . أما المذعور الخائف المضطرب ، فإنه ينظر بعين زائغة مضطربة . . ومن هنا كان للعيون لغتها التي يعرفها أهل البصيرة والرأى ، حيث يكون للرضا نظرة ، وللغضب نظرة ، وللحب نظرة ، وللبغض نظرة . وهكذا تنطبع الأحاسيس والمشاعر على مرآة العين ، كما تنطبع صور الأشياء على المرايا . .

(215/564)

قوله تعالى : « وَاجْعَلْنا لِلْمُتَّقِينَ » . أي ومما يدعو به عباد الرحمن ربهم ، أن يجعلهم قدوة لأهل الإيمان ، فى الخير والإحسان ، وأن تكون أعمالهم قائمة على طريق الحق والعدل ، حتى يكونوا أسوة في الطريق إلى اللّه . . وبذلك يكون لهم ثوابهم ، وثواب من اقتدى بهم . . على خلاف أهل الضلال ، الذين يكون عليهم وزر ضلالهم ، ووزر من ضل بضلالهم . . وفي الحديث : « من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة ومن

سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة » .

قوله تعالى : « أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِما صَبَرُوا » . الإشارة هنا إلى عباد الرحمن ، الذين ذكرت أوصافهم في الآيات السابقة . . فهؤلاء المكرمون من عباد اللّه ، الذين أضافهم سبحانه وتعالى إليه ، سيجزون الغرفة بما صبروا على التكاليف ، والعبادات ، وعلى مغالبة أهوائهم وشهواتهم . . وإنه لولا الصبر لانحلّت عزائمهم ، وفترت هممهم ، واختلّ توازنهم على الصراط المستقيم . .

فبالصبر ، استطاعوا أن يصمدوا أمام الشدائد ، وأن يحتملوا ما يصابون به في أموالهم وأنفسهم ، مستسلمين لأمر اللّه ، راضين بقضائه . . وبالصبر قهروا نوازع أهوائهم . .

فالصبر ، هو زاد المؤمن على طريق الإيمان ، وهو القوّة التي تشدّه إلى اللّه ، وتمسك به على طريق الحق والخير . .

والغرفة ، أعلى مكان في الجنة ، وهي في البيت أعلى موضع منه . . وهي فى الجنة ليست غرفة واحدة ، وإنما هي غرفات ، كما يقول اللّه تعالى : « وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ » . .

وإنما أفردت هنا لأن المراد بها ، المنزلة ، أي يجزون المنزلة التي فيها الغرفة ، وفيها الغرفات ، لأنها جميعها في درجة واحدة .

قوله تعالى : « وَيُلَقَّوْنَ فِيها تَحِيَّةً وَسَلاماً » أي أن الذين ينزلون بهذه الغرفة ، هم في موضع احتفاء وتكريم ، وأن مما يكون لهم فيها من صور الإحسان ، أن تتردد عليهم الملائكة ، وتغشى مجالسهم ، بالتحية والسلام . .

وفي ذلك ما فيه من أنس وروح لهم . .

قوله تعالى : « خالِدِينَ فِيها حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقاماً » . . أي أنهم ساكنون وواد عون في هذه الغرفة ، سكون أمن وطمأنينة وقرار . . لا يريدون التحول عنها ، فقد حسن فيها مستقرّهم ، وطاب فيها مقامهم . .

هذا ، ويلاحظ أن عرض صفات المؤمنين ، الذين استحقوا ، أن يضيفهم اللّه سبحانه وتعالى إليه ، وأن ينزلهم منازل رحمته ، وأن يكونوا عباد الرحمن . يلاحظ أن هذه الصفات لم تجىء مرتبة ترتيبا تصاعديا أو تنازليا . . وذلك لغاية قصد إليها القرآن ، كما سنرى .

فأول صفة لعباد الرحمن . . أنهم « يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً ، وَإِذا خاطَبَهُمُ الْجاهِلُونَ قالُوا سَلاماً » .

فهذا هو الوجه الظاهر لإيمان المؤمنين . فيهم تواضع ، وتعفف عن السّفه والفحش . .

وهذا حالهم مع الناس . .

والصفة الثانية ، هى حالهم مع اللّه . . فهم يقطعون الليل عبادة وتسبيحا للّه ، فيما بينهم

وبين خالقهم . . « وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِياماً » .

فالصفتان ، تمثلان صورة كريمة للإنسان ، الذي رضى عنه الناس ، ورضى عنه ربّه . .

وتلك غاية ما يمكن أن يدركه أحسن الناس ، وأكمل الناس . .

والصفة الثالثة . . خاصة بهم : إذ يطلبون لأنفسهم النّجاة من النّار ، والخلاص من عذاب جهنم . .

(217/564)

فقد أدّوا أولا حقّ اللّه عندهم لعباده ، ثم أدّوا حقه لذاته . . ثم طلبوا من اللّه ما هو مطلوب لهم . . ! « وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذابَها كانَ غَراماً إِنَّها ساءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقاماً » وهذه الصفات الثلاث ، صفات وجوب . . أي صفات عاملة ، يقوم عليها سلوكهم . .

ثم تأتى بعد ذلك صفة تجمع بين الإيجاب والسّلب ، وهي أنهم يلزمون فى الإنفاق طريقا بين الإسراف والتقتير ، وهو التوسط والاعتدال بين الأمرين ، وتلك صفة موجبة ، متولدة من صفتين سالبتين . . وهما الإسراف والتقتير . .

وهما من صفات غير المؤمنين ، من عباد الرحمن ! .

ثم تجيء بعد ذلك صفة سلبية ، . . هى في إيجابها صفة خاصة بغير المؤمنين . .

أو بالمؤمنين الذين ليسوا عبادا للرحمن .

فهم ليسوا ممن يدعون مع اللّه إلها آخر ولا يقتلون النفس التي حرم اللّه

إلا بالحق ولا يزنون . . على حين أن من غير المؤمنين أو الذين ليسوا عبادا للرحمن ، من

يتصف بهذه الصفات كلها ، أو بعضها .

ثم تأتى بعد ذلك صفة متولدة من حال ، يذهب غير المؤمنين بشرّها ، على حين لا ينال

المؤمنين سوء منها . . وتلك الصفة هي شهود مجالس الإثم واللغو .

فغير المؤمنين يعمرون هذه المجالس ، ويطعمون من زادها الخبيث ، والمؤمنون ، عباد

الرحمن . . يعطونها ظهورهم ، ويصمّون عنها آذانهم . .

ثم تجيء صفة سلبية ، يتصف بها عباد الرحمن سلبا ، على حين يتصف بها الجاهلون من

المؤمنين إيجابا . . : « وَالَّذِينَ إِذا ذُكِّرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْها صُمًّا وَعُمْياناً » .

فعباد الرحمن ، إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخرّوا عليها صمّا وعميانا ، على حين أن المؤمنين

الذين لم يدخلوا في عباد الرحمن ، يخرّون عليها صمّا وعميانا . .

ففى صفات السلب الثلاث هذه ، تعريض بغير المؤمنين أصلا ، وبغير المؤمنين الذين لم يكمل إيمانهم ، ولم يصبحوا أهلا لأن يكونوا من عباد الرحمن . .

ثم تختم هذه الصفات الإيجابية والسلبية التي وصف بها المؤمنون - تختم بهذا الوصف الذي تسوّى به صورتهم على أحسن حال وأكمله ، حتى يصبحوا قدوة للناس في الخير والإحسان - « وَاجْعَلْنا لِلْمُتَّقِينَ إِماماً » فهم على حال من الكمال الإنسانى ، بحيث يكونون فيه أئمة ، يدعون الناس إلى الهدى ، ويقودونهم إلى البرّ والتقوى . .

وارجع البصر كرة أخرى إلى هذه الآيات ، وإلى سلاسة نظمها ، وتدفّق سلسالها ، وروعة بيانها ، وصلصلة أنغامها ، ثم استروح أنسام هذا الإعجاز الذي يطلع عليك ، من هذا المنطق المحكم ، الذي يستولى بسلطانه على كل نفس ، وينفذ بقدرته إلى كل قلب . .

فإنك إن فعلت - وخير لك أن تفعل - رجعت وملء إهابك خشوع وولاء ، لآيات اللّه ، ولكلمات اللّه ، وكنت في هذا الموكب الكريم ، الذي ينتظم عباد الرحمن ، الذين إذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا . . « وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً » (109 : الإسراء) . .

قوله تعالى : « قُلْ ما يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلا دُعاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزاماً » . .

وبهذه الآية تختم السورة ، وهي إعلان عام للناس جميعا - مؤمنين وكافرين ، مهتدين وضالين

-إعلان لهم أنهم ما خلقوا إلا ليعبدوا اللّه ، وأن من لا يعبد اللّه ، فكأنه غير مخلوق ، لأنه لم يؤدّ ما خلق له .

وعبأ بالشيء يعبأ به : إذا اهتمّ به ، وعمل له حسابا . . والعبء : الحمل الثقيل ، من ماديات أو معنويات . .

(219/564)

والمعنى : أنكم أيها الناس ، إنما خلقتم لتعبدوا اللّه ، وتسبّحوا بحمده ، وأن من فاتته هذه الغاية ، فقد سقط من حساب المخلوقات . . فقيمتكم أيها الناس عند اللّه هي في عبادتكم له ، واتجاه وجوهكم إليه ، فى السّرّاء والضّرّاء ، وأنه لولا هذا ، ولولا أن فيكم مؤمنين باللّه ، عابدين له ، لما كان لكم وزن في عالم المخلوقات . . فإذا اعتدل ميزانكم ، وأقيم لكم وزن ، فإنما ذلك بفضل المؤمنين منكم .

وفي تسليط حرف النفي « ما » على الفعل « يعبأ » بدلا من « لا » الذي يتسلط على الفعل المضارع ، على حين يتسلط الحرف « ما » على الفعل الماضي - وذلك للمبالغة في النفي ، وإنه نفى لازم لا يتعلق بزمن ، بل هو واقع في الزمان كله ، ماضيه وحاضره ومستقبله ، على خلاف النفي بلا الذي يقيّد النفي بالمستقبل وحده . . تقول :

لا أفعل هذا الأمر ، إذا كنت على نية ألا تفعله ، حالا أو استقبالا ، فإذا قلت : ما أفعل هذا الأمر ، كان المعنى ، أنه لا يليق بك ، ولا ينبغى منك أن تفعله أبدا ، وأنه ما كان منك فعله في الماضي ، ولن تفعله حالا أو مستقبلا . . وعلى هذا جاء قوله تعالى لنبيه الكريم : « قُلْ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَما أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ » (86 : ص) . . أي ليس لى أن أسألكم أي أجر على ما بلغتكم من رسالة ربّى في أي وقت من الأوقات . . ومنه قوله في هذه السورة - سورة الفرقان - « قُلْ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلى رَبِّهِ سَبِيلًا » . (75)

(220/564)

وعلى هذا ، فإن تسلط حرف النفي « ما » على الفعل « يعبأ » يعنى أن خلق الناس إنما كان لحكمة أرادها اللّه ، وأنه لو لا هذه الحكمة لما اتجهت إرادة اللّه سبحانه إلى خلقهم ، وهذه الحكمة هي أن يعبدوه ، وفي هذا يقول اللّه تعالى : « وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ » (56 : الذاريات) ، فخلق النّاس ، وقيومة اللّه سبحانه وتعالى عليهم ، وتسخير ما سخّر لهم ، وإنعامه بما أنعم به عليهم - إنما كان ليعبدوه ، ولتتجلّى فيهم آيات قدرته ، وعلمه ، ومن أجل هذا عبأ اللّه سبحانه وتعالى بهم ، ونظر إليهم ، وجعلهم خلقا

من خلقه ! ! .

وقد يسأل سائل : فيقول : إن أكثر الناس لا يعبدون اللّه أي لا يدعونه ، ولا يعترفون بوجوده ، فكيف تتحقق حكمة اللّه من خلق الناس ؟ وكيف يعبأ بهم ، وهم لا يعبدونه ولا يدعونه ؟ .

وقد أجبنا على هذا الاعتراض من قبل ، إذ قلنا : إن الذين آمنوا باللّه ، وولّوا وجوههم إليه ـ وإن كانوا قلّة في النّاس ـ هم وجه الإنسانية ، ومن أجلهم كانت رحمة اللّه بالناس جميعا .

ومن جهة أخرى ، فإن الناس جميعا ، مؤمنهم وكافرهم ، منقادون للّه ، طوعا أو كرها ، كما يقول سبحانه : « وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصالِ » (15 : الرعد) .

وكما يقول جلّ شأنه : « وَلِلَّهِ يَسْجُدُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ مِنْ دابَّةٍ وَالْمَلائِكَةُ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ » (49 : النحل) .

فالناس جميعا ، والخلق كلّهم ، منقادون للّه ، خاضعون لسلطانه ، مسبحون بحمده ، كما يقول سبحانه : « وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ » (44 : الإسراء) .

وقوله تعالى : « فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزاماً » .

هو تهديد ووعيد للكافرين المكذبين ، الذين دعوا إلى عبادة اللّه ليحققو الغاية من خلقهم ، ولكنهم كذبوا رسول اللّه وأبوا أن يؤمنوا باللّه ، ويوجّهوا وجوههم إليه ، فحقّ عليهم العذاب ، ولزمهم ما قضى اللّه سبحانه وتعالى به في أهل الكفر والضلال . انتهى انتهى . ا هـ ﴾ التفسير القرآني للقرآن حـ 10 صـ 53.68 ﴾

(221/564)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا (72) ﴾

أتبع خصال المؤمنين الثلاث التي هي قِوام الإيمان بخصال أخرى من خصالهم هي من كمال الإيمان ، والتخلق بفضائله ، ومجانبة أحوال أهل الشرك .

وتلك ثلاث خصال أولاها أفصح عنه قوله هنا ﴿ والذين لا يشهدون الزور ﴾ الآية .

وفعل (شهد) يستعمل بمعنى (حضر) وهو أصل إطلاقه كقوله تعالى : ﴿ فمن شَهِد منكم الشهر فلْيَصُمْه ﴾ [البقرة : 185] ، ويستعمل بمعنى أخبر عن شيء شهده وعلمه كقوله تعالى : ﴿ وشَهِد شاهد من أهلها ﴾ [يوسف : 26] .

والزور : الباطل من قول أو فعل وقد غلب على الكذب .

وقد تقدم في أول السورة فيجوز أن يكون معنى الآية : أنهم لا يحضرون محاضر الباطل التي كان يحضرها المشركون وهي مجالس اللهو والغناء والغيبة ونحوها ، وكذلك أعياد المشركين وألعابهم ، فيكون الزور مفعولاً به ل ﴿ يشهدون ﴾ .

وهذا ثناء على المؤمنين بمقاطعة المشركين وتجنبهم .

فأما شهود مواطن عبادة الأصنام فذلك قد دخل في قوله : ﴿ والذين لا يَدعون مع الله إلهاً آخر ﴾ [الفرقان : 68] .

وفي معنى هذه الآية قوله في سورة الأنعام (68) ﴿ وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره وإما ينسِيَنَّك الشيطانُ فلا تقْعُد بعد الذكرى مع القوم الظالمين ﴾ ويجوز أن يكون فعل يشهدون ﴾ بمعنى الإخبار عما علموه ويكون الزور منصوباً على نزع الخافض ، أي لا يشهدون بالزور ؛ أو مفعولاً مطلقاً لبيان نوع الشهادة ، أي لا يشهدون شهادة هي زور لا حَقٌّ .

وقوله : ﴿ وإذا مروا باللغو مروا كراماً ﴾ مناسب لكلا الجملتين .

واللغو : الكلام العبث والسفه الذي لا خير فيه .

وتقدم في قوله تعالى : ﴿ لا يسمعون فيها لغواً ﴾ في سورة مريم (62) .

ومعنى المرور به المرور بأصحابه اللاغين في حال لغوهم ، فجعل المرور بنفس اللغو للإشارة إلى أن أصحاب اللغو متلبسون به وقت المرور .

ومعنى : ﴿ مروا كراماً ﴾ أنهم يمرون وهم في حال كرامة ، أي غير متلبسين بالمشاركة في اللغو فيه فإن السفهاء إذا مروا بأصحاب اللغو أنِسُوا بهم ووقفوا عليهم وشاركوهم في لغوهم فإذا فعلوا ذلك كانوا في غير حال كرامة .

والكرامة : النزاهة ومحاسن الخلال ، وضدها اللؤم والسفالة .

وأصل الكرامة أنها نفاسة الشيء في نوعه قال تعالى : ﴿ أنبتنا فيها من كل زوج كريم ﴾ [الشعراء : 7] .

وقال بعض شعراء حمير في "الحماسة" :

ولا يَخيم اللقاءَ فارسُهم . . .

حتى يشقَّ الصفوف مِن كَرمه

أي شجاعته ، وقال تعالى : ﴿ وأعد لهم أجراً كريماً ﴾ [الأحزاب : 44] .

وإذا مر أهل المروءَة على أصحاب اللغو تنزهوا عن مشاركتهم وتجاوزوا ناديهم فكانوا في حال كرامة ، وهذا ثناء على المؤمنين بترفّعهم على ما كانوا عليه في الجاهلية كقوله تعالى :

﴿ وذرِ الذين اتّخذوا دينَهم لعباً ولهواً ﴾ [الأنعام : 70] ، وقوله : ﴿ وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين ﴾ [القصص : 55] .

وإعادة فعل ﴿ مروا ﴾ لبناء الحال عليه ، وذلك من محاسن الاستعمال ، كقول الأحوص:

فإذَا تزول تزولُ عن متخمّط . . .

تُخشى بوادره على الأقران

ومنه قوله تعالى : ﴿ ربنا هؤلاء الذين أغوينا أغويناهم كما غوينا ﴾ [القصص : 63] كما ذكره ابن جنّي في "شرح مشكل أبيات الحماسة" ، وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ صراط الذين أنعمت عليهم ﴾ [الفاتحة : 7] .

وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا (73)

(223/564)

أريد تمييز المؤمنين بمخالفة حالة هي من حالات المشركين وتلك هي حالة سماعهم دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم وما تشتمل عليه من آيات القرآن وطلب النظر في دلائل الوحدانية ، فلذلك جيء بالصلة منفية لتحصيل الثناء عليهم مع التعريض بتفظيع حال

المشركين فإن المشركين إذا ذُكّروا بآيات الله خَرُّوا صُمّاً وعمياناً كحال من لا يحبّ أن يرى شيئاً فيجعل وجهه على الأرض ، فاستعير الخرور لشدة الكراهية والتباعد بحيث إن حالهم عند سماع القرآن كحال الذي يخرّ إلى الأرض لئلا يرى ما يكره بحيث لم يبق له شيء من التقوم والنهوض ، فتلك حالة هي غاية في نفي إمكان القبول .

ومنه استعارة القعُود للتخلف عن القتال ، وفي عكس ذلك يستعار الإقبال والتلقي والقيام للاهتمام بالأمر والعناية به .

ويجوز أن يكون الخرور واقعاً منهم أو من بعضهم حقيقة لأنهم يكونون جلوساً في مجتمعاتهم ونواديهم فإذا دعاهم الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام طأطأوا رؤوسهم وقربوها من الأرض لأن ذلك للقاعد يقوم مقام الفرار ، أو ستر الوجه كقول أعرابي يهجو قوماً من طيء ، أنشدهُ المبرد :

إذا ما قيل أيُّهم لأيّ . . .

تشابهتْ المناكِبُ والرؤوس

وقريب من هذا المعنى قوله تعالى حكايةً في سورة نوح (7) ﴿ واستَغْشَوْا ثيابهم وأصرّوا واستكبروا استكباراً ﴾ وتقدم الخرور الحقيقي في قوله تعالى : ﴿ يخِرُّون للأذقان سُجّداً ﴾ في سورة الإسراء (107) ، وقوله : ﴿ فخرّ عليهم السقف من فوقهم ﴾ [النحل : 26] وقوله : ﴿ وخرّ موسى صَعِقاً ﴾ في الأعراف (143) .

وصمّاً وعُمْيَاناً ﴾ حالان من ضمير ﴿ يخروا ﴾ ، مراد بهما التشبيه بحذف حرف التشبيه ، أي يخرّون كالصمّ والعُميان في عدم الانتفاع بالمسموع من الآيات والمبصرَ منها مما يُذكَّرون به .

فالنفي على هذا منصبّ إلى الفعل وإلى قيده ، وهو استعمال كثير في الكلام .

وهذا الوجه أوجه .

(224/564)

ويجوز أن يكون توجّه النفي إلى القيد كما هو استعمال غالبٌ وهو مختار صاحب "الكشاف" ، فالمعنى : لم يخرّوا عليها في حالة كالصمم والعمى ولكنهم يخرّون عليها سَامعين مبصرين فيكون الخرور مستعاراً للحرص على العمل بشراشر القلب ، كما يقال : أكَبّ على كذا ، أي صرف جهده فيه ، فيكون التعريض بالمشركين في أنهم يصمون ويعمون عن الآيات ومع ذلك يخرّون على تلقّيها تظاهراً منهم بالحرص على ذلك .

وهذا الوجه ضعيف لأنه إنما يليق لو كان المعرَّض بهم منافقين ، وكيف والسورة مكية فأما المشركون فكانوا يُعرِضون عن تلقي الدعوة علَناً ، قال تعالى : ﴿ وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغَوْا فيه لعلّكم تغلبون ﴾ [فصلت : 26] .

وقال : ﴿ وقالوا قلوبنا في أكِنّة مما تَدْعُونا إليه وفي آذانِنا وقر ومن بيننا وبينك حجاب ﴾ [فصلت : 5] .

وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا (74)

هذه صفة ثالثة للمؤمنين بأنهم يُعْنَون بانتشار الإسلام وتكثير أتباعه فيدْعُون الله أن يرزقهم أزواجاً وذرّيات تقَرُّ بهم أعينُهم ، فالأزواج يُطعنهم باتباع الإسلام وشرائعه ؛ فقد كان بعض أزواج المسلمين مخالفات أزواجهم في الدين ، والذّريات إذا نَشَأوا نشأوا مؤمنين ، وقد جُمع ذلك لهم في صفة ﴿ قرة أعين ﴾ .

فإنها جامعة للكمال في الدين واستقامة الأحوال في الحياة إذ لا تقَرّ عيون المؤمنين إلاّ بأزواج وأبناء مؤمنين .

وقد نهى الله المسلمين عن إبقاء النساء الكوافر في العصمة بقوله : ﴿ ولا تُمسِكوا بِعِصَم الكوافر ﴾ [الممتحنة : 10] ، وقال : ﴿ والذي قال لوالدَيه أُف لكما أَتَعِدَانِنِي أَن أُخرَج ﴾ [الأحقاف : 17] الآية .

(225/564)

فمن أجل ذلك جعل دعاؤهم هذا من أسباب جزائهم بالجنة وإن كان فيه حظ لنفوسهم بقُرّة أعينهم إذ لا يناكد حظ النفس حظ الدين في أعمالهم ، كما في قول عبد الله ابن رواحة وهو خارج إلى غزوة مؤتة ، فدعا له المسلمون ولمن معه أن يَردّهم الله سالمين فقال:

لكنني أسأل الرحمن مغفرة . . .

وضربةً ذات فَرْغ تَقذف الزبَدا

أو طعنةً بيديْ حرّانَ مجهزة . . .

بحَرْبة تُنفذ الأحشاءَ والكَبِدا

حتى يقولوا إذا مَروا على جَدَثي . . .

أرشدَك الله من غَاز وقد رَشَدا

فإن في قوله : حتى يقولوا ، حظاً لنفسه من حسن الذكر وإن كان فيه دعاء له بالرشد وهو حظّ ديني أيضاً ، وقوله : وقد رَشَدَ ، حُسْن ذِكرٍ محض .

وفي كتاب "الجامع" من "جَامع العتبية" من أحاديث ابن وهب قال مالك : رأيت رجلاً يَسأل ربيعة يقول : إني لأُحِبّ أن أُرى رائحاً إلى المسجد ، فكأنه كره من قوله ولم يعجبه أن يحبّ أحدٌ أن يُرى في شيء من أعمال الخير .

وقال ابن رشد في "شرحه" : وهذا خلاف قول مالك في رسم العُقول من سماع أشهب من كتاب الصلاة : إنه لا بأس بذلك إذا كان أولُه لله (أي القصد الأول من العمل لله) .

وقال ابن رشد في موضع آخر من "شرحه" قال الله تعالى : ﴿ وألقَيْتُ عليك محبةً منّي ﴾ [طه : 39] ، وقال : ﴿ واجعل لي لسانَ صِدق في الآخرين ﴾ [الشعراء : 84] .

وقال الشاطبي في "الموافقات" : "عد مالك ذلك من قبيل الوسوسة ، أي أن الشيطان باقي للإنسان إذا سَرّه مرأى الناس له على الخير فيقول لك : إنك لَمُراءٍ .

وليس كذلك وإنما هو أمر يقع في قلبه لا يُملَك" أ هـ .

وفي "المعيار" عن كتاب "سراج المريدين" لأبي بكر بن العربي قال : سألت شيخنا أبا منصور الشيرازي الصوفي عن قوله تعالى : ﴿ إلا الذين تابوا وأصلحوا وبيّنوا ﴾ [البقرة : 160] ما بَيّنوا ؟ قال : أظهروا أفعالهم للناس بالصلاح والطاعات .

قال الشاطبي : وهذا الموضع محل اختلاف إذا كان القصد المذكور تابعاً لقصد العبادة .

(226/564)

وقد التزم الغزالي فيها وفي أشباهها أنها خارجة عن الإخلاص لكن بشرط أن يصير العمل أخفّ عليه بسبب هذه الأغراض .

وأما ابن العربي فذهب إلى خلاف ذلك وكأنّ مجالَ النظر يلتفت إلى انفكاك القصدين ،

على أن القول بصحة الانفكاك فيما يصح فيه الانفكاك أَوْجَهُ لما جاء من الأدلة على ذلك ، إلى آخره .

و﴿ مِن ﴾ في قوله : ﴿ من أزواجنا ﴾ للابتداء ، أي اجعل لنا قُرّة أعْيُن تنشأ من أزواجنا وذرّياتنا .

وقرأ الجمهور : ﴿ وذرياتنا ﴾ جمع ذرية ، والجمع مراعى فيه التوزيع على الطوائف من الذين يدعون بذلك ، وإلا فقد يكون لأحد الداعين ولد واحد .

وقرأه أبو عمرو وحمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم ويعقوب وخلف و ﴿ ذريتنا ﴾ بدون ألف بعد التحتية ، ويستفاد معنى الجمع من الإضافة إلى ضمير ﴿ الذين يقولون ﴾ ، أي ذرية كل واحد .

والأعين : هي أعين الداعين ، أي قرة أعيُن لنا .

وإذ قد كان الدعاء صادراً منهم جميعاً اقتضى ذلك أنهم يريدون قرة أعين جميعهم .

وكما سألوا التوفيق والخير لأزواجهم وذرّياتهم سألوا لأنفسهم بعد أن وفقهم الله إلى الإيمان أن يجعلهم قُدوةً يَقتدي بهم المتّقون .

وهذا يقتضي أنهم يسألون لأنفسهم بلوغَ الدرجات العظيمة من التقوى فإن القدوة يجب أن يكون بالغاً أقصى غاية العمل الذي يرغب المهتمّون به الكمالَ فيه .

وهذا يقتضي أيضاً أنهم يسألون أن يكونوا دعاة للدخول في الإسلام وأن يهتدي الناس إليه

بواسطتهم .

والإمام أصله : المثال والقالب الذي يصنع على شكله مصنوع من مثله ، قال النابغة:

أبوه قبله وأبو أبيه . . .

بنَوْا مجدَ الحياة على إمام

وأُطلق الإمام على القدوة تشبيهاً بالمثال والقالَب ، وغلب ذلك فصار الإمام بمعنى القدوة .

وقد تقدم في قوله تعالى : ﴿ قال إني جاعلُك للناس إماماً ﴾ في سورة البقرة (124) .

(227/564)

ووقع الإخبار بإماماً ﴾ وهو مفرد عن ضمير جماعة المتكلمين لأن المقصود أن يكون كل واحد منهم إماماً يُقتَدى به ، فالكلام على التوزيع ، أو أريد من إمام معناه الحقيقي وجرى الكلام على التشبيه البليغ .

وقيل إمام جمع ، مثل هِجان وصِيام ومفردهُ : إمٌّ .

أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا (75) خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (76)

التصدير باسم الإشارة للتنبيه على أن ما يَرد بعده كانوا أحرياء به لأجل ما ذُكر قبل اسم الإشارة .

وتلك مجموع إحدى عشرة خصلة وهي : التواضع ، والحلم ، والتهجد ، والخوف ، وترك الإسراف ، وترك الإقتار ، والتنزه عن الشرك ، وترك الزنا ، وترك قتل النفس ، والتوبةُ ، وترك الكذب ، والعفوُ عن المسيء ، وقبولُ دعوة الحق ، وإظهار الاحتياج إلى الله بالدعاء .

واسم الإشارة هو الخبر عن قوله ﴿ وعباد الرحمن ﴾ [الفرقان : 63] كما تقدم على أرجح الوجهين .

و﴿ الغرفة ﴾ : البيت المعتلي يصعد إليه بدرج وهو أعزّ منزلاً من البيت الأرضي .

والتعريف في الغرفة تعريفُ الجنس فيستوي فيه المفرد والجمع مثل قوله تعالى : ﴿ وأنزلنا معهم الكتاب ﴾ [الحديد : 25] فالمعنى : يُجزون الغُرَف ، أي من الجنة ، قال تعالى : ﴿ وهم في الغُرفات آمنون ﴾ [سبأ : 37] .

والباء للسببية .

و(ما) مصدرية في قوله : ﴿ بما صبروا ﴾ ، أي بصبرهم وهو صبرهم على ما لقوا من المشركين من أذى ، وصبرُهم على كبح شهواتهم لأجل إقامة شرائع الإسلام ، وصبرهم على مشقة الطاعات .

وقرأ الجمهور : ﴿ ويُلقون ﴾ بضم الياء وفتح اللام وتشديد القاف المفتوحة مضارع لقّاه إذا جعله لاقياً .

وقرأه حمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم وخلف ﴿ ويَلْقَون ﴾ بفتح الياء وسكون اللام وتخفيف القاف المفتوحة مضارع لَقِيَ .

(228/564)

وَاللُّقِيُّ واللِّقَاء : استقبال شيء ومصادفته ، وتقدم في قوله تعالى : ﴿ واتقوا الله واعلموا أنكم مُلاقوه ﴾ في سورة البقرة (223) ، وفي قوله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا لَقِيتُم الذين كفروا زحْفاً ﴾ في سورة الأنفال (15) ، وتقدم قريباً قوله تعالى : ﴿ ومن يفعل ذلك يلقَ أثاماً ﴾ [الفرقان : 68] .

وقد استعير اللُّقِيّ لسماع التحية والسلام ، أي أنهم يسمعون ذلك في الجنة من غير أن يدخلوا على بأس أو يدخل عليهم بأس بل هم مصادفون تحية إكرام وثناء مثل تحيات العظماء والملوك التي يرتلها الشعراء والمنشدون .

ويجوز أن يكون إطلاق اللُّقِيّ لسماع ألفاظ التحية والسلام لأجل الإيماء إلى أنهم يسمعون التحية من الملائكة يَلْقَوْنَهم بها ، فهو مجاز بالحذف قال تعالى : ﴿ وتتلقاهم الملائكة هذا

يومكم الذي كنتم توعدون ﴾ في سورة الأنبياء (103) .

وقوله : ﴿ حسنت مستقراً ومقاماً ﴾ هو ضدّ ما قيل في المشركين ﴿ إنها ساءت مستقراً ومقاماً ﴾ [الفرقان : 66] .

والتحية تقدمت في قوله : ﴿ وإذا حُيِّيتُم بتحية ﴾ في سورة النساء (86) ، وفي قوله : ﴿ وتحيتهم فيها سلام ﴾ في سورة يونس (10) ، وقوله : ﴿ تحية من عند الله مباركة طيبة ﴾ في آخر النور (61) .

قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا (77)

(229/564)

لما استوعبت السورة أغراض التنويه بالرسالة والقرآن ، وما تضمنته من توحيد الله ، ومن صفة كبرياء المعاندين وتعلّلاتهم ، وأحوال المؤمنين ، وأقيمت الحجج الدامغة للمعْرضين ، ختمت بأمر الله رسولَه عليه الصلاة والسلام أن يخاطب المشركين بكلمة جامعة يُزال بها غرورهم وإعجابهم بأنفسهم وحسبانهم أنهم قد شَفوا غليلهم من الرسول بالإعراض عن دعوته وتورّكهم في مجادلته ؛ فبيّن لهم حقارتهم عند الله تعالى وأنه ما بعث إليهم رسوله وخاطبهم بكتابه إلا رحمةً منه بهم لإصلاح حالهم وقطعاً لعذرهم فإذْ كذّبوا فسوف يحلّ

بهم العذاب .

و﴿ ما ﴾ من قوله : ﴿ ما يعبؤا بكم ﴾ نافية .

وتركيب : ما يعبأ به ، يدل على التحقير ، وضده عَبأ به يفيد الحفَاوة .

ومعنى ﴿ ما يعبأ ﴾ : ما يبالي وما يهتمّ ، وهو مضارع عَبَأ مثل : ملأ يَملأ مشتقّ من العِبء بكسر العين وهو الحِمل بكسر الحاء وسكون الميم ، أي الشيء الثقيل الذي يحمل على البعير ولذلك يطلق العِبء على العِدْل بكسر فسكون ، ثم تشعبت عن هذا إطلاقات كثيرة .

فأصل ﴿ ما يعبأ ﴾ : ما يحْمِل عِبئاً ، تمثيلاً بحالة المُتعَب من الشيء ، فصار المقصود : ما يهتمّ وما يكترث ، وهو كناية عن قلة العناية .

والباء فيه للسببية ، أي بسببكم وهو على حذف مضاف يدل عليه مقام الكلام .

فالتقدير هنا : ما يعبأ بخطابكم .

والدعاء : الدعوة إلى شيء ، وهو هنا مضاف إلى مفعوله ، والفاعل يدل عليه ﴿ ربّي ﴾ أي لولا دعاؤه إياكم ، أي لولا أنه يدعوكم .

وحذف متعلق الدعاء لظهوره من قوله : ﴿ فقد كذبتم ﴾ ، أي الداعي وهو محمد صلى الله عليه وسلم فتعين أن الدعاء الدعوة إلى الإسلام .

والمعنى : أن الله لا يلحقه من ذلك انتفاع ولا اعتزاز بكم .

وهذا كقوله تعالى : ﴿ وما خلقت الجنّ والإنس إلا لِيَعْبُدون ما أُريد منهم مِن رزق وما أُريد أن يُطْعِمُون ﴾ [الذاريات : 56 ، 57] .

(230/564)

وضمير الخطاب في قوله : ﴿ دعاؤكم ﴾ موجّه إلى المشركين بدليل تفريع ﴿ فقد كَذّبتم ﴾ عليه وهو تهديد لهم ، أي فقد كذبتم الداعي وهو الرسول عليه الصلاة والسلام .

وهذا التفسير هو الذي يقتضيه المعنى ، ويؤيده قول مجاهد والكلبي والفراء .

وقد فسر بعض المفسرين الدعاء بالعبادة فجعلوا الخطاب موجهاً إلى المسلمين فترتب على ذلك التفسير تكلفات وقد أغنى عن التعرض إليها اعتمادُ المعنى الصحيح فمن شاء فلينظرها بتأمل ليعلم أنها لا داعي إليها .

وتفريع ﴿ فقد كذبتم ﴾ على قوله : ﴿ لولا دعاؤكم ﴾ ، والتقدير : فقد دعاكم إلى الإسلام فكذبتم الذي دعاكم على لسانه .

والضمير في ﴿ يكون ﴾ عائد إلى التكذيب المأخوذ من ﴿ كذبتم ﴾ ، أي سوف يكون تكذيبهم لزاماً لكم ، أي لازماً لكم لا انفكاك لكم منه .

وهذا تهديد بعواقب التكذيب تهديداً مهولاً بما فيه من الإبهام كما تقول للجاني : قد فعلتَ

كذا فسوف تتحمل ما فعلت .

ودخل في هذا الوعيد ما يحلّ بهم في الدنيا من قتل وأسر وهزيمة وما يحل بهم في الآخرة من العذاب .

واللِّزام : مصدر لازم ، وقد صيغ على زنة المفاعلة لإفادة اللزوم ، أي عدم المفارقة ، قال تعالى : ﴿ ولولا كلمة سبقت من ربّك لكان لزاماً ﴾ في سورة طه (129) .

والضميرُ المستتر في (كان) عائد إلى عذاب الآخرة في قوله : ﴿ ولعذَاب الآخرة أشدّ وأبقَى ﴾ [طه : 127] ، فالإخبار باللزام من باب الإخبار بالمصدر للمبالغة .

وقد اجتمع فيه مبالغتان : مبالغة في صيغته تفيد قوة لزومه ، ومبالغة في الإخبار به تفيد تحقيق ثبوت الوصف .

وعن ابن مسعود وأُبَيّ بن كعب : اللِّزام : عذاب يوم بَدر .

ومرادهما بذلك أنه جزئيّ من جزئيات اللِّزام الموعود لهم .

ولعلّ ذلك شاع حتى صار اللزام كالعَلم بالغلبة على يوم بدر .

وفي الصحيح عن ابن مسعود : خمس قد مضَين : الدخان والقمر ، والروم ، والبطشة ، واللزام ، يعني أن اللِّزام غير عذاب الآخرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 19 صـ ﴾

وقال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ والذين لاَ يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِراماً ﴾ .

أي إذا مروا بأهل اللغو والمشتغلين به مروا معرضين عنهم كراماً مكرمين أنفسهم عن الخوض معهم في لغوهم ، وهو كل كلام لا خير فيه كما تقدم .

وهذا المعنى الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة أوضحه جل وعلا بقوله : ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ اللغو أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ لاَ نَبْتَغِي الجاهلين ﴾ [القصص : 55] ، وقد قدمنا الآيات الدالة على معاملة عباد الرحمن للجاهلين ، في سورة مريم في الكلام على قوله تعالى : ﴿ قَالَ سَلاَمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي ﴾ [مريم : 47] الآية .

وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا (73)

قال الزمخشري : لم يخروا عليها ليس بنفي للخرور ، وإنما هو إثبات له ، ونفي للصمم والعمى كما تقول : لا يلقاني زيد مسلماً ، هو نفي للسلام لا للقاء .

والمعنى : أنهم إذا ذكروا بها أكبوا عليها ، حرصاً على استماعها وأقبلوا على المذكر بها ، وهم في إكبابهم عليها سامعون بآذان واعية مبصرون بعيون راعية . انتهى محل الغرض منه .

ولا يخفى أن لهذه الآية الكريمة دلالتين : دلالة بالمنطوق ، ودلالة بالمفهوم ، فقد دلت بمنطوقها على أن من صفات عباد الرحمن ، أنهم إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها ، لم يكبوا عليها في حال كونهم صماً عن سماع ما فيها من الحق ، وعمياناً عن إبصاره ، بل هم يكبون عليها سامعين ما فيها من الحق مبصرين له .

(232/564)

وهذا المعنى دلت عليه آيات أخر من كتاب الله كقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً ﴾ [الأنفال : 2] الآية . ومعلوم أن من تليت عليه آيات هذا الفرقان ، فزادته إيماناً أنه لم يخر عليها أصم أعمى . وكقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هذه إِيمَاناً فَأَمَّا الذين آمَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ الله نَزَّلَ أَحْسَنَ الحديث كِتَاباً مُّتَشَابِهاً مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الذين يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إلى ذِكْرِ الله ﴾ [الزمر : 23] إلى غير ذلك من الآيات .

وقد دلت الآية المذكورة أيضاً بمفهومها : أن الكفرة المخالفين ، لعباد الرحمن الموصوفين في هذه الآيات ، إذا ذكروا بآيات ربهم خروا عليها صماً وعمياناً : أي لا يسمعون ما فيها من الحق ، ولا يبصرونه ، حتى كأنهم لم يسمعوها أصلاً .

وهذا المعنى الذي دلت عليه هذه الآية بمفهومها جاء موضحاً في آيات أخر من كتاب الله كقوله تعالى في سورة لقمان : ﴿ وَإِذَا تتلى عَلَيْهِ آيَاتُنَا ولى مُسْتَكْبِراً كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [لقمان : 7] وقوله تعالى في الجاثية : ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ يَسْمَعُ آيَاتِ الله تتلى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئاً اتخذها هُزُواً أولئك لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ [الجاثية : 79] وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هذه إِيمَاناً فَأَمَّا الذين آمَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ وَأَمَّا الذين فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إلى رِجْسِهِمْ ﴾ [البقرة : 124125] الآية . إلى غير ذلك من الآيات .

والظاهر أن معنى خرور الكفار على الآيات ، في حال كونهم صماء وعمياناً ، هو إكبابهم على إنكارها ، والتكذيب بها ، خلافاً لما ذكره الزمخشري في الكشاف ، والصم في الآية جمع أصم : والعميان جمع أعمى والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ أولئك يُجْزَوْنَ الغرفة بِمَا صَبَرُواْ ﴾ .

الظاهر أن المراد بالغرفة في هذه الآية الكريمة جنسها الصادق بغرف كثيرة ، كما يدل عليه

قوله تعالى : ﴿ وَهُمْ فِي الغرفات آمِنُونَ ﴾ [سبأ : 37] وقوله تعالى : ﴿ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار ﴾ [الزمر : 20] الآية .

وقد أوضحنا هذا في أول سورة الحج وفي غيرها .

قوله تعالى : ﴿ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلاَماً ﴾

وقد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة يونس في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ ﴾ [يونس : 10] .

(234/564)

خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (76)

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الكهف في الكلام على قوله تعالى : ﴿ نِعْمَ الثواب وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقاً ﴾ [الكهف : 31] .

قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا (77)

العرب الذين نزل القرآن بلغتهم ، يقولون : ما عبأت بفلان أي ما باليت به ، ولا أكترثت به : أي ما كان له عندي وزن ، ولا قدر يستوجب الاكتراث ، والمبالاة به ، وأصله من العبء ، وهو الثقل ومنه قول أبي زيد يصف أسداً :

كان بنحره وبمنكبيه . . . عبيراً بات يعبؤه عروس

وقوله : يعبؤه : أي يجعل بعضه فوق بعض لمبالاته به واكتراثه به .

وإذا علمت ذلك فاعلم أن كلام أهل التفسير في هذه الآية الكريمة ، يدور على أربعة أقوال :

واعلم أولاً أن العلماء اختلفوا في المصدر في قوله : لولا دعاؤكم ، هل هو مضاف إلى فاعله ، أو إلى مفعوله ، وعلى أنه مضاف إلى فاعله فالمخاطبون بالآية ، داعون : لا مدعوون : أي ما يعبؤ بكم ربي لولا دعاؤكم : أي عبادتكم له . وأما على أن المصدر مضاف إلى مفعوله فالمخاطبون بالآية ، مدعوون ، لا داعون : أي ما يعبؤ بكم ، لولا دعاؤه إياكم إلى توحيده ، وعبادته على ألسنة رسله عليهم الصلاة والسلام .

واعلم أيضاً أن ثلاثة من الأقوال الأربعة المذكورة في الآية مبنية على كون المصدر فيها مضافاً إلى فاعله . والرابع : مبني على كونه مضافاً إلى مفعوله .

أما الأقوال الثلاثة المبنية على كونه مضافاً إلى فاعله .

فالأول منها أن المعنى : ما يعبؤ بكم ربي لولا دعاؤكم : أي عبادتكم له وحده جل وعلا ، وعلى هذا القول فالخطاب عام للكافرين والمؤمنين ثم أفرد الكافرين دون المؤمنين بقوله : ﴿ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ ﴾ [الفرقان : 77] الآية .

والثاني منها : أن المعنى : لولا دعاؤكم أيها الكفار له وحده عند الشدائد والكروب : أي ولو كنتم ترجعون إلى شرككم ، إذا كشف الضر عنكم .

والثالث : أن المعنى ما يعبؤ بكم ربي : أي ما يصنع بعذابكم ، لولا دعاؤكم معه آلهة أخرى ، ولا يخفى بعد هذا القول ، وأن فيه تقدير ما لا دليل عليه ، ولا حاجة إليه .

أما القول الرابع المبني على أن المصدر في الآية ، مضاف إلى مفعوله فهو ظاهر ، أي ما يعبؤ بكم ربي لولا دعاؤكم إياكم على ألسنة رسله .

وإذا عرفت هذه الأقوال فاعلم أن كل واحد منها ، قد دل عليه قرآن وسنبين هنا إن شاء الله تعالى دليل كل قول منها من القرآن مع ذكر ما يظهر لنا أنه أرجحها .

أما هذا القول الأخير المبني على أن المصدر في الآية مضاف إلى مفعوله ، وأن المعنى : ما يعبؤ بكم ربي لولا دعاؤكم إياكم إلى الإيمان به ، وتوحيده ، وعبادته على ألسنة رسله ، فقد دلت عليه آيات من كتاب الله كقوله تعالى في أول سورة هود : ﴿ وَهُوَ الذي خَلَقَ السماوات والأرض فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ [هود : 7] وقوله تعالى في أول سورة الكهف : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأرض زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُم أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾

[الكهف : 7] وقوله في أول سورة الملك : ﴿ الذي خَلَقَ الموت والحياة لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ

أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ [الملك : 2] .

فهذه الآيات قد أوضحت أن الحكمة في خلقه السماوات والأرض ، وجميع ما على الأرض والموت والحياة ، هي أن يدعوهم على ألسنة رسله ، ويبتليهم أي أن يختبرهم أيهم أحسن عملاً . وهذه الآيات تبين معنى قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجن والإنس إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : 56] .

(236/564)

وفي هذه الآيات إيضاح لأن معنى قوله : لولا دعاؤكم : أي دعاؤه إياكم على ألسنة رسله ، وابتلاؤكم أيكم أحسن عملاً ن وعلى هذا فلا إشكال في قوله : فقد كذبتم : أي ما يعبؤ بكم لولا دعاؤه إياكم : أي وقد دعاكم فكذبتم ، وهذا القول هو وحده الذي لا إشكال فيه . فهو قوي بدلالة الآيات المذكورة عليه .

وأما القول بأن معنى : لولا دعاؤكم : أي إخلاصكم الدعاء له أيها الكفار عند الشدائد ، والكروب ، فقد دلت على معناه آيات كثيرة كقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا رَكِبُواْ فِي الفلك دَعَوُاْ الله مُخْلِصِينَ لَهُ الدين فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى البر إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ [العنكبوت : 65] وقوله تعالى : ﴿ جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ الموج مِن كُلِّ مَكَانٍ وظنوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ

اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدين ﴾ [يونس : 22] .

وقد أوضحنا الآيات الدالة على هذا المعنى في سورة بني إسرائيل ، في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضر فِي البحر ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ ﴾ [الإسراء : 67] الآية ، وهذا القول وإن دلت عليه آيات كثيرة ، فلا يظهر كونه هو معنى آية الفرقان هذه .

أما القول بأن المعنى : ما يصنع بعذابكم ، لولا دعاؤكم معه آلهة أخرى ، فقد دل على معناه قوله تعالى : ﴿ مَّا يَفْعَلُ اللهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ ﴾ [النساء : 147] الآية .

والقول الأول الذي هو أشهر الأقوال وأكثرها قائلاً ، وهو أن المعنى : لولا دعاؤكم : أي عبادتكم له وحده ، قد دل عليه جميع الآيات الدالة على ما يعيطه الله لمن أطاعه ، وما أعده لمن عصاه ، وكثرتها معلومة لا خفاء بها .

واعلم أن لفظه ما ، في قوله : ﴿ قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي ﴾ قال بعض أهل العلم : هي استفهامية . وقال بعضهم : هي نافية وكلاهما له وجه من النظر .

(237/564)

واعلم أن قول من قال : لولا دعاؤكم : أي دعاؤكم إياي لأغفر لكم ، وأعطيكم ما سألتم راجع إلى القول الأول ، لأن دعاء المسألة داخل في العبادة كما هو معلوم . وقوله : فقد

كذبتم : أي بما جاءكم به رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد قدمنا في الكلام على قوله تعالى : ﴿ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً ﴾ [الفرقان : 65] أن معنى قوله تعالى : ﴿ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَاماً ﴾ أي سوفي يكون العذاب ملازماً لهم غير مفارق ، كما تقدم إيضاحه .

وقال جماعة من أهل العلم : إن المراد بالعذاب اللازم لهم المعبر عن لزومه لهم بقوله : ﴿ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَاماً ﴾ أنه ما وقع من العذاب يوم بدر ، لأنهم قتل منهم سبعون وأسر سبعون ، والذين قتلوا منهم ما أصابهم عذاب القتلن واتصل به عذاب البرزخ والآخرة فهو ملازم لا يفارقهم بحال ، وكون اللزام المذكور في هذه الآية : العذاب الواقع يوم بدر رز نقله ابن كثير عن عبد الله بن مسعود ، وأبي بن كعب ، ومحمد بن كعب القرظي ، ومجاهد ، والضحاك ، وقتادة ، والسدي ، وغيرهم ثم قال : وقال الحسن البصري : ﴿ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَاماً ﴾ أي يوم القيامة ، ولا منافاة بينهما .

انتهى من ابن كثير ، ونقله صاحب الدر المنثور عن أكثر المذكورين وغيرهم .

(238/564)

وقال جماعة من أهل العلم : إن يوم بدر ذكره الله تعالى في آيات من كتابه ، قالوا هو المراد بقوله تعالى : ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِّنَ العذاب الأدنى ﴾ [السجدة : 2] أي يوم بدر ﴿ دُونَ العذاب الأكبر ﴾ [السجدة : 21] أي يوم القيامة ، وأنه هو المراد بقوله : ﴿ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَاماً ﴾ ، وأنه هو المراد بالبطش والانتقال ، في قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ البطشة الكبرى إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴾ [الدّخان : 16] وأنه هو الفرقان الفارق بين الحق والباطل في قوله تعالى : ﴿ إِن كُنتُمْ آمَنْتُمْ بالله وَمَا أَنزَلْنَا على عَبْدِنَا يَوْمَ الفرقان يَوْمَ التقى الجمعان ﴾ [الأنفال : 41] وهو يوم بدر ، وأنه هو الذي فيه النصر في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ الله بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فاتقوا الله لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [آل عمران : 123] الآية ، وكون المراد بهذه الآيات المذكورة يوم بدر ثبت بعضه في الصحيح ، عن ابن مسعود ، وهو المراد بقول الشيخ أحمد البدوي الشنقيطي في نظمه للمغازي في الكلام على بدر :

وقد أتى منوها في الذكر :

لأنه العذاب واللزام . . . وأنه البطش والانتقام

وأنه الفرقان بين الكفر . . . والحق والنصر سجيس الدهر

ومعنى سجيس الدهر : أي مدته .

وأظهر الأقوال في الآية عندي ، هو القول بأن المصدر فيها مضاف إلى مفعوله لجريانه على

اللغة الفصيحة من غير إشكال ولا تقدير ، وممن قال به قتادة . والعلم عند الله تعالى . انتهى

انتهى . اهـ ﴿أضواء البيان حـ 6 صـ ﴾

(239/564)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا (72) ﴾

الزُّور : الشيء الكذب ، ويُزوِّر في الشهادة . أي : يُثبت الحق لغير صاحبه ، لكن نلاحظ أن الآية لم تقُلْ : والذين لا يشهدون بالزور ، مما يدلّ على أن للآية معنى أوسع من النطق بقول الزور في مجال التقاضي ، حيث تقول عند القاضي : فلان فعل وهو لم يفعل .

فللشهادة معنى آخر : أي : لا يحضرون الزور ، والزور كلُّ مَا خالف الحق ، ومنه قوله تعالى في شهر رمضان : ﴿ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾ [البقرة : 185] .

فمعنى : ﴿ لاَ يَشْهَدُونَ الزُّورَ ﴾ [الفرقان : 72] أي : لا يحضرون الباطل في أيّ لون من ألوانه قولاً أو فعلاً أو إقراراً ، وكل ما خالف الحق .

لذلك يقول الحق سبحانه في موضع آخر : ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ اللغو أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ لاَ نَبْتَغِي الجاهلين ﴾ [القصص : 55] .

ويقول سبحانه : ﴿ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشيطان فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذكرى مَعَ القوم الظالمين ﴾ [الأنعام : 68] .

وقال تعالى : ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الكتاب أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ الله يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حتى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ﴾ [النساء : 140] .

ومعلوم أن قَوْل الزور والشهادة بغير حق تقلب الحقائق وتضرُّ بالمجتمع ؛ لأنك حين تشهد بالزُّور تأخذ الحق من صاحبه وتعطيه لغيره ، وهذا يؤدي إلى تعطل حركة الحياة ، وتجعل الإنسان لا يأمن على ثمار تعبه وعرقه ، فيحجم الناس عن السعي والعمل ما دامت المسألة زوراً في النهاية .

(240/564)

لذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم : " ألا أُنبئكم بأكبر الكبائر ؟ الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، وشهادة الزور ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم متكئاً فجلس ، فما زال يكررها حتى قلنا : ليته سكت " .

لماذا ؟ لأن شهادة الزُّور تهدم كُلَّ قضايا الحق في المجتمع .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَإِذَا مَرُّواْ بِاللَّغْوِ مَرُّواْ كِراماً ﴾ [الفرقان : 72] اللغو : هو الذي

يجب في عُرْف العاقل أنْ يُلْغى ويُتْرك ، وهو الهُراء الذي لا فائدة منه ؛ لذلك قال فيمن يتركه ﴿ مَرُّوا كِراماً ﴾ [الفرقان : 72] والكرام يقابلها اللئام ، فكأن المعنى : لا تدخل مع اللئام مجالَ اللغو والكلام الباطل الذي يُصادِم الحق ليصرف الناس عنه .

ومن ذلك ما حكاه القرآن عن الكفار ليصرفوا الناس عن الاستماع لآيات الذكر : ﴿ لاَ تَسْمَعُواْ لهذا القرآن والغوا فِيهِ ﴾ [فصلت : 26]

يعني : شوِّشوا عليه حتى لا يتمكّن الناس من سماعه ، وهذه شهادة منهم بأنهم لو تركوا آذان الناس على طبيعتها وسجيتها فسمعت القرآن ، فلا بُدَّ أن ينفعلوا به ، وأن يؤمنوا به ، ولو لم يكُنْ للقرآن أثر في النفوس ما قالوا هذه المقولة .

وقولهم : ﴿ والغوا فِيهِ ﴾ [فصلت : 26] يعني : وإنْ سمعتموه يُقرأ فالْغوْا فيه ، وشوِّشوا عليه ، حتى لا يصل إلى الآذان ، لماذا ؟ ألم يؤمن سيدنا عمر لما سمع آيات منه في بيت أخته فاطمة ؟ لكن لماذا أثّر القرآن في عمر هذه المرة بالذات ، وقد سمعه كثيراً فلم يتأثر به ؟

قالوا : لأن اللجج والعناد يجعل الإنسان يسمع غير سامع ، أما سماع عمر هذه المرة ، فكان بعد أن ضرب أخته فشجَّها ، وسال منها الدم ، فحرّك فيه عاطفة الأخوة وحنانها ، ونفض عنه الكبرياء والعناد واللجاج ، فصادف القرآنُ منه نفساً صافية ، وقلباً خالياً من اللدد للإسلام فأسلم .

ألاَ ترى الكفار يقول بعضهم لبعض عند سماع القرآن كما حكاه القرآن : ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حتى إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ العلم مَاذَا قَالَ آنِفاً ﴾ [محمد : 16] .

يعني : ما معنى ما يقول ، أو ما الجديد الذي جاء به ، وهذا على وجه التعجُّب منهم .

فيردّ القرآن : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ والذين لاَ يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾ [فصلت : 44]

إذن : فالقرآن واحد ، لكن المُسْتقبِل له مختلف : هذا استقبله بنفس صافية راضية ، وهذا استقبله بلَدد وقلب مُغْلق ، فكأنه لم يسمع ، فالمسألة مسألة فِعْل وقابل للفِعْل ، وسبق أن مثَّلنا لذلك بمَنْ ينفخ في يده أيام البرد والشتاء بقصد التدفئة ، وينفخ في كوب الشاي مثلاً بقصد التبريد ، فالفعل واحد ، لكن المستقبل مختلف .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ ﴾

قوله تعالى : ﴿ ذُكِّرُواْ ﴾ [الفرقان : 73] لا تُقال إلا إذا كان المقابل لك الذي تذكره عنده إلْفٌ بالذكْر ، وعنده عِلْم به ، والآيات التي تُذكِّر بها لها قدوم أول ، ولها قدوم ثانٍ :

القدوم الأول : هو الإعلان الأول بها ، والقدوم الثاني : حين تنسى نُذكّرك بها .

وسبق أنْ قُلْنا : إن الآيات تُطلَق على معانٍ ثلاثة : إمّا آيات كونية تُلفِت النظر إلى قدرة الله تعالى ، وأنه صانع حكيم . . الخ ، وإمّا آيات معجزات جاءت لتأييد الرسل وإثبات صِدْقهم في البلاغ عن الله ، وإمّا آيات الذكْر الحكيم ، والتي تسُمَّى حاملة الأحكام ، وهي تُنبِّه من الغفلة ، وتُذكِّر الناس .

(242/564)

فالمعنى ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ ﴾ [الفرقان : 73] أي : في القرآن الكريم : ﴿ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمّاً وَعُمْيَاناً ﴾ [الفرقان : 73] لم يخروا : الخرّ : السقوط بلا نظام وبلا ترتيب .

كما جاء في قوله تعالى : ﴿ فَأَتَى اللهُ بُنْيَانَهُمْ مِّنَ القواعد فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السقف مِن فَوْقِهِمْ ﴾ [النحل : 26] فالسقف إنْ خَرّ يخرّ بلا نظام وبلا ترتيب .

ومنه قوله تعالى في صفات المؤمنين : ﴿ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً * وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ ﴾ [الإسراء : 108109] لأنهم يخرّون بانفعال قَسْريّ ، ينشأ من سماع القرآن .

إذن : حين يُذكَّرون بآيات الله لم يخرّوا عليها صُمّاً وعمياناً ، إنما يخِرُّون وهم مُصغون تمام الإصغاء ، ومبصرون تمام الإبصار .

ثم يقول الحق سبحانه عنهم : ﴿ والذين يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا ﴾

هذه صفة أخرى من صفات عباد الرحمن ، يطلبون فيها أمرين ﴿ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ [الفرقان : 74] والذرية لا تأتي إلا بعد الزواج ؛ لذلك جاء الدعاء للأزواج ، ثم للذرية .

وكلمة ﴿ قُرَّةَ ﴾ [الفرقان : 74] تُستعمل بمعنيين ، وفي اللغة شيء يسمونه (عامل اشتقاق) يعني : يشتق اللفظ من معنى عام ، وقد يختلف معناه ، لكن في النهاية يلتقيان على معنى واحد .

وكلمة (قُرَّة) تأتي بمعنى اللزوم والثبات ، من قَرَّ في المكان يعني : لزمه وثبت فيه ، وتأتي بمعنى السرور ؛ والقُرُّ يعني أيضاً : شدة البرودة ، كما جاء في قول الشاعر :

أَوْقِدْ فإنَّ اللَّيل لَيْل قُرُّ . . . والريحَ يَا غُلامُ ريحُ صُرّ

عَلَّ أَنْ يَرى نَارك مَنْ يمرُّ . . . إنْ جلبتْ ضَيْفاً فأنتَ حُرّ

فالقُر : البرد : والقرور : السُّكون ، والعين الباردة : دليل السرور ، والعين الساخنة دليل الحزن والألم ، على حَدّ قول الشاعر :

فَأَمَّا قُلوبُ العَاشِقِينَ فأُسخنَتْ . . . وأَمَّا قُلوبُ العَازلين فقرَّتِ

لذلك يكنُون ببرودة العين عن السرور ، وبسخونتها عن الحزن ، يقولون : رزقني الله ولداً قرَّتْ به عيني ، ويقولون : أسخن الله عين فلان يعني : أصابه بحُزْن تغلي منه عينه .

ولأن العين جوهرة غالية في جسم الإنسان فقد أحاطها الخالق عز وجل بعناية خاصة ، وحفظ لها في الجسم حرارةً مناسبة تختلف عن حرارة الجسم التي تعتدل عند 37° ، فلو أخذتْ العينُ هذه الدرجة لانفجرتْ .

ومن عجيب قدرة الله تعالى أن تكون حرارة العين تسع درجات ، وحرارة الكبد أربعين ، وهما في جسم واحد .

فالمعنى ﴿ قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ [الفرقان : 74] يعني : اجعل لنا من أزواجنا ما نُسَرُّ به ، كما جاء في الحديث الشريف عن صفات الزوجة الصالحة : " ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله خيراً له من زوجة صالحة : إنْ أمرها أطاعته ، وإن نظر إليها سرَّته ، وإن أقسم عليها أبرَّته ، وإن غاب عنها نصحته في نفسها وماله " .

وهَبْ لنا من ذرياتنا أولاداً ملتزمين بمنهج الله ، لا يحيدون عنه ، ولا يُكلِّفوننا فوق ما نطيق في قول أو فعل ؛ لأن الولد إنْ جاء على خلاف هذه الصورة كان مصيبة كبرى لوالديه ،

بدليل أن الرجل قد يسرف على نفسه بأنواع المعاصي ، وقد يُقصِّر في حق الله ، لكن يحزن إنْ فعل ولده مثل فِعْله .

فالأب قد لا يصلي ، لكن يحثُّ ولده على الصلاة ، ويفرح له إنْ صلى واستقام ، لماذا ؟ لأنه يريد أن يرى وأن يُعوِّض ما فاته من الخير الجمال في ابنه ، ولا يحب الإنسان أن يرى غيره أحسن منه إلا ولده ، لأنه امتداده وعِوَضه فيما فات .

(244/564)

وإنْ أخذنا ﴿ قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ [الفرقان : 74] على أنها بمعنى الاستقرار والثبات ، فالمعنى أن تكون الزوجة على خُلُق وأدب وجمال ، بحيث تُرضِي الزوج ، فلا تمتد عينه إلى غيرها ، وتسكن عندها لأنها استوفت كل الشروط ، ومن ذلك قوله تعالى :

﴿ لاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ ﴾ [الحجر : 88] .

وكذلك إنْ وجد صفات الخير والأدب والجمال في أولاد بحث لا تمتد عينه إلى أكثر من ذلك ؛ لأنه يرى في أولاده كُلَّ تطلعاته ، وكل ما يتمناه ، فلا يتطلع إلى غيرهم ؛ لذلك حين يمدحون يقولون : فلان لم يَعُدْ عنده تطلعات ، لماذا ؟ لأنه حقَّق كل ما يريد .

ويقولون في المدح أيضاً : فلان هذا قَيْد النظر ، يعني : حين تراه تسكن عنده عينك ، ولا

تتحول عنه لجماله وكمال صفاته .

والولد حين يكون على هذه الصورة ، يريد والديه في الدنيا وفي الآخرة ؛ لأنه ولد صالح لا ينقطع بِرّه بوالديه لموتهما ، إنما يظل بارّاً بهما حتى بعد الموت فيدعو لهما . وفي الآخرة يجمعهم الله جميعاً في مستقر رحمته : ﴿ والذين آمَنُواْ واتبعتهم ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ [الطور : 21] .

وهكذا كله في الأزواج وفي الأولاد هبة ومنحة من الله .

ونلحظ أن بعض الأزواج يعيشون مع أزواجهم على مَضَض ، وربما على كُرْه تحملهم عليه ظروف الحياة والأولاد واستقرار الأسرة ، فإنْ قلتَ للزوج : إن زوجتك ستكون معك في الجنة يقول : كيف ، حتى في الآخرة ؟ ! وهو لا يعلم أن الله تعالى سيُطهِّرها من الصفات التي كرهها منها في الدنيا .

قال سبحانه : ﴿ لِلَّذِينَ اتقوا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنهار خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ ﴾ [آل عمران : 15] .

ويقول سبحانه : ﴿ إِنَّ أَصْحَابَ الجنة اليوم فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ * هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلاَلٍ عَلَى الأرآئك مُتَّكِئُونَ ﴾ [يس : 5556] .

وقول تعالى : ﴿ واجعلنا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً ﴾ [الفرقان : 74] نلحظ أن الدعوة هنا جماعية ، ومع ذلك لم يقُلْ أئمة ، وذكر إماماً بصيغة المفرد ، فلماذا ؟

قالوا : لأنه تعالى يُنبِّهنا إلى أنّ الإمام هو الذي يسير على وَفْق منهج الله ولا يحيد عنه ؛ لذلك إنْ تعددتْ الأئمة فهُمْ جميعاً في حُكْم إمام واحد ؛ لأنهم يصدرون عن رب واحد ، وعن منهج واحد لا تحكمهم الأهواء فتُفرِّقهم كالأمراء مثلاً . فجمعهم في القول من كل منهم على حدة ووحدهم في الإمامة .

ثم يقول الحق سبحانه عن جزاء عباد الرحمن : ﴿ أولئك يُجْزَوْنَ الغرفة بِمَا صَبَرُواْ ﴾ ﴿ أولئك ﴾ [الفرقان : 75] خبر عن عباد الرحمن الذين تقدمتْ أوصافهم ، فجزاؤهم ﴿ يُجْزَوْنَ الغرفة ﴾ [الفرقان : 75] وجاءت الغرفة مفردةً مع أنهم متعددون ، يحتاج كل منهم إلى غرفة خاصة به .

قالوا ؛ لأن الغرفة هنا معناها المكان العالي الذي يشتمل على غرفات ، كما قال تعالى : ﴿ إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فأولئك لَهُمْ جَزَآءُ الضعف بِمَا عَمِلُواْ وَهُمْ فِي الغرفات آمِنُونَ ﴾ [سبأ : 37] .

وهذا الجزاء نتيجة ﴿ بِمَا صَبَرُواْ ﴾ [الفرقان : 75] صبوا على مشاقِّ الطاعات ،

وقد أوضح النبي صلى الله عليه وسلم هذه المسألة بقوله : " حُفَّتْ الجنة بالمكاره ، وحُفَّتْ النار بالشهوات " .

فالجنة تستلزم أن أصبر على مشاقِّ الطاعات ، وأن أُقدِّر الجزاء على العمل ، أستحضره في الآخرة ، فإنْ ضِقْتَ بالطاعات وكذَّبْتَ بجزاء الآخرة ، فَلِمَ العمل إذن ؟

(246/564)

ومثَّلْنا لذلك بالتلميذ الذي يجدّ ويجتهد في دروسه ، لأنه يستحضر يوم الامتحان ونتيجته ، وكيف سيكون موقفه في هذا اليوم ، إذن : لو استحضر الإنسانُ الثوابَ على الطاعة لَسهُلَتْ عليه وهانتْ عليه متاعبها ، ولو استحضر عاقبة المعصية وما ينتظره من جزائها لا بتعد عنها .

فالتكاليف الشرعية تستلزم الصبر ، كما قال تعالى : ﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة وإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الخاشعين ﴾ [البقرة : 45] .

فالحق تبارك وتعالى يريد منّا ألاَّ نعزل التكاليف عن جزائها ، بل ضَعِ الجزاء نُصْب عينيك قبل أنْ تُقدِم على العمل .

لذلك النبي صلى الله عليه وسلم يسأل أحد صحابته : "كيف أصبحتَ يا حارثة " فيقول

: أصبحتُ مؤمناً حقاً ، فقال : " إنَّ لكل حقّ حقيقة ، فما حقيقة إيمانك " .

قال : عزفتْ نفسي عن الدنيا ، حتى استوى عندي ذهبها ومدرها ، وكأني أنظر إلى أهل الجنة في الجنة يُنعَّمون ، وإلى أهل النار في النار يُعذَّبون " .

فالمسألة إذن في نظرهم لم تكُنْ غيباً ، إنما مشاهدة ، كأنهم يرونها من شدة يقينهم بها ؛ لذلك قال له النبي صلى الله عليه وسلم : " عرفتَ فالزم " .

والإمام علي كرَّم الله وجهه يقول : لو كُشِف عني الحجاب ما ازددتُ يقيناً . لماذا ؟ لأنه بلغ من اليقين في الغيب إلى حَدّ العلم والمشاهدة .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلاَماً ﴾ [الفرقان : 75] .

التحية أن نقول له : إننا نُحيّيك يعني : نريد حياتك بأُنسك بِنَا ، والسلام : الأمان والرحمة ، لكن مِمَّنْ يكون السلام ؟ ورَدُّ السلام في القرآن الكريم بمعان ثلاثة : سلام من الله ، كما في قوله تعالى : ﴿ سَلاَمٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾ [يس : 58] .

وسلام من الملائكة : ﴿ وَالمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِّن كُلِّ بَابٍ * سَلاَمٌ عَلَيْكُم ﴾ [الرعد : 2324] .

وسلام من أهل الأعراف ، وهم قوم استوتْ حسناتهم وسيئاتهم ، فلم يدخلوا الجنة ، ولم يدخلوا النار ، وهؤلاء يقولون : ﴿ وَعَلَى الأعراف رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْاْ أَصْحَابَ الجنة أَن سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴾ [الأعراف : 46] .

إذن : فعباد الرحمن يُلَقَّوْن في الجنة سلاماً من الله ، وسلاماً من الملائكة ، وسلاماً من أهل الأعراف .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ ﴾

وسبق أنْ قال تعالى عن النار ﴿ سَآءَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً ﴾ [الفرقان : 66] لأنها قبيحة ، ومقابلها هنا ﴿ حَسُنَتْ ﴾ [الفرقان : 76] والمستقر : مكان الإقامة العابرة غير الدائمة ، والمقام : مكان الإقامة الدائمة ، ومعلوم أن مَنْ يدخل الجنة يقيم فيها إقامة أبدية دائمة ، أما مَنْ يدخل النار فقد يخرج منها ، إنْ كان مؤمناً . فكيف قال عن كل منهما : مُستقراً ومُقَاماً ؟

قالوا : لأنهم ساعةَ يأتيهم نعيم وجزاء نقول لهم : ليس هذا هو النعيم الدائم ، فالمستقر في نعمة واحدة ، إنما المقام في نِعَم أخرى كثيرة مُترقية مُستعلية ، لدرجة أن الكمالات في عطاء الله لا تتناهى .

ثم يُنهي الحق سبحانه سورة الفرقان بقوله تعالى : ﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّي ﴾

بعد أن تحدث الحق تبارك وتعالى عن عباد الرحمن ، وذكر أوصافهم وجزاءهم توجّه إلى

الآخرين الذين لم يتصرفوا بهذه الصفات ولن ينالهم شيء من هذا النعيم ، يقول لهم : إياكم أنْ تظنوا أن الله تعالى سيبالي بكم ، أو يهتم ، أو يكون في معونتكم ؛ لأن الله تعالى لا يبالي إلا بعباده الذين عبدوه حَقَّ العبادة ، وأطاعوه حَقَّ الطاعة ، وأنتم خالفتُمْ الأصل الأصيل من إيجاد الخَلْق ، ولم تحققوا معنى الاستخلاف في الأرض الذي خلقكم الله تعالى من أجله .

(248/564)

فكما أنكم انصرفتم عن منهج الله ولم تَعْبئوا به ولم تعبدوه ، ولم يكُنْ على بالكم ، فكذلك لا يعبأ الله بكم ، ولن تكونوا على ذِكْر منه سبحانه ، وسوف يهملكم .

وقوله تعالى : ﴿ لَوْلاَ دُعَآؤُكُمْ ﴾ [الفرقان : 77] يعني : لولا عبادتكم ، حيث إنها لم تقع ﴿ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ ﴾ [الفرقان : 77] أي : بالأصل الأصيل ، وهو أنكم مخلوقون للعبادة ﴿ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَاماً ﴾ [الفرقان : 77] كما لازمتم أنتم الكفر بي ولم تعبدوني وأصررتُم على الكفر ، كذلك يكون الجزاء من جنس العمل لِزاماً لكم ، فلا يُفارقكم أبداً .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(249/564)

فائدة

قال الشيخ الشنقيطي :

قوله تعالى: ﴿ أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا ﴾ . . . الآية .

هذه الآية الكريمة تدل على أنهم يجزون غرفة واحدة وقد جاءت آيات أُخر تدل على خلاف ذلك كقوله تعالى: ﴿ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ ﴾ وكقوله: ﴿ وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ ﴾ .

والجواب: – أن الغرفة هنا بمعنى الغرف كما تقدم مستوفي بشواهده في الكلام على قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ ﴾ . . . الآية .

– وقيل إن المراد بالغرفة: الدرجة العليا في الجنة وعليه فلا إشكال .

– وقيل الغرفة الجنة سميت غرفة لارتفاعها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ دفع إيهام الاضطراب صـ 224 ﴾

(250/564)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا (72) ﴾

أخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله ﴿ والذين لا يشهدون الزور ﴾ قال : إن الزور كان صنماً بالمدينة يلعبون حوله كل سبعة أيام ، وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا مروا به مروا كراماً لا ينظرون إليه .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن الضحاك ﴿ والذين لا يشهدون الزور ﴾ قال : الشرك .

وأخرج الخطيب عن ابن عباس في قوله ﴿ والذين لا يشهدون الزور ﴾ قال : أعياد المشركين .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة في قوله ﴿ والذين لا يشهدون الزور ﴾ قال : الكذب .

وأخرج عبد بن حميد وابن حاتم عن قتادة رضي الله عنه ﴿ والذين لا يشهدون الزور . . . ﴾ قال : لا يساعدون أهل الباطل على باطلهم ، ولا يمالؤونهم فيه .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عمرو بن قيس الملائي ﴿ والذين لا يشهدون الزور ﴾ قال : مجالس السوء .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة ﴿ والذين لا يشهدون الزور ﴾ قال : لعب كان في

الجاهلية .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد عن محمد بن الحنفية ﴿ والذين لا يشهدون الزور ﴾ قال : الغناء واللهو .

وأخرج عبد بن حميد عن أبي الجحاف ﴿ والذين لا يشهدون الزور ﴾ قال : الغناء .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن ﴿ والذين لا يشهدون الزور ﴾ قال : الغناء النياحة .

وأخرج الفريابي وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن أبي الدنيا في ذم الغضب وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في شعب الإيمان عن مجاهد ﴿ والذين لا يشهدون الزور ﴾ قال : مجالس الغناء ﴿ وإذا مروا باللغو مروا كراماً ﴾ قال : إذا أوذوا صفحوا .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم عن السدي في قوله ﴿ وإذا مروا باللغو مروا كراماً ﴾ قال : يعرضون عنهم لا يكلمونهم .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي ﴿ وإذا مروا باللغو مروا كراماً ﴾ قال : هي مكية .

(251/564)

وأخرج ابن أبي حاتم وابن عساكر عن إبراهيم بن ميسرة رضي الله عنه قال : بلغني ان ابن مسعود مر معرضاً ولم يقف فقال النبي صلى الله عليه وسلم " لقد أصبح ابن مسعود أو أمسى كريماً ، ثم تلا إبراهيم ﴿ وإذا مروا باللغو مروا كراماً ﴾ " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن الضحاك ﴿ وإذا مروا باللغو مروا كراماً ﴾ قال : لم يكن اللغو من حالهم ولا بالهم .

وأخرج ابن جرير عن الحسن في قوله ﴿ وإذا مروا باللغو ﴾ قال : اللغو كله المعاصي .

وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله ﴿ وإذا مروا باللغو مروا كراماً ﴾ قال : كانوا إذا أتوا على ذكر النكاح كفوا عنه .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صماً وعمياناً ﴾ قال : لم يصموا عن الحق ، ولم يعموا عنه ، هم قوم عقلوا عن الله فانتفعوا بما سمعوا من كتاب الله .

وأخرج الفريابي وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ لم يخروا عليها صماً وعمياناً ﴾ قال : كم من قارئ يقرأها بلسانه يخر عليها أصم أعمى .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس ﴿ والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين ﴾ قال : يعنون من يعمل بالطاعة فتقر به أعيننا في الدنيا والآخرة . ﴿

واجعلنا للمتقين إماماً ﴾ قال : أئمة هدى يهتدى بنا ، ولا تجعلنا أئمة ضلالة لأنه قال لأهل السعادة ﴿ وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا ﴾ [الأنبياء : 73] ولأهل الشقاوة ﴿ وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ﴾ [القصص : 41] .

وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة رضي الله عنه ﴿ والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين ﴾ قال : لم يريدوا بذلك صباحة ولا جمالاً ، ولكن أرادوا أن يكونوا مطيعين .

(252/564)

وأخرج ابن المبارك في البر والصلة وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في شعب الإيمان عن الحسن أنه سئل عن هذه الآية ﴿ هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين ﴾ أهذه القرة أعين في الدنيا أم في الآخرة ؟ قال : لا والله بل في الدنيا . قيل : وما هي ؟ قال : هي أن يرى الرجل المسلم من زوجته ، من ذريته ، من أخيه ، من حميمه ، طاعة الله ولا والله ما شيء أحب إلى المرء المسلم من أن يرى ولداً ، أو والداً ، أو حميماً ، أو أخاً مطيعاً لله .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد في قوله ﴿ والذين يقولون ربنا

هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين ﴾ قال : يحسنون عبادتك ولا يجرون عليها الجرائر ﴿ واجعلنا للمتقين إماماً ﴾ قال : اجعلنا مؤتمين بهم مقتدين بهم .

وأخرج أحمد والبخاري في الأدب المفرد وابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه وأبو نعيم في الحلية عن المقداد بن الأسود قال : لقد بعث الله النبي صلى الله عليه وسلم على أشد حال بعث عليها نبياً من الأنبياء في قومه من جاهلية ، ما يرون أن ديناً أفضل من عبادة الأوثان ، فجاء بفرقان فرق به بين الحق والباطل ، وفرق به بين الوالد وولده ، حتى إن كان الرجل ليرى والده أو ولده أو أخاه كافراً وقد فتح الله قفل قلبه بالإيمان ويعلم أنه إن هلك دخل النار ، فلا تقر عينه وهو يعلم أن حبيبه في النار . إنها للتي قال الله ﴿ والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد عن عاصم أنه قرأ " هب لنا من أزواجنا وذريتنا واحدة " .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة ﴿ واجعلنا للمتقين إماماً ﴾ يقول : قادة في الخير ودعاة وهداة يؤتم بهم في الخير .

وأخرج الفريابي عن أبي صالح في قوله ﴿ واجعلنا للمتقين إماماً ﴾ قال : أئمة يقتدى بهدانا والله تعالى أعلم .

أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا (75) خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (76)

أخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول عن سهل بن سعد عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله ﴿ أولئك يجزون الغرفة ﴾ قال : هي من ياقوته حمراء ، أو زبرجدة خضراء ، أو درة بيضاء ، ليس فيها قصم ولا وهم .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم عن الضحاك رضي الله عنه في قوله ﴿ أولئك يجزون الغرفة ﴾ قال : الجنة .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو نعيم في الحلية عن أبي جعفر في قوله ﴿ أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ﴾ قال : على الفقر في دار الدنيا .

وأخرج زاهر بن طاهر الشحامي عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن في الجنة لغرفاً ليس فيها مغاليق من فوقها ولا عماد من تحتها قيل : يا رسول الله وكيف يدخلها أهلها ؟ قال : يدخلونها أشباه الطير قيل يا رسول الله : لمن هي ؟ قال : لأهل الاسقام والأوجاع والبلوى " .

وأخرج أحمد عن أبي مالك الأشعري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن في الجنة غرفة يرى ظاهرها من باطنها ، وباطنها من ظاهرها أعدها الله لمن أطعم الطعام ،

وألان الكلام ، وتابع الصيام ، وصلى والناس نيام " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير ﴿ أولئك ﴾ يعني الذين في هؤلاء الآيات ﴿ يجزون الغرفة ﴾ يعني في الآخرة ﴿ الغرفة ﴾ الجنة ﴿ بما صبروا ﴾ على أمر ربهم ﴿ ويلقون فيها ﴾ يعني تتلقاهم الملائكة بالتحية والسلام ﴿ خالدين فيها ﴾ لا يموتون ﴿ حسنت مستقراً ﴾ يعني مستقرهم في الجنة ﴿ ومقاماً ﴾ يعني مقام أهل الجنة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عاصم قال : لقي ابن سيرين رجل فقال : حياك الله فقال : إن أفضل التحية تحية أهل الجنة السلام .

وأخرج عبد بن حميد عن عاصم أنه قرأ " أولئك يجزون الغرفة (واحدة) بما صبروا ويلقون " خفيفة منصوبة الياء والله تعالى أعلم .

(254/564)

قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا (77)

أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ قل ما يعبأ بكم ربي لولا دعاؤكم ﴾ يقول : لولا إيمانكم . فاخبر الله أنه لا حاجة له بهم إذ لم يخلقهم مؤمنين ، ولو كانت له بهم حاجة لحبب إليهم الإيمان كما حببه إلى المؤمنين ﴿ فسوف يكون

لزاماً ﴾ قال : موتاً .

وأخرج الفريابي وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ قل ما يعبأ بكم ربي ﴾ قال : ما يفعل ﴿ لولا دعاؤكم ﴾ قال : لولا دعاؤه إياكم لتعبدوه وتطيعوه .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة عن الوليد بن أبي الوليد قال : بلغني أن تفسير هذه الآية ﴿ قل ما يعبأ بكم ربي لولا دعاؤكم ﴾ أي ما خلقتكم لي بكم حاجة إلا أن تسألوني فأغفر لكم ، وتسألوني فأعطيكم .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن الزبير ، انه قرأ في صلاة الصبح الفرقان ، فلما أتى على هذه الآية قرأ ﴿ فقد كذب الكافرون فسوف يكون لزاماً ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن الأنباري في المصاحف عن ابن عباس أنه قرأ ﴿ فقد كذب الكافرون فسوف يكون لزاماً ﴾ .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن محمد بن كعب في قوله ﴿ فسوف يكون لزاماً ﴾ قال : موتاً .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير عن قتاده ﴿ فسوف يكون لزاماً ﴾ قال أبي بن كعب : هو القتل يوم بدر .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي قال (اللزام) هو القتل الذي أصابهم يوم بدر .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن مردويه عن ابن مسعود قال : قد مضى اللزام كان يوم بدر ؛ قتلوا سبعين ، وأسروا سبعين .

(255/564)

وأخرج الفريابي وسعيد بن منصور وعبد بن حميد والبخاري ومسلم والنسائي وابن جرير والطبراني وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن ابن مسعود قال : خمس قد مضين : الدخان ، والقمر ، والروم ، والبطشة ، واللزام .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة قال : كنا نحدث أن (اللزام) يوم بدر .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد ﴿ فسوف يكون لزاماً ﴾ قال : يوم بدر .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن أبي مالك . مثله .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن ﴿ فسوف يكون لزاماً ﴾ قال : ذاك يوم القيامة .

وأخرج الطبراني عن ابن مسعود قال : مضى خمس آيات وبقي خمس منها . انشقاق القمر وقد رأيناه ، ومضى الدخان ، ومضت البطشة الكبرى ، ومضى اليوم العقيم ، ومضى اللزام ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 6 صـ ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا (72) ﴾

قوله : ﴿ الزُّورَ ﴾ : فيه وجهان ، أحدهما : أنه مفعولٌ به أي : لا يَحْضُرون الزُّوْرَ . وفُسِّر بالصنمِ واللهوِ . الثاني : أنه مصدرٌ ، والمرادُ شهادةُ الزُّوْرِ .

قوله : ﴿ بِاللَّغْوِ ﴾ أي بأهلِه .

وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا (73)

قوله : ﴿ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمّاً ﴾ : النفيُ مُتَسَلِّطٌ على القيدِ ، وهو الصَّمَمُ والعمى أي : إنهم يَخِرُّون عليها ، لكنْ لا على هاتين الصفتين . وفيه تعريضٌ بالمنافقين .

وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا (74)

قوله : ﴿ مِنْ أَزْوَاجِنَا ﴾ : يجوز أَنْ تكونَ " مِنْ " لابتداءِ الغايةِ ، وأنْ تكونَ للبيانِ . قاله الزمخشري ، وجعله من التجريدِ ، أي : هَبْ لنا قُرَّةَ أَعْيُنٍ من أزواجِنا كقولِك : " رأيت منك أسداً " وقرأ أبو عمرٍو والأخَوان وأبو بكر " ذُرِّيَّتِنا " بالتوحيدِ ، والباقون بالجمعِ

سلامةً . وقرأ أبو هريرة وأبو الدرداء وابن مسعود " قُرَّاتِ " بالجمعِ . وقال الزمخشري : " أتى هنا ب " أَعْيُن " صيغةِ القلةِ ، دون " عيون " صيغةِ الكثرة ، إيذاناً بأنَّ عيونَ المتقين قليلةٌ بالنسبةِ إلى عُيون غيرهم " . وردَّه الشيخُ بأنَّ أَعْيُناً يُطْلَقُ على العشرة فما دونَها ، وعيونَ المتقين كثيرةٌ فوق العَشرة " ، وهذا تَحَمُّل عليه ؛ لأنه إنما أراد القلةَ بالنسبة إلى كثرةِ غيرِهم ، ولم يُرِدْ قَدْراً مخصوصاً .

(257/564)

قوله : ﴿ إِمَاماً ﴾ فيه وجهان ، أَحدُهما : أنَّه مفردٌ ، وجاء به مفرداً إرادةً للجنس ، وحَسَّنَه كونُه رأسَ فاصلةٍ . أو المراد : اجعَلْ كلَّ واحدٍ منا إماماً ، وإمَّا لاتِّحادِهم واتفاقِ كلمتِهم ، وإمَّا لأنَّه مصدرٌ في الأصلِ كصِيام وقِيام . والثاني : أنه جمعُ آمٍّ كحالٍّ وحِلال ، أو جمعُ إمامة كقِلادة وقِلاد .

أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا (75)

قوله : ﴿ الغرفة ﴾ : مفعولٌ ثانٍ ل "يُجْزَوْن" . والغُرْفَةُ ما ارتفعَ من البناءِ ، والجمعُ غُرَفٌ .

قوله : ﴿ بِمَا صَبَرُواْ ﴾ أي : " بصَبْرِهم " أي : بسببِه أو بسببِ الذي صبروه . والأصلُ

: صبروا عليه ، ثم حُذِفَ بالتدريج . والباءُ للسببية كما تقدَّم . وقيل : للبدلِ كقوله :

3502 فليت لي بهُم قَوْماً . . . . . .

. . . . . .

البيت . ولا حاجةَ إلى ذلك .

قوله : ﴿ ويُلَقَّوْنَ ﴾ قرأ الأَخَوان وأبو بكر بفتح الياء ، وسكونِ اللام ، مِنْ لَقِيَ يلقى .

الباقون بضمّها وفتحِها وتشديدِ القافِ على بنائِه للمفعول .

قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا (77)

(258/564)

قوله : ﴿ لَوْلاَ دُعَآؤُكُمْ ﴾ : جوابُها محذوفٌ لدلالةِ ما تقدَّم . أي : لولا دعاؤُكم ما عَنَى بكم ولا اكترَثَ . و " ما " يجوز أَنْ تكونَ نافيةً . وهو الظاهرُ . وقيل : استفهاميةٌ بمعنى النفي ، ولا حاجةَ إلى التجوُّزِ في شيءٍ يَصِحُّ أَنْ يكونَ حقيقةً بنفسه . و " دعاؤُكم " : يجوز أن يكونَ مضافاً للفاعلِ أي : لولا تَضَرُّعُكم إليه . ويجوز أَنْ يكونَ مضافاً للمفعول أي : لولا دعاؤُه إيّاكم إلى الهدى . ويقال : ما عَبَأْتُ بك أي : ما اهتَمَمْتُ ولا اكترَثْتُ . ويقال : عَبَأْتُ الجيشَ وعَبَّأْتُه أي : هَيَّأْتُه وأَعْدَدْتُه ، والعِبْء : الثِّقَل .

قوله : ﴿ لِزَاماً ﴾ خبرُ " يكون " واسمُها مضمرٌ أي : يكون العذابُ ذا لِزام . واللِّزام : بالكسرِ مصدرٌ كقوله :

3503 فإمَّا يَنْجُوَا مِنْ حَتْفِ أرضٍ . . . فقد لَقِيا حُتوفَهما لِزاما

وقرأ المنهال وأبان بن تغلب وأبو السمَّال " لَزاماً " بفتح اللامِ . وهو مصدرٌ أيضاً نحو : البَيات . وقرأ أبو السمَّال أيضاً " لَزامِ " بكسر الميم كأنه جَعَله مصدراً معدولاً نحو : " بَدادِ " فبَناه على لغةِ الحجاز فهو معدولٌ عن اللزَمةِ كفَجارِ عن الفَجْرة قال :

3504 إنَّا اقْتَسَمْنا خُطَّتَيْنا بينَنا . . . فَحَمَلْتُ بَرَّةَ واحْتَمَلْتَ فَجارِ . انتهى انتهى . اهـ

﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 505.507 ﴾

(259/564)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا (72) ﴾

يستمكنون في مواطن الصدق لا يبرحون عنه ليلاً ونهاراً ، وقولاً وفعلاً . وإذا مروا بأصحاب الزلات ومساكن المخالفات مروا متمكنين مُعْرِضين لا يساكِنون أهل تلك

الحالة .

ويقال نزلت الآية في أقوام مرُّوا – لمَّا دخلوا مكة بأبواب البيوت التي كانوا يعبدون فيها الأصنام مرةً – متكرمين دون أن يلاحظوها أو يلتفتوا إليها فَشَكَرَ اللَّهُ لهم ذلك .

ثم قال في صفتهم : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ بل قابلوها بالتفكير والتأمل ، واستعمال النظر .

وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا (74)

قرة العين مَن به حياة الروح ، وإنما يكون كذلك إذا كان بحقِّ الله قائماً .

ويقال قرة العين من كان لطاعة ربه معانقاً ، ولمخالفة أمره مفارقاً .

﴿ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً ﴾ الإمام مَنْ يُقْتَدى به ولا يَبْتَدِع .

ويقال إن الله مدح أقواماً ذكروا رتبة الإمامة فسألوها بنوع تضرع ، ولم يدَّعوا فيها اختيارهم ؛ فالإمامةُ بالدعاء لا بالدعوى ، فقالوا : ﴿ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً ﴾ .

أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا (75)

يعطي – سبحانه – كثير من عطائه ويعده قليلاً ، ويقبل اليسيرَ من طاعة العبد ويعده كثيراً عظيما ، يعطيهم الجنة ؛ قصوراً وحوراً ثم يقول : ﴿ أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ ﴾ ويقبل اليسير من العبد فيقول : ﴿ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴾ [الذاريات : 22] .

لَيرْوه من غير تكلف نقل ، ولا تحمل قطع مسافة .

ويقال : ﴿ هَلْ جَزَآءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ ﴾ [الرحمن : 60] : اليومَ يحضر العبدُ بيتَه لأداء العبادة ، وينقل أقدامه إلى المساجد ، وغداً يجازيهم بأن يكفيهم قطعَ المسافة ، فهم على أرائكهم – في مستقرّ عِزّهم – يسمعون كلام الله ، وينظرون إلى الله .

قوله : ﴿ بِمَا صَبَرُواْ ﴾ أي صبروا عمَّا نهوا عنه ، وصبروا على الأحكام التي أرجراها عليهم بِتَرْكِ اختيارهم ، وحُسْن الرضا بتقديره .

خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (76)

مقيمين لا يبرحون منازلهم ، وفي أحولهم حَسُنَ مستقرُّهم مستقراً ، وحَسُن مقامهم مقاماً .

قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا (77)

لولا عبادتكم الأصنامَ ودعاؤكم إياها باستحقاق العبادةِ وتسميتكم لها آلهةً . . . متى كان يخلدكم في النار ؟

ويقال لولا تضرعكم ودعاؤكم بوصف الابتهال لأدام بكم البلاء ، ولكن لما أخذْتُم في

الاستكانةِ والدعاء ، وتضرَّعتُم رحِمَكم وكَشَفَ الضرَّ عنكم . انتهى انتهى . اهـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 652. 653 ﴾

(261/564)

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

قوله عز وجل : ﴿ وَهُوَ الذى مَرَجَ البحرين ﴾

يعني : أرسل .

ويقال : حلى البحرين .

ويقال : فلق البحرين .

ويقال : خلق البحرين العذب والمالح ﴿ هذا عَذْبٌ فُرَاتٌ ﴾ يعني : حلواً ﴿ وهذا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾ يعني : مرّ مالح ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً ﴾ أي حاجزاً ﴿ وَحِجْراً مَّحْجُوراً ﴾ أي حرم على العذب أن يملح ، وحرم على المالح أن يعذب ، وحرم على كل واحد منهما أن يختلط بصاحبه ، وأن يغير كل واحد منهما طعم صاحبه .

قوله عز وجل : ﴿ وَهُوَ الذى خَلَقَ مِنَ الماء بَشَراً ﴾ أي من النطفة إنساناً ﴿ فَجَعَلَهُ

نَسَباً وَصِهْراً ﴾ فالنسب ما لا يحل لك نكاحُه من القرابة ، والصهر ما يحل لك نكاحه من القرابة ، وغير القرابة وهذا قول الكلبي .

وقال الضحاك : النسب القرابة ، والصهر الرضاع ، ويحرم من الصهر ما يحرم من النسب .

(262/564)

ويقال : النسب الذي يحرم بالقرابة ، والصهر الذي يحرم بالنسب ، وهو ما ذكر في قوله تعالى : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وَبَنَاتُ الاخ وَبَنَاتُ الاخت وأمهاتكم اللاَّتِى أَرْضَعْنَكُمْ وأخواتكم مِّنَ الرضاعة وأمهات نِسَآئِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللاتى فِى حُجُورِكُمْ مِّن نِّسَآئِكُمُ اللاتى دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وحلائل أَبْنَآئِكُمُ الذين مِنْ أصلابكم وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ الاختين إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ الله كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾ [النساء : 23] فهذه السبع تحرم بالقرابة والسبع التي تحرم بالنسب ، فهو ما ذكر بعده وهو قوله تعالى : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وَبَنَاتُ الاخ وَبَنَاتُ الاخت وأمهاتكم اللاَّتِى أَرْضَعْنَكُمْ وأخواتكم مِّنَ الرضاعة وأمهات نِسَآئِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللاتى فِى حُجُورِكُمْ مِّن نِّسَآئِكُمُ اللاتى دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وحلائل أَبْنَآئِكُمُ الذين مِنْ أصلابكم وَأَن تَجْمَعُواْ

بَيْنَ الاختين إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾ [النساء : 23] إلى آخر الآية.

وامرأة الأب ثم قال تعالى : ﴿ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيراً ﴾ فيما أحل النكاح، وفيما حرم يقال : قديراً على ما أراد.

قوله عز وجل : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ ﴾ يعني : الأصنام ﴿ مَا لاَ يَنفَعُهُمْ ﴾ إن عبدوهم ﴿ وَلاَ يَضُرُّهُمْ ﴾ إن لم يعبدوهم ﴿ وَكَانَ الكافر على رَبِّهِ ظَهِيراً ﴾ أي : عوناً للشياطين على ربه.

قال بعضهم : نزلت في شأن أبي جهل بن هشام.

ويقال : في شأن جميع الكفار.

(263/564)

ثم قال : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ يعني : ما أرسلناك يا محمد إلا مبشراً بالجنة، لمن أطاع الله، ونذيراً بالنار لمن عصاه، ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ يعني : قل لكفار مكة : ما أسألكم، يعني : على القرآن والإيمان ﴿ مِنْ أَجْرٍ ﴾ يعني : من جُعل ﴿ إِلاَّ مَن شَاء أَن يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً ﴾ يعني : إلا من شاء أن يوحده، ويتخذ إلى ربه بذلك التوحيد سبيلاً، يعني : مرجعاً.

ويقال : يعمل ، فيتخذ عند ربه مرجعاً صالحاً ، فيدخل به الجنة .

يعني : لا أريد الأجر ، ولكن أريد لكم هذا الذي ذكر ، وقصدي هذا لا أَنْ آخُذ منكم شيئاً .

قوله عز وجل : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الحى الذى لاَ يَمُوتُ ﴾ وذلك حين دعي إلى ملة آبائه ، فأمره الله تعالى بأن يتوكل على ربه قال الكريم : ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ ﴾ قال مقاتل : واذكر بأمره وقال الكلبي : صلِّ بأمره ﴿ وكفى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً ﴾ يعني : عالماً معناه ، وكفى بالله عالماً بذنوب عباده وبمجازاتهم ، فلا أحد أعلم بذنوب عباده ومجازاتهم منه .

ثم قال عز وجل : ﴿ الذى خَلَقَ السموات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ استوى عَلَى العرش ﴾ وقد ذكرناه وتمّ الكلام ثم قال : ﴿ الرحمن ﴾ يعني : استوى الرحمن على العرش .

قال : ويجوز أن يكون على معنى الابتداء ثم قال : ﴿ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً ﴾ يعني : فاسأل عنه عالماً .

ويقال : معناه ما أخبرتك به من شيء ، فهو كما أخبرتك ، فاسأل بذلك عالماً حتى يبين لك ذلك كقوله : ﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الذين يَقْرَءُونَ الكتاب مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَآءَكَ الحق مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الممترين ﴾ [يونس : 94] الآية .

خاطب به النبي صلى الله عليه وسلم ، وأراد به أمته .

قوله عز وجل : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسجدوا للرحمن ﴾ يعني : صلوا للرحمن .

ويقال : اخضعوا له ووحدوه ﴿ قَالُواْ وَمَا الرحمن ﴾ يعني : ما نعرف الرحمن إلا مسيلمة الكذاب قالوا : ﴿ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا ﴾ لذلك الكذاب .

قرأ حمزة والكسائي بالياء على معنى المغايبة وقرأ الباقون على المخاطبة ﴿ وَزَادَهُمْ نُفُوراً ﴾ يعني : زادهم ذكر الرحمن تباعداً عن الإيمان ، فمن قرأ بالياء ، فمعناه لما يأمرنا الرحمن بالسجود .

ويقال : لما يأمرنا محمد ، يعني : لا نسجد لما يأمرنا كقوله : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُواْ فِى اليتامى فانكحوا مَا طَابَ لَكُمْ مِّنَ النساآء مثنى وثلاث وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُواْ فواحدة أَوْ مَا مَلَكَتْ أيمانكم ذلك أدنى أَلاَّ تَعُولُواْ ﴾ [النساء : 3] يعني : من طاب لكم ، ومن قرأ بالتاء ، أراد به النبي صلى الله عليه وسلم .

قال أبو عبيد : هذا هو الوجه ، لأن المشركين خاطبوه بذلك ، وكانوا غير مقرين بالرحمن .

قوله عز وجل : ﴿ تبارك ﴾ وقد ذكرناه ﴿ الذى جَعَلَ فِى السماء بُرُوجاً ﴾ يعني : خلق في السماء بروجاً ، يعني : نجوماً وكواكب .

ويقال : قصوراً .

وذكر أنه جعل في القصور حراساً ، كما قال في آية أخرى : ﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا السماء فوجدناها مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً ﴾ [الجن : 8] الآية .

ويقال : البروج الكواكب العظام ، وكل ظاهر مرتفع ، فهو برج ، وإنما قيل لها بروج لظهورها وارتفاعها ، ثم قال تعالى : ﴿ وَجَعَلَ ﴾ يعني : خلق فيها ﴿ سِرَاجاً ﴾ يعني : شمساً ﴿ وَقَمَراً مُّنِيراً ﴾ يعني : منوراً مضيئاً .

قرأ حمزة والكسائي ﴿ سُرُجاً ﴾ بلفظ الجمع ، يعني : الكواكب .

وقرأ الباقون ﴿ الشمس سِرَاجاً ﴾ ، وبه قال أبو عبيدة : بهذا نقرأ .

(265/564)

كقوله : ﴿ وَجَعَلَ الشمس سِرَاجاً ﴾ ولأنه قد ذكر الكواكب بقوله : ﴿ بُرُوجاً ﴾ ثم قال عز وجل : ﴿ وَهُوَ الذى جَعَلَ الليل والنهار ﴾ أي : خلق الليل والنهار ﴿ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ ﴾ أي خلفة يخلف كل واحد منهما صاحبه يذهب الليل ، ويجيء النهار ، ويذهب النهار ، ويجيء الليل ، ويقال : خلفة يعني : مخالفاً بعضه لبعض ، أحدهما أبيض ، والآخر أسود ، فهما مختلفان كقوله عز وجل : ﴿ إِنَّ فِى اختلاف الليل والنهار ﴾ الآية .

وعن الحسن أنه قال : النهار خلف من الليل ، لمن أراد أن يعمل بالليل ، فيفوته ، فيقضي ، فإذا فاته بالنهار يقضي بالليل لمن أراد أن يذكر .

قرأ حمزة ﴿ يُذْكَرِ ﴾ بتسكين الذال ، وضم الكاف .

يعني : يذكر ما نسي ، إذا رأى اختلاف الليل والنهار .

وقرأ الباقون بالتشديد ﴿ يُذَّكَّرِ ﴾ وأصله يتذكر يعني : يتعظ في اختلافهما ، ويستدل بهما ﴿ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً ﴾ يعني : العمل الصالح ويترك ما هو عليه من المعصية .

ويقال : ﴿ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً ﴾ ، أو أراد توحيداً وإقراراً ، فيمكنه ذلك قوله عز وجل : ﴿ وَعِبَادُ الرحمن الذين يَمْشُونَ ﴾ يعني : وإن من عباد الرحمن عباداً يمشون ﴿ على الأرض هَوْناً ﴾ يعني : يمضون متواضعين ، وهذا جواب لقولهم ﴿ وَمَا الرحمن أَنَسْجُدُ ﴾ ؟ فقال : الرحمن الذي جعل في السماء بروجاً ، وهو الذي له عباد مثل هؤلاء .

يعني : أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، ومن كان مثل حالهم ، وهذا كقوله : ﴿ جنات عَدْنٍ التى وَعَدَ الرحمن عِبَادَهُ بالغيب إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيّاً ﴾ [مريم : 61]

وكقوله : ﴿ والذين اجتنبوا الطاغوت أَن يَعْبُدُوهَا وأنابوا إِلَى الله لَهُمُ البشرى فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴾ [الزمر : 17] الآية .

وقال مجاهد : يمشون على الأرض هوناً في طاعة الله متواضعين .

ويقال : هوناً ، أي : هيناً لا جور فيه على أحد ، ولا أذى .

ويقال : هوناً يعني : سكينة ووقاراً .

(266/564)

وحلماً .

﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجاهلون ﴾ يعني : كلمهم الجاهلون بالجهل ﴿ قَالُواْ سَلاَماً ﴾ يعني : سداداً من القول .

ويقال : ردوا إليهم بالجميل .

وقال الحسن : أي حلماً لا يجهلون ، وإن جهل عليهم حلموا .

وقال الكلبي : نسخت بآية القتال .

وقال بعضهم : هذا خطأ ، لأن هذا ليس بأمر ، ولكنه خير من حالهم ، والنسخ يجري في الأمر والنهي ثم وصف حال لياليهم فقال عز وجل : ﴿ وَالَّذِينَ يِبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً ﴾ يعني : يقومون بالليل في الصلاة سجداً ﴿ وقياما ﴾ يعني : يكونون في ليلتهم مرة ساجدين ، ومرة قائمين .

وروي عن ابن عباس أنه كان يقول : من صلى ركعتين أو أربعاً بعد العشاء ، فقد بات لله

ساجداً وقائماً ، ثم وصف خوفهم فقال : إنهم مع جهدهم خائفون من عذاب الله عز وجل ، ويتعوذون منه فقال عز وجل : ﴿ والذين يَقُولُونَ ﴾ يعني : عباد الرحمن ﴿ رَبَّنَا اصرف عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً ﴾ يعني : لازماً لا يفارق صاحبه .

وقال بعض أهل اللغة : الغرام في اللغة أشد العذاب .

وقال محمد بن كعب القرظي : ﴿ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً ﴾ .

قال : سألهم عن النعم ، فلم يأتوا بثمنها ، فأغرمهم ثمن النعم ، وأدخلهم النار ثم قال : ﴿ إِنَّهَا سَاءتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً ﴾ يعني : بئس المستقر ، وبئس الخلود ، والمقام الخلود كقوله : ﴿ الذى أَحَلَّنَا دَارَ المقامة مِن فَضْلِهِ لاَ يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلاَ يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾ [فاطر : 35] يعني : دار الخلود .

ويقال : نصب المستقر للتمييز ، ومعناه لأنها ساءت في المستقر .

ثم قال عز وجل : ﴿ والذين إِذَا أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ ﴾ وقرأ نافع وابن عامر ﴿ يَقْتُرُواْ ﴾ بضم الياء وكسر التاء .

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿ لَمْ يَقْتُرُواْ ﴾ بنصب الياء وكسر التاء .

وقرأ أهل الكوفة بنصب الياء ، وضم التاء ، ومعنى ذلك كله واحد .

يعني : لم يسرفوا ، فينفقوا في معصية الله ، ولم يقتروا فيمسكوا عن الطاعة ﴿ وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً ﴾ يعني : بين ذلك عدلاً ووسطاً .

وقال الحسن : ما أنفق الرجل على أهله في غير إسراف ولا فساد ، ولا إقتار ، فهو في سبيل الله تعالى .

وقال مجاهد لو كان لرجل مثل أبي قبيس ذهباً ، فأنفقه في طاعة الله ، لم يكن مسرفاً ، ولو أنفق درهماً في معصية الله تعالى كان مسرفاً .

ثم قال عز وجل : ﴿ والذين لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إلها ءاخَرَ ﴾ يعني : لا يشركون بالله .

ويقال : الشرك ثلاثة : أولها أن يعبد غير الله تعالى ، والثاني أن يطيع مخلوقاً بما يأمره من المعصية ، والثالث أن يعمل لغير وجه الله تعالى ، فالأول كفر والآخران معصية ثم قال : ﴿ وَلاَ تَقْتُلُواْ النفس التى حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بالحق ﴾ أي إلا بإحدى خصال ثلاث وقد ذكرناه .

﴿ وَلاَ يَزْنُونَ ﴾ يعني : لا يستحلون الزنى ، ولا يقتلون النفس ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذلك ﴾ يعني : الشرك والقتل والزنى ﴿ يَلْقَ أَثَاماً ﴾ قال الكلبي يعني : عقاباً في النار ، وذكر عن سيبويه والخليل أنهما قالا : معناه جزاء الآثام .

ويقال : الآثام العقوبة وقال الشاعر :

جَزَى اللهُ ابْنَ عُرْوَةَ حِينَ أَمْسَى .

. . عَقُوقاً فَالْعُقُوقُ لَهُ أَثَامُ

أي عقوبة ثم قال عز وجل : ﴿ يضاعف لَهُ العذاب يَوْمَ القيامة وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً ﴾ يعني : في العذاب صاغراً يهان فيه .

قرأ عاصم ﴿ يضاعف لَهُ ﴾ بالألف ، وضم الفاء .

وقرأ ابن عامر وابن كثير ﴿ يضاعف ﴾ بغير ألف ، والتشديد ، وجزم الفاء .

وقرأ الباقون ﴿ يضاعفون ﴾ بالألف ، وجزم الفاء .

وقرأ عاصم في رواية أبي بكر وابن عامر ، ﴿ القيامة وَيَخْلُدْ ﴾ بضم الدال .

وروى حفص عن عاصم وابن كثير ، ﴿ وَيَخْلُدْ ﴾ بالإشباع ، والباقون بجزم الدال .

(268/564)

ثم قال عز وجل : ﴿ إِلاَّ مَن تَابَ وَءامَنَ ﴾ يعني : تاب من الشرك والزنى والقتل ، وصدّق بتوحيد الله تعالى : ﴿ وَعَمِلَ صالحا فَأُوْلَئِكَ يُبَدّلُ الله سَيّئَاتِهِمْ حسنات ﴾ يعني : مكان الشرك الإيمان ، ومكان القتل الكف ، ومكان الزنى العفاف ، ومكان المعصية العصمة والطاعة .

ويقال : إنه يبدل في الآخرة مكان عمل السيئات والحسنات .

وروي عن ابن مسعود أنه قال : إن يوم القيامة إذا أعطي الإنسان كتابه لينظر في كتابه فيرى أوله معاصي ، وفي الآخر حسنات ، فلما رجع إلى أول الكتاب ، رآه كله حسنات .

روى أبو ذر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "يُعْرَضُ عَلَيْهِ أَصَاغِرُ ذُنُوبِهِ ، وَهُوَ مُشْفِقٌ مِنَ الكَبَائِرِ أَنْ تَجِيءَ ذُنُوبُهُ العِظَامُ ، فَإِذَا أَرَادَ بِهِ خَيْراً قِيلَ : أَعْطُوهُ مَكَانَ كُلِّ سَيِّئَةٍ حَسَنَةً .

فَيَقُولُ : يَا ربِّ إِنَّ لِي ذُنُوباً مَا أَرَاها هنا " .

قال : ولقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يضحك ، ثم تلا : ﴿ فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حسنات ﴾ .

وذكر عن أبي هريرة أنه قال : خرجت من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسألتني امرأة في الطريق فقالت زنيت ، ثم قتلت الولد ، فهل لي من توبة ؟ فقلت : لا توبة لك أبداً .

ثم قلت : أفتيتها ورسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهرنا ، فرجعت إليه ، فأخبرته بذلك فقال : "هَلِكْتَ وَأَهْلَكْتَ ، فَأَيْنَ أَنْتَ مِنْ هذه الآية .

﴿ والذين لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إلها ءاخَرَ ﴾ إلى قوله : ﴿ فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حسنات ﴾ فخرجت وقلت : من يدلني على امرأة سألتني مسألة ، والصبيان يقولون : جن أبو هريرة حتى أدركتها ، وأخبرتها بذلك فسرت .

وقالت : إن لي حديقة جعلتها لله ولرسوله .

وقال بعضهم : هذه الآية مدنية نزلت في شأن وحشي وقال بعضهم الآية قد كانت نزلت بمكة فكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم من المدينة إلى وحشي ثم قال تعالى : ﴿ وَكَانَ الله غَفُوراً رَّحِيماً ﴾ يعني : غفوراً لما فعلوا قبل التوبة لمن تاب رحيم بالمؤمنين بعد التوبة .

﴿ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صالحا ﴾ يعني : تاب من الشرك والمعاصي ، وعمل صالحاً بعد التوبة ﴿ فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى الله مَتَاباً ﴾ يعني : مناصحاً لا يرجع .

ويقال : متاباً له في الجنة .

ويقال : ﴿ مَتَاباً ﴾ .

يعني : توبة .

يعني : يتوب توبة مخلصة ثم قال : ﴿ والذين لاَ يَشْهَدُونَ الزُّورَ ﴾ يعني : لا يحضرون مجالس الكذب والفحش والكفر ﴿ وَإِذَا مَرُّواْ بِاللَّغْوِ ﴾ يعني : مجالس اللهو والباطل ﴿ مَرُّواْ كِراماً ﴾ يعني : حُلماء عُلماء معرضين عنها .

وقال القتبي : مروا كراماً لم يخوضوا فيه ، وأكرموا أنفسهم .

ثم قال عز وجل : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ ﴾ يعني : وعظوا بالقرآن ﴿ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا ﴾ يعني : لم يقعوا عليها ﴿ صُمّاً وَعُمْيَاناً ﴾ يعني : لا يسمعون ولا يبصرون ، ولكنهم سمعوا وانتفعوا به .

وهذا قول مقاتل .

وقال القتبي : لم يخروا عليها ، أي لم يتغافلوا عنها ، فكأنهم صم لم يسمعوها عمي لم يروها .

ثم قال عز وجل : ﴿ والذين يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أزواجنا وذرياتنا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ يعني : اجعل أزواجنا وذريتنا من الصالحين ، تقر أعيننا بذلك .

ويقال : وفقهم للطاعة ، واعصمهم من المعصية ، ليكونوا معنا في الجنة ، فتقر بهم أعيننا .

قرأ حمزة والكسائي وأبو عمرو وعاصم في رواية أبي بكر ، ﴿ وذرياتنا ﴾ بلفظ الوحدان .

(270/564)

وقرأ الباقون ﴿ وذرياتنا ﴾ بلفظ الجماعة ، ثم قال : ﴿ واجعلنا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً ﴾ يعني : اجعلنا أئمة في الخير يقتدي بنا المؤمنون ، كما قال : ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ الخيرات وَإِقَامَ الصلاة وَإِيتَآءَ الزكواة وَكَانُواْ لَنَا عابدين ﴾ [الأنبياء :

73] أي : قادة في الخير .

وروي عن عروة ، أنه كان يدعو بأن يجعله الله ممن يحمل عنه العلم ، فاستجيب دعاؤه .

وروي عن مجاهد معناه : واجعلنا ممن نقتدي بمن قبلنا ، حتى يقتدي بنا من بعدنا .

ويقال : معناه اجعلنا ممن يقتدي بالمتقين ، ويقتدي بنا المتقون ، فهذا كله من خصال عباد الرحمن ، من قوله : ﴿ وَعِبَادُ الرحمن ﴾ إلى هاهنا .

فوصف أعمالهم ، ثم بيّن ثوابهم فقال عز وجل : ﴿ أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الغرفة ﴾ يعني : غرف الجنة كقوله : ﴿ لكن الذين اتقوا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأنهار وَعْدَ الله لاَ يُخْلِفُ الله الميعاد ﴾ [الزمر : 20] ﴿ بِمَا صَبَرُواْ ﴾ يعني : صبروا على أمر الله تعالى في الدنيا ، وعلى طاعته ﴿ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا ﴾ يعني : في الجنة ﴿ تَحِيَّةً ﴾ يعني : التسليم ﴿ وسلاما ﴾ يعني : سلام الله تعالى لهم .

قرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية أبي بكر .

وإحدى الروايتين عن ابن عباس ، ﴿ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا ﴾ بنصب الياء ، وجزم اللام ، والتخفيف .

وقرأ الباقون ﴿ وَيُلَقَّوْنَ ﴾ بضم الياء ونصب اللام ، وتشديد القاف ، فمن قرأ بالتخفيف ، يعني : يلقي بعضهم بعضاً بالسلام ، ومن قرأ بالتشديد يعني : يجيء إليهم سلام الله ، يعني : يلقى إليهم السلام من الله تعالى .

ثم قال عز وجل : ﴿ خالدين فِيهَا ﴾ يعني : دائمين في الجنة ﴿ حَسُنَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً ﴾ يعني : موضع القرار ، وموضع الخلود قوله عز وجل : ﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّى لَوْلاَ دُعَاؤُكُمْ ﴾ يقول : ما يفعل بكم ربي لولا عبادتكم .

ويقال : ما يفعل بعذابكم لولا عبادتكم غير الله تعالى .

ويقال : ما ينتظر بهلاككم ، لولا عبادة من يعبدوني ، لأنزلت عليكم عذابي .

ويقال : لولا دعاؤكم يعني : يقول لولا إيمانكم ثم قال عز وجل سبحانه : ﴿ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَاماً ﴾ يعني : عذاباً يلزمهم ، فقتلوا ببدر ، وعجلت أرواحهم إلى النار ، فتلك عقوبتهم فيها .

ويقال : ﴿ لِزَاماً ﴾ يعني : موتاً .

وقال ابن مسعود رضي الله تعالى عنه خمس قد مضين من ذلك اللزام ، واللزم والقمر والدخان والبطشة .

ويقال : ما يحتاج بعذابكم لولا عبادتكم الأصنام .

ويقال : ما يفعل الله بعذابكم لولا عبادتكم غير الله .

ويقال : ما ينتظر بهلاككم لولا عبادة من يعبدني ، لأنزلت عذابي إلى غير ذلك ، والله أعلم وصلى الله على سيدنا محمد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ 541 . 548 ﴾

(272/564)

وقال الثعلبى :

﴿ وَهُوَ الذي مَرَجَ البحرين ﴾

أي خلطهما وحلّى وأفاض أحدهما في الآخر ، وأصل المرج : الخلط والإرسال ، ومنه قوله سبحانه ﴿ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴾ [ق : 5] وقول النبي صلى الله عليه وسلم لعبد الله ابن عمر : "كيف بك يا عبد الله إذا كنت في حثالة من الناس قد مرجت عهودهم وأماناتهم وصاروا هكذا " وشبّك بين أصابعه ، ويقال : مرجتُ دابّتي مرجها إذا أرسلتُها في المرعى وخلّيتها تذهب حيث شاءت ، ومنه قيل للروضة مرج ، قال العجاج :

رعى بها مرج ربيع ممّرجاً . . . قال ابن عباس والضحاك ومقاتل : مرج البحرين أي خلع أحدهما على الآخر ﴿ هذا عَذْبٌ فُرَاتٌ ﴾ شديد العذوبة ﴿ وهذا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾ شديد الملوحة ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً ﴾ حاجزاً بقدرته وحكمته لئلاّ يختلطا ﴿

وَحِجْراً مَّحْجُوراً ﴾ ستراً ممنوعاً يمنعهما فلا يبغيان ولا يفسد الملح العذب .

﴿ وَهُوَ الذي خَلَقَ مِنَ المآء بَشَراً فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهْراً ﴾ قال عليّ بن أبي طالب : النسب ما لا يحلّ نكاحه ، والصهر ما يحلّ نكاحه ، وقال الضحّاك وقتادة ومقاتل : النسب سبعة والصهر خمسة ، وقرأوا هذه الآية ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ ﴾ [النساء : 23] الى آخرها .

أخبرني أبو عبد الله (القسايني) قال : أخبرنا أبو الحسن النصيبي القاضي قال : أخبرنا أبو بكر السبيعي الحلبي قال : حدّثنا علي بن العباس المقانعي قال : حدّثنا جعفر بن محمد بن الحسين قال : حدّثنا محمد بن عمرو قال : حدّثنا حسين الأشقر قال : حدّثنا أبو قتيبة التيمي قال : سمعت ابن سيرين يقول في قول الله سبحانه وتعالى ﴿ وَهُوَ الذي خَلَقَ مِنَ المآء بَشَراً فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهْراً ﴾ قال : نزلت في النبي صلى الله عليه وسلم وعلي بن أبي طالب ، زوج فاطمة عليّاً وهو ابن عمّه وزوج ابنته فكان نسباً وصهراً .

(273/564)

﴿ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيراً * وَيَعْبُدُونَ ﴾ يعني هؤلاء المشركين ﴿ مِن دُونِ الله مَا لاَ يَنفَعُهُمْ ﴾ إن عبدوه ﴿ وَلاَ يَضُرُّهُمْ ﴾ إن تركوه ﴿ وَكَانَ الكافر على رَبِّهِ ظَهِيراً ﴾ أي معيناً

للشيطان على ربّه ، وقيل : معناه وكان الكافر على ربّه هيّناً ذليلاً من قول العرب : ظهرت به إذا جعلته خلف ظهرك فلم تتلفّت إليه .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّراً وَنَذِيراً * قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ على تبليغ الوحي ﴿ مِنْ أَجْرٍ ﴾ فيقولون : إنّما يطلب محمد أموالنا بما يدعونا إليه فلا نتّبعه كيلا نعطيه من أموالنا شيئاً ﴿ إِلاَّ مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً ﴾ .

قال أهل المعاني : هذا أمر الاستثناء المنقطع ، مجازه لكن من شاء أن يتّخذ إلى ربّه سبيلا بإنفاقه ماله في سبيله ، ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الحي الذي لاَ يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ ﴾ أي اعبده وصلّ له شكراً منك له على نعمه ، وقيل : احمده منزّهاً له عمّا لا يجوز في وصفه ، وقيل : قل : سبحان الله والحمد لله ﴿ وكفى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً ﴾ فيجازيهم بها ﴿ الذي ﴾ في محل الخفض على نعت الحي ﴿ خَلَقَ السماوات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ فقال بينهما وقد جمع السموات لأنه أراد الصنفين والشيئين كقول القطامي :

ألم يحزنك أن حبال قيس . . . وتغلب قد تباينتا انقطاعا

أراد وحبال تغلب فثنّى والحبال جمع لأنّه أراد الشيئين والنوعين ، وقال آخر :

إنَّ المنيّة والحتوف كلاهما . . . توفي المخارم يرقبان سوادي

﴿ ثُمَّ استوى عَلَى العرش الرحمن فَسْئَلْ بِهِ خَبِيراً ﴾ أي فسل خبيراً بالرحمن ، وقيل : فسل عنه خبيراً وهو الله عز وجل ، وقيل : جبرئيل (عليه السلام) ، الباء بمعنى عن لقول

الشاعر :

فإن تسألوني بالنساء فإنني . . . بصير بأدواء النساء طبيب

أي عن النساء .

(274/564)

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسجدوا للرحمن قَالُواْ وَمَا الرحمن ﴾ ما نعرف الرحمن إلاّ رحمن اليمامة ﴿ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا ﴾ قرأ حمزة والكسائي بالياء يعنيان الرحمن ، وقرأ غيرهما تأمرنا بالتاء يعنون لما تأمرنا أنت يا محمد ﴿ وَزَادَهُمْ ﴾ قول القائل لهم : اسجدوا للرحمن ﴿ نُفُوراً ﴾ عن الدين والإيمان ، وكان سفيان الثوري إذا قرأ هذه الآية رفع رأسه الى السماء وقال : إلهي زادني خضوعاً ما زاد أعداءك نفوراً .

﴿ تَبَارَكَ الذي جَعَلَ فِي السمآء بُرُوجاً ﴾ يعني منازل الكواكب السبعة السيارة وهي اثنا عشر برجاً : الحمل ، والثور ، والجوزاء ، والسرطان ، والأَسد ، والسنبلة ، والميزان ، والعقرب ، والقوس ، والجدي ، والدلو ، والحوت ، فالحمل والعقرب بيتا المريخ ، والثور والميزان بيتا الزهرة ، والجوزاء والسنبلة بيتا عطارد ، والسرطان بيت القمر ، والأسد بيت الشمس ، والقوس والحوت بيتا المشتري ، والجدي والدلو بيتا زحل ، وهذه البروج

مقسومة على الطبائع الاربع فيكون نصيب كل واحد منهما ثلاثة بروج تسمى المثلثات ، فالحمل والأسد والقوس مثلثة نارية ، والثور والسنبلة والجدي مثلثة أرضية ، والجوزاء والميزان والدلو مثلثة هوائية ، والسرطان والعقرب والحوت مثلثة مائية . واختلفت أقاويل أهل التأويل في تفسير البروج .

فاخبرني الحسين بن محمد بن الحسين الدينوري قال : أخبرنا أحمد بن محمد بن إسحاق السني قال : حدّثني محمد بن الحسين بن أبي الشيخ قال : حدّثنا هارون بن إسحاق الهمداني قال : حدّثنا عبد الله بن إدريس قال : حدّثني أبي عن عطية العوفي في قوله سبحانه ﴿ تَبَارَكَ الذي جَعَلَ فِي السمآء بُرُوجاً ﴾ قال : قصوراً فيها الحرس ، دليله قوله ﴿ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾ [النساء : 78] .

وقال الأخطل :

كأنها برج رومي يشيّده . . . بان بجصّ وآجرَ أحجار

وقال مجاهد وقتادة : هي النجوم .

وأخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا ابن شنبة قال : حدّثنا علي بن محمد بن ماهان قال : حدّثنا علي بن محمد الطنافسي قال : حدّثنا خالي يعلى عن إسماعيل عن أبي صالح ﴿ تَبَارَكَ الذي جَعَلَ فِي السمآء بُرُوجاً ﴾ قال : النجوم الكبائر . قال عطاء : هي الشرج وهي أبواب السماء التي تسمّى المجرّة .

﴿ وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجاً ﴾ يعني الشمس ، نظيره قوله سبحانه ﴿ وَجَعَلَ الشمس سِرَاجاً ﴾ [نوح : 16] وقرأ حمزة والكسائي (وَجَعَلَ فِيهَا سُرُجاً) بالجمع يعنون النجوم وهي قراءة أصحاب عبد الله ﴿ وَقَمَراً مُّنِيراً * وَهُوَ الذي جَعَلَ الليل والنهار خِلْفَةً ﴾ .

قال ابن عباس والحسن وقتادة : يعني عوضاً وخلفاً يقوم أحدهما مقام صاحبه فمن فاته عمله في أحدهما قضاه في الآخر .

قال قتادة : فأروا الله من أعمالكم خيراً في هذا الليل والنهار ؛ فإنهما مطيّتان تقحمان الناس الى آجالهم ، وتقرّبان كلّ بعيد ، وتبليان كلّ جديد ، وتجيئان بكل موعود الى يوم القيامة .

روى شمر بن عطية عن شقيق قال : جاء رجل الى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال : فاتتني الصلاة الليلة فقال : أدرك ما فاتك من ليلتك في نهارك ، فإنّ الله سبحانه وتعالى جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكّر .

وقال مجاهد : يعني جعل كلّ واحد منهما مخالفاً لصاحبه فجعل هذا أسود وهذا أبيض .

وقال ابن زيد وغيره : يعني يخلف أحدهما صاحبه ، إذا ذهب أحدهما جاء الآخر ، فهما يتعاقبان في الضياء والظلام والزيادة والنقصان ، يدلّ على صحّة هذا التأويل ، قول زهير :

بها العين والآدام يمشين خلفة . . . وأطلاؤها ينهضن من كلّ مجثم

(276/564)

وقال مقاتل : يعني جعل النهار خلفاً من الليل لمن نام بالليل ، وجعل الليل خلفاً بالنهار لمن كانت له حاجة أو كان مشغولاً ﴿ لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ ﴾ قرأه العامة بتشديد الذال يعني يتذكر ويتعظ ، وقرأ حمزة وخلف بتخفيف الذال من الذكر ﴿ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً ﴾ شكر نعمة الله سبحانه وتعالى عليه .

﴿ وَعِبَادُ الرحمن ﴾ يعني أفاضل العباد ، وقيل هذه الإضافة على التخصيص والتفضيل ، وقرأ الحسن : وعبيد الرَّحْمن .

﴿ الذين يَمْشُونَ على الأرض هَوْناً ﴾ أي بالسكينة والوقار والطاعة والتواضع غير أشرين ولا مرحين ولا متكبّرين ولا مفسدين .

أخبرنا عبد الله بن حامد قال : أخبرنا العباس بن محمد بن قوهبار قال : حدّثنا علي بن الحسن بن أبي عيسى قال : حدّثنا يحيى بن يحيى قال : حدّثنا هشيم بن عباد بن راشد

عن الحسن في قوله سبحانه ﴿ يَمْشُونَ على الأرض هَوْناً ﴾ قال : حلماً وعلماً ، وقال محمد بن الحنفية : أصحاب وقار وعفّة لا يسفهون ، وإنْ سفه عليهم حلموا .

الضحّاك : أتقياء أعفّاء لا يجهلون قال : وهو بالسريانية . الثمالي : بالنبطيّة ، والهون في اللغة : الرفق واللين ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : " أحبب حبيبك هوناً ما عسى أن يكون بغيضك يوماً ما ، وابغض بغيضك هوناً ما عسى أن يكون حبيبك يوماً ما " .

﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ ﴾ بما يكرهونه ﴿ قَالُواْ سَلاَماً ﴾ سداداً من القول عن مجاهد .

ابن حيان : قولاً يسلمون فيه من الإثم .

الحسن : سلّموا عليهم ، دليله قوله سبحانه ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ اللغو أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ ﴾ [القصص : 55] .

قال أبو العالية والكلبي : هذا قبل أن يؤمروا بالقتال ، ثم نسختها آية القتال .

(277/564)

أخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا ابن حنش المقري قال : حدّثنا محمد بن صالح (الكيلسي) بمكة قال : حدّثنا سلمة بن شبيب قال : حدّثنا الوليد بن إسماعيل قال : حدّثنا شيبان

بن مهران عن خالد أبن المغيرة بن قيس عن أبي محلز لاحق بن حميد عن أبي برزة الأسلمي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

" رأيت قوماً من أمتي ما خلقوا بعد ، وسيكونون فيما بعد اليوم أحبّهم ويحبّونني ، ويتناصحون ويتبادلون ، يمشون بنور الله في الناس رويداً في خفية وتقية ، يسلمون من الناس ، ويسلم الناس منهم بصبرهم وحلمهم ، قلوبهم بذكر الله يرجعون ، ومساجدهم بصلاتهم يعمرون ، يرحمون صغيرهم ويجلّون كبيرهم ويتواسون بينهم ، يعود غنيّهم على فقيرهم وقويّهم على ضعيفهم ، يعودون مرضاهم ويتبعون جنائزهم " .

فقال رجل من القوم : في ذلك يرفقون برفيقهم ؟ فالتفت إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : "كلاّ ، إنّهم لا رفيق لهم ، هم خدّام أنفسهم ، هم أكرم على الله من أن يوسّع عليهم لهوان الدنيا عند ربهم " ثمَّ تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية ﴿ وَعِبَادُ الرحمن الذين يَمْشُونَ على الأرض هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قَالُواْ سَلاَماً ﴾ " .

وروي أنّ الحسن كان إذا قرأ هاتين الآيتين قال : هذا وصف نهارهم .

ثمَّ قال ﴿ وَالَّذِينَ يِبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَاماً ﴾ هذا وصف ليلهم .

قال ابن عباس : مَن صلّى بالليل ركعتين أو أكثر من ذلك فقد بات لله سبحانه وتعالى ساجداً وقائماً .

قال الكلبي : يقال : الركعتان بعد المغرب وأربع بعد العشاء الآخرة .

﴿ والذين يَقُولُونَ رَبَّنَا اصرف عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً ﴾ أي ملحّاً دائماً لازماً غير مفارق من عذّب به من الكفار ، ومنه سمّي الغريم لطلبه حقّه وإلحاحه على صاحبه وملازمته إيّاه ، وفلانا مغرم بفلان إذا كان مولعاً به لا يصبر عنه ولا يفارقه ، قال الأعشى :

إن يعاقب يكن غراماً وإن . . . يعط جزيلاً فإنّه لا يبالي

قال الحسن : قد علموا أنّ كلّ غريم يفارق غريمه إلاّ غريم جهنم .

ابن زيد : الغرام الشرّ ، أبو عبيد : الهلاك ، قال بشر بن أبي حازم :

ويوم النسار ويوم الجفا . . . ركانا عذاباً وكانا غراما

أي هلاكاً .

﴿ إِنَّهَا ﴾ يعني جهنم ﴿ سَآءَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً ﴾ أي إقامة ، من أقام يقيم .

وقال سلامة بن جندل :

يومان يوم مقامات وأندية . . . ويوم سير إلى الاعداء تأويب

فإذا فتحت الميم فهو المجلس من قام يقوم ، ومنه قول عباس بن مرداس :

فأتي ما وأيك كان شرّاً . . . فقيد إلى المقامة لا يراها

﴿ والذين إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ ﴾ واختلف القرّاء فيه فقرأ أهل المدينة والشام : يُقتروا بضم الياء وكسر التاء ، وقرأ أهل الكوفة بفتح الياء وضم التاء ، غيرهم بفتح الياء وكسر التاء وكلّها لغات صحيحة ، يقال : أقتَر وقَتَر يَقتِرُ ويَقتُر مثل يعرشون ويعكفون ، واختلف المفسرون في معنى الإسراف والإقتار ، فقال بعضهم : الإسراف : النفقة في معصية الله وإن قلّت ، والاقتار : منع حق الله سبحانه وتعالى ، وهو قول ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن جريج وابن زيد .

(279/564)

أخبرني الحسين بن محمد بن الحسين الدينوري قال : حدّثنا محمد بن عمر بن إسحاق الكلوادي قال : حدّثنا عبد الله بن سليمان بن الأشعث قال : حدّثنا هارون بن زيد بن أبي الزرقاء الرملي قال : حدّثنا أبي قال : حدّثنا سهيل بن أبي حزم عن كثير بن زياد أبي سهل عن الحسن في هذه الآية قال : لم يُنفقوا في معاصي الله ولم يمسكوا عن فرائض الله .

وقال بعضهم : الإسراف أن تأكل مال غيرك بغير حق .

قال عون بن عبد الله بن عتبة : ليس المسرف من أكل ماله ، إنما المسرف من يأكل مال

غيره .

وقال قوم : السرف : مجاوزة الحد في النفقة ، والإقتار : التقصير عما ينبغي مما لابد منه ، وهذا الاختيار لقوله ﴿ وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ ﴾ أي وكان إنفاقهم بين ذلك ﴿ قَوَاماً ﴾ عدلاً وقصداً وسطاً بين الإسراف والإقتار .

قال إبراهيم : لا يجيعهم ولا يعريهم ، ولا ينفق نفقة تقول الناس : قد أسرف .

مقاتل : كسبوا طيّباً ، وانفقوا قصداً ، وقدموا فضلاً ، فربحوا فأنجحوا .

وقال يزيد بن أبي حبيب في هذه الآية : أُولئك أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم كانوا لا يأكلون طعاماً للتنعم واللذة ، ولا يلبسون ثوباً للجمال ولكن كانوا يريدون من الطعام ما يسدُّ عنهم الجوع ويقويهم على عبادة ربّهم ، ومن الثياب ما يَسترُ عوراتهم ويكنّهم من الحرّ والقرّ .

وأخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا ابن حنش قال : حدّثنا ابن زنجويه قال : حدّثنا سلمة قال : حدّثنا عبد الرزاق عن أبي عيينة عن رجل عن الحسن في قوله سبحانه ﴿ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ ﴾ إنّ عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : كفى سرفاً ان لا يشتهي رجل شيئاً إلا اشتراه فأكله .

﴿ والذين لاَ يَدْعُونَ مَعَ الله إلها آخَرَ ﴾ الآية .

أخبرنا أبو محمد الحسن بن أحمد المخلدي قال : أخبرنا المؤمّل بن الحسن بن عيسى قال : حدّثنا الحسن بن محمد قال : حدّثنا حجاج عن أبي جريج قال : أخبرني يعلى يعني ابن مسلم عن سعيد بن جبير سمعه يحدّث عن ابن عباس أنّ ناساً من أهل الشرك كانوا قد قتلوا فأكثروا ، وزنوا فأكثروا ثم أتوا محمداً صلى الله عليه وسلم فقالوا : إن الذي تقول وتدعو إليه لحسن لو تخبرنا أن لما عملناه كفارة فنزل ﴿ والذين لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إلها آخَرَ ﴾ ونزل ﴿ ياعبادي الذين أَسْرَفُواْ على أَنفُسِهِمْ ﴾ [الزمر : 53] وقيل : نزلت في وحشي غلام ابن مطعم .

وأخبرنا عبد الله بن حامد قال : أخبرنا محمد بن الحسين قال : حدّثنا أحمد بن يوسف السلمي قال : حدّثنا عبد الرزاق قال : أخبرنا معمر والثوري عن منصور والأعمش عن أبي وائل .

وأخبرنا أبو عبد الله الحسين بن محمد بن الحسن قال : حدّثنا أحمد بن جعفر بن حمدان وعبد الله بن عبد الرحمن قالا : حدّثنا يوسف بن عبد الله بن ماهان قال : حدّثنا محمد بن كثير قال : حدّثنا سفيان بن الأعمش ومنصور وواصل الأحدب عن أبي وائل .

وأخبرنا عبد الله بن حامد الوزان قال : أخبرنا مكي بن عبدان قال : حدّثنا عبد الله بن هاشم قال : حدّثنا عبد الله بن نمير قال : أخبرنا الأعمش عن شقيق عن عمرو بن

شرحبيل عن عبد الله بن مسعود قال : " قلت يا رسول الله أيّ الذنب أعظم ؟

قال : " أن تجعل لله نداً وهو خلقك " ، قلتُ : ثم أي ؟ قال : أن تقتل ولدك خشية أن يأكل معك ، قلت : ثم أيّ ؟ قال : إن ترى حليلة جارك ، فأنزل الله سبحانه تصديق ذلك ﴿ والذين لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إلها آخَرَ ﴾ " .

قال مسافع : ﴿ وَلاَ يَقْتُلُونَ النفس التي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بالحق وَلاَ يَزْنُونَ ﴾ الآية .

(281/564)

أخبرنا ابن فنجويه قال : حدثنا ابن حنش ، قال : أخبرنا ابن زنجويه قال : أخبرنا سلمة بن عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة ، قال : ذُكر لنا أنّ لقمان كان يقول : يا بُني إياك والزنا فإن أوله مخافة وآخره ندامة ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذلك ﴾ الذي ذكرت ﴿ يَلْقَ أَثَاماً ﴾ قال ابن عباس : إثماً ، ومجازه : تلق جزاء الآثام .

وأخبرني ابن فنجويه ، قال : حدّثنا أحمد بن محمد بن حفصويه ، قال : حدّثنا محمد بن موسى قال : حدّثنا زهير بن محمد ، قال : حدّثنا محمد بن زياد قال : حدّثنا الكلبي ، قال : حدّثنا شرقي القطامي ، قال : حدّثني لقمان بن عامر ، قال : حدّثني أبو أُمامة الباهلي صدي بن عجلان ، فقلت : حدّثني حديثاً سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال

: فدعا لي بطلاء ثم قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " لو أن صخرة زنة عشر عشروات قذف بها في شفير جهنم ما بلغت قعرها سبعين خريفاً ، ثم ينتهي إلى غيّ وأثام ، قال : قلت : وما غيّ وأثام " ؟ قال : نيران يسيل فيها صديد أهل النار ، وهما اللتان قال الله سبحانه في كتابه ﴿ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً ﴾ [مريم : 59] و ﴿ يَلْقَ أَثَاماً ﴾ " .

وأخبرنا بو عمرو سعيد بن عبد الله بن إسماعيل الحيري قال : أخبرنا العباس بن محمد بن قوهباد قال : حدّثنا إسحاق بن عبد الله بن محمد بن زرين السلمي . قال : أخبرنا حفص بن عبد الرحمن ، قال : حدّثنا سعيد عن قتادة ، عن أبي أيوب عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن أثاماً واد فى جهنم ، وهو قول مجاهد ، وقال أبو عبيد : الأثام : العقوبة .

قال الليثي :

جزى الله ابن عروة حيث أمسى . . . عقوقاً والعقوق له اثاماً

أي عقوبة .

﴿ يُضَاعَفْ لَهُ العذاب يَوْمَ القيامة وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً ﴾ قرأه العامة بجزم الفاء والدال ، ورفعهما ابن عامر وابن عباس على الابتداء .

ثمَّ قال ﴿ إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً ﴾ الآية .

أخبرني الحسين بن محمد بن عبد الله قال : حدّثنا موسى بن محمد قال : حدّثنا موسى بن هارون الجّمال قال : حدّثنا إبراهيم بن محمد الشافعي قال : حدّثنا عبد الله بن رجاء عن عبيد الله ابن عمر بن علي بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس قال : قرأناها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم سنين ﴿ والذين لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إلها آخَرَ ﴾ الآية

.

ثمَّ نزلت ﴿ إِلاَّ مَن تَابَ ﴾ فما رأيت النبي صلى الله عليه وسلم فرح بشيء قط فرحه بها وفرحه ب ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً * لِّيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ [الفتح : 1-2] .

وأخبرني الحسين بن محمد الفنجوي قال : حدّثنا محمد بن الحسين بن علي اليقطيني قال : أخبرنا أحمد بن عبد الله بن يزيد العقيلي قال : حدّثنا صفوان بن صالح قال : حدّثنا الوليد بن مسلم قال : حدّثنا عبد العزيز بن الحصين عن ابن أبي نجيح قال : حدّثني القاسم بن أبي برة قال : قلت لسعيد بن جبير : أبا عبد الله أرأيت قول الله سبحانه وتعالى ﴿ وَلاَ يَقْتُلُونَ النفس التي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بالحق ﴾ إلى قوله ﴿ إِلاَّ مَن تَابَ ﴾ قال : سمعت ابن عباس يقول : هذه مكيّة نسختها الآية المدنية التي في سورة النساء ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُّتَعَمِّداً فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا ﴾ [النساء : 93] ولا توبة له .

وروى أبو الزناد عن خارجة بن زيد بن ثابت أنّه دخل على أبيه وعنده رجل من أهل العراق وهو يسأله عن هذه الآية التي في الفرقان والتي في سورة النساء ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُّتَعَمِّداً ﴾ [النساء : 93] ، فقال زيد بن ثابت : قد عرفت الناسخة من المنسوخة نسختها التي في النساء بعدها ستّة أشهر .

(283/564)

وروى حجاج عن أبي جريج قال : قال الضحّاك بن مزاحم : هذه السورة بينها وبين النساء ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُّتَعَمِّداً ﴾ ثماني حجج ، والصحيح أنّها محكمة .

روى جعفر بن سليمان عن عمرو بن مالك البكري عن أبي الجوزاء قال : اختلفتُ إلى ابن عباس ثلاث عشرة سنة فما شيء من القرآن إلاّ سألته عنه ورسولي يختلف إلى عائشة ، فما سمعته ولا أحد من العلماء يقول : إنّ الله سبحانه يقول لذنب : لا أغفره .

﴿ فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾ .

قال ابن عباس وابن جبير والضحّاك وابن زيد : يعني فأُولئك يبدّلهم الله بقبائح أعمالهم في الشرك محاسن الأعمال في الإسلام ، فيبدّلهم بالشرك إيماناً ، وبقتل المؤمنين قتل المشركين ، وبالزنا عفة وإحصاناً ، وقال الآخرون : يعني يبدّل الله سيّئاتهم التي عملوها في حال

إسلامهم حسنات يوم القيامة ، يدلّ على صحّة هذا التأويل ما أخبرني أبو عبد الله الحسين بن محمد بن الحسين الحافظ في داري قال : حدّثنا أبو جعفر محمد بن عبد الله بن برزة قال : حدّثنا أبو حفص المستملي قال : حدّثنا محمد بن عبد العزيز أبي رزمة قال : حدّثنا الفضل بن موسى القطيعي عن أبي العنبس عن ابنه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" ليتمنّينّ أقوام أنّهم أكثروا من السيئات" . قيل : مَن هم ؟ قال : الذين بدّل الله سيئاتهم حسنات " .

(284/564)

وأخبرنا ابن فنجويه قال : حدّثنا أبو بكر بن مالك القطيعي قال : حدّثنا عبد الله بن أحمد ابن حنبل قال : حدّثني أبي قال : حدّثنا وكيع قال : حدّثنا الأعمش عن المعرور بن سويد عن أبي ذر رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يؤتى بالرجل يوم القيامة فيقال : أعرضوا عليه صغار ذنوبه قال : فيعرض عليه ويخفى عنه كبارُها فيقال : عملت يوم كذا وكذا كذا وكذا ، وهو مقرّ لا ينكر وهو مشفق من الكبائر فيقال : أعطوه مكان كلّ سيئة عملها حسنة .

قال : فيقول إنّ لي ذنوباً ما أراها ، فلقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ضحك حتّى بدت نواجذه " .

وأخبرنا ابن فنجويه قال : حدّثنا عبيد الله عن عبد الله بن أبي سمرة البغوي ببغداد قال : حدّثنا محمد بن أحمد الطالقاني قال : حدّثنا محمد بن هارون أبو نشيط قال : حدّثنا أبو المغيرة قال : حدّثنا صفوان قال : حدّثني عبد الرحمن بن جبير " عن أبي الطويل شطب الممدود أنّه أتى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله أرأيت رجلاً عمل الذنوب كلّها ولم يترك منها شيئاً ، وهو في ذلك لم يترك حاجة ولا داجة إلاّ اقتطعها بيمينه ، فهل لذلك مِن توبة ؟

قال : " هل أسلمت ؟

قال : أنا أشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له وأنّك رسوله ، قال : نعم تفعل الخيرات وتترك الشهوات يجعلهنّ الله خيرات كلهن .

قال : وغدراتي وفجراتي

قال : نعم

قال : الله أكبر ، فما زال يكبّر حتى توارى " .

وأخبرني ابن فنجويه في عصبة قال : حدّثنا محمد بن علي بن الحسن قال : حدّثنا عبد الرَّحْمن بن أبي حاتم قال : حدّثنا أبو نشيط قال : حدّثنا أبو المغيرة قال : سمعت مبشر بن

عبيد وكان عارفاً بالنحو والعربية يقول : الحاجة الذي يقطع على الحُجّاج إذا توجهوا ، والداجة الذي يقطع عليهم إذا قفلوا ﴿ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللهِ مَتَاباً ﴾ رجوعاً حسناً .

(285/564)

﴿ والذين لاَ يَشْهَدُونَ الزُّورَ ﴾ قال الضحاك : يعني الشرك وتعظيم الأنداد ، علي بن أبي طلحة : يعني شهادة الزور ، وكان عمر بن الخّطاب يجلد شاهد الزور أربعين جلدة ، ويسخم وجهه ، ويطوف به في السوق ، يحيى بن اليمان عن مجاهد : أعياد المشركين ليث عنه : الغناء وهو قول محمد بن الحنفية بإسناد الصالحي عن إبراهيم بن محمد بن المنكدر قال : بلغني انَّ اللّه تعالى يقول يوم القيامة : أين الذين كانوا ينزّهون أنفسهم وأسماعهم عن اللهو ومزامير الشيطان أدخلوهم رياض المسك ، أسمعوا عبادي تحميدي وثنائي وتمجيدي ، وأخبروهم أن لا خوف عليهم ولاهم يحزنون .

أخبرنا أبو بكر الجوزقي قال : حدّثنا عبد الواحد بن محمد الارعياني قال : حدّثنا الأحمسي قال : حدّثنا عمرو العبقري قال : حدّثنا مسلمة بن جعفر عن عمرو بن قيس في قوله سبحانه ﴿ والذين لاَ يَشْهَدُونَ الزُّورَ ﴾ قال : مجالس الخنا ، ابن جريج : الكذب ،

قتادة : مجالس الباطل ، وأصل الزور تحسين الشيء ووصفه بخلاف صفته حتى يخيّل إلى مَن سمعه أو يراه أنّه بخلاف ما هو به ، فهو تمويه الباطل لما توهّم أنّه حقّ .

﴿ وَإِذَا مَرُّواْ بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِراماً ﴾ قال مقاتل : إذا سمعوا من الكفّار الشتم والأذى أعرضوا وصفحوا ، وهي رواية ابن أبي نجيح عن مجاهد ، نظيره ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ اللغو أَعْرَضُواْ عَنْهُ ﴾ [القصص : 55] الآية ، وقال السدّي : وهي منسوخة بآية القتال ، العوّام بن حوشب عن مجاهد : إذا أتوا على ذكر النكاح كنّوا عنه ، ابن زيد : إذا مرّوا بما كان المشركون فيه من الباطل مرّوا منكرين له معرضين عنه ، وقال الحسن والكلبي : اللغو : المعاصي كلّها ، يعني إذا مرّوا بمجالس اللهو والباطل مرّوا كراماً مسرعين معرضين ، يدل عليه ما روى إبراهيم بن ميسرة أنّ " ابن مسعود مرَّ بلهو مسرعاً فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن أصبح ابن مسعود لكريماً " " .

(286/564)

وقال أهل اللغة : أصله من قول العرب ناقة كريمة ، وبقرة كريمة ، وشاة كريمة إذا كانت تعرض عن الحليب تكرّماً كأنّها لا تبالي بما يحلب منها .

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ ﴾ لم يقعوا ولم يسقطوا ﴿ عَلَيْهَا صُمّاً وَعُمْيَاناً

﴿ كأنّهم صمّ عمي ، بل يسمعون ما يذكرون به فيفهمونه ويرون الحق فيه فيتبعونه .

قال الفرّاء : ومعنى قوله ﴿ لَمْ يَخِرُّواْ ﴾ أي لم يقيموا ولم يصيروا ، تقول العرب : شتمتُ فلاناً فقام يبكي يعني فظلّ وأقبل يبكي ولا قيام هنالك ولعلّه بكى قاعداً ، وقعد فلان يشتمني أي أقبل وجعل وصار يشتمني ، وذلك جائز على ألسن العرب .

﴿ والذين يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا ﴾ بغير ألف أبو عمرو وأهل الكوفة ، الباقون : ذرّياتنا بالألف ﴿ قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ بأن يراهم مؤمنين صالحين مطيعين لك ، ووحّد قرّة لأنها مصدر ، وأصلها من البرد لأنّ العرب تتأذّى بالحر وتستروح إلى البرد .

﴿ واجعلنا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً ﴾ أي أئمة يقتدى بها . قال ابن عباس : اجعلنا أئمة هداية كما قال ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ﴾ [الأنبياء : 73] ولا تجعلنا أئمة ضلالة كقوله ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النار ﴾ [القصص : 41] .

قتادة : هُداة دعاة خير .

(287/564)

أخبرنا أبو الحسن أحمد بن محمد بن يوسف الفقيه قال : أخبرنا أبو بكر محمد بن حمدون ابن خالد قال : حدّثني أبو جعفر أحمد بن عبد الله العازي الطبري المعروف بابن فيروز قال :

حدّثنا الحكم بن موسى قال : حدّثنا يحيى بن حمزة عن عبد الرَّحْمن بن زيد بن جابر عن مكحول في قول الله عزَّ وجل ﴿ واجعلنا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً ﴾ قال : أئمّة في التّقوى يقتدي بها المتّقون ، وقال بعضهم : هذا من المقلوب واجعل المتّقين لنا إماماً واجعلنا مؤتمّين مقتدين بهم ، وهو قول مجاهد ، ولم يقل أئمة لأنّ الإمام مصدر ، يقال : أمّ فلان فلاناً مثل الصيام والقيام ، ومَن جعله أئمة فلأنّه قد كثر حتى صار بمعنى الصفة .

وقال بعضهم : أراد أئمة كما يقول القائل : أميرنا هؤلاء يعني أمراؤنا ، وقال الله سبحانه عزّ وجلّ ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي ﴾ [الشعراء : 77] ، وقال الشاعر :

يا عاذلاتي لا تزدن ملامتي . . . إنّ العواذل لسن لي بأمين

أي أمناء .

﴿ أولئك يُجْزَوْنَ الغرفة ﴾ يثابون الدرجة الرفيعة في الجنة ﴿ بِمَا صَبَرُواْ ﴾ على أمر ربهم وطاعة نبيّهم ، وقال الباقر : على الفقر .

﴿ وَيُلَقَّوْنَ ﴾ قرأ أهل الكوفة بفتح الياء وتخفيف القاف ، واختاره أبو عبيد لقوله ﴿ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً ﴾ [الإنسان : 11] .

﴿ خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً * قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي ﴾ أي ما يصنع وما يفعل ، عن مجاهد وابن زيد .

وقال أبو عبيد : يقال : ما عبأت به شيئاً أي لم أعدّه ، فوجوده وعدمه سواء ، مجازه : أي

مقدار لكم ، وأصل هذه الكلمة تهيئة الشيء يقال : عبّأت الجيش وعبأت الطيب أُعبّئه عبؤاً وعبواً إذا هيّأته وعملته ، قال الشاعر :

(288/564)

كأن بنحره وبمنكبيه عبيراً بات يعبؤه عروس . . . ﴿ لَوْلاَ دُعَآؤُكُمْ ﴾ إيّاه ، وقيل : لولا عبادتكم ، وقيل : لولا إيمانكم . واختلف العلماء في معنى هذه الآية قال قوم : معناها قل ما يعبأ بخلقكم ربّي لولا عبادتكم وطاعتكم إيّاه ، يعني أنّه خلقكم لعبادته نظيرها قوله سبحانه ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجن والإنس إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : 56] وهذا معنى قول ابن عباس ومجاهد ، قال ابن عباس في رواية الوالبي : أخبر الله سبحانه الكفّار أنّه لا حاجة لربهم بهم إذ لم يخلقهم مؤمنين ، ولو كان له بهم حاجة لحبّب إليهم الإيمان كما حبّب إلى المؤمنين .

وقال آخرون : قل ما يعبأ بعذابكم ربّي لولا دعاؤكم إيّاه في الشدائد ، بيانه ﴿ فَإِذَا رَكِبُواْ فِي الفلك دَعَوُاْ الله مُخْلِصِينَ لَهُ الدين ﴾ [العنكبوت : 65] ونحوها من الآيات .

وقال بعضهم : قل ما يعبأ بمغفرتكم ربّي لولا دعاؤكم معه آلهة وشركاء ، بيانه قوله سبحانه وتعالى ﴿ مَّا يَفْعَلُ الله بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ ﴾ [النساء : 147] وهذا المعنى

قول الضحّاك .

وأخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا ابن حبيش قال : حدّثنا أبو القاسم بن الفضل قال : حدّثنا أبو حاتم قال : حدّثنا أبو طاهر بن السرج قال : حدّثنا موسى بن ربيعة الجمحي قال : سمعت الوليد بن الوليد يقول : بلغني أنّ تفسير هذه الآية ﴿ قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلاَ دُعَآؤُكُمْ ﴾ يقول : ما خلقتكم وبي إليكم حاجة إلاّ أن تسألوني فأغفر لكم ، وتسألوني فأعطيكم .

﴿ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ ﴾ يا أهل مكة .

وأخبرنا شعيب بن محمد قال : أخبرنا مكي بن عبدان قال : حدّثنا أحمد بن الأزهر قال : حدّثنا روح بن عبادة قال : حدّثنا شعبة بن عبد الحميد بن واصل قال : سمعت مسلم بن عمّار قال : سمعت ابن عباس يقرأ : فقد كذّب الكافرون ﴿ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَاماً ﴾ .

(289/564)

وبه شعبة عن أدهم يعني السدوسي عن أنّه كان خلف بن الزبير يقرأ ﴿ تَبَارَكَ الذي نَزَّلَ الفرقان على عَبْدِهِ ﴾ [الفرقان : 1] فلمّا أتى على هذه الآية قرأها : فقد كذّب الكافر فسوف يكون لزاماً ، ومعنى الآية فسوف يكون تكذيبهم لزاماً . قال ابن عباس : موتاً .

ابن زيد : قتالاً ، أبو عبيدة : هلاكاً .

وأنشد :

فاما ينجوا من حتف أرضي . . . فقد لقيا حتوفهما لزاما

وقال بعض أهل المعاني : يعني فسوف يكون جزاء يلزم كل عامل ما عمل من خير أو شر ، وقال ابن جرير : يعني عذاباً دائماً لازماً وهلاكاً مفنياً يلحق بعضكم بعضاً كقول أبي ذؤيب .

ففاجأه بعادية لزام . . . كما يتفجّر الحوض اللقيف

يعني باللزام الكثير الذي يتبع بعضه بعضاً وباللفيف الحجار المنهد ، واختلفوا في اللزام ههنا فقال قوم : هو يوم بدر قُتل منهم سبعون وأُسر سبعون ، وهو قول عبد الله بن مسعود وأُبي ابن كعب وأبي مالك ومجاهد ومقاتل .

روى الأعمش عن مسلم عن مسروق قال : قال عبد الله : خمس قد مضين : الدخان واللزام والبطشة والقمر والروم . وقال آخرون : هو عذاب الآخرة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الكشف والبيان حـ 7 صـ 140.154 ﴾

(290/564)

وقال الزمخشري :

﴿ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هذا عَذْبٌ فُراتٌ وَهذا مِلْحٌ أُجاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُما بَرْزَخاً وَحِجْراً مَحْجُوراً (53) ﴾

سمى الماءين الكثيرين الواسعين : بحرين ، والفرات : البليغ العذوبة حتى يضرب إلى الحلاوة .

والأجاج : نقيضه ، ومرجهما : خلاهما متجاورين متلاصقين ، وهو بقدرته يفصل بينهما ويمنعهما التمازج . وهذا من عظيم اقتداره . وفي كلام بعضهم : وبحران : أحدهما مع الآخر ممروج ، وماء العذب منهما

(291/564)

بالأجاج ممزوج « 1 » بَرْزَخاً حائلا من قدرته ، كقوله تعالى بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها يريد بغير عمد مرئية ، وهو قدرته . وقرئ : ملح ، على فعل . وقيل : كأنه حذف من مالح تخفيفا ، كما قال : وصليانا بردا ، بريد : باردا : فإن قلت : وَحِجْراً مَحْجُوراً ما معناه ؟

قلت : هي الكلمة التي يقولها المتعوذ ، وقد فسرناها ، وهي هاهنا واقعة على سبيل المجاز ، كأن كل واحد من البحرين يتعوّذ من صاحبه ويقول له : حجرا محجورا ، كما قال لا

يَبْغِيانِ أى لا يبغى أحدهما على صاحبه بالممازجة ، فانتفاء البغي ثمة كالتعوذ ها هنا : جعل كل واحد منهما في صورة الباغي على صاحبه ، فهو يتعوّذ منه . وهي من أحسن الاستعارات وأشهدها على البلاغة .

[سورة الفرقان (25) : آية 54]

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْماءِ بَشَراً فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهْراً وَكانَ رَبُّكَ قَدِيراً (54)

أراد : فقسم البشر قسمين ذوى نسب ، أى : ذكورا ينسب إليهم ، فيقال : فلان بن فلان وفلانة بنت فلان ، وذوات صهر : أى إناثا يصاهر بهنّ ، ونحوه قوله تعالى فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثى . وَكانَ رَبُّكَ قَدِيراً حيث خلق من النطفة الواحدة بشرا نوعين : ذكرا وأنثى .

[سورة الفرقان (25) : آية 55]

وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَنْفَعُهُمْ وَلا يَضُرُّهُمْ وَكانَ الْكافِرُ عَلى رَبِّهِ ظَهِيراً (55)

الظهير والمظاهر ، كالعوين والمعاون . و«فعيل» بمعنى مفاعل غير عزيز . والمعنى : أنّ الكافر يظاهر الشيطان على ربه بالعداوة والشرك . روى أنها نزلت في أبى جهل ، ويجوز أن يريد بالظهير : الجماعة ، كقوله وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذلِكَ ظَهِيرٌ كما جاء : الصديق والخليط ، يريد بالكافر : الجنس ، وأنّ بعضهم مظاهر لبعض على إطفاء نور دين اللّه . وقيل : معناه : وكان الذي يفعل هذا الفعل – وهو عبادة ما لا ينفع ولا يضر – على ربه هينا مهينا ، من

قولهم : ظهرت به ، إذا خلفته خلف ظهرك لا تلتفت إليه ، وهذا نحو قوله أُولئِكَ لا خَلاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ .

[سورة الفرقان (25) : الآيات 56 إلى 57]

وَما أَرْسَلْناكَ إِلاَّ مُبَشِّراً وَنَذِيراً (56) قُلْ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلاَّ مَنْ شاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلى رَبِّهِ سَبِيلاً (57)

---

(1) . قوله «ممزوج» لعله : غير ممزوج ، فليحرر . (ع)

مثال إِلَّا مَنْ شاءَ والمراد : إلا فعل من شاء واستثنائه عن الأجر قول ذى شفقة عليك قد سعى لك في تحصيل مال : ما أطلب منك ثوابا على ما سعيت إلا أن تحفظ هذا المال ولا تضيعه .

فليس حفظك المال لنفسك من جنس الثواب ، ولكن صوّره هو بصورة الثواب وسماه باسمه ، فأفاد فائدتين ، إحداهما : قلع شبهة الطمع في الثواب من أصله ، كأنه يقول لك : إن كان حفظك لمالك ثوابا فإنى أطلب الثواب ، والثانية : إظهار الشفقة البالغة وأنك إن حفظت مالك : اعتدّ بحفظك ثوابا ورضى به كما يرضى المثاب بالثواب . ولعمري إنّ

رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم كان مع المبعوث إليهم بهذا الصدد وفوقه. ومعنى اتخاذهم إلى اللّه سبيلا: تقربهم إليه وطلبهم عنده الزلفى بالإيمان والطاعة. وقيل: المراد التقرّب بالصدقة والنفقة في سبيل اللّه.

[سورة الفرقان (25): آية 58]

وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبادِهِ خَبِيراً (58)

أمره بأن يثق به ويسند أمره إليه في استكفاء شرورهم، مع التمسك بقاعدة التوكل وأساس الالتجاء وهو طاعته وعبادته وتنزيهه وتحميده، وعرّفه أن الحي الذي لا يموت، حقيق بأن يتوكل عليه وحده ولا يتكل على غيره من الأحياء الذين يموتون. وعن بعض السلف أنه قرأها فقال: لا يصح لذي عقل أن يثق بعدها بمخلوق، ثم أراه أن ليس إليه من أمر عباده شيء، آمنوا أم كفروا، وأنه خبير بأعمالهم كاف في جزاء أعمالهم.

[سورة الفرقان (25): آية 59]

الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمنُ فَسْئَلْ بِهِ خَبِيراً (59)

فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ يعنى في مدة: مقدارها هذه المدّة، لأنه لم يكن حينئذ نهار ولا ليل. وقيل: ستة أيام من أيام الآخرة، وكل يوم ألف سنة. والظاهر أنها من أيام الدنيا. وعن مجاهد: أوّلها يوم الأحد، وآخرها يوم الجمعة. ووجهه أن يسمى اللّه لملائكته تلك الأيام المقدرة

بهذه الأسماء فلما خلق الشمس وأدارها وترتب أمر العالم على ما هو عليه ، جرت التسمية على هذه الأيام . وأما الداعي إلى هذا العدد – أعنى الستة دون سائر الأعداد – فلا نشك أنه داعى حكمة ، لعلمنا أنه لا يقدّر تقديرا إلا بداعي حكمة ، وإن كنا لا نطلع عليه ولا نهتدي إلى معرفته .

ومن ذلك تقدير الملائكة الذين هم أصحاب النار تسعة عشر ، وحملة العرش ثمانية ، والشهور اثنى عشر ، والسماوات سبعا والأرض كذلك ، والصلوات خمسا ، وأعداد النصب والحدود والكفارات وغير ذلك . والإقرار بدواعى الحكمة في جميع أفعاله ، وبأن ما قدّره حق وصواب هو الإيمان .

وقد نص عليه في قوله وَما جَعَلْنا أَصْحابَ النَّارِ إِلَّا مَلائِكَةً ، وَما جَعَلْنا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ

(293/564)

كَفَرُوا ، لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ وَيَزْدادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيماناً ، وَلا يَرْتابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ وَالْمُؤْمِنُونَ ، وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكافِرُونَ ما ذا أَرادَ اللَّهُ بِهذا مَثَلًا ثم قال وَما يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وهو الجواب أيضا في أن لم يخلقها في لحظة ، وهو قادر على

ذلك . وعن سعيد بن جبير رضى اللّه عنهما . إنما خلقها في ستة أيام وهو يقدر على أن يخلقها في لحظة ، تعليما لخلقه الرفق والتثبت . وقيل : اجتمع خلقها يوم الجمعة فجعله اللّه عيدا للمسلمين . الذي خلق مبتدأ . والرَّحْمنُ خبره . أو صفة للحىّ ، والرحمن : خبر مبتدإ محذوف .

أو بدل عن المستتر في استوى . وقرئ : الرحمن ، بالجرّ صفة للحىّ . وقرئ فسل ، والباء في به صلة سل ، كقوله تعالى سَأَلَ سائِلٌ بِعَذابٍ واقِعٍ كما تكون عن صلته في نحو قوله ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ فسأل به ، كقوله : اهتمّ به ، واعتنى به ، واشتغل به . وسأل عنه كقولك : بحث عنه ، وفتش عنه ، ونقر عنه . أو صلة خبيرا : وتجعل خبيرا مفعول سل ، يريد : فسل عنه رجلا عارفا يخبرك برحمته . أو فسل رجلا خبيرا به وبرحمته . أو : فسل بسؤاله خبيرا ، كقولك : رأيت به أسدا ، أى برؤيته . والمعنى : إن سألته وجدته خبيرا . أو تجعله حالا عن الهاء ، تريد : فسل عنه عالما بكل شيء . وقيل : الرحمن اسم من أسماء اللّه مذكور في الكتب المتقدمة ، ولم يكونوا يعرفونه ، فقيل : فسل بهذا الاسم من يخبرك من أهل الكتاب ، حتى يعرف من ينكره . ومن ثمة كانوا يقولون : ما نعرف الرحمن إلا الذي باليمامة ، يعنون مسيلمة . وكان يقال له : رحمن اليمامة :

[سورة الفرقان (25) : آية 60]

وَإِذا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمنِ قالُوا وَمَا الرَّحْمنُ أَنَسْجُدُ لِما تَأْمُرُنا وَزادَهُمْ نُفُوراً (60)

وَمَا الرَّحْمنُ يجوز أن يكون سؤالا عن المسمى به ، لأنهم ما كانوا يعرفونه بهذا الاسم ، والسؤال عن المجهول ب «ما» . ويجوز أن يكون سؤالا عن معناه ، لأنه لم يكن مستعملا في كلامهم كما استعمل الرحيم والرحوم والراحم . أو لأنهم أنكروا إطلاقه على اللّه تعالى لِما تَأْمُرُنا أى للذي تأمرناه ، بمعنى تأمرنا سجوده : على قوله : أمرتك الخير . أو لأمرك لنا . وقرئ بالياء ، كأن بعضهم قال لبعض : أنسجد لما يأمرنا محمد صلى اللّه عليه وسلم . أو يأمرنا المسمى بالرحمن ولا نعرف ما هو . وفي زادَهُمْ ضمير اسْجُدُوا لِلرَّحْمنِ لأنه هو المقول .

[سورة الفرقان (25) : آية 61]

تَبارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّماءِ بُرُوجاً وَجَعَلَ فِيها سِراجاً وَقَمَراً مُنِيراً (61)

البروج : منازل الكواكب السبعة السيارة : الحمل ، والثور ، والجوزاء ، والسرطان ،

والأسد ، والسنبلة ، والميزان ، والعقرب ، والقوس ، والجدى ، والدلو ، والحوت : سميت بالبروج التي هي القصور العالية ، لأنها لهذه الكواكب كالمنازل لسكانها . واشتقاق البرج من التبرج ، لظهوره . والسراج : الشمس كقوله تعالى وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِراجاً وقرئ .

سرجا ، وهي الشمس والكواكب الكبار معها . وقرأ الحسن والأعمش : وقمرا منيرا ، وهي جمع ليلة قمراء ، كأنه قال : وذا قمر منيرا لأنّ الليالي تكون قمرا بالقمر ، فأضافه إليها .

ونظيره - في بقاء حكم المضاف بعد سقوطه وقيام المضاف إليه مقامه - قول حسان :

بردي يصفّق بالرّحيق السّلسل «1»

يريد : ماء بردي ، ولا يبعد أن يكون القمر بمعنى القمر ، كالرشد والرشد ، والعرب والعرب .

[سورة الفرقان (25) : آية 62]

وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرادَ شُكُوراً (62)

الخلفة من خلف ، كالركبة من ركب : وهي الحالة التي يخلف عليها الليل والنهار كلّ واحد منهما الآخر . والمعنى : جعلهما ذوى خلفة ، أى : ذوى عقبة ، أى : يعقب هذا ذاك وذاك هذا .

ويقال : الليل والنهار يختلفان ، كما يقال : يعتقبان . ومنه قوله وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ ويقال : بفلان «2» خلفة واختلاف ، إذا اختلف كثيرا إلى متبرّزه . وقرئ : يذكر ويذكر .

وعن أبىّ بن كعب رضى اللّه عنه : يتذكر . والمعنى لينظر في اختلافهما الناظر ، فيعلم أن لا بد لانتقالهما من حال إلى حال ، وتغيرهما من ناقل ومغير . ويستدل بذلك على عظم

قدرته ، ويشكر الشاكر على النعمة فيهما من السكون بالليل والتصرف بالنهار ، كما قال عز وعلا : وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ . أو ليكونا وقتين للمتذكرين والشاكرين ، من فاته في أحدهما ورده من العبادة قام به في الآخر . وعن الحسن رضى اللّه عنه :

من فاته عمله من التذكر والشكر بالنهار كان له في الليل مستعتب . ومن فاته بالليل : كان له في النهار مستعتب .

[سورة الفرقان (25) : آية 63]

وَعِبادُ الرَّحْمنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً وَإِذا خاطَبَهُمُ الْجاهِلُونَ قالُوا سَلاماً (63)

وَعِبادُ الرَّحْمنِ مبتدأ خبره في آخر السورة ، كأنه قيل : وعباد الرحمن الذين هذه صفاتهم

---

(1) . تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة 84 فراجعه إن شئت اه مصححه

(2) . قوله «ويقال بفلان خلفة» لعله : لفلان . (ع)

أولئك يجزون الغرفة . ويجوز أن يكون خبره الَّذِينَ يَمْشُونَ وأضافهم إلى الرحمن تخصيصا وتفضيلا . وقرئ : وعباد الرحمن . وقرئ : يمشون هَوْناً حال ، أو صفة للمشي ، بمعنى :

هينين. أو: مشيا هينا، إلا أنّ في وضع المصدر موضع الصفة مبالغة. والهون: الرفق واللين.

ومنه الحديث «أحبب حبيبك هونا «1» ما» وقوله «المؤمنون هينون لينون «2»»

والمثل:

إذا عزّ أخوك فهن. ومعناه: إذا عاسر فياسر. والمعنى: أنهم يمشون بسكينة ووقار وتواضع، لا يضربون بأقدامهم ولا يخفقون بنعالهم أشرا وبطرا، ولذلك كره بعض العلماء الركوب في الأسواق، ولقوله وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْواقِ. سَلاماً تسلما منكم لا نجاهلكم، ومتاركة لا خير بيننا ولا شر، أى: نتسلم منكم تسلما، فأقيم السلام مقام التسلم. وقيل: قالوا سدادا من القول يسلمون فيه من الإيذاء والإثم. والمراد بالجهل: السفه وقلة الأدب وسوء الرعة، «3» من قوله:

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا «4»

وعن أبى العالية: نسختها آية القتال، ولا حاجة إلى ذلك لأنّ الإغضاء عن السفهاء وترك المقابلة مستحسن في الأدب والمروءة والشريعة، وأسلم للعرض والورع.

[سورة الفرقان (25): آية 64]

وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِياماً (64)

---

(1). أخرجه الترمذي من رواية أيوب عن ابن سيرين عن أبى هريرة تفرد به سويد بن

عمرو عن حماد بن سلمة عن أيوب قال الترمذي . غريب . وقال ابن حبان ، في الضعفاء : سويد بن عمرو يضع المتون الواهية على الأسانيد الصحيحة . وليس هذا من حديث أبى هريرة . وإنما هو من قول على رضى اللّه عنه . وقد رفعه الحسن بن أبى جعفر عن أيوب عن حميد بن عبد الرحمن عن على . وهو خطأ فاحش . ورواية الحسن بن أبى جعفر في فوائد تمام وأخرجه ابن عدى من طريق الحسن بن دنيا – عن ابن سيرين عن أبى هريرة . قال : الحسن بن دنيا – أجمعوا على ضعفه ورواه الطبراني في الأوسط . من رواية أبى الزناد عن الأعرج . عن أبى هريرة لكن الراوي له عن أبى الزناد متروك . وهو عباد بن كثير . وفي الباب عن ابن عمر أخرجه الطبراني وفيه أبو السلط الهروي . وهو متروك وعن ابن عمرو بن العاص أخرجه أيضا من طريق محمد بن كثير الضمري . عن ابن لهيعة ، عن أبى نهشل عنه وهذا إسناد واه جدا . والموقوف عن على . أخرجه البيهقي في الشعب في الحادي والأربعين من رواية أبى إسحاق عن صبرة بن يزيد ثم عن على . وقال الدارقطني . الصحيح على على موقوف

(2) . أخرجه ابن المبارك في الزهد قال أخبرنا سعيد بن عبد العزيز عن مكحول بهذا مرسلا «و زاد كالجمل الأنف الذي إن قيد انقاد . وإن بنخ على صخرة أناخ» وأخرجه البيهقي في الشعب في السادس والخمسين من هذا الوجه قال هذا مرسل ثم أخرجه من طريق العقيلي في منكرات عبد اللّه بن عبد العزيز . وفي الباب عن ابن أنس مرفوعا ذكره

ابن طاهر في الكلام على أحاديث الشهاب . وفيه زكريا بن يحيى الوقاد وهو واهى الحديث .

(3) . قوله «و سوء الرعة» في الصحاح : يقال : فلان سيئ الرعة ، أى : قليل الورع . وفيه : قيل ذلك الورع - بكسر الراء - : الرجل التقى . وقد ورع يرع - بالكسر فيهما - ورعا ورعة . (ع)

(4) . تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الثاني صفحة 390 فراجعه إن شئت اه مصححه .

(296/564)

البيتوتة : خلاف الظلول ، وهو أن يدركك الليل ، نمت أو لم تنم ، وقالوا : من قرأ شيئًا من القرآن في صلاته وإن قلّ فقد بات ساجدا وقائما . وقيل : هما الركعتان بعد المغرب والركعتان بعد العشاء . والظاهر أنه وصف لهم بإحياء الليل أو بأكثره . يقال : فلان يظل صائما ويبيت قائما .

[سورة الفرقان (25) : الآيات 65 إلى 66]

وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذابَها كانَ غَراماً (65) إِنَّها ساءَتْ

مُسْتَقَرًّا وَمُقاماً (66)

غَراماً هلاكا وخسرانا ملحا لازما قال:

ويوم النّسار ويوم الجفا ر كانا عذابا وكانا غراما «1»

وقال:

إن يعاقب يكن غراما وإن يعط جزيلا فإنّه لا يبالى»

ومنه: الغريم: لإلحاجه وإلزامه. وصفهم بإحياء الليل ساجدين وقائمين، ثم عقبه بذكر دعوتهم هذه، إيذانا بأنهم مع اجتهادهم خائفون مبتهلون إلى اللّه في صرف العذاب عنهم، كقوله تعالى وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ ما آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ. ساءَتْ في حكم «بئست» وفيها ضمير مبهم يفسره:

مستقرّا. والمخصوص بالذم محذوف، معناه: ساءت مستقرّا ومقاما هي. وهذا الضمير هو الذي ربط الجملة باسم إنّ وجعلها خبرا لها. ويجوز أن يكون ساءَتْ بمعنى: أحزنت. وفيها ضمير اسم إنّ. ومُسْتَقَرًّا حال أو تمييز، والتعليلان يصح أن يكونا متداخلين ومترادفين، وأن يكونا من كلام اللّه وحكاية لقولهم.

[سورة الفرقان (25): آية 67]

وَالَّذِينَ إِذا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكانَ بَيْنَ ذلِكَ قَواماً (67)

قرئ يَقْتُرُوا بكسر التاء وضمها. ويقتروا، بتخفيف التاء وتشديدها. والقتر والإقتار

والتقتير : التضييق الذي هو نقيض الإسراف . والإسراف : مجاوزة الحدّ في النفقة .

ووصفهم بالقصد الذي هو بين الغلو والتقصير . وبمثله أمر رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم

---

(1) . لبشر بن أبى حازم . والنسار : ماء لبنى عامر . والجفار : ماء لبنى تميم بنجد ، يقول : واقعة النسار وواقعة الجفار ، كانا عذابا على أهلهما ، وكانا غراما ، أى : هلاكا لازما لهم . وقيل : شرا دائما .

(2) . للأعشى ، يقول : إن يعاقب هذا الممدوح أعداءه يكن غراما أى هلاكا ملازما لهم . وإن يعط السائل عطاء جزيلا عظيما فانه لا يبالى به ولا يكترث به ولا يستكثره ، فهو شجاع جواد . [. . . . .]

(297/564)

وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلى عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْها كُلَّ الْبَسْطِ وقيل : الإسراف إنما هو الإنفاق في المعاصي ، فأما في القرب فلا إسراف . وسمع رجل رجلا يقول : لا خير في الإسراف . فقال : لا إسراف في الخير . وعن عمر بن عبد العزيز رضى اللّه عنه أنه شكر عبد الملك بن مروان حين زوّجه ابنته وأحسن إليه ، فقال : وصلت الرحم وفعلت وصنعت ، وجاء بكلام حسن ، فقال ابن لعبد الملك : إنما هو كلام أعدّه لهذا المقام ، فلما كان بعد أيام دخل

عليه والابن حاضر ، فسأله عن نفقته وأحواله فقال : الحسنة بين السيئتين ، فعرف عبد الملك أنه أراد ما في هذه الآية فقال لابنه : يا بنىّ ، أهذا أيضا مما أعدّه ؟ وقيل : أولئك أصحاب محمد صلى اللّه عليه وسلم ، كانوا لا يأكلون طعاما للتنعم واللذة ، ولا يلبسون ثوبا للجمال والزينة ، ولكن كانوا يأكلون ما يسدّ جوعتهم ويعينهم على عبادة ربهم ، ويلبسون ما يستر عوراتهم ويكنهم من الحرّ والقرّ «1» .

وقال عمر رضى اللّه عنه : كفى سرفا أن لا يشتهى رجل شيئا إلا اشتراه فأكله «2» .

والقوام :

العدل بين الشيئين لاستقامة الطرفين واعتدالهما . ونظير القوام من الاستقامة : السواء من الاستواء . وقرئ : قواما ، بالكسر ، وهو ما يقام به الشيء . يقال : أنت قوامنا ، بمعنى ما تقام به الحاجة لا يفضل عنها ولا ينقص ، والمنصوبان أعنى بَيْنَ ذِلكَ قَواماً : جائز أن يكونا خبرين معا ، وأن يجعل بين ذلك لغوا ، وقواما مستقرا . وأن يكون الظرف خبرا ، وقواما حالا مؤكدة . وأجاز الفراء أن يكون بَيْنَ ذِلكَ اسم كان ، على أنه مبنى لإضافته إلى غير متمكن ، كقوله :

لم يمنع الشّرب منها غير أن نطقت «3»

وهو من جهة الإعراب لا بأس به ، ولكن المعنى ليس بقوى لأنّ ما بين الإسراف والتقتير قوام لا محالة ، فليس في الخبر الذي هو معتمد الفائدة فائدة .

[سورة الفرقان (25) : الآيات 68 إلى 70]

وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ يَلْقَ أَثاماً (68) يُضاعَفْ لَهُ الْعَذابُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهاناً (69) إِلاَّ مَنْ تابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صالِحاً فَأُولئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئاتِهِمْ حَسَناتٍ وَكانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً (70)

---

(1) . قوله «و القر» أى البرد . (ع)

(2) . أخرجه عبد الرزاق في التفسير عن ابن عيينة عن رجل عن الحسن عن عمر بن الخطاب وهذا منقطع من طريقه . رواه الثعلبي . ورواه أحمد في الزهد عن إسماعيل عن يونس عن الحسن كذلك ورواه ابن ماجة وأبو يعلى والبيهقي في الشعب من طريق نوح بن ذكوان عن الحسن عن أنس رضى اللّه عنه مرفوعا والأول أصح

(3) . تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الثاني صفحة 422 فراجعه إن شئت اه مصححه .

حَرَّمَ اللَّهُ أى حرّمها . والمعنى : حرّم قتلها . وإِلَّا بِالْحَقِّ متعلق بهذا القتل المحذوف .

أو بلا يقتلون ، ونفى هذه المقبحات العظام على الموصوفين بتلك الخلال العظيمة في الدين ، للتعريض بما كان عليه أعداء المؤمنين من قريش وغيرهم ، كأنه قيل : والذين برأهم اللّه وطهرهم مما أنتم عليه . والقتل بغير الحق : يدخل فيه الوأد وغيره . وعن ابن مسعود رضى اللّه عنه قلت : يا رسول اللّه ، أىّ الذنب أعظم ؟ قال : «أن تجعل للّه ندّا وهو خلقك» قلت : ثم أىّ ؟ قال «أن تقتل ولدك خشية أن يأكل معك» قلت : ثم أى ؟ قال «أن تزانى حليلة جارك» «1» فأنزل اللّه تصديقه . وقرئ : يلق فيه أثاما . وقرئ : يلقى ، بإثبات الألف ، وقد مر مثله . والآثام : جزاء الإثم ، بوزن الوبال والنكال ومعناهما . قال :

جزي اللّه ابن عروة حيث أمسى عقوقا والعقوق له أثام «2»

وقيل هو الإثم . ومعناه : يلق جزاء أثام . وقرأ ابن مسعود رضى اللّه عنه : أياما «3» ، أى شدائد . يقال : يوم ذو أيام : لليوم العصيب . يُضاعَفْ بدل من يلق ، لأنهما في معنى واحد ، كقوله :

متى تأتنا تلمم بنا في ديارنا تجد حطبا جزلا ونارا تأجّجا «4»

وقرئ : يضعف ، ونضعف له العذاب ، بالنون ونصب العذاب . وقرئ بالرفع على الاستئناف أو على الحال ، وكذلك يَخْلُدْ وقرئ : ويخلد ، على البناء للمفعول مخففا ومثقلا ، من الإخلاد والتخليد . وقرئ : وتخلد ، بالتاء على الالتفات يُبَدِّلُ مخفف ومثقل

، وكذلك سيئاتهم . فإن قلت : ما معنى مضاعفة العذاب وإبدال السيئات حسنات ؟

قلت : إذا ارتكب المشرك معاصى مع الشرك عذب على الشرك وعلى المعاصي جميعا ، فتضاعف العقوبة لمضاعفة المعاقب عليه . وإبدال السيئات حسنات : أنه يمحوها بالتوبة ، ويثبت مكانها الحسنات : الإيمان ، والطاعة ، والتقوى . وقيل : يبدّلهم بالشرك إيمانا ، وبقتل المسلمين : قتل المشركين ، وبالزنا :

عفة وإحصانا .

---

(1) . متفق عليه من رواية أبى وائل عن عمرو بن شرحبيل عنه .

(2) . العقوق - بالفتح - : كثير العقوق بالضم ، وهو منع بر الوالدين وقطع صلتهما ، والأثام - كالوبال - : جزاء الإثم . وقيل : هو الإثم ، فسمي به مسببه وهو الجزاء ، ومفعول جزى الثاني محذوف . وعقوقا خبر أمسى .

والعقوق : مبتدأ ، أى : لا بد العقوق من جزاء سيء عظيم .

(3) . قوله «أياما» وفي الصحاح «الأيام» الدخان . (ع)

(4) . تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة 331 فراجعه إن شئت اه مصححه .

[سورة الفرقان (25) : آية 71]

وَمَنْ تابَ وَعَمِلَ صالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتاباً (71)

يريد . ومن يترك المعاصي ويندم عليها ويدخل في العمل الصالح فإنه بذلك تائب إلى اللّه مَتاباً مرضيا عنده مكفرا للخطايا محصلا للثواب . أو فإنه تائب متابا إلى اللّه الذي يعرف حق التائبين ويفعل بهم ما يستوجبون ، والذي يحب التوابين ويحب المتطهرين . وفي كلام بعض العرب : للّه أفرح بتوبة العبد من المضل الواجد ، والظمآن الوارد ، والعقيم الوالد . أو : فإنه يرجع إلى اللّه وإلى ثوابه مرجعا حسنا وأىّ مرجع .

[سورة الفرقان (25) : آية 72]

وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِراماً (72)

يحتمل أنهم ينفرون عن محاضر الكذابين ومجالس الخطائين فلا يحضرونها ولا يقربونها ، تنزها عن مخالطة الشر وأهله ، وصيانة لدينهم عما يثلمه لأنّ مشاهد الباطل شركة فيه ، ولذلك قيل في النظارة إلى كل ما لم تسوّغه الشريعة : هم شركاء فاعليه في الإثم ، لأنّ حضورهم ونظرهم دليل الرضا به ، وسبب وجوده ، والزيادة فيه ، لأنّ الذي سلط على فعله هو استحسان النظارة ورغبتهم في النظر إليه . وفي مواعظ عيسى بن مريم عليه السلام : إياكم ومجالسة الخطائين .

ويحتمل أنهم لا يشهدون شهادة الزور ، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه . وعن قتادة :

مجالس الباطل . وعن ابن الحنفية : اللهو والغناء . وعن مجاهد : أعياد المشركين . اللغو : كل ما ينبغي أن يلغى ويطرح . والمعنى : وإذا مروا بأهل اللغو والمشتغلين به . مرّوا معرضين عنهم ، مكرمين أنفسهم عن التوقف عليهم والخوض معهم ، كقوله تعالى وَإِذا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقالُوا لَنا أَعْمالُنا وَلَكُمْ أَعْمالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجاهِلِينَ وعن الحسن رضى اللّه عنه :

لم تسفههم المعاصي . وقيل : إذا سمعوا من الكفار الشتم والأذى أعرضوا وصفحوا .

وقيل :

إذا ذكروا النكاح كنوا عنه

[سورة الفرقان (25) : آية 73]

وَالَّذِينَ إِذا ذُكِّرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْها صُمًّا وَعُمْياناً (73)

لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْها ليس بنفي للخرور . وإنما هو إثبات له ، ونفى للصمم والعمى ، كما تقول : لا يلقاني زيد مسلما ، هو نفى للسلام لا للقاء . والمعنى : أنهم إذا ذكروا بها أكبوا عليها حرصا على استماعها ، وأقبلوا على المذكر بها وهم في إكبابهم عليها ، سامعون بآذان واعية ، مبصرون بعيون راعية ، لا كالذين يذكرون بها فتراهم مكبين عليها مقبلين على من

يذكر بها ، مظهرين الحرص الشديد على استماعها ، وهم كالصم العميان حيث لا يعونها ولا يتبصرون ما فيها كالمنافقين وأشباههم .

(300/564)

[سورة الفرقان (25) : آية 74]

وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنا هَبْ لَنا مِنْ أَزْواجِنا وَذُرِّيَّاتِنا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنا لِلْمُتَّقِينَ إِماماً (74)

قرئ : ذريتنا ، وذرياتنا . وقرة أعين ، وقرّات أعين . سألوا ربهم أن يرزقهم أزواجا وأعقابا عمالا للّه ، يسرون بمكانهم وتقرّبهم عيونهم . وعن محمد بن كعب : ليس شيء أقرّ لعين المؤمن من أن يرى زوجته وأولاده مطيعين للّه . وعن ابن عباس رضى اللّه عنهما : هو الولد إذا رآه يكتب الفقه . وقيل : سألوا أن يلحق اللّه بهم أزواجهم وذريتهم في الجنة ليتم لهم سرورهم . أراد . أئمة ، فاكتفى بالواحد لدلالته على الجنس ولعدم اللبس ، كقوله تعالى ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا أو أرادوا اجعل كل واحد منا إماما . أو أراد جمع آمّ ، كصائم وصيام . أو أرادوا اجعلنا إماما واحدا لاتحادنا واتفاق كلمتنا . وعن بعضهم : في الآية ما يدل على أن الرياسة في الدين يجب أن تطلب ويرغب فيها . وقيل : نزلت هذه الآيات في العشرة المبشرين بالجنة . فإن قلت : مِنْ في قوله مِنْ أَزْواجِنا ما هي ؟ قلت : يحتمل أن تكون بيانية

، كأنه قيل : هب لنا قرّة أعين ، ثم بينت القرّة وفسرت بقوله : من أزواجنا وذرياتنا .

ومعناه :

أن يجعلهم اللّه لهم قرّة أعين ، وهو من قولهم : رأيت منك أسدا ، أى : أنت أسد ، وأن تكون ابتدائية على معنى : هب لنا من جهتهم ما تقرّ به عيوننا من طاعة وصلاح. فإن قلت : لم قال قُرَّةَ أَعْيُنٍ فنكر وقلل ؟ قلت : أما التنكير فلأجل تنكير القرّة ، لأن المضاف لا سبيل إلى تنكيره إلا بتنكير المضاف إليه ، كأنه قيل : هب لنا منهم سرورا وفرحا . وإنما قيل أَعْيُنٍ دون عيون ، لأنه أراد أعين المتقين ، وهي قليلة بالإضافة إلى عيون غيرهم . قال اللّه تعالى وَقَلِيلٌ مِنْ عِبادِيَ الشَّكُورُ «1» ويجوز أن يقال في تنكير أَعْيُنٍ أنها أعين خاصة ، وهي أعين المتقين .

[سورة الفرقان (25) : الآيات 75 إلى 76]

أُولٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِما صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيها تَحِيَّةً وَسَلاماً (75) خالِدِينَ فِيها حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقاماً (76)

المراد يجزون الغرفات وهي العلالي في الجنة ، فوحد اقتصارا على الواحد الدال على الجنس ،

---

(1) . قال محمود : «إن قلت : لم قلل الأعين إذ الأعين صيغة جمع قلة ؟ قلت : لأن أعين المتقين قليل بالاضافة إلى غيرهم ، يدل على ذلك قوله : وقليل من عبادي الشكور» قال

أحمد : والظاهر أن المحكي كلام كل أحد من المتقين ، فكأنه قال : يقول كل واحد منهم اجعل لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين ، وهذا أسلم من تأويله ، فان المتقين وإن كانوا بالاضافة إلى غيرهم قليلا إلا أنهم في أنفسهم على كثرة من العدد . والمعتبر في إطلاق جمع القلة أن يكون المجموع قليلا في نفسه لا بالنسبة والاضافة ، والله أعلم .

(301/564)

والدليل على ذلك قوله وَهُمْ فِي الْغُرُفاتِ آمِنُونَ وقراءة من قرأ : في الغرفة بِما صَبَرُوا بصبرهم على الطاعات ، وعن الشهوات ، وعن أذى الكفار ومجاهدتهم ، وعلى الفقر وغير ذلك .

وإطلاقه لأجل الشياع في كل مصبور عليه . وقرئ : يلقون ، كقوله تعالى وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً ويلقون ، كقوله تعالى يَلْقَ أَثاماً . والتحية : دعاء بالتعمير . والسلام : دعاء بالسلامة ، يعنى أن الملائكة يحيونهم ويسلمون عليهم . أو يحيى بعضهم بعضا ويسلم عليه أو يعطون التبقية والتخليد مع السلامة عن كل آفة . اللهم وفقنا لطاعتك ، واجعلنا مع أهل رحمتك ، وارزقنا مما ترزقهم في دار رضوانك .

[سورة الفرقان (25) : آية 77]

قُلْ ما يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلا دُعاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزاماً (77)

لما وصف عبادة العباد ، وعدّد صالحاتهم وحسناتهم ، وأثنى عليهم من أجلها ، ووعدهم الرفع من درجاتهم في الجنة : أتبع ذلك بيان أنه إنما اكترث لأولئك وعبأ بهم وأعلى ذكرهم ووعدهم ما وعدهم ، لأجل عبادتهم ، فأمر رسوله أن يصرّح للناس ، ويجزم لهم القول بأن الاكتراث لهم عند ربهم ، إنما هو للعبادة وحدها لا لمعنى آخر ، ولولا عبادتهم لم يكترث لهم البتة ولم يعتدّ بهم ولم يكونوا عنده شيء يبالى به . والدعاء : العبادة . وما متضمنة لمعنى الاستفهام ، وهي في محل النصب ، وهي عبارة عن المصدر ، كأنه قيل : وأى عبء يعبأ بكم لولا دعاؤكم . يعنى أنكم لا تستأهلون شيئا من العبء بكم لولا عبادتكم . وحقيقة قولهم ما عبأت به : ما اعتددت به من فوادح همومى ومما يكون عبئا علىّ ، كما تقول : ما اكترثت له ، أى : ما اعتددت به من كوارثى ومما يهمني . وقال الزجاج في تأويل ما يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي : أى وزن يكون لكم عنده ؟

ويجوز أن تكون ما نافية ، فَقَدْ كَذَّبْتُمْ يقول : إذا أعلمتكم أن حكمى أنى لا أعتدّ بعبادي إلا عبادتهم ، فقد خالفتم بتكذيبكم حكمى ، فسوف يلزمكم أثر تكذيبكم حتى يكبكم في النار .

ونظيره في الكلام أن يقول الملك لمن استعصى عليه : إن من عادتى أن أحسن إلى من يطيعني ويتبع أمرى ، فقد عصيت فسوف ترى ما أحلّ بك بسبب عصيانك . وقيل : معناه ما

يصنع بكم ربى لولا دعاؤه إياكم إلى الإسلام . وقيل : ما يصنع بعذابكم لولا دعاؤكم معه آلهة ، فإن قلت : إلى من يتوجه هذا الخطاب ؟ قلت : إلى الناس على الإطلاق ، ومنهم مؤمنون عابدون ومكذبون عاصون ، فخوطبوا بما وجدوا في جنسهم من العبادة والتكذيب . وقرئ :

فقد كذب الكافرون . وقيل : يكون العذاب لزاما . وعن مجاهد رضى اللّه عنه : هو قتل يوم بدر ، وأنه لوزم بين القتلى لزاما . وقرئ : لزاما ، بالفتح بمعنى اللزوم ، كالثبات والثبوت .

(302/564)

والوجه أن ترك اسم كان غير منطوق به بعد ما علم أنه مما توعد به ، لأجل الإبهام وتناول ما لا يكتنهه الوصف ، واللّه أعلم بالصواب .

عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «من قرأ سورة الفرقان لقى اللّه يوم القيامة وهو مؤمن بأنّ الساعة آتية لا ريب فيها ، وأدخل الجنة بغير نصب» «1» . انتهى انتهى . اهـ

﴿ الكشاف حـ 3 صـ 286.292 ﴾

---

(1) . أخرجه الثعلبي وابن مردويه من حديث أبى .

وقال ابن جزى :

﴿ مَرَجَ البحرين ﴾

اضطراب الناس في هذه الآية لأنه لا يعلم في الدنيا بحر ملح وبحر عذب وإنما البحار المعروفة ماؤها ملح ، قال ابن عباس : أراد بالبحر الملح الأجاج بحر الأرض ، والبحر العذب الفرات بحر السحاب ، وقيل : البحر الملح البحر المعروف ، والبحر العذب هو مياه الأرض ، وقيل : البحر الملح جميع الماء الملح من الآبار وغيرها ، والبحر العذب هو مياه الأرض من الأنهار والعيون ، ومعنى العذب : البالغ العذوبة حتى يضرب إلى الحلاوة ، والأجاج نقيضه ، واختلف في معنى مرجهما ، فقيل : جعلهما متجاورين متلاصقين ، وقيل أسال أحدهما في الآخر ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً وَحِجْراً مَّحْجُوراً ﴾ أي فاصلاً بينهما وهو ما بينهما من الأرض بحيث لا يختلطان ، وقيل : البرزخ يعلمه الله ولا يراه البشر .

﴿ خَلَقَ مِنَ المآء بَشَراً ﴾ إن أراد بالبشر آدم ؛ فالمراد بالماء الماء الذي خلق به مع التراب فصار طيناً ، وإن أراد بالبشر بني آدم ، فالمراد الماء المنيّ الذي يخلقون منه ﴿ فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهْراً ﴾ النسب والصهر يَعُمَّان كل قربى : أي كل قرابة ، والنسب أن يجتمع إنسان

مع آخر في أب أو أمّ قرب ذلك أو بعد ، والصهر هو الاختلاط بالنكاح ، وقيل : أراد بالنسب الذكور ، أي ذوي نسب ينتسب إليهم ، وأراد بالصهر الإناث : أي ذوات صهر يصاهر بهنّ ، وهو كقوله : ﴿ فَجَعَلَ مِنْهُ الزوجين الذكر والأنثى ﴾ [القيامة : 39] ﴿ وَكَانَ الكافر على رَبِّهِ ظَهِيراً ﴾ الكافر هنا الجنس ، وقيل : المراد أبو جهل ، والظهير : المعين أي يعين الشيطان على ربه بالعداوة والشرك ، ولفظه يقع للواحد والجماعة كقوله : ﴿ وَالْمَلاَئِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴾ [التحريم : 4] .

(304/564)

﴿ قُلْ مَآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ أي لا أسئلكم على الإيمان أجرة ولا منفعة ﴿ إِلاَّ مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إلى رَبِّهِ سَبِيلاً ﴾ معناه إنما أسألكم أن تتخذوا إلى ربكم سبيلاً بالصدقة ، فالاستثناء على هذا متصل ، والأول أظهر ، وفي الكلام محذوف تقديره : إلا سؤال من شاء وشبه ذلك .

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الحي الذي لاَ يَمُوتُ ﴾ قرأ هذه الآية بعض السلف فقال : لا ينبغي لذي عقل أن يثق بعدها بمخلوق فإنه يموت ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ ﴾ أي قل سبحان الله وبحمده ، والتسبيح التنزيه عن كل ما لا يليق به ، ومعنى بحمده أي : بحمده أقول ذلك ، ويحتمل أن

يكون المعنى سبحه متلبساً بحمده ، فهو أمر بأن يجمع بين التسبيح والحمد ﴿ وكفى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً ﴾ يحتمل أن يكون المراد بهذا أبيات حمله وعفوه من عباده مع علمه بذنوبهم أم يكون المراد تهديد العباد لعلم الله بذنوبهم ﴿ استوى عَلَى العرش ﴾ ذكر في [الأعراف : 53] ﴿ الرحمن ﴾ خبر ابتداء مضمر ، أو بدل من الضمير في استوى ﴿ فَسْئَلْ بِهِ خَبِيراً ﴾ فيه معنيان : أحدهما وهو الأظهر : أن المراد اسأل عنه من هو خبير عارف به ، وانتصب خبيراً على المفعولية ، وهذا الخبير المسؤول هو جبريل عليه السلام والعلماء ، وأهل الكتاب ، والباء في قوله : ﴿ بِهِ ﴾ : يحتمل أن تتعلق بخبيراً ، أو تتعلق بالسؤال ، ويكون معناها على هذا معنى عن ، والمعنى الثاني : أن المراد اسأل بسؤاله خبيراً ؛ أي إن سألته تعالى تجده خبيراً بكل شيء ، فانتصب خبيراً على الحال ، وهو كقولك : لو رأيت فلاناً رأيت به أسداً : أي رأيت برؤيته أسداً .

(305/564)

﴿ قَالُواْ وَمَا الرحمن ﴾ لما ذكر الرحمن في القرآن أنكرته قريش ، وقالوا : لا نعرف الرحمن ، وكان مسيلمة الكذاب قد تسمى بالرحمن ، فقالوا على وجه المغالطة : إنما الحرمن الرجل الذي باليمامة ﴿ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا ﴾ تقديره لما تأمرنا أن نسجد له ﴿ وَزَادَهُمْ نُفُوراً

﴿ الضمير المعفول في زادهم يعود على المقول وهو ﴿ اسجدوا للرحمن ﴾ ﴿ بُرُوجاً ﴾ يعني المنازل الأثني عشر ، وقيل الكواكب العظام ﴿ سِرَاجاً ﴾ يعني الشمس ، وقرىء بضم السين والراء على الجمع يعني جميع الأنوار ثم القمر بالذكر تشريفاً ﴿ جَعَلَ اليل والنهار خِلْفَةً ﴾ أي يخلف هذا هذا ، وقيل : هو من الاختلاف ، لأن هذا أبيض وهذا أسود ، والخلفة اسم الهيئة : كالركبة والجِلسة ، والأصل جعلهما ذوي خلفة ﴿ لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ ﴾ قيل : معناه يعتبر في المصنوعات ، وقيل : معناه يتذكر لما فاته من الصلوات وغيرها في الليل ، فيستدركه في النهار أو فاته بالنهار فيستذكره بالليل ، وهو قول عمر بن الخطاب وابن عباس رضي الله عنهما .

﴿ وَعِبَادُ الرحمن ﴾ أي عباده المرضيون عنده ، فالعبودية هنا للتشريف والكرامة ﴿ وَعِبَادُ ﴾ مبتدأ وخبره ﴿ الذين يَمْشُونَ ﴾ ، أو قوله في آخر السورة : ﴿ أولئك يُجْزَوْنَ الغرفة ﴾ [الفرقان : 75] ﴿ الذين يَمْشُونَ على الأرض هَوْناً ﴾ أي رفقاً ولِيناً بحلم ووقار ، ويحتمل أن يكون ذلك وصف مشيهم على الأرض أو وصف أخلاقهم في جميع أحوالهم ، وعبر بالمشي على الأرض عن جميع تصرفهم مدة حياتهم ﴿ قَالُواْ سَلاَماً ﴾ أي : قالوا قولاً سديداً ليدفع الجاهل برفق ، وقيل : معناه قلوا للجاهل : سلاماً أي هذا اللفظ بعينه بمعنى : سلمنا منكم قال بعضهم هذه الآية منسوخة بالسيف ، وإنما يصح النسخ في حق الكفار ، أما الإغضاء عن السفهاء والحلم عنهم فمستحسن غير منسوخ .

﴿ إِنَّ عَذَابَهَا ﴾ وما بعده يحتمل أن يكون من كلامهم أو من كلام الله عز وجل ﴿ كَانَ غَرَاماً ﴾ أي هلاكاً وخسراناً ، وقيل ملازماً .

﴿ والذين إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ ﴾ الاقتار هو التضييق في النفقة والشح وضده الإسراف ، فنهى عن الطرفين ، وأمر بالتوسط بينهما وهو القوام ، وذلك في الانفاق في المباحات وفي الطاعات ، وأما الانفاق في المعاصي فهو إسراف ، وإن قل .

﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذلك يَلْقَ أَثَاماً ﴾ أي عقاباً ، وقيل الأثام الإثم فمعناه يلق جزاء أثام ؛ وقيل الأثام : واد في جهنم ، والإشارة بقوله ذلك إلى ما ذكر من الشرك بالله وقتل النفس بغير حق والزنا .

﴿ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً ﴾ قيل : نزلت في الكفار لأنهم المخلدون في النار بإجماع ، فكأنه قال : الذين يجمعون بين الشرك والقتل والزنا ، وقيل : نزلت في المؤمنين الذين يقتلون النفس ويزنون ، فأما على مذهب المعتزلة فالخلود على بابه ، وأما على مذهب أهل السنة فالخلود عبارة عن طول المدة .

﴿ إِلاَّ مَن تَابَ ﴾ إن قلنا الآية في الكفار فلا إشكال فيها ، لأن الكافر إذا أسلم صحت

توبته من الكفر والقتل والزنا ، وإن قلنا الآية إنها في المؤمنين فلا خلاف أن التوبة من الزنا تصح ، واختلف هل تصح توبة المسلم من القتل أم لا ﴿ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ﴾ قيل : يوفقهم الله لفعل الحسنات بدلاً عما علموا من السيئات ، وقيل : إن هذا التبديل في الآخرة : أي يبدل عقاب السيئات بثواب الحسنات .

﴿ يَتُوبُ إِلَى اللهِ مَتَاباً ﴾ أي متاباً مقبولاً مرضياً عند الله كما تقول : لقد قلت يا فلان قولاً ، أي قولاً حسناً .

(307/564)

﴿ لاَ يَشْهَدُونَ الزُّورَ ﴾ أي لا يشهدون بالزور وهو الكذب فهو من الشهادة ، وقيل : معناه لا يحضرون مجالس الزور واللهو ، فهو على هذا من المشاهدة والحضور ، والأول أظهر ﴿ وَإِذَا مَرُّواْ بِاللَّغْوِ مَرُّواْ كِراماً ﴾ اللغو هو الكلام القبيح على اختلاف أنواعه ، ومعنى ﴿ مَرُّواْ كِراماً ﴾ إي أعرضوا عنه واستحيوا ، ولم يدخلوا مع أهله تنزيهاً لأنفسهم عن ذلك .

﴿ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمّاً وَعُمْيَاناً ﴾ أي لا يعرضوا عن آيات الله ، بل أقبلوا عليها بأسماعهم وقلوبهم ، فالنفي للصمم والعمى لا للخرور عليها .

﴿ قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ قيل : معناه اجعل أزواجنا وذريتنا مطيعين لك ، وقيل : أدخلهم معنا

الجنة ، واللفظ أعم من ذلك ﴿ واجعلنا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً ﴾ أي قدوة يقتدي بنا المتقون ، فإمام مفرد يراد به الجنس ، وقيل : هو جمع آمّ أي متبع ﴿ الغرفة ﴾ يعني غرفة الجنة فهي اسم الجنس .

(308/564)

﴿ قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلاَ دُعَآؤُكُمْ ﴾ يحتمل أن تكون ما نافية أو استفهامية ، وفي معنى الدعاء هنا ثلاثة أقوال : الأول : أن المعنى إن الله لا يبالي بكم لولا عبادتكم له ، فالدعاء بمعنى العبادة وهذا قريب من معنى قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجن والإنس إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : 56] الثاني : أن الدعاء بمعنى الاستغاثة والسؤال ، والمعنى لا يبالي الله بكم ، ولكن يرحمكم إذا استغثتم به ودعوتموه ويكون على هذين القولين خطاباً لجميع الناس من المؤمنين والكافرين ، لأن فيهم من يعبد الله ويدعوه ، أو خطاباً للمؤمنين خاصة ، لأنهم هم الذين يدعون الله ويعبدونه ، ولكن يضعف هذا بقوله " فقد كذبتم " الثالث : أنه خطاب للكفار خاصة والمعنى على هذا : ما يعبأ بكم لولا أن يدعوكم إلى دينه ، والدعاء على هذا بمعنى الأمر بالدخول في الدين ، وهو مصدر مضاف إلى المفعول ، وأما على القول الأول والثاني فهو مصدر مضاف إلى الفاعل ﴿ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ ﴾ هذا خطاب لقريش

وغيرهم من الكفار دون المؤمنين ﴿ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَاماً ﴾ أي سوف يكون العذاب لزاماً ثابتاً وأضمر العذاب وهو اسم كان لأنه جزاء التكذيب المتقدم ، واختلف هل يراد بالعذاب هنا القتل يوم بدر ، أو عذاب الآخر ؟ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التسهيل حـ 3 صـ 83.80 ﴾

(309/564)

وقال الخازن :

قوله تعالى : ﴿ وهو الذي مرج البحرين ﴾

أي خلطهما وأفاض أحدهما على الآخر وقيل أرسلهما في مجاريهما ﴿ هذا عذب فرات ﴾ أي شديد العذوبة يميل إلى الحلاوة ﴿ وهذا ملح أجاج ﴾ أي شديد الملوحة وقيل مر ﴿ وجعل بينهما برزخاً ﴾ أي حاجزاً بقدرته فلا يختلط العذب بالملح ولا الملح بالعذب ﴿ وحجراً محجوراً ﴾ أي ستراً ممنوعاً فلا يبغي أحدهما على الآخر ولا يفسد الملح العذب .

قوله تعالى : ﴿ وهو الذي خلق من الماء ﴾ أي من النطفة ﴿ بشراً فجعله نسباً وصهراً ﴾ أي جعله ذا نسب وصهر وقيل النسب ما لا يحل نكاحه والصهر ما يحل نكاحه

والنسب ما يوجب الحرمة والصهر ما لا يوجبها وقيل النسب من القرابة والصهر الخلطة التي تشبه القرابة وهو النسب المحرم للنكاح وقد حرم الله بالنسب سبعاً وبالسبب سبعاً ويجمعها قوله

﴿ حرمت عليكم أمهاتكم ﴾ الآية وقد تقدم تفسير ذلك وبيانه في تفسير النساء ﴿ وكان ربك قديراً ﴾ على ما أراد حيث خلق من النطفة الواحدة نوعين من البشر الذكر والأنثى ﴿ ويعبدون من دون الله ﴾ يعني هؤلاء المشركين ﴿ ما لا ينفعهم ﴾ أي إن عبدوه ﴿ ولا يضرهم ﴾ أي إن تركوه ﴿ وكان الكافر على ربه ظهيراً ﴾ أي معيناً أعان الشيطان على ربه بالمعاصي لأن عبادتهم الأصنام معاونة للشيطان وقيل معنى ظهيراً هيناً ذليلاً من قولك ظهرت بفلان إذا جعلته وراء ظهرك ولم تلتفت إليه وقيل أراد بالكافر أبا جهل والأصح أنه عام في كل كافر .

(310/564)

وقوله تعالى : ﴿ وما أرسلناك إلا مبشراً ﴾ أي بالثواب على الإيمان والطاعة ﴿ ونذيراً ﴾ منذراً بالعقاب على الكفر والمعصية ﴿ قل ﴾ يا محمد ﴿ ما أسألكم عليه ﴾ أي على تبليغ الوحي ﴿ من أجر ﴾ فتقولون إنما يطلب محمد أموالنا بما يدعوننا إليه فلا نتبعه

﴿ إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً ﴾ معناه لكن من شاء أن يتخذ بإنفاق ماله سبيلاً إلى ربه فعلى هذا يكون المعنى لا أسألكم لنفسي أجراً ، ولكن أمنع من إنفاق المال إلا في طلب مرضاة الله ، واتخاذ السبيل إلى جنته .

قوله : ﴿ وتوكل على الحي الذي لا يموت ﴾ معناه أنه سبحانه وتعالى لما أمر نبيه صلّى الله عليه وسلّم بأن لا يطلب منهم أجراً البتة أمره أن يتوكل عليه في جميع أموره ، وإنما قال على الحي الذي لا يموت لأن من توكل على حي يموت انقطع توكله عليه بموته ، وأما الله سبحانه وتعالى فإنه حي لا يموت فلا ينقطع توكل من توكل عليه ، ولا يضيع البتة ﴿ وسبح بحمده ﴾ أي صل له شكراً على نعمه وقيل : معناه قل سبحان الله والحمد لله ﴿ وكفى به بذنوب عباده خبيراً ﴾ يعني أنه تعالى علام بجميع ذنوب عباده فيجازيهم بها .

وقيل : معناه أنه لا يحتاج معه إلى غيره لأنه خبير عالم قادر على مكافأتهم وفيه وعيد شديد كأنه إذا قدمتم على مخالفة أمره كفاكم علمه في مجازاتكم بما تستحقون من العقوبة .

قوله تعالى الذي ﴿ خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش الرحمن فاسأل به خبيراً ﴾ أي فاسأل الخبير بذلك ، يعني بما ذكر من خلق السموات والأرض والاستواء على العرش .

وقيل : أيها الإنسان لا ترجع في طلب العلم ، بهذا إلى غيري وقيل معناه فاسأل عنه خبيراً وهو الله تعالى وقيل : هو جبريل عليه السلام ﴿ وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن ﴾ أي ما نعرف الرحمن إلا رحمان اليمامة يعنون مسليمة الكذاب كانوا يسمونه رحمان اليمامة ﴿ أنسجد لما تأمرنا ﴾ أنت يا محمد ﴿ وزادهم ﴾ يعني قول القائل اسجدوا للرحمن ﴿ نفوراً ﴾ يعني عن الإيمان والسجود .

فصل

وهذه السجدة من عزائم السجدات فيسن للقارىء ، والمستمع أن يسجدا عند سماعها وقراءتها .

قوله تعالى ﴿ تبارك الذي جعل في السماء بروجاً ﴾ قيل : البروج هي النجوم الكبار سميت بروجاً لظهورها ، وقيل : البروج قصور فيها الحرس .

وقال ابن عباس : هي البروج الاثنا عشر التي هي منازل الكواكب السبعة السيارة ، وهي الحمل والثور والجوزاء والسرطان والأسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدي والدلو والحوت سميت بالبروج ، التي هي القصور العالية لأنها للكواكب كالمنازل لسكانها ﴿ وجعل فيها سراجاً ﴾ يعني الشمس ﴿ وقمراً منيراً وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة ﴾ قال ابن عباس معناه خلفاً ، وعوضاً يقوم أحدهما مقام صاحبه فمن فاته عمله

في أحدهما قضاه في الآخر .

قال شقيق : جاء رجل إلى عمر بن الخطاب .

قال فاتتني الصلاة الليلة قال أدرك ما فاتك من ليلتك في نهارك ، فإنّ الله جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر .

وقيل جعل كل واحد منهما مخالفاً لصاحبه فجعل هذا أسود وهذا أبيض وقيل يخلف أحدهما صاحبه إذا ذهب هذا جاء هذا فهما يتعقبان في الضياء ، والظلمة والزيادة والنقصان ﴿ لمن أراد أن يذكر ﴾ أي يتذكر ويتعظ ﴿ أو أراد شكوراً ﴾ يعني شكر نعمة ربه عليه فيهما .

(312/564)

قوله ﴿ وعباد الرحمن ﴾ قيل هذه الإضافة للتخصيص ، والتفضيل وإلا فالخلق كلهم عباد الله ﴿ الذين يمشون على الأرض هوناً ﴾ يعني بالسكينة والوقار متواضعين غير أشرين ، ولا مرحين ولا متكبرين بل علماء حكماء ، أصحاب وقار وعفة ﴿ وإذا خاطبهم الجاهلون ﴾ يعني السفهاء بما يكرهونه ﴿ قالوا سلاماً ﴾ يعني سداداً من القول يسلمون فيه لا يسفهون وإن سفه عليهم حلموا ولم يجهلوا وليس المراد منه السلام المعروف

وقيل هذا قبل أن يؤمروا بالقتال ثم نسختها آية القتال ويروى عن الحسن البصري أنه كان إذا قرأ هذه الآية قال : هذا وصف نهارهم ثم إذا قرأ ﴿ والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً ﴾ قال هذا وصف ليلهم ، والمعنى يبيتون لربهم في الليل بالصلاة سجداً على وجوههم وقياماً على أقدامهم .

قال ابن عباس ، من صلّى بعد العشاء الأخيرة ركعتين أو أكثر فقد بات لله ساجداً وقائماً (م) عن عثمان بن عفان : قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " من صلى العشاء في جماعة كان كقيام نصف الليل ومن صلى الفجر في جماعة كان كقيام ليلة " .

قوله : ﴿ والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراماً ﴾ أي ملحاً دائماً لازماً غير مفارق من عذب من الكفار .

قال محمد بن كعب القرظي : سأل الله الكفار ثمن نعمته فلم يؤدوه فأغرمهم فبقوا في النار ، وقال كل غريم مفارق غريمه إلا جنهم .

وقيل : الغرام الشر اللازم والهلاك الدائم ﴿ إنها ﴾ يعني جهنم ﴿ ساءت ﴾ بئست ﴿ مستقراً ومقاماً ﴾ أي موضع قرار وإقامة ﴿ والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا ﴾ قيل الإسراف النفقة في معصية الله ، وإن قلت والإقتار منع حقوق الله تعالى وهو قول ابن عباس .

وقيل : الإسراف مجاوزة الحد في الإنفاق ، حتى يدخل في حد التبذير والإقتار التقصير عما لا بد منه وهو أن لا يجيع عياله ولا يعريهم ولا ينفق نفقة يقول الناس قد أسرف ﴿ وكان بين ذلك قواماً ﴾ أي قصداً وسطاً بين الإسراف والإقتار وحسنة بين السيئتين قيل : هذه الآية في صفة أصحاب محمد (صلى الله عليه وسلم) كانوا لا يأكلون الطعام للتنعم واللذة لا يلبسون ثوباً للجمال ، ولكن كانوا يريدون من الطعام ما يسد عنهم الجوع ويقويهم على عبادة ربهم ومن الثياب ما يسترون به العورة ، ويقيهم من الحر والبرد .

قال عمر بن الخطاب كفى سرفاً أن لا يشتهي شيئاً إلا اشتراه فأكله ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ﴾ (ق) عن ابن عباس " أن أناساً من أهل الشرك كانوا قد قتلوا فأكثروا وزنوا فأكثروا فأتوا محمداً (صلى الله عليه وسلم) فقالوا : إن الذين تقول وتدعونا إليه لحسن لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة فنزل ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ﴾ ونزل ﴿ قل يا عبادي الذي أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ﴾ (ق) عن عبد الله بن مسعود قال : قال رجل " يا رسول الله أي الذنب أكبر عند الله : قال : تدعوا لله نداً وهو خلقك ، قال : ثم أي قال أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك .

قال : ثم أي قال أن تزاني حليلة جارك ، فأنزل الله تعالى تصديقه ، والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التي حرم إلا بالحق ولا يزنون " ﴿ ومن يفعل ذلك يلق أثاماً ﴾ أي ومن يفعل شيئاً من ذلك يلق أثاماً قال ابن عباس إنما يريد جزاء الإثم ، وقيل عقوبة وقيل : الأثام واد في جهنم ويروى في الحديث " أن الغي والأثام بئران في جهنم يسيل فيهما صديد أهل النار " ﴿ يضاعف له العذاب يوم القيامة ﴾ وسبب تضعيف العذاب ، أن المشرك إذا ارتكب المعاصي مع الشرك يضاعف له العذاب على شركه ومعصيته ﴿ ويخلد فيه مهاناً ﴾ أي ذليلاً .

قوله تعالى : ﴿ إلا من تاب ﴾ أي عن ذنبه ﴿ وآمن ﴾ يعني بربه ﴿ وعمل عملاً صالحاً ﴾ أي فيما بينه وبين ربه روي عن ابن عباس عنهما قال : قرأناها على عهد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) سنين والذين لا يدعون مع الله إلها آخر الآية ثم نزلت إلا من تاب فما رأيت النبيّ (صلى الله عليه وسلم) فرح بشيء قط مثل ما فرح بها وفرحه بإنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر " .

وقوله تعالى ﴿ فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً ﴾ قال ابن عباس : يبدلهم الله بقبائح أعمالهم في الشرك محاسن الأعمال في الإسلام فيبدلهم بالشرك إيماناً ، وبقتل المؤمنين قتل المشركين ، وبالزنا عفة وإحصاناً وقيل يبدل الله سيئاتهم التي عملوها في الإسلام حسنات يوم القيامة (م) عن أبي ذر قال قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " إني لأعلم آخر أهل الجنة دخولاً الجنة ، وآخر أهل النار خروجاً منها رجل يؤتى به يوم القيامة فيقال أعرضوا عليه صغار ذنوبه وارفعوا عنه كبارها فتعرض عليه صغارها فيقال له : عملت يوم كذا وكذا كذا وكذا وعملت يوم كذا وكذا كذا وكذا فيقول نعم لا يستطيع أن ينكر ، وهو شفق من كبار ذنوبه أن تعرض عليه فيقال له إن لك مكان كل سيئة حسنة فيقول يا رب قد عملت أشياء لا أراها ها هنا فقال فلقد رأيت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ضحك حتى بدت نواجذه وقيل إن الله تعالى يمحو بالندم جميع السيئات ثم ثبت مكان كل سيئة حسنة " .

﴿ ومن تاب وعمل صالحاً ﴾ قيل هذا في التوبة من غير ما سبق ذكره في الآية الأولى من القتل والزنا ومعناه ، ومن تاب من الشرك وعمل صالحاً يعني أدّى الفرائض ممن لم يقتل ولم يزن ﴿ فإنه يتوب إلى الله ﴾ أي يعود إليه بعد الموت ﴿ متاباً ﴾ أي حسناً يفضل على غيره ممن قتل وزنى فالآية الأولى وهي قوله : ومن تاب رجوع عن الشرك والثانية رجوع إلى الله

للجزاء والمكافأة .

وقيل : هذه الآية أيضاً في التوبة عن جميع اليسئات ومعناه من أراد التوبة ، وعزم عليها فليتب إلى الله فقوله يتوب إلى الله خبر بمعنى الأمر أي تب إلى الله وقيل معناه فليعلم أن توبته ومصيره إلى الله تعالى .

(316/564)

قوله تعالى ﴿ والذين لا يشهدون الزور ﴾ يعني الشرك وقيل هي شهادة الزور (ق) عن أبي بكر قال قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " ألا أنبئكم بأكبر الكبائر قلنا : بلى يا رسول الله قال : الإشراك بالله وعقوق الوالدين ، وكان متكئاً فجلس فقال ألا وقول الزور وشهادة الزور فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت " وكان عمر بن الخطاب يجلد شاهد الزور أربعين جلدة ، ويسخم وجهه ويطوف به في الأسواق وقيل : لا يشهدون الزور يعني أعياد المشركين وقيل : الكذب وقيل : النوح وقيل لا يساعد أهل الباطل على باطلهم وقيل الزور اللهو واللعب والغناء .

قال ابن مسعود : الغناء ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء الزرع .

وأصل الزور حقيقة تحسين الشيء ووصفه بخلاف صفته فهو تمويه الباطل بما يوهم أنه حق

﴿ وإذا مرو باللغو ﴾ هو كل ما يجب أن يلغى ويترك ﴿ مروا كراماً ﴾ يعني إذا سمعوا من الكافر الشتم والأذى أعرضوا وصفحوا فعلى هذا التفسير ، تكون الآية منسوخة بآية القتال .

وقيل : اللغو المعاصي كلها ، والمعنى إذا مروا بمجالس اللهو والباطل مروا كراماً أي مسرعين معرضين ، وهو أن ينزه المرء نفسه ويكرمها عن هذه المجالس السيئة ﴿ والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صماً وعمياناً ﴾ قيل : معناه أنه ليس فيه نفي الخرور إنما هو إثبات له ونفي الصمم والعمى والمعنى إذا ذكروا بها أكبوا على استماعها بأذان واعية وأقبلوا على المذكر بها بعيون مبصرة راعية .

وقيل : معناه لم يخروا أي لم يسقطوا ولم يقعوا عليها صماً وعمياناً ، كأنهم بآذانهم صمم وبأعينهم عمى بل يسمعون ما يذكرون به ، فيفهمونه ويرون الحق فيه فيتبعونه .

(317/564)

قوله ﴿ والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين ﴾ يعني أبراراً فيقرون أعيننا بذلك قيل : ليس شيء أقر لعين المؤمن من أن يرى زوجته ، وأولاده مطيعين لله فيطمع أن يحلوا معه في الجنة فيتم سروره ، وتقر عينه بذلك وقيل : إن العرب تذكر قرة العين

عند السرور والفرح وسخنة العين عند الغم والحزن .

ويقال : دمع العين عند السرور والفرح بارد وعند الحزن حار وقيل معنى قرة العين أن صادف قلبه من يرضاه ، فتقر عينه به عن النظر إلى غيره ﴿ واجعلنا للمتقين إماماً ﴾ يعني يقتدون في الخير بنا .

وقيل : معناه تقتدي بالمتقين وتقتدي بنا المتقون وقال ابن عباس : اجعلنا أئمة هدى وقيل : معناه أنهم سألوا الله أن يبلغهم في الطاعات المبلغ الذي يشار إليهم فيه ويقتدي بهم .

قال بعضهم : فيه دليل على أن الرياسة في الدين مطلوبة مرغوب فيها وقيل هذا من المقلوب معناه ، واجعل المتقين لنا إماماً واجعلنا مقتدين مؤتمين بهم ﴿ أولئك يجزون ﴾ أي يثابون ﴿ الغرفة ﴾ الدرجة العالية الرفيعة في الجنة وقيل : يريد غرف الدر والزبرجد واللؤلؤ والياقوت في الجنة ﴿ بما صبروا ﴾ يعني على طاعة الله تعالى وأوامره وعلى أذى المشركين وقيل : بما صبروا عن الشهوات ﴿ ويلقون فيها تحية ﴾ أي ملكاً وقيل بقاء دائماً ﴿ وسلاماً ﴾ أي يسلم بعضهم على بعض أو يرسل الرب إليهم السلام وقيل سلاماً أي سلامة من الآفات .

قوله تعالى ﴿ خالدين فيها حسن مستقراً ومقاماً ﴾ أي موضع قرار وإقامة .

قوله تعالى ﴿ قل ما يعبأ بكم ربي ﴾ أي ما يصنع ما يفعل بكم فوجودكم وعدمكم سواء ، وقيل : معناه أي وزن مقدار لكم عنده ﴿ لولا دعاؤكم ﴾ إياه .

قيل معناه لولا عبادتكم إياه وقيل : لولا إيمانكم وقيل لولا دعاؤه إياكم إلى الإيمان فإذا آمنتم ظهر لكم عنده قدر .

وقيل : معناه ما يعبأ أي ما يبالي بمغفرتكم ربي لولا دعاؤكم معه آلهة .

(318/564)

وقيل معناه ما خلقتكم ولي إليكم حاجة إلا أن تسألوني ، فأعطيكم وتستغفروني فأغفر لكم ﴿ فقد كذبتم ﴾ أيها الكافرون يخاطب أهل مكة يعني أن الله دعاكم إلى توحيده وعبادته على لسان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فكذبتم الرسول ولم تجيبوه إلى الإيمان ﴿ فسوف يكون لزاماً ﴾ هذا تهديد لهم أي يكون تكذيبهم لزاماً قال ابن عباس : موتاً وقيل هلاكاً وقيل : قتالاً والمعنى يكون التكذيب لازماً لمن كذب فلا يعطى التوبة حتى يجازى بعمله .

وقيل : معناه عذاباً دائماً وهلاكاً لازماً لمن كذب مفنياً يلحق بعضكم بعضاً وقيل : هو يوم بدر قتل منهم سبعون وأسر سبعون وهو قول عبد الله بن مسعود وأبي بن كعب ، يعني أنهم قتلوا يوم بدر واتصل بهم عذاب الآخرة لازماً لهم (ق) عن عبد الله بن مسعود قال " خمس قد مضين الدخان واللزام والروم والبطشة والقمر وفي رواية الدخان والقمر والروم

واللزام والبطشة " والله سبحانه وتعالى أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 5 صـ 112.105 ﴾

(319/564)

وقال النسفى :

﴿ وَهُوَ الذى مَرَجَ البحرين ﴾

خلاّهما متجاورين متلاصقين .

تقول : مرجت الدابة إذا خليتها ترعى ، وسمى الماءين الكثيرين الواسعين بحرين ﴿ هذا ﴾ أي أحدهما ﴿ عَذْبٌ فُرَاتٌ ﴾ صفة ل ﴿ عذب ﴾ أي شديد العذوبة حتى يقرب إلى الحلاوة ﴿ وهذا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾ صفة ل ﴿ ملح ﴾ أي شديد الملوحة ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً ﴾ حائلاً من قدرته يفصل بينهما ويمنعهما التمازج فهما في الظاهر مختلطان وفي الحقيقة منفصلان ﴿ وَحِجْراً مَّحْجُوراً ﴾ وستراً ممنوعاً عن الأعين كقوله ﴿ حجاباً مستورا ﴾ [الإسراء : 45] ﴾

﴿ وَهُوَ الذى خَلَقَ مِنَ الماء ﴾ أي النطفة ﴿ بَشَرًا ﴾ إنساناً ﴿ فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهْراً ﴾ أراد تقسيم البشر قسمين : ذوي نسب أي ذكوراً ينسب إليهم فيقال فلان بن فلان

وفلانة بنت فلان ، وذوات صهر أي إناثاً يصاهر بهن كقوله تعالى ﴿ فَجَعَلَ مِنْهُ الزوجين الذكر والأنثى ﴾ [القيامة : 39] ﴿ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيراً ﴾ حيث خلق من النطفة الواحدة بشراً نوعين ذكراً وأنثى .

وقيل : فجعله نسباً أي قرابة وصهراً مصاهرة يعني الوصلة بالنكاح من باب الأنساب لأن التواصل يقع بها وبالمصاهرة لأن التوالد يكون بهما ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله مَا لاَ يَنفَعُهُمْ ﴾ إن عبدوه ﴿ وَلاَ يَضُرُّهُمْ ﴾ إن تركوه ﴿ وَكَانَ الكافر على رَبِّهِ ﴾ على معصية ربه ﴿ ظَهِيرًا ﴾ معيناً ومظاهراً .

وفعيل بمعنى مفاعل غير عزيز والظهير والمظاهر كالعوين والمعاون والمظاهرة المعاونة ، والمعنى أن الكافر بعبادة الصنم يتابع الشيطان ويعاونه على معصية الرحمن .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشّرًا ﴾ للمؤمنين ﴿ وَنَذِيرًا ﴾ منذراً للكافرين

(320/564)

﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ على التبليغ ﴿ مِنْ أَجْرٍ ﴾ جعل ﴿ إِلاَّ مَن شَاء أَن يَتَّخِذَ إلى رَبِّهِ سَبِيلاً ﴾ والمراد إلا فعل من شاء واستثناؤه من الأجر قول ذي شفقة عليك قد سعى لك في تحصيل مال ما أطلب منك ثواباً على ما سعيت إلا أن تحفظ هذا المال ولا تضيعه ،

فليس حفظك المال لنفسك من جنس الثواب ولكن صورة بصورة الثواب كأنه يقول : إن حفظت مالك اعتدّ حفظك بمنزلة الثواب لي ورضائي به كرضا المثاب بالثواب ، ولعمري إنه عليه الصلاة والسلام مع أمته بهذا الصدد .

ومعنى اتخاذهم إلى الله سبيلاً تقربهم إليه بالإيمان والطاعة أو بالصدقة والنفقة .

وقيل : المراد لكن من شاء أن يتخذ بالإنفاق إلى رضاء ربه سبيلاً فليفعل .

وقيل : تقديره لا أسألكم على ما أدعوكم إليه أجراً إلا اتخاذ المدعو سبيلاً إلى ربه بطاعته فذلك أجري لأن الله يأجرني عليه .

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الحى الذى لاَ يَمُوتُ ﴾ اتخذ من لا يموت وكيلاً لا يكلك إلى من يموت ذليلاً يعني ثق به وأسند أمرك إليه في استكفاء شرورهم ولا تتكل على حي يموت .

وقرأها بعض الصالحين فقال : لا يصح لذي عقل أن يثق بعدها بمخلوق والتوكل الاعتماد عليه في كل أمر ﴿ وَسَبِّحْ ﴾ من لا يكل إلى غيره من توكل عليه ﴿ بِحَمْدِهِ ﴾ بتوفيقه الذي يوجب الحمد أو قل سبحان الله وبحمده أو نزهه عن كل العيوب بالثناء عليه ﴿ وكفى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً ﴾ أي كفى الله خبيراً بذنوب عباده يعني أنه خبير بأحوالهم كافٍ في جزاء أعمالهم ﴿ الذى خَلَقَ السماوات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ أي في مدة مقدار هذه المدة لأنه لم يكن حينئذ ليل ونهار .

روي عن مجاهد : أولها يوم الأحد وآخرها يوم الجمعة ، وإنما خلقها في ستة أيام وهو يقدر على أن يخلقها في لحظة تعليماً لخلقه الرفق والتثبت ﴿ ثُمَّ استوى عَلَى العرش الرحمن ﴾ أي هو الرحمن ف ﴿ الرحمن ﴾ خبر مبتدأ محذوف أو بدل من الضمير في ﴿ استوى ﴾ أو ﴿ الذي خلق ﴾ مبتدأ و ﴿ الرحمن ﴾ خبره ﴿ فسئل ﴾ بلا همزة مكي وعلي ﴿ بِهِ ﴾ صلة "سل" كقوله ﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴾ [المعارج : 1] كما تكون "عن" صلته في قوله تعالى ﴿ ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النعيم ﴾ [التكاثر : 8] فسأل به كقولك اهتم به واشتغل به وسأل عنه كقولك بحث عنه وفتش عنه أو صلة ﴿ خَبِيراً ﴾ ويكون ﴿ خبيراً ﴾ مفعول ﴿ سل ﴾ أي فاسأل عنه رجلاً عارفاً يخبرك برحمته ، أو فاسأل رجلاً خبيراً به وبرحمته ، أو الرحمن اسم من أسماء الله تعالى مذكور في الكتب المتقدمة ولم يكونوا يعرفونه فقيل : فاسأل بهذا الاسم من يخبرك من أهل الكتب حتى تعرف من ينكره ، ومن ثم كانوا يقولون ما نعرف الرحمن إلا الذي باليمامة يعنون مسيلمة وكان يقال له رحمان اليمامة .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ﴾ أي إذا قال محمد عليه الصلاة والسلام للمشركين ﴿ اسجدوا للرحمن ﴾ صلوا لله واخضعوا له ﴿ قَالُواْ وَمَا الرحمن ﴾ أي لا نعرف الرحمن فنسجد له ، فهذا سؤال عن المسمى به لأنهم ما كانوا يعرفونه بهذا الاسم والسؤال عن المجهول ب "ما" أو

"عن" معناه لأنه لم يكن مستعملاً في كلامهم كما استعمل الرحيم والراحم والرحوم ﴿ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا ﴾ للذي تأمرنا بالسجود له أو لأمرك بالسجود يا محمد من غير علم منا به .

(322/564)

﴿ يأمرنا ﴾ علي وحمزة كأن بعضهم قال لبعض : أنسجد لما يأمرنا محمد أو يأمرنا المسمى بالرحمن ولا نعرف ما هو ؟ فقد عاندوا لأن معناه عند أهل اللغة ذو الرحمة التي لا غاية بعدها في الرحمة لأن فعلان من أبنية المبالغة تقول : رجل عطشان إذا كان في نهاية العطش ﴿ وَزَادَهُمْ ﴾ قوله ﴿ اسجدوا للرحمن ﴾ ﴿ نُفُورًا ﴾ تباعداً عن الإيمان ﴿ تَبَارَكَ الذى جَعَلَ فِى السماء بُرُوجاً ﴾ هي منازل الكواكب السيارة لكل كوكب بيتان يقوي حاله فيهما .

وللشمس بيت وللقمر بيت .

فالحمل والعقرب بيتا المريخ ، والثور والميزان بيتا الزهرة ، والجوزاء والسنبلة بيتا عطارد ، والسرطان بيت القمر ، والأسد بيت الشمس ، والقوس والحوت بيتا المشتري ، والجدي والدلو بيتا زحل .

وهذه البروج مقسومة على الطبائع الأربع فيصيب كل واحد منها ثلاثة بروج : فالحمل والأسد والقوس مثلثة نارية ، والثور والسنبلة والجدي مثلثة أرضية ، والجوزاء والميزان والدلو مثلثة هوائية ، والسرطان والعقرب والحوت مثلثة مائية .

سميت المنازل بالبروج التي هي القصور العالية لأنها لهذه الكواكب كالمنازل لسكانها واشتقاق البروج من التبرج لظهوره .

وقال الحسن وقتادة ومجاهد : البروج هي النجوم الكبار لظهورها ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا ﴾ في السماء ﴿ سِرَاجاً ﴾ يعني الشمس لتوقدها .

﴿ سرجا ﴾ حمزة وعلى أي نجوماً ﴿ وَقَمَراً مُّنِيراً ﴾ مضيئاً بالليل .

﴿ وَهُوَ الذى جَعَلَ الليل والنهار خِلْفَةً ﴾ فعلة من خلف كالركبة من ركب وهي الحالة التي يخلف عليها الليل والنهار كل واحد منهما الآخر ، والمعنى جعلهما ذوي خلفة يخلف أحدهما الآخر عند مضيه أو يخلفه في قضاء ما فاته من الورد ﴿ لّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ ﴾ يتدبر في تسخيرهما واختلافهما فيعرف مدبرهما .

﴿ يذكر ﴾ حمزة وخلف أي يذكر الله أو المنسي فيقضي ﴿ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً ﴾ أي يشكر نعمة ربه عليه فيهما .

﴿ وعباد الرّحمن ﴾ مبتدأ خبره ﴿ الذين يمشون ﴾ أو أولئك يجزون ﴿ والذين يمشون ﴾ وما بعدهما صفة والإضافة إلى الرحمن للتخصيص والتفضيل .

وصف أولياءه بعدما وصف أعداءه ﴿ على الأرض هوناً ﴾ حال أو صفة للمشي أي هينين أو مشياً هيناً .

والهون الرفق واللين أي يمشون بسكينة ووقار وتواضع دون مرح واختيال وتكبر فلا يضربون بأقدامهم ولا يخفقون بنعالهم أشراً وبطراً ولذا كره بعض العلماء الركوب في الأسواق ولقوله : ﴿ ويمشون في الأسواق ﴾ ﴿ وإذا خاطبهم الجاهلون ﴾ أي السفهاء بما يكرهون ﴿ قالوا سلاماً ﴾ سداداً من القول يسلمون فيه من الإيذاء والإفك أو تسلماً منكم نتاركم ولا نجاهلكم فأقيم السلام مقام التسلم .

وقيل : نسختها آية القتال .

ولا حاجة إلى ذلك فالإغضاء عن السفهاء مستحسن شرعاً ومروءة .

هذا وصف نهارهم ثم وصف ليلهم بقوله ﴿ والذين يبيتون لربّهم سجّداً ﴾ جمع ساجد ﴿ وقياماً ﴾ جمع قائم والبيتوتة خلاف الظلول وهي أن يدركك الليل نمت أو لم تنم .

وقالوا : من قرأ شيئاً من القرآن في صلاة وإن قل فقد بات ساجداً وقائماً .

وقيل : هما الركعتان بعد المغرب والركعتان بعد العشاء .

والظاهر أنه وصف لهم بإحياء الليل أو أكثره ﴿ والذين يقولون ربّنا اصرف عنّا عذاب جهنّمّ إنّ عذابها كان غراماً ﴾ هلاكاً لازماً ومنه الغريم لملازمته .

وصفهم بإحياء الليل ساجدين قائمين ثم عقبه بذكر دعوتهم هذه إيذاناً بأنهم مع اجتهادهم خائفون مبتهلون متضرعون إلى الله في صرف العذاب عنهم

﴿ إنّها ساءت مستقرًّا ومقاماً ﴾ أي إن جهنم .

و"ساءت" في حكم "بئست" وفيها ضمير مبهم يفسره ﴿ مستقراً ﴾ والمخصوص بالذم محذوف معناه ساءت مستقراً ومقاماً هي ، وهذا الضمير هو الذي ربط الجملة باسم "إن" وجعلها خبراً لها ، أو بمعنى أحزنت وفيها ضمير اسم "إن" و ﴿ مستقراً ﴾ حال أو تمييز ، ويصح أن يكون التعليلان متداخلين ومترادفن وأن يكونا من كلام الله تعالى وحكاية لقولهم .

(324/564)

﴿ والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ﴾ لم يجاوزوا الحد في النفقة أو لم يأكلوا للتنعم ولم يلبسوا للتصلف .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما : لم ينفقوا في المعاصي فالإسراف مجاوزة القدر .

وسمع رجل رجلاً يقول : لا خير في الإسراف .

فقال : لا إسراف في الخير ، وقال عليه الصلاة والسلام " من منع حقاً فقد قتر ومن أعطى في غير حق فقد أسرف " ﴿ ولم يقتروا ﴾ بضم التاء كوفي ، وبضم الياء وكسر التاء مدني وشامي ، وبفتح الياء وكسر التاء مكي وبصري .

والقتر والإقتار والتقتير والتضييق الذي هو نقيض الإسراف ﴿ وكان ﴾ إنفاقهم ﴿ بين ذلك ﴾ أي الإسراف والإقتار ﴿ قواماً ﴾ أي عدلاً بينهما فالقوام العدل بين الشيئين والمنصوبان أي ﴿ بين ذلك قواماً ﴾ [الإسراء : 29] خبران وصفهم بالقصد الذي هو بين الغلو والتقصير ، وبمثله أمر عليه الصلاة والسلام ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ﴾ الآية .

وسأل عبد الملك بن مروان عمر بن عبد العزيز عن نفقته حين زوجه ابنته فقال : الحسنة بين السيئتين .

فعرف عبد الملك أنه أراد ما في هذه الآية .

وقيل : أولئك أصحاب محمد عليه الصلاة والسلام كانوا لا يأكلون طعاماً للتنعم واللذة ، ولا يلبسون ثيابهم للجمال والزينة ولكن لسد الجوعة وستر العورة ودفع الحر والقر .

وقال عمر رضي الله عنه : كفى سرفاً أن لا يشتهي الرجل شيئاً إلا أكله .

﴿ والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ﴾ أي لا يشركون ﴿ ولا يقتلون النّفس التي حرّم الله

﴿ أي حرمها يعني حرم قتلها ﴿ إلاّ بالحقّ ﴾ بقود أو رجم أو ردة أو شرك أو سعي في الأرض بالفساد ، وهو متعلق بالقتل المحذوف أو ب ﴿ لا يقتلون ﴾ ﴿ ولا يزّنون ﴾ ونفى هذه الكبائر عن عباده الصالحين تعريض لما كان عليه أعداؤهم من قريش وغيرهم كأنه قيل : والذي طهرهم الله مما أنتم عليه ﴿ ومن يفعل ذلك ﴾ أي المذكور ﴿ يلق أثاماً ﴾ جزاء الإثم ﴿ يضاعف ﴾ بدل من يلق لأنهما في معنى واحد إذ مضاعفة العذاب هي لقاء الآثام كقوله

(325/564)

متى تأتنا تلمم بنا في ديارنا . . .

تجد حطباً جزلاً وناراً تأججا

فجزم "تلمم" لأنه بمعنى "تأتنا" إذ الإتيان هو الإلمام .

﴿ يضعّف ﴾ مكي ويزيد ويعقوب .

﴿ يضعّف ﴾ شامي ﴿ يضاعف ﴾ أبو بكر على الاستئناف أو على الحال ومعنى يضاعف ﴿ له العذاب يوم القيامة ﴾ أي يعذب على مرور الأيام في الآخرة عذاباً على عذاب .

وقيل : إذا ارتكب المشرك معاصي مع الشرك عذب على الشرك وعلى المعاصي جميعاً فتضاعف العقوبة لمضاعفة المعاقب عليه ﴿ ويخلد ﴾ جزمه جازم ﴿ يضاعف ﴾ ورفعه رافعه لأنه معطوف عليه ﴿ فيه ﴾ في العذاب ﴿ فيهي ﴾ مكي وحفص بالإشباع.

وإنما خص حفص الإشباع بهذه الكلمة مبالغة في الوعيد .

والعرب تمد للمبالغة مع أن الأصل في هاء الكناية الإشباع ﴿ مهاناً ﴾ حال أي ذليلاً ﴿ إلاّ من تاب ﴾ عن الشرك وهو استثناء من الجنس في موضع النصب ﴿ وآمن ﴾ بمحمد عليه الصلاة والسلام ﴿ وعمل عملاً صالحاً ﴾ بعد توبته ﴿ فأولئك يبدّل الله سيّئاتهم حسناتٍ ﴾ أي يوفقهم للمحاسن بعد القبائح أو يمحوها بالتوبة ويثبت مكانها الحسنات الإيمان والطاعة ، ولم يرد به أن السيئة بعينها حسنة ولكن المراد ما ذكرنا .

﴿ يبدل ﴾ مخففاً البرجمي ﴿ وكان الله غفوراً ﴾ يكفر السيئات ﴿ رّحيماً ﴾ يبدلها بالحسنات .

﴿ ومن تاب وعمل صالحاً فإنّه يتوب إلى الله متاباً ﴾ أي ومن تاب وحقق التوبة بالعمل الصالح فإنه يتوب بذلك إلى الله تعالى متاباً مرضياً عنده مكفراً للخطايا محصلاً للثواب ﴿ والذين لا يشهدون الزّور ﴾ أي الكذب يعني ينفرون عن محاضر الكذابين ومجالس الخطائين فلا يقربونها تنزهاً عن مخالطة الشر وأهله إذ مشاهدة الباطل شركة فيه ، وكذلك

النظارة إلى ما لم تسوغه الشريعة هم شركاء فاعليه في الآثام لأن حضورهم ونظرهم دليل على الرضا .

وسبب وجود الزيادة فيه وفي مواعظ عيسى عليه السلام : إياكم ومجالسة الخاطئين .

أو لا يشهدون شهادة الزور على حذف المضاف .

وعن قتادة : المراد مجالس الباطل .

(326/564)

وعن ابن الحنفية : لا يشهدون اللهو والغناء .

﴿ وإذا مرّوا باللّغو ﴾ بالفحش وكل ما ينبغي أن يلغى ويطرح ، والمعنى وإذا مروا بأهل اللغو والمشتغلين به ﴿ مرّوا كراماً ﴾ معرضين أنفسهم عن التلوث به كقوله .

﴿ وإذا سمعوا اللَّغْوَ أعرضوا عنه ﴾ [القصص : 55] وعن الباقر رضي الله عنه : إذا ذكروا الفروج كنوا عنها ﴿ والذين إذا ذكّروا بأيات ربّهم ﴾ أي قرىء عليهم القرآن أو وعظوا بالقرآن ﴿ لم يخرّوا عليها صمًّا وعمياناً ﴾ هذا ليس بنفي الخرور بل هو إثبات له ونفي الصمم والعمى ونحوه "لا يلقاني زيد مسلماً" هو نفي للسلام لا للقاء يعني أنهم إذا ذكروا بها خروا سجداً وبكياً سامعين بآذان واعية مبصرين بعيون واعية لما أمروا ونهوا

عنه لا كالمنافقين وأشباههم دليله قوله تعالى : ﴿ وممن هدينا واجتبينا إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكياً ﴾

﴿ والذين يقولون ربّنا هب لنا من أزواجنا ﴾ "من" للبيان كأنه قيل : هب لنا قرة أعين .

ثم بينت القرة وفسرت بقوله من أزواجنا ﴿ وذرّياتنا ﴾ ومعناه أن يجعلهم الله لهم قرة أعين وهو من قولهم "رأيت منك أسداً" أي أنت أسد ، أو للابتداء على معنى هب لنا من جهتهم ما تقربه عيوننا من طاعة وصلاح ﴿ وذريتنا ﴾ أبو عمر وكوفي غير حفص لإرادة الجنس وغيرهم ﴿ ذرياتنا ﴾ ﴿ قرّة أعينٍ ﴾ وإنما نكر لأجل تنكير القرة لأن المضاف لا سبيل إلى تنكيره إلا بتنكير المضاف إليه كأنه قال : هب لنا منهم سروراً وفرحاً .

وإنما قيل ﴿ أعين ﴾ على القلة دون "عيون" لأن المراد أعين المتقين وهي قليلة بالإضافة إلى عيون غيرهم قال الله تعالى : ﴿ وقليل من عبادي الشكور ﴾ [سبأ : 13] ويجوز أن يقال في تنكير ﴿ أعين ﴾ إنها أعين خاصة وهي أعين المتقين ، والمعنى أنهم سألوا ربهم أن يرزقهم أزواجاً وأعقاباً عمالاً لله تعالى يسرون بمكانهم وتقر بهم عيونهم .

وقيل : ليس شيء أقر لعين المؤمن من أن يرى زوجته وأولاده مطيعين لله تعالى .

(327/564)

وعن ابن عباس رضي الله عنهما : هو الولد إذا رآه يكتب الفقه ﴿ واجعلنا للمتّقين إماماً ﴾ أي أئمة يقتدون بنا في الدين فاكتفى بالواحد لدلالته على الجنس ولعدم اللبس ، أو واجعل كل واحد منا إماماً .

قيل : في الآية ما يدل على أن الرياسة في الدين يجب أن تطلب ويرغب فيها .

﴿ أولئك يجزون الغرفة ﴾ أي الغرفات وهي العلالي في الجنة فوحد اقتصاراً على الواحد الدال على الجنس دليله قوله : ﴿ وهم في الغرفات آمنون ﴾ [سبأ : 37] ﴿ بما صبروا ﴾ أي بصبرهم على الطاعات وعن الشهوات وعلى أذى الكفار ومجاهدتهم وعلى الفقر وغير ذلك ﴿ ويلقّون فيها ﴾ ﴿ ويلقون ﴾ كوفي غير حفص ﴿ تحيّةً ﴾ دعاء بالتعمير ﴿ وسلاماً ﴾ ودعاء بالسلامة يعني أن الملائكة يحيونهم ويسلمون عليهم أو يحيي بعضهم بعضاً ويسلم عليه

﴿ خالدين فيها ﴾ حال ﴿ حسنت ﴾ أي الغرفة ﴿ مستقرّا ومقاماً ﴾ موضع قرار وإقامة وهي في مقابلة ﴿ ساءت مستقرا ومقاما ﴾ ﴿ قل ما يعبأ بكم ربّي لولا دعاؤكم ﴾ "ما" متضمنة لمعنى الاستفهام وهي في محل النصب ومعناه ما يصنع بكم ربي لولا دعاؤه إياكم إلى الإسلام أو لولا عبادتكم له أي أنه خلقكم لعبادته كقوله : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ [الذاريات : 56] أي الاعتبار عند ربكم لعبادتكم .

أو ما يصنع بعذابكم لولا دعاؤكم معه آلهة ، وهو كقوله تعالى : ﴿ ما يفعل الله بعذابكم إن

شكرتم ﴾ [النساء : 147] فقد كذّبتم ﴾ رسولي يا أهل مكة ﴿ فسوف يكون ﴾ العذاب ﴿ لزاماً ﴾ أي ذا لزام أو ملازماً وضع مصدر لازم موضع اسم الفاعل ، وقال الضحاك : ما يعبأ ما يبالي بمغفرتكم لولا دعاؤكم معه إلهاً آخر . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير النسفى حـ 3 صـ 171.177 ﴾

(328/564)

وقال البيضاوى :

﴿ وَهُوَ الذي مَرَجَ البحرين ﴾

خلاهما متجاورين متلاصقين بحيث لا يتمازجان من مرج دابته إذا خلاها . ﴿ هذا عَذْبٌ فُرَاتٌ ﴾ قامع للعطش من فرط عذوبته . ﴿ وهذا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾ بليغ الملوحة ، وقرىء ﴿ مِلْحٌ ﴾ على فعل ولعل أصله مالح فخفف كبرد في بارد . ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً ﴾ حاجزاً من قدرته . ﴿ وَحِجْراً مَّحْجُوراً ﴾ وتنافراً بليغاً كأن كلاً منهما يقول للآخر ما يقوله المتعوذ للمتعوذ عنه ، وقيل حدا محدوداً وذلك كدجلة تدخل البحر فتشقه فتجري في خلاله فراسخ لا يتغير طعمها ، وقيل المراد بالبحر العذب النهر العظيم مثل النيل وبالبحر الملح البحر الكبير وبالبرزخ ما يحول بينهما من الأرض فتكون القدرة في الفصل

واختلاف الصفة مع أن مقتضى طبيعة أجزاء كل عنصر أن تضامت وتلاصقت وتشابهت في الكيفية .

﴿ وَهُوَ الذي خَلَقَ مِنَ الماء بَشَراً ﴾ تعني الذي خمر به طينة آدم ، أو جعله جزءاً من مادة البشر لتجتمع لتبشر وتسلس وتقبل الأشكال والهيئات بسهولة ، أو النطفة . ﴿ فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهْراً ﴾ أي قسمه قسمين ذوي نسب أي ذكوراً ينسب إليهم ، وذاوت صهر أي إناثاً يصاهر بهن كقوله تعالى : ﴿ فَجَعَلَ مِنْهُ الزوجين الذكر والأنثى ﴾ ﴿ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيراً ﴾ حيث خلق من مادة واحدة بشراً ذا أعضاء مختلفة وطباع متباعدة وجعله قسمين متقابلين ، وربما يخلق من نطفة واحدة توأمين ذكراً وأنثى .

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله مَا لاَ يَنفَعُهُمْ وَلاَ يَضُرُّهُمْ ﴾ يعني الأصنام أو كل ما عبد من دون الله إذ ما من مخلوق يستقل بالنفع والضر .

(329/564)

﴿ وَكَانَ الكافر على رَبِّهِ ظَهِيراً ﴾ يظاهر الشيطان بالعداوة والشرك والمراد ب ﴿ الكافر ﴾ الجنس أو أبو جهل . وقيل هيناً مهيناً لا وقع له عنده من قولهم ظهرت به إذا نبذته خلف ظهرك فيكون كقوله ﴿ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ الله وَلاَ يَنظُرُ إِلَيْهِمْ ﴾ ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ

مُبَشّرًا وَنَذِيرًا ﴾ للمؤمنين والكافرين .

﴿ قُلْ مَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ على تبليغ الرسالة الذي يدل عليه ﴿ إِلاَّ مُبَشّرًا وَنَذِيرًا ﴾ .

﴿ مِنْ أَجْرٍ إِلاَّ مَن شَاء ﴾ إلا فعل من شاء . ﴿ أَن يَتَّخِذَ إِلى رَبِّهِ سَبِيلاً ﴾ أن يتقرب إليه ويطلب الزلفى عنده بالإيمان والطاعة ، فصور ذلك بصورة الأجر من حيث إنه مقصود فعله واستثناه منه قلعاً لشبهة الطمع وإظهاراً لغاية الشفقة ، حيث اعتد بإنفاعك نفسك بالتعرض للثواب والتخلص عن العقاب أجراً وافياً مرضياً به مقصوراً عليه ، وإشعاراً بأن طاعتهم تعود عليه بالثواب من حيث إنها بدلالته . وقيل الاستثناء منقطع معناه لكن من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً فليفعل .

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الحي الذي لاَ يَمُوتُ ﴾ في استكفاء شرورهم والإغناء عن أجورهم ، فإنه الحقيق بأن يتوكل عليه دون الأحياء الذين يموتون فإنهم إذا ماتوا ضاع من توكل عليهم .

﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ ﴾ ونزهه عن صفات النقصان مثنياً عليه بأوصاف الكمال طالباً لمزيد الأنعام بالشكر على سوابغه . ﴿ وكفى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ ﴾ ما ظهر منها وما بطن . ﴿ خَبِيراً ﴾ مطلعاً فلا عليك أن آمنوا أو كفروا .

(330/564)

﴿ الذي خَلَقَ السموات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ استوى عَلَى العرش الرحمن ﴾ قد سبق الكلام فيه ، ولعل ذكره زيادة تقرير لكونه حقيقاً بأن يتوكل عليه من حيث إنه الخالق للكل والمتصرف فيه ، وتحريض على الثبات والتأني في الأمر فإنه تعالى مع كمال قدرته وسرعة نفاذ أمره في كل مراد خلق الأشياء على تؤدة وتدرج ، و﴿ الرحمن ﴾ خبر للذي إن جعلته مبتدأ ولمحذوف إن جعلته صفة للحي ، أو بدل من المستكن في ﴿ استوى ﴾ وقرىء بالجر صفة للحي . ﴿ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً ﴾ فاسأل عما ذكر من الخلق والاستواء عالماً يخبرك بحقيقته وهو الله تعالى ، أو جبريل أو من وجده في الكتب المتقدمة ليصدقك فيه ، وقيل الضمير ﴿ للرحمن ﴾ والمعنى إن أنكروا إطلاقه على الله تعالى فاسأل عنه من يخبرك من أهل الكتاب ليعرفوا مجيء ما يرادفه في كتبهم ، وعلى هذا يجوز أن يكون ﴿ الرحمن ﴾ مبتدأ والخبر ما بعده والسؤال كما يعدى بعن لتضمنه معنى التفتيش يعدى بالباء لتضمنه معنى الاعتناء . وقيل إنه صلة ﴿ خَبِيراً ﴾ .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسجدوا للرحمن قَالُواْ وَمَا الرحمن ﴾ لأنهم ما كانوا يطلقونه على الله ، أو لأنهم ظنوا أنه أراد به غيره ولذلك قالوا : ﴿ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا ﴾ أي للذي تأمرناه يعني تأمرنا بسجوده أو لأمرك لنا من غير عرفان . وقيل لأنه كان معرباً لم يسمعوه . وقرأ حمزة والكسائي "يأمرنا" بالياء على أنه قول بعضهم لبعض . ﴿ وَزَادَهُمْ ﴾ أي الأمر بالسجود ﴿ للرحمن ﴾ . ﴿ نُفُوراً ﴾ عن الإيمان .

﴿ تَبَارَكَ الذي جَعَلَ فِي السماء بُرُوجاً ﴾ يعني البروج الاثني عشر سميت به وهي القصور العالية لأنها للكواكب السيارة كالمنازل لسكانها واشتقاقه من التبرج لظهوره . ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجاً ﴾ يعني الشمس لقوله ﴿ وَجَعَلَ الشمس سِرَاجاً ﴾ وقرأ حمزة والكسائي "سرجاً" وهي الشمس والكواكب الكبار . ﴿ وَقَمَراً مُّنِيراً ﴾ مضيئاً بالليل ، وقرىء ﴿ وَقَمَراً ﴾ أي ذا قمر وهو جمع قمراء ويحتمل أن يكون بمعنى القمر كالرشد والرشد والعرب والعرب .

﴿ وَهُوَ الذى جَعَلَ اليل والنهار خِلْفَةً ﴾ أي ذوي خلفة يخلف كل منهما الآخر بأن يقوم مقامه فيما ينبغي أن يعمل فيه ، أو بأن يعتقبا لقوله تعالى : ﴿ واختلاف اليل والنهار ﴾ وهي للحالة من خلف كالركبة والجلسة . ﴿ لّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ ﴾ بأن يتذكر آلاء الله ويتفكر في صنعه فيعلم أن لا بد له من صانع حكيم واجب الذات رحيم على العباد . ﴿ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً ﴾ أن يشكر الله تعالى على ما فيه من النعم ، أو ليكونا وقتين للمتذكرين الشاكرين من فاته ورده في أحدهما تداركه في الآخرة ، وقرأ حمزة ﴿ أَن يَذَّكَّرَ ﴾ من ذكر بمعنى تذكر وكذلك ليذكروا ووافقه الكسائي فيه .

﴿ وَعِبَادُ الرحمن ﴾ مبتدأ خبره ﴿ أولئك يُجْزَوْنَ الغرفة ﴾ أو : ﴿ الذين يَمْشُونَ على الأرض ﴾ وإضافتهم إلى ﴿ الرحمن ﴾ للتخصيص والتفضيل ، أو لأنهم الراسخون في عبادته على أن عباد جمع عابد كتاجر وتجار . ﴿ هَوْناً ﴾ هينين أو مشياً هيناً مصدر وصف به والمعنى أنهم يمشون بسكينة وتواضع ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجاهلون قَالُواْ سَلاَماً ﴾ تسلماً منكم ومتاركة لكم لا خير بيننا ولا شر ، أو سداداً من القول يسلمون فيه من الإِيذاء والإِثم ، ولا ينافيه آية القتال لتنسخه فإن المراد به الإِغضاء عن السفهاء وترك مقابلتهم في الكلام .

(332/564)

﴿ وَالَّذِينَ يِبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وقياما ﴾ في الصلاة ، وتخصيص البيتوتة لأن العبادة بالليل أحمز وأبعد عن الرياء وتأخير القيام للروي وهو جمع قائم أو مصدر أجري مجراه .

﴿ والذين يَقُولُونَ رَبَّنَا اصرف عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً ﴾ لازماً ومنه الغريم لملازمته ، وهو إيذان بأنهم مع حسن مخالطتهم مع الخلق واجتهادهم في عبادة الحق وجلون من العذاب مبتهلون إلى الله تعالى في صرفه عنهم لعدم اعتدادهم بأعمالهم ووثوقهم على استمرار أحوالهم .

﴿ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً ﴾ أي بئست مستقراً ، وفيها ضمير مبهم يفسره المميز والمخصوص بالذم ضمير محذوف به ترتبط الجملة باسم إن ، أو أحزنت وفيها ضمير اسم أن ومستقراً حال أو تمييز والجملة تعليل للعلة الأولى أو تعليل ثان وكلاهما يحتملان الحكاية والإبتداء من الله .

﴿ والذين إِذَا أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ ﴾ لم يجاوزوا حد الكرم . ﴿ وَلَمْ يَقْتُرُواْ ﴾ ولم يضيقوا تضييق الشحيح . وقيل الإِسراف هو الإِنفاق في المحارم والتقتير منع الواجب ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء وكسر التاء ونافع وابن عامر والكوفيون بضم الياء وكسر التاء من أقتر ، وقرىء بالتشديد والكل واحد . ﴿ وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً ﴾ وسطاً عدلاً سمي به لاستقامة الطرفين كما سمي سواء لاستوائهما ، وقرىء بالكسر وهو ما يقام به الحاجة لا يفضل عنها ولا ينقص وهو خبر ثان أو حال مؤكدة ، ويجوز أن يكون الخبر بين ذلك لغواً ، وقيل إنه اسم ﴿ كَانَ ﴾ لكنه مبني لإِضافته إلى غير متمكن وهو ضعيف لأنه بمعنى القوام فيكون كالإِخبار بالشيء عن نفسه .

(333/564)

﴿ والذين لاَ يَدْعُونَ مَعَ الله إلها ءَاخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النفس التى حَرَّمَ الله ﴾ أي حرمها بمعنى حرم قتلها . ﴿ إِلاَّ بالحق ﴾ متعلق بالقتل المحذوف ، أو بلا يقتلون ﴿ وَلاَ يَزْنُونَ ﴾ نفى عنهم أمهات المعاصي بعدما أثبت لهم أصول الطاعات إظهاراً لكمال إيمانهم وإشعاراً بأن الأجر المذكور موعود للجامع بين ذلك ، وتعريضاً للكفرة بأضداده ولذلك عقبه بالوعيد تهديداً لهم فقال : ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذلك يَلْقَ أَثَاماً ﴾ جزاء إثم أو إثماً بإضمار الجزاء ، وقرىء "أياماً" أي شدائد يقال يوم ذو أيام أي صعب .

﴿ يضاعف لَهُ العذاب يَوْمَ القيامة ﴾ بدل من ﴿ يَلْقَ ﴾ لأنه في معناه كقوله :

مَتَى تَأْتِنَا تُلِمِمْ بِنَا فِي دِيَارِنَا . . . تَجِدْ حَطَباً جَزْلاً وَنَاراً تَأَجَّجَا

وقرأ أبو بكر بالرفع على الاستئناف أو الحال وكذلك : ﴿ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً ﴾ وابن كثير ويعقوب يضعف بالجزم وابن عامر بالرفع فيهما مع التشديد وحذف الأَلف في "يضعف" ، وقرىء ﴿ وَيَخْلُدْ ﴾ على بناء المفعول مخففاً ، وقرىء مثقلاً وتضعيف العذاب مضاعفته لانضمام المعصية إلى الكفر ويدل عليه قوله :

﴿ إِلاَّ مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صالحا فأولئك يُبَدِّلُ الله سَيِّئَاتِهِمْ حسنات ﴾ بأن يمحو سوابق معاصيهم بالتوبة ويثبت مكانها لواحق طاعتهم ، أو يبدل ملكة المعصية في النفس بملكة الطاعة . وقيل بأن يوفقه لأضداد ما سلف منه ، أو بأن يثبت له بدل كل عقاب ثواباً . ﴿ وَكَانَ الله غَفُوراً رَّحِيماً ﴾ فلذلك يعفو عن السيئات ويثيب على الحسنات .

﴿ وَمَن تَابَ ﴾ عن المعاصي بتركها والندم عليها . ﴿ وَعَمِلَ صالحا ﴾ يتلافى به ما فرط ، أو خرج عن المعاصي ودخل في الطاعة . ﴿ فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى الله ﴾ يرجع إلى الله بذلك . ﴿ مَتَاباً ﴾ مرضياً عند الله ماحياً للعقاب محصلاً للثواب ، أو يتوب متاباً إلى الله الذي يحب التائبين ويصطنع بهم ؛ أو فإنه يرجع إلى الله وإلى ثوابه مرجعاً حسناً وهو تعميم بعد تخصيص .

﴿ والذين لاَ يَشْهَدُونَ الزُّورَ ﴾ لا يقيمون الشهادة الباطلة ، أو لا يحضرون محاضر الكذب فإن مشاهدة الباطل شركة فيه . ﴿ وَإِذَا مَرُّواْ بِاللَّغْوِ ﴾ ما يجب أن يلقى ويطرح . ﴿ مَرُّواْ كِراماً ﴾ معرضين عنه مكرمين أنفسهم عن الوقوف عليه والخوض فيه ، ومن ذلك الإِغضاء عن الفواحش والصفح عن الذنوب والكناية عما يستهجن التصريح به .

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِآيات رَبِّهِمْ ﴾ بالوعظ أو القراءة . ﴿ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمّاً وَعُمْيَاناً ﴾ لم يقيموا عليها غير واعين لها ولا متبصرين بما فيها كمن لاَ يسمع ولا يبصر ، بل أكبوا عليها سامعين بآذان واعية مبصرين بعيون راعية ، فالمراد من النفي نفي الحال دون

الفعل كقولك : لا يلقاني زيد مسلماً . وقيل الهاء للمعاصي المدلول عليها ﴿ باللغو ﴾ .
﴿ والذين يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أزواجنا وذرياتنا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ بتوفيقهم للطاعة وحيازة الفضائل ، فإن المؤمن إذا شاركه أهله في طاعة الله سر بهم قلبه وقرت بهم عينه لما يرى من مساعدتهم له في الدين وتوقع لحوقهم به في الجنة ، و﴿ مِنْ ﴾ ابتدائية أو بيانية كقولك : رأيت منك أسداً ، وقرأ حمزة وأبو عمرو والكسائي وأبو بكر "وذريتنا" وقرأ ابن عامر والحرميان وحفص ويعقوب ﴿ وذرياتنا ﴾ بالألف ، وتنكير ال ﴿ أَعْيُنٍ ﴾ لإرادة تنكير ال ﴿ قُرَّةَ ﴾ تعظيماً وتقليلها لأن المراد أعين المتقين وهي قليلة بالإضافة إلى عيون غيرهم .

(335/564)

واجعلنا للمتقين إماما) يقتدون بنا في أمر الدين بإضافة العلم والتوفيق للعمل وتوحيده إما للدلالة على الجنس وعدم اللبس كقوله (ثم يخرجكم طفلا) أو لأنه مصدر في أصله أو لأن المراد واجعل كل واحد منا أو لأنهم كنفس واحدة لاتحاد طريقتهم " صفحة رقم 230 " واتفاق كلمتهم وقيل جمع آم كصائم وصيام ومعناه قاصدين لهم مقتدن بهم
الفرقان : (75) أولئك يجزون الغرفة . . . . .

(أولئك يجزون الغرفة) أعلى مواضع الجنة وهي اسم جنس أريد به الجمع كقوله تعالى (وهم في الغرفات آمنون) وللقراءة بها وقيل هي من أسماء الجنة (بما صبروا) وبصبرهم على المشاق من مضض الطاعات ورفض الشهوات وتحمل المجاهدات (ويلقون فيها تحية وسلاما) دعاء بالتعمير والسلامة أي يحييهم الملائكة ويسلمون عليهم أو يحيي بعضهم بعضا ويسلم عليه أو تبقيه دائمة وسلامة من كل آفة وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر (يلقون) من لقي

الفرقان : (76) خالدين فيها حسنت . . . . .

(خالدين فيها) لا يموتون فيها ولا يخرجون

(حسنت مستقرا ومقاما) مقابل (ساءت مستقرا) معنى ومثله إعرابا

الفرقان : (77) قل ما يعبأ . . . . .

(قل ما يعبأ بكم ربي) ما يصنع بكم من عبأت الجيش إذا هيأته أو لا يعتد بكم (لولا دعاؤكم) لولا عبادتكم فإن شرف الإنسان وكرامته بالمعرفة والطاعة وإلا فهو وسائر الحيوانات سواء وقيل معناه ما يصنع بعذابكم لولا دعاؤكم معه آلهة إن جعلت استفهامية فمحلها النصب على المصدر كأنه قيل أي عبء يعبأ بكم (فقد كذبتم) بما أخبرتكم به حيث خالفتموه وقيل قصرتم في العبادة من قولهم كذب القتال إذا لم يبالغ فيه وقرئ / فقد كذب الكافرون / أي الكافرون منكم لأن توجه الخطاب إلى الناس عامة بما وجد في

جنسهم من العبادة والتكذيب (فسوف يكون لزاما) يكون جزاء التكذيب لازما يحيق بكم لا محالة أو أثره لازما بكم حتى يكبكم في النار ووإنما أضمر من غير ذكر للتهويل والتنبيه على أنه لا يكتنهه الوصف وقيل المراد قتل يوم بدر وأنه لوزم بين القتلى لزاما وقرئ (لزاما) بالفتح بمعنى اللزوم كالثبات والثبوت عن النبي (صلى الله عليه وسلم) من قرأ سورة الفرقان لقي الله وهو مؤمن بأن الساعة آتية لا ريب فيها وأدخل الجنة بغير نصب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 4 صـ 224 . 230 ﴾

(336/564)

وقال الإمام نظام الدين النيسابورى :

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا (51) ﴾

التفسير : إنه سبحانه لما قرر سيرة القوم من كفران النعمة وإيذاء النبي أراد تهييج نبيه على استمرار الدعوة . وفي الآية لطف ممزوج بنوع تأديب وإرشاد وفحواه ولو شئنا لخففنا عنك أعباء نذارة جميع القرى ، وبعثنا في كل قرية نبياً ، ولكن خصصناك برسالة الثقلين إجلالاً وتعظيماً ، فقابل هذا التفضل بالتشدد بالدين ففي أول الآية بيان كمال الاقتدار وأنه لا حاجة به إلى نبي محمداً كان أو غيره ، ولكن في مفهوم " لو " دلالة على أنه لم يفعل ذلك بل

خصه بهذا المنصب الشريف لكمال العناية به وبأمته ، فعليه أن يترك طاعة الكافرين فيما يريدونه عليه مما يوافق أهواءهم .

(337/564)

النهي كقولك للمتحرك " لا تسكن " لا كقولك للساكن " لا تسكن " فإنه صلى الله عليه وسلم لم يترك طاعة الله طرفة عين . ثم بالغ في النهي بأن أمره بضدّه قائلاً ﴿ وجاهدهم به ﴾ أي بالقرآن أو بترك طاعتهم أو بسبب كونك نذير القرى كلها لأنه لو بعث في كل قرية نذيراً لم يكن على كل نذير إلا مجاهدة قريته . وحين اقتصر على نذير واحد لكل القرى وهو محمد صلى الله عليه وسلم فلا جرم اجتمع عليه تلك المجاهدات كلها فكبر جهاده وعظم وصار جامعاً لكل مجاهدة ، ثم ذكر دليلاً رابعاً على التوحيد فقال ﴿ وهو الذي مرج البحرين ﴾ اي خلاهما وارسلهما متجاورين متلاصقين . يقال : مرجت الدابة أي خليتها لترعى . وسمى الماءين الكثيرين بحرين . والفرات البليغ العذوبة ، والتركيب يدل على كسره العطش بخلاف الأجاج وهو الملح فإنه يدل على الشدة والتوهج . وقوله ﴿ هذا ﴾ إشارة إلى ما ارتسم في الذهن بعد ذكر البحرين والبرزخ الحائل الذي جعل الله بينهما من قدرته يفصل بينهما ويمنعهما التمازج ﴿ وحجراً محجوراً ﴾ كلمة يقولها المتعوذ كما قلنا في السورة كأن

كل واحد من البحرين يتعوّذ من صاحبه ويقول له هذا القول ، ونظيره في سورة الرحمن ﴿ بينهما برزخ لا يبغيان ﴾ [الرحمن : 20] فانتفاء البغي ثمة كالتعوّذ ههنا وكل منهما مجاز في غاية الحسن . سؤال : لا وجود للبحر العذب فكيف ذكره الله تعالى ؟ والجواب من وجهين : أحدهما أن في البحار مواضع فيها مياه عذبة يعرفها الملاحون يحمل منها الماء إلى حين الوصول إلى الموضع الآخر . وثانيهما لعل المراد من البحر العذب الأودية العظام كالنيل والفرات وجيحون ، ومن البحر الأجاج البحار المشهورة ، والبرزخ بينهما الحائل من الأرض ووجه الاستدلال على هذا الوجه أن يقال : العذوبة والملوحة إن كانتا بسبب طبيعة الأرض أو الماء فلا بد من الاستواء وإلا فلا بد من قادر مختار يخص كل واحد من الماءين بصفة مخصوصة . الاستدلال الخامس : من أحوال خلقة

(338/564)

الإنسان والماء إما العنصر كقوله : ﴿ وجعلنا من الماء كل شيء حي ﴾ أو النطفة . ومعنى ﴿ فجعله نسباً وصهراً ﴾ أنه قسم البشر قسمين ذوي نسب وذوات صهر ، والأول الذكور ينسب إليهم فيقال : فلان وفلانة بنت فلان ومنه أخذ الشاعر :

بنونا بنو أبنائنا وبناتنا . . . بنوهن أبناء الرجال الأباعد

والثاني الإناث التي يصاهر بهن ونحوه قوله عز من قائل ﴿ فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى ﴾ [القيامة : 39] والأصهار أهل بيت المرأة عن الخليل . قال : ومن العرب من يجعل الصهر من الأحماء والأختان .

يقال : صاهرت إليهم إذا تزوّجت فيهم . ﴿ وكان ربك قديراً ﴾ حين خلق من ماء واحد صنفين مختلفين بل أشخاصً متباينة لا تكاد تنحصر .

(339/564)

ثم عاد إلى تهجين سيرة عبدة الأوثان فقال ﴿ ويعبدون ﴾ الاية . يروى أنها نزلت في أبي جهل المراد بالكافر والأولى حمله على العموم . والظهير المظاهر أي المعاون أي هذا الجنس يظاهر الشيطان على ربه بالشرك والعداوة . والمظاهرات على الرب هي المظاهرة على رسوله أو على دينه ، ويجوز أن يكون الظهير جمعاص كقوله : ﴿ والملائكة بعد ذلك ظهير ﴾ [التحريم : 4] والمعنى أن بعض الكفرة مظاهر لبعض على إطفاء نور دين الله جل وعلا . وقال أبو مسلم : هو من قولهم " ظهر فلان بحاجتي " . إذا نبذها وراء ظهره . والمراد أن الكافر وكفره هين على ربه غير ملتفت إليه . قوله : ﴿ وما ارسلناك ﴾ إلى قوله ﴿ سبيلاً ﴾ وجه تعلقه بما قبله أن الكفار يطلبون العون على الله وعلى رسوله ولا

أجهل ممن استفرغ جهده في إيذاء من يبذل وسعه في إصلاح مهماته ديناً ودنيا حتى يبشرهم على الطاعة وينذرهم على المعصية ولا يسألهم على ذلك أجراً إلا أن يشاؤا التقرب بالإنفاق في الجهاد وغيره فيتخذوا به سبيلاً إلى رحمة ربهم ونيل ثوابه . ومعنى الاستثناء عن الأجر والتقدير إلا فعل من شاء هو معنى قولك لمن سعيت له في تحصيل مال ما أطلب منك ثواباً على ما سعيت إلا أن تحفظ هذا المال ولا تضيعه ، فيكون في تسمية حفظ المال ثواباً . فائدتان : إحداهما قلع شبهة الطمع في شيء من الثواب ، والثانية إظهار الشفقة وأنه إن حفظ ماله رضي الساعي به كما يرضى المثاب بالثواب هذا ما قاله جار الله . وقال القاضي : معناه لا أسألكم أجراً لنفسي واسألكم أن تطلبوا الأجر لأنفسكم باتخاذ السبيل إلى ربكم بالإيمان والطاعة . ولما بين أن الكفار متظاهرون على إيذائه وأمره أن لا يطلب منهم أجراً ألبتة أمره بأن يتوكل عليه في دفع المضارّ وجلب المنافع ويتمسك بقاعدة التنزيه والتحميد . وفي وصفه ذاته بالحي الذي لا يموت إشارة إلى أن الذي يوثق به في المصالح يجب أن يكون موصوفاً بهذه الصفة وليس إلا الله وحده . وعن بعض السلف

(340/564)

أنه قرأها فقال : لا يصح لذي عقل أن يثق بعدها بمخلوق وإلا صار ضائعاً إذا مات ذلك المخلوق . ثم ختم الآية بما لا مزيد عليه في الوعيد أي لا يحتاج معه إلى غيره لأنه خبير بأحوالهم قادر على مجازاتهم . ومعنى كفى به أي حسبك وهذه كلمة يراد بها المبالغة كقولك "كفى بالعلم جمالاً وكفى بالأدب مالاً" . ثم زاد لعلمه وقدرته مبالغة وبياناً فقال : ﴿ الذي خلق ﴾ الخ . وقد سبق تفسيره في "الأعراف" وأما قوله ﴿ فاسأل به خبيراً ﴾ ففيه وجوه .

قال الكلبي : الضمير في ﴿ به ﴾ يعود إلى ما ذكر من خلق السماء والأرض والاستواء على العرش . والباء من صلة الخبير قدمت لرعاية الفاصلة وذلك الخبير هو الله عز وجل لأن كيفية ذلك الخلق والاستواء لا يعلمها إلا الله سبحانه . وعن ابن عباس أن ذلك الخبير هو جبرائيل . وقال الأخفش والزجاج : الباء بمعنى "عن" فسأل به مثل "اهتم به" واشتغل به وسأل عنه كقولك "بحث عنه وفتش عنه" . قال تعالى ﴿ سأل سائلٍ بعذاب واقع ﴾ [المعارج : 1] . وقال ابن جرير : الباء زائدة والمعنى فاسأله حال كونه عالماً بكل شيء . وجوز جار الله أن تكون الباء تجريدية كقولك "رأيت به اسداً" أي برؤيته . والمراد فاسال بسؤاله خبيراً أي إن سألته وجدته عالماً به . وقيل : الباء للقسم ولعل الوجه الأول أقرب إلى المراد نظيره ﴿ ولا ينبئك مثل خبير ﴾ [فاطر : 14] .

ثم أخبر عن قوم أنهم ﴿ قالوا وما الرحمن ﴾ والواو عاطفة وقعت في كلام فحكى كما هو فاحتمل أ ، هم جهلوا الله سبحانه ، واحتمل أنهم عرفوه لكن جحدوه ، واحتمل أنهم عرفوه بغير هذا الاسم فلهذا سألوا عنه ، ومن هنا ذهب بعضهم إلى تفسير آخر لقوله ﴿ فاسأل به خبيراً ﴾ وهو أن الرحمن اسم من أسماء الله تعالى مذكور في الكتب المتقدمة ولم يكونوا يعرفونه فقيل : فاسأل بهذا الاسم من يخبرك من أهل الكتاب حتى يعرف من ينكره وكانوا يقولون : ما نعرف الرحمن إلا الذي باليمامة يعنون مسيلمة . قال القاضي : والأقرب أن المراد إنكارهم لله لا للاسم لأن هذه اللفظة عربية وهم يعلمون أنها تفيد المبالغة في " الأنعام " . ثم إن قلنا : إنهم كانوا منكرين لله فاسؤال عن الحقيقة كقول فرعون ﴿ وما رب العالمين ﴾ [الشعراء : 23] وإن قلنا : إنهم كانوا مقرين لكنهم جهلوا أنه تعالى سمي بهذا الاسم فالسؤال عن الاسم . ومعنى ﴿ لما تأمرنا ﴾ للذي تأمرناه بمعنى تأمرنا بسجوده مثل " أمرتك الخير " فاتسع أولاً ثم حذف ثانياً . ويجوز أن تكون " ما " مصدرية أي لأمرك لنا ومن قرأ على الغيبة فالضمير لمحمد أو للمسمى بالرحمن كأنهم قالوا هذا القول فيما بينهم . والضمير في ﴿ زادهم ﴾ للمقول وهو اسجدوا للرحمن أي وزادهم أمره ﴿ نفورا ﴾ ومن حقه أن يكون باعثاً على الفعل والقبول . قال الضحاك : لما رآهم المشركون يسجدون تباعدوا في ناحية المسجد مستهزئين فمعنى الآية وزادهم سجودهم نفوراً .

ومن السنة أن يقول الساجد والقارئ إذا بلغ هذا الموضع زادنا الله خضوعاً وما زاد للأعداء نفوراً . ثم ذكر ما لو تفكروا فيه لعرفوا وجوب السجود للرحمن فقال ﴿ تبارك ﴾ الخ . فالبروج هي الأقسام الاثنا عشر للفلك وأساميها مشهورة : الحمل والثور والجوزاء الخ . شبهت بالقصور العالية . واشتقاق البروج لظهوره والسراج الشمس . ومن جمع أراد الشمس والكواكب الكبار والخلفة للهيئة من الخلافة يريد الحالة التي يخلف

(342/564)

عليها الليل والنهار كل واحد منهما الآخر أي جعلهما ذوي خلفة يعقب هذا ذاك وذاك هذا ومثله قوله

(343/564)

﴿ واختلاف الليل والنهار ﴾ [البقرة : 164] في أحد تفاسيره . وعن ابن عباس جعل كل واحد منهما يخلف صاحبه فيما يحتاج أن يعمل ، فمن فاته شيء من وظائف العبادة في أحدهما قضاه في الآخر . وعن مجاهد وقتادة والكسائي يقال لكل مختلفين " هما خلفتان "

فالمعنى أن أحدهما أسود والآخر أبيض أو هذا طويل وهذا قصير . ثم بين أن هذه النعمة سبب للتذكر لمن اراد ذلك أو للشكر لمن اراده . أما التذكر فلدلالة الانتقال والتغير على الناقل والمغير ، وأما الشكر فلأن الليل سبب الراحة والسكون والنهار سبب لسهولة التصرف في المعايش . قال بعضهم : معنى " أو " الفاصلة أنه إن كان كافرا تذكر وإن كان مؤمناً شكر . وقيل : أراد ليكونا وقتين للمتذكرين والشاكرين من فاته في أحدهما ورده من العبادة قام به في الآخر . والشكور مصدر كالكفور . ثم أراد أن يختم السورة بوصف عباده المخلصين فقال ﴿ وعباد الرحمن ﴾ وهو مبتدأ خبره في آخر السورة ﴿ أولئك جزون الغرفة ﴾ أو خبره ﴿ الذين يمشون ﴾ والإضافة إلى الرحمن للتخصيص والتشريف . وقرئ ﴿ وعبّاد ﴾ جمع عابد وصف سيرتهم مع الخلق بالنهار أوّلاً ، ثم وصف معاملتهم مع الحق بالليل ثانياً ، ثم قسم الوصف الأول إلى نوعين : أحدهما ترك الإيذاء وهو المراد بقوله ﴿ الذين يمشون على الأرض هوناً ﴾ مصدر وضع للمبالغة موضع الحال أو الصفة للمشي بمعنى هينين أو مشياً هيناً والمعنى أنهم يمشون بسكينة ووقار وتواضع لا يضربون بأقدامهم ولا يخفقون بنعالهم اشراً وبطراً ، ولذلك كره بعضهم الركوب في الأسواق والمشي في الأسواق دون الركوب سيرة المرسلين قال عز من قائل ﴿ وما ارسلنا قبلك من المرسلين إلا أنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق ﴾ [الفرقان : 20] وثانيهما تحمل الإيذاء وإليه الإشارة بقوله ﴿ وإذا خاطبهم الجاهلون ﴾ يعني السفهاء وقليلي الأدب ﴿ قالوا

سلاماً ﴾ يعني سلام توديع ومتاركة كسلام إبراهيم صلى الله عليه وسلم حين قال لأبيه ﴿ سلام

(344/564)

عليك ﴾ [مريم : 47] ولا نسخ في الآية على ما زعم الكلبي وأبو العالية من أنها نسخت بآية القتال ، فإن الإغضاء عن السفهاء وترك مقابلتهم بسوء الأدب مستحسن عقلاً وشرعاً ، والبيتوتة هي أن يدركك الليل نمت أو لم تنم ، وصفهم بإحياء الليل أو أكثره . وقوله ﴿ لربهم ﴾ إما أن يتعلق بما قبله أو بما بعده أي يبيتون لله على أقدامهم ويفرشون خدودهم ويعفرون جباههم . وقيل : من قرأ شيئاً من القرآن في صلاة وإن قل فقد بات ساجداً وقائماً . وقيل : هما الركعتان بعد المغرب والركعتان بعد العشاء قاله ابن عباس . ثم وصفهم بأنهم يقولون في سجودهم وقيامهم ﴿ ربنا اصرف عنا ﴾ الآية . وقال الحسن : خشعوا بالنهار وتعبوا بالليل خوفاً من عذاب جهنم .

(345/564)

وقوله : ﴿ غراماً ﴾ أي هلاكاً وخسراناً ملحاً لازماً ومنه الغريم لإلحاحه وإلزامه ، وفلان مغرم بالنساء إذا كان مولعاً بهن . وسأل ابن عباس نافع بن الأزرق عن الغرام فقال : هو الموجع . وعن محمد بن كعب في ﴿ غراماً ﴾ إنه سأل الكفار عن نعمه فما أدّوها إليه فأغرمهم فأدخلهم النار . ﴿ وساءت ﴾ إما بمعنى أحزنت وفيها ضمير اسم إن ومستقر حال أو تمييز ، وإما بمعنى بئست وفيها ضمير مبهم يفسره ﴿ مستقراً ﴾ والمخصوص بالذم وهو الرابط ايضاً محذوف اي ساءت مستقراً ومقاماً هي . والظاهر أن الجملتين منقول الداعين . وجوز جار الله أن يكون من كلام الله ، والتعليلان يصح أن يكونا متداخلين بأن يكون قوله ﴿ إنها ساءت ﴾ تعليلاً لقوله ﴿ أن عذابها كان غراماً ﴾ وأن يكونا مترادفين كل منهما تعليل لقوله : ﴿ ربنا اصرف ﴾ قال المتكلمون : التعليل الأول إشارة إلى أن عقاب أهل النار مضرة خالصة ، والتعليل الثاني إشارة إلى كونها دائمة وقد يفرق بين المستقر والمقام بأن المستقر للعصاة من أهل الإيمان والمقام للكفار الذين لا خلاص لهم منها . ثم وصفهم بالتوسط في الإنفاق والقتر . والإقتار التضييق نقيض الإسراف ، وكان أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم لا يأكلون طعاماً للتنعم واللذة ولا يلبسون ثياباً للجمال والزينة ، ولكن ما يسد جوعتهم ويستر عورتهم ويكنهم من الحر والقر . عن عمر : كفى شرهاً أن لا يشتهي رجل شيئاً إلا اشتراه فأكله . ثم بالغ في نسبة إنفاقهم إلى الاعتدال بقوله ﴿ وكان ﴾ أي الإنفاق ﴿ بين ذلك قواماً ﴾ والمنصوبان يجوز أن يكونا خبرين وأن

يكون الظرف خبراً و ﴿ قواماً ﴾ حالاً مؤكدة . وقال في الكشاف : يجوز أن يجعل بين ذلك لغواً وقواماً مستقراً . ولعل معناه أنه يقوم مقام لفظ المستقر إذا كان متعلقاً به في قولك الإنفاق بين ذلك . وقد ذكر مثله في أول " الشعراء " في قوله ﴿ إنا معكم مستمعون ﴾ [الشعراء : 15] والقوام العدل بين الشيئين لاستقامة الطرفين

(346/564)

واعتدالهما ونظير القوام من الاستقامة السواء من الاستواء . وقرئ بكسر القاف وهو ما يقام به الحاجة لا يفضل ولا ينقص . وأجاز الفراء أن يكون ﴿ بين ذلك ﴾ اسم ﴿ كان ﴾ على أنه مبني لإضافته إلى غير متمكن كما يقال : كان دون هذا كافياً يريد اقل من ذلك ، فيكون المعنى وكان الوسط بين ذلك قواماً . وضعفه في الكشاف بأن ما بين الإسراف والتقتير قوام لا محالة فليس في الخبر الذي هو معتمد الفائدة فائدة . واقول : إذا اريد بالقوام حاق الوسط وبقوله ﴿ بين ذلك ﴾ أعلم منه لم يلزم التكرار . وعن ابن مسعود قلت : يا رسول الله اي الذنب أعظم ؟ قال : أن تجعل الله نداً وهو خلقك . قلت : ثم اي ؟ قال : أن تقتل ولدك خشيه أن يأكل معك . قلت : ثم أي ؟ قالك أن تزاني حليلة جارك .

(347/564)

فأنزل الله عز وجل تصديقه ﴿ والذين لا يدعون ﴾ إلى قوله ﴿ ولا يزنون ﴾ قال جار الله : نفى هذه الأمور الشنيعة عن الموصوفين بتلك الخلال العظيمة في الدين تعريض بما كان عليه أعداء المؤمنين من قريش وغيرهم كأنه قيل : والذين برأهم الله وطهرهم مما أنتم عليه . وقيل : إن الموصوف بالصفات المذكورة قد يرتكب هذه الأمور تديناً فبين الله تعالى أن المكلف لا يصير بتلك الخلال وحدها من عباد الرحمن حتى ينضاف إلى ذلك كونه مجانباً لهذه الكبائر ، والقتل بغير حق يشمل الوأد وغيره كما مر في سبب النزول ﴿ ومن يفعل ذلك ﴾ أي المذكور فترك المأمورات أو ارتكب المنهيات . والأثام جزاء الإثم بوزن الوبال والنكال ومعناهما . وقيل : هو الإثم والمضاف محذوف أي يلق جزاء الإثم ، وقرأ ابن مسعود ﴿ اياماً ﴾ بتشديد الياء التحتانية يعني ايام الشدة . ومعنى مضاعفة العذاب لمن ارتكب مخالفة المذكورات أن يعذب على الشرك وعلى المعاصي الأخر جميعاً . هذا عند من يرى تعذيب الكفار بفروع الشرائع ، والمخالف يدعي أن الشمار إليه بقوله ﴿ ذلك ﴾ هو قوله ﴿ والذين لا يدعون ﴾ قال القاضي : قوله ﴿ ويخلد فيه ﴾ أي في ذلك التضعيف أو المضعف ففيه دليل على أن حال الزيادة كحال الأصل في الدوام فيكون عقاب المعصية دائماً ، وإذا كان كذلك في حق الكافر لزم أن يكون كذلك في حق المؤمن . وأجيب بأن الشيئين قد يكون كل واحد منهما قبيحاً ويكون الجمع بينهما أقبح فلا يلزم أن يكون

للانفراد حكم الاجتماع . وفي قوله ﴿ ويخلد فيه مهاناً ﴾ إشارة إلى أن العقاب هو المضرة الخالصة الدائمة المقرونة بالإذلال والإهانة كما أن الثواب منفعة خالصة دائمة مقرونة بالإجلال والتعظيم .

(348/564)

وقوله ﴿ إلا من تاب ﴾ لا يفهم منه إلا أن التائب لا يضاعف له العذاب ولا يلزم منه أن يكون مثاباً فلذلك قال : ﴿ فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات ﴾ عن ابن عباس والحسن ومجاهد وقتادة أن هذا التبديل إنما يكون في الدنيا فيبدلهم بالشرك إيماناً ، وبقتل المسلمين قتل المشركين ، وبالزنا عفة وإحصاناً ، يبشرهم الله تعالى بأنه يوقفهم لهذه الأعمال الصالحة إذا تابوا وآمنوا وعملوا سائر الأعمال الصالحة ، وإنما أفرد التوبة والإيمان بالذكر أوّلاً لعلو شأنهما . وقال الزجاج . السيئة بعينها لا تصير حسنة ولكن السيئة تمحى بالتوبة ، وتكتب الحسنة مع التوبة ، والكافر يحبط الله عمله ويثبت عليه السيئات . وذهب سعيد بن المسيب ومكحول إلى ظاهر الآية وهو أنه تعالى يمحو السيئة عن العبد ويثبت له بدلها الحسنة ، وأكدوا هذا الظاهر بما روي عن أبي هريرة مرفوعاً " ليتمنين أقوام أنهم أكثروا من السيئات قيل : من هم يا رسول الله ؟ قال : الذين يبدل الله سيئاتهم حسنات "

وقال القاضي والقفال : إنه تعالى يبدل بالعقاب الثواب فذكر السبب وأراد المسبب . ثم عمم الحكم فذكر أن جميع الذنوب بمنزلة الخصال المذكورة أي ومن يترك المعاصي كلها ويندم عليها وأتى بالعمل الصالح فإنه بذلك تائب غلى الله عز وجل متاباً مرضياً مكفراً للخطايا .

(349/564)

ويجوز أن ترجع الفائدة إلى تخصيص اسم الله أي فإنه تائب متاباً إلى الله الذي هو المفيض لكل الخيرات يعرف حق التائبين ويفعل بهم ما يليق بكرمه ، ويحتمل أن ترجع الفائدة إلى تنكير متاباً . والمتاب المرجع أي يرجع إلى الله مرجعاً حسناً اي مرجع ، وقيل : هو وعد للتائبين المخلصين فيما مضى بأنه سيوفقهم للتوبة في المستقبل . ثم وصفهم بأنهم لا يشهدون الزور . فإن كان من الشهادة فالمضاف محذوف أي لا يشهدون شهادة الزور ، وإن كان من الشهود الحضور فللمفسرين أقوال : فعن قتادة : هي مجالس الباطل . وعن أبي حنيفة : اللهو والغناء . وعن مجاهد : أعياد المشركين . وعن ابن عباس : هي المجالس التي يقال فيها الزور والكذب على الله تعالى وعلى رسوله . والتحقيق أنه يدخل فيه حضور كل موضع يجري فيه ما لا ينبغي كمحاضر الكذابين ومجالس الخطائين وكالنظارة إلى ما لم تسوغه

الشريعة ، لأن الحضور والنظر إلى تلك المجالس دليل الإهانة وبعث لفاعله عليه لا زجر له عنه . وفي مواعظ عيسى بن مريم " إياكم ومجالسة الخطائين " ﴿ وإذا مروا باللغو ﴾ وهو كل ما ينبغي أن يلغى ويطرح ﴿ مرّوا كراماً ﴾ مكرمين أنفسهم عن الخوض فيه مع المشتغلين به . وأصل الكلمة من قولهم " ناقة كريمة " إذ كانت لا تبالي بما يحلب منها للغزارة ، فاستعير للصفح عن الذنب . ويقال : تكرم فلان عما يشينه إذا تنزه وأكرم نفسه عن ذلك . وقيل : إذا سمعوا من الكفار الشتم والأذى أعرضوا . وقيل : إذا ذكروا النكاح كفوا عنه . قال جار الله : قوله ﴿ لم يخروا عليها ﴾ ليس نفياً للخرور ولكنه إثبات له ونفي للصمم والعمى كما تقول : لا يلقاني زيد مسلماً هو نفي للسلام لا للقاء . والمراد أنهم إذا ذكروا بآيات الله أي وعظوا بها ونبهوا حرصوا على استماعها بآذان واعية وعيون باكية لا كالمنافقين الذين يظهرون الحرص الشديد على استماعها وهم كالصم والعميان لا يعونها ولا يبصرون ما فيها فهم متساقطون عليها غير منتفعين بها .

(350/564)

قوله ﴿ من أزواجنا ﴾ " من " للبيان وتسمى في علم البيان تجريدية كأنه قيل : هب لنا قرة أعينن ثم فسرت القرة بالأزواج والذرية كقولهم " رأيت منك أسداً " أي أنت أسد . ويجوز

أن تكون ابتدائية على معنى هب لنا من جهتهم ما تقر به عيوننا لا في الأمور الدنيوية من الجاه والمال والجمال بل في الأمور الأخروية من الطاعة والصلاح. عن محمد بن كعب: ليس شيء أقر لعين المؤمن من ان يرى زوجته وأولاده مطيعين لله. وعن ابن عباس: هو الولد إذا رآه يكتب الفقه.

(351/564)

وقيل: سألوا أن يلحق الله عز وجل بهم أولادهم وأزواجهم في الجنة ليتم لهم سرورهم. وتنكير أعين إما لأنه أراد أعيناً مخصوصة هي أعين المتقين ولهذا اختير جمع القلة لأن أعين المتقين قليلة بالإضافة إلى عيون غيرهم ﴿ وقليل من عبادي الشكور ﴾ [سبأ: 13] وإما لأجل تنكير القرة فإن المضاف لا سبيل إلى تنكيره إلا بتنكير المضاف إليه أي هب لنا منهم سروراً وفرحاً. قال الزجاج: يقال أقر الله عينك اي صادف فؤادك ما يحبه. وقال المفضل: في قرة العين ثلاثة أقوال أحدها: برد دمعها لأنه دليل السرور والضحك كما أن حره دليل الحزن والغم. والثاني قرتها أن تكون مع فراغ الخاطر وذهاب الحزن. والثالث حصول الرضا. وقوله ﴿ إماماً ﴾ في معنى الجمع اكتفى به لدلالته على الجنس ولعدم اللبس كما قال: ﴿ يخرجكم طفلاً ﴾ [غافر: 67] أو أريد كل واحد منا أو اجعلنا

إماماً واحداً لاتحاد كلمتنا ، أو هو جمع آمّ كصائم وصيام وصاحب وصحاب . وقيل : في الاية دلالة على أن الرياسة يجب أن تطلب ويرغب فيها والأقرب أنهم سألوا الله أن يبلغهم في الطاعة المبلغ الذي يشار إليهم ويقتدي بهم . ومن هنا فسره القفال بأن المراد اجعلنا حجة للمتقين . قالت الأشاعرة : الإمامة في الدين لا تكون إلا بالعلم والعمل فدل ذلك على أن العلم والعمل بل جميع افعال العباد مخلوقة لله تعالى . وقالت المعتزلة : إنهم سألوا من الألطاف ما بها يخارون أفعال الخير إلى أن يصيروا أئمة . وأجيب بأن تلك الألطاف مفعولة لا محالة فيكون سؤالها عبثاً . ثم بين جزاء عبادة العباد بقوله ﴿ أولئك يجزون الغرفة ﴾ أي الغرفات وهي العلاليّ في الجنة فوحد اكتفاء بالجنس . وقيل : الغرفة اسم للجنة . وقوله ﴿ بما صبروا ﴾ أي بصبرهم على الطاعات وعن الشهوات أو على اذى الكفار وضر الفقر وغير ذلك ولهذا أطلق إطلاقاً ليشمل كل مصبور عليه . ثم بين بقوله ﴿ ويلقون ﴾ أن تلك المنافع مقرونة بالتعظيم والتحية والدعاء بالتعمير ،

(352/564)

والسلام دعاء بالسلامة من الآفات وهما من الملائكة أو من الله أو من بعضهم لبعض . ثم ذكر أنه غني عن طاعة الكل وأنه إنما كلفهم لينتفعوا بذلك . قال الخليل : ما أعبأ بفلان اي

ما أصنع به كأنه يستقله ويستحقره ويدعي أن وجوده وعدمه سواء . وقال الزجاج : ﴿ ما يعبأ بكم ربي ﴾ يريد ايّ وزن يكون لكم عنده ؟ والعبء الثقل ، و " ما " استفهامية أو نافية ، والدعاء إما مضاف إلى المفعول أي لولا دعاؤه إياكم إلى الدين والطاعة ، وإما إلى الفاعل أي لولا إيمانكم أو لولا عبادتكم أو لولا دعاؤكم إياه في الشدائد كقوله ﴿ فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله ﴾ [العنكبوت : 65] أو لولا شكركم له على إحسانه كقوله ﴿ ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم ﴾ [النساء : 147] أو ما يصنع بعذابكم لولا دعاؤكم معه آلهة ، أو ما خلقتكم وبي إليكم حاجة إلا أن تسألوني فأعطيكم أو تستغفروني فأغفر لكم .

قوله : ﴿ فقد كذبتم ﴾ أي أعلمتكم أني لا أعتد بعبادي إلا لعبادتهم فقد خالفتم بتكذيبكم حكمي . ﴿ فسوف يكون لزاماً ﴾ وهو عقاب الآخرة نظيره قول الملك لمن استعصى عليه : إن من عادتي أن أحسن إلى من يطيعني فقد عصيت فسوف ترى عقوبتي . والخطاب لجنس الإنس وإذا وجد في جنسهم التكذيب فقد صح الخطاب ، والأوجه أن يترك اسم " كان " غير منطوق به ليذهب الوهم كل مذهب من أنواع الإبعاد . وقيل : يكون العقاب لزاماً . وعن مجاهد : هو القتل يوم بدر وقد لوزم إذ ذاك بين القتلى لزاماً والله تعالى أعلم . انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 5 صـ 250 . 258 ﴾

وقال الخطيب الشربيني :

ثم ذكر النوع الرابع بقوله تعالى :

﴿ وهو الذي مرج البحرين ﴾

أي : الماءين الواسعين الكبيرين بأن خلاهما متجاورين متلاصقين ، وهو بقدرته تعالى يفصل بينهما ويمنعهما التمازج ﴿ هذا عذب ﴾ أي : حلو سائغ ﴿ فرات ﴾ أي : شديد العذوبة بالغ الغاية فيها حتى يضرب إلى الحلاوة لا فرق بين ما كان منه على وجه الأرض ، وما كان في بطنها ﴿ وهذا ملح ﴾ أي : شديد الملوحة ﴿ أجاج ﴾ أي : مر محرق بملوحته ومرارته لا يصلح لسقي ولا شرب .

تنبيه : أشار تعالى بأداة القرب في الموضعين تنبيهاً على وجود الوصفين مع شدة المقاربة لا يلتبس أحدهما بالآخر حتى أنه إذا حفر على شاطىء البحر الملح بالقرب جداً منه خرج الماء عذباً ﴿ وجعل ﴾ أي : الله تعالى ﴿ بينهما برزخاً ﴾ أي : حاجزاً من قدرته مانعاً من اختلاطهما ، ثم إنه تعالى أتم تقرير النعمة في منعهما من الاختلاط بالكلمة التي جرت عادتهم بقولها عند التعوذ تشبيهاً لكل منهما بالمتعوذ بقوله تعالى : ﴿ وحجراً محجوراً ﴾ فكأن كل واحد من البحرين يتعوذ من صاحبه ويقول له ذلك كما قال تعالى : ﴿ لا يبغيان ﴾ (الرحمن ،)

أي : لا يبغي أحدهما على صاحبه بالملوحة أو العذوبة ، فانتقاء البغي كالتعوذ ههنا ، ثم جعل كل واحد منهما في صورة الباغي على صاحبه فهو يتعوذ منه وهو من أحسن الإستعارات وأشهدها على البلاغة فإن قيل : لا وجود للبحر العذب فكيف ذكره الله تعالى هنا ؟

أجيب : بأن المراد منه الأودية العظام كالنيل وجيحون ومن البحر الأجاج البحار الكبار .

ثم ذكر النوع الخامس بقوله تعالى:

(354/564)

﴿ وهو ﴾ أي : وحده ﴿ الذي خلق من الماء ﴾ أي : المني من الرجل والمرأة ﴿ بشراً ﴾ أي : إنساناً ﴿ فجعله ﴾ أي : بعد ذلك بالتطوير في أطوار الخلقة والتدوير في أدوار التربية ﴿ نسباً ﴾ أي : ذكراً ينسب إليه ﴿ وصهراً ﴾ أي : أنثى يصاهر بها فيقسم هذا الماء بعد التطوير إلى ذكر وأنثى كما جعل ذلك الماء قسمين عذباً وملحاً ونحو هذا قوله تعالى : ﴿ فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى ﴾ (القيامة ،) ، وقيل : النسب ما لا يحل نكاحه ، والصهر ما يحل نكاحه ، فالنسب ما يوجب الحرمة ، والصهر ما لا يوجبها ، قال البغوي : وقيل وهو الصحيح : النسب من القرابة والصهر الخلطة التي تشبه القرابة وهو النسب

المحرم للنكاح ، وقد ذكر الله تعالى أنه حرم للنسب سبعاً في قوله تعالى في النساء :

﴿ حرمت عليكم أمهاتكم ﴾ (النساء ،)

﴿ وكان ربك ﴾ أي : المحسن إليك بإرسالك وإنزال هذا الذكر إليك ﴿ قديراً ﴾ حيث خلق من مادة واحدة بشراً ذا أعضاء مختلفة وطبائع متباعدة ، وجعله قسمين ذكراً وأنثى ، وربما يخلق من نطفة واحدة نوعين ذكراً وأنثى فهو يوفق من يشاء فيجعله عذب المذاق سهل الأخلاق ، ويخذل من يشاء فيجعله مر الأخلاق كثير الشقاق غريقاً في النفاق ، ولما ذكر تعالى دلائل التوحيد عاد إلى تهجين سيرتهم ، فقال تعالى:

(355/564)

﴿ ويعبدون ﴾ أي : هؤلاء الكفرة ﴿ من دون الله ﴾ أي : مما يعلمون أنه في الرتبة دون الله المستجمع لصفات الكمال والعظمة بحيث أنه لا ضر ولا نفع إلا وهو بيده ﴿ ما لا ينفعهم ﴾ بوجه من الوجوه إن عبدوه في إزالة كربة ﴿ ولا يضرهم ﴾ في أزلة نعمة من نعم الله تعالى عليهم إن تركوه ﴿ وكان الكافر ﴾ أي : مع علمه بضعفه وعجزه ﴿ على ربه ﴾ أي : المحسن إليه لا غيره ﴿ ظهيراً ﴾ أي : معيناً للشيطان من الإنس والجن على أولياء الله تعالى ، روي أنها نزلت في أبي جهل ويجوز أن يراد بالظهير الجماعة كقوله تعالى :

﴿ والملائكة بعد ذلك ظهير ﴾ (التحريم ،) ، كما جاء الصديق والخليط وعلى هذا يكون المراد بالكافر الجنس ، فإن بعضهم مظاهر لبعض على إطفاء نور دين الله قال تعالى :

﴿ وإخوانهم يمدونهم في الغي ﴾ (الأعراف ،)

وهذا أولى لأن خصوص السبب لا يقدح في عموم اللفظ ، ولأنه أوفق لظاهر قوله تعالى :

﴿ ويعبدون من دون الله ﴾ ، وقيل : معناه وكان الذي يفعل هذا الفعل وهو عبادة ما لا ينفع ولا يضر على ربه هيناً مهيناً من قولهم ظهرت به إذا خلفته خلف ظهرك لا تلتفت إليه وهو نحو قوله تعالى : ﴿ أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم ﴾ (آل عمران ،) ، ولما كان التقدير تسلية له صلى الله عليه وسلم فالزم ما نأمرك به ولا يزد همك بردهم عما هم فيه ، فإنا ما أرسلناك عليهم وكيلاً عطف عليه قوله تعالى:

﴿ وما أرسلناك ﴾ يا أشرف الخلق بما لنا من العظمة ﴿ إلا مبشراً ﴾ بالثواب على الإيمان والطاعة ﴿ ونذيراً ﴾ أي : مخوفاً بالعقاب على الكفر والمعصية ، ثم كأنه قيل : فماذا أقول لهم إذا طعنوا في الرسالة ؟ فقال تعالى:

﴿ قل ﴾ أي : لهم يا أكرم الخلق حقيقة وأعد لهم طريقة محتجاً عليهم بإزالة ما يكون موضعاً للتهمة ﴿ ما أسألكم عليه ﴾ أي : على تبليغ ما أرسلت به ﴿ من أجر ﴾ فتتهموني أني أدعوكم لأجله إذ لا غرض لي إلا نفعكم ، ثم أكد هذا المعنى بقوله تعالى مستثنياً ؛ لأن الاستثناء معيار العموم ﴿ إلا من ﴾ أي : إلا أجر من ﴿ شاء أن يتخذ ﴾ أي : يكلف نفسه ويخالف هواه ، ويجعل له ﴿ إلى ربه سبيلاً ﴾ فإنه إذا اهتدى بهداية ربه كان لي مثل أجره لا نفع لي من جهتكم إلا هذا فإن سميتم هذا أجراً فهو مطلوبي ، ولا مرية في أنه لا ينقص أحداً شيئاً من دنياه فأفاد فائدتين ؛ الأولى : أنه لا طمع له أصلاً في شيء ينقصهم ، والثانية : إظهار الشفقة البالغة حيث لم يقصد بمنفعتهم الموصلة لهم إلى ربهم ثواباً لنفسه ، وقيل : الاستثناء منقطع أي : لكن من يشاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً فليفعل ، وجرى على هذا الجلال المحلي ، وقال ابن عادل : في الأول نظر ؛ لأنه لم يسند السؤال المنفي في الظاهر إلى الله تعالى إنما أسنده إلى المخاطبين فكيف يصح هذا التقدير ؟ انتهى . وقرأ قالون والبزي وأبو عمرو بإسقاط الهمزة الأولى مع المد والقصر وسهّل ورش وقنبل الثانية ، ولهما أيضاً إبدالها ألفاً والباقون بتحقيق الهمزتين ، ولما بين تعالى أن الكفار يتظاهرون على إيذائه وأمره أن لا يطلب منهم أجراً أمره أن يتوكل عليه في دفع جميع المضار ، وجلب جميع المنافع بقوله تعالى:

﴿ وتوكل ﴾ أي : أظهر العجز والضعف واستسلم واعتمد في أمرك كله ، ولا سيما في مواجهتهم بالإنذار ، وفي ردهم من عنادهم ﴿ على الحي الذي لا يموت ﴾ فلا ضياع لمن توكل عليه ، فإنه الحقيق بأن يتوكل عليه دون الأحياء الذين يموتون ، فإنهم إذا ماتوا ضاع من توكل عليهم ، وعن بعض السلف أنه قرأها فقال : لا يصح لذي عقل أن يثق بعدها بمخلوق ﴿ وسبح ﴾ متلبساً ﴿ بحمده ﴾ أي : نزهه عن كل نقص مثبتاً له كل كمال ، وقيل : صلِّ له شكراً على نعمه ، وقيل : قل سبحان الله والحمد لله وحده وعلى هذا اقتصر الجلال المحلى ﴿ وكفى به بذنوب عباده ﴾ أي : ما ظهر منها وما بطن وكل ما سواه عبد ﴿ خبيراً ﴾ أي : عالماً مطلقاً فلا يخفى عليه خافية شيء منها ، وإن دق فلا عليك إن آمنوا أو كفروا ، وهذه الكلمة يراد بها المبالغة يقال : كفى بالعلم كمالاً وكفى بالأدب مالاً وهو معنى حسبك أي : لا تحتاج معه إلى غيره ، لأنه تعالى خبير بأحوالهم قادر على مكافأتهم ، وهذا وعيد شديد ، ولما أمر الله تعالى رسوله محمد صلى الله عليه وسلم أن يتوكل عليه وصف تعالى نفسه بأمور منها أنه حي لا يموت ، ومنها أنه عالم بجميع المعلومات ، ومنها أنه قادر على كل الممكنات ، وهو قوله تعالى:

﴿ الذي خلق السموات والأرض ﴾ على عظمهما ﴿ وما بينهما ﴾ من الفضاء والعناصر والعباد وأعمالهم من الذنوب وغيرها ألا يعلم من خلق وقوله تعالى : ﴿ في ستة

أيام ﴾ أي : من أيام الدنيا تعجيب للغبي الجاهل وتدريب للفطن العالم في الحلم والأناة والصبر على عباد الله تعالى في دعوتهم ، فإن قيل : الأيام عبارة عن حركة الشمس في السموات ، فقبل السموات لا أيام فكيف قال تعالى : في ستة أيام ؟

أجيب : بأنه تعالى خلقها في مدة مقدارها هذه الأيام ، فإن قيل : يلزم على هذا قدم الزمان وهو ممنوع ؟

(358/564)

أجيب : بأن الله تعالى خلق هذه المدة أولاً ثم خلق السموات والأرض فيها بمقدار ستة أيام فلا يلزم من ذلك قدم الزمان ، وقيل : في ستة أيام من أيام الآخرة كل يوم مقداره ألف سنة وهو بعيد ؛ لأن التعريف لا بد وأن يكون بأمر معلوم لا بأمر مجهول .

فإن قيل : لما قدر الخلق والإيجاد بهذا المقدار ؟

أجيب : بأنه يجب على المكلف أن يقطع الطمع عن مثل هذا فإنه بحر لا ساحل له من ذلك تقدير الملائكة الذين هم أصحاب النار بتسعة عشر ، وحملة العرش بثمانية والشهور بإثني عشر والسموات بالسبع وعدد الصلوات ومقادير النصب في الزكوات والحدود والكفارات ، فالإقرار بأن كل ما قاله الله حق هو الدين والواجب ترك البحث عن هذه الأشياء ، وقد

نص الله تعالى على ذلك في قوله عز وجل : ﴿ وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيماناً ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلاً ﴾ ثم قال الله تعالى : ﴿ وما يعلم جنود ربك إلا هو ﴾ (المدثر ،)

وهذا جواب أيضاً عن أنه لم لم يخلقها في لحظة وهو قادر على ذلك ، وعن سعيد ابن جبير : إنما خلقها في ستة أيام وهو قادر أن يخلقها في لحظة واحدة ، تعليماً لخلقه الرفق والتثبت ، وقيل : اجتمع خلقها يوم الجمعة فجعله الله عيداً للمسلمين ، وعن مجاهد أول الأيام يوم الأحد وآخرها يوم الجمعة ، ولما كان تدبير هذا الملك أمراً باهراً أشار إليه بأداة التراخي بقوله تعالى : ﴿ ثم استوى على العرش ﴾ أي : شرع في التدبير لهذا الملك الذي اخترعه وأوجده ، ولا يجوز أن يفسر بالاستقرار ، لأنه يقتضي التغير الذي هو دليل الحدوث ، ويقتضي التركيب وكل ذلك على الله محال ، فإن قيل : يلزم من ذلك أن يكون خلق العرش بعد خلق السموات ، وقال الله تعالى : ﴿ وكان عرشه على الماء ﴾ (هود ،)

؟

أجيب : بأن كلمة ثم ما دخلت على خلق العرش بل على رفعه على السموات وهو في اللغة سرير الملك وفي رفع قوله تعالى ﴿ الرحمن ﴾ أوجه ؛ أحدها : أنه خبر الذي خلق أو خبر مبتدأ مضمر أي : هو الرحمن ولهذا أجاز الزجاج وغيره الوقف على العرش ، ثم يبتدىء الرحمن أي : هو الرحمن الذي لا ينبغي السجود والتعظيم إلا له ، أو يكون بدلاً من الضمير في استوى ، وعلى هذا اقتصر الجلال المحلي .

واختلف في معنى الفاء في قوله تعالى : ﴿ فاسأل به ﴾ على قولين ؛ أحدهما : أنها على بابها وهي متعلقة بالسؤال ، والمراد بقوله : ﴿ خبيراً ﴾ أي : عالماً يخبرك بحقيقته هو الله تعالى ، ويكون من التجريد كقوله : رأيت به أسداً والمعنى : فاسأل الله الخبير بالأشياء قال الزمخشري : أو فاسأل بسؤاله خبيراً كقولك : رأيت به أسداً أي : برؤيته انتهى . فقال الكلبي : فقوله به يعود إلى ما ذكر من خلق السموات والأرض والاستواء على العرش ، والباء من صلة الخبير وذلك الخبير هو الله تعالى ، لأنه لا دليل في العقل على كيفية خلق السموات والأرض ، والاستواء على العرش ، ولا يعلمها أحد إلا الله تعالى ، والثاني : أن تكون الباء بمعنى عن إما مطلقاً وإما مع السؤال خاصة كهذه الآية ، وكقول علقمة بن عبيدة:

*فإن تسألوني بالنساء فإنني

**خبير بأدواء النساء طبيب

والضمير في به لله وخبيراً من صفات الملك وهو جبريل عليه السلام ، فعن ابن عباس أن ذلك الخبير هو جبريل وإنما قدم لرؤوس الآي وحسن النظم ، وقال ابن جرير : الباء في به صلة والمعنى : فاسأله خبيراً ، وخبيراً نصب على الحال وقيل : به يجري مجرى القسم كقوله تعالى : ﴿ واتقوا الله الذي تساءلون به ﴾ ، وقيل : فاسأل بهذا الاسم من يخبرك من أهل الكتاب حتى تعرف من ينكره ومن ثم كانوا يقولون : ما نعرف الرحمن إلا الذي باليمامة يعنون مسيلمة الكذاب ، وكان يقال له : رحمن اليمامة ، وقيل : فاسأل بسبب سؤالك إياه خبيراً عن هذه الأمور وكل أمر تريده فيخبرك بحقيقة أمره ابتداءً وحالاً ومآلاً ، فلا يضيق صدرك بسبب هؤلاء المدعوين ، فإنه ما أرسلك إلا وهو عالم بهم فسيعلي كعبك عليهم ويحسن لك العاقبة ، وقرأ ابن كثير والكسائي بالنقل ، وكذا يقرأ حمزة في الوقف ، والباقون بسكون السين وفتح الهمزة ، ولما ذكر تعالى إحسانه إليهم وإنعامه عليهم ذكر ما أبدوه من كفرهم في موضع شكرهم بقوله:

﴿ وإذا قيل لهم ﴾ : أي : من أي قائل قال لهؤلاء الذين يتقلبون في نعمه : ﴿ اسجدوا ﴾ أي : اخضعوا بالصلاة وغيرها ﴿ للرحمن ﴾ أي : الذي لا نعمة لكم إلا منه ﴿ قالوا وما

الرحمن ﴾ متجاهلين في معرفته فضلاً عن كفر نعمته معبرين بأداة ما لا يعقل ، وقال ابن عربي : إنما عبروا بذلك إشارة إلى جهلهم بالصفة دون الموصوف ، ثم عجبوا من أمره بذلك منكرين عليه بقولهم : ﴿ أنسجد لما تأمرنا ﴾ فعبروا عنه بعد التجاهل في أمره ، والإنكار على الداعي إليه أيضاً بأداة ما لا يعقل ﴿ وزادهم ﴾ أي : هذا الأمر الواضح المقتضي للإقبال والسكون شكراً للنعمة وطمعاً في الزيادة ﴿ نفوراً ﴾ أي : عن الإيمان والسجود .

(361/564)

تنبيه : هذه السجدة من عزائم سجود التلاوة يسن للقارئ والمستمع والسامع أن يسجد عند قراءتها أو سماعها ، وقرأ وإذا قيل لهم هشام والكسائي بالإشمام وضم القاف مع سكون الياء والباقون بكسر القاف ، وقرأ لما يأمرنا حمزة والكسائي بالياء التحتية والباقون بالتاء الفوقية ، وأبدل ورش والسوسي الهمزة وقفاً ووصلاً وحمزة وقفاً لا وصلاً ، ولما حكى تعالى عن الكفار مزيد النفرة عن السجود وذكر ما لو تفكروا فيه لعرفوا وجوب السجود والعبادة للرحمن قال عز من قائل:

﴿ تبارك ﴾ أي : ثبت ثباتاً لا نظير له ﴿ الذي جعل في السماء ﴾ التي تقدم أنه اخترعها ،

واختلف في معنى قوله : ﴿ بروجاً ﴾ فقال الزجاج ومجاهد وقتادة : هي النجوم الكبار سميت بروجاً لظهورها ، وقال عطية العوفي : هي القصور فيها الحرس كما قال تعالى : ﴿ ولو كنتم في بروج مشيدة ﴾ (النساء ،)

وقال عطاء عن ابن عباس : هي الاثنا عشر التي هي منازل الكواكب السبعة السيارة وهي : الحمل والثور والجوزاء والسرطان والأسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدي والدلو والحوت ، فالحمل والعقرب بيتا المريخ ، والثور والميزان بيتا الزهرة ، والجوزاء والسنبلة بيتا عطارد ، والسرطان بيت القمر ، والأسد بيت الشمس ، والقوس والحوت بيتا المشتري ، والجدي والدلو بيتا زحل ، وهذه البروج مقسومة على الطبائع الأربعة فيكون نصيب كل واحد منها ثلاثة بروج تسمى المثلثات فالحمل والأسد والقوس مثلثة نارية ، والثور والسنبلة والجدي مثلثة أرضية ، والجوزاء والميزان والدلو مثلثة هوائية ، والسرطان والعقرب والحوت مثلثة مائية .

(362/564)

﴿ وجعل فيها ﴾ أي : السماء وقيل : البروج ﴿ سراجاً ﴾ أي : شمساً وقرأ حمزة والكسائي بضم السين والراء على الجمع للتنبيه على عظمته في ذلك من حيث أنه أعظم

من ألوف من السرج فهو قائم مقام الوصف كما في الذي بعده كما سيأتي وقيل : المراد بالجمع الشمس والكواكب الكبار ، والباقون بكسر السين وفتح الراء وألف بعدها على التوحيد ﴿ وقمراً منيراً ﴾ أي : مضيئاً بالليل ، ولما ذكر تعالى هاتين الآيتين ذكر ما هما آيتاه بقوله تعالى:

﴿ وهو الذي جعل الليل ﴾ أي : الذي آيته القمر ﴿ والنهار ﴾ أي : الذي آيته الشمس ﴿ خلفة ﴾ أي : ذوي حالة معروفة في الاختلاف ، فيأتي هذا خلف ذاك بضد ما له من الأوصاف ، وقال ابن عباس والحسن : يعني خلفاً وعوضاً يقوم أحدهما مقام صاحبه فمن فاته عمله في أحدهما قضاه في الآخر قال شقيق : جاء رجل إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال : فاتتني الصلاة الليلة قال : أدرك ما فاتك من ليلتك في نهارك ، فإن الله عز وجل جعل الليل والنهار خلفة ﴿ لمن أراد أن يذكر ﴾ أي : يتذكر آلاء الله ويتفكر في صنعه فيعلم أنه لا بد له من صانع حكيم واجب الذات رحيم على العباد ، وقرأ حمزة بسكون الذال وضم الكاف مخففة من ذكر بمعنى تذكر والباقون بفتح الكاف والذال مشددتين .

﴿ أو أراد شكوراً ﴾ أي : شكر نعمة ربه عليه من الإتيان بكل منهما بعد الآخر لاجتناء ثمراته ولو جعل أحدهما دائماً لفاتت مصالح الآخر ولحصلت السآمة والملل منه والتواني في الأمور المقدرة بالأوقات وفتر العزم الذي إنما يثيره لتداركها دخول وقت آخر وغير ذلك من الأمور التي أحكمها العلي الكبير ، وعن الحسن من فاته عمله من التذكر والشكر بالنهار

كان له في الليل مستعتب ، ومن فاته بالليل كان له في النهار مستعتب ، ولما ذكر الله تعالى عباده الذين خذلهم بتسليط الشيطان عليهم فصاروا حزباً ولم يضفهم إلى اسم من أسمائه إيذاناً بإهانتهم لهوانهم عنده أشار إلى عباده الذين أخلصهم لنفسه قوله تعالى:

(363/564)

﴿ وعباد الرحمن ﴾ فأضافهم إليه رفعة لهم وإن كان الخلق كلهم عباده وأضافهم إلى وصف الرحمة الأبلغ الذي أنكره أولئك تبشيراً لهم ، ثم وصفهم بضد ما وصف به المتكبرين عن السجود إشارة إلى أنهم تخلقوا من هذه الصفة التي أضيفوا إليها بصفات كثيرة ؛ الصفة الأولى : قوله تعالى : ﴿ الذين يمشون ﴾ وقال تعالى : ﴿ على الأرض ﴾ تذكيراً بما يصيرون إليه وحثاً على السعي في معالي الأخلاق ﴿ هوناً ﴾ أي : هينين أو مشياً هيناً مصدر وصف به مبالغة والهون الرفق واللين ، ومنه الحديث : "أحبب حبيبك هوناً ما" ، وقوله : المؤمنون هينون ، والمثل : إذا عز أخوك فهن ، والمعنى إذا عاسر فياسر ، والمعنى أنهم يمشون بسكينة وتواضع ووقار لا يضربون لوقارهم بأقدامهم ولا يخفقون بنعالهم أشراً وبطراً ولذلك كره بعض العلماء الركوب في الأسواق لقوله تعالى : ﴿ ويمشون في الأسواق ﴾ (الفرقان ،)

تنبيه : عباد مرفوع بالإبتداء وفي خبره وجهان ؛ أحدها : الجملة الأخيرة في آخر السورة أولئك يجزون وبه بدأ الزمخشري والذين يمشون وما بعده صفات للمبتدأ ، والثاني : أن الخبر الذين يمشون . الصفة الثانية ﴿ وإذا خاطبهم الجاهلون ﴾ أي : بما يكرهون ﴿ قالوا سلاماً ﴾ أي : تسلماً منكم لا نجاهلكم ومتاركة لا خير بيننا ولا شر أي : فنسلم منكم تسلماً فأقيم السلام مقام التسلم وقيل : قالوا : سداداً من القول أي : يسلمون فيه من الإثم والإيذاء وليس المراد التحية ؛ لأن المؤمنين لم يؤمروا بالسلام على المشركين ، وعن أبي العالية : نسختها آية القتال ولا حاجة إلى ادعاء النسخ بآية القتال ولا غيرها ؛ لأن الإغضاء عن السفهاء وترك المقابلة مستحسن في الأدب والمروءة والشريعة أسلم للعرض والورع ، وأطلق الخطاب إعلاماً بأن أكثر خصال الجاهل وهو الذي يخالف العلم والحكمة الجهل وهو السفه وقلة الأدب من قوله:

*ألا لا يجهلن أحد علينا

** فنجهل فوق جهل الجاهلينا

(364/564)

ولما ذكر تعالى ما بينهم وبين الخلق ذكر ما بينهم وبينه وهي الصفة الثالثة بقوله تعالى:

﴿ والذين يبيتون ﴾ من البيتوتة قال الزجاج : كل من أدركه الليل قيل : بات وإن لم ينم كما يقال : بات فلان قلقاً والمعنى يبيتون ﴿ لربهم ﴾ أي : المحسن إليهم ﴿ سجداً ﴾ على وجوههم في الصلاة وقدّمه لأنه أنهى الخضوع ، وأخر عنه قوله تعالى : ﴿ وقياماً ﴾ أي : على أقدامهم وإن كان تطويل القيام أفضل للروي ، وتخصيص البيتوتة ؛ لأن العبادة في الليل أشق وأبعد من الرياء ، قال الزمخشري : والظاهر أنه وصف لهم بإحياء الليل أو أكثره ، وقيل : من قرأ شيئاً من القرآن في صلاة وإن قل فقد بات ساجداً وقائماً ، وقال ابن عباس : من صلى بعد العشاء ركعتين فقد بات ساجداً وقائماً ، وقيل : هما لركعتان بعد المغرب والركعتان بعد العشاء ، وعن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "من صلى عشاء الآخرة في جماعة كان كقيام نصف ليلة ، ومن صلى الصبح في جماعة كان كقيام ليلة" ، ولما ذكر تعالى تهذيبهم للخلق والخالق وصفهم الله تعالى أنهم مع ذلك خائفون وجلون وهي الصفة الرابعة بقوله تعالى:

﴿ والذين يقولون ربنا ﴾ أي : المحسن إلينا ﴿ اصرف عنا عذاب جهنم ﴾ قال ابن عباس : يقولون في سجودهم وقيامهم هذا القول ، ثم علل سؤالهم بقوله تعالى : ﴿ إن عذابها كان ﴾ أي : كوناً جبلت عليه ﴿ غراماً ﴾ أي : هلاكاً وخسراناً ملحاً لازماً لا ينفك عنه كما قال:

*إن يعاقب يكن غراماً وإن يع

**ط جزيلاً فإنه لا يبالي

ومنه الغريم لملازمته وإلحاحه فهم يبتهلون إلى الله تعالى في صرف العذاب عنهم لعدم اعتدادهم بأعمالهم ووثوقهم على استمرار أحوالهم ، ولما ثبت لهم هذا الوصف أنتج قوله تعالى .

﴿ إنها ساءت ﴾ أي : تناهت هي في كل ما يحصل منه سوء وهي في معنى بئست في جميع المذام ﴿ مستقراً ﴾ أي : موضع استقرار ﴿ ومقاماً ﴾ أي : موضع إقامة .

(365/564)

تنبيه : ساءت في حكم بئست كما مر ففيها ضمير مبهم يفسره مستقراً ، والمخصوص بالذم محذوف معناه ساءت مستقراً ومقاماً هي وهذا الضمير هو الذي ربط الجملة باسم إن وجعلها خبراً لها ، ويجوز أن تكون ساءت بمعنى أحزنت ففيها ضمير اسم إن ومستقراً حال أو تمييز والتعليلان يصح أن يكونا متداخلين أو مترادفين وأن يكونا من كلام الله تعالى وحكاية لقولهم ، ولما ذكر تعالى أفعالهم وأقوالهم أتبع ذلك بذكر إنفاقهم وهو الصفة الخامسة بقوله تعالى:

﴿ والذين إذا أنفقوا ﴾ أي : للخلق أو الخالق في واجب أو مستحب أو مباح ﴿ لم يسرفوا ﴾ أي : لم يجاوزوا الحد في النفقة بالتبذير فيضيعوا الأموال في غير حقها ﴿ ولم يقتروا ﴾ أي : لم يضيقوا فيضيعوا الحقوق ﴿ وكان ﴾ أي : إنفاقهم بين ذلك أي : الإسراف والإقتار ﴿ قواماً ﴾ أي : وسطاً .

تنبيه : اسم كان ضمير يعود على الإنفاق المفهوم من قوله تعالى : أنفقوا وخبرها قواماً ، وبين ذلك معمول له ، وقيل : غير ذلك وذكر المفسرون في الإسراف والتقتير وجوهاً ؛ أحدها : قال الرازي وهو الأقوى وصفهم بالقصد الذي هو بين الغلو والتقتير ، وبمثله أمر صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى : ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط ﴾ (الإسراء ،)

إذ يقال : ما عال من اقتصد ، وسأل رجل بعض العلماء ما البناء الذي لا سرف فيه قال : ما سترك من الشمس وأكنك من المطر ، قال : فما الطعام الذي لا سرف فيه ؟ قال : ما سد الجوعة ، قال : فما اللباس الذي لا سرف فيه ؟ قال : ما ستر عورتك وأدفأك من البرد ، ثانيها : وهو قول ابن عباس : الإسراف النفقة في معصية الله تعالى ، والإقتار منع حق الله تعالى ، وقال مجاهد : لو أنفق أحد مثل جبل أبي قبيس ذهباً في طاعة الله تعالى لم يكن سرفاً ، ولو أنفق صاعاً في معصية الله تعالى كان سرفاً ، وقال الحسن : لم ينفقوا في معاصي الله ولم يمسكوا عما ينبغي وأنشدوا :

*ذهاب المال في حمد وخير

** ذهاب لا يقال له ذهاب

(366/564)

وسمع رجل رجلاً يقول : لا خير في الإسراف ، فقال : لا إسراف في الخير ، وعن عمر بن عبد العزيز أنه شكر عبد الملك بن مروان حين زوجه ابنته وأحسن إليه فقال : وصلت الرحم وفعلت وصنعت وجاء بكلام كثير حسن فقال ابن لعبد الملك إنما هو كلام أعده لهذا المقام ، فسكت عبد الملك ، فلما كان بعد أيام دخل عليه والابن حاضر فسأله عن نفقته وأحواله ، فقال : النفقة بين الشيئين ، فعرف عبد الملك أنه أراد ما في هذه الآية فقال لابنه : يا بني هذا أيضاً مما أعده ، وثالثها السرف مجاوزة الحد في التنعم والتوسع في الدنيا وإن كان من حلال ؛ لأنه يؤدي إلى الخيلاء وكسر قلوب الفقراء ، فكانت الصحابة لا يأكلون طعاماً للتنعم واللذة ولا يلبسون ثوباً للجمال والزينة ولكن كانوا يأكلون ما يسد جوعتهم ويعينهم على عبادة ربهم ويلبسون ما يستر عوراتهم ويقيهم من الحر والبرد ، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : كفى سرفاً أن لا يشتهي الرجل شيئاً إلا اشتراه فأكله ، وقرأ نافع وابن عامر يقتروا بضم التحتية وكسر الفوقية من أقتر ، وابن كثير وأبو عمر بفتح التحتية

وكسر الفوقية والكوفيون بفتح التحتية وضم الفوقية ، ولما ذكر تعالى ما تحلوا به من أصول الطاعات أتبعه بذكر ما تخلوا عنه من أمهات المعاصي التي هي الفحشاء والمنكر وهو الصفة السادسة بقوله تعالى:

(367/564)

﴿ والذين لا يدعون ﴾ أي : رحمة لأنفسهم واستعمالاً للعدل ﴿ مع الله ﴾ أي : الذي اختص بصفات الكمال ﴿ إلهاً آخر ﴾ أي : دعاءً جلياً بالعبادة ولا خفياً بالرياء ، ولما نفى عنهم ما يوجب قتل أنفسهم بخسارتهم إياها أتبعه نفي قتل غيرهم بقوله سبحانه : ﴿ ولا يقتلون النفس ﴾ رحمة للخلق وطاعة للخالق ولما كان من الأنفس ما لا حرمة له بين المراد بقوله تعالى : ﴿ التي حرم الله ﴾ أي : منع من قتلها ﴿ إلا بالحق ﴾ أي : بأن تعمل بما يبيح قتلها ، ولما ذكر القتل الجلي أتبعه الخفي بتضييع نسب الولد بقوله تعالى : ﴿ ولا يزنون ﴾ أي : رحمة للمزني بها ولأقاربها أن تنتهك حرماتهم مع رحمته لنفسه على أن الزنا أيضاً جار إلى القتل والفتن وفيه التسبب إلى إيجاد نفس بالباطل كما أن القتل سبب إلى إعدامها بذلك ، وقد روي في الصحيح عن عبد الله بن مسعود أنه سأل النبي صلى الله عليه وسلم أي الذنب أعظم وفي رواية أكبر عند الله ؟ قال : "أن تدعو لله نداً وهو خلقك

قال : ثم أي ؟ قال : أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك ، قال : ثم أي ؟ قال : أن تزاني حليلة جارك" فأنزل الله تصديق ذلك ، ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ﴾ الآية .

(368/564)

وقد استشكل تصديق هذه الآية للخبر من حيث أن الذي فيه قتل خاص وزنا خاص ، والتقييد بكونه أكبر والذي فيها مطلق القتل والزنا من غير تعرض لعظم ؟ وأجيب : بدفع الإشكال بأنها نطقت بتعظيم ذلك من سبعة أوجه ؛ الأول : الاعتراض من بين المبتدأ الذي هو وعباد الرحمن وما عطف عليه والخبر الذي هو أولئك يجزون الغرفة على إحدى الروايتين بذكر هذه الثلاثة خاصة وذلك دال على مزيد الاهتمام الدال على الإعظام ، الثاني : الإشارة بأداة البعد في قوله تعالى : ﴿ ومن يفعل ذلك ﴾ أي : هذا الفعل العظيم القبيح مع قرب المذكورات فدل على أن البعد من رتبتها فهو إشارة إلى جميع ما تقدم ؛ لأنه بمعنى ما ذكر ، فلذلك وحده وأدغم لام يفعل في الذال أبو الحارث والباقون بالإظهار ، الثالث : التعبير باللقي مع المصدر المزيد الدال على زيادة المعنى في قوله : ﴿ يلق أثاماً ﴾ دون يأثم ويلق إثماً أي : جزاء إثمه ، الرابع : التقييد بالمضاعفة في قوله تعالى مستأنفاً : ﴿ يضاعف ﴾ بأسهل أمر ﴿ له العذاب ﴾ جزاء ما أتبع نفسه هواها ، الخامس : التهويل

بقوله تعالى : ﴿ يوم القيامة ﴾ الذي هو أهول من غيره بما لا يقاس ، السادس : الإخبار بالخلود الذي أقل درجاته أن يكون مكثاً طويلاً بقوله تعالى : ﴿ ويخلد فيه ﴾ وقرأ يضاعف ويخلد ابن عامر وشعبة برفع الفاء والدال ، والباقون بجزمهما وأسقط الألف من يضاعف مع تشديد العين ابن كثير وابن عامر فالجزم على أنهما بدلان من يلق بدل اشتمال ، والرفع على الاستئناف ، السابع : التصريح بقوله تعالى : ﴿ مهاناً ﴾ فلما أعظم الأمر من هذه الأوجه علم أن كلاً من هذه الذنوب كبير ، وإذا كان الأعم كبيراً كان الأخص المذكور أعظم من مطلق الأعم ؛ لأنه زاد عليه بما صار به خاصاً فثبت بهذا أنها كبائر وإن قتل الولد والزنا بحليلة الجار أكبر ما ذكر فوجد تصديق الآية للخبر .

(369/564)

وقرأ حفص مع ابن كثير بصلة الهاء بالياء من فيه قبل مهاناً ، فإن قيل : ذكر أن من صفات عباد الرحمن صفات حسنة فكيف يليق بعد ذلك أن يطهرهم عن الأمور العظيمة مثل الشرك والقتل والزنا فلو كان الترتيب بالعكس كان أولى ؟

أجيب : بأن الموصوف بتلك الصفات السابقة قد يكون متمسكاً بالشرك تديناً وبقتل الموؤدة تديناً وبالزنا تديناً فبين تعالى أن المراد لا يصير بتلك الخصال وحدها من عباد

الرحمن حتى يجتنب تلك الكبائر ، وأجاب الحسن بأن المقصود من ذلك التنبيه على الفرق بين سيرة المسلمين وسيرة الكفار كأنه قال تعالى : وعباد الرحمن الذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ، وأنتم تدعون ولا يقتلون وأنتم تقتلون الموؤدة ولا يزنون وأنتم تزنون ، ولما أتم تعالى : تهديد الفجار على هذه الأوزار أتبعه ترغيب الأبرار إلى العزيز الغفار بقوله تعالى:

﴿ إلا من تاب ﴾ أي : رجع عن كل شيء كان فيه من هذه النقائص ﴿ وآمن ﴾ أي : أوجد الأساس الذي لا يثبت عمل بدونه وهو الإيمان وأكد رجوعه بقوله تعالى : ﴿ وعمل عملاً صالحاً ﴾ أي : مؤسساً على أساس الإيمان ، فإن قيل : العمل الصالح يدخل فيه التوبة والإيمان فذكرهما قبل العمل الصالح يستغني عنه ؟

أجيب : بأنهما أفردا بالذكر لعلو شأنهما .

(370/564)

تنبيه : اختلف في هذا الاستثناء على وجهين ؛ أحدهما : أنه استثناء متصل وهو ما دل عليه كلام الجمهور لأنه من الجنس ، والثاني : أنه منقطع ورجحه أبو حيان معللاً بأن المستثنى منه محكوم عليه بأنه يضاعف له العذاب ، فيصير التقدير إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فلا يضاعف له العذاب ، ولا يلزم من انتفاء التضعيف انتفاء العذاب غير

المضعف بخلافه في المنقطع ، فإن التقدير لكن من تاب إلى آخره ، فلا يلقى عذاباً البتة ، ووجه كلام الجمهور بأن ما ذكر ليس بلازم إذ المقصود الإخبار بأن من فعل كذا فإنه يحل به ما ذكر إلا أن يتوب وأما إصابة أصل العذاب وعدمه فلا تعرض في الآية له ، ثم زاد تعالى في الترغيب بالإتيان بالفاء ربطاً للجزاء بالشرط دليلاً على أنه سببه ، فقال تعالى :

﴿ فأولئك ﴾ أي : العالو المنزلة ﴿ يبدل الله ﴾ أي : الذي له العظمة والكبرياء ﴿ سيئاتهم حسنات ﴾ قال ابن عباس ومجاهد : هذا التبديل في الدنيا فيبدل الله تعالى قبائح أعمالهم في الشرك بمحاسن الأعمال في الإسلام ، فيبدلهم بالشرك إيماناً وبقتل المؤمنين قتل المشركين وبالزنا إحصاناً وعفة ، فكأنه تعالى يبشرهم بتوفيقهم لهذه الأعمال الصالحة فيستوجبوا بها الثواب .

(371/564)

وقال الزجاج : إن السيئة بعينها لا تصير حسنة فالتأويل أن السيئة تمحى بالتوبة وتكتب مع التوبة حسنة ، والكافر يحبط الله عمله ويثبت عليه السيئات ، وقال سعيد بن المسيب ومكحول : إن الله تعالى يمحو السيئة عن العبد ويثبت له بدلها الحسنة بحكم هذه الآية وهذا هو ظاهر الآية ويدل له ما روى أبو هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

"إني لأعلم آخر رجل يخرج من النار رجل يؤتى به يوم القيامة فيقال له اعرضوا عليه صغار ذنوبه وارفعوا عنه كبارها ، فيعرض عليه صغارها ، فيقال له : عملت يوم كذا وكذا كذا وكذا ، وعملت يوم كذا وكذا كذا وكذا ، فيقول : نعم فلا يستطيع أن ينكر وهو مشفق من كبار ذنوبه أن تعرض عليه فيقال له : إن لك مكان كل سيئة حسنة فيقول : يا رب قد عملت أشياء لا أراها ههنا ، قال أبو هريرة : فلقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ضحك حتى بدت نواجذه" ﴿ وكان الله ﴾ أي : الذي له الجلال والإكرام على الإطلاق أزلاً وأبداً ﴿ غفوراً ﴾ أي : ستور الذنوب كل من تاب بهذا الشرط ﴿ رحيماً ﴾ به بأن يعامله بالإكرام كما يعامل المرحوم فيعطيه مكان كل سيئة حسنة .

روى البخاري عن ابن عباس أن هذه الآية نزلت في أهل الشرك ولما نزل صدرها قال أهل مكة : قد عدلنا بالله وقتلنا النفس التي حرم الله وأتينا الفواحش فأنزل الله إلا من تاب إلى رحيماً . روى البخاري في التفسير أن ناساً من أهل الشرك كانوا قتلوا فأكثروا ، وزنوا فأكثروا ، فأتوا محمد صلى الله عليه وسلم فقالوا : إن الذي تقول وتدعو إليه لحسن لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة ، فنزلت هذه الآية ونزل ﴿ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ﴾ (الزمر ،)

:

﴿ ومن تاب ﴾ أي : عن ذنوبه غير ما ذكر ﴿ وعمل ﴾ تصديقاً لادعائه التوبة ﴿ صالحاً ﴾ ولو كان كل من نيته وعمله ضعيفاً ورغب سبحانه في ذلك بقوله تعالى معلماً أنه يصل إلى الله ﴿ فإنه يتوب ﴾ أي : يرجع واصلاً ﴿ إلى الله ﴾ أي : الذي له صفات الكمال فهو يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ﴿ متاباً ﴾ أي : رجوعاً مرضياً عند الله بأن يرغبه الله تعالى في الأعمال الصالحة فلا يزال كل يوم في زيادة بنيته وعمله فيخف عليه ما كان ثقيلاً ويتيسر عليه ما كان عسيراً ، ويسهل عليه ما كان صعباً كما مرّ في أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم ولا يزال كذلك حتى يحبه فيكون سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها بأن يوفقه للخير فلا يسمع إلا ما يرضيه وهكذا ، ولما وصف سبحانه وتعالى عباده بأنهم تحلوا بأصول الفضائل وتخلوا عن أمهات الرذائل ورغب في التوبة ؛ لأن الإنسان لعجزه لا ينفك عن النقص مدحهم بصفة أخرى وهي الصفة المذكورة في قوله تعالى:

﴿ والذين لا يشهدون ﴾ أي : لا يحضرون ﴿ الزور ﴾ أي : القول المنحرف عن الصدق كذباً كان أو مقارباً له فضلاً عن أن يتفوهوا به للخبر فلا يسمعوا أو يقروا عليه في مواعظ عيسى ابن مريم عليه السلام إياكم ومجالسة الخطائين ويحتمل أنهم لا يشهدون شهادة الزور فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه ، وعن قتادة مجالس الباطل وعن ابن الحنفية اللهو والغناء ، وعن مجاهد أعياد المشركين ، ثم عطف عليه بما هو أعم منه بقوله تعالى : ﴿ وإذا مروا باللغو ﴾ أي : الذي ينبغي أن يطرح من الكلام القبيح وغيره ﴿ مروا كراماً ﴾ أي : آمرين بالمعروف ناهين عن المنكر إن تعلق بهم أمر أو نهي إشارة أو عبارة على حسب ما يرون نافعاً ، فإن لم يتعلق بهم ذلك كانوا معرضين عنه مكرمين أنفسهم عن الوقوف عليه والخوض فيه لقوله تعالى : ﴿ وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين ﴾ (القصص ،) ، ومن ذلك الإغضاء عن الفواحش والصفح عن الذنوب والكناية عما ما يستهجن التصريح به ، وعن الحسن لم تشقهم المعاصي ، وقيل : إذا سمعوا من الكفار الأذى أعرضوا عنه ، ثم ذكر الصفة الثامنة بقوله تعالى:

﴿ والذين إذا ذكروا ﴾ أي : ذكرهم غيرهم كائناً من كان لأنهم يعرفون الحق بنفسه لا بقائله ﴿ بآيات ربهم ﴾ أي : الذي وفقهم ليذكر إحسانه إليهم في حسن تربيته لهم بالاعتبار بالآيات المرئية والمسموعة ﴿ لم يخرّوا ﴾ أي : لم يسقطوا ﴿ عليها صماً ﴾ أي :

غير واعين لها ﴿ وعمياناً ﴾ أي : غير متبصرين بما فيها كمن لا يسمع ولا يبصر كأبي جهل والأخنس بن شريق بل خروا سامعين بآذان واعية مبصرين بعيون راعية ، فالمراد من النفي نفي الحال وهي : صماً وعمياناً دون الفعل وهو الخرور ، فالمراد نفي القيد دون المقيد كما تقول : لا يلقاني زيد مسلماً هو نفي للسلام لا للقاء ، الصفة التاسعة المذكورة في قوله تعالى:

(374/564)

﴿ والذين يقولون ﴾ أي : علماً منهم بعد اتصافهم بجميع ما مضى أنهم أهل للإمامة ﴿ ربنا هب لنا من أزواجنا ﴾ اللاتي قرنتهن بنا كما فعلت بنبيك محمد صلى الله عليه وسلم فمدحت أزواجه في كلامك القديم ، وجعلت مدحهن يتلى على تعاقب الأزمان والسنين ﴿ وذرياتنا قرة أعين ﴾ لنا بأن نراهم مطيعين لك ولا شيء أسر للمؤمن من أن يرى حبيبه يطيع الله تعالى ، وعن محمد بن كعب ليس شيء أقر لعين المؤمن من أن يرى زوجته وأولاده يطيعون الله ، وعن ابن عباس هو الولد إذا رآه يكتب الفقه وخصوا الأزواج والذرية بذلك ؛ لأن الأقربين أولى بالمعروف .

تنبيه : من في قوله تعالى من أزواجنا يحتمل أن تكون بيانية كأنه قيل : هب لنا قرة أعين ، ثم بينت القرة وفسرت بقوله : من أزواجنا وذرياتنا ، ومعناه أن اجعلهم لهم قرة أعين وهو من

قولهم رأيت منك أسداً أي : أنت أسد ، وأن تكون ابتدائية على معنى هب لنا من جهتهم ما تقر به عيوننا من طاعة وإصلاح وأتوا بجمع القلة في أعين ؛ لأن المتقين الذين يفعلون الطاعة ويسرون بها قليلون في جنب العاصين ، وقيل : سألوا أن يلحق الله بهم أزواجهم وذريتهم في الجنة ليتم لهم سرورهم ووحد القرّة لأنها مصدر ، وأصلها من البرد لأن العرب تتأذى من الحر وتتروح إلى البرد وتذكر قرة العين عند السرور وسخنة العين عند الحزن ويقال : دمع العين عند السرور بارد وعند الحزن حار ، وقال الأزهري : معنى قرة العين أن يصادف قلبه من يرضاه فتقر عينه عن النظر إلى غيره ، وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر وحفص بألف بعد الياء على الجمع والباقون بغير ألف على الإفراد ﴿ واجعلنا للمتقين إماماً ﴾ أي : أئمة يقتدون بنا في أمر الدين بإضافة العلم والتوفيق للعمل فاكتفى بالواحد لدلالته على الجنس ولعدم اللبس كقوله تعالى : ﴿ ثم يخرجكم طفلاً ﴾ (غافر ،)

(375/564)

أو أرادوا واجعل كل واحد منا أو أرادوا جمع آم كصائم وصيام أو أرادوا اجعلنا إماماً واحداً لاتحادنا واتفاق كلمتنا ، وعن بعضهم في الآية ما يدل على أن الرياسة في الدين يحسن أن تطلب ويرغب فيها ، وقال الحسن : نقتدي بالمتقين ويقتدي المتقون بنا ، وقيل :

هذا من المقلوب ، أي : واجعل المتقين لنا إماماً واجعلنا مؤتمين مقتدين بهم ، وهو قول مجاهد ، وقيل : نزلت هذه الآية في العشرة المبشرين بالجنة ، ولما بين تعالى صفات المتقين المخلصين بين بعده إحسانه إليهم بقوله تعالى:

﴿ أولئك ﴾ أي : العالو الرتبة العظيمة العظيمو المنزلة ﴿ يجزون ﴾ أي : فضلاً من الله تعالى على ما وفقهم له من هذه الأعمال الزاكية والأحوال الصافية ﴿ الغرفة ﴾ أي : الغرفات وهي العلالي في الجنة فوحد اقتصاراً على الواحد الدال على الجنس والدليل على ذلك قوله تعالى : ﴿ وهم في الغرفات آمنون ﴾ (سبأ ،) ، وقيل : هي من أسماء الجنة ، ولما كانت القرب في غاية التعب لمنافاتها لشهوات النفس وهواها وطبع البدن رغب فيها بأن جعلها سبباً لهذا الجزاء بقوله تعالى : ﴿ بما صبروا ﴾ أي : أوقعوا الصبر على أمر ربهم ومرارة غربتهم بين الجاهلين في أفعالهم وأقوالهم وأحوالهم وغير ذلك من معالي خلالهم ، ولما كان المنزل لا يطيب إلا بالكرامة والسلامة .

(376/564)

قال تعالى ﴿ ويلقون فيها ﴾ أي : الغرفة ﴿ تحية ﴾ أي : دعاء الحياة من بعضهم لبعض ومن الملائكة الذين لا يرد دعاؤهم ولا يمترى في إخبارهم ، لأنهم عن الله تعالى ينطقون

وذلك على وجه الإعظام والإكرام مكان ما أهانهم عباد الشيطان وقيل : ملكاً وقيل : بقاءً دائماً ﴿ وسلاماً ﴾ أي : من الله والملائكة وغيرهم وسلامة من كل آفة مكان ما أصابوهم بالمصائب : اللهم وفقنا لطاعتك واجعلنا من أهل رحمتك وارزقنا مما رزقتهم في دار رضوانك يا أرحم الراحمين ، وقرأ حمزة والكسائي وشعبة بفتح الياء وسكون اللام وتخفيف القاف من لقي كما قال تعالى : ﴿ فسوف يلقون غياً ﴾ (مريم ،) ، والباقون بضم الياء وفتح اللام وتشديد القاف أي : يجعلهم الله تعالى لاقين بأيسر أمر كما قال تعالى ﴿ ولقاهم نضرة وسروراً ﴾ (الإنسان ،)

﴿ خالدين فيها ﴾ أي : الغرفة لا يموتون ولا يخرجون مكان ما أزعجوهم من ديارهم حتى هاجروا ودلَّ على علو أمرها وعظيم قدرها بإبراز مدحها في مظهر التعجب بقوله تعالى : ﴿ حسنت ﴾ أي : ما أحسنها ﴿ مستقراً ﴾ أي : موضع استقرار ﴿ ومقاماً ﴾ أي : موضع إقامة وهذا مقابل ساءت ومثله في الإعراب ، ولما شرح سبحانه وتعالى صفات المتقين وأثنى عليهم من أجلها وشرح ثوابهم أمر رسوله صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى: ﴿ قل ﴾ أي : لكفار مكة ﴿ ما يعبأ ﴾ أي : ما يصنع ﴿ بكم ﴾ أيها الكافرون من عبأت الجيش أو لا يعتد بكم ﴿ ربي ﴾ أي : المحسن إليّ وإليكم برحمانيته المخصص لي بالإحسان برحيميته وإنما خص بالإضافة لاعترافه دونهم ﴿ لولا دعاؤكم ﴾ أي : عبادتكم وما متضمنة لمعنى الاستفهام وهي في محل النصب وهي عبارة عن المصدر كأنه

قيل : وأي عبء يعبأ بكم لولا عبادتكم وطاعتكم إياه كما قال تعالى : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ (الذاريات ،)

(377/564)

﴿ فقد كذبتم ﴾ بما أخبرتكم به حيث خالفتموه وهذا معنى قول ابن عباس ومجاهد ، وقال قوم : ما يعبأ ما يبالي بمغفرتكم ربي لولا دعاؤكم معه آلهة وما يفعل بعذابكم لولا شرككم كما قال تعالى : ﴿ ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم ﴾ لولا دعاؤكم أي : نداؤكم في الشدائد كما قال تعالى : ﴿ فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين ﴾ (العنكبوت ،) ، وقوله تعالى : ﴿ فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون ﴾ (الأنعام ،)

ويجوز أن تكون ما نافية وجرى على ذلك الجلال المحلي ﴿ فسوف ﴾ أي : فتسبب عن تكذيبهم أن يجازيكم على ذلك ولكنه مع قدرته واختياره وقوته لا يعاجلكم بل ﴿ يكون ﴾ جزاء هذا التكذيب عند انقضاء ما ضربه لكم من الآجال ﴿ لزاماً ﴾ أي : لازماً يحيق بكم لا محالة ، فاعتدوا وتهيؤوا لذلك اليوم فكل آت قريب وكل بعيد عنكم قريب عنده ، وعن مجاهد : هو القتل يوم بدر وإنه لوزم بين القتلى لزاماً قتل منهم تسعون

وأسر منهم سبعون ، وعن ابن مسعود : خمس قد مضين الدخان والقمر والروم والبطشة واللزام ، وما رواه البيضاوي تبعاً للزمخشري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من أن "من قرأ سورة الفرقان لقي الله وهو مؤمن بأن الساعة آتية لا ريب فيها وأدخل الجنة بغير حساب" حديث موضوع والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ السراج المنير حـ 4 صـ 468 484. ﴾

(378/564)

وقال الشيخ سيد قطب :

﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا (63) ﴾

هذا الشوط الأخير في السورة يبرز فيه ﴿ عباد الرحمن ﴾ بصفاتهم المميزة ، ومقوماتهم الخاصة ؛ وكأنما هم خلاصة البشرية في نهاية المعركة الطويلة بين الهدى والضلال . بين البشرية الجاحدة المشاقة والرسل الذين يحملون الهدى لهذه البشرية . وكأنما هم الثمرة الجنية لذلك الجهاد الشاق الطويل ، والعزاء المريح لحملة الهدى فيها لاقوه من جحود وصلادة وإعراض ! .

وقد سبق في الدرس الماضي تجاهل المشركين واستنكارهم لاسم ﴿ الرحمن ﴾ فها هم أولاء عباد الرحمن ، الذين يعرفون الرحمن ، ويستحقون أن ينسبوا إليه ، وأن يكونوا عباده . ها هم أولاء بصفاتهم المميزة ومقومات نفوسهم وسلوكهم وحياتهم . ها هم أولاء مثلاً حية واقعية للجماعة التي يريدها الإسلام ، وللنفوس التي ينشئها بمنهجه التربوي القويم . وهؤلاء هم الذين يستحقون أن يعبأ بهم الله في الأرض ، ويوجه إليهم عنايته ؛ فالبشر كلهم أهون على الله من أن يعبأ بهم ، لولا أن هؤلاء فيهم ، ولولا أن هؤلاء يتوجهون إليه بالتضرع والدعاء .

﴿ وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا : سلاماً ﴾ . .

(379/564)

ها هي ذي السمة الأولى من سمات عباد الرحمن : أنهم يمشون على الأرض مشية سهلة هينة ، ليس فيها تكلف ولا تصنع ، وليس فيها خيلاء ولا تنفج ، ولا تصعير خد ولا تخلع أو ترهل . فالمشية ككل حركة تعبير عن الشخصية ، وعما يستكن فيها من مشاعر . والنفس السوية المطمئنة الجادة القاصدة ، تخلع صفاتها هذه على مشية صاحبها ،

فيمشي مشية سوية مطمئنة جادة قاصدة . فيها وقار وسكينة ، وفيها جد وقوة . وليس معنى : ﴿ يمشون على الأرض هوناً ﴾ أنهم يمشون متماوتين منكسي الرؤوس ، متداعي الأركان ، متهاوي البنيان ؛ كما يفهم بعض الناس ممن يريدون إظهار التقوى والصلاح ! وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا مشى تكفأ تكفياً ، وكان أسرع الناس مشية ، وأحسنها وأسكنها ، قال أبو هريرة : ما رأيت شيئاً أحسن من رسول الله صلى الله عليه وسلم كأن الشمس تجري في وجهه ، وما رأيت أحداً أسرع في مشيته من رسول الله صلى الله عليه وسلم كأنما الأرض تطوى له وإنا لنجهد أنفسنا وإنه لغير مكترث . وقال على بن أبي طالب رضي الله عنه كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا مشى تكفأ تكفياً كأنما ينحط من صبب . وقال مرة إذا تقلع قلت والتقلع الارتفاع من الأرض بجملته كحال المنحط من الصبب ، وهي مشية أولي العزم والهمة والشجاعة .

وهم في جدهم ووقارهم وقصدهم إلى ما يشغل نفوسهم من اهتمامات كبيرة ، لا يتلفتون إلى حماقة الحمقى وسفه السفهاء ، ولا يشغلون بالهم ووقتهم وجهدهم بالاشتباك مع السفهاء والحمقى في جدل أو عراك ، ويترفعون عن المهاترة مع المهاترين الطائشين : ﴿ وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا : سلاماً ﴾ لا عن ضعف ولكن عن ترفع ؛ ولا عن عجز إنما عن استعلاء ، وعن صيانة للوقت والجهد أن ينفقا فيما لا يليق بالرجل الكريم المشغول عن المهاترة بما هو أهم وأكرم وأرفع .

هذا نهارهم مع الناس فأما ليلهم فهو التقوى ومراقبة الله ، والشعور بجلاله ، والخوف من عذابه .

(380/564)

﴿ والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً . والذين يقولون : ربنا اصرف عنا عذاب جهنم . إن عذابها كان غراماً . إنها ساءت مستقراً ومقاماً ﴾ . .

والتعبير يبرز من الصلاة السجود والقيام لتصوير حركة عباد الرحمن ، في جنح الليل والناس نيام . فهؤلاء قوم يبيتون لربهم سجداً وقياماً ، يتوجهون لربهم وحده ، ويقومون له وحده ، ويسجدون له وحده . هؤلاء قوم مشغولون عن النوم المريح اللذيذ ، بما هو أروح منه وأمتع ، مشغولون بالتوجه إلى ربهم ، وتعليق أرواحهم وجوارحهم به ، ينام الناس وهم قائمون ساجدون ؛ ويخلد الناس إلى الأرض وهم يتطلعون إلى عرش الرحمن ، ذي الجلال والإكرام .

وهم في قيامهم وسجودهم وتطلعهم وتعلقهم تمتلىء قلوبهم بالتقوى ، والخوف من عذاب جهنم . يقولون : ﴿ ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراماً . إنها ساءت مستقراً ومقاماً " . . وما رأوا جهنم ، ولكنهم آمنوا بوجودها ، وتمثلوا صورتها مما جاءهم

في القرآن الكريم وعلى لسان رسول الله الكريم . فهذا الخوف النبيل إنما هو ثمرة الإيمان العميق ، وثمرة التصديق .

وهم يتوجهون إلى ربهم في ضراعة وخشوع ليصرف عنهم عذاب جهنم . لا يطمئنهم أنهم يبيتون لربهم سجداً وقياماً ؛ فهم لما يخالج قلوبهم من التقوى يستقلون عملهم وعبادتهم ، ولا يرون فيها ضماناً ولا أماناً من النار ، إن لم يتداركهم فضل الله وسماحته وعفوه ورحمته ، فيصرف عنهم عذاب جهنم .

والتعبير يوحي كأنما جهنم متعرضة لكل أحد ، متصدية لكل بشر ، فاتحة فاها ، تهم أن تلتهم ، باسطة أيديها تهم أن تقبض على القريب والبعيد ! وعباد الرحمن الذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً ، يخافونها ويخشونها ، ويتضرعون إلى ربهم أن يصرف عنهم عذابها ، وأن ينجيهم من تعرضها وتصديها !

(381/564)

ويرتعش تعبيرهم وهم يتضرعون إلى ربهم خوفاً وفزعاً : ﴿ إِن عذابها كان غراماً ﴾ : أي ملازماً لا يتحول عن صاحبه ولا يفارقه ولا يقيله ؛ فهذا ما يجعله مروعاً مخيفاً شنيعاً . . ﴿ إِنها ساءت مستقراً ومقاماً ﴾ وهل أسوأ من جهنم مكاناً يستقر فيه

الإنسان ويقيم . وأين الاستقرار وهي النار ؟ وأين المقام وهو التقلب على اللظى ليل نهار !

وهم في حياتهم نموذج القصد والاعتدال والتوازن :

﴿ والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا ، وكان بين ذلك قواماً ﴾ . .

وهذه سمة الإسلام التي يحققها في حياة الأفراد والجماعات ؛ ويتجه إليها في التربية والتشريع ، يقيم بناءه كله على التوازن والاعتدال .

والمسلم مع اعتراف الإسلام بالملكية الفردية المقيدة ليس حراً في إنفاق أمواله الخاصة كما يشاء كما هو الحال في النظام الرأسمالي ، وعند الأمم التي لا يحكم التشريع الإلهي حياتها في كل ميدان .

إنما هو مقيد بالتوسط في الأمرين الإسراف والتقتير . فالإسراف مفسدة للنفس والمال والمجتمع ؛ والتقتير مثله حبس للمال عن انتفاع صاحبه به وانتفاع الجماعة من حوله فالمال أداة اجتماعية لتحقيق خدمات اجتماعية . والإسراف والتقتير يحدثان اختلالاً في المحيط الاجتماعي والمجال الاقتصادي ، وحبس الأموال يحدث أزمات ومثله إطلاقها بغير حساب . ذلك فوق فساد القلوب والأخلاق .

والإسلام وهو ينظم هذا الجانب من الحياة يبدأ به من نفس الفرد ، فيجعل الاعتدال سمة من سمات الإيمان :

﴿ وكان بين ذلك قواماً ﴾ . .

وسمة عباد الرحمن بعد ذلك أنهم لا يشركون بالله ، ويتحرجون من قتل النفس ، ومن الزنا .

تلك الكبائر المنكرات التي تستحق أليم العذاب :

(382/564)

﴿ والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ، ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ، ولا يزنون . ومن يفعل ذلك يلق أثاماً . يضاعف له العذاب يوم القيامة ، ويخلد فيه مهاناً . إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً ، فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات ، وكان الله غفوراً رحيماً . ومن تاب وعمل صالحاً فإنه يتوب إلى الله متاباً ﴾ .

وتوحيد الله أساس هذه العقيدة ، ومفرق الطريق بين الوضوح والاستقامة والبساطة في الاعتقاد ؛ والغموض والالتواء والتعقيد ، الذي لا يقوم على أساسه نظام صالح للحياة .

والتحرج من قتل النفس إلا بالحق مفرق الطريق بين الحياة الاجتماعية الآمنة المطمئنة التي تحترم فيها الحياة الإنسانية ويقام لها وزن ؛ وحياة الغابات والكهوف التي لا يأمن فيها على نفسه أحد ولا يطمئن إلى عمل أو بناء .

والتحرج من الزنا هو مفرق الطريق بين الحياة النظيفة التي يشعر فيها الإنسان بارتفاعه عن الحس الحيواني الغليظ ، ويحس بأن لالتقائه بالجنس الآخر هدفاً أسمى من إرواء سعار

اللحم والدم ، والحياة الهابطة الغليظة التي لا هم للذكران والإناث فيها إلا إرضاء ذلك السعار .

ومن أجل أن هذه الصفات الثلاثة مفرق الطريق بين الحياة اللائقة بالإنسان الكريم على الله ؛ والحياة الرخيصة الغليظة الهابطة إلى درك الحيوان . . من أجل ذلك ذكرها الله في سمات عباد الرحمن . أرفع الخلق عند الله وأكرمهم على الله . وعقب عليها بالتهديد الشديد : ﴿ ومن يفعل ذلك يلق أثاماً ﴾ أي عذاباً . وفسر هذا العذاب بما بعده ﴿ يضاعف له العذاب يوم القيامة . ويخلد فيه مهاناً ﴾ . . فليس هو العذاب المضاعف وحده ، وإنما هي المهانة كذلك ، وهي أشد وأنكى .

(383/564)

ثم يفتح باب التوبة لمن أراد أن ينجو من هذا المصير المسيء بالتوبة والإيمان الصحيح والعمل الصالح : ﴿ إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً ﴾ ويعد التائبين المؤمنين العاملين أن يبدل ما عملوه من سيئات قبل التوبة حسنات بعدها تضاف إلى حسناتهم الجديدة : ﴿ فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات ﴾ .

وهو فيض من عطاء الله لا مقابل له من عمل العبد إلا أنه اهتدى ورجع عن الضلال ، وثاب

إلى حمى الله ، ولاذ به بعد الشرود والمتاهة . ﴿ وكان الله غفوراً رحيماً ﴾ . .

وباب التوبة دائماً مفتوح ، يدخل منه كل من استيقظ ضميره ، وأراد العودة والمآب . لا يصد عنه قاصد ، ولا يغلق في وجه لاجئ ، أياً كان ، وأياً ما ارتكب من الآثام .

روى الطبراني من حديث أبي المغيرة عن صفوان بن عمر عن عبد الرحمن بن جبير " عن أبي فروة ، أنه أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : أرأيت رجلاً عمل الذنوب كلها ولم يترك حاجة ولا داجة ، فهل له من توبة ؟ فقال : " أسلمت ؟ " فقال : نعم . قال : " فافعل الخيرات واترك السيئات ، فيجعلها الله لك خيرات كلها " قال : وغدراتي وفجراتي ؟ قال : " نعم " . فما زال يكبر حتى توارى " .

ويضع قاعدة التوبة وشرطها : ﴿ ومن تاب وعمل صالحاً فإنه يتوب إلى الله متاباً ﴾ . .

فالتوبة تبدأ بالندم والإقلاع عن المعصية ، وتنتهي بالعمل الصالح الذي يثبت أن التوبة صحيحة وأنها جدية . وهو في الوقت ذاته ينشئ التعويض الإيجابي في النفس للإقلاع عن المعصية . فالمعصية عمل وحركة ، يجب ملء فراغه بعمل مضاد وحركة ، وإلا حنت النفس إلى الخطيئة بتأثير الفراغ الذي تحسه بعد الإقلاع . وهذه لمحة في منهج التربية القرآني عجيبة ، تقوم على خبرة بالنفس الإنسانية عميقة . ومن أخبر من الخالق بما خلق ؟ سبحانه وتعالى !

وبعد هذا البيان المعترض يعود إلى سمات ﴿ عباد الرحمن ﴾ :

﴿ والذين لا يشهدون الزور ، وإذا مروا باللغو مروا كراماً ﴾ . .

(384/564)

وعدم شهادة الزور قد تكون على ظاهر اللفظ ومعناه القريب ، أنهم لا يؤدون شهادة زور ، لما في ذلك من تضييع الحقوق ، والإعانة على الظلم . وقد يكون معناها الفرار من مجرد الوجود في مجلس أو مجال يقع فيه الزور بكل صنوفه وألوانه ، ترفعاً منهم عن شهود مثل هذه المجالس والمجالات . وهو أبلغ وأوقع . وهم كذلك يصونون أنفسهم واهتماماتهم عن اللغو والهذر : ﴿ وإذا مروا باللغو مروا كراماً ﴾ لا يشغلون أنفسهم به ، ولا يلوثونها بسماعه ؛ إنما يكرمونها عن ملابسته ورؤيته بله المشاركة فيه ! فللمؤمن ما يشغله عن اللغو والهذر ، وليس لديه من الفراغ والبطالة ما يدفعه إلى الشغل باللغو الفارغ ، وهو من عقيدته ومن دعوته ومن تكاليفها في نفسه وفي الحياة كلها في شغل شاغل .

ومن سماتهم أنهم سريعو التذكر إذا ذكروا ، قريبو الاعتبار إذا وعظوا ، مفتوحو القلوب لآيات الله ، يتلقونها بالفهم والاعتبار :

﴿ والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صماً وعمياناً ﴾ .

وفي التعبير تعريض بالمشركين الذين ينكبون على آلهتهم وعقائدهم وأباطيلهم كالصم والعميان ؛ لا يسمعون ولا يبصرون ، ولا يتطلعون إلى هدى أو نور . وحركة الانكباب على الوجوه بلا سمع ولا بصر ولا تدبر حركة تصور الغفلة والانطماس والتعصب الأعمى .

فأما عباد الرحمن ، فهم يدركون إدراكاً واعياً بصيراً ما في عقيدتهم من حق ، وما في آيات الله من صدق ، فيؤمنوا إيماناً واعياً بصيراً ، لا تعصباً أعمى ولا انكباباً على الوجوه ! فإذا تحمسوا لعقيدتهم فإنما هي حماسة العارف المدرك البصير .

وأخيراً فإن عباد الرحمن لا يكفيهم أنهم يبيتون لربهم سجداً وقياماً ؛ وأنهم يتسمون بتلك السمات العظيمة كلها ، بل يرجون أن تعقبهم ذرية تسير على نهجهم ، وأن تكون لهم أزواج من نوعهم ؛ فتقر بهم عيونهم ، وتطمئن بهم قلوبهم ، ويتضاعف بهم عدد ﴿ عباد الرحمن ﴾ ويرجون أن يجعل الله منهم قدوة طيبة للذين يتقون الله ويخافونه :

(385/564)

﴿ والذين يقولون : ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين ، واجعلنا للمتقين إماماً ﴾ . .

وهذا هو الشعور الفطري الإيماني العميق : شعور الرغبة في مضاعفة السالكين في الدرب

إلى الله . وفي أولهم الذرية والأزواج ، فهم أقرب الناس تبعة وهم أول أمانة يسأل عنها الرجال . والرغبة كذلك في أن يحس المؤمن أنه قدوة للخير ، يأتم به الراغبون في الله . وليس في هذا من أثرة ولا استعلاء فالركب كله في الطريق إلى الله .

فأما جزاء عباد الرحمن فيختم به هذا البيان :

﴿ أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ، ويلقون فيها تحية وسلاماً ، خالدين فيها حسنت مستقراً ومقاماً ﴾ . .

والغرفة ربما كان المقصود بها الجنة ، أو المكان الخاص في الجنة ، كما أن الغرفة أكرم من البهو فيما اعتاد الناس في البيوت في هذه الأرض ، عندما يستقبلون الأضياف . وأولئك الكرام الذين سبقت صفاتهم وسماتهم ، يستقبلون في الغرفة بالتحية والسلام ، جزاء ما صبروا على تلك الصفات والسمات . وهو تعبير ذو دلالة . فهذه العزائم تحتاج إلى الصبر على شهوات النفس ، ومغريات الحياة ، ودوافع السقوط . والاستقامة جهد لا يقدر عليه إلا بالصبر . الصبر الذي يستحق أن يذكره الله في هذا الفرقان .

وفي مقابل جهنم التي يتضرعون إلى ربهم أن يصرفها عنهم لأنها ساءت مستقراً ومقاماً ، يجزيهم الله الجنة ﴿ خالدين فيها . حسنت مستقراً ومقاماً ﴾ فلا مخرج لهم إلا أن يشاء الله . وهم فيها على خير حال من الاستقرار والمقام .

والآن وقد صور عباد الرحمن . تلك الخلاصة الصافية للبشرية . يختم السورة بهوان

البشرية على الله لولا هؤلاء الذين يتطلعون إلى السماء . فأما المكذبون فالعذاب حتم عليهم لزام .

﴿ قل : ما يعبأ بكم ربي لولا دعاؤكم فقد كذبتم فسوف يكون لزاماً ﴾ . .

(386/564)

وهو ختام يناسب موضوع السورة كلها ؛ ومساقها للتسرية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وتعزيته عما يلاقي من عناد قومه وجحودهم ، وتطاولهم عليه ، وهم يعرفون مقامه ؛ ولكنهم في سبيل الإبقاء على باطلهم يعاندون ويصرون . . فما قومه ؟ وما هذه البشرية كلها ، لولا القلة المؤمنة التي تدعو الله . وتتضرع إليه .

كما يدعو عباد الرحمن ويتضرعون ؟

من هم والأرض التي تضم البشر جميعا إن هي إلا ذرة صغيرة في فضاء الكون الهائل .

والبشرية كلها إن هي إلا نوع من أنواع الأحياء الكثيرة على وجه هذه الأرض . والأمة واحدة من أمم هذه الأرض . والجيل الواحد من أمة إن هو إلا صفحة من كتاب ضخم لا يعلم عدد صفحاته إلا الله ؟

وإن الإنسان مع ذلك لينتفخ وينتفخ ويحسب نفسه شيئا ويتطاول ويتطاول حتى ليتطاول

على خالقه سبحانه ! وهو هين هين ، ضعيف ضعيف ، قاصر قاصر . إلا أن يتصل بالله فيستمد منه القوة والرشاد ، وعندئذ فقط يكون شيئا في ميزان الله وقد يرجح ملائكة الرحمن في هذا الميزان . فضلا من الله الذي كرم هذا الإنسان وأسجد له الملائكة ، ليعرفه ويتصل به ويتعبد له ، فيحفظ بذلك خصائصه التي سجدت له معها الملائكة وإلا فهو لقي ضائع ، لو وضع نوعه كله في الميزان ما رجحت به كفة الميزان ! «قُلْ : ما يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْ لا دُعاؤُكُمْ» . . وفي التعبير سند للرسول – صلّى الله عليه وسلّم – وإعزاز : «قُلْ : ما يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي» . فأنا في جواره وحماه . هو ربي وأنا عبده . فما أنتم بغير الإيمان به ، والانضمام إلى عباده ؟

إنكم حصب جهنم «فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزاماً» . . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 5 صـ 2575 . 2582 ﴾

(387/564)

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال العلامة نظام الدين النيسابورى :

التأويل : ﴿ ولو شئنا لبعثنا ﴾ فيه كمال القدرة وإن أمر النبوة ليس يتعلق بالقربات

والمزاجات بل بمحض المشيئة الأزلية . ويروى أن موسى عليه السلام سئم الرسالة وتبرم في بعض الأيام فأوحى الله تعالى : في ليلة واحدة إلى ألف من بني إسرائيل فاصبحوا أنبياء ، فضاق قلب موسى وغار وقال : يا رب إني لا أطيق ذلك . فقبض الله ارواحهم في ذلك اليوم . وفيه كمال الحكمة فإن العزة في القلة ومنه تظهر فائدة الخاتمة وعموم رسالته ، وفيه تأديب الخواص وعصمتهم عن رؤية الأعمال . فلا تطع كفار النفس وسائر القوى البدنية ﴿ وجاهدهم ﴾ بهذا الخلاق ﴿ جهاداً كبيراً ﴾ لا تواسيهم بالرخص ولكن يحملهم على العزائم ﴿ وهو الذي مرج ﴾ بحر الروح وبحر النفس ﴿ هذا عذب فرات ﴾ من الأخلاق الحميدة الربانية ﴿ وهذا ملح أجاج ﴾ من الصفات الذميمة الحيوانية . والرزخ هو القلب . وفائدة مرج الأجاج هو احتياج الإنسان إلى الأخلاق الذميمة لدفع المضرات الدنيوية والأخروية في مقامها . وحرام على الروح أن تكون منشأ الأخلاق الذميمة ، وعلى النفس أن تكون معدن الأخلاق الحميدة ﴿ فجعله نسباً وصهراً ﴾ أهل النسب هم الذين صحت نسبتهم إلى عالم الأمر وهو قوله ﴿ ونفخت فيه من روحي ﴾ [ص : 72] وأهل الصهر هم الذين بقوا في عالم الخلق واختلطوا بالصفات البشرية من الحرص والشهوة والغضب ، وأشار إلى هذا الصنف بقوله : ﴿ ويعبدون من دون الله ﴾ [يونس : 18] الآية وكان كافر النفس على ربه ظهيراً في إظهار صفة قهره لأنه مظهرها ﴿ وما أرسلناك إلا مبشراً ﴾ لأهل النسب ﴿ ونذيراً ﴾ لأهل الصهر إلا من شاء إلا أجر من شاء أن

يتوسل إلى الرب بطاعته إياي وبخدمته لي . ومن ههنا قال المشايخ : يصل المريد بالطاعة إلى الجنة وبتعظيم الشيخ وإجلاله إلى الله . ﴿ وتوكل ﴾ اصل التوكل أن يعلم العبد أن الحادثات بأسرها مستندة إلى تكوين الله وتخليقه وهذا القدر من أصول الإيمان ﴿ وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين ﴾ [

(388/564)

المائدة : 23] وما زاد على هذا القدر من سكون القلب وزوال الانزعاج والاضطراب فإنه مقام أرباب الأحوال وأصحاب الكمال . ﴿ وسبح بحمده ﴾ أي بما حمد به نفسه كقوله " أنت أثنيت على نفسك "

(389/564)

والقديم لا يليق به إلا الحمد القديم ﴿ وزادهم نفوراً ﴾ لأن الرحمن أقبل عليهم بقهره ولو كان أقبل عليهم بلطفه لخضعوا واستكانوا . ﴿ تبارك الذي جعل ﴾ في سماء القلوب بروج المنازل والمقامات وهي اثنا عشر : التوبة والزهد والخوف والرجاء والتوكل والصبر

والشكر واليقين والإخلاص والتسليم والتفويض والرضا وهي منازل الأحوال السيارة شمس التجلي وقمر المشاهدة وزهرة الشوق ومشتري المحبة وعطارد الكشوف ومريخ الفناء وزحل البقاء . وهو الذي جعل ليل السر ونهار التجلي خلقة رعاية لحقوق القلب وحظوظ النفس ، إن اراد أن يتعظ عند السر أو اراد شكوراً عند التجلي ﴿ وعباد الرحمن ﴾ دون الشيطان والدنيا والهوى والنفس يمشون في أرض الوجود عند السير إلى الله هوناً لئلا يتاذى بإثارة غبار صفات بشريتهم أحد ﴿ وإذا خاطبهم الجاهلون ﴾ وهم كل ما سوى الله من الدنيا والآخرة وما فيهما من اللذة والنعيم ﴿ قالوا سلاما ﴾ سلام مودّع ﴿ والذين يبيتون لربهم ﴾ لا لحظ أنفسهم في الروح ساجدون وفي الصباح واجدون . وأحسن الأشياء ظاهر بالسجود وباطن في الوجود مزين ، ومع هذه الأحوال والمقامات يقفون في موقف الاعتذار والتذلل قائلين ﴿ ربنا اصرف عنا عذاب جهنم ﴾ القطيعة والبعد إذا أفنوا وجودهم في ذات الله وصفاته لم يبالغوا في الرياضة إلى حد تلف البدن ﴿ ولم يقتروا ﴾ في بذل الوجود بالركون إلى الشهوات ﴿ لا يدعون مع الله إلها آخر ﴾ بأن لا يرفعوا حوائجهم إلى الأغيار ، ولا يشوبون أعمالهم بالرياء والسمعة ولا يحبون مع الله غيره ﴿ ولا يقتلون النفس التي حرم الله ﴾ قتلها بكثرة المجاهدة إلا بسطوات تجلي صفات الحق في مثل هذا القتل حياة أبدية ﴿ ولا يزنون ﴾ بالتصرف في عجوز الدنيا بغير إذن الله ﴿ يضاعف له العذاب ﴾ وهو عذاب النيران وعذاب الحرمان عن نعيم الجنان

ومن قرب الرحمن ﴿ إلا من تاب ﴾ من عبادة الدنيا وهوى النفس . ﴿ وآمن ﴾ بكرامات الأولياء ومقامات الأصفياء ﴿ وعمل

(390/564)

عملاً صالحاً ﴾ هو الإعراض عن غير الله وهو الإكسير الأعظم الذي لو طرح ذرة منه على ملء الأرض سيئة يبدلها إبريز الحسنات . ﴿ ومن تاب ﴾ رجع عن إنانيته إلى هوية الحق ﴿ وعمل صالحاً ﴾ بالدوام على هذه الحالة ﴿ فإنه يتوب ﴾ يرجع ﴿ إلى الله متاباً ﴾ لا مزيد عليه وهو جذبة ﴿ ارجعي ﴾ [الفجر : 28] وحينئذ لا يشهد الزور اي لا يساكن غير الحق . ﴿ وإذا مرّوا باللغو ﴾ وهو ما سوى الحق لا يلتفت إليه . وإذا ذكر بآيات ربه تأمل فيها حق التأمل ودعا الله بأن يهب له من ازدواج الروح والجسد ومتولداتهما من القلب والنفس وملكات الأعمال الصالحة ما تقر به عين القلب وعين السر وعين الروح اي يتنور بنورها ، ويصير إذ ذاك مقتدى للمتقين لمتقي الجسد من مخالفات الشريعة ، ولمتقي النفس من الأوصاف الذميمة ولمتقي الروح عما سوى الله ، فيجزى الغرفة في مقام العندية بما صبر في البداية على التكاليف الشرعية ، وفي الوسط على تبديل الأخلاق الحميدة بالذميمة ، وفي النهاية بإفناء الوجود . ثم أخبر عن استغنائه عن وجود

الخلق وعدمهم لولا دعاؤهم إياه بلسان الحاجة في حس العدم ، أو لولا دعاؤه إياهم في الأزل بلسان القدرة ﴿ فقد كذبتم ﴾ حين ادعيتم الغنى عن الصانع ﴿ فسوف يكون ﴾ خسران السعادة الأبدية لازماً لكم أعاذنا الله منه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 5 صـ 258.260 ﴾

(391/564)

وقال الآلوسى :

ومن باب الإشارة : قيل في قوله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ مَّالِ هذا الرسول يَأْكُلُ الطعام وَيَمْشِى فِى الاسواق ﴾ [الفرقان : 7] إشارة قصور حال المنكرين على أولياء الله تعالى حيث شاركوهم في لوازم البشرية من الأكل والشرب ونحوهما وقالوا في قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً ﴾ [الفرقان : 20] إن وجه فتنته النظر إليه نفسه والغفلة فيه عن ربه سبحانه ، ويشعر هذا بأن كل ما سوى الله تعالى فتنة من هذه الحيثية .

وقال ابن عطاء في قوله تعالى : ﴿ وَقَدِمْنَا إلى مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَّنثُوراً ﴾ [الفرقان : 23] أطلعناهم على أعمالهم فطالعوها بعين الرضا فسقطوا من أعيننا بذلك وجعلنا أعمالهم هباءً منثوراً ، وهذه الآية وإن كانت في وصف الكفار لكن في الحديث أن

في المؤمنين من يجعل عمله هباءً كما تضمنته ، فقد أخرج أبو نعيم في الحلية والخطيب في المتفق والمفترق عن سالم مولى أبي حذيفة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ليجاءن يوم القيامة بقوم معهم حسنات مثل جبال تهامة حتى إذا جيء بهم جعل الله تعالى أعمالهم هباءً ثم قذفهم في النار ، قال سالم : بأبي وأمي يا رسول الله حل لنا هؤلاء القوم قال : كانوا يصومون ويصلون ويأخذون هنئة من الليل ولكن كانوا إذا عرض عليهم شيء من الحرام وثبوا عليه فادحض الله تعالى أعمالهم "

وذكر في قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظالم ﴾ [الفرقان : 27] الآية أن حكمه عام في كل متحابين على معصية الله تعالى .

(392/564)

وعن مالك بن دينار نقل الأحجار مع الأبرار خير من أكل الخبيص مع الفجار ، وفي قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً مِّنَ المجرمين ﴾ [الفرقان : 31] أنه يلزم من هذا مع قولهم كل ولي على قدم نبي أن يكون لكل ولي عدو يتظاهر بعدواته ، وفيه إشارة إلى سوء حال من يفعل ذلك مع أولياء الله تعالى .

ولذا قيل : إن عداوتهم علامة سوء الخاتمة والعياذ بالله تعالى ، وفي قوله تعالى : ﴿ الذين

يُحْشَرُونَ على وُجُوهِهِمْ إلى جَهَنَّمَ ﴾ [الفرقان : 34] إشارة إلى أنهم كانوا متوجهين إلى جهة الطبيعة ولذا حشروا منكوسين ، وفي قوله تعالى : ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ اتخذ إلهه هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً ﴾ [الفرقان : 43] إنه عام في كل من مال إلى هوس نفسه واتبعه فيما توجه إليه ، ومن هنا دقق العارفون النظر في مقاصد أنفسهم حتى إنهم إذا أمرتهم بمعروف لم يسارعوا إليه وتأملوا ماذا أرادت بذلك فقد حكي عن بعضهم أن نفسه لم تزل تحسه على الجهاد في سبيل الله تعالى فاستغرب ذلك منها لعلمه أن النفس أمارة بالسوء فأمعن النظر فإذا هي قد ضجرت من العبادة فأرادت الجهاد رجاء أن تقتل فتستريح مما هي فيه من النصب ولم تقصد بذلك الطاعة بل قصدت الفرار منها ، وقيل في قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إلى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظل ﴾ الآية أي ألم تر كيف مد ظل عالم الأجسام ﴿ وَلَوْ شَاء لَجَعَلَهُ سَاكِناً ﴾ [الفرقان : 45] في كتم العدم ثم جعلنا شمس عالم الأرواح على وجود ذلك الظل دليلاً بأن كانت محركة لها إلى غايتها المخلوقة هي لأجلها فعرف من ذلك أنه لولا الأرواح لم تخلق الأجساد ، وفي قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ قبضناه إِلَيْنَا قَبْضاً يَسِيراً ﴾ [الفرقان : 46] إشارة إلى أن كل مركب فإنه سينحل إلى بسائطه إذا حصل على كماله الأخير ؛ وبوجه آخر الظل ما سوى نور الأنوار يستدل به على صانعه الذي هو شمس عالم الوجود .

وهذا شأن الذاهبين من غيره سبحانه إليه عز وجل ، وفي قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَا ﴾ إشارة إلى مرتبة أعلى من ذلك وهي الاستدلال به تعالى على غيره سبحانه كقوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ على كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت : 53] وهذه مرتبة الصديقين .

وقوله سبحانه : ﴿ ثُمَّ قبضناه ﴾ كقوله تعالى : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ ﴾ [القصص : 88] ﴿ وَإِلاَّ إِلَى الله تَصِيرُ الامور ﴾ [الشورى : 53] وبوجه آخر الظل حجاب الذهول والغفلة والشمس شمس تجلي المعرفة من أفق العناية عند صباح الهداية ولو شاء سبحانه لجعله دائماً لا يزول ، وإنما يستدل على الذهول بالعرفان ، وفي قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ قبضناه ﴾ إشارة إلى أن الكشف التام يحصل بالتدريج عند انقضاء مدة التكليف ﴿ هُوَ الذى جَعَلَ لَكُمُ الليل لِبَاساً ﴾ تستترون به عن رؤية الأجانب لكم واطلاعهم على حالكم من التواجد وسكب العبرات ﴿ والنوم سُبَاتاً ﴾ راحة لأبدانكم من نصب المجاهدات

﴿ وَجَعَلَ النهار نُشُوراً ﴾ [الفرقان : 47] تنتشرون فيه لطلب ضروريا تكم ﴿ وَهُوَ الذى أَرْسَلَ الرياح ﴾ أي رياح الاشتياق على قلوب الأحباب ﴿ بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ ﴾ من التجليات والكشوف ﴿ وَأَنزَلْنَا ﴾ [الفرقان : 48] من سماء الكرم ماء حياة العرفان ﴿ لِّنُحْيِىَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتاً ﴾ أي قلوباً ميتة ﴿ وَنُسْقِيَهِ مِمَّا خَلَقْنَا أنعاما ﴾ وهم الذين غلبت عليهم الصفات الحيوانية يسقيهم سبحانه ليردهم إلى القيام بالعبادات ﴿ وَأَنَاسِىَّ كَثِيراً ﴾ [الفرقان : 49] وهم الذين سكنوا إلى رياض الأنس يسقيهم سبحانه من ذلك ليفطمهم عن مراضع الإنسانية إلى المشارب الروحانية ﴿ وَلَقَدْ صرفناه ﴾ أي القرآن الذي هو ماء حياة القلوب بينهم ﴿ لِّيَذْكُرُواْ ﴾ به موطنهم الأصلي ﴿ فأبى أَكْثَرُ الناس إِلاَّ كُفُوراً ﴾ [الفرقان : 50] بنعمة القرآن وما عرفوا قدرها ﴿ وَهُوَ الذى مَرَجَ البحرين ﴾ بحر الروح وبحر النفس ﴿ هذا ﴾ وهو بحر الروح ﴿ عَذْبٌ فُرَاتٌ ﴾ من الصفات الحميدة الربانية ، و﴿ هذا ﴾ وهو بحر النفس ﴿ مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾ من الصفات الذميمة الحيوانية ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً وَحِجْراً مَّحْجُوراً ﴾ [الفرقان : 53] فحرام على الروح أن يكون منشأ الصفات الذميمة وعلى النفس أن تكون معدن الصفات الحميدة .

وذكر أن البرزخ هو القلب ، وقال ابن عطاء : تلاطمت صفتان فتلاقيتا في قلوب الخلق فقلوب أهل المعرفة منورة بأنوار الهداية مضيئة بضياء الإقبال وقلوب أهل النكرة مظلمة بظلمات المخالفة معرضة عن سنن التوفيق وبينهما قلوب العامة ليس لها علم بما يرد عليها وما يصدر منها ليس معها خطاب ولا لها جواب ، وقيل : البحر العذاب إشارة إلى بحر الشريعة وعذوبته لما أن الشريعة سهلة لا حرج فيها ولا دقة في معانيها ولذلك صارت مورد الخواص والعوام ، والبحر الملح إشارة إلى بحر الحقيقة وملوحته لما أن الحقيقة صعبة المسالك لا يكاد يدرك ما فيها عقل السالك ، والبرزخ إشارة إلى الطريقة فإنها ليست بسهلة كالشريعة ولا صعبة كالحقيقة بل بين بين ﴿ تَبَارَكَ الذى جَعَلَ فِى السماء بُرُوجاً ﴾ [الفرقان : 61] قيل : هو إشارة إلى أنه سبحانه جعل في سماء القلوب بروج المنازل والمقامات وهي اثنا عشر التوبة والزهد .

والخوف .

والرجاء .

والتوكل .

والصبر .

والشكر .

واليقين .

والإخلاص والتسليم .

والتفويض .

والرضا وهي منازل الأحوال السيارة شمس التجلي وقمر المشاهدة وزهرة الشوق ومشترى المحبة وعطارد الكشوف ومريخ الفناء وزحل البقاء ﴿ وَعِبَادُ الرحمن الذين يَمْشُونَ على الأرض هَوْناً ﴾ بغير فخر ولا خيلاء لما شاهدوا من كبرياء الله تعالى وجلاله جل شأنه .

وذكر بعضهم أن هؤلاء العباد يعاملون الأرض معاملة الحيوان لا الجماد ولذا يمشون عليها هوناً ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجاهلون ﴾ وهم أبناء الدنيا ﴿ قَالُواْ سَلاَماً ﴾ [الفرقان : 63] أي سلامة من الله تعالى من شركم أو إذا خاطبهم كل ما سوى الله تعالى من الدنيا والآخرة وما فيهما من اللذة والنعيم وتعرض لهم ليشغلهم هما هم فيه ﴿ قَالُواْ سَلاَماً ﴾ سلام متاركة وتوديع

﴿ والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً ﴾ [الفرقان : 64] لما علموا أن الصلاة معراج المؤمن والليل وقت اجتماع المحب بالحبيب :

نهاري نهار الناس حتى إذا بدا . . .

لي الليل هزتني إليك المضاجع

أقضي نهاري بالحديث وبالمني . . .

ويجمعني والهم بالليل جامع

﴿ والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراماً ﴾ [الفرقان : 65] إشارة إلى مزيد خوفهم من القطيعة والبعد عن محبوبهم وذلك ما عنوه بعذاب جهنم لا العذاب المعروف فإن المحب الصادق يستعذبه مع الوصال ألا تسمع ما قيل :

فليت سليمي في المنام ضجيعتي . . .

في جنة الفردوس أو في جهنم

(397/564)

﴿ والذين إِذَا أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ ﴾ [الفرقان : 67] إشارة إلى أن فيوضاتهم حسب قابلية المفاض عليه لا يسرفون فيها بأن يفيضوا فوق الحاجة ولا يقترون بأن يفيضوا دون الحاجة أو إلى أنهم إذا أنفقوا وجودهم في ذات الله تعالى وصفاته جل شأنه لم يبالغوا في

الرياضة إلى حد تلف البدن ولم يقتروا في بذل الوجود بالركون إلى الشهوات ﴿ والذين لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إلها ءاخَرَ ﴾ برفع حوائجهم إلى الأغيار ﴿ وَلاَ يَقْتُلُونَ النفس التى حَرَّمَ الله ﴾ قتلها ﴿ إِلاَّ بالحق ﴾ أي إلا بسطوة تجلياته تعالى ﴿ وَلاَ يَزْنُونَ ﴾ [الفرقان : 68] بالتصرف في عجوز الدنيا ولا ينالون منها شيئاً إلا بإذنه تعالى ﴿ والذين لاَ يَشْهَدُونَ الزُّورَ ﴾ لا يحضرون مجالس الباطل من الأقوال والأفعال ﴿ وَإِذَا مَرُّواْ بِاللَّغْوِ ﴾ وهو ما لا يقربهم إلى محبوبهم ﴿ مروا كراماً ﴾ [الفرقان : 72] معرضين عنه ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بآيات رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمّاً وَعُمْيَاناً ﴾ [الفرقان : 73] بل أقبلوا عليها بالسمع والطاعة مشاهدين بعيون قلوبهم أنوار ما ذكروا به من كلام ربهم ﴿ والذين يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أزواجنا ﴾ من ازدوج معنا وصحبنا وذرايتنا الذين أخذوا عنا ﴿ قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ بأن يوفقوا للعمل الصالح ﴿ واجعلنا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً ﴾ [الفرقان : 74] وهم الفائزون بالفناء والبقاء الأتمين ﴿ أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الغرفة ﴾ وهو مقام العندية ﴿ بِمَا صَبَرُواْ ﴾ في البداية على تكاليف الشريعة ، وفي الوسط على التأدب بآداب الطريقة ، وفي النهاية على ما تقتضيه الحقيقة ﴿ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً ﴾ هي أنس الأسرار بالحي القيوم ﴿ وسلاما ﴾ [الفرقان : 75] وهو سلامة القلوب من طور القطيعة ﴿ خالدين فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً ﴾ [الفرقان : 76] لأنها مشهد

الحق ومحل رضا المحبوب المطلق ، نسأل الله تعالى أن يمن علينا برضائه ويمنحنا بسوابغ نعمائه وآلائه بحرمة سيد أنبيائه وأحب أحبائه صلى الله عليه وسلم وشرق قدره وعظم .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 19 صـ ﴾

(399/564)

فصل فى فوائد لغوية وإعرابية وبلاغية فى آيات السورة الكريمة :

سورة الفرقان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

تَبارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقانَ عَلى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعالَمِينَ نَذِيراً (1) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً (2)

الإعراب :

(على عبده) متعلّق بـ (نزّل) ، (اللام) للتعليل (للعالمين) متعلّق بالخبر (نذيرا) .

والمصدر المؤوّل (أن يكون . .) في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (نزّل) جملة : " تبارك الذي . . . " لا محلّ لها ابتدائيّة .

وجملة : " نزّل . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة : " يكون . . . نذيرا " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

(الذي) بدل من الموصول السابق في محلّ رفع "

، (له) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ (ملك) (الواو) عاطفة (ولدا) مفعول به ثان عامله يتّخذ ،

والمفعول الأول محذوف تقديره أحدا ، (له) الثاني متعلّق بخبر يكن (في الملك) متعلّق بـ

(شريك) (تقديرا) مفعول مطلق منصوب .

وجملة : " له ملك السموات . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) الثاني .

وجملة : " لم يتّخذ . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة له ملك السموات .

وجملة : " لم يكن له شريك . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة له ملك السموات .

وجملة : " خلق . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة له ملك السموات .

وجملة : " قدّره . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة خلق .

الفوائد

– الفعل الجامد :

أ– تبارك : فعل ماض جامد ، أي أنه مجرد عن الحدث والزمان . وهو يشبه الحرف ،

لفقدانه خواص الأفعال . وهو يلزم صورة واحدة ، مثل الحرف ، لا يزايلها . ومن تمام الفائدة

أن نتقدم للقارىء بهذه الأفعال الجامدة ، وهي :

عسى ، ليس ، هب ، نعم ، بئس ، هات ، تعال ، هلمّ ، قلّ ، طالما ، قصر ما ، كثر ما ، شدّ ما ، سقط في يده .

وبعض هذه الأفعال تلازم الماضي ، وبعضها تلازم المضارع ، وبعضها تختص بالأمر ، ولكل من هذه الأفعال خصائص أو ميزات أو شرائط في استعمالها . وكل ذلك تجده في المطولات من كتب النحو .

[سورة الفرقان (25) : آية 3]

وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلا نَفْعاً وَلا يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلا حَياةً وَلا نُشُوراً (3)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (من دونه) متعلّق بمحذوف مفعول به ثان عامله اتّخذوا (لا) نافية (الواو) عاطفة أو حالية ، والحروف الخمسة التالية عاطفة (لأنفسهم) متعلّق بـ (يملكون) أي لأجل أنفسهم (لا) زائدة لتأكيد النفي (نفعا) معطوف على (ضرّا) بالواو منصوب (لا) الأولى نافية ، والثانية والثالثة زائدتان لتأكيد النفي (حياة ، نشورا) معطوفان على (موتا)

منصوبان . .

جملة : "اتّخذوا . . . "لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : "لا يخلقون . . . "في محلّ نصب نعت لآلهة .

وجملة : "هم يخلقون . . . "في محلّ نصب معطوفة على جملة النعت "1" .

وجملة : "يخلقون . . . "في محلّ رفع خبر المبتدأ (هم) .

وجملة : "لا يملكون . . ضرا "في محلّ نصب معطوفة على جملة لا يخلقون .

وجملة : "لا يملكون موتا "في محلّ نصب معطوفة على جملة لا يخلقون .

الصرف :

(نشورا) ، مصدر سماعيّ للثلاثيّ نشر باب نصر ، وزنه فعول بضمّتين أي بثّا للأموات .

---

(1) أو في محلّ نصب حال من فاعل يخلقون .

[سورة الفرقان (25) : الآيات 4 إلى 5]

وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذا إِلاَّ إِفْكٌ افْتَراهُ وَأَعانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جاؤُ ظُلْماً وَزُوراً

(4) وَقالُوا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَها فَهِيَ تُمْلى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (5)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (إن) حرف نفي (هذا) مبتدأ (إلّا) للحصر (إفك) خبر مرفوع (عليه) متعلّق بـ (أعانه) ، (الفاء) عاطفة (قد) حرف تحقيق (ظلما) مفعول به منصوب " 1 "

. .

جملة : " قال الذين . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : "كفروا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " إن هذا إلّا إفك . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " افتراه . . . " في محلّ رفع نعت لإفك .

وجملة : " أعانه . . قوم " في محلّ رفع معطوفة على جملة افتراه .

وجملة : " قد جاؤوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

5 – (الواو) عاطفة (أساطير) خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو " 2 " ، (الفاء) عاطفة ، ونائب الفاعل لفعل (تملى) ضمير يعود على أساطير (عليه) متعلّق بـ (تملى) ، (بكرة ، أصيلا) ظرفان الثاني معطوف على الأول منصوبان متعلّقان بـ (تملى) .

وجملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة قال الذين كفروا .

وجملة : " (هي) أساطير . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " اكتتبها . . . " في محلّ نصب حال بتقدير قد .

---

(1) جاء وأتى قد يكونان متعدّيين . . أو هو منصوب على نزع الخافض ، ويجوز أن يكون مصدرا في موضع الحال . [. . . . .]

(2) أو هو مبتدأ خبره جملة اكتتبها .

(402/564)

وجملة : " هي تملى . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة اكتتبها " 1 " .

وجملة : " تملى . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (هي) .

الصرف :

(أعانه) ، فيه إعلال بالقلب فالألف في المجرد أصلها واو ، جاءت الواو بعد فتح قلبت ألفا " 2 " .

[سورة الفرقان (25) : آية 6]

قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كانَ غَفُوراً رَحِيماً (6)

الإعراب :

(في السموات) متعلّق بمحذوف مفعول ثان عامله يعلم (رحيما) خبر كان ثان منصوب .

جملة : " قل . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " أنزله الذي . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " يعلم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة : " إنّه كان . . . " لا محلّ لها تعليل لمقدّر أي : أخّر عقوبته ولم يعاجلكم بها ، إنّه كان . . .

وجملة : " كان غفورا . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

[سورة الفرقان (25) : الآيات 7 إلى 8]

وَقالُوا مالِ هذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْواقِ لَوْلا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً (7) أَوْ يُلْقى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْها وَقالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَسْحُوراً (8)

---

(1) أو لا محلّ لها تعليل لما سبق .

(2) (تملى) ، فيه إعلال بالقلب لمناسبة البناء للمجهول قلبت الياء ألفا لأنّ ما قبلها مفتوح وزنه تفعل بضم التاء وفتح العين .

الجدول ج 18 ، ص : 308

الإعراب :

(الواو) عاطفة (ما) اسم استفهام مبتدأ (لهذا) متعلّق بمحذوف خبر المبتدأ ما (في الأسواق) متعلّق بـ (يمشي) ، (لولا) حرف تحضيض وتقريع (إليه) متعلّق بـ (أنزل) ،

(الفاء) فاء السببيّة (يكون) مضارع ناقص منصوب بأن مضمرة بعد الفاء (معه) ظرف منصوب متعلّق بمحذوف خبر يكون " 1 " ، (نذيرا) حال من اسم يكون والعامل فيها الاستقرار الذي هو خبر .

والمصدر المؤوّل (أن يكون . . .) معطوف على مصدر مأخوذ من الطلب المتقدّم أي : هلّا كان نزول ملك فوجوده معه نذيرا .

جملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على استئناف متقدّم " 2 " .

وجملة : " ما لهذا الرسول " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " يأكل . . . " في محلّ نصب حال من الرسول " 3 " .

وجملة : " يمشي . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة يأكل .

وجملة : " أنزل إليه ملك) لا محلّ لها استئناف في حيّز القول .

وجملة : " يكون " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

8 - (أو) حرف عطف للتخيير (إليه) متعلّق بـ (يلقى) ، (له) متعلّق بخبر تكون (منها) متعلّق بـ (يأكل) ، (الواو) عاطفة (إن) حرف نفي (الّا) للحصر . .

---

(1) أو متعلّق بـ (نذيرا) على أنّه هو الخبر .

(2) في الآية (4) من هذه السورة .

(3) والعامل في الحال الاستقرار العامل في الجارّ .

وجملة : " يلقى إليه كنز " لا محلّ لها معطوفة على جملة أنزل . . .

وجملة : " تكون له جنّة . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أنزل .

وجملة : " يأكل . . . " في محلّ رفع نعت لجنّة .

وجملة : " قال الظالمون . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة قالوا . . .

وجملة : " تتّبعون " في محلّ نصب مقول القول .

الصرف :

(الأسواق) ، جمع سوق ، اسم لمكان البيع والشراء ، وزنه فعل بضمّ فسكون ، ويستوي فيه التذكير والتأنيث .

البلاغة

1 – الكناية : في قوله تعالى " وَقَالُوا مالِ هذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْواقِ " قوله " يَأْكُلُ الطَّعامَ " كناية عن الحدث ، لأنه ملازم أكل الطعام . وقوله " يَمْشِي فِي الْأَسْواقِ " كناية عن طلب المعاش .

2 – وضع الظاهر موضع المضمر : في قوله تعالى " وَقالَ الظَّالِمُونَ " .

وضع المظهر موضع ضميرهم ، تسجيلا عليهم بالظلم فيما قالوه ، لكونه إضلالا خارجا عن حد الضلال ، مع ما فيه من نسبته صلى اللّه عليه وآله وسلم إلى ما يشهد العقل والنقل ببراءته منه ، أو إلى ما لا يصلح أن يكون متمسكا لما يزعمون من نفي الرسالة .

[سورة الفرقان (25) : آية 9]

انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً (9)

(404/564)

الإعراب :

(كيف) اسم استفهام مبنيّ في محلّ نصب حال عاملها (ضربوا) ، (لك) متعلّق بـ (ضربوا) ، (الفاء) عاطفة في الموضعين (لا) نافية (سبيلا) مفعول به منصوب بتضمين الفعل معنى يملكون . .

جملة : " انظر . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " ضربوا . . . " في محلّ نصب مفعول به لفعل النظر المعلّق بالاستفهام كيف بتقدير الجار .

وجملة : " ضلّوا . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة ضربوا .

وجملة : " لا يستطيعون . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة ضلّوا .

[سورة الفرقان (25) : آية 10]

تَبارَكَ الَّذِي إِنْ شاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْراً مِنْ ذلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُوراً (10)

الإعراب :

(شاء) فعل ماض مبنيّ على الفتح في محلّ جزم فعل الشرط و(جعل) في محلّ جزم جواب الشرط (لك) متعلّق بمحذوف مفعول ثان (من ذلك) متعلّق بـ (خيرا) ، (جنّات) بدل من (خيرا) منصوب وعلامة النصب الكسرة (من تحتها) متعلّق بـ (تجري) بحذف مضاف أي من تحت أشجارها " 1 " ، (الواو) عاطفة (يجعل) مضارع مجزوم معطوف على محلّ جعل (لك) الثاني متعلّق بمفعول ثان عامله يجعل .

جملة : " تبارك الذي . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " إن شاء جعل . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة : " جعل . . . " لا محلّ لها جواب شرط جازم غير مقترنة بالفاء .

وجملة : " تجري . . . الأنهار " في محلّ نصب نعت لجنّات .

وجملة : " يجعل . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جعل . .

---

(1) أو متعلّق بحال من الأنهار .

[سورة الفرقان (25) : الآيات 11 إلى 14]

بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيراً (11) إِذا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَها تَغَيُّظاً وَزَفِيراً (12) وَإِذا أُلْقُوا مِنْها مَكاناً ضَيِّقاً مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنالِكَ ثُبُوراً (13) لا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُوراً واحِداً وَادْعُوا ثُبُوراً كَثِيراً (14)

الإعراب :

(بل) للإضراب الانتقاليّ (بالسّاعة) متعلّق بـ (كذّبوا) ، (الواو) واو الحال (لمن) متعلّق بـ (أعتدنا) " 1 " (بالساعة) الثاني متعلّق بـ (كذّب) ، (سعيرا) مفعول به عامله أعتدنا .

جملة : "كذّبوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " أعتدنا . . . " في محلّ نصب حال بتقدير (قد) .

وجملة : "كذّب . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

12 - (من مكان) متعلّق بـ (رأتهم) ، (لها) متعلّق بـ (سمعوا) " 2 " .

وجملة : " رأتهم . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " سمعوا . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

13 - (الواو) عاطفة ، و(الواو) في (ألقوا) نائب الفاعل للمبنيّ للمجهول ألقوا (منها) متعلّق بحال من (مكانا) وهو ظرف مكان منصوب متعلّق بـ (ألقوا) ، (مقرّنين) حال منصوبة من الواو في (ألقوا) ، (دعوا) فعل ماض مبنيّ على الضمّ المقدّر على الألف المحذوفة لالتقاء الساكنين . . و(الواو) فاعل

---

(1) أو متعلّق بحال من (سعيرا) .

(2) أو متعلّق بحال من (تغيّظا) .

(هنا لك) اسم إشارة في محلّ نصب ظرف مكان متعلّق بـ (دعوا) ، (ثبورا) مفعول به منصوب " 1 " .

وجملة : " ألقوا . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " دعوا . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

14 - (لا) ناهية جازمة (اليوم) ظرف زمان منصوب متعلّق بـ (تدعوا) . . .

وجملة : " لا تدعوا . . . " في محلّ نصب مقول القول لقول مقدّر أي تقول لهم الملائكة . . .

(1) أو هو مفعول مطلق نائب عن المصدر لأنه مبيّن لنوعه أي دعاء الثبور .

(407/564)

وجملة : " ادعوا . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة لا تدعوا .

الصرف :

(تغيّظا) ، مصدر قياسيّ لفعل تغيّظ الخماسيّ ، وزنه تفعّل بفتح التاء وضمّ العين المشدّدة .

(ألقوا) ، فيه إعلال بالحذف أصله ألقيوا – بضم الياء – نقلت حركة الياء إلى القاف – إعلال بالتسكين – ثمّ حذفت الياء لالتقائها ساكنة مع واو الجماعة ، فأصبح ألقوا ، وزنه أفعوا .

(ثبورا) ، مصدر سماعيّ لفعل ثبر يثبر باب نصر بمعنى هلك ، وزنه فعول بضمّتين .

البلاغة

الاستعارة : في قوله تعالى " إِذا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَها تَغَيُّظاً وَزَفِيراً " .

قيل : إن قوله تعالى " رأتهم " من

قوله صلى اللّه عليه وآله وسلم : إن المؤمن والكافر لا تتراءى ناراهما ،

وقولهم : دورهم تتراءى وتتناظر ، كأن بعضهم يرى بعضا ، على سبيل الاستعارة بالكناية والمجاز المرسل . ويجوز أن يكون من باب التمثيل ، وأيا ما كان ، فالمراد إذا كانت بمرأى منهم ، وقوله سبحانه : " سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظاً " على تشبيه صوت غليانها بصوت المغتاظ وزفيره ، وفيه استعارة تصريحية أو مكنية ، ويجوز أن تكون تمثيلية .

الفوائد

1 – رأي السنّة في مشاهد القيامة :

أ – قالوا : لو فتح باب التأويل والمجاز في شؤون المعاد لتطوح من يسلك ذلك إلى وادي الضلالة . وأجابوا عن سماع تغيظ جهنم بما يلي :

1 – إنه على حذف مضاف أي سمعوا صوت تغيظها .

2 – إنه على حذف فعل تقديره " سمعوا ورأوا تغيظا وزفيرا " .

3 – أن يضمّن " سمعوا " معنى يشمل الأمرين ، أي " أدركوا " لها تغيظا وزفيرا .

أما قوله تعالى رأتهم هو من باب القلب ، أي رأوها .

ب – أما رأي المعتزلة فإنهم يحملون ذلك كله على المجاز . والله أعلم .

2 – فعل الشرط وجواب الشرط :

أ – قد يكونان مضارعين ، نحو " وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ " .

ب - وقد يكونان ماضيين ، نحو " وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنا " .

ج - يكونان ماضيا فمضارعا ، أو مضارعا فماضيا .

ملاحظة : إذا وقع فعل الشرط ماضيا جاز في جوابه الجزم والرفع .

[سورة الفرقان (25) : الآيات 15 إلى 17]

قُلْ أَذلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كانَتْ لَهُمْ جَزاءً وَمَصِيراً (15) لَهُمْ فِيها ما يَشاؤُنَ خالِدِينَ كانَ عَلى رَبِّكَ وَعْداً مَسْؤُلاً (16) وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَما يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبادِي هؤُلاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ (17)

الإعراب :

(الهمزة) للاستفهام التقريعيّ (أم) حرف عطف - هي المتّصلة - (جنّة) معطوف على اسم الإشارة المبتدأ (التي) اسم موصول مبنيّ في محلّ رفع نعت لـ (جنّة) ، (المتّقون) نائب الفاعل لفعل (وعد) ، والعائد محذوف أي وعدها المتّقون (لهم) متعلّق بـ (جزاء) خبر كانت " 1 " .

جملة : " قل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " أذلك خير . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " وعد المتّقون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (التي) .

وجملة : "كانت لهم جزاء . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

16 – (لهم) الثاني متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ (ما) ، (فيها) متعلّق بالخبر المحذوف (خالدين) حال منصوبة من فاعل يشاءون (على ربّك) متعلّق بحال من خبر كان (وعدا) ، واسم كان يعود على الوعد المفهوم من سياق الكلام " 2 " .

وجملة : " لهم فيها ما يشاءون " لا محلّ لها استئناف بيانيّ آخر .

وجملة : " يشاءون " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : "كان . . وعدا . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

17 – (الواو) عاطفة (يوم) مفعول به لفعل محذوف تقديره اذكر (الواو) الثانية عاطفة " 3 " (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب معطوف على ضمير المفعول في (يحشرهم) ، (من دون) متعلّق بحال من العائد المحذوف أي : يعبدونه (الفاء) عاطفة (الهمزة) للاستفهام (هؤلاء) اسم إشارة مبنيّ في محلّ نصب نعت لعبادي – أو بدل – (أم) هي المنقطعة بمعنى بل والهمزة . .

وجملة : " (اذكر) يوم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الاستئناف قل .

---

(1) أو متعلّق بحال من جزاء – نعت تقدّم على المنعوت – .

(2) يجوز أن يعود على الموصول ما يشاءون .

(3) قيل هي واو المعيّة و(ما) مفعول معه في محلّ نصب .

(409/564)

وجملة : " يحشرهم " في محلّ جرّ مضاف إليه وجملة : " يعبدون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " يقول . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة يحشرهم .

وجملة : " أأنتم أضللتم . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " أضللتم . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (أنتم) .

وجملة : " هم ضلّوا . . . " لا محلّ لها استئناف في حيّز القول .

وجملة : " ضلّوا . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (هم) .

الفوائد

- ورد سؤال حول قوله تعالى : " أَذِلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ " .

وفحوى السؤال : كيف يجري التفضيل بين ما هو كلمة خير وبين ما هو كلمة شر ؟ .

وجاء الجواب ، أن الآية ليست من باب التفضيل ، وإنما السؤال عن أيهما هو الخير وأيهما هو

الشر . ومن البديهي أن الاستفهام ليس مساقا على حقيقته ، وإنما هو للتنديد والتعريض بجهل المشركين وعدم تفريقهم بين الخير والشر .

[سورة الفرقان (25) : آية 18]

قالُوا سُبْحانَكَ ما كانَ يَنْبَغِي لَنا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِياءَ وَلكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآباءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكانُوا قَوْماً بُوراً (18)

الإعراب :

(410/564)

(سبحانك) مفعول مطلق لفعل محذوف (لنا) متعلّق بـ (ينبغي) ، (من دونك) متعلّق بمحذوف مفعول به ثان (أولياء) مجرور لفظا منصوب محلّا مفعول به أوّل وعلامة الجرّ الفتحة لامتناعه من الصرف فهو

ملحق بالاسم المنتهي بألف التأنيث الممدودة (الواو) عاطفة (لكن) حرف للاستدراك (حتّى) حرف غاية وجرّ . .

والمصدر المؤوّل (أن نتّخذ . . .) في محلّ رفع فاعل ينبغي . . واسم كان ضمير مستتر وجوبا تقديره هو يعود على المصدر المؤوّل على سبيل التنازع .

والمصدر المؤوّل (أن نسوا . . .) في محلّ جرّ بـ (حتّى) متعلّق بـ (متّعتهم) .

جملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " (نسبّح) سبحانك . . . " لا محلّ لها اعتراضيّة دعائيّة .

وجملة : " ما كان ينبغي . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " ينبغي . . . " في محلّ نصب خبر كان .

وجملة : " نتّخذ . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة : " متّعتهم . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول .

وجملة : " نسوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

وجملة : " كانوا قوما . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة نسوا .

الصرف :

(بورا) ، جمع بائر أي هالك ، اسم فاعل من الثلاثيّ بار ، وزنه فاعل ، ووزن بور فعل بضمّ فسكون كعائذ وعوذ ، وقيل هو مصدر في الأصل يستوي فيه المفرد والمثنى والجمع والمذكّر والمؤنّث كالبوار بمعنى الهلاك أو بمعنى الفساد ، وهو من قولهم أرض بور أي لا نبات فيها .

الفوائد

- " لكن " :

" لكن " لها معنيان : الاستدراك ، نحو " فلان شجاع لكنه بخيل " ، والتوكيد ، نحو : لو جاءني خليل لأكرمته ، لكن لم يجيء .

(411/564)

و لتمام الفائدة نقول : لكن حرف مشبه بالفعل وسميت " إنّ وأخواتها " أحرفا مشبهة بالفعل ، لفتح أواخرها من جهة ، ووجود معنى الفعل في كل واحد منها ، فالتأكيد والتشبيه والاستدراك والتمني والترجي هي من معاني الأفعال .

[سورة الفرقان (25) : آية 19]

فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِما تَقُولُونَ فَما تَسْتَطِيعُونَ صَرْفاً وَلا نَصْراً وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذاباً كَبِيراً (19)

الإعراب :

(الفاء) استئنافيّة (قد) حرف تحقيق (ما) حرف مصدريّ " 1 " ، (الفاء) عاطفة و(ما) الثاني للنفي (لا) زائدة لتأكيد النفي . .

والمصدر المؤوّل (ما تقولون . . .) في محلّ جرّ بالباء متعلّق بـ (كذّبوكم) .

(الواو) استئنافيّة (منكم) متعلّق بحال من فاعل يظلم " 2 " ، (عذابا) مفعول به ثان

منصوب .

جملة : "كذّبوكم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " تقولون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) .

وجملة : " تستطيعون . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : " من يظلم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يظلم . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) " 3 " .

وجملة : " نذقه . . . " لا محلّ لها جواب الشرط غير مقترنة بالفاء .

---

(1) أو اسم موصول في محلّ جرّ ، والعائد محذوف ، والجملة صلة . [. . . . .]

(2) أو تمييز للشرط (من) .

(3) يجوز أن يكون الخبر جملتي الشرط والجواب معا .

الصرف :

(صرفا) ، مصدر سماعيّ لفعل صرف باب ضرب بمعنى ردّ ودفع ، وزنه فعل بفتح فسكون .

[سورة الفرقان (25) : آية 20]

وَما أَرْسَلْنا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْواقِ وَجَعَلْنا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكانَ رَبُّكَ بَصِيراً (20)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (ما) نافية (قبلك) ظرف منصوب متعلّق بـ (أرسلنا) ، (من المرسلين) مفعول به مجرور لفظا منصوب محلّا " 1 " ، وعلامة الجر الياء (إلّا) أداة حصر (اللام) لام المزحلقة للتوكيد (في الأسواق) متعلّق بـ (يمشون) ، (لبعض) متعلّق بحال من فتنة (الهمزة) للاستفهام وفيه معنى الأمر " 2 " ، (الواو) حالية جملة : " أرسلنا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " إنّهم ليأكلون . . . " في محلّ نصب حال من المرسلين .

وجملة : " يأكلون . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " يمشون . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة يأكلون .

وجملة : " جعلنا . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : " تصبرون . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

---

(1) أو متعلّق بنعت للمفعول المقدّر أي عددا من المرسلين .

(2) أو هو لمجرّد الاستفهام .

الجدول ج 18 ، ص : 319

وجملة : "كان ربّك بصيرا " في محلّ نصب حال من فاعل تصبرون والرابط مقدّر أي بكم .

الفوائد

- توالي التوكيدات :

في هذه الآية تتوالى التوكيدات ، لتقرير شأن المرسلين ، وأنهم بشر كغيرهم من الناس يتمتعون بصفات البشر سائرها .

أولا : ساق الآية مساق الحصر بـ " ما وإلا " ، ثم أتبع ذلك بمؤكد آخر وهو " إن " .

ثم جاء باللام ، في خبر " إنّ " ، وهذه اللام عملها التوكيد .

وهكذا نجد أن الأسلوب القرآني كثيرا ما يعمد إلى التوكيد ، لتقرير المعاني والأفكار المساقة إلى المشركين لعلهم يوقنون . . وقد نوهنا بذلك من قبل .

انتهى المجلد التاسع ، ويليه المجلد العاشر

الجدول ج 19 ، ص : 5

الجزء التّاسع عشر

بقية سورة الفرقان

من الآية 21 إلى الآية 77 سورة الشّعراء آياتها 227 آية سورة النّمل من الآية 1 إلى الآية

[سورة الفرقان (25) : آية 21]

(413/564)

وَقالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرى رَبَّنا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيراً (21)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (لا) نافية (لولا) حرف تحضيض

(علينا) متعلّق بـ (أنزل) ، (الملائكة) نائب فاعل للمجهول أنزل (أو) حرف عطف (اللام) لام القسم لقسم مقدّر (قد) حرف تحقيق (في أنفسهم) متعلّق بـ (استكبروا) بحذف مضاف أي في شأن أنفسهم " 1 " ، (عتوا) مفعول مطلق منصوب .

وجملة : " قال الذين . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " لا يرجون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " لولا أنزل . . . الملائكة " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " نرى . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة أنزل . .

وجملة: "استكبروا . . . "لا محلّ لها جواب القسم المقدّر . . .

وجملة القسم المقدّرة استئنافيّة . .

وجملة: "عتوا . . . "لا محلّ لها معطوفة على جملة استكبروا .

الصرف:

(عتوّا) ، مصدر سماعيّ لفعل عتا الثلاثيّ ، وزنه فعول بضمّتين ، وجاءت واو فعول مدغمة مع لام الكلمة .

[سورة الفرقان (25) : آية 22]

يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلائِكَةَ لا بُشْرى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْراً مَحْجُوراً (22)

الإعراب:

(يوم) مفعول به لفعل محذوف ، تقديره اذكر ، والضمير في (يرون) يعود على الذين لا يرجون لقاء اللّه (لا) نافية للجنس (بشرى) اسم لا مبنيّ على الفتح المقدّر على الألف في محلّ نصب (يومئذ)

---

(1) والمعنى أنّهم أصرّوا الاستكبار في أنفسهم .

ظرف مضاف إلى ظرف منصوب متعلّق بخبر لا ، والتنوين عوض من محذوف أي يوم إذ يرون الملائكة (للمجرمين) متعلّق بخبر لا (الواو) عاطفة (حجرا) مفعول مطلق لفعل محذوف " 1 " ، (محجورا) نعت لحجر منصوب وهو مؤكّد للمعنى .

جملة : " يرون . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " لا بشرى . . . " في محلّ نصب مقول القول لقول مقدر ، أي يقولون لا بشرى . . .

وجملة القول المقدّرة في محلّ نصب حال من الملائكة .

وجملة : " يقولون . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة يرون الملائكة .

وجملة : " حجرا . . . " في محلّ نصب مقول القول .

الصرف :

(محجورا) ، اسم مفعول من الثلاثي حجر وزنه مفعول .

[سورة الفرقان (25) : آية 23]

وَقَدِمْنا إِلى ما عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْناهُ هَباءً مَنْثُوراً (23)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (إلى ما) متعلّق بـ (قدمنا) (من عمل) متعلّق بحال من العائد المحذوف أي إلى ما عملوه من عمل " 2 " ، (هباء) مفعول به ثان عامله جعلناه .

جملة : " قدمنا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " عملوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " جعلناه . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة قدمنا .

---

(1) قيل هذا المصدر لا يظهر ناصبه ولا يتصرّف فيه .

(2) يجوز أن يكون تمييزا للموصول (ما) .

الجدول ج 19 ، ص : 8

الصرف :

(هباء) ، اسم جمع لما يرى في أشعة الشمس من غبار وغيره ، واحدته هباءة ، والهمزة منقلبة عن واو أصله هباو ، تطرّفت بعد ألف ساكنة قلبت همزة .

(منثورا) ، اسم مفعول من نثر الثلاثيّ ، وزنه مفعول .

البلاغة

الاستعارة التمثيلية : في قوله تعالى " وَقَدِمْنا إِلى ما عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْناهُ هَباءً مَنْثُوراً " . حيث مثلت حال هؤلاء الكفرة ، وحال أعمالهم التي عملوها في كفرهم ، بحال قوم خالفوا سلطانهم ، واستعصوا عليه ، فقدم إلى أشيائهم ، وقصد إلى ما تحت أيديهم ، فأفسدها وجعلها شزر مزر ، ولم يترك لها من عين ولا أثر واللفظ المستعار وقع فيه استعمال - قدم - بمعنى عمد وقصد لاشتهاره فيه ، ويسمى القصد الموصل إلى المقصد قدوما لأنه مقدمته وتضمن التمثيل تشبيه أعماله المحبطة بالهباء المنثور بدون استعارة .

[سورة الفرقان (25) : آية 24]

أَصْحابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلاً (24)

الإعراب :

(يومئذ) ظرف منصوب متعلّق بالخبر (خير) ، (مستقرّا) تمييز منصوب . . .

جملة : " أصحاب الجنّة . . . خير " لا محلّ لها استئنافيّة .

الصرف :

(مقيلا) ، اسم مكان من قال يقيل بمعنى استراح في نصف النهار ، باب ضرب ، وفيه إعلال بالتسكين أصله مقيل - بسكون القاف وكسر الياء - سكنت الياء لثقل الكسرة عليها ونقلت حركتها إلى القاف قبلها وزنه مفعل .

البلاغة

الاستعارة : في قوله تعالى " وَأَحْسَنُ مَقِيلًا " .

المقيل : في الأصل مكان القيلولة - وهي النوم نصف النهار - ونقل من ذلك إلى مكان التمتع بالأزواج ، لأنه يشبهه في كون كل منهما محل خلوة واستراحة ، فهو استعارة وقيل : أريد به

مكان الاسترواح مطلقا ، استعمالا للمقيد في المطلق ، فهو مجاز مرسل وإنما لم يبق على الأصل ، لما أنه لا نوم في الجنة أصلا .

[سورة الفرقان (25) : آية 25]

وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّماءُ بِالْغَمامِ وَنُزِّلَ الْمَلائِكَةُ تَنْزِيلاً (25)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (يوم) مفعول به لفعل محذوف تقديره اذكر (تشقق) مضارع مرفوع محذوف منه إحدى التاءين (بالغمام) متعلّق بـ (تشقّق) والباء سببيّة " 1 " ، (تنزيلا) مفعول مطلق منصوب .

جملة : " تشقّق السماء . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " و نزّل الملائكة . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة تشقّق .

[سورة الفرقان (25) : آية 26]

الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمنِ وَكانَ يَوْماً عَلَى الْكافِرِينَ عَسِيراً (26)

الإعراب :

(يومئذ) متعلّق بالملك فهو مصدر " 2 " ، (الحقّ) نعت للملك " 3 " ، (للرحمن) متعلّق بخبر المبتدأ (الواو) عاطفة واسم (كان) ضمير مستتر يعود على اليوم المتقدّم (يوما) خبر كان منصوب (على

(1) يجوز أن تكون الباء للملابسة فالجارّ والمجرور متعلّق بحال .

(2) أو هو ظرف للاستقرار الخبر الذي تعلّق به (للرحمن) .

(3) أو هو خبر المبتدأ (الملك) ، وللرحمن متعلّق بالحقّ أو بحال منه .

(416/564)

الكافرين) متعلّق بـ (عسيرا) وهو نعت لـ (يوما) منصوب .

وجملة : " الملك . . . للرحمن " . . . لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : "كان يوما . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

[سورة الفرقان (25) : الآيات 27 إلى 29]

وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلى يَدَيْهِ يَقُولُ يا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً (27) يا وَيْلَتى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاناً خَلِيلاً (28) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جاءَنِي وَكانَ الشَّيْطانُ لِلْإِنْسانِ خَذُولاً (29)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (يوم يعضّ) مثل (يوم تشقّق) " 1 " ، (على يديه) متعلّق بـ (يعض) ،

وعلامة الجرّ الياء (يا) أداة تنبيه (ليتني) حرف مشبّه بالفعل للتمنّي ، والنون للوقاية ، والياء

اسم ليت (مع) ظرف منصوب متعلّق بمحذوف مفعول ثان عامله اتّخذت .

جملة : " اذكر " يوم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يعضّ الظالم . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " يقول . . . " في محلّ نصب حال من الظالم .

وجملة : " ليتني اتّخذت . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " اتّخذت " في محلّ رفع خبر ليت .

(يا) أداة نداء وتحسّر (ويلتا) منادى متحسّر به من نوع المضاف " 2 " منصوب وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على ما قبل الألف ، والألف المنقلبة عن ياء مضاف إليه (خليلا) مفعول به ثان منصوب . . .

---

(1) في الآية (25) من هذه السورة .

(2) يجوز أن يعرب (ويلتا) مفعولا مطلقا لفعل محذوف غير مستعمل في اللغة ، وحينئذ تكون (يا) أداة تنبيه .

وجملة : " النداء والتحسّر . . . " لا محلّ لها استئناف في حيّز القول .

وجملة : " ليتني . . . " لا محلّ لها جواب النداء " 1 " .

وجملة : " لم أتّخذ . . . " في محلّ رفع خبر ليت .

(اللام) لام القسم لقسم مقدّر (قد) حرف تحقيق (عن الذكر) متعلّق بـ (أضلّني) ، (بعد) ظرف زمان منصوب متعلّق بـ (أضلّني) ، (إذ) اسم ظرفيّ في محلّ جر مضاف إليه (الواو) استئنافيّة (للإنسان) متعلّق بـ (خذولا) .

وجملة : " أضلّني . . . " لا محلّ لها جواب القسم . . . وجملة القسم المقدّرة لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة : " جاءني . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " كان الشيطان خذولا " لا محلّ لها استئنافيّة .

الصرف :

(فلانا) اسم كناية عن علم من يعقل وزنه فعال بضمّ الفاء ، فإذا عرّف بـ (ال) كان كناية عن غير العاقل . وجاء في المحيط : " قد يقال للواحد يا فل وللاثنين يا فلان – بكسر النون – وللجمع يا فلون بضمّتين وفتح . . . ومنع سيبويه أن يقال فل ويراد فلان إلّا في الشعر . . . " اه .

(خذولا) ، صيغة مبالغة من الثلاثيّ خذل ، وزنه فعول بفتح الفاء .

البلاغة

الكناية : في قوله تعالى " وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ " .

عض اليدين والأنامل وأكل البنان وحرق الأسنان ونحوها ، كنايات عن الغيظ والحسرة ، لأنها من روادفهما .

---

(1) يجوز أن تكون استئنافيّة مؤكّدة لجملة ليتني الأولى ، وتكون جملة يا ويلتا اعتراضيّة للدعاء .

الفوائد

1 - قوله تعالى " يا وَيْلَتَى لَيْتَنِي " .

- المندوب المضاف لياء المتكلم : إذا ندب المضاف إلى ياء المتكلم ، نحو " يا ويلتي " أو نودي ، جاز فيه ست لغات .

أ - حذف الياء والاكتفاء بالكسرة ، وهو الأجود والأكثر ورودا في القرآن الكريم ، نحو " يا عِبادِ فَاتَّقُونِ " . وهكذا يجري على المنادي ما يجري على المندوب .

ب - ثبوت الياء ساكنة ، نحو يا عبادي لا خوف عليكم . أيضا هذا المثال على المنادي .

ج – ثبوت الياء مفتوحة ، نحو قُلْ يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا .

د – قلب الكسرة فتحة والياء ألفا ، نحو " يا ويلتا " كما في الآية التي نحن بصددها ، ويا حسرتا .

ه – حذف الألف المنقلبة عن الياء ، وبعبارة أخرى حذف الياء المنقلبة ألفا ، والاكتفاء بالفتحة ، كقول الشاعر :

ولست براجع ما فات مني بلهف ولا بليت ولا لوّني

أصله " بقولي يا لهف " .

و – ضمّ الآخر ، بغية الإضافة ، كما تضمّ المفردات . ويكثر ذلك فيما يغلب فيه ألّا ينادى إلا مضافا ، مثل " الأب والابن والأم والرب " ورد قولهم " يا أمّ لا تفعلي " وقرأ بعضهم : " رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ " بالرفع .

ونضيف إلى هذه اللغات الست التي ذكرناها .

أ – أن تعوّض تاء التأنيث من ياء المتكلم المحذوفة وتكسر ، وهو الأكثر ، أو تفتح ، أو تضم . وقد قرئ بالثلاثة في قوله تعالى يا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً ب – وقد يجمع بين التاء والألف المبدلة من الياء ، على قلة ، نحو " يا أبتا ويا أمتا " . ومنه المثال الذي نحن في صدده " يا وَيْلَتى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاناً خَلِيلاً . . . " وفيه جمع بين العوض والمعوض .

الجدول ج 19 ، ص : 13

2 -

من روائع الحديث في وصف غناء الحور العين قوله (صلّى اللّه عليه وسلّم) فيما يرويه عنه ابن عمر رضي اللّه عنهما ، قال : قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وسلّم) : إن أزواج أهل الجنة يغنين أزواجهن بأحسن أصوات ، ما سمعها أحد قط . إنّما يغنين به : " نحن الخيّرات الحسان أزواج قوم كرام ، ينظرن بقرة أعيان "

فائدة :

أ - " فلان " كناية عن علم من يعقل .

ب - " و فل " كناية عن نكرة من يعقل من الذكور .

ج - وفلانة : كناية عن علم من يعقل من الإناث .

د - وفلة ، كناية عن نكرة من يعقل من الإناث .

(419/564)

ه - والفلان والفلانة ، معرفين بالألف واللام ، كناية عن غير العاقل . فتأمّل .

[سورة الفرقان (25) : آية 30]

وَقالَ الرَّسُولُ يا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً (30)

الإعراب :

(ربّ) منادى مضاف منصوب وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على ما قبل الياء المحذوفة ، والياء مضاف إليه ، وعلامة النصب في (قومي) الفتحة المقدّرة على ما قبل الياء

(القرآن) بدل من اسم الإشارة - أو عطف بيان - منصوب (مهجورا) مفعول به ثان منصوب .

جملة : " قال الرسول . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " النداء وجوابه . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " إنّ قومي اتّخذوا . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " اتّخذوا . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

الصرف :

(مهجورا) ، اسم مفعول من هجر الثلاثيّ ، وزنه مفعول .

[سورة الفرقان (25) : آية 31]

وَكَذٰلِكَ جَعَلْنا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفى بِرَبِّكَ هادِياً وَنَصِيراً (31)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (كذلك) متعلّق بمحذوف مفعول مطلق عامله جعلنا ، والإشارة إلى جعل العدوّ للنبيّ " 1 " ، (لكلّ) متعلّق بمفعول به ثان (من المجرمين) متعلّق بنعت لـ (عدوّا)

، (الواو) استئنافيّة (ربّك) مجرور لفظا مرفوع محلا فاعل كفى (هاديا) حال منصوبة من ربّك " 2 " .

جملة : " جعلنا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " كفى بربّك . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

الفوائد

- زيادة أحرف الجر :

يزاد من أحرف الجر " من والباء والكاف واللام . . . " ، وبما أنه ورد في هذه الآية قوله تعالى " وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِياً " فسوف نذكر لك مواضع زيادة الباء سماعا أو قياسا ، ذلك أن الباء أكثر أحرف الجر زيادة ، وهي تزاد في النفي والإثبات ، وزيادتها تكون في خمسة مواضع :

---

(1) يجوز أن تكون الكاف بمعنى مثل في محلّ نصب مفعول مطلق نائب عن المصدر فهو صفته . [. . . . .]

(2) أو تمييز منصوب .

أ – في فاعل "كفى" ، نحو الآية التي نحن في صددها ، نحو قوله تعالى وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا كَفَى بِاللَّهِ نَصِيراً .

ب – وفي المفعول به "سماعا . . . " ، نحو قولهم : "أخذت بزمام الفرس . . . " ومنه قوله تعالى :

وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وقوله وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ إلخ ومنه زيادتها في مفعول " كفى " المتعدية إلى واحد ، نحو "كفى بالمرء إثما أن يحدث بكل ما سمع "

ومنه أيضا زيادتها في مفعول : "عرف وعلم ودري وجهل وسمع وأحسّ " .

ج – وتزاد في المبتدأ ، إذا اشتق من لفظ "حسب" ، نحو "بحسبك درهم" أو كان بعد لفظ "ناهيك . . . " ، نحو "ناهيك بخالد شجاعا . . . " أو بعد إذا الفجائية ، نحو : خرجت فإذا بالأستاد أو بعد كيف ، نحو : "كيف بك إذا حصل كذا " د – وتزاد في الحال المنفي عاملها ، نحو : "فما رجعت بخائبة ركاب " ، وجعل بعضهم هذه الزيادة مقيسة .

ه – وتزاد في خبر "ليس وما "كثيرا ، وهذه الزيادة مقيسة ، نحو : "أَلَيْسَ اللَّهُ بِكافٍ عَبْدَهُ " وقوله تعالى : وَما رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ .

وقد دخلت الباء في خبر "ان" ، نحو : أو لم يروا أنّ اللّه بقادر على أن يحيي الموتى .

[سورة الفرقان (25) : الآيات 32 إلى 34]

وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً واحِدَةً كَذلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤادَكَ وَرَتَّلْناهُ تَرْتِيلاً (32) وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْناكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً (33) الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلى وُجُوهِهِمْ إِلى جَهَنَّمَ أُولئِكَ شَرٌّ مَكاناً وَأَضَلُّ سَبِيلاً (34)

الإعراب :

(421/564)

(الواو) استئنافيّة) (لولا) حرف تحضيض (عليه) متعلّق بـ (نزّل) ، (جملة) حال منصوبة بتأويل مشتقّ أي مجتمعا (كذلك) متعلّق بمحذوف حال من القرآن "

، (اللام) للتعليل (به) متعلّق بـ (نثبّت) . . .

والمصدر المؤوّل (أن نثبّت . . .) في محلّ جرّ باللام متعلّق بالفعل المقدّر العامل في الحال السابقة ، أي أنزل القرآن مفرّقا كذلك لنثبّت به فؤادك .

(1) أي أنزلنا القرآن مفرّقا كذلك ، ويجوز أن يكون متعلّقا بمفعول مطلق أي إنزالا كذلك .

والعامل في الحال أو المفعول المطلق مقدّر أي أنزلنا القرآن كذلك .

(الواو) عاطفة (ترتيلا) مفعول مطلق منصوب .

جملة : " قال الذين . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : "كفروا . . . "لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " نزّل . . . القرآن " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " أنزلناه كذلك . . . "لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " نثبّت . . . "لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

وجملة : " رتّلناه . . . "لا محلّ لها معطوفة على جملة أنزلناه المقدّرة" 1 " .

(الواو) عاطفة (لا) نافية (يمثل) متعلّق بـ (يأتونك) ، (إلّا) أداة حصر (بالحقّ) متعلّق بحال من فاعل جئناك ، أو من المفعول ، أي متلبّسين بالحقّ أو متلبسّا بالحقّ (الواو) عاطفة (أحسن) معطوف على الحقّ مجرور وعلامة الجرّ الفتحة فهو ممنوع من الصرف للوصفية ووزن أفعل (تفسيرا) تمييز منصوب .

وجملة : "لا يأتونك . . . "لا محلّ لها معطوفة على الجملة المقدّرة أنزلناه .

وجملة : " جئناك . . . " في محلّ نصب حال من مفعول يأتونك .

(34) (الذين) اسم موصول مبتدأ " 2 " ، و(الواو) في (يحشرون) نائب الفاعل (على وجوههم) متعلّق بحال من نائب الفاعل أي منكّسين (إلى جهنّم) متعلّق بـ (يحشرون) ، وعلامة الجرّ الفتحة ، والفعل مضمّن معنى يساقون (مكانا) تمييز منصوب وكذلك (سبيلا) .

---

(1) أو هي حال من المفعول بتقدير (قد) .

(2) أو خبر لمبتدأ محذوف تقديره هم . . . أو مفعول به لفعل محذوف على الذمّ أو تقديره أعني .

(422/564)

وجملة : " الذين يحشرون . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يحشرون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " أولئك شرّ . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (الذين) .

الصرف :

(32) جملة : اسم لجمع الشيء أو جماعته من فعل جمل يجمل باب نصر بمعنى جمع ، وزنه فعلة بضمّ فسكون .

(ترتيلا) ، مصدر قياسيّ لفعل رتّل الرباعيّ وزنه تفعيل .

(33) تفسيرا : مصدر قياسيّ لفعل فسّر الرباعيّ ، وزنه تفعيل .

البلاغة

الاستعارة التصريحية : في قوله تعالى وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ . حيث شبه السؤال بالمثل ، بجامع البطلان ، لأن أكثر الأمثال أمور متخيلة .

قوله تعالى : أُوْلَئِكَ شَرٌّ مَكَاناً وَأَضَلُّ سَبِيلاً .

وصف المكان بالشر ، والسبيل بالضلال ، من باب الاسناد المجازي للمبالغة .

[سورة الفرقان (25) : الآيات 35 إلى 36]

وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ وَجَعَلْنا مَعَهُ أَخاهُ هارُونَ وَزِيراً (35) فَقُلْنَا اذْهَبا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا فَدَمَّرْناهُمْ تَدْمِيراً (36)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (اللام) لام القسم لقسم مقدّر (قد) حرف تحقيق (الكتاب) مفعول به ثان منصوب (معه) ظرف منصوب متعلّق بـ (جعلنا) " 1 " ، (هارون) عطف بيان - أو بدل - منصوب ومنع من التنوين للعلميّة والعجمة (وزيرا) مفعول به ثان منصوب .

---

(1) يجوز أن يكون متعلّقا بالمفعول الثاني المحذوف ، و(وزيرا) حالا من (أخاه) .

جملة : " آتينا . . . " لا محلّ لها جواب القسم . . . وجملة القسم المقدّرة استئنافيّة .

وجملة : " جعلنا معه . . . " لا محلّ لها معطوفة على جواب القسم .

(36) (الفاء) عاطفة (إلى القوم) متعلّق بـ (اذهبا) ، (الذين) اسم موصول في محلّ جرّ

نعت للقوم (بآياتنا) متعلّق بـ (كذّبوا) ، (الفاء) عاطفة (تدميرا) مفعول مطلق منصوب .

وجملة : " قلنا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جعلنا .

وجملة : " اذهبا . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : "كذّبوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " دمّرناهم . . . " لا محلّ لها معطوفة على استئناف مقدّر أي : فذهبا إليهم فكذّبوهما فدمّرناهم . . .

[سورة الفرقان (25) : آية 37]

وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْناهُمْ وَجَعَلْناهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنا لِلظَّالِمِينَ عَذاباً أَلِيماً (37)

الإعراب :

(الواو) عاطفة (قوم) مفعول به لفعل محذوف يفسّره ما بعده أي : أغرقنا قوم نوح (لمّا) ظرف بمعنى حين مجرد من الشرط متعلّق بالفعل المحذوف (للناس) متعلّق بمحذوف مفعول به ثان عامله جعلناهم (للظالمين) متعلّق بـ (أعتدنا) . . .

جملة : " (أغرقنا) قوم نوح . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة آتينا " 1 " .

وجملة : "كذّبوا . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " أغرقناهم . . . " لا محلّ لها تفسيريّة .

(1) في الآية السابقة.

الجدول ج 19 ، ص : 19

وجملة : " جعلناهم . . . " لا محلّ لها معطوفة على أغرقناهم.

وجملة : " أعتدنا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أغرقنا المقدّرة.

[سورة الفرقان (25) : آية 38]

وَعاداً وَثَمُودَ وَأَصْحابَ الرَّسِّ وَقُرُوناً بَيْنَ ذلِكَ كَثِيراً (38)

الإعراب :

(الواو) عاطفة (عادا) مفعول به لفعل محذوف تقديره دمّرنا أو أهلكنا (الواو) عاطفة في المواضع الثلاثة (ثمود ، أصحاب . . . ،

قرونا) أسماء معطوفة على (عادا) منصوبة مثله (بين) ظرف منصوب متعلّق بنعت لـ (قرونا) (كثيرا) نعت ثان لـ (قرونا) منصوب.

وجملة : " دمّرنا . . . " عادا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أعتدنا " 1 " .

الصرف :

(الرسّ) ، اسم للبئر القديمة ، وزنه فعل بفتح الفاء ، وجاءت عينه ولامه من حرف واحد .

[سورة الفرقان (25) : آية 39]

وَكُلًّا ضَرَبْنا لَهُ الْأَمْثالَ وَكُلًّا تَبَّرْنا تَتْبِيراً (39)

الإعراب :

(الواو) عاطفة (كلّا) مفعول به لفعل محذوف يفسّره ما بعده أي : أنذرنا أو خوّفنا (له) متعلّق بـ (ضربنا) ، و(كلّا) الثاني مفعول به مقدّم منصوب (تتبيرا) مفعول مطلق منصوب .

وجملة : " أنذرنا "كلّا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة (دمّرنا) عادا .

وجملة : " ضربنا . . . " لا محلّ لها تفسيريّة .

---

(1) في الآية السابقة .

وجملة : " تبّرنا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة (أنذرنا) كلّا .

الفوائد

1 - إعراب "كل" :

لنا في إعرابها ثلاثة أوجه :

أ – أن تكون توكيدا لمعرفة ، وهو مذهب البصريين ، وعندهم لا يجوز توكيد النكرة ، خلافا لابن مالك ، فقد أجاز توكيدها ، نحو : صمت شهرا كلّه .

ولا بد من إضافتها إلى مضمر راجع إلى المؤكد ، نحو : فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ . وقد يخلف الظاهر الضمير ، نحو : يا أشبه الناس كل الناس بالقمر .

ب – أن تكون نعتا لمعرفة ، فتدل على كمال ، ويجب إضافتها إلى اسم ظاهر يماثله لفظا ومعنى : " هم القوم كلّ القوم يا أم خالد " .

ج – أن تكون ثالثة للعوامل :

فتكون مضافة إلى الظاهر ، نحو : كل نفس بما كسبت رهينة وغير مضافة ، نحو هذه الآية التي نحن بصددها . وكلّا ضربنا له الأمثال ، وكلا تبرنا تتبيرا .

وقد تنوب عن المصدر ، فتكون في محل نصب مفعول مطلق ، نحو " فَلا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ " .

وإذا أضيفت إلى الظرف أعربت في محل نصب مفعول فيه نحو " سرت كل الليل . . . " .

2 – إضافة "كل . . . " .

فيه ثلاثة أوجه :

أ – أن تضاف إلى ظاهر .

ب – أن تضاف إلى ضمير محذوف " وَكُلًّا ضَرَبْنا " .

ج – أن تضاف إلى ضمير مذكور نحو " وَكُلُّهُمْ آتِيهِ " .

[سورة الفرقان (25) : آية 40]

وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لا يَرْجُونَ نُشُوراً (40)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (لقد أتوا) مثل لقد آتينا " 1 " ، (على القرية) متعلّق بـ (أتوا) بتضمينه معنى مروا (التي) اسم موصول في محلّ جرّ نعت للقرية ، ونائب الفاعل لفعل (أمطرت) ضمير يعود على القرية (مطر) مفعول مطلق منصوب – بمعنى الإمطار – " 2 " ، (الهمزة) للاستفهام (الفاء) عاطفة (بل) للإضراب الانتقالي (لا) نافية .

وجملة : " أتوا . . . " لا محلّ لها جواب القسم المقدّر . . . وجملة القسم المقدّرة استئنافيّة .

وجملة : " أمطرت . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (التي) .

وجملة : " يكونوا يرونها . . . " لا محلّ لها معطوفة على استئناف مقدّر أي " أيمرّون فلم يكونوا . . . " .

وجملة : " يرونها . . . " في محلّ نصب خبر يكونوا . . .

وجملة : " كانوا لا يرجون . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " لا يرجون . . . " في محلّ نصب خبر كانوا .

الصرف :

(مطر) ، اسم مصدر لفعل أمطر ، والمصدر القياسيّ الإمطار ، وزن مطر فعل بفتحتين .

البلاغة

المجاز : في قوله تعالى " بَلْ كانُوا لا يَرْجُونَ نُشُوراً " .

---

(1) في الآية (35) من هذه السورة ، والضمير في (أتوا) يعود على أهل مكة .

(2) يحتمل أن يكون مفعولا به لأن المعنى قذفت بالحجارة - وهي مطر السوء - فهو كما يظهر منصوب على نزع الخافض .

والمراد بالرجاء التوقع مجازا كأنه قيل : بل كانوا لا يتوقعون النشور المستتبع للجزاء الأخروي وينكرونه .

[سورة الفرقان (25) : الآيات 41 إلى 42]

وَإِذا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُواً أَهذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً (41) إِنْ كادَ لَيُضِلُّنا عَنْ آلِهَتِنا لَوْلا أَنْ صَبَرْنا عَلَيْها وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً (42)

الإعراب :

(الواو) عاطفة (إن) نافية (إلّا) أداة حصر (هزوا) مفعول به ثان منصوب أي مهزوّا به

(الهمزة) للاستفهام (رسولا) حال من الضمير العائد المحذوف أي : بعثه اللّه مرسلا .

جملة : " رأوك . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " إن يتّخذونك . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " هذا الذي . . . " في محلّ نصب مقول القول لقول مقدّر أي يقولون أ هذا الذي . . . وجملة القول المقدّر في محلّ نصب حال من فاعل يتّخذونك . . .

وجملة : " بعث اللّه . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

(42) (إن) مخفّفة من الثقيلة مهملة وجوبا (اللام) هي الفارقة (عن آلهتنا) متعلّق بـ (يضلّنا) بتضمينه معنى يصرفنا (أن) حرف مصدري (عليها) متعلّق بـ (صبرنا) .

والمصدر المؤوّل (أن صبرنا . . .) في محلّ رفع مبتدأ ، والخبر محذوف وجوبا . . .

(الواو) استئنافيّة (سوف) حرف استقبال (حين) ظرف منصوب متعلّق بـ (يعلمون) ،

(من) اسم استفهام مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ خبره

(أضلّ) " 1 " ، (سبيلا) تمييز منصوب .

وجملة : "كاد ليضلّنا . . . " لا محلّ لها استئناف في حيّز القول .

وجملة : "يضلّنا . . . " في محلّ نصب خبر كاد .

وجملة : " صبرنا (موجود) " . لا محلّ لها استئناف في حيّز القول . . .

وجواب الشرط محذوف دلّ عليه ما قبله أي لصرفنا عنها . . .

وجملة : " صبرنا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة : "يعلمون . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : "يرون . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

---

(1) أو هو اسم موصول في محلّ نصب مفعول به . . . و(أضلّ) خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو ، والجملة صلة .

وجملة : " من أضلّ . . . " في محلّ نصب مفعول به - أو سدّت مسدّ المفعولين - لفعل يعلمون المعلّق بالاستفهام .

[سورة الفرقان (25) : الآيات 43 إلى 44]

أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً (43) أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً (44)

الإعراب :

(الهمزة) للاستفهام (رأيت) بمعنى أخبرني (من) اسم موصول في محلّ نصب مفعول به أوّل (إلهه) مفعول به ثان منصوب (هواه) مفعول به أوّل (الهمزة) للإنكار (عليه) متعلّق بـ (وكيلا) .

جملة : " رأيت . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " اتخذ . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة : " أنت تكون . . . " في محلّ نصب مفعول به ثان لفعل رأيت " 1 " .

وجملة : " تكون . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (أنت) .

(44) (أم) هي المنقطعة بمعنى بل والهمزة . .

والمصدر المؤوّل (أنّ أكثرهم يسمعون . . . " في محلّ نصب سدّ مسدّ مفعولي تحسب .

(إن) نافية (إلّا) أداة حصر (كالأنعام) متعلّق بمحذوف خبر المبتدأ هم (بل) للإضراب الانتقاليّ .

وجملة : " تحسب . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يسمعون . . . " في محلّ رفع خبر أنّ .

وجملة : " يعقلون . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة يسمعون .

وجملة : " إن هم كالأنعام " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " هم أضلّ سبيلا " لا محلّ لها استئنافيّة .

البلاغة :

1 - التقديم : في قوله تعالى أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَواهُ .

"

---

(1) والفاء زائدة للتزيين ، أو هي عاطفة عطفت جملة أنت تكون على جملة مقدّرة هي المفعول الثاني للفعل أي : أ أنت مهتمّ له ، فأنت تكون عليه وكيلا .

اتخذ " متعدية لمفعولين ، أولهما " هواه " ، وثانيهما " إلهه " ، وقدم على الأول للاعتناء به من حيث أنه الذي يدور عليه أمر التعجب ، لا من حيث أن الإله يستحق التعظيم والتقديم ، كما قيل ، أي : أ رأيت الذي جعل هواه إلها لنفسه بأن أطاعه وبنى عليه أمر دينه معرضا عن استماع الحجة الباهرة وملاحظة البرهان النير بالكلية ، على معنى انظر إليه وتعجب منه وقال ابن المنير في تقديم

المفعول الثاني : هنا نكتة حسنة ، وهي إفادة الحصر ، فإن الكلام – قبل دخول (أ رأيت – واتخذ) – الأصل فيه هواه إلهه ، على أن هواه مبتدأ خبره إلهه ، فإذا قيل :

إلهه هواه ، كان من تقديم الخبر على المبتدأ ، وهو يفيد الحصر ، فيكون معنى الآية حينئذ :

أ رأيت من لم يتخذ معبوده إلا هواه ، وذلك أبلغ في ذمه وتوبيخه .

2 – التمثيل : في قوله تعالى إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا .

يتخلص هذا الفن ، في أن يريد المتكلم معنى ، فلا يعبر عنه بلفظه الخاص ، ولا بلفظي الإشارة ، ولا الإرداف ، بل بلفظ هو أبعد من لفظ الإرداف قليلا ، يصلح أن يكون مثلا للّفظ الخاص ، لأن المثل لا يشبه المثل من كل الوجوه ، ولو تماثل المثلان من كل الوجوه لا تحدا .

ومن التمثيل أيضا نوع آخر ، ذهب إليه من جاء بعد قدامة ، وهو أن يذكر الشيء ليكون مثالا للمعنى المراد ، وإن كان معناه ولفظه غير المعنى المراد ولفظه ، كأنهم لثبوتهم على الضلالة بمنزلة الأنعام والبهائم بل أضل سبيلا ، لأن البهائم تنقاد لمن يتعهدها ، وتميز من يحسن إليها ممن يسيء إليها ، أما هؤلاء فقد أسفّوا إلى أبعد من هذا الدرك .

الفوائد

- حسب هي من أفعال القلوب ، وتفيد في الخبر الرجحان واليقين ، والغالب كونها للرجحان . وتنصب مفعولين أصلهما المبتدأ والخبر .

أ- مثال الرجحان قول زفر بن الحارث الكلابي :

وكنا حسبنا كل بيضاء شحمة ليالي لاقينا جذام وحميرا

ب - مثال اليقين : قول لبيد العامري :

حسبت التقى والجود خير تجاره رباحا إذا ما المرء أصبح ثافلا

مضارعها : يحسب بفتح السين وكسرها ، والمصدر : محسبة ومحسبة بفتح السين والكسر أيضا وحسبان .

[سورة الفرقان (25) : الآيات 45 إلى 46]

أَلَمْ تَرَ إِلى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شاءَ لَجَعَلَهُ ساكِناً ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً (45)

ثُمَّ قَبَضْناهُ إِلَيْنا قَبْضاً يَسِيراً (46)

الإعراب

- (الهمزة) للاستفهام التعجّبيّ (إلى ربّك) متعلّق بـ (ترى) بمعنى تنظر (كيف) اسم استفهام مبنيّ في محل نصب حال عاملها مدّ (الواو) عاطفة (لو) حرف شرط غير جازم (اللام) واقعة في جواب لو (ساكنا) مفعول به ثان منصوب (عليه) متعلّق بـ (دليلا) .

جملة : " لم تر . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " مدّ . . . " في محلّ جرّ بدل من (ربّك) " 1 " .

وجملة : " شاء . . . " لا محلّ لها اعتراضيّة .

وجملة : " جعله ساكنا " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " جعلنا . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة مدّ الظلّ (إلينا) متعلّق بـ (قبضناه) ، (قبضا) مفعول مطلق منصوب .

وجملة : " قبضناه . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة جعلنا الشمس .

الصرف :

(ساكنا) ، اسم فاعل من سكن بمعنى أقام وهدأ ، وزنه فاعل .

(دليلا) ، صفة مشتقّة وزنها فعيل بمعنى فاعل ، وقيل بمعنى مفعول لذلك لم تؤنّث مع الشمس ، ودليل أصبح في حكم الاسم كما يقال الشمس برهان أو الشمس حقّ .

(قبضا) ، مصدر سماعيّ لفعل قبض الثلاثيّ وزنه فعل بفتح فسكون .

---

(1) أيّ : ألم تر إلى مدّ ربّك الظلّ .

[سورة الفرقان (25) : الآيات 47 إلى 49]

وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِباساً وَالنَّوْمَ سُباتاً وَجَعَلَ النَّهارَ نُشُوراً (47) وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّياحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً طَهُوراً (48) لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنا أَنْعاماً وَأَناسِيَّ كَثِيراً (49)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (لكم) متعلّق بـ (جعل) " 1 " ، (الواو) عاطفة (النوم سباتا) معطوفان على (الليل لباسا) " 2 " ، (نشورا) مفعول به ثان منصوب .

جملة : " هو الذي . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " جعل . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة : " جعل (الثانية) " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

(48) (الواو) عاطفة (بشرا) حال منصوبة من الرياح (بين) ظرف منصوب متعلّق بـ (بشرا) ، (يدي) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الياء (الواو) عاطفة (من السماء) متعلّق بـ (أنزلنا) .

وجملة : " هو الذي . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الاستئناف .

وجملة : " أرسل . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) الثاني .

وجملة : " أنزلنا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة ، فيها التفات .

(1) أو متعلّق بحال من (لباسا) – نعت تقدّم على المنعوت –

(2) أو هما مفعولان لفعل جعل مقدّرا والعطف حينئذ من عطف الجمل. [. . . . .]

(432/564)

---

(49) (اللام) لام التعليل (نحيي) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام (به) متعلّق بـ (نحيي) والباء سببيّة . .

والمصدر المؤوّل (أن نحيي . .) في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (أنزلنا) .

(الواو) عاطفة (نسقيه) مضارع منصوب معطوف على فعل نحيي . . .

والهاء مفعول به ثان (ممّا) متعلّق بحال من (أنعاما وأناسيّ) ، واستعمل ما للتغليب (أنعاما) مفعول به أوّل منصوب لفعل نسقي ، ومنع أناسيّ من التنوين لأنه تكسير على صيغة منتهى الجموع.

وجملة : " نحيي . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

وجملة : " نسقيه . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة صلة الموصول الحرفيّ .

وجملة : " خلقنا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

الصرف :

(سباتا) ، مصدر سبت يسبت ، باب نصر وباب ضرب ، وزنه فعال بضمّ الفاء .

(طهورا) ، صفة مشبّهة من الثلاثيّ طهر يطهر ، باب نصر وباب كرم ، وزنه فعول بفتح الفاء . أو مصدر طهر استعمل صفة للمبالغة .

(49) بلدة : اسم جامد للمدينة جاء منتهيا بالتاء وقد تحذف وزنه فعلة بفتح فسكون .

(ميتا) ، جاء اللفظ مذكّرا وكان حقّه التأنيث لأنه يستوي فيه التأنيث والتذكير ، أو جاء مذكّرا مراعى فيه معنى البلدة وهو المكان .

(أناسيّ) ، جمع إنسان ، وأصله أناسين كسرحان وسراحين ، ثمّ

الجدول ج 19 ، ص : 29

أبدلت النون ياء وأدغمت مع الياء الأخرى ، وقيل هو جمع إنسيّ – وهو قول الفرّاء – فوزنه على القول الأول فعالين ، وعلى القول الثاني فعاليّ والقول الأول أرجح .

البلاغة

التشبيه : في قوله تعالى جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِباساً وَالنَّوْمَ سُباتاً .

شبه الليل باللباس الساتر ، والنوم واليقظة شبههما بالموت والحياة .

التقديم والتأخير : في قوله تعالى لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنا أَنْعاماً وَأَناسِيَّ كَثِيراً .

قدم إحياء الأرض وسقي الأنعام على سقي الأناسي ، لأن حياة الأناسي بحياة أرضهم

وحياة أنعامهم . فقدم ما هو سبب حياتهم وتعيشهم على سقيهم ، ولأنهم إذا ظفروا بما يكون سقيا أرضهم ومواشيهم ، لم يعدموا سقياهم .

الفوائد

- جعل :

(433/564)

فعل يفيد الرجحان ، وينصب مفعولين ، بشرط ألا يكون للخلق والإيجاد ، ولا للإيجاب ، نحو : جعلت له كذا ، بمعنى أوجبت :

أ- الرجحان نحو :

" وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبادُ الرَّحْمنِ إِناثاً " .

ب - وقد تفيد التصيير ، وهو الانتقال من حالة إلى أخرى ، نحو " فَجَعَلْناهُ هَباءً مَنْثُوراً " .

ثانيا : من الأفعال النواسخ التي تفيد الشروع ، وتعمل عمل كان ، إلا أنّ خبرها يجب أن يكون جملة فعليّة فعلها مضارع .

وشذّ مجيء الجملة الاسمية خبرا لها نحو :

وقد جعلت قلوص بني سهيل من الأكوار مرتعها قريب

- وتأتي جعل فعلا ماضيا ، على الأصل . وقد يأتي منها الفعل المضارع على قلّة .

ثالثا : عند ما تأتي جعل بمعنى أوجد ، تتعدّى إلى مفعول واحد ، كقوله تعالى :

وَجَعَلَ الظُّلُماتِ وَالنُّورَ أي خلقها .

[سورة الفرقان (25) : الآيات 50 إلى 52]

وَلَقَدْ صَرَّفْناهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً (50) وَلَوْ شِئْنا لَبَعَثْنا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيراً (51) فَلا تُطِعِ الْكافِرِينَ وَجاهِدْهُمْ بِهِ جِهاداً كَبِيراً (52)

الإعراب :

(ولقد صرّفناه) مثل ولقد آتينا " 1 " ، (بينهم) متعلّق بـ (صرّفناه) ، (اللام) للتعليل .

والمصدر المؤوّل (أن يذّكّروا) في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (صرّفناه) .

(الفاء) عاطفة (إلّا) أداة حصر " 2 " ، (كفورا) مفعول به منصوب .

جملة : " صرّفناه . . . " لا محلّ لها جواب القسم .

وجملة : " يذّكّروا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

وجملة : " أبى أكثر . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب القسم .

(51) (الواو) عاطفة (لو) حرف شرط غير جازم (اللام) واقعة في جواب لو (في كلّ) متعلّق بـ (بعثنا) . .

(1) في الآية (35) من هذه السورة والضمير الغائب يعود على الماء .

(2) جاء الاستثناء مفرّغا لما في (أبى) من معنى النفي .

وجملة : " شئنا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب القسم .

وجملة : " بعثنا . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

(52) (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (لا) ناهية جازمة ، وعلامة الجزم في (تطع) السكون وحرّك بالكسر لالتقاء الساكنين (به) متعلّق بـ (جاهد) ، والضمير يعود على القرآن (جهادا) مفعول مطلق منصوب .

وجملة : " لا تطع . . . " جواب شرط مقدّر أي إن أرسلناك إلى الناس كافّة فلا تطع . . .

وجملة : " جاهدهم . . . " معطوفة على جملة لا تطع . . .

[سورة الفرقان (25) : الآيات 53 إلى 54]

وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هذا عَذْبٌ فُراتٌ وَهذا مِلْحٌ أُجاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُما بَرْزَخاً وَحِجْراً مَحْجُوراً (53) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْماءِ بَشَراً فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهْراً وَكانَ رَبُّكَ قَدِيراً (54)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (فرات) خبر ثان مرفوع (بينهما) ظرف منصوب متعلّق بمحذوف مفعول به ثان (الواو) عاطفة (حجرا) معطوف على (برزخا) منصوب (محجورا) نعت لحجر منصوب.

جملة : " هو الذي . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة : " مرج البحرين . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة : " هذا عذب . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ " 1 " .

وجملة : " هذا ملح " لا محلّ لها معطوفة على جملة هذا عذب.

وجملة : " جعل . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة.

---

(1) أو في محلّ نصب مقول القول لقول مقدّر هو حال من البحرين أي مقولا فيهما .

---

(54) (الواو) عاطفة (من الماء) متعلّق بـ (خلق) ، (الفاء) عاطفة (نسبا) مفعول به ثان منصوب (الواو) عاطفة.

وجملة : " هو الذي . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الاستئناف.

وجملة : " خلق . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة : " جعله . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة خلق .

وجملة : " كان ربّك . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة هو الذي خلق .

الصرف :

(عذب) ، صفة مشبّهة للثلاثيّ عذب يعذب باب كرم ، وزنه فعل بفتح فسكون .

(فرات) ، صفة مشبّهة للثلاثي فرت يفرت باب كرم ، وزنه فعال بضمّ الفاء ، وفرت الماء عذب .

(ملح) ، صفة مشبّهة للثلاثيّ ملح يملح باب كرم ، وباب نصر وباب فتح ، وزنه فعل بكسر فسكون ، والملح أيضا اسم للمادّة المعروفة فهو جامد .

(أجاج) ، صفة مشبّهة من فعل أجّ الثلاثيّ بمعنى ملح وأصبح مرّا من باب نصر ، وزنه فعال بضمّ الفاء .

(صهرا) ، اسم بمعنى القرابة وزنه فعل بكسر فسكون جمعه أصهار .

البلاغة

المجاز : في قوله تعالى حِجْراً مَحْجُوراً .

هي الكلمة التي يقولها المتعوذ ، وهي هاهنا واقعة على سبيل المجاز ، كأن كل واحد من البحرين يتعوذ من صاحبه ويقول له : حجرا محجورا ، كما قال : " لا يَبْغِيانِ " أي لا يبغي

أحدهما على صاحبه بالممازجة ، فانتفاء البغي

الجدول ج 19 ، ص : 33

ثمة كالتعوذ ها هنا : جعل كل واحد منهما في صورة الباغي على صاحبه ، فهو يتعوذ منه .

وهي من أحسن الاستعارات وأشدها على البلاغة .

[سورة الفرقان (25) : آية 55]

وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَنْفَعُهُمْ وَلا يَضُرُّهُمْ وَكانَ الْكافِرُ عَلى رَبِّهِ ظَهِيراً (55)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (من دون) متعلّق بحال من الموصول ما مفعول يعبدون و(كان) الواو استئنافيّة (على ربه) متعلّق بـ (ظهيرا) بحذف مضاف أي على عصيان ربّه .

وجملة : "يعبدون" لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : "لا ينفعهم . . . "لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : "يضرّهم . . . "لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

وجملة : "كان الكافر . . . "لا محلّ لها استئنافيّة" 1 " .

[سورة الفرقان (25) : آية 56]

وَما أَرْسَلْناكَ إِلاَّ مُبَشِّراً وَنَذِيراً (56)

الإعراب :

(1) أو معطوفة على الاستئنافيّة.

(الواو) استئنافيّة (ما) نافية (إلّا) أداة حصر (مبشرا) حال منصوبة.

والجملة: "ما أرسلناك . . . "لا محلّ لها استئنافيّة.

[سورة الفرقان (25) : الآيات 57 إلى 59]

قُلْ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلاَّ مَنْ شاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلى رَبِّهِ سَبِيلاً (57) وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفى بِهِ بِذُنُوبِ عِبادِهِ خَبِيراً (58) الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمنُ فَسْئَلْ بِهِ خَبِيراً (59)

الإعراب:

(ما) نافية (عليه) متعلّق بمحذوف حال من أجر، والضمير يعود على التبليغ المفهوم من قوله: أرسلناك" 1 "، (أجر) مجرور لفظا منصوب محلّا مفعول به ثان عامله أسألكم (إلّا) للاستثناء المنقطع، بمعنى لكن (من) اسم موصول وفي محلّ نصب على الاستثناء المنقطع (إلى ربّه) متعلّق بمحذوف مفعول به ثان عامله يتّخذ.

والمصدر المؤوّل (أن يتّخذ . . .) في محلّ نصب مفعول به عامله شاء.

جملة : " قل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " ما أسألكم . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " شاء . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة : " يتّخذ . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

(58) (الواو) عاطفة (على الحيّ) متعلّق بـ (توكّل) ، (الذي) اسم موصول في محلّ جرّ نعت للحيّ (لا) نافية (الواو) عاطفة (بحمده) متعلّق بحال من فاعل سبّح أي متلبّسا بحمده (الواو) استئنافيّة (الباء) . حرف جرّ زائد و(الهاء) فاعل كفى في محلّه البعيد (بذنوب) متعلّق بـ (خبيرا) وهو حال منصوب من فاعل كفى .

وجملة : " توكّل . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة قل .

وجملة : " لا يموت . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

---

(1) في الآية السابقة .

وجملة : " سبّح . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة توكّل .

وجملة : " كفى به . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

(59) (الذي) اسم موصول في محلّ رفع مبتدأ خبره الرحمن " 1 " ، (الواو) عاطفة في الموضعين (ما) اسم موصول في محلّ نصب معطوف على السموات (بينهما) ظرف منصوب متعلق بمحذوف صلة ما (في ستة) متعلّق بـ (خلق) (ثمّ) حرف عطف (على العرش) متعلّق بـ (استوى) ، (الرحمن) خبر المبتدأ الذي " 2 " ، (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (به) متعلّق بـ (خبيرا) " 3 " .

وجملة : " الذي خلق . . . الرحمن " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " خلق . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) الثاني .

وجملة : " استوى . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة خلق .

وجملة : " اسأل . . . " جواب شرط مقدّر أي : إن شئت تحقيق ، أو تفصيل ما ذكر فاسأل به خبيرا .

الفوائد

1 - الاستواء على العرش :

ذهب السلف إلى أن الاستواء هو كما يعلمه اللّه ويليق بجلالته . أما الخلف فقد ذهبوا إلى أن الاستواء هو بمعنى الاستيلاء والتصرف كما يريد بسائر الكائنات والمخلوقات .

---

(1) أو هو خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو . . أو مفعول به لفعل محذوف تقديره أعني ، وحينئذ (الرحمن) مبتدأ أو خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو .

(2) يجوز أن يكون بدلا من الضمير في (استوى) إذا أعرب الموصول خبرا .

(3) الضمير يعود على تفصيل ما ذكر من الخلق والاستواء ، أو يعود على الرحمن .

(438/564)

---

2 - (إذا) ظرف زمان تضمن معنى الشرط ، وتأتي ظرفا غير متضمن معنى الشرط كقوله تعالى : وَاللَّيْلِ إِذا يَغْشى وَالنَّهارِ إِذا تَجَلَّى " .

[سورة الفرقان (25) : آية 60]

وَإِذا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمنِ قالُوا وَمَا الرَّحْمنُ أَنَسْجُدُ لِما تَأْمُرُنا وَزادَهُمْ نُفُوراً (60)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (لهم) متعلّق بـ (قيل) ، (للرحمن) متعلّق بـ (اسجدوا) ، (الواو) عاطفة " 1 " (ما) اسم استفهام مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ خبره (الرحمن) ، (الهمزة) للاستفهام الإنكاريّ (ما) حرف مصدريّ " 2 " .

والمصدر المؤوّل (ما تأمرنا) في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (نسجد) .

(الواو) استئنافيّة ، وفاعل (زادهم) ضمير يعود على القول الذي قيل لهم (نفورا) مفعول به ثان منصوب .

جملة : " قيل . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " اسجدوا . . . " في محلّ رفع نائب الفاعل " 3 " .

وجملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " ما الرحمن . . . " في محلّ نصب معطوفة على مقول القول المقدّر أي : ما السجود وما الرحمن . . أو نسجد وما الرحمن " 4 " .

وجملة : " أنسجد . . . " لا محلّ لها استئنافيّة في حيّز القول .

---

(1) أو زائدة .

(2) أو اسم موصول . . . أو نكرة موصوفة في محلّ جرّ والعائد لهما محذوف .

(3) هي في الأصل جملة مقول القول في الفعل المبنيّ للمعلوم .

(4) أو هي جملة مقول القول إذا كانت الواو زائدة .

الجدول ج 19 ، ص : 37

وجملة : " تأمرنا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) .

وجملة : " زادهم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

[سورة الفرقان (25) : الآيات 61 إلى 62]

تَبارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّماءِ بُرُوجاً وَجَعَلَ فِيها سِراجاً وَقَمَراً مُنِيراً (61) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرادَ شُكُوراً (62)

الإعراب :

(في السماء) متعلّق بمحذوف مفعول به ثان " 1 " ، وكذلك (فيها) . . .

جملة : " تبارك الذي . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " جعل (الأولى) " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة : " جعل (الثانية) لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

---

(1) أو بمحذوف حال إذا ضمّن (جعل) معنى خلق . . ومثل ذلك يصبح تعليق الجارّ (فيها) وإعراب الاسم (خلفة) على حذف مضاف أي ذوي خلفة .

---

(62) (الواو) عاطفة (خلفة) مفعول به ثان (لمن) متعلّق بالمصدر خلفة (ان) حرف مصدريّ .

والمصدر المؤوّل (أن يذّكّر . . .) في محلّ نصب مفعول به لفعل الإرادة .

وجملة : " هو الذي . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة تبارك الذي . . .

وجملة : " أراد . . . " جعل (الثالثة) لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) الثاني .

وجملة : " أراد . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة : " يذّكّر . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة : " أراد (الثانية) " لا محلّ لها معطوفة على جملة أراد الأولى .

الصرف :

(سراجا) ، اسم لنوع من المصابيح فيه زيت وفتيل ، وزنه فعال بكسر الفاء جمعه سرج بضمّتين ، وهو مستعمل في الآية على سبيل المجاز .

(خلفة) ، مصدر هيئة من خلف الثلاثيّ باب نصر ، أو اسم مصدر بمعنى المخالفة ، وزنه فعلة .

(شكورا) ، مصدر سماعيّ لفعل شكر الثلاثيّ باب نصر ، وثمّة مصادر أخرى هي شكر بضمّ فسكون ، وشكران بضمّ فسكون . . . ووزن شكور فعول بضمّتين .

[سورة الفرقان (25) : الآيات 63 إلى 76]

وَعِبادُ الرَّحْمنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً وَإِذا خاطَبَهُمُ الْجاهِلُونَ قالُوا سَلاماً (63) وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِياماً (64) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذابَها كانَ غَراماً (65) إِنَّها ساءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقاماً (66) وَالَّذِينَ إِذا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكانَ بَيْنَ ذلِكَ قَواماً (67)

وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ يَلْقَ أَثاماً (68) يُضاعَفْ لَهُ الْعَذابُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهاناً (69) إِلاَّ مَنْ تابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صالِحاً فَأُولئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئاتِهِمْ حَسَناتٍ وَكانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً (70) وَمَنْ تابَ وَعَمِلَ صالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتاباً (71) وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِراماً (72)

وَالَّذِينَ إِذا ذُكِّرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْها صُمًّا وَعُمْياناً (73) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنا هَبْ لَنا مِنْ أَزْواجِنا وَذُرِّيَّاتِنا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنا لِلْمُتَّقِينَ إِماماً (74) أُولئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِما صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيها تَحِيَّةً وَسَلاماً (75) خالِدِينَ فِيها حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقاماً (76)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (عباد) مبتدأ مرفوع خبره جملة : أولئك يجزون " 1 " . . .

(الذين) اسم موصول مبنيّ في محل رفع نعت لعباد " 2 " ، (على الأرض) متعلّق بـ (يمشون) ، (هونا) مفعول مطلق نائب عن المصدر فهو صفته أي : مشيا هونا " 3 " ، (الواو) عاطفة (سلاما) مفعول به عامله قالوا " 4 " ، وهو نعت لمحذوف أي : قالوا كلاما يسالمون فيه الكفّار .

جملة : " عباد الرحمن . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يمشون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) الأول .

وجملة : " خاطبهم الجاهلون . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

(1) في الآية (75) الآتية من هذه السورة . [. . . . .]

(2) يجوز أن يكون خبرا للمبتدأ عباد . . .

(3) أو مصدر في موضع الحال أي متمهّلين .

(4) يجوز أن يكون مفعولا مطلقا لفعل محذوف أي نسلّم سلاما ، والجملة مقول القول .

(441/564)

---

(64) (الواو) عاطفة (الذين) موصول معطوف على الموصول الأول في محلّ رفع (لربّهم) متعلّق بـ (سجّدا) وهو خبر يبيتون الناقص - الناسخ - " 1 " .

وجملة : مرّوا باللغو . . . في محلّ جرّ مضاف إليه . . .

وجملة الشرط وفعله وجوابه لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة الأخيرة .

وجملة : " مرّوا (الثانية) " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

(73) (الواو) عاطفة (الذين) موصول في محلّ رفع معطوف على الموصول الأول ، والواو

في (ذكّروا) نائب الفاعل (بآيات) متعلّق بـ (ذكّروا) ، (عليها) متعلّق بـ (يخرّوا) بتضمينه معنى أكبّوا أو أقاموا (صمّا) حال منصوبة من فاعل يخرّوا . .

وجملة : " ذكّروا . . " في محلّ جرّ مضاف إليه . . . وجملة الشرط وفعله وجوابه لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) السابع .

وجملة : " لم يخروا " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

(74) (الواو) عاطفة (الذين) معطوف على الموصول الأول (ربّنا) منادى مضاف منصوب . . . ونا مضاف إليه (هب) فعل أمر دعائيّ ، والفاعل أنت (لنا) متعلّق بمحذوف مفعول به ثان لفعل هب (من أزواجنا) متعلّق بحال من (قرّة أعين) " 2 " ، وهو المفعول الأول لفعل هب (الواو) عاطفة (للمتّقين) متعلّق بحال من (إماما) "

، (إماما) مفعول به ثان عامله

---

(1) أو هو حال من فاعل يبيتون إذا كان تامّا .

(2) يجوز أن يتعلّق بـ (هب) ، ومن لابتداء الغاية .

(3) أو متعلّق بـ (إماما) بكونه مصدر ، عند من يجيز تقديم معمول المصدر عليه .

اجعلنا " 1 " .

وجملة : " يقولون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) الثامن .

وجملة : " النداء وجوابه . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " هبّ لنا . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " اجعلنا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جواب النداء .

(75) (أولئك) اسم إشارة مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ ، خبره جملة يجزون ، والواو في (يجزون) نائب الفاعل (ما) حرف مصدريّ (يلقّون) مثل يجزون (فيها) متعلّق بـ (يلقّون) ، (تحيّة) مفعول به منصوب عامله يلقّون أي يعطون .

والمصدر المؤوّل (ما صبروا) في محل جرّ بالباء متعلّق بـ (يجزون) .

وجملة : " أولئك يجزون . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (عباد الرحمن) " 2 " .

وجملة : " يجزون الغرفة . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (أولئك) .

وجملة : " يلقّون . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة يجزون .

(76) (خالدين) حال منصوبة من نائب الفاعل في (يجزون) ، (فيها) متعلّق بخالدين (حسنت) فعل ماض لإنشاء المدح ، والفاعل ضمير مستتر وجوبا تقديره هو (مستقرّا) تمييز ضمير منصوب ، والمخصوص محذوف أي الغرفة .

---

(1) أفرد لفظ (إماما) إمّا لأنه مصدر في الأصل أي ذوي إمام ، أو لدلالته على الجنس ،

أي كل واحد منا . . وقيل هو جمع .

(2) في الآية (63) من هذه السورة .

الجدول ج 19 ، ص : 42

وجملة : " حسنت مستقرّا . . . " في محلّ نصب حال من الغرفة بتقدير (قد) .

الصرف :

(63) هونا : مصدر سماعيّ لفعل هان يهون باب قال ، وزنه فعل بفتح فسكون .

(65) غراما : اسم مصدر من أغرمه الشيء أي ألزمه إيّاه . وفي المختار : الغرام : الشرّ الدائم والعذاب ، وزنه فعال بفتح الفاء .

وجملة : يبيتون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) الثاني .

(65) (الواو) عاطفة (الذين يقولون) مثل الذين يبيتون (ربّنا) منادى مضاف منصوب . . . ونا مضاف إليه (عنّا) متعلّق بـ (اصرف) ، وعلامة الجرّ في (جهنّم) الفتحة ممنوع من الصرف .

وجملة : " يقولون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) الثالث .

وجملة : " النداء وجوابها . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " اصرف . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " إنّ عذابها . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة : " كان غراما . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

(66) وفاعل (ساءت) ضمير مستتر وجوبا تقديره هو ، والفعل لإنشاء الذمّ (مستقرّا) تمييز للضمير – فاعل ساءت – منصوب ، والمخصوص بالذّم محذوف تقديره هي أي جهنّم .

وجملة : " إنّها ساءت . . . " لا محلّ لها تعليل آخر لصرف العذاب .

وجملة : " ساءت . . . " في محل رفع خبر إنّ .

(67) (الواو) عاطفة (الذين) في محلّ رفع معطوف على الذين الأول ، واسم (كان) ضمير مستتر يعود على الإنفاق المفهوم من سياق الآية (بين) ظرف منصوب متعلّق بـ (قواما) . . . أو بحال منه (ذلك) مضاف إليه وجملة الشرط وفعله وجوابه لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) الرابع .

وجملة : " أنفقوا . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " لم يسرفوا . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " لم يقتروا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب الشرط .

وجملة : "كان . . . قواما " . لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب الشرط .

(68) (الواو) عاطفة (الذين) في محلّ رفع معطوف على الموصول الأول (لا) نافية (مع) ظرف منصوب متعلّق بحال من إله ، ومنع (آخر) من التنوين لأنه ممنوع من الصرف صفة على وزن أفعل (لا يقتلون) مثل لا يدعون (التي) اسم موصول في محلّ نصب نعت للنفس ، والعائد محذوف أي حرّمها (إلّا) أداة حصر (بالحقّ) متعلّق بحال من فاعل يقتلون أي متلبّسين بالحقّ (لا يزنون) مثل لا يدعون (الواو) اعتراضية (من) اسم شرط جازم مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ ، وعلامة الجزم في (يلق) حذف حرف العلّة وهو جواب الشرط .

وجملة : " لا يدعون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) الخامس .

وجملة : " لا يقتلون . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة لا يدعون .

(444/564)

وجملة : " حرّم اللّه . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (التي) .

وجملة : " لا يزنون . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة لا يدعون .

(67) قواما : مصدر الفعل الثلاثيّ قام بمعنى اعتدل وكان وسطا ، وزنه فعال بفتح الفاء ، وقد استعمل في موضوع الوصف .

(68) يزنون : فيه إعلال بالحذف ، أصله يزنيون ، استثقلت الضمّة على الياء الثانية فسكّنت ونقلت حركتها إلى النون – إعلال بالتسكين – ثمّ حذفت الياء لالتقائها ساكنة مع واو الجماعة فأصبح يزنون ، يفعون .

وجملة : " من يفعل . . . " لا محلّ لها اعتراضيّة . . .

وجملة : " يفعل ذلك . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) " 1 " .

وجملة : " يلق . . . " لا محلّ لها جواب شرط جازم غير مقترنة بالفاء .

(69) (يضاعف) مضارع مجزوم بدل من فعل (يلق) ، مبنيّ للمجهول (له) متعلّق بـ (يضاعف) ، (العذاب) نائب الفاعل مرفوع (يوم) ظرف زمان منصوب متعلّق بـ (يضاعف) ، (يخلد) مضارع مجزوم معطوف على (يضاعف) ، (فيه) متعلّق بـ (يخلد) أي في عذابه (مهانا) حال منصوبة من فاعل يخلد .

وجملة : " يضاعف . . . " لا محلّ لها بدل من جملة يلق . . .

وجملة : " يخلد . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يضاعف .

---

(1) يجوز أن يكون الخبر جملتي الشرط والجواب معا .

(70) (إلّا) أداة استثناء (من) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب على الاستثناء المتّصل (عملا) مفعول به منصوب " 1 " (الفاء) زائدة لمشابهة الموصول للشرط " 2 " ، (أولئك) مبتدأ ، والإشارة إلى الموصول (من) مراعي فيه معناه ، والخبر جملة يبدّل (حسنات) مفعول به ثان منصوب وعلامة النصب الكسرة (الواو) استئنافيّة (رحيما) خبر ثان .

وجملة : " تاب . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة : " آمن . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة تاب .

وجملة : " عمل . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة تاب .

وجملة : " أولئك يبدّل . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " يبدّل اللّه . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (أولئك) .

وجملة : " كان اللّه غفورا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة فيها معنى التعليل .

(71) (الواو) عاطفة (من) اسم شرط جازم مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (تاب) فعل ماض مبنيّ على الفتح في محلّ جزم فعل الشرط (صالحا) مثل عملا ، وهو نعت عن منعوت محذوف (الفاء) رابطة لجواب الشرط (إلى اللّه) متعلّق بـ (يتوب) ، (متابا) مفعول مطلق منصوب .

وجملة : " من تاب . . . " لا محلّ لها معطوفة على المعترضة (من يفعل ذلك) .

وجملة : " تاب . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) .

---

(1) هذا إذا كان (عملا) بمعنى الشيء المعمول . . . وهو مفعول مطلق إذا كان مصدرا .

(2) إذا كانت (إلّا) بمعنى لكن فـ (من) موصول مبتدأ خبره جملة أولئك يبدّل على زيادة الفاء . . أو (من) اسم شرط مبتدأ خبره جملة تاب . . وجملة أولئك يبدل جواب الشرط.

الجدول ج 19 ، ص : 46

وجملة : " عمل . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة تاب .

وجملة : " إنّه يتوب . . . " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

وجملة : " يتوب . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

(72) (الواو) عاطفة (الذين) موصول في محلّ رفع معطوف على الموصول الأول : الذين يمشون . . . (الزور) مفعول به عامله يشهدون بمعنى يحضرون ، أو بمعنى يقيمون الشهادة " 1 " ، (الواو) عاطفة (باللغو) متعلّق بـ (مرّوا) (كراما) حال منصوبة من فاعل مرّوا الثاني .

وجملة : " لا يشهدون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) السادس .

(يلق) ، فيه إعلال بالحذف لمناسبة الجزم وزنه يفع .

(أثاما) ، مصدر سماعيّ من أثمه يأثمه باب نصر وباب ضرب بمعنى عدّه عليه إثما أو جازاه

جزاء الإثم وزنه فعال بفتح الفاء كنكال .

---

(1) أو هو منصوب على نزع الخافض أي : لا يشهدون بالزور .

---

(69) مهانا : اسم مفعول من (أهان) الرباعيّ ، وزنه مفعل بضمّ الميم وفتح العين . وفيه إعلال بالتسكين وبالقلب أصله مهين ، نقلت الفتحة إلى الهاء وقلبت الياء ألفا لتحركها بالأصل وفتح ما قبلها .

(72) كراما : جمع كريم ، صفة مشبهة من الثلاثيّ كرم الباب الخامس وزنه فعيل ، ويطلق الكريم على أحسن الشيء وعلى كلّ ما يرضي ويحمد . . . ويجمع كريم أيضا على كرماء زنة فعلاء بضمّ ففتح ، ووزن كرام فعال بالكسر .

(74) قرّة أعين : مصدر يكنى به عن السرور من (قرّت) العين أي بردت سرورا وجفّ دمعها ورأت ما كانت متشوّقة إليه ، وزنه فعلة بضمّ

فسكون . . . وثمّة مصادر أخرى للفعل هي قرّة بفتح القاف ، وقرورة بضم القاف .

(75) الغرفة : اسم جنس أريد به الجمع ، وقصد به الدرجة الرفيعة ، وزنه فعلة بضمّ فسكون .

البلاغة

1 - النفي والإثبات : في قوله تعالى لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْها صُمًّا وَعُمْياناً .

قوله تعالى لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْها ليس بنفي للخرور ، وإنما هو إثبات له ، ونفي للصمم والعمى ، كما تقول : لا يلقاني زيد مسلما ، وهو نفي للسلام لا للقاء . والمعنى أنهم إذا ذكروا بها أكبوا عليها حرصا على استماعها ، وأقبلوا على المذكر بها وهم في إكبابهم عليها ، سامعون بآذان واعية ، مبصرون بعيون راعية ، لا كالذين يذكرون بها ، فتراهم مكبين عليها مقبلين على من يذكر بها ، مظهرين الحرص الشديد على استماعها ، وهم كالصم العميان ، حيث لا يعونها ولا يتبصرون ما فيها كالمنافقين وأشباههم .

2 - التنكير والتقليل : في قوله تعالى قُرَّةَ أَعْيُنٍ :

نكّر وقلل ، أما التنكير فلأجل تنكير القرّة لأن المضاف لا سبيل إلى تنكيره إلا بتنكير المضاف إليه ، كأنه قيل : هب لنا منهم سرورا وفرحا . وإنما قيل (أعين) دون عيون لأنه أراد أعين المتقين ، وهي قليلة بالإضافة إلى عيون غيرهم . " قال تعالى : وَقَلِيلٌ مِنْ عِبادِيَ الشَّكُورُ " .

ويجوز أن يقال في تنكير (أعين) أنها أعين خاصة ، وهي أعين المتقين .

الفوائد

1 – فعل بات :

ورد في القاموس " و بات يفعل كذا يبيت ويبات بيتا وبياتا ومبيتا وبيتوتة أي يفعله ليلا وليس من النوم .

قال الشريف الرضي :

أتبيت ريان الجفون من الكرى وأبيت منك بليلة الملسوع

وتكون بات تامة مكتفية بمرفوعها إذا كانت بمعنى عرّس ، وهو النزول آخر الليل ، كقول ابن عمر " أمّا رسول اللّه فقد بات بمنى " .

إذن لـ " بات " معنيان : إما أن تكون ناقصة ، فهي تحتاج إلى اسم وخبر ، وخبرها يكون منصوبا وإما أن تكون تامة ، فتكتفي بفاعلها ، وذلك عند ما تكون بمعنى بقي حتى الصباح .

2 – " وَمَنْ يَفْعَلْ ذِلِكَ يَلْقَ أَثَاماً يُضاعَفْ لَهُ الْعَذابُ " .

فيضاعف بدل كل من كل ، أو بدل مطابق . وللبدل أقسام أخرى :

أ – بدل البعض من الكل .

ب – بدل الاشتمال .

ج – بدل الجملة من المفرد والمفرد من الجملة .

3 – القوام هو التوسط في الأمور ، وهو فضيلة الفضائل ، لأنه يشمل كل " خليقة " ، فلا إفراط ولا تفريط . ويمرّ ذكر هذه الفضيلة كثيرا في القرآن الكريم . وقد نوهنا إلى ذلك في وصايا لقمان لابنه . وقد نوّه أيضا فلاسفة اليونان بهذه الفضيلة .

4 – من فضائل التوبة النصوح أنها تقلب سيئات الإنسان إلى حسنات ، وهل ثمة تجارة أكثر ربحا من ذلك . فتبصّر .

5 – صفات عباد الرحمن :

أ – الإعراض عن الجاهلين .

ب – طلب النجاة من النار .

ج – الحكمة في الإنفاق .

د – عدم الشرك بالله .

ه – لا يقتلون إلّا بالحق .

و – لا يزنون .

ز – الحض على التوبة .

ح – لا يشهدون الزور .

ط – يتنزهون على لغو الكلام ي – يتقبلون الذكرى ويتلقون النصيحة .

ك – طلب الذرية الصالحة .

ل – سؤال اللّه أن يجعلهم في مقدمة المتقين .

[سورة الفرقان (25) : آية 77]

قُلْ ما يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلا دُعاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزاماً (77)

الإعراب :

(ما) نافية (بكم) متعلّق بـ (يعبأ) ، (لولا) حرف امتناع لوجود فيه معنى الشرط (دعاؤكم) مبتدأ مرفوع والخبر محذوف وجوبا تقديره موجود (الفاء) تعليليّة (قد) للتحقيق (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (سوف) حرف استقبال ، واسم (يكون) ضمير مستتر يعود على العذاب المفهوم من سياق الآيات . . .

وجملة : " قل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " ما يعبأ بكم ربّي . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " لولا دعاؤكم (موجود) " لا محلّ لها استئناف بيانيّ . . .

وجواب الشرط محذوف دلّ عليه ما قبله أي : لولا دعاؤكم . . . ما يعبأ بكم ربّي . . .

وجملة : "كذّبتم . . . "لا محلّ لها تعليليّة . . .

وجملة : "سوف يكون لزاما . . . "جواب شرط مقدّر هو تعليل ثان لما سبق أي : من يكذّب فسوف يكون العذاب لزاما عليه . . . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الجدول حـ 18 صـ 303 : حـ 19 صـ 49﴾

(449/564)

وقال العلامة محيي الدين الدرويش :

(25) سورة الفرقان

مكيّة وآياتها سبع وسبعون

[سورة الفرقان (25) : الآيات 1 إلى 6]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

تَبارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقانَ عَلى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعالَمِينَ نَذِيراً (1) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً (2) وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلا نَفْعاً وَلا يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلا حَياةً وَلا نُشُوراً (3) وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذا إِلَّا إِفْكٌ افْتَراهُ وَأَعانَهُ عَلَيْهِ

قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جاؤُ ظُلْماً وَزُوراً (4)

وَقالُوا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَها فَهِيَ تُمْلى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (5) قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كانَ غَفُوراً رَحِيماً (6)

اللغة :

(تَبارَكَ) : البركة زيادة الخير وكثرته ، والزيادة تكون حسية ومعنوية أي تزايد خيره وتكاثر أو تزايد عن كل شيء وتعالى عنه في

صفاته وأفعاله ، ثم ان تبارك فعل ماض جامد لا يتصرف فلا يأتي منه مضارع ولا أمر ولا اسم فاعل وليس له مصدر ولا يستعمل في غير اللّه تعالى وسيأتي بحث الجامد في باب الفوائد .

(450/564)

(الْفُرْقانَ) : القرآن لأنه فرق بين الحق والباطل وقيل لأنه نزل مفرقا في أوقات كثيرة وفي المصباح : " فرقت بين الشيئين فرقا من باب قتل فصلت أبعاضه وفرقت بين الحق والباطل ، فصلت أيضا ، هذه هي اللغة العالية وبها قرأ السبعة في قوله تعالى : " فَافْرُقْ بَيْنَنا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفاسِقِينَ " وفي لغة من باب ضرب وقرأ بها بعض التابعين ، وقال ابن الأعرابي : فرقت

بين الكلامين فافترقا مخفف ، وفرقت بين العبدين فتفرقا مثقل فجعل المخفف في المعاني والمثقل في الأعيان . والذي حكاه غيره أنهما بمعنى والتثقيل مبالغة " ولهذه المادة في اللغة شعاب كثيرة ، وسنورد لك منها ما يروق الخاطر : فالفرقان مصدر فرق بين الشيئين إذا فصل بين الشيئين وسمي به القرآن لفصله بين الحق والباطل أو لأنه لم ينزل جملة واحدة ولكن مفروقا مفصولا بين بعضه وبعض في الإنزال ، ألا ترى إلى قوله : " وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا " والأظهر هو المعنى الثاني لأن في السورة بعد آيات : " وقال الذين كفروا لولا نزلوا عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك " .

قال اللّه تعالى كذلك أي أنزلناه مفرقا كذلك لنثبت به فؤادك ، فيكون وصفه بالفرقان في أول السورة كالمقدمة والتوطئة لما يأتي بعد ، وقد رأت دائرة المعارف الاسلامية كلمة فرقان مجهولة الأصل ، وهذا خطأ بيّن ، ووهم ظاهر كما رأيت من اشتقاق الكلمة ، يقال فرق لي الطريق فروقا وانفرق انفراقا إذا اتجه لك طريقان فاستبان ما يجب سلوكه منهما ، وطريق أفرق : بيّن ، وضم تفاريق متاعه أي ما تفرق منه ، وضرب

اللّه بالحق على لسان الفاروق ، وسطع الفرقان أي الصبح ، وهذا أبين من فلق الصبح وفرق الصبح ، وتقول سبيل أفرق كأنه الفرق ، وهو أسرع من فريق الخيل ، وهو سابقها فعيل بمعنى مفاعل لأنه إذا سبقها فارقها ، وبانت في قذاله فروق من الشيب أي أوضاح منه ، وماله إلا فرق من الغنم وفريقة أي يسير ، ورأى أعرابي صبيانا قال : هؤلاء فرق سوء ، وما أنت إلا فروقة ، وفرق خير من حبّ أي أن تهاب خير من أن تحب ، وأفرق المحموم والمجنون ، وهو في أفراق من حمّاه ، ومن المجاز : وقفته على مفارق الحديث أي على وجوهه الواضحة ، وفي اللسان والأساس : " بدا المشيب في مفرقه وفرقه ، ورأيت وبيص الطيب في مفارقهم ، وفرقت الماشطة رأسها كذا فرقا ، ورأس مفروق ، وديك أفرق : انفرقت رعثته ، وجمل أفرق : ذو ستامين ، ورجل أفرق الأسنان : أفلجها ، وناقة فارق : ما خض فارقت الإبل نادّة من وجع المخاض ، ونوق فرق وفوارق ومفاريق ، وقد فرقت فروقة وتشبّه بها السحاب . قال ذو الرمة :

أو مزنة فارق يجلو غواربها تبوّج البرق والظلماء علجوم

الاعراب :

(

تَبارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقانَ عَلى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعالَمِينَ نَذِيراً) تبارك فعل ماض جامد كما تقدم في باب اللغة ، والذي فاعله وجملة نزل الفرقان صلة وعلى عبده متعلقان بنزل واللام للتعليل

ويكون فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل واسم يكون مستتر تقديره هو ونذيرا خبر يكون . (الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً) هذا الموصول يجوز أن يكون بدلا من الموصول الأول أو خبر لمبتدأ

محذوف فيكون محله الرفع ويجوز نصبه على المدح وما بعده تمام الصلة للموصول الأول ، وله خبر مقدم

(452/564)

(وجملة اكتتبها خبر ، فهي الفاء عاطفة وهي مبتدأ وجملة تملى خبر ونائب الفاعل مستتر وعليه متعلقان بتملى وبكرة ظرف متعلق بتملى وأصيلا عطف على بكرة ، ومعنى تملى عليه تقرأ عليه لينتسخها بواسطة من يكتب له ، لأنه عليه السلام ، كان أميا .

(قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كانَ غَفُوراً رَحِيماً) قل فعل أمر وفاعله مستتر تقديره أنت وجملة أنزله مقول القول والذي مفعول به وجملة يعلم السر صلة الموصول وفي السموات والأرض حال وجملة إنه كان الآية تعليل لما تقدم فلا محل لها وقد تقدم إعرابها كثيرا .

البلاغة :

في قوله تعالى : " فَقَدْ جاؤُ ظُلْماً وَزُوراً " لف ونشر مرتب وقد تقدم في هذا الكتاب أن اللف والنشر فن يتضمن ذكر متعدد على التفصيل أو الإجمال ثم ذكر ما لكل واحد من المتعدد من غير تعيين ثقة بأن السامع يميز ما لكل واحد منها ويرده إلى ما هو له ، وقد مثلنا لكل من قسميه بما هو كاف ، أما في هذه الآية فإن قوله تعالى : " فَقَدْ جاؤُ ظُلْماً وَزُوراً " فيه جعل الكلام المعجز إفكا مختلقا متلقفا من اليهود أو غيرهم من أهل الكتاب ، وزورا بنسبة ما هو بريء منه اليه .

الفوائد :

الفعل الجامد :

(453/564)

الفعل الجامد هو ما أشبه الحرف من حيث أداؤه معنى مجردا عن الزمان والحدث المعتبرين في الأفعال ، فلزم مثله طريقة واحدة في التعبير فهو لا يقبل التحول من صورة إلى صورة بل يلزم صورة واحدة لا يزايلها ، وذلك مثل : عسى وليس وهب بمعنى احسب وافرض ، ولم يرد من مادته بهذا المعنى إلا الأمر فهو فعل أمر جامد ، وأما " هب " المشتق من الهبة فماضيه وهب ومضارعه يهب وكذلك هب المشتق من الهيبة فإنه فعل أمر متصرف فماضيه هاب

ومضارعه يهاب ، ونعم وبئس وهو إما أن يلازم صيغة الماضي مثل عسى وليس ونعم وبئس وتبارك اللّه ، أو صيغة المضارع مثل يهيط ومعناه يصيح ويفح ، يقال ما زال منذ اليوم يهيط هيطا وهو مضارع لا ماضي له كما في لسان العرب وتاج العروس ويقال : ما زال في هيط وميط بفتح أولهما وفي هياط ومياط بكسر أولهما أي ضجاج وشر وجلبة ، وقيل في هياط ومياط :

في دنو وتباعد ، والهياط الإقبال والمياط الإدبار ، والهائط : الجائى ، والمائط : الذاهب ، والمهايطة والهياط : الصياح والجلبة ، ويقال بينهما مهايطة ومايطة ومسايطة ومشايطة أي كلام مختلف ، ومثل هب وهات وتعال وهلم في لغة تميم لأنه عندهم فعل يقبل علامته فتلحقه الضمائر ، أما في لغة الحجاز فهي اسم فعل أمر لأنها ستكون عندهم بلفظ واحد للجميع وسيأتي بحثها في حينه . ومن الأفعال الجامدة " قلّ " بصيغة الماضي للنفي المحض وإذا لحقته ما الزائدة كفته عن العمل فلا يليه حينئذ إلا فعل ولا فاعل له لجريانه مجرى حرف النفي نحو : قلما فعلت هذا وقلما أفعله أي ما فعلت ولا أفعل ومنه قول الشاعر :

قلما يبرح اللبيب إلى ما يورث المجد داعيا أو مجيبا

أي لا يزال اللبيب داعيا . وقد يليه الاسم في ضرورة الشعر كقوله :

صددت فأطولت الصدود وقلما وصال على طول الصدود يدوم

و قد يراد بقولك قلما أفعل اثبات الفعل القليل كما في الكليات لأبي البقاء ، غير أن الكثير استعمالها للنفي الصرف ، ومثل قلما في عدم التصرف طالما وكثرما وقصرما وشدما فإن ما فيهن زائدة للتوكيد كافة لهن عن العمل فلا فاعل لهن ولا يليهن إلا فعل ، فهن كقلما . ومن الأفعال الجامدة قولهم " سقط في يده " بمعنى ندم وتحير وزل وأخطأ وهو ملازم صورة الماضي المجهول قال تعالى " وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ " وقد تقدم بحثه .

[سورة الفرقان (25) : الآيات 7 إلى 12]

وَقالُوا مالِ هذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْواقِ لَوْلا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً (7) أَوْ يُلْقى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْها وَقالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَسْحُوراً (8) انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً (9) تَبارَكَ الَّذِي إِنْ شاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْراً مِنْ ذلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُوراً (10) بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيراً (11)

إِذا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَها تَغَيُّظاً وَزَفِيراً (12)

الاعراب :

)

وَقالُوا : مالِ هذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْواقِ) كلام مستأنف مسوق للشروع

في بيان قبائحهم التي أرجفوا بها في شأن الرسول وهي ستة كما سيأتي . وقالوا فعل وفاعل وما اسم استفهام مبتدأ ولهذا خبره والرسول بدل من اسم الاشارة وجملة يأكل الطعام حالية وهي الفرية الاولى ، ويأكل الطعام فعل وفاعل مستتر ومفعول به وجملة يمشي في الأسواق عطف عليها وهي الفرية الثانية وسيأتي معنى أكل الطعام والمشي في الأسواق في باب البلاغة .

(455/564)

(لَوْلا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً) لولا حرف تحضيض وأنزل فعل ماض مبني للمجهول وعليه متعلقان بأنزل وملك نائب فاعل والفاء فاء السببية ويكون فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد فاء السببية لأنها جواب التحضيض واسمها مستتر تقديره هو أي الملك ومعه ظرف مكان متعلق بمحذوف حال ونذيرا خبر يكون أي فهما يتساندان في الإنذار والتخويف وهذه هي الفرية الثالثة . (أَوْ يُلْقى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْها) أو حرف عطف ويلقى فعل مضارع مبني للمجهول وكنز نائب فاعل واليه متعلقان بيلقى ، أو تكون له جنة عطف على ما تقدم وجملة يأكل منها صفة لجنة وهذان الفعلان معطوفان على أنزل لأنه بمعنى ينزل ولا يجوز أن يعطفا على " فيكون " المنصوب في الجواب لأنهما مندرجان في

التحضيض فيعطفان على جوابه ، وهاتان هما الفريتان الرابعة والخامسة . (وَقالَ الظَّالِمُونَ : إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُوراً) الواو عاطفة وقال الظالمون فعل وفاعل وإن نافية وتتبعون فعل مضارع وفاعل وإلا أداة حصر ورجلا مفعول به ومسحورا صفة وهذه هي الفرية السادسة والأخيرة .

(456/564)

)

انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا) انظر فعل أمر وفاعل مستتر تقديره أنت وكيف اسم استفهام في محل نصب حال ولك متعلقان بضربوا والأمثال مفعول به ، فضلوا الفاء عاطفة وضلوا فعل ماض وفاعل ، فلا الفاء عاطفة ويستطيعون سبيلا فعل مضارع وفاعل ومفعول به . (تَبارَكَ الَّذِي إِنْ شاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْراً مِنْ ذلِكَ) كلام مستأنف مسوق لتقرير تساميه سبحانه وتعاليه عما يقولون . وتبارك الذي فعل وفاعل وقدر الزمخشري والجلال وغيرهما مضافا محذوفا أي خير الذي ، وان شرطية وشاء فعل ماض في محل جزم فعل الشرط وجعل جواب الشرط والجملة الشرطية صلة الموصول ولك مفعول جعل الثاني وخيرا مفعول جعل الأول ومن ذلك متعلقان بخيرا والاشارة إلى الذي

اقترحوه من الكنز والبستان . (جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُوراً) جنات بدل من خيرا وجملة تجري صفة لجنات ومن تحتها متعلقان بتجري والأنهار فاعل تجري ويجعل فعل مضارع معطوف على محل جعل الواقع جوابا للشرط وسيأتي بحث هام عن فعل الشرط وجوابه في باب الفوائد ولك مفعول ثان وقصورا مفعول أول . (بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيراً) بل حرف للاضراب فقد أضرب عن توبيخهم بحكاية أراجيفهم السابقة إلى حكاية تكذيبهم بالساعة ، وكذبوا فعل وفاعل وبالساعة متعلقان بكذبوا وأعتدنا فعل وفاعل ولمن متعلقان بأعتدنا وجملة كذب بالساعة صلة من وسعيرا مفعول به ، والمعنى :

هيأنا لهؤلاء المكذبين نارا عظيمة ، ووضع الموصول موضع الضمير ووضع الساعة موضع ضميرها للمبالغة في التوبيخ وقد مرت نظائره في أبواب البلاغة ونون سعيرا للتكثير أي نارا عظيمة كما ذكرنا . (إِذا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَها تَغَيُّظاً وَزَفِيراً) هذه الجملة الشرطية في محل نصب صفة لسعيرا لأنه مؤنث بمعنى النار . وإذا ظرف مستقبل متضمن معنى الشرط وجملة رأتهم في محل جر باضافة إذا إليها ومن مكان متعلقان

بمحذوف حال وجملة سمعوا جواب الشرط ولها حال لأنه كان في الأصل صفة وتغيظا مفعول به وزفيرا عطف عليه وسيأتي في باب البلاغة فصل مسهب عن هذا التعبير .

البلاغة :

1- كنايتان بديعتان :

في قوله تعالى " وَقَالُوا مالِ هذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْواقِ " كناية عن الحدث لأنه ملازم أكل الطعام ، وقد مر تقريره مفصلا في سورة المائدة فجدد به عهدا ، وفي يمشي في الأسواق كناية عن طلب المعاش ، وانظر بعد هاتين الكنايتين البديعتين إلى حكاية خطراتهم الملتاثة وهواجسهم المحمومة كيف اقترحوا أولا بأن يكون ملكا إلى اقتراح أن يكون إنسانا معه ملك حتى يتساندا في الإنذار والتخويف ، ثم نزلوا أيضا فقالوا : وان لم يكن مرفودا بملك فليكن مرفودا بكنز يلقى اليه من السماء يستظهر به ولا يحتاج إلى تحصيل المعاش ، ثم نزلوا فاقتنعوا بأن يكون رجلا له بستان يأكل منه ويرتزق كما يرتزق المياسير ، فانظر كيف صور خطرات النفس الملتاثة وحالات ترددها .

2- وضع الظاهر موضع المضمر :

في قوله " وقال الظالمون " وضع الظاهر موضع الضمير وقد تقدمت الاشارة اليه مع أمثلته ، فقد أراد بالظالمين إياهم بأعيانهم فهم القائلون الأولون ، وإنما وضع المظهر موضع المضمر تسجيلا عليهم بوصف الظلم وتجاوز الحد .

3- الاستعارة : اثبات الرؤية لجهنم والتغيظ المسموع والزفير المتصاعد ، أمر شغل العلماء كثيرا ، فأما أهل السنة فيجعلون ذلك كله حقيقة ولا يحملونه على المجاز ، فإن رؤية جهنم جائزة وقدرة اللّه تعالى صالحة ، وقد تظاهرت الظواهر على وقوع هذا الجائز وعلى أن اللّه تعالى يخلق لها إدراكا حسيا وعقليا ، ألا ترى إلى قوله تعالى " سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظاً " والى محاجتها مع الجنة والى قولها " هل من مزيد " والى اشتكائها إلى ربها فأذن لها في نفسين ، إلى غير ذلك من الظواهر التي لا سبيل إلى تأويلها إذ لا محوج اليه ، قالوا : " ولو فتح باب التأويل والمجاز في أحوال المعاد لتطوح الذي يسلك ذلك إلى وادي الضلالة " أما بصدد سمع التغيظ وهو لا يسمع فقد أجاب عنه أهل السنة بثلاثة أجوبة ندرجها فيما يلي :

آ- انه على حذف مضاف أي صوت تغيظها .

ب- انه على حذف فعل تقديره سمعوا ورأوا تغيظا وزفيرا فيرجع كل واحد إلى ما يليق به أي رأوا تغيظا وسمعوا زفيرا .

ج- أن يضمن سمعوا معنى يشمل الشيئين أي أدركوا لها تغيظا وزفيرا .

أما بصدد قوله رأتهم فقال بعضهم انه من باب القلب أي رأوها ، أو على حذف تقديره

رأتهم زبانيتها .

أما المعتزلة فهم يحملون ذلك كله على المجاز ويجعلون رؤية جهنم من باب قولهم دور بني فلان تتراءى وتتناظر فتدخل عندئذ في باب الاستعارة المكنية وقد تقدم القول فيها كثيرا .

وروي عن ابن عباس رضي اللّه عنهما في قوله " إذا رأتهم من مكان بعيد " من مسيرة مائة عام ، وذلك إذا أتى بجهنم تقاد بسبعين ألف زمام يشد بكل زمام سبعون ألف ملك لو تركت لأتت على كل بر وفاجر " سمعوا لها تغيظا وزفيرا " تزفر زفرة لا تبقى قطرة من دمع إلا ندرت ثم تزفر الثانية فتقطع القلوب من أماكنها ، تقطع اللهوات والحناجر .

4- حسن الاتباع :

هذا وقد رمق الشعراء سماء هذه التعابير البليغة مما يدخل في باب حسن الاتباع ، وهو أن يأتي المتكلم إلى معنى اخترعه غيره فيحسن اتباعه فيه بحيث يستحقه ويحكم له به دون الاول ، وهذا الباب مما يخص كلام المخلوقين ومما أخذ بعضهم من بعض ولا مدخل لشيء من القرآن العزيز فيه فإن القرآن متبع لا مبتع إلا أن الشعراء حين يرمقون سماءه ويحسنون اتباعه صار كأنه داخل في سلك هذا الفن فقال الفرزدق :

يكاد يمسكه عرفان راحته ركن الحطيم إذا ما جاء يستلم

فأسند أفعال من يعقل إلى ما لا يعقل وجرى على منواله أبو تمام فقال :

لو يعلم الركن من قد جاء يلثمه لخرّ يلثم منه موطىء القدم

وحذا البحتري حذو أبي تمام فقال :

فلو أن مشتاقا تكلف فوق ما في وسعه لسعى إليك المنبر

واتبع المتنبي البحتري في ذلك فقال :

لو تعقل الشجر التي قابلتها مدّت محيية إليك الأغصنا

وهذا باب واسع سيأتي الكثير من أمثاله .

الفوائد :

فعل الشرط والجواب :

لا يشترط في الشرط والجواب أن يكونا من نوع واحد بل تارة :

1- يكونان مضارعين نحو " وإن تعودوا نعد " 2- يكونان ماضيين نحو " وإن عدتم عدنا "

.

3- يكونان مختلفين ماضيا فمضارعا نحو " من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه "

وانما حسن ذلك لأن الاعتماد في المعنى على خبر كان وهو مضارع فكأنه قال : من يرد نزد

له .

4- يكونان عكسه مضارعا فماضيا وهو قليل ، وخصه بعضهم بالشعر وورد منه في الحديث قوله صلى اللّه عليه وسلم " من يقم ليلة القدر احتسابا غفر له " رواه البخاري .

هذا وإذا وقع فعل الشرط ماضيا جاز في جزائه الجزم والرفع كقول زهير :

وإن أتاه خليل يوم مسغبة يقول لا غائب مالي ولا حرم

(460/564)

برفع يقول ، قال ابن مالك " وبعد ماض رفعك الخبر أحسن " والذي حسن ذلك أن الأداة لما لم تعمل في لفظ الشرط لكونه ماضيا مع قربه فلا تعمل في الجزاء مع بعده ولذلك قرىء " ويجعل لك قصورا " برفع يجعل عطفا على جعل وقد أراد بعضهم تخطئة شوقي في قوله :

إن رأتني تميل عني كأن لم يك بيني وبينها أشياء

وفاتهم القاعدة المتقدمة .

[سورة الفرقان (25) : الآيات 13 إلى 16]

وَإِذا أُلْقُوا مِنْها مَكاناً ضَيِّقاً مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنالِكَ ثُبُوراً (13) لا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُوراً واحِداً وَادْعُوا ثُبُوراً كَثِيراً (14) قُلْ أَذلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كانَتْ لَهُمْ جَزاءً وَمَصِيراً (15) لَهُمْ فِيها ما يَشاؤُنَ خالِدِينَ كانَ عَلى رَبِّكَ وَعْداً مَسْؤُلاً (16)

اللغة :

(مُقَرَّنِينَ) : من قرنه بتشديد الراء جمّعه وشدده يقال قرّنت الأسارى في الحبال وفعله الثلاثي قرن يقرن من باب ضرب يضرب قرنا الشيء بالشيء شده به ووصل اليه ، وقرن الثورين جعلهما في نير واحد ، وقرن البعيرين جمعهما في حبل ، وهي في قوله تعالى : " مقرنين " تفيد شيئين : التصفيد أي تقييد الأرجل وجمع الأيدي والأعناق بالسلاسل .

(ثُبُوراً) : هلاكا يقال : ثبره اللّه : أهلكه هلاكا دائما لا ينتعش بعده ومن ثم يدعو أهل النار : وا ثبوراه ، وما ثبرك عن حاجتك :

ما ثبطك ؟ وهذا مشبر فلانة : لمكان ولادتها حيث يثبرها النفاس .

الاعراب :

)

(461/564)

وَإِذا أُلْقُوا مِنْها مَكاناً ضَيِّقاً مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنالِكَ ثُبُوراً) الواو عاطفة وإذا ظرف مستقبل متضمن معنى الشرط وجملة ألقوا مجرورة باضافة الظرف إليها وهو متعلق بالجواب وهو دعوا ، وألقوا فعل ماض مبني للمجهول والواو نائب فاعل ومنها حال من مكانا لأنه في

الأصل صفة له ومكانا ظرف متعلق بألقوا وضيقا صفة لمكانا ومقرنين حال من الواو في ألقوا وجملة دعوا لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم والواو فاعل دعوا وهنالك اسم اشارة في محل نصب على الظرفية المكانية وهو متعلق بدعوا في ذلك المكان ومعنى دعوا نادوا ، وثبورا مفعول به لدعوا ويجوز أن يكون مفعولا مطلقا أي مصدرا من معنى دعوا ، وقال الزجاج : وانتصاب ثبورا على المصدرية أي ثبرنا ثبورا ، وقيل منتصب على أنه مفعول له ، وقيل منادى أي يقولون يا ثبوراه احضر فهذا أوانك فإن الهلاك أخف عليهم مما هم فيه .

(لا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُوراً واحِداً وَادْعُوا ثُبُوراً كَثِيراً) الجملة مقول قول محذوف تقديره فيقال لهم وهذا المحذوف معطوف على ما قبله .

ولا ناهية وتدعوا فعل مضارع مجزوم بلا الناهية والواو فاعل تدعوا وثبورا تقدم أنها مفعول به أو مفعول مطلق وادعوا فعل أمر وثبورا تقدم إعرابها وكثيرا صفة لثبورا ، وعبر عنه بالكثرة ونفى عنه الوحدة لأنه ألوان كل نوع منها ثبور لشدته وفظاعته أو لأنهم كلما نضجت

جلودهم بدلوا جلودا غيرها فلا غاية ولا نهاية لهلاكهم . (قُلْ : أَذِلكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كانَتْ لَهُمْ جَزاءً وَمَصِيراً) قل فعل أمر وفاعله مستتر وجوبا تقديره أنت والهمزة للاستفهام للتقريع والتهكم وسيأتي مزيد من بحث بلاغة هذه الآية ، وذلك مبتدأ وخير خبر وأم حرف عطف وجنة الخلد عطف على ذلك واسم الموصول صفة لجنة الخلد وجملة وعد المتقون جملة فعلية من فعل ونائب فاعل صله وجملة كانت لهم حالية من جنة الخلد ولهم حال لأنه كان في الأصل صفة واسم كانت مستتر تقديره هي وجزاءا خبر كانت ومصيرا عطف على جزاء . (لَهُمْ فِيها ما يَشاؤُنَ خالِدِينَ كانَ عَلى رَبِّكَ وَعْداً مَسْؤُلًا) الجملة حال ثانية من جنة الخلد ولهم خبر مقدم وفيها حال وما مبتدأ مؤخر وجملة يشاءون صلة وخالدين حال لازمة من الهاء في لهم أو الواو في يشاءون وكان فعل ماض ناقص واسمها مستتر يعود على الوعد المفهوم من قوله وعد المتقون أو على ما يشاءون وعلى ربك حال لأنه كان صفة لوعدا ومسئولا صفة لوعدا .

الفوائد :

معنى التفضيل :

المفهوم من اسم التفضيل أنه تفاوت بين صفتين مشتركتين ، فكيف قال : أذلك خير أم جنة الخلد ، ومعلوم أن النار لا خير فيها البتة ، وقد سبق مثل هذا السؤال والجواب ما حكاه سيبويه عن العرب :

الشقاء أحب إليك أم السعادة ، وقد علم أن السعادة أحب اليه ، وقبل ليس هو من باب اسم التفضيل وإنما هو كقولك عنده خير .

ومما لا مندوحة عن التنبيه اليه هو أن قوله تعالى " لَهُمْ فِيها ما يَشاؤُنَ "

(463/564)

ظاهره يقتضي عموم الموصول أنه إذا شاء أحد رتبة من فوقه كالأنبياء نالها فلم يبق بين الناقص والكامل تفاوت ، ويقتضي أيضا أنه إذا شاء أحدهم الشفاعة لأحد من أهل النار كابنه أو أبيه فإن شفاعته سوف تقبل وذلك يتنافى مع العلم بأن عذاب الكافر مخلد ، وقد أجاب القاضي البيضاوي على هذا الإيهام بقوله " ولعله يقصر همم كل طائفة على ما يليق برتبتها وأنه تعالى لا يلقي في خواطرهم أن ينالوا أكثر ما نالوه أو يطلبوا المزيد على ما يسبحون فيه من أمواه النعيم المترقرقة عليهم . والأحاديث مستفيضة في درجات الجنة وتفاوتها ، روى البخاري عن أبي هريرة رضي اللّه عنه أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال : ان في الجنة مائة درجة أعدها اللّه للمجاهدين في سبيل اللّه ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض .

[سورة الفرقان (25) : الآيات 17 إلى 19]

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَما يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبادِي هؤُلاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ (17) قالُوا سُبْحانَكَ ما كانَ يَنْبَغِي لَنا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِياءَ وَلكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآباءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكانُوا قَوْماً بُوراً (18) فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِما تَقُولُونَ فَما تَسْتَطِيعُونَ صَرْفاً وَلا نَصْراً وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذاباً كَبِيراً (19)

اللغة :

(بُوراً) : البور بضم الباء : الفاسد الذي لا خير فيه ، يقال امرأة بور وقوم بور يوصف به الواحد والجمع ، والبور من الأرض ما لم

يزرع ويجوز أن يكون جمع بائر كعائذ وعوذ ، وفي الأساس واللسان والتاج : " فلان له نوره ، وعليك بوره أي هلاكه ، وقوم بور ، وأحلوا دار البوار ، ونزلت بوار على الكفار . قال أبو مكعت الأسدي :

قتلت فكان تظالما وتباغيا إن التظالم في الصديق بوار

لو كان أول ما أتيت تهارشت أولاد عرج عليك عند وجار

جعلها علما للضباع فاجتمع التعريف والتأنيث ، ومن المجاز :

بارت البياعات أي كسدت ، وسوق بائرة ، وبارت الأيم إذا لم يرغب فيها " .

الاعراب :

(وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ) كلام مستأنف مسوق لوصل ما ذكره في أول السورة وهو قوله " واتخذوا من دونه آلهة " .

والظرف متعلق باذكر مقدرا معطوفا على قل وجملة يحشرهم بالياء والنون في محل جر بإضافة الظرف إليها والهاء مفعول به وما موصول معطوف على الهاء أو منصوب على المعية وغلب غير العاقل على العاقل فأتى بما دون " من " لأن بين المعبودين عقلاء ، وقيل إن كلمة ما موضوعة للكل أو يريد الأصنام لأنها تتكلم بلسان الحال كما قيل في شهادة الأيدي والأرجل .

وقال الزمخشري : " فإن قلت : كيف يصح استعمال ما في العقلاء ؟

قلت : هو موضوع على العموم للعقلاء وغيرهم بدليل قولك إذا رأيت شبحا من بعيد : ما هو فإذا قيل لك : إنسان قلت حينئذ : من هو " .

وجملة يعبدون صلة ما ومن دون اللّه حال . (فَيَقُولُ : أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبادِي هؤُلاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ)

فيقول عطف على يحشرهم وأنتم الهمزة للاستفهام التقريعي وأنتم مبتدأ وجملة أضللتم خبر وعبادي مفعول به وهؤلاء اسم اشارة صفة لعبادي أي المشار إليهم أو بدل من عبادي وأم حرف عطف وهم مبتدأ وجملة ضلوا خبره والسبيل نصب بنزع الخافض لأن ضل مطاوع أضله وكان القياس ضل عن السبيل إلا أنهم تركوا الجار كما تركوه في هداه الطريق والأصل إلى الطريق وللطريق . (قالُوا سُبْحانَكَ ما كانَ يَنْبَغِي لَنا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِياءَ) سبحانك مفعول مطلق لفعل محذوف أي تنزيها لك عما لا يليق بك وما نافية وكان فعل ماض ناقص وجملة ينبغي خبر كان ولنا متعلقان بينبغي وأن وما في حيزها فاعل ينبغي فيكون اسم كان مستترا وفاعل ينبغي مستتر ومن دونك مفعول نتخذ الثاني ومن حرف جر زائد وأولياء مجرور لفظا منصوب محلا على أنه مفعول نتخذ الاول أو بالعكس ، والصحيح أن قوله من أولياء هو المفعول الأول لأنه الذي يجوز أن تكون من فيه زائدة بخلاف الثاني ، تقول : ما اتخذت من أحد وليا ولا يجوز في الأفصح ما اتخذت أحدا من ولي .

(وَلكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآباءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكانُوا قَوْماً بُوراً) الواو عاطفة ولكن مخففة مهملة للاستدراك ومتعتهم فعل وفاعل ومفعول به وآباءهم الواو عاطفة أو للمعية وآباءهم عطف على الهاء أو مفعول معه وحتى حرف غاية وجر ونسوا الذكر فعل وفاعل ومفعول به وكانوا كان واسمها وقوما خبرها وبورا صفة . (فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِما تَقُولُونَ فَما تَسْتَطِيعُونَ

صَرْفاً وَلا نَصْراً) الفاء الفصيحة لأنها مرتبة على محذوف ولأنها مفاجأة بالاحتجاج والإلزام وخاصة إذا انضم إليها الالتفات وحذف القول وهذا التعبير بليغ جدا وله نظائر في الكتاب الكريم كقوله تعالى " يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من

(466/564)

الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير " .

وقول الشاعر :

قالوا خراسان أقصى ما يراد بنا ثم القفول فقد جئنا خراسانا

أي أن هذه البلدة أبعد ما يراد بنا ، وغاية سفرنا ، ثم يكون القفول والرجوع ، وقوله فقد جئنا مرتب على محذوف أي إن صدقوا فقد جئنا خراسان فلم لم نتخلص من السفر ، ويجوز أنه عدل إلى الخطاب أي فقولوا لهم اقطعوا السفر بنا وارجعوا فقد جئنا الموعد .

وقد حرف تحقيق وكذبوكم فعل وفاعل و

ره إذا منعه لأن المستعيذ بالله طالب منه أن يمنع المكروه فلا يلحقه فكأن المعنى اسأل الله أن يمنع ذلك منعا ويحجره حجرا " .

وقد ساءل الزمخشري فقال : " فإذا قد ثبت أنه من باب المصادر فما معنى وصفه

بمحجور ؟ قلت : جاءت هذه الصفة لتأكيد معنى الحجر كما قالوا ذيل زائل ، والذيل الهوان وموت مائت والحجر العقل لأنه يمنع صاحبه وفي الأساس : " وفي ذلك عبرة لذي حجر وهو اللّب ، وهذا حجر عليك : حرام ، وحجر عليه القاضي حجرا ، واستقينا من الحاجر وهو منهبط يمسك الماء وفلان من أهل الحاجر وهو مكان بطريق مكة ، وقعد حجرة أي ناحية ، وأحاطوا بحجرتي العسكر وهما جاباه ، وحجّر حول العين بكيّة ، وعوذ باللّه وحجر ، وامرأة بيضاء المحاجر ، وبدا محجرها من النقاب ، واستحجر الطين وتحجّر : صلب

كالحجر ، وتحجر ما وسعه اللّه : ضيقه على نفسه ، وقراءة العامة على كسر الحاء وقرىء بالضم وهو لغة فيه وحكى أبو البقاء فيه لغة ثالثة وهي الفتح ، قال وقد قرىء بها .

(هَباءً) : الهباء قال في القاموس والتاج : الغبار ودقائق التراب ساطعة ومنثورة على وجه الأرض والقليلو العقول من الناس وفعله هبا يهبو هبوّا " وقال الزمخشري : " والهباء ما يخرج من الكوة مع ضوء الشمس شبيه الغبار وفي أمثالهم أقل من الهباء " قال : " ولام الهباء واو بدليل الهبوة " قلت وقال المتنبي :

ولا تحسبن المجد زقا وقينة فما المجد الا السيف والفتكة البكر

وتضريب أعناق الملوك وأن ترى لك الهبوات السود والعسكر المجر

وقال الخليل والزجاج: " هو مثل الغبار الداخل في الكوة يتراءى مع ضوء الشمس .

الاعراب :

(وَما أَرْسَلْنا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْواقِ) جملة مستأنفة مسوقة لتسليته صلى اللّه عليه وسلم ، وما نافية وأرسلنا فعل وفاعل وقبلك ظرف متعلق بمحذوف حال ومن المرسلين متعلقان بأرسلنا أو بمحذوف صفة لمفعول أرسلنا ، والمعنى :

وما أرسلنا قبلك أحدا من المرسلين ، ونحوه قوله تعالى " وَما مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقامٌ مَعْلُومٌ " على معنى وما منا أحد ، ولعل هذا أولى ، وإلا أداة حصر وجملة انهم حالية ولذلك كسرت همزة إن كما انها كسرت لأجل اللام في الخبر والمعنى إلا وهم يأكلون ، فالاستثناء من أعم الأحوال ، وان واسمها واللام المزحلقة وهي لام الابتداء زحلقت إلى الخبر وجملة يأكلون الطعام خبر انهم وجملة يمشون في الأسواق عطف على ليأكلون الطعام . (وَجَعَلْنا بَعْضَكُمْ

لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً) وجعلنا عطف على ما تقدم أو تجعلها مستأنفة مسوقة لتسليته صلى اللّه عليه وسلم أيضا ، وجعلنا فعل وفاعل وبعضكم مفعول به أول ولبعض حال لأنه كان في الأصل صفة لفتنة وفتنة مفعول به ثان لجعلنا ، ومعنى جعل بعضهم فتنة لبعض : أن الغني فتنة للفقير والصحيح فتنة للمريض والشريف فتنة للوضيع والمراد أن الدنيا دار امتحان وبلاء فلا يفلل ذلك في عزمك ولا يضيقن به صدرك ولا تأبه الأراجيفهم . والهمزة للاستفهام ومعنى الاستفهام الأمر أي اصبروا ومثله " أأسلمتم " معناه أسلموا ، وكان الواو عاطفة أو استئنافية وكان فعل ماض ناقص وربك اسمها وبصيرا خبرها . (وَقَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرى رَبَّنا) الواو عاطفة وقال الذين فعل وفاعل وجملة لا يرجون صلة ولقاءنا مفعول به ولولا أداة تحضيض وأنزل فعل ماض مبني للمجهول وعلينا متعلقان به والملائكة نائب فاعل والجملة مقول قولهم وهم الذين ينكرون البعث وأو حرف عطف وجملة نرى ربنا عطف على جملة أنزل علينا الملائكة فهي من مقول قولهم اقترحوا أن ينزل اللّه عليهم الملائكة فتخبرهم بصدق محمد حتى يصدقوه أو يروا اللّه جهرة فيأمرهم بتصديقه واتباعه . (

لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيراً) الجملة مقول قوله تعالى في درء الشبهتين اللتين أوردوهما

تعنتا ومكابرة بعد قيام الحجة وسطوع الدليل . واللام جواب للقسم المحذوف وقد حرف تحقيق واستكبروا فعل وفاعل ، وفي أنفسهم فيه وجهان : أحدهما انه متعلق باستكبروا يعني أنهم لتكبرهم استكبروا أنفسهم أي عدوها كبيرة الشأن وأصله من استكبره إذا عداه كبيرا ونزّله منزلة اللازم ، والثاني أنه متعلق بمحذوف حال أي أنهم أضمروا الاستكبار عن الحق في قلوبهم أي كائنا في قلوبهم ، وعتوا فعل ماض وفاعل وعتوا مفعول مطلق وكبيرا صفة له . (يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلائِكَةَ لا بُشْرى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْراً مَحْجُوراً) يوم متعلق باذكر مقدرة أو بيعذبون أو بلا يبشرون المفهومة ضمنا من لا بشرى أي يوم يرون الملائكة يمنعون البشرى أو يعدمونها ولا تعمل فيه البشرى لأن المصدر لا يعمل فيما قبله ، ولأن المنفي لا يعمل فيما قبل لا . وجملة يرون مجرورة باضافة الظرف إليها والملائكة مفعول به ولا بشرى لا نافية للجنس وبشرى اسمها وللمجرمين خبرها والجملة مقول قول محذوف أي يقولون لا بشرى وجملة القول حال من الملائكة ويقولون فعل وفاعل وحجرا محجورا تقدم القول في اعرابها مفصلا في باب اللغة (وَقَدِمْنا إِلى ما عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْناهُ هَباءً مَنْثُوراً) الواو استئنافية وقدمنا فعل وفاعل والى ما متعلقان بقدمنا وجملة عملوا صلة ومن عمل حال أي عمل خير كصدقة وصلة رحم أو إغاثة ملهوف ، والفاء عاطفة وجعلناه فعل

وفاعل ومفعول به أول وهباء مفعول به ثان ومنثورا صفة .

البلاغة :

شبه أعمال الكفار الحسنة بالهباء ، ووجه الشبه قلّته وحقارته وعنده وانه لا ينتفع به ، ثم أي هباء ؟ انه قد يكون منتظما مع ضوء

(470/564)

الشمس فإذا حركته الريح تطاير وذهب كل مذهب ، ولذلك قال منثورا أي جامعا لحقارة الهباء والتناثر ومثله "كونوا قردة خاسئين " أي جامعين للمسخ والخسء ، وأتى بالعامل منكرا ليتناول هذا الوعيد كل من سولت له نفسه البقاء على الكفر وعمل مثل عملهم .

وللرماني في كتابه " النكت في إعجاز القرآن " بحث طريف في هذا التشبيه بعد أن يلحقه بباب الاستعارة يقول فيه : " حقيقة قدمنا هنا عمدنا ، وقدمنا أبلغ منه لأنه يدل على أنه عاملهم معاملة القادم من سفر لأنه من إمهاله لهم كمعاملة الغائب عنهم ثم قدم فرآهم على خلاف من أمرهم ، وفي هذا تحذير من الاغترار بالافهام والمعنى الذي يجمعهما العدل لأن العمد لإبطال الفاسد عدل والقدوم إلى ابطال الفاسد عدل والقدوم أبلغ لما بينّا ، وأما هباء منثورا فبيان ما قد أخرج مالا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه " .

فانظر اليه كيف استجمع الصور القرآنية في ذهنه وكيف أوحى اليه لفظ قدمنا المستعار من معان ثم كيف كشف عن خبايا التعبير القرآني في استعارة القدوم للعمد وفضل الاول في بعث الخيال وإثارته ليربط بين المعنى الأول في الآية والمعنى المستعار ، وصورة أخرى ربطية تثور في الخيال وهي صورة المسافر الغائب الذي يأتي فيرى القوم على خلاف فيضرب ليعدل ويصلح الفاسد .

وقال الواحدي : " معنى قدمنا عمدنا وقصدنا يقال : قدم فلان إلى أمر كذا إذا قصده أو عمده ومنه قول الشاعر :

وقدم الخوارج الضلال إلى عباد ربهم فقالوا

إن دماءكم لنا حلال

(471/564)

تتمة سورة الفرقان]

[سورة الفرقان (25) : الآيات 24 إلى 29]

أَصْحابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلاً (24) وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّماءُ بِالْغَمامِ وَنُزِّلَ الْمَلائِكَةُ تَنْزِيلاً (25) الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمنِ وَكانَ يَوْماً عَلَى الْكافِرِينَ عَسِيراً (26)

وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً (27) يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاناً خَلِيلاً (28)

لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولاً (29)

الإعراب :

(أَصْحابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا) أصحاب مبتدأ والجنة مضاف ويومئذ ظرف أضيف إلى مثله وهو متعلق بخير وخير خبر أصحاب وهو اسم تفضيل ، أو لمجرد الوصف ومستقرا تمييز وأحسن مقيلا عطف على خير مستقرا ، والمستقر المكان الذين يقضون فيه معظم أوقاتهم والمقيل المكان الذي يأوون اليه للاسترواح إلى أزواجهم والتمتع بمغازلتهن وسيأتي في باب البلاغة مزيد من بحث هذه الآية . (وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّماءُ بِالْغَمامِ وَنُزِّلَ الْمَلائِكَةُ تَنْزِيلًا) الظرف منصوب بتقدير اذكر وجملة تشقق في محل جر باضافة الظرف إليها وأصل تشقق تتشقق فحذف بعض القراء التاء وأدغمها بعضهم ، والسماء فاعل ، وبالغمام : في هذه الباء وجوه أولها أنها للسببية بمعنى

أنها تتشقق بسبب طلوعه منها فيتعلق الجار والمجرور بتشقق ، وثانيها أنها للملابسة فيكون الجار والمجرور في موضع نصب على الحال ، والثالث أنها بمعنى عن أي عن الغمام كقوله : " يوم تشقق الأرض عنهم " فتتعلق بتتشقق أيضا ونزل الملائكة فعل ماض مبني

للمجهول والملائكة نائب فاعل وتنزيلا مفعول مطلق .

)

(472/564)

الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمنِ وَكَانَ يَوْماً عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيراً) الملك مبتدأ والظرف متعلق به والحق صفة للملك وللرحمن خبر الملك وأجاز بعض المعربين أن يكون الظرف هو الخبر وآخرون أجازوا أن يكون الحق ، وما ذكرناه أولى . وكان الواو استئنافية وكان فعل ماض ناقص واسمها ضمير مستتر تقديره وكان اليوم ، ويوما خبرها وعلى الكافرين متعلق بعسيرا وعسيرا صفة ليوما . (وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلى يَدَيْهِ) الظرف منصوب باذكر مقدرا وهو معطوف على قوله يوم يرون الملائكة وكذا قوله السابق يوم تشقق السماء ، وجملة يعض مجرورة باضافة الظرف إليها والظالم فاعل يعض وعلى يديه متعلقان ببعض وسيأتي معنى هذا الكلام في باب البلاغة . (يَقُولُ يا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا) الجملة نصب على الحال من فاعل يعض أي قائلا ، ويا ليتني : يا حرف نداء والمنادى محذوف أو هي لمجرد التنبيه ، وليتني ليت واسمها وجملة اتخذت خبرها ومع الرسول ظرف مكان في موضع المفعول الثاني لاتخذت وسبيلا مفعول اتخذت الأول تمنى أن لو صاحب الرسول وسلك

سبيل الحق . (يا وَيْلَتى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاناً خَلِيلًا) يا حرف نداء وويلتا منادى مضاف إلى ياء المتكلم المنقلبة الفاء وأصله يا وليتي ، وقد تقدم بحث المنادى المضاف إلى ياء المتكلم ، ينادي ويلته أي هلكته . وليتني ليت واسمها وجملة لم أتخذ خبرها

(473/564)

و فلانا مفعول به أول وخليلا مفعول به ثان . (لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جاءَنِي وَكانَ الشَّيْطانُ لِلْإِنْسانِ خَذُولًا) اللام جواب للقسم المحذوف وقد حرف تحقيق وأضلني فعل وفاعل مستتر وعن الذكر متعلقان بأضلني والجملة تعليلية لتمنيه المذكور وندائه هلكته وبعد ظرف أضيف إلى مثله وهو متعلق بمحذوف حال وجملة جاءني مجرورة باضافة الظرف إليها والواو حالية وكان الشيطان كان واسمها وللإنسان متعلقان بخذولا وخذولا خبر كان .

البلاغة :

الكناية في قوله " مستقر " و" مقيل " فأما المستقر فهو اسم مكان من الاستقرار وهو المجلس الدائم لأهل الجنة يستقرون فيه ويقضون معظم أوقاتهم متقابلين يتحادثون ويتسامرون ، وكنى به عن أحاديث العشايا والبكر التي يتبادلونها ، وهي أحاديث كانت في الدنيا تدور

بين المترفين وأصحاب النعيم واليسار ، وكنى بالمقيل وهو وقت استراحة نصف النهار عن قضائهم وقت الاستجمام والاستراحة مع أزواجهم ، وفي هذا المعنى سيأتي قوله " إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون ، هم أزواجهم في ظلال على الأرائك متكئون " قيل في تفسير الشغل انه افتضاض الأبكار .

ومن روائع الحديث في وصف غناء الحور العين قوله صلى اللّه عليه وسلم فيما يرويه عنه ابن عمر رضي اللّه عنهما قال : قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم " إن أزواج أهل الجنة ليغنين أزواجهن بأحسن أصوات ما سمعها أحد قط ، إن مما يغنين به : نحن الخيرات الحسان ، أزواج قوم كرام ، ينظرون بقرة أعيان وإن مما يغنين به : نحن الخالدات فلا نمتنه ، نحن الآمنات فلا نخفنه ، نحن المقيمات فلا نظعنه " .

(474/564)

وفي قوله : " يوم يعض الظالم على يديه " كناية عن الندم والغيظ والحسرة ، ومثل هذا التعبير عض الأنامل والسقوط في اليد وحرق الأرم ، ففي الصحاح حرقت الشيء حرقا : بروته وحككت بعضه ببعض ، ومنه قولهم حرق نابه أي سحقه حتى يسمع له صريف ، وفلان يحرق عليك الأرم غيظا من أرم على الشيء أي عض عليه وأرمه أيضا والأرم الأضراس

كأنه جمع آرم يقال فلان يحرق عليك الأرم إذا تغيظ فحك أضراسه بعضها ببعض ، وقيل هو مجاز عبر به عن التحير والغم والندم والتفجع ، ونقل أئمة اللغة أن المتأسف المتحزن المتندم يعضّ على إبهامه ندما ، وقال الشاعر :

لطمت خدها بحمر لطاف نلن منها عذاب بيض عذاب

فشكى العناب نور أقاح واشتكى الورد ناضر العناب

وفلان كناية عن علم من يعقل وفل كناية عن نكرة من يعقل من الذكور وفلانة كناية عن علم من يعقل من الإناث وفلة كناية عن نكرة من يعقل من الإناث والفلان والفلانة بالألف واللام كناية عن غير العاقل ولامه واوية أو يائية .

قال أبو حيان : وفلان كناية عن العلم وهو متصرف وفل كناية عن نكرة الإنسان نحو يا رجل وهو مختص بالنداء وفلة يعني يا امرأة كذلك ولام فل ياء أو واو وليس مرخما من فلان ، خلافا للفراء ، ووهم ابن عصفور وابن مالك وصاحب البسيط في قولهم فل كناية عن العلم كفلان ، وفي كتاب سيبويه ما قلناه بالنقل عن العرب .

[سورة الفرقان (25) : الآيات 30 إلى 34]

وَقالَ الرَّسُولُ يا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً (30) وَكَذلِكَ جَعَلْنا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفى بِرَبِّكَ هادِياً وَنَصِيراً (31) وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً واحِدَةً كَذلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤادَكَ وَرَتَّلْناهُ تَرْتِيلاً (32) وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْناكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً (33) الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلى وُجُوهِهِمْ إِلى جَهَنَّمَ أُوْلئِكَ شَرٌّ مَكاناً وَأَضَلُّ سَبِيلاً (34)

اللغة :

(مَهْجُوراً) : متروكا ، أي تركوه وصدوا عن الايمان به ، وقيل هو من هجر إذا هذى أي جعلوه مهجورا فيه فحذف الجار ، وهو يحتمل بهذا المعنى وجهين ، أحدهما : أنهم زعموا أنه هذيان وباطل وأساطير الأولين ، وثانيهما : أنهم كانوا إذا سمعوه هجروا فيه ، فهو إما من الهجر بالفتح أي ضد الوصل وإما من الهجر بالضم وهو الهذيان وفحش القول . ثم المهجور اما اسم مفعول وإما مصدر بمعنى الهجر أطلق على القرآن على طريق التسمية بالمصدر كالمجلود والمعقول والميسور والمعسر .

(وَرَتَّلْناهُ) : فرقناه أو أتينا به شيئا بعد شيء بتمهل وتؤدة لنيسر فهمه وحفظه ، وأصله الترتيل في الأسنان وهو تفليجها ، يقال : ثغر مرتل ورتل بفتحتين .

الاعراب :

)

وَقالَ الرَّسُولُ يا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً) عطف على قوله وقال الذين لا يرجون لقاءنا ، وقال الرسول فعل وفاعل ويا حرف نداء ورب منادى مضاف إلى ياء المتكلم وان واسمها وجملة اتخذوا خبرها وهذا مفعول أول لا تخذوا والقرآن بدل من اسم الاشارة ومهجورا مفعول به ثان . (وَكَذلِكَ جَعَلْنا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ) الواو استئنافية والكلام مستأنف مسوق لتسليته صلى اللّه عليه وسلم بعد الارتماض الذي يعانيه والذي تدل عليه شكواه المريرة . وكذلك نعت لمصدر محذوف أي مثل ذلك الجعل جعلنا ولكل نبي مفعول به ثان لجعلنا وعدوا مفعول به أول ومن المجرمين نعت لعدوا .

(وَكَفى بِرَبِّكَ هادِياً وَنَصِيراً) الواو عاطفة وكفى فعل ماض وبربك الباء حرف جر زائد في الفاعل وربك مجرور لفظا فاعل كفى محلا وهاديا حال ونصيرا عطف عليه . (وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً واحِدَةً) الواو استئنافية والجملة مستأنفة مسوقة لحكاية شبهة منهم تتعلق بالقرآن ، والحاكون هم قريش أو اليهود وهو اعتراض متهافت ساقط من أساسه لأن إعجاز القرآن ليس منوطا بنزوله جملة أو تفصيلا . وقال الذين فعل وفاعل وجملة كفروا صلة ولولا حرف تحضيض ونزل فعل ماض مبني للمجهول وعليه متعلقان بنزل

والقرآن نائب فاعل وجملة حال وواحدة صفة . (كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا)

الكاف نعت لمصدر محذوف أي نزلناه تنزيلا مثل ذلك التنزيل ، ولنثبت تعليل لنزلناه المحذوفة وبه متعلقان بنثبت والفاعل مستتر تقديره نحن وفؤادك مفعول به ورتلناه عطف على نزلناه المحذوفة وهو فعل ماض وفاعل ومفعول به وترتيلا مفعول مطلق ،

ومعنى ترتيله أن قدره آية بعد آية بترسل وتثبت وقيل هو أنزله مع كونه متفرقا على تمكث وتمهل في مدة متباعدة وهي عشرون سنة .

(477/564)

(وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا) الواو عاطفة ولا نافية ويأتونك فعل وفاعل ومفعول به وبمثل متعلقان بيأتونك أي بسؤال عجيب يشبه في استغرابه وبطلانه المثل السائر ، وإلا أداة حصر وجئناك فعل وفاعل ومفعول به وبالحق جار ومجرور متعلقان بجئناك والاستثناء مفرغ من أعم الأحوال فمحل الجملة النصب على الحال أي لا يأتونك بمثل في حال من الأحوال إلا في حال إتياننا إليك بالحق وبما هو أحسن بيانا . وأحسن عطف على الحق وجر بالفتحة لأنه ممنوع من الصرف وتفسيرا تمييز . (الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ) الذين رفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف أي هم أو نصب على الذم

أي أذم الذين ، وجملة يحشرون صلة وعلى وجوههم متعلقان بمحذوف حال أي مقلوبين على وجوههم وإلى جهنم متعلقان بيحشرون .

(أُوْلَئِكَ شَرٌّ مَكَاناً وَأَضَلُّ سَبِيلاً) أولئك مبتدأ وشر خبر ومكانا تمييز وأضل سبيلا عطف على شر مكانا والجملة تفسيرية فلا محل لها ولك أن تعرب الذين مبتدأ والجملة خبره .

البلاغة :

1- وصف المكان بالشر ، والسبيل بالضلال ، من الإسناد المجازي . وقد مرت له نظائر .

2- قوة اللفظ لقوة المعنى :

وذلك في قوله تعالى : " ورتلناه ترتيلا " فإن لفظة رتل على وزن لفظة قتّل الرباعية ومع هذا ليست دالة على كثرة القراءة وإنما المراد

بها أن تكون القراءة على هيئة التأني والتدبر ، وسبب ذلك أن هذه اللفظة لا ثلاثي لها حتى تنقل عنه إلى رباعي وإنما هي رباعية موضوعة لهذه الهيئة الحسنة المخصوصة من القراءة ، فاللفظة إن كانت منقولة أدت إلى الكثرة . خذلك مثالا "كلّم " من قوله تعالى "

وكلّم اللّه موسى تكليما " فإن كلّم على وزن قتّل أيضا ولم يرد بها التكثير بل أريد بها : خاطبه ، سواء أكان خطابه إياه طويلا أم قصيرا ، قليلا أم كثيرا ، وهذه اللفظة رباعية وليس لها ثلاثي نقلت عنه إلى الرباعي .

لكن قد وردت بعينها ولها ثلاثي ورباعي فكان الرباعي أكثر وأقوى فيما دل عليه من المعنى وذاك أن تكون كلّم من الجرح أي جرّح ولها ثلاثي وهو كلم مخففا أي جرح فإذا وردت مخففة دلت على الجراحة مرة واحدة وإذا وردت مثقلة دلت على التكثير . فتدبر هذا فإنه حسن جدا وقل من يتفطن له .

3- وفي قوله : " ولا يأتونك بمثل " استعارة تصريحية . شبه السؤال بالمثل بجامع البطلان لأن أكثر الأمثال أمور متخيلة .

[سورة الفرقان (25) : الآيات 35 إلى 40]

وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ وَجَعَلْنا مَعَهُ أَخاهُ هارُونَ وَزِيراً (35) فَقُلْنَا اذْهَبا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا فَدَمَّرْناهُمْ تَدْمِيراً (36) وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْناهُمْ وَجَعَلْناهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنا لِلظَّالِمِينَ عَذاباً أَلِيماً (37) وَعاداً وَثَمُودَ وَأَصْحابَ الرَّسِّ وَقُرُوناً بَيْنَ ذلِكَ كَثِيراً (38) وَكُلاًّ ضَرَبْنا لَهُ الْأَمْثالَ وَكُلاًّ تَبَّرْنا تَتْبِيراً (39) وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَها بَلْ كانُوا لا يَرْجُونَ نُشُوراً (40)

اللغة :

)

(479/564)

الرَّسِّ) : اسم بئر معينة ، قال أبو عبيدة : هي البئر المطوية والجمع الرساس ، ومنه قول الشاعر :

وهم سائرون إلى أرضهم تنابلة يحفرون الرساسا

وقيل : الرس قرية ، وكان أصحاب الرس قوما من عبدة الأصنام أصحاب آبار ومواش فبعث اللّه إليهم شعيبا فدعاهم إلى الإسلام فتمادوا في طغيانهم وفي إيذائه ، وقيل هم أصحاب النبي حنظلة بن صفوان كانوا مبتلين بالعنقاء وسيأتي بحثها ، فكانت تسكن جبلهم وتنقض على صبيانهم فتخطفهم إن أعوزها الصيد فدعا عليها حنظلة فأصابتها الصاعقة ثم انهم قتلوا حنظلة فأهلكوا ، وقيل هم أصحاب الأخدود والرس هو الأخدود وقيل الرس بانطاكية قتلوا فيها حبيبا النجار .

والعنقاء هي أعظم ما يكون من الطير سميت لطول عنقها ، ويقال لها عنقاء مغرب على الاضافة أو العنقاء المغرب والمغربة على الوصف وهي طائر مجهول الجسم لم يوجد ،

والداهية ، ويقال في الإخبار عن هلاك الشيء وبطلانه : حلقت به عنقاء مغرب ،

وسميت بالمغرب إما

لإتيانها بأمر غريب وهو اختطاف الصبيان وقيل : انها اختطفت عروسا أو لغروبها أي

غيبتها ، ومغرب بضم الميم وفتحها وقيل غير ذلك مما يطول تعداده :

وقيل الرس : ماء ونخل لبني أسد وقيل الثلج المتراكم في الجبال والرس اسم واد ، قال زهير :

بكرن بكورا واستحرنا بسحرة فهن ووادي الرس كاليد في الفم

(تَبَّرْنا) : فتتنا ، ومنه التبر لفتات الذهب والفضة .

الاعراب :

(وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ وَجَعَلْنا مَعَهُ أَخاهُ هارُونَ وَزِيراً) الواو استئنافية والجملة

مستأنفة مسوقة لتأكيد ما مرّ من تسلية محمد صلى اللّه عليه وسلم بحكاية ما جرى

للأنبياء وما كابدوه من أقوامهم .

(480/564)

و اللام جواب للقسم المحذوف وقد حرف تحقيق وآتينا موسى فعل وفاعل ومفعول به

والكتاب مفعول ثان لآتينا وجعلنا عطف على آتينا ومعه ظرف مكان متعلق بمحذوف

هو المفعول الثاني لجعلنا وأخاه هو المفعول الأول لجعلنا وهارون بدل من أخاه أو عطف بيان ووزيرا حال ، أو تجعل وزيرا هو المفعول الثاني وتعلق الظرف بمحذوف نصب على الحال . (فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيراً) فقلنا عطف على ما تقدم وقلنا فعل وفاعل وجملة اذهبا مقول القول والى القوم جار ومجرور متعلقان باذهبا والذين نعت للقوم وجملة كذبوا صلة وبآياتنا متعلقان بكذبوا والفاء عاطفة على محذوف أي فذهبا إليهم

فكذبوهما فدمرناهم ، ودمرناهم فعل وفاعل ومفعول به وتدميرا مفعول مطلق . (وَن بأتوا والتي صفة للقرية وجملة أمطرت صلة ومطر السوء مفعول مطلق لأمطرت فهي بمعنى أمطار السوء والمراد بمطر السوء الحجارة والمعنى أن قريشا عرجوا مرارا كثيرة بمنازل تلك القرية التي أهلكت

(481/564)

بالحجارة من السماء أثناء انتجاعهم للتجارة وفي القاموس : " ساء سوءا بالفتح فعل به ما يكره والسوء بالضم اسم منه " ، والقرية هنا اسم جنس لأنها تشمل خمسة قرى كان قوم لوط يسكنونها ما نجت منها إلا واحدة وقيل هي قرية واحدة اسمها سذوم بالذال المعجمة

أو سدوم بالدال المهملة وقد تقدم هذا كله . (أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لا يَرْجُونَ نُشُوراً)

الهمزة للاستفهام التقريري المتضمن معنى الإنكار والتقرير هو حمل المخاطب على الإقرار بما يعرفه ، والفاء عاطفة لعطف مدخولها على مقدر يقتضيه المقام أي ألم يكونوا ينظرون إليها فلم يكونوا يرونها مرات أثناء تعريجهم عليها ليعتبروا بمصائر من قبلهم وما جرّ عليهم إمعانهم في الغواية وركوب متن الشطط من عقوبة لا تقدر وجملة يرونها خبر يكونوا ، بل حرف إضراب وكان واسمها وجملة لا يرجون خبرها ونشورا مفعول به .

البلاغة :

1- في قوله " لا يرجون نشورا " مجاز عن التوقع ، وتوقع الشيء يكون في الخير والشر لأنه لما كانت حقيقة الرجاء انتظار الخير وما فيه من سرور وما هو محبب إلى النفس احتيج إلى توجيه الرجاء بما ذكرناه ولأنه لا يتصور رجاء النشور إلى الكفار .

هذا وقد أجرى بعضهم الكلام على الحقيقة فقال : ان الرجاء بمعنى الخوف هنا وهو محض تكلف وفي المجاز عنه مندوحة .

2- وفي قوله " فقلنا اذهبا " إلى قوله " فدمرناهم تدميرا "

الحذف ألا ترى كيف حذف جواب الأمر في هذه الآية فإن تقديره فقلنا اذهبا إلى القوم الذين كذبوا بآياتنا فذهبا إليهم فكذبوهما فدمرناهم تدميرا .

[سورة الفرقان (25) : الآيات 41 إلى 44]

وَإِذا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُواً أَهذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً (41) إِنْ كادَ لَيُضِلُّنا عَنْ آلِهَتِنا لَوْلا أَنْ صَبَرْنا عَلَيْها وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً (42) أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلهَهُ هَواهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً (43) أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً (44)

الإعراب :

(وَإِذا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُواً) الواو استئنافية وإذا ظرف مستقبل متضمن معنى الشرط وجملة رأوك مجرورة بإضافة الظرف إليها وإن نافية ويتخذونك فعل وفاعل ومفعول والجملة لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم ولم يقترن الجواب بالفاء لأن " إذا " اختصت من بين أدوات الشرط بأن جوابها المنفي لا يقترن بالفاء بخلاف غيرها من الأدوات . وإلا أداة حصر وهزوا مفعول به ثان ليتخذونك .

(أَهذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا) الجملة في محل نصب على الحال من الواو في يتخذونك على تقدير القول أي قائلين والهمزة للاستفهام الانكاري وهذا مبتدأ والذي خبره وجملة بعث صلة والعائد محذوف

أي بعثه والله فاعل لبعث ورسولا حال ويجوز أن يكون بمعنى مرسل وأن يكون مصدرا حذف منه المضاف ، أي ذا رسول وهو الرسالة ، وفي الاشارة معنى الاحتقار لأنها للقريب . (إِنْ كادَ لَيُضِلُّنا عَنْ آلِهَتِنا لَوْلا أَنْ صَبَرْنا عَلَيْها) إن مخففة من الثقيلة والجملة من تتمة مقولهم واسمها محذوف أي انه وجملة كاد خبرها ويجوز إهمالها واسم كاد مستتر تقديره هو واللام الفارقة بين إن النافية وإن المخففة من الثقيلة ، وجملة يضلنا خبر كاد وهو فعل مضارع وفاعل مستترونا مفعول به وعن آلهتنا متعلقان بيضلنا ولولا حرف امتناع لوجود متضمن معنى الشرط وأن وما في حيزها مبتدأ وعليها متعلقان بصبرنا والخبر محذوف أي موجود والجواب محذوف أي لصرفنا عنها . (وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا) الواو استئنافية والكلام مستأنف مسوق للرد عليهم من الله تعالى وسوف حرف استقبال ويعلمون فعل مضارع وفاعل وحين ظرف زمان متعلق بيعلمون وجملة يرون في محل جر بإضافة الظرف إليها ومن استفهام مبتدأ وأضل خبره وسبيلا تمييز والجملة في محل نصب سدت مسد مفعولي يعلمون التي علقت عن العمل بالاستفهام أي أهم أم المؤمنون ؟ . (أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلٰهَهُ هَواهُ) الهمزة للاستفهام ورأيت فعل وفاعل أي

أخبرني ، ومن اسم موصول مفعول رأيت الأول وجملة اتخذ صلة وإلهه مفعول به ثان لاتخذ وهواه مفعول به أول وقدم المفعول الثاني لأنه أهم وللاعتناء به لأنه هو المحور الذي يدور عليه التعجب وستأتي في باب البلاغة مناقشة طريقة حول هذا التقديم . (أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا) الجملة في محل نصب مفعول به ثان لرأيت والهمزة للاستفهام الانكاري للتيئيس من إيمانهم ، والفاء عاطفة على مقدر أي أنت تحرص على إيمانه وأنت مبتدأ وجملة تكون خبره واسم تكون ضمير مستتر تقديره أنت وعليه

متعلقان بوكيلا ووكيلا خبر تكون . (أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ) أم حرف عطف مقدرة ببل والهمزة فهي منقطعة والهمزة المقدرة للاستفهام الإنكاري وأن وما في حيزها سدت مسد مفعولي تحسب وجملة يسمعون خبر أن وأو حرف عطف ويعقلون عطف على يسمعون . (إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا) إن نافية وهم مبتدأ وإلا أداة حصر والكاف خبر هم ، بل حرف عطف وإضراب وهم مبتدأ وأضل خبره وسبيلا تمييز .

البلاغة :

1- التقديم :

في قوله تعالى " اتخذ إلهه هواه " التقديم فقد قدم المفعول الثاني ، والأصل اتخذ الهوى إلها للعناية به كقولك ظننت منطلقا زيدا إذا كانت عنايتك بالمنطلق ، وفيه إلى جانب هذه النكتة نكتة ثانية وهي إفادة الحصر ، فإن الكلام قبل دخول أرأيت مبتدأ وخبر ، المبتدأ هواه والخبر إلهه ، وتقديم الخبر كما علمت يفيد الحصر فكأنه قال أرأيت من لم يتخذ معبوده إلا هواه ، فهو أبلغ في ذمه وتوبيخه . هذا وقد زعم بعض المعربين أنه لا تقديم ولا تأخير في الكلام وإنهما مفعولا الاتخاذ من غير تقديم ولا تأخير لاستوائهما في التعريف ولكن هذا مجرد وهم فإنهما وإن تساويا في التعريف فقد غاب عن أصحاب هذا الزعم أن المفعول الثاني هو المتلبس بالحالة الحادثة أي أرأيت من جعل هواه إلها لنفسه من غير أن يلاحظه وبنى عليه أمر دينه معرضا عن استماع الحجة الباهرة والبرهان النير بالكلية .

2-

التمثيل :

في قوله " إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا " فن التمثيل وقد تقدمت الإشارة إلى هذا الفن الذي يتلخص في أنه هو أن يريد المتكلم معنى فلا يعبر عنه بلفظة الخاص ولا بلفظي الإشارة ولا الإرداف بل بلفظ هو أبعد من لفظ الإرداف قليلا يصلح أن يكون مثلا للفظ الخاص لأن المثل لا يشبه المثل من كل الوجوه ، ولو تماثل المثلان من كل الوجوه لاتحدا . ومن التمثيل أيضا نوع آخر ذهب إليه من جاء بعد قدامة وهو أن يذكر الشيء ليكون مثالا للمعنى المراد وإن كان معناه ولفظه غير المعنى المراد ولفظه ، كأنهم لثبوتهم على الضلالة بمنزلة الانعام والبهائم بل أضل سبيلا لأن البهائم تنقاد لمن يتعهدها وتميز من يحسن إليها ممن يسيء إليها أما هؤلاء فقد أسفوا إلى أبعد من هذا الدرك .

هذا وقد استخرج ابن أبي الإصبع في كتابه المسمى بتحرير التحبير أمثال أبي تمام من شعره فوجدها تسعين نصفا وثلاثمائة بيت ، واستوعب أمثال أبي الطيب المتنبي فوجدها مائة نصف وأربعمائة بيت وقد ذكرنا فيما سلف من هذا الكتاب عددا من أمثال المتنبي ونذكر هنا طائفة أخرى منها :

لعل عتبك محمود عواقبه فربما صحت الأجسام بالعلل

وقوله :

ومكايد السفهاء واقعة بهم وعداوة الشعراء بئس المقتنى

وقوله :

لا يعجبن مضيما حسن بزته وهل تروق دفينا جودة الكفن

وقوله :

وانا الذي اجتلب المنية طرفه فمن المطالب والقتيل القاتل

وقوله :

وما كمد الحساد شيئا قصدته ولكنه من يرحم البحر يغرق

[سورة الفرقان (25) : الآيات 45 إلى 49]

(486/564)

أَلَمْ تَرَ إِلى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شاءَ لَجَعَلَهُ ساكِناً ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً (45) ثُمَّ قَبَضْناهُ إِلَيْنا قَبْضاً يَسِيراً (46) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِباساً وَالنَّوْمَ سُباتاً وَجَعَلَ النَّهارَ نُشُوراً (47) وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّياحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً طَهُوراً (48) لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنا أَنْعاماً وَأَناسِيَّ كَثِيراً (49)

اللغة :

(سُباتاً) : راحة للأبدان بقطع الأعمال وهو من السبت أي القطع سمي بذلك لقطع الأشغال فيه ، وفي المصباح : " والسبات وزان غراب النوم الثقيل وأصله الراحة يقال منه

سبت يسبت من باب قتل " وفي

القاموس : إنه من بابي قتل وضرب ثم قال : والسبات النوم أو خفيفه أو ابتداؤه في الرأس

حتى يبلغ القلب ، وقال الزمخشري : " والسبات :

الموت والمسبوت : الميت لأنه مقطوع الحياة وهذا كقوله " وهو الذي يتوفاكم بالليل " فإن

قلت : هلا فسرته بالراحة ؟ قلت : النشور في مقابلته يأباه إباء العيوف الورد وهو مرنق "

والعيوف من الإبل كما في الصحاح : الذي يشم الماء فيدعه وهو عطشان وفيه أيضا :

رنقته ترنيقا كدرته " وفي اللسان والأساس : " وجعل اللّه النوم سباتا : موتا وأصبح فلان

مسبوتا : ميتا " وفي القاموس والتاج : " السبات : النوم أو أوله ، والدهر ، والرجل الداهية

، وابنا سبات : الليل والنهار مأخوذ من معنى الدهر ، وسبت يسبت من بابي قتل وضرب

سبتا دخل في السبت وقام بأمر السبت : استراح ، وسبت الشيء قطعه ، وسبت الرأس

: حلقه والسبت مصدر ويوم من أيام الأسبوع بين الجمعة والأحد وجمعه أسبت وسبوت ،

والسبت أيضا : النوام والفرس الجواد والرجل الداهية .

)

الرِّياحَ) : في المصباح : " والريح أربع الشمال وتأتي من ناحية الشام والجنوب تقابلها وهي الريح اليمانية والثالثة الصبا وتأتي من مطلع الشمس وهي القبول أيضا والرابعة الدبور وتأتي من ناحية المغرب ، والريح مؤنثة على الأكثر فيقال هي الريح وقد تذكر على معنى الهواء فيقال هو الريح وهب الريح ، نقله أبو زيد وقال ابن الأنباري : الريح مؤنثة لا علامة فيها وكذلك سائر أسمائها إلا الإعصار فإنه مذكر .

(طَهُوراً) : الطهور على وجهين في العربية : صفة واسم غير صفة فالصفة قولك ماء طهور كقولك طاهر والاسم قولك لما يتطهر به

طهور كالوضوء والوقود لما يتوضأ به وتوقد به النار كقولك وضوءا حسنا ذكره سيبويه .

(أَناسِيَّ) : الأناسي جمع إنسي أو إنسان ونحوه ظرابي في ظربان على قلب النون ياء والأصل أناسين وظرابين ولعل الثاني هو الأرجح ، قال سيبويه : " إن الياء في إنسي للنسب وما هي فيه لا يجمع على فعالي " وقال ابن مالك " واجعل فعالي لغير ذي نسب " وجزم ابن هشام وابن مالك بأنه جمع إنسان لا جمع إنسي ، قالا : وشذ قباطي جمع قبطي وبخاتي جمع بختي ، وفي الصحاح : القبط أهل مصر ورجل قبطي والقبطية ثياب بيض رقاق من كتان والبخت من الإبل معرب وقيل هو عربي وينشد لابن قيس الرقيات :

يهب الخيل والألوف ويسقي لبن البخت في قصاع الخلنج

الاعراب :

)

(488/564)

أَلَمْ تَرَ إِلى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شاءَ لَجَعَلَهُ ساكِناً) كلام مستأنف مسوق للشروع في إيراد أدلة محسوسة على توحيده وستأتي خمسة أدلة أولها امتداد الظل وثانيها جعل الليل لباسا وثالثها إرسال الرياح ورابعها مرج البحرين وخامسها خلق البشر من الماء . والهمزة للاستفهام التقريري ولم حرف نفي وقلب وجزم وتر أي تنظر فعل مضارع مجزوم بلم وهي هنا بصرية وإلى ربك متعلقان بتنظر على حذف مضاف أي إلى صنيع ربك لأنه ليس المقصود رؤية ذات اللّه ، وكيف اسم استفهام في محل نصب على الحال أي ألم تر إلى صنيع ربك كيف مد الظل ، أي على أية حالة ، ومعنى مد الظل أن جعله يمتد وينبسط فينتفع به الناس ، واختار الزجاج أن تكون الرؤية قلبية والمعنى ألم

تعلم ، قال : وهذا أولى لأن الظل إذا جعلناه من المبصرات فتأثير قدرة اللّه تعالى في تمديده غير مرئي بالاتفاق ولكنه معلوم من حيث أن كل مبصر فله مؤثر فحمل اللفظ على رؤية

القلب أولى وقد علقت كيف تر عن العمل فجملة مد الظل في محل نصب مفعول به على الثاني وعلى الأول مستأنفة .

(489/564)

و لو الواو حالية ولو شرطية وشاء فعل ماض وفاعل مستتر واللام واقعة في جواب لو وجملة جعله لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم والهاء مفعول جعل الأول وساكنا مفعوله الثاني أي ثابتا بأن يجعل الشمس على وضع واحد أو دائما غير زائل . (ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا) ثم هنا للتفاضل بين أوقات الظهور وليست للتراخي الزماني لأنه لا يصح هنا فهي محمولة على المجاز كما سيأتي في باب البلاغة وجعلنا فعل وفاعل والشمس مفعول به وعليه حال ودليلا مفعول به ثان أي لولا الشمس لما عرف الظل . (ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضاً يَسِيراً) وثم هنا للتفاضل أيضا بين الأمور الثلاثة وهي مد الظل وسكونه وقبضه كأن الثاني أعظم من الأول والثالث أعظم منهما ، وقبضناه فعل وفاعل ومفعول به وإلينا متعلقان بقبضناه وقبضا مفعول مطلق ويسيرا صفة ومعنى قبضه قبضا يسيرا أي حسبما ترتفع الشمس لتنتظم بذلك مصالح الكون . (وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِباساً وَالنَّوْمَ سُباتاً وَجَعَلَ النَّهارَ نُشُوراً) الواو عاطفة وهو مبتدأ والذي خبره وجملة جعل صلة ولكم حال لأنه كان

في الأصل صفة للباسا والليل مفعول جعل الأول ولباسا مفعوله الثاني والنوم سباتا عطف على ما تقدم وجعل النهار نشورا عطف أيضا أي انتشارا ينشر فيه الناس لتحصيل معاشهم . (وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّياحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ) بشرا حال وبين ظرف متعلق

(490/564)

بمحذوف صفة لبشرا ويدي رحمته مضاف إليه وسيأتي تحقيق ذلك في باب البلاغة . (وَأَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً طَهُوراً) عطف على ما تقدم وفيه إشعار بأن تطهير الظواهر يستلزم تطهير البواطن وفي ذلك منتهى المنة والنعمة . (لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنا أَنْعاماً وَأَناسِيَّ كَثِيراً) لام التعليل متعلق بأنزلنا لبيان العلة في إنزاله وبه متعلقان بنحيي وبلدة مفعول به وميتا صفة لبلدة يستوي فيه المذكر والمؤنث أو لأنه ذكر على معنى البلد في قوله " فسقناه إلى بلد ميت " ونسقيه عطف على نحيي تبعه في النصب ويقال سقاه وأسقاه وكلاهما يتعدى إلى مفعولين ومما متعلقان بمحذوف خال وأنعاما مفعول به ثان لنسقيه وأناسي كثيرا عطف على أنعاما . وسيأتي سر تقديم الأنعام على الأناسي في باب البلاغة .

البلاغة :

1- التقديم والتأخير :

في قوله " وأنزلنا من السماء ماء " إلى قوله " وأناسي كثيرا " فن التقديم والتأخير وهو فن عجيب دقيق المسلك خفي الدلالة ، وهو قسمان : قسم يختص بدلالة الألفاظ على المعاني وقسم يختص بدرجة التقدم في الذكر ومنه الآية التي نحن بصددها ، فقد قدم حياة الأرض وإسقاء الأنعام على إسقاء الناس وإن كانوا أشرف محلا لأن حياة الأرض هي سبب لحياة الأنعام والناس ، فلما كانت بهذه المثابة جعلت مقدمة في الذكر ولما كانت الأنعام من أسباب التعيش والحياة للناس قدمها في الذكر على الناس لأن حياة الناس بحياة أرضهم وأنعامهم فقدم سقي ما هو سبب نمائهم ومعاشهم على سقيهم .

2- في قوله " ثم جعلنا " و" ثم قبضناه " استعارة تصريحية تبعية استعير فيها لفظة المشبه به وهو البعد والتراخي للمشبه وهو تفاضل الأمور .

2- وفي قوله " بين يدي رحمته " استعارة أيضا أي قدام المطر ، وسيأتي المزيد من ذلك .

[سورة الفرقان (25) : الآيات 50 إلى 57]

وَلَقَدْ صَرَّفْناهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً (50) وَلَوْ شِئْنا لَبَعَثْنا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيراً (51) فَلا تُطِعِ الْكافِرِينَ وَجاهِدْهُمْ بِهِ جِهاداً كَبِيراً (52) وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هذا عَذْبٌ فُراتٌ وَهذا مِلْحٌ أُجاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُما بَرْزَخاً وَحِجْراً مَحْجُوراً (53) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْماءِ بَشَراً فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهْراً وَكانَ رَبُّكَ قَدِيراً (54)

وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَنْفَعُهُمْ وَلا يَضُرُّهُمْ وَكانَ الْكافِرُ عَلى رَبِّهِ ظَهِيراً (55) وَما أَرْسَلْناكَ إِلاَّ مُبَشِّراً وَنَذِيراً (56) قُلْ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلاَّ مَنْ شاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلى رَبِّهِ سَبِيلاً (57)

اللغة :

(مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ) : جعلهما متجاورين متلاصقين بحيث لا يتمازجان وفي المصباح : " المرج : أرض ذات نبات ومرعى والجمع مروج مثل

فلس وفلوس ، ومرجت الدابة مرجا من باب قتل : رعت في المرج ، ومرجتها مرجا :

أرسلتها ترعى في المرج " . وفي المختار : وقوله تعالى :

" مرج البحرين " أي خلاهما لا يلتبس أحدهما بالآخر . وفي الأساس :

" أمرج الدواب ومرجها : أرسلها في المرج والمروج ، ومرج السلطان الناس ، ورجل مارج : مرسل غير ممنوع ، ولا يزال فلان يمرج علينا مروجا : يأتينا مفاجئا ، ومرج الخاتم في الإصبع قلق . ومن المجاز :

" مرج اللّه البحرين ، ومرج فلان لسانه في أعراض الناس وأمرجه ، وفلان سرّاج مرّاج : كذاب ، ومرجت عهودهم وقد مرج أمرهم مرجا ومروجا ، وأمر مارج ومريج ، وفي الحديث : "كيف أنتم إذا مرج الدين وظهرت الرغبة " قال زهير :

مرج الدين فأعددت له مشرف الحارك محبوك الثبج

يرهب السوط سريعا فإذا ونت الخيل من الشد معج

(492/564)

و أمرجوا عهودهم ودينهم ، وطلع مارج من نار : لهب ساطع " .

هذا وقد سمي الماء الكثير بحرا ولم يقصد بحرين معنيين .

(فُراتٌ) : الفرات : البليغ العذوبة حتى يضرب إلى الحلاوة والتاء فيه أصلية لام الكلمة ووزنه فعال وبعض العرب يقف عليها هاء ويقال سمي الماء العذب فراتا لأنه يفرت العطش أي يشقه ويقطعه وفي المصباح :

" الفرات الماء العذب يقال فرت الماء فروتة وزان سهل سهولة إذا عذب ولا يجمع إلا نادرا على فرتان كغربان " والفرات أيضا نهر عظيم معروف والفرات أيضا البحر .

(أُجاجٌ) : الأجاج : البالغ في الملوحة وقيل في الحرارة وقيل في المرارة . وفي الأساس " وماء

أجاج : يحرق بملوحته " وفي القاموس :

"

(493/564)

أجّ يؤج الماء : صار أجاجا أي ملحا مرا ، وهذه نبذة لغوية في تفصيل كمية الماء وكيفيته : إذا كان الماء دائما لا ينقطع ولا ينزح في عين أو بئر فهو عدّ ، فإذا كان إذا حرك منه جانب لم يضطرب جانبه الآخر فهو كر ، فإذا كان كثيرا عذبا فهو غدق وقد نطق به القرآن ، فإذا كان مغرقا فهو غمر ، فإذا كان تحت الأرض فهو غور ، فإذا كان جاريا فهو غيل ، فإذا كان على ظهر الأرض يستقى بغير آلة فهو سيح ، فإذا كان ظاهرا جاريا على وجه الأرض فهو معين وسنم ، وفي الحديث : " خير الماء السنم " فإذا كان جاريا بين الشجر فهو غلل ، فإذا كان مستنقعا في حفرة أو نقرة فهو ثغب ، فإذا أنبط من البئر فهو نبط ، فإذا غادر السيل منه قطعة فهو غدير ، فإذا كان إلى الكعبين أو أنصاف السوق فهو ضحضاح ، فإذا كان قريب القعر فهو ضحل ، فإذا خاضته الدواب فغيرته فهو طرق ، فإذا كان منتنا غير أنه شروب فهو آجن ، وإلا فهو آسن ، فإذا كان باردا منتنا فهو غساق ، أو كان حارا فسخن ، فإذا اشتدت حرارته فحميم ، فإذا كان ملحا فهو زعاق ، أو مرا فهو قعاع ، فإذا اجتمعت فيه

الملوحة والمرارة فهو أجاج ، فإذا كان فيه شيء من العذوبة وقد يشربه الناس على ما فيه فهو شريب ، فإذا كان دونه في العذوبة وليس يشربه الناس إلا عند الضرورة وقد تشربه البهائم فهو شروب ، فإذا كان عذبا فهو فرات ، فإذا زادت عذوبته فهو نقاخ ، فإذا كان زاكيا في الماشية فهو نمير ، فإذا كان سهلا سائغا متسلسلا في الحلق فهو سلسل وسلسال ، فإذا جمع الصفاء والعذوبة والبرد فهو زلال ، فإذا كثر عليه الناس حتى نزحوه بشفاههم فهو مشفوه ثم مثمود ثم مضفوف ثم ممكول ثم مجموم ثم منقوص " فما أعجب أمر لغتنا الشريفة .

(بَرْزَخاً) : حاجزا يحول دون اختلاط أحدهما بالآخر دون أن يرى .

(وَحِجْراً مَحْجُوراً) : تقدم تفسيرهما ، وسيأتي البحث عن موقعهما هنا في باب البلاغة .

)

(494/564)

وَصِهْراً) : الصهر بالكسر القرابة كما في القاموس والختن وجعمه أصهار وفي المصباح : " الصهر جمعه أصهار ، قال الخليل :

الصهر أهل بيت المرأة وقال ومن العرب من يجعل الأحماء والأختان جميعا أصهارا ، وقال الأزهري : الصهر يشتمل على قرابات النساء ذوي المحارم وذوات المحارم كالأبوين والأخوة

وأولادهم والأعمام والأخوال والخالات فهؤلاء أصهار زوج المرأة ومن كان من قبل الزوج من ذوي قرابته المحارم فهم أصهار المرأة أيضا وقال ابن السكيت : كل من كان من قبل الزوج من أبيه أو أخيه أو عمه فهم الأحماء ومن كان من قبل المرأة فهم الأختان ويجمع الصنفين الاصهار وصاهرت إليهم ولهم وفيهم إذا تزوجت منهم " .

(ظَهِيراً) : الظهير : المعين فهو فعيل بمعنى مفاعل ويجوز أن يراد بالظهير الجماعة كقوله " والملائكة بعد ذلك ظهير "كما جاء الصديق والخليط .

الاعراب :

(وَلَقَدْ صَرَّفْناهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً) عطف على ما تقدم واللام جواب للقسم المحذوف وقد حرف تحقيق وصرفناه فعل وفاعل ومفعول به والضمير يعود على الماء أو على القول الذي مرّ

فيه ذكر إنشاء السحاب وإنزال القطر بين الناس ليعتبروا فأبوا إلا الكفور ، وبينهم متعلقان بصرفناه وليذكروا اللام للتعليل ويذكروا فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام فأبى أكثر الناس الفاء عاطفة والجملة عطف على ما تقدم وإلا أداة حصر وكفورا مفعول به أو مفعول مطلق . (وَلَوْ شِئْنا لَبَعَثْنا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيراً) الواو عاطفة ولو شرطية وشئنا فعل وفاعل ومفعول المشيئة محذوف وقد تقدم انه يكثر بعد فعل المشيئة واللام واقعة في جواب لو وجملة بعثنا لا محل لها وفي كل قرية متعلقان ببعثنا ونذيرا مفعول به أي ولكننا قصرنا الأمر

عليك وأنطناه بك وحدك ليكون لك فضل إظهاره والتمرس بأعبائه .

)

(495/564)

فَلا تُطِعِ الْكافِرِينَ وَجاهِدْهُمْ بِهِ جِهاداً كَبِيراً)

الفاء الفصيحة ولا ناهية وتطع مجزوم بلا والفاعل مستتر تقديره أنت والكافرين مفعول به أي فلا تسايرهم فيما يريدونك عليه ولا تأخذك هوادة أولين ، وجاهدهم فعل أمر وفاعل مستتر ومفعول به وبه متعلقان بجاهدهم والضمير للقرآن واتل عليهم دائما زواجره وأوامره ونواذره ، وجهادا مفعول مطلق وكبيرا صفة . (وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هذا عَذْبٌ فُراتٌ وَهذا مِلْحٌ أُجاجٌ) الواو عاطفة والكلام معطوف على ما تقدم ليتساوق ذكر الدلائل الخمسة على توحيده وهذا هو الدليل الرابع . وهو مبتدأ والذي خبره وجملة مرج البحرين صلة وجملة هذا عذب استئنافية أو مقولا لقول محذوف في موضع الحال أي مقولا فيهما وهذا مبتدأ وعذب خبره وفرات خبر ثان وهذا ملح أجاج عطف على ما تقدم .

(وَجَعَلَ بَيْنَهُما بَرْزَخاً وَحِجْراً مَحْجُوراً) عطف على مرج داخل في حيز الصلة وجعل فعل

ماض وفاعله ضمير مستتر تقديره هو وبينهما ظرف متعلق بمحذوف في موضع المفعول الثاني لجعل وبرزخا مفعول به

(496/564)

أول وحجرا محجورا عطف على برزخا وقيل منصوبين بقول مقدر وسيأتي تقرير ذلك في باب البلاغة . (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْماءِ بَشَراً فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهْراً وَكانَ رَبُّكَ قَدِيراً) عطف على ما تقدم وقد ذكر فيه الدليل الخامس ومن الماء جار ومجرور متعلقان بخلق وبشرا مفعول به ، فجعله الفاء عاطفة وجعله فعل وفاعل مستتر ومفعول به أول ونسبا مفعول ثان وصهرا عطف على نسبا والواو استئنافية وكان فعل ماض ناقص وربك اسمها وقديرا خبرها . (وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَنْفَعُهُمْ وَلا يَضُرُّهُمْ) الواو استئنافية وجملة يعبدون استئنافية مسوقة للشروع في تقبيح جنوح المشركين إلى عبادة الأوثان بعد أن أورد الدلائل الخمسة على التوحيد ، ومن دون اللّه حال وما مفعول به وجملة لا ينفعهم صلة وجملة ولا يضرهم عطف على جملة لا ينفعهم . (وَكانَ الْكافِرُ عَلى رَبِّهِ ظَهِيراً) الواو عاطفة وكان الكافر كان واسمها وعلى ربه متعلقان بظهيرا وظهيرا خبر كان أي معينا للشيطان . (وَما أَرْسَلْناكَ إِلَّا مُبَشِّراً وَنَذِيراً) كلام مستأنف مسوق لتقرير حال رسوله

صلى اللّه عليه وسلم وما نافية وأرسلناك فعل ماض وفاعل ومفعول به وإلا أداة حصر ومبشرا حال فالاستثناء من أعم الأحوال ونذيرا عطف على مبشرا . (قُلْ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ) قل فعل أمر وجملة ما أسألكم مقول القول وعليه حال لأنه كان في الأصل صفة لأجر وتقدم عليه ومن حرف جر زائد وأجر مجرور لفظا في محل نصب مفعول به لأسألكم . (

إِلَّا مَنْ شاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلى رَبِّهِ سَبِيلًا) إلا أداة استثناء ومن شاء مستثنى منقطع لأنه من غير الجنس أي لا أطلب منكم أجرا لنفسي لكن من شاء أن ينفق أمواله في سبيل اللّه ولوجهه خالصا فليفعل ، وأن وما في حيزها مفعول المشيئة والى ربه في موضع المفعول الثاني ليتخذ وسبيلا مفعول به أول ليتخذ .

(497/564)

البلاغة :

الاستعارة التصريحية في قوله " مرج البحرين " فقد شبه بهما الماءين الكثيرين الواسعين ، وحجرا محجورا هي كلمة تقال عند التعوذ كما أسلفنا في هذه السورة ، ولكنهما هنا تقالان على سبيل المجاز كأن كل واحد من البحرين يتعوذ من الآخر ويقول له حجرا محجورا

، فإعراب حجرا محجورا مفعولين للقول المحذوف جيد للغاية من الناحية البيانية .

وسيأتي قوله " بينهما برزخ لا يبغيان " في سورة الرحمن فقد شبههما كما قلنا بطائفتين متعاديتين تريد كل منهما الإيقاع بالأخرى وتتربص بها الدوائر وتنتهن السوانح والفرص ، ولكنها عند ما تحصل على ما تريد تمتنع من البغي ، فجعل المعنى المستعار كاللفظ المقول ، وهذا من أبلغ القول وأبينه وأكثره تجسيدا وملاءمة للمعنى المراد .

[سورة الفرقان (25) : الآيات 58 إلى 60]

وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفى بِهِ بِذُنُوبِ عِبادِهِ خَبِيراً (58) الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمنُ فَسْئَلْ بِهِ خَبِيراً (59) وَإِذا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمنِ قالُوا وَمَا الرَّحْمنُ أَنَسْجُدُ لِما تَأْمُرُنا وَزادَهُمْ نُفُوراً (60)

الإعراب :

(وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ) الواو عاطفة على ما تقدم والآية متصلة بقوله " وكان الكافر على ربه ظهيرا " فإنه

لما بيّن أن الكفار متظاهرون على إيذائه أمره أن يتوكل عليه . وتوكل فعل أمر وفاعله مستتر تقديره أنت وعلى الحي متعلقان بتوكل والذي صفة وجملة ولا يموت صلة وسبح عطف على توكل وبحمده متعلقان بمحذوف حال أي متلبسا بحمده . (وَكَفى بِهِ بِذُنُوبِ عِبادِهِ خَبِيراً) الواو حرف عطف وكفى فعل ماض والباء حرف جر زائد والهاء مجرور لفظا مرفوع محلا على أنه فاعل وبذنوب متعلقان بخبيرا وخبيرا تمييز أو حال . (الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ) الذي نعت أو بدل من قوله " به " أو مبتدأ وجملة خلق السموات والأرض صلة وما بينهما عطف على السموات والظرف متعلق بمحذوف صلة وفي ستة أيام متعلقان بخلق . (ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمنُ فَسْئَلْ بِهِ خَبِيراً) ثم حرف عطف واستوى عطف على خلق وعلى العرش متعلقان به والرحمن خبر الذي أو خبر لمبتدأ محذوف أي هو الرحمن ، فاسأل الفاء الفصيحة واسأل فعل أمر وبه متعلقان بخبيرا وخبيرا مفعول به ويجوز أن تكون الباء بمعنى عن والجار والمجرور متعلقان بقوله فاسأل . ومنه قول الشاعر :

فإن تسألوني بالنساء فإنني خبير بأدواء النساء طبيب

وقول عنترة :

هلا سألت الخيل يا ابنة مالك إن كنت جاهلة بما لم تعلمي

(وَإِذا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمنِ قالُوا وَمَا الرَّحْمنُ) الواو استئنافية وإذا ظرف مستقبل

متضمن معنى الشرط وجملة قيل مجرورة بإضافة الظرف إليها ولهم متعلقان بقيل وجملة اسجدوا للرحمن مقول القول وجملة قالوا جواب شرط غير جازم لا محل لها والواو زائدة وما الرحمن ما اسم استفهام خبر مقدم والرحمن مبتدأ مؤخر أو بالعكس ويجوز أن يكون سؤالا عن المسمى به أو عن معناه .

)

(499/564)

أَنَسْجُدُ لِما تَأْمُرُنا وَزادَهُمْ نُفُوراً) الهمزة للاستفهام الانكاري ونسجد فعل مضارع وفاعله مستتر تقديره نحن ولما متعلقان بنسجد أي كيف سجد لما لا نعرفه ، وجملة تأمرنا صلة ويجوز أن تكون ما مصدرية أي للسجد من أجل أمرك وزادهم فعل وفاعل يعود على القول والهاء مفعول به ونفورا مفعول به ثان أو تمييز .

البلاغة :

في قوله " ثم استوى على العرش " استعارة مكنية ويسميها القدامى تخييلية ، فالمستعار الاستواء والمستعار منه كل جسم مستو والمستعار له الحق عز وجلّ ليتخيل السامع عند سماع هذه اللفظة ملكا فرغ من ترتيب ممالكه وتشييد ملكه وجميع ما تحتاج إليه رعاياه

وجنده من عمارة بلاده وتدبير أحوال عباده ، استوى على سرير ملكه استيلاء عظمة ، فيقيس السامع ما غاب عن حسه من أمر الإلهية على ما هو متخيله من أمر المملكة الدنيوية عند سماع هذا الكلام ، ولهذا لا يقع ذكر الاستواء على العرش إلا بعد الإخبار بالفراغ من خلق السموات والأرض وما بينهما وإن لم يكن ثم سرير منصوب ولا جلوس محسوس ولا استواء على ما يدل عليه الظاهر من تعريف هيئة مخصوصة .

فائدة :

في الاستواء مذهبان أحدهما مذهب السلف وهو لا يفسر

الاستواء بل يقول انه استواء يليق به وثانيهما مذهب الخلف وهو يفسره بالاستيلاء عليه بالتصرف فيه وفي سائر المخلوقات .

الفوائد :

قوله في ستة أيام : يعني في مقدارها هذه المدة والظاهر أنها من أيام الدنيا وأولها الأحد وآخرها يوم الجمعة وقد كان لها أسماء عندهم وهي : الأحد : أوهل ، والأثنين : أوهن ، والثلاثاء : جبار ، والأربعاء ، دبار ، والخميس : مؤنس ، والجمعة : عروبة ، والسبت : شيار .

[سورة الفرقان (25) : الآيات 61 إلى 66]

تَبارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّماءِ بُرُوجاً وَجَعَلَ فِيها سِراجاً وَقَمَراً مُنِيراً (61) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرادَ شُكُوراً (62) وَعِبادُ الرَّحْمنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً وَإِذا خاطَبَهُمُ الْجاهِلُونَ قالُوا سَلاماً (63) وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِياماً (64) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذابَها كانَ غَراماً (65)

إِنَّها ساءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقاماً (66)

اللغة :

(بُرُوجاً) : أي منازل للكواكب السيارة وهي اثنا عشر ، وأصل البروج القصور العالية ، سميت هذه المنازل بروجا لأنها للكواكب

(501/564)

السيارة بمثابة المنازل الرفيعة التي هي القصور لسكانها ، هذا ومنطقة البروج هي منطقة سماوية تحتوي على المدارات التي تجتازها الكواكب السيارة حول الشمس ، وانحراف هذه المدارات بالنسبة إلى بعضها يختلف قلة وكثرة ولا سيما مدارات الكواكب التي لا

تشاهد إلا بالآلة العظيمة الفلكية وهذه المنطقة تقسمها الدائرة الكسوفية المسماة بمدار الأرض إلى قسمين متساويين عرض كل منهما تقريبا ثماني درجات وينتهيان بدائرتين موازيتين لتلك الدائرة وهي منحرفة عن دائرة الاستواء التي تقسمها إلى قسمين يقربان للتساوي ، وقد قسمت في سالف الأزمان إلى اثني عشر قسما تسمى صورا وكل قسم منها ثلاثون درجة ، ومن سير الشمس بحسب الظاهر في هذه الأقسام تحصل الفصول ومددها ، وذلك أن هذا الكوكب بتركه النصف الجنوبي من الكرة ودخوله في نصفها الشمالي تفتتح السنة الشمسية ، أعني بمجرد دخوله في برج الحمل ، وفي ذلك الوقت يبتدىء الربيع الذي يحيا به الكون ويستمر هذا الفصل مدة اجتياز الشمس البرج المذكور وبرج الثور والجوزاء ثم تدخل على التعاقب في السرطان والأسد والسنبلة وهذه تسمى بفصل الصيف فينبعث إلينا مدة إقامتها في تلك البروج أشعة شديدة الحرارة تنضج الحبوب التي تحصد زمن الصيف ، ثم بعد بلوغها هذا الارتفاع تنزل من جهة النصف الجنوبي فتجتاز على التوالي الميزان والعقرب والقوس ويقال لهذه البروج الثلاثة فصل الخريف ، ثم يدخل الشتاء بثلجه وبرده وتكون الشمس حينئذ أبعد نقطة عنا ولا ينبعث منها إلينا إلا أشعة مائلة فتقطع بروجه الثلاثة أعني الجدي والدلو والحوت ثم ترجع إلى محلها الأول لتعيد الحياة والحركة إلى كثير من الكائنات التي كانت كأنها خلية عنها بسبب بعدها عنها .

فقد عرفت من ذلك أن الصور الاثني عشرة لمنطقة البروج تنقسم على الفصول الأربعة ، فللربيع الحمل والثور والجوزاء ، وللصيف السرطان والأسد والسنبلة ، وللخريف الميزان والعقرب والقوس ، وللشتاء الجدي والساكب والحوت .

(سِراجاً) : السراج الشمس كقوله تعالى " وجعل الشمس سراجا " .

(خِلْفَةً) : أي يخلف كل واحد منهما الآخر فالخلفة مصدر هيئة .

وعبارة القرطبي : قال أبو عبيدة : الخلفة كل شيء بعد شيء فكل واحد من الليل والنهار يخلف صاحبه ، ويقال للمبطون : أصابه خلفة أي قيام وقعود يخلف هذا ذاك ، ومنه خلفة النبات وهو ورق يخرج بعد الورق الأول في الصعيد . وقال مجاهد : خلفة من الخلاف هذا أبيض وهذا أسود والأول أقوى ، وقيل يتعاقبان في الضياء والظلام والزيادة والنقصان ، وقيل هو من باب حذف المضاف أي جعل الليل والنهار ذوي خلفة أي اختلاف لمن أراد أن يذكر أي يتذكر فيعلم أن اللّه لم يجعلهما كذلك عبثا فيعتبر في مصنوعات اللّه تعالى ويشكر اللّه على نعمه عليه في العقل والفكر والفهم ، وقال عمر بن الخطاب وابن عباس والحسن معناه من فاته شيء من الخير بالليل أدركه بالنهار ومن فاته بالنهار أدركه بالليل .

(هَوْناً) : الهون : الرفق والسكينة ، وهو مصدر وضع موضع الصفة للمبالغة وقد مرت له نظائر ، ومنه الحديث : " أحبب حبيبك هونا ما " وقوله " المؤمنون هينون لينون " ومن

أمثالهم " إذا عز أخوك فهن " .

(غَراماً) : هلاكا وخسرانا وعذابا لازما ، وفي المختار : " الغرام :

الشر الدائم والعذاب " قال بشر بن أبي خازم :

ويوم النسار ويوم الفجا . . . . ركانا عذابا وكان غراما والنسار ماء لبني عامر والفجار

ماء لبني تميم ، وقد جرت فيهما هاتان الواقعتان وكانتا عذابا على أهلهما وهلاكا دائما .

الاعراب :

)

(503/564)

تَبارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّماءِ بُرُوجاً وَجَعَلَ فِيها سِراجاً وَقَمَراً مُنِيراً) تبارك فعل ماض جامد والذي فاعله وجملة جعل صلة وفي السماء متعلقان بجعل وبروجا مفعول به وما بعده عطف عليه ويجوز أن تجعل جعل متعدية لاثنين بمعنى الجعل أي التصيير . (وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرادَ شُكُوراً) كلام معطوف على ما قبله وهو مبتدأ والذي خبره وجملة جعل الليل والنهار صلة وخلفة مفعول به ثان لجعل إن كانت بمعنى صير أو حال إن كانت بمعنى خلق وأفرد لأن المعنى يخلف أحدهما الآخر فلا يتحقق هذا

إلا منهما ، قيل ولا بد من تقدير مضاف أي ذوي خلفة كما تقدم في باب اللغة ، ولمن صفة لخلفة وجملة أراد صلة من ، وأن يذكر مصدر مؤول في محل نصب على المفعولية لأراد ومفعول يذكر محذوف أي ما فاته في أحدهما وأو حرف عطف وأراد شكورا عطف على أراد الأولى . (وَعِبادُ الرَّحْمنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً) كلام مستأنف مسوق لبيان الأوصاف التي تميز بها عباد الرحمن المخلصون بعد بيان حال المنافقين وقد وصفهم بثمانية موصولات . وعباد مبتدأ والرحمن مضاف إليه وما بعده صفات ويجوز أن تكون الموصولات الثمانية أوصافا ، وخبر عباد في آخر

(504/564)

السورة وهو قوله تعالى " أولئك يجزون الغرفة " كأنه قال وعباد الرحمن الموصوفون بهذه الصفات أولئك يجزون ولعل الأول أولى لبعده عن التعسف ، والذين خبر عباد أو صفة وجملة يمشون صلة وعلى الأرض متعلقان بيمشون وهونا مصدر وضع في موضع الحال أو نصب على المفعولية المطلقة كأنه وصف للمصدر أو ملاقيه في المعنى أي مشيا هونا .
(وَإِذا خاطَبَهُمُ الْجاهِلُونَ قالُوا سَلاماً) الواو عاطفة والجملة معطوفة على ما قبلها فهي من حيز الصلة وإذا ظرف مستقبل متضمن معنى الشرط وجملة خاطبهم الجاهلون في محل جر

بإضافة الظرف إليها وجملة قالوا لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم وسلاما مفعول مطلق أي قولا يسلمون فيه من الإثم ، وستأتي مناقشة طريفة بين سيبويه والمبرد حول هذا المصدر في باب الفوائد . (وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِياماً) والذين عطف على الموصول الأول وجملة يبيتون صلة والواو اسم يبيتون ويضعف جعلها تامة أي يدخلون في البيات كما سيأتي في باب الفوائد ، ولربهم متعلقان بسجدا وسجدا خبر يبيتون أو حال على جعلها تامة ، وقياما عطف على سجدا ، وقدم السجود على القيام وان كان القيام قبله في الفعل لمراعاة الفواصل ، وسجدا جمع ساجد وهو اسم فاعل ولذلك تعلق الجار والمجرور به وكذلك قياما جمع قائم . (وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذابَ جَهَنَّمَ) والذين عطف أيضا وجملة يقولون صلة وربنا منادى مضاف محذوف منه حرف النداء واصرف فعل أمر معناه الدعاء وعذاب جهنم مفعول اصرف والجملة مقول القول . (إِنَّ عَذابَها كانَ غَراماً) الجملة تعليلية لا محل لها فهي تعليل لقولهم ربنا اصرف عنا عذاب جهنم ، وان واسمها وجملة كان خبرها واسم كان ضمير مستتر تقديره هو وغراما خبر كان .

(505/564)

)

إِنَّها ساءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقاماً) الجملة تعليلية أيضا وحذف العاطف بينهما فالجملتان من جملة مقولهم ، وان واسمها وجملة ساءت خبرها وفاعل ساءت ضمير مستتر مبهم مفسر بنكرة ومستقرا تمييز ومقاما عطف على مستقرا والمخصوص بالذم محذوف تقديره هي ، وقد أجاز المعربون كالزمخشري والسمين أن تكون ساءت بمعنى أحزنت فلا نكون من أفعال الذم بل تكون فعلا متصرفا ناصبا للمفعول به وهو هنا محذوف أي وأحزنت أصحابها وداخليها ، عندئذ يجوز في مستقرا أن يكون تمييزا وأن يكون حالا .

الفوائد :

1- مناقشة حول " سلاما " :

قال القرطبي في تفسيره : " قال النحاس : ولا نعلم لسيبويه كلاما في معنى الناسخ والمنسوخ إلا في هذه الآية قال سيبويه : لم يؤمر المسلمون يومئذ أن يسلموا على الكفار لكنه على معنى قوله سلمنا منكم ولا خير بيننا وبينكم ولا شر ، وقال المبرد كان ينبغي أن يقول :

لم يؤمر المسلمون يومئذ بحربهم ثم أمروا بحربهم ، وقال أي محمد بن يزيد المبرد : أخطأ سيبويه في هذا وأساء العبارة ، وقال ابن العربي :

لم يؤمر المسلمون يومئذ أن يسلموا على المشركين ولا نهوا عن ذلك بل أمروا بالصفح والهجر الجميل وقد كان عليه الصلاة والسلام يقف على أنديتهم ويحييهم ويدانيهم ولا يداهنهم " .

قلت : ولا حاجة إلى ادعاء النسخ لأن الإغضاء عن السفهاء وترك المقابلة مستحسن في الأدب والمروءة والشريعة وأصون للعرض وأوفر له .

2- فعل بات :

قال في القاموس : " وبات يفعل كذا يبيت ويبات بيتا وبياتا ومبيتا وبيتوتة أي يفعله ليلا وليس من النوم " ومعنى قوله : " وليس من النوم " أي وليس الفعل من النوم فإذا نام ليلا لا يصح أن يقال بات ينام ، ومنه قول الشريف الرضي :

أتبيت ريان الجفون من الكرى وأبيت منك بليلة الملسوع

(506/564)

ذكر ابن هشام في مغني اللبيب عن رجل كبير من الفقهاء أنه استشكل قول الشريف الرضي الآنف الذكر وقال كيف ضم التاء من تبيت وهي للمخاطب لا للمتكلم وفتحها من أبيت وهو للمتكلم ؟ فبينت للحاكي أن الفعلين مضارعان وأن التاء فيهما لام الكلمة وان الخطاب في الأول مستفاد من الهمزة والأول مرفوع لحلوله محل الاسم والثاني منصوب بأن مضمرة بعد واو المصاحبة على حد قول الحطيئة :

ألم أك جاركم ويكون بيني وبينكم المودة والإخاء

هذا ونعود إلى بيت الشريف فنقول : هو من أرق الشعر وأجمله وفيه استعارة تبعية حيث شبه امتلاء جفون المحبوب من النوم بالري وهو امتلاء الجوف بالماء المذهب للأوار بجامع حصول الراحة في كل منهما ، واستعير اسم المشبه به للمشبه ، واشتق من الري ريان بمعنى ممتلىء الجفون ، وفيه أيضا كناية وذلك أنه كنى بليلة الملسوع عن ليلة السهر لأن السهر والأرق من لوازم ذلك ، وفيه أيضا طباق بين النوم المستفاد من الصدر صريحا والسهر المستفاد من العجز كناية ، فقد استكمل البيت ثلاثة فنون من البيان فإذا أضفت إلى ذلك خروج

الاستفهام عن معناه الأصلي إلى البث والشكوى فقد استكمل أربعة فنون يضاف إليها خامس وهو فن حسن النسق وسلاسة الأسلوب .

وهو من أبيات نذكر منها الباقة التالية :

يا صاحب القلب الصحيح أما اشتفى ألم الجوى من قلبي المصدوع

هيهات لا تتكلفنّ لي الهوى فضح التطبع شيمة المطبوع

كم قد نصبت لك الحبائل طامعا فنجوت بعد تعرض لوقوع

وتركتني ظمآن أشرب غلتي أسفا على ذاك اللمي الممنوع

كم ليلة جرّعته في طولها غصص الملام ومؤلم التقريع

أبكي ويبسم والدجى ما بيننا حتى أضاء بثغره ودموعي

قمر إذا استعجلته بعتابه لبس الغروب ولم يعد لطلوع

لو حيث يستمع السرار وفقتما لعجبتما من عزه وخ

ضوعي أهون علي إذا امتلأت من الكرى أني أبيت بليلة الملسوع

(507/564)

و تكون بات تامة مكتفية بمرفوعها عن منصوبها إذا كانت بمعنى عرس وهو النزول آخر الليل نحو قول ابن عمر رضي اللّه عنه :

" أما رسول اللّه فقد بات بمنى " أي عرس بها ، وقال امرؤ القيس بن عانس بالنون وهو غير امرؤ القيس بن حجر الكندي :

وبات وباتت له ليلة كليلة ذي العائر الأرمد

أي وعرس ، والعائر بالعين المهملة اسم فاعل من العور وهو القذى في العين تدمع له ، وقيل الرمد والأرمد صفة له ، وقالوا بات بالقوم أي نزل بهم ليلا .

[سورة الفرقان (25) : الآيات 67 إلى 71]

وَالَّذِينَ إِذا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكانَ بَيْنَ ذلِكَ قَواماً (67) وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ يَلْقَ أَثاماً (68)

يُضاعَفْ لَهُ الْعَذابُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهاناً (69) إِلاَّ مَنْ تابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صالِحاً فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئاتِهِمْ حَسَناتٍ وَكانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً (70) وَمَنْ تابَ وَعَمِلَ صالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتاباً (71)

اللغة :

(يَقْتُرُوا) : في المختار " وقتر على عياله أي ضيق عليهم في النفقة وبابه ضرب ودخل وقتر تقتيرا وأقتر أيضا ثلاث لغات " وقد قرئ بفتح أوله وضمه .

(قَواماً) : بفتح القاف وكسرها وقد قرئ بهما والقوام بالفتح العدل بين الشيئين لاستقامة الطرفين ، ونظير القوام من الاستقامة السواء من الاستواء ، والقوام بالكسر : ما يقام به الشيء يقال أنت قوامنا بمعنى ما تقام به الحاجة لا يزيد عنها ولا ينقص .

(أَثاماً) : الأثام كالوبال والنكال وزنا ومعنى : جزاء الإثم الذي هو الذنب نفسه ، قال :

جزى اللّه ابن عروة حيث أمسى عقوقا والعقوق له أثام

(508/564)

وفي المختار : " أثمه اللّه في كذا بالقصر يأثمه بضم الثاء وكسرها أثاما عده عليه إثما فهو مأثوم ، وقال الفراء : أثمه اللّه يأثمه اثما وأثاما جازاه جزاء الإثم فهو مأثوم أي مجزي جزاء إثمه

" .

الاعراب :

(وَالَّذِينَ إِذا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكانَ بَيْنَ ذلِكَ قَواماً) والذين عطف على ما تقدم وإذا ظرف مستقبل متضمن معنى الشرط وجملة أنفقوا في محل جر بإضافة الظرف إليها وجملة لم يسرفوا ولم يقتروا لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم والواو عاطفة أو حالية وكان فعل ماض ناقص واسمها ضمير مستتر أي وكان الانفاق ، وبين

(509/564)

ظرف متعلق بمحذوف حال لأنه كان صفة لقواما وذلك مضاف إليه وقواما خبر كان . قال الزمخشري : " والمنصوبان أعني بين ذلك قواما جائز أن يكونا خبرين معا ، وأن يجعل بين ذلك لغوا وقواما مستقرا ، وان يكون الظرف خبرا وقواما حالا مؤكدة " . (وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ) والذين عطف على ما تقدم أيضا وجملة لا يدعون صلة ومع اللّه متعلق بيدعون وإله مفعول به وآخر صفة . (وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ) ولا يقتلون عطف على ولا يدعون والنفس مفعول به والتي صفة وجملة حرم اللّه صلة وإلا أداة حصر وبالحق متعلقان بيقتلون أو بمحذوف حال فالاستثناء من أعم

الأحوال أي إلا مستحقين ، ولا يزنون معطوفة . (وَمَنْ يَفْعَلْ ذِلِكَ يَلْقَ أَثَاماً يُضاعَفْ لَهُ الْعَذابُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهاناً) الواو عاطفة ومن اسم شرط جازم في محل رفع مبتدأ ويفعل فعل الشرط وفاعله ضمير مستتر تقديره هو يعود على من وذلك مفعول به ويلق جواب الشرط وفاعله ضمير مستتر تقديره هو وأثاما مفعول به ويضاعف بدل من يلق لأنهما في معنى واحد وسيأتي في باب الفوائد بحث إبدال الفعل من الفعل لأن مضاعفة العذاب لقي الآثام ، وله متعلقان بيضاعف والعذاب نائب فاعل ويوم القيامة ظرف متعلق بيضاعف أيضا ويخلد عطف على يضاعف وفيه متعلقان بيخلد ومهانا حال من فاعل يخلد .

)

(510/564)

إِلَّا مَنْ تابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صالِحاً) إلا أداة استثناء ومن استثناء من الجنس في موضع نصب وجملة تاب صلة وآمن عطف على تاب وكذلك عمل وعملا مفعول مطلق أو مفعول به وصالحا صفة . (فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَناتٍ وَكانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً) الفاء رابطة لما في الموصول من رائحة الشرط وأولئك مبتدأ والإشارة إلى الموصول وهو من ،

والجمع باعتبار معناها ، وجملة يبدل خبر أولئك والله فاعل وسيئاتهم

مفعول ، وحسنات مفعول ثان ليبدل أو نصب على نزع الخافض وكان الواو استئنافية وكان

واسمها وغفورا خبرها الأول ورحيما خبرها الثاني . (وَمَنْ تابَ وَعَمِلَ صالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ

إِلَى اللَّهِ مَتاباً) الواو عاطفة أو استئنافية ومن اسم شرط جازم مبتدأ وتاب فعل ماض في

محل جزم فعل الشرط وعمل عطف على تاب وصالحا صفة لمفعول مطلق أو لمفعول به

محذوف أي عملا صالحا ، فإنه الفاء رابطة للجواب لأنه جملة اسمية وان واسمها وجملة

يتوب خبر والى الله جار ومجرور متعلقان بيتوب ومتابا مفعول مطلق لأنه مصدر ميمي .

الفوائد :

إبدال الفعل من الفعل :

يبدل كل من الاسم والفعل والجملة من مثله وينطبق عليه أحكام البدل فيكون بدل كل من

كل أو بدلا مطابقا كقوله تعالى " ومن يفعل ذلك يلق أثاما يضاعف " فيضاعف بدل من يلق

بدل كل من كل أو بدلا مطابقا ، قال الخليل لأن مضاعفة العذاب هي لقي الآثام ، وبدل

البعض نحو : إن تصل تسجد لله يرحمك ، فتسجد بدل من تصل بدل بعض من كل ، وبدل

الاشتمال كقوله :

إن عليّ الله أن تبايعا تؤخذ كرها أو تجيء طائعا

لأن الأخذ كرها والمجيء طائعا من صفات المبايعة والله منصوب على نزع الخافض أي والله

، وأن تبايعا اسم إن والألف في تبايعا للإطلاق وهو من بايع أي عاهد وعلي متعلق بالخبر ونؤخذ وما عطف

(511/564)

عليه بدل اشتمال من حيث المعنى ، أما ابدال الجملة فيطرد في البدل المطابق نحو قعدت جلست في دار زيد .

وفي بدل البعض من الكل كقوله تعالى : " أمدكم بما تعلمون :

أمدكم بأنعام وبنين " فجملة أمدكم الثانية أخص من الأولى باعتبار متعلقيهما فتكون داخلة في الأولى لأن " ما تعلمون " تشمل الأنعام وغيرها ، وبدل الاشتمال كقوله :

أقول له ارحل لا تقيمنّ عندنا وإلا فكن في السر والجهر مسلما

ف " لا تقيمن عندنا " بدل اشتمال من " ارحل " لما بينهما من المناسبة اللزومية وليس توكيدا له لاختلاف لفظيهما ولا بدل بعض لعدم دخوله في الأول ولا بدل كل من كل لعدم الاعتداد به كما تقدم .

وقد تبدل الجملة من المفرد بدل كل كقول الفرزدق :

إلى اللّه أشكو بالمدينة حاجة وبالشام أخرى كيف يلتقيان

فقد أبدل جملة كيف يلتقيان من حاجة وأخرى وهما مفردان ، أما ابدال المفرد من الجملة فقد صرح أبو حيان في البحر بأن المفرد يبدل من الجملة كقوله تعالى " ولم يجعل له عوجا قيما " فقيما بدل من جملة لم يجعل له عوجا لأنها في معنى المفرد أي جعله مستقيما .

[سورة الفرقان (25) : الآيات 72 إلى 77]

وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِراماً (72) وَالَّذِينَ إِذا ذُكِّرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْها صُمًّا وَعُمْياناً (73) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنا هَبْ لَنا مِنْ أَزْواجِنا وَذُرِّيَّاتِنا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنا لِلْمُتَّقِينَ إِماماً (74) أُولئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِما صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيها تَحِيَّةً وَسَلاماً (75) خالِدِينَ فِيها حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقاماً (76)

قُلْ ما يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلا دُعاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزاماً (77)

الاعراب :

(وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِراماً) والذين عطف على الموصولات السابقة وجملة لا يشهدون صلة ، والزور : إن كانت يشهدون بمعنى الشهادة المعلومة فيكون الزور منصوبا بنزع الخافض أي بالزور وإن كانت يشهدون بمعنى يحضرون فيكون

الزور مفعولا به ، وإذا الواو عاطفة وإذا ظرف مستقبل متضمن معنى الشرط وجملة مروا مجرورة بإضافة الظرف إليها ومروا فعل وفاعل وباللغو متعلقان بمروا وجملة مروا الثانية لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم وكراما حال أي ربئوا بأنفسهم عن الوقوف عليه والاسهام فيه . (وَالَّذِينَ إِذا ذُكِّرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْها صُمًّا وَعُمْياناً) جملة لم يخروا لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم وعليها متعلقان بيخروا وسيأتي معنى هذا النفي في باب البلاغة وصما حال وعميانا حال ثانية . (وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنا هَبْ لَنا مِنْ أَزْواجِنا وَذُرِّيَّاتِنا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنا لِلْمُتَّقِينَ إِماماً) عطف على ما تقدم وربنا منادى مضاف محذوف منه حرف النداء وهب فعل أمر فيه معنى الدعاء ولنا متعلقان بهب ومن أزواجنا حال وسيأتي بحث هذا التجريد في باب البلاغة وقرة أعين مفعول هب وتقدم أن قرة العين سرورها والمراد به ما يحصل به السرور وسيأتي سر تقليل الأعين في باب البلاغة ، واجعلنا فعل أمر متضمن معنى الدعاء وفاعله مستتر ومفعول أول وللمتقين حال لأنه كان في الأصل صفة لإماما وإماما مفعول به ثان وفيه أربعة أوجه :

1- انه مصدر مثل قيام وصيام فلم يجمع لذلك والتقدير ذوي امام .

2- انه جمع إمامة مثل قلادة وقلاد .

3- هو جمع آم من أم يؤمّ .

4- انه واحد اكتفى به عن أئمة كما قال تعالى " نخرجكم طفلا " .

(أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِما صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيها تَحِيَّةً وَسَلاماً) الجملة حالية من المتقين أو خبر عباد الرحمن على أحد القولين وأولئك مبتدأ وجملة يجزون الغرفة خبره والغرفة مفعول به ثان ليجزون والواو نائب فاعل وهو المفعول الأول ، وبما متعلقان بيجزون وما مصدرية والباء للسببية أي بسبب صبرهم على المشاق في الطاعات والابتعاد عن الشهوات ومكابدة المجاهدات ويلقون عطف على يجزون وفيها حال وتحية مفعول به ثان ليلقون لأنه مبني للمجهول والواو نائب فاعل وسلاما عطف على تحية . (خالِدِينَ فِيها حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقاماً) خالدين حال وفيها متعلقان بخالدين وحسنت فعل ماض والفاعل مستتر يعود على الغرفة ومستقرا تمييز ومقاما عطف على مستقرا وجملة حسنت حال ثانية من الغرفة . (قُلْ ما يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلا دُعاؤُكُمْ) ما اسم استفهام في محل نصب مفعول مطلق ويعبأ فعل مضارع وبكم متعلقان بيعبأ وربي فاعل أي انه يكترث بكم ويعبأ بكم ويعلي ذكركم لأجل عبادتكم ولولا عبادتكم لم تكونوا شيئا يؤبه له ، ويجوز أن تكون ما نافية ولولا حرف امتناع لوجود ودعاؤكم مبتدأ محذوف الخبر وجوبا وجواب لولا محذوف كما قدرناه سابقا ودعاؤكم مصدر أضيف لفاعله والمفعول محذوف أي إياه . (فَقَدْ كَذَّبْتُمْ

فَسَوْفَ يَكُونُ لِزاماً) الفاء الفصيحة أي إني إذا أعلمتكم أني لا أعتد بكم ولا أقيم لكم وزنا إلا لأجل عبادتكم فقد خالفتم بتكذيبكم حكمي فسوف تتحملون مسؤولية تكذيبكم .

ويكون فعل مضارع ناقص واسمها هو أي التكذيب ولزاما خبرها وهو مصدر بمعنى اسم الفاعل أي ملازما لكم .

البلاغة :

1- النفي والإثبات :

(514/564)

في قوله تعالى " لم يخرّوا عليها صما وعميانا " نفي واثبات ، فقد أثبت الخرور لأنهم طالما خروا ساجدين خاشعين في هدوء الليل ووسط الدجى ولكنهم إن خروا ساجدين سلمت لهم أبصارهم وآذانهم فلم يبصروا إلا مرائي الهيبة وتعاجيب الألوهية وأنوار السنا الساطعة ، ولم يسمعوا إلا الآيات تتردد في آذانهم وتهجس في مخيلاتهم فإذا الورى آي وعبر ، وإذا الحوبة لا عين ولا أثر ، تقول ما يلقاني زيد ماشيا إنما هو نفي للمشي لا للقاء وعبارة ابن قتيبة : " المعنى لم يتغافلوا عنها كأنهم صم لم يسمعوها وعمي لم يبصروها " .

2- التقريع للكافرين :

وفيها أيضا تنديد وتقريع للكافرين لأنهم صم بكم عمي لا ينتفعون بما يقرءون ، ولا يعتبرون بما يشاهدون ، ولا يتجاوز آذانهم ما يسمعون 3- التنكير والتقليل :

وفي قوله تعالى " قرة أعين " نكتتان الأولى التنكير ، وإنما جنح إليه لأجل تنكير القرة ، والمضاف لا يمكن تنكيره إلا بتنكير المضاف إليه ليكون السرور غير متناه ولا محدود ، وإنما قلل الأعين أي جمع جمع القلة لأن أعين المتقين قلة بالإضافة إلى غيرهم ، يدل على ذلك قوله " وقليل من عبادي الشكور " وهناك وجه آخر لعله أبلغ مما تقدم وهو أن المحكي كلام كل أحد من المتقين فكأنه قال : يقول كل واحد من المتقين اجعل لنا من ذرياتنا قرة أعين ، فإن المتقين وإن كانوا بالإضافة إلى غيرهم قليلا إلا أنهم في أنفسهم على كثرة من العدد ، والمعتبر في إطلاق جمع القلة أن يكون المجموع قليلا في نفسه لا بالنسبة والإضافة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ إعراب القرآن وبيانه حـ 6 صـ 663 : حـ 7 صـ 51 ﴾

(515/564)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِي - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الخامس والستون بعد الخمسمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/565)

الجزء الخامس والستون بعد الخمسمائة

(سورة الشعراء)

(4/565)

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة الشعراء)

(5/565)

" فصل فى فضل السّورة "

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

فيه حديث أَبىّ الواهى : مَن قرأَ سورة الشُّعراءِ كان من له الأَجر عشرُ حسنات ، بعدد مَنْ صَدّق بنوح ، وكَذَّب به ، وهود ، وشعيب ، وصالح ، وابراهيم ، وبعدد مَنْ كذَّب بعيسى ، وصدَّق بمحمّد صلَّى الله عليه وسلَّم ، وحديث علىّ : يا علىّ مَنْ قرأَ هذه السّورة كان موته موت الشُّهداءِ ، وله بكلِّ آية قرأَها مثل ثواب امرأَة فرعون آسية . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 347 ﴾

(6/565)

" فصل فى مقصود السورة الكريمة "

قال البقاعى :

مقصودها أن هذا الكتاب بين في نفسه بإعجازه أنه من عند الله ، مبين لكل ملتبس ، ومن ذلك بيان آخر التي قبلها بتفصيلهن وتنزيله على أحوال الأمم وتمثيله ، وتسكين أسفه (صلى الله عليه وسلم) خوفاً من أن يعم أمته الهوان بعدم الإيمان ، وأن يشتد قصدهم لأتباعه بالأذى والعدوان بما تفهمه (سوف) من طول الزمان ، بالإشارة إلى إهلاك من علم منه دوام العصيان ، ورحمة من أراده للهداية والإحسان ، وتسميتها بالشعراء أدل دليل على ذلك بما يفارق به القرآن الشعر من علو مقامه ، واستقامة مناهجه وعز مرامه ، وصدق وعده ووعيده وعدل تبشيره وتهديده ، وكذا تسميتها بالظلة إشارة إلى أنه أعدل في بيانه ، أو أدل في جميع شأنه ، من المقادير التي دلت عليها قصة شعيب عليه السلام بالمكيال والميزان ، وأحرق من الظلة لمن يبارزه بالعصيان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 344 ﴾

(7/565)

وقال القرطبى :

سورة الشعراء

3 - مقدمة السورة

هي مكية في قول الجمهور . وقال مقاتل : منها مدني ؛ الآية التي يذكر فيها الشعراء ، وقوله : ﴿ أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ [الشعراء : 197] . وقال ابن عباس وقتادة : مكية إلا أربع آيات منها نزلت بالمدينة من قوله : ﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴾ [الشعراء : 224] إلى آخرها . وهي مائتان وسبع وعشرون آية . وفي رواية : ست وعشرون . وعن ابن عباس قال النبي صلى الله عليه وسلم : "أعطيت السورة التي تذكر فيها البقرة من الذكر الأول وأعطيت طه وطسم من ألواح موسى وأعطيت فواتح القرآن وخواتيم سورة البقرة من تحت العرش وأعطيت المفصل نافلة" . وعن البراء بن عازب أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "إن الله أعطاني السبع الطوال مكان التوراة وأعطاني المبين مكان الإنجيل وأعطاني الطواسين مكان الزبور وفضلني بالحواميم والمفصل ما قرأهن نبي قبلي" . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 13 صـ 86 ﴾

(8/565)

وقال الآلوسى :

سورة الشعراء

62 - وفي تفسير الإمام مالك تسميتها بسورة الجامعة وقد جاء في رواية ابن مردويه عن ابن عباس وعبد الله ابن الزبير رضي الله تعالى عنهم إطلاق القول بمكيتها وأخرج النحاس عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنها نزلت بمكة سوى خمس آيات من آخرها نزلت بالمدينة والشعراء يتبعهم الغاوون الى أخرها وروي ذلك عن عطاء وقتادة وقال مقاتل : ألم يكن لهم آية الأية مدنية أيضا قال الطبرسي : وعدة آياتها مائتان وسبع وعشرون آية في الكوفي والشامي والمدني الأول ومائتان وست وعشرون في الباقي

ووجه اتصالها بما قبلها اشتمالها على بسط وتفصيل لبعض ما ذكر فيما قبل وفيها أيضا من تسليته صلى الله تعالى عليه وسلم ما فيها وقد افتتحت كلتا السورتين بما يفيد مدح القرآن الكريم وختمتا بإيعاد المكذبين به كما لا يخفى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 19 صـ 58 ﴾

(9/565)

" فصل "

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى . . طسم تلك الشعراء)

السّورة مكِّيَّة ، إلا آية واحدة : ﴿ وَالشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴾ إلى آخره .

عدد آياتها مائتان وسبع وعشرون فى عدّ الكوفىّ والشامىّ .

وست فى عدّ الباقين .

كلماتها أَلف ومائتان وسبع وسبعون .

وحروفها خمسة آلاف وخمْسمائة وثنتان وأَربعون : الآيات المختلف فيها أَربع طسم ﴿ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ ﴿ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴾ ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴾ .

مجموع فواصل آياتها (مِلْن) على اللام أَربع ، آخرهنّ إسرائيل وسميت سورة الشعراءِ لاختتامها بذكرهم فى قوله : ﴿ وَالشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴾ .

مقصود السّورة وجُلّ ما اشتملت عليه : ذكر القَسم ببيان آيات القرآن ، وتسلية الرّسول عن تأَخُّر المنكِرين عن الإيمان ، وذكر موسى وهارون ، ومناظرة فرعون الملعون ، وذكر السّحرة ، ومكرهم فى الابتداءِ ، وإيمانهم وانقيادهم فى الانتهاءِ ، وسَفَرِ موسى ببنى إسرائيل من مصر ، وطلب فرعون إيَّاهم ، وانفلاق البحر ، وإغراق القِبْط ، وذكر الجَلَل ، وذكر المناجاة ، ودعاءُ إبراهيم الخليل ، وذكر استغاثة الكفَّار من عذاب النيران ، وقصّة

نوح ، وذكر الطُّوفان ، وتعدّى عاد ، وذكر هود ، وذكر عقوبة ثمود ، وذكر قوم لوط ، وخُبْثهم ، وقصّة شُعيب ، وهلاك أَصحاب الأَيكة ، لعبثهم ، وتنزيل جبريل على النبىّ بالقرآن العربىّ ، وتفصيل حال الأُمم السّالفة الكثيرة ، وأَمر الرّسول صلَّى الله عليه وسلَّم بإِنذار العشيرة ، وتواضعه للمؤمنين ، وأَخلاقه اللَّينة ، وبيان غَوَاية شعراءِ الجاهلية ، وأَنَّ العذاب منقلَب الذين يظلمون فى قوله ﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُواْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ .

الناسخ والمنسوخ :

المنسوخ فى هذه السّورة آية واحدة : ﴿ وَالشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴾ العموم ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُواْ ﴾ ن الخصوص . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 344 .

345 ﴾

(10/565)

فصل فى متشابهات السورة الكريمة

قال ابن جماعة :

سورة الشعراء

311 - مسألة :

قوله تعالى : (وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ) وفى

الأنعام والأنبياء (مِنْ رَبِّهِمْ) و (فَسَيَأْتِيهِمْ) و (فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ) ؟ تقدم ذلك في الأنعام .

وأيضا : فتقدم قوله تعالى هنا : (لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ) ناسب

فسيأتيهم ، أي : لا تقتل نفسك فسيأتيهم أنباء ذلك .

312 – مسألة :

قوله تعالى : (أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا)الآية .

وفى الأنعام : ((أَلَمْ يَرَوْا) بحذف الواو ؟ .

جوابه :

أن ذلك بالواو أشد إنكارا ، فلما كان المرئى ثمة إهلاك من

قبلهم وهو أمر غائب غير مشاهد ، وكان المرئى هنا إحياء

الأرض وإنبات أصناف النبات والشجر ، وهو مرئي كل أوان مشاهد بالحس كان الإنكار

بترك الاعتبار هنا أشد ، فأتى بالواو الدالة على شدة الإنكار .

313 – مسألة :

قوله تعالى : (فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ (20) .

جوابه :

المراد : الضالين عن الصواب فيها لا الضلال في الدين .

314 - مسألة :

قوله تعالى : وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (58) وفى الدخان : (وَزُرُوعٍ) .

جوابه :

أن كلا الأمرين تركوه ، لأن مصر ذات زروع ، والكنوز ، قيل : ما كانوا يدخرونه من الأموال

، وقيل : هي كنوز في

جبل المقطم ، وفيه نظر . والله أعلم .

315 - مسألة :

قوله تعالى : (كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (59)

وفى الدخان : (وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ (28) .

جوابه :

أنه حيث قال : بنى إسرائيل " فلعله لما سكنوها بعد مدة طويلة من غرق فرعون ، وذلك

لما تهود ملك مصر ، وقيل : إن الضمير في " : أورثناها " راجع إلى النعم المذكورة ، أي :

أورثهم إياها في الشام لا في مصر . وحيث قال : (قَوْمًا آخَرِينَ) فهم قوم ملكوا مصر بعد

فرعون وقومه . هذا هو الجواب الظاهر ، فإنه لم ينقل قط أنهم بعد غرق فرعون رجعوا إلى مصر بل دخلوا في التيه ، ثم دخلوا الأرض المقدسة . وقيل : إنه لما بسط ذكر القصة هنا وسمى موسى وهارون عليهما السلام ناسب تعيين بنى إسرائيل وتسميتهم في وراثة مصر .

ولما اختصر القصة في الدخان ولم يسم موسى عليه السلام فيها بل قال تعالى : (جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ (13)

فأتى باسمه مبهما ، ناسب ذلك الإتيان بذكر بنى إسرائيل مبهما بقوله تعالى : (قَوْمًا آخَرِينَ) وهذا على رأى من يجعل الضمير

"لجنات " مصر وزروعها وكنوزها ، وفيه نظر كما تقدم (1) .

316 - مسألة :

قوله تعالى : إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (70)

وفى الصافات : (مَاذَا تَعْبُدُونَ) ؟ .

جوابه :

أن (مَاذَا) أبلغ في الاستفهام من (مَا) ، فقوله هنا :

(مَا تَعْبُدُونَ) له خارج مخرج الاستفهام عن حقيقة

معبودهم ، فلذلك أجابوه بقولهم : (نَعْبُدُ أَصْنَامًا)

وأما آية الصافات فهو استفهام توبيخ وتقريع بعد معرفته

لمعبودهم ولذلك تمم كلامه بما يدل على الإنكار عليهم ، فقال :

(أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ (86) الآيات ، ولذلك لم يجيبوه في آية الصافات لفهم قصد

الإنكار عليهم .

317 - مسألة :

قوله تعالى : (الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (78) كرر "هو" في : "يَهْدِينِ ، ويطعمنى ، ويسقين ،

ويشفين " ولم يكرره في : مرضت ، ويميتنى " ؟ .

جوابه :

من وجهين :

أحدهما سلوك الأدب في إضافته المحبوب

والنعمة إلى الله تعالى وسكوته عن المكروه من المرض والموت

وإضافته إلى نفسه .

(12/565)

والثاني : أن الإطعام والسقى والشفاء قد يضاف إلى الإنسان ،

فيقال : فلان يطعم فلانا ويسقيه ، فأراد أن الله هو الفعال

لذلك ، وأكد الحصر بقوله : هو .

318 - مسألة :

قوله تعالى في قصة نوح عليه السلام : (فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ) كرره دون سائر القصص في السورة ؟ .

جوابه :

لعله والله أعلم لطول مدة تبليغهم وأمرهم بالإيمان والتقوى ،

فقرر ذلك لذلك .

319 - مسألة :

قوله تعالى في قصة صالح عليه السلام : (مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا) وفى قصة شعيب عليه السلام : (وَمَا أَنْتَ)

بزيادة الواو .

جوابه :

أن قولهم لصالح (مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا) هو بدل من قولهم : (إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ)

فلم يغلظوا له ، ولا اقترحوا عليه آية

وقوم شعيب في خطابهم غلظ عليه وشطط ، واقتراح ما اشتهوه من الآيات ، فقولهم : (وما) جملة ثانية معطوفة على ما قبلها ، فعابوه بأنه من المسحرين ، وبأنه بشر مثلهم ، وأنه من الكاذبين ، واقترحوا الآية عليه ، فناسب كلام صالح أوله ، وأول كلام قوم شعيب وآخره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿كشف المعاني صـ 277.282 ﴾

(13/565)

وقال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

المتشابهات :

قوله : ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ ﴾ سبق فى الأَنبياءِ .

﴿ فَسَيَأْتِيهِم ﴾ سبق فى الأَنعام ، وكذا ﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ ﴾ وما تعلَّق بقصّة موسى وفرعون سبق فى الأَعراف .

قوله : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً ﴾ مذكور فى ثمانية مواضع : أَوّلها فى محمّد صلَّى الله عليه وسلَّم ، وإِن لم يتقدّم ذكرُه صريحاً ، فقد تقدّم كناية ووضوحاً ، والثانية فى قصّة موسى ، ثمَّ إبراهيم ، ثم نوح ، ثم هود ، ثم صالح ، ثم لوط ، ثم شُعيب .

(14/565)

قوله ﴿ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ إلى قوله : ﴿ العَالَمِيْنَ ﴾ مذكور فى خمسة مواضع : فى قصّة نوح ، وهود ، وصالح ، ولوط ، وشُعيب عليهم السّلام .

ثمّ كرّر ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ فى قصّة نوح ، وهود ، وصالح فصار ثمانية مواضع .

وليس فى ذكر النبىّ صلّى الله عليه وسلّم ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ ؛ لذكرها فى مواضع .

وليس فى قصّة موسى ؛ (لأنّه ربّاه فرعون حيث قال : ﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِيْنَا وَلِيْدًا ﴾ ولا فى قصة إبراهيم ، لأَن أَباه فى المخاطبين حيث يقول : ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيْهِ وَقَوْمِهِ ﴾ وهو ربّاه ، فاستحيا موسى) وابراهيم أَن يقولا : ما أَسألكم عليه من أَجر ، وإن كانا منزّهَيْن من طلب الأَجر .

قوله : فى قصّة إبراهيم : ﴿ مَا تَعْبُدُوْنَ ﴾ وفى الصافات ﴿ مَاذَا تَعْبُدُوْنَ ﴾ لأَنَّ (ما) لمجرّد الاستفهام ، فأَجابوا فقالوا : ﴿ نَعْبُدُ أَصْنَامًا ﴾ و (ماذا) فيه مبالغة ، وقد تضمّن فى الصّافّات معنى التوبيخ ، فلمّا وبّخهم ولم يجيبوا ، زاد فى التوبيخ فقال : ﴿ أَإِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ * فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ فجاءَ فى كلّ سورة ما اقتضاه ما قبله وما بعده .

قوله : ﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ

يَشْفِينِ ﴾ زاد (هو) فى الإِطعام ، والشِّفاءِ ؛ لأَنهما ممَّا يدَّعى الإِنسان ، فيقال : زيد يُطعم ، وعمرو يداوى .

فأَكد ؛ إِعلاماً لأَنَّ ذلك منه سبحانه وتعالى لا من غيره .

وأَمَّا الخَلْق والموت ، والحياة ، فلا يدَّعيها مدّع ، فأَطلق .

قوله فى قصّة صالح : ﴿ مَا أَنتَ ﴾ بغير واو ، وفى قصّة شعيب : ﴿ وَمَا أَنتَ ﴾ لأَنَّه فى قصّة صالح بَدَل من الأَول ، وفى الثانية عطف ، وخُصَّت الأُولى بالبدل ؛ لأَنَّ صالحاً قلَّل فى الخطاب ، (فقللوا فى الجواب) وأَكثر شعيب فى الخطاب ، فأَكثروا فى الجواب . هـ

﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 345. 347 ﴾

(15/565)

وقال العلامة الكَرْمانى رحمه الله :

سورة الشعراء

348 - قوله تعالى وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث 5 سبق في الأنبياء

349 - قوله فسيأتهم 6 سبق في الأنعام وكذا أو لم يروا 7 وما يتعلق بقصة موسى وفرعون سبق الأعراف في

350 - قوله إن في ذلك لآية 8 إلى آخر الآية مذكور في ثمانية مواضع أولها في محمد صلى الله عليه و سلم وإن لم يتقدم ذكره صريحا فقد تقدم كناية ووضوحا والثانية في قصة موسى 67 ثم إبراهيم 103 ثم نوح 121 ثم هود ثم 139 ثم صالح 158 ثم لوط 174 ثم شعيب 190 عليهم السلام

351 - قوله ألا تتقون إلى قوله العالمين مذكور في خمسة مواضع في قصة نوح 106 109 وهود 124 127 وصالح 142 45 ولوط 161 164 وشعيب 177 180 عليهم السلام ثم كرر فاتقوا الله وأطيعون في قصة نوح 110 وهود 131 وصالح 50 فصار ثمانية مواضع وليس في قصة النبي ص - عليه السلام لأنه رباه فرعون حيث قال ألم نربك فينا وليدا 18 ولا في قصة إبراهيم عليه السلام لأن أباه في المخاطبين حيث يقول إذ قال لأبيه وقومه 70 وهو رباه واستحيا موسى وإبراهيم أن يقولا ما أسألكم عليه من أجر وإن كانا منزهين من طلب الأجرة

(16/565)

---

352 - قوله تعالى في قصة إبراهيم ما تعبدون 70 وفي الصافات ماذا تعبدون 85 لأن ما لمجرد الاستفهام فأجابوا فقالوا نعبد أصناما 71 وماذا فيه مبالغة وقد تضمن في

الصافات معنى التوبيخ فلما وبخهم قال أئفكا آلهة دون الله تريدون فما ظنكم برب العالمين 86 87 فجاء في كل سورة ما اقتضاه ما قبله وما بعده

353 - قوله الذي خلقني فهو يهدين والذي هو يطعمني ويسقين وإذا مرضت فهو يشفين 87 80 زاد هو في الإطعام والشفاء لأنهما مما يدعي الإنسان أن يفعله فيقال زيد يطعم وعمرو يداوي فأكد إعلاما أن ذلك منه سبحانه لا من غيره وأما الخلق والموت والحياة فلا يدعيهما مدع فأطلق

354 - قوله في قصة صالح ما أنت 154 بغير واو وفي قصة شعيب وما أنت 186 لأنه في قصة صالح بدل من الأولى وفي الثانية عطف وخصت أولى بالبدل في الخطاب فأكثروا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أسرار التكرار فى القرآن صـ 154 . 155﴾

(17/565)

فصل فى التعريف بالسورة الكريمة

قال الشيخ محمد أبو زهرة :

سورة الشعراء

تمهيد

هى سورة مكية نزلت بمكة إلا آية 195 ، وآية 221 ، وعدد آياتها 227 ، وسميت الشعراء ؟ لأن فى آخرها قوله تعالى : (وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (224) .

وسورة الشعراء أكثرها خصص للنبيين ، والعبرة فيهم .

ابتدأت السورة بالحروف المتقطعة التى لا يعلمها إلا الله ، ثم ذكرت حرص النبى (صلى الله عليه وسلم) على إيمان المشركين من قريش (لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين)وإن الله تعالى خالقهم قدر لهم ما لهم ، فلن تغير (إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ (4) ، وقد وصف سبحانه وتعالى حالهم فقال : (وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ (5) فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (6) ،

وقد نبههم سبحانه إلى انهم كذبوا والآيات تخبرهم بإبداع الخالق ووحدانيته (أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (7) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (8) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (9) .

(18/565)

وقد ذكرهم سبحانه بالذين كانوا أقوى منهم سلطانا ، وابتدأ بذكر فرعون ، ويلاحظ هنا أنه سبحانه لم يكرر ما ذكر فى خبر هذا الموضع من أنباء موسى وفرعون ، إلا ما يقتضيه السياق عما ذكر فى غيره ، فهنا ذكر ما كان بين فرعون وموسى فى مرباه فى بيته ، ولم يذكر من قبل (وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (10) قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ (11) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (12) وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ (13) وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (14) قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ (15) فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (16) أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (17) .

هنا يبتدئ ذكر تربية موسى ، ولم يذكر من قبل : (قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (18) وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (19) ،

هنا يعترف الرسول بفعلته ، (قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ (20) فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ (21) وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (22) ،

أخذ فرعون يسأل عن رب العالمين (قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (23) قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (24) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ (25) ، فأجاب موسى (رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (26)

هنا يرميه بالجنون كما قالت قريش ولكن موسى يصر على التعريف بربه فيقول : (قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (28)

وعند ذلك يهدد فرعون موسى بسجنه إن اتخذ إلها غيره (قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (29) قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ (30) قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (31) فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ (32) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (33)

بهره الأمر ، ولكنه لم يذعن ، وظن أنه سحر ، وقال (إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (34) ،

ولم يكن غريبا ذلك ، لأن السحرة كانوا علماءهم ، والتفت إلى أصحابه والملأ حوله ، (قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (36) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ (37) فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (38) وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ (39)

وكأنه كان يتردد فى جمع الناس ، حتى لا يؤثر فيهم ما يأتى به موسي ، اجتمعوا والسحرة وطلب السحرة أجرا على ما يفعلون إن كانوا هم الغالبين فوعدهم بالأجر ، وأكثر من الأجر ، وهو أن يكونوا من المقربين إليه ، لكن السحرة ، خيبوا ظنه ، وآمنوا برب موسى

وهارون ، فقال : (قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (49) قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ (50) .

احتدم الخلاف ، موسى يدعو إلى ربه ، وفرعون يعذب ، فأوحى الله

(20/565)

تعالي : (أن أسر بعبادي إنكم متبعون) ، وأرسل فرعون يستنصر بقومه الذين لم يعاينوا خذلانه ، وشهادة السحرة عليه (إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (54) وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ (55) وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ (56)

(فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (61) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (62)

وأوحى الله تعالى إلى موسى (أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (63) ،

وأنجى الله موسى وبنى إسرائيل ، وأغرق الآخرين .

بعد هذه الأحزاء من قصة موسى وفرعون ، والمتأمل فيها يجد أنها ليست مكررة إلا بما

يقتضى المقام ذكره ، وما يذكر يجد المتأمل فيه نوع اختلاف وتوجيه ، لم يذكر فى غير هذا الموضع ، وكل كلام الله تعالى له حلاوة ، وعليه طلاوة .

وجاء من بعد ذلك قصص أبى الأنبياء إبراهيم ، وفيه يبتدئ إبراهيم باستنكار عبادة الأوثان ، ويبين لقومه أنها لا تصلح أن تكون معبودا ، لأنها لا تسمع ولا تنفع ولا تضر : (هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون)

ويردون قوله بأنهم وجدوا آباءهم يفعلون ، فينذر بهم إبراهيم ويقول إنهم عدو لى إلا رب العالمين ، ويصف ربه تعالى ، وأفعاله فيقول : (الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (78) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (79) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (80) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (81) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (82) .

(21/565)

ويتجه من بعد إلى ربه يدعوه (رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (83) وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ (84) وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ (85) وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ (86) وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ (87) يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (88) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (89) وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ (90) وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ (91)

ثم بين سبحانه وتعالى ما يكون يوم القيامة عندما يلتقى الكافرون وما يعبدون من دون الله :

(هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ (93) فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ (94) وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ (95) قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ (96) تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (97) إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (98) وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ (99) فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ (100) وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ (101) فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (102) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (103) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (104) .

بعد ذلك أشار إلى قصص نوح وقومه : (إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (106) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (107) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (108) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (109) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (110) ،

(22/565)

وقد اتبعه الضعفاء فقالوا : (أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ (111) قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (112) إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ (113) وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ (114) إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (115) قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ (116) قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ (117) فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ

(118) فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (119) ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ (120) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (121) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (122) .

ثم أشار سبحانه إلى عاد ورسولهم هود ، وقد دعاهم كما دعا نوح ، وكذبوه كما كذب قوم نوح ، فقال لهم : (وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ (132) أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ (133) وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (134) إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (135) ،

قالوا ملحين فى الكفر ، (سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ (136) إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ (137) وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (138) .

(23/565)

ولقد ذكر سبحانه وتعالى بعد ذلك قصة ثمود ونبيهم صالح ، (إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (142) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (143) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (144) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (145) أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ (146) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (147) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ (148) وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ (149) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (150) وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (151) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (152) قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (153) مَا

أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (154) قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (155) وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ (156) فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ (157) فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (158) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (159) .

ثم يذكر سبحانه مشيرا إلى قصة نبى الله لوط ، وقومه الفاسقين فقد نصحهم وأرشدهم إلى عيبهم الفاسق الفاجر ، (أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (165) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ (166) ،

(24/565)

وقد لجوا فى طغيانهم يعمهون (قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ (167) قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ (168) رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ (169) فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (170) إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ (171) ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ (172) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ (173) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (174) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (175) .

ولقد ذكر بعد ذلك قصة شعيب عليه السلام مع أصحاب الأيكة قال لهم شعيب (إِنِّي

لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (178) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (179) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ
أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (180) أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ (181) وَزِنُوا
بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ (182) وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ
(183) وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ (184) قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ
(185) وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (186) فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ
السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (187) قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (188) فَكَذَّبُوهُ
فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (189) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ
أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (190) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (191) .

(25/565)

وبعد هذا البيان القصصى الذى فيه عبرة ببيان احوال من سبقوهم من أهل الكفر وتشابه أقوالهم ، ذكر سبحانه القرآن الحجة الكبرى ، والمعجزة الخالدة المستمر إعجازها فقال : (وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (192) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (193) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ
الْمُنْذِرِينَ (194) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ (195) وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ (196) أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ
آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ (197) وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ (198) فَقَرَأَهُ

عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ (199) كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (200) لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (201) ،

ثم بين سبحانه أن العذاب يجيئهم من حيث لا يشعرون ، (فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ (203)

، ثم يذكر سبحانه أنهم كانوا يستعجلون عذاب الله ، فيقول سبحانه وتعالي : (أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ (205) ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ (206) مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ (207) .

وقد بين الله سبحانه وتعالى أنه ما أهلك قرية إلا بعد إنذارها فقال : (وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ (208) ذِكْرَى وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ (209) وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ (210) وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ (211) إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ (212) .

(26/565)

ويدعو الله تعالى نبيه ومن معه ، ومن أرسل إليهم ، فيقول : (فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ (213) وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (214) وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (215) فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ (216) وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ

الرَّحِيمِ (217) الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (218) وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ (219) إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (220) .

وبين سبحانه وتعالى من تنزل عليه الشياطين ، (تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (222) يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ (223)

وبين بعد ذلك أنه بمنأى عن الشعر والشعراء ، فقال : (وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (224) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (225) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ (226) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ (227) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زهرة التفاسير صـ 5328 . 5333 ﴾

(27/565)

وقال ابن عاشور :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الشعراء

اشتهرت عند السلف بسورة الشعراء لأنها تفردت من بين سور القرآن بذكر كلمة الشعراء .

وكذلك جاءت تسميتها في كتب السنة .

وتسمى أيضا سورة طسم .

وفي " أحكام ابن العربي " أنها تسمى أيضا الجامعة ، ونسبه أبن كثير والسيوطي في الإتقان إلى تفسير مالك المروي عنه1 .

ولم يظهر وجه وصفها بهذا الوصف .

ولعلها أول سورة جمعت ذكر الرسل أصحاب الشرائع المعلومة إلى الرسالة المحمدية .

وهي مكية ، فقيل جميعها مكي ، وهو المروي عن ابن الزبير .

ورواية عن ابن عباس ونسبه ابن عطية إلى الجمهور .

وروي عن ابن عباس أن قوله تعالى ﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴾ [الشعراء : 224] إلى آخر السورة نزل بالمدينة لذكر شعراء رسول الله صلى الله عليه وسلم حسان بن ثابت وابن رواحة وكعب بن مالك وهم المعني بقوله ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ [الشعراء : 227] الآية .

ولعل هذه الآية هي التي أقدمت هؤلاء على القول بأن تلك الآيات مدنية .

وعن الداني قال : نزلت ﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴾ [الشعراء : 224] في شاعرين تهاجيا في الجاهلية .

وأقول : كان شعراء بمكة يهجون النبي صلى الله عليه وسلم منهم النضر بن الحارث ،

والعوراء بنت حرب زوج أبي لهب ونحوهما ، وهم المراد بآيات ﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴾ .

وكان شعراء المدينة قد أسلموا قبل الهجرة وكان في مكة شعراء مسلمون من الذين هاجروا إلى الحبشة كما سيأتي .

وعن مقاتل : أن قوله تعالى ﴿ أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾

---

1 تفسير مالك بن أنس, ذكره عياض في " المدارك " والداودي في " طبقات المفسرين " .

(28/565)

[الشعراء : 197] نزل بالمدينة .

وكان الذي دعاه إلى ذلك أن مخالطة علماء بني إسرائيل كانت بعد الهجرة .

ولا يخفى أن الحجة لا تتوقف على وقوع مخالطة علماء بني إسرائيل ؛ فقد ذكر القرآن مثل هذه الحجة في آيات نزلت بمكة ، من ذلك قوله ﴿ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾ في [سورة الرعد : 43] وهي مكية ، وقوله ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴾ في [سورة القصص : 52] وهي مكية ، وقوله

﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ في [سورة العنكبوت : 47] وهي مكية .

وشأن علماء بني إسرائيل مشهور بمكة وكان لأهل مكة صلات مع اليهود بالمدينة ومراجعة بينهم في شأن بعثة محمد صلى الله عليه وسلم كما تقدم عند قوله تعالى ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ﴾ في [سورة الإسراء : 85] ، ولذا فالذي نوقن به أن السورة كلها مكية .

وهي السورة السابعة والأربعون في عداد نزول السور نزلت بعد سورة الواقعة وقبل سورة النمل .

وسيأتي في تفسير قوله تعالى ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ ما يقتضي أن تلك الآية نزلت قبل نزول سورة أبي لهب وتعرضنا لإمكان الجمع بين الأقوال .

وقد جعل أهل المدينة وأهل مكة وأهل البصرة عدد آيها مائتين وستا وعشرين ، وجعله أهل الشام وأهل الكوفة مائتين وسبعا وعشرين .

الأغراض التي اشتملت عليها

أولها التنويه بالقرآن ، والتعريض بعجزهم عن معارضته ، وتسلية النبي صلى الله عليه وسلم على ما يلاقيه من إعراض قومه عن التوحيد الذي دعاهم إليه القرآن .

وفي ضمنه تهديدهم على تعرضهم لغضب الله تعالى ، وضرب المثل لهم بما حل بالأمم المكذبة رسلها والمعرضة عن آيات الله .

(29/565)

وأحسب أنها نزلت إثر طلب المشركين أن يأتيهم الرسول بخوارق ، فافتتحت بتسلية النبي صلى الله عليه وسلم وتثبيت له ورباطة لجأشه بأن ما يلاقيه من قومه هو سنة الرسل من قبله مع أقوامهم مثل موسى وإبراهيم ونوح وهود وصالح ولوط وشعيب ؛ ولذلك ختم كل استدلال جيء به على المشركين المكذبين بتذييل واحد هو قوله ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ [الشعراء : 190 - 191] تسجيلا عليهم بأن آيات الوحدانية وصدق الرسل عديدة كافية لمن يتطلب الحق ولكن أكثر المشركين لا يؤمنون وأن الله عزيز قادر على أن ينزل بهم العذاب وأنه رحيم برسله فناصرهم على أعدائهم .

(30/565)

قال في " الكشاف " : كل قصة من القصص المذكورة في هذه السورة كتنزيل برأسه .

وفيها من الاعتبار ما في غيرها فكانت كل واحدة منها تدلي بحق في أن تختم بما اختتمت به

صاحبتها ، ولأن في التكرير تقريرا للمعاني في الأنفس وكلما زاد ترديده كان أمكن له في القلب وأرسخ في الفهم وأبعد من النسيان ، ولأن هذه القصص طرقت بها إذان وقرت عن الإنصات للحق فكوثرت بالوعظ والتذكير وروجعت بالترديد والتكرير لعل ذلك يفتح أذنا أو يفتق ذهنا اهـ .

ثم التنويه بالقرآن ، وشهادة أهل الكتاب له ، والرد على مطاعنهم في القرآن وجعله عضين ، وأنه منزه عن أن يكون شعرا ومن أقوال الشياطين ، وأمر الرسول صلى الله عليه وسلم بإنذار عشيرته ، وأن الرسول ما عليه إلا البلاغ ، وما تخلل ذلك من دلائل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 19 صـ 106 . 108 ﴾

(31/565)

وقال الشيخ سيد قطب :

سورة الشعراء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الوحدة الأولى : الموضوع : إثبات النبوة وثبات موقف الكفار منها مقدمة سورة الشعراء

موضوع هذه السورة الرئيسي هو موضوع السور المكية جميعا . . العقيدة . . ملخصة في

عناصرها الأساسية: توحيد الله: (فلا تدع مع الله إلها آخر فتكون من المعذبين) . .

والخوف من الآخرة: (ولا تخزني يوم يبعثون يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم) . . والتصديق بالوحي المنزل على محمد رسول الله (صلى الله عليه وسلم): (وإنه لتنزيل رب العالمين ; نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين) . . ثم التخويف من عاقبة التكذيب , إما بعذاب الدنيا الذي يدمر المكذبين ; وإما بعذاب الآخرة الذي ينتظر الكافرين: (فقد كذبوا فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزؤون !) . . (وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون) .

ذلك إلى تسلية الرسول (صلى الله عليه وسلم) وتعزيته عن تكذيب المشركين له وللقرآن: (لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين) وإلى طمأنة قلوب المؤمنين وتصبيرهم على ما يلقون من عنت المشركين ; وتثبيتهم على العقيدة مهما أوذوا في سبيلها من الظالمين ; كما ثبت من قبلهم من المؤمنين .

وجسم السورة هو القصص الذي يشغل ثمانين ومائة آية من مجموع آيات السورة كلها . والسورة هي هذا القصص مع مقدمة وتعقيب . والقصص والمقدمة والتعقيب تؤلف وحدة متكاملة متجانسة , تعبر عن موضوع السورة وتبرزه في أساليب متنوعة , تلتقي عند هدف واحد . . ومن ثم تعرض من كل قصة الحلقة أو الحلقات التي تؤدي هذه الأغراض .

ويغلب على القصص كما يغلب على السورة كلها جو الإنذار والتكذيب , والعذاب الذي يتبع التكذيب . ذلك أن السورة تواجه تكذيب مشركي قريش لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) واستهزاءهم بالنذر , وإعراضهم عن آيات الله , واستعجالهم بالعذاب الذي يوعدهم به ; مع التقول على الوحي والقرآن ; والادعاء بأنه سحر أو شعر تتنزل به الشياطين !

(32/565)

والسورة كلها شوط واحد - مقدمتها وقصصها وتعقيبها - في هذا المضمار . لذلك نقسمها إلى فقرات أو جولات بحسب ترتيبها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 5 صـ 2584.2583 ﴾

(33/565)

وقال الشيخ الصابونى :

سورة الشعراء

مكية وآياتها سبع وعشرون ومائتان آيه

بين يدي السورة

* سورة الشعراء قد عالجت أصول الدين من (التوحيد ، والرسالة ، والبعث) شأنها شأن سائر السور المكية ، التي تهتم بجانب العقيدة وأصول الإيمان .

* ابتدأت السورة الكريمة بموضوع القرآن العظيم ، الذي أنزله الله هداية للخلق ، وبلسما شافيا لأمراض الإنسانية ، وذكرت موقف المشركين منه ، فقد كذبوا به مع وضوح آياته ، وسطوع براهينه ، وطلبوا معجزة أخرى غير القرآن الكريم عنادا واستكبارا [إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين . .] الآيات

* ثم تحدثت السورة عن طائفة من الرسل الكرام ، الذين بعثهم الله لهداية البشرية ، فبدأت بقصة الكليم (موسى) مع فرعون الطاغية الجبار ، وما جرى من المحاورة والمداورة بينهما في شأن الإله جل وعلا ، وما أيد الله به موسى من الحجة الدامغة التي تقصم ظهر الباطل ، وقد ذكرت في القصة حلقات جديدة ، إنتهت ببيان العظة والعبرة من الفارق الهائل ، بين الإيمان والطغيان [وإذ نادى ربك موسى أن ائت القوم الظالمين قوم فرعون الظالمين] ؟ الآيات .

* ثم تناولت قصة الخليل (إبراهيم) عليه السلام ، وموقفه من قومه وأبيه في عبادتهم للأوثان والأصنام ، وقد أظهر لهم بقوة حجته ، ونصاعة بيانه ، بطلان ما هم عليه من

عبادة ما لا يسمع ولا ينفع ، وأقام لهم الأدلة القاطعة على وحدانية رب العالمين ، الذي بيده النفع والضر ، والإحياء والإماتة [وأتل عليهم نبأ إبراهيم . إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون] ؟الآيات .

* ثم تحدثت السورة عن المتقين والغاوين ، والسعداء والأشقياء ، ومصير كل من الفريقين يوم الدين [وأزلفت الجنة للمتقين وبرزت الجحيم للغاوين . .] الآيات .

(34/565)

---

* وبعد أن تابعت السورة في ذكر قصص الأنبياء (نوح ، وهود ، وصالح ، ولوط ، وشعيب) عليهم الصلاة والسلام ، وبينت سنة الله في معاملة المكذبين لرسله ، عادت للتنويه بشأن الكتاب العزيز ، تفخيما لشأنه ، وبيانا لمصدره [وإنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين ، على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين] .

* ثم ختمت السورة بالرد على افتراء المشركين ، في زعمهم أن القرآن من تنزل الشياطين ، [وما تنزلت به الشياطين وما ينبغي لهم وما يستطيعون إنهم عن السمع لمعزولون] ليتناسق البدء مع الختام ، في أروع تناسق وإلتئام ! التسميه : سميت (سورة الشعراء) لأن الله تعالى ذكر فيها أخبار الشعراء ، وذلك للرد على المشركين في زعمهم أن محمدا كان شاعرا ، وأن

ما جاء به من قبيل الشعر ، فرد الله عليهم ذلك الكذب والبهتان بقوله سبحانه : [والشعراء يتبعهم الغاوون ألم تر أنهم في كل واد يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون] ؟ وبذلك ظهر الحق وبان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 2 صـ 373.374 ﴾

(35/565)

فصل فى معانى السورة كاملة

قال الشيخ المراغى رحمه الله :

سورة الشعراء

لعل : هنا للاستفهام الذي يراد به الإنكار ، وقال العسكري : إنها للنهى ، وباخع نفسك : أي مهلكها من شدة الحزن ، قال ذو الرمة :

ألا أيها الباخع الوجد نفسه لشىء تحته عن يديه المقادر

وأصل البخع : أن تبلغ بالذّبح البخاع (بكسر الباء) وهو عرق مستبطن فقار الرقبة ، وذلك يكون من المبالغة فى الذبح ، والأعناق : الجماعات ، يقال جاءت عنق الناس : أي جماعة منهم ، وذكر : أي موعظة ، والمراد بالأنباء ما سيحل بهم من العذاب ، وزوج : أي صنف ، والكريم من كل شىء : المرضىّ المحمود منه

مبين : أي ظاهر أنه ثعبان بلا تمويه ولا تخييل كما يفعل السحرة ، الملأ :

أشراف القوم ، عليم : أي خبير بفن السحر حاذق فى تلك الصنعة ، فماذا تأمرون ؟

أي فبم تشيرون ، أرجه وأخاه : أي أخر أمرهما ولا تباغتهما بالقتل خيفة الفتنة ، حاشرين

: أي اجعل رجال الشرطة يحشرون السحرة

الميقات : ما وقت به أي حدد من مكان وزمان ومنه مواقيت الإحرام ، واليوم المعلوم : هو

يوم الزينة الذي حدده موسى فى قوله موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس

ضحى ، وعزة فرعون : أي قوته التي يمتنع بها من الضيم ، تلقف : أي تبتلع بسرعة ،

يأفكون : أي يقلبونه عن وجهه وحقيقته بكيدهم وسحرهم ، من خلاف : أي بقطع

الأيادى اليمنى والأرجل اليسرى ، لا ضير : أي لا ضرر علينا فيما ذكرت ، منقلبون :

أي راجعون .

(36/565)

أسرى : سار ليلا ، متبعون : أي يتبعكم فرعون وجنوده ، والشرذمة : الطائفة القليلة من

الناس ، غائظون : أي فاعلون ما يغيظنا ويغضبنا ، حاذرون : أي من دأبنا الحذر

واستعمال الحزم فى الأمور ، كنوز : أي أموال كنزوها وخزنوها فى باطن الأرض ، ومقام

كريم : أي قصور عالية ودور فخمة ، أورثناها : أي ملكناها لهم تمليك الميراث ، مشرقين : أي داخلين فى وقت الشروق ، تراءى الجمعان : أي تقاربا بحيث رأى كل منهما الآخر ، لمدركون : أي سيدركوننا ويلحقون بنا ، كلا : أي لن يدركوكم ، انفلق : انشق ، الفرق : الجزء المنفرق منه ، والطود : الجبل ، وأزلفنا :

أي قرّبنا . وثمّ : أي هناك ، لآية : أي لعظة وعبرة توجب الإيمان بموسى .

الحكم : هو العلم بالخير والعمل به ، واللحوق بالصالحين يراد به التوفيق للأعمال التي توصل إلى الانتظام فى زمرة الكاملين المنزهين عن كبائر الذنوب وصغائرها ، لسان صدق : أي ذكرا جميلا بين الناس بتوفيقى إلى الطريق الحسنة حتى يقتدى بي الناس من بعدي ، وهذا هو الحياة الثانية كما قال : قد مات قوم وهم فى الناس أحياء ، من ورثة جنة النعيم : أي من الذين يتمتعون بالجنة وسعادتها فيكون ذلك غنيمة لهم كما يتمتع الناس بالميراث فى الدنيا ، والخزي : الهوان ، والقلب السليم : هو البعيد عن الكفر والنفاق وسائر الأخلاق الذميمة .

أزلفت : أي قرّبت ، برزت : أي جعلت بارزة لهم بحيث يرون أهوالها ، والغاوين : الضالين عن طريق الحق ، فكبكبوا : أي ألقوا على وجوههم مرة بعد أخرى من قولهم كبّه على وجهه : أي ألقاه ، يختصمون : أي يخاصمون من معهم من الأصنام والشياطين ، نسويكم :

أي نجعلكم مساوين له فى استحقاق العبادة ، والصديق :

هو الصادق فى وده ، والحميم : هو الذي يهمه ما أهمك ، والكرة : الرجعة .

(37/565)

القوم : اسم لا واحد له من لفظه كرهط ونفر يذكّر ويؤنث ، أخوهم : أي أخوّة نسب ، كما يقال يا أخا العرب ويا أخاتيم ، يريدون يا من هو واحد منهم قال الحماسى :

لا يسألون أخاهم حين يندبهم فى النائبات على ما قال برهانا

الأرذلون : واحدهم أرذل ، والرذالة : الخسة والدناءة ، وقد استرذلوهم لا تضاع نسبهم وقلة حظوظهم من الدنيا ، من المرجومين : أي من المقتولين رميا بالحجارة ،

فافتح : أي احكم من الفتاحة بمعنى الحكومة ، والفلك : يستعمل واحدا وجمعا ،

المشحون : أي المملوء

عاد : اسم أبى القبيلة الأكبر ، ويعبر عن القبيلة إذا كانت عظيمة باسم الأب أو بينى فلان أو آل فلان ، والريع (بالفتح والكسر) المكان المرتفع ، ويقال كم ريع أرضك أي ارتفاعها ، آية : أي قصرا مشيدا عاليا ، تعبثون : أي تفعلون العبث ، وما لا فائدة فيه ، مصانع : أي قصورا مشيدة وحصونا منيعة ، ولعل هنا معناها التشبيه أي كأنكم تخلدون ، والبطش :

الأخذ بالعنف ، والجبار : المتسلط العاتي بلا رأفة ولا شفقة ، أمدكم : أي سخر لكم ، والوعظ : كلام يلين القلب بذكر الوعد والوعيد ، خلق الأولين : أي عادتهم التي كانوا بها يدينون ، ونحن بهم مقتدون : نموت ونحيا بلا حساب ولا بعث .

الطلع : أول ما يطلع من الثمر وبعده يسمى خلالا ثم بلحا ثم بسرا ثم رطبا ثم تمرا ، والهضيم : هو النضيج الرّخص اللين اللطيف ، والنحت : النجر والبرى ،

والنّحاتة : البراية ، والمنحت : ما ينحت به ، والفره : النشاط وشدة الفرح ، من المسحّرين : أي الذين سحروا حتى ذهبت عقولهم ، الشرب : (بالكسر) النصيب والحظ ، فعقروها : أي رموها بسهم ثم قتلوها .

أخوهم : أي فى البلد والسكنى ، لا فى الدين ولا فى النسب ، لأنه ابن أخى إبراهيم وهما من أرض بابل ، والذكران : واحدهم ذكر ضد الأنثى من كل حيوان ، عادون :

(38/565)

أي متعدون الحدود التي رسمها العقل والشرع ، من المخرجين : أي ممن نخرجهم من أرضنا وننفيهم من قريتنا ، من القالين : أي المبغضين لفعلكم ، والقلى : البغض الشديد كأنه يقلى الفؤاد ، يقال قليته أقليه قلى وقلاء ، الغابرين : أي الباقين فهى لم تخرج مع

لوط ومن مضى معه .

الأيكة : غيضة كثيرة الشجر قرب مدين بعث اللّه إلى أهلها شعيبا كما بعثه إلى أهل مدين ولم يكن منهم نسبا ، من المخسرين : أي المطففين الآخذين من الناس أكثر ممّا لكم ، والقسطاس : الميزان ، والمستقيم : أي العدل ، ولا تعثوا : أي لا تفسدوا ، والجبلة : بكسر الجيم والباء وتشديد اللام ، وبضمهما وتشديد اللام : الخلقة والطبيعة ، ويقال جبل فلان على كذا : أي خلق ، والمراد أنهم كانوا على خلقة عظيمة ، كسفا : واحدها كسفة كقطعة (وزنا ومعنى) والظلة : السحابة التي استظلوا بها .

الروح الأمين : هو جبريل عليه السلام ، ووصف بالأمين ، لأنه أمين وحيه تعالى وموصله إلى من شاء من عباده ، على قلبك : أي على روحك ، لأنه المدرك والمكلّف دون الجسد ، والزبر : الكتب ، واحدها زبرة كصحف وصفحة ، والآية : الدليل والبرهان ، والأعجمين : واحدهم أعجمى ، وهو من لا يقدر على التكلم بالعربية ، سلكناه : أي أدخلناه ، والمجرمين : مشركى قريش ، بغتة : فجأة ، منظرون : أي مؤخرون ، ذكرى : أي تذكرة وعبرة لغيرهم ، وما ينبغى لهم : أي ما يتيسر ولا يتسنى لهم ، وما يستطيعون : أي ما يقدرون على ذلك ، لمعزولون : أي لممنوعون بالشهب بعد أن كانوا ممكّنين .

أنبئكم : أي أخبركم : والأفاك : كثير الإفك والكذب ، والأثيم : كثير الذنوب والفجور ،

يلقون السمع : أي يصغون أشد الإصغاء إلى الشياطين فيتلقون منهم ما يتلقون مما أكثره الكذب ، والغاوون : الضالون المائلون عن السنن القويم .

(39/565)

والوادي : الشّعب ، يهيمون : أي يسيرون سير البهائم حائرين لا يهتدون إلى شيء ، والمنقلب : المرجع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المراغى حـ 19 صـ 112.45 ﴾ . باختصار .

(40/565)

وقال الإمام أبو جعفر النحاس :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

سورة الشعراء

وهي مكية 1 - من ذلك قوله جل وعز طسم آية 1 روى معمر عن قتادة قال طسم اسم 2 - وقوله جل وعز تلك آيات الكتاب المبين آية 2 لأن القرآن مذكور في التوراة والإنجيل

فالمعنى هذه تلك آيات الكتاب

وقيل تلك بمعنى هذه 3 – وقوله جل وعز لعلك باخع نفسك آية 3

قال مجاهد وقتادة أي قاتل وقال الضحاك أي قاتل نفسك عليهم حرصا قال أبو عبيدة

باخع أي مهلك قال أبو جعفر وأصل هذا من بخعه عبد أي أذله والمعنى لعلك قاتل نفسك

لتركهم الإيمان 4 – وقوله جل وعز إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية آية 4 أي لو شئنا

لاضطررناهم عليه إلى الطاعة بأن نهلك كل من عصى 5 – ثم قال جل وعز فظلت

أعناقهم لها خاضعين آية 4 في هذا أقوال قال مجاهد أعناقهم كبراؤهم

وقال أبو زيد والأخفش أعناقهم جماعاتهم يقال جاءني عنق من الناس أي جماعة وقال

عيسى بن عمر خاضعين وخاضعة ههنا واحد والكسائي يذهب إلى أن المعنى

خاضعيها قال أبو جعفر قول مجاهد أعناقهم كبراؤهم

معروف في اللغة يقال جاءني عنق من الناس أي رؤساؤهم وكذل يقال جاءني عنق من

الناس أي جماعة ولهذا يقال على فلان عتق رقبة ولا يقال عتق عنق لما يقع فيه من

الاشتراك وقول عيسى بن عمر أحسن هذه الأقوال وهو اختيار أبي العباس

والمعنى على قوله فظلوا لها خاضعين فأخبر عن المضاف إليه وجاء بالمضاف مقحما

توكيدا كما قال الشاعر رأت مر السنين أخذن مني كما أخذ السرار من الهلال وكما قال

الشاعر وتشرق بالقول الذي قد أذعته كما شرقت صدر القناة من الدم قال أبو العباس

ومثله سقطت بعض أصابعه قال ومثله يا تيم تيم عدي لا أبا لكم لا يلقينكم أبي في سوءة عمر فجاء بتيم الأول مقحما توكيدا

وأما قول الكسائي فخطأ عند البصريين والفراء ومثل هذا الحذف لا يقع في شئ من الكلام

65 - وقوله جل وعز أولم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل

(41/565)

زوج كريم آية 7 قال مجاهد من نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام وروي عن الشعبي أنه قال الناس من نبات الأرض فمن صار منهم إلى الجنة فهو كريم ومن صار إلى النار فهو لئيم والمعنى على قول مجاهد من كل جنس نافع حسن 7 - ثم قال جل وعز إن في ذلك لآية آية 8 أي لدلالة على الله جل وعز وأنه ليس كمثله شئ ثم قال وما كان أكثرهم مؤمنين أي قد علم الله أنهم لا يؤمنون كما قال سبحانه لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد

8 - وقوله جل وعز وإذ نادى ربك موسى أن ائت القوم الظالمين آية 11 أي واتل عليهم هذا وبعده واتل عليهم نبأ إبراهيم 9 - وقوله جل وعز قال رب إني أخاف أن يكذبون ويضيق صدري ولا ينطلق لساني آية 12 قرأ الأعرج وطلحة وعيسى ويضيق صدري ولا ينطلق لساني والقراءة الأولى أحسن لأن انطلاق اللسان ليس مما يدخل في الخوف لأنه

قد كان 10 - ثم قال تعالى فأرسل إلى هارون آية 13

في الكلام حذف والمعنى فأرسل إلى هارون ليعينني ويؤازرني كما تقول فأرسل إلي إني لأعينك

11 - ثم قال جل وعز ولهم علي ذنب فأخاف أن يقتلون آية 14 قال مجاهد وقتادة يعني قتل النفس فأخاف أن يقتلون أي بقتلي رجلا منهم 12 - ثم قال جل وعز قال كلا فاذهبا بآياتنا إنا معكم مستمعون آية 15 كلا ردع وزجر أي انزجر عن هذا الخوف وثق بالله ثم قال جل وعز فاذهبا بآياتنا إنا معكم مستمعون آية 15 يحتمل أن يكون معكم لموسى وهارون عليهما السلام لأن الاثنين جمع كما قال تعالى فإن كان له إخوة ويحتمل أن يكون لموسى وهارون والآيات ويحتمل أن يكون لموسى وهارون ومن أرسل إليهم

قال أبو جعفر الأول أولاها ليكون المعنى إنا معكم ناصرين ومقوين 13 - ثم قال جل وعز فأتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين) آية 16

(42/565)

قال أبو عبيدة رسول بمعنى رسالة وأنشد لقد كذب الواشون ما فهت عندهم بسر ولا أرسلتهم برسول والتقدير على قوله إنا ذوا رسالة والأخفش يذهب إلى أنه واحد يدل على

اثنين وجمع 14 – ثم قال جل وعز أن أرسل معنا بني إسرائيل آية 17 المعنى أرسلنا لأن ترسل معنا بني إسرائيل

15 – ثم قال جل وعز قال ألم نربك فينا وليدا آية 18 أي مولودا فامتن عليه بتربيته إياه صغيرا إلى أن كبر 16 – ثم قال تعالى ولبثت فينا من عمرك سنين آية 18 ومن عمرك وعمرك 17 – وقوله جل وعز وفعلت فعلتك التي فعلت آية 19 قال مجاهد يعني قتل النفس وقرأ الشعبي وفعلت فعلتك بكسر الفاء والفتح للأول لأنها للمرة الواحدة والكسر بمعنى الهيئة والحال أي فعلتك التي تعرف كما قال كأن مشيتها من دار جارتها مر السحابة لا ريث ولا عجل ويقال كان ذلك أيام الردة والردة

قال أبو جعفر قال علي بن سليمان واختار

ذلك لأن الارتداد لم يكن مرة واحدة والفتح أجود 18 – ثم قال جل وعز وأنت من الكافرين آية 19 في معناه أقوال أ – منها أن المعنى من الكافرين لنعمتي كما قال والكفر مخبثة لنفس المنعم ب – والضحاك يذهب إلى أن المعنى وأنت من الكافرين لقتلك القبطي قال فنفى عن نفسه الكفر وأخبر أنه فعل ذلك على الجهل

ج – وقال الفراء المعنى وأنت من الكافرين الساعة د – قال السدي أي وأنت من الكافرين لأنك كنت تتبعنا على الدين الذي تعيبه الساعة فقد كنت من الكافرين على قولك

قال أبو جعفر ومن أحسن ما قال في معناه ما قاله ابن زيد قال من الكافرين لنعمتنا ما أي

لنعمة تربيتي لك 19 - ثم قال وعز قال فعلتها إذا وأنا من الضالين آية 20 أي من الجاهلين وقال أبو عبيدة من الضالين أي من الناسين كما قال سبحانه أن تضل إحداهما 20 - وقوله جل وعز فوهب لي ربي حكما آية 21 قال السدي يعني النبوة 21 - وقوله جل وعز وتلك نعمة تمنها علي أن عبدت بني إسرائيل

آية 22

(43/565)

في هذه الآية أقوال قيل ألف الاستفهام محذوفة والمعنى أو تلك نعمة كما قال تروح من الحي أم تبتكر وماذا يضرك لو تنتظر وهذا لا يجوز لأن الاستفهام إذا حذفت منه الألف زال المعنى إلا أن يكون في الكلام أم أو ما أشبهها وقيل المعنى وتلك نعمة تمنها علي أن عبدتني وأنا من بني إسرائيل لأنه يروى أنه كان رباه على أن يستعبده وقيل وتلك نعمة تمنها علي أن عبدت بني إسرائيل وتركتني

وهذا أحسن الأقوال لأن اللفظ يدل عليه أي إنما صارت هذه نعمة لأنك اتخذت بني إسرائيل عبيدا ولو لم تتخذهم عبيدا لم تكن نعمة ف أن بدل من نعمة ويجوز أن يكون المعنى لأن عبدت بني إسرائيل 22 - وقوله جل وعز قال فرعون وما رب العالمين آية 23 فأجابه

موسى صلى الله عليه وسلم بأن أخبره بصفات الله جل وعز التي يعجز عنها المخلوقون قال رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين

آية 24 فلم يرد فرعون هذه الحجة بأكثر من أن قال قال لمن حوله ألا تستمعون أي ألا تستمعون إلى قوله فأجابه موسى لأنه المراد وزاده في البيان قال ربكم ورب آبائكم الأولين فلم يحتج فرعون عليه بأكثر من أن نسبه إلى الجنون قال إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون آية 27 أي لمغلوب على عقله لأنه يقول قولا لا يعرفه لأنه كان

عند قوم فرعون أن الذي يعرفونه ربا لهم في ذلك الوقت هو فرعون وأن الذي يعرفونهم أربابا لآبائهم الأولين ملوك أخر كانوا قبل فرعون فزاده موسى في البيان فقال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون آية 28 فتهدده فرعون قال لئن اتخذت إلها غيري لأجعلنك من المسجونين آية 29 فاحتج موسى عليه وعليهم بما يشاهدونه قال أو لو جئتك بشئ مبين آية 30 أي ببرهان قاطع واضح يدل على صدقي 23 - وقوله جل وعز فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين آية 32

يقال الثعبان الكبير من الحيات وقد قال في موضع آخر

تهتز كأنها جان والجان الصغير من الحيات ففي هذا دليل على أن الآية كانت عظيمة لأنه وصف عظمها وأنها تهتز اهتزاز الصغير لخفتها ولا يمنعها عظمها من ذلك فهذا أعظم في الآية 24 – ثم قال جل وعز ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين آية 33 أي ونزع يده من جيبه فإذا هي بيضاء للناظرين بياضا نوريا من غير برص فرد فرعون الآية العظيمة بنسبه إياه إلى السحر قال للملأ حوله إن هذا لساحر عليم آية 34 ثم تواضع لهم فقال يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون قالوا أرجه وأخاه وابعث في المدائن حاشرين آية 37

روى مجاهد عن ابن عباس قال يعني الشرط ويروى أن السحرة كانوا اثني عشر ألفا وأن موسى بعث والسحر كثير وأعطي الآيات العظام كما بعث النبي صلى الله عليه وسلم والبلاغة أكثر ما كانت فأعطي القرآن ودعوا إلى أن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا عن ذلك قال قتادة إنه لكبيركم يعني موسى صلى الله عليه وسلم

25 – وقوله جل وعز لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف آية 49 يروى أنه أول من قطع وصلب قالوا لا ضير فيما يلحقنا من عذاب الدنيا مع أملنا للمغفرة

يقال ضرر وضر وضير وضور بمعنى واحد وأنشد أبو عبيده فإنك لا يضورك بعد حول أظبي كان أمك أم حمار أن كنا أول المؤمنين أي لأن كنا

قال الفراء أي أول مؤمني أهل زماننا قال أبو إسحاق هذا كلام من لم يعرف الرواية لأنه يروى

أنه معه ستمائة ألف وسبعون ألفا وإنما المعنى أول من آمن عند ظهور هذه الآية 26 - ثم قال جل وعز وأوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي آية 52

يقال سرى وأسرى إذا سار بالليل قال مجاهد خرج موسى صلى الله عليه وسلم ليلا قال عمرو بن ميمون قالوا لفرعون إن موسى قد خرج ببني إسرائيل فقال لا تكلموهم حتى يصيح الديك فلم يصيح

(45/565)

ديك تلك الليلة فلما أصبح أحضر شاة فذبحت وقال لا يتم سلخها حتى يحضر خمس مائة ألف فارس من القبط فحضروا وروى يونس بن أبي إسحق عن أبي بردة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نزل بأعرابي فأكرمه فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم تعهدنا فأتنا فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له ما حاجتك فقال ناقة أرتحلها لا وأعنز يحتلبها أهلي فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أعجز هذا أن يكون مثل عجوز بني إسرائيل قالوا وما عجوز بني إسرائيل قال إن موسى صلى الله عليه وسلم لما أراد الخروج ببني إسرائيل ضل عن الطريق فقال ما هذا فقال له علماء بني إسرائيل إن يوسف لما حضره الموت أخذ علينا موثقا ألا نخرج إلا بعظامه فقال أين قبره فقالوا ما يعرفه إلا عجوز بني

إسرائيل فسألوها فقالت حتى تعطيني حكمي قال وما

حكمك قالت أن أكون معك في الجنة فكره ذلك فأوحى الله جل وعز إليه أن أعطها ففعل

فأتت بهم إلى بحيرة فقالت أنضبوا هذا الماء فأنضبوه واستخرجوا عظام يوسف صلى الله

عليه وسلم فتبينت لهم الطريق كضوء النهار 27 - ثم قال جل وعز إنكم متبعون آية 52

روى عكرمة عن ابن عباس قال اتبعه فرعون في ألف ألف حصان سوى الإناث وكان

موسى صلى الله عليه في ستمائة ألف من بني إسرائيل فقال فرعون إن هؤلاء لشرذمة

قليلون وروى سفيان عن أبي إسحاق عن أبي عبيدة عن عبد الله إن هؤلاء لشرذمة

قليلون قال ستمائة ألف وسبعون ألفا

وروى سفيان عن أبي إسحاق عن الأسود وإنا لجميع حاذرون قال مؤدون قال أبو جعفر

المؤدون الذين معهم أداة وهي السلاح والسلاح أداة الحرب وأبو عبيدة يذهب إلى أن

حاذرين وحذرين وحذرين بضم الذال بمعنى واحد قال أبو جعفر وحقيقة هذا أن الحاذر

هو المستعد والحذر المتيقظ كأن ذلك فيه خلقة ولهذا قال أكثر النحويين لا يتعدى حذر

وروى حميد الأعرج عن أبي عمار أنه قرأ وإنا لجميع حادرون الدال غير معجمة يقال جمل حادر إذا كان غليظا ممتليا ومنه قول الشاعر وعين لها حدرة بدرة شقت مآقيهما من أخر

28 - ثم قال جل وعز فأخرجناهم من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم آية 58 57

حدثنا محمد بن سلمة الأسواني قال حدثنا محمد بن سنجر قال حدثنا عبد الله بن صالح قال حدثني ابن لهيعة عن واهب بن عبد الله المعافري عن عبد الله بن عمرو أنه نيل مصر سيد الأنهار سخر الله له كل نهر بين المشرق والمغرب وذلله له فإذا أراد

الله أن يجري نيل مصر أمر كل نهر أن يمده فمدته الأنهار بمائها وفجر الله له من الأرض عيونا فإذا انتهى جريه إلى ما أراد الله أوحى الله إلى كل ماء أن يرجع إلى عنصره

وقال في وقوله الله جل وعز فأخرجناهم من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم قال كانت الجنات بحافتي هذا النيل من أوله إلى آخره في الشقين جميعا من أسوان إلى رشيد وكان له سبعة خلج خليج الاسكندرية وخليج دمياط وخليج سردوس وخليج منف وخليج الفيوم وخليج المنهى متصلة لا ينقطع منها شئ من شئ وزروع ما بين الجبلين كله من أول مصر إلى آخرها ما يبلغه الماء فكانت جميع أرض مصر كلها تروى من ست عشرة ذراعا بما قدروا ودبروا من قناطرها وجسورها وخلجها قال ومقام كريم المنابر كان بها ألف منبر قال أبو جعفر المقام في اللغة الموضع من قولك قام يقوم وكذلك المقامات واحدها مقامة كما قال الشاعر

وفيهم مقامات حسان وجوهها وأندية ينتابها القول والفعل والمقام أيضا المصدر والمقام بالضم الموضع من أقام يقيم والمصدر أيضا من أقام يقيم إلا أن ابن لهيعة قال سمعت أن المقام الكريم الفيوم

(47/565)

---

29 - وقوله جل وعز فأتبعوهم مشرقين آية 60 أكثر أهل التفسير على أن المعنى وقت الشروق وأبو عبيدة يذهب إلى أن المعنى ناحية الشرق والأول أولى يقال أشرقنا أي دخلنا في الشروق كما يقال أصبحنا أي دخلنا في الصباح وإنما يقال في ذلك شرقنا وغربنا 30 - وقوله جل وعز فلما تراءى الجمعان آية 61 أي رأى بعضهم بعضا

أصحاب موسى إنا لمدركون آية 61 وقرئ لمدركون والمعنى واحد أي سيدركنا هذا الجمع الكثير ولا طاقة لنا به 31 - وقوله جل وعز قال كلا إن معي ربي سيهدين آية 62 كلا أي ارتدعوا وانزجروا عن هذا القول إن معي ربي سيهدين 32 - وقوله جل وعز فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم آية 63 قال الضحاك كالطود العظيم أي كالجبل كما قال الأسود بن يعفر نزلوا بأنقرة يسيل عليهم ماء الفرات يجئ من أطواد جمع طود أي جبل 33 - وقوله جل وعز وأزلفنا ثم الآخرين آية 64 قال الحسن أزلفنا أهلكنا وقال أبو

عبيدة أزلفنا جمعنا ومنه ليلة المزدلفة وقال قتادة أزلفنا قربناهم من البحر فأغرقناهم قال أبو جعفر وهذه الأقوال متقاربة لأنه إنما جمعهم للهلاك وقول قتادة أصحها ومنه وأزلفت الجنة للمتقين أي قربت ومنه مر الليالي زلفا فزلفا وروي عن أبي بن كعب أنه قرأ وأزلقنا بالقاف 34 - وقوله جل وعز واتل عليهم نبأ إبراهيم آية 69 أي خبر إبراهيم

35 - وقوله جل وعز قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين آية 71 أي مقيمين على عبادتها قال هل يسمعونكم إذ تدعون قال أبو عبيدة أي هل يسمعون لكم قال أبو حاتم أي هل يسمعون أصواتكم وقرأ قتادة هل يسمعونكم بضم الياء أي هل يسمعونكم أصواتهم وكلامهم 36 - وقوله جل وعز فإنهم عدو لي إلا رب العالمين آية 77

يجوز أن يكون استثناء ليس من الأول ويجوز أن يكون المعنى كل ما تعبدونه عدو لي يوم القيامة إلا الله جل وعز

(48/565)

ومن أصح ما قيل فيه أن المعنى فإنهم عدو لي لو عبدتهم يوم القيامة 37 - وقوله جل وعز الذي خلقني فهو يهدين آية 78 وقرأ بن أبي أسحق فهو يهديني بإثبات الياء فيها كلها وقرأ والذي أطمع أن يغفر لي خطاياي يوم الدين وقال ليست خطيئة واحدة قال أبو جعفر

والتوحيد جيد على أن تكون خطيئة بمعنى خطايا كما قرئ وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة قال مجاهد في قوله والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي قال هو قوله بل فعله كبيرهم هذا وقوله إني سقيم

وقوله حين أراد فرعون من الفراعنة أن يأخذ سارة قال هي أختي 38 – قال مجاهد في قوله جل وعز واجعل لي لسان صدق في الآخرين آية 84

قال الثناء الحسن وروي عن ابن عباس قال اجتماع الأمم عليه 39 – وقوله جل وعز إلا من أتى الله بقلب سليم آية 89 قال قتادة أي سليم من الشرك وقال عروة لم يلعن شيئا قط 40 – ثم قال تعالى وأزلفت الجنة للمتقين آية 90 أي قربت بمعنى قرب دخولهم إياها 41 – وقوله جل وعز فكبكبوا فيها هم والغاوون آية 94 كبكبوا أي قلبوا على رؤوسهم وقيل طرح بعضهم على بعض هذا قول أبي عبيدة والأصل كببوا فأبدل من الباء كاف استثقالا للتضعيف وقيل معنى فكبكبوا فجمعوا مشتق من كوكب الشئ أي معظمه والجماعة من الخيل كوكب وكبكبه قال قتادة والغاوون الشياطين وقال السدي فكبكبوا أي مشركو العرب والغاوون الآلهة وجنود إبليس من كان من ذريته

42 – قال أبو جعفر ومعنى إذ نسويكم برب العالمين نعبدكم كما نعبده

43 – وقوله جل وعز فما لنا من شافعين ولا صديق حميم آية 101 حميم أي خاص ومنه حامة الرجل وأصل هذا من الحميم وهو الماء الحار ومنه الحمام والحمى فحامة الرجل

الذين يحرقهم ما أحرقه كما يقال هم حزانتهم على أي يحزنهم ما يحزنه 44 - وقرأ يعقوب وغيره قالوا أنؤمن لك وأتباعك الأرذلون آية 111 وهي قراءة حسنة وهذه الواو أكثر ما يتبعها الأسماء والأفعال بعد وأتباع جمع تبع وتبع يكون للواحد والجميع قال الشاعر

(49/565)

له تبع قد يعلم الناس أنه على من تدانى صيف وربيع وقيل إنما أرادوا أن أتباعك الحجامون والحاكة والصناعات ليست بضارة في الدين وروى عيسى بن ميمون عن ابن أبي نجيح عن مجاهد وسعيد عن قتادة واتبعك الأرذلون قال الحاكة 45 - وقوله تعالى فأنجيناه ومن معه في الفلك المشحون آية 119 المشحون المملوء 46 - وقوله جل وعز أتبنون بكل ريع آية تعبثون آية 128

قال قتادة والضحاك الريع الطريق وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد بكل ريع بكل فج قال أبو جعفر والفج الطريق في الجبل وقال جماعة من أهل اللغة الريع ما ارتفع من الأرض جمع ريعة وكم ريع أرضك أي كم ارتفاعها ومعروف في اللغة أن يقال لما ارتفع من الأرض ريع وللطريق ريع والله أعلم بما أراد وروى عبد الله بن كثير عن مجاهد أتبنون بكل ريع آية تعبثون آية 128 قال بروج الحمامات 92 - ثم قال جل وعز وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون آية

روى ابن أبي نجيح عن مجاهد مصانع قال قصورا وحصونا وقال سفيان هي مصانع الماء قال أبو إسحاق واحدها مصنع ومصنعة قال أبو جعفر والذي قاله مجاهد من أن المصانع القصور والحصون معروف في اللغة قال أبو عبيدة يقال لكل بناء مصنع ومصنعة وروى عبد الله بن كثير عن مجاهد وتتخذون مصانع

قال بالآجر والطين وفي بعض القراءات كأنكم تخلدون والمعنيان

متقاربان لأن معنى لعلكم تخلدون أنكم على رجاء من الخلود 48 - وقوله جل وعز وإذا بطشتم بطشتم جبارين آية 130 قال مجاهد بالسيف والسوط 49 - وقوله جل وعز إن هذا إلا خلق الأولين آية 137 قال قتادة خلق الأولين بالضم يعيشون كما عاشوا أي نحيا ونموت كما حيوا وماتوا قال عبد الله بن مسعود خلق الأولين أي اختلاقهم

(50/565)

قال أبو جعفر خلق الشئ واختلقه بمعنى 50 - وقوله جل وعز وزروع ونخل طلعها هضيم آية 148 قال الضحاك أي يركب بعضه بعضا قال أبو جعفر وقيل هضيم أي هاضم مرئ لطيف أول ما طلع وقال مجاهد حين يطلع يقبض عليه فيهضمه قال أبو جعفر أصل الهضم

انضمام الشئ ومنه هضيم الكشح ريا المخلخل

ومنه فلان أهضم الكشح أي ضامره فيقال للطلع هضيم قبل أن يتفتح وروى إسحاق عن بريد ونخل طلعها هضيم

قال منه ما قد أرطب ومنه مذنب 51 – ثم قال جل وعز وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين آية 149 قال أبو صالح أي حاذقين بنحتها وقال منصور بن المعتمر فارهين أي حاذقين وقال الحسن فرهين أي آمنين وقال عبد الله بن شداد فارهين بألف أي متجبرين وقال قتادة فرهين أي معجبين وقال مجاهد فرهين أي أشرين بطرين

قال أبو جعفر وهذا أعرفها في اللغة وهو قول أبي عمرو وأبي عبيدة فكأن الهاء مبدلة من حاء لأنهما من حروف الحلق وأبو عبيدة يذهب إلى أن فارهين وفرهين بمعنى واحد 52 – وقوله جل وعز قالوا إنما أنت من المسحرين آية 153 أي من المسحورين قاله مجاهد وأبو عبيدة يذهب إلى أن المعنى إنما أنت بشر لك سحر والسحر الرئة

وقيل من المسحرين أي من المعللين بالطعام والشراب كما قال الشاعر أرانا موضعين لحتم غيب ونسحر بالطعام وبالشراب 53 – وقوله جل وعز لها شرب ولكم شرب يوم معلوم آية 155

والشرب الحظ من الماء 54 – وقوله جل وعز وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم آية 166 قال إبراهيم بن المهاجر قال لي مجاهد كيف يقرأ عبد الله بن مسعود وتذرون ما

خلق لكم ربكم من أزواجكم قلت وتذرون ما أصلح لكم ربكم من أزواجكم قال الفرج كما قال تعالى فأتوهن من حيث أمركم الله وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم قال القبل الفرج إلى أدبار النساء والرجال 55 - ثم قال جل وعز بل أنتم قوم عادون آية 166

(51/565)

يقال عدا إذا تجاوز في الظلم 56 - وقوله جل وعز قال إني لعملكم من القالين آية 168 أي المبغضين الكارهين وقد قلاه يقليه قلى وقلاء

كما قال عليك السلام لا مللك قريبة ومالك عندي إن نأيت قلاء 57 - وقوله جل وعز إلا عجوزا في الغابرين آية 171 قال أبو عبيدة والفراء أي الباقين قال أبو جعفر يقال للذاهب غابر وللباقي غابر كما قال لا تكسع الشول بأغبارها إنك لا تدري من الناتج

وكما قال فما ونى محمد مذ أن غفر له الإله ما مضى وما غبر أي وما بقي والأغبار بقيات الألبان والشول الإبل التي قد شالت بأذنابها 58 - وقوله جل وعز كذب أصحاب الأيكة المرسلين آية 176 الأيكة عند أهل اللغة الشجر لا الملتف والجمع أيك ويروى أنهم كانوا أصحاب شجر ملتف وقد قيل إن الأيكة اسم موضع ولا يصح ذلك ولا يعرف

59 - وقوله جل وعز إذ قال لهم شعيب ألا تتقون آية 177 قرئ على أحمد بن شعيب عن عبد الحميد بن محمد قال حدثنا مخلد قال حدثنا إسرائيل عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس قال كل الأنبياء من بني إسرائيل إلا عشرة نوح وصالح وهود وشعيب وإبراهيم ولوط وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ومحمد صلى الله عليهم وزعم الشرقي بن قطامي أن شعيبا هو ابن عيفا بن نويب بن مدين بن إبراهيم وزعم ابن سمعان أن شعيبا بن جزي بن يشجر بن لاوي بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم صلى الله عليهم 60 - وقوله جل وعز وزنوا بالقسطاس المستقيم آية 182 قال عبد الله بن عباس ومجاهد القسطاس العدل 61 - ثم قال جل وعز ولا تبخسوا الناس أشياءهم آية 183 أي ولا تظلموا ومنه قول العرب تحسبها حمقاء وهي باخس 62 - وقوله جل وعز واتقوا الذي خلقكم والجبلة الأولين آية 184 روى ابن أبي نجيح عن مجاهد الجبلة الخليقة قال أبو جعفر يقال جبل فلان على كذا أي خلق وقوله جبلة وجبلة وجبلة 63 - وقوله جل وعز فأسقط علينا كسفا من السماء

آية 187 روى علي بن الحكم عن الضحاك فأسقط علينا كسفا قال جانبا

قال أبو جعفر ويقرأ كسفا وهو جمع كسفة وهي القطعة 64 – ثم قال جل وعز فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة آية 189 قال عبد الله بن عباس أصابهم حر شديد فدخلوا البيوت فأخذ بأنفاسهم فخرجوا إلى البرية لا يسترهم شئ فأرسل الله إليهم سحابة فهربوا إليها ليستظلوا بها ونادى بعضهم بعضا فلما اجتمعوا تحتها أهلكهم الله جل وعز وقال مجاهد فلما اجتمعوا تحتها صيح بهم فهلكوا 65 – وقوله جل وعز نزل به الروح الأمين آية 193 يعني جبريل صلى الله عليه على قلبك أي يتلوه فيعيه قلبك

66 – وقوله جل وعز وإنه لفي زبر الأولين آية 196 أي إن إنزاله وذكره ثم قال جل 67 – وعز أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل آية 197 وفي قراءة عبد الله أو ليس لكم آية أن يعلمه علماء بني

إسرائيل قال مجاهد هو عبد الله بن سلام وقال غيره هو عبد الله وغيره ممن أسلم 68 – ثم قال جل وعز ولو نزلناه على بعض الأعجمين آية 198

الأعجم الذي لا يفصح وإن كان عربيا والعجمي الذي أصله من العجم وإن كان فصيحا وقد ذكرنا قوله كذلك سلكناه في قلوب المجرمين في سورة الحج 69 – وقوله جل وعز إنهم عن السمع لمعزولون آية 212 أي عن استماع الوحي لممنوعون بالرجم وروى عروة عن عائشة قالت قلت يا رسول الله إن الكهان كانوا يحدثوننا بالشئ فنجده كما يقولون فقال تلك الكلمة يخطفها أحدهم فيكذب معها مائة كذبة وذكر الحديث 70 – ثم قال جل وعز

وأنذر عشيرتك الأقربين آية 214

قال عبد الله بن عباس لما نزلت صعد رسول الله صلى الله عليه وسلم الصفا فصاح يا صباحاه فاجتمعوا إليه من بين رجل يجئ وبين رجل يبعث برسول فقال أرأيتم لو أخبرتكم أن رجلا جاء من هذا الفج ليغير عليكم أصدقتموني قالوا نعم ما جربنا عليك إلا صدقا

(53/565)

قال فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد فقال أبو لهب ألهذا دعوتنا تبا لك فأنزل الله جل وعز تبت يدا أبي لهب وتب وروى هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت لما نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية قال يا صفية عمة رسول الله يا فاطمة ابنة محمد يا بني عبد المطلب إني لا أملك لكم من الله شيئا سلوني من مالي ما شئتم

71 - وقوله جل وعز الذي يراك حين تقوم وتقلبك في الساجدين آية 218 219 قال مجاهد وقتادة في الساجدين في المصلين قال مجاهد وكان يرى من خلفه كما يرى من أمامه قال عكرمة أي قائما وراكعا وساجدا وروي عن ابن عباس أنه قال تقلبه في الظهور حتى أخرجه نبيا 72 - وقوله جل وعز تنزل على كل أفاك أثيم آية 222 قال مجاهد على كل أفاك على كل كذاب 73 - وقوله جل وعز والشعراء يتبعهم الغاوون آية 224 قال ابن

عباس الرواة

وقال الضحاك هما اثنان تهاجيا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أحدهما من الأنصار وكان مع كل واحد منهما جماعة وهم

الغواة أي السفهاء وقال عكرمة هم الذين يتبعون الشاعر وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد يتبعهم الغاوون قال الشياطين وروى خصيف عن مجاهد قال هم الذين يتبعونهم ويروون شعرهم 74 - ثم قال جل وعز ألم تر أنهم في كل واد يهيمون آية 225 قال مجاهد أي في كل فن يفتنون قال أبو جعفر والتقدير في اللغة في كل واد من القول يهيمون قال أبو عبيدة الهائم المخالف للقصد في كل شئ

75 - وقوله جل وعز إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات آية 227 قال عبد الله بن عباس يعني عبد الله بن رواحة وحسانا وفي غير هذا الحديث لما نزلت هذه الآية قال عبد الله قد علم الله جل وعز أنا نقول الشعر وأنزل هذا فأنزل الله عز وجل إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظلموا أي ناضلوا عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن المؤمنين من هجاهم

76 - ثم قال جل وعز وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون آية 227 روي في الحديث أنه يراد به من بين يدي الله جل وعز إلى النار . انتهت سورة الشعراء . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ معاني القرآن / للنحاس حـ 5 صـ 110.61 ﴾

(55/565)

وقال الفراء :

ومن سورة الشعراء

قوله : باخِعٌ نَفْسَكَ [3] قاتل نفسك (أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ) موضع (أن) نصب لأنها جزاء ، كأنك قلت : إن لم يؤمنوا فأنت قاتل نفسك . فلمّا كان ماضيا نصبت (أن) كما تقول أتيتك أن أتيتني . ولو لم يكن ماضيا لقلت : آتيك إن تأتني . ولو كانت مجزومة وكسرت

(56/565)

(إن فيها كان صوابا .) ومثله قول اللّه (وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ «1» شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ) و(إن صدّوكم) . وقوله (من الشهداء «2» أن تضلّ) و(إن تضلّ) وكذلك (أفنضرب «3»

عنكم الذكر صفحا إن كنتم) و(أن كنتم) وجهان جيّدان .

وقوله : إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّماءِ آيَةً [4] ثم قال (فظلّت) ولم يقل (فتظلّل) كما قال (ننزل) وذلك صواب : أن تعطف على مجزوم الجزاء بفعل لأنّ الجزاء يصلح فى موضع فعل يفعل ، وفى موضع يفعل فعل ، ألا ترى أنك تقول : إن زرتنى زرتك وإن تزرنى أزرك والمعنى واحد . فلذلك صلح قوله (فَظَلَّتْ) مردودة على يفعل ، وكذلك قوله (تَبارَكَ «4» الَّذِي إِنْ شاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْراً مِنْ ذلِكَ جَنَّاتٍ) ثم قال (وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُوراً) فردّ يفعل على فعل وهو بمنزلة ردّه (فظلّت) على (ننزّل) وكذلك جواب الجزاء يلقى يفعل بفعل ، وفعل بيفعل كقولك : (إن قمت أقم ، وإن تقم قمت . وأحسن الكلام أن تجعل جواب يفعل بمثلها ، وفعل بمثلها كقولك : إن تتجر تربح ، أحسن من أن تقول : إن تتجر ربحت . وكذلك إن تجرت ربحت أحسن من أن تقول : إن تجرت تربح . وهما جائزان . قال اللّه (مَنْ كانَ «5» يُرِيدُ الْحَياةَ الدُّنْيا وَزِينَتَها نُوَفِّ إِلَيْهِمْ) فقال (نُوَفِّ) وهى جواب لكان . وقال الشاعر «6» :

إن يسمعوا سبّة طاروا بها فرحا منى وما يسمعوا من صالح دفنوا

فردّ الجواب بفعل وقبله يفعل قال الفراء «7» : إن يسمعوا سبّة على مثال غيّة) .

وقوله : فَظَلَّتْ أَعْناقُهُمْ لَها خاضِعِينَ [4] والفعل للأعناق فيقول القائل : كيف لم يقل :

---

(1) الآية 2 سورة المائدة .

(2) الآية 282 سورة البقرة .

(3) الآية 5 سورة الزخرف .

(4) الآية 10 سورة الفرقان .

(5) الآية 15 سورة هود .

(6) هو قعنب بن أم صاحب . وقوله : «سبة» فى ش «سيئة» مخفف سيئة .

(7) سقط ما بين القوسين في ش وسية مخفف سيئة .

(57/565)

خاضعة : وفى ذلك وجوه كلّها صواب . أوّلها أن مجاهدا جعل الأعناق : الرجال الكبراء . فكانت الأعناق ها هنا بمنزلة قولك : ظلّت رءوسهم رءوس القوم وكبراؤهم لها خاضعين للآية «1» . والوجه الآخر أن تجعل الأعناق الطوائف ، كما تقول : رأيت الناس إلى فلان عنقا واحدة فتجعل الأعناق الطّوائف والعصب وأحبّ إليّ من هذين الوجهين فى العربيّة أن الأعناق إذا خضعت فأربابها خاضعون فجعلت الفعل أوّلا للأعناق ثم جعلت (خاضِعِينَ) للرجال كما قال الشاعر :

على قبضة موجوءة ظهر كفّه فلا المرء مستحى ولا هو طاعم «2»

فأنّث فعل الظهر لأن الكف تجمع الظهر وتكفى منه : كما أنك تكتفى بأن تقول : خضعت

لك رقبتى ألا ترى أن العرب تقول : كلّ ذى عين ناظر وناظرة إليك لأن قولك : نظرت إليك عينى ونظرت إليك بمعنى واحد فترك (كلّ) وله الفعل وردّ إلى العين . فلو قلت : فظلّت أعناقهم لها خاضعة كان صوابا . وقد قال الكسائىّ : هذا بمنزلة قول الشاعر :

ترى أرباقهم متقلّديها إذا صدىء الحديد على الكماة «3»

ولا يشبه هذا ذلك لأن الفعل فى المتقلّدين قد عاد بذكر الأرباق فصلح ذلك لعودة الذكر . ومثل هذا قولك : ما زالت يدك باسطها لأن الفعل منك على اليد واقع فلا بدّ من عودة ذكر الذي فى أول الكلام . ولو كانت فظلت أعناقهم لها خاضعيها كان هذا البيت حجّة له . فإذا أوقعت الفعل على الاسم ثم أضفته فلا تكتف بفعل المضاف إلا أن يوافق فعل الأول كقولك ما زالت يد عبد اللّه منفقا ومنفقة فهذا من الموافق 133 ب لأنك تقول يده منفقة وهو منفق ولا يجوز كانت يده باسطا لأنه باسط لليد واليد مبسوطة ، فالفعل مختلف ، لا يكفى فعل ذا من ذا ، فإن أعدت ذكر اليد صلح فقلت : ما زالت يده باسطها .

---

(1) هذا تفسير قوله : «لها» . [. . . . .]

(2) سبق هذا البيت فى 187 من الجزء الأول . وفيه «مرجوة» فى مكان «موجوءة» .

(3) الأرباق جمع الربق وهو حبل فيه عدة عرا يشد فيها صغار الشاء لئلا ترضع . والكماة : الشجعان

وقوله : أَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ [7] يقول : حسن ، يقال : هو كما تقول للنخلة : كريمة إذا طاب حملها ، أو أكثر كما يقال للشاة وللناقة كريمة إذا غزرتا . قال الفراء : من كلّ زوج من كل لون .

وقوله : فى كلّ هذه السّورة (وَما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ) فى علم اللّه . يقول : لهم فى القرآن وتنزيله آية ولكنّ أكثرهم فى «1» علم اللّه لن يؤمنوا .

وقوله : قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلا يَتَّقُونَ [11] .

فقوله : (أَلا يَتَّقُونَ) لو كان مكانها : ألا تتّقون كان صوابا لأن موسى أمر أن يقول لهم ألا تتّقون . فكانت التّاء تجوز لخطاب موسى إيّاهم . وجازت الياء لأنّ التّنزيل قبل الخطاب ، وهو بمنزلة قول اللّه (قُلْ «2» لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ) و(سيغلبون) .

وقوله : وَيَضِيقُ صَدْرِي [13] مرفوعة لأنّها مردودة على (أخاف) ولو نصبت بالرد على (يكذبون) كانت نصبا صوابا . والوجه الرفع لأنّه أخبر أنّ صدره يضيق وذكر العلّة التي كانت بلسانه ، فتلك ممّا لا تخاف لأنها قد كانت .

وقوله : (فَأَرْسِلْ إِلى هارُونَ) ولم يذكر معونة ولا مؤازرة . وذلك أن المعنى معلوم كما تقول :

لو أتانى مكروه لأرسلت إليك ، ومعناه : لتعيننى وتغيثنى . وإذا كان المعنى معلوما طرح منه ما يردّ الكلام إلى الإيجاز .

وقوله : وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ [19] قتله النفس فالفعلة منصوبة الفاء لأنها مرّة واحدة .

ولا تكون وهى مرّة فعلة . ولو أريد بها مثل «3» الجلسة والمشية جاز كسرها . حدّثنا أبو العباس

---

(1) ش : «على» .

(2) الآية 12 سورة آل عمران .

(3) سقط فى ا .

قال حدثنا محمد قال حدثنا الفراء قال حدثنى موسى الأنصاري عن السّرىّ بن إسماعيل عن الشّعبىّ أنه قرأ (وفعلت فعلتك) بكسر الفاء ولم يقرأ بها غيره .

وقوله : (وَأَنْتَ مِنَ الْكافِرِينَ) وأنت الآن من الكافرين لنعمتى أي لتربيتى إياك وهى فى قراءة عبد اللّه (قال فعلتها إذا وأنا من الجاهلين) والضالّين «1» والجاهلين «2» يكونان

بمعنى واحد لأنّك تقول : جهلت الطريق وضللته . قال الفراء : إذا ضاع منك الشيء فقد أضللته .

وقوله : فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْماً [21] التوراة .

وقوله : وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّها عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ [22] يقول : هى – لعمرى – نعمة إذ ربّيتنى ولم تستعبدنى كاستعبادك بنى إسرائيل . فأن تدلّ على ذلك . ومثله فى الكلام أن تترك أحد عبديك أن تضربه وتضرب الآخر ، فيقول المتروك هذه نعمة علىّ أن ضربت فلانا وتركتنى . ثم يحذف (وتركتنى) والمعنى قائم معروف . والعرب تقول : عبّدت العبيد وأعبدتهم .

أنشدنى بعض العرب :

علام يعبدنى قومى وقد كثرت فيهم أبا عرما شاءوا وعبدان «3»

وقد تكون (أن) رفعا ونصبا . أمّا الرفع فعلى قولك وتلك نعمة تمنّها علىّ : تعبيدك بنى إسرائيل والنصب : تمنّها علىّ لتعبيدك بنى إسرائيل .

ويقول القائل : أين جواب قوله : (قالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلا تَسْتَمِعُونَ) [25] فيقال : إنه إنما أراد بقوله : (أَلا تَسْتَمِعُونَ) إلى قول موسى . فردّ موسى لأنه المراد بالجواب فقال : الذي أدعوكم إلى عبادته (رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبائِكُمُ الْأَوَّلِينَ)

[26] وكذلك قوله : (قال ربّ المشرق والمغرب)

[28] يقول : أدعوكم إلى عبادة ربّ المشرق والمغرب وما بينهما .

---

(1) كذا . وقد راعى الحكاية . ولو لا هذا لقال : «الضالون والجاهلون»

(2) كذا . وقد راعى الحكاية . ولو لا هذا لقال : «الضالون والجاهلون»

(3) نسب فى اللسان (عبد) إلى الفرزدق .

(60/565)

وقوله : أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ [51] وجه الكلام أن تفتح (أن) لأنها ماضية وهى فى مذهب جزاء . ولو كسرت ونوى بما بعدها الجزم كان صوابا . وقوله : (كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ) يقولون : أول مؤمنى أهل زماننا .

وقوله : إِنَّ هؤُلاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ . [54] يقول عصبة قليلة وقليلون وكثيرون وأكثر كلام العرب أن يقولوا : قومك قليل وقومنا كثير . وقليلون وكثيرون جائز عربىّ وإنما جاز لأن القلّة إنما تدخلهم جميعا . فقيل : قليل ، وأوثر قليل على قليلين . وجاز الجمع إذ كانت القلّة تلزم جميعهم فى المعنى فظهرت أسماؤهم على ذلك . ومثله أنتم حىّ واحد وحىّ واحدون . ومعنى واحدون واحد كما قال الكميت :

فردّ قواصى الأحياء منهم فقد رجعوا كحىّ واحدينا «1»

وقوله : حاذِرُونَ [56] وحذرون حدّثنا أبو العباس قال حدثنا محمد قال حدثنا الفراء قال حدثنى أبو ليلى السجستاني عن أبى جرير «2» قاضى سجستان أن ابن مسعود قرأ «3» (وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حاذِرُونَ) يقولون : مؤدون فى السّلاح. يقول : ذوو أداة من السّلاح. و(حذرون) وكأن الحاذر : الذي يحذرك الآن. وكأنّ الحذر : المخلوق حذرا لا تلقاه إلّا حذرا.

وقوله : إِنَّا لَمُدْرَكُونَ [61] و(لمدّركون «4») مفتعلون من الإدراك كما تقول : حفرت واحتفرت بمعنى واحد ، فكذلك (لمدركون) و(لمدّركون) معناهما واحد والله أعلم.

---

(1) هو من قصيدته المذهبة في هجائه قبائل اليمين والدفاع عن مضر. وانظر حديثا عنها فى الشاهدين 16 ، 24 من الخزانة.

(2) فى ا ما يقرب من «حريز».

(3) وهى قراءة ابن ذكوان وهشام فى بعض الطرق وعاصم وحمزة والكسائي وخلف وافقهم الأعمش. وقرأ الباقون «حذرون».

(4) ظاهر ما هنا أنه بفتح الراء من أدرك المتعدى ، وقد ورد فى اللسان ادراك متعديا ولازما. وفى البحر أن هذه القراءة – وهى قراءات الأعرج وعبيد بن عمير – فيها كسر الراء من أدرك اللازم. وفيه : «وقال أبو الفضل الرازي : وقد يكون أدرك على افتعل بمعنى

أفعل متعديا . فلو كانت القراءة من ذلك لوجب فتح الراء ولم يبلغني ذلك عنهما يعني عن الأعرج وعبيد بن عمير» وانظر البحر 7/ 20 .

(61/565)

وقوله : فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعالَمِينَ [77] أي كل آلهة لكم فلا أعبدها إلا ربّ العالمين فإني أعبده . ونصبه بالاستثناء ، كأنه قال هم عدوّ غير معبود إلّا رب العالمين فإني أعبده . وإنما قالوا (فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي) أي لو عبدتم كانوا لي يوم القيامة ضدّا وعدوّا .

وقوله : وَاجْعَلْ لِي لِسانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ [84] حدّثني عمرو بن أبي المقدام عن الحكم عن مجاهد قال : ثناء حسنا .

وقوله : وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ [111] وذكر أن بعض «1» القراء قرأ : وأتباعك الأرذلون ولكنّي لم أجده عن القراء المعروفين وهو وجه حسن .

وقوله : أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ [128] و(ريع) لغتان «2» مثل الرّير والرار وهو المخّ الردئ . وتقول راع الطّعام إذا كان له ريع «3» .

وقوله : وَتَتَّخِذُونَ مَصانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ [129] معناه : كيا تخلدوا .

وقوله : وَإِذا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ [130] : تقتلون على الغضب . هذا قول الكلبيّ .

وقال غيره (بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ) بالسوط.

[قوله: خُلُقُ الْأَوَّلِينَ [137] وقراءة الكسائي «4» (خلق الأوّلين) قال الفراء: وقراءتى (خلق الأولين) فمن قرأ (خلق) يقول: اختلاقهم وكذبهم ومن قرأ (خلق الأولين) يقول: عادة الأولين أي وراثة أبيك عن أول. والعرب تقول: حدّثنا بأحاديث الخلق «5» وهى الخرافات المفتعلة وأشباهها فلذلك اخترت الخلق.

---

(1) هو يعقوب. ورويت هذه القراءة عن ابن عباس وأبى حيوة.

(2) والمعنى هنا المرتفع من الأرض أو من كل فج أو كل طريق. [.....]

(3) الربع: النماء والزيادة، هذا إذا كان الطعام الحنطة، فإن كان المراد به الدقيق فربعه زيادته على كيله قبل الطحن.

(4) وهى قراءة غير نافع وابن عامر وعاصم وحمزة وخلف الأعمش أما هؤلاء فقراءتهم بضم الحاء واللام.

(5) هذا الضبط عن اللسان فى المادة. وضبط فى ا بضم الخاء واللام.

وقوله : هَضِيمٌ [148] يقول : ما دام فى كوافيره وهو الطّلع . والعرب تسمّى الطلع الكفرّى والكوافير واحدته كافورة ، وكفرّاة واحدة الكفرّى .

وقوله : بُيُوتاً فارِهِينَ [149] حاذقين و(فرهين) أشرين .

وقوله : إِنَّما أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ [153] قالوا له : لست بملك إنما أنت بشر مثلنا .

والمسحّر :

المجوّف ، كأنه – والله أعلم – من قولك : انتفخ سحرك «1» أي أنك تأكل الطعام والشراب وتسحّر به وتعلّل . وقال الشاعر «2» :

فإن تسألينا فيم نحن فإنّنا عصافير من هذا الأنام المسحّر

134 ب/ يريد : المعلّل والمخدوع . ونرى أنّ السّاحر من ذلك أخذ .

وقوله : لَها شِرْبٌ [155] لها حظّ من الماء . والشّرب والشّرب مصدران . وقد قالت العرب :

آخرها «3» أقلّها شربا وشربا وشربا .

وقوله : وَتَذَرُونَ ما خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْواجِكُمْ [166] ما جعل لكم من الفروج . وفى قراءة عبد الله (ما أصلح لكم ربّكم) .

وقوله : إِلَّا عَجُوزاً فِي الْغابِرِينَ [171] والغابرون الباقون . ومن ذلك قول الشاعر : وهو الحارث بن حلّزة :

لا تكسع الشّول بأغبارها إنّك لا تدرى من الناتج «4»

---

(1) السحر : الرئة ، ويقال : انتفخ سحره للجبان يملأ الخوف جوفه فتنتفخ رئته .

(2) هو لبيد كما فى اللسان .

(3) فى اللسان : «وأصله فى سقى الإبل لأن آخرها يرد وقد نزف الحوض» .

(4) الشول جمع شائلة وهى الناقة أتى عليها من حملها أو وضعها سبعة أشهر فجف لبنها والناتج الذي يتولى ولادة الحيوان . ويقال : كسع الناقة بغبرها إذا ترك فى خلفها بقية من اللبن يريد بذلك أن يغزر لبنها . وأن يقوى نسلها يقول : احلب شولك للأضياف ، ولا تكسعها ، فقد يغير عليها عدو فيكون نتاجها لك دونه . وانظر اللسان فى كسع .

(63/565)

الأغبار ها هنا بقايا اللبن فى ضروع الإبل وغيرها ، واحدها غبر . قال وأنشدنى بعض بنى أسد وهو أبو القمقام :

تذبّ منها كلّ حيزبون مانعة لغبرها زبون «1»

وقوله : وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ [184] قرأها عاصم والأعمش بكسر الجيم وتشديد اللام ، ورفعها آخرون . واللام مشدّدة فى القولين : (وَالْجِبِلَّةَ) .

وقوله : أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَماءُ بَنِي إِسْرائِيلَ [197] يقول : يعلمون علم محمد صلى اللّه عليه وسلم أنه نبىّ فى كتابهم . (الآية) منصوبة و(أن) فى موضع رفع . ولو قلت :

أو لم تكن لهم آية) بالرّفع «2» (أن يعلمه) تجعل (أن) فى موضع نصب لجاز ذلك .

وقوله : وَلَوْ نَزَّلْناهُ عَلى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ [198] الأعجم فى لسانه . والأعجمىّ المنسوب إلى أصله إلى العجم وإن كان فصيحا . ومن قال : أعجم قال للمرأة عجماء إذا لم تحسن العربيّة ويجوز أن تقول عجمىّ تريد أعجمىّ تنسبه إلى أصله .

وقوله : كَذلِكَ سَلَكْناهُ [200] يقول : سلكنا التكذيب فى قلوب المجرمين كى لا يؤمنوا به (حَتَّى يَرَوُا الْعَذابَ الْأَلِيمَ) وإن كان موقع كى فى مثل هذا (لا) وأن جميعا صلح الجزم فى (لا) والرفع . والعرب تقول : ربطت الفرس لا يتفلّت جزما ورفعا . وأوثقت العبد لا يفرر «3» جزما ورفعا . وإنما جزم لأن تأويله إن لم أربطه فرّ فجزم على التأويل . أنشدنى بعض بنى عقيل :

وحتى رأينا أحسن الفعل بيننا مساكنة لا يقرف الشرّ قارف «4»

---

(1) «يذب» فى اللسان «يذهب» : (حزبن) والحيزبون الناقة الشهمة الحديدة .

وفسرت هنا بالسيئة الخلق . والزبون : التي تضرب برجلها عند الحلب .

(2) هذه قراءة ابن عامر .

(3) هذا لا يأتى إلا على الجزم حيث فك التضعيف . والأولى : «يفر» ليجرى فيه الرفع .

(4) يقال : اقترف الشر : ؟ ؟ ؟ .

(64/565)

ينشد رفعا وجزما . وقال آخر :

لو كنت إذ جئتنا حاولت رؤيتنا أو جئتنا ماشيا لا يعرف الفرس

رفعا وجزما وقوله :

لطالما حلأنماها لا ترد فخلّياها والسّجال تبترد «1»

من ذلك .

وقوله : نزّل به الرّوح الأمين [193] كذا قرأها القراء . وقرأها الأعمش وعاصم «2» والحسن (نزّل به) بالتشديد . ونصبوا (الروح الأمين) وهو جبريل (عَلى قَلْبِكَ) يتلوه عليك . ورفع أهل المدينة (الرُّوحُ الْأَمِينُ) وخفّفوا (نَزَلَ) وهما سواء فى المعنى .

وقوله : وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ [196] وإنّ هذا القرآن لفى بعض زبر الأولين وكتبهم .

فقال : (فى زبر) وإنما هو فى بعضها ، وذلك واسع لأنك تقول : ذهب الناس وإنما ذهب بعضهم .

وقوله : إِلَّا لَها مُنْذِرُونَ [208] .

وفى موضع آخر : (إِلَّا وَلَها كِتابٌ مَعْلُومٌ) «3» وقد فسّر هذا .

وقوله : ذِكْرى وَما كُنَّا ظالِمِينَ [209] ذكرى فى موضع نصب أي ينذرونهم تذكرة وذكرى . ولو قلت : (ذِكْرى) فى موضع رفع أصبت ، أي : ذلك ذكرى ، وتلك ذكرى .

وقوله : وَما تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّياطِينُ [210] ترفع النون .

---

(1) يقال : حلأ الماشية عن الماء : طردها أو حبسها عن الورود ومنعها أن ترده .

والسجال جمع سجل وهو الدلو . والحديث عن الإبل . وفى اللسان (حلأ) أن نسوة تمثلن بالبيت لامرأة تزوجها عاشق لها .

(2) أي فى رواية أبى بكر أما رواية حفص عنه فالتخفيف وكذا قرأ بالتخفيف نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر .

(3) الآية 4 سورة الحجر . [. . . . .]

قال الفراء : وجاء عن الحسن (الشياطون) وكأنه من غلط الشيخ ظنّ أنه بمنزلة المسلمين والمسلمون .

وقوله : إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ [212] يعنى الشياطين برجم الكواكب .

وقوله : يَراكَ حِينَ تَقُومُ

[218] وتقلّبك فى السّاجدين [219] يقول : يرى تقلبك 135 ا فى المصلّين . وتقلّبه قيامه وركوعه وسجوده .

وقوله : هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّياطِينُ [221] كانت الشياطين قبل أن ترجم تأتى الكهنة مثل مسيلمة الكذّاب وطليحة وسجاح فيلقون إليهم بعض ما يسمعون ويكذبون . فذلك

(يلقون) إلى كهنتهم (السّمع) الذي سمعوا (وَأَكْثَرُهُمْ كاذِبُونَ) .

وقوله : وَالشُّعَراءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغاوُونَ [224] نزلت فى ابن الزّبعرى وأشباهه لأنهم كانوا يهجون النبىّ صلى اللّه عليه وسلم والمسلمين .

وقوله : (يَتَّبِعُهُمُ الْغاوُونَ) غواتهم الذين يرون سبّ النبي عليه السلام .

ثم استثنى شعراء المسلمين فقال : إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا [227] لأنهم ردّوا عليهم : فذلك قوله : (وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ ما ظُلِمُوا) وقد قرئت (يتّبعهم الغاوون) و(يتبعهم «1») وكل صواب .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للفراء حـ 2 صـ 275 . 285 ﴾

---

(1) هى قراءة نافع .

وقال بيان الحق الغزنوى :

سورة الشعراء

(أعناقهم لها خاضعين) [4] جماعتهم ، عنق من الناس: جماعة . وقيل: رؤساؤهم . ومن حملها على ظاهرها استعارة ، فتذكيرها للإضافة إلى المذكر ، [كما] أنث الصدر الأعشى للإضافة إلى المؤنث: 866- ويشرق بالقول الذي قد أذعته كما شرقت صدر القناة من الدم

وكما قال جرير: 867- رأت مر السنين أخذن مني كما أخذ السرار من الهلال . (زوج كريم) [7] منتفع به ، كالكريم في الناس للناس المرضى . (مستمعون) [15] سامعون . قال القطامي: 868- ومعصية الشفيق عليك مما يزيدك مرة منه استماعا . (إنا رسول رب العالمين) [16]

الرسول يذكر بمعنى الجمع ، كما قال الهذلي: 869- ألكني إليها وخير الرسول أعلمهم بنواحي الخبر . (وأنا من الضالين) [20] الجاهلين بأنها تبلغ القتل . و(إذاً) [20] هنا بمعنى إذ ذاك . (وتلك نعمة تمنها علي أن عبدت/بني إسرائيل) [22] كأنه اعترف بتلك

النعمة ، وأن لم [يستعبده] ، كما استعبدهم . وقيل: إنه على الإنكار ، وتقدير الاستفهام فيه ، وإن لم يكن في اللفظ ، كأنه: أوتلك نعمة ؟ ، أي: تربيتك نفساً واحدة مع إساءتك إلى الجمع .

قال المخزومي في إضمار الاستفهام: 870- لم أنس يوم الرحيل وقفتنا وجفنها في دموعها غرق 871- [وقولها] والركاب سائرة تتركني هكذا وتنطلق .

(لعلنا نتبع السحرة) [40] أي: سحرة فرعون . وقيل: إنهم قالوا ذلك لموسى استهزاء .

(لشرذمة قليلون) [54] أي: كل واحد قليل ذليل في نفسه . فلذلك [جمع] القليل على المعنى . قال:

872- فرد قواصي الأحياء منهم فقد رجعوا كحي واحدينا . وشرذمة كل شيء بقيته ، قال: 873- جاء الشتاء وقميصي أخلاق 874- شراذم يضحك مني التواق .

(حذرون) [56] متيقظون ، و(حاذرون) : مستعدون بالسلاح ونحوه . الأصل أن معنى فعل للطبع ، وفاعل للتكلف ، فيخرج عليه الأقاويل المختلفة فيهما .

(67/565)

(مشرقين) [60] داخلين في وقت شروق الشمس . (وأزلفنا ثم الأخرين) [64]

قربناهم إلى البحر . وقيل: جمعناهم . (فإنهم عدو لي إلا على رب العالمين) [77] أي: إلا

من عبد رب العالمين . وقيل: إن "لا" بمعنى لكن ، والضمير في "إنهم" للآلهة التي عبدوها ،

وجرى ذلك على تغليب ما يعقل [كقوله]: (رأيتهم [لي] ساجدين) .

(لسان صدق) [84] [ثناءً] حسناً . وقيل: [خلفاً] يصدق بالحق بعدي . (واغفر

لأبي) [86] اجعله من أهل المغفرة . (بقلب سليم) [89] مسلم ، فعيل بمعنى مفعل .

وقيل: سالم من الشك ، كما قال في المنافقين/(في قلوبهم مرض) . (فكبكبوا) [94] قلبوا

بعضهم على بعض .

وقيل: أسقطوا على وجوههم ، أي: "كبوا" فكررت الباء للتأكيد ، وقلبت إحداهما كافاً

لموازنة اللفظ . (صديق حميم) [101] قريب ، حم الشيء: قرب . قال الهذلي:

875- فلو أنه ما كان إذ حم واقعاً بجانب من [يحفى] ومن يتودد 876- ولكنما أهلي

بواد أنيسه [سباع] تبغى الناس مثنى وموحد . (ريع) [128] طريق بين الجبال والثنايا .

وقيل: إنه مكان مشرف . (ءاية) بناءً ، يكون لارتفاعه كالعلامة . (خلق الأولين)

[137] كذبهم [و]اختلاقهم . [وإن أراد الإنشاء ، فالمعنى: ما خلقنا] إلا كخلق الأولين

، ونراهم يموتون [و]لا يبعثون . وخلق -بالضم- عادتهم ، أي: في ادعاء الرسالة ، فرجع

الضمير إلى الأنبياء ، ويجوز أن يرجع إلى آبائهم ، أي: تكذيبنا لك كتكذيب آبائنا للأنبياء .

(طلعها هضيم) [148] [متفتق] انشق عن البسر ، لتراكب بعضه بعضاً . وأهل الهضم الضمر ، ومنه هضيم الكشح ، فكأنه ازدحم التمر فيها حتى انهضمت بعض أطرافها ببعض . (فرهين) [149] أشرين . وفارهين: حاذقين . وقيل: معناهما فرحين ، وفارحين ، لقرب الهاء من الحاء . قال ابن الرقاع: 877- لا أستكين إذا ما أزمة أزمت ولا تراني بخير فاره اللبب

(68/565)

أي: لا تراني فرحاً . (المسحرين) [153] مسحورين مرة بعد أخرى . وقيل: المعللين بالطعام والشراب . قال امرؤ القيس: 878- أرانا موضعين لحتم أمر ونسحر بالطعام وبالشراب . (لئيكة) [176] الشجر الملتف مثل الغيضة . (بالقسطاس) [182] بالميزان . وقيل: العدل والسواء . قال كعب بن زهير: 879- تخف الأرض أن تفقدك منها وتصبح ما بقيت لها ثقيلا/

880- لأنك موضع القسطاس منها فتمنع جانبيها أن تزولا . (من المخسرين) [181] الناقصين . (والجبلة الأولين) [184] الخلق الأولين . (أولم يكن لهم ءاية أن يعلمه علموا بني إسرائيل) [197]

(أن يعلمه) اسم كان ، و(ءاية) خبرها ، قدم على الاسم: أولم يكن علم علماء بني إسرائيل ، ومن آمن منهم بمحمد آية لهم . (على بعض الأعجمين) [198] أي: إذا لم [يؤمن] به العرب [وأنفوا] من اتباعه ، كذلك حالهم وقد أنزلنا [ه] عليهم ، وسلكناه في قلوبهم ، يريد أنهم معاندون معرضون . (يلقون السمع) [223] أي: الكهنة . (الغاوون) [224] البطالون الفرغ . (يهيمون) [225] يخوضون . وقيل: يحارون .

(وانتصروا [من] بعد ما ظلموا) [227] أي: شعراء المسلمين الذين ناضحوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، [قال عليه السلام] [لحسان: "أجب] عني" ثم قال: "اللهم أيد [ه] [بروح] القدس" .

[تمت سورة الشعراء] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ باهر البرهان صـ 1034.1048 ﴾

(69/565)

وقال الأخفش :

سورة (الشعراء)

﴿ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَآءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴾

قال ﴿ فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴾ يزعمون انها على الجماعات نحو "هذا عُنُقٌ من

الناس" يعنُون "الكثير" أو ذكّر كما يذكر بعض المؤنث لما اضافه الى مذكّر . وقال الشاعر:

[من الطويل وهو الشاهد السادس والخمسون بعد المئتين]:

باكَرْتُهَا والدِّيكُ يَدْعُو صباحَهُ * إذَا مَا بَنُو نَعْشٍ دَنَوْا فَتَصَوَّبُوا

فجماعات هذا "أَعْناقٌ" أَوْ يكون ذكّره لاضافته الى المذكّر كما يؤنّث لاضافته الى المؤنث

نحو قوله: [من الطويل وهو الشاهد السابع والخمسون بعد المئتين]:

وَتشْرَقُ بالقَوْلِ الذي قَدْ أَذَعْتَهُ * كَما شَرِقَتْ صَدْرُ القَنَاةِ مِنَ الدَّمِ

وقال آخر: [من الرجز وهو الشاهد الثامن والخمسون بعد المئتين]:

* لَمَا رَأَى مَتْنَ السَّمَاءِ انْقَدَّتِ *

وقال: [من الطويل وهو الشاهد التاسع والخمسون بعد المئتين]:

إذَا القُنْبُضَاتُ طَوَّفْنَ بالضُّحى * رَقَدْنَ عَلَيْهِنَّ الحِجَالُ المُسَجَّفُ

[155 ب] و"القُنْبُضُ": القصير . وقال آخر: [من الطويل وهو الشاهد الستون بعد المئتين]:

وإنَّ امْرَءاً أَهْدَى إلَيْكِ وَدُونَهُ * من الأَرْضِ مَوْمَاةٌ وبَيْداءُ خَيْفَقُ

لَمَحْقُوقَةٌ أَنْ تَسْتَجِيبِي لِصَوْتِهِ * وَأَنْ تَعْلَمِي أَنَّ المُعَانَ مُوَفَّقُ

فأَنَّث . والمحقوق هو المرء . وانما انث لقوله "أَنْ تَسْتَجِيبِي لِصَوْتِهِ" ويقولون: "بَنَاتُ عُرْسٍ" و"بَنَاتُ نَعْشٍ" و"بَنُو نَعْشٍ" وقالت امرأة من العرب "أَنَا امْرُؤٌ لا أُحِبُ الشَرَّ" . وذكر لرؤبة

رجل فقال "كانَ أَحَدَ بناتِ مَساجِدِ الله" كأنه جعله حصاة .

﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

(70/565)

وقال ﴿ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ وهذا يشبه أن يكون مثل "العَدُوّ" وتقول "هما عَدُوٌّ لي" .

﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾

وقال ﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ ﴾ فيقال هذا استفهام كأنّه قال "أَوَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّها" ثم فسر فقال ﴿ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ وجعله بدلاً من النعمة .

﴿ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴾

وقال ﴿ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ ﴾ أي: "هَلْ يَسْمَعُونَ منكُم: أَوْ "هَلْ يَسْمَعُونَ دعاءَكم" . فحذف "الدعاءَ" كما قال الشاعر: [من البسيط وهو الشاهد الحادي والستون بعد المئتين]:

القائدُ الخَيْلَ مَنْكُوباً دَوابِرُها * قَدْ أُحْكِمَتْ حَكَماتُ القِدّ والأَبَقا

تريد: أُحْكِمَتْ حَكَمات الأَبَق . [156] فحذف "حَكَماتِ" وأقامَ "الأَبَقَ" مُقامَهَا .

و"الأَبَقُ": الكِتّان .

﴿ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾

وقال ﴿ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ ﴾ اسم في موضع رفع مثل ﴿ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ ﴾ ولكن هذا لا يكون فيه الا النصب في الأول ﴿ أَن يَعْلَمَهُ ﴾ هو الذي يكون آية وقد يجوز الرفع وهو ضعيف .

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الأَعْجَمِينَ ﴾

وقال ﴿ عَلَى بَعْضِ الأَعْجَمِينَ ﴾ واحدُهم "الأَعْجَمُ" وهو اضافة كالأَشْعَرِين .

﴿ لاَ يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ * فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ * فَيَقُولُواْ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴾

وقال ﴿ لاَ يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ ﴾ ﴿ فَيَأْتِيَهُم ﴾ ليس بمعطوف على ﴿ حَتَّى ﴾ إنَّما هو جوابٌ لقوله ﴿ لاَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ فلما كان جوابا للنفي انتصب وكذلك ﴿ فَيَقُولُواْ ﴾ انما هو جواب للنفي .

وقال ﴿ إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴾ أَيْ: فَاسْمَعُوا مني . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للأخفش حـ 2 صـ 460. 463 ﴾

(71/565)

وقال الإمام ابن قتيبة :

سورة الشعراء

مكية كلها إلا خمس آيات من آخرها

7 – مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ أي من كل جنس حسن .

14 – وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ أي عندي ذنب .

16 – نَّا رَسُولُ رَبِّ الْعالَمِينَ

الرسول يكون بمعنى الجميع ، كما يكون الضيف . قال : هؤُلاءِ ضَيْفِي [سورة الحجر آية : 68] .

وكذلك الطفل ، قال : ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا [سورة الحج آية : 5] .

وقال ابو عبيدة : «رسول بمعنى : رسالة» . وأنشد :

لقد كذب الواشون ، ما بحت عندهم بسر ، ولا أرسلتهم برسول

أي برسالة .

19 – وَأَنْتَ مِنَ الْكافِرِينَ للنّعمة .

20 – قالَ : فَعَلْتُها إِذاً وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ . قال ابو عبيدة : «يعني من الناسين» . واستشهد بقوله عز وجل في موضع آخر : أَنْ تَضِلَّ إِحْداهُما أي تنسي ، فَتُذَكِّرَ إِحْداهُمَا الْأُخْرى [سورة البقرة آية :

282].

22 - عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرائِيلَ : اتّخذتهم عبيدا .

(72/565)

---

36 - أَرْجِهْ وَأَخاهُ أي أخّره وأخاه .

50 - قالُوا لا ضَيْرَ هي من «ضاره يضوره ويضيره» بمعنى :

ضرّه . وقد قرىء بها : وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا : لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً : يعني : لا يضركم

شيئا .

54 - إِنَّ هؤُلاءِ لَشِرْذِمَةٌ أي طائفة .

60 - فَأَتْبَعُوهُمْ : لحقوهم مُشْرِقِينَ : مصبحين حين شرقت الشمس ، أي طلعت . يقال :

اشرقنا ، أي دخلنا في الشّروق . كما يقال :

أمسينا وأصبحنا ، إذا دخلنا في المساء والصّباح . ومنه قول العرب الجاهلية :

«أشرق ثبير ، كيما نغير» . . أي أدخل في شروق الشمس .

63 - و(الطّود) : الجبل .

64 - وَأَزْلَفْنا ثَمَّ الْآخَرِينَ قال الحسن : أهلكنا .

وقال غيره: جمعنا. أراد: جمعناهم في البحر حتى غرقوا. قال: ومنه قيل: «ليلة المزدلفة» أي ليلة الازدلاف، وهو: الاجتماع. ولذلك قيل للموضع: «جمع».

ويقال: أَزْلَفْنا: قدّمنا وقرّبنا. ومنه «أزلفك اللّه» أي قربك.

ويقال أزلفني كذا عند فلان، أي قرّبني منه منظرا. و«الزّلف»: المنازل والمراقي. لأنها تدنوا بالمسافر والراقي والنازل.

وإلى هذا ذهب قتادة، فقال قرّبهم اللّه من البحر حتى أغرقهم فيه، ومنه: وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ [سورة الشعراء الآية: 90] أي أدنيت.

وكلّ هذه التأويلات متقاربة: يرجع بعضها إلى بعض.

89 - إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ أي خالص من الشّرك.

94 - فَكُبْكِبُوا فِيها أي ألقوا على رؤوسهم. وأصل الحرف:

«كبّبوا» من قولك: كببت الإناء. فأبدل من الباء الوسطى كافا: استثقالا

(73/565)

لأجتماع ثلاث باءات. كما قالوا: «كمكموا» من «الكمّة» - وهي: القلنسوة - والأصل: «كمّموا».

118 - فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ أي احكم بيني وبينهم واقض . ومنه قيل للقاضي : الفتّاح .

119 - والْفُلْكِ الْمَشْحُونِ : المملوء . يقال : شحنت الإناء ، إذا ملأته .

128 - (الريع) : الارتفاع من الأرض . جمع «ريعة» . قال ذو الرّمّة يصف بازيا :

طراق الخوافي مشرقا فوق ريعة ندى ليله في ريشه يترقرق

والرّيع أيضا : الطريق . قال المسيب بن علس - وذكر ظعنا - :

في الآل يحفضها ويرفعها ريع يلوح كأنه سحل

و«السّحل» : الثوب الأبيض . شبّه الطريق به .

والْآيَةَ : العلم .

129 - و(المصانع) : البناء . واحدها : «مصنعة» .

لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ أي كيما تخلدوا . وكأن المعنى : انهم كانوا يستوثقون في البناء والحصون ، ويذهبون إلى أنها تحصّنهم من أقدار اللّه عز وجل .

130 - وَإِذا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ يقول إذا ضربتم : ضربتم بالسياط ضرب الجبّارين ، وإذا عاقبتم قتلتم .

137 - إِنْ هذا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ أراد : اختلاقهم وكذبهم . يقال :

خلقت الحديث واختلقته ، إذا افتعلته . قال الفراء : «والعرب تقول للخرافات . أحاديث الخلق» .

ومن قرأ : إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ، أراد : عادتهم وشأنهم .

148 - طَلْعُها هَضِيمٌ والهضيم : الطّلع قبل أن تنشقّ عنه القشور وتنفتح .

يريد : أنه منضم مكتنز . ومنه قيل : اهضم الكشحين ، إذا كان منضمّهما .

149 - فارِهِينَ : أشرين بطرين . ويقال : الهاء فيه مبدلة من حاء ، أي فرحين .

و«الفرح» قد يكون : السرور ، ويكون : الأشر . ومنه قول اللّه عز وجل : إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ [سورة القصص آية : 76] أي الأشرين .

ومن قرأ : فارِهِينَ ، فهي لغة اخرى . يقال : فره وفاره ، كما يقال : فرح وفارح .

ويقال : فارِهِينَ : حاذقين .

153 - إِنَّما أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ أي من المعلّلين بالطعام والشراب .

يريدون : إنما أنت بشر . وقد تقدم ذكر هذا .

155 - لَها شِرْبٌ أي حظّ من الماء .

168 - مِنَ الْقالِينَ أي من المبغضين . يقال : قليت الرجل ، أي أبغضته .

176 - الْأَيْكَةِ : الغيضة . وجمعها : «أيك» .

184 - الْجِبِلَّةَ : الخلق . يقال : جبل فلان على كذا وكذا ، أي خلق . قال الشاعر :

والموت أعظم حادث مما يمر على الجبلّة

187 - فَأَسْقِطْ عَلَيْنا كِسَفاً ، أي قطعة مِنَ السَّماءِ . يقال :

كسف وكسفة ، كما يقال : قطع وقطعة . و«كسف» جمع «كسفة» ، كما يقال : قطع

[جمع قطعة] .

(75/565)

---

197 - أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً ، أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَماءُ بَنِي إِسْرائِيلَ ؟ ! ؟ أي علامة .

198 - عَلى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ يقال : رجل أعجم ، إذا كانت في لسانه عجمة ، ولو كان

عربيّ النّسب ، ورجل اعجميّ : إذا كان من العجم ، وإن كان فصيح اللسان .

200 - كَذلِكَ سَلَكْناهُ يعني : التكذيب ، أدخلناه فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ .

212 - إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ أي عن الاستماع بالرّجم .

223 - وقوله : يُلْقُونَ السَّمْعَ أي يسترقونه .

224 - يَتَّبِعُهُمُ الْغاوُونَ : قوم يتّبعونهم يتحفّظون سبّ النبي - صلى اللّه عليه وعلى آله

وسلّم - ويروونه .

225 - أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وادٍ يَهِيمُونَ ؟ ! أي في كل واد من القول ، وفي كل مذهب يَهِيمُونَ : يذهبون كما يذهب الهائم على وجهه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تأويل مشكل القرآن صـ 275.271 ﴾

(76/565)

وقال الغزنوى :

ومن سورة الشعراء

4 فَظَلَّتْ أَعْناقُهُمْ لَها خاضِعِينَ : جماعاتهم ، عن عنق من النّاس :

جماعة «1» .

وقيل «2» : رؤساؤهم ، ومن حملها على ظاهرها استعارة فتذكيرها للإضافة إلى

المذكر .

ومعنى «ظلت» تظلّ ، والماضي في الجزاء بمعنى المستقبل ، كقولك :

إن زرتني أكرمتك ، أي : أكرمك «3» .

7 زَوْجٍ كَرِيمٍ : منتفع به ، ك الكريم في النّاس : النّافع المرضيّ ، ومعنى الزوج : كلّ نوع معه

قرينه من أبيض وأحمر وأصفر ، ومن حلو وحامض ، ومن رائحة مسكيّة وكافوريّة .

13 فَأَرْسِلْ إِلى هارُونَ : ليعينني ويؤازرني «4» .

---

(1) ذكر الأخفش هذا القول في معانيه : 2/ 644 ، وقال الزجاج في معانيه : 4/ 83 : «وجاء في اللغة : جماعاتهم ، يقال : جاء لي عنق من الناس ، أي : جماعة» .

(2) ذكره الفراء في معانيه : 2/ 277 ، والطبري في تفسيره : 19/ 59 ، ونقله البغوي في تفسيره : 3/ 381 ، والقرطبي في تفسيره : 13/ 89 عن مجاهد .

وانظر المفردات للراغب : 350 ، وزاد المسير : 6/ 116 .

(3) ينظر معاني القرآن للأخفش : 2/ 644 ، وإعراب القرآن للنحاس : 3/ 174 ، والبحر المحيط : 7/ 5 .

(4) قال الفراء في معانيه : 2/ 278 : «ولم يذكر معونة ولا مؤازرة . وذلك أن المعنى معلوم كما تقول : لو أتاني مكروه لأرسلت إليك ، ومعناه : لتعينني وتغيثني وإذا كان المعنى معلوما طرح منه ما يرد الكلام إلى الإيجاز» .

(77/565)

---

16 نَّا رَسُولُ

: يذكر الرسول بمعنى الجمع «1» ، أو كلّ واحد منا رسول «2» .

أو هو في موضع رسالة فيكون صفة بمعنى المصدر «3» .

20 وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ : الجاهلين «4» بأنّها تبلغ القتل . ومعنى إِذاً : إذ ذاك «5» .

19 وَأَنْتَ مِنَ الْكافِرِينَ : أي : بحق نعمتي وتربيتي «6» .

22 وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّها عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرائِيلَ : كأنّه اعترف بنعمته أن «7» لم يستعبده كما استعبدهم ، أو هو على الإنكار «8» ، وتقدير الاستفهام ، كأنه : أو تلك نعمة ؟ أي : تربيتك نفسا مع إساءتك إلى الجميع .

32 ثُعْبانٌ مُبِينٌ : أي : وجه الحجة به .

36 أَرْجِهْ «9» : أخّره واحبسه .

---

(1) ذكره اليزيدي في غريب القرآن : 281 ، وابن قتيبة في تفسير غريب القرآن : 316 .

(2) أورده الماوردي في تفسيره : 3/ 172 ، وقال : «ذكره ابن عيسى» .

وذكره البغوي في تفسيره : 3/ 382 دون عزو ، وكذا الزمخشري في الكشاف : 3/ 108 .

(3) هذا قول أبي عبيدة في مجاز القرآن : 2/ 84 ، وذكره اليزيدي في غريب القرآن : 281 ، ونقله ابن قتيبة في تفسير غريب القرآن : 316 عن أبي عبيدة .

وانظر تفسير الطبري : 19/ 65 ، ومعاني القرآن للزجاج : 4/ 85 ، وتفسير الماوردي

:

3/ 172.

(4) تفسير الطبري: 19/ 67، ومعاني القرآن للزجاج: 4/ 86، وتفسير الماوردي: 3/ 172.

والضمير في قول المؤلف: «بأنها» يرجع إلى الضربة التي قتل بها موسى عليه السلام القبطي.

(5) تفسير القرطبي: 13/ 95.

(6) ينظر معاني القرآن للفراء: 2/ 279، وتفسير الطبري: 19/ 66، ومعاني الزجاج: 4/ 86.

(7) في «ك»: أنه، وفي معاني القرآن للفراء: 2/ 279: «يقول: هي - لعمري - نعمة إذ ربيتني ولم تستعبدني كاستعبادك بني إسرائيل. ف «أن» تدل على ذلك».

(8) ذكره الزجاج في معانيه: 4/ 86. [. . . . .]

(9) تقدم بيان معنى هذه اللفظة عند تفسير قوله تعالى: قالُوا أَرْجِهْ وَأَخاهُ . . . فِي الْمَدائِنِ حاشِرِينَ [الأعراف: آية: 111].

[71/أ] لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ «1» : أي : كلّ واحد / قليل ذليل ، فجمع على المعنى «2» .

وشرذمة كلّ شيء : بقيّته «3» ، وكانوا ستمائة ألف وسبعين ألفا «4» .

56 حذرون «5» : متيقظون «6» ، وحاذِرُونَ : مستعدون بالسلاح ونحوه «7» .

وأصل «فعل» للطبع و «فاعل» للتكلّف «8» .

60 مُشْرِقِينَ : داخلين في وقت شروق الشّمس وهو طلوعها «9» .

---

(1) من قوله تعالى : إِنَّ هؤُلاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ [آية : 54] .

(2) ينظر تفسير الطبري : 19/ 75 ، ومعاني القرآن للزجاج : 4/ 91 ، وتفسير الماوردي :

3/ 174 .

(3) مجاز القرآن لأبي عبيدة : 2/ 86 ، وتفسير الطبري : 19/ 74 ، والمحرر الوجيز : 11/ 111 .

(4) ورد هذا القول في أثر أخرجه الطبري في تفسيره : 19/ 75 عن ابن مسعود رضي اللّه عنه ، وكذا ابن أبي حاتم في تفسيره : 100 (سورة الشعراء) .

وأورده السيوطي في الدر المنثور : 6/ 295 ، وزاد نسبته إلى الفريابي ، وعبد بن حميد

، وابن المنذر عن ابن مسعود .

وانظر معاني القرآن للزجاج : 4/ 91 ، وتفسير الماوردي : 3/ 174 ، ومفحمات الأقران :

151 .

(5) «حذرون» بغير ألف ، قراءة أبي عمرو بن العلاء ، ونافع ، وابن كثير .

السبعة لابن مجاهد : 471 ، والتبصرة لمكي : 278 ، والتيسير لأبي عمرو الداني :

165 .

(6) ينظر معاني القرآن للزجاج : 4/ 92 ، وحجة القراءات : 517 ، وتفسير الماوردي :

3/ 175 .

(7) «حاذرون» بألف ، قراءة عاصم ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي ، كما في السبعة لابن مجاهد : 471 ، والتيسير للداني : 165 .

(8) معاني القرآن للفراء : 2/ 280 ، وغريب القرآن لليزيدي : 282 ، وتفسير الطبري :

19/ 77 ، والكشف لمكي : 2/ 151 .

(9) تفسير الماوردي : 3/ 175 .

---

63 كُلُّ فِرْقٍ : كلّ جزء انفرق منه . والفرق والفريقة : القطيع من الغنم يشذّ عن معظمها «1» .

64 وَأَزْلَفْنا ثَمَّ الْآخَرِينَ : قرّبناهم إلى البحر - بحر القلزم «2» - الذي يسلك النّاس فيه من اليمن ومكة إلى مصر .

66 ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ : الآخر الثاني من قسمي أحد ، كقولك : أعطي أحدهما وحرم الآخر ، والآخر الثاني من قسمي الأول تقول : أعطي الأول وحرم الآخر .

67 وَما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ : أي : لم يؤمن أكثرهم مع هذا البرهان فلا تستوحش أيها المحق «3» .

77 فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعالَمِينَ : أي : إلّا من عبد ربّ العالمين «4» .

82 أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي : على التلطف فيما هو كائن كالعلم إذا جاء على المظاهرة في الحجاج ذكر بالظن ، أي : يكفي في مثله الظن «5» .

84 لِسانَ صِدْقٍ : ثناء حسنا ، أو خلفا يصدّق بالحق بعدي ، وهو محمد صلى اللّه عليه وسلم والمؤمنون «6» به .

---

(1) ذكره الزجاج في معانيه : 4/ 92 ، وابن الجوزي في زاد المسير : 6/ 126 .

ينظر الصحاح : (4/ 1542 ، 1543) ، واللسان : 10/ 304 (فرق) .

(2) وهو المعروف الآن بالبحر الأحمر .

(3) قال الفخر الرازي – رحمه اللّه – في تفسيره : 24/ 141 : «وفي ذلك تسلية له (أي النبي صلى اللّه عليه وسلم) فقد كان يغتم بتكذيب قومه مع ظهور المعجزات عليه فنبهه اللّه تعالى بهذا الذكر على أن له أسوة بموسى وغيره ، فإن الذي ظهر على موسى من هذه المعجزات العظام التي تبهر العقول لم يمنع من أن أكثرهم كذبوه وكفروا به مع مشاهدتهم لما شاهدوه في البحر وغيره . فكذلك أنت يا محمد لا تعجب من تكذيب أكثرهم لك واصبر على إيذائهم فلعلهم أن يصلحوا ويكون في هذا الصبر تأكيد الحجة عليهم» اه .

(4) ذكر البغوي هذا القول في تفسيره : 3/ 389 عن الحسين بن الفضل . [. . . . .]

(5) ينظر تفسير الفخر الرازي : 24/ 145 .

(6) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز : 11/ 125 عن مكي ، ثم قال : «وهذا معنى حسن إلا أن لفظ الآية لا يعطيه إلا بتحكم في اللفظ» .

86 وَاغْفِرْ لِأَبِي : اجعله من أهل المغفرة .

89 بِقَلْبٍ سَلِيمٍ : مسلم أو سالم من الشّكّ «1» ، والجوارح إنّما تسلم بسلامة القلب .

94 فَكُبْكِبُوا : قلبوا بعضهم على بعض «2» ، أو كبّوا وأسقطوا على وجوههم «3» ، وحقيقته تكرر الانكباب «4» .

98 نُسَوِّيكُمْ : نشرككم في العبادة .

101 صَدِيقٍ حَمِيمٍ : قريب . حمّ الشّيء : قرب «5» ، أو الصّديق : الذي يصدق في المودّة ، والحميم : الذي يحمي لغضب صاحبه «6» .

128 رِيعٍ : مكان مشرف «7» ، آيَةً : بناء يكون لارتفاعه كالعلامة .

137 خُلُقُ «8» الْأَوَّلِينَ : خرصهم واختلاقهم «9» ، وإن أراد الإنشاء

---

(1) أخرج الطبري نحو هذا القول في تفسيره : 19/ 87 عن مجاهد .

وقال البغوي في تفسيره : 3/ 390 : «أي خالص من الشرك والشك ، فأما الذنوب فليس يسلم منها أحد ، هذا قول أكثر المفسرين» .

(2) غريب القرآن لليزيدي : 282 ، ومعاني الزجاج : 4/ 94 ، ومعاني النحاس : 5/ 89 .

(3) ذكره الطبري في تفسيره : 19/ 88 ، ونقله الماوردي في تفسيره : 3/ 179 عن ابن زيد ، وقطرب .

وانظر المفردات للراغب : 420 ، وتفسير القرطبي : 13/ 116 .

(4) هذا قول الزجاج في معانيه : 4/ 94 ، ونص كلامه : «و معنى «كبكبوا» طرح بعضهم على بعض ، وقال أهل اللغة : معناه هوّروا ، وحقيقة ذلك في اللغة تكرير الانكباب كأنه إذا ألقى ينكبّ مرة بعد مرة حتى يستقر فيها يستجير باللّه منها» .

وانظر اللسان : 1/ 697 (كبب) ، وزاد المسير : 6/ 132 .

(5) الصحاح : 5/ 1904 ، واللسان : 12/ 152 (حمم) .

(6) ذكره الماوردي في تفسيره : 3/ 180 عن ابن عيسى .

(7) ينظر مجاز القرآن لأبي عبيدة : 2/ 88 ، وغريب القرآن لليزيدي : 283 ، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 318 ، وتفسير الطبري : 19/ 93 ، والمفردات للراغب : 208 .

(8) بفتح الخاء المعجمة وإسكان اللام ، قراءة الكسائي ، وأبي عمرو ، وابن كثير . السبعة لابن مجاهد : 472 ، والتبصرة لمكي : 278 ، والتيسير للداني : 166 .

(9) ينظر معاني القرآن للفراء : 2/ 281 ، وتفسير الطبري : 19/ 97 ، ومعاني القرآن للزجاج : 4/ 97 .

فالمعنى : ما خلقنا إلا كخلق الأولين ونراهم يموتون ولا يبعثون .

و«خلق «1» الأولين» بالضّم : عادتهم في ادعاء الرسالة «2» ، فيرجع الضمير إلى الأنبياء أو إلى آبائهم ، أي : تكذيبنا لك كتكذيب آبائنا للأنبياء .

148 طَلْعُها / هَضِيمٌ «3» : منضمّ منفتق انشق عن البسر لتراكب «4» بعضه بعضا .

149 فرهين «5» : أشرين ، وفارهين : حاذقين «6» .

153 الْمُسَحَّرِينَ : المسحورين مرّة بعد أخرى «7» . وقيل : المعلّلين بالطعام والشراب .

ولم يقل في شعيب : أخوهم «8» ، لأنه لم يكن من نسبهم «9» .

---

(1) بضم الخاء واللام ، قراءة نافع ، وابن عامر ، وعاصم ، وحمزة .

(2) ينظر معاني الفراء : 2/ 281 ، ومعاني القرآن للزجاج : 4/ 97 ، والبحر المحيط : (7/ 33 ، 34) .

(3) قال ابن قتيبة في تفسير غريب القرآن : 319 : «والهضيم : الطلع قبل أن تنشق عنه القشور وتنفتح . يريد : أنه منضم مكتنز . ومنه قيل : أهضم الكشحين ، إذا كان منضمهما» . [. . . . .]

(4) في «ج» : كتراكب .

(5) «فرهين» بغير ألف قراءة ابن كثير، ونافع وأبي عمرو، وقرأ عاصم وابن عامر، وحمزة، والكسائي «فارهين» بألف.

ينظر السبعة لابن مجاهد: 472، والتبصرة لمكي: 278، والتيسير للداني: 166.

(6) راجع هذا المعنى، وتوجيه القراءتين في معاني القرآن للفراء: 2/ 282، ومجاز القرآن لأبي عبيدة: 2/ 88.

(7) ذكره الزجاج في معانيه: 4/ 97 فقال: «وجائز أن يكون من المسحرين، من «المفعلين» من السحر، أي ممن قد سحر مرة بعد مرة».

وانظر تفسير الطبري: 19/ 102، وتفسير الماوردي: 3/ 183.

(8) إشارة إلى قوله تعالى: إِذْ قالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلا تَتَّقُونَ [آية: 177].

(9) قال ابن الجوزي في زاد المسير: 6/ 141: «إن قيل: لم لم يقل: أخوهم كما قال في الأعراف؟ (آية: 85)، فالجواب: أن شعيبا لم يكن من نسل أصحاب الأيكة، فلذلك لم يقل: أخوهم، وإنما أرسل إليهم بعد أن أرسل إلى مدين، وهو من نسل مدين، فلذلك قال هناك: أخوهم».

وانظر تفسير البغوي: 3/ 397، وتفسير القرطبي: 13/ 135.

182 بِالْقِسْطَاسِ : بالميزان «1» ، وقيل «2» : بالعدل .

189 يَوْمِ الظُّلَّةِ : أظلهم سحاب فاستظلّوا بها من حرّ نالهم فأطبق عليهم فاحترقوا «3» .

193 - قوله تعالى : نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ : جبريل عليه السلام لأنّ الأرواح تحيى بما ينزله من البركات ، أو لأنّ جسمه رقيق روحانيّ ، أو الحياة أغلب عليه فكأنّه روح كله .

عَلى قَلْبِكَ : أي : نزل عليه فوعاه فثبت فيه فلا ينساه .

197 أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَماءُ بَنِي إِسْرائِيلَ : أَنْ يَعْلَمَهُ اسم كان ، وآيةً خبرها ، أي : أو لم يكن علم علماء بني إسرائيل ومن آمن منهم بمحمد - عليه السلام - آية لهم ؟ .

198 عَلى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ : أي : إذا لم يؤمنوا به وأنفوا ، كذلك حالهم ، وقد أنزلنا عليهم وسلكناه في قلوبهم ، أي : هم معاندون .

وحكى [محمد] «4» بن أبي موسى قال : كنت واقفا بعرفات مع عبد اللّه بن مطيع «5» فقرأت هذه الآية ، فقال : لو أنزل على جملي هذا وعلى كلّ

---

(1) ذكره الطبري في تفسيره : 19/ 108 ، ونقله الماوردي في تفسيره : 3/ 183 عن الأخفش ، والكلبي .

(2) مجاز القرآن لأبي عبيدة : 2/ 90 ، وغريب القرآن لليزيدي : 284 ، والمفردات للراغب : 403 .

(3) ينظر تفسير الطبري : (19/ 109 ، 110) ، وتفسير ابن كثير : 6/ 170 ، والدر المنثور : 6/ 320 .

(4) في الأصل ونسخة «ك» و«ج» : عمر بن أبي موسى ، والتصويب من تفسير الطبري : 19/ 114 ، والتاريخ الكبير للبخاري : 1/ 236 ، وتهذيب التهذيب : 9/ 483 .

(5) هو عبد اللّه بن مطيع بن الأسود بن حارثة القرشي العدوي المدني ، صحابي جليل . أمره ابن الزبير على الكوفة ، وقتل معه بمكة سنة ثلاث وسبعين للهجرة .

ينظر ترجمته في الاستيعاب : 3/ 994 ، وأسد الغابة : 3/ 393 ، والإصابة : 5/ 25 .

وأشار الحافظ ابن حجر إلى هذا الأثر عن عبد اللّه بن مطيع ، وعزا إخراجه إلى البغوي من طريق داود بن أبي هند عن محمد بن أبي موسى .

ووصف هذا الأثر بأنه موقوف .

دابّة عجماء فقرأ عليهم ما كانوا به مؤمنين «1» .

214 وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ : خصّهم لأنّه يمكنه أن يجمعهم .

أو الإنسان يساهل قرابته ، فأمر بإنذارهم من غير تليين ، أو ليعلموا أنّه لا يغني عنهم من اللّه شيئا «2» .

218 يَراكَ

: رؤية اللّه الإدراك بما يغني عن بصره «3» .

219 وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ : ليكفيك كيد من يعاديك .

223 يُلْقُونَ السَّمْعَ : الكهنة «4» .

225 يَهِيمُونَ : يجارون ويكذبون «5» .

227 وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ ما ظُلِمُوا : شعراء المسلمين نافحوا عن النّبي صلى اللّه عليه وسلم قال عليه السلام لحسّان : «اللّهم أيده بروح القدس» «6» . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ معانى القرآن / للغزنوى حـ 2 صـ 620. 627 ﴾

---

(1) أخرج نحوه الطبري في تفسيره : 19/ 114 عن عبد اللّه بن مطيع موقوفا .

(2) يدل عليه الحديث الذي أخرجه الإمامان البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي اللّه تعالى عنه قال : «قام رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم حين أنزل اللّه : وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ، قال : يا معشر قريش - أو كلمة نحوها - اشتروا أنفسكم لا أغنى عنكم من اللّه

شيئا ، يا بني عبد مناف لا أغنى عنكم من اللّه شيئا يا عباس بن عبد المطلب لا أغنى عنك من اللّه شيئا . . . » .

الحديث في صحيح البخاري : 6/ 17 ، كتاب التفسير ، باب قوله : وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ، وصحيح مسلم : (1/ 192 ، 193) ، كتاب الإيمان ، باب في قوله تعالى : وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ .

(3) الأولى إجراء هذه الصفة على ظاهرها بما يليق بجلاله ، ولا داعي لمثل هذا التأويل .

[. . . . .]

(4) أي أن الشياطين يسترقون السمع ثم يلقون ما سمعوه إلى أوليائهم من الإنس وهم الكهنة .

ينظر تفسير الطبري : 19/ 125 ، وتفسير البغوي : 3/ 402 ، وزاد المسير : 6/ 149 .

(5) تفسير الطبري : 19/ 128 ، ومعاني القرآن للزجاج : 4/ 104 .

(6) أخرجه الإمام البخاري – رحمه اللّه تعالى – في صحيحه : 4/ 79 ، كتاب بدء الخلق ، باب «ذكر الملائكة صلوات اللّه عليهم» .

والإمام مسلم – رحمه اللّه تعالى – في صحيحه : 4/ 1933 ، كتاب فضائل الصحابة ، باب «فضائل حسان بن ثابت رضي اللّه عنه» .

وقال ملا حويش :

تفسير سورة الشعراء

عدد 47 - 26

نزلت بمكة بعد الواقعة عدا الآيات 197 ومن 224 إلى آخر السورة ، فإنها نزلت بالمدينة وهي مائتان وسبع وعشرون آية ، وألف ومائتان وتسع وتسعون كلمة ، وخمسة آلاف وأربعون حرفا ، ويوجد في القرآن سورة القصص مبدوءة بمثل ما بدئت به هذه فقط ، أما سورة النمل فهي بغير ميم لا نظير لها في القرآن ، إلا أنه يعبر عن هذه السور الثلاث بالطواسيم ، كما يعبر عن السور السبع الآتية في ج 2 بالحواميم ، وآل حاميم ، لأنها مبدوءة بلفظ حم .

"بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ"

قال تعالى : "طسم" 1 القول في معناه كالقول في معنى الم وبقية الحروف المقطعة ، وعلى القول بأن هذه اللفظة قسم من اللّه تعالى ، فيقال إنه أقسم بطوله وسنائه وملكه ، وعلى القول بأنها مفاتيح بعض أسمائه تعالى فهي مفتاح اسمه السلام والمالك والمحيي وشبهها ، والصحيح أنه رمز بين اللّه ورسوله ، راجع بحث الفرق بين الوحي والإلهام في المقدمة "تِلْكَ" أي هذه الآيات المنزلة عليك يا سيد الرسل هي "آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ" 2 لكل شيء الظاهر إعجازه لكل أحد الدال على صحة نبوتك "لَعَلَّكَ" يا حبيبي "بَاخِعٌ نَفْسَكَ" البخع أن يبلغ الذابح البخاع وهو عرق مستبطن الفقار أو أقصى حد الذبح ، ولم تكرر هذه الكلمة في القرآن لا في سورة الكهف الآية 6 في ج 2 ، ولعلّ للإشفاق وتقال للتعطف على من تحبه إذا رأيته مبالغا بأمر يؤثر عليه مادة أو معنى شفقة عليه ، أي مالك متلف نفسك من أجل "أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ" 3 أي لا تفعل هذا بسبب عدم إيمان قومك بل تريث عليهم وتمهل على نفسك وارفق بها من أن تهلكها حسرة وأسفا وجهدا "إِنْ نَشَأْ" نحن إله السموات والأرض إيمانهم قسرا إجابة لاستعجالك "نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً" عظيمة تلجئهم إلى الإيمان حالا "فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا" للخوف من تلك الآية المهولة "خَاضِعِينَ" 4 منقادين إلى الطاعة لا ينفكون عنها أبدا ، فلا ترى منهم من

يميل إلى عصيانك ولكنّا لا نفعل ذلك لأن الإيمان الجبري لا عبرة به ، ولو كان له قيمة لآمن يوم القيامة جميع الخلق لما يشاهدون من الأهوال ، ولآمن كل من في الدنيا حين يقع في يأس أو بأس ، فاتركهم الآن ، لأن شأنهم شأن أمثالهم الكفرة من أمم الرسل السالفة ، راجع تفسير الآية 8 من سورة فاطر والآية 171 من سورة الأعراف المارتين "وَ" هؤلاء "ما يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ" قرآن يتذكرون به "مِنَ الرَّحْمنِ مُحْدَثٍ" إنزاله عليك وتلاوته عليهم بحسب الحاجة والواقع مما هو أزلي في علمنا "إِلَّا كانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ" مولين لا يلتفتون إليه ، وهكذا كلما جدد الله لهم ذكرا ليتعظوا به ، جددوا له كفرا وإعراضا "فَقَدْ كَذَّبُوا" بك يا حبيبي وبما أنزلناه عليك كما كذب الأولون أنبياءهم وكتبهم ، فلا يهمنك تكذيبهم وإعراضهم "فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبؤُا" أخبار وعواقب "ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ" 6 عند ما يمسهم عذاب الدنيا بالجلاء والأسر والقتل وعذاب الآخرة بالخزي والهوان والإحراق يعلمون نتيجة استهزائهم وعاقبة تكذيبهم ، ثم ضرب مثلا لمنكري البعث بعد أن هددهم بما تقدم فقال جل قوله "أَ وَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ" 7 محمود كثير المنفعة بعد أن كانت لا شيء فيها قبل إنزال الغيث "إِنَّ فِي ذلِكَ" الإنبات لأنواع الحبوب والأزهار والأب لقوت الإنسان والحيوان والطير والحيتان "لَآيَةً" كافية على قدرتنا لإحيائكم بعد الموت وعلى وجوب إيمانكم بنبيئنا وكتابنا :

تأمل في نبات الأرض وانظر إلى آثار ما صنع المليك

عيون من لجين شاخصات بأهداب هي الذهب السبيك

على قضب الزبرجد شاهدات بأن اللّه ليس له شريك

(87/565)

و المراد بهذا النبات هو النرجس ، ممن كان له عقل سليم عرف بمجرد تأمله وتفكره في ذلك عظمة القادر فآمن به وصدق رسوله وكتابه ، وهؤلاء قليل "وَما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ" 8 لتوغلهم بالكفر وتماديهم في الضلال "وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ" الغالب القوي القادر على الانتقام منهم "الرَّحِيمُ" 9 بأوليائه يقيهم شر أعدائه وينصرهم عليهم ويهلكهم عند يأس أنبيائه من إيمانهم "وَ" اذكر لقومك

يا سيد الرسل "إِذْ نادى رَبُّكَ مُوسى " من الشجرة كما مر في الآية 12 من سورة طه فقال له "أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ" 10 أنفسهم بالكفر وبني إسرائيل بالعسف ،

(88/565)

ثم بين هؤلاء القوم بقوله اعني "قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلا يَتَّقُونَ" 11 عقوبة اللّه فيؤمنوا به ويتركوا الإسرائيليين ، وقد ذكرهم اللّه في هذه القصة علهم ينتبهوا من سباتهم فيخافوا العاقبة فيؤمنوا به "قالَ رَبِّ إِنِّي أَخافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ 12 وَيَضِيقُ صَدْرِي" بتكذيبهم "وَلا يَنْطَلِقُ لِسانِي" بسبب العقدة العائقة عن الفصاحة في النطق ، وتقدم في الآية 28 من طه أنها في قوة التكلم لا في الجارحة نفسها وقد بينا هناك ماهيتها وسببها "فَأَرْسِلْ إِلى هارُونَ" 13 يعينني على التبليغ بمهابته وقوة نطقه "وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ" بقتل القبطي منهم "فَأَخافُ أَنْ يَقْتُلُونِ" 14 به قصاصا ، وستأتي قصته مفصلة في الآية 14 من سورة القصص الآتية ، "قالَ كَلَّا" لا يقتلونك ولا يضربونك أبدا فأنا حافظك منهم (نذكر بأن كلمة كلّا هذه المفيدة للزجر والردع كررت في القرآن العظيم ثلاثا وثلاثين مرة منها ما يجوز الوقف عليها ومنها ما لا يجوز) "فَاذْهَبا" اليه أنت وأخوك لأني آزرتك به حسب طلبك متلبسين ومتقوين "بِآياتِنا" التي هي النبوة والرسالة وبرهانهما اليد والعصا وهما أول ما أعطيهما موسى عليه السلام "إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ" 15 ما تقولانه له وما يقوله لكم ، وقد أجراهما في الخطاب مجرى الجماعة تعظيما لشأنهما وجريا على لغة العرب المنزل هذا القرآن عليهم وإليهم ثم قال لهما "ائْتِيا فِرْعَوْنَ فَقُولا"

"إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعالَمِينَ"

16 إليك لم يبن الضمير هنا لأن معنى رسول هنا مرسل اللّه ورسالته ، فإن كان بمعنى

مرسل فلا بد من التثنية ، وإن كان بمعني الرسالة وهو كذلك هنا فيكون وصفا والوصف يستوى فيه الواحد والجماعة ، وهو معروف عند العرب قال كثير :

لقد كذب الواشون ما فهت عندهم بشيء ولا أرسلتهم برسول

(89/565)

أي برسالة وقال العباس بن مرداس صاحب علم حضرة الرسول ، دفين دمشق ، وقد سميت المحلة باسم (سنجقدار) صاحب العلم باللغة التركية وأداة النسبة فيها فارسية ، وضريحه أمام الجامع المسمى بجامع السنجقدار هناك وهو معروف تغمده اللّه برحمته ورضي عنه :

ألا من مبلغ عنى خفافا رسولا بيت أهلك منتهاها

(90/565)

أي رسالة بدليل تأنيث الضمير وهذا أظهر من الأول ، وما قيل إن المراد بالرسول هنا موسى فقط ، لأن هرون كان ردء له أي تبعا ، يأباه سياق الآية بعد وسياقها قبل مما لا يخفى

، أما من قال إنهما كالرسول الواحد لاتفاقهما واعتمادهما في الشريعة فله وجه ، وما جرينا عليه أوجه ، وقال لهما قولا له يا فرعون إن اللّه ربّنا وربّك أمرنا أن نبلغك "أَنْ أَرْسِلْ مَعَنا بَنِي إِسْرائِيلَ" 17 فذهبا اليه وبلغاه فعرف فرعون موسى ، لأنه نشأ في بيته ، ولقد خاطبه ف "قالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينا وَلِيداً" الوليد من قرب عهده بالولادة وكان كذلك حين صار إلى فرعون كما مر في الآية 38 من سورة طه المارة "وَلَبِثْتَ فِينا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ" 18 تحت رعايتنا وبينّت في الآية 21 من سورة طه مقدار هذه السنين وما بعدها "وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ" من قتلك أحد رجالنا وهي حادثة معروفة لم ننسها بعد "وَأَنْتَ مِنَ الْكافِرِينَ" 19 لنعمتي يا موسى وحق تربتى ، وتأتينا الآن بلا خوف ولا جزع وتزعم أنك رسول اللّه إليّ "قالَ فَعَلْتُها إِذاً" أي ذلك الوقت وأقر بالقتل ثقة بقول اللّه له حين قال آنفا (فَأَخافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ، قالَ كَلَّا) ثم قيد فعل القتل بما يدفع كونه قادحا بالنبوة بقوله : "وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ" 20 الجاهلين لأنه كان دون الثالثة عشرة من عمره ، ففي هذا السن لا يؤاخذ على الجريمة وهو كذلك ، أي ذلك وقع من زمن صباوتي قبل استكمال عقلي فضلا عن أني لم أتعمد قتله ، لأني وكزته بيدي بقصد الارتداع من التعدي على الإسرائيلي ، ولم أعلم أن تلك الوكزة تفضي لموته "فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ" ان تقتلون به مع أني لا أستوجب القتل ، ولكن علمت أنكم لا تفرقون بين المستحق من غيره خاصة في بني إسرائيل ، لأنكم لا

تدينون بدين سماوي وإن شريعتكم بحسب هوى أنفسكم ، لذلك هربت منكم ، وإني حقيقة تربيت في بيتك و

(91/565)

لك عليّ حق التربية وأعترف بنعمتك علي ، ولهذا أوصاني ربي أن أستعمل معك اللين جزاء لحقك ،

ومن حق تربيتك لي وجوب إرشادي إليك مكافئة لك ، راجع الآية 43 من سورة طه ، ثم أعلم أن اللّه تعالى علم نيتي فغفر لي جريمة القتل لأني فعلتها عن غير قصد حال صغري ، ثم تلطف بي وعطف علي "فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْماً" وأهلني له ، وأوله بعضهم بالعلم أي أزال عني الجهل ، وبعضهم بالنبوة ، وظاهر القرآن يؤيد الأول وعليه المعول "وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ" 21 إليك وإلى قومك وإلى بني إسرائيل "وَتِلْكَ" التربية "نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا" تمن بها من باب الحذف والإيصال "عَلَيَّ" وجدير أن تجازى بها خيرا لو لم يكن ذلك بسبب "أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرائِيلَ" 22 قومي وأذللتهم وذبحت أولادهم خوفا على ملكك ، ولولا هذا لما جعلت بين يديك ولم أكن في مهد تربيتك لأني صرت إليك بسبب ذلك ، وعبّد بمعنى ذلل واتخذ عبدا ، ولهذا المعنى قال موسى "تَمُنُّهَا" على طريق الاستفهام الإنكاري ، وجاز

فيه حذف حرف الاستفهام على حد قول عمر بن عبد اللّه ابن ربيعة :

لم أنس يوم الربيع وقفتها وطرفها من دموعها غرق

وقولها والركاب وافقة تتركني هكذا وتنطلق

(92/565)

أي أتتركني ، فيكون المعنى ، أتمني على تربيتي وتنسى جنايتك على بني إسرائيل الذين اتخذتهم عبيدا وعاملتهم بالقسوة ولم تقم لهم وزنا ، وقد قتلت المئات منهم حرصا على ملكك ولم تراقب من أعطاكه ، وقد منعك اللّه من قتلي لتكون نهايتك على يدي ، وانك لو لم تسفك تلك الدماء وتتركني لما صرت إليك وصار لك هذا الفضل علي ولربّاني أبواي "قالَ فِرْعَوْنُ وَما رَبُّ الْعالَمِينَ" 23 سؤال عن الجنس أي أي شيء هو ، ولما كان اللّه منزها عنه عدل موسى على جوابه إلى ذكر أفعاله تعالى وآثار قدرته المعجزة "قالَ رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ" 24 بأنه خالق ذلك ، فاعلموا أنه لا يمكن تعريفه إلا بما ذكرته ، فيكفي خلق هذه الأشياء دليلا عليه إن كنتم تعرفون الشيء بالدليل ، وإذا كان يرجى منكم الإيقان الذي يؤدي اليه النظر الصحيح ، لنفعكم هذا الجواب ، ولكن أين الإيقان من فرعون وجماعته ، وقال أهل المعاني كما توقنون

هذه الأشياء التي تعاينونها ، فأيقنوا أن إله الخلق هو الذي خلقها وأوجدها ، فتحيّر فرعون من جواب موسى والتفت إلى قومه "قالَ لِمَنْ حَوْلَهُ" من ملئه وأشرافهم "أَلا تَسْتَمِعُونَ" 25 جواب موسى ، اسأله عن ماهية ربه فيجيبني عن آثاره ، فلما سمع كلامه زاده بيانا "قالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبائِكُمُ الْأَوَّلِينَ" 26 فإن لم تستدلوا عليه بآبائكم فاستدلوا عليه بأنفسكم ، وإنما قال هذا موسى لأن فرعون ادعى الربوبية على أهل عصره فقط فاغتاظ فرعون إذ عرّض به موسى أمام قومه وجعله من جملة المربوبين ، وهو يزعم أنه إله لهم فصار يندد بموسى أمامهم ليموه عليهم "قالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ" 27 بظنه وجود إله غيري وإعطائه الجواب على خلاف السؤال ، فالذي لا يفهم وجوه الإجابة على مقتضى السؤال كيف يدعي الرسالة لمن يزعم أنه إلهه ، ثم زاده بيانا بالعظمة "قالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَما بَيْنَهُما إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ" 28 أجوبتي الدالة على أفعال ربي وصفاته ، ولا جواب لسؤالكم إلا ما ذكرته ، فإذا عقلتم تلك الأجوبة عرفتم الحقيقة .

ولما رأى فرعون شدة عزم موسى وقوة حزمه وأنه لا يجارى بالمناظرة وأن أجوبته مبنية على حكم بالغة عدّده بقوله "قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ" 29 والسجن عند فرعون أشد عذابا من القتل ، لأنه يأمر بإلقاء السجين في هوة تحت الأرض لا يبصر فيها ولا يسمع ، وإنما أقسم وتوعد لانه خاف أن يستميل قومه بما ذكر من البراهين على إلهه وبالحجج القاطعة على أسئلة فرعون الدافعة لحجته ، وليظهر لقومه أنه قادر على إفحام هذا الرسول وقتله ، وليبين لهم أن لا إله غيره ، كما يذكره لهم ، ولما سمع كلامه موسى ورأى ان بلغ فيه الغضب مبلغه خاطبه "قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ" 30 ظاهر يدل على رسالتي وإثبات ما قلته لك أتسجنني ايضا ؟

وهذا سكون إلى الإنصاف وإجابة للحق ، ومن أكمل أخلاق البشر الحسنة وأحاسن الآداب الكريمة ، فركن فرعون لقوله حتى زال ما به

"قَالَ" ما هو هذا الشيء الذي تأتيني به "فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ" 31 في قولك وإلّا سجنّاك ، وإنما قال له هذا خشية من انتقاد قومه له الذين تطاولت أعناقهم إلى

ما سيجيء به موسى "فَأَلْقى عَصاهُ فَإِذا هِيَ ثُعْبانٌ مُبِينٌ" 32 ظاهر لا ريب فيه ، روي انها ارتفعت قدر ميل في السماء ثم انحطت مقبلة إلى فرعون ، فالتجأ لموسى وقال له بحق الذي أرسلك إلا أخذتها ، فأخذها فعادت عصا كما كانت ، ولما ركد ما بفرعون وقومه من الفزع ، قال يا موسى هل لديك آية غير هذه ؟ قال نعم "وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذا هِيَ بَيْضاءُ لِلنَّاظِرِينَ" 33 قيل صار لها شعاع يغشى البصر فعند ذلك "قالَ" فرعون "لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هذا لَساحِرٌ عَلِيمٌ" 34 فائق به لأنه أرانا عصاه حية ، ثم أرانا سمرة يده بياضا ناصعا ، وإنه بهذه الشعوذة يا قومي "يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ" التي ملكتموها بدمائكم "بِسِحْرِهِ" هذا الذي رأيتم مدعيا أنه رسول لآله السموات والأرض وما فيهما ، وأنا لا أعلم أن لذلك إلها غيري وأنتم تعلمون أني إلهكم "فَما ذا تَأْمُرُونَ" 35 أن أعمل به وهو من عرفتم حين كان تحت تربيتي ولما شب قتل رجلا منكم وهرب خوفا من أن أقتصّ به منه ، قال لهم هذا على طريق التنفير منه لما بهره من سلطان المعجزة الذي أنساه دعوى الربوبية ، فحط نفسه لاستمالة قومه بقتله ، ولكنهم ظهروا بمظهر أرقى ومزية أعلى مما دعته اليه نفسه الخبيثة ، فأجابوه بما حكا اللّه عنهم "قالُوا أَرْجِهْ وَأَخاهُ" أخرهما لا تعجل بقتلهما ولا تعاقبهما حتى يظهر كذبهما إلى الخاص والعام من النهي ، لئلا يسيء عبيدك فيك ظنّهم ، فيقولوا يقتل على غير بينة ، قال كيف ، قالوا اختبرهما وامتحنهما فإذا ظهر كذبهما تصير معذورا بقتلهما ، فلا يقولون انك قتلتهما بغير ذنب ، وهذا رأي سديد ونصح صحيح ،

ولهذا قال سعيد بن جبير للحجاج لما استشار جماعته بقتله وصوبوا رأيه ، قال له : وزراء أخيك فرعون احسن من وزرائك ، لأنهم أشاروا عليه بما يمنع الناس من ذمه .

(96/565)

هذا ، ولما قيل إلى سيدنا محمد صلى اللّه عليه وسلم أقتل عبد اللّه بن أبي بن سلول قال لا ، لئلا يقال إن محمدا يقتل أصحابه ، بما يدل على ان وزراء فرعون كانوا على نهاية من التدبير والسياسة للرعية والصدق لملكهم والخوف عليه من سوء السمعة ، فيا ليت وزراء الإسلام يغارون دائما على البلاد والعباد ويصونون كلهم ملكهم مما يشوبه ، ثم قالوا له "وَابْعَثْ فِي الْمَدائِنِ حاشِرِينَ"

36 شرطة يجمعون العارفين بالسحر وأمرهم "يَأْتُوكَ بِكُلِّ ساحِرٍ عَلِيمٍ" 37 منهم ما هو بالسحر ، ثم تأمرهم أن يتباروا مع موسى وأخيه ، وإذ ذاك يظهر لقومك كذبهما فتقتلهما بلا لوم عليك ولا تهتم بأمر آخر ، فاستصوب رأيهم ولم يرده مجازاة لهم ، لأنه يعلم ان لا فائدة منه لما يعلم من حقيقة موسى ، فبعث الحاشرين "فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ" 38 هو يوم عيدهم ، وتقدمت القصة مفصلة في الآية 56 من سورة طه المارة فراجعها "وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ" 39 لننظر ما يفعل الفريقان ولمن تكون الغلبة فنادى مناديه في

الناس ان اجتمعوا فاجتمعوا وقال لهم على طريق السخرية "لَعَلَّنا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ" يعني موسى وأخاه "إِنْ كانُوا هُمُ الْغالِبِينَ" 40 ومن فسر السحرة بالسحرة الذين أحضرهم ، قال لم يرد انه يتبع السحرة وإنما يقصد الإعراض عن موسى وأخيه ، والأول أولى

(97/565)

"فَلَمَّا جاءَ السَّحَرَةُ قالُوا لِفِرْعَوْنَ أَ إِنَّ لَنا لَأَجْراً إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغالِبِينَ" 41 لموسى وأخيه "قالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذاً لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ" 42 لدي جاها ومالا وأول الناس دخولا علي "قالَ لَهُمْ مُوسى أَلْقُوا ما أَنْتُمْ مُلْقُونَ" 43 وذلك بعد أن خبروه كما تقدم في سورة طه "فَأَلْقَوْا حِبالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغالِبُونَ" 44 لموسى وأخيه وأروا الناس ما هالهم وفرح فرعون وملؤه وقومه "فَأَلْقى مُوسى عَصاهُ فَإِذا هِيَ تَلْقَفُ ما يَأْفِكُونَ" 45 ممّا يخيلونه للناس من قلب عصيهم حيات وأخشابهم حبالا ، وحبالهم أفاعي ، أي ابتلعت جميع إفكهم وعادت كما هي عصيا وحبالا وأخشابا ، وعصا موسى عصا أيضا كما كانت قبل الإلقاء .

مطلب الحكمة من قوله تعالى (تَلْقَفُ ما يَأْفِكُونَ) :

تنبىء هذه الآية الكريمة عن قضية فنية ، وهي لما كانت الحبال والعصي ليست بإفك بل

هي من خلق اللّه حقيقة ، فإن حية موسى لم تلقفها ، بل التقفت الزئبق الذي طلي بها الذي هو من صنع السحرة ، إذ وضعوه بين تجاويف الحبال والعصي وطرحوها في الأرض قبل بزوغ الشمس ، فلما طلعت وأثرت حرارتها في الزئبق تحركت وصاروا يدمدمون عليها صورة ، حتى سحروا أعين الناس وأروهم إياها

(98/565)

أفاعي وحبالا ، فلما ابتلعت عصا موسى بقدرة اللّه ذلك الزئبق منها وأزال اللّه ما خيّلوه للناس ، عادت على حالها ، ففضحهم اللّه وأظهر شعوذتهم وإنما لم ينكروا ما رأوه لأن الحيات من عادتها أنها تبلع ما تراه من عصي وغيرها ، ويوجد الآن في البرازيل حيات تبلع الجمل ، والابتلاع من طبعها ، والعقل لا يصدق أن العصي والحبال تبلع شيئا ، وإنما امتصاص الزئبق الذي في تجاويف تلك الحبال والعصي هو الذي يصدقه العقل ، فكان إبطال حركة العصي والحبال بسبب ذلك الامتصاص ، وهذا مما يركن إليه العقل وهو من اكبر الأدلة على إعجاز القرآن وأكملها ، فقد جمع فأوعى ، وهذه الحكمة في قوله تعالى تلقف ما يأفكون ، وجاء في الآية 69 من سورة طه (تَلْقَفْ ما صَنَعُوا) أي الذي صنعوه في العصي والحبال من إلقاء الزئبق فيها ، وهو المراد بالإفك هنا ، وذلك أن اللّه تعالى جعل قوة

مادية في عصا موسى تلقف ما موهوه في عصيهم وحبالهم ، قال تعالى "فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ ساجِدِينَ" 46 اللّه تعالى إذ ظهر لهم أن فعل عصا موسى جاوز حد السحر ، ولذلك فإنهم لم يتمالكوا أنفسهم فسقطوا على الأرض سجدا ، إذ تيقنوا أن أمر موسى سماوي "قالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعالَمِينَ 47 رَبِّ مُوسى وَهارُونَ" 48 خصوهما بالذكر لدفع توهم إرادة فرعون من دعواه الإلهية وجهل قومه الذين يدعون إلهيته ، ولو وقفوا على رب العالمين فقط ، لقال فرعون إياي يعنون ليموّه عليهم "قالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ" بالإيمان به "إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ" فتواطأتم معه عليه ، وقد جاء في آية الأعراف المارة عدد 113 (إِنَّ هذا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ) قبل حضوركم مكان الاجتماع ، وانما قال هذا يلبس على قومه انهم لم يؤمنوا على بصيرة ثم بدأ يهددهم فقال "فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ" 49 وبال فعلكم هذا ، ثم أقسم وأكد قسمه بقوله "لَأُقَطِّعَنَّ

(99/565)

أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ" 50 مر تفسير مثله في الآية 123 من الأعراف "قالُوا لا ضَيْرَ" لا ضرر فيما ينالنا من عذابك ، لأنه منقطع في الدنيا "إِنَّا إِلى رَبِّنا راغِبُونَ" 51 رحمته الدائمة في الآخرة مؤمّلين عفوه عما صدر منا ونجاتنا من عذابه الأليم

الدائم

"إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنا رَبُّنا خَطايانا" من الكفر والسحر "أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ" 52 في هذا المشهد العظيم بأن اللّه هو رب العالمين لا أنت ولا غيرك وتقدم بسورة الأعراف وطه بما هو أوسع من هنا فراجعهما .

مطلب في السحر وكيفية إهلاك قوم فرعون :

واعلم أن السحر مأخوذ من السحر وهو ما بين الفجر الأول والثاني ، وحقيقة اختلاط الضياء بالظلمة ، فما هو بليل لما خالطه من أضواء الصبح ، ولا هو بنهار لعدم طلوع الشمس للأبصار فكذلك فعل السحر ليس بباطل محقق فيكون عدما لأن العين أدركت أمرا لا تشك فيه ، وما هو حق محض فيكون له وجود في عينه ، لأنه ليس هو في نفسه كما تشهده العين وبظنّه الرأي ، قال الشعراني بعد ما نقل هذا عن بعض الأكابر : كلام نفيس ما سمعنا مثله قط .

(100/565)

راجع تفسير سورة الفلق والناس تجد بحث السحر في صورة مسهبة ، وله صلة في الآية 101 من سورة البقرة في ج 3 قال تعالى "وَأَوْحَيْنا إِلى مُوسى أَنْ أَسْرِ بِعِبادِي" بني إسرائيل

وذلك بعد سنتين من ايمان السحرة ، بعد أن أيس من ايمان فرعون وقومه ، إذ لم تؤثر فيهم الآيات المارة 129 فما بعدها من سورة الأعراف "إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ" 53 من فرعون وقومه بعد خروجكم من مصر ليحولوا بينكم وبين مهاجرتكم ، فبلغ موسى قومه أمر ربه ، فأطاعوه وخرج بهم ليلة عيدهم ، وكانوا استعاروا من القبط حليهم ليتزيّنوا به ، فلما أحس فرعون بخروجهم قال لقومه ذهب موسى وقومه بأموالنا "فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدائِنِ حاشِرِينَ" 54 ليجمعوا الناس ، ولما احضروهم قام بهم خطيبا فقال "إِنَّ هؤُلاءِ" يشير لموسى وقومه إذ نزلهم منزلة الحاضرين المشاهدين لكمال معلوميتهم عندهم ، وهو فريد من بديع الكلام المشتمل عليه كتاب اللّه الذي لا أبدع منه "لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ" 55 قال ابن مسعود كانوا ستمائة الف وسبعين الفا (على ان ابن خلدون قال في مقدمته إنهم دون هذا العدد بكثير" وإنما قللهم فرعون ليقوي معنويات قومه وجبشه بالنسبة للجيش الذي حشده عليهم ، قالوا كانوا الف الف وخمسمائة الف فساقهم أمامه وخرج وراءهم بمائتي الف ملك مع كل ملك الف رجل ، والشرذمة الطائفة

(101/565)

القليلة ، وإنما أكدها بقوله قليلون ، باعتبار أنهم أسباط ، وكل سبط قليل عنده فجمع قليل على قليلين ، وانما أوقع اللّه في قلب فرعون هذا ليتم مراده فيه ، ويجعل كيده في نحره ، ويكون كالباحث عن حتفه بظلفه ، وقال في خطبته "وَإِنَّهُمْ لَنا لَغائِظُونَ" 56 مغضبون مضيّقون صدورنا لمخالفتهم أمرنا ، وخروجهم دون إذننا ، وأخذهم أموالنا مع قلتهم وذلّتهم "وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حاذِرُونَ" 57 والحذر من عادتنا والتيقظ والاحتراز ، واستعمال الحزم ، وأخذ الأمور بالعزم والصبر على الشدة ديدننا ، ومن مقتضى المخلين بالأمور الضرب الشديد عليهم ، وعلى القوي دائما أن يتقي الأمة الضعيفة إذا خرجت عن سلطانها من أن ينضم إليها ما هو من جنسها ، فتشكل قوة يخشى منها ، ولذلك علينا أن نسارع إلى قمع شوكتهم ، وحسم مادة التشوف لأمثالهم ، حتى يعرف كل واحد مكانه ولا يتعدى طوره ، فنقابل جرأتهم هذه بالقوة ، لئلا يقدم مثلهم فيما بعد على مثل عملهم هذا .

(102/565)

فأظهر لهم بخطابه قوة شكيمته وأغراهم حتى أخرجهم جميعا من بلادهم ولحقوا بموسى وقومه ليردوهم إلى مصر ويضيقوا عليهم أكثر من ذي قبل انتقاما منهم ، قال تعالى "فَأَخْرَجْناهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ" 58 من بلادهم الموصوفة بذلك "وَكُنُوزٍ" من ذهب

وفضة تركوها فيها وإنما سماها اللّه كنوزا لأنهم لم يؤدوا حق اللّه منها وكل مال هذا شأنه يسمى كنزا ، قالوا كان لفرعون ثمانمائة ألف غلام كل غلام على فرس عتيق في عنق كل فرس طوق من ذهب "وَمَقَامٍ كَرِيمٍ" 59 مجلس حسن بهي بهيج ، قالوا وكان إذا قعد على سريره وضع بين يديه ثلاثمائة كرسي من الذهب يجلس عليها أشراف قومه وأمراؤهم وهم ملأوه أهل الحل والعقد من وزراء ووكلاء وما ضاهاهم مغشاة بأقبية الديباج "كَذَلِكَ" كان فرعون وملأوه من العظمة والأبهة ، ولما لم يشكر اللّه على ما أولاه من ذلك المقام ، وكفر هذه النعمة وادعى الإلهية فوقها ، سلبنا ذلك كله منه ومن قومه "وَأَوْرَثْنَاهَا" أي الجنان والكنوز والمقامات وغيرها "بَنِي إِسْرَائِيلَ" 60 حيث رجعوا إلى مصر بعد إغراق القبط واستولوا على ديارهم وأموالهم ، قال تعالى حاكيا كيفية إغراقهم على الإجمال "فَلَمَّا تَرَاءَا الْجَمْعَانِ" رأى قوم فرعون

قوم موسى لأنهم جدّوا السير في لحوقهم ، ورأى قوم موسى قوم فرعون "قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ" 61 من فرعون وقومه ولا طاقة لنا بهم وذلك لشدة خوفهم منهم لأنهم نشأوا أرقاء عندهم وتوطنت نفوسهم على الذل واشرأبت قلوبهم من سطوتهم فيه وغشيهم الهوان

"قالَ" موسى ثقة بوعد ربه "كَلَّا" لن يدركونا ابدا "إِنَّ مَعِي رَبِّي سَيَهْدِينِ" 62 طريق النجاة منهم فقالوا أين نذهب وقد أدركونا ، فلو تركتنا بمصر نموت بخدمة فرعون وندفن في أرضه ، تريد يا موسى أن تميتنا في هذه البادية ؟ وطفقوا يلومونه وهو يأمرهم بالصبر ويعدهم بالنصر وهم يتولون ويقولون قد أدركنا القوم الآن يقتلوننا ولم يقدروا أنّ ما كانوا فيه من الاحتقار والاسترقاق من فرعون وقومه أشدّ من القتل ، قال عطاء بن السائب : كان جبريل عليه السلام بين بني إسرائيل وآل فرعون وكان يقول لبني إسرائيل ليلحق أولكم آخركم ، ويستقبل القبط فيقول رويدكم ليلحق آخركم ، فصار بنو إسرائيل يقولون ما رأينا أحسن سياقة من هذا الرجل ، وقوم فرعون يقولون ما رأينا أحسن رقة من هذا الرجل ، وقد صدقوا جميعا ، إذ لا أحسن منه إلّا الأنبياء وهو سيد الملائكة فلما انتهى موسى بقومه إلى بحر القلزم قيل هو بحر وراء مصر يقال له أساف قال له مؤمن آل فرعون وكان دائما بين يدي موسى هذا البحر أمامك ، وقد غشيك القوم فإلى أين أمرت ؟ قال إلى البحر ، إلا اني لا أدري ما أصنع ، ولم أسأل ربي بعد ان أمرني بأن أتجه نحو البحر ، إذ ما علي الا الامتثال ، وقد قال لى سيأتيك أمري .

قال آمنت بأن ربك سيجعل لك مخرجا ولم يتم كلامه حتى نزل وحي اللّه وهو "فَأَوْحَيْنا إِلى مُوسى أَنِ اضْرِبْ بِعَصاكَ الْبَحْرَ" بدلالة الفاء الدالة على التعقيب ، روي عن عبد اللّه بن

مسعود قال قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم إني أعلّمك الكلمات التي قالهن موسى حين انفلق البحر ، قلت بلى يا رسول اللّه ، قال قل اللهم لك الحمد ، وإليك المشتكى ، وبك المستغاث ، وأنت المستعان ، وعليك التكلان ولا حول ولا قوة الا باللّه ، قال ابن مسعود ما تركتهن منذ سمعتهن من النبي صلّى اللّه عليه وسلم ، وعلينا أن نحفظها ونقولها صباح مساء وعند كل ضيق وحاجة .

(104/565)

فدعا عليه السلام بما ألهمه اللّه من هذه

الكلمات وغيرها مستغيثا بربه الكريم ثم ضرب البحر "فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ" 63 الفلق والفرق القطعة من الشيء ، ويقال فرق باعتبار الانفصال كالفرقة من القوم ، وفلق باعتبار الانشقاق كالقطعة من الجبل ، والطود الجبل ، ووقف الماء بين الطرق التي شقها اللّه منه كالجبال الشامخات لعمق الماء وظهرت الأرض يابسة بينها كأن لم يكن فيها ماء ، فسار كل سبط تجاهه ، روي أن البحر انفلق فيه اثنا عشر طريقا وسلك كل سبط واحدا ، وقال السبط الذي معه موسى اين جماعتنا ؟ قال امشوا لكل منهم طريق مثلكم يمشون فيه ، قالوا لا حتى نراهم لعلهم غرقوا ، وأكثروا اللفظ على موسى حتى توقفوا عن

السير ، وقد أدركهم فرعون وقومه إذ دخل أولهم البحر ، فرفع يديه إلى ربه وقال اللهم أعني على أخلاقهم الفاسدة ، فأمر اللّه البحر ففتح في كل فرق كوة حتى صار القريب يرى قريبه ، والرجل يرى زوجته من السبط الآخر فبادروا بالسير حتى عبروا إلى جهة الشام .

مطلب انفلاق البحر وأخلاق موسى عليه السلام وان كل آية لقوم هي آية لأمة محمد عليه السلام :

(105/565)

وما قيل ان انفلاق البحر كان قوسيا وأنهم خرجوا من الجهة التي دخلوها لا دليل له عليه غير انكار قدرة اللّه لأن القائلين بهذا لا يعترفون بقدرة اللّه ويريدون بقولهم هذا ان البحر انحسر بعادة المد والجزر ، فدخلوا فيه من جهة انحساره وخرجوا من نفس الجهة من طرف الانحسار لآخر ، قاتلهم اللّه فلو كان كما يقولون لما نجوا من فرعون وقومه ، بل لخرجوا معهم لأن المد والجزر يكون من جهة واحدة ، وما قيل ان المسالك ثلاثة عشر لا برهان له عليه ، ويريد صاحب هذا القول ان لموسى وأخيه مسلكا على حدة ، وليس كذلك ، لأن موسى في الأسباط لهذا فان ما ذهبنا اليه هو الواقع والموافق لما هو عند أهل الكتاب في كتبهم ، ولا نص يكذّبه وجل الآثار والأخبار يشهد بصحته ، ومن أصر على الخلاف فعليه الدليل

والنقل الصحيح ولا أراه فاعلا والله أعلم ، قال تعالى "وَأَزْلَفْنَا" قربنا "ثَمَّ" هناك في البحر بعد أن شققناه ودخله قوم موسى "الْآخَرِينَ" 64 فرعون

وقومه وأغرينا هم بدخوله لتكون الملامة في الظاهر على فرعون ، لأنه هو الذي ساقهم إلى هذا والله تعالى قد أهلكهم في أزله على هذه الصورة ، ولو تقاعسوا عنها لقسرهم عليها ، ولكن سبق في الكتاب أن يكونوا مختارين ، قالوا إن فرعون أغرى قومه بالدخول وإياه هو ، إلا ان حصانه الجأه لأن الخيل أمامه عطف ففسره على اقتحام طريق البحر ليتم مراد الله ، حتى إذا كمل دخولهم آذن الله البحر بالالتئام وقرىء وازلقنا بالقاف وعليه يكون المعنى أذهبنا عزهم قال :

تداركتما عبسا وقد ثل عرشها وذبيان إذ ذلّت بأقدامها النعل

(106/565)

لأن زلق بمعنى زلّت رجله وتنحى عن مكانه قال تعالى "وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ" 65 لم يغرق ولم يمت أحد منهم "ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ" 66 فرعون وقومه أجمعين لم يفلت واحد منهم ، وحذف التأكيد من الجملة الثانية لدلالة الأول عليها راجع الآية 15 من سورة الأعراف ، وجاء العطف بثم للتراخي لأن الله تعالى أمهل البحر حتى لم يبق واحد

من بني إسرائيل فيه ، كما لم يبق من قوم فرعون أحد خارجه ، ثم أطبقه عليهم ، ، اعلم أن ثمة تكتب بالتاء لئلا تلتبس وتقرأ بفتح الثاء من غير تاء وصلا وبالهاء وقفا والقراءة على غير هذا الخط من الغلط وهي بمعنى هناك قالوا وقد سمع الاسرائيليون جلبة عظيمة ، فقالوا يا موسى ما هذه ؟

قال البحر أطبق على فرعون وقومه فرجعوا ينظرون لضعف ايمانهم ، فرأوا جثثهم عائمة ، وشاهدوا فرعون نفسه بينهم ، فصدقوا ورجعوا "إِنَّ فِي ذَلِكَ" الانفلاق والإنجاء "لَآيَةً" عظيمة ظاهرة لإيمان من يؤمن كافية عن طلب غيرها "وَما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ" 67 إذ لم يؤمن من آل فرعون الّا زوجته آسية بنت مزاحم ، ومريم بنت ناموشا التي دلت موسى على قبر يوسف عليه السلام ، حتى أخذه معه حين خروجه من مصر وخزقيل مؤمن آل فرعون الذي ذكر اللّه قصته في الآية 28 فما بعدها من سورة المؤمن في ج 2 ، "وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ" 68 الغالب المنتقم من أعدائه الودود الرءوف بأوليائه ، وفي اسم الإشارة في ذلك والضمير في أكثرهم إشارة إلى أنه يجب على قومك يا محمد الإيمان باللّه وأن يعتبروا بما وقع على أمثالهم ، ومع هذا فلم يؤمن منهم إلا القليل بك ، وهذا ما يقتضيه سياق التنزيل ، لا سيما وقد كررت هذه الآية في هذه السورة ثماني مرات بعد هاتين القصتين ، وعقب كل قصة من القصص الست ، الآتية ، بما

يدل على أن المراد بالأكثر من لم يؤمن من أمة كل نبي ، كما ثبت بأن أكثر الناس من كل أمة هم الكافرون في قصة محمد صلّى اللّه عليه وسلم وأمته المذكورين أولا ، وفي قصة موسى وقومه وفي كل قصة من القصص الآتية كقصة ابراهيم ونوح وهود وصالح ولوط وشعيب ، فتكون كل قصة عبرة لقوم النبي الذين شاهدوها بالدرجة الأولى وبالدرجة الثانية هي عبرة وآية لمن جاء بعدهم من الأمم ، وعليه فتكون كلها عبرة لقوم محمد صلى اللّه عليه وسلم علاوة على ما رأوه من الآيات على يده ، لأنهم سمعوها من لسان محمد صلّى اللّه عليه وسلم وسماعها منه مع أنه أمي آية على نبوته ، موجبة للإيمان به على من يسمعها من أمته ، لأنها بالوحي الإلهي ، وبهذا التوفيق يحصل التلاؤم التام بين من جعل الآية لكل نبي خاصة بقومه ومن جعلها كلها خاصة لقريش .

(108/565)

تدبر هذا ، فقل أن تقف عليه أو تصادف مثله وهو جواب كاف شاف في إرجاع ضمير أكثرهم ، لأن منهم من أرجعه إلى القبط ، ومنهم من أعاده لقوم موسى ، ومنهم من جعله خاصا بأمة محمد صلى اللّه عليه وسلم ، والقول الصحيح الجامع لكل هذه الأقوال ما

ذكرته لك فاغتنمه ، لأني لخصته من عدة صحائف من كتب التفاسير المطوّلة والمختصرة التي لا يتمكن كل أحد من فهم المطلوب منها المجمع عليه إلا بأيام بل بأشهر لمن كان له وقوف وإلمام بعلم التفسير ، وتجد مثل هذا كثيرا في تفسيري هذا لأني واللّه الذي لا إله إلا هو أقضي الأيام والليالي في التحري على مسألة واحدة ، وكم أنام مهموما لعدم الوقوف عليها حتى إذا يسرها اللّه لي سجدت شكرا للّه تعالى وكأني أعطيت الآخرة ، أما الدنيا فهي بما فيها تساوي عندي حرفا واحدا ، ومن عظيم نعمة اللّه علي أني أرى أحيانا ما أتوقف عنه في منامي ، فأراجعه فيظهر لي كما رأيته ، وللّه الحمد والمنة ، أقول هذا تحدثا بنعمة اللّه لا فخرا ولا رياء ولا سمعة ، ولعل القارئ نظر اللّه إليه أن ينتبه لهذا فيدعو لي ويطلب لي العفو إذا رأى وتحقق لديه ما قاسيته في هذا التفسير ، الذي لم أسبق إليه والحمد للّه على توفيقه ولطفه .

قال تعالى "وَاتْلُ عَلَيْهِمْ" يا أكرم الرسل "نَبَأَ إِبْراهِيمَ" 69 قصته كما تلوت عليهم قصتك وقصة موسى "إِذْ قالَ لِأَبِيهِ" آزر ويسمى تارخا من قرية من سواد الكوفة واسم أمه مثلى ولا خلاف باسم أبيه هذا ، وإنما الخلاف في كون

آزر على وزن آدم أو يازر لقبا له أو اسما آخر ، وما قيل إنه اسم عمه يأباه لفظ التنزيل لأن اللّه تعالى ذكر الأب أبا والعم عمّا فمن أين لنا أن نقول عمه بعد أن يقول اللّه تعالى أباه ، ونصب أباه هنا على تضمين القول معنى الذكر لانه لا ينصب إلا الجمل "وَقَوْمِهِ" قوم آزر أبيه وهو اسمه الحقيقي المصرح به في الآية 75 من سورة الانعام في ج 2 ، وما قيل إنه مجاز عن عمه لا عبرة به ، لان الحقيقة إذا صحت لا يجنح عنها إلى المجاز "ما تَعْبُدُونَ" 70 أي شيء تعبدونه مع علمه عليه السّلام أنهم يعبدون الأصنام ، ليريهم أن ما يعبدونه لا يستحق العبادة "قالُوا نَعْبُدُ أَصْناماً فَنَظَلُّ لَها عاكِفِينَ" 71 مكبين عليها ليل نهار ، ومن خص العبادة بالنهار دون الليل استدل بلفظ فظل لأنها مأخوذة من الظل ، وهو لا يكون إلا نهارا ، راجع ان ظل هنا معناها الدوام والبقاء ولا مخصص لها في النهار ، وكان يكفي لجوابهم الاختصار على (أَصْناماً) وإنما أطنبوا افتخارا وابتهاجا بها ورغبة ومناوأة لقوله (ما) الدالة على ما لا يعقل فكان جوابهم على خلاف السؤال على حد قوله : (وَيَسْئَلُونَكَ ما ذا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ) الآية 120 من البقرة في ج 3 ، وقوله تعالى (ما ذا قالَ رَبُّكُمْ قالُوا الْحَقَّ) الآية 24 من سورة سبأ ج 2 ، وقوله (ما ذا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قالُوا خَيْراً) الآية 30 من النحل في ج 2 ، ومثله كثير في القرآن ، فهم زادوا نعبد مع أنهم لم يسألوا عن العبادة بل سئلوا عن المعبود ، وزادوا جملة فنظل إلخ بقصد المباهاة

"قالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ" 72 هذه الأصنام فيجيبوا دعاءكم "أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ" بزيادة الرزق والولد إن عبدتموهم "أَوْ يَضُرُّونَ" 73 كم إن تركتم عبادتهم "قالُوا" وقد لزمتهم الحجة فاعترفوا بأنها لا تنفع ولا تضر "بَلْ وَجَدْنا آباءَنا كَذلِكَ" مثل هذا "يَفْعَلُونَ" 74 وقد قلدناهم واقتدينا بهم ، مع علمنا بعدم إنصافهم بذلك .

مطلب إيمان المقلد والفرق بين الوثن والصنم :

وفي هذه الآية إشارة إلى أن التقليد في الدين مذموم ، إذ يجب الأخذ بالاستدلال إذا كان من أهله ، وإلا فيكفيه أن يقلّد من يعتقد بصحة دينه ، ويكون آثما

بترك التعليم ، لأن العلم الضروري واجب على كل مسلم ومسلمة ، وان قال صاحب بدء الأمالي في منظومته :

وإيمان المقلد ذو اعتبار بأنواع الدلائل كالنصال

بما يدل على اعتباره عقيدة وهو كذلك ، ولكنه لا ينفي إثم عدم التعليم ، قال صلّى اللّه عليه وسلم :

طلب العلم فريضة على كل مسلم – ويشمل ذلك كل مسلمة – حتى أن اللّه تعالى استثنى طالب العلم من الجهاد وهو أحد أركان الدين ، راجع الآية 134 من سورة التوبة في ج 3

"قالَ" لهم ابراهيم عليه السلام "أَفَرَأَيْتُمْ ما كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ" 75 أَنْتُمْ وَآباؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ 76

فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي" وحد الخبر على إرادة الجنس وسمى الأصنام أعداء وهي جمادات استعارة ، لأنهم نزولها منزلة العقلاء وقال عليه السّلام (لي) تعريضا لهم لأنه أنفع في النصح من قوله عدو لكم ليكون أدعى للقبول ، ولأنهم على هذا يقولون ما نصحنا إلا بما نصح نفسه وما أراد لنا إلا ما أراد لنفسه ، ولو قال لكم لم يكن بتلك المثابة كما لا يخفى على بصير .

ومن هذا القبيل الآية الآتية من سورة يس المارة إذ أضاف القول فيها لنفسه وهو يريدهم .

حكي أن الشافعي رحمه اللّه واجهه رجل بشيء فقال له لو كنت بحيث أنت لاحتجت إلى أدب .

(111/565)

والعدوّ والصديق يجيئان بمعنى الواحد والجماعة قال تعالى (وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ) الآية 51 من سورة الكهف في ج 2 والصنم ما كان على صورة ابن آدم من حجر أو غيره ، والوثن يطلق على كل ما يعبد من دون اللّه ناميا أو غير نام حساسا أو غير حساس ، فهو أعم من الصنم ، ثم استثنى مما عمم فقال "إِلَّا رَبَّ الْعالَمِينَ" 77 استثناء منقطعا لعدم دخوله تحت لفظ الأعدا أي لكن رب العالمين ربي ووليي المستحق للعبادة "الَّذِي خَلَقَنِي" من العدة ووفقني

لدينه القويم "فَهُوَ يَهْدِينِ" 78 إلى طريق النجاة هداية تدريجية من الولادة إلى الوفاة ، أولها هدايته إلى مصّ الثدي وآخرها إلى الطريق الموصل إلى الجنة ، وما بينهما إلى جلب المنافع ودفع المضار "وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي" مما خلقه لي من الأرض وأنزله من السماء من غير حول لي ولا قوة "وَيَسْقِينِ" 79 من الماء الذي ينزل من السماء فيسلكه في الأرض التي هي أصله "وَإِذا مَرِضْتُ" أسند المرض له عليه السّلام تأدبا مع ربه .

مطلب أكثر الموت من الأكل والشرب والحر والقر ومحبة الذكر الحسن :

ذلك لأن أكثر أسباب المرض وإن كانت في الحقيقة من اللّه ، إلا أنها تحدث من التفريط في الأكل والشرب وعدم الوقاية من الحر والبرد ، وفيه قيل :

فان الداء أكثر ما تراه يكون من الطعام أو الشراب

(112/565)

و قال بعض الحكماء لو قيل لأكثر الموتى ما سبب آجالكم ، لقالوا من التخم ، وكثير من الناس لا يرون المرض إلا مرض الموت ويكون أيضا ممّا ذكر إلا القتل أو التردي أو التسمم والحرق والغرق وشبهه ، وكل ذلك بتقدير اللّه تعالى وإرادته ليقع قضاؤه حيث قدره ، وقد راعى عليه السّلام حسن الأدب بهذا وبغيره ، حتى أنه لم يقل أمرضني ، ولا آدب من

الأنبياء ، لأن الذي نبأهم هذّبهم "فَهُوَ يَشْفِينِ" 80 لأن الشفاء نعمة منه والمنعم بكل النعم هو اللّه وحده ، وهكذا الخلص ينسبون الخير إلى اللّه والشرّ لأنفسهم ، قال الخضر عليه السّلام (فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا) وقال (فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا الآيتين) 80 و81 من سورة الكهف في ج2 ولهذا البحث صلة في تفسير الآية 78 من سورة النساء في ج3 وكذلك مؤمنو الجن راعوا الأدب مع ربهم ، راجع الآية 10 من سورة الجن المارة فما بعدها "وَالَّذِي يُمِيتُنِي" بانقضاء أجلي في الدنيا ، ولا يرد إسناد الموت للّه على ما قلنا ، لأن الفرق ظاهر ولأن الموت قضاء محتم لا بد منه "ثُمَّ يُحْيِينِ" 81 في الآخرة وهذا تعليم لهم بالاعتراف بالبعث بعد الموت

"وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي" هي قوله لقومه حين أرادوه أن يذهب معهم إلى بيت الأوثان (إِنِّي سَقِيمٌ) الآية 90 من الصافات في ج2 وقوله حينما سألوه عمن كسر أصنامهم (بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هذا) الآية 62 من الأنبياء في ج2 وقوله للجبار حين سأله عن سارة (قال أختي) وأراد أخته في الدين وإلا فهي زوجته ، وقد عدها خطايا بالنسبة لمقامه الشريف وقربه من ربه ، وإلا فليست بخطايا وانما هي من معاريض الكلام لدى غير الأنبياء ، وقد يعدها العارفون الكاملون خطايا أيضا بالنسبة لمقامهم ، لأنهم على قدم الأنبياء ، وعلى حد حسنات الأبرار سيئات المقربين ، وهؤلاء يسمون أمثالها خطايا تواضعا لربهم وتعظيما

لأنفسهم ، وتعليما للغير بطلب المغفرة عما صدر منهم ، "يَوْمَ الدِّينِ" 82 الذي يدان به الناس عما عملوه في دنياهم فيجازون عليه ، روى مسلم عن عائشة قالت قلت يا رسول اللّه : ابن جدعان كان في الجاهلية يصل الرحم ويقري الضعيف ويطعم المسكين أكان ذلك نافعا له ؟ قال لا ينفعه إنه لم يقل يوما (رب اغفر لي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ) .

وفي هذا كله يشير عليه السّلام إلى قومه بأنه لا يصلح للالهية إلا من يفعل هذه الافعال ولما أيس منهم باعلام اللّه تعالى إياه هجرهم ونحى نحو ما أمره به ربه وقال "رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً" لأستعد به لخلافة الحق ورياسة الخلق "وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ" 83 الأنبياء قبلي في درجتهم ومنزلتهم عندك "وَاجْعَلْ لِي لِسانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ" 84 من بعدي بأن أذكر لديهم بخير من ثناء حسن وحسن سمعة ، وقد أجيبت دعوته لأن أهل الأديان يثنون عليه خيرا ويعظمونه وكل أمة تحبّه ، وذكر اللسان بدل القول لأنه يكون به ولا حاجة لتقدير مضاف أي صاحب لسان كما قاله بعض المفسرين ، لأن الثناء يكون باللسان وغيره قال :

أفادتكم النعماء مني ثلاثة يدي ولساني والضمير المحجّبا

والجزء يطلق على الكل : ويحتمل أن يراد بالآخرين أمة محمد صلّى اللّه عليه وسلم ، لأنه من ولده ويدعو الناس إلى ملته ودينه المشار اليه في قوله تعالى (وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ) الآية 229 من سورة البقرة في ج 3 أيضا ، ويستدل من هذه الآية ان لا بأس ان يحب الرجل الثناء عليه ، لأن فيه فائدة لا سيما بعد الموت ، إذ تجود عليه رحمات ربه بترحم الناس عليه ، عند ذكر أوصافه وأفعاله الممدوحة ، الا انه لا يخفى ان الأمور بمقاصدها ، وانظر قول صلّى اللّه عليه وسلم من أحب ان يتمثل له الناس قياما فليتبوأ مقعده من النار ، مع ورود الخبر عنه صلّى اللّه عليه وسلم قوموا لسيدكم ، وقد قيد العلماء القيام لأهل الفضل والأكابر ، ولكن الأعمال بالنيّات فعلى المتأدب أن يقوم لمن هو أهل للقيام ، وعلى من يقام له أن لا يحب ذلك "وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ" 85 الباقين فيها كما يقيده معنى ورثة لأن البقاء فيها هو السعادة الكبرى والنعمة العظمى "وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ" 86 طريق الهدى .

مطلب عدم المغفرة للمشرك وعدم نفع المال والولد مع الكفر :

وإنما دعا له بالمغفرة ، لأنه كان وعده بالإيمان به وكان يرجو منه ذلك ، قال تعالى (وَما كانَ اسْتِغْفارُ إِبْراهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَها إِيَّاهُ) الآية 125 من سورة التوبة في ج 3 وفيها دليل على جواز الاستغفار للكفار ماداموا على كفرهم خلافا لما نقله الشهاب في شرح مسلم النووي من أن كونه عز وجل لا يغفر الشرك مخصص بهذه الأمة ، وكان قبلهم قد يغفر لمنافاته صراحة هذه الآية ، وعدم الغفران للمشركين عام في كل أمة ، قال تعالى : (إِنَّ هذا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولى صُحُفِ إِبْراهِيمَ وَمُوسى) الآيتين من آخر سورة الأعلى المارة أي ان هذا الذي هو في القرآن هو في صحف إبراهيم وموسى ، وفيه ما لم يكن فيها أما ما فيها فكله فيه وزيادة "وَلا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ" 87 الناس من قبورهم لان ذلك اليوم "يَوْمَ لا يَنْفَعُ مالٌ وَلا بَنُونَ" 88 عند مالكه ولا ينفع عنده كل شيء واقتصر على المال والبنين لانهما معظم المحاسن والزينة والرفاه ، راجع الآية 45 من سورة الكهف في ج 2 "إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ" 89 من الشك فيه والشرك به لا الذنوب ، إذ لا يسلم منها أحد إلا ما ندر عدا الأنبياء بعد النبوة فإنه مقطوع بعصمتهم من كل ذنب حتى في حالة السهو والخطأ والنسيان والغلط راجع الآية 122 من سورة طه المارة تجد تفسير ما يتعلق بهذا البحث ، وقد أخبر اللّه عنه بأنه كان ذلك الرجل لقوله جل قوله (وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْراهِيمَ إِذْ جاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ) الآية 83 من الصافات في ج 2 وخصّ القلب لأن بقية الجوارح تبع له ، تصلح بصلاحه وتفسد بفساده ، قال صلّى اللّه عليه وسلم في حديث طويل صحيح : ألا وأن في

الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهي القلب .

(116/565)

وأخرج احمد والترمذي وابن ماجه عن ثوبان قال : لما نزلت (وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ) الآية 75 من سورة التوبة في ج 3 قال بعض أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم لو علمنا أي المال خيرا اتخذناه ، فقال صلّى اللّه عليه وسلم أفضله لسان ذاكر ، وقلب شاكر ، وزوجة صالحة تعين المؤمن على إيمانه .

وفي هذه الآية دلالة على ان طلب المغفرة له حال لا كما قال بعض المفسرين بعد موته ، لأنه مات كافرا ولا

يجوز الاستغفار للكافر كما مرّ وفيها اشارة أخرى إلى أنه لا ينفع المال صاحبه ، ولو صرفه في وجوه البر إذا كان صاحبه شاكا أو كافرا ، ولا ينفع الولد والده ولو كان صالحا إذا كان أبوه شاكا أو كافرا ، فصلاح المال والولد ينفع عند اللّه إذا كان صاحبهما مؤمنا به ، والا لا ، والى هنا انتهى كلام الخليل عليه السّلام ، خلافا لابن عطية القائل إن هذه الآيات منقطعة عن كلامه مخالفة سياق الآيات ، قال تعالى "وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ" 90 المعاصي حيث

يروونها أمامهم ، لأنها تقرب منهم في ذلك اليوم ، ويتيقنون انهم محشورون إليها ، لأن أهل الموقف حينما يقول اللّه تعالى (وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ) الآية 59 من سورة يس المارة تنقسم إلى قسمين فأهل موقف السعادة تتراءى لهم الجنة ، وأهل موقف الشقاوة تظهر لهم النار "وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ" 91 الذين أغواهم هواهم عن طريق الحق ، وفي الآية إشارة إلى أن رحمة اللّه تسبق غضبه ، كما جاء في الحديث ، لأن إظهار جهنم لا يستلزم قربها ، وتقريب الجنة هو تقريبها من داخليها

(117/565)

"وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ 92 مِنْ دُونِ اللَّهِ" في دنياكم وتزعمون أنهم يشفعون لكم في هذا اليوم ، وأنهم يقربونكم من اللّه في هذا الموقف ، هاتوهم وادعوهم لنرى "هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ" كما تقولون ويدفعون عنكم العذاب "أَوْ يَنْتَصِرُونَ" 93 لأنفسهم ليدرأوا عنها العذاب ؟ والجواب محذوف يفهم من المقام لأن السؤال سؤال توبيخ وتقريع ، أي لا ينصرونكم ولا ينصرون أنفسهم وكلكم معذب ، قال تعالى "فَكُبْكِبُوا فِيهَا" فقذفوا وطرحوا في الجحيم المذكورة منكوسين وهو تكرير كب مبالغة في الطرح كدمدم مبالغة في الدم أي الذقن وعسعس مبالغة في العس أي الظلمة "هُمْ وَالْغَاوُونَ" 94 من الإنس والجن

المعبودون والعابدون جميعا لأنهم جنود إبليس ولهذا عطف عليه "وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ" 95 من أتباعه وأنصاره ومواليهما ، لأن من يعبد غير الله فهو عابد الشيطان ، وإن عزيزا والمسيح والملائكة مبرءون من ذلك ، لأنهم لم يدّعوا الإلهية ولم يأمروا بها ، ولم يرضوا فيها ، ولذلك فإنهم مبرءون مما نسب إليهم من العبادة ، كما أنهم قد تبرأوا منها ومنهم .

مطلب ما يقال في مواقف القيامة وعدم جواز أخذ الأجرة على الأمور الدينية :

(118/565)

"قالُوا وَهُمْ فِيها يَخْتَصِمُونَ" 96 بعضهم لبعض أثناء الخصام "تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ" 97 نحن وإياكم ومن الضلال بمكان "إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعالَمِينَ" 98 فنعليكم ونجعلكم سواسية معه ، وما أنتم إلا مخلوقون مثلنا ، فكيف نعبدكم دون خالقكم "وَما أَضَلَّنا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ" 99 الّذين سنوا لنا الشرك قديما من إبليس وقابيل ، فهما أول من سن العصيان في الأرض ، وهذا إنما يتجه إذا كان هذا القول من التابعين والمتبوعين ، أما إذا كان من التابعين فقط فيكون معنى المجرمين الرؤساء والقادة ، يدل على الأول قوله تعالى "فَما لَنا مِنْ شافِعِينَ" 100 يشفعون لنا اليوم مثل ما للمؤمنين من الأبناء والأولياء والملائكة والصالحين

"وَلا صَدِيقٍ حَمِيمٍ" 101 مخلص كما لهم أيضا ، حيث يكون التصادق إذ ذاك بين المؤمنين والتعادي بين الكافرين ، قال تعالى : (الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ) الآية 28 من سورة الزخرف ، وهؤلاء الذين كان يجمعهم إخاؤهم على التقوى ، أما الذين يجمعهم إخاؤهم على المعصية الذين لا يتناهون عن منكر فعلوه فيكون كل منهم عدوا للآخر ، لأن كل من كانت صداقته في الدنيا لأغراض قبيحة لا تدوم صداقته في الدنيا ولا تنفع في الآخرة ذويها ، وتكون عليهم حسرة ، راجع تفسير الآية 34 من سورة مريم المارة والآية 140 من سورة البقرة في ج 3 .

قال الحسن استكثروا من الأصدقاء المؤمنين فإن لهم شفاعة يوم القيامة ، وقال صلّى اللّه عليه وسلم : استكثروا من الإخوان فإنهم عدة الدنيا وعدة الآخرة

(119/565)

"فَلَوْ أَنَّ لَنا كَرَّةً" رجعة أخرى في الدنيا "فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ" 102 بالرسل وما جاءوا به من اللّه ، طفقوا يتمنون المحال لشدة الندم والأسف على ما فاتهم في الدنيا ، مع أنهم لو أجيبوا لرجعوا إلى كفرهم ، قال تعالى : (وَلَوْ رُدُّوا لَعادُوا لِما نُهُوا عَنْهُ) الآية 29 من الانعام .

انتهى كلامهم ، وسياق الآيات يدل على أنه من الطرفين كما ذكرنا "إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ 103 وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ" 104 تقدم تفسير مثلها ، ومن كمال رحمته إمهال أكثر قريش حتى آمنوا به ، بخلاف الأمم الماضية فإنه عجل

(120/565)

عقوبتهم دفعة واحدة "كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ" 105 قبله كإدريس وشيث كما كذّبته هو ، ومن كذب نبيا فكأنما كذب جميع الأنبياء "إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ" بالنسب لا في الخلقة فقط ، لأنه منهم "أَلَا تَتَّقُونَ" 106 اللّه فتؤمنوا بي ، وألا أداة استفتاح بستفتح بها الكلام ، وتفيد التنبيه وطلب الشيء بلين ورفق ، ويقابلها هلّا للحثّ على فعل الشيء بشدّة وإزعاج "إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ" من اللّه خالقكم "أَمِينٌ" 107 على أداء رسالته إليكم وعليكم وكان مشهورا عندهم بالأمانة مثل محمد صلّى اللّه عليه وسلم إذ كان يسمى الأمين "فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ" 108 فيما آمركم وأنهاكم لئلا ينزل بكم عقابه "وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ" لتتهموني بقصد ما وإنما أسديكم نصحي وإرشادي مجانا "إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ" 109 لا على أحد منكم ، لأن العمل إذا كان للّه فلا يطلب عليه أجر من غيره ، تفيد هذه الآية لزوم تحاشي العلماء عن طلب أجر على تعليم القرآن والحديث

والعلم ، لأنهم ورثة الأنبياء فينبغي أن يقتدوا بمورثيهم ويبثوا ما عندهم من العلوم مجانا للعامة كما علمهم اللّه ، وكذلك الجهات الدينية كالإمامة والخطابة والأذان والوعظ فلا ينبغي أن يؤخذ عليها أجر ما إلا لحاجة ماسة ، كمن ليس له مورد ما ولا شيء من الوقف ولا يقدر على العمل مع القيام بذلك "فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ" 110 كررها تأكيدا وتقريرا أولا بأنه رسول اللّه ، وثانيا بأنه لا يأخذ أجرة على هذه الدعوة ، وانظر بماذا أجابوه قاتلهم اللّه "قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ" 111 السفلة الفقراء ، أي كيف نؤمن بك وانك تساوينا معهم ولم نرضهم خدما ، وهم آمنوا بك من غير حجة ونظر واستدلال أو حذق بصر أو بصيرة بل ليعيشوا بفضلك .

مطلب لا تضرّ خسّة الصنعة مع الإيمان ولا يكفي النسب بلا تقوى :

(121/565)

ومعنى الرذالة الخسة ، وخصوهم بها لقلة ذات يدهم من الدنيا ولخسة صنائعهم ، لأن منهم الحاكة والحجامة والإسكافية والمعدم الذي لا مال له ولا نشب ، على أن الفقر ليس بشيء يعاب عليه وكذلك الصنعة قال :

قد يدرك المجد الفتى ورداؤه خلق وجيب قميصه مرقوع

وقال أبو العتاهية :

وليس على عبد تقي نقيصة إذا صحح التقوى وإن حاك أو حجم

وخسة الصنعة خير من السؤال قال الأصمعي رأيت زبالا ينشد :

وأكرم نفسي إنني إن أهنتها وحقّك لا تكرم على أحد بعدي

فقلت له وما بعد هذه الإهانة ؟ قال السؤال منك ، فحجني ووليت .

وكذلك عدم النسب لا يزري بالشرف ، قال تعالى (فَلا أَنْسابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَساءَلُونَ) الآية 102 من سورة المؤمنين في ج 2 ، وقال تعالى (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقاكُمْ) الآية 13 من سورة الحجرات في ج 3 ، وقال صلّى اللّه عليه وسلم : أنا جد كل تقي ، وقال :

لا فضل لأسود على أحمر ولا لعربي على عجي إلا بالتقوى ، وقال القائل :

وليس بنافع نسب زكي تدنسه صنائعك القباح

وقال أيضا :

لا ينفع النسب من هاشم إذا كانت النفس من باهله

على أن الإسلام قد ساوى بين أكثر الناس واحتفظ بحق الشرف الاصلي للرجل فقال صلّى اللّه عليه وسلم : خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا .

وقال القائل :

أبي الإسلام لا أب لي سواه إذا افتخروا بقيس أو تميم

وليعلم أن الغنى غنى الدين ، والنسب نسب التقوى ، والرفع والخفض من جهتهما

لقد رفع الإسلام سلمان فارس وقد وضع الشرك الحسيب أبا لهب

(122/565)

و الصنعة مهما كانت حقيرة خير من ذل السؤال ، وأحفظ لماء وجه الرجل ، ولا يجوز أن يسمى المؤمن رذيلا ولو كان أفقر الناس مالا وأوضعهم نسبا وأخسهم صنعة ، وما زالت اتباع الرسل بادي الرأي كذلك ، وأتباع الصالحين من بعدهم حتى الآن ، فترى أكثر علماء المدن وصالحيها من القرى ومن عادي الناس ، لكن مع الأسف بعد أن رفعهم العلم وينالوا الشرف على الناس بسلّمه الذي صعدوا عليه ترى خلفهم عمدوا إلى تحطيم ذلك السلم واعرضوا عن العلم الذي هو أساس شرفهم وتقدمهم ، فما تحس بهم إلا وقد أخمد اللّه تلك الشعلة النورانية فيهم ، فصاروا من أحسن الناس بسوء عملهم ، قال تعالى : (ذِلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَها عَلى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ)
الآية 55 من سورة الأنفال ، وقال تعالى (إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ)
الآية 3 من سورة الرعد في ج 3 ، واللّه تعالى أكرم من أن يسلب نعمة من عبده وهو

يشكرها ، ولكن كفرانها مزيل لها ، قال تعالى : (لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ) الآية 7 من سورة ابراهيم في ج 2 ،

(123/565)

"قالَ" تعالى حاكيا على لسان نوح عليه السّلام "وَما عِلْمِي بِما كانُوا يَعْمَلُونَ" 112 من الصناعات ، أو أن إيمانهم عن غير نظر واستدلال ، إنما أطلب منهم الإيمان الظاهري في الدنيا واللّه يتولى سرائرهم في الآخرة ، يدلك على هذا قوله "إِنْ حِسابُهُمْ إِلَّا عَلى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ" 113 إن اللّه سيحاسبهم على ما في ضمائرهم وعقائدهم لا على صنائعهم وظواهرهم ومكانتهم بينكم وضعة نسبهم فيكم ، فلو علمتم هذا لما عيرتموهم بذلك "وَما أَنَا بِطارِدِ الْمُؤْمِنِينَ" 114 من أجل فقرهم وخسة صنعتهم وضعة نسبهم ، أو لأن إيمانهم بقصد التعيش كما زعمتم "إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ" 115 بالبرهان الصحيح والدليل القاطع أظهر لكم الحق من الباطل ، فأقبل من يتبعني ، وأدعوا لمن يعرض عني لأقيه من عذاب اللّه ، لا لغرض ولا لعوض ، أملا من اللّه أن يرشدكم للصواب ويهديكم لما به نجاتكم .

(124/565)

وانظر بماذا أجابوه على نصحه هذا "قالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يا نُوحُ" عن دعوتك هذه "لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ" 116 بالحجارة حتى تموت "قالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ" 117 فيما وعدتهم به من نزول العذاب بهم إن لم يؤمنوا بك وجحدوا رسالتي ووحدانيتك "فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً" أي احكم بيننا لأن فتح بمعنى حكم ، والفتاح الحاكم لأنه يفتح مغلقات الأمور ، كما يسمى فيصلا ففصله بين الخصمين "وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ" 118 بك والمصدقين لرسالتي فأجابه اللّه تعالى بقوله "فَأَنْجَيْناهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ" 119 المملوء الموقر من أصناف الإنسان والحيوان والطير ، قال تعالى : (قُلْنَا احْمِلْ فِيها مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ) الآية 40 من سورة هود في ج 2 وتقدمت قصته مفصلة في تفسير الآية 59 من سورة الأعراف المارة "ثُمَّ أَغْرَقْنا بَعْدُ الْباقِينَ" 120 الذين لم يؤمنوا به بما فيهم زوجته واعلة وابنه كنعان "إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً"

عظيمة "وَما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ 221

وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ" 122 بانقاذ المؤمنين ويفهم من قوله الباقين أن نوحا عليه السّلام مرسل لمن على وجه الأرض أجمع ولانه قال في قصة موسى (ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ) قالوا ان عدد المؤمنين الذين كانوا في السفينة ثمانون نسمة ، وانهم أنشئوا قرية في محل إرسائها قرب الجودي وسموها قرية الثمانين ، وسنأتي على تمام القصة في تفسير الآية المذكورة من سورة هود ، وسنبحث في عموم رسالته من حيث الآخر ، وخصوصها من حيث المبدأ هناك أيضا ، وأن رسالة محمد عامة أولا وآخرا ، ورسالة بقية الرسل خاصة أولا وآخرا ، وان عاقبة المصرين على الكفر المستكبرين عن الحق الانتقام بالعذاب الأليم ، قال تعالى "كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ" 123 أنت الضمير باعتبار القبيلة ، وعاد اسم أبيهم الأقصى وكثير ما يعبر عن القبيلة بالأب إذا كانت كبيرة أو كان رئيسها عظيما ، وقد يعبر عنها ببني فلان أو آل فلان "إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ" نسبا لا دينا "هُودٌ" هو عابر بن شالخ بن ارفخشد ، بن سام بن نوح عليه السّلام ، وسمي هودا لوقاره أخذا من الهوادة التؤدة والسكينة ، وهو اسم عربي فصيح ، وقومه وقوم صالح عرب ، لأنه من نسل نوح أيضا أما شعيب وإسماعيل فمن نسل ابراهيم عليهم السّلام ، فيكون مجموع الأنبياء العرب خمسة : عاش مئة وخمسين سنة ، وأرسل على رأس الأربعين من عمره إلى أولاد عاد ، وخاطبهم بقوله "أَلَا تَتَّقُونَ 124 إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ" 125 وهكذا كل الأنبياء أمناء اللّه على وحيه وعلى عباده "فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ" 126 فيما آمركم وأنهاكم بقصد إرشادكم وهدايتكم "وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ

مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلى رَبِّ الْعالَمِينَ" 127 تقدم مثله ، وهو عبارة عن تنزيهه عن المطامع الدنيوية والأغراض الدنيئة حتى لا يشك فيه ان له رائدا آخر غير اللّه ، ثم شرع يعدد مساويهم

(126/565)

فقال "أَ تَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ" مكان مرتفع ، وقيل هو الفج بين الجبلين والطريق وكل ما يشرف على غيره (آيَةً) برجا عاليا كالعلم وقد بين مواضع الذم في اتخاذهم البناء العالي بقوله "تَعْبَثُونَ" 128 بالمارة وتستهزئون بهم من فوقهم بسبب اشرافكم عليهم مع انكم بغنى عن ذلك وتقصدون به التفاخر والتطاول عليهم لالسدّ حاجتكم

وكفايتكم ، او لا حاجة لكم لعلو البناء لفسحة أراضيكم "وَتَتَّخِذُونَ مَصانِعَ" حياضا كبيرة محصنات لجمع الماء "لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ" 129 بذلك في هذه الدنيا التي لا خلود فيها ، فاقطعوا أملكم منها واعلموا انكم ميّتون ما عمرتم فيها وتاركون قصوركم وحياضكم وغيرها "وَإِذا بَطَشْتُمْ" عاقبتم أحدا لجرم ما "بَطَشْتُمْ" ضربتم ضربا مبرحا بالسوط وقتلا بالسيف بطش أناس "جَبَّارِينَ" 130 بلا رحمة ولا شفقة ولا رأفة والجبار وصف مذموم

بالخلق لأن الذي يضرب ويقتل بمجرد غضبه غير ناظر للمضروب انه مستحق ذلك أم لا "فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ" 131 بالكف عن هذه الأفعال الذميمة

(127/565)

"اتَّقُوا اللّه الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِما تَعْلَمُونَ" 132 من العافية والنعم المبينة بقوله "أَمَدَّكُمْ بِأَنْعامٍ" كثيرة متنوعة "وَبَنِينَ 133 وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ" 134 جارية بينها ولم تشكروه وقد ضرب صفحا عن نعمة خلقهم وما متعهم به من سمع وبصر وقوة وعقل ، لانهم ليسوا بأهل للاستدلال والنظر ، ولهذا اقتصر على النعم المنهمكين فيها ، وكان خلقهم التكاثر بالأموال والأولاد ، والتفاخر بالكثرة فيها "إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ" ان لم تؤمنوا أن يصبّ عليكم "عَذابَ يَوْمٍ" من ربكم "عَظِيمٍ" 135 لا أعظم منه إن بقيتم على كفركم وأصررتم على عصيانكم ، وانظر بماذا جاوبوه "قالُوا سَواءٌ عَلَيْنا أَ وَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْواعِظِينَ" 136 فإنا لا نسمع قولك ولا نطيع أمرك ، وهو جواب بغاية الاستخاف وقلة الاكتراث وعدم المبالاة ، مع أن ما وعظهم به كان على غاية من اللين ، ولكن قلوبهم قاسية يلين الحجر ولا تلين ، راجع الآية 13 من البقرة في ج 3 .

ثم قالوا له "إِنْ هذا" الذي نحن عليه من بناء القصور ومصانع المياه وشدة البطش والعبث

ما هو "إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ" 136 آبائنا ومن قبلهم أي عبادتهم وديدنهم ولم يبعثوا بعد موتهم كما تقول ولم يعذبوا ، ولهذا فلا محل لقبول نصحك "وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ" 138 أيضا ولا مبعوثين ولا محاسبين على ما نفعله ، قال تعالى "فَكَذَّبُوهُ" ولم ينتفعوا بإرشاده "فَأَهْلَكْنَاهُمْ" بريح صرصر عاتية فلم تبق لهم باقية ، وتقدمت قصتهم مفصلة في الآية 72 من الأعراف المارة ، "إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً" كافية لمن يعتبر بها

"وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ 139 وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ" 140 تقدم تفسيره

(128/565)

"كَذَّبَتْ ثَمُودُ" بن غابر بن أرم بن سام بن نوح كانت مساكنهم بين الحجاز والشام "الْمُرْسَلِينَ 141 إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ" بن عبيد بن جاوز بن ثمود أرسله اللّه إليهم بعد هود بمئة سنة ، وعاش مئتين وعشرين سنة "أَلَا تَتَّقُونَ 142 إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ 143 فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ 144 وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ" 145 تقدم مثله "أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا" في هذه الدنيا ونعيمها "آمِنِينَ 146" من الموت وعذاب الآخرة الذي لا بد لكم منه ، الذي لم ينج منه من تقدمكم من الأمم الكافرة ، فلا تغتروا بما أنتم عليه ، فإنه نازل بكم إذا لم تؤمنوا باللّه ورسوله وصحفه وتموتوا على ذلك ، فلا تأمنوا

مكر اللّه بما أنعم عليكم "فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ 147 وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ" 148 نضيج لين رطب ، ينهضم في المعدة فلا يحتاج إلى كثير مضغ "وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً فَارِهِينَ" 149 أشرين بطرين في هذه الدنيا ، كلا لا تتوهموا ذلك فهو محال اغترّ فيه من قبلكم فهلكوا وخلفوها لمن بعدهم وتحملوا عذابها .

سأل نافع بن الأزرق ابن عباس رضي اللّه عنهم عن معنى الهضيم فقال : هو المنضمّ بعضه إلى بعض ، فقال له وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال نعم ، أما سمعت قول امرئ القيس :

دار لبيضاء العوارض طفلة مهضومة الكشحين ريّا المعصم

"فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ 150 وَلا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ" 151 في المعاصي الذين تآمروا على مخالفته ، وهم الرهط التسعة الآتي ذكرهم في الآية 47 من سورة النمل الآتية

(129/565)

"الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ" 152 لتوغلهم في الفساد ودأبهم على المخالفة للحق "قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ" 153 الذين خدعهم السحر واستولى على حواسهم "مَا أَنْتَ" أيها الآمر المدعي النبوة "إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا" تأكل وتشرب وتنكح ولست برسول ولا ملك "فَأْتِ بِآيَةٍ" تدل على صحة دعواك "إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ" 154 بأن

اللّه أرسلك إلينا مما ذكرت "قالَ هذِهِ ناقَةٌ لَها شِرْبٌ" حظ من الماء العائد لكم "وَلَكُمْ" مثله "شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ" 155 لكم يوم ولها يوم فلا تزاحموها عليه وهي آية على نبوتي "وَلا تَمَسُّوها بِسُوءٍ" من ضرب أو نهر أو منع عن الورود والمرعى ، فإذا فعلتم شيئًا من ذلك "فَيَأْخُذَكُمْ عَذابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ" 156 فلم يعبأوا بقوله فعمدوا إليها "فَعَقَرُوها فَأَصْبَحُوا نادِمِينَ" 157 إذ شاهدوا العذاب أظلهم .

مطلب في إيمان اليأس والتأدب بآداب القرآن وآداب المنزل عليه :

وكان ندمهم ندم خوف لا ندم توبة ، والتوبة لا تنفع عند نزول العذاب ، راجع قوله تعالى (وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ) إلخ الآية 18 من سورة النساء في ج 3 ، وقال في بدء الأمالي :

وما إيمان يأس حال يأس بمقبول لقصد الامتثال

(130/565)

فالإيمان عند معاينة العذاب لا قيمة له ، كما سيأتي في الآية المذكورة ، لذلك قال تعالى "فَأَخَذَهُمُ الْعَذابُ" المعهود المبين في الآية 79 من الأعراف المارة ، "إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ 58 وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ 159 تقدم تفسيره ، قال تعالى

"كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ" 160 هو بن هاران بن عم ابراهيم عليهم السّلام وقد هاجر معه إلى الشام فأنزله الأردن ، فأرسله اللّه إلى أهل سدوم وما يتبعها ، وهو أجنبي عنهم ، إلا أنه صاهرهم ، وهؤلاء المرسل إليهم كذبوا قبله ابراهيم ومن قبله ، وكذبوه هو "إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ" بالخلقة لا بالدين ولا بالنّسب ، ومعناه هنا صاحبهم كما يقال يا أخا العرب ، يا أخا تميم ، وعليه قوله :

لا يسألون أخاهم حين يندبهم في النائبات على ما قال برهانا

وهو لوط عليه السّلام بدل من أخوهم ثم فسر ما قاله لهم بقوله "أَلا تَتَّقُونَ 161 إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ 162 فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ 163 وَما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلى رَبِّ الْعالَمِينَ" 164 الذي أرسلني إليكم ، لأرشدكم إلى ما فيه صلاحكم ، وقال لهم على طريق الاستفهام الانكاري "أَتَأْتُونَ الذُّكْرانَ مِنَ الْعالَمِينَ" 165 عبر بالإتيان عن اجراء الفحش ليعلم قومه الأدب في المخاطبات ، ولينبههم على ان هذا الفعل قبيح بنفسه ولفظه ليتحاشوا عنه وعن ذكره .

هذا ، وان اللّه تعالى عبر

عن الوطء الحلال بالحرث في الآية 222 من البقرة في ج 3 ، وعن الجماع بالغشيان في الآية 188 من الأعراف المارة ، وعن الفعل القبيح بالإتيان كما هنا ، وفي الآية 73 من الأنبياء بالخبث في ج 2 وفي الآية 179 من الأعراف المارة وذلك ليتأدب العباد بتأديب القرآن ويصونوا ألسنتهم عن ذكر الألفاظ المستهجنة ، قال صلّى اللّه عليه وسلم إذا أتى أحدكم أهله ، وكثير من أقوال الرسول تأمر بالآداب في المخاطبة بالإشارة والقول والفعل تباعدا عن سوء الأدب والجهر بما هو فاحش والجنوح إلى الكنى والمعاريض في كل ما يستقبح ذكره ، ومن هذا قوله تعالى "وَتَذَرُونَ ما خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْواجِكُمْ" مما أحله لكم وهو محل الحرث والبذر الذي منعكم اللّه عن إتيانه أيام الحيض لقذارته ، فكيف تميل أنفسكم إلى ذلك المحل مخرج القذر دائما "بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عادُونَ" 166 متجاوزون متعدون الحل إلى الحرمة قالوا كانوا يفعلون هذا الفعل القبيح بأزواجهم أيضا : وقيل إن ابن مسعود قرأ (وتذرون ما أصلح لكم ربكم من أزواجكم) هو تفسير الآية لا قراءة وقد أخطأ من جعلها قراءة لما فيها من الزيادة على ما في المصاحف من تبديل خلق بأصلح ، وقد ذكرنا غير مرة بأن كل قراءة فيها تبديل كلمة أو حرف أو زيادة أو نقص عما أثبت في المصاحف لا عبرة بها وليست بقراءة ، وانما هي شروح كتبوها على مصاحفهم تفسيرا لبعض الكلمات ، لأنها أنزلت كذلك ، وقد أكثرنا من التحرز عن مثل هذا لينتبه القارئ فيحذر من الإقدام على القول بشيء منه ، إذ لا يجوز اعتباره ولا نقله الا تأويلا أو تفسيرا ، وبحرم اعتقاد

قرآنيته ، لأن من يعتقد قرآنا ما ليس بقرآن قد يؤديه إلى الكفر والعياذ بالله ، إذ لا قرآن الا ما هو ثابت بين الدفتين البتة ، وفي هذه الآية دلالة على تحريم إتيان النساء والجواري بأدبارهن حتى أن بعض العلماء كفر فاعله مبالغة في التحريم ، وقد جاء في الحديث من

(132/565)

أتى امرأة في دبرها فهو بريء مما أنزل على محمد صلّى اللّه عليه وسلم ، ولا ينظر اللّه اليه ، ولهذا أفتى من أفتى بكفره ، لأن من كان بريئا مما انزل على محمد فهو كافر ، تدبر هذا ، وراجع الآية 80 فما بعدها من سورة الأعراف المارة تجد تفصيلا شافيا كافيا ، والحكم الشرعي فيه ، والقصة بتمامها ايضا "قالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يا لُوطُ" عن مقالتك هذه وتتركنا وشأننا "لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ"

167 من قرانا لأنك لست منا ولا فينا من ينظرك "قالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقالِينَ" 168 المبغضين وهو أبلغ من قال ، كما إذا قلت فلان من العلماء فقد جعلته منهم مساهما معهم بالعلم فهو أبلغ من قولك عالم ، لأن العالم من علم مسألة واحدة ، وفيه دليل على عظم هذه المعصية ، ولما رأى عدم ميلهم لقوله وتهديدهم له قال "رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ" 169 فأجاب اللّه دعاءه بقوله "فَنَجَّيْناهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ 170 إِلَّا عَجُوزاً" هي امرأته

منهم بقيت "فِي الْغابِرِينَ" 171 الهالكين لأنها كانت راضية عن عمل قومها والراضي بحكم الفاعل في شريعتهم أما في شريعتنا فلا الا الرضاء بالكفر فهو كفر

(133/565)

"ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ" 172 تدميرا فظيعا بأن قلبنا قراهم كما مر في الآية 84 من الأعراف المارة ، "وَأَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ مَطَراً" من حجارة فكان عذابهم عذابا عظيما "فَساءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ" 173 الذي أنزلناه عليهم من السماء وجعلنا أعالي أراضيهم أسفلها على صورة عجيبة هائلة "إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ 174 وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ" 175 كَذَّبَ أَصْحابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ" 176 هي الغيضة المنبتة ناعم الشجر كالسدر والأراك ، وهي بلدة قريبة من مدين من جهة البحر "إِذْ قالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ" بن ثويب بن مدين بن ابراهيم وقيل بن مكيك بن يشجر بن مدين وأم مكيك بنت لوط عليهم السّلام ، ولم يقل هنا أخوهم ، لأنه ليس منهم أيضا ، وليس له معهم مصاهرة ولا نسبة ، وكانوا طائفة على حدة "أَلا تَتَّقُونَ 177 إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ 178 فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ" 179 لأن طاعتي طاعته "وَما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلى رَبِّ الْعالَمِينَ" 180 لأني مأمور من قبله وأجر المأمور على آمره ، ثم طفق يأمرهم وينهاهم بما تلقاه عن ربه فقال

"أَوْفُوا الْكَيْلَ" إذا كلتم للناس "وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ" 181 حقوقهم بالتطفيف لأن فيه نقص حقهم ، والكيل ثلاثة : واف وهو مأمور به ، ومطفف وهو منهي عنه ، وزائد وهو مسكوت عنه ، فإن فعله فقد أحسن ، وإلا فلا شيء عليه ، وفي الآية دليل على الوفاء وهو لا يخلو من الزيادة ، لأنه

لا يكون إلا بالرجحان ، فمن رجح الموزون على الوزن فقد أوفى به "وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ" أي الميزان العدل أو القبان .

مطلب ما قيل إن في القرآن لغات أجنبية لا صحة له وهي هذه كلها :

(134/565)

قالوا إن هذه الكلمة في الأصل ليست عربية ، وانها من جملة ما جاء بالقرآن من الكلمات الاعجمية الكثيرة ، إذ أبلغوها إلى ما يزيد على مئتي كلمة وقد جاءت في القرآن لا لعجز في اللغة العربية لأن لها كما لا يخفى مترادفات كثيرة ، ولكن ليعتني الناس بأمر اللغات وليعلموا أن معرفتها كمال للإنسان لا نقص ولا عيب ولا سيما لاستعمال الأشياء المحدثة إذ لا يمكن أن يعبر عنها بكلمة واحدة كأصلها وإن في تجدد اللغة تجدد معارف لم تكن وإن في ازديادها تحصيلا لها فتكون نموا وحياة لآخذها في عوامل الارتقاء من نواحيه كافة ،

وهذا من إرشادات القرآن العظيم لأن معرفة كل لسان بإنسان .

هذا ، وان القول الحق في هذه الكلمات أنها عربية في الأصل ، لأن العرب استعملوها قبل نزول القرآن ، ولغتهم قديمة ، لأن هودا وصالحا وأممهم عرب كما مر في الآية 123 ولغاتهم متفرقة ولها مترادفات كثيرة ، ويوجد كلمات مستعملة عند طائفة منهم بمعنى ، وعند أخرى بمعنى آخر ، وقد توجد كلمات عند فرقة دون أخرى لبعد الشقة بينهم ، حتى ان حرفي الجيم والكاف الفارسيين الذين لم يعدّا من الحروف العربية لا بد وأن يكون أصلهما عربيا ، لأن عرب البادية قديما وحديثا ينطقون بها ، وهذا بالطبع بطريق التنافل ، فلو لم يكن أصلهما عربيا لما تعمم هذا التعميم ونطق بها من لم يعرف الحاضرة ولم يختلط بالفرس ، إذ قد يكون بالاختلاط أيضا كما هو الحال الآن ، إذ يدخلون بالكلام العربي كلمات أجنبية تسربت لهم بسبب الخلطة ، وبعد أن علمت هذا فقد أحببنا أن نورد لك الكلمات الموجودة في القرآن المقول عنها بأنها أجنبية تتميما للفائدة مما وقفنا عليه ، فمنها ما قيل إنه بلغة الحبشة وهي كلمة (شطر) : بمعنى تلقاء 2 والجبت :

بمعنى الشيطان ، 3 والطاغوت : الكاهن ، 4 والحوب : الإثم ، 5 والأواه : الموقن والمؤمن والرحيم ، 6 ابلعي ماءك : ازدرديه ، 7 المتكأ : الأترج ، 8 طوبى :

الجنة ، 9 السكر : الخل ، 10 طه : يا رجل ، 11 حرّم وجب ، 12 طي السجل :

الرجل ، 13 المشكاة : الكوة ، 14 أوّبي : سبحي ، 15 سيل العرم :

المسناة التي يجتمع إليها الماء ثم ينبثق ، 16 منسأته : عصاه ، 17 يس : يا إنسان ، 18

أوّاب : مسيح ، 19 كفلين : ضعفين ، 20 ناشئة الليل : رغبة قيامه ، 21 منفطر :

ممتلىء ، 22 قسورة : الأسد ، 23 يمور : يرجع ، 24 طور سينين :

الحش وهو إيقاد النار والمحش هو المكان الكثير الكلأ والخير ، 25 الأرائك :

السرر عليها الوسائد ، 26 يصدون : يضجون ، 27 دريّ : مضيء ، 28 غيض الماء :

نقص ، ومنها ما جاء بالفارسية في قوله تعالى (وَإِسْتَبْرَقٍ) : الحرير الثخين ويسمى ديباجا ،

29 و30 سجيل كل ما أوله حجر وآخره طين وقالوا هو الطين المحرق كالآجر ، 31

كورت : غورت ، 32 مقاليد مفاتيح ، 33 أباريق : كل آنية لها خرطوم وعروة ، 34 بيع

: بيوت عبادة النصارى ، 35 كنائس : بيوت عبادة اليهود ، 36 التنور : جهنم ، 37

دينار : اسم لما يعادل ثلث مثقال من الذهب المتعامل ، 38 الرّس : البئر غير المطوي وقيل

هو المطوي 39 الروم :

علم لقبيلة بني الأصفر ، 40 زنجبيل : اسم لنبات حار خص به ، 41 سجين :

اسم لكتاب اهل النار ، 42 سرادق : قماش يمد فوق صحن البيت ، 43 سقر :

من أسماء جهنم ، 44 سلسبيل : اسم لعين ماء في الجنة ، 45 وردة كالدهان :

الزهرة في النّبات ، 46 سندس : مارق من الحرير المنسوج ، 47 قرطاس :

الورق ، 48 أقفالها : غالاتها : 49 كافور : اسم لنبات مخصوص ذو رائحة يطيب فيه

أكفان الموتى غالبا 50 كنز : ما ادخر من ذهب وفضة وجوهر ، 51 المجوس :

طائفة من اليهود افترقت عنهم لمخالفتها بعض طقوسهم ، 52 الياقوت : اسم لحجر كريم

يتزين به ويوضع فصا للخاتم وهو ألوان كثيرة ، 53 المرجان : كذلك إلا أنه بحري وذلك برّى

، 54 مسك معلوم ويكون من نوع من الغزال كالفسارة في بطنه فيه وقيل :

(136/565)

فإن تفق الأنام وأنت منهم فإن المسك بعض دم الغزال

55 و56 و57 هود وهاد وهدنا واليهود : بمعنى التوبة والإنابة والرجوع

والخضوع ، ومنها ما جاء بالرومية في قوله تعالى فصرهنّ : قطعهن أو ضمهن ، 57

الفردوس : البستان والجنة ، 58 القسط : العدل ، 59 القسطاس : الميزان ، 60 طفقا

:

قصدا وشرعا ، 61 الرقيم : اللوح والكتاب ، 62 الصراط : الطريق ، 63 القنطار :

إثنا عشر ألف اوقية ، 64 عدن : اقامة دائمة ، ومنها ما جاء بالهندي في قوله تعالى ابلعي

: اشربي وتقدم أنه بلغة الحبشة بمعنى از دردي والمعنى واحد ، 65 طوبى :

الجنة وهي كذلك بلغة الحبشة ، 66 سندس : رقيق الحرير الديباج ، وهو كذلك

بالفارسية ، وهذا مما يدل على أن اللغات آخذة بعضها من بعض وهو كذلك ، فإنك لا تجد

لغة إلا وفيها من غيرها ، وبما أن أوسع اللغات هي العربية فنقول إن هذه الكلمات وغيرها

في الأصل عربية وتناقلتها اللغات الأخرى فأدمجتها في لغتها وها هي ذي لغة الترك مركبة من

عربي وفارسي وبربري ، ومنها ما جاء بالسريانية في قوله تعالى سريّا : نهرا ، أو جدولا

صغيرا وبالعربية كذلك ، وبمعنى شريف ونبيل ، راجع الآية 23 من سورة مريم المارة ،

67 طه : يا رجل وهو كذلك بالحبشية ، 68 جنات عدن : الكروم والأعناب ، 69

الفردوس : جنات الأعناب فقط ، 70 الطور :

الجبل ، 71 يمشون هونا : حلماء موقرين ، 72 هيت لك : عليك أن تفعل ، 73 ولات :

وليس وهي باللغة العربية كذلك ، 74 و75 ربيّون : ربانيون علماء عارفون ، 76 رهوا

:

ساكنا ، 77 سجدا : مقنعي رؤوسكم ، 78 القيوم : الذي لا ينام ، 79 الاسفار :

الكتب وهذه كلها بالعربية كذلك ، 80 القمل : الذباب ، 81 اليم : البحر ، 82 صلوات

كنائس اليهود ، 83 آزر : اسم أبي ابراهيم ، 84 قنطار : اسم لملء جلد الثور ذهبا أو فضة وتقدم أنه في الرومية لوزن مخصوص ، ومنها ما جاء بالعبرانية كفّر عنهم :

(137/565)

محا عنهم 85 هونا : صلحاء وهو كذلك بالسريانية ، 86 أخلد في الأرض : ركن إليها ، 87 هدنا إليك : ثبتنا على ما تريد ، 88 كتاب مرقوم : مكتوب ، 89 رمزا : تحريك الشفتين ، 90 فومها : الحنطة ، 91 أواه : الداعي وتقدم أنه بمعنى الموقن بالحبشية ، 92 طوى : اسم واد بفلسطين وبمعنى رجل ، 93 اليم : البحر وهو كذلك بالسريانية ، 94 الرحمن : كثير الرحمة ، 95 الأليم : الموجع ، 96 حمل بعير : الحمار أو الدابة ، 97 درست : تعلمت وقرأت ، 98 حطة : حط عنا أوزارنا ، 99 الأسباط : الأفخاذ ، 100

راعنا : انظرنا 101 من لينة : شجرة طرية ، 102 قسيسين : علماء النصارى ، ومنها ما جاء بالنبطية طور سينين المحشي وتقدم في اللغة الحبشية كذلك ، 103 أسفارا : كتبا كما تقدم في السريانية ، 104 الحواريون : الغسّالون ، 105 الأكواب : الاواني التي لا عرى لها ولا خرطوم ، 106 وليتبّروا ما علوا : يهلكوا إهلاكا عظيما ، 107 سريا :

نهرا ، وهو في السريانية كذلك ، 108 سفرة : قراء 109 فصرهن : قطعهن وهي بالرومية كذلك ، 109 طه : يا رجل ، وهي كذلك في الحبشية والسريانية : 110 الطور :

الجبل وهو في السريانية كذلك ، 111 إلا : عهدا وموثقا ، 112 الفردوس : الكرم وهو كذلك في السريانية ، 113 الملكوت : الملك ، 114 هيت لك : هلم لك وتقدمت انها في السريانية بمعنى آخر قريب من هذا ، 115 رهوا : سهلا ، وتقدم أنه بمعنى ساكن في السريانية ، 116 عبدت : قتلت ، 117 وراءهم : ملك أمامهم ، 117 قطّنا : كتابنا ، 119 إصري : عهدي وميثاقي ، 120 كفّر : أمح وهي كذلك في السريانية والعبرانية ، 121 وزر : الجبل والملجأ وهذه كلها بالعربية كذلك بزيادة في معناها من الكلمات المترادفة بما يدل على أن النبطيين أخذوها من العرب 127 ومنها ما جاء بالقبطية في قوله تعالى متكأ : الأترج ، 122 مناص : فرار ومهرب ، 123 مزجاة : قليلة ، 124 فناداها من تحتها : من بطنها ، 125 بطائنها من إستبرق أي ظواهرها ، 126 الجاهلية الأولى : الأخيرة ، 127 الجاهلية الأخرى : الأولى لأنهم يسمون الآخرة أولى والأولى

أخرى ومنها ما جاء بالتركية ، غسّاق : الماء البارد والمنتن ، ومنها ما جاء بالزّنجية في قوله تعالى حصب جهنم : حطبها ، 128 الأليم : الموجع وهو كذلك بالعبرانية ، 129 منسأته : عصاه وهو كذلك بالحبشية ، ومنها ما جاء بالبربرية في قوله المهل : عكر الزيت ، 130 ناظر في إناء :

نضجه ، 131 حمّ : منتهى الحرارة ، 132 عين آنية : جارية ، 133 يصهر ما في بطونهم : ينضج به ، 134 أبّا : الحشيش ، 135 قنطار : ألف مثقال من ذهب وفضة ، 136 هذا ما عثرنا عليه ، وما قيل إن عمر بن يحيى الحافظ أوصلها إلى مئتين فهو من غير المترادف منها والمتداخل فيها ، ولو حسب هذا لبلغت ذلك وأكثر .

واعلم أن هذه الكلمات بوجودها في القرآن العظيم تعد عربية بحتة ، وعلى فرض أن

(139/565)

منها ما هو ليس بعربي فقد نقل إلى العربية قبل نزول القرآن ، إذ تكلمت بها العرب قديما وأجرتها على الأصول العربية إعرابا وبناء ، لهذا فلا محل للقول بأنها أجنبية ويتحتم علينا أن نؤولها على ما وضعت له ونعتت به مثل "الْمُسْتَقِيمِ" 182 أي العدل صفة القسطاس "وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ" بأن تعطوهم أنقص من حقهم أو تأخذوا منهم أكثر من

حقكم "وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ" 183 بأن تقطعوا الطرق وتسلبوا المارة وتشنوا على الآمنين الغارة وتهلكوا الزرع والضرع وهذا معنى تعثوا لأنه المبالغة في الإفساد والإكثار منه

(140/565)

"وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي خَلَقَكُمْ" أجنة في بطون أمهاتكم "وَالْجِبِلَّةَ" الخليقة "الْأَوَّلِينَ" 184 من الأمم التي خلقها قبلكم ، قال ابن عباس الجبلة الجماعة شبهت بالقطعة العظيمة من الجبل "قَالُوا إِنَّما أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ" 185 الذين سحروا مرة بعد أخرى "وَما أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكاذِبِينَ" 186 بما تدعيه من الرسالة ، فإن كنت صادقا "فَأَسْقِطْ عَلَيْنا كِسَفاً مِنَ السَّماءِ" قطعا كثيفة عظاما منها "إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ" 187 بأنك رسول اللّه القادر على كل شيء "قالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِما تَعْمَلُونَ" 188 وما تقولون وهو يجازيكم على ذلك ، لأني بشر مثلكم لا قدرة لي على شيء مما اقترحتموه وغيره ، فهو الذي يسلط عليكم ما يقهركم ويردكم إلى السداد قهرا "فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ" السحابة التي حبست عنهم الريح بعد أن سلط عليهم الحر سبعة أيام "إِنَّهُ كانَ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ" 189 لأن السحابة التي التجئوا إليها لتقيهم حر الشمس قد أمطرتهم نارا والعياذ

باللّه فأهلكتهم جميعا ، وتقدمت القصّة مفصّلا في الآية 93 من سورة الأعراف المارة "إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ 190 وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ" 191 انتهت القصص الثمانية التي أشرنا إليها آنفا ، فتأمل رعاك اللّه كيف كانت دعوة هؤلاء الأنبياء الكرام إلى أممهم ، وكيف كانت على وتيرة واحدة وجاءت على صيغة واحدة ، لأن المرسل لهم هو الإله الواحد ، والمرسل إليهم عبيده وخلقه ، وكيف بذلوا معهم قصارى جهدهم ونهاية وسعهم طلبا لإرشادهم لسلوك الحق وعدولهم عن الباطل ،

(141/565)

بما يتحتم على العاقل من أن يعتقد صحة الشرائع كلها ، قال تعالى (إِنَّا أَوْحَيْنا إِلَيْكَ كَما أَوْحَيْنا إِلى نُوحٍ) الآية 162 من النساء في ج 3 ، وقال تعالى (شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ما وَصَّى بِهِ نُوحاً) الآية 13 من الشورى في ج 2 ، كما يجب أن يعتقد ويصدق بجميع الأنبياء ويعترف أن ما جاء في شريعة النبي المتأخر ناسخ لشريعة من قبله وواجب العمل به ، وكيف كان جوابهم إليهم فتراه كأنه صادر عن أمة واحدة بلهجة واحدة على نمط واحد ، صدق اللّه تعالى وهو أصدق القائلين في قوله (تَشابَهَتْ قُلُوبُهُمْ) الآية 167 من البقرة في ج 3 ، وكلهم سخروا بأنبيائهم واستهزءوا بهم وكذبوهم وأنكروا معجزاتهم ولم يعتبروا بمن

قبلهم ولم يرتدعوا بما وقع عليهم ، ألا فليحذر الذين يخالفوا أمر اللّه ويكذبون رسله ويجحدون كتبه أن يصيبهم مثل ما أصابهم ثم التفت إلى حبيبه محمد صلّى اللّه عليه وسلم وقال "وَإِنَّهُ" أي القرآن المنزل عليك الذي أمرناك أن تنذر به قومك وقصصنا عليك فيه أحوال الرسل قبلك وأممهم وكيفية حالهم معهم وما هية عذابهم وسبب إهلاكهم تسليه لك كي لا يضيق صدرك مما ترى منهم ولا تحزن على عدم إيمانهم ودعهم فليقولوا ما يقولون فيه ، وعزتي وجلالي "لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعالَمِينَ" 192 وقد "نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ" 193 سفيرنا جبريل ، سماه روحا لأنه خلق من نور اللّه من الروح وأمينا لائتمانه على وحيه وأدائه لرسله كما تلقاء منه وفي لحظة أمره به

(142/565)

"عَلى قَلْبِكَ" يا سيد الرسل حتى تعيه "لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ" 194 به وقد خص القلب لأنه موضع التمييز والعقل ، لأن الرجل لا يتكلم إلا عما وقر في قلبه "بِلِسانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ" 195 ليفهمه قومك دون حاجة لترجمان حتى لا يبقى لهم عذر من جهة إرسال الرسول والفهم ، قال تعالى (وَما أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ) الآية 3 من سورة ابراهيم في ج 2 ، وهذه الآية وما يضاهيها من آي القرآن الحكيم فصل الخطاب بأن جميع ما

في القرآن عربي فصيح جاء بلسان العرب ولغتهم ، وعليه فكل قول بأن بعض كلماته أجنبية باطل ، وما جاء بأن اسماء ابراهيم وإسماعيل وجبرائيل أعجمية فهي في الأصل كذلك ونقلت إلى العربية وتسمى بها العرب قبل نزول القرآن ، وكل ما كان مستعملا عند العرب فهو عربي ليس إلا ، وإنما ذكرنا

لك آنفا الأقوال في كونها أجنبية وذكرنا لك مصادرها لتقف عليها ثم تردها بما أوضحناه لك ، وبدل أن تقول هي أجنبية استعملها العرب ، فقل هي عربية استعملها الأجانب أو أنها وافقت لغتهم وهو الأجدر والأنسب ، وفيها ردّ صريح آخر على ما يزعمه الباطنية من أن القرآن انزل غير موصوف بلسان أو لغة ، ثم أنه عليه السلام أداء إلى قومه بلسانه وعبر عنه بلغته ، لأن زعمهم هذا مخالف لنص القرآن والحديث في الإجماع .

مطلب الفرق بين الحديث القدسي والقرآن وتخصيص القلب بنزوله وماهية المنزل عليه :

ولو كان كما قالوا لما بقي فرق بين القرآن والحديث القدسي ، لأنه هو الذي يلقى على قلب الرسول بغير صفة أي غير موصوف بلغة أو لسان ، ثم إنه يعبر عنه بلسانه ولغة قومه هذا ، والمتلقى بالتواتر هو الفرق بين القرآن والحديث القدسي ، لأن القرآن ثبت بالتواتر ، بخلافه هذا ، وقد قلنا في تفسير على قلبك :

إنما خص القلب لأنه موضع العقل بناء على ما ذهب إليه الإمام في تفسيره ردا لقول من قال إن محله الدماغ ، والخلاف بين هاتين الطائفتين في محل العقل كثير ، والناصرون لكلا القولين أكثر ، فلا محل لبسط المقال عن كل هذا ، وإنما الذي يجب بيانه ، هو سبب تخصيص القلب بالنزول ، فإذا قلنا إنه رأس الأعضاء وانها تصلح لصلاحه وتفسد بفساده وأنه محلها الفرح والاختبار والسرور وغيرها فلا يختص بحضرة الرسول لا هي ولا أضدادها ولا كونه محل الفقه والعظة والفطنة ، بل هو عام في كل البشر وإذا كان كذلك فلا يصح أن يكون جوابا للتخصيص ، وانما التخصيص واللّه أعلم هو أن اللّه تعالى جعل لقلبه سمعا مخصوصا يسمع به ما ينزل عليه من القرآن تمييزا لشأنه على سائر البشر ، يدل على هذا ما ذكره النووي في شرح مسلم في قوله تعالى (ما كَذَبَ الْفُؤادُ ما رَأى) الآية 6 من سورة والنجم المارة بأن اللّه تعالى عز وجل جعل لفؤاده عليه السّلام بصرا فرآه سبحانه ليلة المعراج وما ورد عنه في الحديث القدسي أنه قال كانت تنام عيني ولا ينام قلبي وجاء في صحيح البخاري عن أنس قال أقيمت الصلاة فأقبل علينا رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم بوجهه فقال اقيموا صفوفكم وتراصوا فإني أراكم من وراء ظهري .

وفي رواية أبي

داود عن أبي هريرة كان يقول : استووا ثلاثا ، والذي نفسي بيده إني لأراكم من خلفي كما

أراكم من بين يدي .

وفي رواية هل ترون قبلتي ها هنا ، فو اللّه ما يخفى عليّ خشوعكم ولا ركوعكم ، إني لأراكم من وراء ظهري .

(144/565)

فكل هذا يدل على أن اللّه تعالى خصّه بأشياء دون سائر البشر ، ويتفرع عن هذا القول بأنه هل كان جبريل عليه السّلام ينزل بالألفاظ القرآنية المحفوظة له بعد ان تنزل القرآن جملة واحدة من اللوح إلى بيت العزة أو التي يحفظها من اللوح عند الأمر بالإنزال ، أو التي يوحي بها اللّه إليه فيسمعها منه سبحانه فيلقيها إلى قلب الرسول على ما هي عليه ، وعلى الصفة التي يبلغها لقومه ويثبتها في المصاحف من غير تغيير أصلا ، أو أن جبريل تلقى عليه المعاني القرآنية من الحضرة الأزلية وهو يعبر عنها بألفاظ عربية ويلقيها على حضرة الرسول ، أو أن جبريل ينزل بالمعاني التي يتلقاها من ربه فيعبر عنها بألفاظ عربية خاصة ثم يلقيها إلى حضرة الرسول ، وأنه يعلم ما يلقيه عليه فيعبر عنه لقومه بلغتهم ويثبتها بالمصاحف فهذه أقوال تضاربت بها العلماء ، وأرجحها هو أن الألفاظ نفسها منه عز وجل كالمعاني لا دخل لجبريل فيها أصلا ، وكان صلّى اللّه عليه وسلم يسمعها ويعيها بقوى إلهية قدسية يهبها اللّه

له لا كسماع البشر إياها منه عليه السّلام وإلا لسمعها من كان عنده كما سمعها هو ، ولذلك كان صلّى اللّه عليه وسلم عند نزول الوحي تنعقل قواه البشرية فيظهر على جسده الشريف ما يظهر ويعرفه من يراه ويسمى برحاد الوحي ، أي ثقله حتى يظن أنه أغمي عليه في بعض الأحايين ، وعلى هذه الصورة فانه يسمع كلام اللّه المنزل إليه بواسطة جبريل أصواتا وحروفا منظومة مسموعة منه يختص هو وحده بسماعها دون غيره ، فعلى هذا يظهر لك أصح الأقوال هو الأول ، وأن القول الثاني يخالف معنى النزول من الحضرة القدسية ، لأن من قال إن القرآن هو الألفاظ الدالة على المعنى القائم بذاته

(145/565)

تعالى فيكون انزاله مجرد إثباته في اللوح المحفوظ ، ومن قال إن القرآن معنى قائم بذات اللّه تعالى فيكون انزاله إيجاد الكلمات والحروف الدالة على ذلك المعنى وإثباتها في اللوح المحفوظ ، وعلى كلا القولين فإنّ الأمين عند أمره بإلقائه إلى حضرة الرسول ، فإنه ينزل بما هو موجود في اللوح ، فلا يصح أن يقال انه ألقيت عليه المعاني وهو عبر عنها بألفاظ عربية ، وأما القول الثالث فاختصت به الباطنية

كما تقدم وهو مخالف لا يجوز القول به ، لأن الإنزال اظهار ما كان في عالم الغيب إلى عالم

الشهادة كما كان ، وهنا يقال ان قوله تعالى (نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلى قَلْبِكَ) ، يفيد ان القرآن جميعه نزل ، مع أنه ثبت بالحديث الذي أخرجه مسلم عن ابن مسعود أنه لما أسرى به صلّى اللّه عليه وسلم أعطاه اللّه الصلوات الخمس وخواتيم سورة البقرة إلى آخر ما جاء فيه ، وهذا من القرآن ، فالجواب ان ذلك وجملة ما خاطبه به ربه لا يعدّ انزالا

(146/565)

بواسطة الأمين جبريل ، لأن القرآن جميعه نزل به عليه على الصورة المذكورة ، ولأن سورة الإسراء التي فرضت فيها الصلاة نزلت بعد وقوع الإسراء وخواتيم البقرة نزلت بالمدينة ، ولهذا البحث صلة نذكرها ان شاء اللّه في الآية 7 من سورة النحل وفي آخر سورة الإسراء عند قوله (وَنَزَّلْناهُ تَنْزِيلًا) الآتيتين ، وقد أثبتنا بالمقدمة في بحث نزول القرآن شيئا من هذا فراجعه ، هذا ، ولنرجع إلى تفسير الآية وهو قوله تعالى "وَإِنَّهُ" القرآن المنوه به في الآية السابقة "لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ" 196 أي كتبهم كصحف آدم فمن بعده ، وتوراة موسى ، وزبور داود ، وإنجيل عيسى عليه السّلام ، وهذا باعتبار الأغلب لأن ما يتعلق بالتوحيد وذات اللّه وصفاته وكثيرا من المواعظ والقصص مسطور فيها فلا يضر أن منه ما ليس فيها بحسب غالب الظن ، كقصة الإفك ونكاح امرأة زيد ، وما جاء في سورة التحريم ، وما

استبدله اللّه في القرآن من الأحكام المسطورة في الكتب المتقدمة إذ نسخت بالقرآن العظيم ، قال تعالى (ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ) من آيات الكتب المتقدمة النازلة على الأنبياء السابقين مثلك يا محمد (أَوْ نُنْسِها) نؤخر نزولها وننسى ما هو مخالف لها مما كلف بها الأولون من الاحكام (نَأْتِ) في هذا القرآن المنزل عليك يا سيد الرسل (بِخَيْرٍ مِنْها) أخف عبئا وأكثر اجرا وأسهل عملا وأيسر فعلا (أَوْ مِثْلِها) في ذلك التكليف والأجر ، وكان نزول هذه الآية ردا لليهود والنصارى القائلين إن ما جاء به محمد مخالف لما جاء به موسى وعيسى ، تدبر ، وراجع تفسير الآية 107 من سورة البقرة في ج 3 .

مطلب لا تجوز القراءة بغير العربية الا إذا كانت دعاء أو تنزيها :

وما قيل إن الإمام أبا حنيفة استنبط من هذه الآية جواز قراءة القرآن

(147/565)

بالفارسية لأنها أشرف اللغات بعد العربية ، ولما جاء في الخبر أن لسان أهل الجنة العربي والفارسي الدرّي أي وغيرها من بقية اللغات ، فقد صح أنه رجع عنه وقد حرر الإمام حسن الشرنبلالي رسالة في تحقيق هذه المسألة سماها التحفة القدسية في أحكام قراءة القرآن وكتابته بالفارسية ، فمن أراد تحقيق ذلك فليراجعها ، وكان رجوعه رضي اللّه عنه

لضعف الاستدلال على جوازها ، وهو لا يقول بالضعيف لأن القرآن أنزل في هذه اللغة العربية للإعجاز بفصاحته فضلا عن غيرها ، وان الترجمة مهما كانت لا تكون قرآنا في هذا المعنى بل لا يمكن قراءته جميعه ، الا بالعربية ، فلا يمكن ترجمته كله بغيرها ، لان اللغات الأخر لا تشتمل على جميع الحروف العربية فضلا عن أنها يتعذر فيها ما في القرآن من أنواع البلاغة والبديع والمعاني والفصاحة والتعبير عن المجاز والحقيقة والمحل والحال والحذف والإيصال وغيرها ، أما من لا يحسن العربية ولم يتمكن من تعليمها البته فيجوز أن يتعلم شيئا من القرآن على حسب لغته بالترجمة حرفيا ، بقدر ما تصح به صلاته فقط ، قال الإمامان إذا عجز عن العربية يجوز له قراءته بلغته على أن يكون المقروء بلغته دعاء أو ذكرا أو تنزيها أو ثناء محضا كالفاتحة والإخلاص ، وقوله تعالى (رَبَّنا لا تُؤاخِذْنا) (رَبَّنا لا تُزِغْ قُلُوبَنا) (رَبَّنا وَآتِنا ما وَعَدْتَنا عَلى رُسُلِكَ) وما شابه هذا ، أما إذا كان المقروء بغير اللغة العربية من القصص والأحكام والأوامر والنواهي والحدود فلا يجوز البتة ، لاحتمال وقوع الخطأ فيها ، أما تفسير القرآن باللغات السائرة مع اثبات الأصل فهو مطلوب لاطلاع البشر كافة عليه ، والتشرب من معانيه ، والعمل بأحكامه والاتعاظ بأخباره ، والاسترشاد بقصصه وآدابه ، والاهتداء بهديه ، لأنه لم ينزل للعرب خاصة بل لجميع البشر من تاريخ نزوله إلى آخر هذا الكون ، كما ان المنزل عليه مرسل لجميع الخلق من الإنس و

الجن من زمنه إلى آخر الدوران ، وهذه الآية المدنية المستثناة من هذه السورة ، قال تعالى "أَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ" هؤلاء المتكبرين من أهل الكتاب وغيرهم "آيَةً" دالة على صدق محمد "أَنْ يَعْلَمَهُ" بأنه رسول اللّه حقا "عُلَماءُ بَنِي إِسْرائِيلَ" 197 ممن أسلم منهم ومن لم يسلم ، قال مقاتل هذه الآية مدنية وعلماء بني إسرائيل عبد اللّه بن سلام وأصحابه ، كما روي عن ابن عباس ومجاهد أن جماعة أسلموا ووقفوا على مواضع من التوراة والإنجيل فيها ذكر رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ، وعلى كون الآية مكية يكون المعنى أولم يكن لهؤلاء الكفرة علامة على صدق القرآن المنزل على محمد صلّى اللّه عليه وسلم أن يعلمه علماء بني إسرائيل ، لأنه منعوت في كتبهم ، ذكر الثعلبي عن ابن عباس أن أهل مكة بعثوا إلى أحياء يثرب ليسألوهم عن النبي صلّى اللّه عليه وسلم ، فقالوا هذا زمانه وذكروا نعته وخلطوا في أمره ، فنزلت هذه الآية .

هذا ، وبعض المفسرين أعاد ضمير يعلمه على القرآن ، وفيه بعد لأن بني إسرائيل لا يعلمونه وأن مجرد ذكره في التوراة لا يدل على علمهم به وبما فيه ، أما محمد صلّى اللّه عليه وسلم فهو موصوف ومنعوت في التوراة والإنجيل ، وأن علماء أهل الكتابين يعرفونه حق المعرفة باطلاعهم على أوصافه ، قال تعالى (يَعْرِفُونَهُ كَما يَعْرِفُونَ أَبْناءَهُمْ) الآية 21 من الأنعام في ج 2 والآية 147 من سورة البقرة ج 3 فراجعها تعلم من هذا ما يكفيك ، أما إذا أريد أنهم

إذا قرىء عليهم القرآن يعرفونه أنه من اللّه ، فهو ما لا جدال فيه ، وعليه يستقيم عود الضمير إلى القرآن ، قال تعالى :

(149/565)

(وَإِذا يُتْلى عَلَيْهِمْ قالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ) الآية 51 من النمل الآنية ، واعلم أن مفاد الآيات المتقدمة من وأنه إلى هنا وسياق قوله "وَلَوْ نَزَّلْناهُ" وما بعدها تفيد أن ضمير بعلمه يعود إلى القرآن بدلالة عود ضمير أنزلناه إليه أيضا وهو الظاهر واتباع الظاهر أولى "عَلى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ" 198 الذين لا يفهمون معناه ولا يقدرون فصاحة مبناه ، بل لا يتمكنون من قراءته كما ينبغي ، وهو جمع أعجمي حذفت منه ياء النسبة مثل أشعري يجمع على أشعرين وأشعرون بحذف ياء النسبة أيضا ، وقرىء أعجميين ولهذا جمع بالواو والنون جمع العقلاء ، ولو كان جمع أعجم لما جمع هكذا لأنه مؤنث عجماء ، وافعل فعلاء لا يجمع جمع السالم "فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ" على أولئك الكفرة "ما كانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ" 199 أنفة من اتباع من ليس منهم لشدة شكيمتهم في المكابرة ، ولو فرض أنه قرأه عليهم باللغة العربية الفصحى بتعليم اللّه إياها كما علم آدم الأسماء كلها فيكون معجزة من جهتين

لما آمنوا أيضا "كَذَلِكَ" مثل هذا المسلك البديع "سَلَكْنَاهُ" أي التكذيب بالقرآن وعدم الإيمان به "فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ" 200 فلا سبيل لتعييرهم

(150/565)

عما جبلوا عليه ، لأنهم طبعوا على ذلك ، قال تعالى : (فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ) الآية 29 من سورة الروم في ج 2 فالمؤمنون لا يكفرون مهما كان منهم ، والكافرون لا يؤمنون مهما كان منهم ، لأنه لا بد وأن يوفق كل منهم أن يموت على ما خلق له من إيمان وكفر ولهذا قال تعالى "لا يُؤْمِنُونَ بِهِ" أولئك الكفرة "حَتَّى يَرَوُا الْعَذابَ الْأَلِيمَ" 201 الذي لا دافع له فيكون إيمانهم إيمان يأس وهو غير مقبول كما تقدم في الآية 157 المارة ، وهذه الآيات على حد قوله تعالى (وَلَوْ نَزَّلْنا عَلَيْكَ كِتاباً فِي قِرْطاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ) الآية 18 من سورة الأنعام في ج 2 "فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً" ذلك العذاب الفظيع المؤلم "وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ" 102 به ولا بوقت إتيانه ، لأنه على حين غرة وغفلة بوقت لا يتوقعونه ، وإذ ذاك "فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ" 203 لنؤمن ونصدق وهيهات رجوع ما فات ، لأن عذاب اللّه إذا جاء لا يؤخر كما أنه لا يقدم عن الوقت المقدر لنزوله ،

ويقال لهم "أَفَبِعَذابِنا يَسْتَعْجِلُونَ" 204 وهو آتيهم لا محالة ، قال نفر من قريش حتى يأتينا هذا العذاب الذي يوعدنا به محمد فنزلت الآية الآنفة ، قال تعالى يا سيد الرسل "أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْناهُمْ سِنِينَ" 205 كثيرة في هذه الدنيا وما فيها من النّعم "ثُمَّ جاءَهُمْ ما كانُوا يُوعَدُونَ" 206 به من العذاب الذي تهددهم به (ما أَغْنى عَنْهُمْ ما كانُوا يُمَتَّعُونَ) 207 فيها شيئا من ذلك العذاب وما هو براد عنهم شيئا وكأنهم لم يكونوا رأوا شيئا من طول العمر وطيب العيش في الدنيا "وَما أَهْلَكْنا مِنْ قَرْيَةٍ" فيما سبق من الأمم الباقية "إِلَّا لَها مُنْذِرُونَ" 208 من قبلنا يخوفونهم عذابنا إن لم يؤمنوا بهم ، فلم يفعلوا وكان إرسال الرسل إليهم "ذِكْرى" لئلا يقولوا (ما جاءنا نذير) الآية 41 من المائدة في ج 3 فتلزمهم الحجة وإلا فاللّه تعالى يعلم من يؤمن ومن يكفر قبل إرسال الرسل بل قبل إيجادهم وهو قادر على إهلاكهم دون ذلك ، ولكن ليظهر لأمثالهم أن عذابهم كان بسبب كفرهم وَما كُنَّا ظالِمِينَ" 109 في تعذيب أحد لأنا تقدمنا إليهم بالمعذرة ، وقدّمنا لهم الحجة ، هذا وإن نفرا من المشركين لما رأوا محمدا يخبرهم بما غاب عنه مما يتقولونه

في نواديهم وحينما يسألونه يقول لهم أخبرني ربي قال بعضهم لبعض كلا ، فإن الشياطين تلقي إليه ذلك كما تلقي القرآن الذي يزعم أنه من ربه ، فأنزل اللّه تعالى "وَما تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّياطِينُ 210 وَما يَنْبَغِي لَهُمْ" أن ينزلوا بمثله لأنهم أحقر من ذلك "وَما يَسْتَطِيعُونَ" 211 إنزاله ولا يقدرون البتة لأنه محفوظ بحفظ اللّه وليسوا بأهل له ، ولا يصح قولهم هذا ولا يستقيم "إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ" 212 مبعدون عنه ومحجوبون منه وممنوعون عن استراقه بالشهب الجهنمية ، ثم خاطب رسوله بما أراد به غيره على طريق ضرب المثل : (إياك أعني واسمعي يا جاره) فقال عز قوله "فَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ" إذ لا إله لهذا الكون غيره فاحذر من هذا أيها الإنسان ، "فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ" 213 إن أقدمت على ذلك وهذا مما لا شك فيه مراد به غيره صلّى اللّه عليه وسلم لأنه عليه محال لوجود العصمة ، وإنما خاطبه به ليحذر الغير من الإشراك باللّه على طريق التعريض تحريكا لزيادة الإخلاص للّه ، وإلهابا للقلوب بالتباعد عنه ، وعلى فرض المحال لو أريد به حضرة الرسول فيكون ذلك على حد قوله تعالى : (وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنا بَعْضَ الْأَقاوِيلِ لَأَخَذْنا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنا مِنْهُ الْوَتِينَ) الآية 45 فما بعدها من سورة الحاقة في ج 2 ، فيكون المعنى : وإن كنت يا محمد وأنت أكرم الخلق علي اتخذت شريكا في دعائي لعذبتك ، وفيه تحذير عظيم للغير

قال تعالى "وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ" 214 خصّهم بالذكر لنفي التهمة عن التساهل معهم في أمر الدين وليعلموا أنه لا يغني عنهم من اللّه شيئا إذا حل بهم عذابه وليعلم الناس كافة أن النجاة في اتباعه والتصديق لما جاء به في دينه لا في قرابته ، راجع الآية 89 المارة "وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ" يا سيد الرسل "لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ" 215 بك القريب منهم والبعيد ، أما الكافرون فلا يليق أن تلين لهم جانبك ، بل شدد عليهم برفض الشرك وحذرهم من تكذيبك "فَإِنْ عَصَوْكَ" أقاربك وعشيرتك وسائر قومك ، ولم يقبلوا نصحك ولم يلتفتوا لإرشادك "فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ" 216 من الكفر والمعاصي والأفعال الذميمة والأحوال السافلة ، واتركهم ولا تعبأ بهم الآن ، لأنك لم تكلف إلا بإبلاغهم ما يوحى إليك ، وذلك لأنه لم يؤمر بقتالهم بعد ، ولذلك

اقتصر أمره على الإنذار والتبشير والتبري مما هم عليه من القبائح ، لا منهم لأنه لو أمر بالتبري منهم لما بقي شفيعا للعصاة يوم القيامة .

مطلب أن الأقارب أولى من غيرهم في كل شيء :

وما قيل إن هذه الآية منسوخة بآية السيف قيل لا قيمة له ، لأن معناها صحيح قبل آية

السيف وبعدها ، وحكمها باق ، لأن لأقربين لهم مزية على غيرهم ، ولين الجانب مطلوب للجميع ومن الجميع ، روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم حين انزل اللّه (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ) قال يا معشر قريش أو كلمة غيرها ، اشتروا أنفسكم لا أغني عنكم من اللّه شيئا ، يا بني عبد المطلب لا أغني عنكم من اللّه شيئا ، يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من اللّه شيئا ، ويا صفية عمة رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم لا أغني عنك من اللّه شيئا ويا فاطمة بنت رسول اللّه لا أغني عنك من اللّه شيئا ، سليني ما شئت من مالي .

(154/565)

وحديث البخاري ومسلم عن ابن عباس في هذا المعنى تقدم في سورة المسد المارة ، فراجعه .

وروى مسلم عن قبيصة بنت مخارق وزهير بن عمر قال : لما نزلت وأنذر الآية انطلق رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم إلى رحمة جبل فعلا أعلاها ثم نادى : يا بني عبد مناف اني نذير لكم ، إنما مثلي ومثلكم كمثل رجل رأى العدو فانطلق يريد أهله ، فخشي أن يسبقوه ، فجعل يهتف يا صاحباه ، وروى محمد بن اسحق بسنده عن علي بن أبي طالب كرم اللّه

وجهه : لما نزلت هذه الآية على رسول صلّى اللّه عليه وسلم قال يا علي إن اللّه أمرني أن انذر عشيرتي الأقربين ، فضقت بذلك ذرعا ، وعرفت أني متى أناديهم بهذا الأمر أرى منهم ما أكره ، فصمت عليها صمتة حتى جاءني جبريل ، فقال يا محمد إن لا تفعل ما تؤمر يعذبك ربّك ، فاصنع لي طعاما واجعل لنا عليه رجل شاة واملأ لنا عسا من لبن ، ثم اجمع لي بني عبد المطلب حتى أبلغهم ما أمرت به ، ثم دعوتهم له وكانوا يومئذ أربعين رجلا ، يزيدون رجلا أو ينقصونه ، فيهم أعمامه أبو طالب وحمزة والعباس وأبو لهب ، فلما اجتمعوا دعاني بالطعام الذي صنعته ، فجئت به فتناول صلّى اللّه عليه وسلم جذبة من بعض اللحم ، فشقها بأسنانه ثم ألقاها في الصفحة ، ثم قال خذوا باسم اللّه ، فأكل القوم حتى ما لهم بشيء من حاجة ، وايم اللّه إن كان الرجل

(155/565)

الواحد ليأكل مثل ما قدمت لجميعهم ، ثم قال اسق القوم ، فجئتهم بذلك العس فشربوا حتى رووا جميعا ، وأيم اللّه ان كان الرجل الواحد ليشرب مثله ، فلما أراد رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم أن يكلمهم ، بدره أبو لهب فقال : سحركم صاحبكم فتفرق القوم ولم يكلمهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ، فقال الغد يا علي فان هذا الرجل قد سبقني إلى

ما سمعت من القول ، فتفرق القوم قبل أن أكلمهم ، فأعدوا لنا الطعام مثلما صنعت ثم اجمعهم ، ففعلت ثم جمعتهم ثم دعاني بالطعام فقربته ، ففعل كما فعل بالأمس ، فأكلوا وشربوا ، ثم تكلم رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ، فقال يا بني عبد المطلب إني قد جئتكم بخيري الدنيا والآخرة ، وقد أمرني ربي عز وجل أن أدعوكم إليه ، فأيكم يؤازرني على أمري هذا ويكون أخي ووصيي وخليفتي فيكم ، فاحجم القوم عنها جميعا ، وأنا أحدثهم سنا ، فقلت أنا يا رسول اللّه أكون وزيرك عليه ، فأخذ بمرقبتي ، ثم قال : هذا أخي ووصيي وخليفتي فيكم ، فاسمعوا له وأطيعوا ، فقام القوم يضحكون ويقولون لأبي طالب قد أمرك أن تسمع لعلي وتطيعه .

هذا ، وعليه أن من بدا له شيء فليفعله أولا بنفسه ، ثم بدأ بالأقرب فالأقرب من أهله ومن يواليه ، فيكون انفع قولا وأنجح نتيجة وأبعد عن الطعن ، قال اللّه تعالى "وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ" الذي لا يذل من والاه ولا يعزّ من عاداه "الرَّحِيمِ" 217 الذي ينصر من فوض إليه أمره ويرحم من لا يعرف غيره "الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ"

218 في الليل وحدك تتهجد له بصلاتك التي خصصت بها وتتضرع إليه بدعواتك التي الهمتها منه دون أن يراك أحد غيره "وَ" يرى "تَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ" 219 في أصلاب الأنبياء أجدادك ، إذ تتنقل من واحد لآخر حتى اخرجك إلى هذه الأمة ، وهذا من أعظم ما وفقت إليه .

(156/565)

واعلم أن كلمة الساجدين تشمل الأنبياء والمؤمنين ، وتدل على إيمان أبويه صلّى اللّه عليه وسلم كما ذهب إليه كثير عن أجلة العلماء قال محمود الآلوسي في تفسيره روح المعاني :

وأنا أخشى على من يقول فيهما رضي اللّه عنهما

بغير ذلك الكفر على رغم القارئ واضرابه ، وقد جاء في الخبر أن اللّه تعالى أحيا له أبويه وعمّه أبا طالب فآمنوا به ، ولا يلتفت إلى قول من ضعفه ، لأنه ناشىء عن ضعف إيمانه ، على أن أبويه من أهل الفترة ، وهم كلهم ناجون على القول الصحيح الراجح بدلالة قوله تعالى

(وَما كُنَّا مُعَذِّبِينَ

حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا)

(157/565)

الآية 15 من سورة الاسراء الآتية ، أو أنّ المعنى ويرى تقلبك كما يتقلب غيرك من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في تبليغ ما أمروا بتبليغه ، وتفسير الساجدين من الأنبياء ، رواه

الطبراني والبزار وأبو نعيم عن ابن عباس ، إلا أنه فصر التقلب بالتنقل كما ذكر آنفا ، أما التفسير بالمصلّين وإن ذهب اليه كثير من المفسرين فهو بعيد ، لأن الصلاة لم تفرض بعد ، وأبعد منه من جعل الصلاة صلاة الجماعة ، وهي لم تفرض بمكة وهذه السورة مكية بلا خلاف ، وخاصة هذه الآية ، ويجوز أن يراد تقلبك في المجتهدين لتفحص أحوالهم وتطلع عليهم وتستبطن سرائرهم وهذا القول على ضعفه لا بأس فيه ، لأن اللّه تعالى فرض على نبيه صلاة ركعتين في الغداة ومثلها في العشية ، وفرض عليه قيام بعض الليالي خاصة كما نص عليه أول سورة المزمل المارة ، وكان يتهجد فيهن ويشاركه بعض أصحابه في ذلك ، فيحتمل أنه تفقد أحوالهم ليراهم يداومون عليها اقتداء بفعله أم لا ، فنزلت هذه الآية ، أما ما جاء في روح المعاني من أنه لما نسخ فرض قيام الليل طاف صلّى اللّه عليه وسلم تلك الليلة بيوت أصحابه لينظر ما يصنعون حرصا على كثرة طاعتهم ، فوجدها كبيوت النحل لما سمع من دندنتهم بذكر اللّه والتلاوة ، فلا يتجه لان هذه الآية 20 من سورة المزمل التي عبر عنها بأنها نسخت أول السورة بشأن القيام نزلت في المدينة ولا علاقة لها بالآية المفسرة ، وقد بيّنّا في المقدمة ما يتعلق بالنسخ في هذه الآية وعدمه في آخر سورة المزمل المذكورة ، فراجعها "إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ" 220 يسمع دعاءك ويعلم عملك ، ثم قل يا أكرم الرسل لهؤلاء الكفرة "هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّياطِينُ" 221 لتجاريهم على أقوالهم السالفة

فإنها "تَنَزَّلُ عَلى كُلِّ أَفَّاكٍ" مختلق للكفر مثل هؤلاء القائلين إن الشياطين تلقي عليك هذا القرآن وكل منهم "أَثِيمٍ" 222 مرتكب للآثام الكثيرة كالسحرة و

(158/565)

الكهنة المتنبئين كذبا فتراهم "يُلْقُونَ السَّمْعَ" الذي يسمعونه من الملائكة فيلقونه للكهنة مع أضعافه كذبا "وَأَكْثَرُهُمْ كاذِبُونَ" 223 فيما يخبرونه به ، لأن منهم من لا يسترق السمع وإن محمدا مبرا من ذلك معصوم من هذه الصفات المتلبس بها الكهنة والسحرة والمشعوذين ، قيل هذا كان قبل مبعث الرسول وعليه يكون أكثر بمعنى الكل على
حد قوله تعالى (وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ) الآية 50 من آل عمران في ج 3 يريد كله .

وذلك لأنه لا يكون أحد من الكهنة والشياطين صادقا ، وسيأتي في تفسير هذه الآية أن سيدنا عيسى لم يحل لهم كل ما حرم على بني إسرائيل ، لهذا فإن تفسيرها على ما جرينا عليه أولى والله أعلم ، ومن هنا إلى آخر السورة نزل بالمدينة ، وذلك أن جماعة ممن يقول الشعر من قريش كعبد الله بن الزبعرى السهمي وهبيرة بن أبي لهب المخزومي ومسافع بن عبد منات وابو عمر بن عبد الله الجحمي وأمية بن أبي الصلت الثقفي عليهم من الله ما

يستحقون ، صاروا يهجون حضرة الرسول ويقولون نحن نقول مثل ما يقول ، وتبعهم في هذا السفهاء من قومهم .

مطلب في الشعر مليحه من قبيحه والآيات المدنيات :

(159/565)

ثم ان رجلين أحدهما من الأنصار تهاجيا فيما بينهما ومع كل واحد غواة من قومه ، فأنزل اللّه فيهم "وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ" 224 المغالون في الكذب والباطل وتمزيق الأعراض والقدح في الأنساب ومدح من لا يستحق المدح وذم من لا يستوجب الذم ، يعني أن هذا الذي يقوله هؤلاء لا يستحسنه إلا المتوغلون في الضلالة المنهمكون في الغواية ، "أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ" 225 فيتحدثون في جميع أنواع الكلام وأبوابه مما مصدره اللغو في الباطل ويخوضون بما فيه الكذب والزور من البهت والافتراء ، والهائم هو الذاهب على وجهه بلا قصد معين وهذا تمثيل لذهابهم في كل شعب من القول ، فتراهم يفضلون الجاهل على العالم ، والجبان على الشجاع ، والبخيل على الكريم ، والكاذب على الصادق ، والخائن على الأمين ، والقبيح على الصبيح ، والرذيل على الجميل لأدنى لفتة من وجيه أو دانق من مال ، فلهذا تراهم حائرين ، وعن الطريق السوي حائدين ، ولسبل الضلال رائدين

، سمع سليمان بن عبد الملك قول الفرزدق :

فبتن بجانبيّ مضرجات وبت أفض أختام الحنان

فجاء به وقال وجب عليك الحد ، قال ولم ؟ قال لقولك هذا ، قال قد درأه عني ربي .

قال وبم ؟ قال بقوله عز وجل "وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ ما لا يَفْعَلُونَ" 226 حيث وصفهم بالكذب وخلف القول والوعد ، وان قولهم بهت ، لأنه مباين

لفعلهم .

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي اللّه عنه أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم قال لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحا حتى يرثيه خير له من أن يمتلىء شعرا .

ومعنى يرئيه يبلغ الرئة محل التنفس من الحلقوم ، كناية عن شدة الامتلاء .

واعلم ان القول بخلاف العمل مذموم ليس بالشعر فقط والشعراء بل في جميع القول والناس كافة ، قال تعالى (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ ما لا تَفْعَلُونَ .

(160/565)

كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا ما لا تَفْعَلُونَ)

.

الآيتين 3/ 4 من سورة الصف في ج 3 ، ألا لينتبه الناس له ولا يخصوه بالشعر .

مطلب ما هو المحبوب من الشعر :

واعلم أن هذا الذم الذي في هذه الآية في حق الكافرين ومن يحذو حذوهم في اشعاره ، أما الذين لا يكذبون مثلهم فقد استثناهم اللّه تعالى بقوله "إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ" زيادة على إيمانهم ، فإنهم لا يهجون أحدا ولا يمدحون بالباطل ، ولا يندمون على مدح المستحق إذا لم ينالوا منه شيئا ، لأنهم لا يقصدون إلا الحق والصدق إذا طرقوا مواضيع القول ومخازن الكلام وخاضوا في معاني القوافي ، كعبد اللّه ابن رواحة وحسان بن ثابت وكعب بن زهير وكعب بن مالك رضي اللّه عنهم ، الذين كانوا زمن الرسول صلّى اللّه عليه وسلم ينافحون عنه ومن اقتفى أثرهم على نهجهم ومشى على خطتهم حتى الآن ، روي أن كعب بن مالك قال للنبي صلّى اللّه عليه وسلم إن اللّه أنزل في الشعر ما أنزل (يعرض باجتنابه خشية أن يكون في عداد الشعراء المذمومين) فقال صلّى اللّه عليه وسلم : إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه ، والذي نفسي بيده لكأن ما ترمونهم به نضح النّبل . أي رميه .

وعن أنس بن مالك أن النبي صلّى اللّه عليه وسلم دخل مكة في عمرة القضاء وابن رواحة يمشي بين يديه وهو يقول :

خلوا بني الكفار عن سبيله اليوم نضربكم على تنزيله

ضربا يزيل الهام عن مقيله ويذهل الخليل عن خليله

فقال عمر يا بن رواحة بين يدي رسول اللّه وفي حرم مكة تقول الشعر :

فقال صلّى اللّه عليه وسلم خل عنه يا عمر ، فلهن أسرع فيهم من نضح النبل – أخرجه الترمذي والنسائي – وكان هذا سنة سبع من الهجرة .

ومن قال إن القائل لهذين البيتين كعب بن مالك

(161/565)

لان عبد اللّه بن رواحة كان توفي قبل هذا ، فقد اخطأ ، لأن وفاته رحمه اللّه كانت في السنة الثامنة من الهجرة ، وعمرة القضاء في السابعة منها بلا ريب ، وروى البخاري ومسلم عن البراء أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم قال يوم قريظة لحسان : أهج المشركين ، فإن جبريل معك ، وروى البخاري عن عائشة رضي اللّه عنها وعن أبيها قالت : كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم يضع لحسان منبرا في المسجد يقوم عليه قائما يناجز عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم وينافح ، ويقول رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم إن اللّه ليؤيد حسانا بروح القدس ما نافح أو ناجز عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم .

وله رضي اللّه عنه أقوال كثيرة في الذب عن حضرة الرسول ومدحه ، منها قصيدته التي

يقول فيها :

فإن أبي ووالدتي وعرضي لعرض محمد منكم وقاء

ثكلت بنيتي إن لم تروها تثير النقع موعدها كداء

وروى البخاري عن بن كعب أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم قال ان من الشعر لحكمة .

وعن ابن عباس قال لما جاء اعرابي إلى النبي صلّى اللّه عليه وسلم فجعل يتكلم بكلام فقال ان من البيان لسحرا وان من الشعر لحكما – أخرجه أبو داود – وروى مسلم عن عمر ابن الشريد عن أبيه قال ردفت وراء النبي صلّى اللّه عليه وسلم يوما ، فقال هل معك من شعر أمية بن الصلت شيء ، قلت نعم ، قال هيه ، فأنشدته بيتا فقال هيه ، ثم أنشرته بيتا ، فقال هيه ، حتى أنشدته مئة بيت ، – زاد في رواية لقد كان يسلم في شعره – وعن جابر بن نمرة ، قال : جالست رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم أكثر من مئة مرة فكان أصحابه يتناشدون الشعر ، ويتذاكرون أشياء من أمر الجاهلية وهو ساكت ، وربما تبسّم معهم – أخرجه الترمذي وقال حديث حسن صحيح –

مطلب ما نسب من الشعر للخلفاء والأئمة وعهد ابي بكر :

هذا وقد أنشد كل من الخلفاء الراشدين الشعر وكثير من الصحابة ، فمن شعر أبي بكر رضي اللّه عنه قوله :

أمن طيف سلمى بالبطاح الدمائث ارقت وأمر في العشيرة حادث

ترى من لؤى فرقة لا يعدها عن الكفر تذكير ولا بعث باعث

رسول أتاهم صادق فتكذبوا عليه وقالوا لست فينا بصادق

الى أبيات كثيرة ختمها بقوله :

فابلغ بني سهم لديك رسالة وكل كفور يبتغي الشر باحث

فان تشعثوا عرضي على سوء رأيكم فأني من أعراضكم غير شاعث

ومن شعر عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه قوله :

توعدني كعب ثلاثا يعدها ولا شك أن القول ما قاله كعب

وما بي خوف الموت إني لميّت ولكن خوف الذنب يتبعه الذنب

وقال أيضا :

لا شيء مما ترى تبقى بشاشته يبقى الإله ويفنى المال والولد

لم تغن عن هرمز يوما خزائنه والخلد قد حاولت عاد فما خلدوا

ولا سليمان إذ تجري الرياح له والإنس والجن فيما بينهما ترد

حوض هنالك مورود بلا كذب لا بد من ورده يوما إذا وردوا

وتروى هذه الأبيات لورقة بن نوفل ، ومن شعر عثمان رضي اللّه عنه :

غنى النفس يغني النفس حتى يكفها وإن عضّها حتى يضر بها الفقر

وقال عند موته رضي اللّه عنه :

غدا نلقى الأحبة محمدا وحزبه

أما علي كرم اللّه وجهه فقد ملأ الصحف شعره ، وجاء من شعر ابنه الحسن :

نسود أعلاها فتأبى أصولها فليت الذي يسود منها هو الأصل

وكان متحنيا ، وللحسين والعباس وسائر بني المطلب رجالا ونساء أشعار كثيرة ، لأن كلا منهم نطق به عدا رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ، لأنه أبلغ في أمره ، وقد ألمعنا إلى ما يتعلق به وما قاله صلّى اللّه عليه وسلم في الآية 99 من سورة يس المارة فراجعه ، ففيه كفاية ، أما أئمة الدين فجلهم يقول الشعر ، فمما ينسب للشافعي رحمه اللّه قوله :

ومتعب النفس مرتاح إلى بلد والموت يطلبه في ذلك البلد

وضاحك والمنايا فوق هامته لو كان يعلم غيبا مات من كمد

من كان لم يؤت علما في بقاء غد فما يفكر في رزق لبعد غد

ولد في مكة سنة 150 وتوفي سنة 204 هجرية ودفن بقرافة مصر ، والإمام الأول أبو حنيفة ولد سنة 80 وتوفي سنة 150 ودفن بالأعظمية في بغداد ،

(164/565)

و الإمام الثاني مالك بن أنس ولد سنة 95 بالمدينة وتوفي سنة 179 ودفن فيها ، والإمام الرابع أحمد بن حنبل ولد سنة 164 في بغداد وتوفي سنة 241 ودفن غربي دجلة في بغداد ، وكلهم رضي اللّه عنهم نزار قبورهم ويتبرك بهم ، نفعنا اللّه بهم وبعلومهم وجعلنا من أتباعهم ، لأنهم عبدوا اللّه كثيرا "وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً" فلم يشغلهم شاغل من الشعر والعلم والعمل وغيرها عن ذكر اللّه ، حتى أنهم ختموا أقوالهم وأشعارهم بذكر اللّه وخرّجوها بمدح الرسول ، "وَانْتَصَرُوا" ممن اعتدى عليهم بفضل اللّه وكرمه "مِنْ بَعْدِ ما ظُلِمُوا" بأنواع العداء والهجاء والسخرية والاستهزاء "وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا" من هؤلاء الكفرة وغيرهم المار ذكرهم في الآية 23 المارة فما بعدها "أَيَّ مُنْقَلَبٍ" مرجع فظيع ومصير قبيح "يَنْقَلِبُونَ" 227 إليه بعد الموت ، وبئس المنقلب منقلبهم ، لأنه جهنم ، أما المؤمن فنعم المنقلب منقلبه ، لأنه الجنة إن شاء اللّه ، ختم اللّه تعالى هذه السورة الكريمة بما يقطع أكباد المنذرين

في هذه الآية العظيمة ، لما فيها من الوعيد الشديد ، والتهديد المهول الذي لم يبينه اللّه ، وفي إبهامه دلالة على فظاعته ، والإبهام في الشيء أشد بلاغة من الإظهار ، ولهذا فإن أبا بكر لما عهد إلى عمر رضي اللّه عنهما بالخلافة ختم عهده إليه بها ، وهذه صورة العهد حرفيا (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ هذا ما عهد به أبو بكر بن قحافة عند آخر عهده بالدنيا وأول عهده بالآخرة في الحال التي يؤمن بها الكافر ويتقي فيها الفاجر ويصدق فيها الكاذب إني استخلفت عليكم عمر ابن الخطاب فإن يعدل فذاك ظني به ورجائي فيه وإن يجر ويبدل فلا علم لي بالغيب والخير أردت ولكل امرى مما اكتسب وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ) هذا ، وإن السلف الصالح يعظ بعضهم بعضا في هذه الآية الجليلة المهيبة ، و

(165/565)

هي محل الوعظ منذ نزولها وإلى أن ترفع من الأرض ، قال ابن عطاء اللّه : سيعلم المعرض عنا ما الذي فاته منا .

وقال غيره :

أناس أعرضوا عنا بلا جرم ولا معنى

أساؤوا ظنهم فينا فهلا أحسنوا الظنا

فإن عادوا لنا عدنا وإن خانوا فما خنّا

وإن كانوا قد استغنوا فإنا عنهمو أغنى

ولا توجد سورة في القرآن مختومة بما ختمت به هذه ، لأن هذه الآية العظيمة الرهيبة التي كان ملوك الأمويين والعباسيين يهدّدون بها من قبل الأصحاب والتابعين ، ومن بعدهم العلماء حينما كانت الملوك تصغي لأقوالهم وتتبرك بدعواتهم وتتشرف بقولهم .

هذا ، وأستغفر اللّه ولا حول ولا قوة إلا باللّه العلي العظيم ، وصلى اللّه على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه أجمعين ، وسلم تسليما كثيرا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بيان المعاني حـ 2 صـ 256 . 308 ﴾

(166/565)

فصل فى الوقف والابتداء فى آيات السورة الكريمة :

قال شيخ الإسلام / زكريا الأنصاري

سورة الشعراء

مكية الاقوله والشعراء إلى آخرها فمدني

طسم تقدم الكلام عليه في سورة البقرة المبين كاف مؤمنين حسن وكذا خاضعين معرضين

كاف وكذا فقد كذبوا يستهزؤن تام كريم حسن ان في ذلك لآية هنا فيما يأتي كاف وكذا
مؤمنين وقال أبو عمرو في الثاني تام قوم فرعون حسن وقال أبو عمرو كاف ألايتقون حين ان
يكذبون حسن لمن قرأ ويضيق صدري بالرفع وليس بوقف لمن قراه بالنصب عطفا على
يكذبون لساني جائزان يقتلون حسن كلا تام مستمعون بني إسرائيل حسن وكذا من
الكافرين من الضالين كاف من المرسلين حسن ان عبدت بني إسرائيل تام ومارب العالمين
حسن وكذا موقنين تستمعون كاف وكذا الاولين ولمجنون ويعقلون ومن المسجونين وبشيء
مبين من الصادقين ثعبام مبين جائز للناظرين حسن فاذا تأمرون كاف وأخاه جائز سحار
عليم يوم معلوم مفهوم هم الغالبين كاف نحن الغالبين صالح لمن المقتربين كاف ملقون صالح
لنحن الغالبون حسن يأفكون كاف وهرون حسن قبل أن آذن لكم مفهوم عملكم السحر
حسن فلسوف تعلمون كاف أجمعين صالح لاضير حسن وكذا منقلبون أول المؤمنين تام
متبعون كاف وكذا حاشرين وحذورن ومقام كريم حسن ان كان المعنى في كذلك أي
كذلك فعلنا بهم وان كان المعنى تركوا تلك الجنات والعيون والكنوز كما وخرجوا طلب
موسى علية الصلاة السلام فالوقف على ذلك وهو تام والشرط في الوقفين والقف الآتي ان
يجعل الضمير الاول في فاتبعوهم لموسى ومن معه والثاني فيه لفرعون وقومه فان عكس لم
يحسن الوقف على شيء منها بني إسرائيل حسن وكذا مشرقين وانا المدركون وقال كلا
وقال أبو عمرو في الاول والثالث تام سيهدين تام بعصاك البجر صالح العظيم كاف وكذا ثم

الآخرين أجمعين صالح حسن مؤمنين كاف الرحيم تام ما تعبدون كاف وكذا عاكفين ويضرون ويفعلون والأقدمون الأرب العلمين صالح وان كان ما بعده نعتا للعالمين لانه رأس آية يهدين كاف وكذا يسقين ويشفين ويحين ويوم الدين بالصالحين صالح وكذا في الآخرين وجنة النعيم الضالين بقلب سليم كاف للمتقين صالح وكذا

(167/565)

للغاوين تعبدون رأس آية ولا يوقف عليه من دون الله حسن او ينتصرون صالح أجمعون كاف برب العالمين وكذا حميم من المؤمنين حسن أكثرهم مؤمنين كاف الرحيم تام المرسلين وكذا تتقون وأمين وأطيعون كاف من أجر صالح للعالمين كاف وأطيعون حسن الارذلون كاف يعملون صالح وكذا يشعرون والمؤمنين نذير مبين كاف وكذا من المجرمين وفتحا ومن المؤمنين والمشحون الباقين حسن مؤمنين كاف الرحيم تام المرسلين صالح وكذا تتقون وأمين وأطيعون كاف من اجر صالح العالمين حسن وكذا تخلدون وجبارين وأطيعون كاف وقال أبو عمرو تام وعيون كاف وكذا يوم عظيم والواعظين وبمعذبين فأهلكاهم حسن مؤمنين كاف الرحيم تام المرسلين صالح وكذا وأمين وأطيعون كاف من أجر صالح العالمين كاف آمنين جائز هضيم صالح فرهين كاف وكذا أطيعون ولا يصلحون من المسحرين صالح مثلنا

كاف وكذا الصادقين ومعلوم وعظيم العذاب حسن مؤمنين كاف الرحيم تام المرسلين صالح وكذا تتقون وأمين وأطيعون كاف من أجر صالح العالمين كاف من العالمين ليس بوقف من أزواجكم جائز عادون كاف وكذا من المخرجين ومن القالين مما يعملون صالح وكذا في الغابرين الآخرين كاف وكذا مطر المنذرين حسن مؤمنين كاف الرحيم تام المرسلين صالح وكذا تتقون وأمين وأطيعون كاف من أجر صالح رب العالمين حسن من المخسرين مفهوم وكذا المستقيم وأشياءهم مفسدين حسن الأولين كاف من المسحرين صالح لمن الكاذبين مفهوم من الصادقين كاف وكذا بما تعملون يوم الظلة صالح عظيم حسن مؤمنين كاف الرحيم تام رب العالمين صالح عربي مبين حسن الأولين تام بني إسرائيل حسن به مؤمنين كاف وكذا المجرمين الاليم جائز وكذا ألا يشعرون منظرون كاف يستعجلون حسن يتمتعون كاف منذرين تام وأتم منه ذكرى ظالمين حسن يستطيعون كاف وكذا المعزولون من المعذبين حسن الاقربين صالح من المؤمنين كاف مما تعملون تام في الساجدين كاف العليم تام الشياطين كاف وكذا أثيم السميع جائز كاذبون حسن

الغاوون تام وكذا من بعد ما ظلموا وآخر السورة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المقصد صـ 554 ﴿566.

(168/565)

وقال الشيخ أحمد عبد الكريم الأشموني :

سورة الشعراء

مكية إلاَّ قوله والشعراء يتبعهم الغاوون إلى آخر السورة فمدني كلمها ألفان ومائتان وسبع وتسعون كلمة وحروفها خمسة آلاف وخمسمائة واثنان وأربعون حرفاً وآيها مائتان وست أو سبع وعشرون آية

زعم العماني أنَّ الوقف على طسم (كاف) ثم قال بعد والحكم في هذه السورة وفي أختيها في الوقف كالخلاف في أوَّل البقرة

المبين (كاف)

باخع نفسك ليس بوقف لأنَّ أنْ في موضع نصب بباخع معناه معنى الاستقبال فكأنَّه قال فظلت أعناقهم خاضعين أن أنزلنا عليهم آية وإنَّما قال خاضعين ولم يقل خاضعات لأنَّه أراد بالأعناق الجماعات والعرب تقول أتاني عنق من الناس أي جماعة أو هو على حذف مضاف أي فظل أصحاب الأعناق ثم حذف وبقي الخبر على ما كان عليه قبل حذف المخبر عنه مراعاة للمحذوف أو أنَّه لما أضيف إلى العقلاء اكتسب منهم هذا الحكم كما اكتسب التأنيث بالإضافة للمؤنث في قوله كما شرقت صدر القناة من الدم إلى آخر ما قاله السمين وليس خاضعين حالاً لأنَّ الحال إنَّما يقع بعد تمام الكلام وقوله فظلت أعناقهم لها لم

يتم إلاَّ بما بعده

خاضعين (كاف) وخاضعين خبر ظل

محدث ليس بوقف للاستثناء لأنَّ به يصح معنى الكلام

معرضين (كاف)

فقد كذبوا (حسن) ثم يبتدئ فسيأتيهم لأنَّه تهديد

يستهزؤن (تام)

إلى الأرض ليس بوقف

كريم (كاف)

لآية (حسن) وكذا مثله فيما يأتي

مؤمنين (كاف)

الرحيم (تام) لأنَّ إذ نادى معه فعل مضمر كأنَّه قال واذكر إذ نادى ربك موسى فهو من

عطف الجمل مقطوع مما قبله

(169/565)

موسى ليس بوقف لأنَّ الذي وقع به النداء لم يأت بعد ومثله الوقف على الظالمين لأنَّ قوم فرعون بدل من القوم الظالمين وبيان لهم ولما كان القوم الظالمين يوهم الاشتراك أزاله بعطف البيان لأنَّه يوهم في المعنى ولذلك عبر عن الظالمين بقوم فرعون ووسموا بالظلم لأنَّهم ظلموا أنفسهم بالكفر وقرئ ألا يتقون بكسر النون أي يتقوني فحذفت النون لاجتماع النونين وحذفت الياء للاكتفاء عنها بالكسرة

قوم فرعون (حسن) للعدول عن الأمر إلى الاستفهام وذلك موجب للوقف ومن قرأ يتقون بالتحتية كان زيادة في الحسن ومن قرأه بالتاء الفوقية كان كلاماً واحداً

يكذبون (حسن) لمن قرأ ويضيق وينطلق بالرفع فيهما على الاستئناف أو عطفاً على أخاف كأنَّه قال إنِّي أخاف تكذيبهم إياي ويضيق منه صدري ولا ينطلق لساني فالرفع يفيد ثلاث علل خوف التكذيب وضيق الصدر وامتناع انطلاق اللسان وليس بوقف لمن قرأ بنصب القافين عطفاً على يكذبون

لساني (حسن) على القراءتين واستئناف ما بعده

إلى هرون (جائز)

أن يقتلون (حسن) قال نافع وأبو حاتم كلا ردَّ لقوله إنِّي أخاف أي لا تخف فإنَّهم لا يقدرون على ذلك ولا يصلون إليه ثم يبتدئ فاذهبا بآياتنا 0

بآياتنا (حسن)

مستمعون (كاف)

رسول رب العالمين ليس بوقف لأنَّ ما بعده منصوب بما قبله أي أرسلنا بأن أرسل بني

إسرائيل لتزول عنهم العبودية لأنَّ فرعون استعبد بني إسرائيل

بني إسرائيل (كاف)

سنين (جائز)

الكافرين (كاف) ومثله الضالين

لما خفتكم (جائز)

المرسلين (كاف) للاستفهام بمحذوف تقديره أو تلك قاله الأخفش وقيل الاستفهام لا يضمر

ما لم يأت بعده أم وليس في الآية ذكر أم كما ترى

أن عبَّدت بني إسرائيل (كاف) ومثله وما رب العالمين وكذا موقنين وتستمعون والأوَّلين

ولمجنون وتعقلون ومن المسجونين وبشيء مبين والصادقين كلها وقوف كافية

فألقى عصاه ليس بوقف لأنَّ ما بعده يفسر ما قبله

(170/565)

ثعبان مبين (جائز) فصلاً بين المعجزتين والوصل أولى لتكون الشهادتان مقروئتين

للناظرين (كاف)

لساحر عليم (جائز) على استئناف ما بعده وليس بوقف إن جعل في موضع الصفة لما قبله

بسحره (حسن) بجعل فماذا تأمرون من قول الملأ لفرعون خاطبوه بالجمع تعظيماً على

عادة الملوك والأولى وصله بقول فرعون أي فماذا تشيرون ودليل هذا جوابهم قالوا أرجه

وأخاه وقال الفراء قوله يريد أن يخرجكم من أرضكم هو من كلام الملأ وقوله فماذا تأمرون

من كلام فرعون والتقدير عنده يريد أن يخرجكم من أرضكم فقال فرعون فماذا تأمرون

وأجاز قلت لجاريتي قومي فإنَّي قائمة أي قالت فإنَّي قائمة اهـ نكزاوي

فماذا تأمرون (كاف)

وأخاه (جائز) للابتداء بعده بالأمر

حاشرين ليس بوقف لأنَّ قوله يأتوك جواب الأمر ولذلك كان مجزوماً وأصله يأتونك

فحذفت النون للجازم ولا يفصل بين الأمر وجوابه

سحار عليم (كاف)

يوم معلوم (جائز)

مجتمعون ليس بوقف لأنَّ ما بعده لعلَّ وهو في التعلق كلام كي

الغالبين (كاف)

نحن الغالبين (جائز) ومثله نعم

لمن المقربين (كاف)

ملقون (جائز)

لنحن الغالبون (كاف) ومثله يأفكون

ساجدين (جائز)

برب العالمين ليس بوقف لأنَّ الذي بعده بدل مما قبله أو عطف بيان

وهرون (كاف) ومثله قبل أن آذن لكم للابتداء بإنْ مع اتحاد المقول

علمكم السحر (حسن) للابتداء بلام الابتداء والتهديد وكلاهما يقتضي الابتداء مع أنَّ

فيهما الفاء

فلسوف تعلمون (كاف) للابتداء بلام القسم أي والله لأقطعنَّ

أجمعين (جائز)

لا ضير (حسن)

منقلبون (كاف)

خطايانا ليس بوقف لأنَّ أن منصوبة بما قبلها

أول المؤمنين (تام) لتمام المقول

متبعون (كاف) ومثله حاشرين للابتداء بإن على أنَّ التقدير بأنَّ هؤلاء

قليلون لغائظون ليس بوقف لعطف ما بعده على ما قبله

(171/565)

حاذرون (كاف) ومقام كريم يبنى الوقف على كريم على اختلاف المعربين في محل الكاف من كذلك وفيها ثلاثة أوجه النصب بفعل مقدر أي أخرجنا آل فرعون من منازلهم كما وعدنا إيراثها بني إسرائيل والجر على أنَّها وصف لمقام أي ومقام كريم مثل ذلك المقام الذي كان لهم والرفع على أنَّها خبر مبتدأ محذوف أي الأمر كذلك فإن كانت الكاف في محل رفع أو في محل نصب كان الوقف على كذلك لأنَّ التشبيه وقع خبراً وهو تمام الفائدة فلا يقطع وإن كانت في محل جر متصلة بما قبلها كان الوقف على كذلك أيضاً حسناً دون كريم وفي وجهي النصب والجر تشبيه الشيء بنفسه لأنَّ المقام الذي كان لهم هو المقام الكريم قال ابن لهيعة هو القيوم والمعنى تركوا جناتهم وعيونهم وكنوزهم ومجالسهم وخرجوا في طلب موسى والشرط في الوقفين أعني كريم وكذلك أن يجعل الضمير الأول وهو الواو في قوله فأتبعوهم لموسى وأصحابه والضمير الثاني وهو همٌّ لفرعون وأصحابه أي أنّ موسى وأصحابه تبعوا فرعون وأصحابه حسن الوقف على كذلك وليس كريم ولا كذلك بوقف إن جعلت الواو

في فأتبعوهم لفرعون وأصحابه وهم ضمير موسى وأصحابه أي فتبع فرعون وأصحابه

موسى لأنَّ المعنى خرجوا من جناتهم فتبعوهم لشدة تعلق فأتبعوهم بقوله فأخرجناهم فلا

يفصل بينهما والمراد بالمقام الكريم مجلس الأمراء قالوا كان إذا قعد فرعون على سريره

وضع بين يديه ثلاثمائة كرسي من ذهب تجلس عليها الأمراء والإشراف عليهم أقبية

مخوصة بالذهب قاله الكواشي

بني إسرائيل ليس بوقف لمكان الفاء

مشرقين (كاف)

إنَّا لمدركون لا ينبغي الوقف عليه لأنَّ ما بعده جواب لما قبله لأن موسى نفى الإدراك أصلاً

لأنَّ الله وعده النصر والخلاص منهم

سيهدين (كاف)

بعصاك البحر (جائز)

العظيم (كاف) ومثله ثم الآخرين

أجمعين (جائز)

الآخرين (حسن) ولما أهلك الله فرعون ومن معه في اليم ملك مصر امرأة يقال لها دلوك ولها

فيها آثار عجيبة

إنَّ في ذلك لآية (حسن)

وما كان أكثرهم مؤمنين (كاف)

الرحيم (تام) ومثله إبراهيم لأَنَّه لو وصله لصار إذ ظرفاً لقوله واتل وهو محال لأنَّ إذ ظرف لما مضى لما مضى لا يعمل فيه اتل لأَنَّه مستقبل وهو لا يعمل في الماضي بل هو ظرف لمقدر والتقدير اذكر قصة إبراهيم وما جرى له مع قومه وليس بوقف إن جعل إذ بدلاً من نبأ بدل اشتمال وهو يؤول إلى أنَّ العامل فيه اتل بالتأويل المذكور قاله السمين مع زيادة للإيضاح 0

ما تعبدون (كاف) ومثله عاكفين وكذا أو يضرون ويفعلون

تعبدون الثاني ليس بوقف لأنَّ أنتم توكيد واو الضمير 0

الأقدمون (كاف)

رب العالمين في محل الذي الحركات الثلاث الرفع والنصب والجر فإن رفع بالابتداء وما بعده الخبر كان الوقف على العالمين تاماً وإن رفع الذي خبر مبتدأ محذوف أو نصب بتقدير أعني كان كافياً وليس بوقف إن جعل الذي نعتاً لما قبله أو بدلاً أو عطف بيان ومن حيث كونه رأس آية يجوز

فهو يهدين (كاف) ومثله ويسقين ويشفين ويحيين ويوم الدين

بالصالحين (جائز) ومثله في الآخرين وجنة النعيم ومن الضالين

بقلب سليم (كاف) وقيل لا يوقف من قوله الذي خلقني إلى قوله سليم لأنَّ هذه جمل

معطوف بعضها على بعض ومتعلق بعضها ببعض وإن جعل كل جملة فيها ذكر الدعاء

مسئلة قائمة بنفسها حسن الوقف على آخر كل آية من قوله رب هب لي حكماً إلى قوله

بقلب سليم

للمتقين (جائز) ومثله للغاوين تعبدون رأس آية ويوقف عليه بناء على أنَّ الجار والمجرور

الذي بعده متعلق بمحذوف أي هل ينصرونكم من دون الله أو يكون في الكلام تقديم وتأخير

وإن جعل متعلقاً بما قبله لم يوقف عليه 0

من دون الله(حسن) ثم تبتدئ هل ينصرونكم لأنَّ الاستفهام من مقتضيات الابتداء 0

أو ينتصرون (تام) لتناهي الاستفهام 0

والغاوون ليس بوقف لأنَّ قوله وجنود إبليس مرفوع عطفاً على الغاوون وكذا لا يوقف

على إبليس لأنَّ أجمعون توكيد لما قبله0

(173/565)

أجمعون (جائز) ولا وقف من قوله قالوا وهم فيها إلى برب العالمين فلا يوقف على يختصمون لأنَّ فيه الفصل بين القول والمقول لأنَّ قوله تالله مقولهم ولا يوقف على ضلال مبين لأنَّ قوله إذ نسوّيكم ظرف لما قبله كأنَّهم قالوا ما كنا إلاَّ في ضلال مبين إذ عبدناكم فسوَّيناكم برب العالمين 0

المجرمون (جائز) ومثله حميم والنفي هنا يحتمل نفي الصديق من أصله لأنَّ الشيء قد ينفى لنفي أصله أو نفي صفته فهو من باب * على لا حب لا يهتدي بمناره*

من المؤمنين (حسن) ومثله لآية

مؤمنين (كاف)

الرحيم (تام)

المرسلين (كاف) إن علق إذ باذكر مقدراً وجائز إن جعل العامل في إذ ما قبله

تتقون (كاف) ومثله وأطيعون

من أجر (جائز)

رب العالمين (كاف)

وأطيعون (حسن)

الأرذلون (كاف) وقد أغرب من فسر الأرذلون بالحاكة والحجامين إذ لو كانوا كذلك لكان إيمانهم بنوح مشرفاً لهم ومعلياً لأقدارهم وإنَّما هو حكاية عن كفار قومه في تنقيص متبعيه

وكذا فعلت قريش في الرسول صلى الله عليه وسلم في شأن عمار وصهيب والضعفاء

بما كانوا يعملون (جائز) ومثله تشعرون وكذا وما أنا بطارد المؤمنين وكذا نذير مبين

والمرجومين وكذبون والوصل في الأخير أولى للفاء

فتحاً (جائز) ومنهم من قال ولا وقف من قوله إن حسابهم إلى من المرجومين

من المؤمنين (كاف) وقيل (تام) لأَنَّه آخر كلام نوح وآخر كلام قومه وليس في قصة نوح وقف

تام

في الفلك المشحون (حسن) على استئناف ما بعده وليس بوقف إن عطف على ما قبله

الباقين (كاف)

لآية (حسن)

مؤمنين (كاف)

الرحيم (تام)

المرسلين (كاف) إن علق إذ باذكر مقدراً ويكون من عطف الجمل وجائز إن علق بما قبله

لكونه رأس آية

ألا تتقون (كاف)

أمين (جائز)

وأطيعون (كاف)

من أجر (حسن)

العالمين (كاف)

تعبثون ليس بوقف للعطف

تخلدون (كاف) ومثله جبارين

وأطيعون (حسن) على استئناف ما بعده وليس بوقف إن عطف على ما قبله

(174/565)

بما تعلمون (جائز) لأنَّ الجملة الثانية بعده بيان وتفسير للأولى أو أن قوله بأنعام بدل من قوله

بما تعلمون وكلاهما يقتضي عدم الوقف ومن حيث كونه رأس آية يجوز

وبنين ليس بوقف لأنَّ ما بعده مجرور عطفاً على ما قبله

وعيون (حسن)

عظيم (أحسن)

الواعظين (كاف) ولا كراهة في الابتداء بما بعده كما قاله بعضهم لأنَّ هذا وما أشبهه غير

معتقد للقارئ وإنَّما هو حكاية قول قائليها حكاها الله عنهم قرأ ابن كثير وأبو عمرو

والكسائي خلق الأولين بفتح الخاء المعجمة وإسكان اللام والباقون بضمتين ومعناهما

الاختلاق وهو الكذب

الأولين (كاف) ومثله بمعذبين وقيل لا يوقف في قصة عاد من قوله كذبت عاد المرسلين إلى

بمعذبين لأَنَّه آخر كلامهم وآخر كلام نبيهم

فأهلكناهم (حسن) ومثله لآية

مؤمنين (كاف)

الرحيم (تام) لأَنَّه آخر قصة

المرسلين (كاف) إن علق إذ باذكر مقدراً وليس بوقف إن جعل العامل في إذ ما قبله

ألا تتقون (كاف)

أمين (جائز)

فاتقوا الله وأطيعون (كاف)

من أجر (حسن)

العالمين (كاف)

آمنين (جائز) وإن تعلق الجار والمجرور بما قبله لأَنَّه رأس آية

هضيم (جائز) أيضاً

فرهين (كاف) ومثله وأطيعون

المسرفين ليس بوقف لأن الذين بعده نعت للمسرفين

ولا يصلحون (كاف) ومثله من المسحرين وكذا مثلنا ومن الصادقين

هذه ناقة (جائز)

معلوم (كاف) ومثله عظيم

نادمين ليس بوقف

العذاب (كاف)

لآية (حسن)

وما كان أكثرهم مؤمنين (كاف)

الرحيم (تام) لأَنَّه آخر قصة

المرسلين (جائز) وفي إذ ما تقدم

ألا تتقون (كاف)

أمين (جائز)

وأطيعون (كاف)

من أجر (حسن)

العالمين (كاف)

من المخسرين (جائز) ومثله المستقيم وكذا أشياءهم

مفسدين (حسن) ومثله والجبلة الأولين

من المسحرين (جائز)

مثلنا (كاف)

لمن الكاذبين (حسن)

الصادقين (جائز) ومثله بما تعملون وقيل تام لأَنَّه آخر كلامهم وكلام نبيهم صلى الله عليه وسلم

فكذبوه ليس بوقف لمفاجأة الفاء بما وقع من أجلهم

(175/565)

روي أَنَّه حبس عنهم الريح سبعاً فابتلوا بحرٍ عظيم أخذ بأنفاسهم فلا نفعهم ظل ولا ماء فاضطروا إلى أن خرجوا إلى البرية فأظلتهم سحابة وجدوا لها برداً ونسيما فاجتمعوا تحتها فأمطرت عليهم ناراً فأحرقتهم

يوم الظلة (حسن)

عظيم (أحسن) منه

لآية (حسن)

مؤمنين (كاف)

الرحيم (تام)

العالمين(كاف) لمن قرأ أنزل بالتشديد للزاي ونصب الروح مفعول نزل مبيناً للفاعل وهو الله تعالى لأنَّ نزل المشدّد يقتضي التدريج والتنجيم بحسب المصالح لأنَّه نزل إلى سما الدنيا جملة واحدة ونجمه جبريل بأمر الله تعالى في عشرين سنة مخالفاً لقول الكفار لو كان من عند الله لنزل جملة واحدة

قرأ ابن عامر وشعبة وحمزة والكسائي نول مشدداً ومن قرأ بتخفيف الزاي ورفع الروح وهي قراءة الباقين كان جائزاً وقرئ نزل مشدداً مبنياً للمفعول والروح نائب الفاعل والأمين صفته

الأمين ليس بوقف لأنَّ الذي بعده ظرف للتنزيل وكذا لا يوقف على قلبك لأنَّ ما بعده علة في التنزيل وكذا لا يوقف على المنذرين لأنَّ ما بعده في موضع نصب لأنَّه منذر بلسانه مبين (كاف) ومثله زبر الأولين للاستفهام بعده

آية ليس بوقف سواء قرئ يكن بالتحتية أو بالفوقية وسواء قرئ بالرفع أو بالنصب ونصبها أما خبر يكن وأن يعلمه اسمها وكأنَّه قال أو لم يكن لهم علم علماء بني إسرائيل آية لهم اتفق علماء الرسم على كتابة علمواء بواو وألف كما ترى

بني إسرائيل (كاف)

على بعض الأعجمين ليس بوقف لشيئين للعطف بالفاء ولأنَّ جواب لو لم يأت بعد وهو ما

كانوا به مؤمنين

ومؤمنين (كاف)

المجرمين (جائز) ومثله الأليم وقيل لا يجوز لأنَّ الفعل الذي بعد الفاء منصوب بالعطف على ما عملت فيه حتى والضمير في سلكناه للشرك أو للكفر أو للتكذيب والضمير في لا يؤمنون به يعود على النبي صلى الله عليه وسلم أي كي لا يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم قاله النكزاوي وكذا لا يوقف على بغتة لأنَّ الذي بعدها جملة في موضع الحال

لا يشعرون (جائز)

(176/565)

منظرون (كاف) وكذا يستعجلون ولا وقف من قوله أفرأيت إلى يمتعون فلا يوقف على سنين للعطف ولا على يوعدون لأنَّ قوله ما أغنى عنهم جملة قامت مقام جواب الشرط في قوله أفرأيت إن متعناهم

يمتعون (كاف)

إلاَّ لها منذرون (تام) وأتم منه ذكرى وقد أغرب من قال ليس في سورة الشعراء وقف تام إلاَّ قوله لها منذرون ثم يبتدئ ذكرى أي هي ذكرى أو إنذارنا ذكرى وإن جعلت ذكرى في

موضع نصب بتقدير ينذرهم العذاب ذكرى أو هذا القرآن ذكرى أو تكون ذكرى مفعولاً للذكر أي ذكرناهم ذكرى كان الوقف على ذكرى كافياً لأنَّ الذكرى متعلقة بالإنذار إذا كانت منصوبة لفظاً ومعنى وإن كانت مرفوعة تعلقت به معنى فقط

ظالمين (كاف) ومثله يستطيعون

لمعزولون (تام)

إلهاً آخر ليس بوقف لأنَّ ما بعد الفاء جواب للنهي

من المعذبين (كاف) للأمر بعده

الأقربين (جائز) وقيل لا يجوز لعطف ما بعده على ما قبله

من المؤمنين (كاف) ومثله تعملون

الرحيم ليس بوقف لأنَّ الذي بعده نعت له

في الساجدين (كاف)

العليم (تام)

الشياطين (حسن)

أثيم (جائز) وإن كانت الجملة بعده صفة لكونه رأس آية

يلقون السمع (أحسن) مما قبله

كاذبون (أحسن) منهما وقيل كاف

الغاوون (كاف)

يهيمون ليس بوقف لعطف ما بعده على ما قبله وكذا ما لا يفعلون للاستثناء

من بعد ما ظلموا (حسن) للابتداء بالتهديد

آخر السورة (تام) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ منار الهدى صـ 554.566 ﴾

(177/565)

" فصل فى ذكر قراءات السورة كاملة "

قال العلامة ابن جنى :

سورة الشعراء :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قرأ عبد الله بن مسلم بن يسار وحماد بن سلمة 1 : "قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلا تَتَّقُون" 2 ، بالتاء .

قال أبو الفتح : هو عندنا على إضمار القول فيه ، وإيضاحه : وإذ نادى ربك موسى أن ائت القوم الظالمين قوم فرعون فقل لهم : ألا تتقون ؟ وقد كثر حذف القول عنهم ، ومن ذلك قول الله تعالى : ﴿ وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ، سَلامٌ عَلَيْكُمْ ﴾ 3 ، أي : يقولون : سلام عليكم .

ومن ذلك قراءة الشعبي : "وَفَعَلْتَ فِعْلَتَكَ"4 ، بكسر الفاء .

قال أبو الفتح : الفِعْلَة : كناية عن الحال التي تكون عليها ، كالرِّكْبَة ، والجِلْسة . والمِشْيَة ، والإِكْلَة : فجرت مجرى قولك : وفعلت فعلك الذي فعلت ؛ وذلك لأن الفعل قد تعاقب الفعل ، كقولهم : نشدته نشدا ، وكذلك ﴿ صِبْغَةَ اللَّه ﴾ 5 ، كقولك : صَبْغَ الله . ومثله من غير المصادر : هذا صَفْو الشيء وصِفْوَته ، والبَرْكُ والبَرْكَة : الصدر ، وله نظائر .

ومن ذلك قراءة أبان بن تغلب : "خَطَايَانَا إِنْ كُنَّا"6 ، بالكسر .

قال أبو الفتح : هذا كلام يعتاده المستظهر الْمُدِلُّ بما عنده ، ويقول الرجل لصاحبه : أنا أحفظ عليك إن كنت وافيا ، ولا يضيعُ لكَ جميلٌ عندِي إن كنت شاكرًا ، أي ابنِ

---

1 هو حماد بن سلمة بن دينار أبو سلمة البصري الإمام الكبير . روى القراءة عرضا عن عاصم وابن كثير ، وروى عنه الحروف حرمي بن عمارة وغيره . مات في ذي الحجة سنة 167 . طبقات ابن الجزري : 1 : 258 .

2 سورة الشعراء : 11 .

3 سورة الرعد : 23 : 24 .

4 سورة الشعراء : 19 .

5 سورة البقرة : 138 .

6 سورة الشعراء : 51 .

(178/565)

هذا على هذا ، فإن كنت تعلم أني شاكرٌ وافٍ فلن يضيع لك عندي جميل ، أي : فكما تعلم أن هذا [116ظ] معروف من حالي فثق بوفائي وزكاء صنيعك عندي ، ومثله بيت الكتاب :

أتغضبُ إنْ أُذْنَا قُتَيْبةَ حُزَّتَا جهارًا ولَمْ تغضبْ لقَتْلِ ابنِ خازم1

فشرط بذلك ، وقد كان ووقع قبل ذلك .

ومثله ما أنشدَناه أبو علي :

فإنْ تَقْتُلُونا يوْمَ حرَّةِ وَاقِمٍ فَلَسْنا على الإسلامِ أَوَّلَ مَنْ قُتِلْ2

وقد كان القتل من قبل وَقَعَ وعُلِمَ . وجاء به الطائي الكبير ، فقال :

وَمَكارِمًا عُتُقَ النِّجار تَلِيدةً إنْ كانَ هَضْبُ عَمَايَتَيْنِ تَلِيدَا3

أي : فكما أن هضب عمايتين تليد لا محالة فكذلك هذه المكارم تليدة .

ومن ذلك قراءة ابن أبي عمار : "حَادِرُونَ4" ، بالدال غير معجمة .

قال أبو الفتح : الحادر : القوي الشديد ، ومنه الحادرة الشاعر ، وهو كقولك : القوي ، وحدر الرجل : إذا قوي جسمه وامتلأ لحما وشحما ، وقالوا أيضا : حدر حدارة . قال الأعشى :

وَعَسِير أدماء حَادِرَة العيـشِ خَنُوفٍ عَيْرَانَة شِمْلالِ5

---

1 البيت للفرزدق ، ويروى "ليوم" مكان "لقتل" ، وكان وكيع بن أبي سواد التميمي قتل قتيبة بن مسلم الباهلي ، وباهلة من قيس . وقد كانت تميم قتلت عبد الله بن خازم السلمي ، وسليم من قيس أيضا ، ففخر الفرزدق عليهم ، وزعم أن قيسا غضبت لقتل قتيبة ، ولم تغضب لقتل ابن حازم : انظر الديوان ، 855 ، والكتاب : 1 : 479 .

2 كانت وقعة الحرة سنة 63 في عهد يزيد بن معاوية .

3 البيت لأبي تمام ، من قصيدة يمدح فيها خالد بن يزيد الشيباني . وقبله .

وإذا سرحت الطرف نحو قبابه لم تلق إلا نعمة وحسودا

والنجار : الأصل . وتليدة : قديمة متوارثة وأصل التليد : المال يولد أو يكون عندك قديما

الديوان : 90 .

4 سورة الشعراء : 56 .

5 بعده :

من سراة الهجان صلبها الدعض ورعي الحمى وطول الحبال

لم تعطف على حوار ولم يقطع عبيد عروقها من خمال

والعسير من اعتسر الناقة إذا أخذها ريضا فخطمها وركبها ، والإدماء من الإبل : التي لونها مشرب سوادا أو بياضا ، أو هي البيضاء الواضحة البياض . والخنوف . التي تميل رأسها إلى راكبها وهي تعدو . والعيرانة من الإبل : الناجية النشيطة . والشملال : السريعة . وسراة كل شيء : خياره والهجان من الإبل : البيض الكرام . والعض : العلف . والحيال : من حالت الناقة فهي حائل ، أي غير حامل . والحوار : ولد الناقة . والخمال : داء يصيب القوائم فتتشنج عروقها . انظر ديوان الشاعر : 5 .

(179/565)

أي : قد امتلأت عينها نِقْيًا 1 ، فارتوت وحسنت ، وقيل أيضا : امرأة حدراء ورجل أحدر . وقد حدرت عينه تحدر ، وعليه قول الفرزذق :

وأنكرْتَ مِنْ حَدْراء ما كُنْتَ تَعْرِف2

ومن ذلك قراءة الأعرج وعبيد بن عمير : "لَمُدَّرَكُون"3 ، بالتشديد .

قال أبو الفتح : أدركتُ الرجل ، وادَّرَكْتُهُ ، وادَّرَكَ الشيءُ إذا تتابع ففني . وقال الحسن في قول الله تعالى : "بَلِ ادَّرَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ"4 ، قال : جهلوا علم الآخرة ، أي : لا علم

عندهم في أمر الآخرة ، معناه بل أسرع وخف ، فلم يثبت ، ولم تطمئن لليقين به قدم .

ومن ذلك قراءة عبد الله بن الحارث : "وَأَزْلَقْنَا"5 ، بالقاف .

قال أبو الفتح : من قرأ : "وَأَزْلَفْنَا" بالفاء فالآخرون موسى عليه السلام وأصحابه ، ومن قرأها بالقاف فالآخرون فرعون وأصحابه ، أي : أهلكنا ثَمَّ الآخَرين ، أي : فرعون وأصحابه .

ومن ذلك قراءة قتادة : "هَلْ يُسْمِعُونَكُم"6 .

قال أبو الفتح : المفعول هنا محذوف ، أي : هل يسمعونك إذ تدعون جوابا عن دعائكم ؟ يقال : دعاني فأسمعته ، أي : أسمعته جواب دعائه .

وأما قراءة الجماعة : ﴿ هَلْ يَسْمَعُونَكُم ﴾ فإن "سمعت" بابها أن تتعدى إلى ما كان صوتا مسموعا ، كقولك : سمعت كلامك ، وسمعت حديث القوم . فإن وقعت على جوهر تعدت إلى مفعولين ، ولا يكون الثاني منهما إلا صوتا ، كقولك : سمعت زيدا يقرأ ، وسمعت محمدا يتحدث . ولا يجوز سمعت زيدا يقوم ؛ لأن القيام ليس من المسموعات .

---

1 النقي : شحم العين من السمن .

2 صدره :

عزفت بأعشاش وما كدت تعزف

وعزف عن اللهو : لم يشتهه ، وعن النساء : لم يصبُ إليهن . وأعشاش : موضع في بلاد بني

تميم لبني يربوع بن حنظلة ، والبيت مطلع إحدى نقائضه . الديوان : 551 ، ومعجم البلدان .

3 سورة الشعراء : 61 .

4 سورة النمل : 66 .

5 سورة الشعراء : 64 .

6 سورة الشعراء : 72 .

(180/565)

فأما قوله تعالى : [117و] : ﴿ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴾ فإنه على حذف المضاف ، وتقديره : هل يسمعون دعاءكم ؟ ودل عليه قوله : ﴿ إِذْ تَدْعُونَ ﴾ ، ويقول القائل لصاحبه : هل تسمع حديث أحد ؟ فيقول مجيبا له : نعم أسمع زيدا ، أي : حديث زيد . ودل قوله : "حديث أحد" عليه ، فإن لم تدل عليه دلالة لم يجز الاقتصار على المفعول الواحد . لو قلت سمعت الطائر لم يجز ؛ لأنه لا يعلم أسمعت جرس طيرانه أو سمعت صياحه على اختلاف أنواع الصياح ؟ فهذا مثال يقتاس عليه ، ويردُّ نحوُهُ - إذا أشكل - إليه .

ومن ذلك قراءة قتادة : "لَعَلَّكُمْ تُخْلَدُونَ" 1 .

قال أبو الفتح : خَلَد الشيءُ ، أي : بقي ، وأخلدته وخلَّدته ، وأخلدت إلى كذا : أي أقمت عليه ولزمته ، والخلود لا يكون في الدنيا ، وقال قوم2 : أُخْلِدَ الرجلُ : إذا أبطأ عنه الشيب . وقد يقال في هذا أيضا : أَخْلَدَ ، والخُلْدُ : الفأرة العمياء ، ويقال : الخلد : السوار3 ، ويقال : القرط . ودار الخلود ، يعني الجنة ، وقال أحمد بن يحيى : الخلد : داخل القلب ، وقول امرئ القيس :

وَهَلْ يَنْعَمًا إلا سَعِيدٌ مُخَلَّدُ4 ؟

يعني به من يلبس الخلد : السوار أو القرط ، أي : الصبي أو الصبية ، يدل عليه قوله :

قَلِيلُ الهمُومِ ما يَبِيتُ بِأَوْجَالِ

وقد مر به شاعرنا5 فقال :

تَصْفُو الحياةُ لِجَاهِلٍ أَوْ غَافِلٍ عَمّا مَضَى منها وَما يُتَوَقَّعُ

وقال رؤبة في معناه :

وَقَدْ أَرَى واسِعَ جَيْبِ الْكُمِّ أَسْفَرُ مِنْ عَمامَةِ الْمُعْتَمِّ

---

1 سورة الشعراء : 129 .

2 سقطت "قوم" في ك .

3 في ك : السواق ، وهو تحريف .

4 عجزه :

قليل الهموم ما يبيت بأوجال

وانظر الديوان : 27

5 هو أبو الطيب المتنبي ، والبيت من قصيدة في رثاء أبي شجاع فاتك . وانظر الديوان : 405 .

(181/565)

عنْ قَصَبٍ أسْحَمَ مُدْلَهِمّ رِيقي وَدِرْيَاقِي شِفاء السُّمّ1

ومن ذلك قراءة ابن مسعود والضحاك وطلحة وابن السميفع ويعقوب وسعيد بن أبي سعيد الأنصاري : "وأَتْبَاعُكَ"2 .

قال أبو الفتح : تحتمل هذه القراءة ضربين من القول مختلفي الطريق ، إلا أنهما متفقا المعنى .

أحدهما أن يكون أراد : أنؤمن لك وإنما أتباعك الأرذلون ؟ فأتباعك مرفوع بالابتداء ، والأرذلون خبر .

والآخران يكون "وأتباعك"3 معطوفا على الضمير في "نؤمن"4 ، أي : أنؤمنُ لك نحن وأتباعك الأرذلون ؟ فالأرذلون إذاً وصف للأتباع ، وجاز العطف على الضمير المرفوع

المتصل من غير توكيد ؛ لما وقع هناك من الفصل . وهو قوله : "لك" ، فصار طول الكلام به كالعوض من توكيد الضمير بقوله : نحن . وإذا جاز قوله : "ما أَشْرَكْنا ولا آباؤنا"5 كان الأول من طريق الإعراب أمثل ؛ وذلك أن العوض ينبغي أن يكون في شق المعوض منه ، وأن يكون قبل حرف العطف ، وهذه صورة قوله : "لك" ، وأما "لا" من قوله تعالى : "وَلا آبَاؤُنَا"5 فإنها حرف العطف ، فهي في شق المعطوف نفسه ، لا في شق المعطوف عليه . والجامع بينهما طول الكلام بكل واحد منهما ، والمعنى من بعد : أنؤمن لك [117ظ] نحن وأتباعك الأرذلون فنعدُّ في عدادهم ؟ وهذا هو معنى القول الآخر : أنؤمن لك وإنما أتباعك الأرذلون فنساويهم في أن نكون مرذولين مثلهم ؟ .

---

1 من رجز في مدح الحارث بن سليم من آل عمرو . وبين البيتين الأخيرين في الديوان "53" :

لا أبتغي بالعمل الأذم

وفيه "ترياقي" مكان "درياقي" وهما بمعنى .

2 سورة الشعراء : 111 .

3 في ك : أتباعك بغير واو .

4 في ك : نؤمن .

5 سورة الأنعام : 148 .

ومن ذلك قراءة الحسن وأبي حَصِين1 : "الْجُبُلَّةَ الْأَوَّلِين"2 ، بالضم .

قال أبو الفتح : قد تقدم القول على ذلك مشروحا .

ومن ذلك قراءة الحسن : "الأَعْجَمِيِّين"3 ، منسوب إلى العجم .

قال أبو الفتح : هذه قراءة عذر في القراءة المجتمع عليها ، وتفسير للغرض4 فيها ، وهي قوله : "على بعض الأَعَجَمِين" ؛ وذلك أن ما كان من الصفات على أفعل ، وأنثاه فعلاء – لا يجمع بالواو والنون ، ولا مؤنثه بالألف والتاء . ألا تراك لا تقول : في أحمر : أحمرون ، ولا في حمراء : حمراوات ؟ فكان قياسه5 ألا يجوز فيه "الأعجمون" ، لأن مؤنثه "عجماء" ، ولكن سببه أنه يريد : الأعجميون ، ثم حذفت ياء النسب وجعل جمعه بالواو والنون دليلا عليها وأمارة لإدارتها ، كما جعلت صحة6 الواو في عَوَاوِر7 أمرة لإرادة الياء في عَوَاوِير وكما جعل قلب تاء "افتعل" طاء في قوله :

مَالَ إِلَى أَرْطَاةِ حِقْفٍ فَالْطَجَعْ7

دلالة على أن اللام في "الطجع" بدل من ضاد "اضطجع" لولا ذلك لقيل : التجع ، كما قالوا : التحم ، والْتَجَأَ إلى كذا .

وقياس قوله : "الأعجمين" لإرادة ياء الإضافة في "الأعجميّين" أن يقال : في مؤنثه مررت بنسوة عمجاوات ؛ فيجمع بالتاء لأنه في معنى عجماويّات ، ونظير ذلك الهُبَيْرُون ؛ لأنه يريد الهُبَيْرِيُّون في النسب إلى هُبَيْرَة .

---

1 ذكر ابن الجزري في طبقات القراء "1 : 315" أن أبا حصين ممن أخذ القراءة عنهم عرضا سليمان بن مهران الأعمش .

2 سورة الشعراء : 184 .

3 سورة الشعراء : 198 .

4 في ك : الفرض .

5 سقطت "قياسه" في ك .

6 في ك : ضمة ، وهو تحريف .

7 يشير إلى قول جندل بن المثنى الطهوي .

وكحل العينين بالعواور

وانظر الصفحة 107 من الجزء الأول .

ومن ذلك قراءة الحسن : "فَتَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً"1 ، بالتاء .

قال أبو الفتح : الفاعل المضمر الساعة ، أي فتأتيهم الساعة "بغتة" ، فأضمرها لدلالة العذاب الواقع فيها عليها ، ولكثرة ما تردد في القرآن من ذكر إتيانها .

ومن ذلك قراءة أيضا : "وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطُونُ"2 .

قال أبو الفتح : هذا مما يعرض مثله الفصيح ، لتداخل الجمعين عليه ، وتشابههما عنده ، ونحو منه قولهم : مَسِيل ، فيمن أخذه من السيل ، وعليه المعنى . ثم قالوا فيه : مُسْلان وأَمْسِلَة . ومَعِينٌ ، وأقوى المعنى فيه أن يكون من العيون ، ثم قالوا : سالت مُعْنَانُهُ3 .

فإن قلت4 : فقد حكى يعقوب وغيره في واحده : مَسَل ومَسْل ، وقيل : يشبه أن يكون ذلك لقولهم : مُسْلان . فلما سمعوا مُسْلانًا جاءوا بواحده على فَعْل ، كبَطْن وبُطْنان ، وظَهْر وظُهْرَان . وعلى فَعَل ، كحَمَل وحُمْلان ، وأَخ وأُخْوَان ، فيمن ضم . كما قال أبو بكر : إن من قال ضَفَنَ يَضْفِن فإنما حمله على ذلك الشبهة عليهم في قولهم : ضَيْفَن ، إذ كان ضَيْفَن ظاهر لفظه بأن يكون فَيْعَلا لا فَعْلَنًا ، وعلى كل حال فـ"الشياطون" غلط . لكن يشبهه ، كما أن من همز مصائب كذلك عنهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿المحتسب حـ2 صـ 132.126﴾

---

1 سورة الشعراء : 202 .

2 سورة الشعراء : 210 .

3 انظر الصفحة 69 من هذا الجزء .

4 سقطت "قلت" في ك .

(184/565)

وقال العلامة الدمياطى :

سورة الشعراء

مكية إلا أربع آيات من الشعراء إلى آخرها وآيها مائتان وعشرون وست بصري ومكي ومدني أخير وسبع كوفي وشامي ومدني أول خلالها أربع طسم كوفي وترك فلسوف تعلمون أينما كنتم تعبدون تركها بصري الشياطين تركها مكي ومدني أخير مشبه الفاصلة موضع وليدا وعكسه موضعان معنا بني إسرائيل من عمرك سنين القراآت أمال طاء طسم أبو بكر وحمزة والكسائي وخلف وفتحها الباقون وسكت أبو جعفر على ط و س و م وأظهر السين منها عند الميم حمزة والباقون بالإدغام وتقدم إبدال الهمزة الساكنة ألفا من إن نشأ للأصبهاني وأبي جعفر كوقف حمزة وهشام كإبدال الثانية ياء من السماء آية لنافع وابن كثير وابي عمرو وأبي جعفر ورويس

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب (ننزل) الآية 4 بسكون النون مع تخفيف الزاي ويوقف

لحمزة وهشام بخلفه على انبؤني ما كانوا على رسمه بواو وألف في الكوفي والبصري باثني عشر وجها ذكرت في نظيره بأول الأنعام فتح ياء إني أخاف معا نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر وأثبت الياء في يكذبون في الحالين يعقوب وكذا في يقتلون

واختلف في ( ) ويضيق صدري ولا ينطلق ( ) فيعقوب بنصب القاف منهما عطفا على يكذبون والباقون بالرفع على الاستئناف وسهل أبو جعفر همز إسرائل مع المد والقصر واختلف في مدها عن الأزرق ويوقف عليها لحمزة بتحقيق الأولى من غير سكت على بني وبالسكت وبالنقل وبالإدغام وأما التسهيل فضعيف وفي الثانية مع المد والقصر فهى ثمانية أوجه وأدغم ثاء لبثت أبو عمرو وهشام وابن ذكوان وحمزة والكسائي وأبو جعفر وذكر الخلف هنا لابن ذكوان في الأصل سبق قلم أو اشتباه بأورثتموها وعن المطوعي لما خفتكم بكسر الام وتخفيف الميم أي لخوفي منكم وعن ابن محيصن ﴿ أن كنتم موقنين ﴾ بفتح الهمزة وأظهر ذال اتخذت ابن كثير وحفص ورويس بخلفه

(185/565)

وأما (أرجه) فتقدم بالأعراف اختلافهم فيها من حيث الهمز وتركه ومن حيث هاء الكناية وعن الأعمش ﴿ بكل ساحر ﴾ بوزن فاعل والجمهور بوزن فعال وأماله أبو عمرو

وابن ذكوان بخلفه والدوري عن الكسائي وقلله الأزرق ويوقف لحمزة على نحو وأخاه بالتحقيق وبين بين بوجهين وسهل الثانية من أئن لنا مع الفصل بالألف قالون وأبو عمرو وأبو جعفر وبالتسهيل بلا فصل ورش وابن كثير ورويس

وقرأ هشام من طريق الحلواني بتحقيقهما مع الفصل ومن طريق الداجوني بتحقيقهما مع القصر وبه قرأ الباقون

وقرأ الكسائي (نعم) الآية 42 بكسر العين وشدد البزي بخلفه التاء من ( ) فإذا هي تلقف (الآية 45 وصلا وقرأها حفص بإسكان اللام وتخفيف القاف

وقرأ ( ) آمنتم (الآية 49 بهمزة واحدة على الخبر الأصبهاني وحفص ورويس وقرأ قالون والأزرق وابن كثير وابو عمرو وابن ذكوان وهشام بخلفه وأبو جعفر بهمزة محققة فمسهلة ثم ألف وللأزرق فيها ثلاثة البدل وإن كان الهمز مغير كما مر ولا يجوز له إبدال الثانية ألفا كما تبدل في ( ) أأنذرتهم (كما سبق موضحا بالأعراف مع ما وقع للجعبري فراجعه وقرأ هشام في وجهه الثاني وابو بكر وحمزة والكسائي وروح وخلف بهمزتين محققتين ثم ألف وأمال الكسائي وحده (خطايانا) الآية 51 وقلله الأزرق بخلفه

وقرأ ( ) أن أسر (بالوصل نافع وابن كثير وابو جعفر وفتح ياء الإضافة من ( ) بعبادي إنكم ( ) نافع وأبو جعفر

واختلف في (حاذرون) الآية 56 فابن ذكوان وهشام من طريق الداجوني وعاصم

وحمزة والكسائي وخلف بألف بعد الحاء وافقهم الأعمش والباقون بحذفها وهما بمعنى أو الحذر المتيقظ والحاذر الخائف أو الحذر المجبول على الحذر والحاذر ما عرض فيه وقرأ (وعيون) الآية 57 بكسر العين ابن كثير وابن ذكوان وأبو بكر وحمزة والكسائي ومر حكم إسرائيل قريبا وعن الحسن (فاتبعوهم) بوصل الهمزة وتشديد التاء بمعنى اللحاق

(186/565)

وأمال راء ( ) تراءى الجمعان (الآية 61 وصلا دون الهمزة حمزة وخلف والباقون بفتحهما فيه وللأزرق إذا وقف التقليل والفتح في الهمزة فقط أما الكسائي فيميلها فيه كبرى على أصله في اليائي وأما حمزة فيسهل الهمز بين بين ويمليها من أجل إمالة الألف بعدها وهي لام تفاعل لأنها منقلبة عن الياء ويجوز مع ذلك في الألف التي قبل الهمزة المد والقصر لتغير الهمزة على القاعدة ويميل الراء أيضا فينطق حينئذ بهمزة مسهلة بين ممالين وهذا هو الوجه الصحيح الذي لا يجوز غيره ولا يؤخذ بخلافه وهو القياسي وذكر فيها وجهان آخران أحداهما حذف الألف الأخيرة لحذفها رسما فتصير متطرفة فتبدل الفاء فيجيء فيها ثلاثة جاء وشاء وأجروا هشاما مجراه حينئذ في هذا الوجه قال في النشر وهذا وجه لا يصح ولا يجوز وأطال في رده الثاني قلب الهمزة ياء فيقول ترايا حكاه

الهذلي وغيره وهو ضعيف أيضا وإن كان أخف مما قبله لعدم صحة الرواية به وأما لهما معا فيه أعني الوقف خلف عن نفسه والباقون بالفتح وفتح الياء من ( ) معي ربي ( ) حفص وأثبت ياء سيهدين في الحالين يعقوب

واختلف في (فرق) الآية 63 فجمهور المغاربة والمصريين على ترقيق رائه للكل من أجل كسر القاف والأكثرون على تفخيمه لحرف الاستعلاء وفي النشر تصحيح الوجهين قال إلا أن النصوص متوافرة على الترقيق وحكى غير واحد الإجماع عليه

(187/565)

وقرأ رويس بخلفه (ثم) وقفا بإثبات هاء السكت وقطع به له ابن مهران وسهل الثانية كالياء من ﴿ نبايء إبراهيم) ﴾ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابو جعفر ورويس وأدغم ذال إذ تدعون أبو عمرو وهشام وحمزة والكسائي وخلف وسهل الهمزة الثانية من أفرأيتم قالون وورش وابو جعفر وللأزرق وجه آخر وهو إبدالها ألفا خالصة مع إشباع المد للساكنين وقرأ الكسائي بحذفها والباقون بإثباتها محققة وفتح الياء من ( ) عدو لي إلا (نافع وابو عمرو وابو جعفر وأثبت الياء في (يهدين) و (يسقين) و (يشفين) و (يحيين) في الحالين يعقوب وعن الحسن خطاياي بفتح الطاء وألف بعدها وياء مفتوحة وألف بعدها ياء

مفتوحة جمع تكسير والجمهور (خطيئتي) بالإفراد وفتح ياء الإضافة من لأبي إنه نافع وأبو عمرو وابو جعفر وأثبت ياء وأطيعون في الثمانية هنا في الحالين يعقوب وكذا كذبون وفتح ياء الإضافة من) أجري إلا (في خمس مواضع هنا نافع وابو عمرو وابن عامر وحفص وابو جعفر

واختلف في ( ) واتبعك الأرذلون (الآية 11 فيعقوب بقطع الهمزة وسكون التاء وبألف بعد الباء ورفع العين جمع تابع كصاحب وأصحاب أو تبيع كشريف وأشراف أما مبتدأ خبره الأرذلون والجملة حال أو عطف على ضمير أنؤمن للفصل بلك ورويت هذه القراءة عن ابن عباس وأبي حيوة وغيرهما والباقون بوصل الهمزة مع تشديد التاء وفتح العين بلا ألف فعلا ماضيا وهي جملة حالية من كاف لك وأثبت الألف من أنا إلا وصلا قالون بخلفه والوجهان صحيحان عنه من طريق أبي نشيط وأما من طريق الحلواني فبالحذف فقط إلا من طريق أبي عون عنه فبالإثبات كما يفهم من النشر والباقون بحذفها وصلا ولا خلاف في إثباتها وقفا كما مر بالبقرة وفتح ياء ( ) ومن معي (ورش وحفص وأمال جبارين الدوري عن الكسائي وللأزرق التقليل والفتح وهما في الحرز وغيره قال

في النشر وبهما قرأت وبهما آخذ ومر آنفا حكم (وعيون) وفتح ياء ( ) إني أخاف ( )
نافع وابن كثير وأبو عمرو وابو جعفر
واختلف في ( ) خلق الأولين ( ) الآية 137 فنافع وابن عامر وعاصم وحمزة وخلف بضم
الخاء واللام أي ما هذا إلا عادة آبائنا السابقين وافقهم الأعمش والباقون بفتح الخاء
وسكون اللام أي إلا كذب الأولين وأدغم التاء من كذبت ثمود أبو عمرو وهشام وابن ذكوان
من طريق الأخفش وحمزة والكسائي وخلف ومر (عيون) قريبا وقرأ (بيوتا) بكسر التاء
قالون وابن كثير وابن عامر وابو بكر وحمزة والكسائي وخلف
واختلف في ﴿ فرهين ﴾ الآية 149 فابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي وخلف
بألف بعد الفاء أي حاذقين وافقهم الأعمش والباقون بغير ألف صفة مشبهة بمعنى أشرين

(189/565)

واختلف في ﴿ أصحاب ليكة) ﴾ الآية 176 هنا وص الآية 13 فنافع وابن كثير وابن
عامر وأبو جعفر ﴿ ليكة ﴾ بلام مفتوحة بلا ألف وصل قبلها ولا همز بعدها وفتح تاء
التأنيث غير منصرفة للعلمية والتأنيث كطلحة مضاف إليه لأصحاب وكذلك رسما في
جميع المصاحف وافقهم ابن محيصن والباقون بهمزة وصل وسكون اللام وبعدها همزة

مفتوحة وبكسر التاء فيهما و (الأيكة) و ﴿ ليكة ﴾ مترادفان غيضة تنبت ناعم الشجر وقيل ليكة اسم للقرية التي كانوا فيها والأيكة اسم للبلد كله وقد أنكر جماعة وتبعهم الزمخشري على وجه ليكة وتجرؤوا على قرائها زعما منهم أنهم إنما اخذوها من خط المصاحف دون أفواه الرجال وكيف يظن ذلك بمثل أسن القراء وأعلاهم إسنادا والأخذ للقرآن عن جملة من الصحابة كأبي الدرداء وعثمان وغيرهما رضي الله عنهم وبمثل إمام المدينة وإمام الشام فما هذا إلا تجرؤ عظيم وقد أطبق أئمة أهل والأداء أن القراء إنما يتبعون ما ثبت في النقل والرواية فنسأل الله حسن الظن بأئمة الهدى خصوصا وغيرهم عموما وخرج بالقيد موضع الحجر و ق المتفق فيهما على الأيكة بالهمزة لإجماع المصاحف على ذلك وقرأ ( ) بالقسطاس ( ) حفص وحمزة والكسائي وخلف بالكسر والباقون بالضم لغتان كما مر بالإسراء وعن الحسن والجبلة بضم الجيم والباء والجمهور بكسرها لغتان ومر نظير الهمزتين في ( ) من السماء إن كنت (في نحو على البغاء أن بالنور وفتح ياء ربي أعلم نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر

واختلف في (كسفا) الآية 187 فحفص بفتح السين والباقون بسكونها ومر توجيه ذلك في الإسراء

واختلف في ( ) نزل به الروح الأمين (الآية 193 فنافع وابن كثير وأبو عمرو وحفص وأبو جعفر بتخفيف الزاي الروح الأمين بالرفع فيهما على إسناد الفعل للروح والأمين نعته وافقهم

ابن محيصن والباقون بالتشديد مبنيا للفاعل الحقيقي وهو الله تعالى و (الروح) و (الأمين) منصوبان الروح على المفعولية والأمين صفته أيضا

(190/565)

واختلف في ( ) أو لم يكن لهم آية (الآية 197 فابن عامر ﴿ تكن ﴾ بالتاء من فوق (آية) بالرفع فاعل تكن على أنها تامة ولهم متعلق بها وأن يعلمه بدل من آية أو خبر محذوف أي أو لم يحدث لهم آية علم علماء بني إسرائيل فإن كانت ناقصة فاسمها ضمير القصة وآية خبر مقدم وأن يعلمه مبتدأ مؤخر والجملة خبر تكن أو لهم خبر مقدم وآية مبتدأ مؤخر والجملة خبر تكن وأن يعلمه أما بدل من آية أو خبر مضمر أي هي أن يعلمه والتأنيث للفظ القصة أو الآية والباقون بتاء التذكير ونصب آية على جعل أن يعلمه اسمها وآية خبرها أي علم علماء بني إسرائيل بنبوة محمد من التوراة آية تدلهم عليه ويوقف لحمزة وهشام بخلفه على ﴿ علمؤا) ﴾ على رسمه بواو وألف بعدها باثني عشر وجها تقدم بيانها أول الأنعام في أنبؤا ما كانوا وعن الحسن الأعجميين بياءين مكسورة مشددة فساكنة جمع أعجمي والجمهور بياء واحدة ساكنة جمع أعجمي بالتخفيف قيل ولولا هذا التقدير لم يجمع جمع سلامة قال السمين وكان سبب جمعه أنه من باب أفعل فعلاء كأحمر حمراء والبصريون لا يجيزون جمعه

جمع سلامة إلا ضرورة فلذا قدروه منسوبا مخفف الياء وعنه فتأتيهم بغتة بالتأنيث وفتح الغين وعنه أيضا الشياطون وأدغم اللام من هل نحن الكسائي وافقه ابن محيصن بخلفه ومر أفرأيت قريبا

واختلف في ﴿ فتوكل ﴾ الآية 217 فنافع وابن عامر وأبو جعفر بالفاء جعلوا ما بعدها كالجزاء لما قبلها والباقون بالواو على مجرد عطف جملة على أخرى وعليه الرسم العراقي والمكي وقرأ البزي بخلفه على من تنزل بتشديد التاء وكذا شددها من الشاطين تنزل على والإدغام في الأول صعب لسكون ما قبل التاء وهو نون من لكنه سائغ كما مر بالبقرة وقرأ (يتبعهم) الآية 224 بسكون التاء وفتح الباء الموحدة نافع وسبق بالأعراف

(191/565)

المرسوم في الكوفي والبصري فسيأتيهم أنبؤا بواو وألف حذرون وفرهين بلا ألف فيهما في أكثر المصاحف واتفقوا على رسم الهمزة ياء في أئن وعلى رسمها واوا وزيادة ألف بعدها مع حذف الألف قبلها في علمؤا بني إسرائل وعلى رسم ليكة هنا وص باللام

فقط فتوكل بالفاء في المدني والشامي واتفقوا على قطع في عن ما في في ما ههنا آمنين

واختلفوا في قطع أين ما كنتم تعبدون ياءات الإضافة ثلاث عشرة ( ) إني أخاف (الآية

12 135 معا ( ) ربي أعلم ( ) بعبادي إنكم ( ) لي إلا ( ) لأبي إنه ( ) إن معي ( ) من معي ( ) أجري إلا ( ) الآية 188 الآية 52 الآية 77 الآية 86 الآية 62 الآية 118 الآية 109 127 145 164 180 خمسة الزوائد ست عشر ( ) أن يكذبون (يقتلون سيهدين) فهو يهدين (يسقين يشفين يحيين كذبون وأطيعون) الآية 12 الآية 14 الآية 62 الآية 78 الآية 79 الآية 80 الآية 81 الآية 117 الآية 108 110 126 137 144 150 163 179 150 163 ثمانية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿إتحاف فضلاء البشر صـ 420. 425﴾

(192/565)

وقال الشيخ عبد الفتاح القاضى :

" سورة الشعراء "

" طسم " سكت أبو جعفر على حروف الهجاء الثلاثة من غير تنفس .

" نشأ " أبدل الهمز ألفا أبو جعفر مطلقا ، وعند الوقف هشام وحمزة ولا إبدال فيه للسوسي لأنه مستثنى .

" تنزل " عليهم . فظلت . يأتيهم . عنه . يستهزءون . لهو . إلها غيرى . لساحر . وقيل .

كله واضح .

" من السماء آية " أبدل الهمزة الثانية ياء خالصة المدنيان والمكي والبصري ورويس وحققها الباقون ، ولورش ثلاثة البدل .

" أنباؤا " رسمت الهمزة على واوا في بعض المصاحف ومجردة في بعضها ، وسبق حكم الوقف على مثله .

" لآية " لحمزة عند الوقف تحقيق الهمزة وتسهيلها .

" أن ائت " أبدل الهمز وصلا ورش والسوسي وأبو جعفر . وحققه الباقون ، وأما عند الوقف على أن فالكل يبتدئون بهمزة وصل مكسورة مع إبدال الهمزة الساكنة ياء ساكنة مدية . وقد سبق نظيره .

" إني أخاف " فتح الياء المدنيان والمكي والبصري ، وأسكنها غيرهم .

" يكذبون ، ويقتلون " أثبت الياء ووقفا فيهما يعقوب ، وحذفها الباقون في الحالين .

" ويضيق صدري ولا ينطلق " قرأ يعقوب بنصب القاف فيهما ، والباقون برفعها كذلك .

" إسرائيل " سهل الهمزة مطلقا أبو جعفر مع المد والقصر ، وكذلك حمزة وقفا ، ولا ترقيق فيه لورش ، كما لا توسط له ولا مد في همزة .

" للملأ " وقف عليه هشام وحمزة بالإبدال والتسهيل مع الروم .

" أرجه " قرأ قالون وابن وردان بترك الهمز وكسر الهاء من غير صلة ، وورش والكسائي

وابن جماز وخلف في اختياره بترك الهمز وكسر الهاء مع الصلة ، وابن كثير وهشام بالهمز الساكن وضم الهاء مع الصلة ، والبصريان بالهمز الساكن وضم الهاء من غير صلة ، ولا إبدال فيه للسوسي . وابن ذكوان بالهمز الساكن وكسر الهاء من غير صلة ، وعاصم وحمزة بترك الهمز وإسكان الهاء .

(193/565)

" أئن لنا " سهل الهمزة الثانية مع الإدخال قالون وأبو عمرو وأبو جعفر ، وسهلها من غير إدخال ورش وابن كثير ورويس ، وحققها مع الإدخال قولا واحدا هشام ، وحققها الباقون من غير إدخال ، وهذا من المواضع التي يدخل فيها هشام قولا واحدا .

" نعم " كسر العين الكسائي وفتحها غيره .

" هي " وقف يعقوب عليه بهاء السكت .

" تلقف " قرأ حفص بإسكان اللام وتخفيف القاف ؛ وغيره بفتح اللام وتشديد القاف ، وشدد البزي التاء وصلا وخففها غيره .

" آمنتم " قرأ نافع والمكي والبصري وأبو جعفر وابن عامر بتحقيق الأولى وتسهيل الثانية بين بين من غير إدخال . " لأحد منهم " وورش على أصله في البدل ، وليس له إبدال كما سبق

في الأعراف وقرأ شعبة والأخوان وخلف وروح بتحقيق الأولى والثانية ، وحفص ورويس بإسقاط الأولى وتحقيق الثانية ، ولا خلاف بينهم في إبدال الثالثة ألفا ، كما تقدم توضيحه في الأعراف وطه .

" المؤمنين " آخر الربع .

الممال

" طسم " أمال الطاء شعبة والأخوان وخلف . نادى فألقى معا بالإمالة للأصحاب ، والتقليل لورش بخلف عنه ، موسى الأربعة بالإمالة للأصحاب والتقليل للبصري وورش بخلف عنه ، الكافرين بالإمالة للبصري والدوري ورويس ، والتقليل لورش ، سحار بالإمالة للبصري والدوري والتقليل لورش ، للناس لدوري البصري ، جاء لابن ذكوان وخلف وحمزة ، خطايانا بإمالة الألف التي بعد الياء للكسائي ، وتقليلها لورش بخلف عنه .

المدغم

" الصغير " طسم بإدغام نون سين في الميم لسائر القراء إلا حمزة فبإظهارها .

" لبثت " للبصري والشامي والأخوين وأبي جعفر ، اتخذت لغير المكي وحفص ورويس .

" الكبير " قال رب كله ، رسول رب ، قال لمن ، قال ربكم ، قال لئن ، قال للملأ ، وقيل للناس

، قال لهم .

" السحرة ساجدين " آذن لكم ، يغفر لنا ، ولا إدغام في المبين لعلك لسكون ما قبل النون .

(194/565)

" أن أسر " قرأ المدنيان والمكي بوصل همزة أسر ، ويلزم من هذا كسر النون وصلا ، وإذا وقفوا على النون ابتدءوا بهمزة مكسورة والباقون بهمزة قطع مفتوحة في الحالين مع إسكان النون ، ومن وصل الهمزة رقق الراء وقفا ، ومن قطعها له في الراء الوجهان .

" بعبادى إنكم " فتح الياء المدنيان وأسكنها غيرهما .

" حاذرون " قرأ ابن ذكوان والكوفيون بألف بعد الحاء ، والباقون بحذفها .

" وعيون " كسر العين المكي وابن ذكوان وشعبة والأخوان ، وضمها غيرهم .

" معي ربى " فتح الياء حفص ، وأسكنها غيره .

" سيهدين " يهدين ويسقين ويشفين ويحيين وأطيعون ، كل ما في السورة جلي ليعقوب .

" فرق " فيه لجميع القراء وجهان صحيحان : الترقيق والتفخيم .

" ثم " وقف رويس عليه بهاء السكت .

" لهو " عليهم ، وقيل يغفر ، ينتصرون ، لا يخفى .

" نبأ إبراهيم " سهل الهمزة الثانية المدنيان والمكي والبصري ورويس وحققها غيرهم .

" أفرأيتم " سهل الثانية المدنيان ، ولورش إبدالها ألفا مع المد المشبع للساكنين في الحالين ، وحذفها الكسائي وحققها الباقون .

" عدو لي إلا ، لأبي إنه " فتح الياء فيهما المدنيان والبصري وأسكنها غيرهم .

" خطيئتي " وقف عليه حمزة بإبدال الهمزة ياء ، وإدغام الياء قبلها فيها .

" إن أجري إلا " أسكن الياء ابن كثير وشعبة ويعقوب والأخوان وخلف ، وفتحها الباقون وكذلك جميع ما في السورة .

" وأطيعون " آخر الربع .

الممال

(195/565)

موسى كله بالإمالة للأصحاب والتقليل للبصري وورش بخلف عنه ، أتى الله ، لدى الوقف على أتى بالإمالة للأصحاب والتقليل لورش بخلف عنه ، تراءا الجمعان ، أمال حمزة وخلف الراء في الحالين والهمزة حال الوقف مع تسهيل الهمزة لحمزة بالمد والقصر ، ولورش الفتح والتقليل في الهمزة . وبالنظر للبدل يكون له أربعة أوجه: قصر البدل مع الفتح ،

والتوسط مع التقليل ، والمد مع الفتح والتقليل . وللكسائي إمالة الهمزة وحدها على أصله من إمالة ذوات الياء ؛ وهذا بالنسبة للوقف لورش والكسائي . أما في حالة الوصل فليس لهما إلا فتح الراء والهمزة .

المدغم

" الصغير " إذ تدعون للبصري وهشام والأخوين وخلف ، واغفر لأبي للبصري بخلف عن الدوري .

" الكبير " قال لأبيه ، أن يغفر لي ، ورثة جنة ، وقيل لهم ، دون الله هل ، قال لهم .

" واتبعك " قرأ يعقوب بهمزة قطع مفتوحة وسكون التاء وألف بعد الباء الموحدة ورفع العين ، وغيره بوصل الهمزة وتشديد التاء مفتوحة وحذف الألف وفتح العين .

" إن أنا إلا " قرأ قالون بخلف عنه بإثبات ألف أنا وصلا فيصير عنده من باب المنفصل فله فيه المد والقصر والباقون بحذفها وهو الوجه الثاني لقالون ، واتفقوا على إثباتها وقفا .

" ومن معي من " فتح الياء حفص وورش وأسكنها غيرهما .

" وعيون " معا بيوتا ، وأطيعون ، أجري إلا ، عليهم ، جلي .

" إني أخاف " فتح الياء المدنيان والمكي والبصري وأسكنها غيرهم .

" خلق الأولين " قرأ نافع والشامي وعاصم وحمزة وخلف بضم الخاء واللام ، والباقون بفتح الخاء وإسكان اللام .

" فارهين " قرأ الشامي والكوفيون بألف بعد الفاء ، والباقون بحذفها .

" أصحاب الأيكة " قرأ المدنيان والمكي والشامي ليكة بلام مفتوحة من غير همز قبلها ولا بعدها ونصب التاء ، والباقون بإسكان اللام وهمزة وصل قبلها وهمزة مفتوحة بعدها وجر التاء ، وحمزة على أصله وصلا ووقفا .

" العالمين " آخر الربع .

الممال

جبارين : بالإمالة لدوري الكسائي ، وبالتقليل لورش بخلف عنه .

(196/565)

المدغم

" الصغير " " كذبت ثمود " للبصري والشامي والأخرين .

" الكبير " " أنؤمن لك " قال : رب قال لهم الثلاثة .

" بالقسطاس " كسر القاف حفص والأخوان وخلف ، وضمها غيرهم .

" كسفا " فتح السين حفص ، وأسكنها غيره .

" السماء إن " سهل قالون والبزي الأولى مع المد والقصر وأسقطها البصري مع القصر والمد

وسهل الثانية بين بين ورش وقنبل ورويس وأبو جعفر ، ولورش وقنبل إبدالها ألفا مع الإشباع للساكنين وحققهما الباقون .

" ربي أعلم " مثل: إني أخاف .

" نزل به الروح الأمين " قرأ المدنيان والمكي والبصري وحفص بتخفيف الزاي ورفع الحاء من الروح والنون من الأمين ، والباقون بتشديد الزاي ونصب الحاء والنون .

" أو لم يكن لهم آية " قرأ الشامي بتاء التأنيث في يكن ورفع التاء في آية ، والباقون بياء التذكير ونصب آية .

" علمؤا " رسمت الهمزة على واو في بعض المصاحف ومجردة في بعضها ، ولا يخفى حكم لوقف عليه .

" عليهم " أفرأيت ، منذرون ، عشيرتك ، كثيرا ظلموا ، لا يخفى .

" برئ " فيه لحمزة وهشام وقفا الإدغام مع السكون والإشمام والروم .

" وتوكل " قرأ المدنيان والشامي بالفاء ، وغيرهم بالواو .

" تنزل الشياطين " تنزل على ، شدد البزي التاء فيهما وصلا وخففها غيره ، ولا خلاف ، تخفيفها ابتداء بها .

" يتبعهم " قرأ نافع بإسكان التاء وفتح الباء ، وغيره بتشديد التاء مفتوحة وكسر الباء .

" ينقلبون " آخر السورة ، وآخر الربع .

الممال

الظلة: وآية للكسائي عند الوقف بلا خلاف ، جاءهم لابن ذكوان وخلف وحمزة ، أغنى بالإمالة للأصحاب والتقليل لورش بخلف عنه ، ذكرى ، ويراك بالإمالة للبصري والإصحاب والتقليل لورش .

المدغم

" الصغير " " هل نحن " للكسائي .

" الكبير " قال لهم ، خلقكم ، قال ربي ، أعلم بما ، لتنزيل رب ، العالمين نزل ، إنه هو . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البدور الزاهرة صـ 234 . 239 ﴾

(197/565)

فصل فى حجة القراءات فى السورة الكريمة

قال ابن خالويه :

من سورة الشعراء

قوله تعالى ﴿ طسم ﴾ يقرأ بالتفخيم والإمالة وبينهما وقد ذكرت علته في مريم

قوله سين ميم يقرأ بالإظهار والإدغام فالحجة لمن أدغم أنه أجراه على أصل ما يجب في

الإدغام عند الاتصال والحجة لمن أظهر أن حروف التهجي مبنية على قطع بعضها من بعض فكأن الناطق بها واقف عند تمام كل حرف منها

قوله تعالى ﴿ إن معي ربي ﴾ يقرأ بفتح الياء وإسكانها فالحجة لمن فتحها أنها اسم على حرف واحد اتصلت بكلمة على حرفين فقويت بالحركة والحجة لمن أسكن أنه خفف لأن حركة الياء ثقيلة

قوله تعالى ﴿ لجميع حاذرون ﴾ يقرأ بإثبات الألف وحذفها فالحجة لمن أثبت أنه أتى به على أصل ما أوجبه القياس في اسم الفاعل كقولك علم فهو عالم والحجة لمن حذف الألف أنه قد جاء اسم الفاعل على فعل كقولك حذر ونحر وعجل وقد فرق بينهما بعض أهل العربية فقيل رجل حاذر فيما يستقبل لا في وقته ورجل حذر إذا كان الحذر لازما له كالخلقة

قوله تعالى ﴿ فلما تراءى الجمعان ﴾ الخلف في الوقف عليه فوقف حمزة

تري بكسر الراء ومد قليل لأن من شرطه حذف الهمز في الوقف فكان المد إشارة إليها ودلالة عليها

ووقف الكسائي بالإمالة والتمام

ووقف الباقون بالتفخيم والتمام على الأصل فإن كانت الهمزة للتأنيث أشير إليها في موضع الرفع وحذفت في موضع النصب

قوله تعالى ﴿ إلا خلق الأولين ﴾ يقرأ بفتح الخاء وضمها فالحجة لمن فتح أنه أراد المصدر من قولهم خلق واختلق بمعنى كذب والحجة لمن ضم أنه أراد عادة الأولين ممن تقدم

قوله تعالى ﴿ فارهين ﴾ يقرأ بإثبات الألف وحذفها فالحجة لمن أثبتها أنه أراد حاذقين بما يعملونه والحجة لمن حذفها أنه أراد أشرين بطرين

(198/565)

قوله تعالى ﴿ نزل به الروح الأمين ﴾ يقرأ بالتشديد ونصب الروح وبالتخفيف والرفع فالحجة لمن شدد أنه جعل الفعل لله عز وجل ودليله قوله ﴿ وإنه لتنزيل رب العالمين ﴾ والحجة لمن خفف أنه جعل الفعل لجبريل عليه السلام فرفعه بفعله فأما قوله ﴿ فإنه نزله على قلبك بإذن الله ﴾ فالتشديد لا غير لاتصال الهاء باللام وحذف الباء

قوله تعالى ﴿ أو لم يكن لهم آية ﴾ يقرأ بالياء والنصب وبالتاء والرفع فالحجة لمن رفع الآية أنه جعلها اسم كان والخبر أن يعلمه والحجة لمن نصب أنه جعل الآية الخبر والاسم أن يعلمه لأنه بمعنى علم علماء بني إسرائيل فهو أولى بالاسم لأنه معرفة والآية نكرة وهذا من شرط كان إذا اجتمع فيها معرفة ونكرة كانت المعرفة بالاسم أولى من النكرة

ومعنى الآية أولم يكن علم علماء بني إسرائيل لمحمد عليه السلام في الكتب المنزلة إلى

الأنبياء قبله أنه نبي آية بينة ودلالة ظاهرة ولكن لما جاءهم ما كانوا يعرفون كفروا به على عمد لتأكد الحجة عليهم

قوله تعالى ﴿ وتوكل على العزيز ﴾ يقرأ بالفاء والواو على حسب ما ثبت في السواد فالحجة لمن قرأ بالفاء أنه جعله جوابا لقوله تعالى ﴿ فإن عصوك ﴾ فتوكل والحجة لمن قرأه بالواو أنه جعل الجواب في قوله فقل ثم ابتدأ قوله وتوكل بالواو مستأنفا ومعنى التوكل قطع جميع الآمال إلا منه وإزالة الرغبة عن كل إلا عنه

قوله تعالى ﴿ يتبعهم الغاوون ﴾

يقرأ بتشديد التاء وفتحها وبالتخفيف وإسكانها وقد تقدم من القول في علل ذلك ما يغني عن إعادته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الحجة فى القراءات السبعة صـ 267 . 269 ﴾

(199/565)

وقال ابن زنجلة :

سورة الشعراء

طسم 1

قرأ حمزة والكسائي وابو بكر طسم بكسر الطاء وحجتهم صحة الخبر عن رسول الله

صلى الله عليه أنه أمال طه فأجروا طسم مجراها إذ هي هي

وقرأ الباقون بفتح الطاء وحجتهم أنها من الحروف المناعة لأنك لا تقول في طالب طالب كا أنك لا تقول في ظالم ظالم

قرأ حمزة وإسماعيل عن نافع بإظهار النون عند الميم ها هنا وفي القصص وحجتهما أن حروف الهجاء في تقدير الانفصال والانقطاع مما بعدها فإذا كان ذلك كذلك وجب تبيين النون عند الميم

وقرأ الباقون بإخفاء النون عند الميم وحجتهم في ذلك أن همزة الوصل قد وصلت ولم تقطع في قوله آلم الله اله فلما سقطت همزة

الوصل وهي لا تسقط إلا في الدرج مع هذه الحروف فكذلك لا تتبين النون عند الميم

فألقى موسى عصاه فإذا هي تلقف ما يأفكون 45

قرأ حفص تلقف من لقف يلقف وقرأ الباقون بالتشديد من تلقف يتلقف والأصل تتلقف فحذفوا إحدى التاءين قرأ البزي فإذا هي تلقف بتشديد التاء أدغم التاء في التاء

أن أسر بعبادي 52

أن أسر قد ذكرنا في هود

وإنا لجميع حذرون 56

قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وإنا لجميع حذرون بغير ألف

وقرأ الباقون حاذرون بالألف أي مؤدون مقوون أي ذوو أداة و ذوو سلاح و قوة

فالحاذر المستعد والحذر المتيقظ أي قد أخذنا حذرنا وتأهبنا وقال 4 الحاذر الذي يحذر الآن والحذر المخلوق حذرا لا تلقاه إلا حذرا حذرا وكان الكسائي يقول أصلهما واحد من الحذر

لأن المتسلح إنما يتسلح مخافة القتل والعرب تقول هو حاذر وحذر أي قد أخذ حذره

إن هذا إلا خلق الأولين 137

قرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي إن هذا إلا خلق الأولين بفتح الخاء وسكون اللام وقرأ الباقون خلق بضم الخاء واللام

(200/565)

ومن قرأ خلق الأولين بالفتح فمعناه اختلاقهم وكذبهم كأنهم قالوا لهود عليه السلام ما هذا الذي أتيتنا به إلا كذب الأولين وأحاديثهم قال ابن عباس إن هذا إلا خلق الأولين أي كذب الأولين وفيه وجه آخر قاله قتادة قوله خلق الأولين قالوا هكذا كان الناس يعيشون ما عاشوا ثم يموتون قال الزجاج المعنى خلقنا كما خلق من كان قبلنا نحيا كما حيوا ونموت كما ماتوا ولا نبعث لأنهم أنكروا البعث

ومن قرأ خلق الأولين فمعناه عادة الأولين أي ما هذا الذي نفعله نحن إلا عادة الأولين من قبلنا والمختار ضم الخاء لأن هودا صلى الله عليه لما وعظهم وحذرهم وأنذرهم وقال لهم إني أخاف عليكم عذاب ويوم عظيم ردوا عليه وعظه وقالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين إن هذا إلا خلق الأولين يريدون ما هذا الذي نحن عليه إلا عادة الأولين وما نحن بمعذبين 138

وتنحتون من الجبال بيوتا فرهين 149

قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو فرهين بغير ألف أي أشرين بطرين من خير وقال مجاهد معجبين بصنعتكم وعن الحسن آمنين

وقرأ الباقون فارهين أي حاذقين بنحتها قال الفراء هما لغتان مثل طمع وطامع

كذب أصحب لئيكة المرسلين 176

قرأ نافع وابن كثير وابن عامر كذب أصحاب ليكة مفتوحة اللام والتاء وفي ص مثلها جاء في التفسير ان اسم المدينة كان ليكة فلم يصرفوها للتأنيث والتعريف وحجتهم أنهما كتبتا في المصاحف بغير همز وقرأ الباقون الأيكة ساكنة اللام مكسورة التاء والأيكة الشجر الملتف وحجتهم ما ذكر في التفسير جاء أن أصحاب الأيكة هؤلاء كانوا أصحاب شجر ملتف ويقال إن شجرهم هو الدوم والدوم شجر المقل

وزنوا بالقسطاس المستقيم 182

بالقسطاس قد ذكرنا في سورة سبحان

فأسقط علينا كسفا من السماء إن كنت من الصادقين 187

قرأ حفص كسفا من السماء بتحريك السين أي قطعا من السماء جمع كسفة وكسف مثل كسرة وكسر والفرق بين واحده وجمعه إسقاط الهاء

(201/565)

وقرأ الباقون كسفا ساكنة السين أي جانبا من السماء وقد ذكرنا في سورة سبحان

نزل به الروح الأمين 193

قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وحفص نزل بالتخفيف الروح الأمين بالرفع أي جاء به جبريل عليه السلام وحجتهم قوله قل نزله روح القدس من ربك وقوله فإنه نزله على قلبك بإذن الله فلما كان في هذين الموضعين جبرائيل هو الفاعل بإجماع ردوا ما اختلفوا فيه إلى ما أجمعوا عليه والباء للتعدية كما أن التشديد في قوله نزله للتعدية

وقرأ الباقون نزل به بالتشديد الروح الأمين بالنصب المعنى نزل الله به الروح الأمين وحجتهم أن ذلك أتى عقيب الخبر عن تنزيل القرآن وهو قوله وإنه لتنزيل رب العالمين 192 و التنزيل مصدر نزل بالتشديد فكأن قوله نزل به الروح الأمين كان مردودا على ما تقدمه من ذكر الله

تعالى ليكون آخر الكلام منظوما على لفظ أوله إذ كان على سياقه

أولم يكن لهم ءاية أن يعلمه علمؤ بني إسراءيل 197

قرأ ابن عامر أو لم تكن بالتاء لهم آية بالرفع جعلها اسم تكون وخبر تكن أن يعلمه لأن أن مع الفعل مصدر والتقدير أو لم تكن لهم آية معجزة ودلالة ظاهرة في علم بني إسرائيل بمحمد صلى الله عليه و سلم في الكتب إلى الأنبياء قبله أنه نبي وأن القرآن من عند الله ولكنهم لما جاءهم ما عرفوا كفروا به على بصيرة

وقرأ الباقون أولم يكن بالياء آية بالنصب جعلوا الآية خبر كان واسم كان أن يعلمه كأن المعنى أو لم يكن لهم علم بني إسرائيل أن النبي صلى الله عليه حق وأن نبوته حق آية أي علامة موضحة لأن العلماء الذين آمنوا من بني إسرائيل وجدوا ذكر النبي صلى الله عليه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل كما قال جل وعز

وتوكل على العزيز الرحيم 217

قرأ نافع وابن عامر فتوكل على العزيز الرحيم بالفاء كذا في مصاحفهما

وقرأ الباقون بالواو وحجتهم أنها مكتوبة في مصاحف أهل العراق بالواو والشعراء يتبعهم الغاوون 224

قرأ نافع والشعراء يتبعهم الغاوون بالتخفيف من تبع يتبع

وقرأ الباقون يتبعه بالتشديد من اتبع يتبع فتبعه سار في أثره واتبعه لحقه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ حجة القراءات صـ 522.516 ﴾

(202/565)

فصل

قال الإمام أبو عمرو الداني :

سورة الشعراء 26

مكية إلا أربع آيات وهن قوله تعالى (﴿ والشعراء يتبعهم الغاوون ﴾) إلى آخر السورة

نزلت بالمدينة في حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة شعراء رسول الله

هذا قول ابن عباس وعطاء ولا نظير لها في عددها

وكلمها ألف ومئتان وسبع وتسعون كلمة

وحروفها خمسة آلاف وخمس مئة واثنان وأربعون حرفا

وهي مئتان وست وعشرون آية في المدني الأخير والمكي والبصري وسبع وعشرون في

المدني الأول والكوفي والشامي

اختلافها أربع آيات (﴿ طسم ﴾) عدها الكوفي ولم يعدها الباقون (﴿ فلسوف تعلمون

﴾) لم يعدها الكوفي وعدها الباقون (﴿ أين ما كنتم تعبدون ﴾) بعده (﴿ من دون الله ﴾) وهو الثالث لم يعدها البصري وعدها الباقون وكلهم عد (ما تعبدون) و (﴿ ما كنتم تعبدون ﴾ وما تنزلت به الشياطين) وهو الأول لم يعدها المدني الأخير والمكي وعدها الباقون وأجمعوا على عد (﴿ على من تنزل الشياطين ﴾) وهو الثاني وفيها مما يشبه الفواصل وليس معدودا بإجماع موضع واحد وهو قوله تعالى (﴿ ألم نربك فينا وليدا ﴾)

(203/565)

ورؤوس الآي

المبين

2 مؤمنين

3 خاضعين

4 معرضين

5 يستهزئون

6 كريم

7 مؤمنين

8 الرحيم

9 الظالمين

10 يتقون

11 يكذبون

12 هارون

13 يقتلون

14 مستمعون

15 العالمين

16 بني إسرائيل

17 سنين

18 الكافرين

19 الضالين

20 المرسلين

21 بني إسرائيل

22 العالمين

23 موقنين

24 تستمعون

25 الأولين

26 لمجنون

27 تعقلون

28 المسجونين

29 مبين

30 الصادقين

31 مبين

32 للناظرين

33 عليم

34 تأمرون

35 حاشرين

36 عليم

37 معلوم

38 مجتمعون

39 الغالبين

40 الغالبين

41 المقربين

42 ملقون

43 الغالبون

44 يأفكون

45 ساجدين

46 العالمين

47 وهارون

48 تعلمون

* أجمعين

49 منقلبون

50 المؤمنين

51 متبعون

52 حاشرين

53 قليلون

54 لغائظون

55 حاذرون

56 وعيون

57 كريم

58 بني إسرائيل

59 مشرقين

60 لمدركون

61 سيهدين

62 العظيم

63 الآخرين

64 أجمعين

65 الآخرين

66 مؤمنين

67 الرحيم

68 إبراهيم

69 ما تعبدون

70 عاكفين

71 إذ تدعون

72 أو يضرون

73 يفعلون

74 تعبدون

75 الأقدمون

76 العالمين

77 يهدين

78 ويسقين

79 يشفين

80 ثم يحيين

81 الدين

82 بالصالحين

83 الآخرين

84 النعيم

85 الضالين

86 يبعثون

87 ولا بنون

88 سليم

89 للمتقين

90 للغاوين

91 تعبدون

92 ينتصرون

93 والغاوون

94 أجمعون

95 يختصمون

96 مبين

97 العالمين

98 المجرمون

99 شافعين

100 حميم

101 المؤمنين

102 مؤمنين

103 الرحيم

104 المرسلين

105 تتقون

106 أمين

107 وأطيعون

108 العالمين

109 وأطيعون

110 الأرذلون

111 يعملون

112 تشعرون

113 المؤمنين

114 مبين

115

المرجومين

116 كذبون

117 المؤمنين

118 المشحون

119 الباقين

120 مؤمنين

121 الرحيم

122 المرسلين

123 تتقون

124 أمين

125 وأطيعون

126 العالمين

127 تعبثون

128 تخلدون

129 جبارين

130 وأطيعون

131 تعلمون

132 وبنين

133 وعيون

134 عظيم

135 الواعظين

136 الأولين

137 بمعذبين

138 مؤمنين

139 الرحيم

140 المرسلين

141 تتقون

142 أمين

143 وأطيعون

144 العالمين

145 آمنين

146 وعيون

147 هضيم

148 فارهين

149 وأطيعون

150 المسرفين

151 ولا يصلحون

152 المسحرين

153 الصادقين

154 معلوم

155 عظيم

156 نادمين

157 مؤمنين

158 الرحيم

159 المرسلين

160 تتقون

161 أمين

162 وأطيعون

163 العالمين

164 العالمين

165 عادون

166 المخرجين

167 القالين

168 يعملون

169 أجمعين

170 الغابرين

171 الآخرين

172 المنذرين

173 مؤمنين

174 الرحيم

175 المرسلين

176 تتقون

177 أمين

178 وأطيعون

179 العالمين

180 المخسرين

181 المستقيم

182 مفسدين

183 الأولين

184 المسحرين

185 الكاذبين

186 الصادقين

187 تعملون

188 عظيم

189 مؤمنين

190 الرحيم

191 العالمين

192 الأمين

193 المنذرين

194 مبين

195 الأولين

196 بني إسرائيل

197 الأعجمين

198 مؤمنين

199 المجرمين

200 الأليم

201 لا يشعرون

202 منظرون

203 يستعجلون

204 سنين

205 يوعدون

206 يمتعون

207 منذرون

208 ظالمين

209 يستطيعون

211 لمعزولون

212 المعذبين

213 الأقربين

214 المؤمنين

215 تعملون

216 الرحيم

217 تقوم

218 الساجدين

219 العليم

220 الشياطين

221 أثيم

222 كاذبون

223 الغاوون

224 يهيمون

225 لا يفعلون

226 ينقلبون

227 . انتهى انتهى . اهـ ﴿البيان فى عد آى القرآن صـ 196 . 198﴾

فصل فى إعراب جميع آيات السورة الكريمة

قال الإمام أبو البقاء العكبرى :

سورة الشعراء

بسم الله الرحمن الرحيم .

(طسم) مثل الم ، وقد ذكر في أول البقرة ، (تلك آيات الكتاب) مثل ذلك الكتاب ، و (أن لا يكونوا) مفعول له: أي لئلا أو مخافة أن لا .

قوله تعالى (فظلت) أي فتظل وموضعه جزم عطفا على جواب الشرط ، ويجوز أن يكون رفعا على الاستئناف .

قوله تعالى (خاضعين) إنما جمع جمع المذكر لأربعة أوجه: أحدها أن المراد بالأعناق عظماؤكم .

والثانى أنه أراد أصحاب أعناقهم .

والثالث أنه جمع عنق من الناس وهم الجماعة ، وليس المراد الرقاب .

والرابع أنه لما أضاف الأعناق إلى المذكر وكانت متصلة بهم في الخلقة أجرى عليها

حكمهم .

وقال الكسائي : خاضعين هو حال للضمير المجرور لا للأعناق ، وهذا بعيد في التحقيق لان خاضعين يكون جاريا على غير فاعل ظلت ، فيفتقر إلى إبراز ضمير الفاعل ، فكان يجب أن يكون هم خاضعين .

قوله تعالى (كم) في موضع نصب ب (أنبتنا) و (من كل) تمييز ، ويجوز أن يكون حالا .

قوله تعالى (وإذ نادى) أي واذكر إذ نادى ، و (أن ائت) مصدرية أو بمعنى أي .

قوله تعالى (قوم) هو بدل مما قبله (ألا يتقون) يقرأ بالياء على الاستئناف وبالتاء على الخطاب ، والتقدير : يا قوم فرعون .

وقيل هو مفعول يتقون .

قوله تعالى (ويضيق صدري) بالرفع على الاستئناف : أي وأنا يضيق صدري بالتكذيب .

وبالنصب عطفا على المنصوب قبله ، وكذلك (ينطلق فأرسل إلى هارون) أي ملكا يعلمه أنه عضدي أو نبى معى .

قوله تعالى (إنا رسول رب العالمين) في إفراده أوجه : أحدها هو مصدر كالرسالة : أي ذوا رسول ، وأنا رسالة على المبالغة .

والثانى أنه اكتفى بأحدهما إذا كانا على أمر واحد .

والثالث أن موسى عليه السلام كان هو الأصل وهارون تبع فذكر الأصل .

قوله تعالى (من عمرك) في موضع الحال من (سنين) و (فعلتك) بالفتح ، وقرئ بالكسر : أي المألوفة منك .

(206/565)

قوله تعالى (وتلك) ألف الاستفهام محذوف: أي أو تلك ، و (تمنها) في موضع رفع صفة لنعمة ، وحرف الجر محذوف ، أي بها ، وقيل حمل على تذكر أو تعدوا (أن عبدت) بدل من نعمة ، أو على إضمار هي ، أو من الهاء في تمنها أو في موضع جر بتقدير الباء : أي بأن عبدت .

قوله تعالى (وما رب العالمين) إنما جاء بما لأنه سأل عن صفاته وأفعاله: أي ما صفته وما أفعاله ، ولو أراد العين لقال من ، ولذلك أجابه موسى عليه السلام بقوله (رب السموات) وقيل جهل حقيقة السؤال فجاء موسى بحقيقة الجواب .

قوله تعالى (للملا حوله) حال من الملا: أي كائنين حوله .

وقال الكوفيون الموصوف محذوف: أي الذين حوله ، وهنا مسائل كثيرة ذكرت في الأعراف وطه .

قوله تعالى (بعزة فرعون) أي نحلف .

قوله تعالى (أن كنا) لأن كنا .

قوله تعالى (قليلون) جمع على المعنى لأن الشرذمة جماعة ، و (حذرون) بغير ألف .

وبالألف لغتان ، وقيل الحاذر بالألف المتسلح ، ويقرأ بالدال ، والحاذر القوى والممتلئ أيضا من الغيظ أو الخوف .

قوله تعالى (كذلك) أي إخراجا كذلك .

قوله تعالى (مشرقين) حال ، والمشرق: الذى دخل عليه الشروق .

قوله تعالى (لمدركون) بالتخفيف والتشديد ، يقال: أدركته وادركته .

قوله تعالى (وأزلفنا) بالفاء : أي قربنا ، والإشارة إلى أصحاب موسى ، ويقرأ شاذا بالقاف: أي صيرنا قوم فرعون إلى مزلفة .

قوله تعالى (إذ قال) العامل في إذ نبأ .

قوله تعالى (هل يسمعونكم) يقرأ بفتح الياء والميم: أي يسمعون دعاءكم فحذف المضاف لدلالة (تدعون) عليه ، ويقرأ بضم الياء وكسر الميم: أي يسمعونكم جواب دعائكم إياهم .

قوله تعالى (كذلك) منصوب ب (يفعلون) قوله تعالى (فإنهم عدو لى) أفرد على النسب: أي ذوو عداوة ، ولذلك يقال في المؤنث هي عدو ، كما يقال حائض ، وقد سمع عدوة (إلا رب

العالمين) فيه وجهان: أحدهما هو استثناء من غير الجنس لأنه لم يدخل تحت الأعداء .

والثانى هو من الجنس لأن آباءهم قد كان منهم من يعبد الله وغير الله ، والله أعلم .

(207/565)

قوله تعالى (الذى خلقني) الذى مبتدأ ، و (فهو) مبتدأ ثان ، و (يهدين) خبره ، والجملة خبر الذى ، وأما ما بعدها من الذى فصفات للذى الأولى ، ويجوز إدخال الواو في الصفات ، وقيل المعطوف مبتدأ وخبره محذوف استغناء بخبر الأول .

قوله تعالى (واجعلني من ورثة) أي وارثا من ورثة ، فمن متعلقة بمحذوف .

قوله تعالى (يوم لا ينفع) هو بدل من يوم الأول .

قوله تعالى (إلا من أتى الله) فيه وجهان: أحدهما هو من غير الجنس: أي لكن من أتى الله يسلم أو ينتفع .

والثانى أنه متصل .

وفيه وجهان ، أحدهما هو في موضع نصب بدلا من المحذوف أو استثناء منه ، والتقدير: لا ينفع مال ولا بنون أحدا إلا من أتى .

والمعنى أن المال إذا صرف في وجوه البر والبنين الصالحين ينتفع بهم من نسب إليهم وإلى

صلاحهم .

والوجه الثاني هو في موضع رفع على البدل من فاعل ينفع : وغلب من يعقل ، ويكون التقدير : إلا من مال من أو بنو من فإنه ينفع نفسه أو غيره بالشفاعة .

وقال الزمخشري : يجوز أن يكون مفعول ينفع أي ينفع ذلك إلا رجلا أتى الله .

قوله تعالى (إذ نسويكم) يجوز أن يكون العامل فيه مبين أو فعل محذوف دل عليه ضلال ، ولا يجوز أن يعمل فيه ضلال لأنه قد وصف .

قوله تعالى (فنكون) هو معطوف على كرة : أي لو أن لنا أن نكر فنكون : أي فأن نكون .

قوله تعالى (واتبعك) الواو للحال ، وقرئ شاذا " وأتباعك " على الجمع .

وفيه وجهان : أحدهما هو مبتدأ ، وما بعده الخبر والجملة حال .

والثانى هو معطوف على ضمير الفاعل في نؤمن ، و (الأرذلون) صفة : أي أنستوى نحن وهم .

قوله تعالى (فتحا) يجوز أن يكون مصدرا مؤكدا ، وأن يكون مفعولا به ، ويكون الفتح بمعنى المفتوح كما قالوا هذا من فتوح عمر .

قوله تعالى (أتبعثون) هو حال من الضمير في تبنون ، و (تخلدون) على تسمية الفاعل والتخفيف ، وعلى ترك التسمية والتشديد والتخفيف ، والماضي خلد وأخلد .

قوله تعالى (أمدكم بأنعام) هذه الجملة مفسرة لما قبلها ، ولا موضع لها من الإعراب .

قوله تعالى (أم لم تكن من الواعظين) هذه الجملة وقعت موقع أم لم تعظ (إن هذا إلا خلق) بفتح الخاء وإسكان اللام: أي افتراء الأولين: أي مثل افترائهم ، ويجوز أن يراد به الناس: أي هل نحن وأنت إلا مثل من تقدم في دعوى الرسالة والتكذيب ، وإنا نموت ولا نعاد ، ويقرأ بضمتين: أي عادة الأولين .

قوله تعالى (في جنات) هو بدل من قوله " فيما هاهنا " بإعادة الجار .

قوله تعالى (فرهين) هو حال ، ويقرأ " فارهين " بالألف وهما لغتان .

قوله تعالى (من القالين) أي لقال من القالين ، فمن صفة للخبر متعلقة بمحذوف واللام متعلقة بالخبر المحذوف ، وبهذا تخلص من تقديم الصلة على الموصول ، إذ لو جعلت من القائلين الخبر لأعملته في لعملكم .

قوله تعالى (أصحاب الايكة) يقرأ بكسر التاء مع تحقيق الهمزة ، وتخفيفها بالإلقاء وهو مثل الانثى والأنثى: وقرئ " ليكة " بياء بعد اللام وفتح التاء ، وهذا لا يستقيم إذ ليس في الكلام ليكة حتى يجعل علما ، فإن ادعى قلب الهمزة لاما فهو في غاية البعد .

قوله تعالى (والجبلة) يقرأ بكسر الجيم والباء وضمها مع التشديد وهما لغتان .

قوله تعالى (وإنه) الهاء ضمير القرآن ، ولم يجر له ذكر ، والتنزيل بمعنى المنزل (نزل به) يقرأ على تسمية الفاعل ، وهو (الروح الأمين) وعلى ترك التسمية والتشديد ، ويقرأ بتسمية الفاعل والتشديد ، والروح بالنصب: أي أنزل الله جبريل بالقرآن ، وبه حال .

قوله تعالى (بلسان) يجوز أن تتعلق الباء بالمنذرين ، وأن تكون بدلا من به: أي نزل بلسان عربي: أي برسالة ، أو لغة .

قوله تعالى (أو لم تكن) يقرأ بالتاء: وفيها وجهان: أحدهما هي التامة ، والفاعل (آية) و (أن يعلمه) بدل ، أو خبر مبتدإ محذوف: أي أو لم تحصل لهم آية .

والثانى هي ناقصة: وفي اسمها وجهان: أحدهما ضمير القصة ، وأن يعلمه مبتدأ ، وآية خبر مقدم ، والجملة خبر كان .

والثانى أسمها آية ، وفي الخبر وجهان: أحدهما لهم ، وأن يعلمه بدل أو خبر مبتدإ محذوف .

(209/565)

والثانى أن يعلمه ، وجاز أن يكون الخبر معرفة ، لأن تنكير المصدر وتعريفه سواء ، وقد تخصصت آية ب " لهم " ولأن علم بنى إسرائيل لم يقصد به معين ، ويقرأ بالياء فيجوز أن

يكون مثل الباء ، لأن التأنيث غير حقيقي ، وقد قرئ على الياء آية بالنصب على أنه خبر مقدم .

قوله تعالى (الأعجمين) أي الأعجميين ، فحذف ياء النسبة كما قالوا الأشعرون أي الأشعريون ، وواحده أعجمى ، ولا يجوز أن يكون جمع أعجم لأن مؤنثه عجماء ومثل هذا لا يجمع جمع التصحيح .

قوله تعالى (سلكناه) قد ذكر مثله في الحجر ، والله أعلم .

قوله تعالى (فيأتيهم .

فيقولوا) هما معطوفان على يروا .

قوله تعالى (ما أغنى عنهم) يجوز أن يكون استفهاما ، فيكون " ما " في موضع نصب ، وأن يكون نفيا ، أي ما أغنى عنهم شيئا .

قوله تعالى (ذكرى) يجوز أن يكون مفعولا له ، وأن يكون خبر مبتدإ محذوف إى الإنذار ذكرى .

قوله تعالى (يلقون) هو حال من الفاعل في " تنزل " .

قوله تعالى (يهيمون) يجوز أن يكون خبر إن فيعمل في كل واد ، وأن يكون حالا فيكون الخبر في كل واد .

قوله تعالى (أي منقلب) هو صفة لمصدر محذوف ، والعامل (ينقلبون) أي ينقلبون انقلابا :

أي منقلب ، ولا يعمل فيه يعلم لأن الاستفهام لا يعمل فيه ما قبله ، والله أعلم . انتهى انتهى .

ا هـ ﴿ إملاء ما من به الرحمن حـ 2 صـ 166.170 ﴾

(210/565)

وقال الشيخ : حميدان دعاس :

سورة الشعراء

[سورة الشعراء (26) : الآيات 1 الى 5]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

طسم (1) تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْمُبِينِ (2) لَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (3) إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّماءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْناقُهُمْ لَها خاضِعِينَ (4)

وَما يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ (5)

"طسم" لا محل لها من الإعراب "تِلْكَ" مبتدأ "آياتُ" خبر "الْكِتابِ" مضاف إليه "الْمُبِينِ" صفة والجملة ابتدائية "لَعَلَّكَ باخِعٌ" لعل واسمها وخبرها "نَفْسَكَ" مفعول به لباخع "أَلَّا" أن ناصبة ولا نافية "يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ" مضارع ناقص واسمه وخبره وأن وما بعدها في تأويل مصدر مفعول لأجله "إِنْ" حرف شرط جازم "نَشَأْ" فعل الشرط والجملة ابتدائية "نُنَزِّلْ"

جواب الشرط "عَلَيْهِمْ" متعلقان بننزل "مِنَ السَّماءِ" متعلقان بحال محذوفة "آيَةً" مفعول به والجملة لا محل لها لأنها جواب شرط غير مقترنة بالفاء "فَظَلَّتْ أَعْناقُهُمْ لَها خاضِعِينَ" ظل واسمها وخبرها والهاء مضاف إليه والجار والمجرور متعلقان بخاضعين والجملة معطوفة "وَما" الواو عاطفة والجملة بعدها معطوفة على ما قبلها وما نافية "يَأْتِيهِمْ" فعل مضارع والهاء مفعول به مقدم "مِنْ" حرف جر زائد "ذِكْرٍ" اسم مجرور لفظا مرفوع محلا فاعل يأتيهم "مِنَ الرَّحْمنِ" متعلقان بصفة لذكر "مُحْدَثٍ" صفة لذكر "إِلَّا" أداة حصر "كانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ" كان والواو اسمها ومعرضين خبرها والجار والمجرور متعلقان بمعرضين والجملة حالية.

[سورة الشعراء (26) : الآيات 6 الى 9]

(211/565)

فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبؤُا ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (6) أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (7) إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (8) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (9)

"فَقَدْ" الفاء استئنافية وقد حرف تحقيق "كَذَّبُوا" الجملة مستأنفة "فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبؤُا"

مضارع ومفعول به مقدم وفاعل "ما" اسم موصول مضاف إليه "كانُوا" كان واسمها "بِهِ" متعلقان بيستهزئون "يَسْتَهْزِؤُنَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة خبر وجملة كانوا يستهزئون صلة "أَوَلَمْ" الهمزة للاستفهام والواو استئنافية ولم جازمة "يَرَوْا" مضارع مجزوم بحذف النون والواو فاعل "إِلَى الْأَرْضِ" متعلقان بيروا "كَمْ" اسم استفهام في محل نصب مفعول به مقدم والجملة مستأنفة "أَنْبَتْنا" ماض وفاعل والجملة سدت مسد مفعولي يروا "فِيها" متعلقان بأنبتنا "مِنْ كُلِّ" متعلقان بحال محذوفة "زَوْجٍ" مضاف إليه "كَرِيمٍ" صفة "إِنَّ" حرف مشبه بالفعل "فِي ذلِكَ" متعلقان بالخبر المقدم "لَآيَةً" اللام المزحلقة وآية اسم إن والجملة مستأنفة "وَما" الواو حالية وما نافية "كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ" كان واسمها وخبرها والهاء مضاف إليه والجملة حالية "وَإِنَّ رَبَّكَ" الواو استئنافية وإن واسمها والكاف مضاف إليه "لَهُوَ" اللام المزحلقة "هو" مبتدأ "الْعَزِيزُ" خبر هو والجملة خبر إن "الرَّحِيمُ" خبر ثان والجملة مستأنفة.

[سورة الشعراء (26) : الآيات 10 الى 14]

(212/565)

وَإِذْ نادى رَبُّكَ مُوسى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (10) قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلا يَتَّقُونَ (11) قالَ رَبِّ إِنِّي أَخافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (12) وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلا يَنْطَلِقُ لِسانِي فَأَرْسِلْ إِلى هارُونَ (13) وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (14)

"وَإِذْ" الواو استئنافية وإذ ظرف متعلق بفعل محذوف تقديره اذكر "نادى رَبُّكَ مُوسى" ماض وفاعل ومفعول به والجملة مضاف إليه "أَنِ" مفسرة "ائْتِ" أمر مبني على حذف حرف العلة وفاعله مستتر "الْقَوْمَ" مفعول به "الظَّالِمِينَ" صفة والجملة لا محل لها لأنها مفسرة و"قَوْمَ" بدل من القوم السابقة "فِرْعَوْنَ" مضاف إليه منصوب بالفتحة نيابة عن الكسرة لأنه ممنوع من الصرف "أَلا" حرف عرض "يَتَّقُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة مستأنفة "قالَ" الجملة مستأنفة "رَبِّ" منادى مضاف بأداة محذوفة والجملة التي بعدها مقول القول "إِنِّي" إن واسمها "أَخافُ" الجملة خبر إن "أَنْ" ناصبة "يُكَذِّبُونِ" مضارع منصوب وعلامة نصبه حذف النون والنون للوقاية وحذفت ياء المتكلم لمراعاة الفواصل "وَيَضِيقُ صَدْرِي" مضارع وفاعله والياء مضاف إليه والجملة معطوفة "وَلا يَنْطَلِقُ لِسانِي" الجملة معطوفة على ما قبلها "فَأَرْسِلْ" الفاء الفصيحة وأرسل فعل دعاء فاعله مستتر "إِلى هارُونَ" متعلقان بالفعل "وَلَهُمْ" الواو استئنافية ولهم متعلقان بالخبر المقدم "عَلَيَّ" متعلقان بالخبر المقدم "ذَنْبٌ" مبتدأ مؤخر والجملة مستأنفة "فَأَخافُ" الجملة معطوفة "أَنْ" ناصبة "يَقْتُلُونِ" مضارع منصوب بحذف النون والنون للوقاية والياء المحذوفة

مفعول به والجملة مفعول به .

[سورة الشعراء (26) : الآيات 15 الى 18]

(213/565)

قالَ كَلاَّ فَاذْهَبا بِآياتِنا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ (15) فَأْتِيا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعالَمِينَ (16) أَنْ أَرْسِلْ مَعَنا بَنِي إِسْرائِيلَ (17) قالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (18)

"قالَ" الجملة مستأنفة "كَلَّا" حرف ردع "فَاذْهَبا" الفاء عاطفة عطفت على الجملة المحذوفة وفعل أمر والألف فاعله "بِآياتِنا" متعلقان باذهبا ونا مضاف إليه "إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ" إن حرف مشبه بالفعل ونا اسمها ومعكما ظرف متعلق بمستمعون ومستمعون خبر إن مرفوع بالواو لأنه جمع مذكر سالم والجملة مقول القول "أْتِيا"

الفاء عاطفة وفعل أمر مبني على حذف النون والألف فاعل والجملة معطوفة "فِرْعَوْنَ"

مفعول به "قُولا"

أمر مبني على حذف النون والألف فاعله "نَّا رَسُولُ"

إن واسمها وخبرها "بِّ"

مضاف إليه لْعالَمِينَ"

مضاف إليه مجرور بالياء لأنه ملحق بجمع المذكر السالم والجملة مقول القول "أَنْ" حرف تفسير "أَرْسِلْ" أمر فاعله مستتر "مَعَنا" ظرف مكان متعلقان بأرسل ونا مضاف إليه "بَنِي" مفعول به منصوب بالياء لأنه ملحق بجمع المذكر السالم "إِسْرائِيلَ" مضاف إليه مجرور بالفتحة نيابة عن الكسرة لأنه ممنوع من الصرف والجملة تفسيرية لا محل لها "قالَ" الجملة استئنافية "أَلَمْ" الهمزة للاستفهام ولم جازمة "نُرَبِّكَ" مضارع مجزوم بحذف حرف العلة والكاف مفعول به و الفاعل مستتر "فِينا" متعلقان بنربك "وَلِيداً" حال "وَلَبِثْتَ فِينا" ماض وفاعل والجار والمجرور متعلقان بالفعل "مِنْ عُمُرِكَ" متعلقان بمحذوف حال "سِنِينَ" ظرف زمان والجملة معطوفة.

[سورة الشعراء (26) : الآيات 19 الى 22]

(214/565)

وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكافِرِينَ (19) قالَ فَعَلْتُها إِذاً وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ (20) فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْماً وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ (21) وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّها عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرائِيلَ (22)

"وَفَعَلْتَ" ماض وفاعله والجملة معطوفة "فَعْلَتَكَ" مفعول مطلق والكاف مضاف إليه "الَّتِي" اسم موصول صفة "فَعَلْتَ" ماض وفاعله والجملة صلة "وَأَنْتَ" الواو حالية وأنت مبتدأ "مِنَ الْكافِرِينَ" متعلقان بالخبر المحذوف والجملة حالية "قالَ" الجملة مستأنفة "فَعَلْتُها" ماض وفاعل ومفعول به "إِذاً" حرف جواب "وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ" الواو حالية ومبتدأ والجار والمجرور متعلقان بالخبر والجملة حالية "فَفَرَرْتُ" الفاء حرف عطف وماض وفاعل والجملة معطوفة "مِنْكُمْ" متعلقان بفررت "لَمَّا" ظرف زمان وهي لما الحينية "خِفْتُكُمْ" ماض وفاعل ومفعول به والجملة مضاف إليه "فَوَهَبَ" معطوف على ففررت "لِي" متعلقان بوهب "رَبِّي" فاعل والياء مضاف إليه "حُكْماً" مفعول به "وَجَعَلَنِي" ماض فاعله مستتر والياء مفعول به أول والنون للوقاية والجملة معطوفة "مِنَ الْمُرْسَلِينَ" متعلقان بجعل وهما ينوبان عن مفعوله الثاني "وَتِلْكَ" الواو استئنافية وتلك مبتدأ "نِعْمَةٌ" خبر والجملة مستأنفة "تَمُنُّها" فعل مضارع فاعله مستتر ومفعول به والجملة صفة لنعمة "عَلَيَّ" متعلقان بتمنها "أَنْ" حرف مصدري ونصب "عَبَّدْتَ" ماض وفاعل "بَنِي" مفعول به "إِسْرائِيلَ" مضاف إليه والجملة من أن وما بعدها في تأويل مصدر مفعول لأجله.

[سورة الشعراء (26) : الآيات 23 الى 27]

قالَ فِرْعَوْنُ وَما رَبُّ الْعالَمِينَ (23) قالَ رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (24) قالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلا تَسْتَمِعُونَ (25) قالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (26) قالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (27)

"قالَ فِرْعَوْنُ" جملة مستأنفة "وَما" الواو عاطفة وما اسم استفهام مبتدأ "رَبُّ" خبر "الْعالَمِينَ" مضاف إليه والجملة معطوفة "قالَ" الجملة مستأنفة "رَبُّ" خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو "السَّماواتِ" مضاف إليه "وَالْأَرْضِ" معطوف على السموات "وَما" ما اسم موصول معطوف على السموات "بَيْنَهُما" ظرف متعلق بصفة محذوفة والجملة مقول القول "إِنْ" أداة شرط جازمة "كُنْتُمْ مُوقِنِينَ" كان واسمها وخبرها والجملة لا محل لها لأنها ابتدائية وجواب الشرط محذوف تقديره آمنوا به وحده لا شريك له. "قالَ" الجملة مستأنفة "لِمَنْ" متعلقان بقال "حَوْلَهُ" ظرف متعلق بصلة محذوفة "أَلا" حرف تنبيه واستفتاح "تَسْتَمِعُونَ" والجملة مقول القول "قالَ" الجملة مستأنفة "رَبُّكُمْ" خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو ربكم "وَرَبُّ" معطوف على ربكم والجملة مقول القول "آبائِكُمُ" مضاف إليه والكاف مضاف إليه "الْأَوَّلِينَ" صفة لآبائكم "قالَ" الجملة مستأنفة "إِنَّ رَسُولَكُمُ" إن واسمها "الَّذِي" صفة "أُرْسِلَ" ماض مبني للمجهول ونائب الفاعل مستتر والجملة صلة "إِلَيْكُمْ" متعلقان بأرسل "لَمَجْنُونٌ" اللام المزحلقة ومجنون خبر

إن والجملة مقول القول .

[سورة الشعراء (26) : الآيات 28 الى 31]

(216/565)

قالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَما بَيْنَهُما إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (28) قالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلهاً غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (29) قالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ (30) قالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (31)

"قالَ" الجملة مستأنفة "رَبُّ" خبر لمبتدأ محذوف "الْمَشْرِقِ" مضاف إليه "وَالْمَغْرِبِ" معطوف على المشرق والجملة مقول القول "وَما" الواو عاطفة وما موصولية معطوفة على المشرق "بَيْنَهُما" الظرف متعلق بمحذوف صلة "إِنْ" شرطية "كُنْتُمْ" كان واسمها "تَعْقِلُونَ" الجملة خبر وجملة كنتم إلخ ابتدائية . "قالَ" الجملة مستأنفة "لَئِنِ" اللام موطنة للقسم إن شرطية "اتَّخَذْتَ" ماض وفاعل "إِلهاً" مفعول به "غَيْرِي" صفة والياء مضاف إليه وهو في محل جزم فعل الشرط "لَأَجْعَلَنَّكَ" اللام جواب القسم والفعل المضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة والفاعل مستتر والكاف مفعول به "مِنَ الْمَسْجُونِينَ" متعلقان بأجعلنك والجملة لا محل لها لأنها جواب قسم وجملة جواب الشرط محذوفة "قالَ" الجملة

مستأنفة "أَوَلَوْ" الهمزة للاستفهام والواو للحال ولو شرطية "جِئْتُكَ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة في محل نصب على الحال "بِشَيْءٍ" متعلقان بجئتك "مُبِينٍ" صفة لشيء والجملة مقول القول "قالَ" الجملة مستأنفة "فَأْتِ" الفاء الفصيحة وائت أمر مبني على حذف حرف العلة وفاعله مستتر "بِهِ" متعلقان بائت "إِنْ" شرطية "كُنْتَ" كان واسمها وهي فعل الشرط "مِنَ الصَّادِقِينَ" متعلقان بالخبر وجواب الشرط محذوف دل عليه ما قبله.

[سورة الشعراء (26) : الآيات 32 الى 36]

(217/565)

فَأَلْقى عَصاهُ فَإِذا هِيَ ثُعْبانٌ مُبِينٌ (32) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذا هِيَ بَيْضاءُ لِلنَّاظِرِينَ (33) قالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هذا لَساحِرٌ عَلِيمٌ (34) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَماذا تَأْمُرُونَ (35) قالُوا أَرْجِهْ وَأَخاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدائِنِ حاشِرِينَ (36)

"فَأَلْقى" الفاء استئنافية وماض فاعله مستتر "عَصاهُ" مفعول به والهاء مضاف إليه والجملة مستأنفة "فَإِذا" الفاء عاطفة وإذا الفجائية "هِيَ ثُعْبانٌ" مبتدأ وخبر والجملة معطوفة "مُبِينٌ" صفة "وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذا هِيَ بَيْضاءُ" الجملة معطوفة على ألقى إلخ "لِلنَّاظِرِينَ" متعلقان ببيضاء "قالَ" الجملة مستأنفة "لِلْمَلَإِ" متعلقان بقال "حَوْلَهُ" ظرف متعلق

بمحذوف حال "إِنَّ هذا لَساحِرٌ" إن واسمها وخبرها واللام المزحلقة "عَلِيمٌ" صفة والجملة مقول القول "يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ" مضارع فاعله محذوف وأن والمضارع بعدها في تأويل مصدر مفعول به ليريد والكاف مفعول به "مِنْ أَرْضِكُمْ" "بِسِحْرِهِ" الجاران والمجروران متعلقان بيخرجكم وجملة يريد صفة لساحر "فَما ذا" الفاء عاطفة وما اسم استفهام مبتدأ وذا اسم موصول خبر والجملة معطوفة "تَأْمُرُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله والجملة صلة

"قالُوا" الجملة مستأنفة "أَرْجِهْ" أمر مبني على السكون والهاء مفعول به والفاعل مستتر "وَأَخاهُ" الواو واو المعية وأخاه مفعول معه والهاء مضاف إليه "وَابْعَثْ" أمر فاعله مستتر والجملة معطوفة "فِي الْمَدائِنِ" متعلقان بابعث "حاشِرِينَ" مفعول به منصوب بالياء لأنه جمع مذكر سالم.

[سورة الشعراء (26) : الآيات 37 الى 41]

(218/565)

يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ (37) فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (38) وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ (39) لَعَلَّنا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كانُوا هُمُ الْغالِبِينَ (40) فَلَمَّا جاءَ السَّحَرَةُ قالُوا

لِفِرْعَوْنَ أَإِنَّ لَنا لَأَجْراً إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغالِبِينَ (41)

"يَأْتُوكَ" مضارع مجزوم لأنه جواب الأمر والواو فاعل والكاف مفعول به والجملة لا محل لها "بِكُلِّ" متعلقان بيأتوك "سَحَّارٍ" مضاف إليه "عَلِيمٍ" صفة "فَجُمِعَ السَّحَرَةُ" ماض مبني للمجهول ونائب فاعل والجملة معطوفة "لِمِيقاتِ" متعلقان بجمع "يَوْمٍ" مضاف إليه "مَعْلُومٍ" صفة "وَقِيلَ" ماض مبني للمجهول والجملة معطوفة "لِلنَّاسِ" متعلقان بقيل "هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ" هل حرف استفهام ومبتدأ وخبر والجملة مقول القول "لَعَلَّنا" لعل واسمها "نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ" مضارع ومفعول به والجملة خبر لعل "إِنْ" شرطية "كانُوا هُمُ الْغالِبِينَ" كان واسمها وخبرها وهم ضمير فصل لا محل له وجملة كانوا . . ابتدائية لا محل لها وجملة الجواب محذوفة لدلالة الكلام عليها تقديرها فنحن نتبعهم "فَلَمَّا" الفاء استئنافية ولما بمعنى حين "جاءَ السَّحَرَةُ" ماض وفاعل والجملة في محل جر مضاف إليه "قالُوا" الجملة جواب شرط غير جازم لا محل لها "لِفِرْعَوْنَ" متعلقان بقالوا "أَإِنَّ" الهمزة للاستفهام إن حرف مشبه بالفعل "لَنا" متعلقان بخبر إن المحذوف "لَأَجْراً" اللام لام الابتداء أجرا اسم إن المؤخر والجملة مقول القول "إِنَّ" شرطية "كُنَّا" كان واسمها "نَحْنُ" ضمير فصل لا محل له "الْغالِبِينَ" خبر كان.

[سورة الشعراء (26) : الآيات 42 الى 45]

قالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذاً لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (42) قالَ لَهُمْ مُوسى أَلْقُوا ما أَنْتُمْ مُلْقُونَ (43) فَأَلْقَوْا حِبالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغالِبُونَ (44) فَأَلْقى مُوسى عَصاهُ فَإِذا هِيَ تَلْقَفُ ما يَأْفِكُونَ (45)

"قالَ" الجملة مستأنفة "نَعَمْ" حرف جواب "وَإِنَّكُمْ" إن واسمها والجملة معطوفة "إِذاً" حرف جواب "لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ" اللام المزحلقة ومتعلقان بخبر محذوف "قالَ لَهُمْ مُوسى " ماض وفاعل ومتعلقان بقال والجملة مستأنفة "أَلْقُوا" أمر وفاعله "ما" اسم موصول مفعول به والجملة مقول القول "أَنْتُمْ مُلْقُونَ" مبتدأ وخبر والجملة صلة "فَأَلْقَوْا حِبالَهُمْ" ماض وفاعل ومفعول به والهاء مضاف إليه "وَعِصِيَّهُمْ" عطف على حبالهم والجملة معطوفة "وَقالُوا" الجملة معطوفة "بِعِزَّةِ" متعلقان بفعل محذوف تقديره نحلف "فِرْعَوْنَ" مضاف إليه مجرور بالفتحة لأنه ممنوع من الصرف "إِنَّا" إن واسمها "لَنَحْنُ" اللام المزحلقة ونحن ضمير فصل مبتدأ "الْغالِبُونَ" خبر والجملة خبر إن "فَأَلْقى مُوسى عَصاهُ"

ماض وفاعل ومفعول به والجملة معطوفة "فَإِذا" الفاء عاطفة وإذا الفجائية "هِيَ" مبتدأ "تَلْقَفُ" مضارع فاعله مستتر "ما" موصولة مفعول به والجملة خبر هي "يَأْفِكُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة صلة.

[سورة الشعراء (26) : الآيات 46 الى 49]

فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ ساجِدِينَ (46) قالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعالَمِينَ (47) رَبِّ مُوسى وَهارُونَ
(48) قالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ
لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (49)

(220/565)

"فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ ساجِدِينَ" ماض مبني للمجهول ونائب الفاعل وساجدين حال والجملة معطوفة "قالُوا" الجملة مستأنفة "آمَنَّا" ماض وفاعل "بِرَبِّ" متعلقان بآمنا "الْعالَمِينَ" مضاف إليه والجملة مقول القول "رَبِّ" بدل من رب "مُوسى" مضاف إليه "وَهارُونَ" معطوف على موسى "قالَ" الجملة مستأنفة "آمَنْتُمْ" ماض وفاعل والجملة مقول القول "لَهُ" متعلقان بآمنتم "قَبْلَ" ظرف زمان متعلق بآمنتم "أَنْ" ناصبة "آذَنَ" مضارع منصوب وفاعله مستتر "لَكُمْ" متعلقان بآذن وأن وما بعدها في تأويل مصدر في محل جر بالإضافة "إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ" إن واسمها وخبرها واللام المزحلقة "الَّذِي" اسم موصول صفة "عَلَّمَكُمُ" ماض فاعله مستتر والكاف مفعول به أول "السِّحْرَ" مفعول به ثان والجملة صلة "فَلَسَوْفَ" الفاء الفصيحة واللام موطئة للقسم وسوف للاستقبال "تَعْلَمُونَ" الجملة جواب قسم مقدر لا محل لها من الإعراب "لَأُقَطِّعَنَّ" اللام للقسم والمضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون

التوكيد الثقيلة فاعله مستتر "أَيْدِيَكُمْ" مفعول به "وَأَرْجُلَكُمْ" معطوف "مِنْ خِلافٍ" متعلقان بحال محذوفة "وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ" الجملة معطوفة على لأقطعن "أَجْمَعِينَ" توكيد للكاف منصوب.

[سورة الشعراء (26) : الآيات 50 الى 54]

قالُوا لا ضَيْرَ إِنَّا إِلى رَبِّنا مُنْقَلِبُونَ (50) إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنا رَبُّنا خَطايانا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ (51) وَأَوْحَيْنا إِلى مُوسى أَنْ أَسْرِ بِعِبادِي إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ (52) فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدائِنِ حاشِرِينَ (53) إِنَّ هؤُلاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (54)

(221/565)

"قالُوا" الجملة مستأنفة "لا ضَيْرَ" لا نافية للجنس وضير اسمها وخبرها محذوف تقديره علينا "إِنَّا إِلى رَبِّنا مُنْقَلِبُونَ" إن ونا اسمها وخبرها والجار والمجرور متعلقان بالخبر والجملة تعليلية لا محل لها "إِنَّا" إن واسمها "نَطْمَعُ" مضارع فاعله مستتر والجملة خبر إن "أَنْ يَغْفِرَ" أن ناصبة والمضارع منصوب "لَنا" متعلقان بيغفر "رَبُّنا" فاعل ونا مضاف إليه "خَطايانا" مفعول به ونا مضاف إليه والجملة في تأويل مصدر منصوب بنزع الخافض التقدير بغفران "أَنْ" مصدرية "كُنَّا أَوَّلَ" كان واسمها وخبرها "الْمُؤْمِنِينَ" مضاف إليه "وَأَوْحَيْنا" ماض

وفاعل والجملة مستأنفة "إِلى مُوسى " متعلقان بأوحينا "أَنْ" مفسرة "أَسْرِ"

أمر مبني على حذف حرف العلة فاعله مستتر "بِعِبادِي" متعلقان بأسر والجملة لا محل لها

لأنها تفسيرية "إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ" إن واسمها وخبرها والجملة تعليلية "فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي

الْمَدائِنِ حاشِرِينَ" ماض وفاعل ومفعول به والجار والمجرور متعلقان بأرسل "إِنَّ هؤُلاءِ" إن

واسم الإشارة اسمها "لَشِرْذِمَةٌ" اللام المزحلقة وشرذمة خبر "قَلِيلُونَ" صفة والجملة مقول

قول محذوف.

[سورة الشعراء (26) : الآيات 55 الى 61]

وَإِنَّهُمْ لَنا لَغائِظُونَ (55) وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حاذِرُونَ (56) فَأَخْرَجْناهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ

(57) وَكُنُوزٍ وَمَقامٍ كَرِيمٍ (58) كَذلِكَ وَأَوْرَثْناها بَنِي إِسْرائِيلَ (59)

فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ (60) فَلَمَّا تَراءَا الْجَمْعانِ قالَ أَصْحابُ مُوسى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (61)

(222/565)

"وَإِنَّهُمْ" الواو عاطفة وإن واسمها "لَنا" متعلقان بالخبر بعده "لَغائِظُونَ" اللام المزحلقة وخبر

إن والجملة معطوفة "وَإِنَّا لَجَمِيعٌ" الواو عاطفة وإن واسمها واللام المزحلقة وجميع خبر أول

"حاذِرُونَ" خبر ثان والجملة معطوفة "فَأَخْرَجْناهُمْ" الفاء استئنافية وماض وفاعل

ومفعول به والجملة مستأنفة "مِنْ جَنَّاتٍ" متعلقان بأخرجناهم "وَعُيُونٍ" معطوف على جنات "وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ" معطوف على ما قبله "كَرِيمٍ" صفة مقام "كَذَلِكَ" الكاف خبر لمبتدأ محذوف تقديره الأمر كذلك واسم الإشارة مضاف إليها .

"وَأَوْرَثْنَاهَا" ماض وفاعل ومفعول به أول "بَنِي" مفعول به ثان منصوب بالياء لأنه ملحق بجمع المذكر السالم "إِسْرَائِيلَ" مضاف إليه والجملة معطوفة على ما سبق "فَأَتْبَعُوهُمْ" ماض وفاعل ومفعول به والجملة مستأنفة "مُشْرِقِينَ" حال "فَلَمَّا" الفاء عاطفة ولما ظرفية شرطية غير جازمة "تَرَاءَا الْجَمْعَانِ" ماض وفاعله والجملة مضاف إليه "قَالَ أَصْحَابُ" ماض وفاعل والجملة لا محل لها لأنها جواب الشرط "مُوسَى" مضاف إليه "إِنَّا لَمُدْرَكُونَ" إن واسمها وخبرها واللام المزحلقة والجملة مقول القول .

[سورة الشعراء (26) : الآيات 62 الى 68]

قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (62) فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (63) وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ (64) وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ (65) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ (66)

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (67) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (68)

"قالَ" الجملة مستأنفة "كَلَّا" حرف زجر "إِنَّ" حرف مشبه بالفعل "مَعِي" ظرف متعلق بخبر مقدم محذوف والياء مضاف إليه "رَبِّي" اسم إن والياء مضاف إليه والجملة مقول القول "سَيَهْدِينِ" الجملة مستأنفة والمضارع مرفوع بالضمة المقدرة على الياء للثقل وفاعله مستتر وياء المتكلم المحذوفة مفعول به "فَأَوْحَيْنا" ماض وفاعل والجملة معطوفة "إِلى مُوسى" متعلقان بأوحينا "أَنِ" تفسيرية "اضْرِبْ بِعَصاكَ الْبَحْرَ" أمر وفاعل مستتر ومفعول به والجار والمجرور متعلقان باضرب والجملة لا محل لها "فَانْفَلَقَ" الفاء عاطفة والجملة معطوفة على جملة محذوفة تقديرها فضرب فانفلق "فَكانَ كُلُّ فِرْقٍ" كان واسمها وفرق مضاف إليه "كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ" متعلقان بالخبر والعظيم صفة والجملة معطوفة "وَأَزْلَفْنا ثَمَّ الْآخَرِينَ" ماض وفاعله ومفعوله وثم ظرف بمعنى هناك والجملة معطوفة "وَأَنْجَيْنا مُوسى" ماض وفاعله ومفعوله والجملة معطوفة "وَمَنْ" اسم الموصول معطوف على موسى "مَعَهُ" ظرف متعلق بمحذوف صلة "أَجْمَعِينَ" توكيد لمن "ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة معطوفة "إِنَّ" حرف مشبه بالفعل "فِي ذلِكَ" متعلقان بخبر مقدم "لَآيَةً" اللام المزحلقة وآية اسم إن "وَما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ" الواو عاطفة وما نافية وكان ناقصة واسمها وخبرها والجملة معطوفة "وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ" انظر إعراب الآية رقم/ 9/ .

[سورة الشعراء (26) : الآيات 69 الى 74]

وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْراهِيمَ (69) إِذْ قالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ ما تَعْبُدُونَ (70) قالُوا نَعْبُدُ أَصْناماً فَنَظَلُّ لَها عاكِفِينَ (71) قالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (72) أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (73)

قالُوا بَلْ وَجَدْنا آباءَنا كَذلِكَ يَفْعَلُونَ (74)

(224/565)

"وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْراهِيمَ" أمر مبني على حذف حرف العلة فاعله مستتر ونبأ مفعول به والجار والمجرور متعلقان باتل وإبراهيم مضاف إليه والجملة معطوفة "إِذْ" ظرف زمان "قالَ" الجملة مضاف إليه "لِأَبِيهِ" متعلقان بقال والهاء مضاف إليه "وَقَوْمِهِ" معطوف على أبيه "ما" اسم استفهام مفعول به مقدم "تَعْبُدُونَ" الجملة مقول القول "قالُوا" الجملة مستأنفة "نَعْبُدُ أَصْناماً" مضارع ومفعوله وفاعله مستتر والجملة مقول القول "فَنَظَلُّ" الفاء عاطفة ومضارع ناقص واسمها محذوف "لَها" متعلقان بالخبر والجملة معطوفة "عاكِفِينَ" خبر "قالَ" الجملة مستأنفة "هَلْ" حرف استفهام "يَسْمَعُونَكُمْ" مضارع وفاعله ومفعوله والجملة مقول القول "إِذْ" ظرف زمان متعلق بيسمعون "تَدْعُونَ" الجملة مضاف إليه "أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ" الجملة

معطوفة على يسمعونكم "أَوْ يَضُرُّونَ" الجملة معطوفة على ما سبق "قالُوا" الجملة مستأنفة "بَلْ" حرف إضراب "وَجَدْنا" ماض وفاعله "آباءَنا" مفعول به أول ونا مضاف إليه "كَذلِكَ" الكاف مفعول به ليفعلون واسم الاشارة مضاف إليه والجملة مقول القول "يَفْعَلُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة مفعول به ثان لوجدنا .

[سورة الشعراء (26) : الآيات 75 الى 81]

قالَ أَفَرَأَيْتُمْ ما كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (75) أَنْتُمْ وَآباؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ (76) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعالَمِينَ (77) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (78) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (79) وَإِذا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (80) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (81)

"قالَ" الجملة مستأنفة "أَفَرَأَيْتُمْ" الهمزة للاستفهام الإنكاري والفاء عاطفة وماض وفاعله والجملة مقول القول "ما" اسم موصول مفعول به "كُنْتُمْ" كان واسمها والجملة لا محل لها لأنها صلة "تَعْبُدُونَ" الجملة خبر كنتم "أَنْتُمْ" توكيد للضمير في تعبدون "وَآباؤُكُمُ" عطف على أنتم "الْأَقْدَمُونَ" صفة لآباؤكم

"فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ" الفاء تعليلية وإن واسمها وخبرها "لِي" متعلقان بالخبر والجملة تعليل لما

سبقها "إِلَّا" أداة استثناء "رَبَّ" مستثنى بإلا "الْعالَمِينَ" مضاف إليه "الَّذِي" بدل من رب "خَلَقَنِي" ماض فاعله مستتر والياء مفعول به والنون للوقاية والجملة صلة "فَهُوَ" الفاء استئنافية وهو مبتدأ "يَهْدِينِ" الجملة خبر وحذفت ياء المتكلم مراعاة للفواصل "وَالَّذِي" معطوف على الذي قبله "هُوَ" مبتدأ والجملة صلة "يُطْعِمُنِي" مضارع وفاعله والجملة خبر "وَيَسْقِينِ" الجملة معطوفة على يطعمني "وَإِذا" الواو عاطفة وإذا ظرف يتضمن معنى الشرط "مَرِضْتُ" ماض وفاعله والجملة مضاف إليه "فَهُوَ" الفاء واقعة في جواب الشرط والجملة بعدها لا محل لها وهو مبتدأ "يَشْفِينِ" مضارع والنون للوقاية والجملة خبر "وَالَّذِي" معطوف على ما قبله "يُمِيتُنِي" الجملة صلة "ثُمَّ" عاطفة "يُحْيِينِ" الجملة معطوفة.

[سورة الشعراء (26) : الآيات 82 الى 89]

وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (82) رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (83) وَاجْعَلْ لِي لِسانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ (84) وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ (85) وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كانَ مِنَ الضَّالِّينَ (86)

وَلا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ (87) يَوْمَ لا يَنْفَعُ مالٌ وَلا بَنُونَ (88) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (89)

"وَالَّذِي" عطف على ما قبله "أَطْمَعُ" الجملة صلة "أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي" أن ناصبة ومضارع فاعله مستتر ومفعول به والياء مضاف إليه وأن وما بعدها في تأويل مصدر منصوب بنزع الخافض "لِي" متعلقان بيغفر "يَوْمَ" ظرف متعلق بيغفر "الدِّينِ" مضاف إليه "رَبِّ" منادى "هَبْ" فعل دعاء فاعله مستتر "لِي" متعلقان بهب "حُكْماً" مفعول به "وَأَلْحِقْنِي" الجملة معطوفة على هب "بِالصَّالِحِينَ" متعلقان بألحقني "وَاجْعَلْ لِي لِسانَ" فعل دعاء فاعله مستتر ومفعوله الأول ولي متعلقان باجعل "صِدْقٍ" مضاف إليه "فِي الْآخِرِينَ" متعلقان باجعل والجملة معطوفة "وَاجْعَلْنِي" الجملة معطوفة على ما سبق "مِنْ وَرَثَةِ" متعلقان باجعلني "جَنَّةِ النَّعِيمِ" مضاف إليه والنعيم مضاف إليه "وَاغْفِرْ" الجملة معطوفة على ما سبق "لِأَبِي" متعلقان باغفر والياء مضاف إليه "إِنَّهُ" إن واسمها والجملة تعليل لما سبق "كانَ مِنَ الضَّالِّينَ" كان واسمها محذوف والجار والمجرور متعلقان بالخبر والجملة خبر إن "وَلا" الواو عاطفة ولا ناهية "تُخْزِنِي" مضارع مجزوم والياء مفعول به وفاعله مستتر والجملة معطوفة "يَوْمَ" ظرف متعلق بتخزني "يُبْعَثُونَ" مضارع مبني للمجهول مرفوع بثبوت النون والواو نائب فاعل والجملة مضاف إليه "يَوْمَ" بدل من يوم الأولى "لا يَنْفَعُ مالٌ" لا نافية والجملة مضاف إليه "وَلا بَنُونَ" معطوف على ما سبق "إِلَّا" أداة استثناء "مَنْ" اسم موصول مستثنى بإلا "أَتَى اللَّهَ" ماض ولفظ الجلالة مفعول به والفاعل مستتر

والجملة صلة "بِقَلْبٍ" متعلقان بأتى "سَلِيمٍ" صفة.

[سورة الشعراء (26) : الآيات 90 الى 96]

(227/565)

وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ (90) وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغاوِينَ (91) وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (92) مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ (93) فَكُبْكِبُوا فِيها هُمْ وَالْغاوُونَ (94) وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ (95) قالُوا وَهُمْ فِيها يَخْتَصِمُونَ (96)

"وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ" الواو عاطفة والماضي مبني للمجهول والجنة نائب فاعل والجملة معطوفة على لا ينفع مال "لِلْمُتَّقِينَ" متعلقان بأزلفت "وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ" الجملة معطوفة على أزلفت "لِلْغاوِينَ" متعلقان ببرزت "وَقِيلَ" الواو عاطفة والفعل مبني للمجهول والجملة معطوفة "لَهُمْ" متعلقان بالفعل "أَيْنَ" اسم استفهام في محل نصب على الظرفية المكانية متعلق بمحذوف خبر مقدم وأين وما بعدها في محل رفع نائب فاعل قيل "ما" موصولة مبتدأ مؤخر "كُنْتُمْ" كان واسمها والجملة صلة "تَعْبُدُونَ" الجملة خبر كنتم "مِنْ دُونِ" متعلقان بتعبدون "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "هَلْ" حرف استفهام "يَنْصُرُونَكُمْ" مضارع وفاعله ومفعوله "أَوْ" حرف عطف "يَنْتَصِرُونَ" الجملة معطوفة على ينصرونكم "فَكُبْكِبُوا" الفاء عاطفة

والماضي مبني للمجهول والواو نائب الفاعل والجملة معطوفة "فِيها" متعلقان بكبكبوا والمعنى ألقوا فيها على وجوههم "هُمْ" ضمير فصل "وَالْغاوُونَ" معطوف على واو الجماعة "وَجُنُودُ" معطوف على واو الجماعة "إِبْلِيسَ" مضاف إليه مجرور بالفتحة نيابة عن الكسرة لأنه ممنوع من الصرف "أَجْمَعُونَ" توكيد لواو الجماعة وما عطف عليها "قالُوا" ماض وفاعله والجملة مستأنفة "وَهُمْ" الواو واو الحال هم مبتدأ "يَخْتَصِمُونَ" مضارع وفاعله والجملة خبر المبتدأ وجملة "هُمْ فِيها يَخْتَصِمُونَ" في محل نصب على الحال.

[سورة الشعراء (26) : الآيات 97 الى 103]

(228/565)

تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ (97) إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعالَمِينَ (98) وَما أَضَلَّنا إِلاَّ الْمُجْرِمُونَ (99) فَما لَنا مِنْ شافِعِينَ (100) وَلا صَدِيقٍ حَمِيمٍ (101) فَلَوْ أَنَّ لَنا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (102) إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (103)

"تَاللَّهِ" متعلقان بفعل محذوف تقسم وجملة القسم مقول القول "إِنْ" مخففة من الثقيلة مهملة "كُنَّا" كان واسمها "لَفِي ضَلالٍ" اللام الفارقة بين النفي والإثبات ومتعلقان بالخبر المحذوف

"مُبِينٍ" صفة ضلال والجملة جواب قسم لا محل لها من الإعراب "إِذْ" ظرف يتضمن معنى الشرط متعلق بمبين "نُسَوِّيكُمْ" مضارع فاعله مستتر والكاف مفعوله والجملة مضاف إليه "بِرَبِّ" متعلقان بنسويكم "الْعالَمِينَ" مضاف إليه "وَما" الواو عاطفة وما نافية "أَضَلَّنا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ" ماض ومفعول به مقدم وفاعل مؤخر وإلا أداة حصر والجملة معطوفة "فَما" الفاء عاطفة وما نافية "لَنا" متعلقان بخبر مقدم "مِنْ" حرف جر زائد "شافِعِينَ" مبتدأ مجرور لفظا بالياء مرفوع محلا والجملة معطوفة "وَلا" الواو عاطفة ولا زائدة لتوكيد النفي "صَدِيقٍ" معطوفة على شافعين لفظا "حَمِيمٍ" صفة لصديق "فَلَوْ" الفاء استئنافية ولو للتمني "أَنَّ" حرف مشبه بالفعل "لَنا" متعلقان بخبر مقدم "كَرَّةً" اسمها المؤخر "فَنَكُونَ" الفاء السببية والجملة من أن والفعل في تأويل مصدر معطوف على كرة "فَنَكُونَ" فعل مضارع ناقص منصوب بأن مضمرة بعد فاء السببية واسمه ضمير مستتر و"مِنَ الْمُؤْمِنِينَ" متعلقان بالخبر "إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً" إن حرف مشبه بالفعل والجار والمجرور متعلقان بخبر مقدم واللام المزحلقة وآية اسمها "وَما" الواو عاطفة وما نافية "كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ" كان واسمها وخبرها والجملة معطوفة.

(229/565)

[سورة الشعراء (26) : الآيات 104 الى 109]

وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (104) كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ (105) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلا تَتَّقُونَ (106) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (107) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (108) وَما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلى رَبِّ الْعالَمِينَ (109)

"وَإِنَّ رَبَّكَ" الواو استئنافية وإن واسمها والكاف مضاف إليه والجملة مستأنفة "لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ" اللام المزحلقة وهو ضمير فصل لا محل له والعزيز الرحيم خبرا إن "كَذَّبَتْ قَوْمُ" ماض وفاعله والجملة مستأنفة "نُوحٍ" مضاف إليه "الْمُرْسَلِينَ" مفعول به "إِذْ" الظرف متعلق بكذبت "قالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ" ماض وفاعله المرفوع بالواو لأنه من الأسماء الخمسة والهاء مضاف إليه والجار والمجرور متعلقان بقال والجملة مضاف إليه "نُوحٌ" بدل من أخوهم "أَلا" أداة عرض "تَتَّقُونَ" مضارع وفاعله والجملة مقول القول "إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ" إن واسمها وخبرها والجار والمجرور متعلقان برسول "أَمِينٌ" صفة والجملة مقول القول "فَاتَّقُوا اللَّهَ" الفاء الفصيحة وأمر وفاعله ومفعوله والجملة جواب شرط غير جازم لا محل لها "وَأَطِيعُونِ" الجملة معطوفة على فاتقوا وأمر والواو فاعله وياء المتكلم المحذوفة مفعول به "وَما" الواو عاطفة وما نافية "أَسْئَلُكُمْ" مضارع ومفعوله الأول وفاعله مستتر "عَلَيْهِ" متعلقان بأسألكم "مِنْ" حرف جر زائد "أَجْرٍ" مجرور لفظا منصوب محلا على أنه مفعول به ثان والجملة معطوفة "إِنْ" نافية "أَجْرِيَ" مبتدأ مرفوع بالضمة المقدرة على ما قبل ياء

المتكلم والياء مضاف إليه "إِلَّا" أداة حصر "عَلى رَبِّ" متعلقان بالخبر "الْعالَمِينَ" مضاف إليه.

[سورة الشعراء (26) : الآيات 110 الى 115]

(230/565)

فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (110) قالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ (111) قالَ وَما عِلْمِي بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (112) إِنْ حِسابُهُمْ إِلَّا عَلى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ (113) وَما أَنَا بِطارِدِ الْمُؤْمِنِينَ (114)

إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (115)

"فَاتَّقُوا اللَّهَ" الفاء الفصيحة وأمر وفاعل ومفعول به والجملة جواب شرط غير جازم تقديره إذا كان الأمر كذلك فاتقوا اللّه "وَأَطِيعُونِ" أمر والواو فاعله وياء المتكلم المحذوفة مفعول به والجملة معطوفة على فاتقوا "قالُوا" الجملة مستأنفة "أَنُؤْمِنُ" الهمزة للاستفهام الإنكاري والجملة مقول القول "لَكَ" متعلقان بنؤمن "وَاتَّبَعَكَ" الواو واو الحال وماض ومفعوله "الْأَرْذَلُونَ" فاعل والجملة في محل نصب حال "قالَ" الجملة مستأنفة "وَما" الواو استئنافية وما اسم استفهام مبتدأ "عِلْمِي" خبر ما مرفوع بالضمة

المقدرة على ما قبل ياء المتكلم والياء مضاف إليه والجملة استئنافية "بِما" الجار والمجرور متعلقان بعلمي "كانُوا" كان واسمها والجملة صلة "يَعْمَلُونَ" الجملة خبر كان "إِنْ" نافية "حِسابُهُمْ" مبتدأ والهاء مضاف إليه "إِلَّا" أداة حصر "عَلى رَبِّي" متعلقان بالخبر والياء مضاف إليه "لَوْ" أداة شرط غير جازمة "تَشْعُرُونَ" الجملة ابتدائية وجواب لو محذوف "وَما" الواو عاطفة وما نافية حجازية تعمل عمل ليس "أَنَا" اسمها "بِطارِدِ" الباء حرف جر زائد وطارد مجرور لفظا مرفوع محلا خبر ما "الْمُؤْمِنِينَ" مضاف إليه والجملة معطوفة "إِنْ" حرف نفي "أَنَا" مبتدأ "إِلَّا" أداة حصر "نَذِيرٌ" خبر "مُبِينٌ" صفة والجملة لا محل لها تعليل للنفي.

[سورة الشعراء (26) : الآيات 116 الى 119]

(231/565)

قالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ (116) قالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ (117) فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (118) فَأَنْجَيْناهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (119)

"قالُوا" الجملة مستأنفة "لَئِنْ" اللام موطئة للقسم وإن شرطية "لَمْ" جازمة "تَنْتَهِ" مضارع

مجزوم وفاعله مستتر والجملة مقول القول "يا نُوحُ" منادى بيا مبني على الضم في محل نصب والجملة معترضة "لَتَكُونَنَّ" اللام واقعة في جواب القسم وتكون مضارع ناقص واسمه محذوف "مِنَ الْمَرْجُومِينَ" متعلقان بخبر تكون وجملة جواب القسم لا محل لها "قالَ" الجملة مستأنفة "رَبِّ" منادى "إِنَّ قَوْمِي" إن واسمها والياء مضاف إليه "كَذَّبُونِ" ماض والواو فاعله والياء المحذوفة مفعول به والنون للوقاية والجملة مقول القول "فَافْتَحْ" الفاء الفصيحة وفعل دعاء فاعله مستتر "بَيْنِي" ظرف متعلق بافتح "وَبَيْنَهُمْ" معطوف على ما قبله والجملة لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم "فَتْحاً" مفعول مطلق "وَنَجِّنِي" الواو عاطفة وفعل دعاء مبني على حذف حرف العلة فاعله مستتر والنون للوقاية والياء مفعول به والجملة معطوفة "وَمَنْ" الواو عاطفة واسم الموصول معطوف على ياء المتكلم "مَعِيَ" ظرف والياء مضاف إليه والظرف متعلق بصلة محذوفة "مِنَ الْمُؤْمِنِينَ" متعلقان بمحذوف صلة من "فَأَنْجَيْناهُ" الفاء عاطفة وماض وفاعل ومفعول به والجملة معطوفة "وَمَنْ" الواو عاطفة واسم الموصول معطوف على الهاء من أنجيناه "مَعَهُ" ظرف متعلق بصلة محذوفة "فِي الْفُلْكِ" متعلقان بأنجيناه "الْمَشْحُونِ" صفة.

[سورة الشعراء (26) : الآيات 120 الى 127]

ثُمَّ أَغْرَقْنا بَعْدُ الْباقِينَ (120) إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (121) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (122) كَذَّبَتْ عادٌ الْمُرْسَلِينَ (123) إِذْ قالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلا تَتَّقُونَ (124)

إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (125) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (126) وَما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلى رَبِّ الْعالَمِينَ (127)

"ثُمَّ" عاطفة "أَغْرَقْنا بَعْدُ الْباقِينَ" ماض وفاعل ومفعول به وبعد ظرف زمان متعلق بأغرقنا والجملة معطوفة "إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً" إن والجار والمجرور متعلقان بالخبر المحذوف وآية اسم إن واللام لام الابتداء "وَما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ" الواو عاطفة وما نافية وكان واسمها وخبرها والجملة معطوفة "وَإِنَّ رَبَّكَ" إن

واسمها والكاف مضاف إليه "لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ" اللام اللام المزحلقة ومبتدأ وخبراه والجملة معطوفة "كَذَّبَتْ عادٌ الْمُرْسَلِينَ" ماض وفاعل ومفعول به والجملة مستأنفة "إِذْ" ظرف زمان متعلق بكذبت "قالَ" الجملة مضاف إليه "لَهُمْ" متعلقان بقال "أَخُوهُمْ" فاعل والهاء مضاف إليه "هُودٌ" بدل من أخوهم "أَلا" أداة حض "تَتَّقُونَ" الجملة مقول القول "إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ" إن واسمها وخبرها وأمين صفة والجار والمجرور متعلقان بالخبر والجملة مقول القول "فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ" انظر الآية/ 110/ "وَما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا

عَلى رَبِّ الْعالَمِينَ" انظر الآية/ 109/ .

[سورة الشعراء (26) : الآيات 128 الى 131]

(233/565)

أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (128) وَتَتَّخِذُونَ مَصانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (129) وَإِذا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (130) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (131)

"أَتَبْنُونَ" الهمزة للاستفهام ومضارع وفاعل "بِكُلِّ" متعلقان بتبنون "رِيعٍ" مضاف إليه "آيَةً" مفعول به والجملة مستأنفة "تَعْبَثُونَ" الجملة حالية "وَتَتَّخِذُونَ" الواو عاطفة ومضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة معطوفة "مَصانِعَ" مفعول به "لَعَلَّكُمْ" لعل واسمها "تَخْلُدُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة خبر لعل "وَإِذا" الواو عاطفة وإذا ظرف يتضمن معنى الشرط "بَطَشْتُمْ" ماض وفاعله والجملة مضاف إليه وجملة "بَطَشْتُمْ" الثانية لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم وجبارين حال منصوبة بالياء لأنها جمع مذكر سالم "فَاتَّقُوا" الفاء الفصيحة وأمر وفاعله "اللَّهَ" لفظ الجلالة مفعول به والجملة جواب شرط مقدر لا محل لها "وَأَطِيعُونِ" الواو عاطفة والجملة معطوفة على ما قبلها .

[سورة الشعراء (26) : الآيات 132 الى 135]

وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِما تَعْلَمُونَ (132) أَمَدَّكُمْ بِأَنْعامٍ وَبَنِينَ (133) وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (134) إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (135)

(234/565)

"وَاتَّقُوا" الواو عاطفة وأمر وفاعله والجملة معطوفة "الَّذِي" اسم موصول مفعول به "أَمَدَّكُمْ" ماض ومفعوله والفاعل مستتر والجملة صلة "بِما" ما موصولية ومتعلقان بأمدكم "تَعْلَمُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة صلة "أَمَدَّكُمْ" ماض ومفعوله والفاعل مستتر والجملة بدل من أمدكم الأولى "بِأَنْعامٍ" متعلقان بأمدكم "وَبَنِينَ" معطوف على أنعام وهو مجرور بالياء لأنه ملحق بجمع المذكر السالم "وَجَنَّاتٍ" معطوف على ما سبق "وَعُيُونٍ" معطوف على جنات "إِنِّي" إن واسمها والجملة مستأنفة "أَخافُ" مضارع فاعله مستتر والجملة خبر إني "عَلَيْكُمْ" متعلقان بأخاف "عَذابَ" مفعول به "يَوْمٍ" مضاف إليه "عَظِيمٍ" صفة.

[سورة الشعراء (26) : الآيات 136 الى 145]

قالُوا سَواءٌ عَلَيْنا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْواعِظِينَ (136) إِنْ هذا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ (137) وَما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (138) فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْناهُمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَما كانَ أَكْثَرُهُمْ

مُؤْمِنِينَ (139) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (140)

كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ (141) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (142) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (143) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (144) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (145)

(235/565)

"قالُوا" ماض وفاعله والجملة مستأنفة "سَواءٌ" خبر مقدم "عَلَيْنا" متعلقان بسواء "أَوَعَظْتَ" الهمزة للاستفهام وماض وفاعله "أَمْ" حرف عطف "لَمْ" جازمة "تَكُنْ" مضارع ناقص مجزوم بلم واسمها محذوف "مِنَ الْواعِظِينَ" متعلقان بخبر تكن وهمزة التسوية وما بعدها في تأويل مصدر مبتدأ مؤخر "إِنْ هذا" إن نافية واسم الإشارة مبتدأ "إِلَّا" أداة حصر "خُلُقُ" خبر هذا "الْأَوَّلِينَ" مضاف إليه مجرور بالياء لأنه جمع مذكر سالم "وَما" الواو عاطفة وما نافية تعمل عمل ليس "نَحْنُ" اسم ما "بِمُعَذَّبِينَ" الباء حرف جر زائد ومعذبين اسم مجرور لفظا منصوب محلا خبر ما "فَكَذَّبُوهُ" الفاء الفصيحة وماض وفاعله ومفعوله والجملة جواب الشرط لا محل لها من الإعراب "فَأَهْلَكْناهُمْ" الفاء عاطفة وماض وفاعله ومفعوله والجملة معطوفة "إِنَّ" حرف مشبه بالفعل "فِي ذلِكَ" متعلقان بالخبر المقدم "لَآيَةً"

اللام المزحلقة وآية اسم إن "وَما" الواو عاطفة وما نافية "كانَ أَكْثَرُهُمْ" كان واسمها والهاء مضاف إليه "مُؤْمِنِينَ" خبر والجملة معطوفة. "وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ" سبق إعرابها قريبا. "كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ" ماض وفاعله ومفعوله "إِذْ قالَ لَهُمْ" هذه الآية وما بعدها إلى الآية 145 تقدم إعرابها.

[سورة الشعراء (26) : آية 146]

أَتُتْرَكُونَ فِي ما هاهُنا آمِنِينَ (146)

"أَتُتْرَكُونَ" الهمزة للاستفهام الإنكاري ومضارع مبني للمجهول ونائب فاعل والجملة مستأنفة "فِي ما" حرف الجر واسم الموصول المجرور متعلقان بتتركون "هاهُنا" الها للتنبيه واسم الإشارة ظرف مكان متعلق بمحذوف صلة "آمِنِينَ" حال منصوبة بالياء.

[سورة الشعراء (26) : الآيات 147 الى 154]

فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (147) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُها هَضِيمٌ (148) وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبالِ بُيُوتاً فارِهِينَ (149) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (150) وَلا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (151) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ (152) قالُوا إِنَّما أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (153) ما

أَنْتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (154)

"فِي جَنَّاتٍ" بدل من قوله فيما هاهنا "وَعُيُونٍ" معطوفة على جنات "وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ" معطوف على ما قبله "طَلْعُها هَضِيمٌ" مبتدأ وخبر والجملة صفة نخل "وَتَنْحِتُونَ" الجملة معطوفة على تتركون "مِنَ الْجِبالِ" متعلقان بتنحتون "بُيُوتاً" مفعول به "فارِهِينَ" حال والجملة معطوفة "فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ" انظر الآية 108 "وَلا" الواو عاطفة ولا ناهية "تُطِيعُوا" مضارع مجزوم بحذف النون والواو فاعل "أَمْرَ" مفعول به "الْمُسْرِفِينَ" مضاف إليه "الَّذِينَ" اسم موصول صفة للمسرفين "يُفْسِدُونَ" الجملة صلة "فِي الْأَرْضِ" متعلقان بيفسدون "وَلا" الواو عاطفة ولا نافية "يُصْلِحُونَ" الجملة معطوفة على يفسدون "قالُوا" الجملة استئنافية "إِنَّما" كافة ومكفوفة "أَنْتَ" مبتدأ "مِنَ الْمُسَحَّرِينَ" متعلقان بالخبر والجملة مقول القول "ما" نافية "أَنْتَ" مبتدأ "إِلَّا" أداة حصر "بَشَرٌ" خبر "مِثْلُنا" صفة ونا مضاف إليه "فَأْتِ"

الفاء الفصيحة وأمر فاعله مستتر "بِآيَةٍ" متعلقان بالفعل قبله وجملة ائت جواب شرط مقدر "إِنْ" شرطية "كُنْتَ" كان واسمها والجملة ابتدائية لا محل لها "مِنَ الصَّادِقِينَ" متعلقان بالخبر.

[سورة الشعراء (26) : الآيات 155 الى 159]

قالَ هذِهِ ناقَةٌ لَها شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (155) وَلا تَمَسُّوها بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ (156) فَعَقَرُوها فَأَصْبَحُوا نادِمِينَ (157) فَأَخَذَهُمُ الْعَذابُ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (158) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (159)

"قالَ" الجملة مستأنفة "هذِهِ ناقَةٌ" مبتدأ وخبر والجملة مقول القول "لَها" متعلقان بخبر مقدم "شِرْبٌ" مبتدأ مؤخر والجملة صفة "وَلَكُمْ شِرْبُ" مبتدأ مؤخر ومتعلقان بخبر مقدم والجملة معطوفة "يَوْمٍ" مضاف إليه "مَعْلُومٍ" صفة ليوم "وَلا" الواو عاطفة ولا ناهية "تَمَسُّوها" مضارع مجزوم وفاعله ومفعوله "بِسُوءٍ" متعلقان بتمسوها والجملة معطوفة "فَيَأْخُذَكُمْ" فاء السببية يأخذكم مضارع منصوب بأن المضمرة بعد فاء السببية والكاف مفعول به "عَذابُ" فاعل "يَوْمٍ" مضاف إليه "عَظِيمٍ" صفة وأن والفعل في تأويل مصدر معطوف على مصدر يؤخذ من الفعل السابق تقديره لا يكن منكم مس للناقة فيكن أخذكم بعذاب "فَعَقَرُوها" ماض وفاعل ومفعول به والجملة معطوفة "فَأَصْبَحُوا نادِمِينَ" الفاء عاطفة وأصبح واسمها ونادمين خبرها "فَأَخَذَهُمُ الْعَذابُ" ماض ومفعوله المقدم وفاعله المؤخر والجملة معطوفة "إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً" إن واللام المزحلقة وآية اسمها ومتعلقان بخبر محذوف وانظر إعراب الآية 8 "إِنَّ رَبَّكَ" إن واسمها والكاف مضاف إليه "لَهُوَ" اللام

المزحلقة وهو ضمير فصل "الْعَزِيزُ" خبر إن "الرَّحِيمُ" خبر ثان والجملة مستأنفة.

[سورة الشعراء (26) : الآيات 160 الى 166]

(238/565)

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ (160) إِذْ قالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلا تَتَّقُونَ (161) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (162) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (163) وَما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلى رَبِّ الْعالَمِينَ (164)

أَتَأْتُونَ الذُّكْرانَ مِنَ الْعالَمِينَ (165) وَتَذَرُونَ ما خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْواجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عادُونَ (166)

"كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ" ماض وفاعل ومفعول به ولوط مضاف إليه والجملة مستأنفة "إِذْ قالَ" الجملة في محل جر بالإضافة للظرف "لَهُمْ" متعلقان بقال "أَخُوهُمْ" فاعل مرفوع بالواو لأنه من الأسماء الخمسة والهاء مضاف إليه "لُوطٌ" بدل من أخوهم "أَلا" حرف تنبيه "تَتَّقُونَ" الجملة مقول القول والآية/ 162/ إعرابها هو إعراب الآية/ 107/ وإعراب الآية/ 163/ هو إعراب الآية/ 108/ وإعراب الآية/ 164/ هو إعراب الآية/ 109/ "أَتَأْتُونَ" الهمزة للاستفهام الإنكاري والمضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل

"الذُّكْرانَ" مفعول به "مِنَ الْعالَمِينَ" متعلقان بمحذوف حال من الذكران والجملة مقول القول "وَتَذَرُونَ" الجملة معطوفة "ما" اسم موصول مفعول به "خَلَقَ" الجملة صلة "لَكُمْ" متعلقان بخلق "رَبُّكُمْ" فاعل و الكاف مضاف إليه "مِنْ أَزْواجِكُمْ" متعلقان بمحذوف حال "بَلْ" حرف إضراب وعطف "أَنْتُمْ" مبتدأ "قَوْمٌ" خبر "عادُونَ" صفة مرفوعة بالواو لأنها جمع مذكر سالم والجملة معطوفة.

[سورة الشعراء (26) : الآيات 167 الى 173]

(239/565)

قالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ (167) قالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقالِينَ (168) رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ (169) فَنَجَّيْناهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (170) إِلَّا عَجُوزاً فِي الْغابِرِينَ (171)

ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ (172) وَأَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَساءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ (173)

(240/565)

"قالُوا" الجملة مستأنفة "لَئِنْ" اللام موطئة للقسم وإن شرطية "لَمْ" جازمة "تَنْتَهِ" مضارع مجزوم وفاعله مستتر والجملة مقول القول "يا لُوطُ" منادى بيا مبني على الضم في محل نصب والجملة معترضة "لَتَكُونَنَّ" اللام واقعة في جواب القسم وتكون مضارع ناقص واسمه محذوف "مِنَ الْمُخْرَجِينَ" متعلقان بخبر تكون وجملة جواب القسم لا محل لها "قالَ" الجملة مستأنفة "إِنِّي" إن واسمها "لِعَمَلِكُمْ" متعلقان بالخبر المحذوف "مِنَ الْقالِينَ" متعلقان بصفة للخبر المحذوف والجملة مقول القول "رَبِّ" منادى بأداة نداء محذوفة وهو مضاف وياء المتكلم المحذوفة مضاف إليه "نَجِّنِي" فعل دعاء مبني على حذف حرف العلة والفاعل مستتر والياء مفعول به والجملة مقول القول "وَأَهْلِي" الواو عاطفة وأهلي معطوفة على ياء المتكلم والياء مضاف إليه "مِمَّا" من حرف جر وما الموصولة في محل جر بمن وهما متعلقان بنجني "يَعْمَلُونَ" الجملة صلة "فَنَجَّيْناهُ" الفاء عاطفة وماض وفاعله ومفعوله والجملة معطوفة "وَأَهْلَهُ" الواو عاطفة وأهله معطوف على الضمير المنصوب في نجيناه "أَجْمَعِينَ" توكيد للضمير المنصوب وما عطف عليه "إِلَّا" أداة استثناء "عَجُوزاً" مستثنى بإلا منصوب والجملة معطوفة "فِي الْغابِرِينَ" متعلقان بمحذوف صفة لعجوزا "ثُمَّ" عاطفة "دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ" ماض وفاعل ومفعول به والجملة معطوفة "وَأَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ مَطَراً" ماض وفاعل ومفعول به والجملة معطوفة "فَساءَ مَطَرُ" ماض وفاعله والجملة معطوفة "الْمُنْذَرِينَ" مضاف إليه .

[سورة الشعراء (26) : الآيات 174 الى 177]

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (174) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (175)
كَذَّبَ أَصْحابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ (176) إِذْ قالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلا تَتَّقُونَ (177)

(241/565)

"إِنَّ فِي ذَلِكَ . . " سبق اعرابها في الآية 103 "وَإِنَّ رَبَّكَ . . " ارجع للآية 145 "كَذَّبَ أَصْحابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ" ماض وفاعل ومفعول به والأيكة مضاف إليه والجملة مستأنفة. "إِذْ" ظرف متعلق بكذب "قالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ" ماض وفاعله ومتعلقان بقال والجملة مضاف إليه "أَلا" حرف تنبيه واستفتاح "تَتَّقُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة مقول القول.

[سورة الشعراء (26) : الآيات 178 الى 182]

إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (178) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (179) وَما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلى رَبِّ الْعالَمِينَ (180) أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ (181) وَزِنُوا بِالْقِسْطاسِ الْمُسْتَقِيمِ (182)

سبق اعراب الآيات الثلاثة انظر الآية 107 و108 و109 "أَوْفُوا الْكَيْلَ" أمر وفاعل

ومفعول به والجملة مقول القول "وَلا تَكُونُوا" الواو عاطفة ولا ناهية تكونوا مضارع ناقص والواو اسمها "مِنَ الْمُخْسِرِينَ" متعلقان بالخبر والجملة معطوفة "وَزِنُوا" ماض وفاعله والجملة معطوفة "بِالْقِسْطاسِ" متعلقان بزنوا "الْمُسْتَقِيمِ" صفة القسطاس والجملة معطوفة.

[سورة الشعراء (26) : الآيات 183 الى 187]

وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (183) وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ (184) قالُوا إِنَّما أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (185) وَما أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكاذِبِينَ (186) فَأَسْقِطْ عَلَيْنا كِسَفاً مِنَ السَّماءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (187)

(242/565)

"وَلا" الواو عاطفة ولا ناهية "تَبْخَسُوا" مضارع مجزوم بلا الناهية والواو فاعل "النَّاسَ" مفعول به أول "أَشْياءَهُمْ" مفعول به ثان والهاء مضاف إليه والجملة معطوفة "وَلا تَعْثَوْا" الجملة معطوفة على ما قبلها "فِي الْأَرْضِ" متعلقان بتعثوا "مُفْسِدِينَ" حال "وَاتَّقُوا الَّذِي" أمر وفاعله ومفعول به والجملة معطوفة "خَلَقَكُمْ" الجملة صلة "وَالْجِبِلَّةَ" معطوف على

المفعول به "الْأَوَّلِينَ" صفة والجملة معطوفة "قالُوا" الجملة مستأنفة "وَما" ما نافية "أَنْتَ" مبتدأ "إِلَّا" أداة حصر "بَشَرٌ" خبر "مِثْلُنا" صفة ونا مضاف إليه والجملة معطوفة "وَإِنْ" الواو حالية وإن مخففة من الثقيلة لا عمل لها "نَظُنُّكَ" مضارع ومفعوله الأول وفاعله مستتر "لَمِنَ الْكاذِبِينَ" متعلقان بالفعل وهما مفعوله الثاني والجملة معطوفة "فَأَسْقِطْ" الفاء الفصيحة وأسقط فعل دعاء فاعله مستتر "عَلَيْنا" متعلقان بأسقط "كِسَفاً" مفعول به "مِنَ السَّماءِ" متعلقان بمحذوف صفة لكسفا "إِنْ" شرطية "كُنْتَ" كان واسمها "مِنَ الصَّادِقِينَ" متعلقان بالخبر والجملة ابتدائية وجملة فأسقط إلخ جواب شرط مقدر لا محل لها .

[سورة الشعراء (26) : الآيات 188 الى 196]

قالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِما تَعْمَلُونَ (188) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كانَ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (189) إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (190) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (191) وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعالَمِينَ (192)

نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (193) عَلى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (194) بِلِسانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ (195) وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ (196)

"قالَ" الجملة مستأنفة "رَبِّي" مبتدأ والياء مضاف إليه "أَعْلَمُ" خبر والجملة مقول القول "بِما" متعلقان بأعلم "تَعْمَلُونَ" الجملة صلة "فَكَذَّبُوهُ" الفاء استئنافية وماض وفاعل ومفعول به والجملة مستأنفة "فَأَخَذَهُمْ عَذابُ" الفاء عاطفة وماض ومفعول به مقدم وفاعل مؤخر "يَوْمِ" مضاف إليه "الظُّلَّةِ" مضاف إليه "إِنَّهُ" إن واسمها والجملة مستأنفة "كانَ عَذابَ" كان واسمها محذوف وعذاب خبرها والجملة خبر إن "يَوْمٍ عَظِيمٍ" مضاف إليه وصفة له وانظر في إعراب الآية 190 و191 إعراب الآيتين 8 و9 "وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ" إن واسمها وخبرها واللام لام الابتداء والجملة مستأنفة "رَبِّ" مضاف إليه "الْعالَمِينَ" مضاف إليه "نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ" ماض وفاعله ومتعلقان بنزل "الْأَمِينُ" صفة "عَلى قَلْبِكَ" متعلقان بنزل "لِتَكُونَ" اللام للتعليل ومضارع ناقص وإن وما بعدها في تأويل مصدر مجرور باللام وهما متعلقان بنزل واسم تكون محذوف وجوبا "مِنَ الْمُنْذِرِينَ" متعلقان بخبر تكون "بِلِسانٍ" متعلقان بنزل "عَرَبِيٍّ" صفة "مُبِينٍ" صفة ثانية "وَإِنَّهُ" الواو واو الحال وإن واسمها "لَفِي زُبُرِ" اللام المزحلقة ومتعلقان بخبر إن "الْأَوَّلِينَ" مضاف إليه والجملة في محل نصب على الحال.

[سورة الشعراء (26) : الآيات 197 الى 201]

أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَماءُ بَنِي إِسْرائِيلَ (197) وَلَوْ نَزَّلْناهُ عَلى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ

(198) فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ ما كانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ (199) كَذلِكَ سَلَكْناهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ
(200) لا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذابَ الْأَلِيمَ (201)

(244/565)

"أَوَلَمْ" الهمزة للاستفهام الإنكاري والواو استئنافية ولم حرف نفي وجزم وقلب "يَكُنْ لَهُمْ آيَةً" مضارع ناقص مجزوم وخبره ومتعلقان بمحذوف حال من آية "أَنْ" حرف ناصب "يَعْلَمَهُ عُلَماءُ" مضارع منصوب ومفعوله المقدم وفاعله المؤخر وأن وما بعدها في تأويل مصدر في محل رفع اسم يكن "بَنِي" مضاف إليه مجرور بالياء "إِسْرائِيلَ" مضاف إليه مجرور بالفتحة نيابة عن الكسرة لأنه ممنوع من الصرف "وَلَوْ" الواو استئنافية ولو شرطية غير جازمة "نَزَّلْناهُ" ماض وفاعل ومفعول به "عَلى بَعْضِ" متعلقان بنزلناه "الْأَعْجَمِينَ" مضاف إليه والجملة ابتدائية "فَقَرَأَهُ" ماض فاعله مستتر ومفعول به والجملة معطوفة "عَلَيْهِمْ" متعلقان بقرأه "ما" نافية "كانُوا" كان واسمها "بِهِ" متعلقان بمؤمنين "مُؤْمِنِينَ" خبر والجملة جواب لو لا محل لها من الإعراب "كَذلِكَ" الكاف صفة لمحذوف مفعول مطلق "سَلَكْناهُ" ماض وفاعل ومفعول به والجملة مستأنفة "فِي قُلُوبِ" متعلقان بسلكناه "الْمُجْرِمِينَ" مضاف إليه "لا يُؤْمِنُونَ" لا نافية ومضارع وفاعل والجملة مستأنفة "بِهِ" متعلقان بيؤمنون

"حَتَّى" حرف غاية وجر "يَرَوُا" مضارع منصوب بأن مضمرة بعد حتى والواو فاعله "الْعَذابَ" مفعول به "الْأَلِيمَ" صفة وأن وما بعدها في تأويل مصدر مجرور بحتى وهما متعلقان بما قبلهما .

[سورة الشعراء (26) : الآيات 202 الى 207]

فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (202) فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ (203) أَفَبِعَذابِنا يَسْتَعْجِلُونَ (204) أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْناهُمْ سِنِينَ (205) ثُمَّ جاءَهُمْ ما كانُوا يُوعَدُونَ (206)

ما أَغْنى عَنْهُمْ ما كانُوا يُمَتَّعُونَ (207)

(245/565)

"فَيَأْتِيَهُمْ" الفاء عاطفة ومضارع منصوب فاعله مستتر والهاء مفعول به والجملة معطوفة "بَغْتَةً" حال "وَهُمْ" الواو حالية وهم مبتدأ والجملة حالية "لا يَشْعُرُونَ" لا نافية ومضارع وفاعل والجملة خبر هم "فَيَقُولُوا" الفاء عاطفة والمضارع معطوف على يأتيهم منصوب مثله وعلامة نصبه حذف النون والواو فاعل "هَلْ" حرف استفهام "نَحْنُ مُنْظَرُونَ" مبتدأ وخبر والجملة مقول القول "أَفَبِعَذابِنا" الهمزة

للاستفهام والتعجب والفاء استئنافية ومتعلقان بيستعجلون ونا مضاف إليه "يَسْتَعْجِلُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة استئنافية "أَفَرَأَيْتَ" الهمزة للاستفهام والفاء عاطفة وماض وفاعل والجملة معطوفة "إِنْ" شرطية "مَتَّعْناهُمْ" ماض وفاعل ومفعول به والجملة ابتدائية "سِنِينَ" ظرف زمان متعلق بمتعناهم "ثُمَّ" عاطفة "جاءَهُمْ" ماض ومفعوله والجملة معطوفة "ما" اسم موصول فاعل جاءهم "كانُوا" كان واسمها "يُوعَدُونَ" الجملة خبر كان وفعل مضارع مبني للمجهول ونائب فاعله وهو مفعول أول والثاني محذوف وجملة كانوا يوعدون لا محل لها صلة "ما" مفعول به مقدم لأغنى "أَغْنى" ماض "عَنْهُمْ" متعلقان بأغنى "ما" اسم موصول فاعل أغنى "كانُوا" كان واسمها "يُمَتَّعُونَ" مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل وجملة يمتعون خبر كانوا وجملة كانوا صلة وجملة ما أغنى إلخ مفعول به ثان لرأيت والمفعول الأول ضمير مستتر.

[سورة الشعراء (26) : الآيات 208 الى 213]

وَما أَهْلَكْنا مِنْ قَرْيَةٍ إِلاَّ لَها مُنْذِرُونَ (208) ذِكْرى وَما كُنَّا ظالِمِينَ (209) وَما تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّياطِينُ (210) وَما يَنْبَغِي لَهُمْ وَما يَسْتَطِيعُونَ (211) إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ (212)

فَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ (213)

"وَما" الواو استئنافية وما نافية "أَهْلَكْنا" ماض وفاعل والجملة استئنافية "مِنْ" حرف جر زائد "قَرْيَةٍ" مجرور لفظا منصوب محلا مفعول به "إِلَّا" أداة حصر "لَها" متعلقان بخبر مقدم "مُنْذِرُونَ" مبتدأ مؤخر والجملة صفة لقرية "ذِكْرى" مفعول لأجله منصوب بالفتحة المقدرة أو خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو ذكرى والجملة معترضة "وَما" الواو حالية وما نافية "كُنَّا ظالِمِينَ" كان واسمها وخبرها والجملة حالية "وَما" الواو عاطفة وما نافية "تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّياطِينُ" ماض وفاعل ومتعلقان بتنزلت والجملة معطوفة "وَما" الواو عاطفة وما نافية "يَنْبَغِي" مضارع فاعله مستتر "لَهُمْ" متعلقان بينبغي والجملة معطوفة "وَما يَسْتَطِيعُونَ" الجملة معطوفة ومضارع وفاعل ومفعوله محذوف تقديره ذلك "إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ" إن واسمها واللام المزحلقة وخبرها والجار والمجرور متعلقان بالخبر والجملة تعليلية لا محل لها "فَلا" الفاء الفصيحة ولا ناهية "تَدْعُ" مضارع مجزوم بحذف حرف العلة فاعله مستتر "مَعَ" ظرف متعلق بحال محذوفة "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "إِلهاً" مفعول به "آخَرَ" صفة والجملة جواب شرط مقدر لا محل لها "فَتَكُونَ" الفاء فاء السببية ومضارع ناقص واسمه مستتر تقديره أنت "مِنَ الْمُعَذَّبِينَ" متعلقان بالخبر المحذوف.

[سورة الشعراء (26) : الآيات 214 الى 220]

وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (214) وَاخْفِضْ جَناحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (215) فَإِنْ

عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ (216) وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (217) الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (218)

وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ (219) إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (220)

(247/565)

"وَأَنْذِرْ" الواو عاطفة وفعل أمر فاعله مستتر "عَشِيرَتَكَ" مفعول به والكاف مضاف إليه والجملة معطوفة "الْأَقْرَبِينَ" صفة "وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ" فعل أمر فاعله مستتر وجناحك مفعوله والكاف مضاف إليه والجملة معطوفة "لِمَنِ" من موصولية ومتعلقان بأخفض "اتَّبَعَكَ" الجملة صلة "مِنَ الْمُؤْمِنِينَ" متعلقان بحال محذوفة "فَإِنْ" الفاء عاطفة وإن شرطية "عَصَوْكَ" ماض وفاعل ومفعول به والجملة ابتدائية "فَقُلْ" الفاء رابطة للجواب وفعل أمر فاعله مستتر والجملة في محل جزم جواب الشرط "إِنِّي بَرِيءٌ" إن واسمها وخبرها والجملة مقول القول "مِمَّا" من جارة ومن موصولية ومتعلقان ببريء "تَعْمَلُونَ" الجملة صلة "وَتَوَكَّلْ" الواو عاطفة وأمر فاعله مستتر "عَلَى الْعَزِيزِ" متعلقان بتوكل "الرَّحِيمِ" صفة العزيز والجملة معطوفة "الَّذِي"

موصول صفة للعزيز "يَرَاكَ"

مضارع فاعله مستتر ومفعوله والجملة حالية "حِينَ"

ظرف زمان متعلق بيراك "تَقُومُ"

مضارع فاعله مستتر والجملة مضاف إليه "وَتَقَلُّبَكَ" الواو عاطفة ومعطوف على الكاف

في يراك والكاف مضاف إليه "فِي السَّاجِدِينَ" متعلقان بمحذوف حال "إِنَّهُ" إن واسمها

"هُوَ" ضمير فصل "السَّمِيعُ" خبر إن "الْعَلِيمُ" خبر ثان لإنه والجملة تعليلية لا محل لها .

[سورة الشعراء (26) : الآيات 221 الى 226]

هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّياطِينُ (221) تَنَزَّلُ عَلى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (222) يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كاذِبُونَ (223) وَالشُّعَراءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغاوُونَ (224) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وادٍ يَهِيمُونَ (225)

وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ ما لا يَفْعَلُونَ (226)

(248/565)

"هَلْ" حرف استفهام "أُنَبِّئُكُمْ" مضارع فاعله مستتر ومفعوله والجملة مقول القول "عَلى مَنْ" من اسم استفهام متعلقان بتنزل "تَنَزَّلُ الشَّياطِينُ" فعل مضارع وفاعله والجملة سدت مسد المفعول الثاني والثالث لأنبئكم "تَنَزَّلُ" مضارع فاعله مستتر "عَلى كُلِّ" متعلقان بتنزل

"أَفَّاكٍ" مضاف إليه وهو الكذاب "أَثِيمٍ" صفة والجملة بدل من تنزل السابقة "يُلْقُونَ السَّمْعَ" مضارع وفاعله ومفعوله والجملة مستأنفة "وَأَكْثَرُهُمْ" الواو حالية ومبتدأ "كاذِبُونَ" خبر والجملة حالية "وَالشُّعَراءُ" الواو استئنافية ومبتدأ "يَتَّبِعُهُمُ الْغاوُونَ" مضارع ومفعوله المقدم وفاعله المؤخر والجملة خبر المبتدأ والجملة الاسمية مستأنفة "أَلَمْ" الهمزة للاستفهام التقريري ولم حرف نفي وجزم وقلب "تَرَ" مضارع مجزوم بحذف حرف العلة فاعله مستتر والجملة مستأنفة "أَنَّهُمْ" أن واسمها والجملة سدت مسد مفعولي تر "فِي كُلِّ" متعلقان بيهيمون "وادٍ" مضاف إليه "يَهِيمُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة خبر أن "وَأَنَّهُمْ" الواو عاطفة وأن واسمها والجملة معطوفة "يَقُولُونَ" الجملة خبر أن وجملة أنهم معطوفة "ما" موصولة مفعول به "لا" نافية "يَفْعَلُونَ" مضارع وفاعله والجملة صلة.

[سورة الشعراء (26) : آية 227]

إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ ما ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ (227)

"إِلَّا" أداة استثناء "الَّذِينَ" مستثنى بإلا في محل نصب "آمَنُوا" الجملة صلة "وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ" ماض وفاعل ومفعول به منصوب بالكسرة والجملة معطوفة على آمنوا "وَذَكَرُوا اللَّهَ" ماض وفاعل ومفعول به "كَثِيراً" صفة لمفعول مطلق أي ذكرا كثيرا والجملة معطوفة "وَانْتَصَرُوا" الجملة معطوفة "مِنْ بَعْدِ" متعلقان بانتصروا "ما" مصدرية "ظُلِمُوا" ماض مبني للمجهول ونائب فاعله والجملة من ما والفعل في تأويل مصدر في محل جر بإضافة بعد إليها "وَسَيَعْلَمُ" مضارع مرفوع "الَّذِينَ" اسم موصول فاعل والجملة مستأنفة "ظُلِمُوا" ماض وفاعل والجملة صلة "أَيَّ" اسم استفهام في محل نصب مفعول مطلق "مُنْقَلَبٍ" مضاف إليه "يَنْقَلِبُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة سدت مسد مفعولي سيعلم ولقد ذم اللّه الشعراء في هذه السورة فجاء شعراء النبي صلى اللّه عليه وسلم كعب بن مالك وعبد اللّه بن رواحة وحسان بن ثابت رضي اللّه عنهم إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يبكون فقالوا يا نبي اللّه إن اللّه أنزل هذه الآية والشعراء يتبعهم الغاوون فقال لهم اقرؤوا ما بعدها إلا الذين آمنوا . .

ففرحوا بنزول هذه الآية التي استثنت المؤمنين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿إعراب القرآن / لدعاس حـ 2 صـ 379. 399﴾

فصل فى تخريج الأحاديث الواردة فى السورة الكريمة

قال الإمام الزيلعى رحمه الله :

سُورَة الشُّعَرَاء

ذكر فِيهَا تِسْعَة أَحَادِيث

907 - الحَدِيث الأول

قَالَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (من اسْتمع إِلَى حَدِيث قوم وهم لَهُ كَارِهُون صبَّتْ فِي أُذُنه الْبرم)

قلت غَرِيب جدا وَذكره ابْن الْأَثِير فِي النِّهَايَة وَقَالَ الْبرم وَهُوَ الْكحل الْمُذَاب

908 - الحَدِيث الثَّانِي

قَالَ عَلَيْهِ السَّلَام لَا تحلفُوا بِآبَائِكُمْ وَلَا بِأُمَّهَاتِكُمْ وَلَا بِالطَّوَاغِيتِ وَلَا تحلفُوا بِاللَّه وَلَا تحلفُوا إِلَّا وَأَنْتُم صَادِقُونَ)

قلت رَوَاهُ النَّسَائِيّ فِي سننه فِي الْإِيمَان بنقص أخبرنَا أَبُو بكر بن عَلّي حَدثنَا عبيد الله بن معَاذ بن معَاذ حَدثنَا أبي حَدثنَا عَوْف عَن مُحَمَّد بن سِيرِين عَن أبي هُرَيْرَة

قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا تحلفُوا بِآبَائِكُمْ وَلَا بِأُمَّهَاتِكُمْ وَلَا بِالْأَنْدَادِ وَلَا تحلفُوا بِاللَّه إِلَّا وَأَنْتُم صَادِقُونَ)

انْتَهَى

وَرَوَى أَيْضا أخبرنَا أَحْمد بن سُلَيْمَان حَدثنَا يزِيد أَنا هِشَام عَن الْحسن عَن عبد الرَّحْمَن بن سَمُرَة عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ لَا تحلفُوا بِآبَائِكُمْ وَلَا بِالطَّوَاغِيتِ)

انْتَهَى

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ من حَدِيث عبد الله بن دِينَار عَن ابْن عمر قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم من كَانَ حَالفا فَلَا يحلف إِلَّا بِاللَّه وَكَانَت قُرَيْش تحلف بِآبَائِهَا فَقَالَ لَا تحلفُوا بِآبَائِكُمْ)

انْتَهَى

(251/565)

---

909 - قَوْله أَلا ترَى هِرقل حِين سَأَلَ أَبَا سُفْيَان عَن أَتبَاع رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَلَمَّا قَالَ ضعفاء النَّاس وَأَرَاذِلهمْ قَالَ مَا زَالَت أَتبَاع الْأَنْبِيَاء كَذَلِك

قلت رَوَاهُ الْبُخَارِيّ وَمُسلم فِي صَحِيحَيْهِمَا من حَدِيث ابْن عَبَّاس قَالَ حَدثنِي أَبُو سُفْيَان بن حَرْب من فِيهِ إِلَى فِي قَالَ انْطَلَقت فِي الْمدَّة الَّتِي كَانَت بَيْننَا وَبَين النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَبينا أَنا بِالشَّام إِذْ جِيءَ بِكِتَاب رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم إِلَى هِرقل جَاءَ بِهِ

دحْيَة الْكَلْبِيّ فَدفعهُ عَظِيم بصرَى إِلَى هِرقل فَقَالَ هِرقل هَل هَا هُنَا أحد من قوم هَذَا الرجل الَّذِي يزْعم أَنه نَبِي قَالُوا نعم قَالَ أَبُو سُفْيَان فَدُعِيت فِي نفر من قُرَيْش فَدَخَلْنَا عَلَيْهِ وأجلسنا بَين يَدَيْهِ فَقَالَ أَيّكُم أقرب نسبا مِنْهُ قَالَ أَبُو سُفْيَان فَقلت أَنا فَقَدَّمَنِي إِلَيْهِ وَجعل أَصْحَابِي خَلْفِي وَقَالَ لترْجُمَانِهِ قل لَهُم إِنِّي سَائِلكُمْ عَن أَمر هَذَا الرجل الَّذِي يزْعم أَنه نَبِي ثمَّ سَأَلَهُمْ كَيفَ حسب هَذَا الرجل فِيكُم قَالَ قلت هُوَ فينَا ذُو حسب قَالَ فَهَل كَانَ من آبَائِهِ ملك قلت لَا قَالَ فَهَل كُنْتُم تتهمُونَهُ بالْكَذِب قبل أَن يَقُول مَا قَالَ قلت لَا قَالَ من تبعه أَشْرَاف النَّاس أم ضُعَفَاؤُهُمْ قَالَ قلت بل ضُعَفَاؤُهُمْ قَالَ فَهَل يزِيدُونَ أم ينقصُونَ قَالَ قلت بل يزِيدُونَ ثمَّ قَالَ

(252/565)

لِترْجُمَانِهِ قل لَهُ إِنِّي سَأَلت عَن حَسبه فِيكُم فَزَعَمت أَنه فِيكُم ذُو حسب وَكَذَلِكَ الرُّسُل تبْعَث فِي أَحْسَاب قَومهَا وَسَأَلْتُك هَل كَانَ فِي آبَائِهِ ملك فَزَعَمت أَن لَا فَقلت لَو كَانَ فِي آبَائِهِ ملك قلت رجل يطْلب ملك آبَائِهِ وَسَأَلْتُك عَن أَتْبَاعه أَضُعَفَاء النَّاس أم أَشْرَافهم فَقلت بل ضُعَفَاؤُهُمْ وَكَذَلِكَ أَتبَاع الرُّسُل . . . الحَدِيث بطُولِه

910 - الحَدِيث الثَّالِث

رُوِيَ أَنه عَلَيْهِ السَّلَام لما دخل مَكَّة قَالَ كل رِبًّا فِي الْجَاهِلِيَّة مَوْضُوع تَحت قدمي هَاتين وَأول مَا أَضَعهُ رِبَّا الْعَبَّاس)

قلت رَوَاهُ مُسلم فِي حَدِيث جَابر الطَّوِيل فِي الْحَج من حَدِيث جَابر بن عبد الله قَالَ مكث رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم تسع سِنِين لم يحجّ ثمَّ أذن فِي النَّاس فِي السّنة الْعَاشِرَة . . . إِلَى أَن قَالَ وكل شَيْء من أَمر الْجَاهِلِيَّة تَحت قدمي مَوْضُوع وَدِمَاء الْجَاهِلِيَّة مَوْضُوعَة وَأول دم أَضَعهُ دم ابْن ربيعَة بن الْحَارث وَربا الْجَاهِلِيَّة مَوْضُوع وَأول رِبًّا أَضَعهُ رِبَّا الْعَبَّاس بن عبد الْمطلب فَإِنَّهُ مَوْضُوع كُله) مُخْتَصرا

وغفل الطِّيبِيّ فَعَزاهُ للتِّرْمِذِي وَابْن ماجة عَن عَمْرو بن الْأَحْوَص سَمِعت رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يَقُول فِي حجَّة الْوَدَاع أَلا إِن كل رِبًّا فِي الْجَاهِلِيَّة مَوْضُوع لكم رُؤُوس أَمْوَالكُم لَا تظْلمُونَ وَلَا تظْلمُونَ)

911 - الْحَدِيث الرَّابِع

(253/565)

رُوِيَ أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم صعد الصَّفَا فَنَادَى يَا بني عبد الْمطلب يَا بني هَاشم يَا بني عبد مناف افْتَدَوْا أَنفسكُم يَا عَبَّاس عَم النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يَا صَفِيَّة عمَّة

النَّبِي إِنِّي لَا أملك لكم من الله شَيْئًا سلوني من مَالِي مَا شِئْتُم)

وَرُوِيَ أَنه جمع بني عبد الْمطلب وهم يَوْمئِذٍ أَرْبَعُونَ رجلا الرجل مِنْهُم يَأْكُل الْجَذعَة وَيشْرب اللَّبن عَلَى رجل شَاة وَقَعْب من لبن فَأَكَلُوا وَشَرِبُوا حَتَّى صدرُوا ثمَّ أنْذرهُمْ فَقَالَ يَا بني عبد الْمطلب لَو أَخْبَرتكُم أَن بسفح هَذَا الْجَبَل خيلا أَكنت مصدقي قَالُوا نعم قَالَ فَإِنِّي نَذِير لكم بَين يَدي عَذَاب شَدِيد)

وَرُوِيَ أَنه قَالَ يَا بني عبد الْمطلب يَا بني هَاشم يَا بني عبد مَنَاف افْتَدَوْا أَنفسكُم من النَّار فَإِنِّي لَا اغني عَنْكُم من الله شَيْئًا ثمَّ قَالَ يَا عَائِشَة بنت أبي بكر وَيَا حَفْصَة بنت عمر وَيَا فَاطِمَة بنت مُحَمَّد وَيَا صَفِيَّة عمَّة مُحَمَّد اشترين أَنْفُسكُنَّ من النَّار فَإِنِّي لَا أُغني عَنْكُم من الله شَيْئًا)

(254/565)

قلت أما الأول وَالثَّالِث فَيقرب مِنْهُ مَا رَوَاهُ الْبُخَارِيّ وَمُسلم من حَدِيث ابْن عَبَّاس قَالَ لما نزلت وأنذر عشيرتك الْأَقْرَبِين خرج رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم حَتَّى صعد الصَّفَا فَهَتَفَ يَا صَبَاحَاه فَقَالُوا من هَذَا الَّذِي يَهْتِف فَقَالُوا مُحَمَّد فَاجْتَمعُوا إِلَيْهِ فَقَالَ يَا بني فلَان يَا بني فلَان يَا بني عبد مَنَاف فَاجْتَمعُوا إِلَيْهِ فَقَالَ أَرَأَيْتكُم لَو أَخْبَرتكُم أَن خيلا تخرج بسفح

هَذَا الْجَبَل أَكُنْتُم مصدقي قَالُوا مَا جربنَا عَلَيْك كذبا قَال فَإِنِّي نَذِير لكم بَين يَدي عَذَاب شَدِيد) فَقَال أَبُو لَهب تبًّا لَك أَلِهَذَا جمعتنَا فَنزلت هَذِه السُّورَة تبت يدا أبي لَهب

وَرَوَى مُسلم من حَدِيث عَائِشَة قَالَت لما نزلت وأنذر عشيرتك الْأَقْرَبِين قَام رَسُول الله عَلَى الصَّفَا فَقَال يَا فَاطِمَة بنت مُحَمَّد يَا صَفِيَّة بنت عبد الْمطلب يَا بني عبد الْمطلب لَا أملك لكم من الله شَيْئًا سلوني من مَالِي مَا شِئْتُم)

وَرَوَى ابْن حبَان فِي صَحِيحه من حَدِيث أبي هُرَيْرَة قَال قَام النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِين نزلت وأنذر عشيرتك الْأَقْرَبِين فَقَال يَا بني عبد مناف وَيَا بني هَاشم لَا أُغني عَنْكُم من الله شَيْئًا يَا صَفِيَّة بنت عبد الْمطلب لَا أُغني عَنْك من الله شَيْئًا يَا فَاطِمَة بنت مُحَمَّد لَا أُغني عَنْك من الله شَيْئًا يَا عَبَّاس بن عبد الْمطلب لَا أُغني عَنْك من الله شَيْئًا)

انْتَهَى

وَرَوَاهُ الْبَزَّار فِي مُسْنده وَزَاد فِيهِ عَائِشَة لَا أُغني عَنْك من الله شَيْئًا

قَال ابْن حبَان وَهَذَا الْخَبَر مَنْسُوخ لِأَن فِيهِ أَنه عَلَيْهِ السَّلَام لَا يشفع لأحد وَأَحَادِيث الشَّفَاعَة إِنَّمَا كَانَت بِالْمَدِينَةِ بعد ذَلِك

انْتَهَى

(255/565)

وَرَوَاهُ الطَّبَرِيّ وَزَاد فِيهِ أَنْقِذُوا أَنفسكُم من النَّار

وَرَوَى الطَّبَرِيّ أَيْضا حَدِيث عَائِشَة وَحَدِيث أبي هُرَيْرَة من طرق كَثِيرَة مُسندَة ومرسلة وَلَيْس فِي شَيْء مِنْهَا ذكر حَفْصَة

لَكِن رَوَى ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره من حَدِيث عَلّي بن يزِيد عَن الْقَاسِم عَن أبي أُمَامَة قَالَ لما نزلت وأنذر عشيرتك الْأَقْرَبِين خرج رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَقَالَ يَا بني هَاشم اشْتَروا أَنفسكُم من النَّار فَإِنِّي لَا أملك لكم من الله شَيْئًا) ثمَّ قَالَ يَا عَائِشَة بنت أبي بكر وَيَا حَفْصَة بنت عمر وَيَا أم سَلمَة وَيَا فَاطِمَة بنت مُحَمَّد وَيَا أم الزُّبَيْر عمَّة رَسُول الله اشْتَروا أَنفسكُم من النَّار فَإِنِّي لَا أملك لكم من الله شَيْئًا)

وَأما الحَدِيث الثَّانِي فَرَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ فِي دَلَائِل النُّبُوَّة من طَرِيق مُحَمَّد بن إِسْحَاق حَدثنِي من سمع عبد الله بن الْحَارِث بن نَوْفَل وَاسْتَكْتَمَنِي اسْمه عَن ابْن عَبَّاس عَن عَلّي بن أبي طَالب قَالَ لما نزلت هَذِه الْآيَة عَلَى رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وأنذر عشيرتك الْأَقْرَبِين عرفت أَنِّي إِن بادأت بهَا قومِي . . . إِلَى أَن قَالَ فَاصْنَعْ لنا يَا عَلّي رجل شَاة عَلَى صَاع من طَعَام وَأعد لنا عس لبن ثمَّ اجْمَعْ لي بني عبد الْمطلب ففعلت فَاجْتمعُوا وهم يَوْمئِذٍ أَرْبَعُونَ رجلا فيهم أَعْمَامه

أَبو طَالب وَحَمْزَة وَالْعَبَّاس وَأَبو لَهب فَقدمت إِلَيْهِم تلْكَ الْجَفْنَة فَأخذ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم حذْيَة فَشَقهَا بِأَسْنَانِهِ ثمَّ رَمَى بهَا فِي نَوَاحِيهَا

(256/565)

وَقَالَ (كلوا بِسم الله) فَأكل الْقَوْم حَتَّى نَهلُوا عَنهُ مَا ترَى إِلَّا آثَار أَصَابعهم وَالله إِن كَانَ الرجل لَيَأْكُل مثلهَا ثمَّ قَالَ اِسْقِهِمْ يَا عَلّي) فَجئْت بذلك الْقَعْب فَشَرِبُوا مِنْهُ حَتَّى نَهلُوا جَمِيعًا وَالله إِن كَانَ الرجل مِنْهُم ليشْرب مثله . . . الحَدِيث مُخْتَصرا

وَرَوَاهُ أَبو نعيم فِي دَلَائِل النُّبُوَّة من طَرِيق ابْن أبي شيبَة حَدثنَا شريك عَن الْأَعْمَش عَن الْمنْهَال بن عَمْرو عَن عباد بن عبد الله الْأَسدي عَن عَلّي بن أبي طَالب قَالَ لما نزلت وأنذر عشيرتك الْأَقْرَبِين قَالَ لي رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم اصْنَع لي رجل شَاة عَلَى صَاع من طَعَام وَأعد قَعْبًا من اللَّبن) فَفعلت ثمَّ قَالَ اجْمَعْ لي بني عبد الْمطلب فَجمعتهمْ وهم يَوْمئِذٍ أَرْبَعُونَ رجلا فَوضعت الطَّعَام بَينهم فَأَكَلُوا حَتَّى شَبِعُوا وَإِن مِنْهُم لمن يَأْكُل الْجَذعَة وَيشْرب الْعس ثمَّ جِئْت بالقعب فَشَرِبُوا حَتَّى رووا فَقَالَ بَعضهم يرَوْنَ أَنه أَبو لَهب مَا رَأينَا سحرًا مثل الْيَوْم ثمَّ عرض عَلَيْهِم رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم مَا عرض

انْتَهَى

وَرَوَى الطَّبَرِيّ وَابْن مرْدَوَيْه فِي تفسيريهما من حَدِيث ابْن إِسْحَاق حَدثنِي عبد الْغفار بن الْقَاسِم عَن الْمنْهَال بن عَمْرو عَن عبد الله بن الْحَارِث بن نَوْفَل ابْن الْحَارِث بن عبد الْمطلب عَن ابْن عَبَّاس عَن عَلّي بن أبي طَالب قَالَ لما نزلت وأنذر عشيرتك الْأَقْرَبِين . . . فَذكره بِلَفْظ الْبَيْهَقِيّ

وَرَوَاهُ الْبَزَّار فِي مُسْنده بِسَنَد الطَّبَرِيّ وَمتْن أبي نعيم سَوَاء

وَقَوله فِي الْكتاب فِيهِ ثمَّ أَنْذرهُمْ فَقَالَ يَا بني عبد الْمطلب لَو أَخْبَرتكُم أَن بسفح هَذَا الْجَبَل خيلا) هُوَ فِي حَدِيث ابْن عَبَّاس كَمَا تقدم عِنْد الْبُخَارِيّ وَمُسلم

(257/565)

---

912 - الْحَدِيث الْخَامِس

قَالَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (أَتموا الرُّكُوع وَالسُّجُود فوَاللَّه إِنِّي لأَرَاكُمْ من خلف ظَهْري إِذا رَكَعْتُمْ وَسَجَدْتُمْ)

قلت رَوَاهُ الْبُخَارِيّ وَمُسلم وَبَاقِي السِّتَّة فِي الصَّلَاة من حَدِيث قَتَادَة عَن أنس قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَتموا الرُّكُوع وَالسُّجُود فوالله إِنِّي لأَرَاكُمْ من بعد ظَهْري) انْتَهَى وَلَفظ النَّسَائِيّ (من خلف ظَهْري إِذا رَكَعْتُمْ وَسَجَدْتُمْ) انْتَهَى

وَأخرج الْبُخَارِيّ وَمُسلم عَن أبي هُرَيْرَة أَنه عَلَيْهِ السَّلَام قَالَ هَل ترَوْنَ قِبْلَتِي هَا هُنَا فوالله مَا يخْفَى عَلّي ركوعكم وَلَا سُجُودكُمْ وَإِنِّي لأركم من وَرَاء ظَهْري)

انْتَهَى

قَالَ الْبُخَارِيّ وَلَا خُشُوعكُمْ عوض سُجُودكُمْ

913 - الْحَدِيث السَّادِس

فِي الْحَدِيث الْكَلِمَة يختطفها الجني فَيَقْرَؤُهَا فِي أذن وليه فيزيد فِيهَا أَكثر من مائَة كذبة)

قلت رَوَاهُ الْبُخَارِيّ وَمُسلم من حَدِيث عَائِشَة قَالَت سَأَل نَاس رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم عَن الْكُهَّان فَقَالَ لَهُم لَيْسُوا بِشَيْء قَالُوا يَا رَسُول الله فَإِنَّهُم يحدثُونَ أَخْبَارًا بالشَّيْء أَحْيَانًا يكون حَقًا فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم تِلْكَ الْكَلِمَة من الْحق يَخْطفهَا الجني فيقر فِي أذن وليه قر الدَّجَاجَة فَيَخْلِطُونَ فِيهَا أَكثر من مائَة كذبة)

انْتَهَى

914 - الْحَدِيث السَّابِع

عَن كَعْب بن مَالك أَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ لَهُ اهجهم فوالذي نَفْس مُحَمَّد بِيَدِهِ لَهو أَشد عَلَيْهِم من النبل)

قلت غَرِيب

وَرَوَى التِّرْمِذِيّ فِي آخر أَبْوَاب الاسْتِئْذَان وَالنَّسَائِيّ فِي الْحَج من حَدِيث جَعْفَر بن سُلَيْمَان عَن ثَابت عَن أنس أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم دخل مَكَّة فِي عمْرَة الْقَضَاء وَعبد الله بن رَوَاحَة بَين يَدَيْهِ وَهُوَ يَقُول

(خلوا بني الْكفَّار عَن سَبيله . . . الْيَوْم نَضْربكُمْ عَلَى تَنْزِيله)

ضربا يزِيل الْهَام عَن مقِيله . . . وَيذْهل الْخَلِيل عَن خَلِيله)

فَقَال لَهُ عمر يَا ابْن رَوَاحَة بَين يَدي رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وَفِي حرم الله تَقول الشّعْر فَقَال رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم خل عَنهُ يَا عمر فَلَهو أسْرع فيهم من نضح النبل

)

انْتَهَى قَال التِّرْمِذِيّ حَدِيث حسن صَحِيح غَرِيب قَال وَرُوِيَ أَن الَّذِي كَان يَقُول الشّعْر بَين يَدي النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم هُوَ كَعْب بن مَالك قَال وَهَذَا أصح عِنْد بعض أهل الحَدِيث لِأَن عبد الله بن رَوَاحَة قتل يَوْم مُؤْتَة وَإِنَّمَا كَانَت عمْرَة الْقَضَاء بعد ذَلِك

انْتَهَى

وَرَوَى ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره من حَدِيث أبي روق عَن الضَّحَّاك عَن ابْن عَبَّاس فِي قَوْله تَعَالَى وَالشعرَاء يتبعهُم الْغَاوُونَ قَال هم الْمُشْركُونَ الَّذين كَانُوا يَهْجُونَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وَأَصْحَابه ثمَّ قَال إِلَّا الَّذين آمَنُوا وَعمِلُوا الصَّالِحَات يَعْنِي حسانا وَعبد الله بن

رَوَاحَة وكَعب بن مَالك كَانُوا يَذبُّونَ عَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابه بِهِجَاء الْمُشْرِكِين

(259/565)

ثمَّ رَوَى من طَرِيق عبد الرَّزَّاق أَنا معمر عَن الزُّهْرِيّ عَن عبد الرَّحْمَن ابْن كَعْب بن مَالك عَن أَبِيه قَالَ لما نزلت وَالشعرَاء يتبعهُم الْغَاوُونَ أتيت رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقلت يَا رَسُول الله مَاذَا ترَى فِي الشّعْر فَقَالَ إِن الْمُؤمن يُجَاهد بِسَيْفِهِ ولسَانه وَالَّذِي نَفسِي بِيَدِهِ لكَأَنَّمَا تَنْضَحُونَهُمْ بالنَّبل)

انْتَهَى

وَرَوَى ابْن سعد فِي الطَّبَقَات فِي تَرْجَمَة كَعْب بن مَالك أخبرنَا عبد الْوَهَّاب بن عَطاء أَنا عبد الله بن عون عَن مُحَمَّد بن سِيرِين أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لكعب بن مَالك هيه) فأنشده فَقَالَ لَهو أَشد عَلَيْهِم من وَقع النبل)

انْتَهَى

وَأخرج مُسلم فِي فَضَائِل حسان عَن أبي سَلمَة عَن عَائِشَة أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ اهجوا قُرَيْشًا فَإِنَّهُ أَشد عَلَيْهَا من رشق النبل)

915 - الحَدِيث الثَّامِن

عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَنه كَانَ يَقُول لحسان قل وروح الْقُدُس مَعَك)

قلت رَوَاهُ النَّسَائِيّ فِي سننه فِي المناقب من حَدِيث أبي إِسْحَاق عَن الْبَراء بن عَازِب أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ لحسان اهج الْمُشْركِين فَإِنَّهُ روح الْقُدُس مَعَك)

انْتَهَى

رَوَاهُ الْحَاكِم فِي الْمُسْتَدْرك وَصححهُ

وَرَوَى ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره فِي سُورَة الْأَحْزَاب من حَدِيث مجَالد عَن الشّعبيّ عَن جَابر أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ يَوْم الْأَحْزَاب من يحمي أَعْرَاض الْمُسلمين) فَقَالَ حسان أَنا يَا رَسُول الله قَالَ نعم اهجهم فَإِنَّهُ روح الْقُدُس سيعينك عَلَيْهِم)

انْتَهَى

(260/565)

والْحَدِيث فِي الصَّحِيحَيْنِ عَن عدي بن ثَابت عَن الْبَراء أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ لَهُم اهجهم وَجِبْرِيل مَعَك)

انْتَهَى

916 - قَوْله وَقد تَلَاهَا أَبُو بكر عَلَى عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهما حِين عهد إِلَيْهِ

قلت رَوَى ابْن أبي حَاتِم فِي تَفْسِيره عَن زَكَرِيَّا بن يَحْيَى الوَاسِطِيّ حَدثنَا الْهَيْثَم ابْن

مَحْفُوظ أَبُو سعيد النَّهْدِيّ حَدثنَا مُحَمَّد بن عبد الرَّحْمَن بن المحبر حَدثنَا هِشَام بن عُرْوَة

عَن أَبِيه عَن عَائِشَة قَالَت كتب أبي وَصيته بِسم الله الرَّحْمَن الرَّحِيم هَذَا مَا أَوْصَى بِهِ أَبُو

بكر بن أبي قُحَافَة عِنْد خُرُوجه من الدُّنْيَا حِين يُؤمن الْكَافِر وَيَنْتَهِي الْفَاجِر وَيصدق

الْكَاذِب إِنِّي اسْتَخْلفت عَلَيْكُم عمر بن الْخطاب فَإِن يعدل فَذَلِك ظَنِّي بِهِ وَإِن يجر وَيظْلم

فَإِنِّي لَا أعلم الْغَيْب وَسَيعْلَمُ الَّذين ظلمُوا أَي مُنْقَلب ينْقَلبُون

انْتَهَى

وَرَوَى ابْن سعد فِي الطَّبَقَات فِي تَرْجَمَة أبي بكر أخبرنَا مُحَمَّد بن عمر

(261/565)

الْوَاقِدِيّ حَدثنِي أَبُو بكر بن عبد الله بن أبي سُبْرَة عَن عبد الْمجيد بن سُهَيْل عَن أبي سَلمَة

بن عبد الرَّحْمَن وَأَخْبرنَا بردَان بن أبي النَّضر عَن أبي النَّضر عَن مُحَمَّد ابْن إِبْرَاهِيم بن

الْحَارِث التَّيْمِيّ وَأَخْبرنَا عَمْرو بن عبد الله بن عَنْبَسَة عَن عبد الله الْبَهِي دخل حَدِيث

بَعضهم فِي بعض أَن أَبَا بكر الصّديق لما اسْتعزَّ بِهِ دَعَا عبد الرَّحْمَن بن عَوْف وَعُثْمَان بن

عَفَّان فَقَالَ لعُثْمَان أَخْبِرنِي عَن عمر بن الْخطاب فَقَالَ لَهُ أَنْت أعرف بِهِ منا وَالله مَا علمي بِهِ إِلَّا أَن سَرِيرَته أحسن من عَلَانِيَته ولَيْس فِينَا جَمِيعًا مثله وَقَالَ عبد الرَّحْمَن مثل ذَلِك وَاسْتَشَارَ مَعَهُمَا سعيد بن زيد وَأسيد بن الْحضير وَغَيرهمَا من الْمُهَاجِرين فَلم يخْتَلف فِيهِ أحد فَأمر أَبُو بكر بدَوَاةٍ وَقِرْطَاس وَقَالَ لعُثْمَان بن عَفَّان اكْتُبْ فَكتب بِسم الله الرَّحْمَن الرَّحِيم هَذَا مَا عهد أَبُو بكر بن أبي قُحَافَة فِي آخر عَهده بالدنيا خَارِجا مِنْهَا وَأول عَهده بالآخِرَة دَاخِلا فِيهَا حَيْث يُؤمن الْكَافِر وَيَنْتَهِي الْفَاجِر وَيصدق الْكَاذِب إِنِّي اسْتَخْلفت عَلَيْكُم بعدِي عمر بن الْخطاب فَاسْمَعُوا لَهُ وَأَطِيعُوا وَإِنِّي لم آل الله وَرَسُوله وديني وَإِيَّاكُم وَنَفْسِي خيرا فَإِن عدل فَذَلِك ظَنِّي بِهِ وَعلمِي فِيهِ وَإِن بدل فَلِكُل امْرِئ مَا اكْتسب وَالْخَيْر أردْت وَلَا أعلم الْغَيْب وَسَيعْلَمُ الَّذين ظلمُوا أَي مُنْقَلب يَنْقَلِبُون فَأمر بِخَتْم الْكتاب ثمَّ رفع يَدَيْهِ وَقَالَ اللَّهُمَّ إِنِّي لم أرد إِلَّا صَلَاحهمْ وَقد عملت فيهم بِمَا أَنْت أعلم بِهِ وَاجْتَهَدت لَهُم رَأْيِي وَوليت عَلَيْهِم خَيرهمْ وَأَقْوَاهُمْ عَلَيْهِ فَاخْلُفْنِي فيهم فَإِنَّهُم عِبَادك وَنَوَاصِيهِمْ بِيَدِك أَصْلحهم لَهُ وَأَصْلحهُ

(262/565)

لَهُم واجعله من خلفائك الرَّاشِدين يتبع هدى نبيك وَهدى الصَّالِحين بعده ثمَّ دَعَا أَبُو بكر عمر فَأَوْصَاهُ بِمَا أَوْصَى وَأمر عُثْمَان فَخرج بِالْكتاب مَخْتُومًا فَقَالَ عُثْمَان للنَّاس تُبَايِعُونَ لمن فِي هَذَا الْكتاب قَالُوا نعم فَقَالَ عَلّي قد علمنَا بِهِ هُوَ عمر بن الْخطاب فرضوا بِهِ جَمِيعًا وَقَامُوا فَبَايعُوهُ

مُخْتَصر من كَلَام طَوِيل

917 - الحَدِيث التَّاسِع

عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ من قَرَأَ سُورَة الشُّعَرَاء كَانَ لَهُ من الْأَجر عشر حَسَنَات بِعَدَد من صدق بِنوح وَكذب بِهِ وَهود وَشُعَيْب

وَصَالح وَإِبْرَاهِيم وَبِعَدَد كل من كذب بِعِيسَى وَصدق بِمُحَمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم

قلت رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ من حَدِيث سَلام بن سليم حَدثنَا هَارُون بن كثير عَن زيد بن أسلم عَن أَبِيه عَن أبي أُمَامَة عَن أبي بن كَعْب عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم

فَذكره

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره بِسَنَدِهِ الثَّانِي فِي آل عمرَان

وَرَوَاهُ الواحدي فِي تَفْسِيره الْوَسِيط بِسَنَدِهِ الْمُتَقَدّم فِي يُونُس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تخريج الأحاديث والآثار حـ 2 صـ 473.483 ﴾

فصل فى ذكر آيات الأحكام فى السورة الكريمة

قال العلامة الكيا هراسي :

(بسم اللّه الرّحمن الرّحيم) «1»

سورة الشعراء

قوله تعالى : (وَاجْعَلْ لِي لِسانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ) ، الآية/ 84 .

فنبه على استحباب اكتساب ما يورث الذكر الجميل «2» .

قوله عز وجل في حق الشعراء :

(وَالشُّعَراءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغاوُونَ) ، الآية/ 224 .

فيه دليل على كراهة اللهج بالشعر في مدح أو قدح ، من غير أن يحقق معناه لاكتساب مال .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿أحكام القرآن / للكيا هراسي حـ 4 صـ 333﴾

---

(1) سميت هذه السورة بهذا الاسم : لاختصاصها بتمييز الرسل عن الشعراء ، لأن الشاعر ، أن كان كاذبا ، فهو رئيس الغواة لا يتصور منه الهداية ، وأن كان صادقا ، لا يتصور منه الافتراء على اللّه تعالى ، وهذا من أعظم مقاصد القرآن .

(2) ويقول القتيبي : «وضع اللسان موضع القول على الاستعارة ، لأن القول يكون به ، وقد

تكنى العرب به عن الكلمة ، وجوز أن يكون المعنى : واجعل لي صادقا من ذريتي ، يجدد أصل ديني ، ويدعو الناس الي ما كنت أدعوهم اليه من التوحيد ، وهو النبي صلّى اللّه عليه وسلم» .

(264/565)

من مجازات القرآن فى السورة الكريمة

قال ابن المثنى :

«سورة الشّعراء» (26)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

«لَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ» (3) أمي مهلك وقاتل قال ذو الرّمّة :

ألا أيهذا الباخع الوجد نفسه لشيء نحته عن يديه المقادر

(456) .

«فَظَلَّتْ أَعْناقُهُمْ لَها خاضِعِينَ» (4) فخرج هذا مخرج فعل الآدميين وفى آية أخرى : «أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي ساجِدِينَ» (12/ 4) وفى آية أخرى «قالَتا أَتَيْنا طائِعِينَ» (41/ 11) فخرج على تقدير فعل الآدميين والعرب قد تفعل ذلك

وقال :

شربت إذا ما الدّيك يدعو صباحه إذا ما بنو نعش دنوا فتصوّبوا

(310) وزعم يونس عن أبى عمرو أن خاضعين ليس من صفة الأعناق وإنما هى من صفة الكناية عن القوم التي فى آخر الأعناق فكأنه فى التمثيل فظلت أعناق القوم فى موضع «هم» والعرب قد تترك الخبر عن الأول وتجعل الخبر للآخر منهما وقال :

طول الليالى أسرعت فى نقضى طوين طولى وطوين عرضى

(121) فترك طول الليالى وحوّل الخبر إلى الليالى فقال أسرعت ثم قال طوين وقال جرير :

رأت مرّ السنين أخذن منى كما أخذ السّرار من الهلال

(120)

(265/565)

رجع إلى السنين وترك «مرّ» وقال الفرزدق :

ترى أرباقهم متقلديها إذا صدئ الحديد على الكماة

«1» [634] فلم يجعل الخبر للأرباق ولكن جعله للذين فى آخرها من كنايتهم ولو كان للأرباق لقال متقلدات ولكن مجازه : تراهم متقلدين أرباقهم .

«وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ» (14) مجازه ولهم عندى ذنب قال القحيف العقيلىّ :

إذا رضيت علىّ بنو قشير لعمر أبيك أعجمنى رضاها «2» [635]

فلا تنبو سيوف بنى قشير ولا تمضى الأسنّة فى صفاها

أي إذا رضيت عنى ، قال أبو النّجم :

قد أصبحت أم الخيار تدّعى علىّ ذنبا كله لم أصنع

«3» [636] .

قَوْلا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعالَمِينَ»

(16) مجاره إنا رسالة رب العالمين قال عباس بن مرداس :

ألا من مبلغ عنى حفافا رسولا بيت أهلك منتهاها

«4» [637] ألا ترى أنه أنها وقال كثيّر عزّة :

لقد كذّب الواشون ما بحت عندهم بسّر ولا أرسلتهم برسول

«5» [638]

---

(1) . - 634 : ديوانه ص 131 والطبري 19/ 35 مصحف .

(2) . - 635 : القحيف : ابن سليم الندى بن عبد اللّه بن عوف . . . شاعر إسلامى مقل يترجم له الحمجى ص 153 والمرزباني ص 74 وله أخبار فى الأغانى 20/ 140 والخزانة 4/ 250 . - والبيتان من قصيدة يمدح بها حكيم بن المسيب القشيري (الخزانة

4/ 249) وهما فى نوادر أبى زيد س 176 والاقتضاب ص 432 والعيني 3/ 282 وشواهد المغني ص 142 .

(3) . - 636 : فى الكتاب 1/ 33 والشنتمرى 1/ 44 ، 38 وشواهد المغني ص 185 والخزانة 1/ 173 ، 445 وهو من شواهد علم المعاني وانظر المعاهد ص 71 .

(4) . - 637 : فى الطبري 19/ 39 واللسان والتاج (رسل) والقرطبي 13/ 94 . [. . . . .]

(5) . - 638 : ديوانه 2/ 243 والطبري 19/ 37 واللسان والتاج (رسل) والقرطبي [13/ 93 وهو من كلمة فى الأغاني 4/ 57 والعيني 3/ 403 وشواهد المغني ص 198 .

(266/565)

أي برسالة . .

«أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرائِيلَ (22) أي اتخذتهم عبيدا .

«فَأَلْقى عَصاهُ فَإِذا هِيَ ثُعْبانٌ مُبِينٌ» (32) فإذا هى حية تسعى ثعبانا ومجاز «مُبِينٌ» أي

بيّن فى الظاهر . .

«وَنَزَعَ يَدَهُ» (33) أي فأخرج يده .

وقوله : «أَرْجِهْ وَأَخَاهُ» (36) أي أخره . .

«أَإِنَّ لَنا لَأَجْراً»

(41) أي ثوابا وجزاء . .

«تَلْقَفُ ما يَأْفِكُونَ» (45) أي ما يفترون ويسحرون . .

«قالُوا لا ضَيْرَ» (50) مصدر ضار يضير ، ويقال : لا يضيرك عليه رجل أي لا يزيدك عليه

«1» «2»

---

(1) . - 9 - 10 «ويقال . . . لا يزيدك عليه» : حكى صاحب اللسان عن ابن الأعرابى أنه قال :

هذا رجل ما يضيرك عليه بحثا مثله للشعر أي ما يزيدك على قوله الشعر (مادة ضير) .

(2) . - 639 : ذكر القرطبي (13/ 99) إنشاد أبى عبيدة لهذا البيت وقد اختلفوا فى عزوه قال البغدادي : هو من أبيات أوردها أبو تمام فى كتاب مختار أشعار القبائل ونسبها لثروان ابن فزارة بن عبد يغوث العامري وأنشد الكلمة (الخزانة 3/ 230) ونسبه سيبويه (الكتاب 1/ 28) إلى خراش بن زهير وزهير هذا هو زهير الصم وهو أخو عبد يغوث جد ثروان الصحابي . والبيت فى الشنتمرى 1/ 23 وشواهد المغني ص 310 .

«إِنَّ هؤُلاءِ لَشِرْذِمَةٌ «1» قَلِيلُونَ» (54) أي طائفة وكل بقية قليلة فهى شرذمة قال :

يحذين فى شراذم النّعال

[640] أي قطع النعال وبقاياها ، وهى هاهنا فى موضع الجماعات ألا ترى أنه قال

شرذمة قليلون .

«وإنّا لجميع حذرون» (56) قال ابن أحمر :

هل أنسأن يوما إلى غيره أنّى حوالى وأنّى حذر

«2» [641] حذر وحذر وحاذر ، وقوم حذرون وحاذرون ، حوالى ذو حيلة ، قال

عباس بن مرداس :

وإنى حاذر أنمى سلاحى إلى أوصال ذيّال منيع

«3» [642] الذيال الفرس الطويل الذنب . .

«فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ» (60) مجاز المشرق مجاز المصبح . .

«كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ» (63) أي كالجبل قال الشاعر :

حلّوا بأنقرة بجيش عليهم ماء الفرات يجىء من أطواد

«4» [643]

---

(1) . - 5 «شرذمة» : أخذ البخاري تفسير هذه الكلمة وأشار اليه ابن حجر وقال : هو تفسير أبى عبيدة قال فى قوله تعالى إن هؤلاء لشرذمة قليلون أي طائفة قليلة (فتح الباري 8/ 384) .

(2) . - 641 : فى الطبري 19/ 44 واللسان والتاج (حول) قال صاحب اللسان قال ابن أحمر ويقال للمرار بن منقذ العدوى .

(3) . - 642 : فى اللسان (ذيل) .

(4) . - 643 : للاسود بن يعفر ، فى ديوانه فى ملحق ديوان الأعشى ص 296 والطبري 19/ 46 ومعجم البلدان 1/ 391 والقرطبي 13/ 107 .

(268/565)

«وَأَزْلَفْنا ثَمَّ الْآخَرِينَ» (64) أي وجمعنا ، ومنه ليلة المزدلفة «1» ، والحجة فيها أنها ليلة جمع وقال بعضهم وأهلكنا . .

«هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ» (72) أي يسمعون دعاءكم وفى آية أخرى «إِذا كالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ» (83/ 3) وفى الكلام أنصتك حتى فرغت واشتقتك أي اشتقت

إليك . .

«وَاجْعَلْ لِي لِسانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ» (84) أي ثناء حسنا فى الآخرين . .

«وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ» (90) قرّبت وأدنيت ، ومنه قوله :

طىّ الليالى زلفا فزلفا سماوة الهلال حتى احقوقفا

(340) ويقال : له عندى زلفة أي قربى . .

«فَكُبْكِبُوا فِيها» (94) أي طرح بعضهم على بعض جماعة جماعة . .

«كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ» (105) قوم يذكّر ويؤنّث . .

«فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً» (118) أي أحكم بينى وبينهم حكما قال الشاعر :

ألا أبلغ بنى عصم رسولا فإنى عن فتاحتكم غنىّ

(251)

---

(1) . - 1 «وجمعنا . . . المزدلفة» : روى القرطبي (13/ 107) تفسير أبى عبيدة هذا .

«فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ» (119) أي المملوء ، ومنه قولهم شحنها عليهم خيلا ورجالا أي ملأها ، والفلك يقع لفظه على الواحد والجميع من السفن سواء ، بمنزلة قوله السلام رطاب وكذلك الحجر الواحد . .

«بِكُلِّ رِيعٍ» (128) وهو الارتفاع «1» من الأرض والطريق والجميع أرياع وريعة قال ذو الرّمة :

طراق الخوافي مشرف فوق ريعة ندى ليله فى ريشه يترقرق

«2» [645] وقال الشّماخ :

تعنّ له بمذنب كل واد إذا ما الغيث أخضل كل ريع

«3» [646] .

«وَتَتَّخِذُونَ مَصانِعَ «4»» (129) وكل بناء مصنعة . .

«وَنَخْلٍ طَلْعُها هَضِيمٌ» (148) أي قد ضمّ بعضه بعضا وهى النخل وهو النخل يذكّر ويؤنّث ، وفى آية أخرى «أَعْجازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ» (2/54) . .

«وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبالِ بُيُوتاً فارِهِينَ» (149) أي حاذقين ، وقال آخرون : فارهين أي مرحين . وقال عدى بن وداع العقوىّ من العقاة بن عمرو بن مالك ابن فهم من الأزد : «5»

---

(1) . - 4 «ريع . . . الارتفاع» : وفى البخاري : الريع الإيفاع من الأرض وجمعه ريعه

وأرياع واحد ريعة ، ولعله مأخوذ من أبى عبيدة ولعل الإيفاع مصحف الارتفاع وقد روى ابن حجر كلام أبى عبيدة : الارتفاع فى الأرض والجمع أرياع وريعة والريعة واحدة أرياع .

(2) . - 645 : ديوانه ص 405 والكامل للمبرد ص 90 والطبري 19/ 53 واللسان والتاج (ريع) والقرطبي 13/ 123 .

(3) . - 646 : ديوانه ص 59 والكامل للمبرد ص 90 .

(4) . - 9 «مصانع» : أخذ البخاري تفسير أبى عبيدة هذا وقال ابن حجر : هو قول أبى عبيدة وزاد بفتح النون وضمها (فتح الباري 8/ 382) .

(5) . - 647 : فى اللسان (ريع ، أفل) .

(270/565)

لا أستكين إذا ما أزمة أزمت ولن ترانى بخير فاره اللبب

«1» [648] أي مرح اللبب ويجوز فرهين فى معنى فارهين . .

«قالُوا إِنَّما أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ» (153) وكل من أكل من إنس أو دابة فهو مسحّر وذلك أن له سحرا يقرى يجمع ما أكل فيه «2» ، قال لبيد بن ربيعة :

فإن تسألينا فيم نحن فإننا عصافير فى هذا الأنام المسحّر

(440) .

«لَها شِرْبٌ» (155) يكسر أوله ويضم ويفتح . .

«إِلَّا عَجُوزاً فِي الْغابِرِينَ» (171) والغابر الباقي قال العجّاج :

فماونى محمد مذ أن غفر له الإله ما مضى وما غبر

(249) أي بقي وكذلك غبر اللبن والحيض وغبر الليل ، ويقال : غبر تخفف من ذا إلا عجوزا وقد هلكت فى الهالكين الذي هلكوا من قومها ومجازها إلا عجوزا هرمة فى العابرين الذين بقوا حتى هرموا وقد أهلكت مع الذين أهلكوا ، وقال الأعشى :

عضّ بما أبقى المواسى له من أمه فى الزمن الغابر

(250) معناه عضّ بالذي أبقى المواسى له من أمه ، الغابر منه أي الباقي ألا ترى أنه قال :

---

(1) . - 648 : «عدى بن وداع» ذكر اسمه المرزباني (معجم الشعراء ص 252) . - والبيت فى الطبري 19/ 57 واللسان (فره) وفتح الباري 8/ 382 . [. . . . .]

(2) . - 3 - 4 «وكل . . . فيه» : روى الطبري (19/ 58) هذا الكلام عن بعض أهل البصرة لعله أبو عبيدة وزاد بقوله واستشهد على ذلك بقول بعيد - البيت ورواه ابن حجر عن أبى عبيدة أيضا فى فتح الباري 8/ 381 وأما رواية ابن دريد عنه فى تفسيره الآية فهى فى الجمهرة 2/ 131 مع البيت المستشهد به .

وكنّ قد أبقين منها أذى عند الملاقى وافر الشافر

(250) .

«أَصْحابُ الْأَيْكَةِ «1»» (176) وجمعها أيك وهى جماع من الشجر . .

«وَزِنُوا بِالْقِسْطاسِ الْمُسْتَقِيمِ» (182) أي بالسّواء والعدل . .

«وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ» (183) أي لا تنقصوهم يقال فى المثل :

تحسبها «2» حمقاء وهى باخسة . .

«وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ» (183) يقال عثيت تعثى «3» عثوا وهى أشد الفساد والخراب

. .

«وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ» (184) أي الخلق «4» وجاء خبرها على المعنى الجماع وإذا نزعت الهاء من آخرها ضممت أوله كما هو فى آية أخرى «وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا» (36/ 62) قال أبو ذوءيب :

---

(1) . - 2 «الأيكة» : قال البخاري فى تفسير هذه الكلمة : الليكة والأيكة جمع أيكة وهى جمع الشجر ، وقال ابن حجر فيه : ومن قوله جمع أيكة إلخ هو من كلام أبى عبيدة

ووقع فيه سهو فان الليكة والأيكة بمعنى واحد عند الأكثر إلخ (فتح الباري 8/ 9381) .

(2) . - 5 «نحسبها . . . إلخ» : وقد مر هذا المثل وتخريجه فى 1/ 83 .

(3) . - 6 «هو . . . تعبث» الذي ورد فى الفروق : روى ابن حجر هذا الكلام عنه فى فتح الباري (8/ 382) .

(4) . - 7 - 8 «هو . . . الخلق» : الذي ورد فى الفروق روى ابن حجر هذا الكلام عن أبى عبيدة أثناء شرحه لقول البخاري : والجبلة الخلق ومنه جبلا وجبلا يعنى الخلق قاله ابن عباس كذا لأبى ذر وليس عند غيره «قال ابن عباس» . وهو أولى فإن هذا كله كلام أبى عبيدة قال فى قوله والجبلة الأولين أي . . . الخلق انتهى وقوله مثقل وغير مثقل لم يبين بكيفيتهما وفيهما قراءات إلخ (فتح الباري 8/ 382) .

(272/565)

منايا يقرّبن الحتوف لأهلها جهارا ويستمتعن بالأنس الجبل

«1» [649] .

«فَأَسْقِطْ عَلَيْنا كِسَفاً مِنَ السَّماءِ» (187) جمع كسفة بمنزلة سدرة والجميع سدر

ومعناها قطعا . .

«لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ» (196) أي كتب الأولين واحدها زبور . .

«وَلَوْ نَزَّلْناهُ عَلى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ «2»» (198) يقال رجل أعجم إذا كانت فى لسانه عجمة ، ورجل عجمى أي من العجم وليس من اللسان ، قال ذو الرّمة :

أحبّ المكان القفر من أجل أننى به أتغنّى باسمها غير معجم

«3» [650] والدواب عجم لأنها لا تتكلّم وجاء فى الحديث العجماء جبار لا تودى أي لا دية فيه . .

«إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ» (212) مفتوح الأول لأنه مصدر «سمعت» «و المعنى الاستماع» يقال : سمعته سمعا حسنا . .

«وَاخْفِضْ جَناحَكَ» (215) أي ألن جانبك وكلامك . .

«كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ» (222) أي كذّاب بهّات أثيم أي آثم بمنزلة عليم فى موضع عالم : .

«فِي كُلِّ وادٍ يَهِيمُونَ» (225) الهائم هو المخالف للقصد الجائر عن كل حق وخير . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مجاز القرآن حـ 2 صـ 83. 91 ﴾

---

(1) . - 649 : ديوان الهذليين ، ص 38 والطبري 19/ 60 والجمهرة 1/ 12 ، واللسان والتاج (جيل) .

(2) . - 8 «العجماء . . . لا تودى» : هذا الحديث فى اللسان : العجماء جرحها

جبار ، أي لادية فيه ولا قود أراد بالعجماء البهيمة تنفلت فتصيب . . . إنسانا فى انفلاتها فذلك هدر وهو معنى الجبار (عجم) وانظر اللسان أيضا (جبر) والنهاية (عجم) .

(3) . - 650 : ديوانه ص 628 - والكامل للمبرد فى 167 ، 412 .

(273/565)

من مجازات القرآن واستعاراته فى السورة الكريمة

قال الشريف الرضى :

ومن السورة التي يذكر فيها «الشعراء»

[سورة الشعراء (26) : آية 61]

فَلَمَّا تَراءَا الْجَمْعانِ قالَ أَصْحابُ مُوسى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (61)

قوله سبحانه «1» : فَلَمَّا تَراءَا الْجَمْعانِ ، قالَ أَصْحابُ مُوسى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ [61] وهذه استعارة . والمراد بها : العبارة عن التقارب والتداني . وإنما قلنا إن اللفظ مستعار ، لأنه قد يحسن أن يوصف به الجمعان ، وإن لم ير بعضهم بعضا بالموانع ، من مثار العجاج ، ورهج الطّراد . لأن المراد به تقارب الأشخاص ، لا تلاحظ الأحداق ، وذلك كقولهم فى الحيّين

المتقاربين : تتراءى ناراهما . أي تتقابل وتتقارب . لكون النارين بحيث لو كان بدلا منهما إنسانان لرأى كل واحد منهما صاحبه . وقد أومأنا إلى ذلك فيما مضى «2» .

ويقال أيضا : قوم رئاء ، على وزن فعال أي يقابل بعضهم بعضا . وكذلك بيوتهم رئاء إذا كانت متقابلة . ذكر ذلك أحمد بن يحيى ثعلب «3» .

ومن هذا الباب الحديث المشهور عن النبي صلّى اللّه عليه وسلم ، وهو قوله : (أنا

---

(1) فى الأصل : «ولما» بالواو وهو تحريف من الناسخ والصواب فلما . بالفاء .

(2) فى الكلام فى مجازات سورة الفرقان . الآية رقم 12 .

(3) لم نجد لذلك ذكرا فى «مجالس ثعلب» التي نشرتها «دار المعارف» بتحقيق الأستاذ عبد السلام محمد هارون . ووجدنا ذلك فى «الأساس» للزمخشرى . وثعلب هو إمام الكوفيين فى النحو واللغة .

اشتهر بالرواية والحفظ والصدق وكان ثقة . ومات بصدمة فرس سقط بسببها فى هوة فتوفى على الأثر سنة 291 ه .

برىء من كل مسلم مع مشرك. قيل: ولم يا رسول اللّه؟ . . . . «1» لا تراءى ناراهما.

وقد استقصينا الكلام على معنى هذا الخبر فى كتاب «مجازات الآثار النبوية».

[سورة الشعراء (26): آية 118]

فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (118)

وقوله سبحانه فَافْتَحْ بَيْنِي «2» وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً، وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ [118]

وهذه استعارة. والمراد بها- واللّه أعلم- فاحكم بيننا وبينهم حكما «3» قاطعا،

وأمرا فاصلا: بفتح الباب المبهم بعد ما استصعب رتاجه، وأعضل علاجه.

ويقال للحاكم: الفتّاح، لأنه يفتح وجه الأمر بعد اشتباهه واستبهام أبوابه. وقال تعالى:

وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ «4» وقال بعض بنى ذهل بن زيد بن نهد «5»:

وعمّى الّذى كانت فتاحة» قومه إلى بيته حتّى يجهّز غاديا

أي كان الحكم بين قومه فيه وفى أهل بيته إلى حين وفاته. وقال فتاحة قومه بكسر الفاء،

لأنها فى معنى الولاية والزعامة وما يجرى مجراهما.

[سورة الشعراء (26): آية 148]

وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُها هَضِيمٌ (148)

وقوله سبحانه: وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُها هَضِيمٌ [148] وهذه استعارة. والمراد بالهضيم

هاهنا على بعض الأقوال- واللّه أعلم- الذي قد ضمن «7» بدخول بعضه فى بعض،

فكأنّ بعضه هضم بعضا لفرط تكاثفه ، وشدة تشابكه .

---

(1) هنا نقص . وقد ذكرنا نص الحديث كاملا فى أول سورة الفرقان . [. . . . .]

(2) فى الأصل «بيننا» وهو تحريف من الناسخ .

(3) مطموسة بالأصل . والسياق يدل عليها .

(4) سورة سبأ . الآية رقم 26 .

(5) لم أهتد إلى اسم هذا الشاعر .

(6) وفى «اللسان» الفتاحة بالضم : الحكم ، والفتاحة والفتاحة أن تحكم بين خصمين .

والفتاحة : الحكومة . قال الأشعر الجعفي :

ألا من مبلغ عمرا رسولا فإنى عن فتاحتكم غنى والفتاح : الحاكم . وأهل اليمن يقولون

للقاضى : الفتاح .

(7) هكذا بالأصل . ولعلها . ضم .

وقيل : الهضيم اللطيف . وذلك أبلغ فى صفة الطّلع الذي يراد للأكل . وذلك مأخوذ من

قولهم : فلان هضيم الحشا . أي لطيف البطن . وأصله النقصان من الشيء .

كأنه نقص من انتفاخ بطنه ، فلطفت معاقد خصره . ومنه قوله تعالى : فَلا يَخافُ ظُلْماً وَلا هَضْماً «1» أي نقصا وثلما .

وقيل الهضيم الذي قد أينع وبلغ . وقيل أيضا هو الذي إذا مسّ تهافت من كثرة مائه ، ورطوبة «2» أجزائه .

والقولان الأخيران يخرجان الكلام عن حد الاستعارة .

[سورة الشعراء (26) : آية 219]

وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ (219)

وقوله تعالى : وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ [219] وهذه استعارة . وليس هناك تقلّب منه على الحقيقة . وإنما المراد به تقلّب أحواله بين المصلّين وتصرّفه فيهم بالركوع والسجود ، والقيام والقعود . وذهب بعض علماء الشيعة فى تأويل هذه الآية مذهبا آخر ، فقال : المراد بذلك تقلّب الرسول صلّى اللّه عليه وسلم فى أصلاب الآباء المؤمنين . واستدل بذلك على أن آباءه «3» إلى آدم عليه السلام مسلمون ، لم تختلجهم خوالج الشرك ، ولم تضرب فيهم أعراق الكفر ، تكريما له عليه السلام عن أن يجرى إلا فى منزهات الأصلاب ، ومطهّرات الأرحام . وهذا الوجه يخرج به الكلام عن أن يكون مستعارا .

[سورة الشعراء (26) : الآيات 223 الى 225]

يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كاذِبُونَ (223) وَالشُّعَراءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغاوُونَ (224) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي

كُلِّ وادٍ يَهِيمُونَ (225)

وقوله سبحانه: يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كاذِبُونَ [223] وهذه استعارة على أحد التأويلين. وهو أن يكون المراد بها أنهم يشغلون أسماعهم، ويديمون إصغاءهم ليسمعوا من أخبار السماء ما يموّهون به على الضّلّال من أهل الأرض، وهم عن السمع

---

(1) سورة طه. الآية رقم 112

(2) فى الأصل: «ولطوته» وهو تحريف والرطوبة مناسبة هنا لكثرة الماء.

(3) فى الأصل: «أباه» بالمفرد وهو تحريف بدليل قوله بعد ذلك: مسلمون.

بمعزل، وعن العلم بمزجر. وذلك كقول القائل لغيره: قد ألقيت إليك سمعى. أي صرفته إلى حديثك، ولم أشغله بشىء غير سماع كلامك.

والتأويل الآخر أن يكون السّمع ها هنا بمعنى المسموع، كما يكون العلم بمعنى المعلوم «1» فيكون التأويل أن الشياطين يلقون ما يدّعون أنهم يستمعونه إلى كل أفاك أثيم، من أعداء النبي صلّى اللّه عليه وعلى آله. على طريق الوسوسة واعتماد القدح فى الشريعة. وهذا الوجه يخرج الكلام عن حد الاستعارة.

وقوله سبحانه : وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ، أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ [224 ، 225] . وهذه استعارة . والمراد بها – والله أعلم – أن الشعراء يذهبون فى أقوالهم المذاهب المختلفة ، ويسلكون الطرق المتشعبة . وذلك كما يقول الرّجل لصاحبه إذا كان مخالفا له فى رأى ، أو مباعدا له فى كلام : أنا فى واد ، وأنت فى واد . أي أنت ذاهب فى طريق وأنا ذاهب فى طريق . ومثل ذلك قولهم : فلان يهبّ مع كل ريح ، ويطير بكل جناح . إذا كان تابعا لكل قائد ، ومجيبا لكل ناعق .

وقيل إن معنى ذلك تصرّف الشاعر فى وجوه الكلام من مدح وذم ، واستزادة ، وعتب ، وغزل ، ونسيب ، ورثاء ، وتشبيب . فشبّهت هذه الأقسام من الكلام بالأودية المتشعبة ، والسبل المختلفة .

ووصف الشعراء بالهيمان فيه «2» فرط مبالغة فى صفتهم بالذهاب فى أقطارها ، والإبعاد فى غاياتها . لأن قوله سبحانه : يَهِيمُونَ أبلغ فى هذا المعنى من قوله : يسعون ، ويسيرون . ومع ذلك فالهيمان صفة من صفات من لا مسكة له ولا رجاحة معه ، فهى مخالفة لصفات ذى الحلم الرزين ، والعقل الرصين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تلخيص البيان صـ 256.259 ﴾

---

(1) فى الأصل . «الملوم» وهو ظاهر التحريف .

(2) فى الأصل «فيها» وهو تحريف .

فصل فى التفسير الموضوعى للسورة كاملة

قال الشيخ محمد الغزالى :

سورة الشعراء

لقيت الدعوة الإسلامية مقاومة شديدة من جمهور المشركين الذين استنكروا أن يكون الله واحدا وأن يكون محمد رسوله ! . . وهم قد مردوا على حياة لا تعرف الوحى ، ولا تصدق بآخرة . وكانت نظرتهم إلى بقايا أهل الكتاب تنطوى على الزراية والاستهانة ، ولذلك أعرضوا عن الإيمان بالرسالة الخاتمة ، وكلما ازداد الرسول حرصا على دعوتهم كذبوه وكابروه ، وكأنما شعروا بمزيد حرصه على إيمانهم فأرادوا إحزانه بالانصراف عنه ، وإدخال الكآبة على نفسه ! . فقال الله له : " تلك آيات الكتاب المبين * لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين " ! ! أقاتل أنت نفسك وراءهم ؟ " إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين " . لكن حكمة الله قضت أن تكون آية محمد وحيا يتلى تستمع إليه أجيال المستقدمين والمستأخرين . وهو يخاطب العقول ويهاجم الخرافات الشائعة . ماذا يطلبون ؟ يطلبون آية مادية تبهرهم فيستسلمون كما يقولون ! . ما أكثر

الآيات من حولهم لو كانت لهم بصيرة مخفوءة: آيات فى المكان والزمان ! . فأما المكان فقد اكتفى القرآن الكريم بذكر الأرض التى تبدو جرداء عفراء وبعد حين تتحول إلى رقعة نضيرة خضراء حافلة بالثمر الطيب والجنى الكريم ! ! "أولم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم * إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين * وإن ربك لهو العزيز الرحيم ! . والآيتان الآخيرتان تكررتا ثمانى مرات فى هذه السورة: مرة واحدة بعد آية مكانية فى الأرض التى نعيش فوقها ، والتى منها بدأنا وإليها نعود ، وسبع مرات بعد آيات توحى بها أحوال الأمم الأولى ، تلك الأمم التى جاء المرسلون إليها بمثل الوحى الذى جاء به محمد ، فأبت إلا الصدود والكفران . فآبت بالهلاك والخسران ، فهل يريد العرب أن يردوا المصير نفسه ؟ ! .

(278/565)

والأنبياء هم سائقو الرشد إلى الفكر الإنسانى ، وهم أطهر الناس قلوبا ، وأشدهم إخلاصا ، ما طلبوا كسبا ماديا ولا أدبيا من أحد . بل إنهم جميعا رددوا ما جاء على لسان نوح الذى قال الله فيه : "كذبت قوم نوح المرسلين * إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون * إني لكم رسول أمين * فاتقوا الله وأطيعون * وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا

على رب العالمين " . إن الأنبياء ما تطلب من الشعوب إلا تقوى الله ، وما تطلب على رسالتها أجرا من أحد ، وما جرى بخاطر أحدهم أن يطلب فى الأرض علوا أو فسادا . ومع ذلك عوملوا بغلظة ، وقتل بعضهم وهو يؤدى واجبه ، فماذا كانت العاقبة ؟ " أفرأيت إن متعناهم سنين * ثم جاءهم ما كانوا يوعدون * ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون * وما أهلكنا من قرية إلا لها منذرون * ذكرى وما كنا ظالمين " . وتضمنت سورة الشعراء جملة الأمم القديمة ، موسى مع فرعون ، وإبراهيم مع قومه ، وكذلك قصص عاد وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة . . . وظهرت فيها جميعا وحدة العرض الحسن المنزه عن كل غرض ، ووحدة الرد السيئ المشوب بالعناد والغدر . . . وننظر أولا فى قصة موسى فيستوقفنا تساؤل فرعون عن الله ، ما هو ؟ . إنه يسأل عن الكنه وذاك مستحيل ، فنحن لانعرف كنه أنفسنا فكيف نعرف خالقنا ؟ . ولذلك جاء الرد بالإجابة الممكنة " قال فرعون وما رب العالمين * قال رب السماوات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين * قال لمن حوله ألا تستمعون * قال ربكم ورب آبائكم الأولين * قال إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون . . . " إلخ . . والجواب هنا يشبه الجواب فى سورة طه ، وقد رفض فرعون الإيمان بهذا الإله ، وقال لموسى : " قال لئن اتخذت إلها غيري لأجعلنك من المسجونين " ! . ثم تحدد يوم عام يعرض فيه موسى ما عنده ، ويواجه السحرة ، وطيب من الجماهير أن تحضر

المباراة ! ويلفت نظرنا هنا أن الناس لم يحددوا موقفهم إذا انهزم السحرة ، بل الذى دار على ألسنتهم : " وقيل للناس هل أنتم مجتمعون * لعلنا نتبع

(279/565)

السحرة إن كانوا هم الغالبين " ! . إن اتباع موسى لم يخطر بالبال . . ! وأوغل فى البعد أن ينهزم السحرة ويتبعوا موسى ، ويخلعوا

إيمانهم بفرعون ! ! ولكن ذلك ما حدث ، وقد جن جنون فرعون وغلب عليه صلف ألوهيته المزعومة " قال آمنتم له قبل أن آذن لكم إنه لكبيركم الذي علمكم السحر فلسوف تعلمون لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم أجمعين " . والحق أن موقف هؤلاء السحرة لاينفك يثير العجب ، لقد انتقلوا فى لحظة قصيرة من الارتزاق بالضلال إلى قمة التضحية بكل شىء فى ذات الله ، فسبقوا سبقا بعيدا ! . أما فرعون فقد بقى على غروره وعناده ، وتساءل بغباء كيف يؤمن الناس دون أن يأخذوا منه إذنا ؟ كأن ضمائرهم ملك له ! ! . وتراخت الأيام ، وقرر موسى أن يخرج من مصر مع قومه فرارا من العبودية والعذاب ، فعبأ فرعون جيشه وخرج وراءهم كى يستعيدهم ، واقترب الفريقان حتى أصبحا على مد البصر . وقال اليهود " إنا لمدركون " . وروت التوراة جزعهم

وفرقهم وصياحهم لولا أن موسى قال : " قال كلا إن معي ربي سيهدين " . واعترض البحر الأحمر الطريق ، وهنا تدخلت العناية العليا ، فإن موسى ضرب البحر بعصاه ، فانحسرت المياه يمينا ويسارا ، وانكشفت اللجج عن طريق يابس عبر منه الإسرائيليون إلى الشاطئ الآخر . وحاول فرعون أن يتبعهم فأطبق عليه الموج من كل جانب ، وانتهت قصة ألوهية كاذبة ، عربدت حينا ثم لفظت أنفاسها بين الماء والطين . إن الذى آتى إبراهيم رشده زوده بإيمان سهل سائغ لا تقفر فيه ولا التواء . ونحن نزداد شعورا بذلك كلما قرأنا كتب الفلاسفة الإلهيين ، وطالعنا ما بها من تعقيد . أما إبراهيم فهو يقول عن ربه : " الذي خلقني فهو يهدين * والذي هو يطعمني ويسقين * وإذا مرضت فهو يشفين * والذي يميتني ثم يحيين * والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين " . ونبينا محمد – عليه الصلاة والسلام – أولى الناس بإبراهيم ، وأقربهم إليه . والدعوة إلى التوحيد شعار الأنبياء كلهم ، فهم جميعا خصوم

الشرك ، وقد طاف إبراهيم أقطارا شتى وهو يحارب الأوثان . ومع أن البشر الذين أشركوا خصوا الإله الأعظم بمكانة خاصة ، إذ جعلوا الآلهة الأخرى وسطاء له وشفعاء

عنده ، فإنهم سرعان ما سووهم به ، بل ذكروهم دونه ! ! .

ولذلك جاء فى قصة إبراهيم هنا عن حديث المشركين فى النار : " قالوا وهم فيها يختصمون * تالله إن كنا لفي ضلال مبين * إذ نسويكم برب العالمين * وما أضلنا إلا المجرمون * فما لنا من شافعين * ولا صديق حميم " . والحضارة المعاصرة يغلبها النسيان ، وإذا كان الشرك يشوب عقائدها فهى فى ولهها بالحياة الدنيا لا تذكر الله ، ولا ما جعلته جزءا منه ! ! . والقرآن الكريم ذكر قصة إبراهيم بعد قصة موسى ، وقبل قصة نوح ، لأن السرد التاريخى لا يعنيه . إنما تعنيه العبرة التى تنفع الناس ! ! . وفى قصة نوح نلحظ أن ازدراء الفقراء والضعفاء بدأ من عصر مبكر ، فالغنى يكره الفقير ، والقوى يحتقر الضعيف ، وكأن بذور نظام الطبقات وجدت من فجر الإنسانية . والفقراء بداهة أسرع الناس إلى اتباع الأنبياء ، لأنهم يلتمسون لديهم الإنصاف والكرامة ، وذاك ما لا يعجب الكبراء ولذلك قالوا لنوح: " . . . أنؤمن لك واتبعك الأرذلون * قال وما علمي بما كانوا يعملون * إن حسابهم إلا على ربي لو تشعرون * وما أنا بطارد المؤمنين * إن أنا إلا نذير مبين " . ومعروف أن مشركى مكة بعد أعصار طويلة طلبوا مثل ذلك من محمد – عليه الصلاة والسلام – فأبى وقال الله له: " ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه . . . " . ما هذا الشبه . . . " أتواصوا به بل هم قوم طاغون * فتول عنهم فما أنت بملوم " . على أن قصة الإيمان والكفر ليست قصة أغنياء وفقراء ، فقد آمن بمحمد

المكثرون والمقلون ، وجمعتهم الصلوات فى صفوفها المسواة ، ورضى كل منهم بالاختبار الإلهى الذى تعرض له ! ! . ولعل أقرب القصص إلى طبيعة العصر الحاضر قصة عاد وثمود ، وبينهما على بعد المكان قرب شديد ! كانت عاد من الناحية الجثمانية

(281/565)

عمالقة ، قامات مديدة ، وعضلات مفتولة ، وعافية عاتية . وكان القوم من الناحية العقلية أصحاب ذكاء ودهاء يضرب بهما المثل . قال النابغة الذبيانى يمدح الغساسنة: أحلام عاد ، وأجساد مطهرة من المعقة والآفات والأثتم ! . ولكن عادا أبطرها هذا التفوق المادى والأدبى وقالوا: من أشد منا قوة ؟ .

وأخذوا يستمتعون بالحياة على نحو مفرط ، يتطاولون فى البنيان ، ويذهبون بأنفسهم ، وإذا وقع بأيدهم ضعيف بطشوا به ، لايخافون قصاصا ! من يقدر عليهم ؟ . قال لهم نبيهم هود: " أتبنون بكل ريع آية تعبثون * وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون * وإذا بطشتم بطشتم جبارين * فاتقوا الله وأطيعون " والريع: الربوة أو التل أو المكان المرتفع . والآيات التى بنوها قيل: علامات تدل على الطرق فى هذه المتاهات الرملية ! وقيل: بل القصور المشيدة ، والمصانع ، وقيل: خزانات للمياه ، وقيل: حصون سامقة . . وعند التأمل نجد

أن بناء البيوت العالية والسدود المائية ليست مما يؤاخذ امرؤ عليه ! ولذلك قال العلماء :

إن الذى أخذ عليهم الترف الشديد ، والإغراق فى حب الدنيا ، والذهول عن الله ، واجتياح حقوق الآخرين ! . ونحن نشهد فى المعاصرين من أبناء أوروبا وأمريكا أنهم يشيدون ناطحات السحاب ، ويتطاولون فى البنيان ، ويذكرون شهواتهم ، وينسون وصايا ربهم . ف !ذا حاربوا فجروا الذرة بالهلاك العام ! وإذا خاصموا لم يبالوا بما يلقى عدوهم من هوان وخسف ! ! . وغضب الله على عاد وثمود وأشباههم فى الآخرين إنما يجىء من هذه الناحية ، مع جهل بالله ، وذهول عن لقائه وجرأة عليه . . ثم جاء قوم لوط ، والغريب أن الحضارة الحديثة مهددة بالاستغراق فى الملذات ، والإقبال على الشذوذ ، ولما بدت نذر الموت ما صاح أحد بضرورة العفاف والتقوى ، بل تضافرت الجهود العالمية على استكشاف وسيلة تجمع بين اللذة الحرام والنجاة من العواقب المهلكة ! ! . وهذا لون من الإسراف يقتل الشعوب " أتأتون الذكران من العالمين * وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم

(282/565)

بل أنتم قوم عادون " . وقد دمر الله هذه القرى ، وللكافرين أمثالها . . . ! . ثم ختمت هذه القصص القديمة بشعيب وأصحاب الأيكة الذين قيل لهم: " أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين * وزنوا بالقسطاس المستقيم * ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين " .

ولكن قوم شعيب أكلوا الحقوق ، واستحفوا المظالم فبادوا . . والأمة الإسلامية مكلفة بكل خير كلفت به الأمم الأولى . ورسالتها العامة لسائر الخلق تجعلها حاملة لمواريث الهداة السابقين ، وإذا كانت بقايا أهل الكتاب قد نسيت – أو تناست – مالديها ، فلنذكر نحن أن محمدا صاحب رسالة عامة خالدة ، جمعت ما تناثر خلال القرون الأولى من عظات وعبر ، واستبقته وحيا يتلى إلى آخر الدهر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نحو تفسير موضوعى صـ 285.290 ﴾

(283/565)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِي - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء السادس والستون بعد الخمسمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/566)

الجزء السادس والستون بعد الخمسمائة

من الآية ﴿ 1 ﴾ من سورة الشعراء

وحتى الآية ﴿ 22 ﴾ من نفس السورة

(4/566)

" فصل "

قال السيوطى :

سورة الشعراء

أقول وجه اتصالها بسورة الفرقان أنه تعالى لما أشار فيها إلى قصص مجملة بقوله (ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلنا معه أَخاه هارون وزيراً فقلنا اذهبا إلى القوم الذين كذبوا بآياتنا فدمرناهم تدميراً وقوم نوح لما كذبوا الرسل أَغرقناهم وجعلناهم للناس آية وأَعتدنا للظالمين عذاباً أَليماً وعاداً وثمود وأَصحاب الرس وقروناً بينَ ذِلكَ كثيراً) شرح هذه القصص ، وفصلها أبلغ تفصيل في الشعراء التي تليها ، ولذلك رتبت على ترتيب ذكرها في الآيات المذكورة فبدئ بقصة موسى ، ولو رتبت على الواقع لأخرت كما في الأعراف فانظر إلى هذا السر اللطيف الذي من الله بإلهامه ولما كان في الآيات المذكورة بقوله (وقروناً بينَ ذِلكَ كثيراً) زاد في الشعراء تفصيلاً لذلك قصة قوم إبراهيم ، وقوم لوط ، وقوم شعيب ولما ختم

الفرقان بقوله: (وإذا خاطبَهُم الجاهلونَ قالوا سَلاما) وقوله: (وإذا مروا باللغوِ مروا كِراماً)

ختم هذه السورة بذكر الشعراء الذين هم بخلاف ذلك ، واستثنى منهم من سلك سبيل

أولئك ، وبين ما يمدح من الشعر ، ويدخل في قوله (سلاماً) وما يذم منه ، ويدخل في اللغو .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿أسرار ترتيب القرآن صـ 120 . 121 ﴾

(6/566)

قوله تعالى ﴿ طسم (1) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (2) لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (3) إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ (4) وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ (5) فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (6) أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (7) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (8) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (9) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

(بسم الله) الذي دل على علو كلامه ، على عظمة شأنه وعز مرامه (الرحمن) الذي لا يعجل على من عصاه (الرحيم) الذي يحيي قلوب أهل وده بالتوفيق لما يرضاه

﴿ طسم ﴾ لعله إشارة إلى الطهارة الواقعة بذي طوى من طور سيناء وطيبة ومكة وطيب ما نزل على محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ مما يجمع ذلك كله – كما روي عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ ما يرشد إلى ذلك ، وإلى خلاص بني إسرائيل بما سمعه موسى عليه السلام من الكلام القديم ، وبإتمام أمرهم بتهيئتهم للملك بإغراق فرعون وجنوده ونصرهم على من ناوأهم في ذلك الزمان بعد تطهيرهم بطول البلاء الذي أوصلهم إلى ذل العبودية ، وذلك كله إشارة إلى تهديد قريش بأنهم إن لم يتركوا لددهم فعل بهم ما فعل بفرعون وجنوده من الإذلال بأي وجه أراد .

وخلص عباده منهم ، وأعزهم على كل من ناوأهم .

(7/566)

ولما فرق سبحانه في تلك بين الدين الحق والمذهب الباطل ، وبين ذلك غاية البيان ، وفصل الرحمن من عباد الشيطان ، وأخبر أنه عم برسالته ـ صلى الله عليه وسلم ـ جميع الخلائق ، وختم بشديد الإنذار لأهل الإدبار ، بعد أن قال ﴿ فقد كذبتم ﴾ وكان حين نزولها لم يسلم منهم إلا القليل ، وكان ذلك ربما أوهم قرب إهلاكهم وإنزال البطش بهم ، كما كان في آخر سوة مريم ، وأشارت الأحرف المقطعة إلى مثل ذلك ، فأوجب الأسف على فوات ما كان

يرجى من رحمتهم بالإيمان ، والحفظ عن نوازل الحدثان ، وكان ذلك أيضاً ربما أوجب أن يظن ظان ، أن عدم إسلامهم لنقص في البيان ، أزال ذلك سبحانه أول هذه فقال ﴿ تلك ﴾ أي الآيات العالية المرام ، الحائزة أعلى مراتب التمام ، المؤلفة من هذه الحروف التي تتناطقون بها وكلمات لسانكم ﴿ ءايات الكتاب ﴾ أي الجامع لكل فرقان ﴿ المبين ﴾ أي الواضح في نفسه أنه معجز ، وأنه من عند الله ، وأن فيه كل معنى جليل ، الفارق لكل مجتمع ملتبس بغاية البيان ، فصح أنه كما ذكر في التي قبلها ، فإن الإبانة هي الفصل والفرق ، فصار الإخبار بأنه فرقان مكتنفاً الإنذار أول السورة التي قبلها وآخرها - والله الموفق .

(8/566)

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير : لما عرفت سورة الفرقان بشنيع مرتكب الكفرة المعاندين ، وختمت بما ذكر من الوعيد ، كان ذلك مظنة لإشفاقه عليه الصلاة والسلام وتأسفه على فوات إيمانهم ، لما جبل عليه من الرحمة والإشفاق ، فافتتحت السورة الأخرى بتسليته عليه الصلاة والسلام ، وأنه سبحانه لو شاء لأنزل عليهم آية تبهرهم وتذل جبابرتهم فقال سبحانه ﴿ لعلك باخع نفسك ﴾ - الآيتين ، وقد تكرر هذا المعنى عند إرادة تسليته عليه الصلاة والسلام كقوله تعالى : ﴿ ولو شاء الله لجمعهم على الهدى ﴾ [الأنعام : 35

] ، ﴿ ولو شئنا لأتينا كل نفس هداها ﴾ [السجدة : 13] ، ﴿ ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً ﴾ [يونس : 99] ، ﴿ ولو شاء الله ما فعلوه ﴾ [الأنعام : 137] ثم أعقب سبحانه بالتنبيه والتذكير ﴿ أو لم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم ﴾ ، ﴿ وإذ نادى ربك موسى ﴾ وقلّما تجد في الكتاب العزيز ورود تسليته عليه السلام إلا معقبة بقصص موسى عليه السلام وما كابد من بني إسرائيل وفرعون ، وفي كل قصة منها إحراز ما لم تحرزه الأخرى من الفوائد والمعاني والأخبار حتى لا تجد قصة تتكر وإن ظن ذلك من لم يمعن النظر ، فما من قصة من القصص المتكررة في الظاهر إلا ولو سقطت أو قدر إزالتها لنقص من الفائدة ما لا يحصل من غيرها ، وسيوضح هذا في التفسير بحول الله ؛ ثم أتبع جل وتعالى قصة موسى بقصص غيره من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مع أممهم على الطريقة المذكورة ، وتأنيساً له عليه الصلاة والسلام حتى لا يهلك نفسه أسفاً على فوت إيمان قومه ؛ ثم أتبع سبحانه ذلك بذكر الكتاب وعظيم النعمة به فقال ﴿ وإنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون ﴾ فيا لها كرامة تقصر الألسن عن شكرها ، وتعجز العقول عن تقديرها ، ثم أخبر تعالى أنه ﴿ بلسان عربي مبين ﴾ ، ثم أخبر سبحانه بعلى أمر هذا الكتاب وشائع ذكره على ألسنة الرسل والأنبياء فقال : ﴿ وإنه لفي

زبر الأولين ﴾ وأخبر أن علم بني إسرائيل من أعظم آية وأوضح برهان وبينة ، وأن تأمل ذلك كاف ، واعتباره شاف ، فقال : ﴿ أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل ﴾ كعبد الله بن سلام وأشباهه ، ثم وبخ تعالى متوقفي العرب فقال : ﴿ ولو نزلناه على بعض الأعجمين ﴾ – الآية ، ثم أتبع ذلك بما يتعظ به المؤمن الخائف من أن الكتاب – مع أنه هدى ونور – قد يكون محنة في حق طائفة كما قال تعالى :

﴿ يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً ﴾ [البقرة : 26] ، ﴿ وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم ﴾ [التوبة : 125] فقال تعالى في هذا المعنى ﴿ كذلك سلكناه في قلوب المجرمين لا يؤمنون به حتى يروا العذاب الأليم ﴾ الآيات ، ثم عاد الكلام إلى تنزيه الكتاب وإجلاله عن أن تتسور الشياطين على شيء منه أو تصل إليه فقال سبحانه ﴿ وما تنزلت به الشياطين وما ينبغي لهم وما يستطيعون ﴾ أي ليسوا أهلاً له ولا يقدرون على استراق سمعه ، بل هم معزولون عن السمع ، مرجومون بالشهب ، ثم وصى تعالى نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ – والمراد المؤمنون – فقال : ﴿ فلا تدع مع الله إلهاً آخر فتكون من المعذبين ﴾ ثم أمره بالإنذار ووصاه بالصبر فقال : ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين ﴾ ثم أعلم تعالى بموقع ما توهموه ، وأهلية ما تخيلوه ، فقال : ﴿ هل أنبئكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل أفاك أثيم ﴾ ثم

وصفهم ، وكل هذا تنزيه لنبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ عما تقولوه ، ثم هددكم وتوعدهم فقال : ﴿ وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون ﴾ - انتهى .

ولما كان قد قدم في تلك أنه عم برسالته جميع الخلائق ، وختم بالإنذار على تكذيبهم في تخلفهم ، مع إزاحة جميع العلل ، نفي كل خلل ، وكان ذلك مما يقتضي شدة أسفه ـ صلى الله عليه وسلم ـ على المتخلفين كما هو من مضمون ﴿ إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً ﴾ على ما تقدم .

(10/566)

وذلك لما عنده صلى الله عليه سلم من مزيد الشفقة ، وعظيم الرحمة ، قال تعالى يسليه ، ويزيل من أسفه ويعزيه ، على سبيل الاستئناف ، مشيراً إلى أنه لا نقص في إنذاره ولا في كتابه الذي ينذر به يكون سبباً لوقوفهم عن الإيمان .

وإنما السبب في ذلك محض إرادة الله تعالى : ﴿ لعلك باخع نفسك ﴾ أي مهلكها غمّاً . وقاتلها أسفاً ، من بخع الشاة إذا بالغ في ذبحها حتى قطع البخاع ، بكسر الموحدة ، وهو عرق باطن في الصلب وفي القفا ، وذلك أقصى حد الذابح ، وهو غير النخاع بتثليث النون فإنه الخيط الأبيض في جوف الفقار ﴿ أن ﴾ أي لأجل أن ﴿ لا يكونوا ﴾ أي كوناً كأنه

جبلة لهم ﴿ مؤمنين ﴾ أي راسخين في الإيمان ، فكان كأنه قيل : هذا الكتاب في غاية البيان في نفسه والإبانة للغير ، وقد تقدم في غير موضع أنه ليس عليك إلا البلاغ ، أتخاف وتشفق على نفسك من الهلاك عمّاً تأسفاً على عدم إيمانهم والحال أنا لو شئنا لهديناهم طوعاً أو كرهاً ، والظاهر أن جملة الإشفاق في موضع حال من اسم الإشارة كما أن الآية التي بعدها في موضع الحال منها ، أي نحن نشير إلى الآيات المبينة لمرادنا فيهم والحال أنك – لمزيد حرصك على نفعهم – بحال يشفق فيها عليك من لا يعلم الغيب من أن تقتل نفسك غمّاً لإبائهم الإيمان والحال أنا لو شئنا أتيناهم بما يقهرهم ويذلهم للإيمان وغيره .

ولا كان المحب ميالاً إلى ما يريد حبيبه ، أعلمهم أن كل ما هم فيه بإرادته فقال : ﴿ إن نشأ ﴾ وعبر بالمضارع فيه وفي قوله : ﴿ ننزل ﴾ إعلاماً بدوام القدرة .

(11/566)

ولما كان ذلك الإنزال من باب القسر ، والجبروت والقهر ، قال : ﴿ عليهم ﴾ وقال محققاً للمراد : ﴿ من السمآء ﴾ أي التي جعلنا فيها بروجاً للمنافع ، أشار إلى تمام القدرة بتوحيدها فقال : ﴿ آية ﴾ أي قاهرة كما فعلنا ببعض من قبلهم بنتق الجبل ونحوه ؛ وأشار إلى تحقق أثرها بالتعبير بالماضي في قوله عطفاً على ﴿ ننزل ﴾ لأنه في معنى ﴿ أنزلنا ﴾ :

﴿ فظلت ﴾ أي عقب الإنزال من غير مهلة ﴿ أعناقهم ﴾ التي هي موضع الصلابة ، وعنها تنشأ حركات الكبر والإعراض ﴿ لها ﴾ أي للآية دائماً ، ولكنه عبر بما يفهم النهار لأنه موضع القوة على جميع ما يراد من التقلب والحيل والمدافعة ﴿ خاضعين ﴾ جمعه كذلك لأن الفعل لأهلها ليدل على أن ذلهم لها يكون مع كونهم جميعاً ، ولا يغني جمعهم وإن زاد شيئاً ، والأصل : فظلوا ، ولكنه ذكر الأعناق لأنها موضع الخضوع فإنه يظهر لينها بعد صلابتها ، وانكسارها بعد شماختها ، وللإشارة إلى أن الخضوع يكون بالطبع من غير تأمل لما أبهتهم وحيرهم من عظمة الآية ، فكأن الفعل للأعناق لا لهم ؛ والخضوع : التطامن والسكون واللين ذلاً وانكساراً ﴿ وما ﴾ أي هذه صفتنا والحال أنه ما ﴿ يأتيهم ﴾ أي الكفار ﴿ من ذكر ﴾ أي شيء من الوعظ والتذكير والتشريع يذكروننا به ، فيكون سبب ذكرهم وشرفهم ﴿ من الرحمن ﴾ أي الذي أنكروه مع إحاطة نعمه بهم ﴿ محدث ﴾ أي بالنسبة إلى تنزيله وعلمهم به ؛ وأشار إلى دوام كبرهم بقوله : ﴿ إلا كانوا ﴾ أي كوناً هو كالخلق لهم ؛ وأشار بتقديم الجار والمؤذن بالتخصيص إلى ما لهم من سعة الأفكار وقوة الهمم لكل ما يتوجهون إليه ، وإلى أن لإعراضهم عنه من القوة ما يعد الإعراض معه عن غيره عدماً فقال : ﴿ عنه ﴾ أي خاصة ﴿ معرضين ﴾ أي إعراضاً هو صفة لهم لازمة .

ولما كان حال المعرض عن الشيء حال المكذب به قال : ﴿ فقد ﴾ أي فتسبب عن هذا

الفعل منهم أنهم قد ﴿كذبوا﴾ أي حققوا التكذيب وقربوه كما تقدم آخر تلك ، واستهزؤوا مع التكذيب بآياتنا .

(12/566)

ولما كان التكذيب بالوعيد سبباً في إيقاعه ، وكان حالهم في تكذيبهم له ـ صلى الله عليه وسلم ـ حال المستهزىء لأن من كذب بشيء خف عنده قدره ، فصار عرضة للهزء ، قال مهدداً : ﴿فسيأتيهم﴾ سببه بالفاء وحققه بالسين ، وقلل التنفيس عما في آخر الفرقان ليعلموا أن ما كذبوا به واقع .

وأنه ليس موضعاً للتكذيب بوجه ﴿أَنْبَاءُ﴾ أي عظيم أخبار وعواقب ﴿ما﴾ أي العذاب الذي ﴿كانوا﴾ أي كوناً كأنهم جبلوا عليه ﴿به﴾ أي خاصة لشدة إمعانهم في حقه وحده ﴿يستهزءون﴾ أي يهزؤون ، ولكنه عبر بالسين إشارة إلى أن حالهم في شدة الرغبة في ذلك الهزء حال الطالب له ، وقد ضموا إليه التكذيب ، فالآية من الاحتباك : ذكر التكذيب أولاً دليلاً على حذفه ثانياً ، والاستهزاء ثانياً دليلاً على حذف مثله أولاً .

ولما كانت رؤيتهم للآيات السماوية والأرضية الموجبة للانقياد والخضوع موجبة لإنكار تخلفهم عما تدعو إليه فضلاً عن الاستهزاء ، وكان قد تقدم آخر تلك الحثُّ على تدبر بروج

السماء وما يتبعها من الدلالات فكان التقدير : ألم يروا إلى السماء كم أودعنا في بروجها وغيرها من آيات نافعة وضارة كالأمطار والصواعق ، عطف عليه ما ينشأ عن ذلك في الأرض في قوله معجباً منهم : ﴿ أولم يروا ﴾ .

(13/566)

ولما كانوا في عمى عن تدبر ذلك ، عبر للدلالة عليه بحرف الغاية فقال : ﴿ إلى الأرض ﴾ أي على سعتها واختلاف نواحيها وتربها ؛ ونبه على كثرة ما صنع من جميع الأصناف فقال : ﴿ كم أنبتنا ﴾ أي بما لنا من العظمة ﴿ فيها ﴾ بعد أن كانت يابسة ميتة لا نبات بها ﴿ من كل زوج ﴾ أي صنف مشاكل بعضه لبعض ، فلم يبق صنف يليق بهم في العاجلة إلا أكثرنا من الإنبات منه ﴿ كريم ﴾ أي جم المنافع ، محمود العواقب ، لا خباثة فيه ، من الأشجار والزروع وسائر النباتات على اختلاف ألوانها في زهورها وأنوارها ، وطعومها وأقدراها ، ومنافعها وأرواحها - إلى غير ذلك من أمور لا يحيط بها حداً ولا يحصيها عداً ، إلا الذي خلقها ، مع كونها تسقى بماء واحد ؛ والكريم وصف لكل ما يرضى في بابه ويحمد ، وهو ضد اللئيم .

ولما كان ذلك باهراً للعقل منبهاً له في كل حال على عظيم اقتدار صانعه ، وبديع اختياره ،

وصل به قوله : ﴿ إن في ذلك ﴾ أي الأمر العظيم من الإنبات ، وما تقدمه من العظات على كثرته ﴿ لآية ﴾ أي علامة عظيمة جداً لهم على تمام القدرة على البعث وغيره ، كافية في الدعاء إلى الإيمان ، والزجر عن الطغيان ، ولعله وحّدها على كثرتها إشارة إلى أن الدوالّ عليه متساوية الأقدام في الدلالة ، فالراسخون تغنيهم واحدة ، وغيرهم لا يرجعون لشيء ﴿ و ﴾ الحال أنه ﴿ ما كان ﴾ في الشاكلة التي خلقتهم عليها ﴿ أكثرهم ﴾ أي البشر ﴿ مؤمنين ﴾ أي عريقين في الإيمان ، لأنه ﴿ ما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ﴾ ﴿ وإن ﴾ أي والحال أن ﴿ ربك ﴾ أي الذي أحسن إليك بالإرسال ، وسخر لك قلوب الصفياء ، وزوى عنك اللد الأشقياء ﴿ لهو ﴾ .

(14/566)

ولما كان المقام لإنزال الآية القاهرة ، قدم قوله : ﴿ العزيز ﴾ أي القادر على كل من قسرهم على الإيمان والانتقام منهم ﴿ الرحيم ﴾ في أنه لم يعاجلهم بالنقمة ، بل أنزل عليهم الكتاب ترفقاً بهم ، وبياناً لما يرضاه ليقيم به الحجة على من أريد للهوان ، ويقبل بقلوب من يختصه منهم للإيمان ، قال أبو حيان : والمعنى أنه عز في نقمته من الكفار ، ورحم مؤمني كل أمة – انتهى .

ومن هنا شرع سبحانه وتعالى في تمثيل آخر الفرقان في إظهار القدرة بالبطش عند النقمة حيث لم يشكر النعمة بأن أبى المدعو الإجابة لدعوه الرسل ، وترك الداعي – عقب الانقياد من الشدائد – التضرع للمرسل ، وقص أخبار الأمم على ما هي عليه بحيث لم يقدر أحد من أهل الكتاب الذين هم بين ظهرانيهم على إنكار شيء من ذلك ، ومن ثم قرع أسماعهم ، أول شيء بقصتهم من فرعون ، وموسى عليه السلام ، فصح قطعاً أن هذا الكتاب جلي الأمر ، على القدر ، ليس بكهانة ، ولا شعر ، كما سيؤكد ذلك عند إظهار النتيجة في آخرها ، بل هو من عند رب العالمين ، على لسان سيد المرسلين ، وصح أن أكثر الخلق مع ذلك هالك وإن قام الدليل .

ووضح السبيل .

لأن سلك الذكر في قلوبهم شبيه في الضيق بنظم السهم فيما يرمى به ، وصح أنه سبحانه يملي لهم وينعم عليهم بما فيه حياة أديانهم بإرسال الرسل وإنزال الكتب ، وما فيه حياة أبدانهم بالإيتاء من كل ما يحتاجونه إظهاراً لصفة الرحمة .

ثم ينتقم منهم بعد طول المهلة ، وتماديهم في سكرات الغفلة ، كشفاً لصفة العزة ، كل ذلك تسلية له ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتخفيفاً وإعلاماً بأنه لا قصور في بيانه ، ولا تقصير لديه .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 344 . 349 ﴾

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ طسم ﴾ وما بعده بالإمالة : حمزة وعلي وخلف ويحيى وحماد . وقرأ أبو جعفر ونافع بين الفتح والكسر وإلى الفتح أقرب ، وقرأ حمزة ويزيد مظهرة النون عند الميم ﴿ إني أخاف ﴾ بفتح الياء : أبو جعفر ونافع وابن كثير وأبو عمرو . ﴿ ويضيق ولا ينطلق ﴾ بالنصب فيهما : يعقوب . ﴿ أرجه ﴾ مثل ما في " الأعراف " ﴿ أين لنا ﴾ بالمد وبالياء . يزيد وأبو عمرو وزيد وقالون . وقرأ ابن كثير ونافع غير قالون وسهل ويعقوب غير زيد بهمزة ثم ياء ، وعن قنبل ﴿ إن لنا ﴾ على الخبر . الباقون بهمزتين . هشام يدخل بينهما مدة . ﴿ آمنتم ﴾ بالمد : أبو جعفر ونافع وابن كثير وابن عامر وأبو عمرو وسهل ويعقوب ﴿ آمنتم ﴾ على الخبر : حفص غير الخزاز . الأخرون ﴿ أآمنتم ﴾ بهمزتين . ﴿ بعبادي إنكم ﴾ بفتح الياء : نافع وأبو جعفر ﴿ حاذرون ﴾ بالألف : عاصم وحمزة وعلي وخلف وابن عامر . الباقون بغير الألف ﴿ فاتبعوهم ﴾ بالتشديد : زيد عن يعقوب . الباقون بقطع الهمزة وسكون التاء ﴿ تراءى الجمعان ﴾ بكسر الراء والهمزة في الوصل : حمزة ونصير وهبيرة في طريق الخزاز . واختلفوا في الوقف ؛ فعن الكسائي بكسر الراء والهمزة على وزن " تريعى " وفي رواية أخرى عنه " ترائى " اي ترائى ، والمشهور عنه

" ترأ " بكسر الراء وفتح الهمزة ، وأما حمزة فإنه يقف " ترى " بترك الهمزة وكسر الراء ويمد ويشير إلى موضع الهمزة وهو المصدر . وأما هبيرة فإنه يقف " تريا " بكسر الراء ويشير إلى فتح الهمزة . الباقون يقفون " تراءى " على وزن " تراعى " ﴿ معي ربي ﴾ بفتح الياء : حفص .

(16/566)

الوقوف : ﴿ طسم ﴾ 5 ﴿ المبين ﴾ 5 ﴿ مؤمنين ﴾ 5 ﴿ خاضعين ﴾ 5 ﴿ معرضين ﴾ 5 ﴿ يستهزؤن ﴾ 5 ﴿ كريم ﴾ 5 ﴿ لآية ﴾ ط ﴿ مؤمنين ﴾ 5 ﴿ الرحيم ﴾ 5 ﴿ الظالمين ﴾ 5 لا للابدال أو البيان تسجيلاً عليهم بالظلم ﴿ فرعون ﴾ ط للعدول عن الأمر إلى الاستفهام ﴿ يتقون ﴾ 5 ﴿ يكذبون ﴾ 5 لمن قرأ ﴿ ويضيق ﴾ بالرفع على الاستئناف ﴿ هرون ﴾ ط ﴿ يقتلون ﴾ 5 ﴿ قال كلا ﴾ لا للعطف معنى لا لفظاً ﴿ مستمعون ﴾ 5 ﴿ العالمين ﴾ 5 لا لتعلق " أن " ﴿ بني إسرائيل ﴾ ط ﴿ سنين ﴾ 5 ﴿ الكافرين ﴾ 5 ﴿ الضالين ﴾ 5 ﴿ المرسلين ﴾ 5 ﴿ إسرائيل ﴾ ط ﴿ العالمين ﴾ 5 ﴿ وما بينهما ﴾ ط لأن جواب الشرط محذوف اي إن كنتم موقنين فلا تكذبوني ﴿ موقنين ﴾ 5 ﴿ تستمعون ﴾ 5 ﴿ الأولين ﴾ 5 ﴿

لمجنون ﴾ 5 ﴿ وما بينهما ﴾ ط ﴿ تعقلون ﴾ 5 ﴿ المسجونين ﴾ 5 ﴿ مبين ﴾ 5 ﴿ الصادقين ﴾ 5 ﴿ مبين ﴾ 5 ج للآية مع العطف ﴿ للناظرين ﴾ 5 ﴿ عليم ﴾ 5 لا لأن ما بعده صفة ﴿ بسحره ﴾ ق قد قيل : بناء على أن ما بعده قول الملأ لفرعون والجمع للتعظيم ، والأصح أنه من تتمة قول فرعون . ﴿ تأمرون ﴾ 5 ﴿ حاشرين ﴾ 5 لا لأن ما يتلوه جواب .

(17/566)

﴿ عليم ﴾ 5 ﴿ معلوم ﴾ 5 لا للعطف ﴿ مجتمعون ﴾ لا لاتصال المعنى ﴿ الغالبين ﴾ 5 ﴿ لمن المقربين ﴾ 5 ﴿ ملقون ﴾ 5 ﴿ الغالبون ﴾ 5 ﴿ ما يأفكون ﴾ 5 للآية وللدلالة على إسراعهم في السجود ﴿ ساجدين ﴾ 5 ﴿ العالمين ﴾ 5 ﴿ وهرون ﴾ ط ﴿ لكم ﴾ 5 ﴿ لكم ﴾ 5 للابتداء بأن مع اتحاد القول ﴿ السحر ﴾ ط للفاء ولام الابتداء ﴿ فلسوف تعلمون ﴾ 5 لتقدير القسم ﴿ أجمعين ﴾ 5 ﴿ لا ضير ﴾ ط توقية لحق " إن " وإلا فالأصل هو الوصل لأن ما بعده هو القول في الحقيقة كما في " الأعراف " ﴿ منقلبون ﴾ 5 ج للآية مع اتحاد المقول ﴿ المؤمنين ﴾ 5 ﴿ متبعون ﴾ 5 ﴿ حاشرين ﴾ 5 للآية مع أن التقدير بأن هؤلاء ﴿ قليلون ﴾ 5 ﴿ لغائظون ﴾

5 ﴿ حاذرون ﴾ 5 ط لابتداء الخبر من الله ﴿ وعيون ﴾ 5 لا ﴿ كريم ﴾ 5 لا لتعلق الكاف ﴿ كذلك ﴾ ط أي كما وعدنا بني إسرائيل إيراثها ثم أخبر عن وقوع الموعود لبني إسرائيل ﴿ مشرقين ﴾ 5 ﴿ لمدركون ﴾ 5 ووجه الوصل الإسراع في تداركهم عن خوف الإدراك ﴿ كلا ﴾ ج لاحتمال أن يكون للردع وأن يكون بمعنى حقاً ﴿ سيهدين ﴾ 5 ﴿ البحر ﴾ ط لأجل الفاء الفصيحة أي فضرب فانفلق ﴿ العظيم ﴾ 5 ﴿ الآخرين ﴾ 5 ﴿ أجمعين ﴾ 5 ﴿ الآخرين ﴾ 5 الآية ط ﴿ مأمنين ﴾ 5 ﴿ الرحيم ﴾ 5 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 5 صـ 262 . 263 ﴾

(18/566)

فصل

قال الفخر :

﴿ طسم (1) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (2) ﴾

الطاء إشارة إلى طرب قلوب العارفين ، والسين سرور المحبين ، والميم مناجاة المريدين ،

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

قرأ قتادة ﴿ باخع نَّفْسَكَ ﴾ على الإضافة ، وقرىء ﴿ فَظَلَّتْ أعناقهم لَهَا خاضعة ﴾ .

المسألة الثانية :

البخع أن يبلغ بالذبح البخاع ، وهو الخرم النافذ في ثقب الفقرات وذلك أقصى حد الذابح ، ولعل للإشفاق .

المسألة الثالثة :

(19/566)

قوله : ﴿ طسم * تِلْكَ ءايَاتُ الكتاب المبين ﴾ معناه : آيات هذه السورة تلك آيات الكتاب المبين ، وتمام تقريره ما مر في قوله تعالى : ﴿ ذلك الكتاب ﴾ [البقرة : 2] ولا شبهة في أن المراد بالكتاب هو القرآن والمبين وإن كان في الحقيقة هو المتكلم فقد يضاف إلى الكلام من حيث يتبين به عند النظر فيه ، فإن قيل القوم لما كانوا كفاراً فكيف تكون آيات القرآن مبينة لهم ما يلزمهم ، وإنما يتبين بذلك الأحكام ؟ قلنا ألفاظ القرآن من حيث تعذر عليهم أن يأتوا بمثله يمكن أن يستدل به على فاعل مخالف لهم كما يستدل بسائر ما لا يقدر العباد على مثله ، فهو دليل التوحيد من هذا الوجه ودليل النبوة من حيث الإعجاز ، ويعلم به بعد ذلك أنه إذا كان من عند الله تعالى فهو دلالة الأحكام أجمع ، وإذا ثبت هذا صارت

آيات القرآن كافية في كل الأصول والفروع أجمع ، ولما ذكر الله تعالى أنه بين الأمور قال بعده : ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ منبهاً بذلك على أن الكتاب وإن بلغ في البيان كل غاية فغير مدخل لهم في الإيمان لما أنه سبق حكم الله بخلافه ، فلا تبالغ في الحزن والأسف على ذلك لأنك إن بالغت فيه كنت بمنزلة من يقتل نفسه ثم لا ينتفع بذلك أصلاً فصبره وعزاه وعرفه أن غمه وحزنه لا نفع فيه كما أن وجود الكتاب على بيانه ووضوحه لا نفع لهم فيه ، ثم بين تعالى أنه قادر على أن ينزل آية يذلون عندها ويخضعون ، فإن قيل : كيف صح مجيء ﴿ خاضعين ﴾ خبراً عن الأعناق ؟ قلنا أصل الكلام : فظلوا لها خاضعين ، فذكرت الأعناق لبيان موضع الخضوع ، ثم ترك الكلام على أصله ، ولما وصفت بالخضوع الذي هو للعقلاء ، قيل ﴿ خاضعين ﴾ كقوله : ﴿ لِي سَاجِدِينَ ﴾ [يوسف : 4] ، وقيل أعناق الناس رؤساؤهم ومقدموهم شبهوا بالأعناق كما يقال هم الرؤوس والصدور ، وقيل هم جماعات الناس ، يقال جاءنا عنق من الناس لفوج منهم .

المسألة الرابعة :

(20/566)

نظير هذه الآية قوله تعالى في سورة الكهف (6) : ﴿ فَلَعَلَّكَ باخع نَّفْسَكَ ﴾ وقوله :

﴿ فَلاَ تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حسرات ﴾ [فاطر : 8] .

﴿ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ (5) ﴾

المسألة الأولى :

قوله : ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مّن ذِكْرٍ مّنَ الرحمن مُحْدَثٍ إِلاَّ كَانُواْ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴾ من تمام قوله :

﴿ إِن نَّشَأْ نُنَزّلْ عَلَيْهِمْ ﴾ [الشعراء : 4] فنبه تعالى على أنه مع قدرته على أن يجعلهم مؤمنين بالإلجاء رحيم بهم من حيث يأتيهم حالاً بعد حال بالقرآن ، وهو الذكر ويكرره عليهم وهم مع ذلك على حد واحد في الإعراض والتكذيب والاستهزاء ، ثم عند ذلك زجر وتوعد لأن المرء إذا استمر على كفره فليس ينفع فيه إلا الزجر الشديد فلذلك قال :

﴿ فَقَدْ كَذَّبُواْ ﴾ أي بلغوا النهاية في رد آيات الله تعالى ﴿ فَسَيَأْتِيهِمْ أنباؤا مَا كَانُواْ به يستهزئون ﴾ وذلك إما عند نزول العذاب عليهم في الدنيا أو عند المعاينة أو في الآخرة ، فهو كقوله تعالى : ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾ [ص : 88] وقد جرت العادة فيمن يسيء أن يقال له سترى حالك من بعد على وجه الوعيد ، ثم إنه تعالى بين أنه مع إنزاله القرآن حالاً بعد حال قد أظهر أدلة تحدث حالاً بعد حال فقال : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى الأرض كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ والزوج هو الصنف (من النبات) والكريم صفة لكل ما يرضى ويحمد في بابه ، يقال وجه كريم إذا كان مرضياً في حسنه وجماله .

وكتاب كريم إذا كان مرضياً في فوائده ومعانيه ، والنبات الكريم هو المرضي فيما يتعلق به من المنافع ، وفي وصف الزوج بالكريم وجهان : أحدهما : أن النبات على نوعين نافع وضار ، فذكر سبحانه كثرة ما أنبت في الأرض من جميع أصناف النبات النافع وترك ذكر الضار والثاني : أنه يعم جميع النبات نافعه وضاره ووصفهما جميعاً بالكرم ، ونبه على أنه ما أنبت شيئاً إلا وفيه فائدة وإن غفل عنها الغافلون .

أما قوله : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ فهو كقوله : ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة : 2] والمعنى أن في ذلك دلالة لمن يتفكر ويتدبر وما كان أكثرهم مؤمنين أي مع كل ذلك يستمر أكثرهم على كفرهم ، فأما قوله : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العزيز الرحيم ﴾ فإنما قدم ذكر العزيز على ذكر الرحيم لأنه لو لم يقدمه لكان ربما قيل إنه رحمهم لعجزه عن عقوبتهم ، فأزال هذا الوهم بذكر العزيز وهو الغالب القاهر ، ومع ذلك فإنه رحيم بعباده ، فإن الرحمة إذا كانت عن القدرة الكاملة كانت أعظم وقعاً .

والمراد أنهم مع كفرهم وقدرة الله على أن يعجل عقابهم لا يترك رحمتهم بما تقدم ذكره من خلق كل زوج كريم من النبات ، ثم من إعطاء الصحة والعقل والهداية .

المسألة الثانية :

أنه تعالى وصف الكفار بالإعراض أولاً وبالتكذيب ثانياً وبالاستهزاء ثالثاً وهذه درجات من أخذ يترقى في الشقاوة ، فإنه يعرض أولاً ثم يصرح بالتكذيب والإنكار إلى حيث يستهزىء به ثالثاً .

المسألة الثالثة :

(22/566)

فإن قلت ما معنى الجمع بين كم وكل ، ولم لم يقل كم أنبتنا فيها من زوج كريم ؟ قلت : قد دل كل على الإحاطة بأزواج النبات على سبيل التفصيل وكم على أن هذا المحيط متكاثر مفرط الكثرة ، فهذا معنى الجمع (رتبه) على كمال قدرته ، فإن قلت : فحين ذكر الأزواج ودل عليها بكلمتي الكثرة والإحاطة وكانت بحيث لا يحصيها إلا عالم الغيب فكيف قال : ﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَةً ﴾ وهلا قال لآيات ؟ قلت فيه وجهان : أحدهما : أن يكون ذلك مشاراً به إلى مصدر أنبتنا ، فكأنه قال إن في ذلك الإنبات لآية أي آية والثاني : أن يراد أن في كل واحد من تلك الأزواج لآية .

المسألة الرابعة :

احتجت المعتزلة على خلق القرآن بقوله تعالى : ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرحمن مُحْدَثٍ ﴾ فقالوا الذكر هو القرآن لقوله تعالى : ﴿ وهذا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ ﴾ [الأنبياء : 50] وبين في هذه الآية أن الذكر محدث فيلزم من هاتين الآيتين أن القرآن محدث ، وهذا الاستدلال بقوله تعالى : ﴿ الله نَزَّلَ أَحْسَنَ الحديث كتابا ﴾ [الزمر : 23] وبقوله : ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴾ [المرسلات : 50] وإذا ثبت أنه محدث فله خالق فيكون مخلوقاً لا محالة والجواب : أن كل ذلك يرجع إلى هذه الألفاظ ونحن نسلم حدوثها إنما ندعي قدم أمر آخر وراء هذه الحروف ، وليس في الآية دلالة على ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 24 صـ 103.105 ﴾

(23/566)

وقال الماوردى :

قوله ﴿ طسم ﴾ فيه أربعة أوجه

: أحدها : أنه اسم من أسماء الله أقسم به ، والمقسم عليه ﴿ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ ﴾ ، قاله ابن عباس .

الثاني : أنه اسم من أسماء القرآن ، قاله قتادة .

الثالث : أنه من الفواتح التي افتتح الله بها كتابه ، قاله الحسن .

الرابع : أنها حروف هجاء مقطعة من أسماء الله وصفاته :

أما الطاء ففيها قولان :

أحدهما : أنها من الطول .

الثاني : أنها من الطاهر .

وأما السين ففيها ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنها من القدوس .

الثاني : أنها من السميع .

الثالث : من السلام .

وأما الميم ففيها ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنها من المجيد .

الثاني : من الرحيم .

الثالث : من الملك .

ولأصحاب الخواطر في تأويل ذلك قولان :

أحدهما : أن الطاء شجرة طوبى ، والسين سدرة المنتهى ، والميم محمد المصطفى صلى الله عليه وسلم .

الثاني : أن الطاء طرب التائبين ، والسين ستر الله على المذنبين ، والميم معرفته بالغاوين ، وقد ذكرنا في تفسير ﴿ الم ﴾ من زيادة التأويلات ما يجزىء تخريجه قبل هذا الموضع .

قوله ﴿ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : قاتل نفسك ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، والبخع القتل ، قاله ذو الرمة :

ألا أيهذا الباخع الوجد نفسه . . . بشيءٍ نحته عن يديه المقادِرُ

الثاني : محرج نفسك ، قاله عطاء ، وابن زيد

. قوله : ﴿ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ ءَايَةً ﴾ فيها وجهان :

أحدهما : ما عظم من الأمور القاهرة .

الثاني : ما ظهر من الدلائل الواضحة .

﴿ فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴾ فيه أربعة أوجه

: أحدها : لا يلوي أحد منهم عنقه إلى معصيته .

الثاني : أنه أراد أصحاب الأعناق فحذفه وأقام المضاف إليه مقامه ، ذكره ابن عيسى .

الثالث : أن الأعناق الرؤساء ، ذكره ابن شجرة ، وقاله قطرب .

(24/566)

الرابع : أن العنق الجماعة من الناس ، من قولهم : أتاني عنق من الناس أي جماعة ، ورأيت الناس عنقاً إلى فلان ، ذكره النقاش .

قوله ﴿ أَوَلَمْ يَرَوا إِلَى الأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ ﴾ أي نوع معه قرينة من أبيض وأحمر ، وحلو وحامض .

أحدها : حسن ، قاله ابن جبير .

الثاني : أنه مما يأكل الناس والأنعام ، قاله مجاهد .

الثالث : أنه النافع المحمود كما أن الكريم من الناس هو النافع المحمود .

الرابع : هم الناس نبات الأرض كما قال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الأَرْضِ نَبَاتاً ﴾ [نوح : 17] فمن دخل الجنة فهو كريم ، ومن دخل النار فهو لئيم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

(25/566)

وقال ابن عطية :

﴿ طسم (1) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (2) ﴾

تقدم القول في الحروف التي في أوائل السور مستوعباً ، و﴿ تلك ﴾ رفع بالابتداء وهو

وخبره ساد مسد الخبر عن ﴿ طسم ﴾ في بعض التأويلات ، والإشارة ب ﴿ تلك ﴾ هي بحسب الخلاف في ﴿ طسم ﴾ وعلى بعض الأقوال تكون ﴿ تلك ﴾ إشارة إلى حاضر وذلك موجود في الكلام ، كما أن هذه قد تكون الإشارة بها إلى غائب معهود كأنه حاضر ، و ﴿ الكتاب المبين ﴾ القرآن ، وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم " طِسم " بكسر الطاء ، وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر فتحها وبإدغام النون من سين في الميم ، وقرأ حمزة وحده بإظهارها وهي قراءة أبي جعفر ، ورويت عن نافع ، وروى يعقوب عن أبي جعفر ونافع قطع كل حرف منها على حدة ، قال أبو حاتم الاختيار فتح الطاء وإدغام آخر سين في أول ميم ، فتصير الميم متعلقة ، وقوله ﴿ لعلك ﴾ الآية تسلية لمحمد صلى الله عليه وسلم لما كان من القلق والحرص على إيمانهم فكان من شغل البال في حيز الخوف على نفسه ، و " الباخع " القاتل والمهلك بالهم قاله ابن عباس والناس ومن ذلك قول ذي الرمة [الطويل]

ألا أيها ذا الباخع الوجد نفسه . . . لشيء نحته عن يديه المقادير

(26/566)

وخوطب ب ﴿ لعل ﴾ على ما في نفوس البشر من توقع الهلاك في مثل تلك الحال ، ومعنى الآية أي لا تهتم يا محمد بهم وبلغ رسالتك وما عليك من إيمانهم فإن ذلك بيد الله . لو شاء لآمنوا ، وقوله " أن لا " مفعول من أجله . وقوله تعالى : ﴿ إن شاء ﴾ شرط وما في الشرط من الإبهام هو في هذه الآية في حيزنا ، وأما الله تعالى فقد علم أنه لا ينزل عليهم آية اضطرار وإنما جعل الله تعالى آية الأنبياء والآيات الدالة عليه معرضة للنظر والفكر ليهتدي من سبق في علمه هداه ويضل من سبق ضلاله وليكون للنظر تكسب به يتعلق الثواب والعقاب ، وآية الاضطرار تدفع جميع هذا أن لو كانت ، وقرأ " تنَزّل " بفتح النون وشد الزاي أبو جعفر ونافع وشيبة والأعرج وعاصم والحسن ، وقرأ أبو عمرو وأهل البصرة بسكون النون وتخفيف الزاي ، وروى هارون عن أبي عمرو " يشأ ينزل " بالياء فيهما والخضوع للآية المنزلة كان يترتب بأحد وجهين إما بخوف هلاك في مخالفة الأمر المقترن بها كنتق الجبل على بني إسرائيل ، وإما أن تكون من الوضوح وبهر العقول ، بحيث يقع الإذعان لها وانقياد النفوس ، وكل هذين لم يأت به نبي ، ووجه ذلك ما ذكرناه ، وهو توجيه منصوص للعلماء . وقرأ طلحة " فتظل أعناقهم " وهو المراد في قراءة الجمهور وجعل الماضي موضع المستقبل إشارة إلى تقوية وقوع الفعل ، وقوله تعالى : ﴿ أعناقهم ﴾ يحتمل تأويلين أحدهما : وهو قول مجاهد وأبي زيد الأخفش ، أي يريد جماعاتهم ، يقال جاءني عنق من الناس أي جماعة ، ومنه قول الشاعر : [مجزوء الكامل]

إن العراق وأهله . . . عنق إليك فهيت هيتا

وعليه حمل قول أبي محجن :

(27/566)

واكتم السر فيه ضرب العنق . . . ولهذا قيل عتق رقبة ولم يقل عتق عنق فراراً من الاشتراك قاله الزهراوي ، فعلى هذا التأويل ليس في قوله ﴿ خاضعين ﴾ موضع قول ، والتأويل الآخر أن يريد الأعناق الجارحة المعلمة وذلك أن خضوع العنق والرقبة هو علامة الذلة والانقياد ومنه قول الشاعر : [الكامل]

وإذا الرجال رأوا يزيد رأيتهم . . . خضع الرقاب نواكس الأبصار

فعلى هذا التأويل يتكلم على قوله ﴿ خاضعين ﴾ كيف جمعه جمع من يعقل ، وذلك متخرج على نحوين من كلام العرب : أحدهما أن الإضافة إلى من يعقل أفادت حكم من يعقل كما تفيد الإضافة إلى المؤنث تأنيث علامة المذكر ، ومنه قول الأعشى :

"كما شرقت صدر القناة من الدم" . . . وهذا كثير ، والنحو الآخر أن الأعناق لما وصفت بفعل لا يكون إلا مقصوداً للبشر وهو الخضوع ، إذ هو فعل يتبع أمراً في النفس ، جمعها فيه جمع من يعقل وهذا نظير قوله تعالى : ﴿ أتينا طائعين ﴾ [فصلت : 11] .

وقوله : ﴿ رأيتهم لي ساجدين ﴾ [يوسف : 4] . وقرأ ابن أبي عبلة " لها خاضعة " ثم عنف الكفار ونبه على سوء فعلهم بقوله : ﴿ وما يأتيهم ﴾ الآية ، وقوله ﴿ ومحدث ﴾ يريد محدث الإتيان ، أي مجيء القرآن للبشر كان شيئاً بعد شيء . وقالت فرقة يحتمل أن يريد ب " الذكر " محمد صلى الله عليه وسلم كما قال تعالى في آية أخرى : ﴿ قد أنزل الله إليكم ذكراً ﴾ [الطلاق : 10] . فيكون وصفه بالمحدث متمكناً .

قال القاضي أبو محمد : والقول الأول أفصح .

(28/566)

وقوله تعالى : ﴿ فقد كذبوا فسيأتيهم ﴾ . الآية وعيد بعذاب الدنيا والآخرة . ويقوى أنه وعيد بعذاب الدنيا لأن ذلك قد نزل بهم كبدر وغيرها ، ولما كان إعراضهم عن النظر في الصانع والإله من أعظم كفرهم وكانوا يجعلون الأصنام آلهة ويعرضون عن الذكر في ذلك ، نبه على قدرة الله وأنه الخالق المنشىء الذي يستحق العبادة بقوله ﴿ أو لم يروا إلى الأرض ﴾ الآية ، و " الزوج " النوع والصنف ، و " الكريم " الحسن المتقن قاله مجاهد وقتادة ، ويراد الأشياء التي بها قوام الأمور والأغذية والنباتات ، ويدخل في ذلك الحيوان لأنه عن إنبات ومنه قوله تعالى : ﴿ والله أنبتكم من الأرض نباتاً ﴾ [نوح : 17] . قال الشعبي الناس

من نبات الأرض فمن صار إلى الجنة فهو كريم ومن صار إلى النار فبضد ذلك وقوله تعالى : ﴿ وما كان أكثرهم مؤمنين ﴾ . حتم على أكثرهم بالكفر ثم توعد تعالى بقوله : ﴿ وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾ . يريد عز في نقمته من الكفار ورحم مؤمني كل أمة ، وقال نحو هذا ابن جريج ، وفي لفظة ﴿ الرحيم ﴾ وعد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(29/566)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ طسم ﴾

قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر : ﴿ طسم ﴾ بفتح الطاء وإِدغام النون من هجاء "سين" عند الميم .

وقرأ حمزة ، والكسائي ، وخلف ، وأبان ، والمفضل : ﴿ طسم ﴾ و ﴿ طس ﴾ [النمل] بامالة الطاء فيهما .

وأظهر النون من هجاء "سين" عند الميم حمزة ها هنا وفي (القصص) .

وفي معنى ﴿ طسم ﴾ أربعة أقوال .

أحدها : أنها حروف من كلمات ، ثم فيها ثلاثة أقوال .

أحدها : [ما] رواه عليّ بن أبي طالب عليه السلام قال : " لما نزلت ﴿ طسم ﴾ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "الطاء : طور سيناء ، والسين : الاسكندرية ، والميم : مكة" " .

والثاني : [أن] الطاء : طَيْبَة ، وسين : بيت المقدس ، وميم : مكة ، [رواه الضحاك عن ابن عباس] .

والثالث : الطاء شجرة طوبى ، والسين : سدرة المنتهى ، والميم : محمد صلى الله عليه وسلم ، قاله جعفر الصادق .

والثاني : أنه قسم أقسم الله به ، وهو من أسماء الله تعالى ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس .

وقد بيّنّا كيف يكون مثل هذا من أسماء الله تعالى في فاتحة مريم .

وقال القرظي : أقسم الله بطَوْله وسَنائه ومُلكه .

والثالث : انه اسم للسُّورة ، قاله مجاهد .

والرابع : أنه اسم من أسماء القرآن ، قاله قتادة ، وأبو روق .

وما بعد هذا قد سبق تفسيره [المائدة : 15 ، الكهف : 6] إلى قوله : ﴿ ألاَّ يكونوا مؤمنين ﴾ والمعنى : لعلّك قاتل نفسك لتركهم الإيمان .

ثم أخبر أنه لو أراد أن يُنزل عليهم ما يضطرهم إلى الإيمان لفعل ، فقال : ﴿ إِن نَشَأْ نُنَزِّلْ ﴾ وقرأ أبو رزين ، وأبو المتوكل : ﴿ إِن يَشَأْ يُنَزِّلْ ﴾ بالياء فيهما ، ﴿ عليهم من السماء آية فظلَّت أعناقُهم لها خاضعين ﴾ جعل الفعل أولاً للأعناق ، ثم جعل "خاضعين" للرجال ، لأن الأعناق إذا خضعت فأربابها خاضعون .

(30/566)

وقيل : لمّا وصف الأعناق بالخضوع ، وهو من صفات بني آدم ، أخرج الفعل مخرج الآدميّين كما بيَّنَّا في قوله : ﴿ والشمسَ والقمرَ رأيتُهم لي ساجدِين ﴾ [يوسف : 4] ، وهذا اختيار أبي عبيدة .

وقال الزجاج : قوله : ﴿ فظلَّت ﴾ معناه : فتَظَلُّ ، لأن الجزاء يقع فيه لفظ الماضي في معنى المستقبل ، كقولك : إن تأْتني أكرمتُكَ ، معناه : أُكْرِمْكَ ؛ وإنما قال : ﴿ خاضعِين ﴾ لأن خضوع الأعناق هو خضوع أصحابها ، وذلك أن الخضوع لمَّا لم يكن إلا بخضوع الأعناق ، جاز أن يخبر عن المضاف إليه ، كما قال الشاعر :

رَأَتْ مَرَّ السِّنِينَ أَخَذْنَ مِنِّي . . .

كَمَا أَخَذَ السِّرَارُ مِنَ الهِلالِ

فلما كانت السّنون لا تكون إلا بمَرٍّ ، أخبر عن السنين ، وإن كان أضاف إليها المرور .

قال : وجاء في التفسير أنه يعني بالأعناق كبراءَهم ورؤساءَهم .

وجاء في اللغة : أن أعناقهم جماعاتهم ؛ يقال : جاءني عُنُق من الناس ، أي : جماعة .

وما بعد هذا قد سبق تفسيره [الأنبياء : 2] إلى قوله : ﴿ أَولَم يَرَوا إلى الأرض ﴾ يعني المكذِّبين بالبعث ﴿ كم أَنْبَتْنَا فيها ﴾ بعد أن لم يكن فيها نبات ﴿ من كُلِّ زوج كريم ﴾

قال ابن قتيبة : من كل جنس حسن .

وقال الزجاج : الزوج : النوع ، والكريم : المحمود .

قوله تعالى : ﴿ إنَّ في ذلك ﴾ الإنبات ﴿ لآيةً ﴾ تدل على وحدانية الله وقُدرته ﴿ وما كان أكثرُهم مؤمنين ﴾ أي : ما كان أكثرهم يؤمن في عِلْم الله ، ﴿ وإنَّ ربَّك لَهوَ العزيز ﴾ المنتقِم من أعدائه ﴿ الرَّحيمُ ﴾ بأوليائه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 6 صـ ﴾

(31/566)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ طسم ﴾

قرأ الأعمش ويحيى وأبو بكر والمفضل وحمزة والكسائي وخلف بإمالة الطاء مشبعاً في

هذه السورة وفي أختيها .

وقرأ نافع وأبو جعفر وشيبة والزهري بين اللفظين ؛ واختاره أبو عبيد وأبو حاتم .

وقرأ الباقون بالفتح مشبعاً .

قال الثعلبي : وهي كلها لغات فصيحة .

وقد مضى في "طه" قول النحاس في هذا .

قال النحاس : وقرأ المدنيون وأبو عمرو وعاصم والكسائي : ﴿ طاسام ﴾ بإدغام النون في الميم ، والفراء يقول بإخفاء النون .

وقرأ الأعمش وحمزة : ﴿ طسين ميم ﴾ بإظهار النون .

قال النحاس : النون الساكنة والتنوين أربعة أقسام عند سيبويه : يبيّنان عند حروف الحلق ، ويدغمان عند الراء واللام والميم والواو والياء ، ويقلبان ميماً عند الباء ويكونان من الخياشيم ؛ أي لا يبينان ؛ فعلى هذه الأربعة الأقسام التي نصها سيبويه لا تجوز هذه القراءة ؛ لأنه ليس ها هنا حرف من حروف الحلق فتبيّن النون عنده ، ولكن في ذلك وُجَيْه : وهو أن حروف المعجم حكمها أن يوقف عليها ، فإذا وقف عليها تبينت النون .

قال الثعلبي : الإدغام اختيار أبي عبيد وأبي حاتم قياساً على كل القرآن ، وإنما أظهرها أولئك للتبيين والتمكين ، وأدغمها هؤلاء لمجاورتها حروف الفم .

قال النحاس : وحكى أبو إسحاق في كتابه "فيما يجري وفيما لا يجري" أنه يجوز أن يقال :

﴿ طسينَ ميمُ ﴾ بفتح النون وضم الميم ، كما يقال هذا معدي كربُ .

وقال أبو حاتم : قرأ خالد .

﴿ طسينَ ميمُ ﴾ .

ابن عباس : ﴿ طسم ﴾ قَسَم وهو اسم من أسماء الله تعالى ، والمقسم عليه : ﴿ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِّنَ السمآء آيَةً ﴾ .

وقال قتادة : اسم من أسماء القرآن أقسم الله به .

مجاهد : هو اسم السورة ويحسن افتتاح السورة .

الربيع : حساب مدّة قوم .

وقيل : قارعة تحل بقوم .

﴿ طاسام ﴾ و ﴿ طاس ﴾ واحد .

قال :

وَفَاؤُكُمَا كالرَّبعِ أَشْجَاهُ طَاسِمُهْ . . .

بأن تُسْعِدَا والدَّمعُ أَشْفَاه ساجمهْ

(32/566)

وقال القرظي : أقسم الله بطَوْله وسنائه ومُلكه .

وقال عبد الله بن محمد بن عَقِيل : الطاء طور سيناء والسين إسكندرية والميم مكة .

وقال جعفر بن محمد بن عليّ : الطاء شجرة طُوبى ، والسين سِدرة المنتهى ، والميم محمد صلى الله عليه وسلم .

وقيل : الطاء من الطاهر والسين من القدوس وقيل من السميع وقيل من السلام والميم من المجيد .

وقيل : من الرحيم .

وقيل : من الملك .

وقد مضى هذا المعنى في أول سورة "البقرة" .

والطَّوَاسيمُ والطَّواسينُ سور في القرآن جُمعت على غير قياس .

وأنشد أبو عبيدة :

وبالطَّواسِيم التي قد ثُلِّثت . . .

وبالحوامِيم التي قد سُبِّعت

قال الجوهري : والصواب أن تجمع بذوات وتضاف إلى واحد ، فيقال : ذواتُ طسم وذواتُ حم .

قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الكتاب المبين ﴾ رفع على إضمار مبتدأ أي هذه ﴿ تِلْكَ آيَاتُ

الكتاب المبين ﴾ التي كنتم وعدتم بها ؛ لأنهم قد وعدوا في التوراة والإنجيل بإنزال القرآن .

وقيل : ﴿ تِلْكَ ﴾ بمعنى هذه .

﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ ﴾ أي قاتل نفسك ومهلكها .

وقد مضى في "الكهف" بيانه .

﴿ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ أي لتركهم الإيمان .

قال الفراء : ﴿ أن ﴾ في موضع نصب ؛ لأنها جزاء .

قال النحاس : وإنما يقال : بإن مكسورة لأنها جزاء ؛ كذا المتعارف .

والقول في هذا ما قاله أبو إسحاق في كتابه في القرآن ؛ قال : "أَنْ" في موضع نصب مفعول من أجله ؛ والمعنى لعلك قاتل نفسك لتركهم الإيمان .

﴿ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً ﴾ أي معجزة ظاهرة وقدرة باهرة فتصير معارفهم ضرورية ، ولكن سبق القضاء بأن تكون المعارف نظرية .

وقال أبو حمزة الثُّماليّ في هذه الآية : صوت يسمع من السماء في النصف من شهر رمضان ؛ تخرج به العواتق من البيوت وتضج له الأرض .

وهذا فيه بعدٌ ؛ لأن المراد قريش لا غيرهم .

(33/566)

﴿ فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ ﴾ أي فتظل أعناقهم ﴿ لَهَا خَاضِعِينَ ﴾ قال مجاهد : أعناقهم كبراؤهم ؛ وقال النحاس : ومعروف في اللغة ؛ يقال : جاءني عُنُق من الناس أي رؤساء منهم .

أبو زيد والأخفش : ﴿ أَعْنَاقُهُمْ ﴾ جماعاتهم ؛ يقال : جاءني عُنُق من الناس أي جماعة .

وقيل : إنما أراد أصحاب الأعناق ، فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه .

قتادة : المعنى لو شاء لأنزل آية يذلون بها فلا يلوي أحد منهم عنقه إلى معصية .

ابن عباس : نزلت فينا وفي بني أمية ستكون لنا عليهم الدولة فتذلّ لنا أعناقهم بعد معاوية ؛ ذكره الثعلبي والغزنوي .

وخاضعين وخاضعة هنا سواء ؛ قاله عيسى بن عمر واختاره المبرد .

والمعنى : إنهم إذا ذلّت رقابهم ذلّوا ؛ فالإخبار عن الرقاب إخبار عن أصحابها .

ويسوغ في كلام العرب أن تترك الخبر عن الأول وتخبر عن الثاني ؛ قال الراجز :

طولُ الليالي أسرعتْ في نَقْضي . . .

طَوَيْنَ طُولِي وطَوَيْنَ عَرْضِي

فأخبر عن الليالي وترك الطول .

وقال جرير :

ارَى مَرَّ السنين أَخَذْنَ منّي . . .

كما أَخَذَ السِّرارُ من الهِلالِ

وإنما أجاز ذلك لأنه لو أسقط مرّ وطول من الكلام لم يفسد معناه ، فكذلك رد الفعل إلى الكناية في قوله : ﴿ فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ ﴾ لأنه لو أسقط الأعناق لما فسد الكلام ، ولأدّى ما بقي من الكلام عنه حتى يقول : فظلوا لها خاضعين .

وعلى هذا اعتمد الفراء وأبو عبيدة .

والكسائي يذهب إلى أن المعنى خاضعيها هم ، وهذا خطأ عند البصريين والفراء .

ومثل هذا الحذف لا يقع في شيء من الكلام ؛ قاله النحاس .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرحمن مُحْدَثٍ إِلاَّ كَانُواْ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴾ تقدّم في "الأنبياء" .

﴿ فَقَدْ كَذَّبُواْ ﴾ أي أعرضوا ومن أعرض عن شيء ولم يقبله فهو تكذيب له .

(34/566)

﴿ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ وعيد لهم ؛ أي فسوف يأتيهم عاقبة ما كذبوا والذي استهزءوا به .

قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى الأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ نبّه على عظمته وقدرته وأنهم لو رأوا بقلوبهم ونظروا ببصائرهم لعلموا أنه الذي يستحق أن يُعبد ؛ إذ هو القادر على كل شيء .

والزوج هو اللون ؛ قاله الفراء .

و﴿ كَرِيمٍ ﴾ حسن شريف ، وأصل الكرم في اللغة الشرف والفضل ، فنخلة كريمة أي فاضلة كثيرة الثمر ، ورجل كريم شريف فاضل صفوح .

ونبتت الأرض وأنبتت بمعنى .

وقد تقدّم في سورة "البقرة" والله سبحانه المخرج والمنبت له .

وروي عن الشعبي أنه قال : الناس من نبات الأرض فمن صار منهم إلى الجنة فهو كريم ، ومن صار إلى النار فهو لئيم .

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً ﴾ أي فيما ذكر من الإنبات في الأرض لدلالته على أن الله قادر ، لا يعجزه شيء .

﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ أي مصدقين لما سبق من علمي فيهم .

و﴿ كَانَ ﴾ هنا صلة في قول سيبويه ؛ تقديره : وما أكثرهم مؤمنين .

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العزيز الرحيم ﴾ يريد المنيع المنتقم من أعدائه ، الرحيم بأوليائه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 13 صـ ﴾

(35/566)

وقال أبو حيان :

﴿ طسم (1) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (2) C

هذه السورة كلها مكية في قول الجمهور إلا أربع آيات من : ﴿ والشعراء يتبعهم الغاوون ﴾ إلى آخر السورة ، وقاله ابن عباس وعطاء وقتادة .

وقال مقاتل : ﴿ أول لم يكن لهم آية ﴾ ، الآية مدنية .

ومناسبة أولها لآخر ما قبلها أنه قال تعالى : ﴿ فقد كذبتم فسوف يكون لزاماً ﴾ ذكر تلهف رسول الله (صلى الله عليه وسلم) على كونهم لم يؤمنوا ، وكونهم كذبوا بالحق ، لما جاءهم .

ولما أوعدهم في آخر السورة بقوله : ﴿ فسوف يكون لزاماً ﴾ أوعدهم في أول هذه فقال في إثر إخباره بتكذيبهم فسوف يأتيهم ﴿ أنباء ما كانوا به يستهزءون ﴾ .

وتلك إشارة إلى آيات السورة ، أو آيات القرآن .

وأمال فتحة الطاء حمزة والكسائي ، وأبو بكر وباقي السبعة : بالفتح ؛ وحمزة بإظهار نون سين ، وباقي السبعة بإدغامها ؛ وعيسى بكسر الميم من طسم هنا وفي القصص ، وجاء كذلك عن نافع .

وفي مصحف عبد الله طس م مقطوع ، وهي قراءة أبي جعفر .

وتكلموا على هذه الحروف بما يشبه اللغز والأحاجي ، فتركت نقله ، إذ لا دليل على شيء مما قالوه .

﴿ والكتاب المبين ﴾ : هو القرآن ، هو بين في نفسه ومبين غيره من الأحكام والشرائع وسائر ما اشتمل عليه ، أو مبين إعجازه وصحة أنه من عند الله .

وتقدم تفسير ﴿ باخع نفسك ﴾ في أول الكهف .

﴿ ألا يكونوا ﴾ : أي لئلا يؤمنوا ، أو خيفة أن لا يؤمنوا .

وقرأ قتادة وزيد بن علي : باخع نفسك على الإضافة .

﴿ إن نشأ ننزل ﴾ ، دخلت إن على نشأ وإن للممكن ، أو المحقق المنبهم زمانه .

(36/566)

قال ابن عطية : ما في الشرط من الإبهام هو في هذه الآية في حيزنا ، وأما الله تعالى فقد علم أنه لا ينزل عليهم آية اضطرار ، وإنما جعل الله آيات الأنبياء والآيات الدالة عليه معرضة للنظر والفكر ، ليهتدي من سبق في علمه هداه ، ويضل من سبق ضلاله ، وليكون للنظرة كسب به يتعلق الثواب والعقاب ، وآية الاضطرار تدفع جميع هذا إن لو كانت . انتهى .

ومعنى آية : أي ملجئة إلى الإيمان يقهر عليه .

وقرأ أبو عمرو في رواية هرون عنه : إن يشأ ينزل على الغيبة ، أي إن يشأ الله ينزل ، وفي بعض المصاحف : لو شئنا لأنزلنا .

وقرأ الجمهور : فظلت ، ماضياً بمعنى المستقبل ، لأنه معطوف على ينزل .

وقرأ طلحة : فتظلل ، وأعناقهم .

قال الزمخشري : فإن قلت : كيف صح مجيء خاضعين خبراً عن الأعناق ؟ قلت : أصل الكلام : فظلوا لها خاضعين ، فأقحمت الأعناق لبيان موضع الخشوع ، وترك الكلام على أصله كقولهم : ذهبت أهل اليمامة ، كان الأهل غير مذكور . انتهى .

وقال مجاهد ، وابن زيد ، والأخفش : جماعاتهم ، يقال : جاءني عنق من الناس ، أي جماعة ، ومنه قول الشاعر :

إن العراق وأهله عنق إليك فهيت هيتا . . .

وقيل : أعناق الناس : رؤساؤهم ، ومقدموهم شبهوا بالأعناق ، كما قيل :

لهم الرؤوس والنواصي والصدور . . .

قال الشاعر :

في مجفل من نواصي الخيل مشهود . . .

وقيل : أريد الجارحة .

فقال ابن عبسى : هو على حذف مضاف ، أي أصحاب الأعناق .

وروعي هذا المحذوف في قوله : ﴿ خاضعين ﴾ ، حيث جاء جمعاً للمذكر العاقل ، أولاً حذف ، ولكنه اكتسى من إضافته للمذكر العاقل وصفه ، فأخبر عنه إخباره ، كما يكتسي المذكر التأنيث من إضافته إلى المؤنث في نحو :

كما شرقت صدر القناة من الدم . . .

أولاً حذف ، ولكنه لما وضعت لفعل لا يكون إلا مقصوداً للعاقل وهو الخضوع ، جمعت جمعه كما جاء : ﴿ أتينا طائعين ﴾ وقرأ عيسى ، وابن أبي عبلة : خاضعة .

(37/566)

وعن ابن عباس : نزلت هذه الآية فينا وفي بني أمية ، ستكون لنا عليهم الدولة ، فتذل أعناقهم بعد معاوية ، ويلحقهم هوان بعد عز .

﴿ وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث ﴾ .

تقدم تفسيره في الأنبياء .

﴿ إلا كانوا ﴾ : جملة حالية ، أي إلا يكونوا عنها .

وكان يدل ذلك أن ديدنهم وعادتهم الإعراض عن ذكر الله .

قال الزمخشري : فإن قلت : كيف خولف بين الألفاظ والغرض واحد ، وهو الإعراض ؟

قلت : كان قبل حين أعرضوا عن الذكر ، فقد كذبوا به ، وحين كذبوا به ، فقد خف عليهم قدره وصار عرضه الاستهزاء بالسخرية ، لأن من كان قابلاً للحق مقبلاً عليه ، كان مصدقاً به لا محالة ، ولم يظن به التكذيب .

ومن كان مصدقاً به ، كان موقراً له . انتهى .

﴿ فسيأتيهم ﴾ : وعيد بعذاب الدنيا ، كيوم بدر ، وعذاب الآخرة .

ولما كان إعراضهم عن النظر في صانع الوجود ، وتكذيب ما جاءتهم به رسله من أعظم الكفر ، وكانوا يجعلون الأصنام آلهة ، نبه تعالى على قدرته ، وأنه الخالق المنشيء الذي يستحق العبادة بقوله : ﴿ أو لم يروا إلى الأرض ﴾ ؟ والزوج : النوع .

وقيل : الشيء وشكله .

وقيل : أبيض وأسود وأحمر وأصفر وحلو وحامض .

وقال الفراء : الزوج : اللون .

والكريم : الحسن ، قاله مجاهد وقتادة .

وقيل : ما يأكله الناس والبهائم .

وقيل : الكثير المنفعة .

وقيل : الكريم صفة لكل ما يرضى ويحمد .

وجه كريم : مرضي في حسنه وجماله ؛ وكتاب كريم : مرضي في معانيه وفوائده .

وقال : حتى يشق الصفوف من كرمه ، أي من كونه مرضياً في شجاعته وبأسه ، ويراد الأشياء التي بها قوام الأمور ، والأغذية والنباتات ، ويدخل في ذلك الحيوان لأنه عن اثنين .

قال تعالى : ﴿ والله أنبتكم من الأرض نباتاً ﴾ قال الشعبي : الناس من نبات الأرض ، فمن صار إلى الجنة فهو كريم ، ومن صار إلى النار فبضد ذلك .

(38/566)

قال الزمخشري : فإن قلت : ما معنى الجمع بين كم وكل ؟ ولو قيل : ﴿ أنبتنا فيها من كل زوج كريم ﴾ قلت : دل كل على الإحاطة بأزواج النبات على سبيل التفصيل ، وكم على أن هذا المحيط متكاثر مفرط الكثرة ؟ فهذا معنى الجمع ، وبه نبه على كمال قدرته .

انتهى .

وأفرد ﴿ لآية ﴾ ، وإن كان قد سبق ما دل على الكثرة في الأزواج ، وهو كم ، وعلى الإحاطة بالعموم في الأزواج ، لأن المشار إليه واحد ، وهو الإنبات ، وإن اختلفت متعلقاته ، أو أريد أن في كل واحد من تلك الأزواج لآية .

﴿ وما كان أكثرهم مؤمنين ﴾ : تسجيل على أكثرهم بالكفر .

﴿ وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾ : أي الغالب القاهر .

ولما كان الموضع موضع بيان القدرة ، قدم صفة العزة على صفة الرحمة .

فالرحمة إذا كانت عن قدرة ، كانت أعظم وقعاً ، والمعنى : أنه عز في نقمته من الكفار ورحم مؤمني كل أمة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾

(39/566)

وقال أبو السعود :

﴿ طسم ﴾ بتفخيمِ الألف وبإمالتِها وإظهارِ النُّونِ وبإدغامِها في الميمِ ، وهو إمَّا مسرودٌ على نمطِ التَّعديدِ بطريقِ التَّحدّي على أحدِ الوجهينِ المذكُورينِ في فاتحةِ سُورة البقرةِ فلا محلَّ له من الإعرابِ وإمَّا اسمٌ للسُّورةِ كما عليه إطباقُ الأكثرِ فمحلُّه الرَّفعُ على أنَّه خبرٌ لمبتدأٍ محذوفٍ وهو أظهرُ من الرَّفع على الابتداءِ وقد مرَّ وجهُه في مطلعِ سُورة يونسَ عليه

السَّلامُ. أو النَّصبُ بتقديرِ فعلٍ لائقٍ نحو اذكُر أو اقرأْ. وتلكَ في قولِه تعالى: ﴿ تِلْكَ ءَايَاتُ الكتاب المبين ﴾ إشارةٌ إلى السُّورة سواءٌ كانَ طسم مسرُوداً على نمط التَّعديدِ أو اسماً للسُّورة حسبما مرَّ تحقيقُه هناك، وما في اسمِ الإشارةِ من معنى البُعدِ للتَّنبيهِ على بُعدِ منزلةِ المُشارِ إليه في الفخامةِ ومحلُّه الرَّفعُ على أنَّه مبتدأٌ خبرُه ما بعدَه وعلى تقديرِ كونِ طسم مبتدأً فهو مبتدأٌ ثانٍ أو بدلٌ من الأَوَّلِ، والمرادُ بالكتابِ القرآنُ وبالمبينِ الظَّاهرُ إعجازُه على أنَّه من أبانَ بمعنى بانَ، أو المُبينُ للأحكامِ الشَّرعيةِ وما يتعلَّقُ بها أو الفاصلُ بين الحقِّ والباطلِ والمعنى هي آياتٌ مخصُوصةٌ منه مترجمةٌ باسمٍ مستقلٍ. والمرادُ ببيانُ كونِها بعضاً منهُ وصفاً بما اشتهرَ به الكُلُّ من النُّعوتِ الفاضلةِ.

﴿ لَعَلَّكَ باخع نَّفْسَكَ ﴾ أي قاتلٌ. وأصلُ البَخعِ أنْ يبلغَ بالذَّبحِ النُّخاعَ، وهو عرقٌ مستبطنُ الفقارِ وذلك أقصى حدِّ الذَّبحِ. وقُرِىءَ باخِعُ نفسِك على الإضافةِ ولعلَّ للإشفاقِ أي أشفقْ على نفسِك أنْ تقتلَها حسرةً على ما فاتَك من إسلامِ قومِك ﴿ أَلاَّ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ أي لعدمِ إيمانِهم بذلكَ الكتابِ المبينِ أو خيفةَ أنْ لا يُؤمنوا به.

(40/566)

وقوله تعالى : ﴿ إِن نَّشَأْ ﴾ الخ استئنافٌ مسوق لتعليلِ ما يُفهم من الكلام من النَّهي عن التَّحسرِ المذكور ببيانِ أنَّ إيمانَهم ليس ممَّا تعلَّقتْ به مشيئةُ الله تعالى حتماً فلا وجهَ للطَمعِ فيه والتَّألمِ من فواتِه . ومفعولُ المشيئةِ محذوفٌ لكونه مضمونَ الجزاءِ أعني قوله تعالى : ﴿ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِّنَ السماء ءايَةً ﴾ أي ملجئةً لهم إلى الإيمانِ قاسرةً عليه وتقديمُ الظَّرفينِ على المفعول الصَّريحِ لما مرَّ مراراً من الاهتمامِ بالمقدَّمِ والتَّشويقِ إلى المؤخَّرِ ﴿ فَظَلَّتْ أعناقهم لَهَا خاضعين ﴾ أي مُنقادين . وأصلُه فظلوا لها خاضعين فأُقحمت الأعناقُ لزيادةِ التَّقريرِ ببيانِ موضعِ الخضوعِ وتُركَ الخبرُ على حالِه . وقيل لمَّا وُصفت الأعناقُ بصفاتِ العُقلاء أُجريتْ مجراهم في الصِّيغةِ أيضاً كما في قولِه تعالى : ﴿ رَأَيْتُهُمْ لى سَاجِدِينَ ﴾ وقيل : أُريد بها الرُّؤساءُ والجماعاتُ من قولِهم جاءنا عنقٌ من النَّاسِ أي فوجٌ منهم . وقُرِئ خاضعةً . وقولُه تعالى : فظلَّتْ عطفٌ على ننزِّل باعتبارِ محلِّه .

وقولُه تعالَى :

(41/566)

﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرحمن مُحْدَثٍ إِلاَّ كَانُواْ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴾ بيانٌ لشدَّةِ شكيمتهم وعدمِ ارعوائهم عمَّا كانوا عليه من الكُفر والتَّكذيبِ بغيرِ ما ذُكر من الآيةِ المُلجئةِ لصرف

رسولِ الله صلى الله عليه وسلم عن الحرصِ على إسلامِهم وقطعِ رجائِه عنه . ومِن الأُولى مزيدةٌ لتأكيدِ العُموم والثَّانيةُ لابتداء الغايةِ مجازاً متعلّقةٌ بيأتيهم أو بمحذوفٍ هو صفةٌ لذكرٍ ، وأيّاً ما كان ففيهِ دلالةٌ على فضلهِ وشرفهِ وشناعةِ ما فعلُوا به والتَّعرضُ لعنُوان الرَّحمةِ لتغليظِ شناعتِهم وتهويلِ جنايتِهم فإنَّ الإعراضَ عمَّا يأتيهم من جنابِه عزَّ وجلَّ على الإطلاقِ شنيعٌ قبيحٌ وعما يأتيهم بموجبِ رحمتِه تعالى لمحضِ منفعتِهم أشنعُ وأقبحُ أي ما يأتيهم من موعظةٍ من المواعظِ القُرآنيةِ أو من طائفةٍ نازلةٍ من القُرآنِ تذكّرهم أكملَ تذكيرٍ وتنبّههم عن الغفلةِ أتمَّ تنبيةٍ كأنَّها نفسُ الذِّكرِ من جهتِه تعالى بمقتضى رحمتِه الواسعةِ مجدد تنزيله حسبما تقتضيه الحكْمةُ والمصلحة إلا جدَّدوا إعراضاً عنه على وجه التَّكذيبِ والاستهزاء وإصراراً على ما كانُوا عليه من الكفرِ والضَّلالِ والاستثناء مفرَّغٌ من أعمّ الأحوال ، محلُّه النَّصبُ على الحاليَّةِ من مفعول يأتيهم بإضمار قد أو بدونِه على الخلاف المشهورِ أي ما يأتيهم من ذكرٍ في حال من الأحوالِ إلا حالَ كونهم مُعرضين عنه .

(42/566)

﴿ فَقَدْ كَذَّبُواْ ﴾ أي كذَّبوا بالذِّكرِ الذي يأتيهم تكذيباً صَريحاً مُقارناً للاستهزاءِ به ولم يكتفُوا بالإعراضِ عنه حيثُ جعلُوه تارة سحراً وأُخرى أساطيرَ وأُخرى شعراً . والفاءُ

في قوله تعالى : ﴿ فَسَيَأْتِيهِمْ ﴾ لترتيبِ ما بعدها على ما قبلَها . والسّينُ لتأكيد مضمونِ الجملة وتقريرِه أي فسيأتيهم ألبتةَ من غير تخلّفٍ أصلاً ﴿ أَنْبَاء مَا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ عدلَ عمَّا يقتضيه سائرُ ما سلف من الإعراض والتَّكذيبِ للإيذان بأنَّهما كانا مقارنين للاستهزاءِ ، كما أشير إليه حسبما وقع في قولِه تعالى : ﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءايَةٍ مِّنْ ءايات رَبِّهِمْ إِلاَّ كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ فَقَدْ كَذَّبُواْ بالحق لَمَّا جَاءهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاء مَا كَانُواْ بِهِ ﴾ وأنباؤُه ما سيحيقُ بهم من العُقوبات العاجلةِ والآجلةِ عبَّر عنها بذلك إمَّا لكونِها ممَّا أنبأَ بها القُرآنُ الكريمُ وإمَّا لأنَّهم بمشاهدتِها يقفُون على حقيقةِ حالِ القُرآنِ كما يقفُون على الأحوالِ الخافيةِ عنهم باستماعِ الأنباءِ وفيه تهويلٌ له لأنَّ النبأَ لا يُطلق إلا على خبرٍ خطيرٍ له وقعٌ عظيمٌ أي فسيأتيهم لا محالةَ مصداقُ ما كانُوا يستهزئون به قبلُ من غير أنْ يتدَّبروا في أحوالِه ويقفوا عليها .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ ﴾ الهمزةُ للإنكار التَّوبيخيِّ والواو للعطف على مقدَّرٍ يقتضيه المقام أي فعلوا ما فعلوا من الإعراضِ عن الآيات والتَّكذيبِ والاستهزاء بها ولم ينظرُوا ﴿ إِلَى الأرض ﴾ أي إلى عجائبها الزَّاجرةِ عمَّا فعلُوا الدَّاعيةِ إلى الإقبال على ما أعرضُوا عنه وإلى الإيمانِ به .

وقولُه تعالى : ﴿ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ استئنافٌ مبيّن لما في الأرضِ من الآيات الزّاجرةِ عن الكُفر الدّاعيةِ إلى الإيمان . وكمْ خبريةٌ منصوبةٌ بما بعدها على المفعوليّةِ . والجمعُ بينها وبينَ (كلِّ) لإفادةِ الإحاطةِ والكثرةِ معاً ومن كلِّ زوجٍ أي صنف تمييز والكريمُ من كلِّ شيءٍ مرضيُّه ومحمودُه أي كثيراً من كلِّ صنفٍ مرضيَ كثير المنافع أنبتنا فيها . وتخصيصُ إنباته بالذّكر دون ما عداه من الأصنافِ لاختصاصِه بالدّلالةِ على القُدرة والنعمة معاً . ويُحتمل أنْ يرادَ به جميعُ أصناف النّباتاتِ نافعِها وضارّها ويكون وصفُ الكلِّ بالكرمِ للتنبيه على أنّه تعالى ما أنبتَ شيئاً إلا وفيه فائدةٌ كما نطقَ به قولُه تعالى : ﴿ هُوَ الذى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى الأرض جَمِيعاً ﴾ فإنّ الحكيمَ لا يكادُ يفعلُ فعلاً إلا وفيه حكمةٌ بالغةٌ وإنْ غفلَ عنها الغافلونَ ولم يتوصّلْ إلى معرفةِ كُنْهها العاقلون .

﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ ﴾ إشارةٌ إلى مصدرِ أنبتنا أو إلى كلِّ واحدٍ من تلك الأزواجِ ، وأيًا ما كان فما فيه من معنى البُعد للإيذانِ ببُعد منزلتِه في الفضلِ ﴿ لآيَةً ﴾ أي آيةً عظيمةً دالّةً على كمالِ قُدرةِ مُنبتها وغايةِ وفُورِ علمِه وحكمتِه ونهايةِ سعَةِ رحمتِه موجبةً للإيمانِ وازعةً عن الكُفرِ .

﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ ﴾ أي أكثرُ قومِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ﴿ مُّؤْمِنِينَ ﴾ قيل أي في علم الله تعالى وقضائِه حيثُ علم أزلاً أنَّهم سيُصرفون فيما لا يزالُ اختيارُهم الذي عليه يدورُ أمر التَّكليفِ إلى جانب الشَّرِّ ولا يتدبَّرون في هذه الآياتِ العظامِ . وقال سيبويه : كانَ صلةٌ ، والمعنى وما أكثرُهم مؤمنين وهو الأنسبُ بمقامِ بيانِ عُتوِّهم وغلوِّهم في المكابرةِ والعنادِ مع تعاضدِ موجباتِ الإيمانِ من جهتِه تعالى . وأما نسبةُ كُفرِهم إلى علمِه تعالى وقضائِه فرُبَّما يتُوهَّم منها كونُهم معذورينَ فيه بحسبِ الظَّاهرِ لأنَّ ما أُشيرَ إليه من التَّحقيقِ ممَّا خفيَ على مَهَرةِ العُلماءِ المُتقنين ، كأنَّه قيل : إنَّ في ذلك لآيةً باهرةً موجبةً للإيمانِ وما أكثرُهم مُؤمنين مع ذلكَ لغايةِ تمادِيهم في الكُفرِ والضَّلالةِ وانهماكِهم في الغيِّ والجَهالةِ . ونسبةُ عدمِ الإيمانِ إلى أكثرِهم لأنَّ منهم مَن سيُؤمن .

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العزيز ﴾ الغالبُ على كلِّ ما يُريده من الأمورِ التي من جُملتِها الانتقامُ من هؤلاءِ ﴿ الرحيم ﴾ المبالغُ في الرَّحمةِ ولذلك يُمهلهم ولا يُؤاخذهم بغتةً بما اجترؤُا عليهِ من العظائمِ المُوجبةِ لفُنون العُقُوباتِ ، وفي التَّعرضِ لوصفِ الرُّبوبيَّةِ مع الإضافةِ إلى ضميرِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ من تشريفِه والعِدةِ الخفيَّةِ بالانتقامِ من الكَفَرةِ ما لا يَخفى . انتهى انتهى . اهـ

﴿ تفسير أبي السعود حـ 6 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرحمن الرحيم ﴾

﴿ طسم ﴾ تقدم الكلام في أمثاله إعراباً وغيره والكلام هنا كالكلام هناك بيد أنه أخرج ابن أبي حاتم عن محمد بن كعب أنه قال في هذا الطاء من ذي الطول والسين من القدوس والميم من الرحمن ، وأمال فتحة الطاء حمزة .

والكسائي .

وأبو بكر .

وقرأ نافع كما روى عنه أبو علي الفارسي في الحجة بين بين ولم يمل صرفاً لأن الألف منقلبة عن ياء فلو أميلت إليها انتقض غرض القلب وهو التخفيف .

وروى بعض عنه أنه قرأ كباقي السبعة من غير إمالة أصلاً نظراً إلى أن الطاء حرف استعلاء يمنع من الإمالة ، وقرأ حمزة بإظهار نون سين لأنه في الأصل لكونه أحد أسماء الحروف المقطعة منفصل عما بعده وأدغمها الباقون لما رأوها متصلة في حكم كلمة واحدة خصوصاً على القول بالعلمية ، وقرأ عيسى بكسر الميم من ﴿ طسم ﴾ هنا وفي القصص

، وجاء كذلك عن نافع ، وفي مصحف عبد الله طس م من غير اتصال وهي قراءة أبي جعفر .

﴿ تِلْكَ ءَايَاتُ الكتاب المبين ﴾

إشارة إلى السورة ، وما في ذلك من معنى البعد للتنبيه على بعد منزلة المشار إليه في الفخامة ، والمراد بالكتاب القرآن وبالمبين الظاهر إعجازه على أنه من أبان بمعنى بأن والكلام على تقدير مضاف أو على أن الإسناد فيه مجازي ، وجوز أن يكون المبين من أبان المتعدي ومفعوله محذوف أي الأحكام الشرعية أو الحق ، والأول أنسب بالمقام ، والمعنى هذه آيات مخصوصة من القرآن مترجمة باسم مستقل ، والمراد ببيان كونها بعضاً منه وصفها بما اشتهر به الكل من النعوت الجليلة ، وقيل : الإشارة إلى القرآن والتأنيث لرعاية الخبر ، والمراد بالكتاب السورة ، والمعنى آيات هذا القرآن المؤلف من الحروف المبسوطة كآيات هذه السورة المتحدي بها فأنتم عجزتم عن الإتيان بمثل هذه السورة فحكم تلك الآيات كذلك وهو كما ترى .

(46/566)

ومن الناس من فسر ﴿ الكتاب المبين ﴾ باللوح المحفوظ ووصفه بالمبين لإظهاره أحوال الأشياء للملائكة عليهم السلام والأولى ما سمعته أولاً .

﴿ لَعَلَّكَ باخع نَّفْسَكَ ﴾ أي قاتل إياها من شدة الوجد كما قال الليث وأنشد قول الفرزدق :

ألا أيهذا الباخع الوجد نفسه . . .

لشيء نحته عن يديه المقادر

وقال الأخفش .

والفراء .

يقال بخع يبخع بخعاً وبخوعاً أي أهلك من شدة الوجد وأصله الجهد ، ومنه قول عائشة في عمر رضي الله تعالى عنهما بخع الأرض أي جهدها حتى أخذ ما فيها من أموال الملوك ، وقال الكسائي بخع الأرض بالزراعة جعلهما ضعيفة بسبب متابعة الحراثة ؛ وقال الزمخشري وتبعه المطرزي : أصل البخع أن تبلغ بالذبح البخاع بكسر الباء وهو عرق مستبطن الفقار وذلك أقصى حد الذبح ، ولم يطلع على ذلك ابن الأثير مع مزيد بحثه ولا ضير في ذلك .

وقرأ زيد بن علي .

وقتادة رحمهم الله تعالى ﴿ باخع نَّفْسَكَ ﴾ بالإضافة على خلاف الأصل فإن الأصل في اسم الفاعل إذا استوفى شروط العمل أن يعمل على ما أشار إليه سيبويه في الكتاب ، وقال الكسائي : العمل والإضافة سواء ، وذهب أبو حيان إلى أن الإضافة أحسن من العمل ، ولعل في مثل هذا الموضع لإشفاق المتكلم ، ولما استحال في حقه سبحانه جعلوه متوجهاً إلى المخاطب ، ولما كان غير واقع منه أيضاً قالوا : المراد الأمر به لدلالة الإنكار المستفاد من سوق الكلام عليه فكأنه قيل : أشفق على نفسك أن تقتلها وجداً وحسرة على ما فاتك من إسلام قومك ، وقال العسكري : هي في مثل هذا الموضع موضوعة موضع النهي ، والمعنى لا تبخع نفسك ، وقيل : وضعت موضع الاستفهام والتقدير هل أنت باخع ، وحكى مثله عن ابن عطية إلا أنه قال : المراد الإنكاري أي لا تكن باخعاً نفسك ﴿ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ تعليل للبخع ، ولما لم يصح كون عدم كونهم في المستقبل مؤمنين كما يفيده ظاهر الكلام علة لذلك لعدم المقارنة والعلة ينبغي أن تقارن المعلول قدروا خيفة فقالوا : خيفة أن لا يؤمنوا بذلك الكتاب المبين ، ومن الأجلة من لم يقدر ذلك بناء على أن المراد لاستمرارهم على عدم قبول الايمان بذلك الكتاب لأن كلمة كان للاستمرار وصيغة الاستقبال لتأكيده وأريد استمرار النفي ؛ وجوز أن يكون الكون بمعنى الصحة والمعنى لامتناع إيمانهم والقول بأن فعل الكون أتى به لأجل الفاصلة ليس بشيء .

﴿ إِن نَّشَأْ ﴾ الخ استئناف لتعليل الأمر بإشفاقه على نفسه صلى الله عليه وسلم أو النهي عن البخع ، ومفعول المشيئة محذوف وهو على المشهور ما ذل عليه مضمون الجزاء ، وجوز أن يكون مدلولاً عليه بما قبل أي إن نشأ إيمانهم ﴿ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِّنَ السماء ءايَةً ﴾ ملجئة لهم إلى الايمان قاسرة عليه كما نتق الجبل فوق بني إسرائيل وتقديم الظرفين على المفعول الصريح لما مر مراراً من الاهتمام بالمقدم والتشويق إلى المؤخر .

وقرأ أبو عمرو في رواية هرون عنه ﴿ إِن يَشَأْ يُنَزِّلْ ﴾ على الغيبة والضمير له تعالى ، وفي بعض المصاحب لو شئنا لأنزلنا ﴿ فَظَلَّتْ أعناقهم لَهَا خاضعين ﴾ أي منقادين وهو خبر عن الأعناق وقد اكتسبت التذكير وصفة العقلاء من المضاف إليه فأخبر عنها لذلك بجمع من يعقل كما نقله أبو حيان عن بعض أجلة علماء العربية .

واختصاص جواز مثل ذلك الشعر كما حكاه السيرافي عن النحويين مما لم يرتضه المحققون ومنهم أبو العباس وهو ممن خرج الآية على ذلك ، وجوز أن يكون ذلك لما أنها وصفت بفعل لا يكون إلا مقصوداً للعاقل وهو الخضوع كما في قوله تعالى : ﴿ رَأَيْتُهُمْ لى سَاجِدِينَ ﴾ [يوسف : 4] وأن يكون الكلام على حذف مضاف وقد روعي بعد حذفه أي أصحاب

أعناقهم ، ولا يخفى أن هذا التقدير ركيك مع الإضافة إلى ضميرهم ، وقال الزمخشري : أصل الكلام فظلوا لها خاضعين فأقحمت الأعناق لبيان موضع الخضوع لأنه يتراءى قبل التأمل لظهور الخضوع في العنق بنحو الانحناء أنه هو الخاضع دون صاحبه وترك الجمع بعد الأقحام على ما كان عليه قبل .

وقال الكسائي : إن خاضعين حال للضمير المجرور لا للأعناق .

وتعقبه أبو البقاء فقال : هو بعيد في التحقيق لأن ﴿ خاضعين ﴾ يكون جارياً على غير فاعل ﴿ ظَلْتَ ﴾ فيفتقر إلى إبراز ضمير الفاعل فكان يجب أن يكون خاضعين هم فافهم ، وقال ابن عباس .

ومجاهد .

وابن زيد .

(49/566)

والأخفش : الأعناق الجماعات يقال : جاءني عنق من الناس أي جماعة ، والمعنى ظلت جماعاتهم أي جملتهم .

وقيل : المراد بها الرؤساء والمقدمون مجازاً كما يقال لهم : رؤس وصدور فيثبت الحكم

لغيرهم بالطريق الأولى ، وظاهر كلامهم أن إطلاق العنق على الجماعة مطلقاً رؤساء أم لا حقيقة وذكر الطيبي عن الأساس أن من المجاز أتاني عنق من الناس للجماعة المتقدمة وجاؤا رسلاً رسلاً وعنقاً عنقاً والكلام يأخذ بعضه بأعناق بعض ثم قال : يفهم من تقابل رسلاً رسلاً لقوله : عنقاً عنقاً أن في إطلاق الأعناق على الجماعات اعتبار الهيئة المجتمعة فيكون المعنى فظلوا خاضعين مجتمعين على الخضوع متفقين عليه لا يخرج أحد منهم عنه .

وقرأ عيسى .

وابن أبي عبلة ﴿ خاضعة ﴾ وهي ظاهرة على جميع الأقوال في الأعناق بيد أنه إذا أريد بها ما هو جمع العنق بمعنى الجارحة كان الإسناد إليها مجازياً و ﴿ مَا لَهَا ﴾ في القراءتين صلة ظلت أو الوصف والتقديم للفاصلة أو نحو ذلك لا للحصر ، وظلت عطف على ننزل ولا بد من تأويل أحد الفعلين بما هو من نوع الآخر لأنه وإن صح عطف الماضي على المضارع إلا أنه هنا غير مناسب فإنه لا يترتب الماضي على المستقبل بالفاء التعقيبية أو السببية ولا يعقل ذلك والمعقول عكسه ، وبتأويل أحد الفعلين يدفع ذلك لكن اختار بعضهم تأويل ظلت بتظل وكأن العدول عنه إليه ليؤذن الماضي بسرعة الانفعال وأن نزول الآية لقوة سلطانه وسرعة ترتب ما ذكر عليه كأنه كان واقعاً قبله ، وبعضهم تأويل ننزل بأنزلنا ، ولعل وضعه موضعه لاستحضار صورة إنزال تلك الآية العظيمة الملجئة إلى الايمان وحصول خضوع رقابهم عند ذلك في ذهن السامع ليتعجب مه فتأمل .

وقرأ طلحة ﴿ فتظل ﴾ بفك الإدغام ، والجزم وضعف الحريري في درة الغواص الفك في مثل ذلك ، ورجح "صاحب الكشف" القراءة بأنها أبلغ لإفادة الماضي ما سمعته آنفاً ، هذا والظاهر أنه لم يتحقق إنزال هذه الآية لأن سنة الله تعالى تكليف الناس بالايمان من دون الجاء ، نعم إذا قيل : المراد آية مذلة لهم كما روى عن قتادة جاز أن يقال بتحقق ذلك ، ولعل ما روى عن ابن عباس كما في "البحر" و"الكشاف" من قوله نزلت هذه الآية فينا وفي بني أمية ستكون لنا عليهم الدولة فتذل أعناقهم بعد صعوبة ويلحقهم هو أن بعد عزة ناظر إلى هذا ، وعن أبي حمزة الثمالي أن الآية صوت يسمع من السماء في نصف شهر رمضان وتخرج له العواتق من البيوت ، وهذا قول بتحقق الإنزال بعد وكأن ذلك زمان المهدي رضي الله تعالى عنه ، ومن صحة ما ذكر من الأخبار في القلب شيء والله تعالى أعلم .

﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرحمن مُحْدَثٍ إِلاَّ كَانُواْ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴾

بيان لشدة شكيمتهم وعدم ارعوائهم عما كانوا عليه من الكفر والتكذيب بغير ما ذكر من الآية الملجئة تأكيداً لصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الحرص على إسلامهم . ومن الأولى مزيدة لتأكيد العموم ، وجوز أن تكون تبعيضية ، والجار والمجرور متعلق

بمحذوف هو صفة لمقدر كما نشير إليه إن شاء الله تعالى ، والثانية لابتداء الغاية مجازاً متعلقة بيأتيهم أو بمحذوف هو صفة لذكر ، وأياً ما كان ففيه دلالة على فضله وشرفه وشناعة ما فعلوا به .

(51/566)

والتعرض لعنوان الرحمة لتغليظ شناعتهم وتهويل جنايتهم فإن الإعراض عما يأتيهم من جنابة جل وعلا على الإطلاق شنيع قبيح وعما يأتيهم بموجب رحمته تعالى لمحض منفعتهم أشنع وأقبح أي ما يأتيهم تذكير وموعظة أو طائفة من القرآن من قبله عز وجل بمقتضى رحمته الواسعة يجدد تنزيله حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة إلا جددوا إعراضاً عنه واستمروا على ما كانوا عليه ، والاستثناء مفرغ من أعم الأحوال محله النصب على الحالية من مفعول ﴿ يَأْتِيهِمْ ﴾ بإضمار قد أو بدونه على الخلاف المشهور أي الخلاف المشهور أي ما يأتيهم من ذكر في حال من الأحوال إلا حال كونهم معرضين عنه

﴿ فَقَدْ كَذَّبُواْ ﴾ أي بالذكر الذي يأتيهم تكذيباً صريحاً مقارناً للاستهزاء به ولم يكتفوا بالإعراض عنه حيث جعلوه تارة سحرً وتارة أساطير الأولين وأخرى شعراً .

وقال بعض الفضلاء : أي فقد تموا على التكذيب وكان تكذيبهم مع ورود ما يوجب الإقلاع

من تكرير إتيان الذكر كتكذيبهم أول مرة ، وللتنبيه على ذلك عبر عنه بما يعبر عن الحادث ويشعر باعتبار مقارنة الاستهزاء حسبما أشير إليه قوله تعالى : ﴿ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَاؤُا مَا كَانُواْ بِهِ ﴾ لاقتضائه تقدم الاستهزاء ، وقيل : إن ذاك لدلالة الإعراض والتكذيب على الاستهزاء ، والمراد بأنباء ذلك ما سيحيق بهم من العقوبات العاجلة والآجلة وكل آت قريب ، وقيل من عذاب يوم بدر أو يوم القيامة والأول أولى ، وعبر عن ذلك بالانباء لكونه مما أنبأ به القرآن العظيم أو لأنهم بمشاهدته يقفون على حقيقة حال القرآن كما يقفون على الأحوال الخافية عنهم باستماع الأنباء .

وفيه تهويل له لأن النبأ يطلق على الخبر الخطير الذي له وقع عظيم أي فسيأتيهم لا محالة مصداق ما كانوا يستهزؤن به قبل من غير أن يتدبروا في أحواله ويقفوا عليها .

(52/566)

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى الأَرْضِ ﴾ بيان لإعراضهم عن الآيات التكوينية بعد بيان إعراضهم عن الآيات التنزيلية ، والهمزة للإنكار التوبيخي والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام أي أأصروا على ما هم عليه من الكفر بالله تعالى وتكذيب ما يدعوهم إلى الايمان به عز وجل ولم ينظروا إلى عجائب الأرض الزاجرة لهم عن ذلك والداعية إلى الايمان به تعالى ، وقال أبو

السعود بعد جعل الهمزة للإنكار والعطف على مقدر يقتضيه المقام : أي افعلوا ما فعلوا من الاعراض عن الآيات والتكذيب والاستهزاء بها ولم ينظروا إلى عجائب الأرض الزاجرة عما فعلوا والداعية إلى الإقبال على ما أعرضوا عنه انتهى .

وهو ظاهر في أن الآية مرتبطة بما قبلها من قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم ﴾ [الشعراء : 5] الخ وهو قريب بحسب اللفظ إلا أن فيه أن النظر إلى عجائب الأرض لا يظهر كونه زاجراً عن التكذيب بكون القرآن منزلاً من الله عز وجل وداعياً إلى الإقبال إليه ، وقال ابن كمال : التقدير ألم يتأملوا في عجائب قدرته تعالى ولم ينظروا انتهى .

والظاهر أن الآية عليه ابتداء كلام فافهم ، وقيل : هو بيان لتكذيبهم بالمعاد إثر بيان تكذيبهم بالمبدأ وكفرهم به عز وجل والعطف على مقدر أيضاً ، والتقدير أن كذبوا بالبعث ولم ينظروا إلى عجائب الأرض الزاجرة عن التكذيب بذلك والأول أولى وأظهر ، وأياً ما كان فالكلام على حذف مضاف كما أشير إليه ، وجوز أن يراد من الأرض عجائبها مجازاً ؛ وقوله تعالى : ﴿ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ استئناف مبين لما في الأرض من الآيات الزاجرة عن الكفر الداعية إلى الايمان .

وكم خبرية في موضع نصب على المفعولية بما بعدها وهي مفيدة للكثرة وجيء بكل معها لإفادة الإحاطة والشمول فيفيد أن كثرة أفراد كل صنف صنف فيكون المعنى انبتنا فيها شيئاً كثيراً من كل صنف على أن من تبعيضية أو كثرة الأصناف فيكون المعنى أنبتنا فيها شيئاً كثيراً هو كل صنف على أن من بيانية ، وأياً ما كان فلا تكرار بينهما ، وقد يقال : المعنى أو لم ينظروا إلى نفس الأرض التي هي طبيعة واحدة كيف جعلناها منبتاً لنباتات كثيرة مختلفة الطبائع وحينئذ ليس هناك حذف مضاف ولا مجاز ويكون قوله تعالى : ﴿ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا ﴾ الخ يدل اشتمال بحسب المعنى وهو وجه حسن فافهمه لئلا تظن رجوعه إلى ما تقدم واحتياجه إلى ما احتاج إليه من الحذف أو التجوز ، والزوج الصنف كما أشرنا إليه ، وذكر الراغب أن كل ما في العالم زوج من حيث أن له ضداً ما أو مثلاً ما أو تركيباً ما بل لا ينفك بوجه من تركيب ، والكريم من كل شيء مرضيه ومحموده ، ومنه قوله :

حتى يشق الصفوف من كرمه . . .

فإنه أراد من كونه مرضياً في شجاعته وهو صفة لزوج أي من كل زوج كثير المنافع وهي تحتمل التخصيص والتوضيح ، ووجه الأول دلالته على ما يدل عليه غيره في شأن الواجب تعالى وزيادة حيث يدل على النعمة الزاجرة لهم عما هم عليه أيضاً ، ووجه الثاني التنبيه على أنه تعالى ما أنبت شيئاً إلا وفيه فائدة كما يؤذن به قوله تعالى : ﴿ هُوَ الذى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى الأَرض جَمِيعاً ﴾ [البقرة : 29] وأياً ما كان فالظاهر عدم دخول الحيوان في عموم

المنبت ، وذهب بعض إلى دخوله بناء على أن خلقه من الأرض إنبات له كما يشير إليه قوله تعالى : ﴿ واللهُ أَنبَتَكُمْ مِّنَ الأَرضِ نَبَاتاً ﴾ [نوح : 17] وعن الشعبي التصريح بدخول الإنسان فيه ، فقد روى عنه أنه قال الناس .

من نبات الأرض فمن صار إلى الجنة فهو كريم ومن صار إلى النار فبضد ذلك .

(54/566)

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ ﴾ أي الانبات أو المنبت ﴿ لآيَةً ﴾ عظيمة دالة على ما يجب عليهم الايمان به من شؤونه عز وجل ، وما ألطف ما قيل في صف النرجس :

تأمل في رياض الورد وانظر . . .

إلى آثار ما صنع المليك

عيون من لجين شاخصات . . .

على أهدابها ذهب سبيك

على قضب الزبرجد شاهدات . . .

بأن الله ليس له شريك

﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ قيل : أي وما كان في علم الله تعالى ذلك .

واعترض بناء على أنه يفهم من السياقة العلية بأن علمه تعالى ليس علة لعدم إيمانهم لأن العلم تابع للمعلوم لا بالعكس .

(55/566)

ورد بأن معنى كونه علمه تعالى تابعاً للمعلوم أن علمه سبحانه في الأزل بمعلوم معين حادث تابع لماهيته بمعنى أن خصوصية العلم وامتيازه عن سائر العلوم إنما هو باعتبار أنه علم بهذه الماهية وأما وجود الماهية فيما لا يزال فتابع لعلمه تعالى الأزلي التابع لماهيته بمعنى أنه تعالى لما علمها في الأزل على هذه الخصوصية لزم أن تتحقق وتوجد فيما لا يزال كذلك فنفس موتهم على الكفر وعدم إيمانهم متبوع لعلمه الأزلي ووقوعه تابع له ، ونقل عن سيبويه إن ﴿ كَانَ ﴾ صلة والمعنى وما أكثرهم مؤمنين فالمراد الأخبار عن حالهم في الواقع لا في علم الله تعالى الأزلي وارتضاه شيخ الإسلام ، وقال : هو الأنسب بمقام بيان عتوهم وغلوهم في المكابرة والعناد مع تعاقد موجبات الايمان من جهته عز وجل وأما نسبة كفرهم إلى علمه تعالى فربما يتوهم منها كونهم معذورين فيه بحسب الظاهر ويحتاج حينئذ إلى تحقيق عدم العذر بما يخفى على العلماء المتقنين ، والمعنى على الزيادة وما أكثرهم مؤمنين مع عظم الآية الموجبة للايمان لغاية تماديهم في الكفر والضلالة وانهماكهم في الغي والجهالة ، ويجوز على

قياس ما مر عن بعض الأجلة في قوله تعالى : ﴿ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء : 3] أن يقال : إن ﴿ كَانَ ﴾ للاستمرار واعتبر بعد النفي فالمراد استمرار نفي إيمان أكثرهم مع عظم الآية الموجبة لايمانهم ، وفيه من تقبيح حالهم ما فيه .

وهذا المعنى وإن تأتي على تقدير إسقاط ﴿ كَانَ ﴾ بأن يعتبر الاستمرار الذي تفيده الجملة الاسمية بعد النفي أضاً إلا أنه فرق بين الاستمرارين بعد اعتبار كان قوة وضعفاً فتدبر ، ونسبة عدم الايمان إلى أكثرهم لأن منهم من لم يكن كذلك .

(56/566)

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العزيز ﴾ أي الغالب على كل ما يريده من الأمور التي من جملتها الانتقام من هؤلا الكفرة ﴿ الرحيم ﴾ أي البالغ في الرحمة ولذلك يمهلهم ولا يؤاخذهم بغتة بما اجترؤا عليه من العظائم الموجبة لفنون العقوبات أو العزيز في انتقامه ممن كفر الرحيم لمن تاب وآمن أو العزيز في انتقامه من الكفرة الرحيم لك بأن يقدر من يؤمن بك إن لم يؤمن هؤلاء ، والتعرض لوصف الربوبية مع الإضافة إلى ضميره صلى الله عليه وسلم من تشريفه عليه الصلاة والسلام والعدة الخفية له صلى الله عليه وسلم ما لا يخفى ، وتقديم العزيز لأن ما قبله أظهر

في بيان القدرة أو لأنه أدل على دفع المضار الذي هو أهم من جلب المصالح . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 19 صـ ﴾

(57/566)

وقال صاحب روح البيان :

سورة الشعراء

مكية وهي اثنتان أو سبع وعشرون آية

﴿ طسم ﴾ الحروف المقطعة في أوائل السور يجمعها قولك : (سرّ حصين قعع كلامه)

وأولى ما قال أهل التفسير في حق هذه الحروف الله أعلم بمراده لأنها من الأسرار الغامضة كما قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه : "إن لكل كتاب سراً وسر القرآن في المقطعات" كما في "رياض الأذكار" والمعاني المتعلقة بالأسرار والحقائق لا يعلمها إلا الله ومن أطلعه الله عليها من الراسخين في العلم وهم العلماء بالله فلا معنى للبحث عن مرتبة ليس للسان حظ منها ولا للقلم نصيب وأما اللوازم التي تشير إلى الحقائق فلبيانها مساغ فإنها دون الحقائق وفي مرتبة الفهم وإلى الأول يشير قول ابن عباس رضي الله عنهما في ﴿ طسم ﴾ عجزت العلماء عن تفسيرها كما في "فتح الرحمن"

أما جبل طور سينا الذي بين الشام ومدين فهو محل مناجاة موسى عليه السلام وكلامه مع الله تعالى ومقام التجلي كما قال : ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ ﴾ (الأعراف : 143) وهذا الجبل إذا كسرت حجارته يخرج من وسطها صورة شجر العوسج على الدوام وتعظيم اليهود لشجرة العوسج لهذا المعنى ويقال لشجرة العوسج شجرة اليهود .

وأما الإسكندرية فهي آخر مدن المغرب ليس في معمور الأرض مثلها ولا في أقاصي الدنيا كشكلها وعدت مساجدها فكانت عشرين ألف مسجد نقل أن المدينة كانت سبع قصبات متوالية وإنما أكلها البحر ولم يبق منها إلا قصبة واحدة وهي المدينة الآن وصار منار المرآة الإسكندرية في البحر لغلبة الماء على قصبة المنار .

(58/566)

وقصة المرآة أنه كان في أعلى المنار الذي ارتفاعه ثلاثمائة ذراع إلى القبة مرآة غريبة قد عملها الحكماء للإسكندر يرى فيها المراكب من مسيرة شهر وكان بالمرآة أعمال وحركات تحرق المراكب في البحر إذا كان فيها عدو بقوة شعاعها فأرسل صاحب الروم يخدع صاحب مصر ويقول : إن الإسكندر قد كنز على المنار كنزاً عظيماً من الجواهر النفيسة فإن صدقت فبادر إلى إخراجها ولك أيضاً من الكنز ما تشاء فانخدع لذلك وظنه حقاً فهدم

القبة فلم يجد شيئاً وفسد طلسم المرآة .

وأما مكة المشرفة المكرمة فهي مدينة قديمة غنية عن البيان وفيها كعبة الإسلام وقبلة المؤمنين والحج إليها أحد أركان الدين .

ويقال : الطاء طوله أي قدرته .

والسين سناؤه أي رفعته .

والميم ملكه ومجده فأقسم الله بهذه .

ويقال : يشير إلى طاء طيران الطائرين بالله وإلى سين السائرين إلى الله .

وإلى ميم مشي الماشين فالأول مرتبة أهل النهاية والثاني مرتبة أهل التوسط والثالث مرتبة أهل البداية ولكل

سالك خطوة ولكل طائر جناح .

ويقال : الطاء إشارة إلى طهارة أسرار أهل التوحيد .

والسين إشارة إلى سلامة قلوبهم عن مساكنة كل مخلوق .

والميم إشارة إلى منة الخالق عليهم بذلك .

وقال سيد الطائفة الجنيد قدس سره : الطاء طرق التائبين في ميدان الرحمن .

والسين سرور العارفين في ميدان الوصلة .

والميم مقام المحبين في ميدان القربة .

وقال نجم الدين قدس سره : يشير إلى طاء طهارة قلب نبيه عن تعلقات الكونين .

وإلى سين سيادته على الأنبياء والمرسلين .

وإلى ميم مشاهدة جمال رب العالمين .

وقال الإمام جعفر الصادق رضي الله عنه : أقسم الله بشجرة طوبى وسدرة المنتهى ومحمد المصطفى بالقرآن بقوله : ﴿ طسم ﴾ فالطاء شجرة طوبى والسين سدرة المنتهى والميم محمد المصطفى عليه الصلاة والسلام .

(59/566)

أما سر اصطفاء طوبى فإن الله تعالى خلق جنة عدن بيده من غير واسطة وجعلها له كالقلعة للملك وجعل فيها الكثيب مقام تجلي الحق سبحانه وفيه مقام الوسيلة لخير البرية وغرس شجرة طوبى بيده في جنة عدن وأطالها حتى علت فروعها سور جنة عدن ونزلت مظلة على سائر الجنان كلها وليس في أكمامها ثمر إلا الحلي والحلل لباس أهل الجنة وزينتهم ولها اختصاص فضل لكونها خلقها الله بيده ولذلك كانت أجمع الحقائق الجنانية نعمة وأعمها بركة فإنها لجميع أشجار الجنة كآدم عليه السلام لما ظهر من البنين وما في الجنة نهر إلا وهو يجري من أصل تلك الشجرة وهي محمدية المقام .

وأما سر اجتباء سدرة المنتهى فهي شجرة بين الكرسي والسماء السابعة لأفنانها حنين بأنواع التسبيحات والتحميدات والترجيعات عجيبة الألحان تطرب بها الأرواح والقلوب وتزيد في الأحوال وهي الحد البرزخي بين الدارين سماها المنتهى لأن الأرواح إليها تنتهي وتصعد أعمال أهل الأرض من السعداء وإليها تنزل الأحكام الشرعية وأم فيها رسول الله صلى الله عليه وسلّم ملائكة السموات في الوتر فكان إمام الأنبياء في بيت المقدس وإمام الملائكة عند سدرة المنتهى فظهر بذلك فضله على أهل الأرض والسماء كما في تفسير "التيسير" وهي مقام جبريل يسكن في ذروتها كما أن مقر العقل وسط الدماغ وذلك لأن جبريل سدرة العقل ومقامه إشارة إلى مقام العقل وهو الدماغ ولذلك من رأى جبريل فإنما رأى صورة عقله لأن جبريل لا يرى من مقام تعينه لغير الأنبياء عليهم السلام .

وآخر الميم المشار به إلى محمد المصطفى صلى الله عليه وسلّم لسر الختمية وكما أن ختم الأنبياء بسيد المرسلين كذلك ختم حروف الهجاء بالياء المشتمل عليها لفظ الميم فقد جمع الله في القسم بقوله :

﴿ طسم ﴾ ثلاث حقائق وهي أصول الحقائق كلها .

(60/566)

الأولى حقيقة جنانية نعمية جامعة وهي شجرة طوبى ولذا أودعها الله في المقام المحمدي لكونها جامعة للنعم الجنانية ومقسماً لها كما أن النبي عليه السلام مقسم العلوم والمعارف وأنواع الكمالات .

والثانية حقيقة برزخية جامعة لحقائق الدارين وهي شجرة سدرة المنتهى فأغصانها نعيم لأهل الجنة وأصولها زقوم لأهل النار لأنها في مقعر فلك البروج وهو الفلك الأعظم ويسمى فلك الأفلاك لأنه يجمع الأفلاك وأيضاً الفلك الأطلس لأنه غير مكوكب كالثوب الأطلس الخالي عن النقش ومقعر سطحيه أي الفلك الأعظم يماس محدب الفلك الواثب ومحدبه لا يماس شيئاً إذ ليس وراءه شيء لاخلاء ولاملاء بل عنده ينقطع امتدادات العالم كلها .

وقيل : في ورائه أفلاك من أنوار غير متناهية ولا قائل بالخلاء فيما تحت الفلك الأعظم بل هو الملأ كذا في كتب الهيئة وعند الصوفية المقام الذي يقال له لاخلاء ولاملاء فوق عالم الأرواح لا فوق العرش .

(61/566)

قال في "شرح التقويم" ولما كان المذكور في الكتب الإلهية السموات السبع زعم قوم من حكماء الملة أن الثامن هو الكرسي والتاسع هو العرش وهذا يناسب قوله تعالى : ﴿ وَسِعَ

كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ ﴾ (البقرة : 255) والثالثة حقيقة الحقائق الكلية وهي الحقيقة المحمدية لقد أقسم الله في ﴿ طسم ﴾ بأجمع الحقائق كلها لفضلها على جميع الحقائق لأن الحقيقة المحمدية حقيقة الحقائق وروحها دنياً وبرزخاً وآخرة ولهذا ختم به الحقائق .

وقال بعض كبار المكاشفين : لا يعرف حقائق الحروف المقطعة في أوائل السور إلا أهل الكشف والوجود فإنها ملائكة وأسماؤهم أسماء الحروف وهم أربعة عشر ملكاً لأن مجموع المقطعات من غير تكرار أربعة عشر آخرهم .

﴿ ن وَالْقَلَمِ ﴾ (القلم : 1) وقد ظهروا في منازل القرآن على وجوه مختلفة فمنازل ظهر فيها ملك واحد مثل "ن وص" ومنازل ظهر فيها اثنان مثل [النمل : 1] ﴿ طس ﴾ و ﴿ يَسٓ ﴾ و ﴿ حم ﴾ ومنازل ظهر فيها ثلاثة مثل ﴿ الام ﴾ و ﴿ طسم ﴾ ومنازل ظهر فيها أربعة مثل [الأعراف : 1] ﴿ المص ﴾ و ﴿ المر ﴾ منازل ظهر فيها خمسة مثل [مريم : 1] ﴿ كهيعص ﴾ و ﴿ حم * عسق ﴾ وصورها مع التكرار تسعة وسبعون ملكاً بيد كل ملك شعبة من الإيمان فإن الإيمان بضع وسبعون شعبة والبضع من واحد إلى تسعة فقد استعمل في غاية البضع .

فإذا نطق القارىء بهذه الحروف كان منادياً لهم فيجيبونه يقول القارىء : ﴿ أَلٓمٓ ﴾ فيقول هؤلاء الثلاثة من الملائكة ما تقول ؟ فيقول القارىء : ما بعد هذه الحروف فيقال بهذا الباب

الذي فتحت ترى عجائب وتكون هذه الأرواح الملكية التي هي الحروف أجسامها تحت تسخيره وبما بيدها من شعب الإيمان تمده وتحفظ عليه إيمانه .

(62/566)

وغير ذلك مما اشتمل عليه الكتاب والسنة وهي كثيرة جداً وفي الحديث : "الإيمان بضع وسبعون شعبة أفضلها قول : لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان" انتهى وهي خصال أهل الإيمان ولم يرد تعديدها بأعيانها في حديث واحد وأهل العلم عدوا ذلك على وجوه وأقصى ما يتناوله لفظ هذا الحديث تسعة وسبعون .

(63/566)

قال الإمام النسفي في تفسير "التيسير" وأنا أعدها على ترتيب أختاره وعلى الاجتهاد فأقول : بدأ فيه بالتهليل والذي يليه التكبير والتسبيح والتحميد والتمجيد والتجريد والتفريد والتوبة والإنابة والنظافة والطهارة والصلاة والزكاة والصيام والقيام والاعتكاف والحج والعمرة والقربان والصدقة والغزو والعتق وقراءة القرآن وملازمة الإحسان ومجانبة

العصيان وترك الطغيان وهجر العدوان وتقوى الجنان وحفظ اللسان والثناء والدعاء والخوف والرجاء والحياء والصدق والصفاء والنصح والوفاء والندم والبكاء والإخلاص والذكاء والحلم والسخاء والشكر في العطية والصبر في البلية والرضى بالقضية والاستعداد للمنية واتباع السنة وموافقة الصحابة وتعظيم أهل الشيبة والعطف على صغار البرية والاقتداء بعلماء الأمة والشفقة على العامة واحترام الخاصة وتعظيم أهل السنة وأداء الأمانة وإظهار الصيانة والإطعام والإنعام وبر الأيتام وصلة الأرحام وإفشاء السلام وصدق الاستسلام وتحقيق الاستعصام والزهد في الدنيا والرغبة في العقبى والموافقة للمولى ومخالفة الهوى والحذر من لظى وطلب جنة المأوى وبث الكرم وحفظ الحرم والإحسان إلى الخدم وطلب التوفيق وحفظ التحقيق ومراعاة الجار والرفيق وحسن الملكة في الرقيق وأدناها إماطة الأذى عن الطريق فمن استكمل الوفاء بشعب الإيمان نال بوعد الله كمال الأمان وهو الذي قال الله تعالى فيه : ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ (الأنعام : 82) ﴿ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾ تلك مبتدأ خبره ما بعده أي هذه السورة آيات القرآن الظاهر إعجازه وصحة أنه كلام الله ولو لم يكن كذلك لقدروا على الإتيان بمثله ولما عجزوا عن المعارضة فهو من أبان بمعنى بان أو ظهر أو المبين للأحكام الشرعية وما يتعلق بها .

وفي "التأويلات النجمية" : يشير إلى أن هذه الحروف المقطعة ههنا وفي أوائل السور ليست من قبيل الحروف المخلوقة بل من قبيل آيات الكتاب المبين القديمة إذ كل حرف منها دال على معان كثيرة كالآيات ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ ﴾ لعل للإشفاق أي الخوف والله تعالى منزه عنه فهو بالنسبة إلى النبي عليه السلام يقال : بخع نفسه قتلها غماً وفي الحديث : "أتاهم أهل اليمن هم أرق قلوباً وأبخع طاعة" فكأنهم في قهرهم نفوسهم بالطاعة كالباخعين إياها وأصل البخع أن يبلغ بالذبح البخاع وذلك أقصى حد الذبح وهو بالكسر عرق في الصلب غير النخاع بالنون مثلثة فإنه الخيط الذي في جوف الفقار ينحدر من الدماغ ويتشعب منه شعب في الجسم والمعنى أشفق على نفسك وخف أن تقتلها بالحزن بلا فائدة وهو حث على ترك التأسف وتصبير وتسل له عليه السلام .

(65/566)

﴿ أَلَا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾

مفعول له بحذف المضاف أي خيفة أن لا يؤمن قريش بذلك الكتاب المبين فإن الخوف والحزن لا ينفع في إيمان من سبق حكم الله بعدم إيمانه كما أن الكتاب المبين لم ينفع في إيمانه فلا

تهتم فقد بلغت .

وفي "التأويلات النجمية" : يشير إلى تأديب النبي عليه السلام لئلا يكون مفرطاً في الرحمة والشفقة على الأمة فإنه يؤدي إلى الركون إليهم وأن التفريط في ذلك يؤدي إلى الفظاعة وغلظ القلب بل يكون مع الله مع المقبل والمدبر .

ثم بين أن إيمانهم ليس مما تعلقت به مشيئة الله تعالى فقال :

﴿ إِن نَّشَأْ ﴾ (اكرما خواهيم) ﴿ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَآءِ ءَايَةً ﴾ دالة ملجئة إلى الإيمان كإنزال الملائكة أو بلية قاسرة عليه كآية من آيات القيامة ﴿ فَظَلَّتْ ﴾ فصارت ومالت أي فتظن ﴿ أَعْنَاقُهُمْ ﴾ أي : رقابهم .

وبالفارسية (س كردد كردنهاي ايشان) .

﴿ لَهَا ﴾ أي : لتلك الآية ﴿ خَاضِعِينَ ﴾ منقادين فلا يكون أحد منهم يميل عنقه إلى معصية الله ولكن لم نفعل لأنه لا عبرة بالإيمان المبني على القسر والإلجاء كالإيمان يوم القيامة وأصله فظلوا لها خاضعين فإن الخضوع صفة أصحاب الأعناق حقيقة فأقحمت الأعناق لزيادة التقرير ببيان موضع الخضوع وترك الخبر على حاله .

وفيه بيان أن الإيمان والمعرفة موهبة خاصة خارجة عن اكتساب الخلق في الحقيقة فإذا حصلت الموهبة نفع الإنذار والتبشير وإلا فلا فليبك على نفسه من جبل على الشقاوة .

﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ ﴾

من موعظة من المواعظ القرآنية أو من طائفة نازلة من القرآن تذكرهم كل تذكير وتنبههم أتم تنبيه كأنها نفس الذكر .

﴿ مِّنَ الرَّحْمَنِ ﴾ بوحيه إلى نبيه دل هذا الاسم الجليل على أن إتيان الذكر من آثار رحمة الله تعالى على عباده .

﴿ مُحْدَثٍ ﴾ مجدد إنزاله لتكرير التذكير وتنويع التقرير فلا يلزم حدوث القرآن .

﴿ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴾

إلا جددوا إعراضاً عن ذلك الذكر وعن الإيمان به وإصراراً على ما كانوا عليه والاستثناء مفرغ من أعم الأحوال محله النصب على الحالية من مفعول يأتيهم بإضمار قد وبدونه على الخلاف المشهور أي ما يأتيهم من ذكر في حال من الأحوال إلا حال كونهم معرضين عنه .

﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا ﴾ بالذكر عقيب الإعراض فالفاء للتعقيب أي جعلوه تارة سحراً وأخرى شعراً ومرة أساطير .

﴿ فَسَيَأْتِيهِمْ ﴾ البتة من غير تخلف أصلاً والفاء للسببية ، أي لسبب إعراضهم المؤدي إلى التكذيب المؤدي إلى الاستهزاء .

﴿ أَنبَاؤُا مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ أي : أخبار الذكر الذي كانوا يستهزؤون به من العقوبات

العاجلة والآجلة التي بمشاهدتها يقفون على حقيقة حال القرآن بأنه كان حقاً أو باطلاً وكان حقيقاً بأن يصدق ويعظم قدره أو يكذب فيستخف أمره كما يقفون على الأحوال الخافية عنهم باستماع الأنباء وفيه تهويل له لأن النبأ لا يطلق إلا على خبر خطير له وقع عظيم .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا ﴾ الهمزة للإنكار التوبيخي والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام أي أفعل المكذبون من قريش ما فعلوا من الإعراض عن الآيات والتكذيب والاستهزاء بها ولم ينظروا .

(67/566)

﴿ إِلَى الأَرْضِ ﴾ أي إلى عجائبها الزاجرة عما فعلوا الداعية إلى الإقبال إلى ما أعرضوا .

﴿ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا ﴾ ﴿ مِن كُلِّ زَوْجٍ ﴾ كريك (ازهر صنفي كاه نيكو وبسنديده ون رياحين وكل نسرين وبنفشه وياسمين وشكوفهاى رنكارنك وبركهاي كوناكون) وسائر نباتات نافعة مما يأكل الناس والأنعام .

قال أهل التفسير : كم خبرية منصوبة بما بعدها على المفعولية والجمع بينها وبين كل لأن كل للإحاطة بجميع أزواج النبات وكم لكثرة المحاط به من الأزواج ومن كل زوج أي صنف تمييز

والكريم من كل شيء مرضيه ومحموده يقال وجه كريم أي مرضي في حسنه وجماله وكتاب كريم مرضي في معانيه وفوائده وفارس كريم مرضي في شجاعته وبأسه .

والمعنى كثير من كل صنف مرضي كثير المنافع أنبتنا فيها وتخصيص النبات النافع بالذكر دون ما عداه من أصناف الضار وإن كان كل نبت متضمناً لفائدة وحكمة لاختصاصه بالدلالة على القدرة والنعمة معاً .

واعلم أنه سبحانه كما أنبت من أرض الظاهر كل صنف ونوع من النبات الحسن الكريم كذلك أنبت في أرض قلوب العارفين كل نبت من الإيمان والتوكل واليقين والإخلاص والأخلاق الكريمة كما قال عليه السلام : "لا إله إلا الله ينبت الإيمان كما ينبت البقل" .

قال أبو بكر بن طاهر : أكرم زوج من نبات الأرض آدم وحواء فإنهما كانا سبباً في إظهار الرسل والأنبياء والأولياء والعارفين .

قال الشعبي : الناس من نبات الأرض فمن دخل الجنة فهو كريم ومن دخل النار فهو لئيم

﴿ إِنَّ فِي ذَالِكَ ﴾ أي : في الإنبات المذكور أو في كل واحد من تلك الأصناف .

﴿ لآيَةً ﴾ عظيمة دالة على كمال قدرة منبتها وغاية وفور علمه ونهاية سعة رحمته موجبة للإيمان زاجرة عن الكفر .

﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم ﴾ أي أكثر قومه عليه السلام .

﴿ مُؤْمِنِينَ ﴾ مع ذلك لغاية تماديهم في الكفر والضلالة وانهماكهم في الغي والجهالة وكان صلة عند سيبويه لأنه لو حمل

(68/566)

على معنى ما كان أكثرهم في علم الله وقضائه لتوهم كونهم معذورين في الكفر بحسب الظاهر وبيان موجبات الإيمان من جهته تعالى يخالف ذلك .

يقول الفقير : قوله تعالى : ﴿ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ ﴾ الآية ونظائره يدل على المعنى الثاني ولا يلزم من ذلك المعذورية لأنهم صرفوا اختياراً إلى جانب الكفر والمعصية وكانوا في العلم الأزلي غير مؤمنين بحسب اختيارهم ونسبة عدم الإيمان إلى أكثرهم لأن منهم من سيؤمن .

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ الغالب القادر على الانتقام من الكفرة .

﴿ الرَّحِيمُ ﴾ المبالغ في الرحمة ولذلك يمهلهم ولا يأخذهم بغتة .

وقال في "كشف الأسرار" : يرحم المؤمن الذين هم الأقل بعد الأكثر .

(69/566)

وفي "التأويلات النجمية" : بعزته قهر الأعداء العتاة وبرحمته ولطفه أدرك أولياء بجذبات العناية .

وعن السري السقطي قدس سره قال : كنت يوماً أتكلم بجامع المدينة فوقف عليّ شاب حسن الشباب فاخر الثياب ومعه أصحابه فسمعني أقول في وعظي : عجباً لضعيف يعصي قوياً فتغير لونه فانصرف فلما كان الغد جلست في مجلسي وإذا به قد أقبل فسلم وصلى ركعتين وقال : يا سري سمعتك بالأمس تقول : عجباً لضعيف كيف يعصي قوياً فما معناه ؟ فقلت : لا أقوى من الله ولا أضعف من العبد وهو يعصيه فنهض فخرج ثم أقبل من الغد وعليه ثوبان أبيضان وليس معه أحد فقال : يا سري كيف الطريق إلى الله تعالى ؟ فقلت : إن أردت العبادة فعليك بصيام النهار وقيام الليل وإن أردت الله فاترك كل شيء سواه تصل إليه وليس إلا المساجد والمحراب والمقابر فقام وهو يقول : والله لا سلكت إلا أصعب الطرق وولى خارجاً فلما كان بعد أيام أقبل إليّ غلمان كثير فقالوا : ما فعل أحمد بن يزيد الكاتب فقلت : لا أعرف إلا رجلاً جاءني من صفته كذا وكذا وجرى لي معه كذا وكذا ولا أعلم حاله فقالوا : بالله عليك متى عرفت حاله فعرفنا ودلنا على داره فبقيت سنة لا أعرف له خبراً فبينا أنا ذات ليلة بعد العشاء الآخرة جالس في بيتي إذ بطارق يطرق الباب فأذنت له في الدخول فإذا بالفتى عليه قطعة من كساء في وسطه وأخرى على عاتقه ومعه زنبيل فيه نوى فقبل بين عيني وقال : يا سري أعتقك الله من النار كما أعتقتني من رق

الدنيا فأومأت إلى صاحبي أن امض إلى أهله فأخبرهم فمضى فإذا زوجته قد جاءت ومعها ولده وغلمانه فدخلت وألقت الولد في حجره وعليه حلي وحلل وقالت : يا سيدي أرملتني وأنت حيّ وأيتمت ولدك وأنت حيّ قال السري : فنظر إليّ وقال : يا سري ما هذا وفاء ثم أقبل عليها وقال : والله إنك لثمرة فؤادي وحبيبة قلبي وإن هذا ولدي لأعز الخلق عليّ غير أن هذا السري أخبرني أن من أراد الله قطع كل ما سواه ثم نزع ما على الصبي وقال : ضعي هذا في الأكباد الجائعة والأجساد العارية وقطع قطعة من كسائه فلف فيها الصبي فقالت

(70/566)

المرأة : لا أرى ولدي في هذه الحالة وانتزعته منه فحين رآها قد اشتغلت به نهض وقال : ضيعتم عليّ ليلتي بيني وبينكم الله وولى خارجاً وضجت المرأة بالبكاء فقالت : إن عدت يا سري سمعت له خبراً فأعلمني فقلت : إن شاء الله فلما كان بعد أيام أتتني عجوز فقال : يا سري بالشونيزية غلام يسألك الحضور فمضيت فإذا به مطروح تحت رأسه لبنة فسلمت عليه ففتح عينيه وقال : ترى يغفر تلك الجنايات ؟ فقلت : نعم قال : يغفر لمثلي قلت : نعم قال : أنا غريق قلت : هو منجي الغرقى فقال : علي مظالم فقلت : في الخبر

أن يؤتى بالتائب يوم القيامة ومعه خصومه فيقال لهم : خلوا عنه فإن الله تعالى يعوضكم فقال : يا سري معي دراهم من لقط النوى إذا أنا مت فاشتر ما أحتاج إليه وكفني ولا تعلم أهلي لئلا يغيروا كفني بحرام فجلست عنده قليلاً ففتح عليه وقال لمثل هذا فليعمل العاملون ثم مات فأخذت الدراهم فاشتريت ما يحتاج إليه ثم سرت نحوه فإذا الناس يهرعون إليه فقلت ما الخبر فقيل : مات وليّ من أولياء الله نريد أن نصلي عليه فجئت فغسلته ودفناه فلما كان بعد مدة وفد أهله يستعلمون خبره فأخبرتهم بموته فأقبلت امرأته باكية فأخبرتها بحاله فسألتني أن أريها قبره فقلت : أخاف أن تغيروا أكفانه قالت : لا والله فأريتها القبر فبكت وأمرت بإحضار شاهدين فأحضرا فاعتقت جواريها ووقفت عقارها وتصدقت بمالها ولزمت قبره حتى ماتت رحمة الله تعالى عليهما . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح البيان حـ 6 صـ 332.340 ﴾

(71/566)

وقال الشيخ سيد قطب :

﴿ طسم (1) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (2) ﴾

والسورة كلها شوط واحد مقدمتها وقصصها وتعقيبها في هذا المضمار . لذلك نقسمها

إلى فقرات أو جولات بحسب ترتيبها . ونبدأ بالمقدمة قبل القصص المختار :

﴿ طسم . تلك آيات الكتاب المبين ﴾ . .

طا . سين . ميم . . الأحرف المقطعة للتنبيه إلى أن آيات الكتاب المبين ومنها هذه السورة مؤلفة من مثل هذه الأحرف ؛ وهي في متناول المكذبين بالوحي ؛ وهم لا يستطيعون أن يصوغوا منها مثل هذا الكتاب المبين . والحديث عن هذا الكتاب متداول في السورة . في مقدمتها ونهايتها . كما هو الشأن في السور المبدوءة بالأحرف المقطعة في القرآن .

وبعد هذا التنبيه يبدأ في مخاطبة رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي يهمه أمر المشركين ويؤذيه تكذيبهم له وللقرآن الكريم ؛ فيسليه ويهون عليه الأمر ؛ ويستكثر ما يعانيه من أجلهم ؛ وقد كان الله قادراً على أن يلوي أعناقهم كرهاً إلى الإيمان ، بآية قاهرة تقسرهم عليه قسراً :

﴿ لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين ! إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين ﴾ .

وفي التعبير ما يشبه العتب على شدة ضيقه صلى الله عليه وسلم وهمه بعدم إيمانهم : ﴿ لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين ﴾ . . وبخع النفس قتلها . وهذا يصور مدى ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعاني من تكذيبهم ، وهو يوقن بما ينتظرهم بعد التكذيب ، فتذوب نفسه عليهم وهم أهله وعشيرته وقومه ويضيق صدره . فربه يرأف به ، وينهنهه

عن هذا الهم القاتل ، ويهون عليه الأمر ، ويقول له : إن إيمانهم ليس مما كلفت ؛ ولو شئنا أن نكرههم عليه لأكرهناهم ، ولأنزلنا من السماء آية قاهرة لا يملكون معها جدالاً ، ولا انصرافاً عن الإيمان . ويصور خضوعهم لهذه الآية صورة حسية : ﴿ فظلت أعناقهم لها خاضعين ﴾ ملوية محنية حتى لكأن هذه هيئة لهم لا تفارقهم ، فهم عليها مقيمون !

(72/566)

ولكنه سبحانه لم يشأ أن يجعل مع هذه الرسالة الأخيرة آية قاهرة . لقد جعل آيتها القرآن . منهاج حياة كاملة . معجزاً في كل ناحية :

معجزاً في بنائه التعبيري وتنسيقه الفني ، باستقامته على خصائص واحدة ، في مستوى واحد ، لا يختلف ولا يتفاوت ، ولا تتخلف خصائصه ؛ كما هي الحال في أعمال البشر . إذ يبدو الارتفاع والانخفاض والقوة والضعف في عمل الفرد الواحد ، المتغير الحالات . بينما تستقيم خصائص هذا القرآن التعبيرية على نسق واحد ، ومستوى واحد ، ثابت لا يتخلف ، يدل على مصدره الذي لا تختلف عليه الأحوال .

معجزاً في بنائه الفكري ، وتناسق أجزائه وتكاملها ، فلا فلتة فيه ولا مصادفة . كل توجيهاته وتشريعاته تلتقي وتتناسق وتتكامل ؛ وتحيط بالحياة البشرية ، وتستوعبها ،

وتلبيها وتدفعها ، دون أن تتعارض جزئية واحدة من ذلك المنهاج الشامل الضخم مع جزئية أخرى ؛ ودون أن تصطدم واحدة منها بالفطرة الإنسانية أو تقصر عن تلبيتها . . وكلها مشدودة إلى محور واحد ، وإلى عروة واحدة ، في اتساق لا يمكن أن تفطن إليه خبرة الإنسان المحدودة . ولا بد أن تكون هناك خبرة مطلقة ، غير مقيدة بقيود الزمان والمكان . هي التي أحاطت به هذه الإحاطة ، ونظمته هذا التنظيم .

معجزاً في يسر مداخله إلى القلوب والنفوس ، ولمس مفاتيحها ، وفتح مغاليقها ، واستجاشة مواضع التأثر والاستجابة فيها ؛ وعلاجه لعقدها ومشكلاتها في بساطة ويسر عجيبين ؛ وفي تربيتها وتصريفها وفق منهجه بأيسر اللمسات ، دون تعقيد ولا التواء ولا مغالطة .

لقد شاء الله أن يجعل هذا القرآن هو معجزة هذه الرسالة ولم يشأ أن ينزل آية قاهرة مادية تلوي الأعناق وتخضعها وتضطرها إلى التسليم ذلك أن هذه الرسالة الأخيرة رسالة مفتوحة للأمم كلها ، وللأجيال كلها . وليست رسالة مغلقة على أهل زمان أو أهل مكان . فناسب أن تكون معجزتها مفتوحة كذلك للبعيد والقريب .

(73/566)

لكل أمة ولكل جيل . والخوارق القاهرة لا تلوي إلا أعناق من يشاهدونها ؛ ثم تبقى بعد ذلك قصة تروى ، لا واقعاً يشهد . . فأما القرآن فها هو ذا بعد أكثر من ثلاثة عشر قرناً كتاب مفتوح ومنهج مرسوم ، يستمد منه أهل هذا الزمان ما يقوم حياتهم لو هدوا إلى اتخاذه إمامهم ويلبي حاجاتهم كاملة ؛ ويقودهم بعدها إلى عالم أفضل ، وأفق أعلى ، ومصير أمثل . وسيجد فيه من بعدنا كثيراً مما لم نجده نحن ؛ ذلك أنه يعطي كل طالب بقدر حاجته ؛ ويبقى رصيده لا ينفد ، بل يتجدد . ولكن لم يكونوا يفطنون إلى هذه الحكمة الكبرى .

فكانوا يعرضون عما يتنزل عليهم من هذا القرآن العظيم حيناً بعد حين :

﴿ وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث إلا كانوا عنه معرضين ﴾ . .

ويذكر اسم الرحمن هنا للإشارة إلى عظيم رحمته بتنزيل هذا الذكر ، فيبدو إعراضهم عنه مستقبحاً كريهاً ؛ وهم يعرضون عن الرحمة التي تتنزل عليهم ، ويرفضونها ، ويحرمون أنفسهم منها ، وهم أحوج ما يكونون إليها !

ويعقب على هذا الإعراض عن ذكر الله ورحمته بالتهديد بعقابه وعذابه :

﴿ فقد كذبوا فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون ﴾ . .

وهو تهديد مضمر مجمل مهول . وفي التعبير سخرية تناسب استهزاءهم بالوعيد . ﴿ فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون ﴾ . . ستأتيهم أخبار العذاب الذي يستهزئون به ! وهم لن يتلقوا أخباراً . إنما سيذوقون العذاب ذاته ، ويصبحون هم أخباراً فيه ، يتناقل

الناس ما حل بهم منه . ولكنهم يستهزئون فيستهزأ بهم مع التهديد المرهوب !

وإنهم يطلبون آية خارقة ؛ ويغفلون عن آيات الله الباهرة فيما حولهم ؛ وفيها الكفاية للقلب المفتوح والحس البصير ؛ وكل صفحة من صفحات هذا الكون العجيب آية تطمئن بها القلوب .

﴿ أو لم يروا إلى الأرض كم أنبتا فيها من كل زوج كريم ؟ إن في ذلك لآية ، وما كان أكثرهم مؤمنين ﴾ . .

(74/566)

ومعجزة إخراج النبات الحي من الأرض ، وجعله زوجاً ذكراً وأنثى ، إما منفصلين كما في بعض فصائل النبات ، وإما مجتمعين كما هو الغالب في عالم النبات ، حيث تجتمع أعضاء التذكير وأعضاء التأنيث في عود واحد . . هذه المعجزة تتكرر في الأرض حولهم في كل لحظة : ﴿ أو لم يروا ! ﴾ والأمر لا يحتاج إلى أكثر من الرؤية ؟

والمنهج القرآني في التربية يربط بين القلب ومشاهد هذا الكون ؛ وينبه الحس الخامد ، والذهن البليد ، والقلب المغلق ، إلى بدائع صنع الله المبثوثة حول الإنسان في كل مكان ؛ كي يرتاد هذا الكون الحي بقلب حي ؛ يشاهد الله في بدائع صنعه ، ويشعر به كلما وقعت

عينه على بدائعه ؛ ويتصل به في كل مخلوقاته ؛ ويراقبه وهو شاعر بوجوده في كل لحظة من لحظات الليل والنهار . ويشعر أنه هو واحد من عباده ، متصل بمخلوقاته ، مرتبط بالنواميس التي تحكمهم جميعاً . وله دوره الخاص في هذا الكون ، وبخاصة هذه الأرض التي استخلف فيها :

﴿ أو لم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 5 صـ 2584.2586 ﴾

(75/566)

وقال ابن عاشور :

﴿ طسم (1) ﴾

يأتي في تفسيره من التأويلات ما سبق ذِكره في جميع الحروف المقطعة في أوائل السور في معان متماثلة .

وأظهر تلك المعاني أن المقصود التعريض بإلهاب نفوس المنكرين لمعارضة بعض سور القرآن بالإتيان بمثله في بلاغته وفصاحته وتحدّيهم بذلك والتورك عليهم بعجزهم عن ذلك .

وعن ابن عباس : أن ﴿ طَسم ﴾ قَسَم ، وهو اسم من أسماء الله تعالى ، والمقسم عليه

قوله : ﴿ إن نَشَأْ نُنزّل عليهم من السماء آية ﴾ [الشعراء : 4] .

فقال القرظي : أقسم الله بطوله وسَنائه ومُلكه .

وقيل الحروف مقتضبة من أسماء الله تعالى ذي الطَّول ، القدوس ، الملك .

وقد علمت في أول سورة البقرة أنها حروف للتهجّي واستقصاء في التحدّي يعجزهم عن معارضة القرآن ، وعليه تظهر مناسبة تعقيبه بآية ﴿ تلك آيات الكتاب المبين ﴾ [الشعراء : 2] .

والجمهور قرأوا : ﴿ طَسمِ ﴾ كلمة واحدة ، وأدغموا النون من سين في الميم وقرأ حمزة بإظهار النون .

وقرأ أبو جعفر حروفاً مفككة ، قالوا وكذلك هي مرسومة في مصحف ابن مسعود حروفاً مفككة (ط س م) .

والقول في عدم مَدّ اسم (طَا) مع أن أصله مهموز الآخر لأنه لما كان قد عرض له سكون السكت حذفت همزته كما تحذف للوقف ، كما تقدم في عدم مدّ (رَا) في ﴿ الر ﴾ في سورة يونس (1) .

تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (2)

الإشارة إلى الحاضر في الأذهان من آيات القرآن المنزّل من قبلُ ، وبيَّنه الإخبارُ عن اسم الإشارة بأنها آيات الكتاب .

ومعنى الإشارة إلى آيات القرآن قصد التحدّي بأجزائه تفصيلاً كما قُصد التحدي بجميعه إجمالاً .

والمعنى : هذه آيات القرآن تقرأ عليكم وهي بلغتكم وحروف هجائها فأتوا بسورة من مثلها ودونكموها .

والكاف المتصلة باسم الإشارة للخطاب وهو خطاب لغير معيّن من كل متأهل لهذا التحدي من بلغائهم .

(76/566)

و ﴿ المبين ﴾ الظاهر ، وهو من أبان مرادف بَان ، أي تلك آيات الكتاب الواضح كونه من عند الله لما فيه من المعاني العظيمة والنظْم المعجز ، وإذا كان الكتاب مبيناً كانت آياته المشتمل عليها آيات مُبينة على صدق الرسل بها .

ويجوز أن يكون ﴿ المبين ﴾ من أبان المتعدي ، أي الذي يُبيّن ما فيه من معاني الهدى والحق وهذا من استعمال اللفظ في معنييه كالمشترك .

والمعنى : أن ما بلغكم وتلي عليكم هو آيات القرآن المبين ، أي البيّن صدقه ودلالته على صدق ما جاء به ما لا يجحده إلا مكابر .

لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (3)

حُوّل الخطاب من توجيهه إلى المعاندين إلى توجيهه للرسول عليه الصلاة والسلام .

والكلام استئناف بياني جواباً عما يثيره مضمون قوله : ﴿ تلك آيات الكتاب المبين ﴾ [الشعراء : 2] من تساؤل النبي صلى الله عليه وسلم في نفسه عن استمرار إعراض المشركين عن الإيمان وتصديق القرآن كما قال تعالى : ﴿ فلعلّك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً ﴾ [الكهف : 6] ، وقوله : ﴿ فلا تَذْهَب نفسُك عليهم حسرات ﴾ [فاطر : 8] .

و(لعلّ) إذا جاءت في ترجّي الشيء المخوف سميت إشفاقاً وتوقعاً .

وأظهر الأقوال أن الترجي من قبيل الخبر ، وأنه ليس بإنشاء مثلَ التمني .

والترجي مستعمل في الطلب ، والأظهر أنه حثّ على ترك الأسف من ضلالهم على طريقة تمثيل شأن المتكلم الحاثّ على الإقلاع بحال من يستقرب حصول هلاك المخاطب إذا استمر على ما هو فيه من الغم .

والباخع : القاتل .

وحقيقة البخع إعماق الذبح .

يقال : بَخَع الشاة ، قال الزمخشري : إذا بلغ بالسكين البِخَاع بالموحدة المكسورة وهو عِرق مستبطن الفَقار ، كذا قال في "الكشاف" هنا وذكره أيضاً في "الفائق" .

وقد تقدم ما فيه عند قوله تعالى : ﴿ فلعلّك باخع نفسك على آثارهم ﴾ في سورة الكهف (6) .

وهو هنا مستعار للموت السريع ، والإخبار عنه بـ ﴿ باخع ﴾ تشبيه بليغ .

(77/566)

وفي ﴿ باخع ﴾ ضمير المخاطب هو الفاعل .

و ﴿ أن لا يكونوا ﴾ في موضع نصب على نزع الخافض بعد (أنْ) والخافض لام التعليل ، والتقدير : لأن لا يكونوا مؤمنين ، أي لانتفاء إيمانهم في المستقبل ، لأنّ (أن) تخلص المضارع للاستقبال .

والمعنى : أنَّ غمك من عدم إيمانهم فيما مضى يوشك أن يوقعك في الهلاك في المستقبل بتكرر الغم والحزن ، كقول إخوة يوسف لأبيهم لما قال ﴿ يا أسفا على يوسف ﴾ [يوسف : 84] فقالوا : ﴿ تالله تفتؤ تَذكرُ يوسف حتى تكونَ حَرَضاً أو تكون من الهالكين ﴾ [يوسف : 85] ؛ فوزان هذا المعنى وزان معنى قوله في سورة الكهف (6) ﴿ فلعلّك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً ﴾ ، فإن (إن) الشرطية تتعلق بالمستقبل .

ويجوز أن يجعل ﴿ أن لا يكونوا ﴾ في موضع الفاعل ل ﴿ باخِع ﴾ والجملة خبر (لَعلّ) .

وإسناد ﴿ باخع ﴾ إلى ﴿ أن لا يكونون مؤمنين ﴾ مجاز عقلي لأن عدم إيمانهم جُعل سبباً للبخع .

وجيء بمضارع الكون للإشارة إلى أنه لا يأسف على عدم إيمانهم ولو استمر ذلك في المستقبل فيكون انتفاؤه فيما مضى أولى بأن لا يؤسف له .

وحذف متعلق ﴿ مؤمنين ﴾ ؛ إما لأن المراد مؤمنين بما جئتَ به من التوحيد والبعث وتصديق القرآن وتصديق الرسول ، وإما لأنه أريد بمؤمنين المعنى اللَّقبي ، أي أن لا يكونوا في عداد الفريق المعروف بالمؤمنين وهم أمة الإسلام .

وضمير ﴿ أن لا يكونوا ﴾ عائد إلى معلوم من المقام وهم المشركون الذين دعاهم النبي صلى الله عليه وسلم

وعُدل عن : أن لا يؤمنوا ، إلى ﴿ أن لا يكونوا مؤمنين ﴾ لأن في فعل الكون دلالة على الاستمرار زيادة على ما أفادته صيغة المضارع ، فتأكّد استمرار عدم إيمانهم الذي هو مورد الإقلاع عن الحزن له .

وقد جاء في سورة الكهف (6) ﴿ فلعلّك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث ﴾ بحرف نفي الماضي وهو (لم) لأن سورة الكهف متأخرة النزول عن سورة الشعراء فعدم إيمانهم قد تقرر حينئذ وبلغ حدّ المأيوس منه .

وضمير ﴿ يكونوا ﴾ عائد إلى معلوم من مقام التحدّي الحاصل بقوله : ﴿ طسم تلك آيات الكتاب المبين ﴾ [الشعراء : 1 ، 2] للعلم بأن المتحدَّين هم الكافرون المكذبون .

إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ (4)

استئناف بياني ناشىء عن قوله : ﴿ أن لا يكونوا مؤمنين ﴾ [الشعراء : 3] لأن التسلية على عدم إيمانهم تثير في النفس سؤالاً عن إمهالهم دون عقوبة ليؤمنوا ، كما قال موسى ﴿ ربّنا إنك آتيت فرعون وملأه زينةً وأموالاً في الحياة الدنيا ربّنا ليَضِلّوا عن سَبيلك ربّنا اطمِسْ على أموالهم واشدُدْ على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم ﴾ [يونس : 88] ، فأجيب بأن الله قادر على ذلك ، فهذا الاستئناف اعتراض بين الجملتين المعطوفة إحداهما على الأخرى .

ومفعول ﴿ نشأ ﴾ محذوف يدل عليه جواب الشرط على الطريقة الغالبة في حذف مفعول فعل المشيئة .

والتقدير : إن نشأ تنزيل آية ملجئة ننزلها .

وجيء بحرف ﴿ إنْ ﴾ الذي الغالب فيه أن يشعر بعدم الجزم بوقوع الشرط للإشعار بأن

ذلك لا يشاؤه الله لحكمة اقتضت أن لا يشاءه .

ومعنى انتفاء هذه المشيئة أن الحكمة الإلهية اقتضت أن يحصل الإيمان عن نظر واختيار لأن ذلك أجدى لانتشار سمعة الإسلام في مبدإ ظهوره .

فالمراد بالآية العلامة التي تدل على تهديدهم بالإهلاك تهديداً محسوساً بأن تظهر لهم بوارق تنذر باقتراب عذاب .

(79/566)

وهذا من معنى قوله تعالى : ﴿ وإن كان كَبُر عليك إعراضُهم فإن استطعتَ أن تَبْتَغِيَ نَفَقاً في الأرض أو سُلّماً في السماء فتأتيهم بآية ﴾ [الأنعام : 35] ، وليس المراد آيات القرآن وذلك أنهم لم يقتنعوا بآيات القرآن .

وجعل تنزيل الآية من السماء حينئذ أوضح وأشدّ تخويفاً لقلّة العهد بأمثالها ولتوقع كل من تحت السماء أن تصيبه .

فإن قلت : لماذا لم يُرِهِمْ آية كما أُرِي بنو إسرائيل نَتْقَ الجبل فوقهم كأنه ظُلَّةٌ ؟ قلت : كان بنو إسرائيل مؤمنين بموسى وما جاء به فلم يكن إظهار الآيات لهم لإلجائهم على الإيمان ولكنه كان لزيادة تثبيتهم كما قال إبراهيم ﴿ أرني كيف تحيي الموتى ﴾ [البقرة : 260] .

وفرّع على تنزيل الآية ما هو في معنى الصفة لها وهو جملة ﴿ فظلت أعناقهم لها خاضعين ﴾ بفاء التعقيب .

وعطف ﴿ فظلت ﴾ وهو ماض على المضارع قوله : ﴿ ننزل ﴾ لأن المعطوف عليه جواب شرط ، فللمعطوف حكم جواب الشرط فاستوى فيه صيغة المضارع وصيغة الماضي لأن أداة الشرط تخلص الماضي للاستقبال ؛ ألا ترى أنه لو قيل : إن شئنا نزّلنا أو إن نَشأ نَزّلنا ، لكان سواء إذ التحقيق أنه لا مانع من اختلاف فعلي الشرط والجزاء بالمضارَعيَّة والماضوية ، على أن المعطوفات يتّسع فيها ما لا يُتّسع في المعطوف عليها لقاعدة : أن يغتفر في الثواني ما لا يغتفر في الأوائل ، كما في القاعدة الثامنة من الباب الثامن من "مغني اللبيب" ، غير أن هذا الاختلاف بين الفعلين لا يخلو من خصوصية في كلام البليغ وخاصة في الكلام المعجز ، وهي هنا أمران : التفنّن بين الصيغتين ، وتقريبُ زَمن مضي المعقب بالفاء من زمن حصول الجزاء بحيث يكون حصول خضوعهم للآية بمنزلة حصول تنزيلها فيتمّ ذلك سريعاً حتى يخيّل لهم من سُرعة حصوله أنه أمر مضى فلذلك قال : ﴿ فظلت ﴾ ولم يقل : فتظل .

(80/566)

وهذا قريب من استعمال الماضي في قوله تعالى : ﴿ أتى أمر الله فلا تستعجلوه ﴾ [النحل : 1] وكلاهما للتهديد ، ونظيره لقصد التشويق : قد قامت الصلاة .

والخضوع : التطامن والتواضع .

ويستعمل في الانقياد مجازاً لأن الانقياد من أسباب الخضوع .

وإسناد الخضوع إلى الأعناق مجاز عقلي ، وفيه تمثيل لحال المنقادين الخائفين الأذلّة بحال الخاضعين الذين يتّقون أن تصيبهم قاصمة على رؤوسهم فهم يطأطئون رؤوسهم وينحنون اتقاء المصيبة النازلة بهم .

والأعناق : جمع عُنُق بضمتين وقد تسكن النون وهو الرقبة ، وهو مؤنث .

وقيل : المضموم النون مؤنث ، والساكن النون مذكر .

ولما كانت الأعناق هي مظهر الخضوع أُسند الخضوع إليها وهو في الحقيقة مما يسند إلى أصحابها ومنه قوله تعالى : ﴿ وخَشَعَت الأصواتُ للرحمن ﴾ [طه : 108] أي أهل الأصوات بأصواتهم كقول الأعشى :

(كذلكَ فافعَلْ ما حييتَ إذَا شتوا) . . .

وأقْدم إذا ما أعينُ الناس تَفْرَق

فأسند الفَرق إلى العيون على سبيل المجاز العقلي لأن الأعين سبب الفرق عند رؤية الأشياء المخيفة .

ومنه قوله تعالى : ﴿ سحَرُوا أعينَ الناس ﴾ [الأعراف : 116] وإنما سحَروا الناس سحراً ناشئاً عن رؤية شعوذة السحر بأعينهم ، مع ما يزيد به قوله : "ظلت أعناقهم لها خاضعين" من الإشارة إلى تمثيل حالهم ، ومقتضى الظاهر فظلوا لها خاضعين بأعناقهم .

وفي إجراء ضمير العقلاء في قوله : ﴿ خاضعين ﴾ على الأعناق تجريد للمجاز العقلي في إسناد ﴿ خاضعين إلى أعناقهم ﴾ لأن مقتضى الجري على وتيرة المجاز أن يقال لها : خاضعة ، وذلك خضوع من توقع لحاق العذاب النازل .

وعن مجاهد : أن الأعناق هنا جمع عُنُق بضمتين يطلق على سيد القوم ورئيسهم كما يطلق عليه رأس القوم وصدر القوم ، أي فظلت سادتهم ، يعني الذين أغرَوْهم بالكفر خاضعين ، فيكون الكلام تهديداً لزعمائهم الذين زيَّنوا لهم الاستمرار على الكفر ، وهو تفسير ضعيف .

(81/566)

وعن ابن زيد والأخفش : الأعناق الجماعات واحدها عُنُق بضمتين جماعة الناس ، أي فظلّوا خاضعين جماعات جماعات ، وهذا أضعف من سابقه .

ومن بدع التفاسير وركيكها ما نسبه الثعلبي إلى ابن عباس أنه قال : نزلت هذه الآية فينا وفي

بني أمية فتذل لنا أعناقهم بعد صعوبة ويلحقهم هوانٌ بعد عِزّة ، وهذا من تحريف كلم القرآن عن مواضعه ونحاشي ابن عباس رضي الله عنه أن يقوله وهو الذي دعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يُعلّمه التأويل .

وهذا من موضوعات دعاة المُسَوّدِة مثل أبي مسلم الخراساني وكم لهم في الموضوعات من اختلاق ، والقرآن أجلّ من أن يتعرض لهذه السفاسف .

وقرأ الجمهور : ﴿ ننزّل ﴾ بالتشديد في الزاي وفتح النون الثانية .

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب بضم النون الثانية وتخفيف الزاي .

وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ (5)

عطف على جملة : ﴿ لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين ﴾ [الشعراء : 3] أي هذه شنشنتهم فلا تأسف لعدم إيمانهم بآيات الكتاب المبين ، وما يجيئهم منها من بعدُ فسيعرضون عنه لأنهم عُرفوا بالإعراض .

والمضارعُ هنا لإفادة التجدد والاستمرار .

فالذكر هو القرآن لأنه تذكير للناس بالأدلة .

وقد تقدم وجه تسميته ذكراً عند قوله تعالى : ﴿ وقالوا يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون ﴾ في سورة الحجر (6) .

والمحدَث : الجديد ، أي من ذكر بعدَ ذكر يُذكّرهم بما أنزل من القرآن من قبله فالمعنى

المستفاد من وصفه بالمحدث غير المعنى المستفاد من إسناد صيغة المضارع في قوله : ﴿ ما يأتيهم من ذكر ﴾ .

فأفاد الأمران أنه ذكر متجدّد مستمر وأن بعضه يعقب بعضاً ويؤيده .

وقد تقدم في سورة الأنبياء (2 ، 3) قوله : ﴿ ما يأتيهم من ذكر من ربّهم محدَث إلاّ استمعوه وهم يلْعَبون لاهية قلوبهم ﴾

(82/566)

وذكر اسم الرحمن هنا دون وصف الرّب كما في سورة الأنبياء لأن السياق هنا لتسلية النبي على إعراض قومه فكان في وصف مُؤْتي الذكر بالرحمن تشنيع لحال المعرضين وتعريض لغباوتهم أن يُعرضوا عمَّا هو رحمة لهم ، فإذا كانوا لا يدركون صلاحهم فلا تَذهبْ نفسُك حسراتتٍ على قوم أضاعوا نفعهم وأنت قد أرشدتهم إليه وذكرتهم ، كما قال المثل : لا يحزنك دم هراقه أهله وقال النابغة:

فإن تغلب شقاوتكم عليكم . . .

فإني في صلاحكم سعَيْتُ

وفي الإتيان بفعل كانوا ﴾ وخبره دون أن يقال : إلا أعرضوا ، إفادةُ أن إعراضهم راسخ

فيهم وأنه قديم مستمرّ إذ أخبر عنهم قبل ذلك بقوله : ﴿ أن لا يكونوا مؤمنين ﴾ [الشعراء : 3] ، فانتفاء كون إيمانهم واقعاً هو إعراض منهم عن دعوة الرسول التي طريقها الذكر بالقرآن فإذا أتاهم ذكر بعد الذكر الذي لم يؤمنوا بسببه وجدهم على إعراضهم القديم .

و﴿ مِن ﴾ في قوله : ﴿ من ذكر ﴾ مؤكدة لعموم نفي الأحوال .

و﴿ مِن ﴾ التي في قوله : ﴿ من الرحمن ﴾ ابتدائية .

والاستثناء من أحوال عامة ، فجملة : ﴿ كانوا عنه معرضين ﴾ في موضع الحال من ضمير ﴿ يأتيهم من ذكر ﴾ .

وتقدم المجرور لرعاية الفاصلة .

فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (6)

فاء ﴿ فقد كذبوا ﴾ فصيحة ، أي فقد تبين أن إعراضهم إعراض تكذيب بعد الإخبار عنهم بأن سنتهم الإعراض عن الذكر الآتي بعضه عقب بعض فإن الإعراض كان لأنهم قد كذبوا بالقرآن .

وأما الفاء في قوله : ﴿ فسيأتيهم ﴾ فَلِتَعْقِيب الإخبار بالوعيد بعد الإخبار بالتكذيب .

والأنباء : جمع نبأ ، وهو الخبر عن الحدث العظيم ، وتقدم عند قوله تعالى ﴿ ولقد جاءك من نبأ المرسلين ﴾ في سورة الأنعام (34) .

والأنباء : ظهور صدقها ، وليس المراد من الإتيان هنا البلوغ كالذي في قوله : ﴿ وهل أتاك نَبَؤا الخصم ﴾ [ص : 21] لأن بلوغ الأنباء قد وقع فلا يحكى بعلامة الاستقبال في قوله : ﴿ فسيأتيهم ﴾ .

و﴿ ما ﴾ في قوله : ﴿ ما كانوا به يستهزءون ﴾ يجوز أن تكون موصولة فيجوز أن يكون ما صْدَقُها القرآن وذلك كقوله تعالى : ﴿ ولا تتخذوا آيات الله هُزؤاً ﴾ [البقرة : 231] .

وجيء في صلته بفعل ﴿ يستهزءون ﴾ دون (يكذِّبون) لتحصل فائدة الإخبار عنهم بأنهم كذَّبوا به واستهزأوا به ، وتكون الباء في ﴿ به ﴾ لتعدية فعل ﴿ يستهزءون ﴾ ، والضمير المجرور عائداً إلى ﴿ ما ﴾ الموصولة ، وأنباؤه أخباره بالوعيد .

ويجوز أن يكون ما صدق ﴿ ما ﴾ جنسَ ما عُرفوا باستهزائهم به وهو التوعُّد ، كانوا يقولون : مَتى هذا الوعد ؟ ونحو ذلك .

وإضافة ﴿ أنبؤا ﴾ إلى ﴿ ما كانوا به يستهزءون ﴾ على هذا إضافة بيانية ، أي ما كانوا به يستهزئون الذي هو أنباء ما سيحلّ بهم .

وجمع الأنباء على هذا باعتبار أنهم استهزأوا بأشياء كثيرة منها البعث ، ومنها العذاب في الدنيا ، ومنها نصر المسلمين عليهم ﴿ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴾ [

يونس : 48] ، ومنها فتح مكة ، ومنها عذاب جهنم ، وشجرةُ الزقوم .

وكان أبو جهل يقول : زقّمونا ، استهزاء .

ويجوز كون ﴿ ما ﴾ مصدرية ، أي أنباء كون استهزائهم ، أي حصوله ، وضمير ﴿ به ﴾ عائداً إلى معلوم من المقام ، وهو القرآن أو الرسول صلى الله عليه وسلم

والمراد بأنباء استهزائهم أنباءُ جزَائه وعاقبته وهو ما توعدهم به القرآن في غير ما آية .

والقول في إقحام فعل ﴿ كانوا ﴾ هنا كالقول في إقحامه في قوله آنفاً ﴿ كانوا عنه معرضين ﴾ [الشعراء : 5] ولكن أوثر الإتيان بالفعل المضارع وهو ﴿ يستهزءون ﴾ دون اسم الفاعل كالذي في قوله : ﴿ كانوا عنه معرضين ﴾ لأن الاستهزاء يتجدد عند تجدد وعيدهم بالعذاب ، وأما الإعراض فمتمكّن منهم .

(84/566)

ومعنى ﴿ فسيأتيهم أنبؤا ما كانوا به يستهزءون ﴾ على الوجه الأول أن يكون الإتيان بمعنى التحقق كما في قوله : ﴿ أتى أمر الله ﴾ [النحل : 1] ، أي تحقّق ، أي سوف تتحقّق أخبار الوعيد الذي توعدهم به القرآن الذي كانوا يستهزئون به .

وعلى الوجه الثاني سوف تبلغهم أخبار استهزائهم بالقرآن ، أي أخبار العقاب على ذلك .

وأوثر إفراد فعل "يأتيهم" مع أن فاعله جمع تكسير لغير مذكر حقيقي يجوز تأنيثه لأن الإفراد أخف في الكلام لكثرة دورانه .

أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (7)

الواو عاطفة على جملة : ﴿ وما يأتيهم من ذِكر من الرحمن مُحدَث إلا كانوا عنه معرضين ﴾ [الشعراء : 5] ؛ فالهمزة الاستفهامية منه مقدمة على واو العطف لفظاً لأن للاستفهام الصدارةَ ، والمقصود منه إقامة الحجة عليهم بأنهم لا تغني فيهم الآيات لأن المكابرة تصرفهم عن التأمل في الآيات ، والآياتُ على صحة ما يدعوهم إليه القرآن من التوحيد والإيمان بالبعث قائمة متظاهرة في السماوات والأرض وهم قد عَمُوا عنها فأشركوا بالله ، فلا عجب أن يضلوا عن آيات صدق الرسول عليه الصلاة والسلام ، وكون القرآن منزلاً من الله فلو كان هؤلاء متطلعين إلى الحق باحثين عنه لكان لهم في الآيات التي ذُكِّروا بها مقنع لهم عن الآيات التي يقترحونها قال تعالى : ﴿ أولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء ﴾ [الأعراف : 185] ، وقال : ﴿ قل انظروا ماذا في السماوات والأرض وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون ﴾ [يونس : 101] أي عن قوم لم يعدوا أنفسهم للإيمان .

فالمذكور في هذه الآية أنواع النبات دالة على وحدانية الله لأن هذا الصنع الحكيم لا يصدر إلاّ عن واحد لا شريك له .

وهذا دليل من طريق العقل ، ودليل أيضاً على إمكان البعث لأن الإنبات بعد الجَفاف مثيل لإحياء الأموات بعد رفاتهم كما قال تعالى : ﴿ وآية لهم الأرض الميتة أحييْناها ﴾ [يس : 33] .

وهذا دليل تقريبي للإمكان فكان في آية الإنبات تنبيه على إبطال أصلي عدم إيمانهم وهما : أصل الإشراك بالله ، وأصل إنكار البعث .

والاستفهام إنكار على عدم رؤيتهم ذلك لأن دلالة الإنبات على الصانع الواحد دلالة بينة لكل من يراه ؛ فلما لم ينتفعوا بتلك الرؤية نزلت رؤيتهم منزلة العدم فأنكر عليهم ذلك .

والمقصود : إنكار عدم الاستدلال به .

وجملة : ﴿ كم أنبتنا ﴾ بَدل اشتمال من جملة ﴿ يروا ﴾ فهي مصبّ الإنكار .

وقوله : ﴿ إلى الأرض ﴾ متعلق بفعل ﴿ يروا ﴾ ، أي ألم ينظروا إلى الأرض وهي بمرأى منهم .

و ﴿ كم ﴾ اسم دال على الكثرة ، وهي هنا خبرية منصوبة بـ ﴿ أنبتنا ﴾ .

والتقدير : أنبتنا فيها كثيراً من كل زوج كريم .

و﴿ مِن ﴾ تبعيضية .

ومورد التكثير الذي أفادته ﴿ كم ﴾ هو كثرة الإنبات في أمكنة كثيرة ، ومورد الشمول المفاد من ﴿ كل ﴾ هو أنواع النبات وأصنافه وفي الأمرين دلالة على دقيق الصنع .

واستغني بذكر أبعاض كل زوج عن ذكر مميز ﴿ كم ﴾ لأنه قد عُلم من التبعيض .

والزوج : النوع ، وشاع إطلاق الزوج على النوع في غير الحيوان قال تعالى : ﴿ ومن كل الثمرات جَعَلَ فيها زوجَيْن اثنين ﴾ على أحد احتمالين تقدما في سورة الرعد (3) ، وتقدم قوله تعالى : ﴿ فأخرجنا به أزواجاً من نبات شَتى ﴾ في طَه (53) .

والكريم : النفيس من نوعه قال تعالى : ﴿ ورزق كريم ﴾ في الأنفال (4) ، وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ مَرُّوا كِرَاماً ﴾ في سورة الفرقان (72) .

وهذا من إدْماج الامتنان في ضمن الاستدلال لأن الاستدلال على بديع الصنع يحصل بالنظر في إنبات الكريم وغيرِه .

ففي الاستدلال بإنبات الكريم من ذلك وفاءٌ بغرض الامتنان مع عدم فوات الاستدلال .

(86/566)

وأيضاً فنظر الناس في الأنواع الكريمة أنفذُ وأشهرُ لأنه يبتدىء بطلب المنفعة منها والإعجاب بها فإذا تطلبها وقع في الاستدلال فيكون الاقتصار على الاستدلال بها في الآية من قبيل التذكير للمشركين بما هم ممارسون له وراغبون فيه .

والمشار إليه بذلك ﴿ هو المذكور من الأرض ، وإنبات الله الأزواج فيها ، وما في تلك الأزواج من منافع وبهجة .

والتأكيد بحرف ﴿ إنَّ ﴾ لتنزيل المتحدّث عنهم منزلة من ينكر دلالة ذلك الإنبات وصفاته على ثبوت الوحدانية التي هي باعث تكذيبهم الرسول لما دعاهم إلى إثباتها ، وإفراد (آية) لإرادة الجنس ، أو لأن في المذكور عدةَ أشياء في كل واحد منها آية فيكون على التوزيع .

وجملة : ﴿ وما كان أكثرهم مؤمنين ﴾ عطف على جملة : ﴿ إن في ذلك لآية ﴾ إخباراً عنهم بأنهم مصرّون على الكفر بعد هذا الدليل الواضح ، وضمير ﴿ أكثرهم ﴾ عائد إلى معلوم من المقام كما عاد الضمير الذي في قوله : ﴿ ألا يكونوا مؤمنين ﴾ [الشعراء : 3] ، وهم مشركو أهل مكة وهذا تحدَ لهم كقوله : ﴿ ولن تفعلوا ﴾ [البقرة : 24] .

وأسنِد نفي الإيمان إلى أكثرهم لأن قليلاً منهم يؤمنون حينئذ أو بعد ذلك .

و﴿ كان ﴾ هنا مقحمة للتأكيد على رأي سيبويه والمحققين .

وجملة : ﴿ وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾ تذييل لهذا الخبر : بوصف الله بالعزة ، أي تمام القدرة فتعلمون أنه لو شاء لعجّل لهم العقاب ، وبوصف الرحمة إيماء إلى أن في إمهالهم رحمة

بهم لعلهم يشكرون ، ورحيم بك .

قال تعالى : ﴿ وربُّك الغفور ذو الرحمة لو يُؤاخذهم بما كسبوا لعجَّل لهم العذاب ﴾ [الكهف : 58] .

وفي وصف الرحمة إيماء إلى أنه يرحم رسله بتأييده ونصره .

(87/566)

واعلم أن هذا الاستدلال لما كان عقلياً اقتصر عليه ولم يكرر بغيره من نوع الأدلة العقلية كما كررت الدلائل الحاصلة من العبرة بأحوال الأمم من قوله : ﴿ وإذ نادى ربُّك موسى ﴾ [الشعراء : 10] إلى آخر قصة أصحاب لَيْكة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 19 صـ ﴾

(88/566)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ طسم (1) ﴾

سبق أن تكلمنا عن الحروف المقطعة في أوائل السور ، وقلنا فَرْق بين اسم الحرف ومُسمّى الحرف ، مُسمّى الباء مثلاً : بَا أو بُو أو بِي أو إبْ في حالة السكون ، إنما اسمها : باءٌ مفتوحة ، أو مضمومة ، أو ساكنة ، لكن حين تنطق هذا الحرف في كَتَب مثلاً تقول : كَتَبَ فتنطق مُسمَّى الحرف لا اسمه .

وقُلْنا : في هذه المسألة معانٍ كثيرة ، أيسرها : أن القرآن ، وهو كلام الله المعجز مُنزَّل من حروف مثل حروفكم التي تتكلمون بها ، وكلمات مثل التي في لغتكم ، لكن ما الذي جعله متميزاً بالإعجاز عن كلامكم ؟ نقول : لأنه كلام الله ، هذا هو الفَرْق ، أمّا الحروف فواحدة

.

ولو تأملتَ لوجدتَ أن الحروف المقطعة في أوائل السور مجموعها أربعة عشر حرفاً ، هي نصف الحروف الهجائية ، مرة يأتي حرف واحد ، ومرة حرفان ، ومرة ثلاثة أحرف ، ومرة أربعة أحرف ، ومرة خمسة أحرف . وهذا يدُلّنا على أن القرآن مُعْجِز ، مع أنه بنفس حروفكم ، وبنفس كلماتكم .

وسبق أن ضربنا لتوضيح هذه المسألة مثلاً : هَبْ أنك أردت أن تختبر جماعة في إجادة النسج مثلاً ، فأعطيت أحدهم صوفاً ، وللثاني حريراً ، وللثالث قطناً ، وللرابع كتاناً ، فهل تستطيع أن تحكم على دِقَّة نَسْج كل منهم وأيهما أرقّ وأجمل ؟ بالطبع لا تستطيع ؛ لأن الحرير أنعم وأرقّ من القطن ، والقطن أرقّ من الصوف ، والصوف أرقّ من الكتان ، فإنْ

أردتَ تمييز الدقة والمهارة في هذه الصنعة فعليك أنْ تُوحِّد النوع .

إذن : سِرّ الإعجاز في القرآن أن تكون مادته ومادة غيره من الكلام واحدة ، حروفاً وكلمات ؛ لذلك كثيراً ما يقول الحق تبارك وتعالى بعد الحروف المقطعة : ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الكتاب المبين ﴾

(89/566)

أي : أن الكتاب المبين مُكوَّن من مثل هذه الحروف ، ولله تعالى معَانٍ أخرى ، فيها مرادات له سبحانه ، لعلّ الزمن يكشف لنا عنها . . والقرآن كلام الله ، وصفاته لا تتناهى في الكمال ، فإنِ استطعتَ أن تصف الأشياء ، هذا كذا ، وهذا كذا فهذه طاقة البشر والعقل البشري . أمّا آيات الله في كتابه المبين فهي الآيات الفاصلة التي لها بَدْء ولها ونهاية ، وتتكوّن منها سور القرآن .

ومعنى ﴿ المبين ﴾ [الشعراء : 2] الواضح المحيط بكل شيء ، كما قال سبحانه في آية أخرى : ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي الكتاب مِن شَيْءٍ ﴾ [الأنعام : 38] .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ ﴾

هذه هي التسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه حمّل نفسه في تبليغ الرسالة فوق ما

يُطيق ، وفوق ما يطلبه الله منه حِرْصاً منه على هداية الناس ، وإرجاعهم إلى منهج الله ؛ ليستحقوا الخلافة في الأرض ، ولأن من شروط الإيمان أن تحب لأخيك ما تحب لنفسك .

والحق تبارك وتعالى يُسلِّي رسوله صلى الله عليه وسلم ، كما قال له في سورة الكهف : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً ﴾ [الكهف : 6] .

كأن ترى ولدك يُرهق نفسه في المذاكرة ، فتشفق عليه أنْ يُهلك نفسه ، فأنت تعتب عليه لصالحه ، كذلك الحق تبارك وتعالى يعتب على رسوله شفقة وخوفاً عليه أنْ يُهلك نفسه .

ومعنى ﴿ بَاخِعٌ ﴾ [الشعراء : 3] البخع : الذَّبْح الذي لا يقتصر على قَطْع المرىء والودجين ، إنما يبالغ فيه حتى يفصل الفقرات ، ويخرج النخاع من بينها ، والمعنى : تحزن حزناً عميقاً يستولي على نفسك حتى تهلك ، وهذا يدل على المشقة التي كان يعانيها الرسول صلى الله عليه وسلم من تكذيب قومه له .

(90/566)

وفي موضع آخر ، يقول سبحانه لرسوله صلى الله عليه وسلم : ﴿ فَلاَ تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ﴾ [فاطر : 8] فهذا أمر نهائي واضح ، ونَهْي صريح ، بعد أنْ لفتَ نظره بالإنكار ، فقال : ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ ﴾ [الشعراء : 3] .

وقد نبّه الله تعالى رسوله في عِدّة مواضع حتى لا يُحمّل نفسه فوق طاقتها ، فقال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ البلاغ وَعَلَيْنَا الحساب ﴾ [الرعد : 40] .

وقال : ﴿ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾ [الغاشية : 22] .

وقال : ﴿ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ ﴾ [ق : 45] .

فالحق تبارك وتعالى يقول لرسوله : يسِّر على نفسك ، ولا تُكلِّفها تكليفاً شاقّاً مُضْنياً ، والعتاب هنا لصالح الرسول ، لا عليه .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِّنَ السمآء ﴾

والآية هنا ليست آيةَ إقناع للعقول ، إنما آية تُرْغمهم وتُخضع رقابهم ، وتُخضع البنية والقالب ، وهذا ليس كلاماً نظرياً يُقال للمكذبين ، إنما حقائق وقعتْ بالفعل في بني إسرائيل . واقرأ إنْ شئت قوله تعالى : ﴿ وَإِذ نَتَقْنَا الجبل فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وظنوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُواْ مَآ ءاتيناكم بِقُوَّةٍ ﴾ [الأعراف : 171] .

فأخذوا ما آتيناهم بقوة ، لماذا ؟ بالآية التي أرغمتهم وأخضعتْ قوالبهم ، لكن الحق تبارك وتعالى كما قلنا لا يريد بالإيمان أنْ يُخضع القوالب ، إنما يريد أن يُخضع القلوب باليقين والاتباع .

فلو شاء ربك لآمن مَنْ في الأرض كلهم جميعاً ، لا يتخلف منهم أحد ، بدليل أنه سبحانه خلق الملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يؤمرون ، وبدليل أنه سبحانه بعث رسلاً وعصمهم ، ولم يجعل للشيطان سبيلاً عليهم ، وبدليل أن الشيطان بعد أن تعهّد أن يُغوي بني آدم ليكونوا معه سواء في المعصية قال له : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾ [الحجر : 42] .

والشيطان نفسه يقول : ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ المخلصين ﴾ [ص : 8283] .

إذن لو أراد سبحانه لجعلَ الناس جميعاً مؤمنين وما عَزَّ عليه ذلك ، لكنه أراد سبحانه أن يكون الإيمان باختيار المؤمن ، فيأتي ربه طواعية مختاراً .

حتى في أمور الدنيا وأهلها ، قد ترى جباراً يضرب الناس ، ويُخضِعهم لأمره ونهيه ، فيطيعونه طاعةَ قوالب ، إنما أيستطيع أنْ يُخضِع بجبروته قلوبهم ؟ !

وقال : ﴿ فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴾ [الشعراء : 4] خَصَّ الأعناق ؛ لأنها مظهر الخضوع ، فأول الخضوع أنْ تلوى الأعناق ، أو الأعناق تُطلَق عند العرب على وجوه القوم وأعيانهم ؛ لذلك يقولون في التهديد : هذه مسألة تضيع فيها رقاب .

والمراد : الرقاب الكبيرة ذات الشأن ، لا رقاب لمامة القوم ، والضعفاء ، أو العاجزين .

ومثلها كلمة صدور القوم يعني : أعيانهم والمقدَّمين منهم الذين يملأون العيون .

والمعنى : فأنت لا تُخضِع الناس ؛ لأني لو أردتُ أنْ أُخضعهم لأخضعتُهم ؛ لذلك يقول تعالى في آية آخرى : ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأرض كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنتَ تُكْرِهُ الناس حتى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس : 99] .

(92/566)

فإذا كان ربك لا يُكرِه الناسَ على الإيمان ، أفتُكرههم أنت ؟ ولماذا الإكراه في دين الله ؟ : إن الحق تبارك وتعالى يوالي تنزيل القرآن عليهم آية بعد آية فلعل نجماً من نجومه يصادف فراغاً ، وقلباً صافياً من الموجدة على رسول الله فيؤمن .

لكن هيهات لمثل هؤلاء الذين طُبِعوا على اللدد والعناد والجحود أن يؤمنوا ؛ لذلك يقول الله عنهم : ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا واستيقنتها أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً ﴾ [النمل : 14] .

وقال عنهم : ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ ﴾

قوله : ﴿ مُحْدَثٍ ﴾ [الشعراء : 5] يعني : جديد على أذهانهم ؛ لأننا لا نلفتهم بآية واحدة ، بل بآيات الواحدة تلو الأخرى : ﴿ إِلاَّ كَانُواْ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴾ [الشعراء : 5] .

فكلما جاءتهم آية كذَّبوها ، وهذا دليل على اللدد والعداوة التي لا تفارق قلوبهم لرسول

الله صلى الله عليه وسلم ، بحيث لا يصادف نجم من القرآن قلوباً خالية ، فكأن عداوتهم لك يا محمد منعتْهم من الإيمان بالقرآن ، فهم مستعدون للإيمان بالقرآن إنْ جاء من غيرك .

أليسوا هم القائلين : ﴿ لَوْلاَ نُزِّلَ هذا القرآن على رَجُلٍ مِّنَ القريتين عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف : 31] .

إذن : فاللدَد والخصومة ليستْ في منهج الله ، إنما في شخص رسول الله ؛ لذلك ربُّك يُعزِّيك ويحرص عليك : ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الذي يَقُولُونَ ﴾ [الأنعام : 33] مرة ساحر ، ومرة مجنون . . إلخ . انظر إلى التسلية : ﴿ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ ﴾ [الأنعام : 33] فأنت عندهم صادق أمين ﴿ ولكن الظالمين بِآيَاتِ الله يَجْحَدُونَ ﴾ [الأنعام : 33] .

(93/566)

وقوله تعالى : ﴿ إِلاَّ كَانُواْ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴾ [الشعراء : 5] أي : في غباء ولَدَد ، وهل هناك أشدّ لَدَداً من قولهم : ﴿ اللهم إِن كَانَ هذا هُوَ الحق مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السمآء أَوِ ائتنا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأنفال : 32] .

بدل أن يقولوا : اهدنا إليه ! !

فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (6)

أي : كلما جاءهم ذِكْر من الرحمن ، وآية من آياته أصرُّوا على تكذيبها ﴿ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ [الشعراء : 6] .

كما جاء في آيات أخرى : ﴿ وَسَيَعْلَمُ الذين ظلموا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ [الشعراء : 227] .

وقال : ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾ [ص : 88] .

يعني : غداً تعلمون عاقبة تكذيبكم ، فآيات الله تسير أمامكم ، فكلُّ يوم يزداد المؤمنون بمحمد ، ويتناقص عدد الكافرين ، كل يوم تزداد أرض الإيمان ، وتتراجع أرض الكفر .

ألم يقُل الحق سبحانه وتعالى لهم : ﴿ أَفَلاَ يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الأرض نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ﴾ [الأنبياء : 44] .

فهذه إذن مقدمات تروْنها بأعينكم ، وكان ينبغي عليكم أن تأخذوا منها عبرةً وعظة ، فبوادر نجاح الدعوة وظهور الدين واضحة ، هذا معنى : ﴿ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ [الشعراء : 6] .

فليتهم اقتصروا على التكذيب والإصرار عليه ، إنما تعدّى الأمر منهم إلى الاستهزاء بالرسل وبكلام الله ، ألم يقولوا على سبيل الاستهزاء : ﴿ أهذا الذي بَعَثَ الله رَسُولاً ﴾ [الفرقان : 41] .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى الأرض ﴾

لَمَّا لم يفلح الذكر المُحْدث والآيات المتجددة مع هؤلاء المعاندين فلم يَرْعَوُوا . ردَّهم الله تعالى إلى الآيات الكونية الظاهرة لهم والتي سبقتهم في الوجود ، آيات في السماء : الشمس والقمر والنجوم ، وآيات في الأرض : البحار والقفار والجبال والنبات والحيوان .

وكلها آيات كونية لم يدَّعها أحد منهم ، بل جاء الإنسان إلى الوجود وطرأ عليها ، وقد سبقتْه هذه الآيات التي يراها : الكبير والصغير ، والرجل والمرأة ، والعاقل وغير العاقل ، أَلاَ ينظرون فيها نظرةَ اعتبار ، فيسألون عن مبدعها ؟

ضربنا لذلك مثلاً بالإنسان الذي انقطعتْ به السُّبُل في صحراء جرداء حتى أشرف على الهلاك ، فأخذته سِنَة فنام ، ولما استيقظ وجد في هذا المكان المنقطع مائدةً ، عليها أطايب الطعام والشراب ، أَلا ينبغي عليه قبل أنْ تمتدَّ يده إلى هذا الطعام أن يسأل نفسه من الذي أعده له ؟

كذلك الإنسان طرأ على كوْن مُعَدٍّ لاستقباله ، وعلى وجود لا تتناوله قدرته ، ولا سلطانَ له عليه ، فهو لا يتناول الشمس مثلاً ليُوقِدها ولم يدَّعِ هذه الآيات الكونية أحد ، أَلاَ يدلّ ذلك على الخالق عزَ وجل ويُوجِب علينا الإيمان به ؟

لذلك يقول سبحانه ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السماوات والأرض لَيَقُولُنَّ الله ﴾ [لقمان : 25] .

وقال : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ الله ﴾ [الزخرف : 87] .

ولو تأمل الإنسان في (اللمبة) الصغيرة التي تضيء غرفة ، ولها عمر افتراضي لا يتعدَّى عدة أشهر وهي عُرْضَة للكسر وللأعطال ، ومع ذلك تكاتف في صناعتها فريق من المهندسين والعمال والفنيين ، وكثير من الآلات والعِدَد ، ومع ذلك نُؤرِّخ لمخترع المصباح ، ونعرف تاريخه ، وكيفية صنعه . . الخ . نعرف مخترع (التلفون والراديو) و . .

(95/566)

أليس من الأَوْلَى أن ننظر ونتأمل في خَلْق الشمس ، هذا الكوكب العظيم الذي يضيء الدنيا كلها ، دون وقود ، أو قطعة غيار ، أو عُطْل طِوَال هذه المدَد المتعاقبة ؟

فإذا ما جاء رسول ، وقطع على الناس هذه الغفلة ، وقال لهم : أَلاَ أُنَبِّئكم بِمَنْ خلق كل هذا ؟ إنه الله . كان يجب عليهم أنْ يُعيروه آذانهم ويؤمنوا .

هنا يقول تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى الأرض ﴾ [الشعراء : 7] وهي آية ظاهرة أمام أعينهم ، يروْنَها هامدة جرداء مُقْفرة ، فإذا نزل عليها الماء أحياها الله بالنبات ، ألم ينظروا إلى

الجبال والصحراء بعد نزول المطر ، وكيف تكتسي ثوباً بديعاً من النبات بعد فَصْل الشتاء

.

ألم يسألوا أنفسهم : مَنْ نقل هذه البذور وبذرها في الجبال ؛ لذلك يقول سبحانه في موضع آخر : ﴿ وَتَرَى الأرض هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا المآء اهتزت وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ [الحج : 5] .

وقوله تعالى هنا : ﴿ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ [الشعراء : 7] كم : خبرية تفيد الكثرة ، جاءت بصيغة الاستفهام للتقرير ، كما تقول لصاحبك : كم أحسنتُ إليك ، بدل أنْ تُعدِّد مظاهر إحسانك إليه ، فتسأله لأنك واثق أن الإجابة في صالحك ، فالكلام بالإخبار دَعْوى منك ، لكن الإجابة على سؤال إقرار منه .

فالمعنى : أن نبات الأرض كثير يفوق الحصر .

والزوج : الصنف ، والزوج أيضاً الذكر أو الأنثى ، والبعض من العامة يظن أن الزوج يعني الاثنين وهذا خطأ ، فالزوج واحد معه مثله ، كما في قوله سبحانه : ﴿ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضأن اثنين وَمِنَ المعز اثنين قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأنثيين أَمَّا اشتملت عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأنثيين نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * وَمِنَ الإبل اثنين وَمِنَ البقر اثنين ﴾ [الأنعام : 143144] .

فهذه أربعة أصناف ، فيها ثمانية أزواج ، فالزوج فرد واحد معه مثله ، فلا تقول زوج أحذية . بل زَوْجَا أحذية . والحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزوجين الذكر والأنثى ﴾ [النجم : 45] .

وكذلك النبات لا بُدَّ فيه من ذكورة وأنوثة ، وإنْ كانت غير واضحة فيه كله كما هي واضحة مثلاً في النخل ، ففيه ذكر نُلقِّح منه الأنثى لتثمر ، وكذلك شجرة الجميز منها ذكر وأنثى . لكن لم نَرَ ذكورة وأنوثة في الجوافة مثلاً أو في الليمون ، لماذا ؟

قالوا : مرة توجد الذكورة والأنوثة في الشيء الواحد كعود الذرة مثلاً ، قبل أنْ يُخرِج ثمرته تخرج سنبلة في أعلاه تحمل لقاح الذكورة ، وحينما يهزها الريح يقع اللقاح على شُرَابة (كوز) الذرة ، وتتم عملية التلقيح . وقد تكون الذكورة والأنوثة في شيء لا تعرفه أنت كالمناجو والتفاح مثلاً ، فلم نعلم لها ذكراً وأنثى .

لكن الحق تعالى قال : ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرياح لَوَاقِحَ ﴾ [الحجر : 22] .

وقال : ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾ [الذاريات : 49] .

ثم وصف الزوج بأنه ﴿ كَرِيمٍ ﴾ [الشعراء : 7] فماذا يعني الكرم هنا ؟ قالوا : لأنك إذا أخذتَ الثمرة الواحدة ونظرت وتأملتَ فيها لوجدتَ لها صفات متعددة ونِعَماً كثيرة ، كما قال سبحانه : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ الله لاَ تُحْصُوهَا ﴾ [إبراهيم : 34] وهي نعمة

واحدة بصيغة المفرد ولم يقل نعم الله .

قالوا : لأن الحق عزّ وجلَّ يريد أن يلفتنا إلى أن كل نعمة واحدة لو استقصيتَ عناصرها وتكوينها لوجدتَ في طياتها نِعَماً لا تُعَدُّ ولا تُحْصَى .

فمعنى ﴿ كَرِيمٍ ﴾ [الشعراء : 7] يعني : كثير العطاء وكثير الخيرات .

(97/566)

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ ﴾ [الشعراء : 8] أي : في آية الإنبات ، وكل زوج كريم يخرج من الأرض ﴿ لآيَةً ﴾ [الشعراء : 8] شيء عجيب ودلالة واضحة على مُكوِّن حكيم يعمل الشيء بقصد ونظام ، ينبغي أن تلفتنا إلى قدرة الخالق عز وجل .

﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء : 8] يعني : مع كل هذه الآيات لم يؤمنوا ، إلا القليل منهم كما قال تعالى في آية أخرى : ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السماوات والأرض يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ [يوسف : 105] مع أنك لو تأملتَ آية واحدة لكانت كافية لأنْ تلفتك إلى الله .

وَفِي كُلِّ شَيءٍ لَهُ آيَةٌ . . . تَدلُّ عَلَى أَنَّه الوَاحِدُ

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العزيز الرحيم ﴾

جاء الحق تبارك وتعالى هنا بصفة ﴿ العزيز ﴾ [الشعراء : 9] بعد أن قال ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء : 8] لنعلم أن الذين كفروا لم يكفروا رَغْماً عن الله ، إنما كفروا بما أودع الله فيهم من الاختيار .

فهو سبحانه الذي أعانهم عليه لَمَّا أحبوه وأصروا عليه ؛ لأنه تعالى ربُّهم ، بدليل أنه تعالى لو تركهم مجبرين مرغمين ما فعلوا شيئاً يخالف منهج الله أبداً ، وبدليل أنهم مجبرون الآن على أشياء ومقهورون في حياتهم في مسائل كثيرة ، ومع ذلك لا يستطيع أحد منهم أن يخرج على شيء من ذلك .

فمع إِلْفهم العناد والتمرد على منهج الله ، أيستطيع أحدهم أنْ يتأبَّى على المرض ، أو على الموت ، أو على الأقدار التي تنزل به ؟ أيختار أحد منهم يوم مولده مثلاً ، أو يوم وفاته ؟ أيختار طوله أو قوته أو ذكاءه ؟

لكن لما أعطاهم الله الصلاحية والاختيار اختاروا الكفر ، فأعانهم الله على ما أحبُّوا ، وختم على قلوبهم حتى لا يخرج منها كفر ، ولا يدخلها إيمان .

(98/566)

وكلمة ﴿ العزيز ﴾ [الشعراء : 9] تعني : الذي لا يُغلَب ولا يُقْهر ، لكن هذه الصفة لا تكفي في حقِّه تعالى ؛ لأنها تفيد المساواة للمقابل ، فلا بُدَّ أنْ نزيد عليها أنه سبحانه هو الغالب أيضاً .

لذلك يقول سبحانه وتعالى : ﴿ والله غَالِبٌ على أَمْرِهِ ﴾ [يوسف : 21] فالله تعالى عزيز يَغْلِب ولا يُغْلَب .

ومثال ذلك قوله تعالى : ﴿ يُطْعِمُ وَلاَ يُطْعَمُ ﴾ [الأنعام : 14] .

وقوله تعالى : ﴿ قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلاَ يُجَارُ عَلَيْهِ ﴾ [المؤمنون : 88] .

ثم يذكر سبحانه بعدها صفة الرحمة ، فهو سبحانه مع عزته رحيم ، إنه تعالى رحيم حين يَغْلب ، ألم يتابع لهم الآيات ويَدْعُهم إلى النظر والتأمل ، لعلَّهم يثوبون إلى رُشْدهم فيؤمنوا ؟ فلما أصرُّوا على الكفر أمهلهم ، ولم يأخذهم بعذاب الاستئصال ، كما أخذ الأمم الأخرى حين كذَّبتْ رسلها .

كان الرسل قبل محمد صلى الله عليه وسلم يُبلِّغون الدعوة ، ويُظهرون المعجزة ، فمَنْ لم يؤمن بعد ذلك يعاقبه الله ، كما قال سبحانه : ﴿ فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصيحة وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأرض وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا ﴾ [العنكبوت : 40] .

أمَّا أمة محمد صلى الله عليه وسلم فقد قال تعالى في شأنها : ﴿ وَمَا كَانَ اللهِ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الأنفال : 33] .

(99/566)

وقال هنا : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العزيز الرحيم ﴾ [الشعراء : 9] فالحق تبارك وتعالى في كل هذه الآيات يُسلِّي رسوله صلى الله عليه وسلم ، ويعطيه عبرةً من الرسل الذين سبقوه ، فليس محمد بِدْعاً في ذلك ، ألم يقل له ربه : ﴿ ياحسرة عَلَى العباد مَا يَأْتِيهِمْ مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ [يس : 30] فالمسألة إذن قديمة قِدَم الرسالات .

لذلك ، يأخذنا السياق بعد ذلك إلى موكب النبوات ، فيذكر الحق سبحانه لرسوله صلى الله عليه وسلم طرفاً من قصة نبي الله موسى : ﴿ وَإِذْ نادى رَبُّكَ موسى ﴾ . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(100/566)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ طسم (1) ﴾

أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة قال : اسم من أسماء القرآن .

وأخرج ابن أبي حاتم عن محمد بن كعب في قوله ﴿ طسم ﴾ قال : الطاء من ذي الطول ، والسين من القدوس ، والميم من الرحمن .

﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (2) ﴾

أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ لعلك باخع نفسك ﴾ قال : لعلك قاتل نفسك ﴿ ألا يكونوا مؤمنين ﴾ ، ﴿ إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين ﴾ قال : لو شاء الله أنزل عليهم آية يذلون بها فلا يلوي أحدهم عنقه إلى معصية الله ﴿ وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث . . . ﴾ يقول : ما يأتيهم من شيء من كتاب الله إلا أعرضوا عنه ، ﴿ فسيأتيهم ﴾ يعني يوم القيامة ﴿ أنباء ﴾ ما استهزأوا به من كتاب الله وفي قوله ﴿ كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم ﴾ قال : حسن .

وأخرج الطستي عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق سأله عن قوله ﴿ فظلت أعناقهم لها

خاضعين ﴾ قال : العنق الجماعة من الناس قال : وهل تعرف العربُ ذلك ؟ قال : نعم .

أما سمعت الحرث بن هشام وهو يقول ويذكر أبا جهل :

يخبرنا المخبر أن عمراً . . . أمام القوم من عنق مخيل

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله ﴿ فظلت أعناقهم لها خاضعين ﴾ قال : ذليلين .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن زيد قال : الخاضع : الذليل .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله ﴿ كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم ﴾ قال : من نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن الشعبي ﴿ كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم ﴾ قال : الناس من نبات الأرض . فمن دخل الجنة فهو كريم ، ومن دخل النار فهو لئيم .

(101/566)

وأخرج ابن جرير عن ابن جريج قال : كل شيء في الشعراء من قوله ﴿ عزيز رحيم ﴾ فهو ما هلك ممن مضى من الأمم يقول ﴿ عزيز ﴾ حين انتقم من أعدائه ﴿ رحيم ﴾ بالمؤمنين حين أنجاهم مما أهلك به أعداءه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 6 صـ ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله : ﴿ طسم ﴾ :

أظهر حمزةُ نونَ " سين " قبل الميمِ كأنه ناوِي الوقفِ/ وإلاَّ فإدغامُ مثِله واجبٌ . والباقون يُدغمون . وقد تقدَّم إعرابُ الحروفِ المقطعة . وفي مصحفِ عبد الله ط . س . م . مقطوعةً من بعضها . قيل : وهي قراءةُ أبي جعفر ، يَعْنُون أنه يقف على كلِّ حرفٍ وَقْفَةً يميز بها كلَّ حرفٍ ، وإلاَّ لم يُتَصَوَّرْ أَنْ يُلْفَظُ بها على صورتِها في هذا الرسمِ . وقرأ عيسى وتروى عن نافع بكسر الميم هنا وفي القصص على البناء . وأمال الطاءَ الأخَوان وأبو بكر . وقد تقدَّم ذلك .

قوله : ﴿ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ ﴾ : العامَّةُ على نونِ العظمةِ فيهما . ورُوِي عن أبي عمرٍو بالياء فيهما أي : إنْ يَشَأْ اللهُ يُنَزِّلْ . و " إنْ " أصلُها أَنْ تدخلَ على المشكوكِ أو المحقَّقِ المبهمِ زمانُه ، والآيةُ من هذا الثاني .

قوله : ﴿ فَظَلَّتْ ﴾ عطفٌ على " نُنَزِّلْ " فهو في محلِّ جزمٍ . ويجوز أن يكونَ مستأنفاً غيرَ

معطوفٍ على الجزاءِ . ويؤيِّد الأولَ قراءةُ طلحة " فَتَظْلِلْ " بالمضارعِ مفكوكاً .

قوله : ﴿ خَاضِعِينَ ﴾ فيه وجهان ، أحدُهما : أنه خبرٌ عن " أعناقُهم " . واستُشْكِلَ جمعُه جمعَ سلامةٍ لأنه مختصٌّ بالعقلاءِ . وأُجيب عنه بأوجهٍ ، أحدُها : أنَّ المرادَ بالأعناق الرؤساءُ ، كما قِيل : لهم وجوهٌ وصدورٌ قال :

3505 . . . . . في

مَجْمَعٍ مِنْ نواصِي الخيلِ مَشْهودِ

الثاني : أنه على حذفِ مضافٍ أي : فظلَّ أصحابُ الأعناقِ ، ثم حُذِفَ وبقي الخبرُ على ما كان عليه قبل حَذْفِ المُخْبَرِ عنه مراعاةً للمحذوفِ . وقد تقدَّم ذلك قريباً عند قراءةِ ﴿ وَقَمَراً مُّنِيراً ﴾ [الفرقان : 61] . الثالث : أنه لَمَّا أُضيفَتْ إلى العقلاءِ اكتسَبَ منهم هذا الحكمَ ، كما يُكتسب التأنيثُ بالإِضافةِ لمؤنث في قولِه :

(103/566)

3506 . . . . . كما

شَرِقَتْ صَدْرُ القناةِ من الدمِ

الرابع : أنَّ الأعناقَ جمعُ عُنُق من الناس ، وهم الجماعةُ ، فليس المرادُ الجارحةَ البتة . ومن

قولُه :

3507 أنَّ العراقَ وأهلَه . . . عُنُقٌ إليك فَهَيْتَ هَيْتا

قلت : وهذا قريبٌ مِنْ معنى الأولِ . إلاَّ أنَّ هذا القائلَ يُطْلِقُ الأعناقَ على جماعةِ الناسِ مطلقاً ، رؤساءَ كانوا أو غيرَهم . الخامس : قال الزمخشري : " أصلُ الكلامِ : فظلُّوا لها خاضعين ، فَأُقْحِمَتِ الأعناقُ لبيانِ موضع الخضوع ، وتُرِكَ الكلامُ على أصله ، كقولهم : ذهبَتْ أهلُ اليمامة ، فكأن الأهلَ غيرُ مذكور " . قلت : وفي التنظير بقولِه : ذهبَتْ أهلُ اليمامةِ " نظرٌ ؛ لأنَّ " أهل " ليس مقحماً البتة ؛ لأنه المقصودُ بالحكم وأمَّا التأنيثُ فلاكتسابِه التأنيثَ . السادس : أنها عُوْمِلَتْ معاملةَ العقلاءِ لَمَّا أُسْند إليهم ما يكونُ فِعْلَ العقلاءِ كقوله ﴿ ساجِدِين ﴾ و ﴿ طائِعِين ﴾ في يوسف والسجدة .

(104/566)

والثاني : أنه منصوبٌ على الحالِ من الضميرِ في " أعناقُهم " قاله الكسائي ، وضَعَّفه أبو البقاء قال : " لأنَّ " خاضعين " يكون جارياً على غيرِ فاعلِ " ظَلَّتْ " فيَفْتَقِرُ إلى إبرازِ ضميرِ الفاعل ، فكان يجبُ أَنْ يكونَ " خاضعين هم " . قلت : ولم يَجْرِ " خاضعين " في اللفظِ والمعنى إلاَّ على مَنْ هو له ، وهو الضمير في " أعناقُهم " ، والمسألة التي قالها : هي أُن

يجريَ الوصفُ على غيرِ مَنْ هو له في اللفظِ دونَ المعنى ، فكيف يلزمُ ما أُلْزَمه به ؟ على أنه لو كان كذلك لم يَلْزَمْ ما قاله ؛ لأنَّ الكسائيَّ والكوفيين لا يُوْجِبون إبرازَ الضميرِ في هذه المسألةِ إذا أُمِنَ اللَّبْسُ ، فهو يَلْتَزِمُ ما ألزمه به ، ولو ضَعَّفه بمجيءِ الحالِ من المضاف إليه لكان أقربَ . على أنه لا يَضْعُفُ لأنَّ المضافَ جزءٌ من المضافِ إليه كقولِه : ﴿ مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا ﴾ [الحجر : 47] .

وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ (5)

قوله : ﴿ إِلَّا كَانُوا ﴾ : جملةٌ حاليةٌ ، وقد تقدَّم تحقيقُ هذا وما قبلَه في أول الأنبياء .

أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (7)

قوله : ﴿ كَمْ أَنبَتْنَا ﴾ : "كم : للتكثيرِ فهي خبريةٌ ، وهي منصوبةٌ بما بعدَها على المفعولِ به أي : كثيراً من الأزواج أنْبتنا . و ﴿ مِن كُلِّ زَوْجٍ ﴾ تمييزٌ . وجَوَّز أبو البقاء أن يكونَ حالاً ولا معنى له .

قال الزمخشري : " فإنْ قلتَ : ما معنى الجمعِ بين كم وكل ؟ ولو قيل : أنبتنا فيها مِنْ كل زوج ؟ قلت : قد دَلَّ "كل" على الإحاطةِ بأزواجِ النباتِ على سبيلِ التفصيلِ ، و "كم" على أن هذا المحيطَ متكاثرٌ مُفْرِطٌ " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 509 . 513 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

سورة الشعراء

بسم الله الرحمن الرحيم .

بسم الله اسم عزيز يرتضي من الزاهد ترك دنياه ، ومن العابد مخالفة هواه ، ومن القاصد قطع مناه ، ولا يرضى من العارف أن يساكن شيئًا غير مولاه ، إن خرج عن كل مرسوم بالكلية ، وانسلخ عن كل معلوم ، من غير أن تبقى له منه بقية فلعله يجد شظية ، وإن عرج على شيء ، ولم يصف من الكدورات – حتى عن يسيرها – وإن دق – فإنه كما في الخبر : " المكاتب عبد ما بقي الكتاب المبين "

ذَكَرْنَا فيما مضى اختلافَ السَّلَفِ في الحروف المُقَطَّعَة ؛ فعند قوم : الطاءُ إشارة إلى طهارة عِزِّه وتَقَدُّسِ عُلُوِّه ، والسين إشارةٌ ودلالةٌ على سناء جبروته ، والميم دلالةٌ على مَجْدِ جلاله في آزله .

ويقال الطاء إشارة إلى شجرة طوبى ، والسين إلى سِدْرَةِ المُنتهى ، والميم إلى اسم محمد صلى الله عليه وسلم ؛ أي ارتقى محمدٌ ليلةَ الإسراء عن شهوده شجرةَ طوبى حتى بَلَغَ سدرةَ المنتهى ، فلم يُسَاكِنْ شيئاً من المخلوقات في الدنيا والعُقْبى .

ويقال الطاء طَرَبُ أربابِ الوصلة على بساط القرب بوجدان كما الروح ، والسين سرورُ العارفِين بما كوشفوا به من بقاء الأحدية باستقلالهم بوجوده والميم إشارة إلى موافقتهم لله بِتَرْكِ التخيُّر على الله ، وحُسْنِ الرضا باختيار الحق لهم .

ويقال الطاء إشارةٌ إلى طيبِ قلوب الفقراء عند فقد الأسباب لكمال العَيْشِ بمعرفة وجود الرزَّاق بَدَلَ طيب قلوب العوام بوجود الأرْفاق والأرزاق .

ويقال الطاء إشارةٌ إلى طهارة أسرار أهل التوحيد ، والسين إشارة إلى سلامة قلوبهم عن مساكنة كلِّ مخلوق ، والميم إشارة إلى مِنَّةِ الحقِّ عليهم بذلك .

لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (3)

أي لِحِرْصِكَ على إيمانهم ولإشفاقِكَ من امتناعهم عن الإيمان فأنت قريبٌ مِنْ أنْ تقتلَ نَفْسَكَ من الأسفِ على تَرْكِهم الإيمان .

(106/566)

فلا عليكَ – يا محمد – فإنه لا تبديلَ لِحُكْمِنَا ؛ فَمَنْ حَكَمْنَا له بالشقاوة لا يُؤْمِن .

ليس عليك إلاَّ البلاغ ؛ فإن آمنوا فبها ، وإلاَّ فكُلُّهُمْ سَيَرَوْنَ يومَ الدِّين ما يستحقون .

إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ (4)

أخبر عن قدرته على تحصيل مرادِه من عباده ، فهو قادرٌ على أن يُؤْمِنوا كَرْهاً ؛ لأن التقاصُرَ عن تحصيل على تحصيل المراد يوجبُ النقصَ والقصورَ في الألوهية .

وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ (5)

أي ما نُجَدِّد لهم شَرْعاً ، وما نرسل لهم رسولاً . . . إلا أعرضوا عن تأمل برهانه ، وقابلوه بالتكذيب . فلو أنهم أنعموا النظرَ في آياتِ الرسل لا تضح لهم صِدْقُهم ، ولكن المقسوم لهم من الخذلان في سابق الحكم يمنعهم من الإيمان والتصديق . فقد كَذَّبوا ، وعلى تكذيبهم أصَرُّوا ، فسوف تأتيهم عاقبةُ أعمالِهم بالعقوبة الشديدة ، فيذوقون وبالَ شِرْكهم .

أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (7)

فنونُ ما ينبت في الأرض وقتَ الربيعِ لا يأتي عليه الحَصْرُ ، ثم اختصاصُ كلِّ شيءٍ منها بلون وطعمٍ ورائحة مخصوصة ، وكلِّ شكلٌ وهيئةٌ ونَوْرٌ مخصوص ، وورق مخصوص . . . إلى ما تَلْطُفُ عنه العبارة ، وتَدِق فيه الإشارة . وفي ذلك آياتٌ لِمَن استبصر ، ونَظَرَ وفكَّرَ .

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ : القاهرُ الذي لا يُقْهَر ، القادر الذي لا يُقْدَر ، المنيعُ الذي لا يُجْبَر . ﴿ الرَّحِيمُ ﴾ : المحسنُ لعباده ، المريدُ لسعادة أوليائه . انتهى انتهى . اهـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 5 . 7 ﴾

قوله تعالى ﴿ وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (10) قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ (11) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (12) وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ (13) وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (14) قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ (15) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما اقتضى وصف العزة الإهلاك ، ووصف الرحمة الإمهال ، وكان الأول مقدماً ، وكانت عادتهم تقديم ما هم به أهم ، وهو لهم أعنى ، خيفت غائلته ، فأتبع ذلك أخبار هذه الأمم ، دلالة على الوصفين معاً ترغيباً وترهيباً ، ودلالة على أن الرحمة سبقت الغضب ، وإن قدم الوصف اللائق به ، فلا يعذب إلا بعد البيان مع طول الإمهال ، وأخلى قصة أبيهم إبراهيم عليه السلام من ذكر الإهلاك إشارة إلى البشارة بالرفق ببنيه العرب في الإمهال كما رفق بهم في الإنزال والإرسال ، ولما كان مع ذلك في هذه القصة تسلية للنبيّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما يقاسيه من الأذى والتكذيب ، وكانت التسلية بموسى وإبراهيم عليهما السلام أتم ، لما لهما من القرب ، والمشاركة في الهجرة ، والقصد إلى الأرض المقدسة ، وكان قد اختص موسى عليه السلام بالكتاب الذي ما بعد القرآن مثله والآيات التي ما أتى بمثلها

أجد قبله ، وإقرار عينه بهداية قومه ، وحفظهم بعده بالكتاب ، وسياسة الأنبياء المجددين لشريعته ، وعدم استئصالهم بالعذاب والانتقام بأيديهم من جميع أعدائهم ، وفتح بلاد الكفرة على أيديهم بعده ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى غير ذلك مما شابهوا به هذه الأمة مع مجاورتهم للعرب حتى في دار الهجرة ، وموطن النصرة ، ليكون في إقرارهم على ما يسمعون من أخبارهم أعظم معجزة ، وأتم دلالة ، قدمهما مقدماً لموسى – عليهما السلام ، والتحية والإكرام – فإن كان القصد تسكين ما أورثه آخر تلك من خوف الملازمة بالعذاب نظراً إلى وصف العزة ، فالتقدير : اذكر أثر رحمتنا بطول إمهالنا لقومك – وهم على أشد ما يكون من الكفر والضلال في أيام الجاهلية – برحمتنا الشاملة بإرسالك إليهم وأنت أشرف الرسل ، وإنزال هذا الكتاب الذي هو أعظم الكتب ﴿ هو ﴾ اذكر ﴿ إذ ﴾ وعلى تقدير التسلية يكون العطف على تلك لأن المراد بها التنبيه ، فالتقدير : خذ آيات الكتاب واذكر إذ ﴿ نادى ربك ﴾ أي المحسن إليك بكل ما يمكن الإحسان

(108/566)

به في هذه الدار ، وعلى تقدير الترهيب يكون التقدير : أو لم يروا إذ نادى ربك ، وعدّوا رائين لذلك لأن اليهود في بلادهم وفي حد القرب منهم ، فإما أن يكونوا عالمين بالقصة بما

سمعوه منهم ، أو متهيئين لذلك لإمكانهم من سؤالهم ؛ ثم ذكر المنادى فقال : ﴿ موسى ﴾ وأتبعه ما كان له النداء فقال مفسراً لأن النداء في معنى القول : ﴿ أن أئت القوم ﴾ أي الذين فيهم قوة وأيّ قوة ﴿ الظالمين ﴾ أي بوضعهم قوتهم على النظر الصحيح المؤدي للإيمان في غير موضعها .

ولما كان كأنه قيل : أي قوم ؟ قال مبدلاً إشارة أن العبارتين مؤداهما واحد لأنهم عريقون في الظلم ، لظلمهم أنفسهم بالكفرة وغيره ، وظلم بني إسرائيل وغيرهم من العباد : ﴿ قوم فرعون ﴾ .

ولما كان المقصود بالرسالة تخويفهم من الله تعالى ، وإعلامهم بجلاله ، استأنف قوله معلماً بذلك في سياق الإنكار عليهم ، والإيذان بشديد الغضب منهم ، والتسجيل عليهم بالظلم ، والتعجيب من حالهم في عظيم عسفهم فيه ، وأنه قد طال إمهاله لهم وهو لا يزدادون إلا عتواً ولزوماً للموبقات : ﴿ ألا يتقون ﴾ أي يحصل منهم تقوى .

ولما كان من المعلوم أن من أتى الناس بما يخالف أهواءهم .

(109/566)

لم يقبل ، أخبر من تشوف إلى معرفة جوابه أنه أجاب بما يقتضي الدعاء بالمعونة ، لما عرف من خطر هذا المقام ، بقوله ملتفتاً إلى نحو ﴿ يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً ﴾ [الفرقان : 30] ﴿ قال رب ﴾ أي أيها الرفيق بي ﴿ إني أخاف أن يكذبون ﴾ أي فلا يترتب على إتياني إليهم أثر ، ويبغون لي الغوائل ، فاجعل لي قبولاً ومهابة تحرسني بها ممن يريدني بسوء ، ويجوز أن يريد ب (أخاف) أعلم أو (أظن) ، فيكون " أن " مخففة ، فيكون الفعلان معطوفين على " يكذبون " في قراءة الجمهور بالرفع مع جواز العطف على (أخاف) فيكون التقدير : ﴿ و ﴾ أخاف أنه ، أو قال : إني ﴿ يضيق صدري ﴾ عند تكذيبهم أو خوفي من تكذيبهم لي انفعالاً كما هو شأن أهل المروءات ، وأرباب علو الهمم ، لما غرز فيهم من الحدة والشدة في العزيمة إذا لم يجدوا مساغاً ﴿ ولا ينطلق ﴾ ونصب يعقوب الفعلين عطفاً على ﴿ يكذبون ﴾ على أن (أن) ناصبة ﴿ لساني ﴾ أي في التعبير عما ترسلني إليهم به ، لما فيه من الحبسة في الأصل بسبب تعقده لتلك الجمرة التي لدغته في حال الطفولية ، فإذا وقع التكذيب أو خوفه وضاق القلب ، انقبض الروح إلى باطنه فازدادت الحبسة ، فمست الحاجة إلى معين يقوي القلب فيعين على إطلاق اللسان عند الحبسة لئلا تختل الدعوة ﴿ فأرسل ﴾ أي فتسبب عن ذلك الذي اعتذرت به عن المبادرة إلى الذهاب عند الأمر أني أسألك في الإرسال ﴿ إلى هارون ﴾ أخي ، ليكون رسولاً من

عندك فيكون لي عضداً على ما أمضى له من الرسالة فيعين على ما يحصل من ذلك ، وليس اعتذاره بتعلل في الامتثال ، وكفى بطلب العون دليلاً على التقبل ، لا على التعلل .

(110/566)

ولما ذكر ما تؤثره الرسالة ، وقدم الإشارة إلى استكشافه لأنه أهم ، أتبعه ما يترتب على مطلق التظاهر لهم فضلاً عن مواجهتهم بما يكرهون فقال : ﴿ ولهم عليّ ﴾ أي بقتلي نفساً منهم ؛ وقال : ﴿ ذنب ﴾ وإن كان المقتول غير معصوم تسمية له بما يزعمونه ، ولذلك قيده ب " لهم " وأيضاً فلكونه ما كان أتاه فيه من الله تعالى أمر بخصوصه ﴿ فأخاف ﴾ بسبب ذلك ﴿ أن يقتلون ﴾ أي بذلك ، مع ما أضمه إليه من التعرض لهم ، فلا أتمكن من أداء الرسالة ، فإذا كان هارون معي عاضدني في إبلاغها ، وكل ذلك استكشاف واستدفاع للبلاء ، واستعلام للعافية ، لا توقف في القبول – كما مضى التصريح به في سورة طه .

(111/566)

ولما استشرفت النفس غلى معرفة جوابه عن هذه الأمور المهمة شفى عناءها بقوله ، إعلاماً بأنه سبحانه استجاب له في كل ما سأل : ﴿ قال ﴾ قول كامل القدرة شامل العلم كما هو وصفه سبحانه : ﴿ كلا ﴾ أي ارتدع عن هذا الكلام ، فإنه لا يكون شيء مما خفت ، لا قتل ولا غيره – وكأنه لما كان التكذيب مع ما قام على الصدق من البراهين ، المقوية لصاحبها ، الشارحة لصدره ، المعلية لأمره ، عد عدماً – وقد أجبناك إلى الإعانة بأخيك ﴿ فاذهبا ﴾ أي أنت وهو متعاضدين ، إلى ما أمرتك به ، مؤيدين ﴿ بآياتنا ﴾ الدالة على صدقكما على ما لها من العظمة بإضافتها إلينا ؛ ثم علل تأمينه له بقوله : ﴿ إنا ﴾ بما لنا من العظمة ﴿ معكم ﴾ أي كائنون عند وصولكما إليهم فيمن اتبعكما من قومكما ؛ ثم أخبر خبراً آخر بقوله : ﴿ مستمعون ﴾ أي سامعون بما لنا من العظمة في القدرة وغيرها من صفات الكمال ، إلى ما تقولان لهم ويقولون لكما ، فلا نغيب عنكم ولا تغيبون عنا ، فنحن نفعل معكما من المعونة والنصر فعل القادر الحاضر لما يفعل بحبيبه المصغي له بجهده ، ولذلك عبر بالاستماع ؛ قال أبو حيان : وكان شيخنا الأستاذ أبو جعفر بن الزبير يرجح أن يكون أريد بصورة الجمع المثنى والخطاب لموسى وهارون فقط ، لأن لفظة " مع " تباين من يكون كافراً ، فإنه لا يقال : الله معه ، وعلى أنه أريد بالجمع التثنية حمله سيبويه كأنهما لشرفهما عند الله تعالى عاملهما في الخطاب معاملة الجمع إذ كان ذلك جائزاً أن يعامل به الواحد لشرفه وعظمته – انتهى .

وهو كلام نفيس مؤيد بتقديم الظرف ، ويكون حينئذ خطابهما مشاكلاً لتعظيم المتكلم سبحانه نفسه ، لأن المقام للعظمة ، وعظمة الرسول من عظمة المرسل ، على أنه يجوز أن يكون ذلك إشارة إلى البشارة بمن يتبعهما كما قدرته ، ويجوز أن تكون المعية للكل كما في قوله تعالى : ﴿ ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ﴾ [المجادلة : 7] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 349 . 352 ﴾

(112/566)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (10) قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ (11) ﴾

اختلف أهل السنة في النداء الذي سمعه موسى عليه السلام من الله تعالى ، هل هو كلامه القديم أو هو ضرب من الأصوات ، فقال أبو الحسن الأشعري : المسموع هو الكلام القديم ، وكما أن ذاته تعالى لا تشبه سائر الأشياء ، مع أن الدليل دل على أنها معلومة ومرتبة فكذا كلامه منزه عن مشابهة الحروف والأصوات مع أنه مسموع ، وقال أبو منصور الماتريدي : الذي سمعه موسى عليه السلام كان نداء من جنس الحروف والأصوات ، وذلك لأن الدليل

لما دل على أنا رأينا الجوهر والعرض ، ولا بد من علة مشتركة بينهما لصحة الرؤية ، ولا علة إلا الوجود ، حكمنا بأن كل موجود يصح أن يرى ، ولم يثبت عندنا أنا نسمع الأصوات والأجسام حتى يحكم بأنه لا بد من مشترك بين الجسم والصوت ، فلم يلزم صحة كون كل موجود مسموعاً فظهر الفرق ، أما المعتزلة فقد اتفقوا على أن ذلك المسموع ما كان إلا حروفاً وأصواتاً ، فعند هذا قالوا إن ذلك النداء وقع على وجه علم به موسى عليه السلام أنه من قبل الله تعالى ، فصار معجزاً علم به أن الله مخاطب له فلم يحتج مع ذلك إلى واسطة ، وكفى في الوقت أن يحمله الرسالة التي هي ﴿ أَنِ ائت القوم الظالمين ﴾ لأن في بدء البعثة يجب أن يأمره بالدعاء إلى التوحيد ، ثم بعده يأمره بالأحكام ، ولا يجوز أن يأمره تعالى بذلك إلا وقد عرفه أنه ستظهر عليه المعجزات إذا طولب بذلك .

أما قوله تعالى : ﴿ أَنِ ائت القوم الظالمين ﴾ فالمعنى أنه تعالى سجل عليهم بالظلم ، وقد استحقوا هذا الاسم من وجهين من وجه ظلمهم أنفسهم بكفرهم ، ومن وجه ظلمهم لبني إسرائيل .

أما قوله : ﴿ قَوْمِ فِرْعَونَ ﴾ فقد عطف (قوم فرعون) على (القوم الظالمين) عطف بيان ، كأن القوم الظالمين وقوم فرعون لفظان يدلان على معنى واحد .

وأما قوله : ﴿ أَلَا يَتَّقُونَ ﴾ فقرىء (ألا يتقون) بكسر النون ، بمعنى ألا يتقونني ، فحذفت النون لاجتماع النونين والياء للاكتفاء بالكسرة ، وقوله : ﴿ أَلَا يَتَّقُونَ ﴾ كلام مستأنف أتبعه تعالى إرساله إليهم للإنذار والتسجيل عليهم بالظلم ، تعجيباً لموسى عليه السلام من حالهم (التي شفت) في الظلم والعسف ، ومن أمنهم العواقب وقلة خوفهم (وحذرهم من أيام الله) ، ويحتمل أن يكون ﴿ أَلَا يَتَّقُونَ ﴾ حالاً من الضمير في (الظالمين) أي يظلمون غير متقين الله وعقابه ، فأدخلت همزة الإنكار على الحال ، ووجه ثالث وهو أن يكون المعنى ألا يا ناس اتقون ، كقوله : (ألا يسجدوا) .

وأما من قرأ (ألا تتقون) على الخطاب ، فعلى طريقة الالتفات إليهم وصرف وجوههم بالإنكار والغضب عليهم ، كما يرى من يشكو ممن ركب جناية والجاني حاضر ، فإذا اندفع في الشكاية وحمى غضبه ، قطع مباثة صاحبه وأقبل على الجاني يوبخه ويعنفه به ، ويقول له ألا تتقي الله ألا تستحي من الناس ، فإن قلت : فما الفائدة في هذا الالتفات والخطاب مع موسى عليه السلام في وقت المناجاة ، والملتفت إليهم غائبون لا يشعرون ؟ قلت : إجراء ذلك في تكليم المرسل إليهم في معنى إجرائه بحضرتهم وإلقائه إلى مسامعهم ، لأنه (مبلغهم) ومنهيه إليهم ، وله فيه لطف وحث على زيادة التقوى ، وكم من آية نزلت في شأن الكافرين وفيها أوفر نصيب للمؤمنين تدبراً لها واعتباراً بمواردها .

ق ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (12) ﴾

وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

(114/566)

اعلم أن الله تعالى لما أمر موسى عليه السلام بالذهاب إلى قوم فرعون ، طلب موسى عليه السلام أن يبعث معه هرون إليهم ، ثم ذكر الأمور الداعية له إلى ذلك السؤال وحاصلها أنه لو لم يكن هرون ، لاختلت المصلحة المطلوبة من بعثة موسى عليه السلام ، وذلك من وجهين :

الأول : أن فرعون ربما كذبه ، والتكذيب سبب لضيق القلب ، وضيق القلب سبب لتعسر الكلام على من يكون في لسانه حبسة ، لأن عند ضيق القلب تنقبض الروح والحرارة الغريزية إلى باطن القلب ، وإذا انقبضا إلى الداخل وخلا منهما الخارج ازدادت الحبسة في اللسان ، فالتأذي من التكذيب سبب لضيق القلب ، وضيق القلب سبب للحبسة ، فلهذا السبب بدأ بخوف التكذيب ، ثم ثنى بضيق الصدر ، ثم ثلث بعدم انطلاق اللسان .

وأما هرون فهو أفصح لساناً مني وليس في حقه هذا المعنى ، فكان إرساله لائقاً الثاني : أن لهم عندي ذنباً فأخاف أن يبادروا إلى قتلي ، وحينئذ لا يحصل المقصود من البعثة .

وأما هرون فليس كذلك فيحصل المقصود من البعثة .

المسألة الثانية :

قرىء (يضيق) و (ينطلق) بالرفع ، لأنهما معطوفان على خبر (أن) ، وبالنصب لعطفهما على صلة أن ، والمعنى : أخاف أن يكذبون ، وأخاف أن يضيق صدري ، وأخاف أن لا ينطلق لساني ، والفرق أن الرفع يفيد ثلاث علل في طلب إرسال هرون ، والنصب يفيد علة واحدة ، وهي الخوف من هذه الأمور الثلاثة ، فإن قلت : الخوف غم يحصل لتوقع مكروه سيقع وعدم انطلاق اللسان كان حاصلاً ، فكيف جاز تعلق الخوف به ؟ قلت : قد بينا أن التكذيب الذي سيقع يوجب ضيق القلب ، وضيق القلب يوجب زيادة الاحتباس ، فتلك الزيادة ما كانت حاصلة في الحال بل كانت متوقعة ، فجاز تعليق الخوف عليها .

(115/566)

أما قوله تعالى : ﴿ فَأَرْسِلْ إلى هارون ﴾ فليس في الظاهر ذكر من الذي يرسل إليه ، وفي الخبر أن الله تعالى أرسل موسى عليه السلام إليه ، قال السدي : إن موسى عليه السلام سار بأهله إلى مصر والتقى بهرون وهو لا يعرفه ، فقال أنا موسى ، فتعارفا وأمره أن ينطلق

معه إلى فرعون لأداء الرسالة ، فصاحت أمهما لخوفهما عليهما فذهبا إليه ، ويحتمل أن يكون المراد أرسل إليه جبريل ، لأن رسول الله إلى الأنبياء جبريل عليه السلام ، فلما كان هو متعيناً لهذا الأمر حذف ذكره لكونه معلوماً ، وأيضاً ليس في الظاهر أنه يرسل لماذا ، لكن فحوى الكلام يدل على أنه طلبه للمعونة فيما سأل ، كما يقال إذا نابتك نائبة ، فأرسل إلى فلان أي ليعينك فيها وليس في الظاهر أنه التمس كون هرون نبياً معه ، لكن قوله : ﴿ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ العالمين ﴾ يدل عليه .

أما قوله : ﴿ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ ﴾ فأراد بالذنب قتله القبطي ، وقد ذكر الله تعالى هذه القصة مشروحة في سورة القصص .

واعلم أنه ليس في التماس موسى عليه السلام ، أن يضم إليه هرون ما يدل على أنه استعفى من الذهاب إلى فرعون بل مقصوده فيما سأل أن يقع ذلك الذهاب على أقوى الوجوه في الوصول إلى المراد ، واختلفوا فقال بعضهم إنه وإن كان نبياً فهو غير عالم بأنه يبقى حتى يؤدي الرسالة لأنه إنما أمر بذلك بشرط التمكين ، وهذا قول الكعبي وغيره من البغداديين لأنهم يجوزون دخول الشرط في تكليف الله تعالى العبد ، والذي ذهب إليه الأكثرون أن ذلك لا يجوز لأنه تعالى إذا أمر فهو عالم بما يتمكن منه المأمور وبأوقات تمكنه ، فإذا علم أنه غير متمكن منه فإنه لا يأمره به ، وإذا صح ذلك فالأقرب في الأنبياء أنهم يعلمون إذا حملهم الله تعالى الرسالة أنه تعالى يمكنهم من أدائها وأنهم سيبقون إلى ذلك الوقت ، ومثل ذلك لا يكون

إغراء في الأنبياء وإن جاز أن يكون إغراء في غيرهم .

المسألة الثالثة :

(116/566)

لقائل أن يقول قول موسى عليه السلام : ﴿ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ ﴾ هل يدل على صدور الذنب منه ؟ جوابه : لا والمراد لهم عليَّ ذنب في زعمهم .

﴿ قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ (15) ﴾

اعلم أن موسى عليه السلام طلب أمرين : الأول : أن يدفع عنه شرهم والثاني : أن يرسل معه هرون فأجابه الله تعالى إلى الأول بقوله : ﴿ كَلاَّ ﴾ ومعناه ارتدع يا موسى عما تظن وأجابه إلى الثاني بقوله : ﴿ فاذهبا ﴾ أي اذهب أنت والذي طلبته وهو هرون فإن قيل علام عطف قوله : ﴿ فاذهبا ﴾ قلنا على الفعل الذي يدل عليه (كلا) كأنه قال : ارتدع يا موسى عما تظن فاذهب أنت وهرون .

وأما قوله : ﴿ إِنَّا مَعَكُمْ مُّسْتَمِعُونَ ﴾ فمن مجاز الكلام يريد أنا لكما ولعدوكما كالناصر الظهير لكما عليه إذا أحضر وأستمع ما يجري بينكما فأظهركما عليه وأعليكما وأكسر

شوكته عنكما ، وإنما جعلنا الاستماع مجازاً لأن الاستماع عبارة عن الإصغاء وذلك على الله تعالى محال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 24 صـ 105.108 ﴾

(117/566)

وقال الماوردى :

قوله ﴿ وَيَضِيقُ صَدْرِي ﴾

أي أخاف أن يضيق قلبي وفيه وجهان

: أحدهما : بتكذيبهم إياي ، قاله الكلبي .

الثاني : بالضعف عن إبلاغ الرسالة .

﴿ وَلاَ يَنْطَلِقُ لِسَانِي ﴾ فيه وجهان

: أحدهما : من مهابة فرعون ، قاله الكلبي .

الثاني : للعقدة التي كانت به .

﴿ فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ ﴾ أي ليكون معي رسولاً ، لأن هارون كان بمصر حيث بعث الله تعالى موسى نبياً .

﴿ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ ﴾ فتكون علي بمعنى عندي ، وهو قول المفضل ، وأنشد قول أبي

النجم :

قد أصبحت أم الخيار تدّعي . . . علي ذنْبا كلّه لم أصْنَعِ

والثاني : معناه ولهم عليّ عقوبة ذنب

. ﴿ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴾ قد خاف موسى أن يقتلوه بالنفس التي قتلها ، فلا يتم إبلاغ الرسالة لأنه يعلم أن الله تعالى بعثه رسولاً تكفل بعونه على تأدية رسالته . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

(118/566)

وقال ابن عطية :

﴿ وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (10) ﴾

(119/566)

التقدير واذكر ﴿ إذ نادى ربك موسى ﴾ وسوق هذه القصة تمثيل لكفار قريش لتكذيبهم محمداً صلى الله عليه وسلم ، وقوله ﴿ أن ائت ﴾ يجوز في ﴿ أن ﴾ أن تكون مفسرة لا

موضع لها من الإعراب بمنزلة أي ، ويجوز أن تكون غيرها وهي في موضع نصب بتقدير بأن ائت ، وقوله ﴿ ألا يتقون ﴾ معناه قل لهم فجمع في هذه العبارة من المعاني نفي التقوى عنهم وأمرهم بالتقوى ، وقرأ الجمهور " يتقون " بالياء من تحت ، وقرأ عبد الله بن مسلم وحماد بن سلمة وأبو قلابة " تتقون " بالتاء من فوق على معنى قل لهم ، ولعظيم نخوة فرعون وتألهه وطول مدته وما أشربت القلوب من مهابته قال عليه السلام ﴿ إني أخاف أن يكذبون ﴾ . وقرأ جمهور الناس " ويضيقُ " بالرفع و" ينطلقُ " كذلك ، وقرأ الأعرج وطلحة وعيسى ذلك بالنصب فيهما ، فقراءة الرفع هي إخبار من موسى بوقوع ضيق صدره وعدم انطلاق لسانه ، وبهذا رجح أبو علي هذه القراءة ، وقراءة النصب تقتضي أن ذلك داخل تحت خوفه وهو عطف على ﴿ يكذبون ﴾ ، وكان في خلق موسى عليه السلام حد وكان في لسانه حبسة بسبب الجمرة في طفولته ، وحكى أبو عمرو عن الأعرج أنه قرأ بنصب " ويضيقَ " وبرفع " ينطلقُ " وقد يكون عدم انطلاق اللسان بالقول لغموض المعاني التي تطلب لها ألفاظ محررة ، فإذا كان هذا في وقت ضيق صدر ولم ينطلق اللسان ، وقد قال موسى عليه السلام ﴿ واحلل عقدة من لساني ﴾ [طه : 27] فالراجح قراءة الرفع ، وقوله تعالى : ﴿ فأرسل إلى هارون ﴾ معناه يعينني ويؤازرني ، وكان هارون عليه السلام فصيحاً واسع الصدر ، فحذف بعض المراد من القول إذ باقيه دال عليه ، ثم ذكر موسى خوفه القبط من أجل ذنبه ، وهو قتله الرجل الذي وكزه ، قاله قتادة ومجاهد

والناس ، فخشي أن يستقاد منه لذلك فقال الله عز وجل له ﴿ كلا ﴾ رداً لقوله ﴿ إني أخاف ﴾ أي لا تخف ذلك فإني لم أحملك ما حملتك إلا وقد قضيت بنصرك وظهورك وأمر موسى وهارون بخطاب لموسى فقط ، لأن هارون ليس

(120/566)

بمكلم بإجماع ، ولكن قال لموسى " اذهبا " أي أنت وأخوك ، والآيات تعم جميع ما بعثهما الله به وأعظم ذلك العصا بها وقع العجز ، وبالآيتين تحدى موسى عليه السلام ، ولا خلاف في أن موسى عليه السلام هو الذي حمله الله أمر النبوة وكلها ، وأن هارون كان نبياً رسولاً معيناً له وزيراً ، وقوله ﴿ إنا معكم ﴾ إما على أن يجعل الاثنين جماعة ، وإما أن يريدهما ، والمبعوث إليهم وبني إسرائيل ، وقوله ﴿ مستمعون ﴾ على نحو التعظيم والجبروت التي لله تعالى ، وصيغة قوله ﴿ مستمعون ﴾ تعطي اهتبالاً بالأمر ليس في صيغة قوله " سامعون " ، وإلا فليس يصف الله تعالى بطلب الاستماع ، وإنما القصد إظهار التهمم ليعظم أنس موسى أو تكون الملائكة بأمر الله إياها تستمع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(121/566)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وإِذ نادى ﴾

المعنى : واتل هذه القصة على قومك .

قوله تعالى : ﴿ أن يُكَذِّبونِ ﴾ ياء ﴿ يُكَذِّبونِ ﴾ محذوفة ، ومثلها ﴿ أن يقتلون ﴾ [الشعراء : 14] ﴿ سيهدين ﴾ [الشعراء : 62] ﴿ فهو يدين ﴾ [الشعراء : 78] ﴿ ويسقين ﴾ [الشعراء : 79] ﴿ فهو يشفين ﴾ [الشعراء : 80] ﴿ ثم يحيين ﴾ [الشعراء : 81] ﴿ كذَّبون ﴾ [الشعراء : 117] ﴿ وأطيعون ﴾ [الشعراء : 108] فهذه ثمان آيات أثبتهن في الحالين يعقوب .

قوله تعالى : ﴿ ويَضيقُ صَدْري ﴾ أي بتكذيبهم إِيّاي ﴿ ولا يَنْطَلِقُ لساني ﴾ للعُقدة التي كانت بلسانه .

وقرأ يعقوب ﴿ ويَضيقَ ﴾ ﴿ ولا يَنطلقَ ﴾ بنصب القاف فيهما ، ﴿ فأَرسِلْ إِلى هارونَ ﴾ المعنى : ليُعينني ، فحُذف ، لأن في الكلام دليلاً عليه ، ﴿ ولهم عليَّ ذَنْب ﴾ وهو القتيل الذي وكزه فقضى عليه ؛ والمعنى : ولهم عليَّ دعوى ذَنْب ﴿ فأخافُ أن يقتُلون ﴾ به ﴿ قال كَلاَّ ﴾ وهو ردع وزجر عن الإِقامة على هذا الظن ؛ والمعنى : لن يقتلوك لأَنّي لا اسلِّطهم عليك ، ﴿ فاذهبا ﴾ يعني : أنت وأخوك ﴿ بآياتنا ﴾ وهي : ما

أعطاهما من المعجزة ﴿ إِنَّا ﴾ يعني نفسه عز وجل ﴿ معكم ﴾ فأجراهما مجرى الجماعة ﴿ مستمِعونَ ﴾ نسمع ما تقولان وما يجيبونكما به . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 6 صـ ﴾

(122/566)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ نادى ربُّكَ موسى ﴾

﴿ إِذْ ﴾ في موضع نصب ؛ المعنى : واتل عليهم ﴿ وَإِذْ نادى ربُّكَ موسى ﴾ ويدلّ على هذا أنّ بعده .

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ﴾ ذكره النحاس .

وقيل : المعنى ؛ واذكر إذ نادى كما صرح به في قوله : ﴿ واذكر أَخَا عَادٍ ﴾ [الأحقاف : 21] وقوله : ﴿ واذكر عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ ﴾ [ص : 45] وقوله : ﴿ واذكر فِي الكتاب مَرْيَمَ ﴾ [مريم : 16] .

وقيل : المعنى ؛ ﴿ وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى ﴾ كان كذا وكذا .

والنداء الدعاء بيا فلان ، أي قال ربك يا موسى ﴿ أَنِ ائت القوم الظالمين ﴾ ثم أخبر من

هم فقال : ﴿ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلاَ يَتَّقُونَ ﴾ ف ﴿ قومَ ﴾ بدل ؛ ومعنى ﴿ أَلاَ يَتَّقُونَ ﴾ ألا يخافون عقاب الله ؟ وقيل هذا من الإيماء إلى الشيء لأنه أمره أن يأتي القوم الظالمين ، ودلّ قوله : ﴿ يَتَّقُونَ ﴾ على أنهم لا يتقون ، وعلى أنه أمرهم بالتقوى .

وقيل : المعنى ؛ قل لهم ﴿ أَلاَ تَتَّقُونَ ﴾ وجاء بالياء لأنهم غيب وقت الخطاب ، ولو جاء بالتاء لجاز .

ومثله ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ ﴾ [آل عمران : 12] بالتاء والياء .

وقد قرأ عبيد بن عمير وأبو حازم ﴿ أَلاَ تَتَّقُونَ ﴾ بتاءين أي قل لهم ﴿ أَلاَ تَتَّقُونَ ﴾ .

﴿ قَالَ رَبِّ ﴾ أي قال موسى ﴿ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾ أي في الرسالة والنبوة .

﴿ وَيَضِيقُ صَدْرِي ﴾ لتكذيبهم إياي .

وقراءة العامة ﴿ وَيَضِيقُ ﴾ ﴿ وَلاَ يَنْطَلِقُ ﴾ بالرفع على الاستئناف .

وقرأ يعقوب وعيسى بن عمر وأبو حيوة ﴿ وَيَضِيقَ وَلاَ يَنْطَلِقَ ﴾ بالنصب فيهما ردّاً على قوله : ﴿ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾ قال الكسائي : القراءة بالرفع ؛ يعني في ﴿ يَضِيقُ صَدْرِي وَلاَ يَنْطَلِقُ لِسَانِي ﴾ يعني نسقاً على ﴿ إِنِّي أَخَافُ ﴾ .

قال الفراء : ويقرأ بالنصب .

حكي ذلك عن الأعرج وطلحة وعيسى بن عمر وكلاهما له وجه .

قال النحاس : الوجه الرفع ؛ لأن النصب عطف على ﴿ يُكَذِّبُونِ ﴾ وهذا بعيد يدلّ على ذلك قوله عز وجل : ﴿ واحلل عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴾ [طه : 27 28] فهذا يدلّ على أن هذه كذا .

ومعنى ، ﴿ وَلاَ يَنْطَلِقُ لِسَانِي ﴾ في المحاجة على ما أحب ؛ وكان في لسانه عُقْدة على ما تقدّم في "طه" .

﴿ فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ ﴾ أرسل إليه جبريل بالوحي ، واجعله رسولاً معي ليؤازرني ويظاهرني ويعاونني .

ولم يذكر هنا ليعينني ؛ لأن المعنى كان معلوماً ، وقد صرح به في سورة "طه" : ﴿ وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً ﴾ وفي القصص : ﴿ أَرْسِلْهِ مَعِيَ رِدْءاً يُصَدِّقُنِي ﴾ [القصص : 34] وكأن موسى أذن له في هذا السؤال ، ولم يكن ذلك استعفاء من الرسالة بل طلب من يعينه .

ففي هذا دليل على أن من لا يستقل بأمر ، ويخاف من نفسه تقصيراً ، أن يأخذ من يستعين به عليه ، ولا يلحقه في ذلك لوم .

﴿ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴾ الذنب هنا قتل القبطي واسمه فاثور على ما يأتي في "القصص" بيانه ، وقد مضى في "طه" ذكره .

وخاف موسى أن يقتلوه به ، ودلّ على أن الخوف قد يصحب الأنبياء والفضلاء والأولياء

مع معرفتهم بالله وأن لا فاعل إلا هو ؛ إذ قد يسلط من شاء على من شاء ﴿ قَالَ كَلاَّ ﴾ أي كلا لن يقتلوك .

فهو ردع وزجر عن هذا الظن ، وأمر بالثقة بالله تعالى ؛ أي ثق بالله وانزجر عن خوفك منهم ؛ فإنهم لا يقدرون على قتلك ، ولا يقوون عليه .

﴿ فاذهبا ﴾ أي أنت وأخوك فقد جعلته رسولاً معك .

﴿ بِآيَاتِنَآ ﴾ أي ببراهيننا وبالمعجزات .

وقيل : أي مع آياتنا .

﴿ إِنَّا مَعَكُمْ ﴾ يريد نفسه سبحانه وتعالى .

﴿ مُّسْتَمِعُونَ ﴾ أي سامعون ما يقولون وما يجاوبون .

وإنما أراد بذلك تقوية قلبيهما وأنه يعينهما ويحفظهما .

والاستماع إنما يكون بالإصغاء ، ولا يوصف الباري سبحانه بذلك .

وقد وصف سبحانه نفسه بأنه السميع البصير .

(124/566)

وقال في "طه" : ﴿ أَسْمَعُ وأرى ﴾ [طه : 46] وقال : ﴿ مَعَكُمْ ﴾ فأجراهما مجرى الجمع ؛ لأن الاثنين جماعة .

ويجوز أن يكون لهما ولمن أرسلا إليه .

ويجوز أن يكون لجميع بني إسرائيل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 13 صـ ﴾

(125/566)

وقال أبو حيان :

ولما ذكر تكذيب قريش بما جاءهم من الحق وإعراضهم عنه ، ذكر قصة موسى عليه السلام ، وما قاسى مع فرعون وقومه ، ليكون ذلك مسلاة لما كان يلقاه عليه الصلاة والسلام من كفار قريش .

إذ ، كانت قريش قد اتخذت آلهة من دون الله ، وكان قوم فرعون قد اتخذوه إلهاً ، وكان أتباع ملة موسى عليه السلام هم المجاورون من آمن بالرسول (صلى الله عليه وسلم) ، بدأ بقصة موسى ، ثم ذكر بعد ذلك ما يأتي ذكره من القصص .

والعامل في إذ ، قال الزجاج ، اتل مضمرة ، أي اتل هذه القصة فيما يتلوا إذ نادى ، ودليل ذلك ﴿ واتل عليهم نبأ إبراهيم ﴾ إذ .

وقيل : العامل اذكر ، وهو مثل واتل ، ومعنى نادى : دعا .

وقيل : أمر .

وأن : يجوز أن تكون مصدرية ، وأن تكون تفسيرية ، وسجل عليهم بالظلم ، لظلم أنفسهم بالكفر ، وظلم بني إسرائيل بالاستعباد ، وذبح الأولاد ، و ﴿ قوم فرعون ﴾ ، وقيل : بدل من ﴿ القوم الظالمين ﴾ ، والأجود أن يكون عطف بيان لأنهما عبارتان يعتقبان على مدلول واحد ، إذ كل واحد عطف البيان ، وسوغه مستقل بالإسناد .

ولما كان القوم الظالمين يوهم الاشتراك ، أتى عطف البيان بإزالته ، إذ هو أشهر .

وقرأ الجمهور : ألا يتقون ، بالياء على الغيبة .

وقرأ عبد الله بن مسلم بن يسار ، وشقيق بن سلمة ، وحماد بن سلمة ، وأبو قلابة : بتاء الخطاب ، على طريقة الالتفات إليهم إنكاراً وغضباً عليهم ، وإن لم يكونوا حاضرين ، لأنه مبلغهم ذلك ومكافحهم .

قال ابن عطية : معناه قل لهم ، فجمع في هذه العبارة من المعاني نفي التقوى عنهم وأمرهم بالتقوى .

وقال الزمخشري : فإن قلت : بم تعلق قوله : ﴿ ألا يتقون ﴾ ؟ قلت : هو كلام مستأنف اتبعه عز وجل إرساله إليهم للإنذار والتسجيل عليهم بالظلم تعجيباً لموسى عليه السلام

من حالهم التي سعت في الظلم والعسف ، ومن أمنهم العواقب وقلة خوفهم وحذرهم من أيام الله .

(126/566)

ويحتمل أن يكون ألا يتقون حالاً من الضمير في الظالمين ، أي يظلمون غير متقين الله وعقابه ، فأدخلت همزة الإنكار على الحال . انتهى .

وهذا الاحتمال الذي أورده خطأ فاحش لأنه جعله حالاً من الضمير في الظالمين ، وقد أعرب هو ﴿ قوم فرعون ﴾ عطف بيان ، فصار فيه الفصل بين العامل والمعمول بأجنبي بينهما ، لأن قوم فرعون معمول لقوله : ﴿ ائت ﴾ والذي زعم أنه حال معمول لقوله الظالمين ، وذلك لا يجوز أيضاً لو لم يفصل بينهما بقوله : قوم فرعون .

لم يجز أن تكون الجملة حالاً ، لأن ما بعد الهمزة يمتنع أن يكون معمولاً لما قبلها .

وقولك : جئت أمسرعاً ؟ على أن يكون أمسرعاً حالاً من الضمير في جئت لا يجوز ، فلو أضمرت عاملاً بعد الهمزة جاز .

وقرىء : بفتح النون وكسرها ، التقدير : أفلا يتقونني ؟ فحذفت نون الرفع لالتقاء الساكنين ، وياء المتكلم اكتفاء بالكسرة .

وقال الزمخشري : في ألا يتقون بالياء وكسر النون وجه آخر ، وهو أن يكون المعنى : ألا يا ناس اتقون ، كقوله : ﴿ ألا يسجدوا ﴾ انتهى .

يعني : وحذف ألف يا خطاً ونطقاً لالتقاء الساكنين ، وهذا تخريج بعيد .

والظاهر أن ألا للعرض المضمن الحض على التقوى ، وقول من قال إنها للتنبيه لا يصح ، وكذلك قول الزمخشري : إنها للنفي دخلت عليها همزة الإنكار .

ولما كان فرعون عظيم النخوة حتى ادعى الإلهية ، كثير المهابة ، قد أشربت القلوب الخوف منه خصوصاً من كان من بني إسرائيل ، قال موسى عليه السلام : ﴿ إني أخاف أن يكذبون ﴾ .

وقرأ الجمهور : ﴿ ويضيق ﴾ ﴿ ولا ينطلق ﴾ ، بالرفع فيهما عطفاً على أخاف .

فالمعنى : إنه يفيد ثلاث علل : خوف التكذيب ، وضيق الصدر ، وامتناع انطلاق اللسان .

وقرأ الأعرج ، وطلحة ، وعيسى ، وزيد بن عليّ ، وأبو حيوة ، وزائدة ، عن الأعمش ، ويعقوب : بالنصب فيهما عطفاً على يكذبون ، فيكون التكذيب وما بعده يتعلق بالخوف .

(127/566)

وحكى أبو عمرو الداني ، عن الأعرج : أنه قرأ بنصب : ويضيق ، ورفع : ولا ينطلق ، وعدم انطلاق اللسان هو بما يحصل من الخوف وضيق الصدر ، لأن اللسان إذ ذاك يتلجلج ولا يكاد يبين عن مقصود الإنسان .

وقال ابن عطية : وقد يكون عدم انطلاق اللسان بالقول لغموض المعاني التي تطلب لها ألفاظ محررة ، فإذا كان هذا في وقت ضيق الصدر ، لم ينطلق اللسان .

﴿ فأرسل إلى هارون ﴾ : معناه يعينني ويؤازرني ، وكان هارون عليه السلام فصيحاً واسع الصدر ، فحذف بعض المراد من القول ، إذ باقية دال عليه . انتهى .

وقال الزمخشري : ومعنى ﴿ فأرسل إلى هارون ﴾ : أرسل إليه جبريل عليه السلام ، واجعله نبياً ، وأزرني به ، واشدد به عضدي ؛ وهذا كلام مختصر ، وقد أحسن في الاختصار حيث قال : ﴿ فأرسل إلى هارون ﴾ ، فجاء بما يتضمن معنى الاستثناء .

وقوله : ﴿ إني أخاف ﴾ إلى آخره ، بعد أن أمره الله بأن يأتي القوم الظالمين ، ليس توقفاً فيما أمره الله تعالى به ، ولكنه طلب من الله أن يعضده بأخيه ، حتى يتعاونا على إنفاذ أمره تعالى ، وتبليغ رسالته ، مهد قبل طلب ذلك عذره ثم طلب .

وطلب العون دليل على القبول لا على التوقف والتعلل ، ومفعول أرسل محذوف .

فقيل جبريل ، كما تقدم ذكره ، وفي الخبر أن الله أرسل موسى إلى هارون ، وكان هارون بمصر حين بعث الله موسى نبياً بالشام .

قال السدي : سار بأهله إلى مصر ، فالتقى بهارون وهو لا يعرفه فقال : أنا موسى ، فتعارفا ؛ وأمرهما أن ينطلقا إلى فرعون لأداء الرسالة ، فصاحت أمهما لخوفها عليهما ، فذهبا إليه .

﴿ ولهم عليّ ذنب ﴾ : أي قبلي قود ذنب ، أو عقوبة ، وهو قتله القبطي الكافر خباز فرعون بالوكزة التي وكزها ، أو سمى تبعة الذنب ذنباً ، كما سمى جزاء السيئة سيئة .

(128/566)

وليس قول موسى ذلك تلكأ في أداء الرسالة ، بل قال ذلك استدفاعاً لما يتوقعه منهم من القتل ، وخاف أن يقتل قبل أداء الرسالة ، ويدل على ذلك قوله : ﴿ كلا ﴾ ، وهي كلمة الردع ، ثم وعده تعالى بالكلاءة والدفع .

وكلا رد لقوله : ﴿ إني أخاف ﴾ ، أي لا تخف ذلك ، فإني قضيت بنصرك وظهورك .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾

(129/566)

وقال أبو السعود :

﴿ وَإِذْ نادى ربُّكَ موسى ﴾

كلامٌ مستأنف مسوق لتقريرِ ما قبله من إعراضِهم عن كلِّ ما يأتيهم من الآيات التنزيليةِ وتكذيبِهم بما إثرَ بيانِ إعراضهم عمَّا يُشاهدونه من الآيات التَّكوينيَّةِ . وإذْ منصوبٌ على المفعوليةِ بمضمرٍ خُوطب به النبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أي وأذكرُ لأولئك المعرضين المكذِّبين وقت ندائه تعالى إيَّاه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ وذكِّرهم بما جَرى على قوم فرعونَ بسبب تكذيبِهم إيَّاه زجراً لهم عمَّا هم عليه من التَّكذيبِ وتحذيراً من أنْ يحيقَ بهم مثلُ ما حاق بأضرابهم المكذِّبين الظَّالمين حتَّى يتَّضحَ لك أنَّهم لا يُؤمنون بما يأتيهم من الآيات ، لكنْ لا بقياس حالِ هؤلاء بحالِ أُولئك فقط بل بمشاهدةِ إصرارهم على ما هُم عليه بعد سماع الوحي النَّاطقِ بقصَّتِهم وعدم اتِّعاظِهم بذلك كما يُلوِّحُ به تكريرُ قولِه تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾ عقيب كلِّ قصَّةٍ ، وتوجيهُ الأمر بالذِّكرِ إلى الوقت مع أن المقصودَ تذكير ما وقع فيه من الحوادث قد مرَّ سردُه مراراً ﴿ أَنِ ائت ﴾ بمعنى أي ائت على أنَّ أنْ مفسِّرة أو بأن ائت على أنَّها مصدريةٌ حُذف منها الجارُّ ﴿ القوم الظالمين ﴾ أي بالكُفر والمعاصي واستعبادِ بني إسرائيلَ وذبحِ أبنائِهم وليس هذا مطلعَ ما ورد في حيِّزِ النِّداءِ وإنَّما هو ما فُصِّل في سورةِ طه من قوله تعالى : ﴿ إِنِّى أَنَا رَبُّكَ ﴾ إلى قوله : ﴿ لِنُرِيَكَ مِنْ ءايَاتِنَا الكبرى ﴾ وإيراد ما جرى في قصَّةٍ واحدةٍ من المقالاتِ بعباراتٍ شتَّى

وأساليبَ مختلفةٍ قد مرَّ تحقيقُه في أوائل سورةِ الأعرافِ عند قوله تعالى : ﴿ قَالَ أَنظِرْنِى . ﴾

(130/566)

﴿ قَوْمِ فِرْعَونَ ﴾ بدلٌ من الأَوَّلِ ، أو عطفُ بيانٍ له جيء به للإيذانِ بأَنَّهم عَلَمٌ في الظُّلم كأنَّ معنى القومِ الظَّالمينَ وترجمتَهُ قومُ فرعونَ . والاقتصارُ على ذكرِ قومِه للإيذانِ بشهرةِ أنَّ نفسَه أَوَّلُ داخلٍ في الحُكم ﴿ أَلا يَتَّقُونَ ﴾ استئنافٌ جيء به إثرَ إرسالِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ إليهم للإنذارِ تعجيباً من غلوِّهم في الظُّلم وإفراطِهم في العُدوان . وقُرِىء بتاء الخطابِ على طريقة الالتفاتِ المنبىءِ عن زيادة الغَضَبِ عليهم كأنَّ ذكرَ ظُلمِهم أدَّى إلى مشافهتِهم بذلك وهُم وإن كانُوا حينئذٍ غُيَّباً لكنَّهم قد أُجروا مجرى الحاضرين في كلام المُرسل إليهم من حيثُ إنَّه مبلغه إليهم وإسماعُه مبتدأُ إسماعِهم مع ما فيه من مزيد الحثِّ على التقوى لمن تدبَّر وتأمَّل . وقُرِىء بكسرِ النُّونِ اكتفاءً به عن ياء المتكلِّم وقد جُوِّزَ أنْ يكونَ بمعنى ألا يا ناسُ اتقُّون نحو ألاّ يسجدُوا .

(131/566)

﴿ قَالَ ﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على سؤالٍ نشأَ من حكاية ما مَضَى كأنَّه قيل : فماذا قال مُوسى عليه السَّلامُ فقيل قال متضرِّعاً إلى الله عزَّ وجلَّ ﴿ رَبِّ إِنِّى أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾ من أوَّلِ الأمرِ ﴿ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلاَ يَنطَلِقُ لِسَانِى ﴾ معطوفانِ على أخافُ ﴿ فَأَرْسِلْ ﴾ أي جبريلَ عليه السَّلامُ ﴿ إِلَىَّ هارون ﴾ ليكونَ معي وأتعاضدُ به في تبليغِ الرِّسالة رتَّب عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ استدعاءَه ذلك على الأمورِ الثَّلاثةِ : خوفُ التَّكذيبِ وضيقُ الصَّدرِ وازديادُ ما كان فيه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ من حَبسةِ اللِّسان بانقباضِ الرُّوحِ إلى باطنِ القلبِ عند ضيقِه بحيث لا ينطقُ لأنَّها إذا اجتمعتْ تمسُّ الحاجةُ إلى معينٍ يُقوِّي قلبه وينوبُ منابَه إذا اعتراهُ حبسةٌ حتَّى لا تختلَّ دعوتُه ولا تنقطعَ حجَّتُه ، وليس هذا من التَّعلل والتَّوقف في تلقِّي الأمرِ في شيءٍ وإنَّما هو استدعاءٌ لما يُعينه على الامتثالِ به وتمهيدُ عذرٍ فيه . وقُرِئ ويضيقَ ولا ينطلقَ بالنَّصبِ عطفاً على يكذِّبون فيكونانِ من جملةِ ما يَخافُ منه .

﴿ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنبٌ ﴾ أي تبعةُ ذنبٍ فحُذف المضافُ وأقيم المضافُ إليه مقامَه أو سمِّي باسمِه . والمرادُ به قتلُ القِبْطيِّ وتسميتُه ذنباً بحسبِ زعمِهم كما ينبئُ عنه قولُه لهم وهذا إشارةٌ إلى قصَّةٍ مبسوطةٍ في غيرِ موضعٍ ﴿ فَأَخَافُ ﴾ أي إنْ أتيتهم وحدي ﴿ أَن يَقْتُلُونِ

﴿ بمقابلتِه قبل أداءِ الرِّسالةِ كما ينبغي وليس هذا أيضاً تعلُّلاً وإنما هو استدفاعٌ للبليَّةِ المتوقّعةِ قبل وقوعِها .

(132/566)

وقوله تعالى : ﴿ قَالَ كَلاَّ فاذهبا بآياتنا ﴾ حكايةٌ لإجابتِه تعالى إلى الطِّلبتينِ : الدَّفعِ المفهومِ من الرَّدعِ عن الخوفِ وضمِّ أخيهِ المفهومِ من توجيهِ الخطابِ إليهما بطريقِ التَّغليبِ فإنَّه معطوفٌ على مضميرٍ ينبىءُ عنه الرَّدعُ كأنَّه قيل : ارتدِع يا موسى عمَّا تظنُّ فاذهب أنت ومن استدعيته . وفي قوله بآياتنا رمزٌ إلى أنَّها تدفع ما يخافه . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّا مَعَكُمْ مُّسْتَمِعُونَ ﴾ تعليلٌ للرَّدعِ عن الخوفِ ومزيد تسلية لهما بضمانِ كمالِ الحفظِ والنُّصرةِ كقولِه تعالى : ﴿ إِنَّنِى مَعَكُمَا أَسْمَعُ وأرى ﴾ وحيثُ كان الموعودُ بمحضرٍ من فرعونَ اعتبر ههنا في المعيَّةِ وقيل : أجريا مجرى الجماعةِ ويأباهُ ما قبله وما بعده من ضميرِ التَّثنية أي سامعون ما يجري بينكما وبينه فنظهركما عليه ، مثَّل حالَه تعالى بحالِ ذِي شَوكةٍ قد حضَر مجادلَة قومٍ يستمعُ ما يجري بينَهم ليمدَّ أولياءَهُ ويُظهرهم على أعدائِهم مبالغةً في الوعدِ بالإعانةِ أو استعير الاستماع الذي هو بمعنى الإصغاءِ للسَّمعِ الذي هو العلمُ

بالحروفِ والأصواتِ وهو خبرٌ ثانٍ أو خبرٌ وحدهُ ومعكم ظرفُ لغوٍ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير أبى السعود حـ 6 صـ ﴾

(133/566)

وقال الآلوسى :

﴿ وَإِذْ نادى رَبُّكَ موسى ﴾

كلام مستأنف مقرر لسوء حالهم ومسل له صلى الله عليه وسلم أيضاً لكن بنوع آخر من أنواع التسلية على ما قيل : و ﴿ إِذَا ﴾ منصوب على المفعولية بمقدر خوطب به النبي صلى الله عليه وسلم معطوف على ما قبله عطف القصة على القصة ، والتقدير عند بعض واذكر في نفسك وقت ندائه تعالى أخاك موسى عليه السلام وما جرى له مع قومه من التكذيب مع ظهور الآيات وسطوع المعجزات لتعلم أن تكذيب الأمم لأنبيائهم ليس بأول قارورة كسرت ولا بأول صحيفة نشرت فيهون عليك الحال وتستريح نفسك مما أنت فيه من البلبال .

وعند شيخ الإسلام واذكر لقومك وقت ندائه تعالى موسى عليه السلام وذكرهم بما جرى على قوم فرعون بسبب تكذيبهم إياه عليه السلام زاجراً لهم عما هم عليه من التكذيب

وتحذيراً من أن يحيق بهم مثل ما حاق بهم حتى يتضح لديك أنهم في غاية العناد والإصرار لا يردعهم أخذ إضرابهم من المكذبين الأشرار ولا يؤثر فيهم الوعظ والإنذار ، وهذا التقدير يناسب صدر القصة الآتية أعني قوله تعالى : ﴿ واتل عَلَيْهِمْ نَبَأَ إبراهيم ﴾ [الشعراء : 69] والأول يناسب القصص المصدرة ب ﴿ كذبت ﴾ [الشعراء : 105] على ما قيل .

والأظهر عندي تقدير واذكر لقومك لوضوح اقتضاء ﴿ واتل عَلَيْهِمْ ﴾ [الشعراء : 69] له .

ولا نسلم اقتضاء تلك القصص المصدرة بكذبت تقدير اذكر في نفسك وأمر المناسبة مشترك وإن سلم اختصاصها به فهي لا تقاوم الاقتضاء المذكور .

نعم الأظهر أن يكون وجه التسلي بما ذكر كونه عليه الصلاة والسلام ليس بدعا من الرسل ولا قومه بدعا من الأقوام في التكذيب مع ظهور الآيات وسطوع المعجزات وقد تضمن الأمر بذكر ذلك لهم الأمر بالتسلي به على أتم وجه فتدبر .

وأياً ما كان فوجه توجيه الأمر بالذكر إلى الوقت مع أن المقصود ذكر ما فيه قد مر مراراً .

(134/566)

وقيل : إن ذلك المقدر معطوف على مقدر آخر أي خذ الآيات أو ترقب إتيان الأنباء واذكر وهو تكلف لا حاجة إليه .

وقيل : ﴿ إِذْ ﴾ ظرف لقال بعد وليس بذاك .

ومعنى نادى دعا .

وقيل : أمر ﴿ أَنِ ائت ﴾ أي بأن ائت على أن أن مصدرية حذف عنها حرف الجر أو أي ائت على أنها مفسرة .

﴿ القوم الظالمين ﴾ بالكفر والمعاصي .

واستعباد بني إسرائيل وذبح أبنائهم وليس هذا مطلع ما ورد في حيز النداء وإنما هو ما فصل في سورة طه من قوله تعالى : ﴿ إِنِّى أَنَاْ رَبُّكَ ﴾ إلى قوله سبحانه : ﴿ لِنُرِيَكَ مِنْ ءاياتنا الكبرى ﴾ وسنة القرآن الكريم إيراد ما جرى في قصة واحدة من المقالات بعبارات شتى وأساليب مختلفة لاقتضاء المقام ما يكون فيه من العبارات كما حقق في موضعه .

﴿ قَوْمِ فِرْعَونَ ﴾ عطف بيان للقوم الظالمين جيء به للإيذان بأنهم علم في الظلم كان معنى القوم الظالمين وترجمته قوم فرعون ، وقال أبو البقاء : بدل منه ؛ ورجح أبو حيان الأول بأنه أقضى لحق البلاغة لإيذانه بما سمعت ، ولعل الاقتصار على القوم للعلم بأن فرعون أولى بما ذكر وقد خص في بعض المواضع للدلالة على ذلك ، وجوز أن يقال قوم فرعون شامل شمول بني آدم آدم عليه السلام ﴿ أَلاَ يَتَّقُونَ ﴾ حال بتقدير القول أي ائتهم قائلاً لهم ألا يتقون .

وقرأ عبد الله بن مسلم بن يسار .

وشقيق بن سلمة .

وحماد بن سلمة .

وأبو قلابة بتاء الخطاب ، ويجوز في مثل ذلك الخطاب والغيبة فيقال قل لزيد تعطي عمراً كذا ويعطي عمراً كذا .

وقرىء بكسر النون مع الخطاب والغيبة والأصل يتقونني فحذفت إحدى النونين لاجتماع المثلين وحذفت ياء المتكلم اكتفاء بالكسرة .

(135/566)

وقول موسى عليه السلام ذلك بطريق النيابة عنه عز وجل نظير ما في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنّي فَإِنّي قَرِيبٌ ﴾ [البقرة : 186] فكأنه قيل : ائتهم قائلاً قولي لهم ألا تتقونني ، وقال الزمخشري هو كلام مستأنف اتبعه عز وجل إرساله إليهم للإنذار والتسجيل عليهم بالظلم تعجيباً لموسى عليه السلام من حالهم التي شنعت في الظلم والعسف ومن أمنهم العواقب وقلة خوفهم وحذرهم من أيام الله عز وجل ، وقراءة الخطاب على طريقة الالتفات إليهم وجبههم وضرب وجوههم بالإنكار والغضب عليهم ، وإجراء ذلك في تكليم

المرسل إليهم في معنى إجرائه بحضرتهم وإلقائه في مسامعهم لأنه مبلغه ومنهيه وناشره بين الناس فلا يضر كونهم غيباً حقيقة في وقت المناجاة ، وفيه مزيد حث على التقوى لمن تدبر وتأمل انتهى ، والاستئناف عليه قيل : بياني بتقدير لم هذا الأمر ؟ ، وقيل : هو نحوي إذ لا حاجة إلى هذا السؤال بعد ذكرهم بعنوان الظلم ودفع بالعناية ، ولعل ما ذكرناه أسرع تبادراً إلى الفهم .

وقال أيضاً : يحتمل أن يكون ﴿ لاَ يَتَّقُونَ ﴾ حالاً من الضمير في ﴿ الظالمين ﴾ [الشعراء : 101] أي يظلمون غير متقين الله تعالى وعقابه عز وجل فادخلت همزة الإنكار على الحال دلالة على إنكار عدم التقوى والتوبيخ عليه ليفيد إنكار الظلم من طريق الأولى فإن فائدة الإتيان بهذه الحال الإشعار بأن عدم التقوى هو الذي جرأهم على الظلم .

وتعقبه أبو حيان بأنه خطأ فاحش لأن فيه مع الفصل بين العامل والمعمول بالأجنبي لزوم أعمال ما قبل : الهمزة فيما بعدها .

(136/566)

وأجيب بمنع كون الفاصل أجنبياً وأنه يتوسع في الهمزة وهو كما ترى ، وجوز أيضاً في ﴿ أَلا يَتَّقُونَ ﴾ بالياء التحتية وكسر النون أن يكون بمعنى ألا يا ناس اتقون نحو قوله تعالى : ﴿ أَلاَّ

يَسْجُدُواْ ﴾ [النمل : 25] فتكون ﴿ إلا ﴾ كلمة واحدة للعرض ويا ندائية سقطت ألفها لالتقاء الساكنين وحذف المنادى وما بعده فعل أمر ويكون إسقاط الألفين مخالفاً للقياس ، ولا يخفى أنه تخريج بعيد وأن الظاهر أن ألا للعرض المضمن الحض على التقوى في جميع القراءات .

قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (12)

﴿ قَالَ ﴾ استئناف بياني كأنه قيل : فماذا قال موسى عليه السلام ؟ فقيل : قال متضرعاً إلى الله عز وجل .

﴿ رَبِّ إِنِّى أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾ من أول الأمر .

﴿ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلاَ يَنطَلِقُ لِسَانِى ﴾ معطوفان على خبر ﴿ إن ﴾ [الشعراء : 12] فيفيد أن فيه عليه السلام ثلاث علل .

خوف التكذيب .

وضيق الصدر .

وامتناع انطلاق اللسان والظاهر ثبوت الأمرين الأخيرين في أنفسهما غير متفرعين على التكذيب ليدخلا تحت الخوف لكن قرأ الأعرج .

وطلحة .

وعيسى .

وزيد بن علي .

وأبو حيوة .

وزائدة عن الأعمش .

(137/566)

ويعقوب بنصب الفعلي عطفاً على ﴿ يَكْذِبُونَ ﴾ [الشعراء : 12] فيفيد دخولهما تحت الخوف ولأن الأصل توافق القراءتين قيل إنهما متفرعان على ذلك كأنه قيل : رب إني أخاف تكذيبهم إياي ويضيق صدري انفعالاً منه ولا ينطلق لساني من سجن اللكنة وقيد العي بانقباض الروح الحيواني الذي تتحرك به العضلات الحاصل عند ضيق الصدر واغتمام القلب ، والمراد حدوث تلجلج اللسان له عليه السلام بسبب ذلك كما يشاهد في كثير من الفصحاء إذا اشتد غمهم وضاقت صدورهم فإن ألسنتهم تتلجلج حتى لا تكاد تبين عن مقصود ، هذا إن قلنا : إن هذا الكلام كان بعد دعائه عليه السلام بحل العقدة واستجابة الله تعالى له بإزالتها بالكلية أو المراد ازدياد ما كان فيه عليه السلام إن قلنا : إنه كان قبل الدعاء أو بعده لكن لم تزل العقدة بالكلية وإنما انحل منها ما كان يمنع من أن يفقه قوله عليه السلام فصار يفقه قوله مع بقاء يسير لكنة ، وقال بعضهم : لا حاجة إلى حديث التفرع

بل هما داخلان تحت الخوف بالعطف على ﴿ يَكْذِبُونَ ﴾ [الشعراء : 12] كما في قراءة النصب وذلك بناءً على ما جوزه البقاعي من كون ﴿ أَخَافُ ﴾ [الشعراء : 12] بمعنى أعلم أو أظن فتكون أن مخففة من الثقيلة لوقوعها بعد ما يفيد علماً أو ظناً ، ويلتزم على هذا كون ﴿ أَخَافُ ﴾ في قراءة النصب على ظاهره لئلا تأبى ذلك ويدعي اتحاد المآل ، وحكى أبو عمرو الداني عن الأعرج أنه قرأ بنصب ﴿ يَضِيقُ ﴾ ورفع ﴿ يَنطَلِقُ ﴾ ، والكلام في ذلك يعلم مما ذكر ، وأياً ما كان فالمراد من ضيق الصدر ضيق القلب وعبر عنه بما ذكر مبالغة ويراد منه الغم ، ثم هذا الكلام منه عليه السلام ليس تشبثاً بأذيال العلل والاستعفاء عن امتثال أمره عز وجل وتلقيه بالسمع والطاعة بل هو تمهيد عذر في استدعاء عون له على الامتثال وإقامة الدعوة على أتم وجه فإن ما ذكره ربما يوجب اختلال الدعوة وانتباذ الحجة وقد تضمن هذا الاستدعاء قوله تعالى : ﴿

(138/566)

فَأَرْسِلْ إلى هارون ﴾ كأنه قال أرسل جبريل عليه السلام إلى هارون واجعله نبياً وآزرني به واشدد به عضدي لأن في الإرسال إليه عليه السلام حصول هذه الأغراض كلها لكن بسط في سورة القصص واكتفى ههنا بالأصل عما في ضمنه .

ومن الدليل على أن المعنى على ذلك لا أنه تعلل وقوع ﴿ فَأَرْسِلْ ﴾ معترضاً بين الأوائل والرابعة أعني

﴿ وَلَهُمْ ﴾ [الشعراء : 14] الخ فاذن بتعلقه بها ولو كان تعللاً لآخر وليس أمره بالإتيان مستلزماً لما استدعاه عليه السلام ، وتقدير مفعول ﴿ أُرْسِلَ ﴾ ما أشرنا إليه قد ذهب إليه غير واحد ، وبعضهم قدر ملكاً إذ لا جزم في أنه عليه السلام كان يعلم إذ ذاك أن جبريل عليه السلام رسول الله عز وجل إلى من يستنبئه سبحانه من البشر ، وفي الخبر أن الله تعالى أرسل موسى إلى هارون وكان هارون بمصر حين بعث الله تعالى موسى نبياً بالشام ، وأخرج ابن أبي حاتم .

عن السدي قال : أقبل موسى عليه السلام إلى أهله فسار بهم نحو مصر حتى أتاها ليلاً فتضيف على أمه وهو لا يعرفهم في ليلة كانوا يأكلون الطفيشل فنزلت في جانب الدار فجاء هارون عليه السلام فلما أبصر ضيفه سأل عنه أمه فأخبرته أنه ضيف فدعاه فأكل معه فلما قعدا تحدثا فسأله هارون من أنت ؟ قال : أنا موسى فقام كل واحد منهما إلى صاحبه فاعتنقه فلما أن تعارفا قال له موسى .

يا هارون انطلق معي إلى فرعون فإن الله تعالى قد أرسلنا إليه قال هارون : سمعاً وطاعة فقامت أمهم فصاحت وقالت : أنشدكما بالله تعالى أن لا تذهبا إلى فرعون فيقتلكما فأبيا فانطلقا إليه ليلاً الخبر والله تعالى أعلم بصحته .

﴿ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ ﴾ أي تبعة ذنب فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه أو سمي باسمه مجازاً بعلاقة السببية ، والمراد به قتل القبطي خباز فرعون بالوكزة التي وكزها وقصته مبسوطة في غير موضع ، وتسميته ذنباً بحسب زعمهم بما ينبىء عنه قوله تعالى لهم : ﴿ فَأَخَافُ ﴾ إن آتيتهم وحدي ﴿ أَن يَقْتُلُونِ ﴾ بسبب ذلك ، ومراده عليه السلام بهذا استدفاع البلية خوف فوات مصلحة الرسالة وانتشار أمرها كما هو اللائق بمقام أولى العزم من الرسل عليهم السلام فإنهم يتوقون لذلك كما كان يفعل صلى الله عليه وسلم حتى نزل عليه ﴿ والله يَعْصِمُكَ مِنَ الناس ﴾ (المائدة 67) ، ولعل الحق أن قصد حفظ النفس معه لا ينافي مقامهم .

وفي "الكشاف" أنه عليه السلام فرق أن يقتل قبل أداء الرسالة ، وظاهره أنه وإن كان نبياً غير عالم بأنه يبقى حتى يؤدي الرسالة وإليه ذهب بعضهم لاحتمال أنه إنما أمر بذلك بشرط التمكين مع أن له تعالى نسخ ذلك قبله .

وقال الطيبي : الأقرب أن الأنبياء عليهم السلام يعلمون إذا حملهم الله تعالى على أداء الرسالة أنه سبحانه يمكنهم وأنهم سيبقون إلى ذلك الوقت وفيه منع ظاهر ، وفي

"الكشف" أنه على القولين يصح قول الزمخشري فرق الخ لأن ذلك كان قبل الاستنباء فإن النداء كان مقدمته ولا أظنك تقول به

(140/566)

﴿ قَالَ كَلاَّ فاذهبا بآياتنا ﴾ إجابة له عليه السلام إلى الطلبتين حيث وعده عز وجل دفع بلية الأعداء بردعه عن الخوف وضم إليه أخاه بقوله : ﴿ اذهبا ﴾ فكأنه قال له عز وجل : ارتدع عن خوف القتل فإنك بأعيننا فاذهب أنت وأخوك هارون الذي طلبته ، وجاء النشر على عكس اللف لاختصاص ما قدم بموسى عليه السلام وظاهر السياق يقتضي عدم حضور هارون ففي الخطاب المذكور تغليب والفعل معطوف على الفعل الذي يدل عليه ﴿ كَلاَّ ﴾ كما أشرنا إليه ، وقيل : الفاء فصيحة ، والمراد بالآيات ما بعثهما الله تعالى به من المعجزات وفيها رمز إلى أنها تدفع ما يخافه ، وقوله عز وجل : ﴿ إِنَّا مَعَكُمْ مُّسْتَمِعُونَ ﴾ تعليل للردع عن الخوف ومزيد تسلية لهما بضمان كمال الحفظ والنصرة كقوله تعالى : ﴿ إِنَّنِى مَعَكُمَا أَسْمَعُ وأرى ﴾ [طه : 46] والخطاب لموسى وهارون ومن يتبعهما من بني إسرائيل فيتضمن الكلام البشارة بالإشارة إلى علو أمرهما واتباع القوم لهما ، وذهب سيبويه إلى أنه لهما عليهما السلام ولشرفهما وعظمتهما عند الله تعالى عوملا في

الخطاب معاملة الجمع ، واعترض بأنه يأباه ما بعده وما قبله من ضمير التثنية ، وقيل : هو لهما عليهما السلام ولفرعون واعتبر لكون الموعود بمحضر منه وإن شئت ضم إلى ذلك قوم فرعون أيضاً ، واعترض بأن المعية العامة أعني المعية العلمية لا تختص بأحد لقوله تعالى : ﴿ وَلَا أَدْنَى مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ ﴾ [المجادلة : 7] والمعية الخاصة وهي معية الرأفة والنصرة لا تليق بالكافر ولو بطريق التغليب ، وأجيب بأن خصوص المعية لا يلزم أن يكون بما ذكر بل بوجه آخر وهو تخليص أحد المتخاصمين من الآخر بنصرة المحق والانتقام من المبطل ، وأياً ما كان فالظرف في موضع الخبر لأن و ﴿ مُّسْتَمِعُونَ ﴾ خبر ثان أو الخبر ﴿ مُّسْتَمِعُونَ ﴾ والظرف متعلق به أو متعلق بمحذوف وقع حالاً من ضميره وتقديمه للاهتمام أو الفاصلة

(141/566)

أو الاختصاص بناءً على أن يراد بالمعية الاستماع في حقه عز وجل وهو مجاز عن السمع اختير للمبالغة لأن فيه تسلماً للإدراك وهو مما ينزه الله تعالى عنه سواء كان بحاسة أم لا فسقط ما قيل من أن السمع في الحقيقة إدراك بحاسة فإن أريد به مطلق الإدراك فالاستماع مثله فلا حاجة إلى التجوز فيه ، وإلى التجوز هنا ذهب غير واحد ، وقال بعضهم : ﴿ إِنَّا

مَعَكُمْ مُّسْتَمِعُونَ ﴾ جملة استعارة تمثيلية مثل سبحانه حاله عز وجل بحال ذي شوكة قد حضر مجادلة قوم يستمع ما يجري بينهم ليمد أولياءه ويظهرهم على أعدائهم مبالغة في الوعد بالإعانة وحينئذٍ لا تجوز في شيء من مفرداته ولا يكون ﴿ مُّسْتَمِعُونَ ﴾ مطلقاً عليه تعالى فلا يحتاج إلى جعله بمعنى سامعين إلا أن يقال : إنه في المستعار منه كذلك لأن المقصود السمع دون الاستماع الذي قد لا يوصل إليه لكنه كما ترى .

وجوز أن يكون ﴿ إِنَّا مَعَكُمْ ﴾ فقط تمثيلاً لحاله عز وجل في نصره وإمداده بحال من ذكر ويكون الاستماع مجازاً عن السمع وهو بحسب ظاهره لكونه لم يطلق عليه سبحانه كالسمع كالقرينة وإن كان مجازاً والقرينة في الحقيقة عقلية وهي استحالة حضوره تعالى شأنه في مكان ، ولا بد على هذا من أن يقال : إن الاستماع المذكور في تقرير التمثيل ليس هو الواقع في "النظم الكريم" بل هو من لوازم حضور الحكم للخصومة وفيه بعد .

ثم إن ما ذكروه وإن كان مبنياً على جعل الخطاب لموسى وهارون وفرعون يمكن إجراؤه على جعله لهما عليهما السلام ولمن يتبعهما أولهما فقط أيضاً بأدنى عناية فافهم ولا تغفل .

وزعم بعضهم إن المعية والاستماع على حقيقتهما ولا تمثيل ، والمراد أن ملائكتنا معكم مستمعون وهو مما لا ينبغي أن يستمع ، ولا بد في الكلام على هذا التقدير من إرادة الإعانة والنصرة وإلا فبمجرد معية الملائكة عليهم السلام واستماعهم لا يطيب قلب موسى عليه السلام . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعاني حـ 19 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (10) ﴾

شروع في عدّ آيات على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم بذكر عواقب المكذبين برسلهم ليحذر المخاطَبون بالدعوة إلى الإسلام من أن يصيبهم ما أصاب المكذبين .

وفي ضمن ذلك تبيين لبعض ما نادى به الرسل من البراهين .

وإذ قد كانت هذه الأدلة من المثلات قصد ذكر كثير اشتهر منها ولم يُقتصر على حادثة واحدة لأن الدلالة غير العقلية يتطرقها احتمال عدم الملازمة بأن يكون ما أصاب قوماً من أولئك على وجه الصدفة والاتفاق فإذا تبين تكرر أمثالها ضعُف احتمال الاتفاقية ، لأن قياس التمثيل لا يفيد القطع إلا بانضمام مقومات له من تواتر وتكرر .

وإنما ابتدىء بذكر قصة موسى ثم قصة إبراهيم على خلاف ترتيب حكاية القصص الغالب في القرآن من جعلها على ترتيب سبقها في الزمان ، لعلَّهُ لأن السورة نزلت للرد على المشركين في إلحاحهم على إظهار آيات من خوارق العادات في الكائنات زاعمين أنهم لا يؤمنون إلا إذا جاءتهم آية ؛ فضرب لهم المثل بمكابرة فرعون وقومه في آيات موسى إذ قالوا :

﴿ إنّ هذا لساحر مبين ﴾ [يونس : 2] وعُطف ﴿ وإذا نادى ربك موسى ﴾ عطفَ جملةٍ على جملة : ﴿ أوَلَمْ يَرَوْا إلى الأرض ﴾ [الشعراء : 7] بتمامها .

ويكون ﴿ إذ ﴾ اسم زمان منصوباً بفعل محذوف تقديره : واذْكر إذ نادى ربّك موسى على طريقة قوله في القصة التي بعدها ﴿ واتل عليهم نبأ إبراهيم ﴾ [الشعراء : 69] .

وفي هذا المقدّر تذكير للرسول عليه الصلاة والسلام بما يسلّيه عما يلقاه من قومه .

ونداء الله موسى الوحيُ إليه بكلام سمعه من غير واسطة ملَك .

جملة : ﴿ أن ائت القوم الظالمين ﴾ تفسير لجملة : ﴿ نادى ﴾ ، و ﴿ أَنْ ﴾ تفسيرية .

(143/566)

والمقصود من سَوق هذه القصة هو الموعظة بعاقبة المكذبين وذلك عند قوله تعالى : ﴿ فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر إلى قوله : ﴿ وإن ربّك لهو العزيز الرحيم ﴾ [الشعراء : 63 68] .

وأما ما تقدم ذلك من قوله : ﴿ وإذ نادى ربك موسى ﴾ إلخ فهو تفصيل لأسباب الموعظة بذكر دعوة موسى إلى ما أُمر بإبلاغه وإعراضِ فرعون وقومِه وما عقبَ ذلك إلى الخاتمة .

واستحضار قوم فرعون بوصفهم بالقوم الظالمين إيماء إلى علة الإرسال .

وفي هذا الإجمال توجيه نفس موسى لترقب تعيين هؤلاء القوم بما يبينه ، وإثارةٌ لغضب موسى عليهم حتى ينضمّ داعي غضبه عليهم إلى داعي امتثال أمر الله الباعِثِه إليهم ، وذلك أوقع لكلامه في نفوسهم .

وفيه إيماء إلى أنهم اشتهروا بالظلم .

ثم عقب ذلك بذكر وصفهم الذاتي بطريقة البيانِ من القوم الظالمين وهو قوله : ﴿ قوم فرعون ﴾ ، وفي تكرير كلمة ﴿ قوم ﴾ موقع من التأكيد فلم يقل : ائت قوم فرعون الظالمين ، كقول جرير :

يا تيم تيمَ عدي لا أبا لكم . . .
لا يُلْفينّكُمُ في سَوْأة عُمَرُ

والظلم يعم أنواعه ، فمنها ظلمهم أنفسهم بعبادة ما لا يستحق العبادة ، ومنها ظلمهم الناسَ حقوقهم إذ استعبدوا بني إسرائيل واضطهدوهم ، وتقدم استعماله في المعنيين مراراً في ضد العدل

﴿ ومن أظلم مِمّن مَّنَع مساجدَ اللَّه ﴾ في البقرة (114) ، وبمعنى الشرك في قوله : ﴿ الذين آمنوا ولم يلبِسوا إيمانهم بظلم ﴾ في الأنعام (82) .

واعلم أنه قد عدل هنا عن ذكر ما ابتدىء به نداء موسى مما هو في سورة طه (12 23)

بقوله : ﴿ إني أنا ربّك فاخلَع نعليك ﴾ إلى قوله : لنُريَكَ من آياتنا الكبرى لأن المقام هنا يقتضي الاقتصار على ما هو شرح دعوة قوم فرعون وإعراضهم للاتّعَاظ بعاقبتهم .

(144/566)

وأما مقام ما في سورة طه فلبيان كرامة موسى عند ربّه ورسالته معاً فكان مقام إطناب مع ما في ذلك من اختلاف الأسلوب في حكاية القصة الواحدة كما تقدم في المقدمة السابعة من مقدمات هذا التفسير .

والإتيان المأمور به هو ذهابه لتبليغ الرسالة إليهم .

وهذا إيجاز يبيّنه قوله : ﴿ فأتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين ﴾ [الشعراء : 16] إلى آخره .

وجملة : ﴿ ألا يتقون ﴾ مستأنفة استئنافاً بيانياً لأنه لمّا أمره بالإتيان إليهم لدعوتهم ووصَفَهَم بالظالمين كان الكلام مثيراً لسؤالٍ في نفس موسى عن مَدى ظلمهم فجيء بما يدل على توغّلهم في الظلم ودوامهم عليه تقوية للباعثِ لموسى على بلوغ الغاية في الدعوة وتهيئة لتلقِّيه تكذيبَهم بدون مفاجأة ، فيكون ﴿ ألا ﴾ من قوله : ﴿ ألا يتقون ﴾ مركباً من حرفين همزة الاستفهام و (لا) النافية .

والاستفهام لإنكار انتفاء تقواهم ، وتعجيب موسى من ذلك ، فإن موسى كان مطّلعاً على أحوالهم إذ كان قد نشأ فيهم وقد عَلم مظالمهم وأعظمها الإشراك وقتل أُنبياء بني إسرائيل . . .

.

ويجوز أن يكون ﴿ ألا ﴾ كلمةً واحدة هي أداة العرض والتحضيض فتكون جملة : ﴿ ألا يتقون ﴾ بياناً لجملة ﴿ ائت ﴾ .

والمعنى : قل لهم : ألا تتقون .

فحكى مقالته بمعناها لا بلفظها .

وذلك واسع في حكاية القول كما في قوله تعالى : ﴿ ما قلتُ لهم إلاَّ ما أمرتني به أن اعبُدُوا الله ربّي وربّكم ﴾ [المائدة : 117] فإن جملة : ﴿ أن اعبُدوا الله ﴾ مفسرة لجملة ﴿ أمرتني ﴾ .

وإنما أمره الله أن يعبدوا الله ربّ موسى وربهم ، فحكى ما أمره الله به بالمعنى .

وهذا العرض نظير قوله في سورة النازعات (18) ﴿ فقل هل لك إلى أن تزكّى ﴾

والاتّقاء : الخوف والحذر ، وحذف متعلق فعل يتقون ﴾ لظهور أن المراد : ألا يتقون عواقب ظلمهم .

وتقدم في قوله تعالى : ﴿ الذين عاهدتَ منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون ﴾ في سورة الأنفال (56) .

(145/566)

ويَعلم موسى من إجراء وصف الظلم وعدم التقوى على قوم فرعون في معرض أمره بالذهاب إليهم أن من أول ما يبدأ به دعوتَهم أن يدعوهم إلى ترك الظلم وإلى التقوى .

وذكر موسى تقدم عند قوله تعالى : ﴿ وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة ﴾ في سورة البقرة (51) .

وتقدمت ترجمة فرعون عند قوله تعالى : ﴿ إلى فرعون وملائه ﴾ في الأعراف (103) .

قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (12)

افتتاح مراجعته بنداء الله بوصف الربّ مضافاً إليه تحنين واستسلام .

وإنما خاف أن يكذبوه لعلمه بأن مثل هذه الرسالة لا يتلقاها المرسَل إليهم إلا بالتكذيب ، وجَعَل نفسه خائفاً من التكذيب لأنه لما خلعت عليه الرسالة عن الله وقَر في صدره الحرص على نجاح رسالته فكان تكذيبه فيها مخوفاً منه .

و﴿ يضيق صدري ﴾ قرأه الجمهور بالرفع فهو عطف على ﴿ أخاف ﴾ أو تكون الواو للحال فتكون حالاً مقدرة ، أي والحال يضيق ساعتئذ صدري من عدم اهتدائهم .

والضَيق : ضد السعة ، وهو هنا مستعار للغضب والكمد لأن من يعتريه ذلك يحصل له انفعال وينشأ عنه انضغاط الأعصاب في الصدر والقلب من تأثير الإدراك الخاص على جمع الأعصاب الكائن بالدماغ الذي هو المُدرك فيحس بشبه امتلاء في الصدر .

وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ يجعلُ صدرَه ضيّقاً حرجاً ﴾ [الأنعام : 125] وقوله : ﴿ وضائق به صدرُك ﴾ في سورة هود (12) .

والمعنى : أنه يأسف ويكمد لتكذيبهم إياه ويجيش في نفسه روم إقناعهم بصدقه ، وتلك الخواطر إذا خطرت في العقل نشأ منها إعداد البراهين ، وفي ذلك الإعداد تكلّف وتعب للفكر فإذا أبانها أحس بارتياح وبشبه السعة في الصدر فسمى ذلك شرحاً للصدر ، ولذلك سأله موسى في الآية الأخرى قال : ﴿ ربّ اشرح لي صدري ﴾ [طه : 25] .

والانطلاق حقيقته مطاوع أطلقه إذا أرسله ولم يحبسه فهو حقيقة في الذهاب .

واستعير هنا لفصاحة اللسان وبيانه في الكلام ، أي ينحبس لساني فلا يبين عند إرادة المحاجة والاستدلالِ وعطفه على ﴿ يضيق صدري ينبىء بأنه أراد بضيق الصدر تكاثر خواطر الاستدلال ، في نفسه على الذين كذبوه ليقنعهم بصدقه حتى يحسّ كأن صدره قد امتلأ ، والشأن أن ذلك ينقُص شيئاً بعد شيء بمقدار ما يفصح عنه صاحبه من إبلاغه إلى السامعين ، فإذا كانت في لسانه حبسة وعِيٌّ بقيت الخواطر متلجلجة في صدره .

والمعنى : ويضيق صدري حين يكذبونني ولا ينطلق لساني .

وقرأ الجمهور : يضيقُ . . .

ولا ينطلقُ ﴾ مرفوعين عطفاً على ﴿ أخاف ﴾ ولذلك حقّقه بحرف التأكيد لأنه أيقن بحصول ذلك لأنه جبلي عند تلقي التكذيب ، ولأن أمانة الرسالة والحرص على تنفيذ مراد الله يحدث ذلك في نفسه لا محالة ، وإذ قد كان انحباس لسانه يقيناً عنده لأنه كان كذلك من أجل ذلك التيقن كان فعلا ﴿ يضيق . . .

ولا ينطلق ﴾ معطوفين على ما هو محقق عنده وهو حصول الخوف من التكذيب ، ولم يكونا معطوفين على ﴿ يكذبون ﴾ المخوف منه المتوقع على أن كونه محقق الحصول يجعله أحرى من المتوقع .

وقرأ يعقوب ﴿ ويضيقَ . . .

ولا ينطلقَ ﴾ بنصب الفعلين عطفاً على ﴿ يكذبون ﴾ ، أي يتوقع أن يضيقَ صدره ولا

ينطلقَ لسانُه .

قيل كانت بموسى حُبسة في لسانه إذا تكلم .

وقد تقدم في سورة طَه وسيجيء في سورة الزخرف .

وليس القصد من هذا الكلام التنصل من الاضطلاع بهذا التكليف العظيم ولكن القصد تمهيد ما فرعه عليه من طلب تشريك أخيه هارون معه لأنه أقدر منه على الاستدلال والخطابة كما قال في الآية الأخرى ﴿ وأخي هارون هو أفصح مني لساناً فأرسله معي ﴾ [القصص : 34] .

فقوله هنا ﴿ فأرسل إلى هارون ﴾ مُجمل يبيّنه ما في الآية الأخرى فيعلم أن في الكلام هنا إيجازاً .

وأنه ليس المراد : فأرسل إلى هارون عِوَضاً عني .

وإنما سأل الله الإرسالَ إلى هارون ولم يسأله أن يكلّم هارون كما كلّمه هو لأن هارون كان بعيداً عن مكان المناجاة .

(147/566)

والمعنى : فأرسل مَلَكاً بالوحي إلى هارون أن يكون معي .

وقوله : ﴿ ولهم عليَّ ذنب فأخاف أن يقتلون ﴾ تعريض بسؤال النصر والتأييد وأن يكفيه شرّ عدوّه حتى يؤدي ما عهد الله إليه على أكمل وجه .

وهذا كقول النبي صلى الله عليه وسلم يوم بدر : " اللهم إني أسألك نصرك ووعدَك اللهم إن شئت لم تعبد في الأرض "

والذنب : الجُرم ومخالفة الواجب في قوانينهم .

وأطلق الذنب على المؤاخذة فإن الذي لهم عليه هو حقّ المطالبة بدم القتيل الذي وكزه موسى فقضَى عليه ، وتوعده القبط إن ظفروا به ليقتلوه فخرج من مصر خائفاً ، وكان ذلك سببَ توجهه إلى بلاد مَدْيَن .

وسمّاه ذنْباً بحسب ما في شرع القبط ، فإنه لم يكن يومئذ شرع إلهي في أحكام قتل النفس .

ويصح أن يكون سمّاه ذنباً لأن قتل أحد في غير قصاص ولا دفاع عن نفس المُدافع يعتبر جرماً في قوانين جماعات البشر من عهد قتل أحد ابني آدم أخاه ، وقد قال في سورة القصص (15 ، 16) ﴿ قال هذا من عمل الشيطان إنه عَدوّ مُضِلّ مبين قال ربّ إنّي ظلمتُ نفسي فاغفر لي ﴾ وأيًّا مَا كان فهو جعله ذنباً لهم عليه .

وقوله : فأخاف أن يقتلون ﴾ ليس هَلَعاً وفرقاً من الموت فإنه لما أصبح في مقام الرسالة ما كان بالذي يبالي أن يموت في سبيل الله ؛ ولكنه خشي العائق من إتمام ما عُهد إليه مما فيه له

ثواب جزيل ودرجة عليا .

وحذفت ياء المتكلم من ﴿ يقتلون ﴾ للرعاية على الفاصلة كما تقدم في قوله تعالى : ﴿ وإيايَ فارهبون ﴾ في سورة البقرة (40) .

وذكر هارون تقدم عند قوله تعالى : ﴿ وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون ﴾ في سورة البقرة (248) .

قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ (15)

﴿ كلاَّ ﴾ حرف إبطال .

وتقدم في قوله تعالى : ﴿ كلا سنكتب ما يقول ﴾ في سورة [مريم : 79] .

والإبطال لقوله : ﴿ فأخاف أن يقتلون ﴾ [الشعراء : 14] ، أي لا يقتلونك .

(148/566)

وفي هذا الإبطال استجابة لما تضمنه التعريض بالدعاء حين قال : ﴿ ولَهم عليَّ ذنب فأخاف أن يقتلون ﴾ [الشعراء : 14] .

وقوله : ﴿ فاذهبا بآياتنا ﴾ تفريع على مُفاد كلمة ﴿ كلاّ ﴾ .

والأمر لموسى أن يذهبَ هو وهارُون يقتضي أن موسى مأمور بإبلاغ هارون ذلك فكان

موسَى رسولاً إلى هارون بالنبوءة .

ولذلك جاء في التوراة أن موسى أبلغَ أخاه هارون ذلك عندما تلقّاه في حوريب إذ أوحى الله إلى هارون أن يتلقاه ، والباء للمصاحبة ، أي مصاحبَيْن لآياتنا ، وهو وعد بالتأييد بمعجزات تظهر عند الحاجة .

ومن الآيات : العصا التي انقلبت حية عند المناجاة ، وكذلك بياض يده كما في آية سورة [طه : 17] ﴿ وما تلك بيمينك يا موسى ﴾ الآيات .

وجملة : ﴿ إنا معكم مستمعون ﴾ مستأنفة استئنافاً بيانياً لأن أمرهما بالذهاب إلى فرعون يثير في النفس أن يتعامى فرعون عن الآيات ولا يَرعوي عند رؤيتها عن إلحاق أذى بهما فأجيب بأن الله معهما ومستمع لكلامهما وما يجيب فرعونُ به .

وهذا كناية عن عدم إهمال تأييدهما وكفِّ فرعون عن أذاهما .

فضمير ﴿ معكم ﴾ عائد إلى موسى وهارون وقوم فرعون .

والمعية معية علم كالتي في قوله تعالى : ﴿ إلاّ هو معهم أين ما كانوا ﴾ [المجادلة : 7] .

و ﴿ مستمعون ﴾ أشدّ مبالغة من (سامعون) لأن أصل الاستماع أنه تكلف السماع والتكلف كناية عن الاعتناء ، فأريد هنا علم خاص بما يجري بينها وبين فرعون وملئه وهو العلم الذي توافقه العناية واللطف .

والجمع بين قوله : ﴿ بآياتنا ﴾ وقوله : ﴿ إنا معكم مستمعون ﴾ تأكيد للطمأنة ورباطة لجأشهما . انتهى انتهى . ا هـ ﴿التحرير والتنوير حـ 19 صـ ﴾

(149/566)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (10) ﴾

الحق تبارك وتعالى يقصُّ على رسوله قصص الأنبياء ، وهو أحسن القصص لحكمة : ﴿ وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرسل مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ [هود : 120] .

لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم مرَّ بمعارك كثيرة مع الكفر ، فكان يحتاج إلى تثبيت مستمر كلما تعرض لشدة ؛ لذلك تكرر القصص القرآني لرسول الله على مدى عمر الدعوة ، والقصص القرآني لا يراد به التأريخ لحياة الرسل السابقين ، إنما إعطاء النبي محمد صلى الله عليه وسلم عِبرةً وعظة بمَنْ سبقه من إخوانه الرسل ؛ لذلك كانت القصة تأتي في عدة مواضع ، وفي كل موضع لقطة معينة تناسب الحدث الذي نزلت فيه .

وهنا يقول سبحانه : ﴿ وَإِذْ نادى رَبُّكَ موسى ﴾ [الشعراء : 10] يعني : اذكر يا محمد ، إذ نادى ربك موسى أي : دعاه . لكن لماذا بدأ بقصة موسى عليه السلام بالذات ؟

قالوا : لأن كفار مكة كفروا بك أنت ، فلا تحزن ؛ لأن غيرهم كان أفظع منهم ، حيث ادعى الألوهية ، وقال : ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾ [القصص : 38] .

والسياق هنا لم يذكر : أين ناداه ربه ، ولا متى ناداه ، وبدأ الحوار معه مباشرة ، لكن في مواضع أخرى جاء تفصيل هذا كله .

ثم يأتي الأمر المباشر من الله تعالى لنبيه موسى : ﴿ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [الشعراء : 10] أي : الذين ظلموا أنفسهم ، بأنْ جعلوا لله تعالى شريكاً ، والشرك قِمَّة الظلم ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان : 13] .

(150/566)

ولم يُبيِّن القرآن مَنْ هم هؤلاء الظالمون ؛ لأنهم معروفون مشهورون ، فهم في مجال الشرك أغنياء عن التعريف ، بحيث إذا قلنا ﴿ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [الشعراء : 10] انصرف الذِّهْن إليهم ، إلى فرعون وقومه ؛ لأنه الوحيد الذي تجرّأ على ادعاء الألوهية ، وبعد أنْ ذكرهم بالوصف يُعيِّنهم : ﴿ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ ﴾

أي : قُلْ لهم يا موسى ألا تتقون ربكم ؟ واعرض عليهم هذا العرض ؛ لأن الطلب يأتي مرة بالأمر الصريح : افعل كذا ، ومرة يتحنّن إليك بأسلوب العرض ، ألا تفعل كذا ؟ على سبيل

الاستفهام والعرض والحضّ .

والمعنى : ألا يتقون الله في ظلمهم لأنفسهم باتخاذهم مع الله شريكاً ولا إله غيره ، وظلموا بني إسرائيل في أنهم يُذبِّحونَ أبناءهم ويستحيُون نساءهم .

لكن ، لماذا تكلم عن قوم فرعون أولاً ، ولم يعرض عليه هو أولاً ، وهو رأس الفساد في القوم ؟ ويجيب على هذا السؤال المثل القائل (يا فرعون ماذا فرعنك ؟ قال : لأنني لم أجد أحداً يردني) فلو وقف له قومه وردَعوه لارتدع ، لكنهم تركوه ، بل ساروا في ركْبه إلى أنْ صار طاغية ، وأعانوه حتى أصبح طاغوتاً .

فقال موسى : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ ﴾

لما دعا الحق تبارك وتعالى ، نبيه موسى عليه السلام لأنْ يذهب إلى قوم فرعون لم يبادر بالذهاب ، إنما أبدى لربه هواجس نفسه وخلجاتها ؛ لأنه يعلم مُقدَّماً مشقة هذه المهمة ، فقد عاش مع فرعون ويعلم طبيعته ، فقال : ﴿ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾ [الشعراء : 12] وكيف لمن يدّعي الألوهية أنْ يسمع لرسول ؟

ويُرْوَى أنه في عهد الخليفة المأمون ادَّعَى أحدهم النبوة ، فحبسوه ، ثم ادعاها آخر فقال : اجمعوا بينهما حتى يواجه أحدهما الآخر ، فلما حضرا قالوا : يا هذا إن هذا الرجل يدَّعي النبوة ، فقال : كذب ، أنا لم أُرسِل أحداً . وهكذا جعل من نفسه إلهاً بعد أن كان نبياً .

ويواصل موسى الحديث عن مخاوفه : ﴿ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلاَ يَنطَلِقُ لِسَانِي ﴾ يضيق صدري ساعة يكذّبونني ، وضيق الصدر ينتج عنه أن أتلجلج وأتعصب ، فلا أستطيع أن أتكلم الكلام المُقْنِع ؛ ذلك لأنني سأشاهد باطلاً واضحاً يُجابه حقاً واضحاً ، ولا بُدَّ أنْ يضيق صدري بذلك ، خاصة وأن موسى عليه السلام سابقه في مسألة الكلام . لذلك قال : ﴿ فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ ﴾ [الشعراء : 13] وفي آية أخرى : ﴿ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَاناً فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءاً يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾ [القصص : 34] .

يعني : مساعداً لي يتكلم بدلاً عني ، إنْ عجز لساني عن الكلام ، وهذا يدل على حرصه عليه السلام على تبليغ دعوة ربه إلى فرعون وقومه .

وعليه ، فقد كان موسى وهارون كلاهما رسول ، إلا أن القرآن قال مرة عنهما : ﴿ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الشعراء : 16] بصيغة المفرد ، وقال مرة أخرى : ﴿ إِنَّا رَسُولاَ رَبِّكَ ﴾ [طه : 47] بصغية المثنى .

الرسول : هو المرسَل من شخص لآخر ، سواء كان واحداً أو مُثَنى أو جمعاً .

ومعلوم أن الإنسان يحتاج لاستبقاء حياته طعاماً وشراباً ، وقبل ذلك وأهمَ منه يحتاج لاستبقاء نفسه ، أَلاَ تراه يصبر على الطعام ، ويصبر على الشراب ، لكنه لا يصبر بحال على

الهواء ، فإنْ حُبِس عنه شهيق أو زفير فارق الحياة ؟

وسبق أن قلنا : إن من رحمة الله تعالى بنا أنْ يُملِّك الطعام كثيراً ، وقليلاً ما يُملِّك الماء ، لكن الهواء لا يُملِّكه الله لأحد ، لماذا ؟ لأنه لو ملَّك عدوك الهواء فمنعه عنك ، فسوف تموت قبل أنْ يرضى عنك ، بالإضافة إلى أن الهواء هو العنصر الأساسي في الحياة ، وعليه تقوم حركاتها .

(152/566)

ونلحظ أن الإنسان إذا صعد مكاناً عالياً (ينهج) ، وتزداد ضربات قلبه وحركة تنفسه ، لماذا ؟ لأن الحركة تحتاج لكثير من الهواء ، فإنْ قَلَّ الهواء يضيق الصدر ؛ لأنه يكفي فقط لا ستبقاء الحياة ، لكنه لا يكفي الحركة الخارجية للإنسان .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ ﴾

وليت المسألة تقف بين نبي الله موسى وبين قومه عند مسألة الكلام ، إنما لهم عنده ثَأْرٌ قديم ؛ لأنه قتل منهم واحداً ، وإنْ كان عَنْ غير قصد ، كما قال تعالى في آية أخرى : ﴿ فَوَكَزَهُ موسى فقضى عَلَيْهِ ﴾ [القصص : 15] فأخاف أنْ يقتلوني به .

فيقول الحق سبحانه لموسى وهارون : ﴿ قَالَ كَلاَّ فاذهبا ﴾

(كَلاَّ) تفيد نَفْي ما قبلها ، وقبلها مسائل ثلاث : ﴿ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾ [الشعراء : 12] ، ﴿ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلاَ يَنطَلِقُ لِسَانِي ﴾ [الشعراء : 13] ، ﴿ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴾ [الشعراء : 14] فعلى أيٍّ منها ينصَبُّ هذا النفي ؟

النفي هنا يتوجَّه إلى ما يتعلق بموسى عليه السلام لا بما يتعلق بالقوم من تكذيبهم إياه ، يقول له ربه : اطمئن ، فلن يحدث شيء من هذا كله . ولا ينصبُّ النفي على تكذيبهم له ؛ لأنه سيُكذَّب ؛ لذلك نرى دقة الأداء القرآني حيث جاءت ﴿ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾ [الشعراء : 12] في نهاية الآية ، وبعدها كلام جديد ﴿ وَيَضِيقُ صَدْرِي ﴾ [الشعراء : 13] وهو المقصود بالنفي .

وقد بيَّنَتْ سورة الفجر معنى (كلا) بوضوح في قوله تعالى ﴿ فَأَمَّا الإِنسانُ إِذَا مَا ابتلاه رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ * وَأَمَّآ إِذَا مَا ابتلاه فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴾ [الفجر : 1516] .

فيقول تعالى بعدها رداً عليها ﴿ كَلاَّ ﴾ [الفجر : 17] يعني : ليس الإعطاء دليل إكرام ، ولا المنعُ دليل إهانة ، إنما المراد الابتلاء بالنعمة وبالنقمة .

وكيف يكون الأمر كما تظنون ، وقد أعطاكم الله فبخلتُم ، وأحببتم المال حُبّا جماً ، فلم تنفقوا منه على اليتيم أو المسكين ، بل تنافستُم في جَمْعه حتى أكلتم الميراث ، وأخذتم أموال الناس .

إذن : فالمال الذي أكرمكم الله به لم يكُنْ نعمة لكم ؛ لأنكم جعلتموه نقمة ووبالاً ، حين أُعطيتم فمنعتم .

وكلمة (كَلاَّ) هذه أصبح لها تاريخ مع موسى عليه السلام فقد تعلَّمها من ربه ، ووعى درسها جيداً ، فلما حُوصِر هو وأتباعه بين البحر من أمامهم ، وفرعون وجنوده من خلفهم ، حتى أيقن أتباعه أنهم مُدْركون هالكون ، قالها موسى عليه السلام بملء فيه ﴿ قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ [الشعراء : 62] .

وقوله تعالى : ﴿ فاذهبا بِآيَاتِنَآ ﴾ [الشعرء : 15] الآيات هنا يُقصَد بها المعجزات الدالة على صِدْقهما في البلاغ عن الله ، وهي هنا العصا ﴿ إِنَّا مَعَكُمْ مُّسْتَمِعُونَ ﴾ [الشعراء : 15] كما قال لهما في موضع آخر : ﴿ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وأرى ﴾ [طه : 46] .

فمرّة يأتي بالسمع فقط ، ومرّة بالسمع والرؤية ، لماذا ؟ لأن موقفه مع فرعون في المقام الأول سيكون جدلاً ونقاشاً ، وهذا يناسبه السمع ، وبعد ذلك ستحدث مقامات في (فعل) و (عمل) في مسألة السحر وإلقاء العصا ، وهذا يحتاج إلى سمع وإلى بصر ؛ لأن الإيذاء قد

يكون من السمع فقط في أول اللقاء ، وقد يكون من السمع والعين فيما بعد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(154/566)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله : ﴿ وَإِذْ نادى ﴾ :

العامل فيه مضمرٌ . فقدَّره الزجَّاج : اتلُ ، وغيرُه : اذكر .

قوله : ﴿ أَنِ ائت ﴾ يجوز أن تكونَ مفسِّرةً ، وأن تكونَ مصدريةً أي بأن .

قوله : ﴿ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ﴾ : بدلٌ أو عطفُ بيانٍ للقومِ الظالمين . وقال أبو البقاء : " إنه مفعولٌ " تَتَّقون " على قراءةِ مَنْ قرأ " تتقون " بالخطاب وفتح النون كما سيأتي . ويجوز على هذه القراءةِ أن يكونَ منادى " .

قوله : ﴿ أَلا يَتَّقُونَ ﴾ العامَّةُ على الياء في " يتَّقون " وفتحِ النون ، والمرادُ قومُ فرعونَ . والمفعولُ محذوفٌ أي : يتقون عقابَ . قرأ عبد الله بن مسلم ابن يسار وحماد وشقيق بن سلمة بالتاء من فوق على الالتفات ، خاطبهم بذلك توبيخاً ، والتقدير : يا قومَ فرعونَ/

وقرأ بعضُهم " يتقونِ " بالياءِ مِنْ تحتُ وكسرِ النونِ . وفيها تخريجان ، أحدهما : أنَّ يتَّقونِ " مضارعٌ ، ومفعولُه ياءُ المتكلم ، اجتُزِىءَ عنها بالكسرةِ . الثاني : جَوَّزَه الزمخشري أن تكونَ " يا " للنداء . و " اتقون " فعلُ أمرٍ كقوله : " ألا يا اسْجدوا " أي يا قومِ اتقونِ . أو ياناسُ اتقونِ . وسيأتي تحقيقُ مثلِ هذا في النمل . وهذا تخريجٌ بعيد .

وفي هذه الجملةِ وجهان ، أحدُهما : أنها مستأنفةٌ لا محلَّ لها من الإعرابِ . وجَّوزَ الزمخشري أن تكونَ حالاً من الضمير في الظالمين أي : يَظْلِمون غيرَ متقين اللهَ وعقابَه . فأُدْخلت همزةُ الإنكارِ على الحالِ . وخطَّأه الشيخ من وجهين ، أحدهما : أنه يلزَمُ منه الفصلُ بين الحالِ وعامِلها بأجنبيّ منهم ، فإنه أعربَ " قومَ فرعون " عطفَ بيانٍ للقوم الظالمين . والثاني : أنه على تقديرِ تسليمِ ذلك لا يجوزُ أيضاً ؛ لأنَّ ما بعد الهمزةِ لا يعمل فيه ما قبلها . قال : " وقولك : جئت أمسرعاً " إن جعلت " مسرعاً " معمولاً لـ جئت لم يَجُزْ فإنْ أضمرْتَ عاملاً جاز .

(155/566)

والظاهرُ أن " ألا " للعرض . وقال الزمخشري : " إنها لا النافيةُ دخلت عليها همزةُ الإنكار " . وقيل : هي للتنبيهِ .

قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (12)

قوله : ﴿ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾ : مفعولُ " أخافُ " أي : " أخاف تكذيبهم إيَّاي " .

قوله : ﴿ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلاَ يَنطَلِقُ ﴾ : الجمهورُ على الرفع . وفيه وجهان ، أحدُهما : أنه مستأنفٌ ، أخبر بذلك . والثاني : أنه معطوفٌ على خبر " إنَّ " . وقرأ زيد بن علي وطلحة وعيسى والأعمش بالنصب فيهما . والأعرج بنصبِ الأولِ ورفعِ الثاني : فالنصبُ عطفٌ على صلة " أنْ " فتكونُ الأفعالُ الثلاثة : يُكَذِّبُونِ ، ويَضيقُ ، ولا يَنْطَلِقُ ، داخلةً في حَيِّزِ الخوف . قال الزمخشري : " والفرقُ بينهما أي الرفع والنصب أن الرفعَ فيه يُفيد أن فيه ثلاثَ عللٍ : خوفَ التكذيبِ ، وضيقِ الصدر ، وامتناعَ انطلاقِ اللسانِ . والنصبُ : على أنَّ خَوْفَه متعلقٌ بهذه الثلاثة . فإنْ قلتَ : في النصب تعليقُ الخوفِ بالأمور الثلاثةِ . وفي جُملتها نفيُ انطلاقِ اللسانِ ، وحقيقةُ الخوف إنما هي غَمٌّ يَلْحَقُ الإنسانَ لأمرٍ سيقعُ ، وذلك كان واقعاً ، فكيف جازَ تعليقُ الخوفِ به ؟ قلت : قد عَلَّقَ الخوفَ بتكذيبهم ، وبما يَحْصُل له [بسببه] من ضيقِ الصدرِ ، والحَبْسَةُ في اللسانِ زائدةٌ على ما كان به . على أن تلك الحَبْسَةَ التي كانَتْ به زالَتْ بدعوته . وقيل : بَقِيَتْ منها بقيةٌ يسيرةٌ . فإنْ قلت : اعتذارُك هذا يَرُدُّه الرفعُ ؛ لأن المعنى : إني خائفٌ ضَيِّقُ الصدرِ غيرُ منطلقِ اللسانِ . قلت : يجوز أن يكونَ هذا قبلَ الدعوةِ واستجابتِها . ويجوز أَنْ يريدَ القَدْرَ اليسيرَ الذي بقي " .

قوله : ﴿ فَأَرْسِلْ ﴾ أي : فأَرْسِلْ جبريلَ أو المَلَكَ ، فحذف المفعولَ به .

قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ (15)

(156/566)

قوله : ﴿ فاذهبا ﴾ : عطفٌ على ما دَلَّ عليه حرفُ الرَّدْعِ من الفعل . كأنه قيل : ارتدِعْ تظنُّ فاذهَبْ أنت وأخوكَ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 513.

515 ﴾

(157/566)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (10) ﴾

أخبر أنه لما أمره بالذهاب إلى فرعون لدعوته إلى الله عَلِمَ أن شديد الخصومة ، قد غَرَّتْه نَفْسُه فهو لا يبالي بما فعل . وأخَذَ (موسى) يتعلَّلُ – لا على جهة الإباء والمخالفة – ولكن

على وجه الاستعفاء والإقالة إلى أن عَلِمَ أنَّ الأمرَ به جَزْمٌ ، والحُكْمَ به عليه حَتْمٌ .

قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (12)

سأل موسى – عليه السلام – أن يَشْفَعَه بهارون ويُشْرِكَه في الرسالة . وأخبر أنه قَتَلَ نَفْساً ، وأنه في حُكْمِ فرعون عليه دَمٌ ، فقال : ﴿ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴾ إلى أنْ قال له الحقُّ :

﴿ قَالَ كَلاَّ فاذهبا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴾

﴿ كَلاَّ ﴾ حرفُ رَدْعٍ وتنبيه ؛ أي كلا أن يكون ذلك كما توهمتَ ، فارْتَدِعْ عن تجويز ذلك ، وانتَبِهْ لغيره . إني معكما بالنصرة والقوة والكفاية والرحمة ، واليدُ ستكون لكما ، والسلطانُ سيكون لكما دونَ غيركما ، فأنا أسمع ما تقولون وما يقال لكم ، وأُبْصِرُ ما يُبْصِرُونَ وما تُبْصِرُون أنتم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 7 . 8 ﴾

(158/566)

قوله تعالى ﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (16) أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (17) قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (18) وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (19) قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ (20) فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ (21) وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ

عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (22) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما نفى سبحانه أن يكون شيء مما خافه موسى عليه السلام على هذا الوجه المؤكد ، وكان ظهور ذلك في مقارعة الرأس أدل وأظهر ، صرح به في قوله : ﴿ فأتيا ﴾ أي فتسبب عن ذلك الضمان بالحراسة والحفظ أني أقول لكما : ائتيا ﴿ فرعون ﴾ نفسه ، وإن عظمت مملكته ، وجلّت جنوده ﴿ فقولا ﴾ أي ساعة وصولكما له ولمن عنده : ﴿ إنا رسول ﴾ أفرده مريداً به الجنس الصالح للاثنين ، إشارة بالتوحيد إلى أنهما في تعاضدهما واتفاقهما كالنفس الواحدة ، ولا تخالف لأنه إما وقع مرتين كل واحدة بلون ، أو مرة بما يفيد التثنية والاتفاق ، فساغ التعبير بكل منهما ، ولم يثنّ هنا لأن المقام لا اقتضاء له للتنبيه على طلب نبينا ـ صلى الله عليه وسلم ـ المؤازرة بخلاف ما مر في سورة طه ﴿ رب العالمين ﴾ أي المحسن إلى جميع الخلق المدبر لهم ؛ ثم ذكر له ما قصد من الرسالة إليه فقال معبراً بأداة التفسير لأن الرسول فيه معنى الرسالة التي تتضمن القول : ﴿ أن أرسل ﴾ أي خلّ وأطلق ؛ وأعاد الضمير على معنى رسول فقال : ﴿ معنا بني إسرائيل ﴾ أي قومنا الذين استبعدتهم ظلماً ، ولا سبيل لك عليهم ، نذهب بهم إلى الأرض المقدسة التي وعدنا الله بها على ألسنة الأنبياء من آبائنا عليهم الصلاة والسلام .

ولما كان من المعلوم أنهما امتثلا ما أمرهما الله ، فأتياه وقالا له ما أمرا به ، تشوفت النفس إلى جوابه لهما ، فقال تعالى التفاتاً إلى مثل قوله في التي قبلها ﴿ وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ﴾ [الفرقان : 7] ﴿ وإن يتخذونك إلا هزواً ﴾ [الأنبياء : 36] ونحو ذلك تسلية لهذا النبي الكريم وتحقيقاً لمعنى قوله تعالى ﴿ كلا ﴾ و ﴿ مستمعون ﴾ من أن فرعون وإن بالغ في الإبراق والإرعاد لا يروع موسى عليه السلام شيء منه : ﴿ قال ﴾ أي فرعون حين أبلغاه الرسالة مخاطباً لموسى عليه السلام علماً منه أنه الأصل فيها ، وأخوه إنما هو وزير ، منكراً عليه مواجهته بمثل هذا ومانّاً عليه ليكف من جرأته بتصويب مثل هذا الكلام إليه : ﴿ ألم نربك ﴾ أي بعظمتنا التي شاهدتها ﴿ فينا وليداً ﴾ أي صغيراً قريب عهد بالولادة ﴿ ولبثت فينا ﴾ أي لا في غيرنا ، باعتبار انقطاعك إلينا ، وتعززك في الظاهر بنا ﴿ من عمرك سنين ﴾ أي كثيرة ، فلنا عليك بذلك من الحق ما ينبغي أن يمنعك من مواجهتنا بمثل هذا ، وكأنه عبر بما يفهم النكد كناية عن مدة مقامه عنده بأنها كانت نكده لأنه وقع فيما كان يخافه ، وفاته ما كان يحتاط به من ذبح الأطفال .

ولما ذكّره منة تحمله على الحياء منه ، ذكّره ذنباً هو أهل لأن يخاف من عاقبته فقال مهولاً له

بالكناية عنه : ﴿ وفعلت فعلتك ﴾ أي من قتل القطبي ، ثم أكد نسبته إلى ذلك مشيراً إلى أنه عامله بالحلم تخجيلاً له فقال : ﴿ التي فعلت وأنت ﴾ أي والحال أنك ﴿ من الكافرين ﴾ أي لنعمتي وحق تربيتي بقتل من ينسب إليّ ، أو عده منهم لسكوته عنهم إذا ذاك ، لأنه لم يكن قبل الرسالة مأموراً فيهم بشيء ، فكان مجاملاً لهم ، فكأنه قال : وأنت منا .

(160/566)

فما لك الآن تنكر علينا وتنسبنا إلى الكفر ؟ ﴿ قال ﴾ مجيباً له على طريق النشر المشوش ، واثقاً بوعد الله بالسلامة مقراً بما دندن عليه من القتل لأنه لم يكن متحققاً لذلك ، وما ترك قتله إلا التماساً للبينة : ﴿ فعلتها إذاً ﴾ أي إذ قتلته ﴿ وأنا من الضالين ﴾ أي لا أعرف ديناً ، فأنا واقف عن كل وجهة حتى يوجهني ربي إلى ما يشاء – قال ابن جرير : والعرب تضع الضلال موضع الجهل والجهل موضع الضلال – انتهى .

وقد تقدم في الفاتحة للحرالي في هذا الكلام نفيس – على أن هذه الفعلة كانت مني خطأ ﴿ ففررت ﴾ أي فتسبب عن فعلها وتعقبه أني فررت ﴿ منكم ﴾ أي منك لسطوتك ومن قومك لإغرائهم إياك عليّ ﴿ لما خفتكم ﴾ على نفسي أن تقتلوني بذلك القتيل الذي

قتلته خطأً مع كونه كافراً مهدر الدم ﴿ فوهب لي ربي ﴾ الذي أحسن إليّ بتربيتي عندكم تحت كنف أمي آمنة مما أحدثتم من الظلم خوفاً مني ﴿ حكماً ﴾ أي علماً أعمل به عمل الحكام الحكماء ﴿ وجعلني من المرسلين ﴾ أي فاجهد الآن جهدك فإني لا أخافك لقتل ولا غيره.

ولما اجتمع في كلام فرعون منّ وتعيير، بدأ بجوابه عن التعيير لأنه الأخير فكان أقرب، ولأنه أهم، ثم عطف عليه جوابه عما منّ به، فقال موبخاً له مبكتاً منكراً عليه غير أنه حذف حرف الإنكار إجمالاً في القول وإحساناً في الخطاب: ﴿ وتلك ﴾ أي التربية الشنعاء العظيمة في الشناعة التي ذكرتنيها ﴿ نعمة تمنها عليّ ﴾.

(161/566)

ولما كان سببها ظلمه لقومه، جعله نفسها فقال مبدلاً منها تنبيهاً على إحباطها، وإعلاماً بأنها - بكونها نقمة - أولى منها في عدها نعمة: ﴿ أن عبدت ﴾ أي تعبيدك وتذليلك على ذلك الوجه البديع المبعد قومي ﴿ بني إسرائيل ﴾ أي جعلتهم عبيداً ظلماً وعدواناً وهو أبناء الأنبياء، ولسلفهم يوسف عليه السلام عليكم من المنة - بإحياء نفوسكم أولاً، وعتق رقابكم ثانياً - ما لا تقدرون له على جزاء أصلاً، ثم ما كفاك ذلك حتى فعلت ما لم

يفعله مستعبد ، فأمرت بقتل أبنائهم ، فكان ذلك سبب وقوعي إليك لأسلم من ظلمك – كما مر بيانه ويأتي إن شاء الله تعالى مستوفى في سورة القصص . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 352.354 ﴾

(162/566)

فصل

قال الفخر :

وأما قوله : ﴿ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ العالمين ﴾

ففيه سؤال وهو أنه هلا ثنى الرسول كما ثنى في قوله : ﴿ إِنَّا رَسُولاَ رَبِّكَ ﴾ جوابه من وجوه : أحدها : أن الرسول اسم للماهية من غير بيان أن تلك الماهية واحدة أو كثيرة والألف واللام لا يفيدان إلا الوحدة لا الاستغراق ، بدليل أنك تقول الإنسان هو الضحاك ولا تقول كل إنسان هو الضحاك ولا أيضاً هذا الإنسان هو الضحاك ، وإذا ثبت أن لفظ الرسول لا يفيد إلا الماهية وثبت أن الماهية محمولة على الواحد وعلى الاثنين ثبت صحة قوله : ﴿ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ العالمين ﴾ وثانيها : أن الرسول قد يكون بمعنى الرسالة قال الشاعر :

لقد كذب الواشون ما فهت عندهم . . بسر ولا أرسلتهم برسول

فيكون المعنى إنا ذو رسالة رب العالمين وثالثها : أنهما لاتفاقهما على شريعة واحدة واتحادهما بسبب الأخوة كأنهما رسول واحد ورابعها : المراد كل واحد منا رسول وخامسها : ما قاله بعضهم أنه إنما قال ذلك لا بلفظ التثنية لكونه هو الرسول خاصة وقوله : ﴿ إنا ﴾ فكما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أنزلناه ﴾ [يوسف : 2] وهو ضعيف .

وأما قوله : ﴿ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِى إسرائيل ﴾ فالمراد من هذا الإرسال التخلية والإطلاق كقولك أرسل البازي ، يريد خلهم يذهبوا معنا .

﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (18) ﴾

(163/566)

اعلم أن في الكلام حذفاً وهو أنهما أتياه وقالا ما أمر الله به فعند ذلك قال فرعون ما قال ، يروى أنهما انطلقا إلى باب فرعون فلم يؤذن لهما سنة حتى قال البواب : إن ههنا إنساناً يزعم أنه رسول رب العالمين ، فقال ائذن له لعلنا نضحك منه ، فأديا إليه الرسالة فعرف موسى عليه السلام فعدد عليه نعمه أولاً ، ثم إساءة موسى إليه ثانياً ، أما النعم فهي قوله : ﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً ﴾ والوليد : الصبي لقرب عهده من الولادة ﴿ وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ

عُمُرِكَ ﴾ وعن أبي عمرو بسكون الميم ﴿ سِنِينَ ﴾ قيل لبث عندهم ثلاثين سنة وقيل وكز القبطي وهو ابن اثنتي عشرة سنة وفر منهم (على أثرها) ، والله أعلم بصحيح ذلك ، وعن الشعبي ﴿ فَعْلَتَكَ ﴾ بالكسر وهي قتله القبطي لأنه قتله بالوكز وهو ضرب من القتل ، وأما الفعلة فلأنها (كانت) وكزة واحدة عدد عليه نعمه من تربيته وتبليغه مبلغ الرجال ووبخه بما جرى على يده من قتل خبازه وعظم ذلك (وفظعه) بقوله : ﴿ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ ﴾ .

وأما قوله : ﴿ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ ففيه وجوه : أحدها : يجوز أن يكون حالاً أي قتلته وأنت بذاك من الكافرين بنعمتي وثانيها : وأنت إذ ذاك ممن تكفرهم الساعة وقد افترى عليه أو جهل أمره لأنه كان (يعاشرهم) بالتقية فإن الكفر غير جائز على الأنبياء قبل النبوة وثالثها : ﴿ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ معناه وأنت ممن عادته كفران النعم ومن كان هذا حاله لم يستبعد منه قتل خواص ولي نعمته ورابعها : ﴿ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ بفرعون وإلهيته أو من الذين (كانوا) يكفرون في دينهم فقد كانت لهم آلهة يعبدونها ، يشهد بذلك قوله تعالى : ﴿ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ﴾ [الأعراف : 127] .

﴿ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ (20) ﴾

اعلم أن فرعون لما ذكر التربية وذكر القتل وقد كانت تربيته له معلومة ظاهرة ، لا جرم أن موسى عليه السلام ما أنكرها ، ولم يشتغل بالجواب عنها ، لأنه تقرر في العقول أن الرسول إلى الغير إذا كان معه معجز وحجة لم يتغير حاله بأن يكون المرسل إليه أنعم عليه أو لم يفعل ذلك ، فصار قول فرعون لما قاله غير مؤثر ألبتة ، ومثل هذا الكلام الإعراض عنه أولى ولكن أجاب عن القتل بما لا شيء أبلغ منه في الجواب وهو قوله : ﴿ فَعَلْتُهَا إِذاً وَأَنَاْ مِنَ الضالين ﴾ والمراد بذلك الذاهلين عن معرفة ما يؤول إليه من القتل لأنه فعل الوكزة على وجه التأديب ، ومثل ذلك ربما حسن وإن أدى إلى القتل فبين له أنه فعله على وجه لا يجوز معه أن يؤاخذ به أو يعد منه كافراً أو كافراً لنعمه ، فأما قوله : ﴿ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ ﴾ فالمراد أني فعلت ذلك الفعل وأنا ذاهل عن كونه مهلكاً وكان مني في حكم السهو ، فلم أستحق التخويف الذي يوجب الفرار ومع ذلك فررت منكم عند قولكم : ﴿ إِنَّ الملأ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ ﴾ [القصص : 20] فبين بذلك أنه لا نعمة له عليه في باب تلك الفعلة ، بل بأن يكون مسيئاً فيه أقرب من حيث خوف تخويفاً أوجب الفرار ، ثم بين نعمة الله تعالى عليه بعد الفرار ، فكأنه قال أسأتم وأحسن الله إلي بأن وهب لي حكماً وجعلني من المرسلين ، واختلفوا في الحكم والأقرب أنه غير النبوة لأن المعطوف غير المعطوف عليه ، والنبوة مفهومة من قوله : ﴿ وَجَعَلَنِى مِنَ المرسلين ﴾ فالمراد بالحكم العلم ويدخل في العلم العقل والرأي

والعلم بالدين الذي هو التوحيد ، وهذا أقرب لأنه لا يجوز أن يبعثه تعالى إلا مع كماله في العقل والرأي والعلم بالتوحيد وقوله : ﴿ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْماً ﴾ كالتنصيص على أن ذلك الحكم من خلق الله تعالى ، وقالت المعتزلة : المراد منه الألطاف وهو ضعيف جداً لأن الألطاف مفعولة في حق الكل من غير بخس ولا تقصير ،

(165/566)

فالتخصيص لا بد فيه من فائدة ، فأما قوله : ﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِى إسرائيل ﴾ فهو جواب قوله : ﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً ﴾ [الشعراء : 18] يقال عبدت الرجل وأعبدته إذا اتخذته عبداً ، فإن قيل كيف يكون ذلك جوابه ولا تعلق بين الأمرين ؟ قلنا بيان التعلق من وجوه : أحدها : أنه إنما وقع في يده وفي تربيته لأنه قصد تعبيد بني إسرائيل وذبح أبنائهم ، فكأنه عليه السلام قال له كنت مستغنياً عن تربيتك لو لم يكن منك ذلك الظلم المتقدم علينا وعلى أسلافنا وثانيها : أن هذا الإنعام المتأخر صار معاضاً بذلك الظلم العظيم على أسلافنا وإذا تعارضا تساقطا وثالثها : ما قاله الحسن : إنك استعبدتهم وأخذت أموالهم ومنها أنفقت علي فلا نعمة لك بالتربية ورابعها : المراد أن الذي تولى تربيتي هم الذين قد استعبدتهم فلا نعمة لك علي لأن التربية كانت من قبل أمي وسائر من

هو من قومي ليس لك إلا أنك ما قتلتني ، ومثل هذا لا يعد إنعاماً وخامسها : أنك كنت تدعي أن بني إسرائيل عبيدك ولا منة للمولى على العبد في أن يطعمه ويعطيه ما يحتاج إليه . واعلم أن في الآية دلالة على أن كفر الكافر لا يبطل نعمته على من يحسن إليه ولا يبطل منته لأن موسى عليه السلام إنما أبطل ذلك بوجه آخر على ما بينا ، واختلف العلماء فقال بعضهم إذا كان كافراً لا يستحق الشكر على نعمه على الناس إنما يستحق الإهانة بكفره ، فلو استحق الشكر بإنعامه والشكر لا يوجد إلا مع التعظيم فيلزم كونه مستحقاً للإهانة وللتعظيم معاً ، واستحقاق الجمع بين الضدين محال ، وقال آخرون لا يبطل الشكر بالكفر وإنما يبطل بالكفر الثواب والمدح الذي يستحقه على الإيمان ، والآية تدل على هذا القول الثاني .

المسألة الثانية :

(166/566)

قال صاحب "الكشاف" إنما جمع الضمير في ﴿ مّنكُمْ ﴾ و ﴿ خِفْتُكُمْ ﴾ مع إفراده في ﴿ ثمنها ﴾ و ﴿ عَبَّدتَّ ﴾ لأن الخوف والفرار لم يكونا منه وحده ولكن منه ومن ملائه المؤتمرين بقتله ، بدليل قوله : ﴿ إِنَّ الملا يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ ﴾ [القصص : 20] وأما

الامتنان فمنه وحده وكذلك التعبيد ، فإن قلت : ﴿ تِلْكَ ﴾ إشارة إلى ماذا و ﴿ أَنْ عَبَّدتَّ ﴾ ما محلها من الإعراب ؟ قلت : (تلك) إشارة إلى خصلة شنعاء مبهمة لا يدرى ما هي إلا بتفسيرها وهي ﴿ أَنْ عَبَّدتَّ ﴾ فإن ﴿ أَنْ عَبَّدتَّ ﴾ عطف بيان ونظيره قوله تعالى : ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الأمر أَنَّ دَابِرَ هَؤُلآء مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴾ [الحجر : 66] والمعنى تعبيدك بني إسرائيل نعمة تمنها علي ، وقال الزجاج : ويجوز أن يكون (أن) في موضع نصب ، والمعنى إنما صارت نعمة علي ، لأن عبدت بني إسرائيل أي لو لم تفعل ذلك لكفاني أهلي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 24 صـ 108.110 ﴾

(167/566)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ فَقُولاَ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالِمِينَ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : معناه أرْسَلَنا رب العالمين ، حكاه ابن شجرة .

والثاني : معناه أن كل واحد منا رسول رب العالمين ، ذكره ابن عيسى .

والثالث : معناه إنا رسالة رب العالمين ، قاله أبو عبيدة ، ومنه قول كثير :

لقد كَذَّب الواشون ما بُحْتُ عندهم . . . بسرٍّ ولا أرسلتهم برسول

أي رسالة

. قوله عز وجل : ﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً ﴾ أي صغيراً ، لأنه كان في داره لقيطاً .

﴿ وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴾ لم يؤذن له في الدخول عليه سنة ، وخرج من عنده عشر سنين ، وعاد إليه يدعوه ثلاثين سنة ، وبقي بعد غرقه خمسين سنة ، قال ذلك امتناناً عليه .

﴿ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ ﴾ يعني قتل النفس

. ﴿ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ فيه قولان

: أحدهما : أي على ديننا الذي لا تقول إنه كفر ، وهو قول السدي .

الثاني : من الكافرين لإحساني إليك وفضلي عليك ، وهذا قول محمد بن إسحاق .

قوله عز وجل :

﴿ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذاً وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴾ يعني قتل النفس ، قال المفضل : ومعنى إذن لموجب .

﴿ وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴾ فيه ثلاثة تأويلات

: أحدها : من الجاهلين ، وهو قول مجاهد لا يعلم أنها تبلغ . والثاني : من الضالين عن النبوة ، لأن ذلك كان قبل الرسالة ، وهو معنى قول الضحاك .

الثالث : من الناسين ، وهو قول ابن زيد ، كما قال تعالى : ﴿ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ

إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى ﴾ .

قوله عز وجل : ﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ فيه أربعة أوجه :

أحدها : معناه أن اتخاذك بني إسرائيل عبيداً قد أحبط نعمتك التي تمن عليّ ، وهذا قول عليّ بن عيسى .

والثاني : معناه أنك لما ظلمت بني إسرائيل ولم تظلمني ، أعددت ذلك نعمة تمنّ بها عليّ ؟ قاله الفراء .

(168/566)

والثالث : أنه لم تكن لفرعون على موسى نعمة لأن الذي رباه بنو إسرائيل بأمر فرعون لاستعباده لهم ، فأبطل موسى نعمته لبطلان استرقاقه .

والرابع : أن فرعون أنفق على موسى في تربيته من أموال بني إسرائيل التي أخذها من أكسابهم حين استعبدهم ، فأبطل موسى النعمة وأسقط المنة ، لأنها أموال بني إسرائيل لا أموال فرعون ، وهذا معنى قول الحسن .

وفي التعبيد وجهان :

أحدهما : أنه الحبس والإذلال ، حكاه أبان بن تغلب .

الثاني : أنه الاسترقاق ، فالتعبيد الاسترقاق ، سمي بذلك لما فيه من الإِذلال ، مأخوذ من قولهم طريق معبد ، ومنه قول طرفة بن العبد .

تبارى عناقاً ناجيات وأتبعت . . . وظيفاً فوق مورٍ مُعَبّدِ

أي طريق مذلل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

(169/566)

وقال ابن عطية :

وقوله تعالى : ﴿ إنا رسول رب العالمين ﴾

هو على أن العرب أجرت الرسول مجرى المصدر في أن وصفت به الجمع والواحد والمؤنث ، ومن ذلك قول الهذلي :

ألكني إليها وخير الرسو . . . ل أعلمهم بنواحي الخبر

ومنه قول الشاعر : وإن كان مولداً .

إن التي أبصرتها . . . سحراً تكلمني رسول

(170/566)

وقوله ﴿ أن أرسل معنا بني إسرائيل ﴾ معناه سرح ، فهو من الإرسال الذي هو بمعنى الإطلاق ، وكما تقول أرسلت الحجر من يدي ، وكان موسى مبعوثاً إلى فرعون في أمرين : أحدهما أن يرسل بني إسرائيل ويزيل عنهم ذل العبودية والغلبة ، والثاني أن يؤمن ويهتدي وأمر بمكافحته ومقاومته في الأول ، ولم يؤمر بذلك في الثاني على ما بلغ من أمره ، وبعث بالعبادات والشرع إلى بني إسرائيل فقط ، هذا قول بعض العلماء ، وقول فرعون لموسى ﴿ ألم نُربّك ﴾ هو على جهة المن عليه والاحتقار ، أي ربيناك صغيراً ولم نقتلك في جملة من قتلنا ، ﴿ ولبثت فينا سنين ﴾ ، فمتى كان هذا الذي تدعيه ، وقرأ جمهور القراء " من عمُرك " بضم الميم ، وقرأ أبو عمرو " عمْرك " بسكونها ، ثم قرره على قتل القبطي بقوله ﴿ وفعلت فعلتك ﴾ والفَعلة بفتح الفاء المرة من الفعل ، وقرأ الشعبي " فِعلتك " بكسر الفاء وهي هيئة الفعل ، وقوله ﴿ وأنت من الكافرين ﴾ ، يحتمل ثلاثة أوجه : أحدها أن يريد وقتلت القبطي ﴿ وأنت ﴾ في قتلك إياه ﴿ من الكافرين ﴾ إذ هو نفس لا يحل قتله قاله الضحاك ، أو يريد ﴿ وأنت من الكافرين ﴾ بنعمتي في قتلك إياه قاله ابن زيد ، وهذان بمعنى واحد في حق لفظ الكفر ، وإنما اختلفا باشتراك لفظ الكفر والثاني أن يكون بمعنى الهزء على هذا الدين فأنت من الكافرين بزعمك قاله السدي ، والثالث هو قول الحسن أن يريد ﴿ وأنت من الكافرين ﴾ الآن يعني فرعون بالعقيدة التي كان يبثها فيكون الكلام

مقطوعاً من قوله ﴿ وفعلت فعلتك ﴾ وإنما هو إخبار مبتدأ كان من الكافرين وهذا الثاني أيضاً يحتمل أن يريد به كفر النعمة .

قال القاضي أبو محمد : وكان بين خروج موسى عليه السلام حين قتل القبطي وبين رجوعه نبياً إلى فرعون إحدى عشر سنة غير أشهر .

﴿ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ (20) ﴾

(171/566)

القائل هنا هو موسى عليه السلام والضمير في قوله ﴿ فعلتها ﴾ لقتله القبطي ، وقوله ﴿ إذاً ﴾ صلة في الكلام وكأنها بمعنى حينئذ ، وقوله ﴿ وأنا من الضالين ﴾ قال ابن زيد معناه من الجاهلين بأن وكزتي إياه تأتي على نفسه ، وقال أبو عبيدة معناه من الناسين لذلك ، ونزع بقوله تعالى أن تضل إحداهما ، وفي قراءة عبد الله بن مسعود وابن عباس " وأنا من الجاهلين " ويشبه أن تكون هذه القراءة على جهة التفسير ، وقوله ﴿ حكماً ﴾ يريد النبوة وحكمتها ، وقرأ عيسى " حُكُماً " بضم الحاء والكاف ، وقوله ﴿ وجعلني من المرسلين ﴾ درجة ثانية للنبوة فرب نبي ليس برسول ، ثم حاجه عليه السلام في منه عليه بالتربية وترك القتل بقوله ﴿ وتلك نعمة تمنها علي أن عبدت بني إسرائيل ﴾ ، واختلف الناس في

تأويل هذا الكلام ، فقال قتادة هذا منه على جهة الإنكار عليه أن تكون نعمة كأنه يقول أويصح لك أن تعتمد على نعمة ترك قتلي من أجل أنك ظلمت بني إسرائيل وقتلهم ، أي ليست نعمة لأن الواجب كان ألا يقتلني وألا تقتلهم ولا تستعبدهم بالقتل والخدمة وغير ذلك ، وقرأ الضحاك " وتلك نعمة ما لك أن تمنها " ، وهذه قراءة تؤيد هذا التأويل ، وقال الأخفش قيل ألف الاستفهام محذوفة والمعنى " أو تلك " وهذا لا يجوز إلا إذا عادلتها أم كما قال " تروح من الحي أم تبتكر " .

قال القاضي أبو محمد : وهذا القول تكلف ، قول موسى عليه السلام تقرير بغير ألف وهو صحيح كما قال قتادة والله المعين ، وقال السدي والطبري هذا الكلام من موسى عليه السلام على جهة الإقرار بالنعمة ، كأنه يقول تربيتك نعمة علي من حيث عبدت غيري وتركتني ولكن ذلك لا يدفع رسالتي .

(172/566)

قال القاضي أبو محمد : ولكل وجه ناحية من الاحتجاج فالأول ماض في طريق المخالفة لفرعون ونقض كلامه كله ، والثاني مبد من موسى عليه السلام أنه منصف من نفسه معترف بالحق ، ومتى حصل أحد المجادلين في هذه الرتبة وكان خصمه في ضدها غلب

المتصف بذلك وصار قوله أوقع في النفوس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ

﴾

(173/566)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا رسولُ ربِّ العالَمين ﴾

قال ابن قتيبة : الرسول يكون بمعنى الجميع ، كقوله : ﴿ هؤلاء ضَيفي ﴾ [الحجر : 68]

وقوله : ﴿ ثُمَّ نُخْرِجُكم طِفْلاً ﴾ [الحج : 5] .

وقال الزجاج : المعنى : إِنْا رِسالةُ ربِّ العالَمين ، أي : ذوو رسالة ربِّ العالمين ، قال الشاعر

:

لَقَدْ كَذَبَ الوَاشُونَ ما بُحْتُ عِنْدَهُم . . .

بِسرٍّ ولا أَرْسَلْتُهُمْ بِرَسُولِ

أي : برسالة .

قوله تعالى : ﴿ أن أرسِلْ ﴾ المعنى : بأن أرسل ﴿ معنا بني إِسرائيل ﴾ أي : أَطْلِقْهم من الاستعباد ، فأَتَياه فبلَّغاه الرسالة ، ف ﴿ قال ألم نُرَبِّكَ فينا وَليداً ﴾ أي : صبيّاً صغيراً

﴿ ولَبِثْتَ فينا مِنْ عُمُرِكَ سِنينَ ﴾ وفيها ثلاثة أقوال .

أحدها : ثماني عشرة سنة ، قاله ابن عباس .

والثاني : أربعون سنة ، قاله ابن السائب .

والثالث : ثلاثون سنة ، قاله مقاتل ، والمعنى : فجازيْتَنا على ان ربَّيناك أن كفرت نعمتنا ، وقتلت منّا نفساً ، وهو قوله : ﴿ وفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ﴾ وهي قتل النفس .

قال الفراء : وإنما نُصِبَت الفاء ، لأنها مرة واحدة ، ولو أُريد بها مثل الجِلسة والمِشية جاز كسرها .

وفي قوله : ﴿ وأنت من الكافرين ﴾ قولان .

أحدهما : من الكافرين لنعمتي ، قاله ابن عباس ، وسعيد بن جبير ، وعطاء ، والضحاك ، وابن زيد .

والثاني : من الكافرين بالهك ، كنتَ معنا على ديننا الذي تعيب ، قاله الحسن ، والسدي .

فعلى الاول : وأنت من الكافرين الآن .

وعلى الثاني : وكنت .

وفي قوله : ﴿ وأنا من الضالّين ﴾ ثلاثة أَقوال .

أحدها : من الجاهلين ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير ، وقتادة .

وقال بعض المفسرين : المعنى : إني كنت جاهلاً لم يأتني من الله شيء .

والثاني : من الخاطئين ؛ والمعنى : إني قتلت النفس خطأً ، قاله ابن زيد .

والثالث : من الناسين ؛ ومثله ﴿ أن تَضِلَّ إحداهما ﴾ [البقرة : 282] ، قاله أبو عبيدة .

(174/566)

قوله تعالى : ﴿ ففرَرتُ منكم ﴾ أي : ذهبت من بينكم ﴿ لَمَّا خِفْتُكم ﴾ على نفسي إلى مَدْيَنِ ، وقرأ عاصم الجحدري ، والضحاك ، وابن يعمر ﴿ لِمَا ﴾ بكسر اللام وتخفيف الميم ، ﴿ فوهَب لي ربِّي حُكْماً ﴾ وفيه قولان .

أحدهما : النبوَّة ، قاله ابن السائب .

والثاني : العِلْم والفَهم ، قاله مقاتل .

قوله تعالى : ﴿ وتلك نِعمة تَمُنُّها عليَّ ﴾ يعني التربية ﴿ أنْ عَبَّدْتَ بني إسرائيل ﴾ أي : اتخذْتَهم عبيداً ؛ يقال عبَّدتُ فلاناً وأعبدتُه واستعبدتُه : إذا اتخذتَه عبداً .

وفي "أنْ" وجهان .

أحدهما : أن تكون في موضع رفع على البدل من "نِعْمةٌ" .

والثاني : أن تكون في موضع نصب بنزع الخافض ، تقديره : لأَن عبَّدتَ أو لتعبيدك .

واختلف العلماء في تفسير الآية ، ففسرها قوم على الإِنكار ، وقوم على الإِقرار .

فمن فسرها على الإِنكار قال معنى الكلام : أو تلك نعمة ؟ ! على طريق الاستفهام ، ومثله ﴿ هذا ربِّي ﴾ [الانعام : 76] ، وقوله : ﴿ فهم الخالدون ﴾ [الانبياء : 34] ، وأنشدوا :

[لم أنس يوم الرحيل وقفتَها . . .

وجفنها من دموعها شَرِقُ]

وقولَها والركابُ سائرة . . .

تتركنا هكذا وتنطلق

وهذا قول جماعة منهم .

ثم لهم في معنى الكلام ووجهه أربعة أقوال .

أحدها : أن فرعون أخذ أموال بني إِسرائيل واستعبدهم وأنفق على موسى منها ، فأبطل موسى النِّعمة لأنها أموال بني إِسرائيل ، قاله الحسن .

والثاني : أن المعنى : إِنك لو كنت لا تقتُل أبناء بني إِسرائيل لكفلني أهلي ، وكانت أُمِّي تستغني عن قذفي في اليمِّ ، فكأنك تمنُّ عليَّ بما كان بلاؤك سبباً له ، وهذا قول المبرِّد ، والزجّاج والأزهري .

والثالث : أن المعنى تمنُّ عليَّ باحسانك إليَّ خاصة ، وتنسى إساءتك بتعبيدك بني إسرائيل ؟ ! قاله مقاتل .

(175/566)

والرابع : أن المعنى : كيف تمنُّ عليَّ بالتربية وقد استعبدت قومي ؟ ! ومن أُهين قومُه فقد ذَلَّ ، فقد حَبِط إحسانك إليَّ بتعبيدك قومي ، حكاه الثعلبي .

فأما من فسرها على الإقرار ، فانه قال : عدَّها موسى نعمة حيثُ ربَّاه ولم يقتله ولا استعبده .

فالمعنى : هي لعمري نعمة إذ ربَّيتني ولم تستعبدني كاستعبادك بني إسرائيل ؛ ف "أنْ" تدل على المحذوف ، ومثله في الكلام – أن تَضرب بعض عبيدك وتترك الآخر ، فيقول المتروك – : هذه نعمة عليَّ أن ضربتَ فلاناً وتركتني ، ثم تحذف "وتركتني" ، لأن المعنى معروف ، هذا قول الفراءِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿زاد المسير حـ 6 صـ ﴾

(176/566)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فقولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ العالمين ﴾

قال أبو عبيدة : رسول بمعنى رسالة والتقدير على هذا ؛ إنا ذوو رسالة رب العالمين .

قال الهذليّ :

أَلِكْنِي إليها وخَيرُ الرَّسُو . . .

لِ أَعْلَمُهُمْ بنَوَاحِي الخَبَرَ

ألكني إليها معناه أرسلني .

وقال آخر :

لقد كَذَبَ الواشون ما بُحْتُ عندهمْ . . .

بِسِرٍّ ولا أَرسلتُهمْ برسولِ

آخر :

أَلاَ أَبْلغْ بني عمرو رسولاً . . .

بأَنِّي عن فُتَاحَتِكُمْ غنيُّ

وقال العباس بن مرادس :

أَلاَ مَن مُبلِغٌ عنّي خُفَافَا . . .

رسولاً بيتُ أَهلِك مُنْتَهَاها

يعني رسالة فلذلك أنَّثها .

قال أبو عبيد : ويجوز أن يكون الرسول في معنى الاثنين والجمع ؛ فتقول العرب : هذا رسولي ووكيلي ، وهذان رسولي ووكيلي ، وهؤلاء رسولي ووكيلي .

ومنه قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي ﴾ [الشعراء : 77] .

وقيل : معناه إن كل واحد منا رسول رب العالمين .

﴿ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بني إِسْرَائِيلَ ﴾ أي أطلقهم وخلّ سبيلهم حتى يسيروا معنا إلى فلسطين ولا تستعبدهم ؛ وكان فرعون استعبدهم أربعمائة سنة ، وكانوا في ذلك الوقت ستمائة ألف وثلاثين ألفاً .

فانطلقا إلى فرعون فلم يؤذن لهما سنة في الدخول عليه ، فدخل البوّاب على فرعون فقال : ها هنا إنسان يزعم أنه رسول رب العالمين .

فقال فرعون : ايذن له لعلنا نضحك منه ؛ فدخلا عليه وأديا الرسالة .

(177/566)

وروى وهب وغيره : أنهما لما دخلا على فرعون وجداه وقد أخرج سباعاً من أسد ونمور وفهودٍ يتفرج عليها ، فخاف سواسها أن تبطش بموسى وهارون ، فأسرعوا إليها ،

وأسرعت السباع إلى موسى وهارون ، فأقبلت تلحس أقدامهما ، وتبصبص إليهما بأذنابها ، وتلصق خدودها بفخذيهما ، فعجب فرعون من ذلك فقال : ما أنتما ؟ قالا : ﴿ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ فعرف موسى لأنه نشأ في بيته ؛ ف ﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً ﴾ على جهة المنّ عليه والاحتقار .

أي ربيناك صغيراً ولم نقتلك من جملة من قتلنا ﴿ وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴾ فمتى كان هذا الذي تدعيه .

ثم قرره بقتل القبطي بقوله : ﴿ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ ﴾ والفَعْلة بفتح الفاء المرة من الفعل .

وقرأ الشعبي : ﴿ فِعلتك ﴾ بكسر الفاء والفتح أولى ؛ لأنها المرة الواحدة ، والكسر بمعنى الهيئة والحال ، أي فعلتك التي تعرف فكيف تدعي مع علمنا أحوالك بأن الله أرسلك .

وقال الشاعر :

كأنّ مِشيتَها من بيت جارتها . . .

مرُّ السحابةِ لا رَيْثٌ ولا عَجَلُ

ويقال : كان ذلك أيام الرِّدة والرَّدة .

﴿ وَأَنتَ مِنَ الكافرين ﴾ قال الضحاك : أي في قتلك القبطي إذ هو نفس لا يحل قتله .

وقيل : أي بنعمتي التي كانت لنا عليك من التربية والإحسان إليك ؛ قاله ابن زيد .

الحسن : ﴿ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ في أني إلهك .

السّدي : ﴿ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ بالله لأنك كنت معنا على ديننا هذا الذي تعيبه .

وكان بين خروج موسى عليه السلام حين قتل القبطي وبين رجوعه نبيّاً أحد عشر عاماً غير أشهر .

ف ﴿ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذاً ﴾ أي فعلت تلك الفعلة يريد قتل القبطي ﴿ وَأَنَاْ ﴾ إذ ذاك ﴿ مِنَ الضالين ﴾ أي من الجاهلين ؛ فنفى عن نفسه الكفر ، وأخبر أنه فعل ذلك على الجهل .

وكذا قال مجاهد ؛ ﴿ مِنَ الضَّآلِّينَ ﴾ من الجاهلين .

ابن زيد : من الجاهلين بأن الوكزة تبلغ القتل .

(178/566)

وفي مصحف عبد الله ﴿ مِنَ الجاهِلِين ﴾ ويقال لمن جهل شيئاً ضل عنه .

وقيل : ﴿ وَأَنَا مِنَ الضَّآلِّينَ ﴾ من الناسين ؛ قاله أبو عبيدة .

وقيل : ﴿ وَأَنَا مِنَ الضَّآلِّينَ ﴾ عن النبوّة ولم يأتني عن الله فيه شيء ، فليس عليّ فيما فعلته في تلك الحالة توبيخ .

وبيّن بهذا أن التربية فيهم لا تنافي النبوّة والحلم على الناس ، وأن القتل خطأ أو في وقت لم يكن فيه شرع لا ينافي النبوّة .

قوله تعالى : ﴿ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ ﴾ أي خرجت من بينكم إلى مَدْين كما في سورة "القصص" : ﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفاً يَتَرَقَّبُ ﴾ [القصص : 21] وذلك حين القتل .

﴿ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْماً ﴾ يعني النبوّة ؛ عن السّدي وغيره .

الزجاج : تعليم التوراة التي فيها حكم الله .

وقيل علماً وفهماً .

﴿ وَجَعَلَنِي مِنَ المرسلين ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ اختلف الناس في معنى هذا الكلام ؛ فقال السّدي والطّبري والفراء : هذا الكلام من موسى عليه السلام على جهة الإقرار بالنعمة ؛ كأنه يقول : نعما وتربيتك نعمة عليّ من حيث عبّدت غيري وتركتني ، ولكن لا يدفع ذلك رسالتي .

وقيل : هو من موسى عليه السلام على جهة الإنكار ؛ أي أتمنّ عليّ بأن ربيتني وليداً وأنت قد استعبدت بني إسرائيل وقتلتهم ؟! أي ليست بنعمة ؛ لأن الواجب كان ألا تقتلهم ولا تستعبدهم فإنهم قومي ؛ فكيف تذكر إحسانك إليّ على الخصوص ؟! قال معناه قتادة وغيره .

وقيل : فيه تقدير استفهام ؛ أي أو تلك نعمة ؟ قاله الأخفش والفراء أيضاً وأنكره النحاس وغيره .

قال النحاس : وهذا لا يجوز لأن ألف الاستفهام تحدث معنى ، وحذفها محال إلا أن يكون في الكلام أم ؛ كما قال الشاعر :

تَرُوحُ من الحيّ أم تَبْتَكِر . . .

ولا أعلم بين النحويين اختلافاً في هذا إلا شيئاً قاله الفراء .

(179/566)

قال : يجوز حذف ألف الاستفهام في أفعال الشك ، وحكى تُرَى زيداً منطلقاً ؟ بمعنى أترى .

وكان علي بن سليمان يقول في هذا : إنما أخذه من ألفاظ العامة .

قال الثعلبيّ : قال الفراء ومن قال إنها إنكار قال معناه أو تلك نعمة ؟ على طريق الاستفهام ؛ كقوله : ﴿ هذا رَبِّي ﴾ [الأنعام : 78] ﴿ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ﴾ [الأنبياء : 34] قال الشاعر :

رَفَوْنِي وقالوا يا خُوَيلدُ لا تُرَعْ . . .

فقلتُ وأنكرتُ الوجوهَ هُمُ هُمُ

وأنشد الغزنوي شاهداً على ترك الألف قولهم :

لم أنس يوم الرحيل وقفتَها . . .

وجفنها من دموعها شَرِقُ

وقولَها والركابُ واقفةٌ . . .

تَركتني هكذا وتَنطلقُ

قلت : ففي هذا حذف ألف الاستفهام مع عدم أم خلاف قول النحاس .

وقال الضحاك : إن الكلام خرج مخرج التبكيت والتبكيت يكون باستفهام وبغير استفهام ؛

والمعنى : لو لم تقتل بني إسرائيل لرباني أبواي ؛ فأي نعمة لك علي فأنت تمنّ عليّ بما لا يجب أن تمنّ به .

وقيل : معناه كيف تمنّ بالتربية وقد أهنت قومي ؟ ومن أهين قومه ذل .

و ﴿ أَنْ عَبَّدْتَ ﴾ في موضع رفع على البدل من ﴿ نِعْمَةٌ ﴾ ويجوز أن تكون في موضع نصب بمعنى : لأن عبدت بني إسرائيل ؛ أي اتخذتهم عبيداً .

يقال : عبدته وأعبدته بمعنى ؛ قاله الفراء وأنشد :

عَلاَمَ يُعبِدُنِي قومي وقد كَثُرَت . . .

فيهم أَباعِرُ ما شاؤوا وعِبْدانُ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 13 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

وقوله : ﴿ فاذهبا ﴾ ، أمر لهما بخطاب لموسى فقط ، لأن هارون ليس بمكلم بإجماع ، ولكنه قال لموسى : ﴿ اذهب أنت وأخوك ﴾ قال الزمخشري : جمع الله له الاستجابتين معاً في قوله : ﴿ كلا فاذهبا ﴾ ، لأنه استدفعه بلاءهم ، فوعده الدفع بردعه عن الخوف ، والتمس المؤازرة بأخيه ، فأجابه بقوله : اذهب ، أي اذهب أنت والذي طلبته هارون .

فإن قلت : علام عطف قوله اذهبا ؟ قلت : على الفعل الذي يدل عليه كلا ، كأنه قيل : ارتدع يا موسى عما تظن ، فاذهب أنت وهارون بآياتنا ، يعم جميع ما بعثهما الله به ، وأعظم ذلك العصا ، وبها وقع العجز .

قال ابن عطية : ولا خلاف أن موسى هو الذي حمله الله أمر النبوة وكلفها ، وأن هارون كان نبياً رسولاً معيناً له ووزيراً . انتهى .

ومعكم ، قيل : من وضع الجمع موضع المثنى ، أي معكما .

وقيل : هو على ظاهره من الجمع ، والمراد موسى وهارون ومن أرسلا إليه .

وكان شيخنا الأستاذ أبو جعفر بن الزبير يرجح أن يكون أريد بصورة الجمع المثنى ،

والخطاب لموسى وهارون فقط ، قال : لأن لفظة مع تباين من يكون كافراً ، فإنه لا يقال الله معه .

وعلى أنه أريد بالجمع التثنية ، حمله سيبويه رحمه الله وكأنهما لشرفهما عند الله ، عاملهما في الخطاب معاملة الجمع ، إذ كان ذلك جائزاً أن يعامل به الواحد لشرفه وعظمته .

قال ابن عطية : ﴿ مستمعون ﴾ اهتبالاً ، ليس في صيغة سامعون ، وإلا فليس يوصف الله تعالى بطلب الاستماع ، وإنما القصد إظهار التهمم ليعظم أنس موسى ، أو يكون الملائكة بأمر الله إياها تستمع .

وقال الزمخشري : ﴿ معكم مستمعون ﴾ من مجاز الكلام ، يريد أنا لكما ولعدوكما كالناصر الظهير لكما عليه إذا حضر واستمع ما يجري بينكما وبينه ، فأظهركما وغلبكما وكسر شوكته عنكما ونكسه . انتهى .

ويجوز أن يكون معه متعلقاً بمستمعون ، وأن يكون خبراً ، ومستمعون خبر ثان .

(181/566)

والمعية هنا مجاز ، وكذلك الاستماع ، لأنه بمعنى الإصغاء ، ولا يلزم من الاستماع السماع ، تقول : أسمع إليه ، فما سمع واستمع إليه ، فسمع كما قال : ﴿ استمع نفر من الجن فقالوا إنا

سمعنا ﴾ وأفرد رسول هنا ولم يثن ، كما في قوله : ﴿ إنا رسولا ربك ﴾ إما لأنه مصدر بمعنى الرسالة ، فجاز أن يقع مفرداً خبر المفرد فما فوقه ، وإما لكونهما ذوي شريعة واحدة ، فكأنهما رسول واحد .

وأريد بقوله : أنا أو كل واحد منا رسول .

﴿ ورسول رب العالمين ﴾ فيه رد عليه ، وأنه مربوب لله تعالى ، بادهه بنقض ما كان أبرمه من ادعاء الألوهية ، ولذلك أنكر فقال : وما رب العالمين والمعنى إليك ، ﴿ وأن أرسل ﴾ : يجوز أن تكون تفسيرية لما في رسول من معنى القول ، وأن تكون مصدرية ، وأرسل بمعنى أطلق وسرح ، كما تقول : أرسلت الحجر من يدي ، وأرسلت الصقر .

وكان موسى مبعوثاً إلى فرعون في أمرين : إرسال بني إسرائيل ليزول عنهم العبودية ، والإيمان بالله وبعث بالعبادات والشرع إلى بني إسرائيل وإرسالهم معهما كان إلى فلسطين ، وكانت مسكن موسى وهارون .

﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (18) ﴾

ويروى أنهما انطلقا إلى باب فرعون ، ولم يؤذن لهما سنة ، حتى قال البواب : إن هنا إنساناً يزعم أنه رسول رب العالمين ، فقال له : ائذن له لعلنا نضحك منه .

فأديا إليه الرسالة ، فعرف موسى فقال له : ﴿ ألم نربك فينا وليداً ﴾ وفي الكلام حذف يدل عليه المعنى تقديره : فأتيا فرعون ، فقالا له ذلك .

ولما بادهه موسى بأنه رسول رب العالمين ، وأمره بإرسال بني إسرائيل معه ، أخذ يستحقره ويضرب عن المرسل وعما جاء به من عنده ، ويذكره بحالة الصغر والمنّ عليه بالتربية .

والوليد الصبي ، وهو فعيل بمعنى مفعول ، أطلق ذلك عليه لقربه من الولادة .

وقرأ أبو عمرو في رواية : من عمرك ، بإسكان الميم ، وتقدم ذكر الخلاف في كمية هذه السنين في طه .

(182/566)

وقرأ الجمهور : فعلتك ، بفتح الفاء ، إذ كانت وكزة واحدة ، والشعبي : بكسر الفاء ، يريد الهيئة ، لأن الوكزة نوع من القتل .

عدد عليه نعمة التربية ومبلغه عنده مبلغ الرجال ، حيث كان يقتل نظراءه من بني إسرائيل ، وذكره ما جرى على يده من قتل القبطي ، وعظم ذلك بقوله : ﴿ وفعلت فعلتك التي فعلت ﴾ ، لأن هذا الإبهام ، بكونه لم يصرح أنها القتل ، تهويل للواقعة وتعظيم شأن .

﴿ وأنت من الكافرين ﴾ : يجوز أن يكون حالاً ، أي قتلته وأنت إذ ذاك من الكافرين ، فافترى فرعون بنسبة هذه الحال إليه إذ ذاك ، والأنبياء عليهم السلام معصومون .

ويجوز أن يكون إخباراً مستأنفاً من فرعون ، حكم عليه بأنه من الكافرين بالنعمة التي لي

عليك من التربية والإحسان ، قاله ابن زيد ؛ أو من الكافرين بي في أنني إلهك ، قاله الحسن ؛ أو من الكافرين بالله لأنك كنت معنا على ديننا هذا الذي تعيبه الآن ، قاله السدي .

﴿ قال فعلتها إذاً ﴾ : إجابة موسى عن كلامه الأخير المتضمن للقتل ، إذ كان الاعتذار فيه أهم من الجواب في ذكر النعمة بالتربية ، لأنه فيه إزهاق النفس .

قال ابن عطية : إذن صلة في الكلام وكأنها بمعنى حينئذ . انتهى .

وليس بصلة ، بل هي حرف معنى .

وقوله وكأنها بمعنى حينئذ ، ينبغي أن يجعل قوله تفسير معنى ، إذ لا يذهب أحد إلى أن إذن ترادف من حيث الإعراب حينئذ .

وقال الزمخشري : فإن قلت : إذاً جواب وجزاء معاً ، والكلام وقع جواباً لفرعون ، فكيف وقع جزاء ؟ قلت : قول فرعون : ﴿ وفعلت فعلتك ﴾ فيه معنى : إنك جازيت نعمتي بما فعلت ؛ فقال له موسى : نعم فعلتها ، مجازياً لك تسليماً لقوله ، كأن نعمته كانت عنده جديرة بأن تجازى بنحو ذلك الجزاء . انتهى .

وهذا الذي ذكره من أن إذاً جواب وجزاء معاً ، هو قول سيبويه ، لكن الشراح فهموا أنها قد تكون جواباً وجزاء معاً ، وقد تكون جواباً فقط دون جزاء .

فالمعنى اللازم لها هو الجواب ، وقد يكون مع ذلك جزاء .

وحملوا قوله : ﴿ فعلتها إذاً ﴾ من المواضع التي جاءت فيها جواباً لآخر ، على أن بعض أئمتنا تكلف هنا كونها جزاء وجواباً ، وهذا كله محرر فيما كتبناه في إذن في شرح التسهيل ، وإنما أردنا أن نذكر أن ما قاله الزمخشري ليس هو الصحيح ، ولا قول الأكثرين .

﴿ وأنا من الضالين ﴾ ، قال ابن زيد : معناه من الجاهلين ، بأن وكزتي إياه تأتي على نفسه .

وقال أبو عبيدة : من الناسين ، ونزع لقوله : ﴿ أن تضل إحداهما ﴾ وفي قراءة عبد الله ، وابن عباس : وأنا من الجاهلين ، ويظهر أنه تفسير للضالين ، لا قراءة مروية عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) .

وقال الزمخشري : من الفاعلين فعل أولي الجهل ، كما قال يوسف لإخوته : ﴿ إذ أنتم جاهلون ﴾ أو المخلصين ، كمن يقتل خطأً من غير تعمد للقتل ، أو الذاهبين عن تلك الصفة . انتهى .

وقيل : من الضالين ، يعني عن النبوة ، ولم يأتني عن الله فيه شيء ، فليس عليّ فيما فعلته في تلك الحالة توبيخ .

ومن غريب ما شرح به أن معنى ﴿ وأنا من الضالين ﴾ ، أي من المحبين لله ، وما قتلت القبطي إلا غيرة لله .

قيل : والضلال يطلق ويراد به المحبة ، كما في قوله : ﴿ إنك لفي ضلالك القديم ﴾ أي في محبتك القديمة .

وجمع ضمير الخطاب في منكم وخفتكم بأن كان قد أفرد في : تمنها وعبدت ، لأن الخوف والفرار لم يكونا منه وحده ، وإنما منه ومن ملئه المذكورين قبل ﴿ أن ائت القوم الظالمين قوم فرعون ﴾ ، وهم كانوا قوماً يأتمرون لقتله .

ألا ترى إلى قوله : ﴿ إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج ﴾ وقرأ الجمهور : لما حرف وجوب لوجوب ، على قول سيبويه ، وظرفاً بمعنى حين ، على مذهب الفارسي .

وقرأ حمزة في رواية : لما بكسر اللام وتخفيف الميم ، أي يخوفكم .

وقرأ عيسى : حكماً بضم الكاف ؛ والجمهور : بالإسكان .

والحكم : النبوة .

﴿ وجعلني من المرسلين ﴾ : درجة ثانية للنبوة ، فرب نبي ليس برسول .

وقيل : الحكم : العلم والفهم .

﴿ وتلك نعمة تمنها عليّ ﴾ : وتلك إشارة إلى المصدر المفهوم من قوله : ﴿ ألم نربك فينا وليداً ﴾ ؛ وذكر بهذا آخراً على ما بدأ به فرعون في قوله : ﴿ ألم نربك ﴾ .

والظاهر أن هذا الكلام إقرار من موسى عليه السلام بالنعمة ، كأنه يقول : وتربيتك لي نعمة عليّ من حيث عبدت غيري وتركتني واتخذتني ولداً ، ولكن لا يدفع ذلك رسالتي .

وإلى هذا التأويل ذهب السدّي والطبري .

وقال قتادة : هذا منه على جهة الإنكار عليه أن تكون نعمة ، كأنه يقول : أو يصح لك أن تعتد على نعمة ترك قتلي من أجل أنك ظلمت بني إسرائيل وقتلتهم ؟ أي ليست بنعمة ، لأن الواجب كان أن لا تقتلني ولا تقتلهم ولا تستعبدهم بالقتل والخدمة وغير ذلك .

وقرأ الضحاك : وتلك نعمة ما لك أن تمنها ، وهذه قراءة تؤيد هذا التأويل ، وهذا التأويل فيه مخالفة لفرعون ونقض كلامه كله .

والقول الأول فيه إنصاف واعتراف .

وقال الأخفش : والفراء : قبل الواو همزة استفهام يراد به الإنكار ، وحذفت لدلالة المعنى عليها ، ورده النحاس بأنها لا تحذف ، لأنها حرف يحدث معها معنى ، إلا إن كان في الكلام أم لا خلاف في ذلك إلا شيئاً ، قاله الفراء من أنه يجوز حذفها مع أفعال الشك ، وحكى : ترى زيداً منطلقاً ، بمعنى : ألا ترى ؟ وكان الأخفش الأصغر يقول : أخذه من ألفاظ العامة .

وقال الضحاك : الكلام إذا خرج مخرج التبكيت يكون باستفهام وبغير استفهام ، والمعنى : لو لم يقتل بني إسرائيل لربانى أبواي ، فأي نعمة لك علي فأنت تمنّ علي بما لا يجب أن تمنّ به .

وقيل : اتخاذك بني إسرائيل عبيداً أحبط نعمتك التي تمنّ بها .

وقال الزمخشري : وأبي ، يعني موسى عليه السلام ، أن يسمي نعمته أن لا نعمة ، حيث بين أن حقيقة إنعامه تعبد بني إسرائيل ، لأن تعبدهم وقصدهم بذبح أبنائهم هو السبب في حصوله عنده وتربيته ، فكأنه امتن عليه بتعبيد قومه إذا حققت .

(185/566)

وتعبيدهم : تذليلهم واتخاذهم عبيداً ، يقال : عبدت الرجل وأعبدته ، إذا اتخذته عبداً ، قال الشاعر :

علام يعبدني قومي وقد كثرت . . .

فيهم أباعر ما شاءوا وعبدان

فإن قلت : وتلك إشارة إلى ماذا ؟ وأن عبدت ما محلها من الإعراب ؟ قلت : تلك إشارة إلى خصلة شنعاء مبهمة ، لا يدري ما هي إلا بتفسيرها ؛ ومحل أن عبدت الرفع ، عطف بيان لتلك ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين

﴿ والمعنى : تعبيدك بني إسرائيل نعمة تمنها عليّ .

وقال الزجاج : يجوز أن يكون في موضع نصب ، المعنى أنها صارت نعمة عليّ ، لأن عبدت بني إسرائيل ، أي لو لم تفعل لكفلني أهلي ولم يلقوني في اليم . انتهى .

وقال الحوفي : ﴿ أن عبدت بني إسرائيل ﴾ في موضع نصب مفعول من أجله .

وقال أبو البقاء : بدل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾

(186/566)

وقال أبو السعود :

والفاءُ في قوله تعالى :

﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ العالمين ﴾ لترتيبِ ما بعدها على ما قبلَها من الوعدِ الكريمِ ، وليس هَذا مجرَّدَ تأكيدٍ للأمرِ بالذِّهابِ لأنَّ معناهُ الوصولُ إلى المأتيِّ لا مجرَّدَ التَّوجهِ إليه كالذِّهابِ ، وإفراد الرَّسول إمَّا باعتبارِ رسالةِ كلَ منهُمَا أو لاتِّحادِ مطلبهما أو لأنَّه مصدرٌ وُصفَ به وأنْ في قولِه تعالى : ﴿ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِى إسراءيل ﴾ مفسِّرةٌ لتضمن الإرسالِ المفهومِ من الرَّسولِ معنى القولِ ومعنى إرسالِهم تخليتُهم وشأنَهم ليذهبُوا معهما إلى الشَّامِ .

﴿ قَالَ ﴾ أي فرعونُ لموسى عليه السَّلامُ بعد ما أتياهُ وقالا له ما أُمرا به ، يُروى أنَّهما انطلقا إلى بابِ فرعونَ فلم يُؤذن لهما سنةً حتَّى قال البَوابُ إنَّ ههنا إنساناً يزعمُ أنَّه رسولُ ربِّ العالمين فقال ائذنْ له لعلَّنا نضحكُ فأدِّيا إليه الرِّسالةَ فعرفَ مُوسى عليه السَّلامُ فقال عند ذلك :

﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا ﴾ في حِجرِنا ومنازِلنا ﴿ وَلِيداً ﴾ أي طِفلاً عبر عنه بذلك لقُرب عهده بالولادة ﴿ وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴾ قيل لبثَ فيهم ثلاثين سنةً ثم خرجَ إلى مدينَ وأقام بها عشرَ سنين ثمَّ عاد إليهم يدعُوهم إلى الله عزَّ وجلَّ ثلاثينَ سنة ثم بقي بعدَ الغرقِ خمسينَ سنة وقيل وكز القبطيَّ وهو ابنُ اثنتي عشرةَ سنة وفرَّ منهم على أثرِ ذلك ، والله أعلم .

(187/566)

﴿ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ ﴾ يعني قتلَ القبطيِّ بعد ما عدَّد عليه نعمتَهُ من تربيته وتبليغِه مبلغَ الرِّجال وبَّخه بما جرَى عليه من قتلِ خبَّازه وعظَّم ذلك وفظَّعه . وقُرِئ فِعلتك بكسر الفاء لأنَّها كانتْ نَوْعاً من القتل ﴿ وَأَنتَ مِنَ الكافرين ﴾ أي بنعمتي حيثُ عمدتَ إلى قتلِ رجلٍ من خواصّي أو أنت حينئذٍ ممَّن تكفِّرهم الآنَ وقد افترى عليهِ عليه

الصَّلاةُ والسَّلامُ أو جهلَ أمره عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ حيثُ كان يُعايشهم بالتَّقيةِ وإلا فأينَ هُو عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ من مشاركتِهم في الدّينِ فالجملةُ حينئذٍ حالٌ من إحدى التَّاءينِ ويجوزُ أنْ يكونَ حُكماً . مُبتدأ عليه بأنَّه من الكافرينَ بإلهيته أو ممَّن يكفرُون في دينِهم حيثُ كانتْ لهم آلهةٌ يعبدونها أو من الكافرين بالنّعم المعتادين لغمطها ومن اعتادَ ذلك لا يكونُ مثلُ هذه الجنايةِ بدعاً منْهُ .

(188/566)

﴿ قَالَ ﴾ مجُيباً له مصدّقاً له في القتلِ ومكذّباً فما نسبه إليه من الكفر ﴿ فَعَلْتُهَا إِذاً وَأَنَاْ مِنَ الضالين ﴾ أي من الجاهلينَ وقد قُرِىء كذلك لا من الكافرينَ كما زعمت افتراءً أي من الفاعلين فعلَ الجهالةِ والسُّفهاءِ أو من المخطئين لأنَّه لم يتعمَّد قتلَه بل أرادَ تأديبَه أو الذَّاهبين عمَّا يُؤدّي إليه الوكز أو الناسين كقوله تعالى : ﴿ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأخرى ﴾ ﴿ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ ﴾ إلى ربيّ ﴿ لَمَّا خِفْتُكُمْ ﴾ أنْ تُصيبوني بمضمرةٍ وتؤاخذوني بما لا أستحقُّه بجنايتي من العقابِ ﴿ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْماً ﴾ أي حكمةً أو نُبُوةً ﴿ وَجَعَلَنِى مِنَ المرسلين ﴾ رد أولاً بذلك ما وبَّخه به قدحاً في نبُوته ثم كرَّ على ما عده عليه من النِّعمةِ ولم يصرِّحْ بردِّه حيثُ كان صدقاً غيرَ قادحٍ في دعواه بل نبَّه على أنَّ

ذلك كان في الحقيقةِ نعمةً فقال : ﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِى إسراءيل ﴾ أي تلك التربيةُ نعمةٌ تمنُّ بها عليَّ ظاهراً وهي في الحقيقةِ تعبيدُك بني إسرائيلَ وقصدُك إيَّاهم بذبحِ أبنائِهم فإنَّه السببُ في وقوعي عندكَ وحصولي في تربيتِك وقيل : إنه مقدَّرٌ بهمزةِ الإنكار أي : أوَ تلك نعمة تمنُّها عليَّ وهي أنْ عبَّدتَ بني إسرائيلَ ومحلُّ أنْ عبَّدتَ الرَّفعُ على أنَّه خبرُ مبتدأٍ محذوفٌ أو بدلٌ من نعمةٌ ، أو الجرُّ بإضمارِ الباءِ ، أو النَّصبُ بحذفها وقيل : تلك إشارةٌ إلى خصلةٍ شنعاءَ مبهمةٍ وأنْ عبَّدتَ عطفُ بيانٍ لها والمعنى تعبيدُك بني إسرائيلَ نعمةٌ تمنُّها عليَّ . وتوحيدُ الخطابِ في تمنُّها وجمعه فيما قبلَه لأن المنة منه خاصَّةً والخوفُ والفرارُ منه ومن ملِئه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 6 صـ ﴾

(189/566)

وقال الآلوسى :

والفاء في قوله تعالى :

﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ العالمين ﴾

لترتيب ما بعدها على ما قبلها من الوعد الكريم ، وليس هذا مجرد تأكيد للأمر بالذهاب

لأن معناه الوصول إلى المأتي لا مجرد التوجه إلى المأتي كالذهاب .

وأفرد الرسول هنا لأنه مصدر بحسب الأصل وصف به كما يوصف بغيره من المصادر للمبالغة كرجل عدل فيجري فيه كما يجري فيه من الأوجه ، ولا يخفى الأوجه منها ، وعلى المصدرية ظاهر قول كثير عزة :

لقد كذب الواشون ما فهت عندهم . . .

بسر ولا أرسلتهم برسول

وأظهر منه قول العباس بن مرداس :

إلا من مبلغ عنى خفافا . . .

رسولاً بيت أهلك منتها ها

أو لاتحادهما للأخزة أو لوحدة المرسل أو المرسل به أو لأن قوله تعالى : ﴿ أَنَّا ﴾ بمعنى إن كلامنا فصح إفراد الخبر كما يصح في ذلك ، وفائدته الإشارة إلى أن كلاً منهما مأمور بتبليغ ذلك ولو منفرداً ، وفي التعبير برب العالمين رد على اللعين ونقض لما كان أبرمه من ادعاء الألوهية وحمل لطيف له على امتثال الأمر ، و﴿ إن ﴾ في قوله تعالى :

﴿ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِى إسرائيل ﴾ مفسرة لتضمن الإرسال المفهوم من الرسول معنى القول ، وجوز أبو حيان كونها مصدرية على معنى أنا رسوله عز وجل بالأمر بالإرسال وهو بمعنى الإطلاق والتسريح كما في قولك : أرسلت الحجر من يدي وأرسل الصقر ، والمراد

خلهم يذهبوا معنا إلى فلسطين وكانت مسكنهما عليهما السلام ، وكان بنو إسرائيل قد استعبدوا أربعمائة سنة وكانت عدتهم حين أرسل موسى عليه السلام ستمائة وثلاثين ألفاً على ما ذكره البغوي .

قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (18)

(190/566)

﴿ قَالَ ﴾ أي فرعون لموسى عليه السلام بعد ما أتياه وقالا له ما أمرا به ، ويروى أنهما انطلقا إلى باب فرعون فلم يؤذن لهما سنة حتى قال البواب : إن ههنا إنساناً يزعم أنه رسول رب العالمين فقال : ائذن له لعلنا نضحك منه فأذن له فدخلا فادياً إليه الرسالة فعرف موسى عليه السلام فقال عند ذلك : ﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً ﴾ وفي خبر آخر أنهما أتيا ليلاً فقرع الباب ففزع فرعون وقال : من هذا الذي يضرب بابي هذه الساعة ؟ فأشرف عليهما البواب فكلمهما فقال له موسى : إنا رسول رب العالمين فأتى فرعون وقال : إن ههنا إنساناً مجنوناً يزعم أنه رسول رب العالمين فقال : أدخله فدخل فقال ما قص الله تعالى ، وأراد اللعين من قوله : ﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ ﴾ الخ الامتنان ، و ﴿ فِينَا ﴾ على تقدير المضاف أي منازلنا ، والوليد فعيل بمعنى مفعول يقال لمن قرب عهده بالولادة ، وإن كان على ما قال

الراغب : يصح في الأصل لمن قرب عهده أو بعد كما يقال لما قرب عهده بالاجتناء جنى فإذا كبر سقط عنه هذا الاسم ، وقال بعضهم : كان دلالته على قرب العهد من صيغة المبالغة ، وكون الولادة لا تفاوت فيها نفسها ﴿ وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴾ قيل : لبث فيهم ثلاثين سنة ثم خرج إلى مدين وأقام به عشر سنين ثم عاد إليهم يدعوهم إلى الله تعالى ثلاثين سنة ثم بقي بعد الغرق خمسين ، وقيل : لبث فيهم اثنتي عشرة سنة ففر بعد أن وكز القبطي إلى مدين فأقام به عشر سنين يرعى غنم شعيب عليه السلام ثم ثماني عشرة سنة بعد بنائه على امرأته بنت شعيب فكمل له أربعون سنة فبعثه الله تعالى وعاد إليهم يدعوهم إليه عز وجل والله تعالى أعلم .

وقرأ أبو عمرو في رواية ﴿ مِنْ عُمُرِكَ ﴾ بإسكان الميم ، والجار والمجرور في موضع الحال من ﴿ سِنِينَ ﴾ كما هو المعروف في نعت النكرة إذا قدم .

﴿ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ ﴾ يعني قتل القبطي .

(191/566)

وبخه به بعد ما امتن وعظمه عليه بالإبهام الذي في الموصول ، وأراد في ذلك القدح في نبوته عليه السلام .

وقرأ الشعبي ﴿ فَعْلَتَكَ ﴾ بكسر الفاء يريد الهيئة وكانت قتلة بالوكز ، والفتح في قراءة الجمهور لإرادة المرة ﴿ وَأَنتَ مِنَ الكافرين ﴾ أي بنعمتي حيث عمدت إلى قتل رجل من خواصي كما روي عن ابن زيد أو وأنت حينئذٍ من جملة القوم الذين تدعي كفرهم الآن كما حكي عن السدي ، وهذا الحكم منه بناءً على ما عرفه من ظاهر حاله عليه السلام إذ ذاك لاختلاطه بهم والتقية معهم بعدم الإنكار عليهم وإلا فالأنبياء عليهم السلام معصومون عن الكفر قبل النبوة وبعدها ، وقيل : كان ذلك افتراء منه عليه عليه السلام ، واستبعد بأنه لو علم بإيمانه أولاً لسجنه أو قتله ، والجملة على الاحتمالين في موضع الحال من إحدى التائين في الفعلين السابقين .

وجوز أن يكون ذلك حكماً مبتدأ عليه عليه السلام بأنه من الكافرين بإلهيته كما روي عن الحسن أو ممن يكفرون في دينهم حيث كانت لهم آلهة يعبدونهم أو من الكافرين بالنعم المعتادين لغمطها ومن اعتاد ذلك لا يكون مثل هذه الجناية بدعاً منه ، فالجملة مستأنفة أو معطوفة على ما قبلها ، والأولى عندي ما تقدم من جعل الجملة حالاً لتكون مع نظيرتها في الجواب على طرز واحد لتعين الحالية هناك ولما يتضمن كلام اللعين أمرين تصدى عليه السلام لردهما على سبيل اللف والنشر المشوش فرد أولاً ما وبخه به قدحاً في نبوته أعني قوله : ﴿ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ﴾ الخ اعتناءً بذلك واهتماماً به وذلك بما حكاه سبحانه عنه بقوله جل وعلا :

﴿ قَالَ فَعَلْتُهَا ﴾ أي تلك الفعلة ﴿ إِذاً ﴾ أي إذ ذاك على ما آثره بعض المحققين سقي الله تعالى ثراه من أن ﴿ إِذاً ﴾ ظرف مقطوع عن الإضافة مؤثراً فيه الفتحة على الكسرة لخفتها وكثرة الدور ، وأقر عليه السلام بالقتل لثقته بحفظ الله تعالى له ، وقيد الفعل بما يدفع كونه قادحاً في النبوة وهو جملة ﴿ وَأَنَاْ مِنَ ﴾ أي من الجاهلين وقد جاء كذلك في قراءة ابن عباس .

وابن مسعود كما نقله أبو حيان في "البحر" لكنه قال : ويظهر أن ذاك تفسير للضالين لا قراءة مروية عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأراد عليه السلام بذلك على ما روي عن قتادة أنه فعل ذلك جاهلاً به غير متعمد إياه فإنه عليه السلام إنما تعمد الوكز للتأديب فأدى إلى ما أدى ، وفي معنى ما ذكر ما روي عن ابن زيد من أن المعنى وأنا من الجاهلين بأن وكزتي تأتي على نفسه ، وقيل : المعنى فعلتها مقدماً عليها من غير مبالاة بالعواقب على أن الجهل بمعنى الإقدام من غير مبالاة كما فسر بذلك في قوله :

ألا لا يجلهن أحد علينا . . .

فنجهل فوق جهل الجاهلينا

وهذا مما يحسن على بعض الأوجه في تقرير الجواب المذكور ، قيل : إن الضلال ههنا المحبة كما فسر بذلك في قوله تعالى : ﴿ تالله إِنَّكَ لَفِى ضلالك القديم ﴾ [يوسف : 95] وعنى عليه السلام أنه قتل القبطي غيرة لله تعالى حيث كان عليه السلام من المحبين له عز وجل وهو كما ترى ، ومثله ما قيل أراد من الجاهلين بالشرائع ، وفسر الضلال بذلك في قوله تعالى : ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فهدى ﴾ [الضحى : 7] ، وقال أبو عبيدة : من الناسين ، وفسر الضلال بالنسيان في قوله تعالى : ﴿ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الاخرى ﴾ [البقرة : 282] وعليه قيل المراد فعلتها ناسياً حرمتها ، وقيل : ناسياً أن وكزي ذلك مما يفضي إلى القتل عادة ؛ والذي أميل إليه من بين هذه الأقوال ما روي عن قتادة ، وسيأتي إن شاء الله تعالى في سورة القصص ما يتعلق بهذا المقام .

وأخرج أبو عبيد .

وابن المنذر .

وابن جريج عن ابن مسعود أنه قرأ ﴿ فَعَلْتُهَا وَأَنَاْ مِنَ الضالين ﴾ .

﴿ فَفَرَرْتُ ﴾ أي خرجت هارباً ﴿ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ ﴾ أي حين توقعت مكروهاً يصيبني منكم وذلك حين قيل له : ﴿ إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك ﴾ [القصص : 20] ومن هنا يعلم وجه جمع ضمير الخطاب ، وقرأ حمزة في رواية لما بكسر اللام وتخفيف الميم على أن اللام حرف جر وما مصدرية أي لخوفي إياكم ﴿ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْماً ﴾ أي نبوة أو علماً وفهماً للأشياء على ما هي عليه والأول مروى عن السدي ، وتأول بعضهم ذلك بأنه أراد علماً هو من خواص النبوة فيكون الحكم بهذا المعنى أخص منه بالمعنى الثاني ، وقرأ عيسى ﴿ حُكْمًا ﴾ بضم الكاف ﴿ وَجَعَلَنِى مِنَ المرسلين ﴾ إشارة على ظاهر الأول من تفسيري الحكم إلى تفضله تعالى عليه برتبة هي فوق رتبة النبوة أعني رتبة الرسالة ولم يقل فوهب لي ربي حكماً ورسالة أو وجعلني رسولاً إعظاماً لأمر الرسالة وتنبيهاً لفرعون على أن رسالته عليه السلام ليس أمراً مبتدعاً بل هو مما جرت به سنة الله تعالى شأنه ، وحاصل الرد أن ما ذكرت من نسبة القتل إلى مسلم لكنه ليس مما أوبخ به ويقدح في نبوتي لأنه كان قبل النبوة من غير تعمد حيث كان الوكز للتأديب وترتب عليه ذلك ، ورد ثانياً امتنانه الذي تضمنه قوله : ﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً ﴾ [الشعراء : 18] الخ فقال : ﴿ وَتِلْكَ ﴾ أي التربية المفهومة من قوله : ﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ ﴾ [الشعراء : 18] الخ ﴿ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا ﴾ أي تنعم بها ﴿ عَلَىَّ ﴾ فهو من باب الحذف والإيصال ، وتمن من المنة بمعنى

الإنعام والمضارع لاستحضار الصورة ، وجوز أن يكون من المن والمعنى تلك نعمة تعدها علي فليس هناك حذف وإيصال ، والمضارع قيل على ظاهره من الاستقبال وفيه منع ظاهر ﴿ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِى إسرائيل ﴾ أي ذللتهم واتخذتهم عبيداً يقال : عبدت الرجل وأعبدته إذا اتخذته عبداً .

قال الشاعر :

علام يعبدني قومي وقد كثرت . . .

فيهم أباعر ما شاؤوا وعبدان ؟

(195/566)

وأن وما بعدها في تأويل مصدر مرفوع على أنه خبر مبتدأ محذوف والجملة حالية أو مفسرة أو على أنه بدل من ﴿ تِلْكَ ﴾ أو نعمة أو عطف أو منصوب على أنه بدل من الهاء في ﴿ تَمُنُّهَا ﴾ أو مجرور بتقدير الباء السببية أو اللام على أحد القولين في محل أن وما بعدها بعد حذف الجار ، والقول الآخر أن محله النصب ، وحاصل الرد إن ما ذكرت نعمة ظاهراً وهي في الحقيقة نقمة حيث كانت بسبب إذلال قومي وقصدك إياهم بذبح أبنائهم ولولا ذلك لم أحصل بين يديك ولم أكن في معهد تربيتك ، وقيل : ﴿ تِلْكَ ﴾ إشارة إلى

خصلة شنعاء مبهمة لا يدري ما هي إلا بتفسيرها و﴿ أَنْ عَبَّدتَّ ﴾ عطف بيان لها ، والمعنى تعبيدك بني إسرائيل نعمة تمنها علي ، وحاصل الرد إنكار ما امتن به أيضاً .

ويريد حمل الكلام على رد كون ذلك نعمة في الحقيقة قراءة الضحاك "وتلك نعمة مالك أن تمنها علي" ، وإلى ذلك ذهب قتادة وكذا الأخفش .

والفراء إلا أنهما قالا بتقدير همزة الاستفهام للإنكار بعد الواو ، والأصل وأتلك نعمة الخ ، وأبى بعض النحاة حذف حرف الاستفهام في مثل هذا الموضع .

وقال أبو حيان : الظاهر أن هذا الكلام إقرار منه عليه السلام بنعمة فرعون كأنه يقال : وتربيتك إياي نعمة على من حيث أنك عبدت غيري وتركتني واتخذتني ولداً لكن لا يدفع ذلك رسالتي .

وإلى هذا التأويل ذهب السدي .

والطبري ولس بذاك .

وأياً ما كان فالآية ظاهرة في أن كفر الكافر لا يبطل نعمته .

وذهب بعضهم أن الكفر يبطل النعمة لئلا يجتمع استحقاق المدح واستحقاق الذم ، وفيه أنه لا ضير في ذلك لاختلاف جهتي الاستحقاقين .

هذا وذهب الزمخشري إلى أن ﴿ إِذاً ﴾ في قوله تعالى ﴿ فَعَلْتُهَا إِذاً ﴾ [الشعراء : 20] جواب وجزاء بين وجه كون الكلام جزاء بقوله : قول ﴿ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ﴾ [الشعراء : 19] فيه معنى أنك جازيت نعمتي بما فعلت فقال له موسى عليه السلام : نعم فعلتها مجازياً لك تسليماً لقوله كان نعمته عنده جديرة بأن تجازى بنحو ذلك الجزاء .

واعترض بأن هذا لا يلائم قوله :

﴿ وَأَنَاْ مِنَ الضالين ﴾ [الشعراء : 20] لأنه يدل على أنه اعترف بأنه فعل ذلك جاهلاً أو ناسياً .

وفي "الكشف" تحقيق ما ذكره الزمخشري أن الترتيب الذي هو معنى الشرط والجزاء حاصل ولما كانا ماضيين كان ذلك تقديرياً كأنه قال : إن كان ذلك كفراناً بنعمتك فقد فعلته جزاء ، ولكن الوصف أي كونه كفراناً غير مسلم .

وأمده بقوله : ﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا ﴾ وفيه القول بالموجب أيضاً .

وقوله : ﴿ وَأَنَاْ مِنَ الضالين ﴾ [الشعراء : 20] على هذا كأنه اعتذار ثان أي كنت تستحق ذلك عندي وأيضاً كنت من الحائدين عن منهج الصواب لا في اعتقاد استحقاق مكافأة صنيعك بمثل تلك ولكن في الإقدام قبل الإذن من الملك العلام ، والحاصل أنه نسبه إلى مقابلة الإحسان بالإساءة وقررها بكونه كافراً ، فأجاب عليه السلام بأن المقابلة

حاصلة ولكن أين الإحسان وما كنت كافراً بك فإنه عين الهدى بل ضالاً في الإقدام على الفعل وما كنت كافراً لنعمة منعم أصلاً ولكن كنت فاعلاً لذلك خطأ ، ومنه ظهر أن قوله : ﴿ وَأَنَا مِنَ الضالين ﴾ [الشعراء : 20] لا ينافي تقرير الزمخشري بل يؤيده اه .

(197/566)

ولا يخفى أن الأوفق بحديث الجزاء أن يكون المراد بقوله : فعلتها وأنا من الضالين فعلتها مقدماً عليها من غير مبالاة على أن الضلال بمعنى الجهل المفسر بالإقدام من غير مبالاة لكن التزام كون ﴿ إِذاً ﴾ هنا للجواب والجزاء التزام ما لا يلزم فإن الصحيح الذي قال به الأكثرون أنها قد تتمحض للجواب ، وفي "البحر" أنهم حملوا ما في هذه الآية على ذلك ، وتوجيه كونها للجزاء فيها بما ذكر لا يخلو عن تكلف ، والأظهر عندي معنى ما آثره بعض أفاضل المحققين من أنها ظرف مقطوع عن الإضافة ولا أرى فيه ما يقال سوى أنه معنى لم يذكره أكثر علماء العربية .

وهم لم يحيطوا بكل شيء علماً ، وإن أبيت هذا فهي للجواب فقط ، ومن العجيب قول ابن عطية : إنها هنا صلة في الكلام ثم قوله : وكأنها بمعنى حينئذٍ ولو اكتفى به على أنه تفسير

معنى لكان له وجه فتأمل ، والله تعالى أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 19 صـ ﴾

(198/566)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ طسم (1) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (2) ﴾

قوله ﴿ طسم ﴾ قرأ الأعمش ويحيى بن وثاب وأبو بكر والمفضل وحمزة والكسائي ، وخلف بإمالة الطاء ، وقرأ نافع وأبو جعفر وشيبة والزهري بين اللفظين ، واختار هذه القراءة أبو عبيد وأبو حاتم ، وقرأ الباقون بالفتح مشبعاً .

وقرأ المدنيون وأبو عمرو وعاصم والكسائي بإدغام النون من "طسن" في الميم وقرأ الأعمش وحمزة بإظهارها .

قال الثعلبي : الإدغام اختيار أبي عبيد ، وأبي حاتم .

قال النحاس : وحكى الزجاج في كتابه : " فيما يجري وما لا يجري " أنه يجوز أن يقال : "طاسين ميم" بفتح النون وضم الميم كما يقال : هذا معدى كرب .

وقرأ عيسى ويروى عن نافع بكسر الميم على البناء .

وفي مصحف عبد الله بن مسعود " طسم " هكذا حروفاً مقطعة ، فيوقف على كل حرف وقفة يتميز بها عن غيره ، وكذلك قرأ أبو جعفر ، ومحله الرفع على الابتداء إن كان اسماً للسورة كما ذهب إليه الأكثر ، أو على أنه خبر مبتدأ محذوف ، ويجوز أن يكون في محل نصب بتقدير : اذكر ، أو اقرأ .

وأما إذا كان مسروداً على نمط التعديد كما تقدّم في غير موضع من هذا التفسير ، فلا محلّ له من الإعراب .

وقد قيل : إنه اسم من أسماء الله سبحانه ، وقيل : اسم من أسماء القرآن ، والإشارة بقوله : ﴿ تِلْكَ ءَايَاتُ الكتاب المبين ﴾ إلى السورة ، ومحلها الرفع على أنها وما بعدها خبر للمبتدأ إن جعلنا ﴿ طسم ﴾ مبتدأ ، وإن جعلناه خبراً لمبتدأ محذوف ، فمحلها الرفع على أنه مبتدأ خبره ما بعده ، أو خبر مبتدأ محذوف أو بدل من ﴿ طسما ﴾ والمراد بالكتاب هنا : القرآن ، والمبين : المبين المظهر ، أو البين الظاهر إن كان من أبان بمعنى بان .

(199/566)

﴿ لَعَلَّكَ باخع نَّفْسَكَ ﴾ أي قاتل نفسك ومهلكها ﴿ أَلاَّ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ أي : لعدم إيمانهم بما جئت به والبخع في الأصل : أن يبلغ بالذبح النخاع بالنون : قاموس ، وهو عرق في

القفا ، وقد مضى تحقيق هذا في سورة الكهف ، وقرأ قتادة : " باخع نفسك " بالإضافة .

قرأ الباقون بالقطع قال : الفراء : " أن " في قوله : ﴿ أن لاَ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ في موضع نصب : لأنها جزاء قال النحاس : وإنما يقال : " إن " مكسورة لأنها جزء هكذا التعارف ، والقول في هذا ما قاله الزجاج في كتابه في القرآن إنها في موضع نصب مفعول لأجله ، والمعنى : لعلك قاتل نفسك لتركهم الإيمان ، وفي هذا تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه كان حريصاً على إيمان قومه شديد الأسف لما يراه من إعراضهم ، وجملة : ﴿ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِّنَ السماء ءايَةً ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما سبق من التسلية ، والمعنى : إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية تلجئهم إلى الإيمان ، ولكن قد سبق القضاء بأنا لا ننزل ذلك ، ومعنى ﴿ فَظَلَّتْ أعناقهم لَهَا خاضعين ﴾ : أنهم صاروا منقادين لها أي : فتظلّ أعناقهم إلخ ، قيل : وأصله ، فظلوا لها خاضعين ، فأقحمت الأعناق لزيادة التقرير والتصوير ، لأن الأعناق موضع الخضوع .

وقيل : إنها لما وضعت الأعناق بصفات العقلاء أجريت مجراهم ، ووصفت بما يوصفون به .

قال عيسى بن عمر : خاضعين ، وخاضعة هنا سواء ، واختاره المبرد ، والمعنى : أنها إذا ذلت رقابهم ذلوا ، فالإخبار عن الرقاب إخبار عن أصحابها ، ويسوغ في كلام العرب أن يترك الخبر عن الأوّل ، ويخبر عن الثاني ، ومنه قول الراجز :

طول الليالي أسرعت في نقضي . . . طوين طولي وطوين عرضي

فأخبر عن الليالي ، وترك الطول ، ومنه قول جرير :

أرى مرّ السنين أخذن مني . . . كما أخذ السرار من الهلال

(200/566)

وقال أبو عبيد والكسائي : إن المعنى : خاضعيها هم ، وضعفه النحاس ، وقال مجاهد : أعناقهم : كبراؤهم ، قال النحاس : وهذا معروف في اللغة ، يقال : جاءني عنق من الناس أي : رؤساء منهم .

وقال أبو زيد والأخفش : أعناقهم : جماعاتهم ، يقال : جاءني عنق من الناس أي : جماعة .

﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرحمن مُحْدَثٍ إِلاَّ كَانُواْ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴾ بيّن سبحانه أنه مع اقتداره على أن يجعلهم ملجئين إلى الإيمان يأتيهم بالقرآن حالاً بعد حال ، وأن لا يجدّد لهم موعظة وتذكيراً إلاّ جدّدوا ما هو نقيض المقصود ، وهو الإعراض والتكذيب والاستهزاء ، و "من" في : ﴿ مّن ذِكْرٍ ﴾ مزيدة لتأكيد العموم ، و "من" في ﴿ مّن رَّبِّهِمُ ﴾ لابتداء الغاية ، والاستثناء مفرغ من أعمّ العامّ محله النصب على الحالية من مفعول يأتيهم ، وقد

تقدّم تفسير مثل هذه الآية في سورة الأنبياء ﴿ فَقَدْ كَذَّبُواْ ﴾ أي : بالذكر الذي يأتيهم تكذيباً صريحاً ، ولم يكتفوا بمجرّد الإعراض ، وقيل : إن الإعراض بمعنى التكذيب ، لأن من أعرض عن شيء ولم يقبله ، فقد كذّبه ، وعلى هذا فيكون ذكر التكذيب للدلالة على صدور ذلك منهم على وجه التصريح ، والأوّل أولى ، فالإعراض عن الشيء : عدم الالتفات إليه .

ثم انتقلوا عن هذا إلى ما هو أشدّ منه ، وهو التصريح بالتكذيب ، ثم انتقلوا عن التكذيب إلى ما هو أشدّ منه ، وهو الاستهزاء كما يدلّ عليه قوله : ﴿ فَقَدْ كَذَّبُواْ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَاؤُا مَا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءونَ ﴾ ، والأنباء هي : ما يستحقونه من العقوبة آجلاً وعاجلاً .

وسمّيت أنباء لكونها مما أنبأ عنه القرآن ، وقال : ﴿ مَا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءونَ ﴾ ، ولم يقل : ما كانوا عنه معرضين ، أو ما كانوا به يكذّبون ، لأن الاستهزاء أشدّ منهما ، ومستلزم لهما ، وفي هذا وعيد شديد ، وقد مرّ تفسير مثل هذا في سورة الأنعام .

(201/566)

ثم ذكر سبحانه ما يدلّ على كمال قدرته من الأمور الحسية التي يحصل بها للمتأمل فيها ، والناظر إليها ، والمستدلّ بها أعظم دليل ، وأوضح برهان ، فقال : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى

الأرض كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ الهمزة للتوبيخ ، والواو للعطف على مقدّر كما في نظائره ، فنبّه سبحانه على عظمته وقدرته ، وأن هؤلاء المكذبين المستهزئين لو نظروا حق النظر لعلموا أنه سبحانه الذي يستحق أن يعبد ، والمراد بالزوج هنا : الصنف .

وقال الفراء : هو اللون ، وقال الزجاج : معنى زوج نوع ، وكريم : محمود ، والمعنى : من كل زوج نافع لا يقدر على إنباته إلاّ ربّ العالمين ، والكريم في الأصل : الحسن الشريف ، يقال : نخلة كريمة : أي كثيرة الثمرة ، ورجل كريم : شريف فاضل ، وكتاب كريم : إذا كان مرضياً في معانيه ، والنبات الكريم هو المرضي في منافعه ، قال الشعبي : الناس مثل نبات الأرض ، فمن صار منهم إلى الجنة ، فهو كريم ، ومن صار منهم إلى النار ، فهو لئيم ، والإشارة بقوله : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ﴾ إلى المذكور قبله أي : إن فيما ذكر من الإنبات في الأرض لدلالة بينة ، وعلامة واضحة على كمال قدرة الله سبحانه ، وبديع صنعته ، ثم أخبر سبحانه : بأن أكثر هؤلاء مستمرّ على ضلالته مصمم على جحوده ، وتكذيبه ، واستهزائه ، فقال : ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ أي : سبق علمي فيهم أنهم سيكونون هكذا ، وقال سيبويه : إن ﴿ كان ﴾ هنا صلة ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العزيز الرحيم ﴾ أي : الغالب القاهر لهؤلاء بالانتقام منهم مع كونه كثير الرحمة ، ولذلك أمهلهم ، ولم يعاجلهم بالعقوبة ، أو المعنى : أنه منتقم من أعدائه رحيم بأوليائه .

وجملة ﴿ وَإِذْ نادى رَبُّكَ موسى ﴾ إلخ ، مستأنفة مسوقة لتقرير ما قبلها من الإعراض ، والتكذيب ، والاستهزاء ، والعامل في الظرف محذوف تقديره : واتل إذ نادى أو اذكر ، والنداء : الدعاء ، و "أن" في قوله : ﴿ أَنِ ائت القوم الظالمين ﴾ يجوز أن تكون مفسرة ، وأن تكون مصدرية ، ووصفهم بالظلم .

لأنهم جمعوا بين الكفر الذي ظلموا به أنفسهم وبين المعاصي التي ظلموا بها غيرهم كاستعباد بني إسرائيل ، وذبح أبنائهم .

وانتصاب ﴿ قَوْمِ فِرْعَونَ ﴾ على أنه بدل ، أو عطف بيان من القوم الظالمين ، ومعنى ﴿ أَلاَ يَتَّقُونَ ﴾ : ألا يخافون عقاب الله سبحانه ، فيصرفون عن أنفسهم عقوبة الله بطاعته وقيل المعنى : قل لهم : ألا تتقون ؟ وجاء بالياء التحتية لأنهم غيب وقت الخطاب ، وقرأ عبيد بن عمير ، وأبو حازم : " ألا تتقون " بالفوقية : أي : قل لهم ذلك ، ومثله : ﴿ قُلْ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ ﴾ [آل عمران : 12] بالتحتية والفوقية .

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾ أي قال موسى هذه المقالة ، والمعنى : أخاف أن يكذبوني في الرسالة ﴿ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلاَ يَنطَلِقُ لِسَانِي ﴾ معطوفان على ﴿ أخاف ﴾ أي يضيق صدري لتكذيبهم إياي ، ولا ينطلق لساني بتأدية الرسالة ، قرأ الجمهور برفع ﴿ يَضِيقُ ﴾ ، ﴿ ولا ينطلق ﴾ بالعطف على ﴿ أخاف ﴾ كما ذكرنا ، أو على

الاستئناف ، وقرأ يعقوب وعيسى بن عمر وأبو حيوة بنصبهما عطفاً على ﴿ يكذبون ﴾ .

قال الفراء : كلا القراءتين له وجه ، قال النحاس الوجه .

الرفع ، لأن النصب عطف على ﴿ يكذبون ﴾ وهذا بعيد ﴿ فَأَرْسِلْ إلى هارون ﴾ أي : أرسل إليه جبريل بالوحي ليكون معي رسولاً موازراً مظاهراً معاوناً ، ولم يذكر الموازرة هنا ، لأنها معلومة من غير هذا الموضع ، كقوله في طه : ﴿ واجعل لّي وَزِيراً ﴾ [طه : 29] ، وفي القصص ﴿ أُرْسِلَهُ مَعِىَ رِدْءاً يُصَدّقُنِي ﴾ [القصص : 34] .

(203/566)

وهذا من موسى عليه السلام من باب طلب المعاونة له بإرسال أخيه ، لا من باب الاستعفاء من الرسالة ، ولا من التوقف عن المسارعة بالامتثال : ﴿ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴾ الذنب هو قتله للقبطي ، وسماه ذنباً بحسب زعمهم ، فخاف موسى أن يقتلوه به .

وفيه دليل على أن الخوف قد يحصل مع الأنبياء فضلاً عن الفضلاء .

ثم أجابه سبحانه بما يشتمل على نوع من الردع وطرف من الزجر ﴿ قَالَ كَلاَّ فاذهبا

بآياتنا ﴾ وفي ضمن هذا الجواب إجابة موسى إلى ما طلبه من ضم أخيه إليه كما يدلّ عليه توجيه الخطاب إليهما كأنه قال : ارتدع يا موسى عن ذلك ، واذهب أنت ومن استدعيته ، ولا تخف من القبط ﴿ إِنَّا مَعَكُمْ مُّسْتَمِعُونَ ﴾ ، وفي هذا تعليل للردع عن الخوف ، وهو كقوله سبحانه : ﴿ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وأرى ﴾ [طه : 46] ، وأراد بذلك سبحانه تقوية قلوبهما ، وأنه متولّ لحفظهما ، وكلاءتهما ، وأجراهما مجرى الجمع فقال : ﴿ مَّعَكُمْ ﴾ لكون الاثنين أقلّ الجمع على ما ذهب إليه بعض الأئمة ، أو لكونه أراد موسى وهارون ومن أرسلا إليه ، ويجوز أن يكون المراد : هما مع بني إسرائيل ، و ﴿ معكم ﴾ ، و ﴿ مستمعون ﴾ خبران لأنّ ، أو الخبر ﴿ مستمعون ﴾ ، و ﴿ معكم ﴾ متعلق به ، ولا يخفى ما في المعية من المجاز ، لأن المصاحبة من صفات الأجسام ، فالمراد : معية النصرة والمعونة ﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ العالمين ﴾ الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها ، ووحد الرسول هنا ، ولم يثنه كما في قوله : ﴿ إِنَّا رَسُولاَ رَبِّكَ ﴾ [طه : 47] ؛ لأنه مصدر بمعنى : رسالة ، والمصدر يوحد ، وأما إذا كان بمعنى المرسل ، فإنه يثنى مع المثنى ، ويجمع مع الجمع ، قال أبو عبيدة : رسول بمعنى رسالة ، والتقدير على هذا : إنا ذوا رسالة ربّ العالمين ، ومنه قول الشاعر :

ألا أبلغ أبا عمرو رسولا . . . فإني عن فتاحتكم غنى

أي : رسالة .

وقال العباس بن مرداس :

ألا من مبلغ عني خفافا . . . رسولا بيت أهلك منتهاها

أي : رسالة .

قال أبو عبيدة أيضاً ، ويجوز أن يكون الرسول بمعنى الاثنين والجمع ، تقول العرب : هذا رسولي ووكيلي ، وهذان : رسولي ووكيلي ، وهؤلاء رسولي ووكيلي ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي ﴾ [الشعراء : 77] وقيل معناه : إن كل واحد منا رسول رب العالمين ، وقيل : إنهما لما كانا متعاضدين متساندين في الرسالة كانا بمنزلة رسول واحد ، و "أن" في قوله : ﴿ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إسراءيل ﴾ مفسرة لتضمن الإرسال المفهوم من الرسول ، معنى القول : ﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً ﴾ أي قال فرعون لموسى بعد أن أتياه ، وقالا له ما أمرهما الله به ، ومعنى ﴿ فينا ﴾ : أي في حجرنا ومنازلنا ، أراد بذلك المنّ عليه ، والاحتقار له أي ربيناك لدينا صغيراً ، ولم نقتلك فيمن قتلنا من الأطفال .

﴿ وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴾ فمتى كان هذا الذي تدّعيه ؟ قيل : لبث فيهم ثماني عشرة سنة ، وقيل : ثلاثين سنة .

وقيل : أربعين سنة .

ثم قرّرت بقتل القبطي ، فقال : ﴿ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ التي فَعَلْتَ ﴾ الفعلة بفتح الفاء : المرّة من الفعل ، وقرأ الشعبي : " فعلتك " بكسر الفاء ، والفتح أولى ؛ لأنها للمرّة الواحدة لا للنوع ، والمعنى : أنه لما عدّد عليه النعم ذكر له ذنوبه ، وأراد بالفعل قتل القبطي ، ثم قال : ﴿ وَأَنتَ مِنَ الكافرين ﴾ أي من الكافرين للنعمة حيث قتلت رجلاً من أصحابي ، وقيل : المعنى : من الكافرين بأن فرعون إله ، وقيل : من الكافرين بالله في زعمه ؛ لأنه كان معهم على دينهم ، والجملة في محل نصب على الحال .

﴿ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذاً وَأَنَاْ مِنَ الضالين ﴾ أي قال موسى مجيباً لفرعون : فعلت هذه الفعلة التي ذكرت ، وهي قتل القبطي ، وأنا إذ ذاك من الضالين أي : الجاهلين .

(205/566)

فنفى عليه السلام عن نفسه الكفر ، وأخبر أنه فعل ذلك على الجهل قبل أن يأتيه العلم الذي علمه الله ، وقيل : المعنى : من الجاهلين أن تلك الوكزة تبلغ القتل ، وقال أبو عبيدة : من الناسين ﴿ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ ﴾ أي : خرجت من بينكم إلى مدين كما في سورة القصص ﴿ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْماً ﴾ أي نبوّة أو علماً وفهماً .

وقال الزّجاج: المراد بالحكم تعليمه التوراة التي فيها حكم الله ﴿ وَجَعَلَنِي مِنَ المرسلين * وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إسراءيل ﴾ قيل: هذا الكلام من موسى على جهة الإقرار بالنعمة، كأنه قال: نعم تلك التربية نعمة تمنّ بها عليّ، ولكن لا يدفع ذلك رسالتي، وبهذا قال الفراء وابن جرير.

وقيل: هو من موسى على جهة الإنكار: أي: أتمنّ عليّ بأن ربيتني وليداً، وأنت قد استعبدت بني إسرائيل وقتلتهم، وهم قومي؟ قال الزجاج: المفسّرون أخرجوا هذا على جهة الإنكار: بأن يكون ما ذكر فرعون نعمة على موسى، واللفظ لفظ خبر، وفيه تبكيت للمخاطب على معنى: أنك لو كنت لا تقتل أبناء بني إسرائيل لكانت أمي مستغنية عن قذفي في اليمّ، فكأنك تمنّ عليّ ما كان بلاؤك سبباً له، وذكر نحوه الأزهري بأبسط منه، وقال المبرد: يقول التربية كانت بالسبب الذي ذكرت من التعبيد أي تربيتك إياي كانت لأجل التملك، والقهر لقومي، وقيل: إن في الكلام تقدير الاستفهام أي أو تلك نعمة؟ قاله الأخفش، وأنكره النحاس.

قال الفراء: ومن قال: إن الكلام إنكار قال معناه: أو تلك نعمة؟ ومعنى ﴿ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إسراءيل ﴾: أن اتخذتهم عبيداً، يقال: عبدته وأعبدته بمعنى، كذا قال الفراء، ومحله الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف بدل من نعمة، والجر بإضمار الباء، والنصب

بحذفها .

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس ﴿ فَظَلَّتْ أعناقهم لَهَا خاضعين ﴾ قال : ذليلين .

(206/566)

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة : ﴿ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ ﴾ قال : قتل النفس .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ التي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الكافرين ﴾ قال : للنعمة ، وإن فرعون لم يكن ليعلم ما الكفر ؟ وفي قوله : ﴿ فَعَلْتُهَا إِذاً وَأَنَاْ مِنَ الضالين ﴾ قال : من الجاهلين .

وأخرج الفريابي وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد : ﴿ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إسراءيل ﴾ قال : قهرتهم واستعملتهم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ فتح القدير حـ 4 صـ ﴾

(207/566)

وقال ابن عاشور :

﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (16) ﴾

والرسول : فَعُول بمعنى مُفعَل ، أي مُرسل .

والأصل فيه مطابقة موصوفه ، بخلاف فعول بمعنى فاعل فحقه عدم المطابقة سماعاً ، وفعول بمعنى اسم المفعول قليل في كلامهم ومنه : بقرة ذَلول ، وقولهم : صَبُوح ، لما يشرب في الصباح ، وغبوق ، لما يشرب في العشي ، والنَّشوق ، لما ينشق من دواء ونحوه .

ولكن رسول يجوز فيه أن يُجرى مجرى المصدر فلا يطابق ما يجري عليه في تأنيث وما عدا الإفراد ، وورد في كلامهم بالوجهين تارة مُلازماً الإفراد والتذكير كما في هذه الآية ، وورد مطابقاً كما في قوله تعالى : ﴿ فقولا إنّا رسولا ربك ﴾ في سورة [طَه : 47] ، فذهب الجوهري إلى أنه مشترك بين كونه اسماً بمعنى مَفعول وبين كونه اسم مصدر ولم يجعله مصدراً إذ لا يعرف فعول مصدراً لغير الثلاثي ، واحتج بقول الأشْعَر الجعفي:

ألا أَبلِغ بني عَمرو رسولاً . . .

بأني عن فُتاحِتِكُم غَنِيُّ

[الفتاحة : الحكم] .

وتبعه الزمخشري في هذه الآية إذ قال : الرسول يكون بمعنى المرسَل وبمعنى الرسالة فجُعل ثَمَّ (أي في قوله : ﴿ إنا رسولا ربّك ﴾ في سورة [طه : 47]) بمعنى المرْسَل ، وجُعل

هنا بمعنى الرسالة .

وقد قال أبو ذؤيب الهذلي:

أَلِكْنِي إليها وخير الرسُو . . .

ل أعلَمُهُم بنواحي الخبر

فهل من ريبة في أن ضمير الرسول في البيت مراد به المرسلون .

وتصريح النحاة بأن فَعولاً الذي بمعنى المفعول يجوز إجراؤه على حالة المتّصِفِ به من التذكير والتأنيث فيجوز أن تقول : ناقَة رَكُوبة ورَكُوب ، يقتضي أن التثنية والجمعَ فيه مثل التأنيث .

وقد تقدمت الإشارة إلى هذا في سورة طه وأحلنا تحقيقه على ما هنا .

ومبادأة خطابهما فرعونَ بأن وصفا الله بصفة ربّ العالمين مجابهة لفرعون بأنه مربوب وليس بربّ ، وإثبات ربوبية الله تعالى للعالمين .

(208/566)

والنفي يقتضي وحدانية الله تعالى لأن العالمين شامل جميعَ الكائِنات فيشمل معبودات القبط كالشمس وغيرها ، فهذه كلمة جامعة لما يجب اعتقاده يومئذ .

وجملة : ﴿ أن أرسل معنا بني إسرائيل ﴾ تفسيرية لما تضمنه ﴿ رسُول ﴾ من الرسالة التي هي في معنى القول ، أي هذا قول ربّ العالمين لك .

و ﴿ أَرْسِل معنا ﴾ أَطلِقْ ولا تحبسهم ، فالإرسال هنا ليس بمعنى التوجيه .

وهذا الكلام يتضمن أن موسى أُمر بإخراج بني إسرائيل من بلاد الفراعنة لقصد تحريرهم من استعباد المصريين كما سيأتي عند قوله تعالى : ﴿ أن عبَّدْتَ بني إسرائيل ﴾ [الشعراء : 22] ، وقد تقدم في سورة البقرة بيان أسباب سكنى بني إسرائيل بأرض مصر ومواطنهم بها وعملهم لفرعون .

قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (18)

طوي من الكلام ذهاب موسى وهارون إلى فرعون واستئذانهما عليه وإبلاغهما ما أمرهما الله أن يقولا لفرعون إيجازاً للكلام .

ووجَّه فرعون خطابه إلى موسى وحده لأنه علم من تفصيل كلام موسى وهارون أن موسى هو الرسول بالأصالة وأن هارون كان عوناً له على التبليغ فلم يشتغل بالكلام مع هارون .

وأعرض فرعون عن الاعتناء بإبطال دعوة موسى فعدل إلى تذكيره بنعمة الفراعنة أسلافه على موسى وتخويفه من جنايته حسباناً بأن ذلك يقتلع الدعوة من جذمها ويكف موسى عنها ، وقصدُه من هذا الخطاب إفحام موسى كي يتلعثم من خشيةِ فرعون حيث أوجد له

سبباً يتذرع به إلى قتله ويكون معذوراً فيه حيث كفر نعمة الولاية بالتربية ، واقترف جرم الجناية على الأنفس .

(209/566)

والاستفهام تقريري ، وجعل التقرير على نفي التربية مع أن المقصود الإقرار بوقوع التربية مجاراة لحال موسى في نظر فرعون إذ رأى في هذا الكلام جرأة عليه لا تناسب حال مَن هو ممنون لأُسرته بالتربية لأنها تقتضي المحبة والبر ، فكأنه يرخي له العنان بتلقين أن يجحد أنه مربًّى فيهم حتى إذا أقر ولم ينكر كان الإقرار سالماً من التعلل بخوف أو ضغط ، فهذا وجه تسليط الاستفهام التقريري على النفي في حينَ أن المقرر به ثابت .

وهذا كما تقول للرجل الذي طال عهدك برؤيته : ألستَ فلاناً ، ومثله كثير .

ومنه قول الحجاج في خطبته يوم دَيْر الجماجم يهدد الخوارج "ألستُم أصحابِي بالأهواز" .

والتقرير مستعمل في لازمه وهو أن يقابل المقرَّر عليه بالبر والطاعة لا بالجفاء ، ويجوز أن يجعل الاستفهام إنكارياً عليه لأن لسان حال مُوسى في نظر فرعون حال من يجحد أنه مربًّى فيهم ومن يظن نسيانهم لفعلته فأنكر فرعون عليه ذلك ، وكلا الوجهين لا يخلو من تنزيل موسى منزلة من يجحد ذلك .

والتربية : كفالة الصبي وتدبير شؤونه .

ومعنى ﴿ فينا ﴾ في عائلتنا ، أي عائلة ملك مصر .

والوليد : الطفل من وقت ولادته وما يقاربها فإذا نمى لم يُسم وليداً وسمي طفلاً ، ويعني بذلك التقاطه من نهر النيل .

وذلك أن موسى ربّي عند (رعمسيس الثاني) من ملوك العائلة التاسعة عشرة من عائلات فراعنة مصر حسب ترتيب المحققين من المؤرخين .

وخرج موسى من مصر بعد أن قتل القبطّي وعمرُه أربعون سنة لقوله تعالى : ﴿ ولما بلغ أشُدَّه واستوى أتيناه حكماً إلى قوله : ﴿ ودخل المدينة ﴾ [القصص : 14 ، 15] الآية وبُعث وعمرُه ثمانون سنة حسبما في التوراة .

وكان فرعون الذي بعث إليه موسى هو (منفتاح الثاني ابن رعمسيس الثاني) وهو الذي خلفه في الملك بعد وفاته أواسط القرن الخامس عشر قبل المسيح ، فلا جرم كان موسى مربّى والده ، فلذلك قال له : ألم نُرَبِّك فينا وليداً ، ولعله رُبِّيَ مع فرعون هذا كالأخ .

(210/566)

والسنين التي لبثها موسى فيهم هي نحو أربعين سنة .

والفَعْلة : المرة الواحدة من الفِعل ، وأراد بها الحاصل بالمصدر كما اقتضته إضافتها إلى ضمير المخاطب ، وأراد بالفعلة قتلَه القبطي ، قيل هو خَبَّاز فرعون .

وعبر عنها بالموصول لعلم موسى بها ، وفي ذلك تهويل للفعلة يكنى به عن تذكيره بما يوجب توبيخه .

وفي العدول عن ذكر فَعلة معيَّنة إلى ذكرها مبهمة مضافةً إلى ضميره ثم وصفها بما لا يزيد على معنى الموصوف تهويلٌ مرادٌ به التفظيع وأنها مشتهرة معلومة مع تحقيق إلصاق تبعتها به حتى لا يجد تنصلاً منها .

وجملة : ﴿ وأنت من الكافرين ﴾ حال من ضمير ﴿ فعلت ﴾ .

والمراد به كفر نعمة فرعون من حيث اعتدى على أحد خاصّته وموالي آله ، وكان ذلك انتصاراً لرجل من بني إسرائيل الذين يعُدُّونهم عبيدَ فرعون وعبيدَ قومه ، فجَعل فرعونُ انتصارَ موسى لرجل من عشيرته كفراناً لنعمة فرعون لأنه يرى واجب موسى أن يعُدّ نفسه من قوم فرعون فلا ينتصر لإسرائيلي ، وفي هذا إعمال أحكام التبني وإهمال أحكام النسب وهو قلبُ حقائق وفسادُ وضع .

قال تعالى : ﴿ وما جَعل أدعياءَكم أبناءَكم ذلكم قولُكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدي السبيل ﴾ [الأحزاب : 4] .

وليس المراد الكفر بديانة فرعون لأن موسى لم يكن يوم قتل القبطي متظاهراً بأنه على خلاف دينهم وإن كان في باطنه كذلك لأن الأنبياء معصومون من الكفر قبل النبوءة وبعدها .

ويجوز أن تكون جملة : ﴿ وأنت من الكافرين ﴾ عطفاً على الجُمل التي قبلها التي هي توبيخ ولوم ، فوبخه على تقدم رعيه تربيتَهم إياه فيما مضى ، ثم وبّخه على كونه كافراً بدينهم في الحال ، لأن قوله : ﴿ من الكافرين ﴾ حقيقة في الحال إذ هو اسم فاعل واسم الفاعل حقيقة في الحال .

(211/566)

ويجوز أن يكونَ المعنى : وأنت حينئذ من الكافرين بديننا ، استناداً منه إلى ما بدا من قرائنَ دلّته على استخفاف موسى بدينهم فيما مضى لأن دينهم يقتضي الإخلاص لفرعون وإهانةَ من يهينهم فرعون .

ولعل هذا هو السبب في عزم فرعون على أن يقتصّ من موسى للقبطي لأن الاعتداء عليه كان مصحوباً باستخفاف بفرعون وقومه .

ويفيد الكلام بجذافره تعجباً من انتصاب موسى منصب المرشد مع ما اقترفه من النقائص

في نظر فرعون المنافية لدعوى كونه رسولاً من الربّ .

قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ (20)

كانت رباطة جأش موسى وتوكّله على ربّه باعثةً له على الاعتراف بالفعلة وذكر ما نشأ عنها من خيرٍ له ، ليدل على أنه حَمِد أثرها وإن كان قد اقترفها غير مُقَدِّر ما جرّته إليه من خير ؛ فابتدأ بالإقرار بفعلته ليعلم فرعون أنه لم يجد لكلامه مدخل تأثير في نفس مُوسى .

وأخر موسى الجواب عن قول فرعون ﴿ ألم نربّك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك سنين ﴾ [الشعراء : 18] لأنه علم أن القصد منه الإقصارُ من مواجهته بأن ربّاً أعلى من فرعون أرسل موسى إليه .

وابتدأ بالجواب عن الأهم من كلام فرعون وهو ﴿ وفعلتَ فعلتك ﴾ [الشعراء : 19] لأنه علم أنه أدخل في قصد الإفحام ، وليظهر لفرعون أنه لا يَوْجَل من أن يطالبوه بذَحل ذلك القتيل ثقة بأن الله ينجيه من عدوانهم .

وكلمة ﴿ إذاً ﴾ هنا حرف جواب وجزاء ، فنونُه الساكنة ليست تنويناً بل حرفاً أصلياً للكلمة ، وقدم ﴿ فعلتها ﴾ على (إذن) مبادرةً بالإقرار ليَكون كناية عن عدم خشيته من هذا الإقرار .

ومعنى المجازاة هنا ما بيّنه في "الكشاف" : أن قول فرعون ﴿ فعلتَ فعلتك ﴾ [الشعراء : 19] يتضمن معنى جازيتَ نعمتنا بما فعلتَ ؛ فقال له موسى : نعم فعلتها مُجازيا لك ،

تسليماً لقوله ، لأن نعمته كانت جديرة بأن تجازى بمثل ذلك الجزاء .

وهذا أظهر ما قيل في تفسير هذه الآية .

(212/566)

وقال القزويني في "حاشية الكشاف" قال بعض المحققين : ﴿ إذاً ﴾ ظرف مقطوع عن الإضافة مُؤْثَراً فيه الفتح على الكسر لخفته وكثرة الدوران ، ولعله يعني ببعض المحققين رضي الدِّين الاسترابادي في "شرح الكافية الحاجبية" فإنه قال في باب الظروف : والحق أن (إذْ) إذا حذف المضاف إليه منه وأبدل منه التنوين في غير نحو يومئذ ، جاز فتحه أيضاً ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فعلتها إذاً وأنا من الضالين ﴾ أي فعلتها إذْ ربَّيتني ، إذ لا معنى للجزاء ههنا أهـ .

فيكون متعلقاً بـ ﴿ فعلتُها ﴾ مقطوعاً عن الإضافة لفظاً لدلالة العامل على المضاف إليه .

والمعنى : فعلتُها زمناً فعلتُها ، فتذكيري بها بعد زمن طويل لا جدوى له .

وهذا الوجه في ﴿ إذاً ﴾ في الآية هو مختار ابن عطية والرضي في "شرح الحاجبية" والدماميني في "المزج على المغني" ، وظاهر كلام القزويني في "الكشف على الكشاف" أنه يختاره .

ومعنى الجزاء في قوله : ﴿ فعلتها إذاً ﴾ أن قول فرعون ﴿ وفعلتَ فعلتك التي فعلت ﴾ [الشعراء : 19] قصد به إفحام موسى وتهديده ، فجعل موسى الاعتراف بالفعلة جزاء لذلك التهديد على طريقة القول بالموجَب ، أي لا أتهيّب ما أردت .

وجعل مُوسى نفسه من الضالين إن كان مراد كلامه الذي حكت الآية معناه إلى العربية المعنَى المشهورَ للضلال في العربية وهو ضلال الفساد فيكون مراده : أن سَوْرة الغضب أغفلته عن مراعاة حرمة النفس وإن لم يكن يومئذ شريعة (فإن حفظ النفوس مما اتفق عليه شرائع البشر وتوارثوه في الفِتَر ، ويؤيد هذا قوله في الآية الأخرى

﴿ قال ربّ إني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له ﴾ [القصص : 16]) ؛ وإن كان مراده معنى ضلال الطريق ، أي كنت يومئذ على غير معرفة بالحق لعدم وجود شريعة ، وهو معنى الجهالة كقوله تعالى : ﴿ ووجدك ضالاً فهدى ﴾ [الضحى : 7] فالأمر ظاهر .

(213/566)

وعلى كلا الوجهين فجواب موسى فيه اعتراف بظاهر التقرير وإبطال لما يستتبعه من جعله حجة لتكذيبه برسالته عن الله ، ولذلك قابل قول فرعون ﴿ وأنت من الكافرين ﴾ [الشعراء : 19] بقوله : ﴿ وأنا من الضالين ﴾ إبطالاً لأن يكون يومئذ كافراً ، ولذلك كان

هذا أهم بالإبطال .

وبهذا يظهر وجه الاسترسال في الجواب بقوله : ﴿ فوهب لي ربي حكماً وجعلني من المرسلين ﴾ ، أي فكان فراري قد عقبه أن الله أنعم عليّ فأصلح حالي وعلمني وهداني وأرسلني .

فليس ذلك من موسى مجرد إطناب بل لأنه يفيد معنى أن الإنسان ابن يومه لا ابنُ أمسِه ، والأحوال بأوَاخرها فلا عجب فيما قصدتَ فإن الله أعلم حيث يجعل رسالاته .

وقوله : ﴿ ففررت منكم ﴾ أي فراراً مبتدئاً منكم ، لأنهم سبب فراره ، وهو بتقدير مضاف ، أي من خوفكم .

والضمير لفرعون وقومِه الذين ائتمروا على قتل موسى ، كما قال تعالى : ﴿ وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى قال يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك ﴾ [القصص : 20] .

والحكم : الحِكمة والعلم ، وأراد بها النبوءة وهي الدرجة الأولى حين كلمه ربّه .

ثم قال : ﴿ وجعلني من المرسلين ﴾ أي بعد أن أظهر له المعجزة وقال له : ﴿ إني اصطفيتك على الناس ﴾ [الأعراف : 144] أرسله بقوله : ﴿ اذهَب إلى فرعون إنه طغى ﴾ [طه : 24] .

ثم عاد إلى أول الكلام فكرّ على امتنانه عليه بالتربية فأبطله وأبى أن يسميه نعمة ، فقوله : ﴿ وتلك نعمة ﴾ إشارة إلى النعمة التي اقتضاها الامتنان في كلام فرعون إذ الامتنان لا

يكون إلا بنعمة .

ثم إن جعلت جملة ﴿ أن عبدت ﴾ بياناً لاسم الإشارة كان ذلك لزيادة تقرير المعنى مع ما فيه من قلب مقصود فرعون وهو على حد قوله تعالى : ﴿ وقضينا إليه ذلك الأمر أنّ دابرَ هؤلاء مقطوعٌ مصبحين ﴾ [الحجر : 66] إذ قوله ﴿ أن دابر هؤلاء ﴾ بيان لقوله : ﴿ ذلك الأمر ﴾ .

(214/566)

ويجوز أن يكون ﴿ أن عبدت ﴾ في محل نصب على نزع الخافض وهو لام التعليل والتقدير : لأن عبَّدتَّ بني إسرائيل .

وقيل الكلام استفهام بحذف الهمزة وهو استفهام إنكار .

ومعنى ﴿ عبدت ﴾ ذلَّلت ، يقال : عبَّد كما يقال : أعبد بهمزة التعدية .

أنشد أئمة اللغة:

حتّامَ يُعْبِدني قومي وقد كَثُرتْ . . .

فيهم آباعِرُ ما شاءوا وَعُبدان

وكلام موسى على التقادير الثلاثة نقض لامتنان فرعون بقلب النعمة نقمة بتذكيره أن نعمة

تربيته ما كانت إلا بسبب إذلال بني إسرائيل إذ أمر فرعون باستئصال أطفال بني إسرائيل الذي تسبب عليه إلقاء أمّ موسى بطفلها في اليمّ حيث عثرت عليه امرأة فرعون ومن معها من حاشيتها وكانوا قد علموا أنه من أطفال إسرائيل بسِماتتِ وجهه ولون جلده ، ولذلك قالت امرأة فرعون ﴿ قُرتُ عين لي ولك لا تَقتلُوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً ﴾ [القصص : 9] .

وفيه أن الإحسان إليه مع الإساءة إلى قومه لا يزيد إحساناً ولا منة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 19 صـ ﴾

(215/566)

وقال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى في كلام فرعون لموسى : ﴿ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ التي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الكافرين ﴾ .

أبهم جل وعلا هذه الفعلة التي فعلها لتعبيره عنها بالاسم المبهم الذي هو الموصول في قوله : التي فعلت ، وقد أوضحها في آيات أخر ، وبين أن الفعلة المذكورة هي قتله نفساً منهم كقوله تعالى : ﴿ فَوَكَزَهُ موسى فقضى عَلَيْهِ ﴾ [القصص : 15] . وقوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْساً ﴾ [القصص : 33] الآية . وقوله عن الإسرائيلي الذي استغاث

بموسى مرتين : ﴿ قَالَ يا موسى أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بالأمس إِن تُرِيدُ إِلاَّ أَن تَكُونَ جَبَّاراً فِي الأرض وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ المصلحين ﴾ [القصص : 19] .

وأظهر الأقوال عندي في معنى قوله : ﴿ وَأَنتَ مِنَ الكافرين ﴾ : أن المراد به كفر النعمة ، يعني أنعمنا عليك بتربيتنا إياك صغيراً ، وإحساننا إليك تتقلب في نعمتنا فكفرت نعمتنا ، وقابلت إحساننا بالإساءة لقتلك نفساً منا ، وباقي الأقوال تركناه لأن هذا أظهرها عندنا .

وقال بعض أهل العلم : رد موسى على فرعون امتنانه عليه بالتربية بقوله ﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ [الشعراء : 22] يعني تعبيدك لقومي ، وإهانتك لهم لا يعتبر معه إحسانك إلا لأني رجل واحد منهم . والعلم عند الله تعالى .

(216/566)

قَالَ فَعَلْتُهَا إِذاً وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ (20)

أي قال موسى مجيباً لفرعون : فعلتها إذاً : أي إذ فعلتها وأنا في ذلك الحين من الضالين : أي قبل أن يوحي الله إلي ، ويبعثني رسولاً ، وهذا هو التحقيق إن شاء الله في معنى الآية .

وقول من قال من أهل العلم : وأنا من الضالين ، أي من الجاهلين ، راجع إلى ما ذكرنا ، لأنه

بالنسبة إلى ما علمه الله من الوحي يعتبر قبله جاهلاً : أي غير عالم بما أوحى الله إليه .

وقد بينا مراراً في هذا الكتاب المبارك أن لفظ الضلال يطلق في القرآن وفي اللغة العربية ثلاثة إطلاقات .

الإطلاق الأول : يطلق الضلال مراداً به الذهاب عن حقيقة الشيء . فتقول العرب في كل من ذهب عن علم حقيقة شيء ضل عنه ، وهذا الضلال ذهاب عن علم شيء ما ، وليس من الضلال في الدين .

ومن هذا المعنى قوله هنا : وأنا من الضالين : أي من الذاهبين عن علم حقيقة العلوم ، والأسرار التي لا تعلم إلا عن طريق الوحي ، لأني في ذلك الوقت لم يوح إلي ومنه على التحقيق : ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فهدى ﴾ [الضحى : 7] أي ذاهباً عما علمك من العلوم التي لا تدرك إلا بالوحي .

(217/566)

ومن هذا المعنى قوله تعالى : ﴿ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لاَّ يَضِلُّ رَبِّي وَلاَ يَنسَى ﴾ [طه : 52] فقوله : ﴿ لاَّ يَضِلُّ رَبِّي ﴾ أي لا يذهب عنه علم شيء كائناً ما كان ، وقوله تعالى : ﴿ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وامرأتان مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشهدآء أَن تَضِلَّ

إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأخرى ﴾ [البقرة : 282] فقوله : أن تضل إحداهما : أي تذهب عن علم حقيقة المشهود به بدليل قوله بعده : فتذكر إحداهما الأخرى ، وقوله تعالى عن أولاده يعقوب : ﴿ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [يوسف : 8] وقوله : ﴿ قَالُواْ تَاللّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ القديم ﴾ [يوسف : 95] على التحقيق في ذلك كله . ومن هذا المعنى قول الشاعر :

وتظن سلمى أنني أبغي بها . . . بدلاً أراها في الضلال تهيم

والإطلاق الثاني وهو المشهور في اللغة ، وفي القرآن هو إطلاق الضلال على الذهاب عن طريق الإيمان إلى الكفر ، وعن طريق الحق إلى الباطل ، وعن طريق الجنة إلى النار ومنه قوله تعالى : ﴿ غَيْرِ المغضوب عَلَيْهِم وَلاَ الضآلين ﴾ [الفاتحة : 7] .

والإطلاق الثالث : هو إطلاق الضلال على الغيبوبة والاضمحلال ، تقول العرب : ضل الشيء إذا غاب واضمحل ، ومنه قولهم : ضل السمن في الطعام ، إذا غاب فيه واضمحل ، ولأجل هذا سمت العرب الدفن في القبر إضلالاً ، لأن المدفون تأكله الأرض فيغيب فيها ويضمحل .

ومن هذا المعنى قوله تعالى : ﴿ وقالوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الأرض ﴾ [السجدة : 10] الآية يعنون إذا دفنوا وأكلتهم الأرض ، فضلوا فيها : أي غابوا فيها واضمحلوا .

ومن إطلاقهم الإضلال على الدفن ، قول نابغة ذبيان يرثي النعمان بن الحرث بن أبي شمر

الغساني :

فإن تحيى لا أملك حياتي وإن تمت . . . فما في حياة بعد موتك طائل

فآب مضلوه بعين جلية . . . وغودر بالجولان حزم ونائل

(218/566)

وقول المخبل السعدي يرثي قيس بن عاصم :

أضلت بنو قيس بن سعد عميدها . . . وفارسها في الدهر قيس بن عاصم

فقول الذبياني : فآب مضلوه : يعني فرجع دافنوه ، وقول السعدي :

أضلت أي دفنت ، ومن إطلاق الضلال أيضاً على الغيبة والاضمحلال قول الأخطل :

كنت القذى في موج أكدر مزبد . . . قذف الآتي به فضل ضلالا

وقول الآخر :

ألم تسأل فتخبرك الديار . . . عن الحي المضلل أين ساروا

وزعم بعض أهل العلم : أن للضلال إطلاقاً رابعاً : قال : ويطلق أيضاً على المحبة قال : ومنه قوله : ﴿ قَالُواْ تَاللّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلاَلِكَ القديم ﴾ [يوسف : 95] قال أي في حبك القديم ليوسفن قال ومنه قول الشاعر :

هذا الضلال أشاب مني المفرقا . . . والعارضين ولم أكن متحققا

عجباً لعزة في اختار قطيعتي . . . بعد الضلال فحبلها قد أخلقا

وزعم أيضاً أن منه قوله ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فهدى ﴾ [الضحى : 7] قال أي محباً للهداية فهداك ، ولا يخفى سقوط هذا القول . والعلم عند الله تعالى .

(219/566)

قوله تعالى عن نبيه موسى : ﴿ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ ﴾ .

خوفه منهم هذا الذي ذكر هنا أنه سبب لفراره منهم ، قد أوضحه تعالى وبين سببه في قوله : ﴿ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى المدينة يسعى قَالَ يا موسى إِنَّ الملأ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فاخرج إِنِّي لَكَ مِنَ الناصحين فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفاً يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ القوم الظالمين ﴾ [القصص : 2021] وبين خوفه المذكور بقوله تعالى : ﴿ فَأَصْبَحَ فِي المدينة خَآئِفاً يَتَرَقَّبُ ﴾ [القصص : 18] الآية .

قوله تعالى : ﴿ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْماً وَجَعَلَنِي مِنَ المرسلين ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة لابتداء رسالته المذكورة هنا في سورة مريم وغيرها .

وقوله : ﴿ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْماً ﴾ قال بعضهم : الحكم هنا النبوة ، وممن روى عنه ذلك

السدى .

والأظهر عندي : أن الحكم هو العلم النافع الذي علمه الله إياه بالوحي والعلم عند الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 6 صـ ﴾

(220/566)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (16) ﴾

وسبق أن قال سبحانه : ﴿ أَنِ ائت القوم الظالمين * قَوْمَ فِرْعَوْنَ ﴾ [الشعراء : 1011] فذكر قومَ فرعن أولاً ؛ لأنهم سبب فرعنته ، حين سمعوا كلامه وأعانوه عليه ، وهنا يُذكِّره ﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ ﴾ [الشعراء : 16] لأن حين يُهزَم فرعون يُهزَم قومه الذين أيَّدوه ، فالكلام هنا مع قمة الكفر مع فرعون .

﴿ فقولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ العالمين ﴾ [الشعراء : 16] إنَّا : جمع يُقَال للمثنى ، ومع ذلك جاءت رسول بصيغة الإفراد ، ولم يقُل : رسُولا ؛ لأن الرسول واسطة بين المرسَل والمرسَل إليه ، سواء أكان مفرداً أو مُثَنى أو جمعاً .

وكلمة ﴿ إِنَّا ﴾ [الشعراء : 16] سيقولها موسى وهارون في نَفَس واحد ؟ لا ، إنما

سيتكلم المقدَّم منهما ، وينصت الآخر ، فيكون كمنْ يُؤمّن على كلام صاحبه . ألاَ ترى القرآن الكريم حينما عرض قضية موسى وقومه يوضح أن فرعون علا في الأرض واستكبر . . الخ .

حتى دعا عليهم : ﴿ رَبَّنَا اطمس على أَمْوَالِهِمْ واشدد على قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُواْ حتى يَرَوُاْ العذاب الأليم ﴾ [يونس : 88] .

هذا كلام موسى عليه السلام فردّ الله عليه : ﴿ قَدْ أُجِيبَتْ دَّعْوَتُكُمَا ﴾ [يونس : 89] بالمثنى مع أن المتكلم واحد . قالوا : لأن موسى كان يدعو ، وهارون يُؤمّن على دعائه ، والمؤمّن أحد الداعيين ، وشريك في الدعوة .

فما مطلوبك يا رسول رب العالمين ؟ ﴿ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا ﴾

فالأصل في لقاء موسى بفرعون أن ينقذ بني إسرائيل من العذاب ، ثم يُبلّغهم منهج الله ، ويأخذ أيديهم إليه ، وجاءت دعوة فرعون للإيمان ونقاشه في ادعائه الألوهية تابعة لهذا الأصل .

وفي موضع آخر : ﴿ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بني إِسْرَائِيلَ وَلاَ تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ ﴾ [طه : 47] .

إذن : فتلوين الأساليب في القصص القرآني يشرح لقطاتٍ مختلفة من القصة ، ويُوضِّح بعض جوانبها ، وإنْ بدا هذا تكراراً في المعنى الإجمالي ، وهذا واضح في وقوله تعالى في أول قصة موسى عليه السلام : ﴿ فالتقطه آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وحَزَناً ﴾ [القصص : 8]

.

وفي أية أخرى يقول تعالى على لسان امرأة فرعون : ﴿ قُرَّةُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ﴾ [القصص : 9] وكأن الله تعالى يقول : ستأخذونه ليكون قُرَّة عين لكم ، إنما هو سيكون عدواً .

والله تعالى يقول : ﴿ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ يَحُولُ بَيْنَ المرء وَقَلْبِهِ ﴾ [الأنفال : 24] ففرعون في حين كان يقتل الأطفال من بني إسرائيل ، ويستحيي البنات ، جاءه هذا الطفل بهذه الطريقة اللافتة للنظر ، فكان عليهم أنْ يفهموا أن مَنْ أُلقِي في التابوت وفي اليمِّ بافتعال ، هو بهدف نجاته من القتل ، فلو كان فرعون إلهاً ، فكيف مرّت عليه هذه الحيلة وجازتْ عليه ؟

وهذا يدل على أن الله تعالى إذا أراد إنفاذ أمر سلب من ذوي العقول عقولهم ، وحال بين المرء وقلبه ، ويدل على غباء قومه ؛ لأنهم لو تأملوا هذه المسألة لظهر لهم كذب فرعون في ادعائه الألوهية .

فكان ردّ فرعون على موسى عليه السلام : ﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً ﴾

يريد فرعون أنْ يُذكِّر موسى بما كان من أمر تربيته في بيته لعدة سنوات ، حتى شَبَّ وكبر ، وكأنه يُوبِّخه كيف يقف منه هذا الموقف العدائي بعد ما كان منه .

﴿ وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴾ [الشعراء : 18] ويقال : إن موسى لبث في بيت فرعون حتى سِنِّ الثامنة عشرة ، أو سِنِّ الثلاثين ، فالمعنى أنه ربَّاه ولبث معه أيضاً عدة سنوات .

والمتأمل في هذه الحجة التي يظنها فرعون لصالحه يجد أنها ضده ، وأنها تكشف عن غبائه ، فلو كان إلهاً كما يدعي لعرف أن هلاكه سيكون على يدي هذا الطفل الذي ضَمَّه إليه ورعاه .

(222/566)

وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (19)

والمراد بالفِعْلة قتل موسى عليه السلام للرجل الذي وكزه فمات ﴿ وَأَنتَ مِنَ الكافرين ﴾ [الشعراء : 19] يصح من الكافرين بألوهية فرعون ، أو من الجاحدين لنعمنا عليك وتربيتنا لك .

لذلك العقلاء يروْنَ أن الإنسان حين يربي الأولاد ويراهم كما يحب ، فليعلم أنه توفيق

وعناية من الله تعالى ، بدليل أن الأبناء يُربَّون في بيئة واحدة ، وربما كانا توأميْن ، ومع ذلك ترى أحدهما صالحاً والآخر طالحاً ، فالمسألة عناية إلهية عليا ، وقد التقط أحد الشعراء هذا المعنى فقال :

إِذَا لَمْ تُصَادِفَ فِي بَنِيكَ عِنَايَةً . . . فَقَدْ كَذَبَ الرَاجِي وخَابَ المؤَمَّلُ

فمُوسى الذِي ربَّاه جِبْرِيل كَافِرٌ . . . ومُوسَى الذي ربَّاهُ فِرْعَونُ مُرْسَلُ

والمراد موسى السامري صاحب العجل ، وقد وضعته أمه في صحراء وماتت ، فأرسل الله إليه جبريل عليه السلام يرعاه ويُربِّيه . ولا تأتي هذه المفارقات إلا بعناية الله سبحانه .

قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ (20)

يقول موسى عليه السلام : أنا لا أنكر أنني قتلتُ ، لكنني قتلتُ وأنا من الضالين . يعني : الجاهلين بما يترتب على عملية القتل ، وما كنت أعتقدُ أبداً أن هذه الوَكْزة ستقضي على الرجل .

فكلمة ﴿ الضالين ﴾ [الشعراء : 20] هنا لا تعني عدم الهدى ، فمن هذا المعنى للضلال قولهم : ضَلَّ الطريق ، وهو لم يتعمد أن يضل ، إنما تاه رَغْماً عنه .

ومنه قوله تعالى في الشهادة : ﴿ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخرى ﴾ [البقرة : 282] .

وقوله تعالى مخاطباً نبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فهدى ﴾ [الضحى : 7] أي : متحيراً بين الباطل الذي يمارسه قومه ، وبين الحق الذي لا يجد له بينة .

(223/566)

فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ (21)

﴿ حُكْماً ﴾ [الشعراء : 21] أي : أنْ أضع الأشياء في مواضعها ، وجاءت هذه الكلمة بعد ﴿ فَعَلْتُهَآ إِذاً وَأَنَاْ مِنَ الضالين ﴾ [الشعراء : 20] كأنه يقول : أنا وكزتُ الرجل ، هذا صحيح ، فمات ، وهذا خطأ غير مقصود وإنني مظلوم فيه ؛ لأن الله قد أعطاني حكماً وقدرة لأضع الأشياء في محلها .

ليس هذا فحسب ، إنما أيضاً : ﴿ وَجَعَلَنِي مِنَ المرسلين ﴾ [الشعراء : 21] .

وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (22)

يعني : ما مَّن به فرعون على موسى من قوله :

﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ * وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ التي فَعَلْتَ ﴾ [الشعراء : 1819] .

كأنه يقول له : أتَمُنُّ عليَّ بهذه الأشياء ، وتذكر هذه الحسنة ، وهي لا تساوي شيئاً لو

قارنتَها بما حدث منك من استعباد بني إسرائيل وتذبيح أبنائهم واستحياء نسائهم ، وتسخيرهم في خدمتك .

وقتل الذّكْران واستحياء الإناث ، لا يعني الرأفة بهن ، إنما يعني لَهُنَّ الذلة والهوان ، حين لا تجد المرأة من محارمها مَنْ يحميها أو يدافع عنها ، فتبقى بعد الرجال في هوان وذِلَّة في خدمة فرعون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(224/566)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله : ﴿ إِنَّا رَسُولُ ﴾ :

إنما أَفْرد رسولاً : إمَّا لأنه مصدرٌ بمعنى رسالة ، والمصدرُ يُوَحَّد . ومن مجيءِ " رسول " بمعنى رسالة قوله :

3508 لقد كَذَبَ الواشُون ما فُهْتُ عندهمْ . . . بِسِرٍّ ولا أَرْسَلْتُهُمْ برسولِ

أي : برسالة ، وإمَّا لأنهما ذوا شريعةٍ واحدة فنُزِّلا منزلةَ رسول ، وإمَّا لأنَّ المعنى : أنَّ كلَّ واحدٍ منا رسولٌ ، وإمَّا لأنه مِنْ وَضْعِ الواحدِ موضعَ التثنيةِ لتلازُمِهما ، فصارا كالشيئين

المتلازمَيْن كالعينين واليدين ، وحيث لم يقصِدْ هذه المعاني طابَقَ في قوله : ﴿ إِنَّا رَسُولاَ رَبِّكَ ﴾ [طه : 47] .

قوله : ﴿ أَنْ أَرْسِلْ ﴾ : يجوز أَنْ تكونَ مفسِّرةً ل " رسول " إذ قيل : بأَنَّه بمعنى الرسالة ، شرحا الرسالة بهذا ، وبَيَّناها به . ويجوز أَنْ تكونَ المصدرية أي : رسولٌ بكذا .

قوله : ﴿ وَلِيداً ﴾ : حال من مفعول " نُرَبِّكَ " وهو فَعيل بمعنى مَفْعول . والوليد : الغلامُ تسميةً له بما كان عليه .

قوله : ﴿ مِنْ عُمُرِكَ ﴾ حال من " سنين " . وقرأ أبو عمرٍو في روايةٍ بسكونِ الميم تخفيفاً ل فُعُل .

وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (19)

وقرأ " فِعْلَتَك " بالكسرِ على الهيئة : الشعبيُّ لأنها نوع من القَتْلِ وهي الوَكْزَةُ . و ﴿ أَنتَ مِنَ الكافرين ﴾ يجوز أن تكونَ حالاً ، وأَن تكونَ مستأنفةً .

قَالَ فَعَلْتُهَا إِذاً وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ (20)

قوله : ﴿ إِذاً وَأَنَاْ مِنَ الضالين ﴾ : إذن هنا حرفُ جوابٍ فقط . وقال الزمخشري : " إنها جوابٌ وجزاءٌ معاً " قال : " فإنْ قلتَ : إذَنْ حرفُ جوابٍ وجزاءٍ معاً ، والكلامُ وقع جواباً لفرعون فكيف وقع جزاءً ؟ قلت : قولُ فرعون " وفَعَلْتَ فعْلَتَك " فيه معنى : أنك جازَيْتَ نعمتي بما فعلْتَ . فقال له موسى : نعم : فعلتُها مُجازياً لك تسليماً لقولِه ، كأنَّ نعمتَه كانت عنده جديرةً بأَنْ تجازى/ بنحوِ ذلك الجزاءِ " .

قال الشيخ : " وهذا مذهبُ سيبويهِ يعني أنها للجزاءِ والجوابِ معاً . قال : ولكنَّ شُرَّاح الكتابِ فهموا أنَّه قد تتخلَّفُ عن الجزاءِ ، والجوابُ معنىً لازمٌ لها " .

فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ (21)

قوله : ﴿ لَمَّا خِفْتُكُمْ ﴾ : العامَّة على تشديدِ الميم وهي " لَمَّا " التي هي حرف وجوبٍ عند سيبويهِ أو بمعنى حين عند الفارسي . وروي عن حمزةَ بكسرِ اللام وتخفيف الميم أي : لتخوُّفي منكم . و " ما " مصدريةٌ . وهذه القراءةُ تُشْبِهُ قراءتَه في آل عمران : " لِما آتَيْتُكم " وقد تقدَّمَتْ مستوفاةً . وقرأ عيسى " حُكُماً " بضمِّ الكاف إتباعاً .

قوله : ﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ ﴾ : فيه وجهان أحدُهما : أنه خبرٌ على سبيلِ التهكُّمِ أي : إن كانَ ثَمَّ نعمةٌ فليسَتْ إلاَّ أنَّك جَعَلْتَ قومي عبيداً لك . وقيل : حرفُ الاستفهام محذوفٌ لفهمِ المعنى أي : أو تلك وهذا مذهب الأخفش ، وجَعَلَ مِنْ ذلك قولَ الشاعر :

3509 أفرحُ أَنْ أُرْزَأَ الكرامَ . . . . . .

. . . . . .

وقد تقدَّم هذا مشبعاً في سورة النساء عند قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ [الآية : 79] وفي غيرِه .

(226/566)

قوله : ﴿ أَنْ عَبَّدتَّ ﴾ فيه أوجهٌ ، أحدُها : أنها في محلِّ رفعٍ عطفَ بيانٍ ل " تلك " ، كقوله : ﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَلِكَ الأمر أَنَّ دَابِرَ هَؤُلآءِ مَقْطُوعٌ ﴾ [الحجر : 66] . الثاني : أنها في محلِّ نصبٍ مفعولاً مِنْ أجلِه . والثالثَ : أنها بدلٌ من " نعمةٌ " . الرابع : أنها بدلٌ من " ها " في " تَمُنُّها " . الخامس : أنها مجرورةٌ بباءٍ مقدرةٍ أي : بأَن عَبَّدْت . السادس : أنها خبرُ مبتدأ مضمرٍ أي : هي . السابعُ : أنها منصوبةٌ بإضمارِ أعني . والجملة مِنْ " تَمُنُّها " صفةٌ لنعمة . و " تُمُنُّ " يتعدَّى بالباء فقيل : هي محذوفةٌ أي : تَمُنُّ بها ، وقيل : ضَمَّنَ " تَمُنُّ " معنى تَذْكُرُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 515.518 ﴾

(227/566)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (16) ﴾

ويقال في القصة : إن موسى وهارون كانا يترددان على باب فرعون سنةً كاملةً ولم يجدا طريقاً إليه . ثم بعد سَنَةٍ عَرَضَا الرسالة عليه ، فقابلهما بالتكذيب ، وكان من القصة ما كان . . وقال فرعون لَمَّا رأى موسى :

قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (18)

فلم يكن لموسى – عليه السلام – جوابٌ إلا الإقرارَ والاعتراف

قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ (20)

قال : كل ذلك قد كان ، وفررت منكم لمّا خفتكم ، فأكرمني الله بالنبوة ، وبعثني رسولاً إليكم . .

ويقال : لم يجحد حقَّ تربيته ، والإحسانَ إليه في الظاهر ، ولكن بَيَّنَ أنه إذا أمر اللَّهُ بشيءٍ وَجَبَ اتباعُ أمره . ولكن إذا كانت تربية المخلوقين توجِبُ حَقّاً فتربيةُ اللَّهِ أَوْلَى بأن يُعَظِّمَ العبدُ قَدْرَها .

قوله : ﴿ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ ﴾ : يجوز حَمْلُه على ظاهره ، وأنه خاف منهم على نَفْسِه . والفرارُ – عند عَدَمِ الطاقة – غيرُ مذمومٍ عند كلِّ أحد .

ويقال : فررت منكم لَمَّا خِفْتُ أن تنزل بكم عقوبةٌ من اللهِ لشُؤْمِ شِرْكِكم ، أو من قول فرعون : ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾ [القصص : 38] .

وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (22)

ذَكَرَ فرعونُ – من جملة ما عدَّ على موسى من وجوه الإحسان إليه – أنه استحياه بين بني إسرائيل ، ودفع عنه القتلَ ، فقال موسى : أو تلك نعمة تمنها عليَّ ؟ هل استعبادُك لبني إسرائيل يَعَدُّ نعمةً ؟ إنَّ ذلك ليس بنعمة ، ولا لَكَ فيها مِنَّة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 8.9 ﴾

(228/566)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء السابع والستون بعد الخمسمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/567)

الجزء السابع والستون بعد الخمسمائة

من الآية ﴿ 23 ﴾ من سورة الشعراء

وحتى الآية ﴿ 51 ﴾ من نفس السورة

(4/567)

قوله تعالى ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (23) قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (24) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ (25) قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ

(26) قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (27) قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (28) قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (29) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كلم اللئيم الذميم الكليم العظيم بما رجا أن يكفه عن مواجهته بما يكره ، ويرجعه إلى مداراته .

فلم يفعل ، وفهم ما في جوابه هذا الأخير من الذم له والتعجيز ، وإثبات القدرة التامة والعلم الشامل لله ، بما دبر في أمر موسى عليه السلام ، وأنه لا ينهض لذلك بجواب ولا يحمد له فيه قول ، عدل عنه إلى جوابه عن الرسالة بما يموه به أيضاً على قومه لئلا يرجعوا عنه ، فأخبر تعالى عن محاورته في ذلك بقوله على طريق الجواب لمن كأنه قال : ما قال له جواباً لهذا الكلام ، الذي كأنه السهام ؟ : ﴿ قال فرعون ﴾ حائداً عن جواب موسى عليه السلام لما فيه من تأنيبه وتعجيزه .

(5/567)

منكراً لخالقه على سبيل التجاهل ، كما أنكر هؤلاء الرحمن متجاهلين وهو أعرف الناس بغالب أفعاله ، كما كان فرعون يعرف ، لقول موسى عليه السلام ﴿ لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السماوات والأرض ﴾ [الإسراء : 102] : ﴿ وما رب العالمين ﴾ أي الذي زعمت أنكما رسوله .

فسأل ب " ما " عن حقيقته وإنما أراد في الحقيقة إنكاره .

(6/567)

ولما كان تعريف حقيقته سبحانه بنفسها محالاً لعدم التركيب ، فكان تعريفها لا يصح إلا بالخارج اللازم الجلي ، تشوف السامع إلى ما يجيب به عنه ، فاستأنف قوله إخباراً عنه : ﴿ قال ﴾ أي موسى معرضاً عن التعريف بغير الأفعال إعلاماً بأنه لا شبيه له ، وأنه مباين وجوده لوجود كل شيء سواه ، معرفاً له سبحانه بأظهر أفعاله مما لا يقدر أحد على ادعاء المشاركة فيه ، مشيراً إلى خطابه في طلب الماهية بأنه لا مماثل له : أقول لك ولمن أردت بطلب الحقيقة التمويه عليهم : هو ﴿ رب ﴾ أي خالق ومبدع ومدبر ﴿ السماوات ﴾ كلها ﴿ والأرض ﴾ وإن تباعدت أجرامها بعضها عن بعض ﴿ وما بينهما ﴾ وذلك أظهر العالم الذي هو صنعته وأنتم غير مستغنين عنه طرفة عين ، فهذه هي المنة ، لا منتك عليّ

بالتربية إلى حين استغنيت عنك ، وهذا هو الاستبعاد بالإحسان ، مع العصيان بالكفران ، لا استبعادك لقومي بإهلاكهم وهم في طاعتك ، ولسلفهم عليكم من المنة ما لا تجهلونه ﴿ إن كنتم ﴾ أي كوناً راسخاً ﴿ موقنين ﴾ أي متصفين بما عليه أهل العلم بأصول الدين من الثقة بما تعتقدون اتصافاً ثابتاً ، والجواب : علمتم ذلك ، وعلمتم أنه لا جواب أسد منه ، لأن المذكور متغير ، فله مغير لا يتغير ، وهو هذا الذي أرسلناه ، أي إن كان لكم يقين فأنتم تعرفونه ، لشدة ظهوره ، وعموم نوره ﴿ قال ﴾ أي فرعون ﴿ لمن حوله ﴾ من أشراف قومه مموهاً أيضاً : ﴿ ألا تستمعون ﴾ أي تصغون إليه بجميع جهدكم ، وهو كلام ظاهره أنه نبههم عن الإنكار ، لأنه سأل عن الماهية ، فأجيب بغيرها ، ويحتمل غير ذلك لو ضويق فيه ، فهو من خفيّ مكره .

(7/567)

ولما وبخ اللعين في جوابه ، وكان ربما ادعى أن الخافقين وما بينهما من الفضاء غير مخلوق ، فتشوف السامع إلى جواب يلزمه ، استأنف الشفاء لعيّ هذا السؤال بقوله : ﴿ قال ﴾ أي موسى ، مخصصاً بعد ما عمم بشيء لا تمكن المنازعة فيه لمشاهدة وجود أفراده بعد أن لم تكن : ﴿ ربكم ﴾ أي الموجد لكم والمربي والمحسن ﴿ ورب آبائكم الأولين ﴾ وفرعون -

الذي تقرون بأنه ربكم - كان إذ ذاك عدماً محضاً ، أو ماء صرفاً في ظهر أبيه ، فبطل كون أحد منهم رباً لمن بعده كما بطل كون أحد ممن قبلهم من الهالكين ربّاً لهم ، لأن الكل عدم .

فلما أوضح بذلك بطلان ما حملهم على اعتقاده من ربوبيته لم يتمالك أن ﴿ قال إن رسولكم ﴾ على طريق التهكم ، إشارة إلى أن الرسول ينبغي أن يكون أعقل الناس ، ثم زاد الأمر وضوحاً بقوله : ﴿ الذي أرسل إليكم ﴾ أي وأنتم أعقل الناس ﴿ لمجنون ﴾ حيث لا يفهم أني أساله عن حقيقة مرسله فكف يصلح للرسالة من الملوك .

فلما أساء الأدب ، فاشتد تشوف السامع إلى معرفة جوابه عنه ، استأنف تعالى الإخبار بذلك ، فحكى أنه ذكر له ما لا يمكنه أن يدعي طاعته له ، وهو أكثر تغيراً وأعجب تنقلاً بأن ﴿ قال رب المشرق والمغرب ﴾ أي الشروق والغروب ووقتهما وموضعهما ﴿ وما بينهما ﴾ أي من الناس الذين ليسوا في طاعتكم ، والحيوان والجماد ، بسبب ما ترون من قدرته على تقليب النيرات من بزوغ الشمس والقمر والنجوم وأفولها وما يظهر عنهما من الليل والنهار على تصاريف مختلفة ، وحركات متقاربة لولا هي لما علمتم شيئاً من أموركم ، ولا تمكنتم من أحوالكم ، وهذا الدليل أبين الكل لتكرر الحركة فيه وغير ذلك من معالمه ، ولذلك بهت نمرود لما ألقاه عليه الخليل عليه الصلاة والسلام .

ولما دعاه ـ صلى الله عليه وسلم ـ باللين فأساء الأدب عليه في الجواب الماضي ، ختم هذا البرهان بقوله : ﴿ إن كنتم تعقلون ﴾ أي فأنتم تعلمون ذلك ، فخيرهم بين الإقرار بالجنون أو العقل ، بما أشار إليه من الأدلة في مقابلة ما نسبوه إليه من الجنون بسكوتهم وقول عظيمهم بغير شبهة ، رداً لهم عن الضلالة ، وإنقاذاً من واضح الجهالة ، فكان قوله أنكأ مع أنه ألطف ، وأوضح مع أنه أستر وأشرف .

فلما علم أنه قد قطعه بما أوضح من الأمر ، ووصل معه في الغلظة إلى ما إن سكت عنه أوهن من حاله ، وفتر من عزائم رجاله ، تكلم بما السكوت أولى منه ، فأخبر تعالى بقوله : ﴿ قال ﴾ عادلاً عن الحجاج بعد الخوض فيه إلى المغالبة التي هي أبين علامات الانقطاع : ﴿ لئن اتخذت إلهاً غيري ﴾ أي تعمدت أخذه وأفردته بتوجيه جميع قصدك إليه ﴿ لأجعلنك من المسجونين ﴾ أي واحداً ممن هم في سجوني على ما تعلم من حالي في اقتداري ، ومن سجوني في فظاعتها ، ومن حال من فيها من شدة الحصر ، والغلظ في الحجر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 354 . 356 ﴾

(9/567)

فصل

قال الفخر :

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (23) ﴾

اعلم أن فرعون لم يقل لموسى ﴿ وَمَا رَبُّ العالمين ﴾ ، إلا وقد دعاه موسى إلى طاعة رب العالمين ، يبين ذلك ما تقدم من قوله : ﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ العالمين ﴾ [الشعراء : 16] فلا بد عند دخولهما عليه أنهما قالا ذلك ، فعند ذلك قال فرعون : ﴿ وَمَا رَبُّ العالمين ﴾ ثم ههنا بحثان :

(10/567)

الأول : أن فرعون يحتمل أن يقال إنه كان عارفاً بالله ، ولكنه قال ما قال طلباً للملك والرياسة ، وقد ذكر الله تعالى في كتابه ما يدل على أنه كان عارفاً بالله ، وهو قوله : ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاء إِلاَّ رَبُّ السموات والأرض ﴾ [الإسراء : 102] فإذا قرىء بفتح التاء من ﴿ عَلِمَتِ ﴾ فالمراد أن فرعون علم ذلك ، وذلك يدل على أنه كان عارفاً بالله ، لكنه كان يستأكل قومه بما يظهره من إلهيته ، والقراءة الأخرى برفع التاء من ﴿ عَلِمَتِ ﴾ فهي تقتضي أن موسى عليه السلام هو الذي عرف ذلك ، وأيضاً فإن

فرعون إن لم يكن عاقلاً لم يجز من الله تعالى بعثة الرسول إليه ، وإن كان عاقلاً فهو يعلم بالضرورة أنه ما كان موجوداً ولا حياً ولا عاقلاً ثم صار كذلك ، وبالضرورة يعلم أن كل ما كان كذلك فلا بد له من مؤثر ، فلا بد وأن يتولد له من هذين العلمين علم ثالث بافتقاره في تركيبه وفي حياته وعقله إلى مؤثر موجد ، ويحتمل أن يقال إنه كان على مذهب الدهرية من أن الأفلاك واجبة الوجود في ذواتها ومتحركة لذواتها ، وأن حركاتها أسباب لحصول الحوادث في هذا العالم ، أو يقال إنه كان من الفلاسفة القائلين بالعلة الموجبة لا بالفاعل المختار ، ثم اعتقد أنه بمنزلة الإله لأهل إقليمه من حيث استعبدهم وملك ذماتهم وزمام أمرهم ، ويحتمل أن يقال إنه كان على مذهب الحلولية ، القائلين بأن ذات الإله يتدرع بجسد إنسان معين ، حتى يكون الإله سبحانه لذلك الجسد بمنزلة روح كل إنسان بالنسبة إلى جسده ، وبهذه التقديرات كان يسمي نفسه إلهاً .

البحث الثاني : وهو أنه قال لموسى عليه السلام : ﴿ وَمَا رَبُّ العالمين ﴾ ؟ واعلم أن السؤال بما طلب لتعريف حقيقة الشيء ، وتعريف حقيقة الشيء إما أن يكون بنفس تلك الحقيقة أو بشيء من أجزائها أو بأمر خارج عنها أو بما يتركب من الداخل والخارج .

(11/567)

أما تعريفها بنفسها فمحال ، لأن المعرف معلوم قبل المعرف ، فلو عرف الشيء بنفسه لزم أن يكون معلوماً قبل أن يكون معلوماً وهو محال .

(12/567)

وأما تعريفها بالأمور الداخلة فيها فههنا في حق واجب الوجود محال ، لأن التعريف بالأمور الداخلة لا يمكن إلا إذا كان المعرف مركباً ، وواجب الوجود يستحيل أن يكون مركباً ، لأن كل مركب فهو محتاج إلى كل واحد من أجزائه ، وكل واحد من أجزائه فهو غيره ، فكل مركب محتاج إلى غيره ، وكل ما احتاج إلى غيره فهو ممكن لذاته ، وكل مركب فهو ممكن ، فما ليس بممكن يستحيل أن يكون مركباً ، فواجب الوجود ليس بمركب ، وإذا لم يكن مركباً استحال تعريفه بأجزائه ، ولما بطل هذان القسمان ثبت أنه لا يمكن تعريف ماهية واجب الوجود إلا بلوازمه وآثاره ، ثم إن اللوازم قد تكون خفية ، وقد تكون جلية ، ولا يجوز تعريف الماهية باللوازم الخفية بل لا بد من تعريفها باللوازم الجلية ، وأظهر آثار ذات واجب الوجود هو هذا العالم المحسوس وهو السموات والأرض وما بينهما فقد ثبت أنه لا جواب ألبتة لقول فرعون ﴿ وَمَا رَبُّ العالمين ﴾ إلا ما قاله موسى عليه السلام ، وهو أنه رب السموات والأرض وما بينهما ، فأما قوله : ﴿ إِن كُنتُمْ مُّوقِنِينَ ﴾ فمعناه : إن كنتم موقنين

بإسناد هذه المحسوسات إلى موجود واجب الوجود فاعرفوا أنه لا يمكن تعريفه إلا بما ذكرته لأنكم لما سلمتم انتهاء هذه المحسوسات إلى الواجب لذاته ، ثبت أن الواجب لذاته فرد مطلق ، وثبت أن الفرد المطلق لا يمكن تعريفه إلا بآثاره ، وثبت أن تلك الآثار لا بد وأن تكون أظهر آثاره ، وأبعدها عن الخفاء وما ذاك إلا السموات والأرض وما بينهما ، فإن أيقنتم بذلك لزمكم أن تقطعوا بأنه لا جواب عن ذلك السؤال إلا هذا الجواب ، ولما ذكر موسى عليه السلام هذا الجواب الحق قال فرعون لمن حوله ألا تستمعون وإنما ذكر ذلك على سبيل التعجب من جواب موسى ، يعني أنا أطلب منه الماهية وخصوصية الحقيقة ، وهو يجيبني بالفاعلية والمؤثرية ، وتمام الإشكال أن تعريف الماهية بلوازمها لا يفيد الوقوف على نفس تلك الماهية ، وذلك لأنا إذا

(13/567)

قلنا في الشيء إنه الذي يلزمه اللازم الفلاني ، فهذا المذكور ، إما أن يكون معروفاً لمجرد كونه أمراً ما يلزمه ذلك اللازم أو لخصوصية تلك الماهية التي عرضت لها هذه الملزومية ، والأول محال لأن كونه أمراً يلزمه ذلك اللازم جعلناه كاشفاً فلو كان المكشوف هو هذا القدر لزم كون الشيء معروفاً لنفسه وهو محال ، والثاني محال لأن العلم بأنه أمر ما يلزمه اللازم الفلاني

لا يفيد العلم بخصوصية تلك الماهية الملزومة ، لأنه لا يمتنع في العقل اشتراك الماهيات المختلفة في لوازم متساوية فثبت أن التعريف بالوصف الخارجي لا يفيد معرفة نفس الحقيقة فلم يكن كونه رباً للسموات والأرض وما بينهما جواباً عن قوله : ﴿ وَمَا رَبُّ العالمين ﴾ فأجاب موسى عليه السلام : بأن ﴿ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَائِكُمُ الأولين ﴾ وكأنه عدل عن التعريف بخالقية السماء والأرض إلى التعريف بكونه تعالى خالقاً لنا ولآبائنا ، وذلك لأنه لا يمتنع أن يعتقد أحد أن السموات والأرضين واجبة لذواتها فهي غنية عن الخالق والمؤثر ، ولكن لا يمكن أن يعتقد العاقل في نفسه وأبيه وأجداده كونهم واجبين لذواتهم ، لم أن المشاهدة دلت على أنهم وجدوا بعد العدم ثم عدموا بعد الوجود ، وما كان كذلك استحال أن يكون واجباً لذاته ، وما لم يكن واجباً لذاته استحال وجوده إلا لمؤثر ، فكان التعريف بهذا الأثر أظهر فلهذا عدل موسى عليه السلام من الكلام الأول إليه فقال فرعون : ﴿ إِنَّ رَسُولَكُمُ الذى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ يعني المقصود من سؤال ما طلب الماهية وخصوصية الحقيقة والتعريف بهذه الآثار الخارجية لا يفيد ألبتة تلك الخصوصية ، فهذا الذي يدعي الرسالة مجنون لا يفهم السؤال فضلاً عن أن يجيب عنه ، فقال موسى عليه السلام : ﴿ رَبُّ المشرق والمغرب وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ فعدل إلى طريق ثالث أوضح من الثاني ، وذلك لأنه أراد بالمشرق طلوع الشمس وظهور النهار ، وأراد

بالمغرب غروب الشمس وزوال النهار ، والأمر ظاهر في أن هذا التدبير المستمر على الوجه العجيب لا يتم إلا بتدبير مدبر وهذا بعينه طريقة إبراهيم عليه السلام مع نمروذ ، فإنه استدل أولاً بالإحياء والإماتة وهو الذي ذكره موسى عليه السلام ههنا بقوله : ﴿ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَائِكُمُ الأولين ﴾ فأجابه نمروذ بقوله :

﴿ أنا أحيي وأميت ﴾ [البقرة : 258] فقال : ﴿ فَإِنَّ الله يَأْتِى بالشمس مِنَ المشرق فَأْتِ بِهَا مِنَ المغرب فَبُهِتَ الذى كَفَرَ ﴾ [البقرة : 258] وهو الذي ذكره موسى عليه السلام ههنا بقوله : ﴿ رَّبُّ المشرق والمغرب ﴾ .

وأما قوله : ﴿ إِنْ كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ فكأنه عليه السلام قال إن كنت من العقلاء عرفت أنه لا جواب عن سؤالك إلا ما ذكرت لأنك طلبت مني تعريف حقيقته بنفس حقيقته ، وقد ثبت أنه لا يمكن تعريف حقيقته بنفس حقيقته ولا بأجزاء حقيقته ، فلم يبق إلا أن أعرف حقيقته بآثار حقيقته ، وأنا قد عرفت حقيقته بآثار حقيقته فقد ثبت أن كل من كان عاقلاً يقطع بأنه لا جواب عن هذا السؤال إلا ما ذكرته .

واعلم أنا قد بينا في سورة الأنعام (18) في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ القاهر فَوْقَ عِبَادِهِ ﴾ أن حقيقة الإله سبحانه من حيث هي هي غير معقولة للبشر ، وإذا كان كذلك استحال من موسى عليه السلام أن يذكر ما تعرف به تلك الحقيقة ، إلا أن عدم العلم بتلك الخصوصية لا يقدح في صحة الرسالة فكان حاصل كلام موسى عليه السلام أن ادعاء رسالة رب العالمين تتوقف صحته على إثبات أن للعالمين رباً وإلهاً ولا تتوقف على العلم بخصوصية الرب تعالى وماهيته المعينة ، فكأن موسى عليه السلام يقيم الدلالة على إثبات القدر المحتاج إليه في صحة دعوى الرسالة ، وفرعون يطالبه ببيان الماهية ، وموسى عليه السلام كان يعرض عن سؤاله لعلمه بأنه لا تعلق لذلك السؤال نفياً ولا إثباتاً في هذا المطلوب ، فهذا تمام القول في هذا البحث والله أعلم ، ثم إن موسى عليه السلام لما خشن في آخر الكلام بقوله : ﴿ إِنْ كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ فعند ذلك قال فرعون : ﴿ لَئِنِ اتخذت إلها غَيْرِى لاجْعَلَنَّكَ مِنَ المسجونين ﴾ فإنه لما عجز عن الحجاج عدل إلى التخويف ، فعند ذلك ذكر موسى عليه السلام كلاماً مجملاً ليعلق قلبه به فيعدل عن وعيده فقال : ﴿ أَوْلَوْ جِئْتُكَ بِشَىءٍ مُّبِينٍ ﴾ ؟ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 24 صـ 111.113 ﴾

(16/567)

وقال ابن عطية :

ولما لم يجد فرعون في هذا الطريق من تقريره على التنزيه وغير ذلك حجة رجع إلى معارضة موسى في قوله " رسول رب العالمين " فاستفهمه استفهاماً عن مجهور من الأشياء قال مكي كما يستفهم عن الأجناس ، فلذلك استفهم ب ﴿ ما ﴾ وقد ورد له استفهام ب ﴿ من ﴾ في موضع آخر ، ويشبه أنها مواطن ، فأتى موسى عليه السلام بالصفات التي تبين للسامع أنه لا مشاركة لفرعون فيها وهي ربوبية السماوات والأرض ، وهذه المجادلة من فرعون تدل على أن موسى عليه السلام دعاه إلى التوحيد فقال فرعون عند ذلك ﴿ ألا تستمعون ﴾ على وجه الإغراء والتعجب من شنعة المقالة ، إذ كانت عقيدة القوم أن فرعون ربهم ومعبودهم والفراعنة قبله كذلك وهذه ضلالة منها في مصر وديارها إلى اليوم بقية فزاد موسى في البيان بقوله ﴿ ربكم ورب آبائكم الأولين ﴾ ، فقال فرعون حينئذ على جهة الاستخفاف ﴿ إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون ﴾ وقرأ جمهور الناس على بناء الفعل للمفعول ، وقرأ حميد الأعرج ومجاهد " أرسل " على بناء الفعل للفاعل ، فزاد موسى عليه السلام في بيان الصفات التي تظهر نقص فرعون وتبين له أنه في غاية البعد عن القدرة عليها وهي ربوبية ﴿ المشرق والمغرب ﴾ ، ولم يكن لفرعون إلا ملك مصر من البحر إلى أسوان وأرض الإسكندرية ، وفي قراءة ابن مسعود وأصحابه " رب المشارق

والمغارب وما بينهما " .

﴿ قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (29) ﴾

لما انقطع فرعون في الحجة رجع إلى الاستعلاء ، والتغلب ، وهذه أبين علامات الانقطاع ، فتوعّد موسى عليه السلام بالسجن حين أعياه خطابه ، وفي توعده بالسجن ضعف لأنه خارت طباعه معه ، وكان فيما روي يفزع منه فزعاً شديداً حتى كان لا يمسك بوله ، وروي أن سجنه كان أشد من القتل في مطبق لا ينطلق منه أبداً فكان مخوفاً .

قال القاضي أبو محمد : وهذه نزعة دار النبود إلى اليوم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(17/567)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ قال فرعونُ وما ربُّ العالَمين ﴾

سأله عن ماهيَّةِ مَنْ لا ماهيَّة له ، فأجابه بما يدلُّ عليه من مصنوعاته .

وفي قوله : ﴿ إِنْ كنتم موقِنين ﴾ قولان .

أحدهما : أنّه خَلَقَ السموات والأرض .

والثاني : إِن كنتم موقنين أن ما تعاينونه كما تعاينونه ، فكذلك ، فأيقنوا أن ربَّ العالمين ربُّ السماوات والأرض .

﴿ قال ﴾ يعني : فرعون ﴿ لِمَنْ حوله ﴾ من أشراف قومه ﴿ ألا تَستمعونَ ﴾ معجّباً لهم .

فإن قيل : فأين جوابهم ؟

فالجواب : أنه أراد : ألا تستمعون قول موسى ؟ فردَّ موسى ، لأنه المراد بالجواب ، ثم زاد في البيان بقوله : ﴿ ربُّكم وربُّ آبائكم الأوَّلين ﴾ ، فأعرض فرعون عن جوابه ونسبه إلى الجنون ، فلم يَحْفِل موسى بقول فرعون ، واشتغل بتأكيد الحُجَّة ، ف ﴿ قال ربُّ المَشْرِقِ والمَغْرِبِ وما بينهما إِن كنتم تَعْقِلُونَ ﴾ أي : إِن كنتم ذوي عقول ، لم يَخْفَ عليكم ما أقول . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 6 صـ ﴾

(18/567)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ العالمين ﴾

لما غلب موسى فرعون بالحجة ولم يجد اللعين من تقريره على التربية وغير ذلك حجة رجع

إلى معارضة موسى في قوله : رسول رب العالمين ؛ فاستفهمه استفهاماً عن مجهول من الأشياء .

قال مكيّ وغيره : كما يستفهم عن الأجناس فلذلك استفهم ب ﴿ ما ﴾ .

قال مكي : وقد ورد له استفهام ب ﴿ من ﴾ في موضع آخر ويشبه أنها مواطن ؛ فأتى موسى بالصفات الدالّة على الله من مخلوقاته التي لا يشاركه فيها مخلوق ، وقد سأل فرعون عن الجنس ولا جنس لله تعالى ؛ لأن الأجناس محدثة ، فعلم موسى جهله فأضرب عن سؤاله وأعلمه بعظيم قدرة الله التي تبيّن للسامع أنه لا مشاركة لفرعون فيها .

فقال فرعون : ﴿ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴾ على معنى الإغراء والتعجب من سفه المقالة إذ كانت عقيدة القوم أن فرعون ربهم ومعبودهم والفراعنة قبله كذلك .

فزاد موسى في البيان بقوله : ﴿ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأولين ﴾ فجاء بدليل يفهمونه عنه ؛ لأنهم يعلمون أنه قد كان لهم آباء وأنهم قد فنوا وأنه لا بد لهم من مغيّر ، وأنهم قد كانوا بعد أن لم يكونوا ، وأنهم لا بد لهم من مكوّن .

فقال فرعون حينئذٍ على جهة الاستخفاف : ﴿ إِنَّ رَسُولَكُمُ الذي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ أي ليس يجيبني عما أسأل ؛ فأجابه موسى عليه السلام عن هذا بأن قال : ﴿ رَبُّ المشرق والمغرب ﴾ أن ليس ملكه كملكك ؛ لأنك إنما تملك بلداً واحداً لا يجوز أمرك في غيره ، ويموت من لا تحب أن يموت ، والذي أرسلني يملك المشرق والمغرب ؛ ﴿ وَمَا بَيْنَهُمَآ

إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ .

وقيل : علم موسى عليه السلام أن قصده في السؤال معرفة من سأل عنه ، فأجاب بما هو الطريق إلى معرفة الرب اليوم .

(19/567)

ثم لما انقطع فرعون لعنه الله في باب الحجة رجع إلى الاستعلاء والتغلب فتوعد موسى بالسجن ، ولم يقل ما دليلك على أن هذا الإله أرسلك ؛ لأن فيه الاعتراف بأن ثَمَّ إلهاً غيره .

وفي توعده بالسجن ضعف .

وكان فيما يروى أنه يفزع منه فزعاً شديداً حتى كان اللعين لا يمسك بوله .

وروي أن سجنه كان أشد من القتل .

وكان إذا سجن أحداً لم يخرجه من سجنه حتى يموت ، فكان مَخُوفاً . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 13 صـ ﴾

(20/567)

وقال أبو حيان :

ولما أخبر موسى فرعون بأنه رسول رب العالمين ، لم يسأل إذ ذاك فيقول : ﴿ وما رب العالمين ﴾ ؟ بل أخذ في المداهاة وتذكار التربية والتقبيح لما فعله من قتل القبطي .

فلما أجابه عن ذلك انقطعت حجته في التربية والقتل ، وكان في قوله : ﴿ رسول رب العالمين ﴾ دعاء إلى الإقرار بربوبية الله ، وإلى طاعة رب العالم ، فأخذ فرعون يستفهم عن الذي ذكر موسى أنه رسول من عنده .

والظاهر أن سؤاله إنما كان على سبيل المباهتة والمكابرة والمرادّة ، وكان عالماً بالله .

ويدل عليه : ﴿ لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر ﴾ ولكنه تعامى عن ذلك طلباً للرياسة ودعوى الإلهية ، واستفهم بما استفهاماً عن مجهول من الأشياء .

قال مكي : كما يستفهم عن الأجناس ، وقد ورد له استفهام بمن في موضع آخر ، ويشبه أنها مواطن . انتهى .

والموضع الآخر قوله : ﴿ فمن ربكما يا موسى ﴾ ولما سأله فرعون ، وكان السؤال بما التي هي من سؤال عن الماهية ، ولم يمكن الجواب بالماهية ، أجاب بالصفات التي تبين للسامع أنه لا مشاركة لفرعون فيها ، وهي ربوبية السموات والأرض وما بينهما .

وقال الزمخشري : وهذا السؤال لا يخلو أن يريد به أي شيء من الأشياء التي شوهدت

وعرفت أجناسها ، فأجاب بما يستدل عليه من أفعاله الخاصة ، ليعرفه أنه ليس مما شوهد وعرف من الأجرام والأعراض ، وأنه شيء مخالف لجميع الأشياء ، ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ وأما أن يريد أنه شيء على الإطلاق تفتيشاً عن حقيقة الخاصة ما هي ، فأجاب بأن الذي سألت عنه ليس إليه سبيل ، وهو الكافي في معرفته معرفة بيانه بصفاته استدلالاً بأفعاله الخاصة على ذلك ؛ وأما التفتيش عن حقيقة الخاصة التي هي فوق فطر العقول ، فتفتيش عما لا سبيل إليه ، والسائل عنه متعنت غير طالب للحق .

(21/567)

والذي يليق بحال فرعون ، ويدل عليه الكلام ، أن كون سؤاله إنكاراً لأن يكون للعالمين رب سواه ، ألا ترى أنه يعلم حدوثه بعد العدم ؟ وأنه محل للحوادث ؟ وأنه لم يدعّ الإلهية إلا في محل ملكه مصر ؟ وأنه لم يكن ملك الأرض ؟ بل كان فيها ملوك غيره ، وأنبياء في ذلك الزمان يدعون إلى الله كشعيب عليه السلام ؟ وأنه كان مقراً بالله تعالى في باطن أمره ؟ وجاء قوله : ﴿ وما بينهما ﴾ على التثنية ، والعائد عليه الضمير مجموع اعتباراً للجنسين : جنس السماء ، وجنس الأرض ؛ كما ثنى المظهر في قوله :

بين رماحي مالك ونهشل . . .

اعتباراً للجنسين : وقال أبو عبد الله الرازي يحتمل أن يقال : كان عالماً بالله ولكنه قال ما قال طلباً للملك والرياسة .

وقد ذكر تعالى في كتابه ما يدل على أنه كان عارفاً بالله ، وهو قوله : ﴿ لقد علمت ما أنزل هؤلاء ﴾ الآية .

ويحتمل أنه كان على مذهب الدهرية من أن الأفلاك واجبة الوجود لذواتها ، وأن حركاتها أسباب لحصول الحوادث بالفاعل المختار ، ثم اعتقد أنه بمنزلة إله لأهل إقليمه من حيث استعبدهم وملك زمام أمرهم .

ويحتمل أن يقال : كان على مذهب الحلولية القائلين : بأن ذات الإله تقرر بجسد إنسان معين حتى يكون الإله سبحانه بمنزلة روح كل إنسان بالنسبة إلى جسده ، وبهذه التقديرات كان يسمي نفسه إلهاً . انتهى .

ومعنى : ﴿ إن كنتم موقنين ﴾ : إن كان يرجى منكم الإيقان الذي يؤدي إلى النظر الصحيح ، نفعكم هذا الجواب ، وإلا لم ينفعكم ؛ أو إن كنتم موقنين بشيء قط ، فهذا أولى ما توقنون به لظهوره وإنارة دليله .

وهذه المحاورة من فرعون تدل على أن موسى عليه السلام دعاه إلى التوحيد .

﴿ قال لمن حوله ﴾ : هم أشراف قومه .

قيل : كانوا خمسمائة رجل عليهم الأساور ، وكانت للملوك خاصة .

﴿ ألا تستمعون ﴾ : أي ألا تصغون إلى هذه المقالة إغراء به وتعجباً ، إذ كانت عقيدتهم أن فرعون ربهم ومعبودهم .

(22/567)

قال ابن عطية : والفراعنة قبله كذلك ، وهذه ضلالة منها في مصر وديارنا إلى اليوم بقية . انتهى .

يشير إلى ما أدركه في عصره من ملوك العبيديين الذين كان أتباعهم تدعى فيهم الإلهية ، وأقاموا ملوكاً بمصر ، من زمان المعز إلى زمان العاضد ، إلى أن محى الله دولتهم بظهور الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شاري رضي الله عنه ، فلقد كانت له مآثر في الإسلام منها : فتح بيت المقدس وبلاد كثيرة من سواحل الشام ، كان النصارى مستولين عليها ، فاستنقذها منهم .

﴿ قال ربكم ورب آبائكم الأولين ﴾ : نبههم على منشئهم ومنشىء آبائهم ، وجاء في قوله : الأولين ، دلالة على إماتتهم بعد إيجادهم .

وانتقل من الاستدلال بالعام إلى ما يخصهم ، ليكون أوضح لهم في بيان بطل دعوى فرعون الإلهية ، إذ كان آباؤهم الأولون تقدموا فرعون في الوجود ، فمحال أن يكون وهو في العدم

إلهاً لهم .

﴿ قال إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون ﴾ .

قال أبو عبد الله الرازي : التعريف بهذا الأثر أظهر ، فلهذا عدل موسى عليه السلام من الكلام الأول إليه ، إذ كان لا يمكن أن يعتقد العاقل في نفسه وفي آبائه كونهم واجبي الوجود لذواتهم ، لأن المشاهدة دلت على وجودهم بعد عدمهم ، وعدمهم بعد وجودهم ، فعند ذلك قال فرعون : ما قال يعني أن المقصود من سؤال ما طلبت الماهية وخصوصية الحقيقة .

والتعريف بهذه الآثار الخارجية لا تفيد تلك الخصوصية ، فهذا الذي يدعي الرسالة مجنون لا يفهم السؤال فضلاً عن أن يجيب عنه ، فقال موسى عليه السلام : ﴿ رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون ﴾ : فعدل إلى طريق أوضح من الثاني ، وذلك أنه أراد بالمشرق : طلوع الشمس وظهور النهار ، وأراد بالمغرب : غروب الشمس وزوال النهار .

(23/567)

وهذا التقدير المستمر على الوجه العجيب لا يتم إلا بتدبير مدبر ، وهذا بعينه طريقة إبراهيم عليه السلام مع نمروذ ، فإنه استدل أولاً بالإحياء والإماتة ، وهو الذي ذكره موسى

عليه السلام هنا بقوله : ﴿ ربكم ورب آبائكم الأولين ﴾ ، فأجابه نمروذ بقوله : ﴿ أنا أحيي وأميت ﴾ فقال : ﴿ فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر ﴾ وهو الذي ذكره موسى عليه السلام هنا بقوله : ﴿ رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون ﴾ : أي إن كنتم من العقلاء ، عرفتم أن لا جواب عن السؤال إلا ما ذكرت .

انتهى ، وفيه بعض تلخيص .

وقال ابن عطية : زاده موسى عليه السلام في بيان الصفات التي تظهر نقص فرعون ، وتبين أنه في غاية البعد عن القدرة عليها ، وهي ربوبية المشرق والمغرب ، ولم يكن لفرعون إلا ملك مصر من البحر إلى أسوان وأرض الإسكندرية .

وقرأ مجاهد ، وحميد ، والأعرج : أرسل إليكم ، على بناء الفاعل ، أي أرسله ربه إليكم .

وقرأ عبد الله ، وأصحابه ، والأعمش : رب المشارق والمغارب ، على الجمع فيهما .

ولما انقطع فرعون في باب الاحتجاج ، رجع إلى الاستعلاء والغلب ، وهذا أبين علامات الانقطاع ، فتوعد موسى بالسجن حين أعياه خطابه : ﴿ قال لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين ﴾ .

وقال الزمخشري : لما أجاب موسى بما أجاب ، عجب قومه من جوابه ، حيث نسب الربوبية إلى غيره ، فلما ثنى بتقرير قوله ، جننه إلى قومه وظنن به ، حيث سماه رسولهم ،

فلما ثلث احتد واحتدم ، وقال : ﴿ لئن اتخذت إلهاً غيري ﴾ .

فإن قلت : كيف قال : أولاً : ﴿ إن كنتم موقنين ﴾ ، وآخراً : ﴿ إن كنتم تعقلون ﴾ ؟

قلت : لأين أولاً ، فلما رأى شدة الشكيمة في العناد وقلة الإصغاء إلى عرض الحجج ، خاشن وعارض إن رسولكم لمجنون بقوله : ﴿ إن كنتم تعقلون ﴾ .

فإن قلت : ألم يكن لأسجننك أخصر من ﴿ لأجعلنك من المسجونين ﴾ ومؤدّياً مؤدّاه ؟

(24/567)

قلت : أما أخصر فنعم ، وأما مؤدّياً مؤدّاه فلا ، لأن معناه : لأجعلنك واحداً ممن عرفت حالهم في سجوني .

وكان من عادته أن يأخذ من يريد سجنه فيطرحه في هوّة ذاهبة في الأرض بعيدة العمق فرداً ، لا يبصر فيها ولا يسمع ، فكان ذلك أشد من القتل . انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾

(25/567)

وقال أبو السعود :

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ﴾

لَمَّا سمعَ منه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ تلك المقالةَ المتينةَ وشاهد تصلُّبَهُ في أمرِه وعدمَ تأثُّرِه بما قدَّمه من الإبراقِ والإرعاد شرعَ في الاعتراض على دعواهُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ فبدأ بالاستفسارِ عن المُرْسِل فقال : ﴿ وَمَا رَبُّ العالمين ﴾ حكايةٌ لما وقع في عبارته عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أيْ أيُّ شيءٍ رب العالمينَ الذي أدَّعيتَ أنَّك رسولُه منكراً لأنْ يكون للعالمين ربٌّ سواه حسبما يُعرب عنه قولُه : ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الاعلى ﴾ وقوله : ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِّنْ إله غَيْرِى ﴾ وينطق به وعيدُه عند تمام أجوبتِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ﴿ قَالَ ﴾ موسى عليه السَّلامُ مُجيباً له ﴿ رَبّ السموات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ بتعيين ما أراد بالعالمين وتفصيله لزيادةِ التَّحقيقِ والتَّقريرِ وحسم مادَّةِ تزويرِ اللَّعينِ وتشكيكِهِ بحملِ العالمينَ على ما تحت مملكتِه ﴿ إِن كُنتُمْ مُّوقِنِينَ ﴾ أي إنْ كنتُم موقنين بالأشياءِ محقِّقين لها علمتُم ذلك ، أو إنْ كنتُم موقنين بشيءٍ من الأشياءِ فهذا أولى بالإيقانِ لظهورِه وإنارةِ دليله .

﴿ قَالَ ﴾ أي فرعونُ عند سماع جوابِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ خوفاً من تأثيرِه في قلوبِ قومِه وإذعانِهم له ﴿ لِمَنْ حَوْلَهُ ﴾ من أشراف قومه قال ابن عبَّاس رضي الله عنهما : خُمسمائة عليهم الأساورُ وكانت للملوك خاصَّةً ﴿ أَلاَ تَسْتَمِعُونَ ﴾ مرائياً لهمَّ أنَّ ما سمعُوه من جوابِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مع كونِه ممَّا لا يليقُ بأنْ يتعجَّب منه كأنَّه قال ألا

تستمعُون ما يقولُه فاستمعُوه وتعجَّبوا منه حيثُ يدَّعي خلافَ أمرٍ محقَّقٍ لا اشتباه فيه يُريد به ربوبيةَ نفسِه .

(26/567)

﴿ قَالَ ﴾ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ تصريحاً بما كان مُندرجاً تحت جوابيه السَّابقين ﴿ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءابَائِكُمُ الأولين ﴾ وحطّاً له من ادّعاءِ الرُّبوبيَّةِ إلى مرتبةِ المربُوبيَّةِ .

﴿ قَالَ ﴾ أي فرعونُ لمَّا واجهه مُوسى عليه السَّلامُ بما ذُكر غاظه ذلك وخافَ من تأثُّر قومِه منه فأراهُم أنَّ ما قاله عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ممَّا لا يصدرُ عن العُقلاء صدّاً لهمُ عن قبولِه فقال مؤكّداً لمقالتِه الشَّنعاءِ بحرفَيْ التَّأكيدِ : ﴿ إِنَّ رَسُولَكُمُ الذى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ ليفتنهم بذلك ويصرفهم عن قبولِ الحقِّ وسمَّاهُ رسولاً بطريقِ الاستهزاءِ وأضافه إلى مُخاطبيه ترفُّعاً من أنْ يكونَ مُرْسَلاً إلى نفسِه .

(27/567)

﴿ قَالَ ﴾ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ﴿ رَبُّ المشرق والمغرب وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ قاله عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ تكميلاً لجوابه الأوَّلِ وتفسيراً له وتنبيهاً على جهلِهم وعدمِ فهمِهم لمعنى مقالتِه فإنَّ بيانَ ربوبيَّتِهِ تعالى للسَّموات والأرضِ وما بينَهما وإنْ كان متضمّناً لبيانِ ربوبيَّتِه تعالى للخافقينِ وما بينَهُما لكن لمَّا لم يكُن فيه تصريحٌ بإستناد حركات السَّمواتِ وما فيها وتغيُّراتِ أحوالِها وأوضاعِها وكون الأرض تارةً مظلمةً وأخرى منورةً إلى الله تعالى أرشدَهُم إلى طريقِ معرفةِ ربوبيته تعالى لمَّا ذكر فإن ذكر المشرقِ والمغربِ منبىءٌ عن شروقِ الشَّمسِ وغروبِها المُنوطينَ بحركاتِ السَّمواتِ وما فيها على نمطٍ بديعٍ يترتَّب عليه هذه الأضاعُ الرَّصينةُ ، وكلُّ ذلك أمورٌ حادثةٌ مفتقرةٌ إلى محدثٍ قادرٍ عليمٍ حكيمٍ لا كذواتِ السَّمواتِ والأرضِ التي يتوهَّم جهلةُ المُتوهمينَ باستمرارِها استغناءها عن الموحّدِ المُتصرّفِ ﴿ إِنْ كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ أي إنْ كنتُم تعقلون شيئاً من الأشياءِ أو إنْ كنتُم من أهلِ العقلِ علمتُم أنَّ الأمرَ كما قُلته ، وفيه إيذانٌ بغايةِ وضوحِ الأمرِ بحيثُ لا يشتبه على مَن له عقلٌ في الجُملةِ ، وتلويحٌ بأنَّهم بمعزلٍ من دائرةِ العقلِ وأنَّهم المتَّصفون بما رَمَوه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ به من الجنونِ .

(28/567)

﴿ قَالَ ﴾ لما سمع اللَّعينُ منه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ تلك المقالاتِ المبنيةَ على أساسِ الحِكَمِ البالغةِ وشاهدَ شدَّةَ حزمِه وقوَّةَ عزمِه على تمشية أمرِه وأنَّه ممَّن لا يجارى في حلبةِ المحاورةِ ضربَ صَفحاً عن المُقاولةِ بالإنصافِ ونَأَى بجانبه إلى عُدْوةِ الجورِ والاعتسافِ فقال مُظهراً لما كانَ يُضمره عند السُّؤال والجوابِ : ﴿ لَئِنِ اتخذت إلها غَيْرِى لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ المسجونين ﴾ لم يقتنْع منه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بتركِ دعَوى الرِّسالةِ وعدمِ التَّعرض له حتَّى كلَّفه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أنْ يتَّخذَه إلهاً لغايةِ عُتوِّه وغُلوِّه فما فيه من دَعْوى الأُلوهيَّةِ وهذا صريحٌ في أنَّ تعجُّبَه وتعجيبَه من الجوابِ الأوَّلِ ونسبَتُه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ إلى الجُنونِ في الجوابِ الثَّاني كان لنسبته عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ الرُّبوبيَّةَ إلى غيرِه ، وأما ما قيلَ مِنْ أنَّ سؤالَه كان عن حقيقةِ المُرْسِلِ وتعجُّبه من جوابِه كان لعدمِ مُطابقتِه له لكونِه يذكرُ أحوالَه فلا يُساعده النَّظم الكريمُ ولا حال فرعونَ ولا مقالُه . واللامُ في المسجونينَ للعهدِ أي لأجعلنَّك ممَّن عرفتَ أحوالَهم في شجونِي حيثُ كان يطرحُهم في هُوَّةٍ عميقة حتَّى يموتُوا ولذلك لم يقُل لأسجنَّنك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 6 صـ ﴾

(29/567)

وقال الآلوسى :

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ﴾

مستفهماً عن المرسل سبحانه ﴿ وَمَا رَبُّ العالمين ﴾ وتحقيق ذلك على ما قال العلامة الطيبي .

أنه عز وجل لما أمرهما بقوله سبحانه : ﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ العالمين ﴾ [الشعراء : 16] ﴿ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِى إسرائيل ﴾ [الشعراء : 17] فلا بد أن يكونا ممتثلين مؤديين لتلك الرسالة بعينها عند اللعين فلما أديت عنده اعترض أولاً بقوله : ﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً ﴾ [الشعراء : 18] إلى آخره وثانياً بقوله : ﴿ وَمَا رَبُّ العالمين ﴾ ولذلك جيء بالواو العاطفة وكرر قال للطول فكأنه قال : أأنت الرسول وما رب العالمين ؟

وقال الزمخشري : إن اللعين لما قال له بوابه : إن ههنا من يزعم أنه رسول رب العالمين قال له عند دخوله : وما رب العالمين ؟ واعترض بأنه نظم مختل لسبق المقاولة بينهم كما أشار إليه هو في سابق كلامه .

وانتصر له صاحب الكشف فقال : أراد أنه تعالى ذكر مرة ﴿ فَقُولا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ ﴾ [طه : 47] وأخرى ﴿ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ العالمين ﴾ [الشعراء : 16] والقصة واحدة والمجلس واحد فحمله على أن الثاني ما أداه البواب من لسانه عليه السلام والأول ما خاطبه به موسى عليه السلام مشافهة وأن اللعين أخذ أولاً : في الطعن فيه وأن مثله ممن

قرف برذائل الأخلاق لا يرشح لمنصب عال فضلاً عما ادعاه؛ وثانياً : في السؤال عن شأن من ادعى الرسالة عنه استهزاء ، ومن هذا تبين أن سبق المقاولة لا يدل على اختلال النظم الذي أشار إليه انتهى .

(30/567)

وجوز بعضهم وقوع الأمر مرتين وأن فرعون سأل أولاً بقوله : ﴿ فَمَن رَّبُّكُمَا يا موسى موسى ﴾ [طه : 49] وسأل ثانياً بقوله : ﴿ وَمَا رَبُّ العالمين ﴾ وقد قص الله تعالى الأول فيما أنزل جل وعلا أولاً وهو سورة طه والثاني فيما أنزله سبحانه ثانياً وهو سورة الشعراء ، فقد روي عن ابن عباس أن سورة طه نزلت ثم الواقعة ثم طسم الشعراء ، وقال آخر : يحتمل أنهما إنما قالا : ﴿ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ العالمين ﴾ [الشعراء : 16] والاقتصار في سورة طه على ذكر ربوبيته تعالى لفرعون لكفايته فيما هو المقصود ، وعلى القول بوقوع الأمر مرتين قيل : إن فرعون سأل في المرأة الأولى بقوله : ﴿ مِنْ رَّبِّكُمَا ﴾ [الشعراء : 49] طلباً للوصف المشخص كما يقتضيه ظاهر الجواب خلافاً للسكاكي في دعواه أنه سؤال عن الجنس كأنه قال : أبشر هو أم ملك أم جني ؟ والجواب من الأسلوب الحكيم وأخرى بما رب العالمين طلباً للماهية والحقيقة انتقالاً لما هو أصعب ليتوصل بذلك إلى بعض أغراضه

الفاسدة حسبما قص الله تعالى بعد ، و﴿ مَا ﴾ يسئل بها عن الحقيقة مطلقاً سواء كان المسؤول عن حقيقته من أولي العلم أولاً فلا يتوهم أن حق الكلام حينئذٍ أن يقال من رب العالمين ؟ حتى يوجه بأنه لإنكار اللعين له عز وجل عبر بما ، ولما كان السؤال عن الحقيقة مما لا يليق بجنابه جل وعلا .

(31/567)

﴿ قَالَ ﴾ عليه السلام عادلاً عن جوابه إلى ذكر صفاته عز وجل على نهج الأسلوب الحكيم إشارة إلى تعذر بيان الحقيقة ﴿ رَبّ السموات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ والكلام في امتناع معرفة الحقيقة وعدمه قد مر عليك فتذكر ، ورفع ﴿ رَبّ ﴾ على أنه خبر مبتدأ محذوف أي هو رب السموات والأرض وما بينهما من العناصر والعنصريات ﴿ إِن كُنتُمْ مُّوقِنِينَ ﴾ أي إن كنتم موقنين بالأشياء محققين لها علمتم ذلك أو إن كنتم موقنين بشيء من الأشياء فهذا أولى بالإيقان لظهوره وإنارة دليله فإن هذه الأجرام المحسوسة ممكنة لتركبها وتعددها وتغير أحوالها فلها مبدأ واجب لذاته ثم ذلك المبدأ لا بد أن يكون مبدأ لسائر الممكنات ما يمكن أن يحس بها وما لا يمكن وإلا لزم تعدد الواجب أو استغناء بعض الممكنات عنه وكلاهما محال ، وجواب أن محذوف كما أشرنا إليه .

قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ (25)

﴿ قَالَ ﴾ فرعون عند سماع جوابه عليه السلام خوفاً من أن يعلق منه في قلوب قومه شيء ﴿ لِمَنْ حَوْلَهُ ﴾ من أشراف قومه ، قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : كانوا خمسمائة رجل عليهم الأساور وكانت للملوك خاصة ﴿ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴾ جوابه يريد التعجيب منه والإزراء بقائله وكان ذلك لعدم مطابقته للسؤال حيث لم يبين فيه الحقيقة المسؤول عنها وكونه في زعمه نظراً لما عليه قومه من الجهالة غير واضح في نفسه لخفاء العلم بإمكان ما ذكر أو حدوثه الذي هو علة الحاجة إلى المبدأ الواجب لذاته عليهم وقد بالغ اللعين في الإشارة إلى عدم الاعتداد بالجواب المذكور حيث أوهم أن مجرد استماعهم له كاف في رده وعدم قبوله ، وكان موسى عليه السلام لما استشعر ذلك من اللعين .

قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (26)

(32/567)

﴿ قَالَ ﴾ عدولاً إلى ما هو أوضح وأقرب إعطاء لمنصب الإرشاد حقه حسب الإمكان لتعذر الوقوف على الحقيقة كما سمعت : ﴿ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَائِكُمُ الاولين ﴾ فإن الحدوث والافتقار إلى واجب مصور حكيم في المخاطبين وآبائهم الذين ذهبوا وعدموا

أظهر والنظر في الأنفس أقرب وأوضح من النظر في الآفاق ؛ ولما رأى اللعين ذلك وقوي عنده خوف فتنة قومه .

قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (27)

﴿ قَالَ ﴾ مبالغاً في الرد والإشارة إلى عدم الاعتداد بذلك مصرحاً بما ينفر قلوبهم عن قائله وقبول ما يجيء به .

﴿ إِنَّ رَسُولَكُمُ الذى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ حيث يسئل عن شيء ويجيب عن شيء آخر وينبه على ما في جوابه ولا ينتبه ، وسماه رسولاً بطريق الاستهزاء ، وأضافه إلى مخاطبيه ترفعاً من أن يكون مرسلاً إلى نفسه وأكد ذلك بالوصف ، وفيه إثارة لغضبهم واستدعاء لإنكارهم رسالته بعد سماع الخبر ترفعاً بأنفسهم عن أن يكونوا أهلاً لأن يرسل إليهم مجنون .

وقرأ مجاهد .

وحميد .

والأعرج ﴿ أُرْسِلَ ﴾ على بناء الفاعل أي الذي أرسله ربه إليكم ، وكأنه عليه السلام لما رأى خشونة في رد اللعين وإيماء منه إلا أنه عليه السلام لم يتنبه لما في جوابه الأول من الخفاء عند قومه بل كان عدوله عنه إلى الجواب الثاني لما رماه به عليه اللعنة .

قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (28)

﴿ قَالَ ﴾ عليه السلام تفسيراً لجوابه الأول وإزالة لخفائه ليعلم أن العدول ليس إلا لظهور ما عدل إليه ووضوحه وقربه إلى الناظر لا لما رمى به وحاشاه مع الإشارة إلى تعذر بيان الحقيقة أيضاً بالإصرار على الجواب بالصفات ﴿ رَبُّ المشرق والمغرب وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ وذلك لأنه لم يكن في الجواب الأول تصريح باستناد حركات السموات وما فيها وتغيرات أحوالها وأوضاعها وكون الأرض تارة مظلمة وأخرى منورة إلى الله تعالى ، وفي هذا إرشاد إلى ذلك فإن ذكر المشرق والمغرب منبىء عن شروق الشمس وغروبها المنوطين بحركات السموات وما فيها على نمط بديع يترتب عليه هذه الأوضاع الرصينة وكل ذلك أمور حادثة لا شك في افتقارها إلى محدث قادر عليكم حكيم ، وارتكب عليه السلام الخشونة كما ارتكب معه بقوله : ﴿ إِنْ كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ أي ان كنتم تعقلون شيئاً من الأشياء أو ان كنتم من أهل العقل علمتم أن الأمر كما قلته وأشرت إليه فإن فيه تلويحاً إلى أنهم بمعزل من دائرة العقل وأنهم الأحقاء بما رموه به عليه السلام من الجنون .

وقرأ عبد الله وأصحابه .

والأعمش ﴿ رَبّ المشارق والمغارب ﴾ على الجمع فيهما ، ولما سمع العين منه عليه

السلام تلك المقالات المبينة على أساس الحكم البالغة وشاهد شدة حزمه وقوة عزمه على تمشية أمره وأنه ممن لا يجاري في حلبة المحاورة .

قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (29)

(34/567)

﴿ قَالَ ﴾ ضارباً صفحاً عن المقاولة إلى التهديد كما هو ديدن المحجوج العنيد : ﴿ لَئِنِ اتخذت إلها غَيْرِى لاجْعَلَنَّكَ مِنَ المسجونين ﴾ وفيه مبالغة في رده عن دعوى الرسالة حيث أراد منه ما أراد ولم يقنع منه عليه السلام بترك دعواها وعدم التعرض له ، وفيه أيضاً عتو آخر حيث أوهم أن موسى عليه السلام متخذ له إلهاً في ذلك الوقت وأن اتخاذه غيره الهاً بعد مشكوك ، وبالغ في الإبعاد على تقدير وقوع ذلك حيث أكد الفعل بما أكد وعد عن لأسجننك الأخصر لذلك أيضاً فإن أل في المسجونين للعهد فكأنه قال : لأجعلنك ممن عرفت أحوالهم في سجوني ، وكان عليه العنة يطرحهم في هوة عميقة قيل : عمقها خمسمائة ذراع وفيها حيات وعقارب حتى يموتوا .

(35/567)

هذا وقال بعضهم : السؤال هنا وفي سورة طه عن الوصف والقصة واحدة والمجلس واحد واختلاف العبارات فيها لاقتضاء كل مقام ما عبر به فيه ويلتزم القول بأن الواقع هو القدر المشترك بين جميع تلك العبارات ، وبهذا ينحل اشكال اختلاف العبارات مع دعوى اتحاد القصة والمجلس لكن تعيين القدر المشترك الذي يصح أن يعبر عنه بكل من تلك العبارات يحتاج إلى نظر دقيق مع مزيد لطف وتوفيق ، ثم ان العلماء اختلفوا في أن اللعين هل كان يعلم أن للعالم ربا هو الله عز وجل أولاً ، فقال بعضهم : كان يعلم ذلك بدليل ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاء إِلاَّ رَبُّ السموات والأرض ﴾ [الإسراء : 102] ومنهم من استدل بطلبه شرح الماهية زعما منه أن فيه الاعتراف باصل الوجود وذكروا أن ادعاءه الألوهية وقوله : ﴿ أَنَاْ رَبُّكُمُ الاعلى ﴾ [النازعات : 24] إنما كان ارهاباً بالقومه الذين استخفهم ولم يكن ذلك عن اعتقاد وكيف يعتقد أنه رب العالم وهو يعلم بالضرورة أنه وجد بعد ان لم يكن ومضى على العالم ألوف من السنين وهو ليس فيه ولم يكن له إلا ملك مصر ولذا قال شعيب لموسى عليهما السلام : لما جاءه في مدين ﴿ لاَ تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ القوم الظالمين ﴾ [القصص : 25] .

(36/567)

وقال بعضهم : إنه كان جاهلاً بالله تعالى ومع ذلك لا يعتقد في نفسه أنه خالق السموات والأرض وما فيهما بل كان دهريا نافياً للصانع سبحانه معتقداً وجوب الوجود بالذات للإفلاك وإن حركاتها أسباب لحصول الحوادث ويعتقد أن من ملك قطرا وتولى أمره لقوة طالعة استحق العبادة من أهله وكان رباً لهم ولهذا خصص ألوهيته وربوبيته ولم يعمهما حيث قال : ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِهِ ﴾ [القصص : 38] ﴿ وَأَنَا۠ رَبُّكُمُ الاعلى ﴾ [النازعات : 24] ، وجوز أن يكون الحلولية القائلين بحلول الرب سبحانه وتعالى في بعض الذوات ويكون معتقداً حلوله عز وجل فيه ولذلك سمي نفسه إلهاً ، وقيل : كان يدعي الألوهية لنفسه ولغيره وهو ما كان يعبده من دون الله عز وجل كما يدل عليه ظاهر قوله تعالى :

(37/567)

﴿ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ﴾ [الأعراف : 127] وهو وكذا ما قبله بعيد ، والذي يغلب على الظن ويقتضيه أكثر الظواهر أن اللعين كان يعرف الله عز وجل وأنه سبحانه هو خالق العالم إلا أنه غلبت عليه شقوته وغرته دولته فاظهر لقومه خلاف علمه فاذعن منهم له من كثر

جهله ونزر عقله ، ولا يبعد أن يكون في الناس من يذعن بمثل هذه الخرافات ولا يعرف أنها مخالفة للبديعيات ، وقد نقل لي من أثق به أن رجلين من أهل نجد قبل ظهور أمر الوهابي فيما بينهم بينما هما في مزرعة لهما إذ مر بهما طائر طويل الرجلين لم يعهدا مثله في تلك الأرض فنزل بالقرب منهما فقال أحدهما للآخر : ما هذا ؟ فقال له : لا ترفع صوتك هذا ربنا فقال له معتقداً صدق ذلك الهذيان : سبحانه ما أطول كراعيه وأعظم جناحيه ، وأما من له عقل منهم ولا يخفى عليه بطلان مثل ذلك فيحتمل أن يكون قد وافق ظاهراً لمزيد خوفه من فرعون أو مزيد رغبته بما عنده من الدنيا كما نشاهد كثيراً من العقلاء وفسقة العلماء وافقوا جبابرة الملوك في أباطيلهم العلمية والعملية حبا للدنيا الدنية أو خوفاً مما يتوهمونه من البلية ، ويحتمل أن يكون قد اعتقد ذلك حقيقة بضرب من التوجيه وإن كان فاسداً كزعم الحلول ونحوه ، والمنكر على القائل أنا الحق والقائل ما في الجبة إلا الله يزعم أن معتقدي صدقهما كمعتقدي صدق فوعون في قوله : ﴿ أَنَا۠ رَبُّكُمُ الاعلى ﴾ [النازعات : 24] وسؤال اللعين لموسى عليه السلام حكاية لما وقع في عبارته بقوله : ﴿ مَا رَبّ العالمين ﴾ [الشعراء : 23] كان لإنكاره لظاهر أن يكون للعالمين رب سواه ، وجواب موسى عليه السلام له لم يكن إلا لابطال ما يدعيه ظاهراً وارشاد قومه إلى ما هو الحق الحقيق بالقبول ولذا لم يقصر الخطاب في الأجوبة عليه ، والتعجيب المفهوم من قوله : ﴿ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴾ [

الشعراء : 25] لزعمه ظاهراً أنه عليه السلام ادعى خلاف أمر محقق وهي ربوبية نفسه ، ولما داخله من

(38/567)

خوف اذعان قومه لما قاله موسى عليه السلام ما داخله بالغ في صرفهم عن قبول الحق بقوله : ﴿ إِنَّ رَسُولَكُمُ الذى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ [الشعراء : 27] ولما رأى أن ذلك لم يفد في دفع موسى عليه السلام عن إظهار الحق وإبطال ما كان يظهره من الباطل ذب عن دعواه الباطلة بالتهديد وتشديد الوعيد فقال : ﴿ لَئِنِ اتخذت إلها غَيْرِى لاجْعَلَنَّكَ مِنَ المسجونين ﴾ ولعل أجوبته عليه السلام مشيرة إلى إبطال اعتقاد نحو الحلول بأن فيه الترجيح بلا مرجح وبأنه يستلزم المربوبية لما فيه من التغير ، وبعد هذا القول عندي قول بعضهم : إنه عليه اللعنة كان دهرياً إلى آخره ما سمعته آنفاً ، والتعجيب لزعمه حقيقة أنه عليه السلام ادعى خلاف أمر محقق وهو ربوبية نفسه عليه اللعنة والله تعالى أعلم ، ولما رأى عليه السلام فظاظة فرعون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 19 صـ ﴾

(39/567)

وقال القاسمي :

﴿ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ أي : لكونه يدعو إلى خلاف ما عقل عن الآباء .

﴿ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ أي : شيئاً ما ، أو إن كنتم من أهل العقل علمتم أن الأمر كما قتله . وفيه إيذان بغاية وضوح الأمر ، بحيث لا يشتبه على من له عقل في الجملة ، وتلويح بأنهم بمعزل من دائرة العقل ، وإنهم المتصفون بما رموه عليه السلام به من الجنون .

تنبيه :

ذهب بعض المفسرين إلى أن فرعون كان من المعطلة ، لا يقر بخالق ، ولا يعترف بمعبود لظاهر قوله : ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾ [القصص : 38] ، وأن قومه كانوا لا يؤلهون سواه .

قال ابن كثير : ومن زعم من أهل المنطق أن هذا سؤال عن الماهية فقد غلط . فإنه لم يكن مقرّاً بالصانع ، حتى يسأل عن الماهية ، بل كان جاحداً له بالكلية فيما يظهر . انتهى .

وقدمنا أنه حقق الاكتشاف الصحيح والتاريخ والوثيق ، أنه كان من الوثنيين الغالين . وأن له ولقومه عدة معبودين علويين وسفليين .

وعليه فمعنى قوله : ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾ أي : مطاع عظيم ، وكانوا لا يتحاشون من إطلاق الإله على الجبار المسيطر . فبقي سؤاله بما يحتمل أن يكون على نهج القاعدة المنطقية ، من طلب الأكتناه ، وتعجبه من جوابه ، ثم رميه بالجنون ، ثانياً ، لعدوله عن الكنه إلى الأثر . ويحتمل أن يكون لتعرفه من جهة وحدته في ربوبيته التي ادعاها موسى ، وأن تعجبه لما شاهد من الجد في الدعوة والثبات عليها ، والصدع بما يؤلم عظمته ، ويغمز جبروته ؛ وهذا هو الذي أذهب إليه ، فإن القوم بمعزل عن أن يعجبوا لكون الجواب كان بالرسم لا بالحد ، إذ هو اصطلاح لفئة خاصة ، ومع هذا فالنظم يحتمله ولا يأباه . وقد عول عليه كثير من أهل النظر ، ولا بأس بأن نأثر شيئاً من لطائفهم فيه .

قال الرازيّ : السؤال بما طلب لتعريف حقيقة الشيء . وتعريف حقيقة الشيء إما أن يكون بنفس تلك الحقيقة ، أو بشيء من أجزائها ، أو بأمر خارج عنها ، أو بما يتركب من الداخل والخارج . أما تعريفها بنفسها فمحال ؛ لأن المعرف معلوم قبل المعرف . فلو عرف الشيء بنفسه لزم أن يكون معلوماً قبل أن يكون معلوماً ، وهو محال . وأما تعريفها بالأمور الداخلية فيها ، فها هنا في حق واجب الوجود محال ، لأن التعريف بالأمور الداخلة ، لا

يمكن إلا إذا كان المعرف مركباً ، وواجب الوجود يستحيل أن يكون مركباً ؛ لأن كل مركب ، فهو محتاج إلى كل واحد من أجزائه . وكل واحد من أجزائه فهو غيره ؛ فكل مركب محتاج إلى غيره . وكل ما احتاج إلى غيره فهو ممكن لذاته . وكل مركب فهو ممكن ، فما ليس بممكن يستحيل أن يكون مركباً . فواجب الوجود ليس بمركب ، وإذا لم يكن مركباً استحال تعريفه بأجزائه . ولما بطل هذان القسمان ، ثبت أنه لا يمكن تعريف ماهية واجب الوجود ، إلا بلوازمه وآثاره .

(41/567)

ثم إن اللوازم قد تكون خفية ، وقد تكون جلية . ولا يجوز تعريف الماهية باللوازم الخفية ، بل لا بد من تعريفها باللوازم الجلية . وأظهر آثار ذات واجب الوجود وهو هذا العالم المحسوس ، وهو السماوات والأرض وما بينهما .

فقد ثبت أنه لا جواب البتة لقول فرعون : ﴿ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ إلا ما قاله موسى عليه السلام ، وهو أنه رب السماوات والأرض وما بينهما . فأما قوله : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴾ . فمعناه إن كنتم موقنين باستناد هذه المحسوسات إلى موجود واجب الوجود ، فاعرفوا أنه لا يمكن تعريفه إلا بما ذكرته . لأنكم لما سلمتم انتهاء هذه المحسوسات إلى الواجب لذاته

، وثبت أن الواجب لذاته فرد مطلق ، وثبت أن الفرد المطلق لا يمكن تعريفه إلا بآثاره .

وثبت أن تلك الآثار لا بد وأن تكون أظهر آثاره وأبعدها عن الخفاء ، وما ذاك إلا السموات والأرض وما بينهما . فإن أيقنتم بذلك لزمكم أن تقطعوا بأنه لا جواب عن ذلك السؤال ، إلا هذا الجواب .

ولما ذكر موسى عليه السلام هذا الجواب الحق ، قال فرعون لمن حوله : ﴿ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴾ وإنما ذكر ذلك على سبيل التعجب من جواب موسى ، يعني أنا أطلب منه الماهية ، وخصوصية الحقيقة ، وهو يجيبني بالفاعلية والمؤثرية .

(42/567)

وتمام الإشكال أن تعريف الماهية بلوازمها ، لا يفيد الوقوف على نفس تلك الماهية ، وذلك لأنا إذا قلنا في الشيء أنه الذي يلزمه اللازم الفلانيّ ، فهذا المذكور ، إما أن يكون معرّفاً لمجرد كونه أمراً ما يلزمه ذلك اللازم . أو لخصوصية تلك الماهية التي عرضت لها هذه الملزوميّة والأول محال . لأن كونه أمراً يلزمه ذلك اللازم جعلناه كاشفاً . فلو كان المشكوف هو هذا القدر لزم كون الشيء معرفاً لنفسه ، وهو محال . والثاني محال ، لأن العلم بأنه أمر ما ، يلزمه اللازم الفلانيّ ، لا يفيد العلم بخصوصية تلك الماهية الملزمة ، لأنه لا يمتنع في العقل اشتراك

الماهيات المختلفة في لوازم متساوية . فثبت أن التعريف بالوصف الخارجيّ ، لا يفيد معرفة نفْس الحقيقة فلم يكن كونه ربّاً للسموات والأرض وما بينهما جواباً عن قوله : ﴿ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ فأجاب موسى عليه السلام بأن قال : ﴿ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ وكأنه عدل عن التعريف بخالقية السماء والأرض ، إلى التعريف بكونه تعالى خالقاً لنا ولآبائنا . وذلك لأنه لا يمتنع أن يعتقد أحد أن السموات والأرضين ، واجبة لذواتها ، فهي غنية عن الخالق والمؤثر . ولكن لا يمكن أن يعتقد العاقل في نفسه وأبيه وأجداده ، كونهم واجبين لذواتهم . لما أن المشاهدة دلت على أنهم وجودوا بعد العدم ، ثم عدموا بعد الوجود ، وما كان كذلك استحال أن يكون واجباً لذاته . وما لم يكن واجباً لذاته ، استحال وجوده إلا لمؤثر . فكان التعريف بهذا الأثر أظهر ، فلهذا عدل موسى عليه السلام من الكلام الأول ، إليه . فقال فرعون : ﴿ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ يعني المقصود من سؤال ما طلب الماهية ، وخصوصية الحقيقة . والتعريف بهذه الآثار الخارجية لا يفيد البتة تلك الخصوصية ، فهذا الذي يدعى الرسالة مجنون ، لا يفهم السؤال فضلاً عن أن يجيب عنه .

(43/567)

فقال موسى عليه السلام : ﴿ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ فعدل إلى طريق ثالث أوضح من الثاني ، وذلك لأنه أراد بالمشرق طلوع الشمس وظهور النهار ، وأراد بالمغرب غروب الشمس وزوال النهار ، والأمر ظاهر في أن هذا التدبير المستمر على الوجه العجيب ، لا يتم إلا بتدبير مدبر ، وأما قوله : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ فكأنه عليه السلام قال : إن كنت من العقلاء ، عرفت أنه لا جواب عن سؤالك ، إلا ما ذكرت ، لأنك طلبت مني تعريف حقيقته بنفس حقيقته . وقد ثبت أنه لا يمكن تعريف حقيقته بنفس حقيقته ولا بأجزاء حقيقته . فلم يبق إلا أن أعرف حقيقته بآثار حقيقته . وأنا قد عرفت حقيقته بآثار حقيقته ، فقد ثبت أن كل من كان عاقلاً ، يقطع بأنه لا جواب عن هذا السؤال إلا ما ذكرته .

ثم قال الرازيّ : وقد بينا في سورة الأنعام في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ﴾ [الأنعام : 18] ، أن حقيقة الإله سبحانه من حيث هي ، هي غير معقولة للبشر ، انتهى .

وقال الإمام ابن حزم في " المِلَل والنِّحَل " في الكلام في المائية : ذهب طوائف من المعتزلة إلى أن الله تعالى لا مائية له . وذهب أهل السنة وضرار بن عَمْرو ، إلى أن لله تعالى مائية . قال ضرار : لا يعلمها غيره . قال ابن حزم : والذي نقول به ، وبالله تعالى التوفيق ، أن له مائية هي إنّيّته نفسها ، وإنه لا جواب لمن سأل : ما هو البارئ ، إلا ما أجاب به موسى عليه

السلام؛ إذ سأله فرعون : ﴿ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ ؟ ونقول أنه لا جواب ها هنا لا في علم الله تعالى ولا عندنا ، إلا ما أجاب به موسى عليه السلام . لأن الله تعالى حمد ذلك منه وصدق فيه . ولو لم يكن جواباً صحيحاً تامّاً لا نقص فيه ، لما حمده الله تعالى .

(44/567)

ثم قال : ههنا نقف ولا نعلم أكثر . ولا ههنا أيضاً شيء غير هذا ، إلا ما علمنا ربنا تعالى ، من سائر أسمائه ، كالعليم والقدير والمؤمن والمهيمن وسائر أسمائه .

قال تعالى : ﴿ وَلاَ يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً ﴾ [110] ، إذ كل ما أحاط به العلم فهو متناه محدود وهذا منفيّ عن الله عزّ وجلّ ، وواجب في غيره ، لوقوع العدد المحاط به في أعراض كل ما دونه تعالى ، ولا يحاط بما لا حدود له ولا عدد له . فصح يقيناً أننا نعلم الله عزّ وجلّ حقّاً ، ولا نحيط به علماً . انتهى ملخصاً .

ولما سمع فرعون تلك المقالات المبينة على أساس الحكم البالغة ، وشاهد شدة حزم موسى عليه السلام وقوة عزمه على دعوته ، عدل عن خطة الإنصاف إلى الاعتساف ، بقوله : ﴿ قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهاً غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ محاسن التأويل حـ 13 صـ 472. 475 ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (23) ﴾

لما لم يَرُجْ تهويله على موسى عليه السلام وعلم أنه غير مقلع عن دعوته تنفيذاً لما أمره الله ثنّى عنان جداله إلى تلك الدعوة فاستفهم عن حقيقة ربّ العالمين الذي ذكر موسى وهارون أنهما مُرسَلان منه إذ قالا : ﴿ إنا رسولُ ربّ العالمين ﴾ [الشعراء : 16] وإظهار اسم فرعون مع أن طريقة حكاية المقاولات والمحاورة يكتفى فيها بضمير القائلين بطريقة قال قال ، أو قال فقال ، فعدل عن تلك الطريقة إلى إظهار اسمه لإيضاح صاحب هذه المقالة لبعد ما بين قوله هذا وقوله الآخر .

والواو عاطفة هذا الاستفهام على الاستفهام الأول الذي وقع كلام موسى فاصلاً بينه وبين ما عطف عليه .

وحرف ﴿ ما ﴾ الغالب فيه أن يكون للسؤال عن حقيقة الاسم بعده التي تميزه عن غيره ، ولذلك يسأل بها عن تعيين القبيلة ، ففي حديث الوفود أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لهم : "مَا أنتم" ، ففرعون سأل موسى عليه السلام تبيين حقيقة هذا الذي وصفه بأنه ﴿

رب العالمين ﴾ [الشعراء : 16] ، فقد كانت عقائد القبط تثبت آلهة متفرقة قد اقتسمت التصرف في عناصر هذا العالم وأجناس الموجودات ، وتلك العناصر هي العالمون ولا يدينون بإله واحد ، فإنّ تعدد الآلهة المتصرفة ينافي وحدانية التصرف ، فلما سمع فرعون من كلام موسى إثبات ربّ العالمين قَرع سمعه بما لم يألفه من قبل لاقتضائه إثبات إله واحد وانتفاء الإلهية عن الآلهة المعروفة عندهم ، على أنهم كانوا يزعمون أن فرعون هو المجتبَى من الآلهة ليكون مَلِكَ مصر .

فهو مظهر الآلهة الأخرى في تدبير المملكة ﴿ قال يا قوم أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي ﴾ [الزخرف : 51] .

وبهذا الانتساب إلى الآلهة وتمثيله إرادتهم في الأرض كان فرعون يُدعَى إلهاً .

وقد كانت الأمم يومئذ في غفلة عما عدا أنفسها فكانوا لا يفكرون في مختلف أحوال الأمم وعوائد البشر .

(46/567)

ولا تشعر كل أمة إلا بنفسها وخصائصها من آلهتها وملوكها فكان المَلِك لا يُشيع في أمته غيرَ قوته وانتصاره على الثائرين ، ويخيل للناس أن العالم منحصر في تلك الرقعة من الأرض .

فلا تجد في آثار القبط صوراً للأمم غير صور القبائل الذين يغزوهم فرعون ويأتي بأسراهم في الأغلال والسلاسل خاضعين عابدين حتى يخيّل لقومه أنه لما غلب أولئك فقد كان قهارَ البشر كلهم ، ويُخفي أخبار انكساره إلا إذا لحقه غلب عظيم من أمة كبرى بحيث لا يستطيع إخفاءه ، فحينئذ ينتقل أسلوب التاريخ عندهم وتنتَحِل الدولةُ الجديدة أساليبَ الدولة الماضية وتنسى حوادث الماضي وتغلب على مخيلاتهم الحالة الحاضرة ، وللدعاة والمروجين أثر كبير في ذلك .

وبهذا يتضح باعث فرعون على هذا السؤال الذي ألقاه على موسى ، وهو استفهام مشوب بتعجب وإنكار على طريق الكناية .

ومن دقائق هذه المجادلة أن الاستفسار مقدَّم في المناظرات ، ولذلك ابتدأ فرعون بالسؤال عن حقيقة الذي أرسلَ موسى عليه السلام .

وكان جواب موسى عليه السلام بياناً لحقيقة ربّ العالمين بما يصيِّر وصفَه بربّ العالمين نصاً لا يحتمل غير ما أراده من ظاهره ، فأتى بشرح اللفظ بما هو تفصيل لمعناه ، إذ قال : ﴿ رب السموات والأرض وما بينهما ﴾ ، فبذكر السموات والأرض وبعموم ما بينهما حصل بيان حقيقة المسؤول عنه بـ ﴿ ما ﴾ ومرجع هذا البيان إلى أنه تعريف لحقيقة الربّ بخصائصها لأن ذلك غاية ما تصل إليه العقول في معرفة الله أن يُعرَف بآثار خلقه ، فهو تعريف رسمي في الاصطلاح المنطقي .

وانتظم السؤال والجواب على طريقة السؤال بكلمة ﴿ ما ﴾ عن الجنس .

وهو جار على الوجه الأول من وجوه ثلاثة في تقرير السؤال والجواب من كلام "الكشاف" ، وهو أيضاً مختار السكاكي في قانون الطلب من كتاب "المفتاح" ، وطابق الجوابُ السؤالَ تمام المطابقة .

(47/567)

وأشار صاحب "الكشاف" وصرَّح صاحب "المفتاح" بأن جواب موسى بما يبيِّن حقيقةَ ﴿ رب العالمين ﴾ تضمن تنبيهاً على أن الاستدلال على ثَبات الخالق الواحد يحصل بالنظر في السماوات والأرض وما بينهما نظراً يؤدي إلى العلم بحقيقة الربّ الواحد الممتازة عن حقائق المخلوقات .

ولهذا أتبع بيانه بقوله : ﴿ إن كنتم موقنين ﴾ ، أي إن كنتم مستعدين للإيقان طالبين لمعرفة الحقائق غير مكابرين .

وسُمي العلم بذلك إيقاناً لأن شأن اليقين بأن خالق السموات والأرض وما بينهما هو الإله لا يشاركه غيره .

وضمير الجمع في ﴿ كُنتم موقنين ﴾ مراد به جميعُ حاضري مجلس فرعون ، أراد موسى

تشريكهم في الدعوة تقصياً لكمال الدعوة وأن مؤاخذة القائل لا تقع إلا بعد اتضاح مراده من مقاله إذ لا يؤاخذ بالمجملات .

ومن هذا قال سحنون فيمن صدر منه قول أو فعل يستلزم كفراً : إنه يحضر ويوقف على لازم قوله فإن فهمه والتزم ما يلزمه حينئذ يعتبر مرتدّاً ويستتاب ثلاثة أيام بعد ذلك .

قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ (25)

أعرض فرعون عن خطاب موسى واستثار نفوس الملأ من حوله وهم أهل مجلسه فاستفهمهم استفهام تعجب من حالهم كيف لم يستمعوا ما قاله موسى فنزلهم منزلة من لم يستمعه تهييجاً لنفوسهم كي لا تتمكن منهم حجة موسى ، فسلط الاستفهام على نفي استماعهم كما تقدم .

وهذا التعجب من حال استماعهم وسكوتهم يقتضي التعجب من كلام موسى بطريق فحوى الخطاب فهو كناية عن تعجب آخر .

ومرجع التعجبين أن إثبات ربّ واحد لجميع المخلوقات منكر عند فرعون لأنه كان مشركاً فيرى توحيد الإله لا يصح السكوت عليه ، ولكون خطاب فرعون لمن حوله يتضمن جواباً عن كلام موسى حكي كلام فرعون بالصيغة التي اعتيدت في القرآن حكايةُ المقاولات بها ، كما تقدم غير مرة ، كأنه يجيب موسى عن كلامه .

قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (26)

كلام موسى هذا في معرض الجواب عن تعجب فرعون من سكوت من حوله فلذلك كانت حكايته قوله على الطريقة التي تحكى بها المقاولات .

ولما كان في كلام فرعون إعراض عن مخاطبة موسى إذ تجاوزه إلى مخاطبة من حوله ، وجَّه موسى خطابه إلى جميعهم ، وإذ رأى موسى أنهم جميعاً لم يهتدوا إلى الاقتناع بالاستدلال على خلق الله العوالم الذي ابتدأ به هو أوسع دلالةٍ على وجود الله تعالى ووحدانيته إذ في كل شيء مما في السموات والأرض وما بينهما آية تدل على أنه واحد ، فنزل بهم إلى الاستدلال بأنفسهم وبآبائهم إذ أوجدهم الله بعد العدم ثم أعدم آباءهم بعد وجودهم ؛ لأن أحوال أنفسهم وآبائهم أقرب إليهم وأيسر استدلالاً على خالقهم ، فالاستدلال الأول يمتاز بالعموم ، والاستدلال الثاني يمتاز بالقرب من الضرورة ، فإن كثيراً من العقلاء توهموا السموات قديمة واجبة الوجود ، فأما آباؤهم فكثير من السامعين شهدوا انعدام كثير من آبائهم بالموت ، وكفى به دليلاً على انتفاء القِدم الدالِّ على انتفاء الإلهية .

وشمل عموم الآباء بإضافته إلى الضمير وبوصفه بالأوَّلين بعضَ من يزعمونهم في مرتبة الآلهة مثل الفراعنة القدماء الملقّبين عندهم بأبناء الشَّمس ، والشمس معدودة في الآلهة ويمثلها

الصنم "آمون رع" .

والربّ : الخالق والسيد بموجب الخالقية .

قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (27)

(49/567)

احتدّ فرعون لما ذكر موسى ما يشمل آباءَه المقدّسين بذكر يخرجهم من صفة الإلهية زاعماً أن هذا يخالف العقل بالضرورة فلا يصدر إلا من مختل الإدراك ، وكأنه رأى أن الاستدلال بخالقيتهم وخالقية آبائهم عبث لأن فرعون وملأه يرون تكوين الآدمي بالتولد وهم لا يحسبون التكوين الدال على الخالقية إلا التكوينَ بالطفرة دون التدريج بناء على أن الأشياء المعتادة لا تتفطن إلى دقائقها العقول الساذجة ، فهم يحسبون تكوين الفرخ من البيضة أقل من تكوين الرعْد ، وأن تكوين دودة القز أدل على الخالق من تكوين الآدمي مع أنه ليس كذلك ؛ فلذلك زعم أن ادعاء دلالة تكوين الآباء والأبناء ودلالة فناء الآباء على ثبوت الإله الواحد ربّ الآباء والأبناء ضرباً من الجنون إذ هو تكوين لم يشهدوا دقائقه ، والمعروف المألوف ولادة الأجنة وموت الأمْوات .

وأكد كلامه بحرفي التأكيد لأن حالة موسى لا تؤذن بجنونه فكان وصفه بالمجنون معرَّضاً

للشك فلذلك أكد فرعون أنه مجنون يعني أنه علم من حال موسى ما عسى أن لا يعلمه السامعون .

وقصد بإطلاق وصف الرسول على موسى التهكمَ به بقرينة رميه بالجنون المحقق عنده .

وأضاف الرسول إلى المخاطبين رَبّاً بنفسه عن أن يكون مقصوداً بالخطاب ، وأكد التهكّم والربء بوصفه بالموصول ﴿ الذي أرسل إليكم ﴾ فإن مضمون الموصول وصلته هو مضمون ﴿ رسولكم ﴾ فكان ذكره كالتأكيد ، وتنصيصاً على المقصود لزيادة تهييج السامعين كيلا يتأثروا أو يتأثر بعضهم بصدق موسى لأن فرعون يتهيأ لإعداد العُدة لمقاومَة موسى لعلمه بأن له قوماً في مصر ربّما يستنصر بهم .

قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (28)

(50/567)

لما رأى موسى سوء فهمهم وعدم اقتناعهم بالاستدلال على الوحدانية بالتكوين المعتاد إذ التبس عليهم الأمر المعتاد بالأمر الذي لا صانع له انتقل موسى إلى ما لا قبل لهم بجحده ولا التباسِه وهو التصرف العجيب المشاهد كل يوم مرتين ، كما انتقل إبراهيم عليه السلام من الاستدلال على وجود الله بالإحياء والإماتة لما تَمَوَّه على النمرود حقيقة معنى الإحياء

والإماتة فانتقل إبراهيم إلى الاستدلال بطلوع الشمس فيما حكى الله تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذي حاجّ إبراهيم في ربّه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربّي الذي يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأتِ بها من المغرب ﴾ [البقرة : 258] فكانت حجة موسى حجة خليلية .

والمشرق والمغرب يجوز أن يراد بهما مكان شروق الشمس ومكان غروبها في الأفق ، فيكون تحريكاً للاستدلال بما يقع في ذلك المكان من الأُفق من شروق الشمس وغروبها ، فيكون المراد بربّ المشرق والمغرب خالقَ ذلك النظام اليومي على طريقة الإيجاز .

ويجوز أن يراد بالمشرق والمغرب المصدر الميمي ، أي ربّ الشروق والغروب ، فيكون المراد بالربّ الخالق ، أي مكوِّن الشروق والغروب ويكون المراد بما بينهما على هاذين الوجهين ما بين الحالين وضمير (بينهما) للمشرق والمغرب فكأنه قيل وما بين المشرق والمغرب وما بين المغرب والمشرق ، أي ما يقع في خلال ذلك من الأحوال ، فأما ما بين الشروق والغروب فالضحى والزوال والعصر والاصفرار ، وأما ما بين الغروب والشروق فالشفق والفجر والإسفار كلها دلائل على تكوين ذلك النظام العجيب المتقن .

وقيل المراد برب المشرق والمغرب مالك الجهتين .

وهذا التفسير يفيت مناسبة الكلام لمقام الاستدلال بعظيم ولا يلاقي التذييل الواقع بعده في قوله : ﴿ إن كنتم تعقلون ﴾ .

وتانك الجهتان هما منتهى الأرض المعروفة للناس يومئذ فكأنه قيل : ربّ طرَفي الأرض ، وهو كناية عن كون جميع الأرض ملكاً لله .

وهذا استدلال عرفي إذ لم يكونوا يعرفون يومئذ مَلِكاً يملك ما بين المشرق والمغرب ، وما كان مُلك فرعون المؤلّه عندهم إلا لبلاد مصر والسودان .

والتذييل بجملة : ﴿ إن كنتم تعقلون ﴾ تنبيه لنظرهم العقلي ليعاودوا النظر فيدركوا وجه الاستدلال ، أي إن كنتم تُعملون عقولكم ، ومن اللطائف جعل ذلك مقابل قول فرعون : إن رسولكم لمجنون ، لأن الجنون يقابله العقل فكان موسى يقول لهم قولاً ليناً ابتداء ، فلما رأى منهم المكابرة ووصفوه بالجنون خاشنهم في القول وعارض قول فرعون ﴿ إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون ﴾ [الشعراء : 27] فقال : ﴿ إن كنتم تعقلون ﴾ أي إن كنتم أنتم العقلاء ، أي فلا تكونوا أنتم المجانين ، وهذا كقول أبي تمام للذَيْن قالا له : "لِم تقول ما لا يُفهم" قال : "لم لا تفهمان ما يقال" .

قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (29)

لمّا لم يجد فرعون لحجاجه نجاحاً ورأى شدة شكيمة موسى في الحق عدل عن الحجاج إلى

التخويف ليقطع دعوة موسى من أصلها .

وهذا شأن من قهرته الحجة ، وفيه كبرياء أن ينصرف عن الجدل إلى التهديد .

واللام في قوله : ﴿ لئن اتخذت إلها ﴾ موطئة للقسم .

والمعنى أن فرعون أكد وعيده بما يساوي اليمين المجملة التي تؤذن بها اللام الموطئة في اللغة العربية كأن يكون فرعون قال : عليَّ يمين ، أو بالأيمان ، أو أقسم .

وفعل ﴿ اتخذت ﴾ للاستمرار ، أي أصررت على أن لك إلهاً أرسلك وأن تبقى جاحداً للإله فرعون ، وكان فرعون معدوداً إلهاً للأمة لأنه يمثل الآلهة وهو القائم بإبلاغ مرادها في الأمة ، فهو الواسطة بينها وبين الأمة .

(52/567)

ومعنى : ﴿ لأجعلنك من المسجونين ﴾ لأسجننك ، فسلك فيه طريقة الإطناب لأنه أنسب بمقام التهديد لأنه يفيد معنى لأجعلنك واحداً ممن عرفتَ أنهم في سِجني ، فالمقصود تذكير موسى بهول السجن .

وقد تقدم أن مثل هذا التركيب يفيد تمكن الخبر من المخبَر عنه عند قوله تعالى : ﴿ قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين ﴾ في سورة البقرة (67) .

وقد كان السجن عندهم قطعاً للمسجون عن التصرف بلا نهاية ، فكان لا يدري متى يخرج منه قال تعالى : ﴿ فأنساه الشيطان ذكرَ ربه فلبِث في السجن بضعَ سنين ﴾ [يوسف : 42] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 19 صـ ﴾

(53/567)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (23) ﴾

يعني : مسألة جديدة هذه الذي جئتَ بها يا موسى ، فمن رَبُّ العالمين الذي تتحدث عنه ؟

قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (24)

لأن السماوات بما فيها من كواكب ونجوم وشمس وقمر وأفلاك وأبراج ، والأرض وما فيها من بحار وأنهار وجبال وقِفَار ونبات وحيوان وإنسان . قد وُجِدتْ قبل أن توجد أنت أيها الإله الفرعون ! !

إذن : رَدَّ عليه بشيء ثبت في الكون قبل مجيئه ، وقبل مولده . وكأن المعنى المراد لموسى عليه السلام : أخبرني يا فرعون ، يا مَنْ تدعي الألوهية ، ما الذي زاد في الكون بألوهيتك

له ؟ وإنْ كان هذا الكون كله بسمائه وأرضه لله رب العالمين ، فماذا فعلتَ أنت ؟

ولم يقتصر على السماوات والأرض ، وإنما ﴿ وَمَا بَيْنَهُمَآ ﴾ [الشعراء : 24] أي : من هواء وطير يَسْبح في الفضاء ، وكانوا لا يعرفون ما نعرفه الآن من أسرار الهواء ، وانتقال الصوت والصورة من خلاله ، ففي جَوِّ السماء فيما بين السماء والأرض من الأسرار ما يستحق التأمل .

ثم يتلطف معهم فيقول : ﴿ إِن كُنتُمْ مُّوقِنِينَ ﴾ [الشعراء : 24] يعني : إنْ كنتم موقنين بأن هذه الأشياء لم يخلقها إلا الله .

ثم يقول الحق سبحانه ذاكراً جدال فرعون ، فقال : ﴿ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ ﴾

يقول فرعون لمن حوله من أتباعه الذين أقروا له بالألوهية : ألا تستمعون لما يقول ؟ يعني : موسى عليه السلام . وهذه الكلمة لا يقولها فرعون إلا إذا أحسَّ من قومه ارتياحاً لما قاله موسى من نَفْي الربوبية والألوهية عن فرعون ونسبتها لله تعالى ، خالق السموات والأرض .

وكان فرعون ينتظر من قومه أنْ يتصدَّوْا لما يقوله موسى ، فينهروه ويُسْكِتوه ، لكن لم يحدث شيء من هذا ، مما يدل على أنهم كانوا يتمنْونَ أن ينتصر موسى ، وأن يندحر فرعون ؛ لأنه كبت حرياتهم وآراءهم ، كما كانوا يعرفون كذبه وينتظرون الخلاص منه .

بدليل ما حكاه القرآن عن الرجل المؤمن الذي كان يكتم إيمانه من آل فرعون ، وبدليل الذين أتوا فيما بعد وحَسَّنوا له مسألة السحرة وهم يريدون أن يُهزَم .

وقبل أنْ يردَّ أحد من قوم فرعون بادرهم موسى عليه السلام : ﴿ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ ﴾

هنا ينقل موسى عليه السلام فرعونَ من الجو الكوني المحيط به في السماء والأرض وما بينهما إلى ذات نفسه ، يقول له : إنَّ لك آباء قبل أنْ تُولد ، وقبل أن تدعي الألوهية ، فمن كان ربهم ؟

فلما ضَيَّق موسى عليه السلام الخناق على فرعون ، أراد أنْ يخرج من هذا الجدل وهذه المناظرة الخاسرة فقال محاولاً إنقاذ موقفه : ﴿ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ﴾

وهذه العبارة من فرعون تفضح المتكلِّم بها ، فقد شهد لموسى بأنه رسول ، وخانه لفظه من حيث لا يدري .

قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (28)

يرد موسى عليه السلام بحجة أخرى ، لكن يختمها هذه المرة بقوله : ﴿ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾

[الشعراء : 28] وقد قال في سابقتها ﴿ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴾ [الشعراء : 24] كأنه يقول لفرعون : ما دام قد وصل بك الأمر لأنْ تتهمني بالجنون فلن أقول إنْ كنتم موقنين ، إنما إنْ كنتم تعقلون ، فجاء بمقابل الجنون .

فيُنهي فرعون هذا النقاش ، ويأتي بخلاصة الأمر كما يرى ، فيقول : ﴿ قَالَ لَئِنِ اتخذت ﴾

وهذا من فرعون إفلاس في الحجة ، ولو كان عنده رَدٌّ لما يقوله موسى لردّ عليه ، ولَقرع الحجة بالحجة ، لكنه تقوّى على خَصْمه بأن هدده بالسجن والإبعاد ، وكان المسجون عندهم يظل في السجن حتى الموت .

(55/567)

ولم يُراع فرعون في هذه المسألة الناس من حوله ، أن يكتشفوا هذا الإفلاس ، وهذا الحمق في رَدِّه .

ويُؤخِّر موسى عليه السلام ما معه من الآيات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(56/567)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (23) ﴾

قوله : ﴿ وَمَا رَبُّ العالمين ﴾ : إنما أتى ب " ما " دون " مَنْ " ؛ لأنها يُسْأل بها عن طلبِ الماهيةِ كقولك : ما العنقاء ؟ ولَمَّا كان جوابُ هذا السؤالِ لا يمكنُ عَدْلُ موسى عليه الصلاة والسلام إلى جوابٍ ممكنٍ ، فأجاب بصفاتِه تعالى ، وخَصَّ تلك الصفاتِ لأنه لا يشاركُه تعالى فيها أحدٌ . وفيه إبطالٌ لدعواه أنه إلَهٌ . وقيل : جَهِلَ السؤالَ ، فأتى ب " ما " دون " مَنْ " وليس بشيءٍ . وقيل : إنما سأَلَ عن الصفاتِ . ذكره أبو البقاء . وليس بشيءٍ ؛ لأنَّ أهلَ البيانِ نَصُّوا على أنها يُطْلَبُ بها الماهياتِ وقد جاء ب " مَنْ " في قوله : ﴿ فَمَن رَّبُّكُمَا يا موسى ﴾ [طه : 49] .

قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (24)

قوله : ﴿ وَمَا بَيْنَهُمَآ ﴾ : عادَ ضميرُ التثنيةِ على جمعَيْن : اعتباراً بالجنسَيْن كما فَعَلَ ذلك في الظاهر في قول الشاعرِ :

3510 . . . . . بين رِماحَيْ مالِكٍ ونَهْشَلِ

قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (29)

قوله : ﴿ لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ المسجونين ﴾ : إنما عَدَل عن لأَسْجُنَنَّك وهو أَخَصُّ منه ؛ لأنَّ فيه مبالغةً ليسَتْ في ذاك ، أو معناه : لأَجْعَلَنَّك مِمَّنْ عَرَفْتَ حالَه في سُجوني . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 518.519 ﴾

(57/567)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (23) ﴾

نَظَرَ اللعينُ بجَهْله ، وسأَلَ على النحو الذي يليق بغَيّه ؛ فسأل بلفظ ﴿ ما ﴾ – و " ما " يُسْتَخْبَرُ بها عمَّا لا يعقل ، فقال : ﴿ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

ولكنَّ موسى أعرض عن لفظه ومقتضاه ، وأخبر عمَّا يصحُّ في وصفه تعالى فقال :

قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (24)

فَذَكَرَ صفتَه – سبحانه وتعالى – بأَنَّه إلهٌ ما في السموات والأرض ، فأخذ في التعجب .

قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ (25) قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (26)

قال موسى : ﴿ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ الأَوَّلِينَ ﴾ فحاد فرعونُ عن سنن الاستقامة في الخطاب ، وأخذ في السفاهة قائلاً :

قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (27)

لأنه يزعم أنَّ هناك إلهاً غيره . ولم يكن في شيءٍ مما يجري من موسى – عليه السلام – أو مما يتعلَّق به وصفُ جنون . ولم يُشْغَلْ بمجاوبته في السفاهة فقال :

قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (28) قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (29)

أي إن كنتم من جملة مَنْ له عقلٌ وتمييزٌ . فقال فرعون :

﴿ قَالَ لَئِنِ اتخذت إلها غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ المسجونين ﴾

مضى فرعونُ يقول : لأفعلنَّ ، ولأصنعنَّ . . . إن اتخذتَ إلهاً غيري وجرى ما جرى ذِكْرُه وشَرْحُه في غير موضع .

(58/567)

ثم إنه أظهر معجزته بإلقاء العصا ، وقَلَبَها – سبحانه – ثعباناً كاد يلتقم دار فرعون بمن فيها ، ووثَبَ فرعونُ هارباً ، واختفى تحت سريره ، وهو ينتفض من الخوف ، وتَلَطَّخَتْ بِزَّتُه

وافتضح في دعواه ، واتضحت حالته ، فاستغاث بموسى واستجاره ، وأخذ موسى الثعبان فردَّه الله عصاً .

ولَمَّا فَارقَه موسى – عليه السلام – تداركته الشقاوة ، وأدركه شؤمُ الكفر ، واستولى عليه الحرمانُ ، فَجَمَع قومَه وكلَّمهم في أمره ، وأجمعوا كلُّهم على أنه سحَرَهم . وبعد ظهور تلك الآية عاد إلى غيّه . . . كما قيل :

إذا ارْعَوَى عَادَ إلى جَهْلِه . . . كَذِي الضَّنَى عاد إلى نُكْسِه

ثم إنه جَمَعَ السَّحَرَة ، واستعان بهم ، فَلَمَّا اجتمعوا قالوا : ﴿ إِنَّ لَنَا لَأَجْراً ﴾ [الأعراف : 113] . فنطقوا بخساسة هِمَّتِهم ، فَضَمَنَ لهم أجْرَهم . وإنَّ مَنْ يعمل لغيره بأُجْرَةٍ ليس كَمَنْ يكون عملُه لله . ومَنْ لا يكون له ناصِرٌ إلاَّ بضمانِ الجَعَالَة وبَذْلِ الرِّشَا فَعَنْ قريبٍ سيُخْذَل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 9. 11 ﴾

(59/567)

قوله تعالى ﴿ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ (30) قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (31) فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ (32) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (33) قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (34) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا

تَأْمُرُونَ (35) قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (36) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ (37) فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (38) وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ (39) لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ (40) ﴾

" فصل "

قال البقاعي :

﴿ قال ﴾ مدافعاً بالتي هي أحسن إرخاء للعنان ، لإرادة البيان ، حتى لا يبقى عذر لإنسان ، رجاء النزوع عن الطغيان ، والرجوع إلى الإيمان ، لأن من العادة الجارية السكون إلى الإنصاف ، والرجوع إلى الحق والاعتراف ﴿ أولو ﴾ أي أتسجنني ولو ﴿ جئتك بشيء مبين ﴾ أي لرسالتي ﴿ قال ﴾ طمعاً في أن يجد موضعاً للتكذيب أو التلبيس : ﴿ فأت به ﴾ أي تسبب عن قولك هذا أني أقول لك : ائت بذلك الشيء ﴿ إن كنت ﴾ أي كوناً أنت راسخ فيه ﴿ من الصادقين ﴾ أي فيما ادعيت من الرسالة والبينة ، وهذا إشارة إلى أنه بكلامه المتقدم قد صار عنده في غير عدادهم ، ولزم عليه أنه لا يأتي بالمعجزة إلا الصادق لأنها تصديق من الله للمدعي ، وعادته سبحانه وتعالى جارية في أنه لا يصدق الكاذب ﴿ فألقى ﴾ أي فتسبب عن ذلك وتعقبه أن ألقى .

ولما كان الكلام مع موسى عليه السلام ، فكان إضماره غير ملبس ، لم يصرح باسمه اكتفاء بضميره فقال : ﴿ عصاه ﴾ أي التي تقدم في غير سورة أن الله تعالى أراه آياتها ﴿ فإذا هي ثعبان ﴾ أي حية في غاية الكبر ﴿ مبين ﴾ أي ظاهر الثعبانية ، لا شك عند رائية فيه ، لا كما يكون عند الأمور السحرية من التخييلات والتشبيهات ﴿ ونزع يده ﴾ أي التي كانت احترقت لما أخذ الجمرة وهو في حجر فرعون ، وبذل فرعون جهده في علاجها بجميع من قدر عليه من الأطباء فعجز عن إبرائها ، نزعها من جيبه بعد أن أراه إياها على ما يعهده منها ثم أدخلها في جيبه ﴿ فإذا هي ﴾ بعد النزع ﴿ بيضاء للناظرين ﴾ أي بياضاً تتوفر الدواعي على نظره لخروجه عن العادة بأن له نوراً كنور الشمس يكاد يغشي الأبصار ﴿ قال ﴾ أي فرعون ﴿ للملأ حوله ﴾ لما وضح له الأمر ، يموه على عقولهم خوفاً من إيمانهم : ﴿ إن هذا لساحر عليم ﴾ أي شديد المعرفة بالسحر ، وخص في هذه السورة إسناداً هذا الكلام إليه لأن السياق كله لتخصيصه الخطاب لما تقدم ، ونظراً إلى ﴿ فظلت أعناقهم لها خاضعين ﴾ لأن خضوعه هو خضوع من دونه ، فدلالته على ذلك أظهر ، ولا ينفي ذلك أن يكون قومه قالوه إظهاراً للطواعية - كما مضى في الأعراف .

ولما أوقفهم بما خيلهم به ، أحماهم لأنفسهم فقال ملقياً لجلباب الأنفة لما قهره من سلطان المعجزة : ﴿ يريد أن يخرجكم من أرضكم ﴾ أي هذه التي هي قوامكم ﴿ بسحره ﴾ أي بسبب ما أتى به منه ، فإنه يوجب استتباع الناس فيتمكن مما يريد بهم ؛ ثم قال لقومه – الذين كان يزعم أنهم عبيده وأنه إلههم – ما دل على أنه خارت قواه ، فحط عن منكبيه كبرياء الربوبية ، وارتعدت فرائصه حتى جعل نفسه مأموراً بعد أن كان يدعي كونه آمراً بل إلهاً قادراً : ﴿ فماذا تأمرون ﴾ أي في مدافعته عما يريد بنا ﴿ قالوا ﴾ أي الملأ الذين كانوا يأتمرون به قبل الهجرة ليقتلوه : ﴿ أرجه ﴾ أي أخره ﴿ وأخاه ﴾ ولم يأمروا بقتله ولا بشيء مما يقاربه – فسبحان من يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده فيهابه كل شيء ولا يهاب هو غير خالقه ﴿ وابعث في المدائن حاشرين ﴾ أي رجالاً يحشرون السحرة ، وأصل الحشر الجمع بكرة ﴿ يأتوك ﴾ وكأنهم فهموا شدة قلقه فسكنوه بالتعبير بأداة الإحاطة وصيغة المبالغة فقالوا : ﴿ بكل سحار ﴾ أي بليغ السحر ﴿ عليم ﴾ أي متناه في العلم به بعد ما تناهى في التجربة ؛ وعبر بالبناء للمفعول إشارة إلى عظمة ملكه فقال : ﴿ فجمع ﴾ أي بأيسر أمر لما له عندهم من العظمة ﴿ السحرة ﴾ كما تقدم غير مرة ﴿ لميقات يوم معلوم ﴾ في زمانه ومكانه ، وهو ضحى يوم الزينة كما سلف في طه ،

وعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أنه وافق يوم السبت في أول يوم من سنتهم ، وهو يوم النيروز .

(62/567)

﴿ وقيل ﴾ أي بقول من يقبل لكونه عن فرعون ﴿ للناس ﴾ أي كافة حثاً لهم على الإسراع إلى الاجتماع بأمر فرعون ، وامتحاناً لهم هل رجعوا عن دينه ، علماً منه بأن ما ظهر من المعجزة – التي منها عجزه عن نوع أذى لمن واجهه بما لا مطمع في مواجهته بأدناه – لم يدع لبساً في أنه مربوب مقهور ، وأن ذلك موجب لاتباع موسى عليه السلام : ﴿ هل أنتم مجتمعون ﴾ أي اجتماعاً أنتم راسخون فيه لكونه بالقلوب كما هو بالأبدان ، كلكم ليكون أهيب لكم ، وزين لهم هذا القائل البقاء على ما كانوا عليه من الباطل بذكر جانب السحرة وإن كان شرط فيه الغلبة ، ولم يسمح بذكر جانب موسى عليه السلام فقال : ﴿ لعلنا نتبع السحرة ﴾ لأن من امتثل أمر الملك كان حاله حال من يرجى منه اتباع حزبه ﴿ إن كانوا هم ﴾ أي خاصة ﴿ الغالبين ﴾ أي غلبة لا يشك في أنها ناشئة عن مكنة نعرض عن أمر موسى الذي الذي تنازع الملك في أمره ، وهذا مرادهم في الحقيقة ، وعبر بهذا كناية عنه لأنه أدل على عظمة الملك ، وعبر بأداة الشك إظهاراً للإنصاف ، واستجلاباً للناس ، مع

تقديرهم لقطعهم بظفر السحرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 356 .

358 ﴾

(63/567)

فصل

قال الفخر :

﴿ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ (30) ﴾

أي هل تستجيز أن تسجنني مع اقتداري على أن آتيك بأمر بين في باب الدلالة على وجود الله تعالى وعلى أني رسوله ؟ فعند ذلك قال : ﴿ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصادقين ﴾ وههنا فروع : الفرع الأول : الآية تدل على أنه تعالى ليس بجسم لأنه لو كان جسماً وله صورة لكان جواب موسى عليه السلام بذكر حقيقته ولكان كلام فرعون لازماً له لعدوله عن الجواب الحق الثاني : الواجب على من يدعو غيره إلى الله تعالى أن لا يجيب عن السفاهة لأن موسى عليه السلام لما قال له فرعون إنه مجنون لم يعدل عن ذكر الدلالة وكذلك لما توعده أن يسجنه الثالث : أنه يجوز للمسؤول أن يعدل في حجته من مثال إلى مثال لإيضاح الكلام ولا يدل ذلك على الانقطاع الرابع : إن قيل : كيف قطع الكلام بما لا تعلق له بالأول وهو قوله :

﴿ أَوْلَوْجِئْتُكَ بِشَىءٍ مُّبِينٍ ﴾ والمعجز لا يدل على الله تعالى كدلالة سائر ما تقدم ؟ قلنا بل يدل ما أراد أن يظهره من انقلاب العصا حية على الله تعالى وعلى توحيده ، وعلى أنه صادق في الرسالة فالذي ختم به كلامه أقوى من كل ما تقدم وأجمع الخامس : فإن قيل كيف قال : ﴿ رَبّ السموات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ على التثنية والمرجوع إليه مجموع ؟ جوابه أريد ما بين الجهتين ، فإن قيل : ذكر السموات والأرض وما بينهما قد استوعب الخلائق كلهم ، فما معنى ذكرهم وذكر آبائهم بعد ذلك وذكر المشرق والمغرب ؟ جوابه : قد عمم أولاً ثم خصص من العام للبيان أنفسهم وآباءهم لأن أقرب الأشياء من العاقل نفسه ومن ولد منه وما شاهد من انتقاله من وقت ميلاده إلى وقت وفاته من حالة إلى حالة أخرى ، ثم خصص المشرق والمغرب لأن طلوع الشمس من أحد الخافقين وغروبها على تقدير مستقيم في فصول السنة من أظهر الدلائل

(64/567)

السادس : فإن قيل لم قال : ﴿ لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ المسجونين ﴾ ولم يقل لأسجننك مع أنه أخصر ؟ جوابه : لأنه لو قال لأسجننك لا يفيد إلا صيرورته مسجوناً .

أما قوله : ﴿ لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ المسجونين ﴾ فمعناه أني أجعلك واحداً ممن عرفت حالهم في

سجوني ، وكان من عادته أن يأخذ من يريد أن يسجنه فيطرحه في بئر عميقة فرداً لا يبصر فيها ولا يسمع فكان ذلك أشد من القتل السابع : الواو في قوله : ﴿ أَوْلَوْ جِئْتُكَ ﴾ واو الحال دخلت عليها همزة الاستفهام معناه أتفعل بي ذلك ولو جئتك بشيء مبين أي جائياً بالمعجزة .

﴿ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ (32) ﴾

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

قرأ الأعمش : ﴿ بِكُلّ ساحر عَلِيمٍ ﴾ .

المسألة الثانية :

اعلم أن قوله : ﴿ أَوْلَوْ جِئْتُكَ بِشَىء مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء : 30] يدل على أن الله تعالى قبل أن ألقى العصا عرفه بأنه يصيرها ثعباناً ، ولولا ذلك لما قال ما قال : فلما ألقى عصاه ظهر ما وعده الله به فصار ثعباناً مبيناً ، والمراد أنه تبين للناظرين أنه ثعبان بحركاته وبسائر العلامات ، روي أنه لما انقلبت حية ارتفعت في السماء قدر ميل ثم انحطت مقبلة إلى

فرعون وجعلت تقول يا موسى مرني بما شئت ، ويقول فرعون يا موسى أسألك بالذي أرسلك إلا أخذتها فعادت عصا فإن قيل كيف قال ههنا : ﴿ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾ وفي آية أخرى : ﴿ فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تسعى ﴾ [طه : 20] وفي آية ثالثة : ﴿ كَأَنَّهَا جَانٌّ ﴾ [القصص : 31] والجان مائل إلى الصغر والثعبان مائل إلى الكبر ؟ جوابه : أما الحية فهي اسم الجنس ثم إنها لكبرها صارت ثعباناً ، وشبهها بالجان لخفتها وسرعتها فصح الكلامان ، ويحتمل أنه شبهها بالشيطان لقوله تعالى : ﴿ والجآن خلقناه مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السموم ﴾ [الحجر : 27] ويحتمل أنها كانت أولاً صغيرة كالجان ثم عظمت فصارت ثعباناً ، ثم إن موسى عليه السلام لما أتى بهذه الآية قال له فرعون هل غيرها ؟ قال نعم فأراه يده ثم أدخلها جيبه ثم أخرجها فإذا هي بيضاء يضيء الوادي من شدة بياضها من غير برص لها شعاع كشعاع الشمس ، فعند هذا أراد فرعون تعمية هذه الحجة على قومه فذكر فيها أموراً ثلاثة :

أحدها : قوله : ﴿ إِنَّ هذا لساحر عَلِيمٌ ﴾ وذلك لأن الزمان كان زمان السحرة وكان عند كثير منهم أن الساحر قد يجوز أن ينتهي بسحره إلى هذا الحد فلهذا روج عليهم هذا القول وثانيها : قوله : ﴿ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُمْ مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ ﴾ وهذا يجري مجرى التنفير عنه لئلا يقبلوا قوله ، والمعنى يريد أن يخرجكم من أرضكم بما يلقيه بينكم من العداوات فيفرق جمعكم ، ومعلوم أن مفارقة الوطن أصعب الأمور فنفرهم عنه بذلك ، وهذا نهاية ما يفعله المبطل

في التنفير عن الحق وثالثها : قوله لهم : ﴿ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ أي فما رأيكم فيه وما الذي أعمله ، يظهر من نفسه أني متبع لرأيكم ومنقاد لقولكم ، ومثل هذا الكلام يوجب جذب القلوب وانصرافها عن العدو فعند هذه الكلمات اتفقوا على جواب واحد وهو قوله : ﴿ أَرْجِهْ ﴾ قرىء (أرجئه) و (أرجه) بالهمز والتخفيف ، وهما لغتان يقال : أرجأته وأرجيته إذا أخرته ، والمعنى أخره ومناظرته لوقت اجتماع السحرة ، وقيل احبسه وذلك محتمل ، لأنك إذا حبست الرجل عن حاجته فقد أخرته .

روي أن فرعون أراد قتله ولم يكن يصل إليه ، فقالوا له لا تفعل ، فإنك إن قتلته أدخلت على الناس في أمره شبهة ، ولكن أرجئه وأخاه إلى أن تحشر السحرة ليقاوموه فلا يثبت له عليك حجة ، ثم أشاروا عليه بإنفاذ حاشرين يجمعون السحرة ، ظناً منهم بأنهم إذا كثروا غلبوه وكشفوا حاله وعارضوا قوله : ﴿ إِنَّ هذا لساحر عَلِيمٌ ﴾ بقولهم : ﴿ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴾ فجاءوا بكلمة الإحاطة وبصيغة المبالغة ليطيبوا قلبه وليسكنوا بعض قلقه ، قال صاحب "الكشاف" فإن قلت : قوله تعالى : ﴿ قَالَ لِلْمَلإِ حَوْلَهُ ﴾ ما العامل في (حوله) ؟ قلت : هو منصوب نصبين نصب في اللفظ ونصب في المحل والعامل في النصب اللفظي ما

يقدر في الظرف ، والعامل في النصب المحلي هو النصب على الحال .

﴿ فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (38) ﴾

وفيه مسألتان :

المسألة الأولى :

اليوم المعلوم يوم الزينة وميقاته وقت الضحى ، لأنه الوقت الذي وقته لهم موسى عليه السلام من يوم الزينة في قوله : ﴿ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ﴾ [طه : 59]

والميقات ما وقت به أي حدد من مكان وزمان ومنه مواقيت الإحرام .

المسألة الثانية :

(67/567)

اعلم أن القوم لما أشاروا بتأخير أمره وبأن يجمع له السحرة ليظهر عند حضورهم فساد قول موسى عليه السلام ، رضي فرعون بما قالوه وعمي عما شاهده وحب الشيء يعمي ويصم فجمع السحرة ثم أراد أن تقع تلك المناظرة يوم عيد لهم ليكون ذلك بمحضر الخلق العظيم وكان موسى عليه السلام يطلب ذلك لتظهر حجته عليهم عند الخلق العظيم وكان هذا أيضاً من لطف الله تعالى في ظهور أمر موسى عليه السلام .

أما قوله : ﴿ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴾ فالمراد أنهم بعثوا على الحضور ليشاهدوا ما يكون من الجانبين .

وأما قوله : ﴿ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السحرة ﴾ فالمراد إنا نرجو أن يكون الغلبة لهم فنتبعهم فلما جاء السحرة ابتدأوا بطلب الجزاء ، وهو إما المال وإما الجاه فبذل لهم ذلك وأكده بقوله : ﴿ وَإِنَّكُمْ إِذاً لَّمِنَ المقربين ﴾ لأن نهاية مطلوبهم منه البذل ورفع المنزلة فبذل كلا الأمرين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 24 صـ 113.115 ﴾

(68/567)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ فَأَلْقَى عَصَاهُ ﴾

قال سعيد بن جبير : كانت من عوسج ، قال الحكيم : ولم يسخر العوسج لأحد بعده ، وقال الكلبي : كانت من آس الجنة عشرة أذرع على طول موسى .

﴿ فإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾ فيه قولان

: أحدهما : أنها الحية الذكر ، قاله ابن عباس .

الثاني : أنه اعتم الحيات الصفر شعراء العنق ، حكاه النقاش .

﴿ مُّبِينٌ ﴾ فيه وجهان

: أحدهما : مبين أنه ثعبان .

الثاني : مبين أنها آية وبرهان ، وكان فرعون قد همّ بموسى ، فلما صارت العصا ثعباناً فَاغِراً فَاهُ خافه ولاَذَ بموسى مستجيراً وَوَلَّى قومُه هرباً حتى وطىء بعضهم على بعض ، قال ابن زيد : وكان اجتماعهم بالإسكندرية ، قال الزجاج : روي أن السحرة كانوا اثني عشر ألفاً ، وقيل : تسعة عشر ألفاً .

قوله تعالى : ﴿ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ أي تشيرون لأنه لا يجوز أن يأمر التابع المتبوع ، فجعل المشورة أمراً لأنها على لفظه .

ويحتمل استشارته لهم وجهين :

أحدهما : أنه أراد أن يستعطفهم لضعف نفسه .

الثاني : أنه أذهله ما شاهد فحار عقله فلجأ إلى رأيهم وهو يقول أنا ربكم الأعلى ، وقد خفي عليه تناقض الأمرين خذلانا .

قوله تعالى : ﴿ قَالُواْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ ﴾ فيه وجهان

: أحدهما : أخره وأخاه ، قاله ابن عباس .

الثاني : احبسه وأخاه ، قاله قتادة .

وفي مشورتهم على فرعون بإرجائه ونهيهم له عن قتله ثلاثة أوجه :

أحدها : أنهم خافوا إن قتلوه أن يفتن الناس بما شاهدوه منه ، وأمّلوا إن جاء السحرة أن يغلبوه .

الثاني : أنهم شاهدوا من فعله ما بهر عقولهم ، فخافوا الهلاك من قتله .

الثالث : أن الله صرفهم عن ذلك تثبيتاً لدينه وتأييداً لرسوله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

(69/567)

وقال ابن عطية :

وكان عند موسى عليه السلام من أمر الله تعالى ما لا يفزعه توعد فرعون فقال له موسى على جهة اللطف به والطمع في إيمانه ﴿ أولو جئتك بشيء مبين ﴾ يتضح لك معه صدقي ، أفكنت تسجنني ، فلما سمع فرعون ذلك طمع أن يجد أثناءه موضع معارضة فقال له ﴿ فأت به إن كنت من الصادقين ﴾ ﴿ فألقى ﴾ موسى عصاه من يده وكانت من عصي الجنة وكانت عصى آدم عليه السلام ، ويروى أنها كانت من غير ورقة الريحان ، وكانت عن شعيب عليه السلام في جملة عصي الأنبياء فأعطاها لموسى عليه السلام عليه السلام عن رعايته له الغنم على صورة قد تقدم ذكرها دلت على نبوة موسى وكان لها في رأسها

شعبتان فثم كان فم الحية وغير ذلك من قصص هذه ، ونزع يده من جيبه فإذا هي تتلألأ كأنها قطعة من الشمس ، فلما رأى فرعون ذلك هاله ولم يكن له فيه مدفع غير أنه فزع إلى رميه بالسحر ، وطمع ، لعلو علم السحر في ذلك الوقت وكثرته ، أن يكون فيه سبب لمقاومة موسى فأوهم قومه وأتباعه أن موسى عليه السلام ساحر ، ثم استشارهم في أمره وأغراهم به في قوله ﴿ يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره ﴾ فأشاروا عليه بتأخير أمره وأمر أخيه وجمع السحرة لمقاومته ، وروي أنهم أشاروا بسجنه وهو كان الإرجاء عندهم ، و" الإرجاء " التأخير ولم يشيروا بقتله لأن حجته نيرة وضلالتهم في ربوبية فرعون مبينة فخشوا الفتنة وطمعوا أن يغلب بحجة تقنع العوام ، و" الحاشر " الجامع ، وقرأ نافع وأبو عمرو وعاصم " بكل سحار " ، وهو بناء المبالغة وقرأ عاصم أيضاً والأعمش " بكل ساحر " .

﴿ فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (38) ﴾

(70/567)

" اليوم " هو يوم الزينة ، وقيل كان يوم كسر خليج النيل ، فهو كان يوم الزينة على وجه الدهر بمصر ، وقال ابن زيد إن هذا الجمع كان بالإسكندرية ، وقوله ﴿ لعلنا نتبع السحرة ﴾

ليس معناه نتبعهم في السحر إنما أراد نتبعهم في نصرة ديننا وملتنا والإبطال على معارضتنا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(71/567)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ ﴾

أي : بأمر ظاهر تعرف به صدقي أتسجنني ؟ ! وما بعد هذا مفسر في [الأعراف : 107] إلى قوله : ﴿ فَجُمِعَ السحرةُ لميقات يوم معلوم ﴾ وهو يوم الزينة ، وكان عيداً لهم ، ﴿ وقيل للناس ﴾ يعني أهل مصر .

وذهب ابن زيد إلى أن اجتماعهم كان بالاسكندرية .

قوله تعالى : ﴿ لعلَّنا نتَّبع السَّحَرة ﴾ قال الأكثرون : أرادوا سَحَرة فرعون ؛ فالمعنى : لعلَّنا نتَّبعهم على أمرهم .

وقال : بعضهم : أرادوا موسى وهارون ، وإنما قالوا ذلك استهزاءً .

قال ابن جرير : و "لعل" هاهنا بمعنى "كي" . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 6 صـ ﴾

(72/567)

وقال أبو حيان :

ولما كان عند موسى عليه السلام من أمر فرعون ما لا يروعه معه توعد فرعون ، قال له على جهة اللطف به والطمع في إيمانه : ﴿ أو لو جئتك بشيء مبين ﴾ ، أي يوضح لك صدقي ، أفكنت تسجنني ؟ قال الزمخشري : أو لو جئتك ، واو الحال دخلت عليها همزة الاستفهام ، معناه : أتفعل بي ذلك ولو جئتك بشيء مبين ؟ انتهى .

وتقدّم لنا الكلام على هذه الواو ، والداخلة على لو في مثل هذا السياق في قوله : ﴿ أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون ﴾ فأغنى عن إعادته .

وقال الحوفي : واو العطف دخلت عليها همزة الاستفهام للتقرير ، والمعنى : أتسجنني حتى في هذه الحالة التي لا تناسب أن أسجن وأنا متلبس بها ؟ .

ولما سمع فرعون هذا من موسى طمع أن يجده موضع معارضة فقال له : ﴿ فأت به إن كنت من الصادقين ﴾ ، إن لك رباً بعثك رسولاً إلينا .

قال الزمخشري : وفي قوله : ﴿ إن كنت من الصادقين ﴾ دليل على أنه لا يأتي بالمعجزة إلا الصادق في دعواه ، لأن المعجزة تصديق من الله لمدعي النبوة ، والحكيم لا يصدق الكاذب .

ومن العجب أن مثل فرعون لم يخف عليه مثل هذا ، وخفي على ناس من أهل القبلة ،

حيث جوزوا القبيح على الله حتى لزمهم تصديق الكاذبين بالمعجزات . انتهى .

وتقديره : إن كنت من الصادقين فأت به ، حذف الجزاء ، لأن الأمر بالإتيان يدل عليه .

وقدره الزمخشري : إن كنت من الصادقين في دعواك أتيت به .

جعل الجواب المحذوف فعلاً ماضياً ، ولا يقدر إلا من جنس الدليل بقولهم : أنت ظالم إن فعلت ، تقديره : أنت ظالم إن فعلت فأنت ظالم .

وقال الحوفي : إن حرف شرط يجوز أن يكون ما تقدم جوابه ، وجاز تقديم الجواب ، لأن حذف الشرط لم يعمل في اللفظ شيئاً .

ويجوز أن يكون الجواب محذوفاً تقديره فأت به .

وقول الزمخشري : حتى لزمهم تصديق الكاذبين بالمعجزات ، إشارة إلى إنكار الكرامات التي ذهب أهل السنة إلى إثباتها .

(73/567)

والمعجز عندهم هو ما كان خارقاً للعادة ، ولا يكون إلا لنبي أو في زمان نبي ، إن جرى على يد غيره فتكون معجزة لذلك النبي ، أو على سبيل الإرهاص لنبي .

﴿ فألقى عصاه ﴾ : رماها من يده ، وتقدم الكلام على عصا موسى عليه السلام .

والثعبان : أعظم ما يكون من الحيات .

ومعنى ﴿ مبين ﴾ : ظاهر الثعبانية ، ليست من الأشياء التي تزوّر بالشعبذة والسحر .

﴿ ونزع يده ﴾ من جيبه ، ﴿ فإذا هي ﴾ تلألأ كأنها قطعة من الشمس .

ومعنى ﴿ للناظرين ﴾ : أي بياضها يجتمع النظارة على النظر إليه لخروجه عن العادة ، وكان بياضاً نورانياً .

روي أنه لما أبصر أمر العصا قال : فهل غيرها ؟ فأخرج يده ، فقال : ما هذه ؟ قال : يدك ، فأدخلها في إبطه ثم نزعها ولها شعاع يكاد يغشي الأبصار ويسد الأفق .

﴿ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (34) ﴾

قال ابن عطية : وانتصب حوله على الظرف ، وهو في موضع الحال ، أي كائنين حوله ، فالعامل فيه محذوف ، والعامل فيه هو الحال حقيقة والناصب له ، قال : لأنه هو العامل في ذي الحال بواسطة لام الجر ، نحو : مررت بهند ضاحكة .

والكوفيون يجعلون الملأ موصولاً ، فكأنه قيل : قال للذي حوله ، فلا موضع للعامل في الظرف ، لأنه وقع صلة .

وقال الزمخشري : فإن قلت : ما العامل في حوله ؟ قلت : هو منصوب نصبين : نصب في اللفظ ، ونصب في المحل .

فالعامل في النصب اللفظي ما يقدر في الظرف ، وذلك استقروا حوله ، وهذا يقدر في جميع

الظروف ، والعامل في النصب المحلي ، وهو النصب على الحال . انتهى .

وهو تكثير وشقشقة كلام في أمر واضح من أوائل علم العربية .

ولما رأى فرعون أمر العصا واليد ، وما ظهر فيهما من الآيات ، هاله ذلك ولم يكن له فيه مدفع فزع إلى رميه بالسحر .

وطمع لغلبة علم السحر في ذلك الزمان أن يكون ثَمّ من يقاومه ، أو كان علم صحة المعجزة .

(74/567)

وعمى تلك الحجة على قومه ، برميه بالسحر ، وبأنه ﴿ يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره ﴾ ، ليقوي تنفيرهم عنه ، وابتغاؤهم الغوائل له ، وأن لا يقبلوا قوله ؛ إذ من أصعب الأشياء على النفوس مفارقة الوطن الذي نشأوا فيه ، ثم استأمرهم فيما يفعل معه ، وذلك لما حل به من التحير والدهش وانحطاطه عن مرتبة ألوهيته إلى أن صار يستشيرهم في أمره ، فيأمرونه بما يظهر لهم فيه ، فصار مأموراً بعد أن كان آمراً .

وتقدم الكلام في ﴿ ماذا تأمرون ﴾ وفي الألفاظ التي وافقت ما في سورة الأعراف ، فأغنى عن إعادته .

ولما قال : ﴿ إن هذا لساحر عليم ﴾ ، عارضوا بقوله : ﴿ بكل سحار ﴾ ، فجاءوا بكلمة الاستغراق والبناء الذي للمبالغة ، لينفسوا عنه بعض ما لحقه من الكرب .

وقرأ الأعمش ، وعاصم في رواية : بكل ساحر .

واليوم المعلوم : يوم الزينة ، وتقدم الكلام عليه في سورة طه .

وقوله : ﴿ هل أنتم مجتمعون ﴾ ، استبطاء لهم في الاجتماع ، والمراد منه استعجالهم ، كما يقول الرجل لغلامه : هل أنت منطلق ؟ إذا أراد أن يحرك منه ويحثه على الانطلاق ، كما يخيل إليه أن الناس قد انطلقوا وهو واقف ، ومنه قول تأبط شراً :

هل أنت باعث ديناراً لحاجتنا . . .

أو عند رب أخا عون بن مخراق

يريد : ابعثه إلينا سريعاً ولا تبطىء به .

وترجوا اتباع السحرة ، أي في دينهم ، إن غلبوا موسى عليه السلام ، ولا يتبعون موسى في دينه .

وساقوا الكلام سياق الكناية ، لأنهم إذا اتبعوهم لم يتعبوا موسى عليه السلام .

ودخلت إذا هنا بين اسم إن وخبرها ، وهي جواب وجزاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴾

أي أتفعل بي ذلك ولو جئتُك بشيء مبينٍ أي موضّحٍ لصدقِ دعواي يريد به المعجزةَ فإنَّها جامعةٌ بين الدّلالةِ على وجودِ الصّانعِ وحكمتِه وبين الدّلالةِ على صدقِ دَعْوى مَن ظهرتْ على يدِه والتَّعبيرُ عنها بالشَّيءِ للتَّهويلِ قالوا الواوُ في أولو جئتُك للحالِ دخلتْ عليها همزةُ الاستفهامِ أي جائياً بشيء مبينٍ وقد سلفَ منَّا مراراً أنَّها للعطفِ وأنّ كلمةَ لَوْ ليستْ لانتفاءِ الشَّيءِ في الزَّمانِ الماضِي لانتفاء غيرِه فيه فلا يُلاحظ لها جوابٌ قد حُذف تعويلاً على دلالةِ ما قبلها عليه ملاحظة قصديَّة إلا عند القصدِ إلى بيانِ الإعرابِ على القواعدِ الصّناعيَّةِ بل هي لبيان تحقُّقِ ما يُفيده الكلامُ السَّابقُ من الحكم الموجب أو المنفيّ على كل حالٍ مفروض من الأحوالِ المقارنةِ له على الإجمال بإدخالِها على أبعدِها منه وأشدّها منافاةً له ليظهر بثبوتِه أو انتفائِه معه ثبوتُه وانتفاؤُه مَعَ ما عداهُ من الأحوال بطريق الأولويةِ لما أنَّ الشَّيءَ متى تحقَّقَ مع المنافي القويِّ فلأنْ يتحقَّقَ مع غيره أولى ولذلك لا يذكر معه شيءٌ من سائرِ الأحوالِ ويكتفي عنه بذكر العاطف للجُملة على نظرتها المقابلة لها الشَّاملة لجميع الأحوالُ المُغايرة لها عند تعدُّدها ليظهر ما ذكر من تحقُّق الحكم على جميع الأحوال فإنَّك إذا قلتَ فلانٌ جوادٌ يعطي ولو كان فقيراً تُريد بيانَ تحقُّقِ الإعطاءِ منه على كلِّ حالٍ

من أحوالِه المفروضةِ فتعلق الحكم بأبعدِها منه ليظهر بتحقُّقِه معه تحقُّقه معَ ما عداهُ من الأحوالِ التي لا مُنافاة بينها وبينَ الحكم بطريقِ الأولويَّةِ المُصحّحةِ للاكتفاء بذكرِ العاطفِ عن تفصيلِها كأنَّك قلتَ فلانٌ جوادٌ يُعطي لو لم يكنْ فَقيراً ولو كان فَقيراً أي يُعطى حالَ كونِه فقيراً ، فالحالُ في الحقيقةِ كلتا الجملتينِ المُتعاطفتين لا المذكورةُ على أنَّ الواوُ للحالِ وتصديرُ المجيءِ بما ذُكر من

(76/567)

كلمة لَوْ دون أنْ ليس لبيانِ استبعادِه في نفسه بل بالنّسبة إلى فرعونَ والمعنى أتفعلُ بي ذلك حالَ عدمِ مجيئي بشيءٍ مُبينٍ وحال مجيئي به .

﴿ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصادقين ﴾ أي فيما يدل عليه كلامُك من أنكَّ تأتي بشيءٍ مبينٍ موضّحٍ لصدقِ دَعْواك أو في دَعْوى الرّسالة ، وجوابُ الشَّرطِ المحذوفُ لدلالةِ ما قبله عليه .

﴿ فألقى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾ أي ظاهرٌ ثعبانيتُه لا أنَّه شيءٌ يُشبهه واشتقاقُ الثُّعبان من ثعبثُ الماءَ فانثعبَ أي فجَّرتُه فانفجرَ وقد مرَّ بيانُ كيفيةِ الحالِ في سورة الأعرافِ وسورة طه .

﴿ وَنَزَعَ يَدَهُ ﴾ من جيبه ﴿ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاء للناظرين ﴾ قيل لَّما رأى فرعون الآيةَ الأُولى وقال هل لكَ غيرُها فأخرجَ يدَهُ فقال ما هذه قال فرعونُ : يدُك فما فيها ؟ فأدخلها في إبطِهِ ثمَّ نزَعَها ولها شعاعٌ يكادُ يغشي الأبصارَ ويسدُّ الأفقَ .

﴿ قَالَ لِلْمَلإِ حَوْلَهُ ﴾ أي مستقرِّين حولَه فهو ظرفٌ وقعَ موقعَ الحالِ ﴿ إِنَّ هذا لساحر عَلِيمٌ ﴾ فائقٌ في فنِّ السِّحرِ .

﴿ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم ﴾ قَسْراً ﴿ مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ بهره سلطانُ المعجزة وحيرَّه حتَّى حطَّه عن ذروةِ ادَّعاءِ الرُّبوبيةِ إلى حضيضِ الخُضوعِ لعبيدِهِ في زعمه والامتثالِ بأمرِهم أو إلى مقامِ مؤامرتِهم ومشاورتِهم بعد ما كانَ مستقلاً في الرَّأيِ والتَّدبيرِ وأظهر استشعارُ الخوفِ من استيلائه على مُلكه ، ونسبةُ الإخراج والأرض إليهم لتنفيرهم عن موسى عليه السلام .

﴿ قَالُواْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ ﴾ أخِّر أمرهما ، وقيل : احبسهُما ﴿ وابعث فِى المدائن حاشرين ﴾ أي شُرَطاً يحشرُون السَّحرةَ .

﴿ يَأْتُوكَ ﴾ أي الحَاشرون ﴿ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴾ فائقٍ في فنِّ السِّحرِ ، وقُرِىء بكلِّ ساحرٍ .

﴿ فَجُمِعَ السحرة لميقات يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ هو ما عيَّنه مُوسى عليه السَّلامُ بقوله : ﴿ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزينة وَأَن يُحْشَرَ الناس ضُحًى . ﴾ ﴿ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴾ قيل لهم ذلك استبطاءً لهم في الاجتماعِ وحثّاً لهم على المُبَادرة إليه .

﴿ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السحرة إِن كَانُواْ هُمُ الغالبين ﴾ أي نتبعهم في دينِهم إنْ كانُوا هم الغالبين لا مُوسى عليه السَّلامُ وليس مرادُهم بذلك أنْ يتَّبعوا دينَهم حقيقةً وإنَّما هو أنْ لا يتَّبعوا مُوسى عليه السَّلامُ لكنَّهم ساقُوا كلامَهم مساقَ الكنايةِ حَمْلاً لهم على الاهتمامِ والجِدِّ في المُغالبة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 6 صـ ﴾

(78/567)

وقال الآلوسى :

﴿ قَالَ ﴾ على جهة التلطف به والطمع في إيمانه ﴿ أَوْلَوْ جِئْتُكَ بِشَىءٍ مُّبِينٍ ﴾ أي تفعل ذلك ولو جئتك بشيء مبين أي موضح لصدق دعواي يريد به المعجزة فإنها جامعة بين الدلالة على وجود الصانع وحكمته وبين الدلالة على صدق دعوى من ظهرت على يده والتعبير عنها بشيء للتهويل ، والواو للعطف على جملة مقابلة للجملة المذكورة ، ومجموع

الجملتين المتعاطفتين في موضع الحال ، و ﴿ لَوْ ﴾ للبيان تحقيق ما يفيده الكلام السابق من الحكم على كل حال مفروض من الأحوال المقارنة له على الإجمال بادخالها على أبعدها منه وأشدها منافاة له ليظهر تحققه مع ما عداه من الأحوال بطريق الأولوية أي أتفعل في ذلك حال عدم مجيئي بشيء مبين وحال مجيئي به ، وتصدير المجيء بلو دون إن ليس لبيان استبعاده في نفسه بل بالنسبة إلى فرعون ، وجعل بعضهم الواو للحال على معنى أن الجملة التي بعدها حال أي أتفعل في ذلك جائياً بشيء مبين وهو ظاهر كلام الكشاف هنا ، وظاهر كلام الكشف أن الاستفهام للإنكار على معنى لا تقدر على فعل ذلك مع أني نبي بالمعجزة ، والظاهر تعلق هذا الكلام بالوعيد الصادر من اللعين فذلك في تفسيره إشارة إلى جعله عليه السلام من المسجونين فكأنه قال : أتجعلني من المسجونين إن اتخذت إلهاً غيرك ولو جئتك بشيء مبين ؟

وعلى ذلك حمل الطيبي كلام الكشاف ثم قال : يمكن أن يقال إن الواو عاطفة وهي تستدعي معطوفاً عليه وهو ما سبق في أول المكالمة بين نبي الله تعالى وعدوه ، والهمزة مقحمة بين المعطوف والمعطوف عليه للتقرير ، والمعنى أتقر بالوحدانية وبرسالتي إن جئتك بعد الاحتجاج بالبراهين القاهرة والمعجزات الباهرة الظاهرة .

و ﴿ لَوْ ﴾ بمعنى أن عزيز ، ويؤيد هذا التأويل ما في الاعراف ﴿ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إسرائيل قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصادقين ﴾ [الأعراف : 105 ، 106] .

وهو كما ترى .

وفيه جعل ﴿ مُّبِينٌ ﴾ من أبان اللازم بمعنى بان ، وجعله من أبان المتعدي وحذف المفعول كما أشرنا إليه أنسب للمقام ، ولما سمع فرعون هذا الكلام من موسى عليه السلام :

قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (31)

﴿ قَالَ ﴾ حيث طمع أن يجد موضع معارضة ﴿ فَأْتِ بِهِ ﴾ أي بشيء مبين ﴿ إِن كُنتَ مِنَ الصادقين ﴾ أي فيما يدل عليه كلامك من أنك تأتي بشيء موضح لصدق دعواك أو من الصادقين في دعوى الرسالة من رب العالمين ، وجواب الشرط محذوف لدلالة ما قبله عليه أي ان كنت من الصادقين فأت به ، وقدره الزمخشري أتيت به ، والمشهور وتقديره من جنس الدليل .

وقال الحوفي : يجوز أن يكون ما تقدم هو الجواب وجاز تقديم الجواب لأن حذف الشرط لم يعمل في اللفظ شيئاً ، وقد بهت الزمخشري عامله الله تعالى بعدله أهل السنة بما هم منه براء كما بينه صاحب الكشف وغيره فارجه إليه إن أردته .

﴿ فَأَلْقَى ﴾ موسى بعد أن قال له فرعون ذلك ﴿ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾ ظاهر ثعبانيته أي ليس بتمويه وتخييل كما يفعله السحرة ، والثعبان أعظم ما يكون من الحيات واشتقاقه من ثعب الماء بمعنى جرى جرياً متسعاً ، وسمي به لجريه بسرعة من غير رجل كأنه ماء سائل ، والظاهر أن نفس العصا انقلبت ثعباناً وليس ذلك بمحال إذا كان بسلب الوصف الذي صارت به عصا وخلقه وصف الذي يصير ثعباناً بناء على رأي بعض المتكلمين من تجانس الجواهر واستوائها في قبول الصفات إنما المحال انقلابها ثعبانا مع كونها عصا لامتناع كون الشيء الواحد في الزمن الواحد عصا وثعباناً ، وقيل : إن ذلك بخلق الثعبان بدلها وظواهر الآيات تبعد ذلك ، وقد جاء في الأخبار ما يدل على مزيد عظم هذا الثعبان ولا يعجز الله تعالى شيء ، وقد مر بيان كيفية الحال .

﴿ وَنَزَعَ يَدَهُ ﴾ من جيبه ﴿ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاء للناظرين ﴾ أي بياضها يجتمع النظارة على النظر إليه لخروجه عن العادة ، وكان بياضاً نورانياً .

روي أنه لما أبصر أمر العصا قال : هل لك غيرها ؟ فأخرج عليه السلام يده فقال : ما هذه قال : يدي فأدخلها في أبطه ثم نزعها ولها شعاع يكاد يغشى الأبصار ويسد الأفق .

﴿ قَالَ لِلْمَلإِ ﴾ أشراف قومه ﴿ حَوْلَهُ ﴾ منصوب لفظاً على الظرفية وهو ظرف مستقر وقع حالاً أي مستقرين حوله .

وجوز أن يكون في موضع الصفة للملأ على حد .

ولقد أمر على اللئيم يسبني . . .

والأول أسهل وأنسب .

ومن العجيب ما نقله أبو حيان عن الكوفيين أنهم يجعلون الملأ اسم موصول و "حوله" متعلق بمحذوف وقع صلة له كأنه قيل : قال للذين استقروا حوله ﴿ إِنَّ هذا لساحر عَلِيمٌ ﴾ فائق في علم السحر .

(81/567)

﴿ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم ﴾ قسرا ﴿ مِّنْ أَرْضِكُمْ ﴾ التي نشأتم فيها وتوطنتموها ﴿ بِسِحْرِهِ ﴾ وفي هذا غاية التنفير عنه عليه السلام وابتغاء الغوائل له إذ من أصعب الأشياء على النفوس مفارقة الوطن لا سيما إذا كان ذلك قسرا وهو السر في نسبة الإخراج والأرض إليهم ﴿ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ أي أي أمر تأمرون فمحل ﴿ مَاذَا ﴾ النصب على المصدرية و ﴿ تَأْمُرُونَ ﴾ من الأمر ضد النهي ومفعوله محذوف أي تأمروني ، وفي جعله

عبيده بزعمه آمرين له مع ما كان يظهره لهم من دعوى الألوهية والربوبية ما يدل على أن سلطان المعجرة بهره وحيره حتى لا يدري أي طرفيه أطول فزل عند ذكر دعوى الألوهية وحط عن منكبيه كبرياء الربوبية وانحط عن ذروة الفرعنة إلى حضيض المسكنة ولهذا أظهر استشعاء الخوف من استيلائه عليه السلام على ملكه .

وجوز أن يكون ﴿ مَاذَا ﴾ في محل النصب على المفعولية وأن يكون "تأمرون" من المؤامرة بمعنى المشاورة لأمر كل بما يقتضيه رأيه ولعل ما تقدم أولى .

﴿ قَالُواْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ ﴾ أي آخر أمرهما إلى أن تأتيك السحرة من أرجأته إذا أخرته ، ومنه المرجئة وهم الذين يؤخرون العمل لا يأتونه ويقولون : لا يضر مع الإيمان معصية كما لا ينفع مع الكفر طاعة .

وقرأ أهل المدينة .

والكسائي .

وخلف ﴿ أَرْجِهْ ﴾ بكسر الهاء ، وعاصم .

وحمزة ﴿ أَرْجِهْ ﴾ بغير همز وسكون الهاء ، والباقون "أرجئه" بالهمز وضم العاء ، وقال أبو علي : لا بد من ضم الهاء مع الهمزة ولا يجوز غيره ، والأحسن أن لا يبلغ بالضم إلى الواو ، ومن قرأ بكسر الهاء فأرجه عنده من أرجيته بالياء دون الهمزة والهمز على ما نقل الطيبي أفصح ، وقد توصل الهاء المذكورة بياء فيقال : أرجهي كما يقال مررت بهي ، وذكر الزجاج أن بعض الحذاق بالنحو لا يجوز إسكان نحو هاء ﴿ أَرْجِهْ ﴾ أعني هاء الإضمار ، وزعم بعض النحويين جواز ذلك واستشهد عليه ببيت مجهول ذكره الطبرسي : وقال هو شعر لا يعرف قائله والشاعر يجوز أن يخطىء .

وقال بعض الأجلة : الإسكان ضعيف لأن هذه الهاء إنما تسكن في الوقف لكنه أجرى الوصل مجرى الوقف ، وقيل : المعنى أحبسه ، ولعله قالوا ذلك لفرط الدهشة أو تجلداً ومداهنة لفرعون وإلا فيكف يمكنه أن يحبسه مع ما شاهد منه من الآيات ﴿ وابعث فِى المدائن حاشرين ﴾ شرطاء يحشرون السحرة ويجمعونهم عندك ﴿ يَأْتُوكَ ﴾ مجزوم في جواب الأمر أي إن تبعثهم يأتوك ﴿ بِكُلِّ سَحَّارٍ ﴾ كثير العمل بالسحر ﴿ عَلِيمٌ ﴾ فائق في علمه ، ولكون المهم هنا هو العمل أتوا بما يدل على التفضيل فيه ، وقرأ الأعمش . وعاصم في رواية ﴿ بِكُلِّ ساحر عَلِيمٍ ﴾ ﴿ فَجُمِعَ السحرة ﴾ أي المعهودون على أن التعريف كما في المفتاح عهدي ، وقال الفاضل المحقق : إن المعهود قد يكون عاماً مستغرقاً كما هنا ولا منافاة بينهما كما يتوهم وفيه بحث فتأمل .

فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (38)

﴿ لميقات يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ لما وقت به من ساعات يوم معين وهو وقت الضحى من يوم الزينة على أن الميقات من صفات الزمان ، وفي الكشاف هو ما وقت به أي حدد من زمان أو مكان ومنه مواقيت الإحرام .

(83/567)

﴿ وَقِيلَ لِلنَّاسِ ﴾ استبطاء لهم في الاجتماع وحثا على التبادر إليه ﴿ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴾ في ذلك الميقات فالاستفهام مجاز عن الحث والاستعجال كما في قول تأبط شرا :

هل أنت باعث دينار لحاجتنا . . .

أو عبد رب أخا عون بن مخراق

فإنه يريد ابعث أحدهما إلينا سريعاً ولا تبطىء به .

﴿ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السحرة ﴾ أي في دينهم ﴿ إِن كَانُواْ هُمُ الغالبين ﴾ لا موسى عليه السلام ، وليس مرادهم بذلك إلا أن لا يتبعوا موسى عليه السلام في دينه لكن ساقوا كلامهم مساق الكناية حملاً للسحرة على الاهتمام والجد في المغالبة ، وجوز أن يكون مرادهم اتباع

السحرة أي الثبات على ما كانوا عليه من الدين ويدعي أنهم كانوا على ما يريد فرعون من الدين .

والظاهر أن فرعون غير داخل في القائلين ، وعلى تقدير دخوله لم يجوز بعضهم إرادة المعنى الحقيقي لهذا الكلام لامتناع اتباع مدعى الإلهية السحرة ، وجوزه أخرون لاحتمال أن يكون قال ذلك لما استولى عليه من الدهشة من أمر موسى عليه السلام كما طلب الأمر ممن حوله لذلك ، ولعل إتيانهم بأن للإلهاب وإلا فالأوفق بمقامهم أن يقولوا إذا كانوا هم الغالبين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 19 صـ ﴾

(84/567)

وقال ابن عاشور :

﴿ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ (30) ﴾

لما رأى موسى من مكابرة فرعون عن الاعتراف بدلالة النظر مَا لا مطمع معه إلى الاسترسال في الاستدلال لأنه متعامٍ عن الحق عدل موسى إلى إظهار آية من خوارق العادة دلالة على صدقه ، وعرض عليه ذلك قبل وقوعه ليسد عليه منافذ ادعاء عدم الرضى بها .

واستفهمه استفهاماً مشوباً بإنكار واستغراب على تقدير عدم اجتزاء فرعون بالشيء المُبين ، وأنه ساجنُه لا محالة إن لم يعترف بإلهية فرعون ، قطعاً لمعذرته من قبل الوقوع .

وهذا التقدير دلت عليه ﴿ لو ﴾ الوصلية التي هي لفرض حالة خاصة .

فالواو في قوله : ﴿ أولو جئتك ﴾ واو الحال ، والمستفهم عنه بالهمزة محذوف دل عليه أن الكلام جواب قول فرعون ﴿ لأجعلنك من المسجونين ﴾ [الشعراء : 29] والتقدير : أتجعلني من المسجونين والحال لو جئتك بشيء مبين ، إذ القصد الاستفهام عن الحالة التي تضمنها شرط ﴿ لو ﴾ بأنها أولى الحالات بأن لا يثبت معها الغرض المستفهم عنه على فرض وقوعها وهو غرض الاستمرار على التكذيب ، وهو استفهام حقيقي .

وليست الواو مؤخرة عن همزة الاستفهام لأن لحرف الاستفهام الصدارة بل هي لعطف الاستفهام .

والعامل في الحال وصاحِب الحال مقدّران دل عليهما قوله : ﴿ لأجعلنَّك ﴾ [الشعراء : 29] ، أي أتجعلني من المسجونين .

ووصفُ "شيء" بـ ﴿ مبين ﴾ اسم فاعل من أبان المتعدي ، أي مُظهرٍ أني رسول من الله .

وأعرض فرعون عن التصريح بالتزام الاعتراف بما سيجيء به موسى فجاء بكلام محتمل إذ قال ﴿ فأت به إن كنت من الصادقين ﴾ .

وفي قوله : ﴿ إن كنت من الصادقين ﴾ إيماء إلى أن في كلام فرعون ما يقتضي أن فرض صدق موسى فرض ضعيف كما هو الغالب في شرط ﴿ إن ﴾ مع إيهام أنه جاء بشيء مبين يعتبر صادقاً فيما دعا إليه ، فبقي تحقيق أن ما سيجيء به موسى مبين أو غير مبين .

(85/567)

وهذا قد استبقاه كلام فرعون إلى ما بعد الوقوع والنزول ليتأتى إنكاره إن احتاج إليه .

والثعبان : الحية الضخمة الطويلة .

ووصف ﴿ ثعبان ﴾ بأنه ﴿ مبين ﴾ الذي هو اسم فاعل من أبان القاصر الذي بمعنى بَان بمعنى ظهر ، ف ﴿ مبين ﴾ دال على شدة الظهور من أجل أن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى ، أي ثعبان ظاهر أنه ثعبان لا لبس فيه ولا تخييل .

وبالاختلاف بين ﴿ مُبينٍ ﴾ الأول و ﴿ مُبينٌ ﴾ الثاني اختلفت الفاصلتان معنى فكانتا من قبيل الجِناس ولم تكونا مما يسمى مثله إيطاءً .

والإلقاء : الرمي من اليد إلى الأرض ، وتقدم في سورة الأعراف .

والنزع : سلّ شيء مما يحيط به ، ومنه نزع اللباس ، ونزع الدلو من البئر .

ونزع اليد : إخراجها من القميص ، فلذلك استغنى عن ذكر المنزوع منه لظهوره ، أي أخرج

يده من جيب قميصه .

ودلت (إذا) المفاجِئة على سرعة انقلاب لون يده بياضاً .

واللام في قوله : ﴿ للناظرين ﴾ .

يجوز أن تكون اللامَ التي يسميها ابن مالك وابن هشام لام التعدية ، أي اتصال متعلقها بمجرورها .

والأظهر أن تكون اللام بمعنى (عند) ويكون الجار والمجرور حالاً .

وقد مضى بيان ذلك عند قوله تعالى في سورة الأعراف (108) ﴿ ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين ﴾

ومعنى : للناظرين أن بياضها مما يقصده الناظرون لأعجوبته ، وكانَ لون جلد موسى السمرة .

والتعريف في ﴿ للناظرين ﴾ للاستغراق العرفي ، أي لجميع الناظرين في ذلك المجلس .

وهذا يفيد أن بياضها كان واضحاً بيّناً مخالفاً لون جِلده بصورة بعيدة عن لون البرص .

قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (34)

تقدم الكلام على نظير هذه الآية في سورة الأعراف ، سوى أن في هذه الآية زيادة ﴿ بسحره ﴾ وهو واضح ، وفي هذه الآية أن هذا قول فرعون للملإ ، وفي آية الأعراف (109) ﴿ قال الملأ من قوم فرعون ﴾ والجمع بينهما أن فرعون قاله لمن حَوله فأعادوه بلفظه للموافقة التامة بحيث لم يكتفوا بقول : نعم ، بل أعادوا كلام فرعون ليكون قولهم على تمام قوله .

وانتصب ﴿ حوله ﴾ على الظرفية .

والظرف هنا مستقر لأنه متعلق بكون محذوف هو حال من الملأ .

وتقدم وجه التعبير عن إشارتهم عليه بقوله : ﴿ تأمرون ﴾ في سورة الأعراف (110) .

قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (36)

تقدم الكلام على نظيرها في سورة الأعراف سوى أن في هذه الآية ﴿ وابعث ﴾ بدل ﴿ وأرسل ﴾ [الأعراف : 111] وهما مترادفان ، وفي هذه الآية ﴿ سحّار ﴾ وهنالك ﴿ ساحر ﴾ [الأعراف : 112] والسحار مرادف للساحر في الاستعمال لأن صيغة فَعَّال هنا للنسب دلالة على الصناعة مثل النجَّار والقصّار ولذلك أتبع هنا وهناك بوصف ﴿ عليم ﴾ ، أي قوي العلم بالسحر .

فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (38)

دلت الفاء على أنّ جمع السحرة وقع في أسرع وقت عقب بعث الحاشرين حرصاً من الحَاشرين والمحشورين على تنفيذ أمر فرعون .

وبني "جُمع وقيل" للنائب لعدم تعين جامِعين وقائلين ، أي جَمَعَ من يجمع ، وقال القائلون .

واللام في ﴿ لميقات ﴾ بمعنى (عند) كاللام في قوله تعالى : ﴿ أقم الصلاة لدلوك الشمس ﴾ [الإسراء : 78] .

واليوم : هو يوم الزينة وهو يوم وفاء النيل .

والوقت هو الضحى كما في سورة طه .

والميقات : الوقت ، وأصله اسم آلة التوقيت .

سمي به الوقت المعين تشبيهاً له بالآلة .

والتعريف في ﴿ للناس ﴾ للاستغراق العرفي ، وهم ناس بلدة فرعون (منفيس) أو (طيبة) .

(87/567)

و ﴿ هل أنتم مجتمعون ﴾ استحثاث للناس على الاجتماع ، فالاستفهام مستعمل في طلب الإسراع بالاجتماع بحيث نزلوا منزلة من يسأل سؤال تحقيق عن عزمه على الاجتماع

كقوله تعالى : ﴿ فهل أنتم منتهون ﴾ في سورة العقود (91) ، وقول تأبط شراً :

هل أنت باعثُ دينار لحاجتنا . . .

أو عبدِ ربَ أخا عون بن مخراق

يريد ابعث إلينا ديناراً أو عبد رب سريعاً لأجل حاجتنا بأحدهما .

ورجَوا اتّباع السحرة ، أي اتباع ما يؤيده سحر السحرة وهو إبطال دين ما جاء به موسى ، فكان قولهم ﴿ لعلنا نتّبع السحرة ﴾ كناية عن رجاء تأييدهم في إنكار رسالة موسى فلا يتبعونه .

وليس المقصود أن يصير السحرة أئمة لهم لأن فرعون هو المتّبع .

وقد جيء في شرط ﴿ إن كانوا هم الغالبين ﴾ بحرف ﴿ إن ﴾ لأنها أصل أدوَات الشرط ولم يكن لهم شك في أن السحرة غالبون .

وهذا شأن المغرورين بهواهم ، العُمي عن النظر في تقلبات الأحوال أنهم لا يفرضون من الاحتمالات إلا ما يوافق هواهم ولا يأخذون العُدة لاحتمال نقيضه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 19 صـ ﴾

(88/567)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ (30) ﴾

يعني : إذا لم تقنع بكل الحجج السابقة ، فهل لو جئتك بآية واضحة دالة على صدق رسالتي ، أتجعلني أيضاً من المسجونين ؟

قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (31)

انظر إلى تعارض فرعون مع نفسه ، فكان عليه ساعة أنْ يسمع من موسى هذا الكلام أنْ يُصر على سجنه ، لكن الحق تبارك وتعالى يريد أنْ يُظهر حجته ، فيجعل فرعون هو الذي يطلبها بنفسه ﴿ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصادقين ﴾ [الشعراء : 31] وما كان لموسى أن يأتي بآية إلا أنْ يطلبها منه فرعون .

فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ (32)

إلقاء العصا له في القرآن ثلاث مراحل : الأولى : هي التي واكبتْ اختيار الله لموسى ليكون رسولاً ، حين قال له : ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يا موسى ﴾ [طه : 17] وقلنا : إن موسى عليه السلام أطال في إجابة هذا السؤال لحرصه على إطالة مدة الأُنْس بالله عز وجل فقال : ﴿ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا على غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخرى ﴾ [اطه : 18] .

فالعصا في نظر موسى عليه السلام عود من الخشب قريب عهد بأصله ، كغصن في شجرة

، لكنها عند الله لها قصة أخرى : ﴿ قَالَ أَلْقِهَا يا موسى * فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تسعى ﴾ [طه : 1920] .

وما صارت العصا عصاً إلا بعد أنْ قُطِعت من شجرتها ، وفقدت الحياة النباتية ، وتحولت إلى جماد ، فلو عادت إلى أصلها وصارت شجرةً من جديد لكان الأمر معقولاً ، لكنها تجاوزتْ مرتبة النباتية ، وتحولت إلى الحيوانية ، وهي المرتبة الأعلى ؛ لذلك فزع منها موسى وخاف فطمأنه ربه :

﴿ قَالَ خُذْهَا وَلاَ تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الأولى ﴾ [طه : 21] .

(89/567)

وكانت هذه المرة بمثابة تدريب لموسى عليه السلام ؛ ليألف العصا على هذه الحالة ، وكأن الله تعالى أراد لموسى أنْ يُجري هذه التجربة أمامه ، ليكون على ثقة من صِدْق هذه الآية ، فإذا ما جاء لقاء فرعون ألقاها دون خوف ، وهو واثق من نجاحه في هذه الجولة .

إذن : كان الإلقاء الثاني للعصا أمام فرعون وخاصته ، ثم كان الإلقاء للمرة الثالثة أمام السحرة .

ومعنى ﴿ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾ [الشعراء : 32] يعني : بيِّن الثعبانية ، فيه حياة وحركة ، وقال

﴿ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾ [الشعراء : 32] يعني : واضح للجميع ؛ لأنهم كانوا يجيدون هذه المسألة ويُخيّلون للناس مثل هذه الأشياء ، ويجعلونها تسعى وتتحرك ، ولم تكن عصا موسى كذلك ، إنما كانت ثعباناً مبيناً واضحاً وحقيقياً لا يشكّ في حقيقته أحد .

والمتتبع للقطات المختلفة لهذه الحادثة في القرآن الكريم يجد السياق يُسمّيها مرة ثعباناً ، ومرة حية ، ومرة جاناً ، لماذا ؟ قالوا : لأنها جمعت كل هذه الصفات : فهي خفة حركتها كأنها جان ، وفي شكلها المرعب كأنها حية ، وفي التلوّي كأنها ثعبان . والجان : فرخ الحية

.

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ ﴾

هنا يتكلم عن نزع اليد ؛ لأنه قال في آية أخرى : ﴿ اسلك يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سواء ﴾ [القصص : 32] .

وهكذا تتكامل لطقات القصة الواحدة ، والتي يظنها البعض تكراراً ، وليست هي كذلك

.

﴿ وَنَزَعَ ﴾ [الشعراء : 33] يعني : أخرج يده ﴿ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴾ [الشعراء : 33] مع أن موسى عليه السلام كان آدم اللون يعني فيه سُمْرة ، ومع ذلك خرجتْ بيضاء ، لها شعاع وبريق يأخذ بالأبصار .

وبمقارنة هذه الآية بآية سورة القصص نجد أنه حذف من آية سورة الشعراء الجيب ، وهو فتحة الثوب من أعلى ، لا الجيب المتعارف عليه ، والذي نضع فيه النقود مثلاً ، وكانوا في الماضي يجعلون الجيب بداخل ملابس الإنسان ، ليكون في مأمن ، فإذا أراد الإنسان شيئاً فيه مَدَّ يده من خلال الفتحة العليا للثوب ، فسُمِّيتْ جيباً .

قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (34)

الملأ : هم عليْة القوم ، الذين يملأون العيون ، ويتصدَّرون المجالس ﴿ إِنَّ هذا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴾ [الشعراء : 34] فاتهمه بالسحر ليخرج من ورطته وقال : ساحر لأن موسى لم يمارس هذه المسألة إلا مرة واحدة هي التي أجراها أمام فرعون ، لكن الملأ على علم بالسحر وإلْف له ، وعندهم سحارون كثيرون .

وفَرْق بين ساحر وسحَّار : ساحر لمن مارس هذه العملية مرة واحدة ، إنما سحَّار مبالغة تدل على أنها أصبحت حِرْفته ، مثل ناجر ونجّار ، وخائط وخيّاط .

و﴿ عَلِيمٌ ﴾ الشعراء : 34] أي : بسحره .

يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (35)

هنا يستعدي فرعون قومه على موسى ، ويُحذرهم أنه سيفسد العامة والدهماء ، وتكون له الأغلبية ، وتكون له شيعة يناصرونه عليكم حتى يُخرِجكم من أرضكم ، وهذا أقلّ ما

يُنتظر منه ، يريد أن يهيج عليه الملأ من قومه ؛ ليكونوا أعداء له يقفون في صَفِّ فرعون .

وعجيب أنْ يقول الفرعون الإله ﴿ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ [الشعراء : 35] فهذه هي الألوهية الكاذبة التي انحدرتْ إلى مرتبة العبيد ، ومتى يأخذ الإله رأي عبيده ، ويطلب منهم المعونة والمشورة ؟ ولو كان إلهاً بحق لكان عنده الحل ولديه الردّ .

(91/567)

فلما نزل فرعون من منزلة الألوهية ، وطلب الاستعانة بالملأ من قومه التفتوا إلى كذبه ، ووجدوا الفرصة مواتية للخلاص منه ، ومما يدل على أن أكثرهم وجمهرتهم كانوا يجارونه على مضض ، وينتظرون لحظة الخلاص من قَهْره وكذبه ؛ لذلك قالوا : ﴿ قالوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ ﴾

﴿ أَرْجِهْ ﴾ [الشعراء : 36] من الإرجاء وهو التأخير ، أي : أخّره وأخاه لمدة ﴿ وابعث فِي المدآئن حَاشِرِينَ ﴾ [الشعراء : 36] ابعث رسلك يجمعون السَّحارين من أنحاء البلاد ، ليقابلوا بسحرهم موسى وهارون . والمدائن : جمع مدينة .

يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ (37)

وقال ﴿ سَحَّارٍ ﴾ [الشعراء : 37] بصيغة المبالغة ﴿ عَلِيمٍ ﴾ [الشعراء : 37]

أي : بفنون السِّحْر وألاعيب السَّحَرة .

فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (38)

الميقات : أي الوقت المعلوم ، وفي آية أخرى : ﴿ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ ﴾ [طه : 59] وكان يوماً مشهوداً عندهم ، ترتدي في الفتيات أبهى حُلَلها ، وكان يوم عيد يختارون فيه عروس النيل التي سيُلْقونها فيه ، فحدد اليوم ، ثم لم يترك اليوم على إطلاقه ، إنما حدد من اليوم وقت الضحى ﴿ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ﴾ [طه : 59] .

وفي لقطة أخرى حدد المكان ، فقال : ﴿ مَكَانًا سُوًى ﴾ [طه : 58] يعني : فيه سوائية ، إما باستواء المكان حتى يتمكّن الجميع من رؤية هذه المباراة السحرية ، بحيث تكون في ساحة مستوية الأرض ، أو يكون مكاناً سواسية متوسطاً بين المدائن التي سيجمع منها السحرة ، بحيث لا يكون متطرفاً ، يشقّ على بعضهم حضوره .

وهكذا تتكاتف اللقطات المختلفة لترسم الصورة الكاملة للقصة .

ونرى في هذه المشورة حِرْصَ الملأ على إتمام هذا اللقاء ، وأن يكون على رؤوس الأشهاد ، لأنهم يعلمون أنها ستكون لصالح موسى ، وسوف يفضح هذا اللقاءُ كذبَ فرعون في ادعائه الألوهية .

وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ (39) لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ (40)

أي : أخذوا يدعُون الناس ، وكأنهم في حملة دعاية وتأييد ، إما لموسى من أنصاره الكارهين لفرعون في الخفاء ، وإما لفرعون ، فكان هؤلاء وهؤلاء حريصين على حضور هذه المباراة .

إننا نشاهد الجمع الغفير من الجماهير يتجمع لمشاهدة مباراة في كرة القدم مثلاً ، فما بالك بمباراة بين سحرة مَنْ يدَّعي الألوهية وموسى الذي جاء برسالة جديدة يقول : إن له إلهاً غير هذا الإله ؟ إنه حَدَثٌ هَزَّ الدنيا كلها ، وجذب الجميع لمشاهدته . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(93/567)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله : ﴿ أَوَلَوْ جِئْتُكَ ﴾ :

هذه واوُ الحالِ . وقال الحوفي : " للعطف " . وقد تقدَّم تحريرُ هذا عند قولِه : ﴿ أَوَلَوْ كَانَ

آبَاؤُهُمْ ﴾ [الآية: 170] في البقرة. وغالبُ الجملِ هنا تقدَّم إعرابُها.

قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (34)

قوله: ﴿ حَوْلَهُ ﴾: حالٌ من "الملأ". ومفعولُ القولِ قولُه: ﴿ إِنَّ هذا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴾، وقيل: صلةٌ للملأ فإنه بمعنى الذي. وقيل: الموصولُ محذوفٌ، وهما قولان للكوفيين.

انتهى انتهى. اهـ ﴿الدر المصون حـ 8 صـ 519﴾

(94/567)

قوله تعالى ﴿ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (41) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (42) قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ (43) فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ (44) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي:

لما رسخ في أذهانهم في الأزمنة المتطاولة من الضلال الذي لا غفلة لإبليس عن تزيينه مع أن تغيير المألوف أمر في غاية العسر.

وقال: ﴿ فلما ﴾ بالفاء إيذاناً بسرعة حشرهم، إشارة إلى ضخامة ملكه.

ووفور عظمته ﴿ جاء السحرة ﴾ أي الذين كانوا في جميع بلاد مصر ﴿ قالوا لفرعون ﴾ مشترطين الأجر في حال الحاجة إلى الفعل ليكون ذلك أجدر بحسن الوعد ، ونجاح القصد ﴿ أَئِنَّ لنا لأجراً ﴾ وساقوه مساق الاستفهام أدباً معه ، وقالوا : ﴿ إن كنا ﴾ أي كوناً نحن راسخون فيه ﴿ نحن ﴾ خاصة ﴿ الغالبين ﴾ بأداة الشك مع جزمهم بالغلبة تخويفاً له بأنه إن لم يحسن في وعدهم لم ينصحوا له ؛ ثم قيل في جواب من كأنه سأل عن جوابه : ﴿ قال ﴾ مجيباً إلى ما سألوه : ﴿ نعم ﴾ أي لكم ذلك ، وزادهم ما لا أحسن منه عند أهل الدنيا مؤكداً له فقال : ﴿ وإنكم إذاً ﴾ أي إذا غلبتم ﴿ لمن المقربين ﴾ أي عندي ، وزاد ﴿ إذاً ﴾ هنا زيادة في التأكيد لما يتضمن ذلك من إبعاده عن الإيمان من وضوح البرهان ، تخفيفاً على المخاطب بهذا كله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، تسلية له في الحمل على نفسه أن لا يكون من يدعوهم مؤمنين ، وما بعد ذلك من مسارعة السحرة للإيمان – بعد ما ذكر من إقسامهم بعزته بغاية التأكيد – تحقيق لآية ﴿ فظلت أعناقهم لها خاضعين ﴾ .

ولما تشوف السامع إلى جواب نبي الله تعالى موسى عليه الصلاة والسلام أجيب بقوله : ﴿ قال لهم موسى ﴾ عليه السلام ، أي مريداً لإبطال سحرهم لأنه لا يتمكن منه إلا بإلقائهم ، لا لمجرد إلقائهم ، غير مبال بهم في كثرة ولا علم بعد ما خيروه – كما في غير هذه السورة : ﴿ ألقوا ما أنتم ملقون ﴾ كائناً ما كان ، ازدراء له بالنسبة إلى أمر الله ﴿ فألقوا ﴾ أي فتسبب عن قول موسى عليه السلام وتعقبه أن ألقوا ﴿ حبالهم وعصيهم ﴾ التي أعدوها

للسحر ﴿ وقالوا ﴾ مقسمين : ﴿ بعزة فرعون ﴾ مؤكدين بأنواع التأكيد ﴿ إنا لنحن ﴾ أي خاصة لا نستثني ﴿ الغالبون ﴾ قول واثق من نفسه مزمع على أن لا يدع باباً من السحر يعرفه إلا أتى به ، فكل من حلف بغير الله كأن يقول : وحياة فلان ، وحق رأسه - ونحو ذلك ، فهو تابع لهذه الجاهلية . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 358 . 359 ﴾

(95/567)

فصل

قال الفخر :

﴿ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ (43) فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ (44) ﴾

اعلم أنهم لما اجتمعوا كان لا بد من أن يبدأ موسى أو يبدأوا ثم إنهم تواضعوا له فقدموه على أنفسهم ، وقالوا : ﴿ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونُ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى ﴾ [طه : 65] فلما تواضعوا له تواضع هو أيضاً لهم فقدمهم على نفسه ، وقال : ﴿ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ ﴾ فإن قيل كيف جاز لموسى عليه السلام أن يأمر السحرة بإلقاء الحبال والعصي وذلك سحر

وتلبيس وكفر والأمر بمثله لا يجوز الجواب : لا شبهة في أن ذلك ليس بأمر لأن مراد موسى عليه السلام منهم كان أن يؤمنوا به ولا يقدموا على ما يجري مجرى المغالبة ، وإذا ثبت هذا وجب تأويل صيغة الأمر وفيه وجوه : أحدها : ذلك الأمر كان مشروطاً والتقدير ألقوا ما أنتم ملقون إن كنتم محقين كما في قوله : ﴿ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ . . . إِن كُنتُمْ صادقين ﴾ [البقرة : 23] وثانيها : لما تعين ذلك طريقاً إلى كشف الشبهة صار جائزاً وثالثها : أن هذا ليس بأمر بل هو تهديد ، أي إن فعلتم ذلك أتينا بما تبطله ، كقول القائل لئن رميتني لأفعلن ولأصنعن ثم يفوق له السهم فيقول له ارم فيكون ذلك منه تهديداً ورابعها : ما ذكرنا أنهم لما تواضعوا له وقدموه على أنفسهم فهو قدمهم على نفسه على رجاء أن يصير ذلك التواضع سبباً لقبول الحق ولقد حصل ببركة ذلك التواضع ذلك المطلوب ، وهذا تنبيه على أن اللائق بالمسلم في كل الأحوال التواضع ، لأن مثل موسى عليه السلام لما لم يترك التواضع مع أولئك السحرة ، فبأن يفعل الواحد منا أولى .

(96/567)

أما قوله تعالى : ﴿ فَأَلْقَوْاْ حبالهم وَعِصِيَّهُمْ ﴾ فروي عن ابن عباس أنهم لما ألقوا حبالهم وعصيهم وقد كانت الحبال مطلية بالزئبق والعصي مجوفة مملوءة من الزئبق فلما حميت

اشتدت حركتها فصارت كأنها حيات تدب من كل جانب من الأرض فهاب موسى عليه السلام ذلك ، فقيل له ألق ما في يمينك فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين ثم فتحت فاها فابتلعت كل ما رموه من حبالهم وعصيهم حتى أكلت الكل ثم أخذ موسى عصاه ، فإذا هي كما كانت فلما رأت السحرة ذلك قالت لفرعون كنا نساحر الناس فإذا غلبناهم بقيت الحبال والعصي ، وكذلك إن غلبونا ولكن هذا حق فسجدوا وآمنوا برب العالمين .

واعلم أن في الآثار اختلافاً فمنهم من كثر الحبال والعصي ، ومنهم من توسط ، والله أعلم بعدد ذلك ، والذي يدل القرآن عليه أنها كثيرة من حيث حشروا من كل بلد ، ولأن الأمر بلغ عند فرعون وقومه في العظم مبلغاً يبعد أن يدخر عنه ما يمكن من جمع السحرة .

وأما قوله : ﴿ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرْعَونَ إِنَّا لَنَحْنُ الغالبون ﴾ فالمراد أنهم أظهروا ما يجري مجرى القطع على أنهم يغلبون ، وكل ذلك لما ظهر كان أقوى لأمر موسى عليه السلام . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 24 صـ 116 ﴾

(97/567)

وقال ابن عطية :

﴿ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا ﴾

وقرأ الأعرج وأبو عمرو " أين لنا " على الاستفهام ، وقرأ عيسى " نِعم " بكسر العين ، والتقريب الذي وعدهم به فرعون هو الجاه الزائد على العطاء الذي طلبوه والقرب من الملك الذي كان عندهم إلهم ، واختلف الناس في عدد السحرة ، وقد ذكرنا ذلك فيما تقدم ، وكانوا مجموعين من مدائن مصر ريف النيل وهي كانت بلاد السحر الفرماء وأنصناء وغير ذلك ومعظمهم كان من الفرماء ، والحبال والعصي كانت أوقار إبل ، وقولهم ﴿ بعزة فرعون ﴾ يحتمل وجهين أحدهما القسم كأنهم أقسموا بعزة فرعون ، كما تقول بالله إني لأفعل كذا وكذا ، فكان قسمهم ﴿ بعزة فرعون ﴾ غير مبرور ، والآخر أن يكون على جهة التعظيم لفرعون إذ كانوا يعبدونه والتبرك باسمه كما تقول ابتدأت بعمل شغل ﴿ بسم الله ﴾ ﴿ وعلى بركة الله ﴾ . ونحو هذا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(98/567)

وقال أبو السعود :

﴿ فَلَمَّا جَاء السحرة قَالُواْ لِفِرْعَوْنَ إِنَّ لَنَا لأَجْرًا ﴾

أي أجراً عظيماً ﴿ إِن كُنَّا نَحْنُ الغالبين ﴾ لا مُوسى عليه السَّلامُ .

﴿ قَالَ نَعَمْ ﴾ لكُم ذلك ﴿ وَإِنَّكُمْ ﴾ مع ذلك ﴿ إِذاً لَّمِنَ المقربين ﴾ عندي قيل قال لهم تكونُون أوّلَ من يدخلُ عليَّ وآخرَ مَن يخرجُ عنّي ، وقُرِىء نعِم بكسرِ العين وهُما لغتَانِ .

﴿ قَالَ لَهُمْ موسى ﴾ أي بعد ما قالَ له السَّحرةُ إمَّا أنْ تلقيَ وإمَّا أنْ نكونَ أوّلَ منَ ألقَى .

﴿ أَلْقُواْ مَا أَنتُمْ مُّلْقُونَ ﴾ ولمْ يُرد به الأمرَ بالسِّحرِ والتَّمويهَ بل الإذنَ في تقديمِ ما هُم فاعلُوه ألبتَةَ توسُّلاً به إلى إظهارِ الحقِّ وإبطالِ الباطلِ .

﴿ فَأَلْقَوْاْ حبالهم وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُواْ ﴾ أي وقد قالُوا عند الإلقاءِ ﴿ بِعِزَّةِ فِرْعَونَ إِنَّا لَنَحْنُ الغالبون ﴾ قالُوا ذلك لفرطِ اعتقادِهم في أنفسِهم وإتيانِهم بأقصى ما يُمكن أنْ يُؤتى به من السِّحرِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 6 صـ ﴾

(99/567)

وقال الآلوسى :

﴿ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا ﴾

أي لأجراً عظيماً ﴿ إِن كُنَّا نَحْنُ الغالبين ﴾ لا موسى عليه السلام ولعلهم أخرجوا الشرط على أسلوب ما وقع غي كلام القائلين موافقة لهم وإلا فلا يناسب حالهم إظهار الشك في غلبتهم .

قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذاً لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (42)

﴿ قَالَ ﴾ فرعون لهم ﴿ نِعْمَ ﴾ لكم ذلك ﴿ وَإِنَّكُمْ ﴾ مع ذلك ﴿ إِذاً لَمِنَ المقربين ﴾ عندي ، قيل : قال لهم : تكونون أول من يدخل علي وآخر من يخرج عني .

و ﴿ أَذِنَ ﴾ عند جمع على ما تقتضيه في المشهور من الجواب والجزاء ، ونقل الزركشي في البرهان عن بعض المتأخرين أنها هنا مركبة من ﴿ إِذَا ﴾ التي هي ظرف زمان ماض والتنوين الذي هو عوض عن جملة محذوفة بعدها وليست هي الناصبة للمضارع .

وقد ذهب إلى ذلك في نظير لآية الكافيجي .

والقاضي تقي الدين بن رزين .

وأنا ممن يقول بإثبات هذا المعني لها .

والمعنى عليه وإنكم إذا غلبتم أو إذا كنتم الغالبين لمن المقربين .

وقرىء ﴿ نِعْمَ ﴾ بفتح النون وكسر العين وذلك لغة في ﴿ نِعْمَ ﴾ .

﴿ قَالَ لَهُمْ موسى ﴾ أي بعد ما قال له السحرة : ﴿ إما أن تلقى وإما أن نكون أول من ألقى ﴾ [طه : 65] ﴿ أَلْقُواْ مَا أَنتُمْ مُّلْقُونَ ﴾ لم يرد عليه السلام الأمر بالسحر والتمويه حقيقة فإن السحر حرام وقد يكون كفراً فلا يليق بالمعصوم الأمر به بل الإذن بتقديم ما علم بالهام أو فراسة صادقة أو قرائن الحال أنهم فاعلوه البتة ولذا قال : ﴿ مَا أَنتُمْ مُّلْقُونَ ﴾ ليتوصل بذلك إلى إبطاله .

وهذا كما يؤمر الزنديق بتقرير حجته لترد وليس في ذلك الرضا الممتنع فإنه الرضا على طريق الاستحسان وليس في الإذن المذكور ومطلق الرضا غير ممتنع ، وما اشتهر من قولهم : الرضا بالكفر كفر ليس على إطلاقه كما عليه المحققون من الفقهاء والأصوليين .

(100/567)

﴿ فَأَلْقَوْا حبالهم وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا ﴾ أي وقد قالوا عند الالقاء ﴿ بِعِزَّةِ فِرْعَونَ ﴾ أي بقوته التي يمتنع بها من الضيم من قولهم .

أرض عزاز أي صلبة ﴿ إِنَّا لَنَحْنُ الغالبون ﴾ لا موسى عليه السلام ، والظاهر أن هذا قسم منهم بعزته عليه اللعنة على الغلبة وخصوها بالقسم هنا لمناسبتها للغلبة وقسمهم على ذلك لفرط اعتقادهم في أنفسهم وإتيانهم بأقصى ما يمكن أن يؤتى به من السحر .

وفي ذلك إرهاب لموسى عليه السلام بزعمهم ، وعدلوا عن الخطاب إلى الغيبة في قولهم ﴿ بِعِزَّةِ فِرْعَونَ ﴾ تعظيماً له ، وهذا القسم من نوع أقسام الجاهلية ، وقد سلك كثير من المسلمين في الإيمان ما هو أشنع من أيمانهم لا يرضون بالقسم بالله تعالى وصفاته عز وجل ولا يعتدون بذلك حتى يحلف أحدهم بنعمة السلطان أو برأسه أو برأس المحلف أو بلحيته أو بتراب قبر أبيه حفينئذ يستوثق منه ، ولهم أشياء يعظونها ويحلفون بها غير ذلك ، ولا

يبعد أن يكون الحلف بالله تعالى كذباً أقل إثماً من الحلف بها صدقاً وهذا مما عمت به البلوى ولا حوال ولا قوة إلا بالله تعالى العلي العظيم ، وقال ابن عطية بعد أن ذكر أنه قسم : والأحرى أن يكون على جهة التعظيم والتبرك باسمه إذا كانوا يعبدونه كما تقول : إذا ابتدأت بشيء بسم الله تعالى وعلى بركة رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحو ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 19 صـ ﴾

(101/567)

وقال ابن عاشور :

﴿ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (41) ﴾

تقدم نظيرها في سورة الأعراف بقوله : ﴿ وجاء السحرة ﴾ [الأعراف : 113] وبطرح همزة الاستفهام إذ قال هناك ﴿ إنَّ لنا لأجراً ﴾ [الأعراف : 113] ، وهو تفنن في حكاية مقالتهم عند إعادتها لئلا تعاد كما هي ، وبدون كلمة ﴿ إذاً ﴾ ، فحكى هنا ما في كلام فرعون من دلالة على جزاءِ مضمونِ قولهم : ﴿ إنَّ لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين ﴾ [الأعراف : 113] زيادة على ما اقتضاه حرف (نعم) من تقرير استفهامهم عن الأجر .

فتقدير الكلام : إن كنتم غالبين إذاً إنكم لمن المقربين .

وهذا وقع الاستغناء عنه في سورة الأعراف فهو زيادة في حكاية القصة هنا .

وكذلك شأن القرآن في قصصه أن لا يخلو المُعاد منها عن فائدة غير مذكورة في موضع آخر منه تجديداً لنشاط السامع كما تقدم في المقدمة السابعة من مقدمات هذا التفسير .

وسؤالهم عن استحقاق الأجر إدلال بخِبرتهم وبالحاجة إليهم إذ علموا أن فرعون شديد الحرص على أن يكونوا غالبين وخافوا أن يُسَخِّرهم فرعون بدون أجر فشرطوا أجرهم من قبل الشروع في العمل ليقيدوه بوعده .

قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ (43)

حُكي كلام موسى في ذلك الجمع بإعادة فعل ﴿ قال ﴾ مفصولاً بطريقة حكاية المحاورات لأنه كان المقصود بالمحاورة إذ هم حضروا لأجله .

ووقع في سورة الأعراف (115) ﴿ قالوا يا موسى إما أن تلقي وإما أن نكون نحن المُلْقين قال ألقُوا ، واختصر هنا تخييرهم موسى في الابتداء بالأعمال ، وقد تقدم بيانه هناك ، فقول موسى لهم ألقوا ﴾ المحكي هنا هو أمر لمجرد كونهم المبتدئين بالإلقاء لتعقبه إبطال سِحرهم بما سيلقيه موسى ، كما يقول صاحب الجدل في علم الكلام للملحد : قرر شبهتك ، وهو يريد أن يدحضها له .

وهذا عضد الدين في كتاب "المواقف" يذكر شُبه أهل الزيغ والضلال قبل ذكر الأدلة الناقضة لها .

وتقدم الإلقاء آنفاً .

وذكر هنا مفعول ﴿ ألقوا ﴾ واختصر في سورة الأعراف .

وفي كلام موسى عليه السلام استخفاف بما سيلقونه لأنه عبر عنه بصيغة العموم ، أي ما تستطيعون إلقاءه .

وتقدم الكلام على الحِبال والعِصيّ في السحر عند الكلام على مثل هذه القصة في سورة طه .

وقرنت حكاية قَول السحرة بالواو خلافاً للحكايات التي سبقتها لأن هذا قول لم يقصد به المحاورة وإنما هو قول ابتدؤا به عند الشروع في السحر استعانة وتيمّناً بعزة فرعون .

فالباء في قولهم ﴿ بعزة فرعون ﴾ كالباء في "بسم الله" أرادوا التيمن بقدرة فرعون ، قاله ابن عطية .

وقيل الباء للقسم : أقسموا بعزة فرعون على أنهم يغلبون ثقة منهم باعتقاد ضلالهم أن إرادة فرعون لا يغلبها أحد لأنها إرادة آلهتهم .

وهذا الذي نحاه المفسرون ، والوجه الأول أحسن لأن الجملتين على مقتضاه تفيدان

فائدتين .

والعزّة : القدرة ، وتقدم في قوله ﴿ أخذته العزّة بالإثم ﴾ في سورة البقرة (206) .

وجملة : إنا لنحن الغالبون ﴾ استئناف إنشاء عن قولهم : ﴿ بعزة فرعون ﴾ : كأن السامع وهو موسى أو غيره يقول في نفسه : ماذا يُؤثر قولهم ﴿ بعزة فرعون ﴾ ؟ فيقولون : ﴿ إنا لنحن الغالبون ﴾ ، وأرادوا بذلك إلقاء الخوف في نفس موسى ليكون ما سيلقيه في نوبته عن خور نفس لأنهم يعلمون أن العزيمة من أكبر أسباب نجاح السحر وتأثيره على الناظرين .

وقد أفادت جملة : ﴿ إنا لنحن الغالبون ﴾ بما فيها من المؤكدات مُفاد القسم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 19 صـ ﴾

(103/567)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (41) ﴾

فانظر إلى مسيرة الإله فرعون في رعيته ، فالإله الحق يُطْعِم ولا يُطْعم ، ويجير ولا يُجَار عليه ، الإله الحق يُعطي ولا يأخذ ، ولما اجتمع السحرة وهم أبطال هذه المباراة ، ويعلمون مدى

حاجة فرعون إليهم في هذا الموقف ؛ لذلك بادروا بالاتفاق معه والاشتراط عليه : إنْ كنت تُسخِّر الناس في خدمتك دون أجر ، فهذه المسألة تختلف ، ولن تمر هكذا دون أجر .

وهذا دليل على معرفتهم بفرعون ، وأنه رجل (أَكَلْتى) ، لذلك اشترطوا عليه أجراً إنْ كانوا هم الغالبين ، ولا ندري فربما جاء آخر يهدد هذه الألوهية ، فنحن ندخركم لمثل هذا الموقف .

قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (42)

هنا يتنازل فرعون عن تعاليه وكبريائه ويذعن لشروط سَحرته ، بل ويزيدهم فوق ما طلبوا ﴿ وَإِنَّكُمْ إِذاً لَمِنَ المقربين ﴾ [الشعراء : 42] فسوف تكونون من خاصتنا ، نستعين بكم في مثل هذه الأمور ، ولا نستغني عنكم ؛ لأنكم الذين حافظتم على باطل ألوهيتنا .

قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ (43)

هنا كلام محذوف ، نعرفه من سياق القصة ؛ لأن الآية السابقة كان الكلام ما يزال بين فرعون والسحرة ، والقرآن يحذف بعض الأحداث اعتماداً على فِطْنة السامع أو القارىء ، كما قلنا في قصة الهدهد مع سيدنا سليمان ، حيث قال له : ﴿ اذهب بِّكِتَابِي هذا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فانظر مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴾ [النمل : 28] .

ثم قال بعدها : ﴿ قَالَتْ يا أَيُّهَا الملأ إني أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴾ [النمل : 29] وحذف ما بين هذين الحدثيْن مما نعلمه نحن من السياق .

(104/567)

وقوله : ﴿ أَلْقُواْ مَآ أَنتُمْ مُّلْقُونَ ﴾ [الشعراء : 43] هذه هي الغاية التي انتهى إليها بعد المحاورة مع السحرة .

فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ (44)

فكانت العصيّ والحبال هي آلات سحرهم ﴿ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرْعَونَ إِنَّا لَنَحْنُ الغالبون ﴾ [الشعراء : 44] بعزة فرعون : هذا قسمهم ، وما أخيبه من قسم ؛ لأن فرعون لا يُغلَب ولا يُقهر في نظرهم ، وسبق أن أوضحنا أن العزة تعني عدم القهر وعدم الغلبة ، لكن عزة فرعون عزة كاذبة وأنفة وكبرياء بلا رصيد من حق ، وعزة بالإثم كالتي قال الله عنها : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتق الله أَخَذَتْهُ العزة بالإثم ﴾ [البقرة : 206] .

وقال تعالى : ﴿ ص والقرآن ذِي الذكر * بَلِ الذين كَفَرُواْ فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴾ [ص : 12] أي : عزة بإثم ، وعزة بباطل .

ومنه أيضاً قوله تعالى عن المنافقين : ﴿ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى المدينة لَيُخْرِجَنَّ الأعز مِنْهَا الأذل

﴿ [المنافقون : 8] فصدّق القرآن على قولهم بأن الأعزَّ سيُخرج الأذلّ ، لكن ﴿ وَلِلَّهِ العزة وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [المنافقون : 8] .

وما دام الأمر كذلك فأنتم الأذّلة ، وأنتم الخارجون ، وقد كان .

ويقال : إن أدوات سحرهم وهي العصيّ والحبال كانت مُجوفة وقد ملئوها بالزئبق ، فلما ألقوها في ضوء الشمس وحرارتها أخذتْ تتلاعب ، كأنها تتحرك ، وهذا من حيل السَّحَرة وألاعيبهم التي تُخيِّل للأعين وهي غير حقيقية ، فحقيقة الشيء ثابتة ، أمّا المسحور فيخيل إليه أنها تتحرك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(105/567)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ (44) ﴾

قوله : ﴿ بِعِزَّةِ فِرْعَونَ ﴾ : يجوز أن يكون قَسَماً ، وجوابُه : ﴿ إِنَّا لَنَحْنُ الغالبون ﴾ .

ويجوز أن يتعلَّقَ بمحذوفٍ أي : نَغْلِبُ بسببِ عزَّته ، يَدُلُّ عليه ما بعدَه ، ولا يجوز أَنْ يتعلَّقَ

ب " الغالبون " ، لأنَّ ما في حَيِّز " إنَّ " لا يتقدم عليها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 519 ﴾

(106/567)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (42) ﴾

قال فرعون : ﴿ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ ، ومَنْ طَلَبَ القربةَ عند مخلوقٍ فإنَّ ما يصل إليه من الذُّلِّ يزيد على ما أمَّله من العِزِّ في ذلك التَقَرُّب . والمُقَرَّبون من الله أوَّلُ من يدخل عليه يومَ اللقاء ، فهم أولُ مَنْ لهم وصولٌ . والمُقَرَّبون من الله لهم على الله دَخْلَة ، والناسُ بوصف الغفلة والخَلْقُ في أسْرِ الحجبة .

ثم لَمَّا اجتمع الناسُ ، وجاء السَّحَرَةُ بما مَوَّهُوا ، التقَمَتْ عصا موسى جميعَ ما أتوا به ، وعادت عصاً ، وتلاشت أعيانُ حِبَالهم التي جاءوا بها ، وكانت أوقاراً ، وأُلْقِيَ السحرةُ سُجَّداً ، ولم يحتفلوا بتهديد فرعون إياهم بالقَتْل والصَّلْب والقَطْع ، فأصبحوا وهم يُقْسِمُون بعِزَّة فرعون ، ولم يُمْسُوا حتى كانوا يقولون : ﴿ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ ﴾ [

طه : 72] .

ثم لَمَّا ساعَدَهم التوفيقُ ، وآمنوا بالله كان أهمَّ أمورهم الاستغفارُ لِمَا سَلَفَ من ذنوبهم ، وهذه هي غاية هِمَّةِ الأولياء ، أن يستجيروا بالله ، وأن يستعيذوا من عقوبة الله ، فأعْرَفُهُم بالله أخْوَفُهُم مِنَ الله .

ولَمَّا أَمَرَ اللَّهُ موسى بإخراج بني إسرائيل ، وتَبِعَهم فرعونُ بجَمْعِه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 12.11 ﴾

(107/567)

قوله تعالى ﴿ فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (45) فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (46) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (47) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ (48) قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (49) قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ (50) إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ (51) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما قدم إضمار اسم موسى عليه السلام في الإلقاء الأول لأن الكلام كان معه ، فلم يكن إلباس في أنه الفاعل .

وكان الكلام هنا في السحرة ، وختموا بذكر فرعون وعزته ، صرح باسم موسى عليه الصلاة والسلام لنفي اللبس فقال : ﴿ فألقى ﴾ أي فتسبب عن صنع السحرة وتعقبه أن ألقى ﴿ موسى ﴾ وقابل جماعة ما ألقوه بمفرد ما ألقى ، لأنه أدل على المعجزة ، فقالك ﴿ عصاه ﴾ أي التي جعلناها آية له ، وتسبب عن إلقائه قوله : ﴿ فإذا هي تلقف ﴾ أي تبتلع في الحال بسرعة ونهمة ﴿ ما يأفكون ﴾ أي يصرفونه عن وجهه وحقيقته التي هي الجمادية بحيلهم وتخييلهم إلى ظن أنه حيات تسعى ﴿ فألقي ﴾ أي عقب فعلها من غير تلبث ﴿ السحرة ساجدين ﴾ أي فسجدوا بسرعة عظيمة حتى كأن ملقياً ألقاهم بغير اختيارهم من قوة إسراعهم ، علماً منهم بأن هذا من عند الله ، فأمسوا أتقياء بررة ، بعد ما جاؤوا في صبح ذلك اليوم سحرة .

(108/567)

ولما كان كأنه قيل : هذا فعلهم ، فما كان قولهم ؟ قيل : ﴿ قالوا آمنا برب العالمين ﴾ أي الذي دعا إليه موسى عليه السلام أو ما تكلم ؛ ثم خصوه كشفاً لتلبيس فرعون بما لا يحتمل

غيره فقالوا بياناً : ﴿ رب ﴾ ولم يدع داع هنا إلى العدول عن الأصل ، فقال عبارة عن كلامهم : ﴿ موسى وهارون ﴾ أي اللذين أحسنا إلينا بالتنبيه عليه ، والهداية إليه ، وصدقهما بما أجرى على أيديهما .

ولما خاف فرعون اتباع الناس لهم ، لما يرون مما هالهم من أمرهم ، وكان قد تقدم ما يعرف أن المنكر عليهم فرعون نفسه ، قال تعالى مخبراً عنه : ﴿ قال ﴾ من غير ذكر الفاعل – أي فرعون – لعدم اللبس ، ومقصود السورة غير مقتض للتصريح كما في الأعراف بل ملائم للإعراض عنه والإراحه منه ، منكراً مبادراً موهماً لأنه إنما يعاقب على المبادرة بغير إذن ، لا على نفس الفعل ، وأنه ما غرضه إلا التثبت ليؤخر بهذا التخييل الناس عن المبادرة بالإيمان إلى وقت ما ﴿ آمنتم له ﴾ أي لموسى عليه السلام ، أفرده بالضمير لأنه الأصل في هذه الرساله ، وحقيقة الكلام : أوقعتم التصديق بما أخبر به عن الله لأجله إعظاماً له بذلك ﴿ قبل أن ءاذن لكم ﴾ أي في الإيمان ؛ ثم علل فعلهم بما يقتضي أنه عن مكر وخداع ، لا عن حسن اتباع ، فقال : ﴿ إنه ﴾ أي موسى عليه السلام ﴿ لكبيركم ﴾ .

ولما كان هذا مشعراً بنسبته له إلى السحر ، وأنه أعلم منهم به ، فلذلك غلبهم ، أوضحه بقوله : ﴿ الذي علمكم السحر ﴾ فتواعدتم معه على هذا الفعل ، لتنزعوا الملك من أربابه ، هذا وكل من سمعه يعلم كذبة قطعاً ، فإن موسى عليه السلام ما ربي إلا في بيته ، واستمرّ حتى فر منهم إلى مدين ، لا يعلم سحراً ، ولا ألم بساحر ، ولا سافر إلا إلى مدين ، ثم لم يرجع

إلا داعياً إلى الله ، ولكن الكذب غالب على قطر مصر ، وأهلها اسرع شيء سماعاً له وانقياداً به .

(109/567)

ولما أوقف السامعين بما خيلهم به من هذا الباطل المعلوم البطلان لكل ذي بصيرة ، أكد المنع بالتهديد فقال : ﴿ فلسوف تعلمون ﴾ أي ما أفعل بكم ، أي فتسبب عما فعلتم أني أعاقبكم عقوبة محققة عظيمة ، وأتى بأداة التنفيس خشية من أن لا يقدر عليهم فيعلم الجميع عجزه فيؤمنوا ، مع ما فيها في الحقيقة على السحرة من التأكيد في الوعيد الذي لم يؤثر عندهم في جنب ما أشهدهم الله من الآية التي مكنتهم في مقام الخضوع ؛ ثم فسر ما أبهم بقوله : ﴿ لأقطعن ﴾ بصيغة التفعيل لكثرة القطع والمقطوعين ﴿ أيديكم وأرجلكم ﴾ ثم بين كيفية تقطيعها فقال : ﴿ من خلاف ﴾ وزاد في التهويل فقال : ﴿ ولأُصلبنكم أجمعين ﴾ ثم استأنف تعالى حكاية جوابهم بقوله : ﴿ قالوا ﴾ .

ولما كان قد تقدم هنا أنهم أثبتوا له عزة توجب مزيد الخوف منه ، حسن قولهم : ﴿ لا ضير ﴾ أي لا ضرر أصلاً علينا تحصل به المكنة منا فيما هددتنا به ، بل لنا في الصبر عليه إن وقع أعظم الجزاء من الله ، ورد النفي الشامل في هذه السورة إيذاناً بأنه لم يقدر فرعون

على عذابهم ، تحقيقاً لما في أول القصة من الإشارة إلى ذلك ب ﴿ كلا ﴾ و ﴿ مستمعون ﴾ فإن الإمكان من تابعي موسى عليه السلام يؤذيه ويضيق صدره ، ولما يأتي من القصص من صريح العبارة في قوله ﴿ أنتما ومن اتبعكما الغالبون ﴾ .

ثم عللوا ذلك بقولهم : ﴿ إنا ﴾ أي بفعلك ذلك فينا إن قدرك الله عليه ﴿ إلى ربنا ﴾ أي المحسن إلينا وحده ﴿ منقلبون ﴾ أي ولا بد لنا من الموت ، فلنكن على ما حكم به ربنا من الحالات ، وإنما حكمك على هذا الجسد ساعة من نهار ، ثم لا حكم على الروح إلا الله الذي هو جدير بأن يثيبنا على ذلك نعيم الأبد .

(110/567)

وذلك معنى قولهم معللين ما قبله : ﴿ إنا نطمع أن يغفر ﴾ اي يستر ستراً بليغاً ﴿ لنا ربنا ﴾ الذي أحسن إلينا بالهداية ﴿ خطايانا ﴾ أي التي قدمناها على كثرتها ؛ ثم عللوا طمعهم مع كثرة الخطايا بقولهم : ﴿ أن كنا ﴾ أي كوناً هو لنا كالجبلة ﴿ أول المؤمنين ﴾ أي من أهل هذا المشهد ، وعبروا بالطمع إشارة إلى أن جميع أسباب السعادة منه تعالى ، فكأنه لا سبب منهم أصلاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 359 . 361 ﴾

(111/567)

فصل

قال الفخر :

أما قوله : ﴿ فألقى موسى عصاه فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴾

فالمراد من قوله : ﴿ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ ما يقلبونه عن وجهه وحقيقته بسحرهم وكيدهم (ويزورونه) فيخيلون في حبالهم وعصيهم أنها حيات تسعى ، (بالتمويه على الناظرين أو إفكهم) وسمى تلك الأشياء إفكاً مبالغة .

أما قوله : ﴿ فَأُلْقِيَ السحرة ساجدين ﴾ فالمراد خروا سجداً لأنهم كانوا في الطبقة العالية من علم السحر ، فلا جرم كانوا عالمين بمنتهى السحر ، فلما رأوا ذلك وشاهدوه خارجاً عن حد السحر علموا أنه ليس بسحر ، وما كان ذلك إلا ببركة تحقيقهم في علم السحر ، ثم إنهم عند ذلك لم يتمالكوا أن رموا بأنفسهم إلى الأرض ساجدين كأنهم أخذوا فطرحوا طرحاً ، فإن قيل فاعل الإلقاء ما هو لو صرح به ؟ جوابه : هو الله تعالى بما (حصل في قلوبهم من الدواعي الجازمة الخالية عن المعارضات ولكن الأولى) أن لا نقدر فاعلاً لأن ألقى بمعنى خر وسقط .

أما قوله : ﴿ رَبّ موسى وهارون ﴾ فهو عطف بيان لرب العالمين لأن فرعون كان يدعي الربوبية فأرادوا عزله ومعنى إضافته إليهما في ذلك المقام أنه الذي دعا موسى وهرون

عليهما السلام إليه .

﴿ قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾

(112/567)

اعلم أنهم لما آمنوا بأجمعهم لم يأمن فرعون أن يقول الناس إن هؤلاء السحرة على كثرتهم وتظاهرهم لم يؤمنوا إلا عن معرفة بصحة أمر موسى عليه السلام فيسلكون مثل طريقهم فلبس على القوم وبالغ في التنفير عن موسى عليه السلام من وجوه : أولها : قوله : ﴿ ءامَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءاذَنَ لكم ﴾ وهذا فيه إيهام أن مسارعتكم إلى الإيمان به دالة على أنكم كنتم مائلين إليه ، وذلك يطرق التهمة إليهم فلعلهم قصروا في السحر حياله وثانيها : قوله : ﴿ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الذى عَلَّمَكُمُ السحر ﴾ وهذا تصريح بما رمز به أولاً ، وغرضه منه أنهم فعلوا ذلك عن مواطأة بينهم وبين موسى عليه السلام وقصروا في السحر ليظهر أمر موسى عليه السلام ، وإلا ففي قوة السحرة أن يفعلوا مثل ما فعل موسى عليه السلام ، وهذه شبهة قوية في تنفير من يقبل قوله وثالثها : قوله : ﴿ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ وهو وعيد مطلق وتهديد شديد ورابعها : قوله : ﴿ لأَقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خِلاَفٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ وهذا هو الوعيد المفصل وقطع اليد والرجل من خلاف هو قطع اليد اليمنى والرجل

اليسرى والصلب معلوم ، وليس في الإهلاك أقوى من ذلك وليس في الآية أنه فعل ذلك أو لم يفعل ، ثم إنه أجابوا عن هذه الكلمات من وجهين : الأول : قولهم : ﴿ لاَ ضَيْرَ إِنَّا إلى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴾ الضر والضير واحد ، وليس المراد أن ذلك إن وقع لم يضر وإنما عنوا بالإضافة إلى ما عرفوه من دار الجزاء .

(113/567)

واعلم أن قولهم : ﴿ إِنَّا إلى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴾ فيه نكتة شريفة وهي أنهم قد بلغوا في حب الله تعالى أنهم ما أرادوا شيئاً سوى الوصول إلى حضرته ، وأنهم ما آمنوا رغبة في ثواب أو رهبة من عقاب ، وإنما مقصودهم محض الوصول إلى مرضاته والاستغراق في أنوار معرفته ، وهذا أعلى درجات الصديقين الجواب الثاني : قولهم : ﴿ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خطايانا ﴾ فهو إشارة منهم إلى الكفر والسحر وغيرهما ، والطمع في هذا الموضع يحتمل اليقين كقول إبراهيم ﴿ والذى أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيئَتِى يَوْمَ الدين ﴾ [الشعراء : 82] ويحتمل الظن لأن المرء لا يعلم ما سيجيء من بعد .

أما قوله : ﴿ أَن كُنَّا أَوَّلَ المؤمنين ﴾ فالمراد لأن كنا أول المؤمنين من الجماعة الذين حضروا ذلك الموقف ، أو يكون المراد من السحرة خاصة ، أو من رعية فرعون أو من أهل زمانهم ،

وقرىء (إن كنا) بالكسر ، وهو من الشرط الذي يجيء به المدل (بأمره لصحته وهم كانوا متحققين أنهم أول المؤمنين) ، ونظيره قول (القائل) لمن يؤخر جعله : إن كنت عملت لك فوفني حقي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 24 صـ 116.118 ﴾

(114/567)

وقال ابن عطية :

﴿ فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (45) ﴾

(115/567)

تقدم في غير هذه السورة ما ذكر الناس في عظم الحية حين ألقى موسى عصاه ، وفي هذه الآيات متروك كثير يدل عليه الظاهر ، وقد ذكر في مواضع أخر وهي خوف موسى من ظهور سحرهم واسترهابهم للناس وتخييلهم في حبالهم وعصيهم أنها تسعى بقصد ، ثم إن الحية التي خلق الله في العصا التقمت لك الحبال والعصي عن آخرها وأعدمها الله تعالى في جوفها وعادت العصا إلى حالها حين أخذ موسى بالفرجة التي في رأسها فأدخل يده في

فمها فعادت عصا بإذن الله عز وجل . وقرأ جمهور القراء " تَلَقّف " بفتح التاء خفيفة واللام وشدّ القاف ، وقرأ حفص عن عاصم " تلْقَف " بسكون اللام وتخفيف القاف ، وروى البزي وفليح عن ابن كثير شد التاء وفتح اللام وشد القاف ، ويلزم على هذه القراءة إذا ابتدأ أن يجلب همزة الوصل وهمزة الوصل لا تدخل على الأفعال المضارعة كما لا تدخل على أسماء الفاعلين ، وقوله ﴿ ما يأفكون ﴾ ، أي ما يكذبون معه وبسببه في قولهم إنها معارضة لموسى ونوع من فعله ، والإفك الكذب ، ثم إن السحرة لما رأوا العصا ، خالية من صناعة السحر ورأوا فيها بعد من أمر الله ما أيقنوا أنه ليس في قوة بشر أذعنوا ورأوا أن الغنيمة هي الإيمان والتمسك بأمر الله عز وجل فسجدوا كلهم لله عز وجل مقرين بوحدانيته وقدرته ، ووصلوا إيمانهم بسبب موسى وهارون ، وصرحوا بأن ذلك على أيديهما لأن قولهم " رب العالمين " مغن فلم يكرروا البيان في قولهم ﴿ رب موسى وهارون ﴾ إلا لما ذكرناه فلما رأى فرعون وملؤه إيمان السحرة وقامت الحجة بإيمان أهل علمهم ومظنة نصرتهم وقع فرعون في الورطة العظمى ، فرجع إلى السحرة بهذه الحجة الأخرى ، فوقفهم موبخاً على إيمانهم بموسى قبل إذنه ، وفي هذه اللفظة مقاربة عظيمة وبعض إذعان لأن محتملاتها أنهم لو طلبوا إذنه في ذلك أذن ، ثم توعدهم بقطع الأيدي والأرجل ﴿ من خلاف ﴾ والصلب في جذوع النخل فقالوا له ﴿ لا ضير ﴾ أي لا يضرنا ذلك مع انقلابنا إلى مغفرة الله

(116/567)

ورضوانه .

وروي أنه أنفذ فيهم ذلك الوعيد وصلبهم على النيل ، قال ابن عباس أصبحوا سحرة وأمسوا شهداء ، وقولهم ﴿ أن كنا أو المؤمنين ﴾ يريدون من القبط وصنيفتهم وإلا فقد كانت بنو إسرائيل آمنت ، وقرأ الناس " أن كنا " بفتح الألف ، وقرأ أبان بن تغلب " إن " بكسر الألف بمعنى أن طمعهم إنما هو بهذا الشرط . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(117/567)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ فلسوف تَعْلَمون ﴾

قال الزجاج : اللام دخلت للتوكيد .

قوله تعالى : ﴿ لا ضَيْرَ ﴾ أي : لا ضرر .

قال ابن قتيبة : هو من ضَارَهَ يَضُوره ويَضيره ؛ بمعنى : ضَرَّه .

والمعنى : لا ضرر علينا فيما ينالنا في الدنيا ، لأنّا ننقلب إلى ربّنا في الآخرة مؤمّلين غفرانه .

قوله تعالى : ﴿ أَنْ كُنَّا ﴾ أي : لأن كنا ﴿ أَوَّلَ المؤمِنين ﴾ بآيات موسى في هذه الحال .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 6 صـ ﴾

(118/567)

وقال القرطبى فى الآيات السابقة :

ثم لما كان عند موسى عليه السلام من أمر الله تعالى ما لا يرعه توعُد فرعون ﴿ فقَالَ ﴾ له على جهة اللطف به والطمع في إيمانه : ﴿ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيءٍ مُّبِينٍ ﴾ فيتضح لك به صدقي ، فلما سمع فرعون ذلك طمع في أن يجد أثناءه موضع معارضة ﴿ قَالَ ﴾ له ﴿ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصادقين ﴾ .

ولم يحتج الشرط إلى جواب عند سيبويه ؛ لأن ما تقدّم يكفي منه .

﴿ فألقى موسى عَصَاهُ ﴾ من يده فكان ما أخبر الله من قصته .

وقد تقدّم بيان ذلك وشرحه في "الأعراف" إلى آخر القصة .

وقال السحرة لما توعدهم فرعون بقطع الأيدي والأرجل ﴿ لاَ ضَيْرَ ﴾ أي لا ضرر علينا

فيما يلحقنا من عذاب الدنيا ؛ أي إنما عذابك ساعة فنصبر لها وقد لقينا الله مؤمنين .

وهذا يدلّ على شدّة استبصارهم وقوّة إيمانهم .

قال مالك : دعا موسى عليه السلام فرعون أربعين سنة إلى الإسلام ، وأن السحرة آمنوا به في يوم واحد .

يقال : لا ضَيْر ولا ضَوْر ولا ضَرَّ ولا ضَرَرَ ولا ضارُورة بمعنى واحد ؛ قاله الهَرَويّ .

وأنشد أبو عبيدة :

فإنكَ لا يَضُورُكَ بعدَ حَوْلٍ . . .

أظبيٌ كان أُمُّكَ أَم حِمَارُ

وقال الجوهري : ضَارَهُ يَضُورُه ويضيره ضَيْراً وضَوْراً أي ضَرَّه .

قال الكسائي : سمعت بعضهم يقول لا ينفعني ذلك ولا يَضُورني .

والتّضور الصياح والتلوّي عند الضرب أو الجوع .

والضُّورَة بالضم الرجل الحقير الصغير الشأن .

﴿ إِنَّآ إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴾ يريد ننقلب إلى رب كريم رحيم ﴿ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

﴿ أَنْ ﴾ في موضع نصب أي لأن كنا .

وأجاز الفراء كسرها على أن تكون مجازاة .

ومعنى : ﴿ أَوَّلَ المؤمنين ﴾ أي عند ظهور الآية ممن كان في جانب فرعون .

الفراء : أول مؤمني زماننا .

(119/567)

وأنكره الزجاج وقال : قد روي أنه آمن معه ستمائة ألف وسبعون ألفاً ، وهم الشِّرذمة القليلون الذين قال فيهم فرعون : ﴿ إِنَّ هَؤُلاَءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴾ روي ذلك عن ابن مسعود وغيره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 13 صـ ﴾

(120/567)

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة :

﴿ وبعزة فرعون ﴾ :

الظاهر أن الباء للقسم ، والذي تتعلق به الباء محذوف ، وعدلوا عن الخطاب إلى اسم الغيبة تعظيماً ، كما يقال للملوك : أمروا رضي الله عنهم بكذا ، فيخبر عنه إخبار الغائب ، وهذا من نوع إيمان الجاهلية .

وقد سلك كثير من المسلمين في الإيمان ما هو أشنع من إيمان الجاهلية ، لا يرضون بالقسم بالله ، ولا يعتدون به حتى يحلف أحدهم بنعمة السلطان وبرأس المحلف ، فحينئذ يستوثق منه .

وقال ابن عطية : بعد أن ذكر أنه قسم قال : والأجر أن يكون على جهة التعظيم والتبرك باسمه ، إذ كانوا يعبدونه ؛ كما تقول إذا ابتدأت بعمل شيء : بسم الله ، وعلى بركة الله ، ونحو هذا .

وبين قوله : ﴿ قال لهم موسى ﴾ ، وقوله : ﴿ لمن المقربين ﴾ ، كلام محذوف ، وهو ما ثبت في الأعراف من تخييرهم إياه في البداءة من يلقى .

قال الزمخشري : فإن قلت : فاعل الإلقاء ما هو لو صرح به ؟ قلت : هو الله عز وجل ، بما خوّلهم من التوفيق وإيمانهم ، أو بما عاينوا من المعجزة الباهرة ، ولك أن لا تقدر فاعلاً ، لأن ألقوا بمعنى خروا وسقطوا . انتهى .

وهذا القول الآخر ليس بشيء .

لا يمكن أن يبني الفعل للمفعول الذي لم يسم فاعله إلا وقد حذف الفاعل فناب ذلك عنه ، أما أنه لا يقدر فاعل ، فقول ذاهب عن الصواب .

وقال ابن عطية : قرأ البزي ، وابن فليح ، عن ابن كثير : بشد التاء وفتح اللام وشد القاف ، ويلزم على هذه القراءة إذا ابتدأ أن يحذف همزة الوصل ، وهمزة الوصل لا تدخل على

الأفعال المضارعة ، كما لا تدخل على أسماء الفاعلين . انتهى .

كأنه يخيل أنه لا يمكن الابتداء بالكلمة إلا باجتلاب همزة الوصل ، وليس ذلك بلازم كثيراً ما يكون الوصل مخالفاً للوقف ، والوقف مخالفاً للوصل ، ومن له تمرن في القراآت عرف ذلك .

﴿ قالوا : لا ضير ﴾ : أي لا ضرر علينا في وقوع ما وعدتنا به من قطع الأيدي والأرجل والتصليب ، بل لنا فيه المنفعة التامة بالصبر عليه .

(121/567)

يقال : ضاره يضيره ضيراً ، وضاره يضوره ضوراً .

﴿ إنا إلى ربنا ﴾ : أي إلى عظيم ثوابه ، أو : لا ضير علينا ، إذ انقلابنا إلى الله بسبب من أسباب الموت والقتل أهون أسبابه .

وقال أبو عبد الله الرازي : لما آمنوا بأجمعهم ، لم يأمن فرعون أن يقول قومه لم تؤمن السحرة على كثرتهم إلا عن معرفة بصحة أمر موسى فيؤمنون ، فبالغ في التنفير من جهة قوله : ﴿ آمنتم له قبل أن آذن لكم ﴾ موهماً أن مسارعتهم للإيمان دليل على ميلهم إليه قبل .

وبقوله : ﴿ إنه لكبيركم ﴾ ، صرح بما رمزه أولاً من مواطأتهم وتقصيرهم ليظهر أمر كبيرهم ، وبقوله : ﴿ فلسوف تعلمون ﴾ ، حيث أوعدهم وعيداً مطلقاً ، وبتصريحه بما

هددهم به من العذاب ، فأجابوا بأن ذلك إن وقع ، لن يضير ، وفي قولهم : ﴿ إنا إلى ربك منقلبون ﴾ ، نكتة شريفة ، وهو أنهم آمنوا لا رغبة ولا رهبة ، إنما قصدوا محض الوصول إلى مرضات الله والاستغراق في أنوار معرفته .

انتهى ملخصاً .

ويدفع هذا الأخير قولهم : ﴿ إنا نطمع ﴾ إلى آخره ، ولا يكون ذلك إلا من خوف تبعات الخطايا .

والظاهر بقاء الطمع على بابه كقوله : ﴿ ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين ﴾ وقيل : يحتمل اليقين .

قيل : كقول إبراهيم عليه السلام : ﴿ والذي أطمع ﴾ .

وقرأ الجمهور : ﴿ أن كنا ﴾ ، بفتح الهمزة ، وفيه الجزم بإيمانهم .

وقرأ أبان بن تغلب ، وأبو معاذ : إن كنا ، بكسر الهمزة .

قال صاحب اللوامح على الشرط : وجاز حذف الفاء من الجواب ، لأنه متقدم ، وتقديره : ﴿ إن كنا أول المؤمنين ﴾ فإنا نطمع ، وحسن الشرط لأنهم لم يتحققوا ما لهم عند الله من قبول الإيمان . انتهى .

وهذا التخريج على مذهب الكوفيين وأبي زيد والمبرد ، حيث يجيزون تقديم جواب

الشرط عليه ، ومذهب جمهور البصريين أن ذلك لا يجوز ، وجواب مثل هذا الشرط محذوف لدلالة ما قبله عليه .

(122/567)

وقال الزمخشري : هو من الشرط الذي يجيء به المدلول بأمره المتحقق لصحته ، وهم كانوا متحققين أنهم أول المؤمنين .

ونظيره قول العامل لمن يؤخر .

جعله إن كنت عملت فوفني حقي ، ومنه قوله تعالى : ﴿ إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي وابتغاء مرضاتي ﴾ مع علمه أنهم لم يخرجوا إلا لذلك .

وقال ابن عطية بمعنى : أن طمعهم إنما هو بهذا الشرط . انتهى .

ويحتمل أن تكون إن هي المخففة من الثقيلة ، وجاز حذف اللام الفارقة لدلالة الكلام على أنهم مؤمنون ، فلا يحتمل النفي ، والتقدير : إن كنا لأول المؤمنين .

وجاء في الحديث : " إن كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يحب العسل " ، أي ليحب .

وقال الشاعر :

ونحن أباة الضيم من آل مالك . . .

وإن مالك كانت كرام المعادن

أي : وإن مالك لكانت كرام المعادن ، وأول يعني أول المؤمنين من القبط ، أو أول المؤمنين من حاضري ذلك المجمع .

وقال الزمخشري : وكانوا أول جماعة مؤمنين من أهل زمانهم ، وهذا لا يصح لأن بني إسرائيل كانوا مؤمنين قبل إيمان السحرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾

(123/567)

وقال أبو السعود :

﴿ فألقى موسى عصاه فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ ﴾

أي تبتلعُ بسرعةٍ . وقُرِىء تلقَّفُ بحذفِ إحدى التاءينِ من تَتَلَقَّفُ ﴿ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ أي ما يقلبونَهُ من وجهه وصورتِه بتمويههم وتزويدِهم فيخيِّلون حبالَهم وعصيَّهم أنَّها حيَّاتٌ تسعى أو إفكهم تسميةً للمأفوكِ به مبالغةً .

﴿ فَأُلْقِيَ السحرة ساجدين ﴾ أي أثرَ ما شاهَدوا وذلك من غيرِ تلعثمٍ وتردُّدٍ غير متمالكينَ كأنَّ مُلقياً ألقاهُم لعلمِهم بأنَّ مثلَ ذلك خارجٌ عن حدودِ السِّحرِ وأنه أمرٌ إلهيٌّ قد

ظهر على يدِهِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لتصديقه ، وفيه دليلٌ على أنَّه قصارَى ما ينتهِي إليه همُ السَّحرةِ هو التَّمويهُ والتَّزويرُ وتخييلُ شيءٍ لا حقيقةَ له .

﴿ قَالُواْ ءامَنَّا بِرَبِّ العالمين ﴾ بدلُ اشتمالٍ من أُلقي أو حالٌ بإضمارِ قَدْ وقوله تعالى : ﴿ رَبِّ موسى وهارون ﴾ بدلٌ من ربِّ العالمين للتَّوضيحِ ودفعِ توهم إرادةِ فرعونَ حيثُ كان قومُه الجَهَلةُ يسمُّونَهُ بذلك وللإشعارِ بأنَّ الموجبَ لإيمانِهم به تعالى ما أجراهُ على أيديهما من المُعجزةِ القاهرةِ .

﴿ قَالَ ﴾ أي فرعونُ للسَّحرة ﴿ ءامَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءاذَنَ لَكُم ﴾ أي بغيرِ أنْ آذنَ لكُم في قولِه تعالى : ﴿ لَنَفِدَ البحر قَبْلَ أَن تَنفَدَ كلمات ربّى ﴾ لا أن الإذن منه ممكنٌ أو متوقَّعٌ ﴿ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الذى عَلَّمَكُمُ السحر ﴾ فتواطأتُم على ما فعلتم أو علَّمكم شيئاً دُونَ شيءٍ فلذلك غلبَكم أرادَ بذلك التَّلبيس على قومِه كيلا يعتقدُوا أنَّهم آمنُوا عن بصيرةٍ وظهورِ حقَ وقُرِىء أآمنتُم بهمزتينِ ﴿ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ أي وبالَ ما فعلتُم وقوله : ﴿ لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خِلاَفٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ بيانٌ لما أوعدهم به .

(124/567)

﴿ قَالُواْ ﴾ أي السَّحرةُ ﴿ لاَ ضَيْرَ ﴾ لا ضررَ فيه علينا وقولُه تعالى : ﴿ إِنَّا إلى ربِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴾ تعليلٌ لعدم الضَّيرِ أي لا ضيرَ في ذلك بل لنا فيه نفعٌ عظيمٌ لما يحصلُ لنا في الصَّبرِ عليه لوجهِ الله تعالى من تكفيرِ الخَطَايا والثَّوابِ العظيم ، أو لا ضيرَ علينا فيما تتوعَّدنا به من القتلِ أنه لابُدَّ لنا من الانقلابِ إلى ربِّنا بسببٍ من أسبابِ الموتِ ، والقتلُ أهونُها وأرجاها .

وقولُه تعالى : ﴿ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خطايانا أَن كُنَّا ﴾ أي لأن كنا ﴿ أَوَّلُ المؤمنين ﴾ أي من أتباعِ فرعونَ أو من أهل المشهدِ تعليل ثانٍ لنفي الضَّيرِ أي لا ضيرَ علينا في قتلِك إنَّا نطمعُ أنْ يغفرَ لنا ربُّنا خطايانا لكونِنا أوَّلَ المُؤمنين . وقُرِىء إنْ كُنَّا على الشَّرطِ لهضمِ النَّفسِ وعدمِ الثِّقةِ بالخاتمة أو على طريقةِ قول المُدلِّ بأمرِه كقول العاملِ لمستأجرٍ أخَّر أجرتَه إنْ كنتُ عملتُ لك فوفِّني حقِّي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 6 صـ ﴾

(125/567)

وقال الآلوسى :

﴿ فألقى موسى عصاه فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ ﴾

أي تبتلع بسرعة ، وأصل التلقف الأخذ بسرعة .

وقرأ أكثر السبعة ﴿ تَلْقَفُ ﴾ بفتح اللام والتشديد والأصل تتلقف فحذفت إحدى التاءين .

والتعبير بالمضارع لاستحضار السورة والدلالة على الاستمرار ﴿ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ أي الذي يقلبونه من حاله الأول وصورته بتمويههم وتزويرهم فيخيلون حبالهم وعصيهم أنها حيات تسعى .

فما موصولة حذف عائدها للفاصلة ، وجوز أن تكون مصدرية أي تلقف أفكهم تسمية للمأفوك به مبالغة .

﴿ فَأُلْقِيَ السحرة ساجدين ﴾ أي خروا ساجدين إثر ما شاهدوا ذلك من غير تلعثم وتردد لعلمهم بأن مثل ذلك خارج عن حدود السحر وأنه أمر إلهي قد ظهر على يده عليه السلام لتصديقه ، وعبر عن الخرور بالالقاء لأنه ذكر مع الالقاءات فسلك به طريق المشاكلة وفيه أيضاً مع مراعاة المشاكلة أنهم حين رأوا ما رأوا لم يتمالكوا أن رموا بأنفسهم إلى الأرض ساجدين كأنهم أخذوا فطرحوا طرحاً فهناك استعارة تبعية زادت حسنها المشاكلة ، وبحث في ذلك بعضهم بأن الله تعالى خالق خرورهم عند أهل الحق وخلقه هو الالقاء فلا حاجة إلى التجوز .

وأنت تعلم أن إيجاد خرورهم وخلقه فيهم لا يسمى إلقاء حقيقة ولغة ثم ظاهر كلامهم أن فاعل الإلقاء لو صرح به هو الله عز وجل بما خولهم من التوفيق ، وجوز الزمخشري أن يكون

إيمانهم أو ما عاينوا من المعجزة الباهرة ثم قال : ولك أن لا تقدر فاعلاً لأن ﴿ ألقى ﴾ بمعنى خروا وسقطوا .

وتعقب هذا أبو حيان بأنه ليس بشيء إذ لا يمكن أن يبنى الفعل للمفعول الذي لم يسم فاعله إلا وقد حذف الفاعل فناب ذلك عنه أما أنه لا يقدر فاعل فقول ذاهب عن الصواب ، ووجه ذلك صاحب الكشف بأنه أراد أنه لا يحتاج إلى تقدير فاعل آخر غير من أسند إليه المجهول لأن فاعل الالقاء ألا ترى إنك لو فسرت سقط بألقى نفسه لصح .

(126/567)

والطيبي بأنه أراد أنه لا يحتاج إلى تعيين فاعل لأن المقصود الملقى لا تعيين من ألقاه كما تقول قتل الخارجي .

وأنت تعلم أن التعليل الذي ذكره الزمخشري إلى ما اختاره صاحب الكشف أقرب .

وبالجملة لا بد من تأويل كلام صاحب الكشاف فإنه أجل من أن يريد ظاهره الذي يريد عليه ما أورده أبو حيان ، وفي سجود السحرة وتسليمهم دليل على أن منتهى السحر تمويه وتزويق يخيل شيئاً لا حقيقة له لأن السحر أقوى ما كان في زمن موسى عليه السلام ومن أتى به فرعون أعلم أهل عصره به وقد بذلوا جهدهم وأظهروا أعظم ما عندهم منه ولم

يأتوا إلا بتمويه وتزويق كذا قيل .

والتحقيق أن ذلك هو الغالب في السحر لا أن كل سحر كذلك .

وقول القزويني : إن دعوى أن في السحر تبديل صورة حقيقة من خرافات العوام وأسمار النسوة فإن ذلك مما لا يمكن في سحر أبداً لا يخلو عن مجازفة ، واستدل بذلك أيضاً على أن التبحر في كل علم نافع فإن أولئك السحرة لتبحرهم في علم السحر علموا حقية ما أتى به موسى عليه السلام وأنه معجزة فانتفعوا بزيادة علمهم لأنه أداهم إلى الاعتراف بالحق والإيمان لفرقهم بين المعجزة والسحر .

وتعقب بأن هذا إنما يثبت حكما جزئياً كما لا يخفى ، وذكر بعض الأجلة أنهم إنما عرفوا حقية ذلك بعد أن أخذ موسى عليه السلام العصا فعادت كما كانت وذلك أنهم لم يروا لحبالهم وعصيهم بعد أثراً ، وقالوا : لو كان هذا سحراً لبقيت حبالنا وعصينا ؛ ولعلها على هذا صارت أجزاء هبائية وتفرقت أو عدمت لانطاع تعلق الإرادة بوجودها .

وقال الشيخ الأكبر قدس سره في الباب السادس عشر والباب الأربعين من الفتوحات : إن العصا لم تلقف إلا صور الحيات من الحبال والعصى وأما هي فقد بقيت ولم تعدم كما توهمه بعض المفسرين ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ تَلْقَفْ مَا صَنَعُواْ ﴾ [طه : 69] وهو لم يصنعوا إلا الصور ولولا ذلك لوقعت الشبهة للسحرة في عصا موسى عليه السلام فلم يؤمنوا انتهى ملخصاً فتأمل .

قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (47)

بدل اشتمال من ﴿ ألقى ﴾ [الشعراء : 46] لما بين الإلقاء المذكور وهذا القول من الملابسة أو حال بإضمار قد أو بدونه ، ويحتمل أن يكون استئنافاً بيانياً كأنه قيل : فما قالوا ؟ فقيل : ﴿ قَالُواْ ءامَنَّا بِرَبِّ العالمين ﴾ .

﴿ رَبِّ موسى وهارون ﴾ عطف بيان لرب العالمين أو بدل منه جيء به لدفع توهم إرادة فرعون حيث كان قومه الجهلة يسمونه بذلك وللاشعار بأن الموجب لإيمانهم به تعالى ما أجراه سبحانه على أيديهما من المعجزة القاهرة .

ومعنى كونه تعالى ربهما أنه جل وعلا خالقهما ومالك أمرهما .

وجوز أن يكون إضافة الرب إليهما باعتبار وصفهما له سبحانه بما تقدم من قول موسى عليه السلام : ﴿ رَبِّ السموات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ [الشعراء : 24] وقوله : ﴿ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءابَائِكُمُ الاولين ﴾ [الشعراء : 26] وقوله : ﴿ رَبُّ المشرق والمغرب وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ [الشعراء : 28] فكأنهم قالوا : ءامنا برب العالمين الذي وصفه موسى هارون ، ولا يخفى ما فيه وإن سلم سماعهم للوصف المذكور بعد أن حشروا من المدائن .

﴿ قَالَ ﴾ فرعون للسحرة ﴿ ءامَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءاذَنَ لَكُمْ ﴾ أي بغير أن آذن لكم بالإيمان له كما في قوله تعالى : ﴿ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كلمات ربّى ﴾ [الكهف : 109] إلا أن الاذن منه ممكن أو متوقع ﴿ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الذى عَلَّمَكُمُ السحر ﴾ فتواطأتم على ما فعلتم فيكون كقوله : ﴿ إِنَّ هذا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ ﴾ [الأعراف : 123] الخ أو علمكم شيئاً دون شيء فلذلك غلبكم كما قيل ، ولا يرد عليه أنه لا يتوافق الكلامان حينئذ إذ يجوز أن يكون فرعون قال كلا منهما وإن لم يذكرا معا هنا ، وأراد اللعين بذلك التلبيس على قومه كيلا يعتقدوا أنهم آمنوا عن بصيرة وظهور حق .

وقرأ الكسائي .

وحمزة .

وأبو بكر .

وروح "أآمنتم" بهمزتين ﴿ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ وبال ما فعلتم .

(128/567)

واللام قيل للابتداء دخلت الخبر لتأكيد مضمون الجملة والمبتدأ محذوف أي فلانتم سوف تعلمون .

وليست للقسم لأنها لا تدخل على المضارع إلا مع النون المؤكدة .

وجمعها مع سوف للدلالة على أن العلم كائن لا محالة وأن تأخر لداع ، وقيل : هي للقسم وقاعدة التلازم بينها وبين النون فيما عدا صورة الفصل بينها وبين الفعل بحرف التنفيس وصورة الفصل بينهما بمعمول الفعل كقوله تعالى : ﴿ لإِلَى اللهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [آل عمران : 158] وقال أبو علي : هي اللام التي في لاقومن ونابت سوف عن احدى نوني التأكيد فكأنه قيل : فلتعلمن ، وقوله تعالى حكاية عنه : ﴿ لاقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خِلاَفٍ وَلاَصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ بيان لمفعول ﴿ تَعْلَمُونَ ﴾ المحذوف الذي أشرنا إليه وتفصيل لما أجمل ولذا فصل وعطف بالفاء في محل آخر ، وقد مر معنى ﴿ مِّنْ خلاف ﴾ .

﴿ قَالُواْ ﴾ أي السحرة ﴿ لاَضَيْرَ ﴾ أي لا ضرر علينا فيما ذكرت من قطع الأيدي وما معه ، والضمير مصدر ضار وجاء مصدره أيضاً ضوراً ، وهو اسم لا وخبرها محذوف وحذفه في مثل ذلك كثير ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا ﴾ أي الذي آمنا به ﴿ مُنقَلِبُونَ ﴾ تعليل لنفي الضمير أي لا ضير في ذلك بل لنا فيه نفع عظيم لما يحصل لنا من الصبر عليه لوجه الله تعالى من الثواب العظيم أو لا ضير علينا فيما تفعل لأنه لا بد من الموت بسبب من الأسباب والانقلاب إلى الله عز وجل :

ومن لم يمت بالسيف مات بغيره . . .

تعددت الأسباب والموت واحد

وحاصله نفى المبالاة بالقتل معللا بأنه لا بد من الموت ، ونظير ذلك قول علي كرم الله تعالى وجهه .

لا أبالي أوقعت على الموت أم وقع الموت على ، أو لا ضير علينا في ذلك لأن مصيرنا ومصيرك إلى رب يحكم بيننا فينتقم لنا منك ، وفي معنى ذلك قوله :

إلى ديان يوم الدين نمضي . . .

وعند الله تجتمع الخصوم

(129/567)

ولم يرتضه بعضهم لأن فيه تفكيك الضمائر لكونها للسحرة فيما قبل وبعد ومنع بدخولهم في ضمير الجمع فتأمل .

﴿ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خطايانا أَن كُنَّا ﴾

أي لأن كنا ﴿ أَوَّلُ المؤمنين ﴾ تعليل ثان لنفي الضير ولم يعطف إيذانا بأنه مما يستقل بالعلية ، وقيل إن عدم العطف لتعلق التعليل بالمعلل الأول مع تعليله وجوز أن يكون تعليلاً للعلة والأول أظهر أي لا ضير علينا في ذلك إنا نطمع أن يغفر بنا بنا خطايانا لكوننا أول المؤمنين ، والطمع أما على بابه كما استظهره أبو حيان لعدم الوجوب على الله عز وجل ، وإما بمعنى

التيقن كما قيل به في قول إبراهيم عليه السلام : ﴿ والذى أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيئَتِى يَوْمَ الدين ﴾ [الشعراء : 82] وقولهم : ﴿ أَوَّلُ المؤمنين ﴾ يحتمل أنهم أرادوا به أول المؤمنين من اتباع فرعون أو أول المؤمنين من أهل المشهد أو أول المؤمنين من أهل زمانهم ، ولعل الأخبار بكونهم كذلك لعدم علمهم بمؤمن سبقهم بالإيمان فهو إخبار مبني على غالب الظن ولا محذور فيه كذا قيل ، وقيل : أرادوا أول من أظهر الإيمان بالله تعالى وبرسوله عند فرعون كفاحاً بعد الدعوة وظهور الآية فلا يرد مؤمن من آل فرعون .

وآسية ، وكذا لا يرد بن إسرائيل لأنهم كما في البحر كانوا مؤمنين قبلهم إما لعدم علم السحرة بذلك أو لأن كلا من المذكورين لم يظهر الإيمان بالله تعالى ورسوله عند فرعون كفاحاً بعد الدعوة وظهور الآية فتأمل .

وقرأ أبان بن تغلب .

وأبو معاذ ﴿ أَن كُنَّا ﴾ بكسر همزة ﴿ إن ﴾ وخرج على أن إن شرطية والجواب محذوف يدل عليه ما قبله أي إن كنا أول المؤمنين فإنا نطمع ، وجعل صاحب اللوامح الجواب ﴿ إِنَّا نَطْمَعُ ﴾ المتقدم وقال : جاز حذف الفاء منه لتقدمه وهو مبني على مذهب الكوفيين .

وأبي زيد .

والمبرد حيث يجوزون تقديم جواب الشرط ، وعلى هذا

فالظاهر أنهم لم يكونوا متحققين بأنهم أول المؤمنين ، وقيل : كانوا متحققين ذلك لكنهم أبرزوه في صورة الشك لتنزيل الأمر المعتمد منزلة غيره تمليحاً وتضرعاً لله تعالى ، وفي ذلك هضم النفس والمبالغة في تحري الصدق والمشاكلة مع ﴿ نَطْمَعُ ﴾ على ما هو الظاهر فيه ، وجوز أبو حيان أن تكون أن هي المخففة من الثقيلة ولا يحتاج إلى اللام الفارقة لدلالة الكلام على أنهم مؤمنون فلا احتمال للنفي ، وقد ورد مثل ذلك في الفصيح ففي الحديث : "إن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب العسل" ، وقال الشاعر :

ونحن أباة الضيم من آل مالك . . .

وإن مالك كانت كرام المعادن

وعلى هذا الوجه يكونون جازمين بأنهم أول المؤمنين أتم جزم .

واختلف في أن فرعون هل فعل بهم ما أقسم عليه أولاً والأكثرون على أنه لم يفعل لظاهر قوله تعالى : ﴿ أَنتُمَا وَمَنِ اتبعكما الغالبون ﴾ [القصص : 35] وبعض هؤلاء زعم أنهم لما سجدوا رأوا الجنات والنيران والملكوت السموات والأرض وقبضت أرواحهم وهم

ساجدون ، وظواهر الآيات تكذيب أمر الموت في السجود ، وأما رؤية أمر ما ذكر فلا جزم عندي بصدقه والله تعالى أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 19 صـ ﴾

(131/567)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (23) ﴾

لما سمع فرعون قول موسى وهارون : ﴿ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ العالمين ﴾ قال مستفسراً لهما عن ذلك عازماً على الاعتراض لما قالاه فقال : ﴿ وَمَا رَبُّ العالمين ﴾ أيّ شيء هو ؟ جاء في الاستفهام بما التي يستفهم بها عن المجهول ، ويطلب بها تعيين الجنس ، فلما قال فرعون ذلك قَالَ موسى ﴿ رَبِّ السموات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ ، فعين له ما أراد بالعالمين ، وترك جواب ما سأل عنه فرعون ؛ لأنه سأله عن جنس ربّ العالمين ، ولا جنس له ، فأجابه موسى بما يدلّ على عظيم القدرة الإلهية التي تتضح لكل سامع أنه سبحانه الربّ ، ولا ربّ غيره ﴿ إِن كُنتُمْ مُّوقِنِينَ ﴾ أي إن كنتم موقنين بشيء من الأشياء ، فهذا أولى بالإيقان .

﴿ قَالَ ﴾ فرعون ﴿ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلاَ تَسْتَمِعُونَ ﴾ أي لمن حوله من الأشراف ألا تستمعون

ما قاله ؟ يعني : موسى معجباً لهم من ضعف المقالة كأنه قال : أتسمعون وتعجبون ؟ وهذا من اللعين مغالطة ، لما لم يجد جواباً عن الحجة التي أوردها عليه موسى .

(132/567)

فلما سمع موسى ما قال فرعون ، أورد عليه حجة أخرى هي مندرجة تحت الحجة الأولى ، ولكنها أقرب إلى فهم السامعين له فقال : ﴿ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَائِكُمُ الأولين ﴾ ، فأوضح لهم أن فرعون مربوب لا ربّ كما يدّعيه ، والمعنى : أن هذا الربّ الذي أدعوكم إليه هو الذي خلق آباءكم الأوّلين ، وخلقكم ، فكيف تعبدون من هو واحد منكم مخلوق كخلقكم ، وله آباء قد فنوا كآبائكم ؟ فلم يجبه فرعون عند ذلك بشيء يعتدّ به ، بل جاء بما يشكك قومه ، ويخيل إليهم أن هذا الذي قاله موسى مما لا يقوله العقلاء ، فقال ﴿ إِنَّ رَسُولَكُمُ الذي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ قاصداً بذلك المغالطة ، وإيقاعهم في الحيرة ، مظهراً أنه مستخفّ بما قاله موسى مستهزىء به ، فأجابه موسى عند ذلك بما هو تكميل لجوابه الأوّل ، فقال ﴿ رَبُّ المشرق والمغرب وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ ولم يشتغل موسى بدفع ما نسبه إليه من الجنون ، بل بين لفرعون شمول ربوبية الله سبحانه للمشرق والمغرب وما بينهما ، وإن كان ذلك داخلاً تحت ربوبيته سبحانه للسماوات والأرض وما بينهما ، لكن فيه تصريح بإسناد حركات

السماوات وما فيها ، وتغيير أحوالها وأوضاعها ، تارة بالنور وتارة بالظلمة إلى الله سبحانه ، وتثنية الضمير في : ﴿ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ الأوّل لجنسي السموات والأرض كما في قول الشاعر :

تنقلت في أشرف التنقل . . . بين رماحي مالك ونهشل

﴿ إِنْ كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ أي شيئاً من الأشياء ، أو إن كنتم من أهل العقل أي إن كنت يا فرعون ، ومن معك من العقلاء عرفت ، وعرفوا أنه لا جواب لسؤالك إلاّ ما ذكرت لك .

(133/567)

ثم إن اللعين لما انقطع عن الحجة رجع إلى الاستعلاء والتغلب ، فقال : ﴿ لَئِنِ اتخذت إلها غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ المسجونين ﴾ أي لأجعلنك من أهل السجن ، وكان سجن فرعون أشدّ من القتل ؛ لأنه إذا سجن أحداً لم يخرجه حتى يموت ، فلما سمع موسى عليه السلام ذلك لاطفه طمعاً في إجابته وإرخاء لعنان المناظرة معه ، مريداً لقهره بالحجة المعتبرة في باب النبوّة ، وهي إظهار المعجزة ، فعرض له على وجه يلجئه إلى طلب المعجزة فقال ﴿ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيء مُّبِينٍ ﴾ أي أتجعلني من المسجونين ، ولو جئتك بشيء يتبين به صدقي ويظهر عنده صحة دعواي ؟ والهمزة هنا للاستفهام ، والواو للعطف على مقدّر كما مرّ

مراراً ، فلما سمع فرعون ذلك طلب ما عرضه عليه موسى فقال : ﴿ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصادقين ﴾ في دعواك ، وهذا الشرط جوابه محذوف ، لأنه قد تقدّم ما يدلّ عليه ، فعند ذلك أبرز موسى المعجزة .

(134/567)

﴿ فألقى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾ وقد تقدّم تفسير هذا وما بعده في سورة الأعراف ، واشتقاق الثعبان من ثعبت الماء في الأرض ، فانثعب أي : فجرته ، فانفجر ، وقد عبّر سبحانه في موضع آخر مكان الثعبان بالحية بقوله : ﴿ فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تسعى ﴾ [طه : 21] ، وفي موضع بالجانّ ، فقال : ﴿ كَأَنَّهَا جَانٌّ ﴾ [النمل : 10] ، والجانّ هو المائل إلى الصغر ، والثعبان هو المائل إلى الكبر ، والحية جنس يشمل الكبير والصغير ، ومعنى ﴿ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ : ما رأيكم فيه ، وما مشورتكم في مثله ؟ فأظهر لهم الميل إلى ما يقولونه تألفاً لهم ، واستجلاباً لمودّتهم ، لأنه قد أشرف ما كان فيه من دعوى الربوبية على الزوال ، وقارب ما كان يغرّر به عليهم الاضمحلال ، وإلاّ ، فهو أكبر تيها ، وأعظم كبراً من أن يخاطبهم مثل هذه المخاطبة المشعرة بأنه فرد من أفرادهم ، وواحد منهم ، مع كونه قبل هذا الوقت يدّعي أنه إلههم ويذعنون له بذلك ويصدّقونه في دعواه ، ومعنى ﴿ أَرْجِهْ

وَأَخَاهُ ﴾ : أخر أمرهما ، من أرجأته إذا أخرته ، وقيل : المعنى : احبسهما ﴿ وابعث فِي المدائن حاشرين ﴾ ، وهم الشرط الذين يحشرون الناس أي يجمعونهم ﴿ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴾ هذا ما أشاروا به عليه ، والمراد بالسحار العليم : الفائق في معرفة السحر وصنعته .

(135/567)

﴿ فَجُمِعَ السحرة لميقات يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ هو يوم الزينة كما في قوله : ﴿ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزينة ﴾ [طه : 59] ﴿ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴾ حثاً لهم على الاجتماع ليشاهدوا ما يكون من موسى والسحرة ، ولمن تكون الغلبة ، وكان ذلك ثقة من فرعون بالظهور ، وطلباً أن يكون بمجمع من الناس حتى لا يؤمن بموسى أحد منهم ، فوقع ذلك من موسى الموقع الذي يريده ؛ لأنه يعلم أن حجة الله هي الغالبة ، وحجة الكافرين هي الداحضة ، وفي ظهور حجة الله بمجمع من الناس زيادة في الاستظهار للمحقين ، والانقهار للمبطلين ، ومعنى ﴿ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السحرة ﴾ : نتبعهم في دينهم ﴿ إِن كَانُواْ هُمُ الغالبين ﴾ ، والمراد باتباع السحرة في دينهم هو : البقاء على ما كانوا عليه ؛ لأنه دين السحرة إذ ذاك ، والمقصود المخالفة لما دعاهم إليه موسى ، فعند ذلك طلب السحرة من فرعون الجزاء

على ما سيفعلونه فقالوا لفرعون : ﴿ إِنَّ لَنَا لأَجْرًا ﴾ أي لجزاء تجزينا به من مال أو جاه ، وقيل : أرادوا إن لنا ثواباً عظيماً ، ثم قيّدوا ذلك بظهور غلبتهم لموسى ، فقالوا : ﴿ إِن كُنَّا نَحْنُ الغالبين ﴾ ، فوافقهم فرعون على ذلك ، ﴿ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذاً لَمِنَ المقربين ﴾ أي نعم لكم ذلك عندي مع زيادة عليه ، وهي كونكم من المقرّبين لديّ .

(136/567)

﴿ قَالَ لَهُمْ موسى أَلْقُواْ مَا أَنتُمْ مُّلْقُونَ ﴾ ، وفي آية أخرى : ﴿ قَالُواْ يا موسى إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ الملقين ﴾ [الأعراف : 115] ، فيحمل ما هنا على أنه قال لهم : ألقوا بعد أن قالوا هذا القول ، ولم يكن ذلك من موسى عليه السلام أمراً لهم بفعل السحر ، بل أراد أن يقهرهم بالحجة ، ويظهر لهم أن الذي جاء به ليس هو من الجنس الذي أرادوا معارضته به ﴿ فَأَلْقَوْاْ حبالهم وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُواْ ﴾ عند الإلقاء ﴿ بِعِزَّةِ فِرْعَونَ إِنَّا لَنَحْنُ الغالبون ﴾ يحتمل قولهم : ﴿ بعزّة فرعون ﴾ وجهين : الأوّل : أنه قسم ، وجوابه إنا لنحن الغالبون ، والثاني : متعلق بمحذوف ، والباء للسببية أي : نغلب بسبب عزّته ، والمراد بالعزّة : العظمة ﴿ فألقى موسى عصاه فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ قد تقدّم تفسير هذا مستوفًى .

والمعنى : أنها تلقف ما صدر منهم من الإفك بإخراج الشيء عن صورته الحقيقية ﴿ فَأُلْقِيَ السحرة ساجدين ﴾ أي لما شاهدوا ذلك ، وعلموا أنه صنع صانع حكيم ليس من صنيع البشر ، ولا من تمويه السحرة ، آمنوا بالله ، وسجدوا له ، وأجابوا دعوة موسى ، وقبلوا نبوّته ، وقد تقدّم بيان معنى ﴿ ألقى ﴾ ، ومن فاعله لوقوع التصريح به ، وعند سجودهم ﴿ قَالُواْ ءَامَنَّا بِرَبِّ العالمين * رَبِّ موسى وهارون ﴾ ربّ موسى عطف بيان لربّ العالمين ، وأضافوه سبحانه إليهما ؛ لأنهما القائمان بالدعوة في تلك الحال .

وفيه تبكيت لفرعون بأنه ليس بربّ ، وأن الربّ في الحقيقة هو هذا .

(137/567)

فلما سمع فرعون ذلك منهم ، ورأى سجودهم لله قال : ﴿ ءَامَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ﴾ أي : بغير إذن مني ، ثم قال مغالطاً للسحرة الذين آمنوا ، وموهماً للناس أن فعل موسى سحر من جنس ذلك السحر : ﴿ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الذي عَلَّمَكُمُ السحر ﴾ وإنما اعترف له بكونه كبيرهم مع كونه لا يحبّ الاعتراف بشيء يرتفع به شأن موسى ؛ لأنه قد علم كل من حضر أن ما جاء به موسى أبهر مما جاء به السحرة ، فأراد أن يشكك على الناس بأن هذا الذي شاهدتم ، وإن كان قد فاق على ما فعله هؤلاء السحرة ، فهو فعل كبيرهم ، ومن هو

أستاذهم الذي أخذوا عنه هذه الصناعة ، فلا تظنوا أنه فعل لا يقدر عليه البشر ، وأنه من فعل الربّ الذي يدعو إليه موسى .

ثم توعد أولئك السحرة الذين آمنوا بالله لما قهرتهم حجة الله ، فقال : ﴿ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ أجمل التهديد أوّلاً للتهويل ، ثم فصله ، فقال : ﴿ لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خِلاَفٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ، فلما سمعوا ذلك من قوله قالوا : ﴿ لاَ ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴾ أي لا ضرر علينا فيما يلحقنا من عقاب الدنيا ؛ فإن ذلك يزول وننقلب بعده إلى ربنا فيعطينا من النعيم الدائم ما لا يحدّ ولا يوصف .

قال الهروي : لا ضير ، ولا ضرر ، ولا ضرّ بمعنى واحد ، وأنشد أبو عبيدة :

فإنك لا يضرك بعد حول . . . أظبي كان أمك أم حمار

قال الجوهري : ضاره يضوره ، ويضيره ضيراً ، وضوراً أي ضرّه .

قال الكسائي : سمعت بعضهم يقول : لا ينفعني ذلك ولا يضورني : ﴿ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خطايانا ﴾ ، ثم عللوا هذا بقولهم : ﴿ أَن كُنَّا أَوَّلَ المؤمنين ﴾ بنصب أن أي لأن كنا أوّل المؤمنين .

وأجاز الفراء ، والكسائي كسرها على أن يكون مجازاة ، ومعنى ﴿ أَوَّلُ المؤمنين ﴾ : أنهم أوّل من آمن من قوم فرعون بعد ظهور الآية .

وقال الفراء : أول مؤمني زمانهم ، وأنكره الزجاج ، وقال : قد روي أنه آمن معهم ستمائة ألف وسبعون ألفاً ، وهم الشرذمة القليلون الذين عناهم فرعون بقوله : ﴿ إِنَّ هَؤُلاء لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴾ .

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله : ﴿ فألقى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾ يقول : مبين : له خلق حية ﴿ وَنَزَعَ يَدَهُ ﴾ يقول ، وأخرج موسى يده من جيبه ﴿ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاء ﴾ تلمع ﴿ للناظرين ﴾ : لمن ينظر إليها ويراها .

وأخرج ابن جرير عن ابن زيد في قوله : ﴿ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴾ قال : كانوا بالإسكندرية .

قال : ويقال : بلغ ذنب الحية من وراء البحيرة يومئذٍ .

قال : وهربوا ، وأسلموا فرعون ، وهمت به فقال : خذها يا موسى ، وكان مما بلى الناس به منه أنه كان لا يضع على الأرض شيئاً أي يوهمهم أنه لا يحدث فأحدث يومئذٍ تحته .

وأخرج ابن جرير عن ابن زيد في قوله : ﴿ لاَ ضَيْرَ ﴾ قال : يقولون : لا يضيرنا الذي تقول وإن صنعت بنا وصلبتنا ﴿ إِنَّا إِلى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴾ يقولون : إنا إلى ربنا راجعون ، وهو مجازينا بصبرنا على عقوبتك إيانا وثباتنا على توحيده والبراءة من الكفر وفي قوله : ﴿ أَن

كُنَّا أَوَّلَ المؤمنين ﴾ قالوا : كانوا كذلك يومئذٍ أوّل من آمن بآياته حين رأوها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 4 صـ ﴾

(139/567)

وقال ابن عاشور :

﴿ فَأُلْقِيَ مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (45) ﴾

تقدم قريب منه في سورة الأعراف وفي سورة طه .

﴿ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (46) ﴾

قصد فرعون إرهابهم بهذا الوعيد لعلهم يرجعون عن الإيمان بالله .

ونظير أول هذه الآية تقدم في سورة الأعراف ، ونظير آخرها تقدم فيها وفي سورة طه .

وهنالك ذكرنا عدد السحرة وكيف آمنوا .

واللام في ﴿ فلسوف ﴾ لام القسم .

قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ (50)

الضّير : مرادف الضرّ ، يقال : ضَاره بتخفيف الراء يضِيره ، ومعنى ﴿ لا ضير ﴾ لا يضرنا وعيدك .

ومعنى نفي ضره هنا : أنه ضر لحظة يحصل عقبه النعيم الدائم فهو بالنسبة لما تعقبه بمنزلة العدم .

وهذه طريقة في النفي إذا قامت عليها قرينة .

ومنها قولهم : هذا ليسَ بشيء ، أي ليس بموجود ، وإنما المقصود أن وجوده كالعدم .

وجملة : ﴿ إنا إلى ربنا منقلبون ﴾ تعليل لنفي الضير ، وهي القرينة على المراد من النفي .

والانقلاب : الرجوع ، وتقدم في سورة الأعراف .

وجملة : ﴿ إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا ﴾ بيان للمقصود من جملة : ﴿ إنا إلى ربنا منقلبون ﴾ .

والطمع : يطلق على الظن الضعيف ، وعُرِّف بطلب ما فيه عسر .

ويطلق ويراد به الظن كما في قول إبراهيم ﴿ والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين ﴾ [الشعراء : 82] ، فهذا الإطلاق تأدّب مع الله لأنه يفعل ما يريد .

وعلّلوا ذلك الطمع بأنهم كانوا أول المؤمنين بالله بتصديق موسى عليه السلام ، وفي هذا دلالة على رسوخ إيمانهم بالله ووعده . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 19 صـ ﴾

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (45) ﴾

ولم يَأْتِ إلقاء موسى عليه السلام لعصاه مباشرة بعد أن ألقى السحرة ، إنما هنا أحداث ذُكِرتْ في آيات أخرى ، وفي لقطات أخرى للقصة ، يقول تعالى : ﴿ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تسعى ﴾ [طه : 66] .

﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً موسى * قُلْنَا لاَ تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الأعلى * وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صنعوا إِنَّمَا صَنَعُواْ ﴾ [طه : 6769] .

هكذا كانت الصورة ، فلما خاف موسى ثبَّته ربه ، وأيده بالحق وبالحجة ، وتابعه فيما يفعل لحظةً بلحظة ؛ ليوجهه وليُعدّل سلوكه ، ويشدّ على قلبه ، وما كان الحق تبارك وتعالى ليرسله ثم يتخلى عنه ، وقد قال له ربه قبل ذلك : ﴿ وَلِتُصْنَعَ على عيني ﴾ [طه : 39] وقال : ﴿ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وأرى ﴾ [طه : 46] فالحق سبحانه يعطي نبيه موسى الأوامر ، ويعطيه الحجة لتنفيذها ، ثم يتابعه بعنايته ورعايته .

ومن ذلك قوله تعالى لنبيه نوح : ﴿ واصنع الفلك بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ﴾ [هود : 37] .

فحينما تجمع هذه اللقطات تجدها تستوعب الحدث ، ويُكمّل بعضها بعضاً ، وهذا يظنه البعض تكراراً ، وليس هو كذلك .

إذن : جاء إلقاء موسى لعصاه بعد توجيه جديد من الله أثناء المعركة : ﴿ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ ﴾ [طه : 69] وهنا : ﴿ فألقى موسى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ [الشعراء : 45] ومعنى ﴿ تَلْقَفُ ﴾ [الشعراء : 45] تبتلع وتلتهم في سرعة وقوة ، أما السرعة واختصار الزمن والقوة ، فتدل على الأخذ بشدة وعُنْف ، وفي هذا دليل على أنه خاض المعركة بقوة ، فلم تضعف قوته لما رأى من ألاعيب السَّحَرة .

(141/567)

ومعنى ﴿ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ [الشعراء : 45] من الإفك يعني : قلْب الحقائق ؛ لذلك سَمَّوْا الكذب إفْكاً ؛ لأنه يقلب الحقيقة ويُغير الواقع .

ومنها ﴿ والمؤتفكة أهوى ﴾ [النجم : 53] وهي القرى الظالمة التي أهلكها الله ، فجعل عاليها سافلها .

وسبق أن أوضحنا أن الكذب وقَلْب الحقائق يأتي من أنك حين تتكلم ، فللكلامِ نسَبٌ ثلاث : نسبة في الذِّهْن ، ونسبة على اللسان ، ونسبة في الواقع . فإنْ طابقتْ النسبةُ الكلامية الواقع ، فأنت صادق ، وإنْ خالفتْه فأنت كاذب .

وسَمَّى ما يفعله السحرة إفكاً ؛ لأنهم يُغيِّرون الحقيقة ، ويُخيِّلون للناس غيرها .

فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (46)

لم يقُل الحق سبحانه : فسجد السحرة ، إنما ﴿ فَأُلْقِيَ السحرة سَاجِدِينَ ﴾ [الشعراء : 46] والإلقاء يدل على سرعة الاستجابة ، وأن السجود تَمَّ منهم دون تفكير ؛ لأنه أمر فوق إرادتهم ، وكأن جلال الموقف وهيبته وروعة ما رَأَوْا ألقاهم على الأرض ساجدين لله ، صاحب هذه الآية الباهرة ؛ لذلك لم يقولوا عندها آمنَّا بربِّ موسى وهارون ، إنما قالوا : ﴿ قَالُواْ ءَامَنَّا بِرَبِّ العالمين ﴾

وحين نتأمل ردَّ فِعْل السحرة هنا نجد أنهم خرُّوا لله ساجدين أولاً ، ثم أعلنوا إيمانهم ثانياً ، ومعلوم أن الإيمان يسبق العمل ، وأن السجود لا يتأتي إلا بعد إيمان ، فكيف ذلك ؟

قالوا : هناك فَرْق بين وقوع الإيمان ، وبين أنْ تخبر أنت عن الإيمان ، فالمتأخر منهم ليس الإيمان بل الإخبار به ؛ لأنهم ما سجدوا إلا عن إيمان واثق ينجلي معه كل شكٍّ ، إيمان خطف ألبابهم وألقاهم على الأرض ساجدين لله ، حتى لم يمهلهم إلى أنْ يعلنوا عنه ، لقد أعادهم إلى الفطرة الإيمانية في النفس البشرية ، والمسائل الفطرية لا علاجَ للفكر فيها .

وكأن سائلاً سألهم : لِمَ تسجدون ؟ قالوا : ﴿ آمَنَّا بِرَبِّ العالمين * رَبِّ موسى وَهَارُونَ ﴾ [الشعراء : 4748] .

وقالوا : ربّ موسى وهارون بعد رب العالمين ، ليقطعوا الطريق على فرعون وأتباعه أن يقول مثلاً : أنا رب العالمين ، فأزالوا هذا اللبْس بقولهم ﴿ رَبِّ موسى وَهَارُونَ ﴾ [الشعراء : 48] .

ومثال ذلك قول بلقيس عندما رأت عرشها عند سليمان عليه السلام لم تقل : أسلمت لسليمان ، إنما قالت : ﴿ وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ العالمين ﴾ [النمل : 44] فأنا وأنت مسلمان لإله واحد هو الله رب العالمين ، وهكذا يكون إسلام الملوك ، وحتى لا يظن أحد أنها إنما خضعتْ لسليمان ؛ لذلك احتاطتْ في لفظها لتزيل هذا الشك .

قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ

إذن : فهو لا يشك في أن ما رآه السحرة موجب للإيمان ، ولا يُشَكّك في ذلك ، لكن المسألة كلها ﴿ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ﴾ [الشعراء : 49] فما يزال حريصاً على ألوهيته وجبروته ، حتى بعد أن كُشِف أمره وظهر كذبه ، وآمن الملأ بالإله الحق .

ثم أراد أنْ يبرر موقفه بين دهماء العامة حتى لا يقول أحد : إنه هزم وضاعت هيبته ، فقال : ﴿ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الذي عَلَّمَكُمُ السحر ﴾ [الشعراء : 49] في حين أن القوم يعلمون أن موسى عليه السلام لم يجلس طيلة عمره إلى ساحر ، لكن فرعون يأخذها ذريعة ، لينقذ ما يمكن إنقاذه من مركزه الذي تهدّم ، وألوهيته التي ضاعت .

ثم يُهدّدهم بأسلوب ينمّ عن اضطرابه ، وأنه فقد توازنه ، اختلّ حتى في تعبيره ، حيث يقول ﴿ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [الشعراء : 49] وسوف تدل على المستقبل مع أنه لم يُؤخّر تهديده لهم بدليل أنه قال بعدها : ﴿ لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خِلاَفٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الشعراء : 49] ﴿ مِّنْ خِلاَفٍ ﴾ [الشعراء : 49] يعني : اليد اليمنى مع الرِّجْل اليُسْرى ، أو اليد اليسرى مع الرِّجْل اليمنى .

(143/567)

وقوله : ﴿ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ ﴾ [الشعراء : 49] أوضحه في آية أخرى : ﴿ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النخل ﴾ [طه : 71] .

فما كان جواب المؤمنين برب العالمين ؟ ﴿ قَالُواْ لاَ ضَيْرَ ﴾

أي : لا ضررَ علينا إنْ قتلتنا ؛ لأن مصير الجميع إلى الموت ، لكن إنْ كانت نهايتنا على يديك فوسف نسعد نحن بلقاء ربنا ، وتَشْقى أنت بجزاء ربك . كالطاغية الذي قال لعدوه : لأقتلنك فضحك ، فقال له : أتسخر مني وتضحك ؟ قال : كيف لا أضحك من أمر تفعله بي يُسعدني الله به ، وتشقى به أنت ؟

إذن : لا ضررَ علينا إنْ قُتِلْنا ؛ لأننا سنرجع إلى الله ربنا ، وسنخرج من ألوهية باطلة إلى

لقاء الألوهية الحقة ، فكأنك فعلتَ فينا جميلاً ، وأسديتَ لنا معروفاً إذْ أسرعتَ بنا إلى هذا اللقاء ، وما تظنه في حقنا شَرٌّ هو عين الخير ، لذلك فَهِم الشاعر هذا المعنى ، فقال عنه :

وَلَسْتُ أُبَالِي حِينَ أُقْتَلُ مُسْلِماً . . . عَلى أَيِّ جَنْبٍ كانَ فِي اللهِ مَصْرعي

يعني : ما دُمْتُ قد مُتُّ في سبيل الإسلام ، فلا يُهم بعد ذلك ، ولا أبالي أيّ موتة هي .

والمؤمنون هنا حريصون على أمرين : الأول : نَفْي الضرر ؛ لأن دَرْء المفسدة مُقدَّم على جَلْب المصحلة ، والثاني : التأكيد على النفع الذي سينالونه من هذا القتل .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ ﴾

لأنك أكرهتنا على السحر ، وحملْتنا على الكذب ، ومكثنا عمراً نعتقد أنك إله ، فلعلَّ مبادرتنا إلى الإيمان وكوْننا أولَ المؤمنين يشفع لنا عند ربنا ، فيغفر لنا خطايانا ، وفي موضع آخر : ﴿ إِنَّآ آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السحر ﴾ [طه : 73] .

فذكر هناك مسألة الإكراه ، وذكر هنا العلة : ﴿ أَن كُنَّآ أَوَّلَ المؤمنين ﴾ [الشعراء : 51] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(144/567)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : (قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ) (الشعراء : 50) ، وفي سورة الزخرف : (وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ * وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ) (الزخرف : 13 – 14) ، للسائل أن يسأل عن تخصيص خبر إن هنا بزياد لام التأكيد وحذفها من الأولى ؟

والجواب : أنه لما كان قول السحرة (لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ) (الشعراء : 50) ، جواباً لفرعون لما توعدهم بقوله : (لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ) (الشعراء : 49) فجاوبوه بقولهم (لاضير) – أي لا ضرر – (إنا إلى ربنا منقلبون) ، أي إذا فعلت بنا ذلك فإنا منقلبون إلى ربنا ومجازون على صبرنا ، فجاوبوه معزين أنفسهم ومتناسين بما ينتظرون من الثواب وعظيم الجزاء بسبقهم إلى الإيمان وصبرهم أن فعل بهم ذلك الإمتحان ، فليس موضع قسم ولا تأكيد بما هو إخبار عن رجائهم وما ينتظرونه ثواباً على إيمانهم ، فلا مدخل للام التأكيد هنا .

(145/567)

وأما آية الزخرف فمبينة على ما تقدمها من الإخبار عن مشركي العرب في قوله تعالى (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ) (الزخرف : 9) ، والمراد بذلك إقامة الحجة عليهم في إنكار البعث ، فطابق ذلك وناسبه تأكيد قول المؤمنين المقول لهم : (لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ * وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ) (الزخرف : 13 - 14) ، فأكد هذا وضمن معنى القسم ، وأحرز ذلك تقديم ما النافية في قولهم : (وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ) ، فوطأت ما في هذه الجملة من معنى القسم وأشرعت به ، ثم جيء بالجملة مؤكدة بحرفي التأكيد وهما إن واللام ، فدخلت إن على الاسم واللام على الخبر لما تقدم منهم إنكار البعث جاوبهم المؤمنون ، فكأنهم قالوا : والله إنه لحق ، فسوغ دخول اللام ما قصد من هذا الغرض ، وليس ذلك في آية الشعراء ، فورد كل على ما يناسب ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل صـ 375 ﴾

(146/567)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (10) ﴾

أخرج ابن أبي حاتم عن السدي رضي الله عنه ﴿ وإذ نادى ربك موسى ﴾ قال : حين نودي من جانب الطور الأيمن .

وأخرج الفريابي وابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله ﴿ ولهم عليّ ذنب ﴾ قال : قتل النفس التي قتل فيهم وفي قوله ﴿ وفعلت فعلتك التي فعلت ﴾ قال : قتل النفس أيضاً . وفي قوله ﴿ فعلتها إذاً وأنا من الضالين ﴾ قال : من الجاهلين .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ ولهم عليّ ذنب ﴾ قال : قتل النفس . وفي قوله ﴿ ألم نربّك فينا وليداً ﴾ قال : التقطه آل فرعون فربوه وليداً حتى كان رجلاً ﴿ وفعلت فعلتك التي فعلت ﴾ قال : قتلت النفس التي قتلت ﴿ وأنت من الكافرين ﴾ قال : فتبرأ من ذلك نبي الله قال : ﴿ فعلتها إذاً وأنا من الضالين ﴾ قال : من الجاهلين . قال : وهي في بعض القراءة ﴿ إذن وأنا من الجاهلين ﴾ فإنما هو شيء جهله ولم يتعمده .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير رضي الله عنه في قوله ﴿ وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين ﴾ قال : من فرعون على موسى حين رباه . يقول : كفرت نعمتي .

وأخرج الفريابي وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ وتلك نعمة تمنها عليَّ أن عبدت بني إسرائيل ﴾ قال : قهرتهم واستعملتهم .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين ﴾ قال : للنعمة . إن فرعون لم يكن يعلم ما الكفر ؟ وفي قوله ﴿ قال فعلتها إذاً وأنا من الضالين ﴾ قال : من الجاهلين .

وأخرج أبو عبيد وابن المنذر عن ابن جريج قال في قراءة ابن مسعود " فعلتها إذن وأنا من الجاهلين " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي رضي الله عنه في قوله ﴿ فوهب لي حكماً ﴾ قال : النبوة .

(147/567)

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه ﴿ وتلك نعمة تمنها عليَّ ﴾ قال : يقول موسى لفرعون : أتمن عليَّ يا فرعون بأن اتخذت بني إسرائيل عبيداً وكانوا أحراراً فقهرتهم واتخذتهم عبيداً .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ قال فرعون وما رب العالمين ﴾ إلى قوله ﴿ إن كنتم تعقلون ﴾ قال : فلم يزده إلا رغماً .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين ﴾ يقول : مبين له خلق حية ﴿ ونزع يده ﴾ يقول : وأخرج موسى يده من جيبه ﴿ فإذا هي بيضاء ﴾ تلمع ﴿ للناظرين ﴾ ينظر إليها ويراها .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي رضي الله عنه قال : أقبل موسى بأهله فسار بهم نحو مصر حتى أتاها ليلاً ، فتضيف على أمه وهو لا يعرفهم في ليلة كانوا يأكلون منها الطقشيل ، فنزل في جانب الدار ، فجاء هارون ، فلما أبصر ضيفه سأل عنه أمه ، فأخبرته أنه ضيف فدعاه فأكل معه ، فلما قعدا فتحدثا فسأله هارون من أنت ؟ قال : أنا موسى . فقام كل واحد منهما إلى صاحبه فاعتنقه ، فلما أن تعارفا قال له موسى : يا هارون انطلق بي إلى فرعون فإن الله قد أرسلنا إليه .

قال هارون : سمعاً وطاعة فقامت أمهما فصاحت وقالت : أنشدكما بالله أن لا تذهبا الى فرعون فيقتلكما ، فأبيا فانطلقا إليه ليلاً ، فأتيا الباب ، فضرباه ، ففزع فرعون وفزع البواب فقال فرعون : من هذا الذي يضرب ببابي هذه الساعة ؟ فأشرف عليهما البواب فكلمهما فقال له موسى : ﴿ إنا رسول رب العالمين ﴾ ففزع البواب ، فأتى فرعون فأخبره فقال : إن

ههنا إنساناً مجنوناً يزعم أنه رسول رب العالمين فقال : أدخله ، فدخل فقال : إنه رسول رب العالمين .

(148/567)

﴿ قال فرعون : وما رب العالمين ﴾ قال : ﴿ ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ﴾ [طه : 50] قال : ﴿ إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين . فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين ﴾ [الأعراف : 106] والثعبان الذكر من الحيات فاتحة فمها لحيها الأسفل في الأرض والأعلى على سورة القصر ، ثم توجهت نحو فرعون لتأخذه ، فلما رآها ذعر منها ووثب فأحدث ولم يكن يحدث قبل ذلك وصاح : يا موسى خذها وأنا أؤمن بك وأرسل معك بني إسرائيل . فأخذها موسى فصارت عصا فقالت السحرة في نجواهم ﴿ إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهم ﴾ [طه : 63] فالتقى موسى وأمير السحرة فقال له موسى : أرأيت أن غلبتك غداً أتؤمن بي ، وتشهد أن ما جئت به حق ؟ قال الساحر : لآتين غداً بسحر لا يغلبه شيء ، فوالله لئن غلبتني لأؤمنن بك ، ولأشهدن أنك حق ؛ وفرعون ينظر إليهما .

وأخرج ابن جرير عن ابن زيد رضي الله عنه في قوله ﴿ وقيل للناس هل أنتم مجتمعون ﴾

قال : كانوا بالاسكندرية قال : ويقال بلغ ذنب الحية من وراء البحيرة يومئذ قال : وهزموا وسلم فرعون وهمت به فقال : خذها يا موسى . وكان مما بلي الناس به منه أنه كان لا يضع على الأرض شيئاً ، فاحدث يومئذ تحته ، وكان ارساله الحية في القبة الخضراء .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون ﴾ قال : فوجدوا الله أعز منه .

وأخرج ابن أبي حاتم عن بشر بن منصور قال : بلغني أنه لما تكلم ببعض هذا ﴿ وقالوا بعزة فرعون ﴾ قالت الملائكة : قصمه ورب الكعبة فقال الله " تالون عليَّ قد أمهلته أربعين عاماً " .

(149/567)

وأخرج ابن جرير عن ابن زيد في قوله ﴿ لا ضير ﴾ قال : يقولون لا يضرنا الذي تقول ، وإن صنعت بنا وصلبتنا ﴿ إنا إلى ربنا منقلبون ﴾ يقول : انا إلى ربنا راجعون . وهو مجازينا بصبرنا على عقوبتك ايانا ، وثباتنا على توحيده ، والبراءة من الكفر به ، وفي قوله ﴿ أن كنا أول المؤمنين ﴾ قال : كانوا كذلك يومئذ أول من آمن بآياته حين رآها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 6 صـ ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله : ﴿ فَأَلْقِيَ ﴾ :

قال الزمخشري : " فإنْ قلتَ : فاعلُ الإلقاءِ ما هو لو صُرِّح به ؟ قلت : هو اللهُ عزَّ وجل " ، ثم قال : " ولك أَن لا تقدِّرَ فاعلاً ؛ لأنَّ " أُلْقُوا " بمعنى خَرُّوا وسقطوا " . قال الشيخ : " وهذا ليس بشيءٍ ؛ لأنه لا يبنى الفعلُ للمفعولِ إلاَّ وله فاعلٌ ينوبُ المفعولُ به عنه . أما أنه لا يُقَدَّر له فاعلٌ فقولُ ذاهِبٌ عن الصوابِ " .

قوله : ﴿ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ ﴾ قد تقدَّم خلافُهم فيها . وقال ابن عطية هنا : " وقرأ البزي وابن فليح عن ابن كثير بشدِّ التاءِ وفتح اللام وشدِّ القاف . ويلزم على هذه القراءةِ إذا ابتدأَ أن يحذف همزةَ الوصلِ ، وهمزةُ الوصلِ لا تدخلُ على الأفعالِ المضارعةِ كما لا تدخُل على أسماءِ الفاعلين " ، قالا لشيخ : " كأنه يُخيَّل إليه أنه لا يمكن الابتداءُ بالكلمةِ إلاَّ باجتلابِ همزةِ الوصلِ ، وهذا ليس بلازم ، كثيراً ما يكون الوصلُ مخالفاً للوقفِ ، والوقفُ مخالفاً للوصل ، ومَنْ له تَمَرُّنٌ في القراءات/ ، عَرَفَ ذلك " . قلت : يريد قوله : ﴿ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ

﴿ فإن البزيّ يُشَدّد التاء ، إذ الأصل : تَتَلَقَّفُ بتاءَيْن فأَدْغم ، فإذا وَقَفَ على " هي " وابتدأ تَتَلَقَّفَ فحقُّه أَنْ يَفُكَّ ولا يُدْغِمَ ؛ لئلا يُبتدأَ بساكنٍ وهو غيرُ مُمْكِنٍ ، وقولُ ابن عطية : " ويَلْزمُ على هذه القراءةِ " إلى آخره تضعيفٌ للقراءةِ لما ذكره هو : مِنْ أنَّ همزةَ الوصلِ لا تَدْخُل على الفعلِ المضارعِ ، ولا يمكن الابتداءُ بساكنٍ ، فمِنْ ثَمَّ ضَعُفَتْ . وجوابُ الشيخ بمَنْعِ الملازَمَةِ حَسَنٌ ، إلاَّ أنه كان ينبغي أن يُبْدِلَ لفظةَ الوقفِ بالابتداء ؛ لأنه هو الذي وقع الكلامُ فيه ، أعني الابتداءَ بكلمة " تَلَقَّفُ " .

إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ (51)

(151/567)

قوله : ﴿ أَن كُنَّآ ﴾ : قرأ العامَّة بفتح " أَنْ " أي : لأَنْ كُنَّا مبدأ القول بالإيمان . وقرأ أبان بن تغلب وأبو معاذ بكسرِ الهمزة . وفيه وجهان ، أحدُهما : أنَّها شرطيةٌ ، والجوابُ محذوفٌ لفهمِ المعنى أو متقدمٌ عند مَنْ يُجيزه . والثاني : أنها المخففةُ من الثقيلة واسْتُغْني عن اللامِ الفارقةِ لإرشادِ المعنى : إلى الثبوت دونَ النفي ، كقوله :

3511 . . . . . وإنْ مالِكٌ

كانَتْ كرامَ المعادنِ

وفي الحديث : " إن كانَ رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم يُحِبُّ العَسَلَ " أي : ليُحبه . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 520. 521 ﴾

(152/567)

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ طسم ﴾

قرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية أبي بكر ، بإمالة الطاء .

وقرأ أبو عمرو وابن كثير بالتفخيم ، وهما لغتان معروفتان عند العرب ، ويجوز كلاهما ،

وقرأ نافع بين ذلك ، وقرأ حمزة بإظهار النون ، والباقون بالإدغام لتقارب مخرجهما ، ومن لم

يدغم أراد التبيين ، وكلاهما جائز .

وأما التفسير ، فروى معمر عن قتادة أنه قال : اسم من أسماء القرآن .

ويقال : والطاء طوْله ، والسين سَنَاؤُهُ ، والميم ملكه ، ومجده ، ويقال : الطاء شجرة طوبى

، والسين سدرة المنتهى ، والميم محمد المصطفى صلى الله عليه وسلم .

وقال بعضهم : عجزت العلماء عن تفسيرها .

وقال بعضهم : هو قسم قسم الله تعالى به ﴿ تِلْكَ ءايات الكتاب ﴾ يعني : هذه آيات الكتاب .

ويقال : تلك آيات الكتاب التي كنت وعدت في التوراة أن أنزلها على محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ المبين ﴾ يعني : القرآن بيّن لكم الحق من الباطل ﴿ لَعَلَّكَ باخع نَّفْسَكَ ﴾ يعني : مهلك نفسك .

ويقال : قاتل نفسك بالحزن ﴿ أَن لا يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ يعني : إذا لم يصدقوا بالقرآن ، وذلك حين كذبه أهل مكة شقّ ذلك عليه ، وحزن بذلك فقال له : ليس عليك سوى التبليغ ، ولا تقتل نفسك إن لم يؤمنوا .

ثم قال عز وجل : ﴿ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِّنَ السماء ءايَةً ﴾ يعني : علامة ﴿ فَظَلَّتْ ﴾ يعني : فصارت ﴿ أعناقهم لَهَا خاضعين ﴾ يعني : وننزل عليهم آية تضطرهم إلى أن يؤمنوا ، ولكنه لم يفعل ، لأنه لو فعل ذلك لذهبت المحنة ، فلم يستوجبوا الثواب إذا آمنوا بعد معاينة العذاب ، كمن آمن يوم القيامة لا ينفعه إيمانه ، لأنه قد ظهر له بالمعاينة .

ويقال : فظلت أعناقهم يعني : ساداتهم وكبراؤهم ، والأعناق الكبراء ، فإن قيل : جمع الأعناق مؤنث .

قال : خاضعين ، ولم يقل : خاضعات .

قيل له : لأن الكلام انصرف إلى المعنى ، فكأنه قال هم لها خاضعون قوله : ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ ﴾ وقد ذكرناه ﴿ إِلاَّ كَانُواْ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴾ يعني : مكذبين معرضين عن الإيمان به ﴿ فَقَدْ كَذَّبُواْ ﴾ يعني : كذبوا بالقرآن ، كما قال في آية أُخرى : ﴿ فَقَدْ كَذَّبُواْ بِالحق لَمَّا جَآءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [الأنعام : 5] يعني : ﴿ فَقَدْ كَذَّبُواْ ﴾ يعني : أخبار ﴿ مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءونَ ﴾ يعني : يوم القيامة .

ويقال : قد جاءهم بعض ذلك في الدنيا ، وهو القتل والقهر والغلبة .

قوله عز وجل : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى الأرض ﴾ يعني : أو لم ينظروا في عجائب الأرض ، ويتفكروا فيها ﴿ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ كَرِيمٌ ﴾ يعني : من كل نوع من النبات .

ويقال : من كل لون حسن .

وقال القتبي : الكريم يقع على الأنواع ، والكريم الشريف الفاضل .

(154/567)

قال الله تعالى : ﴿ يا أيها الناس إِنَّا خلقناكم مِّن ذَكَرٍ وأنثى وجعلناكم شُعُوباً وَقَبَآئِلَ لتعارفوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عَندَ الله أتقاكم إِنَّ الله عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات : 13] ﴿ وَلَقَدْ

كَرَّمْنَا بَنِى ءَادَمَ وحملناهم فِى البر والبحر ورزقناهم مِّنَ الطيبات وفضلناهم على كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾ [الإسراء : 70] ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِىَ الله لا إله إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ العرش العظيم ﴾ [التوبة : 129] ﴿ إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سيئاتكم وَنُدْخِلْكُمْ مُّدْخَلاً كَرِيماً ﴾ [النساء : 31] ﴿ قَالَتْ يا أيها الملأ إِنِى أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴾ [النمل : 29] أي شريف فاضل ، والكريم الصفوح ، وذلك من الشرف كما قال : ﴿ قَالَ الذى عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الكتاب أَنَاْ ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرّاً عِندَهُ قَالَ هذا مِن فَضْلِ رَبِّى ليبلونى أَءَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴾ [النمل : 40] ﴿ يا أيها الإنسان مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الكريم ﴾ [الانفطار : 6] أي الصفوح ، والكريم الكثير كما قال : ﴿ أولئك هُمُ المؤمنون حَقّاً لَّهُمْ درجات عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ [الأنفال : 4] أي : كثير ، والكريم الحسن كما قال : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى الأرض كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ [الشعراء : 7] أي : حسن ﴿ وقضى رَبُّكَ أَلاَّ تعبدوا إِلاَّ إِيَّاه وبالوالدين إحسانا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الكبر أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا ﴾ [

الإسراء : 23] أي : حسناً .

وروي عن الشعبي أنه قال : كم أنبتنا فيها .

يعني : بني آدم ، فمن دخل الجنة ، فهو كريم ، ومن دخل النار ، فهو لئيم .

ثم قال عز وجل : ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً ﴾ يعني : في اختلاف النبات وألوانه ﴿ لَآيَةً ﴾ يعني لعبرة لأهل مكة أنه إله واحد ثم قال : ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ يعني : مصدقين بالتوحيد ولو كان أكثرهم مؤمنين يعني : وما كانوا مؤمنين بل كلهم كافرين ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العزيز ﴾ يعني : المنيع بالنقمة لمن لم يجب الرسل ﴿ الرحيم ﴾ حيث لم يعجل بعقوبتهم .

ويقال : رحيم بالمؤمنين .

قوله عز وجل : ﴿ وَإِذْ نادى رَبُّكَ موسى ﴾ يعني : اتل عليهم إذ نادى ربك موسى كما قال : ﴿ واتل عَلَيْهِمْ نَبَأَ إبراهيم ﴾ وقال مقاتل : إذ نادى ربك موسى ، يعني : أمر ربك يا محمد لموسى ﴿ أَنِ ائت القوم الظالمين ﴾ يعني : اذهب إلى القوم المشركين ﴿ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلاَ يَتَّقُونَ ﴾ قال مقاتل : يعني قل لهم ألا تتقون عبادة غيره وتوحدونه .

ويقال ﴿ أَلاَ يَتَّقُونَ ﴾ يعني : ألا تعبدون الله تعالى ﴿ قَالَ ﴾ موسى ﴿ رَبّ ﴾ أي : قال يا رب ﴿ إِنِّى أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾ بما أقول ﴿ وَيَضِيقُ صَدْرِى ﴾ إذا كذبوني في رسالتك ﴿ وَلاَ يَنطَلِقُ لِسَانِى ﴾ لمهابته .

قرأ يعقوب الحضرمي ، ﴿ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلاَ يَنطَلِقُ ﴾ كلاهما بنصب القاف ، وجعله

نصباً بأن.

ومعناه: أخاف أن يكذبون، وأن يضيق صدري، وأن لا ينطلق لساني.

وقراءة العامة بالضم على معنى الاستئناف.

ثم قال: ﴿ فَأَرْسِلْ إلى هارون ﴾ يعني: أرسله معي لكي يكون عوناً لي في أداء الرسالة.

ثم قال: ﴿ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ ﴾ يعني: قصاص بقتل القبطي ﴿ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴾ به قال القتبي: على معنى عندي، أي لهم عندي ذنب ﴿ قَالَ ﴾ الله تعالى ﴿ كَلاَّ ﴾ أي لا تخف.

(156/567)

وقال الزجاج: كلا رَدْعٌ وتنبيه، أي: لا يقدرون على ذلك ﴿ فاذهبا بآياتنا ﴾ خاطب به موسى خاصة بأن يذهب مع أخيه إلى فرعون بآياتنا التسع ﴿ إِنَّا مَعَكُمْ مُّسْتَمِعُونَ ﴾ يعني: سامعين، وقد بيّن ذلك في موضع آخر وهو قوله: ﴿ قَالَ لاَ تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وأرى ﴾ [طه: 46] والاستماع سبب للسمع فيعبر به عنه.

قوله عز وجل: ﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولاَ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ العالمين ﴾ يعني: موسى وحده، ويضاف الشيء إلى اثنين، ويراد به الواحد.

وقال القتبي : الرسول يكون بمعنى الجمع ، كما يكون الضيف بمعنى الجمع .

﴿ قَالَ إِنَّ هؤلاءآء ضَيْفِى فَلاَ تَفْضَحُونِ ﴾ [الحجر : 68] .

وقال أبو عبيدة : رسول بمعنى رسالة .

ويقال رسول : يعني : به رسولين كقوله : ﴿ فَأْتِيَاهُ فقولا إِنَّا رَسُولاَ رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بنى إسراءيل وَلاَ تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْناكَ بِأَيَةٍ مِّن رَّبِّكَ والسلام على مَنِ اتبع الهدى ﴾ [طه : 47] فقال : ﴿ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ العالمين ﴾ ﴿ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِى إسراءيل ﴾ يعني : قل لفرعون ذلك ، ولم يذكر إتيانه إلى فرعون ، لأن في الكلام دليلاً عليه .

وقد بيّن في موضع آخر حيث قال : ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم موسى بأاياتنا بينات قَالُواْ مَا هاذآ إِلاَّ سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بهذا فى ءَابَآئِنَا الاولين ﴾ [القصص : 36] وقال مقاتل : ﴿ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ العالمين ﴾ وانقطع الكلام ، ثم انطلق موسى ، وكان هارون بمصر ، فانطلقا إلى فرعون قال مقاتل : فلم يأذن لهما سنة ثم أخبر البواب فرعون أن هاهنا إنساناً يذكر أنه رسول رب العالمين فقال : ائذن له لعلنا نضحك منه .

وقال السدي : لما أتى باب فرعون ضرب موسى عليه السلام عصاه على الباب ، ففزع فرعون من ذلك ، فأذن له في الدخول من ساعته ، فلما دخل عليه عرفه ، فأدى الرسالة فقال له فرعون : ﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً ﴾ قال الفقيه أبو الليث رحمه الله : أول ما بدأ فرعون بكلام السفلة ، ومنَّ على نبي الله صلى الله عليه وسلم أنما أطعمه .

فقال : ﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً ﴾ .

يعني : ألم تكن صغيراً قد ربيناك ﴿ وَلَبِثْتَ فِينَا ﴾ يعني : مكثت عندنا ﴿ مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴾ يعني : ثلاثين سنة ﴿ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ التى فَعَلْتَ ﴾ يعني : قتلت النفس التي قتلتها .

وقرأ في الشاذ : ﴿ فَعْلَتَكَ ﴾ بكسر الكاف هي قراءة الشعبي ، وقراءة العامة بالنصب ، والنصب يقع على فعل واحد ، والكسر على المرات .

يعني : قتلت مرة ، وهممت بالقتل ثانياً ثم قال : ﴿ وَأَنتَ مِنَ الكافرين ﴾ بنعمتي .

ويقال : كفرت بي ، حيث قتلت النفس .

ويقال : وأنت من الجاحدين للقتل .

يعني : لم تقر بالقتل ، فأخبره موسى أنه غير جاحد للقتل ﴿ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذاً ﴾ يعني : قتلت النفس ﴿ وَأَنَاْ مِنَ الضالين ﴾ عن النبوة كقوله ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلاًّ فهدى ﴾ [الضحى : 7] ويقال : من الجاهلين ولم أتعمد القتل .

قال القتبي : أصل الضلالة العدُول عن الحق ، ثم يكون لمعاني منها النسيان ، لأن الناسي عادل عنه ، فكما قال هاهنا ﴿ فَعَلْتُهَا إِذاً وَأَنَاْ مِنَ الضالين ﴾ أي : من الناسين وكما قال : ﴿ يا أيها الذين ءامنوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إلى أَجَلٍ مُّسَمًّى فاكتبوه وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُم كَاتِبٌ بالعدل وَلاَ يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ الله فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الذى عَلَيْهِ الحق وَلْيَتَّقِ الله رَبَّهُ وَلاَ يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئاً فَإِن كَانَ الذى عَلَيْهِ الحق سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفاً أَوْ لاَ يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بالعدل واستشهدوا شَهِيدَيْنِ مِّن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وامرأتان مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشهدآء أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الاخرى وَلاَ يَأْبَ الشهدآء إِذَا مَا دُعُواْ وَلاَ تسأموا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إلى أَجَلِهِ ذلكم أَقْسَطُ عِندَ الله وَأَقْوَمُ للشهادة وأدنى أَلاَّ ترتابوا إِلاَّ أَن تَكُونَ تجارة حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلاَّ تَكْتُبُوهَا وأشهدوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلاَ يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلاَ شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ واتقوا الله وَيُعَلِّمُكُمُ الله والله بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾

[البقرة : 282] ثم قال عز وجل : ﴿ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ ﴾ يعني : هربت منكم إلى مدين ﴿ لَمَّا خِفْتُكُمْ ﴾ على نفسي أن تقتلوني ﴿ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْماً ﴾ قال الكلبي : يعني

النبوة .

وقال مقاتل : يعني العلم والفهم ، ﴿ وَجَعَلَنِى مِنَ المرسلين ﴾ إليكم .

(159/567)

ثم قال عز وجل : ﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِى إسراءيل ﴾ يعني : أو كان هذا نعمة تمنها علي أن عبدت بني إسرائيل ، فكأنه أنكر عليه .

فقال : كيف تكون نعمتك التي تمن علي ؟ فإنك قد عبدت بني إسرائيل ، أي استعبدتهم ، وتمن علي .

ويقال : قد اعترف له بالنعمة .

فقال : وتلك نعمة تمن علي حيث عبدت بني إسرائيل ، ولم تعبدني .

ويقال : معناه تلك نعمة ، إنما صارت نعمة بتعبيدك بني إسرائيل ، ولم تعبدني ، لأنك لو لم تعبدهم لم تجعلني أمي في التابوت حتى صرت في بيتك ، ولكن إنما صارت نعمة لأجلك ، حيث عبدت بني إسرائيل .

وقال مقاتل : وتلك نعمة تمنها علي يا فرعون بإحسانك إلي خاصة ، وبترك أبنائك أن عبدت بني إسرائيل .

وقال الكلبي يقول : تستعبد بني إسرائيل ، وتمن علي لذلك ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ﴾ لموسى ﴿ وَمَا رَبُّ العالمين ﴾ منكراً له ، وهذا جواب لقوله : ﴿ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ العالمين ﴾ فجاء بجواب قطع حجته ﴿ قَالَ رَبُّ السموات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ مُّوقِنِينَ ﴾ بتوحيد الله تعالى ، فعجز فرعون عن الجواب ﴿ فَقَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلاَ تَسْتَمِعُونَ ﴾ إلى قول موسى عليه السلام قالوا له فيما تقول يا موسى ؟ فجاء بحجة أُخرى ليؤكد عليهم ﴿ قَالَ رَبُّكُمْ ﴾ يعني : أدعوكم إلى ربكم ﴿ وَرَبُّ ءابَائِكُمُ الاولين ﴾ يعني : إلى توحيد خالقكم وخالق آبائكم الأولين ﴿ قَالَ ﴾ فرعون لجلسائه ﴿ إِنَّ رَسُولَكُمُ الذى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ قَالَ ﴾ موسى عليه السلام ليس بمجنون مثلي أدعوكم إلى ﴿ رَبُّ المشرق والمغرب وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ يعني : إن كان لكم ذهن الإنسانية ، فلما عجز عن الجواب ، مال إلى العقوبة كما يفعل السلاطين ﴿ فَقَالَ لَئِنِ اتخذت إلها غَيْرِى ﴾ يعني : لئن عبدت رباً غيري .

﴿ لاجْعَلَنَّكَ مِنَ المسجونين ﴾ يعني : لأحبسنك في السجن .

(160/567)

قال ابن عباس : وكان سجنه أشد من القتل ﴿ قَالَ ﴾ موسى ﴿ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴾ يعني : ولو جئتك بحجة بينة يستبين لكم أمري ﴿ قَالَ ﴾ فرعون ﴿ فَأْتِ بِهِ ﴾ يعني : فَأَرِنَاهُ ﴿ إِن كُنتَ مِنَ الصادقين ﴾ بأنك رسول ﴿ فألقى عَصَاهُ ﴾ من يده ﴿ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾ يعني : حية صفراء من أعظم الحيات ﴿ وَنَزَعَ يَدَهُ ﴾ يعني : أخرج يده فقال : ما هذه ؟ فقالوا : يدك ، فأدخلها في جيبه وأخرجها ﴿ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاء للناظرين ﴾ يعني : لها شعاع كشعاع الشمس ، وانتشر الضوء حوالي مصر للناظرين لمن نظر إليها من غير برص ، فعجبوا من ذلك .

قوله عز وجل : ف ﴿ قَالَ لِلْمَلإِ حَوْلَهُ إِنَّ هذا لساحر عَلِيمٌ ﴾ يعني : قال فرعون لمن حوله يعني : الرؤساء والأشراف ، وأصله في اللغة من ملأ .

قال بعضهم : الملأ إنما بما يراد بهم مائتان وخمسون ، وقال بعضهم : ثلاثمائة وخمسون ، وهم جماعة الملأ .

ويقال : ملأ العين هيبة يعني : إذا نظر إليها الناظر ، ثم قال : ﴿ إِنَّ هذا لساحر عَلِيمٌ ﴾ ﴿ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُمْ مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ ﴾ يعني : من أرض مصر ﴿ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ يعني : تشيرون ﴿ قَالُواْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ ﴾ يعني : احسبهما وأخرجهما ولا تقتلهما ، ولا تؤمن بهما وأصله من التأخير يعني : أخر أمرهما حتى تنظر ﴿ وابعث فِى المدائن حاشرين ﴾ يحشرون عليك السحرة ﴿ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴾ يعني : حاذقاً ﴿

فَجُمِعَ السحرة لميقات يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ وهو يوم عيد لهم ، وهو يوم الزينة .

قال مقاتل : وكانوا اثنين وسبعين ساحراً .

ويقال : سبعون ألفاً .

وقال الزجاج : ذكر أن السحرة كانوا اثني عشر ألفاً ﴿ وَقِيلَ لِلنَّاسِ ﴾ يعني : أهل مصر ﴿ هَلْ أَنتُمْ مُّجْتَمِعُونَ ﴾ للسحرة للميعاد ﴿ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السحرة ﴾ على أمرهم ﴿ إِن كَانُواْ هُمُ الغالبين ﴾ .

(161/567)

قوله عز وجل : ﴿ فَلَمَّا جَاء السحرة ﴾ يعني : إلى الميقات ﴿ قَالُواْ لِفِرْعَوْنَ إِنَّ لَنَا لاجْرًا ﴾ يعني : لجعلاً ﴿ إِن كُنَّا نَحْنُ الغالبين ﴾ يعني : أتجازينا إن غلبناه ﴿ قَالَ نَعَمْ ﴾ نجازيكم ﴿ وَإِنَّكُمْ إِذاً لَّمِنَ المقربين ﴾ يعني : لكم مع الجائزة الكرامة والمنزلة عندي ﴿ قَالَ لَهُمْ موسى أَلْقُواْ مَا أَنتُمْ مُّلْقُونَ ﴾ يعني : اطرحوا ﴿ فَأَلْقَوْاْ حبالهم وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُواْ إِنَّا لَنَحْنُ الغالبون ﴾ يعني : نغلب موسى ﴿ فألقى موسى عصاه فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ يعني : تلتقم وتبتلعُ ما يطرحون من الحبال والعصي قوله عز وجل : ﴿ فَأُلْقِيَ السحرة ساجدين ﴾ أي خروا سجداً لله تعالى ﴿ قَالُواْ ءامَنَّا بِرَبِّ العالمين ﴾ فقال فرعون : إياي

تعنون قالوا : ﴿ رَبّ موسى وهارون ﴾ يعني : خالق موسى وهارون ﴿ قَالَ ءامَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الذى عَلَّمَكُمُ السحر فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ ماذا أصنع بكم ؟ ﴿ لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خِلاَفٍ وَلاَصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ على شاطىء نهر مصر ﴿ قَالُواْ ﴾ يعني : السحرة ﴿ لاَ ضَيْرَ ﴾ أي لا يضرنا ما فعلت بنا ﴿ إِنَّا إلى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴾ يعني : إلى خالقنا راجعون ﴿ إِنَّا نَطْمَعُ ﴾ يعني : نرجو ﴿ أَن يَغْفِرَ لَنَا خطايانا ﴾ يعني : شركنا وسحرنا ﴿ أَن كُنَّا أَوَّلَ المؤمنين ﴾ يعني : أول المصدقين من قوم فرعون وذكر عن الفراء أنه قال : كانوا أول مؤمني أهل دهرهم .

وقال الزجاج : لا أحسبه عرف الرواية ، لأن الذين كانوا مع موسى روي في التفسير أنهم ستمائة ألف وسبعين ألفاً ، ولكن معناه أول من آمن في هذه الساعة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ 549.554 ﴾

(162/567)

وقال الثعلبى :

﴿ طسم ﴾

اختلف القرّاء فيها وفي أُخْتَيها فكسر الطاء فيهن على الإمالة حمزة والكسائي وخلف

وعاصم في بعض الروايات . وقرأ أهل المدينة بين الكسر والفتح وهو اختيار أبي عبيد وأبي حاتم وقرأ غيرهم بالفتح على التضخيم ، وأظهر النون في السين ههنا وفي سورة القصص أبو جعفر وحمزة للتبيين والتمكين ، وأخفاها الآخرون لمجاورتها حروف الفم .

وأمّا تأويلها فروى الوالبي عن ابن عباس قال : طسم قسم وهو من اسماء الله سبحانه ، عكرمة عنه : عجزت العلماء عن علم تفسيرها . مجاهد : اسم السورة . قتادة وأبو روق : اسم من أسماء القرآن أقسم الله عزّ وجلّ به ، القرظي أقسم الله سبحانه بطَوله وسنائه وملكه .

وأخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا ابن حنش قال : حدّثني أحمد بن عبيد الله بن يحيى الدارمي قال : حدّثني محمد بن عبده المصّيصي قال : حدّثنا إبراهيم بن محمد بن يوسف الفريابي قال : حدّثنا محمد بن بشر الرقّي قال : حدّثنا أبو عمر حفص بن ميسرة عن عبد الله بن محمد بن عقيل عن محمد بن الحنفية عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : لما نزلت هذه الآية طسم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الطاء طور سيناء والسين الاسكندرية والميم مكة " .

وقال جعفر الصادق (عليه السلام) : الطاء طوبى والسين سدرة المنتهى والميم محمد المصطفى صلى الله عليه وسلم ﴿ تِلْكَ آيَاتُ ﴾ أي هذه آيات ﴿ الكتاب المبين * لَعَلَّكَ بَاخِعٌ ﴾ قاتل ﴿ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ وذلك حين كذّبه أهل مكة فشق ذلك عليه

فأنزل الله سبحانه هذه الآية ، نظيرها في الكهف .

﴿ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴾ ذليلين قال : لو شاء الله سبحانه لأنزل عليهم آية يذلّون بها فلا يلوي أحد منهم عنقه إلى معصية الله عزَّ وجل ، ابن جريج : لو شاء لأراهم أمراً من أمره لا يعمل أحد منهم بمعصية .

(163/567)

وأخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا ابن حبّان قال : حدّثنا إسحاق بن محمد قال : حدّثنا أبي قال : حدّثنا إبراهيم بن عيسى قال : حدّثنا علي بن علي قال : حدّثني أبو حمزة الثمالي في هذه الآية قال : بلغنا والله أعلم أنّها صوت يسمع من السماء في النصف من شهر رمضان يخرج له العواتق من البيوت .

وبه عن أبي حمزة قال : حدّثني الكلبي عن أبي صالح مولى أم هاني أنّ عبد الله بن عباس حدّثه قال : نزلت هذه الآية فينا وفي بني أُمّية قال : سيكون لنا عليهم الدولة فتذلّ لنا أعناقهم بعد صعوبة ، وهوان بعد عزة . وأمّا قوله سبحانه ﴿ خَاضِعِينَ ﴾ ولم يقل خاضعة وهي صفة الأعناق ففيه وجوه صحيحة من التأويل : أحدها : فظل أصحاب الأعناق لها خاضعين فحذف الأصحاب وأقام الأعناق مقامهم لأنّ الأعناق إذا خضعت

فأربابها خاضعون ، فجعل الفعل أوّلاً للأعناق ثم جعل خاضعين للرجال ، كقول الشاعر :

على قبضة مرجودة ظهر كفّه . . . فلا المرء مستحي ولا هو طاعم

فأنّث فعل الظهر لأنّ الكفّ تجمع الظهر وتكفى منه كما أنّك مكتف بأن تقول : خضعت للأمر أن تقول : خضعتْ لك رقبتي ، ويقول العرب : كلّ ذي عين ناظر إليك وناظرة إليك لأنّ قولك : نظرتْ إليك عيني ونظرتُ بمعنى واحد ، وهذا شائع في كلام العرب أن يترك الخبر عن الأول ويعمد الى الآخر فيجعل له الخبر كقول الراجز :

طول الليالي أسرعت في نقضي . . . طوين طولي وطوين عرضي

فأخبر عن الليالي وترك الطول ، قال جرير :

أرى مرّ السنين أخذن منّي . . . كما أخذ السرار من الهلال

وقال الفرزدق :

نرى أرماحهم متقلّديها . . . إذا صدئ الحديد على الكماة

(164/567)

فلم يجعل الخبر للأرماح وردّه الى هم لكناية القوم وإنما جاز ذلك لأنه لو أسقط من وطول والأرماح من الكلام لم يفسد سقوطها معنى الكلام ، فكذلك رد الفعل الى الكناية في قوله

أعناقهم ؛ لأنه لو أسقط الأعناق لما فسد الكلام ولأدّى ما بقى من الكلام عنها وكان فظلوا خاضعين لها واعتمد الفرّاء وأبو عبيد على هذا القول .

وقال قوم : ذكر الصفة لمجاورتها المذكر وهو قوله هم ، على عادة العرب في تذكير المؤنث إذا أضافوه الى مذكر ، وتأنيث المذكر إذا أضافوه الى مؤنّث ، كقول الأعشى :

وتشرق بالقول الذي قد أذعته . . . كما شرقت صدر القناة من الدم

وقال العجاج : لما رأى متن السماء ابعدت .

وقيل : لما كان الخضوع وهو المتعارف من بني آدم أخرج الأعناق مخرج بني آدم كقوله ﴿ والشمس والقمر رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ [يوسف : 4] وقوله سبحانه ﴿ يا أيها النمل ادخلوا مَسَاكِنَكُمْ ﴾ [النمل : 18] ومنه قول الشاعر :

تمززتها والديك يدعو صباحه . . . إذا ما بنو نعش دنوا فتصوّبُوا

وقيل : إنما قال خاضعين فعبّر بالأعناق عن جميع الأبدان ، والعرب تعبّر ببعض الشئ عن كله كقوله ﴿ ذلك بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ ﴾ [الحج : 10] وقوله ﴿ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ﴾ [الإسراء : 13] ونحوهما .

قال مجاهد : أراد بالاعناق ههنا الرؤساء والكبراء ، وقيل : أراد بالأعناق الجماعات والطوائف من الناس ، يقال : جاء القوم عنقاً أي طوائف وعصباً كقول الشاعر :

انَّ العراق وأهله عنق . . . إليك فهيت هيتا

وقرأ ابن أبي عبلة : فظلّت أعناقهم لها خاضعة .

(165/567)

﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ ﴾ أي وعظ وتذكير ﴿ مِّنَ الرحمن مُحْدَثٍ ﴾ في الوحي والتنزيل ﴿ إِلاَّ كَانُواْ عَنْهُ مُعْرِضِينَ * فَقَدْ كَذَّبُواْ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ ﴾ أخبار وعواقب وجزاء ﴿ مَا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ وهذا وعيد لهم ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى الأرض كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ ﴾ لون وصنف من النبات ممّا يأكل الناس والأنعام ﴿ كَرِيمٍ ﴾ حسن يكرم على الناس ، يقال : نخلة كريمة إذا طاب حملها وناقة كريمة إذا كثر لبنها .

أخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا عبد الله بن يوسف قال : حدّثنا الحسن بن محمد بن بختويه قال : حدّثنا عمرو بن ثور وإبراهيم بن أبي يوسف قالا : حدّثنا محمد بن يوسف الغزالي قال : حدّثنا سفيان عن رجل عن الشعبي في قوله ﴿ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ قال : الناس من نبات الأرض فمن دخل الجنّة فهو كريم ، ومن دخل النار فهو لئيم .

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ ﴾ الذي ذكرت ﴿ لآيَةً ﴾ لدلالة على وجودي وتوحيدي وكمال قدرتي وحكمتي ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ لما سبق من علمي فيهم ، قال سيبويه : ﴿ كَانَ

﴿ ههنا صلة ، مجازه : وما أكثرهم مؤمنين ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العزيز ﴾ بالنقمة من أعدائه ﴿ الرحيم ﴾ ذو الرحمة بأوليائه .

﴿ وَإِذْ نادى ﴾ واذكر يا محمد إذ نادى ﴿ رَبُّكَ موسى ﴾ حين رأى الشجرة والنار ﴿ أَنِ ائت القوم الظالمين ﴾ لأنفسهم بالكفر والمعصية ولبني إسرائيل باستعبادهم وسومهم سوء العذاب .

(166/567)

﴿ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلا يَتَّقُونَ ﴾ وقرأ عبيد بن عمير بالتاء أي قل لهما : ألا تتّقون ؟ ﴿ قَالَ رَبِّ إِني أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ * وَيَضِيقُ صَدْرِي ﴾ من تكذيبهم إيّاي ﴿ وَلاَ يَنطَلِقُ ﴾ ولا ينبعث ﴿ لِسَانِي ﴾ بالكلام والتبليغ للعقدة التي فيه ، قراءة العامة برفع القافين على قوله ﴿ فَأَخَافُ ﴾ ونصبها يعقوب على معنى وأن يضيق ولا ينطلق ﴿ فَأَرْسِلْ إِلى هَارُونَ ﴾ ليؤازرني ويظاهرني على تبليغ الرسالة ، وهذا كما تقول : إذا نزلت بي نازلة أرسلت إليك ، أي لتعينني ﴿ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ ﴾ يعني القتل الذي قتله منهم واسمه ماثون ، وكان خباز فرعون ، وقيل : على معنى : عندي ولهم عندي ذنب ﴿ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴾ به ﴿ قَالَ ﴾ الله سبحانه ﴿ كَلاَّ ﴾ أي لن يقتلوك ﴿ كَلاَّ فاذهبا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ

مُّسْتَمِعُونَ ﴾ سامعون ما يقولون وما تجابون ، وإنّما أراد بذلك تقوية قلبيهما وإخبارهما أنّه يعينهما ويحفظهما ﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فقولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ العالمين ﴾ ولم يقل رسولا لأنه أراد المصدر أي رسالة ومجازه : ذو رسالة رب العالمين ، كقول كثيّر :

لقد كذب الواشون ما بحت عندهم . . . بسرَ ولا أرسلتهم برسول

أي برسالة . وقال العباس بن مرداس :

إلاّ مَنْ مبلغٌ عنّا خفافاً . . . رسولا بيت أهلك منتهاها

يعني رسالة فلذلك انتهاء ، قالهُ الفرّاء .

وقال أبو عبيد : يجوز أن يكون الرسول في معنى الواحد والاثنين والجمع ، تقول العرب : هذا رسولي ووكيلي ، وهذان رسولي ووكيلي ، وهؤلاء رسولي ووكيلي ، ومنه قوله ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي ﴾ [الشعراء : 77] وقيل : معناه كل واحد منا رسول رَبّ العالمين .

(167/567)

﴿ أَنْ ﴾ أي بأن ﴿ أَرْسِلْ مَعَنَا بني إِسْرَائِيلَ ﴾ إلى فلسطين ولا تستعبدهم وكان فرعون استعبدهم أربعمائة سنة وكانوا في ذلك الوقت ستمائة وثلاثين ألفاً فانطلق موسى إلى مصر ، وهارون بها وأخبره بذلك فانطلقا جميعاً الى فرعون ، فلم يؤذَنْ لهما سنة في

الدخول عليه ، فدخل البوّاب فقال لفرعون : ههنا إنسان يزعم أنّه رسول رب العالمين ، فقال فرعون : ايذن له لعلّنا نضحك منه ، فدخلا عليه وأدّيا إليه رسالة الله سبحانه وتعالى فعرف فرعون موسى لأنّه نشأ في بيته فقال له ﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً ﴾ صبيّاً ﴿ وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴾ وهي ثلاثون سنة ﴿ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ التي فَعَلْتَ ﴾ يعني قتل القبطي .

أخبرنا ابن عبدوس قال : حدّثنا محمد بن يعقوب قال : حدّثنا محمد بن الجهم قال : حدّثنا الفرّاء قال : حدّثني موسى الأنصاري عن السري بن إسماعيل عن الشعبي انه قرأ ﴿ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ التي ﴾ بكسر الفاء ولم يقرأ بها غيره .

﴿ وَأَنتَ مِنَ الكافرين ﴾ الجاحدين لنعمتي وحق تربيتي ، ربيناك فينا وليداً فهذا الذي كافأتنا أن قتلت منّا وكفرت بنعمتنا ، وهذه رواية العوفي عن ابن عباس ، وقال : إنَّ فرعون لم يكن يعلم ما الكفر بالربوبية .

فقال موسى ﴿ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذاً وَأَنَاْ مِنَ الضالين ﴾ أي الجاهلين قبل أن يأتيني عن الله شيء ، هذا قول أكثر المفسّرين وكذلك هو في حرف ابن مسعود وأنا من الجاهلين .

وقيل : من الضالّين عن العلم بأن ذلك يؤدي الى قتله .

وقيل : من الضالّين عن طريق الصواب من غير تعمّد كالقاصد الى أن يرمي طائراً فيصيب إنساناً .

وقيل : من المخطئين نظيره ﴿ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ القديم ﴾ [يوسف : 95] ﴿ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [يوسف : 8] وقيل : من الناسين ، نظيره ﴿ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا ﴾ [البقرة : 282] .

(168/567)

﴿ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ ﴾ إلى مدين ﴿ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْماً ﴾ فهماً وعلماً ﴿ وَجَعَلَنِي مِنَ المرسلين * وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ .

اختلف العلماء في تأويلها ، ففسّرها بعضهم على إقرار وبعضهم على الإنكار ، فمن قال : هو إقرار قال : عدّها موسى نعمة منه عليه حيث ربّاه ولم يقتله كما قتل غلمان بني إسرائيل ، ولم يستعبده كما استعبد وتركني فلم يستعبدني وهذا قول الفرّاء ، ومن قال هو إنكار قال : معناه وتلك نعمة على طريق الاستفهام كقوله ﴿ هذا رَبِّي ﴾ [الأنعام : 76-78] وقوله ﴿ فَهُمُ الخالدون ﴾ [الأنبياء : 34] وقول الشاعر : هم هم ، وقال عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة :

لم أنس يوم الرحيل وقفتها . . . ودمعها في جفونها عرق

وقولها والركب سائرة . . . تتركنا هكذا وتنطلق

وهذا قول مجاهد ، ثم اختلفوا في وجهها فقال بعضهم : هذا ردّ من موسى على فرعون حين امتنّ عليه بالتربية فقال : لو لم تقتل بني إسرائيل لربّاني أبواي فأيّ نعمة لك عليَّ ؟

وقيل : ذكره إساءته إلى بني إسرائيل فقال : تمنُّ عليَّ أن تربّيني وتنسى جنايتك على بني إسرائيل .

وقيل : معناه كيف تمنُّ علي بالتربية وقد استعبدت قومي ؟ ومن أُهين قومه ذلّ ، فتعبيدك بني إسرائيل قد أحبط إحسانك إليَّ .

وقال الحسن : يقول : أخذت أموال بني إسرائيل وأنفقت منها عليَّ واتّخذتهم عبيداً .

وقوله سبحانه ﴿ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ أي اتّخذتهم عبيداً ، يقال : عبّدته وأعبدته ، وأنشد الفرّاء :

علام يعبّدني قومي وقد كثرتْ . . . فيهم أباعر ما شاؤوا وعبدان

وله وجهان : أحدهما : النصب بنزع الخافض مجازه : بتعبيدك بني إسرائيل

والثاني : الرفع على البدل من النعمة .

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ العالمين ﴾ وأيّ شيء ربّ العالمين الذي تزعم أنّك رسوله إليَّ ؟

(169/567)

﴿ قَالَ ﴾ موسى (عليه السلام) ﴿ رَبُّ السماوات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ مُّوقِنِينَ ﴾ إنّه خلقها عن الكلبي.

وقال أهل المعاني: إن كنتم موقنين أي ما تعاينونه كما تعاينونه فكذلك فأيقنوا أنّ ربّنا هو ربّ السموات والأرض.

﴿ قَالَ ﴾ فرعون ﴿ لِمَنْ حَوْلَهُ ﴾ من أشراف قومه، قال ابن عباس: وكانوا خمسمائة رجل عليهم الأسورة محيلا لقوم موسى معجباً لقومه ﴿ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴾ فقال موسى مفهماً لهم وملزماً للحجة عليهم ﴿ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَآئِكُمُ الأولين * قَالَ ﴾ فرعون ﴿ إِنَّ رَسُولَكُمُ الذي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ يتكلّم بكلام لا يعقله ولا يعرف صحته.

فقال موسى ﴿ رَبُّ المشرق والمغرب وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ فقال فرعون حين لزمته الحجّة وانقطع عن الجواب تكبّراً عن الحق وتمادياً في الغي ﴿ لَئِنِ اتخذت إلها غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ المسجونين ﴾ المحبوسين.

قال الكلبي: وكان سجنه أشدّ من القتل؛ لأنه كان يأخذ الرجل إذا سجنه فيطرحه في مكان وحدهُ فرداً لا يسمع ولا يبصر فيه شيئاً، يهوى به في الأرض.

فقال له موسى حين توعدهُ بالسجن ﴿ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيءٍ مُّبِينٍ ﴾ يبيّن صدق قولي، ومعنى الآية: أتفعل ذلك إنْ أتيتك بحجّة بيّنة، وإنما قال ذلك موسى لأن من أخلاق الناس السكون الى الإنصاف والإجابة الى الحق بعد البيان.

فقال له فرعون ﴿ فَأْتِ بِهِ ﴾ فإنّا لن نسجنك حينئذ ﴿ إِن كُنتَ مِنَ الصادقين * فألقى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾ بيّن ظاهر أمرهُ، فقال: وهل غير هذا؟ ﴿ وَنَزَعَ ﴾ موسى ﴿ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴾ .

(170/567)

فقال فرعون ﴿ لِلْمَلإِ حَوْلَهُ إِنَّ هذا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُمْ مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ * قالوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وابعث فِي المدآئن حَاشِرِينَ * يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ * فَجُمِعَ السحرة لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ وهو يوم الزينة.

قال ابن عباس: وافق ذلك يوم السبت في أول يوم من السنة وهو يوم النيروز.

وقال ابن زيد: وكان اجتماعهم للميقات بالإسكندرية، ويقال: بلغ ذنَب الحيّة من وراء البُحيرة يومئذ.

﴿ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴾ تنظرون الى ما يفعل الفريقان ولمن تكون الغلبة لموسى أو للسحرة؟ ﴿ لَعَلَّنَا ﴾ لكي ﴿ نَتَّبِعُ السحرة إِن كَانُواْ هُمُ الغالبين ﴾ موسى، قيل: إنما قالوا ذلك على طريق الاستهزاء وأرادوا بالسحرة موسى وهارون وقومهما.

﴿ فَلَمَّا جَآءَ السحرة قَالُواْ لِفِرْعَوْنَ أَإِنَّ لَنَا لأَجْراً إِن كُنَّا نَحْنُ الغالبين * قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذاً

لَمِنَ المقربين * قَالَ لَهُمْ موسى أَلْقُواْ مَا أَنتُمْ مُّلْقُونَ * فَأَلْقَوْاْ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرْعَونَ إِنَّا لَنَحْنُ الغالبون * فألقى موسى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ * فَأُلْقِيَ السحرة سَاجِدِينَ * قَالُواْ آمَنَّا بِرَبِّ العالمين * رَبِّ موسى وَهَارُونَ * قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الذي عَلَّمَكُمُ السحر فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خِلاَفٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ * قَالُواْ لاَ ضَيْرَ ﴾ لا ضرر ﴿ إِنَّآ إلى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ * إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَآ أَن ﴾ لأن ﴿ كُنَّآ أَوَّلَ المؤمنين ﴾ من أهل زماننا . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الكشف والبيان حـ 7 صـ 155.164 ﴾

(171/567)

وقال الزمخشرى :

سورة الشعراء

مكية ، إلا قوله وَالشُّعَرَاءُ . . . إلى آخر السورة وهي مائتان وسبع وعشرون آية . وفي رواية : وست وعشرون آية [نزلت بعد الواقعة] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الشعراء (26) : الآيات 1 إلى 2]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

طسم (1) تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْمُبِينِ (2)

طسم بتفخيم الألف وإمالتها ، وإظهار النون وإدغامها الْكِتابِ الْمُبِينِ الظاهر إعجازه ، وصحة أنه من عند اللّه ، والمراد به السورة أو القرآن . والمعنى : آيات هذا المؤلف من الحروف المبسوطة تلك آيات الكتاب المبين .

[سورة الشعراء (26) : آية 3]

لَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (3)

البخع : أن يبلغ بالذبح البخاع بالباء ، وهو عرق مستبطن الفقار ، وذلك أقصى حدّ الذبح ، ولعل للإشفاق ، يعنى : أشفق على نفسك أن تقتلها حسرة على ما فاتك من إسلام قومك أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ لئلا يؤمنوا ، أو لامتناع إيمانهم ، أو خيفة أن لا يؤمنوا . وعن قتادة رضى اللّه عنه : باخع نفسك على الإضافة .

[سورة الشعراء (26) : آية 4]

إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّماءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْناقُهُمْ لَها خاضِعِينَ (4)

أراد : آية ملجئة إلى الإيمان قاصرة عليه . فَظَلَّتْ معطوف على الجزاء الذي هو ننزل ،

لأنه لو قيل : أنزلنا ، لكان صحيحا . ونظيره : فأصدّق وأكن ، كأنه قيل : أصدق . وقد قرئ :

لو شئنا لأنزلنا . وقرئ : فتظل أعناقهم . فإن قلت : كيف صح مجيء خاضعين خبرا عن الأعناق قلت : أصل الكلام : فظلوا لها خاضعين ، فأقحمت الأعناق لبيان موضع الخضوع ، وترك الكلام على أصله ، كقوله : ذهبت أهل اليمامة ، كأنّ الأهل غير مذكور . أو لما وصفت بالخضوع الذي هو للعقلاء قيل : خاضعين ، كقوله تعالى لِي ساجِدِينَ وقيل أعناق الناس :

رؤساؤهم ومقدّموهم ، شبهوا بالأعناق كما قيل لهم هم الرءوس والنواصي والصدور . قال :

في محفل من نواصي النّاس مشهود «1»

وقيل : جماعات الناس . يقال : جاءنا عنق من الناس لفوج منهم . وقرئ : فظلت أعناقهم لها خاضعة . وعن ابن عباس رضى اللّه عنهما : نزلت هذه الآية فينا وفي بنى أمية . قال : ستكون لنا عليهم الدولة ، فتذل لنا أعناقهم بعد صعوبة ، ويلحقهم هوان بعد عزة .

[سورة الشعراء (26) : الآيات 5 إلى 6]

وَما يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ (5) فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبؤُا ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (6)

أى : وما يجدد لهم اللّه بوحيه موعظة وتذكيرا ، إلا جددوا إعراضا عنه وكفرا به . فإن قلت :

كيف خولف بين الألفاظ والغرض واحد ، وهي الإعراض والتكذيب والاستهزاء ؟ قلت :

إنما خولف بينها لاختلاف الأغراض ، كأنه قيل . حين أعرضوا عن الذكر فقد كذبوا به ، وحين كذبوا به فقد خف عندهم قدره وصار عرضة للاستهزاء والسخرية ، لأنّ من كان قابلا للحق مقبلا عليه ، كان مصدقا به لا محالة ولم يظنّ به التكذيب . ومن كان مصدقا به ، كان موقرا له فَسَيَأْتِيهِمْ وعيد لهم وإنذار بأنهم سيعلمون إذا مسهم عذاب اللّه يوم بدر أو يوم القيامة ما الشيء الذي كانوا يستهزءون به وهو القرآن ، وسيأتيهم أنباؤه وأحواله التي كانت خافية عليهم .

[سورة الشعراء (26) : الآيات 7 إلى 9]

أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (7) إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (8) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (9)

وصف الزوج وهو الصنف من النبات بالكرم ، والكريم : صفة لكل ما يرضى ويحمد في

---

(1) . تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الثاني صفحة 428 فراجعه إن شئت اه مصححه .

بابه ، يقال : وجه كريم ، إذا رضى في حسنه وجماله ، وكتاب كريم : مرضىّ في معانيه وفوائده ، وقال :

حتّي يشقّ الصّفوف من كرمه «1»

أى : من كونه مرضيا في شجاعته وبأسه ، والنبات الكريم : المرضى فيما يتعلق به من المنافع إِنَّ فِي إنبات تلك الأصناف لَآيَةً على أن منبتها قادر على إحياء الموتى ، وقد علم اللّه أن أكثرهم مطبوع على قلوبهم ، غير مرجوّ إيمانهم وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ في انتقامه من الكفرة الرَّحِيمُ لمن تاب وآمن وعمل صالحا . فإن قلت : ما معنى الجمع بين كم وكل ، ولو قيل كم أنبتنا فيها من زوج كريم «2» ؟ قلت : قد دلّ كُلِّ على الإحاطة بأزواج النبات على سبيل التفصيل ، وكَمْ على أن هذا المحيط متكاثر مفرط الكثرة «3» ، فهذا معنى الجمع بينهما ، وبه نبه على كمال قدرته . فإن قلت : فما معنى وصف الزوج بالكريم ؟ قلت : يحتمل معنيين ، أحدهما :

---

(1) من رأى يومنا ويوم بنى التيم إذا التف صيقه بدمه

لما رأوا أن يومهم أشب شدوا حيازيمهم على ألمه

كأنما الأسد في عرينهم ونحن كالليل جاش في قتمه

لا يسلمون الغداة جارهم حتى يزل الشراك عن قدمه

ولا يخيم اللقاء فارسهم حتى يشق الصفوف من كرمه

لرجل من حمير . ومن : استفهامية . والصيق والصيقة – بالكسر – : الغبار والتراب .

والأشب – كحذر – : كثير الجلبة والاختلاط ، ويطلق على المكان الذي التف شجره ،

والحيزوم : الصدر . والعرين : أجمة الأسد يسكن فيها .

وجاش : ارتفع وأقبل . والقتم : الغبار والسواد والظلمة . وروى في غشمه : بالغين .

والمعنى واحد ، لا يسلمون لا يخذلون ولا يتركون . والشراك : سير النعل ، ولا يخيم : أى لا

يجبن عن اللقاء ، واليوم : الزمن أو الواقعة ، وإضافة الصيق والدم إليه لأنه فيه . ووصف

اليوم بأنه كثير الصياح والاختلاط ، لأن ذلك واقع فيه ، وشد الحيازيم على الألم : كناية عن

التجلد والصبر . وشبههم بالأسود في شجاعتهم ، وشبه قومه بالليل في الاحاطة والقهر

للغير ، ثم قال : لا يتركون حليفهم غداة الروع حتى يرتبك وحده في الحرب ، فزلل الشراك :

كناية عن ذلك ولا يجبن الفارس منهم عن اللقاء ، فهو نصب على نزع الخافض ، وقيل :

مفعول معه ، حتى يشق صفوف الحرب ويدخلها من كرمه ، أى شجاعته وجراءته ، لأن

الكرم في كل باب بحسبه ، وحتى الأولى غاية للمنفي ، والثانية غاية للنفي . ويجوز أن الثانية

ابتدائية ، والفعل بعدها مرفوع على الاستئناف ، وهذا أبلغ في المدح ، ثم إن مدح عدوهم

مدح لهم.

(2) . قوله «كم أنبتنا فيها من زوج كريم» لعل بعده سقطا تقديره «كان مستقيما» . (ع)

(3) . قال محمود : «إن قلت : ما فائدة الجمع بين كل وكم ؟ وأجاب بأن كلا دخلت للاحاطة بأزواج النبات وكم دلت على أن هذا المحاط به متكاثر مفرط الكثرة» قال أحمد : فعلى مقتضى ذلك يكون المقصود بالتكثير : الأنواع والظاهر أن المقصود آحاد الأزواج والأنعام ، ويدل عليه أنك لو أسقطت كُلِّ فقلت : انظروا إلى الأرض كم أنبت اللّه فيها من الصنف الفلاني ، لكنت مكنيا عن آحاد ذلك الصنف المشار إليه ، فإذا أدخلت كُلِّ فقد أديت بتكريره آحاد كل صنف لا آحاد صنف معين ، واللّه أعلم .

(174/567)

أن النبات على نوعين : نافع وضارّ ، فذكر كثرة ما أنبت في الأرض من جميع أصناف النبات النافع ، وخلى ذكر الضارّ . والثاني : أن يعم جميع النبات نافعة وضارّه ، ويصفهما جميعا بالكرم وينبه على أنه ما أنبت شيئا إلا وفيه فائدة ، لأنّ الحكيم لا يفعل فعلا إلا لغرض صحيح ولحكمة بالغة ، وإن غفل عنها الغافلون ، ولم يتوصل إلى معرفتها العاقلون . فإن قلت : فحين ذكر الأزواج ودلّ عليها بكلمتي الكثرة والإحاطة ، وكانت بحيث لا يحصيها

إلا عالم الغيب ، كيف قال إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وهلا قال : آيات ؟ قلت : فيه وجهان : أن يكون ذلك مشارا به إلى مصدر أنبتنا ، فكأنه قال : إن في الإنبات لآية أىّ آية . وأن يراد : أن في كل واحدة من تلك الأزواج لآية .

وقد سبقت لهذا الوجه نظائر .

[سورة الشعراء (26) : الآيات 10 إلى 11]

وَإِذْ نادى رَبُّكَ مُوسى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (10) قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلا يَتَّقُونَ (11)

سجل عليهم بالظلم بأن قدّم القوم الظالمين ، ثم عطفهم عليهم عطف البيان ، كأن معنى القوم الظالمين وترجمته قوم فرعون وكأنهما عبارتان تعتقبان على مؤدى واحد : إن شاء ذاكرهم عبر عنهم بالقوم الظالمين ، وإن شاء عبر بقوم فرعون . وقد استحقوا هذا الاسم من جهتين : من جهة ظلمهم أنفسهم بالكفر وشرارتهم ، ومن جهة ظلمهم لبنى إسرائيل باستعبادهم لهم . قرئ :

ألا يتقون بكسر النون ، بمعنى : ألا يتقوننى فحذفت النون لاجتماع النونين ، والياء للاكتفاء بالكسرة . فإن قلت : بم تعلق قوله : ألا يتقون ؟ قلت : هو كلام مستأنف أتبعه عز وجل إرساله إليهم للإنذار ، والتسجيل عليهم بالظلم ، تعجيبا لموسى من حالهم التي شنعت في الظلم والعسف ، ومن أمنهم العواقب وقله خوفهم وحذرهم من أيام اللّه . ويحتمل أن يكون لا يَتَّقُونَ حالا من الضمير في الظالمين ، أى : يظلمون غير متقين اللّه وعقابه ، فأدخلت همزة

الإنكار على الحال .

وأمّا من قرأ : ألا تتقون . على الخطاب . فعلى طريقة الالتفات إليهم ، وجبههم ، وضرب وجوههم بالإنكار ، والغضب عليهم ، كما ترى من يشكو من ركب جناية إلى بعض أخصائه والجاني حاضر ، فإذا اندفع في الشكاية وحرّ مزاجه « 1 » وحمى غضبه قطع مباثة صاحبه وأقبل على الجاني يونجه ويعنف به ويقول له : ألم تتق اللّه ، ألم تستح من الناس . فإن قلت : فما فائدة هذا الالتفات ، والخطاب مع موسى عليه الصلاة والسلام في وقت المناجاة ، والملتفت إليهم غيب لا يشعرون ؟ قلت : إجراء ذلك في تكليم المرسل إليهم في معنى إجرائه بحضرتهم وإلقائه إلى

---

(1) . قوله «وحر مزاجه» في الصحاح : حر يحر حرا وحرارة وحرور . (ع) [. . . . .]

(175/567)

مسامعهم ، لأنه مبلغه ومنهيه وناشره بين الناس ، وله فيه لطف وحث على زيادة التقوى ، وكم من آية أنزلت في شأن الكافرين وفيها أوفر نصيب للمؤمنين ، تدبرا لها واعتبارا بموردها . وفي أَلَا يَتَّقُونَ بالياء وكسر النون وجه آخر ، وهو أن يكون المعنى : ألا يا ناس اتقون ، كقوله أَلَّا يَسْجُدُوا .

[سورة الشعراء (26) : الآيات 12 إلى 13]

قالَ رَبِّ إِنِّي أَخافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (12) وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلا يَنْطَلِقُ لِسانِي فَأَرْسِلْ إِلى هارُونَ (13)

ويضيق وينطلق ، بالرفع لأنهما معطوفان على خبر إنّ ، وبالنصب لعطفهما على صلة أن . والفرق بينهما في المعنى : أنّ الرفع يفيد أنّ فيه ثلاث علل : خوف التكذيب ، وضيق الصدر ، وامتناع انطلاق اللسان ، والنصب على أنّ خوفه متعلق بهذه الثلاثة . فإن قلت : في النصب تعليق الخوف بالأمور الثلاثة ، وفي جملتها نفى انطلاق اللسان . وحقيقة الخوف إنما هي غم يلحق الإنسان لأمر سيقع ، وذلك كان واقعا ، فكيف جاز تعليق الخوف به ؟ قلت : قد علق الخوف بتكذيبهم وبما يحصل له بسببه من ضيق الصدر ، والحبسة في اللسان زائدة على ما كان به ، على أنّ تلك الحبسة التي كانت به قد زالت بدعوته . وقيل : بقيت منها بقية يسيرة . فإن قلت :

اعتذارك هذا يردّه الرفع ، لأنّ المعنى : إنى خائف ضيق الصدر غير منطلق اللسان . قلت : يجوز أن يكون هذا قبل الدعوة واستجابتها ، ويجوز أن يريد القدر اليسير الذي بقي به ، ويجوز أن لا يكون مع حل العقدة من لسانه من الفصحاء المصاقع «1» الذين أوتوا سلاطة الألسنة وبسطة المقال ، وهرون كان بتلك الصفة ، فأراد أن يقرن به . ويدل عليه قوله تعالى وَأَخِي هارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِساناً ومعنى فَأَرْسِلْ إِلى هارُونَ : أرسل إليه جبرائيل ،

واجعله نبيا ، وآزرنى به «2» ، واشدد به عضدي ، وهذا كلام مختصر . وقد بسطه في غير هذا الموضع ، وقد أحسن في الاختصار حيث قال فَأَرْسِلْ إِلى هارُونَ فجاء بما يتضمن معنى الاستنباء ، ومثله في تقصير الطويلة والحسن قوله تعالى فَقُلْنَا اذْهَبا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا فَدَمَّرْناهُمْ تَدْمِيراً حيث اقتصر على ذكر طرفى القصة أوّلها وآخرها ، وهما الإنذار والتدمير ، ودلّ بذكرهما على ما هو الغرض من القصة الطويلة كلها ، وهو أنهم قوم كذبوا بآيات اللّه ، فأراد اللّه إلزام الحجة عليهم ، فبعث إليهم رسولين فكذبوهما ، فأهلكهم . فإن قلت : كيف ساغ لموسى عليه السلام أن يأمره اللّه بأمر فلا يتقبله بسمع وطاعة من غير توقف وتشبث بعلل ، وقد علم أن اللّه من

---

(1) . قوله «من الفصحاء المصاقع» في الصحاح «صقع الديك» : صاح . وخطيب مصقع ، أى : بليغ . (ع)

(2) . قوله «وآزرنى به» في الصحاح «آزرت فلانا» : عاونته . والعامة تقول : وازرته . (ع)

ورائه؟ قلت: قد امتثل وتقبل، ولكنه التمس من ربه أن يعضده بأخيه حتى يتعاونا على تنفيذ أمره وتبليغ رسالته. فمهد قبل التماسه عذره فيما التمسه، ثم التمس بعد ذلك، وتمهيد العذر في التماس المعين على تنفيذ الأمر: ليس بتوقف في امتثال الأمر، ولا بتعلل فيه، وكفى بطلب العون دليلا على التقبل لا على التعلل.

[سورة الشعراء (26): آية 14]

وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (14)

أراد بالذنب: قتله القبطي. وقيل: كان خباز فرعون واسمه فاتون. يعنى: ولهم عليّ تبعة ذنب، وهي قود ذلك القتل «1»، فأخاف أن يقتلوني به، فحذف المضاف. أو سمى تبعة الذنب ذنبا، كما سمى جزاء السيئة سيئة. فإن قلت: قد أبيت أن تكون تلك الثلاث عللا، وجعلتها تمهيدا للعذر فيما التمسه، فما قولك في هذه الرابعة؟ قلت: هذه استدفاع للبلية المتوقعة. وفرق من أن يقتل قبل أداء الرسالة، فكيف يكون تعللا. والدليل عليه: ما جاء بعده من كلمة الردع، والموعد بالكلاءة والدفع.

[سورة الشعراء (26): الآيات 15 إلى 22]

قالَ كَلَّا فَاذْهَبا بِآياتِنا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ (15) فَأْتِيا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعالَمِينَ (16) أَنْ أَرْسِلْ مَعَنا بَنِي إِسْرائِيلَ (17) قالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (18) وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكافِرِينَ (19)

قالَ فَعَلْتُها إِذاً وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ (20) فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْماً وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ (21) وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّها عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرائِيلَ (22)

جمع اللّه له الاستجابتين معا في قوله كَلَّا فَاذْهَبا لأنه استدفعه بلاءهم فوعده الدفع بردعه عن الخوف ، والتمس منه الموازرة بأخيه فأجابه بقوله فَاذْهَبا أى اذهب أنت والذي طلبته وهو هرون . فإن قلت : علام عطف قوله فَاذْهَبا ؟ قلت : على الفعل الذي يدل عليه كَلَّا كأنه قيل : ارتدع يا موسى عما تظنّ ، فاذهب أنت وهرون . وقوله مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ من مجاز الكلام ، يريد : أنا لكما ولعدوّكما كالناصر الظهير لكما عليه إذا حضر واستمع ما يجرى بينكما

---

(1) . قوله «و هي قود ذلك القتل» لعله القتيل . (ع)

وبينه . فأظهركما وأغلبكما وأكسر شوكته عنكما وأنكسه . ويجوز أن يكونا خبرين لأنّ ، أو يكون مُسْتَمِعُونَ مستقرا ، ومَعَكُمْ لغوا . فإن قلت : لم جعلت مُسْتَمِعُونَ قرينة مَعَكُمْ في كونه من باب المجاز ، واللّه تعالى يوصف على الحقيقة بأنه سميع وسامع ؟ قلت : ولكن لا يوصف بالمستمع على الحقيقة ، لأنّ الاستماع جار مجرى الإصغاء ، والاستماع من السمع

بمنزلة النظر من الرؤية . ومنه قوله تعالى قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً ويقال : استمع إلى حديثه ، وسمع حديثه ، أى : أصغى إليه وأدركه بحاسة السمع . ومنه قوله صلى اللّه عليه وسلم «1» «من استمع إلى حديث قوم وهم له كارهون صبّ في أذنيه البرم» «2» . فإن قلت : هلا ثنى الرسول كما ثنى في قوله إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ ؟ قلت : الرسول يكون بمعنى المرسل ، وبمعنى الرسالة ، فجعل ثم بمعنى المرسل فلم يكن بدّ من تثنيته ، وجعل ها هنا بمعنى الرسالة فجاز التسوية فيه - إذا وصف به - بين الواحد والتثنية والجمع ، كما يفعل بالصفة بالمصادر ، نحو : صوم ، وزور .

قال :

ألكنى إليها وخير الرّسول أعلمهم بنواحي الخبر «3»

فجعله للجماعة . والشاهد في الرسول بمعنى الرسالة قوله :

لقد كذب الواشون ما فهت عندهم بسر ولا أرسلتهم برسول «4»

---

(1) . لم أجده بهذا اللفظ ، والمحفوظ «صب في أذنيه الآنك» وهو الرصاص . وذكره ابن الأثير في النهاية بلفظ : «البرم الدم» وقال : هو الكحل المذاب . قلت : وإنما تلقاه ابن الأثير عن الفائق ، فرجع إلى الزمخشري .

(2) . قوله «صب في أذنيه البرم» في الصحاح «البرم» : ثمر العضاء . (ع)

(3) . لأبى ذؤيب . وألاكه يليكه : إذا أرسله . والمصدر الإلاكة ، فالهمزة زائدة . والأصل

: لاك يلوك ، كقام يقوم . وأما ألكه : إذا أرسله أيضا ، فمصدره : ألوكة وأليكة ومألكة ، بضم اللام وفتحها . ومألك بضمها .

وقيل : ألاكه ، إذا تحمل رسالته . فالمعنى : أرسلنى ، أو تحمل رسالتي إليها . ويروى : إليه : أى : إلى ذلك الأمر . والرسول في الأصل مصدر ، فجاز إفراده مع تعدد معناه ، ولذلك عاد إليه ضمير الجمع في أعلمهم . وشبه الخبر بمكان ذى جهات على طريق المكنية . والنواحي تخييل . أو شبه توابع الخبر التي يسأل عنها تبعا له بالنواحى على طريق التصريحية ، يعنى أنه أعلم من غيره بذلك .

(4) حلفت برب الراقصات إلى منى خلال الملا يمددن كلّ جديل

لقد كذب الواشون ما فهت عندهم بسر ولا أرسلتهم برسول

فلا تعجلي يا عز أن تتفهمى بنصح أتى الواشون أم بجبول

لكثير صاحب عزة . والراقصات : المطايا السائرات إلى منى في الحج ، خلال الملا : أى في أثناء الناس . والجديل الرسن في عنقها تمده به . والواشي : الذي يحسن الكلام ويموهه ، ويخلط الصدق بالكذب ، ويحرف الكلم عن مواضعه . و«ما» نافية ، أى : ما تفوهت عندهم بسر ، ولا أرسلتهم إلى أحد برسول ، أى برسالة ، فهو في الأصل مصدر . وقد يطلق على المرسل ، وهو الظاهر في رواية ، «ولا راسلتهم برسول» أى لا شافهتهم بالسر ولا أرسلت إليهم رسولا به ، وهذه الرواية أوفق بالمقابلة . ويمكن أن أرسلتهم بمعنى

أرسلت إليهم ، والأصل : يا عزة ، فرخم بحذف التاء ، أن تنفهمى ، أى : في أن تنفهمى .

أو لأجل أن تنفهمى ، بنصح ، أى : أبنصح أتى الواشون إليك ، أم بحبول : جمع حبل بالكسر : وهي الداهية العظيمة ، ولا أدهى من الكذب .

(178/567)

ويجوز أن يوحد ، لأنّ حكمهما لتساندهما واتفاقهما على شريعة واحدة ، واتحادهما لذلك وللإخوة كان حكما واحدا ، فكأنهما رسول واحد . أو أريد أنّ كل واحد منا أَنْ أَرْسِلْ بمعنى : أى أرسل ، لتضمن الرسول معنى الإرسال . وتقول : أرسلت إليك أن افعل كذا ، لما في الإرسال من معنى القول ، كما في المناداة والكتابة ونحو ذلك . ومعنى هذا الإرسال :

التخلية والإطلاق كقولك : أرسل البازي ، يريد : خلهم يذهبوا معنا إلى فلسطين ، وكانت مسكنهما . ويروى أنهما انطلقا إلى باب فرعون فلم يؤذن لهما سنة ، حتى قال البواب : إنّ هاهنا إنسانا يزعم أنه رسول رب العالمين ، فقال : ائذن له لعلنا نضحك منه ، فأدّيا إليه الرسالة ، فعرف موسى فقال له أَلَمْ نُرَبِّكَ حذف : فأتيا فرعون فقالا له ذلك ، لأنه معلوم لا يشتبه .

وهذا النوع من الاختصار كثير في التنزيل . الوليد : الصبى لقرب عهده من الولادة . وفي رواية عن أبى عمرو : من عمرك ، بسكون الميم سِنِينَ قيل : مكث عندهم ثلاثين سنة . وقيل : وكز القبطي وهو ابن ثنتى عشرة سنة ، وفرّ منهم على أثرها ، واللّه أعلم بصحيح ذلك .

وعن الشعبي : فعلتك بالكسر ، وهي قتلة القبطي ، لأنه قتله بالوكزة وهو ضرب من القتل . وأما الفعلة ، فلأنها كانت وكزة واحدة . عدّد عليه نعمته من تربيته وتبليغه مبلغ الرجال ، ووبخه بما جرى على يده من قتل خبازه ، وعظم ذلك وفظعه « 1 » بقوله وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكافِرِينَ يجوز أن يكون حالا ، أى : قتلته وأنت لذاك من الكافرين بنعمتي . أو أنت إذ ذاك ممن تكفرهم الساعة ، وقد افترى عليه أو جهل أمره ، لأنه كان يعايشهم بالتقية ، فإنّ اللّه تعالى عاصم من يريد أن يستنبئه من كل كبيرة ومن بعض الصغائر ، فما بال الكفر .

ويجوز أن يكون قوله وَأَنْتَ مِنَ الْكافِرِينَ حكما عليه بأنه من الكافرين بالنعم ، ومن كانت عادته كفران النعم لم يكن قتل خواص المنعم عليه بدعا منه . أو بأنه من الكافرين لفرعون وإلهيته . أو من الذين كانوا يكفرون في دينهم ، فقد كانت لهم آلهة يعبدونهم ، يشهد لذلك قوله تعالى وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ وقرئ : إلهتك ، فأجابه موسى بأن تلك الفعلة إنما فرطت منه وهو مِنَ الضَّالِّينَ أى الجاهلين . وقراءة ابن مسعود : من الجاهلين ، مفسرة . والمعنى : من

(1) . قال محمود : «عدد نعمته عليه ووبخه بما جرى على يديه من قتل خبازه وفظعه عليه بقوله : وفعلت فعلتك» قال أحمد : ووجه التفظيع عليه من ذلك أن في إتيانه به مجملا مبهما ، إيذانا بأنه لفظاعته مما لا ينطق به إلا مكنيا عنه . ونظيره في التفخيم المستفاد من الإبهام قوله تعالى فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ ما غَشِيَهُمْ ، إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ ما يَغْشى ، فَأَوْحى إِلى عَبْدِهِ ما أَوْحى

ومثله كثير ، والله أعلم .

(179/567)

الفاعلين فعل أولى الجهل والسفه . كما قال يوسف لإخوته هَلْ عَلِمْتُمْ ما فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جاهِلُونَ أو المخطئين كمن يقتل خطأ من غير تعمد للقتل . أو الذاهبين عن الصواب .

أو الناسين ، من قوله أَنْ تَضِلَّ إِحْداهُما فَتُذَكِّرَ إِحْداهُمَا الْأُخْرى وكذب فرعون ودفع الوصف بالكفر عن نفسه ، وبرّأ ساحته ، بأن وضع الضالين موضع الكافرين ربأ بمحل من رشح للنبوّة عن تلك الصفة ، ثم كرّ على امتنانه عليه بالتربية ، فأبطله من أصله واستأصله من سنخه «1» ، وأبى أن يسمى نعمته إلا نقمة . حيث بين أن حقيقة إنعامه عليه تعبيد

بنى إسرائيل لأنّ تعبيدهم وقصدهم بذبح أبنائهم هو السبب في حصوله عنده وتربيته ، فكأنه امتن عليه بتعبيد قومه إذا حققت ، وتعبيدهم : تذليلهم واتخاذهم عبيدا . يقال : عبدت الرجل وأعبدته ، إذا اتخذته عبدا . قال :

علام يعبدني قومي وقد كثرت فيهم أباعر ما شاءوا وعبدان «2»

فإن قلت : إذا جواب وجزاء معا ، والكلام وقع جوابا لفرعون ، فكيف وقع جزاء قلت : قول فرعون : وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ فيه معنى : إنك جازيت نعمتي بما فعلت ، فقال له موسى : نعم فعلتها مجازيا لك ، تسليما لقوله ، لأنّ نعمته كانت عنده جديرة بأن تجازى بنحو ذلك الجزاء .

فإن قلت : لم جمع الضمير في منكم وخفتكم ؟ مع إفراده في تمنها وعبدت ؟ قلت : الخوف والفرار لم يكونا منه وحده ، ولكن منه ومن ملئه المؤتمرين بقتله ، بدليل قوله إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ وأما الامتنان فمنه وحده ، وكذلك التعبيد . فإن قلت : تِلْكَ إشارة إلى ما ذا ، وأَنْ عَبَّدْتَ ما محلها من الإعراب ؟ قلت : تلك إشارة إلى خصلة شنعاء مبهمة ، لا يدرى ما هي إلا بتفسيرها . ومحل أَنْ عَبَّدْتَ الرفع عطف بيان لتلك ، ونظيره قوله تعالى وَقَضَيْنا إِلَيْهِ ذلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دابِرَ هؤُلاءِ مَقْطُوعٌ والمعنى : تعبيدك بنى إسرائيل نعمة تمنها على . وقال

---

(1) . قوله «و استأصله من سنخته» في الصحاح «السنخ» الأهل ، وسنخ في العلم سنوخا رسخ : وسنخ الدهر - بالكسر - : لغة في زنخ ، إذا فسد وتغيرت ريحه . يقال :

بيت له سنخة وسناخة اه . (ع)

(2) . علام : استفهام إنكارى عن العلة ، أى : على أى شيء . وأعبدت الرجل وعبدته : إذا اتخذته عبدا . والأباعر :

جمع بعير ، يطلق على الذكر والأنثى من الإبل . والعبد : يجمع على عبدان بالكسر والضم وعبدى ، بتشديد الدال مقصورا وممدودا . ومعبودا ، وعباد ، وأعبد ، وعبيد ، وعبد بضمتين وبفتحتين ، يقول : لأى شيء يتخذونى عبدا ، والحال أنه كثرت فيهم الإبل والعبيد بسببي ، فليتخذوا منها ما شاءوا : بدل من الأباعر أو واقع موقع المصدر لكثرت ، دلالة على التكثير . وفي هذه الحال : تهكم بهم ودلالة على حمقهم . ويجوز أن المعنى : والحال أن بعضهم كالأباعر ، وبعضهم عبيد ، فليكتفوا ببعضهم عنى . وقيل : يجوز أن التقييد بهذه الحالة ، لأنها التي حملتهم على التكبر عليه .

(180/567)

الزجاج : ويجوز أن يكون أَنْ في موضع نصب ، المعنى : إنما صارت نعمة علىّ لأن عبدت بنى إسرائيل ، أى : لو لم تفعل ذلك لكفلنى أهلى ولم يلقوني في اليم .

[سورة الشعراء (26) : آية 23]

قالَ فِرْعَوْنُ وَما رَبُّ الْعالَمِينَ (23)

لما قال له بوّابه إن ها هنا من يزعم أنه رسول رب العالمين قال له عند دخوله : وَما رَبُّ الْعالَمِينَ يريد : أى شيء رب العالمين . وهذا السؤال لا يخلو : إما أن يريد به أى شيء هو من الأشياء التي شوهدت وعرفت أجناسها ، فأجاب بما يستدل به عليه من أفعاله الخاصة ، ليعرّفه أنه ليس بشيء مما شوهد وعرف من الأجرام والأعراض ، وأنه شيء مخالف لجميع الأشياء ، «ليس كمثله شيء» وإما أن يريد به : أى شيء هو على الإطلاق ، تفتيشا عن حقيقته الخاصة ما هي ، فأجابه بأنّ الذي إليه سبيل وهو الكافي في معرفته معرفة ثباته بصفاته ، استدلالا بأفعاله الخاصة على ذلك . وأمّا التفتيش عن حقيقته الخاصة التي هي فوق فطر العقول ، فتفتيش عما لا سبيل إليه ، والسائل عنه متعنت غير طالب للحق .

والذي يليق بحال فرعون ويدل عليه الكلام :

أن يكون سؤاله هذا إنكارا لأن يكون للعالمين رب سواه لادعائه الإلهية ، فلما أجاب موسى بما أجاب ، عجب قومه من جوابه حيث نسب الربوبية إلى غيره ، فلما ثنى بتقرير قوله ، جننه إلى قومه وطنز به «1» ، حيث سماه رسولهم . فلما ثلث بتقرير آخر : احتدّ واحتدم وقال : لئن اتخذت إلها غيرى . وهذا يدل على صحة هذا الوجه الأخير .

[سورة الشعراء (26) : آية 24]

قالَ رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (24)

فإن قلت : كيف قيل وَما بَيْنَهُمَا على التثنية ، والمرجوع إليه مجموع ؟ قلت : أريد وما بين الجنسين ، فعل بالمضمر ما فعل بالظاهر من قال :

في الهيجا جمالين «2»

---

(1) . قوله «وطنز به» أي : سخر به واحتدم ، أي : التهب صدره غيظا . أفاده الصحاح . (ع)

(2) سعى عقالا فلم يترك لنا سبدا فكيف لو قد سعي عمرو عقالين

لأصبح الناس أوبادا ولم يجدوا عند التفرق في الهيجا جمالين

الساعي : المنصوب لأخذ الزكاة . والعقال : زكاة العام ، والمراد به هنا العام ، لأنه جرى مجرى الظرف . والسبد :

الشيء القليل . يقال : لا له سبد ولا لبد ، أي : لا قليل ولا كثير . وقال الأصمعي : الأول من الشعر ، والثاني من الصوف . والأوباد : جمع وبد بفتحتين ، وأصله ضيق العيش وسوء الحال ، فاستعمل استعمال الصفات للمبالغة ، وثنى الجمال على معنى نوعين منها أو طائفتين منها ولو من نوع واحد . يقول : سعى سنة واحدة لأخذ زكاتها ، فظلمنا ولم يترك لنا شيئا قليلا من مالنا ، فكيف يكون حالنا لو سعى عامين . وفي ذكر عمرو بعد تقدم ضميره نوع من التهويل . ويحتمل أنه من باب التنازع ، فيجوز أن الظاهر فاعل الأول ، وفاعل الثاني ضميره ، وقوله «لأصبح» مرتب على محذوف ، أي : لو سعى عقالين ، لأصبح

الناس هلكى من الفقر ، ولم يجدوا عند تفرقهم في الحرب نوعين من الجمال : لكل فريق منهما نوع ، فيختل أمر الغزوات لاحتمال محاربة العدو في جهتين بل في جهات ، فيحتاج إلى جمالين ، بل إلى جمالات .

(181/567)

فإن قلت : ما معنى قوله إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ وأين عن فرعون وملئه الإيقان ؟ قلت : معناه إن كان يرجى منكم الإيقان الذي يؤدى إليه النظر الصحيح نفعكم هذا الجواب ، وإلا لم ينفع . أو إن كنتم موقنين بشيء قط فهذا أولى ما توقنون به ، لظهوره وإنارة دليله .

[سورة الشعراء (26) : الآيات 25 إلى 28]

قالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلا تَسْتَمِعُونَ (25) قالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (26) قالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (27) قالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَما بَيْنَهُما إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (28)

فإن قلت : ومن كان حوله ؟ قلت : أشراف قومه قيل : كانوا خمسمائة رجل عليهم الأساور وكانت الملوك خاصة . فإن قلت : ذكر السماوات والأرض وما بينهما قد استوعب به الخلائق كلها ، فما معنى ذكرهم وذكر آبائهم بعد ذلك وذكر المشرق

والمغرب؟ قلت: قد عمم أوّلا، ثم خصص من العام للبيان أنفسهم وآباءهم. لأن أقرب المنظور فيه من العاقل نفسه ومن ولد منه، وما شاهد وعاين من الدلائل على الصانع، والناقل من هيئة إلى هيئة وحال إلى حال من وقت ميلاده إلى وقت وفاته، ثم خصص المشرق والمغرب، لأن طلوع الشمس من أحد الخافقين وغروبها في الآخر على تقدير مستقيم في فصول السنة وحساب مستو من أظهر ما استدل به ولظهوره انتقل إلى الاحتجاج به خليل اللّه، عن الاحتجاج بالإحياء والإماتة على نمروذ بن كنعان، فبهت الذي كفر. وقرئ: رب المشارق والمغارب. الذي أرسل إليكم بفتح الهمزة.

فإن قلت: كيف قال أوّلا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ وآخرا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ؟ قلت: لاين أوّلا، فلما رأى منهم شدّة الشكيمة «1» في العناد وقلة الإصغاء إلى عرض الحجج خاشن وعارض: إنّ رسولكم لمجنون، بقوله: إن كنتم تعقلون.

[سورة الشعراء (26): آية 29]

قالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلهاً غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (29)

فإن قلت: ألم يكن: لأسجننك، أخصر من لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ومؤديا مؤداه؟ قلت:

أما أخصر فنعم. وأما مؤدّ مؤدّاه فلا، لأنّ معناه: لأجعلنك واحدا ممن عرفت حالهم في

(1) . قوله شدة الشكيمة ، في الصحاح : فلان شديد الشكيمة ، إذا كان شديد النفس أنفا أبيا . (ع)

(182/567)

سجونى . وكان من عادته أن يأخذ من يريد سجنه فيطرحه في هوّة ذاهبة في الأرض بعيدة العمق فردا لا يبصر فيها ولا يسمع ، فكان ذلك أشدّ من القتل وأشدّ .

[سورة الشعراء (26) : الآيات 30 إلى 31]

قالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ (30) قالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (31)

الواو في قوله أَوَلَوْ جِئْتُكَ واو الحال دخلت عليها همزة الاستفهام . معناه : أتفعل بى ذلك ولو جئتك بشيء مبين ، أى : جائيا بالمعجزة . وفي قوله إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ أنه لا يأتى بالمعجزة إلا الصادق في دعواه ، لأن المعجزة تصديق من اللّه لمدعي النبوّة ، والحكيم لا يصدّق الكاذب . ومن العجب أن مثل فرعون لم يخف عليه هذا ، وخفى على ناس من أهل القبلة « 1 » حيث جوّزوا القبيح على اللّه تعالى حتى لزمهم تصديق الكاذبين بالمعجزات»

،

---

(1) . قوله «وخفى على ناس من أهل القبلة» يريد أهل السنة ، حيث قالوا : إن كلا من الحسن والقبيح بقضاء اللّه تعالى وقدره ، ولم يلزمهم باطل كما بين في علم التوحيد . (ع) [. . . . .]

(2) . قال محمود : «علم فرعون أنه لا يأتى بالمعجزة إلا صادق في دعواه ، لأن المعجزة تصديق من اللّه تعالى لمدعي النبوة ، والحكيم لا يصدق الكاذب . ومن العجب أن فرعون لم يخف عليه هذا وخفى على طائفة من أهل القبلة ، حيث جوزوا القبيح على اللّه تعالى حتى لزمهم تصديق الكاذبين بالمعجزات . انتهى كلامه» قال أحمد : ليته سلم وجه تصنيفه من ثآليل هذه الأباطيل ، وكلف هذا التكليف في كيده لأهل السنة وإن كيده لفي تضليل ، بينا هو يعرض بتفضيل فرعون عليهم ، إذا هو قد حتم على إخوانه القدرية أنهم فراعنة ، وأن كلا منهم إذا فتش نفسه وجد فيها نصيبا من فرعنته حيث يقول أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلى لأنهم يعتقدون أن أفعالهم خلقهم ، وأنهم لها مبدعون خالقون كلا إنهم لهم المبتدعون المختلقون ، لأنهم حجروا على اللّه تعالى أن يفعل إلا ما توطأت أوهامهم ، على أنه حسن بالنسبة إلى الخلق في الشاهد ، فمن ثم أشركوا به وهم لا يشعرون .

ولما هدى اللّه تعالى أهل السنة إلى التوحيد الحق ، اعتقدوا أن كل شيء هو مخلوق للّه تعالى لا شريك له في ملكه ، وأن كل ممكن يجوز أن ينظمه سلطان القدرة الأزلية في سلكه ، فكان من الممكنات أن يبتلى اللّه عباده بخرق العادات على أيدى الكذابين ، ومراده إظهار

الضلالات : وقد اندرج ذلك لكونه ممكنا تحت سطوة القدرة حقا بينا ، ثم لم يلزم من ذلك لله الحمد خرم في الدين ، فان توهم ناظر بعين الهوى والغرض ، معنون عما في قلبه من مرض : أن ذلك يجر إلى عدم الوثوق بمعجزات الأنبياء ، حيث كان على يد غيرهم من الكذابين الأشقياء ، قيل : معاذ الله أن نأخذ ذلك بنفس مطمئنة بصدق الأنبياء ، آمنة بحصول العلم لها من وقوع ما جوزه العقل ، ولو قدح الإمكان العقلي في علم حاصل يقيني ، للزم الآن الشك في أن جبال الأرض قد عادت تبرا أحمر ، وترابها مسكا أذفر ، وانقلبت البحار دما عبيطا لأن ذلك ممكن في العقل بلا خلاف ، ولا يشكك نفسه في هذا الإمكان إلا ذو خبل وعته وعمى وعمه ، وأين الزمخشري من الحديث الصحيح في الشاب الذي يكذب الدجال فيقسمه بالسيف جزلتين فيمشي بينهما ، ثم يقول له : عد فيعود حيا ، فيقول له : ما ازددت فيك إلا بصيرة ، أنت الدجال الذي وصفه لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيهم به ثانى مرة فلا يسلط عليه . قال النبي صلى الله عليه وسلم : وهو حينئذ خير أهل الأرض ، أو من خير أهل الأرض» أفرأيت هذا المؤمن لما نظر انخراق العادة على يد أكذب الكاذبين حتى شاهد ذلك في نفسه ، لم يشككه ذلك في معلومه ، فلم يتلكأ في معاودة تكذيبه ، ولكن يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ ما يَشاءُ .

وتقديره : إن كنت من الصادقين في دعواك أتيت به ، فحذف الجزاء ، لأن الأمر بالإتيان به يدل عليه .

[سورة الشعراء (26) : الآيات 32 إلى 33]

فَأَلْقى عَصاهُ فَإِذا هِيَ ثُعْبانٌ مُبِينٌ (32) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذا هِيَ بَيْضاءُ لِلنَّاظِرِينَ (33)

ثُعْبانٌ مُبِينٌ ظاهر الثعبانية ، لا شيء يشبه الثعبان ، كما تكون الأشياء المزوّرة بالشعوذة والسحر . وروى أنها انقلبت حية ارتفعت في السماء قدر ميل ، ثم انحطت مقبلة إلى فرعون ، وجعلت تقول : يا موسى ، مرني بما شئت . ويقول فرعون : أسألك بالذي أرسلك إلا أخذتها ، فأخذها فعادت عصا لِلنَّاظِرِينَ دليل على أن بياضها كان شيئا يجتمع النظارة على النظر إليه ، لخروجه عن العادة ، وكان بياضا نوريا . روى أنّ فرعون لما أبصر الآية الأولى قال : فهل غيرها ؟ فأخرج يده فقال له : ما هذه ؟ قال : يدك فما فيها ؟ فأدخلها في إبطه ثم نزعها ولها شعاع يكاد يغشى الأبصار «1» ويسدّ الأفق .

[سورة الشعراء (26) : الآيات 34 إلى 35]

قالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هذا لَساحِرٌ عَلِيمٌ (34) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَما ذا تَأْمُرُونَ (35)

فإن قلت : ما العامل في حَوْلَهُ ؟ قلت : هو منصوب نصبين : نصب في اللفظ ، ونصب في

المحل ، فالعامل في النصب اللفظي ما يقدر في الظرف ، والعامل في النصب المحلى وهو النصب على الحال : قال : ولقد تحير فرعون لما أبصر الآيتين ، وبقي لا يدرى أى طرفيه أطول ، حتى زلّ عنه ذكر دعوى الإلهية ، وحط عن منكبيه كبرياء الربوبية ، وارتعدت فرائصه ، وانتفخ سحره خوفا وفرقا «2» ، وبلغت به الاستكانة لقومه الذين هم بزعمه عبيده وهو إلههم : أن طفق يؤامرهم ويعترف لهم بما حذر منه وتوقعه وأحسّ به من جهة موسى عليه السلام وغلبته على ملكه وأرضه ، وقوله إِنَّ هذا لَساحِرٌ عَلِيمٌ قول باهت إذا غلب ومتمحل إذا لزم تَأْمُرُونَ من المؤامرة وهي المشاورة . أو من الأمر الذي هو ضدّ النهى : جعل العبيد آمرين وربهم مأمورا لما استولى عليه من فرط الدهش والحيرة . وما ذا منصوب : إما لكونه في معنى المصدر ، وإما لأنه مفعول به من قوله : أمرتك الخير .

---

(1) . قوله «و لها شعاع يكاد يغشى الأبصار» في الصحاح «الغشاء» : الغطاء اه . ولعل عبارة المصنف يعشى بالعين المهملة ، وفي الصحاح «العشا» مقصور : مصدر : الأعشى ، وهو الذي لا يبصر بالليل ويبصر بالنهار . (ع)

(2) . قوله «و انتفخ سحره خوفا وفرقا» في الصحاح «السحر» : الرئة . ويقال للجبان : قد انتفخ سحره . (ع)

[سورة الشعراء (26) : الآيات 36 إلى 37]

قالُوا أَرْجِهْ وَأَخاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدائِنِ حاشِرِينَ (36) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ (37)

قرئ: أرجئه وأرجه: بالهمز والتخفيف، وهما لغتان. يقال: أرجأته وأرجيته، إذا أخرته. ومنه: المرجئة «1»، وهم الذين لا يقطعون بوعيد الفساق ويقولون: هم مرجئون لأمر اللّه. والمعنى: أخره ومناظرته لوقت اجتماع السحرة. وقيل: احبسه حاشِرِينَ شرطا يحشرون السحرة «2»، وعارضوا قوله: إن هذا الساحر، بقولهم: بكل سحار، فجاءوا بكلمة الإحاطة وصفة المبالغة، ليطامنوا من نفسه ويسكنوا بعض قلقه. وقرأ الأعمش: بكل ساحر.

[سورة الشعراء (26) : الآيات 38 إلى 40]

فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (38) وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ (39) لَعَلَّنا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كانُوا هُمُ الْغالِبِينَ (40)

اليوم المعلوم: يوم الزينة. وميقاته: وقت الضحى، لأنه الوقت الذي وقته لهم موسى صلوات اللّه عليه من يوم الزينة في قوله مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى والميقات:

ما وقت به، أى حدد من زمان أو مكان. ومنه: مواقيت الإحرام هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ

استبطاء لهم في الاجتماع ، والمراد منه : استعجالهم واستحثاثهم ، كما يقول الرجل لغلامه : هل أنت منطلق : إذا أراد أن يحرّك منه ويحثه على الانطلاق ، كأنما يخيل له أن الناس قد انطلقوا وهو واقف . ومنه قول تأبط شرا :

هل أنت باعث دينار لحاجتنا أو عبد ربّ أخا عون بن مخراق «3»

يريد : ابعثه إلينا سريعا ولا تبطئ به لَعَلَّنا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ أي في دينهم إن غلبوا موسى ،

---

(1) . قال محمود : «معناه أخره . ومنه المرجئة الذين لا يقطعون بوعيد الفساق ويقولون : هم مرجئون لأمر اللّه» قال أحمد : ضاقت عليه المسالك في تفسير الارجاء ، حتى استدل عليه بالمرجئة ، وصرف هذا اللقب لأهل السنة ، فإنهم هم الذين لا يقطعون بوعيد فساق المؤمنين ، ويقولون : أمرهم إلى اللّه ، إن شاء عذبهم ، وإن شاء غفر لهم . فان كانت المرجئة هم المؤمنون بقوله تعالى إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ اللهم فاشهد أنا مرجئة .

(2) . قوله «شرطا يحشرون السحرة» الشرط - محركة - : الحرس ، سموا بذلك لأنهم جعلوا لأنفسهم علامة يعرفون بها ، أفاده الصحاح . (ع)

(3) . لتأبط شرا . وقيل : لجرير الخطفى ، وهل : استفهام استبطائى فيه حث على الفعل . ودينار : اسم رجل وعبد رب كذلك ، وهو نصب عطفا على محل دينار ، لأنه

مفعول معنى . وأخا عوف : نعت له . وقيل : منادى .

وعوف ومخراق : اسمان لرجلين . ويروى «عون» بالنون .

(185/567)

ولا تتبع موسى في دينه . وليس غرضهم باتباع السحرة «1» ، وإنما الغرض الكلى : أن لا يتبعوا موسى ، فساقوا الكلام مساق الكناية لأنهم إذا اتبعوهم لم يكونوا متبعين لموسى عليه السلام .

[سورة الشعراء (26) : الآيات 41 إلى 42]

فَلَمَّا جاءَ السَّحَرَةُ قالُوا لِفِرْعَوْنَ أَإِنَّ لَنا لَأَجْراً إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغالِبِينَ (41) قالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذاً لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (42)

وقرئ : نعم ، بالكسر «2» ، وهما لغتان . ولما كان قوله إِنَّ لَنا لَأَجْراً في معنى جزاء الشرط ، لدلالته عليه ، وكان قوله وَإِنَّكُمْ إِذاً لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ معطوفا عليه ومدخلا في حكمه ، دخلت إذا قارّة في مكانها الذي تقتضيه من الجواب والجزاء ، وعدهم أن يجمع لهم إلى الثواب على سحرهم الذي قدروا أنهم يغلبون به موسى : القربة عنده والزلفى .

[سورة الشعراء (26) : الآيات 43 إلى 44]

قالَ لَهُمْ مُوسى أَلْقُوا ما أَنْتُمْ مُلْقُونَ (43) فَأَلْقَوْا حِبالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغالِبُونَ (44)

أقسموا بعزة فرعون وهي من أيمان الجاهلية ، وهكذا كل حلف بغير اللّه ، ولا يصح في الإسلام إلا الحلف باللّه معلقا ببعض أسمائه أو صفاته ، كقولك : باللّه ، والرحمن ، وربى ، ورب العرش ، وعزة اللّه ، وقدرة اللّه ، وجلال اللّه ، وعظمة اللّه . قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «لا تحلفوا بآبائكم ولا بأمّهاتكم ولا بالطواغيت ، ولا تحلفوا إلا باللّه ، ولا تحلفوا باللّه إلا وأنتم صادقون» «3» ولقد استحدث الناس في هذا الباب في إسلامهم جاهلية نسيت لها الجاهلية الأولى ، وذلك أنّ الواحد منهم لو أقسم بأسماء اللّه كلها وصفاته على شيء : لم يقبل منه ، ولم يعتدّ بها حتى يقسم برأس سلطانه ، فإذا أقسم به فتلك عندهم جهد اليمين التي ليس وراءها حلف لحالف .

[سورة الشعراء (26) : الآيات 45 إلى 48]

فَأَلْقى مُوسى عَصاهُ فَإِذا هِيَ تَلْقَفُ ما يَأْفِكُونَ (45) فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ ساجِدِينَ (46) قالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعالَمِينَ (47) رَبِّ مُوسى وَهارُونَ (48)

---

(1) . قوله «باتباع السحرة» لعله : اتباع ، كعبارة النسفي . (ع)

(2) . قوله «و قرئ نعم بالكسر» أى كسر العين ، كما في الصحاح . (ع)

(3) . أخرجه النسائي من حديث أبى هريرة دون قوله «و لا تحلفوا إلا باللّه» وقال

«بالأنداد» بدل الطواغيت وله من حديث عبد الرحمن بن سمرة «لا تحلفوا بآبائكم ولا بالطواغيت» مختصر . وفي الصحيحين عن ابن عمر رفعه «من كان حالفا فلا يحلف إلا باللّه» .

(186/567)

ما يَأْفِكُونَ ما يقلبونه عن وجهه وحقيقته بسحرهم وكيدهم ، ويزوّرونه فيخيلون في حبالهم وعصيهم أنها حيات تسعى ، بالتمويه على الناظرين أو إفكهم : سمى تلك الأشياء إفكا مبالغة . روى أنهم قالوا : إن يك ما جاء به موسى سحرا فلن يغلب ، وإن كان من عند اللّه فلن يخفى علينا ، فلما قذف عصاه فتلقفت ما أتوا به ، علموا أنه من اللّه فآمنوا . وعن عكرمة رضى اللّه عنه : أصبحوا سحرة وأمسوا شهداء . وإنما عبر عن الخرور بالإلقاء ، لأنه ذكر مع الإلقاآت ، فسلك به طريق المشاكلة . وفيه أيضا مع مراعاة المشاكلة أنهم حين رأوا ما رأوا ، لم يتمالكوا أن رموا بأنفسهم إلى الأرض ساجدين ، كأنهم أخذوا فطرحوا طرحا . فإن قلت : فاعل الإلقاء ما هو لو صرح به ؟ قلت : هو اللّه عزّ وجل بما خوّلهم من التوفيق . أو إيمانهم . أو ما عاينوا من المعجزات الباهرة ، ولك أن لا تقدّر فاعلا ، لأنّ أُلْقُوا بمعنى خرّوا وسقطوا رَبِّ مُوسى وَهارُونَ عطف بيان لرب العالمين ، لأنّ فرعون

لعنة اللّه عليه كان يدعى الربوبية ، فأرادوا أن يعزلوه . ومعنى إضافته إليهما في ذلك المقام : أنه الذي يدعو إليه هذان ، والذي أجرى على أيديهما ما أجرى .

[سورة الشعراء (26) : آية 49]

قالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (49)

فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ أى وبال ما فعلتم .

[سورة الشعراء (26) : الآيات 50 إلى 51]

قالُوا لا ضَيْرَ إِنَّا إِلى رَبِّنا مُنْقَلِبُونَ (50) إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنا رَبُّنا خَطايانا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ (51)

الضر والضير والضور : واحد ، أرادوا : لا ضرر علينا في ذلك ، بل لنا فيه أعظم النفع لما يحصل لنا في الصبر عليه لوجه اللّه ، من تكفير الخطايا والثواب العظيم ، مع الأعواض الكثيرة .

أو لا ضير علينا فيما تتوعدنا به من القتل أنه لا بد لنا من الانقلاب إلى ربنا بسبب من أسباب الموت . والقتل أهون أسبابه وأرجاها . أو لا ضير علينا في قتلك ، إنك إن قتلتنا انقلبنا إلى ربنا انقلاب من يطمع في مغفرته ويرجو رحمته ، لما رزقنا من السبق إلى الإيمان وخبر لا محذوف . والمعنى : لا ضير في ذلك ، أو علينا أَنْ كُنَّا معناه : لأن كنا ، وكانوا أوّل

جماعة مؤمنين من أهل زمانهم ، أو من رعية فرعون ، أو من أهل المشهد . وقرئ : إن كنا ، بالكسر وهو من الشرط الذي يجيء به المدلّ بأمره « 1 » ، المتحقق لصحته ، وهم كانوا متحققين أنهم أوّل

(1) . قوله «المدل بأمره» أي الواثق به . أفاده الصحاح . (ع)

(187/567)

المؤمنين . ونظيره قول العامل لمن يؤخر جعله : إن كنت عملت لك فوفني حقي ومنه قوله تعالى إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهاداً فِي سَبِيلِي وَابْتِغاءَ مَرْضاتِي مع علمه أنهم لم يخرجوا إلا لذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشاف حـ 3 صـ 292.314 ﴾

(188/567)

وقال الخازن :

قوله ﴿ طسم ﴾

قال ابن عباس : عجزت العلماء عن علم تفسيرها وفي رواية أخرى عنه أنه قسم ، وهو من

أسماء الله تعالى وقيل اسم من أسماء القرآن ، وقيل اسم السورة وقيل أقسم بطوله وسنائه وملكه ﴿ تلك آيات ﴾ أي هذه الآيات آيات ﴿ الكتاب المبين ﴾ قيل لما كان القرآن فيه دلائل التوحيد ، والإعجاز الدالة على نبوة محمد (صلى الله عليه وسلم) ودلائل الأحكام أجمع ثبت بذلك أن آيات القرآن كافية مبينة لجميع الأحكام .

﴿ لعلك باخع نفسك ﴾ أي قاتل نفسك ﴿ ألا يكونوا مؤمنين ﴾ أي إن لم يؤمنوا وذلك حين كذبه أهل مكة فشق عليه ذلك وكان يحرص على إيمانهم ، فأنزل الله هذه الآية ﴿ إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين ﴾ أي لو شاء الله لأنزل عليهم آية يذلون منها فلا يلوي أحد منهم عنقه إلى معصية الله سبحانه وتعالى .

وقيل : معناه لو شاء الله لأراهم أمراً من أمره لا يعمل أحد منهم بعده معصية .

فإن قلت : كيف صح مجيء خاضعين خبراً عن الأعناق .

قلت أصل الكلام فظلوا لها خاضعين فأقحمت الأعناق لبيان الخضوع وترك الكلام على أصله أو لما ، وصفت بالخضوع الذي هو للعقلاء قيل خاضعين .

(189/567)

وقيل : أعناق الناس رؤساؤهم ومقدموهم أي فظلت كبراؤهم لها خاضعين وقيل أراد بالأعناق الجماعات ، يقال جاء عنق من الناس أي جماعة قوله تعالى ﴿ وما يأتيهم من ذكر من الرحمن ﴾ أي وعظ وتذكير ﴿ محدث ﴾ أي محدث إنزاله فهو محدث التنزيل وكلما نزل شيء من القرآن بعد شيء فهو أحدث من الأول ﴿ إلا كانوا عنه معرضين ﴾ أي عن الإيمان به ﴿ فقد كذبوا فسيأتيهم ﴾ أي فسوف يأتيهم ﴿ أنباء ﴾ أي أخبار وعواقب ﴿ ما كانوا به يستهزئون أولم يروا إلى الأرض ﴾ يعني المشركين ﴿ كم أنبتنا فيها ﴾ أي بعد أن لم يكن فيها نبات ﴿ من كل زوج كريم ﴾ أي جنس ونوع وصنف حسن من النبات مما يأكل الناس والأنعام ، قال الشعبي : الناس من نبات الأرض فمن دخل الجنة فهو كريم ومن دخل النار فهو لئيم ﴿ إن في ذلك ﴾ أي الذي ذكر ﴿ لآية ﴾ تدل على أنه واحد أي دلالة على كمال قدرتنا وتوحيدنا كما قيل :

وفي كل شيء له آية . . .

تدل على أنه واحد

و ﴿ وما كان أكثرهم مؤمنين ﴾ أي سبق علمي فيهم أن أكثرهم لا يؤمنون ولا يصدقون .

﴿ وإن ربك لهو العزيز ﴾ أي المنتقم من أعدائه ﴿ الرحيم ﴾ ذو الرحمة لأوليائه .

قوله تعالى ﴿ وإذ نادى ﴾ أي واذكر يا محمد إذ نادى ﴿ ربك موسى ﴾ أي حين رأى الشجرة والنار ﴿ أن ائت القوم الظالمين ﴾ يعني الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والمعاصي

وظلموا بني إسرائيل باستعبادهم وسومهم سوء العذاب ﴿ قوم فرعون ﴾ يعني القبط ﴿ ألا يتقون ﴾ أي يصرفون عن أنفسهم عقوبة الله بطاعته والإيمان به ﴿ قال ﴾ يعني موسى ﴿ رب ﴾ أي يا رب ﴿ إني أخاف أن يكذبون ويضيق صدري ﴾ أي بتكذيبهم إياي ﴿ ولا ينطلق لساني ﴾ أي للعقدة التي كانت على لسانه ﴿ فأرسل إلى هارون ﴾ ليوازرني ويعينني على تبليغ الرسالة ﴿ ولهم عليَّ ذنب ﴾ أي دعوى ذنب وهو قتله القبطي ﴿ فأخاف أن يقتلون ﴾ أي به ﴿ قال ﴾ الله تعالى ﴿ كلا ﴾ أي لن يقتلوك ﴿ فاذهبا بآياتنا إنا معكم مستمعون ﴾ أي سامعون ما تقولون وما يقال لكم .

(190/567)

فإن قلت : كيف ذكرهم بلفظ الجمع في قوله معكم وهما اثنان .

قلت : أجراهما مجرى الجماعة ، وهو جائز في لغة العرب ﴿ فائتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين ﴾ فإن قلت هلا ثنى الرسول كما في قوله : فائتياه فقولا إنا رسولا ربك .

قلت : الرسول قد يكون بمعنى المرسل وبمعنى الرسالة فجعله ثم بمعنى المرسل فلم يكن بد من تثنيته ، وجعله هنا بمعنى الرسالة فجازت التسوية فيه ، إذا وصف به الواحد والتثنية والجمع والمعنى أنا ذو رسالة كما قال كثير :

لقد كذب الواشون ما فهت عندهم . . .

بشيء ولا أرسلتهم برسول

(191/567)

أي برسالة وقيل إنهما لاتفاقهما في الرسالة ، والشريعة والإخوة فصارا كأنهما رسول واحد وقيل كل واحد منا رسول رب العالمين ﴿ أن أرسل معنا بني إسرائيل ﴾ أي خلهم وأطلقهم معنا إلى أرض فلسطين ولا تستعبدهم وكان فرعون قد استعبدهم أربعمائة سنة وكانوا في ذلك الوقت ستمائة ألف وثلاثين ألفاً ، فانطلق موسى برسالة ربه إلى مصر وهارون بها فأخبره بذلك ، وفي القصة أن موسى رجع إلى مصر وعليه جبة صوف وفي يده عصاه والمكتل معلق في رأس العصا ، وفيه زاده فدخل دار نفسه وأخبر هارون أن الله قد أرسلني إلى فرعون وأرسل إليك ندعو فرعون إلى الله تعالى فخرجت أمهما فصاحت وقالت : إن فرعون يطلبك ليقتلك فإذا ذهبت إليه قتلك فلم يمتنع لقولها وذهبا إلى باب فرعون وذلك بالليل فدقا الباب ففزع البوابون وقالوا : من بالباب فقال أنا موسى رسول رب العالمين فذهب البوابون إلى فرعون وقالوا إن مجنوناً بالباب يزعم أنه رسول رب العالمين فترك حتى أصبح ثم دعاهما وقيل إنهما انطلقا جميعاً إلى فرعون فلم يؤذن لهما سنة في الدخول ،

ثم دخل البواب فقال لفرعون ها هنا إنسان يزعم أنه رسول رب العالمين فقال فرعون : ائذن له لعلنا نضحك منه فدخلا على فرعون وأديا رسالة الله تعالى فعرف فرعون موسى لأنه نشأ في بيته ف ﴿ قال ﴾ له ﴿ ألم نربك فينا وليداً ﴾ يعني صبياً ﴿ ولبثت فينا من عمرك سنين ﴾ أي ثلاثين سنة ﴿ وفعلت فعلتك التي فعلت ﴾ يعني قتلت القبطي ﴿ وأنت من الكافرين ﴾ قال أكثر المفسرين من الجاحدين لنعمتي وحق تربيتي يقول ربيناك فينا فكافأتنا أن قتلت منا نفساً ، وكفرت نعمتنا وهي رواية عن ابن عباس قال إن فرعون لم يكن يعلم الكافر بالربوبية ولأن الكفر غير جائز على الأنبياء لا قبل النبوة ، ولا بعدها وقيل معناه وأنت من الكافرين بفرعون وإلهيته ﴿ قال ﴾ يعني موسى ﴿ فعلتها إذاً وأنا من الضالين ﴾ أي من الجاهلين بأن ذلك يؤدي إلى قتله لأن فعل الوكزة على وجه التأديب لا

على وجه القتل وقيل من الضالين عن طريق الصواب وقيل من المخطئين ﴿ ففررت منكم ﴾ اي إلى مدين ﴿ لما خفتكم فوهب لي ربي حكماً ﴾ يعني النبوة وقيل العلم والفهم ﴿ وجعلني من المرسلين وتلك نعمة تمنها علي أن عبدت بني إسرائيل ﴾ أي اتخذتهم عبيداً قيل : عدها موسى نعمة منه عليه حيث رباه لم يقتله كما قتل ولدان بني إسرائيل ، ولم

يستعبده كما استعبد بني اسرائيل فيكون معنى الآية وتلك نعمة تمنها علي أن عبدت بني اسرائيل وتركتني فلم تستعبدني ، وقيل هو على طريق الإنكار ومعنى الآية أو تلك نعمة على طريق الاستفهام ، فحذف الألف كما قال عمر بن عبد الله بن ربيعة :

لم أنس يوم الرحيل وقفتها . . .

وطرفها من دموعها غرق

وقولها والركاب واقفة . . .

تتركني هكذا وتنطلق

أي أتتركني ، والمعنى أتمن علي أن ربيتني وتنسى جنايتك على بني إسرائيل بالاستعباد والمعاملات القبيحة أو يريد كيف تمن علي بالتربية ، وقد استعبدت قومي ومن أهين قومه فقد ذل فتعبد بني إسرائيل قد أحبط حسناتك إلي ، ولو لم تستعبدهم ولم تقتل أولادهم لم أرفع إليك تربيني وتكلفني ، ولكان لي من أهلي من يربيني ولم يلقوني في اليم .

(193/567)

﴿ قال فرعون وما رب العالمين ﴾ يقول أي شيء رب العالمين الذي تزعم أنك رسوله أي يستوصفه إلهه الذي أرسله إليه ، وهو سؤال عن جنس الشيء ، والله تعالى منزه عن

الجنسية والماهية فلهذا عدل موسى عن جوابه ، وأجابه بذكر أفعاله وآثار قدرته التي تعجز الخلائق عن الإتيان بمثلها ﴿ قال رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين ﴾ أنه خالقهما فاعرفوا أنه لايمكن تعريفه إلا بما ذكرته لكم ، فإن أيقنتم بذلك لزمكم أن تقطعوا أنه لا جواب لكم عن هذا السؤال إلا ما ذكرته من الجواب ، وقال أهل المعاني أي كما توقنون هذه الأشياء التي تعاينونها ، فأيقنوا أن إله الخلق هو الله تعالى الذي خلقها وأوجدها فلما قال ذلك موسى تحير فرعون في جواب موسى ﴿ قال لمن حوله ﴾ أي من أشراف قومه قال ابن عباس : كانوا خمسمائة رجل عليه الأسورة ﴿ ألا تستمعون ﴾ وإنما قال فرعون : ذلك على سبيل التعجب من جواب موسى ، يعني أني إنما أطلب منها الماهية وخصوصية الحقيقة وهو يجيبني بأفعاله وآثاره وقيل : إنهم كانوا يعتقدون إن آلهتهم ملوكهم ثم زادهم موسى في البيان ﴿ قال ربكم ورب آبائكم الأولين ﴾ يعني أن موسى ذكر ما هو أقرب فقال ربكم يعني أنه خالقكم وخالق آبائكم الأولين ﴿ قال ﴾ يعني فرعون ﴿ إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون ﴾ يعني المقصود من السؤال طلب الماهية ، وهو يجيب بالآثار الخارجة وهذا لا يفيد البتة فهذا الذي يدعي الرسالة مجنون لا يفهم السؤال فضلاً عن أن يجيب عنه ، ويتكلم بكلامه لا نقبله ولا نعرف صحته ، وكان عندهم أن من لا يعتقد ما يعتقدون ليس بعاقل فزاد في البيان ﴿ قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون ﴾ فعدل إلى طريق ثالث أوضح من الثاني ، ومعنى إن كنتم تعقلون قد عرفتم

أنه لا جواب عن سؤالك إلا ما ذكرت ﴿ قال ﴾ فرعون حين لزمته الحجة ، وانقطع عنه الجواب تكبراً عن الحق ﴿ لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين ﴾ قيل كان سجن فرعون

(194/567)

أشد من القتل ، لأنه كان يأخذ الرجل فيطرحه في مكان يهوي فيه إلى الأرض وحده فرداً لا يسمع ولا يبصر فيه ﴿ قال ﴾ له موسى حين توعده بالسجن ﴿ أولو جئتك بشيء مبين ﴾ أي بآية بينة والمعنى أتفعل ذلك ، ولو جئتك بحجة بينة وإنما قال ذلك موسى لأن من أخلاق الناس السكون إلى الإنصاف والإجابة إلى الحق بالبيان ﴿ قال ﴾ يعني فرعون ﴿ فأت به ﴾ أي إنا لن نسجنك حينئذٍ ﴿ إن كنت من الصادقين فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين قيل إنها لما صارت حية ارتفعت في السماء ، قدر ميل ثم انحطت مقبلة إلى فرعون فقال : بالذي أرسلك ألا أخذتها فأخذها موسى ، فعادت عصاً كما كانت فقال وهل غيرها قال نعم وأراه يده في أدخلها في جيبه ثم أخرجها ، فإذا هي بيضاء من غير برص لها شعاع كشعاع الشمس وهو قوله ﴿ ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين ﴾ فعند ذلك ﴿ قال ﴾ فرعون ﴿ للملأ حوله إن هذا ﴾ يعني موسى ﴿ لساحر عليم ﴾ وكان

زمان السحر فلهذا روج فرعون هذا القول على قومه ثم قال ﴿ يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره ﴾ قال هذا القول على سبيل التنفير لئلا يقبلوا قول موسى ﴿ فما تأمرون ﴾ يعني ما رأيكم فيه وما الذي أعمله فعند ذلك ﴿ قالوا أرجه وأخاه ﴾ أي أخره وأخاه ﴿ وابعث في المدائن حاشرين يأتوك بكل سحار عليم ﴾ قيل إن فرعون أراد قتل موسى فقالوا لا تفعل فإنك إن قتلته دخلت الناس شبهة في أمره ولكن أخره ، واجمع له سحرة ليقاوموه ولا تثبت له عليك حجة .

(195/567)

قوله تعالى ﴿ فجمع السحرة لميقات يوم معلوم ﴾ يعني يوم الزينة قال ابن عباس وافق ذلك يوم السبت في أول يوم من السنة ، وهو يوم النيروز ﴿ وقيل للناس هل أنتم مجتمعون ﴾ أي لتنظروا ما يفعل الفريقان ، ولمن تكون الغلبة ﴿ لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين ﴾ لموسى قيل أراد بالسحرة موسى وهارون وقالوا : ذلك على طريقة الاستهزاء ﴿ فلما جاء السحرة قالوا لفرعون أئن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين ﴾ طلبوا من فرعون الجزاء ، وهو بذل المال والجاه فبذل لهم ذلك كله .

وقوله : ﴿ قال نعم وإنكم لمن المقربين قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون فألقوا حبالهم

وعصيهم وقالوا بعزة فرعون ﴾ أي بعظمة فرعون ﴿ إنا لنحن الغالبون فألقى موسى عصاه فإذا هي تلقف ما يأفكون ﴾ أي ما يقلبونه عن وجهه وحقيقته بسحرهم قيل : إن عصى موسى صارت حية وابتلعت كل ما رموه من حبالهم وعصيهم ثم أخذها موسى فإذا هي كما كانت أول مرة ﴿ فألقي السحرة ساجدين ﴾ قيل إنهم لما رأوا ما جاوز حد السحر علموا أنه ليس بسحر ، ثم لم يتمالكوا أن خروا ساجدين ثم إنهم ﴿ قالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهارون ﴾ وإنما قالوا رب موسى وهارون ، لأن فرعون كان يدعي الربوبية فأرادوا عزله ﴿ قال آمنتم له قبل أن آذن لكم إنه لكبيركم الذي علمكم السحر فلسوف تعلمون ﴾ فيه وعيد مطلق وتهديد شديد ثم بين ذلك الوعيد فقال ﴿ لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم أجمعين قالوا لا ضير إنا إلا ربنا منقلبون ﴾ أي لا ضرر علينا فيما ينالنا في الدنيا ، لأنا نتقلب ونصير إلى ربنا في الآخرة مؤمنين مؤملين غفرانه وهو قولهم ﴿ إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا ﴾ أي الكفر والسحر ﴿ أن ﴾ أي لأن ﴿ كنا أو المؤمنين ﴾ أي من أهل زماننا وقيل أول المؤمنين أي من الجماعة الذين حضروا ذلك الجمع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 5 صـ 112 .

﴿ 117

(196/567)

وقال ابن جزى :

﴿ بَاخِعٌ ﴾ ذكر في الكهف ﴿ فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴾ الأعناق جمع عنق وهي الجارحة المعروفة ، وإنما جمع خاضعين جمع العقلاء ؛ لأنه أضاف الأعناق إلى العقلاء ، ولأنه وصفها بفعل لا يكون إلا من العقلاء ، وقيل : الأعناق الرؤساء من الناس شبهوا بالأعناق كما يقال لهم : رؤوس وصدور ، وقيل : هم الجماعات من الناس ، فلا يحتاج جمع خاضعين إلى تأويل ﴿ مُحْدَثٍ ﴾ يعني به محدث الإتيان ﴿ فَسَيَأْتِيهِمْ ﴾ الآية : تهديد ﴿ مِن كُلِّ زَوْجٍ ﴾ أي من كل صنف من النبات فيعم ذلك الأقوات والفواكه والأدوية والمرعى ، ووصفه بالكرم لما فيه من الحسن ومن المنافع ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ﴾ الإشارة إلى ما تقدّم من النبات ، وإنما ذكره بلفظ الإفراد لأنه أراد أن في كل واحد آية أو إشارة إلى مصدر قوله : ﴿ أَنبَتْنَا ﴾ .

(197/567)

﴿ وَيَضِيقُ صَدْرِي ﴾ بالرفع عطف على أخاف ، أو استئناف ، وقرىء بالنصب عطفاً على ﴿ يُكَذِّبُونِ ﴾ ﴿ فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ ﴾ أي اجعله معي رسولاً أستعين به

﴿ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ ﴾ يعني قتله للقبطي ﴿ قَالَ كَلاَّ ﴾ أي لا تخف أن يقتلوك ﴿ إِنَّا مَعَكُمْ ﴾ خطاب لموسى وأخيه ومن كان معهما . أو على جعل الاثنين جماعة ﴿ مُّسْتَمِعُونَ ﴾ لفظه جمع ، وورد مورد تعظيم الله تعالى ، ويحتمل أن تكون الملائكة هي التي تسمع بأمر الله ، لأن الله لا يوصف بالاستماع ، وإنما يوصف بالسمع والأول أحسن ، وتأويله : أن في الاستماع اعتناء واهتماماً بالأمر ليست في صفة سامعون ، والخطاب في قوله : ﴿ مَعَكُمْ ﴾ لموسى وهارون وفرعون وقومه ، وقيل : لموسى وهارون خاصة على معاملة الاثنين معاملة الجماعة ، ذلك على قول من يرى أن أقل الجمع اثنان ﴿ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ﴾ إن قيل : لم أفرده وهما اثنان ؟ فالجواب من ثلاثة أوجه : الأول أنّ التقدير كل واحد منا رسول . الثاني : أنهما جعلا كشخص واحد لاتفاقهما في الشريعة ، ولأنهما أخوان فكأنهما واحد . الثالث : أن ﴿ رَسُولُ ﴾ هنا مصدر وصف به ، فلذلك أطلق على الواحد والاثنين والجماعة ، فإنه يقال رسول بمعنى رسالة ، بخلاف قوله إنا رسولا فإنه بمعنى الرسل ، ﴿ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بني إِسْرَائِيلَ ﴾ أي أطلقهم ﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً ﴾ قصد فرعون بهذا الكلام المنّ على الموسى والاحتقار له .

(198/567)

﴿ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ التي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الكافرين ﴾ قصد فرعون بهذا الكلام توبيخ موسى عليه السلام ، ويعني بالفعلة : قتله للقبطي ، والواو في قوله : ﴿ وَأَنتَ ﴾ إن كانت للحال فقوله من الكافرين ، معناه كافراً بهذا الدين الذي جئت به لأن موسى إنما أظهر لهم الإسلام بعد الرسالة ، وقد كان قبل ذلك مؤمناً ، ولم يعلم بذلك فرعون ، وقيل : معناه من الكافرين بنعمتي ، وإن كانت الواو للاستئناف : فيحتمل أن يريد من الكافرين بديني ، ومن الكفارين بنعمتي ﴿ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذاً وَأَنَاْ مِنَ الضالين ﴾ القائل هنا هو موسى عليه السلام ، والضمير في قوله : فعلتها لقتله القبطي ، واختلف في معنى قوله : ﴿ مِنَ الضالين ﴾ ، فقيل : معناه من الجاهلين بأن وكزتي تقتله ، وقيل ؛ معناه من الناسين ، فهو كقوله : ﴿ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا ﴾ [البقرة : 282] وقوله ﴿ إِذاً ﴾ صلة في الكلام ، وكأنها بمعنى حنيئذ ، قال ذلك ابن عطية ﴿ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ ﴾ أي من فرعون وقومه ، ولذلك جمع ضمير الخطاب بعد أن أفرده في قوله ﴿ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ ﴾ ﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ معنى ﴿ عَبَّدتَّ ﴾ : ذللت واتخذتهم عبيداً فمعنى هذا الكلام أنك عددت نعمة عليّ تعبيد بني إسرائيل ، وليست في الحقيقة بنعمة إنما كانت نقمة ، لأنك كنت تذبح أبناءهم ، ولذلك وصلت أنا إليك فربيتني ، فالإشارة بقوله : ﴿ وَتِلْكَ ﴾ إلى التربية ، و ﴿ أَنْ عَبَّدتَّ ﴾ في موضع رفع عطف بيان على تلك ، أو في موضع نصب على أنه مفعول من أجله ، وقيل : معنى الكلام تربيتك نعمة علي لأنك عبدت بني إسرائيل

وتركتني فهي في المعنى الأول إنكار لنعمته وفي الثاني اعتراف بها ﴿ قَالَ لَئِنِ اتخذت إلها غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ المسجونين ﴾ لما أظهر فرعون الجهل بالله فقال : وما رب العالمين ؟ أجابه موسى بقوله : ﴿ رَبُّ

(199/567)

السماوات والأرض ﴾ ، فقال : ﴿ أَلاَ تَسْتَمِعُونَ ﴾ ؟ تعجباً من جوابه فزاد موسى في إقامة الحجة بقوله : ﴿ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَآئِكُمُ الأولين ﴾ لأن وجود الإنسان وآبائه أظهر الأدلة عند العقلاء وأعظم البراهين ، فإن أنفسهم أقرب الأشياء إليهم فيستدلون بها على وجود خالقهم ، فلما ظهرت هذه الحجة حاد فرعون عنها ونسب موسى إلى الجنون مغالطة منه ، وأيد الازدراء والتهكم في قوله : ﴿ رَسُولَكُمُ الذي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ ﴾ فزاد موسى في إقامة الحجة بقوله : ﴿ رَبُّ المشرق والمغرب ﴾ ، لأن طلوع الشمس وغروبها آية ظاهرة لا يمكن أحداً جحدها ، ولا أن يدعيها لغير الله ، ولذلك أقام إبراهيم الخليل بها الحجة على نمرود ، فلما انقطع فرعون بالحجة رجع إلى الاستعلاء والتغلب فهدّده بالسجن ، فأقام موسى عليه الحجة بالمعجزة ، وذكرها له بتلطف طمعاً في إيمانه ، فقال : ﴿ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴾ والواو واو الحال دخلت عليها همزة الاستفهام وتقديره : أتفعل بي ذلك ولو

جئتك بشيء مبين ؟ وقد تقدم في الأعراف ذكر العصا واليد ، وماذا تأمرون ؟ وأرجه ، وحاشرين فإن قيل : كيف قال أولاً : ﴿ إِن كُنتُمْ مُّوقِنِينَ ﴾ ، ثم قال آخراً ﴿ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ ؟ فالجواب أنه لاَينَ أولاً طمعاً في إيمانهم ، فلما رأى منهم العناد والمغالطة : وبخهم بقوله : ﴿ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ ، وجعل ذلك في مقابلة قول فرعون : ﴿ إِنَّ رَسُولَكُمُ . . . لَمَجْنُونٌ ﴾ .

﴿ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ ﴾ هو يوم الزينة ﴿ نَتَّبِعُ السحرة ﴾ أي نتبعهم في نصرة ديننا لا في عمل السحر ، لأن عمل السحر كان حراماً ﴿ بِعِزَّةِ فِرْعَونَ ﴾ قسم أقسموا به ، وقد تقدم في [الأعراف : 117] تفسير ما يأفكون ، وما بعد ذلك ﴿ لاَ ضَيْرَ ﴾ أي لا يضرنا ذلك لأننا ننقلب إلى الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التسهيل حـ 3 صـ 83.85 ﴾

(200/567)

وقال النسفى :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ طسم ﴾ طس ويس وحم ﴾

ممالة كوفي غير الأعشى والبرجمي وحفص ، ويظهر النون عند الميم يزيد وحمزة .

وغيرهما يدغمها ﴿ تلك آيات الكتاب المبين ﴾ الظاهر إعجازه ، وصحة أنه من عند الله والمراد به السورة أو القرآن ، والمعنى آيات هذا المؤلف من الحروف المبسوطة تلك آيات الكتاب المبين ﴿ لعلّك باخعٌ ﴾ قاتل و "لعل" للإشفاق ﴿ نّفسك ﴾ من الحزن يعني أشفق على نفسك أن تقتلها حسرة وحزناً على ما فاتك من إسلام قومك ﴿ ألاّ يكونوا مؤمنين ﴾ لئلا يؤمنوا أو لامتناع إيمانهم أو خيفة أن لا يؤمنوا ﴿ إن نّشأ ﴾ إيمانهم ﴿ ننزّل عليهم مّن السّماء آيةً ﴾ دلالة واضحة ﴿ فظلّت ﴾ أي فتظل لأن الجزاء يقع فيه لفظ الماضي في معنى المستقبل تقول : إن زرتني أكرمتك أي أكرمك كذا قاله الزجاج ﴿ أعناقهم ﴾ رؤساؤهم ومقدموهم أو جماعاتهم يقال : جاءنا عنق من الناس لفوج منهم ﴿ لها خاضعين ﴾ منقادين .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما : نزلت فينا وفي بني أمية فتكون لنا عليهم الدولة فتذل لنا أعناقهم بعد صعوبة ويلحقهم هوان بعد عزتهم

﴿ وما يأتيهم مّن ذكرٍ مّن الرّحمن محدثٍ ألاّ كانوا عنه معرضين ﴾ أي وما يجدد لهم الله بوحيه موعظة وتذكيراً إلا جددوا إعراضاً عنه وكفراً به ﴿ فقد كذّبوا ﴾ محمداً صلى الله عليه وسلم فيما أتاهم به ﴿ فسيأتيهم ﴾ فسيعلمون ﴿ أنباؤا ﴾ أخبار ﴿ ما كانوا به يستهزؤون ﴾ وهذا وعيد لهم وإنذار بأنهم سيعلمون إذا مسهم عذاب الله يوم بدر أو يوم القيامة ما الشيء الذي كانوا يستهزئون به وهو القرآن وسيأتيهم أنباؤه وأحواله

التي كانت خافية عليهم .

﴿ أو لم يروا إلى الأرض كم أنبتنا ﴾ ﴿ كم ﴾ نصب ب ﴿ أنبتنا ﴾ ﴿ فيها من كلّ زوجٍ ﴾ صنف من النبات ﴿ كريمٍ ﴾ محمود كثير المنفعة يأكل منه الناس والأنعام كالرجل الكريم الذي نفعه عام .

(201/567)

وفائدة الجمع بين كلمتي الكثرة والإحاطة أن كلمة ﴿ كل ﴾ تدل على الإحاطة بأزواج النبات على سبيل التفصيل و ﴿ كم ﴾ تدل على أن هذا المحيط متكاثر مفرط الكثرة ، وبه نبه على كمال قدرته ﴿ إنّ في ذلك لآيةً وما كان أكثرهم مّؤمنين ﴾ أي إن في إنبات تلك الأصناف لآية على أن مبنتها قادر على إحياء الموتى ، وقد علم الله أن أكثرهم مطبوع على قلوبهم غير مرجى إيمانهم ﴿ وإنّ ربّك لهو العزيز ﴾ في انتقامه من الكفرة ﴿ الرّحيم ﴾ لمن آمن منهم ووحد آية مع الإخبار بكثرتها لأن ذلك مشار به إلى مصدر أنبتنا ، أو المراد إن في كل واحد من تلك الأزواج لآية أي آية .

﴿ وإذ ﴾ مفعول به أي اذكر إذ ﴿ نادى ﴾ دعا ﴿ ربّك موسى أن ائت ﴾ إن بمعنى أي ﴿ القوم الظّالمين ﴾ أنفسهم بالكفر وبني إسرائيل بالاستعباد وذبح الأولاد سجل

عليهم بالظلم ، ثم عطف

﴿ قوم فرعون ﴾ عليهم عطف البيان كأن معنى القوم الظالمين وترجمته قوم فرعون وكأنهما عبارتان تعتقبان على مؤدى واحد ﴿ ألا يتّقون ﴾ أي ائتهم زاجراً فقد آن لهم أن يتقوا ، وهي كلمة حث وإغراء .

ويحتمل أنه حال من الضمير في ﴿ الظالمين ﴾ أي يظلمون غير متقين الله وعقابه فأدخلت همزة الإنكار على الحال .

﴿ قال ربّ إنّي أخاف ﴾ الخوف غم يلحق الإنسان لأمر سيقع ﴿ أن يكذّبون ويضيق صدري ﴾ بتكذيبهم إياي مستأنف أو عطف على أخاف ﴿ ولا ينطلق لساني ﴾ بأن تغلبني الحمية على ما أرى من المحال وأسمع من الجدال وبنصبهما يعقوب عطفاً على ﴿ يكذبون ﴾ فالخوف متعلق بهذه الثلاثة على هذا التقدير وبالتكذيب وحده بتقدير الرفع ﴿ فأرسل إلى هارون ﴾ أي أرسل إليه جبريل واجعله نبياً يعينني على الرسالة ، وكان هارون بمصر حين بعث موسى نبياً بالشام .

(202/567)

ولم يكن هذا الالتماس من موسى عليه السلام توقفاً في الامتثال بل التماس عون في تبليغ الرسالة ، وتمهيد العذر في التماس المعين على تنفيذ الأمر ليس بتوقف في امتثال الأمر ، وكفى بطلب العون دليلاً على التقبل لا على التعلل ﴿ ولهم عليّ ذنبٌ ﴾ أي تبعة ذنب بقتل القبطي فحذف المضاف ، أو سمى تبعة الذنب ذنباً كما سمى جزاء السيئة سيئة ﴿ فأخاف أن يقتلون ﴾ أي يقتلوني به قصاصاً ، وليس هذا تعللاً أيضاً بل استدفاع للبلية المتوقعة ، وفرق من أن يقتل قبل أداء الرسالة ولذا وعده بالكلاءة والدفع بكلمة الردع .

وجمع له الاستجابتين معاً في قوله ﴿ قال كلاّ فاذهبا ﴾ لأنه استدفعه بلاءهم فوعده الله الدفع بردعه عن الخوف والتمس منه رسالة أخيه فأجابه بقوله ﴿ اذهبا ﴾ أي جعلته رسولاً معك فاذهبا .

وعطف ﴿ فاذهبا ﴾ على الفعل الذي يدل عليه ﴿ كلا ﴾ كأنه قيل : ارتدع يا موسى عما تظن فاذهب أنت وهارون ﴿ بآياتنا ﴾ مع آياتنا وهي اليد والعصا وغير ذلك ﴿ إنّا معكم ﴾ أي معكما بالعون والنصرة ومع من أرسلتما إليه بالعلم والقدرة ﴿ مّستمعون ﴾ خبر ل "إن" و ﴿ معكم ﴾ لغو ، أو هما خبران أي سامعون ، والاستماع في غير هذا الإصغاء للسماع يقال : استمع فلان إلى حديثه أي أصغى إليه ولا يجوز حمله ههنا على ذلك فحمل على السماع

﴿ فأتيا فرعون فقولا إنّا رسول ربّ العالمين ﴾ لم يثن الرسول كما ثنى في قوله ﴿ إنا رسولا ربك ﴾ [طه : 47] لأن الرسول يكون بمعنى المرسل وبمعنى الرسالة فجعل ثمة بمعنى المرسل فلم يكن بد من تثنيته ، وجعل هنا بمعنى الرسالة فيستوي في الوصف به الواحد والتثنية والجمع ، أو لأنهما لاتحادهما واتفاقهما على شريعة واحدة كأنهما رسول واحد ، أو أريد إن كل واحد منا ﴿ أن أرسل ﴾ بمعنى أي أرسل لتضمن الرسول معنى الإرسال وفيه معنى القول ﴿ معنا بني إسرائيل ﴾ يريد خلهم يذهبوا معنا إلى فلسطين وكانت مسكنهما فأتيا بابه فلم يؤذن لهما سنة حتى قال البواب : إن ههنا إنساناً يزعم أنه رسول رب العالمين فقال : ائذن له لعلنا نضحك منه .

فأديا إليه الرسالة فعرف فرعون موسى فعند ذلك .

﴿ قال ألم نربّك فينا وليداً ﴾ وإنما حذف فأتيا فرعون فقال اختصاراً .

والوليد الصبي لقرب عهده من الولادة أي ألم تكن صغيراً فربيناك ﴿ ولبثت فينا من عمرك سنين ﴾ قيل : ثلاثين سنة ﴿ وفعلت فعلتك التي فعلت ﴾ يعني قتل القبطي فعرض إذ كان ملكاً ﴿ وأنت من الكافرين ﴾ بنعمتي حيث قتلت خبازي أو كنت على ديننا الذي تسميه كفراً ، وهذا افتراء منه عليه لأنه معصوم من الكفر وكان يعايشهم بالتقية ﴿ قال فعلتها إذاً ﴾ أي إذ ذاك ﴿ وأنا من الضّالّين ﴾ الجاهلين بأنها تبلغ القتل والضال عن

الشيء هو الذاهب عن معرفته ، أو الناسين من قوله ﴿ أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى ﴾ [البقرة : 282] فدفع وصف الكفر عن نفسه ووضع ﴿ الضالين ﴾ موضع الكافرين و ﴿ إذا ﴾ جواب وجزاء معاً ، وهذا الكلام وقع جواباً لفرعون وجزاء له لأن قول فرعون و ﴿ فعلت فعلتك ﴾ معناه أنك جازيت نعمتي بما فعلت فقال له موسى : نعم فعلتها مجازياً لك تسليماً لقوله لأن نعمته كانت جديرة بأن تجازى بنحو ذلك الجزاء

(204/567)

﴿ ففررت منكم ﴾ إلى مدين ﴿ لمّا خفتكم ﴾ أن تقتلوني وذلك حين قال له مؤمن من آل فرعون ﴿ إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج ﴾ [القصص : 20] الآية .

﴿ فوهب لي ربّي حكماً ﴾ نبوة وعلماً فزال عني الجهل والضلالة ﴿ وجعلني من المرسلين ﴾ من جملة رسله ﴿ وتلك نعمةٌ تمنّها عليّ أن عبّدتّ بني إسرائيل ﴾ كر على امتنانه عليه بالتربية فأبطله من أصله وأبى أن تسمى نعمة لأنها نقمة حيث بين أن حقيقة إنعامه عليه تعبيد بني إسرائيل لأن تعبيدهم وقصدهم بذبح أبنائهم هو السبب في حصوله عنده وتربيته ، ولو تركهم لرباه أبواه فكأن فرعون امتن على موسى بتعبيد قومه وإخراجه

من حجر أبويه إذا حققت وتعبيدهم تذليلهم واتخاذهم عبيداً .

ووحد الضمير في ﴿ تمنها ﴾ و ﴿ عبدت ﴾ وجمع في ﴿ منكم ﴾ و ﴿ خفتكم ﴾ لأن الخوف والفرار لم يكونا منه وحده ولكن منه ومن ملئه المؤتمرين بقتله بدليل قوله ﴿ إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك ﴾ [القصص : 20] .

وأما الامتنان فمنه وحده وكذا التعبيد .

وتلك ﴿ إشارة ﴾ إلى خصلة شنعاء مبهمة لا يدري ما هي إلا بتفسيرها ، ومحل ﴿ أن عبدت ﴾ الرفع عطف بيان لتلك أي تعبيدك بني إسرائيل نعمة تمنها علي .

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ العالمين ﴾ أي إنك تدعي أنك رسول رب العالمين فما صفته لأنك إذا أردت السؤال عن صفة زيد تقول : ما زيد ؟ تعني أطويل أم قصير أفقيه أم طبيب نص عليه صاحب الكشاف وغيره ﴿ قَالَ ﴾ موسى مجيباً له على وفق سؤاله ﴿ رَبّ السماوات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَآ ﴾ أي وما بين الجنسين ﴿ إِن كُنتُمْ مُّوقِنِينَ ﴾ أي إن كنتم تعرفون الأشياء بالدليل فكفى خلق هذه الأشياء دليلاً ، أو إن كان يرجى منكم الإيقان الذي يؤدي إليه النظر الصحيح نفعكم هذا الجواب وإلا لم ينفع .

والإيقان العلم الذي يستفاد بالاستدلال ولذا لا يقال الله موقن

﴿ قَالَ ﴾ أي فرعون ﴿ لِمَنْ حَوْلَهُ ﴾ من أشراف قومه وهم خمسمائة رجل عليهم الأساور وكانت للملوك خاصة ﴿ أَلاَ تَسْتَمِعُونَ ﴾ معجباً قومه من جوابه لأنهم يزعمون قدمهما وينكرون حدوثهما وأن لهما رباً فاحتاج موسى إلى أن يستدل بما شاهدوا حدوثه وفناءه فاستدل حيث ﴿ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءابَائِكُمُ الأولين ﴾ أي هو خالقكم وخالق آبائكم فإن لم تستدلوا بغيركم فبأنفسكم .

وإنما قال ﴿ رَبّ ءابَائِكُمُ ﴾ لأن فرعون كان يدعي الربوبية على أهل عصره دون من تقدمهم .

﴿ قَالَ ﴾ أي فرعون ﴿ إِنَّ رَسُولَكُمُ الذى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ حيث يزعم أن في الوجود إلهاً غيري وكان فرعون ينكر إلهية غيره ﴿ قَالَ رَبُّ المشرق والمغرب وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ فتستدلون بما أقول فتعرفون ربكم ، وهذا غاية الإرشاد حيث عمم أولاً بخلق السماوات والأرض وما بينهما ، ثم خصص من العام للبيان أنفسهم وآباءهم لأن أقرب المنظور فيه من العاقل نفسه ومن ولد منه وما شاهد من أحواله من وقت ميلاده إلى وقت وفاته ، ثم خصص المشرق والمغرب لأن طلوع الشمس من أحد الخافقين وغروبها في الآخر على تقدير مستقيم في فصول السنة وحساب مستوٍ من أظهر ما استدل به ،

ولظهوره انتقل إلى الاحتجاج به خليل الرحمن عن الاحتجاج بالأحياء والإماتة على نمروذ بن كنعان .

(206/567)

وقيل : سأله فرعون عن الماهية جاهلاً عن حقيقة سؤاله ، فلما أجاب موسى بحقيقة الجواب وقع عنده أن موسى حاد عن الجواب حيث سأله عن الماهية وهو يجيب عن ربوبيته وآثار صنعه فقال معجباً لهم من جواب موسى : ألا تستمعون ؟ فعاد موسى إلى مثل قوله الأول فجننه فرعون زاعماً أنه حائد عن الجواب ، فعاد ثالثاً إلى مثل كلامه الأول مبيناً أن الفرد الحقيقي إنما يعرف بالصفات وأن السؤال عن الماهية محال وإليه الإشارة في قوله تعالى ﴿ إِنْ كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ أي إن كان لكم عقل علمكم أنه لا تمكن معرفته إلا بهذا الطريق ، فلما تحير فرعون ولم يتهيأ له أن يدفع ظهور آثار صنعه .

﴿ قَالَ لَئِنِ اتخذت إلها غَيْرِى ﴾ أي غيري إلهاً ﴿ لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ المسجونين ﴾ أي لأجعلنك واحداً ممن عرفت حالهم في سجوني ، وكان من عادته أن يأخذ من يريد سجنه فيطرحه في هوة ذاهبة في الأرض بعيدة العمق فرداً لا يبصر فيها ولا يسمع ، فكان ذلك أشد من القتل .

ولو قيل لأسجننك لم يؤد هذا المعنى وإن كان أخصر ﴿ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ ﴾ الواو للحال دخلت عليها همزة الاستفهام أي أتفعل بي ذلك ولو جئتك ﴿ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴾ أي جائياً بالمعجزة ﴿ قَالَ فَأْتِ بِهِ ﴾ بالذي يبين صدقك ﴿ إِن كُنتَ مِنَ الصادقين ﴾ أن لك بينة وجواب الشرط مقدر أي فأحضره ﴿ فألقى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾ ظاهر الثعبانية لا شيء يشبه الثعبان كما تكون الأشياء المزورة بالشعوذة والسحر .

روي أن العصا ارتفعت في السماء قدر ميل ثم انحطت مقبلة إلى فرعون وجعلت تقول : يا موسى مرني بما شئت .

ويقول فرعون : أسألك بالذي أرسلك إلا أخذتها ، فأخذها فعادت عصا .

﴿ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاء للناظرين ﴾ فيه دليل على أن بياضها كان شيئاً يجتمع النظارة على النظر إليه لخروجه عن العادة وكان بياضها نورياً .

(207/567)

روي أن فرعون لما أبصر الآية الأولى قال : فهل غيرها فأخرج يده فقال لفرعون ما هذه ؟ قال فرعون : يدك ، فأدخلها في إبطه ثم نزعها ولها شعاع يكاد يغشي الأبصار ويسد الأفق ﴿ قَالَ ﴾ أي فرعون ﴿ لِلْمَلإِ حَوْلَهُ ﴾ هو منصوب نصبين نصب في اللفظ والعامل فيه

ما يقدر في الظرف ، ونصب في المحل وهو النصب على الحال من الملأ أي كائنين حوله والعامل فيه قال ﴿ إِنَّ هذا لساحر عَلِيمٌ ﴾ بالسحر .

ثم أغوى قومه على موسى بقوله

﴿ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُمْ مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا ﴾ منصوب لأنه مفعول به من قولك أمرتك الخير ﴿ تَأْمُرُونَ ﴾ تشيرون في أمره من حبس أو قتل من المؤامرة وهي المشاورة ، أو من الأمر الذي هو ضد النهي .

لما تحير فرعون برؤية الآيتين وزال عنه ذكر دعوى الالهية وحط عن منكبيه كبرياء الربوبية وارتعدت فرائصه خوفاً طفق يؤامر قومه الذي هم بزعمه عبيده وهو إلههم ، أو جعلهم آمرين ونفسه مأموراً ﴿ قَالُواْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ ﴾ أخر أمرهما ولا تباغت قتلهما خوفاً من الفتنة ﴿ وابعث فِى المدائن حاشرين ﴾ شرطاً يحشرون السحرة وعارضوا قول فرعون ﴿ إن هذا لساحر عليم ﴾ بقولهم

(208/567)

﴿ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴾ فجاءوا بكلمة الإحاطة وصيغة المبالغة ليسكنوا بعض قلقه ﴿ فَجُمِعَ السحرة لميقات يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ أي يوم الزينة وميقاته وقت الضحى لأنه الوقت

الذي وقته لهم موسى عليه السلام من يوم الزينة في قوله تعالى : ﴿ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزينة وَأَن يُحْشَرَ الناس ضُحًى ﴾ [طه : 59] والميقات ما وقت به أي حدد من زمان أو مكان ومنه مواقيت الإحرام ﴿ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴾ أي اجتمعوا وهو استبطاء لهم في الاجتماع والمراد منه استعجالهم ﴿ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السحرة ﴾ في دينهم ﴿ إِن كَانُواْ هُمُ الغالبين ﴾ أي غلبوا موسى في دينه وليس غرضهم اتباع السحرة وإنما الغرض الكلي أن لا يتبعوا موسى فساقوا الكلام مساق الكناية لأنهم إذا اتبعوهم لم يكونوا متبعين لموسى .

﴿ فَلَمَّا جَاء السحرة قَالُواْ لِفِرْعَوْنَ أَإِنَّ لَنَا لأَجْراً إِن كُنَّا نَحْنُ الغالبين قَالَ نَعَمْ ﴾ وبكسر العين : علي ، وهما لغتان ﴿ وَإِنَّكُمْ إِذاً لَّمِنَ المقربين ﴾ أي قال فرعون نعم لكم أجر عندي وتكونون مع ذلك من المقربين عندي في المرتبة والجاه فتكونون أول من يدخل علي وآخر من يخرج .

ولما كان قولهم : ﴿ أئن لنا لأجراً ﴾ في معنى جزاء الشرط لدلالته عليه وكان قوله : ﴿ وإنكم إذا لمن المقربين ﴾ معطوفاً عليه دخلت ﴿ إذا ﴾ قارة في مكانها الذي تقضيه من الجواب والجزاء ﴿ قَالَ لَهُمْ موسى أَلْقُواْ مَا أَنتُم مُّلْقُونَ ﴾ من السحر فسوف ترون عاقبته ﴿ فَأَلْقَوْاْ حبالهم ﴾ سبعين ألف حبل ﴿ وَعِصِيَّهُمْ ﴾ سبعين ألف عصا .

وقيل : كانت الحبال اثنين وسبعين ألفاً وكذا العصي ﴿ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرْعَونَ إِنَّا لَنَحْنُ الغالبون ﴾ أقسموا بعزته وقوته وهو من أيمان الجاهلية ﴿ فألقى موسى عصاه فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ ﴾ تبتلع ﴿ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ ما يقلبونه عن وجهه وحقيقته بسحرهم ويزوّرونه ويخيلون في حبالهم وعصيهم أنها حياة تسعى ﴿ فَأُلْقِيَ السحرة ساجدين ﴾ عبر عن الخرور بالإلقاء بطريق المشاكلة لأنه ذكر مع الإلقاءات ولأنهم لسرعة ما سجدوا صاروا كأنهم ألقوا ﴿ قَالُواْ ءامَنَّا بِرَبّ العالمين ﴾ عن عكرمة رضي الله عنه : أصبحوا سحرة وأمسوا شهداء

﴿ رَبّ موسى وهارون ﴾ عطف بيان ل ﴿ رب العالمين ﴾ لأن فرعون كان يدعي الربوبية فأرادوا أن يعزلوه .

وقيل ؛ إن فرعون لما سمع منهم ﴿ آمنا برب العالمين ﴾ قال : إياي عنيتم ؟ قالوا : ﴿ رب موسى وهارون ﴾ .

﴿ قَالَ ءامَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءاذَنَ لَكُمْ ﴾ بذلك ﴿ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الذى عَلَّمَكُمُ السحر ﴾ وقد تواطأتم على أمر ومكر ﴿ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ وبال ما فعلتم .

ثم صرح فقال ﴿ لأُقَطّعَنّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مّنْ خِلاَفٍ ﴾ من أجل خلاف ظهر منكم ﴿ وَلأُصَلّبَنّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ كأنه أراد به ترهيب العامة لئلا يتبعوهم في الإيمان

﴿ قَالُواْ لاَ ضَيْرَ ﴾ لا ضرر وخبر "لا" محذوف أي في ذلك أو علينا ﴿ إِنَّا إلى ربّنَا مُنقَلِبُونَ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خطايانا أَن كُنَّا ﴾ لأن كنا ﴿ أَوَّلُ المؤمنين ﴾ من أهل المشهد أو من رعية فرعون.

(210/567)

أراد وإلا ضرر علينا في ذلك بل لنا أعظم النفع لما يحصل لنا في الصبر عليه لوجه الله من تكفير الخطايا ، أو لا ضير علينا فيما تتوعدنا به إنه لا بد لنا من الانقلاب إلى ربنا بسبب من أسباب الموت ، والقتل أهون أسبابه وأرجاها ، أو لا ضير علينا في قتلك إنك إن قتلتنا انقلبنا إلى ربنا إنقلاب من يطمع في مغفرته ويرجو رحمته لما رزقنا من السبق إلى الإيمان. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير النسفى حـ 3 صـ 178.184 ﴾

(211/567)

وقال البيضاوى:

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ طسم ﴾

قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر بالإِمالة ، ونافع بين كراهة للعود إلى الياء المهروب منها ، وأظهر نونه حمزة لأنه في الأصل منفصل عما بعده .

﴿ تِلْكَ ءَايَاتُ الكتاب المبين ﴾ الظاهر إعجازه وصحته ، والإِشارة إلى السورة أو القرآن على ما قرر في أول "البقرة" .

﴿ لَعَلَّكَ باخع نَّفْسَكَ ﴾ قاتل نفسك ، وأصل البخع أن يبلغ بالذبح النخاع وهو عرق مستبطن الفقار وذلك أقصى حد الذبح ، وقرىء ﴿ باخع نَّفْسَكَ ﴾ بالإِضافة ، ولعل للإِشفاق أي أشفق على نفسك أن تقتلها حسرة . ﴿ أَلاَّ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ لئلا يؤمنوا أو خيفة أن لا يؤمنوا .

﴿ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِّنَ السماء ءَايَةً ﴾ دلالة ملجئة إلى الإِيمان أو بلية قاسرة عليه . ﴿ فَظَلَّتْ أعناقهم لَهَا خاضعين ﴾ منقادين وأصله فظلوا لها خاضعين فأقحمت الأعناق لبيان موضع الخضوع وترك الخبر على أصله . وقيل لما وصفت الأعناق بصفات العقلاء أجريت مجراهم . وقيل المراد بها الرؤساء أو الجماعات من قولهم : جاءنا عنق من الناس لفوج منهم ، وقرىء ﴿ خاضعة ﴾ و ﴿ ظَلْتَ ﴾ عطف على ﴿ نُنَزِّلُ ﴾ عطف وأكن على فأصدق لأنه لو قيل أنزلنا بدله لصح .

﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ ﴾ موعظة أو طائفة من القرآن . ﴿ مِّنَ الرحمن ﴾ يوحيه إلى نبيه .

﴿ مُّحْدَثٍ ﴾ مجدد إنزاله لتكرير التذكير وتنويع التقرير . ﴿ إِلاَّ كَانُواْ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴾ إلا جددوا إعراضاً عنه وإصراراً على ما كانوا عليه .

﴿ فَقَدْ كَذَّبُواْ ﴾ أي بالذكر بعد إعراضهم وأمعنوا في تكذيبه بحيث أدى بهم إلى الاستهزاء به المخبر به عنهم ضمناً في قوله : ﴿ فَسَيَأْتِيهِمْ ﴾ أي إذا مسهم عذاب الله يوم بدر أو يوم القيامة . ﴿ أَنبَاءُ مَا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ من أنه كان حقاً أم باطلاً ، وكان حقيقاً بأن يصدق ويعظم قدره أو يكذب فيستخف أمره .

(212/567)

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى الأرض ﴾ أو لم ينظروا إلى عجائبها . ﴿ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ ﴾ صنف . ﴿ كَرِيمٌ ﴾ محمود كثير المنفعة ، وهو صفة لكل ما يحمد ويرضى ، وههنا يحتمل أن تكون مقيدة لما يتضمن الدلالة على القدرة ، وأن تكون مبينة منبهة على أنه ما من نبت إلا وله فائدة إما وحده أو مع غيره ، و﴿ كُلٌّ ﴾ لإحاطة الأزواج ﴿ وَكَمْ ﴾ لكثرتها .

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ ﴾ إن في إنبات تلك الأصناف أو في كل واحد . ﴿ لآيَةً ﴾ على أن منبتها تام القدرة والحكمة ، سابغ النعمة والرحمة . ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ في علم الله وقضائه فلذلك لا ينفعهم أمثال هذه الآيات العظام .

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العزيز ﴾ الغالب القادر على الانتقام من الكفرة . ﴿ الرحيم ﴾ حيث أمهلهم أو العزيز في انتقامه ممن كفر الرحيم لمن تاب وآمن .

﴿ وَإِذْ نادى رَبُّكَ موسى ﴾ مقدر باذكر أو ظرف لما بعده . ﴿ أَنِ ائت ﴾ أي ﴿ ائت ﴾ أو بأن ﴿ ائت ﴾ . ﴿ القوم الظالمين ﴾ بالكفر واستعباد بني إسرائيل . وذبح أولادهم .

﴿ قَوْمِ فِرْعَونَ ﴾ بدل من الأول أو عطف بيان له ، ولعل الإقتصار على القوم للعلم بأن فرعون كان أولى بذلك . ﴿ أَلا يَتَّقُونَ ﴾ استئناف أتبعه إرساله إليهم للإنذار تعجيباً له من إفراطهم في الظلم واجترائهم عليه ، وقرىء بالتاء على الالتفات إليهم زجراً لهم وغضباً عليهم ، وهم وإن كان غيباً حينئذ أجروا مجرى الحاضرين في كلام المرسل إليهم من حيث إنه مبلغه إليهم وإسماعه مبدأ إسماعهم ، مع ما فيه من مزيد الحث على التقوى لمن تدبره وتأمل مورده ، وقرىء بكسر النون اكتفاء بها عن ياء الإضافة ، ويحتمل أن يكون بمعنى ألا يا ناس اتقون كقوله : أَلا يا اسجدوا .

(213/567)

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلاَ يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هارون ﴾ رتب استدعاء ضم أخيه إليه وإشراكه له في الأمر على الأمور الثلاثة : خوف التكذيب ، وضيق القلب انفعالاً عنه ، وازدياد الحبسة في اللسان بانقباض الروح إلى باطن القلب عند ضيقه بحيث لا ينطلق ، لأنها إذا اجتمعت مست الحاجة إلى معين يقوي قلبه وينوب منابه متى تعتريه حبسة حتى لا تختل دعوته ولا تنبتر حجته ، وليس ذلك تعللاً منه وتوقفاً في تلقي الأمر ، بل طلباً لما يكون معونة على امتثاله وتمهيد عذره فيه ، وقرأ يعقوب ﴿ وَيَضِيقُ ﴾ ﴿ وَلاَ يَنطَلِقُ ﴾ بالنصب عطفاً على ﴿ يَكْذِبُونَ ﴾ فيكونان من جملة ما خاف منه .

﴿ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ ﴾ أي تبعة ذنب فحذف المضاف أو سمي باسمه ، والمراد قتل القبطي وإنما سماه ذنباً على زعمهم ، وهذا اختصار قصته المبسوطة في مواضع . ﴿ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴾ به قبل أداء الرسالة ، وهو أيضاً ليس تعللاً وإنما هو استدفاع للبلية المتوقعة ، كما إن ذاك استمداد واستظهار في أمر الدعوة وقوله :

﴿ قَالَ كَلاَّ فاذهبا بآياتنا ﴾ إجابة له إلى الطلبتين بوعده بدفع بلائهم اللازم ردعه عن الخوف ، وضم أخيه إليه في الإرسال ، والخطاب في ﴿ فاذهبا ﴾ على تغليب الحاضر لأنه معطوف على الفعل الذي يدل عليه ﴿ كَلاَّ ﴾ كأنه قيل : ارتدع يا موسى عما تظن فاذهب أنت والذي طلبته . ﴿ إِنَّا مَعَكُمْ ﴾ يعني موسى وهرون وفرعون . ﴿

مُّسْتَمِعُونَ ﴾ سامعون لما يجري بينكما وبينه فأظهركما عليه ، مثل نفسه تعالى بمن حضر مجادلة قوم استماعاً لما يجري بينهم وترقباً لإمداد أوليائه منهم ، مبالغة في الوعد بالإعانة ، ولذلك تجوز بالاستماع الذي هو بمعنى الإصغاء للسمع الذي هو مطلق إدراك الحروف والأصوات ، وهو خبر ثان أو الخبر وحده ﴿ ومعكم ﴾ لغو .

(214/567)

﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ العالمين ﴾ أفرد الرسول لأنه مصدر وصف به فإنه مشترك بين المرسل والرسالة ، قال الشاعر :

لَقَدْ كَذبَ الوَاشُونَ مَا فُهْتُ عِنْدَهُم . . . بِسِرٍ وَلاَ أَرْسَلْتُهُمْ بِرَسُولِ

ولذلك ثنى تارة وأفرد أخرى ، أو لاتحادهما للأخوة أو لوحدة المرسل والمرسل به ، أو لأنه أراد أن كل واحد منا .

﴿ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إسراءيل ﴾ أي أرسل لتضمن الرسول معنى الإرسال المتضمن معنى القول ، والمراد خلهم ليذهبوا معنا إلى الشام .

﴿ قَالَ ﴾ أي فرعون لموسى بعد ما أتياه فقالا له ذلك . ﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا ﴾ في منازلنا . ﴿ وَلِيداً ﴾ طفلاً سمي به لقربه من الولادة . ﴿ وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴾ قيل لبث

فيهم ثلاثين سنة ثم خرج إلى مدين عشر سنين ثم عاد إليهم يدعوهم إلى الله ثلاثين ، ثم بقي بعد الغرق خمسين .

﴿ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ التي فَعَلْتَ ﴾ يعني قتل القبطي ، وبخه به معظماً إياه بعد ما عدد عليه نعمته ، وقرىء فعلتك بالكسر لأنها كانت قتلة بالوكز . ﴿ وَأَنتَ مِنَ الكافرين ﴾ بنعمتي حتى عمدت إلى قتل خواصي ، أو ممن تكفرهم الآن فإنه عليه الصلاة والسلام كان يعايشهم بالتقية فهو حال من إحدى التاءين ، ويجوز أن يكون حكماً مبتدأ عليه بأنه من الكافرين بآلهيته أو بنعمته لما عاد عليه بالمخالفة ، أو من الذين كانوا يكفرون في دينهم .

(215/567)

﴿ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذاً وَأَنَاْ مِنَ الضالين ﴾ من الجاهلين وقد قرىء به ، والمعنى من الفاعلين فعل أولي الجهل والسفه ، أو من الخاطئين لأنه لم يتعمد قتله ، أو من الذاهلين عما يؤول إليه الوكز لأنه أراد به التأديب ، أو الناسين من قوله تعالى : ﴿ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا ﴾ ﴿ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْماً ﴾ حكمة . ﴿ وَجَعَلَنِي مِنَ المرسلين ﴾ رد أولاً بذلك ما وبخه به قدحاً في نبوته ثم كر على ما عد عليه من النعمة ولم يصرح برده لأنه كان صدقاً غير قادح في دعواه ، بل نبه على أنه كان في الحقيقة نقمة لكونه مسبباً عنها فقال

:

﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إسراءيل ﴾ أي وتلك التربية نعمة تمنها علي ظاهراً ، وهي في الحقيقة تعبيدك بني إسرائيل وقصدهم بذبح أبنائهم ، فإنه السبب في وقوعي إليك وحصولي في تربيتك . وقيل إنه مقدر بهمزة الإِنكار أي تلك نعمة تمنها علي وهي ﴿ أَنْ عَبَّدتَّ ﴾ ، ومحل ﴿ أَنْ عَبَّدتَّ ﴾ الرفع على أنه خبر محذوف أو بدل ﴿ نِعْمَة ﴾ أو الجر بإضمار الباء أو النصب بحذفها . وقيل تلك إشارة إلى خصلة شنعاء مبهمة و ﴿ أَنْ عَبَّدتَّ ﴾ عطف بيانها والمعنى : تعبيدك بني إسرائيل نعمة ﴿ تَمُنُّهَا ﴾ علي ، وإنما وحد الخطاب في تمنها وجمع فيما قبله لأن المنة كانت منه وحده ، والخوف والفرار منه ومن ملئه .

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ العالمين ﴾ لما سمع جواب ما طعن به فيه ورأى أنه لم يرعو بذلك شرع في الاعتراض على دعواه فبدأ بالاستفسار عن حقيقة المرسل .

﴿ قَالَ رَبُّ السموات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ عرفه بأظهر خواصه وآثاره لما امتنع تعريف الأفراد إلا بذكر الخواص والأفعال وإليه أشار بقوله :

﴿ إِن كُنتُمْ مُّوقِنِينَ ﴾ أي إن كنتم موقنين الأشياء محققين لها علمتم أن هذه الأجرام المحسوسة ممكنة لتركبها وتعددها وتغير أحوالها ، فلها مبدىء واجب لذاته وذلك المبدىء لا بد وأن يكون مبدأ لسائر الممكنات ما يمكن أن يحس بها وما لا يمكن وإلا لزم تعدد الواجب ، أو استغناء بعض الممكنات عنه وكلاهما محال ثم ذلك الواجب لا يمكن تعريفه إلا بلوازمه الخارجية لامتناع التعريف بنفسه وبما هو داخل فيه لاستحالة التركيب في ذاته .

﴿ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴾ جوابه سألته عن حقيقته وهو يذكر أفعاله ، أو يزعم أنه ﴿ رَبّ السموات ﴾ وهي واجبة متحركة لذاتها كما هو مذهب الدهرية ، أو غير معلوم افتقارها إلى مؤثر .

﴿ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَائِكُمُ الأولين ﴾ عدولاً إلى ما لا يمكن أن يتوهم فيه مثله ويشك في افتقاره إلى مصور حكيم ويكون أقرب إلى الناظر وأوضح عند التأمل .

﴿ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الذي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ أسأله عن شيء ويجيبني عن آخر ، وسماه رسولاً على السخرية .

﴿ قَالَ رَبُّ المشرق والمغرب وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ تشاهدون كل يوم أنه يأتي بالشمس من المشرق ويحركها على مدار غير مدار اليوم الذي قبله حتى يبلغها إلى المغرب على وجه

نافع تنتظم به أمور الكائنات . ﴿ إِنْ كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ إن كان لكم عقل علمتم أن لا جواب لكم فوق ذلك لاينهم أولاً ، ثم لما رأى شدة شكيمتهم خاشنهم وعارضهم بمثل مقالهم .

(217/567)

﴿ قَالَ لَئِنِ اتخذت إلها غَيْرِى لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ المسجونين ﴾ عدولاً إلى التهديد عن المحاجة بعد الانقطاع وهكذا ديدن المعاند المحجوج ، واستدل به على ادعائه الألوهية وإنكاره الصانع وأن تعجبه بقوله ﴿ أَلاَ تَسْتَمِعُونَ ﴾ من نسبة الربوبية إلى غيره ، ولعله كان دهرياً اعتقد أن من ملك قطراً أو تولى أمره بقوة طالعه استحق العبادة من أهله ، واللام في ﴿ المسجونين ﴾ للعهد أي ممن عرفت حالهم في سجوني فإنه كان يطرحهم في هوة عميقة حتى يموتوا ولذلك جعل أبلغ من لأسجننك .

﴿ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيءٍ مُّبِينٍ ﴾ أي أتفعل ذلك ولو جئتك بشيء يبين صدق دعواي ، يعني المعجزة فإنها الجامعة بين الدلالة على وجود الصانع وحكمته والدلالة على صدق مدعي نبوته ، فالواو للحال وليها الهمزة بعد حذف الفعل .

﴿ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصادقين ﴾ في أن لك بينة أو في دعواك ، فإن مدعي النبوة لا بُدَّ له من حجة .

﴿ فألقى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾ ظاهر ثعبانيته واشتقاق الثعبان من ثعبت الماء فانثعب إذا فجرته فانفجر .

﴿ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاء للناظرين ﴾ روي أن فرعون لما رأى الآية الأولى قال فهل غيرها ، فأخرج يده قال فما فيها فأدخلها في إبطه ثم نزعها ولها شعاع يكاد يغشي الأبصار ويسد الأفق .

﴿ قَالَ لِلْمَلإِ حَوْلَهُ ﴾ مستقرين حوله فهو ظهر وقع موقع الحال . ﴿ إِنَّ هذا لساحر عَلِيمٌ ﴾ فائق في علم السحر .

﴿ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُمْ مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ بهره سلطان المعجزة حتى حطه عن دعوى الربوبية إلى مؤامرة القوم وائتمارهم وتنفيرهم عن موسى وإظهار الاستشعار عن ظهوره واستيلائه على ملكه .

﴿ قَالُواْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ ﴾ أي أخر أمرهما . وقيل إحبسهما . ﴿ وابعث فِي المدائن حاشرين ﴾ شرطاً يحشرون السحرة .

(218/567)

﴿ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴾ يفضلون عليه في هذا الفن وأمالها ابن عامر وأبو عمرو والكسائي ، وقرىء "بكل ساحر" .

﴿ فَجُمِعَ السحرة لميقات يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ لما وقت به من ساعات يوم معين وهو وقت الضحى من يوم الزينة .

﴿ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴾ فيه استبطاء لهم في الاجتماع حثاً على مبادرتهم إليه كقول تأبط شراً :

هَلْ أَنْتَ بَاعِثُ دِينَارٍ لِحَاجَتِنَا . . . أَوْ عَبْدَ رَبٍّ أَخَا عَوْنِ بن مِخْرَاقِ

أي ابعث أحدهما إلينا سريعاً .

﴿ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السحرة إِن كَانُواْ هُمُ الغالبين ﴾ لعلنا نتبعهم في دينهم إن غلبوا والترجي باعتبار الغلبة المقتضية للاتباع ، ومقصودهم الأصل أن لا يتبعوا موسى لا أن يتبعوا السحرة فساقوا الكلام مساق الكناية لأنهم إذا اتبعوهم لم يتبعوا موسى عليه الصلاة والسلام .

﴿ فَلَمَّا جَاء السحرة قَالُواْ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لأَجْراً إِن كُنَّا نَحْنُ الغالبين قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذاً لَّمِنَ المقربين ﴾ التزم لهم الأجر والقربة عنده زيادة عليه إن أغلبوا فإذا على ما يقتضيه من الجواب والجزاء ، وقرىء ﴿ نِعْمَ ﴾ بالكسر وهما لغتان .

﴿ قَالَ لَهُمْ موسى أَلْقُواْ مَا أَنتُم مُّلْقُونَ ﴾ أي بعد ما قالوا له ﴿ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الملقين ﴾ ، ولم يرد به أمرهم بالسحر والتمويه بل الإذن في تقديم ما هم فاعلوه لا محالة

توسلاً به إلى إظهار الحق .

﴿ فَأَلْقَوْاْ حبالهم وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرْعَونَ إِنَّا لَنَحْنُ الغالبون ﴾ أقسموا بعزته على أن الغلبة لهم لفرط اعتقادهم في أنفسهم ، أو لإتيانهم بأقصى ما يمكن أن يؤتى به من السحر .

(219/567)

﴿ فألقى موسى عصاه فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ ﴾ تبتلع ، وقرأ حفص "تَلْقَفْ" بالتخفيف . ﴿ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ ما يقلبونه عن وجهه بتمويههم وتزويرهم فيخيلون حبالهم وعصيهم أنها حيات تسعى ، أو إفكهم تسمية للمأفوك به مبالغة .

﴿ فَأُلْقِيَ السحرة ساجدين ﴾ لعلمهم بأن مثله لا يتأتى بالسحر ، وفيه دليل على أن منتهى السحر تمويه وتزويق يخيل شيئاً لا حقيقة له ، وأن التبحر في كل فن نافع . وإنما بدل الخرور بالإلقاء ليشاكل ما قبله ويدل على أنهم لما رأوا ما رأوا لم يتمالكوا أنفسهم كأنهم أخذوا فطرحوا على وجوههم ، وأنه تعالى ألقاهم بما خولهم من التوفيق .

﴿ قَالُواْ ءَامَنَّا بِرَبِّ العالمين ﴾ بدل من "ألقي" بدل الاشتمال أو حال بإضمار قد .

﴿ رَبِّ موسى وهارون ﴾ إبدال للتوضيح ودفع التوهم والإشعار على أن الموجب لإيمانهم ما أجراه على أيديهما .

﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الذى عَلَّمَكُمُ السحر ﴾ فعلمكم شيئاً دون شيء ولذلك غلبكم ، أو فواعدكم على ذلك وتواطأتم عليه ، وأراد به التلبيس على قومه كي لا يعتقدوا أنهم آمنوا عن بصيرة وظهور حق ، وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر وروح "أأمنتم" بهمزتين . ﴿ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ وبال ما فعلتم وقوله : ﴿ لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خِلاَفٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ بيان له .

﴿ قَالُواْ لاَ ضَيْرَ ﴾ لا ضرر علينا في ذلك . ﴿ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴾ بما توعدنا به فإن الصبر عليه محاء للذنوب موجب للثواب والقرب من الله تعالى ، أو بسبب من أسباب الموت والقتل أنفعها وأرجاها .

(220/567)

﴿ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خطايانا أَن كُنَّا ﴾ لأن كنا . ﴿ أَوَّلَ المؤمنين ﴾ من أتباع فرعون ، أو من أهل المشهد والجملة في المعنى تعليل ثان لنفي الضمير ، أو تعليل للعلة المتقدمة . وقرىء ﴿ إِن كُنَّا ﴾ على الشرط لهضم النفس وعدم الثقة بالخاتمة ، أو على طريقة المدل بأمره نحو إن أحسنت إليك فلا تنس حقي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 4 صـ 231 . 239 ﴾

وقال الخطيب الشربيني :

سورة الشعراء

مكية إلا قوله والشعراء إلى آخرها فمدنية وهي مائتان وست وعشرون آية وألف ومائتان وسبع وتسعون كلمة وخمسة آلاف وخمسمائة وإثنان وأربعون حرفاً

روى البغويّ عن ابن عباس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال أعطيت طه والطواسين من ألواح موسى .

عليه السلام ﴿ بسم الله ﴾ الذي دلّ علوّ كلامه على عظمة شأنه وعز مرامه

﴿ الرحمن ﴾ الذي لا يعجل على من عصاه ﴿ الرحيم ﴾ الذي يحي قلوب أهل ودّه بالتوفيق لما يرضاه .

﴿ طسم ﴾ قال ابن عباس : عجزت العلماء عن علم تفسيرها ، وفي رواية عنه : أنه قسم وهو من أسماء الله تعالى . وقال قتادة : اسم من أسماء القرآن وقال مجاهد اسم السورة ، وقال محمد بن كعب القرظي : أقسم بطوله وسناه وملكه ، ولهذا الاختلاف قال الجلال المحلي : الله أعلم بمراده بذلك ، وقد قدمنا الكلام على أوائل السور في أول سورة البقرة

وقرأ حمزة والكسائي وشعبة بإمالة الطاء ، والباقون بالفتح ، وأظهر حمزة النون من سين عن الميم ، وأدغمها الباقون وهي في مصحف عبد الله بن مسعود ط س م مقطوعة من بعضها .

﴿ تلك ﴾ أي : هذه الآيات العالية المرام الحائزة أعلى مراتب التمام المؤلفة من هذه الحروف التي تتناطقون بها وكلمات ألسنتكم ﴿ آيات الكتاب ﴾ أي : القرآن الجامع لكل فرقان ﴿ المبين ﴾ أي : الظاهر إعجازه المظهر الحق من الباطل ولما كان عنده صلى الله عليه وسلم من مزيد الشفقة وعظيم الرحمة على قومه قال تعالى تسلية له .

(222/567)

﴿ لعلك باخع ﴾ أي : هالك ﴿ نفسك ﴾ غماً وأسفاً من أجل ﴿ ألا يكونوا ﴾ أي : قومك ﴿ مؤمنين ﴾ أي : راسخين في الإيمان أي : لا تبالغ في الحزن والأسف فإن هذا الكتاب في غاية البيان في نفسه والإبانة للغير ، وقد تقدم في غير موضع أنه ليس عليك إلا البلاغ ولو شئنا لهديناهم طوعاً أو كرهاً . والبخع : أن يبلغ بالذبح البخاع بالخاء والباء وهو عرق مستبطن الفقار وذلك أقصى حد الذابح . ولعل : للإشفاق أي : أشفق على نفسك أن تقتلها حسرة على ما فاتك من إيمان قومك فصبره وعزاه وعرفه أن حزنه وغمه لا ينفع

كما أن وجود الكتاب ووضوحه لا ينفع ، ثم إنه تعالى أعلمه بأن كل ما هم فيه إنما هو بإرادته بقوله تعالى:

﴿ إن نشأ ننزل عليهم ﴾ وعبر بالمضارع فيهما إعلاماً بدوام القدرة . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بسكون النون الثانية وإخفائها عند الزاي وتخفيف الزاي ، والباقون بفتح النون وتشديد الزاي ، ثم قال تعالى محققاً للمراد ﴿ من السماء ﴾ أي : التي جعلنا فيها بروجاً للمنافع ، وأشار إلى تمام القدرة بتوحيدها بقوله تعالى : ﴿ آية ﴾ أي : قاهرة كما فعلنا ببعض من قبلهم بنتق الجبل ونحوه .

تنبيه : هنا همزتان مختلفتان ، أبدل نافع وابن كثير وأبو عمرو الهمزة الثانية المفتوحة بعد المكسورة ياء خالصة ، وحققها الباقون . ثم أشار تعالى إلى تحقق هذه الآية بالتعبير بالماضي في قوله تعالى عطفاً على ننزل لأنه في معنى أنزلنا ﴿ فظلت ﴾ أي : عقب الإنزال من غير مهلة ﴿ أعناقهم ﴾ أي : التي هي موضع الصلابة وعنها تنشأ حركات الكبر والإعراض ﴿ لها خاضعين ﴾ أي : منقادين .

تنبيه : خاضعين : خبر عن أعناقهم ، واستشكل جمعه جمع سلامة لأنه مختص بالعقلاء ؟ وأجيب عنه بأوجه : أحدها : أن المراد بالأعناق رؤساءهم ومقدموهم شبهوا بالأعناق كما يقال لهم الرؤوس والنواصي والصدور ، قال القائل:

في محفل من رؤوس الناس مشهود

ثانيها : أنه على حذف مضاف أي : فظل أصحاب الأعناق ثم حذف وبقي الخبر على ما كان عليه قبل الحذف المخبر عنه مراعاة للمحذوف .

ثالثها : أنه لما أضيف إلى العقلاء اكتسب منهم هذا الحكم كما يكتسب التأنيث بالإضافة لمؤنث في قوله:

كما شرقت صدر القناة من الدم

رابعها : قال الزمخشري : أصل الكلام فظلوا لها خاضعين فأقحمت الأعناق لبيان موضع الخضوع وترك الكلام على أصله كقولهم : ذهبت أهل اليمامة كأن الأهل غير مذكور ، ونوزع في التنظير لأنّ أهل ليس مقحماً البتة لأنه المقصود بالحكم .

خامسها : أنها عوملت معاملة العقلاء ، كقوله تعالى : ﴿ ساجدين ﴾ (يوسف ،) ﴿ وطائعين ﴾ (فصلت ،) في يوسف والسجدة ، وقيل إنما قال تعالى : ﴿ خاضعين ﴾ لموافقة رؤوس الآي لتكون على نسق واحد .

﴿ وما يأتيهم ﴾ أي : الكفار ﴿ من ذكر ﴾ أي : موعظة أو طائفة من القرآن يذكروننا به فيكون سبب ذكرهم وشرفهم ﴿ من الرحمن ﴾ أي : الذي أنكروه مع إحاطة نعمه بهم

﴿ محدث ﴾ أي : بالنسبة إلى تنزيله وعلمهم به وأشار تعالى إلى دوام كبرهم بقوله تعالى : ﴿ إلا كانوا عنه معرضين ﴾ أي : إعراضاً هو صفة لهم لازمة ، ولما كان حال المعرض عن الشيء حال المكذب به قال تعالى .

﴿ فقد ﴾ أي : فتسبب عن هذا الفعل منهم أنه قد ﴿ كذبوا ﴾ أي : بالذكر بعد إعراضهم وأمعنوا في تكذيبه بحيث أدى بهم إلى الاستهزاء به المخبر به عنهم ضمناً في قوله تعالى : ﴿ وسيأتيهم ﴾ أي : إذا مسهم عذاب الله تعالى يوم بدر ويوم القيامة ﴿ أنباء ﴾ أي : عظيم أخبار وعواقب ﴿ ما ﴾ أي : العذاب الذي ﴿ كانوا به يستهزؤن ﴾ أي : يهزؤون من أنه كان حقاً أو باطلاً وكان حقيقاً بأن يصدق ويعظم أمره أو يكذب فيستخف أمره .

ثم قال تعالى : معجباً منهم .

(224/567)

﴿ أو لم يروا إلى الأرض ﴾ أي : على سعتها واختلاف نواحيها ، ونبه على كثرة ما صنع من جميع الأصناف بقوله تعالى : ﴿ كم أنبتنا ﴾ أي : بما لنا من العظمة ﴿ فيها ﴾ بعد أن كانت يابسة ميتة لا نبات فيها ﴿ من كل زوج ﴾ أي : صنف متشاكل بعضه لبعض فلم يبق

صنف يليق بهم في العاجلة إلا أكثرنا من الإنبات منه ﴿كريم﴾ أي : كثير المنافع محمود العواقب وهو صفة لكل ما يحمد ويرضى وهو ضدّ اللئيم ، وههنا يحتمل معنيين أحدهما : النبات على نوعين : نافع وضار فذكر كثرة ما أنبت في الأرض من جميع أصناف النبات النافع وخلى ذكر الضار ، والثاني : أن يعم جميع النبات نافعه وضاره ويصفهما جميعاً بالكرم وينبه على أنه تعالى ما أنبت شيأً إلا فيه فائدة ، لأنّ الحكيم لا يفعل فعلاً إلا لحكمة بالغةٍ وإن غفل عنها الغافلون ولم يتصل إلى معرفتها العاقلون ، ولما كان ذلك باهراً للعقل منبهاً له في كل حال على عظيم اقتدار صانعه وبديع اختياره ، وصل به قوله تعالى:

﴿إنّ في ذلك﴾ أي : الأمر العظيم ﴿لآية﴾ أي : دلالة على كمال قدرته تعالى ، فإن قيل : حين ذكر الأزواج دل عليها بكلمتي الكثرة والإحاطة وكان لا يحصيها إلا عالم الغيب ، فكيف قال إنّ في ذلك لآية ؟ وهلا قال لآيات ؟

أجيب بوجهين : أحدهما : أن يكون ذلك مشاراً به إلى مصدر أنبتنا فكأنه قال : إنّ في ذلك الإنبات لآية ، ثانيهما : أن يراد أنّ في كل واحد من تلك الأزواج لآية ﴿و﴾ الحال أنه ﴿ما كان أكثرهم﴾ أي : البشر ﴿مؤمنين﴾ في علم الله تعالى وقضائه فلذلك لا ينفعهم مثل هذه الآيات العظام ، وقال سيبويه : كان زائدة

﴿ وإن ﴾ أي : والحال أنّ ﴿ ربك ﴾ أي : الذي أحسن إليك بالإرسال وسخر لك قلوب الأصفياء وزوى عنك اللد والأشقياء ﴿ لهو العزيز ﴾ أي : ذو العزة ينتقم من الكافرين ﴿ الرحيم ﴾ يرحم المؤمنين ، ولما كان مع ما ذكر في ذكر القصص تسلية لنبينا صلى الله عليه وسلم فيما يقاسيه من الأذى والتكذيب وكان موسى عليه السلام قد اختص بالكتاب الذي ما بعد القرآن مثله والآيات التي ما أتى بمثلها أحد قبله ، بدأ بذكره فقال تعالى:

﴿ وإذ ﴾ أي : واذكر إذ ﴿ نادى ربك ﴾ أي : المحسن إليك بكل ما يمكن الإحسان به في هذه الدار ، ثم ذكر المنادى بقوله تعالى : ﴿ موسى ﴾ أي : حين رأى الشجرة والنار ، واختلف أهل السنة في النداء الذي سمعه موسى عليه السلام أهو الكلام القديم أو صوت من الأصوات ؟ .

قال أبو الحسن الأشعري رضي الله تعالى عنه : هو الكلام القديم فكما أن ذاته تعالى لا تشبه سائر الذوات مع أن الدليل دال على أنها معلومة ومرئية في الآخرة من غير كيف ولا جهة فكذا كلامه منزه عن مشابهة الحرف والصوت مع أنه مسموع .

وقال الماتريدي : هو من جنس الحروف والأصوات ، وأما المعتزلة : فقد اتفقوا على أن ذلك النداء كان بحروف وأصوات علم به موسى من قبل الله تعالى فصار معجزاً علم به

موسى أن الله تعالى مخاطباً له فلم يحتج مع ذلك لواسطة ، ثم ذكر تعالى ما له النداء بقوله تعالى : ﴿ أن ﴾ أي : بأن ﴿ أئت القوم ﴾ أي : الذين فيهم قوة وأيّ قوة ﴿ الظالمين ﴾ رسولاً ، ووصفهم بالظلم لكفرهم ، واستبعادهم بني إسرائيل وذبح أولادهم وقوله تعالى: ﴿ قوم فرعون ﴾ أي : معه بدل أو عطف بيان للقوم الظالمين ، وقوله تعالى : ﴿ ألا يتقون ﴾ استئناف أتبعه إرساله إليهم للإنذار تعجباً من إفراطهم في الظلم واجترائهم عليه ولما كان من المعلوم أن من أتى الناس بما يخالف أهواءهم لم يقبل .

(226/567)

﴿ قال رب ﴾ أي : أيها الرفيق بي ﴿ إني أخاف أن يكذبون ﴾ أي : فلا يترتب على إتياني إليهم أثر فاجعل لي قبولاً ومهابة تحرسني بها ممن يريدني بسوء ، وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء ، والباقون بالسكون .

﴿ ويضيق صدري ﴾ من تكذيبهم لي ﴿ ولا ينطلق لساني ﴾ بأداء الرسالة للعقدة التي فيه بواسطة تلك الجمرة التي لذعته في الطفولية ﴿ فأرسل ﴾ أي : فتسبب عن ذلك الذي اعتذرت به عن المبادرة إلى الذهاب عند الأمر طلب الإرسال ﴿ إلى هارون ﴾ أخي ليكون لي عضداً على ما أمضي له من الرسالة ، فيحتمل أن تكون تلك العقدة باقية عند

الرسالة ، وأن تكون قد زالت عند الدعوة ، ولكن لا يكون مع حل العقدة من لسانه من الفصحاء المصاقع الذين أوتوا سلاطة الألسنة وبسطة المقال ، وهارون كان بتلك الصفة فأراد أن يقرن به ، ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ وأخي هارون هو أفصح مني لساناً ﴾ (القصص :)

ومعنى فأرسل إلى هارون : أرسل إليه جبريل واجعله نبياً وأزرني به واشدد به عضدي ، وهذا الكلام مختصر وقد بسطه في غير هذا الموضع وقد أحسن في الاختصار حيث قال : ﴿ فأرسل إلى هارون ﴾ فجاء بما يتضمن معنى الاستنباء ، ومثله في تقصير الطويلة والحسن قوله تعالى : ﴿ فقلنا اذهبا إلى القوم الذين كذبوا بآياتنا فدمرناهم تدميراً ﴾ (الفرقان ،)

حيث اقتصر على ذكر طرفي القصة أولها وآخرها وهما الإنذار والتدمير ، ودل بذكرهما على ما هو الغرض من القصة الطويلة كلها وهو أنهم قوم كذبوا بآيات الله فأراد الله إلزام الحجة عليهم فبعث إليهم رسولين فكذبوهما فأهلكهم .

فإن قيل : كيف ساغ لموسى عليه السلام أن يأمره ربه بأمر فلا يقبله بسمع وطاعة من غير توقف وتشبث بعلل ، وقد علم أن الله تعالى عليم بحاله ؟

أجيب : بأنه قد امتثل وتقبل ولكنه التمس من ربه أن يعضده بأخيه حتى يتعاونا على تنفيذ أمره وتبليغ رسالته فمهد قبل التماسه عذراً فيما التمسه ثم التمس بعد ذلك ، وتمهيد العذر في التماس المعين على تنفيذ الأمر ليس بتوقف في امتثال الأمر ولا بتعلل فيه ، وكفى بطلب العون دليلاً على التقبل لا على التعلل ، ثم زاد في الاعتذار في طلب العون خوفاً من أن يقتل قبل تبليغ الرسالة بقوله:

﴿ ولهم علي ذنب ﴾ أي : تبعه ذنب فحذف المضاف ، أو سمى باسمه كما يسمى جزاء السيئة سيئة وهو قتله القبطي وسماه ذنباً على زعمهم ، وهذا اختصار قصته المبسوطة في مواضع . ﴿ فأخاف ﴾ بسبب ذلك ﴿ أن يقتلون ﴾ أي : يقتلونني به .

﴿ قال ﴾ الله تعالى ﴿ كلا ﴾ أي : ارتدع عن هذا الكلام فإنه لا يكون شيءُ ، مما خفت لا قتل ولا غيره ، وكأنه لما كان التكذيب مع ما قام عليه من الصدق من البراهين المقوية لصاحبها الشارحة لصدره العلية لأمره عدّ عدماً ، وقد أجبناك إلى الإعانة بأخيك .

﴿ فاذهبا ﴾ أي : أنت وأخوك متعاضدين إلى ما أمرتك به مؤيدين ﴿ بآياتنا ﴾ الدالة على صدقكما .

تنبيه : ﴿ فاذهبا ﴾ عطف على ما دلّ عليه حرف الردع من الفعل كأنه قيل : ارتدع عما تظن فاذهب أنت وأخوك بآياتنا ﴿ إنا ﴾ أي : بما لنا من العظمة ﴿ معكم مستمعون ﴾

أي : سامعون لأنه تعالى لا يوصف بالمستمع على الحقيقة لأنّ الاستماع جار مجرى الإصغاء والاستماع من السمع بمنزلة النظر من الرؤية ، ومنه قوله تعالى : ﴿ قل أوحي إليّ أنه استمع نفر من الجنّ فقالوا إنا سمعنا قرآناً عجباً ﴾ (الجن ،)

ويقال استمع إلى حديثه وسمع حديثه : أصغى إليه وأدركه بحاسة السمع ، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام : "من استمع إلى حديث قوم وهم له كارهون صبّ في أذنيه البرم" وهو الكحل المذاب ويروى : البيرم وهو بزيادة الياء ، فإن قيل : لم قال معكم بلفظ الجمع وهما اثنان ؟

(228/567)

أجيب : بأنه تعالى أجراهما مجرى الجمع تعظيماً لهما ، أو معكما ومع بني إسرائيل يسمع ما يجيبكم فرعون .

﴿ فأتيا ﴾ أي : فتسبب عن ذهاب ما ذكرت بالحراسة والحفظة أني أقول لكما ائتيا ﴿ فرعون ﴾ نفسه وإن عظمت مملكته وجلت جنوده ﴿ فقولا ﴾ أي : ساعة وصولكما له ولمن عنده ﴿ إنا رسول رب العالمين ﴾ أي : المحسن إلى جميع الخلق المدبر لهم مصالحهم ، فإن قيل : هلا ثنى الرسول كما ثنى في قوله تعالى : ﴿ إنا رسولا ربك ﴾ ؟ (طه ،)

أجيب : بأن الرسول يكون بمعنى المرسل فلم يكن بد من تثنيته ، وأما ههنا فهو إما لأنه مصدر بمعنى الرسالة والمصدر يوحد ومن مجيء رسول بمعنى الرسالة قوله:

*لقد كذب الواشون ما فهت عندهم ** بسرّ ولا أرسلتهم برسول*

أي : برسالة ، والواشون الساعون بالكذب عند ظالم وما فهت بمعنى ما تكلمت ، وإما لأنهما ذوا شريعة واحدة فنزلا منزلة رسول ، وإما لأنه من وضع الواحد موضع التثنية لتلازمهما فصارا كالشيئين المتلازمين كالعينين واليدين ، وقال أبو عبيدة : يجوز أن يكون الرسول بمعنى الاثنين والجمع تقول العرب هذا رسولي ووكيلي وهذان رسولي ووكيلي وهؤلاء رسولي ووكيلي ، كما قال تعالى : ﴿ وهم لكم عدوّ ﴾ (الكهف :) ، ثم ذكر له ما قصد من الرسالة إليه فقال معبراً بأداة التفسير ، لأنّ الرسول فيه بمعنى الرسالة التي تتضمن القول .

(229/567)

﴿ أن ﴾ أي : بأن ﴿ أرسل ﴾ أي : خل وأطلق ، وأعاد الضمير على معنى رسول فقال ﴿ معنا بني إسرائيل ﴾ أي : قومنا الذين استعبدتهم ظلماً ولا سبيل لك عليهم نذهب بهم إلى الأرض المقدسة التي وعدنا الله تعالى بها على ألسنة الأنبياء من آبائنا عليهم الصلاة

والسلام ، وكان فرعون استعبدهم أربعمائة سنة وكانوا في ذلك الوقت ستمائة وثلاثين ألفاً ، ويروى أن موسى رجع مصر وعليه جبة صوف وفي يده عصاه ومكتل معلق في رأس العصا وفيه زاده فدخل داره نفسه وأخبر هارون بأن الله تعالى أرسلني إلى فرعون وأرسل إليك حتى ندعو فرعون إلى الله تعالى ، فخرجت أمهما وصاحت ، وقالت إن فرعون يطلبك ليقتلك فلو ذهبتما إليه قتلكما فلم يمتنع بقولها : وذهبا إلى باب فرعون ليلاً ودقا الباب ففزع البوابون وقالوا من بالباب ، وروي أن البواب اطلع عليهما وقال من بالباب ومن أنتما ؟ فقال موسى أنا رسول رب العالمين فذهب البواب إلى فرعون وقال إن مجنوناً بالباب يزعم أنه رسول رب العالمين فقال فرعون ائذن له لعلنا نضحك منه ، وقيل : لم يؤذن لهما إلى سنة فدخلا عليه وأديا رسالة الله عز وجل فعرف فرعون موسى لأنه نشأ في بيته فلما عرفه .

(230/567)

﴿ قال ﴾ له منكراً عليه ﴿ ألم نربك ﴾ حذف ، فأتيا فرعون فقالا له ذلك لأنه معلوم لا يشتبه وهذا النوع من الاختصار كثير في القرآن ﴿ فينا ﴾ أي : في منازلنا ﴿ وليداً ﴾ أي : صغيراً قريباً من الولادة بعد فطامه ﴿ ولبثت فينا ﴾ أي : في عزنا باعتبار انقطاعك

إلينا وتعززك بنا ﴿ من عمرك سنين ﴾ ثلاثين سنة فما لنا عليك من الحق ينبغي أن يمنعك من مواجهتنا بمثل هذا ، وكأنه عبر بما يفهم النكد كناية عن مدّة مقامه عنده بأنها كانت نكدة لأنه وقع فيما كان يخافه وفاته ما كان يحتاط به من ذبح الأطفال ، وكان موسى يلبس من ملابس فرعون ويركب من مراكبه وكان يسمى ابنه ، وقرأ نافع وابن كثير وعاصم بإظهار الثاء المثلثة عند التاء ، والباقون بالإدغام ، ولما ذكره ما يحمله على الحياء منه ذكره ذنباً يخاف من عاقبته فقال مهولاً له بالكناية .

﴿ وفعلت فعلتك ﴾ أي : من قتل القبطي ، ثم أكد نسبته إلى ذلك مشيراً إلى أنه عامله بالحلم تخجيلاً له فقال ﴿ التي فعلت وأنت ﴾ أي : والحال أنك ﴿ من الكافرين ﴾ قال الحسن والسدي من الكافرين بإلهك ومعناه : على ديننا هذا الذي تعيبه ، وقال أكثر المفسرين أي : الجاحدين لنعمتي عليك بالتربية وعدم الاستعباد يقول ربيناك فكافأتنا أن قتلت منا نفساً وكفرت بنعمتنا وهذا رواية العوفي عن ابن عباس : وقال إنّ فرعون لم يكن يعلم ما الكفر بالربوبية .

﴿ قال ﴾ له موسى مجيباً على طريقة النشر المشوش واثقاً بوعد الله تعالى بالسلامة ﴿ فعلتها إذاً ﴾ أي : إذ قتلته ﴿ وأنا من الضالين ﴾ أي : من الجاهلين بأنّ ذلك يؤدّي إلى قتله ، أو المخطئين كمن يقتل خطأً من غير تعمد للقتل . قال ابن جرير : والعرب تضع

الضلال موضع الجهل والجهل موضع الضلال . وقيل : لا أعرف ذنباً فأنا واثق من كل جهة حتى يوجهني ربي إلى ما شاء .

(231/567)

﴿ ففررت ﴾ أي : فتسبب عن فعلها أني فررت ﴿ منكم ﴾ أي : منك لسطوتك ومن قومك لإغرائهم إياك عليّ ﴿ لما خفتكم ﴾ على نفسي أن تقتلوني بذلك القتيل الذي قتلته خطأً وأنا ابن اثنتي عشرة سنة مع كونه كافراً مهدر الدم ﴿ فوهب لي ربي ﴾ الذي أحسن إليّ بتربيتي عندكم تحت كنف أمي آمنة عليّ مما أحدثتم من الظلم ﴿ حكماً ﴾ أي : علماً وفهماً ، وقيل نبوّة ﴿ وجعلني من المرسلين ﴾ أي : فاجهد الآن جهدك فإني لا أخافك لقتل ولا غيره ، ولما اجتمع في كلام فرعون منّ وتعيير ، بدأه بجوابه عن التعيير ولأنه الأخير فكان أقرب ولأنه أهم ، وهو معنى ما تقدم من أنه على طريقة النشر المشوش بأن يبدأ بالأخير قبل الأوّل ، ولهذا كرّ على امتنانه عليه بالتربية فأبطله من أصله موبخاً له مبكتاً منكراً عليه غير أنه حذف حرف الإنكار إجمالاً في القول وإحساناً في الخطاب وأبى أن تسمى نعمته إلا نقمة بقوله:

﴿ وتلك ﴾ أي : التربية الشنيعة العظيمة في الشناعة التي ذكرتنيها ﴿ نعمة تمنها عليّ أن

عبدت ﴾ أي : تعبيدك وتذليلك قومي ﴿ بني إسرائيل ﴾ أي : جعلتهم عبيداً ظلماً وعدواناً وهم أبناء الأنبياء ولسلفهم يوسف عليه السلام عليكم من المنة بإحياء نفوسكم أولاً وعتق رقابكم ثانياً ، ما لا تقدرون له على جزاء أصلاً ثم ما كفاك ذلك حتى فعلت ما لم يفعله مستعبد فأمرت بقتل أبناءهم فكان ذلك سبب وقوعي إليك لأسلم من ظلمك ، ولو لم تفعل ذلك لكفلني أهلي ولم يلقوني في اليمّ فكيف تمن عليّ بذلك ؟ وقيل : معناه إنك تدعي أن بني إسرائيل عبيدك ولا منة للمولى على العبد في تربيته . وقال الحسن : إنك استعبدت بني إسرائيل فأخذت أموالهم وأنفقت منها عليّ فلا نعمة لك بالتربية . وقيل : إنّ الذي تولى تربيتي هم الذين استعبدتهم فلا منة لك عليّ لأنّ التربية كانت من قبل أمي ومن قومي ، ليس لك إلا مجرد الاسم وهذا ما يعد إنعاماً .

فإن قيل : لم جمع الضمير في منكم وخفتكم مع إفراده في تمنها وعبدت ؟

(232/567)

أجيب : بأن الخوف والفرار لم يكونا منه وحده ولكن منه ومن ملئه المؤتمرين بقتله ، كما مرّت الإشارة إليه بدليل قوله تعالى: ﴿ إنّ الملأ يأتمرون بك ليقتلوك ﴾ (القصص :)

وأما الامتنان فمنه وحده وكذلك التعبيد ، ولما قال له بوابه إنّ ههنا من يزعم أنه رسول رب

العالمين وأدخله عليه .

﴿ قال ﴾ له ﴿ فرعون ﴾ عند دخوله حائداً عن جوابه منكراً لخالقه على سبيل التجاهل كما أنكر هؤلاء الرحمن متجاهلين وهم أعرف الناس بغالب أفعاله كما كان فرعون يعرف لقول موسى عليه الصلاة والسلام ﴿ لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر ﴾ (الإسراء :)

﴿ وما ربّ العالمين ﴾ أي : الذي زعمتما أنكما رسوله وإنما أتى بما دون من لأنها يسأل بها عن طلب الماهية كقولك ما العنقاء ، ولما كان جواب هذا السؤال لا يمكن تعريفه إلا بلوازمه الخارجية لامتناع التعريف بنفسه وبما هو داخل فيه لاستحالة التركيب في ذاته عدل موسى عليه السلام إلى جواب ممكن فأجاب بصفاته تعالى ، كما قال تعالى إخباراً عنه: ﴿ قال رب ﴾ أي : خالق ومبدع ومدبر ﴿ السموات ﴾ كلها ﴿ والأرض ﴾ وإن تباعدت أجرامها بعضها من بعض ﴿ وما بينهما ﴾ أي : بين السموات والأرض فأعاد ضمير التثنية على جمعين اعتباراً بالجنسين وخصه بهذه الصفات لأنها أظهر خواصه وآثاره وفيه إبطال لدعواه أنه إله ، ومعنى قوله ﴿ إن كنتم موقنين ﴾ أي : إن كان يرجى منكم الإيقان الذي يؤدّي إليه النظر الصحيح نفعكم هذا الجواب وإلا لم ينفع ، أو إن كنتم موقنين بشيء قط فهذا أولى ما توقنون به لظهوره وإنارة دليله ، ولما ذكر موسى عليه السلام هذا الجواب الحق .

﴿ قال ﴾ فرعون ﴿ لمن حوله ﴾ من أشراف قومه ، قال ابن عباس : وكانوا خمسمائة رجل عليهم الأسورة وكانت للملوك خاصة ﴿ ألا تستمعون ﴾ جوابه الذي لم يطابق السؤال ، سألته عن حقيقته وهو يجيبني بالفاعلية ، ولما كان يمكن أن يعتقد أن السموات والأرضين واجبة لذاتها فهي غنية عن الخالق .

(233/567)

﴿ قال ﴾ لهم موسى زيادة في البيان ﴿ ربكم ورب آبائكم الأولين ﴾ فعدل عن التعريف بخالقية السموات والأرض إلى التعريف بكونه تعالى خالقاً لهم ولآبائهم ، إذ لا يمكن أن يعتقد في نفسه وفي آبائه وأجداده كونهم واجبين لذواتهم لأنّ المشاهدة دلت على أنهم وجدوا بعد العدم وعدموا بعد الوجود ، وما كان كذلك استحال أن يكون واجباً لذاته واستحال وجوده إلا بالمؤثر فكان التعريف بهذا الأثر أظهر ولكن فرعون لم يكتف بذلك ولهذا .

﴿ قال إنّ رسولكم ﴾ على طريق التهكم إشارة إلى أنّ الرسول ينبغي أن يكون أعقل الناس ثم زاد الأمر بقوله : ﴿ الذي أرسل إليكم ﴾ أي : وأنتم أعقل الناس ﴿ لمجنون ﴾ لا يفهم السؤال فضلاً عن أن يجيب عنه ، فكيف يصلح للرسالة من الملوك ؟ فلما قال ذلك عدل موسى ج إلى طريق ثالث أوضح من الثاني بأن .

﴿ قال رب المشرق والمغرب ﴾ أي : الشروق والغروب ووقتهما وموضعهما ﴿ وما بينهما ﴾ من المخلوقات لأنّ التدبير المستمرّ على هذا الوجه العجيب لا يتمّ إلا بتدبير مدبر قادر ، وهذا بعينه طريقة إبراهيم عليه الصلاة والسلام مع نمروذ ، فإنه استدل أولاً بالإحياء والإماتة وهو الذي ذكر موسى عليه الصلاة السلام بقوله : ﴿ ربكم ورب آبائكم الأولين ﴾ فأجابه نمروذ ﴿ أنا أحي وأميت ﴾ (البقرة :)

فقال ﴿ إنّ الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر ﴾ (البقرة :)

وهو الذي ذكره موسى ج بقوله : ﴿ رب المشرق والمغرب ﴾ وأما قوله : ﴿ إن كنتم تعقلون ﴾ فكأنه ج قال إن كنت من العقلاء عرفت أنه لا جواب عن سؤالك إلا ما ذكرت لك ، لأنك طلبت مني تعريف حقيقته ولا يمكن تعريف حقيقته بنفس حقيقته ولا بأجزاء حقيقته ، فلم يبق إلا أن أعرف حقيقته بآثار حقيقته ، وقد عرفت حقيقته بآثار حقيقته فمن كان عاقلاً يقطع بأنه لا جواب عن سؤالك إلا ما ذكرته لك ، فلما انقطع فرعون عن الجواب ولزمته الحجة تكبر عن الحق وعدل إلى التخويف بأن .

(234/567)

﴿ قال لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين ﴾ أي : واحداً ممن هم في سجني على ما تعلم من حالي في اقتداري ومن سجوني وفظاعتها ، ومن حال من فيها من شدّة الحصر والغلظ في الحجر . قال الكلبي : كان سجنه أشدّ من القتل لأنه كان يأخذ الرجل فيطرحه في هوّة ذاهبة في الأرض بعيدة العمق وحده لا يسمع ولا يبصر فيها شيئاً ، وقرأ ابن كثير وحفص وعاصم بإظهار الذال عند التاء ، والباقون بالإدغام ، ثم ذكر موسى ج كلاماً مجملاً ليعلق فرعون قلبه به فيعدل عن وعيده ، بأن .

﴿ قال ﴾ مدافعاً بالتي هي أحسن إرخاء للعنان لإزادة البيان معنىً لا يبقى معه عذر ولا نسيان ، لأنّ من العادة الجارية السكون إلى الإنصاف والرجوع إلى الحق والاعتراف

﴿ أولو ﴾ أي : أتسجنني ولو ﴿ جئتك بشيءٍ مبين ﴾ أي : هل يحسن أن يذكر هذا مع اقتداري على أن آتيك بشيء بدليلين يدلان على وجود الله تعالى وعلى أني رسوله فعند ذلك .

﴿ قال ﴾ طمعاً في أن يجد موضعاً للتكذيب أو التلبيس ﴿ فأت به ﴾ أي : تسبب عن قولك هذا أني أقول ائت بذلك الشيء ﴿ إن كنت من الصادقين ﴾ أي : فيما ادعيت من الرسالة .

تنبيه : الواو في أولو جئتك واو الحال وليتها الهمزة بعد حذف الفعل كما علم من التقرير ، فإن قيل : كيف قطع الكلام بما لا تعلق له بالأوّل وهو قوله أولو جئتك بشيء مبين أي : بآية

بينة والمعجز لا يدل على ذلك كدلالة سائر ما تقدم ؟

أجيب : بأنه يدل بما أراد أن يظهره من انقلاب العصا حية على الله تعالى وعلى توحيده وعلى أنه صادق في ادعاء الرسالة ، فالذي ختم به كلامه ما تقدم .

(235/567)

﴿ فألقى ﴾ أي : فتسبب عن ذلك وتعقبه أن ألقى موسى ﴿ عصاه ﴾ التي تقدم في غير سورة أنّ الله تعالى أراه إياها ولم يصرّح باسمه اكتفاء بضميره لأنه غير ملتبس ﴿ فإذا هي ثعبان ﴾ أي : حية في غاية الكبر ﴿ مبين ﴾ أي : ظاهر ثعبانيته ، روي أنها لما انقلبت حية ارتفعت إلى السماء قدر ميل ثم انحطت مقبلة إلى فرعون تقول يا موسى مرني بما شئت ، ويقول فرعون أسألك بالذي أرسلك إلا ما أخذتها فأخذها فعادت عصا ، فإن قيل : كيف قال هنا ﴿ ثعبان مبين ﴾ وفي آية أخرى ﴿ فإذا هي حية تسعى ﴾ (طه :) وفي آية ثالثة ﴿ كأنها جان ﴾ (النمل :)

والجان مائل إلى الصغر والثعبان إلى الكبر ؟

أجيب : بأن الحية اسم الجنس ثم لكبرها صارت ثعباناً ، وشبهها بالجان لخفتها وسرعتها ، ويحتمل أنه شبهها بالشيطان لقوله تعالى : ﴿ والجانّ خلقناه من قبل من نار السموم ﴾

(الحجر :)

ويحتمل أنها كانت صغيرة كالجان ثم عظمت فصارت ثعباناً ، ثم إنّ موسى ج لما أراه آية العصا قال فرعون هل غيرها قال : نعم .

﴿ ونزع يده ﴾ أي : التي كانت احترقت لما أخذ الجمرة وهو في حجر فرعون ، وبذل فرعون جهده في علاجها بجميع من قدر عليه من الأطباء فعجزوا عن إبرائها نزعها من جيبه بعد أن أراه إياها على ما يعهده منها ثم أدخلها في جيبه ﴿ فإذا هي ﴾ بعد النزع ﴿ بيضاء للناظرين ﴾ يضيء الوادي من شدّة بياضها من غير برص ، لها شعاع كشعاع الشمس يعشي البصر ويسدّ الأفق ، فعند هذا أراد فرعون لعمية هذه الحجة على قومه فذكر أموراً أوّلها أن .

﴿ قال للملأ حوله ﴾ لما وضح له الأمر يمّوه على عقولهم : خوفاً من إيمانهم ﴿ إنّ هذا لساحر عليم ﴾ أي : شديد المعرفة بالسحر ، حوله : حال من الملأ ومفعول القول ، قوله : ﴿ إن هذا لساحر عليم ﴾ ولما أوقعهم بما جبلهم به أحماهم لأنفسهم فقال ملغياً لجلباب الإلهية لما قهره من سلطان المعجزة .

﴿ يريد أن يخرجكم من أرضكم ﴾ أي : هذه التي هي قوامكم ﴿ بسحره ﴾ أي : بسبب ما أتى به ، فإنه يوجب استتباع الناس فيتمكن مما يريد ، ثم قال لقومه الذين كان يزعم أنهم عبيده وأنه إلههم ، ما دل على أنه حارت قواه فحط عن منكبيه كبرياء الربوبية وارتعدت فرائصه لما استولى عليه من الدهش والحيرة حتى جعل نفسه مأموراً بعد أن كان يدعي كونه آمراً بل إلهاً قادراً ﴿ فماذا تأمرون ﴾ أي : في مدافعته عما يريد بنا .

﴿ قالوا ﴾ أي : الملأ الذين كانوا حوله ﴿ أرجه وأخاه ﴾ أي : أخر أمرهما ومناظرتهما إلى اجتماع السحرة ، ولم يأمر بقتلهما ولا بما يقاربه ، فسبحان من يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده فيهابه كل شيء ولا يهاب هو غير خالقه . وقرأ قالون بغير همز واختلاس كسرة الهاء ، وورش والكسائي بغير همز وإشباع حركة كسرة الهاء ، وابن كثير وهشام بالهمزة الساكنة وصلة الهاء مضمومة ، وأبو عمرو بالهمزة وضم الهاء مقصورة ، وابن ذكوان بالهمزة وكسر الهاء مقصورة ، وعاصم وحمزة بغير همز وإسكان الهاء

﴿ وابعث في المدائن حاشرين ﴾ أي : رجالاً يحشرون السحرة ، وأصل الحشر : الجمع بكره ، وقيل : إنّ فرعون أراد قتل موسى فقالوا له لا تفعل فإنك إن تقتله دخلت الناس شبهة في أمره ، ولكن أخره واجمع له سحرة ليقاوموه ولا يثبت له عليك حجة ، وعارضوا قوله ﴿ إنّ هذا الساحر عليم ﴾ (الأعراف :)

بقولهم:

﴿ يأتوك بكل سحار ﴾ أي : بليغ في السحر ، فجاؤوا بكلمة الإحاطة وصيغة المبالغة ليطمأنوا من نفسه ويسكنوا من بعض قلقه ﴿ عليم ﴾ أي : متناه في العلم به بعدما تناهى في السحرية ، وعبر بالبناء للمفعول في قوله .

﴿ فجمع السحرة ﴾ إشارة إلى عظمة ملكه ، أي : بأيسر أمر لما له عندهم من العظمة ﴿ لميقات يوم معلوم ﴾ أي : في زمانه ومكانه وهو ضحى يوم الزينة كما مرّ في طه ، وعن ابن عباس : وافق يوم السبت من أول يوم من سنتهم وهو يوم النيروز .

(237/567)

﴿ وقيل ﴾ أي : يقول من يقبل لكونه عن فرعون ﴿ للناس ﴾ أي : عامّة وقوله ﴿ هل أنتم مجتمعون ﴾ فيه استبطاء لهم في الاجتماع ، والمراد منه استعجالهم واستحثاثهم كما يقول الرجل لغلامه هل أنت منطلق إذا أراد أن يحرك منه ويحثه على الانطلاق ، كأنما يخيل له أنّ الناس قد انطلقوا وهو واقف ، ومنه قول تأبط شراً ، اسم شاعر :

*هل أنت باعث دينار لحاجتنا **أو عبد رب أخا عون بن مخراق*

أي : هل أنت حث على إرسال دينار أو عبد رب ، اسمي رجلين ، والثاني منصوب على محل الأوّل ، وأخا عون منادى أو عطف بيان له ، وعليه اقتصر الكشاف .

﴿ لعلنا نتبع السحرة ﴾ أي : في دينهم ﴿ إن كانوا هم الغالبين ﴾ أي : لموسى في دينه ولا نتبع موسى في دينه ، وليس غرضهم اتباع السحرة وإنما الغرض الكلي أن لا يتبعوا موسى فساقوا الكلام مساق الكناية لأنهم إذا اتبعوهم لم يكونوا متبعين لموسى ، وقيل : أرادوا بالسحرة موسى وهارون وقالوا ذلك على طريق الاستهزاء وعبر بالفاء في قوله:

﴿ فلما جاء السحرة ﴾ أي : الذين كانوا في جميع بلاد مصر إيذاناً بسرعة حشرهم لضخامة ملكه ووفور عظمته ﴿ قالوا لفرعون ﴾ مشترطين الأجر في حال الحاجة إلى الفعل ليكون ذلك أجدر بحسن الوعد ومجاز القصد ﴿ آئن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين ﴾ موسى ، وأتوا بأداة الشك مع جزمهم بالغلبة تخويفاً له بأنه إن لم يحسن في وعدهم لم ينصحوا له .

﴿ قال ﴾ مجيباً إلى ما سألوا ﴿ نعم ﴾ لكم ذلك ، وقرأ الكسائي بكسر العين ، والباقون بالفتح وزادهم بما لا أحسن منه عند أهل الدنيا مؤكداً بقوله ﴿ وإنكم إذاً ﴾ أي : إذا غلبتم ﴿ لمن المقربين ﴾ أي : عندي ، وزاد إذاً هنا زيادة في التأكيد ، ولما قال لهم فرعون ذلك قالوا لموسى ﴿ إمّا أن تلقي وإمّا أن نكون نحن الملقين ﴾ (الأعراف ،) .

﴿ قال لهم موسى ﴾ أي : مريداً لإبطال سحرهم لأنه لا يتمكن منه إلا بإلقاءهم ﴿ ألقوا ما أنتم ملقون ﴾ فإن قيل : كيف أمرهم بفعل السحر ؟

أجيب : بأنه لم يرد بذلك أمرهم بالسحر والتمويه بل الأذن بتقديم ما هم فاعلوه لا محالة توسلاً به إلى إظهار الحق .

﴿ فألقوا ﴾ أي : فتسبب عن قول موسى ج وتعقبه أن ألقوا ﴿ حبالهم وعصيهم ﴾ أي : التي أعدّوها للسحر ﴿ وقالوا ﴾ مقسمين ﴿ بعزة فرعون ﴾ وهي من أيمان الجاهلية ، وهكذا كل حلف بغير الله ، ولا يصح في الإسلام إلا الحلف بالله تعالى أو باسم من أسمائه أو صفة من صفاته كقولك والله والرحمن ورب العرش وعزة الله وقدرة الله وجلال الله وعظمة الله ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "لا تحلفوا بآبائكم ولا بأمهاتكم ولا بالطواغيت ولا تحلفوا إلا بالله ولا تحلفوا بالله إلا وأنتم صادقون" ولقد استحدث الناس في هذا الباب في إسلامهم جاهلية نسبت لها الجاهلية الأولى ، وذلك أن الواحد منهم لو أقسم بأسماء الله كلها وصفاته على شيء لم يقبل منه ولم يعتد بها حتى يقسم برأس سلطانه ، فإذا أقسم به فتلك عندهم جهد اليمين التي ليس وراءها حلف لحالف ، ثم إنهم أكدوا يمينهم بأنواع من التوكيد بقولهم : ﴿ إنا لنحن ﴾ أي : خاصة لا نستثني ﴿ الغالبون ﴾ وذلك لفرط اعتقادهم في أنفسهم ، أو لإتيانهم بأقصى ما يمكن أن يؤتى به من السحر .

﴿ فألقى ﴾ أي : فتسبب عن صنع السحرة وتعقبه أن ألقى ﴿ موسى عصاه ﴾ التي جعلت آية له وتسبب عن إلقائه قوله تعالى : ﴿ فإذا هي تلقف ﴾ أي : تبتلع في الحال

بسرعة وهمة ﴿ ما يأفكون ﴾ أي : ما يقلبونه عن وجهه وحقيقته بسحرهم وكيدهم ويزوّرونه فيخيلون في حبالهم وعصيهم أنها حيات تسعى بالتمويه على الناظرين أو إفكهم ، سمى تلك الأشياء إفكاً مبالغة ، وقرأ حفص بسكون اللام وتخفيف القاف ، وقرأ الباقون بفتح اللام وتشديد القاف ، وشدّد البزي التاء في الوصل وخففها الباقون .

(239/567)

﴿ فألقى السحرة ﴾ أي : عقب فعلها من غير تلبث ﴿ ساجدين ﴾ أي : فسجدوا بسرعة عظيمة حتى كأن ملقياً ألقاهم من قوة إسراعهم علماً منهم بأنّ هذا من عند الله فأمسوا أتقياء بررة بعد ما جاؤوا في صبح ذلك اليوم سحرة كفرة .

روي أنهم قالوا إن يك ما جاء به موسى سحراً فلن نغلب وإن يك من عند الله فلن يخفى علينا ، فلما قذف عصاه فتلقفت ما أتوا به علموا أنه من عند الله فآمنوا . وعن عكرمة أصبحوا سحرة وأمسوا شهداء ، وإنما عبر عن الخرور بالإلقاء لأنه ذكر مع الإلقاآت فسلك به طريقة المشاكلة ، وفيه أيضاً : مع مراعاة المشاكلة أنهم حين رأوا ما رأوا لم يتمالكوا أن رموا بأنفسهم إلى الأرض ساجدين كأنهم أخذوا فطرحوا طرحاً ، فإن قيل : فاعل الإلقاء ما هو لو صرح به ؟ .

أجيب : بأنه الله تعالى بما خوّلهم من التوفيق أو إيمانهم أو ما عاينوا من المعجزة الباهرة ، قال الزمخشري : ولك أن لا تقدر فاعلاً لأنّ ألقوا بمعنى خرّوا وسقطوا ، ولما كان كأنه قيل : هذا فعلهم فما كان قولهم : قيل .

﴿ قالوا آمنا برب العالمين ﴾ أي : الذي دعا إليه موسى عليه السلام أول ما تكلم وقولهم: ﴿ رب موسى وهارون ﴾ عطف بيان لرب العالمين ، لأنّ فرعون كان يدعي الربوبية وأرادوا أن يعذلوه ، ومعنى إضافته إليهما في ذلك المقام أنه الذي دعا إليه موسى وهارون عليهما السلام ، ولما آمن السحرة بأجمعهم لم يأمن فرعون أن يقول قومه أنّ هؤلاء السحرة على كثرتهم وبصيرتهم لم يؤمنوا إلا عن معرفة بصحة أمر موسى عليه السلام فيسلكون طريقهم ، فلبس على القوم وبالغ في التنفير عن موسى من وجوه : أحدها : أن .

﴿ قال آمنتم له ﴾ أي : لموسى ﴿ قبل أن آذن ﴾ أي : أنا ﴿ لكم ﴾ فمسارعتكم إلى الإيمان به دالة على ميلكم إليه .

تنبيه : ههنا همزتان مفتوحتان ، قرأ الجميع بإبدال الثانية ألفاً ، وحقق الثانية حمزة والكسائي وشعبة ، وسهلها الباقون غير حفص فإنه أسقط الأولى والثانية عنده هي المبدوء بها .

ثانيها : قوله ﴿ إنه لكبيركم الذي علمكم السحر ﴾ وهذا تصريح بما رمز به أولاً وتعريض منه بأنهم فعلوا ذلك عن مواطأة بينهم وبين موسى وقصروا في السحر ليظهروا أمر موسى وإلا ففي قوة السحر أن تفعلوا مثل ما يفعل .

ثالثها : قوله ﴿ فلسوف تعلمون ﴾ وهو وعيد وتهديد شديد ، رابعها : قوله:

﴿ لأقطعنّ أيديكم وأرجلكم من خلاف ﴾ أي : يد كل واحد اليمنى ورجله اليسرى ﴿ ولأصلبنكم أجمعين ﴾ وهذا الوعيد من أعظم الإهلاكات ، ثم إنهم أجابوا عن هذه الكلمات من وجهين : الأول : قولهم:

﴿ قالوا لا ضير ﴾ أي : لا ضرر علينا وخبر لا محذوف تقديره في ذلك ﴿ إنا ﴾ أي : بفعلك ذلك فينا إن قدّرك الله تعالى عليه ﴿ إلى ربنا ﴾ الذي أحسن إلينا بالهداية بعد موتنا بأي وجه كان ﴿ منقلبون ﴾ أي : راجعون في الآخرة ، الثاني : قولهم:

﴿ إنا نطمع ﴾ أي : نرجو ﴿ أن يغفر ﴾ أي : يستر سترا بليغاً ﴿ لنا ربنا خطايانا ﴾ أي : التي قدمناها على كثرتها ثم عللوا طمعهم مع كثرة الخطايا بقولهم : ﴿ أن كنا ﴾ أي : كونا هو لنا كالجبلة ﴿ أول المؤمنين ﴾ أي : من أهل هذا المشهد أو من رعية فرعون أو من أهل زمانهم ولما ظهر من أمر فرعون ما شاهدوه وخيف أن يقع منه ببني إسرائيل وهم الذين آمنوا وكانوا في قوم موسى ما يؤدّى إلى الاستئصال أمره الله تعالى أن يسري بهم كما قال

تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ (52) ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ السراج المنير حـ 5 صـ 20.5 ﴾

(241/567)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثامن والستون بعد الخمسمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/568)

الجزء الثامن والستون بعد الخمسمائة

من الآية ﴿ 52 ﴾ من سورة الشعراء

وحتى الآية ﴿ 68 ﴾ من نفس السورة

(4/568)

قوله تعالى ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ (52) فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (53) إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (54) وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ (55) وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ (56) فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (57) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (58) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (59) فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ (60) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما قص سبحانه من حال الدعاء ما كفى في التسلية من قصد هذين النبيين بالأذى

والتهكم بمن دعوا إليه ، وجعلهما الأعليين ، ولم يضرهما ضعفهما وقلتهما ، ولا نفع عدوهما قوته وكثرته ، شرع يسلي بما أوقعه في حال السير ، فقال طاوياً ما بقي منه لأن هذا ذكّر به ، عاطفاً على هذه القصة : ﴿ وأوحينا ﴾ أي بما لنا من العظمة حين أردنا فصل الأمر وإنجاز الموعود ﴿ إلى موسى أن أسر ﴾ أي سر ليلاً ، حال اشتغال فرعون وجنوده بموت أبكارهم وتجهيزهم لهم ﴿ بعبادي ﴾ أي بني إسرائيل الذين كرمتهم مصاحباً لهم إلى ناحية بحر القلزم ، غير مبال بفرعون ولا منزعج منه ، وتزودوا اللحم والخبز الفطير للإسراع ، وألطخوا أعتابكم بالدم ، لأني أوصيت الملائكة الذين يقتلون الأبكار أن لا يدخلوا بيتاً على بابه دم ؛ ثم علل أمر له بالسير في الليل بقوله : ﴿ إنكم متبعون ﴾ أي لا تظن أنهم لكثرة ما رأوا من الآيات يكفون عن اتباعكم ، فأسرع بالخروج لتبعدوا عنهم إلى الموضع الذي قدرت في الأزل أن يظهر فيه مجدي ، والمراد توافيهم عند البحر ، ولم يكتم اتباعكم عن موسى عليه السلام لعدم تأثره به لما تحقق عنده من الحفظ لما تقدم به الوعد الشريف بذلك التأكيد .

ولما كان التقدير : فأسرى بهم امتثالاً للأمر بعد نصف الليل ، عطف عليه قوله : ﴿ فأرسل فرعون ﴾ أي لما أصبح وأعلم بهم ﴿ في المدائن حاشرين ﴾ أي رجالاً يجمعون الجنود بقوة وسطوة وإن كرهوا ، ويقولون تقوية لقلوبهم وتحريكاً لهممهم : ﴿ إن هؤلاء ﴾ إشارة بأداة القرب تحقيراً لهم إلى أنهم في القبضة وإن بعدوا ، لما بهم من العجز ،

وبآل فرعون من القوة ، فليسوا بحيث يخاف قوتهم ولا ممانعتهم ﴿ لشرذمة ﴾ أي طائفة وقطعة من الناس .

(5/568)

ولما كانت قلتهم إنما هي بالنسبة إلى كثرة آل فرعون وقوتهم وما لهم عليهم من هيبة الاستعباد ، وكان التعبير بالشرذمة موهماً لأنهم في غاية القلة ، أزال هذا الوهم بالتعبير بالجمع دون المفرد ليفيد أنه خبر بعد خبر ، لا صفة ، وأن التعبير بالشرذمة إنما هو للإشارة إلى تفرق القلوب ، والجمع ولا سيما ما للسلامة مع كونه أيضاً للقلة أدل على أنهم أوزاع ، وفيه أيضاً إشارة إلى أنهم مع ضعفهم بقلة العدد آيسون من إسعاف بمدد .

وليس لهم أهبة لقتال لعدم العدة لأنهم لم يكونوا قط في عداد من يقاتل كما تقول لمن تزدريه : هو أقل من أن يفعل كذا ، فقال : ﴿ قليلون ﴾ أي بالنسبة إلى ما لنا من الجنود التي لا تحصى وإن كانوا في أنفسهم كثيرين ، فلا كثرة لهم تمنعكم أيها المحشورون من اتباعهم ؛ قال البغوي عن ابن مسعود ـ رضى الله عنهما ـ : كانوا ستمائة ألف وتسعين ألفاً ، ولا يحصى عدد أصحاب فرعون – انتهى .

وكل هذا بيان لأن فرعون مع تناهي عظمته لم يقدر على أثرٍ ما في موسى عليه السلام ولا

من اتبعه تحقيقاً لما تقدم من الوعد به أول القصة .

ولما ذكر ما يمنع الخوف من اتباعهم ، ذكر ما يوجب الحث عليه ويحذر من التقاعس عنه فقال : ﴿ وإنهم لنا ﴾ ونحن على ما نحن عليه من الكثرة والعظمة ﴿ لغائظون ﴾ أي بما فجعونا به من أنفسهم وما استعاروه من الزينة من أواني الذهب والفضة وفاخر الكسوة ، فلا رحمة في قلوبكم تحميهم .

ولما كان مدار مادة " شرذم " على التقطع .

فكان في التعبير بها إشارة إلى أنهم مع القلة متفرقون ليسوا على قلب واحد ، وذكر أن في اتباعهم شفاء الغلل ، أتبعه ما ينفي عن المتقاعد العلل ، فقال : ﴿ وإنا لجميع ﴾ أي أنا وأنتم جماعة واحدة مجتمعون بإياله الملك على قلب واحد .

(6/568)

ولما أشار بهذا الخبر إلى ضد ما عليه بنو إسرائيل مع قلتهم مما هو سبب للجرأة عليهم ، أخبر بخبر ثان يزيد الجرأة عليهم ، وفي مضادة لما أشير إليه ب " قليلون " من الاستضعاف فقال : ﴿ حاذرون ﴾ أي ونحن – مع إجماع قلوبنا – من شأننا وطبعنا الحذر ، فنحن لا نزال على أهبة القتال ، ومقارعة الأبطال ، لا عائق لنا عنه بسفر ولا بغيره ، أما من جهتي

فبإفاضة الأموال عليكم ، وإدرار الأرزاق فيكم ، ووضع الأشياء في مواضعها في الأرض والرجال ، وأما من جهتكم فباستعمال الأمانة من طاعة الملك في وضع كل ما يعطيكم في مواضعه من إعداد السلاح والمراكب والزاد ، وجميع ما يحتاج إليه المحارب ، مع ما لكم من العزة والقوة وشماخة الأنوف وعظم النفوس مع الجرأة والإقدام والثبات في وقف الحقائق ، المحفوظ بالعقل المحوط بالجزم المانع من اجتراء الأخصام عليكم ، ومكرهم لديكم ، فإنه يحكى أنه كان يتصرف في خراج مصر بأن يجزئه أربعة أجزاء : أحدها لوزرائه وكتابه وجنده ، والثاني لحفر الأنهار وعمل الجسور ، والثالث له ولولده ، والرابع يفرق من مدن الكور ، فإن لحقهم ظمأ أو استبحار أو فساد علة أو موت عوامل قوّاهم به ؛ وري أنه قصده قوم فقالوا : نحتاج إلى أن نحفر خليجاً لنعمر ضياعنا ، فإذن في ذلك واستعمل عليهم عاملاً فاستكثر ما حمل من خراج تلك الناحية إلى بيت المال ، فسأل عن مبلغ ما أنفقوه على خليجهم ، فإذا هو مائة ألف دينار ، فأمر بحملها إليهم فامتنعوا من قبولها ، فقال : اطرحوها عليهم ، فإن الملك إذا استغن بمال رعيته افتقر وافتقروا ، وأن الرعية إذا استغنت بمال ملكهم استغنى واستغنوا .

(7/568)

ولما كان التقدير : فأطاعوا أمره ، ونفوا على كل صعب وذلول ، عطف عليه قوله معلماً بما آل إليه أمرهم : ﴿ فأخرجناهم ﴾ أي بما لنا من القدرة ، إخراجاً حثيثاً مما لا يسمح أحد بالخروج منه ﴿ من جنات ﴾ أي بساتين يحق لها أن تذكر ﴿ وعيون ﴾ لا يحتاج معها إلى نيل ولا مطر ﴿ وكنوز ﴾ من الأموال تعرف بمقدار ما هم فيه من النعم الفاضلة عنهم ، مع ما هم فيه من تمام الاستعداد لمثل هذا المراد ﴿ ومقام ﴾ من المنازل ﴿ كريم ﴾ أي على صفة ترضي الرائي له لأنه على النهاية من الحسن لا يقال فيه : ليته كان كذا ، أو كان كذا .

ولما كان الخروج عن مثل هذا مما يستنكر ، أشار إلى عظمة القدرة عليه بقوله :

﴿ كذلك ﴾ أي مثل ذلك الإخراج العجيب الذي أراده فرعون من قومه في السرعة والكمال الهيبة أخرجناهم نحن بأن يسرنا له ولهم ذلك ، ووفرنا لهم الأسباب ، لما اقتضته حكمتنا ، أو مثل ذلك الخروج الذي قصصناه عليك أخرجناهم ، أي كان الواقع من خروجهم مطابقاً لما عبرنا به عنه ، أو الأمر الذي قصصناه كله كما قلنا وأولها أقعدها وأحسنها وأجودها ﴿ وأورثناها ﴾ أي تلك النعم السرية بمجرد خروجهم بالقوة وبإهلاكهم بالفعل ﴿ بني إسرائيل ﴾ أي جعلناهم بحيث يرثونها لأنا لم نبق لهم مانعاً يمنعهم منها بعد أن كانوا مستبعدين تحت أيدي أربابها ، وأما إرثهم لها بالفعل ففيه نظر لقوله في الدخان ﴿ قوماً آخرين ﴾ .

ولما وصف الإخراج، وصف أثره فقال مرتباً عليه بالفعل وعلى الإيراث بالقوة:

﴿ فأتبعوهم ﴾ أي جعلوا أنفسهم تابعة لهم ﴿ مشرقين ﴾ أي داخلين في وقت شروق الشمس، أي طلوعها من صبيحة الليلة التي سار في نصفها بنو إسرائيل، ولولا تقدير العزيز العليم بخرق ذلك للعادة لم يكن على حكم العادة في أقل من عشرة أيام، فإنه أمر يعجز الملوك مثله، فيا له من حشر ما أسرعه! وجهاز ما أوسعه! واستمروا إلى أن لحقوهم عند بحر القلزم كما تقدم في الأعراف شرح ذلك عن التوراة، وتقدم سر تسييرهم في تلك الطريق.

انتهى انتهى. اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 361.364 ﴾

(9/568)

فصل

قال الفخر:

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ (52) ﴾

قرىء ﴿ أَسَرَّ ﴾ بقطع الهمزة ووصلها وسر.

لما ظهر أمر موسى عليه السلام بما شاهدوه من الآية، أمره الله تعالى بأن يخرج ببني إسرائيل

لما كان في المعلوم من تدبير الله تعالى في موسى وتخليصه من القوم وتمليكه بلادهم وأموالهم ، ولم يأمن وقد جرت تلك الغلبة الظاهرة أن يقع من فرعون ببني إسرائيل ما يؤدي إلى الاستئصال ، فلذلك أمره الله تعالى أن يسري ببني إسرائيل ، وهم الذين آمنوا وكانوا من قوم موسى ، ولا شبهة أن في الكلام حذفاً وهو أنه أسرى بهم كما أمره الله تعالى ، ثم إن قوم موسى عليه السلام قالوا لقوم فرعون إن لنا في هذه الليلة عيداً ، ثم استعاروا منهم حليهم وحللهم بهذا السبب ، ثم خرجوا بتلك الأموال في الليل إلى جانب البحر ، فلما سمع ذلك فرعون أرسل في المدائن حاشرين ، ثم إنه قوى نفسه ونفس أصحابه بأن وصف قوم موسى بوصفين من أوصاف الذم ، ووصف قوم نفسه بصفة المدح أما وصف قوم موسى عليه السلام بالذم .

(10/568)

فالصفة الأولى : قوله : ﴿ إِنَّ هَؤُلاء لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴾ والشرذمة الطائفة القليلة ، ومنه قولهم ثوب شراذم للذي بلي ، وتقطع قطعاً ذكرهم بالاسم الدال على القلة ، ثم جعلهم قليلاً

بالوصف ، ثم جمع القليل فجعل كل حزب منهم قليلاً واختار جمع السلامة الذي هو للقلة (وقد يجمع القليل على أقلة وقلل) ، ويجوز أن يريد بالقلة الذلة (والقماءة) لا قلة العدد ، والمعنى أنهم لقلتهم لا يبالي بهم ولا يتوقع غلبتهم وعلوهم ، ثم اختلف المفسرون في عدد تلك الشرذمة ، فقال ابن عباس رضي الله عنهما : كانوا ستمائة ألف مقاتل لا شاب فيهم دون عشرين سنة ، ولا شيخ يوفي على الستين سوى الحشم ، وفرعون يقللهم لكثرة من معه ، وهذا الوصف قد يستعمل في الكثير عند الإضافة إلى ما هو أكثر منه ، فروي أن فرعون خرج على فرس أدهم حصان وفي عسكره على لون فرسه ثلثمائة ألف .

الصفة الثانية : قوله : ﴿ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴾ يعني يفعلون أفعالاً تغيظنا وتضيق صدورنا ، واختلفوا في تلك الأفعال على وجوه : أحدها : ما تقدم من أمر الحلي وغيره وثانيها : خروج بني إسرائيل عن عبودية فرعون واستقلالهم بأنفسهم وثالثها : مخالفتهم لهم في الدين وخروجهم عليهم ورابعها : ليس إلا أنهم لم يتخذوا فرعون إلهاً .

أما الذي وصف فرعون به قومه فهو قوله : ﴿ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حاذرون ﴾ وفيه ثلاث قراءات (حذرون) و (حاذرون) و (حادرون) بالدال غير المعجمة .

واعلم أن الصفة إذا كانت جارية على الفعل وهي اسم الفاعل واسم المفعول كالضارب والمضروب أفادت الحدوث ، وإذا لم تكن كذلك وهي الشبهة أفادت الثبوت ، فمن قرأ

﴿ حاذرون ﴾ ذهب إلى إنا قوم من عادتنا الحذر واستعمال الحزم ، ومن قرأ ﴿ حاذرون ﴾ فكأنه ذهب إلى معنى إنا قوم ما عهدنا أن نحذر إلا عصرنا هذا .

(11/568)

وأما من قرأ ﴿ حادرون ﴾ بالدال غير المعجمة فكأنه ذهب إلى نفي الحذر أصلاً ، لأن الحادر هو المشمر ، فأراد إنا قوم أقوياء أشداء ، أو أراد إنا مدججون في السلاح ، والغرض من هذه المعاذير أن لا يتوهم أهل المدائن أنه منكسر من قوم موسى أو خائف منهم .

أما قوله تعالى : ﴿ فأخرجناهم ﴾ فالمراد إنا جعلنا في قلوبهم داعية الخروج فاستوجبت الداعية الفعل ، فكان الفعل مضافاً إلى الله تعالى لا محالة .

وأما قوله : ﴿ مّن جنات وَعُيُونٍ وَكُنُوزٍ ﴾ فقال مجاهد : سماها كنوزاً ، لأنهم لم ينفقوا منها في طاعة الله تعالى ، والمقام الكريم يريد المنازل الحسنة والمجالس البهية ، والمعنى إنا أخرجناهم من بساتينهم التي فيها عيون الماء وكنوز الذهب والفضة ، والمواضع التي كانوا يتنعمون فيها لنسلمها إلى بني إسرائيل .

أما قوله كذلك فيحتمل ثلاثة أوجه : النصب على أخرجناهم مثل ذلك الإخراج الذي وصفناه ، والجر على أنه وصف لمقام كريم ، أي مقام كريم مثل ذلك المقام الذي كان لهم ،

والرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف ، أي الأمر كذلك .

أما قوله : ﴿ فَأَتْبَعُوهُم ﴾ أي فلحقوهم ، وقرىء (فاتبعوهم) ﴿ مُشْرِقِينَ ﴾ داخلين في وقت الشروق من أشرقت الشمس شروقاً إذا طلعت . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 24 صـ 118.119 ﴾

(12/568)

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴾

في الشرذمة وجهان

: أحدهما : أنهم سفلة الناس وأدنياؤهم ، قاله الضحاك ، ومنه قول الأعشى :

وهم الأعبد في أحيائهم . . . لعبيدٍ وتراهم شرذمة .

الثاني : أنهم العصبة الباقية من عصبة كبيرة وشرذمة كل شيء بقيته القليلة . ويقال لما قطع من فضول النعال من الجلد شراذم ، وللقميص إذا خلق شراذم ، وأنشد أبو عبيدة .

جاء الشتاء وقميصي أخلاق . . . شراذم يضحك منها التواق

واختلف في عدد بني إسرائيل حين قال فرعون فيهم : إنه لشرذمة قليلون ، على أربعة

أقاويل :

أحدها : ستمائة وتسعين ألفاً ، قال مقاتل : لا يعد ابن عشرين سنة لصغيره ولا ابن ستين لكبره ، وهو قول السدي .

الثالث : كانوا ستمائة ألف مقاتل ، قاله قتادة .

الرابع : كانوا خمسمائة ألف وثلاثة آلاف وخمسمائة ، وإنما استقل هذا العدد لأمرين :

أحدهما : لكثرة من قتل منهم .

الثاني : لكثرة من كان معه ، حكى السدي أنه كان على مقدمته هامان في ألف ألف وسبعمائة ألف حصان ليس فيها ماديانه ، وقال الضحاك كانوا سبعة آلاف ألف .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَذِرُونَ ﴾ قراءة ابن كثير ونافع ، وأبي عمرو ، وقرأ الباقون ﴿ حَاذِرُونَ ﴾ وفيه أربعة أوجه :

أحدها : أنهما لغتان ومعناهما واحد ، حكاه ابن شجرة وقاله أبو عبيدة واسْتَشْهَد بقول الشاعر :

وكنت عليه أحذر الموت وحده . . . فلم يبق لي شيء عليه أحاذره .

الثاني : أن الحذر المطبوع على الحذر ، والحاذر الفاعل الحذر ، حكاه ابن عيسى .

الثالث : أن الحذر الخائف والحاذر المستعد .

الرابع : أن الحذر المتيقظ ، والحاذر آخذ السلاح ، لأن السلاح يسمى حذراً قاله الله تعالى

: ﴿ وَخُذُوا حِذْرَكُم ﴾ [النساء : 102] أي سلاحكم ، وقرأ ابن عامر . ﴿ حَادِرُونَ ﴾ بدال غير معجمة وفي تأويله وجهان

: أحدهما : أقوياء من قولهم جمل حادر إذا كان غليظاً .

الثاني : مسرعون .

(13/568)

قوله تعالى : ﴿ وَكُنُوزٍ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : الخزائن .

الثاني : الدفائن .

الثالث : الأنهار ، قاله الضحاك .

﴿ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾ فيه ثلاثة أقاويل

: أحدها : أنها المنابر ، قاله ابن عباس ، ومجاهد .

الثاني : مجالس الأمراء ، حكاه ابن عيسى .

الثالث : المنازل الحسان ، قاله ابن جبير .

ويحتمل رابعاً : أنها مرابط الخيل لتفرد الزعماء بارتباطها عُدة وزينة فصار مقامها أكرم

منزول .

قوله تعالى ﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴾

فيه ثلاثة أقاويل

: أحدها : حين أشرقت الشمس بالشعاع ، قاله السدي .

الثاني : حين أشرقت الأرض بالضياء ، قاله قتادة .

الثالث : أي بناحية المشرق ، قاله أبو عبيدة .

قال الزجاج : يقال شرقت الشمس إذا طلعت ، وأشرقت إذا أضاءت .

واختلف في تأخر فرعون وقومه عن موسى وبني إسرائيل حتى أشرقوا على قولين :

أحدهما : لاشتغالهم بدفن أبكارهم لأن الوباء في تلك الليلة وقع فيهم .

الثاني : لأن سحابة أظلتهم فخافوا وأصبحوا ، فانقشعت عنهم .

وقرىء ﴿ مُشَرِّقِينَ ﴾ بالتشديد أي نحو المشرق ، مأخوذ من قولهم شرّق وغرّب ، إذا سار نحو المشرق والمغرب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

(14/568)

وقال ابن عطية :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ (52) ﴾

ثم إن الله عز وجل لما أراد إظهار أمره في نجاة بني إسرائيل وغرق فرعون وقومه أمر موسى أن يخرج بني إسرائيل ليلاً من مصر ، وأخبر أنهم سيتبعون وأمره بالسير تجاه البحر ، وأمره بأن يستعير بنو إسرائيل حلي القبط وأموالهم وأن يستكثروا من أخذ أموالهم كيف ما استطاعوا هذا فيما رواه بعض المفسرين ، وأمره باتخاذ خبز الزاد ، فروي أنه أمر باتخاذه فطيراً لأنه أبقى وأثبت ، وروي أن الحركة أعجلتهم عن اختمار خبز الزاد ، وخرج موسى عليه السلام ببني إسرائيل سحراً فترك الطريق إلى الشام على يساره وتوجه نحو البحر ، فكان الرجل من بني إسرائيل يقول له في ترك الطريق فيقول موسى هكذا أمرت ، فلما أصبح فرعون وعلم بسرى موسى ببني إسرائيل خرج في أثرهم وبعث إلى مدائن مصر لتلحقه العساكر ، فروي أنه لحقه ومعه ستمائة ألف أدهم من الخيل حاشى سائر الألوان ، وروي أن بني إسرائيل كانوا ستمائة ألف وسبعين ألفاً قاله ابن عباس والله أعلم بصحته ، وإنما اللازم من الآية الذي يقطع به أن موسى عليه السلام خرج بجمع عظيم من بني إسرائيل وأن فرعون تبعه بأضعاف ذلك العدد ، قال ابن عباس كان مع فرعون ألف جبار كلهم عليه تاج وكلهم أمير خيل ، و" الشرذمة " الجمع القليل المحتقر ، وشرذمة كل شيء بقيته الخسيسة وأنشد أبو عبيدة : " تخذين في شراذم النعال " .

وقال الآخر : [الرجز]

جاء الشتاء وقميصي أخلاق . . . شراذم يضحك منها النواق

وقوله ﴿ لغائظون ﴾ يريد بخلافهم الأمر وبأخذهم الأموال عارية وتفلتهم منهم تلك الليلة على ما روي ، قال أبو حاتم ، وقرأ من لا يؤخذ عن " لشرذمة قليلون " وليست هذه موثوقة ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو " حذرون " وهو جمع حذر وهو المطبوع على الحذر وهو هاهنا غير عامل ، وكذلك هو في قول أبي أحمر : [السريع]

(15/568)

هل ينسئن يومي إلى غيره . . . أني حوالى وإني حذر

واختلف في عمل فعل فقال سيبويه إنه عامل وأنشد : [الكامل]

حذر أموراً لا تضير وآمن . . . ما ليس منجيه من الأقدار

وادعى اللاحقي تدليس هذا البيت على سيبويه ، وقرأ عاصم وابن عامر وحمزة والكسائي " حاذرون " وهو الذي أخذ يحذر ، وقال عباس بن مرداس : [الوافر]

وأني حاذر أنهي سلاحي . . . إلى أوصال ذيال صنيع

وقرأ ابن أبي عمارة وسميط بن عجلان " حادرون " بالدال غير منقوطة من قولهم عين

حدرة أي معينة فالمعنى ممتلئون غضباً وأنفة ، والضمير في قوله ﴿ فأخرجناهم ﴾ عائد على القبط ، و" الجنات والعيون " بحافتي النيل في أسوان إلى رشيد قال ابن عمرو وغيره ، و" الكنوز " قيل هي إشارة إلى الأموال التي احتجنوها قال مجاهد لأنهم لم ينفقوها قط في طاعة ، وقيل هي إشارة إلى كنوز المعظم ومطالبه وهي باقية إلى اليوم ، " والمقام الكريم " قال ابن لهيعة هو الفيوم ، وقيل يعني به المنابر ، وقيل مجالس الأمراء والحكام ، وقال النقاش المساكن الحسان ، وقرأ الأعرج وقتادة بضم الميم من " مُقام " ، وتوريث بني إسرائيل يحتمل مقصدين : أحدهما أنه تعالى ورثهم هذه الصفة من أرض الشام ، والآخر أنه ورثهم مصر ولكن بعد مدة طويلة من الدهر قاله الحسن ، على أن التواريخ لم تتضمن ملك بني إسرائيل في مصر و﴿ مشرقين ﴾ ، معناه عند شروق الشمس ، أي حين دخلوا فيه ، وقيل معناه نحو الشرق ، وقرأ الحسن " فاتّبعوهم " بصلة الألف وشد التاء ، والجمهور على قطع الألف وسكون التاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(16/568)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّكم مُتَّبَعُونَ ﴾

أي : يَتبعكم فرعون وقومه .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هؤلاء ﴾ المعنى : وقال فرعون : إِن هؤلاء ، يعني بني إِسرائيل ﴿ لَشِرْذِمَةٌ ﴾ قال ابن قتيبة : أي : طائفة .

قال الزجاج : والشرذمة في كلام العرب : القليل .

قال المفسرون : وكانوا ستمائة ألف ، وإِنما استقلَّهم بالإِضافة إِلى جنده ، وكان جنده لا يُحصى .

قوله تعالى : ﴿ وإِنَّهم لَنَا لَغَائِظُون ﴾ تقول : غاظني الشيء ، إِذا أغضبك .

قال ابن جرير : وذُكر أن غيظهم كان لقتل الملائكة من قَتَلَتْ من أبكارهم .

قال : ويحتمل أن غيظهم لذهابهم بالعواري التي استعاروها من حُلِيّهم ، ويحتمل أن يكون لفراقهم إِياهم وخروجهم من أرضهم على كُره منهم .

قوله تعالى : ﴿ وإِنَّا لَجَمِيعٌ حَذِرون ﴾ قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو : ﴿ حَذِرون ﴾ بغير ألف .

وقرأ الباقون : ﴿ حاذِرون ﴾ بألف .

وهل بينهما فرق ؟ فيه قولان .

أحدهما : أن الحاذر : المستعدُّ ، والحذر : المتيقّظ ، وجاء في التفسير أن معنى حاذرين : مُؤْدُون ، أي : ذَوو أداة ، وهي السلاح ، لأنها أداة الحرب .

والثاني : أنهما لغتان معناهما واحد ؛ قال أبو عبيدة : يقال : رجل حَذِرٌ وحَذُرٌ وحاذرٌ .

والمَقام الكريم : المنزل الحسن .

وفي قوله : ﴿ كذلك ﴾ قولان .

أحدهما : كذلك أفعل بمن عصاني ، قاله ابن السائب .

والثاني : الأمر كذلك ، أي : كما وصفنا ، قاله الزجاج .

قوله تعالى : ﴿ وأورثناها بني إسرائيل ﴾ وذلك أن الله تعالى ردَّهم إلى مصر بعد غرق فرعون ، وأعطاهم ما كان لفرعون وقومه من المساكن والأموال .

وقال ابن جرير الطبري : إنما جعل ديار آل فرعون مُلْكاً لبني إسرائيل ، ولم يَرْدُدْهم إليها لكنه جعل مساكنهم الشام .

قوله تعالى : ﴿ فأَتْبَعُوهم ﴾

(17/568)

قال ابن قتيبة : لحقوهم ﴿ مُشْرِقين ﴾ أي : حين شَرَقت الشمس ، أي : طلعت ، يقال : أشْرَقْنا : دخلنا في الشُّروق ، كما يقال : أمسينا وأصبحنا .

وقرأ الحسن ، وأيوب السَّخْتِياني : ﴿ فاتَّبعوهم ﴾ بالتشديد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 6 صـ ﴾

(18/568)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إلى موسى أَنْ أَسْرِ بعبادي إِنَّكُم مّتَّبِعُونَ ﴾

لما كان من سنته تعالى في عباده إنجاء المؤمنين المصدقين من أوليائه ، المعترفين برسالة رسله وأنبيائه ، وإهلاك الكافرين المكذبين لهم من أعدائه ، أمر موسى أن يخرج ببني إسرائيل ليلاً وسماهم عباده ؛ لأنهم آمنوا بموسى .

ومعنى : ﴿ إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ ﴾ أي يتبعكم فرعون وقومه ليردوكم .

وفي ضمن هذا الكلام تعريفهم أن الله ينجيهم منهم ؛ فخرج موسى عليه السلام ببني إسرائيل سَحَراً ، فترك الطريق إلى الشام على يساره وتوجه نحو البحر ، فكان الرجل من بني إسرائيل يقول له في ترك الطريق فيقول : هكذا أمرت .

فلما أصبح فرعون وعلم بسُرَى موسى ببني إسرائيل ، خرج في أثرهم ، وبعث إلى مدائن مصر لتلحقه العساكر ، فروي أنه لحقه ومعه مائة ألف أدهم من الخيل سوى سائر الألوان .

وروي أن بني إسرائيل كانوا ستمائة ألف وسبعين ألفاً .

والله أعلم بصحته .

وإنما اللازم من الآية الذي يُقطع به أن موسى عليه السلام خرج بجمع عظيم من بني إسرائيل وأن فرعون تبعه بأضعاف ذلك .

قال ابن عباس : كان مع فرعون ألف جبار كلهم عليه تاج وكلهم أمير خيل .

والشِّرذمة الجمع القليل المحتقر والجمع الشَّراذم .

قال الجوهري : الشِّرذمة الطائفة من الناس والقطعة من الشيء .

وثوب شراذم أي قطع .

وأنشد الثعلبي قول الراجز :

جاء الشتاءُ وثِيَابي أَخْلاقْ . . .

شَراذِمٌ يَضحكُ منها النَّوّاقْ

النَّوّاقْ من الرجال الذي يروض الأمور ويصلحها ؛ قاله في الصحاح .

واللام في قوله : ﴿ لَشِرْذِمَةٌ ﴾ لام توكيد وكثيراً ما تدخل في خبر إن ، إلا أن الكوفيين لا يجيزون إن زيداً لسوف يقوم .

والدليل على أنه جائز قوله تعالى : ﴿ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [الشعراء : 49] وهذه لام التوكيد بعينها وقد دخلت على سوف ؛ قاله النحاس .

﴿ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴾ أي أعداء لنا لمخالفتهم ديننا وذهابهم بأموالنا التي استعاروها على ما تقدم.

وماتت أبكارهم تلك الليلة.

وقد مضى هذا في "الأعراف" و"طه" مستوفى.

يقال: غاظني كذا وأغاظني.

والغيظ الغضب ومنه التغيظ والاغتياظ.

أي غاظونا بخروجهم من غير إذن.

﴿ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَذِرُونَ ﴾ أي مجتمع أخذنا حِذرنا وأسلحتنا.

وقرىء ﴿ حَاذِرُونَ ﴾ ومعناه معنى ﴿ حَذِرُونَ ﴾ أي فرقون خائفون.

قال الجوهري: وقرىء ﴿ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُون ﴾ و ﴿ حَذِرُونَ ﴾ و ﴿ حَذُرُونَ ﴾ بضم الذال حكاه الأخفش؛ ومعنى ﴿ حَاذِرُونَ ﴾ متأهبون، ومعنى: ﴿ حَذِرُونَ ﴾ خائفون.

قال النحاس: ﴿ حَذِرُونَ ﴾ قراءة المدنيين وأبي عمرو، وقراءة أهل الكوفة ﴿

حَاذِرُونَ ﴾ وهي معروفة عن عبد الله بن مسعود وابن عباس ؛ و ﴿ حَادِرُونَ ﴾ بالدال غير المعجمة قراءة أبي عبّاد وحكاها المهدوي عن ابن أبي عمار ، والماوردي والثعلبي عن سُمَيْط بن عجلان .

قال النحاس : أبو عبيدة يذهب إلى أن معنى ﴿ حَذِرُونَ ﴾ ﴿ وحَاذِرُونَ ﴾ واحد .

وهو قول سيبويه وأجاز : هو حذِرٌ زيدا ؛ كما يقال : حاذر زيدا ، وأنشد :

حَذِرٌ أُمورا لا تَضِيرُ وآمِنٌ . . .

ما ليس مُنْجِيَهُ من الأقدارِ

وزعم أبو عمر الجَرْميّ أنه يجوز هو حذرٌ زيداً على حذف مِن .

فأما أكثر النحويين فيفرقون بين حذِر وحاذر ؛ منهم الكسائي والفراء ومحمد بن يزيد ؛ فيذهبون إلى أن معنى حذر في خلقته الحذر ، أي متيقظ متنبه ، فإذا كان هكذا لم يتعدّ ، ومعنى حاذر مستعدّ وبهذا جاء التفسير عن المتقدّمين .

قال عبد الله بن مسعود في قول الله عز وجل : ﴿ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ ﴾ قال : مؤدون في السلاح والكُراع مُقْوون ، فهذا ذاك بعينه .

وقوله : مؤدون معهم أداة .

وقد قيل : إن المعنى : معنا سلاح وليس معهم سلاح يحرضهم على القتال ؛ فأما ﴿ حادِرون ﴾ بالدال المهملة فمشتق من قولهم عين حَدْرة أي ممتلئة ؛ أي نحن ممتلئون غيظاً عليهم ؛ ومنه قول الشاعر :

وعينٌ لها حَدْرَةٌ بَدْرَةٌ . . .

شُقَّتْ ماقيهمَا مِنْ أُخَرْ

وحكى أهل اللغة أنه يقال : رجل حادِرٌ إذا كان ممتلىء اللحم ؛ فيجوز أن يكون المعنى الامتلاء من السلاح .

المهدوي : الحادر القويّ الشديد .

قوله تعالى : ﴿ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ يعني من أرض مصر .

وعن عبد الله بن عمرو قال : كانت الجنات بحافتي النيل في الشّقّتين جميعاً من أسوان إلى رشيد ، وبين الجنات زروع .

والنيل سبعة خلجان : خليج الإسكندرية ، وخليج سَخا ، وخليج دمياط ، وخليج سَرْدُوس ، وخليج مَنْف ، وخليج الفيوم ، وخليج المَنْهَى متصلة لا ينقطع منها شيء عن شيء ، والزروع ما بين الخلجان كلها .

وكانت أرض مصر كلها تروى من ستة عشر ذراعاً بما دبّروا وقدّروا من قناطرها

وجسورها وخلجانها ؛ ولذلك سمي النيل إذا غلق ستة عشر ذراعاً نيل السلطان ، ويُخلَع على ابن أبي الردّاد ؛ وهذه الحال مستمرّة إلى الآن .

وإنما قيل نيل السلطان لأنه حينئذٍ يجب الخراج على الناس .

وكانت أرض مصر جميعها تروى من إصبع واحدة من سبعة عشر ذراعاً ، وكانت إذا غلق النيل سبعة عشر ذراعاً ونودي عليه إصبع واحد من ثمانية عشر ذراعاً ، ازداد في خراجها ألف ألف دينار .

فإذا خرج عن ذلك ونودي عليه إصبعاً واحداً من تسعة عشر ذراعاً نقص خراجها ألف ألف دينار .

وسبب هذا ما كان ينصرف في المصالح والخلجان والجسور والاهتمام بعمارتها .

فأما الآن فإن أكثرها لا يروى حتى ينادى إصبع من تسعة عشر ذراعاً بمقياس مصر .

وأما أعمال الصعيد الأعلى ، فإن بها ما لا يتكامل ريّه إلا بعد دخول الماء في الذراع الثاني والعشرين بالصعيد الأعلى .

(21/568)

قلت : أما أرض مصر فلا تروى جميعها الآن إلا من عشرين ذراعاً وأصابع ؛ لعلو الأرض وعدم الاهتمام بعمارة جسورها ، وهو من عجائب الدنيا ؛ وذلك أنه يزيد إذا انصبت المياه في جميع الأرض حتى يسيح على جميع أرض مصر ، وتبقى البلاد كالأعلام لا يوصل إليها إلا بالمراكب والقياسات .

وروي عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قال : نيل مصر سيد الأنهار ، سخر الله له كل نهر بين المشرق والمغرب ، وذلل الله له الأنهار ؛ فإذا أراد الله أن يجري نيل مصر أمر كل نهر أن يمده ، فأمدته الأنهار بمائها ، وفجّر الله له عيوناً ، فإذا انتهى إلى ما أراد الله عز وجل ، أوحى الله تبارك وتعالى إلى كل ماء أن يرجع إلى عنصره .

وقال قيس بن الحجاج : لما افتتحت مصر أتى أهلها إلى عمرو بن العاص حين دخل بئونة من أشهر القبط فقالوا له : أيها الأمير إن لنيلنا هذا سنة لا يجري إلا بها ، فقال لهم : وما ذاك ؟ فقالوا : إذا كان لاثنتي عشرة ليلة تخلو من هذا الشهر عمدنا إلى جارية بِكر بين أبويها ؛ أرضينا أبويها ، وحملنا عليها من الحليّ والثياب أفضل ما يكون ، ثم ألقيناها في هذا النيل ؛ فقال لهم عمرو : هذا لا يكون في الإسلام ؛ وإن الإسلام ليهدم ما قبله .

فأقاموا أبيب ومسرى لا يجري قليل ولا كثير ، وهموا بالجلاء .

فلما أرى ذلك عمرو بن العاص كتب إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنهما ، فأعلمه بالقصة ، فكتب إليه عمر بن الخطاب : إنك قد أصبت بالذي فعلت ، وإن الإسلام يهدم ما

قبله ولا يكون هذا .

وبعث إليه ببطاقة في داخل كتابه .

وكتب إلى عمرو : إني قد بعثت إليك ببطاقة داخل كتابي ، فألقها في النيل إذا أتاك كتابي .

فلما قدم كتاب عمر إلى عمرو بن العاص أخذ البطاقة ففتحها فإذا فيها : من عبد الله أمير المؤمنين عمر إلى نيل مصر أما بعد فإن كنت إنما تجري من قِبلك فلا تجر وإن كان الله الواحد القهار هو الذي يُجريك فنسأل الله الواحد القهار أن يجريك .

(22/568)

قال : فألقى البطاقة في النيل قبل الصليب بيوم وقد تهيأ أهل مصر للجلاء والخروج منها ؛ لأنه لا تقوم مصلحتهم فيها إلا بالنيل .

فلما ألقى البطاقة في النيل .

أصبحوا يوم الصليب وقد أجراه الله في ليلة واحدة ستة عشر ذراعاً ، وقطع الله تلك السيرة عن أهل مصر من تلك السنة .

قال كعب الأحبار : أربعة أنهار من الجنة وضعها الله في الدنيا سَيْحان وجَيْحان والنيل والفرات .

فسيحان نهر الماء في الجنة ، وجيحان نهر اللبن في الجنة ، والنيل نهر العسل في الجنة ، والفرات نهر الخمر في الجنة .

وقال ابن لَهيعَة : الدجلة نهر اللبن في الجنة .

قلت : الذي في "الصحيح" من هذا حديث أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " سَيْحانُ وَجَيْحَانُ وَالنِّيلُ وَالْفُرَاتُ كُلٌّ من أنهار الجنة " لفظ مسلم .

وفي حديث الإسراء من حديث أنس بن مالك عن مالك بن صَعْصَعَة رجل من قومه قال : " وحدّث نبيّ الله صلى الله عليه وسلم أنه رأى أربعة أنهار يخرج من أصلها نهران ظاهران ونهران باطنان فقلت يا جبريل ما هذه الأنهار قال أما النهران الباطنان فنهران في الجنة وأما الظاهران فالنيل والفرات "

لفظ مسلم .

وقال البخاريّ من طريق شَرِيك عن أنس " فإذا هو في السماء الدنيا بنهرين يَطَّرِدان فقال ما هذان النهران يا جبريل قال هذا النيل والفرات عنصرهما ثم مضى في السماء فإذا هو بنهر آخر عليه قصر من اللؤلؤ والزبرجد فضرب بيده فإذا هو مسك أذفر فقال ما هذا يا جبريل فقال هذا هو الكوثر الذي خبأ لك ربُّك " وذكر الحديث .

والجمهور على أن المراد بالعيون عيون الماء .

وقال سعيد بن جبير : المراد عيون الذهب .

وفي الدخان ﴿ كَمْ تَرَكُواْ مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ ﴾ [الدخان : 25 26] .

قيل : إنهم كانوا يزرعون ما بين الجبلين من أوّل مصر إلى آخرها .

وليس في الدخان ﴿ وكنوز ﴾ .

﴿ وكنوز ﴾ جمع كنز ؛ وقد مضى هذا في سورة "براءة" .

والمراد بها هاهنا الخزائن .

(23/568)

وقيل : الدفائن .

وقال الضحاك : الأنهار ؛ وفيه نظر ؛ لأن العيون تشملها .

﴿ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾ قال ابن عمر وابن عباس ومجاهد : المقام الكريم المنابر ؛ وكانت ألف مِنبر لألف جبّار يُعظّمون عليها فرعون ومُلكه .

وقيل : مجالس الرؤساء والأمراء ؛ حكاه ابن عيسى وهو قريب من الأول .

وقال سعيد بن جبير : المساكن الحسان .

وقال ابن لهيعة : سمعت أن المقام الكريم الفيوم .

وقيل : كان يوسف عليه السلام قد كتب على مجلس من مجالسه (لا إله إلا الله إبراهيم

خليل الله) فسماها الله كريمة بهذا .

وقيل : مرابط الخيل لتفرد الزعماء بارتباطها عُدّة وزينة فصار مقامها أكرم منزل بهذا ؛ ذكره الماوردي .

والأظهر أنها المساكن الحسان كانت تكرم عليها .

والمقام في اللغة يكون الموضع ويكون مصدراً .

قال النحاس : المقام في اللغة الموضع ؛ من قولك قام يقوم ، وكذا المقامات واحدها مقامة ؛ كما قال :

وفيهم مَقَاماتٌ حِسانٌ وجوهُهم . . .
وأنديةٌ ينتابُها القولُ والفعلُ

والمقام أيضاً المصدر من قام يقوم .

والمقام (بالضم) الموضع من أقام .

والمصدر أيضاً من أقام يقيم .

قوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بني إِسْرَائِيلَ ﴾

يريد أن جميع ما ذكره الله تعالى من الجنات والعيون والكنوز والمقام الكريم أورثه الله بني إسرائيل .

قال الحسن وغيره : رجع بنو إسرائيل إلى مصر بعد هلاك فرعون وقومه .

وقيل : أراد بالوراثة هنا ما استعاروه من حليّ آل فرعون بأمر الله تعالى .

قلت : وكلا الأمرين حصل لهم .

والحمد لله .

﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴾ أي فتبع فرعون وقومه بني إسرائيل .

قال السدي : حين أشرقت الشمس بالشعاع .

وقال قتادة : حين أشرقت الأرض بالضياء .

قال الزجاج : يقال شَرَقت الشمسُ إذا طلعت ، وأشرقت إذا أضاءت .

(24/568)

واختلف في تأخر فرعون وقومه عن موسى وبني إسرائيل على قولين : أحدهما :

لاشتغالهم بدفن أبكارهم في تلك الليلة ؛ لأن الوباء في تلك الليلة وقع فيهم ؛ فقوله : ﴿ مُشْرِقِينَ ﴾ حال لقوم فرعون .

الثاني : إن سحابة أظلتهم وظُلْمة فقالوا : نحن بعد في الليل فما تقشعت عنهم حتى أصبحوا .

وقال أبو عبيدة : معنى ﴿ فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ ﴾ ناحية المشرق .

وقرأ الحسن وعمرو بن ميمون : ﴿ فَاتَّبَعُوهُمْ مُشَرِّقِينَ ﴾ بالتشديد وألف الوصل ؛ أي نحو المشرق ؛ مأخوذ من قولهم : شرّق وغرّب إذا سار نحو المشرق والمغرب .

ومعنى الكلام قدرنا أن يرثها بنو إسرائيل فاتبع قوم فرعون بني إسرائيل مشرّقين فهلكوا ، وورث بنو إسرائيل بلادهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 13 صـ ﴾

(25/568)

وقال أبو حيان :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ (52) ﴾

تقدم الخلاف في ﴿ أسر ﴾ ، وأنه قرىء بوصل الهمزة وبقطعها في سورة هود .

وقرأ اليماني : أن سر ، أمر من سار يسير .

أمر الله موسى عليه السلام أن يخرج ببني إسرائيل ليلاً من مصر إلى تجاه البحر ، وأخبره أنهم سيتبعون .

فخرج سحراً ، جاعلاً طريق الشام على يساره ، وتوجه نحو البحر ، فيقال له في ترك الطريق ، فيقول : هكذا أمرت .

فلما أصبح ، علم فرعون بسري موسى ببني إسرائيل ، فخرج في أثرهم ، وبعث إلى مدائن

مصر ليحلقه العساكر .

وذكروا أعداداً في أتباع فرعون وفي بني إسرائيل ، الله أعلم بصحة ذلك .

﴿ إن هؤلاء لشرذمة ﴾ : أي قال إن هؤلاء وصفهم بالقلة ، ثم جمع القليل فجعل كل حزب قليلاً ، جمع السلامة الذي هو للقلة ، وقد يجمع القليل على أقلة وقلل ، والظاهر تقليل العدد .

قال الزمخشري : ويجوز أن يريد بالقلة : الذلة والقماءة ، ولا يريد قلة العدد ، والمعنى : أنهم لقلتهم لا يبالي بهم ولا تتوقع غفلتهم ، ولكنهم يفعلون أفعالاً تغيظنا وتضيق صدورنا ، ونحن قوم من عادتنا التيقظ والحذر واستعمال الحزم في الأمور ، فإذا خرج علينا خارج سارعنا إلى حسم يساره ، وهذه معاذير اعتذر بها إلى أهل المدائن ، لئلا يظن به ما يكسر من قهره وسلطانه . انتهى .

قال أبو حاتم : وقرأ من لا يؤخذ عنه : ﴿ لشرذمة قليلون ﴾ ، وليست هذه موقوفة . انتهى .

يعني أن هذه القراءة ليست موقوفة على أحد رواها عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) .

وقيل : ﴿ لغائظون ﴾ : أي بخلافهم وأخذهم الأموال حين استعاروها ولم يردوها ، وخرجوا هاربين .

وقرأ الكوفيون ، وابن ذكوان ، وزيد بن علي : ﴿ حاذرون ﴾ ، بالألف ، وهو الذي قد أخذ يحذر ويجدد حذره ، وحذر متعد .

قال تعالى : ﴿ يحذر الآخرة ﴾ وقال العباس بن مرداس :

وإني حاذر أنمي سلاحي . . .

إلى أوصال ذيال صنيع

(26/568)

وقرأ باقي السبعة : بغير ألف وهو المتيقظ .

وقال الزجاج : مؤدون ، أي ذوو أدوات وسلاح ، أي متسلحين .

وقيل : حذرون في الحال ، وحاذرون في المآل .

وقال الفراء : الحاذر : الخائف ما يرى ، والحذر : المخلوق حذراً .

وقال أبو عبيدة : رجل حذر وحذر وحاذر بمعنى واحد .

وذهب سيبويه إلى أن حذراً يكون للمبالغة ، وأنه يعمل كما يعمل حاذر ، فينصب المفعول به ، وأنشد :

حذر أموراً لا تضير وآمن . . .

ما ليس منجيه من الأقدار

وقد نوزع في ذلك بما هو مذكور في كتب النحو .

وعن الفراء أيضاً ، والكسائي : رجل حذر ، إذا كان الحذر في خلقته ، فهو متيقظ منتبه .

وقرأ سميط بن عجلان ، وابن أبي عمار ، وابن السميفع : حاذرون ، بالدال المهملة من قولهم : عين حدرة ، أي عظيمة ، والحادر : المتورم .

قال ابن عطية : فالمعنى ممتلئون غيظاً وأنفة .

وقال ابن خالوية : الحادر : السمين القوي الشديد ، يقال غلام حدر بدر .

وقال صاحب اللوامح : حدر الرجل : قوي بأسه ، يقال : منه رجل حدر بدر ، إذا كان شديد البأس في الحرب ، ويقال : رجل حدر ، بضم الدال للمبالغة ، مثل يقظ .

وقال الشاعر :

أحب الصبي السوء من أجل أمّة . . .

وأبغضه من بغضها وهو حادر

أي سمين قوي .

وقيل : مدجّجون في السلام .

﴿ فأخرجناهم ﴾ : الضمير عائد على القبط .

﴿ من جنات وعيون ﴾ : بحافتي النيل من أسوان إلى رشيد ، قاله ابن عمر وغيره ،

والجمهور : على أنها عيون الماء .

وقال ابن جبير : المراد عيون الذهب .

﴿ وكنوز ﴾ : هي الأموال التي خربوها .

قال مجاهد : سماها كنوزاً لأنه لم ينفق في طاعة الله قط .

وقال الضحاك : الكنوز : الأنهار .

قال صاحب التحبير : وهذا فيه نظر ، لأن العيون تشملهما .

وقيل : هي كنوز المقطم ومطالبه .

قال ابن عطية : هي باقية إلى اليوم . انتهى .

(27/568)

وأهل مصر في زماننا في غاية الطلب لهذه الكنوز التي زعموا أنها مدفونة في المقطم ، فينفقون على حفر هذه المواضع في المقطم الأموال الجزيلة ، ويبلغون في العمق إلى أقصى غاية ، ولا يظهر لهم إلا التراب أو حجر الكذان الذي المقطم مخلوق منه ، وأي مغربي يرد عليهم سألوه عن علم المطالب .

فكثير منهم يضع في ذلك أوراقاً ليأكلوا أموال المصريين بالباطل ، ولا يزال الرجل منهم يذهب

ماله في ذلك حتى يفتقر ، وهو لا يزداد إلا طلباً لذلك حتى يموت .

وقد أقمت بين ظهرانيهم إلى حين كتابة هذه الأسطر ، نحواً من خمسة وأربعين عاماً ، فلم أعلم أن أحداً منهم حصل على شيء غير الفقر ؛ وكذلك رأيهم في تغوير الماء .

يزعمون أن ثم آباراً ، وأنه يكتب أسماء في شقفة ، فتلقى في البئر ، فيغور الماء وينزل إلى باب في البئر ، يدخل منه إلى قاعة مملوءة ذهباً وفضة وجوهراً وياقوتاً .

فهم دائماً يسألون من يرد من المغاربة عمن يحفظ تلك الأسماء التي تكتب في الشقفة ، فيأخذ شياطين المغاربة منهم مالاً جزيلاً ، ويستأكلونهم ، ولا يحصلون على شيء غير ذهاب أموالهم ، ولهم أشياء من نحو هذه الخرافات ، يركنون إليها ويقولون بها ، وإنما أطلت في هذا على سبيل التحذير لمن يعقل .

وقوله تعالى : ﴿ ومقام كريم ﴾ .

قال ابن لهيعة : هو الفيوم .

وقال ابن عباس ، ومجاهد ، والضحاك : هو المنابر للخطباء .

وقيل : الأسرة في الكلل .

وقيل : مجالس الأمراء والأشراف والحكام .

وقال النقاش : المساكن الحسان .

وقيل : مرابط الخيل ، حكاه الماوردي .

وقرأ قتادة ، والأعرج : ومقام ، بضم الميم من أقام كذلك .

قال الزمخشري : يحتمل ثلاثة أوجه : النصب على أخرجناهم مثل ذلك الإخراج الذي وصفناه ، والجر على أنه وصف لمقام ، أي ومقام كريم مثل ذلك المقام الذي كان لهم ، والرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف ، أي الأمر كذلك . انتهى .

(28/568)

فالوجه الأول لا يسوغ ، لأنه يؤول إلى تشبيه الشيء بنفسه ، وكذلك الوجه الثاني ، لأن المقام الذي كان لهم هو المقام الكريم ، ولا يشبه الشيء بنفسه .

والظاهر أن قوله : ﴿ وأورثناها بني إسرائيل ﴾ ، أنهم ملكوا ديار مصر بعد غرق فرعون وقومه ، لأنه اعتقب قوله : ﴿ وأورثناها ﴾ : قوله : ﴿ وأخرجناهم ﴾ ، وقاله الحسن ؛ قال : كما عبروا النهر ، رجعوا وورثوا ديارهم وأموالهم .

وقيل : ذهبوا إلى الشام وملكوا مصر زمن سليمان .

وقرأ الجمهور : ﴿ فاتبعوهم ﴾ : أي فلحقوهم .

وقرأ الحسن ، والذماري : فاتبعوهم ، بوصل الألف وشد التاء .

﴿ مشرقين ﴾ : داخلين في وقت الشروق ، من شرقت الشمس شروقاً ، إذا طلعت ،

كأصبح : دخل في وقت الصباح ، وأمسى : دخل في وقت المساء .

وقال أبو عبيدة : فاتبعوهم نحو الشرق ، كأنجد : إذا قصد نحو نجد .

والظاهر أن مشرقين حال من الفاعل .

وقيل : مشرقين : أي في ضياء ، وكان فرعون وقومه في ضباب وظلمة ، تحيروا فيها حتى جاوز بنو إسرائيل البحر ، فعلى هذا يكون مشرقين حالاً من المفعول . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾

(29/568)

وقال أبو السعود :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إلى موسى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى ﴾

وذلك بعد بضعِ سنينَ أقامَ بين أظهُرِهم يدعُوهم إلى الحقِّ ويُظهر لهم الآياتِ فلم يزيدُوا إلاَّ عُتُوّاً وعناداً حسبما فُصِّل في سورة الاعراف بقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا ءالَ فِرْعَوْنَ بالسنين ﴾ الآيات . وقرىء : بكسر النون ووصل الألف من سرى ، وقرىء : أنْ سِرْ من السير . ﴿ إِنَّكُم مّتَّبَعُونَ ﴾ تعليلٌ للأمرِ بالإسراءِ أي يتبعكُم فرعونُ وجنودُه مصبحينَ فأسرِ بمَن معك حتَّى لا يُدركوكم قبل الوصولِ إلى البحرِ فيدخلُوا مداخلَكم فأُطبقَه عليهم

فأُغرقَهم .

﴿ فَأَرْسَلَ فِرْعَونُ ﴾ حين أُخبر بمسيرهم ﴿ فِى المدائن حاشرين ﴾ جامعينَ للعساكرِ ليتبعُوهم .

﴿ إِنَّ هَؤُلآء ﴾ يريدُ بني إسرائيلَ ﴿ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴾ استقلَّهم وهم ستمائة ألفٍ وسبعونَ ألفاً بالنسبةِ إلى جُنوده إذْ رُوي أنَّه أرسل في أثرِهم ألفَ ألفَ وخمسمائةِ مَلكٍ مُسوَّرٍ مع كل مَلِكٍ ألفٌ وخرجَ فرعونُ في جمعٍ عظيم وكانت مقدّمتُه سبعَمائة ألفِ رجلٍ على حصان وعلى رأسِه بيضةٌ وعن ابن عبَّاسٍ رضى الله تعالى عنهما خرجَ فرعونُ في ألفِ ألفِ حصانٍ سوى الإناثِ .

﴿ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴾ أي فاعلون ما يغيظُنا .

(30/568)

﴿ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حاذرون ﴾ يريدُ أنَّهم لقلَّتهم لا يُبالى بهم ولا يتوقَّع غلبتَهم وعلوَّهم ولكنَّهم يفعلون أفعالاً تغيظُنا وتضيق صدورَنا ونحن قومٌ من عادتنا التَّيقُّظُ والحذرُ واستعمالُ الحزمِ في الأمورِ فإذا خرجَ علينا سارعنا إلى إطفاءِ ثائرةِ فسادِه ، وهذه معاذيرُ اعتذر بها إلى أهلِ المدائن لئلاَّ يُظنَّ به ما يكسر من قهرِه وسلطانه . وقُرىء حَذِرون فالأوَّلُ دالٌّ على

التَّجدُّدِ والثَّاني على الثَّباتِ وقيل : الحاذرُ المؤدّي في السّلاحِ . وقُرِىء حادِرون بالدّالِ المُهملة أي أقوياءُ وأشدّاءُ وقيل : مدجَّجون في السّلاحِ قد أكسبَهم ذلك حدارةً في أجسامِهم .

﴿ فأخرجناهم ﴾ بأن خلقنا فيهم داعيةَ الخروجِ بهذا السَّببِ فحملتهم عليهم ﴿ مّن جنات وَعُيُونٍ * وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾ كانت لهم جملة ذلك .

﴿ كذلك ﴾ إمَّا مصدرٌ تشبيهيٌّ لأخرجنا أي مثلَ ذلك الإخراجِ العجيبِ أخرجناهُم أو صفة لمقام كريم أي من مقامٍ كريمٍ كائنٍ كذلك أو خبرٌ لمبتدأٍ محذوفٍ أي الأمرُ كذلك ﴿ وأورثناها بَنِى إسراءيل ﴾ أي ملَّكناها إيَّاهم على طريقةِ تمليكِ مالِ المورِّثِ للوارثِ كأنَّهم ملكُوها من حينِ خروجِ أربابِها منها قبل أنْ يقبضُوها ويتسلَّموها ﴿ فَأَتْبَعُوهُم ﴾ أي فلحقُوهم ، وقُرِىء فاتَّبعوهم ﴿ مُشْرِقِينَ ﴾ داخلينَ في وقتِ شُروقِ الشَّمسِ أي طُلوعِها . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 6 صـ ﴾

(31/568)

وقال الآلوسى :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إلى موسى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى ﴾

وذلك بعد سنين أقام بين ظهرانيهم يدعوهم إلى الحق ويظهر لهم الآيات فلم يزيدوا إلا عتواً وعناداً حسبما فصل في سورة الأعراف بقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا ءالَ فِرْعَوْنَ بالسنين ﴾ [الأعراف : 130] الآيات .

وقرىء ﴿ أَنْ أَسْرِ ﴾ بكسر النون ووصل الألف من سرى .

وقرأ اليماني ﴿ إن ﴾ أمراً من سار يسير ﴿ بِعِبَادِى إِنَّكُم مّتَّبِعُونَ ﴾ تعليل للأمر بالإسراء أي يتبعكم فرعون وجنوده مصبحين فأسر ليلاً بمن معك حتى لا يدركوكم قبل الوصول إلى البحر بل يكونون على أثركم حين تلجون البحر فيدخلون مداخلكم فأطبقه عليهم فأغرقهم .

﴿ فَأَرْسَلَ فِرْعَونُ ﴾ الفاء فصيحة أي فأسري بهم وأخبر فرعون بذلك فأرسل ﴿ فِى المدائن ﴾ أي مدائن مصر ﴿ حاشرين ﴾ جامعين للعساكر ليتبعوهم .

﴿ إِنَّ هَؤُلآء ﴾ يريد بني إسرائيل والكلام على إدارة القول ، والظاهر أنه حال أي قائلاً إن هؤلاء ﴿ لَشِرْذِمَةٌ ﴾ أي طائفة من الناس ، وقيل : هي السفلة منهم ، وقيل : بقية كل شيء خسيس ، ومنه ثوب شرذام وشرذامة أي خلق مقطع ، قال الراجز :

جاء الشتاء وقميصي أخلاق . . .

شراذم يضحك منه التواق

وقرىء ﴿ لَشِرْذِمَةٌ ﴾ بإضافة شر مقابل خير إلى ذمة ، قال أبو حاتم : وهي قراءة من لا

يئخذ منه ولم يروها أحد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ قَلِيلُونَ ﴾ صفة شرذمة ، وكان الظاهر قليلة إلا أنه جمع باعتبار أن الشرذمة مشتملة على اسباط كل سبط منهم قليل ، وقد بالغ اللعين في قلتهم حيث ذكرهم أولاً باسم دال على القلة وهو شرذمة ثم وصفهم بالقلة ثم جمع القليل للإشارة إلى قلة كل حزب منهم وأتى بجمع السلامة وقد ذكر أنه دال على القلة ، واستقلهم بالنسبة إلى جنوده .

(32/568)

فقد أخرج ابن أبي حاتم عن السدي أن موسى عليه السلام خرج في ستمائة ألف وعشرين ألفاً لا يعد فيهم ابن عشرين لصغره ولا ابن ستين لكبره وتبعهم فرعون على مقدمته هامان في ألف ألف وسبعمائة ألف حصان ، وقيل : أرسل فرعون في أثرهم ألف ألف وخمسمائة ألف ملك مسور مع كل ملك ألف وخرج هو في جمع عظيم وكانت مقدمته سبعمائة ألف رجل كل رجل على حصان وعلى رأسه بيضة ، وهم كانوا على ما روى عن ابن عباس ستمائة ألف وسبعين ألفاً ، وأنا أقول : إنهم كانوا أقل من عساكر فرعون ولا أجزم بعدد في كلا الجمعين ، والاخبار في ذلك لا تكاد تصح وفيها مبالغات خارجة عن العادة .

والمشهور عند اليهود أن بني إسرائيل كانوا حين خرجوا من مصر ستمائة ألف رجل خلا

الأطفال وهو صريح ما في التوراة التي بأيديهم .

وجوز أن يراد بالقلة الذلة لا قلة العدد بل هي مستفادة من شرذمة يعني أنهم لقلتهم أذلاء لا يبالي بهم ولا يتوقع غلبتهم ، وقيل : الذلة مفهومة من شرذمة بناء على أن المراد منها بقية كل شيء خسيس أو السفلة من الناس ، و ﴿ قَلِيلُونَ ﴾ إما صفة لها أو خبر بعد خبر لأن ، والظاهر ما تقدم .

﴿ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴾ لفاعلون ما يغيظنا من مخالفة أمرنا والخروج بغير إذننا مع ما عندهم من أموالنا المستعارة ، فقد روى أن الله تعالى أمرهم أن يستعيروا الحلي من القبط فاستعاروه وخرجوا به ، وتقديم ﴿ لَنَا ﴾ للحصر والفاصلة واللام للتقوية أو تنوزيل المتعدي منزلة اللازم .

﴿ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حاذرون ﴾ أي إنا لجمع من عاداتنا الحذر والاحتراز واستعمال الحزم في الأمور ، أشار أولاً إلى عدم ما يمنع اتباعهم من شوكتهم ثم إلى تحقق ما يدعو إليه من فرط عداوتهم ووجوب التيقظ في شأنهم حثاً عليه أو اعتذاراً بذلك إلى أهل المدائن كيلا يظن به عليه العلنة ما يكسر سلطانه .

وقرأ جمع من السبعة .

وغيرهم ﴿ حاذرون ﴾ بغير ألف ، وفرق بين حاذر بالألف وحذر بدونها بأن الأول اسم فاعل يفيد التجد والحدوث والثاني صفة مشبهة تفيد الثبات ، وقريب منه ما روى عن الفراء .

والكسائي أن الحذر من كان الحذر في خلقته فهو متيقظ منتبه ، وقال أبو عبيدة : هما بمعنى واحد ، وذهب سيبويه إلى أن حذرا يكون للمبالغة وأنه يعمل كما يعمل حاذر فينصب المفعول به ، وأنشد :

حذر أموراً لا تضير وآمن . . .

ما ليس منجيه من الأقدار

وقد نوزع في ذلك بما هو مذكور في كتب النحو .

وعن ابن عباس .

وابن جبير .

والضحاك .

وغيرهم أن الحاذر التام السلاح .

وفسروا ما في الآية بذلك ، وكأنه بمعنى صاحب حذر وهي آلة الحرب سميت بذلك مجازاً ، وحمل على ذلك قوله تعالى : ﴿ خُذُواْ حِذْرَكُمْ ﴾ [النساء : 71] .

وقرأ سميط بن عجلان .

وابن أبي عمار .

وابن السميقع ﴿ حادرون ﴾ بالألف والدال المهملة من قولهم : عين حدرة أي عظيمة

وفلان حادر أي متورم .

قال ابن عطية : والمعنى ممتلئون غيظاً وأنفة .

وقال ابن خالويه : الحادر السمين القوي الشديد .

والمعنى أقوياء أشداء .

ومنه قول الشاعر :

أحب الصبي السوء من أجل أمه . . .

وأبغضه من بغضها وهو حادر

وقيل : المعنى تامو السلاح على هذه القراءة أيضاً أخذاً من الجدارة بمعنى الجسامة والقوة

فإن تام السلاح يتقوى به كما يتقوى بأعضائه ، و ﴿ لَّمَّا جَمِيعٌ ﴾ على جميع القراآت

والمعاني بمعنى الجمع وليست التي يؤكد بها كما أشرنا إليه ولو كانت هي المؤكدة لنصبت .

﴿ فأخرجناهم ﴾ أي فرعون وجنوده أي خلقنا فيهم داعية الخروج بهذا السبب الذي

تضمنته الآيات الثلاث فحملتهم عليه أو خلقنا خروجهم ﴿ مّن جنات وَعُيُونٍ ﴾ كانت

لهم بحافتي النيل كما روى عن ابن عمر .

وغيره .

﴿ وَكُنُوزٍ ﴾ أي أموال كنزوها وخزنوها تحت الأرض .

وخصت بالذكر لأن الأموال الظاهرة أمور لازمة لهم لأنها من ضروريات معاشهم

فإخراجهم عنها معلوم بالضرورة .

(34/568)

وقيل : لأن أموالهم الظاهرة قد انطمست بالتدمير .

وتعقب بأن الإخراج قبل الانطماس إذ من جملة الأموال الظاهرة الجنات والاخبار عنهم

بأنهم أخرجوا منها بعنوان كونها جنات والأصل فيه الحقيقة .

وعلى تقدير تسليم أنه بعد يرد أن المدمر ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون وهو

مفسر بالقصور والعمارات والجنات فيبقى ما سوى ذلك غير محكوم عليه بالتدمير من

الأموال الظاهرة مع أنهم أخرجوا منه أيضاً فيحتاج توجيه عدم التعرض له بغير ما ذكر .

وقيل : المراد بالكنوز أموالهم الباطنة والظاهرة وأطلق عليها ذلك لأنها لم ينفق منها في

طاعة الله تعالى ، ونقل ذلك عن مجاهد والأول أوفق باللغة .

وأكثر جهلة أهل مصر يزعمون أن هذه الكنوز في المقطم من أرض مصر وأنها موجودة إلى

الآن وقد بذلوا على إخراجها أموالاً كثيرة لشياطين المغاربة وغيرهم فلم يظفروا إلا بالتراب أو حجر الكذاب ، وقال ابن جبير : المراد بالعيون عيون الذهب وهو خلاف المتبادر ، ومثله ما قاله الضحاك من أن المراد بالكنوز الأنهار .

﴿ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾ هي المساكن الحسان كما قال النقاش ، وعن ابن لهيعة أنها كانت بالقيوم من أرض مصر ، وقيل : مجالس الأمراء والأشراف والحكام التي تحفها الأتباع ، وقيل : الأسرة في الكلل ، وحكى الماوردي أنها مرابط الخيل ، وعن ابن عباس .

ومجاهد .

والضحاك أنها المنابر للخطباء .

وقرأ قتادة .

والأعرج ﴿ وَمَقَامٍ ﴾ بضم الميم من أقام .

﴿ كذلك ﴾ إما في موضع نصب على أن يكون صفة لمصدر مقدر أي إخراجاً مثل ذلك الإخراج أخرجنا ، والإشارة إلى مصدر الفعل أو في موضع جر على أن يكون صفة لمقام أي مقام كريم مثل ذلك المقام الذي كان لهم ، وعلى الوجهين لا يرد أنه يلزم تشبيه الشيء بنفسه كما زعم أبو حيان لما مر تحقيقه أو في موضع رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي الأمر كذلك ، والمراد تقرير الأمر وتحقيقه .

واختار هذا الطيبي فقال : هو أقوى الوجوه ليكون قوله تعالى : ﴿ وأورثناها بَنِى إسرائيل ﴾ أي ملكناها لهم تمليك الإرث عطفاً عليه ، والجملتان معترضتان بين المعطوف عليه وهو ﴿ فأخرجناهم ﴾ [الشعراء : 57] والمعطوف وهو قوله تعالى :

﴿ فَأَتْبَعُوهُم ﴾ لأن الاتباع عقب الإخراج لا إلا يرث .

قال الواحدي : إن الله تعالى رد بني إسرائيل إلى مصر بعد ما أغرق فرعون وقومه فأعطاهم جميع ما كان لقوم فرعون من الأموال والعقار والمساكن ، وعلى غير هذا الوجه يكون ﴿ أَوْرَثْنَا ﴾ [الشعراء : 59] عطف على ﴿ أَخْرَجْنَا ﴾ ولا بد من تقدير نحو فاردنا إخراجهم وإيراث بني إسرائيل ديارهم فخرجوا وأتبعوهم انتهى ، ويفهم من كلام بعض أن جملة ﴿ أورثناها ﴾ [الشعراء : 59] الخ معترضة بين المعطوف والمعطوف عليه في جميع الأوجه ، وما ذكر عن الواحدي من أن الله رد بني إسرائيل إلى مصدر بعد ما أغرق فرعون وقومه ظاهره وقوع ذلك بعد الغرق من غير تطاول مدة .

وأظهر منه في هذا ما روى عن الحسن قال : كما عبروا البحر ورجعوا وورثوا ديارهم وأموالهم ؛ ورأيت في بعض الكتب أنهم رجعوا مع موسى عليه السلام وبقوا معه في مصر عشر سنين ، وقيل : إنه رجع بعضهم بعد إغراق فرعون وهم الذين أورثوا أموال القبط وذهب الباقون مع موسى عليه السلام إلى أرض الشام .

وقيل : إنهم بعد أن جاوزوا البحر ذهبوا إلى الشام ولم يدخلوا مصر في حياة موسى عليه السلام وملكوها زمن سليمان عليه السلام ، والمذكور في التوراة التي بأيدي اليهود اليوم صريح في أنهم بعد أن جاوزوا البحر توجهوا إلى أرض الشام وقد فصلت قصة ذهابهم إليها وأكثر التواريخ على هذا وظواهر كثير من الآيات تقتضي ما ذكره الواحدي والله تعالى أعلم ، ومعنى ﴿ والذين اتبعوهم ﴾ لحقوهم يقال : تبعت القوم فاتبعهم أي تلوتهم فلحقتهم كأن المعنى فجعلتهم تابعين لي بعد ما كنت تابعاً لهم مبالغة في اللحوق ، وضمير الفاعل لقوم فرعون والمفعول لبني إسرائيل .

وقرأ الحسن ﴿ فَأَتْبَعُوهُم ﴾ بوصل الهمزة وشد التاء ﴿ مُشْرِقِينَ ﴾ أي داخلين في وقت شروق الشمس أي طلوعها من أشرق زيد دخل في وقت الشروق كأصبح دخل في وقت الصباح وأمسى دخل في وقت المساء ، وقال أبو عبيدة : هو من أشرق توجه نحو الشرق كأنجد توجه نحو نجد وأعرق توجه نحو العراق أي فاتبعوهم متوجهين نحو الشرق ، والجمهور على الأول ، وعن السدي أن الله تعالى ألقى على القبط الموت ليلة خرج موسى عليه السلام بقومه فمات كل بكر رجل منهم فشغلوا عن طلبهم بدفنهم حتى طلعت

الشمس ومثل ذلك في التوراة بزيادة موت أبكار بهائمهم أيضاً ، والوصف حال من الفاعل ، وقيل : هو حال من المفعول .

ومعنى ﴿ مُشْرِقِينَ ﴾ في ضياء بناء على ما روى أن بني إسرائيل كانوا في ضياء ، وكان فرعون وقومه في ضباب وظلمة تحيروا فيها حتى جاوز بنو إسرائيل البحر ولا يكاد يصح ذلك لقوله تعالى :

﴿ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (61) ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 19 صـ ﴾

(37/568)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ (52) ﴾

هذه قصة أخرى من أحوال موسى في دعوة فرعون ، فالواو لعطف القصة ولا تفيد قرب القصة من القصة ، فقد لبث موسى زمناً يطالب فرعون بإطلاق بني إسرائيل ليخرجُوا من مصر ، وفرعون يماطل في ذلك حتى رأى الآياتِ التسعَ كما تقدم في سورة الأعراف .

ونظير بعض هذه الآية تقدم في سورة طه .

وزادت هذه بقوله : ﴿ إنكم متبعون ﴾ ، أي أعلم الله موسى أن فرعون سيتبعهم بجنده كما في آية سورة طه .

والقصد من إعلامه بذلك تشجيعه .

وقرأ نافع وابن كثير وأبو جعفر ﴿ اِسْرِ ﴾ بهمزة وصل فعل أمر من (سَرى) وبكسر نون ﴿ أن ﴾ .

لأجل التقاء الساكنين .

وقرأ الباقون بهمزة قطع وسكون نون (أنْ) وفعلا سرى وأسرى متحدان كما تقدم في قوله تعالى : ﴿ سبحان الذي أسرى ﴾ [الإسراء : 1] .

فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (53)

ظاهر ترتيب الجمل يقتضي أن الفاء للتعقيب على جملة : ﴿ وأوحينا إلى موسى ﴾ [الشعراء : 52] وأن بين الجملتين محذوفاً تقديره : فأسرى موسى وخرج بهم فأرسل فرعون حَاشرين ، أي لما خرج بنو إسرائيل خشي فرعون أن ينتشروا في مدائن مصر فأرسل فرعون في المدائن شُرَطاً يحشرون الناس ليلْحقوا بني إسرائيل فيردُّوهم إلى المدينة قاعدة الملك .

و﴿ المدائن ﴾ : جمع مدينة ، أي البلد العظيم .

ومدائن القطر المصري يومئذ كثيرة .

منها (مانوفرى أو منفيس) هي اليوم ميت رهينة بالجيزة و (تيبة أو طيبة) هي بالأقصر و (أبودو) وتسمى اليوم العَرابة المدفونة ، و (ابو) وهي (بو) وهي ادنو ، و (اون رميسي) ، و (أرمنت) و (سنَى) وهي أسناء و (ساورت) وهي السيوط ، و (خمونو) وهي الاشمونيين ، و (بامازيت) وهي البهنسا ، و (خسوُو) وهي سخا ، و (كاريينا) وهي سد أبي قيرة ، و (سودو) وهي الفيوم ، و (كويتي) وهي قفط .

(38/568)

والتعريف في ﴿ المدائن ﴾ للاستغراق ، أي في مدائن القطر المصري ، وهو استغراق عرفي ، أي المدائن التي لحكم فرعون أو المظنون وقوعها قرب طريقهم .

وكان فرعون وقومه لا يعلمون أين اتجه بنو إسرائيل فأراد أن يتعرض لهم في كل طريق يظن مرورهم به .

وكان لا يدري لعلهم توجهوا صوبَ الشام ، أو صوبَ الصحراء الغربية ، وما كان يظن أنهم يقصدون شاطىء البحر الأحمر بحر "القلزم" وكان يومئذ يسمى بحر "سُوف" .

وجملة ﴿ إن هؤلاء لشرذمة قليلون ﴾ مقول لقول محذوف لأن ﴿ حاشرين ﴾ يتضمن معنى النداء ، أي يقولون إن هؤلاء لَشِرْذِمة قليلون .

والإشارة بـ ﴿ هؤلاء ﴾ إلى حاضر في أذهان الناس لأن أمر بني إسرائيل قد شاع في أقطار مصر في تلك المدة التي بين جمع السحرة وبين خروج بني إسرائيل ، وليست الإشارة للسحرة خاصة إذ لا يلتئم ذلك مع القصة .

وفي اسم الإشارة إيماء إلى تحقير لشأنهم أكده التصريح بأنهم شرذمة قليلون .

والشرذمة : الطائفة القليلة من الناس ، هكذا فسره المحققون من أئمة اللغة ، فإتْباعه بوصف ﴿ قليلون ﴾ للتأكيد لدفع احتمال استعمالها في تحقير الشأن أو بالنسبة إلى جنود فرعون ، فقد كان عدد بني إسرائيل الذين خرجوا ستمائة ألف ، هكذا قال المفسرون ، وهو موافق لما في سفر العدد من التوراة في الإصحاح السادس والعشرين .

و﴿ قليلون ﴾ خبر ثان عن اسم الإشارة ، فهو وصف في المعنى لمدلول ﴿ هؤلاء ﴾ وليس وصفاً لشرذمة ولكنه مؤكد لمعناها ، ولهذا جيء به بصيغة جمع السلامة الذي هو ليس من جموع الكثرة .

و(قليل) إذا وصف به يجوز مطابقته لموصوفه كما هنا ، ويجوز ملازمته الإفرادَ والتذكير كما قال السموأل أو الحارثي:

وما ضرّنا أنا قَليل . . .

البيت . . .

ونظيره في ذلك لفظ (كثير) وقد جمعهما قوله تعالى : ﴿ إذ يُريكهم الله في منامك قليلاً ولو

أراكهم كثيراً لَفَشِلْتم ﴾ [الأنفال : 43] .

و"غائظون" اسم فاعل من غاظه الذي هو بمعنى أغاظه ، أي جعله ذا غيظ .

(39/568)

والغيظ : أشد الغضب .

وتقدم في قوله تعالى : ﴿ عضّوا عليكم الأنامل من الغيظ ﴾ في آل عمران (119) ، وقوله : ﴿ ويذهب غيظ قلوبهم ﴾ في سورة براءة (15) ، أي وأنهم فاعلون ما يغضبنا .

واللام في قوله : لنا ﴾ لام التقوية واللام في ﴿ لغائظون ﴾ لام الابتداء ، وتقديم ﴿ لنا ﴾ على ﴿ لغائظون ﴾ للرعاية على الفاصلة .

وقوله : ﴿ وإنا لجميع حاذرون ﴾ حثّ لأهل المدائن على أن يكونوا حَذِرين على أبلغ وجه إذ جعل نفسه معهم في ذلك بقوله : ﴿ لجميع ﴾ وذلك كناية عن وجوب الاقتداء به في سياسة المملكة ، أي إنا كلَّنا حَذرُون ، ف ﴿ جميع ﴾ وقع مبتدأ وخبرُه ﴿ حاذرون ﴾ ، والجملة خبر ﴿ إنَّ ﴾ ، و (جميع) بمعنى : (كل) كقوله تعالى : ﴿ إليه مرجعكم جميعاً ﴾ في سورة يونس (4) .

و﴿ حَاذِرون ﴾ قرأه الجمهور بدون ألف بعد الحاء فهو جمع حَذِر وهو من أمثلة المبالغة عند سيبويه والمحققين .

وقرأه حمزة وعاصم والكسائي وابن ذكوان عن ابن عامر وخلف بألف بعد الحاء جمع (حَاذر) بصيغة اسم الفاعل .

والمعنى : أن الحَذَر من شيمته وعادته فكذلك يجب أن تكون الأمة معه في ذلك ، أي إنا من عادتنا التيقظ للحوادث والحَذرُ مما عسى أن يكون لها من سيّىء العواقب .

وهذا أصل عظيم من أصول السياسة وهو سدّ ذرائع الفساد ولو كان احتمالُ إفضائها إلى الفساد ضعيفاً ، فالذرائع الملغاة في التشريع في حقوق الخصوص غير ملغاة في سياسة العموم ، ولذلك يقول علماء الشريعة : إن نظر ولاة الأمور في مصالح الأمة أوسع من نظر القضاة ، فالحذر أوسع من حفظ الحقوق وهو الخوف من وقوع شيء ضار يمكن وقوعه ، والترصدُ لِمنع وقوعه ، وتقدم في قوله ﴿ يَحْذَر المنافقون ﴾ في براءة (64) .

والمحمود منه هو الخوف من الضارّ عند احتمال حدوثه دون الأمر الذي لا يمكن حدوثه فالحذرُ منه ضرب من الهوس .

(40/568)

وهذا يرجح أن يكون المحذور هو الاغترار بإيمان السحرة بالله وتصديق موسى ويبعِّد أن يكون المراد خروج بني إسرائيل من مصر لأنه حينئذ قد وقع فلا يحذر منه وإنما يكون السعي في الانتقام منهم.

فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (57)

إن جريت على ما فسّر به المفسرون قولَه: ﴿ فأرسل فرعون في المدائن حاشرين ﴾ [الشعراء: 53] لزمك أن تجعل الفاء في قوله: ﴿ فأخرجناهم ﴾ لتفريع الخروج على إرسال الحاشرين، أي ابتدأ بإرسال الحاشرين وأعقب ذلك بخروجه، فالتعقيب الذي دلت عليه الفاء بحسب ما يناسب المدة التي بين إرسال الحاشرين وبين وصول الأنباء من أطراف المملكة بتعيين طريق بني إسرائيل إذ لا يخرج فرعون بجنده على وجهه، غير عالم بطريقهم.

وضمير النصب عائد إلى فرعون ومن معه مفهوماً من قوله: ﴿ إنكم متَّبَعون ﴾ [الشعراء: 52].

وإنْ جريت على ما فسرنا به قوله تعالى: ﴿ فأرسل فرعون ﴾ [الشعراء: 53] ولا إخالك إلا منشرح الصدر لاختيار ذلك، فلْتَجعَلْ الفاءَ في ﴿ فأخرجناهم ﴾ تفريعاً على جملة: ﴿ إنكم متَّبَعون ﴾ [الشعراء: 52].

والتقدير: فأسرى موسى ببني إسرائيل فأخرجنا فرعون وجنده من بلادهم في طلب بني

إسرائيل فاتَّبعوا بني إسرائيل .

وضمير : ﴿ أخرجناهم ﴾ على كل تقدير عائد إلى ما يفهم من المقام ، أي أخرجنا فرعون وجنده .

والجنات : جنات النخيل التي كانت على ضفاف النيل .

والعيون : منابع تحفر على خِلجان النيل .

والكنوز : الأموال المدخرة .

والمقام : أصله محل القيام أو مصدر قَام .

والمعنى على الأول : مساكن كريمة ، وعلى الثاني : قيامهم في مجتمعهم ، والكريم : النفيس في نوعه .

وذلك ما كانوا عليه من الأمن والثروة والرفاهية ، كل ذلك تركه فرعون وجنوده الذين خرجوا منه لمطاردة بني إسرائيل لأنهم هلكوا فلم يرجعوا إلى شيء مما تركوا .

(41/568)

﴿ كذلك ﴾ تقدم الكلام على نظيره عند قوله تعالى : ﴿ كذلك وقد أحطنا بما لديه خُبْراً ﴾ في سورة الكهف (91) .

فهو بمنزلة الاعتراض .

وجملة : ﴿ وأورثناها بني إسرائيل ﴾ معترضة أيضاً والواو اعتراضية وليست عطفاً لأجزاء القصة لما ستعلمه .

والإيراث : جعل أحد وارثاً .

وأصله إعطاء مال الميت ويطلق على إعطاء ما كان ملكاً لغير المعطَى (بفتح الطاء) كما قال تعالى : ﴿ وأورثنا القوم الذين كانوا يُستضعفون مشارقَ الأرض ومغاربها التي باركنا فيها ﴾ [الأعراف : 137] ، أي أورثنا بني إسرائيل أرض الشام ، وقال : ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ﴾ [فاطر : 32] .

والمعنى : أن الله أرزأ أعداء موسى ما كان لهم من نعيم إذ أهلكهم وأعطى بني إسرائيل خيرات مثلها لم تكن لهم ، وليس المراد أنه أعطى بني إسرائيل ما كان بيد فرعون وقومه من الجنات والعيون والكنوز ، لأن بني إسرائيل فارقوا أرض مصر حينئذ وما رجعوا إليها كما يدل عليه قوله في سورة الدخان (28) ﴿ كذلك وأورثناها قوماً آخرين ﴾ ولا صحة لما يقوله بعض أهل قصص القرآن من أن بني إسرائيل رجعوا فملكوا مصر بعد ذلك ، فإن بني إسرائيل لم يملكوا مصر بعد خروجهم منها سائر الدَّهر فلا محيص من صرف الآية عن ظاهرها إلى تأويل يدل عليه التاريخ ويدل عليه ما في سورة الدخان .

فضمير أورثناها ﴾ هنا عائد للأشياء المعدودة باعتبار أنها أسماء أجناس ، أي أورثنا

بني إسرائيل جناتٍ وعيوناً وكنوزاً ، فعَود الضمير هنا إلى لفظ مستعمل في الجنس وهو قريب من الاستخدام وأقوى منه ، أي أعطيناهم أشياء ما كانت لهم من قبل وكانت للكنعانيين فسلط الله عليهم بني إسرائيل فغلبوهم على أرض فلسطين والشام .

(42/568)

وقد يعود الضمير على اللفظ دون المعنى كما في قولهم : عندي درهم ونصفُه ، وقوله تعالى : ﴿ إن امرؤا هلك ليس له ولد وله أخت فلها نصف ما ترك وهو يرثُها إن لم يكن لها ولد ﴾ [النساء : 176] ، إذ ليس المراد أن المرء الذي هلك يرث أخته التي لها نصف ما ترك بل المراد : والمرء يرث أختاً له إن لم يكن لها ولد ، ويجوز أن يكون نصب الضمير لفعل "أورثنا" على معنى التشبيه البليغ ، أي أورثنا أمثَالها .

وقيل ضمير : ﴿ أورثناها ﴾ عائد إلى خصوص الكنوز لأن بني إسرائيل استعاروا ليلة خروجهم من جيرانهم المصريين مصوغهم من ذهب وفضة وخرجوا به كما تقدم في سورة طه .

ويجوز عندي وجه آخر وهو أن تكون جملة ﴿ فأخرجناهم من جنات ﴾ إلى قوله : ﴿ وأورثناها ﴾ حكاية لكلام من الله معترض بين كلام فرعون .

وضمير ﴿ فأخرجناهم ﴾ عائد إلى قوم فرعون المفهوم من قوله : ﴿ في المدائن ﴾ [الشعراء : 53] ، أي فأخرجنا أهل المدائن .

وحذف المفعول الثاني لفعل ﴿ أورثناها ﴾ .

والتقدير : وأورثناها غيرهم ، ويكون قوله : ﴿ بني إسرائيل ﴾ بياناً لاسم الإشارة في قوله : ﴿ إن هؤلاء ﴾ [الشعراء : 54] سلك به طريق الإجمال ثم البيان ليقع في أنفس السامعين أمكن وقْع .

وجملة : ﴿ فأتبعوهم مشرقين ﴾ مفرعة على جملة : ﴿ فأخرجناهم ﴾ وما بينهما اعتراض .

والتقدير : فأخرجناهم فأتبعوهم .

والضمير المرفوع عائد إلى ما عاد عليه ضمير النصب من قوله : ﴿ فأخرجناهم ﴾ ، وضمير النصب عائد إلى ﴿ عبادي ﴾ [الشعراء : 52] من قوله : ﴿ أن اسْرِ بعبادي ﴾ [الشعراء : 52] .

و ﴿ أتْبعوهم ﴾ بهمزة قطع وسكون التاء بمعنى تَبع ، أي فلحقوهم .

و ﴿ مشرقين ﴾ حال من الضمير المرفوع يجوز أن يكون معناه قاصدين جهة الشرق يقال : أشرق ، إذا دخل في أرض الشرق ، كما يقال : أنجد وأتهم وأعرق وأشأم ، ويعلم من هذا

أن بني إسرائيل توجهوا صوب الشرق وهو صوب بحر (القلزم) وهو البحر الأحمر وسمي يومئذ بحر سُوف وهو شرقي مصر .

(43/568)

ويجوز أن يكون المعنى داخلين في وقت الشروق ، أي أدركوهم عند شروق بعد أن قضوا ليلة أو ليالي مشياً فما بصر بعضهم ببعض إلا عند شروق الشمس بعد ليالي السفر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 19 صـ ﴾

(44/568)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ (52) ﴾

قلنا : الوحي لغةَ : إعلام بخفاء ، وشرعاً : إعلام من الله لرسول من رسله بمنهج خير لخَلْقه .

ومن الوحي المطلق قوله تعالى : ﴿ وأوحى رَبُّكَ إلى النحل أَنِ اتخذي مِنَ الجبال بُيُوتاً ﴾ [

النحل : 68] .

وقوله سبحانه : ﴿ وَإِنَّ الشياطين لَيُوحُونَ إلى أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ ﴾ [الأنعام : 121]

.

وقوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إلى أُمِّ موسى أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ [القصص : 7] .

فالوحي العام إذن لا نسأل عن الموحِي ، أو الموحَى إليه ، أو موضوع الوحي ، فقد يكون الوحي من الشيطان ، والموحَى إليه قد يكون الأرض أو الملائكة أو الحيوان ، على خلاف الوحي الشرعي ، فهو محدد ومعلوم .

لقد قام فرعون بحملة دعاية لهذه المعركة مع موسى عليه السلام وحشد الناس لمشاهدة هذه المباراة ، وهذا دليل على أنه قدَّر أنه سيغلِب ، لكن خيَّب الله ظنه ، وكانت الجولة لمصلحة موسى عليه السلام ، فآمن السحرة بالله تعالى رب موسى وهارون ، فأخذ يهددهم ويتوعدهم ، وهو يعلم أنَّ ما رأوْه من الآيات الباهرات يستوجب الإيمان .

ومع ذلك لما غُلِب فرعون وضاعتْ هيبته وجباريته وقاهريته سكت جمهور الناس ، فلم ينادوا بسقوطه ، واكتفوا بسماع أخبار موسى ، وظل هذا الوضع لمدة طويلة من الزمن حدث فيها الآيات التسع التي أنزلها الله ببني إسرائيل .

ومن غباء فرعون أن ينصرف عن موسى بعد أن أصبح له أتباع وأنصار ، ولم يحاول

التخلص منه حتى لا يزداد أتباعه وتقوى شوكته ، فكأن مسألة الآيات التسع التي أرسلها الله عليهم قد هَدَّتْ كيانه وشغلته عن التفكير في آمر موسى عليه السلام .

(45/568)

وهكذا استشرى أمر موسى وأصبحت له إغلبية وشعبية ، حتى إن الأقباط أتباع فرعون كانوا يعطفون على أمر موسى وقومه ؛ لذلك استعاروا من القبط حُليَّ النساء قبل الخروج مع موسى ، ومن هذه الحلي صنع السامري العجل الذي عبدوه فيما بعد .

وهنا يقول تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إلى موسى أَنْ أَسْرِ بعبادي إِنَّكُم مّتَّبِعُونَ ﴾ [الشعراء : 52] وقبل ذلك نبَّهه ربه للخروج بعد أن قتل الرجل : ﴿ وَجَآءَ رَجُلٌ مّنْ أَقْصَى المدينة يسعى قَالَ يا موسى إِنَّ الملأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فاخرج إِنِّي لَكَ مِنَ الناصحين ﴾ [القصص : 20] .

أما الآن ، فالمؤامرة عليه وعلى مَنْ معه من المؤمنين .

ومعنى ﴿ أَسْرِ ﴾ [الشعراء : 52] الإسراء : المشي ليلاً ﴿ إِنَّكُم مّتَّبِعُونَ ﴾ [الشعراء : 52] يعني : سيتبعكم جنود فرعون ويسيرون خلفكم .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ فَأَرْسَلَ فِرْعَونُ فِي المدآئن ﴾

الفاء هنا للتعقيب ، فوَحْى الله لموسى أن يَسْري ببني إسرائيل تَمَّ قبل أن يبعثَ فرعون في المدائن حاشرين ، وكأن الله تعالى يحتاط لنبيه موسى ليخرج قبل أن يهيج فرعونُ الناسَ ، ويجمعهم ضد موسى ويُجري لهم ما نسميه نحن الآن (غسيل مخ) ، أو يعلن على موسى وقومه حرب الأعصاب التي تؤثر على خروجهم .

و﴿ حَاشِرِينَ ﴾ [الشعراء : 53] من الحشر أي : الجمع ، لكن جمع هذه المرة للجنود لا للسحرة ، لأنهم هُزِموا في مُباراة السحرة ، فأرادوا أنْ يستخدموا سلاحاً آخر هو سلاح الجبروت والتسلُّط والحرب العسكرية ، فإنْ فشلت الأولى فلعلّ الأخرى تفلح ، لكن الحق تبارك وتعالى أخبر نبيه موسى بما يُدبِّر له وأمره بالخروج ببني إسرائيل .

(46/568)

وقَوْل فرعون عن أتباع موسى : ﴿ إِنَّ هؤلاء لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴾ [الشعراء : 54] يريد أن يُهوِّن من شأنهم ويُغري قومه بهم ، ويُشجِّعهم على مواجهتهم ، لكن مع ذلك يُحذِّرهم من خطرهم ، فيقول ﴿ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴾ [الشعراء : 55] فأَعِدُّوا لهم العدة ، ولا تستهينوا بأمرهم .

وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ (56)

يعني : لا بُدَّ أن نأخذ حذرنا ونحتاط للأمر .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِّن جَنَّاتٍ ﴾

أي : لم ينفعه احتياطه ، ولم يُجْدِ حذره ، فلا يمنع حَذَر من قَدَر ﴿ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِّن جَنَّاتٍ ﴾ [الشعراء : 57] أي : بساتين وحدائق ﴿ وَعُيُونٍ ﴾ [الشعراء : 57] أي : عيون تجري بالماء ﴿ وَكُنُوزٍ ﴾ [الشعراء : 58] كانت عندهم ﴿ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾ [الشعراء : 58] يعني : عيشة مُتْرفة في سَعَةٍ ورَغَدٍ من الحياة ، وخدَم وحَشَم .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بني إِسْرَائِيلَ ﴾

﴿ كَذَلِكَ ﴾ [الشعراء : 59] أي : الأمر كما أقول لكم وكما وصفتُ ﴿ وَأَوْرَثْنَاهَا بني إِسْرَائِيلَ ﴾ [الشعراء : 59] أي : أورثنا هذا النعيم من بعدهم لبني إسرائيل ، وهنا قد يسأل سائل : كيف وقد ترك بنو إسرائيل مصر وخرجوا منها ، ولم يأخذوا شيئاً من هذا النعيم ؟

قالوا : المعنى أورثهم الله أرضاً مثلها ، قد وعدهم بها في الشام .

فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ (60)

أي : عند الشروق ، وعادةً ما تكون الغارة على الجيش عند الصباح ، ومن ذلك قوله تعالى :

﴿ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ المنذرين ﴾ [الصافات : 177] .

وعادةً ما يقوم الإنسان من النوم كسولاً غير نشيط ، فكيف بمَنْ هذه حاله إن التقى بعدوه ؟ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(47/568)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (53) ﴾

قوله : ﴿ حَاشِرِينَ ﴾ : هو مفعولُ " أَرْسَلَ " و " حاشرين " معناه : حاشرين السحرةَ .

قوله : ﴿ إِنَّ هؤلاء لَشِرْذِمَةٌ ﴾ : معمولٌ لقولٍ مضمرٍ أي : قال إنَّ هؤلاءِ . وهذا القولُ يجوزُ أَنْ يكونَ حالاً أي : أَرْسَلَهم قائلاً ذلك ، ويجوز أَنْ يكونَ مفسِّراً لـ أَرْسَلَ ، والشِّرْذِمَةُ : الطائفةُ من الناسِ . وقيل : كلُّ بقيةٍ مِنْ شيءٍ خسيسٍ يُقال لها : شِرْذِمة ، ويقال : ثوبٌ شَراذم أي : أَخْلاق ، قال :

3512 جاء الشتاءُ وقميصي أُخْلاقْ . . . شراذِمٌ يضحكُ منه الخَلاَّقْ

وأنشد أبو عبيدة :

3513 [يُحْذَيْنَ] في شَراذِمِ النِّعالِ . . .

وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ (56)

قوله : ﴿ حَاذِرُونَ ﴾ : قرأ الكوفيون وابن ذكوان " حاذِرُون " بالألفِ ، والباقون " حَذِرُوْن " بدونها ، فقال أبو عبيدة : " هما بمعنىً واحد يُقال : رجلٌ حَذِرٌ وحَذُرٌ وحاذِرٌ بمعنىً " وقيل : بل بينهما فرقٌ . فالحَذِرُ : المُتَيَقِّظُ . والحاذِرُ : الخائفُ . وقيل : الحَذِر : المخلوقُ مَجْبُولاً على الحَذَرِ . والحاذِرُ : ما عُرِض في ذلك ، وقيل : الحَذِرُ : المُتَسَلِّح أي : له شوكةُ سلاحٍ . وأنشد سيبويهِ في إعمال حَذِر على أنه مثالُ مبالغةٍ مُحَوَّلٌ مِنْ حاذر قوله :

3514 حَذِرٌ أموراً لا تَضِيْرُ وآمِنٌ . . . ما ليسَ مُنْجيَه من الأَقْدارِ

وقد زعم بعضُهم أنَّ سيبويهِ لمَّا سأله : هل تحفظُ شيئاً في إعمال فَعِل ؟ صنع له هذا البيتَ . فعيب على سيبويه : كيف يأخذُ الشواهدَ الموضوعةَ ؟ وهذا غَلَطٌ ؛ فإن هذا الشخصَ قد أقرَّ على نفسِه بالكذبِ فلا يُقْدَحُ قولُه في سيبويهِ . والذي ادعى أنَّه صنعَ البيتَ هو اللاحقيُّ . وحَذِر يتعدَّى بنفسه ، قال تعالى : ﴿ يَحْذَرُ الآخرة ﴾ [الزمر : 9] ، وقال العباس بن مرادس :

3515 وإني حاذِرٌ أَنْمِيْ سِلاحي . . . إلى أوصالِ ذَيَّالٍ مَنيعِ

وقرأ ابن السَّميفع وابن أبي عمار " حاذِرُوْن " بالدال المهملة من قولهم : " عَيْنٌ حَدْرَة " أي : عظيمة ، كقوله :

3516 وعَيْنٌ لها حَدْرَةٌ بَدْرَةٌ . . . . . .

.

والمعنى : عظيماً . وقيل : الحادِرُ : القويُّ الممتلىء . وحُكي : رجلٌ حادِرٌ أي : ممتلِىءٌ غَيْظاً ، ورجلٌ حادِرٌ أي : أحمقُ كأنه ممتلىءٌ مِنْ الحَمَق ، قال :

3517 أُحِبُّ الغلامَ السَّوْءَ من أجلِ أُمِّه . . . وأُبْغِضُهُ من بُغْضِها وهو حادِرُ

ويقال : أيضاً : رجلٌ حَذُر ، بزنة "يَقُظ " مبالغةً في حاذِر ، من هذا المعنى قلت : فقد صار يُقال : حَذِرَ وحَذُر وحاذر بالدال المعجمة والمهملة ، والمعنى مختلف .

وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (58)

قوله : ﴿ وَمَقَامٍ ﴾ : قرأ العامَّةُ بفتحِ الميمِ ، وهو مكانُ القيامِ ، وقتادة والأعرج بضمِّها . وهو مكانُ الإقامة .

كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (59)

قوله : ﴿ كَذَلِكَ ﴾ : فيه ثلاثةُ أوجهٍ ، قال الزمخشري : "يَحْتمل ثلاثةَ أوجهٍ : النصبَ على " أخْرَجْناهم مثلَ ذلك الإخراج الذي وَصَفْنا . والجرُّ على أنَّه وصفٌ لـ مَقامٍ أي :

ومقامٍ كريمٍ مثلِ ذلك المَقامِ الذي كان لهم . والرفعُ على أنه خبرٌ لمبتدأ محذوفٍ أي : الأمر كذلك " . قال الشيخ : " فالوجهُ الأول لا يَسُوْغُ ؛ لأنه يَؤُوْل إلى تشبيهِ الشيءِ بنفسِه ، وكذلك الوجهُ الثاني لأنَّ/ المَقامَ الذي كان لهم هو المَقامُ الكريمُ فلا يُشَبَّهُ الشيءُ بنفسِه "

قلت : وليس في ذلك تشبيهُ الشيءِ بنفسِه ؛ لأنَّ المرادَ في الأول : أَخْرَجْناهم إخراجاً مثلَ الإخراجِ المعروفِ المشهورِ ، وكذلك الثاني .

قوله : ﴿ وَأَوْرَثْنَاهَا ﴾ عطفٌ على " فَأَخْرَجْناهم " .

فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ (60)

(49/568)

قوله : ﴿ فَأَتْبَعُوهُم ﴾ : العامَّةُ بقطع الهمزة مِنْ أَتْبَعَه أي : ألحقه نفسَه ، فحذف الثاني ، وقيل : يُقال : أتبعه بمعنى اتَّبعه بوصل الهمزة أي : لحقه ، والحسن والحارث الذماري بوصِلها وتشديدِ التاءِ وهي بمعنى اللَّحاق .

قوله : ﴿ مُّشْرِقِينَ ﴾ منصوبٌ على الحالِ . والظاهرُ أنه من الفاعلِ . ومعنى مُشْرِقين أي : داخِلين في وقتِ الشروقِ كأصبح وأمسى أي : دخَل في هذين الوقتين ، وقيل : داخلين نحو : المَشْرق كأَنْجَدَ وأَتْهَمَ ، وقيل : مُشْرقين بمعنى مُضيئين . وفي التفسير : أنَّ بني

إسرائيل كانوا في نُوْر ، والقِبْطَ في ظُلمة ، فعلى هذا يكون " مُشْرِقين " حالاً من المفعول ، وعندي أنه يجوز أَنْ يكونَ حالاً من الفاعل والمفعول ، إذا جَعَلْنا " مُشرِقين " داخلين في وقتِ الشُّروق ، أو في مكانٍ المَشْرِق ؛ لأنّ كلاً من القبيلين كان داخِلاً في ذلك الزمانِ ، أو في ذلك المكان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 521.525 ﴾

(50/568)

قوله تعالى ﴿ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (61) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (62) فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (63) وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ (64) وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ (65) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ (66) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (67) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (68) ﴾

" فصل "

قال البقاعى :

﴿ فلما تراءى الجمعان ﴾ أي صارا بحيث يرى كل منهما الآخر ﴿ قال أصحاب موسى ﴾ ضعفاً وعجزاً استصحاباً لما كانوا فيه عندهم من الذل ، ولأنهم أقل منهم بكثير

بحيث يقال : إن طليعة آل فرعون كانت على عدد بني إسرائيل ، وذلك محق لتقليل فرعون لهم ، وكأنه عبر عنهم ب " أصحاب " دون " بني إسرائيل " لأنه كان قد آمن كثير من غيرهم : ﴿ إنا لمدركون ﴾ أي لأنهم قد وصلوا ولا طريق لنا وقد صرنا بين سدين من حديد وماء ، العدو وراءنا والماء أمامنا ﴿ قال ﴾ أي موسى عليه الصلاة والسلام وثوقاً بوعد الله ، ناطقاً بمثل ما كلمه به ربه في أول القصة من قوله : ﴿ كلا ﴾ أي لا يدركونكم أصلاً ؛ ثم علل ذلك تسكيناً لهم بقوله : ﴿ إن معي ربي ﴾ فكأنهم قالوا : وماذا عساه يفعل وقد وصلوا ؟ قال : ﴿ سيهدين ﴾ أي بوعد مؤكد عن قرب ، إلى ما أفعل مما فيه خلاصكم ، وتقدم في براءة سر تقديم المعية وخصوصها والتعبير باسم الرب ﴿ فأوحينا ﴾ أي فتسبب عن كلامه الدال على المراقبة أنا أوحينا ؛ ونوه باسمه الكريم جزاء له على ثقته به سبحانه فقال : ﴿ إلى موسى ﴾ وفسر الوحي الذي فيه معنى القول بقوله : ﴿ أن اضرب بعصاك البحر ﴾ أي الذي أمامكم ، وهو بحر القلزم الذي يتوصل أهل مصر منه إلى الطور وإلى مكة المشرفة وما والاها ﴿ فانفلق ﴾ أي فضربه فانشق بسبب ضربه لما ضربه امتثالاً لأمر الله وصار اثني عشر فرقاً على عدد أسباطهم ﴿ فكان كل فرق ﴾ أي جزء وقسم عظيم منه ﴿ كالطود ﴾ أي الجبل في إشرافه وطوله وصلابته بعدم السيلان ﴿ العظيم ﴾ المتطاول في السماء الثابت لا يتزلزل ، لأن الماء كان منبسطاً في أرض البحر ، فلما انفرق وانكشفت فيه الطرق انضم بعضه إلى بعض فاستطال وارتفع في السماء .

ولما كان التقدير : فأدخلنا كل شعب منهم في طريق من تلك الطرق ، عطف عليه :

﴿ وأزلفنا ﴾ أي قربنا بعظمتنا من قوم موسى عليه السلام ؛ قال البغوي .

قال أبو عبيدة : جمعنا ، ومنه ليلة المزدلفة ، أي ليلة الجمع .

(51/568)

ولما كان هذا الجمع في غاية العظمة وعلو الرتبة ، أشار إلى ذلك بأداة البعد فقال : ﴿ ثم ﴾ أي هنالك ، فإنها ظرف مكان للبعيد ﴿ الآخرين ﴾ أي فرعون وجنوده ﴿ وأنجينا موسى ومن معه ﴾ وهم الذين اتبعوه من قومه وغيرهم ﴿ أجمعين ﴾ أي لم نقدر على أحد منهم الهلاك .

ولما كان الإغراق بما به الإنجاء – مع كونه أمراً هائلاً – عجيباً وبعيداً عبر بأداة البعد فقال : ﴿ ثم أغرقنا ﴾ أي إغراقاً هو على حسب عظمتنا ﴿ الآخرين ﴾ أي فرعون وقومه اجمعين ، لم يفلت منهم أحد .

(52/568)

ولما قام عذر موسى عليه السلام فيما استدفعه أول القصة من كيد فرعون بما ثبت له من العظمة والمكنة في كثرة الجند وعظيم الطاعة منهم له في سرعة الاجتماع الدالة على مكنتهم في أنفسهم ، وعظمته في قلوبهم ، رغبة ورهبة ، وظهر مجد الله في تحقيق ما وعد به سبحانه من الحراسة ، وزاد ما أقر به العيون ، وشرح به الصدرو ، وكان ذلك أمراً يهز القوى سماعه ، ويروع الأسماع تصوره وذكره ، قال منبهاً على ذلك : ﴿ إن في ذلك ﴾ أي الأمر العظيم العالي الرتبة من قصة موسى وفرعون وما فيها من العظات ﴿ لآية ﴾ أي علامة عظيمة على ما قال الرسول موجبة للإيمان به من أن الصانع واحد فاعل بالاختبار ، قادر على كل شيء ، وأنه رسوله حقاً ﴿ وما كان أكثرهم ﴾ أي الذين شاهدوها والذي وعظوا بسماعها ﴿ مؤمنين ﴾ لله أي متصفين بالإيمان الثابت ، أما القبط فما آمن منهم إلا السحرة ومؤمن آل فرعون وامرأة فرعون والمرأة التي دلتهم على عظام يوسف عليه السلام – على ما يقال ، وأما بنو إسرائيل فكان كثير منهم مزلزلاً يتعنت كل قليل ، ويقول ويفعل ما هو كفر ، حتى تداركهم الله تعالى على يدي موسى عليه السلام ومن بعده ، وأول ما كان من ذلك سؤالهم إثر مجاوزة البحر أن يجعل لهم إلهاً الأصنام التي مروا عليها ، وأما غيرهم ممن تأخر عنهم فحالهم معروف ، وأمرهم مشاهد مكشوف ﴿ وإن ربك ﴾ أي المحسن إليك بإعلاء أمرك ، واستنقاذ الناس من ظلام الجهل على يدك ﴿ لهو العزيز ﴾ أي القادر على الانتقام من كل فاجر ﴿ الرحيم ﴾ أي الفاعل فعل البليغ الرحمة ، فهو يمهل ويدر النعم

، ويحوط من النقم ، ولا يمهل ، بل يرسل رسلاً ، وينزل معهم ما بين به ما يرضيه وما يسخطه ، فلا يهلك إلا بعد الإعذار ، فلا تستوحش ممن لم يؤمن ، ولا يهمنك ذلك . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 364 . 366 ﴾

(53/568)

فصل

قال الفخر :

أما قوله : ﴿ فَلَمَّا تَرَاءا الجمعان ﴾

أي رأى بعضهم بعضاً ، قال أصحاب موسى : ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ أي لملحقون ﴿ وَقَالُواْ يا موسى أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ﴾ كانوا يذبحون أبناءنا ، من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا يدركوننا ، أي في الساعة فيقتلوننا ، وقرىء ﴿ فَلَمَّا تَرَاءتِ الفئتان ﴾ ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ بتشديد الدال وكسر الراء من أدرك الشيء إذا تتابع ففنى ، ومنه قوله تعالى : ﴿ بَلِ ادرك عِلْمُهُمْ فِى الأخرة ﴾ [النمل : 66] قال الحسن : جهلوا علم الآخرة ، والمعنى إنا لمتتابعون في الهلاك على أيديهم حتى لا يبقى منا أحد ، فعند ذلك قال لهم كلا وذلك كالمنع مما توهموه ، ثم قوى نفوسهم بأمرين : أحدهما : ﴿ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى ﴾ وهذا دلالة

النصرة والتكفل بالمعونة والثاني : قوله : ﴿ سَيَهْدِينِ ﴾ والهدى هو طريق النجاة والخلاص ، وإذا دله على طريق نجاته وهلاك أعدائه ، فقد بلغ النهاية في النصرة .

﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ ﴾

(54/568)

اعلم أنه تعالى لما حكى عن موسى عليه السلام قوله : ﴿ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ [الشعراء : 62] بين تعالى بعده كيف هداه ونجاه ، وأهلك أعداءه بذلك التدبير الجامع لنعم الدين والدنيا ، فقال : ﴿ فَأَوْحَيْنَا إلى مُوسَى أَنِ اضرب بّعَصَاكَ البحر فانفلق ﴾ ولا شبهة في أن المراد فضرب فانفلق لأنه كالمعلوم من الكلام إذ لا يجوز أن ينفلق من غير ضرب ومع ذلك يأمره بالضرب لأنه كالعبث ولأنه تعالى جعله من معجزاته التي ظهرت بالعصا ولأن انفلاقه بضربه أعظم في النعمة عليه ، وأقوى لعلمهم أن ذلك إنما حصل لمكان موسى عليه السلام ، واختلفوا في البحر ، روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن موسى عليه السلام لما انتهى إلى البحر مع بني إسرائيل أمرهم أن يخوضوا البحر فامتنعوا إلا يوشع بن نون فإنه ضرب دابته وخاض في البحر حتى عبر ثم رجع إليهم فأبوا أن يخوضوا فقال موسى للبحر انفرق لي فقال ما أمرت بذلك ولا يعبر عن العصاة ، فقال موسى يا رب قد أبى البحر أن

ينفرق ، فقيل له اضرب بعصاك البحر فضربه فانفرق فكان كل فرق كالطود العظيم أي كالجبل العظيم وصار فيه اثنا عشر طريقاً لكل سبط منهم طريق فقال كل سبط قتل أصحابنا فعند ذلك دعا موسى عليه السلام ربه فجعلها مناظر كهيئة الطبقات حتى نظر بعضهم إلى بعض على أرض يابسة ، وعن عطاء بن السائب أن جبريل عليه السلام كان بين بني إسرائيل وبين آل فرعون وكان يقول لبني إسرائيل ليلحق آخركم بأولكم ، ويستقبل القبط فيقول رويدكم ليلحق آخركم ، وروي أن موسى عليه السلام قال عند ذلك : " يا من كان قبل كل شيء والمكون لكل شيء والكائن بعد كل شيء "

(55/568)

فأما قوله : ﴿ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كالطود العظيم ﴾ فالفرق الجزء المنفرق منه ، وقرىء (كل فلق) والمعنى واحد والطود الجبل المتطاول أي المرتفع في السماء وهو معجز من وجوه : أحدها : أن تفرق ذلك الماء معجز وثانيها : أن اجتماع ذلك الماء فوق كل طرف منه حتى صار كالجبل من المعجزات أيضاً لأنه كان لا يمتنع في الماء الذي أزيل بذلك التفريق أن يبدده الله تعالى حتى يصير كأنه لم يكن فلما جمع على الطرفين صار مؤكداً لهذا الإعجاز وثالثها : أنه إن ثبت ما روي في الخبر أنه تعالى أرسل على فرعون وقومه من الرياح والظلمة ما حيرهم

فاحتبسوا القدر الذي يتكامل معه عبور بني إسرائيل فهو معجز ثالث ورابعها : أن جعل الله في تلك الجدران المائية كوى ينظر منها بعضهم إلى بعض فهو معجز رابع وخامسها : أن أبقى الله تعالى تلك المسالك حتى قرب منها آل فرعون وطمعوا أن يتخلصوا من البحر كما تخلص قوم موسى عليه السلام فهو معجز خامس .

أما قوله تعالى : ﴿ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الأخرين ﴾ ففيه بحثان :

البحث الأول : قال ابن عباس وابن جريج وقتادة والسدي ﴿ وَأَزْلَفْنَا ﴾ أي وقربنا ثم أي حيث انفلق البحر للآخرين قوم فرعون ثم فيه ثلاثة أوجه : أحدها : قربناهم من بني إسرائيل وثانيها : قربنا بعضهم من بعض وجمعناهم حتى لا ينجو منهم أحد وثالثها : قدمناهم إلى البحر ومن الناس من قال : ﴿ وَأَزْلَفْنَا ﴾ أي حبسنا فرعون وقومه عند طلبهم موسى عليه السلام بأن أظلمنا عليهم الدنيا بسحابة وقفت عليهم فوقفوا حيارى ، وقرىء ﴿ وأزلقنا ﴾ بالقاف أي أزللنا أقدامهم والمعنى أذهبنا عزهم ويحتمل أن يجعل الله طريقهم في البحر على خلاف ما جعله لبني إسرائيل يبساً وأزلقهم .

(56/568)

البحث الثاني : أنه تعالى أضاف ذلك الإزلاف إلى نفسه مع أن اجتماعهم هنالك في طلب موسى كفر أجاب الجبائي عنه من وجهين : الأول : أن قوم فرعون تبعوا بني إسرائيل وبنو إسرائيل إنما فعلوا ذلك بأمر الله تعالى فلما كان مسيرهم بتدبيره وهؤلاء تبعوا ذلك أضافه إلى نفسه توسعاً وهذا كما يتعب أحدنا في طلب غلام له فيجوز أن يقول أتعبني الغلام لما حدث ذلك فعله الثاني : قيل : ﴿ العظيم وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الأخرين ﴾ أي أزلفناهم إلى الموت لأجل أنهم في ذلك الوقت قربوا من أجلهم وأنشد :

وكل يوم مضى أو ليلة سلفت . . فيها النفوس إلى الآجال تزدلف

وأجاب الكعبي عنه من وجهين : الأول : أنه تعالى لما حلم عنهم ، وترك البحر لهم يبساً وطمعوا في عبوره جازت الإضافة كالرجل يسفه عليه صاحبه مراراً فيحلم عنه ، فإذا تمادى في غيه وأراه قدرته عليه قال له أنا أحوجتك إلى هذا وصيرتك إليه بحلمي ، لا يريد بذلك أنه أراد ما فعل الثاني : يحتمل أنه أزلفهم أي جمعهم ليغرقهم عند ذلك ولكي لا يصلوا إلى موسى وقومه والجواب : عن الأول أن الذي فعله بنو إسرائيل هل له أثر في استجلاب داعية قوم فرعون إلى الذهاب خلفهم أوليس له أثر فيه فإن كان الأول فقد حصل المقصود لأن لفعل الله تعالى أثراً في حصول الداعية المستلزمة لذلك الإزلاف ، وإن لم يكن له فيه أثر ألبتة فقد زال التعلق فوجب أن لا تحسن الإضافة ، وأما إذا تعب أحدنا في طلب غلام له ، فإنما يجوز أن يقول أتعبني ذلك الغلام لما أن فعل ذلك الغلام صار كالمؤثر في حصول ذلك

التعب لأنه متى فعل ذلك الفعل فالظاهر أنه يصير معلوماً للسيد ، ومتى علمه صار علمه داعياً له إلى ذلك التعب ومؤثراً فيه فصحت الإضافة .

(57/568)

وبالجملة فعندنا القادر لا يمكنه الفعل إلا بالداعي فالداعي مؤثر في صيرورة القادر مؤثراً في ذلك الفعل فلا جرم حسنت الإضافة والجواب : عن الثاني وهو أنه أزلفهم ليغرقهم فهو أنه تعالى ما أزلفهم بل هم بأنفسهم ازدلفوا ثم حصل الغرق بعده ، فكيف يجوز إضافة هذا الإزلاف إلى الله تعالى ؟ أما على قولنا فإنه جائز لأنه تعالى هو الذي خلق الداعية المستعقبة لذلك الازدلاف والجواب : عن الثالث وهو أن حلمه تعالى عنهم وحملهم على ذلك ، فنقول ذلك الحلم هل له أثر في استجلاب هذه الداعية أم لا ؟ وباقي التقرير كما تقدم والجواب : عن الرابع هو بعينه الجواب عن الثاني ، والله أعلم .

أما قوله تعالى : ﴿ وَأَنجَيْنَا موسى وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الأخرين ﴾ فالمعنى أنه تعالى جعل البحر يبساً في حق موسى وقومه حتى خرجوا منه وأغرق فرعون وقومه لأنه لما تكامل دخولهم البحر انطبق الماء عليهم فغرقوا في ذلك الماء .

أما قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَةً ﴾ فالمعنى أن الذي حدث في البحر آية عجيبة من

الآيات العظام الدالة على قدرته لأن أحداً من البشر لا يقدر عليه وعلى حكمته من حيث وقع ما كان مصلحة في الدين والدنيا ، وعلى صدق موسى عليه السلام من حيث كان معجزة له ، وعلى اعتبار المعتبرين به أبداً فيصير تحذيراً من الإقدام على مخالفة أمر الله تعالى وأمر رسوله ، ويكون فيه اعتبار لمحمد صلى الله عليه وسلم ، فإنه قال عقيب ذلك : ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾ وفي ذلك تسلية له فقد كان يغتم بتكذيب قومه مع ظهور المعجزات عليه فنبهه الله تعالى بهذا الذكر على أن له أسوة بموسى وغيره ، فإن الذي ظهر على موسى من هذه المعجزات العظام التي تبهر العقول لم يمنع من أن أكثرهم كذبوه وكفروا به مع مشاهدتهم لما شاهدوه في البحر وغيره .

(58/568)

فكذلك أنت يا محمد لا تعجب من تكذيب أكثرهم لك واصبر على إيذائهم فلعلهم أن يصلحوا ويكون في هذا الصبر تأكيد الحجة عليهم .

وأما قوله : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العزيز الرحيم ﴾ فتعلقه بما قبله أن القوم مع مشاهدة هذه الآية الباهرة كفروا ، ثم إنه تعالى كان عزيزاً قادراً على أن يهلكهم ، ثم إنه تعالى ما أهلكهم بل

أفاض عليهم أنواع رحمته فدل ذلك على كمال رحمته وسعة جوده وفضله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 24 صـ 119.122 ﴾

(59/568)

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴾ .

فِيهَا ثَلَاثُ مَسَائِلَ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : قَالَ ابْنُ الْقَاسِمِ : قَالَ مَالِكٌ : خَرَجَ مَعَ مُوسَى رَجُلَانِ مِنْ التُّجَّارِ إلَى الْبَحْرِ ، فَلَمَّا أَتَيَا إلَيْهِ قَالَا لَهُ : بِمَ أَمَرَكَ اللَّهُ ؟ قَالَ : أَمَرَنِي أَنْ أَضْرِبَ الْبَحْرَ بِعَصَايَ هَذِهِ فَيَجِفُّ . فَقَالَا لَهُ : افْعَلْ مَا أَمَرَكَ بِهِ رَبُّك ، فَلَنْ يُخْلِفَك .

ثُمَّ أَلْقَيَا أَنْفُسَهُمَا فِي الْبَحْرِ تَصْدِيقًا لَهُ ، فَمَا زَالَ كَذَلِكَ الْبَحْرُ حَتَّى دَخَلَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ مَعَهُ ، ثُمَّ ارْتَدَّ كَمَا كَانَ .

وَفِي رِوَايَةِ عَمْرِو بْنِ مَيْمُونٍ أَنَّ مُوسَى قَالَ لِلْبَحْرِ : انْفَلِقْ .

قَالَ : لَقَدْ اسْتَكْبَرْت يَا مُوسَى ، مَا انْفَرَقْتِ لِأَحَدٍ مِنْ وَلَدِ آدَم ، فَأَنْفَلِقَ لَك .

فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى مُوسَى أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ .

فَصَارَ لِمُوسَى وَأَصْحَابِهِ الْبَحْرُ طَرِيقًا يَابِسًا .

فَلَمَّا خَرَجَ أَصْحَابُ مُوسَى ، وَتَكَامَلَ آخِرُ أَصْحَابِ فِرْعَوْنَ ، انْصَبَّ عَلَيْهِمْ الْبَحْرُ ، وَغَرِقَ فِرْعَوْنُ .

فَقَالَ بَعْضُ أَصْحَابِ مُوسَى : مَا غَرِقَ فِرْعَوْنُ .

فَنُبِذَ عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ ، حَتَّى نَظَرُوا إِلَيْهِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : قَالَ مَالِكٌ : دَعَا مُوسَى فِرْعَوْنَ أَرْبَعِينَ سَنَةً إِلَى الْإِسْلَامِ ، وَإِنَّ السَّحَرَةَ آمَنُوا فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ .

(60/568)

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : فِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ مَالِكًا كَانَ يَذْكُرُ مِنْ أَخْبَارِ الإسرائليات مَا وَافَقَ الْقُرْآنَ ، أَوْ وَافَقَ السُّنَّةَ أَوْ الْحِكْمَةَ ، أَوْ قَامَتْ بِهِ الْمَصْلَحَةُ الَّتِي لَمْ تَخْتَلِفْ فِيهَا الشَّرَائِعُ ؛ وَعَلَى هَذِهِ النُّكْتَةِ عَوَّلَ فِي جَامِعِ الْمُوَطَّأِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أحكام القرآن لابن العربى حـ 3 صـ ﴾

(61/568)

وقال الماوردى :

﴿ قَالَ : كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾

فيه وجهان

: أحدهما : أي سيرشدني إلى الطريق .

الثاني : معناه سيكفيني ، قاله السدي .

و ﴿ كَلاَّ ﴾ كلمة توضع للردع والزجر ، وحكي أن موسى لما خرج ببني إسرائيل من مصر أظلم عليهم القمر فقال لقومه : ما هذا ؟ فقال علماؤهم : إن يوسف لما حضره الموت أخذ عليها موثقاً من الله ألا نخرج من مصر حتى ننقل عظامه معنا ، قال موسى فأيكم يدري أين قبره ؟ قالوا : ما يعلمه إلا عجوز لبني إسرائيل فأرسل إليها فقال : دلِّيني على قبر يوسف ، قالت : لا والله لا أفعل حتى تعطيني حكمي ، قال : وما حكمك ؟ قالت : حكمي أن أكون معك في الجنة فثقل عليه فقيل له أعطاها حكمها فدلتهم عله فاحتفروه واستخرجوا عظامه ، فلما ألقوها فإذا الطريق مثل ضوء النهار . فروى أبو بردة عن أبي موسى : أن النبي صلى الله عليه وسلم نزل بأعرابي فأكرمه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " حَاجَتُكَ " قاله له : ناقة أرحلها وأعنزاً أحلبها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أَعَجَزْتَ أَنْ تَكُونَ مِثْلَ عَجُوزِ بَنِي إِسْرَائِيلَ " فقال الصحابة : وما عجوز بني إسرائيل فذكر

لَهُم حَالَ هَذِهِ العَجُوزِ الَّتِي حَكَمَت عَلَى مُوسَى أَنْ تَكُونَ مَعَهُ فِي الْجَنَّةِ .

قوله تعالى : ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ ﴾ روى عكرمة عن ابن عباس أن موسى لما بلغ البحر واتبعه فرعون قاله له فتاهُ يوسع بن نون : أين أمرك ربك ؟ قال : أمامك ، يشير إلى البحر ، ثم ذكر أنه أمر أن يضرب بعصاه البحر فضربه ، فانفلق له اثنا عشر طريقاً وكانوا اثني عشر سبطاً لكل سبط طريق ، عرض كل طريق فرسخان . وقال سعيد بن جبير : كان البحر ساكناً لا يتحرك ، فلما كان ليلة ضربه موسى بالعصا صار يمد ويجزر .

(62/568)

وحكى النقاش : أن موسى ضرب بعصاه البحر وقد مضى من النهار أربع ساعات ، وكان يوم الاثنين عاشر المحرم وهو يوم عاشوراء ، قال : والبحر هو نهر النيل ما بين إيلة ومصر وقطعوه في ساعتين ، فصارت ست ساعات .

﴿ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴾ أي كالجبل العظيم ، قاله امرؤ القيس :

فبينا المرءُ في الأحياء طُوْدٌ . . . رماه الناس عن كَثَبٍ فمالا

وكان الأسباط لا يرى بعضهم بعضاً فقال كل سبط : قد هلك أصحابنا فدعا موسى ربه فجعل في كل حاجز مثل الكوى حتى رأى بعضهم بعضاً .

قوله تعالى : ﴿ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الأَخَرِينَ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : قربنا إلى البحر فرعون وقومه ، قاله ابن عباس : وقتادة ، ومنه قول الشاعر :

وكل يوم مضى أو ليلة سلفت . . . فيه النفوس إلى الآجال تزدلف

الثاني : جمعنا فرعون وقومه في البحر ، قاله أبو عبيدة ، وحكي عن أُبي وابن عباس أنهما قرآ : ﴿ وَأَزْلَقْنَا ﴾ بالقاف من زلق الأقدام ، كأقدام فرعون أغرقهم الله تعالى في البحر حتى أزلقهم في طينه الذي في قعره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

(63/568)

وقال ابن عطية :

فلما لحق فرعون بجمعه جمع موسى وقرب منهم ورأت بنو إسرائيل العدد القوي وراءهم والبحر أمامهم ساءت ظنونهم وقالوا لموسى عليه السلام على جهة التوبيخ والجفاء ﴿ إنا لمدركون ﴾ أي هذا رأيك ، فرد عليهم قولهم وزجرهم وذكر وعد الله له بالهداية والظفر ، وقرأ الجمهور " إنا لمدركون " ، وقرأ الأعرج وابن عمير " إنا لمدَرَّكون " بفتح الدال وشدّ

الراء ومعناها يتتابع علينا حتى نفنى ، وقرأ حمزة " تريءَ الجمعان " بكسر الراء بمد ثم بهمز ، وروي مثله عن عاصم ، وروي أيضاً عنه مفتوحاً ممدوداً ، والجمهور يقرؤونه مثل تداعى وهذا هو الصواب ، لأنه تفاعل ، قال أبو حاتم وقراءة حمزة في هذا الحرف محال ، وحمل عليه ، قال وما روي عن الأعمش وابن وثاب خطأ .

﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ ﴾

(64/568)

لما عظم البلاء على بني إسرائيل أمر موسى أن يضرب البحر بعصاه ، وذلك لأنه عز وجل أراد أن تكون الآية متصلة بموسى ومتعلقة بفعل فعله وإلا فضرب العصا ليس بفالق للبحر ولا معين على ذلك بذاته إلا بما اقترن به من قدرة الله واختراعه ، ولا انفلق البحر صار فيه اثنا عشر طريقاً على عدد أسباط بني إسرائيل ، ووقف الماء ساكناً كالجبل العظيم ، وروي عن ابن جريج والسدي وغيرهما أن بني إسرائيل ظن كل فريق منهم أن الباقي قد غرق ، فأمر الله الماء فصار كالشراجب والطيقان وراء بعضهم بعضاً فتأنسوا ﴿ وأزلفنا ﴾ معناه قربنا ، وقرأ ابن عباس عن أبي بن كعب " وأزلقنا " بالقاف ونسبها أو الفتح إلى عبد الله بن الحارث ، وقرأ أبو حيوة والحسن " زلفنا " بغير ألف وذلك أن فرعون لما وصل

إلى البحر وقد دخل بنو إسرائيل قيل إنه صمم ومخرق ، بأن قال لي انفرق ، فدخل على ذلك ، وقيل بل كع وهم بتدبير الانصراف فعرض جبريل على فرس وديق فمضى وراءه حصان فرعون ، فدخل على نحو هذا وتبعه الناس ، وروي أن الله تعالى جعل ملائكة تسوق قومه حتى حصولهم في البحر ، ثم إن موسى وقومه خرجوا إلى البر من تلك الطرق ولما أحسوا باتباع فرعون وقومه فزعوا من أن يخرج وراءهم ، فهم موسى بخلط البحر فحينئذ قيل له ، اترك البحر رهواً ، ولما تكامل جند فرعون وهو مقدمهم بالخروج انطبق عليهم البحر وغرقوا ، ودخل موسى عليه السلام البحر بالطول . وخرج في الضفة التي دخل منها بعد مسافة وكان بين موضع دخوله وموضع خروجه أوعار وجبال ولا تسلك إلا على تخليق الأيام ، وكان ذلك في يوم عاشوراء ، وقال النقاش البحر الذي انفلق لموسى نهر النيل بين إيلة ومصر .

(65/568)

قال القاضي أبو محمد : وهذا مردود إن شاء الله ، وقوله تعالى : ﴿ إن في ذلك ﴾ تنبيه على موضع العبرة ، وقوله ﴿ وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾ أي عز في نقمته من الكفار

ورحم المؤمنين من كل أمة وقد مضى كثير مما يلزم من قصة موسى عليه السلام . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(66/568)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ فلما تَراءى الجمعان ﴾

وقرأ أبو رجاء ، والنخعي ، والأعمش : ﴿ تَرِاأَى ﴾ بكسر الراء وفتح الهمزة ، أي : تقابلا بحيث يرى كل فريق صاحبه .

قوله تعالى : ﴿ كَلاّ ﴾ أي : لن يُدركونا ﴿ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهدين ﴾ أي : سيدلُّني على طريق النجاة .

قوله تعالى : ﴿ فانْفَلَقَ ﴾ فيه إِضمار "فضرب فانفلق" ، أي : انشقَّ الماء اثني عشر طريقاً ﴿ فكان كُلُّ فِرْقٍ ﴾ أي : كل جزءٍ انفرق منه .

وقرأ أبو المتوكل ، وأبو الجوزاء ، وعاصم الجحدري : ﴿ كُلُّ فِلْقٍ ﴾ باللام ، ﴿ كالطود ﴾ وهو الجبل .

قوله تعالى : ﴿ وأَزْلَفْنَا ثَمَّ الآخَرِين ﴾ أي : قرَّبنا الآخَرين من الغرق ، وهم أصحاب

فرعون .

وقال أبو عبيدة : ﴿ أزلفنا ﴾ أي : جمعنا .

قال الزجاج : وكلا القولين حسن ، لأن جمعهم تقريب بعضهم من بعض ، وأصل الزُّلفى في كلام العرب : القُرْبَى .

وقرأ ابن مسعود ، وأُبيٌّ بن كعب ، وأبو رجاء ، والضحاك ، وابن يعمر : ﴿ أَزْلَقْنَا ﴾ بقاف ، وكذلك قرأوا : ﴿ وأُزْلِقَتِ الجَنَّةُ ﴾ [الشعراء : 90] بقاف [أيضاً] .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذلكَ لآيةً ﴾ يعني : في إِهلاك فرعون وقومه عبرة لمن بعدهم ﴿ وما كان أكثرُهم مؤمِنِين ﴾ أي : لم يكن أكثر أهل مصر مؤمنين ، إِنما آمنت آسية ، وخِربيل مؤمن آل فرعون ، وفنّة الماشطة ، ومريم امرأة دلَّت موسى على عظام يوسف ، هذا قول مقاتل .

وما أخللنا به من تفسير كلمات في قصة موسى ، فقد سبق بيانها ، وكذلك ما يُفقد ذِكْره في مكان ، فهو إِما أن يكون قد سبق ، وإِما أن يكون ظاهراً ، فتنبَّه لهذا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 6 صـ ﴾

(67/568)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا تَرَاءَى الجمعان ﴾

أي تقابلا الجمعان بحيث يرى كل فريق صاحبه ، وهو تفاعل من الرؤية .

﴿ قَالَ أَصْحَابُ موسى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ أي قرب منا العدوّ ولا طاقة لنا به .

وقراءة الجماعة ﴿ لَمُدْرَكُونَ ﴾ بالتخفيف من أدرك .

ومنه ﴿ حتى إِذَآ أَدْرَكَهُ الغرق ﴾ [يونس : 90] .

وقرأ عبيد بن عمير والأعرج والزهري ﴿ لَمُدَّرَكُونَ ﴾ بتشديد الدال من ادّرك .

قال الفراء : حفر واحتفر بمعنى واحد ، وكذلك ﴿ لَمُدْرَكُونَ ﴾ و ﴿ لَمُدَّرَكُونَ ﴾ بمعنى واحد .

النحاس : وليس كذلك يقول النحويون الحذّاق ؛ إنما يقولون : مُدْرَكون ملحقون ، ومدّركون مجتهد في لحاقهم ، كما يقال : كسبت بمعنى أصبت وظفرت ، واكتسبت بمعنى اجتهدت وطلبت وهذا معنى قول سيبويه .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ لما لحق فرعون بجمعه جمعَ موسى وقرب منهم ، ورأت بنو إسرائيل العدوّ القويّ والبحر أمامهم ساءت ظنونهم ، وقالوا لموسى على جهة التوبيخ والجفاء : ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ فردّ عليهم قولهم وزَجَرهم وذكَّرهم وعد الله سبحانه له بالهداية والظفر ﴿ كَلاَّ ﴾ أي لم يدركوكم ﴿ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي ﴾ أي بالنصر على

العدوّ .

﴿ سَيَهْدِينِ ﴾ أي سيدلّني على طريق النجاة ؛ فلما عظم البلاء على بني إسرائيل ، ورأوا من الجيوش ما لا طاقة لهم بها ، أمر الله تعالى موسى أن يضرب البحر بعصاه ؛ وذلك أنه عز وجل أراد أن تكون الآية متصلة بموسى ومتعلقة بفعل يفعله ؛ وإلا فضرب العصا ليس بفارق للبحر ، ولا معين على ذلك بذاته إلا بما اقترن به من قدرة الله تعالى واختراعه .

وقد مضى في "البقرة" قصة هذا البحر .

ولما انفلق صار فيه اثنا عشر طريقاً على عدد أسباط بني إسرائيل ، ووقف الماء بينها كالطود العظيم ، أي الجبل العظيم .

والطود الجبل ؛ ومنه قول امرىء القيس :

فبينا المرءُ في الأحياءِ طَوْدٌ . . .

(68/568)

رَماهُ الناسُ عن كَثَبٍ فَمَالاَ

وقال الأسود بن يَعْفُر :

حَلُّوا بأَنْقرةٍ يَسيلُ عليهمُ . . .

ماءُ الفُراتِ يجيءُ من أَطْوَادِ

جمع طود أي جبل .

فصار لموسى وأصحابه طريقاً في البحر يَبَساً ؛ فلما خرج أصحاب موسى وتكامل آخر أصحاب فرعون على ما تقدّم في "يونس" انصب عليهم وغرق فرعونُ ؛ فقال بعض أصحاب موسى : ما غرق فرعونُ ؛ فنبذ على ساحل البحر حتى نظروا إليه .

وروى ابن القاسم عن مالك قال : خرج مع موسى عليه السلام رجلان من التجار إلى البحر فلما أتوا إليه قالا له بم أمرك الله ؟ قال : أمرت أن أضرب البحر بعصاي هذه فينفلق ؛ فقالا له : افعل ما أمرك الله فلن يخلفك ؛ ثم ألقيا أنفسهما في البحر تصديقاً له ؛ فما زال كذلك البحر حتى دخل فرعون ومن معه ، ثم ارتد كما كان .

وقد مضى هذا المعنى في سورة "البقرة" .

قوله تعالى : ﴿ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الآخرين ﴾ أي قربناهم إلى البحر ؛ يعني فرعون وقومه .

قاله ابن عباس وغيره ؛ قال الشاعر :

وكلُّ يوم مَضَى أو ليلةٍ سلَفَتْ . . .

فيها النفوسُ إلى الآجال تَزْدَلِفُ

أبو عبيدة : ﴿ أَزْلَفْنَا ﴾ جمعنا ومنه قيل لليلة المزدلفة ليلة جَمْع .

وقرأ أبو عبد الله بن الحارث وأبيّ بن كعب وابن عباس : ﴿ وَأَزْلَقْنَا ﴾ بالقاف على

معنى أهلكناهم ؛ من قوله : أزلقت الناقةُ وأزلقت الفرسُ فهي مُزْلِق إذا أزلقت ولدها .

﴿ وَأَنجَيْنَا موسى وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخرين ﴾ يعني فرعون وقومه .

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً ﴾ أي علامة على قدرة الله تعالى ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ لأنه لن يؤمن من قوم فرعون إلا مؤمن آل فرعون واسمه حزقيل وابنته آسية امرأة فرعون ، ومريم بنت ذا موسى العجوز التي دلّت على قبر يوسف الصديق عليه السلام .

(69/568)

وذلك أن موسى عليه السلام لما خرج ببني إسرائيل من مصر أظلم عليهم القمر فقال لقومه : ما هذا ؟ فقال علماؤهم : إن يوسف عليه السلام لما حضره الموت أخذ علينا موثقاً من الله ألا نخرج من مصر حتى ننقل عظامه معنا .

قال موسى : فأيكم يدري قبره ؟ قال : ما يعلمه إلا عجوز لبني إسرائيل ؛ فأرسل إليها ؛ فقال : دلّيني على قبر يوسف ، قالت : لا والله لا أفعل حتى تعطيني حكمي ، قال : وما حكمك ؟ قالت : حكمي أن أكون معك في الجنة ؛ فثقل عليه ، فقيل له : أعطها حكمها ؛ فدلّتهم عليه ، فاحتفروه واستخرجوا عظامه ، فلما أقلوها ، فإذا الطريق مثل ضوء النهار في رواية : فأوحى الله إليه أن أعطها ففعل ، فأتت بهم إلى بحيرة ، فقالت لهم : أنضبوا هذا

الماء فأنضبوه واستخرجوا عظام يوسف عليه السلام ؛ فتبينت لهم الطريق مثل ضوء النهار .

وقد مضى في "يوسف" .

وروى أبو بردة عن أبي موسى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نزل بأعرابي فأكرمه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "حاجتك" قال : ناقة أرحلها وأعنزا أحلبها ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "فلم عجزت أن تكون مثل عجوز بني إسرائيل" فقال أصحابه : وما عجوز بني إسرائيل ؟ فذكر لهم حال هذه العجوز التي احتكمت على موسى أن تكون معه في الجنة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 13 صـ ﴾

(70/568)

وقال أبو حيان :

﴿ فلما تراءى الجمعان ﴾ :

أي رأى أحدهما الآخر ، ﴿ قال أصحاب موسى إنا لمدركون ﴾ : أي ملحقون ، قالوا ذلك حين رأوا العدوّ القوي وراءهم والبحر أمامهم ، وساءت ظنونهم .

وقرأ الأعمش : وابن وثاب : تراي الجمعان ، بغير همز ، على مذهب التخفيف بين بين ،

ولا يصح القلب لوقوع الهمزة بين ألفين ، إحداهما ألف تفاعل الزائدة بعد الفاء ، والثانية اللام المعتلة من الفعل .

فلو خففت بالقلب لاجتمع ثلاث ألفات متسقة ، وذلك مما لا يكون أبداً ، قاله أبو الفضل الرازي .

وقال ابن عطية : وقرأ حمزة : تريء ، بكسر الراء ويمد ثم يهمز ؛ وروى مثله عن عاصم ، وروي عنه أيضاً مفتوحاً ممدود ، أو الجمهور يقرؤونه مثل تراعى ، وهذا هو الصواب ، لأنه تفاعل .

وقال أبو حاتم : وقراءة حمزة هذا الحرف محال ، وحمل عليه ، قال : وما روي عن ابن وثاب والأعمش خطأ . انتهى .

وقال الأستاذ أبو جعفر أحمد ابن الأستاذ أبي الحسن علي بن أحمد بن خلف الأنصاري ، هو ابن الباذش ، في كتاب الإقناع من تأليفه : تراءى الجمعان في الشعراء .

إذا وقف عليها حمزة والكسائي ، أما لا الألف المنقلبة عن لام الفعل ، وحمزة يميل ألف تفاعل وصلاً ووقفاً لإمالة الألف المنقلبة ؛ ففي قراءته إمالة الإمالة .

وفي هذا الفعل ، وفي راءى ، إذا استقبله ألف وصل لمن أمال للإمالة ، حذف السبب وإبقاء المسبب ، كما قالوا : صعقى في النسب إلى الصعق .

وقرأ الجمهور : لمدركون ، بإسكان الدال ؛ والأعرج ، وعبيد بن عمير : بفتح الدال مشددة

وكسر الراء ، على وزن مفتعلون ، وهو لازم ، بمعنى الفناء والاضمحلال .

يقال : منه ادّرك الشيء بنفسه ، إذا فني تتابعاً ، ولذلك كسرت الراء على هذه القراءة ، نص على كسرها أبو الفضل الرازي في (كتاب اللوامح) ، والزمخشري في (كشافه) وغيرهما .

(71/568)

وقال أبو الفضل الرازي : وقد يكون ادّرك على افتعل بمعنى أفعل متعدياً ، فلو كانت القراءة من ذلك ، لوجب فتح الراء ، ولم يبلغني ذلك عنهما ، يعني عن الأعرج وعبيد بن عمير .

قال الزمخشري : المعنى إنا لمتتابعون في الهلاك على أيديهم حتى لا يبقى منا أحد ، ومنه بيت الحماسة :

أبعد بني أمي الذين تتابعوا . . .

أرجى الحياة أم من الموت أجزع

﴿ قال كلا إن معي ربي سيهدين ﴾ : زجرهم وردعهم بحرف الردع وهو كلا ، والمعنى : لن يدركوكم لأن الله وعدكم بالنصر والخلاص منهم ، إن معي ربي سيهدين عن قريب إلى طريق النجاة ويعرفنيه .

وقيل : سيكفيني أمرهم .

ولما انتهى موسى إلى البحر ، قال له مؤمن آل فرعون ، وكان بين يدي موسى : أين أمرت ، وهذا البحر أمامك وقد غشيتك آل فرعون ؟ قال : أمرت بالبحر ، ولا يدري موسى ما يصنع .

ورويت هذه المقالة عن يوشع ، قالها لموسى عليه السلام ، فأوحى الله إليه ﴿ أن اضرب بعصاك البحر ﴾ ، فخاض يوشع الماء .

وضرب موسى بعصاه ، فصار فيه اثنا عشر طريقاً ، لكل سبط طريق .

أراد تعالى أن يجعل هذه الآية متصلة بموسى ومتعلقة بفعل فعله ، ولكنه بقدرة الله إذ ضرب البحر بالعصا لا يوجب انفلاق البحر بذاته ، ولو شاء تعالى لفلقه دون ضربه بالعصا ، وتقدّم الخلاف في مكان هذا البحر .

﴿ فانفلق ﴾ : ثم محذوف تقديره : فضرب فانفلق .

وزعم ابن عصفور في مثل هذا التركيب أن المحذوف هو ضرب ، وفاء انفلق .

والفاء في انفلق هي فاء ضرب ، فأبقى من كل ما يدل على المحذوف ، أبقيت الفاء من فضرب واتصلت بانفلق ، ليدل على ضرب المحذوفة ، وأبقى انفلق ليدل على الفاء المحذوفة منه .

وهذا قول شبيه بقول صاحب البرسام ، ويحتاج إلى وحي بسفر عن هذا القول .

وإذا نظرت القرآن وجدت جملاً كثيرة محذوفة ، وفيها الفاء نحو قوله : ﴿ فأرسلون ، يوسف أيها ﴾ أي فأرسلوه ، فقال يوسف أيها الصديق ، والفرق الجزء المفصل .

والطود : الجبل العظيم المنطاد في السماء .

(72/568)

وحكى يعقوب عن بعض القراء ، أنه قرأ كل فلق باللام عوض الراء .

﴿ وأزلفنا ﴾ : أي قربنا ، ﴿ ثم ﴾ : أي هناك ، وثم ظرف مكان للبعد .

﴿ الآخرين ﴾ : أي قوم فرعون ، أي قربناهم ، ولم يذكر من قربوا منه ، فاحتمل أن يكون المعنى : قربناهم حيث انفلق البحر من بني إسرائيل ، أو قربنا بعضهم من بعض حتى لا ينجو أحد ، أو قربناهم من البحر .

وقرأ الحسن ، وأبو حيوة : وزلفنا بغير ألف .

وقرأ أبي ، وابن عباس ، وعبد الله بن الحارث : وأزلقنا بالقاف عوض الفاء ، أي أزللنا ، قاله صاحب اللوامح .

قيل : من قرأ بالقاف صار الآخرين فرعون وقومه ، ومن قرأ بالعامة يعني بالقراءة العامة ، فالآخرون هم موسى وأصحابه ، أي جمعنا شملهم وقربناهم بالنجاة .

انتهى ، وفي الكلام حذف تقديره : ودخل موسى وبنو إسرائيل البحر وأنجينا .

قيل : دخلوا البحر بالطول ، وخرجوا في الصفة التي دخلوا منها بعد مسافة ، وكان بين موضع الدخول وموضع الخروج أوعار وجبال لا تسلك .

﴿ إن في ذلك لآية ﴾ : أي لعلامة واضحة عاينها الناس وشاع أمرها .

قال الزمخشري : ﴿ وما كان أكثرهم مؤمنين ﴾ : أي ما تنبه أكثرهم عليها ولا آمنوا .

وبنو إسرائيل ، الذين كانوا أصحاب موسى المخصوصين بالإنجاء ، قد سألوه بقرة يعبدونها ، واتخذوا العجل ، وطلبوا رؤية الله جهرة . انتهى .

والذي يظهر أن قوله : ﴿ وما كان أكثرهم مؤمنين ﴾ : أي أكثر قوم فرعون ، وهم القبط ، إذ قد آمن السحرة ، وآمنت آسية امرأة فرعون ، ومؤمن آل فرعون ، وعجوز اسمها مريم ، دلت موسى على قبر يوسف عليه السلام ، واستخرجوه وحملوه معهم حين خرجوا من مصر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾

(73/568)

وقال أبو السعود :

﴿ فَلَمَّا تَرَاءى الجمعان ﴾

تقاربا بحيثُ رأى كلٌّ واحد منهما الآخرَ وقُرِىء تَراءتِ الفئتانِ ﴿ قَالَ أصحاب موسى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ جاءوا بالجملةِ الاسميةِ مؤكَّدة بحرفَيِّ التَّأكيدِ للدّلالةِ على تحقُّقِ الإدراك واللحاقِ وتنجُّزِهما . وقُرِىء لمدَّرَكُون بتشديد الدّالِ من ادَّراك الشَّيءُ إذا تتابعَ ففنيَ أي لمتتابعون في الهلاكِ على أيديهم .

﴿ قَالَ كَلاَّ ﴾ ارتدِعُوا عن ذلك فإنَّهم لا يُدركونكُم ﴿ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى ﴾ بالنَّصرةِ والهدايةِ . ﴿ سَيَهْدِينِ ﴾ ألبتةَ إلى طريق النَّجاةِ منهم بالكلّية . رُوي أنَّ يُوشعِ عليه السَّلامُ قال يا كليمَ الله أين أُمرتَ فقد غشِيَنا فرعونُ والبحرُ أمامَنا قال عليه السَّلامُ ههُنا فخاضَ يوشعُ عليه السَّلامُ الماءَ وضَرب مُوسى عليه السَّلامُ بعصاهُ البحرَ فكانَ ما كانَ . ورُوي أنَّ مؤمناً من آل فرعونَ كان بين يَدَيْ مُوسى عليه السَّلامُ فقال أينَ أُمرت فهذا البحرُ أمامَك وقد غشيك آلُ فرعونَ قال عليه السَّلامُ أُمرتُ بالبحر ولعلي أُومر بما أصنعُ فأمر بما أُمر بهِ . وذلك قولُه تعالى ﴿ فَأَوْحَيْنَا إلى مُوسَى أَنِ اضرب بّعَصَاكَ البحر ﴾ القُلزمِ أو النّيلَ ﴿ فانفلق ﴾ الفاء فصيحةٌ أي فضربَ فانفلق فصارَ اثني عشر فِرقاً بعددِ الأسباطِ بينهنّ مسالكُ ﴿ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ ﴾ حاصلٍ بالانفلاق ﴿ كالطود العظيم ﴾ كالجبلِ المُنيف الثَّابتِ مقرّه فدخلُوا في شعابها ، كلُّ سِبْطٍ في شعبٍ منها .

﴿ وَأَزْلَفْنَا ﴾ أي قرَّبنا ﴿ ثَمَّ الاخرين ﴾ أي فرعونَ وقومَه حتَّى دخلُوا على أثرِهم مداخلَهم .

﴿ وَأَنجَيْنَا موسى وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ ﴾ بحفظِ البحرِ على تلك الهيئةِ إلى أنْ عبرُوا إلى البرّ.

﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الأخرين ﴾ بإطباقِه عليهم.

(74/568)

﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ ﴾ أي في جميعِ ما فُصّل ممَّا صدرَ عن مُوسى عليه السَّلامُ وظهر على يديهِ من المعجزاتِ القاهرةِ وممَّا فعلَ فرعونُ وقومُه من الأقوالِ والأفعالِ وما فُعل بهم من العذاب والنّكالِ. وما في اسم الإشارةِ من معنى البُعد لتهويل أمرِ المُشار إليهِ وتفظيعِه كتنكير الآيةِ في قوله تعالى ﴿ لآيَةً ﴾ أي أيّة آيةٍ أو أيةً عظيمة لا تكادُ توصف موجبة لأنْ يعتبرَ بها المعتبرون ويقيسُوا شأنَ النبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بشأنِ مُوسى عليه السَّلامُ وحالَ أنفسِهم بحالِ أولئك المُهلكين ويجتنبُوا تعاطيَ ما كانُوا يتعاطَونه من الكفرِ والمَعاصي ومخالفةِ الرَّسُولِ ويُؤمنوا بالله تعالى ويُطيعوا رسولَه كيلا يحلَّ بهم مثلُ ما حلَّ بأولئك أو إنَّ فيما فُصّل من القصَّةِ من حيثُ حكايتُه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ إيَّاها على ما هيَ عليه من غيرِ أنْ يَسمعها من أحدٍ لآيةً عظيمةً دالَّة على أنَّ ذلك بطريقِ الوحيِ الصَّادقِ موجبةً للإيمانِ بالله تعالى وَحْدَهُ وطاعةِ رسولِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ ﴾ أي أكثرُ هؤلاءِ

الذينَ سمعُوا قصَّتهم منه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ﴿ مُّؤْمِنِينَ ﴾ لا بأنْ يقيسُوا شأنَه بشأن مُوسى عليهما السَّلامُ وحالَ أنفسِهم بحال أولئك المكذِّبين المهلكينَ ولا بأنْ يتدبَّروا في حكايتِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لقصتهم من غيرِ أنْ يسمعها من أحدٍ مع كونِ كلَ من الطَّريقين مَّما يُؤدِّي إلى الإيمان قطعاً ، ومعنى ما كان أكثرُهم مؤمنين على أنَّ كانَ زائدة كما هو رأيُ سيبويهِ فيكون كقولِه تعالى : ﴿ وَمَا أَكْثَرُ الناس وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ وهو إخبارٌ منه تعالى بما سيكونُ من المُشركينَ بعد ما سمعُوا الآياتِ النَّاطقةَ بالقصَّة تقريراً لما مرَّ من قولِه تعالى : ﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مِّن ذِكْرٍ مِّن الرحمن مُحْدَثٍ إِلاَّ كَانُواْ

(75/568)

عَنْهُ مُعْرِضِينَ فَقَدْ كَذَّبُواْ ﴾ الخ وإيثارُ الجملة الاسميَّةِ للدّلالةِ على استقرارهم على عدمِ الإيمانِ واستمرارهم عليه ويجوزُ أن يجعلَ كان بمعنى صَار كما فعل ذلك في قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ مِنَ الكافرين ﴾ فالمَعْنى وما صار أكثرُهم مؤمنين مع ما سمعُوا من الآية العظيمة الموجبة له بما ذُكر من الطَّريقين فيكون الإخبارُ بعدم الصَّيرورةِ قبل الحدوث للدّلالةِ على كمالِ تحقُّقِه وتقرّره كقولِه تعالى : ﴿ أتى أَمْرُ الله ﴾ الآيةَ .

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العزيز ﴾ الغالبُ على كلِّ ما يريدُه من الأمور التي من جُملتها الانتقام من

المكذِّبين . ﴿ الرحيم ﴾ المبالغُ في الرَّحمة ولذلك يُمهلهم ولا يعجِّلُ عقوبتَهم بعدم إيمانهم بعد مُشاهدة هذه الآية العظيمة بطريقِ الوحيِ مع كمال استحقاقِهم لذلك . هذا هو الذي يقتضيهِ جزالةُ النَّظمِ الكريمِ من مطلع السُّورةِ الكريمةِ إلى آخر القِصص السبع بل إلى آخرِ السُّورةِ الكريمةِ اقتضاءً بيّناً لا ريبَ فيه وأمَّا ما قيل مِنْ أنَّ ضميرَ أكثرُهم لأهل عصرِ فرعونَ من القبطِ وغيرِهم وأنّ المعنى وما كان أكثرُ أهل مصرَ مؤمنين حيثُ لم يؤمن منهم إلا آسيةُ وحِزقيلُ ومريمُ ابنةُ يامُوشا التي دلَّتْ على تابوتِ يوسفَ عليه السَّلامُ .

(76/568)

وبنُو إسرائيلَ بعد ما نجَوا سألُوا بقرةً يعبدونَها واتَّخذوا العجلَ وقالُوا لن نؤمنَ لك حتَّى نرى الله جهرةً فبمعزل من التَّحقيقِ كيف لا ومساقُ كل قصَّةٍ من القصص الواردةِ في السُّورة الكريمة سوى قصَّةِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ إنَّما هو لبيان حال طائفة معيَّنةٍ قد عتَوا عن أمر ربِّهم وعصَوا رسلَه عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ كما يُفصح عنه تصدير القصصِ بتكذيبهم المرسلينَ بعد ما شاهدُوا بأيديهم من الآياتِ العظامِ ما يُوجب عليهم الإيمان ويزجرُهم عن الكفرِ والعصيانِ وأصرُّوا على ما هم عليه من التَّكذيب فعاقبهم الله تعالى لذلك بالعُقوبة الدُّنيويَّةِ وقطع دابَرهم بالكُليَّة فكيف يُمكن أن يخبرَ عنهم بعدم إيمانِ أكثرِهم لاسيَّما بعد

الإخبار بإهلاكهم وعدّ المؤمنين من جُملتهم أولاً وإخراجهم منها آخِراً مع عدم مشاركتِهم لهم في شيءٍ مما حُكي عنهم من الجنايات أصلاً مّما يُوجب تنزيه التَّنزيلِ عن أمثالِه فتدبَّر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 6 صـ ﴾

(77/568)

وقال الآلوسى :

﴿ فَلَمَّا تَرَاءى الجمعان ﴾

أي تقاربا بحيث رأى كل واحد منهما الآخر ، نعم ذكر في التوراة ما حاصله أن بني إسرائيل لما خرجوا كان أمامهم نهاراً عمود من غمام وليلاً عمود من نار ليد لهم ذلك على الطريق فلما طلبهم فرعون ورأوا جنوده خافوا جداً ولاموا موسى عليه السلام في الخروج وقالوا له : أمن عدم القبور بمصر أخرجتنا لنموت في البر أما قلنا لك : دعنا نخدم المصريين فهو خير من موتنا في البر فقال لهم موسى : لا تخافوا وانظروا إغاثة الله تعالى لكم ثم أوحى الله تعالى إلى موسى أن يضرب بعصاه البحر فتحول عمود الغمام إلى ورائهم وصار بينهم وبين فرعون وجنوده ودخل الليل ولم يتقدم أحد من جنود فرعون طول الليل وشق البحر ثم دخل بنو إسرائيل وليس في هذا ما يصحح أمر الحالية المذكورة فتأمل .

وقرأ الأعمش .

وابن وثاب ﴿ تراً ﴾ بغير همز على مذهب التخفيف بين بين ولا يصح تحقيقها بالقلب للزوم ثلاث ألفات متسقة وذلك مما لا يكون أبداً قاله أبو الفضل الرازي ، وقال ابن عطية .

وقرأ حمزة ﴿ تريئي ﴾ بكسر الراء وبمد ثم بهمز ، وروى مثله عن عاصم وروى عنه أيضاً ﴿ تراىء ﴾ بالفتح والمد ، وقال أبو جعفر أحمد بن علي الأنصاري في كتابه الإقناع ﴿ التقى الجمعان ﴾ في الشعراء إذا وقف عليها حمزة .

والكسائي أما لا الألف المنقلبة عن لام الفعل ، وحمزة يميل ألف تفاعل وصلاً ووقفاً كإمالة الألف المنقلبة .

وقرىء ﴿ فَلَمَّا تَرَاءتِ ﴾ الفئتان ﴿ قَالَ أصحاب موسى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ أي لملحقون جاؤا بالجملة الاسمية مؤكدة بحرفي التأكيد للدلالة على تحقق الإدراك واللحاق وتنجيزهما ، وأرادوا بذلك التحزن وإظهار الشكوى طلباً للتدبير .

وقرأ الأعرج .

وعبيد بن عمير ﴿ لَمُدْرَكُونَ ﴾ بفتح الدال مشددة وكسر الراء من الإدراك بمعنى الفناء والاضمحلال يقال : أدرك الشيء إذا فنى تتابعاً وأصله التتابع وهو ذهاب أحد على أثر آخر ثم صار في عرف اللغة بمعنى الهلاك وأن يفنى شيئاً فشيئاً حتى يذهب جميعه ، وقد جاء التتابع بهذا المعنى في قول الحماسي :

أبعد بني أمي الذين تتابعوا . . .

أرجى حياة أم من الموت أجزع

والمعنى أنا لها لكون على أيديهم شيئاً فشيئاً .

قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (62)

(79/568)

﴿ قَالَ ﴾ موسى عليه السلام ردعاً لهم عن ذلك وإرشاداً إلى أن تدبير الله عز وجل يغني عن تدبيره : ﴿ كَلاَّ ﴾ لن يدركوكم ﴿ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى ﴾ بالحفظ والنصرة ﴿ سَيَهْدِينِ ﴾ قريباً إلى ما فيه نجاتكم منهم ونصركم عليهم ، ولم يشركهم عليه السلام في المعية والهداية إخراجاً للكلام على حسب ما أشاروا إليه في قولهم ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ [الشعراء : 61] من طلب التدبير منه عليه السلام ، وقيل : لما كان عليه السلام هو الأصل

وغيره تبع له محفوظون منصورون بواسطته وشرفه وكرامته قال : ﴿ مَعِيَ ﴾ دون معنا وكذا قال : ﴿ سَيَهْدِينِ ﴾ دون سيهدينا ، وقيل : قال ذلك جزاء لهم على غفلتهم عن قوله تعالى له علي السلام ﴿ أَنتُمَا وَمَنِ اتبعكما الغالبون ﴾ [القصص : 35] حتى خافوا فقالوا ما قالوا فإن الظاهر أنهم سمعوا ذلك من موسى عليه السلام في مدة بقائهم معه في مصر أو غفلتهم عن عناية الله تعالى بهم حين كانوا مع القبط في مصر حيث لم يصبهم ما أصابهم من الدم ونحوه من الآيات المقتضية بواسطة حسن الظن أنجاهم منهم حين أمروا بالخروج فلحقوهم وكان تأديبه لهم على ذلك بمجرد عدم إشراكهم فيما ذكر لا أنه نفاه عنهم كما يتوهم من تقديم الخبر فإن تقديمه لأجل الاهتمام بأمر المعية التي هي مدار النجاة المطلوبة ، وقيل : للحصر لكن بالنسبة إلى فرعون وجمعه ، وقيل : على القول الثاني في توجيه عدم إشراكهم : إنه للحصر بالنسبة إليهم أيضاً على معنى إن معي أولاً وبالذات ربي لا معكم كذلك ، وقيل : قدم المعية هنا وأخرت في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة : 40] لأن المخاطب هنا بنو إسرائيل وهم أغبياء يعرفون الله عز وجل بعد النظر والسماع من موسى عليه السلام والمخاطب هناك الصديق رضي الله تعالى عنه وهو ممن يرى الله تعالى قبل كل شيء ، ولاختلاف المقام نظم نبينا صلى الله عليه وسلم صاحبه معه في المعية ولم يقدم له ردعاً وزجراً وخاطبه

على نحو مخاطبة الله تعالى له عليه الصلاة والسلام عند تسليته بما صورته النهي عن الحزن ، وأتى بالاسم الجامع وهو لفظ الله دون اسم مشعر بصفة واحدة مثلاً ولم يكن كلام موسى عليه السلام ومخاطبته لقومه على هذا الطرز وسبحان من فصل بعض العالمين على بعض .

وزعم بعضهم أن في الكلام حذفاً والتقدير إن معي وعد ربي ولذلك قال : ﴿ مَعِيَ ﴾ دون معنا وفيه ما فيه .

﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضرب بِّعَصَاكَ البحر ﴾

هو القلزم على الصحيح ، وقيل : بحر من وراء مصر يقال له أساف ، وقيل : النيل ، والظاهر أن هذا الإيحاء كان بعد القول المذكور ولم يكن مأموراً بالضرب يوم الأمر بالإسراء ، فقد أخرج ابن عبد الحكم عن مجاهد أنه لما انتهى موسى عليه السلام وبنو إسرائيل إلى البحر قال مؤمن آل فرعون : يا نبي الله أين أمرت فإن البحر أمامك وقد غشينا آل فرعون فقال : أمرت بالبحر فاقتحم مؤمن آل فرعون فرسه فرده التيار فجعل موسى عليه السلام لا يدري كيف يصنع وكان الله تعالى قد أوحى إلى البحر أن أطع موسى وآية ذلك إذا ضربك بعصاه فأوحى الله تعالى إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر .

وأخرج أيضاً من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس أن موسى لما انتهى إلى البحر أقبل يوشع بن نون على فرسه فمشى على الماء واقتحم غيره خيولهم فرسوا في الماء ، وقال

أصحاب موسى : ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ [الشعراء : 61] فدعا موسى ربه فغشيتهم ضبابة حالت بينهم وبينه ؛ وقيل : له اضرب بعصاك البحر ؛ وأخرج ابن جرير .

(81/568)

وابن أبي حاتم عن ابن عباس أن الله تعالى أوحى إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر وأوحى إلى البحر أن اسمع لموسى وأطلع إذا ضربك فبات البحر له أفكل أي رعدة لا يدري من أي جوانبه يضربه ، وأخرج ابن أبي حاتم عن محمد بن حمزة بن يوسف بن عبد الله بن سلام أن موسى عليه السلام لما انتهى إلى البحر قال : يا من كان قبل كل شيء والمكون لكل شيء والكائن بعد كل شيء اجعل لنا مخرجاً فأوحى الله تعالى إليه أن أضرب بعصاك البحر .

(82/568)

وروى أنه عليه السلام قال : اللهم لك الحمد وإليك المشتكى وإليك المستغاث وأنت المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، وفي "الدر المنثور" من رواية ابن مردويه

عن ابن مسعود مرفوعاً ما يدل على أنه عليه السلام قال ذلك حين الانفلاق ﴿ فانفلق ﴾ أي فضربه فانفلق فالفاء فصيحة ، وزعم ابن عصفور في مثل هذا التركيب أن المحذوف هو ضرب ، وفاء انفلق والفاء الموجودة هي فاء ضرب وهذا أشبه شيء بلغي العصافير وكأنه كان سكران حين قاله ، وفي هذا الحذف إشارة إلى سرعة امتثاله عليه السلام ، وإنما أمر عليه السلام بالضرب فضرب وترتب الانفلاق عليه إعظاماً لموسى عليه السلام بجعل هذه الآية العظيمة مترتبة على فعله ولو شاء عز وجل لفلقه بدون ضربه بالعصا ، ويروى أنه لم ينفلق حتى كناه بأبي خالد فقال انفلق أبا خالد : وكان بأمر الله تعالى إياه بذلك ، وعن قيس بن عباد أنه عليه السلام حين جاءه قال له : انفلق أبا خالد فقال : لن أنفق لك يا موسى أنا أقدم منك وأشد خلقاً فنودي عند ذلك اضرب بعصاك البحر فضربه فانفلق ، وفي رواية ابن مسعود أنه عليه السلام حين انتهى إليه قال : انفرق فقال له : لقد استكبرت يا موسى وهل انفرقت لأحد من ولد آدم فأوحى الله تعالى إليه أن أضرب بعصاك البحر فضربه فانفلق ، وفي حديث أخرجه الخطيب في المتفق والمفترق عن أبي الدرداء مرفوعاً أنه عليه السلام ضربه فتأطط كما يتأطط العرش ثم ضربه الثانية فمثل ذلك ثم ضربه الثالثة فانصدع وهذا صريح في أن الضرب كان ثلاثاً ، وقيل : ضربه مرة واحدة فانفلق ، وقيل : ضربه اثنتي عشرة مرة فانفلق في كل مرة عن مسلك لسبط .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن جبير أنه قال : كان البحر ساكناً لا ستحرك فلما كان ليلة ضربه موسى بالعصا صار يمد ويجزر ولا أظن لهذا صحة ، والظاهر أن المد والجزر كانا قبل أن يخلق الله تعالى موسى عليه السلام ولا ينبغي لعاقل اعتقاد غيره ، ومثل هذا عندي كثير من الأخبار السابقة ، وإلا سلم الاقتصار على ما قص الله تعالى من أنه أوحى سبحانه إلى موسى أن أضرب بعصاك البحر فضربه فانفلق ﴿ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كالطود العظيم ﴾ أي كالجبل المنيف الثابت في مقره ، وظاهر الآية أن الطود مطلق الجبل ، وقال في "الصحاح" الطود الجبل العظيم .

والمراد بالفرق قطعة من الماء ارتفعت فصار ما تحتها كالسرداب على ما ذكره بعض الأجلة ، وحينئذ لا إشكال في قول من قال : إن الفروق اثنا عشرة والمسالك كذلك بعدة أسباط بني إسرائيل وقد سلك كل سبط منهم في مسلك منها ، والمشهور أن الفرق قطعة انفصلت من الماء عما يقابلها وحينئذ لا يتأتى ذلك القول بل لا بد عليه على ما قيل من كون الفروق ثلاثة عشر حتى يحصل في خلالها اثنا عشر مسلكاً بعدد الأسباط ، وقيل : إذا كانت الفروق اثني عشر فلا بد أن تكون المسالك ثلاثة عشر لأن الفرق الأول والثاني عشر لا بد أن يكون منفصلين عما يحاذيهما من البحر فيكون بين كل منهما وبين ما يحاذيه من البحر مسلك وإن لم يكن كسائر المسالك بين فرقين إذ لو اتصلا لم يميزا عنه ولم يتحقق حينئذ اثنا

عشر فرقاً بل أقل ، ولا بعد في أن يختار كون الفروق اثني عشر والمسالك ثلاثة عشر بجعل الفرق الأول والثاني عشر منفصلين عما يحاذيهما من البحر بين كل منهما وبينه مسلك ، ويقال : إن كل سبط من الأسباط الإثني عشر سلك في مسلك وسلك في الثالث عشر من آمن بموسى عليه السلام من القبط انتهى .

(84/568)

وأورد عليه أنه لم يذكر في الآثار أن المسالك ثلاثة عشر وإنما المذكور فيها أنها اثنا عشر ومن ادعى لك فعليه البيان ، والأبعد عن القيل والقال ما تقدم عن بعض الأجلة وأثر قدرة الله تعالى عليه أعظم ، وخلق الداعية إلى سلوك ذلك في قلوب الداخلين لا سيما قوم فرعون أغرب وكذا الاحتياج إلى الكوى أظهر .

فقد روى أن بني إسرائيل قالوا : نخاف أن يغرق بعضنا ولا نشعر فجعل الله تعالى بينهم كوى حتى يرى بعضهم بعضاً ، نعم قيل عليه : إن في بعض الآثار ما يأباه ، فقد أخرج أبو العباس محمد بن إسحاق السراج في "تاريخه" .

وابن عبد البر في "التمهيد" من طريق يوسف بن مهران عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن صاحب الردم كتب إلى معاوية يسأله عن أشياء منها مكان طلعت فيه الشمس

لم تطلع قبل ولا بعد فيه فلم يعلم معاوية جواب ذلك فكتب يسأل ابن عباس فأجاب عن كل إلى أن قال : وأما المكان الذي طلعت فيه الشمس لم تطلع قبل ولا بعد فيه فالمكان الذي انفلق من البحر لبني إسرائيل فإن كون الفرق مقبباً كالسرداب مانع من طلوع الشمس وشروقها على الأرض من غير واسطة كما هو الظاهر من السؤال .

(85/568)

وأجيب بأنه بعد تسليم صحة الخبر لا إباء لجواز شروق الشمس على أرض الفرق المقبب من غير واسطة من جهة المدخل والمخرج أو شروقها على أرض البحر قبل التقبيب ولم يتعرض المفسرون هنا فيما وقفت عليه لكيفية الانطلاق ، وقد رأيت فيما ينسب إلى كليات أبي البقاء أنه قد ورد أن بني إسرائيل لما دخلوا البحر خرجوا من الجانب الذي دخلوا منه وحينئذ لا يتأتى ذلك على كون الانفلاق خطياً وإنما يتأتى على كونه قوسياً ثم إنه ذكر في عدة الفروق والمسالك كلاماً ظاهره الاختلال ، وقد تصدى بعض الفضلاء لشرحه وتوجيهه بما لا يخلو عن تعسف ، وحاصل ما ذكره ذلك البعض مع زيادة مع أنه يحتمل إذا كان انفلاق البحر إلى اثني عشر فرقاً أن يكون الفرق الأول والثاني عشر متصلين بالبر الشطي بأن يكون الماء الواقع حذاء كل منهما من جهة البر مرتفعاً ومنضماً إلى كل

ومعدود من أجزائه بحيث يصير الماء المرتفع المنضم والفرق الأصلي المنضم إليه فرقاً واحداً متصلاً طرفه بالبر من غير فصل بينه وبينه بشيء .

وأورد عليه أنه يلزم عليه أن تكون المسالك أحد عشر فيحتاج إلى سلوك سبطين معاً أو متعاقباً في مسلك واحد أوسع من سائر المسالك أو مساو له ولا خفاء في أنه خلاف الظاهر والمأثور ، وأضاً يلزم أن يكون كل من الفرقين الأول والثاني عشر أعظم غلظاً من كل من البواقي لما سمعت من الانضمام والظاهر تساويها فيه ، وأيضاً يلزم خروج الماء الملاصق للبر عما الأصل فيه من غير داع إليه ويحتمل أن يكون الماء الواقع حذاء كل من الأول والثاني عشر من جهة البر مرتفعاً بمعنى ذاهباً ويكون الفرقان المذكوران متصلين بالبر باعتبار أنهما متصلان بالمسلكين الظاهرين من تحت الماء الذاهب المتصلين بالبر .

ويرد عليه بعض ما ورد على سابقه وبقاء سبط من بني إسرائيل أو سبطين بلا حاجب لهم عن فرعون وجنوده من الماء .

(86/568)

ويحتم أن يكونا منفصلين عن البر بأن يبقى الماء المتصل به على حاله بحراً من غير ارتفاع وحينئذ يحتمل أن تكون المسالك ثلاثة عشر باعتبار انكشاف الأرض بين الفرق الأول

والبحر الباقي على حاله المتصل بالبر فيكون هذا المسلك خارج الطول الأول وانكشافها بين الفرق الثاني عشر والبحر الباقي على حاله المتصل بالبر من الجانب الآخر فيكون هذا المسلك خارج الفرق الثاني عشر ، وعلى هذا الاحتمال يلزم تعطل أحد المسالك أو التزام سلوك من آمن من القبط فقط فيه ، ويحتمل أن تكون المسالك اثني عشر كالفروق بأن يكون الانكشاف بين الفرق الأول والبحر الباقي على حالة المتصل بالبر من جهة فرعون وجنوده فقط أو يكون الانكشاف بين الفرق الثاني عشر والبحر الباقي على حاله من الجانب الآخر فقط ، وهذا بعيد لعظم هذا القوس المنكشف جداً وطول زمان قطعه ، فالظاهر وقوع احتمال كون الانكشاف بين الفرق الأول والبحر الباقي على حاله من جهة فرعون ، وبالجملة احتمال انفصال الفرقين الأول والأخير وكون الانكشاف بين الأول والبحر مما يلي فرعون دون الأخير والبحر مما يلي الجانب الآخر واتحاد المسالك والفروق في كون كل اثني عشر هو الأقرب للوقوع اه .

(87/568)

ولا يخفى أنه يلزم عليه أن لا يكون جميع المسالك في خلال الفروق فإن لم يتعين القول بكون جميعها فيه إذ ليس في الآثار أكثر من كون المسالك اثني عشر مسلكاً فلا بأس به ، وإن

استحسنت ما تقدم عن بعض الأجلة في المراد بالفرق فاعتبره على تقدير كون الانفلاق قوسياً أيضاً ، ثم إن ما ذكر من كون الخروج من جهة الدخول لم أره في غير ما ينسب إلى كليات أبي البقاء وهو أوفق بالقول برجوع موسى عليه السلام وقومه إلى مصر بعد الخروج من البحر وإغراق فرعون وجنوده فيه وتوقف ذلك على كون الانفلاق قوسياً لأنه لو كان خطياً يلزم أن يكون الرجوع في طريق الدخول وهو ظاهر البطلان لأن الأعداء في أثرهم ، واحتمال أن تكون المسالك الخطية ثلاثة عشر وأن بني إسرائيل سلكوا اثني عشر منها واتبعهم فيها فرعون وجنوده وخرجوا قبل أن يصلوا إليهم ودخلوا جميعاً في المسلك الثالث عشر من الجانب المخالف لجانب دخولهم متوجهين فيه إلى جانب دخولهم فلم يخرجوا حتى صار جميع أعدائهم في تلك المسالك الإثني عشر التي اتبعوهم فيها فخرجوا وغشي أعداءهم من اليمن ما غشيهم لا يخفى ما فيه ، والقول بالعود إلى مصر مع القول بأن الانفلاق كان خطياً يتوقف على هذا أو على الانفلاق مرة أخرى أو على العبور بالسفن أو سلوك طريق إلى مصر غير الطريق الذي سلكوه خارجين منها إلى البحر .

والظاهر أنه لم يكن شيء من ذلك ، ولا بأس على ما قيل بالقول بكون الانفلاق قوسياً سواء قلنا بالرجوع إلى مصر أم لا ، وما يقال عليه من أنه يلزم حينئذ أن تكون مداخل تلك المسالك ومخارجها في جانب فرعون وجنوده وذلك مما يوجب خوف بني إسرائيل من

الدخول لاحتمال أن يدخل عليهم أعداؤهم من الطرف الآخر الذي هو محل الخروج فيلاقوهم في الطريق على طرف الشام كما لا يخفى على ذوي الأفهام .

(88/568)

وجوز على القول بأن الانفلاق كان قوسياً أن يكون دخول عيسى عليه السلاموقومه من أحد طرفي القوس ودخول فرعون وجنوده من الطرف الآخر ليلاقوا موسى عليه السلام وقومه حتى إذا كمل الجمعان دخولاً رجع موسى عليه السلام وقومه القهقري حتى إذا خرجوا جميعاً أغرق الله تعالى فرعون وجنوده أوحتى إذا كمل جمع موسى عليه السلام دخولاً وبأن لهم أول الداخلين لملاقاتهم رجعوا القهقهري حتى إذا خرجوا جميعاً وقد كمل جمع فرعون دخولاً أهلك الله تعالى عدوهم فغشيه من اليمن ما غشيه وهو كما ترى .
والذي ذهب إليه أهل الكتاب أن الانفلاق كان خطياً وأن المسالك اثني عشر مسلكاً لكل سبط مسلك ولا تقبيب هناك وأنه قد فتحت لهم كوى ليرى القريب قريبه ويرى الرجل من سبط زوجته من سبط آخر وأنهم خرجوا من الجهة المقابلة لجهة دخولهم وتوجهوا إلى أرض الشام ، وليس في كتابنا ما هو نص في تكذيبه بل في الاخبار ما يشهد بصحة بعضه ، واتحاد الفروق والمسالك في العدد يحتاج إلى نقل صحيح يثبته ، والآية هنا لا تدل على أكثر

من تعدد الفروق والله تعالى أعلم ، وحكى يعقوب عن بعض القراء أنه قرأ ﴿ كُلٌّ ﴾ باللام بدل الراء ، قال الراغب : الفرق يقارب الفلق لكن الفلق يقال اعتباراً بالانشقاق والفرق يقال اعتباراً بالانفصال ، ومنه الفرقة للجماعة المنفردة من الناس .

وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ (64)

﴿ وَأَزْلَفْنَا ﴾ عطف على ﴿ أَوْحَيْنَا ﴾ [الشعراء : 63] ، وقيل : على محذوف يقتضيه السياق والتقدير فأدخلنا بني إسرائيل فيما انفلق من البحر وأزلفنا ﴿ ثَمَّ ﴾ أي هنالك ﴿ الاخرين ﴾ أي فرعون وجنوده أي قربناهم من قوم موسى عليه السلام حتى دخلوا على أثرهم مداخلهم ، وجوز أن يراد قربنا بعضهم من بعض وجمعناهم لئلا ينجو منهم أحد .

(89/568)

أخرج ابن عبد الحكم عن مجاهد قال : كان جبريل عليه السلام بين الناس بين بني إسرائيل وبين آل فرعون فجعل يقول لبني إسرائيل : ليلحق آخركم بأولكم ويستقبل آل فرعون فيقول : رويدكم ليلحقكم آخركم فقال بنو إسرائيل : ما رأينا سائقاً أحسن سياقاً من هذا وقال آل فرعون : ما رأينا وازعاً أحسن زعة من هذا ، وقرأ الحسن .

وأبو حيوة .

﴿ وزلفنا ﴾ بدون همزة ، وقرأ أبي وابن عباس .

وعبد الله بن الحرث ﴿ العظيم وَأَزْلَفْنَا ﴾ بالقاف عوض الفاء أي أزلقنا أقدامهم ،

والمعنى اذهبنا عزهم كقوله :

تداركتما عبساً وقد ثل عرشها . . .

وذبيان إذ زلت بأقدامها النعل

ويحتمل أن يجعل الله تعالى طريقهم في البحر على خلاف ما جعله لبني إسرائيل يبساً

فيزلقهم فيه .

هذا وقال صاحب اللوامح : قيل من قرأ بالقاف أراد بالآخرين فرعون وقومه ومن قرأ

بالفاء أراد بهم موسى عليه السلام وأصحابه أي جمعنا شملهم وقربناهم بالنجاة .

ولا يخفى أنه يبعد إرادة موسى عليه السلام وأصحابه من الآخرين قوله سبحانه :

﴿ وَأَنجَيْنَا موسى وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ ﴾ أي وأنجيناهم من الهلاك في أيدي أعدائهم ومن

الغرق في البحر بحفظه على تلك الهيئة إلى أن خرجوا إلى البر ، وقيل : ﴿ وَمَن مَّعَهُ ﴾

للإشارة إلى أن إنجاءهم كان ببركة مصاحبة موسى عليه السلام ومتابعته ، وقيل : لينتظم

من آمن به عليه السلام من القبط إذ لو قيل وقومه لتبادر منه بنو إسرائيل وفيه بحث .

﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ (66) ﴾

فرعون وجنوده بإطباق البحر عليهم بعد خروج موسى عليه السلام ومن معه وكان له وجبة .

(90/568)

روي عن ابن عباس أن بني إسرائيل لما خرجوا سمعوا وجبة البحر فقالوا : ما هذا ؟ فقال موسى عليه السلام : غرق فرعون وأصحابه فرجعوا ينظرون فألقاهم البحر على الساحل ، والتعبير عن فرعون وجنوده بالآخرين للتحقير ، والظاهر أن ﴿ ثُمَّ ﴾ للتراخي الزماني ، ولعل الأولى حملها على التراخي المعنوي لما بين المعطوفين من المباعدة المعنوية .

﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ ﴾ إشارة إلى ما ذكر من القصة ، وما فيه من معنى البعد لتعظيم شأن المشار إليه ؛ وقيل : لبعد المسافة بالنظر إلى مبدأ القصة ﴿ لَآيَةً ﴾ أي لآية عظيمة توجب الإيمان بموسى عليه السلام وتصديقه بما جاء به ، وأريد بها على ما قيل انقلاب العصا ثعباناً وخروج يده عليه السلام بيضاء للناظرين وانفلاق البحر وأفرادت للاتحاد المدلول .

﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ أي أكثر قوم فرعون الذين أمر موسى عليه السلام أن يأتيهم وهم القبط على ما استظهره أبو حيان حيث لم يؤمن منهم سوى مؤمن آل فرعون .

وآسية امرأة فرعون ، وبعض السحرة على القول بأن بعضهم من القبط لا كلهم كما عليه أهل الكتاب وهو الذي يقتضيه ظاهر كلام بعض منا .

(91/568)

والعجوز التي دلت موسى على قبر يوسف عليهما السلام ليلة الخروج من مصر ليحمل عظامه معه ، وقيل : المراد بالآية ما كان في البحر من إنجاء موسى عليه السلام ومن معه وإغراق الآخرين ، وضمير ﴿ أَكْثَرُهُمْ ﴾ للناس الموجودين بعد الإغراق والإنجاء من قوم فرعون الذين لم يخرجوا معه لعذر ومن بني إسرائيل ، والمراد بالإيمان المنفي عنهم التصديق اليقيني الجازم الذي لا يقبل الزوال أصلاً أي وما كان أكثر الناس الموجودين بعد تحقق هذه الآية العظيمة وظهورها مصدقين تصديقاً يقينياً جازماً لا يقبل الزوال فإن الباقين في مصر من القبط لم يؤمن أحد منهم مطلقاً وأكثر بني إسرائيل كانوا غير متيقنين ولذا سألوا بقرة يعبدونها وعبدوا العجل فلا يقال لهم مؤمنون بالمعنى المذكور ، ويكفي في إيمان البعض الذي يدل عليه المفهوم كون البعض المؤمن من بني إسرائيل وحيث كان المراد وما كان أكثرهم بعد تحقق آيتي الإغراق والإنجاء وظهورهما مؤمنين لا يصح جعل الضمير للقبط إلا ببيان الأقل المؤمن والأكثر الكافر منهم بعد تحقق الآيتين ، وما ذكر في بيان الأقل المؤمن منهم

ليس كذلك إذ إيمان من ذكر كان في ابتداء الرسالة على أن العجوز من بني إسرائيل كما جاء في حديث أخرجه الفريابي .

وعبد بن حميد .

وابن أبي حاتم .

والحاكم وصححه عن أبي موسى مرفوعاً بل أخرج ابن عبد الحكم من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنها شارح ابنة أشير بن يعقوب عليه السلام فهي بنت أخي يوسف عليه السلام فتكون أقرب من موسى عليه السلام إلى إسرائيل .

وأجيب بأن من يرجع الضمير على القبط لا يلزمه أن يفسر الآية بالإغراق والإنجاء بل يقول : المراد بها المعجزات من العصا .

واليد .

(92/568)

وانفلاق البحر ويقول : إن إيمان الأقل بعد تحقق بعضها كاف لاتحاد مدلولها في تحقق المفهوم ، وأما إرجاع الضمير على الناس الموجودين بعد الإغراق والإنجاء من بني إسرائيل وقوم

فرعون الذين لم يخرجوا معه فخلاف الظاهر وكذا حمل الإيمان على ما ذكر وجعل أكثر بني إسرائيل المخصوصين بالإنجاء غير مؤمنين وإن حصل منهم عند وقوع بعض الآيات ما لا ينبغي صدوره من المؤمنين فإنهم لم يستمروا عليه .

فقد أخرج الخطيب في المتفق والمفترق عن أبي الدرداء جعل النبي صلى الله عليه وسلم يصفق بيديه ويعجب من بني إسرائيل وتعنتهم لما حضروا البحر وحضر عدوهم جاؤوا موسى عليه السلام فقالوا : قد حضرنا العدو فماذا أمرت قال : إن أنزل ههنا فإما أن يفتح لي ربي ويهزمهم وإما أن يفرق لي هذا البحر فانطلق نفر منهم حتى وقعوا في البحر فأوحى الله تعالى إلى موسى أن أضرب بعصاك البحر فضربه فتأطط كما يتأطط العرش ثم ضربه الثانية فمثل ذلك ثم ضربه الثالثة فانصدع فقالوا هذا عن غير سلطان موسى فجازوا البحر فلم يسمع بقوم أعظم ذنباً ولا أسرع توبة منهم .

ومتى حمل الإيمان على ما ذكر وصح نفي الإيمان عمن صدر منه ما يدل على عدم رسوخه جاز إرجاع الضمير على بني إسرائيل خاصة فإن أكثرهم لم يكونوا راسخين فيه .

(93/568)

وظاهر عبارة بعضهم يوهم إرجاعه إليهم وليس ذاك بشيء ، وقد سلك شيخ الإسلام في تفسير الآية مسلكاً تفرد في سلوكه فيما أظن فقال : إن في ذلك أي في جميع ما فصل مما صدر عن موسى عليه السلام وظهر على يديه من المعجزات القاهرة ومما فعل فرعون وقومه من الأقوال والأفعال وما فعل بهم من العذاب والنكال لآية أي آية أية وآية عظيمة لا تكاد توصف موجبة لأن يعتبر بها المعتبرون ويقيسوا شأن النبي صلى الله عليه وسلم بشأن موسى عليه السلام وحال أنفسهم بحال أولئك المهلكين ويجتنبوا تعاطي ما كانوا يتعاطونه من الكفر والمعاصي ومخالفة الرسول ويؤمنوا بالله ويطيعوا رسوله صلى الله عليه وسلم كيلا يحل بهم ما حل بأولئك أو إن فيما فصل في القصة من حيث حكايته عليه السلام إياها على ما هي عليه من غير أن يسمعها من أحد لآية عظيمة دالة على أن ذلك بطريق الوحي الصادق موجبة للإيمان بالله تعالى وحده وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم وما كان أكثرهم أي أكثر هؤلاء الذين سمعوا قصتهم منه عليه الصلاة والسلام مؤمنين لا بأن يقيسوا شأنه صلى الله عليه وسلم بشأن موسى عليه السلام وحال أنفسهم بحال أولئك المكذبين المهلكين ولا بأن يتدبروا في حكايته عليه الصلاة والسلام لقصتهم من غير أن يسمعها من أحد مع كون كل من الطريقين مما يؤدي إلى الإيمان قطعاً ، ومعنى ﴿ مَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾ ما أكثرهم مؤمنين على إن ﴿ كَانَ ﴾ زائدة كما هو رأي سيبويه فيكون كقوله تعالى :

﴿ وَمَا أَكْثَرُ الناس وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يوسف : 103] وهو إخبار منه تعالى بما سيكون من المشركين بعد سماع الآيات الناطقة بالقصة تقريراً لما مر من قوله تعالى : ﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مِّن ذِكْرٍ مِّن الرحمن مُحْدَثٍ إِلاَّ كَانُواْ عَنْهُ مُعْرِضِينَ فَقَدْ كَذَّبُواْ ﴾ [الشعراء : 5 ، 6] الخ ، وإيثار الجملة الاسمية للدلالة على استقرارهم على عدم الإيمان واستمرارهم عليه .

(94/568)

ويجوز أن تجعل ﴿ كَانَ ﴾ بمعنى صار كما في قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ مِنَ الكافرين ﴾ [البقرة : 34] فالمعنى وما صار أكثرهم مؤمنين مع ما سمعوا من الآية العظيمة الموجبة للإيمان بما ذكر من الطريقين فيكون الإخبار بعدم الصيرورة قبل الحدوث للدلالة على كمال تحققه وتقرره كقوله تعالى : ﴿ أتى أَمْرُ الله فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ [النحل : 1] وادعى إن هذا التفسير هو الذي تقتضيه جزالة النظم الكريم من مطلع السورة الكريمة إلى آخر القصص السبع بل إلى آخر السورة الكريمة اقتضاءً بيناً .

ثم قال : وأما ما قيل من أن ضمير ﴿ أَكْثَرُهُمْ ﴾ لأهل عصر فرعون من القبط وغيرهم وأن المعنى وما كان أكثر أهل مصر مؤمنين حيث لم يؤمن منهم إلا آسية ومؤمن آل فرعون والعجوز التي دلت على قبر يوسف عليه السلام .

وبنو إسرائيل بعد ما نجوا سألوا بقرة يعبدونها واتخذوا العجل وقالوا : ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حتى نَرَى اللهَ جَهْرَةً ﴾ [البقرة : 55] فبمعزل عن التحقيق كيف لا ومساق كل قصة من القصص الواردة في السورة الكريمة سوى قصة إبراهيم عليه السلام إنما هو لبيان حال طائفة معينة قد عتوا عن أمر ربهم وعصوا رسله كما يفصح عنه تصدير القصص بتكذيبهم المرسلين بعد ما شاهدا ما بأيديهم من الآيات العظام ما يوجب عليهم الإيمان ويزجرهم عن الكفر والعصيان وأصروا على ما هم عليه من التكذيب فعاقبهم الله تعالى لذلك بالعقوبة الدنيوية وقطع دابرهم بالكلية فكيف يمكن أن يخبر عنهم بعدم إيمان أكثرهم لا سيما بعد الإخبار بهلاكهم وعد المؤمنين من جملتهم أولاً وإخراجهم منها آخراً مع عدم مشاركتهم لهم في شيء مما حكى عنهم من الجنايات أصلاً مما يجب تنزيه التنزيل عن أمثاله .

(95/568)

ورجوع ضمير ﴿ أَكْثَرُهُمْ ﴾ في قصة إبراهيم عليه السلام إلى قومه مما لا سبيل إليه أيضاً أصلاً لظهور أنهم ما ازدادوا بما سمعوه منه إلا طغياناً وكفراً حتى اجترؤا على تلك العظيمة التي فعلوها به فكيف يعبر عنهم بعدم إيمان أكثرهم وإنما آمن له لوط فنجاهما الله تعالى إلى الشام فتدبر اه .

وتعقب بأن فيها محذوراً من عدة أوجه .

أما أولاً : فلأن حمل كان على الصلة مع ظهور الوجه الصحيح غير صحيح .

وقد لزم هنا بعد هذا حمل الجملة الاسمية باعتبار الاستمرار على أنهم لا يكونون بعد نزول هذه الآية مؤمنين .

وإن جعل بمعنى صار يلزم جعله مضارعاً لكن عدل عنه للدلالة على كمال التحقق .

وهذا أيضاً مع إمكان المعنى العاري عن الاحتياج لذلك غير مناسب .

أما ثانياً : فلأن إرجاع ضمير ﴿ أَكْثَرُهُمْ ﴾ إلى قوم نبينا صلى الله عليه وسلم صرف عن مرجعه المتقدم المذكور لفظاً سيما في القصص الآتية المصدرة ب ﴿ كذبت ﴾ [الشعراء : 105] .

وأما ثالثاً : فلأن قوله : لا بأن يقيسوا شأنه عليه الصلاة والسلام بشأن موسى عليه السلام الخ لا يخلو عن صعوبة إذ الأمر المشترك بينهما عليهما الصلاة والسلام ليس إلا أن كلاً منهما نبي مؤيد بالمعجزات مطلقاً .

وأما إن نظر إلى خصوصيات المعجزات فلا يخفى أنه لا مشاركة بينهما .

وكذا قياس حالهم على حال فرعون وقومه لا يخلو عنها على هذا القياس .

وأما رابعاً : فلأن قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً ﴾ الخ قد ذكر على هذا النسق في سبعة مواضع ولا بد من تنسيق تفسيره على نظام واحد فيها مهما أمكن .

ومن جملة ذلك ما في قصة نبي الله تعالى لوط عليه السلام وقد ذكر فيها من حال قومه فعلهم الشنيع المعهود ثم إهلاك جميعهم .

(96/568)

وما في قصة نبي الله تعالى شعيب عليه السلام وقد ذكر فيها من حال أصحاب الأيكة عملهم المتعلق بالكيل والوزن ثم إهلاك جميعهم من غير تصريح بحيثية كفر كل قوم فلا يناسب فيهما أن يقال : إن في ذلك لآية موجبة لإيمان قريش بأن يقيسوا حال أنفسهم بحال أولئك المهلكين ويجتنبوا تعاطي ما كانوا يتعاطون من المعاصي هذا على الطريق الأول .

وأما الطريق الثاني ففيه أيضاً عدة محذورات .

أما أولاً وثانياً : فلما ذكر أولاً وثانياً .

وأما ثالثاً : فلأن كلاً من كلتا القصتين ذكر هنا على وجه الإجمال وذكر مفصلاً في سورة أخرى وكل منهما ذكر محدث بحسب نزوله فلا وجاهة في أن يقال : وما أكثرهم مؤمنين بك بأن يتدبروا في حكايتك لقصتهم من غير أن تسمعها من أحد بناءً على أنهم قد سمعوها منه عليه الصلاة والسلام مفصلة قبل نزول هذه الآية مع أن كون حكايته صلى الله عليه وسلم ذلك من غير أن يسمعه من أحد مما يؤدي إلى إيمانهم قطعاً محل تردد ، وأما رابعاً : فلأن آخر

هذه القصة قوله تعالى : ﴿ وَأَنجَيْنَا ﴾ [الشعراء : 65] ﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ﴾ [الشعراء : 66] وكذا آخر قصة لوط عليه السلام قوله تعالى : ﴿ فنجيناه ﴾ [الشعراء : 170] ﴿ ثُمَّ دَمَّرْنَا ﴾ [الشعراء : 172] ﴿ وَأَمْطَرْنَا ﴾ [الشعراء : 173] فالمتبادر أن تكون الإشارة إلى نفس المحكي المشتمل على الأفعال العجيبة الإلهية لا إلى حكايتها .

وأما ما قاله في تزييف ما قيل فليس بشيء أيضاً لأن نسبة التكذيب إلى كل قوم من الأقوام الذين نسب إليهم إنما هي باعتبار الأكثر كما يرشد إليه قوله تعالى في قصة قوم نوح عليه السلام حكاية عنهم بعد أن قال سبحانه :

(97/568)

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ المرسلين ﴾ [الشعراء : 105] ﴿ قَالُواْ أَنُؤْمِنُ لَكَ واتبعك الارذلون ﴾ [الشعراء : 111] وقوله عز وجل بعد ذلك حكاية عن نوح عليه السلام ما قال في جوابهم ﴿ وَمَا أَنَاْ بِطَارِدِ المؤمنين ﴾ [الشعراء : 114] فيكون ضمير ﴿ أَكْثَرُهُمْ ﴾ راجعاً إلى القوم غير ملاحظ فيهم ذلك .

ومثله كثير في الكلام ؛ ويراد بالأكثر في المواضع السبعة جمع موصوفون بزيادة الكثرة سواء كان البعض المؤمن واحداً أو أكثر فلا يرد أنه كيف يعبر عن قوم إبراهيم عليه السلام بعدم

إيمان أكثرهم وإنما آمن لو لوط عليه السلام فتأمل انتهى ، ولا يخفى ما فيه من الغث والسمين .

وأنا أختار كما اختار شيخ الإسلام رجوع الضمير إلى قوم نبينا عليه الصلاة والسلام وأول السورة الكريمة وآخرها في الحديث عنهم وتسليته صلى الله عليه وسلم عما قالوه في شأن كتابه الأكرم ونهيه صريحاً وإشارة عن أن يذهب بنفسه الشريفة عليهم حسرات وكل ذلك يقتضي اقتضاءً لا ريب فيه رجوع الضمير إلى قومه عليه الصلاة والسلام ويهون أمر عدم رجوعه إلى الأقرب لفظاً ويكون الارتباط على هذا بين الآيات أقوى .

واختار أن الإشارة إلى ما تضمنته القصة وأن المعنى أن فيما تضمنته هذه القصة لآية عظيمة دالة على ما يجب على قومك الإيمان به من شؤونه عز وجل وما كان أكثرهم مؤمنين بذلك وكذا يقال في جميع ما يأتي إن شاء الله تعالى وكل ذلك على نمط ما تقدم .

وكذا الكلام في ﴿ كَانَ ﴾ وما يتعلق بالجملة .

والكلام في قوله تعالى :

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العزيز الرحيم ﴾ كالكلام فيما تقدم أيضاً ، ولعل تخريج ما ذكر على هذا الوجه أحسن من تخريج شيخ الإسلام فتأمل والله تعالى أعلم بحقائق ما أنزله من الكلام .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 19 صـ ﴾

فائدة

قال ابن عجيبة :

الإشارة : قوله تعالى : ﴿ إن معي ربي سيهدين ﴾ :

اعلم أن المعية تختلف باختلاف المقام ، فالمعية ، باعتبار عامة الخلق ، تكون بالإحاطة والقهرية والعلم والإقتدار ، وباعتبار الخاصة تكون بالحفظ والرعاية والنصر والمعونة . فمن تحقق أن الله معه بعلمه وحفظه ورعايته اكتفى بعلمه ، وفوض الأمر إلى سيده ، وكلما قوي التفويض والتسليم دلّ على رفع المقام ، ولذلك فضَّل ما حكاه الحق تعالى عن حبيبه بقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة : 40] ، على ما حكى عن كليمه بزيادة قوله : ﴿ سيهدين ﴾ فتأمل . والله تعالى أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المديد حـ 4 صـ 139 ﴾

(99/568)

وقال الشوكاني في الآيات السابقة :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ (52) ﴾

قوله ﴿ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي ﴾ أمر الله سبحانه موسى أن يخرج ببني إسرائيل ليلاً ، وسماهم

عباده ؛ لأنهم آمنوا بموسى وبما جاء به ، وقد تقدّم تفسير مثل هذا في سورة الأعراف ، وجملة ﴿ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴾ تعليل للأمر المتقدّم أي : يتبعكم فرعون وقومه ليردّوكم ، و ﴿ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي المدائن حاشرين ﴾ ، وذلك حين بلغه مسيرهم ، والمراد بالحاشرين : الجامعون للجيش من الأمكنة التي فيها أتباع فرعون ، ثم قال فرعون لقومه بعد اجتماعهم لديه : ﴿ إِنَّ هؤلاء لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴾ يريد : بني إسرائيل .

والشرذمة الجمع الحقير القليل ، والجمع شراذم .

قال الجوهري : الشرذمة الطائفة من الناس ، والقطعة من الشيء ، وثوب شراذم أي قطع ، ومنه قول الشاعر :

جاء الشتاء وقميصي أخلاق . . . شراذم يضحك منها الخلاق

قال الفراء : يقال : عصبة قليلة وقليلون وكثيرة وكثيرون .

قال المبرّد : الشرذمة القطعة من الناس غير الكثير ، وجمعها الشراذم ، قال الواحدي : قال المفسرون : وكان الشرذمة الذين قللهم فرعون ستمائة ألف ، ولا يحصى عدد أصحاب فرعون ﴿ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴾ يقال : غاظني كذا وأغاظني .

والغيظ : الغضب ، ومنه التغيظ ، والاغتياظ أي غاظونا بخروجهم من غير إذن مني ﴿ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حاذرون ﴾ قرىء : ﴿ حذرون ﴾ ، و ﴿ حاذرون ﴾ و "حذرون" بضم الذال ، حكى ذلك الأخفش .

قال الفراء : الحاذر : الذي يحذرك الآن ، والحذر : المخلوق كذلك لا تلقاه إلاّ حذراً .

وقال الزجاج : الحاذر : المستعد ، والحذر : المتيقظ ، وبه قال الكسائي ومحمد بن يزيد ، قال النحاس : ﴿ حذرون ﴾ قراءة المدنيين ، وأبي عمرو ، و ﴿ حاذرون ﴾ قراءة أهل الكوفة .

قال : وأبو عبيدة يذهب إلى أن معنى حذرون ، وحاذرون واحد ، وهو قول سيبويه ، وأنشد سيبويه :

(100/568)

حذر أموراً لا تضير وآمن . . . ما ليس ينجيه من الأقدار

﴿ فأخرجناهم مّن جنات وَعُيُونٍ * وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾ يعني : فرعون وقومه أخرجهم الله من أرض مصر وفيها الجنات والعيون والكنوز وهي جمع جنة وعين ، وكنز ، والمراد بالكنوز : الخزائن .

وقيل : الدفائن ، وقيل : الأنهار ، وفيه نظر ؛ لأن العيون المراد بها عند جمهور المفسرين : عيون الماء ، فيدخل تحتها الأنهار .

واختلف في المقام الكريم ؛ فقيل : المنازل الحسان .

وقيل : المنابر ، وقيل : مجالس الرؤساء والأمراء .

وقيل : مرابط الخيل .

والأوّل أظهر ، ومن ذلك قول الشاعر :

وفيهم مقامات حسان وجوهها . . . وأندية ينتابها القول والفعل

﴿ كَذَٰلِكَ وأورثناها بَنِي إسراءيل ﴾ يحتمل أن يكون ﴿ كذلك ﴾ في محل نصب أي أخرجناهم مثل ذلك الإخراج الذي وصفنا ، ويحتمل أن يكون في محل جرّ على الوصفية أي مقام كريم مثل ذلك المقام الذي كان لهم ، ويحتمل الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أي الأمر كذلك .

ومعنى ﴿ وأورثناها بَنِي إسراءيل ﴾ : جعلناها ملكاً لهم ، وهو معطوف على ﴿ فأخرجناهم ﴾ ﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴾ قراءة الجمهور بقطع الهمزة ، وقرأ الحسن والحارث الديناري بوصلها ، وتشديد التاء ، أي فلحقوهم حال كونهم مشرقين أي داخلين في وقت الشروق ، يقال : شرقت الشمس شروقاً إذا طلعت كأصبح وأمسى أي دخل في هذين الوقتين .

وقيل : داخلين نحو المشرق كأنجد وأتهم .

وقيل : معنى ﴿ مُشْرِقِينَ ﴾ : مضيئين .

قال الزجاج : يقال : شرقت الشمس : إذا طلعت ، وأشرقت إذا أضاءت .

﴿ فَلَمَّا تَرَاءا الجمعان ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ تراءى ﴾ بتخفيف الهمزة ، وقرأ ابن وثاب والأعمش من غير همز ، والمعنى : تقابلا بحيث يرى كلّ فريق صاحبه ، وهو تفاعل من الرؤية ، وقرىء : " تراءت الفئتان " ﴿ قَالَ أَصحاب موسى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ أي سيدركنا جمع فرعون ولا طاقة لنا بهم .

(101/568)

قرأ الجمهور : ﴿ إنا لمدركون ﴾ اسم مفعول من أدرك ، ومنه ﴿ حتى إِذَا أَدْرَكَهُ الغرق ﴾ [يونس : 90] .

وقرأ الأعرج وعبيد بن عمير بفتح الدال مشدّدة وكسر الراء .

قال الفراء : هما بمعنى واحد .

قال النحاس : ليس كذلك يقول النحويون الحذاق ، إنما يقولون : مدركون بالتخفيف ملحقون وبالتشديد مجتهدون في لحاقهم .

قال : وهذا معنى قول سيبويه .

وقال الزمخشري : إن معنى هذه القراءة : إنا لمتتابعون في الهلاك على أيديهم حتى لا يبقى منا أحد .

﴿ قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ قال موسى هذه المقالة زجراً لهم وردعاً ، والمعنى : أنهم لا يدركونكم ، وذكرهم وعد الله بالهداية والظفر ، والمعنى : إن معي ربي بالنصر والهداية ، سيهدين أي : يدلني على طريق النجاة ، فلما عظم البلاء على بني إسرائيل ، ورأوا من الجيوش ما لا طاقة لهم به ، أمر الله سبحانه موسى أن يضرب البحر بعصاه ، وذلك قوله : ﴿ فَأَوْحَيْنَا إلى مُوسَى أَنِ اضرب بّعَصَاكَ البحر ﴾ لما قال موسى : ﴿ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ بيّن الله سبحانه له طريق الهداية ، فأمره بضرب البحر ، وبه نجا بنو إسرائيل ، وهلك عدوّهم ، والفاء في ﴿ فانفلق ﴾ فصيحة : أي فضرب فانفلق فصار اثني عشر فلقاً بعدد الأسباط ، وقام الماء عن يمين الطريق وعن يساره كالجبل العظيم ، وهو معنى قوله : ﴿ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كالطود العظيم ﴾ ، والفرق : القطعة من البحر ، وقرىء : " فلق " بلام بدل الراء ، والطود : الجبل قال امرؤ القيس :

فبينا المرء في الأحياء طود . . . رماه الناس عن كثب فمالا

وقال الأسود بن يعفر :

حلوا بأنقرة يسيل عليهم . . . ماء الفرات يجيء من أطواد

﴿ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الآخرين ﴾ أي قرّبناهم إلى البحر يعني : فرعون وقومه .

قال الشاعر :

وكلّ يوم مضى أو ليلة سلفت . . . فيها النفوس إلى الآجال تزدلف

قال أبو عبيدة : ﴿ أزلفنا ﴾ : جمعنا ، ومنه قيل لليلة المزدلفة : ليلة جمع ، و "ثم" ظرف مكان للبعيد .

وقيل : إن المعنى : ﴿ وأزلفنا ﴾ قربنا من النجاة ، والمراد بالآخرين : موسى وأصحابه ، والأوّل أولى ، وقرأ الحسن وأبو حيوة : " وزلفنا " ثلاثياً ، وقرأ أبيّ ، وابن عباس وعبد الله بن الحارث : " وأزلقنا " بالقاف أي أزللنا وأهلكنا من قولهم : أزلقت الفرس : إذا ألقت ولدها .

﴿ وَأَنجَيْنَا موسى وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ ﴾ بمرورهم في البحر بعد أن جعله الله طرقاً يمشون فيها ﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخرين ﴾ يعني : فرعون وقومه أغرقهم الله باطباق البحر عليهم بعد أن دخلوا فيه متبعين موسى وقومه ، والإشارة بقوله : ﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَةً ﴾ إلى ما تقدّم ذكره مما صدر بين موسى وفرعون إلى هذه الغاية ، ففي ذلك آية عظيمة وقدرة باهرة من أدلّ العلامات على قدرة الله سبحانه ، وعظيم سلطانه ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾ أي ما كان أكثر هؤلاء الذين مع فرعون مؤمنين ، فإنه لم يؤمن منهم فيما بعد إلاّ القليل كحزقيل وابنته ، وآسية امرأة فرعون ، والعجوز التي دلت على قبر يوسف ، وليس المراد أكثر من

كان مع فرعون عند لحاقه بموسى ، فإنهم هلكوا في البحر جميعاً بل المراد : من كان معه من الأصل ، ومن كان متابعاً له ومنتسباً إليه ، هذا غاية ما يمكن أن يقال ، وقال سيبويه وغيره : إنَّ "كان" زائدة ، وأن المراد الإخبار عن المشركين بعد ما سمعوا الموعظة ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العزيز الرحيم ﴾ ، أي : المنتقم من أعدائه الرحيم بأوليائه .

وقد أخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن مسعود في قوله : ﴿ إِنَّ هَؤُلاء لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴾ قال : ستمائة ألف وسبعون ألفاً .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : كانوا ستمائة ألف .

(103/568)

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "كان أصحاب موسى الذين جازوا البحر اثني عشر سبطاً ، فكان في كلّ طريق اثنا عشر ألفاً كلهم ولد يعقوب" وأخرج ابن مردويه عنه أيضاً بسندٍ .

قال السيوطي : واه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "كان فرعون عدوّ الله حيث أغرقه الله هو وأصحابه في سبعين قائداً مع كل قائد سبعون ألفاً ، وكان موسى مع سبعين ألفاً حيث عبروا البحر" وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً قال : كان طلائع فرعون

الذين بعثهم في أثرهم ستمائة ألف ليس فيها أحد إلاّ على بهيم .

وأقول : هذه الروايات المضطربة قد روي عن كثير من السلف ما يماثلها في الاضطراب والاختلاف ، ولا يصحّ منها شيء عن النبيّ صلى الله عليه وسلم .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس : ﴿ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾ قال : المنابر .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عنه في قوله : ﴿ كالطود ﴾ قال : كالجبل .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر عن ابن مسعود مثله ، وأخرج ابن جرير عن ابن عباس : ﴿ وَأَزْلَفْنَا ﴾ قال : قربنا .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن أبي حاتم والحاكم وصححه عن أبي موسى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

(104/568)

" إن موسى لما أراد أن يسير ببني إسرائيل أضلّ الطريق ، فقال لبني إسرائيل : ما هذا ؟ فقال له علماء بني إسرائيل : إن يوسف لما حضره الموت أخذ علينا موثقاً أن لا نخرج من مصر حتى ننقل تابوته معنا ، فقال لهم موسى : أيكم يدري أين قبره ؟ فقالوا : ما يعلم أحد مكان قبره إلاّ عجوز لبني إسرائيل ، فأرسل إليها موسى فقال : دلينا على قبر يوسف ؟

فقالت : لا والله حتى تعطيني حكمي ، قال : وما حكمك ؟ قالت : أن أكون معك في الجنة ، فكأنه ثقل عليه ذلك ، فقيل له : أعطها حكمها ، فأعطاها حكمها ، فانطلقت بهم إلى بحيرة مستنقعة ماء ، فقالت لهم : انضبوا عنها الماء ، ففعلوا ، قالت : احفروا فحفروا ، فاستخرجوا قبر يوسف ، فلما احتملوه إذا الطريق مثل ضوء النهار " . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ فتح القدير حـ 4 صـ ﴾

(105/568)

وقال ابن عاشور :

﴿ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (61) ﴾

أي لما بلغ فرعون وجنوده قريباً من مكان جموع بني إسرائيل بحيث يرى كل فريق منهما الفريق الآخر .

فالترائي تَفاعل لأنه حصول الفعل من الجانبين .

وقولهم : ﴿ إنا لمُدْرَكون ﴾ بالتأكيد لشدة الاهتمام بهذا الخبر وهو مستعمل في معنى الجزع .

و﴿ كَلاَّ ﴾ ردع .

وتقدم في سورة مريم (79) ﴿ كلا سنكتب ما يقول ﴾ ردع به موسى ظنهم أنهم يدركهم فرعون ، وعلَّل رَدْعهم عن ذلك بجملة : ﴿ إن معي ربي سيهدين ﴾ .

وإسناد المعية إلى الرب في ﴿ إن معي ربي ﴾ على معنى مصاحبة لطف الله به وعنايته بتقدير أسباب نجاته من عدوه .

وذلك أن موسى واثق بأن الله منجيه لقوله تعالى : ﴿ إنّا معكم مستَمعون ﴾ [الشعراء : 15] ، وقوله : ﴿ اسْرِ بعبادي إنكم مُتَّبعون ﴾ [الشعراء : 52] كما تقدم آنفاً أنه وعد بضمان النجاة .

وجملة : ﴿ سيهدين ﴾ مستأنفة أو حال من ﴿ ربّي ﴾ .

ولا يضر وجود حرف الاستقبال لأن الحال مقدرة كما في قوله تعالى حكاية عن إبراهيم ﴿ قال إني ذاهب إلى ربّي سَيَهْدِين ﴾ [الصافات : 99] .

والمعنى : أنه سيبيّن لي سبيل سلامتنا من فرعون وجنده .

واقتصر موسى على نفسه في قوله : ﴿ إن معي ربي سيهدين ﴾ لأنهم لم يكونوا عالمين بما ضَمن الله له من معيّة العناية فإذا علموا ذلك علموا أن هدايته تنفعهم لأنه قائدهم والمرسل لفائدتهم .

ووجه اقتصاره على نفسه أيضاً أن طريق نجاتهم بعد أن أدركهم فرعون وجنده لا يحصل إلا بفعل يقطع دابر العدوّ ، وهذا الفعل خارق للعادة فلا يقع إلا على يد الرسول .

وهذا وجه اختلاف المعية بين ما في هذه الآية وبين ما في قوله تعالى في قصة الغار ﴿ إذ يقول لصاحبه لا تحزَنْ إن الله معنا ﴾ [التوبة : 40] لأن تلك معية حفظهما كليهما بصرف أعين الأعداء عنهما ، وقد أمره الله أن يضرب بعصاه البحر وانفلق البحر طُرقاً مرّت منها أسباط بني إسرائيل ، واقتحم فرعون البحر فمدّ البحرُ عليهم حين توسطوه فغرق جميعهم .

والفِرْق بكسر الفاء وسكون الراء : الجزء المفروق منه ، وهو بمعنى مفعول مثل الفِلق .

والطود : الجبل .

و ﴿ أزلفنا ﴾ قربنا وأدنينا ، مشتق من الزلف بالتحريك وهو القرب .

والظاهر أن فعله كفرح .

ويقال : ازدلف : اقترب ، وتزلف : تقرب ، فهمزة ﴿ أزلفنا ﴾ للتعدية .

والمعنى أن الله جرأهم حتى أرادوا اقتحام طرق البحر كما رأوا فعل بني إسرائيل يظنون أنه ماء غير عميق .

والآخرون : هم قوم فرعون لوقوعه في مقابلة فريق بني إسرائيل .

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (67)

تقدم القول في نظيره آنفاً قبل قصة موسى .

وكانت هذه القصة آية لأنها دالة على أن ذلك الانقلاب العظيم في أحوال الفريقين الخارج عن معتاد تقلبات الدول والأمم دليل على أنه تصرف إلهي خاص أيد به رسوله وأمته وخضّد به شوكة أعدائهم ومن كفروا به ، فهو آية على عواقب تكذيب رسل الله مع ما تتضمنه القصة من دلائل التوحيد .

ووجه تذييل كل استدلال من دلائل الوحدانية وصدق الرسل في هذه السورة بجملة : ﴿ إن في ذلك لآية ﴾ إلى آخرها تقدم في طالعة هذه السورة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 19 صـ ﴾

(107/568)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (61) ﴾

معنى : ﴿ تراءا الجمعان ﴾ [الشعراء : 61] أي : صار كل منهما يرى الآخر ، وحدثتْ بينهما المواجهة ، وعندها ﴿ قَالَ أَصْحَابُ موسى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ [الشعراء :

61] فالحال أن البحر من أمامهم وجنود فرعون من خلفهم ، فلا مناصَ ولا مهرب ، لكن موسى عليه السلام وقد سبق أن تعلم كلمة (كلا) من ربه تعالى ، حينما قال : ﴿ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴾ [الشعراء : 14] فردّ عليه ربه : ﴿ كَلاَّ ﴾ [الشعراء : 62] عندها تعلَّمها موسى ، وعرف كيف ومتى يقوله قَوْلَةَ الواثق بها .

قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (62)

لكن كيف يقول موسى عليه السلام هذه الكلمة (كلا) بملء فِيهِ ، والأمر بقانون الماديات أنه عُرْضة لأنْ يُدْرَك قبل أن يكملها ؟

والإجابة في بقية الآية : ﴿ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ [الشعراء : 62] فلم يقُلْ موسى : كَلاّ اعتماداً على قوته واحتياطه للأمر ، إنما قالها اعتماداً على ربه الذي يكلؤه بعينه ، ويحرسه بعنايته .

فالواقع أنني لا أعرف ماذا أفعل ، ولا كيف أتصرف ، لكن الشيء الذي أثق منه ﴿ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ [الشعراء : 62] لذلك يأتي الفرج والخلاص من هذا المأزق مباشرة : ﴿ فَأَوْحَيْنَا إلى موسى ﴾

فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (63)

ذلك لأن البحر هو عائقهم من أمامهم ، والبحر مياه لها قانونها الخاص من الاستطراق

والسيولة ، فلما ضرب موسى بعصاه البحر انفلق وانحصر الماء على الجانبين ، كل فِرْقٍ أي : كل جانب كالطودْ يعني الجبل العظيم .

(108/568)

لكن بعد أن صار الماء إلى ضِدّه وتجمّد كالجبل ، وصنع بين الجبلين طريقاً ، أليس في قاع البحر بعد انحسار الماء طين ورواسب وأوحال وطمي يغوص فيها الإنسان ؟

إننا نشاهد الإنسان لا يكاد يستطيع أن ينقل قدماً إذا سار في وحل إلى ركبتيه مثلاً ، فما بالك بوحْل البحر ؟

لذلك قال له ربه : ﴿ لاَّ تَخَافُ دَرَكاً وَلاَ تخشى ﴾ [طه : 77] .

فالذي جعل الماء جبلاً ، سيجعل لك الطريق يابساً .

والحق تبارك وتعالى لم يُبيّن لنا في انفلاق البحر ، إلى كَمْ فلقة انفلق ، لكن العلماء يقولون : إنه انفلق إلى اثنتي عشرة فلقة بعدد الأسباط ، بحيث يمر كل سَبْط من طريق .

وفي لقطة أخرى من القصة أراد موسى عليه السلام أنْ يضرب البحر مرة أخرى ليعود إلى طبيعته ، فيسُدُّ الطريق في وجه فرعون وجنوده على حَدّ تفكيره كبشر ، لكن الحق تبارك وتعالى نهاه عن ذلك : ﴿ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلاً إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ * واترك البحر رَهْواً إِنَّهُمْ جُندٌ

مُّغْرَقُونَ ﴾ [الدخان : 2324] .

اتركه على حاله ليُغري الطريق اليابس فرعون وجنوده ، لذلك قال سبحانه : ﴿ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الآخرين ﴾

وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ (64)

أي : قرّبناهم من منتصف البحر ، ثم أطبقه الله عليهم حين أمر الماء أن يعود إلى سيولته وقانون استطراقه ، وهكذا يُنجِّي الله ويُهلك بالشيء الواحد و ﴿ الآخرين ﴾ [الشعراء : 64] يعني : قوم فرعون ، و ﴿ ثَمَّ ﴾ [الشعراء : 64] أي : هناك وسط البحر .

وللعصا مع موسى عليه السلام تاريخ طويل منذ أن سأله ربه ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يا موسى ﴾ [طه : 17] فأخبر بما يعرفه عنها ﴿ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا على غَنَمِي ﴾ [طه : 18] .

(109/568)

وقوله ﴿ وَأَهُشُّ بِهَا على غَنَمِي ﴾ [طه : 18] لا تعني كما يظن البعض أنها مجرد الإشارة بها إلى الغنم أو ضربها ، فأهشُّ تعني أضرب بها أوراقَ الشجر لتتساقط ، فتأكلها

الأغنام الصغار التي لا تطول أوراقَ الشجر ، أو الكبار التي أكلتْ ما طالته أعناقها وتحتاج المزيد .

ولما وجد موسى نفسه قد أطال في هذا المقام قال ﴿ وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخرى ﴾ [طه : 18] كأنْ أدافع بها عن نفسي ليلاً ، إنْ تعرَّض لي كلب أو ذئب مثلاً ، أو أغرسها في الأرض وأُلقي عليها بثوبي لأستظلَّ به وقت القيلولة ، أو أجعلها على كتفي وأُعلِّق عليها متاعي حين أسير . . الخ .

هذه مهمة العصا كما يراها موسى عليه السلام لكن للعصا مهمة أخرى لا يعلمها ، فهي حُجّته وآية من الآيات التي أعطاه الله ، فبها انتصر في معركة الحجة مع السَّحَرة ، وبها انتصر في معركة السلاح حين ضرب بها البحر فانفلق .

ومن العجيب في أمر العصا أن يضرب بها البحر ، فيصر جبلاً ، ويضرب بها الحجر فينفجر بالماء ، وهذه آيات باهرات لا يقدر عليها إلا الله عز وجل .

لذلك جعلوا عصا موسى حجة ودليلاً وعَلَماً على الانتصار في كل شيء ، فلما كان الخصيب والياً على مصر ، وتمرد عليه بعض قُطَّاع الطرق ، وكانت لديه القوة التي قهرهم بها ، لذلك قال :

فَإِنْ يَكُ بَاقٍ إِفْكُ فِرْعَوْنَ فيكُمْ . . . فَإِنَّ عَصَا مُوسَى بِكَفِّ خَصِيبِ

وفي هذا المعنى يقول شاعر آخر :

إذَا جَاءَ مُوسَى وأَلْقَى العَصَا . . . فَقَدْ بَطُلَ السِّحْرُ والسَّاحِرُ

إذن : صارتْ عصا موسى عليه السلام مثَلاً وعَلَماً للغَلَبة في أيِّ مجال من مجالات الحياة .

وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ (65)

فقد حُسِمتْ هذه المعركة لصالح موسى ومَنْ معه دون إراقة دماء ، ودون خسارة جندي واحد ، في حين أن المعارك على فرض الانتصار فيها لا بُدَّ أن تكون لها نسبة خسائر في الأرواح وفي العَتَاد ، أما هذه فلا .

(110/568)

ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ (66)

أي : بنفس السبب الذي أنجى الله به موسى وقومَه أهلك فرعون وقومه ؛ لأنه وحده سبحانه القادر على أن يُنجي ، وأنْ يُهلك بالشيء الواحد .

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (67)

قوله سبحانه ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ ﴾ [الشعراء : 67] أي : فيما حدث ﴿ لَآيَةً ﴾ [الشعراء : 67] وهي الأمر العجيب الذي يخرج عن المألوف وعن العادة ، فيثير إعجاب الناس ، ويستوجب الالتفات إليه والنظر فيه ، والآية تُقنِع العقل بأن الله هو مُجْريها على

يَدَيْ موسى ، وتدل على صِدْق رسالته وبلاغة عن الله ، وإلا فهي مسألة فوق طاقة البشر

.

ومع ذلك ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء : 67] أي : أن المحصلة النهائية للذين آمنوا كانوا هم القلة مع هذه الآيات ، حتى الذين آمنوا مع موسى عليه السلام واتبعوه وأنجاهم الله من آل فرعون ومن الغرق ، سرعان ما تراجعوا وانتكسوا ، كما يحكي القرآن عنهم :

﴿ وَجَاوَزْنَا ببني إِسْرَآئِيلَ البحر فَأَتَوْاْ على قَوْمٍ يَعْكُفُونَ على أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُواْ يا موسى اجعل لَّنَآ إلها كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ﴾ [الأعراف : 138] .

سبحان الله ، لقد كفروا بالله ، وما تزال أقدامهم مُبتلَّة من عبور البحر ، وما زالوا في نَشوة النصر وفرحة الغلبة ! !

وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (68)

أي : بعد ما مرّ من حيثيات فإن الله تعالى هو العزيز ، أي : الذي لا يُغلَب ولا يُقهَر ، إنما هو الغالب وهو القاهر ، فهو سبحانه يغلِب ولا يُغلب ، ويُطعِم ولا يُطعَم ، ويُجير ولا يُجار عليه . ومع عِزته سبحانه وقوته بحيث يغلب ولا يُغلب هو أيضاً ﴿ الرحيم ﴾ الشعراء : 68] لأنه رب الخَلْق أجمعين ، يرحمهم إنْ تابوا ، ويقبلُهم إنْ رجعوا إلى ساحته ، كما جاء في الحديث الشريف :

(111/568)

" لله أفرح بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة ، فانفلتت منه ، وعليها طعامه وشرابه ، فأيس منها فأتى شجرة فاضطجع في ظلها ، قد أيس من راحلته ، فبينما هو كذلك إذ هو بها قائمة عنده فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح : اللهم أنت عبدي وأنا ربك ، أخطأ من شدة الفرح " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(112/568)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ (52) ﴾

أخرج ابن أبي حاتم عن السدي رضي الله عنه قال : ثم إن الله أمر موسى أن يخرج ببني إسرائيل فقال ﴿ أسر بعبادي ليلاً ﴾ فأمر موسى بني إسرائيل أن يخرجوا ، وأمرهم أن يستعيروا الحلي من القبط ، وأمر أن لا ينادي أحد منهم صاحبه ، وأن يسرجوا في بيوتهم

حتى الصبح ، وأن من خرج منهم أمام بابه يكب من دم حتى يعلم أنه قد خرج ، وأن الله قد أخرج كل ولد زنا في القبط من بني إسرائيل إلى بني إسرائيل ، وأخرج كل ولد زنا في بني إسرائيل من القبط حتى أتوا آباءهم . ثم خرج موسى ببني إسرائيل ليلاً والقبط لا يعلمون ، وألقى على القبط الموت فمات كل بكر رجل منهم ، فأصبحوا يدفنونهم فشغلوا عن طلبهم حتى طلعت الشمس ، وخرج موسى في ستمائة ألف وعشرين ألفاً . لا يعدون ابن عشرين لصغره ، ولا ابن ستين لكبره ، وإنما عدوا ما بين ذلك سوى الذرية .

وتبعهم فرعون على مقدمته هامان في ألف ألف وسبعمائة ألف حصان ليس فيها ماذيانة وذلك حين يقول الله ﴿ فأرسل فرعون في المدائن حاشرين ، إن هؤلاء لشرذمة قليلون ﴾ فكان موسى على ساقة بني إسرائيل ، وكان هارون أمامهم يقدمهم فقال المؤمن لموسى : أين أمرت ؟ قال : البحر . فأراد أن يقتحم فمنعه موسى .

(113/568)

فنظرت بنو إسرائيل إلى فرعون قد ردفهم قالوا : يا موسى ﴿ إنا لمدركون ﴾ قال موسى ﴿ كلا إن معي ربي سيهدين ﴾ يقول : سيكفين . فتقدم هارون فضرب البحر فأبى البحر أن ينفتح وقال : من هذا الجبار الذي يضربني ؟ حتى أتاه موسى ، فكناه أبا خالد

وضربه ﴿ فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم ﴾ يقول : كالجبل العظيم ، فدخلت بنو إسرائيل وكان في البحر اثنا عشر طريقاً في كل طريق سبط ، وكانت الطرق إذا انفلقت بجدران فقال كل سبط : قد قتل أصحابنا . فلما رأى ذلك موسى صلى الله عليه وسلم دعا الله ، فجعلها لهم قناطر كهيئة الطبقات ينظر آخرهم إلى أولها حتى خرجوا جميعاً ، ثم دنا فرعون وأصحابه فلما نظر فرعون إلى البحر منفلقاً قال : ألا ترون إلى البحر منفلقاً قد فرق مني ، فانفتح لي حتى أدرك أعدائي فاقتلهم ، فلما قام فرعون على أفواه الطرق أبت خيله أن تقتحم ، فنزل على ماذيانة ، فشامت الحصن ريح الماذيانة فاقتحمت في أثرها حتى إذا هم أولهم أن يخرج ودخل آخرهم . أمر الله البحر أن يأخذهم ، فالتطم عليهم وتفرد جبريل بفرعون يمقله من مقل البحر ، فجعل يدسها في فيه .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة في قوله ﴿ إن هؤلاء لشرذمة قليلون ﴾ قال : ذكر لنا أن بني إسرائيل الذين قطع بهم موسى البحر كانوا ستمائة ألف مقاتل وعشرين ألفاً فصاعداً . واتبعهم فرعون على ألف ألف حصان ومائتي ألف حصان .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن مسعود في قوله ﴿ إن هؤلاء لشرذمة قليلون ﴾ قال ستمائة ألف وسبعون ألفاً .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير عن أبي عبيدة . مثله .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ إن هؤلاء لشرذمة قليلون

﴿ قال : كانوا ستمائة ألف .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله ﴿ لشرذمة ﴾ قال : قطعة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه ﴿ لشرذمة ﴾ قال : الفريد من الناس .

(114/568)

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "كان أصحاب موسى الذين جاوزوا البحر اثني عشر سبط ، فكان في كل طريق اثنا عشر ألفاً كلهم ولد يعقوب عليه السلام " .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد ﴿ إن هؤلاء لشرذمة قليلون ﴾ قال : هم يومئذ ستمائة ألف . ولا يحصى عدد أصحاب فرعون .

وأخرج ابن مردويه بسندٍ واهٍ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "كان فرعون عدو الله حيث غرقه الله هو وأصحابه في سبعين قائد ، مع كل قائد سبعون ألفاً . وكان موسى مع سبعين ألفاً حين عبروا البحر " .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن جريج قال : أوحى الله إلى موسى : أن أجمع بني إسرائيل كل أربعة أبيات من بني إسرائيل في بيت ، ثم اذبح أولاد الضان فاضرب بدمائها

على كل باب ، فإني سآمر الملائكة أن لا تدخل بيتاً على بابه دم ، وسآمر الملائكة فتقتل أبكار آل فرعون من أنفسهم وأهليهم ، ثم اخبزوا خبز فطيرا فإنه أسرع لكم ، ثم سر حتى تأتي البحر ، ثم قف حتى يأتيك أمري . فلما أن أصبح فرعون قال : هذا عمل موسى وقومه ، قتلوا أبكارنا من أنفسنا وأهلينا .

وأخرج ابن إسحاق وابن المنذر عن يحيى بن عروة بن الزبير قال : إن الله أمر موسى أن يسير ببني إسرائيل ، وقد كان موسى وعد بني إسرائيل أن يسير بهم إذا طلع القمر ، فدعا الله أن يؤخر طلوعه حتى يفرغ ، فلما سار موسى ببني إسرائيل ، أذن فرعون في الناس ﴿ إن هؤلاء لشرذمة قليلون ﴾ .

(115/568)

وأخرج ابن المنذر عن محمد بن كعب قال : خرج موسى من مصر ومعه ستمائة ألف من بني إسرائيل لا يعدون فيهم أقل من ابن عشرين ولا ابن أكثر من أربعين سنة فقال فرعون : ﴿ إن هؤلاء لشرذمة قليلون ﴾ وخرج فرعون على فرس حصان أدهم ومعه ثمانمائة ألف على خيل أدهم سوى ألوان الخيل ، وكان جبريل عليه السلام على فرس شائع يسير بين يدي القوم ويقول : ليس القوم بأحق بالطريق منكم .

وفرعون على فرس أدهم حصان . وجبريل على فرس أنثى . فاتبعها فرس فرعون ، وكان ميكائيل في أخرى القوم يقول : الحقوا أصحابكم حتى دخل آخرهم ، وأراد أولهم أن يخرجوا فأطبق عليهم البحر .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عمرو بن ميمون قال : لما أراد موسى أن يخرج ببني إسرائيل من مصر بلغ ذلك فرعون فقال : أمهلوهم حتى إذا صاح الديك فأتوهم . فلم يُصِحْ في تلك الليلة الديك ، فخرج موسى ببني إسرائيل وغدا فرعون ، فلما أصبح فرعون أمر بشاة فأتي بها فأمر بها أن تذبح ثم قال : لا يفرغ من سلخها حتى يجتمع عندي خمسمائة ألف فارس . فاجتمعوا إليه فاتبعهم ، فلما انتهى موسى إلى البحر قال له : وصيه يا نبي الله أين أمرت ؟ قال : ههنا في البحر .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : كان طلائع فرعون الذين بعثهم في أثرهم ستمائة ألف ليس فيهم أحد إلا على بهيم .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : كانت سيما خيل فرعون الخرق البيض في أصداغها ، وكانت جريدته مائة ألف حصان .

(116/568)

وأخرج ابن أبي حاتم عن كعب الأحبار قال : اجتمع آل يعقوب إلى يوسف وهم ستة وثمانون انساناً ذكرهم وأنثاهم . فخرج بهم موسى يوم خرج وهم ستمائة ألف ونيف . وخرج فرعون على أثرهم يطلبهم على فرس أدهم على لونه من الدهم ثمانمائة ألف أدهم سوى ألوان الخيل ، وحالت الريح الشمال . وتحت جبريل فرس وريق وميكائيل يسوقهم لا يشذ منهم شاذة إلا ضمه فقال القوم : يا رسول الله قد كنا نلقى من فرعون من التعس والعذاب ما نلقى فكيف إن صنعا ما صنعنا فأين الملجأ ؟ قال : البحر .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس . أنه قرأ ﴿ وإنا لجميع حاذرون ﴾ قال : مؤدون مُقِرّون .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن الأسود بن يزيد انه كان يقرأها ﴿ وإنا لجميع حاذرون ﴾ يقول : مؤدون مقرون .

وأخرج عبد بن حميد عن الأسود . أنه كان يقرأها ﴿ وإنا لجميع حاذرون ﴾ يقول : رادون مستعدون .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير . أنه كان يقرأ ﴿ وإنا لجميع حاذرون ﴾ يقول : مادّون في السلاح .

وأخرج عبد بن حميد عن عمرو بن دينار قال : قرأ عبيد ﴿ وإنا لجميع حاذرون ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن الضحاك ﴿ وإنا لجميع حاذرون ﴾ قال :

مؤدون مقوّون في السلاح والكراع .

وأخرج عبد بن حميد عن ابن مسعود ﴿ وإنا لجميع حاذرون ﴾ قال : مؤدون مقوّون في السلاح والكرام .

وأخرج عبد بن حميد عن إبراهيم . إنه كان يقرأها ﴿ وإنا لجميع حاذرون ﴾ .

وأخرج ابن الأنباري في الوقف عن ابن عباس .

أن نافع بن الأزرق قال له : أخبرني عن قوله ﴿ وإنا لجميع حاذرون ﴾ ما الحاذرون ؟ قال : التامون السلاح قال فيه النجاشي :

لعمر أبي أتاني حيث أمسى . . . لقد تأذت به أبناء بكر

خفيفة في كتاب حاذرات . . . يقودهم أبو شبل هزبر

(117/568)

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن قتادة ﴿ فأخرجناهم من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم ﴾ قال : كانوا في ذلك في الدنيا ، فأخرجهم الله من ذلك ، وأورثها بني إسرائيل .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ ومقام كريم ﴾ قال : المنابر .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ فأتبعوهم مشرقين ﴾ قال : اتبعهم فرعون وجنوده حين أشرقت الشمس ﴿ قال أصحاب موسى إنا لمدركون ﴾ قال موسى وكان أعلمهم بالله ﴿ كلا إن معي ربي سيهدين ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد عن عاصم أنه قرأ ﴿ فأتبعوهم مشرقين ﴾ مهموزة مقطوعة الألف .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ فأتبعوهم مشرقين ﴾ قال : خرج أصحاب موسى ليلاً ، فكسف القمر ليلاً وأظلمت الأرض فقال أصحابه : أن يوسف كان أخبرنا : أنا سننجى من فرعون ، وأخذ علينا العهد لنخرجن بعظامه معنا ، فخرج موسى من ليلته يسأل عن قبره ، فوجد عجوزاً سألها على قبره ، فأخرجته له بحكمها فكان حكمها أن قالت له : احملني فاخرجني معك ، فجعل عظام يوسف في كساء . ثم حمل العجوز على كساء فجعله على رقبته وخيل فرعون في ملء أعنتها خضراء في أعينهم ولا يبرح حسه عن موسى وأصحابه حتى برزوا .

وأخرج ابن أبي حاتم عن خالد بن عبد الله القسري : إن مؤمن آل فرعون كان امام القوم قال : يا نبي الله أين أمرت ؟ قال : أمامك . . . قال : وهل أمامي إلا البحر ؟ قال : والله ما كذبت ولا كذبت . ثم سار ساعة فقال مثل ذلك ، فرد عليه موسى مثل ذلك قال موسى وكان أعلم القوم بالله ﴿ كلا إن معي ربي سيهدين ﴾ .

﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (63) ﴾

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ كالطود ﴾ قال : كالجبل .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر عن ابن مسعود في قوله ﴿ كالطود ﴾ قال : كالجبل .

(118/568)

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة قال ﴿ الطود ﴾ الجبل .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله ﴿ وأزلفنا ثم الآخرين ﴾ قال : هم قوم فرعون قربهم الله حتى أغرقهم في البحر .

وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " ألا أعلمك الكلمات التي قالهن موسى حين انفلق البحر ؟ قلت : بلى . قال : اللهم لك الحمد وإليك المتكل وبك المستغاث وأنت المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله " قال ابن مسعود : فما تركتهن منذ سمعتهن من النبي صلى الله عليه وسلم .

وأخرج ابن أبي حاتم عن محمد بن حمزة بن يوسف بن عبد الله بن سلام : أن موسى لما انتهى إلى البحر قال : يا من كان قبل كل شيء ، والمكوّن لكل شيء ، والكائن بعد كل

شيء ، اجعل لنا مخرجاً . فأوحى الله إليه ﴿ أن اضرب بعصاك البحر ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال : كان البحر ساكناً لا يتحرك فلما كان ليلة ضربه موسى بالعصا صار يمد ويجزر .

وأخرج ابن أبي حاتم عن قيس بن عباد قال : لما انتهى موسى ببني إسرائيل إلى البحر قالت بنو إسرائيل لموسى : أين ما وعدتنا ؟ هذا البحر بين أيدينا ، وهذا فرعون وجنوده قد دهمنا من خلفنا . فقال موسى للبحر : انفرق أبا خالد فقال : لن أفرق لك يا موسى انا أقدم منك وأشد خلقاً فنودي ﴿ أن اضرب بعصاك البحر ﴾ .

وأخرج أبو العباس محمد بن إسحاق السراج في تاريخه وابن عبد البر في التمهيد من طريق يوسف بن مهران عن ابن عباس قال : كتب صاحب الروم إلى معاوية يسأله عن أفضل الكلام ما هو ؟ والثاني . والثالث . والرابع . وعن أكرم الخلق على الله ، وأكرم الأنبياء على الله ، وعن أربعة من الخلق لم يركضوا في رحم ، وعن قبر سار بصاحبه ، وعن المجرة ، وعن القوس ، وعن مكان طلعت فيه الشمس لم تطلع قبله ولا بعده ، فلما قرأ معاوية الكتاب قال : أخزاه الله وما علمي ما ههنا ! فقيل له : اكتب إلى ابن عباس فسله .

(119/568)

فكتب إليه يسأله . فكتب إليه ابن عباس : إن أفضل الكلام لا إله إلا الله كلمة الاخلاص لا يقبل عمل إلا بها ، والتي تليها سبحان الله وبحمده أحب الكلام إلى الله ، والتي تليها الحمد لله كلمة الشكر ، والتي تليها الله أكبر فاتحة الصلوات والركوع والسجود ، وأكرم الخلق على الله آدم عليه السلام ، وأكرم اماء الله مريم .

وأما الأربعة التي لم يركضوا في رحم فآدم ، وحوّاء ، والكبش الذي فدى به إسماعيل ، وعصا موسى حيث ألقاها فصار ثعباناً مبيناً . وأما القبر الذي سار بصاحبه فالحوت حين التقم يونس ، وأما المجرة فباب السماء ، وأما القوس فإنها أمان لأهل الأرض من الغرق بعد قوم نوح ، وأما المكان الذي طلعت فيه الشمس لم تطلع قبله ولا بعده ، فالمكان الذي انفرج من البحر لبني إسرائيل .

فلما قرأ عليه الكتاب أرسل به إلى صاحب الروم فقال : لقد علمت أن معاوية لم يكن له بهذا علم ، وما أصاب هذا إلا رجل من أهل بيت النبوة .

وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير عن عبد الله بن شداد بن الهاد قال : جاء موسى إلى فرعون وعليه جبة من صوف ، ومعه عصا فضحك فرعون . فألقى عصاه ، فانطلقت نحوه كأنها عنق بختي فيها أمثال الرماح تهتز . فجعل فرعون يتأخر وهو على سريره فقال فرعون : خذها واسلم . فعادت كما كانت وعاد فرعون كافراً . فأمر موسى أن يسير إلى البحر ، فسار بهم في ستمائة ألف ، فلما أتى البحر أمر البحر إذا ضربه موسى بعصاه أن

ينفرج له ، فضرب موسى بعصاه البحر فانفلق منه اثنا عشر طريقاً ، لكل سبط منهم طريق ، وجعل لهم فيها أمثال الكوى ينظر بعضهم إلى بعض .

واقبل فرعون في ثمانمائة ألف حتى أشرف على البحر . فلما رآه هابه وهو على حصان له ، وعرض له ملك وهو على فرس له أنثى ، فلم يملك فرعون فرسه حتى أقحمه وخرج آخر بني إسرائيل ، وولج أصحاب فرعون حتى إذا صاروا في البحر فاطبق عليهم ، فغرق فرعون بأصحابه .

(120/568)

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : أوحى الله إلى موسى : أن اسر بعبادي ليلاً إنكم متبعون . فأسرى موسى ببني إسرائيل ليلاً ، فاتبعهم فرعون في ألف ألف حصان سوى الاناث ، وكان موسى في ستمائة ألف ، فلما عاينهم فرعون قال ﴿ إن هؤلاء لشرذمة قليلون ، وإنهم لنا لغائظون ، وإنا لجميع حاذرون ﴾ [الشعراء : 54-56] فاسرى موسى ببني إسرائيل حتى هجموا على البحر فالتفتوا فإذا هم برهج دواب فرعون فقالوا : يا موسى ﴿ أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا ﴾ [الأعراف : 129] هذا البحر أمامنا ، وهذا فرعون قد رهقنا بمن معه قال : ﴿ عسى

ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون ﴾ [الأعراف : 129] فأوحى الله إلى موسى : أن اضرب بعصاك البحر ، وأوحى إلى البحر : أن اسمع لموسى وأطع إذا ضربك . فثاب البحر له أفكل يعني رعدة لا يدري من أي جوانبه يضرب . فقال يوشع لموسى : بماذا أمرت ؟ قال : أمرت أن أضرب البحر . قال : فاضربه : فضرب موسى البحر بعصاه فانفلق فكان فيه اثنا عشر طريق كل طريق كالطود العظيم ، فكان لكل سبط فيهم طريق يأخذون فيه ، فلما أخذوا في الطريق قال بعضهم لبعض : ما لنا لا نرى أصحابنا ؟ فقالوا لموسى : إن أصحابنا لا نراهم ؟ قال : سيروا فانهم على طريق مثل طريقكم قالوا : لن نؤمن حتى نراهم قال موسى : اللهم أعني على أخلاقكم السيئة . فأوحى الله إليه : أن قل بعصاك هكذا وأومأ بيده يديرها على البحر . قال موسى بعصاه على الحيطان هكذا فصار فيها كوات ينظر بعضهم إلى بعض ، فساروا حتى خرجوا من البحر .

(121/568)

فلما جاز آخر قوم موسى هجم فرعون على البحر هو وأصحابه ، وكان فرعون على فرس أدهم حصان ، فلما هجم على البحر هاب الحصان أن يقتحم في البحر ، فتمثل له جبريل

على فرس أنثى ، فلما رآها الحصان اقتحم خلفها ، وقيل لموسى ﴿ اترك البحر رهوا ﴾ [الدخان : 24] قال : طرقاً على حاله . ودخل فرعون وقومه في البحر ، فلما دخل آخر قوم فرعون وجاز آخر قوم موسى أطبق البحر على فرعون وقومه فأغرقوا .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن مسعود رضي الله عنه أن موسى حين أسرى ببني إسرائيل بلغ فرعون فأمر بشاة فذبحت ، ثم قال : لا يفرغ من سلخها حتى يجتمع إلي ستمائة ألف من القبط . فانطلق موسى حتى انتهى إلى البحر فقال له : انفرق . فقال له البحر : لقد استكثرت يا موسى وهل انفرقت لأحد من ولد آدم ؟ ومع موسى رجل على حصان له فقال أين أمرت يا نبي الله بهؤلاء ؟ قال : ما أمرت إلا بهذا الوجه . فاقتحم فرسه فسبح به ثم خرج فقال : أين أمرت يا نبي الله ؟ قال : ما أمرت إلا بهذا الوجه . قال : ما كذبت ولا كذبت . فأوحى الله إلى موسى : أن اضرب بعصاك البحر ، فضربه موسى بعصاه فانفلق فكان فيه اثنا عشر طريقاً ، لكل سبط طريق يتراءون ، فلما خرج أصحاب موسى وتتام أصحاب فرعون التقى البحر عليهم فأغرقهم .

(122/568)

وأخرج عبد بن حميد والفريابي وابن أبي حاتم والحاكم وصححه عن أبي موسى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن موسى لما أراد أن يسير ببني إسرائيل أضل الطريق فقال لبني إسرائيل : ما هذا ؟ فقال له علماء بني إسرائيل : أن يوسف لما حضره الموت أخذ علينا موثقاً أن لا نخرج من مصر حتى ننقل تابوته معنا فقال لهم موسى : أيكم يدري أين قبره ؟ فقالوا : ما يعلم أحد مكان قبره إلا عجوز لبني إسرائيل . فأرسل إليها موسى فقال : دلينا على قبر يوسف ، فقالت : لا والله حتى تعطيني حكمي قال : وما حكمك ؟ قالت : أن أكون معك في الجنة . فكأنه ثقل عليه ذلك فقيل له : اعطها حكمها . فانطلقت بهم إلى بحيرة مشقشقة ماء فقالت لهم : انضبوا عنها الماء ففعلوا قالت : احفروا . فحفروا فاستخرجوا قبر يوسف ، فلما احتملوه إذا الطريق مثل ضوء النهار " .

وأخرج ابن عبد الحكم في فتوح مصر عن سماك بن حرب ؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لما أسرى موسى ببني إسرائيل غشيتهم غمامة حالت بينهم وبين الطريق أن يبصروه . وقيل لموسى : لن تعبر إلا ومعك عظام يوسف قال : وأين موضعها ؟ قالوا : ابنته عجوز كبيرة ذاهبة البصر تركناها في الديار .

فرجع موسى فلما سمعت حسه قالت : موسى ؟ قال : موسى . قالت : ما وراءك ؟ قال : أمرت أن أحمل عظام يوسف . قالت : ما كنتم لتعبروا إلا وأنا معكم قال : دليني على عظام يوسف قالت : لا أفعل إلا أن تعطيني ما سألتك قال : فلك ما سألت قالت : خذ

بيدي . فأخذ بيدها فانتهت به إلى عمود على شاطىء النيل في أصله سكة من حديد موتدة فيها سلسلة فقالت : انا دفناه من ذلك الجانب . فأخصب ذلك الجانب وأجدب ذا الجانب ، فحولناه إلى هذا الجانب فاخصب هذا الجانب وأجدب ذاك ، فلما رأينا ذلك جمعنا عظامه فجعلناها في صندوق من حديد ، وألقيناه في وسط النيل فأخصب الجانبان جميعاً .

(123/568)

فحمل الصندوق على رقبته وأخذ بيدها فألحقها بالعسكر وقال لها : سلي ما شئت قالت : فإني أسألك أن أكون أنا وأنت في درجة واحدة في الجنة ، ويرد علي بصري وشبابي حتى أكون شابة كما كنت . قال : فلك ذلك " .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن عكرمة رضي الله عنه قال : أوصى يوسف عليه السلام إن جاء نبي من بعدي فقولوا له : يخرج عظامي من هذه القرية . فلما كان من أمر موسى ما كان يوم فرعون فمر بالقرية التي فيها قبر يوسف ، فسأل عن قبره فلم يجد أحد يخبره فقيل له : ههنا عجوز بقيت من قوم يوسف . فجاءها موسى عليه السلام فقال لها : تدليني على قبر يوسف ؟ فقالت : لا أفعل حتى تعطيني ما اشترط عليك . فأوحى الله إلى

موسى : أن أعطها شرطها قال لها : وما تريدين ؟ قالت : أكون زوجتك في الجنة .

فاعطاها فدلته على قبره .

فحفر موسى القبر ثم بسط رداءه وأخرج عظام يوسف فجعله في وسط ثوبه ، ثم لف الثوب بالعظام فحمله على يمينه فقال له الملك الذي على يمينه : الحمل يحمل على اليمين !

قال : صدقت هو على الشمال وإنما فعلت ذلك كرامة ليوسف .

وأخرج ابن عبد الحكم من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال : كان يوسف عليه السلام قد عهد عند موته أن يخرجوا بعظامه معهم من مصر . قال : فتجهز القوم وخرجوا فتحيروا فقال لهم موسى : إنما تحيركم هذا من أجل عظام يوسف فمن يدلني عليها ؟ فقالت عجوز يقال لها شارح ابنة آي بن يعقوب : أنا رأيت عمي يوسف حين دفن فما تجعل لي إن دللتك عليه ؟ قال : حكمك .

فدلته عليه فأخذ عظام يوسف ، ثم قال : احتكمي قالت : أكون معك حيث كنت في الجنة .

(124/568)

وأخرج ابن عبد الحكم من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس . أن الله أوحى إلى موسى : أن أسر بعبادي . وكان بنو إسرائيل استعاروا من قوم فرعون حلياً وثياباً . إن لنا عيداً نخرج إليه فخرج بهم موسى ليلاً وهم ستمائة ألف وثلاثة آلاف ونيف . فذلك قول فرعون ﴿ إن هؤلاء لشرذمة قليلون ﴾ وخرج فرعون ومقدمته خمسمائة ألف سوى الجنبين والقلب ، فلما انتهى موسى إلى البحر أقبل يوشع بن نون على فرسه ، فمشى على الماء ، واقتحم غيره بخيولهم فوثبوا في الماء ، وخرج فرعون في طلبهم حين أصبح وبعد ما طلعت الشمس ، فذلك قوله ﴿ فأتبعوهم مشرقين ، فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون ﴾ فدعا موسى ربه فغشيتهم ضبابة حالت بينهم وبينه وقيل له : اضرب بعصاك البحر . ففعل ﴿ فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم ﴾ يعني الجبل . فانفلق منه اثنا عشر طريقاً فقالوا : انا نخاف أن توحل فيه الخيل . فدعا موسى ربه فهبت عليهم الصبا فجف ، فقالوا : انا نخاف أن يغرق منا ولا نشعر ، فقال بعصاه فنقب الماء فجعل بينهم كوى حتى يرى بعضهم بعضاً ، ثم دخلوا حتى جاوزوا البحر .

وأقبل فرعون حتى انتهى إلى الموضع الذي عبر منه موسى وطرقه على حالها فقال له أدلاؤه : إن موسى قد سحر البحر حتى صار كما ترى ، وهو قوله ﴿ واترك البحر رهواً ﴾ [الدخان : 24] يعني كما هو . فحذ ههنا حتى نلحقهم وهو مسيرة ثلاثة أيام في البحر .

وكان فرعون يومئذ على حصان ، فأقبل جبريل على فرس أنثى في ثلاثة وثلاثين من الملائكة ، ففرقوا الناس وتقدم جبريل فسار بين يدي فرعون وتبعه فرعون ، وصاحت الملائكة في الناس : الحقوا الملك . حتى إذا دخل آخرهم ولم يخرج أولهم ؛ التقى البحر عليهم فغرقوا . فسمع بنو إسرائيل وجبة البحر حين التقى فقالوا : ما هذا ؟ قال موسى : غرق فرعون وأصحابه . فرجعوا ينظرون فألقاهم البحر على الساحل .

(125/568)

وأخرج ابن عبد الحكم وعبد بن حميد عن مجاهد رضي الله عنه قال : كان جبريل بين الناس . بين بني إسرائيل وبين آل فرعون فيقول : رويدكم ليلحقكم آخركم . فقالت بنو إسرائيل : ما رأينا سائقاً أحسن سياقاً من هذا . وقال آل فرعون : ما رأينا وازعاً أحسن زعة من هذا .

فلما انتهى موسى وبنو إسرائيل إلى البحر قال مؤمن آل فرعون . يا نبي الله أين أمرت ؟ هذا البحر أمامك وقد غشينا آل فرعون فقال : أمرت بالبحر . فاقتحم مؤمن آل فرعون فرسه فرده التيار ، فجعل موسى لا يدري كيف يصنع ، وكان الله قد أوحى إلى البحر : أن أطع موسى وآية ذلك إذا ضربك بعصا ، فأوحى الله إلى موسى : أن اضرب بعصاك البحر ،

فضربه ﴿ فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم ﴾ فدخل بنو إسرائيل واتبعهم آل فرعون ، فلما خرج آخر بني إسرائيل ودخل آخر آل فرعون أطبق الله عليهم البحر .

وأخرج ابن المنذر عن سعيد بن جبير رضي الله عنه قال : نزل جبريل يوم غرق فرعون وعليه عمامة سوداء .

وأخرج الخطيب في المتفق والمفترق عن أبي الدرداء قال " جعل النبي صلى الله عليه وسلم يصفق بيديه ، ويعجب من بني إسرائيل وتعنتهم لما حضروا البحر ، وحضرهم عدوهم . جاؤوا موسى فقالوا : قد حضرنا العدوّ فماذا أمرت ؟ قال : أن أنزل ههنا ، فاما أن يفتح لي ربي ويهزمهم ، وأما أن يفرق لي هذا البحر . فضربه فتأطط كما تتأطط الفرش ، ثم ضربه الثانية فانصدع فقال : هذا من سلطان ربي . فاجازوا البحر فلم يسمع بقوم أعظم ذنباً ، ولا أسرع توبة منهم " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 6 صـ ﴾

(126/568)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله : ﴿ فَلَمَّا تَرَاءَى الجمعان ﴾ :

قرأ العامَّةُ " تراءى " بتحقيقِ الهمزة ، وابن وثاب والأعمش من غير همزٍ . وتفسيرُه أن تكنَ الهمزةُ مخففةً بينَ بينَ ، لا بالإبدال المحض ؛ لئلا تجتمعَ ثلاثُ أَلِفاتٍ : الأولى الزائدةُ بعد الراءِ ، والثانيةُ المبدلةُ عن الهمزةِ ، والثالثةُ لامُ الكلمة ، لكن الثالثة لا تَثْبُتُ وَصْلاً . لحذفِها لالتقاء الساكنين . ثم اختلف القراء في إمالة هذا الحرف فأقول : هذا الحرف إمَّا أَنْ يُوْقَفَ عليه أو لا . فإن وُقِفَ عليه : فحمزةُ يُميل ألفَه الأخيرةَ لأنها طرفٌ منقبلةٌ عن ياء . ومن ضرورةِ إمالتِها إمالةُ فتحةِ الهمزةِ المُسَهَّلَةِ ؛ لأنه إذا وُقف على مثلِ هذه الهمزةِ سَهَّلَها على مقتضى مذهبِه ، وأمال الألفَ الأولى إتْباعاً لإمالةِ فتحةِ الهمزةِ . ومِنْ ضرورةِ إمالَتِها إمالةُ فتحةِ الراءِ قبلها . وهذا هو الإمالةُ لإمالةٍ .

وغيرُه من القُرَّاءِ لا يُميل شيئاً من ذلك ، وقياسُ مذهبِ الكسائيِّ أَنْ يُميلَ الألفَ الأخيرةَ وفتحةَ الهمزةِ قبلها . وكذا نقله ابنُ الباذش عنه وعن حمزةَ .

وإنْ وُصِلَ : فإنَّ ألفَه الأخيرةَ تَذْهَبُ لالتقاءِ الساكنين ، ولذهابِها تَذْهَبُ إمالةُ فتحةِ الهمزة وتبقى إمالةُ الألف الزائدة . وإمالةُ فتحةِ الراءِ قبلَها عنده اعتداداً بالألفِ المحذوفةِ .

وعند ذلك يُقال : حُذِفَ السببُ وبقي المُسَبَّبُ ؛ لأن إمالةَ الألفِ الأولى إنما كان لإمالةِ الألفِ الأخيرةِ كما تقدَّم تقريرُه ، وقد ذَهَبَتِ الأخيرةُ ، فكان ينبغي أَنْ لا تُمال الأولى لذهابِ المُقْتَضي لذلك ، ولكنه راعى المحذوفَ ، وجعلَه في قوةِ المنطوقِ ، ولذلك نحا عليه

أبو حاتمٍ فقال : " وقراءةُ هذا الحرفِ بالإِمالةِ مُحالٌ : قلت : وقد تقدَّم في الأنعام عند " رأى القمر " و " رأى الشمس " ما يُشْبه هذا العملَ فعليك باعتبارِه ثَمَّة .

(127/568)

قوله : ﴿ لَمُدْرَكُونَ ﴾ العامَّةُ على سكونِ الدالِ اسمَ مفعولٍ مِنْ أَدْرك أي : لَمُلْحَقُون .

وقرأ الأعرج وعبيد بن عمير بفتح الدالِ مشدَّدةً وكسرِ الراء . قال الزمخشري : " والمعنى : متتابِعُون في الهَلاك على أيديهم . ومنه بيت الحماسة :

3518 أَبَعْدَ بَني أمِّي الذين تتابَعُوا . . . أُرَجِّيْ الحياةَ أم مِنْ الموتِ أجْزَعُ

يعني : أن ادَّرَك على افْتَعَل لازمٌ بمعنى فَنِي واضْمَحَلَّ . يقال : ادَّرَكَ الشيءُ يَدَّرِكُ فهو مُدَّرِك أي : فَنِيَ تتابعاً ، ولذلك كُسِرَت الراءُ . وممَّنْ نَصَّ على كسرِها أبو الفضلِ الرازي قال : " وقد يكون " ادَّرَكَ " على افْتَعَل بمعنى أَفْعَلَ متعدّياً ، ولو كانَتِ القراءةُ مِنْ هذا لَوَجَبَ فتحُ الراءِ ، ولم يَبْلُغْني عنهما يغني عن الأعرجِ وعُبيد إلاَّ الكسرُ " .

فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (63)

قوله : ﴿ فانفلق ﴾ : قبلَه جملةٌ محذوفةٌ أي : فضربَ فانفلقَ . وزعم ابنُ عُصْفور أنَّ المحذوفَ إنما هو ضَرَبَ وفاءُ انفلقَ ، وأن الفاءَ الموجودةَ هي فاء " فَضَرَبَ " ، فأبقى من كلٍ

ما يُدْلُّ على المحذوفِ . أبقى الفاءَ مِنْ " فضرب " لِتَدُلَّ على " ضَرَبَ " وأبقى " انفلق " لِتَدُلَّ على الفاء المتصلةِ به ، وهذا كلامٌ متهافتٌ .

واختلفَ القُراء في ترقيقِ راءِ " فِرْق " عن ورشٍ لأجلِ القاف . وقُرِىء " فِلْق " بلامٍ بَدَلَ الراءِ لموافقةِ " فانفلقَ " . والطَّوْدُ : الجبلُ العظيمُ/ المتطاولُ في السماءِ .

وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ (64)

(128/568)

قوله : ﴿ وَأَزْلَفْنَا ﴾ : أي : قَرَّبْنا مِنَ النجاةِ . و " ثَمَّ " ظرفُ مكانٍ بعيدٍ . و " الآخرين " هم موسى وأصحابُه ، وقرأ الحسن وأبو حيوة " وزَلَّفْنا " ثلاثياً ، وقرأ أُبَيٌّ وابن عباس وعبد الله بن الحارث بالقاف أي : أَزْلَلْنا . والمرادُ بالآخَرين في هذه القراءة فرعونُ وقومُه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 525.528 ﴾

(129/568)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (61) ﴾

فكان كما قال ، إذ هداهم اللَّهُ وأنجاهم ، وأَغْرَقَ فرعونَ وقومَه وأقصاهم ، وقد قال سبحانه : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة : 36] يُنَجِّيهم من كلِّ بلاء ، ويَخُصُّهم بكل نعمة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 12 ﴾

(130/568)

" فصل "

قال الإمام نظام الدين النيسابورى فى الآيات السابقة :

﴿ طسم (1) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (2) ﴾

التفسير : قال جار الله : معنى طسم إن آيات هذا المؤلف من الحروف المبسوطة تلك آيات الكتاب المبين وقد مر مثله في أول " يوسف " . والبخع الإهلاك وقد مر في اول " الكهف " . عزاه وعرفه أن غمه وحزنه لا ينفع كما أن وجود الكتاب على بيانه ووضوحه لا ينفع . ثم بين أنه قادر على تنزيل آية ملجئة إلى الإيمان ولكن المشيئة والحكمة تقتضيان بناء الأمر

على صورة الاختبار . قال صاحب الكشاف : وجه عطف ﴿ فظلت ﴾ على ﴿ ننزل ﴾ كما قيل في قوله ﴿ فاصدق وأكن ﴾ [المنافقون : 10] كأنه قيل : أنزلنا فظلت . وأقول : الظاهر أن الفاء في ﴿ فظلت ﴾ لسببية بدليل عدم المستتر فيه كما في ﴿ ننزل ﴾ . ووجه العدول إلى الماضي كما قيل في ﴿ ونادى ﴾ [الأعراف : 48] ﴿ وسيق ﴾ [الزمر : 73] وجه مجيء ﴿ خاضعين ﴾ خبراً عن الأعناق إذ الأعناق تكون مقحماً لبيان موضع الخضوع . وأصل الكلام : فظلوا لها خاضعين أي حين وصفت الأعناق بالخضوع الذي هو للعقلاء قيل ﴿ خاضعين ﴾ كقوله ﴿ والشمس والقمر رايتهم لي ساجدين ﴾ [يوسف : 4] وقيل : أعناقهم رؤساؤهم كما يقال لهم الرؤوس والصدور . وقيل : اراد جماعاتهم . يقال : جاءنا عنق من الناس لفوج منهم . عن ابن عباس : نزلت هذه الآية فينا وفي بني أمية . قال : ستكون لنا عليهم الدولة فتذل لنا أعناقهم بعد صعوبة ويلحقهم هوان بعد عزة . ومعنى ﴿ ما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث ﴾ قد مر في سورة الأنبياء . نبه سبحانه بذلك على أنه مع اقتداره على أن يجعلهم ملجئين على الإيمان حكيم يأتيهم بالقرآن حالاً بعد حال رعاية لقاعدة التكليف .

(131/568)

ثم ذكر أنه تعالى لا يجدد لهم توجيه موعظة وتذكير إلا جددوا ما هو نقيض المقصود ، وذلك النقيض هو الإعراض والتكذيب والاستهزاء وهذا ترتيب في غاية الحسن كأنه قيل حين أعرضوا عن الذكر : فقد كذبوا به وحين كذبوا به فقد خف عندهم قدره حتى صار عرضة للاستهزاء . وهذه درجات من أخذ في الشقاء فإنه يعرض أوّلاً ، ثم يصرح بالتكذيب ثانياً ، ثم يبلغ في التكذيب والإنكار إلى حيث يستهزئ . وفي قوله ﴿ فسيأتيهم ﴾ وعيد لهم بعذاب بدر أو يوم القيامة وقد مر مثله في أول " الأنعام " . ثم بين أنه مع حكمته في إنزال القرآن حالاً بعد حال رحيم يظهر من الدلائل الحسية ما يكفي للمتأمل في باب النظر والاستدلال . والزوج الصنف والكريم نعت لكل ما يرضى ويحمد في بابه منه " وجه كريم " إذا رضي في حسنه وجماله ، و "كتاب كريم " مرضي في مبانيه ، و " نبات كريم " مرضي فيما يتعلق به من المنافع ، فما من نبت إلا وفيه نفع وفائدة من جهة وإن كانت فيه مضرة من جهة أخرى . ويحتمل أن يراد بالكريم النافع منه وتكون المضارّ مسلوبة عنه . قال جار الله : معنى الجمع بين "كم " و "كل " دون أن يقول "كم أنبتنا فيها من زوج كريم " هو أن "كلا " قد دل على الإحاطة بأزواج النبات على سبيل التفصيل ، و "كم " دل على أن هذا محيط مفرط الكثرة . قلت : فالحاصل أن خلق النوع يصدق بخلق فرد واحد منه كما يصدق بخلق أفراد كثيرة . فقوله ﴿ كل زوج ﴾ إشارة إلى خلق كل نوع من أنواع النبات ، وقوله ﴿ كم أنبتنا ﴾ إشارة إلى كثرة افراد كل نوع منه وفيه تنبيه على كمال القدرة

ونهاية الجود والرحمة ولهذا ختم الكلام بقوله ﴿ إن في ذلك ﴾ الإنبات أو في كل واحد من تلك الأزواج ﴿ الآية ﴾ على الإبداء والإعادة ﴿ وما كان أكثرهم مؤمنين ﴾ لأن الله تعالى طبع على قلوبهم ﴿ وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾ فمن عزته قدر على عقوبتهم ومن رحمته بين لهم الدلائل ليتفكروا ويعتبروا ، والرحمة إذا صدرت عن القدرة كانت

(132/568)

أعظم موقعاً ، واعلم أنه سبحانه كرر بعض الآيات في هذه السورة لأجل التأكيد و " التقرير " ؛ فمن ذلك أنه كرر قوله ﴿ إن في ذلك لآية ﴾ إلى قوله ﴿ الرحيم ﴾ في ثمانية مواضع : أولها في ذكر النبي صلى الله عليه وسلم ، والثانية في قصة موسى ، ثم إبراهيم ، ثم نوح ، ثم هود ، ثم صالح ، ثم لوط ، ثم شعيب . ومن ذلك قوله ﴿ ألا تتقون إني لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين ﴾ وهو مذكور في خمسة مواضع : في قصة نوح وهود وصالح ولوط وشعيب .

ومن ذلك أنه كرر ﴿ فاتقوا الله وأطيعون ﴾ في قصة نوح وهود وصالح وليس في ذكر النبي صلى الله عليه وسلم : ﴿ ما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلاَّ على رب العالمين ﴾ [الشعراء : 109] لذكرها في مواضع من غير هذه السورة . وليس في قصة موسى لأنه رباه

فرعون حيث قال ﴿ ألم نربك فينا وليداً ﴾ ولا في قصة إبراهيم لأن اباه في المخاطبين حيث يقول : ﴿ إذ قال لأبيه وقومه ﴾ [الأنبياء : 52] وهو قد ربَّاه فاستحيا موسى وإبراهيم أن يقولا ﴿ وما أسألكم عليه من أجر ﴾ وإن كانا منزهين من طلب الأجر .

(133/568)

ثم إنه تعالى أعاد في هذه السورة قصص الأنبياء المشهورين مع أممهم اعتباراً لهذه الأمة ، وبدأ بقصة موسى لما فيها من غرائب الأحوال وعجائب الأمور . والنداء المسموع عند الأشعري هو الكلام القديم الذي لا يشبه الحروف والأصوات ، وعند المعتزلة وإليه ميل أبي منصور الماتريدي أنه من جنس الحروف والأصوات وأنه وقع على وجه علم به موسى أنه من قبل الله تعالى وقد عرفه أنه سيظهر عليه المعجزات إذا طولب بذلك . قال جار الله : قوله ﴿ ألا يتقون ﴾ كلام مستأنف فيه تعجيب لموسى من حالهم الشنعاء في قلة خوفهم وكثرة ظلمهم ، أو حال أدخلت عليه همزة الإنكار . ثم إن موسى خاف أن يذكب عند أداء الرسالة فاستظهر بهارون . وفي قراءة النصب خاف التكذيب المستتبع لضيق الصدر المستلزم لاحتباس اللسان عن الجريان في الكلام ، ولعله اراد بهذه الحبسة عقدة في لسانه قبل إجابة دعوته أو بقية يروى أنها بقيت بعد الإجابة كما مر في " طه " . ومعنى ﴿

فأرسل إلى هارون ﴾ أرسل إليه جبريل واجعله نبياً يصدقني في أمري فاختصر الكلام اختصاراً . ثم ذكر أن لهم عليه ذنباً فسمى جزاء الذنب ذنباً ، أو المضاف محذوف اي تبعه ذنب وهو قود قتل القبطي كما سيجيء تفصيله في سورة القصص . فيمكن أن يقتل قبل أداء الرسالة فلا يتمكن من المقصود ، وهذا قد جوزه الكعبي وغيره من البغداديين . وقال الأكثرون : الأقرب من حال الأنبياء أنهم يعلمون إذا حملهم الله تعالى الرسالة أنه يمكنهم من أدائها فلا معنى للخوف من القتل قبل الأداء . نعم لو خاف بعد الأداء جاز وذلك لما جبل عليه طبع الإنسان من التنفر عن القتل فيسأل الله الأمان من ذلك وقد جمع الله له بقوله ﴿ كلا ﴾ الكلاءة وبقوله ﴿ فاذهبا ﴾ استنباء أخيه كأنه قيل : ارتدع يا موسى عما تظن فاذهب أنت وهارون ﴿ ومعكم ومستمعون ﴾ خبران لأن أو الخبر ﴿ مستمعون ﴾ و ﴿ معكم ﴾ متعلق به . ولا يخفى ما في المعية من المجاز لأن المصاحبة من صفات الأجسام ، فالمراد

(134/568)

معية النصرة والمعونة ، وأما الاستماع فمجاز أيضاً وإن كان إطلاق السمع على الله حقيقة لأن الاستماع جار مجرى الإصغاء ولا بد فيه من الجارحة .

فحاصل الآية إنا لكما ولعدوّكما كالناصر الظهير لكما عليه إذا حضر واستمع ما يجري بينكما وبينه . وإنما وحد الرسول في قوله ﴿ إنا رسول رب العالمين ﴾ لأنه أراد كل واحد أو أراد الرسول بمعنى المصدر أي ذو رسالة رب العالمين . يقال : أرسلتهم برسول اي برسالة أو جعلا لاتفاقهما واتحاد مطلبهما كرسول واحد . وههنا إضمار دل عليه سياق الكلام أي فأتيا فرعون فقالا له ذلك . يروى أنهما انطلقا إلى باب فرعون فلم يؤذن لهما سنة حتى قال البواب : إن ههنا إنساناً يزعم أنه رسول رب العالمين . فقال : ائذن له لعلنا نضحك منه . فأديا إليه الرسالة فعرف أنه موسى فعند ذلك قال ﴿ ألم نربك فينا وليداً ﴾ أي صبياً وذلك لقرب عهده من الولادة . قيل : مكث فيهم ثلاثين سنة من أول عمره . وقيل : وكز القبطي وهو ابن اثنتي عشرة سنة ففر منهم . والفعلة الوكزة عدد عليه نعمه ، ثم وبخه بقتل نفس منهم وسماه كافراً لنعمه بسبب ذلك . وجوز جار الله أن يراد وأنت إذ ذاك ممن يكفر بالساعة فيكون قد افترى على موسى أو جهل أمره لأنه كان يعايشهم بالتقية . وإنما قلنا إنه افتراء أو جهل لأن الكفر غير جائز على الأنبياء ولو قبل النبوة ، ويجوز أن يراد أنه من الكافرين بفرعون وإلهيته أو بآلهة كانوا يعبدونها . قال تعالى : ﴿ ويذرك وآلهتك ﴾ [

الأعراف : 127] ثم إن موسى ما أنكر تربيته ولكن أنكر الكفر فلم ينسب نفسه إلا إلى الضلال وأراد به الذهاب عن الصواب ، أو أراد النسيان أو الخطأ وعدم التدبر في أدبار الأمور . ثم ذكر موهبة ربه في حقه حين فر من فرعون وملئه المؤتمرين بقتله . والحكم العلم بالتوحيد وكمال العقل والرأي ، ولا تدخل فيه النبوة ظاهراً لئلا يلزم شبه التكرار بقوله : ﴿ وجعلني من المرسلين ﴾ قال جار الله ﴿ وتلك ﴾ إشارة إلى خصلة شنعاء مبهمة لا يدري ما هي إلا بعد أن فسرت بقوله ﴿ أن عبدت ﴾ نظيره قوله ﴿ وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع ﴾ [الحجر : 66] والمعنى

(136/568)

تعبيدك بني إسرائيل نعمة تمنها عليّ كأنه أبى أن يسمي نعمته إلا نقمة لأن تعبيدهم أي تذليلهم واتخاذهم عبيداً وقصدهم . بذبح أبنائهم صار هو السبب في حصوله عنده وفي تربيته فلهذا قال الزجاج : " أن " مع ما بعده في موضع نصب أي إنما صارت نعمة عليّ لأن عبدت بني إسرائيل إذ لو لم تفعل ذلك لكفلني أهلي ولم يلقوني في اليم ومن هنا قال جار الله : إن قول موسى ﴿ فعلتها إذن ﴾ جواب لقول فرعون ﴿ وفعلت فعلتك ﴾ وجزاء له كأن فرعون قال : جازيت نعمتي بما فعلت . فقال موسى : فعلتها مجازياً لك وإن نعمتك جديرة

بأن تجازى بنحو ذلك الجزاء .

وقال الحسن : أراد أنك استعبدتهم وأخذت أموالهم ومنها أنفقت عليّ فلا نعمة لك بالتربية على أن التربية كانت من قبل أمي وعشيرتي ولم يكن منك إلا أنك لم تقتلني . وقيل : اراد أنك كنت تدعي أن بني إسرائيل عبيدك ولا منة للمولى على العبد في الإطعام والكسوة .

(137/568)

واعلم أن للعلماء خلافاً في نعمة الكافر فقيل : إنها لا تستحق الشكر لأن الكافر يستحق الإهانة بكفره فلو استحق الشكر لإنعامه لزم الجمع بين الإهانة والتعظيم في حق شخص واحد في وقت واحد . وقيل : لا يبطل بالكفر إلا الثواب والمدح الذي يستحقه على الإيمان ، وفي الآية نوع دلالة على كل من القولين . ثم إن موسى حين أدى رسالته من قوله ﴿ إنا رسول رب العالمين ﴾ ﴿ قال فرعون وما رب العالمين ﴾ وقد سبق مراراً أن كفره احتمل أن يكون كفر عناد وأ ، يكون كفر جهالة ، والذي يختص بالمقام هو أن ما يطلب به حقيقة الشيء وماهيته ، وهذا هو الذي قصده فرعون بسؤاله ولم يعرف أن الماهية لا تطلق على ذاته تعالى إذ لا أجزاء لها حدية ولا تقديريه ولا بأي وجه فرض ضرورة انتهاء الكل إليه

واستغنائه عن الكل من كل الوجوه ، فلا يصح أن يسأل عنه بما هو ولا بكيف هو ولا بأي شيء هو ولا بهل هو ، غاية ذلك أن ينبه على وجوده الذي هو أظهر الأشياء بلوازمه وآثاره على وجه يعم الكل كما يقال : إنه رب السموات والأرض وما بينهما ، أو بأخص من ذلك بأن يقال مثلاً : ﴿ ربكم ورب آبائكم الأولين ﴾ وهو الاستدلال بالأنفس أو يقال ﴿ رب المشرق والمغرب وما بينهما ﴾ من الجهات المفروضة على السماء من لدن طلوع الكواكب إلى غروبها وبالعكس وهو الاستدلال بالآفاق . وقد راعى في الجواب الأول طريقة اللطف فختم بقوله ﴿ إن كنتم موقنين ﴾ أي إن كنتم موقنين بشيء قط فهذا أولى ما توقنون به لظهوره وجلائه . وخاشنهم في الأخير بقوله ﴿ إن كنتم تعقلون ﴾ حين نسبوه إلى الجنون بعد أن تهكموا به بقوله : ﴿ إن كنتم تعقلون ﴾ حين نسبوه إلى الجنون بعد أن تهكموا به بقوله ﴿ إن رسولكم ﴾ ويمكن أن يراد بقوله ﴿ وما بينهما ﴾ ثانياً ما بين المشرق والمغرب من المخلوقات فيكون الفرق بين هذا الاستدلال وبين الأول أن الأول هو الاستدلال بالإمكان على طريقة الحكيم ، والثاني هو الاستدلال بالحدوث على طريقة

المتكلمين ، والأول أقرب إلى اليقين فلهذا قال ﴿ إن كنتم موقنين ﴾ والثاني أقرب إلى الحس فلهذا قال ﴿ إن كنتم تعقلون ﴾ ولما انجر الكلام إلى حد العناد والمخاشنة هدده فرعون بقوله : ﴿ لئن اتخذت إلهاً غيري لاجعلنك من المسجونين ﴾ وهذا أبلغ من أن لو قال : " لأسجننك " والمعنى لأجعلنك واحداً ممن عرفت حالهم في سجوني وكان من عادته أن يأخذ من يريد سجنه يطرحه في هوة ذاهبة في الأرض بعيدة العمق فرداً لا يبصر فيها ولا يسمع ، وحينئذ عدل موسى إلى الحجة الأصلية في الباب وهو ادعاء المعجز المنبئ عن صدقه فقال ﴿ أولو جئتك ﴾ أي أتفعل فيَّ ذلك ولو جئتك بشيء أي جائياً بالمعجزة .

وفي قوله ﴿ إن كنت من الصادقين ﴾ إن سلم أنه قاله جداً لا هزلاً وجداً لا دلالة على ما ركز في العقول من أن دعوى الرسالة إن اقترنت بظهور المعجزة على يده تحقق صدقها .

وقد شنع في الكشاف ههنا أن في أهل القبلة من خفي عليهم ما لم يخف على فرعون حتى جوزوا القبيح عليه سبحانه ولزمهم تصديق الكاذبين بالمعجزات . وفي التخطئة سهو من وجهين : أحدهما : أنه لا قبيح عند الأشاعرة عقلاً . والثاني أنه على تقدير التسليم لا يلزم تجويز كل قبيح وهذا من ذلك للزوم الاشتباه . وباقي القصة سبق نظيرها في " الأعراف " فلنقتصر في التفسير على ما يختص بالسورة . قوله ﴿ قال للملأ حوله ﴾ قال في الكشاف

: الظرف في محل النصب على الحال . وأقول : الأصوب أن يجعل نعتاً للملأ أي الأشراف حوله على طريقة قوله :

(139/568)

ولقد أمرّ على اللئيم يسبني . . . قوله ﴿ لمقيات يوم معلوم ﴾ اليوم يوم الزينة وميقاته وقت الضحى كما مر في " طه " . قوله ﴿ هل أنتم مجتمعون ﴾ استبطاء لهم في الاجتماع وحث عليه كقول الرجل لغلامه : هل أنت منطلق إذا أراد أن يحثه على الانطلاق . قوله ﴿ لعلنا نتبع السحرة ﴾ لم يكن غرضهم اتباع السحرة في دينهم وإنما غرضهم الأصلي أن لا تتبعوا موسى ، فساقوا الكلام مساق المجاز لأنهم إذا اتبعوهم لم يكونوا متبعين لموسى . قوله ﴿ بعزة فرعون ﴾ هي من أيمان الجاهلية ولا يصح الحلف في الإسلام إلا بالله تعالى وبصفاته كما مر في " البقرة " و " المائدة " . وقوله ﴿ فألقى السحرة ﴾ لم يسم فاعله وهو الله تعالى في الحقيقة حين ألقى دايعة الإيمان في قلوبهم ويجوز أن ينسب إلى ما عاينوا من المعجزات الباهرة ولك أن لا تقدر فاعلاً أي خروا . قوله ﴿ لا ضير ﴾ أي لا ضير علينا فيما يتوعدنا به من القتل .

قوله ﴿ إنا نطمع ﴾ الطمع في هذا الموضع يحتمل اليقين كقوله إبراهيم ﴿ والذي أطمع أن

يغفر لي ﴾ ويحتمل الظن بناء على أن المرء لا يعلم ما يختاره أو يؤل إليه عند الوفاة . ومعنى ﴿ أن كنا ﴾ لأن كنا وكانوا أوّل طائفة مؤمنين من أهل زمانهم أو من قوم فرعون أو من أهل المشهد . قوله : ﴿ أنكم متبعون ﴾ تعليل للإسراء أي بنيت تدبير أمركم على أن تتقدموا لو يتبعكم فرعون وجنوده إلى أن يغشاهم من اليم ما يغشاهم . قوله : ﴿ لشرذمة ﴾ هي الطائفة القليلة . ثم وصفهم بالقلة واختار جمع السلامة ليدل على أن كل حزب منهم في غاية القلة ، وذلك بالنسبة إلى عسكره وإلا فهم كثير في أنفسهم .

(140/568)

يروى أن فرعون أرسل في اثرهم الف ألف وخمسمائة الف ملك مسور مع كل ملك الف وخرج فرعون في جمع عظيم ، وكانت على مقدّمته سبعمائة ألف كل رجل على حصان وعلى رأسه بيضة ، وكان قوم موسى إذ ذاك ستمائة ألف وسبعين ألفاً . ويجوز أن يريد بالقلة الذلة والحقارة لا قلة العدد . قوله : ﴿ وإنهم لنا لغائظون ﴾ معناه أنهم لقلتهم لا يبالي بهم ولا يتوقع غلبتهم ولكنهم يفعلون أفعالاً لغيظنا كأخذ الحلي وادّعاء الاستقلال والاستخلاص عن ذل الاستخدام ونحن قوم مجموعون كلمة وائتلافاً ، ومن عادتنا التيقظ والحذر واستعمال الحزم في الأمور . فالحذر المتيقظ وهو يفيد الثبات والحاذر الذي يجدد

حذره . وقيل : هو تام السلاح لأنه فعل ذلك حذراً واحتياطاً لنفسه ، وكل هذه المعاذير لأجل أن لا يظن به العجز وخلاف ما ادّعاه من القهر والتسلط . وقرئ ﴿ حادرون ﴾ بالدال غير المعجمة ، والحادر السمين القوي أراد أنهم أقوياء أشدّاء . ﴿ فأخرجناهم من جنات ﴾ أي بساتينهم التي فيها عيون الماء وكنوزر الذهب والفضة . قال مجاهد : سماها كنوزاً لأنهم لم ينفقوا منها في طاعة الله تعالى . والمقام الكريم المنازل الحسنة والمجالس البهية . وقال الضحاك : المنابر . وقيل : السرر في الحجال . ﴿ كذلك ﴾ يحتمل النصب أي أخرجناهم مثل ذلك الإخراج الذي وصفنا ، والجر على الوصف أي مقام كريم مثل ذلك المقام الذي كان لهم ، ولا رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي الأمر كذلك ، وعلى هذا فيوقف على ﴿ كريم ﴾ . ﴿ فأتبعوهم ﴾ اي فلحقوهم . ومن قرأ بالتشديد فظاهر . والإشراق الدخول في وقت الشروق ﴿ فلما تراءى الجمعان ﴾ أي رأى قوم موسى قوم فرعون وحصل كل من الفريقين بمرأى للآخر ﴿ قال أصحاب موسى ﴾ خوفاً وفزعاً ﴿ إنا لمدركون ﴾ لملحقون . قال موسى تثبيتاً لهم وردعاً عما هم عليه من الجزع والفزع ﴿ كلا إن معي ربي ﴾ بالنصرة والمعونة ﴿ سيهدين ﴾ سبيل النجاة والخلاص كما وعدني . ثم بين أنه كيف هداه بقوله ﴿ فأوحينا ﴾

الآية. ومعنى ﴿ فانفلق ﴾ فضرب فانفلق ﴿ فكان كل فرق ﴾ اي كل جزء متفرق منفلق منه ﴿ كالطود ﴾ وهو الجبل العظيم ومع ذلك وصفه بالعظيم ﴿ وأزلفنا ثم ﴾ أي قربنا حيث انفلق البحر ﴿ الآخرين ﴾ وهم قوم فرعون والمقرب منه بنو إسرائيل أو قوم فرعون أيضاً أي أدنينا بعضهم من بعض وجمعناهم حتى لا ينجو منهم أحد ، ويجوز أن يراد قدمانهم إلى البحر . وقرئ ﴿ وأزلقنا ﴾ بالقاف أي أزللنا أقدامهم حساً بأن لم يكن لهم البحر يبساً كما كان لبني إسرائيل ، أو عقلاً أي أذهبنا عزهم . والبحر بحر القلزم أو بحر من وراء مصر يقال له أساف . قالت الأشاعرة : إنه تعالى أضاف الإزلاف إلى نفسه مع أن اجتماعهم في طلب موسى كفر . أجاب الجبائي بأن قوم فرعون تبعوا بني إسرائيل وبنو إسرائيل إنما فعلوا ذلك بأمر الله تعالى ، فلما كان مسيرهم بتدبير الله وهؤلاء تبعوهم اضافه إلى نفسه توسعاً ، وهذا كما يتعب أحدنا في طلب غلام له فيجوز أن يقول : أتعبني الغلام لما حدث ذلك عند فعله .

أو المراد أزلفناهم إلى الموت والأجل . وقال الكعبي : أراد أنه جمع تفرقهم كيلا يصلوا إلى موسى وقومه ، أو اراد أنه حلم عنهم وترك لهم لا بحر يابساً حتى طمعوا في دخوله .

واعترض بأن كل ذلك لا بد أن يكون له أثر في استجلاب داعية قوم فرعون إلى الذهاب خلفهم فيعود المحذور . ﴿ إن في ذلك ﴾ الذي حدث في البحر من إنجاء البعض وإغراق

البعض أو في ذلك أي ذكر من القصة بطولها ﴿ لآية ﴾ عجيبة للمتدبر المتفكر في الأمور الإلهية ﴿ وما كان أكثرهم مؤمنين ﴾ حين سألوا بعد النجاة أن يجعل لهم موسى إلهاً غير الله ، واتخذوا العجل ، واقترحوا اقتراحات خارجة عن قانون الأدب . ويحتمل أن يعود الضمير إلى هذه الأمة بدليل ﴿ واتل عليهم ﴾ [الشعراء : 69] وفيه تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقد كان يغتم بتكذيب قومه بعد ظهور المعجزات ونزول الآيات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 5 صـ 263. 270 ﴾

(142/568)

وقال الشيخ سيد قطب :

﴿ وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (10) ﴾

هذه الحلقة من قصة موسى عليه السلام تجيء في هذه السورة متناسقة مع موضوع السورة ، ومع اتجاهها إلى بيان عاقبة المكذبين بالرسالة ؛ وإلى طمأنة الرسول صلى الله عليه وسلم وتعزيته عما يلقاه من إعراض المشركين وتكذيبهم ؛ وإلى رعاية الله لدعوته والمؤمنين بها ولو كانوا مجردين من القوة وأعداؤهم أقوياء جبارون في الأرض مسلطون عليهم بالأذى والتنكيل وهو الموقف الذي كان فيه المسلمون بمكة عند نزول هذه السورة وقد كان

القصص إحدى وسائل التربية القرآنية في القرآن الكريم .

وقد وردت حلقات من قصة موسى عليه السلام حتى الآن في سورة البقرة ، وسورة المائدة ، وسورة الأعراف ، وسورة يونس ، وسورة الإسراء ، وسورة الكهف ، وسورة طه . عدا إشارات إليها في سور أخرى .

وفي كل مرة كانت الحلقات التي تعرض منها أو الإشارات متناسقة مع موضوع السورة ، أو السياق الذي تعرض فيه ، على نحو ما هي في هذه السورة ؛ وكانت تشارك في تصوير الموضوع الذي يهدف إليه السياق .

والحلقة المعروضة هنا هي حلقة الرسالة والتكذيب وما كان من غرق فرعون وملئه جزاء على هذا التكذيب ، وعقاباً على ائتماره بموسى ومن معه من المؤمنين . ونجاة موسى وبني إسرائيل من كيد الظالمين . وفي هذا تصديق قول الله سبحانه في هذه السورة عن المشركين : ﴿ وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون ﴾ وقوله : ﴿ فقد كذبوا فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون ﴾ وهذه الحلقة مقسمة إلى مشاهد استعراضية ، بينها فجوات بمقدار ما يسدل الستار على المشهد ، ثم يرفع عن المشهد الذي يليه . وهي ظاهرة فنية ملحوظة في طريقة العرض القرآنية للقصة .

وهنا سبعة مشاهد : أولها مشهد النداء والبعثة والوحي والمناجاة بين موسى عليه السلام وربه . وثانيها مشهد مواجهة موسى لفرعون وملئه برسالته وآيتي العصا واليد البيضاء . وثالثها مشهد التآمر وجمع السحرة وحشد الناس للمباراة الكبرى . ورابعها مشهد السحرة بحضرة فرعون يطمئنون على الأجر والجزاء ! وخامسها مشهد المباراة ذاته وإيمان السحرة وتهديد فرعون ووعيده . وسادسها مشهد ذو شقين : الشق الأول مشهد إيحاء الله لموسى أن يسري بعباده ليلاً ، والثاني مشهد إرسال فرعون في المدائن حاشرين يجمعون الجنود لملاحقة بني إسرائيل . وسابعها مشهد المواجهة أمام البحر ونهايته من انفلاق البحر وغرق الظالمين ونجاة المؤمنين .

وقد عرضت هذه المشاهد في سورة الأعراف ، وفي سورة يونس ، وفي سورة طه . ولكنها عرضت في كل موضع من الجانب الذي يناسب ذلك الموضع ، وبالطريقة التي تتفق مع اتجاهه ، وكان التركيز فيها على نقط معينة هنا وهناك .

ففي الأعراف مثلاً بدأ بمشهد المواجهة بين موسى وفرعون مختصراً ، ومر بمشهد السحرة ونهايته سريعاً ، بينما وسع في عرض مؤامرات فرعون وملئه بعد ذلك ، وعرض آيات موسى مدة إقامته في مصر بعد المباراة قبل مشهد الغرق والنجاة .

واستطرد بعد ذلك مع بني إسرائيل بعد مجاوزتهم البحر في حلقات كثيرة . . واختصر هذا

هنا فلم يشر إليه . بينما وسع في مشهد الجدال بين موسى وفرعون حول وحدانية الله سبحانه ووحيه إلى رسوله ؛ وهو موضوع الجدل في هذه السورة بين المشركين والنبي صلى الله عليه وسلم .

وفي يونس بدأ بمشهد المواجهة مختصراً لم يعرض فيه آيتي العصا واليد ، واختصر كذلك في مشهد المباراة . بينما توسع هنا في كليهما .

وفي سورة طه توسع في مشهد المناجاة الأول بين موسى وربه . واستطرد بعد مشهدي المواجهة والمباراة فصاحب بني إسرائيل في رحلتهم طويلاً . ولم يجاوز هنا مشهد الغرق والنجاة .

(144/568)

وكذلك لا نجد تكراراً في عرض القصة أبداً على كثرة ما عرضت في سور القرآن . لأن هذا التنويع في اختيار الحلقات التي تعرض ، ومشاهد كل حلقة ، والجانب الذي يختار من كل مشهد ، وطريقة عرضه . . كل أولئك يجعلها جديدة في كل موضع . متناسقة مع هذا الموضع .

﴿ وإذ نادى ربك موسى أن ائت القوم الظالمين . قوم فرعون . ألا يتقون ؟ قال : رب إني

أخاف أن يكذبون . ويضيق صدري ولا ينطلق لساني ، فأرسل إلى هارون . ولهم عليَّ ذنب فأخاف أن يقتلون . قال : كلا فاذهبا بآياتنا إنا معكم مستمعون . فأتيا فرعون فقولا : إنا رسول رب العالمين . أن أرسل معنا بني إسرائيل ﴾ . .

الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم بهذا القصص ، بعد ما قال له في مطلع السورة : ﴿ لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين . إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين ، وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث إلا كانوا عنه معرضين . فقد كذبوا فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون ﴾ ثم أخذ يقص عليه أنباء المكذبين المعرضين المستهزئين ، وما حاق بهم من العذاب الأليم .

﴿ وإذ نادى ربك موسى أن ائت القوم الظالمين . قوم فرعون . ألا يتقون ؟ ﴾ . .

وهذا هو المشهد الأول : مشهد التكليف بالرسالة لموسى عليه السلام وهو يبدأ بإعلان صفة القوم : ﴿ القوم الظالمين ﴾ فقد ظلموا أنفسهم بالكفر والضلال ، وظلموا بني إسرائيل بما كانوا يذبحون أبناءهم ويستحيون نساءهم ويعذبونهم بالسخرة والنكال . . لذلك يقدم صفتهم ثم يعينهم ﴿ قوم فرعون ﴾ ثم يعجب موسى من أمرهم ويعجب كل إنسان : ﴿ ألا يتقون ؟ ﴾ ألا يخشون ربهم ؟ ألا يخافون مغبة ظلمهم ؟ ألا يرجعون عن غيهم ؟ ألا إن أمرهم لعجيب يستحق التعجيب ! وكذلك كل من كان على شاكلتهم من الظالمين !

ولم يكن أمر فرعون وملئه جديداً على موسى عليه السلام فهو يعرفه ، ويعرف ظلم فرعون وعتوه وجبروته ، ويدرك أنها مهمة ضخمة وتكليف عظيم . ومن ثم يشكو إلى ربه ما به من ضعف وقصور لا ليتنصل أو يعتذر عن التكليف ، ولكن ليطلب العون والمساعدة في هذا التكليف العسير .

﴿ قال : رب إني أخاف أن يكذبون . ويضيق صدري ولا ينطلق لساني فأرسل إلى هارون . ولهم عليَّ ذنب فأخاف أن يقتلون ﴾ .

والظاهر من حكاية قوله عليه السلام أن خوفه ليس من مجرد التكذيب ، ولكن من حصوله في وقت يضيق فيه صدره ولا ينطلق لسانه فلا يملك أن يبين ، وأن يناقش هذا التكذيب ويفنده . إذ كانت بلسانه حبسة هي التي قال عنها في سورة طه : ﴿ واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي ﴾ ومن شأن هذه الحبسة أن تنشئ حالة من ضيق الصدر ، تنشأ من عدم القدرة على تصريف الانفعال بالكلام . وتزداد كلما زاد الانفعال ، فيزداد الصدر ضيقاً . . وهكذا . . وهي حالة معروفة . فمن هنا خشي موسى أن تقع له هذه الحالة وهو في موقف المواجهة بالرسالة لظالم جبار كفرعون . فشكا إلى ربه ضعفه وما يخشاه

على تبليغ رسالته ، وطلب إليه أن يوحي إلى هارون أخيه ، ويشركه معه في الرسالة اتقاء للتقصير في أداء التكليف ، لا نكوصاً ولا اعتذاراً عن التكليف . فهارون أفصح لساناً ومن ثم هو أهدأ انفعالاً ؛ فإذا أدركت موسى حبسة أو ضيق نهض هارون بالجدل والمحاجة والبيان . ولقد دعا موسى ربه كما ورد في سورة طه ليحل هذه العقدة من لسانه ، ولكنه زيادة في الاحتياط للنهوض بالتكليف طلب معه أخاه هارون وزيراً ومعيناً . . وكذلك الشأن في قوله : ﴿ ولهم عليَّ ذنب فأخاف أن يقتلون ﴾ . . فإن ذكره هنا ليس للخوف من المواجهة ، والتخلي عن التكليف . ولكن له علاقة بالإرسال إلى هارون . حتى إذا قتلوه قام هارون من بعده قام هارون من بعده بالرسالة ، وأتم الواجب كما أمره ربه دون تعويق .

(146/568)

فهو الاحتياط للدعوة لا للداعية . الاحتياط من أن يحتبس لسانه في الأولى وهو في موقف المنافحة عن رسالة ربه وبيانها ، فتبدو الدعوة ضعيفة قاصرة . والاحتياط من أن يقتلوه في الثانية فتتوقف دعوة ربه التي كلف أداءها وهو على إبلاغها واطرادها حريص . وهذا هو الذي يليق بموسى عليه السلام الذي صنعه الله على عينه ، واصطنعه لنفسه .

ولما علمه ربه من حرصه هذا وإشفاقه واحتياطه أجابه إلى ما سأل ، وطمأنه مما يخاف .

والتعبير هنا يختصر مرحلة الاستجابة ، ومرحلة الإرسال إلى هارون ، ومرحلة وصول موسى إلى مصر ولقائه لهارون ؛ ويبرز مشهد موسى وهارون مجتمعين يتلقيان أمر ربهما الكريم ، في نفس اللحظة التي يطمئن الله فيها موسى ، وينفي مخاوفه نفياً شديداً ، في لفظة تستخدم أصلاً للردع وهو كلمة ﴿ كلا ﴾ !

﴿ قال : كلا فاذهبا بآياتنا إنا معكم مستمعون . فأتيا فرعون فقولا : إنا رسول رب العالمين . أن أرسل معنا بني إسرائيل ﴾ .

كلا . لن يضيق صدرك ويحتبس لسانك . وكلا لن يقتلوك .

فأبعد هذا كله عن بالك بشدة . واذهب أنت وأخوك . ﴿ فاذهبا بآياتنا ﴾ وقد شهد موسى منها العصا واليد البيضاء والسياق يختصرهما هنا لأن التركيز في هذه السورة موجه إلى موقف المواجهة وموقف السحرة وموقف الغرق والنجاة . اذهبا ﴿ إنا معكم مستمعون ﴾ فأية قوة ؟ وأي سلطان ؟ وأي حماية ورعاية وأمان ؟ والله معهما ومع كل إنسان في كل لحظة وفي كل مكان . ولكن الصحبة المقصودة هنا هي صحبة النصر والتأييد . فهو يرسمها في صورة الاستماع ، الذي هو أشد درجات الحضور والانتباه . وهذا كناية عن دقة الرعاية وحضور المعونة . وذلك على طريقة القرآن في التعبير بالتصوير .

اذهبا ﴿ فأتيا فرعون ﴾ فأخبراه بمهمتكما في غير حذر ولا تلجلج : ﴿ فقولا : إنا رسول رب العالمين ﴾ وهما اثنان ولكنهما يذهبان في مهمة واحدة برسالة واحدة . فهما رسول . رسول رب العالمين . في وجه فرعون الذي يدعي الألوهية ، ويقول لقومه : ﴿ ما علمت لكم من إله غيري ﴾ فهي المواجهة القوية الصريحة بحقيقة التوحيد منذ اللحظة الأولى ، بلا تدرج فيها ولا حذر . فهي حقيقة واحدة لا تحتمل التدرج والمداراة .

﴿ إنا رسول رب العالمين . أن أرسل معنا بني إسرائيل ﴾ . . وواضح من هذا ومن أمثاله في قصة موسى عليه السلام في القرآن ، أنه لم يكن رسولاً إلى فرعون وقومه ليدعوهم إلى دينه ويأخذهم بمنهج رسالته . إنما كان رسولاً إليهم ليطلب إطلاق بني إسرائيل ليعبدوا ربهم كما يريدون . وقد كانوا أهل دين منذ أبيهم إسرائيل وهو يعقوب أبو يوسف عليهما السلام فبهت هذا الدين في نفوسهم ، وفسدت عقائدهم فأرسل الله إليهم موسى لينقذهم من ظلم فرعون ويعيد تربيتهم على دين التوحيد .

وإلى هنا نحن أمام مشهد البعثة والوحي والتكليف . ولكن الستار يسدل . لنجدنا أمام مشهد المواجهة . وقد اختصر ما هو مفهوم بين المشهدين على طريقة العرض القرآنية الفنية

:

﴿ قال ألم نُرَبِّكَ فِينا وليداً ، ولبثت فينا من عمرك سنين ؟ وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين ؟ قال : فعلتها إذن وأنا من الضالين . ففررت منكم لما خفتكم ، فوهب لي ربي حكماً وجعلني من المرسلين . وتلك نعمه تمنها علي أن عَبَّدتَّ بني إسرائيل ﴾ .

(148/568)

ويعجب فرعون وهو يرى موسى يواجه بهذه الدعوى الضخمة : ﴿ إنا رسول رب العالمين ﴾ . ويطلب إليه ذلك الطلب الضخم ! ﴿ أن أرسل معنا بني إسرائيل ﴾ . فإن آخر عهده بموسى أنه كان ربيباً في قصره منذ أن التقطوا تابوته . وأنه هرب بعد قتله للقبطي الذي وجده يتعارك مع الإسرائيلي . وقيل : إن هذا القبطي كان من حاشية فرعون . فما أبعد المسافة بين آخر عهد فرعون بموسى إذن وهذه الدعوى الضخمة التي يواجهه بها بعد عشر سنين ! ومن ثم بدأ فرعون متهكماً مستهزئاً مستعجباً :

﴿ قال : ألم نربك فينا وليداً ، ولبثت فينا من عمرك سنين ؟ وفعلت فعلتك التي فعلت ، وأنت من الكافرين ﴾ .

.

فهل هذا جزاء التربية والكرامة التي لقيتها عندنا وأنت وليد ؟ أن تأتي اليوم لتخالف ما نحن عليه من ديانة ؟ ولتخرج على الملك الذي نشأت فيه بيته ، وتدعو إلى إله غيره ؟ !

وما بالك وقد لبثت فينا من عمرك سنين لم تتحدث بشيء عن هذه الدعوى التي تدعيها اليوم ؛ ولم تخطرنا بمقدمات هذا الأمر العظيم ؟ !

ويذكره بحادث مقتل القبطي في تهويل وتجسيم : ﴿ وفعلت فعلتك التي فعلت ﴾ . .

فعلتك البشعة الشنيعة التي لا يليق الحديث عنها بالألفاظ المفتوحة ! فعلتها ﴿ وأنت من الكافرين ﴾ برب العالمين الذي تقول به اليوم ، فإنك لم تكن وقتها تتحدث عن رب العالمين !

وهكذا جمع فرعون كل ما حسبه رداً قاتلاً لا يملك موسى عليه السلام معه جواباً ، ولا يستطيع مقاومة . وبخاصة حكاية القتل ، وما يمكن أن يعقبها من قصاص ، يتهدده به من وراء الكلمات !

ولكن موسى وقد استجاب الله دعاءه فأزال حبسة لسانه انطلق يجيب :

﴿ قال : فعلتها إذن وأنا من الضالين . ففررت منكم لما خفتكم ، فوهب لي ربي حكماً وجعلني من المرسلين . وتلك نعمة تمنها عليّ أن عبدت بني إسرائيل ! ﴾ . .

(149/568)

فعلت تلك الفعلة وأنا بعد جاهل ، أندفع اندفاع العصبية لقومي ، لا اندفاع العقيدة التي عرفتها اليوم بما أعطاني ربي من الحكمة . ﴿ ففررت منكم لما خفتكم ﴾ على نفسي . فقسم الله لي الخير : ووهب لي الحكمة ﴿ وجعلني من المرسلين ﴾ فلست بدعاً من الأمر ، إنما أنا واحد من الرعيل ﴿ من المرسلين ﴾ .

ثم يجيبه تهكماً بتهكم . ولكن بالحق . ﴿ وتلك نعمة تمنها عليَّ أن عبدت بني إسرائيل ﴾ . . فما كانت تربيتي في بيتك وليداً إلا من جراء استعبادك لبني إسرائيل ، وقتلك أبناءهم ، مما اضطر أمي أن تلقيني في التابوت ، فتقذف بالتابوت في الماء ، فتلتقطونني ، فأربى في بيتك ، لا في بيت أبويّ . فهل هذا هو ما تمنه علي ، وهل هذا هو فضلك العظيم ؟ !

عندئذ عدل فرعون عن هذه المسألة ، وراح يسأله عن صميم دعواه . ولكن في تجاهل وهزء وسوء أدب في حق الله الكريم :

﴿ قال فرعون : وما رب العالمين ؟ ﴾ . .

إنه قبحه الله يسأل : أي شيء يكون رب العالمين الذي تقول : إنك من عنده رسول ؟ وهو سؤال المتنكر للقول من أساسه ، المتهكم على القول والقائل ، المستغرب للمسألة كلها حتى ليراها غير ممكنة التصور ، غير قابلة لأن تكون موضوع حديث !

فيجيبه موسى عليه السلام بالصفة المشتملة على ربوبيته تعالى للكون المنظور كله وما فيه

:

﴿ قال : رب السماوات والأرض وما بينهما . إن كنتم موقنين ﴾ . .

وهو جواب يكافئ ذلك التجاهل ويغطيه . . إنه رب هذا الكون الهائل الذي لا يبلغ إليه سلطانك يا فرعون ولا علمك . وقصارى ما ادعاه فرعون أنه إله هذا الشعب وهذا الجزء من وادي النيل .

(150/568)

وهو ملك صغير ضئيل ، كالذرة أو الهباءة في ملكوت السماوات والأرض وما بينهما .

وكذلك كان جواب موسى عليه السلام يحمل استصغار ما يدعيه فرعون مع بطلانه ، وتوجيه نظره إلى هذا الكون الهائل ، والتفكير فيمن يكون ربه . . فهو رب العالمين ! . . ثم عقب على هذا التوجيه بما حكايته : ﴿ إن كنتم موقنين ﴾ فهذا وحده هو الذي يحسن اليقين به والتصديق .

والتفت فرعون إلى من حوله ، يعجبهم من هذا القول ، أو لعله يصرفهم عن التأثر به ، على طريقة الجبارين الذين يخشون تسرب كلمات الحق البسيطة الصريحة إلى القلوب :

﴿ قال لمن حوله : ألا تستمعون ؟ ﴾ . .

ألا تستمعون إلى هذا القول العجيب الغريب ، الذي لا عهد لنا به ، ولا قاله أحد نعرفه !

ولم يلبث موسى أن هجم عليه وعليهم بصفة أخرى من صفات رب العالمين .

﴿ قال : ربكم ورب أبائكم الأولين ﴾ . .

وهذه أشد مساساً بفرعون ودعواه وأوضاعه ، فهو يجبهه بأن رب العالمين هو ربه ، فما هو إلا واحد من عبيده . لا إله كما يدعي بين قومه ! وهو رب قومه ، فليس فرعون ربهم كما يزعم عليهم ! وهو رب آبائهم الأولين . فالوراثة التي تقوم عليها ألوهية فرعون دعوى باطلة . فما كان من قبل إلا الله ربا للعالمين !

وإنها للقاصمة لفرعون . فما يطيق عليها سكوتا والملأ حوله يستمعون . ومن ثم يرمي قائلها في تهكم بالجنون :

﴿ قال : إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون ﴾ . .

إن رسولكم الذي أرسل إليكم . . يريد أن يتهكم على مسألة الرسالة في ذاتها ، فيبعد القلوب عن تصديقها بهذا التهكم ، لا أنه يريد الإقرار بها والاعتراف بإمكانها . ويتهم موسى عليه السلام بالجنون ، ليذهب أثر مقالته التي تطعن وضع فرعون السياسي والديني في الصميم . وترد الناس إلى الله ربهم ورب آبائهم الأولين .

ولكن هذا التهكم وهذا القذف لا يفت في عضد موسى ، فيمضي في طريقه يصدع بكلمة

الحق التي تزلزل الطغاة والمتجبرين :

﴿ قال : رب المشرق والمغرب وما بينهما . إن كنتم تعقلون ﴾ . .

(151/568)

والمشرق والمغرب مشهدان معروضان للأنظار كل يوم ؛ ولكن القلوب لا تنتبه إليهما لكثرة تكرارهما ، وشدة ألفتهما . واللفظ يدل على الشروق والغروب . كما يدل على مكاني الشروق والغروب . وهذان الحدثان العظيمان لا يجرؤ فرعون ولا غيره من المتجبرين أن يدعي تصريفهما . فمن يصرفهما إذن ومن ينشئهما بهذا الاطراد الذي لا يتخلف مرة ولا يبطئ عن أجله المرسوم ؟ إن هذا التوجيه يهز القلوب البليدة هزا ، ويوقظ العقول الغافية إيقاظاً . وموسى عليه السلام يثير مشاعرهم ، ويدعوهم إلى التدبر والتفكير : ﴿ إن كنتم تعقلون ﴾ . .

والطغيان لا يخشى شيئاً كما يخشى يقظة الشعوب ، وصحوة القلوب ؛ ولا يكره أحداً كما يكره الداعين إلى الوعي واليقظة ؛ ولا ينقم على أحد كما ينقم على من يهزون الضمائر الغافية .

ومن ثم ترى فرعون يهيج على موسى ويثور ، عندما يمس بقوله هذا أوتار القلوب . فينهي

الحوار معه بالتهديد الغليظ بالبطش الصريح ، الذي يعتمد عليه الطغاة عندما يسقط في أيديهم وتخذلهم البراهين :

﴿ قال : لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين ﴾ . .

هذه هي الحجة وهذا هو الدليل : التهديد بأن يسلكه في عداد المسجونين . فليس السجن عليه ببعيد . وما هو بالإجراء الجديد ! وهذا هو دليل العجز ، وعلامة الشعور بضعف الباطل أمام الحق الدافع . وتلك سمة الطغاة وطريقهم في القديم والجديد !

غير أن التهديد لم يفقد موسى رباطة جأشه . . وكيف وهو رسول الله ؟ والله معه ومع أخيه ؟ فإذا هو يفتح الصفحة التي أراد فرعون أن يغلقها ويستريح . يفتحها بقول جديد ، وبرهان جديد :

﴿ قال : أولو جئتك بشيء مبين ؟ ﴾ . .

وحتى لو جئتك ببرهان واضح على صدق رسالتي فإنك تجعلني من المسجونين ؟ وفي هذا إحراج لفرعون أمام الملأ الذين استمعوا لما سبق من قول موسى ؛ ولو رفض الإصغاء إلى برهانه المبين لدل على خوفه من حجته ، وهو يدعي أنه مجنون . ومن ثم وجد نفسه مضطراً أن يطلب منه الدليل :

﴿ قال : فأت به إن كنت من الصادقين ﴾ . .

إن كنت من الصادقين في دعواك ؛ أو إن كنت من الصادقين في أن لديك شيئاً مبيناً . فهو ما يزال يشكك في موسى ، خيفة أن تترك حجته في نفوس القوم شيئاً .

هنا كشف موسى عن معجزتيه الماديتين ؛ وقد أخرهما حتى بلغ التحدي من فرعون أقصاه :

﴿ فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين . ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين ﴾ . .

والتعبير يدل على أن العصا تحولت فعلاً إلى ثعبان تدب فيه الحياة ، وأن يده حين نزعها كانت بيضاء فعلا . يدل على هذا بقوله : ﴿ فإذا هي ﴾ فلم يكن الأمر تخييلا ، كما هو الحال في السحر الذي لا يغير طبائع الأشياء ، إنما يخيل للحواس بغير الحقيقة .

ومعجزة الحياة التي تدب من حيث لا يعلم البشر ، معجزة تقع في كل لحظة ، ولكن الناس لا يلقون لها بالا ، لطول الألفة والتكرار ، أو لأنهم لا يشهدون التحول على سبيل التحدي فاما في مثل هذا المشهد . وموسى عليه السلام يلقي في وجه فرعون بهاتين الخارقتين فالأمر يزلزل ويرهب .

وقد أحس فرعون بضخامة المعجزة وقوتها ؛ فأسرع يقاومها ويدفعها ؛ وهو يحس ضعف موقفه ، ويكاد يتملق القوم من حوله ؛ ويهيج مخاوفهم من موسى وقومه ، ليغطي على وقع

المعجزة المزلزلة :

﴿ قال للملأ حوله إن هذا لساحر عليم ، يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره ، فماذا تأمرون ؟ ﴾ . .

وفي قولة فرعون هذه يبدو إقراره بعظمة المعجزة وإن كان يسميها سحراً ؛ فهو يصف صاحبها بأنه ساحر ﴿ عليم ﴾ . ويبدو ذعره من تأثر القوم بها فهو يغريهم به : ﴿ يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره ﴾ .

ويبدو تضعضعه وتهاويه وتواضعه للقوم الذين يجعل نفسه لهم إلها ، فيطلب أمرهم ومشورتهم : ﴿ فماذا تأمرون ؟ ﴾ ومتى كان فرعون يطلب أمر أتباعه وهم له يسجدون !

(153/568)

وتلك شنشنة الطغاة حينما يحسون أن الأرض تتزلزل تحت أقدامهم . عندئذ يلينون في القول بعد التجبر . ويلجأون إلى الشعوب وقد كانوا يدوسونها بالأقدام . ويتظاهرون بالشورى في الأمر وهم كانوا يستبدون بالهوى . ذلك إلى أن يتجاوزوا منطقة الخطر ، ثم إذا هم هم جبابرة مستبدون ظالمون !

وأشار عليه الملأ ؛ وقد خدعتهم مكيدته ، وهم شركاء فرعون في باطله ، وأصحاب المصلحة في بقاء الأوضاع التي تجعلهم حاشية مقربة ذات نفوذ وسلطان ؛ وقد خافوا أن يغلبهم موسى وبنو إسرائيل على أرضهم لو اتبعتهم الجماهير ، حين ترى معجزتي موسى وتسمع إلى ما يقول . . أشاروا عليه أن يلقى سحره بسحر مثله ، بعد التهيئة والاستعداد : ﴿ قالوا : أرجه وأخاه : وابعث في المدائن حاشرين ، يأتوك بكل سحار عليم ﴾ . . أي أمهله وأخاه إلى أجل ؛ وابعث رسلك إلى مدائن مصر الكبرى ، يجمعون السحرة المهرة ، لإقامة مباراة للسحر بينهم وبينه .

وهنا يسدل الستار على هذا المشهد ليرفع على مشهد السحرة يحشدون ، والناس يجمعون للمباراة ، وتبث فيهم الحماسة للسحرة ومن خلفهم من أصحاب السلطان ؛ وتهيأ أرض المباراة بين الحق والباطل ، أو بين الإيمان والطغيان .

﴿ فجمع السحرة لميقات يوم معلوم . وقيل للناس : هل أنتم مجتمعون ، لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين ؟ ﴾ . .

وتظهر من التعبير حركة الإهاجة والتحميس للجماهير : ﴿ هل أنتم مجتمعون ، لعلنا نتبع السحرة ؟ ﴾ هل لكم في التجمع وعدم التخلف عن الموعد ، ليترقب فوز السحرة وغلبتهم على موسى الإسرائيلي ! والجماهير دائماً تتجمع لمثل هذه الأمور ، دون أن تفطن إلى أن حكامها الطغاة يلهون بها ويعبثون ، ويشغلونها بهذه المباريات والاحتفالات

والتجمعات ، ليلهوها عما تعاني من ظلم وكبت وبؤس . وهكذا تجمع المصريون ليشهدوا المباراة بين السحرة وموسى عليه السلام !

(154/568)

ثم يجيء مشهد السحرة بحضرة فرعون قبل المباراة ؛ يطمئنون على الأجر والمكافأة إن كانوا هم الغالبين ؛ ويتلقون من فرعون الوعد بالأجر الجزيل والقربى من عرشه الكريم !

﴿ فلما جاء السحرة قالوا لفرعون : أئن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين ؟ قال : نعم ، وإنكم إذن لمن المقربين ﴾ . .

وهكذا ينكشف الموقف عن جماعة مأجورة يستعين بها فرعون الطاغية ؛ تبذل مهارتها في مقابل الأجر الذي تنتظره ؛ ولا علاقة لها بعقيدة ولا صلة لها بقضية ، ولا شيء سوى الأجر والمصلحة . وهؤلاء هم الذين يستخدمهم الطغاة دائماً في كل مكان وفي كل زمان . وها هم أولاء يستوثقون من الجزاء على تعبهم ولعبهم وبراعتهم في الخداع . وها هو ذا فرعون يعدهم بما هو أكثر من الأجر . يعدهم أن يكونوا من المقربين إليه . وهو بزعمه الملك والإله !

ثم إذا مشهد المباراة الكبرى وأحداثه الجسام :

﴿ قال لهم موسى : ألقوا ما أنتم ملقون . فألقوا حبالهم وعصيهم ، وقالوا : بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون : فألقى موسى عصاه فإذا هي تلقف ما يأفكون ، فألقي السحرة ساجدين .

قالوا : آمنا برب العالمين . رب موسى وهارون . قال : آمنتم له قبل أن آذن لكم ! إنه لكبيركم الذي علمكم السحر فلسوف تعلمون . لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ، ولأصلبنكم أجمعين . قالوا : لا ضير إنا إلى ربنا منقلبون . إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا أول المؤمنين ﴾ . .

ويبدأ المشهد هادئاً عادياً . إلا أنه يشي منذ البدء باطمئنان موسى إلى الحق الذي معه ؛ وقلة أكتراثه لجموع السحرة المحشودين من المدائن ، المستعدين لعرض أقصى ما يملكون من براعة ، ووراءهم فرعون وملؤه ، وحولهم تلك الجماهير المضللة المخدوعة . . يتجلى هذا الاطمئنان في تركه إياهم يبدأون :

﴿ قال لهم موسى : ألقوا ما أنتم ملقون ﴾ . .

وفي التعبير ذاته ما يشي بالاستهانة : ﴿ ألقوا ما أنتم ملقون ﴾ . . بلا مبالاة ولا تحديد ولا اهتمام .

وحشد السحرة أقصى مهارتهم وأعظم كيدهم وبدأوا الجولة باسم فرعون وعزته :

﴿ فألقوا حبالهم وعصيهم ؛ وقالوا : بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون ﴾ . .

ولا يفصل السياق هنا ما كان من أمر حبالهم وعصيهم ، كما فصله في سورة الأعراف وطه ، ليبقى ظل الطمأنينة والثبات للحق ، وينتهي مسارعاً إلى عاقبة المباراة بين الحق والباطل ؛ لأن هذا هو هدف السورة الأصيل .

﴿ فألقى موسى عصاه ، فإذا هي تلقف ما يأفكون ﴾ . .

ووقعت المفاجأة المذهلة التي لم يكن يتوقعها كبار السحرة ؛ فلقد بذلوا غاية الجهد في فنهم الذي عاشوا به وأتقنوه ؛ وجاءوا بأقصى ما يملك السحرة أن يصنعوه . وهم جمع كثير . محشود من كل مكان . وموسى وحده ، وليس معه إلا عصاه . ثم إذا هي تلقف ما يأفكون ؛ واللقف أسرع حركة للأكل . وعهدهم بالسحر أن يكون تخييلاً ، ولكن هذه العصا تلقف حبالهم وعصيهم حقاً . فلا تبقي لها أثراً . ولو كان ما جاء به موسى سحراً ، لبقيت حبالهم وعصيهم بعد أن خيل لهم وللناس أن حية موسى ابتلعتها . ولكنهم ينظرون فلا يجدونها فعلاً !

عندئذ لا يملكون أنفسهم من الإذعان للحق الواضح الذي لا يقبل جدلاً . وهم أعرف الناس بأنه الحق :

﴿ فألقي السحرة ساجدين . قالوا : آمنا برب العالمين . رب موسى وهارون ﴾ . .

وهم قد كانوا منذ لحظة مأجورين ينتظرون الجزاء من فرعون على مهارتهم ، ولم يكونوا أصحاب عقيدة ولا قضية . ولكن الحق الذي مس قلوبهم قد حولهم تحويلاً . لقد كانت هزة رجتهم رجاً ، وخضتهم خضاً ؛ ووصلت إلى أعماق نفوسهم وقرارة قلوبهم ، فأزالت عنها ركام الضلال ، وجعلتها صافية حية خاشعة للحق ، عامرة بالإيمان ، في لحظات قصار . فإذا هم يجدون أنفسهم ملقين سجداً ، بغير إرادة منهم ، تتحرك ألسنتهم ، فتنطلق بكلمة الإيمان ، في نصاعة وبيان : ﴿ آمنا برب العالمين . رب موسى وهارون ﴾ .

وإن القلب البشري لعجيب غاية العجب ، فإن لمسة واحدة تصادف مكانها لتبدله تبديلاً .

(156/568)

" وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما من قلب إلا بين أصبعين من أصابع الرحمن . إن شاء أقامه وإن شاء أزاغه " وهكذا انقلب السحرة المأجورون ، مؤمنين من خيار المؤمنين . على مرأى ومسمع من الجماهير الحاشدة ومن فرعون وملئه . لا يفكرون فيما يعقب جهرهم بالإيمان في وجه الطاغية من عواقب ونتائج ، ولا يعنيهم ماذا يفعل أو ماذا

يقول .

ولا بد أن كان لهذا الانقلاب المفاجئ وقع الصاعقة على فرعون وملئه . فالجماهير حاشدة . وقد عبأهم عملاء فرعون وهم يحشدونهم لشهود المباراة . عبأوهم بأكذوبة أن موسى الإسرائيلي ، ساحر يريد أن يخرجهم من أرضهم بسحره ، ويريد أن يجعل الحكم لقومه ؛ وأن السحرة سيغلبونه ويفحمونه . . ثم ها هم أولاء يرون السحرة يلقون ما يلقون باسم فرعون وعزته . ثم يغلبون حتى ليقرون بالغلب ؛ ويعترفون بصدق موسى في رسالته من عند الله ، ويؤمنون برب العالمين الذي أرسله ، ويخلعون عنهم عبادة فرعون ، وهم كانوا منذ لحظة جنوده الذين جاءوا لخدمته ، وانتظروا أجره ، واستفتحوا بعزته !

وإنه لانقلاب يتهدد عرش فرعون ، إذ يتهدد الأسطورة الدينية التي يقوم عليها هذا العرش . أسطورة الألوهية ، أو بنوته للآلهة كما كان شائعاً في بعض العصور وهؤلاء هم السحرة . والسحر كان حرفة مقدسة لا يزاولها إلا كهنة المعابد في طول البلاد وعرضها . ها هم أولاء يؤمنون برب العالمين ، رب موسى وهارون ، والجماهير تسير وراء الكهنة في معتقداتهم التي يلهونهم بها . فماذا يبقى لعرش فرعون من سند إلا القوة ؟ والقوة وحدها بدون عقيدة لا تقيم عرشاً ولا تحمي حكماً .

إن لنا أن نقدر ذعر فرعون لهذه المفاجأة ، وذعر الملأ من حوله ، إذا نحن تصورنا هذه

الحقيقة ؛ وهي إيمان السحرة الكهنة هذا الإيمان الصريح الواضح القاهر الذي لا يملكون معه إلا أن يلقوا سجداً معترفين منيبين .

(157/568)

عندئذ جن جنون فرعون ، فلجأ إلى التهديد البغيض بالعذاب والنكال . بعد أن حاول أن يتهم السحرة بالتآمر عليه وعلى الشعب مع موسى !

﴿ قال : آمنتم له قبل أن آذن لكم ! إنه لكبيركم الذي علمكم السحر . فلسوف تعلمون . لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ، ولأصلبنكم أجمعين ﴾ . .

﴿ آمنتم له قبل أن آذن لكم ﴾ . . لم يقل آمنتم به . إنما عده استسلاماً له قبل إذنه . على طريقة المناورات التي يدبرها صاحبها وهو مالك لإرادته ، عارف بهدفه ، مقدر لعاقبته . ولم يشعر قلبه بتلك اللمسة التي مست قلوبهم . ومتى كان للطغاة قلوب تشعر بمثل هذه اللمسات الوضيئة ؟ ثم سارع في اتهامهم لتبرير ذلك الانقلاب الخطير : ﴿ إنه لكبيركم الذي علمكم السحر ﴾ وهي تهمة عجيبة لا تفسير لها إلا أن بعض هؤلاء السحرة وهم من الكهنة كانوا يتولون تربية موسى في قصر فرعون أيام أن تبناه ، أو كان يختلف إليهم في المعابد .

فارتكن فرعون إلى هذه الصلة البعيدة ، وقلب الأمر فبدلاً من أن يقول : إنه لتلميذكم قال : إنه لكبيركم . ليزيد الأمر ضخامة وتهويلاً في أعين الجماهير !

ثم جعل يهدد بالعذاب الغليظ بعد التهويل فيما ينتظر المؤمنين :

﴿ فلسوف تعلمون . لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم أجمعين ﴾ . .

إنها الحماقة التي يرتكبها كل طاغية ، حينما يحس بالخطر على عرشه أو شخصه ، يرتكبها في عنف وغلظة وبشاعة ، بلا تحرج من قلب أو ضمير . . وإنها لكلمة فرعون الطاغية المتجبر الذي يملك تنفيذ ما يقول . . فما تكون كلمة الفئة المؤمنة التي رأت النور ! إنها كلمة القلب الذي وجد الله فلم يعد يحفل ما يفقد بعد هذا الوجدان . القلب الذي اتصل بالله فذاق طعم العزة فلم يعد يحفل الطغيان . القلب الذي يرجو الآخرة فلا يهمه من أمر هذه الدنيا قليل ولا كثير :

﴿ قالوا : لا ضير . إنا إلى ربنا منقلبون . إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا أول المؤمنين ﴾ . .

لا ضير . لا ضير في تقطيع الأيدي والأرجل من خلاف . لا ضير في التصليب والعذاب . لا ضير في الموت والاستشهاد . . لا ضير إنا إلى ربنا منقلبون . . وليكن في هذه الأرض ما يكون : فالمطمع الذي نتعلق به ونرجوه ﴿ أن يغفر لنا ربنا خطايانا ﴾ جزاء ﴿ أن كنا أول المؤمنين ﴾ . . وأن كنا نحن السابقين . .

يا لله ! يا لروعة الإيمان إذ يشرق في الضمائر . وإذ يفيض على الأرواح . وإذ يسكب الطمأنينة في النفوس . وإذ يرتفع بسلالة الطين إلى أعلى عليين . وإذ يملأ القلوب بالغنى والذخر والوفر ، فإذا كل ما في الأرض تافه حقير زهيد .

هنا يسدل السياق الستار على هذه الروعة الغامرة . لا يزيد شيئاً . ليبقى للمشهد جلاله الباهر وإيقاعه العميق . وهو يربي به النفوس في مكة وهي تواجه الأذى والكرب والضيق ويربي به كل صاحب عقيدة يواجه بها الطغيان والعسف والتعذيب .

فأما بعد ذلك فالله يتولى عباده المؤمنين . وفرعون يتآمر ويجمع جنوده أجمعين :

﴿ وأوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي إنكم متبعون . . فأرسل فرعون في المدائن حاشرين . إن هؤلاء لشرذمة قليلون . وإنهم لنا لغائظون . وإنا لجميع حاذرون ﴾ . .

وهنا فجوة في الوقائع والزمن لا تذكر في هذا الموضع . فقد عاش موسى وبنو إسرائيل فترة بعد المباراة ، وقعت فيها الآيات الأخرى المذكورة في سورة الأعراف قبل أن يوحي الله لموسى بالرحيل بقومه . ولكن السياق هنا يطويها ليصل إلى النهاية المناسبة لموضوع السورة

واتجاهها الأصيل .

لقد أوحى الله إلى موسى إذن أن يسري بعباده ، وأن يرحل بهم ليلاً ، بعد تدبير وتنظيم .

ونبأه أن فرعون سيتبعهم بجنده ؛ وأمره أن يقود قومه إلى ساحل البحر (وهو في الغالب عند التقاء خليج السويس بمنطقة البحيرات) .

وعلم فرعون بخروج بني إسرائيل خلسة ، فأمر بما يسمى " التعبئة العامة " وأرسل في المدائن حاشرين يجمعون له الجنود ، ليدرك موسى وقومه ؛ ويفسد عليهم تدبيرهم ؛ وهو لا يعلم أنه تدبير صاحب التدبير !

(159/568)

وانطلق عملاء فرعون يجمعون الجند .

. ولكن هذا الجمع قد يشي بانزعاج فرعون ، وبقوة موسى ومن معه وعظم خطرهم ، حتى ليحتاج الملك الإله بزعمه ! إلى التعبئة العامة . ولا بد إذن من التهوين من شأن المؤمنين :

﴿ إِن هؤلاء لشرذمة قليلون ﴾ !

ففيم إذن ذلك الاهتمام بأمرهم ، والاحتشاد لهم ، وهم شرذمة قليلون !

﴿ وإنهم لنا لغائظون ﴾ . .

فهم يأتون من الأفعال والأقوال ما يغيظ ويغضب ويثير !

وإذن فلهم شأن وخطر على كل حال ! فليقل العملاء : إن هذا لا يهم فنحن لهم بالمرصاد :

﴿ وإنا لجميع حاذرون ﴾ . .

مستيقظون لمكائدهم ، محتاطون لأمرهم ، ممسكون بزمام الأمور !

إنها حيرة الباطل المتجبر دائماً في مواجهة أصحاب العقيدة المؤمنين !

وقبل أن يعرض المشهد الأخير ، يعجل السياق بالعاقبة الأخيرة من إخراج فرعون وملئه مما كانوا فيه من متاع . ووراثة بني إسرائيل المستضعفين .

﴿ فأخرجناهم من جنات وعيون . وكنوز ومقام كريم . كذلك ، وأورثناها بني إسرائيل ﴾ . .

لقد خرجوا يتبعون خطا موسى وقومه ويقفون أثرهم . فكانت خرجتهم هذه هي الأخيرة . وكانت إخراجاً لهم من كل ما هم فيه من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم ؛ فلم يعودوا بعدها لهذا النعيم ! لذلك يذكر هذا المصير الأخير عقب خروجهم يقفون أثر المؤمنين . تعجيلاً بالجزاء على الظلم والبطر والبغي الوخيم .

﴿ وأورثناها بني إسرائيل ﴾ . .

ولا يعرف أن بني إسرائيل عادوا إلى مصر بعد خروجهم إلى الأرض المقدسة ؛ وورثوا ملك

مصر وكنوز فرعون ومقامه . لذلك يقول المفسرون : إنهم ورثوا مثل ما كان لفرعون وملئه .

فهي وراثة لنوع ما كانوا فيه من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم .

وبعد هذا الاعتراض يجيء المشهد الحاسم الأخير :

(160/568)

﴿ فأتبعوهم مشرقين . فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى : إنا لمدركون . قال : كلا إن معي ربي سيهدين . فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق . فكان كل فرق كالطود العظيم . وأزلفنا ثم الآخرين . وأنجينا موسى ومن معه أجمعين . ثم أغرقنا الآخرين . ﴾ . .

لقد أسرى موسى بعباد الله ، بوحي من الله وتدبير . فأتبعهم جنود فرعون في الصباح بمكر من فرعون وبطر . ثم ها هو ذا المشهد يقترب من نهايته . والمعركة تصل إلى ذروتها . . إن موسى وقومه أمام البحر ليس معهم سفين ولا هم يملكون خوضه وما هم بمسلحين . وقد قاربهم فرعون بجنوده شاكي السلاح يطلبونهم ولا يرحمون !

وقالت دلائل الحال كلها : أن لا مفر والبحر أمامهم والعدو خلفهم :

﴿ قال أصحاب موسى : إنا لمدركون ﴾ . .

وبلغ الكرب مداه ، وإن هي إلا دقائق تمر ثم يهجم الموت ولا مناص ولا معين !

ولكن موسى الذي تلقى الوحي من ربه ، لا يشك لحظة وملء قلبه الثقة بربه ، واليقين بعونه ، والتأكد من النجاة ، وإن كان لا يدري كيف تكون .

(161/568)

فهي لابد كائنة والله هو الذي يوجهه ويرعاه .

«قالَ : كَلَّا إِنَّ مَعِي رَبِّي سَيَهْدِينِ» . .

كلا . في شدة وتوكيد . كلا لن نكون مدركين . كلا لن نكون هالكين . كلا لن نكون مفتونين . كلا لن نكون ضائعين «كلا إن معي ربي سيهدين» بهذا الجزم والتأكيد واليقين .

وفي اللحظة الأخيرة ينبثق الشعاع المنير في ليل اليأس والكرب ، وينفتح طريق النجاة من حيث لا يحتسبون :

«فَأَوْحَيْنا إِلى مُوسى أَنِ اضْرِبْ بِعَصاكَ الْبَحْرَ» . .

ولا يتمهل السياق ليقول إنه ضرب بعصاه البحر . فهذا مفهوم . إنما يعجل بالنتيجة :

«فَانْفَلَقَ . فَكانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ» . .

ووقعت المعجزة ، وتحقق الذي يقول عنه الناس : مستحيل . لأنهم يقيسون سنة الله على

المألوف المكرور .

واللّه الذي خلق السنن قادر على أن يجريها وفق مشيئته عند ما يريد .

وقعت المعجزة وانكشف بين فرقي الماء طريق . ووقف الماء على جانبي الطريق كالطود العظيم . واقتحم بنو إسرائيل . .

ووقف فرعون مع جنوده مبغوتا مشدوها بذلك المشهد الخارق ، وذلك الحادث العجيب .

ولا بد أن يكون قد وقف مبهوتا فأطال الوقوف – وهو يرى موسى وقومه يعبرون الخضم في طريق مكشوف – قبل أن يأمر جنوده بالاقتحام وراءهم في ذلك الطريق العجيب .

وتم تدبير اللّه . فخرج بنو إسرائيل من الشاطئ الآخر ، بينما كان فرعون وجنوده بين فرقي الماء أجمعين .

وقد قربهم اللّه لمصيرهم المحتوم :

«وَأَزْلَفْنا ثَمَّ الْآخَرِينَ . وَأَنْجَيْنا مُوسى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ» . .

«ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ» ! ! ! ومضت آية في الزمان ، تتحدث عنها القرون . فهل آمن بها الكثيرون ؟

«إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً . وَما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ» .

فالآيات الخارقة لا تستتبع الإيمان حتما . وإن خضع لها الناس قسرا . إنما الإيمان هدي في

القلوب .

«وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ» . .

التعقيب المعهود في السورة بعد عرض الآيات والتكذيب . . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 5 صـ 2586 . 2599 ﴾

(162/568)

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال العلامة نظام الدين النيسابورى :

التأويل : الطاء طوله في كمال عظمته ، والسين سلامته عن كل عيب ونقص ، والميم مجده الذي لا نهاية له . أو الطاء طهارة قلب نبيه عن تعلقات الكونين ، والسين سيادته على الأنبياء والمرسلين ، واليمم مشاهدته جمال رب العالمين . أو الطاء طيران الطائرين بالله ، والسين سير السائرين إلى الله ، والميم مشي الماشين لله الذين يمشون على الأرض هوناً . ﴿ إن نشأ ننزل ﴾ من سماء قلوبهم ﴿ آية ﴾ من واردات الحق ﴿ فظلت ﴾ أعناق نفوسهم ﴿ لها خاضعين ﴾ ﴿ فسيأتيهم ﴾ بعد مفارقة الأرواح الأجساد ﴿ أنباء ما كانوا به يستهزؤن ﴾ لظهور نتائج معاملاتهم الخبيثة على أرواحهم ﴿ أو لم يروا إلى ﴾

أرض قلوب العارفين ﴿ كما أنبتنا فيها ﴾ من اشجار أصناف الإيمان والتوكل واليقين والإخلاص وسائر الأخلاق الكريمة ﴿ وما كان أكثرهم مؤمنين ﴾ لأن جناب الحق لعزته يجل عن أن يكون شرعة لكل وارد ﴿ وإن ربك لهو العزيز ﴾ الذي لا يوجد بالسعي ﴿ الرحيم ﴾ حين أدرك أولياءه بجذبات العناية كما أدرك موسى حين ناداه من الشجرة ، وذلك لأنه جعله مظهر لطفه كما أنه جعل فرعون مظهر قهره فصار من العتوّ والاستكبار في غاية الكمال . ويعلم منه أن الإنسان له استعداد في مظهرية صفة القهر ليس لإبليس فلذلك عاند إبليس آدم وقال أنا خير منه وعاند فرعون الرب وقال أنا ربكم الأعلى . وأن له استعداداً في مظهرية صفة اللطف ليس للملك ولهذا صار الإنسان مسجوداً للملائكة .

﴿ أن أرسل معنا بني إسرائيل ﴾ فيه أن موسى القلب مرسل إلى فرعون النفس لئلا تستعيد الصفات الروحانية فإن لفرعن النفس في البداية استيلاء على موسى القلب والصفات الروحانية فاستعملهم في قضاء حوائجه وتحصيل مقاصده فعرفه فرعون النفس وقال ﴿ ألم نربك فينا وليداً ﴾ فإن موسى القلب كان في حجر فرعون النفس إلى أن بلغ أوان الحلم وهي خمس عشرة سنة ، فقتل قبطي الشهوة حين كفر بإله الهوى وكان قبل القتل ضالاً عن حضرة الربوبية ﴿ ففرت منكم ﴾ غلى

الله لما خفت أن تقطعوا عليّ الطريق إلى الله .

رب سموات القلوب وأرض البشرية وما بينهما من المنازل ﴿ قال لمن حوله ﴾ من صفات النفس ﴿ الا تستمعون ﴾ ﴿ قال موسى ﴾ القلب لتعارفه بربه ﴿ ربكم ورب آبائكم الأوّلين ﴾ يعني الآباء العلوية الرحانية . وفي قوله ﴿ إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون ﴾ إشارة إلى كمال ضدية القلب والنفس فما يصدر عن القلب تعده النفس من الجنون وبالعكس . ﴿ رب ﴾ مشرق الروح من أفق البدن ﴿ ورب ﴾ مغربه فيه ﴿ وما بينهما ﴾ من مدة التعلق وقد مر نظيره في محاجة إبراهيم في " البقرة " ﴿ لأجعلنك من السمجونين ﴾ في سجن حب الدنيا فإن القلب إذا توجه إلى الله فلا استيلاء للنفس عليه إلا بشبكة حب النجاة والرياسة فإنها آخر ما يخرج من رؤوس الصديقين . فقال موسى القلب : لا تقدر على أن تسجنني فإن معي عصا الذكر واليد المنزعة عما سوى الله .

وباقي التأويل قد سبق قوله : ﴿ فأخرجناهم ﴾ أي ﴿ من جنات ﴾ صفات الأوصاف الروحانية ﴿ وعيون ﴾ الحكمة ﴿ وكنوز ﴾ المعارف ﴿ ومقام كريم ﴾ في حضرة أكرم الأكرمين ﴿ وأورثاها بني إسرائيل ﴾ فيه أن النفس إذا فنيت ورث القلب منها صفاتها وبقوتها تصير إلى مقامات لم يمكنه الوصول إليها بقوة صفاته ، ولو مات القلب ورثت النفس منه صفاته وبقوتها تتنزل إلى دركات لم يمكنها الوصول إليها بمجرد صفاتها

﴿ فأتبعوهم ﴾ أي لحق أوصاف النفس أوصاف القلب عند إشراق شمس الروح ﴿ فكان كل فرق ﴾ فيه أن كل صفة من أوصاف الروح كجبل عظيم في العبور عنه . ﴿ وأزلفنا ثم الآخرين ﴾ أي قربنا صفات النفس بتبعية صفات القلب إلى بحر الروح . ﴿ وأنجينا موسى ومن معه ﴾ من الأوصاف في بحر الروح بالوصول إلى الحضرة ﴿ ثم أغرقنا ﴾ أوصاف النفس في بحر الروحانية فإن الوصول إلى الحضرة من خواص القلب وغاية سير النفس هو الاستغراق في بحر الروحانية ﴿ إن في ذلك لآية ﴾ لأرباب العرفان ﴿ وما كان أكثرهم مؤمنين ﴾ بهذه المنازل فإنه لا يصير إليها إلا الشاذ من المجذوبين بجذبة ﴿ ارجعي إلى ربك ﴾

[الفجر : 28] جعلنا الله من المستعدين لها . والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 5 صـ 270 . 271 ﴾

(164/568)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِي - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء التاسع والستون بعد الخمسمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء التاسع والستون بعد الخمسمائة

من الآية ﴿ 69 ﴾ من سورة الشعراء

وحتى الآية ﴿ 89 ﴾ من نفس السورة

قوله تعالى ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (69) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (70) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (71) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (72) أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (73) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (74) قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (75) أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ (76) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما أتم سبحانه ما أراد من قصة موسى عليه السلام ، أتبعه دلالة على رحيميته قصة إبراهيم عليه السلام لما تقدم أنه شاركه فيه مما يسلي عما وقع ذكره عنهم من التعنتات في الفرقان ، ولما اختص به من مقارعة أبيه وقومه في الأوثان ، وهو أعظم آباء العرب ، ليكون ذلك حاملاً لهم على تقليده في التوحيد إن كانوا لا ينفكون عن التقليد ، وزاجراً عن استعظام تسفيه آبائهم في عبادتها ، وتعبيره سبحانه للسياق قبل وبعد ، وتعبيره بقوله : ﴿ واتل ﴾ أي اقرأ قراءة متتابعة – مرجح للتقدير الأول في ﴿ وإذ ﴾ من جعله " اذكر " وتغييره في التعبير بها لسياق ما تقدم وما تأخر لتنبيه العرب على اتباعه لما لهم به من الخصوصية ﴿ عليهم ﴾ أي على هؤلاء المغترين بالأوثان ، المنكرين لرسالة البشر ﴿ نبأ إبراهيم ﴾ أي خبره العظيم في مثل ذلك ﴿ إذ ﴾ أي حين ﴿ قال لأبيه وقومه ﴾ منبهاً لهم

على ضلالهم ، لا مستعلماً لأنه كان عالماً بحقيقة حالهم : ﴿ ما ﴾ أي أي شيء ، وصور لهم حالهم تنبيهاً لهم على قباحتها فعبر بالمضارع فقال : ﴿ تعبدون ﴾ أي تواظبون على عبادته ﴿ قالوا ﴾ مبتهجين بسؤاله ، مظهرين الافتخار في جوابهم بإطالة الكلام : ﴿ نعبد أصناماً فنظل ﴾ أي فيتسبب عن عبادتنا لها أنا نوفي حق العبادة بأن ندوم ﴿ لها عاكفين ﴾ أي مطيفين بها على سبيل الموظبة متراكمين بعضنا خلف بعض حابسين أنفسنا تعظيماً لها ، فجروا على منوال هؤلاء في داء التقليد الناشىء عن الجهل بنفس العبادة وبظنهم مع ذلك أنهم على طائل كبير ، وأمر عظيم ، ظفروا به ، مع غفلة الخلق عنه - كما دل عليه خطابهم في هذا الكلام الذي كان يغني عنه كلمة واحدة ، وهذا هو الذي أوجب تفسير الظلول بمطلق الدوام وإن كان معناه الدوام بقيد النهار ، وكأنهم قصدوا بما يدل على النهار - الذي هو موضع الاشتغال والسهرة - الدلالة على الليل من باب الأولى ، مع شيوع استعماله أيضاً مطلقاً نحو ﴿ فظلت أعناقهم لها خاضعين ﴾ ، وزاد قوم إبراهيم عليه

(5/569)

السلام أن استمروا على ضلالهم وأبوه معهم فكانوا حطب النار ، ولم يتكمن من إنقاذهم من ذلك ، ولم تكن لهم حيلة إلا دعاؤهم ، فهو أجدر بشديد الحزن وببخع نفسه عليهم وهو موضع التسلية .

ولما فهم عنهم هذه الرغبة ، أخذ يزهدهم فيها بطريق الاستفهام الذي لا أنصف منه عن أوصاف يلجئهم السؤال إلى الاعتراف بسلبها عنهم ، مع كل عاقل إذا تعقل أن لا تصح رتبة الإلهية مع فقد واحدة منها ، فكيف مع فقدها كلها ؟ فقال تعالى مخبراً عنه : ﴿ قال ﴾ معبراً عنها إنصافاً بما يعبر به عن العقلاء لتنزيلهم إياها منزلتهم : ﴿ هل يسمعونكم ﴾ أي دعاءكم مجرد سماع ؛ ثم صور لهم حالهم ليمنعوا الفكر فيه ، فقال معبراً بظرف ماض وفعل مضارع تنبيهاً على استحضار جميع الزمان ليكون ذلك أبلغ في التبكيت : ﴿ إذ تدعون ﴾ أي استحضروا أحوالكم معهم من أول عبادتكم لهم وإلى الآن : هل سمعوكم وقتاً ما ؟ ليكون ذلك مرجياً لكم لحصول نفع منهم في وقت ما .

ولما كان الإنسان قد يعكف على الشيء – وهو غير سامع – لكن لنفعه له في نفسه أو ضره لعدوه كالنار مثلاً ، وكان محط حال العابد والداعي بالقصد الأول بالذات جلب النفع ، قال : ﴿ أو ينفعونكم ﴾ أي على العبادة كما ينفع أقل شيء تقتنونه ﴿ أو يضرون ﴾ على الترك : ﴿ قالوا ﴾ : لا والله ! ليس عندهم شيء من ذلك ﴿ بل وجدنا آباءنا كذلك ﴾ أي مثل فعلنا هذا العالي الشأن ، ثم صوروا حالة آبائهم في نفوسهم تعظيماً

لأمرهم فقالوا : ﴿ يفعلون ﴾ أي فنحن نفعل كما فعلوا لأنهم حقيقون منا بأن لا نخالفهم ، مع سبقهم لنا إلى الوجود ، فهم أرصن منا عقولاً ، وأعظم تجربة ، فلولا أنهم رأوا ذلك حسناً ، ما واظبوا عليه ، هذا مع أنهم لو سلكوا طريقاً حسية حصل لهم منها ضرر حسي ما سلكوها قط ، ولكن هذا الدين يهون على الناس فيه التقليد بالباطل قديماً وحديثاً .

(6/569)

ولما وصلوا إلى التقليد المخض الخالي عن أدنى نظر كما تفعل البهائم والطير في تبعها لأولها ﴿ قال ﴾ معرضاً عن جواب كلامهم بنقص ، إشارة إلى أنه ساقط لا يرتضيه من شم رائحة الرجولية : ﴿ أفرأيتم ﴾ أي فتسبب عن قولكم هذا أني أقول لكم : أرأيتم ، اي إن لم تكونوا رأيتموهم رؤية موجبة لتحقق أمرهم فانظروهم نظراً شافياً ﴿ ما كنتم ﴾ أي كوناً هو كالجبلة لكم ﴿ تعبدون ﴾ مواظبين على عبادتهم ﴿ أنتم ﴾ .

ولما أجابوه بالتقليد ، قال لهم ما معناه ، رقوا تقليدكم هذا إلى أقصى غاياته ، فإن التقدم والأولوية لا تكون برهاناً على الصحة ، والباطل لا ينقلب حقاً بالقدم ، وذلك مراده من قوله : ﴿ وآباؤكم الأقدمون ﴾ أي الذين هم أقدم ما يكونون : هل لهم وصف غير ما أقررتم به

من عدم السماع والنفع والضر ؟ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 366 .
368 ﴾

(7/569)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ لي إلا ﴾ ﴿ واغفر لأبي إنه ﴾ بفتح الياء فيهما : أبو جعفر ونافع ﴿ وأجري إلا ﴾ بفتح الياء : أبو جعفر ونافع وابن عامر وأبو عمرو وحفص : ﴿ وأتباعك ﴾ على أنه جمع تابع أو تبع : يعقوب ﴿ أنا إلا ﴾ بالمد : أبو نشيط عن قالون ﴿ معي من المؤمنين ﴾ بفتح ياء المتكلم : حفص وورش .

الوقوف : ﴿ إبراهيم ﴾ م لئلا يوهم أن " إذ " طرف ﴿ اتل ﴾ وإنما هو منصوب باذكر ﴿ ما تعبدون ﴾ 5 ﴿ عاكفين ﴾ 5 ﴿ تدعون ﴾ 5 ﴿ يضرون ﴾ 5 ﴿ يفعلون ﴾ 5 ﴿ تعبدون ﴾ 5 لا لأن الضمير بعده توكيد ﴿ الأقدمون ﴾ 5 والوصل أولى للفاء ﴿ العالمين ﴾ 5 لا لأن ﴿ الذي ﴾ صفة الرب ﴿ يهدين ﴾ 5 لا ﴿ يشفين ﴾ 5 ﴿ ويسقين ﴾ 5 ﴿ يحيين ﴾ 5 لا ﴿ الدين ﴾ 5 ﴿ بالصالحين ﴾ 5 لا ﴿

الآخرين ﴾ 5 لا ﴿ النعيم ﴾ 5 لا ﴿ الضالين ﴾ 5 لا ﴿ يبعثون ﴾ 5 ﴿ ولا بنون ﴾ 5 لا ﴿ سليم ﴾ 5 ط بناء على أن ما بعده إلى آخر أحوال الجنة والنار هو من كلام الله تعالى وهو الظاهر . وقيل : هو من تتمة كلام إبراهيم ﴿ العالمين ﴾ 5 ﴿ المجرمون ﴾ 5 ﴿ شافعين ﴾ 5 ﴿ حميم ﴾ 5 ط ﴿ المؤمنين ﴾ 5 ﴿ الاية ﴾ ط ﴿ مؤمنين ﴾ 5 ﴿ الرحيم ﴾ 5 ﴿ المرسلين ﴾ ج لأن " إذ " تصلح ظرفاً للتكذيب مفعولاً لا ذكر ﴿ تتقون ﴾ ج 5 لأن ما بعده من تمام المقول ﴿ أمين ﴾ 5 لا للفاء ﴿ وأطيعون ﴾ ج 5 ﴿ من أجر ﴾ ج ﴿ العالمين ﴾ ج 5 ﴿ وأطيعون ﴾ 5 لا ﴿ الأرذلون ﴾ 5 ط ﴿ يعملون ﴾ ج 5 لأن ما بعده من تمام المقول ﴿ تشعرون ﴾ 5 لذلك ﴿ المؤمنين ﴾ ج 5 ﴿ مبين ﴾ 5 ﴿ المرجومين ﴾ 5 ط ﴿ كذبون ﴾ 5 ج ﴿ المؤمنين ﴾ 5 ﴿ المشحون ﴾ ج 5 ﴿ الباقين ﴾ 5 ﴿ الآية ﴾ ط ﴿ مؤمنين ﴾ 5 ط ﴿ الرحيم ﴾ 5 . انتهى انتهى . اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 5 صـ 272 . 273 ﴾

(8/569)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (69) ﴾

القصة الثانية قصة إبراهيم عليه السلام

اعلم أنه تعالى ذكر في أول السورة شدة حزن محمد صلى الله عليه وسلم بسبب كفر قومه ثم إنه ذكر قصة موسى عليه السلام ليعرف محمد أن مثل تلك المحنة كانت حاصلة لموسى : ثم ذكر عقبها قصة إبراهيم عليه السلام ليعرف محمد أيضاً أن حزن إبراهيم عليه السلام بهذا السبب كان أشد من حزنه ، لأن من عظيم المحنة على إبراهيم عليه السلام أن يرى أباه وقومه في النار وهو لا يتمكن من إنقاذهم إلا بقدر الدعاء والتنبيه فقال لهم : ﴿ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ وكان إبراهيم عليه السلام يعلم أنهم عبدة أصنام ولكنه سألهم ليريهم أن ما يعبدونه ليس من استحقاق العبادة في شيء كما تقول لتاجر الرقيق ما مالك ؟ وأنت تعلم أن ماله الرقيق ، ثم تقول : الرقيق جمال وليس بمال .

(9/569)

فأجابوا إبراهيم عليه السلام بقولهم : ﴿ نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ﴾ والعكوف : الإقامة على الشيء ، وإنما قالوا : ﴿ نظل ﴾ لأنهم كانوا يعبدونها بالنهار دون الليل ، واعلم أنه كان يكفيهم في الجواب أن يقولوا نعبد أصناماً ، ولكنهم ضموا إليه زيادة على

الجواب وهي قولهم : ﴿ فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ﴾ وإنما ذكروا هذه الزيادة إظهاراً لما في نفوسهم من الابتهاج والافتخار بعبادة الأصنام فقال إبراهيم عليه السلام منبهاً على فساد مذهبهم ﴿ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴾ قال صاحب "الكشاف" : لا بد في يسمعونكم من تقدير حذف المضاف معناه هل يسمعون دعاءكم وقرأ قتادة ﴿ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ ﴾ أي هل يسمعونكم الجواب عن دعائكم وهل يقدرون على ذلك وتقرير هذه الحجة التي ذكرها إبراهيم عليه السلام أن الغالب من حال من يعبد غيره أن يلتجىء إليه في المسألة ليعرف مراده إذا سمع دعاءه ثم يستجيب له في بذل منفعة أو دفع مضرة ، فقال لهم فإذا كان من تعبدونه لا يسمع دعاءكم حتى يعرف مقصودكم ، ولو عرف ذلك لما صح أن يبذل النفع أو يدفع الضرر فكيف تستجيزون أن تعبدوا ما هذا وصفه ؟ فعند هذه الحجة القاهرة لم يجد أبوه وقومه ما يدفعون به هذه الحجة فعدلوا إلى أن قالوا : ﴿ وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ وهذا من أقوى الدلائل على فساد التقليد ووجوب التمسك بالاستدلال ، إذ لو قلبنا الأمر فمدحنا التقليد وذممنا الاستدلال لكان ذلك مدحاً لطريقة الكفار التي ذمها الله تعالى وذماً لطريقة إبراهيم عليه السلام التي مدحها الله تعالى فأجابهم إبراهيم عليه السلام بقوله : ﴿ أَفَرَءَيْتُمْ مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنتُمْ وَءَابَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ ﴾ أراد به أن الباطل لا يتغير بأن يكون قديماً أو حديثاً ، ولا بأن يكون في فاعلية كثرة أو قلة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 24 صـ 122 . 123 ﴾

وقال ابن عطية :

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (69) ﴾

هذه القصة تضمنت الإعلام بغيب والإيمان بما قطع أن محمداً عليه السلام لم يكن يعرفه ثم ظهر على لسانه في ذلك ما في الكتب المتقدمة ، وليست هذه الآية مثالاً لقريش إلا في أمر الأصنام فقط لأنه ليس فيها تكذيب وعذاب ، وقول إبراهيم عليه السلام ﴿ ما تعبدون ﴾ استفهام بمعنى التقرير ، والصنم ما كان من الأوثان على صورة ابن آدم من حجر أو عود أو غير ذلك ، و" نظل " عرفها في فعل للشيء نهاراً وبات عرفها في فعله ليلاً ، وطفق عامة للوجهين ، ولكن قد تجيء ظل بمعنى العموم وهذا الموضع من ذلك ، و" العكوف " اللزوم ، ومنه المعتكف ، ومنه قول الراجز : " عكف النبيط يلعبون الفنزجا " . ثم أخذ إبراهيم عليه السلام يوقفهم على أشياء يشهد العقل أنها بعيدة من صفات الله ، وقرأ الجمهور بفتح الياء من " يسمعونكم " ، وقرأ قتادة بضمها من أسمع وبكسر الميم والمفعول على هذه القراءة محذوف ، وقرأ جماعة من القراء ﴿ إذ تدعون ﴾ بإظهار الذال والتاء ، وقرأ الجمهور ﴿ إذ تدعون ﴾ بإدغام الذال في التاء بعد القلب ويجوز فيه قياس مذكر ، ولم يقرأ

به وطرد القياس أن يكون اللفظ به " إذ ددعون " والذي منع من هذا اللفظ اتصال الدال الأصلية بالفعل فكثرت المماثلات ، وقولهم بل ﴿ وجدنا آباءنا كذلك يفعلون ﴾ ، أقبح وجوه التقليد لأنه على ضلالة وفي أمر بين خلافه وعظيم قدره . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(11/569)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ واتل عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ﴾

نبّه المشركين على فرط جهلهم إذ رغبوا عن اعتقاد إبراهيم ودينه وهو أبوهم .

والنبأ الخبر ؛ أي اقصص عليهم يا محمد خبره وحديثه وعيبه على قومه ما يعبدون .

وإنما قال ذلك ملزماً لهم الحجة .

والجمهور من القراء على تخفيف الهمزة الثانية وهو أحسن الوجوه ؛ لأنهم قد أجمعوا على تخفيف الثانية من كلمة واحدة نحو آدم .

وإن شئت حقّقتهما فقلت : ﴿ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ﴾ .

وإن شئت خففتهما فقلت : ﴿ نبا إبراهيم ﴾ .

وإن شئت خففت الأولى .

وثَمَّ وجهٌ خامس إلا أنه بعيد في العربية وهو أن يدغم الهمزة في الهمزة كما يقال رأَّاس للذي يبيع الرؤوس .

وإنما بعد لأنك تجمع بين همزتين كأنهما في كلمة واحدة ، وحسُن في فعَّال لأنه لا يأتي إلا مدغماً .

﴿ إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ أي أيّ شيء تعبدون ﴿ قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَاماً ﴾ وكانت أصنامهم من ذهب وفضة ونحاس وحديد وخشب .

﴿ فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ﴾ أي فنقيم على عبادتها .

وليس المراد وقتاً معيناً بل هو إخبار عما هم فيه .

وقيل : كانوا يعبدونها بالنهار دون الليل ، وكانوا في الليل يعبدون الكواكب .

فيقال : ظل يفعل كذا إذا فعله نهاراً وبات يفعل كذا إذا فعله ليلاً .

﴿ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ ﴾ قال الأخفش : فيه حذف ؛ والمعنى : هل يسمعون منكم ؟ أو هل يسمعون دعاءكم ؛ قال الشاعر :

القائد الخَيلَ مَنْكُوباً دَوابِرُهَا . . .

قد أُحْكِمَتْ حَكَماتِ القِدّ والأَبَقَا

قال : والأَبق الكتّان فحذف .

والمعنى ؛ وأحكمت حكماتِ الأَبق .

وفي الصحاح : والأَبق بالتحريك القِنَّب .

(12/569)

وروي عن قتادة أنه قرأ ﴿ هَلْ يُسْمِعُونَكُمْ ﴾ بضم الياء ؛ أي هل يسمعونكم أصواتهم ﴿ إِذْ تَدْعُونَ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴾ أي هل تنفعكم هذه الأصنام وترزقكم ، أو تملك لكم خيراً أو ضرّاً إن عصيتم ؟! وهذا استفهام لتقرير الحجة ؛ فإذا لم ينفعوكم ولم يضروا فما معنى عبادتكم لها .

﴿ قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَا آبَآءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ فنزعوا إلى التقليد من غير حجة ولا دليل .

وقد مضى القول فيه .

﴿ قَالَ ﴾ إبراهيم ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴾ من هذه الأصنام ﴿ أَنتُمْ وَآبَآؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ ﴾ الأوّلون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 13 صـ ﴾

(13/569)

وقال أبو حيان :

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (69) ﴾

لما كانت العرب لها خصوصية بإبراهيم عليه السلام ، أمر الله نبيه (صلى الله عليه وسلم) أن يتلو عليهم قصصه ، وما جرى له مع قومه .

ولم يأت في قصة من قصص هذه السورة أمره عليه السلام بتلاوة قصة إلا في هذه ، وإذ : العامل فيه .

قال الحوفي : أتل ، ولا يتصور ما قال إلا بإخراجه عن الظرفية وجعله بدلاً من نبأ ، واعتقاد أن العامل في البدل والمبدل منه واحد .

وقال أبو البقاء : العامل في إذ نبأ .

والظاهر أن الضمير في ﴿ وقومه ﴾ عائد على إبراهيم .

وقيل : على أبيه ، أي وقوم أبيه ، كما قال : ﴿ إني أراك وقومك في ضلال مبين ﴾ وما : استفهام بمعنى التحقير والتقرير .

وقد كان إبراهيم عليه السلام يعلم أنهم عبدة أصنام ، ولكن سألهم ليريهم أن ما كانوا يعبدونه ليس مستحقاً للعبادة ، لما ترتب على جوابهم من أوصاف معبوداتهم التي هي منافية للعبادة .

ولما سألهم عن الذي يعبدونه ، ولم يقتصروا على ذكره فقط ، بل أجابوا بالفعل ومتعلقه وما

عطف عليه من تمام صفتهم مع معبودهم ، فقالوا : ﴿ نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين ﴾ : على سبيل الابتهاج والافتخار ، فأتوا بقصتهم معهم كاملة ، ولم يقتصروا على أن يجيبوا بقولهم : أصناماً ، كما جاء : ﴿ ماذا أنزل ربكم قالوا خيراً ﴾ ﴿ ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو ﴾ ولذلك عطفوا على ذلك الفعل قولهم : ﴿ فنظل ﴾ .

قال : كما تقول لرئيس : ما تلبس ؟ فقال : ألبس مطرف الخز فأجر ذيوله ، يريد الجواب : وحاله مع ملبوسه .

وقالوا : فنظل ، لأنهم كانو يعبدونهم بالنهار دون الليل .

ولما أجابوا إبراهيم ، أخذ يوقفهم على قلة عقولهم ، باستفهامه عن أوصاف مسلوبة عنهم لا يكون ثبوتها إلا لله تعالى .

(14/569)

وقرأ الجمهور : ﴿ يسمعونكم ﴾ ، من سمع ؛ وسمع إن دخلت على مسموع تعدّت إلى واحد ، نحو : سمعت كلام زيد ، وإن دخلت على غير مسموع ، فمذهب الفارسي أنها تتعدى إلى اثنين ، وشرط الثاني منهما أن يكون مما يسمع ، نحو : سمعت زيداً يقرأ .

والصحيح أنها تتعدى إلى واحد ، وذلك الفعل في موضع الحال ، والترجيح بين المذهبين

مذكور في النحو .

وهنا لم تدخل إلا على واحد ، ولكنه بمسموع ، فتأولوه على حذف مضاف تقديره : هل يسمعونكم ، تدعون ؟ وقيل : ﴿ هل يسمعونكم ﴾ بمعنى : يجيبونكم .

وقرأ قتادة ، ويحيى بن يعمر : بضم الياء وكسر الميم من أسمع ، والمفعول الثاني محذوف تقديره : الجواب ، أو الكلام .

وإذ : ظرف لما مضى ، فإما أن يتجاوز فيه فيكون بمعنى إذا ، وإما أن يتجاوز في المضارع فيكون قد وقع موقع الماضي ، فيكون التقدير : هل سمعوكم إذ دعوتم ؟ وقد ذكر أصحابنا أن من قرائن صرف المضارع إلى الماضي إضافة إذ إلى جملة مصدرة بالمضارع ، ومثلوا بقوله : ﴿ وإذ تقول للذي أنعم الله عليه ﴾ أي وإذ قلت .

وقال الزمخشري : وجاء مضارعاً مع إيقاعه في إذ على حكاية الحال الماضية التي كنتم تدعونها فيها ، وقولوا : هل سمعوا ، أو اسمعوا قط ؟ وهذا أبلغ في التبكيت .

انتهى .

وقرىء : بإظهار ذال إذ وبإدغامها في تاء تدعون .

قال ابن عطية : ويجوز فيه قياس مذكر ، ولم يقرأ به أحد ؛ والقياس أن يكون اللفظ به ، إذ ددعون .

فالذي منع من هذا اللفظ اتصال الدال الأصلية في الفعل ، فكثرة المتماثلات . انتهى .

وهذا الذي ذكر أنه يجوز فيه قياس مذكر لا يجوز ، لأن ذلك الإبدال ، وهو إبدال التاء دالاً ، لا يكون إلا في افتعل ، مما فاؤه ذال أو زاي أو دال ، نحو : إذدكر ، وازدجر ، وادهن ، أصله : اذتكر ، وازتجر ، وادتهن ؛ أو جيم شذوذ ، قالوا : اجد مع في اجتمع ، ومن تاء الضمير بعد الزاي والدال ، ومثلوا بتاء الضمير للمتكلم فقالوا في فزت : فزد ، وفي جلدت : جلدّ ، ومن تاء تولج شذوذاً قالوا : دولج ، وتاء المضارعة ليست شيئاً مما ذكرنا ، فلا تبدل تاءه .

وقول ابن عطية : والذي منع من هذا اللفظ إلى آخره ، يدل على أنه لولا ذلك لجاز إبدال تاء ، المضارعة دالاً وإدغام الذال فيها ، فكنت تقول : إذ تخرج : ادّخرج ، وذلك لا يقوله أحد ، بل إذا أدغم مثل هذا أبدل من الذال تاء وأدغم في التاء ، فتقول : اتخرج .

﴿ أو ينفعونكم بتقربكم إليهم ودعائكم إياهم .

أو يضرون ﴾ بترك عبادتكم إياهم ، فإذا لم ينفعوا ولم يضروا ، فما معنى عبادتكم لها ؟

﴿ قالوا بل وجدنا ﴾ هذه حيدة عن جواب الاستفهام ، لأنهم لو قالوا : يسمعوننا وينفعوننا ويضروننا ، فضحوا أنفسهم بالكذب الذي لا يمتري فيه ، ولو قالوا : يسمعوننا ولا يضروننا ، أسجلوا على أنفسهم بالخطأ المحض ، فعدلوا إلى التقليد البحث لآبائهم في

عبادتها من غير برهان ولا حجة .

والكاف في موضع نصب بيفعلون ، أي يفعلون في عبادتهم تلك الأصنام مثل ذلك الفعل الذي يفعله ، وهو عبادتهم ؛ والحيدة عن الجواب من علامات انقطاع الحجة .

وبل هنا إضراب عن جوابه لما سأل وأخذ في شيء آخر لم يسألهم عنه انقطاعاً وإقراراً بالعجز .

﴿ وآباؤكم الأقدمون ﴾ : وصفهم بالأقدمين دلالة على ما تقادم عبادة الأصنام فيهم ، وإذ كانوا قد عبدوها في زمان نوح عليه السلام ، فزمان من بعده ؟ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾

(16/569)

وقال أبو السعود :

﴿ واتل عَلَيْهِمْ ﴾

عطف على المضمرِ المقدَّر عاملاً لإذ نادى الخ أي واتل على المشركينَ ﴿ نَبَأَ إبراهيم ﴾ أي خبَره العظيمَ الشّأنِ حسبما أُوحيَ إليك لتقف على ما ذُكر من عدمِ إيمانِهم بما يأتيهم من الآيات بأحد الطَّريقين ﴿ إِذْ قَالَ ﴾ منصوب إما على الظَّرفيةِ للنبأ أي نبأه وقت قوله ﴾

لأبيهِ وَقَوْمِهِ ﴾ أي على المفعولية لاتلُ على أنَّه بدلٌ من نبأ أي واتلُ عليهم وقت قوله لهم ﴿ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ على أنَّ المتلو ما قاله لهم في ذلك الوقتِ سألهم عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ عن ذلك ليبني على جوابهم أنَّ ما يعبدونَهُ بمعزولٍ من استحقاقِ العبادةِ بالكُلِّية .

﴿ قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ﴾ لم يقتصرُوا على الجواب الكافي بأنْ يقولُوا أصناماً كما في قوله تعالى : ﴿ يَسْئَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ العفو ﴾ وقوله تعالى : ﴿ مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ خَيْرًا ﴾ ونظائرهما ، بل أطنبُوا فيه بإظهار الفعلِ . وعطفُ دوامِ عكوفهم على أصنامِهم قصداً إلى إبرازِ ما في نفوسِهم الخبيثةِ من الابتهاجِ والافتخارِ بذلك ، والمرادُ بالظلول الدَّوامُ وقيل : كانُوا يعبدونَها بالنَّهارِ دُون اللَّيلِ ، وصلة العكوف كلمةُ عَلَى . وإيرادُ اللاَّمِ لإفادةِ معنى زائدٍ كأنَّهم قالوا فنظلُّ لأجلِها مُقبلين على عبادتها أو مستديرين حولَها وهذا أيضاً من جُملة إطنابِهم .

(17/569)

﴿ قَالَ ﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على سؤالٍ نشأ من تفصيلِ جوابهم ﴿ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ ﴾ أي هل يسمعُون دعاءَكم على حذف المضافِ أو يسمعونكم تدعُون كقولك سمعتُ زَيْداً يقول كيتَ وكيتَ فحذف لدلالةِ قوله تعالى : ﴿ إِذْ تَدْعُونَ ﴾ عليه . وقُرىء هل يُسمعونكم

من الإسماع أي هل يُسمعونكم شيئاً من الأشياءِ أو الجواب عن دعائكم وهل يقدِرون على ذلك . وصيغةُ المضارعِ من إذ على حكايةِ الحالِ الماضيةِ لاستحضار صُورتِها كأنَّه قيل لهم : استحضُروا الأحوالَ الماضيةَ التي كنتُم تدعونها فيها وأجيبُوا هل سمعُوا أو أسُمعوا قط .

﴿ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ ﴾ بسبب عبادتِكم لها ﴿ أَوْ يَضُرُّونَ ﴾ أي يضرُّونكم بترككم لعبادتها إذ لا بُدَّ للعبادة لا سيَّما عند كونِها على ما وصفتُم من المبالغة فيها من جلب نفعٍ أو دفعِ ضُرَ .

﴿ قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَا ءابَاءنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ اعترفُوا بأنَّها بمعزلٍ مَّما ذكر من السَّمعِ والمنفعةِ والمضرَّةِ بالمرَّة واضطرُّوا إلى إظهار أنْ لا سندَ لهم سوى التَّقليد أي ما علمنا أو ما رأينا منهم ما ذُكر من الأمور بل وجدنا آباءَنا كذلك يفعلُون أي مثلَ عبادِتنا يعبدون فاقتدينا بهم .

﴿ قَالَ أَفَرَءيْتُمْ مَّا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴾ أي أنظرتُم فأبصرتُم أو أتأمَّلتُم فعلمتم ما كنتُم تعبدونَهُ .

﴿ أَنتُمْ وَءابَاؤُكُمُ الأقدمون ﴾ حقَّ الإبصارِ أو حقَّ العلمِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 6 صـ ﴾

(18/569)

وقال الآلوسى :

﴿ واتل عَلَيْهِمْ ﴾

عطف على المضمر العامل في ﴿ إِذْ نادى ﴾ [الشعراء : 10] الخ أي أذكر ذلك لقومك واتل عليهم ﴿ نَبَأَ إبراهيم ﴾ أي خبره العظيم الشأن حسبما أوحى إليك ليتأكد عندك لعدم تأثرهم بما فيه العلم بشدة عنادهم .

وتغيير الأسلوب لمزيد الاعتناء بأمر هذه القصة لأن عدم الإيمان بعد وقوفهم على ما تضمنته أقوى دليل على شدة شكيمتهم لما أن إبراهيم عليه السلام جدهم الذي يفتخرون بالانتساب إليه والتأسي به عليه السلام .

﴿ إِذْ قَالَ ﴾ منصوب على الظرفية لنبأ على ما ذهب إليه أبو البقاء أي نبأه وقت قوله ﴿ لأبيهِ وَقَوْمِهِ ﴾ أو على المفعولية لأتل على أنه بدل من ﴿ نبأ ﴾ [الشعراء : 69] على ما يقتضيه كلام الحوفي أي أتل عليهم وقت قوله لهم : ﴿ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ على أن المتلو ما قاله عليه السلام لهم في ذلك الوقت .

وضمير ﴿ قَوْمِهِ ﴾ عائد على إبراهيم ، وقيل : عائد على أبيه ليوافق قوله تعالى : ﴿ إِنّى أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِى ضلال مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام : 74] ويلزم عليه التفكيك .

وسألهم عليه السلام عما يعبدون ليبني على جوابهم أن ما يعبدونه بمعزل عن استحقاق

العبادة بالكلية لا للاستعلام إذ ذلك معلوم مشاهد له عليه السلام .

﴿ قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ﴾ لم يقتصروا على الجواب الكافي بأن يقولوا أصناماً كما في قوله تعالى : ﴿ مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ خَيْرًا ﴾ [النحل : 30] ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الخمر قَالَ العفو ﴾ [البقرة : 219] إلى غير ذلك بل أطنبوا فيه بإظهار الفعل وعطف دوام عكوفهم على أصنامهم مع أنه لم يسأل عنه قصداً إلى إبراز ما في نفوسهم الخبيثة من الابتهاج والافتخار بذلك .

وهو على ما في "الكشف" من الأسلوب الأحمق ، والمراد بالظلول الدوام كما في قولهم : لو ظل الظلم هلك الناس .

وتكون ظل على هذا تامة .

(19/569)

وقد قال بمجيئها كذلك ابن مالك وأنكره بعض النحاة ، وقيل : فعل الشيء نهاراً فقد كانوا يعبدونها بالنهار دون الليل فتكون ظل على هذا ناقصة دالة على ثبوت خبرها لاسمها في النهار .

واختار بعض الأجلة لتبادر الدوام وكونه أبلغ مناسباً لمقام الابتهاج والافتخار ، واختار

الزمخشري الثاني لأنه أصل المعنى وهو مناسب للمقام أيضاً لأنه يدل على إعلانهم الفعل لافتخارهم به .

و﴿ عاكفين ﴾ على الأول حال وعلى الثاني خبر والجار متعلق به .

وإيراد اللام دون على لإفادة معنى زائد كأنهم قالوا نظل لأجلها مقبلين على عبادتها أو مستديرين حولها .

وهذا أيضاً على ما قيل من جملة إطنابهم .

قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (72)

﴿ قَالَ ﴾ استئناف مبني على سؤال نشأ من تفصيل جوابهم ﴿ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ ﴾ دخل فعل السماع على غير مسموع ، ومذهب الفارسي أنه حينئذٍ يتعدى إلى اثنين ولا بد أن يكون الثاني مما يدل على صوت فالكاف هنا عنده مفعول أول والمفعول الثاني محذوف والتقدير هل يسمعونكم تدعون وحذف لدلالة قوله تعالى : ﴿ إِذْ تَدْعُونَ ﴾ عليه .

ومذهب غيره أنه حينئذٍ متعد إلى واحد ، وإذا وقعت بعده جملة ملفوظة أو مقدرة فهي في موضع الحال منه إن كان معرفة وفي موضع الصفة له إن كان نكرة .

وجوز فيها البدلية أيضاً .

وإذا دخل على مسموع تعدى إلى واحد اتفاقاً ، ويجوز أن يكون ما هنا داخلاً على ذلك على أن التقدير هل يسمعون دعاءكم فحذف المضاف لدلالة ﴿ إِذْ تَدْعُونَ ﴾ أيضاً عليه

، وقيل : السماع هنا بمعنى الإجابة كما في قوله صلى الله عليه وسلم : " اللهم إني أعوذ بك من دعاء لا يسمع " ومنه قوله عز وجل : ﴿ إِنَّكَ سَمِيعُ الدعاء ﴾ [آل عمران : 38] أي هل يجيبونكم وحينئذٍ لا نزاع في أنه متعد لواحد ولا يحتاج إلى تقدير مضاف .

والأولى إبقاؤه على ظاهر معناه فإنه أنسب بالمقام ، نعم ربما يقال : إن ما قيل أوفق بقراءة قتادة .

(20/569)

ويحيى بن يعرم ﴿ يَسْمَعُونَكُمْ ﴾ بضم الياء وكسر الميم من أسمع والمفعول الثاني محذوف تقديره الجواب .

و ﴿ إِذْ ﴾ ظرف لما مضى .

وجيء بالمضارع لاستحضار الحال الماضية وحكايتها .

وإما كون هل تخلص المضارع للاستقبال فلا يضر هنا لأن المعتبر زمان الحكم لا زمان التكلم وهو هنا كذلك لأن السماع بعد الدعاء ، وقال أبو حيان : لا بد من التجوز في ﴿ إِذْ ﴾ بأن تجعل بمعنى إذا أو التجوز في المضارع بأن يجعل بمعنى الماضي .

واعتبار الاستحضار أبلغ في التبكيت .

وقرىء بإدغام ذال ﴿ إِذْ ﴾ في تاء ﴿ تَدْعُونَ ﴾ وذلك بقلبها تاء وإدغامها في التاء .

﴿ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ ﴾ بسبب عبادتكم لهم ﴿ أَوْ يَضُرُّونَ ﴾ أي يضرونكم بترككم لعبادتهم إذ لا بد للعبادة لا سيما عند كونها على ما وصفتم من المبالغة فيها من جلب نفع أو دفع ضر .

وترك المفعول للفاصلة .

ويدل عليه ما قبله ، وقيل : المراد أو يضرون من أعرض عن عبادتهم كائناً من كان وهو خلاف الظاهر الذي يقتضيه العطف .

﴿ قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾

أضربوا عن أن يكون لهم سمع أو نفع أو ضر اعترافاً بما لا سبيل لهم إلى إنكاره واضطروا إلى إظهار أن لا سند لهم سوى التقليد فكأنهم قالوا : لا يسمعون ولا ينفعوننا ولا يضرون وإنما وجدنا آباءنا يفعلون مثل فعلنا ويعبدونهم مثل عبادتنا فاقتدينا بهم .

وتقديم المفعول المطلق للفاصلة .

﴿ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴾ أي أنظرتم فأبصرتم أو تأملتم فعلمتم أي شيء استدمتم على عبادته أو أي شيء تعبدونه .

﴿ أَنتُمْ وَءَابَاؤُكُمُ الأقدمون ﴾ والكلام إنكار وتوبيخ يتضمن بطلان آلهتهم وعبادتها وأن

عبادتها ضلال قديم لا فائدة في قدمه إلا ظهور بطلانه كما يؤذن بهذا وصف آبائهم بالأقدمين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 19 صـ ﴾

(21/569)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (69) ﴾

عقبت قصة موسى مع فرعون وقومه بقصة رسالة إبراهيم .

وقدمت هنا على قصة نوح على خلاف المعتاد في ترتيب قصصهم في القرآن لشدة الشبه بين قوم إبراهيم وبين مشركي العرب في عبادة الأصنام التي لا تَسمع ولا تبصر .

وفي تمسكهم بضلال آبائهم وأن إبراهيم دعاهم إلى الاستدلال على انحطاط الأصنام عن مرتبة استحقاق العبادة ليكون إيمان الناس مستنداً لدليل الفطرة ، وفي أن قوم إبراهيم لم يسلّط عليهم من عذاب الدنيا مثل ما سلط على قوم نوح وعلى عاد وثمود وقوم لوط وأهل مدين فأشبهوا قريشاً في إمهالهم .

فرسالة محمد وإبراهيم صلى الله عليهما قائمتان على دعامة الفطرة في العقل والعمل ، أي في الاعتقاد والتشريع ، فإن الله ما جعل في خلق الإنسان هذه الفطرة ليضيعها ويهملها بل

ليقيمها ويعملها .

فلما ضرب الله المثل للمشركين لإبطال زعمهم أنهم لا يؤمنون حتى تأتيهم الآيات كما أوتي موسى ، فإن آيات موسى وهي أكثر آيات الرسل السابقين لم تقض شيئاً في إيمان فرعون وقومه لما كان خلقهم المكابرة والعناد أعقب ذلك بضرب المثل بدعوة إبراهيم المماثلة لدعوة محمد صلى الله عليه وسلم في النداء على إعمال دليل النظر .

وضمير ﴿ عليهم ﴾ عائد إلى معلوم من السياق كما تقدم في قوله أول السورة ﴿ ألا يكونوا مؤمنين ﴾ [الشعراء : 3] .

والتلاوة : القراءة .

وتقدم في قوله : ﴿ ما تتلوا الشياطين ﴾ في [البقرة : 102] .

و ﴿ نبأ إبراهيم ﴾ : قصته المذكورة هنا ، أي اقرأ عليهم ما ينزل عليك الآن من نبأ إبراهيم .

وإنما أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بتلاوته للإشارة إلى أن الكلام المتضمن نبأ إبراهيم هو آية معجزة ، وما تضمنته من دليل العقل على انتفاء إلهية الأصنام التي هي كأصنام العرب آية أيضاً .

فحصل من مجموع ذلك آيتان دالّتان على صدق الرسول .

وتقدم ذكر إبراهيم عند قوله تعالى : ﴿ وإذ ابتلى إبراهيمَ ﴾ في [البقرة : 124] .

وإذ قال ﴾ ظرف ، أي حين قال .

والجملة بيان للنبأ ، لأن الخبر عن قصة مضت فناسب أن تبيّن باسم زمان مضاف إلى ما يفيد القصة .

وقد تقدم نظيره في قوله تعالى : ﴿ واتْلُ عليهم نَبَأ نوح إذ قال لقومه يا قوم ﴾ الآية في سورة [يونس : 71] .

و ﴿ ما ﴾ اسم استفهام يسأل به عن تعيين الجنس كما تقدم في قوله : ﴿ وما ربّ العالمين ﴾ في هذه السورة [23] .

والاستفهام صوري فإن إبراهيم يعلم أنهم يعبدون أصناماً ولكنه إراد بالاستفهام افتتاح المجادلة معهم فألقى عليهم هذا السؤال ليكونوا هم المبتدئين بشرح حقيقة عبادتهم ومعبوداتهم ، فتلوح لهم من خلال شرح ذلك لوائح ما فيه من فساد ، لأن الذي يتصدّى لشرح الباطل يشعر بما فيه من بطلان عند نظم معانيه أكثر مما يشعر بذلك من يسمعه ، ولأنه يعلم أن جوابهم ينشأ عنه ما يريده من الاحتجاج على فساد دينهم وقد أجابوا استفهامه بتعيين نوع معبوداتهم .

وأدخل أَباه في إلقاء السؤال عليهم : إمّا لأنه كان حاضراً في مجلس قومه إذ كان سادن بيت

الأصنام كما روي ، وإمّا لأنه سأله على انفراد وسأل قومه مرة أخرى فجمعت الآية حكاية ذلك .

والأظهر أن إبراهيم ابتدأ بمحاجّة أبيه في خاصتهما ثم انتقل إلى محاجّة قومه ، وأن هذه هي المحاجّة الأولى في ملإ أبيه وقومه ؛ ألقى فيها دعوته في صورة سؤال استفسار غير إنكار استنزالاً لطائر نفورهم ، وأما قوله في الآية الأخرى ﴿ إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون أئفكاً آلهة دون الله تريدون ﴾ [الصافات : 85 - 86] فذلك مقام آخر له في قومه كان بعد الدعوة الأولى المحكية في سورة الصافات .

ولأجل ذلك كان الاستفهام مقترناً بما يقتضي التعجب من حالهم بزيادة كلمة (ذا) بعد (ما) الاستفهامية في سورة الأنبياء .

(23/569)

وكلمة (ذا) إذا وقعت بعد (مَا) تؤول إلى معنى اسم الموصول فصار المعنى في سورة الأنبياء : ما هذا الذي تعبدونه ، فصار الإنكار مسلطاً إلى كون تلك الأصنام تُعبد .

والظاهر أنه ألقى عليهم السؤال حين تلبُّسهم بعبادة الأصنام كما هو مناسب الإتيان بالمضارع في قوله : ﴿ تعبدون ﴾ وما فهم قومه من كلامه إلا الاستفسار فأجابوا : بأنهم

يعبدون أصناماً يعكفون على عبادتها .

والتنوين في ﴿ أصناماً ﴾ للتعظيم ، ولذا عدل عن تعريفها وهم يعلمون أن إبراهيم يعرفها ويعلم أنهم يعبدونها .

واسم الأصنام عندهم اسم عظيم فهم يفتخرون به على عكس أهل التوحيد .

ولهذا قال إبراهيم لهم في مقام آخر ﴿ إنما تَعبدون من دون الله أوثاناً ﴾ [العنكبوت : 17] على وجه التحقير لمعبوداتهم والتحميق لهم .

وأتوا في جوابهم بفعل ﴿ نعبد ﴾ مع أن الشأن الاستغناء عن التصريح إذ كان جوابهم عن سؤال فيه ﴿ تعبدون ﴾ .

فلا حاجة إلى تعيين جنس المعبودات فيقولوا أصناماً كما في قوله تعالى : ﴿ ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو ﴾ [البقرة : 219] ، ﴿ ماذا قال ربكم قالوا الحق ﴾ [سبأ : 23] ﴿ ماذا أنزل ربّكم قالوا خيراً ﴾ [النحل : 30] فعدلوا عن سُنَّة الجواب إلى تكرير الفعل الواقع في السؤال ابتهاجاً بهذا الفعل وافتخاراً به ، ولذلك عطفوا على قولهم : ﴿ نعبد ﴾ ما يزيد فعل العبادة تأكيداً بقولهم : ﴿ فنظَلُّ لها عاكفين ﴾ .

وفي فعل "نظَلّ" دلالة الاستمرار جميع النهار .

وأيضاً فهم كانوا صابئة يعبدون الكواكب وجعلوا الأصنام رموزاً على الكواكب تكون خلَفاً عنها في النهار ، فإذا جاء الليل عبدوا الكواكب الطالعة .

وضمّن ﴿ عاكفين ﴾ معنى (عابدين) فعدي إليه الفعل باللام دون (على) .

ولما كان شأن الرب أن يُلجأ إليه في الحاجة وأن ينفع أو يضر ألقى إبراهيم عليهم استفهاماً عن حال هذه الأصنام هل تسمع دعاء الداعين وهل تنفع أو تضر تنبيهاً على دليل انتفاء الإلهية عنها .

(24/569)

وكانت الأمم الوثنية تعبد الوثن لرجاء نفعه أو لدفع ضره ولذلك عبد بعضهم الشياطين .

وجعل مفعول ﴿ يسمعونكم ﴾ ضمير المخاطبين توسعاً بحذف مضاف تقديره : هل يسمعون دعاءكم كما دل عليه الظرف في قوله : ﴿ إذ تدعون ﴾ .

وأراد إبراهيم فتح المجادلة ليعجزوا عن إثبات أنها تسمع وتنفع .

و﴿ بل ﴾ في حكاية جواب القوم لإضراب الانتقال من مقام إثبات صفاتهم إلى مقام قاطع للمجادلة في نظرهم وهو أنهم ورثوا عبادة هذه الأصنام ، فلما طوَوا بساط المجادلة في صفات آلهتهم وانتقلوا إلى دليل التقليد تفادياً من كلفة النظر والاستدلال بالمصير إلى الاستدلال بالاقتداء بالسلف .

وقوله : ﴿ كذلك يفعلون ﴾ تشبيه فعل الآباء بفعلهم وهو نعت لمصدر محذوف ،

والتقدير : يفعلون فعلاً كذلك الفعلِ .

وقدم الجار والمجرور على ﴿ يفعلون ﴾ للاهتمام بمدلول اسم الإشارة .

واقتصرَ إبراهيم في هذا المقام (الذي رجحنا أنه أول مقام قام فيه للدعوة) على أنْ أظهر قلة اكتراثه بهذه الأصنام فقال : ﴿ فإنهم عدوٌّ لي ﴾ لأنه أيقن بأن سلامته بعد ذلك تدل على أن الأصنام لا تضرّ وإلاّ لضرَّته لأنه عدُوّها .

وضمير ﴿ فإنهم ﴾ عائد إلى ﴿ ما كنتم تعبدون ﴾ .

وقوله : ﴿ وآباءكم ﴾ عطف على اسم ﴿ كنتم ﴾ .

والعدوّ : مشتق من العُدوان ، وهو الإضرار بالفعل أو القول .

والعدوّ : المُبغض ، فعدوّ : فعول بمعنى فاعل يُلازم الإفراد والتذكير فلا تلحقه علامات التأنيث (إلا نادراً كقول عمر لنساء من الأنصار : يا عدوات أنفسهن) .

قال في "الكشاف" : حملاً على المصدر الذي على وزن فَعول كالقبول والولوع .

والأصنام لا إدراك لها فلا توصف بالعداوة .

ولذلك فقوله ﴿ فإنهم عدو لي ﴾ من قبيل التشبيه البليغ ، أي هم كالعدوّ لي في أني أُبغِضهم وأُضرهم .

وهذا قريب من قوله تعالى : ﴿ إن الشيطان لكم عدوّ فاتخذوه عدواً ﴾ [فاطر : 6] أي عاملوه معاملة العدوِّ عدوَّه .

وبهذا الاعتبار جُمع بني قوله ﴿ لكم عدوّ ﴾ [فاطر : 6] وقوله : ﴿ فاتخذوه عدوّاً ﴾ [فاطر : 6] .

والتعبير عن الأصنام بضمير جمع العقلاء في قوله : ﴿ فإنهم ﴾ دون (فإنَّها) جرْي على غالب العبارات الجارية بينهم عن الأصنام لأنهم يعتقدونها مدركة .

وجملة : ﴿ أفرأيتم ما كنتم تعبدون ﴾ مفرّعة على جمل كلام القوم المتضمنة عبادتهم الأصنام وأنهم مقتدون في ذلك بآبائهم .

فالفاء في ﴿ أفرأيتم ﴾ للتفريع وقدم عليها همزة الاستفهام اتّباعاً للاستعمال المعروف وهو صدارة أدوات الاستفهام .

وفعل الرؤية قلبي .

ومثل هذا التركيب يستعمل في التنبيه على ما يجب أن يعلم على إرادة التعجيب مما يُعلم من شأنه .

ولذلك كثر إردافه بكلام يشير إلى شيء من عجائب أحوال مفعول الرؤية كقوله تعالى : ﴿ أفرأيتَ الذي تولّى وأعطى قليلاً ﴾ [النجم : 33 - 34] الآية ، ومنه تعقيب قوله هنا

﴿ أفرأيتم ما كنتم تعبدون ﴾ بقوله : ﴿ فإنهم عدو لي ﴾ .

وعطف ﴿ آباؤكم ﴾ على ﴿ أنتم ﴾ لزيادة إظهار قلة اكتراثه بتلك الأصنام مع العلم بأن الأقدمين عبدوها فتضمن ذلك إبطالَ شبهتهم في استحقاقها العبادة .

ووصف الآباء بالأقدمية إيغال في قلة الاكتراث بتقليدهم لأن عرف الأمم أن الآباء كلما تقادم عهدهم كان تقليدهم آكد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 19 صـ ﴾

(26/569)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (69) ﴾

جاءت هذه الآية بعد الانتهاء في إيجاز مُبسّط لقصة موسى عليه السلام مع فرعون ، وخُتمت بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العزيز الرحيم ﴾ [الشعراء : 6768] .

ثم تكلم الحق سبحانه عن نبيه إبراهيم عليه السلام ﴿ واتل عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ﴾ [الشعراء : 69] مما يدل على أن المسألة في القرآن ليست سَرْداً للتاريخ ، فإبراهيم كان قبل موسى ، ولو أردنا التأريخ لجاءت قصة إبراهيم أولاً ، إنما الهدف من القصص في القرآن

التقاط مواضع العِبْرة والعِظَة واتخاذ الأُسوة من تاريخ الرسل ، ليُثبِّت الله بها فؤاد رسوله صلى الله عليه وسلم حينما يواجه الأحداث الشاقة والعصيبة .

والمتأمل في رسالة موسى ورسالة إبراهيم عليهما السلام يجد أن موسى جاء ليعالج مسألة هي قمة العقيدة ، ويواجه مَنِ ادّعى الألوهية وقال : إني إله من دون الله ، أما إبراهيم فقد عالج مسألة الشرك مع الله وعبادة الأصنام ، فعندهم طَرَف من إيمان ، بدليل أنهم إذا ضيّقنا عليهم الخناق قالوا : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى اللهِ زلفى ﴾ [الزمر : 3] .

لذلك كانت قصة موسى أَوْلَى بالتقديم هنا .

ومعنى : ﴿ واتل عَلَيْهِمْ ﴾ [الشعراء : 69] أي : اقرأ ، أو وضِّح ، أو عبِّر ، ونقول للقراءة (تلاوة) لأنه لا يُتلَى إلا المكتوب المعلوم المفهوم ﴿ عَلَيْهِمْ ﴾ [الشعراء : 69] على أمة الدعوة كلها ، أَمْ على المكذبين خاصة ؟

(27/569)

قالوا : على المكذِّبين خاصة ؛ لأن المصدِّقين برسول الله لا يحتاجون هذه التلاوة ، وإنْ تُلِيَتْ عليهم فإنما التلاوة للتذكرة أو لعلم التاريخ . إذن : المراد هنا المكذِّبون المنكرون ليعلموا أن نهاية كل رسل الله في دعوتهم النصر والغلبة ، وأن نهاية المكذبين المخالفين الهزيمة

والاندحار .

فكأن القرآن يقول لهم : لا تغتروا بقوتكم ، ولا بجاهكم ، ولا تنخدعوا بسيادتكم على العرب ، ومعلوم أن مكانة قريش بين العرب إنما أخذوها من خدمة بيت الله الحرام ، وما أَمِنُوا في طرق تجارتهم إلاَّ بقداسة بيت الله وحُرْمته .

ولولا البيت ما كان لقريش كل هذه المكانة ، بدليل قوله تعالى : ﴿ لإِيلاَفِ قُرَيْشٍ * إِيلاَفِهِمْ رِحْلَةَ الشتآء والصيف ﴾ [قريش : 12] .

ولو انهدم البيت في قصة الفيل ما كان لقريش سيادة ولا سيطرة على الجزيرة العربية ، وما دام أن الله تعالى فعل معهم هذا ﴿ فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هذا البيت * الذي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾ [قريش : 34] .

ومعنى ﴿ نَبَأَ ﴾ [الشعراء : 69] أي : الخبر الهام الذي يجب أنْ يُقال ، ويجب أنْ يُنصتَ له ، وأنْ تُؤخَذ منه عِبْرة وعِظة ، فلا يُقال (نبأ) للخبر العادي الذي لا يُؤبَهُ له .

ولو تتبعتَ كلمة (نبأ) في القرآن لوجدتها لا تُقَال إلا للأمر الهام ، كما في قوله تعالى : ﴿ عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ * عَنِ النبإِ العظيم ﴾ [النبأ : 12] .

وقوله تعالى في قصة سليمان عليه السلام والهدهد :

﴿ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾ [النمل : 22] .

إذن : ﴿ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ﴾ [الشعراء : 69] يعني : الخبر الهام عنه . وإبراهيم هو أبو

الأنبياء الذي مدحه ربه مدحاً عظيماً في مواضع عدة من القرآن ، فقال الحق سبحانه عنه : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً ﴾ [النحل : 120] .

(28/569)

والأمة لا تُطلَق إلا على جماعة تنتسب إلى شيء خاص ، ويجمعهم مكان وزمان وحال .

كذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد أضفى الله عليه كمالات من صفات كماله لا يستطيع بشر أن يتحملها .

لذلك جاء في الحديث الشريف : " الخير فِيَّ وفي أمتي إلى يوم القيامة " .

الخير فيَّ حصراً ، الخير على عمومه ، وفي كل جوانب شخصيته : داعيةً وأباً وزوجاً . . الخ وخصال الخير من شجاعة ، وحِلْم ، وعِلْم ، وكرم . . ألخ . وكذلك الخير في أمتي منثورٌ بين أفرادها ، يأخذ كل منهم من الخير بطرف ، وله منه نصيب ، لكن لا أحدَ يستطيع أن يجمع الكمال المحمدي أبداً ، ولا أن يتصف به .

كذلك كان سيدنا إبراهيم عليه السلام (أمة) ؛ لأن خصال الخير تُوزَّع على أفراد الأمة : هذا ذكي ، وهذا حليم ، وهذا عالم ، وهذا حكيم . . الخ أما إبراهيم عليه السلام فقد جمع من الخير ما في أمة بأكملها ، وهذا ليس كلاماً يُقَال في مدح نبي الله إبراهيم ، إنما من واقع

حياته العملية .

واقرأ إنْ شئتَ قوله تعالى عن إبراهيم : ﴿ وَإِذِ ابتلى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً ﴾ [البقرة : 124] .

وحَسْب إبراهيم عليه السلام من الخير هذه الدعوة : ﴿ رَبَّنَا وابعث فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ ﴾ [البقرة : 129] .

فكان محمد صلى الله عليه وسلم دعوة أبيه إبراهيم .

إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (70)

فأول دعوته كانت لأبيه ، وأقرب الناس إليه لا للغريب ، والدعوة التي توجه أولاً للقريب لا بُدَّ أنها دعوة حَقٍّ ودعوة خير ؛ لأن الإنسان يحب الخير أولاً لنفسه ، ثم لأقرب الناس إليه ، ولو كانت في خيريتها شَكٌّ لقصد بها الغرباء والأباعد عنه .

والمراد بأبيه هو (آزر) الذي ورد ذكره في موضع آخر .

(29/569)

وسؤاله لأبيه وقومه ﴿ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ [الشعراء : 70] سؤال استهجان واستنكار ، وسؤال استدلال ليظهر لهم بطلان هذه العبادة ؛ لأن العبادة أنْ يطيعَ العابدُ المعبودَ فيما أمر

وفيما نهى ، فالذين يعبدون الأصنام بماذا أمرتهم وعمَّ نهتهم ؟

إذن : فهي آلهة دون منهج ، وما أسهلَ أن يعبد الإنسان مثل هذا الإله الذي يأمره بشيء ، ولا ينهاه عن شيء ، وكذلك هي آلهة دون جزاء ودون حساب ؛ لأنها لا تثيب مَنْ أطاعها ، ولا تعاقب مَنْ عصاها .

إذن : فكلمة عباده هنا خطأ ، ومع ذلك يُسمِّيها الناس آلهة ، لماذا ؟ لأن الإله الحق له أوامر لا بُدَّ أن تُنفّذ ، وإنْ كانت شاقة على النفس ، وله نواهٍ لا بُدَّ أن تترك وإنْ كانت النفس تشتهيها ، فهي عبادة شاقة ، أما عبادة الأصنام فما أسهلها ، فليس عندها أمْر ولا نَهْي ، وليس عندها منهج يُنظِّم لهم حركة الحياة ؛ لذلك تمسَّك هؤلاء بعبادة الأصنام ، وسمَّوْها آلهة ، وهذا خبل واضح .

كما أن الإنسان في مجال العبادة إذا عزَّتْ عليه أسباب الحياة وأعْيَتْه الحيل ، أو خرجت عن طاقته ، عندها يجد له رباً يلجأ إليه ، ويستعين به فيقول : يا رب . فماذا عن عابد الأصنام إذا تعرَّض لمثل هذه المسائل ؟ هل يتوجه إليها بالدعاء ؟ وهَبْ أنه يدعو إنساناً مثله يمكن أنْ يسمعه أيستجيبُ له ؟

لذلك يقول سبحانه : ﴿ قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ * قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴾ [الشعراء : 7173] .

إذن : فعبادة غير الله حُمْق وغباء .

لكن هذا البحث من إبراهيم ، وهذا الجدل مع أبيه وقومه ، أكان بعد الرسالة أم قبلها ؟

قالوا : إن إبراهيم عليه السلام كان ناضجاً مُتفتّحاً منذ صِغَره ، وكان مُنكراً لهذه العبادة قبل أن يُرسَل ، لذلك قال الله عنه : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴾ [الأنبياء : 51] .

وكذلك كان نبينا محمد صلى الله عليه وسلم قبل بعثته كارهاً للأصنام ، معترضاً على عبادتها ، يتعجب حين يرى قومه يعبدونها ، وقد رأى صلى الله عليه وسلم أحد الآلهة وقد كُسر ذراعه فاستعانوا بمَنْ يُصلح ذراع الإله ، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم وتعجَّب لما يرى : العابد يصلح المعبود ؟ بعدها اعتزلهم رسول الله ، ولجأ إلى الغار يفكر في الإله الحق والمعبود الحق .

فكأن أيَّ دين يأمر الله به لو تفكَّر فيه الإنسان برشد لانتهى إلى الحق بدون رسول ؛ لأن دين الله هو دين الفطرة السليمة ، فإنْ توفَّرت لدى الإنسان هذه الفطرة اهتدى بها إلى الحق .

بدليل ما كان يحدث من عمر رضي الله عنه وكان يُحدث رسول الله بالأمر ، فتتنزل به الآيات من عند الله ، وقد وافقتْ الآيات رأيه في أكثر من موقف ، وقد أقرَّ رسول الله صلى

الله عليه وسلم ذلك ليبين لنا أن العقل السليم والفطرة المستقيمة يمكن أنْ ينتهيا إلى قضايا الدين دون رسول .

وتستطيع أنت أنْ تعرض أيَّ قضية من قضايا الدين على العقل السليم ، وسوف تجد أنها طيبة وجميلة توافق الذَّوْق السليم والتفكير السويّ ، فالكذب مثلاً خُلُق يأباه العقل ويأباه الدين ، وكذلك الرشوة ؛ لأنك بها تأخذ ما ليس لك ، وقد يُسلِّط عليك رَاشٍ ، فيأخذ منك حقك ، كما أخذتَ أنت حقوق الناس .

ولو تأمل العقل مثلاً تحريم النظر إلى المحرمات ، لوجد أن الدين قيَّد نظرك وأنت فرد ، وقيَّد من أجلك نظر الناس جميعاً ، فكما طلب منك طلب لك ، وكذلك الأمر في تحريم السرقة والقتل . . إلخ .

(31/569)

وقد سُئِلْنا في إحدى الرحلات عن قوله تعالى : ﴿ هُوَ الذي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بالهدى وَدِينِ الحق لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدين كُلِّهِ ﴾ [التوبة : 33] ومرة يقول : ﴿ وَلَوْ كَرِهَ المشركون ﴾ [التوبة : 33] ومرة يقول : ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ الله بِأَفْوَاهِهِمْ ويأبى الله إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الكافرون ﴾ [التوبة : 32] .

يقولون : وبعد أربعة عشر قرناً ، والمسلمون في الكون أقلية ، ولم يظهر الدين على الدين كله ، فكيف إذن نفهم هذه الآية ؟

فقلتُ للسائل : لو فهمتَ الآية السابقة لعرفتَ الجواب : ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ ويأبى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الكافرون ﴾ [التوبة : 32] .

فالمعنى : أن الدين سيظهر في وجود الأديان الأخرى ، وليس المراد أن هذه الأديان ستزول ، ولن يكون لها وجود ، بل هي موجودة ، لكن يظهر عليها الإسلام ظهور حجة ، بدليل ما نراه من هجمات على الإسلام وأحكامه وتشريعاته ، كما في مسألة الطلاق مثلاً ، أو مسألة تعدُّد الزوجات وغيرها . وبعد ذلك تُلجِئهم الحياة الاجتماعية إلى هذه التشريعات ، ولا يجدون غيرها لحل مشاكلهم .

ولما قامت الثورة الشيوعية في روسيا سنة 1917 أول ما شرَّعوا منعوا الربا الذي كان جائزاً عندهم ، لقد منعوا الربا مع أنهم غير مسلمين ، لكن مصالحهم في ذلك ، فهذه وأمثالها غلبة لدين الله وظهور له على كل الأديان .

وليس معنى ﴿ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدين كُلِّهِ ﴾ [التوبة : 33] أن يصير الناس جميعاً مؤمنين ، لا ، إنما يظل كُلٌّ على دينه وعلى شِرْكه أو كفره ، لكن لا يجد حلاً لقضاياه إلا في الإسلام ، وهذا أوقع في ظهور الدين .

ثم يقول الحق سبحانه عن قوم إبراهيم في ردِّهم على إبراهيم عليه السلام : ﴿ قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَاماً ﴾

(32/569)

إذن : شهد شاهد من أهلها ، وقالوا بأنفسهم ﴿ نَعْبُدُ أَصْنَاماً ﴾ [الشعراء : 71]

والعبادة طاعة ، فماذا قالت لهم الأصنام ؟ وبماذا أمرتهم ؟ طبعاً ، ليس عندهم جواب .

وليت الأمر يقف عند العبادة ، إنما ﴿ فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ﴾ [الشعراء : 71] أي :

قائمين على عبادته ليلَ نهار ، نعم ولكم حق ؛ لأنها آلهة دون تكليف ، وعبادة بلا مشقة

وبلا التزام ، إنها بلطجة تأخذون فيها حظَّ أنفسكم ، وتفعلون معها ما تريدون .

لكن ، كيف جادلهم إبراهيم عليه السلام ؟ وبم رَدَّ عليهم ؟

قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (72) أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (73)

فالأصنام لا تسمع مَنْ توجّه إليها بالدعاء ، ولا تنفع مَنْ عبدها ، ولا تضر مَنْ كفر بها ؛

لذلك لم يجدوا رداً ، وحاروا جواباً ، ولم يجدوا حُجّة إلا أن قالوا :

﴿ قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ ﴾

إذن : أنتم لم تُحكِّموا عقولكم في هذه المسألة ، كما قالوا في موضع آخر : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَآ

آبَآءَنَا على أُمَّةٍ وَإِنَّا على آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ [الزخرف : 23] .

ونقول لهم : ومتى ظللتم على تقليد آبائكم فيما يفعلون ؟ إنكم لو أقمتُم على تقليد الآباء ما ارتقيتم في حياتكم أبداً ، فلماذا إذن تحرصون على التقليد في هذه المسألة بالذات دون غيرها .

قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (75)

يقول إبراهيم عليه السلام : لا تلقوا بالمسألة على الآباء ، وتُعلّقوا عليهم أخطاءكم ، ثم يعلنها صريحة متحدية كأنه يقول لهم : الحمرة في خيلكم اركبوها . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(33/569)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (69) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (70) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ) (الشعراء : 69 – 71) ، وفي سورة الصافات : (وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ (83) إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (84) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ

مَاذَا تَعْبُدُونَ * أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ * فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ) (الصافات : 83 - 87) ، يسأل عن زيادة اسم الإشارة في قوله : (مَاذَا تَعْبُدُونَ) وسقوطها في سورة الشعراء ؟

والجواب عن ذلك أن قصص الرسل ، عليهم السلام ، مع أممهم لم تأت في القرآن العظيم على نهج واحد في الدعاء والجواب والمراجعة والمحاورة ، ولا يمكن ذلك لاختلاف طباع الأمم وأغراضهم واختلاف الحالات ، ولكل مقام مقال ، فمرة ترد القصة على الدعاء وإبداء الحجة والتوبيخ من غير ذكر شيء من جواب المدعوين سوى الإخبار بتكذيبهم ، ومرة يورد من مقالات الأمم لرسلهم اليسير ، ومرة يمد إطناب الكلام في المحاورات بين الرسل والأمم .

فمن الضرب الأول قول إبراهيم ، عليه السلام ، في سورة الصافات : (مَاذَا تَعْبُدُونَ) إلى آخر القصة ، ولم يرد فيها كلمة واحدة من مراجعتهم له سوى الوارد من قولهم : (قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ) (الصافات : 97) ، وليس هذا بمراجعة له ولا جواباً على كلامه ، عليه السلام .

(34/569)

ومن الضرب الثاني آية الشعراء فإنه ذكر فيها جوابهم بقوله تعالى مخبراً عنهم : (قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ) (الشعراء : 71) ، ثم لما سألهم ، عليه السلام ، تقريعاً لهم وتوبيخاً فقال : (هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ) (الشعراء : 72 - 73) جاوبوا بقولهم : (قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ) (الشعراء : 74) .

ومن الضرب الثالث قصة شعيب ، عليه السلام ، في سورة هود وأشباهها ، وتأمل القصص الواردة في القرآن تجدها جارية على ما ذكرته ، فلما كان في آية الصافات دعاء إبراهيم ، عليه السلام ، لهم مبيناً حالهم الشنيع وسيء مرتكبهم ممتد الإطناب فيما يقطع بهم من قوله : (أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ) (الصافات : 86) وقوله : (قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ) (الصافات : 95) ، وعيوا بالجواب ولم يحك عنهم غير قولهم : (قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ) (الصافات : 97) ، ناسب ذلك زيادة اسم الإشارة ، ولما كانت آية الشعراء واردة على غير هذا النهج ناسب سقوط اسم الإشارة فقيل : (ما تعبدون) ولم يقل (ماذا) كما في آية الصافات ، ومن المفهوم عن العرب أن المستفهم إذا قصد التقريع والتوبيخ أطال كلامه إدلاء بحجته وتعنيفاً لمن يخالفه ، والمقهور أبداً محصور .

وقوله : (ما تعبدون) جملة تقدم فيها المفعول وهو ما الاستفهامية ، فهو في موضع نصب بالفعل بعدها ، وقوله في الآية الأخرى : (ماذا) استفهام أيضاً ركبت فيه (ما) مع اسم

الإشارة وجعلا اسماً واحداً في موضع نصب بالفعل (بعدها) ، ويمكن تركها على بابها من الاستفهام غير مركبة وتكون (ذا) اسماً موصولاً في موضع رفع خبر للمبتدأ الذي هو (ما) ، والجملة من قوله : (تعبدون) صلة ، والجملة من المبتدأ والخبر محكية بعد القول ، كأنه قال : أي شيء (الذي تبعدونه ، وحذف الضمير الرابط لأنه ضمير نصب منفصل ، وليس في الصلة ضمير غيره ، فحسن حذفه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل صـ 375 . 377 ﴾

(36/569)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله : ﴿ إِذْ قَالَ ﴾ :

العامل في " إذ " " نَبَأَ " أو اتْلُ . قاله الحوفي . وهذا لا يتأتى إلاَّ على كون " إذ " مفعولاً به . وقيل : " إذ " بدلٌ مِنْ " نَبَأ " بدلُ اشتمالٍ . وهو يَؤُوْلُ إلى أنَّ العامل فيه " اتْلُ " بالتأويل المذكورِ .

قوله : ﴿ وَقَوْمِهِ ﴾ الهاءُ تعودُ على " إبراهيم " لأَنَّه المُحَدَّثُ عنه . وقيل : تعودُ على أبيه ، لأَنَّه أقربُ مذكورٍ ، أي : قال لأبيه وقومِ أبيه ، ويؤيِّده ﴿ إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ ﴾ [الأنعام : 74] ، حيث أضافَ القومَ إليه .

قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (71)

قوله : ﴿ نَعْبُدُ أَصْنَاماً ﴾ : أَتَوْا في الجوابِ بالتصريحِ بالفعل ليَعْطِفُوا عليه قولَهم " فَنَظَلُّ " افتخاراً بذلك وابتهاجاً به ، وإلاَّ فكان قولُهم " أصناماً " كافياً ، كقوله تعالى : ﴿ قُلِ العفو ﴾ [البقرة : 219] ﴿ قَالُواْ خَيْراً ﴾ [النحل : 30] .

قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (72)

قوله : ﴿ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ ﴾ : لا بُدَّ مِنْ محذوفٍ أي : يسمعون دعاءَكم ، أو يَسْمَعُوْنكم تَدْعُون . فعلى التقديرِ الأولِ : هي متعديةٌ لواحدٍ اتفاقاً ، وعلى الثاني : هي متعديةٌ لاثنين ، قامَتِ الجملةُ المقدرَّةُ مَقام الثاني . وهو قولُ الفارسيِّ . وعند غيرِه الجملةُ المقدَّرَةُ حالٌ . وقد تقدَّمَ تحقيقُ القولَيْن . وقرأ قتادة ويحيى بن يعمر بضمِّ الياءِ وكسرِ الميمِ ، والمفعولُ الثاني محذوفٌ . أي : يُسْمِعُونَكم الجوابَ .

(37/569)

قوله : ﴿ إِذْ تَدْعُونَ ﴾ منصوبٌ بما قبلَه ، فما قبله وما بعده ماضيان معنىً ، وإنْ كانا مستقبلَيْنِ لفظاً ، لعملِ الأولِ في " إذ " ، ولعَمَلِ " إذ " في الثاني . وقال بعضُهم : " إذ " هنا بمعنى إذا . وقال الزمخشري : " إنه على حكايةِ الحالِ الماضيةِ ، ومعناه : اسْتَحْضِروا الأحوالَ [الماضيةَ] التي كنتم تدَّعُونها فيها ، [وقولوا] : هل سَمِعُكم أو أَسْمَعُوا ، وهو أبلغ في التَّبْكِيْتِ " . وقد تقدَّم أنه قُرِىءَ بإدغامِ ذال " إذا " وإظهارِها في التاء . وقال ابنُ عطيةَ : ويجوز فيه قياسُ " مُدَّكِر " ونحوِه . ولم يَقْرَأْ به أحدٌ . والقياسُ أن يكون اللفظُ به " إدَّدْعون " والذي مَنَعَ من هذا اللفظِ اتصالُ الدالِ الأصليةِ في الفعل ، فكَثُرَتْ المتماثلاتُ " قلت : يَعْني فيكون اللفظُ بدالٍ مشددةٍ مهملةٍ ثم بدالٍ ساكنةٍ مهملةٍ أيضاً " .

قال الشيخ : " وهذا لا يَجُوز ؛ لأنَّ هذا الإبدالَ إنما هو في تاءِ الافتعالِ بعد الدالِ والذالِ والزاي نحو : ادَّهَنَ وادَّكَرَ وازْدَجَر ، وبعد جيمٍ شذوذاً نحو : " اجْدَمَعُوا " في " اجتمعوا " ، أو في تاء الضميرِ بعد الدالِ والزاي نحو " فُزْدُ " في " فُزْتُ " و " جَلَدَّ " في " جَلَدْتُ " أو تاء " تَوْلَج " قالوا فيها : " دَوْلج " ، وتاء المضارعة ليس شيئاً مِمَّا ذُكر . وقوله : " والذي مَنَعَ إلى آخرِه " يَقْتَضي جوازَه لو لم يُوْجَدْ ما ذُكِر ، فعلى مقتضى قولِه يجوز أَنْ تقولَ في إذْ تَخْرج : ادَّخْرُج ، ولا يقول ذلك أحدٌ ، بل يقولون : اتَّخْرُج ، فيُدغمون الذالَ في التاءِ " .

قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (74)

قوله : ﴿ كَذَلِكَ ﴾ : منصوبٌ ب " يَفْعَلون " أي : يَفْعَلون مثلَ فِعْلِنَا . ويَفْعَلُون في محلِّ

نصب مفعولاً ثانياً ل " وَجَدْنا " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الدر المصون حـ 8 صـ 528 . 530﴾

(38/569)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (69) ﴾

عاتب إبراهيمُ أباه وقومَه ، وطالَبَهُم بالحجة على ما عابَهم به وقال لِمَ تعبدون ما لا يَسْمَعُ ولا يُبْصِرُ ؛ ولا ينفع ولا يَضُرُّ ، ولا يُحِسُّ ولا يَشْعُر ؟ فلم يرجعوا في الجواب إلا إلى تقليدهم أسلافَهم ، وقالوا :

على هذه الجملة وَجَدْنا أسلافَنَا . فنطق إبراهيمُ – عليه السلام – بعد إقامة الحجة عليهم والإخبار عن قبيح صنيعهم بمَدْح مولاه والإغراق في وصفه ، وقال ﴿ قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (75) أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ (76) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (77) ﴾ .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿لطائف الإشارات حـ 3 صـ 12﴾

(39/569)

قوله تعالى ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (77) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (78) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (79) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (80) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (81) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (82) رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (83) وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ (84) وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ (85) وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ (86) وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ (87) يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (88) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (89) ﴾

" فصل "

قال البقاعي :

﴿ فإنهم ﴾ أي فتسبب عن رؤيتكم ووصفكم لهم بما ذكرتم أني أخبركم إخباراً مؤكداً أنهم .

ولما كانت صيغة فعول للمبالغة ، أغنت في العدو والصديق عن صيغة الجمع ولا سيما وهي شبيهة بالمصادر كالقبول والصهيل ، فقال مخبراً عن ضمير الجمع : ﴿ عدو لي ﴾ أي أناصفهم بالسوء وأعاملهم في إبطالهم ومحقهم معاملة الأعداء وكل من عبدهم كما قال في الآية الأخرى ﴿ لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين ﴾ [الأنبياء : 54] ، ﴿ أف لكم ولما تعبدون من دون الله ﴾ [الأنبياء : 57] و ﴿ تالله لأكيدن أصنامكم ﴾ [الأنبياء :

.[67

ولما كانوا هم مشركين ، وكان في آبائهم الأقدمين من عبد الله وحده .

قال : ﴿ إلا رب العالمين ﴾ أي مدبر هذه الأكوان كلها - كما قال موسى عليه السلام - لأن ذلك أشهر الأوصاف وأظهرها ، فإنه ليس بعدوي ، بل هو وليّي ومعبودي ؛ ثم شرع يصفه بما هم به عالمون من أنه على الضد الأقصى من كل ما عليه أصنامهم فقال : ﴿ الذي ﴾ ولما لم يكن أحد يدعي الخلق لم يحتج إلى ما يدل على الاختصاص فقال : ﴿ خلقني ﴾ أي أوجدني على هيئة التقدير والتصوير ﴿ فهو ﴾ أي فتسبب عن تفرده بخلقي أنه هو لا غيره ﴿ يهدين ﴾ أي إلى الرشاد ، ولأنه لا يعلم باطن المخلوق ويقدر على كمال التصرف فيه غير خالقه ، ولا يكن خالقه إلا سميعاً بصيراً ضاراً نافعاً ، له الكمال كله ، ولا شك أن الخلق للجسد ، والهداية للروح ، وبالخلق والهداية يحصل جميع المنافع ، والإنسان له قالب من عالم الخلق ، وقالب من عالم الأمر ، وتركيب القالب مقدم كما ظهر بهذه الآية ، ولقوله ﴿ فإذا سويته ونفخت فيه من روحي ﴾ [الحجر : 29] وأمثال ذلك ، وذكر الخلق بالماضي لأنه لا يتجدد في الدنيا ، والهداية بالمضارع لتجددها وتكررها ديناً ودنيا ﴿ والذي هو ﴾ أي لا غيره ﴿ يطعمني ويسقين ﴾ ولو أراد لأعدم ما آكل وما أشرب أو أصابني بآفة لا أستطيع معها أكلاً ولا شرباً .

ولما كان المرض ضرراً ، نزهه عن نسبته إليه أدباً وإن كانت نسبة الكل إليه سبحانه معلومة ، بقوله : ﴿ وإذا مرضت ﴾ باستيلاء بعض الأخلاط على بعض لما بينها من التنافر الطبيعي ﴿ فهو ﴾ أي وحده ﴿ يشفين ﴾ بسبب تعديل المزاج بتعديل الأخلاط وقسرها على الاجتماع والاعتدال ، لا طبيب ولا غيره وإن تسببت أنا في أمراض نفسي ببرد أو حر أو طعام أتناوله أو غير ذلك لأنه قادر على ما يريد .

ولما كان الإنسان مطبوعاً على الاجتهاد في حفظ حياته وبقاء مهجته ، نسب فعل الموت إليه إعظاماً للقدرة فقال : ﴿ والذي يميتني ﴾ أي حساً وإن اجتهدت في دفع الموت ، ومعنى وإن اجتهدت في دفع الجهل .

ولما كان الإحياء حساً بالروح ومعنى بالهداية عظيماً ، أتى بأداة التراخي لذلك ولطول المكث في البرزخ فقال : ﴿ ثم يحيين ﴾ للمجازاة في الآخرة كما شفاني من المرض وإن وصلت إلى حد لا أرجى فيه ، ولم يأت هنا بما يدل على الحصر لأنه لا مدعي للإحياء والإماتة إلا ما ذكره سبحانه عن نمرود في سورة البقرة ، وأن إبراهيم عليه السلام أبهته ببيان عجزه في إظهار صورة من مكان من الأمكنة بلا شرط من روح ولا غيرها ، وإذا عجز عن ذلك كان عجزه عن إيجاد صورة أبين ، فكيف إذا انضم إلى ذلك إفادتها روحاً أو سلبها منها ، فعدّ ادعاؤه لذلك – مع القاطع المحسوس الذي أبهته – عدماً ، والله

أعلم .

ولما ذكر البعث ، ذكر ما يترتب عليه فقال : ﴿ والذي أطمع ﴾ هضماً لنفسه واطراحاً لأعماله وإشارة إلى أنه بالنسبة إلى الحضرة الأعظمية غير قادرة لها حق قدرها ، فإن الطمع كما قال الحرالي في البقرة تعلق البال بالشيء من غير تقدم سبب – انتهى .

فلذلك لم يعد له عملاً ﴿ أن يغفر ﴾ أي يمحو ويستر .

(41/569)

ولما كان الله سبحانه منزهاً عن الغرض ، فكانت المغفرة لحظ العبد ليس غير ، قال : ﴿ لي ﴾ وأسند الخطيئة إليه هضماً لنفسه وتواضعاً لربه فقال : ﴿ خطيئتي ﴾ أي تقصيري عن أن أقدره حق قدره ، فإن الضعيف العاجز لا يبلغ كل ما ينبغي من خدمة العلي الكبير ، وما فعله فهو بإقداره سبحانه فلا صنع له في الحقيقة أصلاً ﴿ يوم الدين ﴾ أي الجزاء .

ولما أثنى على الله تعالى بما هو أهله ، وختم بذكر هذا اليوم العظيم ، دعا بما ينحي عن هوله ، فدل صنيعه على أن تقديم الثناء على السؤال أمر مهم ، وله في الإجابة أثر عظيم ، فقال ملتفتاً إلى مقام المشاهدة إشارة إلى أن الأمر مهول ، وأنه لا ينقذ من خطره إلا عظيم

القدرة ، لما طبعت عليه النفس من النقائص : ﴿ رب ﴾ أي أيها المحسن إليّ ﴿ هب لي حكماً ﴾ أي عملاً متقناً بالعلم ، وأصله بناء الشيء على ما توجبه الحكمة ، ولما كان الاعتماد إنما هو على محض الكرم ، فإن من نوقش الحساب عذب ، قال : ﴿ وألحقني بالصالحين ﴾ أي الذين جعلتهم أئمة للمتقين في الدنيا والآخرة ، وهم من كان قوله وفعله صافياً عن شوب فساد .

ولما كان الصالح قد لا يظهر عمله ، وكان إظهار الله له مجلبة للدعاء وزيادة في الأجر ، قال : ﴿ واجعل لي لسان صدق ﴾ أي ذكراً جميلاً ، وقبولاً عاماً ، وثناء حسناً ، بما أظهرت مني من خصال الخير ﴿ في الآخرين ﴾ أي الناس الذين يوجدون بعدي إلى يوم الدين ، لأكون للمتقين إماماً ، فيكون لي مثل أجورهم ، فإن " من سن سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة " وقد كان ذلك إجابة من الله تعالى لدعائه ، ومن أعظمه أن جعله الله شجرة مباركة فرع منها الأنبياء الذين أحيى بهم عليهم الصلاة والسلام ذكره الذي من أعظمه ما كان على لسان أعظمهم النبي الأمي ـ صلى الله عليه وسلم ـ من قوله : " صل على محمد كما صليت على إبراهيم " إلى آخره .

(42/569)

ولما طلب سعادة الدنيا ، وكانت لا نفع لها إلا باتصالها بسعادة الآخرة التي هي الجنة ، وكانت الجنة لا تنال إلا بمنه ، لا بشيء من ذلك ، ولذلك شبه إدخالها بالإرث الذي يحصل بغير اكتساب من الوارث وهو أقوى أسباب الملك ، قال : ﴿ واجعلني ﴾ أي مع ذلك كله بفضلك ورحمتك ﴿ من ورثة جنة النعيم ﴾ .

ولما دعا لنفسه ، ثنى بأحق الخلق ببره فقال : ﴿ واغفر لأبي ﴾ ثم علل دعاءه بقوله : ﴿ إنه كان ﴾ في أيام حياته ﴿ من الضالين ﴾ والظاهر أن هذا كان قبل معرفته بتأبيد شقائه ، ولذلك قال : ﴿ ولا تخزني ﴾ أي تهني بموته على ما يوجب دخوله النار ولا بغير ذلك ﴿ يوم يبعثون ﴾ أي هؤلاء المنكرون للبعث ، وكأن هذا الدعاء كان بحضورهم في الإنكار عليهم في عبادة الأصنام ، والظاهر أن تخصيص الدعاء بأبيه لأن أمه كانت آمنت كما ورد عن . . .

فقد صح أنه يقول يوم القيامة : يا رب ! إنك وعدتني ألا تخزيني ، أي خزي أخزى من أبي الأبعد ، فيبدل الله صورة أبيه صورة ذيخ ثم يلقي به في النار – كما رواه البخاري في غير موضع عن أبي هريرة ـ رضى الله عنه ـ ، وأن الله تعالى يقول له : " إني حرمت الجنة على الكافرين " ولو كانت أمة كافرة لسأله فيها .

ولما نبه على أن المقصود هو الآخرة ، صرح بالتزهيد في الدنيا بتحقير أجل ما فيها فقال : ﴿ يوم لا ينفع ﴾ أي أحداً ﴿ مال ﴾ أي يفتدي به أو يبذله لشافع أو ناصر مقاهر ﴿ ولا

بنون ﴾ ينتصر بهم أو يعتضد فكيف بغيرهم ﴿ إلا من أتى الله ﴾ أي الملك الأعظم الذي له الغنى المطلق في هذا الموطن ﴿ بقلب سليم ﴾ أي عن مرض غيّره عن الفطرة الأولى التي فطره الله عليها ، وهي الإسلام الذي رأسه التوحيد ، والاستقامة على فعل الخير ، وحفظ طريق السنة كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء ليس فيها من جدعاء فإن ﴿ المال والبنون ﴾ ينفعانه بما تصرف فيهما من خير ، والاستثناء مفرغ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 368 . 371 ﴾

(43/569)

فصل

قال الفخر :

أما قوله : ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِى إِلاَّ رَبَّ العالمين ﴾

ففيه أسئلة :

السؤال الأول : كيف يكون الصنم عدواً مع أنه جماد ؟ جوابه من وجهين : (1)

أحدهما : أنه تعالى قال في سورة مريم (82) في صفة الأوثان ﴿ كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بعبادتهم وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدّاً ﴾ فقيل في تفسيره إن الله يحيي ما عبدوه من الأصنام حتى يقع منهم

التوبيخ لهم والبراءة منهم ، فعلى هذا الوجه أن الأوثان ستصير أعداء لهؤلاء الكفار في الآخرة فأطلق إبراهيم عليه السلام لفظ العداوة عليهم على هذا التأويل وثانيها : أن الكفار لما عبدوها وعظموها ورجوها في طلب المنافع ودفع المضار نزلت منزلة الأحياء العقلاء في اعتقاد الكفار ، ثم إنها صارت أسباباً لانقطاع الإنسان عن السعادة ووصوله إلى الشقاوة ، فلما نزلت هذه الأصنام منزلة الأحياء وجرت مجرى الدافع للمنفعة والجالب للمضرة لا جرم جرت مجرى الأعداء ، فلا جرم أطلق إبراهيم عليه السلام عليها لفظ العدو وثالثها : المراد في قوله : ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي ﴾ عداوة من يعبدها ، فإن قيل فلم لم يقل إن من يعبد الأصنام عدو لي ليكون الكلام حقيقة ؟ جوابه : لأن الذي تقدم ذكره ما عبدوه دون العابدين .

السؤال الثاني : لم قال : ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي ﴾ ولم يقل فإنها عدو لكم ؟ جوابه : أنه عليه السلام صور المسألة في نفسه على معنى إني فكرت في أمري فرأيت عبادتي لها عبادة للعدو فاجتنبتها ، (وآثرت عبادة من الخير كله منه) وأراهم (بذلك) أنها نصيحة نصح بها نفسه ، فإذا تفكروا قالوا ما نصحنا إبراهيم إلا بما نصح به نفسه ، فيكون ذلك أدعى للقبول .

السؤال الثالث : لم لم يقل فإنهم أعدائي ؟ جوابه العدو والصديق يجيئان في معنى الواحد والجماعة ، قال :

وقوم عليَّ ذوي (مرة) . . أراهم عدواً وكانوا صديقاً

---

(1) الصواب أن يقال : من وجوه لا من وجهين ، لأن الوجوه التي ذكرها ثلاثة ، ولعل الخطأ من الناسخ .

(44/569)

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ﴾ [الكهف : 50] وتحقيق القول فيه ما تقدم في قوله : ﴿ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ العالمين ﴾ [الشعراء : 16] .

السؤال الرابع : ما هذا الاستثناء ؟ جوابه أنه استثناء منقطع كأنه قال لكن رب العالمين .

﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (78) ﴾

اعلم أنه تعالى لما حكى عنه أنه استثنى رب العالمين ، حكى عنه أيضاً ما وصفه به مما يستحق العبادة لأجله ، ثم حكى عنه ما سأله عنه ، أما الأوصاف فأربعة : أولها : قوله : ﴿ الذى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ .

واعلم أنه سبحانه أثنى على نفسه بهذين الأمرين في قوله : ﴿ الذى خَلَقَ فسوى * والذى قَدَّرَ فهدى ﴾ [الأعلى : 2 ، 3] واعلم أن الخلق والهداية بهما يحصل جميع المنافع لكل من يصح الانتفاع عليه ، فلنتكلم في الإنسان فنقول إنه مخلوق ، فمنهم من قال هو من عالم

الخلق والجسمانيات ، ومن قال هو من عالم الأمر الروحانيات ، وتركيب البدن الذي هو من عالم الخلق مقدم على إعطاء القلب الذي هو من عالم الأمر على ما أخبر عنه سبحانه في قوله : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي ﴾ [ص : 72] فالتسوية إشارة إلى تعديل المزاج وتركيب الأمشاج ، ونفخ الروح إشارة إلى اللطيفة الربا نية النورانية التي هي من عالم الأمر ، وأيضاً قال : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان مِن سلالة مّن طِينٍ ﴾ [المؤمنون : 12] ولما تمم مراتب تغيرات الأجسام قال : ﴿ ثم أنشأناه خلقاً آخر ﴾ [المؤمنون : 14] وذلك إشارة إلى الروح الذي هو من عالم الملائكة ، ولا شك أن الهداية إنما تحصل من الروح ، فقد ظهر بهذه الآيات أن الخلق مقدم على الهداية .

(45/569)

أما تحقيقه بحسب المباحث الحقيقية ، فهو أن بدن الإنسان إنما يتولد عند امتزاج المني بدم الطمث ، وهما إنما يتولدان من الأغذية المتولدة من تركب العناصر الأربعة وتفاعلها ، فإذا امتزج المني بالدم فلا يزال ما فيها من الحار والبارد والرطب واليابس متفاعلاً ، وما في كل واحد منها من القوى كاسراً سورة كيفية الآخر ، فحينئذ يحصل من تفاعلهما كيفية متوسطة تستحر بالقياس إلى البارد وتستبرد بالقياس إلى الحار ، وكذا القول في الرطب

واليابس ، وحينئذ يحصل الاستعداد لقبول قوى مدبرة لذلك المركب فبعضها قوى نباتية وهي التي تجذب الغذاء ، ثم تمسكه ثم تهضمه ثم تدفع الفضلة المؤذية ، ثم تقيم تلك الأجزاء بدل ما تحلل منها ، ثم تزيد في جوهر الأعضاء طولاً وعرضاً ، ثم يفضل عن تلك المواد فضلة يمكن أن يتولد عنها مثل ذلك ، ومنها قوى حيوانية بعضها مدركة كالحواس الخمس والخيال والحفظ والذكر ، وبعضها فاعلة : إما آمرة كالشهوة والغضب أو مأمورة كالقوى المركوزة في العضلات ، ومنها قوى إنسانية وهي إما مدركة أو عاملة ، والقوى المدركة هي القوى القوية على إدراك حقائق الأشياء الروحانية والجسمانية والعلوية والسفلية ، ثم إنك إذا فتشت عن كل واحدة من مركبات هذا العالم الجسماني ، ومفرداتها وجدت لها أشياء تلائمها وتكمل حالها وأشياء تنافرها وتفسد حالها ، ووجدت فيها قوى جذابة للملائم دفاعة للمنافي ، فقد ظهر أن صلاح الحال في هذه الأشياء لا يتم إلا بالخلق والهداية .

(46/569)

أما الخلق فبتصييره موجوداً بعد أن كان معدوماً ، وأما الهداية فبتلك القوى الجذابة للمنافع والدفاعة للمضار فثبت أن قوله : ﴿ خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ كلمة جامعة حاوية لجميع

المنافع في الدنيا والدين ، ثم ههنا دقيقة وهو أنه قال : ﴿ خَلَقَنِى ﴾ فذكره بلفظ الماضي وقال : ﴿ يَهْدِينِ ﴾ ذكره بلفظ المستقبل ، والسبب في ذلك أن خلق الذات لا يتجدد في الدنيا ، بل لما وقع بقي إلى الأمد المعلوم .

أما هدايته تعالى فهي مما يتكرر كل حين وأوان سواء كان ذلك هداية في المنافع الدنيوية ، وذلك بأن تحكم الحواس بتمييز المنافع عن المضار أو في المنافع الدينية وذلك بأن يحكم العقل بتمييز الحق عن الباطل والخير عن الشر ، فبين بذلك أنه سبحانه هو الذي خلقه بسائر ما تكامل به خلقه في الماضي دفعة واحدة ، وأنه يهديه إلى مصالح الدين والدنيا بضروب الهدايات في كل لحظة ولمحة وثانيها : قوله : ﴿ والذى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴾ وقد دخل فيه كل ما يتصل بمنافع الرزق ، وذلك لأنه سبحانه إذا خلق له الطعام وملكه ، فلو لم يكن معه ما يتمكن به من أكله والاغتذاء به نحو الشهوة والقوة والتمييز لم تكمل هذه النعمة ، وذكر الطعام والشراب ونبه بذكرهما على ما عداهما وثالثها : قوله : ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ وفيه سؤال وهو أنه لم قال : ﴿ مرضات ﴾ دون أمرضني ؟ وجوابه من وجوه : الأول : أن كثيراً من أسباب المرض يحدث بتفريط من الإنسان في مطاعمه ومشاربه وغير ذلك ، ومن ثم قالت الحكماء : لو قيل لأكثر الموتى ما سبب آجالكم ؟ لقالوا التخم الثاني : أن المرض إنما يحدث باستيلاء بعض الأخلاط على بعض ، وذلك الاستيلاء إنما يحصل بسبب ما بينها من التنافر الطبيعي .

أما الصحة فهي إنما تحصل عند بقاء الأخلاط على اعتدالها وبقاؤها على اعتدالها ، إنما يكون بسبب قاهر يقهرها على الاجتماع ، وعودها إلى الصحة إنما يكون أيضاً بسبب قاهر يقهرها على العود إلى الاجتماع والاعتدال بعد أن كانت بطباعها مشتاقة إلى التفرق والنزاع ، فلهذا السبب أضاف الشفاء إليه سبحانه وتعالى ، وما أضاف المرض إليه وثالثها : وهو أن الشفاء محبوب وهو من أصول النعم ، والمرض مكروه وليس من النعم ، وكان مقصود إبراهيم عليه السلام تعديد النعم ، ولما لم يكن المرض من النعم لا جرم لم يضفه إليه تعالى ، فإن نقضته بالإماتة فجوابه : أن الموت ليس بضرر ، لأن شرط كونه ضرراً وقوع الإحساس به ، وحال حصول الموت لا يقع الإحساس به ، إنما الضرر في مقدماته وذلك هو عين المرض ، وأيضاً فلأنك قد عرفت أن الأرواح إذا كملت في العلوم والأخلاق كان بقاؤها في هذه الأجساد عين الضرر وخلاصتها عنها عين السعادة بخلاف المرض ورابعها : قوله : ﴿ والذى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴾ والمراد منه الإماتة في الدنيا والتخلص عن آفاتها وعقوباتها ، والمراد من الإحياء المجازاة وخامسها : قوله : ﴿ والذى أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيئَتِى يَوْمَ الدين ﴾ فهو إشارة إلى ما هو مطلوب كل عاقل من الخلاص عن العذاب والفوز بالثواب .

واعلم أن إبراهيم عليه السلام جمع في هذه الألفاظ جميع نعم الله تعالى من أول الخلق إلى آخر الأبد في الدار الآخرة ، ثم ههنا أسئلة :

(48/569)

السؤال الأول : لم قال : ﴿ والذى أَطْمَعُ ﴾ والطمع عبارة عن الظن والرجاء ، وإنه عليه السلام كان قاطعاً بذلك ؟ جوابه : أن هذا الكلام لا يستقيم إلا على مذهبنا ، حيث قلنا إنه لا يجب على الله لأحد شيء ، وأنه يحسن منه كل شيء ولا اعتراض لأحد عليه في فعله ، وأجاب الجبائي عنه من وجهين : الأول : أن قوله : ﴿ والذى أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيئَتِى ﴾ أراد به سائر المؤمنين لأنهم الذين يطمعون ولا يقطعون به الثاني : المراد من الطمع اليقين ، وهو مروي عن الحسن وأجاب صاحب "الكشاف" : بأنه إنما ذكره على هذا الوجه تعليماً منه لأمته كيفية الدعاء .

واعلم أن هذه الوجوه ضعيفة ، أما الأول : فلأن الله تعالى حكى عنه الثناء أولاً والدعاء ثانياً ومن أول المدح إلى آخر الدعاء كلام إبراهيم عليه السلام فجعل الشيء الواحد وهو قوله : ﴿ والذى أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيئَتِى يَوْمَ الدين ﴾ كلام غيره مما يبطل نظم الكلام ويفسده ، وأما الثاني : وهو أن الطمع هو اليقين فهذا على خلاف اللغة ، وأما الثالث : وهو

أن الغرض منه تعليم الأمة فباطل أيضاً لأن حاصله يرجع إلى أنه كذب على نفسه لغرض تعليم الأمة ، وهو باطل قطعاً .

(49/569)

السؤال الثاني : لم أسند إلى نفسه الخطيئة مع أن الأنبياء منزعون عن الخطايا قطعاً ؟ ، وفي جوابه ثلاثة وجوه : أحدها : أنه محمول على كذب إبراهيم عليه السلام في قوله : ﴿ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ ﴾ [الأنبياء : 63] وقوله : ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾ [الصافات : 89] وقوله لسارة : (إنها أختي) وهو ضعيف لأن نسبة الكذب إليه غير جائزة وثانيها : أنه ذكره على سبيل التواضع وهضم النفس وهذا ضعيف لأنه إن كان صادقاً في هذا التواضع فقد لزم الإشكال ، وإن كان كاذباً فحينئذ يرجع حاصل الجواب إلى إلحاق المعصية به لأجل تنزيهه عن المعصية وثالثها : وهو الجواب الصحيح أن يحمل ذلك على ترك الأولى ، وقد يسمى ذلك خطأ فإن من ملك جوهرة وأمكنه أن يبيعها بألف ألف دينار فإن باعها بدينار ، قيل إنه أخطأ ، وترك الأولى على الأنبياء جائز .

السؤال الثالث : لم علق مغفرة الخطيئة بيوم الدين ، وإنما تغفر في الدنيا ؟ جوابه : لأن أثرها يظهر يوم الدين وهو الآن خفي لا يعلم .

السؤال الرابع : ما فائدة (لي) في قوله : ﴿ يَغْفِرَ لِى خَطِيئَتِى ﴾ ؟ وجوابه من وجوه :

أحدها : أن الأب إذا عفا عن ولده والسيد عن عبده والزوج عن زوجته فذلك في أكثر الأمر إنما يكون طلباً للثواب وهرباً عن العقاب أو طلباً لحسن الثناء والمحمدة أو دفعاً للألم الحاصل من الرقة الجنسية وإذا كان كذلك لم يكن المقصود من ذلك العفو رعاية جانب المعفو عنه بل رعاية جانب نفسه ، إما لتحصيل ما ينبغي أو لدفع ما لا ينبغي ، أما الإله سبحانه فإنه كامل لذاته فيستحيل أن تحدث له صفات كمال لم تكن أو يزول عنه نقصان كان ، وإذا كان كذلك لم يكن عفوه إلا رعاية لجانب المعفو عنه فقوله : ﴿ والذى أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى ﴾ يعني هو الذي إذا غفر كان غفرانه لي ولأجلي لا لأجل أمر عائد إليه ألبتة وثانيها : كأنه قال خلقتني لا لي فإنك حين خلقتني ما كنت موجوداً وإذا لم أكن موجوداً استحال تحصيل شيء لأجلي ثم مع هذا فأنت خلقتني ، أما لو عفوت كان ذلك العفو لأجلي ، فلما خلقتني أولاً مع أني كنت محتاجاً إلى ذلك الخلق فلأن تغفر لي وتعفو عني حال ما أكون في أشد الحاجة إلى العفو والمغفرة كان أولى وثالثها : أن إبراهيم عليه السلام كان لشدة استغراقه في بحر المعرفة شديد الفرار عن الالتفات إلى الوسائط ، ولذلك لما قال له جبريل

عليه السلام : "ألك حاجة ؟ قال أما إليك فلا" فههنا قال : ﴿ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴾ أي لمجرد عبوديتي لك واحتياجي إليك تغفر لي خطيئتي لا أن تغفرها لي بواسطة شفاعة شافع .

﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (83) ﴾

(51/569)

اعلم أن الله تعالى لما حكى عن إبراهيم عليه السلام ثناءه على الله تعالى ذكر بعد ذلك دعاءه ومسألته وذلك تنبيه على أن تقديم الثناء على الدعاء من المهمات وتحقيق الكلام فيه أن هذه الأرواح البشرية من جنس الملائكة فكلما كان اشتغالها بمعرفة الله تعالى ومحبته والانجذاب إلى عالم الروحانيات أشد كانت مشاكلتها للملائكة أتم ، فكانت أقوى على التصرف في أجسام هذا العالم ، وكلما كان اشتغالها بلذات هذا العالم واستغراقها في ظلمات هذه الجسمانيات أشد كانت مشاكلتها للبهائم أشد فكانت أكثر عجزاً وضعفاً وأقل تأثيراً في هذا العالم ، فمن أراد أن يشتغل بالدعاء يجب أن يقدم عليه ثناء الله تعالى وذكر عظمته وكبريائه حتى أنه بسبب ذلك الذكر يصير مستغرقاً في معرفة الله ومحبته ويصير قريب المشاكلة من الملائكة فتحصل له بسبب تلك المشاكلة قوة إلهية سماوية

فيصير مبدأ لحدوث ذلك الشيء الذي هو المطلوب بالدعاء فهذا هو الكشف عن ماهية الدعاء وظهر أن تقديم الثناء على الدعاء من الواجبات وظهر به تحقيق قوله عليه السلام حكاية عن الله تعالى : " من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين " فإن قال قائل : لم لم يقتصر إبراهيم عليه السلام على الثناء ، لا سيما ويروى عنه أيضاً أنه قال : حسبي من سؤالي علمه بحالي ؟ فالجواب : أنه عليه السلام إنما ذكر ذلك حين كان مشتغلاً بدعوة الخلق إلى الحق ألا ترى أنه قال : ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِى إِلاَّ رَبَّ العالمين ﴾ [الشعراء : 77] ثم ذكر الثناء ، ثم ذكر الدعاء لأن الشارع لا بد له من تعليم الشرع ، فأما حين ما خلا بنفسه ، ولم يكن غرضه تعليم الشرع كان يقتصر على قوله : حسبي من سؤالي علمه بحالي .

البحث الثاني : في الأمور التي طلبها في الدعاء وهي مطاليب :

(52/569)

المطلوب الأول : قوله : ﴿ رَبِّ هَبْ لِى حُكْماً وَأَلْحِقْنِى بالصالحين ﴾ ، ولقد أجابه الله تعالى حيث قال : ﴿ وَإِنَّهُ فِى الآخرة لَمِنَ الصالحين ﴾ [البقرة : 130] وفيه مطالب :

أحدها : أنه لا يجوز تفسير الحكم بالنبوة لأن النبوة كانت حاصلة فلو طلب النبوة لكانت

النبوة المطلوبة ، أما عين النبوة الحاصلة أو غيرها ، والأول محال لأن تحصيل الحاصل محال ، والثاني محال لأنه يمتنع أن يكون الشخص الواحد نبياً مرتين ، بل المراد من الحكم ما هو كمال القوة النظرية ، وذلك بإدراك الحق ومن قوله ﴿ وَأَلْحِقْنِى بالصالحين ﴾ كمال القوة العملية ، وذلك بأن يكون عاملاً بالخير فإن كمال الإنسان أن يعرف الحق لذاته ، والخير لأجل العمل به ، وإنما قدم قوله : ﴿ رَبّ هَبْ لِى حُكْماً ﴾ على قوله : ﴿ وَأَلْحِقْنِى بالصالحين ﴾ لما أن القوة النظرية مقدمة على القوة العملية بالشرف وبالذات ، وأيضاً فإنه يمكنه أن يعلم الحق وإن لم يعلم بالخير وعكسه غير ممكن ، ولأن العلم صفة الروح والعمل صفة البدن ، ولما كان الروح أشرف من البدن كان العلم أفضل من العمل ، وإنما فسرنا معرفة الأشياء بالحكم وذلك لأن الإنسان لا يعرف حقائق الأشياء إلا إذا استحضر في ذهنه صور الماهيات ، ثم نسب بعضها إلى بعض بالنفي أو بالإثبات ، وتلك النسبة وهي الحكم ، ثم إن كانت النسب الذهنية مطابقة للنسب الخارجية كانت النسب الذهنية ممتنعة التغير فكانت مستحكمة قوية ، فمثل هذا الإدراك يسمى حكمة حكماً ، وهو المراد من قوله عليه السلام :

(53/569)

" أرنا الأشياء كما هي " وأما الصلاح فهو كون القوة العاقلة متوسطة بين رذيلتي الإفراط والتفريط ، وذلك لأن الإفراط في أحد الجانبين تفريط في الجانب الآخر وبالعكس فالصلاح لا يحصل إلا بالاعتدال ، ولما كان الاعتدال الحقيقي شيئاً واحداً لا يقبل القسمة ألبتة والأفكار البشرية في هذا العالم قاصرة على إدراك أمثال هذه الأشياء ، لا جرم لا ينفك البشر عن الخروج عن ذلك الحد وإن قل ، إلا أن خروج المقربين عنه يكون في القلة بحيث لا يحس به وخروج العصاة عنه يكون متفاحشاً جداً فقد ظهر من هذا تحقيق ما قيل : حسنات الأبرار سيئات المقربين ، وظهر احتياج إبراهيم عليه السلام إلى أن يقول : ﴿ وَأَلْحِقْنِى بالصالحين ﴾ .

المطلب الثاني : لما ثبت أن المراد من الحكم العلم ، ثبت أنه عليه السلام طلب من الله أن يعطيه العلم بالله تعالى وبصفاته ، وهذا يدل على أن معرفة الله تعالى لا تحصل في قلب العبد إلا بخلق الله تعالى ، وقوله : ﴿ وَأَلْحِقْنِى بالصالحين ﴾ يدل على أن كون العبد صالحاً ليس إلا بخلق الله تعالى وحمل هذه الأشياء على الألطاف بعيد ، لأن عند الخصم كل ما في قدرة الله تعالى من الألطاف فقد فعله فلو صرفنا الدعاء إليه لكان ذلك طلباً لتحصيل الحاصل وهو فاسد .

المطلب الثالث : أن الحكم المطلوب في الدعاء إما أن يكون هو العلم بالله أو بغيره والثاني باطل ، لأن الإنسان حال كونه مستحضراً للعلم بشيء لا يمكنه أن يكون مستحضراً للعلم بشيء آخر فلو كان المطلوب بهذا الدعاء العلم بغير الله تعالى ، والعلم بغير الله تعالى شاغل عن الاستغراق في العلم بالله كان هذا السؤال طلباً لما يشغله عن الاستغراق في العلم بالله تعالى ، وذلك غير جائز لأنه لا كمال فوق ذلك الاستغراق فإذن المطلوب بهذا الدعاء هو العلم بالله ، ثم إن ذلك العلم إما أن يكون هو العلم بالله تعالى الذي هو شرط صحة الإيمان أو غيره ، والأول باطل لأنه لما وجب أن يكون حاصلاً لكل المؤمنين فكيف لا يكون حاصلاً عند إبراهيم عليه السلام ، وإذا كان حاصلاً عنده امتنع طلب تحصيله ، فثبت أن المطلوب بهذا الدعاء درجات في معرفة الله تعالى أزيد من العلم بوجوده وبأنه ليس بمتحيز ولا حال في المتحيز وبأنه عالم قادر حي ، وما ذاك إلا الوقوف على صفات الجلال أو الوقوف على حقيقة الذات أو ظهور نور تلك المعرفة في القلب .

ثم هناك أحوال لا يعبر عنها المقال ولا يشرحها الخيال ، ومن أراد أن يصل إليها فليكن من الواصلين إلى العين ، دون السامعين للأثر .

المطلوب الثاني : قوله : ﴿ واجعل لّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى الأخرين ﴾ وفيه ثلاث تأويلات :

التأويل الأول : أنه عليه السلام ابتدأ بطلب ما هو الكمال الذاتي للإنسان في الدنيا والآخرة وهو طلب الحكم الذي هو العلم ، ثم طلب بعده كمالات الدنيا وبعد ذلك طلب كمالات الآخرة ، فأما كمالات الدنيا فبعضها داخلية وبعضها خارجية ، أما الداخلية فهي الخلق الظاهر والخلق الباطن والخلق الظاهر أشد جسمانية والخلق الباطن أشد روحانية ، فترك إبراهيم عليه السلام الأمر الجسماني وهو الخلق الظاهر وطلب الأمر الروحاني وهو الخلق الباطن ، وهو المراد بقوله : ﴿ وَأَلْحِقْنِى بالصالحين ﴾ وأما الخارجية فهي المال والجاه ، والمال أشد جسمانية والجاه أشد روحانية فترك إبراهيم عليه السلام الأمر الجسماني وهو المال وطلب الأمر الروحاني وهو الجاه والذكر الجميل الباقي على وجه الدهر ، وهو المراد بقوله : ﴿ واجعل لّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى الأخرين ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما وقد أعطاه ذلك بقوله : ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى الأخرين ﴾ فإن قيل وأي غرض له في أن يثني عليه ويمدح ؟ جوابه من وجهين : الأول : وهو على لسان الحكمة أن الأرواح البشرية قد بينا أنها مؤثرة في الجملة إلا أن بعضها قد يكون ضعيفاً فيعجز عن التأثير فإذا اجتمعت طائفة منها فربما قوي مجموعها على ما عجزت الآحاد عنه ، وهذا المعنى مشاهد في المؤثرات

الجسمانية ، إذا ثبت هذا فالإنسان الواحد إذا كان بحيث يثني عليه الجمع العظيم ويمدحونه ويعظمونه ، فربما صار انصراف هممهم عند الاجتماع إليه سبباً لحصول زيادة كمال له الثاني : وهو على لسان الكمال أن من صار ممدوحاً فيما بين الناس بسبب ما عنده من الفضائل ، فإنه يصير ذلك المدح وتلك الشهرة داعياً لغيره إلى اكتساب مثل تلك الفضائل .

(56/569)

التأويل الثاني : أنه سأل ربه أن يجعل من ذريته في آخر الزمان من يكون داعياً إلى الله تعالى ، وذلك هو محمد صلى الله عليه وسلم فالمراد من قوله : ﴿ واجعل لّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى الأخرين ﴾ بعثة محمد صلى الله عليه وسلم .

التأويل الثالث : قال بعضهم المراد اتفاق أهل الأديان على حبه ، ثم إن الله تعالى أعطاه ذلك لأنك لا ترى أهل دين إلا ويتوالون إبراهيم عليه السلام ، وقدح بعضهم فيه بأنه لا تقوى الرغبة في مدح الكافر وجوابه : أنه ليس المقصود مدح الكافر من حيث هو كافر ، بل المقصود أن يكون ممدوح كل إنسان ومحبوب كل قلب .

المطلوب الثالث : قوله : ﴿ واجعلنى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النعيم ﴾ اعلم أنه لما طلب سعادة

الدنيا طلب بعدها سعادة الآخرة وهي جنة النعيم ، وشبهها بما يورث لأنه الذي يغتنم في الدنيا ، فشبه غنيمة الآخرة بغنيمة الدنيا .

(57/569)

المطلوب الرابع : قوله : ﴿ واغفر لأَبِى إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضالين ﴾ واعلم أنه لما فرغ من طلب السعادات الدنيوية والأخروية لنفسه طلبها لأشد الناس التصاقاً به وهو أبوه فقال : ﴿ واغفر لأَبِى ﴾ ثم فيه وجوه : الأول : أن المغفرة مشروطة بالإسلام وطلب المشروط متضمن لطلب الشرط فقوله : ﴿ واغفر لأَبِى ﴾ يرجع حاصله إلى أنه دعاء لأبيه بالإسلام الثاني : أن أباه وعده الإسلام كما قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ استغفار إبراهيم لأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ ﴾ [التوبة : 114] فدعا له لهذا الشرط ولا يمتنع الدعاء للكافر على هذا الشرط ﴿ فَلَمَّا تَبَيَّنَ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ﴾ [التوبة : 114] وهذا ضعيف لأن الدعاء بهذا الشرط جائز للكافر فلو كان دعاؤه مشروطاً لما منعه الله عنه الثالث : أن أباه قال له إنه على دينه باطناً وعلى دين نمروذ ظاهراً تقية وخوفاً ، فدعا له لاعتقاده أن الأمر كذلك فلما تبين له خلاف ذلك تبرأ منه ، لذلك قال في دعائه : ﴿ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضالين ﴾ فلولا اعتقاده فيه أنه في الحال ليس بضال لما قال ذلك .

المطلوب الخامس : قوله : ﴿ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴾ قال صاحب "الكشاف" : الإخزاء من الخزي وهو الهوان ، أو من الخزاية وهي الحياء وههنا أبحاث :

أحدها : أن قوله : ﴿ وَلَا تُخْزِنِى ﴾ يدل على أنه لا يجب على الله تعالى شيء على ما بيناه في قوله : ﴿ والذى أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيئَتِى يَوْمَ الدين ﴾ [الشعراء : 82] .

(58/569)

وثانيها : أن لقائل أن يقول لما قال أولاً : ﴿ واجعلنى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النعيم ﴾ ومتى حصلت الجنة ، امتنع حصول الخزي ، فكيف قال بعده : ﴿ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴾ وأيضاً فقد قال تعالى : ﴿ إِنَّ الخزى اليوم والسوء عَلَى الكافرين ﴾ [النحل : 27] فما كان نصيب الكفار فقط فكيف يخافه المعصوم ؟ جوابه : كما أن حسنات الأبرار سيئات المقربين فكذا درجات الأبرار دركات المقربين وخزي كل واحد بما يليق به .

وثالثها : قال صاحب "الكشاف" : في (يبعثون) ضمير العباد لأنه معلوم أو ضمير الضالين .

أما قوله : ﴿ إِلَّا مَنْ أَتَى الله بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ فاعلم أنه تعالى أكرمه بهذا الوصف حيث قال : ﴿ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لإبراهيم * إِذْ جَاء رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الصافات : 83 ، 84] .

ثم في هذا الاستثناء وجوه : أحدها : أنه إذا قيل لك : هل لزيد مال وبنون ؟ فتقول ماله وبنوه سلامة قلبه ، تريد نفي المال والبنين عنه وإثبات سلامة القلب له بدلاً عن ذلك ، فكذا في هذه الآية وثانيها : أن نحمل الكلام على المعنى ونجعل المال والبنين في معنى الغنى كأنه قيل يوم لا ينفع غنى إلا غنى من أتى الله بقلب سليم لأن غنى الرجل في دينه بسلامة قلبه كما أن غناه في دنياه بماله وبنيه وثالثها : أن نجعل (من) مفعولاً لينفع أي لا ينفع مال ولا بنون إلا رجلاً سلم قلبه مع ماله حيث أنفقه في طاعة الله تعالى ، ومع بنيه حيث أرشدهم إلى الدين ، ويجوز على هذا ﴿ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ من فتنة المال والبنين ، أما السليم ففي ثلاثة أوجه : الأول : وهو الأصح أن المراد منه سلامة القلب عن الجهل والأخلاق الرذيلة ، وذلك لأنه كما أن صحة البدن وسلامته عبارة عن حصول ما ينبغي من المزاج والتركيب والاتصال ومرضه عبارة عن زوال أحد تلك الأمور فكذلك سلامة القلب عبارة عن حصول ما ينبغي له وهو العلم والخلق الفاضل ومرضه عبارة عن زوال أحدهما فقوله : ﴿ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ أن يكون خالياً عن العقائد الفاسدة والميل إلى شهوات الدنيا ولذاتها فإن قيل فظاهر هذه الآية يقتضي أن من سلم قلبه كان

ناجياً وأنه لا حاجة فيه إلى سلامة اللسان واليد جوابه : أن القلب مؤثر واللسان والجوارح تبع فلو كان القلب سليماً لكانا سليمين لا محالة ، وحيث لم يسلما ثبت عدم سلامة القلب التأويل الثاني : أن السليم هو اللديغ من خشية الله تعالى التأويل الثالث : أن السليم هو الذي سلم وأسلم وسالم واستسلم ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 24 صـ 130.123 ﴾

(60/569)

وقال الجصاص :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴾ قَالَ : (الثَّنَاءُ الْحَسَنُ) فَالْيَهُودُ تُقِرُّ بِنُبُوَّتِهِ وَكَذَلِكَ النَّصَارَى وَأَكْثَرُ الْأُمَمِ .

وَقِيلَ : اجْعَلْ مِنْ وَلَدِي مَنْ يَقُومُ بِالْحَقِّ وَيَدْعُو إلَيْهِ وَهُوَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِهِ .

وَقَوْله تَعَالَى : ﴿ إلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾

قِيلَ : إنَّمَا سَأَلَ سَلَامَةَ الْقَلْبِ ؛ لِأَنَّهُ إذَا سَلِمَ الْقَلْبُ سَلِمَ سَائِرُ الْجَوَارِحِ مِنْ الْفَسَادِ ، إذْ الْفَسَادُ بِالْجَوَارِحِ لَا يَكُونُ إلَّا عَنْ قَصْدٍ فَاسِدٍ بِالْقَلْبِ فَإِنْ اجْتَمَعَ مَعَ ذَاكَ جَهْلٌ فَقَدْ عَدِمَ

السَّلَامَةَ مِنْ وَجْهَيْنِ .

وَرَوَى النُّعْمَانُ بْنُ بَشِيرٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ إنِّي لَأَعْلَمُ مُضْغَةً إذَا صَلُحَتْ صَلُحَ الْبَدَنُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ ﴾ . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(61/569)

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى ﴿ وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴾ .

فِيهَا ثَلَاثُ مَسَائِلَ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : قَوْلُهُ : ﴿ وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴾ : قَالَ مَالِكٌ : لَا بَأْسَ أَنْ يُحِبَّ الرَّجُلُ أَنْ يُثْنَى عَلَيْهِ صَالِحًا ؛ وَيُرَى فِي عَمَلِ الصَّالِحِينَ ، إذَا قَصَدَ بِهِ وَجْهَ اللَّهِ وَهُوَ الثَّنَاءُ الصَّالِحُ ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ : ﴿ وَأَلْقَيْت عَلَيْك مَحَبَّةً مِنِّي ﴾ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : قَوْلُهُ : ﴿ وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴾ يَعْنِي أَنْ يَجْعَلَ مِنْ وَلَدِهِ مَنْ يَقُومُ بِالْحَقِّ مِنْ بَعْدِهِ إلَى يَوْمِ الدِّينِ ؛ فَقُبِلَتْ الدَّعْوَةُ وَلَمْ تَزَلْ النُّبُوَّةُ فِيهِمْ إلَى مُحَمَّدٍ ، ثُمَّ إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ .

وَقِيلَ : إنَّ الْمَطْلُوبَ اتِّفَاقُ الْمِلَلِ كُلِّهَا عَلَيْهِ [إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ] ، فَلَا أُمَّةٌ إلَّا تَقُولُ بِهِ وَتُعَظِّمُهُ ، وَتَدَّعِيهِ ، إلَّا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ قَطَعَ وِلَايَةَ الْأُمَمِ كُلِّهَا إلَّا وِلَايَتَنَا ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ : ﴿ إنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : قَالَ الْمُحَقِّقُونَ مِنْ شُيُوخِ الزُّهْدِ : فِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى التَّرْغِيبِ فِي الْعَمَلِ الصَّالِحِ الَّذِي يُكْسِبُ الثَّنَاءَ الْحَسَنَ .

وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ إذَا مَاتَ الْمَرْءُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إلَّا مِنْ ثَلَاثٍ : صَدَقَةٌ جَارِيَةٌ ، أَوْ عِلْمٌ عَلَّمَهُ ، أَوْ وَلَدٌ صَالِحٌ يَدْعُو لَهُ ﴾ .

(62/569)

وَفِي رِوَايَةٍ : إنَّهُ كَذَلِكَ فِي الْغَرْسِ وَالزَّرْعِ ، وَكَذَلِكَ فِيمَنْ مَاتَ مُرَابِطًا يُكْتَبُ لَهُ عَمَلُهُ إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَالْخَمْسَةُ صَحِيحٌ أَثَرُهَا ؛ وَمَسْأَلَةُ الرِّبَاطِ حَسَنٌ سَنَدُهَا .

قَوْله تَعَالَى : ﴿ إلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾

فِيهِ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا : أَنَّهُ سَلِيمٌ مِنْ الشِّرْكِ قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ .

الثَّانِي : أَنَّهُ سَلِيمٌ مِنْ رَذَائِلِ الْأَخْلَاقِ .

فَقَدْ رُوِيَ عَنْ عُرْوَةَ أَنَّهُ قَالَ : يَا بَنِيَّ ؛ لَا تَكُونُوا لَعَّانِينَ ، فَإِنَّ إبْرَاهِيمَ لَمْ يَلْعَنْ شَيْئًا قَطُّ .

قَالَ اللَّهُ : ﴿ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ وَقَالَ قَوْمٌ : مَعْنَاهُ لَدِيغٌ ، أَحْرَقَتْهُ الْمَخَاوِفُ ، وَلَدَغَتْهُ الْخَشْيَةُ .

وَقَدْ قَالَ بَعْضُ عُلَمَائِنَا : إِنَّ مَعْنَاهُ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ مِنْ الشِّرْكِ ؛ فَأَمَّا الذُّنُوبُ فَلَا يَسْلَمُ أَحَدٌ مِنْهَا .

وَالَّذِي عِنْدِي أَنَّهُ لَا يَكُونُ الْقَلْبُ سَلِيمًا إذَا كَانَ حَقُودًا حَسُودًا ، مُعْجَبًا مُتَكَبِّرًا ، وَقَدْ شَرَطَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْإِيمَانِ أَنْ يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ .

وَاَللَّهُ الْمُوَفِّقُ بِرَحْمَتِهِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 3 صـ ﴾

(63/569)

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾

فيه وجهان

: أحدهما : الي خلقني بنعمته فهو يهدين لطاعته .

الثاني : الذي خلقني لطاعته فهو يهديني لجنته ، فإن قيل فهذه صفة لجميع الخلق فكيف جعلها إبراهيم عل هدايته ولم يهتد بها غيره ؟

قيل : إنما ذكرها احتجاجاً على وجوب الطاعة ، لأن من أنعم وجب أن يطاع ولا يُعصى ليلتزم غيره من الطاعة ما قد التزمها ، وهذا إلزام صحيح ثم فصل ذلك بتعديد نعمه عليه وعليهم فقال :

﴿ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ وهذا احتجاجاً عليهم لموافقتهم له ثم قال : ﴿ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴾ وهذا قوله استدلالاً ولم يقله احتجاجاً ، لأنهم خالفوه فيه ، فبين لهم أن ما وافقوه عليه موجب لما خالفوه فيه .

وتجوز بعض المتعمقة في غوامض المعاني فعدل بذلك عن ظاهره إلى ما تدفعه بداهة العقول فتأول ﴿ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴾ أي يطعمني لذة الإيمان ويسقيني حلاوة القبول .

وفي قوله : ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ وجهان :

أحدهما : إذا مرضت بمخالفته شفاني برحمته .

الثاني : مرضت بمقاساة الخلق شفاني بمشاهدة الحق .

وتأولوا قوله : ﴿ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴾ على ثلاثة أوجه :

أحدها : والذي يميتني بالمعاصي ويحييني بالطاعات .

الثاني : يميتني بالخوف ويحييني بالرجاء .

الثالث : يميتني بالطمع ويحييني بالقناعة . وهذه تأويلات تخرج عن حكم الاحتمال إلى جهة الاستطراف ، فلذلك ذكرناها وإن كان حذفها من كتابنا أوْلى .

قوله تعالى : ﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً ﴾ فيه أربعة تأويلات

: أحدها : أنه اللب ، قاله عكرمة .

الثاني : العلم ، قاله ابن عباس .

الثالث : القرآن ، قاله مجاهد .

الرابع : النبوة ، قاله السدي .

(64/569)

ويحتمل خامساً : أنه إصابة الحق في الحكم . ﴿ وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ قال عبد الرحمن بن زيد : مع الأنبياء والمؤمنين

. ويحتمل وجهين :

أحدهما : بالصالحين من أصفيائك في الدنيا .

الثاني : بجزاء الصالحين في الآخرة ومجاورتهم في الجنة .

قوله تعالى : ﴿ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : ثناء حسناً في الأمم كلها ، قاله مجاهد ، وقتادة ، وجعله لساناً لأنه يكون باللسان .

الثاني : أن يؤمن به أهل كل ملة ، قاله ليث بن أبي سليم .

الثالث : أن يجعل من ولده من يقول بالحق بعده ، قاله علي بن عيسى .

ويحتمل رابعاً : أن يكون مصدقاً في جمع الملل وقد أجيب إليه .

قوله تعالى : ﴿ وَاغْفِرْ لأَبِي ﴾ الآية . في أبيه قولان :

أحدهما : أنه كان يسر الإيمان ويظهر الكفر فعلى هذا يصح الاستغفار له .

الثاني : وهو الأظهر أنه كان كافراً في الظاهر والباطن .

فعلى هذا في استغفاره له قولان :

أحدهما : أنه سأل أن يغفر له في الدنيا ولا يعاقبه فيها .

والثاني : أنه سأل أن يغفر له سيئاته التي عليه والتي تسقط بعفوه .

قوله تعالى : ﴿ بِقَلْبٍ ﴾ فيه خمسة أوجه :

أحدها : سليم من الشك ، قاله مجاهد .

الثاني : سليم من الشرك ، قاله الحسن ، وابن زيد .

الثالث : من المعاصي ، لأنه إذا سلم القلب سلمت الجوارح .

الرابع : أنه الخالص ، قاله الضحاك .

الخامس : أنه الناصح في خلقه ، قاله عبد الرحمن بن أبي حاتم .

ويحتمل سادساً : سليم القلب من الخوف في القيامة لما تقدم من البشرى عند المعاينة .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

(65/569)

وقال ابن عطية :

فلما صرحوا لإبراهيم عليه السلام عن عدم نظرهم وأنه لا حجة لهم خاطبهم ببراءته من جميع ما عبد من دون الله وعداوته لذلك وعبر عن بغضته واطراحه لكل معبود سوى الله تعالى بالعداوة إذ هي تقتضي التغيير ومحو الرسم ، وقيل في الكلام قلب لأن الأصنام لا تعادي وإنما هو عاداها ، وقوله ﴿ إلا رب العالمين ﴾ قالت فرقة هو استثناء متصل لأن في بغضته الأقدمين من قد عبد الله ، وقالت فرقة هو استثناء منقطع لأنه إنما أرد عبادة الأوثان من كل قرن منهم ، ولفظة ﴿ عدو ﴾ تقع للجميع والمفرد والمؤنث والمذكر .

﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (78) ﴾

أتى إبراهيم عليه السلام في هذه الأوصاف التي وصف الله عز وجل بها بالصفات التي المتصف بها يستحق الألوهية وهي الأوصاف الفعلية التي تخص البشر ، ومنها يجب أن يفهم ربه عز وجل وهذا حسن الأدب في العبارة ، والكل من عند الله تعالى ، وقوله ﴿

يطعمني ويسقين ﴾ تعديد للنعمة في الرزق ، وقال أبو بكر الوراق في كتاب الثعلبي يطعمني بلا طعام ويسقيني بلا شراب ، كما قال النبي عليه السلام " إني أبيت عند ربي يطعمني ويسقين ، وأسند إبراهيم المرض إلى نفسه والشفاء إلى الله عز وجل . وهذا حسن الأدب في العبارة والكل من عند الله تعالى ، وهذا كقول الخضر عليه السلام : فأردت أن أعيبها . وقال جعفر الصادق إذا مرضت بالذنوب شفاني بالتوبة ، وقرأ الجمهور هذه الأفعال " يهدين " بغير ياء ، وقرأ نافع وابن أبي إسحاق " يهدين " ، وكذلك ما بعده وأوقف عليه السلام نفسه على الطمع في المغفرة وهذا دليل على شدة خوفه مع منزلته وخلته ، وقوله ﴿ خطيئتي ﴾ ، ذهب فيه أكثر المفسرين إلى أنه أراد كذباته الثلاث ، قوله هي أختي في شأن سارة ، وقوله ﴿ إني سقيم ﴾ [الصافات : 89] ، وقوله ﴿ بل فعله كبيرهم ﴾ [الأنبياء : 63] ، وقالت فرقة أراد ب " الخطيئة " اسم الجنس فدعا في كل أمره من غير تعيين .

(66/569)

قال القاضي أبو محمد : وهذا أظهر عندي لأن تلك الثلاث قد خرجها كثير من العلماء على المعارض ، وهي وإن كانت كذبات بحكم قول النبي صلى الله عليه وسلم لم يكذب

إبراهيم إلا ثلاث كذبات ، وبحكم ما في حديث الشفاعة من قوله في شأن إبراهيم نفسي نفسي فهي في مصالح وعون شرع وحق ، وقرأ الجمهور " خطيئتي " بالإفراد ، وقرأ الحسن " خطاياي " بالجمع ، و" الحكم " الذي دعا فيه إبراهيم هو الحكمة والنبوة ، ودعاء إبراهيم في مثل هذا هو في معنى التثبيت والدوام ، و" لسان الصدق " في الآخرين هو الثناء وخلد المكانة بإجماع من المفسرين ، وكذلك أجاب الله دعوته ، فكل ملة تتمسك به وتعظمه هو على الحنيفية التي جاء بها محمد صلى الله عليه وسلم ، قال مكي وقيل معنى سؤاله أن يكون من ذريته في آخر الزمان من يقوم بالحق فأجيبت الدعوة في محمد صلى الله عليه وسلم .

قال القاضي أبو محمد : وهذا معنى حسن إلا أن لفظ الآية لا يعطيه إلا بتحكم على اللفظ ، واستغفاره لأبيه في هذه الآية هو قبل أن تبين له بموته على الكفر أنه عدو الله ، أي محتوم عليه وهو عن الموعدة المذكورة في غير هذه الآية ، وفي قراءة أبي بن كعب " واغفر لي ولأبوي إنهما كانا من الضالين " .

﴿ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (88) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (89) ﴾

﴿ يوم ﴾ بدل من الأولى في قوله ﴿ يوم يبعثون ﴾ [الشعراء : 87] والمعنى يوم لا ينفع إعلاق بالدنيا ومحاسنها فقصد من ذلك العظم والأكثر لأن المال والبنين هي زينة الحياة الدنيا ، وقوله ﴿ بقلب سليم ﴾ معناه خالص من الشرك والمعاصي ، وعلق الدنيا

المتروكة وإن كانت مباحة كالمال والبنين ، قال سفيان هو الذي يلقى ربه وليس في قلبه شيء غيره .

قال القاضي أبو محمد : وهذا يقتضي عموم اللفظة ، ولكن السليم من الشرك هو الأهم ، وقال الجنيد بقلب لديغ من خشية الله والسليم اللديغ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(67/569)

وقال ابن الجوزى فى الآيات السابقة :

قوله تعالى : ﴿ هل يَسْمَعُونكم ﴾

والمعنى : هل يَسمعون دعاءكم .

وقرأ سعيد بن جبير ، وابن يعمر ، وعاصم الجحدري : ﴿ هل يُسْمِعونكم ﴾ بضم الياء وكسر الميم ، ﴿ إِذ تَدْعُون ﴾ قال الزجاج : إِن شئت بيَّنت الذال ، وإِن شئت أدغمتها في التاء وهو أجود في العربية ، لقرب الذال من التاء .

قوله تعالى : ﴿ أو يَنْفَعونكم ﴾ أي : إِن عبدتموهم ﴿ أو يَضُرُّونَ ﴾ إِن لم تعبدوهم ؟ فأخبروا عن تقليد آبائهم .

قوله تعالى : ﴿ فإنَّهم عَدُوٌّ لي ﴾ فيه وجهان .

أحدهما : أن لفظه لفظ الواحد والمراد به الجميع ؛ فالمعنى : فانهم أعداءٌ لي .

والثاني : فإن كلَّ معبود لكم عدوٌّ لي .

فإن قيل : ما وجه وصف الجماد بالعداوة ؟

فالجواب : من وجهين .

أحدهما : أن معناه : فانهم عدوٌّ لي يوم القيامة إن عبدتُهم .

والثاني : أنه من المقلوب ؛ والمعنى : فإنّي عدوٌّ لهم ، لأن مَنْ عاديتَه عاداكَ ، قاله ابن قتيبة .

وفي قوله : ﴿ إلاّ ربَّ العالَمين ﴾ قولان .

أحدهما : أنه استثناء من الجنس ، لأنه عَلِم أنهم كانوا يعبُدون الله مع آلهتهم ، قاله ابن زيد .

والثاني : أنه من غير الجنس ؛ والمعنى : لكن ربّ العالمين [ليس كذلك] ، قاله أكثر النحويين .

قوله تعالى : ﴿ الذي خلقني فهو يَهْدِين ﴾ أي : إلى الرّشد ، لا ما تعبُدون ، ﴿ والذي هو يُطْعِمُني ويَسْقين ﴾ أي : هو رازقي الطعام والشراب .

فإن قيل : لم قال : ﴿ مرضتُ ﴾ ، ولم يقل "أمرضَني" ؟

فالجواب : أنه أراد الثناء على ربّه فأضاف إليه الخير المحض ، لأنه لو قال : "أمرضَني" لعدَّ قومُه ذلك عيباً ، فاستعمل حُسن الأدب ؛ ونظيره قصة الخضر حين قال في العيب : ﴿ فأردتُ ﴾ [الكهف : 79] ، وفي الخير المحض : ﴿ فأراد ربُّكَ ﴾ [الكهف : 82] .

فإن قيل : فهذا يردُّه قوله : ﴿ والذي يُميتني ﴾ .

(68/569)

فالجواب : أن القوم كانوا لا يُنكرون الموت ، وإنما يجعلون له سبباً سوى تقدير الله عز وجل ، فأضافه إبراهيم إلى الله عز وجل ، وقوله : ﴿ ثم يُحيين ﴾ يعني للبعث : [وهو] أمرٌ لا يُقِرُّون به ، وإنما قاله استدلالاً عليهم ؛ والمعنى : أن ما وافقتموني عليه موجب لِصِحَّة قولي فيما خالفتموني فيه .

قوله تعالى : ﴿ والذي أَطْمَعُ أن يَغفِر لي خطيئتي ﴾ يعني : ما يجري على مِثْلي من الزَّلل ؛ والمفسرون يقولون : إنما عنى الكلمات الثلاث التي ذكرناها في [الأنبياء : 63] ، ﴿ يومَ الدِّين ﴾ يعني : يوم الحشر والحساب ؛ وهذا احتجاج على قومه أنه لا تصلحُ الإلهية إلا لِمَنْ فَعَلَ هذه الأفعال .

قوله تعالى : ﴿ هَبْ لِي حُكْماً ﴾ فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : النبوَّة ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : اللُّبّ ، قاله عكرمة .

والثالث : الفَهْم والعِلْم ، قاله مقاتل ، وقد بيَّنَّا معنى ﴿ وأَلحِقْني بالصَّالِحِين ﴾ في سورة [يوسف : 101] ، وبيَّنَّا معنى ﴿ لِسَانَ صِدْقٍ ﴾ في [مريم : 50] والمراد بالآخِرِين : الذين يأتون بعده إلى يوم القيامة .

قوله تعالى : ﴿ واغفر لأبي ﴾ قال الحسن : بلغني أن أُمَّه كانت مسلمة على دينه ، فلذلك لم يذكُرها .

فإن قيل : فقد قال : ﴿ اغفر لي ولوالديَّ ﴾ [ابراهيم : 41] .

قيل : أكثر الذِّكْر إنما جرى لأبيه ، فيجوز أن يسأل الغفران لأمِّه وهي مؤمنة ، فأما أبوه فلا شك في كفره .

وقد بيَّنَّا سبب استغفاره لأبيه في [براءة : 113] ، وذكرنا معنى الخزي في [آل عمران : 192] .

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يُبْعَثُون ﴾ يعني : الخلائق .

قوله تعالى : ﴿ إلا مَنْ أتى اللّهَ بقلب سليم ﴾ فيه ستة أقوال .

أحدها : سليم من الشِّرك ، قاله الحسن ، وابن زيد .

والثاني : سليم من الشَّكّ ، قاله مجاهد .

والثالث : سليم ، أي : صحيح ، وهو قلب المؤمن ، لأن قلب الكافر والمنافق مريض ، قاله سعيد بن المسيب .

(69/569)

والرابع : أن السَّليم في اللغة : اللديغ ، فالمعنى : كاللديغ من خوف الله تعالى ، قاله الجنيد .

والخامس : سليم من آفات المال والبنين ، قاله الحسين بن الفضل .

والسادس : سليم من البدعة ، مُطْمئنّ على السُّنَّة ، حكاه الثعلبي . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ زاد المسير حـ 6 صـ ﴾

(70/569)

وقال القرطبى :

﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي ﴾

واحد يؤدّي عن جماعة ، وكذلك يقال للمرأة هي عدوّ الله وعدوّة الله ؛ حكاهما الفراء .

قال علي بن سليمان : من قال عدوّة الله وأثبت الهاء قال هي بمعنى معادية ، ومن قال

عدوّ للمؤنث والجمع جعله بمعنى النسب .

ووصف الجماد بالعداوة بمعنى أنهم عدوّ لي إن عبدتهم يوم القيامة ؛ كما قال : ﴿ كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدّاً ﴾ [مريم : 82] .

وقال الفراء : هو من المقلوب ؛ مجازه فإني عدوّ لهم لأن من عاديته عاداك .

ثم قال : ﴿ إِلاَّ رَبَّ العالمين ﴾ قال الكلبيّ : أي إلا من عبد ربّ العالمين ؛ إلا عابد رب العالمين ؛ فحذف المضاف .

قال أبو إسحاق الزجاج : قال النحويون هو استثناء ليس من الأوّل ؛ وأجاز أبو إسحاق أن يكون من الأوّل على أنهم كانوا يعبدون الله عز وجل ويعبدون معه الأصنام ، فأعلمهم أنه تبرأ مما يعبدون إلا الله .

وتأوّله الفراء على الأصنام وحدها والمعنى عنده : فإنهم لو عبدتُهم عدوّ لي يوم القيامة ؛ على ما ذكرنا .

وقال الجرجاني : تقديره : أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون إلا رب العالمين فإنهم عدوّ لي .

وإلا بمعنى دون وسوى ؛ كقوله : ﴿ لاَ يَذُوقُونَ فِيهَا الموت إِلاَّ الموتة الأولى ﴾ [الدخان : 56] أي دون الموتة الأولى .

قوله تعالى : ﴿ الذي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾

أي يرشدني إلى الدين .

﴿ والذي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴾ أي يرزقني .

ودخول ﴿ هو ﴾ تنبيه على أن غيره لا يُطعم ولا يسَقي ؛ كما تقول : زيد هو الذي فعل كذا ؛ أي لم يفعله غيره .

﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ قال : ﴿ مَرِضْتُ ﴾ رعاية للأدب وإلا فالمرض والشفاء من الله عز وجل جميعاً .

ونظيره قول فتى موسى : ﴿ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلاَّ الشيطان ﴾ [الكهف : 63] .

(71/569)

﴿ والذي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴾ يريد البعث وكانوا ينسبون الموت إلى الأسباب ؛ فبيّن أن الله هو الذي يميت ويحيي .

وكله بغير ياء : ﴿ يهدين ﴾ ﴿ يشفين ﴾ لأن الحذف في رؤوس الآي حسن لتتفق كلها .

وقرأ ابن أبي إسحاق على جلالته ومحله من العربية هذه كلها بالياء ؛ لأن الياء اسم وإنما دخلت النون لعلة .

فإن قيل : فهذه صفة تجمع الخلق فكيف جعلها إبراهيم دليلاً على هدايته ولم يهتد بها

غيره؟ قيل: إنما ذكرها احتجاجا على وجوب الطاعة؛ لأن من أنعم وجب أن يطاع ولا يعصى ليلتزم غيره من الطاعة ما قد التزمها؛ وهذا إلزام صحيح.

قلت: وتجوّز بعض أهل الإرشارات في غوامض المعاني فعدل عن ظاهر ما ذكرناه إلى ما تدفعه بدائه العقول من أنه ليس المراد من إبراهيم.

فقال: ﴿ والذي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴾ أي يطعمني لذة الإيمان ويسقين حلاوة القبول.

ولهم في قوله: ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ وجهان: أحدهما: إذا مرضت بمخالفته شفاني برحمته.

الثاني: إذا مرضت بمقاساة الخلق، شفاني بمشاهدة الحق.

وقال جعفر بن محمد الصادق: إذا مرضت بالذنوب شفاني بالتوبة.

وتأولوا قوله: ﴿ والذي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴾ على ثلاثة أوجه: فالذي يميتني بالمعاصي يحييني بالطاعات.

الثاني: يميتني بالخوف يحييني بالرجاء.

الثالث: يميتني بالطمع ويحييني بالقناعة.

وقول رابع: يميتني بالعدل ويحييني بالفضل.

وقول خامس: يميتني بالفراق ويحييني بالتلاق.

وقول سادس: يميتني بالجهل ويحييني بالعقل؛ إلى غير ذلك مما ليس يشيء منه مراد من الآية

؛ فإن هذه التأويلات الغامضة ، والأمور الباطنة ، إنما تكون لمن حذق وعرف الحق ، وأما من كان في عمى عن الحق ولا يعرف الحق فكيف ترمز له الأمور الباطنة ، وتترك الأمور الظاهرة؟ هذا محال .

والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ والذي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدين ﴾ ﴿ أَطْمَعُ ﴾ أي أرجو .

(72/569)

وقيل : هو بمعنى اليقين في حقه ، وبمعنى الرجاء في حق المؤمنين سواه .

وقرأ الحسن وابن أبي إسحاق ﴿ خَطَايَايَ ﴾ وقال : ليست خطيئة واحدة .

قال النحاس : خطيئة بمعنى خطايا معروف في كلام العرب ، وقد أجمعوا على التوحيد في قوله عز وجل : ﴿ فاعترفوا بِذَنبِهِمْ ﴾ [الملك : 11] ومعناه بذنوبهم .

وكذا ﴿ وَأَقِيمُواْ الصلاة ﴾ [البقرة : 43] معناه الصلوات ، وكذا ﴿ خَطِيئَتِي ﴾ إن كانت خطايا .

والله أعلم .

قال مجاهد : يعني بخطيئته قوله : ﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هذا ﴾ [الأنبياء : 63] وقوله :

﴿ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾ [الصافات : 89] وقوله : إن سارة أخته .

زاد الحسن وقوله للكوكب : ﴿ هَذَا رَبِّي ﴾ وقد مضى بيان هذا مستوفى .

وقال الزجاج : الأنبياء بشر فيجوز أن تقع منهم الخطيئة ؛ نعم لا تجوز عليهم الكبائر لأنهم معصومون عنها .

﴿ يَوْمَ الدين ﴾ يوم الجزاء حيث يجازى العباد بأعمالهم .

وهذا من إبراهيم إظهار للعبودية وإن كان يعلم أنه مغفور له .

وفي صحيح مسلم عن عائشة ؛ قلت يا رسول الله : ابن جدعان كان في الجاهلية يصل الرحم ، ويطعم المسكين ، فهل ذلك نافعه ؟ قال : " لا ينفعه إنه لم يقل يوماً ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴾ " .

قوله تعالى : ﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَأَلْحِقْنِي بالصالحين ﴾

﴿ حُكْماً ﴾ معرفة بك وبحدودك وأحكامك ؛ قاله ابن عباس .

وقال مقاتل : فهماً وعلماً ؛ وهو راجع إلى الأوّل .

وقال الكلبي : نبوّة ورسالة إلى الخلق .

﴿ وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ أي بالنبيين من قبلي في الدرجة .

وقال ابن عباس : بأهل الجنة ؛ وهو تأكيد قوله : ﴿ هَبْ لِي حكماً ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ واجعل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخرين ﴾ قال ابن عباس : هو اجتماع الأمم

عليه .

وقال مجاهد : هو الثناء الحسن .

(73/569)

قال ابن عطية : هو الثناء وخلد المكانة بإجماع المفسرين ؛ وكذلك أجاب الله دعوته ، وكل أمة تتمسك به وتعظمه ، وهو على الحنيفية التي جاء بها محمد صلى الله عليه وسلم .

وقال مكي : وقيل معناه سؤاله أن يكون من ذريته في آخر الزمان من يقوم بالحق ؛ فأجيبت الدعوة في محمد صلى الله عليه وسلم ، قال ابن عطية : وهذا معنى حسن إلا أن لفظ الآية لا يعطيه إلا بتحكم على اللفظ .

وقال القشيري : أراد الدعاء الحسن إلى قيام الساعة ؛ فإن زيادة الثواب مطلوبة في حق كل أحد .

قلت : وقد فعل الله ذلك إذ ليس أحد يصلي على النبيّ صلى الله عليه وسلم إلا وهو يصلي على إبراهيم وخاصة في الصلوات ، وعلى المنابر التي هي أفضل الحالات وأفضل الدرجات .

والصلاة دعاء بالرحمة : والمراد باللسان القول ، وأصله جارحة الكلام .

قال القتبي : وموضع اللسان موضع القول على الاستعارة ، وقد تكني العرب بها عن الكلمة .

قال الأعشى :

إِنّي أَتَتْنِي لسانٌ لا أُسَرُّ بِها . . .

مِن عَلْوُ لا عجَبٌ منها ولا سَخَرُ

قال الجوهري : يروى مِن عَلو بضم الواو وفتحها وكسرها .

أي أتاني خبر من أعلى ، والتأنيث للكلمة .

وكان قد أتاه خبر مقتل أخيه المنتشر .

روى أشهب عن مالك قال قال الله عز وجل : ﴿ واجعل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخرين ﴾ لا بأس أن يحب الرجل أن يثنى عليه صالحاً ويرى في عمل الصالحين ، إذا قصد به وجه الله تعالى ؛ وقد قال الله تعالى : ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي ﴾ [طه : 39] وقال : ﴿ إِنَّ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرحمن وُدّاً ﴾ [مريم : 96] أي حبا في قلوب عباده وثناء حسنا ، فنبّه تعالى بقوله : ﴿ واجعل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخرين ﴾ على استحباب اكتساب ما يورث الذكر الجميل .

الليث بن سليمان : إذ هي الحياة الثانية .

قيل :

قد مات قومٌ وهُمْ في النّاس أحْيَاءُ . . .

(74/569)

قال ابن العربي : قال المحققون من شيوخ الزهد في هذا دليل على الترغيب في العمل الصالح الذي يكسب الثناء الحسن ، قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث " (الحديث) وفي رواية إنه كذلك في الغرس والزرع وكذلك فيمن مات مرابطاً يكتب له عمله إلى يوم القيامة .

وقد بيناه في آخر "آل عمران" والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ واجعلني مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النعيم ﴾ دعاء بالجنة وبمن يرثها ، وهو يرد قول بعضهم : لا أسأل جنة ولا ناراً .

قوله تعالى : ﴿ واغفر لأبي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضالين ﴾ كان أبوه وعده في الظاهر أن يؤمن به فاستغفر له لهذا ، فلما بان أنه لا يفي بما قال تبرأ منه .

وقد تقدّم هذا المعنى .

﴿ إِنه كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴾ أي المشركين .

﴿ وكان ﴾ زائدة .

﴿ وَلاَ تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴾ أي لا تفضحني على رؤوس الأشهاد ، أو لا تعذبني يوم القيامة .

وفي البخاري عن أبي هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " إن إبراهيم يرى أباه يوم القيامة عليه الغبرة والقترة " والغبرة هي القترة .

وعنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " يلقى إبراهيم أباه فيقول يا رب إنك وعدتني ألا تخزني يوم يبعثون فيقول الله تعالى إني حرمت الجنة على الكافرين " انفرد بهما البخاري رحمه الله .

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ لاَ يَنفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ ﴾ ﴿ يَوْمَ ﴾ بدل من ﴿ يوم ﴾ الأوّل .

أي يوم لا ينفع مال ولا بنون أحداً .

والمراد بقوله : ﴿ وَلاَ بَنُونَ ﴾ الأعوان ؛ لأن الابن إذا لم ينفع فغيره متى ينفع ؟ وقيل : ذكر البنين لأنه جرى ذكر والد إبراهيم ، أي لم ينفعه إبراهيم .

﴿ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ هو استثناء من الكافرين ؛ أي لا ينفعه ماله ولا بنوه .

وقيل : هو استثناء من غير الجنس ، أي لكن ﴿ مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ ينفعه لسلامة قلبه .

وخص القلب بالذكر ؛ لأنه الذي إذا سلم سلمت الجوارح ، وإذا فسد فسدت سائر الجوارح .

وقد تقدّم في أوّل "البقرة" .

واختلف في القلب السليم فقيل : من الشك والشرك ، فأما الذنوب فليس يسلم منها أحد ؛ قاله قتادة وابن زيد وأكثر المفسرين .

وقال سعيد بن المسيب : القلب السليم الصحيح هو قلب المؤمن ؛ لأن قلب الكافر والمنافق مريض ؛ قال الله تعالى : ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ [البقرة : 10] وقال أبو عثمان السيَّاري : هو القلب الخالي عن البدعة المطمئن إلى السنة .

وقال الحسن : سليم من آفة المال والبنين .

وقال الجنيد : السليم في اللغة اللديغ ؛ فمعناه أنه قلب كاللديغ من خوف الله .

وقال الضحاك : السليم الخالص .

قلت : وهذا القول يجمع شتات الأقوال بعمومه وهو حسن ، أي الخالص من الأوصاف الذميمة ، والمتصف بالأوصاف الجميلة ؛ والله أعلم .

وقد روي عن عروة أنه قال : يا بنيّ لا تكونوا لعّانين فإن إبراهيم لم يلعن شيئاً قط ، قال الله تعالى : ﴿ إِذْ جَآءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ وقال محمد بن سيرين : القلب السليم أن يعلم أن الله

حق ، وأن الساعة قائمة ، وأن الله يبعث من في القبور .

وفي "صحيح مسلم" من حديث أبي هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " يدخل الجنَة أقوامٌ أفئدتهم مثل أفئدة الطير " يريد والله أعلم أنها مثلها في أنها خالية من كل ذنب ، سليمة من كل عيب ، لا خبرة لهم بأمور الدنيا ؛ كما روى أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أكثر أهل الجنة البُلْهُ " وهو حديث صحيح .

أي البُلْه عن معاصي الله .

قال الأزهري : الأبله هنا هو الذي طبع على الخير وهو غافل عن الشر لا يعرفه .

وقال القتبي : البله هم الذين غلبت عليهم سلامة الصدور وحسن الظن بالناس . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 13 صـ ﴾

(76/569)

وقال أبو حيان :

﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِى ﴾

وعدو : يكون للمفرد والجمع ، كما قال : ﴿ هم العدو فاحذرهم ﴾ قيل : شبه بالمصدر ، كالقبول والولوع .

قال الزمخشري : وإنما قال : ﴿ عدو لي ﴾ ، تصوراً للمسألة في نفسه على معنى : أي فكرت في أمري ، فرأيت عبادتي لها عبادة للعدو ، فاجتنبتها وآثرت عبادة من الخير كله منه ، وأراهم بذلك أنها نصيحة نصح بها نفسه أولاً ، وبنى عليها تدبير أمره ، لينظروا ويقولوا : ما نصحنا إبراهيم إلا بما نصح به نفسه ، وما أراد لنا إلا ما أراد لروحه ، ليكون أدنى لهم إلى القبول ، وأبعث على الاستماع منه .

ولو قال : فإنه عدو لكم ، لم يكن بتلك المثابة ، ولأنه دخل في باب من التعريض ، وقد يبلغ التعريض للمنصوح .

ما لا يبلغ التصريح ، لأنه ربما يتأمل فيه ، فربما قاده التأميل إلى التقبل .

ومنه ما يحكى عن الشافعي رضي الله عنه ، أن رجلاً واجهه بشيء فقال : لو كنت بحيث أنت لاحتجت إلى أدب ؛ وسمع رجل ناساً يتحدثون عن الحجر فقال : ما هو بيتي ولا بيتكم . انتهى .

وهو كلام فيه تكثير على عادته ، وذهاب من ذهب إلى أن قوله : ﴿ فإنهم عدو لي ﴾ ، من المقلوب والأصل : فإني عدو لهم ، لأن الأصنام لا تعادي لكونها جماداً ، وإنما هو عاداها ليس بشيء ولا ضرورة تدعو إلى ذلك .

ألا ترى إلى قوله : ﴿ كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضداً ﴾ ، فهذا معنى العداوة ، ولأن المغري على عداوتها عدو الإنسان ، وهو الشيطان .

وقيل : لأنه تعالى يحيي ما عبدوه من الأصنام حتى يبترؤوا من عبدتهم ويوبخوهم .

وقيل : هو على حذف ، أي : فإن عبادهم عدو لي .

والظاهر إقرار الاستثناء في موضعه من غير تقديم ولا تأخير .

وقال الجرجاني : تقديره : أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون إلا رب العالمين ، فإنهم عدو لي ، وإلا : بمعنى دون وسوى . انتهى .

(77/569)

فجعله مستثنى مما بعد كنتم تعبدون ، ولا حاجة إلى هذا التقدير لصحة أن يكون مستثنى من قوله : ﴿ فإنهم عدو لي ﴾ .

وجعله جماعة منهم الفراء ، واتبعه الزمخشري استثناء منقطعاً ، أي لكن رب العالمين ، لأنهم فهموا من قوله : ما كنتم تعبدون أنهم الأصنام .

وأجاز الزجاج أن يكون استثناء متصلاً على أنهم كانوا يعبدون الله ويعبدون معه الأصنام ، فأعلمهم أنه تبرأ مما يعبدون إلا الله ، وأجازوا في ﴿ الذي خلقني ﴾ النصب على الصفة لرب العالمين ، أو بإضمار ، أعني : والرفع خبر مبتدأ محذوف ، أي هو الذي .

وقال الحوفي : ويجوز أن يكون ﴿ الذي خلقني ﴾ رفعاً بالابتداء ، ﴿ فهو يهدين ﴾ :

ابتداء وخبر في موضع الخبر عن الذي ، ودخلت الفاء لما في الكلام من معنى الشرط .

انتهى .

وليس الذي هنا فيه معنى اسم الشرط لأنه خاص ، ولا يتخيل فيه العموم ، فليس نظير : الذي يأتيني فله درهم ، وأيضاً ليس الفعل الذي هو خلق لا يمكن فيه تحدد بالنسبة إلى إبراهيم .

وتابع أبو البقاء الحوفي في إعرابه هذا ، لكنه لم يقل : ودخلت الفاء لما في الكلام من معنى الشرط .

فإن كان أراد ذلك ، فليس بجيد لما ذكرناه ، وإن لم يرده ، فلا يجوز ذلك إلا على زيادة الفاء ، على مذهب الأخفش في نحو : زيد فاضربه ؛ الذي خلقني بقدرته فهو يهدين إلى طاعته .

وقيل : إلى جنته .

وقال الزمخشري : فهو يهدين ، يريد أنه حين أتم خلقه ، ونفخ فيه الروح عقب هدايته المتصلة التي لا تنقطع إلى ما يصلحه ويعينه ، وإلا فمن هداه إلى أن يغتذي بالدم في البطن امتصاصاً ؟ ومن هداه إلى معرفة الثدي عند الولادة ؟ وإلى معرفة مكانه ؟ ومن هداه لكيفية الإرتضاع ؟ إلى غير ذلك من هدايات المعاش والمعاد .

انتهى .

والظاهر أن قوله : ﴿ يطعمني ويسقين ﴾ : الطعام المعروف المعهود ، والسقي المعهود ، وفيه تعديد نعمة الرزق .

(78/569)

وقال أبو بكر الوراق : يطعمني بلا طعام ، ويسقيني بلا شراب ، كما جاء أني أبيت يطعمني ربي ويسقيني ولما كان الخلق لا يمكن أن يدعيه أحد لم يؤكد فيه بهو ، فلم يكن التركيب الذي هو خلقني ، ولما كانت الهداية قد يمكن ادعاؤها .

والإطعام والسقي كذلك أكد بهو في قوله : ﴿ فهو يهدين والذي هو يطعمني ﴾ ، وذكر بعد نعمة الخلق والهداية ما تدوم به الحياة ويستمر به نظام الخلق ، وهو الغذاء والشرب .

ولما كان ذلك سبباً لغلبة إحدى الكيفيات على الأخرى بزيادة الغذاء أو نقصانه ، فيحدث بذلك مرض ذكر نعمته ، بإزالة ما حدث من السقم ، وأضاف المرض إلى نفسه ، ولم يأت التركيب : وإذا أمرضني ، وإن كان تعالى هو الفاعل لذلك وإبراهيم عليه السلام عدد نعم الله تعالى عليه والشفاء محبوب والمرض مكروه .

ولما لم يكن المرض منها ، لم يضفه إلى الله .

وعن جعفر الصادق ، ولعله لا يصح : وإذا مرضت بالذنوب شفاني بالتوبة .

وقال الزمخشري : وإنما قال : مرضت دون أمرضني ، لأن كثيراً من أسباب المرض يحدث بتفريط من الإنسان في مطاعمه ومشاربه وغير ذلك .

ومن ثم قال الحكماء : لو قيل لأكثر الموتى : ما سبب آجالكم ؟ لقالوا : التخم ، ولما كان الشفاء قد يعزى إلى الطيب ، وإلى الدواء على سبيل المجاز ؛ كما قال : ﴿ فيه شفاء للناس ﴾ أكد بقوله : ﴿ فهو يشفين ﴾ : أي الذي هو يهدين ويطعمني ويسقين هو الله لا غيره .

ولما كانت الإماتة بعد البعث ، لا يمكن إسنادها إلا إلى الله ، لم يحتج إلى توكيد ودعوى نمروذ الإماتة والإحياء هي منه على سبيل المخرفة والقحة ، وكذلك لم يحتج إلى تأكيد في : ﴿ والذي أطمع ﴾ .

وأثبت ابن أبي إسحاق ياء المتكلم في يهديني وما بعده ، وهي رواية عن نافع .

والطمع عبارة عن الرجاء ، وإبراهيم عليه السلام كان جازماً بالمغفرة .

(79/569)

فقال الزمخشري : لم يجزم القول بالمغفرة ، وفيه تعليم لأممهم ، وليكون لطفاً بهم في اجتناب المعاصي والحذر منها ، وطلب المغفرة مما يفرط منهم . انتهى .

ورده الرازي قال : لأن حاصله يرجع إلى أنه ، ونطق بكلمة لا أذكرها ، وبعدها على نفسه لأجل تعليم الأمة ، وهو باطل قطعاً .

وقال الجبائي : أراد به سائر المؤمنين ، لأنهم الذين يطمعون ولا يقطعون .

ورده الرازي بأن جعل كلام الواحد من كلام غيره ، مما يبطل نظم الكلام .

وقال الحسن : المراد بالطمع اليقين .

وقال الرازي : لا يستقيم هذا إلا على مذهبنا ، حيث قلنا : إنه لا يجب على الله شيء ، وإنه يحسن منه كل شيء ، ولا اعتراض لأحد عليه في فعله .

وقال ابن عطية : أوقف عليه الصلاة والسلام نفسه على الطمع في المغفرة ، وهذا دليل على شدة خوفه مع منزلته وخلته .

وقرأ الجمهور : ﴿ خطيئتي ﴾ على الإفراد ، والحسن : خطاياي على الجمع ، وذهب الأكثرون إلى أنها قوله : ﴿ إني سقيم ﴾ و ﴿ بل فعله كبيرهم ﴾ وهي أختي في سارة .

وقالت فرقة : أراد بالخطيئة اسم الجنس ، قدرها في كل أمره من غير تعيين .

قال ابن عطية : وهذا أظهر عندي ، لأن تلك الثلاث قد خرجها كثير من العلماء على المعاريض .

وقال الزمخشري : المراد ما يندر منه في بعض الصغائر ، لأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام معصومون مختارون على العالمين ، وهي قوله وذكر الثلاثة ثم قال وما هي إلا معاريض ،

كلام وتخيلات للكفرة ، وليست بخطايا يطلب لها الاستغفار .

فإن قلت : إذا لم يندر منهم إلا الصغائر ، وهي تقع مكفرة ، فما له أثبت لنفسه خطيئة أو خطايا ، وطمع أن يغفر له ؟ قلت : الجواب ما سبق ، أن استغفار الأنبياء تواضع منهم لربهم وهضم لأنفسهم ، ويدل عليه قوله : اطمع ، ولم يجزم القول . انتهى .

و﴿ يوم الدين ﴾ : ظرف ، والعامل فيه يغفر ، والغفران ، وإن كان في الدنيا ، فأثره لا يتبين إلا يوم الجزاء ، وهو في الدنيا لا يعلم إلا بإعلام الله تعالى .

(80/569)

وضعف أبو عبد الله الرازي حمل الخطيئة على تلك الثلاث ، لأن نسبة ما لا يطابق إلى إبراهيم غير جائز ، وحمله على سبيل التواضع قال : لأنه إن طابق في هذا الموضع زال الإشكال ، وإن لم يطابق رجع حاصل الجواب إلى إلحاق المعصية به ، لأجل تنزيهه عن المعصية .

قال : والجواب الصحيح أن يحمل ذلك على ترك الأولى ، وقد يسمى خطأً .

فإن من باع جوهرة تساوي ألفاً بدينار ، قيل : أخطأ ، وترك الأولى على الأنبياء جائز .

انتهى ، وفيه بعض تلخيص وتبديل ألفاظ للأدب بما يناسب مقام النبوة .

وقدم إبراهيم عليه السلام الثناء على الله تعالى ، وذكره بالأوصاف الحسنة بين يدي طلبته ومسألته ، ثم سأله تعالى فقال : ﴿ رب هب لي حكماً ﴾ ، فدل على أن تقديم الثناء على المسألة من المهمات .

والظاهر أن الحكم هو الفصل بين الناس بالحق .

وقيل : الحكم : الحكمة والنبوة ، لأنها حاصلة تلو طلب النبوة ، لأن النبي ذو حكمة وذو حكم بين الناس .

وقال أبو عبد الله الرازي : لا يجوز تفسير الحكم بالنبوة لأنها حاصلة ، فلو طلب النبوة لكانت مطلوبة ، إما عين الحاصلة أو غيرها .

والأول محال ، لأن تحصيل الحاصل محال ، والثاني محال ، لأنه يمنع أن يكون الشخص الواحد نبياً مرتين ، بل المراد من الحكم ما هو كمال النبوة العملية ، وذلك بأن يكون عالماً بالخير لأجل العمل به . انتهى .

وقال ابن عطية : وقد فسر الحكم بالحكمة والنبوة ، قال : ودعاؤه عليه السلام في مثل هذا هو في التثبت والدوام .

وإلحاقه بالصالحين : توفيقه لعمل ينتظمه في جملتهم ، أو يجمع بينه وبينهم في الجنة .

(81/569)

وقد أجابه تعالى حيث قال : ﴿ وإنه في الآخرة لمن الصالحين ﴾ قال أبو عبد الله الرازي : وإنما قدّم قوله : ﴿ هب لي حكماً ﴾ على قوله : ﴿ وألحقني بالصالحين ﴾ ، لأن القوة النظرية مقدمة على القوة العملية ، لأنه يمكنه أن يعلم الحق ، وإن لم يعمل به ، وعكسه غير ممكن ، لأن العلم صفة الروح ، والعمل صفة البدن ، وكما أن الروح أشرف من البدن ، كذلك العلم أفضل من الإصلاح .

انتهى .

ولسان الصدق ، قال ابن عطية : هو الثناء وتخليد المكانة بإجماع من المفسرين .

وكذلك أجاب الله دعوته ، فكل ملة تتمسك به وتعظمه ، وهو على الحنيفية التي جاء بها محمد (صلى الله عليه وسلم) .

قال مكي : وقيل معنى سؤاله أن يكون من ذريته في آخر الزمان من يقوم بالحق ، فأجيبت الدعوة في محمد عليه السلام ، وهذا معنى حسن ، إلا أن لفظ الآية لا يعطيه إلا بتحكم على اللفظ . انتهى .

ولما طلب سعادة الدنيا ، طلب سعادة الآخرة ، وهي جنة النعيم ، وشبهها بما يورث ، لأنه الذي يقسم في الدنيا شبه غنيمة الدنيا بغنيمة الآخرة ، وقال تعالى : ﴿ تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقياً ﴾ ولما فرغ من مطالب الدنيا والآخرة لنفسه ، طلب لأشد

الناس التصاقاً به ، وهو أصله الذي كان ناشئاً عنه ، وهو أبوه ، فقال : ﴿ واغفر لأبي ﴾ ، وطلبه المغفرة مشروط بالإسلام ، وطلب المشروط يتضمن طلب الشرط ، فحاصله أنه دعا بالإسلام .

وكان وعده ذلك يوضحه قوله : ﴿ وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو الله ﴾ أي الموافاة على الكفر تبرأ منه .

وقيل : كان قال له إنه على دينه باطناً وعلى دين نمروذ ظاهراً ، تقية وخوفاً ، فدعا له لاعتقاده أن الأمر كذلك ، فلما تبين له خلاف ذلك تبرأ منه ، ولذلك قال في دعائه : ﴿ واغفر لأبي إنه كان من الصالحين ﴾ .

فلولا اعتقاده أنه في الحال ليس بضال ما قال ذلك .

(82/569)

﴿ ولا تخزني ﴾ : إما من الخزي ، وهو الهوان ، وإما من الخزاية ، وهي الحياء .

والضمير في ﴿ يبعثون ﴾ ضمير العباد ، لأنه معلوم ، أو ضمير ﴿ الضالين ﴾ ، ويكون من جملة الاستغفار ، لأنه يكون المعنى : يوم يبعث الضالون .

وأتى فيهم : ﴿ يوم لا ينفع ﴾ بدل من : ﴿ يوم يبعثون ﴾ .

﴿ مال ولا بنون ﴾ : أي كما ينفع في الدنيا يفديه ماله ويذب عنه بنوه .

وقيل : المراد بالبنين جميع الأعوان .

وقيل : المعنى يوم لا ينفع إعلاق بالدنيا ومحاسنها ، فقصد من ذلك الذكر العظيم والأكثر ، لأن المال والبنين هي زينة الحياة الدنيا .

والظاهر أن الاستثناء منقطع ، أي لكن من أتى الله بقلب سليم ينفعه سلامة قلبه .

قال الزمخشري : ولك أن تجعل الاستثناء منقطعاً ، ولا بد لك مع ذلك من تقدير المضاف ، وهو الحال المراد بها السلامة ، وليست من جنس المال والبنين حتى يؤول المعنى إلى أن المال والبنين لا ينفعان ، وإنما ينفع سلامة القلب ، ولو لم يقدر المضاف لم يتحصل للاستثناء معنى . انتهى .

ولا ضرورة تدعو إلى حذف مضاف ، كما ذكر ، إذ قدرناه ، لكن ﴿ من أتى الله بقلب سليم ﴾ ينفعه ذلك ، وقد جعله الزمخشري في أول توجيهه متصلاً بتأويل قال : إلا من أتى الله : لا حال من أتى الله بقلب سليم ، وهو من قوله :

تحية بينهم ضرب وجيع . . .

وما ثوابه إلا السيف ، ومثاله أن يقال : هل لزيد مال وبنون ؟ فيقول : ماله وبنوه سلامة قلبه ، تريد نفي المال والبنين عنه ، وإثبات سلامة القلب له بدلاً عن ذلك .

وإن شئت حملت الكلام على المعنى ، وجعلت المال والبنين في معنى الغنى ، كأنه قيل : يوم

لا ينفع غنى إلا غنى من أتى الله بقلب سليم ، لأن غنى الرجل في دينه بسلامة قلبه ، كما أن غناه في دنياه بماله وبنيه . انتهى .

(83/569)

وجعله بعضهم استثناء مفرغاً ، فمن مفعول ، والتقدير : لا ينفع مال ولا بنون أحداً إلا من أتى الله بقلب سليم ، فإنه ينفعه ماله المصروف في وجوه البر ، وبنوه الصلحاء ، إذ كان أنفقه في طاعة الله ، وأرشد بنيه إلى الدين ، وعلمهم الشرائع وسلامة القلب ، خلوصه من الشرك والمعاصي ، وعلق الدنيا المتروكة وإن كانت مباحة كالمال والبنين .

وقال سفيان : هو الذي يلقى ربه وليس في قلبه شيء غيره ، وهذا يقتضي عمومه اللفظ ، ولكن السليم من الشرك هو الأعم .

وقال الجنيد : بقلب لديغ من خشية الله ، والسليم : اللديغ .

وقال الزمخشري : هو من بدع التفاسير وصدق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾

(84/569)

وقال الثعالبى :

وقوله : ﴿ فَإِنَّهُم عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ العالمين ﴾

قالت فرقة : هو استثناءٌ مُتَّصِلٌ ، لأَنَّ في الآباء الأقدمين مَنْ قد عبد اللّه تعالى ، وقالت فرقة : هو استثناءٌ مُنْقَطِعٌ ؛ لأَنَّهُ إنَّما أراد عُبَّادَ الأوثان من كل قرن منهم ، وأسند إبراهيم عليه السلام المَرَضَ إلى نفسِهِ والشفاءَ إلى ربه عز وجل ، وهذا حُسْنُ أدب في العبارة ، والكل من عند اللّه ، وأوقف عليه السلام نفسه على الطمع في المغفرة ، وهذا دليل على شِدَّةِ خوفه مع عُلُوِّ منزلته عند اللّه ، وروى الترمذيُّ عن أبي هريرة قال : قال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم : " مَنْ عَادَ مَرِيضاً أَوْ زَارَ أَخاً لَهُ في اللّهِ نَادَاهُ مُنَادٍ : أَنْ طِبْتَ وَطَابَ مَمْشَاكَ ، وَتَبَوَّأْتَ مِنَ الجَنَّةِ مَنْزِلاً " ، قال أبو عيسى : هذا حديثٌ حَسَنَ ، انتهى . وفي «صحيح مسلم» عن ثوبانَ مولى رَسُولِ اللّهِ صلى الله عليه وسلم عن رَسُولِ اللّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ : " مَنْ عَادَ مَرِيضاً لَمْ يَزَلْ فِي خُرْفَةِ الجنة حَتَّى يَرْجِعَ ، قِيلَ : يَا رَسُولَ اللّهِ ، وَمَا خُرْفَةُ الجَنَّةِ ؟ قال : جَنَاهَا " انتهى ، وعنه صلى الله عليه وسلم : " مَنْ عَادَ مَرِيضاً لَمْ يَحْضُرْ أَجَلُهُ ، فَقَالَ عِنْدَهُ سَبْعَ مَرَّاتٍ : أَسْأَلُ اللّهَ الْعَظِيمَ رَبَّ الْعَرْشِ العَظِيمِ أَنْ يَشْفِيَكَ إِلاَّ عَافَاهُ اللّهُ سُبْحَانَهُ " خرجه أبو داود ، والترمذيُّ ، والحاكم في «المُسْتَدْرَكِ على الصحيحين» بالإسناد الصحيح ، انتهى من «حلية النوويِّ» ، وعن ابن عباس رضي اللّه

عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " مَنْ عَادَ مَرِيضاً لَمْ يَحْضُرْ أَجَلُهُ ، فَقَالَ عِنْدَ رَأْسِهِ سَبْعَ مَرَّاتٍ : أَسْأَلُ اللّهَ الْعَظِيمَ رَبَّ الْعَرْشِ العَظِيمِ أَنْ يَشْفَيَكَ إلاَّ عَافَاهُ اللّهُ مِنْ ذَلِكَ الْمَرَضِ " رواه أبو داودَ واللفظ

(85/569)

له ، والترمذيُّ والنسائِيُّ والحاكم وابن حِبَّان في «صحيحيهما» بمعناه ، وقال الحاكم : صحيحٌ على شرط الشيخَيْنِ ، يعني : البخاريَّ ومُسْلِماً ، وفي رواية النسائيِّ وابن حِبَّانَ : «كَانَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم إذَا عَادَ الْمَرِيضَ ، جَلَسَ عِنْدَ رَأْسِهِ ، ثُمَّ قَالَ» ، فَذَكَرَ مِثْلَهُ بمعناه انتهى من «السلاح» .

وقوله : ﴿ خَطِيئَتِي ﴾ ذهب أكثرُ المفسرين إلى : أَنَّهُ أراد كَذَبَاتِهِ الثلاثَ ، قوله : هي أختي في شأن سارة ، وقوله : ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾ [الصافات : 89] .

وقوله : ﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ ﴾ [الأنبياء : 63] وقالت فرقة : أراد بالخطيئة اسم الجنس ، فدعا في كل أمره من غير تعيين .

قال *ع* : وهذا أظهر عندي .

(86/569)

وقوله: ﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً ﴾: أي حكمةً ونبوَّةً، ودعاؤه في مثل هذا هو في معنى التثبيت والدوام، ولسان الصِّدْق: هو الثَّنَاءُ الحَسَنُ، واستغفاره لأبيه في هذه الآية هو قبل أنْ يَتَبَيَّنَ له أَنَّهُ عَدُوٌّ للَّهِ.

وقوله: ﴿ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ معناه: خالص من الشرك والمعاصي وعلق الدنيا المتروكة، وإنْ كانت مباحة؛ كالمال والبنين؛ قال سفيان هو الذي يَلْقَى رَبَّهُ وليس في قلبه شيء غيره.

قال *ع*: وهذا يقتضي عموم اللفظة، ولكنَّ السليم من الشرك هو الأَهَمُّ، وقال الجُنَيْدُ: بقلب لديغٍ من خشية اللّه، والسَّلِيمُ: اللديغ.

ص: ﴿ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللهَ ﴾ الظاهر أَنَّهُ استثناءٌ منقطع، أي: لكن مَنْ أَتَى اللّه بقلب سليم، نفعته سلامةُ قلبه، انتهى. اهـ ﴿الجواهر الحسان حـ 3 صـ ﴾

(87/569)

وقال أبو السعود:

وقوله: ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي ﴾

بيانٌ لحال ما يعبدونَه بعد التَّنبيهِ على عدم علمِهم بذلك أي فاعلموا أنَّهم أعداءٌ لعابديهم الذين يحبُّونهم كحبِّ الله تعالى لما أنهم يتضرَّرون من جهتهم فوق ما يتضرَّر الرَّجلُ من جهة عدوِّه ، أو لأنَّ مَن يُغريهم على عبادتهم ويحملُهم عليها هو الشَّيطانُ الذي هو أعدى عدوِّ الإنسانِ لكنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ صوَّر الأمر في نفسه تعريضاً بهم فإنَّه أنفعُ في النَّصيحة من التَّصريح وإشعاراً بأنَّها نصيحة بدأ بها نفسَه ليكون أدعى إلى القَبول . والعدوُّ والصَّديقُ يجيئانِ في معنى الواحدِ والجمعِ . ومنه قوله تعالى : ﴿ وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ﴾ شبها بالمصادر للموازنةِ كالقبول والولوع والحنين والصَّهيلِ ﴿ إِلاَّ رَبَّ العالمين ﴾ استثناء منقطع أي لكن ربُّ العالمينَ ليس كذلك بل هو وليّ في الدُّنيا والآخرة لا يزال يتفضَّلُ عليَّ بمنافعهما حسبما يُعرب عنه ما وصفه تعالى به من أحكام الولايةِ ، وقيل متَّصلٌ ، وهو قولُ الزَّجاجِ على أنَّ الضَّميرَ لكلِّ معبود وكان من آبائِهم من عبدَ الله تعالى .

(88/569)

وقوله تعالى : ﴿ الذى خَلَقَنِى ﴾ صفةٌ لربِّ العالمينَ . وجعلُه مبتدأً وما بعْدَه خبراً غيرُ حقيقٍ بجزالة التَّنزيلِ وإنَّما وصفه تعالى بذلك وبما عطفه عليهِ مع اندراجِ الكلِّ تحت ربوبيتِه تعالى للعالمين تصريحاً بالنِّعم الخاصَّةِ به عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ وتفصيلاً لها لكونِها أدخلَ في

اقتضاءِ تخصيصِ العبادةِ به تعالى وقصرِ الالتجاء في جلبِ المنافعِ الدّينيةِ والدُّنيويةِ ودفع المضارّ العاجلةِ والآجلةِ عليه تعالى . ﴿ فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ أي هو يهديني وحدَهُ إلى كلِّ ما يُهمني ويُصلحني من أمور الدّين والدُّنيا هدايةً متصلةً بحين الخلقِ ونفخ الرُّوحِ متجددة على الاستمرار كما ينبىءُ عنه الفاءُ وصيغةُ المضارعِ ، فإنَّه تعالى يهدي كلَّ ما خلقه لما خُلق له من أمور المعاش والمعادِ هدايةً متدرجة من مبدأِ إيجادِه إلى منتهى أجلِه يتمكَّن بها من جلبِ منافعهِ ودفع مضارّه إمَّا طبعاً وإمَّا اختياراً مبدؤُها بالنّسبة إلى الإنسان هداية الجنينِ لامتصاص دمِ الطَّمثِ ومنتهاها الهدايةُ إلى طريق الجنَّةِ والتَّنعمِ بنعيمها المقيمِ .

﴿ والذى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴾ عطفٌ على الصّفة الأولى وتكريرُ الموصولِ في المواقعِ الثَّلاثةِ مع كفاية عطف ما وقع في حيّز الصّلةِ من الجُمل السّتّ على صلة الموصولِ الأول للإيذانِ بأنّ كلَّ واحدةٍ من تلك الصّلاتِ نعتٌ جليلٌ له تعالى مستقلٌّ في استيجاب الحكمِ حقيقٌ بأنْ تجري عليه تعالى بحيالها ولا تجعل من روادِف غيرها .

(89/569)

﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ عطفٌ على يُطعمني ويسقين نُظم معهما في سلك الصّلةِ لموصول واحدٍ لما أنَّ الصِّحَّةَ والمرض من متفرّعاتِ الأكل والشُّرب غالباً ونسبةُ المرضِ إلى

نفسه والشِّفاءِ إلى الله تعالى مع أنَّهما منه تعالى لمراعاة حُسنِ الأدبِ كما قال الخَضِرُ عليه السَّلامُ : "فأردتُ أنْ أعيبها" وقال : "فأرادَ ربُّك أنْ يبلُغا أشدَّهما" وأما الإماتةُ فحيث كانتْ من معظم خصائصِه تعالى كالإحياءِ بدءاً وإعادةً وقد نيطتْ أمورُ الآخرةِ جميعاً بها وبما بعدَها من البعث نظمهما في سمطٍ واحدٍ في قوله تعالى : ﴿ والذى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴾ على أنَّ الموتَ لكونه ذريعةً إلى نيله عليه الصلاةُ والسَّلامُ للحياة الأبديَّةِ بمعزل من أنْ يكون غيرَ مطبوع عنده عليه الصَّلاة والسَّلام .

(90/569)

﴿ والذى أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيئَتِى يَوْمَ الدين ﴾ ذكره عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ هضماً لنفسه وتعليماً للأمَّةِ أنْ يجتنبُوا المعاصي ويكونوا على حَذَرٍ وطلب مغفرة لَما يفرطُ منهم وتلافياً لما عَسَى يندرُ منه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ من الصَّغائر وتنبيهاً لأبيه وقومه على أنْ يتأمَّلوا في أمرهم فيقفُوا على أنَّهم من سوء الحال في درجةٍ لا يُقادر قدرُها فإنَّ حالَه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مع كونه في طاعة الله تعالى وعبادتِه في الغاية القاصيةِ حيثُ كانت بتلك المثابة فما ظنُّك بحال أولئك المغمُورين في الكُفر وفُنون المعاصي والخطايا . وحملُ الخطيئة على كلماتِه الثَّلاثِ إنِّي سقيمٌ بل فعله كبيرُهم وقوله لسارَّةَ هي أختي مَّما لا سبيلَ إليه لأنَّها

مع كونها معاريضَ لا من قبيل الخطايا المفتقرةِ إلى الاستغفار إنَّما صدرتْ عنه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بعد هذه المقاولةِ الجاريةِ بينه وبين قومه أما الثَّالثةُ فظاهرةٌ لوقوعِها بعد مهاجرته عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ إلى الشأمِ وأما الأوليانِ فلأنَّهما وقعتا مكتنفتينِ بكسرِ الأصنامِ ومن البيِّن أنَّ جريانَ هذه المقالاتِ فيما بينهم كان في مبادىءِ الأمرِ ، وتعليقُ مغفرةِ الخطيئةِ بيومِ الدِّينِ مع أنَّها إنَّما تُغفر في الدُّنيا لأنَّ أثرَها يومئذٍ يتبيَّن ولأنَّ في ذلك تهويلاً له وإشارةً إلى وقوعِ الجزاءِ فيه إنْ لم تُغفر .

(91/569)

﴿ رَبِّ هَبْ لِى حُكْماً ﴾ بعد ما ذكر عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لهم فنونَ الألطافِ الفائضةِ عليه من الله عزَّ وجلَّ من مبدأِ خلقِه إلى يومِ بعثِهِ حمله ذلك على مُناجاتِه تعالى ودعائِه لربط العتيدِ وجلبِ المزيدِ والحكم الحكمة التي هي الكمالُ في العلم والعملِ بحيثُ يتمكَّنُ به من خلافةِ الحقِّ ورياسة الخلقِ ﴿ وَأَلْحِقْنِى بالصالحين ﴾ ووفقني من العُلومِ والأعمالِ والمَلَكاتِ لما يُرشحني للانتظامِ في زُمرةِ الكاملينَ الرَّاسخينَ في الصَّلاحِ المنزَّهينَ عن كبائرِ الذُّنوبِ وصغائِرها أو اجمعْ بيني وبينَهُم في الجنَّة ولقد أجابَه تعالى حيثُ قال : ﴿ وَإِنَّهُ فِى الأخرة لَمِنَ الصالحين ﴾ ﴿ واجعل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى الأخرين ﴾ أي جاهاً وحسنَ

صيت في الدُّنيا بحيثُ يبقى أثرُه إلى يومِ الدّين ولذلك لا ترى أمةً من الأُمم إلا وهي محبَّةٌ له ومثنيةٌ عليه . أو صادقاً من ذُرِّيتي يجددُ أصلَ ديني ويدعُو النّاسَ إلى ما كنتُ أدعُوهم إليهِ من التَّوحيدِ وهو النبيُّ صلى الله عليه وسلم ولذلك قال عليه الصَّلاةُ السَّلامُ : أنا دعوةُ أبي إبراهيمَ .

﴿ واجعلنى ﴾ في الآخرة ﴿ مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النعيم ﴾ وقد مرَّ معنى الوراثة في سورةِ مريمَ .

﴿ واغفر لِابى ﴾ بالهدايةِ والتَّوفيقِ للإيمان كما يلوحُ به تعليلُه بقوله : ﴿ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضالين ﴾ أي طريقَ الحقِّ وقد مرَّ تحقيقُ المقام في تفسير سورة التَّوبةِ وسورة مريمَ بما لا مزيدَ عليه .

(92/569)

﴿ وَلَا تُخْزِنى ﴾ بمعاتبتي على ما فرّطتُ أو بنقصِ رُتبتي عن بعض الورّاثِ أو بتعذيبي لخفاءِ العاقبةِ وجوازِ التَّعذيبِ عقلاً ، كلُّ ذلك مبنيٌّ على هضمِ النَّفسِ منه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أو بتعذيبِ والدِي أو ببعثِه من عدادِ الضَّالين بعدمِ توفيقِه للإيمان وهو من الخِزيِ بمعنى الهوانِ أو من الخزايةِ بمعنى الحياءِ . ﴿ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ أي النَّاسُ كافَّةً والإضمار قبل

الذكرِ لما في عُموم البعثِ من الشُّهرة الفاشيةِ المغنيةِ عنه وتخصيصه بالضَّالِّين مما يخلُّ بتهويلِ اليوم .

﴿ يَوْمَ لاَ يَنفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ ﴾ بدلٌ من يومَ يبعثُون جيء به تأكيداً للتَّهويلِ وتمهيداً لما يعقبُه من الاستثناءِ من أعمِّ المفاعيلِ أي لا ينفعُ مالٌ وإن كان مصرُوفاً في الدُّنيا إلى وجوهِ البرِّ والخيراتِ ، ولا بنون ، وإن كانُوا صُلحاءَ مستأهلينَ للشَّفاعةِ أحداً .

﴿ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾

أي عن مرض الكُفرِ والنِّفاقِ ضرورةَ اشتراطِ نفع كلَ منهما بالإيمان ، وفيه تأييدٌ لكونِ استغفارِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لأبيه طلباً لهدايتِه إلى الإيمانِ لاستحالةِ طلبِ مغفرته بعد موته كافراً مع علمِه عليه الصَّلاةُ والسَّلام بعدم نفعه لأنَّه من باب الشَّفاعةِ وقيل : هو استثناءٌ من فاعلٍ ينفعُ بتقدير المضافِ أي الآمال من أو بنو من أتى الله الآيةَ وقيل : المضاف المحذوف ليس من جنس المُستثنى منه حقيقةً بل بضرب من الاعتبارِ كما في قوله

(93/569)

تحيَّةَ بينهم ضربٌ وجيعُ . . . أي إلا حالَ من أتى الله بقلبٍ سليم على أنَّها عبارةٌ عن سلامة القلبِ كأنَّه قيل : إلا سلامةَ قلبِ مَن أتى الله الآيةِ ، وقيل المضاف المحذوف ما دلَّ

عليه المالُ والبنون من الغنى وهو المُستثنى منه كأنَّه قيل : يومَ لا ينفعُ غِنَى إلا غنى من أتى الله الآيةَ لأنَّ غنى المرءِ في دينِه بسلامةِ قلبِه وقيل : الاستثناءُ منقطعُ والمعنى لكن سلامة قلبه تنفعه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 6 صـ ﴾

(94/569)

وقال الآلوسى :

﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّى ﴾

قيل : تعليل لما يفهم من ذلك من إني لا أعبدهم أو لا تصح عبادتهم ؛ وقيل : خبر ل ﴿ ما كنتم ﴾ [الشعراء : 75] إذ المعنى أفأخبركم وأعلمكم بمضمون هذا .

واختار بعض الأجلة أنه بيان وتفسير لحال ما يعبدونه التي لو أحاطوا بها علماً لما عبدوه أي فاعلموا أنهم أعداء لعابديهم الذين يحبونهم كحب الله تعالى لما أنهم يتضررون من جهتهم تضرر الرجل من جهة عدوه فإطلاق العدو عليهم من باب التشبيه البليغ .

وجوز أن يكون من باب المجاز العقلي بإطلاق وصف السبب على المسبب من حيث أن المغري والحامل على عبادتهم هو الشيطان الذي هو عدو مبين للإنسان والأول أظهر .

والداعي للتأويل أن الأصنام لكونها جمادات لا تصلح للعداوة .

وما قيل : إن الكلام على القلب والأصل فإني عدو لهم ليس بشيء .

وقال النسفي : العدو اسم للمعادي والمعادي جميعاً فلا يحتاج إلى تأويل ويكون كقوله : ﴿ وتالله لأكيدنّ أصنامكم ﴾ [الأنبياء : 57] وصور الأمر في نفسه تعريضاً لهم كما في قوله تعالى : ﴿ لِيَ لاَ أَعْبُدُ الذى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [يس : 22] ليكون أبلغ في النصح وادعى للقبول .

ومن هنا استعمل الأكابر التعريض في النصح .

ومنه ما يحكي عن الشافعي رضي الله تعالى عنه أن رجلاً واجهه بشيء فقال : لو كنت بحيث أنت لاحتجت إلى أدب .

وسمع رجل ناساً يتحدثون في الحجر فقال : ما هو بيتي ولا بيتكم .

وضمير ﴿ أَنَّهُمْ ﴾ عائد على ﴿ مَا ﴾ [الشعراء : 75] وجمع مراعاة لمعناها .

وإفراد العدو مع أنه خبر عن الجمع إما لأنه مصدر في الأصل فيطلق على الواحد المذكر وغيره أو لاتحاد الكل في معنى العداوة أو لأن الكلام بتقدير فإن كلاً منهم أو لأنه بمعنى النسب أي ذو كذا فيستوي فيه الواحد وغيره كما قيل .

وقوله سبحانه : ﴿ إِلاَّ رَبَّ العالمين ﴾ استثناء منقطع من ضمير ﴿ أَنَّهُمْ ﴾ عند جماعة منهم الفراء .

واختاره الزمخشري أي لكن رب العالمين ليس كذلك فإنه جل وعلا ولي من عبده في الدنيا والآخرة لا يزال يتفضل عليه بالمنافع .

وقال الزجاج : هو استثناء متصل من ذلك الضمير العائد على ﴿ مَا [كنتم] تَعْبُدُونَ ﴾ [الشعراء : 75] ويعتبر شموله لله عز وجل وفي آبائهم الأقدمين من عبد الله جل وعلا من غير شك أو يقال : إن المخاطبين كانوا مشركين وهم يعبدون الله تعالى والأصنام .

وتخصيص الأصنام هنا بالذكر للرد لا لأن عبادتهم مقصورة عليها ولو سلم أنه لذلك فهو باعتبار دوام العكوف وذلك لا ينافي عبادتهم إياه عز وجل أحياناً ، وقال الجرجاني : إن الاستثناء من ﴿ مَّا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴾ و ﴿ إِلا ﴾ بمعنى دون وسوى وفي الآية تقديم وتأخير والأصل أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون إلا رب العالمين أي دون رب العالمين فإنهم عدو لي ولا يخفى ما فيه .

﴿ الذى خَلَقَنِى ﴾ صفة لرب العالمين .

ووصفه تعالى بذلك وبما عطف عليه مع اندراج الكل تحت ربوبيته تعالى للعالمين زيادة في الإيضاح في مقام الإرشاد ، وقيل : تصريحاً بالنعم الخاصة به عليه السلام وتفصيلاً لها لكونها أدخل في اقتضاء تخصيص العبادة به تعالى وقصر الالتجاء في جلب المنافع الدينية والدنيوية ودفع المضار العاجلة والآجلة عليه تعالى .

﴿ فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ عطف على الصلة أي فهو يهديني وحده حل شأنه إلى كل ما يهمني ويصلحني من أمور المعاش والمعاد هداية متصلة بحين الخلق ونفخ الروح متجددة على الاستمرار كما ينبىء عنه الفاء وصيغة المضارع فإنه تعالى يهدي كل ما خلقه لما خلق له هداية متدرجة من مبتدأ إيجاده إلى منتهى أجله يتمكن بها من جلب منافعه ودفع مضاره إما طبعاً وإما اختياراً مبدؤها بالنسبة إلى الإنسان هداية الجنين لامتصاص دم الطمث في المشهور ومنتهاها الهداية إلى طريق الجنة والتنعم بنعيمها المقيم ، وجوز الحوفي .

(96/569)

وغيره كون الموصول مبتدأ وجملة ﴿ هُوَ يَهْدِينِى ﴾ خبره ودخلت الفاء في خبره لتضمنه معنى الشرط نحو الذي يأتيني فله درهم .

وتعبه أبو حيان بأن الفاء إنما يؤتى بها في خبر الموصول لتضمنه معنى الشرط إذا كان عاماً وهنا لا يتخيل فيه العموم فليس ما نحن فيه نظير المثال .

وأيضاً الفعل الذي هو خلق مما لا يمكن فيه تجدد بالنسبة إلى إبراهيم عليه السلام فلعل ذلك على مذهب الأخفش من جواز زيادة الفاء في الخبر مطلقاً نحو زيد فاضربه ، وأجيب بأن اشتراط العموم غير مسلم كما فصله الرضي وإنما هو أغلبي .

وبأن مطلق الخلق مما يمكن فيه التجدد وهو ممكن الإرادة وإن ظهر في صورة المخصوص وتسبب الخلق للهداية بمقتضى الحكمة ، وقيل : إنه سبب للإخبار بها لتحققها وليس بشيء ويلزم على الإعراب المذكور أن يكون الموصول في قوله سبحانه :

﴿ والذى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴾ مبتدأ محذوف الخبر لدلالة ما قبله عليه وكذا اللذان بعده .

ولا يخفى ما في ذلك لفظاً ومعنى فاللائق بجزالة التنزيل الإعراب الأول وعليه يكون الموصول عطفاً على الموصول الأول .

وإنما كرر الموصول في المواضع الثلاثة مع كفاية عطف ما في حيز الصلة من الجمل الست على صلة الموصول الأول للإيذان بأن كل واحدة من تلك الصلات نعت جليل له تعالى مستقل في استيجاب الحكم حقيق بأن تجري عليه عز وجل بحيالها ولا تجعل من روادف غيرها ، والظاهر أن المراد إطعام الطعام المعروف وسقى الشراب المعهود وجيء بهو هنا دون الخلق لشيوع إسناد الإطعام والسقي إلى غيره عز وجل بخلاف الخلق وعلى هذا القياس فيما جيء فيه بهو وما ترك مما يأتي إن شاء الله تعالى .

وعن أبي بكر الوراق أن المعنى يطعمني بلا طعام ويسقيني بلا شراب كما جاء "إني أبيت يطعمني ربي ويسقين" وهو مشرب صوفي .

وأتى بهذين الصفتين بعد ما تقدم لما أن دوام الحياة وبقاء نظام خلق الإنسان بالغذاء والشراب ما سلك فيهما مسلك العدل وهو أشد احتياجاً إليهما منه إلى غيرهما ألا ترى أن أهل النار وهم في النار لم يشغلهم ما هم فيه من العذاب عن طلبهما فقالوا : ﴿ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ الماء أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ الله ﴾ [الأعراف : 50] .

﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ عطف على ﴿ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴾ [الشعراء : 19] نظم معهما في سلك الصلة لموصول واحد لما أن الصحة والمرض من متفرعات الأكل والشرب غالباً :

فإن الداء أكثر ما تراه . . .

يكون من الطعام أو الشراب

وقالت الحكماء : لو قيل لأكثر الموتى ما سبب آجالكم لقالوا : التخم ونسبة المرض الذي هو نقمة إلى نفسه والشفاء الذي هو نعمة إلى الله جل شأنه لمراعاة حسن الأدب كما قال الخضر عليه السلام : ﴿ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾ [الكهف : 79] وقال : ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا ﴾ [الكهف : 82] ولا يرد إسناده الإماتة وهي أشد من المرض إليه عز وجل في قوله :

﴿ والذى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴾ لا مكان الفرق بأن الموت قد علم واشتهر أنه قضاء محتوم

من الله عز وجل على سائر البشر وحكم عام لا يخص ولا كذلك المرض فكم من معافي منه إلى أن يبغته الموت فالتأسي بعموم الموت يسقط أثر كونه نقمة فيسوغ الأدب نسبته إليه تعالى .

وأما المرض فلما كان يخص به بعض البشر دون بعض كان نقمة محققة فاقتضى العلو في الأدب أن ينسبه الإنسان إلى نفسه باعتبار السبب الذي لا يخلو منه .

(98/569)

ويؤيد ذلك أن كل ما ذكر مع غير المرض أخبر عن وقوعه بتاً وجزماً لأنه أمر لا بد منه وأما المرض فلما كان قد يتفق وقد لا أورده مقروناً بشرط إذا فقال : ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ ﴾ [الشعراء : 80] وكان يمكنه أن يقول : والذي أمرض فيشفيني كما قال في غيره فما عدل عن المطابقة والمجانسة المأثورة إلا لذلك كذا قاله ابن المنير .

وقال الزمخشري : إنما قال : مرضت دون أمرضني لأن كثيراً من أسباب المرض يحدث بتفريط من الإنسان في مطاعمه ومشاربه وغير ذلك وكأنه إنما عدل في التعليل عن حسن الأدب لما رأى أنه عليه السلام أضاف الإماتة إليه عز وجل وهي أشد من المرض ولم يخطر له الفرق بما مر أو نحوه وغفل عن أن المعنى الذي أبداه في المرض ينكسر بالموت أيضاً فإن

المرض كما يكون بسبب تفريط الإنسان في المطعم وغيره كذلك الموت الناشىء عن سبب هذا المرض الذي يكون بتفريط الإنسان وقد أضاف عليه السلام الإماتة مطلقاً إليه عز شأنه .

وقال بعض الأجلة بعد التعليل بحسن الأدب في وجه إسناد الإماتة إليه تعالى : إنها حيث كانت معظم خصائصه عز وجل كالأحياء بدءاً وإعادة وقد نيطت أمور الآخرة جميعاً بها وبما بعدها من البعث نظمهما في سمط واحد في قوله : ﴿ والذى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴾ على أن الموت لكونه ذريعة إلى نيله عليه السلام للحياة الأبدية بمعزل من أن يكون غير مطبوع عنده عليه السلام انتهى ، وأولى من هذه العلاوة ما قيل : إن الموت لأهل الكمال وصلة إلى نيل المحاب الأبدية التي يستحقر دونها الحياة الدنيوية .

وفيه تخليص العاصي من اكتساب المعاصي ، ثم إن حمل المرض والشفاء على ما هو الظاهر منهما هو الذي ذهب إليه المفسرون .

(99/569)

وعن جعفر الصادق رضي الله تعالى عنه أن المعنى وإذا مرضت بالذنوب فهو يشفيني بالتوبة ولعله لا يصح وإن صح فهو من باب الإشارة لا العبارة ، و﴿ ثُمَّ ﴾ في قوله : ﴿ ثُمَّ

يُحْيِينِ ﴾ للتراخي الزماني لأن المراد بالإحياء للبعث وهو متراخ عن الإماتة في الزمان في نفس الأمر وإن كان كل آت قريب ، وأثبت ابن أبي إسحاق ياء المتكلم في ﴿ يَهْدِيَنِى ﴾ [الشعراء : 78] وما بعده وهي رواية عن نافع .

﴿ والذى أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيئَتِى يَوْمَ الدين ﴾ استعظم عليه السلام ما عسى يندر منه من فعل خلاف الأولى حتى سماه خطيئة .

وقيل : أراد بها قوله : ﴿ إِنِّى سَقِيمٌ ﴾ [الصافات : 89] وقوله : ﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هذا ﴾ [الأنبياء : 63] ، وقوله لسارة هي أختي ، ويدل على أنه عليه السلام عدها من الخطايا ما ورد في حديث الشفاعة من امتناعه عليه السلام من أن يشفع حياء من الله عز وجل لصدور ذلك عنه .

وفيه أنه وإن صح عدها من الخطايا بالنظر إليه عليه السلام لما قالوا : إن حسنات الأبرار سيئات المقربين إلا أنه لا يصح إرادتها هنا لما أنها إنما صدرت عنه عليه السلام بعد هذه المقاولة الجارية بينه وبين قومه .

(100/569)

أما الثالثة فظاهرة لوقوعها بعد مهاجرته عليه السلام إلى الشام ؛ وأما الأوليان فلأنهما وقعتا مكتنفتين بكسر الأصنام ، ومن البين أن جريان هذه المقالات فيما بينهم كان في مبادي الأمر ، وهذا أولى مما قيل : إنها من المعاريض وهي لكونها في صورة الكذب يمتنع لها من تصدر عنه من الشفاعة ولكونها ليست كذباً حقيقة لا تفتقر إلى الاستغفار ، وقيل : أراد بها ما صدر عنه عند رؤية الكوكب والقمر والشمس من قوله : ﴿ هذا ربّى ﴾ [الأنعام : 77] وكان ذلك قبل هذه المقاولة كما لا يخفي ، وقد تقدم أن ذلك ليس من الخطيئة في شيء ، وقيل : أراد بها ما عسى يندر منه من الصغائر وهو قريب مما تقمد ، وقيل : أراد بها خطيئة من يؤمن به عليه السلام كما قيل نحوه في قوله تعالى : ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ [الفتح : 2] ، وهو كما ترى والطمع على ظاهره ولم يجزم عليه السلام لعلمه أن لا وجوب على الله عز وجل .

وعن الحسن أن المراد به اليقين وليس بذاك .

والظرفان متعلقان بيغفر .

والاتيان بالأول للإشارة إلى أن نفع مغفرته تعالى إنما يعود إليه عليه السلام .

وتعليق المغفرة بيوم الدين مع أن الخطيئة إنما تغفر في الدنيا لأن أثرها يتبين يومئذ ولأن في ذلك تهويلاً لذلك اليوم .

وإشارة إلى وقوع الجزاء فيه إن لم تغفر .

وفي هذه الجملة من التلطف بأبيه وقومه في الدعوة إلى الايمان ما فيها وقرأ الحسن ﴿ خطاياي ﴾ على الجمع .

﴿ رَبّ هَبْ لِى حُكْماً ﴾ لما ذكر لهم من صفاته عز وجل مما يدل على كمال لطفه تعالى به ما ذكر حمله ذلك على مناجاته تعالى ودعائه لربط العتيد وجلب المزيد .

والمراد بالحكم على ما اختاره الإمام الحكمة التي هي كمال القوة العلمية بأن يكون عالماً بالخير لأجل العمل به .

وقيل : الأولى أن يفسر بكمال العلم المتعلق بالذات والصفات وسائر شؤنه عز وجل وأحكامه التي يتعبد بها .

وقيل : هي النبوة .

(101/569)

ورد بأنها كانت حاصلة له عليه السلام .

فالمطلوب إما عين الحاصل وهو محال ضرورة امتناع تحصيل الحاصل أو غيره وهو محال أيضاً لأن الشخص الواحد لا يكون نبياً مرتين .

وأجيب بمنع كونها حاصلة وقت الدعاء سلمنا ذلك إلا أنه لا محذور لجواز أن يكون المراد

طلب كما لها ويكون بمزيد القرب والوقوف على الأسرار الإلهية والأنبياء عليهم السلام متفاوتون في ذلك .

وجوز أن يكون المراد طلب الثبات ولا يجب على الله تعالى شيء .

والمراد بقوله : ﴿ وَأَلْحِقْنِى بالصالحين ﴾ طلب كمال القوة العملية بأن يكون موفقاً لأعمال ترشحه للانتظام في زمرة الكاملين الراسخين في الصلاح المنزهين عن كبائر الذوب وصغائرها .

وقدم الدعاء الأول على الثاني لأن القوة العلمية مقدمة على القوة العملية لأنه يمكن أن يعلم الحق وإن لم يعمل به وعكسه غير ممكن .

ولأن العلم صفة الروح والعمل صفة البدن فكما أن الروح أشرف من البدن كذلك العلم أشرف من العمل .

وقيل : المراد بالحكم الحكمة التي هي الكمال في العلم والعمل .

والمراد بقوله : ﴿ وَأَلْحِقْنِى ﴾ الخ طلب الكمال في العمل .

وذكره بعد ذلك تخصيص بعد تعميم اعتناء بالعمل من حيث أنه النتيجة والثمرة للعلم .

وقيل : المراد بالأول ما يتعلق بالمعاش وبالثاني ما يتعلق بالمعاد .

وقيل : المراد بالحكم رياسة الخلق وبالإلحاق بالصالحين التوفيق للعدل فيما بينهم مع القيام بحقوقه تعالى .

وقيل : المراد بهذا الجمع بينه عليه السلام وبين الصالحين في الجنة .

وأنت تعلم أنه لا يحسن بعد هذا الدعاء طلبه أن يكون من ورثة جنة النعيم .

والأولى عندي أن يفسر الحكم بالحكمة بمعنى الكمال في العلم والعمل والإلحاق بالصالحين بجعل منزلته كمنزلتهم عنده عز وجل والمراد بطلب ذلك أن يكون علمه وعمله مقبولين إذ ما لم يقبلا لا يلحق صاحبهما بالصالحين ولا تجعل منزلته كمنزلتهم .

(102/569)

وكأنه لذلك عدل عن قول : رب هب لي حكماً وصلاحاً أو رب هب لي حكماً واجعلني من الصالحين إلى ما في النظم الكريم فتأمل ولا تغفل .

﴿ وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ (84) ﴾

أي اجعل لنفعي ذكراً صادقاً في جميع الأمم إلى يوم القيامة .

وحاصله خلد صيتي وذكري الجميل في الدنيا وذلك بتوفيقه للآثار الحسنة والسنن المرضية لديه تعالى المستحسنة التي يقتدي بها الآخرون ويذكرونه بسببها بالخير وهم صادقون .

فاللسان مجاز عن الذكر بعلاقة السببية واللام للنفع ومنه يستفاد الوصف بالجميل ،

وتعريف ﴿ الاخرين ﴾ للاستغراق والكلام مستلزم لطلب التوفيق للآثار الحسنة التي أشرنا إليها وكأنه المقصود بالطلب على أبلغ وجه ولا بأس بأن يريد تخليد ذكره بالجميل ومدحه بما كان عليه عليه السلام في زمانه ولكون الثناء الحسن مما يدل على محبة الله تعالى ورضائه كما ورد في الحديث يحسن طلبه من الأكابر من هذه الجهة والقصد كل القصد هو الرضا .

ويحتمل أن يراد بالآخرين آخر أمة يبعث فيها نبي وأنه عليه السلام طلب الصيت الحسن والذكر الجميل فيهم ببعثة نبي فيهم يجدد أصل دينه ويدعو الناس إلى ما كان يدعوهم إليه من التوحيد معلماً لهم أن ذلك ملة إبراهيم عليه السلام فكأنه طلب بعثة نبي كذلك في آخر الزمان لا تنسخ شريعته إلى يوم القيامة وليس ذلك إلا نبياً محمد صلى الله عليه وسلم وقد طلب بعثته عليهما الصلاة والسلام بما هو أصرح مما ذكر أعني قوله : ﴿ وابعث فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ آيَاتك ﴾ [البقرة : 129] الخ ، ولذا قال صلى الله عليه وسلم : " أنا دعوة إبراهيم عليه السلام "

(103/569)

وقيل إذا أريد ذلك فلا بد من تقدير مضاف في كلامه عليه السلام أي اجعل لي صاحب لسان صدق في الآخرين أو جعل اللسان مجازاً عن الداعي بإطلاق الجزء على الكل لأن الدعوة باللسان فكأنه قال : اجعل لي داعياً إلى الحق صادقاً في الآخرين ، ولا يخفى أن فيما ذكرناه غني عن ذلك كله .

وفي تعليقات شيخ مشايخنا العلامة صبغة الله الحيدري طاب ثراه على تفسير البيضاوي في هذه الآية كلام ناشيء من قلة إمعان النظر فلا تغتر به .

واستدل الإمام مالك بهذه الآية على أنه لا بأس أن يحب الرجل أن يثنى عليه صالحاً ، وفائدة ذلك بعد الموت على ما قال بعض الأجلة انصراف الهمم إلى ما به يحصل له عند الله تعالى زلفى وأنه قد يصير سبباً لاكتساب المثنى أو غير نحو ما أثنى به فيثاب فيشاركه فيه المثنى عليه كما هو مقتضى "من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة" ولا يخفى عليك أن الأمور بمقاصدها .

﴿ واجعلنى ﴾ في الآخرة ﴿ مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النعيم ﴾ قد مر معني وراثة الجنة فتذكر .

واستدل بدعائه عليه السلام بهذا بعد ما تقدم من الأدعية على أن العمل الصالح لا يوجب دخول الجنة وكذا كون العبد ذا منزلة عند الله عز وجل وإلا لاستغنى عليه السلام بطلب الكمال في العلم والعمل وكذا بطلب الإلحاق بالصالحين ذوي الزلفى عنده تعالى عن طلب ذلك ، وأنت تعلم أنه تحسن الإطالة في مقام الابتهال ولا يستغنى بملزوم عن لازم في المقال

فالأولى الاستدلال على ذلك بغير ما ذكر وهو كثير مشتهر ، هذا وفي بعض الآثار ما يدل على مزيد فضل هذه الأدعية .

أخرج ابن أبي الدنيا في الذكر .

(104/569)

وابن مردويه من طريق الحسن عن سمرة بن جندب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إذا توضأ العبد لصلاة مكتوبة فاسبغ الوضوء ثم خرج من باب داره يريد المسجد فقال حين يخرج بسم الله الذي خلقني فهو يهدي هداه الله تعالى للصواب ولفظ ابن مردويه لصواب الأعمال والذي هو يطعمني ويسقين أطعمه الله تعالى من طعام الجنة وسقاه من شراب الجنة وإذا مرضت فهو يشفين شفاه الله تعالى وجعل مرضه كفارة لذنوبه والذي يميتني ثم يحيين أحياه الله تعالى حياة السعداء وأماته ميتة الشهداء والذي أطمع أن يغفر لى خطيئتي يوم الدين غفر الله تعالى له خطاياه كلها ولو كانت مثل زبد البحر رب هب لي حكماً وألحقني بالصالحين وهب الله تعالى له حكماً وألحقه بصالح من مضى وصالح من بقى واجعل لي لسان صدق في الآخرين كتب في ورقة بيضاء أن فلان بن فلان من الصادقين ثم يوفقه الله تعالى بعد ذلك للصدق واجعلني من ورثة جنة النعيم جعل الله تعالى له القصور

والمنازل في الجنة " وكان الحسن رضي الله تعالى عنه يزيد فيه واغفر لوالدي كما ربياني صغيراً وكأنه أخذ من قوله :

﴿ وَاغْفِرْ لِأَبِي ﴾

قال ابن عباس كما أخرج عنه ابن أبي حاتم أي أمنن عليه بتوبة يستحق بها مغفرتك ، وحاصله وفقه للايمان كما يلوح به تعليله بقوله : ﴿ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضالين ﴾ وهذا ظاهر إذا كان هذا الدعاء قبل موته وإن كان بعد الموت فالدعاء بالمغفرة على ظاهره وجاز الدعاء بها لمشرك والله تعالى لا يغفر أن يشرك به لأنه لم يوح إليه عليه السلام بذلك إذ ذاك والعقل لا يحكم بالامتناع ، وفي "شرح مسلم" للنووي إن كونه عز وجل لا يغفر الشرك مخصوص بهذه الأمة وكان قبلهم قد يغفر وفيه بحث ، وقيل : لأنه كان يخفي الايمان تقية من نمروذ ولذلك وعده بالاستغفار فلما تبين عداوته للايمان في الدنيا بالوحي أو في الآخرة تبرأ منه .

(105/569)

وقوله على هذا : ﴿ مِنَ الضالين ﴾ بناء على ما ظهر لغيره من حاله أو معناه من الضالين في كتم إيمانه وعدم اعترافه بلسانه تقية من نمروذ ، والكلام في هذا المقام طويل وقد تقدم شيء منه فتذكر .

﴿ وَلاَ تَخْزِنِى ﴾ بتعذيب أبي أو ببعثه في عداد الضالين بعدم توفيقه للايمان أو بمعاتبتي على ما فرطت أو بنقص رتبتي عن بعض الوراث أو بتعذيبي .

وحيث كانت العاقبة مجهولة وتعذيب من لا ذنب له جائز عقلاً صح هذا الطلب منه عليه السلام ، وقيل : يجوز أن يكون ذلك تعليماً لغيره وهو من الخزي بمعنى الهوان أو من الخزاية بفتح الخاء بمعنى الحياء ﴿ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ أي الناس كافة ، والإضمار وإن لم يسبق ذكرهم لما في عموم البعث من الشهرة الفاشية المغنية عنه ، وقيل : الضمير للضالين والكلام من تتمة الدعاء لأبيه كأنه قال : لا تخزني يوم يبعث الضالون وأبي فيهم ، ولا يخفى أنه يجوز على الأول أن يكون من تتمة الدعاء لأبيه أيضاً ، واستظهر ذلك لأن الفصل بالدعاء لأبيه بين الدعوات لنفسه خلاف الظاهر ، وعلى ما ذكر يكون قد دعا لأشد الناس التصاقاً به بعد أن فرغ من الدعاء لنفسه .

﴿ يَوْمَ لاَ يَنفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ ﴾

(106/569)

بدل من ﴿ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [الشعراء : 87] جيء به تأكيداً لتهويل ذلك اليوم وتمهيداً لما يعقبه من الاستثناء وهو إلى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَةً ﴾ [الشعراء : 103] بدل

من ﴿ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ جيء به تأكيداً لتهويل ذلك اليوم وتمهيداً لما يعقبه من الاستثناء وهو إلى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَةً ﴾ الخ من كلام إبراهيم عليه السلام ، وابن عطية بعد أن أعرب الظرف بدلاً من الظرف الأول قال : إن هذه الآيات عندي منقطعة عن كلام إبراهيم عليه السلام وهي أخبار من الله عز وجل تتعلق بصفة ذلك اليوم الذي طلب إبراهيم أن لا يخزيه الله تعالى فيه ، ولا يخفى عدم صحة ذلك مع البدلية ، والمراد بالبنون معناه المتبادر ، وقيل : المراد بهم جميع الأعوان ، وقيل : المعنى يوم لا ينفع شيء من محاسن الدنيا وزينتها ، واقتصر على ذكر المال والبنين لأنهما معظم المحاسن والزينة

(107/569)

﴿ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ استثناء من أعم المفاعيل ، و ﴿ مِنْ ﴾ محل نصب أي يوم لا ينفع مال وإن كان مصروفاً في الدنيا إلى وجوه البر والخيرات ولا بنون وإن كانوا صلحاء مستأهلين للشفاعة أحداً إلا من أتى بقلب سليم عن مرض الكفر والنفاق ضرورة اشتراط نفع كل منهما بالايمان ، وفي هذا تأييد لكون استغفاره عليه السلام لأبيه طلباً لهدايته إلى الايمان لاستحالة طلب مغفرته بعد موته كافراً مع علمه عليه السلام بعدم نفعه لأنه من باب الشفاعة ، وقيل : هو استثناء من فاعل ﴿ ينفَعُ ﴾ ومن في محل رفع بدل منه والكلام على

تقدير مضاف إلى من أي لا ينفع مال ولا بنون الأمال وبنو من أتى الله بقلب سليم حيث أنفق ماله في سبيل البر وأرشد بنيه إلى الحق وحثهم على الخير وقصد بهم أن يكونوا عباداً لله تعالى مطيعين شفعاء له يوم القيامة ، وقيل : هو استثناء مما دل عليه المال والبنون دلالة الخاص على العام أعني مطلق الغني والكلام بتقدير مضاف أيضاً كأنه قيل : يوم لا ينفع غني إلا غني من أتى الله بقلب سليم وغناه سلامة قلبه وهو من الغنى الديني وقد أشير إليه في بعض الأخبار .

أخرج أحمد .

والترمذي .

وابن ماجه عن ثوبان قال : لما نزلت ﴿ والذين يَكْنِزُونَ الذهب والفضة ﴾ [التوبة : 34] الآية قال بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : لو علمنا أي المال خير اتخذناه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أفضله لسان ذاكر وقلب شاكر وزوجة صالحة تعين المؤمن على إيمانه " وقيل : هو استثناء منقطع من ﴿ مَّالٍ ﴾ [الشعراء : 88] والكلام أيضاً على تقدير مضاف أي لا ينفع مال ولا بنون إلا حال من أتى الله بقلب سليم ، والمراد بحاله سلامة قلبه ، قال الزمخشري : ولا بد من تقدير المضاف ولو لم يقدر لم يحصل للاستثناء معنى ، ومنع ذلك أبو حيان بأنه لو قدر مثلاً لكن من أتى الله بقلب سليم يسلم أو ينتفع يستقيم المعنى .

وأجاب عنه في "الكشف" بأن المراد أنه على طريق الاستثناء من مال لا يتحصل المعنى بدون تقدير المضاف ، وما ذكره المانع استدراك من مجموع الجملة إلى جملة أخرى وليس من المبحث في شيء ، ولما لم يكن هذا مناسباً للمقام جعله الزمخشري مفروغاً عنه فلم يلم عليه بوجه ، وقد جوز اتصال الاستثناء بتقدير الحال على جعل الكلام من باب :

تحية بينهم ضرب وجيع . . .

ومثاله أن يقال : هل لزيد مال وبنون فتقول ماله وبنوه سلامة قلبه تريد نفي المال والبنين عنه وإثبات سلامة القلب بدلاً عن ذلك ، هذا وكون المراد من القلب السليم القلب السليم عن مرض الكفر والنفاق هو المأثور عن ابن عباس .

ومجاهد .

وقتادة .

وابن سيرين .

وغيرهم ، وقال الإمام : هو الخالي عن العقائد الفاسدة والميل إلى شهوات الدنيا ولذاتها ويتبع ذلك الأعمال الصالحات إذ من علامة سلامة القلب تأثيرها في الجوارح .

وقال سفيان : هو الذي ليس فيه غير الله عز وجل ، وقال الجنيد قدس سره : هو اللديغ من خشية الله تعالى القلق المنزعج من مخافة القطيعة وشاع إطلاق السليم في لسان العرب على اللديغ ، وقيل : هو الذي سلم من الشرك والمعاصي وسلم نفسه لحكم الله تعالى وسالم أولياءه وحارب أعداءه وأسلم حيث نظر فعرف واستسلم وانقاد لله تعالى وأذعن لعبادته سبحانه ، والأنسب بالمقام المعنى المأثور وما ذكر من تأويلات الصوفية ، وقال في "الكشاف" فيما نقل عن الجنيد قدس سره وما بعده : إنه من بدع التفاسير وصدقه أبو حيان بذلك في شأن الأول . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 19 صـ ﴾

(109/569)

وقال ابن عجيبة :

﴿ فإنهم عدو لي ﴾

أي : فاعلموا أنهم أعداء لي ، لا أحبهم ولا يحبونني ، أو : لو عبدتموهم لكانوا أعداء لي يوم القيامة ، كقوله : ﴿ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ [مريم : 82] ، وقال الفراء : هو من المقلوب ، أي : فإني عدو لهم ، والعدو يجيء بمعنى الواحد والجماعة ؛ لأنه فَعُولٌ ، كصبور . وفي قوله : ﴿ عدو لي ﴾ ، دون « لكم » ؛ زيادةُ نصحٍ ، لكونه أدعى لهم

إلى القبول ، ولو قال : فإنهم عدو لكم ، لم يكن بتلك المثابة ، ولم يقبلوه ، ﴿ إلا ربِّ العالمين ﴾ : استثناء منقطع ، أي : لكن رب العالمين ليس كذلك ، بل هو حبيب لي . وأجاز الزَّجَّاجُ أن يكون متصلاً ، على أن الضمير لكل معبود ، وكان من آبائهم من عَبَد الله تعالى ، وهم أيضاً كانوا يعبدون الله مع أصنامهم .

ثم وصف الربّ تعالى قوله : ﴿ الذي خلقني ﴾ بالتكوين في القرار المكين ، ﴿ فهو يَهدين ﴾ وحده إلى كل ما يُهمني ويُصلحني من أمور الدين والدنيا ، هداية متصلة بحين الخلق ونفخ الروح ، متجددة على الاستمرار ، كما ينبئ عنه صيغة المضارع . وعبَّر بالاستقبال ، مع سبق الهداية في الأزل ؛ لأن المراد ما ينشأ عنها ، وهو الاهتداء لما هو الأهم والأفضل والأتم والأكمل ، أو : والذي خلقني لأسباب خدمته فهو يهدين إلى آداب خُلَّتِهِ .

(110/569)

ولما كان الخلق لا يمكن أن يدعيه أحد لم يؤكد فيه بهو ، بخلاف الهداية والإطعام والسقي ، فإنه يكون على سبيل المجاز من المخلوقين ، ولذلك أكده بهو ؛ ليخصه به تعالى .

﴿ والذي هو يُطعمني ﴾ لا غيره ، أصناف الإطعام إلى مُولي الإنعام ؛ لأن الركون إلى الأسباب عادة الأَنعام . ﴿ و ﴾ هو أيضاً الذي ﴿ يسقين ﴾ أي : يرويني بمائه . وتكرير

الموصول في المواضع الثلاثة ؛ للإيذان بأن كل واحدة من تلك الصلات نعت جليل له تعالى ، مستقل في استيجاب الحكم . ﴿ وإِذا مرضت فهو يَشْفين ﴾ : عطف على ﴿ يُطعمني ويسقين ﴾ ، ونظم معهما في سلك الصلة بموصول واحد ؛ لأن الصحة والمرض من متبوعات الأكل والشرب في العادة ، غالباً .

وقال في الحاشية : ثم ذكر بعد نعمة الخلق والهداية ما تدوم به الحياة وتستمر ، وهو الغذاء والشراب ، ولمَّا كان ذلك مبنياً على غلبة إحدى الكيفيات على الآخر ، بزيادة الغذاء أو نقصانه ، فيحدث بعد ذلك مرض ، ذكر نعمته بإزالة ما حدث من السقم . انتهى انتهى . ا هـ ونسبة المرض إلى نفسه والشفاء إلى الله تعالى ، مع أنهما منه تعالى ؛ لمراعاة حسن الأدب ، كما قال الخضر عليه السلام : ﴿ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾ [الكهف : 79] ، ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا ﴾ [الكهف : 82] .

(111/569)

﴿ والذي يُميتني ثم يُحيين ﴾ ، ولم يقل : وإذا مت ؛ لأن الإماتة والإحياء من خصائصه تعالى . وأيضاً : الموت والإحياء من كمال الكمال ؛ لأنه الخروج من سجن الدنيا إلى السرور والهناء ، أو : الخروج من دار البلاء والفناء إلى دار الهناء والبقاء . ﴿ والذي أَطْمَعُ أَنْ

يَغْفَرَ لِي ﴾ أي: في مغفرته لي ﴿ خطيئتي يومَ الدين ﴾ ، ذكره عليه السلام؛ هضماً لنفسه ، وتعليماً للأمة أن يجتنبوا المعاصي ، ويكونوا على حذر منها ، وطلب مغفرته لما يفرط منهم. وقال أبو عثمان: أخرج سؤاله على حد الأدب ، لم يحكم على ربه بالمغفرة ، ولكنه طَمِعَ طَمَعَ العبيد في مواليهم ، وإن لم يكونوا يستحقون عليهم شيئاً؛ إذ العبد لا يستحق على مولاه شيئاً ، وما يأتيه يأتيه من فضل مولاه. أهـ

وقيل: أشار إلى قوله: ﴿ إِنِّي سَقِيم ﴾ [الصافات: 89] ﴿ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا ﴾ [الأنبياء: 63] وقوله في سارّة: «هي أختي»؛ حذراً من الجبار. وفيه نظر؛ لأنها مع كونها معاريض ، لا من قبيل الخطايا المفتقرة إلى الاستغفار إنما صدرت عنه عليه السلام بعد هذه المقالة الجارية بينه وبين قومه في أول أمره. وتعليق مغفرة الخطيئة بيوم الدين ، مع كونها إنما تُغفر في الدنيا؛ لأن أثرها إنما يظهر يومئذٍ ، ولأن في ذلك تهويلاً له ، وإشارة إلى قوع الجزاء فيه ، إن لم يغفر. والله تعالى أعلم.

(112/569)

الإشارة: ينبغي لك أيها العبد أن تكون إبراهيمياً حنيفياً ، فتنبذ جميعَ الأرباب ، وتعادي كل من يشغلك عن محبة الحبيب ، من العشائر والأصحاب ، وتقول لمن عكف على متابعة

هواه ، ولزم الحرص على جمع دنياه ، هو ومن تقدمه : أفرأيتم ما كنتم تعبدون ، أنتم وآباؤكم الأقدمون ، فإنهم عدو لي إلا رب العالمين ، الذي خلقني لعبوديته ، فهو يهدين إلى معرفته ، والذي هو يطعمني طعم الإيمان واليقين والإحسان ، ويسقيني من شراب خمرة العيان ، وإذا مرضتُ بالذنوب فهو يشفين بالتوبة ، أو : مرضت بشيء من العيوب فهو يشفين بالتطهير منها .

(113/569)

أو : إذا مرضت برؤية السِّوى ، فهو يشفين بالغيبة عنه ، والذي أطمع أن يطهرني من البقايا ، ويجعلني من المقربين يوم الدين . وقال ذو النون رضي الله عنه : يطعمني طعام المعرفة ، ويسقيني شراب المحبة ، ثم قال :

شَرَابُ المَحَبَّةِ خَيْرُ الشَّرَابْ . . . وكُلُّ شرابٍ سواه سَرَابْ

وقال الشيخ أبو يزيد البسطامي رضي الله عنه : إن لله شراباً ، يقال له : شراب المحبة ، ادخره لأفاضل عباده ، فإذا شربوا سكروا ، وإذا سكروا طاشوا ، وإذا طاشوا طاروا وصلوا ، وإذا وصلوا اتصلوا ، فهم في مقعد صدق عند مليك مقتدر . انتهى انتهى . اهـ

قلت : شراب المحبة هو خمرة الفناء والغيبة في الله ، بديل قول ابن الفارض رضي الله عنه .

فَلَمْ تهْوَنِي ما لم تكنْ فِيَّ فانِياً . . . ولَمْ تَفْنَ ما لم تحتل فيكَ صورتي

وقال الجنيد رضي الله عنه : يُحشر الناس يوم القيامة عراة ، إلا من لبس ثياب التقوى ، وجياعاً إلا من أكل طعام المعرفة ، وعطاشاً إلا من شرب شراب المحبة . انتهى انتهى . اهـ

وقد يستغني صاحب طعام المعرفة وشراب المحبة عن الطعام والشراب الحسيين ، كما قال صلى الله عليه وسلم ، حين كان يواصل : « إني أَبيتُ عند ربي يُطعمني ويسقين » .

قال أبو الوراق في قوله تعالى : ﴿ الذي هو يُطعمني ويسقين ﴾ أي : يُطعمني بلا طعام ، ويسقيني بلا شراب . قال : ويدل عليه حديث السَّقَّاء في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ؛ حيث سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ ثلاثة أيام : ﴿ وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ﴾ ، فرمى بِقِرْبَتِهِ ، فأتاه آتٍ في منامه بقدح من شراب الجنة ، فسقاه ، قال أنس : فعاش بعد ذلك نيفاً وعشرين سنة ، ولم يأكل ولم يشرب على شهوة . أهـ

(114/569)

وكان عبد الرحمن بن أبي نعيم لا يأكل في الشهر إلا مرة ، فأدخله الحجاج بيتاً ، وأغلق عليه بابه ، ثم فتحه بعد خمسة عشر يوماً ، ولم يشك أنهم مات ، فوجده قائماً يُصلي ، فقال : يا فاسق ، تصلي بغير وضوء ؟ فقال : إنما يحتاج الوضوء من يأكل ويشرب ، وأنا على الطهارة

التي أدخلتني عليها . انتهى انتهى . ا هـ ومكث سفيان الثوري بمكة دهراً ، وكان يَسفُّ من السبت إلى السبت كفاً من الرمل . انتهى انتهى . ا هـ وهذا من باب الكرامة ، فلا يجب طردها ، وقد تكون بالرياضة ، وطريق المعرفة لا تتوقف على هذا . والله تعالى أعلم .

(115/569)

﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (83) ﴾

يقول الحق جل جلاله : حاكياً عن خليله إبراهيم عليه السلام : ﴿ ربِّ هبْ لي حُكماً ﴾ أي : حكمة ، أو حُكماً بين الناس ، أو نبوة ؛ لأن النبي ذو حُكم بين عباد الله . ﴿ وألحِقْني بالصالحين ﴾ أي : الأنبياء ، الذين صلحوا لحمل أعباء النبوة والرسالة ، وصلحت سرائرهم للحضرة ، ولقد أجابه بقوله : ﴿ وإنه في الآخرة لمن الصالحين ﴾ . ﴿ واجعل لي لسانَ صدقٍ في الآخرين ﴾ أي : ثناءً حسناً ، وذكراً جميلاً في الأمم التي تجيء بعدي ، فأُعطي ذلك ، فكل أهل دين يتولونه ويثنون عليه ، ووضعَ اللسانَ موضعَ القول ؛ لأن القول يكون به . أو : واجعلني على طريق قويم ، وحال مُرضي ، يُقتدى بي فيهما ، ويُحمد أثري بعد موتي ، كما قيل :

مَوْتُ التقِيِّ حَيَاةٌ لا فناء لها . . . قد مات قومٌ وهم في الناس أَحْيَاءُ

وقد تحقق له جميع ذلك ، وخصوصاً في هذه الأمة ، حتى أنه مذكور ومقرون في كل صلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، وقال بعضهم : سأل أن يجعله صالحاً ، بحيث إذا أثنى عليه من بعده لم يكن كاذباً . وقيل : سأل الإمامة في التوحيد والدين ، وقد أجيب بقوله : ﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً ﴾ [البقرة : 124] .

(116/569)

﴿ وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴾ أي : اجعلني وارثاً من ورثة جنة النعيم ، أي : الباقين فيها ، ﴿ واغفرْ لأبي ﴾ ، أي : اجعله أهلاً للمغفرة ، بإعطاء الإسلام ؛ ﴿ إنه كان من الضالين ﴾ : الكافرين ، أو : اغفر له على حاله . وكان قبل النهي . ﴿ ولا تُخزني يوم يُبعثون ﴾ أي : لا تُهنِّي يوم يبعثون . الضمير للعباد ؛ لأنه معلوم ، أو : للضالين ، أي : لا تخزني في أبي يوم البعث ، وهذا من جملة الاستغفار لأبيه ، وكان قبل النهي عنه ، أي : لا تُهنِّي ، ﴿ يوم لا ينفعُ مالٌ ولا بنونَ ﴾ ، أي : لا ينفع فيه مال ، وإن كان مصروفاً في وجوه البر ، ولا بنون ، وإن كانوا صُلحاء متأهلين للشفاعة ، ﴿ إلا من أتى الله بقلبٍ سليمٍ ﴾ من الكفر والنفاق ؛ فإنه ينفعه ماله المصروف في طاعة الله ، ويشفع فيه بنوه ، إن تأهلوا للشفاعة ، بأن أَدَّبَهُمْ ودرَّجهم إلى اكتساب الكمالات والفضائل .

وقال ابنُ المسيَبِ : القلب السليم هو قلب المؤمن ؛ فإن قلب الكافر والمنافق مريض ؛ قال الله تعالى : ﴿ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ [البقرة : 10] . وقال أبو عثمان : هو القلب الخالي من البدعة ، المطمئن على السنة . وقال الحسن بن الفضل : سليم من آفات المال ، والبنين والله تعالى أعلم .

الإشارة : قد استعمل إبراهيم عليه السلام الأدب ، الذي هو عمدة الصوفية ، حيث قدّم الثناء قبل الطلب ، وهو مأخوذ من ترتيب فاتحة الكتاب . وقوله تعالى : ﴿ ربِّ هبْ لي حُكماً ﴾ : قال القشيري : أي : على نفسي أولاً ، فإن من لا حُكْم له على نَفْسِه لا حُكْمَ له على غيره ، ﴿ وألحقني بالصالحين ﴾ ؛ بالقيام بحقك ، دون الرجوع إلى طلب الاستقلال لنفسي دون حقك . أ هـ

(117/569)

ومما اصطلحت عليه الصوفية أن الصالحين : من صلحت ظواهرهم ، وتطهرت قلوبهم من الأمراض . وفوقهم الأولياء ، وهم من كُشف عنهم الحجاب ، وأفضوا إلى الشهود والعيان ، وفوقهم درجة النبوة والرسالة ، فقول الخليل ﴿ وألحقني بالصالحين ﴾ ، وكذلك قال الصدِّيق ، هو تنزل وتواضع ؛ ليعرف جلالة قدر الصالحين ، فما بالك بمن فوقهم ! فهو كقول

نبينا صلى الله عليه وسلم : « اللهُمَّ أحيِني مِسْكيناً ، وأمِتْنِي مِسْكيناً واحْشُرني في زُمْرة المسَاكين » أي : اجعل المساكين هم قرابتي ، المحدقون بي في المحشر ، فقد عَرَّف صلى الله عليه وسلم بفضيلة المساكين ، وعظَّم جاههم ، بطلبه أن يكونوا في كفالته ، لا أنه في كفالتهم ، وكذلك الخليل والصدِّيق ، عَرَّفا بفضيلة الصالحين من أهل الإسلام ، أو أنهما طلبا اللحوق بهم .

وقوله تعالى : ﴿ واجعل لي لسانَ صدْقٍ في الآخرين ﴾ ؛ كل من أخلص وجهه لله ، وتخلصت سريرته مما سوى الله ، وكان إبراهيمياً حنيفياً ، جعل الله له لسان صدق فيمن يأتي بعده ، وحسن الثناء عليه في حياته وبعد مماته ، لقوله صلى الله عليه وسلم : « إذا أحب الله عبداً نادى جبريل : إن الله يُحب فلاناً فَأَحِبَّهُ ، فَيُحِبُّهُ جبريل ، ثم ينادي جبريل في أهل السموات : إن الله يحب فلاناً فأحِبُّوه ، فيحبُّه أهل السماء ، ثم يُوضَع له القَبُول في الأرض » أو كما قال صلى الله عليه وسلم .

وقوله تعالى : ﴿ واغفر لأبي . . . ﴾ إلخ .

قال القشيري : هذا عند العلماء : إنما قاله قبل يأسه من إيمانه ، وعن أهل الإشارة : ذكره في وقت غَلَبَةِ البَسْط ، وتجاوز ذلك عنه ، وليس إجابةُ العبد واجبةً عليه في كل شيء ، وأكثر ما فيه : أنه لا يجيبه في ذلك ، ثم لهم أسوة في ذكر أمثال هذا الخطاب ، وهذا لا يهتدي إليه كلُّ أحدٍ . أهـ

قال المحشي : وينظر لما قاله العلماء ، وبه الفتوى ، قوله : ﴿ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ﴾ [التوبة : 114] ، وينظر للسان الإشارة شفاعته له يوم القيامة ، وتكلمه فيه بقوله : (وأيُّ خِزْيٍ أعظم من كون أبي في النار . . .) الحديث ، وكذا قوله : ﴿ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [إبراهيم : 36] ، وجاء ذلك من استغراقه في بحر الرحمة ، على سعة العلم ، ومثله استغفار نبينا صلى الله عليه وسلم لابن أُبَيّ ، وصلاته عليه ، وانظر الطيبي في آية : ﴿ وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْماً ﴾ [غافر : 7] . أهـ

وقوله تعالى : ﴿ إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾ ، أظهر ما قيل في القلب السليم : أنه السالم من الشكوك والأوهام ، والخواطر الردية ، ومن الأمراض القلبية ، ولا يتحقق له هذا إلا بصحبة شيخ كامل ، يُخرجه من الأوصاف البشرية ، إلى الأوصاف الروحانية ، ويحققه بالحضرة القدسية ، وإلا بقي مريضاً ، حتى يلقى الله بقلب سقيم . وفي الإحياء : السعادة منوطة بسلامة القلب من عوارض الدنيا ، والجودُ بالمال من عوارض الدنيا ، فشرط القلب أن يكون سليماً بينهما ، أي : لا يكون ملتفتاً إلى المال ، ولا يكون حريصاً على إمساكه ولا حريصاً على إنفاقه ؛ فإن الحريصَ على الإنفاق مصروفُ القلب إلى الإنفاق ، كما أن

الحريص على الإمساك مصروف القلب إلى الإمساك . وكان كمال القلب أن يصفو من الوصفين جميعاً . وقال الداراني : القلب السليم هو الذي ليس فيه غير الله تعالى . انتهى انتهى . اهـ وقال الجنيد رضي الله عنه : السليم في اللغة : اللديغ ، فمعناه : كاللديغ من خوف الله تعالى . انتهى انتهى . اهـ وبالله التوفيق . انتهى انتهى . اهـ ﴿البحر المديد حـ 4 صـ 140.145﴾

(119/569)

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب :

فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعالَمِينَ» .

العدوّ : يطلق على الواحد والجمع . . والضمير فى «إنهم» يعود إلى «ما» فى قوله تعالى : «ما كُنْتُمْ» أي الذي كنتم تعبدون ، وهو الأصنام . .

(120/569)

فالعدوّ لإبراهيم ، هو تلك المعبودات من الأصنام . . وعداوة إبراهيم لهذه الأصنام ، ليست عداوة ذاتية لهذه المعبودات ، من حيث هي نصب قائمة ، وإنما لأنها مضلّة لهؤلاء الضّالين . . أما هي في ذاتها ، فلا تعادى ، لأنها لا تعقل ، ولم يكن منها فعل تعادى من أجله .

- وفي قوله تعالى : « إِلَّا رَبَّ الْعالَمِينَ » هو استثناء من العداوة التي أوقعها إبراهيم على ما كانوا يعبدون هم وآباؤهم الأقدمون من معبودات . . ولما كان من بين هذه المعبودات التي كان يعبدها القوم في مرحلة من مراحل حياتهم ، اللّه سبحانه وتعالى ، فقد استثنى إبراهيم هذا المعبود الحقّ ، من تلك العداوة التي تقوم بينه وبين معبودات القوم . . وفي هذا ما يكشف للقوم على أن من بين ما كانوا يعبدون هم وآباؤهم ، معبودا واحدا ، هو الذي ينبغى أن يعبد ، وهو اللّه ربّ العالمين ، وأن ما سواه من معبودات هو باطل وضلال ، وهو ما لا يمكن أن تقوم بينه وبين إبراهيم صلة ، إلا أن تكون صلة عداوة وقطيعة ! .

- وفي قول إبراهيم : « فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي » دون أن يقول : « فإنى عدوّ لهم » حيث جعل العداوة منهم هم إليه ، ولم يجعلها منه هو إليهم ، كما يقضى بذلك ظاهر الأمر - فى هذا إشارة إلى أمور منها :

أولا : أنه لما كان اللّه سبحانه وتعالى في هذه المعبودات التي ذكرها إبراهيم ، فقد حسن أن يجعل إبراهيم العداوة صادرة من تلك المعبودات ، إلى من تعاديه . . لأن المعبود ، لا العابد

، هو الذي يقام لعداوته ، أو رضاه ،

وزن ، ويكون لعداوته أو رضاه أثر . . أما العابد ، فلا وزن ، ولا أثر لعداوته أو رضاه ،

فى من يعبده . . هكذا يجب أن يكون الحساب والتقدير . .

(121/569)

وثانيا : أنه لما كان الوجه البارز من هذه المعبودات هو هذه الأصنام الصمّاء الخرساء . فقد حسن أيضا ألا يكون من عاقل أن يعاديها ، لأنها لم يكن لها أن تفعل شيئا تعادى أو تحبّ من أجله . . وأنه إذا كان فيها من يفعل ، وهو اللّه سبحانه وتعالى ، فإن عداوته لمن يعادى أو رضاه عمن يرضى عنه ، هو من أمره وحده ، إذ المعتبر هنا ، هو عداوته لمن يعادى ، أو رضاه عمن يرضى ، لا عداوة من يعاديه ، ورضا من يرضى عنه ! .

ثم إنه بعد أن استصفى إبراهيم من بين تلك المعبودات ، المعبود الحقّ ، الذي يعبده ، والذي ينبغى أن يعبده العابدون . . أخذ يعرض صفات هذا المعبود ، وما بين يديه من سلطان مطلق ، يحكم به في عباده . . فقال :

« الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ » .

هذا هو الإله الحق ، مالك الملك ، ومن بيده النفع والضرّ . .

ويلاحظ هنا أن إبراهيم قد ذكر من صفات اللّه ـ سبحانه ـ ما يتناسب وربوبية الربّ لعباده . . فهو الذي يربّى عباده ، ويحوطهم بنعمه وآلائه . .

فيهدى الضالّين ، ويطعم الجائعين ، ويلقى خطايا المخطئين من عباده بالعفو والغفران ، يوم الحساب والجزء . . ويروى الظّماء ، ويشفى المرضى ، ويحيى الموتى . . وفي هذا ما يكشف للقوم عن نعم اللّه وإحسانه إلى عباده . .

وفي هذا ما يغريهم باللّياذ به ، واللّجأ إليه ، حتى لا يحرموا هذا الخير الكثير الذي في يديه .

وإذ يفتح لإبراهيم هذا الباب الواسع من رحمة اللّه وإحسانه ، فإنه يبادر بالدخول إلى هذا الجناب الرحيم ، ليأخذ حظّه من الخير الممدود هناك . .

فيمدّ يده طالبا الفضل والإحسان ، من صاحب الفضل والإحسان .

(122/569)

« رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ وَاجْعَلْ لِي لِسانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كانَ مِنَ الضَّالِّينَ وَلا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ يَوْمَ لا يَنْفَعُ مالٌ وَلا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ » .

وأول ما طلبه إبراهيم من عطاء ربّه في هذه الدنيا ، هو أن يهب اللّه له حكما أي سلطانا من العلم والحكمة ، يمسك به حقائق الأشياء ، ويقيمها على ميزانه ، وبهذا يكون في المقربين الصالحين من عباد اللّه . ثم كان الطلب الثاني له من ربّه أن يجعل له لسان صدق في الآخرين . . أي يبقى له ذكرا طيبا في الحياة من بعده ، وذلك لا يكون إلّا لأهل الخير ، والصلاح ، من الناس . .

ففى هذا الذكر الطيب ، طريق من طرق الهداية للناس ، حيث ينتصب لهم منه المثل الطيب ، والقدوة الصالحة ، وهذا ما علّم اللّه عباده المتقين أن يسألوه إياه ، ويدعوه به ، كما يقول سبحانه على لسانهم « وَاجْعَلْنا لِلْمُتَّقِينَ إِماماً » (74 : الفرقان) . . ثم يجىء الطلب الذي تختم به خاتمة الإنسان في هذه الآية ، ويدرك به غاية مسعاه ، وهو الفوز برضوان اللّه وجنات النعيم .

« وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ » . . وفي هذا النعيم العظيم ، لا ينسى إبراهيم أباه ، وما حرم نفسه منه ، بضلاله ، وشروده عن اللّه . . فيسأل ربّه أن يغفر لأبيه ، حتى يذوق حلاوة هذا الرضوان : « وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كانَ مِنَ الضَّالِّينَ » . . ثم عاد إبراهيم إلى نفسه ، وقد خاف أن يحرم هذا النعيم الذي هو أحرص ما يكون على أن ينال حظّه منه : « وَلا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ يَوْمَ لا يَنْفَعُ مالٌ وَلا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ »

. . أي قلب خالص من الشرك ، معافى من الضلال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التفسير القرآني للقرآن حـ 10 صـ 137. 140 ﴾

(123/569)

وقال ابن عاشور :

﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (77) ﴾

والفاء في قوله : ﴿ فإنهم عدو لي ﴾ للتفريع على ما اقتضته جملة : ﴿ أفرأيتم ما كنتم تعبدون ﴾ من التعجيب من شأن عبادتهم إياها .

ويجوز جعل الرؤية بصرية لها مفعول واحد وجَعْل الاستفهام تقريرياً والكلام مستعمل في التنبيه لشيء يريد المتكلم الحديث عنه ليعيه السامع حق الوعي ، أو فاء فصيحة بتقدير : إن رأيتموهم فاعلموا أنهم عدُوّ لي .

وهذا الوجه أظهر .

والاستثناء في قوله : ﴿ إلا رب العالمين ﴾ منقطع .

و ﴿ إلا ﴾ بمعنى (لكن) إذا كان ربّ العالمين غير مشمول لعبادتهم إذ الظاهر أنهم ما كانوا يعترفون بالخالق ولم يكونوا يجعلون آلهتهم شركاء لله كما هو حال مشركي العرب ، ألا

ترى إلى قوله تعالى : ﴿ قال بل فعله كبيرهم هذا ﴾ [الأنبياء : 63] فهو الصنم الأعظم عندهم ، وإلى قوله : ﴿ قال أتحاجّوني في الله وقد هدان ﴾ [الأنعام : 80] .

ويظهر أن الكلدانيين (قوم إبراهيم) لم يكونوا يؤمنون بالخالق الذي لا تدركه الأبصار .

وكان أعظم الآلهة عندهم هو كوكبَ الشمس والصنم الذي يمثل الشمس هو (بعل) ، فوظيفة الأصنام عندهم تدبير شؤون الناس في حياتهم .

وأما الإيجاد والإعدام فكانوا من الذين يقولون ﴿ وما يُهلكنا إلا الدهر ﴾ [الجاثية : 24] وأن الإيجاد من أعمال التناسل وهم في غفلة عن سر تكوين تلك النظم الحيوانية وإيداعها فيها .

وقد يكونون معترفين برب عظيم خالق للأكوان وإنما جعلوا الأصنام شركاء له في التصرف في نظام تلك المخلوقات كما كان حال الإشراك في العرب فيكون الاستثناء متصلاً لأنَّ الله من جملة معبودِيهم ، أي إلا الرب الذي خلق العوالم .

وتقدم ذكر أصنام قوم إبراهيم في سورة الأنبياء .

وانظر ما يأتي في سورة العنكبوت .

الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (78)

الأظهر أن الموصول في موضع نعت ل ﴿ ربّ العالمين ﴾ [الشعراء : 77] وأنّ ﴿ فهو يهدين ﴾ عطف على الصلة مفرع عليه لأنه إذا كان هو الخالق فهو الأولى بتدبير مخلوقاته دون أن يتولاّها غيره .

ويجوز أن يكون الموصول مبتدأ مستأنفاً به ويكون ﴿ فهو يهدين ﴾ خبراً عن ﴿ الذي ﴾ .

وزيدت الفاء في الخبر لمشابهة الموصول للشرط .

وعلى الاحتمالين ففي الموصولية إيماء إلى وجه بناء الخبر وهو الاستدراك بالاستثناء الذي في قوله : ﴿ إلا رب العالمين ﴾ [الشعراء : 77] ، أي ذلك هو الذي أُخلصُ له لأنه خلقني كقوله في الآية الأخرى : ﴿ إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض ﴾ [الأنعام : 79] .

وتقديم المسند إليه على الخبر الفعلي في قوله : ﴿ فهو يهدين ﴾ دون أن يقول : فيهدين ، لتخصيصه بأنه متولي الهداية دون غيره لأن المقام لإبطال اعتقادهم تصرف أصنامهم بالقصر الإضافي ، وهو قصر قلب .

وليس الضمير ضمير فصل لأن ضمير الفصل لا يقع بعد العاطف .

والتعبير بالمضارع في قوله : ﴿ يهدين ﴾ لأن الهداية متجددة له .

وجعل فعل الهداية مفرّعاً بالفاء على فعل الخلق لأنه معاقب له لأن الهداية بهذا المعنى من مقتضى الخلق لأنها ناشئة عن خلق العقل كما قال تعالى : ﴿ الذي أعطى كلَّ شيء خلقه ثم هدى ﴾ [طه : 50] .

والمراد بالهداية الدلالة على طرق العلم كما في قوله تعالى : ﴿ وهديناه النجدين ﴾ [البلد : 10] فيكون المعنى : الذي خلقني جسداً وعقلاً .

ومن الهداية المذكورة دفع وساوس الباطل عن العقل حتى يكون إعمال النظر معصوماً من الخطأ .

والقول في تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي في قوله : ﴿ والذي هو يطعمني ويسقين ﴾ ، وقوله : ﴿ فهو يشفين ﴾ كالقول في سابقهما للرد على زعمهم أن الأصنام تقدر لهم تيسير ما يأكلون وما يشربون وبها برؤهم إذا مرضوا ، وليسا بضميري فصل أيضاً .

(125/569)

وعطف ﴿ إذا مَرضت ﴾ على ﴿ يطعمني ويسقين ﴾ لأنه لم يكن حين قال ذلك مريضاً فإن ﴿ إذا ﴾ تخلص الفعل بعدها للمستقبل ، أي إذا طرأ عليّ مرض .

وفي إسناده فعل المرض إلى نفسه تأدب مع الله راعى فيه الإسناد إلى الأسباب الظاهرة في

مقام الأدب ، فأسند إحداث المرض إلى ذاته ولأنه المتسبب فيه ، فأما قوله : ﴿ والذي يميتني ثم يحيين ﴾ فلم يأت فيه بما يقتضي الحصر لأنهم لم يكونوا يزعمون أن الأصنام تميت بل عمل الأصنام قاصر على الإعانة أو الإعاقة في أعمال الناس في حياتهم .

فأما الموت فهو من فعل الدهر والطبيعة إن كانوا دهريين وإن كانوا يعلمون أن الخلق والإحياء والإماتة ليست من شؤون الأصنام وأنها من فعل الله تعالى كما يعتقد المشركون من العرب فظاهر .

وتكرير اسم المَوصول في المواضع الثلاثة مع أن مقتضى الظاهر أن تعطف الصلتان على الصلة الأولى للاهتمام بصاحب تلك الصلات الثلاث لأنها نعت عظيم لله تعالى فحقيق أن يجعل مستقلاً بدلالته .

وأطلق على رجاء المغفرة لفظ الطمع تواضعاً لله تعالى ومباعدة لنفسه عن هاجس استحقاقه المغفرة وإنما طمع في ذلك لوعد الله بذلك .

والخطيئة : الذنب .

يقال : خَطِىء إذا أذنب .

وتقدم في قوله تعالى : ﴿ نغفر لكم خطاياكم ﴾ في البقرة (58) .

والمقصود في لسان الشرائع : مخالفة ما أمر به الشرع .

وإذ قد كان إبراهيم حينئذ نبيئاً والأنبياء معصومون من الذنوب كبيرها وصغيرها

فالخطيئة منهم هي مخالفة مقتضى المقام النبوي .

والمغفرة : العفو عن الخطايا ، وإنما قيده بيوم الدين ﴾ لأنه اليوم الذي يظهر فيه أثر العفو ، فأما صدور العفو من اللهِ لمثل إبراهيم عليه السلام ففي الدنيا ، وقد يغفر خطايا بعض الخاطئين يوم القيامة بعد الشفاعة .

ويوم الدين : هو يوم الجزاء ، وهذا الكلام خبر يتضمن تعريضاً بالدعاء .

(126/569)

وقد أشار في هذه النعوت إلى ما هو من تصرفات الله في العالم الحِسي بحيث لا يخفى عن أحد قصداً لاقتصاص إيمان المشركين إن راموا الاهتداء .

وفي تلك النعوت إشارة إلى أنها مهيئات للكمال النفساني فقد جمعت كلمات إبراهيم عليه السلام مع دلالتها على انفراد الله بالتصرف في تلك الأفعال التي هي أصل أطوار الخَلْق الجسماني دلالة أخرى على جميع أصول النعم من أول الخَلْق إلى الخَلْق الثاني وهو البعث ، فذكر خَلق الجسد وخَلق العقل وإعطاءَ ما به بقاء المخلوق وهو الغذاء والماء ، وما يعتري المرء من اختلال المزاج وشفائه ، وذكر الموت الذي هو خاتمة الحياة الأولى ، وأعقبه بذكر الحياة الثانية للإشارة إلى أن الموت حالة لا يظهر كونها نعمة إلا بغوص فكر ولكن وراءه حياة

هي نعمة لا محالة لمن شاء أن تكون له نعمةً .

وحذفت ياآت المتكلم من ﴿ يهدين ، ويسقين ، ويشفين ، ويحيين ﴾ لأجل التخفيف ورعاية الفاصلة لأنها يوقف عليها ، وفواصل هذه السورة أكثرها بالنون الساكنة ، وقد تقدم ذلك في قوله : ﴿ فأخاف أن يقتلون ﴾ [الشعراء : 14] في قصة موسى المتقدمة .

رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (83)

لما كان آخر مقاله في الدعوة إلى الدين الحق متضمناً دعَاء بطلب المغفرة تخلص منه إلى الدعاء بما فيه جمع الكمال النفساني بالرسالة وتبليغ دعوة الخلق إلى الله فإن الحجة التي قام بها في قومه بوحي من الله كما قال تعالى : ﴿ وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه ﴾ [الأنعام : 83] فكان حينئذ في حال قرب من الله .

وجهر بذلك في ذلك الجمع لأنه عقب الانتهاء من أقدس واجب وهو الدعوة إلى الدين ، فهو ابتهال أرجى للقبول كالدعاء عقب الصلوات وعند إفطار الصائم ودعاء يوم عرفة والدعاء عند الزحف ، وكلها فراغ من عبادات .

(127/569)

ونظير ذلك دعاؤه عند الانتهاء من بناء أساس الكعبة المحكي في قوله تعالى : ﴿ وإذ يَرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل إلى قوله : ﴿ ربّنا واجعلنا مسلمين لك إلى إنك أنت العزيز الحكيم ﴾ [البقرة : 127 129] وابتدأ بنفسه في أعمال هذا الدين كما قال تعالى حكاية عن موسى عليه السلام : ﴿ وأنا أول المؤمنين ﴾ [الأعراف : 143] ، وكما أمر رسوله محمد صلى الله عليه وسلم إذ قال : ﴿ وأمرتُ لأن أكون أول المسلمين ﴾ [الزمر : 12] .

وللأوليات في الفضائل مرتبة مرغوبة ، قال سعد بن أبي وقاص "أنا أول من رمَى بسهم في سبيل الله" .

وبضد ذلك أوليات المساوىء ففي الحديث : " ما من نفس تُقتل ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كِفلٌ من دمها ذلك لأنه أول من سَنّ القتل "

وقد قابل إبراهيم في دعائه النعم الخمس التي أنعم الله بها عليه المذكورة في قوله : ﴿ الذي خلقني فهو يهدين إلى قوله : ﴿ يوم الدين ﴾ [الشعراء : 78 82] الراجعة إلى مواهب حسية بسؤال خمس نعم راجعة إلى الكمال النفساني كما أومأ إليه قوله : ﴿ إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾ وأقحم بين طِلْباته سؤاله المغفرة لأبيه لأن ذلك داخل في قوله : ﴿ ولا تخزني يوم يبعثون ﴾ .

فابتداء دعائه بأن يعطى حُكْماً .

والحكم : هو الحكمة والنبوءة ، قال تعالى عن يوسف : ﴿ آتيناه حكماً وعلماً ﴾ [القصص : 14] أي النبوءة ، وقد كان إبراهيم حين دعا نبيئاً فلذلك كان السؤال طلباً للازدياد لأن مراتب الكمال لا حدّ لها بأن يُعطى الرسالة مع النبوءة أو يعطى شريعة مع الرسالة ، أو سأل الدوام على ذلك .

ثم ارتقى فطلب إلحاقه بالصالحين .

ولفظ الصالحين يعم جميع الصالحين من الأنبياء والمرسلين ، فيكون قد سأل بلوغ درجات الرسل أولي العزم نوح وهود وصالح والشهداء والصالحين فجعل الصالحين آخراً لأنه يعم ، فكان تذييلاً .

ثم سأل بقاء ذكر له حسن في الأمم والأجيال الآتية من بعده .

(128/569)

وهذا يتضمن سؤال الدوام والختام على الكمال وطلب نشر الثناء عليه وهذا ما تتغذى به الروح من بعد موته لأن الثناء عليه يستعدي دعاء الناس له والصلاة عليه والتسليم جزاء على ما عرفوه من زكاء نفسه .

وقد جعل الله في ذريته أنبياء ورسلاً يذكرونه وتذكره الأمم التابعة لهم ويُخلد ذكره في

الكُتب .

قال ابن العربي : "قال مالك : لا بأس أن يحب الرجل أن يُثنى عليه صالحاً ويُرى في عمل الصالحين إذا قصد به وجه الله وهو الثناء الصالح" ، وقد قال الله تعالى : ﴿ وألقيت عليك محبة مني ﴾ [طه : 39] ، وهي رواية أشهب عن مالك رحمه الله .

وقد تقدم الكلام على هذا مشبعاً عند قوله تعالى : ﴿ والذين يقولون ربّنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماماً ﴾ في سورة الفرقان (74) .

واللسان مراد به الكلام من إطلاق اسم الآلة على ما يتقوم بها .

واللام في قوله : ﴿ لي ﴾ تقتضي أن الذكر الحسن لأجله فهو ذكره بخير .

وإضافة ﴿ لسان ﴾ إلى ﴿ صدق ﴾ من إضافة الموصوف إلى الصفة ، ففيه مبالغة الوصف بالمصدر ، أي لساناً صادقاً .

والصدق هنا كناية عن المحبوب المرغوب فيه لأنه يرغب في تحققه ووقوعه في نفس الأمر .

وسأل أن يكون من المستحقين الجنة خالداً فاستعير اسم الورثة إلى أهل الاستحقاق لأن الوارث ينتقل إليه ملك الشيء الموروث بمجرد موت المالك السابق .

ولما لم يكن للجنة مالكون تعين أن يكون الوارثون المستحقين من وقت تبَوُّؤ أهل الجنة الجنة ، قال تعالى : ﴿ أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون ﴾ [المؤمنون : 10 ، 11] .

وسأل المغفرة لأبيه قبل سؤال أن لا يخزيه الله يوم القيامة لأنه أراد أن لا يلحقه يومئذ شيء ينكسر منه خاطره وقد اجتهد في العمل المبلّغ لذلك واستعان الله على ذلك وما بقيت له حزازة إلا حزازة كفر أبيه فسأل المغفرة له لأنه إذا جيء بأبيه مع الضالّين لحقه انكسار ولو كان قد استجيب له بقية دعواته ، فكان هذا آخر شيء تخوف منه لحاق مهانة نفسية من جهة أصله لا من جهة ذاته .

وفي الحديث أنه يؤتى بأبي إبراهيم يوم القيامة في صورة ذيخ (أي ضبَع ذكر) فيلقَى في النار فلا يشعر به أهل الموقف فذلك إجابة قوله : ﴿ ولا تخزني يوم يبعثون ﴾ أي قطعاً لما فيه شائبة الخزي .

وتقدم الكلام على معنى الخزي عند تفسير قوله تعالى : ﴿ إلاّ خِزي في الحياة الدنيا ﴾ في سورة البقرة (85) .

وقوله : ﴿ إنك من تُدخل النار فقد أخزيتَه ﴾ في آل عمران (192) .

وضمير يبعثون ﴾ راجع إلى العباد المعلوم من المقام .

وجملة : ﴿ إنه كان من الضالين ﴾ تعليل لطلب المغفرة لأبيه فيه إيماء إلى أنه سأل له مغفرة

خاصة وهي مغفرة أكبر الذنوب أعني الإشراك بالله ، وهو سؤال اقتضاه مقام الخُلّة وقد كان أبوه حياً حينئذ لقوله في الآية الأخرى : ﴿ قال سلام عليك سأستغفر لك ربي إنه كان بي حَفيّاً ﴾ [مريم : 47] .

ولعلّ إبراهيم علم من حال أبيه أنه لا يرجى إيمانه بما جاء به ابنه ؛ أو أن الله أوحى إليه بذلك ما ترشد إليه آية

﴿ وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبيّن له أنه عدوّ لله تبرأ منه ﴾ [التوبة : 114] .

ويجوز أنه لم يتقرر في شرع إبراهيم حينئذ حرمان المشركين من المغفرة فيكون ذلك من معنى قوله تعالى : ﴿ فلما تبيّن له أنه عدوّ لله تبرأ منه ﴾ [التوبة : 114] .

ويجوز أن يكون طلبُ الغفران له كناية عن سبب الغفران وهو هدايته إلى الإيمان .

(130/569)

و ﴿ يوم لا ينفع مال ﴾ الخ يظهر أنه من كلام إبراهيم عليه السلام فيكون ﴿ يوم لا ينفع ﴾ بدلاً من ﴿ يوم يبعثون ﴾ قصد به إظهار أن الالتجاء في ذلك اليوم إلى الله وحده ولا عون فيه بما اعتاده الناس في الدنيا من أسباب الدفع عن أنفسهم .

واستظهر ابن عطية : أن الآيات التي أولها ﴿ يوم لا ينفع مال ولا بنون ﴾ يريد إلى قوله : ﴿ فنكون من المؤمنين ﴾ [الشعراء : 102] منقطعة عن كلام إبراهيم عليه السلام وهي إخبار من الله تعالى صفة لليوم الذي وقف إبراهيم عنده في دعائه أن لا يُخْزى فيه أ هـ .

وهو استظهار رشيق فيكون : ﴿ يوم لا ينفع مال ﴾ استئنافاً خبراً لمبتدأ محذوف تقديره : هو يوم لا ينفع مال ولا بنون .

وفتحة ﴿ يومَ ﴾ فتحة بناء لأن (يوم) ظرف أضيف إلى فعل معرب فيجوز إعرابه ويجوز بناؤه على الفتح ، فهو كقوله تعالى : ﴿ هذا يومَ ينفع الصادقين صدقُهم ﴾ [المائدة : 119] .

ويظهر على هذا الوجه أن يكون المراد بـ ﴿ من أتى الله بقلب سليم ﴾ الإشارةُ إلى إبراهيم عليه السلام لأن الله تعالى وصفه بمثل هذا في آية سورة الصافات (83 ، 84) في قوله : ﴿ وإن من شِيعَتِه ﴾ (أي شيعة نوح) لإبراهيمَ إذ جاء ربَّه بقلب سليم .

وفيه أيضاً تذكير قومه بأن أصنامهم لا تغني عنهم شيئاً ، ونفي نفع المال صادق بنفي وجود المال يومئذ من باب "على لاحب لا يهتدى بمناره" ، أي لا منارَ له فيهتَدى به ، وهو استعمال عربي إذا قامت عليه القرينة .

ومن عبارات عِلم المنطق "السَّالبةُ تصدُق بنفي الموضوع" .

والاقتصار على المال والبنين في نفي النافعين جرى على غالب أحوال القبائل في دفاع أحد

عن نفسه بأن يدافع إما بفدية وإما بنجدة (وهي النصر) ، فالمال وسيلة الفدية ، والبنون أحق من ينصرون أباهم ، ويعتبر ذلك النصر عندهم عهداً يجب الوفاء به .

قال قيس ابن الخَطِيم:

ثأَرتُ عَدِيًّا والخطيمَ ولم أُضِع . . .

وَلاية أشياخ جُعلت إزاءَها

(131/569)

واقتضى ذلك أن انتفاء نفع ما عدا المال والبنين من وسائل الدفاع حاصل بالأَوْلى بحكم دلالة الاقتضاء المستندة إلى العُرف .

فالكلام من قبيل الاكتفاء ، كأنه قيل : يوم لا ينفع مال ولا بنون ولا شيء آخر .

وقوله : ﴿ إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾ استثناء من مفعول ﴿ ينفع ﴾ ، أي إلاّ منفوعاً أتى الله بقلب سليم .

هذا معنى الآية وهو مفهوم للسامعين فلذلك لم يؤثَر عن أحد من سلف المفسرين عدّ هذه الآية من متشابه المعنى وإنما أعضل على خلفهم طريق استخلاص هذا المعنى المجمل من تفاصيل أجزاء تركيب الكلام .

وذكر صاحب "الكشاف" احتمالات لا يسلم شيء منها من تقدير حذفٍ ، فَبِنَا أن نفصّل وجه استفادة هذا المعنى من نظم الآية بوجه يكون أليق بتركيبها دون تكلف .

فاعلم أن فعل ﴿ ينفع ﴾ رافع لفاعل ومتعدّ إلى مفعول ، فهو بحقّ تعدّيه إلى المفعول يقتضي مفعولاً ، كما يصلح لأنْ تعلّقَ به متعلقات بحروف تعدية ، أي حروف جر ، وإن أول متعلقاته خطوراً بالذهن متعلق سبب الفعل ، فيعلم أن قوله : ﴿ يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾ يشير إلى فاعِل ﴿ ينفع ﴾ ومفعولِه وسببِه الذي يحصل به ، فقوله : ﴿ بقلب سليم ﴾ هو المتعلق بفعل ﴿ أتى الله ﴾ لأن فاعل الإتيان إلى الله هو المنفوع فهو في المعنى مفعول فعل ﴿ ينفع ﴾ والمتعلّق بأحد فعلَيْه وهو فعل ﴿ أتى ﴾ الذي هو فاعلُه متعلِق في المعنى بفعله الآخر وهو ﴿ ينفع ﴾ الذي ﴿ من أتى الله ﴾ مفعولُه .

فعلم أن تقدير الكلام : يوم لا ينفع نافعٌ أو شيءٌ ، أو نحو ذلك مما يفيد عموم نفي النافع ، حسبما دل عليه ﴿ مَال و بنون ﴾ من عموم الأشياء كما قررنا .

وحذف مفعول ﴿ ينفع ﴾ لقصد العموم كحذفه في قوله تعالى : ﴿ والله يدعوا إلى دار السلام ﴾ [يونس : 25] أي يدعو كل أحد ، فتحصل أن التقدير : يوم لا ينفع أحداً شيء يأتي به للدفع عن نفسه .

والمستثنى وهو ﴿ من أتى الله بقلب سليم ﴾ متعيّن لأن يكون استثناء من مفعول ﴿ ينفع ﴾ وليس مستثنى من فاعل ﴿ ينفع ﴾ لأن من أتى الله بقلب سليم يومئذ هو منفوع لا نافع فليس مستثنى من صريح أحدِ الاسمين السابقين قبلَه ، ولا مما دلّ عليه الاسمان من المعنى الأعمّ الذي قدرناه بمعنى : "ولا غيرهما" ، فتمحض أن يكون هذا المستثنى مخرَجاً من عموم مفعول ﴿ ينفع ﴾ .

وتقديره : إلا أحداً أتى الله بقلب سليم ، أي فهو منفوع ، واستثناؤه من مفعول فعل ﴿ ينفع ﴾ يضطرنا إلى وجوب تقدير نافعه فاعلَ فعل ﴿ ينفع ﴾ ، أي فإنه نفعه شيء نافع . ويُبيِّن إجماله متعلق فعل ﴿ ينفع ﴾ وهو ﴿ بقلب سليم ﴾ إذ كان القلب السليم سبب النفع فهو أحد أفراد الفاعل العام المقدر بلفظ "شيء" كما تقدم آنفاً .

فالخلاصة أن الذي يأتي الله يومئذ بقلب سليم هو منفوع بدلالة الاستثناء وهو نافع (أي نافع نفسه) بدلالة المجرور المتعلِّق بفعل ﴿ أتى ﴾ ، فإن القلب السليم قلبُ ذلك الشخص المنفوع فصار ذلك الشخص نافعاً ومنفوعاً باختلاف الاعتبار ، وهو ضرب من التجريد .

وقريب من وقوع الفاعل مفعولاً في باب ظن في قولهم : خلتُني ورأيتُني ، فجُعل القلب السليم سبباً يحصل به النفع ، ولهذا فالاستثناء متصل مفرَّغ عن المفعول .

وقد حصل من نسج الكلام على هذا المنوال إيجازٌ مغنٍ أضعاف من الجمل المطوية .

وجَعْلُ الاستثناء منقطعاً لا يدفع الإشكال .

والقلب : الإدراك الباطني .

والسليم : الموصوف بقوة السلامة ، والمراد بها هنا السلامة المعنوية المجازية ، أي الخلوص من عقائد الشرك مما يرجع إلى معنى الزكاء النفسي .

وضدُّه المريض مرضاً مجازياً قال تعالى : ﴿ في قلوبهم مَرض ﴾ [البقرة : 10] .

والاقتصار على السليم هنا لأن السلامة باعث الأعمال الصالحة الظاهرية وإنما تثبت للقلوب هذه السلامة في الدنيا باعتبار الخاتمة فيأتون بها سالمة يوم القيامة بين يدي ربّهم .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 19 صـ ﴾

(133/569)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي ﴾ [الشعراء : 77]

وكلمة عدو جاءت مفردة مع أنها مسبوقة بضمير جمع وتعود على جمع ﴿ فَإِنَّهُمْ ﴾ [الشعراء : 77] ومع ذلك لم يقل : أعداء لي . قالوا : لأن العداوة في أمر الدين واحدة على

خلاف العداوة في أمر الدنيا ؛ لأنها متعددة الأسباب ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿ واذكروا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ ﴾ [آل عمران : 103] .

فجاءت : ﴿ أَعْدَآءً ﴾ [آل عمران : 103] هنا جمع ؛ لأنها تعود على عداوة الدنيا ، وهي متعددة الأسباب ، أمّا العداوة في الدين فواحدة على قلب رجل واحد .

ومن ذلك ما قلناه في سورة النور عند قوله تعالى : ﴿ لَّيْسَ عَلَى الأعمى حَرَجٌ وَلاَ عَلَى الأعرج حَرَجٌ وَلاَ عَلَى المريض حَرَجٌ وَلاَ على أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُواْ مِن بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ ﴾ [النور : 61] .

كلها بصيغة الجمع إلا في ﴿ صَدِيقِكُمْ ﴾ [النور : 61] جاءت بصغية المفرد ؛ لأن الصداقة الحقة هي ما كانت لله غير متعددة الأغراض ، فهي إذن لا تتعدد .

وفي إعلان إبراهيم لعداوته لهذه الأصنام تحدٍّ لهم : فها أنا ذا أعلن عداوتي لهم ، فإنْ كانوا يقدرون على مضرّتي فليفعلوا . وبعد أن أعلن إبراهيم عليه السلام عداوته للأصنام نجحت دعوته ، وظل إبراهيم هو إبراهيم لم يُصبْه شيء .

الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (78)

كأن الحق تبارك وتعالى يقول لهم : يا أغبياء ، اعلموا أن للعبادة أسباباً وحيثيات . ويوضح إبراهيم عليه السلام حيثيات عبادة ربه عزَّ وجل فيقول : ﴿ الذي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ [الشعراء : 78] أي : خلقني من عدم ، وأمدَّني من عُدْم ، وجعل لي قانون صيانة يحفظ حياتي ، ويضمن سلامتي حيث كلَّفني بشرعه : افعل كذا ولا تفعل كذا ، وهو سبحانه لا ينتفع بشيء من هذا ، بل النفع يعود علينا نحن ، وهل فعلتْ الأصنام لكم شيئاً من هذا ؟ إذن : فهو واحده المستحق للعبادة .

وقوله سبحانه ﴿ فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ [الشعراء : 78] أي : بقانون الصيانة الذي يشبه (الكتالوج) الذي يجعله البشر لصناعتهم ؛ ليضمنوا سلامتها وأدائها لمهمتها على أكمل وجه ، ولا بُدَّ أن يحدّد لها المهمة قبل أنْ يَشرَعَ في صناعتها ، وهل رأينا آلةَ صنعها صاحبها ، ثم قال لنا : انظروا في أيِّ شيء تستخدم هذه ، (بوتاجاز) أو ثلاجة مثلاً ؟

فإذا ما حدث خلل في هذه الآلة ، فعليك بالنظر في هذا (الكتالوج) أو أن تذهب بها إلى المهندس المختص بها ؛ لذلك إذا أردتَ أن تأخذ قانون صيانتك ، فلا تأخذه إلا من صانعك وخالقك عز وجل ولا يجوز أن يخلق الله تعالى وتضع أنت لِخَلْقة الله قانون صيانتها ، فهذا مِثْل : أن تقول للجزار مثلاً : اعمل لي قانون صيانة (التلفزيون) .

ثم يذكر بعد ذلك مُقوِّمات استبقاء الحياة ، فيقول : ﴿ والذي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ [الشعراء : 7980] .

ونقف هنا عند الضمير المنفصل (هو) الذي جاء للتوكيد ، والتوكيد لا يأتي ابتداءً ، إنما يكون على درجات الإنكار ، وقد أكّد الحق تبارك وتعالى نسبة الهداية والإطعام والسُّقْيا والشفاء إليه تعالى ؛ لأن هذه المسائل الأربع قد يدعيها غيره تعالى ، وقد يظن البعض أن الطبيب هو الشافي أو أن الأب مثلاً هو الرازق ؛ لأنه الجالب له والمناول .

(135/569)

والهداية قد يدّعيها واضعوا القوانين من البشر ، وقد رأينا الشيوعية والرأسمالية والوجودية والبعثية وغيرها ، وكلها تدّعي أنها لصالح البشر ، وأنها طريق هدايتهم ؛ لذلك أكد الله تعالى لنفسه هذه المسألة ﴿ الذي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ [الشعراء : 78] فالهداية لا تكون إلا من الله ، وفي شِرْعته تعالى .

وقد تسأل في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ [الشعراء : 80] ولماذا نذهب إلى الطبيب إذن ؟ نقول : الطبيب يعالج ، وهو سبب للشفاء ، أمّا الشفاء فمن الله ، بدليل أن الطبيب ربما يمرض ، ويعجز هو عن شفاء نفسه ، وقد يعطي المريض حقنة ويكون فيها حَتْفه .

وحين نُعرب : ﴿ مَرِضْتُ ﴾ [الشعراء : 80] نقول : مرض فعل ماضٍ والتاء فاعل ،

فهل أنا الذي فعلتُ المرض ؟ وهذا مِثْل أن نقول : مات فلان ، ففلان عامل مع أنه لم يحدث الموت ؛ لذلك يجب أن نتنبه إلى أن الفاعل يعني مَنْ فعل الفعل ، أو اتصف به ، والفاعل هنا لم يفعل الفعل وإنما اتصف به . وقال ﴿ مَرِضْتُ ﴾ [الشعراء : 80] تأدباً مع الله تعالى ، فلم يقل : أمرضني ونسب المرض الظاهر إلى نفسه .

أما في المسائل التي لا يدَّعيها أحد ، فتأتي بالفعل دون توكيد ، كما في الآية بعدها : ﴿ والذي يُمِيتُنِي ﴾

فلم يقُل ؟ هنا : بميتني أو هو يُحييني ؛ لأن الحياة والموت بيده تعالى لا يدَّعيها أحد ، فإنْ قُلْتَ : وماذا عن قتْل الإنسان لغيره أَلَا يُعَدُّ موتاً ؟ وقد سبق أنْ أوضحنا الفرق بين الموت والقتل ، بدليل قوله تعالى : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرسل أَفَإِنْ مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقلبتم على أَعْقَابِكُمْ ﴾ [آل عمران : 144] .

فالموت أن تخرج الروح ، والجسم سليم الأجزاء كامل الإعضاء ، وبعد خروج الروح تُنقض البنية ، أما القتل فيكون بنقْض البنية نَقْضاً يترتب عليه خروج الروح .

إذن : الموت لم يدّعه أحدٌ لنفسه ، ولما ادعاه النمرود جادله إبراهيم عليه السلام في ذلك ، وكشف زيف هذا الادعاء ، كما قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الذي حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ الله الملك إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الذي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ﴾ [البقرة : 258] .

ولم يفعل إلا أنْ جاء برجل فأمر بقتله ، ثم عفا عنه ؛ لذلك رأى إبراهيم عليه السلام أنْ يقطع عليه الطريق ، فقال : ﴿ فَإِنَّ الله يَأْتِي بالشمس مِنَ المشرق فَأْتِ بِهَا مِنَ المغرب فَبُهِتَ الذي كَفَرَ ﴾ [البقرة : 258] .

وهكذا أنهى هذه السفسطة ، وكشف حقيقة هذا المكابر المعاند .

وتأمل حرف العطف ﴿ والذي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴾ [الشعراء : 81] و (ثم) تفيد العطف مع التراخي ، ولم يقل : ويحيين ؛ لأن الواو تفيد مُطلَق العطف ، وبين الموت والإحياء الآخر مسافة طويلة ، ألا ترى قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ * ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُ ﴾ [عبس : 2122] .

وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (82)

عجيب أن يصدر هذا الدعاء من إبراهيم ، وما أدراك ما إبراهيم ؟

إنه أبو الأنبياء الذي وصفه ربه بأنه أمة قانتاً لله ، ولم يكن من المشركين ، إبراهيم الذي ابتلاه ربه بكلمات فأتمهن ، ومع هذا كله يقول : ﴿ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدين ﴾ [

الشعراء : 82] .

إنه أدب عَالٍ مع الله وهضم لعمله ؛ لأن الإنسان مهما قدَّم من الخير فهو دون ما يستحق الله تعالى من العبادة ؛ لذلك كان طلب المغفرة من الطمع .

ويجب أن ننظر هنا : متى دعا إبراهيم ربه ومتى تضرع إليه ؟ بعد أن ذكر حيثيات الألوهية ، واعترف لله بالنعم السابقة وأقرَّ بها ، فقد خلقه من عدم ، وأمدَّه من عُدْم ، ووفّر له كل مقومات الحياة .

(137/569)

وإقرار العبد بنعم الله عليه يقضي على كبرياء نفسه ، ويُصفِّي روحه وأجهزته ، فيصير أهلاً لمناجاة الله ، وأهلاً للدعاء ، فإن اعترفتَ لله بالنعم السابقة أجابك فيما تطلب من النعم اللاحقة ، على خلاف مَنْ لا يذكر لله نعمة ، ولا يقرّ له سبحانه بسابقة خير ، فكيف يقبل منه دعاء ؟ وبأيِّ وجه يطلب من الله المزيد ؟

إذن : لا تَدْعُ ربك إلا بعد صفاء نفس وإخلاص عبودية ؛ لذلك ورد في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : " مَنْ عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم " .

ويقول سبحانه : ﴿ إِن تَتَّقُواْ اللّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً ﴾ [الأنفال : 29] يقول لك ربك :

أنت مأمون على ما علمتَ ، عامل به ، فخُذ المزيد من هدايتي ونوري وتوفيقي ، خُذ المزيد لما عندك من رصيد إيماني وصفاء روحي ، جعلك أهلاً للمناجاة والدعاء .

فإبراهيم عليه السلام وهو أبو الأنبياء لم يجترىء على الدعاء بشيء آتٍ إلا بعد أنْ ذكر لله النعم السابقة ، وشكره عليها ، فوافق قوله تعالى : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم : 7] .

لذلك فإن أهل المعرفة يقولون : إن العبد مهما اجتهد في الدعاء ، فإنه يدعو بالخير على حسْب فهمه ومنطقه وبمقدار علمه ولو أنه ذكر النعيم الأول لله تعالى ، وأقرّ له بالفضل ، ثم ترك المسألة له تعالى يعطيه ويختار له لكان خيراً له ؛ لأن ربه عز وجل يعطيه على حَسْب قدرته تعالى وحكمته .

وهذا المعنى واضح في الحديث القدسي : " مَنْ شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين " .

فعطاء الله لا شكَّ أوسع ، واختياره لعبده أفضل من اختيار العبد لنفسه ، كما لو ذهبتَ في رحلة مثلاً وقلت لولدك : ماذا تريد أنْ أُحضر لك من البلد الفلاني ؟ فإنْ قال : أريد كذا وكذا فقد ضيّق على نفسه ، وإنْ ترك لك الاختيار جاء اختيارك له خيرا من اختياره لنفسه .

رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (83)

نلحظ أنه لم يدْعُ بشيء من الدنيا ، ومعنى ﴿ حُكْماً ﴾ [الشعراء : 83] فرق بين الحكم والحكمة : الحكمة أن تضع الشيء في موضعه ، أما الحكم فأنْ تعلم الخير أولاً ، ثم تعمل بما علمت ثانياً .

وقال في دعائه : ﴿ هَبْ لِي ﴾ [الشعراء : 83] لأن الهبة عطاء دون مقابل ، فكأنه قال : يا رب أنا لا أستحق ، فاجعلها لي هِبةً من عندك ﴿ وَأَلْحِقْنِي بالصالحين ﴾ [الشعراء : 83] أي : ألحقني بهم في العمل والأُسْوة لأنالَ بعدها الجزاء ، وليس المراد : ألحقني بهم في الجزاء ، إنما في العمل .

وقد أجابه الله تعالى في هذه الدعوة ، فقال سبحانه : ﴿ وَكَذَلِكَ نري إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السماوات والأرض ﴾ [الأنعام : 75] .

والملكوت : المخلوقات غير المحسّة ، أطلعه الله عليها ؛ لأنه عمل بما علم من الملك المحسّ ، وكذلك قال : ﴿ وَإِنَّهُ فِي الآخرة لَمِنَ الصالحين ﴾ [البقرة : 130] فأجابه في الدعوة الأخرى . ﴿ واجعل لِّي لِسَانَ ﴾

نعرف أن اللسان وسيلة التعبير ، ومعنى ﴿ لِسَانَ صِدْقٍ ﴾ [الشعراء : 84] يعني :

ذكراً حسناً يذكر بحق ، ويذكر بصدق ، لا كما نفعل الآن حين نقيم ذكرى لأحد الأشخاص ، فنظل نكيل له المدائح ونُثني عليه بالصِّدْق وبالكذب ، وبما فعل وبما لم يفعل ، فهذا ذكر ، لكنه ذكر غير صادق ومخالف للحقيقة وللواقع .

وسبق أن أوضحنا أن الصدق هو الكلام المطابق للواقع ، وقد ورد هذا المعنى في الأمهات الخمس في القرآن الكريم ، في قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ ﴾ [الإسراء : 80] .

يعني : أدخلني بصدق لا بغشٍّ يعني مدخلاً أستطيع منه الخروج ، وكذلك أخرجني مُخرج صدق .

وفي قوله تعالى : ﴿ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ [القمر : 55] .

(139/569)

وفي قوله تعالى : ﴿ وَعْدَ الصدق الذي كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴾ [الأحقاف : 16] هذه المواضع الخمس لكلمة الصدق .

ومعنى : ﴿ فِي الآخرين ﴾ [الشعراء : 84] يعني : يتعدى الذِّكْر الحسن مدة حياتي إلى مَنْ بعدي ، فاجعل لي لسان صدق في المعاصرين ، وفيمن يأتي بعدك أترك أثراً طيباً

يُذكَر من بعدي ؛ لأن لي نصيباً من الخير والثواب في كل مَن اقتدى بي ، وجعلني أُسْوة .

وقد أجابه الله في هذه ، فقال سبحانه : ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخرين * سَلاَمٌ على إِبْرَاهِيمَ ﴾ [الصافات : 108109] .

وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ (85)

بعد أن دعا لأمر في الدنيا ، ثم لأمر بعد موته دعا لنفسه بجنة النعيم الدائم في الآخرة ، ولا شك أن ربه عز وجل قد أجابه إلى هذه ، فهو من ورثة جنة النعيم ، بدليل قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ فِي الآخرة لَمِنَ الصالحين ﴾ [البقرة : 130] .

وكلمة ميراث الجنة وردتْ في القرآن أيضاً في قوله تعالى :

﴿ أولئك هُمُ الوارثون * الذين يَرِثُونَ الفردوس هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [المؤمنون : 1011] .

والميراث أنْ تأخذ مِلكاً من آخر بعد موته ، فكيف تكون الجنة ميراثاً ؟

قال العلماء : إن الخالق عز وجل لم يخلق الجنة على قدر أهلها وكذلك النار ، إنما خلق الجنة تتسع للناس جميعاً ، إنْ آمنوا ، وخلق النار تتسع للناس جميعاً إنْ كفروا ؛ ذلك لأنه سبحانه خلق الخَلْق مختارين ، مَنْ شاء فليؤمن ، ومَنْ شاء فليكفر . وعليه ، فميراث الجنة يعني أنْ يرث المؤمنون أماكن الذين كفروا في الجنة ، يتقاسمونها فيما بينهم .

والوارث يرث مال غيره وثمرة سعيه ، لكن لا يسأل عنها ، إنما يأخذها طيبة حتى إنْ جمعها صاحبها من الحرام ، إلا إنْ أراد الوارث أن يبرىء ذمة المورِّث ، فيردَ المظالم إلى أهلها .

(140/569)

إذن : الوارث يأخذ الميراث دون مقابل فكأنه هِبة ، وعلى هذا المعنى يكون المراد بميراث الجنة أن الله تعالى أعطى عباده الطائعين الجنة هبةً منه سبحانه ، وتفضّلاً عليهم ، وليس بعملهم ، فالجنة جاءتهم كما يأتي الميراث لأهله دون تعب منهم ودون سَعْي .

وهذا تصديق لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث النبوي : " لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا ، إلا أن يتغمدني الله برحمته " .

قالوا : فالجنة ميراث ؛ لأن الأصل أنك لا تُجازَى على الخير الذي قدمته ؛ لأن تكليف من الله تعالى يعود خيره عليك في الدنيا ، حيث تستقيم به حياتك وتسعد بها ، وما دام التكليف في صالحك ، فكيف تأخذ أجراً عليه ؟ كالوالد حيث يحثّ ولده على المذاكرة والجد في دروسه ، فهذا يعود نفعه على الولد ، لا على الوالد .

وكأن ربك عز وجل يقول لك : ما دُمْتَ قد احترمتَ تكليفي لك ، وأطعتني فيما ينفعك

أنت ، ولا يعود عليَّ منه شيء ، فحين أعطيك الجنة أعطيك بفضلي وهِبَة مني ، أو أننا نأخذ الجنة بالعمل ، والمنازل بالفضل .

إذن : لا غِنَى لأحد مِنّا عن فَضْل الله .

لذلك يقول سبحانه : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس : 58]

هذا هو المعنى المراد بميراث الجنة ، وينبغي ألاَّ تعوِّل على عملك وطاعتك واجتهادك في العبادة ، واعلم أن النجاة لا تكون إلا برحمة الله وفضل منه سبحانه .

ثم ترك الدعاء لذاته وانتقل لمن رباه فقال : ﴿ واغفر لأبي ﴾

(141/569)

لم ينْسَ إبراهيم عليه السلام في دعائه أن يدعو لمن رباه ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى هو الخالق ، إنما جعل الوالدين هما السبب المباشر في الخَلْق والإيجاد ؛ لذلك جعلهما أصحاب الفضل والأحق بالطاعة بعده تعالى ، لكن قد ينجب الوالدان ويهملان ولدهما فيربيه غيرهما ؛ لذلك يأخذ المنزلة الثالثة ، فعندنا ربوبية خَلَقَت من عدم ، وأبوة جاءت بأسباب الإيجاد ، وأبوة أخرى ربّت واعتنتْ .

وهذا المعنى واضح في قوله سبحانه : ﴿ وَقُل رَّبِّ ارحمهما كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً ﴾ [الإسراء : 24] فحيثية الدعاء بالرحمة هنا ، لا لأنهما أبوان وهما سبب الإيجاد ، إنما لأنهما ربَّياني صغيراً ، إذن : لو ربّاني غير والديّ لأخذوا هذه المنزلة واستحقوا مني هذا الدعاء .

لكن لم يُستجَبْ لإبراهيم عليه السلام في هذه ، لأنه سأل الله لأبيه قبل أن يعرف أنه عدو لله ، يقول تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ استغفار إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا آيَاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ للَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ﴾ [التوبة : 114] .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَلاَ تُخْزِنِي يَوْمَ ﴾

بأيِّ شيء يكون الخزي في الآخرة ؟ الخزي يكون حين يعاتبك ربك يوم القيامة على رؤوس الأشهاد على ما فَرَط منك من تقصير ؛ لذلك الحساب اليسير ما كان بين العبد وربه ، وقد أُجيب إبراهيم عليه السلام في هذه الدعوة بقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ فِي الآخرة لَمِنَ الصالحين ﴾ [البقرة : 130] .

قوله : ﴿ يَوْمَ لاَ يَنفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ ﴾ [الشعراء : 88] فأتى بالمسألة التي تشغل الناس جميعاً ، فكل إنسان يريد أن يكون غنياً صاحب مال وأولاد وعِزْوة ، ومَنْ حُرِم واحدة منهما حَزِن وألم أشدّ الألم .

والحق تبارك وتعالى يقول : ﴿ المال والبنون زِينَةُ الحياة الدنيا ﴾ [الكهف : 46] .

ويقول سبحانه : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشهوات مِنَ النساء والبنين والقناطير المقنطرة مِنَ الذهب والفضة ﴾ [آل عمران : 14] .

نعم ، هي زينة الحياة الدنيا ، ومعنى الزينة : الحُسْن غير الذاتي ، فالحُسْن قد يكون ذاتياً في الجوهر كالمرأة التي تكون جميلة بطبيعتها التي خلقها الله عليها ، دون أنْ تتكلّف الجمال ، أو الزينة الظاهرة من مساحيق أو ذهب أو خلافه ، لذلك سمَّوْها في اللغة (الغانية) وهي التي استغنْت بجمالها الطبيعي الذاتي عن أنْ تتزّين بأيِّ شيء آخر .

وقوله : ﴿ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الشعراء : 89] يعني : مع أن المال والبنين زينة الحياة الدنيا ، فهذا لا يمنع نفعهما لصاحبهما إنْ أحسن التصرُّف في ماله ، فأنفقه في الخير ، وأحسن تربية أولاده التربية الصالحة ، لكن هذه أيضاً لا تصفو له ولا تستقيم إلا إذا ﴿ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الشعراء : 89] .

يعني : توفّر له الإخلاص في هذا كله ، وإلاَّ فالرياء يُحبط العمل ، ويجعله هباءً منثوراً ، إنْ كنتَ تفعل الخير في الدنيا ولا تؤمن بالله ولا تُنزهه سبحانه عن الشريك ، فلن ينفعك عملك ، ولن يكون لك منه نصيب في ثواب الآخرة .

كما قال تعالى : ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَى مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَآءً مَّنثُوراً ﴾ [الفرقان : 23] .

وفي الحديث القدسي : " . . . فعلت ليقال وقد قيل . . . " .

فعلتَ ليُقام لك حفل تكريم وقد أقيم لك ، فعلتَ لتأخذ نيشاناً وقد أخذتَه ، فعلتَ ليُكتب اسمك على باب المسجد وقد كُتِب ، إذن : انتهت المسألة .

فقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ لاَ يَنفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ ﴾ [الشعراء : 88] لا ينفي نفع المال والبنين ، فهي نافعة شريطة أنْ تأتي اللهَ بقلب سليم ، والسلامة هنا تعني : أن يظلَ الشيء على حاله وعلى صلاحه الذي خلقه الله عليه لا يصيبه عطب في ذاته ، فيؤدي مهمته كما ينبغي .

(143/569)

فكأن السلامة تُوجد أولاً ، ونحن الذين نُفسِد هذه السلامة .

ومن ذلك قوله تعالى :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ قَالُواْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ * أَلا إِنَّهُمْ هُمُ المفسدون ولكن لاَّ يَشْعُرُونَ ﴾ [البقرة : 1112] .

لذلك لو تأمّل الناس فيما يُتعبهم في الحياة لوجدوا أنه ثمرة إفسادهم في الكون المنظم الذي

خلقه الله على مقتضى حكمته تعالى ، بدليل أن كل حركة في الكون لا يتدخل فيها الإنسان تراها مُستقيمة منتظمة لا تتخلف ، فإنْ تدخَّل الإنسان وُجِد الفساد ووُجِد الظلم للغير ، حتى للنبات وللجماد وللحيوان ، وقد نهانا الشارع الحكيم عن هذا كله .

هذا إنْ تدخّل الإنسان في الكون على غير مقتضى منهج ربه ، فإنْ تدخَّل على هَدْى من منهج الله استقامتْ الأمور وتحققتْ السلامة .

ألا ترى قوله تعالى في سورة الرحمن :

﴿ الشمس والقمر بِحُسْبَانٍ * والنجم والشجر يَسْجُدَانِ * والسمآء رَفَعَهَا وَوَضَعَ الميزان ﴾ [الرحمن : 57] .

لذلك تجد كل شيء في الكون موزوناً بقدر وبحكمة : الشمس والقمر والنجوم والهواء والماء . . الخ وكل عناصر الكون هذه تسير مستقيمة في منظومة الكون المتكاملة ، لماذا ؟ لأنه لا دَخْلَ للإنسان فيها .

فمعنى القلب السليم : القلب الذي لا يعمُر إلا بما أراد الله أنْ يعمُرَ به ، وقد ورد في الحديث القدسي : " ما وسعتني أرضي ولا سمائي ، ولكن وسعني قلب عبدي المؤمن " .

إذن : لا تزحم قلبك بما يَشْغَله من أمور الدنيا ، واجعله خالياً لله مُنْشغلاً به ، فهذه هي سلامة القلب ؛ لأن القلب مفطور على هذا ، مطبوع عليه . . ساعة خلقه الله خلقه صافياً سليماً من المشاغل ؛ لذلك يقول سبحانه : ﴿ والله أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ

تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السمع والأبصار والأفئدة ﴾ [النحل : 78] لماذا ؟ ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل : 78] .

(144/569)

إذن : لا تأخذ المال والبنين منفصليْن عن سلامة القلب ؛ لأن ربك يقول : ﴿ والباقيات الصالحات خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً ﴾ [الكهف : 46] .

وفي آية : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشهوات ﴾ [آل عمران : 14] ختمها الحق سبحانه بقوله : ﴿ ذلك مَتَاعُ الحياة الدنيا والله عِنْدَهُ حُسْنُ المآب ﴾ [آل عمران : 14] .

ومن سلامة القلب أن يخلو من الشرك ، وأن يخلو من النفاق ؛ لأن المنافق يؤمن بلسانه ، ولا يؤمن بقلبه ، فقلبه لا يوافق لسانه ؛ لذلك هو غير سليم القلب ، فكان أشد إثماً من الكافر ، وجعله الله في الدَّرْك الأسفل من النار .

المنافق أشد تعذيباً من الكافر ؛ لأن الكافر مع كُفْره هو منطقيّ مع نفسه ، حيث كفر بقلبه وبلسانه ، ونطق بما يعتقده ، أما المنافق فقد غشَّنا وحُسِب علينا ظاهراً ، ومنهم مَنْ كان يصلي خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم في الصف الأول ، وهو في حقيقة الأمر من الطابور الخامس داخل صفوف المسلمين .

وكذلك الرياء ينافي سلامة القلب ، فالمرائي يعمل للناس ولا يعمل لله ، ونعجب حين نرى مَنْ يُقدِّم الجميل رياءً وسُمْعة ، ثم يتهم مَنْ أسدى إليه الجميل بأنه ناكر للجميل ، نقول له : لماذا تتهمه وقد سبقته فأنكرتَ جميل الله ، حيث لم تجعله على بالك حين فعلتَ الخير .

إذن : فهذا جزاؤك جزاءً وفاقاً ، لأنك ما فعلتَ الخير لله ، إنما فعلته للعبد فانتظر منه الجزاء . وصَفْقَة المرائي خسارة ، وتجارته بائرة ؛ لأنه حين يعطي رياءً يستفيد منه الآخذ ويخرج هو صُفْر اليدين ، كما قال سبحانه : ﴿ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً ﴾ [البقرة : 264] .

وبعد ذلك ترى الناس تكره المرائي ، ويُنكرون جميله في بناء مسجد أو مستشفى أو مدرسة مثلاً ، ولو عمل ذلك لله لأبقى الله ذِكْره بين الناس ، فحفظوا جميله ، وأَثنَوْا عليه بالخير .

(145/569)

" ويُرْوى أن السيدة فاطمة الزهراء دخل عليها سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجدها تجلو درهماً في يدها ، فلما سألها عنه قالت : لأَنّي قد نويتُ أنْ أتصدّق به ، فقال

لها : تصدَّقي به وهو على حاله ، فقالت : أنا أعلم أنه يقع في يد الله قبل أن يقع في يد الفقير ، والله طيب لا يقبل إلا طيباً " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(146/569)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : (الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ) (الشعراء : 78 – 81) ، يسأل عن زيادة الضمير في قوله : (وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ) وفي قوله : (فَهُوَ يَشْفِينِ) ؟ ولم لم يدخل في قوله : (وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ) ؟

والجواب : أن أمر الإماتة والإحياء لا مطمع فيه لأحد بخلاف أمر الإطعام والسقي ، إذ قد يتوهم من ضعف نظره أن ذلك مما تصح فيه النسبة لغيره تعالى إذ يقال : أطعمني فلان وسقاني ، ويسبق إلى الوهم الاستقلال ، وإنما ذلك على المجاز ، ولا يقال أمات فلان فلاناً أو أحياه إلا ويسبق إلى الوهم ما الأمر عليه من المجاز ، فلما كان أمر الإماتة والإحياء ونسبة ذلك إليه تعالى مما لا يخفى على أد لم يحتج إلى الضمير ، واحتيج إليه فيما قبل لرفع

الإيهام ، إذ مفهومه أنه هو لا غيره يطعمني ويسقيني ، فاحتيج إلى (هو) هنا ليحرز ما ذكرنا ، ولم يحتج إليه في قوله : (وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ) لأنه لا يتوهم (أن) غيره يفعل ذلك ، فجاء كل على ما يجب ويناسب ، وسنزيد هذا بياناً في سورة النجم إن شاء الله ، والله أعلم .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل صـ 377 ﴾

(147/569)

فائدة

قال ابن القيم :

قوله تعالى ﴿ يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾ [الشعراء : 88]

والسليم هو السالم وجاء على هذا المثال لأنه للصفات كالطويل والقصير والظريف فالسليم القلب الذي قد صارت السلامة صفة ثابتة له كالعليم والقدير وأيضا فإنه ضد المريض والسقيم والعليل

(148/569)

وقد اختلفت عبارات الناس في معنى القلب السليم والأمر الجامع لذلك : أنه الذي قد سلم من كل شهوة تخالف أمر الله ونهيه ومن كل شبهة تعارض خبره فسلم من عبودية ما سواه وسلم من تحكيم غير رسوله فسلم في محبة الله مع تحكيمه لرسوله في خوفه ورجائه والتوكل عليه والإنابة إليه والذل له وإيثار مرضاته في كل حال والتباعد من سخطه بكل طريق وهذا هو حقيقة العبودية التي لا تصلح إلا لله وحده فالقلب السليم : هو الذي سلم من أن يكون لغير الله فيه شرك بوجه ما بل قد خلصت عبوديته لله تعالى : إرادة ومحبة وتوكلا وإنابة وإخباتا وخشية ورجاء وخلص عمله لله فإن أحب أحب في الله وإن أبغض أبغض في الله وإن أعطى أعطى لله وإن منع منع لله ولا يكفيه هذا حتى يسلم من الانقياد والتحكيم لكل من عدا رسولهصلى الله عليه وسلم فيعقد قلبه معه عقدا محكما على الائتمام والاقتداء به وحده دون كل أحد في الأقوال والأعمال من أقوال القلب وهي العقائد وأقوال اللسان وهي الخبر عما في القلب وأعمال القلب وهي الإرادة والمحبة والكراهة وتوابعها وأعمال الجوارح فيكون الحاكم عليه في ذلك كله دقعه وجله هو ما جاء به الرسول صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فلا يتقدم بين يديه بعقيدة ولا قول ولا عمل كما قال تعالى : يأيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدى الله ورسوله [الحجرات : 1] أي لا تقولوا حتى يقول ولا تفعلوا حتى يأمر قال بعض السلف : ما من فعلة وإن صغرت إلا ينشر لها ديوانان : لم وكيف أى لم فعلت وكيف فعلت فالأول سؤال عن علة الفعل وباعثه وداعيه : هل هو حظ عاجل

من حظوظ العامل وغرض من أغراض الدنيا في محبة المدح من الناس أو خوف ذمهم أو استجلاب محبوب عاجل أو دفع مكروه عاجل أم الباعث على الفعل القيام بحق العبودية وطلب التودد والتقرب إلى الرب سبحانه وتعالى وابتغاء الوسيلة إليه

ومحل هذا السؤال : أنه هل كان عليك أن تفعل هذا الفعل لمولاك أم فعلته لحظك وهواك

(149/569)

والثاني : سؤال عن متابعة الرسول عليه الصلاة والسلام في ذلك التعبد أي هل كان ذلك العمل مما شرعته لك على لسان رسولي أم كان عملا لم أشرعه ولم أرضه

فالأول سؤال عن الإخلاص والثاني عن المتابعة فإن الله سبحانه لا يقبل عملا إلا بهما

فطريق التخلص من السؤال الأول : بتجريد الإخلاص وطريق التخلص من السؤال الثاني : بتحقيق المتابعة وسلامة القلب من إرادة تعارض الإخلاص وهوى يعارض الاتباع فهذا حقيقة سلامة القلب الذي ضمنت له النجاة والسعادة .

(150/569)

فصل فى القلب الميت

والقلب الثانى: ضد هذا ، وهو القلب الميت الذى لا حياة به ، فهو لا يعرف ربه ، ولا يعبده بأمره وما يحبه ويرضاه ، بل هو واقف مع شهواته ولذاته ؛ ولو كان فيها سخط ربه وغضبه ، فهو لا يبالى إذا فاز بشهوته وحظه ، رضى ربه أم سخط ، فهو متعبد لغير الله: حبا ، وخوفا ، ورجاء ، ورضا ، وسخطا ، وتعظيما ؛ وذلا . إن أحب أحب لهواه ، وإن أبغض أبغض لهواه ، وإن أعطى أعطى لهواه ، وإن منع منع لهواه . فهواه آثر عنده وأحب إليه من رضا مولاه . فالهوى إمامه ، والشهوة قائده ، والجهل سائقه ، والغفلة مركبه . فهو بالفكر فى تحصيل أغراضه الدنيوية مغمور ، وبسكرة الهوى وحب العاجلة مخمور . ينادى إلى الله وإلى الدار الآخرة من مكان بعيد ، فلا يستجيب للناصح ، ويتبع كل شيطان مريد . الدنيا تسخطه وترضيه . والهوى يصمه عما سوى الباطل ويعميه . فهو فى الدنيا كما قيل فى ليلى:

عَدُو لِمَنْ عَادَتْ ، وَسِلمٌ لأَهْلِهَا وَمَنْ قَرَّبَتْ لَيْلَى أَحَبَّ وَأَقْرَبَا

(151/569)

فمخالطة صاحب هذا القلب سقم . ومعاشرته سم . ومجالسته هلاك .

فصل فى القلب المريض

والقلب الثالث: قلب له حياة وبه علة ؛ فله مادتان ، تمده هذه مرة ، وهذه أخرى ، وهو لما غلب عليه منهما ، ففيه من محبة الله تعالى والإيمان به والإخلاص له ، والتوكل عليه: ما هو مادة حياته ، وفيه من محبة الشهوات وإيثارها والحرص على تحصيلها ، والحسد والكبر والعجب ؛ وحب العلو والفساد فى الأرض بالرياسة: ما هو مادة هلاكه وعطبه ، وهو ممتحن بين داعيين: داع يدعوه إلى الله ورسوله والدار الآخرة ، وداع يدعوه إلى العاجلة . وهو إنما يجيب أقربهما منه بابا ، وأدناهما إليه جوارا .

فالقلب الأول ، حى مخبت لين واع ، والثانى يابس ميت ، والثالث مريض ، فإما إلى السلامة أدنى ، وإما إلى العطب أدنى .

وقد جمع الله سبحانه بين هذه القلوب الثلاثة فى قوله:

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ

فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [الحج: 52 - 54] .

فجعل الله سبحانه وتعالى القلوب فى هذه الآيات ثلاثة: قلبين مفتونين ، وقلبا ناجيا ، فالمفتونان: القلب الذى فيه مرض ، والقلب القاسى . والناجى: القلب المؤمن المخبت إلى ربه . وهو المطمئن إليه الخاضع له ، المستسلم المنقاد .

وذلك: أن القلب وغيره من الأعضاء يراد منه أن يكون صحيحا سليما لا آفة به ، يتأتى منه ما هيئ له وخلق لأجله . وخروجه عن الاستقامة إما ليبسه وقساوته ، وعدم التأتى لما يراد منه ، كاليد الشلاء ، واللسان الأخرس ، والأنف الأخشم ، وذكر العِنّين والعين التى لا تبصر شيئا . وإما بمرض وآفة فيه تمنعه من كمال هذه الأفعال ووقوعها على السداد .

فلذلك انقسمت القلوب إلى هذه الأقسام الثلاثة .

فالقلب الصحيح السليم: ليس بينه وبين قبول الحق ومحبته وإيثاره سوى إدراكه ، فهو صحيح الإدراك للحق ، تام الانقياد والقبول له .

والقلب الميت القاسى: لا يقبله ولا ينقاد له .

والقلب المريض: إن غلب عليه مرضه التحق بالميت القاسى . وإن غلبت عليه صحته التحق بالسليم .

فما يلقيه الشيطان فى الأسماع من الألفاظ ، وفى القلوب من الشبه والشكوك: فيه فتنة لهذين القلبين ، وقوة للقلب الحى السليم . لأنه يردّ ذلك ويكرهه ويبغضه ، ويعلم أن الحق فى خلافه ، فيخبت للحق قلبه ويطمئن وينقاد ، ويعلم بطلان ما ألقاه الشيطان ، فيزداد إيمانا بالحق ومحبة له وكفرا بالباطل وكراهة له . فلا يزال القلب المفتون فى مرية من إلقاء الشيطان . وأما القلب الصحيح السليم فلا يضره ما يلقيه الشيطان أبدا .

قال حذيفة بن اليمان رضى الله عنه: قال رسول الله صلى الله تعالى

(153/569)

عليه وآله وسلم:

"تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَعَرْضِ الْحَصِيرِ عُودًا عُودًا . فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَتْ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَتْ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ ، حَتَّى تَعُودَ الْقُلُوبُ عَلَى قَلْبَيْنِ: قَلْبٍ

(154/569)

أَسْوَدَ مُرْبَادًا كالكُوزِ مُجَخِّيًا . لا يَعْرِفُ مَعْروفاً وَلا يُنْكِرُ مُنْكَراً ، إلا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ ، وَقَلْبٍ أَبْيَض لا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّماواتُ وَالأَرْضُ" .

فشبه عرض الفتن على

(155/569)

القلوب شيئا فشيئا كعرض عيدان الحصير ، وهى طاقاتها شيئا فشيئا ، وقسم القلوب عند عرضها عليها إلى قسمين: قلب إذا عرضت عليه فتنة أشربها ، كما يشرب السفنج الماء فتنكت فيه نكتة سوداء ، فلا يزال يشرب كل فتنة تعرض عليه حتى يسود وينتكس ، وهو معنى قوله "كالكوز مجخيا" أى مكبوبا منكوسا ، فإذا اسود وانتكس عرض له من هاتين الآفتين مرضان خطران مترامیان به إلى الهلاك: أحدهما : اشتباه المعروف عليه بالمنكر ، فلا يعرف معروفا ، ولا ينكر منكرا ، وربما استحكم عليه هذا المرض حتى يعتقد المعروف منكرا والمنكر معروفا ، والسنة بدعة والبدعة سنة ، والحق باطلا والباطل حقا ، الثانى: تحكيمه هواه على ما جاء به الرسول صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ، وانقياده للهوى واتباعه له .

وقلب أبيض قد أشرق فيه نور الإيمان ، وأزهر فيه مصباحه ، فإذا عرضت عليه الفتنة

أنكرها وردها ، فازداد نوره وإشراقه وقوته .

والفتن التى تعرض على القلوب هى أسباب مرضها ، وهى فتن الشهوات وفتن الشبهات ، فتن الغى والضلال ، فتن المعاصى والبدع ، فتن الظلم والجهل فالأولى توجب فساد القصد والإرادة ، والثانية توجب فساد العلم والاعتقاد .

وقد قسم الصحابة رضى الله تعالى عنهم القلوب إلى أربعة ، كما صح عن حذيفة بن اليمان:

"الْقُلُوبُ أَرْبَعَةٌ: قَلْبٌ أَجْرَدُ ، فِيهِ سِرَاجٌ يُزْهِرُ ، فَذَلِكَ قَلْبُ الْمُؤْمِنِ ، وَقَلْبٌ أَغْلَفُ ، فَذَلِكَ قَلْبُ الْكَافِرِ ، وَقَلْبٌ مَنْكُوسٌ ، فَذَلِكَ قَلْبُ الْمُنَافِقِ ، عَرَفَ ثُمَّ أَنْكَرَ ، وَأَبْصَرَ ثُمَّ عَمِيَ ، وَقَلْبٌ تَمُدُّهُ مَادَّتَانِ: مَادَّةُ إِيمَانٍ ، وَمَادَّةُ نِفَاقٍ ، وَهُوَ لِمَا غَلَبَ عَلَيْهِ مِنْهُمَا" .

فقوله "قلب أجرد" أى متجرد مما سوى الله ورسوله ، فقد تجرد وسلم مما سوى الحق .

و"فيه سراج يزهر" وهو مصباح الإيمان: فأشار بتجرده إلى سلامته من شبهات

الباطل وشهوات الغى ، وبحصول السراج فيه إلى إشراقه واستنارته بنور العلم والإيمان .

وأشار بالقلب الأغلف إلى قلب الكافر ؛ لأنه داخل فى غلافه وغشائه ، فلا يصل إليه نور

العلم والإيمان ، كما قال تعالى ، حاكيا عن اليهود :

﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ ﴾ [البقرة: 88] . وهو جمع أغلف ، وهو الداخل فى غلافه ، كقلف وأقلف ، وهذه الغشاوة هى الأكنة التى ضربها الله على قلوبهم ، عقوبة لهم على رد الحق والتكبر عن قبوله . فهى أكنة على القلوب ووقر فى الأسماع ، وعمى فى الأبصار ، وهى الحجاب المستور عن العيون فى قوله تعالى:

﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَاباً مَسْتُورًا وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِى آذَانِهِمْ وَقْراً ﴾ [الإسراء: 45-46] . فإذا ذكر لهذه القلوب تجريد التوحيد وتجريد المتابعة ، ولّى أصحابها على أدبارهم نفورا .

وأشار بالقلب المنكوس- وهو المكبوب- إلى قلب المنافق ، كما قال تعالى:

﴿ فَمَا لَكُمْ فِى الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا ﴾ [النساء: 88] . أى نكسهم وردهم فى الباطل الذى كانوا فيه ، بسبب كسبهم وأعمالهم الباطلة وهذا شر القلوب وأخبثها ، فإنه يعتقد الباطل حقا ويوالى أصحابه ، والحق باطلاً ويعادى أهله ، فالله المستعان .

وأشار بالقلب الذى له مادتان إلى القلب الذى لم يتمكن فيه الإيمان ولم يزهر فيه سراجه ، حيث لم يتجرد للحق المحض الذى بعث الله به رسوله ، بل فيه مادة منه ومادة من خلافه ،

فتارة يكون للكفر أقرب منه للإيمان ، وتارة يكون للإيمان أقرب منه للكفر ، والحكم للغالب وإليه يرجع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ إغاثة اللهفان حـ 1 صـ 13.8 ﴾

(157/569)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (69) ﴾

أخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ فنظل لها عاكفين ﴾ قال : عابدين ﴿ قال هل يسمعونكم إذ تدعون ﴾ يقول : هل تجيبكم آلهتكم إذا دعوتموهم .

وأخرج ابن المنذر عن عكرمة رضي الله عنه في قوله ﴿ إذ يسمعونكم ﴾ قال : هل يسمعون أصواتكم .

﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (78) ﴾

أخرج ابن أبي حاتم عن قتادة قال : كان يقال أول نعمة الله على عبده حين خلقه .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد رضي

الله عنه في قوله ﴿ أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين ﴾ قال : قوله ﴿ إني سقيم ﴾ [الصافات : 29] وقوله ﴿ بل فعله كبيرهم هذا ﴾ [الأنبياء : 63] وقوله لسارة : إنها أختي . حين أراد فرعون من الفراعنة أن يأخذها .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن ابن عباس في قوله ﴿ وألحقني بالصالحين ﴾ يعني أهل الجنة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ واجعل لي لسان صدق في الآخرين ﴾ قال : يؤمن بإبراهيم كل ملة .

(158/569)

وأخرج ابن أبي الدنيا في الذكر ، وابن مردويه من طريق الحسن عن سمرة بن جندب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إذا توضأ العبد لصلاة مكتوبة فاسبغ الوضوء ثم خرج من باب داره يريد المسجد ، فقال حين يخرج : بسم الله الذي خلقني فهو يهدين . هداه الله للصواب – ولفظ ابن مردويه : لصواب الأعمال – والذي هو يطعمني ويسقين . أطعمه الله من طعام الجنة ، وسقاه من شراب الجنة ، وإذا مرضت فهو يشفين . شفاه الله وجعل مرضه كفارة لذنوبه ، والذي يميتني ثم يحيين . أحياه الله حياة السعداء ، وأماته ميتة

الشهداء ، والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين . غفر الله خطاياه كلها وإن كانت أكثر من زبد البحر ، رب هب لي حكماً وألحقني بالصالحين . وهب الله له حكماً وألحقه بصالح من مضى وصالح من بقي ، واجعل لي لسان صدق في الآخرين . كتب في ورقة بيضاء أن فلان بن فلان من الصادقين ، ثم وفقه الله بعد ذلك للصدق ، واجعلني من ورثة جنة النعيم . جعل الله له القصور والمنازل في الجنة " وكان الحسن يزيد فيه – واغفر لوالدي كما ربياني صغيراً .

وأخرج ابن جرير والحاكم وصححه " عن عائشة أنها قالت : يا رسول الله أن ابن جدعان كان يقري الضيف ، ويصل الرحم ، ويفعل ويفعل . أينفعه ذلك ؟ قال : لا . إنه لم يقل يوماً قط : رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين " .

وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ (86)

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ واغفر لأبي ﴾ قال : امنن عليه بتوبة يستحق بها مغفرتك .

(159/569)

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ ولا تخزني يوم يبعثون ﴾ قال : ذكر لنا أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال : " ليجيئن رجل يوم القيامة من المؤمنين آخذاً بيد أب له مشرك حتى يقطعه النار ، ويرجو أن يدخله الجنة ، فيناديه مناد : أنه لا يدخل الجنة مشرك . فيقول : رب أبي . . ووعدت أن لا تخزيني . قال : فما يزال متشبثاً به حتى يحوله الله في صورة سيئة وريح منتنة في سورة ضبعان ، فإذا رآه كذلك تبرأ منه وقال : لست بأبي قال : فكنا نرى أنه يعني إبراهيم وما سمى به يومئذ " .

وأخرج البخاري والنسائي عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قترة وغبرة فيقول له إبراهيم : ألم أقل لك لا تعصيني ؟ فيقول أبوه : فاليوم لا أعصيك فيقول إبراهيم : رب إنك وعدتني أن لا تخزيني يوم يبعثون ، فأي خزي أخزى من أبي الأبعد . فيقول الله : إني حرمت الجنة على الكافرين . ثم يقال : يا إبراهيم ما تحت رجليك ؟ فإذا هو بذيخ متلطخ فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار " .

وأخرج أحمد عن رجل من بني كنانة قال : صليت خلف النبي صلى الله عليه وسلم عام الفتح فسمعته يقول " اللهم لا تخزني يوم القيامة " .

إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (89)

أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه وأبو نعيم عن ابن عباس في قوله ﴿ إلا من أتى الله بقلب

سليم ﴾ قال : شهادة أن لا إله إلا الله .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير عن قتادة في قوله ﴿ إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾ قال : كان يقال : سليم من الشرك .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله ﴿ إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾ قال : من الشرك . ليس فيه شك في الحق .

(160/569)

وأخرج عبد بن حميد عن عون قال : ذكروا الحجاج عند ابن سيرين فقال : غير ما تقولون أخوف على الحجاج عندي منه قلت : وما هو قال : إن كان لقي الله بقلب سليم فقد أصاب الذنوب خير منه قلت : وما القلب السليم ؟ قال : إن يعلم أنه لا إله إلا الله . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 6 صـ ﴾

(161/569)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (77) ﴾

قوله : ﴿ عَدُوٌّ ﴾ : اللغةُ العاليةُ إفرادُ " عَدُوّ " وتذكيرُه . قال تعالى : ﴿ هُمُ العدو ﴾ [المنافقون : 4] . وإنما فُعِل به ذلك تَشْبيهاً بالمصادرِ نحو : الوَلُوع والقَبُول . وقد يُقال : أعداءٌ وعَدُوَّة . وقوله : ﴿ عَدُوٌّ لِي ﴾ على أصلِه مِنْ غيرِ تقديرِ مضافٍ ولا قلبٍ . وقيل : الأصنامُ لا تُعادِي لأنها جَمادٌ ، فالتقديرُ : فإنَّ عُبَّادَهم عدوٌّ لي . وقيل : بل في الكلامِ قَلْبٌ ، تقديرُه : فإنّي عدوٌّ لهم وهذان مرجوحان لاستقامةِ الكلامِ بدونِهما .

قوله : ﴿ إلاَّ رَبَّ العالمين ﴾ فيه وجهان ، أحدُهما : أنَّه منقطعٌ أي : لكنْ ربُّ العالمين ليس بعدُوّ لي . وقال الجرجاني : " فيه تقديمٌ وتأخيرٌ أي : أفَرَأَيْتُمْ ما كنتم تَعْبُدُوْنَ أنتم وآباؤكم الأَقْدمون ، إلاَّ ربَّ العالمين فإنهم عدوٌّ لي ، و " إلاَّ " بمعنى / " دون " و " سوى " . والثاني : أنه متصلٌ . وهو قول الزجاج ؛ لأنهم كانوا يَعْبدون اللهَ تعالى والأصنامَ .

الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (78)

قوله : ﴿ الذي خَلَقَنِي ﴾ : يجوز فيه أوجهٌ : النصبُ على النعتِ ل " رَبَّ العالَمين " أو البدلِ ، أو عطفِ البيانِ ، أو على إضمارِ أعني . والرفعُ على خبرِ ابتداءِ مضمرٍ أي : هو الذي خلقني أو على الابتداءِ .

و[قوله]: ﴿ فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ جملةٌ اسميةٌ في محلِّ رفعٍ خبراً له. قال الحوفي: "ودَخَلَتِ الفاءُ لِما تَضَمَّنَه المبتدأُ مِنْ معنى الشرط". وهذا مردودٌ؛ لأنَّ الموصولَ مُعَيَّنٌ ليس عامّاً، ولأنَّ الصلةَ لا يمكنُ فيها التجدُّدُ، فلم يُشْبِهِ الشرطَ. وتابع أبو البقاء الحوفيَّ ولكنه لم يتعرَّضْ للفاء. فإنْ عنى ما عناه الحوفيُّ فقد تقدَّمَ ما فيه. وإن لم يَعْنِهِ فيكونُ تابعاً للأخفش في تجويزِه زيادةَ الفاءِ في الخبر مطلقاً نحو: "زيدٌ فاضربه"، وقد تقدَّمَ تحريرُه.

وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (79)

قوله: ﴿ والذي هُوَ يُطْعِمُنِي ﴾: يجوز أن يكونَ مبتدأً، وخبرُه محذوفٌ. وكذلك ما بعده. ويجوزُ أَنْ يكونوا أوصافاً للذي خَلَقني. ودخولُ الواوِ جائزٌ. وقد تقدَّمَ تحقيقُه في أولِ البقرة كقوله:

3519 إلى المَلِكِ القَرْمِ وابنِ الهُمامِ . . . وليثِ الكتيبةِ في المُزْدَحَمْ

وأثبت ابنُ أبي إسحاقَ وتُرْوى عن عاصم أيضاً ياءَ المتكلمِ في "يَسْقِينِ" و "يَشْفِينْ" و "يُحْيِيْنِ". والعامَّةُ "خَطِيئَتي" بالإفرادِ. والحسن "خطاياي" جمعَ تكسيرٍ.

وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ (85)

قوله : ﴿ مِن وَرَثَةِ ﴾ : إمَّا أَنْ يكونَ مفعولاً ثانياً أي : مستقِرّاً أو كائناً مِنْ وَرَثَةِ ، وإمَّا أَنْ يكونَ صفةً لمحذوفٍ هو المفعولُ الثاني ، أي : وارِثاً مِنْ وَرَثَةِ .

قوله : ﴿ يَوْمَ لاَ يَنفَعُ ﴾ : بدلٌ مِنْ " يوم " قبلَه . وجعل ابنُ عطيةَ هذا من كلامِ اللهِ تعالى إلى آخرِ الآياتِ مع إعرابِه " يومَ لا ينفعُ " بدلاً مِنْ " يومَ يُبْعَثون " . وردَّه الشيخُ : بأنَّ العامِلَ في البدلِ هو العامِلُ في المبدلِ منه ، أو آخرُ مثلُه مقدَّرٌ . وعلى كِلا هذين القولَين لا يَصِحُّ لاختلافِ المتكلِّمين .

(163/569)

قوله : ﴿ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللهَ ﴾ : فيه أوجهٌ ، أحدُها : أنه منقطِعٌ أي : لكنْ مَنْ أتى اللهَ بقَلْبٍ سليمٍ فإنه ينفعُه ذلك . وقال الزمخشري : " ولا بُدَّ لك مع ذلك مِنْ تقديرِ مضافٍ وهو الحالُ المرادُ بها السلامةُ ، وليست من جنسِ المالِ والبنينَ ، حتى يَؤول المعنى إلى : أنَّ البنينَ والمالَ لا ينفعانِ ، وإنما ينفعُ سَلامةُ القلبِ ، ولو لم يُقَدَّرِ المُضافُ لم يَتحصَّلْ للاستثناءِ معنى " .

قال الشيخ : " ولا ضرورةَ تَدْعُو إلى حذفِ المضافِ كما ذكر " . قلت : إنما قَدَّرَ المضافَ لِيُتَوَهَّمَ دخولُ المستثنى في المستثنى منه ؛ لأنه متى لم يُتَوَهَّمْ ذلك لم يَقعِ الاستثناءُ ، ولهذا

مَنَعوا : " صَهَلَتِ الخيلُ إلاَّ الإبلَ " إلاَّ بتأويلٍ .

الثاني : أنه مفعولٌ به لقوله : " لا يَنْفَعُ " أي : لا ينفعُ المالُ والبنونَ إلاَّ هذا الشخصَ فإنه ينفَعُه فإنه ينفَعُه مالُه المصروفُ في وجوهِ البرِّ ، وبنوه الصلحاءُ ، لأنه عَلَّمهم وأحسنَ إليهم .

الثالث : أنه بدلٌ مِن المفعولِ المحذوفِ ، أو مستثنى منه ، إذ التقديرُ : لا ينفعُ مالٌ ولا بنونَ أحداً من الناس إلاَّ مَنْ كانت هذه صفتَه . والمستثنى منه يُحْذَفُ كقوله :

3520 . . . . . ولم يَنْجُ إلاَّ جَفْنَ سيفٍ ومِئْزرا

أي : ولم يَنْجُ بشيءٍ . الرابع : أنه بدلٌ مِنْ فاعلِ " يَنْفَعُ " فيكون مرفوعاً . قال أبو البقاء : " وغَلَّبَ مَنْ يَعْقِلُ فيكون التقديرُ : إلاَّ مالُ مَنْ ، أو بنو مَنْ فإنه ينفع نفسَه وغيرَه بالشفاعة " .

(164/569)

قلت : وأبو البقاء خَلَط وجهاً بوجهٍ : وذلك أنه إذا أرَدْنا أن نجعلَه بدلاً من فاعل " ينفع " فلنا فيه طريقان ، أحدهما : طريقةُ التغليب أي : غَلَّبْنا البنين على المالِ ، فاستثنى من البنين ، فكأنه قيل : لا ينفعُ البنونَ إلاَّ مَنْ أتى مِن البنين بقلبٍ سليم فإنه ينفع نفسَه بصلاحِه ، وغيرَه بالشفاعةِ .

والطريقة الثانية : أَنْ تُقَدِّر مضافاً محذوفاً قبل " مَنْ " أي : إلاَّ مالُ مَنْ أو بنو مَنْ فصارَتِ الأوجُه خمسةً .

ووجَّه الزمخشريُّ اتصالَ الاستثناءِ ، بوجهين ، أحدُهما : إلاَّ حالَ مَنْ أتى اللهَ بقلبٍ سليمٍ ، وهو مِنْ قوله :

3521 . . . . . تَحِيَّةُ بَيْنِهِمْ ضَرْبٌ وَجِيعُ

" وما ثوابُه إلاَّ السيفُ " ومثاله أن يقال : هل لزيدٍ مالٌ وبنون ؟ فيقال : مالُه وبَنُوه سلامةُ قلبه . تريد نَفْيَ المالِ والبنين عنه ، وإثباتَ سلامةِ قلبه بدلاً عن ذلك . والثاني قال : " وإن شِئْتَ حَمَلْتَ الكلامَ على المعنى وجَعَلْتَ المالَ والبنين في معنى الغنى ، كأنه قيل : يومَ لا يَنْفع غِنَى إلاَّ غنى مَنْ أتى ، لأنَّ غِنى الرجلِ في دينه بسلامةِ قلبه ، كما أنَّ غِناه في دنياه بمالِه وبنيه . " . انتهى انتهى . اهـ ﴿الدر المصون حـ 8 صـ 530.534﴾

(165/569)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (77) ﴾

ذَكَرَهم بأقلِّ عبارة فلم يقل : فإنهم أعداءٌ لي ، بل وَصَفَهم بالمصدر الذي يصلح أن يوصَفَ به الواحد والجماعة فقال : ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي ﴾ .

ثم قال : ﴿ إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ ، وهذا استثناء منقطع ، وكأنه يضرب بلطفٍ عن ذِكْرِهم صفحاً حتى يتوصَّلَ إلى ذكر الله ، ثم أخذ في شرح وصفه كأنه لا يكاد يسكت ، إذ مضى يقول : والذي . . . والذي . . . والذي . . ، ومن أمارات المحبة كَثْرَةُ ذِكْرِ محبوبك ، ولإعراضُ عن ذكرِ غيره ، فتَنَزُّهُ المحبين بتقلُّبِهم في رياض ذِكْرِ محبوبهم ، والزهَّادُ يعددون أورادهم ، وأَربابُ الحوائج يعددون مآربَهم ، فيطنبون في دعائهم ، والمحبون يُسْهِبونَ في الثناء على محبوبهم .

الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (78)

كان مهتدايا ، ولكنه يقصد بالهداية التي ذَكَرها فيما يستقبله من الوقت ، أي : يهديني إليه به ، فإِنّي مَحْقٌ في وجوده وليس لي خَبَرٌ غنّي !

والقوم حين يكونون مستغرقين في نفوسهم لا يهتدون من نفوسهم إلى معبودهم ، فيهديهم عنهم إلى ربهم ، ويصيرون في نهايتهم مستهلكين في وجوده ، فانين عن أوصافهم ، وتصير معارِفُهم – التي كانت لهم – واهيةً ضعيفةً ، فيهديهم إليه .

وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (79)

لم يُشِرْ إلى طعامٍ معهودٍ أو شرابٍ مألوفٍ ولكن أشار إلى استقلاله به من حيث المعرفة بدل استقلال غيره بطعامهم ، وإلى شراب محبته الذي يقوم بل استقلال غيره بشرابهم .

وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (80)

لم يَقُلْ : وإذا أمرضني لأنه حفظ أدبَ الخطاب .

ويقال لم يكن ذلك مرضاً معلوماً ، ولكنه أراد تمارضاً ، كما يتمارض الأحبابُ طمعاً في العيادة ، قال بعضهم :

إن كان يمنعكَ الوشاةُ زيارتي . . . فادخُلْ عليَّ بِعَلَّةِ العُوَّادِ

ويقول آخر :

(166/569)

يَوَدُّ بأن يمشِي سقيماً لَعَلَّها . . . إذا سَمِعَتْ منه بشَكْوى تُرَاسِلُه

ويقال ذلك الشفاءُ الذي أشار إليه الخليلُ هو أن يَبْعَثَ إليه جبريلَ ويقول له : يقول لَكَ مولاك . . . كيف كنتَ البارحة ؟

وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (81)

أضاف الموتَ إلى الله ؛ فالموتُ فوق المرض ، لأن الموتَ لهم غنيمةٌ ونعمةٌ ؛ إذ يَصِلُون إليه

بأرواحهم .

ويقال : ﴿ يُمِيتُنِى ﴾ بإعراضه عني وقت تعزُّزِه ، ﴿ ويحييني ﴾ بإقباله عليَّ حين تَفَضُّلِه . ويقال يميتني عني ويحييني به .

وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (82)

خطيئةُ الأحبابِ شهودُهم محنتَهم ، وتعنّيهم عند شدة البلاء عليهم ، وشكواهم مما يُمسهم من برحاء الاشتياق ، قال بعضهم :

وإذا محاسني – اللاتي أُدِلُّ بها – . . . كانت ذنوبي . . فَقُلْ لي : كيف أعتذر .

رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (83)

﴿ هَبْ لِى حُكْماً ﴾ : على نفسي ، فإنَّ مَنْ لا حُكْمَ له على نفسه لا حَكْمَ له على غيره .

﴿ وَأَلْحِقْنِى بِالصَّالِحِينَ ﴾ : فأقومَ بحقِّكَ دونَ الرجوع إلى طلب الاستقلال بشيءٍ . دون حقك .

وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ (84)

في التفاسير : ﴿ لِسَانَ صِدْقٍ ﴾ : أي ثناء حسناً على لسان أمة محمد صلى الله عليه وسلم .

ويقال لا أذكرك إلا بك ، ولا أعرفك إلا بك .

ويقال أن أذكرك ببيان آلائك ، وأذكرك بعد قبض روحي إلى الأبد بذكرٍ مُسرمَدٍ .

ويقال أذكرني على لسان المخبرين عنك .

وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ (86)

على لسان العلماء : قالَه بعد يأسه من إيمان أبيه ، وأمَّا على لسان الإشارة فقد ذَكَرَه في وقت غَلَبَاتِ البَسْطِ ويُتَجَاوَزُ ذلك عنهم .

وليست إجابةُ العبد واجباً على الله في كل شيء ، فإذا لم يُجَبْ فإنَّ للعبد سلوةً في ذكر أمثال هذا الخطاب ، وهذا لا يهتدي إليه كلُّ أحدٍ .

(167/569)

وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ (87)

أي لا تُخْجِلْني بتذكيري خلَّتي ، فإنّ شهودَ ما مِن العبد – عند أرباب القلوب وأصحاب الخصوص – أشَدُّ عقوبة .

يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (88) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (89)

قيل : " القلب السليم " اللديغ .

وقيل هو الذي سَلِمَ من الضلالة ثم من البِدعة ثم من الغفلة ثم من الغيبة ثم من الحجبة ثم من

المُضاجعة ثم من المساكنة ثم من الملاحظة . هذه كلها آفاتٌ ، والأكابرُ سَلِمُوا منها ، والأصاغرُ امتُحِنُوا بها .

ويقال : " القلب السليم " الذي سَلِمَ من إرادة نَفْسِه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 16.13 ﴾

(168/569)

AL-HAWI FE AL-TAFSEER

Sheikh Abdul Rahman Bin Mohammed AL-QAMMASH

29